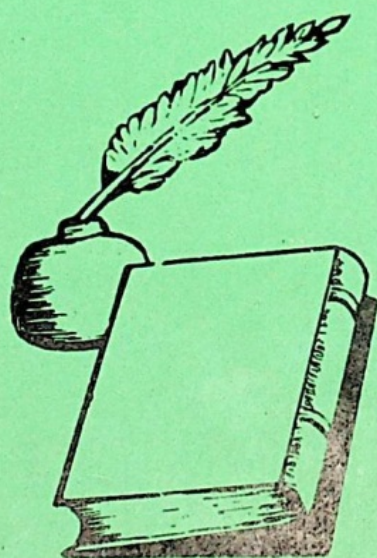


موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية



تأليف
الدكتور أحمد شلبى
دكتوراه من جامعة كامبردج

استاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى - القاهرة

مع إضافات واسعة وتحقيقات جديدة

مَوْئِدَةٌ

التاريخ الإسلامى

والحضارة الإسلامية

دراسات تحليلية شاملة فى عشرة أجزاء لتاريخ العالم الإسلامى كله
من مطلع الإسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى
أسهم بها المسلمون فى ترقية العمران وتطوير الفكر البشرى

١

- مقدمة الموسوعة عن : نطاق التاريخ الإسلامى - تفسير التاريخ - هل التاريخ علم ؟ - فلسفة التاريخ - فائدة التاريخ - مراحل تدوين التاريخ
- تاريخ العرب قبل الإسلام : حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية
- السيرة النبوية العطرة : جوانب من السيرة تدون لأول مرة
- الدعوة الإسلامية وفلسفتها - عصر الخلفاء الراشدين

تأليف
الدكتور أحمد شلبى

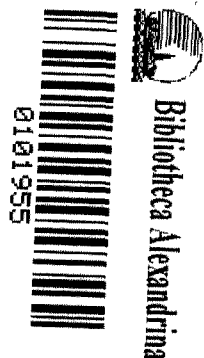
الأستاذ بجامعة القاهرة

الطبعة الثانية عشر مع دراسات جديدة عن حياة الرسول بالمدينة

١٩٨٧



مكتبة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها محمد وأولاده
و شيوخه من بعدهم



حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

- الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨
- الطبعة الثانية سنة ١٩٦١
- الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٤
- الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٦
- الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٠
- الطبعة السادسة سنة ١٩٧٤
- الطبعة السابعة سنة ١٩٧٧
- الطبعة الثامنة سنة ١٩٧٨
- الطبعة التاسعة سنة ١٩٨٠
- الطبعة العاشرة سنة ١٩٨١
- الطبعة الحادية عشرة سنة ١٩٨٣
- الطبعة الثانية عشرة سنة ١٩٨٧
- الطبعة الثالثة عشرة سنة ١٩٨٨
- الطبعة الرابعة عشرة (١٩٩٦)



كتب للمؤلف

- اولا : موسوعة التاريخ الاسلامي :**
دراسة تحليلية شاملة في عشرة مجلدات لتاريخ العالم الإسلامي كله ،
من مطلع الإسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التي
حققتها الدول الإسلامية عبر التاريخ . (الطبعة الثالثة عشرة)
- ثانيا : موسوعة الحضارة الاسلامية :**
دراسة تحليلية شاملة في عشرة مجلدات ، تبرز الاتجاهات الحضارية
التي جاء بها الإسلام لهداية البشرية في شئون الفكر ، والسياسة ،
والاقتصاد ، والعلاقات الدولية ، وفي مجال الحياة الاجتماعية.
والتربوية ، كما تبرز نشاط المسلمين لإحياء الحضارة التجريبية
كالطب والرياضة والفلك ... (الطبعة العاشرة)
- ثالثا : مقارنة الأديان :**
سلسلة من الكتب في أربعة مجلدات ، تعتمد على أدق المراجع
بمختلف اللغات ، وتمتاز دراساتها بالحيطة والعمق . (الطبعة التاسعة)
- رابعا : كتب في الثقافة العامة :**
— كيف تكتب بحثاً أو رسالة ؟ (الطبعة العشرون)
دراسة منهجية لكتابة البحوث وإعداد رسائل الماجستير والدكتوراه
— الحروب الصليبية : بلدوها مع مطلع الإسلام واستمرارها حتى الآن
- خامسا : كتب بلغات اجنبية :**
Islam : Belief - Legislation - Morals
History of Muslim Education
وعشرون كتاباً باللغة الإندونيسية والماليزية .
- سادسا : كتابان لخدمة اللغة العربية هما :**
١ - تعليم اللغة العربية لغير العرب .
قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها .
- سابعا : التفسير الميسر للقرآن الكريم :**
تفسير موجز وواضح يهدف لأن تفهم القرآن الكريم إذا قرأته أو
سمعته ، مع وقفات تفصيلية عند بعض القضايا القرآنية المهمة .

المكتبة الإسلامية لكل الأعمار

- تخطيط يشمل ١٠٠ جزء ظهر منها ٥٦ جزءاً كالآتي :
- المجموعة الأولى : السيرة النبوية العطرة (١٦ جزءاً)
وتشمل سيرة الرسول كلها وجوانب منها تدون لأول مرة .
- المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة (٧ أجزاء)
المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية (٥ أجزاء)
نزول القرآن وتدوينه — القرآن والعلم — فضائل القرآن —
إعجاز القرآن — الأخلاق الإسلامية من القرآن الكريم .
- المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم (٧ أجزاء)
المجموعة الخامسة : الدولة الأموية : تاريخ يحتاج الى انصاف (٥ أجزاء)
لماذا انحرف تدوين التاريخ الأموي ؟ ماذا عن محاسن الأمويين ؟
مدعو التشيع وسموهم — قم في التاريخ الأموي .
معاوية — عبد الملك بن مروان — الوليد بن عبد الملك — عمر
ابن عبد العزيز — التوسع الإسلامي والحضارى في العهد الأموي
— قصة استشهاد الإمام الحسين والمشتول عنها .
- المجموعة السادسة : صراع وشهداء وانتصارات (٦ أجزاء)
— من شهداء الإسلام .
— الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الإسلام واستمرارها حتى الآن
— شهر رمضان وانتصارات المسلمين فيه .
- المجموعة السابعة : الإسلام والمرأة (٥ أجزاء)
حالة المرأة في الحضارات غير الإسلامية — ماذا قدم الإسلام للمرأة ؟
نماذج من السيدات المسلمات : من بيت النبوة « السيدة زينب والسيدة
سكينة » ونماذج في السياسة والآداب والعلوم والفنون — زيجات
شهيره في التاريخ : « زبيدة — بوران — قطر الندى » .
- الميراث في الشريعة الإسلامية : دراسة شاملة •
تاريخ الطب في الإسلام •
حركات فارسية ضد الإسلام والمسلمين عبر العصور .

خطة البحث في هذه الموسوعة

إن خطة البحث التي أتبعها في كتابة « التاريخ الإسلامي » خطة جديدة ، مريحة ، ويسرني أن أبرزها في التخطيط التالي ، ليعرفها القارئ ، وليسهل عليه متابعتها .

١ ج	دراسة زمنية في هذه الأجزاء الثلاثة، إذ أن العالم الإسلامي كان وحدة واحدة
٢ ج	
٣ ج	

دراسة مكانية (قطاعات جغرافية) في الأجزاء الخمسة التالية لأن العالم الإسلامي انقسم إلى دولات كثيرة : ويشمل كل جزء من هذه الأجزاء الخمسة قطاعا من العالم الإسلامي ، بحيث يتناول قانونه من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر مبتدئين من الغرب ومتجهين إلى الشرق كالتخطيط التالي :

[illegible]

وتتعمق الموسوعة بدراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر :

الجزء التاسع: ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم: } حوليات عصر جمال عبد الناصر: عصر المظالم والمزائم
الجزء العاشر: ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم: عصر أنور السادات

❦ محتويات الكتاب ❦

الموضوع	الصفحة
مقدمات الطبقات قبل الثالثة عشرة	١٦ - ١٩
مقدمة الطبعة الثالثة عشرة	١٩ - ٢٠

مقدمة الموسوعة

نطاق التاريخ الإسلامى	٢٤
تفسير التاريخ	٢٥
هل التاريخ علم ؟	٢٧
مراحل البحث التاريخى	٣٠
فلسفة التاريخ بين الإهمال وسوء الاستعمال	٣٢
فائدة التاريخ	٣٥
التاريخ المتصل والتاريخ المنقطع	٤٢
مبدأ الالتزام فى كتابة التاريخ الإسلامى	٤٤
الحضارة الإسلامية	٥٣
مشكلات حول تدوين التاريخ الإسلامى :	

١ - المراجع القديمة والدراسة التحليلية الحديثة	٥٦
ب - أقطار فسيحة منسية	٥٧
ج - مصادر مهمة تجاوزها المؤرخون	٥٨
د - التاريخ الإسلامى جزء من الدراسات الإسلامية	٦٠
هـ - فقدان الروح الإسلامية فى كثير مما كتب حديثاً	٦٠
و - أخطاء شاعت ينبغى تصحيحها	٦١
علم التاريخ بين المسيحية والإسلام	٦٤
مياسة التجميع والتنسيق	٦٧
كلمة عن المراجع والمكتبة التاريخية	٦٨

تاريخ العرب قبل الإسلام

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٨١
تعريف عام بالمنطقة وسكانها :	
جغرافية جزيرة العرب	٨٤
الجنس العربي	٨٧
لغة الشمال ولغة الجنوب	٨٩
التاريخ السياسي للعرب قبل الإسلام	
١ - نظام الحكم في البادية	٩١
مملكة كندة	٩٣
٢ - الحضرة :	
أ - اليمن :	
تسمية اليمن ٩٤ - مملكة سبأ ٩٦ - مملكة حمير ٩٧ - اليمن فريسة للاستعمار ٩٩	
ب - ممالك الشمال :	
الأنباط ١٠٣ - تدمر ١٠٤ - الحيرة وغسان ١٠٦	
الأهمية الحضارية للمناذرة والغساسنة ١١٠	
ج - الحجاز :	
المواطن الأول للدعوة الإسلامية ١١٠ - مكة : المدينة المقدسة ١١٢	
حكومة مكة ١١٥ - عام الفيل ١١٩ - غير مكة في الحجاز ١٢١	
اقتصاديات العرب وتجارة قريش	١٢٢
الاتجاهات الاقتصادية في المجتمع العربي قبل الإسلام :	
(١) المناطق العربية التي لم تتأثر بالفكر الخارجي	
١ - القبيلة العربية والاتجاهات الاقتصادية في حياتها	١٣٠
٢ - جماعات الصعاليك واتجاهاتها الاقتصادية	١٣٣
الفلسفة الاقتصادية للصعاليك	١٣٦

الموضوع	الصفحة
٣ - الكرم العربي ومداه في تحقيق المشاركة الاقتصادية . . .	١٣٩
(٢) المناطق العربية شديدة الاتصال بالفكر الخارجى . . .	١٤٤

الحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية قبل الإسلام

الحياة الاجتماعية عند البدو	١٤٩
الشعر	١٥٤
الدين	١٦١
الأمرة	١٧٦

السيرة النبوية العطرة

الرسول منذ ولد إلى أن بعث :

نسب الرسول	١٨٣
العرب العاربة والمستعربة	١٨٣
كلمة عن أجداد الرسول : قريش ، لاصى ، هاشم ، المطلب	
أخو هاشم ، شيبه (عبد المطلب)	١٨٣ - ١٨٥
بطون قريش	١٨٥
عبد الله بن عبد المطلب ووفاته	١٨٦
الكاهنة التي أرادت الزواج من عبد الله	١٨٨
آمنة بنت وهب	١٨٨
مولد محمد	١٨٩
محمد في كفالة جده عبد المطلب	١٩٠
رضاعته عايه السلام من حليلة السعدية	١٩٠
محمد في بيت أبي طالب	١٩١
راعى الغنم « الأمين »	١٩٢
قصة بحرى الراهب	١٩٣
محمد يشترك في حرب الفجار	١٩٤
محمد يتاجر في مال خديجة	١٩٤

الصفحة	الموضوع
١٩٥	زواجه عليه السلام من خديجة
١٩٧	عمر السيدة خديجة عندما تزوجها الرسول
١٩٨	بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود
٢٠٠	أخلاق محمد قبل البعثة

﴿ البعثة النبوية ﴾

﴿ حياة الرسول في مكة ﴾

٢٠٣	تدوين جديد للسيرة النبوية
٢١٠	بعثة الرسول
٢١٢	كلمة عن غار حراء
	مراحل الدعوة :
٢١٤	المرحلة لفردية
٢١٧	دعوة بنى عبد المطلب
٢١٧	الدعوة العامة
	مقاومة قريش وأسبابها ومراحلها :
٢١٨	أسباب المقاومة
	مراحل المقاومة :
٢٢١	١ - العدوان على العبيد والضعفاء
٢٢٢	٢ - العدوان على كل المسلمين
٢٢٤	هجرة المسلمين إلى الحبشة فراراً من هذا العدوان
٢٢٨	٣ - العدوان على الرسول
٢٣٠	إسلام حمزة وعمر بن الخطاب وأثره
٢٣٢	مقاطعة بنى هاشم
٢٣٥	وفاة أبي طالب وخديجة
٢٣٥	حالة الرسول بعد وفاة أبي طالب وخديجة
٢٣٦	الدعوة للإسلام بعد موت أبي طالب

الصفحة	الموضوع
٢٣٦	دعوة أهل الطائف
٢٣٨	دعوة الحبش
٢٦٣ - ٢٣٩	الإسراء والمراج : دراسة وبيان وتصحيح
	(الإسلام في يثرب)
٢٦٤	دخول الإسلام يثرب وظروفه والعوامل التي ساعدت عليه
٢٦٧	هجرة المسلمين إلى يثرب
	(الهجرة)
٢٦٨	المؤامرة والإذن للرسول بالهجرة إلى يثرب
٢٧٠	الرحلة من مكة إلى يثرب
٢٧١	وقفه عند غار ثور
٢٧٣	يثرب تستقبل الرسول
٢٧٥	دروس من الهجرة
	(الرسول في المدينة)
٢٨١	الرسول نفسه يؤرخ بالهجرة
٢٨٢	أسيرة الرسول وأسرة أبي بكر
٢٨٣	المؤاخاة
٢٨٤	شعاب اقتصادية بالمدينة
٢٨٥	معاهدة التعاون بين المسلمين وغير المسلمين
٢٨٦	الحمى تصيب المهاجرين عقب الهجرة
	الرسول يبني المساجد للعبادة والدعوة :
	مسجد الرسول بالمدينة وصفته ٢٨٩ - مساجد الرسول ٢٨٩ -
	أغراض المسجد ٢٩٠ - مظهر المسجد ٢٩١ - الأذان ٢٩٢ -
	المساجد ومكبرات الصوت ٢٩٣ - القبلة ٢٩٤
٢٩٧	الرسول الداعية
٣٠٤	الرسول يربي العلماء والدعاة

الصفحة

الموضوع

الرسول في بيته :

- زوجات الرسول : خديجة ٣٢٦ - سودة ٣٢٧ - عائشة ٣٢٩ -
زينب بنت خزيمة ٢٣٠ - حفصة ٣٣١ - زينب بنت جحش ٣٣٢ -
أم سلمة ٣٣٣ - جويرة ٣٣٤ - صفية ٣٣٥ - أم حبيبة ٣٣٦ -
ميسونة ٣٣٨ .

- تعدد الزوجات في الإسلام وتعدد زوجات الرسول بوجه خاص ٣٣٨
مارية ٣٤٧
معاملة الرسول لزوجاته ٣٤٨
الحجاب ٣٥٤
الرسول وأولاده ٣٥٥
الرسول مع خدمه ٣٦٠
الرسول بين أصحابه ٣٦٣
الرسول يربي الفرد المسلم ٣٦٩
الرسول يربي المجتمع الإسلامي ٣٧٥
أخلاق إسلامية يفرسها الرسول ٣٧٨
الرسول يربي القضاة ٣٨٣
الرسول يربي القوة العسكرية ٣٨٨
الرسول يربي الولاة والحكام ٣٩٦
الرسول والعمل ٤٠٠
الرسول والشباب ٤٠٥
توجيهات طبية يقدمها الرسول ٤١٩
مكرمات الرسول ٤٢٤
الرسول والمنافقون ٤٣٠
الرسول والنصارى ٤٣٨

الموضوع	الصفحة
اليهود والمسلمون	٤٤٤
مقدمة عن الصراع الفكري والصراع العسكري ٤٤٤ - بنو قينقاع	
٤٤٧ - بنو النضير ٤٤٨ - بنو قريظة ٤٥٠ - خيبر وما حولها ٤٥٢ -	
نهاية اليهود بالجزيرة العربية ٤٥٤ - المستشرقون واليهود ٤٥٥	
(الإسلام والقتال)	
هل انتشر الإسلام بالدعوة أو بالقوة ؟	٤٥٦
عدد قتلى المسلمين وغير المسلمين في جميع الغزوات	٤٥٩
لماذا حدثت الحروب بين المسلمين وغيرهم	٤٦٣
(الغزوات والسرايا)	
مقدمة عن الغزوات والسرايا	٤٧٣
غزوة بدر الكبرى : زمانها ومكانها	٤٧٥
مقدمة	٤٧٥
سبب غزوة بدر	٤٧٥
الجيشان والمركة	٤٧٧
أهمية غزوة بدر	٤٨١
من أحداث غزوة بدر	٤٨٣
الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم	٤٨٣
نهاية أمية بن خلف وابنه علي	٤٨٣
حمزة في بدر	٤٨٣
المسلمون قتلوا أقاربهم المشركين في بدر	٤٨٤
الرسول يوصى بعدم قتل بعض قريش	٤٨٤
مصائب أبي سفيان وزوجته في بدر	٤٨٤
نهاية أبي لهب	٤٨٥
كعب بن الأشرف يجرّس للثأر	٤٨٥
غزوة بدر وتعاليم الحروب في الإسلام	٤٨٦
غزوة بدر والتشريع	٤٨٧

الصفحة	الموضوع
٤٨٩	غزوة أحد : زمانها - مكانها - سببها
٤٩٠	المعركة
٤٩٢	القرآن الكريم وغزوة أحد
٤٩٤	غزوة حمراء الأسد
٤٩٦	الجزية التي أخافت المنتصر
٥٠٠	بعد المعركة
٥٠٠	مزيد من علاج آثار أحد
٥٠١	غزوة الأحزاب أو الخندق : زمانها - مكانها - سببها
٥٠٥	أثر هذه الغزوة
٥٠٥	غزوة الأحزاب وبذور المستشفيات في الإسلام
٥٠٦	سلمان الفارسي
٥٠٨	غزوة بني المصطلق : زمانها - مكانها - سببها - أحداثها
٥١٠	الحديبية بين الحرب والسلام
٥١٣	شروط صلح الحديبية ومناقشتها
٥١٨	سورة الفتح وغزوة الحديبية
٥٢١	كتب الرسول للملوك والرؤساء ونماذج منها
٥٢٥	غزوة مؤتة وبدء الصراع مع الروم : مكان غزوة مؤتة - سببها
٥٢٨	غزوة الفتح : زمانها ، مكانها ، سببها
٥٢٩	حاطب بن بلتعة يحذر أهل مكة
٥٣٠	العباس وأبو سفيان
٥٣٢	الفاطحيون في مكة
	بعد الفتح :
٥٣٢	تخوف الأنصار أن يبقى الرسول بمكة
٥٣٣	العضو الشامل إلا عن قلائد
٥٣٣	إسلام والد أبي بكر

الموضوع	الصفحة
إسلام صفوان بن أمية	٥٣٤
إسلام كعب بن زهير	٥٣٤
مفتاح الكعبة	٥٣٥
الجزيرة العربية في الطريق إلى الاستسلام	٥٣٦
غزوة حنين والطائف : مقدمة - الزمن - المكان - المعركة	٥٣٧
غزوة بؤك : زمانها - مكانها - سببها	٥٤٤
الثلاثة الذين خلفوا	٥٤٧
عام الوفود	٥٤٨
صحح أبي بكر بالمسلمين سنة ٩ وهل يؤدى عن الرسول بعض الأحكام	٥٤٨
نهاية كفاح :	
تمام الدعوة	٥٥٠
حجة الوداع	٥٥٠
مرض الرسول ووفاته	٥٥١
لحة من صفات الرسول	٥٥٢

الدعوة الإسلامية وفلسفتها

١ - لحة عن مبادئ الإسلام	٥٥٧
٢ - طرق نشر الإسلام :	
(أ) القرآن الكريم وأثره في انتشار الإسلام	٥٥٨
(ب) المبادئ الإسلامية وأثرها في انتشار الإسلام	٥٦٧
٣ - أثر الإسلام في العرب	٥٧٢

عصر الخلفاء الراشدين

أبو بكر الصديق :

تعريف به	٥٧٥
بيعته ومجلس شوره	٥٧٥

الموضوع	الصفحة
المشكلات التي راحها أبو بكر	٥٧٦
التوسع الإسلامي في عهد	٥٨٢
وفاة أبي بكر	٥٨٣
همر بن الخطاب :	
تعريف به	٥٨٤
توليته الخلافة	٥٨٤
التوسع الإسلامي في عهد أبي بكر وعمر	٥٨٥
الفرس والروم قبيل الزحف الإسلامي وعوامل انتصارات المسلمين	٥٨٦
أشهر المعارك في فارس :	٥٩٨
يوم الجسر ٥٩٠ - يوم مهران أو يوم للنخيلة ٥٩١ - القادسية ٥٩١	
المدائن ٥٩٢ - جلولا ٥٩٢ - نهاوند ٥٩٤	
أشهر المعارك ضد الروم :	
مقدمة ٥٩٥ - أجنادين ٥٩٨ - دمشق ٥٩٩ - اليرموك ٦٠٠ - مصر ٦٠٣	
حصن بابليون ٦٠٥ - الإسكندرية ٦٠٦	
الغالبون والمغلوبون	٦٠٧
عمر باقى الدولة الإسلامية	٦٠٨
كلمة هن البريد	٦١٠
مقاتل عمر وعثمان وعلي	٦١١
مقتل عمر	٦١٤
عثمان بن عفان :	
تعريف به	٦١٥
توليته الخلافة	٦١٥
سياسة عثمان	٦١٧
أخلاق عثمان	٦١٨
الحركات العسكرية في عهد عثمان	٦١٩
نهاية عثمان ودراسة الفتنة التي أدت إلى قتله	٦٢٠

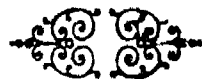
الموضوع

على بن أبي طالب :

٦٣١	تعريف به
٦٣٢	البيعة لعل
٦٣٣	سياسة على
٦٣٥	موقعة الجمل وتحليلها ونتائجها
٦٤٠	من المشول عن موقعة الجمل ؟
٦٤٥	موقعة صفين
٦٤٨	التحكيم
٦٥٠	بعد التحكيم
٦٥١	نهاية على
٦٥٢	مضرع عمر وثمان وعلى
٦٥٣	على في الميزان
٦٥٥	ثبت المراجع
٦٦٢	فهارس الأعلام والأمكنة

فهرست الخرائط والمخططات

٨٣	خريطة رقم ١ عن : جغرافية جزيرة العرب
٨٨	مخطط : تفرع القبائل العربية
١٢٥	خريطة رقم ٢ عن : الطرق النجارية بالجزيرة العربية
٤٧٤	٣ : مواقع أشهر الغزوات
٥٩٣	٤ : الجيش الإسلامي بفارس
٥٩٧	٥ : اتجاهات الجيوش الإسلامية للشام
٦٠١	٦ : الفتح الإسلامي للشام
٦٠٤	٧ : الجيش الإسلامي بمصر
٦٢١	٨ : اتساع الدولة الإسلامية في عهد عثمان



أهم الإضافات من طبعة إلى طبعة

الطبعة العاشرة وأهميتها :

كانت الطبعة العاشرة لهذا الكتاب - في الحلق - تدويناً جديداً لتاريخ هذه الفترة ، فقد كنتُ قبل الطبعة العاشرة أسيرُ تبعاً للنهج الذي انتهجه المؤرخون السابقون ابتداءً من ابن هشام حتى الآن ، وكان هذا النهج يجعل الفزوات وحدها موضع دراستهم لتصوير حياة الرسول صلوات الله عليه بالمدينة .

ثم خطر لي في مطلع الثمانينات أن ذلك تقصير يتحتم تداركه ، فأنشطة الرسول في المدينة كانت متعددة ، وكانت الفزوات تغطي الجوانب العسكرية فقط ، ومن المقرر تاريخياً أن الفزوة كانت تستغرق يوماً واحداً ، أو عدداً قليلاً من الأيام ، أما باقي أيام العام فكان الرسول دائم النشاط فيها لخدمة الإسلام لغير المسلمين وليرسي مبادئ الإسلام وقيمه لدى المسلمين .

وانجهتُ بكل الجهد لاستيفاء هذا الموضوع وتسجيل حياة الرسول بالمدينة تسجيلاً دقيقاً ، ولما كانت المصادر السابقة لم تُعْنِ بتقديم مساهمة كافية لهذه الدراسة ، فقد لجأت إلى كتب « الصحاح » فأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام التي دونتها كتب « الصحاح » تَمُدُّ الباحث في مسيرة الرسول بمادة وفيرة ، عن كل جوانب الأنشطة التي قام بها الرسول بالمدينة ، ونتيجة لهذا الجهد أضفت للطبعة العاشرة مثل حجمها تقريباً في موضوعات مهمة مثل :

- الرسول الداعية .
- الرسول يربي العلماء والدعاة .
- الرسول في بيته : زوجاته - أولاده وأحفاده - خدمه .
- الرسول بين أصحابه .
- الرسول يربي القوة العسكرية .
- الرسول يربي الولاة والحكام .
- الرسول والشباب .

— الرسول والعمل .

— توجهات طَبَّيَّة يقدِّمها الرسول .

وموضوعات كثيرة أخرى كبيرة الأهمية سيرافها القارئ في مكانها من هذه الطبعة .

إضافات للطبعة الخامسة :

على أن الطبعات السابقة حظيت كذلك بإضافات مهمة ، لا أراى في حل من إغفالها ، فقد حظيت الطبعة الخامسة بإضافات وصفتها في مقدمتها بقولى :
« هناك جديد يستحق الذكر والشكر فى تقديم الطبعة الخامسة للجزء الأول من هذه الموسوعة ، فقد أتيج لى أن أزور الأرض المقدسة لأداء فريضة الحج قبل البدء فيها ، وعشت بذلك ردحاً من الزمن فى مكة المكرمة ، فى الأرض التى شهدت مطلع الفجر ، وشهدت الصراع الطويل بين الحق والباطل ، وعشت كذلك ردحاً من الزمن فى المدينة المنورة ، حيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم يبنى المجتمع الإسلامى ويناضل قوى الشر التى أرادت القضاء على هذا المجتمع ، وقد انتهزت هذه الفرصة لأقوم بدراسات وتحقيقات فى مواطن الأحداث ، وسيرى القارئ نتيجة هذا الجهد فى أمكنة متعددة من هذه الطبعة .

« وهذا يدفعنى أن أذكر بالفضل وعرفان الحميل مجموعة الأصدقاء من « آل الأسطل » فقد أحسنوا استقبالى فى الأرض المقدسة ، وهياؤوا لى وسائل الانتقال والزيارات لمواطن الأحداث ، وما كنت بدون عونهم قادراً على أن أحقق الأغراض السامية التى حققتها ، فالشكر لهم ، وأسأل الله لهم حسن الجزاء ،

« ولست أنسى أن أشكر القراء على إقبالهم وتشجيعهم ، فقد فاق ذلك كل تفاؤل وكل أمل .

« وشئ آخر أضعه فى القمة دائماً من مقدمة كل كتاب فى طبعته الأولى

أو في أية طبعة من طبعاته ، ذلك هو الشكر العميق لله كثير الممن ، على ما أسدى ووهب ، فبعونه وإلهامه تحققت الأسر ، لما نصادف من نجاح .
« يارب . . . مزيداً من العون ومزيداً من التوفيق لتصل إلى الغاية التي نرجوها ويرجوها منا القراء ، لنعمل بذلك مع العاملين لخدمة الإسلام والمسلمين » .

إضافات للطبعة السابعة :

أما الطبعة السابعة فقد حظيت بالإضافات التالية :
- المقدمة الفسيحة التي شملت لأول مرة دراسات عن مجال التاريخ الإسلامي ، وتفسير التاريخ ، وفلسفة التاريخ ، ومبدأ الالتزام في التاريخ الإسلامي ، وغيرها من القضايا التي تهتم الباحث بوجه عام والمؤرخ بوجه خاص .

- دراسة الاتجاهات الاقتصادية عند العرب قبل الإسلام ، وهو لون جديد من دراسة الحياة العربية .
- بحوث عميقة لتصحيح انحرافات حول الإسماء والمعراج .

إضافات للطبعة الثالثة عشر :

أما الإضافات في الطبعة الثالثة عشرة فسنشير لها في المقدمة الخاصة بهذه الطبعة فيما بعد .

وسنظل دائماً نكسح ونسجد ، فسيرة سيدنا رسول الله ثروة ضخمة تنبثق من حين إلى حين عن نواح من العظمة وصور من المجد ، والتاريخ الإسلامي حافل زاخر كالبحر كلما خضت فيه وجدت فيه ألواناً من الجواهر واللائي .

والشكر لله واهب النعم ، والموجه للخير ، الفاتح طرق المعرفة ، ولا يملك العبد إلا شكر سيده .

وثناء عميقاً للقارئ الكريم الذي استجاب لي عندما أقبلت عليه وعملت له ، فأقبل على واحتني بمجهدى ، ودفعني إلى العمل الدائب المتصل .

واقه نسأل أن ينفعنا بهذا الجهد ، وينفع به القراء ، ويجمله مشعل هداية
للباحثين عن الهداية .
وهو نعم المولى ونعم النصير ؟

مقدمة الطبعة الثالثة عشرة

في هذه المقدمة لأأملك إلا شكر الله العلي العظيم على ما منح وأعطى ،
وأسجد له وأركع تقديراً لِنِعَمِهِ وتوفيقه ، وما كنت بذون ذلك بقادر على
تحقيق ما تمنيت .

ولقد عشتُ مع الرسول صلوات الله عليه ودحاً من الزمن عند ما كنت
أعيد تدوين سيرته العطرة ، ونعمتُ بصحبته ، وتدفقتُ على الإلهامات
والفيوضات خلال هذه الصحبة الكريمة ، وما إن أنعمتُ كتابة السيرة
النبوية من جديد ونشرتها ، حتى توالى الإقبال عليها ، كأنما كان الناس على
موعد مع ظهورها ، مما جعل الطبعة العاشرة تنفذ في وقت قصير ، فأسرعت
بإخراج الطبعة الحادية عشرة والثانية عشرة ثم الثالثة عشرة التي أضعها الآن
بين أيدي القراء .

وكنت بعد ظهور الطبعة الثانية عشرة قد قدّمت في إذاعة القرآن الكريم
بالقاهرة بعض حلقات عن سيرة الرسول ، وبخاصة عن أسرته ونشأته ،
ولم أقنع في تقديم هذه الحلقات بما ورد في هذا الكتاب ، بل أضفت
الكثير إليه ، وقد أثبتتُ هذه الزيادات في هذه الطبعة الجديدة .

وقبيل إخراج هذه الطبعة تلقيتُ دعوة من الأستاذ الدكتور محمد
عبد الرحمن الربيع عميد البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
بالمملكة العربية السعودية ، يدعوني فيه لكتابة كتاب لمركز البحوث
بالجامعة عن « السيرة النبوية » ، ففرحت بهذه الدعوة ، ولّمت بهذا العمل
بأقصى ما أستطيع من الإجادة ، وقد أدخلت في هذه الطبعة بعض ما جاء
في هذا الكتاب مما رأيت ضرورته .

وفي هذه الطبعة أيضاً إبراز الخطر الذي تدفق على الإسلام والمسلمين من إيران ، والذي كان من ضحاياه عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، وقد قنع السابقون بالقول بأن قاتل عمر هو أبو لؤلؤة المجوسي ، وأن عثمان قُتِل في ثورة ، وعلي قُتله الخوارج ، والحق أنهم جميعاً قتلوا بمؤامرات فارسية يهودية سيجد القارئ تفاصيلها عند الحديث عن الخلفاء الراشدين في هذا الجزء .

إن البسيرة النبوية نموذج ينبغي على المسلمين أن يتعرفوا عليه ، ويقتدوا به ، وقد بذلت أقصى الجهد لأبرز سيرة التنوير ، وعلى المسلمين أن يبدلوا الجهد لمحاكاة هذه السيرة ، وصدق الله العلي العظيم الذي يقول : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » .

ومن الحق أن أقرر أن كل جهد مخلص يجد جزاءه عند الله وعند الناس ، في المدى القريب ، أو المدى البعيد ، والله يشهد مدى الجهد الذي أبدله في كل ما أكتب وأدون ، وأن هدي الذي لا أريد عنه هو مرضاة الله أولاً ، وخدمة مصر الحبيبة والعالم الإسلامي ثانياً .

وقد نلت جزاء طيباً بإقبال الناس على عملي ، مما يستدعي أن أشكرهم أعق الشكر ، وأعاهدكم على الاستمرار في مواصلة الجهد في كل عمل ، بحيث يظل هذا القلم مسخراً لكلمة الحق ، غير طامع إلا في إرضاء الله وإرضاء القيم الإسلامية .

ولم اللقاء في الكتب الأخرى والطبعات التالية إن شاء الله

دكتور أحمد شلبي

المعادى في الثالث من يوليو سنة ١٩٨٨

مقدمة الموسوعة

دراسات حول علم التاريخ وفلسفته
ومراحل البحث فيه

- نطاق التاريخ الإسلامى
- تفسير التاريخ
- هل التاريخ علم ؟
- مراحل البحث التاريخى .
- فلسفة التاريخ
- فائدة التاريخ
- مبدأ الالتزام فى كتابة التاريخ الإسلامى
- الحضارة الإسلامية
- مشكلات حول تدوين التاريخ الإسلامى:
- (أ) المراجع القديمة والدراسة التحليلية الحديثة
- (ب) أقطار فسيحة منسية .
- (ج) مصادر مهمة تجاوزها المؤرخون
- (د) التاريخ الإسلامى جزء من الدراسات الإسلامية
- (هـ) فقدان الروح الإسلامية فى كثير مما كتب حديثاً
- (و) أخطاء شاعت ينبغى تصحيحها
- علم التاريخ بين المسيحية والإسلام
- سياسة التجميع والتنسيق
- كلمة عن المراجع والمكتبة التاريخية

نطاق التاريخ الإسلامى

التاريخ الإسلامى هو تاريخ الشعوب والدول الإسلامية منذ دخلها الإسلام حتى العهد الحاضر ، وبهذا فالتاريخ الإسلامى طويل طول القرون الأربعة عشرة التى اجتازها ، واسع سعة الرقعة التى يشغلها من المحيط الأطلسى إلى المحيط الهادى ، متماسك تماسك مبادئ الإسلام التى يباشرها المسلمون على هذه الخريطة النفسية .

ولدى الدين الإسلامى فرصة لمزيد من الانتشار ، فإنه يتصل بأرض بكر ، وبشرب تتطلع للأديان ، ومن الممكن أن نجذب الكثيرين من هؤلاء للإسلام لو ربنا جيلا من الدعاة يحسن تقديم الإسلام للناس ، وعلى هذا فخريطة العالم الإسلامى مفتوحة قابلة للامتداد ، بخلاف خريطة المسيحية التى قفلت عليها أوروبا وأمريكا ، ولا تجد مجالا واضحا للامتداد ، بل إن مسيحية أوروبا مزعزة بعيدة عن مسيحية عيسى ، وبعيدة عن الأديان ، مما قد يجعل أوروبا وأمريكا مجالا للدعوة الإسلامية لو صحت همة المسلمين .

وفى الجامعات المصرية وغيرها من الجامعات نجد ألقاباً مختلفة قد تعرض صورة تختلف عن الصورة التى رسمناها عن مدى التاريخ الإسلامى ، فى هذه الجامعات نجد أستاذ التاريخ الإسلامى ، وأستاذ التاريخ العصور الوسطى وأستاذاً لتاريخ مصر أو تاريخ باكستان الحديث ، مع أن تاريخ الدول الإسلامية خلال العصور الوسطى جزء من التاريخ الإسلامى ، وتاريخ مصر الحديث أو تاريخ باكستان أو أندونيسيا الحديث ، جزء من التاريخ الإسلامى كذلك ، والحق أن هذه التسميات ليست إلا وسيلة مالية خلقها التخطيط الجامعى ليرفع بعض الأساتذة المساعدين إلى كرامى الأستاذية أيام كانت هناك كراسى

للأساتذة ، أما التاريخ الإسلامى لقطر فيبدأ عندما يصبح معتقوه أغلبية في هذا القطر ، ويظل التاريخ الإسلامى ما بقى الإسلام ، ومن هنا اتجهنا في هذه الموسوعة لدراسة تاريخ العالم الإسلامى كله في جميع العصور وجميع الأنحاء ، فكل هذه الأزمنة وكل هذه الأمكنة مجال لهذا التاريخ .

تفسير التاريخ

هناك مدارس أو اتجاهات مختلفة حول تفسير التاريخ وبيان الدوافع التى تحرك الأمواج التاريخية الكبرى ، فالماديون يرون أن المادة و الاقتصاد هو المحرك الرئيسى للتاريخ ، وأن كبريات الأحداث التى غمرت الكون نشأت بسبب الصراع على المادة ، ويتخذون من حروب طروادة ، ومن الصراع القديم بين الفرس واليونان (١) . ثم بين الفرس والروم ، ومن الدوافع التجارية في الحروب الصليبية ، ومن الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية ، دليلاً على ذلك .

ويُعد أرنولد هيرن (Arnold Hearen) ١٦٧٠ - ١٧٤٢ ، من أسبق من تبنا هذا الاتجاه ، ثم تزعمه الفكر الماركسى الذى يقرر أن أحداث التاريخ لا ترجع إلى بواعث فكرية ، بل تبرز هذه الأحداث تبعاً لظروف الحياة المادية ، وبالدافع الاقتصادى .

وعلى هذا ، فالفكر - عند الماركسيين - لا يحرك أحداث التاريخ إلا بعد أن تعتنقه الجماهير وترى فيه عوناً مادياً للخلاص من قوة مادية أخرى ، فالقوة - كما يقولون - لا تقاوم إلا بالقوة ، ولكن النظرية تصبح قوة مادية عندما يعتنقها الجماهير ، فالفكر والمادة يتعايشان في وحدة يؤثر كل منهما على الآخر ويتطور معه .

(١) دونها هيرودوت أبو التاريخ (٤٨٤ - ٤٢٥ ق م) .

وهناك اتجاه آخر يرى أن الجانب الروحي والفكرى هو أهم تفسير للتاريخ ، وأن معظم الهزات العالمية كانت نتائج للاتجاهات الروحية : فالصراع بين قريش والمسلمين كان دينياً ، والحروب الصليبية كان دافعها الرئيسى دينياً ، والصراع بين الأرثوذكس والبروتستانت كان دينياً كذلك ، وكذلك كان الصراع الذى اندفع له الخوارج فى التاريخ الإسلامى .

ومن الواضح أن الاتجاه الفكرى معترف به عند الماديين ، ولكنهم كما أوضحنا آنفاً لا يرونه ذا بال إلا بعد أن تعتنقه الجماهير ، أما أصحاب المذهب الروحى فيرون الاتجاه الفكرى قوياً حتى قبل أن تعتنقه الجماهير . فسموه المسيحيين أمام الرومان الوثنيين ، وسمود القلة المسلمة أمام قوة قريش العاتية التى كان العرب يؤيدونها فى مطلع الإسلام ، كل ذلك خلق من الفكر قوة ، ووجهه البقاء حتى استطاع أن ينتشر ويزدهر ، ولم يكن زحف المسلمين على إمبراطوريتى الفرس والروم مؤيداً بالقوة بمقدار ما كان مؤيداً بالفكر والرغبة فى إحدى الحسينين .

وهناك اتجاه ثالث يفسر التاريخ تفسيراً نفسياً ، فيرى أن أعظم أحداث التاريخ ارتبطت بصراع نفسى لدى شخص معين ، استطاع بطريق أو بآخر أن يحصل على سلطة مادية أو معنوية ، فهو بدافع الصراع النفسى والحقده الداخلى من جانب ، وبقوة السلطة التى حصل عليها من جانب آخر ، يدفع بالمجتمع إلى الصراع لسبب أو لآخر ، فيخلق الأحداث الكبرى وينظر لها نظرة ترضى انحرافه ، ويقف فى قمة من تصرف على هذا النحو الربيع بن يونس وابنه الفضل اللذان شغلا أرقى المناصب فى قصور الرشيد والأمين ، وعاصرا البرامكة وآل سهل ، مع الفرق الكبير فى المتمد والأرومة ، فدفعهما الصراع النفسى إلى خلق المؤامرات ، وإشعال الحروب العاتية (١) ،

(١) انظر الدراسة النفسية ههنا فى الجزء الثالث من هذه المرسومة .

ثم يجيء كارل ماركس الذى عانى الجوع والاضطهاد الدينى فدفع من سماهم البروليتاريا إلى ثورة عارمة لم تنته بعد .

والذى يبدو لى أن وضع حواجز حصينة بين هذه الدوافع لا يمكن أن يتم ، فكل منها دافع له وزنه ، وقد يوجد دافعان منها أو توجد الدوافع الثلاثة كلها متعاونة فى حدث واحد . ويتضح ذلك من دراستنا للحرب الصليبية التى تعاونت أسباب عدة فى خلقها^(١) .

هل التاريخ علم ؟

فى مطلع القرن العشرين أعلن الدكتور ج . ب بيورى J. B. Bury (١٨٦١ - ١٩٢٧) « أن التاريخ علم » ثم كرر هذا الأستاذ إعلانه عدة مرات فى محاضرات متتالية ، وقد أثار هذا الإعلان رأى كثير من الباحثين فى العلوم والآداب ، وشب نزاع خطير حول هذه القضية .

وانتضح من الصراع أن تحديد لفظى « العلم » و « التاريخ » كان له دخل كبير فى تقريب وجهات النظر ، أو فى أحسن الحلاف ، فاللورد أكتن (١٨٣٤ - ١٩٠٢) عرّف العلم بأنه « اجتماع طائفة كبيرة من الوقائع المتشابهة بحيث تنشأ عن اجتماعها وحدة عامة على هيئة مبدأ أو قانون يمكننا على وجه اليقين من التنبؤ بحدوث وقائع مشابهة للوقائع المذكورة فى ظروف معينة » وبناء على هذا التعريف لم يعتبر اللورد أكتن ومن أخذ برأيه فى تعريف العلم أن للتاريخ علم .

ولكن تعريف اللورد أكتن للعلم ليس موضع اتفاق لأن علم الميثولوجيا لم يصل إلى قوانين دقيقة خاصة بالجو، ومن هنا شاع الخطأ فى تنبؤات الخبراء

(١) انظر الحديث عنها فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

من أجل ، ومع هذا فلا نستطيع أن ننفي صفة العلم عن الميثولوجيا ،
وبهذا سقط تعريف اللورد أكتن للعلم ، وبالتالي سقط استبعاد التاريخ
عن دائرة العلم .

وانجى الرأى لتعريف العلم بأنه المعرفة المنظمة المبوبة التى تؤسس على
البحث الذى لا يتبع هوى النفس ، على أن يكون قد رُدَّ إلى المبادئ
ثلاثة . التصنيف - التوبىب - التقنين .

هل التاريخ لعلم بناء على هذا التعريف الجديد ؟

قبل أن نجيب عن هذا السؤال نقرر أن التاريخ ليس هو عملية التدوين
معينة بتدوين ضئى لإنشاء أدنى ، واللفظ الدقيق لهذا المعنى هو « تأريخ »
أى كتابة التاريخ .

أما التاريخ فمرحلة تسبق التأريخ والكتابة ، وهو يعنى البحث فى أسوال
السابقين ، وما خلّفوا من آثار ووثائق ثم نقدّها وتأويلها ، والمعرفة عن
طريقها ، وذلك هو المعنى المقصود عندما نستعمل كلمة « تاريخ » وهو
بنلك يشمل الاستقصاء والبحث وطلب الحقيقة ، ثم إنه يتبع مبادئ
التصنيف والتوبىب والتقنين ، وبهذا يكون التاريخ علماً .

وتبعاً لهذا الاتجاه أدخل رينان سنة ١٨٤٨ العلوم التاريخية فى مؤلفه عن
« مستقبل العلم » وردد فوستل ديكلاند (١٨٣٠ - ١٨٨٩) هذا القول
مراراً ، ومن ذلك ما جاء فى كتابه (العصر الوسيط) ونصه : التاريخ علم
لا يتخيل بل يرى ، وهو نظير كل علم ينظر إلى الأحداث ويحللها ويقارن
بينها ، ويحقق الروابط القائمة بين بعضها والبعض ، والمؤرخ يبحث
عن الحدث ويدركه بدرس التصور بامعان ودقة وهى نفس الطريقة المتبعة
فى كل علم مؤسس على الملاحظة الدقيقة (١) .

(١) جوزيف هورس : قيمة التاريخ ص ٥٦

ويبقى سؤال بعد ذلك هو : من أى أنواع العلوم يعتبر التاريخ ؟

الإجابة عن ذلك يوردها Hearnshaw بقوله : التاريخ علم ، ليس علم نقد وتحقيق ، وأقرب العلوم الطبيعية شهاً به الجيولوجيا . فكما أن الجيولوجى يدرس الأرض كما هى الآن ليعرف بقدر المستطاع كيف صارت إلى حالتها الحاضرة ، فكذلك المؤرخ يدرس الآثار المتخلفة عن الماضى ليفسر بواسطتها ويقدر إمكانه ظاهرة الحاضر ، وكما أن الجيولوجى يجد مادته الأساسية فيما سلم من نفايات الطبيعة من أدلة قليلة تثبت التطورات الجيولوجية القديمة ، فكذلك المؤرخ يعتمد فى معرفة الوقائع الماضية على آثار مادية أو سجلات ، سلمت مصادفة واتفاقاً من عوادي الزمن التى لا تبقى ولا تدر ، وهذه الآثار والسجلات هى الحقائق المحسوسة الحاضرة التى ينصب عليها عمل المؤرخ وهى مادة علمه ، وهى ليست ذات قيمة وهامة لذاتها ، ولكن لدلالاتها على الوقائع الماضية ، ثم هى لا تدل على الوقائع الماضية مباشرة ، ولكن بواسطة الضوء الذى يلقى عليها فكر الباحث (١) .

مراحل البحث العلمى

وبمناسبة الحديث عن التاريخ والتأريخ نقرر أن المؤرخ يمر بمراحل ثلاث قبل أن يبدأ فى التدوين : والمراحل الثلاث تكون التاريخ ، أما عملية التدوين فهى التأريخ ، والمراحل الثلاث هى :

أولاً - مرحلة جمع المادة التاريخية ؛ وهذه المرحلة خطيرة للغاية ، لأن المؤرخ كثيراً ما يصادف وقائع لا تخص متصلة بالفترة التى يؤرخ لها ، وهذه الوقائع لا يمكن أخذها جميعاً ، وعملية الاختيار منها عملية صعبة للغاية ، وليست هناك قاعدة يسير عليها المؤرخون ، ويقول هرنشو^(١).

لوعهد إلى مؤرخين أن بصفة حركة من الحركات ، أو حادثاً من الحوادث فن المرجح ألا يتفقا فى القول بأهمية نواح منه بعينها ، لقد كان قدماء المؤرخين يستهويهم من شئون البشر كل ما كان شاذاً ، أو درامياً ، أو حماسياً ، أما المؤرخ العلمى الحديث فأميل إلى أن يختار ما بين يديه من مواد غير متناهية مجرد الحقائق التى يرى أنها تعينه فى بيان تطور المجتمع الإنسانى إلى حالته الحاضرة . وتعتبر الوثائق المكتوبة أعظم المصادر التى تساعد على بلوغ هذا الغرض ، نعم إن هناك مصادر أخرى على شكل مبان وحصون ونقوش ، بل وعلى شكل رواية شفوية أيضاً ، إلا أنه قد بلغ من فضل الوثائق المكتوبة على غيرها أن قيل « لتاريخ بدون وثائق » ثم إن تجميع المواد من الوثائق يقتضى ملكة فنية عالية ، ودراية علمية فائقة بفقهاء اللغة وقراءة النقوش ، والقدرة على الغوص فى أعماق المحيط لإخراج اللآلىء ، وكما أن على المؤرخ أن ينتقى أنفع ما عنده من الوقائع التى لا تخصى ،

(١) علم التاريخ ص ١٨ .

فإن عليه أن يسمى إلى إضافة كل الوقائع المتيسرة التي يمكن أن يستفيد منها بحثه .

ثانياً : مرحلة النقد ؛ وفي هذه المرحلة يفحص المؤرخ ما جمع من مادة تاريخية ليتأكد من صحة أصلها ، ودقة روايتها ، وكون عبارتها قابلة للتصديق ، ولهذا يتحتم على المؤرخ أن يكون على علم بالاتجاهات الفنية المعمارية التي سادت في العصر الذي يدرسه ليتحقق من نسبة الآثار المعمارية إليه ، وأن يعرف ظروف المؤرخين الذين يقتبس منهم ، ومدى ما استمتعوا به من حرية ومواهب وخلق .

ثالثاً : مرحلة التأويل ؛ وهي أشق المراحل الثلاث وأصعبها مراماً ، ففيها تتجلى عبقرية المؤرخ وسعة خياله بحيث يصبح قادراً على السبح في أعلى الأجواء دون أن يخرج من نطاق الحقيقة ، وسيصادف المؤرخ عقبات جساماً منها ما يتصل بقلّة الوثائق والمادة التاريخية ، ومنها ما يتصل باختلاف الظروف والقيم بين العصر الذي وقعت فيه الأحداث وعصر المؤرخ ، ومنها ما يتصل بانحراف بعض ما وجدته من كتابات لسبب أو لآخر ، ولكن المؤرخ يتحتم فيه رجحان العقل والعاطفة جميعاً ليستطيع أن يرسم الصورة التي تعد أقرب إلى الحقيقة ، وأن يضيئ عليها من التأويل ما يجعلها واضحة مقبولة .

وباتهاء هذه المراحل الثلاث يصل المؤرخ إلى مرحلة التأريخ ، وينبغي أن يكون راضحاً أن كل حقيقة تاريخية تعتبر وحدة قائمة بذاتها ، وعلى هذا فلا يؤخر المؤرخ كتابته في كل موضوعه حتى تتم له هذه المراحل في كل الموضوع ، ويجوز له أن يعتنق رأى Edward Carr الذي يقول^(١) .

وفيا بتعاقب بي فلاننى بمجرد أن أطلع على ما أعتقد أنه مراجعى الرئيسية
تزداد لهنى إلى الكتابة وأشرع فيها ، ليس ضروريا من البدء ، بل من
أى موضع ، وعقب ذلك تستمر القراءة والكتابة ، فيضاف إلى الكتابة التى تمت
أو يحدف منها ، أو يعاد تنظيمها ، أو تستبعد ، فى نفس الوقت الذى أقرأ
فيه ، وتسير القراءة الكتابة وتوجهها ، وتجعلها مثمرة ، وكلما استمرت
الكتابة ازدادت معرقى بما أبحث عنه ، وازدادت فهما لأهمية ما اهتمت
إليه ، ومن المحتمل أن يقوم بعض المؤرخين بهذه الكتابة
التحضيرية فى أذهانهم دون استخدام القلم والورق أو الآلة الكاتبة ، كما
يلعب بعض الناس الشطرنج فى رؤوسهم دون رجوع إلى اللوحة والقطع الخشبية ،
إنما لوهبة أحدهم عليها ، ولكنى لا أستطيع أن أجاريهم فيها ، ولانى
على يقين أن العمليتين اللتين بسميهما الاقتصاديون (وارد ومنصرف) يتان
فى نفس الوقت عند أى مؤرخ جدير بهذا الاسم ، وأنهما من الناحية العلمية
جزءان من عملية واحدة .

فلسفة التاريخ بين الإهمال وسوء الاستعمال

فلسفة التاريخ هى التعليق على الحدث التاريخى ، وبيان أسبابه ، وذكر
فروض مختلفة حوله ، مع محاولة الإجابة عن هذه الفروض ، وإذا استلطنا
أن نجرد الحدث التاريخى عن الفلسفة فإن هذا الحدث يمكن أن يقبله أكثر
المؤرخين كأن نقول : الحلفاء انتصروا فى الحربين العالميتين الأولى والثانية ،
وقد قلنا إن هذا الحدث يقبله أكثر المؤرخين ، ولم نقل يقبله كلهم لأن بعض
المؤرخين لا يرى الحدث قد انتهى بعد ، ويتوقع أن تكون هناك جولات
أخرى تغير من النتائج ، وعلى كل حال فالخلاف حول الحدث التاريخى أضيق
جداً من الخلاف حول فلسفته ، فإننا إذا تساءلنا : لماذا انتصر الحلفاء ؟ فإن
الإجابات تختلف من شخص إلى شخص ومن فكر إلى فكر ، ومن يوم
إلى يوم ، والمؤرخون القدامى قلما كانوا يعنون بفلسفة التاريخ ، وقد اتجهوا

في الغالب إلى مرد الأحداث بدون تعليق أو بتعليق خفيف ، فلما جاء العصر الإسلامي ظهر مع القرآن الكريم ما يسمى بأسباب النزول ، وظهر في التشريع حكمته ، ودوران الحكم مع العلة وجوداً وعدماً ، فانفتح الباب بذلك للحديث عن فلسفة التاريخ ، ثم حدث شيء مهم في الإمبراطورية الإسلامية فخلق بوضوح فلسفة التاريخ ، وذلك هو ما أصاب العالم الإسلامي من ضعف وتدهور ، وما نزل به من خطوب جسام ، فانجم المؤرخ ابن خلدون (٨٠٨ هـ) بسبب ذلك انجماً فلسفياً عميقاً ليتعرف علل الحوادث وأسباب قيام الدول وعلل سقوطها ، ومظاهر العمران وأصول الاجتماع ونحو ذلك ، وأصبح ابن خلدون بذلك فيلسوف مؤرخي العرب قاطبة ، وأصبحت « مقالة ابن خلدون » عملاً رائداً في هذا المجال ، وعدت بحق أول عمل من نوعه وضع الأساس وشيد البناء حول ما يعرف بفلسفة التاريخ .

والنقط الأوروبيون هذه النظرية في اللقاءات التي تمت بين المسلمين والأوربيين في الأندلس وفلسطين وصقلية ، تلك اللقاءات التي يقول عنها Hearnshaw (١) : لقد خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين ، فإذا هم جلوس عند أقدامهم ، يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة ، لقد بُهت أشباه الهمج عندما رأوا حضارة المسلمين التي رجحت حضارتهم رجحانا لا تصح معه المقارنة بينهما .

وراح الأوروبيون يستعملون فلسفة التاريخ بعد ذلك في التعليق على الأحداث التاريخية ، وأصبحت فلسفة التاريخ شديدة الأهمية منذ ذلك الوقت ، فلم يعد الحدث التاريخي يمتأى عن فلسفة التاريخ ، وإنما تم امتزاج بين الحدث وبين فكر المؤرخ ، أو أصبحت صلة المؤرخ بموضوعه — كما يقول Edward Carr صلة الإنسان ببيئته (٢) . ويقرر Carr أيضاً أن وقائع التاريخ

(١) علم التاريخ ص ٦٤ من الترجمة العربية .

(٢) ما هو التاريخ ص : ٣٨ - ٢٩ و ص ١٥٣ - ١٥٤

(التاريخ ١ : ٢)

لا يمكن أن تكون موضوعية صرفه لأنها وقائع للتاريخ ، وذلك بسبب ما أسبق المؤلف عليها من تأثير لا يحصى عنه ، والموضوعية في التاريخ - إذا أصررنا على استعمال هذا الاصطلاح - لا يمكن أن تكون موضوعية واقعية بل موضوعية صلة فحسب ، أى الصلة بين الواقعة والتفسير ، وبين الماضي والحاضر والمستقبل (١) ، ويقرر بوليب أننا إذا انتزعنا من التاريخ البحث عن الأسباب والأصاليب والأهداف التى حركت الإنسان وأعمالنا دراسة النتائج التى توغتها من عمله ، ونسبة ما استهدف إلى ما حصل عليه ، فلن يبق من التاريخ سوى تمارين أدبية لا عبرة فيها ، ومتمعة للأذان وملهية للأذهان لا نتيجة لها فى مستقبل الأيام (٢) .

وفى العصر الحديث كان المستشرقون أسبق من سواهم فى مزاوله فلسفة التاريخ الإسلامى ، فراحوا يتخذون من كل حدث الجانب الذى يرضى اتجاههم فى مهاجمة الإسلام ، فإذا كانت هناك حروب بين المسلمين من جانب وبين الروم والفرس من الجانب الآخر فسروا ذلك بأن الإسلام انتشر بالقوة ، ومواقف المسلمين من اليهود بالجزيرة العربية ، وتعدد زوجات الرسول ... فسرت كلها بما يهاجم الإسلام ويؤذى شعور المسلمين ، وصار على هذا المنوال الباحثون المسيحيون على العموم حتى الذين ينحدرون من أصل عربى فإنك إذا قرأت تاريخ العرب للدكتور فيليب حتى هالك ما به من تحيزات وتعليقات لا تكاد تخلو منها صفحة من صفحات كتابه الكبير .

ومهمة الباحث الحديث أن يعيد النظر فى هذه التأويلات الجائرة التى اتُخذ بعضها مع الزمن على أنه شىء مسلم به ، مع أنها لا تثبت أمام البحث العلمى العميق كما صرى فى هذه الموسوعة .

(١) Edward Carr : What is History p 153 - 154

(٢) نقل عن جوزيف مورس : قبة التاريخ ص ٢٥ من الترجمة العربية .

فائدة التواريخ

هل يختلف المفكرون في أن للتاريخ فائدة ؟

نستطيع أن نجيب بأن جميع المفكرين يرون في التاريخ فائدة ، ولكنهم يختلفون في نوع هذه الفائدة ومدادها ، ولعل أهم الآراء التي تقلل من قيمة التاريخ هو رأى Sir Ray Lankester الذي يرى أن فائدة التاريخ تنحصر في أن قراءته للذينة ، وأنه منسلةٌ يتسلى بها . وهناك باحث آخر هو الأستاذ J. W. Allen يرى أن للتاريخ فائدة غير مباشرة : فيقرر أن دراسة التاريخ تنشط الفكر وتفتحه وتساعد به بطرق شتى ، فهو بذلك أداة لرياضة العقل ^(١) ، ويذكر أبو التاريخ هيردوت أنه بدون تاريخه كيلا يطمس الزمان أعمال الرجال ، وكيلا تبقى المآثر الكبرى والإنجازات الباهرة بلا تمجيد ولا إعجاب .

يبد أننا لو عرفنا طبيعة التاريخ لأدركنا جوانب كبيرة الأهمية من فائدته الواقعية ، فالتاريخ ليس سرداً للماضى ، وليس عودة للوراء ، إنما هو عمل الخدمة الحاضر وخدمة المستقبل ، ولنعد إلى تلك الدراسة الممتعة التي كتبها Edward carr عن ماهية التاريخ ، وفيها يقول : إن المؤرخ لا يتبع الماضى بل الحاضر ، وإن مهمة المؤرخ ليست أن يعيش الماضى أو يتحرر منه ، بل أن يلم به ويفهمه باعتباره مفتاحاً لفهم الحاضر ، والذي يقرأ ما كتبه المؤرخون الفرنسيون عن الثورة الفرنسية قبل الثورة الروسية (١٩١٧) وبعدها ، يدرك الفرق الكبير في النتائجين ، ويعرف تأثير الثورة الروسية على كتابات الذين جاءوا بعدها ، مما يؤكد تأثير المؤرخ بالحاضر ، وانفعاله بأحداثه ، وهو يكتب عن الماضى ^(٢) .

(١) Hearnshaw : علم التاريخ ١٥٧ ، ١٥٨

(٢) What is History p. p. 33 - 34

ومثل هذا ما يقرره Collingwood حين يقول^(١): إن القديس أغسطين قد نظر إلى التاريخ من وجهة نظر المسيحيين الأوائل ، ونظر له نيلامونت من وجهة نظر الفرنسيسين في القرن السابع عشر ، وجيبون من وجهة نظر الانجليز في القرن الثامن عشر ، ومومش من وجهة نظر الألمان في القرن التاسع عشر ، فلا مجال للسؤال : أية وجهة نظر هي الصحيحة ؟ فكل وجهة نظر كانت هي الممكنة بالنسبة للرجل الذي اتبعها ٥

ويتجه Hearnshaw نفس الاتجاه تقريباً حين يقرر أن دراسة التاريخ كانت هي مر الأجيال من أجل توضيح الحاضر وإلهامه سبيل الرشاد^(٢) وأن التاريخ هو وحده القادر على أن يضع ظواهر الحاضر في وضعها الصحيح^(٣).

ويبرز المؤرخ الإيطالي المعاصر « نيوتوكروش » فائدة التاريخ للحاضر بقوله : إن التاريخ كله تاريخ الحاضر ، فنحن لانبغي حقاً من دراسة التاريخ غير التعرف على الإطار الذي نعيش فيه ومعرفة أصوله ، ولا يقتنى لنا معرفة الحاضر وتفسيره ما لم ندرك الماضي بالبحث في حقيقة وجوده .

وإذا تقرر أن التاريخ لخدمه الحاضر وفتح له . . . فإن فائدة التاريخ تصبح أكيدة ، وإذا خالف مؤرخ هذا الاتجاه وعاش في الماضي وللاضى ، فإن عمله يكون قليل الجدوى ، لأنه بعيد عن الخط الصحيح للدراسة التاريخية .

بقى اتجاه آخر ينبغي شير إليه ونناقشه ، ذلك هو الرأى الذى يتجه اتجاهها مادياً ويحترم من العلوم ما يطبق عملياً في شئون الحياة كالطب والزراعة والهندسة ، وهناك رد شديد على هذا الاتجاه يصل إلى القول بأن المواد

The idea of History p. xii (١)

(٢) علم التاريخ ص ٢٣ - ٤٢

(٣) نفس المرجع ص ٦٠

«الصالحه للدراسة المدرسية والجامعية هي تلك التي لانشوب الاعتبار النفعية
حقوق الاشتغال بها ، وتؤكد هذه النظرة أن الطبيب يباشر قديراً ضئيلاً جداً
من ثقافته الطبية في الحياة العملية ، ويقتبس هرنشو قول أحد المربين الانجليز
« إن خير أنواع التربية هو ما نغني أعظم مقدار ممكن من قوى العقل ومداركه »
وبهذا يصبح التاريخ عاملاً مهماً من عوامل التربية للفرد والمجتمع ^(١).

والآن بعد هذا النقاش حول فائدة التاريخ نتجه إلى الفكر العربي
الإسلامي لنتقنيس اتجاهاته في هذا المجال :

يقول ابن الأثير ^(٢) موضحاً فائدة التاريخ للفرد : إن ما يحصل
للإنسان من التجارب والمعرفة بالحوادث وما يصير إليه من عواقبها يجعله
لا يحدث له أمر إلا وقد مر به هو أو نظيره ، فيزداد عقلاً ، ويصبح
لأن يقتدى به أهلاً .

ويقول موضحاً فائدة التاريخ للدول والمجتمعات : إن من إلهم الأمر
والتهبى إذا وقفوا على ما في وقائع التاريخ من سيرة أهل الجور والعدوان ،
ورأوا ما مدونة في الكتب يتناقلها الناس فيرونها بخلف عن سلف . . .
وما ترتب عليها من فساد وخرائب وهلاك استقبحوها وأعرضوا
عنها ، وإذا رأوا سيرة الولاة العادلين وحسنها ، وما فيها من الذكر الجميل
بعد ذهابهم ، وأن بلادهم وممالكهم عمرت ، وأموالها نمت استحسنوا
ذلك ورغبوا فيه وثابروا عليه . . . هذا سوى ما يحصل لهم من معرفة الآراء
الصائبة التي دفع بها السابقون مضرات الأعداء وخلصوا بها من المهالك ^(٣).
ويقول السخاوي ^(٤) :

إن الحديث عن ذوى المروءات والأجواد والمتصفين بالوفاء ومحاسن

(١) علم التاريخ ص ١٥٦

(٢) الكامل في التاريخ ج ١ ص ٧

(٣) الكامل في التاريخ ج ١ ص ٨

(٤) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٢٢ .

الأخلاق، والمرموقين بالشجاعة والفروسية عبر التاريخ يثير في النفوس المحم والطلع إلى معالي الأمور ، فالتاريخ نجم الفوائد كبير النفع للنوى المحم العالية ، والقرائح الصافية ، لما جبلت عليه طبائعهم من الأرياح عند معاصيهم هذه الأخبار إلى التشبه والافتداء بأربابها ليصير لهم نصيب من حسن الثناء وطيب الذكر التي حرص عليها خلاصة البشر .

ويقول الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ (١) :

التاريخ مدرسة الأجيال يتعلم فيه الأحياء ما ينفعهم فيعملونه ، وما يضرهم فيجتنبونه ، وهو الجسر الذي يصل ماضي كل أمة بحاضرها ، وبقدر العناية به ، والاهتمام بتدريسه تستطيع الأمم أن تبنى حياتها على أسس متينة وثابتة ، وكيف لا والحياة كلها بدورها الطويلة المتعاقبة ليست إلا تاريخاً أميناً ، فالיום هو حاضرك لكنه سيكون غداً في حساب تاريخك ، لا يورد إليك ولا تملك تغيير معاملة ، والإنسان يبني واقعه على الماضي ، فأنت تلتقي بالأجداد فتشد نفسك إليها ، وتلتقي بالسوء من الأحداث فتحتجز نفسك عن انتهاج الطرق المؤذية إليها ، وإذا رأيت أمة قد اضطربت واختلطت عليها معالم الطريق ، فاعرف أنه في مقدمة الأسباب لذلك انقطاع الصلة بين ماضيها وحاضرها

ويبدى المؤرخون الأوروبيون اهتماماً كبيراً وهم يدونون التاريخ فيعلمون على إبراز فائدته للفرد والمجتمع ؛ ويلتقي عدد كبير منهم في اعتبار التاريخ وسيلة لتهديب الأخلاق والتربية ، فمقررون أن الفائدة الأخلاقية هي بوجه الدقة ما يجعل للتاريخ قيمة من حيث التربية ، يقول بولنجبروك : لقد بان لي أن دراسة التاريخ دون سواها أصلح الدراسات لتعويد الإنسان الفضائل الخاصة والعامة ، وقليل من الناس من يعارض اليوم في وجوب استخدام التاريخ أداة لإلقاء دروس في الأخلاق خارجة عن نطاق البحث التاريخي (٢) .

(١) تقييم كتاب عنوان المجد لابن بشر .

(٢) Hearnshaw : ما التاريخ ص ١٥٨ .

ولنذهب الآن إلى باحث أوروبي آخر لنراه يذكر من فوائد التاريخ
مجموعة ذات بال ، ذلك الباحث هو Joseph Horne ، ونقتبس منه
بعض كلمات :

— إذا وجهنا سؤالاً ملحاً للمؤرخ وطلبنا منه الإجابة عما يبرر في نظره
مجهوده وصبره ، فلن يكتفى إذن بوصف ما يشعر به من المتعة الصافية ، ولن
يكتفى بترديد قول ليون هليكان ، بأن الجانب العاطفي نحو القصص والحكايات
يرضى نفسه ، وأن جمال القصص يتضاعف هنا بسبب واقعية الرواية والشعور
بأن حوادثها حقيقة واقعة ، ولن يقف عند وصف اللذة العميقة الناتجة
من معرفة الأشياء الغريبة ، على حد تعبير « لينتز » العظيم ، كما أنه لن يقف
هنا ذكر الخيلاء التي يشعر بها من يتفرد بمعرفة بعض ما يحمله الناس ،
بل هو سيجيب بأنه ما دام هدفنا أن نعيش فلا بد من الاستعانة بأى علم ،
وألأ نعمل علماً يعرفنا كيف عاش الناس قبلنا ، يقول المثل : إن القفز إلى
الماء يعلم العوم ، ويمكننا القول بأن الحياة تعلم العيش ، وأن ملاحظة أعمال
الناس في الماضي تضيف خبرة إلى خبرتنا ، وهكذا نعيش أعماراً كثيرة
إذ نحن أضفنا إلى عمرنا أعمار من سبقونا من الناس ^(١)

— في كل لحظة تتمثل في ذاكرة الإنسان صرور سواء منها ما كان عفويًا
أو إراديًا ، كما تتعُرد إلى ذهنه ذكريات عن أشياء أو حوادث عفا أثرها ،
ولكنه عرفها ، وإذا شرع في أمر بدت له أمور مشابهة تمهد له الطريق
وتهديه إلى سبل النجاح ، إذ هو يتجنب ما اتضح في الماضي مخيفاً للأمل
وينهج المنهج الذي اختبر في الماضي نجاحه أو اختبره غيره من الناس ،
والتاريخ في أبسط رسومه يبدأ عندما يتنى المرء من بين ذكرياته المتناثرة
ما يصلح نماذج لأعماله المستقبلية ^(٢) .

(١) جوزيف هورس : قيمة التاريخ ص ١٢ - ١٣ .

(٢) نفس المرجع ص ١٥

ويقتبس جوزيف هورس من تومسيد يد عبارة تفيد نفس المعنى وهى :
الفائدة التى يمكن أن تستمد من معرفة حقائق الماضى هى تقدير أقيسة
الحوادث المشابهة التى يمكن أن تتولد فى المستقبل من قرار الطبيعة المشتركة
بين البشر .

- لكل مؤسسة محفوظات ورفوف ، ولكل تاجر دفاتره ، ونحن
لا نستطيع أن نعيش وأن نعمل وأن نساير الزمان إلا إذا احتفظنا بالتضامن
الوثيق مع الماضى .

- تربية النشء هى العمل الأسمى فى وظائفنا الإنسانية ، ولن تكون
تربية النشء صحيحة وكاملة إذا جهلنا ماضى سلالة من نربى ، وحياة أبوية
وجدوده ، وحالة البيئة التى ينتمى إليها ، والتقليد العائلى أساس متين لا يغنى
عنه التأديب فى أسلوب تربوى مهما بلغ منهاجه من الكمال ، ودراسة النسب
لا يزال الجوهر الثابت لكل نشاط تاريخى .

وإذا قصدنا من التاريخ هذا المعنى ألفيناه عملاً حتمياً لا بد منه لكل
مجتمع بشرى ، فبدونه لا يوجد شعور باستمرار الوجود خلال الأزمنة ،
وبدونه لا نستطيع مجموعة من الناس التعرف على شخصيتها ولا يتكون عندها
وعى يجمع تراثاً مشتركاً جديراً بانتباه الناس ، فلا يقى من النسيان سوى
التاريخ ، وبدونه لا تنسجم الأجيال المتعاقبة ، كأنها رجل واحد تلقنه الدهر
دروساً دائمة على حد تعبير باسكال ، لذلك ننهض بالهمجية تلك الشعوب
التي تفتقر أشد الافتقار إلى ذكريات ماضىها وتنحصر أساليبها المعيشية فى
بعض ممارسات لا يحدون لتحسينها سبيلاً بسبب ما يجهلون من أصولها التاريخية
العميقة الجذور (١) .

- من المحتم أن نضيف إلى خبرتنا خبرة الأجيال الماضية ، فالتاريخ

على حد تعبير بعض المفكرين الألمان هو (حاصل الممكنات التي تحققت) ، وهذا التحديد يوحى بأن هناك أشياء لم تتحقق على الرغم من معقوليتها ، والمؤرخ يختبر أعمال الإنسان ويتأمل في سير الحوادث ، فيستطيع توسيع خبرته وتمحيص معرفته بالطبيعة الإنسانية ، وذلك كالطبيب ، فإنه لا يتحكم في تطورات كل مرض عند كل مريض ، وهو كذلك يجهل النواميس التي تدور عليها دقائق التطورات ، ومع ذلك فلا بد من اللجوء إليه لأن خبرته في آلام الناس توحى بنصائح نافعة وعلاجات شافية ، والاطلاع على أفعال الإنسان السابقة يفيد في مسابقة التسلسل الحدثي ، وأحداث التاريخ لا تتكرر كما هي ، ولكن علم التاريخ يكشف خلال تطورات الإنسان نواميس وعوامل طويلة المدى يمكن الاستفادة بها في مقابلة حدث بحدث (١) .

وليكن ختام هذا البحث مقتبسات من كتاب علم التاريخ لهرنشو ، وهو يقرر ما ذكرناه آنفاً من أن التاريخ لا يعيد نفسه ، ولكنه يذكر أن تجارب الماضي تفيد عندما تُقدم البشرية على عمل جديد مثلما يستفيد الإنسان بتجربته السابقة وهو يحاول عملاً آخر ، والتاريخ بالنسبة للإنسانية هو مستودع التجارب ، فكما يختزن الإنسان تجاربه الخاصة في ذهنه ليستفيد بها ، وفيما يلي كلماته : التاريخ لا يعيد نفسه ، ولكن على الرغم من ذلك يجد كل إنسان عندما يبلغ سن النضج والاكتمال أنه تهديه وتحكمه تجاربه التي تعيها ذاكرته ، ومبادئ السلوك التي يستمدّها من التجارب المذكورة ، وما يقال عن الفرد يقال عن الجنس الإنساني ، مع ملاحظة هذا الفارق الهام ، وهو أن الجنس الإنساني فاقداً لما يتصف به الفرد من الشخصية والشعور الذاتي المستمر ، فليس للجنس ذاكرة طبيعية ، ولكيلا يفقد الثروة الضخمة المتجمعة من تجارب الماضي ، وجب أن تنشأ له ذاكرة ، وذاكرة الجنس الإنساني هي التاريخ .

(١) جوزيف هورس : قيمة التاريخ ١٠٧ - ١٠٨ بتصرف .

وهناك فائدة أخرى يشير لها هرنشو وخلاصتها تشجيع جيل من الأجيال لأعمال مجيدة بإشاعة مفاخر أجداده ، واتخاذ ذلك وسيلة لحث الجيل الحاضر على السير نحو تحقيق ما حققه الأسلاف من أجداد ، وقد سار على ذلك بعض المؤرخين المحدثين في إثارة همم معاصريه^(١) ، بل اتخذ الأوروبيون المستعمرون التاريخ وسيلة لتحقيق أغراض سياسية استعمارية ، فراحوا في مستعمراتهم يسلكون لتحقيق أغراضهم الاستعمارية طريقاً ذا شعبتين ، الشعبة الأولى قطع هذه المستعمرات عن تاريخها ، بحيث ينشأ سكانها كالنباتات الطفيلية بدون جذور فلا يعرفون أصولهم ، ولا يعرفون شيئاً عن ماضي أسلافهم ، وبذلك لا يتمسكون بهذا الماضي ، ولا يحسون بالارتباط به ، أما الشعبة الثانية ، فهي أن يدرّس المستعمر العرني في المستعمرات الفرنسية تاريخ فرنسا ، ويدرس الإنجليز في المستعمرات الانجليزية تاريخ إنجلترا ، ويقصدون بذلك خلق التقدير والرهبة في نفوس هؤلاء الطلاب عندما يتعرفون على أجداد الأوروبيين ، وما خاضعوه من معارك وما حققوه من نجاح عسكري وعلمي .

* * *

فلك لمحة سريعة عن قيمة التاريخ ، وهي لمحة توضع التاريخ في مكانه الحقيقي الجدير به بين مختلف العلوم والفنون .

وصدق الله العظيم حين قال : لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب^(٢) وصدق سيدنا رسول الله القائل (من ورّخ مؤمناً فكأنما أحياه) أى أحياه بخبره وشره ليكون قدوة أو عظة للأحياء .

التاريخ المتصل والتاريخ المنقطع :

بقى في إبراز فائدة التاريخ أن نوضح أن المؤرخ ومعلم التاريخ يلتزمان

(١) هرنشو : علم التاريخ ١٦٠ - ١٦١ .

(٢) سورة يوسف الآية ١١١ .

يلبراز هذه الفائدة ، وذلك بخلق ما يسمى في المناهج التاريخية بـ « التاريخ المتصل » ونشأ « التاريخ المنقطع » بقدر الامكان .

ومعنى التاريخ المتصل أن يوضح المؤرخ ومعلم التاريخ الصلة بين الحاضر وبين المعالم والأحداث التاريخية ، فيركّز على إظهار القيم العليا في التاريخ وجهود الأبطال والقسم ، مع بيان ما خلفته هذه الجهود من فوائد وما تركته من آثار ، وفي مقابل هذا يوضح أن المجتمع الحالي في حاجة للتأسي بالماضي . والانتفاع بإنجازات السابقين لينال المصلحون في الحاضر ما ناله المصلحون في الماضي من خاود ومن ذكر طيب . ويقف المؤرخ كذلك ومعلم التاريخ عند انحرافات صانعي التاريخ في الماضي ، فيوضح أن هذه الانحرافات عادت على البلاد والعباد بالويل والنساد ، وأن الذين قاموا بهذه الانحرافات لم ينجوا في النهاية إلا الخزي وسوء الذكر ، ويحذر أن يقع المعاصرون في مثل هذه الهاوية .

ذلك هو التاريخ المتصل الذي يربط بين أحداث الماضي وواقع الحاضر بكل صور النقد والمقارنة ، والأمثلة على ذلك كثيرة تمتد عبر التاريخ الإسلامي طوال العصور وفي جميع البلدان ، حيث تقابل الصالح والطالح ، وحيث يستحتم أن نخلق نوعاً من الارتباط بين الأمور المتناسبة والمتقاربة في أحقاب الماضي وفي الزمن الحاضر .

أما التاريخ المنقطع فيتبعه المؤرخ ومدرس التاريخ الذي لم يتكامل وعيه ، وهذا النهج يُضيق فائدة التاريخ ويجعله أقرب للقصص والأساطير ، وطريقته أن يجرى الحديث عن حدث من الأحداث أو شخص من الأشخاص دون نقد أو مقارنة أو تعليق ، ومن هنا يجيء الحديث منقطعاً عن الحاضر ، ويكون في عزلة عن مجريات الأمور ودنيا الواقع ، فيقل تأثير التاريخ وربما ضاع التأثير .

إن الاهتمام بالتاريخ المتصل يجعل التاريخ حياً نابضاً ، ويقوّي الارتباط بين العصور والأحداث ، ويحقق المعنى السامي الذي تحمله الآية الحكيمية « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب »

مبدأ الالتزام في كتابة التاريخ الإسلامي

إذا كان النقاد من الأدباء يرون أن فكرة الالتزام في الأدب فكرة حديثة ، وأنها وليدة هذا العصر ، ولم يعرفها للنظر النقدي في العصور الماضية ، وأن المصطلح نفسه - يعني الالتزام - مصطلح جديد في ميدان الأدب ، لم يستخدمه الأقدمون ولم يعرفوه (١) ، أقول إذا كان النقاد من الأدباء يرون ذلك فإن المؤرخين والمفكرين المسلمين ، عرفوا الالتزام والتزموا به منذ مطلع الإسلام ، فكثيرون من المسلمين وقفوا ضد الإسلام بعنف فترات طويلة قبل أن يدخلوا الإسلام ، وأدرك الرسول بحكمته أن السابقين قد يعتريهم العجب والتبعية ضد المتأخرين في دخول الإسلام فذكر أن الإسلام يسجد ما قبله ، وأوصى بأصحابه جميعاً حين قال : لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أسد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه (صحيح مسلم) ، فهذا الموقف بالنسبة لأصحاب الرسول هو الالتزام بعينه .

وبعد وفاة الرسول قامت حروب بين المسلمين بعضهم والبعض كحرب الجمل وعرب صفين ، وقادها مسلمون من رجال الصدف الأول كعلي بن أبي طالب ، كرم الله وجهه وكالسيدة عائشة وكطلحة والزبير ومعاوية بن أبي سفيان ، ومن انضم إلى هذا المعسكر أو ذاك من كبار صحابة سيدنا رسول الله ، واتجه أكثر المؤرخين إلى عدم الخوض في دراسة هذه المعارك بما يسمى إلى بعض الصحابة ، أو يصيغهم بما لا يناسب قدرهم ، وهناك أراجيز وأشعار تحمل هذا المعنى أذكر منها قول الشاعر :

واحفظ رسول الله في أصحابه فقامهم بمقامه موصول

وقد صار أكثر المؤرخين المسلمين المعتدلين على هذا الدرب ، معتقبن مبدأ الالتزام منذ أمد بعيد .

وفى الدراسات العلمية هناك اتجاه يرى دراسة العلم للعلم ، فتجربى تجاربه للوصول إلى نتائج مقصودة لذاتها بصرف النظر عن فائدتها . فتند يكون البحث مفيداً أو لا يكون ، ولعل الصعود للقمر فى العيد الحاضر يعد مثالا لهذا اللون ، فهو حدث ضخم ، وتقدم هائل فى مجال العلم ، ولكن لو سألتنا : ما فائدته ؟ لانبجذ إجابة واضحة حتى الآن ، وهذا الاتجاه ترف علمى يعرف بأنه لا التزام فيه ولا غاية محددة له .

أما الاتجاه الغالب فهو أن العلم للحياة ، ويدخل فى هذا كل التجارب التى تجرى لزيادة الإنتاج ، والتقدم التكنولوجى ، والحصول على أدوية للأمراض ، واختراع الجديد من الصناعات أو تحسين ما هو موجود منها . . . وهذه دراسات ملتزمة ، أى أنها دراسات لها هدف وفائدة محسوسة مطلوبة .

فإذا جئنا إلى الفن وجدنا أنه مر بمراحل ثلاث ثم انتهى إلى الالتزام ، وهذه المراحل تبدأ بمرحلة ارتباط الفن بالعقيدة الدينية ، وقد عبرت هذه المرحلة فترة طويلة كانت كل الجهود الفنية خلالها فى خدمة العقيدة الدينية ، ثم اتجه الفن للارتباط بالعقيدة متمثلة فى فرد ، فأصبح هذا الفرد بنال كل عناية الفن ، إذ تمثلت فيه كل الآمال ، ثم حصل التمرد على الفرد وانبجذ الفن ليكون للفن ، وكانت هذه ثورة على الخضوع للعقائد ، ولكنها فى الوقت نفسه انتهت بأنها جعلت الفن عقيدة ، فجاء تحول جديد جعل الفن للحياة والمجتمع ، والتزم الفنان أن يكون فنه فى خدمة المجتمع وحل مشكلاته .

ولعلنا بذلك نستطيع أن نحدد معنى الالتزام ، ولعل أوضح معنى للالتزام هو وجوب مشاركة المفكر فى قضايا قومه الدينية والوطنية والإنسانية ،

١- يتانون من آمال ، فليس للمفكر أن يستغرق في التجريدات على حين يعاني وطنه مذلة احتلال ، أو طغيان ظالم مستبد .

هل نطبق مبدأ الالتزام في كتابة التاريخ الإسلامى ؟ أولا نطبقه ؟ أو بعبارة أخرى . هل يدرس المؤرخ قضايا التاريخ مرتبطة بقضايا عصر المؤرخ ؟ أو يدرس قضايا التاريخ منفصلة عن قضايا العصر ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال واضحة تمام الوضوح إذا تذكرنا ماذكرناه آنفا عند حديثنا عن « فائدة التاريخ » من أن التاريخ ليس مراداً للماضى وليس عودة للوراء ، إنما هو عمل لخدمة الحاضر وخدمة المستقبل ، وأن المؤرخين جميعاً تأثروا بحاضرهم وهم يكتبون الماضى ، ومن هنا يتحتم أن تكون دراسة التاريخ الإسلامى ملتزمة .

ولكن ليس معنى هذا أن نغير في التاريخ ، فالتاريخ مقدس ، ومن الخيانة أن تلعب به الأثواء ، ولكن هناك وسائل كثيرة للمؤرخ يحقق خلالها مبدأ الالتزام في خدمة مجتمعه ، وفي الوقت نفسه نجعله بمنأى عن تزيف التاريخ الذى لا يرضى به أحد وبخاصة المسلم .

ومن هذه الوسائل نسوق بعض نماذج .

١ - أن يرمى المؤرخ الدين والوطن في فلسفة التاريخ ، فإذا تحدث عن حروب الصحابة عبرها دون إدانة ، ذاكراً وجهات النظر التى لا تخرج أحداً ولا تقوض تراثاً ، ومثل ذلك أيضاً إذا تحدثنا عن هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ ، فإننا نعرف بذلك ، ونحذر من تكراره ، ولكننا نجعل تعليقنا على هذا الحدث يبعث فينا الأمل ويشحذ الهمة ، كأن نذكر أن هذه الهزيمة تسببت عن خطأ يمكن تداركه ، أو غفلة أمكن التغلب عليها ، ومثل هذا يتبع عند الحديث عن خلافات بين دولتين إسلاميتين ، فنسرد الأحداث دون تعليق يثير القلق ويزيد من الخطب .

٢ - أن يتحاشى الغمزات التي تضر وطنه ودينه ، فمن الظلم ومن البعد عن الالتزام أن ذهب بعض الأشخاص مرة لزيارة دوله عربية ، وهناك التي محاضراته مهاجما الشيخ محمد عبده ، ورشيد رضا ، وضعد زغلول وصفية زغلول وغير هؤلاء من الأعلام ، وارتفع صوت حافل يقول : لمصلحة من ندمر تاريخنا ونقضى على الهالة الطيبة التي رجمها الزمن لزعماننا في الفكر والسياسة ؟ .

وقد قرأت رحلة ابن جبير ، وهي رحلة ثمينة صورها المؤلف في صورة نابضة حية ، وأثناء فيها بما صادفه من خير ، وانتقد بعض الانحرافات التي رآها . وفي مرة كنت أفتح المذياع فوجدت غرضاً للقطات من هذه الرحلة ، ولكن الذي التقط هذه اللقطات كان عجيباً ، إنه جمع فيها كل ما يضر بمصر وتاريخ مصر وما يسيء إلى العرب ويحط من قدر المسلمين ، وراح يفصل القول عن ظلم الجمارك بمصر في عهد صلاح الدين الأيوبي ، وعن قطاع الطرق الذين ينهبون على مواكب الحجاج ، وبخاصة في الطريق من مصر إلى الحجاز ، وعن أهل اليمن الذين كانوا يقومون بمساخر وهم بالحجاز ، وعن بغداد التي فقدت كل شيء .

وإن أي إنسان ليسائل نفسه ، لمصلحة من ندمر تاريخنا وتاريخ أعظم قائد عرفه عصر الحروب الصليبية ؟ ولماذا اقتبس هذا الباحث كل تلك الغمزات المريرة ، ولم يذكر سطرأ واحداً من المفاخر الإسلامية والشهامة العربية التي تنساب في ثنايا هذه الرحلة الممتعة ؟ إن باحثاً كهذا ليس ملتزماً بل ليس عادلاً .

٣ - ومن الالتزام في التاريخ كذلك أن تقدم للتلاميذ والطلاب في المدارس والجامعات ، وأن تقدم للقراء والمثقفين بوجه عام صوراً تبعث القوة وتشجذ الهمة من التاريخ الإسلامي ، والتاريخ الوطني ، لعلنا نربي بذلك النشء تربية تجعله يحب دينه ويحترم الأسلاف ، ويسعد بالتراث

مترابط به ، إن لأجدادنا مفاخر ينبغي أن نتذكرها ونتمثلها ، وبين أسلافنا
قم يتحتم أن ندرس تاريخهم ، ونسعد ونحن نعاش هذا التاريخ ، ولشيوخنا
وباحثينا الأقدمين جولات علمية وابتكارات فكرية تعطر تاريخنا وتشرفنا ،
ومن الالتزام أن نقدم كل هذه القمم وتلك القيم لتدفع بالجيل الجديد أن
يرتبط بالثراث وأن يسير على نمط الأجيال السابقة ليحقق ما حققت من
خير ورفاهية وانتصارات .

٤ - ومن الالتزام في التاريخ أن نغني في بلادنا بدراسة الاستعمار
والصهيونية وتبيان خطرهما على أوطاننا وأهلينا ، وأن نوضح ما عانيناه من
الاستعمار الأوروبي من جوع وحرمان ، وقتل للحريات ومحاربة التطور ،
وأن نوضح أن الاستعمار قبل أن يرحل وضع إسرائيل في بلادنا ولا يزال
يؤيدها ، لتؤدي ننس اللور الذي كان يؤديه من إضعاف وتدمير :

وينبغي أن تكون وقفنا مع العدو الصهيوني طويلة نشرح فيها عقلية
وانحرافات ، وتخريفه للديانة الموسوية ، وأطماعه ، وسوء علاقته بالناس
والأوطان جميعاً ، ونتدارس مواقفه العدوانية التي ارتكبها ضد كل البلاد
التي نزل بها . مما يجعله أنانياً يعادي اليوم من صادق بالأمس ، وليس أهلاً للثقة
أو تقدير ، ونذبح كذلك جبهته وانهيائه عند ما تقابله قوى صادقة صامدة .

وعلى كل حال فليس من الالتزام ما يمكن أن نسميه بالالتزام ، أي أن
يسخر الفكر لخدمة نظم سياسة خاصة أو غلبة بعض الحكومات أو
الأحزاب أو بعض القيادات والزعامات ، فهذا كله خطأ قد ساعد على انتشاره
تورط بعض الكتاب - في كثير من البلاد - في تسخير أقلامهم هذا
التسخير ، ثم تعليق آثامهم على مشجب « الالتزام المزعوم » تماماً كما تملأ
السجون في بعض البلاد باسم الحرية ، وكما تشن حروب باسم السلام .

إن مفهوم الالتزام - كما يصفه أصحابه بعيداً عن انحرافات أذهيائه -
هو أن يتخذ الإنسان ، بمحض إرادته واختياره الحر ، موقفاً فكرياً وعملياً

من قضايا وطنه ، ومشكلات قومه ، وأزمات الإنسانية بجمعاء ، بحيث يكون هذا الموقف الفكري مناصراً لقضايا الحق ، ومساهماً في حل مشكلات التقدم ، ومؤازراً لكل عمل بناء يقصد إلى تفريج أزمات الإنسان في كل مكان ، وتكون الغاية النهائية في كل ذلك هي توفير الحرية للفرد ، وتحقيق التعاون للمجتمع ، ومساعدة الفرد والمجتمع دائماً على أن يسعد بخياة أفضل^(١) .

ولكن الغربيين غالباً ساروا في الالتزام على غير النهج السليم ، ويلوم Hearnshaw^(٢) هذا الاتجاه عند الغربيين فيقول : قلما كان التاريخ يدرس لذاته ، بمعنى أنه كان يدرس ويستغل لتأييد ما هو أجنبي عنه من الصوالم السياسية أو الدينية ، لا ابتغاء الوصول إلى الحقيقة في أحداث الماضي الخطيرة من حيث علمها ووصفها ونتائجها ، فحتى فولتير لم يتورع عن تصخير علمه في مناوأة رجال الدين ، وكان « تاريخ إنجلترا » للفيلسوف هيوم مجرد نشرة مسهبة تحمل روح حزبه ، حزب المحافظين .

وينبغي أن نلاحظ أن المستشرقين والمستعمرين وضعوا الأسس الحديثة لكتابة تاريخنا الإسلامي وتاريخنا الوطني ، وكانوا ملتزمين بما ينفعهم ، وما ينفعهم كان في الغالب يصيبنا بالضرر فقد أتجه أكثر المستشرقين في كتابة التاريخ الإسلامي اتجاهاً يثير الفتى بين المسلمين ، ويضعف كيانهم ، ويصور لهم تراشهم تصويراً تشمئز منه النفوس ، فأسرفوا في تصوير الصراع بين بنى أمية والشيعة لتغفل عن تاريخ الأمويين لأن به عمالة يمكن الافتخار بهم ، وهاجوا تاريخ الأتراك العثمانيين ولم يدعوا من وسيلة للحط منهم إلا قدموها ، ورسموا أسوأ صورة للخديوى

(١) دكتور أحمد هيكال : الأديب بين الحرية والالتزام - مقاله بمجلة الأدباء العرب للعدد الرابع .

(٢) علم للتاريخ : (ترجمة الأستاذ المبادئ) ص ١١٧ .

إسماعيل . ولأحمد عرابي . وهكذا راحوا يتتبعون كل قيما ليحطوا منها ،
وأنخذعنا بها ، وسرنا فيه إلى مدى بعيد ، بل راحوا - عند ما كان في يدهم
الأمر - يقدمون تاريخهم لأولادنا ليخلقوا الهبة في نفوس الجيل الجديد ،
وليقيموا رباطا قويا بين النشء هنا وبين أبطالهم .

وباسم مبدأ الالتزام نحن ندعو إلى العودة للطريق الصواب ، لتتخذ من
ماضينا مشاعل تهدي طريقنا في الحاضر والمستقبل ، ومن سار على هذا
النهج من الباحثين المحدثين الأستاذ العقاد الذي يقول في مقدمة كتابه (عبقرية
محمد) واليوم ونحن نضع كتابنا هذا عن (عبقرية محمد) بين يدي
القراء نقول : إننا التزمنا فيه الباعث الذي أوحى بتأليفه
فكتبناه ونحن نستحضر في الذهن تبرئة المقام الحمدي من تلك الأقاويل
التي يلغظ بها الأغرار والجهلاء عن حذلقته ، أو سوء نية .

وفي مقدمة (عبقرية الصديق) يقدم المرحوم العقاد دراسة تصور
حدود الالتزام ، وليس كلام الأستاذ العقاد بعيداً عما أوردناه آنفاً ، ، وسنسوقه
هنا لمزيد من التعرف على هذه الحدود ؛ يقول رحمه الله :

قصدتُ أن أرسم للصديق صورة نفسية التزمت فيها التوقير ، والصدق
كل الصدق ، وليس من غرضنا التجميل الذي يخرج بالصورة عن حقيقتها ،
إذ لا نريد أن يطلع القارئ على تلك الصورة فلا يعرفها ، ولا يعرف
أبا بكر منها ، وعلى هذا فالتوقير شيء والتجميل شيء آخر ، التوقير إبراز
ما في الشخصية من محاسن ، وامتداح هذه المحاسن ، أما التجميل فإضافة
صناعية تضلل الناظر فلا يعرف الحقيقة .

ومن التوقير ألا تروح تبحث عن العيوب وتبرزها . ولا يتنافى هذا مع
الحقيقة التاريخية ، فإنك حين تعد ثروة رجل فتقول : إنه صاحب عشرة
بيوت لا يلزمك بعد ذلك أن تقول : ولكنه ليس بصاحب أرض زراعية ،

ولا أوراق مالية ، ولا معامل صناعية ، ولا مرتبات حكومية . وإذا أنت سكت عن هذا قاصداً أو غير قاصد ، لم يجوز لأحد أن يلومك أو يظن بك تعمد الإخفاء والسكوت فحسبك أنك ذكرت ثروته في البيوت بدقة ، ولم تضيف إليه ما ليس من ماله .

وكذلك الشأن في ثروات النفوس حين يحصيها المقلدون ، تصدقُ إن ذكرت للإنسان ما يملك ، ولا يفوتك الصدق إن فاته أن تخفي كل ما ليس له بملك ، فليس هذا بغرض من أغراض الإحصاء أو التعريف (١) .

ونستمر في إبراز ضرورة الأخذ بمبدأ الالتزام في التاريخ الإسلامي مورددين مزيداً من الشروح التي تنسب للأستاذ أحمد أمين والأستاذ العقاد ، وقد كان الأستاذ العقاد كتب كتابه (عبقرية عمر) قبل كتابه (عبقرية الصديق) وكان ذلك سنة ١٩٤٣ ، ويُعتقد أن السبب في ذلك هو أن المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل كان قد أخرج كتابه آنذاك (الصديق أبو بكر) فيبدو أن العقاد قصد أن يترك الجور دحاً من الزمن لكتاب الدكتور هيكل ، أو أنه أراد أن يتأني ليتدارس هذا الكتاب قبل أن يخرج كتابه في نفس الموضوع . والمهم أن الأستاذ أحمد أمين علق على كتاب (الصديق أبو بكر) للدكتور هيكل وكتاب (عبقرية عمر) للأستاذ العقاد ، وقد اقتبس العقاد بعض فقرات من هذا التعليق وناقشها في مقدمة كتابه (عبقرية الصديق) ، واتجهت هذه الأقلام الرائدة الثلاثة لمبدأ الالتزام ؛ فيقول الأستاذ العقاد (٢) :

قال زميلنا الباحث الفاضل الأستاذ أحمد أمين عن نقده لكتاب الدكتور هيكل باشا (الصديق أبو بكر) وكتابي (عبقرية عمر) :

بقيت مسألة هامة كثيراً ما اختلفت وجهة نظر الكتاب فيها ، وهي أن العظيم

(١) عبقرية الصديق ص ٤ - ٥ بتصرف .

(٢) عباس محمود العقاد : عبقرية الصديق ٧ - ٨ .

مهما يحفظ له أنخطأ ، وإلا ما كان إنساناً ، فالعصية لله وحده ، فهل
واجب كاتب تاريخه أن يعرض لكل ذلك في تفصيل ، فيذكر كل ماله
ويشيد بذكره ويذكر خطاياه ويتقدما . . . ؟ أو واجبه فقط تجملة نواحي
العظمة ، والتأويل والدفاع الدائم عن نواحي الخطأ ؟

أنا أرى أن الرأي الأول أوجب ، . . . ، والمؤلفان الفاضلان إلى
الرأي الثاني أميل .

« والواقع أننا إلى الرأي الثاني أميل ، كما قال زميلنا الأستاذ ؛ ولكنه
الميل الذي نَحْدُهُ بما قلناه من حدود ، ونحتاج له بما بيناه من أسباب ،
ويُنِيلُ إلينا أن الأستاذ نفسه يستطيب هذا الميل حين قال في صدر مقاله
عن الكتابين : (. . .) إن الأوروبيين قد وجدوا من علمائهم من يشيد
بعظماهم ويستقصي نواحي مجدهم ، بل قد دعتهم العصبية أحيانا أن
يتزايدوا في نواحي هذه العظمة . . .) أما نحن فقد كان بيننا وبين عظمائنا
سدود وحواجز حالت بين شبابنا وجهورنا والاستفادة منهم . . . فهذه
السدود كثيرة في الشرق ، كثيرة في العصر الحاضر ، وهي التي تميز لنا -
بل تفرض علينا - أن نوفي العظماء حقهم من التوقير ، وأن نصورهم
كما خلقهم الله ، ثم لاعلينا أن نرفع الصورة حيث شئنا بعد الصدق
في التصوير . »

هذه لمحة قصيرة عن مبدأ الالتزام ومداه ، لعلها وضحت هذه
الموضوع الخطير .

الحضارة الإسلامية

في السنين الأولى من هذا القرن ، كانت الحضارة الإسلامية تثيراً محدود المدلول ، وكنا ندرس الحضارة الإسلامية على أنها قنصر الحمراء ، وبغرناطة ، والجامع الأزهر بالقاهرة ، والجامع الأموي بدمشق ، وبعض مظاهر العمران ، وعندما أخرج جورجي زيدان كتابه (التمدن الإسلامي) خلط فيه بين ما هو إسلامي وبين ما فعله المسلمون . وعندما تقرأ هذا الكتاب تخرج منه باللائمة على المسلمين أكثر مما تمدح دورهم الحضاري ، وظهر كتاب آدم متزه الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، فكان أقرب إلى الإنصاف ، ولكنه كان محدود الزمن ، وغير شامل للدور الذي قام به المسلمون في ميادين الحضارة .

وقد رلى أن أربط بدراسة (الحضارة الإسلامية) منذ أخذت في إعداد رسالتى للدكتوراه بجامعة كبرديج عن (تاريخ التربية الإسلامية) في منتصف هذا القرن ، وظللت على صلة بالحضارة الإسلامية حتى كتابة هذه السطور ، ومن طول الدراسة والبحث والمقارنة ، وصلت إلى ما أعتقد أنه المدلول الحقيقى للحضارة الإسلامية ، فقد ظهر لى أن الحضارة الإسلامية نوعان :

النوع الأول - حضارة إسلامية أصيلة وتسمى حضارة الخلق والإبداع وقد كان الإسلام مصدرها الوحيد ، وعرفها العالم لأول مرة عن طريق الإسلام .

النوع الثانى - حضارة قام بها المسلمون في الأمور التجريبية ، إحياءً وامتداداً وتحسيناً لما هرفه الفكر البشرى من قبل ، وتسمى حضارة البعث والإحياء .

والحضارة الإسلامية الأصيلة جاءت في الأمور التي لم يستطع العقل البشرى أن يصل إليها بنفسه ، جاءت في نظم السياسة والاقتصاد والتشريع والأخلاق ... ، فإن البشرية قد عجزت عن الوصول إلى نظم سياسية سليمة ، ولم تستطع الإنسانية أن تعرف العدالة الاجتماعية ، أو تتفق على نظام سليم للميراث ، وكانت الأخلاق مثار خلاف كبير بين الناس ، فالعدل مثلاً هُدد ففبيلة عند بعض الناس ، واعتبره الآخرون دليل ضعف ، فجاءت حضارة الإسلام تبرز لنا الحق في هذه الأمور التي اختلفت فيها الأفهام ، وضعفت العقول عن جلها ، ومن هنا فزأى الإسلام في السياسة والاقتصاد والأخلاق رأى أصيل ، أنقذ المجتمع البشرى من انحرافه ومتاهاته ، بل فرض نفسه على المجتمع البشرى ، فاقبسته كل النظم حتى أصبحت كلمة (ديمقراطية) على كل لسان ، وأصبحت كلمة (اشتراكية) منارة البشر ، وليست الديمقراطية إلا صدى للشورى التي جاء بها القرآن الكريم لأول مرة ، وليست الاشتراكية إلا فهماً للعدالة الاجتماعية التي كان الإسلام أول صوت نادى بها .

أما حضارة البعث والإحياء فكانت في العلوم التجريبية كالرياضة والطب والفلك والموسيقى وغيرها ، وهى تبين لنا مدى ماوصل له المسلمون من تقدم في هذا الميدان ، إذ ورثوا الحضارة المصرية التي كانت قد تحولت إلى اليونان وورثوا كذلك ثقافة الفرس وثقافة الهند ، وكانت هذه الحضارات كلها قد ذبلت وماتت بسبب الكهنة والتسلس وأحياءها المسلمون ، وهكذا انتفع المسلمون بما كان لدى المجتمع البشرى من خبرات ، فأحيوا التراث الإنسانى الذى كان على وشك الفناء ، وأضافوا إليه تفسيراتهم وشروحهم ، حتى وصل المسلمون بهذه الحضارة إلى غاية بعيدة ، ثم راح المسلمون في هذا المجال يتكبرون ويضيفون حتى أصبحت أفكارهم رائدة ، وانتقلت أفكار المسلمين ومؤلفاتهم إلى أوروبا ، فكان ذلك أساس النهضة الأوروبية ، وتحقق بذلك ما سبق أن اقتبسناه من Hearnshaw

من « أن الصليبيين خرجوا من ديارهم لقتال المسلمين ولكنهم سرعان ما جلسوا عند أقدامهم يأخذون عنهم العلم والمعرفة »

ونتيجة لصلتي الطويلة بدراسة الحضارة الإسلامية بنوعها ، هبة امتدت حوالى ثلاثين عاماً ، استطعت أن أخرج « موسوعة النظم والحضارة الإسلامية » فى عشرة أجزاء ، وتكلمت فى هذه الأجزاء عن اتجاهات الإسلام فى السياسة والاقتصاد والتربية والحياة الاجتماعية والسلم والحرب والقضاء ... كما شرحت ما وصل له المسلمون من تقدم فى الحضارة التجريبية .

بقى نوع من أنواع الحضارة ، وهذا النوع مرتبط بدراسة التاريخ ، وذلك النوع هو ما تقوم به دولة من الدول الإسلامية لرفع شأن الإنسان وخدمته ، وهذا النوع من الحضارة يلزم أن يقوم به مسلم التاريخ ، وأن يعنى به عناية تامة ، فإذا درس تاريخ الدولة الأموية أو العباسية أو الفاطمية كان عليه أن يقف عقب الانتهاء من دراسة الأحداث وقفة كافية يشرح فيها ما قدمته هذه الدولة فى مجال الحضارة ، أى ما قدمته لخدمة الإنسان ورفع قدره ، ويشمل ذلك جهود الدولة فى الميدان الاقتصادى (الزراعة والتجارة والصناعة) وفى ميدان العمران ، وفى ميدان التربية والتعليم ، وفى ميدان الأمن بالداخل والأمن من العدوان الخارجى وغير ذلك من الميادين . وهذا النوع من الحضارة شديد الارتباط بموسوعة التاريخ الإسلامى التى نقدم الآن جزءها الأول .

مشكلات، حول تدوين التاريخ الإسلامى

(١) المراجع القديمة والدراسة التحليلية الحديثة :

ظهر فى كتابة التاريخ الإسلامى طريقان :

أحدهما سررد الأحداث فى نظام الحوليات أو بدونه ، من غير تعليق عليها ، وبدون تحليلها والبحث عن دوافعها ونتائجها القريبة والبعيدة .

والطريق الثانى اتجه إلى الاهتمام بالتعليق والتحليل لحدث من أحداث التاريخ دون الاهتمام بسررد الأحداث التاريخية المتتابعة .

وقد عنى المؤرخون القدامى بالطريق الأول فألفوا الكتب الضخمة لسررد الأحداث التاريخية ، وعنى المؤرخون المحدثون بالطريق الثانى فامتازت كتاباتهم بأنها تحليل لحدث واحد من أحداث التاريخ ، أو شخصية واحدة من الشخصيات التاريخية .

ومن الواضح أن الطريقين يكمل أحدهما الآخر ، ولا يستقيم أحدهما وحده ، فالأحداث التاريخية دون فهم وتحليل عمل يعتبر ساذجاً محدود النفع ، وتحليل حدث واحد دون فهم سلسلة الأحداث التاريخية غير كاف ، فهو ترف علمى يحتاج إلى أساس يبنى عليه .

والمؤرخون القدامى بالإضافة إلى عدم اهتمامهم بالتحليل والنقد كانوا غالباً يدونون التاريخ على نسق تدوين حديث الرسول ، فيذكرون الروايات المختلفة للحدث الواحد ويذكرون الرواة متسلسلين الواحد بعد الآخر ولا يهتمون بالأسلوب الذى يكتبون به ، وكل هذا جعل دراسة التاريخ فى العهد الجاهلى صعبة المثال .

وفي سنة ٨٦٥٦ حدث حادث خطير في العالم الإسلامي هو سقوط بغداد في أيدي التتار ، وقتل الخليفة العباسي ، وإنهاء الخلافة العباسية بالعراق ، والذي يعني من هذا الحادث هنا هو خطورته على كتابة التاريخ الإسلامي ، فقد كانت الخلافة العباسية حتى فترات ضعفها رابطاً يربط بين أجزاء العالم الإسلامي ، وكان من المؤرخين من يكتب تاريخ العالم الإسلامي كله جملة واحدة ، فلما سقطت بغداد وانقطع الخيط الذي كان يربط بين أجزاء هذا العالم ، انفرط عقد البلاد الإسلامية . وأصبح لكل منها تاريخ ومؤرخون ، وكثر أن نجد عراقياً مثقفاً يجهل تاريخ اليمن ، ونصرياً يجهل تاريخ إيران ، وهكذا .

وعلى هذا يعاني الباحثون المحدثون في التاريخ الإسلامي مصاعب تشمل تاريخ العصور الإسلامية قبل سقوط بغداد ، وبعده ، فقبل سقوط بغداد كتب التاريخ الإسلامي ، ولكن بدون تحليل وبأسلوب ونسق بعيدين عن أسلوب العصر الحديث ونسقه ، وبعد سقوط بغداد اتجه الاهتمام إلى التاريخ المحلي للبلدان الإسلامية ، وقل الاهتمام بالتاريخ العام للعالم الإسلامي ، كما اتجه أكثر اهتمام الجامعيين في العصر الحاضر إلى التحليل والتقد لحداث واحد من أحداث التاريخ كما سبق القول .

وفي هذه الموسوعة محاولة حاسمة لدراسة التاريخ الإسلامي كله من جانب ، وتحليل أحداثه المهمة من جانب آخر . --

(ب) أقطار فسيحة منسية :

في جامعات الدول العربية وغير العربية توجد مادة اسمها « التاريخ الإسلامي » ولكن المدلول الواقعي لهذا التعبير هو التاريخ العربي أو ما يحيط به ، أو تاريخ الخلافة الإسلامية حتى سقوط بغداد ، وعندما ألف الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم كتابه « تاريخ الإسلام » توقف عند سقوط بغداد ، فكأنه بذلك أنهى الشوط ، وربما كان ذلك هو ما دعا Philip Hitti إلى

تسمية كتابه : تاريخ العرب ، حتى لا يقع في الخطأ الذي وقع فيه سواء وهو أن يحمل عنوان حديثه أو عنوان بحثه « التاريخ الإسلامي » ، ثم لا يتحدث إلا عن التاريخ العربي . وفي بعض الأحوال يمتد حديث المؤلف إلى تركيا أو إيران كما فعل بروكلمان لشدة ارتباط هذين القطرين بالتاريخ العربي .

ولذلك فنحن نهدف بأن من الضروري تصحيح المدلول ، فالتاريخ الإسلامي هو تاريخ العالم الإسلامي الذي أشرنا إليه آنفاً ، وذلك يشمل الإسلام جنوب صحراء إفريقيا ، ويُدخل في نطاق العالم الإسلامي دولاً كثيرة في هذه المنطقة هي موريتانيا والسنغال وجامبيا وغينيا ومالي والنيجر ونيجيريا وتشاد والصومال وشطرا من تنزانيا كان إلى عهد قريب يسمى زنجبار كما يشمل الدول الإسلامية غير العربية بآسيا كإيران وأفغانستان والباكستان وبنجالاديش وماليزيا واندونيسيا ، ويشمل التاريخ الإسلامي تاريخ الأقليات الإسلامية في آسيا وإفريقية وأوروبا .

وكثير من الدول الإسلامية لم يكون تاريخه الإسلامي ، ويتطلع مكانه إلينا لندون لهم هذا التاريخ ، ويتحتم علينا أن نستجيب لذلك ، تحقيقاً لمسؤولياتنا العلمية ، وتعرفاً بإخواننا تربطنا بهم مقدسات الإسلام وتعاليم الإسلام ، وهذا هو النهج الذي ارتبطنا به هذه الموسوعة .

(ج) مصادر مهمة تجاوزها المؤرخون :

من العجيب أن كثيراً من الكتب لم تتخذ القرآن الكريم وأحاديث الرسول مراجع لها عند دراسة حدث تكلم عنه القرآن أو الحديث ، والحق أن القرآن الكريم جلى مواقف ما كان يمكن التعرف عليها بدونه كما منرى فيما يأتي ، وفي كتب الأحاديث أبواب عن مغازى الرسول لا يتم فهم الغزوات بدون الاطلاع عليها ، ولسنا نعرف السبب في إهمال هذه المراجع المهمة الا أن يكون ذلك بسبب الاتجاه الإغريقي الذي يرى أن الكتب

المماوية لا تصلح مرجعاً تاريخياً ، ولكن ذلك إن جاز بالنسبة للتوراة والإنجيل ، فإنه لا يجوز بالنسبة إلى القرآن لاحتمال الوضع والتحريف في الكتابين الأولين ولعدم احتماله في القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذي تعهد العلي العظيم بحفظه من أي انحراف أو تغيير ، فإذا تكلم القرآن الكريم عن شيء أو ورد في الحديث الصحيح وصف لحدث تاريخي ، فإننا آنذاك لإزاء مصدر لا يمكن تجاهله من مصادر التاريخ الإسلامي ، ولا يتم تصوير الحدث التاريخي بلسونه .

والمعجيب أن الطبري المؤرخ المفسر ، اتبع أيضاً هذا النهج ، فكتب من هزوة بدر دون أن يقتبس من سورة الأنفال ما يشئ الغلة ، مع أن سورة الأنفال اتصلت تماماً بهزوة بدر وتحدثت عن مشكلاتها ، ولم يقتبس الطبري من هذه للسورة إلا آيات قليلة لا تدخل في بناء الحدث ، وإنما هي آيات أشبه بالوعظ والحكم ، وكذلك فعل مع باقي الغزوات . ولما جاء ابن الأثير واختصر روايات الطبري ، اختصر كذلك ما أورده الطبري من آيات قرآنية ، فأوشك كتابه أن يخلو منها ومن أحاديث الرسول ، واعتمد في بناء الحدث على الرواية التاريخية فقط .

وقد حاولنا في هذه الموسوعة أن نضع القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة في مكانهما الحقيقي ، فنمرت آيات سورة الأنفال تصويرنا لهزوة بدر ، وجاءت آيات سورة آل عمران توضح مجريات الأمور في أحد ، واعتمدنا على سورة الأحزاب في رسم صورة صراع الخندق أو الأحزاب ، وهكذا ، وفي الحق أن هذه السور الكريمة قدمت فائدة عظيمة للأحداث التاريخية .

واعتمدنا اعتماداً واسعاً على كتب الحديث في تدوين السيرة النبوية وبخاصة الجوانب الجديدة التي ظهرت في هذا الجزء ابتداء من الطبعة التاسعة ، كما اعتمدنا على القرآن والحديث اعتماداً واسعاً كذلك في تدوين الحضارة الإسلامية .

(د) التاريخ الإسلامى جزء من الدراسات الإسلامية :

التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية جزء من الدراسات الإسلامية .
ولا يمكن إطلاقا اعتبار التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية شيئا مستقلا
من الدراسات الإسلامية ، وقد ظلت هذه الحقيقة مهمة محمداً أو سهواً ،
مما أتاح لتقليد البضاعة فى الدراسات الإسلامية أن يكتبوا فى التاريخ الإسلامى ،
وعلى هذا جاءت كتاباتهم ضحلة قليلة الغور ، وقد كان المنشرقون أكثر
وعيا لهذه الحقيقة ، فلم يكتبوا فى التاريخ الإسلامى ، أو قل لم يتجهوا للتاريخ
إلا بعد أن اتجهوا بعبابهم انجما كاملا للدراسات الإسلامية فى أكثر شعبها ،
أو فى جميعها ، فحصلوا منها على قدر قليل أو كثير ، ونريد لهذا أن نقول
بصرامة : إن الذى يكتب فى التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية لابد له
من الإلمام بدراسة القرآن وقراءاته ، وأسباب نزوله ، وأخذ الأحكام منه ،
وبلاغته وصلته بالأحداث الإسلامية والعربية . وتفسيره ، وكذلك معرفة
الحديث والفقه وأصول الفقه والتوحيد وتاريخ التشريع الإسلامى وغيرها
من العلوم الإسلامية ، فذلك تعتبر أهم مصادر التاريخ الإسلامى والحضارة
الإسلامية ، وبدونها يقع الكاتب فى أخطاء قد يكون بعضها خطيرا .

(هـ) فقدان الروح الإسلامية فى كثير مما كتب حديثا :

قلنا آنفا إن المستشرقين أخذوا من الدراسات الإسلامية قدراً قليلا
أو كثيرا قبل أن يقدموا على كتابة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
وهذه ناحية تستحق الثناء فى ثقافة المستشرقين ، ولكن هناك ناحية أخرى
مؤسفة تتعلق بما كتبه المستشرقون عن الإسلام . تلك هى عدم الإنصاف
الذى ظهر فى أكثر ما كتبه هؤلاء ، صحيح إن فهم من هم منصفون أو أميل
إلى الإنصاف ، ولكن هؤلاء قليلون جدا إذا قيسوا بالجمهرة العظمى منهم ،
فأكثرهم كان نتاجهم يهاجم الإسلام والمسلمين قصدا : أولئك فهم لهذا الدين ،
وجميع الكتاب المسلمين يدركون ذلك ، استمع إلى الدكتور عبد الحلیم

النجار وهو يقدم الترجمة التي قام بها الكتاب (مذاهب التفسير الإسلامى) لجولد زيهر حيث يقول : « ويشتمل الكتاب على قابل من النزغات الدينية وهى نزغات لا يكاد يخلو منها كتاب من كتب المستشرقين ، لاسيما فيما يتصل من الدين بسبب أو نسب ، يملأها عليهم إلف لازم ، أو هوى متبع . أو قصد جائر » .

ويلاحظ أن هذا الانحراف ارتبط بجميع الدراسات الإسلامية ، كالعقيدة والتشريع وغيرها .

وهذه المسألة يترتب عليها مسألة أخرى أكثر خطورة ، ذلك أن هؤلاء المستشرقين سبقوا المسلمين فى دراساتهم ذات الطابع الحديث ، وكانوا أساندة لكثيرين من المسلمين الذين أوغلوا إلى أوروبا للتعلم فى الدراسات الإسلامية وطرق البحث فيها ، وقد تأثر بعض هؤلاء المسلمين بأساندتهم المستشرقين ، وعادوا فكتبوا ، ونقرأ ما كتبوه فتلمس أن كتاباتهم تبنى روح الإسلام فى كثير من الأحيان ، والذي سبب ذلك هو أن هؤلاء الموفدين لم يكونوا قبل إيفادهم على علم واسع بالدراسات الإسلامية .

وقد قلت آنفا إن كتابة هؤلاء المسلمين أكثر خطورة من كتابة المستشرقين أنفسهم . ومرجع ذلك أن القراء يقرءون للمستشرقين بحذر ، ولكنهم قد يستسلمون للكاتب المسلم ولا يحذرون منه .

وقد أشرت إلى هذه النقطة إشارة مجملة متعمداً عدم التفصيل لظروف آمل أن يدركها القارئ ، ولو أردت الإصهاب لعرضت اقتباسات هجبية دونتها أقلام مسلمين .

(و) أخطاء شاعت ينبغى تصحيحها :

هناك فى التاريخ الإسلامى موضوعات كتبت تحت تأثير معين فمؤدت صفحات بعض الأفراد أو الدول ، وتلقى الخلف عن السلف هذا الانحراف فأصبح الخطأ كأنه حقيقة مسلم بها ، ولما آلت الوصاية على التاريخ الإسلامى للمستشرقين فرحوا بما دونته الكتب الإسلامية عن هذه الموضوعات فأبرزوها وبالغوا فى إبرازها لتخدم هدفهم الرئيسى وهو النيل من الإسلام والمسلمين ،

وأنا هنا أعرض هذه الفكرة داعياً إلى إعادة النظر في هذه الموضوعات لنحق الحق ونبطل الباطل ، وفيما يلي بعض نماذج التحريف .

— لقد كتب تاريخ الدولة الأموية في عهد أعدائها العباسيين ، فهل نتوقع أن ينال الأمويون ما يستحقونه من إنصاف ؟ .

— وكتب تاريخ الأمين بن هارون الرشيد في عهد المأمون ، وجيوش المأمون هي التي قتلت الأمين ، وتأثر مدونو تاريخ الأمين بهذا الوضع وهم يكتبون تاريخه .

— وحدث خلاف واسع بين الحاكم بامر الله وبين أخته لأبيه ست الملك ومعها بعض الأخوان ، وقد انتصرت ست الملك في هذا الصراع ، وقتل الحاكم ، فأبرزته أخته مجنوناً ركب حماره واختفى ولم يعد ، فهل من العدل أن نقبل من الحاكم كل ما قيل عنه ؟ .

— وتاريخ عصر الماليك بمصر يلزم أن يكتب من جديد ، لقد سؤدوا صفحته ، وبعض صفحات هذا التاريخ ناصعة البياض .

— والخديوى إسماعيل سلطان مصر هزله الإنجليز وكتبوا تاريخه ، وذكروا أن عزله كان لإسرافه ولأنه متلاف ، والتاريخ المنصف يذكر أن عزله كان لأن أوروبا كانت تتجه لاحتلال إفريقية ، وكان الخديوى إسماعيل عقبة في طريق أوروبا لتوغله في إفريقية توغلاً ناجحاً ، ولنشره الإسلام والحضارة في كل الرُبُوع التي دخلها الجيش المصري حتى رحب أكثر الإفريقيين بالزحف المصري ، وقاوموا كل المحاولات لسحب هذا الجيش ، وأكبر أخطائه في نظر التاريخ هو أنه عين على الامتدادات المصرية بإفريقية حكاماً أوروبين ، فوضعوا الأساس للقضاء على الإمبراطورية المصرية .

— أسكيا محمد سلطان صني أخذ مكانه بعد سُني على الكبير ، فنقل السلطنة بذلك من أسرة إلى أسرة ، وقهر أولاد سني على ، وتأثر المؤرخون بذلك وهم يكتبون تاريخ سني على وتاريخ أسرته .

وهناك أحداث كثيرة جداً مماثلة في التاريخ ، ولا يمكن أن يُقبل كل ما كتب عن هذه الأحداث ، ويتعَمَّ أن نَعترف بأن هناك مظالم في تدوين التاريخ ينبغي أن نوقفها ، وأن نعيد كتابة التاريخ في ضوء النهج الحقيقي ، وفي ضوء الإنصاف والعدل .

ربما تسألني : كيف نستطيع أن نصصح تاريخنا وصل لنا مزيفاً ؟ .

والإجابة أن عناصر صدق تفرض نفسها دائماً ، وتأتي هذه العناصر في ثنايا الكلام ، وعلى المؤرخ أن يلتقط هذه العناصر ، ويجعلها أساس بحثه ، ففي إنصاف الدولة الأموية مثلاً ، لدينا الواقع الذي يصف الانتصارات الضخمة التي حققها الأمويون في مختلف الميادين العسكرية ، مما يجعل جزءاً كبيراً من العالم الإسلامي مديناً لجهود الأمويين ، ولدينا تعريب الدواوين الذي قام به عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، ولدينا صنوف التفكير الذي أنتجها العقل الأموي كالسكة وتنظيم الجيوش والبريد والإصلاحات الداخلية والعمرانية التي تنصب لمعاوية وعبد الملك والوليد ، ولدينا الإصلاحات التي ترتبط بعمر بن عبد العزيز ، وهكذا ، ولست أسترسل في بيان وسائل إصلاح الخطأ ، فالقارئ سيجد لها في أمكنتها مصححةً بهذه الموسوعة إن شاء الله .

علم التاريخ بين المسيحية والإسلام

عندما تنصر أول امبراطور روماني تمسطين (٢٠٦ - ٣٣٧ م) وانتصرت الكنيسة المسيحية على الوثنية الرومانية ، كان لهذا أثر عميق على العلوم بوجه عام ، وعلم التاريخ بوجه خاص ، فقد حاربت الكنيسة مختلف العلوم كما حاربت العلماء ، واحتكرت الكنيسة بعض المجالات الفكرية ، كدراسة التاريخ ، وقاومت بعضها كالطب والرياضة والفلك ، إذ ألقت الكنيسة كتبها في مغارات لا يطلع عليها أحد ، واستمرراً لهذه السياسة نجد للكنيسة تحكم بكفر من قال بدوران الأرض ، ولم يتخذ هذه الكتب من مخابئها ومدافنها إلا المسلمون كماوضحنا ذلك عند الحديث عن العصر العباسي الأول في الجزء الثالث من هذه الموسوعة .

وكان التاريخ - كما ذكرنا آنفاً - من العلوم التي احتكرتها الكنيسة ، فألقت السلطة عليه إلى أيدي القسس والرهبان ، وبقي في أيديهم زهاء ألف سنة ، وأصبح التاريخ خلال هذه الفترة خاضعاً للاهوت مسخراً له ، وفقاً لكل صفة علمية ، وأصبح لا يكثرث بما هو حق أو محتمل الوقوع ، وغدا مشحوناً بأخبار الخوارق والكرامات غير مكرث إلا بما له صلة بالدين ، وفقد حساسة النظر إلى الأشياء موضوعه في مواضعها ، وبجملة القول إن تحول التاريخ إلى رجال الدين كان معناه محو التاريخ الصحيح من الوجود محو دام ألف عام ، وعندما تصدعت الإمبراطورية وحلت الممجية محل النظام بها ، لم تبق إلا الكنائس موطناً لخيط رفيع من الفكر بما في ذلك التاريخ ، فضربت الكنيسة حول التاريخ نطاقاً جامداً من التوقيت الخرافي لم يستطع التاريخ حتى يومنا هذا أن يتحرر منه ، وجعلته ركائماً من الأساطير القائمة على التعجيز والهووى ^(١) .

وقد ظل هذا الاتجاه موجوداً في الكنيسة حتى عصرنا الحاضر ، فلا يزال رجال الكنيسة يُدخلون على التاريخ ما ليس منه ، ومن ذلك ما يقوله الأب بولس إلياس في مجال الفخر بعيسى ومعجزاته : « ومن مزية التي لا يفاضله فيها نبي ولا رسول أنه أفضى بالقدرة على إثبات المعجزات إلى تلاميذه ، ثم جدد منحها لهم بعد قيامه من الموت وصعوده إلى السماء ، وأورث كنيسته تلك القدرة أيضاً . »^(١)

ولا شك أن هذا بعيد كل البعد عن الحقيقة والتاريخ ، فلا عيسى أفضى بالقدرة إلى أحد ، ولا هو كان يستطيع ذلك ، ولا أحد من تلاميذه بأمره فعلاً هذه المعجزات . وليس ذلك إلا من بقايا الانحراف الكنسي في دراسة التاريخ ، ومثل ذلك أيضاً ادعاء الكنيسة القبطية بمصر أن السيدة العذراء ظهرت بها وشفّت المرضى ومنحت الإبصار للعميان . . .

والسيدة العذراء لم تكن تشفى المرضى وهي حية ، فكيف تستطيع ذلك بعد الممات ، وهي بالطبع لم تظهر بدليل أن الزوينة هُذأت ، وأمسك الذين قالوا بهذه الخرافات عن الاسترسال فيها .

وفي الفصل السادس من كتاب « قيمة التاريخ » الذي ألفه جوزيف هورس أورد المؤلف صوراً من تحريف التاريخ ، ومن الصكوك المزيفة التي قامت بها الكنيسة ، وقرر أن الوثائق المزيفة فاق عددها الحصر ، وأن المراسيم الكاذبة فاقت العد .

فإذا جئنا إلى التاريخ في ظل الإسلام وجدنا أن التاريخ كان امتداداً للحديث الشريف ، حتى إنه يقال إن التاريخ ابن الحديث ، وذلك لأن الحديث الشريف تكلم عن المغازي ، وبعد الرسول استمر التاريخ يصف الأحداث الحربية التي بدأت في حياة الرسول ، واتخذ التاريخ نفس النمط الذي كان متبعاً في رواية الأحاديث وهو الرواية الدقيقة ، على ما وضحه علم

(١) يسوع المسيح ص ٨٩

(م - هـ التاريخ ١)

مصطلح الحديث ، ويقول الأستاذ العبادي (١) :

إن المسلمين أول من ضبط الحوادث بالإستاد ، وأنهم مدوا حدود
البحث للتاريخي ونوعوا فيه ، وأنهم أول من كتب في فلسفة التاريخ ،
وأنهم سهرصوا على العمل جهده طاقاتهم بأول واجب المؤرخ ، وهو الصدق
والتزاهة في الحكم ، ونحن على هذا الدرب لا نزال نسير .

(١) هوفشر : علم التاريخ ص ٦٩ (إضافة المترجم الأستاذ العبادي)

سياسة التجميع والتنسيق

هناك اتجاه حرصت عليه في هذه الموسوعة ، ذلك هو أن أجمع في وحدة واحدة جميع المعلومات المتناثرة التي تكون فكرة تاريخية واحدة ، وهذا سيتضح وضوحاً دقيقاً في القضايا المهمة التي دونها عن حياة الرسول بالمدينة مثل حديثنا عن الرسول الداعية أو الرسول مربّي الدعاة والتوجيهات الطبية التي قدمها الرسول وهكذا ، ومثل التوسع في العهد الأموي فإني لا أدرسه متناثراً مع خلفاء العهد الأموي ، بل أجمعه في مكان واحد أتناول فيه أسباب هذا للتوسع ، وأسير مبيناً مدى نشاطه ، وأشرح توقفه ، وتدقيقه ثم أقرر نتائجي ، ومثل هذا يتبع مع نشاط الشيعة ونشاط الخوارج ، والحروب الصليبية ، والحركة الإصلاحية في نجد ، والحركة السنوسية ، وهكذا ، فإن هذا يحمي الفكرة من التمزق ، ويجعلها سهلة التناول ، وبخاصة أن هذه الأحداث كانت بعيدة الأثر في تاريخ المسلمين ، فمن حقها أن تستقل بدراسة ، ولا تكون تابعة لعدد من الخلفاء متناثرة مع تاريخهم ، ضائعة أو شبه ضائعة في خضم الأحداث .

وبهذه المناسبة نقرر أن الأحداث التي لا غناء لها لن تطول عندها وقفتنا ، فنصب أمير الأمراء مثلاً لا يستحق مناقشة تشرحه أو تدارسه ، فلم يكن هذا المنصب إلا نوعاً من القرصنة لا يستحق إلا الإيجاز دون ذكر تفاصيل الخلافات بين أولئك الذين سعوا ليشغلوه ، إذ من الواضح أنه لم يكن هؤلاء أثر يذكر في توجيه الحياة الإسلامية ، ولم يكن صراعهم إلا صراعاً فردياً لا قيمة له .

وهناك دول لم يكن لها في التاريخ دور كبير ، وهذه سنمر عليها مروراً سريعاً ، فنذكر كيف نشأت ، وكيف سارت ، ثم انهارت ، ونعدد ملوكها ثم تتجاوزها إلى سواها

ونحن نطمح مستعنين بالله العلي العظيم أن يوفقنا في السير في هذا العمل الكبير ، وفي تحقيق الأمل الذي يعدّ عون الله أساس الوفاء به .

كلية عن المراجع والمكتبة التاريخية

فما يتعلق بالمراجع سأتبع القانون العام الذى وضحته فى كتابي « كيف تكتب بحثاً أو رسالة » وخلاصة هذا القانون أن تذكر المراجع بدقة فى الأحداث المهمة، والأفكار المقتبسة، للتثبت من أحداث التاريخ، ولنعطى كل ذى حق حقه، ولنمهد الطريق للراغب فى الاستزادة، على أن هذه الموسوعة ليست مراداً لأحداث التاريخ فقط، وليست جمعاً لمبارات الآخرين، وإنما هى جزء من مؤلفها، فكثير من أحداث التاريخ أصبح من الشجرة بحيث لا نريد مصدراً نرجعه إليه بقدر حاجتنا إلى التفكير فى ذلك الحدث ودواعيه ونتائجه تفكيراً يجعل مصدره الكاتب نفسه. وقد كتب الأستاذ الدكتور طه حسين كتابه « الفتنة الكبرى » بجزأيه : « عثمان » و « على وبنوه » وفى هذا الكتاب كثير من الحقائق التاريخية، ولكن أهم ما فيه هو تفكير مؤلفه وفهمه للأحداث، ولهذا لم تكثر فيه المراجع المباشرة، وإن كانت مراجعه غير المباشرة كثيرة.

وقد دعانى إلى ذكر ذلك ما لاحظته من اتجاه بعض المؤلفين إلى الإكثار من ذكر المراجع بحيث تجد فى السطر الواحد ثلاثة مراجع أو أربعة أحياناً، وبحيث يشار فى صفحة واحدة عشر مرات إلى مرجع واحد لم يتغير، أو قل إلى صفحة واحدة من ذلك المرجع الواحد، ولست أنقد هؤلاء المؤلفين، ولكنى أقول إن هذه لن تكون طريقتى لأننى سأتدخل فى دراسة الأحداث بأفكارى، ولن أدع القارئ طويلاً دون أن يجدنى محاولاً أن أبحث أكثر مما أحاول أن أجمع.

والمصادر التى أمدت هذه الموسوعة بما بها من مادة، كثيرة ومتلونة، وهى طبعاً تختلف باختلاف الزمان واختلاف المكان، وتختلف فى دراسة الحضارة عنها فى دراسة التاريخ.

وقبل أن نذكر المصادر الرئيسية التي اعتمدنا عليها نقرر أن الآثار والنقوش والعملة تعتبر عادة من أهم المصادر التي تساعد على دراسة التاريخ، وقد كانت الآثار الفرعونية أهم المصادر التي حفظت لنا تاريخ الفراعنة وحضارتهم ، ولكن - للأسف - يعتبر تاريخ العرب قبل الإسلام والتاريخ الإسلامى فى مرحلته الأولى (عصر صدر الإسلام) قليل البضاعة من هذه المصادر لعدة اعتبارات أهمها :

١ - البداوة التي كانت طابع العرب والتي لم تحفزهم على النقش ، إذ كانوا فى الغالب رحلا ، والنقوش والآثار تحتاج إلى استقرار وإقامة :

٢ - كثرة الحروب بين قبائل العرب قبل الإسلام وكثرة الحروب بعد الإسلام ، كأيام العرب فى الجاهلية ، والغزوات وحروب الردة وغيرها بعد الإسلام ، وهذه وتلك أفنت ما قد يكون ظهر من هذه النقوش أو تلك الآثار .

٣ - كان المسلمون الأول قريبي صلة بعبادة الأوثان ، ولذلك لم يهتموا بالآثار والأحجار خوفاً من أن تصبح فى يوم مقدسة عند ضعاف القلوب .

٤ - وجد المسلمون القرآن مصنف لا يعدله مصدر ؛ ويجيء بعده الحديث والرواية ، فلم يهتموا بتسجيل أحداثهم عن طريق النقوش والآثار .

وعلى هذا لم يبق لنا إلا بعض النقوش والآثار والعملة وبخاصة فى الأماكن المتحضرة كاليمن والأنباط وتدمر ، وتمدنا هذه المصادر ببعض المعلومات المفيدة نستمد منها مما كتبه الرحالة والعلماء الذين زاروا هذه الآثار ووصفوها أو نستمد منها من ملاحظاتى التى دوّنتها عند زيارتى لبعض هذه الأماكن .

ونعود بعد ذلك إلى المصادر الرئيسية للتاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، فنقرر أن في قمتها للقرآن الكريم ذلك الكتاب المقدس الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى لم تعبت به السنون ولم يلحقه تحريف ولا تشكيك، فإذا حدثنا القرآن الكريم حديثاً واضحاً عن بعض الأحداث التاريخية فإننا لا نحتاج معه إلى مصدر آخر ، وأى مصدر يبلغ في الدقة والعمق مبلغ القرآن ؟ .

فالقُرآن مثلاً يحدثنا عن اجتماع قريش قبيل الهجرة حيث تناقش المهتمون ليجعلوا طريقاً يسلكونه ضد محمد ، قال تعالى « وإذ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » (١) . فهذا المصدر هو أدق مصدر يحكى هذه المؤامرة وما جرى فيها .

والقرآن يصور لنا حال المسلمين في غزوة الخندق أدق تصوير بقوله . « إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ » (٢) وهو بهذا يفتننا عن أى مرجع آخر . والقرآن يعطينا معلومات ضافية عن غزوة بدر في سورة الأنفال ، وعن غزوة أحد في سورة آل عمران ، وعن غزوة الأحزاب في السورة المسماة باسمها ، وعن صلح الحديبية في سورة الفتح ، وعن غزوة تبوك في سورة التوبة ، وهكذا .

ويجىء بعد القرآن حديث الرسول ، وقد كانت أحاديث الرسول أهم مرجع اعتمدنا عليه ونحن ندرس حياة الرسول بالمدينة ، والمصدران بالغا الأهمية بشكل أنخص في دراسة الحضارة الإسلامية . فإن هذه الدراسة اتخذت أسسها منهما .

(١) سورة الأنفال : الآية ٣٠ .

(٢) سورة الأحزاب : الآية العاشرة .

وبعد القرآن والحديث تجيء الوثائق ، والوثائق بالغة الأهمية في دراسة التاريخ الإسلامى ، ولكن للأسف فقدت أغلب الوثائق في الحروب الداخلية التي كثيراً ما التهمت نيرانها هذا المصدر الهام من مصادر التاريخ ، ومنع هذا فلا تزال لدينا مجموعة ذات بال ، وقد جمع السيد حميد الله الحيدر آبادى في كتاب خاص « مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة » كما جمع الأستاذ أحمد زكى صفوت أكبر مجموعة من هذا النوع في كتابين هما « جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة وهو في أربعة أجزاء كبيرة ، وجمهرة خطب العرب وهو في أربعة أجزاء أيضاً .

وبعد الوثائق تجيء كتب المؤرخين ، والحديث عن كتب المؤرخين يقتضي أن نتحدث قليلاً عن رأى المسلمين الأول في التدوين (١) .

أول كتاب دونه المسلمون هو كتاب الله ، ويروى المؤرخون أن المسلمين ترددوا طويلاً قبل أن يقدموا على تدوين القرآن ، وربما جاز لنا أن نعود قليلاً إلى الوراء لنذكر أن الرسول كان بعد أن يتلقى الوحي يلقى ما تلقاه على كتاب الوحي ، وكان هؤلاء يكتبون ما يسمعون من الرسول على عسيب النخل أو الجلد أو العظام أو الحجارة الرقيقة ، ولكن جل الاعتماد على صيانة القرآن كان على الحفظ ، فقد كانت ذاكرة العرب قوية وحافظتهم مشهوداً بها . بيد أن كثيرين من الحفاظ ماتوا في حروب الردة وحروب المتنبيين ، فأشار عمر على أبي بكر أن يجمع القرآن ويدونه ، وقد تردد أبو بكر حيناً ثم وافق عمر ، وانتدبا لذلك زيد بن ثابت ، ولكنه تردد أيضاً حيناً ثم وافق (٢) .

(١) انظر كتاب تقييد العلم للخطيب البندادى .

(٢) اقرأ كتاب تاريخ التشريع الإسلامى وتاريخ النظم القضائية في الإسلام للمؤلف

فإذا جئنا إلى تدوين الحديث وجدنا التردد أكثر ، فقد كان القرآن يلمن عتب نزوله كما قلنا ، ولكن الحديث لم يكن يلمن خوفاً من أن يختلط بالقرآن ، وبعد وفاة الرسول وظهور الأحاديث الموضوعة أمر أبو بكر الناس ألا يحدثوا عن الرسول ، وسار عمر على هذا النهج بل بالغ فيه فحبس ابن مسعود وأبا الدرداء وأبا مسعود الأنصاري لأنهم أكثروا التحديث عن الرسول ، ولهذا لم ينشط تدوين الأحاديث إلا في منتصف القرن الثاني الهجري حيث شغل به يالك بالمدينة ، وابن جريج بمكة ، وسفيان الثوري بالكوفة وحامد بالبصرة ... (١) .

وإذا كان المسلمون ترددوا على هذا النمط في تدوين الحديث فإن ترددهم في تدوين سواه من العلوم كان أكثر ، ومن هنا وجب علينا الحذر في تلقي الأخبار التي دونها المؤرخون ، فإن الأحداث الأولى لم تصل للمؤرخين مدونة وإنما وصلتهم من الرواة ، وعلى هذا يصادف المؤرخ أحياناً بعض التناقض ، وإن كان ليس من العسير على المؤرخ المدرب أن يصل إلى الحقيقة سحياً أو تقريباً من بين طيات ذلك التناقض .

ومن الكتب الهامة التي ستمدنا بمادة غريزة كتب التراجم وعلى رأسها سيرة سيدنا رسول الله : سيرة ابن هشام (٢١٣ هـ) . وقد برع المسلمون في موضوع التراجم براعة لم تصل إليها أية أمة ؛ واتجهوا بها اتجاهات تخصص دقيق ، فجعلوا بعضها للأعيان مثل « وفيات الأعيان » لابن خلكان (٦٨١ هـ) وتكملته « فوات الوفيات » لابن شاکر الكتبي (٧٦٤ هـ) والوفاء بالوفيات للصفدي (٨٦٤ هـ) وجعلوا بعضها للأدباء كمعجم الأدباء لياقوت (٦٢٦ هـ) وبعضها للفقهاء كطبقات الشافعية للسبكي (٧٧١ هـ) وبعضها للأطباء كتراجم الحكماء لابن القفطي (٦٤٦ هـ) .

ومن الكتب الهامة كذلك كتب الحوليات وفي قمتها تاريخ الطبرى (٨٣١٠) والكامل في التاريخ لابن الأثير (٦٣٠ هـ) .

ومن الكتب الهامة أيضا كتب التاريخ العام التي ليست من الحوليات ومن أهمها تاريخ يعقوبى الذى دون التاريخ الإسلامى حتى سنة ٢٥٦ هـ وكذلك العبر لابن خلدون (٨٠٨ هـ)

وكتب المغازى والفتوح وأهمها فتوح الشام للواقدى (٢٠٧ هـ) وفتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم (٢٥٧ هـ) وفتوح البلدان للبلاذرى (٢٢٩ هـ) .

وكتب الجغرافية وأهمها مروج الذهب للمسعودى (٢٤٥ هـ) وكتاب صورة الأرض لابن حوقل (٢٦٧ هـ) ومعجم البلدان لياقوت (٦٢٦ هـ) .

وهذه المراجع — كما هو واضح — عامة تمدنا بمادة هامة عن القرون الأولى للتاريخ الإسلامى فى مختلف بقلعه ، ولكننا نحتاج بعد ذلك إلى الكتب التى اتجهت لدراسة كل قطر على حدة عندما انفرط عقد العالم الإسلامى .

فاذا وصلنا إلى العصر الحديث لعبت الوثائق والمراجع الحديثة وتصريحات صانعى التاريخ ، وشهود العيان ، أكبر دور فى إمدادنا بالمعلومات اللازمة وهو ما اتضح فى الجزء الرابع وماتلاه من أجزاء .

فاذا جئنا للحضارة الإسلامية وجدنا لونا من الصعوبة ، فإن المؤرخين والكتّاب الأول لم يفرّدوا كتباً وبحوثاً خاصة لإعطاء دراسة كافية للحضارة الإسلامية ، ولذلك كان علينا أن نصبر وأن نثابر حتى نجد الحضارة الإسلامية متناثرة فيما كتبه ، وعلى كل حال فبين ما كتبه الأولون كتب تميل إلى جانب الدراسات الحضارية أكثر من ميلها إلى الدراسات التاريخية ، ونستطيع - مع الصبر - أن

نمىخ الماده من هذه الكتب ونرتبها ، فنخرج لنا فكهرة عن حضارة الإسلام
كاملة أوقرية من الكال ، ومن هذه الكتب ما بلى .

- أبو يوسف (١٩٢ هـ) فى كتابه الخراج .
الكلى (٢٠٤ هـ) فى كتابه الأصنام .
الجاحظ (٢٥٥ هـ) فى كتبه : الحىوان - البىان والتبىين - التاج
فى أخلاق الملوك .
ابن قتية (٢٧٦ هـ) فى كتبه . المعارف - الإمامة والسیاسة -
هیون الأخبار .
ابن عبد ربه (٢٣٨ هـ) فى كتابه العقد الفرید .
الجهشيارى (٣٣١ هـ) فى كتابه الوزراء والكتاب .
قدامة بن جعفر (٣٣٧ هـ) فى كتابه الخراج .
الأصفهانى (٣٥٦ هـ) فى كتابه الأغانى .
الماوردى (٤٥٠ هـ) فى كتابه الاحكام السلطانية .
ابن حزم (٤٥٦ هـ) فى كتابه الفصل فى الملل والاهواء والنحل ، والمخلى .
الغزالى (٥٠٥ هـ) فى كتبه . الإحیاء - إلبام العوام - الرسائل .
الشهرستانى (٥٤٨ هـ) فى كتابه الملل والنحل .
ابن الجوزى (٥٩٧ هـ) فى كتابه . مناقب عمر بن الخطاب - مناقب
عمر بن عبد العزیز
ابن الطقطقى (٧٠٩ هـ) فى كتابه الفعخرى فى الآداب السلطانية .
ابن خلدون (٨٠٨ هـ) فى المقدمة .
القلقشندى (٨٢١ هـ) فى كتابه صبح الأعشى .
ابن حجر (٨٥٣ هـ) فى كتابه رفع الإصر عن قضاة مصر .

السيوطي (٩١١ هـ) في كتبه • الاتقان في علوم القرآن - نزهة
الجلساء - تاريخ الخلفاء •

- ويجىء بعد ذلك مجموعة كبيرة من كتب المحدثين ، وذلك مثل مؤلفات
محمد عبده الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية .
أحمد أمين : فجر الإسلام - صفى الإسلام - ظهر الإسلام -
يوم الإسلام •
هباس العقاد : العبقريات - الديمقراطية في الإسلام - حقائق الإسلام
وأباطيل خصومه
طه حسين : على هامش السيرة - الفتنة الكبرى : عثمان - علي وبنوه
محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية •
محمد الخضرى : أصول الفقه - تاريخ التشريع الإسلامى - محاضرات
في التاريخ الإسلامى •
محمد حسين هيكل : حياة محمد - الصديق أبوبكر - الفاروق عمر
جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى .
فريد رفاعى : عصر المأمون .
على عبد الرازق : الإسلام وأصول الحكم .
حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام .
عبد المنعم مازد . التاريخ السياسى للدولة العربية (حتى سقوط الدولة الأموية)
أحمد شلبى : « موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية »
في عشرة أجزاء .
« موسوعة النظم والحضارة الإسلامية » في عشرة أجزاء .
سلسلة « مقارنة الأديان » في أربعة أجزاء .
ومجموعات كثيرة أخرى من الكتب غير هذه .

وقد أدت كتب المستشرقين دوراً كبيراً في هذه الدراسة التاريخية والحضارية ، ومن أهم الكتب التي قدمت فائدة تذكر كتب :

Stanley Lane Poole :]

History of Egypt in the Middle Ages

The Moors in Spain

Muhammadan Dynasties

ومن كتب المستشرقين أيضاً ذات الفائدة :

Nicholson : A Literary History of the Arabs .

Browne ; A Literary History of persia

Gibb : Muhammadanism

Thomas Arnold ; The Caliphate

The Breaching of Islam

Margolioth ; Muhammed and the Rise of Islam

H . Wells : A Short History of the world

G Kirk ; A Short History of the Middle East

ومن الكتب ذات الفائدة العظيمة التي كتبها شرفيون مسلمون أو غير مسلمين بغير اللغة العربية .

Sayid Ameer Ali : A Short History os the Saracens

: The spirit of Islam

Rhuda Bakhsh : Islamic Civilization

ph . Hitti ; The History of the Arabs ‘

وقد قدمت دوائر المعارف العربية والأوربية مادة وفيرة ومساعدات
جمة لهذه الموسوعة سنجلدها متناثرة في أجزائها .

وفي هذا الجزء (الجزء الأول) تحدثت عن العرب قبل الإسلام ، وعن
سيرة الرسول ، وعن الخلفاء الراشدين ، وأريد هنا أن أثبت حقيقة بالغة
الأهمية ، وهي أنني حينما كنت أكتب سيره سيدنا رسول الله صلوات الله عليه
كنت أجهد الفكرة مبسرة ، والأسلوب موالياً وكنت أنعم بلذة لا تعدلها
لذة ، وسرور لا يدانيه سرور ، وكنت أحس بدافع قوى يدفعني لمواصلة
العمل ، وكنت أدخل حجرة مكتبي وكأني مقبل على شيء
بهيج ، فإذا جلست لمكتبي وتفرغت للعمل غمرتني سعادة ليس لي عهد
بمثلها ، ولم أدرك مبعث هذا الإحساس حتى انتهيت من كتابة سيرة
الرسول وبدأت فيها تلاها من أبحاث ، فرأيتني أعود إلى طبيعتي أحب
العمل حيناً وأنفر منه حيناً ، فأدركت أن صحبة الرسول كانت هي مبعث
اللذة ، وكانت مصدر الغبطة ، وجدير بهذه الصحبة الكريمة أن
تكون كذلك .

وبعد ، إنني أدرك أن الغاية التي أسعى لها شاقة ، ولكنني أرجو من
الله العون ، وأسأله أن ينفع بهذا العمل كاتبه وقارائه إنه سميع مجيب .

تَارِيخُ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ

مقدمة :

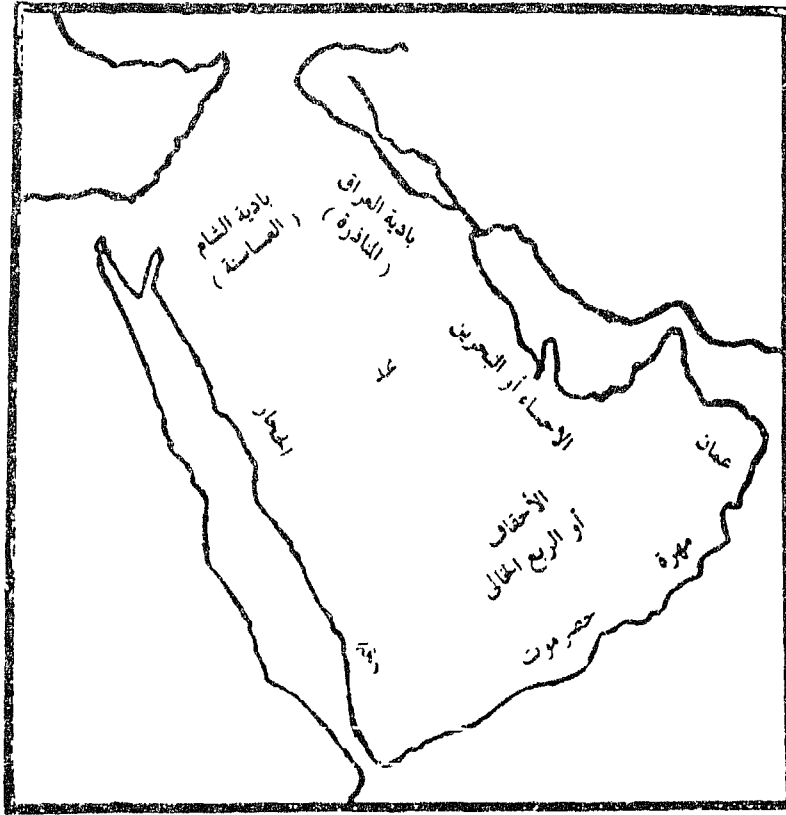
لا بد من معرفة فكرة عن العرب قبل الإسلام ، ذلك لأن العرب هم الجنس الأول الذى تلقى الإسلام ، وحمل ألويته ودعوته ، فجدير بنا أن نتعرف عليهم ، ثم إن العرب كانت لهم قبل الإسلام دياناتهم وعاداتهم وأخلاقهم ونظم حياتهم ، وجاء دين الإسلام وله نظمه وأخلاقه . فالدين الجديد نزل على قوم ليسوا جددًا ، فالتقى الدين الإسلامى بأديان الجاهلية ، والتقى نظم الإسلام بنظم العرب قبله ، وحدث صراع طويل لا يمكن أن نحيط به إلا إذا عرفنا شيئاً عن حياة العرب قبل الإسلام ، ومثل ذلك يجب أن يتبع إذا تحدثنا عن دخول الإسلام مصر أو الشام أو إندونيسيا ... فلا بد أن نعرف شيئاً عن هذه البلاد قبل الإسلام ، فذلك الذى سنعرفه سيوضح لنا أسباب الطريقة التى استقبل بها الإسلام فى أى من هذه البلاد .

وسنذكر فيما بعد أن سكان الجزيرة العربية قسمان : بدو وحضر ، وإذا كنا نعرف شيئاً كافياً عن تاريخ الحضرة فى الجنوب والشمال والحجاز ، فإن تاريخ البادية والبدو يكاد يكون مجهولاً ، وأقدم ما نعرفه عنهم هو ما امتد قبل الإسلام بحوالى ١٥٠ سنة فقط . وسبب ذلك أنهم كانوا قبائل متعادلة متحاربة ، وكانت الحرب عندهم فى الأصل ضرورية للمحافظة على الحياة ، فالقوى هو الذى يستطيع أن يمتلك منازل الماء ومراعى السائمة ، أما الضعيف فليس له سبيل للحياة الكريمة . واشتغال البدو بالحروب استنفد جهدهم فلم يتجهوا للحضارة ، فإذا حدث أن اتجه بعضهم للحضارة أفنى أعداؤه حضارته التى بناها ومجده الذى شيده ، ثم إنهم كانوا يجهلون الكتابة فلم يدونوا لنا تاريخهم وحياتهم ، وعلى هذا لم نعلم لهم آثار أو أبنية تحدثنا عن تاريخهم ، ولم توجد كتابة تعلمنا ذلك التاريخ ، ولم يصل لنا عن الأقدمين إلا ما أوردته الكتب المقدسة ، أما المائة والخمسون سنة التى (م - ٦ الماربع)

سبق الإسلام فقد جاءتنا المعلومات عنها مما أثبتته الشعر أو تحدثت به الرواة .

وسنورد فيما يلي مباحث كافية تجلّى لنا إلى حد كبير حياة العرب قبل الإسلام ، وسنلم في دراستنا بالموضوعات الآتية :

- تعريف هام بالمنطقة وبالسكان .
 - التاريخ السياسى للعرب قبل الإسلام .
 - الانجازات الاقتصادية لدى المجتمع العربى قبل الإسلام .
 - الحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية قبل الإسلام .
-



خريطة الجزيرة العربية والحجاز بوجه خاص

تعريف عام بالمنطقة وسكانها

في هذا التعريف ندرس الموضوعات التالية :

— جغرافية جزيرة العرب .

— الجنس العربي .

— لغة الشمال ولغة الجنوب .

وهذه الموضوعات ستساعدنا على التعرف على المنطقة ، وعلى سكانها
فلنأخذ في ذلك :

جغرافية جزيرة العرب :

يطلق العرب على بلادهم « جزيرة » مع أن الماء يحيط بها من الشرق والغرب والجنوب فقط ، أما في الشمال فتوجد « بادية الشام » ولذلك كان إطلاق كلمة الجزيرة على بلاد العرب هو من باب التجوز ، أو لأن العرب في رحلاتهم التجارية بين الشمال والجنوب وبين الشرق والغرب كانوا يسIRON مع شواطئ البحار ، فظنوا أو فاعتبروا أرضهم محاطة بالبحار من جميع النواحي ، فأطلقوا عليها كلمة « جزيرة » ، وكثير من المؤلفين المعاصرين يقولون « شبه الجزيرة » وضعاً للأمر في نصابها .

والذي ينظر إلى « الخريطة رقم ١ » يجد الجزيرة العربية على شكل مستطيل غير متوازى الأضلاع مع انبعاج في قاعدة المستطيل الجنوبية ، وحدود الجزيرة هي بحر القلزم (البحر الأحمر) من الغرب ، والمحيط الهندي من الجنوب وخليج عمان والخليج العربي من الشرق ، أما في الشمال فتقع بادية الشام ولا تصل الجزيرة العربية إلى البحر الأبيض المتوسط إلا تجوزاً كما سبق القول وطول الجزيرة العربية يزيد عن ألف كيلو متر وعرضها يبلغ نحو ألف من الكيلو مترات .

وهذه المساحة الشاسعة يمكن أن نقسمها قسمين هما .

١ - قلب الجزيرة ،

٢ - دائرها .

ويختلف كل من هذين القسمين عن الآخر من الناحية الجغرافية اختلافاً كبيراً ، فقلب الجزيرة يشكون من ملال من الجبال المرتفعة ، بينما بعض الوديان ، ولا تسقط عليه الأمطار إلا قليلاً ، ومن ثمّ كان قليل السكان ، وكان سكانه رحلاً يبحثون على مساقط الأمطار أو منابع الماء ، ويبقون حولها يرعون العشب ويشربون الماء حتى ينفد العشب ويجف الماء ، وحينئذ يبحثون عن مكان آخر وهكذا ، وطبيعى أن قوماً كهؤلاء ، لم تكن لهم مساكن بأوون إليها ، وإنما كانوا يستعملون الخيام ، وكان الحمل عونهم الكبير في تنقلاتهم ولذلك يسمى « سفينة الصحراء » ، أما الغنم فهي مادة حياتهم يشربون لبنها ويأكلون لحمها ويستعملون جلودها ملابس في البرد ، ويصنعون من أصوافها خيامهم وملابسهم ، ويسمى هؤلاء القوم « البدو » كما يسمى قلب الجزيرة العربية « البادية » ، ولم تهيء حياة البادية للبدو أن يعملوا في الزراعة أو الصناعة ، فهاتان من حرف الاستقرار الذى لم ينعم به سكان البادية .

وبالإضافة إلى سلاسل الجبال الهائلة المنتشرة في الجزيرة العربية ، توجد منطقتان مهمتان إحداهما في الشمال ويطلق عليها (نجد) والأخرى في الجنوب ويطلق عليها « الأحقاف » أو « الربع الخالى » ، ومع قلة السكان في نجد فإنهم أكثر نسبياً من سكان الأحقاف ، ولذلك يطلق على الأحقاف « الربع الخالى » لخلوه تقريباً من السكان ، وتختلف طبيعة الأرض في نجد عنها في الأحقاف ، ففي الأحقاف رمال تغوص تحت أقدام السائرين وتبتاع مياه الأمطار إن نزلت عليها ، ولهذا كان هذا القسم قليل السكان ، أما نجد

فأرض صحيرية، ومن عوامل النحات والتعرية تكونت في بعض الأنحاء بنجد طبقة زراعية من قشور الصخر الظاهرية، وبقيت الأرض صخرية في الداخل فلا تبتلع المياه التي تهبط عليها، ومن ثم كانت نجد أكثر قبولا للزراعة، وبالتالي أكثر عمراناً من الأحقاف.

أما دائرة الجزيرة العربية فهو عبارة عن شريط ضيق في الغالب يمتد مع الشواطئ المحيطة بالجزيرة العربية. وينفسح هذا الشريط قليلاً عند التقاء البحر الأحمر بالمحيط الهندي فتتكون اليمن، ودائرة الجزيرة العربية يختلف عن قلبها اختلافاً ظاهراً، فالأمطار تسقط على دائرة الجزيرة بشكل منتظم تقريباً ضمن للناس نوعاً من الزراعة ومن ثم نوعاً من الاستقرار، فقامت ممالك ومدن وقرى على الشاطئ وهي كما يتضح من الخريطة السابقة: الأحساء أو البحرين - عمان - مهرة - حضرموت (من مهرة وحضرموت تتكون الآن جمهورية اليمن الشعبية) - اليمن - (تطلق اليمن أحياناً على الساحل الجنوبي كله)، وأهم هذه المناطق، من ناحية الدراسة التاريخية المتصلة بهذه الفترة اليمن والحجاز، وستوليها العناية الكافية بهذا الجزء، على أن مناطق الجزيرة العربية كلها قد خصص لها الجزء السابع من هذه الموسوعة ليشمل تاريخها من مطلع الإسلام حتى العصر الحاضر.

وفي شمال الجزيرة العربية تكونت مملكتان هما الحيرة وغانم، وكانت هاتان المملكتان حداً فاصلاً بين الجزيرة العربية وبين دولتي الفرس والروم وقد تأثرت حياة المملكتين العربيتين بالفرس والروم لعمق الصلة بين الحيرة وبين الفرس. وعمقتها كذلك بين الغساسنة وبين الروم كما سيأتي، وهناك قبل الغساسنة قامت مملكتان ببادية الشام هما مملكة الأنباط وعاصمتها البتراء، ومملكة تدمر وعاصمتها تدمر، وعلاقة هاتين المملكتين بالدراسات الإسلامية أقل بكثير من علاقة الغساسنة والمناذرة بطبيعة الحال، لأن مملكة الغساسنة والمناذرة استمر حتى ظهور الإسلام، بخلاف مملكتي الأنباط وتدمر،

ولكننا مع هذا لن نهمل هاتين المملكتين عند ذكر التفاصيل عن ممالك شمال الجزيرة العربية .

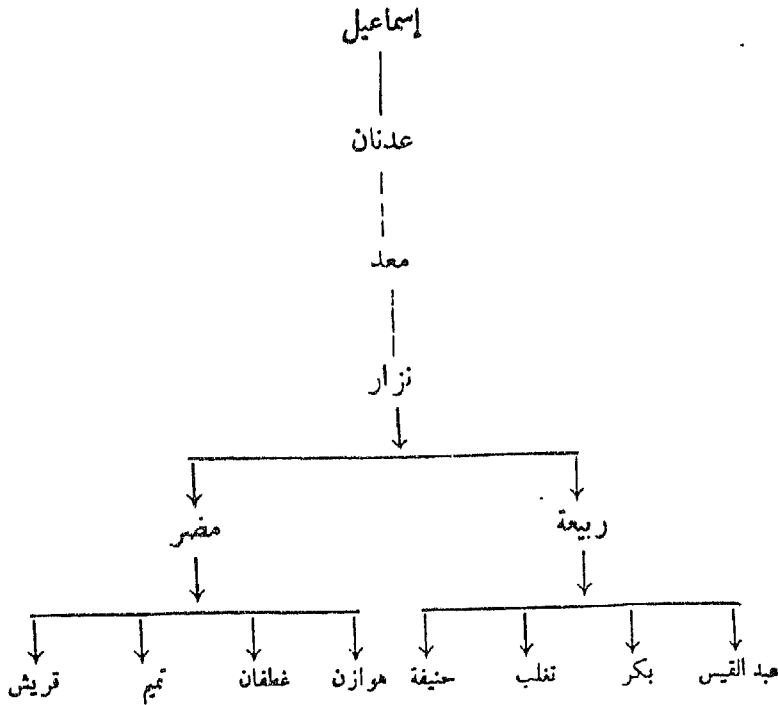
الجنس العربي :

الجنس العربي هو أحد الأجناس السامية ولعله أكثرها محافظة على خصائص الساميين ، واللغة العربية هي إحدى اللغات السامية ولكنها أيضاً أكثرها محافظة على خصائص اللسان السامي^(١)، وترجع هذه المحافظة إلى طبيعة الحياة في الجزيرة العربية . فلقد حرصت هذه الحياة الجنس العربي واللغة العربية من الملجأت التي تعرض لها غير العرب من الساميين وغير اللغة للعربية من فروع اللسان السامي .

وقد جرى المؤرخون على وضع حد فاصل بين قسمين من العرب هما : العرب البائدة والعرب الباقية ، وكلام المؤرخين يوحى بأنه لا توجد علاقة بين الاثنين ، وكلمة البائدة تفيد الاندثار والفناء ، وفي هذا القسم توضع عاد وثمود وطسم وجديس ، ويرى هؤلاء المؤرخون أن الكتب المقدسة هي التي روت لنا شيئاً من أخبار بعض هذه الجماعات ، وأن ذكرها ورد أحياناً في بعض المراجع القديمة .

أما العرب الباقية فهم الذين لا يزالون حتى اليوم ، ويبدو لي أن وضع حد فاصل بين القسمين غير مفهوم ، وأن ارتباطاً ما ينبغي أن يلاحظ بين السابقين واللاحقين ، والعرب الباقية تنقسم بالتالي قسمين : قحطانية وعدنانية ، والقحطانيون موطنهم الأصلي جنوب الجزيرة ، ومنهم ملوك اليمن وقبائل سبأ وحير ، وقد خرجت منهم جماعات وقبائل في ظروف متعددة ونزلت بأجزاء مختلفة من الجزيرة العربية ، ومن هؤلاء اللخميون الذين نزلوا الحيرة

وكونوا ملوكا بها ، ومنهم كذلك أولاد جفنة ملوك النساسنة ، ومنهم ملوك
كندة ، كما أن منهم الأزدي الذين تفرع منهم الأوس والخزرج ، أما العدنانية
فيسمون العرب المستعربة أي الذين دخل عليهم دم ليس عربيا ثم تم اندماج
بين هذا الدم الدخيل وبين العرب ، وأصبحت اللغة العربية لسان المزيج
الجديد ، وهؤلاء هم عرب الحجاز وموطنهم الأصلي مكة المكرمة والدم الجديد
الذي نزل بهم هو إسماعيل الذي جيء به إلى مكة وهو صغير ، ونشأ بين
سكانها من قبيلة جرهم كما سيأتي ، ثم صاهر العرب وعاش أولاده بينهم بعد أن
استعربوا . ومن أهم أولاد إسماعيل عدنان الذي تنسب له هذه الطائفة ،
ويجيء بعد عدنان ابنه معد ثم نزار بن معد ، ونزار هذا فرعان هامان يتبعان
ولديه : ربيعة ومضر ، ومن أشهر قبائل ربيعة عبد القيس وبكر وتغلب
وحنيفة ، ومن أشهر قبائل مضر هوازن وغطفان ونميم وقريش .



ولم تتسع مكة لعرب الشمال فبدأوا يهاجرون للبحث عن مساقط الماء ومنابع العشب ، فنزل عبد القيس البحرين ، ونزل بنو حنيفة اليمامة ، ونزل بنو هوازن بنواحي أو طاس شرق مكة .

وكان لعرب الجنوب مدنية أعمق ومعرفة بشئون السياسة أكثر من عرب الشمال ، ولذلك لما هاجر عرب الجنوب للشمال أقاموا لهم مدنات وممالك في الشمال ، ومنهم يتكون حضرة الجزيرة في الغالب ، أما عرب الشمال فلم يظهر لهم مجد ذو بال إلا في ظل الإسلام ، وكانوا يكتفون بدو الجزيرة . وسنرى أن الإسلام قد نادى بزوال الفوارق ، وعمل محمد ﷺ وعمل خلفاؤه من بعده على تكوين أمة إسلامية لا عصبية فيها ، ولكن الخلاف بين عرب الجنوب وعرب الشمال لم يتوقف ، وكان يبدو قوياً مدمراً من حين إلى آخر ، وبخاصة عندما يكون الخليفة ضعيفاً أو عندما ينسى المثل الإسلامية وينتصر لهؤلاء أو أولئك .

لغة الشمال ولغة الجنوب :

ستد لنا الأبحاث التالية على أن اليمن كانت سيدة الحضارة في الجزيرة العربية ، وكانت في يدها تجارة الشرق كله ، وكانت لها مستعمرات على طول الطريق من اليمن إلى الشام بالإضافة إلى خطوطها البحرية ، وهذه المستعمرات لم تدع حاجة لاستخدام البدو الذين يسكنون شمال الجزيرة ، وعلى هذا قل الاختلاط بين عرب الجنوب وعرب الشمال ، ثم إن اليمن جذبت لها طوائف من المهاجرين بسبب صلاتها التجارية ، وأهم هؤلاء مهاجرو إفريقية والحبشة عبر باب المندب ، ولهذا الأسباب وجدت في الجنوب لغة غير لغة الشمال ويبدو أن لغة الجنوب كانت أقوى حضارة بسبب رقي المتكلمين بها وسمو آدابهم ، ولكن دخلتها ألفاظ أجنبية كثيرة بسبب كثرة المتكلمين بها من غير العرب ، فأصبحت في الموضوع ضعيفة الأسلوب ، ولغة الجنوب هذه لها صلة وثيقة بلغة الحبشة ، إحدى اللغات السامية ، وتسمى اللغة الحميرية نسبة إلى حمير ، وبهذه اللغة نقشت بعض أخبار الحميريين التي لا تزال موجودة

أما لغة الشمال فهي لغة قريش ، وتختلف عن لغة الجنوب في تصارييف الأفعال والضمائر ، ولكنها تتفق معها في كثير من المفردات وفي الجموع المكسرة ^(١) ، وهذه اللغة وإن كانت أقل حضارة إلا أنها كانت سليمة فصيحة .

ودالت دولة الجنوب ، وانتقلت التجارة بالجزيرة العربية إلى عرب الشمال كما سيأتي إيضاحه ، وكثر الاهتمام بمكة كمرکز ديني للعرب جميعاً تنمو مكانته يوماً بعد يوم ، وهذا جعل لغة الشمال تنمو ولغة الجنوب تتقهقر ، وجاء الإسلام ونزل القرآن بأغة قريش لغة الشمال ، وتم لهذه اللغة بذلك السلطان في الجزيرة العربية كلها ولم يبق للغة الجنوب إلا آثار لاقيمة لها ، ومع هذا فلم تدع لغة الشمال هذه البقية دون أن تدخل عليها كثيراً من خصائصها ومفرداتها حتى ضاقت المرّة ، وأصبحت لاتعدو أن تكون لهجة من لهجات لغة الشمال .

(١) انظر تاريخ العرب للدكتور فيليب ستي ج ٢ ص ٢٨ و ٦٧

التاريخ السياسى

للمرب قبل الإسلام

إن الفكر السياسى عند البدو يختلف عنه عند الحضرة ، فبينما عاش البدو فى نظام الوحدة الصغيرة «القبيلة» استطاع الحضرة أن يكوّنوا ملك لها ملوك ونظم سياسية ، ومن هنا لزم أن نتكلم عن البدو وعن الحضرة ، كل على حدة ، مع ملاحظة أن نظام الحكم القبلى متشابه ، فأعطاء فكرة عنه سيغنيننا عن تتبع القبائل هنا وهناك . ولو أردنا أن نتبع كل القبائل ما استطعنا ، لقلة ما لدينا من مادة ، ولعدم الاستقرار فى سلطاتها السياسية :

١ - الحكم فى البادية

يعيش البدو فى الصحراء فى نظام قبلى ، والوحدة فى البادية هى القبيلة ، وهى وحدة يربط بينها الدم والعصبة ، ويعتبر من أفراد القبيلة هؤلاء الضعاف أو العبيد الذين يلجأون للقبيلة ويعيشون فى جوارها وحمايتها ولو لم تكن بينهم وبين القبيلة صلة دم .

وقد تطغى قبيلة على أخرى وتغلبها على أمرها فيخضع المغلوب للغالب لمدة قصيرة أو طويلة ، حتى يتاح للقبيلة المغلوبة من أبنائها من يشهر السيف فى وجه الغالبين ويكسب لقبيلته استقلالها .

والقبيلة العربية تخضع لدستور صارم نظمته التقاليد والعرف ، وبخلاصة هذا الدستور أن يحس الفرد برابطته القبلية ، ويلتزم بتأييد مصالحها ، والعمل لها بكل ما يملك من قوة^(١) ، وأفراد القبيلة جميعا متضامنون فيما يرتكبه أحدهم

تضامنا حازما ، فتأتى مسؤوليته على سيد العشيرة الذى عليه أن يتحمل
التبعة باسم القبيلة ، وله - من أجل هذا - حق الطاعة على أفراد القبيلة ؛

وسيد القبيلة يُختار من بين من تجمعت فيهم صفات الشجاعة والكرم
والحلم ، أو قل إن الامتياز فى هذه الصفات يفرض صاحبه ليكون سيداً
للقبيلة ، وقد يحىء لرئيس القبيلة ابنٌ يعدله فى الشرف والسؤدد وحينئذ
يستطيع أن يرث مكانة أبيه ، وإذا تكررت رئاسة التبيلة فى بيت من بيوتها
هرف هذا البيت بالجد والجاه .

ومسئوليات سيد العشيرة أو رئيس القبيلة أكثر جداً من حقوقه ، فهو فى
السلم جواد كريم مشغول عن إكرام الضيوف الوافدين . وإغاثة المحتاجين
من أبناء القبيلة ، وإجارة المستجير ، وهو فى الحرب يتقدم الصفوف ويساعد
من لاعتاد له ، وهو يتحمل باسم القبيلة تبعة ما قد يرتكبه أفراد القبيلة من
أخطاء ، ولكن إذا ارتكب فرد من أفراد القبيلة جرماً ترفض القبيلة أن
تتحمل نتائجه ، أو إذا أخطأ فى حق قبيلته نفسها ، فإنه يطرد منها ، ويسمى
هذا الطرد خلعاً ويسمى الطريد خليعاً .

أما حقوق رئيس القبيلة فهى الطاعة المطلقة على كل أفراد القبيلة ، وليس
لدى رئيس القبيلة قوة مادية يرغم بها أفراد القبيلة على الطاعة ، وإنما هى
التقاليد والعرف ، وللبدوى أن يتمرد على أى قرار يتخذه رئيس القبيلة ،
ولكن عليه فى هذه الحال أن يدع القبيلة وأن يهجرها هجراً تاماً ، وكثيراً
ما لجأ البدوى إلى هذا للتصرف ، فإن أهم ما يمتاز به البدو عدم الخضوع ،
فالحرية عند البدوى هى خير ما يعتزُّ به ، ولا يستطيع أن يتنازل عن أى جزء
منها لقاء أى شئ ، فما نعرفه فى العصر الحديث من أن كل فرد ينبغي أن
يتنازل عن جزء من حريته لتحقيق الحرية للمجموع ، هذا الاتجاه كان
البدوى يعتبره خدعة ولا يقبله ، والموت أو الهجرة عن الوطن أبسر على
البدوى من فقدان حريته .

والدارس لتاريخ البادية ونظام الحكم بها يجد أن تمرد أفراد من القبيلة على حكم رئيسها كان كثير الوقوع وكانت الحرية المطلقة ، والأناية المفرطة ، والأثرة ، من أهم العوامل التي تتحرك في نفوس البدو ، فلا يخضعون لحكم يصدره رئيس القبيلة ويؤثرون أن يخلعوا أنفسهم ويهيمنون على وجوههم مع نظراتهم من الخلقاء .

ومن مظاهر الأناية والفردية عند البدو ما روى من أن بعضهم كان بعد دخوله الإسلام يهتف داعياً : اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً :

ومن أجل هذا لم يكن سهلاً أن يتم بالبادية ارتباط بين عدد من القبائل لتكوين ممالك ، فالقبيلة الواحدة كانت معرضة للانقسام بطوناً كلما كبرت ، وكان أفراد كثيرون منها يتركونها أو يطردون منها من حين لآخر كما ذكرنا ، وعلى هذا فالانجاء في البادية كان للانقسام لا للتجمع .

مملكة كندة :

وهناك مملكة وحيدة قصيرة العمر قامت في أواسط الجزيرة العربية بين الحكم القبلي وهي مملكة كندة (٤٨٠ — ٥٢٩ م) وكان أحد ملوك تبع^(١) قد قهر بعض القبائل في أواسط الجزيرة فعين (حجر) آكل المزارع ملكاً عليها ، وقد استطاع حفيده الحارث أن يستولى على الحيرة ويتخذ له عاصمة يغلب أن تكون الأنبار ، ولكن سرعان ما انهزم ملوك كندة أمام وثبة جديدة قام بها الأخميون ملوك الحيرة ، وقد تسبب عن انهزام ملوك كندة في الشمال أن تفتت ملكهم في قلب الجزيرة وعادت الحياة القبلية إلى الظهور . وينسب امرؤ القيس أحد شعراء المعلقات إلى ملوك كندة ، وقد حاول أن يعيد مجد آبائه ولكن محاولته لم تكلل بالنجاح .

(١) التباينة لقب ملوك اليمن الأقدمين .

٢ - الحضرة

مناطق الحضرة المهمة في الجزيرة العربية تتركز في ثلاث مناطق هي :

(أ) اليمن .

(ب) ممالك الشمال وتشمل :

١ - الأنباط . ٢ - ثمود . ٣ - الحيرة و غسان .

(ج) الحجاز .

ومستكمل عن كل منها على حدة :

(أ) اليمن

قلنا فيما سبق إن دائرة الجزيرة العربية عبارة عن شريط ضيق يمتد مع الشواطئ المحيطة بالجزيرة العربية ، وينقسم هذا الشريط قليلاً عند التقاء البحر الأحمر بالمحيط الهندي فيتكون اليمن ، ونضيف هنا أنه في هذا الملتقى تكونت حضارة تعتبر أرقى حضارات الجزيرة العربية . كما أنها ذات قيمة كبيرة بين الحضارات العالمية .

تسمية اليمن :

وقد اشتق اسم اليمن من اليَمَن لأنها بلاد يمن وبركة وخير ^(١) ، إذا قيست بالمصحارى القريبة منها ، وقد جاء اليَمَن إلى اليمن من خصوبة أرضها ، وهبوط الأمطار عليها هبوطاً منتظماً . وكذلك من مهارة أهلها بحيث استطاعوا أن يحفظوا هذه المياه من الضياع ، فأقاموا السدود وخزنوا بها المياه بين الجبال وخلف هذه السدود ، ثم من عوامل اليَمَن أيضاً لليمن موقع هذه البلاد

(١) انظر ياقوت : معجم البلدان كلمة « يمن » وانظر كذلك مادة « Yaman » في

بحيث أصبحت ملتقى الرحلات البحرية التجارية التي تأتي من الهند ومن إندونيسيا والصين حيث تلتقى بالرحلات البرية وقوافل الجبال التي تسير بين اليمن في أقصى الجنوب وبين الشام في شمال الجزيرة ، وعلى هذا أصبحت اليمن سوقاً هامة تعرض بها البضائع التي ترد من الرحلات البحرية والبضائع التي تعود بها قوافل الجبال من الشمال . وصيأتى فيما بعد مزيد من الكلام عن الحركة التجارية بالجزيرة .

وموقع اليمن هذا حرمها مما سبق أن ذكرناه كميزة للبادية وهو نقاء العنصر وسلامة النسب ، فقد استقبلت اليمن عناصر مختلفة من الناس ، وجذبت أسواقها تجاراً من بقاع مختلفة من الجزيرة ومن خارج الجزيرة ، وكان بعض هؤلاء التجار يقيمون بها مدداً قصيرة أو طويلة ، فاختلطت الأنساب باليمن كما اختلطت اللغة ، وكثيرون من هؤلاء جاءوا عبر باب المنذب من إفريقية وبعضهم جاء من الهند أو جزر الهند الشرقية (إندونيسيا الآن) وبعضهم جاء كذلك من سوريا مع التجارة الهابطة من الشمال ، وتم بين هؤلاء وبين القحطانيين سكان البلاد الأصليين روابط مصاهرة ، كما عاد بعض التجار اليمنيين والحضارة الذين كانوا يرافقون التجارة إلى الهند وإندونيسيا ومعهم زوجات من هذه البقاع ، وعلى هذا لا يبعد أن نتصور سوق اليمن وبها خليط من الأجناس وخليط من الحضارات وخليط من اللغات :

وغنى اليمن جلب إليها نوعاً من نظام الحكم لم يعرفه سكان البادية ، وسبب ذلك أن الناس ، كما يقول Kirk^(١) ، كانوا قبل الاهتمام إلى الزراعة يعيشون على حالة البداوة المزرعة في جماعات صغيرة متناثرة ، وكانوا لا يملكون وسيلة لسد حاجات معيشتهم إلا عن طريق الشيوخ ، فلما نمت الحضارة الزراعية ووجد فائض عن الحاجة أعطى هذا الفائض إلى قوم امتازوا عن الباقي بميزة ، كرجال الدين أو قادة الحروب ... وهذا ماحدث

في اليمن ، فقد كان الدخل أكثر مما يستهلك ، وبذلك وجدت طبقة من الحكام ذرى الغنى واليسار والقوة ، وظهرت في اليمن ألقاب الملك والسلطان ، وكانت هذه الألقاب تتناسب مع رقعة الملك ، فهناك من يسمى « ذو » وهناك من يسمى « قَيْل أو مقول » وهناك أيضاً « الملك » وهى متدرجة إلى أعلى في معانيها (١) ، وفي عهود الضعف كان يكثر الانحلال والتفكك ويظهر ما يسمى بالمخاليف ، فلكل رئيس خلاف يضيق ساططه أو ينسجم بحسب قوته . أما في عهود القوة فكانت تظهر الممالك التى كانت تذب فيها المخاليف أو كانت تندمج فيها إذا لم تذب هذه المخاليف نهائياً ، كما كانت هذه الممالك تمتد أحياناً فتشمل حضرموت . وأهم الممالك الكبيرة التى قامت باليمن مملكة معين ومملكة قتبان ، ومملكة حمير ، والمعلومات التى لدينا عن المملكتين الأوليين قليلة ، وكانت هاتان المملكتان متعاصرتين ، فكانت معين فى أواخر الألف الثانى ق م (حوالى ١٢٠٠ ق م) وقد ظلت حتى قامت سبأ فاستنفصت أرضها ولم يبق منها فى القرن السابع ق م إلا جزء يسير . أما قتبان فقد بدأت حوالى أوائل الألف الأول قبل الميلاد (١٠٠٠ ق م) وكان لها الإشراف على باب المنذب . وقد ورثتها سبأ أيضاً كما ورثت دولة معين .

مملكة سبأ :

لمملكة سبأ شهرة واسعة سنتحدث عنها فيما بعد ، ولكن هذه الشهرة تتصل بالدولة عند نهضتها ، أما المعلومات التى بين أيدينا عن نشأتها فقليلة ، ويبدو أن مملكة سبأ بدأت على إثر ما انتاب دولة معين من ضعف ، وعاصرت سبأ كلا من معين وقتبان ، وكانت سبأ فتية ناشئة فى وقت كانت معين وقتبان يبدو عليهما الهرم وتؤذنان بالزوال ، وقد استطاعت سبأ أن

(١) انظر المقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٧٤ .

تفسح حدودها على حساب كل من هاتين الدولتين حتي ورثتها نهائياً في آخر الأمر ، كماضمت لها حضرموت ، وقد بدأت سبأ في منتصف القرن العاشر قبل الميلاد تقريباً (٩٥٥ ق م) وظلت حتى سنة ١١٥ ق م ، وكانت عاصمتها مأرب .

وترجع شهرة سبأ إلى سببين كبيرين أولهما ملكتها بلقيس وقصتها مع النبي سليمان والمهدد^(١) ، وثانيهما سد مأرب ، فقد كانت الأمطار تهطل على اليمن ثم تنحدر إلى البحر فلا يُستفَع بها إلا في موسم نزولها ، وكان لمملكة سبأ فن في العمارة ، فعند المهرة في فن العمارة إلى مكان ضيق يوشك أن يلتقي عنده جبلان كبيران ، وفي هذا المضيق أقام هؤلاء سدّاً عظيماً هو سد مأرب الشهير ، وكانت فائدة هذا السد مزدوجة ، فقد احتفظوا بواسطته بالماء لينفعوا به وقتما يشاءون ، فكثرت بذلك الزراعة وتعددت دوراتها كل عام ، وكذلك تحكّم هذا السد في السيول التي كانت تقضي بالغرق والإتلاف على المزارع والقرى التي تقع في المنخفضات ، فكانت نتيجة هذا السد أن كثّر الرخاء باليمن وعمت الخيرات .

ولكن مثل هذا السد يحتاج إلى عناية وتجديد مستمر ، بيد أن فترة الضعف التي نزلت بالمملكة في آخر أيامها شغلتها عن رعاية السد ، فبدأ يضعف ، وقات مقاومته للسيول الجارفة ، فأنهار بعضه أمامها ، وبدل هذا الحادث الحياة في اليمن ، فهاجر كثير من السكان إلى الشمال وآذن ذلك بسقوط مملكة سبأ وقيام مملكة حمير .

مملكة حمير :

على إثر الضعف الذي انتاب مملكة سبأ بدأت قبائل حمير تكوّن لها

(١) انظر سورة النمل الآيات ٢٠ - ٤٤ وانظر الطبري ج ١ ص ٤٣٥ وما بعدها

(م ٧ - التاريخ)

نفوذاً وسلطاناً في اليمن ، وكان ذلك في المائة الثانية قبل الميلاد ، ولما سقطت دولة سبأ سنة ١١٥ ق م استكمل ملوك التابعة الحميريون نفوذهم ، وأصلح هؤلاء الملوك ما فسد من نظم الزراعة والسدود وأصبح لهم جاه وسلطان عظيم ، حتى ليقال إنهم ساروا بجيوشهم محاربين مهددين حتى وصلوا العراق والبحرين (١) .

ثم آن الأوان لهذه الدولة أن تهزم وأن تنهار ، فقلت العناية بالسدود وبخاصة سد مأرب الذي كان قد ضعف منذ عهد سبأ ، وكانت نتيجة هذا الإهمال أن انكسر السد أمام سيل العرم الذي ورد ذكره في القرآن الكريم (٢) فجرفت السيول مزارع القوم وبساتينهم (٣) وخاف انكسار السد أرضاً تحتاج للماء في الشمال وأرضاً غارقة به في الجنوب ، وكان ذلك إيذاناً بالهجرات الواسعة التي قام بها سكان اليمن إلى الحجاز وغيره في شمالي الجزيرة وخارج الجزيرة ، وكان ذلك أيضاً إيذاناً بضعف اليمن ضعفاً أدى إلى تدخل الفرس والروم رجاء احتلال البلاد السعيدة ، وسنتكلم فيما بعد على الصراع على اليمن من الدول الطامعة .

وقد خلّفت سبأ وحيراثاً تدل على العظمة والرقى ، وهي تشمل كثيراً من الأطلال والنقش ، كما كان لها أسطول ضخم ينقل البضائع بين موانئ اليمن وبين موانئ الهند والصين والصومال وسوء مطرة ، بحيث كانت التجارة شبه احتكار في يدها (٤) . ومن اليمن كانت التجارة تصعد إلى الشمال بقوافل

(١) ابن قتيبة : المعارف ص ٣٠٧

(٢) سورة سبأ : الآية السادسة عشرة

(٣) في رأى ياقوت (معجم البلدان ٤ : ٣٨٣) أن تصدع المد كان في عهد الأحباش والظاهر كما شرحنا أن السد ضعف أمام السيول عدة مرات وفي كل مرة كانت تغلغ السيول على جماعة فهاجر وهكذا

(٤) أنظر Periplus of Erythraean sea Translated from Greek

نقلا عن الدكتور ماجد : التاريخ السياسي للدول العربية ١ : ٧٣

برية تسيطر عليها اليمن أيضاً قبل أن ينتقل مركز هذه القوافل إلى مكة كما سيأتى فيما بعد، فقد كانت سبأ في إبان عظمتها التجارية تسيطر على طرق النقل التجارية التي تجتاز الحجاز متجهة شمالاً حتى موانئ البحر المتوسط ، وكان لها مستعمرات أنشئت على هذه الخطوط ، ويرى الدكتور حتى أن بلقيس لم تكن ملكة على بلاد اليمن وإنما كانت ملكة على أحد معاقل سبأ ومراكزها التجارية سالفه الذكر (١) . وقد كان تجار اليمن من الذكاء للدرجة أنهم حافظوا على أسرار تجارتهم فلم يعرف أهل الشمال مصادر كثير من البضائع التي كانت ترد إلى اليمن من الهند وإندونيسيا والصين وغيرها حتى ظن بعض مؤرخي اليونان والرومان أن جميع هذه البضائع كانت من إنتاج اليمن (٢) .

اليمن فريسة الاستعمار :

كان الهدف الرئيسى للتسابق بين الفرس والروم على احتلال اليمن هو السيطرة على هذا الموقع المهم والانتفاع بغنى اليمن الناتج عن تجارته وحاصلاته الزراعية ، ولكن هذا الهدف الرئيسى توارى - كما تفعل دول الاستعمار دائماً - خلف أسباب أخرى ثانوية كما سيتضح مما يلي :

قلنا إن الحميريين كانت لهم السلطة في اليمن منذ سنة ١١٥ ق م ، وجاء المسيح وانتشر الدين المسيحى ولا تزال للحميريين السلطة والملك في اليمن ، ثم ضعفت حمير كما قلنا وكان ذلك في القرن الخامس الميلادى وما يليه ، وكان ملك حمير في هذه الأثناء اسمه ذو نواس وكان قد اعتنق اليهودية (٣) ، وفى

(١) فيليب حتى : تاريخ العرب ١ : ٥٤

(٢) المرجع السابق ص ٥٩ - ٦٩

(٣) تسربت اليهودية إلى اليمن بسبب الاتصال الذى تم بين ملوك اليمن ويهود الشمال =

الوقت نفسه كانت المسيحية قد انتشرت في نجران شمال اليمن . وقد جاءت المسيحية من الحبشة ، وبسبب التعصب الديني من جهة ، ومن جهة أخرى بسبب خوف الحميريين أن يمتد نفوذ الحبشة إلى بلادهم عن طريق المسيحيين بنجران ، بسبب هذا وذاك ، خيّر ذونواس المسيحيين في نجران بين اعتناق اليهودية أو الموت ، فاختاروا الموت ، فحفر لهم أوتدوداً أفناهم بين حرق وقتل ^(١) . وقد فرّ من أهل نجران رجل وذهب إلى الحبشة يستنصر بالنجاشي المسيحي ضد ملك حمير اليهودي الذي أوقع بالمسيحيين وحرّق الإنجيل ، فاستجاب النجاشي للرجل وأرسل النجاشي إلى قيصر الروم حامي المسيحية يخبره بذلك ويطلب منه بعض السفن لنقل الأحباش إلى بلاد اليمن ، وفي رواية أخرى أن المسيحي الفار ذهب إلى قيصر يستنصره فأرسل قيصر للنجاشي أن ينوب عنه في الدفاع عن المسيحية وأمله القيصر بالسفن ، وعلى كل فقد قامت حملة اشترك فيها قيصر بالسفن وحليفه النجاشي بالرجال ، بقيادة أرياط ، وقد استطاع هذا الجيش أن ينتصر على الحميريين ، ورأى ذونواس هزيمته ، فاقتحم البحر بفرسه ففرق ، وأصبحت اليمن تابعة للحبشة ،

= في أثناء رحلات قام بها هؤلاء الملوك شمال . (انظر كتاب الأصنام لابن الكابي ص ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ٥٨) .

(١) انظر سورة البروج ١ - ٧ وانظر الطبري ج ١ ص ٥٤٤ .

و يعترض بعض الباحثين على سير القصة على هذا النحو لأن القرآن الكريم وصف المعتدي عليهم بالإيمان بالله ، قال تعالى « وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » (سورة البروج الآيتان ٧ - ٨) . وهذا يفيد أن المعتدي ليس مؤمناً بالله ، وبالتالي ينفي أن ذانواس كان يهودياً ويحتم وثنيته . أو ينفي ارتباط القصة بذى نواس أصلاً ويربطها بملك وثني لم تحدده المراجع التاريخية . انظر « الحياة العربية من الشرع الجاهل للدكتور أحمد الخولي ص ١٥١ - ١٥٣ » .

وربما جاز لنا أن نبقي القصة كما ذكرناها على أن يكون تصرف ذى نواس هو من اتجاهات التشعب التي عرفت عن اليهود في كثير من الأزمنة والأمكنة : وعلى هذا يكون القرآن الكريم يعيب على ذى نواس هدوؤه على المؤمنين التابعين لغير الدين الذي يمتنعه .

وأرسل أرباط إلى النجاشي النبايا والغنائم^(١) .

ولم يخلص الأمر طويلاً لأرباط فقد تمرد عليه أبرهة أحد مساعديه ، ثم تبارز أرباط وأبرهة ولكن أرباط سقط في المبارزة بغدرة دبّر لها له أبرهة بأن أكن عبداً له ضربه من الخلف ضربة قتله وخلص بذلك الأمر لأبرهة^(٢) . وعند ما كان عبد المطلب بن هاشم سادن الكعبة كان أبرهة صاحب النفوذ في اليمن ، وبعد أبرهة حكم ولداه يكسوم ثم مسروق وفي عهد مسروق غلب الفرس على اليمن وأخرج الأحباش منها ، وقد دامت مدة الأحباش باليمن اثنتين وسبعين سنة^(٣) ، أما انتصار الفرس على الأحباش فحديثه فيما يلي :

كانت فارس تنقم على الأحباش والروم استعمار اليمن : وحانت الفرصة لتدخل فارس ، فإن أحد أولاد ملوك حمير واسمه سيف بن ذي يزن فر إلى الفرس يطلب النجدة والعون لإخراج الأحباش من بلاده ، واستجابت فارس وأرسلت جيشاً إلى اليمن بقيادة وهرز ، وانتصر وهرز هذا وتعاون هو وسيف في القضاء على الأحباش ، ولما تم انتصار الفرس أمر كسرى أن يتزوج سيف بن ذي يزن ملكاً على اليمن^(٤) وأن يعود وهرز إلى فارس ؛

(١) تاريخ الطبري ج ١ ص ٥٤٨ .

(٢) تاريخ الطبري ج ١ ص ٥٥٨ .

(٣) يختلف المؤرخون في ذكر تاريخ استعمار الحبشة لليمن وفي المدة التي قضاهما الأحباش هناك ، فبينما يذكر الطبري أن الاستعمار بدأ سنة ٥٢٥ واستمر ٧٢ سنة يذكر بروكلمان (دون أن يثبت مصدراً) أن الاستعمار بدأ سنة ٤٣٠ واستمر ٤٠ سنة ، ورواية الطبري أوضح لأن مولد الرسول حصل في عام الفيل في أثناء حكم أبرهة سنة ٥٧١ وإن كان بروكلمان يشكر ذلك (انظر تاريخ الشعوب الإسلامية ١ : ١٤ - ٣٤)

(٤) وقيل إن الذي توج هو معد يكرب بن سيف لأن الأخير كان قد مات قبل زحف الجيش الفارسي . والذي في العقد الفريد يؤيد أن الذي توج هو سيف بن ذي يزن نفسه وأن أشراف العرب وفيهم عبد المطلب ذهبوا لتهنئته (انظر الجزء الثاني ص ٢٣ وما بعدها)

ولكن هذا الملك قتل بعد قليل : يقال قتله من استبفاهم عبيداً له من
الأجباش ويقال إنه قتل بتدبير الفرس ، وبعد قتله أرسل كسرى وهرز
ليكون حاكماً لليمن تابعاً للفرس ، وبعد وهرز حكم أباؤه وأحفاده :
المرزبان بن وهرز ثم الينجان بن المرزبان ثم خر خسره بن الينجان ، ثم
غضب كسرى على هذا فعزله وعين باذان على اليمن ، وعند بعثة محمد
صلوات الله عليه كان باذان حاكماً لصنعاء من قبل فارس (١) . وكان بجواره
باليمن وحضر موت أقبال وملوك من العرب ، وقد دخل باذان في الإسلام
عندما دعى إليه . كما ذكرنا في الجزء السابع من هذه الموسوعة .

(ب) ممالك الشمال

١ - الأنباط :

الأنباط أو النبطيون قبائل بدوية نزحت من الأرض المعروفة اليوم بأرض « شرق الأردن » ونزلت جنوب سوريا وكونت لها مملكة امتدت من غزة شمالاً حتى العقبة جنوباً ، وعلى هذا اتخذت هذه المملكة مكاناً مهماً في طريق التجارة بين الشمال والجنوب ، وكانت لهم إتاحة على التجارة الصاعدة والهابطة .

وعاصمة الأنباط مدينة « البتراء » أو « بطرة » وهي مدينة شهيرة في بلاد العرب حتى اليوم ، تمتاز بأنقاضها الضخمة وبخاصة أنقاض المعبد الذي كان به الآلهة التي عبدها سكان الأنباط ، ولا تزال أعمدته الشاهقة شاهد صدق على ما وصلت له البتراء من حضارة ورفق .

وقد بدأت دولة الأنباط في حوالى القرن الرابع ق . م ولكنها بلغت غاية مجدها في القرن الأول الميلادى حيث امتدت إلى دمشق التى أصبح حاكمها والياً تابعاً للملك الأنباط ، وهذا الوالى هو الذى حاول القبض على بولس الرسول يقول بولس ، « فى دمشق والى الحارث الملك الذى يحرس مدينة الدمشقيين يريد أن يمسكنى ، فتدليت من طاقة فى زنبيل من السور ونجوت من يديه (١) »

وامتدت الأنباط فى نفس القرن جنوباً حتى مدائن صالح (الحجر) فى شمال الحجاز (٢) .

(١) رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس « الإصحاح الحادى عشر : ٣٢ - ٣٣ .

(٢) أنظر فيليب حتى : تاريخ العرب ١ : ٩٠ .

ومن أشهر ملوك الأنباط الحارث الثالث (٨٥ - ٦٠ ق . م) ويسميه اليونان Arethas وعبيدة الثاني (٢٨ - ٩ ق . م) ويسميه اليونان Obudas والحارث الرابع (٩ ق . م - ٤٠ م) وهو عصر المسيح وفيه امتدت الأنباط إلى دمشق كما سبق القول .

ومن أهم العوامل التي أضعفت من شأن البتراء ومن شأن مملكة الأنباط انجاء أهل الملاحه من الرومان إلى السفر بجزراً إلى الهند ، وتحول خط القوافل بين الشرق والغرب إلى منطقة شمالية ، وهذا التحول الذي أضعف من شأن البتراء رفع شأن تدمر المدينة التي كانت عاصمة مملكة تدمر وهي في الشمال بالنسبة لمدينة دمشق (١) ولما ضعفت مملكة الأنباط أذن ذلك برقي شأن تدمر .

هذا من الناحية الاقتصادية ، أما من الناحية السياسية فإن أباطرة الرومان خافوا من التوسع الذي وصلت له الأنباط ، وخافوا من أن تصبح هذه المملكة منافساً لهم ، ولذلك لم يقنعوا بالتحالف الذي كان معقوداً بينهم وبين ملوك الأنباط وهاجمهم الإمبراطور تراجان « Trajanus » ودمر عاصمتهم سنة ١٠٥ وضم بلادهم لإمبراطوريته ، وأصبحت مملكة الأنباط مقاطعة في الإمبراطورية الرومانية . ولذلك كان يطلق عليها « المقاطعة العربية » وكان ذلك في العام التالي تهديم البتراء .

٣ - تلنمر :

وتلنمر هي باليونانية (بالميرا) وهي عريقة في القدم ، ولا يعرف بالضبط تاريخ هجرة العرب إليها ، ويبدو أن ذلك كان في وقت مبكر جداً ، وقد ورد لها ذكر قبل الميلاد بأكثر من ألف عام ولكن شهرتها ترجع إلى

(١) فيليب حتى : تاريخ العرب ج ١ ص ٦٦ .

المجد الذى حققته فى القرنين الثانى والثالث بعد المسيح فقد استطاعت مملكة تدمر أن تقف فى الغالب موقف الحياد بين جارتها القويتين : القريتين (الإيرانيين) والرومان ، وقد انتفعت بهذا الحياد انتفاعاً كبيراً ، ونالت عون الدولتين ، ثم كان لموقعها الجغرافى وما بها من مياه معدنية مما سبب لها الرخاء والمجد .

وعلى الرغم من محاولة الحياد فقد تورطت تدمر فى صراع مع الفرس حيناً ومع الروم حيناً .

وتدل بعض النصوص الأثرية على أن تدمر ارتبطت سياسياً بالرومان منذ القرن الميلادى الأول ، ولكنها لم تفقد لستقلالها الداخلى ، وظلت تدبر شئونها بنفسها ، وبحكم هذا الارتباط بالرومان خاضت تدمر حروباً مدمرة ضد الفرس كعب لتدمر النصر المؤزر فيها ، وردت شابور الأوله إلى عاصمته بعد أن كان قد استولى على جزء كبير من أرض الشام ، وكان ملك تدمر آنذاك أذينة (٢٩٥ م) وقد منحه إمبراطور الرومان لقب « إمبراطور الشرق » اعترافاً له بخدماته ونجاحه . وبسط أذينة سلطانه على سوريا كلها ، وبعد أذينة تولت الحكم زوجته زنوبيا (وتسمى أيضاً زينب والزباء) وصية على ابنها القاصر ، ولكن زنوبيا تحددت الرومان وصارعهم بيد أنها انهزمت فى نهاية الصراع ، ودخل الإمبراطور أورليانوس مدينة تدمر ودمرها وأسر الملكة العربية البطلة ، ولكن الأقاصيص سارت ببطولتها عبر البوادي والخراضر (١) .

وكانت هزيمة الزباء نتيجة لخيلة دبرها الإمبراطور أورليانوس فقد تظاهر بالانكسار فى إحدى المعارك وتراجع ، وأمر جنوده بنصب كمين لها وراء تلال أنطاكية وبساتينها ، وظن جيش تدمر أن الرومان قد هزموا

(١) انظر بروكلمان : تاريخ الشعوب الاملاية ١ : ٢٢ .

فعلا ، فاندفعوا إلى الأمام ، ووقعوا في الكمين ونزلت بهم خسارة فادحة ، وتراجعت الزباء بمن نجح من جيشها إلى تدمر ، ولحق بهم أورليانوس حيث حاصر المدينة مدة طويلة حتى ضعفت المقاومة ، وأدركت الزباء أن الأمل قليل في الانتصار وفك الحصار ، وعز عليها أن تسلم فامتطت هجينا وانطلقت به تجاه بلاد فارس ولكن جنود الرومان أدركوها وهى تعبر الفرات ، فقبضوا عليها وأعادوها أسيرة ، وشق على الملكة أن ترى نفسها في الأسر وأن ترى دولتها تنهار ، فأعلنت الصوم عن الطعام إلى أن فاضت روحها (١) .

وكانت مدينة تدمر مزيجاً من اليرمانية والسورية والفريية، وهذه المدينة تبين ذرى الثقافة التى يستطيع العرب من أهل البادية أن يبلغوها إذا ما تسفت لهم المهيمات . . . ومن ينعم النظر فى أطلال تدمر الباقية يفقه سر تلك المدينة الزاهرة، ويتبين أن بناء المدينة جاء وفقاً لتصاميم وضعها لها جماعة حذاق مهرة فى هندسة البناء . وقد حملت إليها حجارة ضخمة من الجرانيت من شلال النيل الأول بمصر، وكان يحف بشارع المدينة الرئيسى نحو ٨٥٠ عموداً كورنياً من الحجر الكلتى الأبيض الوردى ، وارتفاع كل منها نحو ٥٥ قدماً ، وكان أول الشارع العظيم قريباً من قوس النصر الذى رفعوه إلى جانب هيكل معبودهم الأكبر « شمس » ولا يزال هيكل الشمس وبعض الأعمدة قائمة حتى الآن (٢) .

٣ - الحيرة وغسان :

كانت مملكة الفرس من جهة ومملكة الروم من جهة أخرى معرضتين لهجمات بعض القبائل البدوية التى كانت تعيش شمالي الجزيرة ، وكانت هجمات هذه القبائل سريعة ، يختطفون خلالها ما يستطيعون الحصول عليه،

(١) انظر كتاب (الإسلام : انطلاق لاجود) للدكتور مصطفى الرافعى ص ١٤٦ .

(٢) فيليب حتى : تاريخ العرب ١ : ١٠٠ - ١٠١

ثم يفرون عائدين فيتوغلون في قلب الجزيرة حيث لا تستطيع جيوش الروم ولا جيوش الفرس أن تتبعهم خوفاً من وعورة الطريق وقلة المياه .

ولهذا عمد الفرس كما عمد الروم إلى أن يقيموا حاجزاً بينهم وبين العرب ، وكان ذلك الحاجز عبارة عن بعض القبائل العربية ، تألفتها الفرس والروم وأسكنوها في شمال الجزيرة ، وأمدت الفرس والروم هذه القبائل بعون من السلاح والمال ، وكانت هذه القبائل تعرف مسالك الجزيرة وتستطيع الوقوف في وجه هجمات العرب ، وبهذا تكونت مملكة بالحيرة تحمي الفرس ويحميها الفرس ، وتكونت مملكة بفسان تحمي الروم ويحميها الروم ، وكانت المقدرة على رد هجمات العرب من أبرز الصفات التي يلزم أن تتوفر فيمن تسند له السيادة في كل من الحيرة وغسان . يروى أن كسرى عند ما أراد أن يسند ملك الحيرة إلى النعمان بن المنذر سأله : أتكفيني العرب ؟ فأجاب النعمان : نعم . قال كسرى : كلها ؟ فأجاب النعمان : نعم كلها . فاستطرد كسرى قائلاً : كيف ياخوتك ؟ فأجاب النعمان : إن عجزت عنهم فأنا عن غيرهم أعجز ، فلئكة كسرى وخلع عليه (١) .

وهناك سبب آخر استدعى قيام مملكتي الحيرة وغسان ، وهو أن الروم أرادوا أن يستعينوا بالعرب في حروبهم ضد الفرس ، فلجأ الفرس إلى نفس الخيلة ، وقربوا بعض القبائل العربية إليهم واستعملوهم على حدودهم ليقف العرب في وجه العرب وليكونوا عوناً لحلفائهم ضد أعدائهم ، وسنعطى مزيداً من التفصيل عن كل من هاتين المملكتين فيما يلي.

مملكة الحيرة :

لتكوين مملكة الحيرة ظروف خاصة بجانب ما أوضحناه آنفاً ، وتلك

(١) حاد الملاء ، زبداء : أدام العرب في الحاملة م ١٥

الظروف تتصل بالحالة ببلاد فارس عند قيام هذه المملكة ، وخلاصة ذلك أن الإسكندر المقدوني - عملاً بنصيحة أستاذه أرسطو - قسم بلاد الفرس إلى دويلات وجعل على كل منها ملكاً له جيش ووزراء ليضمن الإسكندر بذلك تفريق الكلمة وضعف القوة ، وكان للإسكندر ما أراد ، ويسمى هذا العهد عهد ملوك الطوائف ، وقد استمر من سنة ٣٣٢ ق . م إلى سنة ٢٣٠ م .

وخلال هذا العهد حدثت هجرة عرب الجنوب بسبب سيل العرم ، وقد استطاعوا بسبب ضعف ملوك الطوائف أن يكوّنوا لهم ملكاً في منطقة الحيرة لم يكن قوياً ولكنه لم يكن أضعف من ممالك الطوائف .

ثم ظهر سنة ٢٣٠ أردشير بن بابك واستطاع أن يعيد للبلاد وحدتها وأن يخضع هذه الممالك لسلطانه ويزيل هؤلاء الملوك ويكوّن الدولة الساسانية ، ولم يجد أردشير بداً من إخضاع مملكة الحيرة كما أخضع سواها من ممالك الطوائف ، ولكن للاعتبارات الخاصة بالعرب التي سبق إيرادها أبقى على مملكة الحيرة واكتفى بخضوع ملوكها إليه ، وبأن يتولى هو عند اللزوم تعيين هؤلاء الملوك ، ومن أشهر ملوك الحيرة عمرو بن عدى ، والمنذر بن ماء السماء ، والعمان بن المنذر ، وقد غضب كسرى على النعمان هذا لأنه أنف أن يزوج بناته وأخواته من كسرى وأولاده ، فتوعده كسرى وطلبه ، ولكن النعمان هرب ثم سلم نفسه فألقاه كسرى في السجن حتى مات^(١) ، وبعد النعمان عين كسرى إياس بن قبيصة على الحيرة ، ولم يفرد به بالحكم وإنما أشرك معه رجلاً فارسياً اسمه « النخيجان » وفي هذا العهد قدم خالد بن الوليد إلى الحيرة يقود جيش المسلمين ، فصالحه إياس على الجزية وكان ذلك سنة ١٢ هـ^(٢) ، ثم دخل الناس بعد ذلك في الإسلام .

(١) اقرأ القصة كاملة في « أيام العرب في الجاهلية » لجاد المول وزميله ص ٦ - ٣٩ .

(٢) الطبري ج ٢ ص ٥٥١ - ٥٥٢ .

مملكة غسان :

هناك تشابه بين قيام مملكة الحيرة ومملكة غسان من عدة وجوه ،
فبينما كانت فارس تمر بفترة ضعف في عهد ملوك الطوائف كانت الروم
تجتاز أيضاً فترة اضطراب تسمى عهد القوضى العسكرية (١) ، والقوضى
هنا وهناك كانت أثراً لزحف الإسكندر المقدوني السريع الذي لم يعقبه
استقرار ، وفي القرن الثالث الميلادي عاد الاستقرار إلى فارس كما رأينا
وفي نفس هذا القرن (سنة ٢٨٦ م) انتهى عهد القوضى العسكرية بالروم ،
وعندما هاجرت قبائل من الين واستقرت بالحيرة هاجرت قبائل أخرى من
الين واستقرت ببادية الشام ، وكما اتخذ الفرس عرب الحيرة درعاً يثقون
بهم هجمات البدو ويقوون بهم ضد الروم ومعاونهم من العرب ، اتخذ
الروم عرب الشام لنفس الأغراض كما سبق القول .

ولعل أول القبائل التي حظيت بهذه المكانة في بادية الشام هي قبيلة
الضجاعة ، وقد مكنت هذه القبيلة مدة طويلة تلى أمر العرب في هذه البقاع
وولى الرومان عليهم ملكاً منهم ، ومن أشهر ملوكهم زياد بن الهبولة (٢) .

وقبل نهاية الضجاعة كانت قبيلة بني جفنة قد نزلت ببادية الشام حول
بئر ماء اسمه « غسان » (٣) « وقد عرف بنو جفنة لذلك بالغساسنة ، ولما أدرك
الغساسنة ضعف الضجاعة استولوا على السلطة في بادية الشام وأقرهم الرومان
على ذلك واختاروا منهم ملك العرب ، واتسع ملكهم وكانت « جلق »
عاصمة لهم وهي التي تسمى « دمشق » الآن . ومن أشهر ملوكهم الحارث

(١) Wells . A Short History of the world ص ١٥٢ من الترجمة العربية.

(٢) الخفري : تاريخ الأمم الإسلامية ج ١ ص ٢٤

(٣) ياقوت : معجم البلدان ج ٦ ص ٢٩٢

ابن جبلة والمنذر بن الحارث وجبلة بن الأيهم ، وهو آخر ملوك الغساسنة ،
وفى عهده دخل المسلمون بلاد الشام ، ويقال إن جبلة دخل الإسلام ثم ارتد
بعد ذلك وهرب إلى الروم في حادثة مشهورة في عهد عمر بن الخطاب .
الأهمية الحضارية للمناخنة والغساسنة .

كان ملوك الحيرة وغسان بوصفهم من سلالة يمنية يحتفظون في مظاهرهم
وحضارتهم بعناصر يمنية ، وأبرز مثال لذلك القصران العظيمان اللذان بناهما
ملوك الحيرة محاكين بهما قصور اليمن ، وهذان القصران هما « الخورنق
والسدبر » ، على أن أهم دور قامت به هاتان المملكتان هو أنهما كانتا جسراً
عبرت عليه ألوان من حضارة الفرس والروم إلى الجزيرة العربية ، وأهم
هذه الألوان الحضارية هي الأديان ، وضروب من المعارف العامة ،
والقراءة والكتابة ، والفنون الحربية وغيرها .

(ج) الحجاز

آخرنا كلامنا عن الحجاز لنصل حديثنا عنه بالحديث عن التاريخ الإسلامي ،
ثم لنعطيه مزيداً من التفصيل لمكانته في ذلك التاريخ .

والحجاز هو الموطن الأول للدعوة الإسلامية ، فيه ولد الرسول ،
وعلى أرضه خطا ، وهو منزل الوحي ، ومشرق النور ، نقل الإسلام
الحجاز من مكان مغمو إلى مركز حضارة غمرت الكون ، ومن الحجاز
انطلقت صيحة الإصلاح ودعوة الإسلام ، ولا تزال تحت السيف في الآفاق
توقظ الهاجع وتهدي النضال ، تنقذ الملايين من عبادة الأبحار وعبادة
الأشخاص وعبادة الأشجار ، وتردهم الهدى وتوجههم إلى عبادة الله الخالصة
وإلى التوحيد المطلق الصافي ، وتمدهم في شئون دنياهم ودينهم بما يكفل

لهم السمادة وبزبل عنهم غبار الجاهلية التي غطت الفكر العالمي أو وجهته
وجهة خاطئة على مر السنين .

وقد نقل الإسلام الحجاز من مكان عربي إلى مكان إسلامي أو قل عالمي ،
وجدير بالحجاز الذي نبت فيه محمد أن يصير كذلك ، فالنور الذي جاء به
محمد لا يعرف وطناً ولا حدوداً ، إنه نور انتفعت به بقاع كثيرة من العالم
ولا تزال تنتفع ، بل ربما جاز لنا أن نقول إن قسط الحجاز نفسه في الانتفاع
بمدينية الإسلام لا يرتفع إلى قسط سواه ، وذلك يرجع طبعاً إلى عوامل
داخلية متتضح في دراستنا عن التاريخ الإسلامي .

والحجاز من الحواضر كما قلنا فيما سبق ، ولكنه يمتاز على غيره من
الحواضر بأنه حافظ على استقلاله ، فإذا كانت جيوش الأحباش والفرس
قد وطئت اليمن ، وإذا كان نفوذ الفرس والروم قد امتد إلى الحيرة
وغسان ، فإن نفوذاً أجنبيّاً لم يستطع أن يتعمق في قلب الجزيرة أو يصل
إلى الحجاز ، ولعل ذلك يرجع لموقع الحجاز في الجزيرة ، ولحرص العرب
جميعاً على استقلال هذا المكان المقدس ، ثم لأن الحجاز لم يكن بلداً غنياً
يُطمع فيه المحتلين الأجانب ، ولعل محاولة الوحيدة لإخضاع الحجاز
للاستعمار كانت تلك التي قام بها عثمان بن الحويرث ، فلقد تنصر عثمان هذا
وانتقل بقيصر ، وأراد أن يلحق مكة بالروم وأن يكون ملكاً عليها تابعاً
لقيصر كلوك الغساسنة ، ولكن أهل مكة ثاروا عليه فقر من وجههم
وحاول أن يؤلب عليهم القيصر وأتباعه من الغساسنة ولكن أهل مكة
احتالوا عليه حتى أطعموه طعاماً مسموماً مات به .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن تاريخ الحجاز حفظه لنا اتصاله بالأديان
وبالكتب المقدسة ، وصنعتمد - مع كتب التاريخ - على بعض اقتباسات
من القرآن والحديث لتتبع نشأة الحياة في الحجاز .

مكة : المدينة المقدسة :

هناك قصة رواها البخارى عن بئر زمزم نوجزها فيما يلى :

جاء إبراهيم بابنه اسماعيل وهو طفل رضيع مع أمه هاجر . ووضعهما بالقرب من مكان بئر زمزم الحالى ، وترك لهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم اتجه إبراهيم عائداً ، فنادته أم إسماعيل : يا إبراهيم أين تذهب وتركنا فى هذا الوادى ؟ فلم يلتفت لها إبراهيم . فسألته آله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذاً لن يضيئعنا . وبعد أيام نفذ الطعام والماء ، وجف تبعاً لهذا لبن أم إسماعيل ، وجعل إسماعيل يبكى ، وأخذت أمه تتردد مهرولة بين جبلى الصفا والمروة لعلها تجد من يساعدها ويمدها بالطعام والشراب ، وكان ترددها بين الصفا والمروة سبع مرات . ولذلك يسعى الحجاج بينهما سبع مرات . ولما أتممت السابعة ظهر لها ملك فى صورة طائر نقر الأرض فانبثق منها الماء . وفى رواية أخرى أن الماء انبثق عند رجل إسماعيل التى كان يدق بها الأرض وهو يصيح .

تلك هى بئر زمزم وقد فاض ماؤها على هذه الصورة تبعاً لما ترويه الروايات المقدسة ، وقد جعلت هاجر تقيم حوضاً حول الماء المنبثق حتى لا يسيل . وكانت هذه البئر تسمى « بئر إسماعيل » ثم سميت بئر زمزم لأن هاجر كانت تحفظ الماء من الضياع بإقامة حائط ترابى حوله (١)

هل كانت بئر زمزم أساساً للعمران فى هذه المنطقة ؟ لا بد أن يكون الجواب بالإيجاب ، فالماء فى الصحراء هو الحياة ، وعند ما يوجد الماء تدب الحياة فيما حول الماء ، على أن الماء فى هذه المرة لم يكن ماء فحسب ، وإنما شاعت هذه الصورة التى انبثق بها هذا الماء ، وعرف البدو قصة البئر الجديدة والظروف التى نبع فيها ماء تلك البئر ، والطفل الذى نبع الماء عند مضرب قدمه . وأمثال هذه الأشياء عميقة التأثير وبخاصة فى عهد يعتبر عهد طفولة البشرية ؛ وكل ذلك ساعد على عمران هذه المنطقة .

(١) فى المنجد : زمزمه رد أطرافه وحفظه .

وغير بعيد من هذه البئر كان هناك مكان فيه عمران قليل وكان هذا المكان يسمى مكة ، ووقعه في منتصف الطريق تقريباً بين جنوب الجزيرة وشمالها جملة مكاناً مناسباً لاستراحة القوافل ، كما كان البدو يحطون به رحالهم فترة قصيرة أو طويلة في أثناء تجوالهم بالجزيرة ، وكان انبثاق بئر زمزم خيراً وبركة على مكة ، فالتسع عمراتها وامتد حتى اتصل العمران بالبئر أو كاد ، كما كثر زوارها الذين يفدون للتبرك بماء زمزم ولرؤية إسماعيل الذي انبثق الماء تكريماً له .

وجاء إبراهيم بعد حين ليزور ابنه إسماعيل ، ورأى إبراهيم المكانة التي حظى بها ابنه بين سكان مكة ، كما رأى كثرة الزائرين الذين يفدون من كل الجهات لرؤية إسماعيل وللتبرك بماء زمزم ، فبنى إبراهيم وابنه الكعبة المشرفة « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم » (١) .

والكعبة المشرفة هي بيت الله أو البيت العتيق ، وهي بناء مربع تقريباً ، بنى في أوسع نقطة من الوادي ، ويبلغ ارتفاعه خمسة عشر متراً ، وطول جداره الشمالى والجنوبى عشرة أمتار تقريباً وطول جداره الشرقى والغربى اثنا عشر متراً تقريباً ، وفي الجدار الشرقى يقع باب الكعبة ، وهو يرتفع عن الأرض بحوالى سترين ونصف متر .

ويروى الطبرى (٢) خبراً يتصل بباب الكعبة وبئر زمزم فيقول : إن قبيلة جرهم (وسياق الحديث عنها) عندما أخرجت من مكة وضعت بئر زمزم غزالين من ذهب كانا بالكعبة ووضعت كذلك أسياًفاً ودروعاً

(١) سورة البقرة ١٢٧ - ١٢٨

(٢) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٢

من الصلب وأهالت عليها التراب فردمت البئر ، وكانت جرهم تأمل أن تعود الى مكة فتستخرج هذه الكنوز وتعيد حفر البئر ، ولكنها لم تعد ، وظل الحال على ذلك حتى عهد عبد المطلب ، فأعاد حفر البئر ، فوجد هذه الكنوز من الصلب والذهب فضرب الأسياف باباً للكعبة وجعل من الغزاليين صفائح ذهبية غطى بها هذا الباب ، وفي الركن الجنوبي الشرقي للكعبة من الخارج يقع الحجر الأسود ، وهو مبدأ الطواف ، ويرتفع عن الأرض بمقدار متر ونصف متر تقريباً .

ولما أتم إبراهيم بناء الكعبة هتف مناجياً ربه « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات » (١) . فاستجاب الله لدعائه ووجهه لتحقيق ذلك بقوله : « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » (٢) فأذن إبراهيم بالحج واستجاب له الناس ومنذ ذلك الحين والناس يفدون حاجين ملبين من مختلف البلاد ومختلف النواحي .

وكانت الشعائر الدينية في أول الأمر تؤدي في الكعبة ، ثم ضاق هذا البناء الصغير بزواره والحاجين إليه ، ولذلك اصطاح العرب منذ عهد طويـلة على اتخاذ جزء من الأرض حول الكعبة ليكون مكاناً للشعائر الدينية ، و قدسوا هذا الجزء وسموه حرماً ، ولما جاء الإسلام وفرضت الصلاة كانت الصلاة تؤدي في هذا الجزء ، ولذلك سمي المسجد الحرام ، وقد ظل ذلك الجزء من الأرض فراغاً لا يحيط به سور حتى عهد عمر بن الخطاب وكانت تحيط به دور من أكثر جهاته (٣) .

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٧

(٢) سورة الحج الآية ٢٧

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ٧١

وفي عهد عمر أصبح واضحاً أن هذا المكان لم يعد يتسع لوفود الحجاج التي تأتي من كل حذب وصوب من العالم الإسلامي ، فرأى عمر ضرورة توسيعه كما رأى ضرورة فصله عن هذه الدور بإقامة جدار يحيط به فاشترى عمر دوراً وهدمها وزادها فيه ، واتخذ للمسجد جداراً دون القامة ^(١) .
وابتاع عثمان منازل أخرى وأدخلها في المسجد واتخذ له الأروقة .
ولما احترقت الكعبة في عهد عبد الله بن الزبير هدمها هذا وأعاد بناءها وأدخل فيها حِجْرَ إسماعيل ^(٢) .

ولما انتصر الحجاج على ابن الزبير بعد أن استعمل المنجنيق الذي زلزل جدران الكعبة والمسجد الحرام أمره عبد الملك أن يعيد بناء الكعبة والمسجد الحرام ، ففعل الحجاج ولكنه رد الكعبة إلى أصلها قبل أن يبنها ابن الزبير فأخرج الحجر منها ^(٣) .

وعنى الخلفاء والملوك والسلاطين بالكعبة والمسجد الحرام ، في جميع العصور حتى العهد الحاضر وكانت مصر منذ عهد شجرة الدر تقدم كسوتها كل عام ، وفي عهد جمال عبدالناصر حصل خلاف بينه وبين المملكة السعودية كان من نتائجه أن اضطلعت المملكة العربية السعودية بإعداد هذه الكسوة .
ويهتم ملوك المسلمين ورؤساؤهم جميعاً بتعمير البيت الحرام وتحسينه ^(٤) .
حكومة مكة :

لم تكن مكة منذ هتف إبراهيم بالحج واستجاب له الناس مأسكا للمكيين ، وإنما كانت مكاناً مقدساً لدى العرب جميعاً ، ومن هنا نجد السلطة في مكة متصلة بالسلطات في نواحي الجزيرة العربية كلها ، أو بعبارة أخرى نجد العرب جميعاً يتفقون على شيء يهيء لهم فريضة الحج في أمن وبسر ، فاتفقت

(١) المرجع السابق في نفس الصفحة .

(٢) الأزرق ، أخبار مكة ص ١٤٣ .

(٣) البلاذري ص ٥٩ - ٦٠ .

(٤) انظر الحديث عن مدى الاهتمام بالبيت الحرام في الجزء السابع من هذه الموسوعة .

كلمة العرب على تحريم القتال في الأشهر الحرم وهي الشهور التي يفد فيها العرب إلى مكة حاجين أو معتمرين ، أو يقفلون منها إلى بلادهم ، وهذه الشهور هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم للحج ، وشهر رجب للعمرة ، ويروى الطبري ^(١) أن قصي بن كلاب عندما أراد أن يعود من الشام ليلحق بأعمامه وأسرتة بمكة قالت له أمه : يا بني لاتعجل بالخروج حتى يدخل عليك الشهر الحرام فتخرج في حاج العرب فلما أخشى عليك أن يهيبك بعض الناس . فأقام قصي حتى إذا دخل الشهر الحرام خرج حاج قفصاة فخرج معهم ...

وبجانب الأشهر الحرم اتفق العرب على تحريم القتال عند حرم مكة دائماً ، وقرروا أن من دخل الحرم كان آمناً ، ومن هنا كانت الأسواق الأدبية والتجارية تقام حول الحرم دون أن يمس المشتركين فيها سوء ، إذ كان ذلك باتفاق الجميع لمصلحة الجميع ، ولما وقعت الحرب بين قريش وكنانة وبين قيس على حدود الحرم سميت حرب الفجار لأنها مست حرمة البيت ، ولذلك عقدت قريش بعد الصلح حلف الفضول الذي تحالف فيه بنو المطلب وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تميم ' ألا يجحدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى تُردَّ عنه مظلمته ، وقد تم هذا الصلح في دار عبد الله بن جدعان وحضره الرسول وكانت منه حوالي عشرين سنة . وعنه يقول . . . لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لي به حمر النعم : ولو دعيت مثلثه في الإسلام لأجبت . . . ويعتبر هذا الحلف استرداداً لمكانة الحرم ، تلك المكانة التي كانت قد أصيبت بضربة في حرب الفجار .

وتحريم القتال في الأشهر الحرم وفي مكة نظام قديم لعله يرجع إلى العهود الأولى لتشريع الحج :

تلك كانت الصلة بين السلطة في مكة وبين السلطات المختلفة بالجزيرة العربية ونعود بعدها للحديث عن السلطة في مكة وفي يد من كانت .

لقد عرفت مكة أول ما عرفت قبائل من العماليق ، ولم تكن لمكة في ذلك الحين مكانتها المقدسة فإن ذلك كان قبل عهد إسماعيل ، ونزح إلى مكة أيضا قبائل من جرهم ، وسكنوا مع العماليق فيها ، ثم غلبوهم عليها وأخرجوهم منها وخلص لجرهم الأمر في مكة ، وفي هذه الأثناء وفدت هاجر ومعها إسماعيل ، ولما شب إسماعيل اتصل بجرهم وتزوج منهم ، وبني البيت هو وأبوه كما مر ذكره ، وتكونت حكومة مكة لحماية الحبيج والسهر على مصالحهم ، ويبدو أنه كان للجراهمة أمور السياسة وتفرغ إسماعيل لخدمة البيت وأمور الدين ، وكان ذلك شبه أساس للوظائف التي ظهرت واضحة فيما بعد وهي السقاية والرفادة واللواء وكانت لقادة جرهم ، أما الحجابة فكانت لإسماعيل .

وبعد لإسماعيل زاد ثراء جرهم فانغمسوا في الملاذ ونسوا واجباتهم الدينية ، وأهملوا السهر على بئر زمزم وعلى البيت الحرام حتى نصب ماء البئر ، ففكرت خزاعة - وكانت قد حلت بمكة - أن تستولي على السلطة من جرهم ، ولما ينس مضاض بن عمرو الجرهمي من إيقاظ قومه التي بيئر زمزم ميوفاً ودروعا من الصلب وغزالتين من الذهب كانتا بالكعبة وأهال التراب عليها كما سبق القول ، وخرج هو وقومه آملاً أن يعود لمكة يوماً ليستخرج هذه الذخائر ، وكان خروجه حوالى سنة ٢٠٧ ق.م ومنذ ذلك التاريخ استولت خزاعة على مكة وخلصت لها وظائف الكعبة كلها ما كان منها متصلاً بالرياسة السياسية أو الرياسة الدينية^(١) . وظلت الحال

(١) انظر كتاب الأصنام لابن الكلبي ص ٨ .

كذلك حتى سنة ١٤٠ هـ حين انتقلت السلطات إلى قريش التي كانت قد نزحت إلى مكة نبل ذلك فأصبحت أمور الكعبة كلها في يد قصي بن كلاب الجلد الرابع للرسول ، وانتقلت السلطة من قصي إلى أولاده على ما سيأتي تفصيله فيما بعد .

وكانت أم قصي قد انتقلت به وهو طفل بعد موت أبيه كلاب من مكة إلى الشام لتعيش مع زوجها الجديد ربيعة بن حرام ، فشب قصي بالشام لا يعرف له أباً غير ربيعة حتى نما ، ثم عبّيره بعض بني ربيعة بأنه ليس منهم ، فسأل أمه ، فقالت له : إنك يا بني أكرم منهم نسباً وأنت ابن كلاب ابن مرة وأهلك بمكة ، فرحل لهم كما سبق القول ، وهناك تزوج فتاة من خزاعة كان لأبيها السلطان على الكعبة ، وقدمه له هذا الزواج أن يستولى على السلطان بعد موت هذا الأب ، والتف حوله قومه لما رأوا فيه من مروءة وشهامة ونصروه على خزاعة فخلص له الأمر .

وقصيّ هذا هو الذي بنى دار الندوة ليجتمع فيها أهل مكة للتشاور فيما يهمهم تحت إشرافه ، وهو الذي رتب وظائف الكعبة وحدد مدلولاتها وهذه الوظائف هي .

السقاية : كان الماء عزيزاً بمكة بعد ردم بئر زمزم (أعاد عبد المطلب حفرها فيما بعد كما قلنا آنفاً) فكان من يلى أمر السقاية يحضر الماء من آبار بعيدة ويضعه في حياض ويحلبه بشيء من التمر والزبيب ليشرّب منه الحجاج .

الرفادة : وهي تقديم طعام لغير القادرين من الحجاج ، ويروى أن قصياً فرض على قريش أن يقدم كل منهم شيئاً إليه ليصنع طعاماً للفقراء الحجاج ، وقال قصي في ذلك . . يا معشر قريش ، إنكم جيران الله وأهل بيته ، وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته وهم أحق الضيف بالكرامة ،

فاجعلوا لفقرائهم شرابا وطعاما أيام هذا الحج حتى يصدروا عنكم . ففعلوا ،
فكانوا يُخرجون لذلك كل عام جزءاً من أموالهم فيدفعونه إليه ، فيصنعه
طعاماً للناس (١) !

اللواء : الدعوة إلى الحرب برفع راية فوق رمح ويتبعها قيادة الجيوش .

الحجاجة .. وهى خدمة الكعبة وتولى مفاتيحها .

وبعد قصي انتقلت وظائف الكعبة إلى ابنه عبد الدار لسكبر سنه مع
أن عبد مناف بن قصي كان أعظم منه ذكراً وأعلى شأنًا بين أئداده ،
ولذلك نجد أبناء عبد مناف يريدون أن يأخذوا لأنفسهم هذه الوظائف من
أبناء عبد الدار وانضمت بعض قريش إلى أبناء عبد مناف وانضم آخرون
إلى أبناء عبد الدار وأوشكت أن تقع بينهم حرب طاحنة لولا نجاح بعض
المساعى التى قسمت وظائف الكعبة بين هؤلاء وأولئك ، فأعطت السقاية
والرفادة لأبناء عبد مناف وأعطيت الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار .
وقد تولى هاشم بن عبد مناف حينذاك السقاية والرفادة وتولاها بعده أخوه
المطلب ثم عبد المطلب بن هاشم ، وفى عهد عبد المطلب عز شأنه وذاع
صيته وأصبح مرجع كل الأمور بمكة ، وفى عهده كذلك حاول أبرهة
الحبشى هدم الكعبة على ما سنوضحه فيما يلى :

عام الفيل :

أوضحنا من قبل أن الحبشة كانت قد استولت على بلاد اليمن ، وأن
الأمر آل إلى أبرهة بعد أن فتك بأرياط ، قائد النجاشى ، ولما رأى أبرهة
غضب النجاشى عليه لفتكه بأرياط أراد أبرهة أن يرضى النجاشى فكتب

إليه يقول : « سأبني إليك كنيسة لم يبن مثلكها أحد قط ، ولست تتركها العرب حتى أصرفهم لها عن بيتهم الذي يحجون إليه »^(١) ويبدو أن أبرهة أراد أن يهدئ ثورة النجاشي ، أما اتجاهه الحقيقي فكان سياسياً أكثر منه دينياً ، فقد هاله تقديس العرب لمكة وسيرهم إليها في إجلال وطاعة حاملين الهدايا والهبات إلى سكانها ، ولذلك عزم على أن يبني بيتاً أعظم من الكعبة وأن يدعو الناس إلى أن يحولوا وجوههم ومزارهم إليه ، فبنى كنيسة مماها «القليس» زينها بالرخام وجيد الخشب المذهب ، وكانت مرتفعة البناء بحيث يشرف المظل منها على مدينة عدن ، واستدل أبرهة في بنائها أهل اليمن وجسمهم أنواعاً من السخر ، ونقل إليها من قصر بلقيس الأعمدة من الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب ونصب فيها صليباناً من الذهب والفضة ، ومنابر من العاج والأبنوس ، ودعا الناس إلى الحج إليها^(٢) فغضب العرب ، وثار رجل من بني مالك بن كنانة وأقسم ليعبث بهذه الكنيسة ، وقدم اليمن ودخل الكنيسة كأنه متعبد حتى إذا أظلم الليل وخلا المكان قام يعبث بأثاث الكنيسة ويلطخ جدرانها بالقاذورات . ولما علم أبرهة في الصباح بما أصاب كنيسه من العدوان ، وعرف أن عربياً كان يبيت بها وأنه المتهم بالعبث بالبناء المقدس ، حلف ليهدم الكعبة ، وسار في جيش كبير من الأحباش سيّراً أمامه القبيلة ، حتى حط رحاله بالقرب من مكة .

كان سيد مكة في هذا الوقت عبد المطلب بن هاشم جد الرسول صلوات الله عليه ، وقد أخذ أبرهة إبلاً يملكها عبد المطلب كانت ترعى عند مكان نزل فيه أبرهة بالقرب من مكة وأرسل إليه يطلبه ، فلما جاء عبد المطلب قال

(١) ابن الكلبي : كتاب الأصنام ص ٤٦ - ٤٧

(٢) انظر كتاب الأصنام لابن الكلبي ص ٤٦ - ٤٧ وانظر تعليق المحقق بهامش صفحة ٤٦ ، ويضيف صاحب الروض الآن أن هذه الكنيسة أنقذت عقب تلاشي ملك الحبشة من اليمن ، ، وأن بقية أنقاضها بيعت في عهد أبي العباس السفاح بواسطة عامله على اليمن ، وعفا بذلك رسمها ودرست آثارها .

له أبرهة : إني لم أجيء لحربكم بل جئت لأهدم هذا البيت ، فإن تعرضتم لي حاربتكم ، وإلا فلا حاجة لي في دماءكم .

قال عبد المطلب : لا قوة لنا في التعرض لك ، والذي أطلبه منك أن ترد على إيلي التي أخذتها .

قال أبرهة : كنت هبتك حين رأيته ، ثم زهدت فيك حين كلمتني ، أتكلمني في شأن الإبل ؟ وتترك البيت الذي هو دينك ودين آبائك ؟ .

قال عبد المطلب : أما الإبل فهي لي ، وأما البيت فله رب يحميه .

وعرض عبد المطلب على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع دون أن يهدم البيت ، فأبى أبرهة وأصر على هدم هذا البناء . فعاد عبد المطلب وطاق بالبيت منشداً والناس يرددون :

يا رب لا أرجو لهم سواك يا رب فامنع منهم حماكا

إن علو البيت من عاداكا

واستجاب الله لهُتاف عبد المطلب ، ويحكي القرآن الكريم نهاية أصحاب الفيل في الآيات الكريمة : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ ألم يجعل كيدهم في تضليل ؟ وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول »^(١) .

وكانت حادثة الفيل كبيرة الأهمية عند العرب فأخذوا يؤرخون بها أحداشهم ، وفي عام الفيل ولد محمد صلوات الله عليه .

غير مكة في الحجاز :

بجانب مكة كانت هناك في الحجاز مدن أخرى أهمها الطائف ويثرب

(١) سورة الفيل .

ولإذا كان البيت الحرام أكسب مكة نوعاً من الاستقرار فلإن غزارة الماء وخصوبة التربة في يثرب والطائف جعلاً مكانهما يشتغلون بالزراعة وغرس الأشجار بما سبب لهم الاستقرار أيضاً ، ولقد لعبت يثرب فيما بعد أعظم دور في تاريخ الإسلام ، ففيها وجد محمد الحماة ، ومنها انتشر الإسلام ، ولعبت الطائف كذلك دوراً هاماً ، فقد أخرجت لدولة الإسلام مجموعة كبيرة من القادة ، كالغزيرة بن شعبة ، وزيد ، والحجاج ، ومحمد بن القاسم ، وهذه المدن الثلاث هي التي استقرت على الإسلام يوم انتشرت الردة والتنبؤ وكبر الضلال عقب وفاة الرسول ، ومنها خرجت الجيوش التي أعادت الحق إلى نصابه وفهرت الباطل .

ولسكة على العموم مكانة خاصة بين مدن الحجاز ، ولذلك أطلق عليها القرآن الكريم « أم القرى » إشارة إلى ذلك ، قال تعالى : « وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها » (١) .

اقتصاديات العرب وتجارة قريش

إن مصادر الثروة الشهيرة هي الزراعة والصناعة والمعادن والتجارة ، وقد عُرِفَت هذه المصادر في الجزيرة العربية .

أما الزراعة فارتبطت بالأمطار ، والأمطار قليلة بالجزيرة ، ويحدث جفاف قاتل أحياناً ، ولكنها أحياناً تهطل بغزارة شديدة حتى تهدد الكعبة المشرفة كما حدث سنة ١٩٦٩ ، وكما حدث قبل ذلك عدة مرات ، والأمطار تخلف فيضاً من المراعي ، ويزرع البدو عليها الشعير والقمح ، ومع كثرة المراعي تنمو الأغنام وتكثر ، كما تنمو الإبل ويتكون منها جزء كبير من مصادر الثروة عند العرب .

(١) سورة الأنعام الآية ٩٢ .

وتكثر الوديان في الجزيرة ، وتوجد مع الوديان سيول تفسمن زراعة بعض الحاصلات من حين إلى حين .

ومنطقة المدينة والطائف غنية بالمرروعات ، وتكثر الفواكه في الطائف كثرة واضحة ، أما في اليمن فتسقط الأمطار بانتظام ، وتزرع الأرض بالتالى زراعة منتظمة .

ويكثر النخيل في الحجاز ، والقمح في اليمن ، واللبان في مهرة ، والصمغ في عسير ، والكروم في الطائف . أما عمان فتلعب الأفلاج (الينابيع الجبلية) فيها دورا مهما ، وتنحدر الأفلاج من الجبال فتروى مزارع النخيل الفسيحة ، كما ينبت بها أنواع من الحبوب ، وقد رأيت الأفلاج في زيارتي لعمان في نوفمبر سنة ١٩٨٠ وشربت من مائها العذب المصفى ، ورأيت انسياها بين الحقول حيث تملأ الأرض خيرا وبركة

أما الصناعة في الجزيرة العربية فكانت قبل انبثاق البترول ترتبط بالصوف والوبر ، وكانت صناعة الصوف والوبر يدوية ، وقد اشتهر المغزل والنسيج عند العرب وكان ذلك من مصادر الثراء ، يروى أن الوضين بن عطاء زار أبا جعفر المنصور ، فسأله هذا عن عياله فقال الوضين : ثلاث بنات والمرأة . فقال المنصور : أربع نساء في بيتك ؟ وكررها ثلاث مرات حتى ظنّ الوضين أن المنصور سيكثر عطاءه ، ولكن المنصور رفع رأسه وقال : أنت أيسر العرب ، أربع مغازل يدرن في بيتك^(١) .

وهناك أيضا صناعة الآلات الحربية والتماثيل ، وهناك صناعات ارتبطت بالحاصلات الزراعية كصناعة النيد والصناعات المرتبطة بالنخيل .

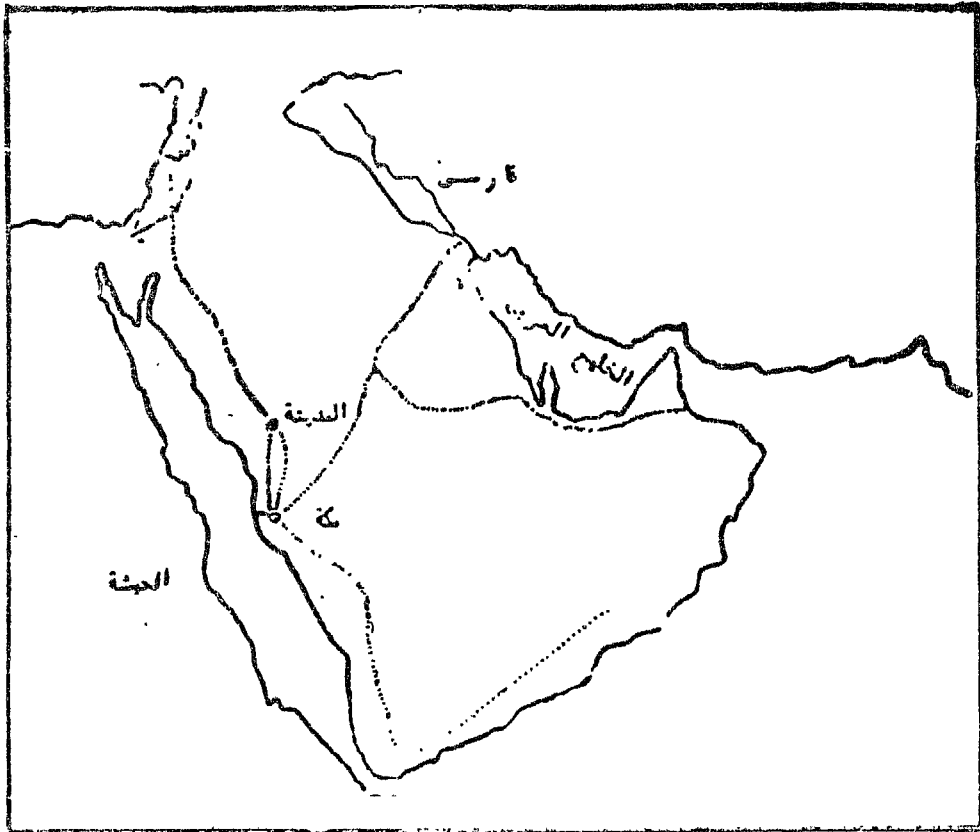
وأما المعادن فقد عرفت الجزيرة العربية استخراج اللؤلؤ من منطقة عمان والبحرين على خليج عمان والخليج العربي ، ووجدت كذلك مناجم للملح في بعض البقاع ، وظلت هذه معادن الجزيرة حتى انبثق البترول فكان أعظم مصادر الثراء . على أن أهم مصادر الثروة عند العرب قد ارتبطت بالتجارة . وقد

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ١٠

اشتهر العرب في الجاهلية بالتجارة شهرة واسعة حتى قيل « إن كل عربي قاجر » وكانت الجزيرة العربية تمثل بحراً واسعاً تخترقه قوافل الإبل في شبه مجموعات من السفن تمخر عباب البحر الفسيح ، وقد حلت هذه القوافل محل الملاحة بالبحر الأحمر الذي كانت الملاحة فيه عسيرة كما ذكرنا من قبل .

ومن الطبيعي أن طرق القوافل في الجزيرة العربية كانت تتبع المسالك المعروفة حيث تتوافر آبار المياه على طول الطريق ، وحيث يكون الطريق آمناً لكثرة من يطرقه من الناس ، وعلى هذا كان هناك طريقتان رئيسيتان للقوافل أحدهما من الشمال إلى الجنوب غير بعيد من البحر الأحمر ، وهو في الشمال يتفرع إلى الشمال الشرقى تجاه سوريا ، وإلى الجنوب الغربى تجاه فلسطين ومصر ، وهو في الجنوب يسير شوطاً مع ساحل حضرموت ، أما الطريق الثانى فهو يخترق الجزيرة العربية من البحر الأحمر إلى الخليج العربى ماراً بمكة . ويتفرع في قلب الجزيرة فرعين يتجه أحدهما إلى الشمال الشرقى فيصل شط العرب ، ويتجه الآخر إلى الجنوب الشرقى ويسير هذا مع الخليج العربى ماراً بدين ومسقط وظفار . (انظر الخريطة رقم ٢) .

وقد تحدثنا من قبل عن النشاط التجارى في اليمن في عهد مملكتى سبأ وحبر ، وقلنا إنه كان يشمل نشاطاً بحرياً إلى الهند والصين وسومطرة ، ونشاطاً برياً داخل الجزيرة العربية ، ولما وقعت اليمن فريسة الاستعمار الحبشى ثم الفارسى استطاع المستعمرون أن يسيطروا على النشاط البحرى ، الذى انكمش انكماشاً ظاهراً ، أما النشاط البرى داخل الجزيرة فقد انتقل إلى مكة لأن نفوذ القوى الأجنبية لم يستطع قط أن يمتد إلى قلب الجزيرة كما سبق القول .



(الخريطة رقم ٢) الطرق التجارية بالجزيرة العربية

وهناك عوامل ساعدت مكة لتلعب هذا الدور ، فقد هاجر إليها في ظروف متعددة كثير من اليمنيين الذين لهم خبرة واسعة بهذه الحركات التجارية ، ثم إن شهرة مكة الدينية كانت تنمو يوماً بعد يوم بسبب وجود البيت المقدس بها وتوافد الحجاج عليها كل عام ، وقد هيا ذلك لقريش احترام العرب وإجلالهم وبخاصة أن قريشاً كانت تحسن استقبال الحجاج وتعنى بخدمتهم وإكرامهم وتشكل بمحبتهم ، وموقع مكة في منتصف الجزيرة العربية تقريباً بين الشمال والجنوب قوى هذه العوامل ، كما قواها أيضاً أنها في مكان قاحل قليل الماء عديم الزرع مما جعل أهلها يهتمون بالتجارة كمصدر رئيسي من مصادر رزقهم .

وكانت عبر قريش تحمل من صنعاء ومن موافى اليمن الطيب والبخور والمر والصمغ العطرة والأخشاب الزكية والعاج والأبنوس وجلود الفهود واللبان والذهب والمجوهرات والأرقاء والعاج والمنسوجات الحريرية والمعادن والأسلحة والتوابل ، وبعض هذه الأشياء من منتجات اليمن وبعضها مما يرد إلى الموانئ من إندونيسيا والصين والهند أو من إفريقية عبر باب المنذب ، وكانت العبر تحمل هذه البضائع إلى أسواق الشام ، إذ كان الطيب والبخور من أهم ما تعنى به المعابد والكنائس والقصور الواقعة في بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط وفي الهلال الخصيب ، ولذلك كانت تلاقى رواجاً كبيراً ، وكانت هذه الإبل تعود من مصر والشام حاملة القمح وزيت الزيتون والحبوب والمنسوجات .

أما الخط التجاري الذي يخترق الجزيرة العربية من الشرق إلى الغرب . فقد كان اللؤلؤ المستخرج من الخليج العربي وتوابل الحبشة من أهم السلع به .

ومن الطبيعي أن تقوم على طول هذه الطرق التجارية مجموعة من الأسواق تنزل بها القوافل التجارية ، ويقبل إليها سكان هذه المناطق والمناطق

التي تجاورها بسمعهم ، ويقوم بين الطرفين تبادل تجارى ترحل بعده القوافل ببعض ما تنتجه هذه المناطق ، ويعود سكان هذه المناطق ببعض ما كانت تحمله هذه القوافل مما يحتاجون إليه ولا تنتجه بلادهم ، ومن أهم هذه الأسواق سوق دني ، وسوق عدن ، وسوق الراية بحضرموت وأسواق عكاظ وذى الحجاز ومجنة في منطقة مكة ، وسوق حباشة بمنطقة تهامة ، وإليه أرسلت السيدة خديجة محمداً صلى الله عليه وسلم ، قبل البعثة في تجارتها^(١) .

وكان بنو عبد مناف الأربعة يتوجهون إلى الجهات الرئيسية الأربعة التي كانت تتجه لها تجارة قريش ، فكان هاشم يتجه للشام ، وعبد شمس إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن ، ونوفل إلى فارس ، وكان تجار قريش يذهبون إلى هذه البلاد في ذمة هؤلاء الإخوة الأربعة لا يتعرض لهم أحد بسوء^(٢) ، على أن رحلتى الشمال والجنوب كانتا أكثر انتظاماً وأعظم نشاطاً ، ولهذا وردتا في القرآن الكريم : « لإيلاف قريش ، لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف »^(٣) وكانت رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام ، ويروى الطبرى^(٤) : « أنه هشام هو أول من سن لقريش رحلة الشتاء ورحلة الصيف » . والمعتقد أنه كانت هناك رحلات إلى الشمال والجنوب قبل هشام ولكن هشام جعلها منتظمة لا تختلف ولا تتخلف .

وقد سببت هذه التجارة أرباحاً كثيرة لعدد كبير من أفراد قريش كأبي سفيان والوليد بن المغيرة وغيرهما ؛ على أن هناك ربما أدبياً كبيراً حصلت عليه قريش من جراء هذه التجارة ، وهو دراسة سياسة البلاد التي تجرى معها للتجارة ومعرفة أحوالها الاجتماعية ، وقد أدى ذلك إلى تطور فكرى في هذه القبيلة . فلم تعش بمعزل عن الحضارات التي كانت تحيط بها في الشمال والجنوب .

(١) انظر الحديث عن هذه الأسواق بمجمع البلدان لياقوت وانظر الشعراء الصالحين في العصر الجاهل للدكتور يوسف خليف ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٢) الطبرى ج ٢ ص ١٢ ، ١٣ وسبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ص ٢١٥ .

(٣) سورة قريش .

(٤) تاريخ الأمم والملوك ج ٢ ص ١٢ .

الاتجاهات الاقتصادية

في المجتمع العربي قبل الإسلام

تحدثنا من قبل عن مصادر الثروة عند العرب ، وابتداء من الطبعة السابعة لهذا الكتاب أسعدني أن أوردت دراسة عن الاتجاهات الاقتصادية في المجتمع العربي قبل الإسلام ، وقد أهمل الباحثون السابقون الحديث عن هذه الاتجاهات ، فخلت منها الموسوعة الكبرى التي كتبها الدكتور جواد علي عن تاريخ العرب قبل الإسلام ، مع أن المؤلف أسهب في الحديث عن أديان العرب ، وأوثانهم وقبائلهم وتاريخهم السيامي ، وعاداتهم ، وحروبهم ويكاد ذلك ينطبق على المؤلفات الأخرى عن ذلك العصر . ولكن إذا جاز ذلك في الماضي ، فإننا لا نستطيع الآن أن نغفل مثل هذه الدراسة لأن التيارات الاقتصادية في العهد الحاضر تحرك العالم وتجعله يعيش على فوهة بركان يوشك أن ينفجر ، وكلمات الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية تملأ الآفاق ، فجدبر بنا أن نتعرف على الاتجاهات الاقتصادية عند العرب قبل الإسلام لتعرف موقف العرب آنذاك من دنيا المال ، فلا شك أن ذلك الموقف كان شديد التأثير على موقفهم من الإسلام عندما جاء الإسلام .

ومن الواضح أن هذه الدراسة تستلزم كثيراً من الجهد وتحتاج لاطلاع واسع ، ولكن النتيجة التي يحصل عليها الباحث تزيل أثر الجهد ، وتمنح كثيراً من السعادة :

وقد تبين لي من البحث الطويل الذي قمت به أن الجزيرة العربية - في مجال الاتجاهات الاقتصادية - تنقسم قسمين رئيسيين :

١ - مناطق عربية، قل أو انعدم فيها التأثير بالفكر الخارجي ، وتمثل

هذه في مناطق البدو بقلب الجزيرة وفي بعض جهات الساحل التي لم تجذب لها غير العرب .

٢ - مناطق عربية كانت شديدة الاتصال بالفكر الخارجى .

وسنقوم بدراسة كل من هذين القسمين على حدة :

١ - المناطق العربية التي لم تتأثر بالفكر الخارجى :

المناطق العربية التي لم تتأثر بالفكر الخارجى أو كان تأثيرها به محدوداً هي مناطق البدو وتوجد بشكل خاص في قلب الجزيرة العربية ، وقلب الجزيرة العربية يتكون من سلاسل من الجبال المرتفعة ، بينها بعض الوديان ، وهو قليل الأمطار ، سكانه رحل يبحثون عن مناطق الأمطار ، أو منابع الماء ، ويعتقون حولها يرعون العشب ويشربون الماء حتى ينفد العشب ويجف الماء ، وحينئذ يبحثون عن مكان آخر ، وهكذا ، ويعيش في هذا القسم قبائل العرب في ظل ما يعرف بالعصية القبلية ، تلك العصية التي تجمل من القبيلة وحدة متماسكة ومتميزة عن سواها من القبائل ^(١) ، وقد تصادف القبيلة واحة لا يجف منها الماء ، وحينئذ تستقر بهذا المكان .

وقلب الجزيرة العربية يمثل حقيقة الفكر العربى ، والبدو في قلب بخزيره حفنوا أسمي مراحل أنشأته ^(٢) الاقتصادية فيما بينهم ، فاقسموا - بنوع واضح من العدالة - مصادر الثراء الضئيلة التي قدمتها لهم الطبيعة ، - اقتصمت القبائل التي تعيش في عمان ما يحصل عليه رجالها من لؤلؤ وأسماك ، واقسمت القبائل الأخرى مناجم الملح وبلع النخيل والمراعى ومزارع الشعير

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٦٥ .

(٢) آفرنا في هذا البحث أن نسمي كلمة « مشاركة » بدل كلمة « اشتراك » إذ أصبح لهذه الكلمة الأخيرة معنى اصطلاحى خاص .

ولبان مهرة وصمغ عسير ، وهناك عوامل ثلاثة حققت المشاركة في هذه المجتمعات الحربية الأصيلة ، وهذه العوامل هي :

١ - القبيلة وتكوينها .

٢ - جماعات الصعاليك واتجاهاتها الاقتصادية .

٣ - الكرم العربي ومدلوله الاقتصادي .

وستنكلم عن كل من هذه العوامل كلمة تشرح مكانه في خلق الاتجاه الاقتصادي بهذه المناطق .

القبيلة العربية والاتجاهات الاقتصادية في حياتها :

تقوم الهيئة الاجتماعية عند البدو على نظام العشيرة ، ووحدتها الأسرة التي تمثل الواحدة منها الخيمة أو البيت ، والحي عبارة عن مضرب الخيام ، وأعضاء الحي يطلق عليهم لفظ قوم ، وتتألف القبيلة من أقوام أو عشائر تربطها أواصر النسب ، وينظر أبناء العشيرة الواحدة بعضهم إلى بعض كأبناء دم واحد ، وهم يؤدون الطاعة لرئيس واحد هو شيخ القبيلة ، .. ويرجع اسم العشيرة في الغالب إلى الجد الأعلى الذي تنسب إليه ، فيقال بنو نعيم أو بنو شيان وهكذا (١) .

والذي يعنينا من هذا التكوين أن نصل إلى حقيقة هامة جداً هي أن ثراء القبيلة هو ملك للقبيلة ، شركة مشاعة ينتفع الجميع بها بمقدار حاجتهم ، ويعمل الجميع لتنمية هذا الثراء بمقدار طاقتهم ، ويذكر Philip Hitti (٢) أن الخيمة وما بها من أثاث لا قيمة له ، ملك لصاحبها ، أما الماء والمرعى والأرض التي يستنبت منها القمح أو الشعير فهي ملك شائع للقبيلة كلها .

(١) فزاد حمزة : قلب الجزيرة العربية ص ١٢٢ .

(٢) Philip Hitti : History of the Arabs p. 26

صحيح أن للقبيلة رئيساً ، ولكن إذا لاحظنا دوافع اختيار الرئيس ومسئوليته ، وجدنا أنه كان يُعَدُّ ركناً هاماً من أركان شركة الشيوخ التي ذكرناها آنفاً ، فالرجل يختار لرياسة القبيلة إذا توافرت فيه صفات ثلاثة : الكرم والشجاعة والحلم ، والكرم أبرزها ، فالعربي حين يقصد الناس رفقته يحس أنه صار ركناً مكيناً من أركان المجتمع في القبيلة ، أو في أحياء العرب ، يلجأ إليه المرملون والضعفاء وطلاب الحاجات ، وأنه سائر في طريق المجد الذي يوصله إلى سيادة قومه ورياستهم ، فإذا وصل إلى تلك المنزلة حافظ عليها ما وسعه جهده وماله بالبدل وإرضاء الناس ، فيحمل الكُلَّ ويغيث الملهوف ويفك العاني ، ويطعم الفقير ؛ وينتصف للمظلوم ، وذلك لأن السيادة لم تكن مبنية على الغلبة والقهر والاستبداد ، وإنما كان منشؤها الاحترام والإجلال ، لما يمتاز به الرئيس من صفات تدفعه إلى الصدارة في مجتمعه هذا ، ومن أقوى هذه الصفات الكرم لأن حاجة القوم إليه أشد ، فهم ينزلون الرئيس منزلة الوالد الذي يحنو عليهم ويرعى مشورتهم^(١) .

وقد ذكر عرابية بن أوس مقطوعة من الشعر يبين بها الأسباب التي جعلته سيداً في قومه قال :

وأصبحت في أمر العشيرة كلها كذى الحلم يُرَضَّى ما يقول ويعرف
وذاك لأنى لا أعادى سرائهم ولا عن أخى ضرائهم أتتكف
وإني لأعطي مسائلي ، وربما أكلف مالا أستطيع فأكلف

والدارس للحياة الاجتماعية لدى القبائل العربية يدرك أن مسئوليات رئيس القبيلة أكثر جدّاً من امتيازاته ؛ فهو كثير البذل والعطاء من نصيبه الذي يناله من ثراء القبيلة ، وهو يقود القبيلة في الحروب والغارات ويدود عنها العدوان ، وهو يحمي اللاجئين ويحلّم على الجاهلين ، ونظير ذلك يتحم

(١) عمر الدسوقي : الفتوة عند العرب ص ٦٨ - ٦٩ .

على أفراد القبيلة أن يطيعوا أمره وأن يستجيبوا لتوجيهه . بيد أن دوافع الحرية المطلقة والأناية المفرطة والأثرة ، كثيراً ما تتحرك في نفوس البدو فلا يخضعون لحكم يصدره رئيس القبيلة ، إذ لم يكن لرئيس القبيلة سلطان يرغم به أفرادها على خضوع لحكمه ، وكان للبدوى أن يتمرد على هذا الحكم ويهجر القبيلة كلها كما شرحنا ذلك من قبل ، وهكذا كانت مسئوليات رئيس القبيلة أوسع جداً من امتيازاته ، وما كان يمكن أن يكون له من ثراء وحوله جائعون أو محتاجون ، وقد عبّر الشاعر العربي عن ذلك بقوله :

وإن سيادة الأقوام عبء يضاق به ومطلبها جليل
أترهو أن تسود ولا تُهَيَّيْ وكيف يسود ذو الدعة البخیل؟

تلك هي صورة القبيلة العربية ؛ أمرة واحدة ، ثروتها شركة ، لا صيد فيها ولا مسود ، بل « سيد القوم خادهم » كما جرى بذلك المثل العربي ، ورئيس القبيلة يحمل من المسئوليات أضعاف ما ينال من امتيازات إن كانت له امتيازات .

هذا وينبغي هنا أن نشير إلى مظهر الحياة في البادية ومدى ما ينتشر بها من فقر وفاقة ، وما يؤدي له هذا الفقر من نتائج في المجال الاقتصادي ، فقد كانت البادية شحيحة قاصية ، فلم تجد الجماعات المنتشرة بها وسيلة لسد حاجات معيشتها إلا عن طريق الشيوع^(١) فكان هؤلاء يلتقطون غذاءهم ويتقاسمونه ، وكانت أدوات الإنتاج تتمثل في الأقواس والسهام والشباك وكلاب الصيد ، وكانت كلها مملوكة للقبيلة ملكاً عاماً ، فكان من الحق أن تكون ما تنوره من نتائج ملكاً عاماً أيضاً ، كما كان الغزو والغارة وهما من أركان البناء الاقتصادي في تلك الهيئة الاجتماعية يجلبان ثراء تقسمه

القبيلة كلها ، على أن مما ألزم اتباعَ هذا النظام الاقتصادي أنه لم يكن هناك فائض في السلع ، وكان الناتج لا يزيد عما تتطلبه الحياة ، ومن هنا لم يكن من الممكن أن يُدخِر شيء عند إنسان ويجوع إنسان آخر ، فقد كان الكل يعملون ويوزع الناتج على الجميع ، وتعرف هذه المرحلة في رأى علماء الاقتصاد بمرحلة الشيوعية البدائية^(١) .

٢ — جماعات الصعاليك واتجاهاتها الاقتصادية :

والصعاليك يسمون أنفسهم « الفتيان » ويسمى زعيمهم عروة بن الورد « الإخوان » وفي ذلك يقول :

ولا أترك الإخوان ما عشت للردى كما أنه لا يترك المساء شاربُهُ^(٢)

والحديث عن الصعاليك يقتضينا أن نعود مرة أخرى للكلام عن القبيلة العربية وعن عناصر تكوينها وظروف حياتها ، فقد قلنا إن القبيلة أسرة كبيرة ، وأن رئيسها يُختار من توافرت فيهم صفات الكرم والشجاعة والحلم ، وعليه مسئوليات أكثر من امتيازاته ، وليس له أن يرغم أفراد القبيلة على الخضوع لحكمه ، ولأى منهم أن يتمرد على قراره ويهجر القبيلة كلها .

ومن هؤلاء الذين هجروا قبائلهم لسبب أو لآخر تكونت في الجزيرة العربية جماعات لا يربط بينها الدم الذى يربط بين أفراد القبيلة بعضها البعض الآخر ، وإنما يربط بينها رباط مطلقه التمرد ، ثم يدعم هذا الرباط بعناصر اجتماعية واقتصادية هي المقصودة في هذا البحث كما سنرى ، ومن هذه الجماعات يتكون الصعاليك أو الفتيان بالجزيرة العربية .

(١) انظر كتاب « النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور وأثر الفكر الإسلامى فيها »

للمؤلف ص ١٧ - ١٩ .

(٢) ديوان عروة ص ١٥١

والناظر في أخبار هؤلاء الصعاليك ، المتتبع لظروف نشأتهم وحياتهم ، يستطيع أن يلاحظ في وضوح ثلاث طوائف مختلفة تتألف منها جماعاتهم وهذه الطوائف هي :

١ - طائفة « الشذاذ والخلفاء » الذين شذوا على الدستور القبلى وتمردوا عليه ، فخلعتهم قبائلهم وتبرأت منهم ، وطردتهم من حماها ، وقطعت ما بينها وبينهم من صلة ، وتحملت بهذا من العقد الاجتماعى الذى يربط بينها وبينهم ، والذى يصوره المثل العربى القديم « فى الجزيرة تشترك العشيرة » فأصبحت لا تحتل لهم جزيرة ولا تطالب بثأر لذنوب يرتكبه الآخرون ضدهم ، ومن هؤلاء حاجز الأزدي وأبو الطمحان القينى .

٢ - طائفة الأغربة السود الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم الإماء ، فلم يعترف بهم آبائهم العرب ، ولم ينسبهم إليهم ، لأن دماءهم خالطتها دماء أجنبية سوداء لا تصل فى درجة نقائها إلى درجة الدم العربى ومن هؤلاء تأبط شرا والشنفرى والسليك بن السليكة .

٣ - طائفة الفقراء المتمردين الذين تصعلكوا نتيجة للظروف الاقتصادية الصعبة التى كانت تسود المجتمع الجاهلى ويمثلهم عروة بن الورد^(١) .

ومن هذه الطوائف الثلاث تكونت جماعات الصعاليك ، وكلمة « الصعلكة » فى اللغة معناها الفقر ، ولكنها ذات مدلول أدق مع هذه الطوائف ، فهى معهم تفيد الاستعداد للغزو ، والتجرد للغارات ، والثورة ضد النظام القبلى السائد الذى يقوم على روابط الدم والنسب ، ويمكننا بذلك أن نرى فى ثورة البروليتاريا التى دق ناقوسها كارل ماركس فى القرن التاسع عشر عناصر مقتبسة من ثورة الصعاليك ضد القبائل^(٢) ولكن

(١) الدكتور يوسف خليف : الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى ص ٦٥ - ٦٦ .

(٢) انظر خاتمة البيان الشيوعى فى كتابه Isaiah Berlin بكتابه « Karl Marx »

الثورة العربية كان فيها نبيل العرب كما سئرى بعد قليل ، ولكن كارل
ماركس صيغ ثورته بالدم وجعلها مملوءة بالحق والضعيفة .

وقبل أن نتحدث عن خلق المشاركة عند الصعاليك ينبغي أن نتعرف
على أخلاقهم ، فقد كانت أخلاقهم واتجاهاتهم النفسية أسساً قوية لسياستهم
المالية :

من أبرز صفاتهم الشجاعة وعدم الخوف من الموت أو الرهبة منه ،
بل لأنهم يرون الموت أكرم من الخضوع الذى ثاروا عليه وأنفوا منه ،
يقول عروة :

فَلَمُوتٍ خَيْرٌ لِلْفَتَى مِنْ حَيَاتِهِ فَقِيراً ، وَمَنْ مَوْتٌ تَدْبُّ عَقَارِبَهُ (١)

ولماذا لا يقتحمون المعارك خشية الردى ، والموت بدهم الوديع المستقر
بين أهله ، وقد ينجو منه البطل الذى يخوض المعارك ، وقد عبر تأبط شرا
عن ذلك بقوله :

لعل الذى يخشون منه مواجههاً يصادفه فى أهله المتخلف (٢)
ولابد للإنسان أن يموت ، فإذا لم ينجى الموت اليوم فسيجيى غدا ،
يقول عروة :

فلئن فاز منهم للمنية لم أكن جزوعاً ، وهل عن ذاك من متأخر (٣)
وقد خلقت « الصعلكة » من هذه الجماعة قوة مناسكة متعاونة ،
للضعيف فيها حقه لدى القوى ، وحل عروة بن الورد من الصعاليك محل
رئيس القبيلة من القبيلة ، فأصبح يحس بما عليه من مسئوليات تجاه جماعته ،

(١) ديوان عروة ص ١٥١ .

(٢) الأغاني ج ١٨ ص ٢١٧ .

(٣) جهرة أشعار العرب ص ٢١٤ .

ومن أجل هذا لقب بعروة الصعاليك أو بأبي الصعاليك ، وكان يسعى للحصول على المال ليعين به محتاجاً ، أو يرد به ضرراً ، وهو في ذلك يقول :
دعيني أطوف في البلاد لعلني أفيد غنى ، فيه لذى الحق محملٌ
أليس عظيماً أن تلم ملمة وليس علينا في الحقوق معول^(١)

ومن أبرز ما اعتز به الصعاليك من خصال أنهم كانوا لا يتعرضون لأموال الفقراء ولا لأموال الأغنياء الأسخياء ، بل كانوا يتبعون الأغنياء المترفين ، وبخاصة البخلاء منهم^(٢) واعتبروا ما يحصلون عليه منهم حلالاً لهم غنموه بعد أن حرّموه ، فاستراحوا إلى أنهم يثأرون من الأغنياء والأشياء^(٣) .

ومن الصفات التي عرفت عن الصعاليك ، الكرم ، وقد برزوا في هذه الصفة إلى حد كبير حتى ضرب المثل بذلك ف قيل « كل صعلوك جواد^(٤) » ، وكان عروة بن الورد نظيراً لحاتم الطائي في جوده وكرمه ، وقد أثر عن عبد الملك بن مروان قوله : من زعم أن حاتمًا أسح الناس فقد ظلم عروة ابن الورد^(٥) .

الفلسفة الاقتصادية للصعاليك :

لم تكن الرابطة بين الصعاليك هي رابطة الدم والنسب كتلك التي تربط بين أفراد القبيلة ، وإنما كانت هناك عصبية جديدة تضم الصعاليك ، وهي عصبية اجتماعية تتخذ من اتجاهها الاقتصادي أهم أسسها ، وجميع الدارسين لحياة الصعاليك يواجهون هذا الاتجاه الاقتصادي بين أفراد هذه

(١) ديوان عروة ص ٣١ .

(٢) دكتور يوسف خليل : الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ص ٤٥ .

(٣) دكتور أحمد الخوق : الحياة العربية من الشعر الجاهلي ص ٣٠٠ .

(٤) الميداني : مجمع الأمثال ج ٢ ص ٩ .

(٥) الأضاني ج ٣ ص ٥٨٤ .

الجماعة ، ويعلمون هذا الأساس كواحد من أبرز الأسس التي التقت عندها هذه الطائفة ، فالدكتور أحمد الحوفي يذكر أنه « تبين من دراسة شعر الصعاليك أنهم دعاة إلى نوع من الاشتراكية العملية القسرية^(١) » والدكتور يوسف خليف يصف صعلكة عروة بن الورد بقوله : كانت الصعلكة عند عروة نزعة إنسانية نبيلة ، وضريبة يدفعها القوى للضعيف ، والغنى للفقير . وفكرة اشتراكية تُشرك الفقراء في مال الأغنياء وتجعل لهم فيه نصيباً ، بل حقاً يغتصبونه إن لم يُؤدَّ لهم ، وتهدف إلى تحقيق لون من ألوان العدالة الاجتماعية ، والتوازن الاقتصادي ، فالغزو والإغارة للسلب والنهب لم يعد عنده وسيلة وغاية ، وإنما أصبح وسيلة غايتها تحقيق نزعة الإنسانية وفكرة الاشتراكية^(٢) .

وقد وصل الصعاليك في الجاهلية إلى فكرة سامية وصحها الإسلام فيما بعد ، هي أن المال مال الله ، وأن مَنْ منحه الله الغنى عليه أن يرعى الفقير ، ويعطيه مما أعطاه الله « وآتوهم من مال الله الذي آتاكم »^(٣) ، ولكن بعض الأغنياء بالجاهلية أغضوا الطرف عن الفقراء ، وضمنوا بالمال ، وعاشوا وعندهم فائض وبجوارهم محتاج مظلوم ، ومن أجل هذا استباح الصعاليك أن يغيروا على أموال الأشياء فيأخذوا منها حقوقهم التي منعوها ظلماً وعدواناً ، ومن هنا كانت غاراتهم تنجهم إلى الأغنياء الأشياء ؛ فلم يكن من دستورهم أن يعترضوا ذوي الكفاف ولا ثراء الكرماء ، وقد رويت عن صعلوك متأخر هو الأحيمر السعدي مقطوعة شعرة جميلة تمثل اعتقادهم أن المال مال الله ؛ وأن لكلٍّ من خلق الله نصيباً فيه . وهو في هذه المقطوعة يعلن خجله من مخالفة ناموس الخالق الأعظم ، إذ يسير بحبل ليس به بعير ، ولإبل الله يزدهم بها الكون ، ويملك الأشياء أعداداً كبيرة منها ، وهاك جزءاً من هذه المقطوعة :

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهل ص ٣٠٤ .

(٢) الشعراء الصعاليك ص ٤٧ .

(٣) سورة النور الآية ٣٣ .

وإني لأستحي من الله أن أرى أمر مجبل ليس فيه بعير
وأن أسأل الجبس اللثيم بعيره وُبران ربي في البلاد كثير ^(١)

وقد اتخذ الصعاليك هذا الاتجاه دستورهم كلما حصلوا على مال ، فقد كانوا حريصين على المنح بسعة . وتوزيع ما حصلوا عليه على كل المحتاجين منهم ، بحيث لا ينال واحد منهم أكثر من سواه ولو كان في هذا التقسيم ما يمس به سوء ، وقد صرخ أبو الصعاليك عروة بن الورد في وجه أحد الأغنياء بمقطوعة رائعة تشرح هذا الاتجاه ، وفي هذه المقطوعة بسخر عروة من الغنى لأنه حين زاد ثمنه في حين ظهرت النحافة على عروة ، وليس ذلك إلا لأن طعام عروة ينقسم مع كثيرين ، ولكن طعام الغنى للغنى فقط ، وينقسم هذه المقطوعة أروع ختام حين يعلن أنه يقسم جسمه في جسام كثيرة ، فهو موجود في كل جسم ، ويكفيه قليل من الماء والطعام إذا شبع الآخرون استمع إليه يقول :

أتهزأ مني أن سمئت ؟ وأن ترى بجسمي مس الجوع والجوع جاهد
فلنأمرؤ يحنو لزادى جماعة وأنت أمرؤ يحنو لزدك واحد
أقسم جسدي في جسام كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

وعروة كما قلنا زعيم الصعاليك ؛ ومُقَنَّس حياتهم ، فلنسر معه مرحلة أخرى لنرى الاتجاهات الاقتصادية التي جعلها دستور جماعته :

يروى ابن السكيت ^(٢) أن عروة بلغه عن رجل من كنانة أنه أبخل الناس وأكثرهم مالا . فبعث عليه عيونا فأنوه بخبره ، فشد على إبل هذا البخيل واستاقها ، ثم قسمها في جماعته .

ويروى أبو الفرج الأصفهاني ^(٣) من أخبار عروة أنه كان إذا أصابت

(١) الشعر والشعراء ص ٤٩٥ والجبس هو اللثيم الجبان .

(٢) شرح ديوان عروة ص ١٨١ .

(٣) الأغاني ج ٣ ص ٧٨ - ٧٩ .

الناس سنة شديدة ، يجمع المرضى والضعفاء والمسنين من عشيرته ، ثم يحضر لهم الأضراب ويكثف عليهم الكنف ويكسبهم (يكسب لهم) ومن قوى منهم : إما مريض يبرأ من مرضه ، أو ضعيف تثوب قوته ، أخرجه به معه فأغار وجعل لأصحابه الباقيين في ذلك نصيباً ، حتى إذا أخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها ، فربما عاد الإنسان منهم إلى أهله وقد استغنى .

وكان الصعاليك - كما قلنا - يتساوون في القسم لا فرق بين قوى وضعيف ورئيس وهرءومس .

٣ - الكرم العربي ومداه في تحقيق المشاركة الاقتصادية .

الدراس لحياة العرب في الجزيرة العربية يدرك أن شبح الفاقة كان يهددهم ، فالسما قد تشح بالمطر ، فتجذب الأرض ويجف الفرع^(١) ، وقليل من العرب من لم يتعرض لمجاعة في ظرف من الظروف أو وقت من الأوقات ، وكانت هذه الحال تدعو القادر أن يحمل الكل مخافة أن يصبح القادر كلاً والغنى محتاجاً ، وقد عبّرت أم حاتم الطائي عن سبب كرمها بقولها .

لعمرك قدماً عضنى الجوع عضه فآليت ألا أمنع الدهر جائعاً
فقولاً لهذا اللأثمى اليوم : أعفنى وإن أنت لم تفعل فعض الأصابع

وفي ضوء هذا الاتجاه حفل التاريخ العربي بأفانين من الكرم والتفنى للعطاء ، حققت للمعوز حقه في مال الواجد ، وخلقت اتجاه مشاركة يصوره الأدب أجمل تصوير ، والأدب العربي مصلر مهم من مصادر التاريخ العربي والإسلامي ومنه نقتبس بعض نماذج^(٢) .

(١) أنظر حديثاً عن عام الرمادة بكتابنا « المجتمع الإسلامي » ص ١٤٢ - ١٤٥ .

(٢) هذه النماذج مقتبسة من :

١ - الملققات الشعر ٢ - أسرار الحباشة للاستاذ سيد علي المرصفي .

٣ - الأدب العربي وتاريخه للاستاذ محمد هاشم عطية .

٤ - الحياة الاجتماعية في الشعر الجاهل للدكتور أحمد الحوق .

كانت الصحراء الفسيحة الصامته تبتلع في الليل القرى والنجوم ، فيوشك السارى أن يفضل الطريق ، فكان من عادة العرب أن يشعلوا النيران على ربوات عالية ليهدوا بها الضال ، وكانت النيران تمثل لدى العرب دعوة للقرى ، وكان حاتم شديد الرغبة أن تجلب ناره الضيفان ه فكان يحث غلامه أن يثابر على إشغالها ، ويغذيها بالحشب والعيدان لترتفع ، لعل ضيفا يجيء لها ، ويعده بالحرية إن جلبت ناره ضيفا ، استمع إليه يقول :

أَوْقِدْ فَإِن اللّيل لَيْسَ قَرُ

والريحُ يا غلام ربيعِ صر

عسى يرى نارك من يمر

إن جلبت ضيفا فانت حرّ

وكان المضيف يفرح بالضيف ، ويهدده ويهش له ، ويحمله محل أولاده ، قال جابر بن حيان .

وما وجد الأضياف فيما ينوبهم لهم عندِ علات الزمان أباً مثلى
وقال الخطيئة في ذلك .

فبات أبوهم من بشاشته أباً لضيْفهم والأم من بشرها أما
وقصيدة الخطيئة التي اقتبسنا منها هذا البيت تمثل صورة بديعة عن روعة الكرم والإحساس بالمسؤولية تجاه الضيف عند العرب ، وبيان الإحساس بالمسؤولية مداه لأن الخطيئة ليس عنده ما يقدمه للضيفان ، فيتقدم ابنه إليه يطلب أن يذبحه ويقدم لحمه طعاماً للضيف ، وربما لعب الخيال بالشاعر ، ولكن وصول الخيال إلى هذا الحد شيء جدير بالتقدير .

استمع إلى الخطيئة يقول :

رأى شبعا وسط الظلام فراعهُ فلما رأى ضيفا تشمر واهتما

وقال : هيا رباه ، ضيف ولا قرى بحقك لانحرمة تا الليلة اللحم

وقال ابنه لما رآه بجميرة أيا أبى اذبحنى وبسر له طما

ولا تعتذر بالعدم على الذى ترى يظن لنا مالا فيوسعنا ذما
فروى قليلا ثم أحجم برهة وإن هو لم يذبح فتاه فقد هُما

وتسير القصيدة تروى أن قطيعا من حمر الوحوش ظهر ، فصاد منه
الخطيئة ما قدمه قرى لضيافته ، بعد أن هم بذبح ابنه .

ويرسم زهير بن أبى سلمى صورة لهرم بن سنان المرى وهو يعطى ،
فيصوره مهللا سعيداً كأنه ينال ويأخذ ، وهو فى الحقيقة يعطى ويرفد ،
قال زهير :

تراه - إذا ما جئته - مهللا كأنك تعطيه الذى أنت صائله
وكان المال عند العرب وسيلة لا غاية ، كان وسيلتهم لفك العثار
ومساعدة المحتاج وما يتبع ذلك من كسب المحامد ، ومن أجل هذا عاب
العرب قيس بن عاصم لأنه فى وصيته لأبنائه جعل المال غاية لا وسيلة ،
فأوصاهم بجمعه والإكثار منه ، ويقول أبو الفرج الأصفهاني فى ذلك ^(١) .
أوصى عاصم بنيه وكان أكثر وصية أن يحفظوا المال ، والعرب لا تفعل
ذلك وتراه قبيحا .

وهكذا كان العرب يحبون الغنى ليمتحوه ، ويجمعون المال ليعطوه ، فما
كان الثراء يستقر بيد إلا ريثما تدبر هبته ، والنابعة الجعدي يبرز هذه الصورة
فى قوله .

فى كملت خيراته غير أنه جواد فما يبق من المال باقيا
ومثل ذلك قول الآخر .

كريم رأى الإقتار عاراً فلم يزل أنا طالب للمال حتى تمؤلا
فلما أفاد المال عاد بفضله على كل من يرجو جداه مؤملا

والرائع أن كلمة المشاركة وردت في الشعر العربي القديم فأغنانا هذا التعبير في ترانثا عن استعمال كلمة « الاشتراكية » الدخيلة ، وقد وردت كلمة المشاركة في أبيات سنروها بعد هذا التقديم ، وسنراها في هذه الأبيات تحمل مع الاشتراك معنى آخر هو الإعطاء من القليل الكفاف وإن كانت هناك حاجة إليه ، وألا ينتظر الإنسان الغنى لمنح ، فمن لم يمنح مع الكفاف لن يمنح مع الإثراء ، وفيما يلي هذه الأبيات .

سأمنح من قد رى نصيباً جارقي وإن كان ما فيها كفافاً على أهلي
إذا أنت لم تشرك رفيقك في الذي يكون قليلاً ، لم تشاركه في الفضل
ويقول المنقح الكندي في هذا المعنى بيتاً مشهوراً هو :

ليس العطاء من الفضول سماحة حتى تجود وما لديك قليل
وعن حرص العربي على أن يجد له رفيقاً في الزاد يقول حاتم الطائي
لامراته :

إذا ما صنعت الزاد فالتقى معي أكبلاً ، فإنني لست آكله وحدي
أخاً طارقاً ، أو جاربيت ، فإنني أخاف مذمات الأحاديث من بعدى
وقد جاءت رسالة الإسلام تضع أسمى الأخلاق في قضية العطاء والعون ،
فقررت أن العطاء يجب ألا يصحبه من ولا أذى ، وأن الطريق لنيل البر أن
ينفق الإنسان مما يحب ، قال تعالى :

— الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا
ولا أذى^(١) .

— لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون^(٢) .

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٢ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٩٢ .

والذى يعنينا هنا من هذه الآيات الكريمة أن من العرب من وصل في الجاهلية إلى هذه المعاني وباشرها فعلا ، فلو الإصبع العدواني يقول :

إني لعمرك ما باني بذى غلق على الصديق ، وما خيري بمكنون
(الغلق : ما يغلق به الباب)

ويقول الآخر يذكر أنه في القرى يعمد إلى أسمن نوقه فيشهرها للضيفان
فما يقدم في الكرم إلا أحسن العطاء ، استمع إليه يقول :

فأعضضته الطولى سناما ، وخيرها بلاء ، وخير الخير ما يُتخير

أى جعلت سني بعض ويجزر أطول النوق سناما وأكثرها شحما .

وكان لحاتم الطائي فلسفة رائعة يحلر بها الأغنياء من جمع المال ، فطالما
تمنى الورثة موت المورث الغني ليرثوه ، وربما كان من بين الورثة جواد
كريم يمنح من هذا المال ما يكسب به المحامد والمفاخر لنفسه دون من جمع
المال وكن في الحصول عليه ، وهو في هذا يقول :

ولا تشقين فيه فيسعد وارث به حين تغشى أغبر الجرف مظلا
يقسمه غنا ويشرى كرامة وقد صرت في خط من الأرض أعظم
قليلًا به ما يحمدنك وارث إذا نال مما كنت تجمع مغن

وهكذا احقق الكرم نوعا مهما من المشاركة في المال ، فلم يبق في
المناطق العربية التي لم تتأثر بالفكر الخارجي غنى متخم يعيش بجواره فة
عضه الجوع .

ومن المعروف أن الشرائع من جهة والقوانين الوضعية من جهة أخرى
فرضت على الغنى أن يدفع قدرا من ماله للفقير أو للحكومات لتعالج مشك
الفسراء ، ومن الواضح كذلك أن كثيرين من الناس يتهبون بطريقة
بأخرى بما تلزم به الشرائع أو القوانين ، وذلك لأن نفوسهم لم ته
بالإخوة الإنسانية ، ولم ترق فيهم عواطف الخير والتعاون ، فإذا فعل الله
في هذا المضمار ؟

يقول Wacyf Ghali : (١).

إن العرب جميعاً أعلنوا الحرب على الفاقة والعوز ، شكوا المحتاجون أمرهم
لذوى اليسار والسعة فطاردهم هؤلاء الفقر ، وأمطروه وابلا من سهام كرمهم
حتى رقع أمامهم ، وارتد على عقبيه ، فاستلوا من صدور الفقراء بذور
البغضاء والحسد ، وجعلوا لسانهم يلهج بالمديح المستطاب والثناء العطر .

ويقول الأستاذ عمر الدسوقي (٢) : إن العربي ربيب الصحراء وصل
في مضمار المنح إلى ما تطمح إليه أرق المجتمعات البشرية ، وكان الإعطاء
عنده طبيعة متأصلة ، فهو لا يجود ، أداء لواجب أو إطاعة لقانون ،
وإنما لأن الجود يشبع في نفسه رغبة ويدخل عليها مسرة ، وهذه هي
الغاية القصوى في تربية الفضائل الاجتماعية .

وبعد ، لقا أجمع الباحثون والنقاد على أن الشعر العربي هو المرأة التي
تنعكس عليها حياة العرب قبل الإسلام ، وأنه من أهم مصادر هذه الحياة ،
وها هو ذا ينطق بأجلى بيان موضحاً اتجاهات المشاركة في المال ، هذه الاتجاهات
التي سادت بقلب الجزيرة العربية ، فلم تدع الجوع يعيش بجانب النخمة ،
وهذه الاتجاهات تحمل شعارات الفخر لهذا المجتمع العظيم الذي سلك هذا
السبيل بحكم تكريهه من جنة ، وبحكم ميوله الفطرية الطيبة من جهة أخرى .

٢ — المناطق العربية شديدة الاتصال بالفكر الخارجي .

تمثل هذه المناطق في الأمكنة التي اتصل فيها العرب بطريق السياسة أو التجارة
بغير العرب كأرض الفساسنة واليمن ، كما تمثل في المناطق التي زحف لها عنصر ليس عربياً
وأستوطنها مثل يثرب وتمثل كذلك في مكة حيث كان البيت المقدس يستقبل حجاجاً

(١) Tradition Chevaleres que des Arabes P. 321

(٢) الفترة عند العرب من ١٨ ، ١٦ بتصرف .

من الشمال أو الجنوب لهم اتجاهات اقتصادية برزت في مواكبهم إلى مكة ، وأخذها عنهم سدة السكبة وكبار الشيوخ بالمدينة المقدسة ، وفي هذه المناطق أو تلك كان مظهر الاقتصاد مختلفاً عن مظهر الاقتصاد عند العرب الخنص الذي شرحناه آنفاً ، وسنقوم فيما يلي بإبراز مظاهر هذا الاقتصاد :

في جنوب الجزيرة العربية باليمن كانت الأرض خصبة ، وكانت الأمطار تهطل بشكل منتظم ، وقد عني القوم - كما ذكرنا من قبل - بالسدود لحسن الانتفاع بهذه المياه ، وترتب على ذلك أن استطاع أهل اليمن أن يباشروا الزراعة ، وتحقق لهم الاستقرار تبعاً لذلك ، فقامت ممالك ومدن وقرى على هذا الشاطئ ، وتكون فيها ما يمكن أن يسمى بعصية المملكة أو المدينة ، وهي تقابل العصية القبلية بقلب الجزيرة ^(١) ، وحظيت اليمن بغنى عظيم نتيجة للزراعة ونتيجة للتجارة البحرية والبرية التي كانت تباشرها ، وقد تكلمنا عنها من قبل ، فأصبح لدى اليمن فائض امتلكه بعض الناس فامتازوا به على سواهم وظهر تبعاً لذلك نظام الطبقات باليمن .

وفي دوائر الجزيرة العربية من ناحية الشمال وجدت دولتنا المناذرة والعساسنة وكانت هاتان الدولتان تمثلان حلقة الاتصال ، أو - بتعبير آخر - الحاجز الوقائي بين البدو في الجزيرة العربية من جانب ، ودولة الفرس ودولة الروم من جانب آخر ، وملوك الحيرة ونحسان من مملكة يمنية نبثوا في أرض الطبقات أو بتعبير العصر الحديث أرض الرأسمالية ، ثم التقوا في حياتهم الجديدة بدول الشمال التي كان النظام الطبقي بها في أشد مظاهره ، وعلى هذا عني ملوك الحيرة وملوك الفساسنة بحياة الترف وحياة القصور عماكين قياصرة الرومان وأكاسرة الفرس ، وكان هؤلاء الملوك العرب

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٦٥

وثبقى الصلة بتاريخهم القديم فجمعوا قصورهم الضخمة على مثال قصور اليمن ، وأعظم دليل على ذلك ، هذان القصران العظيمان اللذان بناهما ملوك الحيرة مهاكين بهما قصور اليمن ، وهذان القصران هما « الخورنق والسدير » .

وهكذا وجدت حياة الطبقات في دولتي الشمال امتداداً لحياة الطبقات في اليمن وتأثراً بحياة الطبقات في دولتي الفرس والروم .

وهناك مركز آخر في الجزيرة العربية وضحت به مظاهر الطبقة ، ذلك المركز هو مكة المكرمة ، ومكة المكرمة مكان مقدس عند العرب منذ بنى إبراهيم وإسماعيل البيت الحرام ، وكان كثير من الوافدين إلى مكة من اليمن أو من دولتي الشمال يمثلون مظاهر الغنى والثراء ببلادهم ، وكانت مواكبهم العظمى تمثل الحياة الطبقة أدق تمثيل ، وقد انتقلت عن طريق هؤلاء حياة الطبقة إلى مكة ، فوجدت بها طبقة أرسقراطية تنعم بالغنى والترف ، كما وجد بها جمائل من العبيد والضعفاء .

ولم يكن الحجاج فقط هم الذين جلبوا الغنى وبالتالي نظام الطبقات إلى مكة ، بل إن تجارة قريش كانت أيضاً سبباً مهماً لهذه النتيجة .

وكان تجار مكة يربحون في تجارتهم الدينار ديناراً ، فأصبحت مكة جمهورية صغيرة تجارية ، يرأسها الموسرون من أكابر قريش ومقدميها الذين أتاحت لهم مسواردة التجارة ومناصب البيت الحرام جأها ، ووسائل للترف على أوسع نطاق .

وراجت تجارة مكة فأخذت قريش توطد مركزها في البلد الحرام ، فسنت - كما قلنا من قبل - رحلتى الشتاء والصيف ، رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام ، فارتفعت مكانة مكة في الجزيرة ، واعتُبرت العاصمة المعروفة بها ، وسمت منزلة سوق عكاظ فأصبح ملتقى الخطباء وقطب

الدائرة الفكرية في الجزيرة ، وهو أمر لم يسبق له مثيل في ثقافة اليمن القديمة أوفى مجالس الأدب وحلقاته الزاهرة في بلاط الحيرة والغساسنة . وكان قصي مؤسسَ مجد قريش فابتنى في الشطر الأخير من القرن السادس دار الندوة ليجتمع فيها كبراء أهل مكة تحت إمرته وليتشاوروا في مهام بلدتهم ^(١)

وهكذا كان النظام الطبقي هو صورة الحياة في مكة ، وعندما جاء الإسلام كان بمكة الوليد بن المغيرة الذي قال القرآن الكريم عن مكانته وعن ثرائه : ذرني ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالا مملوفاً ، وبينين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزيده . كلا . . ^(٢) كما كان بها من الأغنياء أبوسفیان وعثمان بن عفان وأمية بن خلف ، وبيوارهم بجمهرة من الفقراء والضعفاء والمحتاجين .

ومن مظاهر الغنى لدى أرسنقراطية مكة أن زحف هؤلاء فامتلكوا كثيراً من أرض الطائف الحصبة وحدائقها الغناء لتكون مصيفاً لهم ومصدراً من مصادر ثرائهم .

بقى في الجزيرة العربية مركز رأسمالي طبقي لم تكونه الظروف السابقة ، بل كوئنه هجرة عنصر غريب إليه ، وهذا العنصر يهتم بالمال وجمعه اهتماماً بالغ الغاية ، وهذا المركز هو يثرب ، والعنصر الغريب هم اليهود ، وإلى الشمال من يثرب وجدت مراكز مماثلة ولكنها أصغر حجماً وأقل نشاطاً وهي خيبر وتيماء ووادي القرى وفدك .

وكان اليهود يشتغلون بالتجارة ويعقدون الأسواق ليفصلها الأعراب

(١) انظر الترجمة العربية لكتاب « History of the Arabs » ج ١ ص ١٤٥
ففيه زيادة من الأصل الإنجليزي p.104 (مترجم الكتاب هو مؤلفه الدكتور فيليب حتى)
(٢) سورة المدثر الآيات ١١ - ١٦ .

للامتياز ، وكانوا أيضاً يزرعون الأرض التي يعيشون بها وينتجون ما يحتاجه
الأهلون ، كما كانوا يحترفون بعض الحرف مثل الصياغة ، وهي حرفة
اشتهروا بها منذ عهد بعيد ، على أن جل اعتماد اليهود كان على معاونة الربا
وقرض الأموال بربا فاحش للأعراب ، واشتغال اليهود بالربا جلب لهم
أرباحاً طائلة ، ولا يعنى الربا عندهم إقراض مال بمال فقط ، بل كان
اليهود يرابون بالأشياء العينية كالقمح والشعير في مقابل أضعافها عند استحقاق
الأجل وفي مقابل أشياء عينية من نوع آخر أحياناً لأن النقود بأنواعها لم
تكن كثيرة آنذاك ، وقد كان تحريم الإسلام للربا ضربة قاصمة لظهورهم ،
وكان من أسباب وقوفهم موقف التحدى للإسلام . ومن المظاهر الاقتصادية
التي مارسها اليهود ، أنهم كانوا يجلبون الخمر من بلاد الشام ، كما كانوا
يبيعون بأجل نظير رهن يودعه المشتري ^(١) .

وبهذه الوسائل تكدست أموال طائلة عند اليهود ، وأصبح تجارهم
يكونون طبقة عظيمة الثراء ، وعن ثرائهم يتحدث القرآن الكريم : (وآورثكم
أرضهم وديارهم وأموالهم ، وأرضاً لم تطفوها ^(٢)) .

وإيجاراً لكل ما سبق نقرر أن المشاركة كانت مظهر الحياة عند البدو
في قلب الجزيرة العربية ، وأن حياة الطبقات والرأسمالية كانت مظهر الحياة
الاقتصادية في اليمن ودولتي الشمال وفي مكة ومراكز اليهود .

(١) دكتور جواد علي : تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦ صفحات ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥
بصرف .

(٢) سورة الأعراب الآية ٢٧

الحياة الاجتماعية

في الجزيرة العربية قبل الإسلام

فيما يلي من صفحات ، نورد أبرز صور الحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وهذه الصور لها أهمية كبيرة في فهم موقف العرب من الإسلام عندما ظهرت دعوته ، ويلاحظ أن الفروق من الناحية الاجتماعية بين البدو وبين الحضار أقل جداً من الفروق في الناحيتين السياسية والاقتصادية لأن وحدة العنصر العربي ، والصلة بين البدو والحضر عبر القرون وحُدت الاتجاهات الاجتماعية تقريباً وأشاعت هنا وهناك عادات وتقاليد واحدة أحياناً ومتقاربة في أكثر الأحيان ، ثم إن العوامل الطارئة لا تستطيع أن تؤثر في الحياة الاجتماعية بمثل تأثيرها في الحياة السياسية والاقتصادية . وسنبداً بإيراد أهم ملامح الحياة الاجتماعية عند البدو ، تلك الملامح التي يتميز بها البدو عن الحضار ، ثم ندرس موضوعات كبيرة لإلهمة هي : الشعر والدين والأسرة ، وستمعنا تلك الموضوعات بأهم ما يعنيننا في دراسة المجتمع العربي قبل الإسلام .

الحياة الاجتماعية عند البدو

أهم ما يمتاز به البدوي أن نسبه صريح لم يدخله اختلاط ، وذلك لتعمقه في الصحراء في حياة لا تغرى أحداً بها ولا تجذب الأنظار إليها ، بل إنها مخيفة لا يستطيع الرواد أن يأملوا في السلامة فيها إن اقتحموها ، ومن هنا أتى العنصر البدوي سليم النسب كما حدث في مصر وكثانة وثقيف وغيرها^(١) :

(١) مقدمه ابن خلدون ص ١٢٩ .

وكما ضمنت انبادية سلامة النسب للبدو فقد ضمنت لهم أيضاً سلامة اللغة العربية عندما فسدت هذه اللغة في مواطن الحضر بسبب الاختلاط الذي تسم بين العرب وغير العرب ، وأصبحت البادية لذلك مدرسة يدخلها من أراد أن يتلقى اللغة الصحيحة والمربية الفصيحة ^(١) .

وحياة البادية استلزمت العصبية ، إذ كانت العصبية وحدها وسيلة لحماية القبيلة من اعتداء الآخرين ، ولا يمكن أن يعيش في البادية شخص أو أشخاص دون أن يكونوا أفراداً في قبيلة يحمونها ويحميهم ، فإذا وجد شخص أو أشخاص قليلون في البادية تحفظتهم القوى البدوية التي ترى من حقها أن تمتلك الضعيف وتأسره إلا أن يلجأ هذا الشخص إلى جوار قبيلة ، وحينئذ تحميه عصبية هذه القبيلة التي دخل في جوارها ^(٢) . وقد ترتب على ذلك أن فقد البدوي شخصيته فأصبح فرداً في قبيلة يثور معها عندما تثور دون أن يسأل : لماذا تثور ^(٣) .

وإذا كانت القوة هي سلاح البدوي يعتدى بها على الضعيف دون سبب ، فإن الثأر هو أقرب ما يكون للعدالة في البادية ، وقانون الثأر هو أنه إذا قتل رجل من قبيلة فرداً من قبيلة أخرى ، فإن الأخذ بالثأر يصبح لازماً على أفراد قبيلة المقتول ، فيحق لكل منهم أن يقتل من يصادفه من أفراد قبيلة القاتل ، ومن الواضح تبعاً لذلك أن قتل شخص من قبيلة كان يستدعي حروباً طويلة قد تمتد عدة سنوات لتعدد الأخذ بالثأر ، ولهذا ظهرت أيام العرب التي تصف حروبهم ومعاركهم التي كانت تشترك فيها أحياناً عدة أجيال ، مع أنها لم تقوم

(١) اقرأ ما كتبه المؤلف عن « البادية » في كتابه « تاريخ التربية الإسلامية » واقرأ نماذج لفساد لغة الحضر في عيون الأخبار لابن قتيبة والعقد الفريد وغيرهما .

(٢) اقرأ مقدمة ابن خلدون ص ١٢٧

(٣) اقرأ المجتمع الإسلامي للمؤلف .

في بادئ أمرها إلا للأخذ بشار شخص واحد^(١) . وإنما قلنا آنفا إن الثأر أقرب ما يكون للعدالة لأنه ناجم عن اعتداء سابق فهو قصاص غير منظم ، والثأر بالنسبة لحياة البادية أعدل من الاعتداء دون سبب الذي كان كثيراً ما يقع في البادية كما ذكرنا آنفا .

واحتراماً لحرمه الكعبة التي كان يفد إليها العرب حاجين أو معتمرين ، اتفق العرب - كما سبق القول - على تحريم القتال والغارات في شهور أربعة من السنة سميت الأشهر الحرم ، وهي ذو النعدة وذو الحجة والمحرم وتلك هي شهور الحج ثم رجب وهو شهر تكثر العمرة فيه ، غير أن البدو كان يثقل عليهم أن يوقفوا الغارة ثلاثة شهور متتالية ، ولذلك كانوا كثيراً ما يستبدلون بالمحرم صفرأ فيحلون المحرم ويحرمون صفرأ بدله ، وذلك ما يسمى بالنسيء وكانوا ينمخرون بذلك ، وفيه يقول شاعرهم :

ألسنا الناسئين إلى معد شهور الحل نجعلها حراماً

وقد غاب القرآن الكريم عليهم ذلك قال تعالى : (إنما النسيء زيادة في الكفر . .)^(٢)

وبرى بعض الكتاب^(٣) أن تحريم القتال في هذه الأشهر كان بسبب رغبة العرب في الحد من سفك الدماء ، ورأى أن التجاهم للنسيء وشوقهم للغارة يعارض هذا القول ، ولذلك أميل إلى ما ذكرته آنفا من أن تحريم هذه الأشهر كان ذا علاقة بالحج ، واتخذ للتحريم وسيلة لأمان التجارة والتنقل ، أما شهر رجب فقد حرموه لأنهم استطالوا الشهور التسعة في الحرب والصراع

(١) اقرأ أيام العرب في الجاهلية للاستاذ جاد المول وزميله .

(٢) سورة التوبة الآية ٣٧

(٣) انظر التاريخ السياسي للدولة العربية للدكتور ماجد ج ١ ص ٥٠

وما يسببه ذلك من كساد للتجارة ، ثم انتهزوا فرصة تحريره فاعتصموا فيه .
والشجاعة من مستلزمات البادية فإذا كان الحضرم قد ألقوا جنوبهم على
مهاده الراحة كما يقول ابن خلدون ووكّلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم
للحاكم ... فإن أهل البدو قائمون بالمدافعة عن أنفسهم ، فهم دائماً يحملون
السلاح ويتفردون في القفر ، لهذا صار لهم اليأس خلقاً والشجاعة سجية^(١) .

وإذا قارنا أخلاق البدو التي ذكرناها آنفاً بما يقابلها من أخلاق الحضرم
وأضفنا لها شطف الحياة في البادية ولين العيش في الحضرم انفتح لنا ما يقوله
ابن خلدون من أن البدو للحضرم كالوحش غير المقدور عليه وكالمفترس من
الحيوان^(٢) . ويدلّ على أن ابن خلدون وصف جانباً وترك جانباً آخر أكثر شيوعاً
في العلاقات بين البدو والحضرم ، فالبدو مع ميله للسلب أدرك أن السلب سينتج
حرمانه ؛ لأن الحضرم سيعملون على حماية أنفسهم منه . ولذلك لجأ البدو إلى أساليب
آخر للكسب من الحضرم ، وذلك عن طريق العمل لهم والمقايضة معهم وغير ذلك من
الأساليب ، وإن كان ذلك لم يضع حداً لأسلوب العنف الذي وصفه ابن خلدون.

وكان من نتيجة صفات البادية وصفات البدو التي أشرنا لها فيما سبق أن
أصبح قلب الجزيرة مجهولاً ، إذ أنه لم يجذب إليه الرحالة ، ولم يستطع أهل
الحضرم أن يجازفوا بدخول هذا المجهول ، ولم تزل البادية كذلك إلى أن
أتاحت لها الأعداء ، بعد ظهور محمد عليه الصلاة والسلام ، أن يقص أخبارها
من نزع عنها من أهلها وأن يقف العالم على كثير مما كان العالم من قبل ذلك
في أتم الجهل به^(٣) . وعلى هذا فمعرفةنا بالبادية لاتتعدى قرناً ونصف قرن
قبل الإسلام كما سبق القول .

(١) المقدمة ص ١٢٥

(٢) المرجع السابق ١٢١

(٣) دكتور ميكل : حياة محمد ص ٧٤

وكان من نتيجة صفات البادية أيضاً أن نجت الجزيرة العربية من الاستعمار ، فليس في الصحراء القاحلة ما يجذب أنظار المستعمرين من القرم أو الروم الذين كانوا يبحثون عن الصيد السمين كما يبحث البلوى عن مواطن العشب ، واكتفت إنجلترا أم الاستعمار في العصر الحديث بالساحل تحرس به مصالحها البحرية حتى إذا ظهر الذهب الأسود في بعض نواحي البادية بدأ الاستعمار يتطلع لها ولكن يقظة العالم حالت دون زحف الاستعمار ، كما أن الاستعمار استحدث أساليب استعمارية جديدة تناسب العالم العربي والعالمي .

على أن هؤلاء البدو استطاعوا أن يلبعوا دوراً هاماً في تجارة العالم في تلك الأزمان السحيقة ، فكما أن الطريق المائي عبر قناة السويس يلعب الآن دوراً هاماً في تجارة العالم ويربط الشرق بالغرب ، فقد كان طريق القوافل في العهد الجاهلي يلعب نفس الدور في عهد لم تكن قناة السويس قد شقت ، ولم تكن سفن ذلك العهد تستطيع استعمال البحر الأحمر المملوء بالجزر التي تجعل الملاحة خطراً عليها ، ومن عيوب الملاحة في البحر الأحمر أيضاً أن شواطئه قليلة الموانئ وأن به كثيراً من الشطوط الضحلة التي كان اقتراب السفن منها أمراً مخيفاً بالخطر^(١) . ولم تكن السفن كذلك تستطيع استعمال الخليج الفارسي بسبب وجود القرم على ساحله الشمال وهم أعداء لسكان حوض البحر المتوسط . وعلى هذا أصبحت المواصلات البرية هي الطريق المهم للتجارة عبر البادية بين الشمال وبين الجنوب ، ثم بين الشرق وبين الغرب ، وقد حدد البدو أماكن للراحة والاستجمام على طول الطريق فكانت بمثابة محطات يتزودون منها بالماء والزاد ؛ وكانت كذلك بمثابة مخازن يودعون بها بعض المتاجر لتلحق بقافلة أخرى عبر طريق آخر^(٢) ، وقد أوردنا مزيداً من الكلام عن هذا الموضوع عند الحديث عن تجارة قريش .

(١) عصور الازدهار في الجزيرة العربية: مقال للدكتور نقولا زيادة بمجلة القافلة

(رمضان ١٣٧٨ هـ) ص ٢

(٢) انظر حياة محمد للدكتور هيكل ص ٧٧ .

الشعر^(٥)

لغينا دراسة الشعر الجاهلي من ثلاث نواح :

- أولاً - دراسة الشعر العربي لذاته كفن له قيمة خلافة عند العرب .
- ثانياً - دراسة الشعر العربي كعامل شديد التأثير في الحياة العربية .
- ثالثاً - دراسة الشعر العربي كمصدر بصور لنا كثيراً من عادات العرب وأخلاقهم .

وفيما يلي دراسة موجزة لكل من هذه النواحي .

فالشعر عند العرب كان أجمل الفنون التي يحتفون بها ويمجدونها ، وطالما كانوا يجتمعون حول الشعراء ليسمعوا لهم وليصفقوا لقصائدهم ، كما يجتمع الناس الآن حول مغن عظيم أو موسيقى شهير ، وكانت هناك أسواق العرب : عكاظ ومجنة وذو المجاز^(١) ، وفيها كان العرب يجتمعون للتجارة وكان الشعراء ينتهزون فرصة هذا الاجتماع ليلقي كل منهم أجود ما أهدأ من شعر ، وكانت قبيلة الشاعر تقف حوله وهو ينشد شعره تشجعه وتقخر به ، وكانت أمهات القصائد تُختار لتعلمت في الكعبة غير بعيد من معبوداتهم كما سبق القول ، وكانت عكاظ أشهر الأسواق في مجال الشعر .

وكانت منزلة الشعراء عند العرب عالية جداً ، وكانت لهم أسمى مكانة في نفوس الناس ، فإذا ظهر في القبيلة شاعر مجيد أقبلت إليها وفود القبائل الأخرى للتهنئة ، وكانت قبيلته تقيم الأفراح وتنحر الذبائح ، وتقدم الأطعمة للناس ، وتخرج نساء القبيلة يعزفن الموسيقى ويرقصن ويغنين ، إذ كان

(٥) مراجعنا في الحديث عن الشعر وأثره عند العرب كثير من كتب الأدب والتاريخ وبخاصة كتاب المرحوم الأستاذ محمد هاشم عطية « الأدب العربي وتاريخه » فهو من خير ما كتب في ذلك الموضوع .

(١) عكاظ بين نخلة والطائف ، وذو المجاز ومجنة حول عرفات .

الشاعر يدافع عن القبيلة بشعره ولسانه أكثر مما يدافع الفارس عنها بسيفه
وحرا به ، كما كان هو الذى يسجل الأحداث والوقائع ، ويرد على شعراء
القبائل الأخرى إذا تحدثوا عن قبيلته بما لا تحب .

• • •

أما عن تأثير الشعر والشعراء عند العرب فإن الشاعر كان يمدح الخامل
فيرفع ذكره ، ويذم الشريف فيقلل قدره ، وفيما يلى نماذج قليلة تدل على
مدى ما كان للشعر عند العرب من تأثير عميق :

الأعشى وعبد العزى بن عامر :

كان عبد العزى بن عامر رجلاً كثير البنات سيء الحال ، رغب طلاب
الزواج عن بناته فكهدن ، فدخه الأعشى بقصيدة قال فيها :

أبا مسمع سار الذى قد فعلتمو فأمجد أقوام به ثم أعرقوا
يداك يدا صدق ، فكف مبيدة وأخرى إذا ما ضنَّ بالمال تنفق
فسار ذكره ، وحسنت حاله وتزوجت بناته .

الخطيئة وبنوأنف الناقة :

وكان جماعة من تميم ينتسبون إلى جدهم « أنف الناقة » ، ولكنهم كانوا
يخجلون من هذه النسبة ، وإذا مثل الواحد منهم عن نسبه قال :
عن بنى قريظ بن عوف (والدجعفر أنف الناقة) ولا يذكرون أنف الناقة ،
فزارهم الخطيئة فأكرموه . فقال فيهم قصيدة منها :

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا ؟
فاحترمهم العرب لهذا النسب بعد ذلك ، وأصبحوا هم ينتسبون لجدهم
أنف الناقة ، ويفخرون به بعد أن كانوا يخجلون منه .

حسان بن ثابت وبنو عبد المدان :

كان بنو عبد المدان يمتازون بطول الأجسام وعظمتها ، وكانوا يفخرون
بذلك على الناس فهجاهم حسان بن ثابت بقصيدة قال فيها :

لابأس بالقرم من طول ومن غلظ جسم البغال وأحلام العصافير

فشاع ذلك البيت بين الناس وحفظوه ، وكان بنو عبد المदान كلما ظهر واحد منهم يحسمه الفاره صاح الأولاد يرددون هذا البيت حتى أصبح بنو عبد المदान يستحون من طولهم ويتمنون لو كانوا قصاراً . فاتصل بعضهم بحسان بن ثابت وقدم له هدية ثمينة ، وشكاه ما نالهم بسبب شعره . فقال حسان : سأصلح ما أفسدت ، ونظم قصيدة أخرى قال فيها :

وقد كنا نقول إذ التقينا بذي جسم يهاب وذى بيان
كأنك أيها المعطى بياناً وجسماً من عبد المदान

• • •

ذاك هو الشعر وتلك أهميته وتأثيره ، ونجىء بعد ذلك إلى الشعر كمصدر يصور لنا حياة العرب وأخلاقهم وعاداتهم ، والباحثون يتفقون على أن الشعر الجاهلى كان أهم مصدر حفظ لنا صوراً من حياة عرب الجاهلية ، وكان وسيلة سَجَّل بها تاريخ العرب . كما كانت الأهرام والمعابد والمسلات وما نقش عليها مصدراً لتاريخ المصريين ، فالذى يقرأ الشعر العربى يجد فيه حياة العرب واضحة ، فيجد الصحراء والخيام : والملاعب وموارد المياه ، ويجد أحاديث السادة ، ومنجبات النساء ، وعناق الخيول ، وأوصاف السيف ، ويرى تاريخ وقائع العرب وحروبهم وصور عاداتهم وأخلاقهم ، وسنذكر فيما يلى بعض النماذج الشعرية التى تصور هذه الحياة الاجتماعية وتدون تاريخ الحياة العربية ونظمها :

البسوس :

حرب البسوس من أهم الحروب التى وقعت بين العرب . وكانت بين بكر وتغلب ، وقد استمرت أربعين سنة ، وسبب هذه الحروب أن جساس ابن مرة بن بكر قتل كليب بن ربيعة من تغلب ، وكانت جليلة أخت

جساس زوجة لكليب ، فلما جلس نساء تغلب في مأتمه طلبوا أن تخرج
جليلة من المأتم لأنها أخت القاتل ، فخرجت باكية على زوجها ، ولكن
أخت القاتل اتهمت جليلة بالميل لأخيها ، فأنشدت جليلة القصيدة
الرائعة الآتية :

يا ابنة الأقوام إن شئت فلا	تعجلي باللوم حتى نسأل
فإذ أنت تبينتي الذي	يوجب اللوم فلوى واعذلي
إن تكن أخت امرئ لميت على	شفق منها عليه فافعلي
جلّ عندى فعل جساس فيا	حسرتى عما انجلت أو تنجلي
يا قتيلا قوض الدهر به	سقف بيني جميعا من عل
هدم البيت الذى استحدثته	وانثنى فى هدم بيني الأول
يشقى المدرك بالثار وفى	درك ثارى ثكل للمثكل

وكان من أعظم الأيام التى انتصرت فيها تغلب على بكر يوم الذنائب
(موضع بنجد) وقد سجله مهلهل بن ربيعة فى قصيدته التى يقول فيها :

فإن بك بالذنائب طال ليلى فقد أبكى من الليل القصير
فلو نهش المقابر عن كليب ليُخبر بالذنائب أى زير ؟
وهكذا كان لشعر أهم مصنف يرينا أحداث هذه الحرب الضروس

عقر الرواحل على قبور الأبطال :

كان من عادة العرب فى الجاهلية أن يعفروا رواحلهم على قبور آبائهم
وساداتهم ، وقد مر حسان بن ثابت على قبر أحد الأبطال فقال :

نفرت قلوصى من حجارة حرة بنيت على طلق البدين وهوب
لولا السفار وبعد خرق مهمه لتركها نجو على للعروب

كرم العرب ووسائل الاستضافة :

واشتهر العرب بالكرم ، ولهم فيه ضروب شتى ، وها هو حاتم الطائي ذائع الصيت في الكرم ، يروى عنه أنه مر بأسير لا يستطيع أن يفتدى نفسه وطلب منه الأمير المساعدة ، ولم يكن مع حاتم ما يدفعه فداء للأسير ، فلم يجد حاتم طريقاً إلا يضع نفسه موضع الأمير ليُطْلَقَ الأسير ؛ وظل حاتم في الأسر حتى افتداه أهله . والشعر العربي هو أعظم سجل لكرم حاتم ولاهتمام العرب بالكرم والثناء على للكرماء .

وكان من عادة العرب أن يشعلوا النيران على ربوات عالية ليراها السارون في الصحراء فيمتدوا بها ويأتوا ضيوفاً على أصحابها ، ومن عاداتهم كذلك أن السارى إذا ضل طريقه ولم ير نارا نبج كما تنبج الكلاب ؛ فتجيبه الكلاب على نباحه ، فيتدى بذلك إلى مكان الحى ، وكانت الكلاب التى تهدى ضالا تكافأ على ذلك بنصيب من لحوم الماشية التى ستذبح لاستضافة القادمين ، وكل هذه العادات عرفناها من قول نابغة بنى جعدة :

عوى فى سواد الليل بعد اعتسافه لينبح كلب أو ليفزع نوء
فجأوبه مستسمع الصوت للقرى له عند إتيان المسلمين مطعم
يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلاً يكلمه من حبه وهو أعجم

وظل الكرم صفة مميزة عند العرب بعد الإسلام ، وكان لطلحة بن عبيد الله باع واسع في مجال السخاء حتى أصبح اسم « طلحة » يعنى الكرم ، وطلحة الطلحات يعنى أكرم الكرماء ، وعن كرم طلحة يقول قبيصة ابن جابر : صحبت طلحة بن عبيد الله فما رأيت أعطى لجزيل مال من غير مسألة منه ، وقد اشتهر بالكرم طلحات خمسة هم طلحة بن عبيد الله الذى كان يلقب طلحة الفياض ، ثم طلحة بن عامر ويلقب طلحة الجسواد ،

وطلحة بن عبد الله بن عوف ويلقب بطلحة النداء ، وطلحة بن الحسن بن علي ويلقب بطلحة الخير وطلحة بن عبد الله بن خلف ويلقب بطلحة الطلحات^(١) ، وكانت التسمية بطلحة تيمناً بطلحة بن هبيل الله وتفاؤلاً بأن يسير المسمى على منواله في الكرم رضى الله عنه .

الطلاق :

وكان العرب يعرفون الطلاق . وفي ذلك يقول الأعشى :

أيا جارتى بينى فإنك طائفه كذاك أمور الناس غاد وطارقه
أسماء الخيول :

سجل العرب أسماء خيولهم المتأق في الشعر ، كقول خالد بن جعفر في حصانة وحذفة :

فمن يك سائلاً هنى فإنى وحذفة كالشجا تحت الوريد
منجيات النساء :

وكان العرب يهتمون بالمعجبات من النساء ويشيرون إليهن في الشعر ، وقد عرف ذلك من قول لبيد في رجز طويل :

نحن بنى أم لبنين الأربعة *

تحريم الخمر :

ومن العرب من حرم الخمر على نفسه ، ومن هؤلاء قيس بن حاصم وفي ذلك يقول :

لعمرك إن الخمر ما دمت شارباً لسألي مالى ومذهبة عقى
وتاركة بين الضيوف قراهم ومورثة حارب الصديق بلا ذل

(١) ابن ناتيا البندادى : الجمان في تشبيهات القرآن ص ٢٨٥

زواج امرأة الأب :

وكان قرجل يتزوج امرأة أبيه بعد موته ، وقد سجل عمرو بن
معد يكرب ذلك حينما كرهته زوجته التي كانت زوجة أبيه :

فلولا إخواني وبنى منها ملأت لها بنى شطرب يميني
الله والحساب :

وبين وثنية الجاهلية كان هناك من أدرك أن للخلق خالفا . وأن لهم
معاداً ولأعمالهم حساباً ، يقول زهير بن أبي سلمى :

فلا تَكُنْ مَنْ اللهُ ما في نفوسكم ليخني، وفهما يُكْتَم اللهُ يعلم
يؤخّر فيوضع في كتاب فيلخر ليوم حساب أو يعجل فيُنْقَم

• • •

وهكذا كان الشعر مصدرا مهما صور حياة العرب وأخلاقهم وعاداتهم :

الدين

هناك حقيقة متقرّ عليها بين علماء تاريخ الأديان وهي أن الإنسان متدين بطبعه ، وقد عبر معجم (لاروس) للقرن العشرين عن هذه الحقيقة بقوله : « إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية ، وأقربها إلى الحياة الحيوانية ، وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية وإن هذه الغريزة الدينية لا تختفي بل لا تضعف ولا تذبل » (١) .

ويقول الفلاسفة العالميون أن الإنسان شديد الارتباط بالدين ، فيقول برجسون فيلسوف الأمريكي : قد نجد في الماضي أو الحاضر مجتمعات بشرية لا تعرف العلم ، أو الفن ، أو الفلسفة ، ولكن ليس ثمة مجتمع بلا دين . ويقول الفيلسوف وليم جيمس : يرجع لدينا أن الناس سيظلون يصلون إلى آخر الزمان .

ويقول إرنست ريتان : من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه ، وكل شيء نعهده من ملاذ الحياة ونعيمها ولكن يستحيل أن يمحي التدين (٢) .

وشرح بارقيمي سانت هيلير نشأة التدين بقوله : ما العلم ؟ ما الإنسان ؟ من أين جاء ؟ من صنعهما ؟ ما نهايتها ؟ ما الحياة ؟ ما الموت ؟ ماذا بعد

(١) Larousse Article Religion نفلا عن كتاب « الدين » للدكتور محمد

عبد الله دراز ص ٧٥ - ٧٦ .

(٢) اقتباسات من « آفة ذاتا وموضوعا » للأستاذ عبد الكريم الخطيب ص ١٩

(١١ - التاريخ)

الموت ؟ . . . هذه الأسئلة لا توجد أمة ولا شعب ولا مجتمع إلا وضع لها حلولا جيدة أو رديئة ، مقبولة أو سيئة ، وهذا هو التدين ^(١) .

وعلى هذا إذا ظهر في الدنيا أفراد أو جماعات ينكرون وجود الله ويحاربون التدين فليس ذلك إلا مقاومة للغريزة الموجودة فيهم ، وطالما تقاوم الغرائز للدافع من الدوافع .

ثم إن الغريزة الدينية صفة من الصفات التي تربط بين البشر ، وهي تفوق في قوتها علائق الدم والجنس والوطن .

ويختلف علماء تاريخ الأديان في تحقيق الظروف التي تنشأ غريزة التدين ، فيرى بعضهم أنها تنمو حيث يرقى الفكر وتسمو الثقافة وحيث يصل الإنسان إلى مستوى يفكر فيه في نفسه وكيف خلقت ، وفي التسوى التي منحت له ، وكيف يسمع ويبصر . . . (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) ^(٢) . ويفكر في الكون الذي يحيط به وفي ملكوت السموات والأرض (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف مططحت) ^(٣) .

ويرى علماء آخرون أن هذه الغريزة تنمو حيث يواجه الإنسان قوى الطبيعة ، وحيث يشتد إحساس الإنسان بالضعف أمام بعض القوى ، وإحساسه بالحاجة إلى حماية نفسه منها ، كالإنسان البدائي الذي يرى المطر والريح ، والمرض والموت والحيوانات الفتاكة ، فيحس بالضعف ويطلب الحماية .

وقد أدرك الغرب أن الغريزة الدينية موجودة دائما ، كما أدرك أنها من أقوى

(١) Muhamet et le Coran نقلا عن « كتاب الدين » ص ٧٦ .

(٢) سورة الذاريات الآية ٢١ .

(٣) سورة النازعات الآيات : ١٧ - ٢١ .

الصلات بين البشر ، وأدرك كذلك سهولة إيقاظ هذه الغريزة عند مَنْ يواجهون قوى الطبيعة من سكان إفريقية وآسيا ، فاستغلَّ الغرب هذه المعارف لنشر المسيحية في هذه البقاع .

وهناك رأى ثالث يرى أن غريزة التدين تنمو تبعاً للرخاء وهدوء البال ، إذ يجد الإنسان فراغاً من الوقت ليفكر في غير أمور المعاش ، وليصل في تفكيره إلى الكون وخالقه ومدبِّره .

وتبعاً للعلّة في نمو غريزة التدين يتخذ العرب مكانهم بين المتدينين ، فالذين يرون الرأى الأول وهو ربط التدين برفق الفكر يعتقدون أن العرب لم ترقَ عندهم غريزة التدين إلا لدى من أتيح له العلم والثقافة كأمية بن أبي الصلت وورقة بن نوفل ، والذين يتجهون الاتجاه الثاني وهو مواجهة الإنسان لقوى الطبيعة يرون أن نمو الغريزة الدينية عند العرب كان قويا نتيجة لهذا الوضع في حياتهم ، والذين يرون الرأى الثالث وهو أن الرخاء وهدوء البال لهما أكبر الأثر في إبراز غريزة التدين ، يرون أن هذه الغريزة كانت أعمق حيث الغنى باليمن والمدينة وكانت الغريزة سطحية في أماكن الجفاف والفقر .

على أن جفاف الجزيرة العربية هو في الحقيقة حديث عهد بالنسبة لعمر الإنسان ، فقد دلت الأبحاث العلمية على أن الجزيرة العربية كانت قديماً رياضاً خضراء منحت أهلها ألواناً من الرخاء ، فلا يبعد أن يكون نمو الروح الدينية انحداراً من ذلك التاريخ ، وإنما نقول ذلك لأن من المشاهد الذي لا ريب فيه أن روح التدين قوية جداً عند العرب ، وأن قوة هذه الروح كانت من الأسباب التي جعلتهم يصارعون الإسلام عندما جاء ، تمسكهم بأديانهم وشدة ارتباطهم بمعتقداتهم ، ولو كانوا قليلي الاهتمام بالتدين لتركوا الإسلام يلحق به من يشاء ويعرض عنه من يشاء ، ولكنهم حاربوه بعنف حتى هزموا ، ثم تمسكوا به بعد ذلك ، وأصبح الإسلام بمرور الزمن عقيدتهم الراضخة ،

وجزءاً هاماً من فكرهم الاجتماعى : ولا يزال العربى حتى اليوم - متعلماً كان أو غير متعلم - شديد الحرص على دينه ، يعمل على نشره ويدود عنه مارسعه ذلك ، وفى إندونيسيا رأيت العرب الحضارمة ورأيت الهنود ورأيت الصينيين وليس بين هذه الطوائف طائفة حريصة على دينها وعلى نشره كالعرب ، مع أن الصينيين والهنود أغنى بكثير من العرب . والتدين الذى نقصده هنا هو التدين العام ، أما الطقوس والعبادات فطالما ضجج منها البدوى لأنه كان يعتبرها قيوداً وهو لم يالف حياة القيود .

والانجاء للتدين استقام أحياناً وانحرف كثيراً ، فإذا كان بعض الناس عرفوا الله أو قربوا منه فإن أكثر الناس عبدوا الأشجار والكواكب ، والأبطال والحيوانات والأشجار ، ويقول سورييس ديمومين^(١) إنه فى عهد الجاهلية كانت الآلهة ذات الصفات المحدودة تسيطر كل منها على قبيلة مهمة أو غير مهمة ، وكانت عبادة القبيلة لهذه الآلهة قلما تتميز عن عبادة الأوثان المقدسة ومنايع المياه والأشجار ، ونجد عند كل قبيلة طقوساً للطواف والوقوف بأشكال معينة ، والمهرولة فى صورة مواكب احتفالية وحمل المشاعل ، وكل هذه فيما يبدو تشير إلى عبادة قديمة للشمس ، لكن الأجرام السماوية الأخرى كانت تمشجداً كذلك ، وقد تبقى فى مكة طقس دينى هو التحية الخالصة الهلال عند ظهوره ، وهو يرجع إلى الجاهلية دون شك .

• • •

ومع هذا فىمكن القول عامة إن عبادة الله كانت أقدم عبادة عرفها البشر منذ آدم ، وهى العبادة التى ترتاح لها النفس المفكرة الباحثة ، ولكن هذه النفس ماتكاد تصل إلى التوحيد المطلق وما تكاد تستريح إليه حتى تبدأ فى البعد عنه ، لأن « عقيدة الألوهية المجردة عن الأجرام عقيدة صعبة

(١) النظم الإسلامية ص ١٦ مترجم عن الفرنسية (ترجمة صالح الشماخ وفيصل السامر) .

النال لا يدركها إلا خاصة الخاصة ، وإن أدركوها فسرعان ما ينسرها ويميلون إلى التجسيد^(١) .

وهكذا اتجه العالم إلى التجسيد منذ أقدم العهود ، وهكذا وجدت الحاجة للأنبياء ليعيدوا للناس الرشد والهداية ، وكان كثير من العرب من المهتدين بالفطرة ، أو بسبب التعاليم التي وصلت لهم عن طريق هملتهم إبراهيم وإسماعيل ، ولكن أكثر العرب عادوا إلى الأحجار التي عرفت من عهد نوح فنصبوها في الكعبة وأنجوها لها عابدين ، واختلط دين الفطرة بالوثنية ، وأوشكت الوثنية أن تظفي عليه أو تطفئ فعلا .

كيف تحول العرب عن عبادة الله إلى الوثنية ؟ .

تختلف الآراء في الإجابة عن هذا السؤال ، فهل يرجع ذلك إلى بقايا « طوطمية » تطورت ، على أن هذه الكلمة لا تزال موضع بحث في أصلها ، وأوضح الآراء عنها هو أن الجماعات الأولى اهتمت بالحیوان أو النبات الذي ارتبط بطعامها اليومي ، ثم تطور الاهتمام فأصبح اعتقاداً بأنهم انحدروا منه ، ويحملون لذلك اسمه أحياناً (ولعل أسرة الجمل والغراب ونحلة من ذلك) ويلزمون أنفسهم بشعائر وطقوس معينة في مواسم خاصة ، وتسبب عن ذلك تحريم أكل (الطوطم) فحرمت جماعات أكل البقر ، وحرّم آخرون أكل الطيور وعند ما حُرِّم « الطوطم » نُظِرَ له بتقدير ، وانتهى هذا التقدير إلى العبادة ، ثم تحول ذلك خطوة أخرى فعُمل بمثال له يحل محله ، وكان ذلك منشأ عبادة الأحجار .

هذه فكرة في غاية الإيجاز عن « الطوطمية » فهل كانت عبادة الأحجار عند العرب بقايا « طوطمية » ؟ إن الباحث لا يستطيع أن يجيب بالإيجاب أو بالنفي في صورة تأكيد ، وكل ما يمكن أن يقوله الإنسان إن

(١) أحمد أمين : يرم الإسلام ص ٧ .

ذلك ممكن ، وإن كان يؤخذ على ذلك أن العرب لم يحرموا أكل الإبل والغنم والتمر ولم يتخذوا منها طواطم مع أنها تكون أقدم الأطعمة التي عرفها العرب . ولا نظن أن حيوانات أخرى أو طعاماً آخر كانت أشد ارتباطاً بهم منها

وهناك رواية يذكرها ابن الكلبي^(١) تبين لنا تاريخ تحول العرب عن عبادة الله إلى الوثنية وسبب ذلك ، يقول ابن الكلبي إن عمر بن لحي من خزاعة كان حاجب الكعبة ، ثم مرض مرضاً شديداً فذهب إلى البلقاء في الشام ليستحم وماء هناك ، فاستحم وشفى ، ووجد أهل البلقاء يعبدون الأصنام . فقال : ما هذه ؟ فقالوا نستقي بها المطر ونستنصر بها على العدو . فسأهم أن يغتسلوا منها ففعلوا ، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة . ويمكن أن يعد ذلك بدء دخول الوثنية في قلب الجزيرة العربية . أما انتشارها فيوضحه لنا ابن الكلبي أيضاً في قوله^(٢) : وكان الذي سلخ بالعرب إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ضاعن إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم وصباية بمكة . فحينما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمناً منهم بها وصباية بالحرم وجباً له . وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ، ويحجون ويبتغون ، ثم سلخ ذلك أنهم عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه . واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره . فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من شبلهم ، واتبعوا ما كان يعبد قوم نوح منها على إرث ما بقي فيهم من ذكرها .

وهذا تعليل نرضاه لأنه يبين لنا السبب في إقامة الأصنام في بلادهم ومع ذلك يحجون للكعبة ويعظمون مكة ، فالأصنام التي في بلادهم لم تكن أول الأمر إلا حجارة من الحرم عظموها وبنوا لها بيوتاً وكبروها ، وبقيت للكعبة

(١) الأصنام ص ٦

(٢) المرجع السابق ص ٨ .

مكاتها السامية ، ثم لما اختلط عليهم الأمر لقلوا من معبوداتهم الحجرية الى الكعبة وملئوها بالأصنام ، ولكنهم مع هذا لم ينسوا مكانة الكعبة ، وما كانوا يرضون أن يكسوا معبوداتهم في مكان آخر ، أو أن يحجوا الى مكان آخر ، ومن هنا يتضح كيف اختلط دين الحق بعبادة الأصنام ، ويقول ابن الكلبي^(١) في ذلك - استمراراً لما سبق أن اقتبسناه منه آنفاً - : واستبدل العرب بدين ابراهيم واسماعيل غيره . . . وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم واسماعيل يتمسكون بها : من تعظيم البيت ، والطواف به ، والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة ، وإهداء البدن ، مع إدخالهم في الدين ما ليس منه .

ويرى بعض الباحثين أن العرب كانوا يعبدون الله ، وكانوا يعظمون الكواكب على أنها أعظم خلقه ، ثم تطور تعظيمهم للكواكب فصار عبادة خالصة ، وهناك بعض حجارة بركانية اعتقد العرب أنها ساقطة من السماء ، فلها صلة بهذه النجوم فعظموا هذه الأحجار ، وانقلب التعظيم إلى عبادة ، ثم عبت الأحجار الأخرى وإن لم يظنوا أنها ساقطة من السماء^(٢) .

ومثل هذا ما آل له أمرهم مع إساف ونائلة وهما في الأصل كما يروى ابن الكلبي رجل وامرأة من جرهم وكان الرجل يعشق المرأة ثم قدما للحج ، فدخلوا الكعبة فوجدوا غفلة من الناس وخلوة في البيت فواقعا ، فمسيخا حجرا ، فوضعا عند الكعبة ليتعظيها الناس ، فلما طال مكثهما وعُبدت الأصنام ، عُبدا معها^(٣) .

(١) المرجع السابق ص ٦ .

(٢) انظر حياة محمد للدكتور ميكل ص ٩٢ .

(٣) الأصنام لابن الكلبي ص ٩ ، ٢٩ .

وبرى بعضهم أن الأوثان لها صلة بالقبور والحجارة التي تعودوا أن ينصبوها على قبور الأبطال، أو أنها تجسّد لأبطال مشاهير احتلوا عند العرب مكان التقديس ، فلما ماتوا اتخذوا لهم التماثيل ، وأجلّوها ثم عبدوها .

الحنساء :

وغلّبت عبادة الأحمجار على العرب وخضعوا لها وأنسوا بها ، ولكن بين هذا الظلام كان هناك من يدرك أن القوم في ضلال ، فقد روى أنه اجتمع - في أحد الاحتفالات التي كان يقيمها العرب لأصنامهم - أربعة من العرب هم : ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش وزيد بن عمرو ؛ وقال هؤلاء بعضهم لبعض : والله ما قومنا على شيء ، لقد أخطئنا دين أبيهم إبراهيم ، ما حجر نطوف به لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع ؟ التمسوا لأنفسكم ديناً غير هذا الدين^(١) ، وقد أخذ هؤلاء يفكرون فاهتدى ورقة وعثمان للنصرانية ، والتبس الأمر على عبيد الله فبقى على حاله من الالتباس حتى ظهر الإسلام فأسلم ثم هاجر للحبشة وهناك تنصر ، وأما زيد فلم يدخل النصرانية ، ولكنه أبعد عبادة الأصنام عن نفسه^(٢) وأنكر ما رآه على العرب من أكل الميتة والدم وغيرها واعتقد بذلك أنه عاد إلى دين إبراهيم ، ولذلك كان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول يامعشر قريش والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيرى . وكان يناجي ربه قائلاً : يارب ، لو أنى أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به . ولكنى لا أعلم^(٣) ، وهو الذى يقول :

(١) الخضرى : تاريخ الأمم الإسلامية ص ٦٠ .

(٢) الأصنام لابن الكلبي ص ٢١ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٢ .

تركت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الرجل الخبير
فلا العزى أدين ولا ابنتها ولا صَنَمِيْ بنى غنم أزور
ولا هُبَلا أَجِلُّ ، وكان ربيّاً لنا في الدهر إذ حلّمي صغيراً^(١)
ومن هؤلاء أيضاً أمية بن أبي الصلت وقيس بن مسعدة الإباضي .

الأصنام والأوثان والأنصاب :

وقد سبق أن أشرنا إلى أصنام العرب وقلنا إنه كانت لهم أصنام في الكعبة
أو حَوْطُهَا ، كما كانت لهم أصنام في بيوتهم ، وأخرى في مدنهم ، وفي مواقع
أخرى لهم ، ويجدر بنا قبل أن نذكر أهم هذه الأصنام أن نوضح أن كلمة
الأصنام قد تذكر ويراد بها الأوثان والأنصاب ، فكل منها قد تنوب عن النوعين
الآخرين في الاستعمال العام ، وقد سمي ابن الكلبي كتابه « الأصنام » مع أنه
تحدث فيه عن كل هذه الأنواع ، ولم يوضح ابن الكلبي الفرق بين هذه الأنواع
توضيحاً شافياً ولعله كما يلي^(٢) .

النصب : صخرة ليست على صورة إنسان ، ويغلب ألا يكون لها
صورة خاصة .

الأوثان : ما كان على صورة إنسان من حجر .

الضنم : ما كان على صورة إنسان من معدن أو خشب .

وأهم أصنام العرب^(٣) « هبل » وكان من العقيق الأحمر على صورة إنسان ،

(١) المرجع السابق ص ٢٢ .

(٢) انظر كتاب الأصنام ص ٣٣ ، ٤٢ ، ٥١ : ٤٣ .

(٣) ماوردته من الأصنام هو إجماع لأهم ما ذكره ابن الكلبي في هذه أسكنة

من كتاب الأصنام ، انظر ص ٩ إلى ص ٦٠ .

وكان مكسور الذراع فأبدله القرشيون ذراعا من ذهب وكان هبل كبير الآله ومصره الكعبة المكرمة .

وهناك أصنام أخرى كثيرة عند العرب ، أهمها :

اللات . صخرة مربعة أقيم عليها بناء بالطائف وهي عند ثقيف تسبق كل الأصنام .

العُزَّى : كانت تعبد في الحجاز ، وكانت أعظم صنم عند قريش بعد هبل وربما نافسته .

مناة : صنم على ساحل البحر بين المدينة ومكة ، وكان العرب جميعا تعظمه وكانت الأوس والخزرج تذبح له وتقدم الهدى ، وقد ورد ذكر هذه الأصنام الثلاثة في الآية الكريمة (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثلاثة الأخرى)^(١) .

ود : تمثال رجل عظيم معه أدوات الحرب ، وكان بدومة الجندل لكلب وقضاة .

سواع : بأرض يثرب لهذيل .

يعوق : بأرض الطائف لطى ومنحج .

يغوث : باليمن وكانت تعبده همدان .

مسر : باليمن وكانت تعبده حمير .

ويقول ابن الكلبي إن هذه الأسماء الخمسة كانت في الأصل أسماء لقوم صالحين ، ولكنهم ماتوا في شهر ، فجزع عليهم أقاربهم : فقال لهم رجل يعمل بالنحت : هل لكم أن أعمل نكم خمسة أصنام على صورهم

(١) سورة النجم الآية ١٩ - ٢٠ .

على أنى لا أقدر أن أجعل فيها أوراها ؟ قالوا : نعم . ففتح لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم ، فكان أقاربهم يأتون إليهم معظمين ، وفي القرن التالى زاد تعظيم الناس لهم ونحروا وأهدوا ، وفي القرن الثالث خطوا خطوة أخرى فعبدوهم ، وقد بدأ ذلك قبل نوح ^(١) .

وكانت هذه الأصنام الخمسة تعبد فى عهد نوح ويبدو أن عرب الجاهلية جددوا عبادتها بعد نوح كما سبق القول ، وقد ورد ذكرها فى صورة نوح قال تعالى . (قال نوح : رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزد ماله وولده إلا خساراً ، ومكروا مكراً كبيراً ، وقالوا لا تذرنا آلهتنا ، ولا تذرنا ودا ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً) ^(٢) .

التثليث عند عرب الجنوب :

وبالإضافة إلى الأصنام عسرفَ الثالوث طريقه إلى عرب الجنوب ، وكان هذا الثالوث يتكون عند قتيان من « عم » وقد صورته عبادة إلهاً ذكرأ وقدموه على « الشمس » التى اعتبروها زوجته ، اما الأفتوم الثالث فى ثالوثهم الدينى فهو « عثر » ابنهما ^(٣) .

عبادة الأصنام لم تكن ذاتية :

وينبغى أن يتضح أن عبادة العرب للأصنام لم تكن عبادة ذاتية وإنما كانت فى نظرهم وسيلة يتمربون بها إلى الله (مانعبدهم لإليقربونا إلى الله زلنى) ^(٤) وهذا دليل على أنهم لم ينسوا إله إبراهيم حتى حينما كانوا فى ظلماتهم يعمهون ، وما يؤكد ذلك أن آلهتهم التى انتشرت فى الجزيرة العربية والتى

(١) كتاب الأصنام ص ٥١ - ٥٣ « يتصرف » .

(٢) سورة نوح الآيات ٢١ - ٢٣ .

(٣) فيليب حتى : تاريخ العرب ج ١ ص ٨٠ .

(٤) سورة الزمر الآية الثالثة .

أقاموا لها البيوت ورتبوا لها السدنة لم تشغلهم عن الكعبة بيت أبيهم إبراهيم فظلوا لها يحجون كما سبق القول ، والدارس لذلك الموضوع يدرك اضطراب هؤلاء العرب بين موحدتين على إبراهيم ، وبين وثنيين عبدة للأصنام . ويقول ابن الكلبي ^(١) . ويوسـونة بالتلبية : ويُدخلون معه آلهتهم ويجعلون ملكها بيده ، يقول الله عز وجل : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) ^(٢) . أي ما يوحّدونني بمعرفة حتى إلا وجعلوا معي شريكاً من خلقى .

وكان العرب يتقربون لهذه الآلهة بالقرايين من الماشية ، وكانوا في وقت ما يتقربون لها بالقرايين من البشر ، ويدل على ذلك حادثة عبد المطلب الذى كان على وشك أن يتقرب للآلهة بذبح ابنه عبد الله والد الرسول كما سيأتى الحديث عن ذلك ، وكانوا كذلك يستقسمون عندها فيضربون بالأزلام ليروا ما قسم لهم ، فكان الواحد منهم إذا أراد أن يقدم على شيء ذى بال كالزواج والمفر ذهب للكعبة ليستقسم وليرى ما تريده له الآلهة ، وكان يقوم بالاستقسام سدنة البيت .

عبادة الأصنام لم تكن جدية :

استعرضنا أديان العرب فى الجاهلية ، وبيننا كيف انحرف العرب عن دين إبراهيم إلى عبادة الأصنام ، وأوردنا أشهر الأقوال فى سبب هذا الانحراف كما ذكرنا أن عبادة الأصنام لم تشغل العربى عن دين إبراهيم بل ظل على صلة به ، وأوضحنا أن عبادة الأصنام كانت الغالبة فى الجزيرة العربية .

(١) الأصنام ص ٧ .

(٢) سورة يوسف الآية ١٠٦ .

وإن الذي يقرأ بإمعان كتاب الأصنام لابن الكلبي - وهو بلا شك أهم مرجع في هذا الباب - يصل إلى حقيقة هامة هي أن عبادة الأصنام عند العرب لم تكن جدية ، وأنها لم تتعمق في قلوبهم ، وأن الثورة على هذه الأصنام كانت تحدث من حين إلى آخر ، فيطيح الثائر برأس صنمه وينهال عليه تهشياً وسخرية ، وليس هذا فقط من العقلاء المفكرين كزيد بن عمرو ، وورقة بن نوفل وغيرهما ممن تحدثنا عنهم ، بل إن الثورة على الأصنام كانت تحدث من عابديها وأتباعها ، فكان العابد ينقلب فجأة إلى سائح ساخط لأدنى الأسباب مما يدل على أن عبادتهم للأصنام كانت في كثير من الأحوال سطحية لا تعمق فيها ، وسنورد هنا بعض ما ذكره ابن الكلبي مما يدل على ذلك .

كان لكثانة صنم يقال له « سعد » بساحل جدة ، فأقبل رجل من كثانة بإبل له ألقفها عليه ، يتبرك بذلك فيها ، فلما دنا من الصنم - وكان عليه أثر دماء - نفرت الإبل ، وذهبت في كل وجه وتفرقت ، فأسف صاحبها لذلك وغضب على « سعد » وتناول حجراً ورماه به ، وقال : لا بارك الله فيك إلهاً ، أنفرت على إبلي . ثم خرج في طلبها حتى جمعها وانصرف وهو يقول :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وماسعدُ إلا ضحرة لا هُدَى لها يُرَجَى ، ولا تدعى لغى ولا رشد ^(١)

وكان لمزينة صنم يقال له : « نهم » وكان له سادن يسمى خزاعي ابن عبد نهم ، فلما سمع بالنبي الله عليه وسلم ثار على الصنم فكسره وأنشأ يقول :

ذهبت إلى نهم لأذبح عنده عترة نسك كالذي كنت أفعل
فقلت لنفسى حين راجعت عقلها أهذا إله ! أبكم ليس يعقل
أبيت ، فدينى اليوم دين محمد ورنى الإله الماجد المتفضل^(١)

• • •

وكان الخثعم وبجيلة وأزد السراة ومن قاربهم من بطون العرب
ومن هوازن صنم يقال له « ذو الخلصة » وكان موضوعاً بشالة بين
مكة واليمن على بعد سبع ليال من مكة ، وكانوا يعبدونه ويستقسمون
عنده ، فلما أقبل امرؤ القيس بن حجر يريد الغارة على بنى أسد لأنهم قتلوا
أباه ، عرج على « ذى الخلصة » فاستقسم عنده ثلاث مرات ، فخرج
« الناهى » أى الأمر بمنعه مما أراد من الهجوم على بنى أسد والثأر منهم .
فلما كانت الثالثة ناهية أيضاً كسر امرؤ القيس القداح وضرب بها وجه الصنم
وقال . « عضضت يابر أهلك ! لو كان أبوك قُتِلَ ماعوّفتنى ، وسار امرؤ
القيس فى طريقة للثأر وهو ينشد :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا

مثلى ، وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا

ويقول ابن الكلبي ، إن أمراً القيس بعسد ذلك غزا بنى أسد
وظفريهم^(٢).

الأديان السماوية بالجزيرة العربية قبل الإسلام :

ويحاجب عبادة الأوثان عرّفت الديانات السماوية طريقها إلى العرب
قبل الإسلام ، وقد سبق أن تكلمنا عن ملك اليمن الذى اسمه ذو نواس ،
وقلنا إنه اعتنق اليهودية واعتنقها معه كثير من رعيته ، وقد أخذ ذو

(١) الامنام ص ٧ .

(٢) المرجع السابق .

نواص اليهودية من اليهود الذين هاجروا إلى اليمن كما كان هناك يهود في يثرب بخيبر ووادي القمري وغيرها ، ويطلب أن يكون هؤلاء اليهود نازحين من فلسطين وربما كان فيهم بعض العرب الذين اعتنقوا اليهودية .

وعرفت النصرانية طريقها إلى الجزيرة العربية كذلك ، وقد أشرنا إلى نصرى نجران الذين قبض عليهم ذونواس السالف الذكر . ودخلت المسيحية اليمن في أثناء حكم الحبشة ، أما دولتنا الشمال الغساسنة والمناذرة فقد عرّفتا المسيحية أيضاً وبخاصة دولة الغساسنة التي كانت وثيقة الصلة بثقافات الروم ، ودخلت المسيحية أيضاً الحيرة حيث تنصرت الأميرة المالكة أو أغلبها ، وقد كانت بالحيرة «بيعة» أورد ياقوت (١) الكتابة التي كانت على واجهتها ونصها «بَنَتْ هذه البيعة هند أمة المسيح وأم عبدة» وقد جاءت المسيحية للعرب عن طريق سوريا ومصر والحبشة في أزمنة متعددة غير معروفة تماماً ، ويطلب أن تكون في القرنين الرابع والخامس ، وربما دخلت المسيحية قبل ذلك مع المسيحيين الفارين من التعذيب والاضطهاد قبل أن يعتنق إمبراطور الروم المسيحية .

على أن اليهودية والمسيحية لم تكونا عظمتي الخطر واسعى الانتشار في الجزيرة العربية ، فأما اليهودية فكانت دين الشعب المختار ؛ وكان دخول العربي فيها لا يحقق المساواة مع اليهود من أبناء إسرائيل ، ولذلك لم يقبل العربي أن يدخل ديناً يضعه في طبقة أسفل من طبقة دعاة ذلك الدين ، وأما المسيحية فهي مملوءة بالتعقيدات التي لم يستسغها ذهن العربي ، ومملوءة بالخلافات الحادة التي سببت الغموض للدين ، وصرفت عنه من كان يمكن أن يتبعه من العرب . وقد وضحنا ذلك في سلسلة «مقارنة الأديان» .

الإمارة

هناك ظاهرة تكثر تكون واضحة عند كل القبائل العربية وهى الحرص على المرأة واعتبار عرضها أعلى من النفس والمال والولد ، ومن مظاهر هذا الحرص أن ظهرت عند العرب عادة أخذ النساء فى مؤنعة الجيوش ليدرك المحارب أن هزيمته ستجعل عرضه مباحاً لأعدائه ، وكان هذا كفيلاً أن يستमित المحارب فى الصراع (١) .

على أن المرأة كثيراً ما كانت تنتهز فرصة التحاقها بالجيش فتشجع الرجال وتشد أزهرهم ، وفى يوم « ذى قار » الذى كان بين الفرس وبين بكر وقفت امرأة من بنى عجل تشد مستحثة الرجال على الجلال ، واعدة - باسم صواحبا - المنتصرين ، مهددة المهزومين ، قالت المرأة فى رجز لها :

إن تَهْزَمُوا نَعَانِقَ وَنَفَرِشَ النَّسَارِ
أَوْ تُهْزَمُوا نَفَارِقَ فِرَاقَ غَيْرِ وَامِقِ (٢)

وطالما اشتط هذا الحرص فسبب المأسى والمصائب والعار والشنار ، فعمر بن المنذر بن ماء السماء سيد الحيرة ، يسأل يوماً جلساءه : هل تعلمون أحداً من العرب يأنف أن تخدم أمه أمى ؟ فقالوا : لا ، إلا أن يكون عمرو بن كلثوم . فاستضاف عمرو بن المنذر وأمّه هند ، عمراً بن كلثوم وأمّه ليلى بنت مهلهل ، وطلب ابن المنذر من أمه أن تستخدم ليلى فى زحزحة بعض الأطباق ومناولتها لها وهن يأكلن ، ففعلت هند ولكن ليلى أجابتها قائلة : لنقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها ، وحاولت هند ذلك مرة أخرى ولكن ليلى أدركت مايراد بها وأن كرامتها جرححت فصاحت : واذا له ! فسمعها ابنها فسارع إلى سيف معلق فاخطفه وقتل به عمرو بن هند .

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٧١ .

(٢) انظر أيام العرب فى الجاهلية لجاد المولى وزميله ص ٣١ .

ومن هذه القصة التي أوردناها موجزة تظهر لنا مكانة المرأة العربية
مثلة في هند وليل ، وتظهر لنا حساسيتها المرفقة بمثلة في ليلي ، ثم ندرك
أن كلمة واحدة نطقت بها ليلي معبرة عن استيائها تسببت في مصرع
الملك .

ومن اشتطاط الحرص ، وأد البنات الذي عرف في بعض قبائل العرب
خوفاً عليهن من العار أو الأسر ، ولم يكن وأد البنات بطبيعة الحال كثير
الانتشار وإنما وجد في بعض بني أسد ونميم .

وتتكون الأسرة العربية في الغالب تكويناً عادياً ، بأن يختب للرجل
المرأة من ذويها ، فإذا قُبِلت خطبته أخذها إلى بيته وبنى بها ، ويكثر أن
تستشار المرأة في أمر زواجها ، وتقص كتب الأدب والتاريخ حكاية عن أوس
ابن حارثة وبناته الثلاث حينما جاءه الحارث بن عوف خاطباً ، فاستدعى أوس
كبرى بناته وعرض عايتها خطبة سيد العرب ، فاعتذرت بأن فيها بعض الميوب
وليست هناك بينها وبين الحارث قرابة يرعاها بها ، ولا هو جار لأبيها
فيستحي منه ، وقالت ليلي أخشى أن يطلقني فيشقى ذلك علي ،
فاستدعى أوس الوسطى فقالت كما قالت أختها . فاستدعى الصغرى فقبلت ،
فذكر لها أبوها امتناع أختها والأسباب التي دعت لهذا الامتناع ، فقالت
للصغرى : لكني والله الجنييلة وجهاً ، الصناع يداً ، الرفيعة خلقاً ، الحسبية
نسباً . فسأل أبوها : ألا تخافين الطلاق ! فأجابت . إن طلقني مع ما لي فلا
بارك الله فيه . فزوجها منه .

ومن هذه القصة ندرك كذلك أن العرب كانوا يعرفون الطلاق وكانوا
يخافونه وينفرون منه .

وكان الطلاق بيد الرجل إن شاء أبى وإن شاء طلق ، ولكن بعض

النساء كن لا يزوجن إلا إذا كان لهن حق الطلاق . ومن هؤلاء سلمى بنت عمرو إحدى نساء بني النجار وهي أم عبد المطلب بن هاشم .

ومن عادات العرب ألا يزوجوا بناتهم لغير العرب . وقد حاول كسرى ملك الفرس مرة أن يخطب لنفسه من بنات تابعيه النعمان بن المنذر ملك الحيرة فقبل له : أيها الملك ، إن شر شيء في العرب أنهم يتكرمون عن المعجم . ولكن ذلك لم يثن كسرى عن رغبته فأرسل بها إلى النعمان . وثار النعمان لذلك وقال : أما في مها السواد وعين فارس ما ينفخ به كسرى حاجته ؟ وكتب النعمان لكسرى يقول : إن مطلب الملك ليس عندي ، وقد دفع النعمان حياته ثمناً لموقفه ذلك كما سبق ، ولكن العرب ظلوا على هذه الحال كما لا يزال الكثيرون منهم حتى الآن . فلنبرز هنا أن هذه العادة هرية وليست إسلامية^(١) .

وكانت المرأة البدوية لا تحب أن تزوج في الحضر ، وأعظم مثال لذلك ميسون زوجة معاوية وأم يزيد التي لم تطق حياة دمشق والقصور والنعيم ، وتاقت إلى الخيام والانطلاق في الصحراء ، وكتبت في ذلك قصيدة طويلة منها :

ولبس عباءة وتقر عيني . أحب إلي من لبس الشفوف
وأطياف الرياح بكل فج . أحب إلي من قصر منيف
وأكل كسيرة من كسر بيتي . أحب إلي من أكل الرغيف

فلما عرف معاوية ذلك أعادها إلى أهلها بالبادية .

(١) كثير من العرب المضاربة الذين هاجروا إلى بلاد الشرق الأقصى لا يزالون يرفضون تزويج بناتهم لكان هذه البلاد ، وذلك امتداد لفكر العربي قبل الإسلام .

ولم يكن عدد الزوجات عند العرب في الجاهلية محدوداً ، وقد أوردت كتب الفقه الإسلامى نماذج كثيرة لأزواج أسلموا ونحت الواحد منهم عدد يزيد عن الأربعة ، ومنهم من كانت زوجاته عشرة وأمروا باختيار أربعة ومفارقة الباقيات . ويجب العرب كثرة البنين ودعاؤهم عند الزواج هو : بالرفاء والبنين . ومن الواضح أن البنين هم عماد الأسرة العربية التى لا تعيش إلا فى حراسة للسيوف والدروع التى يستعملها للشبان .

والمرأة العربية خير رفيق لزوجها وخير عون له ، لأنها تجيد من الفنون ما يجعلها فى مستوى ثقات يلائم زوجها ، فالرعى ، والاستقاء ، والغناء ، وقول الشعر ، والرقص ، والغزل ، والنسيج ، وشد الخيام ، وضمها ، لكل ذلك كانت نجيده المرأة العربية بالإضافة إلى واجباتها كأم وربة بيت .

ولم تعرف المرأة العربية الحجاب فى عصور الجاهلية ، كما لم تعرفه لقطة البادية حتى الآن ، فلأنها لا تزال تصحب زوجها متأبطة يده على نسق ما يفعل الأوروبيون^(١) ، أما الحجاب المنتشر فى هذه الجزيرة العربية الآن ، سواء منه غطاء الوجه أو المنع من الخروج للحياة العامة المعروف بنظام « الحريم » فهو نظام أدخله الأتراك إلى العالم الإسلامى إبان سلاطنتهم وقد صبغوه بصبغة إسلامية^(٢) ، وقد أصبح الآن عادة متبعة فى بعض البلاد بالجزيرة العربية .

ومن الأشياء التى قاسمتها المرأة العربية فى بعض الأحوال أن زوجة الأب كانت تورث كما يورث المتساع ، وقد كان ذلك غير شائع وكانوا يسمونه نكاح المقت ، وكان مقصوداً على المرأة التى ليس لها أولاد

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ١١٣ .

(٢) انظر « الحياة الاجتماعية فى التفكير الإسلامى » للمؤلف .

كبار ، ويعمل له بعضهم بأنه نتيجة لنظام العرب في الزواج ، ذلك النظام الذى كان يعتبر زواج المرأة إلحافاً لها بزوجها وقطعاً للصلة التى كانت لها بأبيها وأسرته .

وكانت الأسرة وحدة ينتصر أفرادها بعضهم لبعض في الظلم والعدل ، ومن أمثلتهم الشائعة « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » وإذا كان هذا هو موقف الأخ من أخيه فإن أبناء الاثنين (أبناء العم) سرعان ما يصبحون أعداء ، وسرعان ما تنشب بينهم الحروب كالعداء الذى حصل بين بنى عبد الدار وبنى عبد مناف ابني قصى وكالعداء الذى حصل بين ابني عبد مناف . هاشم وأمية ، والذى حصل بين العباسيين والعلويين والفرغان من أولاد عبد المطلب بن هاشم وهكذا .

• • •

وقبل أن نتحدث عن رسول الإسلام وعن مسير دعوته يجدر بنا أن نوصي القارئ بالتعرف على الأديان التي سبقت الإسلام ، وبالتعرف على المقارنة بين قضاياها المختلفة ، فذلك سيوضح مكانة الإسلام بين هذه الأديان ، وقد أبرزنا ذلك في سلسلة « مقارنة الأديان » التي تشمل أربعة أجزاء هي :

١ - البوذية .

٢ - المسيحية .

٣ - الإسلام .

٤ - أديان الهند الكبرى (الهندوسية - الجينية - البوذية) .

والآن ننتقل إلى الدراسة الرئيسية في هذا الجزء ، وهي دراسة السيرة النبوية العطرة :

مَحْدُ قَبْلِ الْبُعْثَةِ

الرسول منذ ولد إلى أن بُعث ﷺ

نصب الرسول :

محمد هو ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي
ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر . وفهر هذا هو
قريش عند الأكثرين وهو الجلد العاشر للرسول .

وفهر هو ابن مالك بن النضر ويرى بعض الباحثين أن النضر هو قريش .
والنضر هو ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار
ابن معد بن عدنان وعدنان هو الجلد العشرون للرسول .
وينتهي نسب عدنان إلى إسماعيل عليه السلام .

العرب العاربة والمستعربة :

العرب العاربة هم الأقدمون الذين كانوا قبل إسماعيل أو عاصروه ،
أما المستعربة فهم أبناء إسماعيل ، أخذوا اللغة العربية من العرب العاربة أي
الأصلاء في اللغة ، وسموا مستعربة لأن جدّهم إسماعيل ليس عربيا ، فهو ابن
إبراهيم الخليل ، زعيم العبرانيين ، ولكن إسماعيل نشأ بين العرب وعرف
لغتهم ، وتعرّب هو وأولاده فسُموا مستعربة .

كلمه عن أجداد الرسول

قريش :

قريش هو الجلد العاشر للرسول كما ذكرنا ، وكان قريش يكفي حاجة
المحتاج ، وكان ملجأ المظلوم والطريد والخائف .

قصي :

وقصى الجلد الرابع للرسول ، وهو الذي استعاد سلطان أجداده على الحرم ، إذ أخرج خزاعة من مكة ، وكانت خزاعة قد سلبت السلطة من أبناء إسماعيل ، وسيطرت على مكة ردحا من الزمن ، فلما شبَّ قصي أعلن أنه أحق بالسلطة على مكة ، لأنه من نسل إسماعيل الذي رفع مع أبيه قواعد البيت ، والذي نبع له ماء زمزم ، وقد حقق قصي مأربه ، ثم بنى دار الندوة ورتب وظائف الكعبة .

هاشم :

وهاشم هو الجلد الثاني للرسول صلوات الله عليه ، وكان يتولى السقاية والرفادة وكان اسمه غمرا ، وسمى هاشما لأنه كما تقول الرواية كان يتلقى معونات من قريش لإطعام فقراء الحجاج ، ولكن حدث عام مجاعة فلم يكلف هاشم بنى قومه شططا ، وأخذ كلُّ ماله وذهب إلى الشام فاشترى كمية كبيرة من الكعك الجاف وعاد به فهشمه هشما ليجعله صالحا لأن يكون نريداً ، فسُمي الهاشم .

وكان هاشم سفير قريش لدى الملوك ، وهو الذي عقد حلفاً تجارياً باسم قريش بينها وبين هرقل ملك الروم لتذهب تجارة قريش آمنة إلى الشام ، وكثيراً ما كان يقود التجارة بنفسه إلى الشام ، ومات هاشم في إحدى رحلاته التجارية وهو عائد إلى مكة ، وكانت وفاته في غزة (١) .

المطلب أخو هاشم :

والمطلب أخو هاشم ، وكان أصغر منه سناً ، وبعد موت هاشم تولى المطلب السقاية والرفادة وكان ذا فضل وشرف في قومه ، وكانت قريش تسميه « الفيض » لمباحته وفضله .

شبية (عبد المطلب) :

وكان هاشم الذي سبق الحديث عنه قد قدم المدينة و يثرب : فزوج سلمى بنت عمرو أحد بنى عدى بن النجار ، وكانت امرأة ذات شأن ومكانة ، فكانت لا تزوج إلا إذا كان أمرها في يدها ، وقد ولدت لهاشم ولداً سمي هشبة ، وتركه هاشم مع أمه يثرب حتى شب وأصبح غلاماً ، فلما مات هاشم خرج أخوه المطلب إلى المدينة ليحضر ابن أخيه لمكة ايميش بنى قومه وأهله ، وقد تمسكت أمه به أولاً ، ولكن المطلب صاح بها قائلاً : نحن أهل بيت كريم ، لنا شرف في قومنا ، نل أمورهم ونحمل تبعاتهم ، وقومه وأهله أولى به ، فاستجابت أمه لذلك وأسلمته .

ودخل به المطلب مكة وقد أردفه خلفه ، فظنت قريش أنه عبد اشتراه المطلب فقالوا : عبد المطلب ، فقال المطلب : ويحكم إنه شبية ابن أخى ولكن لقب عبد المطلب غلب عليه ^(١) .

ومات المطلب فأخذ عبد المطلب ابن أخيه هاشم مكانه وتولى السقاية والرفادة ، وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون قبله لقومهم ، وبلغ في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه وعظم فيهم ^(٢) .

بطون قريش

واستكمالاً للحديث عن أجداد الرسول نذكر أن بطون قريش الناعشر
بطناً هي :

١ - بنو عبد مناف ، وعبد مناف هو جد الرسول الثالث ، وأشهر أولاده هاشم جد الرسول الثاني وعبد شمس والد أمية الذي تنسب له الأسرة الأموية .

٢ - بنو قيس أجداد أبي بكر .

٣ - بنو عدى أجداد عمر .

(١) ابن هشام ١ - ١٢٦ - ١٢٧ .

(٢) ابن هشام ١ - ١٣١ .

- ٤ - بنو أسد أجداد خديجة .
- ٥ - بنو زهرة أجداد آمنة .
- ٦ - بنو مخزوم أجداد خالد بن الوليد .
- ٧ - بنو سهم أجداد عمرو بن العاص .
- ٨ - ١٢ بنو عبد الدار وبنو عامر وبنو الحارث وبنو جميع وبنو محارب

هيد الله بن عبد المطلب :

رؤى أن رجلاً جاء إلى الرسول صلوات الله عليه فقال له : . . .
يا بن الذبيحين ، فلم ينكر الرسول عليه ذلك ، والذبيح الأول هو إسماعيل
ابن إبراهيم عليهما السلام ، والذبيح الثاني هو أبو الرسول عبد الله بن
عبد المطلب .

وقد قص القرآن الكريم قصة الذبيح الأول في قوله تعالى : (فشرناه
بغلام حلیم ، فلما بلغ معه السعی قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك
فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ،
فلما أسلما وتله للجبين ، ونادينا أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك
نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم . وتركنا
عليه في الآخرين ، سلام على إبراهيم)^(١) .

أما قصة الذبيح الثاني فنرويها لما كتب التاريخ وبخاصة كتاب الأسماء
لابن الكلبي^(٢) وتاريخ الطبري^(٣) ، وهي تروينا بعضاً من عادات العرب التي
سبق الحديث عنها ، فالعرب كانوا يتقربون إلى الآلهة بتقديم القرابين التي
تكون أحياناً من دماء البشر ، كما انتشرت عندهم عادة الضرب بالقداح
واتِّباع ما توصي به هذه القداح ، وخلاصة هذه القصة أن عبد المطلب كان

(١) سورة العنكبوت الآيات ١٠١ - ١٠٩ وانظر الطبري ج ١ ص ١٨١ وكتاب
اليهودية للمؤلف .

(٢) (٣) ٢ - ١ ص ٦ .

(٢) ص ٨ و ٢٧ - ٢٨ .

عليه سقاية الحاج ، وكان عليه أن يحضر الماء لذلك من آبار بعيدة ويضعه في أحواض ليشرب منها الحجيج كما تقدم ، وكان هذا العمل صعباً يحتاج إلى أيد كثيرة وإلى جهد كبير ، ولذلك فكر عبد المطلب في إعادة حفر بئر زمزم ، ولكنه وجد كثيراً من العنت من قريش ، ولولا صبره ودأبه ما نفذ هذا العزم ، ومن أجل هذا نزل ثلث ولید له عشرة بنين ثم شبوا وأصبحوا بمنهونه ، لينحرن واحداً منهم عند الكعبة تقرباً لآلهة قريش ، فلما حقق الله أمنيته وأصبح له عشرة أولاد^(١) أراد أن يني بنزله، فجمع أولاده عند (هبل) وهو أعظم الأصنام التي تعبدونها قريش ، وطلب إلى صاحب القداح أن يضرب عليهم ، فخرجت القرعة على عبد الله وهو أصغر أولاد عبد المطلب وأحبهم إليه . فأخذ عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة وذهب به ليذبحه عند أساف وثائلة وهما وثنا قريش اللذان تقدمت عندهما القرابين ، فكفته قريش وكفته بنوه وقالوا : لا تذبحه أبداً حتى نقبض الأمر، وأشاروا عليه أن ينطلق إلى عرّافة شهيرة ليستشيرها ، فذهب إليها ، فأشارت عليه أن يعبد الضرب بين عبد الله وبين عشرة من الإبل ، فإن خرجت القرعة على الإبل فلتكن هذه دية لعبد الله وإن خرجت على عبد الله زيد عليها عشرة أخرى وهكذا حتى ترضى الآلهة بالدية، فاستجاب عبد المطلب لرأى العرّافة، وظلت القرعة تخرج على عبد الله حتى بلغت الإبل مائة، فخرجت على الإبل، فنحرها عبد المطلب وترك لحمها حلالاً للناس والحيوان والطيور .

ونجا عبد الله بذلك من الذبح ، ولكن هذه الحادثة أذاعت اسمه وأكسبته شهرة عظيمة ، وأصبح موضع عناية الناس وحديثهم وحبهم ، وزوجه والده بعد ذلك من آمنة بنت وهب ، وعاش معها فترة قصيرة بعد الزواج ، ثم تركها وسافر متاجراً إلى الشام . ومات في الطريق دون أن يعود إلى زوجته ، ولكن بعد أن أودع في بضعها نطفة^(٢) كان مقدراً لها أن تكون أعظم شخصية في تاريخ البشرية . فكأنما نجا عبد الله من الذبح

(١) كان لعبد المطلب عشرة بنين وست بنات (انظر المقد الفريد ج ٤ ص ٢٥٢) .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد ج ١ ص ١٧ .

لغرض واحد هو الالتقاء بأمنة وتكوين هذا الجنين ؛ وبعد أن أدى عبد الله الغرض أذن بالرحيل .

الكاهنة التي أرادت الزواج من عبد الله

عندما نجا عبد الله من الذبح انصرف به أبوه عبد المطلب عائداً إلى البيت ، وفي طريق عودة عبد الله إلى دور بني هاشم رآته امرأة من بني أسد بن عبد العزى تدعى رقية بنت نوفل ، وهي أخت ورقة بن نوفل ، وكانت لها فراسة ومهارة ؛ فرأت في وجهه نوراً أحست أنه سينتقل إلى ابن عبد الله ؛ وتمنّت أن تكون هي الأم التي يحبها هذا الابن عن طريقها ، فعرضت لعبد الله ؛ وحادثته ثم عرضت نفسها عليه ، ولكن عبد الله أعرض عنها فطلبت منه أن يتزوجها وقالت له : لك مثل الإبل التي نحررت عنك لو تزوجتني ، ولكن ذلك لم يدفع عبد الله للاستجابة لطلبها ؛ وتقول الرواية أن عبد الله قال شعراً يحمى نفسه من أية صلة غير مشروعة بأية امرأة ، وهذا الشعر هو :

أما الحرام فالحمائم دونه والحلل لاحت فاستبينه .
فكيف بالأمر الذي تبغينه يحمي الكرم عرضة ودينه .

ويقال إن عبد الله تزوج آمنه بعد ذلك بقليل ، ومر بهذه المرأة بعد أن دخل بأمنة وبعد أن حملت آمنه منه ، ولكنها عرضت عنه ؛ فسألها عبد الله ما سبب إعراضك ؟ فقالت : تارقت النور الذي كان معك ، فليس لي بك اليوم حاجة ^(١) .

آمنة بنت وهب :

إذا كان عبد الله قد أدى مهمته في الحياة بزواجه بأمنة وتكوين هذا الجنين ، فإن مهمة آمنه لم تنته بذلك ، فالحمل والحضانة والإشراف على الطفل كانت لازمة لهذا الطفل ، ففضل الله ومدّ عمر آمنه بضع سنين ، والباحث

(١) ابن مشام ١ : ١٤٣ و ١٤٤ .

النفسي يسدرك سرور آمنة بزواجها من عبد الله ذى الشباب الغض والشهرة الذائعة ، وبدرك أن موت عبد الله بعد هذا الالتقاء الوجيز كان جديراً أن يحطّم قلب آمنة ، ولكن التاريخ يُثبت لنا هدوء آمنة في غمرة الحزن ورضاها مع الأمسى ، وقد وجدت آمنة سلواها في الجنين ثم في الطفل ، ولكنها سرعان ما ماتت عندما كان طفلها في السادسة من عمره . وكانت وفاتها في موضع يقال له الأبواء بين مكة والمدينة ^(١) .

لقد شاء الله - فيما يبدو - أن يتولى هو تربية محمد وأن يزرعه من أسرته ليصبح في رعاية الله تمهيداً للأسرة الكبيرة التي سيكون محمد زعيمها ، والتي لا تتم بنجس ولا لغة ، وإنما أكرم الناس فيها هو أكثرهم تقوى لله ، وقد عبر القرآن عن هذا المعنى بالآية الكريمة : (ألم يجدك يتيماً فآوى) ^(٢) وعبر عنه الرسول بقوله : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » .

مولد محمد :

كان محمد ثمره الالتقاء القصير بين عبد الله وآمنة ، ولقد ولد في التاسع أو الثاني عشر من شهر ربيع الأول (٢٠ إبريل سنة ٥٧١ م) ، وكان مولده في مكان غير بعيد من الكعبة ، وقد أقيمت مكتبة في المكان الذي ولد فيه الرسول عليه السلام ، ويؤمها الآن كثير من الحجاج ليعيشوا راحة من الزمن في المكان الذي شهد مولد المصطفى .

وكانت ولادته في عام الفيل ، ويبدو لي أنه تكريماً لمولد الرسول دافع الله سبحانه وتعالى عن البيت الحرام بواسطة الطير الأبابيل التي دمرت الفيلة التي كانت عماد جيش أبرهة وهو يزحف لتدمير الكعبة ، وقد خطر لي هذا الخاطر لأن الكعبة هوجمت قبل الإسلام وبعده عدة مرات ^(٣) ، وكانت هذه المرة هي المرة الوحيدة التي تصدّت القوة العليا للدفاع عن البيت الحرام .

(١) ابن القيم : زاد المعاد ١ : ١٧ . (٢) سورة الفصحى الآية ٦ .

(٣) اقرأ هذه المرات في كتاب : حركات فارسية ضد لإسلام والمسلمين عبر العصور

المؤلف ص ٢٠٤ .

نحمد في كفالة جده عبد المطلب :

ذكرنا من قبل أن عبد الله والد محمد مات عقب زواجه من آمنة بشهور قليلة ، وبهذا لم ير محمد أباه فكفله جده عبد المطلب ، ويروى أنه لما تمت ولادة محمد - وكانت قد تمت بكل اليسر كما تؤكد الروايات التاريخية - أرسلت آمنة إلى جده عبد المطلب بذلك ، فأسرع إليها ، وفرح بالمولود أشد الفرح ، وتقول الرواية إن عبد المطلب أخذه إلى الكعبة وطاف به وشكر الله أن منحه عوضاً عن ابنه عبد الله ، وقال قصيدة طويلة مطلعها .

الحمد لله الذي أعطاني هذا الغلام الطيب الأردان

ورضاعته عليه السلام من حليلة السعدية :

تمنّت السيدة آمنة أن يُستاح لابنها ما يتاح لأبناء السادة من قریش من الحياة بالبادية مع إحدى المرضعات لتقوى عظامه ، وتمكن شخصيته الاستقلالية ، ولينعم بسلامة الجور ، وينشأ على سماع اللغة العربية الفصحى .. فطلبت من عبد المطلب أن يحقق لها هذا الأمل ، وكان عبد المطلب شديد الحرص على تلبية رغبات آمنة لعله يجبر خاطرها إذ أنها فقدت زوجها بعد حياة قصيرة معه .

وسرعان ما دخل عبد المطلب على آمنة ومعه امرأة أعرابية هي حليلة ابنة أبي ذؤيب من بني سعد .

وتقول حليلة السعدية إنها خرجت من موطنها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه ، وكانت ضمن نسوة من بني سعد يلتصقن الرضعا .

وتقول حليلة إن ذلك كان في سنة عجماء ، وقد خرجت على ناقة نخيلة ، وليس بثدي حليلة لبن يذكر من قلة الطعام ، وكان ما بثديها من اللبن لا يكاد يغني ابنها الذي حملته معها ، وتستمر حليلة قائلة : قدمنا إلى مكة ، وعرض محمد بن عبد الله على أكثر المرضعات فأبين أخذه لأن يتيم ، والأمل قليل في عطاء أمه وجده ، واستطاعت كل مرضعة أن تبه

رضيعاً ، ولم يبق إلا أنا ، فلما أوشكنا على العودة ، قلت لزوجي : والله
إنى لأكره أن أرجع بين صواحي بدون رضيع ، وأشرت عليه أن نأخذ
الطفل اليتيم ، فوافق على ذلك ، فذهبت إليه وأخذته ، وما حملني
على أخذه إلا أني لم أجده غيره .

وتقول حليلة ورجعت به إلى رحلي ، وسرعان ما امتلأ ثدياي باللبن ،
وشرب حتى رَوَى ، وشرب ابني حتى روى كذلك ثم ناما ، واتجه زوجي
إلى ناقتنا فإذا باللبن يكاد يقطر من ضرعها ، فحلب منه ما قضى حاجتنا .

وفي طريق العودة كانت ناقتنا أسرع النوق سيراً ، حتى ظننت صواحي
أنها ليست الناقة التي وفدنا عليها ، ولكني قلت لمن : إنها والله هي هي .

وفي دُورنا رأيت كل شيء في حياتنا قد تغير ، فأغنامنا سحنت ، وفاض
لبنا : وحياتنا قد مלאها السرور والخير ، ولما انتهت فترة الرضاعة ،
قدمنا به إلى مكة ونحن نأمل أن نعود به مرة أخرى ، فكلمت أمه في ذلك
وقلت لها : لو تركت ابني عندي حتى يغلظ ؟ فإني أخشى عليه وباء مكة ،
ولم نزل بها حتى ردته معنا .

ثم حدثت أحداث غير عادية فيها يمن وبركة للرسول صلوات الله
عليه خلال إقامته في بني سعد مما جعل حليلة تخاف عليه فردته إلى أهله ،
إشفاقاً منها عليه .

ثم عهد في بيت أبي طالب :

أوصى عبد المطلب وهو في النزع الأخير أولاده بمحمد وطلب منهم
أن يعرضوه ما فقد من حنان أبيه وأمه وجدته ، وذكر لهم أنه يتوقع
لمحمد مستقبلاً عظيماً ، ويخشى عليه من الحساد والأعداء ، وطلب منهم
مساعدته بكل ما يستطيعون

وقد انبرى أبو طالب آنذاك يُطَمِّن والده على محمد ، ويتعهد بالعناية به
وبحمايته والدفاع عنه حتى لا يمسسه سوء ، وكان أبو طالب أخاً شقيقاً لعبد الله

ولذلك كان أرحم أعمام النبي صلى الله عليه وسلم به ، وأولاهم برعايته (١) .

وتوفي عبد المطلب عقب ذلك وكانت سن الرسول ثمانى سنوات .
وانتقل محمد إلى بيت أبي طالب ، وكان هذا رجلاً شهياً كثير العيال ،
وأقبل على محمد وفضله على كل أبنائه ، وأظهر محمد قناعة وأدباً فزاد
حب أبي طالب إليه ، وكان طعام محمد مع عمه غالباً وليس مع أبناء عمه .
راعى الغنم « الأمين » :

ولما شبَّ محمد أخذ يرعى غنم عمه أبي طالب ، وكان مثلاً للرعاة
الأمين ، يهتم بأغنامه رعيًا وسقيًا ، فإذا مرضت إحداها عمل بجدٍ على
رعايتها وعلاجها ، فكثرت أغنام أبي طالب وهظمت ، مما جعل بعض
أهل مكة يطلبون أن يضموا أغنامهم لأغنام أبي طالب طلباً للثناء والخير ،
ولما ظهر لهم حرص محمد على حسن أداء العمل وحسن رعايته لأغنامه
أطلقوا عليه لقب « الأمين » .

وكان هناك رعاة آخرون يخرجون بأغنامهم للرعى ، ولكن محمد لم
يكن كثير الاختلاط بهم ، ولم يُقتدى به على ما كانوا يعملون من نزوات
الصبيان وأهوائهم .

وحدث مرة أن أراد محمد أن يشارك أترابه ما كانوا يقومون به من
مسرات ومسررات ، وهو يروى ذلك عندما أصبح نبياً ، فيقول :

ذهبت حتى أتيت داراً من دور مكة ، وسمعت العزف والغناء ،
ولكن سرعان ما شملنى النوم ، فوالله ما أبغضنى إلا مسُّ الشمس .

وكررت ذلك مرة أخرى فحدث نفس الشيء ، فوالله ما عُدْتُ
لذلك بعدها حتى أكرمنى الله عز وجل بالنبوة .

وسراه فيما يلى وهو يصحب عمه في تجارته إلى الشام .

(١) العقد الفريد ٤ : ٢٥٢ وفى الكامل للبرد (١ ، ٢٥٧) أن الزبير بن
عبد المطلب كان أيضاً شقيقاً لعمه الله .

قصة بحيرى الراهب :

وخرج أبو طالب مرة في تجارته للشام وصحبه محمد ، فحدث حادث مهم ترويه كتب السيرة والترات ، ففي الطريق إلى الشام نزل الركب بصرى من أرض الشام ، وكان بها راهب يسمى بحيرى ، وكان له عِلمٌ بالكتب المقدسة ، كما كان راهباً يعيش في الصومعة التى كان يعيش بها الراهبان . .

وكان من عادة بحيرى ألا يهتم بالقوافل التجارية ، فليس له بها شأن ، ولكنه في هذه المرة أبدى اهتماماً كبيراً بقافلة قريش ، إذ رأى نهامة تسير مع القافلة وتقف إذا وقفت القافلة ، وكان ذلك دليلاً يفسر ما يجده بحيرى من قرب ظهور نبي آخر الزمان ، ومن صور إكرام الله له ، فأراد بحيرى أن يستوثق من أن بالقافلة نبي آخر الزمان ، فأقام مأدبة كبيرة دعا لها كل تجار القافلة ، وطلب منهم ألا يتخلف أحد عن الحضور .

ودهمش تجار القافلة من صنع بحيرى ، فلم يكن من عادته أن يحتنى بهم . وحضر التجار إلى مكان المأدبة إلا محمداً لصغر سنه ، فقد بقى يحرس الرجال والسلع ، ورأى بحيرى أن الغامة لا تزال هناك عند المكان الذى نزلت به القافلة ، ولم تصحب الغامة القوم إلى بيت بحيرى ، فسألم : هل بقى منكم أحد لم يحضر مأدبتي ؟ فقالوا : حضرنا كلنا إلا غلاماً واحداً تركناه عند الرجال . فقال : لا بد من إحضاره وسأرسل من رجالي من يحرس متاعكم ، وحضر محمد .

استقبل بحيرى محمداً وسأله باللات والعزى أن يصدقه فيما يسأله منه ، فصاح به محمد : لا تسألني باللات والعزى شيئاً ، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضى لهما .

فأدرك بحيرى مكانة محمد وأجله ، وعاد يسأله : بالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه . فقال له محمد : سألني عما بدا لك ، فجعل يسأله عن

أشياء من حاله في نومه وهيبته وأمره ، وحمد يجيب حتى استوثق بحيرى
من أنه أمام رسول آخر الزمان .

وحينئذ اتجه بحيرى إلى أبى طالب وسأل : ما هذا الغلام منك ؟
قال أبو طالب : هو ابنى .

قال بحيرى : ما هو ابنك ، وما ينبغي أن يكون لهذا الغلام أب حتى .
قال أبو طالب : أنه ابن أختى ، مات أبوه وأمه حامل به .

قال بحيرى : صدقت ، أوجع بابن أختك واحلوه عليه من اليهود ،
فوالله لو عرفوا عنه ما عرفتم لأوقعوا به شراً (١) .

محمد يشترك في حرب الفجار :

وعند ما كانت سن^١ محمد أربع عشرة سنة وقعت حرب الفجار الرابعة
وكانت بين قريش وكنانة من جهة وهوازن من جهة أخرى ، وقد حضر
الرسول هذه الحرب ويروى عنه قوله : كنت أنبل على أعمامى يوم
« الفجار » وأنا ابن أربع عشرة سنة أى أناولهم النبل وسميت حرب
الفجار لوقوعها في الأشهر الحرم ، وحروب الفجار خمسة اشتركت
فيها القبائل التى سبق ذكرها : قريش وكنانة وهوازن (٢) .

محمد يتاجر بمال خديجة :

كانت خديجة بنت خويلد بن أسد سيدة ذات شرف ومال ، وكانت
تتاجر الرجال للعملى في مالها وتعمل لهم شيئاً نظير ذلك ، إما مضاربة أو
أجراً ، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ، ما بلغها من إصدق حديثه وعظم
أمانته ، وكرم أخلاقه ، بعثت إليه وعرضت عليه أن يخرج في مال لها
إلى الشام على أن تعطيه أفضل ما كانت تعطى لمن سبقه من الرجال الذين
عملوا في مالها .

(١) ابن هشام ١ - ١٦٥ ، ١٦٧ .

(٢) العقد الفرید لابن عبد ربه - ٥ من ٢٥١ وما بعدها .

فقبل محمد ذلك وسار في ركب التجارة ومعه غلامها ميسرة ، ويقول ميسرة إن راهباً اسمه (نسطُورا) اعترضه في مكان نزلت به القافلة للاستراحة ، وسأل الراهب ميسرة : من هذا الرجل ، فقال له ميسرة : إنه رجل من قريش أهل الحرم .

فقال الراهب : إن لهذا الغلام لشأناً^(١) .

ووصلت التجارة إلى الشام ، وباعها الرسول فربحت كما لم تربح تجارة من قبل ، واشترى محمد من سلع الشام تجارة عاد بها ، وفي مكة بيعت هذه التجارة بضعف ثمنها فكان في ذلك ربح وفير .

وتحدث ميسرة لخديجة لا عن الربح فحسب ، بل عن شرف محمد وأمانته ، وعن كلام الراهب نسطورا ، فكان لهذا الكلام وهذه المعاملة وقع عميق في قلب خديجة أدَّى إلى الزواج بها كما سنرى فيما يلي :

زواجه عليه السلام من خديجة :

يقول ابن هشام^(٢) أن خديجة كانت امرأة شريفة نبيلة ، وكانت من أوسط نساء قريش نسباً ، وأعظمهن شرفاً ، وأكثرهن مالا ، فلما أخبرها ميسرة بما لاحظته على محمد خلال رحلته التجارة قررت خديجة أن تخطب محمداً لنفسها بطريق غير مباشر ، فأرسلت إليه امرأة ذكية اسمها « نفيسة بنت منبه » ودار بين هذه المرأة وبين محمد الحديث التالي :

نفيسة : لماذا يا محمد لا تقدم على الزواج ؟

محمد : تكاليف الزواج يا أماء لم تيسر لي بعد .

نفيسة : وماذا يا محمد لو كفيناك هذه التكاليف ، واقترحت عليك

امراً من أعظم سيدات قريش حسباً ومالا ؟

محمد : ومن تكون هذه السيدة ؟

نفيسة : خديجة بنت خويلد .

محمد : إنني أعرف أن كثيرين تقدموا إليها ورفضت الزواج .

نفسه : إذا قبلت أنت يا محمد كان عليّ أن أكل الموضوع .

وتمّ الاتفاق على أن يتمّ زواج بينهما ، وخطب أبو طالب خديجة لابن أخيه ، وقدّم لها عشرين ناقة لتكون مهرأ لها ، وألقى أبو طالب خطبة في أهل خديجة قال فيها : إن محمداً ابن أخي شاب لا يوزن به فتى من قريش إلا زاد عليه شرقاً وخلقاً ، وإن كان قليل المال فالمال ظل زائل ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة : ولها فيه مثل ذلك ، وقد ساق محمد إليها عشرين ناقة مهرأ .

فقام عم خديجة ورد على الخطبة بقبولها وبارك الزوجين ، وأقيم حفل الزواج فنحرت الذبائح وأطعم الناس ، وفتحت دار خديجة أبوابها لتسول الولائم وتستقبل رعوس العشائر مهنتين ، وضم بيتها الكريم أعظم زوجين . وما يذكر أن الزواج كان يتم في بيت الزوجة فيقيم الرجل في بيت زوجته عدة أيام ثم يأخذ زوجته إلى داره ، ولكن خديجة طلبت من الرسول أن يبقى في بيتها الواسع ، وأن يدير تجارتها ويشرف على أموالها فقيل .

وكان الرسول عند الزواج في الخامسة والعشرين وكانت السيدة خديجة في الأربعين^(١) من عمرها تزوجت قبله مرتين^(٢) .

عمر السيدة خديجة عند زواجها بالرسول :

على أن تحديد سن السيدة خديجة حين زواجها بالنبي ﷺ ، هو من المسائل التي اختلفت فيها الآراء ودار حولها نقاش كثير ، وذلك لاختلاف روايات المؤرخين الثقات وهي المصدر الذي نعتمد عليه في هذا الموضوع .

فقد روى كثير من المؤرخين على رأسهم الطبري^(٣) : أن السيدة خديجة كانت تبلغ من العمر أربعين سنة يوم تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم ،

(١) ابن القيم - زاد الماد ١ - ١٨ . (٢) ابن قتيبة : المعارف ص ٦ .

(٣) تاريخ الطبري ص ١١٢٧ .

واعتمد على هذه الرواية كثير من الدارسين المحدثين كالدكتور محمد حسين هيكل (١) والدكتورة عائشة عبد الرحمن (٢) وغيرهما ، وقد أخذ أصحاب هذا الرأي في اعتبارهم أن السيدة خديجة قد تزوجت قبل النبي صلى الله عليه وسلم مرتين وأنجبت فيهما أطفالاً ، ثم أنها مكثت بعد الزواج الثاني فترة ترفض من يتقدم إليها من أشرف قريش يطلب نكاحها ، وانصرفت إلى التجارة تنمي ثروتها وتهتم بها ، حتى تاجر الرسول في مالها فاقتنت به ، ورخصته زوجاً لها ؛ لأنها رأت فيه صفات الرجل الذي تنشده ، ويؤيد هذه الرواية التي تقول إنها كانت في الأربعين من عمرها رواية أخرى تقول : إنها توفيت قبل الهجرة بثلاث سنوات ، وكان عمرها آنذاك خمساً وستين سنة ، وكان عمره عليه الصلاة والسلام خمسين سنة .

وهذا الرأي يؤخذ عليه أنها أنجبت في هذه السن المتأخرة ، ولكن يجاب على ذلك بأنه من المشاهد وجود بعض السيدات ينجن ليس فقط بعد الأربعين ، بل بعد الخمسين أيضاً ، ويتوقف ذلك على عوامل متعددة - توفرت للسيدة خديجة - كالوسط الاجتماعي ، ومدى ما تعيش فيه المرأة من ترف ورفاهية .

على أن هناك روايات أخرى أشار إليها ابن كثير (٣) تذهب إلى أن السيدة خديجة كانت في الخامسة والعشرين أو الثامنة والعشرين عندما تزوجها الرسول ، ويرجح هذا الرأي المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد (٤) حيث يرى أن المرأة في بلاد كجزيرة العرب يبكر فيها الهرم ، فلا تنصدي للزواج بعد الأربعين ، وإن كان يؤخذ على هذا الرأي أن الحكم العام قد لا ينطبق على امرأة كالسيدة خديجة عاشت في ترف من العيش ، كما ذكرنا آنفاً .

رهكذا تتعدد الآراء وتختلف حول هذه القضية ، ويؤكد كل فريق ما يذهب إليه بروايات مأثورة ، ومشاهدات ما تزال تعيش بيننا حتى الآن .

(١) حياة محمد ص ١١٠ . (٢) نساء النبي ص ٢١٧ .

(٣) السيرة النبوية ج ١ ص ٢٦٤ - ٢٦٥ . (٤) فاطمة الزهراء والفاطيون ص ٢٠ .

بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود :

عندما كان الرسول صلوات الله عليه في الخامسة والثلاثين من عمره اجتمعت قريش لبناء الكعبة ، وعند الحديث عن بناء الكعبة يجدر بنا أن نقتبس قوله تعالى : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل » والتعبير « يرفع القواعد » يفهم منه بعض الباحثين أنه كانت هناك قواعد للبيت قبل إبراهيم .

ولعله من الأنسب أن نتحدث عن مرات بناء الكعبة كما يرويها التاريخ ، فيقولون إن الكعبة بنيت خمس مرات :

الأولى : حين بناها شيث بن آدم ، وفي رواية أن الملائكة هم الذين بنوها لأول مرة .

والثانية : حين بناها إبراهيم وإسماعيل على القواعد الأولى .

والثالثة : هي تلك التي تتكلم عنها والتي حدثت قبل الإسلام بخمسة أعوام .

والرابعة : حين احترقت في عهد عبد الله بن الزبير وأعاد ابن الزبير بناءها ووسع مساحتها .

والخامسة : في عهد عبد الملك بن مروان حينما ضربها الحجاج - وابن الزبير متحدسين بها - فلما سقط ابن الزبير هدمها عبد الملك وأعاد بناءها على قواعدها التي كانت عليها في عهد الرسول .

بمسألة الحديث عن الكعبة نذكر أن المسجد الحرام بُسِنَ لأول مرة في عهد عمر بن الخطاب ، إذ رأى أن الناس ضيِّقوا على الكعبة ، وألصقوا دورهم بها أو بنوا هذه الدور على مقربة منها ، فقال عمر : إن الكعبة بيت الله ، ولا بد للبيت من فناء ، فاشترى تلك الدور من أهلها وهدمها ، وبنى المسجد المحيط بها ، وفي عهد عثمان اشترى هذا دوراً أخرى وأغلى في ثمنها وزاد في

سعة المسجد ، فلما كان ابن الزبير زاد في إتقان المسجد وتجميله ، وجعل فيه أعمدة من الرخام ، وزاد في أبوابه ، فلما جاء عبد الملك زاد في ارتفاع حائط المسجد ، وحمل إليه السوارى في البحر إلى جده ، ثم في البر إلى مكة .

وزاد عليه الخلفاء العباسيون زيادات واسعة ، كما اهتم سلاطين مصر بتوسيعه وتجميله وبخاصة الظاهر بيبرس وبرقوق وقايتباى .

وفي النصف الحديث بلغ اهتمام ملوك المملكة العربية السعودية بالحرم الملكى أقصى حد ، توسيعاً وتجميلاً ، حتى أصبح تحفة معمارية رائعة .

ولنعد لحديث بناء الكعبة قبيل الإسلام ، تقول الرواية إن العرب ترددوا في هلمها ، وهايوا ذلك ، فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدأ بهذا العمل ، وأخذ المِعْوَل وبدأ الهدم وهو يقول : اللهم إنا لا نريد إلا الخير ، وبعد ذلك تقدم الناس وساعدوا الوليد حتى انتهى الهدم إلى الأساس الذى رفع عليه إبراهيم وإسماعيل القواعد .

ووضعت قريش دستوراً لبناء الكعبة حدده الوليد بن المغيرة بقوله : يا معشر قريش لا تدخلوا في بنائها من كَسَبِكُمْ إلا طيباً ، لا يدخل في بنائها مهرٌ بغي ، ولا بيع ربا ، ولا مظنة أحد من الناس .

ولما ارتفع البناء اختلفت قريش في وضع الحجر الأسود في مكانه واختصموا في ذلك ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، واشتد الأمر ، واستعد القوم للقتال ، وهنا صاح أبو أمية بن المغيرة ، وكان أكبر قريش سنّاً فقال : يا معشر قريش حكموا في هذا الأمر أول من يدخل من باب هذا المسجد ليقضى بينكم . فارتضوا هذا الرأى .

وبعد قليل دخل الرسول عليهم من هذا الباب ، فلما رآه قالوا : هذا الأمين رضينا بحكمه ، وأخبروه الخبر ، فقال : هلم إلى ثوباً ، فأتى به ، فأخذ الحجر ووضعه فيه بيده ، ثم قال : لئأخذ كل قبيلة بتاحية من الثوب ،

ثم ارفعوه جميعاً ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ثم بنى عليه وأرضى الجميع (١) .

وتقول الرواية إن إبليس ظهر آنذاك في صورة شيخ نجدى وصاح بأعلى صوته قائلاً : يا معشر قريش أَرْضِينِمْ أَنْ يَضَعَ مُحَمَّدٌ هَذَا الْحَجَرُ فِي مَكَانِهِ دُونَكُمْ ؟ وأراد بذلك أن يثير شرّاً ، ولكن الناس أَعْرَضُوا عَنْهُ .

أَخْلَاقُ مُحَمَّدٍ قَبْلَ الْبُعْثَةِ :

اتفق المؤرخون والباحثون على أن محمداً لم يعبد صنماً قط، وَبُغِضَتْ إِلَيْهِ الْأَوْثَانُ وَدِينُ قَوْمِهِ (٢)، وإنما كان يخلو لنفسه ويفكر في الكون وصانعه، وَكَانَ يَجَاوِرُ فِي غَارِ حِرَاءَ مِنْ كُلِّ مِئَةِ شَهْرٍ (٣). واستمر كذلك حتى عَبَدَ اللَّهَ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ الَّذِي كَانَ يَدِينُ بِهِ بَعْضُ الْعَرَبِ الَّذِينَ لَمْ يَقْبَلُوا عِبَادَةَ الْأَوْثَانِ مِثْلَ قَسِ بْنِ سَاعِدَةَ وَأَكْثَمَ بْنِ صَيْقَى وَأُمِيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ . وكما تنزه محمد عن عبادة الأصنام فإنه تنزه كذلك عن مذمومات الجاهلية التي كان يفرق فيها شباب العرب في ذلك العهد (٤) .

ولم يكف محمد قبل الإسلام بالبعد عن الأصنام ، بل كان ينهى عن عبادتها ما استطاع لذلك سبيلاً ، يروى زيد بن حارثة أنه ذهب مع الرسول مرة للطواف بالبيت ، وكان لقريش صنمان يتمسح بهما للعرب ، فطاف محمد ولم يتجه للصنمين ، أما زيد فقد تمسح بهما كما كان يفعل سواء من الناس ، فقال له محمد : لَا تَمَسُّهُمَا يَا زَيْدُ فَدَهِشَ زَيْدٌ مِنْ ذَلِكَ وَقَرَّرَ أَنْ يَمَسُّ الصنمين مرة أخرى ليتأكد له موقف محمد من ذلك ، ومسح زيد الصنم في طواف آخر ، فنهره محمد قائلاً : أَلَمْ تَنْتَه ؟ قَالَ زَيْدُ : الْآنَ قَدْ انْتَهَيْتُ .

وكان يُعَدُّ مُحَمَّدٌ عَنْ الْأَصْنَامِ وَعَنْ مَذْمُومَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ إِعْدَاداً لَهُ لِيَتَلَقَى وَرِسَالَةَ اللَّهِ ، وَهِيَ الْفَتْرَةُ الَّتِي سَتُحَدِّثُ عَنْهَا فِيهَا يَلِ :

(١) الأذوق : أخبار مكة ص ٢٨ و ٢٩ . (٢) زاد المادج ١ : ص ١٨ .

(٣) ابن هشام ١ : ص ١٥٣ . (٤) مسند ابن سيرين ص ٧١ .

البُعْثَةُ النَّبَوِيَّةُ

وحياة الرسول في مكة

تدوين جديد للسيرة

لقد سعدت بكتابة تاريخ السيرة العطرة منذ أكثر من عشرين عاما ، وصرت فيما كتبت على النمط الذى اتبعه الأوائل ؛ ولكنى أحس اليوم بأن السيرة النبوية وبخاصة فى عهد المدينة ينبغي أن تدوّن من جديد ، فقد راعى أن تدوين السيرة على مر التاريخ ابتداء مما كتبه ابن هشام حتى الدراسات التى كُتبت فى العهد الحاضر ، أغفلت جوانب كبيرة الأهمية من حياة الرسول بالمدينة ، فمن الطبيعى أن حياة الرسول بالمدينة كانت حافلة بمجالات الأعمال ، بنى فيها الرسول الفرد المسلم ، وبنى المجتمع الإسلامى ، وكانت له مواقف رائعة مع أسرته تعتبر نموذجا لكل رب أسرة ، ومواقف رائعة مع أصحابه تعتبر قدوة لكل رفيق ، وفى هذه الفترة أسس الرسول أخلاقاً جديدة ، ووضع الأسس لعلاقات الفرد بالفرد . والفرد بالمجتمع ، كما وضع الرسول أساس العلاقات بين المسلمين ، وقام بالدعوة للإسلام فى المدينة وفى الجزيرة العربية ، وخارج الجزيرة مبيّناً وسائل الدعوة هنا وهناك ، وفى المدينة واجه الرسول اليهود والمنافقين ، وربى الحكّام والولاة والدعاة ، وغير ذلك من الأعمال التى حفلت بها الحياة اليومية للرسول صلوات الله عليه .

ماذا نرى فى كتب السيرة ؟ .

إننا للأسف نرى تركيزاً قوياً على الغزوات . فما أن يتم حديث كتاب السيرة عن الهجرة حتى أتت جهودهم للغزوات . فيتحدثون عن غزوة بدر الكبرى فى العام الثانى للهجرة ، وغزوة أحد فى العام الثالث . والصراع ضد بنى النضير فى العام الرابع ، وغزوة الخندق فى العام الخامس . والحديبية فى العام السادس ، وخيبر فى العام السابع ، وفتح مكة وغزوة مؤتة فى العام الثامن ، وتبوك فى العام التاسع ، ثم الوفود وحجة الوداع ووفاة الرسول .

يالله ١١ كان سبابة الرسول كانت حروباً متصلة ، وكان الإسلام دين دماء ، وذلك ما يخالف الواقع ، ويتضح هذا لو لاحظنا أن حروب ذلك الزمان كانت بالسيوف والخراب ، وكانت لقاء لا يطول مداه ، تنتصر فيه جماعة وتهزم أخرى ، بعد جولة أو عدة جولات وبكلمات محددة نذكر مثلاً أن غزوة أحد بما كان بها من أحداث ومد وجزر حدثت في يوم واحد هو يوم السبت النصف من شعبان ، وكانت غزوة الخندق أطول الغزوات ولكنها أيضاً ليستفرقت أسابيع قليلة ، فإذا كان الرسول يفعل خلال باقي أيام العام ؟ ثم إن بعض الغزوات كانت بقيادة بعض الأبطال من المسلمين مثل غزوة مؤتة ، وكان الرسول مقبياً بالمدينة يزاوئ منهم الإسلامية التواشعة ، ومثل هذا كان يحدث عندما كان الرسول يرسل السرايا ، وتدلنا أحداث التاريخ أن الرسول خلال السفر للغزوات كان أيضاً يباشر تربية الفرد وتربية المجتمع وغرس أخلاق الإسلام والدعوة له فلماذا أغفل كُتّاب السيرة هذه الجوانب المهمة ، وركزوا اهتمامهم على الغزوات والحروب ؟ .

إن الإجابة على هذا السؤال الخطير ترينا سبب هذا الخطأ ، وبالتالي تفتح أمامنا الأبواب لنصحح هذا الوضع ونتدارك ما فات السابقين .

إن الإجابة تكمن في أقدم كتاب عن سيرة الرسول ، ذلك هو ما كتبه ابن اسحق (٨٥ - ١٥١ هـ) الذي تلقى عن التابعين وتابعهم ، وجاء بعده ابن هشام الذي جمع كلام ابن اسحق وهذبه فنُسب له وأصبح معروفاً بسيرة ابن هشام .

ماذا فيها كتب ابن اسحق مما سبب هذا الخطأ الذي نحاول أن نفتح الباب لإصلاحه ؟ .

الإجابة أن ابن اسحق كتب كتابين يتصلان بالسيرة العطرة ، أحدهما هو « كتاب المبتدأ » أو « كتاب المبدأ وقصص الأنبياء » وهو كتاب

يتحدث عن تاريخ الأنبياء ويمتد حتى هجرة الرسول محمد صلوات الله عليه إلى المدينة ، والكتاب الثاني هو « كتاب المغازي » ويتحدث فيه عن غزوات الرسول ، ويقال إنه كتب كتابه الأول بناء على طلب الخليفة أبي جعفر المنصور ليكون وسيلة لتثقيف ابنه المهدي ، وكان قد كتبه مطوّلاً ولكن الخليفة طلب منه اختصاره ففعل . أما الكتاب الثاني وهو كتاب « المغازي » فكان استجابة للفكر العربي والعالمي آنذاك ، الذي كان يهتم بالحروب ويسجل صور البطولات ، فطالما نظم الشعراء قصائد إعجاب بأبطال الحرب ودونوا سيرة أولئك القادة المشاهير الذين كان عليهم الدفاع عن الديار وحماية الدمار .

وسمى ابن اسحق لا غبار عليه ، فهو قد اختار موضوعاً لهذا الكتاب وموضوعاً لذلك وكتب فيهما ، ولكن المشكلة تبدأ من ابن هشام الذي اقتبس من « كتاب المبتدأ » الجزء الخاص بسيرة الرسول حتى الهجرة ، وأضاف إليه كتاب ابن اسحق الثاني وهو « كتاب المغازي » وكون بذلك كتاباً أسماه « السيرة النبوية » واعتبر هذا الكتاب أسماً لكُتُب السيرة عبر العصور ، فنتج عن هذا التصرف ما يلي :

أولاً : دوّنت السيرة النبوية لابن هشام تفاصيل دقيقة لحياة الرسول في مكة حتى تمام الهجرة ، إذ كان ابن اسحق قد دَوّن ذلك بتفصيل واسع .

ثانياً : حفلت الغزوات بتفاصيل دقيقة عن خطواتها وأحداثها ونتائجها لأن ابن اسحق كان قد عني بذلك أيضاً .

ثالثاً : لم تتل مواقف الرسول بالمدينة في غير الغزوات أي اهتمام لأن ذلك لم يدخل ضمن الإطار الذي وضعه ابن اسحق لدراسته ، ولأن ابن هشام ومن جاء بعده غفلوا عن ذلك فقتنعوا - سهواً - بما ذكره ابن اسحق ، مع أن دراسة ابن اسحق عن الرسول بعد الهجرة كانت مرتبطة بالغزوات فقط .

وأصبح هناك منهج للسيرة يذكره محقق سيرة ابن هشام بقوله في المقدمة التي وضعها لهذا الكتاب :

« تبدأ السيرة بسرد نسب النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وقد تطلّب هذا إشارة إلى أنساب بعض أخيار العرب وأفاضلهم ، وذكر أخبارهم في الجاهلية ، وعاداتهم وتقاليدهم وعباداتهم ، وذكر الأحداث

الهامة التي وقعت بينهم كإعادة حفر بئر زمزم على يد عبد المطلب بن هاشم ، ثم تنتقل للحديث عن مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونشأته ومبعثه ، ومن استجاب لدعوته ، وآمن برسالته ، وما لقيه النبي في صييل نشر الدعوة ، من أذى وتحنت ، وما عاناه المؤمنون منه إزاء الكفار لهم ، ومجرمتهم الأولى والثانية إلى الحبشة ، وعرض الرسول نفسه على القبائل حتى قبيل أهل يثرب دعوته ، فهاجر إلى المدينة هو والذين آمنوا معه .

« وفي المدينة بحىء ما وقع فيها بين الرسول وبين اليهود حتى تطهرت المدينة منهم ، ومن المدينة انطلقت جهافل جيوش المسلمين تدعو إلى الحق وترفع لواء الإسلام ، ومنها أرسلت الوفود ، حتى جاء نصر الله ، ودخل الناس في دين الله أفواجا .

» وبعد ذلك نبىء أخبار أزواج النبي ثم مرضه وانتقاله إلى الرفيق الأعلى ، (١) .

ويقول محقق الكتاب إن هذا هو النهج الذى سار عليه ابن هشام ، ومن دراسة هذا المنهج يتضح لنا أن حياة الرسول بمكة درست بكثير من التفصيل تبعاً لما كان ابن اسحق قد دونه ، أما حياة الرسول بالمدينة فليس فيها إلا موقف الرسول من اليهود وصراخه في الغزوات والموقفان يجمعهما الحروب ، وهذا هو مجال النقص الذى وجد في تدوين السيرة على يد ابن هشام وهو الذى اتبعه من دونوا السيرة من بعده .

ولأن بعض الأحداث كانت بارزة في حياة الرسول بالمدينة ، فإن المؤرخين لم يمتطيحوا إهمالها ، ولكنهم للأسف جعلوها أجزاء من الغزوات ، ولم يفردوها بدراسة خاصة متكاملة .

ومن أشهر من كتبوا سيرة الرسول من المحدثين ، الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه « حياة محمد » والدكتور هيكل رجل واسع الثقافة ، ولكنه سلك نفس الطريق الذى سلكه السابقون ، فإنا انتهى من الحديث عن أول العهد يثرب فى الفصل الحادى عشر حتى أتجه للغزوات ابتداء من الفصل التالى ففقد الفصل الثانى عشر للحديث عن السرايا والمناوشات الأولى ، والفصل الثالث عشر عن غزوة بدر الكبرى وهكذا .

وقد كتب الأستاذ الأستاذ « عبقرية محمد » وللاستاذ العقاد روحه ومنهجه فى العبقریات ولكنه حدد عمله حين قال : « إن هذا الكتاب ليس كتاب سيرة نبوية جديدة ، وإن المحاولة فيه اتجهت لتبرئة المقام المحمدى من الأقاويل التى يلفظ بها الأغرار والجهلاء . ولهذا كان أطول فصوله الفصلان الخاصان بالحرب وبالحياة الزوجية ، وعلى هذا النهج صار الشيخ محمد الخضرى والدكتور حسن إبراهيم وغيرهما .

وكتبت أنا عن صدر الإسلام الجزء الأول من موسوعة التاريخ الإسلامى على نمط ما كتب الأوائل ، وأعيد طبعه تسع مرات ولكنى لم أعد أقنع بما كتبت بعد أن خطر ببالى خاطر التصحيح الذى شرحته فيما سبق .

إننى أستعين بالله وأفتح هذا الباب ليس لأحاوله وحدى . وإنما أدعو كل المفكرين المسلمين إلى محاولته كل بقدر استطاعته لتعيد تدوين السيرة من جديد كما ينبغى أن تكون ، ولنضع صورة أقرب إلى الواقع للرسول عليه الصلاة والسلام الذى جعله الله قدوة للمسلمين ، قال تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » (١) .

ولاشك أننا عند ما ندون تاريخ الرسول وفق هذا الاتجاه نصصح

خط ٣ طال مداه ، ثم نبرز حياة الرسول للناس ليروا ما بها من أفانين في مختلف الشئون ليستطيعوا أن يتمثلوا حياته ويفتقروا بها في تربية أنفسهم وفي تصرفاتهم في كل المجالات ، ومن الواضح أن عهد المدينة كان عهداً خصباً بعد أن أصبح للإسلام مركز ينطلق منه ، وبعد أن علت كلمة الله ، ولهذا حفل عهد المدينة بما لم يكن لمكة عهد به .

القرآن وسيرة الرسول :

وضع القرآن الكريم صيغة الحياة للمسلمين ، ونظم لهم شئون الدين والدنيا ، وأفاض القرآن الكريم في تشريعات المال والتشريعات الخاصة بالمرأة ، والحدود ، والنظم ، والأخلاق ، وغير ذلك من التشريعات ، ومن الثابت كذلك أن الرسول كان خلقه القرآن كما رُوِيَ ذلك عن السيدة عائشة رضي الله عنها ، وعلى هذا فإننا عندما ندون السيرة النبوية ببرز الرسول شارحاً كلام الله ومنفذه ، فسلوكه عليه السلام كان تطبيقاً عملياً للقيم والتعاليم والآداب التي وضعها الإسلام ، قال تعالى : وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم (١) ، وقال : أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة (٢) ، وقال : وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا (٣) .

وعلى هذا فإننا في تدوين السيرة النبوية نتابع الرسول حركة حركة ما أمكن ذلك ، ونحاول أن نضع أمام المسلم صغراً نرجو أن يكون شاملاً لهذه الحياة الحافلة بالكفاح والمجد والعطاء .

(١) سورة النحل الآية ٤٣ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٥١ .

(٣) سورة المائدة الآية السابعة .

وبعد أن عازمت على التصحيح وهيأت نفسي له سألت : ما المراجع التي ستساعدني على القيام بهذا العمل إذا كان مدونو سيرة الرسول على مر التاريخ ساروا على نهج ابن هشام ؟ .

وسرعان ما ملعت الإجابة في خاطري ، فقد أحسنت أن كتب الحديث حافلة بوصف شامل لتصرفات الرسول وإرشاداته ، وجمعت حول كتب الصحاح ، ورحلت أقرؤها بصبر ، وأقتبس منها وأصنف الأبواب والأحداث ، ونتج عن ذلك مجموعة رائعة من الدراسات ذكرت بعضها في مقدمة الكتاب ، وسرد في هذا الكتاب عند الحديث عن الرسول في المدينة .

على أن حياة الرسول في مكة قد أضيفت لها أيضاً دراسات مفيدة عثرتُ عليها وأنا أقرأ وأجمع المادة للنهج الجديد ، وكلما زادت السيرة النبوية وضوحاً كلما كانت أشعة النور والهدى للمسلمين أقوى وأعظم .

بَحْثَةُ الرُّسُولِ

هياً مال خديجة للرسول فرصة ليتفرغ للعبادة ، فقد تزوج محمد خديجة
فاغتنى بما لها (ألم يحدك يتيا فأوى ، ووحدك ضالا فهدي ، ووجدك عائلا
فاغنى) (١) . وكان محمد كما قلنا يخلو لنفسه ويفكر في الكون ، ومنحه الغنى
فرصة للفراغ والمزيد من التفكير ، ومنحه تقدم سنه مزيداً من العمق ،
ومنحه أخلاقه الحسنة مزيداً من الصفاء ، وشملت عناية الله غراى أن يخلو
لله ، وشجعت زوجته الصالحة على رغبته فكانت تعد له الطعام . فبأخذه
ويذهب إلى غار حراء ، حيث يخلو ليفكر في الكون وخالقه . والموت
ومصير الناس بعده وهكذا ، وصفت نفس الرسول فأصبحت رؤاه تتحقق
ولانكاد تتخلف .

بدء الوحي : وظل محمد يخلو ويفكر حتى نزل عليه جبريل يوم الاثنين
السابع عشر من شهر رمضان ، وصحه إليه ضمة شديدة ثم أطلقه وقال له :
اقرأ .

فأجاب الرسول : ما أنا بقارىء .

فعاد جبريل فضمه بشدة ثم أطلقه وقال له : اقرأ .

فأجاب الرسول وقد أرقه الصم والخوف : ما أنا بقارىء .

فضمه جبريل مرة ثالثة ثم أطلقه وقال له : (اقرأ باسم ربك الذى خلق
خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم علم الإنسان
ما لم يعلم) (٢) .

(١) سورة السجى الآية ٦-٨

(٢) سورة العلق الآيات ١ - ٥

وكانت هذه أول آيات نزل من القرآن الكريم^(١) ، ومن الملاحظ أن هذه الآيات لم تخبر محمداً بدعوة ، ولم تكلفه برسالة ، ولم تكن إلا إعلماً بشيء غير عادي لم يدرك محمد كنهه عند وقوعه ، ومن أجل هذا أسرع محمد إلى البيت وهو يرتجف فقص على خديجة ما آراه ، وقال لها : لقد خشيت على نفسي ، فهدأت خديجة من روعه ، وقالت له : والله لا يخزيك الله أبداً ، ولم تعرف خديجة كزوجها كنه هذه الحالة ، ولذلك أشارت عليه أن يذهب إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان شيخاً جليلاً واسع الاطلاع عميق الخبرة : فاستجاب الرسول لرأيها وذهب إليه حيث قص محمد قصته . فقال ورقة : هذا هو الناموس الذي ينزل على الأنبياء ، وباليقين أكون معك حين يخرجك قومك . فسأله محمد : أو مخرجي هم ؟ فأجاب ورقة : لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرأ مؤزراً . ثم لم يلبث ورقة أن توفي .

وانقطع جبريل عن الرسول مدة بعد ذلك ، وكان الرسول يترقبه في الغار وخارج الغار ، فسمع مرة وهو يمشي صوتاً ، فرفع رأسه للسماء ، فرأى جبريل على نحو ما رآه في الغار ، فهاب المنظر وارتعب ، ورجع إلى بيته في حالة من الخشية ، وقال لأهله : دثروني دثروني : فدثروه ؛ وجاءه جبريل وهو في هذه الحالة فأتى إليه نداء ربه : (يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر)^(٢) .

فكانت هذه الآيات هي الآيات الأولى التي كلفت الرسول بالدعوة ، واتضح بها ما كان غامضاً ، ونهض محمد عليه السلام ليحمل هذا العبء الكبير .

وبدأت بذلك رسالة محمد ، تلك الرسالة التي وضعت حداً لعصر

(١) زاد المأدا ١ : ١٩ - ٢٠

(٢) سورة المدثر الآيات ١ - ٧

الجاهلية الذى سبق أن نكلمنا عنه وافتتحت عصرًا جديدًا للعرب هو عصر النور أو عصر الإسلام ، ومن الواضح مما ذكرناه من قبل عن العرب قبل الإسلام أن كلمة الجاهلية لم يقصد بها الجهل ، فقد كان فى الجزيرة العربية حضارة ، وكان لكثير من ممالكها ثقافة ومجد ، ولكن المقصود بالجاهلية هو التخبط فى المسائل الدينية ، فجاء الإسلام ليضع حداً لهذه الضلالة ويدعوهم لدين واحد وإله واحد .

ويروى أن الرسول كان يتصبّب عرقاً عندما تركه جبريل بعد أن ألقى إليه أمر ربه ، فقالت السيدة خديجة له : استرح يا محمد قليلاً ، ولكن الرسول قال لها : لم يعد هناك وقت للراحة يا خديجة ، ونهض ليؤدى واجبه تجاه الدعوة على ما سئرى .

كلمة عن غار حراء :

وينبغى لنا أن نقف وقفة عند غار حراء ، ذلك المتعبد الذى شهد الرسول فترات طويلة قبل البعثة ، والذى نزل به جبريل على سيدنا رسول الله أول مرة ، حيث أقرأه الآيات الأولى من سورة العلق .

وقد زرت هذا الغار فى ذى الحجة سنة ١٣٨٩ هـ (فبراير سنة ١٩٦٩) عند رحلتى للأرض المقدسة لأداء فريضة الحج ، والجبل الذى يقع فى قننه هذا الغار يسمى جبل النور ، وهو يقع إلى الشمال الشرقى من مكة ، ويبعد عنها حوالى خمسة كيلو مترات ، ويذهب إليه الآن كثير من الناس للتبرك والزيارة .

وقد صعدت هذا الجبل مع وفد من الرفاق من «آل الأسطل» ، وصعوده شاق للغاية ، وطريق الصعود صخري ، ومن هنا فليس ممهداً على الإطلاق ، وقد يحتاج الصاعد إلى استعمال يديه ورجليه فى بعض الأحيان ليتقى السقوط ، ويستغرق الصعود حوالى الساعتين ومثلهما فى الهبوط .

وعندما تصل قمة الجبل تجد ما ليس فى الحسبان ، فهناك بركة ماء منتظمة الشكل يقال إن الماء بها لا ينقطع صيفاً ولا شتاءً ، وعلى حافتها مكان فسيح ممهد مستو ، مساحته حوالى عشرين متراً مربعاً (أربعة أمتار عرضاً وخمسة طولاً) والجو فى هذا المكان جميل للغاية ، ونقى من الأتربة ، وهادئ كل الهدوء ،

ويعتقد أن ذلك المكان كان يشتمله الرسول للراحة من حين إلى حين .

وينحدر الإنسان من هذه القمة قليلاً ليصل إلى الغار ، وقد أعدت العناية الإلهية هذا الغار إعداداً دقيقاً للإقامة الطويلة به ، فهو يشبه حجرة صغيرة مدخلها إلى الأمام وفي خلفها الجبل الشاهق ، أما الجانبان فيتكونان من صخور الراحدة منها فوق الأخرى تاركة فراغاً قليلاً ينفذ منه الضوء والهواء ، فهو بذلك متجدد الهواء أو قل مكيف الهواء .

وقد صاءلت نفسي وأنا بتلك القمة سؤالاً هو : كيف كان يبيت الرسول ويعيش وحده في هذا المكان الموحش ، وجاءني الجواب دون إبطاء ؛ لقد كانت معه عين الله ، وكانت رعايته تؤنسه ؛ فلم يحس محمد بوحشة قط حتى انبثق النور من هذا المكان فلأ الأرض رحابة وأمناً وطمأنينة .

وسرى عند الكلام على غار ثور الفرق الكبير بين الغارين ، لأن لكل منهما مهمة تمتاز عن الأخرى ، وكان الغار في كل منهما منامياً تماماً لأداء هذه المهمة .

مراحل الدعوة

قلنا آنفاً إن آيات سورة المدثر هي التي امرت محمداً أن ينذر الناس ، وأن يدعوهم للدين الله ، وقد بدأت بهذه الآيات مراحل الدعوة للدين الجديد^(١) وهذه المراحل ثلاث هي :

— المرحلة الفردية .

— دعوة بنى عبد المطلب .

— الدعوة العامة .

— عن كل منها فيما يلي :

المرحلة الفردية :

هي المرحلة الأولى من مراحل الدعوة ، وفيها دعا الرسول سرّاً أهل بيته ، كما دعا خاصة أصدقائه ، وكان يدعوهم لمبادئ الإسلام الأولى التي ذكرتها هذه الآية وهي الإيمان بالله ونبذ عبادة الأوثان ، فأمن به في هذه المرحلة زوجته ، وابن عمه علي ، وزيد مولاه ، ثم دعا الرسول أبا بكر ركانت له به صلة منذ مدة فأمن به ، وعن طريق أبي بكر أسلم السابقون الأولون : عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وحيد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، وأبو عبيدة بن الجراح ، ودخل مع هؤلاء مجموعة من الموالى والفقراء^(٢) . وقد استمرت هذه الدعوة للسرية ثلاث سنوات .

(١) انظر زاد المعاد ١ : ٢٠ .

(٢) ابن هشام ١ : ١٦٥ وزاد المعاد ١ : ٤٢ - ٤٣ .

وإسلام أبي بكر يحتاج إلى مزيد من التفصيل ، فقد كان صديقاً للرسول قبل البعثة ، وكان يتردد على بيته ، ويحس فيه بعمق الصدق وطيب الفطنة ، فلما انجبه محمد إلى الخلوة في غار حراء زاد أبو بكر تعلقاً بالرسول وإيماناً بصفاته ، فلما جاء الوحي للرسول بالآيات الأولى من سورة اقرأ ومن سورة المدثر النقي الصديقان ، وسأل أبو بكر : لقد افتقدتك طويلاً يا محمد فكيف حالك ؟ .

فسأله الرسول بالتالي : أنصدمتني لو حدثتك بحالي ؟ .

فقال أبو بكر : ومن سواك ! صدق إذا لم أصدقك ؟ .

فأخبره الرسول بخبر الوحي وقرأ له آيات سورة اقرأ وآيات المدثر ، وأضاف الرسول أن هذا مطلع شعاع النور الذي أرجو أن يهتدى به الناس من الضلال وعبادة الأصنام ومن أكل الربا ومن الفسوق والعصيان .

وصرح أن ما قبل أبو بكر ما قاله الرسول ، وسأله : ماذا أفعل لأصدقك ؟ فأجابه محمد : تنطق بالشهادتين فتقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فنطق أبو بكر بالشهادتين عدة مرات .

ويقول الرسول : ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبرة (تردد) إلا أبا بكر .

وحمل أبو بكر عقب ذلك عبء الدعوة إلى الإسلام فدخله السابقون الأولون كما ذكرنا آنفاً .

ومما يذكر عن إسلام طلحة أن بنى تيم قومه وقوم أبي بكر سخطوا على إسلامهما ، وعبر نوفل بن خويلد الذي كان يدعى « أسد قريش » عن هذا السخط بأن تقدم ، وربطهما في حبل واحد ، وأخذ يشهرُهما ، ولذلك سميا القرينين^(١) ، وظلت هذه التسمية شرفاً يحرمص عليه طلحة .

وممن بكّر بالإسلام من أقارب طاحه عمه عمرو بن عثمان وقد كان ضمن المهاجرين إلى الحبشة ، أما عمه الآخر عمير بن عثمان فقد قُتِلَ في بدر مع المشركين ، وأسر أخوه خالد بن عبيد الله في بدر أيضاً ومات أسيراً^(١) .

وانجى الساقون الأولون إلى أصدقاتهم يدعونهم إلى دين الله وقد استجاب هؤلاء عدد من خيرة قريش مثل : سعيد بن زيد بن عمرو وزوجته فاطمة بنت الخطاب ، وأم الفضل زوجة العباس ، وأبي سلمة بن عبد الله المخزومي ، والأرقم بن أبي الأرقم ، الذي كانت داره على جبل الصفا منعزلة عن مكة ، فاتخذها الرسول مقراً للدعوة السرية للدين الجديد ، فكان يلتقي بها مع أتباع الدين يعلمهم ويرشدهم .

ومن الذين استجابوا للدعوة السابقين خالد بن سعيد بن العاص ، وكان أبوه من أغنى القرشيين ، ولإسلام خالد قصة جديرة بالذكر يرويها خالد بقوله : سمعت عن دعوة محمد وكنت منردداً في قبولها ، ثم رأيت فيما يرى النائم أنني على وشك أن أقع في هاوية فأدركني محمد وخلصني من الوقوع فيها ، فلما أصبح الصبح اتجهت إليه لأتعرّف على تفاصيل الدين الجديد ، وسألت محمداً السؤال التالي : إلام تدعونا يا محمد ؟ .

فقال صلى الله عليه وسلم : « أدعو إلى الله وحده لا شريك له ، وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ، ولا يضر ولا ينفع .

وأدعو إلى الإحسان إلى والدك ، وألا تقتل ولدك خشية الفقر ، وألا تقرب الفاحشة ما ظهر منها وما بطن ، وألا تقتل نفساً حرم الله قتلها إلا بالحق ، وألا تقرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن .

وأن توفي السكيل والميزان بالقسط ؛ وأن تعدل في قولك ولو حكمت على ذوى قرباك ، وأن تنى بما عاهدت » .

قال خالد : فرأيت أن ما يدعو إليه حق ، فأسلمت وانبت دينة .

(١) الدور لابن عبد قبرص ٢٠ و ١١٩ ترجمة أبي عبيدة .

دعوة بنى عبد المطلب :

هذه هي المرحلة الثانية من مراحل الدعوة ، وقد بدأها الرسول عندما نزل عليه قوله تعالى (وأنذر عشيرتلك الأقربين)^(١) فدعا بنى عبد المطلب ليجتمعوا به ، فلما حضروا قال لهم : إني ما أعلم شاباً جاء قومه بأفضل مما جئتم به ، فلقد جئتم بخير الدنيا والآخرة . وبلغهم دعوته ، فصدق به بعضهم وكذب به آخرون ، وكان عمه أبو لهب هو وزوجته من أشد الناس قسوة عليه ، فقد هتف به أبو لهب قائلاً : تبأ لك ، ألهذا دعوتنا ؟ فنزل قوله تعالى : (تبث بدا أبي لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيهلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، في جيدها حبل من مسد)^(٢).

وكانت زوجة أبي لهب (أم جميل) أخت أبي سفيان بن حرب فجذبت زوجها ليكون مع قومها من عبد شمس ضد بنى هاشم امتداداً للعصبية بين الجماعتين .

وقد كانت هذه المرحلة بدء الجهر بالدعوة للدين الجديد ، ولذلك مهدت للمرحلة الثالثة من مراحل الدعوة وهي التي سنتكلم عنها فيما يلي :

الدعوة العامة :

نزل قوله تعالى (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين)^(٣) فانطلق الرسول يدعو للإسلام جهراً كل طوائف الناس ، يدعو السادة والعبيد ، يدعو الأقربين والغرباء ، يدعو أهل مكة ثم يتجاوزها إلى البلاد الأخرى ، وكذلك يدعو الحجاج الذين يقدون إلى مكة من مختلف البلدان وقد أسلم في هذه المرحلة الوليد بن الوليد بن المغيرة ، وسلمة بن هشام أخو أبي جهل وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وجماعة غيرهم أراد الله لهم الهداية^(٤) .

(١) سورة الشعراء الآية ٢١٤ (٢) سورة المد .

(٣) سورة الحجر الآية ٩٤ .

(٤) ابن عبد البر : الدرر ص ٤٧ .

مقاومة قريش وأسبابها ومراحلها

بدأت الدعوة للإسلام سرّاً كما قلنا ، وربما عرفت قريش أخبارها آنذاك ، ولكن قريشاً لم تعلن العداء على محمد إبان هذه المرحلة السرية ، إذ لم تتصور قريش أن الدعوة ستقوى وتشتد ويعتقها أفراد كثيرون ، كذلك لم تهتم قريش بدعوة محمد لبني عبد المطلب ، فقد رأت هذه حالة داخلية في نطاق الأسرة ، فلم تتدخل فيها ، وكأنما اكتفت بمقاومة أبي لب و أمثاله لها ، ولكن ما إن بدأ الرسول يمجهر بالدعوة حتى أعلنت قريش حقها على هذا الدين ، وسلكت كل السبل للقضاء عليه ، وقبل أن نتحدث عن هذه السبل أو ما نسسميه مراحل المقاومة يجدر بنا أن نبين الأسباب التي جعلت قريشاً تقاوم دين الإسلام هذه المقاومة القاسية .

أسباب المقاومة :

نستطيع من دراستنا لحياة العرب وأخلاقهم قبل الإسلام أن نستنبط أسباب مقاومتهم للإسلام وللمسلمين ، وتلك الأسباب هي :

- ١ - كان الرق منتشرأ في الجزيرة العربية انتشاره في كل بلاد العالم ، وكان العبد رقيق العقل والقلب بالإضافة إلى الرق الجسماني ، بمعنى أنه لم يكن له أن يتدين بغير دين سيده ، ولا يحب أو يكره إلا تبعاً لحب سيده وكرهه ، وكان جسمه خاضعاً لأوامر سيده ، فلما جاء الإسلام لم يعترف برق العقل أو القلب ، وقرر أن العقل والقلب لا ينطرق لهما الرق ، فالرقيق حر في فهمه وتدينه وحبه وكرهه ، وأن رق الجسم غير مطلق ،

أى أن لارقيق حقوقاً لدى سيده فى الطعام والكساء والزواج ، وليس لسيده أن يطلب منه الحرام أو ما يشق عليه من العمل .

ودخل بعض العبيد الإسلام كما قلنا . ورحب بهم محمد ، واعتبر السادة هذا التصرف تمرداً من العبيد ، كما اعتبروا محمداً مثيراً للفتن ، وأنه لم يكنف بذويه يدعوهم لعقيدته بل راح يدفع الإسلام إلى القصور عن طريق العبيد على الرغم من إرادة أصحاب القصور .

٢ - كان الصراع فى الجزيرة العربية يدور لأنفة الأصحاب ، فإذا جاء دين جديد يهاجم معتقدات القوم ، فما أجدرهم أن يهتفوا فى وجهه ليُرضوا ما بأنفسهم من شوق للغارة والحروب .

٣ - السيادة القبلية والتنافس عليها : لم تستطع قريش أن تفرق بين النبوة وبين السيادة ، أو بين النبوة وبين المُلْك ؛ وحسبوا أن التسليم بدين محمد معناه التسليم بالزعامة له ولآله من بنى عبد المطلب ، وكانت هناك منافسة شديدة بين قبائل العرب على الرياسة والسيادة ، فلم يكن من الممكن أن تسلم قريش زمامها لمحمد ولبنى عبد المطلب وأن تفقد بطونُها المختلفة مكانتها وسيادتها .

٤ - المساواة بين السادة والعبيد : كان العرب يهتمون بالطبقات اهتماماً شديداً ، فلكل إنسان طبقته التى يجب ألا يتعداها . وإذا بدعوة محمد تجعل المساواة بين الناس أساساً هاماً من أسسها ، وتسرى بين السيد وعبيده ، بل تجعل العبد أفضل من سيده لو كان أكثر منه ثقى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (١) ومن أجل هذا لم يقبل السادة أن يدخلوا فى هذا الدين الذى يهدم تقاليدهم ، وأسس الحياة عندهم . وبسوى بينهم وبين العبيد الأذلاء .

٥ - الفزع من البعث : يقرر الدين الإسلامى أن هناك بعثاً بعد الموت

(١) سورة الحجرات الآية ١٣ .

وأن هناك حساباً للناس ، يكافأ المحسن فيه على إحسانه ، ويعاقب المذنب على سيئاته وآثامه ، قال تعالى (القارعة ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش ، فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ؛ وأما من خفت موازينه فأما هاهوية ، وما أدراك ما هيه ، نار حامية) (١) .

وقال (فإذا جاءت الصاخة ، يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل أمرىء منهم يؤمئذ شأن يغنيه) (٢) .

ولم تستطع قريش أن تقبل هذا الدين الذى يعيد الإنسان للحياة بعد الموت ، ويعيده ولا سلطان له ولا نفوذ بيده ، ثم يحاسب هذا الإنسان بعدالة على ما ارتكبه ، ما أبشع الصورة التى تصورها زعماء قريش للإسلام ، تلك الصورة التى دفعتهم إلى رفض هذا الدين الجديد وعدم اتباعه والدخول فيه ، إنها صورة العدالة التى لا يرضاها الظالم ؛ وصورة الحساب الذى يقرئ منه المذنبون .

٦ - تقليد الآباء : كان تقليد الآباء واتباع سلوكهم فى العبادات والمعاملات شيئاً راسخاً عند العرب ، ولذلك كرهوا أن يخرجوا من دين آبائهم وأن يتبعوا ديناً جديداً ، وصاحوا فى غباء وجود (حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا) فهزىء بهم سبحانه وتعالى بقوله (أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يستهدون) (٣) .

٧ - مع الأصنام : كان هذا السبب مادياً ، فقد كان بين العرب من يحترق نحت الأصنام على شكل اللات والعزى ومناة وهبل . وكان هؤلاء يبيعون هذه الأصنام للحجاج الذين كانوا كثيراً ما يشترونها للتبرك والذكرى .

(٢) سورة عبس الآيات ٣٢ - ٣٧ .

(١) سورة القارعة .

(٣) سورة المائدة الآيتان ١٠٤ و ١٠٧ .

فلما جاء الإسلام حرم عبادة الأصنام ونحتها وبيعها ، ووجد هؤلاء التجار في الإسلام حائلا بينهم وبين أرباحهم وعاملا يقضى على تجارة الأصنام بالكساد والبوار ، ولذلك سرعان ما قاوموا الإسلام وثاروا عليه .

ومما يتصل بهذا السبب المسالى أيضاً إحساس مدنة الكعبة بأنهم سيفقدون ما كانوا يتمتعون به من ثروة ونفوذ بسبب خدمتهم للأصنام ورعايتهم لزاثيرها (١) . كما ظن أهل مكة على العموم أن الكساد سوف يصيبهم جميعاً بسبب إعراض الحجيج عن مكة إذا بطلت عبادة الأصنام بها .

مراحل المقاومة

كانت مراحل المقاومة ثلاثاً ، إذ اتجهت أولاً إلى العبيد والضعفاء ، وثانياً إلى سواهم من المؤمنين ، وثالثاً إلى الرسول نفسه ، وسنتكلم عن كل من هذه المراحل على حدة فيما يلي :

١ - العدوان على العبيد والضعفاء :

لم توجه قريش اهتماماً ذا بال لمقاومة الإسلام في أول عهده كما قلنا ، وظنوا أن دعوة محمد ليست إلا حركة نفتر وتختنى بعد قليل من تلقاء نفسها .

ولكن سرعان ما بدا لهم أن الدعوة تدخل عليهم بيوتهم وأن عبيدهم الذين كانوا يُعَدُّون ضمن متاعهم يدخلون هذه الدعوة الجديدة ، بعد أن وضح لهم الإسلام أن الرق لا يمتد للعقل ولا للقلب ، وإنما هو مقصور على الجسم وبشروط محدّدة في ذلك أيضاً (٢) . لذلك اتجهت الخطوة الأولى من خطوات المقاومة إلى العبيد والضعفاء ، لأن محمداً إن كان حراً يقول ما يريد

(١) انظر حياة محمد الدكتور هيكل ص ١٧٥ - ١٧٩ .

(٢) انظر الرق وموقف الإسلام منه بكتاب الإسلام للمؤلف .

فهؤلاء في نظرهم ليسوا أحراراً في أبدانهم ولا في عقولهم ، وعلى هذا تعرض ياسر وابنه عمار وزوجته سمية كما تعرض بلال وخباب بن الأرت وغيرهم إلى ألوان غامضة من العذاب ليس فيها خلق ولا رحمة ، وقد شمل هذا العذاب الضرب والحرمات من الطعام والشراب ، وامتد العذاب بهؤلاء العبيد حتى كانت توثق ظهورهم بالرمضاء وتوضع فوقهم الحجارة المحيطة الثقيلة ، وقدمات ياسر وهو يعذب ، ولما صرخت أمراًته شاكية طعنها أبو جهل بحربة فقتلها (١) . وكان من نتائج تعذيب هؤلاء أن اشترى أغنياء المسلمين كثيرين من هؤلاء العبيد وأعتقوهم . وقد أعتق أبو بكر بلالاً وأمّه حمامة ، وأعتق عامر بن فهيرة وأعتق خمسا من النساء ، ويقال إن فيه نرات الآيات الكريمة : وسيتجنّبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتركى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى (٢) .

٢ - الهدوان على كل المسلمين :

ونجىء بعد ذلك المرحلة الثانية حيث امتد الاعتداء إلى أتباع الدين الجديد جميعاً من غير العبيد والضعفاء ، إذ رأت قريش أن الدعوة زاد انتشارها وانضم لها بعض الأشراف . وبدأ حطرها يظهر . فعم الاعتداء كل المسلمين وأصبح كل مسلم هدفاً للهجوم والإيذاء من المشركين سبها كانت مكانته في قريش ، ومهما كان ثراؤه . ومهما كان جاهه وقوته ، وعلى هذا تعرض للأذى سادة أنجاد مثل أبي بكر وعثمان والزبير وأبي عبيدة ، وربما كان من الممكن أن يدافع هؤلاء عن أنفسهم . ولكن الإذن باستعمال

(١) ابن هشام ١ : ١٧٢ ، ٢٠٢ وابن القيم ٢ : ١٢ .

(٢) سورة الليل .

القرة - ولو للدفاع - لم يكن قد جاء بعد ، كما سيأتي تفصيله عند الحديث عن الإسلام والقتال ، ولذلك احتل المسلمون الأول ألوانا من العسف والقسوة والطفان أنزلها بهم قوى الشر عمكة .

وقد أودى أبو بكر إيذاء شديداً على الرغم من صنه ومكانته في قريش ، ولقد هم بالهجرة إلى الحبشة من شدة ما عانى ، ولكن أحد سادة قريش قابله وقد أزمع الهجرة فحجّل أن يهاجر رجل مثل أبي بكر من مكة ، فأعاده معه في جواره ، ولكن أبا بكر سرعان ما رد هذا الجوار حتى لا ينعم بالأمن في وقت يعاني فيه باقي المسلمين ألواناً من العنت والعذاب ، وقد صبر أبو بكر وصابر حتى هاجر مع الرسول إلى المدينة ومن نزل به ، الأذى في هذه المرحلة عثمان بن عفان ، فقد حبسه عمه الحكم بن العاص في حجرة مظلمة وقيدة بسلاسل من حديد وهدده بأنه سيقى هكذا إلى أن يعود إلى آلهة قومه ، ويترك إله محمد ، ولكن عثمان أكد أنه لن يعود إلى الكفر بعد أن ذاق حلاوة الإيمان ، أما ما يعاني من قسوة فلا مناص من احتماله في سبيل الله .

وتعرض الزبير بن العوام إلى مخطط عمه نوفل بن خويلد ، وأقسم نوفل أن ينزل بالزبير من العذاب ألواناً حتى يعود إلى دين آبائه وأجداده وتنفيذاً لهذا القسم وضعه نوفل في حجرة مظلمة مكتوف الأيدي وأطلق دخاناً كثيفاً بالحجره حتى ضاقت أنفاسه وهو صابر لقضاء الله ، ولم ينقذه من الموت إلا أمه صفية التي هددت بأنها ستدخل نفس الدين إذا استمر نوفل في إنزال العذاب بابنها .

وإذا كانت صفية قد دافعت عن ابنها ، فإن شاباً مسلماً آخر هو سعد ابن أبي وقاص كانت أمه (حممة بنت أبي سفيان) مصدر تعذيبه والتتكيل به ، ومنرى ذلك عند الحديث عن « الرسول والشباب » .

ويمكن القول إن الرسول نفسه لم يحسه إيذاء يذكر في هذه المرحلة لمكانة

بنى هاشم ومكانة أبي طالب الذى أخذ على نفسه حماية ابن أخيه ومن نتائج الإيذاء الذى وقع على المسلمين أن هاجر هؤلاء إلى الحبشة كما سنوضحه فيما يلى ، ثم نعود - بعد الكلام عن الهجرة إلى الحبشة - إلى استكمال مراحل المقاومة بشرح المرحلة الثالثة حيث تعرض الرسول نفسه للإيذاء والاعتداء

هجرة المسلمين إلى الحبشة :

لما نزل الأذى بالمسلمين . وأنصاهم البلاء من قريش ، وأصبحت حالة المسلمين تدعو للأذى بسبب ملافوه من قريش من إيذاء وهجوم ، بدأ الرسول يفكر فى بلدة أخرى يرسل لها المسلمين المستضعفين ليعبدوا عن مريش وعن هجرات قريش ، أما المسلمون الأشداء فقد بقوا بمكة يحيطون بالرسول ويدفعون بهيبتهم العدوان عن أنفسهم . ومن هؤلاء على بن أبى طالب وطلحة بن عبيد الله وكثيرون سواهما .

أى البلاد يختار الرسول لراغبي الهجرة من المسلمين ؟

هل يرسلهم إلى اليمن ؟ لا ، إن اليمن خاضعة للفرس ، والفرس لا يعتقدون الأديان السماوية ولا يحترمونها بدليل أن كسرى ملك الفرس أرسل إلى باذان عامله على اليمن يقول له : ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين جلدتين من عندك فليأتياى به .

هل يرسلهم إلى مواطن أهل الكتاب من اليهود والنصارى بالجزيرة العربية ؟ لا ، فقد كان أهل الكتاب فى نزاع ومنافسة ، فهم لا يقبلون منافساً جديداً يقول بالله الذى يقولون به على غير ما يعتقدون .

هل يرسلهم إلى الشام أو الحيرة ؟ لا ، فإن الشام والحيرة مكانان لقريش فهما نفوذ كبير بسبب الصلات التجارية التى تربطهم بسكانها ، هذا بجانب نفوذ الروم والفرس الذى لا يسمح بتأييد الدهرة الجديدة .

إلى أين يرسلهم ؟ هل يرسلهم إلى الحبشة التى كان الرسول يعرف أن

بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ؟ نعم ، لقد استقر الرأى على ذلك ، فوجه الرسول أتباعه عبر البحر الأحمر إلى أرض الأحباش .

وكانت هجرة المسلمين إلى الحبشة على مرحلتين تعرفان بهجرة الحبشة الأولى ، وهجرة الحبشة الثانية ، وكانت الهجرة الأولى في السنة الخامسة للدعوة وقوامها أحد عشر رجلاً وأربع نساء فيهم عثمان بن عفان وزوجته رقية ابنة الرسول والزبير بن العوام وأبو حذيفة وأمرأته ، وكان عثمان بن مظعون رئيس هؤلاء المهاجرين .

أما الهجرة الثانية فقد حدثت بعد ذلك بأشهر قلائل واشترك فيها ثمانون رجلاً وامرأة واحدة هي أم حبيبة بنت أبي سفيان مع زوجها عبيد الله بن جحش ، وكان جعفر بن أبي طالب زعيم المهاجرين في هذه المرة ، وبعد فترة قصيرة اتصل بمن كان في أرض الحبشة من المهاجرين خبر إسلام عمر ومجاهرته بالعبادة ، فتشجع بعضهم للعودة ليشترك عمر شجاعته وثباته ونضاله . كما بلغهم كذلك نوع من الهدنة بين قريش وبين المسلمين لحرص قريش على ألا تقوم حرب أهلية بين الفريقين ، وحب الوطن طبيعة في الإنسان ، والغريب يتلمس المعاذير ليعود للوطن ، وباسم حب الوطن ، الذي — فيما نظن — نفع الأسباب رهباً الحجج ، عاد بعض هؤلاء المهاجرين إلى مكة ، ولكنهم ما إن وصلوها حتى ظهر لهم أنهم كانوا متفائلين ، وأن حدة العداء بين المسلمين والمتركن لم تهدأ ، ولذلك — كما يقول ابن هشام (١) — لم يدخل أحد منهم مكة إلا بجوارٍ أو مستخفياً ، أما باقي مهاجري الحبشة الذين لم ينخفضوا للنفأول ، أو الذين آثروا البقاء في معتربهم حتى تعلق كلمة الله ، فقد بقوا هناك حتى السنة السابعة للهجرة .

وقد أحست قريش عقب هجرة المسلمين إلى الحبشة أن اختيار المسلمين

"بشة سببه استعداد النجاشي لإكرامهم ، وأمنهم على نفوسهم ودينهم في مغتربهم ، ففكرت أن تكبد للمغتربين لتحريمهم هذا الملجأ ، فاختارت لذلك عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة المخزومي وأرسلتهما إلى النجاشي ، وكان لعمرو بن العاص جاه في الحبشة وفي بلاط النجاشي ، وأرسلت مع البشة مجموعة كبيرة من الهدايا للنجاشي وبطارقته ، وأذاعت أن المسلمين يقولون في عيسى وفي أمه قولا عظيما ، فعقد النجاشي مجلسا استمع فيه لرأى جعفر ابن أبي طالب في هذه التهم ، وقد نجح جعفر في عرض الفكر الإسلامي مما جعل النجاشي يقول : إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة ، ويقال إنه آمن بالإسلام فثار عليه قومه لذلك ، وفي العام السابع للهجرة أرسل الرسول من حمل هؤلاء المهاجرين في سفينتين وأحضرهم إلى المدينة ، وكان ذلك عقب استسلام خيبر ، وروى أن الرسول قال عندما رأى جعفر بن أبي طالب ، ما أدرى بأيهما أنا أسر ، بفتح خيبر أم بقدم جعفر (١) .

ونعرد بعد ذلك للحديث عن الجوار الذي أشرنا إليه فيما سبق ، فقد قلنا إنه لم يدخل مكة من العائدين من الحبشة إلا من دخل في جوار ومن دخل مستخفيا ، وكان من عادة العرب أن من دخل في جوار شخص أصبح ذلك الشخص مسئولاً عنه وعن حمايته ، ويكون الاعتداء على المستجير اعتداء على المجير وحتكاً لحرمته (٢) ، وقد دخل عثمان بن مظعون - عقب عودته من الحبشة ومعرفة أن المسلمين لا يزالون بسامبون العذاب - في جوار الوليد بن المغيرة ، ولكن عثمان رأى ما فيه المسلمون من البلاء وهو يقدر و يروح في أمان ، فخجل من ذلك وقال : والله إن غُدُوِّي ورواحي آمنأ

(١) هذا العرض هو أدق ما استطعنا فهمه من الروايات المختلفة . انظر صحيح البخاري وابن هشام وابن سعيد والنويري وقد ذكر ابن عبد البر (الدرر ص ١٢٩) أن إرسال وفد قريش للحبشة كان بعد غزوة بدر وجاء أن يسلمهم النجاشي مهاجري المسلمين فيقتلوهم بدل أسراهم .

(٢) انظر مدى اهتمام العرب بحماية المستجير في العقد للفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ١٥٩ وما بعدها .

بحوار رجل من أهل الشرك ، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله مالا يصيبني لنقص كبير في نفسي ، فشئى إلى الوليد بن المغيرة وقال له : يا أبا عبد شمس وقت ذمتك ، وقد رددت إليك جوارك . قال : يا ابن أنحى ، لعله آذاك أحد من قومي ؟ قال : لا ، ولكنى أَرْضَى بِجِوَارِ اللَّهِ وَلَا أُرِيدُ أَنْ أَسْتَجِيرَ بِغَيْرِهِ : قال المغيرة : فانطلق بنا إلى الكعبة فاردد على جوارى علانية كما أجزتكَ علانية : فانطلقا حتى أتيا الكعبة ، فقال الوليد : هذا عثان جاء يرد على جوارى . قال عثان : صدق ، قد وجدته وفيه كريم الجوار ، ولكنى أحببت ألا أَسْتَجِيرَ بِغَيْرِ اللَّهِ ، فقد رددت عليه جواره . ورأى عثان عقب ذلك لبيد بن ربيعة الشاعر في مجلس من قريش بنشدهم . فجلس معهم عثان وأنشد لبيد :

• ألا كل شيء ما خلا الله باطل •

قال عثان : صدقت . وتابع لبيد إنشاده قائلا :

• وكل نعم لا محالة زائل •

قال عثان : كذبت ، نعم الجنة لا يزول :

ولما مع لبيد من يكذبه صاح : يا معشر قريش • والله ما كان يُؤذَى جليسيكم ، فتنى حدث هذا فيكم ، قال رجل من القوم : إن هذا سفيه من سفهاء معه قدفار قوا ديننا فلا تجنن في نفسك من قوله . فرد عليه عثان بكلام يدافع عن نفسه ، فاشتبكوا في عراك ، ولطم القرشي وجه عثان لطمة أثرت في عينه . قال الوليد : يا عثان ، قد كنت في غنى عما أصابك فقد كنت في ذمة منية . قال عثان : والله إن عيني الصحيحة لفقيهه إلى مثل ما أصاب أخيها في الله ، وإنى والله لفي جوار من هو أعز منك وأقلر^(١) .

ومما يروى أيضاً عن أحاديث الجوار أن أبا بكر لما أصابه الضر

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٢٠ .

ورأى الأذى يصيبه ويصيب الرسول ولا يطبق له دفعاً استأذن الرسول في الهجرة فأذن له ، فخرج أبو بكر وسار يوماً أو يومين فلقبه ابن الدغنة وهو أخو بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة وهو يومئذ سيد الأحابيش^(١) . فسأل : إلى أين يا أبا بكر ؟ فأجاب : أخرجني قومي وأذوني وضيقوا علي . قال ابن الدغنة : ولم ؟ وإنك والله لتزين العشيرة وتعين على النواصب وتفعل المعروف وتكسب المعدم ؟ ارجع وأنت في جوارى . فرجع معه حتى إذا دخل مكة قام ابن الدغنة فقال : يامعشر قريش ، إني قد أجرت ابن أبي قحافة فلا يعرض له أحد إلا بخير . ومنذ ذلك الحين كفت قريش عن أذى أبي بكر . وكان لأبي بكر مسجد عند باب داره فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن ، وكان رجالاً رقيقاً إذا صلى خشع وإذا قرأ القرآن بكى واستبكى ، وكان ذلك يجذب حوله الصبيان والنساء في إعجاب ظاهر ، فخاف رجال قريش عاقبة ذلك ومشوا إلى ابن الدغنة وشكوا له أبا بكر وطلبوا أن يصلي وأن يقرأ القرآن داخل داره ، فكلّمه ابن الدغنة في ذلك : فأجابه أبو بكر : إردك عليك جوارك وأرضي بجوار الله . قال : فاردد عليّ جوارى . ففعل أبو بكر وتعرض بعد ذلك إلى عنت قريش من جديد^(٢) .

٣ - العدوان على الرسول :

نتكلم الآن عن المرحلة الثالثة من مراحل مناومة قريش للإسلام ، وفي هذه المرحلة تعرض الرسول نفسه للهجوم والإيذاء ، وقد بدأ ذلك عقب هجرة المسلمين إلى الحبشة ، فقد أزعجت هذه الهجرة قريشاً وتوقعت أن

(١) الأحابيش معناها التجمعات من تعيشوا أي تجمعوا : وتطلق على بني الحارث وبني المون من كنانة وبني المصطلق من خزاعة (انظر الروض الأنف ٢ : ٢٣١) .

(٢) ابن هشام ج ١ ص ٢٣١ ويروى المبرد مجموعة من القصص تبين اهتمام الأبناء بحماية من استجار بقبور آبائهم ، أو حمل بعض الحصى من هذه القبور . (انظر الكامل للمبرد ج ٢ ص ٤٢٩ وما بعدها) .

يُشَرُّ المسلمون في كل النواحي داعين إلى دينهم ، وأن تمهد هذه الهجرة لهجرة محمد نفسه ، وبذلك تتغلب عبادة الله على عبادة أصنامهم ، ولهذا اتجهت قريش إلى رأس هذه الحركة ، إلى محمد بن عبد الله للضغط عليه لإغرائه حتى يكف عن هذه الدعوة الجديدة .

واتبعوا في إغراء الرسول العروض المالية السخية ، ولكن محمداً سخر منهم ومن أموالهم ، فتجاوزوا المال إلى الملك ، فعرضوا عليه أن يكون عليهم ملكاً ، ولكن محمداً صاح بهم صبيحة وضعت حداً لهذه العروض الرخيصة حين قال قولته المشهورة : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت ذلك الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه » (١) .

ولما لم يفد الإغراء اتجهوا للهجوم - الإيذاء وكانوا راغبين في إنزال الأذى مصرّين على المقاومة ، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يخافون نتائج هذا الإيذاء ويتوقعون الشر من إقدامهم عليه ، فأبو طالب يحتل أرفع مكانة بين العرب ، وحوله بنو هاشم فيما عدا أبا لهب ، ولذا تنوعت المقاومة فأنجبه ثقلها إلى المقاومة السلبية وضرب الحصار كما سنوضح ذلك عندما نتكلم عن « مقاطعة بني هاشم » واتجه بعضها إلى إنزال الأذى بالرسول مباشرة ، فأم جميل زوجة أبي لهب كانت تلقى الأقدار والأشواك أمام داره في غسق الليل لتؤذي الرسول عند خروجه مبكراً ، وكان أبو جهل يلقي فوقه القاذورات وهو في أثناء صلاته .

ولكن حماية أبي طالب ردت عن الرسول كثيراً من الأذى ، وورقت زوجته خديجة وكأنها بلسم يشفي ما يصيبه من آلام ، لقد كانت تحسن استقباله إذا عاد إلى البيت كثيراً ، وكانت تواسيه وتشجعه حتى يعود له نشاطه ويسترد عزمه وقوته .

(١) ابن هشام ج ١ ص ٧٠ .

وكان المجاهرون بالظلم لرسول الله ، ولمن آمن به كثيرين أهمهم
 عمه أبو لهب ، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث وهما من بني هاشم ، وعتبة
 وشيبة ابنا ربيعة ، وعقبة بن أبي معيط وأبو سفيان بن حرب وابنه حنظلة ،
 والحكم بن أبي العاص بن أمية وهم من بني عبد شمس ، ومن بني
 عبد الدار النضر بن الحارث ومن بني أسد بن عبد العزى زمعة بن الأسود
 وأبو البختري العاص بن هشام ، ومن بني مخزوم أبو جهل بن هشام ،
 وأخوه العاص وعمه الوليد بن المغيرة ، ومن بني سهم العاص بن زائل
 وابنه عمرو بن العاص ، ومن بني جمح أمية بن خلف وأخوه أبي ،
 وكان هؤلاء يواصلون الأذى للرسول والمسلمين ، ويروى ابن عباس أن
 النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي فجاءه أبو جهل واعتدى عليه ،
 وحاول نفيه عن الصلاة ولكن الرسول زجره وهدده ، فقال أبو جهل :
 يهددني محمد وقد علم أن ما بها رجل أكثر نادياً مني ؟ فأنزل الله فيه الآيات
 الكريمة : « أرايت الذي ينهى عبداً إذا صلى ؟ أرايت إن كان على الهدى أو
 أمر بالتقوى ؟ أرايت إن كذب وتولى ؟ ألم يعلم بأن الله يرى ؟ كلا لئن لم ينته
 لنسفنا بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ، فلیدع ناديه ، سندع الزبانية ، كلا ،
 لا تطعه واسجد واقترب » قال ابن عباس والله لو دعا ناديه لأخذته
 الملائكة (١) .

إسلام حمزة وعمر بن الخطاب ونسائج ذلك :

وبما كانت الدعوة بين إصرار الرسول وكفاح قريش ، إذ دخلها في
 السنة الخامسة للدعوة بطلان عظيمان هما حمزة بن عبد المطلب وعمر بن
 الخطاب (٢) وقد كانا معروفين بالقوة والصلابة فعزَّ بهما الإسلام واشتد
 الأمل في انتصاره ، وسنتكلم عن ظروف إسلام عمر في « فاسفة الدعوة

(١) ابن عبد البر : الدرر ص ٤٨ والآيات من سورة العلق : ٩ - ١٩ .

(٢) ابن هشام ١ : ٣٢٦ .

الإسلامية ، ولكننا هنا نقرر أنه كان لإسلام عمر وحمزة رد فعل قوى عند قريش ، فقد أدركت أن مسألة محمد ستؤدي إلى انتصار صبه ما دام هذا الدين قد بدأ يجذب له الأقوياء الأشداء من أمثال حمزة وعمر ، وأدركت كذلك أن العدوان على المسلمين قد يؤدي إلى حرب داخلية ، فإن عمر وحمزة لا يصبران على الضيم ، وبخاصة أن إسلام حمزة ارتبط بعدوان أبي جهل على الرسول ، فغضب حمزة لذلك وأعلن إسلامه ، وقصد أبا جهل وشجّه وهدد بالانتقام من أى عدوان .

ومن أجل هذا اتجهت قريش وجهة جديدة طابعها المفاوضة لرغبتها في أن يتم القضاء على محمد دون إثارة بنى عبد المطلب ، فأخذوا يترددون على أبي طالب يطلبون إليه أن يسكت ابن أخيه الذى يسب دينهم ويحقر آلهتهم ، ولكن هذه الخطوة لم تأت بباطل ، وحينئذ خطت قريش خطوة أخرى فيها شدة وتهديد فقد ذهبت وفودهم إلى أبي طالب وصاحت فيه :

يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استثنينا من ابن أخيك فلم تنه عنا ، وإنا والله لن نصبر على شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا ، فإما أن تكف عنا وإما أن ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين (١) .

ولم يفلح التهديد بشيء فخطوا خطوة ثالثة هى أنهم ساوموا أبا طالب وأرادوا أن يعطوه عمارة بن الوليد بن المغيرة ويأخذوا محمداً ليقتلوه ، وقالوا في ذلك لأبي طالب : إن عمارة أنهد فتى في قريش ، وأجل شباب العرب ، فخذ ، فلك عقله ونصره واتخذه ولدك وأعطنا محمد . وسخر منهم أبو طالب ، وقال : بش ما تساموننى ؛ أنعطونى ابنكم أغدوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه (٢) .

(١) ابن هشام ج ١ ص ١٧٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٠ .

مقاطعة بني هاشم :

وانتقل العداء خطوة جديدة ، فقد أدركت قريش أن قوة محمد مصدرها أهله الذين يحمونه ويدافعون عنه ، سواء منهم من اتبع دينه أو من بقى على دين آبائه وأجداده ؛ ولهذا عازمت قريش على محاصرة بني هاشم جميعاً ، ورغبة عن الحرب وما تجره من ويلات اتجهوا في مقاومتهم لبني هاشم اتجاهاً سلبياً ولكنه عنيف ، فاجتمعت قريش وكتبت صحيفة قررت فيها مقاطعة بني هاشم فلاitz وجون منهم ولايزوجونهم . ولايبعون لهم ولايشترى منهم ، ولايكلمونهم ، ولايزورون مرضاهم ولايشيعون موتاهم ، وأكروههم أن يلزموا الشعب وهو طريق بين جبلين . . وقد كانت هذه المقاطعة قاسية جداً على بني هاشم ، منهم بسببها الضرر بل الجوع والحرمان ، وقد استمرت حوالى ثلاث سنوات ، ولم تنقضى إلا بعد أن أشفق بعض القرشيين على بني هاشم بسبب ما نالهم من أذى وعذاب فزقوا هذه الوثيقة وعادوا إلى الاتصال بهم (١) .

وكان أبو طالب شديد الرعاية للرسول صلى الله عليه وسلم طيلة مدة بني هاشم في الشعب ، فكان يأمر الرسول أن ينام في فراشه الخاص أول الليل حتى يراه الناس وقد أوى إلى هذا الفراش ، فإذا نام الناس أمر أبو طالب أحد بنيه أو إخوته أو بنى سمه فأخذ مكان الرسول ، وأمر رسول الله أن ينتقل إلى فرشهم فيرقد فيها ، وذلك ليضلل أعداء الرسول الذين قد يتجهون إلى العدوان على الرسول صلوات الله عليه .

ومما يذكر عن نهاية الصحيفة أن الله بعث عليها الأرضة فلهجت كل

(١) ابن هشام ١ : ١١٠ .

(٢) ابن هشام ١ : ٢٣١ وابن القيم ٢ : ٤٦ .

ما كان فيها من عهد لهم وميثاق ، ولحست اسم الله عز وجل ، ولم تترك فيها إلا كلمات الظلم والشرك والقطيعة ، وهناك رواية مضادة ترى أن الأرضة أتت على كل شيء ، ولم تدع إلا اسم الله جل وعلا ، وقد أوحى الله لمحمد بذلك ، فنقل ذلك إلى عمه أبي طالب ، فتحدى أبو طالب جماعة المشركين ، وأحضروا الصحيفة فظهر صدق محمد ، ومع هذا اعتبروا ذلك مبرراً وزاد بغيهم وعدوانهم .

ولكن كان بين المشركين نفر عارضوا المقاطعة ومشوا في نقض الصحيفة ، ومن هؤلاء هشام بن عمرو بن الحارث وهو كاتب الصحيفة ، وأبو البختري العاص بن هشام والمطعم بن عدي ، وزهير بن أبي أمية وأمه عاتكة بنت عبد المطلب عمه رسول الله ، وزمعة بن الأسود^(١) .

وكان أبو جهل من أحرص الناس على النيل من المسلمين وحرمانهم فيروى ابن هشام^(٢) أن أبا جهل لقي حكيم بن حزام بن خويلد ومعه غلام يحمل قمحاً إلى خديجة بنت خويلد زوجة الرسول وعمه حكيم فعلق به أبو جهل وقال : أتذهب بالطعام إلى بني هاشم ، والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة ، فجاءه أبو البختري وقال له : مالك وله ؟ إنه طعام كان لعمته عنده رغبت إليه فيه ، فكيف تمنعه ؟ فأبى أبو جهل ، وقام نزاع كان من أسباب إغفال الصحيفة ونهاية المقاطعة .

وأبو جهل الذي كان شديداً في غيبة محمد ، كان يهاب محمداً ويحس بالرهبة أمامه ، يروى ابن هشام أن رجلاً من إراش باع لبلا له إلى أبي جهل بثمن مؤجل ، فلما طالبه الإراشي بالثمن مطله أبو جهل وذهب الإراشي إلى حشد من الناس حول الكعبة وقال لهم : يامعشر قريش ، ما من رجل يؤدبني ديناً على أبي الحكم بن هشام ، فإني رجل غريب وقد غلبني على حق ؟ فرأى أحد الجالسين

(١) ابن عبد البر : قدر : مقتنيات من ص ٥٧ - من ٦٠

(٢) السيرة النبوية : ج ٢ ص ٥ .

أن يهزأ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الرسول يجلس في ناحية بعيدة عن القوم ، فقال للأراشي : رأيت هذا الجالس هناك ؟ إنه هو الذي يستطيع أن يأخذ لك حقك من أبي جهل .

وصدّق الأراشي كلام القرشي ، وذهب إلى الرسول وقص عليه الخبر ، قال الرسول للرجل : انطلق معي إليه ، وذهبا معاً تجاه منزل أبي جهل .

وأراد القرشيون أن يعرفوا ماسيتم عليه الأمر . فألحقوا بالرسول والأراشي رجلاً منهم لينقل لهم خبر ماسيتم من أحداث . وعاد الرجل ليقول لقريش كلاماً عجباً ، فقد دق الرسول باب أبي جهل ورد أبو جهل مائلاً من الذي صدق الباب ؟ فقال الرسول : أنا محمد إخرجني إلى فخرج أبو جهل وقد امتنع لونه ، وما في وجهه قطرة من دم ، فقال له الرسول : أعط هذا الرجل حقه . قال أبو جهل : نعم في التو والساعة ، ودخل وعاد ومعه ثمن الإبل للأراشي .

ومرعان ما جاء أبو جهل إلى الكعبة ، فقال له المشركون : ويحك ماذا حدث لك ؟ قال : وبحكم أتم . والله ما هو إلا أن ضرب بابي وسمعت صوته حتى ملئت رُعباً ، ولما خرجت إليه وجدت كأن فوق رأسه قوه هائلة أرعبتني ، وأحسست أنني نرأيت لهلكتي . فعجب القوم من شأن أبي جهل وشأن محمد (١)

وفاة أبي طالب وخديجة :

وفي السنة العاشرة للدعوة فقد الرسول أعظم اثنين ساعدها وكانا له قوة وملاذاً في نضاله لنشر الإسلام ، هما أبو طالب وخديجة ، وكانت خديجة أول من أسلم من النساء ، وكانت تشد عضد الرسول بقوة شخصيتها وبما لها وجاهاً وحسن معاملتها ، أما أبو طالب فقد كان درعاً يقي الرسول ويحميه بقوة وصلابة ، ومما أثر عنه قوله :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

وقد مات أبو طالب وله سبع وثمانون سنة ، وأغلب المؤرخين يرون أنه مات دون أن يدخل الإسلام ، ولكن أثر عن العباس أنه سمع أبا طالب وهو على فراش الموت يقول شعراً جاء فيه :

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

ومثل هذا الشعر يجعل بعض الباحثين يرى أن أبا طالب دخل في دين محمد وإن لم يعان ذلك . وكانت المدة بين موت أبي طالب وخديجة ثلاثة أيام فقط كما ذكر ذلك ابن القيم (١) .

حالة الرسول بعد أبي طالب وخديجة :

وبموت أبي طالب ومن بعده خديجة تعرض الرسول لأهوال جسام من قريش ، يقول ابن اسحق (٢) : ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب ، وكان أشد قريش عداً للرسول أبو لهب عمه ، والحكيم بن العاص ، وعقبة

(١) زاد الماد ج ٢ ص ٤٦ .

(٢) ابن هشام ١ : ١٦٠ .

ابن أبي معيط ، فإنهم كانوا جيران الرسول وكانوا يؤذونه بما يلقون عليه وقت صلاته وفي طعامه من قاذورات .

وكانت زوجة أبي لهب أكبر عون لزوجها في إيذاء الرسول ووضع الأشواك ليلاً على بابه حتى تؤذيه إذا خرج مبكراً للصلاة كعادته ، وقد ذكر القرآن الكريم قصتها في سورة خاصة هي سورة المسد (وقد سبق إيرادها) .

وكثيراً ما كانوا يضعون القاذورات عليه وهو يصلي في المسجد ، وقد خنقه بعضهم مرة ، وأوشكوا على قتله ، لولا أن دخل أبو بكر وصاح فيهم وهو يخلصه (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله) (١) .

وكان الرسول يعلم أصحابه مرة في المسجد ، فاغتاضت قريش وأوسعهم ضرباً وإيذاء ، وكان نصيب الرسول وأبي بكر من هذا الضرب شديداً قاسياً .

الدعوة للإسلام بعد موت أبي طالب

دعوة أهل الطائف :

أدرك الرسول أن لامقام له بمكة بعد موت أبي طالب وخديجة ، وبعد إصراف المشركين في إيذائه إصرافاً بعيداً عن الكرامة الإنسانية ، وبعداً عن الخلق الكريم ، فوضع خطته لنشر الإسلام خارج مكة ، لعله يجد مركزاً آخر يطيب له المقام فيه ، فبدأ بزيارة بعض القبائل وعرض نفسه ومبادئ الدين الجديد على أهلها ، وطالما لقي الرسول عناء في هذه الرحلة أيضاً ، وطالما سمع أهل هذه البلاد يقولون : لو كان في دعوته خير لتقبلها أهله وذووه ، ومن أشق المواقف التي تعرض لها الرسول ومسته فيها الأذى ما يذكره التاريخ من أنه ﷺ انجه إلى الطائف ودعا فريقاً من أشرافها (٢) إلى وحدانية

(١) سورة غافر الآية ١٢ .

(٢) يقول ابن هشام (٢ : ٢٨٥) إنهم إخوة ثلاثة من نقيف هم عبد ياليل بن عمرو

ومسعود بن عمرو وحبيب بن عمرو .

الله ؛ ولكنهم لم يستجيبوا له ولم يردوه رداً كريماً ، فقد كانت هناك علاقات ود وجوار بين أهل الطائف وبين قريش ، وكان كثير من أغنياء قريش يمتلكون حدائق بالطائف ، وكانت مكة موطن الكعبة حيث يفد حجاج الطائف كل عام فيجدون من قريش كل ترحيب وتكريم ، ولهذا تقرب أهل الطائف لقريش بإيذاء محمد ، فأغروا به أحداشهم وسفهاءهم يسبونهم ويصيحون به ويرمون بالحجارة (١) ، ولكن الرسول لم يأسن وسط هذه الأزمة القاسية وأخذ يهتف : رباه ، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي (٢)

وفي رحلتي إلى الأرض المقدسة زرت مدينة الطائف ، وأدركت لأول مرة العناء الضخم الذي لحق بالرسول في هذه الرحلة ، فالطائف تبعد عن مكة بحوالى خمسة وعشرين كيلو متراً ، والطريق كله صعود متصل إذ تقع الطائف على ارتفاع شاهق بالنسبة لمكة ، مما يجعل هذه الرحلة شاقة على السيارات والآلات حتى بعد تمهيد الطريق ورصفه ، يا الله ! كيف قطع محمد هذا الطريق الصاعد الوعر الموحش ؟ ولكن العقيدة يهون دونها كل جهد وعناء .

وفي الطائف التي وصلها الرسول بعد جهد طويل قابل عليه السلام جماعات الساعرين والمتهمجين الذين أشرنا إليهم ، ثم كان هدفاً للسفهاء والصبيبة الذين أمطروه بوابل من الحجارة ووابل من سقط القول وفحشه ، وكان النبي الكريم يتوارى من أذاهم وعدوانهم ، وتراجع الصبيبة بعد أن غادر الرسول منازل الطائف ، وكان العناء قد مس الرسول فلجأ إلى حائط (حديقة) لعبة وشيبة ابني ربيعة (٣) وألقى بكوعه على كوة صغيرة بالسور ، وراه غلام اسمه عداس وهو في هذه الحال ، فأشفق عليه ، وحمل له بعض أعتاب من الحديقة ، فقبلها الرسول ، ودعا له وحادثه ودعاه إلى الإسلام فدخل عداس الإسلام .

(١) ابن هشام ١ : ٢٦٠ .

(٢) ابن القيم : زاد الماد ٢ : ٤٦ .

(٣) ابن هشام ٢ : ٢٨٥ .

وفي هذا المكان بُنِيَ مسجد يسمى مسجد الكوع ، وقد زرته ورأيت
الشيوخ يتذكرون هذه الأحداث التي يتوارثها جيل عن جيل .

دعوة الحجيج :

أنجى الرسول بعد الطائف إلى دعوة الحجيج ، فأخذ يقابل وفود العرب
القادمة من هنا ومن هناك . ويعرض نفسه عليهم ، ويشرح لهم دعوته
ومبادئ الدين الجديد^(١) وكانت هذه اللقاءات تتم بمجئة وعكاظ ومنى^(٢) ،
وخدمت قريش الدعوة من حيث لا تدرى ، إذ أرسلت وفودها إلى جماعات
الحجيج تحذرهم من دعوة محمد ، وترميه بالجنون والسحر وغيرها من الصفات
الندمية ، وتدخل قريش هذا جعل جماعات الحجيج يتوقون إلى رؤية محمد
ليشاهدوا بأنفسهم صاحب هذه الدعوة الجديدة ، وليحققوا مقدار صدق
قريش فيما تدّيع ، وهكذا بدّل أن يسعى محمد للناس أصبح الناس يسعون
إليه سرّاً وعلانية ، لقد كانوا يسعون ليروا المجنون فإذا بهم يجدونه أرشد
الناس عقلاً ، وليروا الساحر فإذا به بعيد عن السحر والشعوذة ، وسمع
الناس وبخاصة أهل يثرب القرآن واستمعوا إلى آراء محمد ودعوته ودينه
وفلسفته فأحبوه ، وبدأ الأمل يظهر ، وبدأت الدعوة تنتشر ، وكان
إعجاز القرآن وفلسفة الدعوة أهم الأسس التي جذبت الناس للدين الإسلام ،
ومستكمل فيما بعد عن هذين الموضوعين .

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٦٢ .

(٢) الطبقات ج ١ ص ٢٠٧ .

الإسراء والمعراج

في هذا الوقت أي قبل الهجرة بعام^(١) ، تمّ الإسراء والمعراج وشهدت مكة يوماً من أيامها العاصفة ، إذ أصبح محمد صلى الله عليه وسلم يحدث الناس بأنه أسرى به إلى المسجد الأقصى ، ثم عُرِج به إلى السماء وعاد من ليلته ، وقد فرحت قريش بما قاله محمد ، وظنت أن ذلك دليل باهر على كذبه ، وأن هذه المبالغة التي ترى قريش أنها تجاوزت الحد يمكن أن تكون سبباً ينقُص أصحاب محمد منه ، ويمكن كذلك أن تكون سبباً يرد المترددين عن التفكير في متابعة محمد والتسليم بدينه :

ومرعان ماخاب ظن قريش ، فقد سمعت وفودهم مسرعة إلى أبي بكر لتقول له : أتصدق يا أبا بكر ما يقوله محمد من أنه أسرى به إلى بيت المقدس وعرج به إلى السماء ثم عاد من ليلته ؟ قال أبو بكر في يقين أذهل القوم : إن كان محمد قال ذلك ، لقد صدق ، قالوا : أتصدقه يا أبا بكر على ذلك ؟ قال : لقد صدقته على أكثر من ذلك ، على الوحي له من السماء^(٢) . وانهارت آمال قريش عند أبي بكر وعند المسلمين ، ومع هذا فقد اتخذت قريش الإسراء والمعراج وسيلة للتشنيع على محمد ورميه بأقسى الصفات ولكن هذا التشنيع لم ينتج إلا اتهام الناس بمحمد وبمحاولة التعرف إليه والتحقق من أخلاقه والاستماع لما يقوله بشأن الدين الجديد . وظهرت الكثيرين منهم الآيات الكريمة التي سجلت الإسراء والمعراج بما فيها من بلاغة ساحرة وقوة عظيمة قال تعالى (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير)^(٣) .

(١) زاد المعاد ٢ : ٤٩ .

(٢) ابن هشام ج ١ ص ٢٤٦ .

(٣) سورة الإسراء الآية الأولى .

وقال : (والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ؛ إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، ذومرة فاستوى ، وهو بالأنق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ؛ ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتأرونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند مدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، مازاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى) (١) .

والإسراء والمعراج من أهم الأحداث التي شهدتها الإسلام ، ولا يزال المسلمون حتى اليوم يحتفلون بهذه المناسبة ، ويعدون الإسراء والمعراج منحة من الله لرسول الإسلام جديرة بالثناء والتقدير ، وقد حدث الإسراء والمعراج فيما أرى بالروح والجسد كما سنبهرن فيما بعد ، ولكن هذا الحدث كان مجالا تعرض أكثر من سواء للحدس والادعاء ووضع الروايات ، ذلك لأنه حدث غير عادى لا يخضع لماديات الحياة ، فراح أعداء الإسلام وراح بعض المسلمين يخفصونه للمادة ، ويصورونه صورة لا تتفق مع جلال هذا الحدث ومع طبيعته .

ما الصورة التي يرويها هؤلاء عن الإسراء والمعراج ؟
إن الصورة تشمل النقاط التالية :

١ - ركب الرسول براقاً تصفه الرواية بأنه حيوان فوق الحمار وتحت الحصان ، وأنه يضع رجله عند نهاية بصره .

٢ - فى بيت المقدس صلى الرسول بالأنبياء ركعتين .

٣ - صعد الرسول ومعه جبريل إلى السماء ، ووقف أمام كل سماء ليدق جبريل الباب ، ويسأله الملاك الواقف بالباب : من أنت؟ ومن معك؟ أو بُعِثَ محمد؟ وهل أذن له؟ وبعد الإجابة يفتح الباب لهما ويسيران إلى الباب التالى وهكذا . . .

٤ - بعد السموات السبع توقف جبريل وطلب من الرسول أن يتقدم هو ، لأن جبريل لا يستطيع أن يتقدم أكثر من ذلك .

٥ - فُرضت الصلاة على المسلمين خمسين صلاة في اليوم والليلة ، ولكن في عودة محمد احتبسه موسى في السماء السابعة ، وصأله عما فُرض عليه وعلى أمته ، فأعلمه الرسول ، فقال له موسى : أمتك لا تنقوى على ذلك ، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فعاد محمد ، فجعلها الله خمساً وأربعين ثم أعاده موسى مرة ثانية وثالثة ورابعة وفي كل مرة تنقص خمساً إلى أن صارت خمس صلوات وقد حاول موسى أن يعيد الرسول مرة أخرى بعد ذلك ، ولكن الرسول أجابه بأنى أخجل من ربي أن أعود بعد ذلك ، وفي رواية أنه عاد فعلاً ولكن الله قال له : لا يُبدل القول لدى وثبتها خمساً .

ما المصدر الذي اعتمدت عليه هذه الرواية ؟

إن المصدر يتمثل في أحاديث وردت في كتب الصحاح ، وقد كانت هذه الأحاديث موضع دراسة للمفكرين المسلمين في مختلف العصور ، وبخاصة أن بها ما يتعارض مع الفكر الإسلامي الثابت كتحديد مكان الله ، والله لا مكان له ، وكوضع موسى في موضع المعلم لمحمد . . .

ومن الذين تدارسوا هذه الأحاديث ابن كثير ، وقد وصف بعض ما ورد من أحاديث حول الإسراء والمعراج بالاضطراب ، وحدد ما ينبغي أن يعتقده المسلم وما ينبغي أن يتركه :

وفيما يلي كلمات ابن كثير :

وإذا حصل الوقوف على هذه الأحاديث صحيحها وحسنها

وضعيفها ، يحصل مضمون ما انفقت عليه ، والحق أنه عليه السلام أسرى به من مكة الى بيت المقدس ، وهناك صلى ركعتين ثم عُرِجَ به الى السماء ، وفرض الله عليه الصلوات خمسين ثم خففها الى خمس رحمة منه ولطفًا بعباده . وذلك القدر هو ما ينبغي أن يقتنع به المسلم ويستبعد ما سواه^(١) .

واعتمادى أن رأى ابن كثير هو أحكم الآراء حول الإسراء والمعراج ، وينبغي أن يتمسك به المسلم ، وأن يستبعد ما عداه مما ذكر حول هذا الحادث العظيم .

وواضح أن كلام ابن كثير يقرر ما يلي :

- ١ - الإسراء تمّ من مكة إلى بيت المقدس دون ذكر الوسيلة ؟
- ٢ - صلى الرسول ركعتين بدون ذكر أنه أمّ الأنبياء .
- ٣ - عُرِجَ به إلى السماء بدون حاجة إلى دق باب ووقوفٍ أمام الأبواب .
- ٤ - فرض الله عليه الصلاة خمسين ثم خففها إلى خمس تفضلاً منه بدون وساطة موسى عليه السلام وبدون تعددٍ للذهاب والعودة .
- ٥ - يقرر ابن كثير ضرورة استبعاد ما سوى ذلك وضرورة تركه تماماً وهذا هو ما نراه .

ومن العلماء الثقات المعاصرين الذين تدارسوا أحاديث الإسراء والمعراج فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجليل عيسى عضو مجمع البحوث الإسلامية ، وقد ذكر أن أحاديث الإسراء والمعراج وردت في البخارى في سبع روايات مختلفة في تحديد زمان الإسراء والمعراج ، وفي تحديد المكان الذى بدأ منه الإسراء ، وفي تحديد الطريقة ، واختلاف الروايات في حديث

(٢) تفسير ابن كثير : البغوى ج ٥ ص ٢٤٥ .

ما على هذا النمط ينفي عنه - عند علماء الحديث - صفة الحديث الصحيح والحسن .

وسنعود فيما بعد لننقل كلام الشيخ عبد الجليل عيسى كله .
ولما كانت الأحاديث المرتبطة بهذا الموضوع موضع شك العلماء والباحثين ، وتخالف ما هو معلوم من الدين بالضرورة كالمكانة بالنسبة لله ، فإن من الواجب أن نلجأ لكتاب الله ليكون رائدنا في هذا الموضوع .
وسأحاول هنا - راجياً من الله التوفيق - أن أصور الإسراء والمعراج في الصورة التي أراها سليمة أخذاً من أدق الروايات وأتقى الاتجاهات .

١ - وأول موضوع تناقشه هو ذلك الموضوع الذي يثار دائماً في هذه المناقشة وهو : هل كان الإسراء والمعراج بالروح والجسد أو بالروح وحدها ؟

والذي أراه أن المسلم الذي تلقى القرآن وآمن به لا يجوز أن يردد في أن الإسراء والمعراج حدثا بالروح والجسد جميعاً ، ففي القرآن الكريم آيات تصور حدثا قريب الشبه بالإسراء ، قال تعالى :

(أَيْكُم يَأْتِنِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يُوْتَوَىٰ مُسْلِمِينَ ؛ قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجَنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٍّ أَمِينٌ . وَقَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ . فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي . . .)^(١) .

فهذه الآيات تقرر أن عرش بلقيس نُقِلَ هذه المسافة الطويلة من اليمن إلى فلسطين في لمح البصر وقبل ارتداد الطرف ، فإذا كنا قد آمنا بذلك فينبغي أن نؤمن بإيماناً كاملاً بنقل سيدنا رسول الله إلى حيث شاء الله دون اعتبار للمادة أو مقياس الزمان والمكان ؟

وربما تعرض بعض الناس إلى العقل ، وأرادوا أن يقيسوا هذا الحدث بما يعرفون من مقاييس عقلية ، ونحب - في إيجاز - أن نذكر هؤلاء الذين يتكلمون عن العقل بضعف عقولهم ، فالغالبية العظمى من الملايين الذين يحملون الساعات لا يعرفون كيف تعمل هذه الساعات ، والغالبية العظمى الذين يمتلكون المذياع أو التلفزيون لا يعرفون كيف ينقل المذياع الأصوات عبر القارات والمحيطات ، ولا كيف ينقل التلفزيون الصورة والصوت ، والغالبية العظمى من الناس لا يعرفون كيف يتكلمون أو كيف يفكرون ، وطالما ضعف العقل عن فهم فكرة واستطاعت عقول أخرى أن تفهمها ، ولهذا فنحن نهيى بالناس ألا يغتروا بعقولهم التي تقصر عن إدراك الأحداث المتكررة التي يفهمها الآخرون ، فما بالهم يتعرضون لما هو أسمى من العقل البشري من أحداث ؟

٢ - وننتقل إلى نقطة ثانية : إلى الآيات الكرّيمة التي سبق إيرادها من سورة الإسراء وسورة النجم لنقف قليلا عند بعض كلماتها ، فهذه الكلمات لها مدلولات يتحتم التعرف عليها ؛ فمن الإسراء يقول الله تعالى :

صبحان : مَطْلَعٌ يَدُلُّ عَلَى التَّنْزِيهِ وَعَلَى أَنَّ مَا سِيرَ بِهِ جَلِيلُ الشَّأْنِ عَظِيمُ الْخَطَرِ .

الليل فيه هدوء وصفاء ويغلب أن تقع به الأحداث الكبرى ، وقوله تعالى « يعيده » إبعاد الآية محاولة لتأليه محمد كما حصل لبعض الأنبياء قبله عندما منحهم الله قدرات عظيمة ، فليس محمد - مع خصوصية الإسراء والمعراج - إلا عبداً لله .	} الذي أسرى بعباده لبلا
المراد مكان السجود ، فالرسول كان يصلّي عند الكعبة وصلّي كذلك بيت المقدس ، أو المراد ما سيكون ، لأن في علم الله أنه سيكون بمكة مسجد حرام وبيت المقدس مسجد أقدس ، أو المراد من مكة إلى بيت المقدس ، باعتبار مكة كلها حراماً .	
ليست البركة خاصة به فقط . إنما تشمل ما حوله ، وللعلماء كلام كثير في مدى هذه البركة ونوعها .	} الذي باركنا حوله

لنريه من آياتنا } السرى نفسه آية كبرى ، والتعرف على جلال الله وعلى صور من عظمته آية عظيمة أيضا .
وآيات سورة النجم التى تشير إلى المعراج هى .

يقول المفسرون إن المعنى : وما ينطق بقرآن قط
وما ينطق عن الهوى } من هنده ، ويقول ابن كثير إن المعنى : ما يقول شيئاً عن هوى وغرض .

إن هو إلا وحى يوحى } هو أى القرآن ؛ فالقرآن كله وحى من الله بدون شك ، ويقول ابن كثير إن الرسول يبلغ ما أمير به كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان ، وروى عن الرسول قوله : ما أخبرتكم أنه من عند الله فهو الذى لا شك فيه .

علمه شديد القوى : نقله له جبريل وهو شديد القوى .

ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى } قرب جبريل من الرسول عليه السلام .

فأوحى إلى عبده : فأوحى جبريل إلى عبد الله أى محمد .

ما أوحى : شيئاً عظيماً يستحق الإعجاب .

ولقد رآه نزلة أخرى } لقاء آخر تم بين جبريل وبين سيدنا رسول الله فى السموات العلى عند سدرة المنتهى ، ولهذا روى أن الرسول رأى جبريل على صورته عند سدرة المنتهى } الطبيعية مرتين وهذا التفسير هو ما نميل إليه .

إذ يغشى السدرة ما يغشى : إشارة إلى تجلى الله سبحانه على المكان .

ما زاغ البصر وما طغى : لم يتجاوز البصر حدوده المرسومة له .

لقد رأى من آيات ربه الكبرى : لقد رأى العجائب فى هذه المناسبة ويمكن أن نفترض أن الرسول صلوات الله عليه

قد رأى الأرض كرة ، ورأى القمر معنا بعكس ضوء
الشمس ، وأن هناك مجموعات شمسية أخرى ، ولكن
الباحثين الأقدمين اتجهوا إلى عبارات الوعظ ؛ ورووا
في ذلك أحاديث تذكر أن زرعاً ينمو بسرعة كناية عن
الخير والبركة ، وأن رجلاً يسيل منه الصديد لأنه يكثر من
اللغية والخيبة

وينتج البعض إلى أن الرسول رأى الله جل جلاله . ويروى ابن كثير
أن الرسول مثل عن ذلك فقال: رأيت نوراً ، وفي رواية : رأيتته بفؤادي ،
وتقول السيدة عائشة رضي الله عنها: لم ير الرسول ربه وإنما رأى جبريل
فقط ، وتؤكد أن رؤية الله غير ممكنة لقوله تعالى :

— لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار (١) .

— وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب (٢) .

٣- ونقطة ثالثة هي البراق الذي تقول الرواية إن الرسول انتقل بواسطته ،
وقد وصفه الرواة بأنه حيوان فوق الحمار وتحت الحصان وأنه يضع رجله
عند نهاية بصره وهكذا . . . ، وإن أهيى بالباحثين أن يستبعدوا فكرهم
المادى وهم يتدارسون هذه الأمور التي لا تخضع لقوانين المادة ، وليندكر
الباحثون أن عرش بلقيس نُقِلَ في أقل من لمح البصر ، فلماذا يحتاجون إلى
حيوان كالبراق ؟ بل يتحدون في الحديث عنه فيرون أن جبريل عقب
الوصول إلى بيت المقدس عمد إلى حجر هناك فغزه بأصبعه فثقبه ، ثم
ربط البراق فيه ، واعتقادي أن هذه الروايات موضوعة تأثراً بماديات
الحياة ، ومن الخير أن نعتقد أن الرسول نقل إلى حيث أراد الله بمثل الوسيلة
التي نقل بها عرش بلقيس أو بوسيلة أشرف منها تناسب أشرف الأنبياء .

والله سبحانه يطوى السماء والأرض « يوم نظوى السماء كطى السجل للكتب »^(١) ومن الممكن أن يطوى الله الأرض فيصبح بيت المقدس متصلاً بمكة ، ويخطر محمد خطوة واحدة ، ثم تعود الأرض إلى وضعها الطبيعي فيصبح الرسول بيت المقدس ، والمهم أن وسائل الله سبحانه وتعالى كثيرة لنقل محمد من مكة إلى بيت المقدس في لحظة من الزمان .

٤ - ونقطة رابعة نعرضها أيضاً هي ما يروى عن قصة صعود سيدنا رسول الله مع جبريل إلى السموات العلى ، فالرواية تصور هذا الحادث الجليل تصويراً مادياً محضاً ، وتتصور السماء سقفاً كسقف البيت ، وترى أن جبريل استفتح الباب ، فسئل من الذى يستفتح الباب ؟ فأجاب : أنا جبريل فسئل مرة أخرى : ومن معك ؟ فأجاب : محمد . فسئل ثانياً : هل أذن له ؟ فأجاب نعم ، وهكذا يقف عند كل سماء على هذا النمط حتى يصل إلى مكان لا يستطيع جبريل أن يتقدم إليه ، فيقول جبريل لمحمد : تقدم أنت ، أما أنا فليس لى أن أتقدم خطوة واحدة بعد ذلك

وهذا التصوير مادى محض يؤخذ عليه ما يلى :

أولاً : ليست هناك أبواب صلبة تُدق .

ثانياً : إذا فرض وكانت هناك أبواب فإن الحواجز لاتمنع الملائكة من الرؤيا أو النفاذ ، فلا معنى لقول الملاك الواقف بالباب مَنْ الذى يدق الباب أو من الذى يستفتح ؟

ثالثاً : جبريل يروح ويغدو بالروحى منذ مطلع البشرية ، فهو بالتأكيـد معروف لكل الملائكة ، وهل يوقف أمام الباب كل مرة ؟

رابعاً : السؤال الثانى وهو « من معك » يفهم منه أن الملاك يرى أن شخصاً مع جبريل ، فلماذا لم ير جبريل ؟ وقد أخطأ واضع الحديث وكان عليه أن يقول : هل معك أحد ؟ ولو فعل ذلك لرددناه أيضاً .

وعلى كل حال فإنه عندما يُطلب سيدنا رسول الله لهذا اللقاء السامى فلا بد أن تكون الأوامر قد صدرت لكل من بالطريق ليهيء السبيل لهذا اللقاء ، ولا يقف محمد بهذا النمط الذى تصوره الرواية .

ثم إن الرواية تصور الله جل وعلا كأنه هناك فى مكان يسمى له محمد مع أن القرآن الكريم يقول (وسمع كرسىه السموات والأرض)^(١) ويقول « إني قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان »^(٢) ، ويقول « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم »^(٣) ويقول علماء التوحيد إن الله فى كل مكان أو ينزهونه جل وعلا عن المكان فيقولون إن الله ليس له مكان وعلى هذا فالصورة السابقة مرودودة تماماً بنص القرآن وبحكم الفكر الإسلامى .

والقرآن الكريم يوضح أن القمر فى السموات قال تعالى . (ألم ترؤا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ، وجعل القمر فيهن نوراً)^(٤) .

وقال : (تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقرراً منيراً)^(٥) .

وقد استطاع الرواد الأمريكيون أن يصلوا إلى القمر وأن يهبطوا عليه ، وإننا نتساءل هل وقفوا بشفحتون أبواب السماء ، ومن الذى فتحها لهم ؟

٥ - ونقطة خامسة جديدة بالذكر هى فرض الصلوات الخمس ، والرواية فى هذا الموضوع مادية للغاية فى تقديرى ، فهى تصور موسى فى السماء السادسة والسابعة ، وتصوره يسأل محمداً : ماذا فرض الله عليك وعلى أمتك ؟

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .

(٢) سورة المجادلة الآية السابقة .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .

(٤) سورة نوح : الآيتان ١٥ - ١٦ . (٥) سورة الفرقان : الآية ٦١ .

فيقول : خسون صلاة في اليوم واللبلة . فيقول له موسى : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف . ويستجيب محمد ويعود مرة أخرى وثالثة ورابعة . . على مامراً ذكره .

واعتقادي أن هذه القصة من الإسرائيليات التي ترمى إلى وضع موسى في موضع المعلم لمحمد، وصاحب الفضل على المسلمين، وكأنه أعزف بأمة محمد من محمد ، وقد تسربت رائحة الإسرائيليات من الروايات المتصلة بهذا الموضوع ، فقد جعلت بعض الروايات موسى في السماء السابعة وجعلته يقول عندما رأى محمداً يتخطى السماء السابعة إلى ما فوقها : رب لم أكن أظن أن ترفع عليّ أحداً ، ثم إن الروايات تقسوني تصوير اعتراض موسى لمحمد ليعود إلى ربه ، وعبارتها هي : عندما عاد محمد احتسبه موسى وهو تعبير لا يليق بسيدنا رسول الله .

وكم عانى المفكرون المسلمون من أشياء وضعها الوضع ، وتقبلها بعض المسلمين ، وراحوا يدافعون عنها بحجة متعصدين أن الشك في حديث واحد من أحاديث البخاري أو مسلم يسقط كل أحاديث البخاري أو أحاديث مسلم ، ولست أريد هنا أن أتخوض في دراسة عن الحديث، ولكني وأنا أعزف أن حديث الغرائب والسحر وغيرهما وردت في هذه الكتب المهمة أقرآن هناك أحاديث موضوعة وجدت طريقها إلى البخاري أو مسلم ، ولكنها قليلة جداً ، والحكم بوضعها لا يمس من قريب أو بعيد باقي الأحاديث ، فوجود خطأ أو أخطاء محدودة في أي كتاب من الكتب لا يضيع من قيمته ، وكل كتاب يحتمل فيه الخطأ والدراية ، إلا كتاب الله ، وليس من المعقول أن ترتفع بالبخاري ليصبح من العصمة في درجة تساوي القرآن .

وقد أدرك الإمام أبو حنيفة (١٥٠) في القرن الهجري الثاني أن هناك أحاديث موضوعة ، فبنى فقهه على القرآن الكريم وعلى الرأي . ولم يعتمد على الحديث لخوفه أن يكون موضوعاً ، وسمى مذهبه لذلك مذهب أهل الرأي ^(١) .

(١) دكتور على حسن عبد القادر : نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي من ٢٠٥-٢٠٦

ومن العجيب أننا عندما نحاول أن نفندد الإسرائيليات وننقش منها الفكر الإسلامى يتصدى لنا بعض المسلمين الذين وضعوا أنفسهم حماة للإسرائيليات دون أن يشعروا ، واعتراضنا على القصة السابقة من عدة وجوه :

أولاً - أنها تصور الله سبحانه وتعالى - كموسى - فى وضع مادى بمشى له محمد ويعود لموسى ثم يرجع إليه ، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ثانياً - تصور الله تعالى على غير ما هو معروف عنه من وفرة المنح ومن الكرم العظيم ، ففي تصوره ينقص الخمسين إلى خمس وأربعين ثم ينقصها فى جولة أخرى إلى أربعين ، ثم إلى خمس وثلاثين . . . ونحن نصرخ فى وجهه من يقول هذا القول بأن كرم الله تصوّره آياته « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » (١) و (من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة) (٢) ولا يمكن - إلا فى خيال مادى - أن تتم هذه الصورة ، تعالى الله عن ذلك

ثالثاً - أنها ترمى إلى وضع موسى فى موضع المعلم لمحمد ، ومحمد خاتم الأنبياء وأفضلهم وإمامهم ، ومعلم البشرية والرسول الذى أرسل للناس جميعاً ، وكان عليه السلام حينذاك قد تجاوز الخمسين من عمره .

رابعاً - كيف يتصور العقل محمداً ذاهباً وعائداً عدة مرات ، بناء على طلب موسى ، والابن لا يطيع أباه إلى هذا المدى مهما كان فى ذلك من خير إليه .

واعتقادى أن الصلوات فرضها الله من أول الأمر خمساً فى العمل وخمسين فى الأجر ، أو فرضها خمسين فاستعطفه سيدنا رسول الله فاستجاب الله إليه وجعلها خمساً فى العمل وخمسين فى الأجر .

٦ - ونقطة سادسة وأخيرة هى أن حدث الإسراء والمعراج لم يتخذ معجزة

من معجزات محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن دين الإسلام لا يتخذ الخوارق معجزات ، فهو دين لا ينبى على المعجزات التى تشدهُ العقول وتفهم ، إنما معجزاته هادئة باقية كما وضحتها فى كتابنا « الإسلام » من سلسلة مقارنة الأديان ، والدليل على اتجاه معجزات الإسلام هو قوله تعالى « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون »^(١) ويقول الأستاذ العقاد فى ذلك : والنبي فى الإسلام ليس بصاحب الخوارق والأعاجيب التى تشل العقول ؛ وتهول الضمائر ، وتخطب الناس من حيث يخافون ويعجزون .

ثم إن طبيعة المعجزة أن يظهر التحدى فيها ؛ كالعصا التى يلقها النبي فتصبح ثعباناً يلتقط الأفاعى ، وكإبراء الأكمه والأبرص ، وكالقرآن الكريم ، فهذه معجزات يقدمها الأنبياء دليلاً على صدقهم ، ويتحدون أن يأتى أحد بمثله ، أما إذا قال محمد للمعارضين إئتى أسرى بى وعرج بى ، فما أسر أن يقولوا له : هذا كذب ولا نصدقك ، وعلى فرض أنه طار أمامهم وهم ينظرون إليه فإن ذلك لا يكفيهم ، فقد حكى القرآن الكريم عن قريش الوسائل التى اشترطوها ليؤمنوا به : قال تعالى على لسانهم « لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب تفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ، أو تأتى بالله الملائكة قبيلاً ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل سبحان ربي ، هل كنت إلا بشراً رسولاً »^(٢) .

فحتى الرقى فى السماء لم يكن وحده عندهم كافياً للتصديق بل لابد أن يُنزل من السماء كتاباً ليقرءوه .

(١) سورة الإسراء الآية ٥٩ .

(٢) سورة الإسراء الآيات ٩٠ - ٩٣ .

وعلى هذا فالإسراء والمعراج تكريم للرسول وليس من معجزاته ،
وسنعود فيما بعد للحديث عن « مكرمات الرسول » ونفرق بين المكرمة
وبين المعجزة ؟

* * *

ومن الدروس المهمة المتصلة بالإسراء والمعراج أن الله سبحانه وتعالى
أناح للرسول عليه السلام بها فرصة أن يرى العوالم الكبرى ، فصغرت
بذلك مكة في نفسه ، وما بها من رجال وعتاد ، وماذا تكون مكة ومن
بها بالقياس إلى هذا العالم الفسيح ؟ وإلى صاحب القوة الجبارة التي صنعت
معجزة الإسراء والمعراج ؟

ومن هذه الدروس كذلك وَضَعَ المسلمين قبل الهجرة في بوتقة اختبار
لتنقيتهم من المترددين قبل أن يبدأ الشوط التالي الذي سيكون حافلا بالجهاد
والتضحية بالمال والأهل والوطن بعد الهجرة إلى المدينة .

وَيُعَدُّ الإسراء في التفكير الإسلامي من مكة - حيث بنى إبراهيم
الكعبة ، إلى بيت المقدس حيث دعوة موسى وزكريا ويحيى وعيسى - بمثابة رحلة
تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من إبراهيم إلى محمد ، وبمناطة إعلان
وراثته خاتم الرسل لمقدسات من سبقه من رسل الله ، وأن رسالته
مشملة على هذه المقدسات ، وهذا المعنى هو ما يحسه القارئ في قوله
تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك
وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى) (١) .

ومنذ ذلك التاريخ أحس المسلمون بأن فتح فلسطين ضرورة اقتضتها عناية
الله وتوجيهه ، ليشرف المسلمون على مقدسات الماضي .

تعليق :

كتبت هذه الدراسة عن الإسراء والمعراج منذ حوالي ثمانى عشرة سنة أى فى سنة ١٩٦٣ تقريباً ، ولكنى للحق لم أستطع طبعها فى مكانها من هذا الكتاب إلا فى سنة ١٩٧٣ خوفاً من أولئك الذين يتصدون لكل عمل جديد بالهجوم أو الذين يرون فى القديم كل الخير ، ولا يحبون أن يتعمقوا فى الاطلاع ويُعملوا العقل لخدمة الإسلام والمسلمين .

وانخذتُ وسيلة غير الطباعة لنشر هذه الأفكار ، ومن أهمها وفود الشيوخ من الأئمة والوعاظ الذين تستقدم وزارة الأوقاف كل شهر مجموعة منهم بمعهد الدعاة ، وأشرت فى إلقاء المحاضرات عليهم ، وقدمت لهم هذه الأفكار مع ما قدمت ، فاستراحوا لها ، وقدمت هذه المعلومات كذلك فى محاضراتى العامة والخاصة فلتيت كل ترحيب .

وقد شجعتنى ذلك على وضعها فى مكانها من هذا الكتاب فى طبعته السادسة التى ظهرت فى مطلع سنة ١٩٧٤ وكان المجتمع عند حسن الظن به ، فأحسن استئمال ما كتبتُ ، وسمعتُ وقرأتُ عنها ماجعلنى أطمئن إلى أن العمل الجاد المخلص يلتقى دائماً ما يستحقه من نجاح .

وفى صبيحة الجمعة ٢٣ / ٨ / ١٩٧٤ نشرت الأخبار مقالا لصاحب الفضيلة الأستاذ الجليل عبد الجليل عيسى يتحدث فيه عن بعض نقاط من موضوع الإسراء والمعراج ، ويسير فى نفس الطريق الذى سرت فيه ، وإذا كان فضيلته قد اطلع على كتابى وأيد رأى فهذا فضل الله ، وإذا كان هذا الاتجاه من ابتكار فضيلته وبالتالى مما يسمونه توارد الخواطر ، فهو أيضاً فضل الله ، وأنا هنا أنقل هذه الكلمة التى تؤيدنى وأؤيدها لخدمة الهدف الأسمى ، وهو رفعة الإسلام والمسلمين ، وإزالة خرافات علقت بالفكر الإسلامى عدة قرون ، وفيما يلى نص هذه الكلمة مع عنوانها :

بعيدا عن الشطحات والخيال

البلاغة عند علماء العربية : مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وهى معنى قولهم : لكل مقام مقال ، وقد تمتعت على الله أن يكون حديثنا عن الإسراء والمعراج فى هذه الذكرى المباركة مناسباً للمقام الذى نحن فيه .

وقد انتظرت حتى انتهى أو أوشك أن ينتهى هذا المهرجان الذى احتشد له الخطباء على المنابر ، والكتاب فى الصحف ، والمتحدثون فى الإذاعة والتليفزيون ، فوجدت السواد الأعظم من هؤلاء جميعاً يخطبون بليل ، ويحسمون كل ماصادفهم من غرائب الأحاديث عن الإسراء والمعراج من روايات الإخباريين والقصص التى إن أعجبت العامة وبهرتهم فإنها تقع عند كثير من المثقفين موقع التنزية لمقام الإسراء من هذه الشطحات البعيدة ، وذلك الخيال المجنح .

إن من الحق أن أقرر هنا أن قلة قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة وقفوا بالحديث عن الإسراء عند حدوده التى ينبغى أن يقف عندها كل مسلم ، حين يوضع هذا الحديث فى إطار الآية الكريمة : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير) حيث يتضح أن الإسراء ضيافة خاصة لرسول الله فى رحاب الحق سبحانه وتعالى ، وقد أطلعه مولاه فى هذه الضيافة على عجائب ملكوته ، فكان له من ذلك زاد عتيد يمد به بإمداد القوة والمضاء فى مسير دعوته ، وفى حمل ما يلقاه فيها من أعباء تنوء بحملها الجبال ، وحيث يرى المسلم من الربط بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى فى مسرى الرسول الكريم آية من آيات الله على أن هذين المسجدين أخوان قد آخى بينهما الإسلام وجمعهما فى رحابه ، وأن هذا الإخاء بينهما يدعو المسلمين دعوة صارخة إلى الضرب بكل قوة على أى يد آثمة تحاول التفريق بين ما جمعه الله .

وإذا كان لي من عتب على أولئك الذين أضافوا إلى حديث الإسراء والمعراج من ذيول جرارة ، وما لَوَّنوه بها من ألوان صارخة سواء في ذلك الخطباء والكتاب والمتحدثون ، فإن عتبي شديد على الشيخ محمد متولى الشعراوى الذى أكثر من هذا الحديث في التلفزيون والإذاعة ، ثم لم يكتف بذلك فأخرج هذه الأحاديث في كتاب منشور يقرأه ألوف المسلمين ، وغير المسلمين .

ولو كان الشيخ الشعراوى واحداً من أولئك المتحدثين الذين نمر أحاديثهم دون أن تشد انتباه الكثيرين إليها لكان الأمر ، ولكن الشيخ وراه معجبون كثيرون وكثيرون . ومن هنا يكون الخطر لكلمته في مقام النفع ، أو الضرر على السواء .

وقد كان الشيخ في غنى عن أن يحمل حديث الإسراء والمعراج ما حمله من تقول وخلافات واجتهادات ما كان أغنى حديث الإسراء والمعراج عنها .

ويكنى أن أشير هنا إلى الحديث المروى في صحيح البخارى ، والذي صدر به الشيخ الشعراوى كتابه ، وهو الحديث الذى يشير إلى صعود الرسول الكريم مع جبريل إلى السموات السبع سماء سماء ، وفي كل سماء يستفتح جبريل ، فيقول له الملك : من أنت ؟ فيقول جبريل : أنا جبريل .. فيقول الملك : ومن معك ؟ .. فيقول : محمد .. فيقول الملك : أوقد بعث وأرسل إليه ؟ .. فيقول ، نعم : . فيفتح لها . . وهكذا في كل سماء حتى بلغ السماء السابعة .

ويسأل السائلون هنا : ألا تعرف ملائكة السماء جبريل - وهو طاووس الملائكة - حتى يسأله : من أنت ؟ . ثم ألا يأتونونه على من يدخل معه ؟ .. ثم ألا تعلم الملائكة بأمر مبعث محمد ، وجبريل يغدو ويروح بالوحي إليه منذ مبعثه إلى اليوم الذى أسرى به أو عرج به ؟ .

إن هذه التساؤلات إن وجدت لها تأويلاً مقنعاً عند الشيخ الشعراوى فإنها مع النظرة العميقة للموضوع لا تعطى هذا الاقتناع ، لأن هذا الحديث رغم رواية البخارى له ، قد جاء بسبع روايات في أبواب مختلفة .

وهذه الروايات السبع مختلفة في تحديد عام الإسراء وفي شهره وفي يومه ،
وفي كيفيته وفي المكان الذي جاء الملك إلى النبي فيه ، وفي ربط البراق
بالصخرة ، ومن الذي ربطه ، وكيف ربطه ، وفي مراجعة الرسول لربه في
تخفيف الصلاة .

واختلاف الروايات في حديث بما على هذا النمط ينفي عنه — عند علماء
الحديث — صفة الحديث الصحيح والحسن .

هذا رأي في القضية . . وعلى الله قصد السبيل .

عبد الجليل عيسى

مزيد من الدراسة حول الإسراء والمعراج :

ذلك ما نشره الأستاذ عبد الجليل عيسى وهو رائد إسلامي عظيم ، وقد
حدث أن قابلته عقب ذلك بمؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقد بالرياض في
أكتوبر سنة ١٩٧٦ وتدارسنا هذه المسألة طلباً لمزيد من التفصيل حتى نزيل
الشبهة ونعيد المسلمين للفكر السليم في هذه القضية التي يهتم بها الباحثون
والخطباء كل عام كلما دخل علينا النصف الثاني من شهر رجب ، وقد
جلس معنا بالرياض بعض العلماء والباحثين وحضروا هذه المداورة .

وقد سألت فضيلة الأستاذ عبد الجليل عيسى مزيداً من التفصيل عن حديث
الإسراء والمعراج وسألته عن قوله : إن الاختلافات الواسعة في روايات
هذا الحديث البخاري تجعله لا يدخل في نطاق الحديث الصحيح أو الحسن ؟
فأجاب سيادته : إن روايات البخاري متعددة ومختلفة في تحديد المكان الذي
ابتدأ منه الإسراء ، ومختلفة في تحديد زمانه ، وغير ذلك من وجوه الاختلاف
فعن المكان تقول إحدى الروايات إن الرسول صلوات الله عليه قال : بينما
كنت في المسجد ، وفي رواية أخرى : بينما كنت نائماً في دار أم هانئ ،

وفى ره اية ثالثة إن رحلة الإسراء بدأت من بيت عائشة ، وأن عائشة قالت إن مضجع الرسول لم يبرد لسرعة عودة الرسول إليه .

أما اختلاف الزمان فواسع جداً حتى لا يوجد عندنا تاريخ محدد بدقة أو بوجه التقريب لهذا الحدث الجلل . واختلاف الروايات هكذا فى المكان والزمان يجعل الحديث لا يدخل فى نطاق الحديث الصحيح أو الحسن كما يقول علماء مصطلح الحديث .

وفى الحديث كذلك أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) صلى بالأنبياء فى بيت المقدس ، والمعروف إسلامياً أنه لا عبادة بعد الموت ، وهناك حديث صحيح يقول : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم نافع ، أو ولد صالح يدعو له ، والأنبياء هم من بنى آدم ، وقد انقطع عملهم بوفاتهم إلا من هذه الأشياء الثلاثة ، وعلى هذا فلا معنى لتصوير الأنبياء يصلون خلف الرسول .

وفى الحديث روايات مختلفة عن أمكنة الأنبياء فى السموات ، فمن منهم فى السماء الأولى ؟ ومن فى الثانية ؟ . . . خلاف ظاهر ، مع أنه لا ضرورة على الإطلاق لوجودهم فى أى منها ، فمن المحقق أنهم ماتوا ودفنوا ، وأن أرواحهم عند الله ، والروح كائن نورانى ، ولا يعلم كنهها إلا الله ، والجسد قد اختفى تماماً فى الأرض ، ومع قدرة الله على إحياء الأنبياء لاستقبال الرسول . . . فلا داعى للقول بذلك على الإطلاق .

ومسألة تخفيف الصلوات فيها روايات متعددة ، فهناك رواية ترى أن الرسول عند ما طلب التخفيف أسقط الله سبحانه وتعالى نصف الخمسين فى المرة الأولى ، وفى المرة الثانية أسقط نصف النصف الباقى ، وهناك رواية تقول إن الله أسقط عشرأً فعشرأً أربع مرات ثم أسقط خمساً ، وهناك رواية تقول إن الله أسقط خمساً فى كل مرة ، واختلاف الروايات هكذا بشكك فى صحة الحديث .

والرواية تقول إن جبريل دقّ للباب فسئل : من ؟ فأجاب : أنا جبريل .
ومما يدعو للدهشة أن يوجه هذا السؤال لجبريل وهو طاووس الملائكة ، يروح
ويجىء عدة مرات حاملاً آيات القرآن للرسول عليه السلام وتوجيهات الله
لرسله من قبل ، وطبعاً هو معروف للملائكة ، ثم إن جبريل والملائكة
لا تقف الأبواب حائلة أمام رؤيائهم . ولا يحتاج الملاك الموكل بالباب - على
فرض وجود باب - إلى هذا السؤال ، لأنه يرى من هو خاف الباب ،
ثم تقول الرواية إن الملاك عاد فسأل جبريل قائلاً : من معك ؟ ومعنى
هذا أنه رأى شخصاً مع جبريل فلماذا لم ير جبريل ؟ وكان عليه أن يقول :
هل معك أحد ؟ وإن كان هذا أيضاً ليس سؤالاً عادياً فلا يمكن أن يتعرض
جبريل لهذا السؤال في كل مرة يمر بها .

ونقول الرواية أيضاً إن جبريل قال للملاك : هذا محمد . فسأله الملاك :
هل أذن له ؟ وفي رواية ، أو بعث ؟ وهي أسئلة لا تليق من إنسان عادى
فما بالك بالملائكة المقربين . فلا يمكن أن يتجه الرسول هذه الوجهة في
المعراج بدون إذن ، ولا يمكن القول بأن الملائكة لا يعرفون أنه قد بعث .

(انتهى كلام الشيخ عبد الجليل)

خلاصة

١ - الإسراء والمعراج حادثان عظيمان ، واعتقادى أنهما ثبتا بالقرآن الكريم ،
وأنهما حلقة بالروح والجسد .

٢ - في الإسراء ربطاً بين عقائد الديانات السماوية التي كانت باقية عند ذلك
العهد والتي لا تزال باقية حتى الآن ، وبالتالي في الإسراء إعلان ورائة
الإسلام لهذه الديانات .

٣ - وفي المعراج بعد عن الأرض التي غمرتها الخطايا منذ مطلع البشرية
- عندما قتل أحد أبناء آدم أخاه - حتى الآن حيث لا يزال
بالأرض مظالم كثيرة ، مثل سفك الدماء البريئة ، وهناك بعيداً عن هذه
الأرض ، عند سدرة المنتهى ، تجلى الله على رسوله ﷺ إذ يغشى

السدرة ما يغشى ، وأيسرُ معنى نذكره للتجلى هو أن يحس الإنسان أنه في حضرة الله تعالى ، ونستطيع أن نذكر مقارنة بين هذا الحديث وبين حديث آخر مشابه يرويه القرآن الكريم ، قال تعالى يحكى كلام موسى ونتأججه : « رب أرني أنظر إليك » ، قال : « لن تراني » ، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلّى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقاً ، فإما أفاق قال سبحانك تبت إليك ، والفرق بين التجلى هنا وهناك أن موسى عليه السلام هو الذى طلب الرؤية ، فالتجلى استجابة للطلب ، والمقصود هو التدليل على وجود الله وعظمته ، وأن الجبل نفسه لا يحتمل أن يتجلّى عليه الله ، وفي هذا إقناع لموسى ، وقد اقنع فعلاً ، أمّا التجلى في المعراج فمنحة من الله لم يطلبها محمد ، ولذا كان رخاءاً ويمناً وبركة وآيات كبرى ، والآية الكريمة : « إذ يغشى السدرة ما يغشى » تشير إلى جلال التجلى في هذا المكان الذى اختاره الله ليتجلى على الرسول فيه .

٤ - ... وعلى هذا فموضوع الإسراء والمعراج لاشك عندي فيه ، ويتحتم على كل مسلم الإيمان به . وبهذا تتفق فيه الدراسات .

٥ - أما مواضع الخلاف فهي تفاصيل تذكرها بعض النصوص التى أشرنا إليها ، ويدعى البعض أنها أحاديث للرسول ، وذلك مالا يقبله أفذاذ العلماء ، وقد تدارس العلامة الشيخ عبد الجليل عيسى عضو جماعة كبار العلماء هذه النصوص وقرر أنها ليست من الأحاديث الصحيحة أو الحسنة ، وعلى كل حال فالكلام عن هذه النصوص ينقلنا من الحديث عن الإسراء والمعراج إلى حديث عن مدى قدسية ما دونه الإمام البخارى .

٦ - وأقرر إجلالى التام لأحاديث الرسول صلوات الله عليه ، وقد انتفعت بالملئات والآلاف منها في دراساتي المختلفة وبخاصة في الحضارة الإسلامية .

٧ - ولكن هل كل ما ورد في البخارى هو فعلاً من كلام الرسول صلوات الله عليه بدون شك ؟ إننا لم نقلنا بذلك فإننا نضع البخارى في مستوى

القرآن الكريم ، فالقرآن الكريم هو وحده الذى أنزله الله وحفظه ،
وتعهد ألا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وقد أجمع العلماء على أن صحيح البخارى هو أصح كتاب بعد
كتاب الله ، وليس مثل كتاب الله ، وهذا الإجماع يتيح لنا الفرصة أن
نفكر فى الأحاديث الواردة بالبخارى وفى غيره من كتب الصحاح
لنستبعد منها ما لا يتفق مع القرآن الكريم ، ومع المبادئ الإسلامية
المسلم بها ، وذلك كحديث الغرانيق والسحر والمسيخ الدجال ، وبعض
أحاديث الإسراء والمعراج وغيرها مما سنشير إليه فيما بعد .

٨ - واستبعاد هذه النصوص يحى على اعتقاد أنها ليست ثابتة الصلة
بالرسول ، فقد تكون من أخطاء الإمام البخارى ، والإمام البخارى
ليس معصوماً ، أو تكون دُست عليه بعد وفاته ، ويقول بعض
المتسرعين إننا لو شككنا فى حديث مما رواه البخارى فإننا نعرض كل
أحاديث البخارى للتشكيك ، واعتقادى أن وُضَاع الأحاديث هم الذين
قالوا هذا القول ، ليحرسوا ما وضعوه من نصوص نسبوها للرسول ،
والحق أن إخراج فكرة خاطئة من كتاب ، تجعله أعظم قدراً ،
وتقرُّبه من الكمال .

٩ - وهناك كثيرون من الأئمة السابقين ناقشوا البخارى ، ولم يعترفوا
بنقدس عمله ، ومن هؤلاء :

- (أ) الجياني فى كتابه : الأوهام الواقعة فى صحيح البخارى .
- (ب) ابن عبد البر فى كتابه : الأجوبة المرعية عن المسائل
المستغربة من البخارى .
- (ج) البلقيني فى كتابه : الإفهام بما وقع فى البخارى من الإبهام .
- (د) ابن خلف فى كتابه : التعديل والتجريح لرجال البخارى .
- (هـ) العاملى فى كتابه : الكشكول .

وفي ص ٣١١ من الكتاب الأخير يقول العامل : كنت أناقش أحد العلماء في موضوع ، فأردت الاحتجاج بحديث من صحيح البخارى فظعن هذا العالم في صحيح البخارى وقال : البخارى لا يوثق بكل ما فيه من الأحاديث . فقلت له : الأحاديث الضعيفة في صحيح البخارى حوالى ستين حديثاً .

فهذا اتفاق بين عالمين على ردّ وتضعيف بعض أحاديث البخارى .

١٠ - ويتجه العلماء إلى مناقشة كبار الأئمة الذين سبقوا البخارى . وعُرفَ فضلهم في مجال الدراسات الإسلامية كالإمام أبى حنيفة (١٥٠ هـ) والإمام مالك (١٧٩ هـ) والإمام الشافعى (٢٠٤ هـ) والإمام أحمد بن حنبل (٢٤١ هـ) . فلماذا لا تناقش البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ هـ .

وكان أبو جعفر الطحاوى إماماً للحنفية في مصر ، وكان في الوقت نفسه من كبار علماء الشافعية ، فقد تفقّه على خاله « المزنى » ، صاحب الشافعى . وقد استفاد من جمعه بين المذهبين ، وكان ينقد الحديث نقد معنّى وإن صحّ السند في نظر المحدثين .

١١ - نشر مجموعة من الأساتذة عدة مقالات في الصحف (الأخبار في ٧٦/١٢/١٨ ، ٧٧/١٢/٣٠) وأوردوا نماذج مما رواه البخارى ولا يقبله عقل سليم ، ومن ذلك :

(أ) أن موسى عندما جاءه ملك الموت لقبض روحه صكه ففقا عينه .

وملك الموت مرسل من عند الله ، وطبيعى أن يحترم موسى ملك الموت فهو رسول من الله ، وليس الملك الموت عيناً تفقأ .

(ب) أن الحجر هرب بملابس موسى عندما نزل ليستم .

(ج) أن إبراهيم كذب ثلاث كذبات منها كذبتان في ذات الله .

(د) أن سليمان أقسم أن يطوف في ليلة واحدة على تسعين امرأة من نسائه ، وأن كلا منهن مستحمل بفارس . فقال له صاحبه : قل « إن شاء الله » فلم يقل .

(هـ) أن الرسول رأى في السماء الدنيا « أى الأولى » نهريْن بطرْدان ، فقال لجبريل : ما هذان النهران يا جبريل ؟ فأجابه جبريل : هما النيل والفرات .

(و) أن موسى احتبس محمداً ، وقال له : أمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً ، فارجم إلى ربك فاسأله التخفيف .

وهكذا تحشدت هذه الرواية أوصافاً قاسية لأمة محمد ، وهى أوصاف لا تطابق الواقع ، ولا يمكن أن يقال عن خير أمة أخرجت للناس ، وعن الأمة التى جعلها الله أمة وسطاً . (آل عمران ١١٠ والبقرة ١٤٣) .

١٢ - لمباحة العلامة الشيخ عبد العزيز بن باز رئيس إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية دراسة عن الإسراء والمعراج ، وعن رفض القول بخروج أجسام الأنبياء من قبورهم بعد دفنها .

وقد وردت هذه الدراسة في كتابه « التحذير من البدع » ، وهذا العلامة يقول عن الإسراء والمعراج ما يلى : تواتر عن رسول الله ﷺ ، أنه أُعْرج به إلى السموات ، وفتحت له أبوابها حتى جاوز السماء السابعة ، ففرض الله عليه الصارات الخمس ، وكان الله سبحانه وتعالى قد فرضها أولاً خمسين صلاة ، فسأله الرسول التخفيف ، فجعلها خمساً فى الفرض وخمسين فى الأجر لأن الحسنه بعشرة أمثالها (ص ٧) .

وهكذا لم يذكر الإمام ابن باز دقُّ الأبواب ولا أن الرسول صلى بالأنبياء فى بيت المقدس ، ولا أن أنبياء الله كان كل منهم فى سماء من السموات ، ولا أن موسى احتبس محمداً صلوات الله عليه ، وردّه إلى ربه عدة مرات . أحسن الله للإمام ونفع به ،

وعن البعث بعد الموت والدفن ، تعرّض الإمام ابن باز لهذا الأمر بكثير من التفاصيل ، فقال ص ٦ من الكتاب المذكور ما يلى :

ادّعى بعض الجهلاء أن الرسول محمداً صلوات الله عليه يحضر بعض الموالد والمناسبات ، وهذا من أعظم الباطل وأقبح الجهل ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يخرج من قبره قبل يوم القيامة ، ولا يتصل بأحد من الناس ، بل هو مقيم في قبره إلى يوم القيامة ؛ وروحه في أعلى عليين عند ربه في دار الكرامة كما قال تعالى في سورة « المؤمنون » : (ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » . وقال عليه الصلاة والسلام : أنا أول من ينشق عنه القبر يوم القيامة . فهذه الآية الكريمة وهذا الحديث الشريف ، وما جاء في معناه من الآيات والأحاديث كلها تدلُّ على أن النبي صلى الله عليه وسلم وغيره من الأموات إنما يخرجون من قبورهم يوم القيامة ، وهذا أمر مجمع عليه بين علماء المسلمين ليس فيه نزاع بينهم . فينبغي لكل مسلم التنبيه لهذه الأمور ، والحذر مما أحسنه الجهال وأشباههم من البدع والخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان .

وهكذا أثبت العلامة ابن باز أنه بعسد الموت والدفن لا يخرج إنسان من قبره قبل يوم القيامة ، واستدل فضيلته بالآية والحديث وعُدَّ من يقول بغير ذلك بأنه في عداد الجهال ومخترق البدع والخرافات ؛ وذكر عن روح محمد وأمثاله من الأنبياء أنها في أعلى عليين في دار الكرامة ، ولا يجوز لنا أن نحرك الروح ؛ ولا أن نروى عنها بعد قوله تعالى « ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي » .

• • •

وعلى هذا ينبغي أن تسكت الألسنة التي تحشد أنبياء الله في بيت المقدس ، وتوقف كل واحد منهم في سماء من السموات ، أو تضيع موسى في موضع المعلم المرشد بالنسبة لمحمد خاتم الأنبياء وأشرفهم ، وكل ما يقال عن ذلك هو من الإسرائيليات التي ضاقت بأن يكون لمحمد هذه المكانة المنفردة عند الله ، فراحت تخلق هذه الروايات ليشارك موسى وغيره في هذا التكريم .

الاسلام فى يثرب

دخول الإسلام بـثرب وظروفه والعوامل التى ساعدته :

بدأت بذور النجاح تظهر فى يثرب ، وبدأ الأمل يعقد على أن يثرب ستكون المدينة التى يتفجر منها ضوء الإسلام وينتشر على الأرض .

والحقيقة أنه كان لعرب يثرب ظروف خاصة خلقت منهم استعداداً لتقبل الإسلام والدخول فيه ؛ لقد كانت يثرب ملتقى طائفتين مهمتين إحداهما قادية من الشمال وهى اليهود ، والأخرى مهاجرة من الجنوب وهى قبائل عربية أهمها الأوس والخزرج ، والتقاء هاتين الطائفتين فى يثرب أنتج العوامل الآتية :

أولاً — كان عرب يثرب أقرب العرب إلى الأديان السماوية لكثرة ما سمعوا من اليهود عن الله والوحى ، وعن البعث والحساب ، والجنة والنار ، ونحو ذلك .

ثانياً — ما ذكره ابن هشام^(١) من أنه كان هناك عداًء يكاد يكون متصلاً بين العرب واليهود ، وكان العرب إذا انتصروا على اليهود قال اليهود : إنه تقارب زمان نبي يبعث كما نجد فى كتبنا ، فإذا بعث أئمتنا وقوتنا به عليكم ونقتلكم بعونه قتل عاد وإرم^(٢) ويصور القرآن الكريم ذلك بقوله : « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به »^(٣) .

(١) ج ٢ ص ٢٨ .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد ٢ :

١١ : الآلة ٨٩ .

ثالثاً - كان هناك خلاف وحروب بين الأوس والخزرج ، وكانت كل منهما تسعى لتجد من تتعاقد معه لتقوى به على الأخرى ، ومن أشهر الحروب التي وقعت بين الأوس والخزرج تلك الحرب المعروفة بيوم بعاث وقد حدثت قبل الهجرة بسنوات قليلة^(١) .

لهذه الأسباب اعتنق الأوس والخزرج الإسلام ، بل سارعوا إليه ، حتى لا يسبقهم اليهود ؛ وسارعت الأوس حتى لا يسبقها الخزرج ، كما سارعت الخزرج حتى لا يسبقها الأوس .

وقد مر إسلام الأوس والخزرج خلال مراحل ثلاثة^(٢) :

١ - في السنة الحادية عشرة للبعثة قدم نفر من الخزرج يريدون الحج ، فاستقبلهم الرسول وتعرف إليهم ، وجلس معهم عند العقبة^(٣) . وتحدث إليهم ودعاهم إلى الله . فقالوا له : إنا قد تركنا قومنا وبينهم من العداوة والشر ما بينهم ؛ وعسى أن يجمعهم الله بك ، وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك لعل الله أن يجمعهم عليك ، فلما عادوا إلى يثرب ونقلوا لقومهم الدعوة الجديدة دخل كثيرون في الدين الجديد ، ولم تبق دار من دور العرب في يثرب إلا وقد دخلها ذكر الرسول وتحدثت عنه^(٤) .

٢ - في السنة الثانية عشرة للبعثة تمت بيعة النساء أو بيعة العقبة الأولى وسميت بيعة النساء لوجود امرأة هي عفراء بنت عبيد بن ثعلبة بها ، وسميت بيعة العقبة لحدوثها عند العقبة .

(١) الأغاني ج ٢ ص ١٦٢ .

(٢) انظر تفصيل هذه المراحل في زاد المعاد ١ : ٢٥ و ٢ : ٥٠ - ٥١ .

(٣) العقبة بين منى ومكة عند . وقع رمى الجمرات .

(٤) ابن هشام ١ : ٢٦٧ .

وقصة هذه البيعة أن اثني عشر رجلاً ومعهم المرأة السابقة قدموا على رسول الله واجتمعوا به عند العقبة وبأيعوه ، قال عبادة بن الصامت كنت فيمن حضر بيعة العقبة ، وقد بايعنا الرسول على ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نتخذ أولادنا ، ولا نأثني بيهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصاه في معروف . (١)

وقد أرسل الرسول مع هؤلاء مصعب بن عمير يُقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويؤمهم في الصلاة ، وقد نشط مصعب في الدعوة للإسلام في يثرب ، حتى دخله القادة والرؤساء (٢) كما سنرى ذلك عند الحديث عن الدعاة الذين رباهم الرسول .

٣ - في السنة الثالثة عشرة للبيعة تمت بيعة العقبة الثانية ، وحديث ذلك أن ثلاثة وسبعين شخصاً من يثرب قدموا إلى مكة وقد عزموا على أن يدعوا الرسول للهجرة إلى يثرب وبأيعوه على أنه نبهم وزعيمهم .

وقد اجتمع هؤلاء بالرسول عند العقبة أيضاً . وكان مع الرسول عمه العباس وكان لم يعلن إسلامه بعد . فلما جلسوا كان العباس أول من تكلم قال : يا معشر الخزرج إن محمداً منا كما علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، فهو في عز من قومه وممنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز لكم والحق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافرون له بما دعوتوه إليه وما منعوه من خالفه فأنتم وما تحملتم في ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه فمن الآن فدعوه .

قال زعيم وفد يثرب . قد سمعنا ما قلت يا عباس . فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ، فتكلم الرسول وتلا آيات من القرآن الكريم ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأولادكم . فبايعوه على ذلك

(١) ابن هشام ١ : ٢٦٨ .

(٢) المزیج السابق ١ : ٢٦٩ .

وأضافوا أنهم يبايعونه على هلاك الأموال ، وقتل الأشراف ، والاحتمال
في كل الأحوال (١) .

ويروى عبادة بن الصامت وكان أحد النقباء نص البيعة قال : بايعنا
رسول الله على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ، ومنشطنا ومكرهنا وإيثاره
علينا ، وألا تنازع الأمر أهله ، وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله
لومة لائم (٢) .

هجرة المسلمين إلى يثرب :

عندما ظهرت تبشير النجاح في يثرب أمر الرسول أتباعه بالهجرة إليها
فراراً بدينهم من ظلم قريش ، والتجاء إلى المسلمين الجدد بهذه المدينة ، وقد
ندفع المسلمون عقب ذلك مهاجرين إلى المدينة إذ كانت الهجرة إليها أيسر
بكثير من الهجرة للحبشة ، كانت هجرة لأرض عربية ولقوم مسلمين ،
ولم يكن هناك بحر في طريقهم .

وكانت الهجرة ليثرب ، سرّاً غابراً قد هاجر طلحة بن عبيد الله وصهيب بن سنان
الرومي معاً ، وكان صهيب ذا مال ، فاتبعته قريش ليقتلوه وليأخذوا ماله ، فلما
أشرفوا عليه ونظر منهم ونظروا منه قال لهم : قد تعلمون أنني من أربابكم رجلاً
ورأيت لا تنسلون إلى أربابكم منكم عدد كبير ، فأتروني وشأنى . قالوا : فأتوك
مالك . فأتى إليهم ما كان معه من مال : ودلهم على ماله بمكة ليأخذوه ،
وأعطاهم دليلاً على ذلك ، فانصرفوا عنه إلى مكة ، ونزلت فيه الآية الكريمة
« ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد » (٣) .

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٣١١ .

(٣) ابن عبد البر : الدرر في اختصار المغازي والسير ص ٨٣ والآية رقم ٢٠٧

سورة البقرة .

وقد حاولت قريش بمختلف الوسائل أن تمنع من استطاعت منعه من الهجرة ، وبلغت في ذلك أنها كانت تحول بين الزوج وزوجته ، وكانت تحبس من تستطيع حبسه ممن تخشى هربه ؛ ورغم هذا أفلت كثيرون من قريش ، ودخلوا يثرب ، وقد هاجر عمر بن الخطاب علانية بعد أن تحدى قريشاً ، صرخ فيهم قائلاً : من أراد أن تشكله أمه . أو يتيم ولده ، أو ترمل زوجته ، فليلقني وراء هذا الوادي . . . فلم يتبعه أحد (١) :

وكان أبو بكر يستأذن في الهجرة إلى يثرب فيقول له الرسول : لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً ، أما عليّ فيبدو أنه لم يخطر له أن يهاجر ويدع الرسول بمكة .

الهجرة

المؤامرة والأذن للرسول بالهجرة إلى يثرب :

انزعجت قريش من هجرة المسلمين إلى يثرب ، وخافت أن ينضم محمد إلى أتباعه بها وأن يقيم له مركزاً حصيناً هناك ، وفي هذه الحالة لا تكون المسألة مسألة دين فقط ، بل ستكون مسألة اقتصادية أيضاً ، ربما ترتب عليها ضياع التجارة وخراب البيوت ، فيثرب تقع في الطريق بين مكة والشام وإذا كانت معادية لقريش تعرضت تجارة قريش إلى الضياع والخسران ، ومن هنا وجدوا أنه لا مناص من أن يعملوا شيئاً هاماً ويخطوا خطوة حاسمة ، لعلهم يقضون على هذا الدين الذي أصبح خطراً على أديانهم وعلى أرزاقهم .

ماذا يعملون ؟

اجتمعوا وتشاوروا في الأمر ، وقص الله قصتهم في كلامه العزيز :

(١) الرياض النضرة في مناقب العشرة ج ١ ص ٢٥٩ .

قال الله تعالى : وإذا عَمَرِكُمْ الذِّينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ
أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَعْمَكُونَ وَعِمَكِرَ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (١) .

وكان إمام قریش أن يسلكوا حلا من هذه الحلول الثلاثة التي وردت
في الآية : هل يحبسون محمداً ؟ لا ، فإن أهله لابد سيقاتلون دونه
ويطلقونه .

هل يخرجونه من ديارهم فيذهب بعيداً عنهم ؟ لا ، فلا بد أنه سيتجه
إلى يثرب وفي هذا قضاء على تجارتهم وثرواتهم .

لم يبق إلا أن يقتلوه . ولكن كيف يقتلونه وأهله سيقتلون من
يقتله ؟ لقد وجد لهم أبو جهل لذلك حلاً هو أن يختاروا من كل قبيلة شاباً
جلداً ، وأن يشترك هؤلاء الشبان في قتله ، فتتوزع دماؤه بين العرب
فلا يستطيع بنو عبد مناف أن يثأروا له من الجميع ، ولا يجدون بداً
من قبول الدية (٢) .

ذلك رأى وجدوه سليماً ، فأخذوا يعدون له العدة ، وفي إحدى الليالي عرفوا
أن محمداً أوى لبيته ، فأطلقوا شبانهم ليحيطوا بالبيت وينظروا حتى يهدأ
الناس فينقضوا عليه ويقتلوه .

وبلغ الله الرسول حديث القوم وتآمرهم ، وأذن له بالهجرة إلى
يثرب (٣) : وكان الرسول يحس بكثير من الوحشة بمكة بعد هجرة
أصحابه ، ولذلك سُرَّ الرسول بهذا الإذن ، وأخبر به أبا بكر ، وطلب
أبو بكر من الرسول أن يأذن له في أن يصحبه في هذه الرحلة التاريخية فأذن
له ، وحينئذ أخذ أبو بكر يعد العدة للرحلة ، وأمر الرسول علياً أن يبيت

(١) سورة الأنفال الآية ٣٠ .

(٢) ابن هشام ١٠١ : ٣٩١ وابن القيم ٢ : ٥٢ .

(٣) ابن هشام ج ٢ ص ٢ .

في مكانه ليوهم القوم أنه في فراشه ، ثم ليرد في اليوم التالي الودائع التي كانت عند الرسول لأصحابها^(١) ثم نثر الرسول على الشبان تراباً من يده وقال : شامت الوجوه ، فمرتهم غشاوة لحظة خرج فيها الرسول دون أن يروه ، وصدق الله العظيم الذي يقول : فأغشيناهم فهم لا يبصرون .

الرحلة من مكة الى يثرب :

سبق أن قلنا إن أبا بكر أعد العدة للقيام بهذه الرحلة التاريخية ، وكان أبو بكر كالعهد به كريماً وفيماً مخلصاً ، فسخر للهجرة كل شيء يملكه أو يشرف عليه .

أعد راحلتين ودفعهما إلى عبد الله بن أريقط ليركبهما الرجلان العظيمان في رحلتهم البعيدة ، وخاطر أبو بكر بنفسه فصحب الرسول مع علمه أن قريشاً ستبعهما وتتهم بالحصول عليهما ، وأمر ابنه عبد الله أن يتسمع لما تقوله قريش عن الرسول ورقيقه هاراً ثم يأتيهما ليلاً بما يكون في ذلك من الخبر ، وأمر عامر بن فهيرة موله أن يرعى الغنم نهاره ثم يذهب بالغنم ليلاً إلى جبل ثور حيث سيختفي الرسول والصديق ليحتلب لهما ما يحتاجانه من اللبن ، وكلف ابنته أسماء أن تأتيهما كل مساء بما يحتاجان له من الطعام والشراب ، وحمل أبو بكر ماله كله ليكون عوناً للرفيقين في هذه الرحلة النائية^(٢) .

أما سير الرحلة فقد وصفه ابن هشام بقوله : جاء الرسول متعظياً إلى دار أبي بكر ، ثم خرجا من نخوة (فتحة صغيرة) في ظهر بيته ، ولما غادرا مكة وقف الرسول وتطلع إليها وقال : والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت^(٣) . واتجه الرسول وصاحبه إلى جبل ثور بأسفل مكة ، وعمدا إلى غار في ذلك الجبل فدخلاه واختفيا فيه .

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٣ .

(٢) ابن هشام ج ٢ : ص ٤ وابن القيم ج ٢ ص ٥٣ .

(٣) رواء الترمذي والنسائي . انظر كذلك زاد المعاد ج ١ ص ٨ .

وقفة عند غار ثور :

يقع جبل ثور على بعد حوالى خمسة كيلو مترات جنوب مكة المكرمة :
وقد سبق أن تحدثنا عن غار حراء وعن المشقة التى لاقيناها ونحن نصعد
الجبل للوصول إلى هذا الغار ، ويمكن القول إن الصعود إلى غار ثور أشق
وأصعب ، فهو جبل كثير القمم ، وللوصول إلى غار ثور يتحتم أن يصعد
الإنسان إلى قمة من قمم الجبل ، ثم ينحدر بضع عشرات من الأمتار ، ثم يصعد
ثانياً قمة أخرى من قمم الجبل ثم يعود للانحدار ، وهكذا عدة مرات إلى
أن يصل إلى القمة التى يقع فيها الغار الذى اختبأ فيه الرسول وصاحبه .

وفى جبل حراء ليس هناك إلا غار واحد هو غار حراء . أما فى جبل
ثور فهناك عديد من الغيران (جمع غار) وهذا جعل من الصعب البحث فى
كل غار عن محمد وصاحبه لكثرتها وانتشارها هنا وهناك ، وربما بحث قریش
فى غار وآخر وثالث ... ثم توقفت لكثرة الغيران وللإحساس بعدم جدوى
البحث فيها .

وإذا كان غار حراء يناسب التجبد فإن غار ثور يناسب الاختفاء ، فهو أشبه
بكهف منحوت فى الصخر مع فتحة صغيرة أمامية وفتحة صغيرة خلفية ،
وتقع الفتحتان إلى أسفل ، ولا يدخله الداخل إلا زاحفاً أو منحنياً ، أما صخرة
السقف فهلالية تشبه المظلة (الشمسية) ، وليست هناك فتحات جانبية مما يجعل
الماشى يحوار الغار لا يرى مَن بداخله ، وطالما تذكرت قول الرسول وهو
يصف الغار بأن الواحد من الأعداء لو نظر مكان قدميه لرآنا^(١) : فمن الداخل
يرى أقدام الماشين فى الخارج ، أما الباحثون بالخارج فلا يرون مَن بالداخل
إلا إذا انحنوا ووضعوا رؤوسهم مكان أقدامهم :

(١) صحيح البخارى رواية أنس .

وجعل ثور في موقع يناسب حال الاختفاء من ناحية أخرى ، هي أنه
يرجد في سفحه سهل به بعض المراعى مما يتيح لعامرين فهيرة أن برعى غنم
أبى بكر غير بعيد عن الغار حتى يستطيع أن يصعد للغار ليلا يحمل ألبان
الأغنام للرسول وصاحبه .

* * *

هذا ما كان من أمر محمد وأبى بكر ، أما كفار قريش فسرعان
ما عرفوا حيلة محمد ، وأدركوا أنه فر من مكة واعتقدوا أنه أخذ طريقه
إلى يثرب ، فأعلنوا أن من يأتيهم به حياً أو ميتاً له مكافأة قدرها مائة
ناقة ، وأسفر العداء ، وانتشر شبان قريش في الطريق من مكة إلى المدينة
محاوّلون الظفر بالجائزة وبشرف القبض على عدوهم اللدود ، ووصل بعضهم
في البحث إلى الغار حيث يختفى محمد وصاحبه ، وصاروا يبحث لو نظر
أحدهم تحت قدمه لرآهما ، وقد أحسن أبو بكر بالخوف عند ذلك ، لآعلى
نفسه ، ولكن على صاحبه وعلى الحق ، ولكن الرسول طمأنه وهذا خوفه
وقال له : ماظنك يا أبا بكر في اثنين الله ثالثهما ؟ وقد حكى القرآن
الكريم ذلك في الآية الكريمة « لا تنصروه فقد نصره الله ؛ إذ أخرجه الذين
كفروا ثانی اثنين إذهما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا . فأنزل
الله سكينة عليه وأيده بمجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى . وكلمة
الله هي العليا . والله عزيز حكيم » (١) .

ويروى أن العنكبوت نسج خيوطه على فتحة الغار ، وباض الحمام ،
وكان الله أراد أن يسخر من القوم فسخر أضعف الأشياء لتحمى محمداً
منهم .

وبعد أن هدأت قريش وظنوا أن الرسول قد وصل إلى يثرب ، بدأ
الرسول يخرج من الغار مع صاحبه ، وكان عبد الله بن أريقط قد قدم في

(١) سورة التوبة الآية ٤٠ .

الموعد المحدد ، فركبا وسار بهما عبد الله في طريق غير مطروق بالقرب من ساحل البحر الأحمر .

ويروى أن أبا بكر في رحلة الهجرة كان يسبق الرسول مرة ويتبعه مرة أخرى : فسأله الرسول عن ذلك فقال . يا رسول الله . أذكر التردد فأسبقك ، وأذكر الطلب فأتبعك (١) .

يثرب تستقبل الرسول :

أما أهل يثرب فكانوا قد عرفوا أن الرسول قد خرج متجهاً إليهم ، وأخذوا ينتظرون ، ولم يظنوا أنه عرج على الغار ، فلما مرت الفترة اللازمة من الوقت للرحلة من مكة إلى يثرب ولم يصل الرسول ؛ بدأ على مسلمي يثرب شيء من القلق والخوف ، وأخذوا يصعدون أعلى الأماكن المحيطة بيثرب وينظرون لعلهم يرون ركب الرسول ، وظلوا كذلك حتى أطل عليهم وهم في أشد الشوق واللهفة .

ويروى البخاري بسنده إلى البراء بن عازب قال : مارأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله . وروى أبو داود عن أنس قال : لما قدم النبي المدينة لعبت الحبشة بحراهم فرحوا بقدومه وأشرقت المدينة بجلوله فيها وسرى السرور إلى القلوب .

وعنه أيضاً قال : شهدت يوم دخول النبي المدينة فلم أر يوماً أحسن منه ولا أضوأ ، ولقد سعدت ذوات الخدود على الأجاجير (الأسطحة) عند قدومه يقلن تهنئة له حال دخوله :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع^(١)

وكان دخول الرسول يثرب في الثاني عشر من ربيع الأول^(٢)

وينبغي أن نذكر أن الرسول نزل قُبَاء قبل أن يدخل يثرب ، وبقي فيها أربعة أيام ، وأسس بها مسجد قباء الشَّيْخ^(٣) ، وقد لحق علي بن أبي طالب بالرسول في قباء بعد أن رد الودائع إلى أصحابها ودخل على يثرب في موكب الرسول^(٤) .

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء في محلة بني عمرو بن عوف من يوم الإثنين وخرج من بين أظهرهم يوم الجمعة فأدركته الجمعة في بني سالم ابن عوف فخصلها في بطن الوادي ، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة فأتاه عتيان بن مالك وعباس بن عباد ، في رجال من بني سالم بن عوف فأمسكوا بزمام الناقة وقالوا : يا رسول الله أقم عندنا في العدة والعدة والمنعة . قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة فخلوا سبيلها ، فسارت بعد أن خلوا سبيلها وانطلقت ، حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار بركت في المكان الذي به مسجده صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ ملك لغلامين يتيمن من بني النجار هما سهل وسهيل ابنا عمرو ، وكانا في حجر معاذ بن عفراء ، فلما بركت الناقة ورسول الله عليها لم ينزل ، ثم وثبت فسارت غير بعيد ورسول الله واضع لها زمامها لا يثنها به . ثم التفت إلى خلفها فرجعت إلى مبركها أول مرة فبركت فيه ، ثم تلحلت وأرزمت (أحدثت صوتاً) ووضعت جرائنها (مقدم عتقها) على الأرض ، فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه

(١) هذا هو الشائع حول هذه الايات ، ويروى ابن القيم أن أهل المدينة استقبلوا الرسول بهذه الايات عند عودته من غزوة تبوك لأن ثنيات الوداع تقع شمال المدينة (انظر زاد المعاد ٣ : ١٣) وذوق الشعر أميل لوقوعها متصلة بالمجرة .

(٢) ابن قتيبة : المعارف ص ٧٥ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٩ وفي زاد المعاد لابن القيم أن الرسول بقي في قباء أربعة عشر يوماً (انظر ح ١ ص ٢٥) وانظر ابن هشام ٢ : ١١ .

(٤) ابن هشام ٢ : ١٠

وسلم فاحتَمَل أبو أيوب الأنصارى رَحَلَ الرسول إلى بيته ، وبقي الرسول في بيت أبي أيوب سبعة أشهر بنى خلالها مسجده في المكان الذي بركت فيه الناقة . كما بنى حول المسجد حجرة لزوجته سودة ، ثم حجرة أخرى تزوج فيها الرسول من عائشة .

وبروى أن الرسول سأل عن مالك الأرض التي بركت فيها الناقة ، فقال له معاذ بن عفراء : هي يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو وهما يتيمان في حجرى ، وسأعطيها بدلها ، وقد ظل الرسول يتابع هذا الأمر حتى تأكد من وصول البذل المناسب للغلامين^(١) وأصبحت يثرب من يوم الهجرة تعرف بالمدينة^(٢) .

دروس من الهجرة :

في دراسة التاريخ الإسلامى نماذج رائعة جديدة بأن يُقتدى بها وننتفع بما فيها من خلق طيب ، فالانتفاع بما في التاريخ من أمثلة ممتازة هدف مهم من أهداف دراسة هذه المادة ، والهجرة حدث عالمى لم يقلل من أهميته أحد من المسلمين ولا من أعداء الإسلام ، وبالهجرة صور بديعة أخلاقية جديدة أن نقف عندها وقفة نفصل بعض الشيء ما أجملناه عند الحديث عنها لئلا نرى ألواناً زاهية من الإيثار والتضحية والوفاء .

في القمة من الدروس التي نقتبسها من الهجرة عظمة محمد التي تجلّت في قوة عزيمته وصبره على الشدائد دون أن يتطرق اليأس إلى قلبه حتى في أحلك الأوقات ، وقد ظل يكافح ، فنجح كثيراً وناله أحياناً بعض الفشل ، ولكنه انتفع بالنجاح وبالفشل ، انتفع بالنجاح بتنميته والحرص عليه ، وانتفع بالفشل بأن حاول جاهداً ليجد طريقاً آخر يحقق خلاله ما فشل في تحقيقه من قبل ، فحين ضعف أمله في الفوز بمكة أسرع فترك مسقط

(١) ابن هشام ج ٢ ص ١٠٣ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٨٣ .

رأسه ؛ وترك متاعه وأهله إلى أرض جديدة أكثر خصوبة وأكثر استعداداً
للنبت الصالح ، إنها العقيدة ، أهم عند الأبطال من راحتهم ومن حياتهم .
ومن الدروس الرائعة إخفاء موعود الهجرة تماماً عن كل الناس ما عدا
أبا بكر ، فجاءت الهجرة مفاجأة ساعدت على نجاحها .

ومن هذه الدروس أنه عليه السلام ترك علياً في فراشه ، وذلك
للتصويه وتضليل الأعداء مما ساعد على تحقيق الهدف .

ومن الفراسة البارعة تلك الحيلة أو تلك الحيل التي قام بها الرسول
وصاحبه لتضليل المطاردين ، فتمد كان الرسول يدرك أن جماعات قريش
ستنتشر في طريق بئر بلحثة عنه ، محاولة الحيلولة بينه وبين هدفه ،
ولذلك نجده يقوم بمجموعة من الحيل البارعة التي ضمنت له النجاة ؛
كما يلي :

أولاً - بدل أن يصعد إلى الشمال حيث سبجته القوم اهتمامهم ، يهبط
قليلاً إلى الجنوب ، حيث سيقبل البحث عنه في هذا الاتجاه .

ثانياً - لا يأخذ طريقه مباشرة إلى المدينة وإنما يلجأ للغار بضع ليال
حتى يتعب الباحثون ويعودوا دون أمل إلى دورهم .

ثالثاً - لا يسير في أحد الطريقين العاديين بين مكة والمدينة ، وإنما
يتخذ طريقاً ثالثاً يقل أو ينعدم فيه السير حتى لا تصل أخباره إلى قريش .

وبجانب الرسول نجد الهجرة تعلمنا درساً خالداً في الوفاء عند الشدة ،
يضربه لنا أبو بكر الصديق ، فكيف تخلى صديق عن صديقه عند الأزمات
خوفاً أن تمتد له هذه الأزمات أو تصيبه بمكروه ، ولكن أبا بكر سخر -
كما قلنا آنفاً - كل شيء يملكه أو يشرف عليه لتنجح الهجرة ، وقد شمل
ذلك نفسه وابنه وابنته وماله ومتاعه . ومن أجل ما يروى في ذلك ما سبق
أن ذكرناه من أن أبا بكر وهو في طريقه إلى الغار مع الرسول جعل مرة

يمشي أمام الرسول ومرة يمشي خلفه ، فسأله الرسول عن السبب فأجاب :
أذكر الترسد فأمشي أمامك ، وأذكر الطلب فأمشي خلفك (١) .

ويضرب لنا على بن أبي طالب مثلاً لامعاً في التضحية والإيثار .
لقد قبِلَ على عن طيب خاطر أن ينام في فراش الرسول مع أن الموت
كان قاب قوسين أو أدنى ممن ينام في هذا الفراش .

فعلى الإنسان المسلم أن يتعلم هذه الدروس ، وأن ينفع بها في حياته ،
وأن يسير على الهدى الذى رسمه له هؤلاء القادة وأولئك الصفوة من بناء
الإسلام ، لينالوا الخير فى الدنيا والآخرة .

الهجرة قلبت موازين القوى :

وبنجاح الهجرة أصبح المسلمون أقوى من أعدائهم ، ولم يردوا
يحتملون العدوان بل واجهوا المعتدين وكسروا شوكتهم ، ويوماً بعد يوم
استسلمت قريش وحملت الراية مع المسلمين ، وانهار اليهود بعد فيض من
التضحيات جعل حقدهم ضد العرب والمسلمين ينمو ويزداد ، وأحس
أباطرة فارس والروم بأن نوراً جديداً انبثق من قلب الجزيرة العربية ، وأنه
يسير كالتوفان قوة واندفاعاً ، فحاولت الدولتان الوقوف أمامه ، ولكن
نور الحق كان أصلب عوداً ، وكانت الدولتان أضعف من مواجهته ، أما
قيادات الروم فقد فرّت من الميدان ، وتركّت سوريا ومصر والشمال
الإفريقي ليغمرها نور الإسلام ، وأما بلاد فارس فاستسلمت عسكرياً بسرعة
غير متوقعة ، ولكن قادتها بدعوا يشيرون المتاعب والشبهات والشكوك منذ
عهد الفتح إلى الآن فى حركات الشعوبية ، والباطنية ، والزنادقة ، والزنج ،
والقرامطة ، والمدرزية ، والبابية والبهاية ، والحمينية . وقد واجه المسلمون
هذه الحركات بحزم من جيل إلى جيل .

لقد كانت الهجرة مطلع النور والقوة ، وستظل ذكرها تبعث الهمم بين
جماعات المسلمين إلى الأبد .

(١) ابن القيم : زاد المعاد ج ٢ ص ٥٢ .

الرَّسُولُ فِي الْمَدِينَةِ

مقدمة :

كانت فترة المدينة - كما قلنا من قبل - حافلة بجلال الأعمال في مختلف المجالات ، و سجل فيها يلي أبرز مواقف الرسول في هذه الفترة :

الرسول نفسه يؤرخ بالهجرة

عقب الهجرة أصبح العام الذي هاجر فيه الرسول بدءا للتاريخ الإسلامى أو التاريخ الهجرى ، وقد كان العرب كغيرهم يؤرخون بالأحداث الكبرى ، ولا شك أن الهجرة كانت من أكبر الأحداث ، فأرخ بها المسلمون منذ وقوعها كما أرخ العرب من قبل بعام الفيل وغيره من الأحداث العظام .

ويروى الطبرى^(١) أن الرسول لما قدم المدينة أمر بالتاريخ بالهجرة . وذكر القلقشندى^(٢) أن ابتداء التاريخ بالهجرة حدث منذ العام الأول للهجرة .

ويؤكد السيوطى أن الرسول لما كتب لنصارى نجران ، أمر عليا - وكان يكتب له - أن يذكر أنه كتب لخمس من الهجرة .

وقد شاعت نسبة وضع للتاريخ الهجرى إلى عمر بن الخطاب ، ويبدو لي أنه ليس هناك خلاف يذكر ؛ فالعرب - كما ذكرنا - كانوا يؤرخون بالأحداث الكبرى ، وقد أرخوا بالهجرة تبعا لذلك منذ حدوثها . ولكن دور عمر كان أن تبنت الهجرة لتكون مبدءا للتاريخ عند المسلمين بحيث لا يترك التاريخ بها إلى أى حادث آخر يجرى بعدها ، ولعل عمر شاهد محاولة للتاريخ بسقوط دولة الفرس في يد المسلمين أو دخول المسلمين دمشق ، فأعلن ألا شئ يعدل الهجرة لأنها باب الفتح والنصر . وثبتتها مبدءا للتاريخ

(١) تاريخ الامم والملوك ج ٢ ص ١١٠ - ١١٤ .

(٢) مسح الأعشى ج ٦ ص ٢٤٠

الإسلام ، وما ينسب إلى عمر كذلك مرتبطا بالتأريخ بالهجرة أنه جعل بدء سنة الهجرية شهر المحرم في حين أن هجرة الرسول تمت في شهر ربيع الأول ، ففضى عمر بذلك على خلاف ظهر بين الناس ، إذ عد بعضهم شهر المحرم وصفر (من السنة التي تلت الهجرة) عاما ثانيا ، وعدهما بعضهم عاما أول لأن الهجرة لم يمر عليها عام . واستمر هذا الخلاف على مر السنين ، ففضى عمر على هذا الخلاف بأن أعلن اعتبار السنة التي هاجر فيها الرسول كلها سنة أولى . وأن مطلع المحرم من العام الثاني يعتبر مطلع عام ثان على اعتبار أن الهجرة كأنها حدثت في مطلع العام ، وهو اتجاه ساد بعد ذلك وأصبحنا نحتفل بالهجرة في مطلع المحرم ، ولعل ذلك أيضا مما جعل التأريخ بالهجرة ينسب إلى عمر .

أسرة الرسول وأسرة أبي بكر

يقول البلاذرى : عقب الهجرة وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا رافع وزيد بن حارثه إلى مكة لحمل فاطمة وأم كلثوم ابنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسودة زوجته وأخذ من أبي بكر خمسمائة درهم فدفعتها إليهما لما يحتاجون إليه ، وأعطاهما بعيرين وكتب أبو بكر رضى الله عنه إلى عبد الله ابنه يأمره بحمل أم رومان امرأته ، وعائشة وأسماء ابنتيه وتوجه مع زيد وأبي رافع عبد الله بن أريقط ، فوافوا طلحة بن عبيد الله يريد الهجرة فتصاحبوا إلى المدينة ، فخرج زيد وأبو رافع بفاطمة وأم كلثوم وسودة بنت زمعة ، وسحبس زينب زوجتها أبو العاص بن الربيع ، وكانت رقية قد هاجرت من قبل مع زوجها عثمان بن عفان ، وحمل زيد أيضا امرأته أم أيمن وأسامة بن زيد ابنه ، وخرج عبد الله بأم رومان وأختيه عائشة وأسماء ، فقدموا المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبني المسجد ويبني بيوته حول المسجد ، وكان طلحة حين هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم موجودا بالشام ، فلما عاد إلى مكة وجد أن الرسول قد هاجر للمدينة فهاجر مع أسرة النبي صلى الله عليه وسلم وأسرة أبي بكر .

وكان عند أبي بكر عندما أسلم أربعون ألف درهم ، ولما خرج إلى المدينة للهجرة لم يكن يملك إلا خمسة آلاف درهم ، فبعث ابنه عبد الله فحملها إليه إلى الغار ، ففصى بها معه (١) .

المؤاخاة

ابتكر الرسول صلوات الله عليه نظام المؤاخاة في الإسلام ، وجعل لهذه المؤاخاة قوة أخوة النسب بما في ذلك الميراث . وقد بدأ هذا الاتجاه في مكة قبل الهجرة ، فقال الرسول لأصحابه : تأخّوا في الله أخوين أخوين ، وأخذ على بن أبي طالب وقال : هذا أخى .

وكان حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين ، وإليه أوصى حمزة يوم أحد إن حدث به حادث الموت .

فلما هاجر المسلمون إلى المدينة اتسع نطاق المؤاخاة بين المسلمين ، فجدد الرسول مؤاخاته لعلى بن أبي طالب ، وجدد حمزة مؤاخاته لزيد بن حارثة ، وأتجه المسلمون إلى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار لتقوية المهاجرين من جانب ، وتخفيف مشكلاتهم المالية من جانب آخر ، ثم لمساعدتهم في احتمال مشكلات الغربة التي ظهرت بعد الهجرة ، وتمت المؤاخاة على النحو التالي :

أبو بكر تأخى مع خارجة بن زهير الخزرجى .

عمر بن الخطاب تأخى مع عتبان بن مالك الخزرجى .

أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح تأخى مع سعد بن معاذ من بنى الأشهل .

عبد الرحمن بن عوف تأخى مع سعد بن الربيع الخزرجى .

عثمان بن عفان تأخى مع أوس بن ثابت من بنى النججار .

طلحة بن عبيد الله تأخى مع كعب بن مالك من بنى سلمة .

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف ص ٢٦٩ - ٢٧٤ و ٢٦١ .

وتسأخى بلال مؤذن الرسول وهو مولى أبى بكر مع أبى رويحة القشعمى .

(١)

وقد ظل التوارث يتم بين هؤلاء حتى نزلت الآية الكريمة « وأولى الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » فبدأ بذلك الميراث بالنسب والمصاهرة ، ثم جعل الله سبحانه وتعالى المؤمنين جميعا أخوة فى النواد وشمول الدعوة بقوله تعالى : « إنما المؤمنون أخوة (٢) » .

متاعب اقتصادية بالمدينة

عقب الهجرة

إن الأندلس فُشّشوا المدينة قبل الهجرة يدرك أن أهم ثرواتها كان فى أيدى اليهود إذ كانت الحركة التجارية فى أيديهم ، وكانوا يبتزّون الكثير من أموال الأوس والخزرج عن طريق الربا . كما كانوا يصنعون السلاح ويبيعونه العرب الذين كانوا فى حرب توشك أن تكون مستمرة ، وكانت أكثر الأراضى الزراعية والبساتين فى أيديهم ، مما يجعلنا نقرر أن أغلب ثراء المدينة كان فى أيدى اليهود ، وأن الأنصار كانوا يعيشون فى حياة كفاف غالبا .

فإذا أضفنا إلى ذلك أن الأنصار فتحوا بيوتهم للمهاجرين . وأن زحفا من الأسر المهاجرة نحر المدينة المنورة ، فإننا ندرك ما عاناه المهاجرون والأنصار جميعا من متاعب اقتصادية فى مطلع الهجرة ، ولكن الحال سرعان ما تغيرت . فإن المهاجرين قدموا من مكة ، ولمكة وأهلها شهرة واسعة فى مجال التجارة والمال ، وكان المهاجرون يتجهون للاعتماد على أنفسهم ،

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ ص ١٠٩ - ١١٠ تحقيق طه عبد الرؤوف .

(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف ص ٢٧٠ والآية الأولى رقم ٧٥ من سورة

الانفال والآية الأخيرة رقم ١٠ من سورة الحجرات .

ولا يريدون أن يصبحوا عائلة على الأنصار ، ويروى أن عبد الرحمن بن عوف نزل على سعد بن الربيع ، وأكرمه سعد كل الإكرام ، واتسعت دار المضيف وثروته للضيف ، ولكن عبد الرحمن سرعان ما صاح بمضيفه قائلا: جزاك الله خيرا من مضيف سمح ، ولكنى أرجو أن تدلنى على السوق واندفع عبد الرحمن إلى السوق بنجرة أهل مكة وحماستهم ، وسرعان ما أصبح من الأغنياء ، وسلك كثيرون مسلك عبد الرحمن ، فقد اتجه أبو بكر لبيع الثياب ، واتجه عثمان للتجارة فى المحاصيل الزراعية والفاكهة ، فكان يشتري البساتين ويبيعها ، وامتد نشاطه إلى الشام ، واتخذ الزبير مجزرا له فى البقيع ، وعمل عمر وسيطا بين التجار ، ورجَّح الإسلام كفة المسلمين فى الميدان التجارى ، إذ حرص المسلمون على اتباع تعاليم الإسلام ؛ فلا غش فى البيع والشراء ولا ربا ، ولا تطفيف لكيل أو ميزان ، ومن هنا اتجه أكثر المتعاملين للمسلمين ، وقلَّ الإقبال على اليهود ، وكان ذلك من الأسباب التى أثارت الحقد فى نفوس اليهود ، وجعلتهم يكيدون للمسلمين بكل الوسائل والطرق .

معاهدة التعاون بين المسلمين وغير المسلمين

كان سكان المدينة بعد الهجرة ثلاث طوائف هم :

١ - المسلمون من المهاجرين والأنصار .

٢ - اليهود من بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة .

٣ - العرب الذين لم يدخلوا الإسلام بعد .

وقد أراد الرسول أن يخلق جوا للتعاون والتسامح بين هذه الطوائف وبخاصة مع اليهود الذين كانوا يمثلون عنصرا مهما فى المدينة ، فتنقَّب لهم الرسول ووثَّق صلاته بهم ، وتحدث مع رؤسائهم ، وربط بينه وبينهم برباطة المودة باعتبار أنهم أهل كتاب موحدون ، وبلغ من ذلك أن كان يصوم يوم

رهم «عاشوراء» وأثرعنه بحبل عطفه عليهم ، وفيض بره بهم^(١) ، وكل هذا مهد لعقد معاهدة بين المسلمين وغيرهم لتصبح المدينة وحدة واحدة تدافع عن كيانتها وتواجه أعداءها وتتعاون وتعاوننا كاملاً في داخلها ، وقد أورد ابن هشام نص هذه المعاهدة^(٢) وقدم ابن هشام لها بقوله : **وَأَدْعَ الرَسُولُ الْيَهُودَ فِي هَذِهِ الْمَعَاهِدَةِ وَعَاهِدَهُمْ وَأَقْرَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، وَشَرَطَ لَهُمْ وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ . وَخِلَاصَةُ هَذِهِ الْمَعَاهِدَةِ هِيَ :**

١ — **أَنَّ لِلْجَمَاعَةِ شَخْصِيَّةً دِينِيَّةً وَسِيَاسِيَّةً وَمِنْ حَقِّ الْجَمَاعَةِ أَنْ تَعَاقِبَ الْمَقْسُدَ وَأَنْ تَتَوَكَّلَ عَلَى الْمَطِيحِ .**

٢ — **إِنَّ الْحُرِّيَّةَ الدِّينِيَّةَ مَكْفُولَةٌ لِلْجَمِيعِ .**

٣ — **عَلَى سُكَّانِ الْمَدِينَةِ مِنْ مُسْلِمِينَ وَغَيْرِ مُسْلِمِينَ أَنْ يَتَعَاوَنُوا مَا دَامَ وَأَدْبَاءُ وَعَسَكِرِيًّا ، وَعَلَيْهِمْ أَنْ يَرُدُّوا مُتَسَانِدِينَ أَىِ اعْتِدَاءً قَدْ يُوْجَّهُ لِلْمَدِينَةِ .**

٤ — **الرَسُولُ هُوَ الرَّئِيسُ الْأَعْلَى لِسُكَّانِ الْمَدِينَةِ وَتُعْرَضُ عَلَيْهِ الْقَضَايَا الْكُبْرَى وَصُورُ الْخِلَافِ بَيْنَ طَائِفَةٍ وَأُخْرَى لِيُفْصَلَ فِيهَا .**

وعلى الرغم من موقف المسلمين السّمح كان اليهود غير مخلصين لهذه المعاهدة ، ويبدو أنهم قبلوها ريثاً يدبرون أمرهم كما سنرى عند الحديث عن علاقة المسلمين باليهود .

الحمى نصيب المهاجرين

عقب الهجرة

يقول ابن هشام^(٣) **لأن يثرب كانت أوطأ أرض الله من الحمى ، فلما**

(١) دكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ٢٢٠

(٢) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ١٥٦ وما بعدها .

(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٦٩ - ١٧٥ (تحقيق طه عبد الرؤوف) وتلك هي الطبعة التي اعتمدنا عليها في دراساتنا الجديدة عن «الرسول في المدينة» وفيما عدا ذلك فإن اعتمادنا كان على الطبعة المذكورة .

قدم المهاجرون إلى يثرب ، ولم تكن بهم حصانة ضد أوبئة يثرب أصيبوا بالحمى والمرض ، وصرف الله ذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم . قالت عائشة رضي الله عنها : دخلت على أبي ومعه عامر بن فهيرة وبلال في بيت واحد فوجدتهم قد أصيبوا بالحمى ، وسألت أبي عن حاله فقال : .

كل امرئ مصبِّح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

وبمثل هذا كان يشكو عامر بن فهيرة وبلال ، ونستمر عائشة فتقول : ذكرت ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم ، فاتجه الرسول إلى ربه داعياً : يارب حبيب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد ، وبارك لنا في مُدَّها وصاعها ، وانقل عن المدينة وباءها ، وأراد الرسول أن يشجع المهاجرين على مقاومة المرض فدعاهم للصلاة معه ، وأدرك أن أكثرهم يريدون أن يصلوا وهم قعود فقال لهم : اعلموا أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم . فتجشم المسلمون القيام على ما بهم من الضعف والسقم التماساً للأجر والفضل ، وبسبب دعاء الرسول صلوات الله عليه ومقاومة المسلمين زالت الحمى وعادت السلامة .

وكانت هذه الحمى مع ما عاناه المهاجرون من الحاجة والغربة اختباراً من الله للمسلمين صمد فيه المسلمون ، وظهروا أبطالا يتحملون كل عناء من أجل العقيدة وصدق الله العظيم الذي يقول : وأحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون^(١) .

ومما حدث للمسلمين في أول العهد بالمدينة أن مرت عدة شهور لم تلد المهاجرات خلالها أي مولود ، وقد اتخذ اليهود والمنافقون ذلك وسيلة للتقليل من شأن المسلمين وتهديدهم بالانقراض ، وفي السنة الثانية للهجرة ولد أول مولود بالمدينة من أصحاب رسول الله وهو عبد الله بن الزبير ، ففرح المسلمون به ، وتلاه أطفال آخرون ، فخرست السنة الباطل^(٢) .

(١) سورة النكبات الآية الأولى .

(٢) البلاذري : أنساب الأشراف ص ٢٧٢ .

الرسول يبنى المساجد للعبادة والدعوة

كان من أسرع الأعمال التي قام بها الرسول عقب الهجرة بناء المساجد ، ولعل سبب التبكير بإنشاء المسجد هو أن المسلمين أحسوا بأن البيوت تضيق باجتماعاتهم ولا تمنحهم حرية العبادة واللقاء كما يشتهون ، ومن هنا أسسوا المسجد وأطلقوا عليه « بيت الله » إشارة إلى أن الداخل فيه لا يحتاج إلى استئذان أو استئناس ، ثم إن العرب قبل الإسلام كانوا يتخلون البيوت الحرام متعبدا لهم ، ذلك البيت الذي رفع إبراهيم وإسماعيل قواعده ، والذي أصبح كعبة يحج لها العرب من أصقاع الجزيرة العربية كلها ويتعبدون فيها ، ولما انحرف العرب عن عبادة الله وعبدوا الأصنام جعلوا الكعبة مقرا لأصنامهم ، فكان يلتقى في العبادة بالكعبة الموحدون من العرب ، وعبداء الأصنام ، فلما جاء الإسلام عظم المسلمون البيت الحرام أيضا وأجلّوه حتى قبل أن تزول منه الأصنام ، فقد اتخذ الرسول مصلاه فيه بين الركبتين : الركن الأسود والركن اليماني .

فلما أخرج المسلمون من مكة وحُرموا الالتقاء والعبادة في البيت الحرام فكروا سريعا في أن يعتاضوا به مكانا آخر ، بل أمكنه أخرى يجتمع فيها المسلمون في كل صقع أو بلد للعبادة والدعوة . . . ولهذا فإن الرسول وهو في طريقه إلى المدينة مهاجرا ، أقام بقاء أربعة أيام وأسس فيها مسجد بقاء ، وهو أول مسجد أسس في الإسلام ، ويقال إن فيه نزلت الآية الكريمة « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه » ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا^(١) .

فلما وصل الرسول المدينة ، وبركت ناقته في الأرض الفضاء التي تحدتثنا عنها

(١) سورة التوبة الآية ١٠٩ وانظر في ذلك ابن هشام والطبري والتبرية الإسلامية

أقام الرسول مؤقتاً في بيت أبي أيوب الأنصاري ، وبدأ دون تأخير في بناء مسجد المدينة وبناء حجرتين حول المسجد لزوجته سودة ولزوجته المرتقبة عائشة .

مسجد الرسول بالمدينة وصفته : -

كان مسجد الرسول صغير المساحة فقد كان طوله حوالي ٣٥ ذراعاً وعرضه ٣٠ ، وكان محاطاً بجدار من اللبن أساسه من الحجارة ويبلغ ارتفاعه حوالي ثلاثة أذرع ، ولم تكن أرض المسجد مفروشة بشيء ، فلما نزل المطر فرشوا الأرض بالحصى ليتحاشوا الطين ، ولم يكن للمسجد سقف إلا ناحية منه أقيمت بها أعمدة من جذوع النخل وسقفت بالجريد إذ كان يعيش بها أهل الصفة الذين تفرغوا للعبادة ومذاكرة الدين معرضين عن ترف الحياة وزينتها ، وكان سقف بيوت الرسول التي تحيط بالمسجد غير مرتفع ، ويقول الحسن بن أبي الحسن : كنت أدخل بيوت الرسول وأنا غلام مراهق فأنال السقف بيدي ، وكان الرسول يبني حجرة لكل زوجة يتزوجها تُضمُّ إلى حجرات أمهات المؤمنين .

وقد بقيت بيوت زوجات الرسول حتى توفيت آخر واحدة من أمهات المؤمنين في عهد الدولة الأموية ، فقام الخليفة عبد الملك بن مروان أو ابنه الوليد بهدم هذه الحجرات وضم مساحتها إلى المسجد ، وقد توالى توسيع المسجد وتجميله بعد ذلك على مر الزمن حتى أصبح تحفة فنية رائعة .

مساجد الرسول :

اهتم الرسول ببناء المساجد في كل الأمكنة التي زحف الإسلام لها فيما بين المدينة وتبوك ، ويعدد ابن هشام^(١) مساجد الرسول فيذكر أنها وصلت

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ١٢٩

ثمانية عشر مسجدا ، وربما جاز لنا أن نستطرد قليلا لنذكر أن المساجد زادت بعد ذلك وانتشرت مع انتشار الإسلام ، وأصبح من المتبع أن يُبنى مسجد أو أكثر في كل مكان دخله المسلمون أو في كل قرية أو مدينة أسسوها ، فقد روى أن عمر لما فتح البلدان كتب إلى أبي موسى وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجدا للجماعة ، ويتخذ القبائل مساجد ، فإذا كان يوم الجمعة انضمو إلى مسجد الجماعة ، وكتب إلى سعد بن أبي وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك^(١) ومن الشرف لمصر أن تقرر أن مسجد عمرو بن العاص بمصر هو أقدم مسجد بقارة إفريقية .

أغراض المسجد :

كان مسجد الرسول متعدد الأغراض ، فقد كان — كما قلنا آنفا — يسمى « بيت الله » وفي هذا البيت كان المسلمون يلتقون للعبادة والاعتكاف ، والتعلم والقضاء ، وكان الرسول يجمع فيه المسلمين إذا أراد أن ينفر للحرب ، وأقام به خيمة في غزوة الأحزاب لعلاج المصابين مما كان أساما للمستشفيات الإسلامية المرتبطة بالمساجد ، ومن أجل هذا ينبغي أن نعود بمساجد اليوم إلى روح الاتجاه الذي بنى عليه مسجد الرسول بالمدينة المنورة نريد أن يكون مسجد اليوم « مجمعا » به — بجانب العبادة — مكتبة إسلامية وثقافية ، وبه قاعة للمحاضرات والاجتماعات ، تعمل لارشاد الكبار ، وأحيانا لمساعدة التلاميذ والطلاب على النجاح في الامتحانات ، وبه استعدادات صحية تصغر أو تكبر حسب القدرة ، وحوله مكان للشبان يمارسون فيه بعض الألعاب الرياضية المباحة حتى إذا أذن المؤذن للصلاة هرعوا لأدائها ، ونريد أن يكون في كل مسجد مكان للنساء به نفس الوسائل والتيسيرات الخاصة

(١) المقرئى : المخطوط ج ٢ ص ٢٤٦ والسيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ،

بالرجال كدورات المياه ، وأماكن الاستماع للدروس والمحاضرات ، فالدين الإسلامي ليس للرجال فقط ، والمرأة المسلمة المتدينة ستبحث أولادها على ارتياد المسجد ، وستلقنهم التعليمات الإسلامية الأولى إذا شُغل الأب عن هذا الواجب بصراعه في الحياة ، وكل مسجد ليس به مكان للمرأة فهو مسجد يتقصه شيء مهم ، ويمكن أن يكون هذا المكان بدور علوى مستقل أو بقطاع خاص من المسجد ، له مدخل مخصص للنساء ، وقد كانت النساء على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تصلين خلفه في المسجد كما سنرى فيما بعد ، إننا إذا فعلنا ذلك بمسجد اليوم نخلق مركزا دينيا سيكون واسع الأثر في خدمة الإسلام والمسلمين كما كان مسجد الصدر الأول للإسلام .

مظهر المسجد :

أما عن مظهر المسجد فإن حديث الرسول يحدده ، يروى أنه قال لصحبه : ابنوا لى عريشا كعريش موسى ، ثمامات وخشببات ، وظلّة كظلّة موسى . فقالوا له : وما ظلّة موسى ؟ فأجاب : كأنه إذا قام أصاب السقف رأسه . ويعلق أحد الباحثين على هذا الحديث بقوله : قصد الرسول بقوله هذا أن يبنى له مسجد متواضع ليس فيه شيء من زينة الدنيا^(١) .

وقد اقتدى عمر بن عبد العزيز بالرسول صلوات الله عليه في هذا المجال ، فقد كان يكثر من المساجد ولكن لم يكن يتأنق في تشييدها ، ولما طلب منه أن يدفع مبلغا لتزيين مسجد أجاب : لأن أنفقه على أكباد جائعة أحب إلى من أن أنفقه على الجدران والأثاث^(٢) .

(١) أحمد التاجي : سيرة النبي العربي ح ١ ص ٣٢٩ - ٣٣٠

(٢) انظر الجزء الثاني من موسوعة التاريخ الإسلامي للمؤلف ص ٨٨

ذلك هو أصل التفكير الإسلامى فى هذا الموضوع ، ولكن لا بأس من فخامة المباني إذا كان ذلك يهيئ المساجد لتأدية الأغراض التى طرأت فى العصر الحاضر كقاعات المحاضرات ومكان المكتبة الإسلامية ولا بأس كذلك فى تقديرى إذا كان ذلك فى مواجهة منافسة دينية ، فإذا غنى المسيحيون أو اليهود أو البوذيون بكنائسهم ومعابدهم فى قرية من القرى أو مدينة من المدن ، فإن المسلمين لا يقنعون بمسجد متواضع الشكل لا يمكن أن يتنافس هذه المعابد التى تبرز أحياناً بهيجة مثلاًثة .

ومعنى هذا أنه ليس هناك ما يدعو لتشييد مساجد ضخمة فى قرى ليست فيها منافسة دينية ، وبخاصة إذا كانت هذه المساجد غير مستوفاة لمظاهر النشاط الدينى ، أو كانت بنيت على حساب فقراء يحتاجون لمساكنهم به من مال فى سد حاجة أو كبد جائعة ، وفى ريفنا المصرى مثل شائع يقول « الذى يلزم لبيتك يحرم على الجامع » وهو مثل ينطبق تمام الانطباق على التفكير الإسلامى .

الأذان :

يقول ابن هشام^(١) نقلاً عن ابن إسحق : إن الرسول صلى الله عليه وسلم اطمأن بالمدينة واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين والأنصار ، واستحكم أمر الإسلام ، وأقيمت الصلاة وفرضت الزكاة والصيام ، وفرض الحلال والحرام . . . وكان المسلمون يجتمعون للصلاة فى أول مواقيتها بدون دعوة ، فكان منهم من يتأخر لعدم معرفته بدخول الوقت ، فهم الرسول أن يستعين ببوق كبوق اليهود ، ولكنه كره ذلك ، ثم هم أن يستعين بناقوس وأراد عمر أن يشتري خشبتين للناقوس ، ولكنه نام قبل أن يفعل فرأى فى المنام من يقول له : لا تستعملوا الناقوس ، بل أذنوا (الله أكبر

(١) السيرة النبوية ج ٢ ص ١١١ - ١١٢ (تحقيق طه عبد الرؤوف) .

الله أكبر . . .) فذهب عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليخبره بذلك ،
فما راع عمر إلا بلال يؤذن بنفس الكلمات ، وقال الرسول لعمر حين أخبره
بما رأى في المنام : قد سبقك الرحي .

ويروى ابن هشام رواية أخرى تذكر أن الذي رأى الرؤيا هو عبد الله
ابن زيد الخزرجي ، وأنه ذهب إلى الرسول بذلك ، فقال الرسول : إنها
رؤيا حق ، قم مع بلال فأتني عليه كلمات الأذان كما رأيته في المنام ليؤذن
بها ، فإنه أقوى صوتا ، ولما سمع عمر كلمات الأذان جاء للرسول يقول
له : والذي بعثك بالحق ، لقد رأيت في منامي مثل ما أرى الآن في يقظتي .

ويروى ابن هشام^(١) كذلك عن امرأة من بنى النجار أن بينها كان
أعلى بيت حول المسجد ، فكان بلال يؤذن عليه للفجر ، وكان قبل الفجر
يدعو ويسبح بصوت رقيق حتى يدخل موعد الفجر فيؤذن بالأذان ،
وتقول هذه المرأة والله ما علمته كان يترك ذلك ليلة واحدة .

المساجد ومكبرات الصوت :

وبمناسبة الحديث عن الأذان ينبغي أن نقول كلمة عن مكبرات الصوت
التي خلقها الفكر الحديث ، ورأى أنه لا مانع من استعمال مكبرات الصوت
في الأذان ، فرفع الصوت بالأذان عمل إسلامي لإبراز دخول وقت الصلاة ،
أما فيما عدا الأذان فلا يقر الفكر الإسلامي استعمال هذه المكبرات حتى
لا يؤذى عالم يبحث أو طالب يذاكر أو مريض يعانى ، والقرآن الكريم
يقول « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا
بهتانا وإثما مبينا »^(٢) .

(١) السيرة النبوية ج ٢ ص ١١٢

(٢) سورة النساء الآية ١١١

والعجيب في سوء استعمال هذا الجهاز أن الناس يثبتونه خارج المجتمعات والسرادات ليصرخ لمن لا يجلسون للاستماع ، فيتأذى به الكثيرون ، وإذا قرئ القرآن الكريم فن واجب المسلمين الاستماع له قال تعالى « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا (١) » ولكن ما العمل إذا كان الإنسان يعمل لكسب عيشه ؟ أو يذاكر لامتحان ؟ أو نحو ذلك فن المسئول عن إذاعة القرآن الكريم لمن هو ليس مستعدا في هذا الوقت لتلقى القرآن الكريم .

لقد أسيء استعمال هذا الجهاز وأكبر إساءة له توجد في مصر وحدها ، وإن ما يخسره مستعملو هذا الجهاز أكثر جداً مما يكسبون ، فليت الناس يفهمون .

القبلة :

هناك موضوع مهم يتصل بالمسجد ذلك هو موضوع القبلة ، وفلسفة الإسلام تنضى بخلق روابط بين المسلمين بعضهم البعض في أكثر أمور الدين والدنيا ، فهم جميعا يصومون شهر رمضان ويصلون صلوات موحدة ، ويحجون إلى بيت الله العتيق ، وهكذا ، ومن هذه الأشياء أن يتجه المسلمون جميعا إلى مكان واحد وقت الصلاة ، ليحصل التجانس بين صفوف المصلين وبخاصة في صلاة الجمعة والجماعة والصلاة في المسجد أو نحو ذلك ، لتتطرد الوحدة التي غنى بها الإسلام ، أما المكان الذي اتجه له المسلمون في صلاتهم قبل الهجرة ، فهو الكعبة لأنها بيت الله العتيق . وبناء إبراهيم ، وموضع فخار العرب .

غير أن بعض المسلمين الأول ظنوا في اتجاههم للكعبة أن المكان نفسه معظم ، فأراد الله أن يعلمهم أن اتجاههم إنما هو في الحقيقة لوجهه تعالى ، وليس فضل الكعبة إلا لأن هذا المكان شهد دين إبراهيم وشهد عبادة الله منذ آلاف السنين ، ولكن إذ تعلق بعض العرب بالكعبة تعلقا

ذاتيا ، وإذ غفل بعضهم عن أن الاتجاه إنما هو لله ، فقد انجبت حكمة الله أن يختار مكانا آخر ليختبر عمق إيمان المسلمين وطاعتهم ، وليثبت في نفوسهم هذه الحقيقة الهامة التي ذكرناها من قبل ، وهي أن الاتجاه يجب أن يفهم على أنه لله تعالى ، وفي هذا المعنى وردت الآية الكريمة :

« ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله »^(١) وقد قال المفسرون في تفسير هذه الآية : إنه لا يختص مكان دون مكان بخصوصية ذاتية تمنع إقامة غيره مقامه^(٢) .

وكانت هذه الآية - كما قال المفسرون - توطئة لتوجيه المسلمين في صلاتهم إلى غير الكعبة ، كما كانت تعليما للمسلمين بأن الاتجاه لله لا للمكان ، وأن اختيار المكان إنما هو مطابق لفلسفة الإسلام التي سبق ذكرها والتي تقضي بخلق روابط بين المسلمين ، فلو لم يحدد مكان واتجه كل مسلم حيث يريد لضاعت الرابطة التي يحرص الإسلام عليها .

ولهذه العوامل اختار الله للمسلمين قبله جديدة عقب الهجرة ، وهي الاتجاه لبيت المقدس^(٣) واستجاب المسلمون لإرادة الله وأدركوا حكمته تعالى .

ثم ظهرت عوامل أخرى ، فقد كان بيت المقدس قبله اليهود ، فإذا هؤلاء يأخذون من اتجاه المسلمين إلى قبلتهم وسيلة للسخرية بهم ، وانطلقوا يقولون : محمد لا يتبع ديننا ويتبع قبلتنا ، وشق على العرب أن يتجهوا إلى قبله اليهود ، ولكنهم في الحقيقة استجابوا بكل قوة وإيمان متحملين سخرية اليهود لوجهه تعالى ، وبقيت الحال على ذلك مبعة عشر شهرا ، ثبت خلالها في نفوس المسلمين أن الاتجاه في الصلاة إنما هو في الحقيقة لله ، وأن المكان يمكن تغييره .

(١) سورة البقرة الآية ١١٥

(٢) انظر تفسير البيضاوي ص ٣٤ .

(٣) فكان بيت المقدس بذلك أولى القبلتين في اختيار الله ، أما الصلاة للكعبة قبل الهجرة فكانت من اجتهاد الرسول ، أركان استمرارا لتعظيم الكعبة ، وكان تعظيمها معترفا به لدى المسلمين .

وقد توقع الرسول ووقع في روعه أن الله سيحول إلى الكعبة مرة أخرى ، وكان الرسول يتطلع إلى الله في صمت ودون دعاء ، آملا أن يحقق له ذلك إرضاء للمسلمين وردا على سخرية اليهود ، وقد عبر الله تعالى عن ذلك بقوله : (قد نرى ثقلب وجهك في السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره) (١)

وكان ذلك إذنا للتسليم بالعودة إلى قبلتهم الأولى ، ويروى أن هذه الآية نزل بها الوحي والرسول يؤم الناس في صلاة الظهر في مسجد بني سلمة ، وقد جاء نزولها بعد أن صلى الرسول ركعتين من الظهر متجها إلى بيت المقدس ، فتحول إلى الكعبة حيث صلى الركعتين الأخبرتين ، وتحول الناس (٢) ولذلك يسمى هذا المسجد « مسجد القبلتين » :

ولم يكن هذا نهاية الموضوع ، فإن اليهود بعد أن ترك الرسول قبلتهم راحوا يقولون : لو ثبت محمد على قبلتنا لكنا نرجو أن يكون صاحبنا الذي ننتظره ، وكانوا يقصدون بذلك أن يعود إلى قبلتهم لا ليتبعوه ، ولكن ليحدثوا اضطرابا في الفكر ، وبليلة في النفس ، ولذا قطع الله أملهم وكشف سريرتهم بقوله :

(ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ، وما أنت بتابع قبلتهم ، وما بعضهم بتابع قبلة بعض) (٣) :

وكان تحول القبلة إلى بيت المقدس بعد الهجرة بقليل ، وصرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة في شهر رجب على رأس سبعة عشر شهرا من مقدم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة (٤) .

(١) سورة البقرة الآية ١٤٤ .

(٢) انظر البيضاوي ص ٣٤ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٤٥ .

(٤) ابن هشام ٢ : ١٧٦ .

الرسول الداعية

عَنِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عناية كبيرة بالدعوة للإسلام ، وقد اهتم بذلك في مكة وفي المدينة ، ولكن الدعوة للإسلام في المدينة كانت أوسع نطاقاً ، وأعظم جدوى ، ثم إن الرسول اهتم - كما قلنا آنفاً - بإنشاء المساجد بعد الهجرة ، وجعل من أغراضها أن تكون مراكز للدعوة الإسلامية ، وطالما جلس فيها يستقبل الوافدين ليعرفهم بالإسلام ، أو يتوسط المسلمين ليزيدهم علماً ومعرفة بدينهم ، كما كان يجلس في بيته أوفى بيوت أصحابه ليعلم النساء .

وإذا كانت هناك أديان لا تهتم بالدعوة والانتشار كالهندوسية الخاصة بالهنود والكونفوشية الخاصة بالصينيين ، واليهودية الخاصة ببنى إسرائيل ، فإن الإسلام من أديان الدعوة ، لا يختص بقطر دون قطر ولا بجنس دون جنس ، ويتنافس في ذلك دينان آخران هما المسيحية والبوذية ، وإن كانت البوذية تقنع غالباً بمنطقة من الأرض هي شرق آسيا .

ونجىء الآن إلى الحديث عن محمد ، كيف كان يدعو للإسلام ، ولا شك أن موقف الرسول سيساعدنا كثيراً في العصر الحاضر لمحتذى حذو الرسول ونسير على نهجه في هذا الموضوع الخطير .

وفي التقديم للحديث عن محمد كداعية ، نذكر بعض آيات الذكر الحكيم التي تُبرز عالمية الإسلام ، ثم بعض آيات الذكر الحكيم التي ترسم الطريق للداعية ، فعن عالمية الإسلام يقول الله تعالى :

— وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين (١) .

— وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً (١) .

— تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً (٢) .

وعن الطريق للدعوة يقول تعالى :

— ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن (٣) .

— ولتكن منكم أمة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون (٤) .

كيف دعا الرسول للإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ؟ وكيف كان نموذجاً فى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟

هذا ما سنوضحه فيما يلى :

كانت حياة نبي الإسلام وطريقته لنشر هذا الدين صورة رائعة للداعية ، وإذا كانت حياة النبي هى مقياس للسلوك لعامة المسلمين فإنها بالنسبة للدعوة أكثر لزوماً وضرورة لمن يعملون فى هذا المجال ، ومن الواضح أن الرسول بدأ دعوته فى مكة ولاقى هناك عنتاً شديداً ، ولكنه صبر وصابر كما تحدثنا عن ذلك من قبل ، واتبع الرسول فى عمله خطوات تُعدُّ نموذجاً رائعاً لكل داعية ، فقد دعا للدين سرّاً بادئ الأمر ثم خطا خطوة إلى الأمام فدعا أهله وعشيرته ، ثم ارتقى إلى القمة عندما جاهر بالدعوة لكل الناس ، وكان القرآن الكريم هدياً له فى هذه الخطوات ، وهو بذلك هدى لكل داعية ألا يندفع إلى خطوة قبل أوانها ، بل يترقب الداعية بالناس ، ولا يتجاهل بعدهم فى العقيدة عنه ، ويتلمس الوسيلة للوصول إلى

(١) سورة سبأ الآية (٢٠٨) .

(٢) سورة الفرقان الآية الأولى .

(٣) سورة النحل الآية (١٦٥) .

(٤) آ، هـ، ان الآية (١٠٤) .

قلوبهم ، وقد تكون الوسيلة بدعوة الأصفياء وتحاشى القساة ، أو بالاعتماد على صلات القرابة ، فإذا وَجَدَتْ الدعوة بعض الاستجابة عن هذين الطريقين راح يجهر بها بعد أن يكون قد قوى جانيه .

ومن الواضح أن الرسول ضحى من أجل الدعوة بما يملك من جهد ومال ، ولذلك سَخِرَ منهم عندما قالوا له : إن كنت تريد مالا أعطيناك مالا ، وإن كنت تريد الرياسة ملأناك علينا . . . فما كان له في ذلك هدف ، وكلما ترفّع الداعية عن متاع الدنيا كلما كان أعمق تأثيرا وأكثر نجاحاً .

ولم تنجح الدعوة في الانتشار بمكة ، وكانت المقاومة عنيدة ومستمرة ، ولكن الداعية العظيم لم يلبس ولم يضعف ، وراح يتلمس أمانة أخرى يبذر فيها بذوره الطيبة ، فلجأ إلى الطائف ، بيد أن رحلة الطائف على الرغم من وعورة الطريق وصعوبة الزاد لم تأت بباطل ، ولكن الداعية العظيم يتلمس مرة أخرى طريق النجاح ، فاتخذ من موسم الحج فرصة لنشر الدعوة بين وفود القبائل التي كانت تتدفق إلى مكة ، ولكن جبايرة الشرك لاحتقه في هذه الخطوة ، وبخاصة عمه أبولهب الذي كان يتبعه ، ويصبح في القوم الذين يلقاهم محمد قائلا : « إنه لصابي » يريدكم أن تنسأخوا عن دين آبائكم إلى ما جاء به من بدعة وضلالة » وكان جاءه قريش وسطوة أبي لهب تنال الغلبة في كثير من الأحوال ، فكانت جماعات الحبيج تقول لمحمد إن قومك وذوى قرابتك أعرف الناس بك ، ولو كنت على حق لاتبعتوك وساعدوك ، ولكن ذلك لم يوهن عزيمته ، فاستمر في لقائه بجماعات الحبيج ، حتى صادف جماعة من يثرب فدعاهم وتلطف إليهم ، وكان ذلك بدءا لانفتاح الأبواب المغلقة والقلوب المقفلة .

ونمت الدعوة بين أهل المدينة من يوم إلى يوم لأسباب ذكرناها من قبل ، وفي أحد اللقاءات جاءت الدعوة من مسلمى المدينة إلى محمد ليهاجر إليهم بعد أن انتشر دين الله ، فدخل كل بيت من بيوت المدينة تقريبا واستجاب لهم الرسول وهاجر إليهم ، وبدأت الدعوة للإسلام بالمدينة

تأخذ «لأبعا جديدا فقد بنيت مساجد أصبحت سراكز للدعوة ، وأصبح للدعوة جاه وحماة» ، وأصبح المسلمون بعد هذا الجهد الجهد أقوى من أعدائهم في هذا المقر الجديد .

ووضح أن الدعوة الإسلامية في المدينة أصبحت ذات شقين كبيرين ، الشق الأول مع المسلمين لتعليمهم التزامات الدين الجديد ، وشرح التشريعات الجديدة التي بدأت تتدفق في القرآن الكريم في هذا العصر ، والشق الثاني المواجهة مع الكتل الكبرى بالمدينة التي كانت لم تدخل الإسلام بعد ، ثم الاتجاه للدعوة للإسلام خارج المدينة .

ففي الشق الأول اهتم الرسول بالمسلمين اهتماما كبيرا ليثبت الدعوة في قلوبهم ، وليعلمهم ما جئ من نـشـريـعات ، فأطال جلساته بالمسجد ، والمسلمون يحيطون به ، يعلمهم ويرشدهم ، وهم يسألونه عما يشغلهم فيجيبهم ويهديهم ، واهتم الرسول كذلك بالمرأة اهتماما كبيرا ، ومن ذلك قوله « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » وكان - فيما يرويه البخاري - يصلّي خلفه بعض النساء صلاة الفجر ، وكان من حكمته عليه السلام أنه عقب السلام ونية الخروج من الصلاة ، كان يَبْقَى في مكانه فترة لينصرف النساء في الصفوف الخلفية ، فإذا اطمأن إلى انصرافهن قام وقام معه الرجال ، وكان يخفف صلاته إذا سمع بكاء طفل خلفه خشية أن تفتن به أمه فتصرف عن صلاتها (١) .

وسأل النساء رسول الله أن يجعل لهن مجالس خاصة يعلمهن فيها ويحجب عن أسئلتهن ، فقلن له : يا رسول الله ، غَلَبَنا عليك الرجال ، فاجعل لنا مجلسا لثـلـثـاك فيه ، فكان يلقاهن مرة أو مرتين كل أسبوع ، وكان يجلس معهن في أحد بيوته أو في بيوت أصحابه .

واهتم الرسول اهتماما كبيرا بمن سيصبحون علماء الأمة ودعاة الإسلام

(١) محمد التاجي : سيرة النبي العربي ج ٢ - ص ٣٨٢ .

فيا بعد ، أرائك ، الذين ستثول إليهم قيادة الحركة العلمية ، وستكلم عن تربية هؤلاء عند الحديث عن « الرسول يربي العلماء والدعاة » .

وفي الشق الثاني وهو دعوة غير المسلمين للإسلام كانت سياسة الرسول غاية في الروعة والذكاء ، وقد بدأ أولاً بالمدينة لتأمين المركز الإسلامي الجديد ، وكان في المدينة منافقون تظاهروا بالدخول في الإسلام ، وعرب تمسكوا بوثنيتهم ، وجماعات اليهود .

ففيما يتعلق بالمنافقين أغضى الرسول الطرف عن نفاقهم وأظهر أنه لا يعرفه ، وأخذ يلاطفهم ويتودد إليهم ؛ حتى أزال النفاق من قلوب الكثيرين منهم .

أما العرب الوثنيون واليهود فقد عقد معهم معاهدة التعاون بين المسلمين وغير المسلمين وقد ذكرناها من قبل ، وأمن المسلمين بذلك الحياة في المدينة المنورة ، وأصبحت الدعوة هي الشغل الشاغل للرسول بعد أن استقرت الأمور بالمركز الجديد .

وقد زاول الرسول دعوة عرب المدينة الذين كانوا لم يدخلوا الإسلام بعد ، ويوماً بعد يوم استجاب هؤلاء لدعوته حتى شمل الإسلام عرب المدينة كلهم تقريباً .

وانتبه الرسول إلى اليهود فظل يتخير أفضلهم ويدعوهم إلى الإسلام حتى دخل منهم جماعة مستجيبيين لهذه الدعوة ، ومن هؤلاء عبد الله بن سلام الذي كان يدعى الحصين بن سلام قبل الإسلام .

ويروى أن عبد الله بن سلام عندما دخل الإسلام جاء إلى الرسول ليثبت مكانته بين اليهود ، وقال يارسول الله : أدخلني بعض بيوتك ثم أسأل اليهود قبل أن يعرفوا إسلامي لتعرف منهم مَنْ أنا بينهم . فأدخله الرسول بعض بيوته ، واستدعى الرسول بعض اليهود ، وبعد حديث بينه وبينهم سلمهم : أي رجل الحصين بن سلام فيكم ؟ فأجابوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا ،

ماضوا في الثناء عليه . فلما فرغوا من قولهم خرج عليهم عبد الله بن سلام فقال : يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به محمد ، فوالله لتعلمون أنه لرسول الله ، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته ، وإني أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

فقال اليهود : خست وكذبت ، وراحوا يلصقون بعبد الله بن سلام ألواناً من سبب الخصال ودنيء السجايا ، فقال عبد الله للرسول : ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قومٌ بهتٍ وضلال ، وأسلم عبد الله وأسرته وحسن إسلامهم ، ومثل هذا حدث مع بعض اليهود الآخرين مثل ثعلبة بن سمية وأسد بن عبيد^(١) .

وتطلىح الرسول بعد المدينة إلى خارجها ، وكان اهتمامه واضحاً بالنصارى ، فهم أهل كتاب يؤمنون بالله ، فدعاهم إلى لقائه ، فوفدت له وفود منهم ، من نجران ، وكان الرسول يحسن استقبالهم ويدعوهم إلى الإسلام ، ويذكّرهم بما في كتبهم مما جاء عنه ، فأسلم منهم عدد كبير ، كما أسلم عدى بن حاتم الذي كان قد اعتنق النصرانية ، وستحدث عن عن إسلام عدى عند الكلام عن « الرسول والنصارى » .

ثم اتجه الرسول إلى قلب الجزيرة العربية داعياً ، وكان يهتم بالرؤساء الذين يعرف فيهم الدعة والاستقامة ، فاستجاب الكثيرون منهم ، وكان دخول هؤلاء الرؤساء في الإسلام ، يفتح الباب لتدقيق أتباعهم .

وانتشر الإسلام في قلب الجزيرة العربية بوسائل الدعوة الرشيدة التي اتبعها الرسول ، وسرعان ما تطاع عليه السلام إلى أطراف الجزيرة ، فأرسل الدعاة واستقبل الوفود ، ولاقت الدعوة كل نجاح بهذا الطريق أو ذاك ، بل تطلع عليه السلام إلى الممالك والدول التي تحيط بالجزيرة العربية فأرسل لهؤلاء رسائل ومبعوثين ، ودقّ بذلك هذه القلوب ، فكان ذلك إيذاناً بالفتوح الإسلامية التي جاءت في العصور التي تلت عصر الرسول .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ - ص ١٨ .

وستحدث عن الوفود والرسائل في حينها أى في أواخر عهد الرسول
بهذه الحياة الدنيا .

وهكذا كان محمد الداعية نموذجاً عظيماً لحمل الدعوة ، وشرحها ،
وتقديمها للناس ، والدفاع عنها ، فما أخرجنا أن نتدارس بعمق طريقته
لنتأسي بها ، وأن نحاول أن نتخلق بالحكمة والملاحظة الحسنة والصبر والدأب
ونحن ننقل فكرنا إلى أية جماعة من جماعات البشر .

الرسول يربي العلماء والدعاة

من أبرز ما يقوم به القادة الموهوبون المخلصون أن يربوا الصف الثاني الذي يأخذ عنهم ويحمل العبء معهم وبعدهم ، بل أن يربوا صفوفاً متتالية أشبه بدرجات السلم ، لتسير أمور المجتمع في مأمن من الأحداث ، بحيث لومات قائد أو اختفى بسبب ما ظهر خَلَفَهُ يحمل العبء دون توقف أو اضطراب ، وتعتبر تربية الصفوف التالية أبرز ما يهتم به القادة إن كانت لهم قِسمٌ يحرصون عليها وأهداف يسعون لنيلها .

وموقف الرسول صلوات الله عليه من تربية الصفوف التالية موقف نموذجي ، ينحتم على المسلمين أن يتعرفوا عليه ليقندوا به ويسيروا على هديه ، وقد اهتم الرسول بتربية الصفوف التالية في مختلف الميادين ، في ميدان السياسة والحكم ، وفي ميدان الحرب والجهاد ، وفي ميدان العلم والدعوة ، وسنتدارس جهود الرسول في كل ميدان من هذه الميادين في حينه ، وهنا - ارتباطاً بالمسجد وبالرسول الداعية - نتحدث عن الرسول وهو يربي العلماء والدعاة .

كان للرسول صلوات الله عليه قدرة هائلة في اختيار الأشخاص الذين يحملون راية العلم بعده ، ويتحملون مسئولية توصيل المعارف إلى الناس ، وإذا كانت الحياة في الجامعة تُعْطَى اهتماماً كبيراً لاختيار المعيدین وطلاب الدراسات العليا ليكون منهم أساتذة المستقبل ، فإن ذلك مأخوذ من حكمة الرسول وفطنته ، فقد كان شديد الاهتمام باختيار العناصر الصالحة التي يفضي لها بمزيد من الخبرات والمعارف لتحمل رسالة العلم بعده ، ومن أبرز صفات حَمَلَةِ العلم الدأب على البحث ، وسعة الطاقة ، والرغبة في العطاء الفكري ، ويروى أن الرسول صلوات الله عليه كان يختار لذلك مجموعة من

خاصة المسلمين ليعطيهم من التفاصيل الفكرية ما لا يمكن أن تطيقه أفكار سواهم ، فقد كان الصحابة يتفاوتون في العلم والهدى ، فمنهم من أخذ عن النبي صلى الله عليه وسلم بنصيب وافر ، ومنهم من أخذ قدرأ متوسطا ، ومنهم من كان قليل البضاعة صاحب النبي وكأنه لم يصاحبه ، ولذلك تروى هائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما أظن فلاناً وفلاناً يعرفان ديننا الذي نحن عليه » (رواه البخارى) وتروى أم سلمة عن الرسول قوله : « إن من أصحابي من لا يراني بعد أن أفارقه » أى أنه سينسى بعض ما قدّم من تعاليم وأفكار .

أما القسم من الصحابة الذين يصدق عليهم قوله صلى الله عليه وسلم : « العلماء ورثة الأنبياء » فكان منهم على بن أبى طالب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبى حذيفة وحذيفة بن اليمان وكثيرون أمثالهم ، وكان الخلفاء الراشدون يلجأون هؤلاء إذا حزب أمر فكرى ، فكان على رضى الله عنه أفضى القضاة ، كما كان منهم مجالس الشورى للخلفاء ، وسنتحدث فيما يلى عن نماذج من هؤلاء الذين برزوا في ميدان العلم والمعرفة ،

على بن أبى طالب :

لاشك أن على بن أبى طالب يقف في القمة بين العلماء ، فهو أول من أسلم من الصبيان ، وكان يعيش في بيت الرسول ، ومن هنا كان أسبق من تلقى عنه ، وكان أصنى المؤمنين قلبا ، وأبعدهم عن ترف العيش ، إذ أصبح منذ نشأته وهو يرى الرسول مثله الأعلى وأمله في الحياة ، فتخلق بأخلاقه ، واغترف من فيض علمه ، ثم كان من كتاب الوحي ، وبهذا كان من أسبق المسلمين لتلقى كلام الله وتدوينه ، والعمل بما جاء به .

ولم تكن الدنيا عند على ذات بال ، وذلك على النمط الذى اتبعه الرسول صلوات الله عليه ، ومن هنا بات على في فراش الرسول ليلة الهجرة وهو

يعلم أن قريشا ستقتل من تجده في هذا الفراش ، وهي مغامرة لا يطيقها إلا الأبطال ، ثم إن الرسول ترك له أن يرد الأمانات إلى أصحابها وهي ثقة واسعة ، ولما انتهى على من هذه المهام لحق بمعلمه في المدينة حتى لا يضيع منه شيء من التلقي والمعرفة (١) ، وفي غزوة بدر وقف على مبارزا عملاقا ، فضرب بسيفه أول ضربة في الغزوة الأولى ، وكذلك كان في كل الغزوات ، وزوجه رسول الله من أحب بناته إليه ، من السيدة فاطمة ، وقال لها الرسول : زوجتك أقدم الناس أسلاما وأكثرهم علما . ولما سئل ابن عباس عن علم علي أجاب : ما أنا إلا قطرة من بحار علمه ، وإذا كان الرسول مدينة العلم فعلى بابها ، وقد دعا رسول الله لعل أن يهديه في القضاء بقوله : اللهم اهد قلبي وثبت لسانه ولقنه الصواب ، ومن هنا كان علي أقضى الناس حتى ضرب به المثل فكانوا يقولون « قضية ولا أبو حسن لها » وحثه الرسول على استعمال العقل والفكر فقال له : يا علي إذا تقرب الناس إلى الله بأنواع البر فتقرب أنت إليه بحكمة العقل ، تسبقهم بالدرجات والزلي عند الناس وعند الله ، ويعلق بعض الباحثين (٢) على هذا الحديث بقوله : إن رسول الله يذكر أن ثروة على كانت في علمه وعقله ، ويستطيع بها أن يتقرب إلى الله بتعليم الجاهل وحل مشكلات الخلق ، وهو بذلك ينال الحظوة عند الله والناس .

معاذ وسالم :

فإذا انتقلنا بعد هذه العجالة عن علي إلى معاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة فإننا نروى عن الإمام البخاري قوله : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خذوا القرآن عن أربعة : عن ابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة » وكان المهاجرون الذين قدموا

(١) البلاذري : أنساب الأشراف ص ٢٦١ .

(٢) محمد التاجي : سيرة النبي العربي ج ٢ ص ٤٢٠ .

إلى قباء يؤمهم سالم مولى أبي حذيفة لأنه أكثرهم قرآنا وإن فيهم عمر بن الخطاب وأبا سلمة بن عبد الأسد (١)

حذيفة بن اليمان :

وكان حذيفة بن اليمان يسمى صاحب السر ، لأن الرسول أفضى إليه بعض الخصاص التي كان يقوى على تفهمها أكثر مما يقوى سواه ، وذلك عملا بأمر الله الذي ألزم العلماء أن يخاطبوا الناس بقدر عقولهم ، ولذلك كان عمر يسأل حذيفة كيف يراه بعين بصيرته (٢) مما يدل على أن لحذيفة بصيرة ليست لسواه .

قلك لمحة عن بعض نماذج من العلماء الذين غنى الرسول بتربيتهم وتنقيفهم ، وحديثنا عن العلماء امستمر ، وبخاصة أولئك الذين اختارهم الرسول ليحملوا أعباء الدعوة معه في حياته ، أو ليحملوها بعده ، وأول مبعوث للرسول مصعب بن عمير الذي أرسله الرسول إلى يثرب قبل الهجرة ، ومن مبعوثي الرسول على بن أبي طالب الذي أرسله إلى اليمن ، وأبو عبيدة بن الجراح الذي أرسله إلى نجران ، ومعاذ بن جبل الأنصاري الذي أبقاه الرسول بمكة عقب فتحها وعودة الرسول إلى المدينة ، وأبو ذر الغفاري الداعية الناجح الذي أسلم قومه وجيرانهم بدعوته لهم .

ما الصفات التي لاحظها الرسول في هؤلاء الذين اختارهم ليكونوا دعاة الإسلام ؟ وما النصايا التي قدمها لهم وهم يخطون لحمل هذه المسئولية ؟

(١) البلاذري : أنساب الأشراف ص ٢٦٤ .

(٢) سيره النبي العربي ج ٢ ص ٤١٠ .

لقد تكلمنا من قبل عن بعض هؤلاء في مجال العلم ، ولكننا نتحدث عنهم هنا والرسول يختارهم دعاة لحمل الرسالة ، وأبرز الصفات التي يلزم أن تتوافر في الداعية هي العلم ، وعدم الحرص على ترف الحياه ، والرغبة في العطاء ، وقوة البيان ، وسماحة النفس ، ونقاء السريرة ، والشجاعة في مواجهة الشدائد ، وهذه الصفات جميعها كانت واضحة المعالم في الدعاة الذين اختارهم الرسول لحمل مسئولية الدعوة إلى الله ، وسنستعرض صفات هؤلاء الأعلام الذين كانوا مطلع الدعاة لنجعلهم أئمة لنا في مجال الدعوة .

مصعب بن عمير :

مصعب بن عمير أول الدعاة ، فقد اختاره الرسول كما ذكرنا من قبل ليذهب إلى يثرب مع نفر الذين بايعوا الرسول في بيعة العقبة الأولى ، وكان مصعب بذلك مُقَدِّماً على عمل خطير ؛ إنه يقتحم يثرب ليواجه فيها جمهرة واسعة من الذين لم يدخلوا الإسلام بعد ، وكان مصعب جديراً بحمل هذه المهمة ، فقد كان من السابقين إلى الإسلام ، وقد دخل هذا الدين على الرغم مما توقعه من تهديد أمه التي كانت قوية الشكينة ، تُهاب إلى حدّ الرهبة كما كانوا يقولون ، ونفّذت أمّه تهديدها فيه بعد أن دخل الإسلام ، فحرمته ما كانت تغدقه عليه من مال ونعيم ، واضطهده أهله وجبسوه ولكنه فرّ منهم وهاجر إلى الحبشة ، بيد أنه مرعان ما عاد من الحبشة ، لأنه آثر أن يواجه الشدائد على الفرار منها ، وسنعود فيما بعد إلى الحديث عن مصعب كشاب اعتنق الإسلام على الرغم من أمه ، ونواصل هنا حديثنا عن مصعب كداعية .

وقد اكتسب مصعب بتجربة الحبشة خبرة واسعة في مجال عرض الدعوة وشرحها ، ثم إن التجربة القاسية التي عاناها مضطهداً في مكة علمته أن يحتمل الاضطهاد ، فإذا أضفنا إلى ذلك سعة العلم ، والحنكة السياسية ، وسعة الأفق ؛ أدركنا أن الرسول رأى فيه الصفات التي ترشحه ليكون الداعية الأول لينشر الإسلام بالمدينة ، ويقرى المسلمين القرآن ، ويفقههم في الدين ،

وليرشد المسلمين هناك إلى آداب الإسلام وتعاليمه (١)

ويقول أحد الباحثين (٢) أن الرسول اختار مصعب الجبير وهو يعلم أنه يكل إليه أخطر قضايا الساعة ، وبقى بين يديه بمصير الإسلام في المدينة التي ستكون دار الهجرة ومنطلق الدعوة والدعاة ، والمبشرين والغزاة ، بعد حين من الزمان قريب ، وحمل مصعب الأمانة مستعيناً بما أنعم الله عليه من عقل راجح وخلق كريم ، فغزا أفئدة أهل المدينة بزهد وترفه وإخلاصه ، فدخلوا في دين الله أفواجا ، وأثبت مصعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عرف كيف يختار .

وفي المدينة اتخذ مصعب دار أسعد بن زرارة مركزاً له ، وكان أسعد من أسبق الأنصار في الإسلام ومن حضروا بيعة العقبة الأولى (٣) فكان المسلمون يجتمعون حول مصعب ليقرأ لهم القرآن ويؤمهم في الصلاة ، وفي بعض الأحيان كان مصعب وأسعد يتنقلان في دور بني عبد الأشهل لدعوة الناس إلى الإسلام .

ولما عرف سعد بن معاذ وأسيد بن حُصَير شيخاً بنى عبد الأشهل ذلك ، ضاقا بهذا التصرف ، ويروى أن سعد بن معاذ قال لأسيد : انطلق إلى هذين الرجلين (مصعب وأسعد) اللذين أتيا دارنا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما وانهما عن أن يأتيا دورنا ، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث قد علمت لكفيتك (وكان أسعد ابن خالة سعد بن معاذ) واستجاب أسيد لسعد وتناول حربته وانطلق إلى حيث يوجد أسعد ومصعب ، وصاح بهما : ما جاء بكما إلينا ، اعتزلانا إن كانت لكما حاجة للحياة ، فأجاب مصعب في هدوء : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ ص ٥٨ .

(٢) خالد محمد خالد : رجال حول الرسول ص ٤٦

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ ص ٥٦ .

كرهته قاومته . فجلس أسيد وسمع لمصعب الذي مضى يشرح مبادئ الإسلام ويقرأ آيات من القرآن الكريم ، فتأثر أسيد بذلك وصاح مأخوذاً : كيف يصنع من أراد أن يدخل هذا الدين ؟ فأجاب مصعب : يشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فاستجاب أسيد وردد شهادة الإسلام ، ثم قال : إن ورأى رجلاً (يقصد سعد بن معاذ) إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه . وجاء سعد إلى حلقة مصعب وتأثر بما سمعه كما تأثر أسيد ، وأعلن دخوله دين الله ، ورجع إلى قومه يلتهب حماسه ، وصاح فيهم قائلاً : يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم ؟

قالوا : سيدنا ، وأفضلنا رأياً ، وأميننا نقيبة ، فقال سعد : فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله . وتدفق بنو عبد الأشهل يدخلون دين الله ، ويمثل هذه الحداثة كان نشاط مصعب الذي امتد من ربيع إلى ربيع ، ومن جماعة إلى أخرى في كل الربوع العربية في المدينة .

وفي موسم الحج التالي عاد مصعب مع وفد المدينة إلى مكة ، ويروي أنه اتجه على إثر وصوله إلى بيت النبي صلى الله عليه وسلم ليروي له ما حدث في المدينة ، فلما عرفت أمه خبر مقدمه أرسلت له تقول : أنت ابن عاق ، تدخل بلداً أنا فيه ولا تبدأ بي ، فقال مصعب : لحامل رسالة أمه قل لها : ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذهب مصعب لأمه عقب لقائه الرسول فصاحت به افتقدتك بالحبيشة مرة ويثرب مرة أخرى ، أما أن لك أن تجلس هنا ؟ فأجابها : إني أفرُّ بدني خوف أن تفتنوني . فقالت له : لأحبسك . فأجاب : لأن حدث هذا لأحرصن على قتل من يتعرض لي . فيئست منه أمه وتركته لشأنه (١) .

على بن أبي طالب :

سبق أن تحدثنا عن علي بن أبي طالب وذكرنا أنه نال من العلم والصفاء

(١) ابن هشام : ج ٢ ص ٥٨ وما بعدها بتصرف .

فيضاً اكتسبه من عشرته للرسول ومن نشأته في بيته ، حتى يمكن القول إن علياً كان أكثر المسلمين تأثراً بالرسول في هذين المجالين .

أما الحديث عن زهد علي فيوضحه أنه عاش عمراً فقيراً اقتداءً بسيد البشر، وكانت زوجته السيدة فاطمة تطحن القمح بيدها حتى كلت هذه اليد ، وتحمل القربة حتى أثرت في نحرها ، وكنست البيت حتى اشبرت ثيابها ، ولما قص عليٌ على الرسول ألم ابنته من الطحن وحمل القربة ، وأعمال المنزل ، وأنها تحتاج خادماً يقبض عنها ما تلاقى ، التفت لها الرسول وقال : يا فاطمة : اتقي الله وأدى فريضة ربك ، واعمل عمل أهلك ، ويروى أنه نزلت في زهد علي ورغبته في العطاء الآية الكريمة « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » (١).

أما بطولة علي فكانت مضرب المثل ، وقد صارع عليٌ أبطال الشرك وصرعهم ، ومن أعنى هؤلاء عمرو بن ود الذي ضربه ضربة قاضية في غزوة الخندق . ومما يدل على بطولته وحبه لله ورسوله ما رواه البخاري من أن الرسول قال يوم خيبر : لأعطين هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه . قال عمر ما أحبيت الإمارة إلا يومئذ ، فتساورت (تطلعت) للرسول رجاء أن أدعسى لها ، ولكن الرسول دعا علي بن أبي طالب وأعطاه الراية .

وفصاحة عليٌ مضرب المثل فقد رويت عنه نصائح غراء لولائه عندما أتته له الخلافة ، وهي نصائح تحمل البلاغة وقوة البيان من جانب ، كما توضح من جانب آخر أنه في مجال الفكر والخلق كان إنساناً مثالياً ، إنه القائل : أطلق عن الناس عقدة كل حقد ، وتغاب عن كل مالا يصح لك ، ولا تعجلن إلى تصديق ساع ، فإن الساعي غاشٌ وإن تشبه بالناصحين ، ولا تدخل في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الإحسان ويخوفك الفقر ، ولا جباناً يضعفك عن الأمور ، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجرور ، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله ، والصق

أخلى الورع والصدق ، ثم رُضُّهم (عودهم) على الأباطرك ، فإن كثرة الإطراء تُحدث الزهو ، وإيّاك والإعجاب بنفسك ، فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان يمحى به ما يكون من إحسان المحسنين ، وإيّاك والمن على رعيّتك بإحسانك فإن المن يطل الإحسان ، واعلم أن الأمر مأخوذ منك لغيرك (١)

وعلى هذا فقد كان على من أجدر المسلمين بمكانة الداعية ، وقد فتح الله له الأبواب في بلاد اليمن ، ويسر له كل صعب ، مما سهل انتشار الإسلام في هذه الأصقاع .

أبو عبيدة بن الجراح :

أبو عبيدة من السابقين الأولين ، ومن مريدى مدرسة الأرقم بن أبي الأرقم ، ومن هنا فقد كان في مقدمة القائمة في العلوم والمعارف .

وقد هاجر أبو عبيدة إلى الحبشة ، ولكنه سرعان ما عاد ليلاقى أى خطر من أجل دينه ، فلم يكن أبو عبيدة بالذى يرضى بالهرب ويؤثر السلامة ، وهاجر بعد ذلك إلى المدينة ، وصحب الرسول في غزوة بدر وغزوة أحد وبقية المشاهد جميعا . ولأبى عبيدة في غزوة أحد موقف جدير بالذكر ، ففي هذه الغزوة سقط الرسول صلوات الله عليه في حفرة أعدها المنافقون ، وشُجَّ في رأسه ، ونشبت حلقتان من حلق المغفر في وجهه ، فتقدم أبو عبيدة لينتزعهما ، ولم يتم له ذلك إلا بعد أن سقطت ثيابه من فرط الجهد ، وكان أبو عبيدة يفخر بالهتم الذى حدث له وهو يزيل الأسى عن الرسول .

وجاء إلى الرسول وفد نجران يعلنون إسلامهم ، وقد أكرمهم الرسول أيما إكرام ، وطلبوا من الرسا ، أن يبعث معهم من يعلمهم القرآن ، وعلوم السنة والفكر الإسلامى ، فقال للرسول لهم : لأبعث معكم رجلا أمينا حق أمين ، حق أمين ، حق أمين ، وسمع الصحابة هذا الوصف

(١) سيج البلاغة : ص ٣٣٥ وما بعدها .

فتمنى كل واحد منهم أن يكون هو الذى عناه الرسول ، واشرباً كل منهم لتقع عليه عين الرسول لعله يكون هذا الذى شهد له الرسول بالأمانة وكرر الشهادة ، وأخذ الرسول يسرخ ببصره بين أصحابه حتى التفت عنه بعين أبي عبيدة بن الجراح فدعاه إليه وقال له : اخرج مع هؤلاء علمهم واقض بينهم فيما اختلفوا فيه ، وأصبح أبو عبيدة منذ ذلك الحين معروفاً بأنه أمين الأمة .

ومما يدل على إثارة وعدم اهتمامه بمظاهر الحياة أن الرسول صلوات الله عليه أرسله أميراً على مدد بعث به لمساعدة عمرو بن العاص فى غزوة ذات السلاسل ، وكان ضمن جنود أبي عبيدة أبو بكر وعمر ، وقال الرسول لأبي عبيدة : تعاون مع عمرو ولا تختلفا . ولما التقى القائدان برزت مظاهر الخلاف ، فقد قال عمرو : أنا أمير الجيش وأنتم جئتم لمساعدتى فأنتم تحت إمركى ، وقال بعض جنود أبي عبيدة لقد جئنا تحت إمرة أبي عبيدة ونحن نتبع أمره ، ولكن أبا عبيدة حسم الخلاف بسرعة وقال : مالمظاهر الحياة سعيها ، وقد أوصانى الرسول ألا تختلف ، وأنا بأعمرو أحد جنودك فرنى ومضى من معى بما تشاء .

ومن إثارة المصلحة العامة ما يروى أن خالد بن الوليد كان أمير جيش المسلمين فى حرب الشام ، ولما مات أبو بكر الصديق وجاء عمر بن الخطاب نقل عمر قيادة الجيش إلى أبي عبيدة ، وتلقى أبو عبيدة أوامر عمر والمعركة تدور ، وأخفى الأمر حتى انتهت المعركة ، ثم قدمه إلى خالد ، وخضع خالد للأمر ، وقال لأبي عبيدة : لماذا لم تخبرنى عند وصول أمر الخليفة إليك لأننى لك عن الأمانة ؟ فقال أبو عبيدة : ياخالد مالالإمارة سعيها ، وقد كرهت أن أكسر عليك جهلك ، وما سلطان الدنيا نريد ، ولا للدنيا نعمل .

وعندما تم فتح الشام صار أبو عبيدة أميراً لها ، وزار عمر الشام آنذاك ، ودخل بيت أبي عبيدة ، فوجد مظاهر الخشونة بارزة فيه ، فسأله عمر : لِمَ لَمْ تتخذ لنفسك منزلاً طيباً مقاماً وأغنى أثاثاً ؟ فأجاب : هذا يبلِّغنى المقبل .

وكان عمر يفكر في أن يسند الخلافة من بعده إلى أبي عبيدة ، فشهادة الرسول بأنه أمين الأمة تهيئة ليكون أمير المؤمنين ، ومن أجل أن يحقق عمر رغبته بعث يستدعي أبا عبيدة من الشام عندما فشا الطاعون هناك لينجو أبو عبيدة من الموت ، فكتب له عمر كتابا يقول فيه : . . أنى عَرَضْتُ لى إليك حاجة أريد أن أشافئك فيها ، فعزمتُ عليك إذا نظرت في كتابى هذا ألا تضعه من يدك حتى تُقبل على . ولكن أبا عبيدة أدرك ما أراده عمر ، وعزَّ عليه أن يترك جيش المسلمين وينجو بنفسه ، فكتب إلى عمر يقول : إنى قد عرفت حاجتك إلى ، وإنى فى جند من المسلمين لا أجد بنفسى رغبة عنهم ، فحللُنى من عزمك يا أمير المؤمنين . وجاء الكتاب إلى عمر فلما قرأه بكى ، فسأله الناس : هل مات أبو عبيدة ؟ فأجاب : لا وكأنْ قَدْ . ومات أبو عبيدة بعد ذلك فى وسط الوباء (١) .

تلك لحظة من سيرة أبي عبيدة ، وهى توضح أنه كان جديرا ليكون داعية الإسلام ومبعوث الرسول إلى جانب من الأرض ، وقد أدى أبو عبيدة عمله خير أداء وترك أعظم الآثار فى المنطقة التى ذهب إليها .

معاذ بن جبل :

ترك الرسول صلوات الله عليه معاذ الأنصارى بمكة عقب فتحها عندما أراد الرسول العودة إلى المدينة ، واختيار معاذ لهذا السمل اختيار انبى على حكمة عليا لاحظها الرسول ، ففيه - بالإضافة إلى صفات العلم والإيثار والشجاعة وسماحة النفس - تكريم الأنصار أن يصبح شاب من شبابهم داعية الإسلام بمكة ، ثم أن مصعب بن عمير الذى أرسل من مكة للهداية والتعليم يثرب يقابله الآن واحد من الأنصار يبقى فى مكة لنفس الأغراض ، ومن الملاحظات كذلك أن بلاد الإسلام وحدة واحدة ، فليست هناك نوازع إقليمية تتدخل أو تحرك الأمور .

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٢٠١ والكامل لامين الأثير ج ٢ ص ٢٧٥ .

وكان معاذ من السابقين للإسلام من أبناء يثرب ، وقد حضر بيعة العقبة الثانية حيث دعا أهل يثرب الرسول للهجرة وتعهدوا بحمايته ، ومنذ ذلك الحين وهو يقف بجوار الرسول مريدا ومجاهدا ، وقد وصل إلى القمة في الجانبين ، فكان في العلم منارا ، وفي الجهاد سيفا بشارا ، وكان معاذ سمحا كريما حتى ذهب جوده بكل ما يملك ، والرغبة في العطاء من أهم الصفات التي محتاجها الداعية ولا يمكن أن ينجح في الدعوة الرجل السكر الذي يسعى ليأخذ ويعيش لينال .

وقد وصل معاذ في العلم والمعرفة ، درجة كبيرة ، ويروى أن الرسول قال عنه : إن العلماء إذا حضروا ربهم عزوجل كان معاذ بينهم ، وكان أصحاب رسول الله إذا جلسوا يتحدثون وفيهم معاذ نظروا إليه في هيبة ، وكان المتحدثون إذا اشتد عليهم من الحديث شيء ، ردوه إلى معاذ ، فأفتاهم .

وكان معاذ حريصا على العمل بالعلم ، وهو في ذلك يقول : تعلّموا ما شئتم فإن ينفعكم الله بالعلم حتى تعملوا به ، وكان يميل إلى القصد في العبادة ، وهو في ذلك يقول : صُمُّ وأفطر ، وصلِّ ونم ، . . . وإياك ودعوة المظلوم .

وبالإضافة إلى العلم وسباحة النفس والرغبة في العطاء كان معاذ يمتاز بالحكمة والفكر والتدرة على الاجتهاد ، وكان الرسول يحس فيه هذه الصفات ، ولذلك اختاره ليكون داعية الإسلام باليمن ، وقاضى الجماعة هناك ، ودار بينه وبين الرسول حوار أثبت فيه معاذ ما أَرْضَى الرسول عن وفادته ، وفيما يلي نص هذا الحوار :

— يا معاذ بم تقضى بين الناس ؟

— بكتاب الله

— فإن لم تجد في كتاب الله ؟

— أقضى بسنة رسوله

— فإن لم نجد في سنة رسوله ؟

— أجنهد رأيي .

وفرّح الرسول بإجابات معاذ وقال : الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضى الله ورسوله .

ومات معاذ في بلاد الشام وكان قد هاجر إليها بعد فتحها ليعلم أهلها وينشر الإسلام بها ، وعندما مات أبو عبيدة وإلى الشام ولاه عمر مكانه ولكن عُسّر له في الولاية لم يكن طويلاً . وثلاثي هناك ربه .

وعندما حانت وفاة عمر وسأله المسلمون أن يولى عليهم خلفاً له كان فيما قال لهم : ولو كان معاذ حيّاً لوليت به بعد أن سمعت النبي يقول : معاذ بن جبل إمام العلماء يوم القيامة .

وهكذا نجد معاذاً رائداً عظيماً من رواد الدعوة في الإسلام :

أبو ذر الغفاري :

مع أبي ذر الغفاري تقابل داعية ناجحاً أسلمت على يده قبيلته غِفَار وقبيلة أسلم التي كانت تجاور قبيلته ، ولم يكلفه الرسول بدعوة هؤلاء ، فقد كان الوقت مبكراً ، ولم يجرّ الرسول بالدعوة بعد ، ولكن الدعوة إلى الله لا تحتاج إذناً ولا تكليفاً ، فعند ما يطبقها الداعية ينبغي أن ينطق بها لوجه الله ، ولعلّ أبا ذر ، جندب بن جنادة ، كان وجيهاً في هذا المجال .

لقد كان أبو ذر غير مقتنع بالأصنام ، وكان يسخر منها ومن عابديها ، وكان يتطلع إلى الهدى ، ويحس بأن الإله خالق عظيم ، ولا يمكن أن يكون من نوع هذه الحجارة أو الأشجار ، وبينما كان أبو ذر في حيرته وتفكيره مرّت قافلة بأرضه وافدة من مكة المكرمة ، وعلم أبو ذر من رجالها أن رجلاً ظهر بمكة يقول بأنه يوحى له من السماء ويهاجم الأصنام ويدعو إلى الله . فأرسل أبو ذر أخاً له يدعى «أنيس» إلى مكة ليتعرف له خبر هذا الداعية ، وذهب أنيس . وكان هذا كائن فيه متمرداً على عبادة الأصنام ، ولذلك أعجب بما سمعه

من الرسول ، وعاد يحمل هذه الأنباء الطيبة إلى أخيه أبي ذر ، فأسرع أبو ذر بالرحيل إلى مكة ليرى بنفسه حقيقة الأمر ، وفي مكة واجه أبو ذر رسول الله وقال له : أنشدني مما تقول .

فأجابه الرسول : ما هو بشعر حتى أنشدك . إنه قرآن كريم .

قال أبو ذر : اقرأ عليّ . فقرأ الرسول عليه فهتف أبو ذر بالشهادتين ، ودخل أبو ذر الإسلام والدعوة لا تزال سرّاً ، فكان من العشرة السابقين للإسلام ، ويقول أبو ذر : كنت رُبْع الإسلام ، أسلم ثلاثة وكنت الرابع (١) .

ودخل قتي من غِفَار في الإسلام كان خطيراً لأن قبيلته غِفَار من أخطر القبائل العربية وأعتاها ، حياتها قطع للطريق وعدوان على الآمين ، ولكن الله يهدي من يشاء ، ونشأة أبي ذر في قبيلة كهذه جعلته يستصغر كل صعب ، ويميل للمغامرة والمخاطرة ، ومع علمه بأن الدعوة كانت سرّاً لم تعرف الجهر بعد ، فقد أحدث بمكة حدثين خطيرين .

فه الحدث الأول راح إلى الكعبة وهي تعج بالأصنام وعابديها وصرخ : لا إله إلا الله محمد رسول الله . وتجمع القوم عليه وأوسعوه ضرباً ولكماً وإبذاء ، حتى خر من فرط الضرب ، ولم تُسْقِذْه من أيديهم إلا صيحة خبير قرشي نادى بأعلى صوته : يا معشر قريش إن الرجل من غِفَار ، وإن استعدى قومه الذين يعيشون في طريق تجارتكم فالويل لكم . ونجا أبو ذر بسبب حكمة العباس عم النبي الذي قال هذا القول (٢) .

أما المخاطرة الثانية فكانت عند ما رأى امرأتين وثنتين تطوفان بالأوثان ، وتلمسان منها البركة وتقدّمان القرابين ، فاعترضهما أبو ذر ، وهاجم الأصنام والعقول التي تعبدّها ، وكان تعرضه للنسوة مثيراً للرجال ، فأقبلوا عليه وضربوه ضرباً مبرحاً حتى سقط مغشياً عليه .

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٢ ص ٣٨ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٣٧ .

ووجد الرسول أن من الحكمة أن يبعد أبا ذر عن قريش ، فليس أبو ذر بالرجل الذى يُسرُّ عبادة الله ، وليست قريش بالجماعة التى تقبل كلمات التوحيد ، ولهذا طلب الرسول من أبي ذر أن يعود إلى قومه غفار ، فذلك خير له وللإسلام ^(١) .

وعاد أبو ذر ، وكان الجهر بالإسلام فى غفار على يده أسبق جهر بالإسلام فى قطعة من الأرض ، فإذا كان أبو ذر قد جهر بالإسلام فى مكة بين صلابة الباطل ، فإيا أسر أن يجهر بالإسلام بين بني قومه ، وسرعان ما استجاب لأبي ذر أهله وذووه ، ثم امتدت الاستجابة فشملت غفار كلها . ثم انتقل إلى قبيلة أسلم التى كانت تتجاور قبيلته ، فارتضى الكثيرون منها دين الله ، واهتدى على يد أبي ذر أولئك الذين كانوا بالأمس قطاع طريق ومثيرى الشغب .

وشهدت المدينة المنورة عقب الهجرة موكباً حافلاً يخترق الصحراء ويشير الغبار ، حتى ظنَّ بعض الناس أنه حملةٌ من أعداء الاسلام على المدينة ، ولكن سرعان ما تبين أنهم وفد غفار وأسلم ، جاءوا لمقابلة الرسول والتمن بلقائه .

وهكذا نرى داعية من نوع جديد ، داعية مبكراً بالدعوة لدين الله ، ربما أرسله الرسول إلى غفار لحمايته من قريش ، ولكن أبا ذر ما كان يخاف إلا الله ، فراح يحمل الدعوة إلى قومه ولأقربى منهم استجابة طيبة نقلت الأشرار إلى أطهار والمعتدين إلى داعين ، ولذلك وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : ما أقلَّت الغزاة ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر .

وعاش أبو ذر بنفس طاهرة لم يلوثها المال والأنكباب على الدنيا ، وعاش عدواً للانتهازية والحرص ، وكان فى ذلك جريئاً جرأة سببت له

كثيراً من المشكلات والمتاعب ، ولكن جرائته كانت أمينة ومعارضته كانت نزيهة ، فلم يرفع سيفاً ، ولم يقبل أن ينضم للثوار ضد عثمان ، وكان يعارض بعض التصرفات المالية ، ولكن لا يثور على الخليفة ، وقد لخص أبو ذر اتجاهاته في وصية كان يرويها عن الرسول وهي :

أوصاني خليلي بسبع : أمرني بحب المساكين والذين منهم ، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر إلى من هو فوق ، وأمرني ألا أسأل أحداً شيئاً ، وأمرني أن أصل الرحم ، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرأى ، وأمرني ألا أخاف في الله لومة لائم ، وأمرني أن أكثر من قول لاحول ولا قوة إلا بالله (١) .

وكان أبو ذر حامل راية غفار يوم حنين ، واشترك في غزوة تبوك ، كما اشترك في الحروب خارج الجزيرة العربية في عهد أبي بكر وعمر ، ولكن الحرب التي اهتم بها كانت حربه ضد مكنتزي الأموال ، وقد ظهر تحديه لهؤلاء إبان عهد عثمان الذي أجزل العطايا للأغنياء ، وكان أبو ذر يرى أن الفقراء أولى بها ، وأنكر أبو ذر على الصحابة أن يكتزوا الأموال ، وراح يعلن رأيه في كل مكان ، وزار الشام وكان معاوية والياً عليها ، وهاجم ما رآه من بدخ في قصور معاوية ، ويروي أن معاوية أراد أن يختبر أبا ذر ويرى صدق اتجاهه إلى الرغبة عن المال فأرسل إليه ألف دينار في جنح الليل ، وأخذ أبو ذر دون توانٍ في تفريقها على المحتاجين حتى إذا طلع النهار كانت داره قد خلت منها جميعاً ، فلما صلى معاوية الصبح دعا رسوله فقال : اذهب إلى أبي ذر فقل له : أنقذ جسدي من عذاب معاوية . فإني أخطأت ولم تكن الهدية لك ، فقال أبو ذر : يا بني 'عد' إلى معاوية فقل له : والله ما بقي في دارنا من المال شيء ، ولكن أنظرنا ثلاثاً حتى نجتمع لك دنائيرك ، فلما عرف معاوية حقيقة الرجل خاف منه ، فكتب إلى عثمان يقول : أما بعد فإن كان لك بالشام أو بأهله حاجة

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٤٠ .

إليه ، إلى أبي ذر ، فإنه قد غل صدور الناس ، فكتب إليه عثمان يستدعيه ،
فندم عليه (١)

وقد حاول الثائرون على عثمان أن يضموه إلى صفوفهم ، فرفض وقال :
ما لهذا خرجت . وكان رأى عثمان أنه ليس من حق الخليفة أن يفرض
الزهد على الناس ، ومن هنا كان اختلاف الرأى بينه وبين عثمان ، وكانت
النهاية الطبيعية لأبي ذر أن يعيش في الربذة ، فلاة من الأرض ، ليعبد عن
الثروات والثروات ، وعاش بها حتى مات . تحققاً بذلك قوله صلى الله
عليه وسلم : يرحم الله أبا ذر ؛ يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده .

وصايا الرسول للدعاة :

لدينا عدة وصايا قدّمها الرسول للدعاة الذين أرسلهم لحمل الإسلام
إلى بقاع مختلفة ، ولتعلم المسلمين ، ومن الطبيعي أن هذه الوصايا نماذج
حية ينبغي أن نستفيد بها في حاضرنا ومستقبلنا ، وسنوجز فيما يلي بعض
هذه الوصايا :

قال صلوات الله عليه لمعاذ بن جبل : إنك ستأق قوما أهل كتاب ،
فإذا جئهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ،
فإن أطاعوك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة ،
فإن هم أطاعوا فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم
فترد على فترائهم ، فإن هم أطاعوا فأياك وكراهم أموالهم ، واتق دعوة
المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب .

وأرسل رسول الله صلوات الله عليه خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن
كعب وأمره ألا يقاتلهم ثلاثة أيام ، وأن يدعوهم إلى الإسلام ويعلمهم دعائم
الدين وكتاب الله وسنة نبيه ، فذهب خالد بذلك ، فاستجاب له بنو الحارث ،

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٤٠ .

وكتب خالد بذلك للرسول ، فأجابه الرسول بكتاب يحمد الله فيه أن اهتدى هؤلاء إلى الإسلام ، وطلب من خالد أن يبشرهم وينذرهم ، كما طلب منه أن يعود إليه ومعه وفد منهم . وعاد خالد ومعه هذا الوفد ، والتقى بهم الرسول فوعظهم وزكاهم ، ثم أرسل معهم عمرو بن حزم الأنصاري ليفقههم في الدين ويعلمهم السنة وتعاليم الإسلام ، وكتب إليه كتابا طويلا يكون دستوره في هذا العمل ، ونقتبس منه بعض فقرات :

أمره بتقوى الله في الأمر كله « فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » وأمره أن يأخذ الحق كما أمره به الله ، وأن يبشر الناس بالخير ويأمرهم به ، ويعلم الناس القرآن ، ويفقههم في الدين ، وينهى الناس عن الشر ، ويلين إلى الناس في الحق ، ويشدد عليهم في الظلم (١) .

ذلك هو الطريق الذي ربي الرسول الدعاة عليه ، وهو بذلك يعطينا نموذجا ينبغي أن نقتدى به في عهدنا الحاضر وفي المستقبل ، فداعية اليوم ينبغي أن يكون عالما واسع الفكر والفقه ، وأن يحفظ القرآن الكريم أو أكثره على الأقل ، ويحفظ مجموعة مناسبة من أحاديث الرسول ، وأن يكون واسع الاطلاع وبخاصة في العلوم الإنسانية التي ترفع شأنه وتطلق لسانه بين الجماهير ، ويتحتم على داعية اليوم أن يكون عالما بعلوم العصر التي تفيد أكبر إفادة في نطاق الدعوة مثل مقارنة الأديان والحضارة الإسلامية ، وأن يكون ذا عقل راجح يتعرف أحداث التاريخ بذكاء وعمق ، فلا يخذله ما وجد في التاريخ الإسلامي من انحراف ، بل يكون قادرا على تصحيح جوانب هذا التاريخ .

ويتحتم على داعية الحاضر والمستقبل أن يجيد لغة أوربية عالمية حتى يستطيع أن يحضر المؤتمرات الإسلامية العالمية ويحدث المسلمين غير العرب وقد كنا حديثا في مؤتمر إسلامي في باكستان ، وقبل ذلك كنا في مؤتمر بماليزيا

وأسبانيا وكانت اللغة الإنجليزية هي لغة المؤتمر والمؤتمرين . وبالإضافة إلى اللغة العالمية ينبغي على الداعية أن يجيد لغة البلاد التي يعمل بها ، وعلى الداعية المسلم بوجه عام والعربي بوجه خاص أن يجيد اللغة العربية ، وأن تكون لديه القدرة على الأداء بها ومعرفة أساليب البلاغة فيها ، فهى اللغة الأصيلة للدعوة الإسلامية .

ويتحتم أن يكون داعية الحاضر والمستقبل بعيداً عن حدود الوظائف التي تسعى للمال وتعمل للاستزادة منه ، إذ ينبغي لهذا الداعية أن يكون فيه خلق العطاء . كما رأينا من النماذج التي أسلفنا الحديث عنها ، وليس معنى هذا أن يكون الداعية محروماً ، بل ينبغي أن تعطيه الحكومات ما يحتاجه ، ولكننا نريده هو متطوعاً للبقاء أكثر من تطلعه للنعم الزائل .

ويتحتم أن يكون داعية الحاضر والمستقبل حسن العشرة سمح النفس واسع القدرة على الحوار الذي ينطبق عليه قوله تعالى « وجادلهم بالتى هي أحسن » وقوله « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » .

ويتحتم على داعية الحاضر والمستقبل أن يبشر بالخير ويتعرف على روح الإسلام وألا تكون مجالسه حافلة بالتخويف من الآخرة ، بل أن يكون الأمل فى النجاة منهجاً له ، وأن تكون وسائله للوصول إلى الغاية سهلة يسيرة ، فالدين يسر لا عسرفيه ، ويتحتم عليه أن يهتم اهتماماً كبيراً بمشكلات الناس والحياة وأن يحاول أن يعالجها بروح الإسلام ، وأن يتذكر دائماً جانب المعاملة فى الفكر الإسلامى ، فليس الإسلام عبادة فقط كما يصوره كثير من الدعاة ، بل إن الإسلام يهتم بعلاقة الإنسان بربه كما يهتم بعلاقة الإنسان بالإنسان والمجتمع

ولاشك أننا إذا ربنا الداعية المسلم على هذا النمط أمثلنا منه خيراً كثيراً للإسلام والمسلمين .

خطر ينبغي الحذر منه :

وبعد أن تحدثنا عن محمد الداعية وعن وسائل تربية الدعاة نصل إلى نقطة خطيرة ، هي أن نشاط الدعاة المسلمين الأول سواء أولئك الذين رباهم الرسول أو الذين نجاءوا على شاكلتهم في القرون الأولى هو الذي دفع سواهم من أتباع الديانات الأخرى ليسيروا سيرتهم في الدعوة لأديانهم ، وعلى هذا فعندما نستعرض الحركات الدينية بالعالم خلال القرون الماضية نجد أن الإسلام قد انتشر بطريقة رائعة في مختلف البلدان ، فيما يسمى اليوم بالعالم العربي ، وفي شبه جزيرة الهند وفي الأندلس ، وفي جنوب الصحراء الإفريقية ، كما نجد أن انتشار الإسلام في تلك النواحي وسواها جاء على حساب أديان ومعتقدات أخرى كانت في تلك المناطق وآثرت الانكماش والتخلي عن بعض مناطق نفوذها للزحف الإسلامي ، الذي كان يهدر ولا يستطيع قوة أن تقف أمامه .

ولكن هذا النشاط الإسلامي دفع بعض الديانات التي تراجعت إلى إعداد دهاة ومبشرين للصمود والمقاومة والهجوم ، وبينما كان هؤلاء يتجهون هذا الاتجاه ، كان الدعاة المسلمون يرجعون القهقري ، وينكصون عن الاستعداد ، وأصبح أكثر الدعاة المسلمين لا يتمتعون بالكفاءة والمثابرة التي كان يتمتع بها أسلافهم ممن حملوا الإسلام إلى مختلف البقاع .

وهذا الوضع يصور كارثة كبرى ومحاولة لقلب كفتي الميزان ، لترجح الكفة التي كانت شائلة ، ولتشيل الكفة الإسلامية التي كانت راجحة ، وهذا يدعو إلى سرعة التصرف لنعد للدعوة رجالاً أفاضاً يحملون العبء الذي كان يحمله المسلمون في العهود السابقة .

وإعداد هؤلاء الدعاة يجعلنا نحتاج إلى شباب لهم مواهب عالية ، وإلى مناهج تنمى هذه المواهب ، وتسكب في هذه العقول صور الفضائل ،

وصور الفكر، ليحملوا المشعل، وليسيروا بالهداية إلى كل مكان ، أما الشباب ذوو المواهب فيجب البحث عنهم وتشجيعهم بكل الوسائل ليتجهوا هذا الاتجاه ، ومن عجب أننا نلاحظ قوى هائلة تبحث عن الأصوات الجديدة للغناء وتبحث عن الوجوه الجديدة للتمثيل ، ولا نجد من يبذل أى اهتمام أو أى جهد للبحث عن القدرات التى تحمل الهداية للبشرية ، وتقدم للناس خاتمة البيانات .

أنها صيحة ، نرجو الله أن ييسر من المسلمين مَنْ يحمل عبأها ويسعى لتنفيذها .

الرسول في بيته

ينبغي للمسلم أن يتعرف على حياة الرسول في أسرته ، فحياة الرسول في بيته نموذج رائع ، وبخاصة أن بيت الرسول عرف الغنى والثراء أيام السيدة خديجة وعرف الكفاف بل ما هو أقل منه في كثير من الأيام ، وفي بيت الرسول كانت هناك زوجات كلهن طاعة وإخلاص ، ولكن بين زوجات الرسول من كانت تعوزها بعض الصفات العالية حتى حاول الرسول أن يطلقها أو يطلقها فعلاً ، وكان في بيت الرسول غيرةً ومنافسة ومؤامرة ضده أحياناً ، ومعنى هذا أن الرسول وهو صفة ممتازة بين البشر كان بيته في بعض جوانبه عادياً ، وهذا يفيدنا فائدة كبرى نتعلم من الرسول كيف عالج أمور هذه الأسرة ، وكيف كان ربان السفينة ماهراً فجعل سفينته تتغلب على الأنواء والعواصف ، ولو قد كانت أسرته مثله صفة لما استطاع المسلم أن يحتذيها ، ولكانت مجتمعاً مثالياً ليست به مشكلات الحياة التي توجد في الأسر العادية ، وإنه ليبدو أن الله سبحانه وتعالى كوّنها على هذا النمط ليرى رائدها وهو يسوس جماعته ، فيتعلم منه المسلمون كيف يسوسون أسرهم ويدبرون حياة بيوتهم .

هذا ، ومن الواضح أن الله سبحانه وتعالى خص زوجات الرسول بخصائص كالحيجاب وألا يتزوجن بعده : . . . وسنرى ذلك فيما بعد ، كما سنرى طريقة المعاملة في هذا البيت الكريم .

وسيشمل حديثنا عن « الرسول في أسرته » دراسة عن زوجاته وأولاده وأحفاده وخدمه :

زوجات الرسول

خديجة :

كانت السيدة خديجة تُدعى في الجاهلية الطاهرة ، وهي أولى زوجات الرسول وأم أولاده ، ولم يعقب الرسول من غيرها إلا من مارية ، وكانت هذه ملك يمين أنجب الرسول منها ابنه إبراهيم ، وقد سبق أن تحدثنا عن السيدة خديجة التي خطبت محمداً لنفسها ، وكان محمد معجباً بها ، فرحب بذلك ، وزُفَّتْ له سيدة قريش التي رفضت قبله أغني رجالات قريش الذين تقدموا يطلبون يدها ، وقد وضعت خديجة مالها في خدمة الرسول ، فكان ينسجر فيه كما يرى ، وينفق منه كما يشاء .

وهيأت خديجة لزوجها ما يناسبه من حياة ، فلما لجأ عليه السلام للتحنُّث في غار حراء كانت تُعيد له ما يحتاجه من طعام وشراب خلال الفترة التي سيعتكف فيها بالغار فلما جاءه الوحي كانت أول من صدقه ، وعانت معه صراع قريش ضده ، وكانت البسلم الشافي لجراحه من هؤلاء المعتدين ؛ ودخلت معه الشُّعب عند ما قرر سادة قريش أن يقاطعوا المسلمين . . . ومن الواضح أن خديجة كانت تعني بالرسول أعظم عناية ، ويقول عنها ابن هشام ^(١) إنها كانت وزير صدق لمحمد ، كانت تهوّن عليه ما يلاقى من عنت قريش ، ولم يتزوج الرسول غيرها في حياتها ، ولا تسرّى إلى أن قضت نحبها ؛ فلما مات لم يطلق الرسول أن يبقى بمكة ، وبدأ يُعيد العدة للهجرة من مسقط الرأس حيث اشتد عليه الأعداء بعد فقد أبي طالب وخديجة في عام واحد أسماء المسلمون عام الحزن .

رحم الله خديجة وأجزل ثوابها ، لقد كانت نموذجاً رفيعاً للزوجة المسلمة التي تعين زوجها بكل ما تملك من مال وجهد ولا تبتغي إلا مرضاه

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦٦ ، وسير أعلام النبلاء للذهبي ج ٢ ص ٨١ .

تعالى ، وكان الرسول يذكرها بالخير دائماً ويقول : كانت خديجة خير نساء العالمين ، وإن لخديجة بيتاً في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب ، وإنى لأعرف فضلها ، ولذلك كانت عائشة تغار منها ، وتقول : ما غرت من امرأة من نساء النبي غيرتي من خديجة لِمَا كنت أسمع من ذكر الرسول لها (١) ، ويروى أن السيدة عائشة أخذتها الغيرة مرة من ذكر الرسول لخديجة وثناها عليها فقالت : قد أبدلك الله خيراً منها . فقال : ما أبدلني الله خيراً منها . لقد آمنت بي حين كفر الناس ، وأشركني في مالها حين حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد .

وقد توفيت السيدة خديجة في رمضان قبل الهجرة بثلاث سنوات ودفنت بالحجون (٢) .

سودة بنت زمعة :

لما ماتت السيدة خديجة اشتدت الأحزان بالرسول الكريم ، فقد اختفت أم العيال وربّة البيت ، ولم يعد له من يكفكف آلامه وشجونه إذا عاد إلى البيت وقد نال منه الأشرار ما تعودوا أن ينالوا ، ولم يعد بالبيت من يرعى بنات الرسول بعد أن فقدن أمهن ، ويُروى أن خولة بنت حكيم زوجة عثمان ابن مظعون — أحد الذين هاجروا إلى الحبشة وعادوا منها إلى مكة ظناً منهم أن قسوة قريش على المسلمين قد تراخت بعد أن زاد عدد المسلمين بمكة — قالت للرسول : لم لا تزوج من تعوضك عن خديجة بعض حنوها وعطفها ؟ فسكت الرسول . فقالت له خولة : هل تقبل أن أخطب لك زوجة أخرى ؟

فأجاب الرسول : لا بأس إنكن معشر النساء أرفق بذلك .

قالت خولة : إن أردت بكراً فعائشة بنت أبي بكر ، وإن أردت ثيباً فسودة بنت زمعة ، وكانت عائشة لا تزال في حوالى السادسة من عمرها ، فوافق على الزواج من سودة وكانت سودة أرملة ، فقد كانت متزوجة من ابن عمها

(١) البلاذري : أنساب الأشراف ص ٤١٢ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ص ٨٦ .

« السكران بن عمرو » ، وقد أسلم في مطلع الإسلام وهاجرا للحبشة ، ثم عادا لمكة ، وبعد قليل مات السكران ، فقبل الرسول الزواج منها ، وكان لا يزال في مكة لعلها تملأ عليه بعض الفراغ الذي تركه وفاة خديجة ، ثم ليحجمها من اضطهاد قريش .

وينقل الأستاذ أحمد عطية الله^(١) من مصادر لم يذكره وصفاً لحالة سودة بنت زمعة يوضح الأسباب التي دعت الرسول للزواج منها ، يقول « كانت سودة أرملة مسنة ، ثقيلة الجسم والحركة ، فدعى الرسول صلى الله عليه وسلم يده الرحيمة يسند شيخوختها ويهون عليها الذي ذاقته من نكد الحياة » .

ولكن سودة لم تكن زوجة مثالية للرسول ، ولم تكن جديرة بالعبء الذي تقدمت لحمله ، وكانت علاقتها بالرسول وبناته غير مرضية ، ويذكر ابن هشام^(٢) أن سودة حينما رأت سهيل بن عمرو (أخا زوجها) ضمن أسرى بدر ويداه معقودتان إلى عنقه قالت : أي أبا يزيد سلّمت أيديكم ؟ ألا متّهم كراماً ؟ فسمعها الرسول فقال لها : يا سودة ، أعلّ الله ورسوله تحرضين ؟ قالت : يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد أن قلت ما قلت .

وقد هم الرسول بطلاق سودة ولكنها تضرعت إليه وقالت : يا رسول الله لا تطلقني وأمسك بي رحمة منك ، ولا تتركني عرضة للضياع — فقبل رجاءها ويبدو أن سودة استمرت على بعدها عن الجادة ، ولذلك يروى البلاذري^(٣) أن الرسول طلقها سنة ثمان من الهجرة تطليقة ، ثم تضرعت إليه فراجعها .

(١) القاموس الإسلامي = ٣ ص ٥٥٧ .

(٢) سيره ابن هشام ج ١ ص ٢٠٩ (تحقيق طه عبد الرؤوف) .

(٣) أنساب الأشراف ص ١٠٧ .

عائشة :

ونجىء بعد ذلك إلى أحب زوجات الرسول إليه بعد خديجة ، إلى السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق ، وتذكر الروايات أن الله سبحانه وتعالى هو الذى زوج رسوله من عائشة ، فقد رأى الرسول فى المنام شخصاً يحمل إليه قطعة من الحرير الأخضر ، وقد نقش فيها صورة ، فلما كشف عن الصورة سأله الرسول : من هذه ؟ فأجيب : هذه عائشة ، وهى زوجتك فى الدنيا والآخرة ، إنها تذهب بعض حزنك وإن فيها خلطاً لخديجة .

وكان الرسول قد عقد عليها هى وسودة فى وقت واحد تقريباً عقب وفاة خديجة ، ودخل بسودة وأجل الدخول بعائشة لصغر سنها ، فلما وجد أن سودة لم تملأ فراغ نفسه دخل بعائشة فى شوال سنة اثنين للهجرة ، منصرفه من غزوة بدر ، وكانت فى التاسعة من العمر ، وبنى لها حجرة بجوار المسجد ، وكان جهاز عائشة بسيطاً جداً ، إنه حصير ، وسرير مشدود بالحبال ، وبعض الأواني من الفخار فى حجرة واحدة تسمى اليد سقفاً .

وتقول عائشة فى رواية الإمام البخارى : نقلنى رسول الله بالزواج منه إلى عالم آخر لم أكن أهنئ إليه بدونه ، وعشت معه الحياة التى رسمها ربه ، حياة النبوة ، والزهد فى متاع الدنيا ، والرغبة فى الآخرة .

وقد ولدت عائشة فى الإسلام وهى أصغر من فاطمة بحوالى ثمانى سنوات . وقد روت عائشة عن الرسول - كما يقول الذهبي - علماً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، كما روت عن أبيها وعن عمر ، وروى عنها عدد كبير من الصحابة والتابعين^(١) ويروى الترمذى عن أبي موسى الأشعرى أنه قال : ما أشكل علينا حديث قط فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً^(٢) وكانت أقرب نساء الرسول إليه ، وهى تحكى ذلك بقولها : فضلت على نساء الرسول بعشر ولا فخر ، كنت أحب نسائه إليه ، وكان أبى أحب رجاله إليه ، وتزوجنى بكراً ولم يتزوج بكراً سواى ، وتزوجنى لسبع ، وبني بى لتسع ، ونزل عذرى من السماء . واستأذن النبى صلى

(١) سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ٩٨ وما بعدها . (٢) المرجع السابق : ص ١٢٦ .

الله عليه وسلم نساءه في مرضه قائلا لمن : إني لا أقوى على التردد عليكم ، فأذن لي أن أبقى عند بعضكن ، فقالت أم سلمة : قد عرفنا من تريد ، تريد عائشة ، قد أذننا لك ، وكان آخر زاده في الدنيا ربي قد استاك بسواكي ، وقبض بين حجرى ونحرى ، ودفن في بيتي ،

وتقول السيدة عائشة إن الرسول أعرس بها في شهر شوال وكانت العرب تستحب أن تُعرس في هذا الشهر .

وروى أن الرسول قال لها : إني أعرف غضبك إذا غضبت ورضائك إذا رضيت . قالت : وكيف تعرف هذا ؟ قال : إذا غضبت خاطبتني يا محمد ، وإذا رضيت خاطبتني : يا رسول الله .

وسئلت أم سلمة : هل كان الرسول يقبل وهو صائم ؟ قالت : لا . فقبل لها : إن عائشة تقول إنه كان يقبل وهو صائم . قالت أم سلمة : لعله كان يفعل ذلك مع عائشة ، أما معي فلا .

وكانت عائشة كثيرة الصدقة ، ويروى أن معاوية بعث لها بمائة ألف درهم ، ويقول عروة بن الزبير ، والله ما أمست حتى فرقها ، فقالت لها مولاتها : لو اشتريت لنا منها بدرهم ليليا ، فأجابت السيدة عائشة قائلة : لو ذكرتنى لفعلت ، وتوفيت السيدة عائشة سنة خمسين للهجرة وقيل سنة ثمان وخسين ودفنت بالبقيع ^(١) .

زينب بنت خزيمة :

وتزوج الرسول زينب بنت خزيمة التي كانت تلقب « أم المساكين » لكثرة برها ، وزينب كانت زوجة عبدة بن الحارث أول شهيد في غزوة بدر ، فقد سقط في المبارزة التي ابتدأت بها الغزوة فأراد الرسول إكرام زوجته وتخفيف آلامها ، ولم يطل عمر زينب بل ماتت عقب الزواج بفترة غير طويلة .

(١) انظر ترجمة النساء ، ٢ ، في سير أعلام النبلاء ص ٩٨ - ١٤٢ .

حفصة بنت عمر :

وتزوج الرسول بعدها حفصة بنت عمر ؛ وكانت حفصة زوجة خنيس ابن خزيمة ومات هذا الزوج بعد فترة قصيرة من الزواج بحفصة وتركها وكانت لم تصل سن العشرين ، وفكر عمر أن يقدمها زوجة لعثمان بن عفان الذي كان قد فقد زوجته رقية بنت الرسول منذ فترة قصيرة ، فذهب عمر يعرض ذلك على عثمان ، ولكن عثمان سكنت ولم يجب بشيء ، فذهب عمر يشكو ذلك لأبي بكر ويعرض عليه أن يتزوجها هو ، فواجه عمر نفس الصمت من أبي بكر ، فذهب عمر يشكو ذلك للرسول فتلقي جواباً أسبى من آماله ، قال له الرسول : يتزوج حفصة من هو خير لها من عثمان وأبي بكر ويتزوج عثمان من هو خير له من حفصة ، وفهم عمر ما يقصده الرسول ، فقرح بذلك ، ويروي أن عثمان وأبا بكر لم يقبلوا على الزواج من حفصة لأنهما سمعا الرسول يذكرها ، فأحس كل منهما أن الرسول قد يكون راغباً فيها تكريماً لعمر ، ولم يستطيعا أن يقولوا ذلك لعمر مخافة أن يكونا مخطئين في إحساسهما . وبنى الرسول حجرة بجوار حجراته تزوج فيها حفصة ، وكانت حفصة حسنة الصلة بعائشة وكانت لا تكتمها شيئاً ، إنما كان أمرهما واحداً ، وعاشت حفصة حتى زمن معاوية ابن أبي سفيان ، ولما ماتت صلى عليها والى المدينة مروان بن الحكم ^(١) .

وكانت عائشة تقول عن حفصة : إنها هي التي كانت تسامني من أزواج رسول الله ، ويقول الذهبي : إن رسول الله طلقها تطليقة ، فلما عرف عمر ذلك تألم واشتد به الألم ، وقال ما يعبأ الله بعمر وابنته ، فنزل الوحي على الرسول يقول له إن الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة بعمر ^(٢) .

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء : ص ١٦٣ .

(٢) البلاذري : أنساب الأشراف ص ٤٢٤ .

زينب بنت جحش :

وتزوج الرسول زينب بنت جحش بنت عمه الرسول (أميمة بنت عبد المطلب) وأخوها عبد الله بن جحش الذي استشهد في غزوة أحد ، وكان الرسول قد زوجها من زيد بن حارثة مولاه ، وبقيت معه مدة عام لم تكن راضية عن هذا الزواج لعدم التكافؤ في نظرها بينها وبين زيد ، وطلقها زيد وتزوجها الرسول بأمر الله للقضاء عملياً على فكرة التبني ، وتحريم زوجة الابن المتبنى كما سئرى ذلك عند الحديث عن حكمة تعدد الزوجات .

وكانت زينب تفخر بأن الله تعالى هو الذى زوجها بنص كتابه بلا ولى ولا مشهود ، وكان ذلك في قوله تعالى : « فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكمها » ، ونقول عن باقى أمهات المؤمنين : أما هؤلاء فزوجهن أهلهن ، وكانت زينب من خيرة النساء ديناً وورعاً وجوداً ومعروفاً ، وقد أرسل لها عمر مرة عطاء كبيراً ، فقالت : صبوه . وأخذت تفرقه في رحمها وأيتامها ولم تُسبَق منه لنفسها شيئاً ، وانجهت إلى الله قائلة : اللهم لا يدركنى عطاء عمر بعد عاى هذا . واستجاب الله لها ، فماتت بعد ذلك بقليل .

وكان الرسول يقول : أسرعكن لحوقاً بي أطولكن يداً ، فلما ماتت زينب قالت عائشة : إن طول اليد الذى قصده الرسول هو كثرة المعروف ، وكانت زينب تعمل وتتصدق ، فيروى أنها كانت تجمد دبغ الجلود وتصنع منها ما يصلح للناس وتتصدق به :

وتقول عائشة واصفة زينب بنت جحش : كانت رينب تسامني

في المنزلة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما رأيت امرأة خيراً في الدين من زينب ، ولا أصدق حديثاً ، وأوصل للرحم وأعظم صدقة منها . رضى الله عنها^(١) .

أم سلمة :

وتزوج الرسول هند بنت أمية وكانت زوجة عبد الله بن عبد الأسد ابن عمه الرسول ، وكان هذا قد مات متأثراً بجراح أصابته في غزوة أحد ، وكان لها منه ولد اسمه سلمة ، ولذلك كانت تسمى أم سلمة ، وقد تزوجها الرسول عقب وفاة زينب بنت خزيمة ، وأسكنها الرسول في الحجرة التي كانت هذه تعيش فيها .

وأم سلمة هي السيدة المحجبة الطاهرة المخزومية بنت عم خالد بن الوليد وأبي جهل بن هشام ، وقد تزوجها الرسول سنة أربع من الهجرة ، وكانت من أجل النساء وأشرفهن نسباً ، ويروى أن زوجها قال لها وهو يحتضر : إذا مت تزوجني ، واللهم ارزق أم سلمة بعدى رجلاً خيراً مني ، لا يخرىها ولا يؤذيها ، فلما مات قالت أم سلمة : من خير من أبي سلمة ؟ فلما خطبها رسول الله أدركت أن دعوة أبي سلمة قد استجيب لها .

وتقول أم سلمة إن الرسول عند ما خطبني قلت له : في خصال ثلاث : كبيرة السن ، مطفل (كثيرة الأطفال) ، غيور ، فقال لها الرسول : أما الغيرة فيذهبها الله ، وأما السن فأنا أكبر منك ، وأما الأطفال فعلى الله وعلى رسوله ، وتزوجها الرسول .

وتقول عائشة : لما تزوج الرسول أم سلمة حزنت حزناً شديداً لما

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ١٤٩ وما بعدها .

ذكروا عن جمالها ، فتلطفْتُ حتى رأيتها ، فرأيت أضعاف ما وُصِفَتْ لى
فى الحسن ، فذكرت ذلك لحفصة ؛ وكانت قريبة منى ، فقالت لى إن هى
إلا غيرة . وذهبت فرأتها ، وعادت تقول : إنها الجميلة ولكن ليس لى
الحمد الذى تقولين ؛ وكانت حفصة أقرب إلى الصواب .

وأم سلمة كانت آخر من مات من أمهات المؤمنين ، وقد ابتد بها
العمر حتى بلغها مقتل الحسين رضى الله عنه فوجت لذلك وغششى عليها .
وحزنت حزناً شديداً ، ولم تلبث بعد إلا يسيراً وانتقلت إلى رحمة الله (١) .

جويرية :

وفى السنة السادسة للهجرة تزوج الرسول برة بنت الحارث بن أبى
ضرار سيد بنى المصطلق أحد بطون خزاعة وأسمها « جويرية » وكان
الحارث قد ساعد قريشاً فى أخذ ، ثم حاول فى السنة السادسة أن يجمع
جموعه ويهاجم المدينة ، فخرج له المسلمون ، وقامت معركة عند ماء
يسمى « المريسيع » وتم النصر للمسلمين ، وغنم المسلمون كثيراً من المال
وأسروا عدداً من النساء والصبيان ، وكانت برة ضمن الأسرى وقد وقعت
فى سهم ثابت بن قيس فكاوته على نفسها ولكنه أعلى الفداء ، فجاءت
برة إلى الرسول تستعينه فى قضاء ما عليها ، وقالت له : أنا بنت الحارث
ابن أبى ضرار ، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك ، ف وقعت فى السهم
لثابت بن قيس ، فكاوته على نفسى وجثتك أستعينك على أمرى ، فتأثر الرسول
بجمالها وحالات أمثالها ومثيلاتنا ، فقال لها : هل لك فى خير من ذلك ؟
قالت : وما هو يا رسول الله ؟ قال : أقضى عنك ما عليك وأتزوجك ؟
قالت : نعم يا رسول الله . قال : قد فعلت .

ونخرج الخبر إلى الناس ، فقالوا كيف فسترق أصحاب رسول الله ،

(١) أنلعي : سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ١٤٢ وما بعدها .

فأعتق المسلمون أسراهم . قالت عائشة : ما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة من برة ، وقد أسلم أبوها وقومها عقب ذلك ، وهناك رواية أخرى أن أباءها اقتادها ثم خطبها الرسول منه وتزوجها (١) .

وماتت جويرية سنة ٥٦ هـ وصلى عليها مروان بن الحكم والى المدينة من قبيل معاوية :

صفية بنت حيي :

ومن أمهات المسلمين كذلك صفية بنت حيي بن أخطب ، وأبوها سيد بني النضير الذين ثبت تأمرهم ضد الرسول فأخرجهم المسلمون من المدينة، فاتجه بعضهم إلى خيبر واتجه آخرون إلى حدود الشام ، وكان حيي بن أخطب ممن اتجهوا إلى خيبر ، وفي غزوة الأحزاب وفد حيي مع المهاجرين ، ودخل حصون بني قريظة يحثهم على الغدر بالمسلمين ، ونال ماله بنو قريظة عندما استجابوا للغدر ، فقتل مع من قتل منهم .

أما صفية بنته فكانت زوجة لأحد زعماء بني النضير واسمه سلام بن مشكم وفارقها سلام فتزوجت كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق . وهو من زعماء بني النضير أيضاً ، وهو كذلك الذي كان يشرف على أموالهم فيما يشبه الآن « البنوك » يقول ابن هشام (٢) : كان عند كنانة كنز بني النضير ، فلما سقط حصن الغموص أ منع حصون خيبر في السنة السابعة للهجرة طلب الرسول من كنانة أن يسلم ما عنده من أموال بني النضير ، فأنكر كنانة أنه يعرف أموالهم . فقال له الرسول : أرأيت إن وجدنا المال عندك أقتلك ؟ قال نعم . وكانت هناك خربة اعترف أحد اليهود بأن كنانة يطوف بها ويحملك فيها ، فأمر الرسول بأن تحفر الخربة فحُفرت فوجد بها الكنز ، فسلم الرسول

(١) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٨٦ - ١٨٧ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٢١٧ (تحقيق طه عبد الرؤوف) .

لأبي محمد بن مسلمة ليقتله قصاصاً لأخيه محمود بن مسلمة الذي كان كنانة قد قتله .

وكانت صفية بين الأسرى فوقعت في سهم الرسول صلوات الله عليه وسلم ، وبعد أن انتهى الرسول من تدبير أمر اليهود سأل صفية عن رأيها في اليهودية والإسلام ، فقالت له : يا رسول الله لقد هويت الإسلام وصدقت بك قبل أن تدعوني إلى ذلك ، وقد كان أبي يعرف صدق دعوتك ، ولكن المصيبة ذهبت به ، وإنني أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله : وسألها الرسول إذا كانت توافق على الزواج منه فاستجابت مرحبةً بذلك ، فأعتقها الرسول وتزوجها ، وتم الزواج في طريقه من خيبر إلى المدينة ، وكانت صفية غاية في الإخلاص للإسلام ولرسول الإسلام ، كما كانت شريفة عاقلة ذات حسب وجمال ودين .

وتوفيت صفية في منتصف القرن الأول للهجرة ودفنت مع أمهات المسلمين بالبقيع .

أم حبيبة :

وفي السنة السابعة للهجرة تزوج الرسول رملة بنت أبي سفيان بن حرب وهي من بنات غم الرسول وليس من أزواجه من هي أقرب إليه منها .

وكانت رملة متزوجة من عبيد الله بن جحش ، وكان عبيد الله قبل الإسلام يضيق بالوثنية ويسخر منها ، وبقي على حال من الالتباس لا يدري ماذا يفعل ، فلما ظهر الإسلام دخل عبيد الله دين الإسلام ، وهرب إلى زوجته رمله يذكر لها أنه عرف مبعث محمد من التوراة والإنجيل ، وكان يلجأ إليهما وهو يبحث عن الطريق الصواب ، وأنه لذلك دخل الإسلام ، ودعاها عبيد الله إلى دخول الإسلام فاستجابت له ، وهاجرت معه إلى الحبشة .

وأنجبت رملة لعبيد الله بنتاً أسماها « حبيبة » فأصبحت تُكنى « أم حبيبة ،

وقد فاجأها عبيد الله يوماً وهما بالحبيشة بخبر مؤلم هو أنه اعتنق المسيحية ،
فصرخت في وجهه وناقشه كثير من المسلمين الموجودين بالحبيشة ، ولكنه
أصر على رأيه ، فقارفته أم حبيبة إذ لم يكن لمسلمة أن تعيش زوجة
لمسيحي ، ومات عبيد الله عقب ذلك ، وعرف الرسول خبرها فأرسل
يخطبها عن طريق نجاشي الحبشة ، فسعدت بهذا الخبر ، وتم اجتماع في
قصر النجاشي حضره وجوه المسلمين هناك مع النجاشي ورجاله ، وحضره
كذلك عمرو بن أمية الضمري الذي أرسله محمد إلى النجاشي ليخطب له
أم حبيبة وليدعو المسلمين بالحبيشة للعودة للمدينة بعد أن قوى شأن الإسلام
هناك ^(١) ، وفي هذا الحفل تم هذا الزواج ، وكان خالد بن سعيد بن العاص ،
وكبل الزوجة ، ودفع النجاشي مهر العروس من ماله وقدره أربعمئة دينار ،
ويقال أن فيها نزل قوله تعالى « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم
منهم مودة » ^(٢) وقد بارك أبو سفيان هذا الزواج عندما سمع به .

وعادت أم حبيبة إلى المدينة مع جعفر بن أبي طالب ومع المسلمين ،
وكان وصولها عقب فتح خيبر ، ولذلك أثر عن الرسول قوله : ما أدرى
بأيهما أسر ، بفتح خيبر أم بقلوم جعفر .

وماتت أم حبيبة سنة ٤٤ هـ وقبل أن تموت أرسلت إلى عائشة تقول
لها : قد كان بيننا ما يكون بين الضرائر ، « فغفر الله لي ولك ما كان
من ذلك » ، قالت عائشة : غفر الله لك ذلك كله فقالت أم حبيبة : سررتني
مرك الله . وأرسلت إلى أم سلمة فقالت لها مثل ذلك ^(٣) .

(١) لم يدع الرسول المهاجرين الحبشة المحصور المدينة عقب الهجرة وذلك بسبب
المشكلات الاقتصادية والعسكرية التي واجهت المسلمين بالمدينة عقب الهجرة ، وقد سبق أن ذكرناها .

(٢) سورة المتحنة الآية السابعة .

(٣) الذهبى : سير أعلام النبلاء : ص ١٥٩ .

ميمونة :

وفي عمرة القضاء تزوج الرسول ميمونة بنت الحارث ، وهي أخت أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب وكانت ميمونة قد جعلت أمرها لأختها أم الفضل ، فجعلت أم الفضل أمر ميمونة إلى العباس ، فزوجها رسول الله بمكة وأصدقها عن الرسول أربعمائة درهم .

وقد أراد الرسول أن يطيل مقامه بمكة بعد انقضاء الأيام الثلاثة التي كان قد تم الاتفاق عليها ليصنع طعاماً ويدعو أهل مكة إليه ويعرس بميمونة ، ولكن حبيب بن عبد المزيز قال للرسول قد انقضى أجلك ولا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا ، فخرج الرسول من مكة ، وأعرس بميمونة بمكان يسمى «سرف» قرب التنعيم . وماتت ميمونة بنفس المكان سنة ٦٣ هـ (١) .

تعدد الزوجات في الإسلام

وتعدد زوجات الرسول بوجه خاص

واستكمالاً للحديث عن زوجات الرسول اللاتي تعددن كما سبق يجدر بنا أن نشرح تعدد الزوجات في الإسلام بوجه عام، وسر تعدد زوجات الرسول بوجه خاص ، وموضوع تعدد الزوجات موضوع مهم يتحدث عنه الناس من مسلمين وغير مسلمين ، وفيهم من يدرك هدف الإسلام فيثني على الإسلام بسبب ذلك ، وفيهم من يطعن في الإسلام ويحمل عليه لإباحته تعدد الزوجات ؛ ومن الناس كذلك من يدرك البراءة التي دفعت الرسول ليتزوج عدة مرات (٢) ، ومنهم من يتجاوز الحد فيتهم الرسول

(١) ابن هشام : ج ٤ ص ٥ - ٦ .

(٢) تزوج الرسول بعد خديجة ثلاث عشرة زوجة دخل بإحدى عشرة منهن كما ذكرنا من قبل وطلق اثنتين قبل الدخول (انظر العقد الفريد ج ٢ ص ٢٥٢ - ٢٥٤) .

تهدماً جسمانية يحل عنها ؛ والآن ، ونحن بصدد شرح أفكارنا فيما يتعلق بتعدد زوجات الرسول ، ذلك التعدد الذي ظهر في المدينة ، أى في هذه الفترة التاريخية التي وصلنا لها في عرضنا لأحداث التاريخ الإسلامى ، نرى من الأفضل أن نتحدث أولاً عن تعدد الزوجات في الإسلام عموماً حديثاً قصيراً نردُّ به عن الإسلام الفرية التي يرميه بها بعض المفكرين ، ثم ننتهى فتتحدث عن تعدد زوجات الرسول ودوافعه :

تعدد الزوجات في الإسلام :

يتجه بعض الباحثين إلى أن الأصل في الزواج في الإسلام هو الزوجة الواحدة ، ويوردون على ذلك بعض الأدلة ، ومنها ما يلي :

قوله تعالى : فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة^(١) .

وقوله تعالى : ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم^(٢) .

ويلحق المرحوم قاسم أمين على هاتين الآيتين بقوله :

ولو أن ناظرآ في الآيتين أخذ منهما الحكم بتحريم الجمع بين الزوجات لما كان حكمه بعيداً عن معناهما ، لولا أن السنة والعمل جاء بالإباحة في الجملة^(٣) .

وروى البخارى عن مسور بن مخرمة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر : إن بنى هشام بن المغيرة استأذنوا في أن يُنكحوا بنتهم على بن أبى طالب ، فلا آذن ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن ، إلا أن يريد على بن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فإنما فاطمة بضعة منى ، يريدنى ما رابها ويؤذبنى ما آذاها .

(١) سورة النساء الآية الثالثة .

(٢) سورة النساء الآية ١٢٨ .

(٣) تحرير المرأة : فصل تعدد الزوجات .

وقد أخذ العلماء أو فريق منهم من هذا الحديث أن الشريعة التي يؤذيها أن يتزوج رجلها بأخرى لا يحل إيذاؤها بالتزوج عليها ، وإن اشترطت ذلك على الرجل ، أو كانت تلك هي عادة القوم ، فعليه الوفاء ^(١) .

والقدرة على تكاليف التعدد شرط فيه ، فقد روى أن الرسول صلوات الله عليه ، قال مخاطباً الشباب : « من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » فهو لا يرى للأعزب أن يتزوج عند عدم الباءة (وهي مسئوليات الزواج من جميع النواحي) ، ويصف له الصوم علاجاً ، ولا شك أن روح الحديث الشريف توضح ضرورة الاكتفاء بزوجة واحدة لأي زوج غير قادر على الباءة بالنسبة لزوجته أخرى ، ولو نفذنا هذا الشرط لقلَّ تعدد الزوجات بشكل ملحوظ .

فالزوجة الواحدة على ذلك هي الأصل في الإسلام ، وقد سار على ذلك الأصل الغالبية العظمى من المسلمين ، وبلغ هؤلاء مثلاً في جمهورية مصر العربية أكثر من ٩٧ ٪ .

بيد أن عوامل متعددة تدفع الرجل — مسلماً كان أو غير مسلم — إلى الزواج بزوجة أخرى ، وتكون هذه الحالة ملحة أحياناً كعدم الرلد ومرض الزوجة ، فتعدد الزوجات هنا أحسن من اتجاه المسيحية إلى طلاق العاقر أو المريضة ثم الزواج بأخرى ، وكعدم القدرة على الصبر دون الاتصال الجنسي حقبة الحيض أو النفاس ، وكالرغبة التي تغلب على بعض الرجال فتجعل حاجتهم الجنسية لا يطفئها إلا عدد من الزوجات ، وعن هذا النوع يقول الإمام ابن القيم : من الناس من يغلب عليه سلطان هذه الشهوة بحيث لا تحصنه المرأة الواحدة فيستحب لصاحبها الزيادة عن الواحدة إلى الأربع وإذا كان الباعث معلوماً فينبغي أن يكون العلاج بقلدر العلة ، فالمراد تسكين النفس ، فليُنظر إليه في الكثرة والقلة ^(٢) .

(١) كمال أحد حروف : المرأة في الإسلام .

(٢) أعلام الموقعين من رب العالمين ج ٢ ص ٨٤ .

فهؤلاء وأمثالهم لم يتركهم الإسلام لقيادة الشيطان : بل رسم لهم ما يحقق رغبتهم أو بعضها في إطار حلال وهو إباحة تعدد الزوجات .

هذا من جهة الرجل ، فإذا جئنا إلى المجتمع ، وجدنا ظروفاً كثيرة تجعل تعدد الزوجات وسيلة لحل مشكلة به ، فلعل تعدد الزوجات هو الوسيلة الصالحة لحل مشكلة زيادة عدد النساء على الرجال وبخاصة بعد الحروب والفتن حيث تصبح هذه الزيادة كبيرة ، ولا نزاع أنه أكرم للمرأة حينئذ أن تتزوج متزوجاً من الرضا بعلاقة الخلية التي لا حقوق لها ولا أولادها لدى الرجل ، وأكرم لها كذلك من حياة العانس لما في هذه الحياة من حرمان وفقر .

بقي أن نقول عن تعدد الزوجات إنه ليس من صنع الإسلام ، وإنما هو تشريع قديم عرفته كل الحضارات وفي مقدمتها التوراة ، وأقره الإنجيل إلا في حالة واحدة هي حالة الأسف حيث لا يستطيع الرهينة مع تعدد الزوجات ، فليكتف بزوجة واحدة ، وقد بقي تعدد الزوجات معمولاً به في العالم المسيحي حتى حرّمته القوانين الرضعية ، ولم يقبل الإسلام تعدد الزوجات على النحو الذي عرفته حضارات الماضي ، بل حدده بعد أن لم يكن محددًا ، ونظمه بعد أن كان لا نظام له ، وقيّده وكان من قبل مطلقاً .

تعدد زوجات الرسول :

أما تعدد زوجات الرسول فموضوع آخر ، والله قد أباح له أي عدد من الزوجات في السنوات الأولى من حياة المسلمين بالمدينة . لماذا كان هذه الإباحة ؟ ولماذا تزوج الرسول تبعاً لهذه الإباحة هذا العدد من الزوجات ؟ وهل كان ذلك كما يقول أعداء الإسلام لأن الرسول كان يحب النساء ؟

الجواب على ذلك سهل واضح : هو أن مثل هذه التهمة لا يمكن أن تُوجّه إلى رجل أمضى عهد شبابه وعهد قوته قانعاً بزوجة واحدة كانت أكبر منه سناً وكانت ثيباً عندما تزوجها ، وهل يمكن أن يُتّهم بحب النساء رجل لا يتزوج غير واحدة وهو في الثلاثين والأربعين والخمسين ؟

فإذا تزوج الرسول بعد ذلك وبعد خمسين سنة حافلة بالكفاح والنضال فلا يمكن أن يكون قد تزوج لغرض جنسى .

ولم يعقب الرسول نسلا من النساء اللاتي تزوجهن بعد خديجة ولعل الباحث يستطيع أن يستنبط أن علاقته الجنسية بهن كانت محدودة ، وإلا فلماذا لم يعقب من أى منهن مع أنهم فيما عدا عائشة كن متزوجات قبله وكان لأكثرهن أولاد من الزيجات السابقة ؟

ولم يحدث قط أن اختار زوجة لأنها مليحة وسيمة ، مع أنه - فى مكانته وسلطانه - لم يكن عسيراً عليه أن يجمع إليه أبجل بنات العرب وأرقى بنات الفرس والروم على تخوم الجزيرة العربية ، ولم يبن بعذراء إلا بعائشة التي اختارها أو اختيرت له من أجل ظروف أخرى (١) .

لماذا إذن عدّد زوجاته ؟

الجواب على ذلك سهل بعد هذه المقدمات ، فمن المعروف أنه فى الظروف الاستثنائية التي تمرّ بالدول كالحروب والمجاعات والاضطرابات، تُعطى سلطات استثنائية للرؤساء لمواجهة هذه الظروف ، وفى مطلع الحياة بالمدينة واجه الرسول ظروفاً استثنائية تتمثل فى صراعه مع قريش واليهود وبنى المصطلق وغيرهم . ثم تمخض هذا الصراع عن أرامل من المسلمات سقط أزواجهن فى الحروب وتمخض عن غيره ذلك من المشكلات التي سبق أن ذكرناها ، وفى هذه الظروف الاستثنائية أعطيت سلطات استثنائية للرسول ليتخذ الزواج وسيلة إلى التخفيف من الصراع ومن نتائجه ، وقد عبّرت عن ذلك الآية الكريمة : عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة (٢) .

فلما خفّت حدة الصراع ، أو بلغة العصر لما زالت الظروف الاستثنائية

(١) انظر مبادئ الإسلام وأباطيل خصومه للأستاذ العقاد ١٩١ .

(٢) سورة الممتحنة الآية السابقة .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الرسول كان قد تبنى زيداً وكان يطلق عليه زيد ابن محمد ، وكان من عادة العرب ألا يتزوجوا زوجة الابن المتبنى لاعتقادهم أن الابن المتبنى كالابن الحقيقي ، فأوحى الله لمحمد أن يتزوج زينب بعد أن طلقها زيد ليبطل الإسلام هذا التفكير عند العرب ، ويكون إبطاله عملياً حتى يكون أقنوى ، لصعوبة رجوع العرب عن هذه العادة المتמكة بدون إبطال عملي ، وقد قص القرآن الكريم قصة زينب فيما يلي : (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك ، واتق الله ، ونحن في نفسك ما الله مبديه ، ونخشى الناس والله أحق أن نخشاه ، فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكمها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً^(١) .

جويرية :

هي جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق من خزاعة ، وقد وقعت حرب بين بني المصطلق وبين المسلمين في شعبان من السنة السادسة للهجرة ، وكان الحارث بن أبي ضرار والد جويرية قائد بني المصطلق وانتصر المسلمون وقتل الحارث ، ولكن الانتصار لم يتم فلا يزال المرحل يغلي ، وقد وقع نساء بني المصطلق سبايا في أيدي المسلمين^(٢) ، ومثل ذلك كفيل أن يزيد الحفيظة في القلوب وأن يزيد الكراهية والعداء في النفوس ، وكانت جويرية بنت الحارث إحدى الأسيرات ، وقد وقعت في سهم ثابت بن قيس فكاتبها على مال تؤديه فتعتق ، فجاءت إلى رسول الله تطلب منه العون كما ذكرنا من قبل ، ووجد الرسول الفرصة سانحة لتخفيف الأسى عن بني المصطلق فعرض عليها أن يؤدي عنها ما طلب منها ويتزوجها فوافقت ، وتم الزواج الذي كان خيراً وبركة على بني المصطلق فإن المسلمين خجلوا أن تظل نساء بني المصطلق سبايا في أيديهم ، وقالوا : أصهار رسول الله . واعتقوهن تكريماً لهذا الزواج^(٣) .

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٧ .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد ج ٢ ص ١١٢ .

(٣) ابن القيم : زاد المعاد ج ١ ص ٢٧ . وابن هشام ج ٢ ص ٢١٦ - ٢١٧ .

وطيب الرسول بهذا الزواج قلب جريرية وهدأ الثورة التي كانت لا تزال مشتعلة ضد المسلمين في قلوب شباب بني المصطلق .

أم حبيبة بنت أبي سفيان :

كان أبو سفيان من أقسى أعداء الإسلام ولكنه ابنته حبيبة دخلت الإسلام مع زوجها عبيد الله بن جحش ، وقد تعرضت هي وزوجها إلى عنت قريش واضطهاد ذويها . فاضطرت للهجرة للحبيشة مع زوجها . ولكن زوجها تنصر وهر في الحبيشة وبقيت هي على الإسلام ، وهكذا فقدت أهلها وفقدت زوجها وهي مغربة وعز عليها الملجأ ، ولكن قلب رسول الله ينفث لها . ويداوى جراحها . ويكافئها أسمى مكافأة على موقفها الرائع ، فيتزوجها وهي بالحبيشة ويصدقها النجاشي عنه أربعائة دينار ، ونجد بيت الرسول مفتوحاً لاستقبالها بعد أن فقدت بيت الوالد وبيت الزوج (١) .

ويعتبر زواج الرسول من أم حبيبة أقوى دليل على أن هدف الزواج لم يكن الرغبة الجسدية : فأُم حبيبة كانت بعيدة جداً عن الرسول ولم يرها الرسول إلا بعد فترة طويلة عندما عادت إلى المدينة . وهذا دليل واضح على أن الزواج كان له هدف آخر .

وهناك زوجات تزوجهن الرسول لحمايتهن ولتكفل بمطالبهن بعد أن فقدن أزواجهن : وأصبحن وليس لمن من يعولن فانتسعت لهن نفساً الكريمة ، واتسع لمن بيته ، ومن هؤلاء سودة بنت زمعة أولى زوجاته بعد السيدة خديجة وزينب بنت خزيمة وكان زوجها من شهداء غزوة بدر

(١) ابن هشام ج ٢ ص ١٢٣ .

زالت السلطات الاستثنائية إذ نزل قوله تعالى : لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج (١) .

والزواج عند الناس جميعاً بصفة عامة وعند العرب بصفة خاصة كان ولا يزال سبباً مهماً من أسباب الربط والتقريب بين الجماعات والقبائل . وإذا كان التاريخ أثبت أن أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً كانوا في القمة بين المسلمين بدليل اختيارهم خلفاء ، فإن ذلك يوضح لماذا اتصل الرسول بهؤلاء جميعاً بطريق المصاهرة فتزوج بنتي الأولين وزوج من بناته للآخرين ، ولهذا حدث تعدد زوجات الرسول بالمدينة أي في وقت كان يعمل لتأليف القلوب .

ومن أسباب التعدد العامة كذلك أن فترة الإسلام بالمدينة كانت فترة تشريع ، وتولت زوجات الرسول عبء تحمل التشريع بصفة عامة والتشريع المتصل بالمرأة والأسرة بوجه خاص ، وقد تمثل ذلك بصفة أخص مع عائشة كما سنرى .

وهناك أسباب خاصة تستدعي أن نقوم باستعراض سريع لبعض هذه الزيجات لنرى دوافعها وظروفها ، وقد سبق أن أشرنا لذلك من قبل :

عائشة :

كانت علاقة الرسول بأبي بكر قوية جداً كما نعرف ، وكان أبو بكر يعتبر ملازماً للرسول ، فزواج الرسول من بنت أبي بكر يرفع الحرج عن أبي بكر ، ويتيح له أن يدخل بيت الرسول ، وأن يكون أكثر اتصالاً به .

وكانت عائشة ناشئة عندما تزوجها الرسول ، وكان لها حدة ذكاء الناشئة ، فإذا تزوجها الرسول في المدينة بعد الهجرة ، أي في المرحلة التي ذخرت بالتشريع الإسلامي ، أصبحت مصدراً مهماً لحفظ أحاديث الرسول ، والأخذ عنه ، وتبليغ ألوان التشريع إلى الناس . وقد نسبت بعض الروايات للرسول قوله « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » .

(١) سورة الاحزاب الآية ٥٢ .

حفصة :

كانت علاقة الرسول بأبي بكر تكاد تكون مساوية لعلاقته بعمر ولاشك أنه كان من وسائل التكريم للفاروق أن يتزوج الرسول بنته على نحو ما فعل مع أبي بكر ولهذا نجد أنه عندما طلقها جاء الوحي يطلب منه ردها تكريماً لعمر أبيها كما ذكرنا من قبل

زينب :

كانت زينب ابنةً لأمية بنت عبد المطلب عمه الرسول ، وكانت من أشرف العرب ، وقد جاء الإسلام فسوّى بين الناس ، سوى بين السادة والعبيد ، سوى بين الأشراف والموالى ، وقد خضع الناس لهذه التسوية ، ولكنها في العصر الأول لم تكن بطبيعة الحال قد تمكنت في نفوس القوم ، وقصة زينب إنما هي قصة تثبيت المبدأ الجديد ، فقد خطبها الرسول لمولاه زيد بن حارثة ، وحدث صراع نفسي ، فكيف تتزوج حفيدة عبد المطلب من زيد المولى ؟ ولكن كيف تُردّ خطبة الرسول ؟ وكيف لا يخضع المسلمون للإسلام الذي جعل الناس جميعاً سواء كأسيان المشط كما قال الرسول ؟ وإذن فليتم الزواج ، وقد تم ، ولكن بقي في النفس شيء من إحساس الجاهلية ، وكان زيد مرهف الحس ، فأحس بتعالى زينب عليه ، واعتادها من قريب أو بعيد بنسبها ، فشكا ذلك للرسول ، وذكر رغبته في طلاقها ، وأعلم الله الرسول أن هذا الزواج لن يدوم ، ولكن الرسول ما كان ليقول ذلك لزيد ، وأخذ يدعو أن يمسك عليه زوجه وأن يتقي الله ؛ ولكن هذا العلاج لم يقض على الداء ، وطلق زيد زينب وبقي في نفس زينب وفي نفس أقاربها شيء من هذا الزواج ، فأراد الله أن يزيل أثره عن زينب ، وفي الوقت نفسه أراد الله أن يقرر المساواة ويقويها ، فأوحى لرسوله أن يتزوجها ، وهكذا نجد حفيدة عبد المطلب تتزوج من مولى ويظن الناس بأنها انخفضت درجة بهذا الزواج فلم تعد صالحة ليتزوجها قرشي ، ولكن الرسول نفسه يتزوجها بعد طلاقها فترقى إلى أعلى الدرجات ، ويؤمن الناس بالمبدأ الإسلامي الرشيد ، مبدأ المساواة ، الذي وضع وضعاً عملياً في هذه القصة .

وهند بنت أبي أمية (أم سلمة) وكان زوجها من شهداء أحد .

وهكذا إذا ذهبنا نبحث حالات زواج الرسول واحدة واحدة نجد في كل منها سبباً كريماً ولكل منها حكمة بالغة .

مارية :

وبعد الفراغ من الحديث عن زوجات رسول الله يتحتم علينا أن نتكلم كلمة عن مارية التي كان يمكن أن تكون زوجة ضمن زوجات الرسول؛ إذ أن الرسول عرض عليها أن يعتقها ويتزوجها كما فعل ببعض نسائه ، ولكنها آثرت أن تبقى مملوكة له ، ترى فيه سيدها وصاحب السلطان عليها .

لماذا آثرت مارية هذا الاتجاه ؟ إن الجواب عن هذا سهل ، فارية كانت جارية في قصر المقوقس في مصر ومن هنا كان لها عهد بحياة الرق ، فلم ترد أن تغير من نسق حياتها الذي اعتادته ، ثم لأنها كانت ذات معرفة بالآداب المسيحية التي تدعو للرهبنة وتحث على الخضوع ، وهناك سبب ثالث قد يساق في هذا المجال هو أن المقوقس أرسل بها هدية لحمد لتعرف على أخباره أو قل لتتجسس عليه ، وأرسل معها أختها (سيرين) ونفراً من قومها لعلها تستطيع أن تنقل إليه أخبار محمد بواسطتهم ، فمن هنا لم تجيء مارية إلى بيت محمد ليتزوج وتؤدي التزامات الزواج من حب وإخلاص ، وإنما لتجسس ومكانها كجارية يبيع لها هذا التصرف .

ومن هنا آثرت مارية أن تبقى ملك يمين ، ولكنها سرعان ما قابلت شيئاً هز وجدانها ، فقد خلقت بمصر قصوراً شاهقة كان يعيش فيها المقوقس ويعيش فيها بعض رؤساء الكنيسة ، وجاءت إلى المدينة حيث عاشت في بيت صغير شديد القرب من صوامع الرهبان ، ورأت الرسول يعيش على

كفاف ، وبيت أحياناً على الطوى ، وفراشه خشن متواضع ، وملبسه بعيد كل البعد عن الترف والنعيم ، وكان الرسول يشاركها في أعمال البيت ، ويتخلق بأسمى الآداب وأرق الصفات فأدركت مارية أن محمداً ليس ملكاً ، وأنه هو بأخلاقه وبدعوته رسول الله ، بل عرفت مما سمعته من القرآن الكريم طبيعة السيد المسيح وأنه ليس إلهاً كما ادعى المسيحيون ، ولكنه عبد الله ورسوله ، فأسلمت وحنن إسلامها ، وأنجبت للرسول ابنه إبراهيم الذى فرح به الرسول والمسلمون فرحاً جماً ، وسنتحدث عن إبراهيم عند حديثنا عن أولاد الرسول .

معاملة الرسول لزوجاته :

في بيوت الرسول صلوات الله عليه وجد طرفان في مجال المعاملة ؛ الطرف الأول هو الرسول نفسه ، وهو الإنسان الكامل الذى وصفه الله تعالى بقوله « وإنك لعلى خلق عظيم (١) » وهذا شئ طبيعى لأن الأنبياء صفوة البشر قال تعالى « الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس (٢) » .

ولهذا كانت تصرفات الرسول في بيته تصرفات مثالية تعد نماذج للمسلمين الذين ينبغي عليهم أن يقتلوا بالرسول وأن يغترفوا من سلوكه ، ما وسعتهم الطاقة .

والطرف الثانى في بيوت الرسول هو زوجاته رضى الله عنهن ، وهن بلا شك مجموعة من الفضليات ، ولكنهن لم يكن في درجة الرسول ، ولا كن في مستوى واحد في الفضل كما سئرى من الأحداث التى نرويها ، وزوجات الرسول بهذا الشكل شئ طبيعى ، إذ لو كن قما في الفضل لكان بيت الرسول في مستوى بعيد عن واقع الحياة ، ولما ظهرت به المشكلات التى يعالجها الرسول ليتخذ المسلمون من علاج الرسول لها درساً ينتفعون به فيما يواجهون من مشكلات .

(١) سورة القلم الآية الرابعة .

(٢) سورة الحج الآية ٧٥ .

ومن هنا فإن دراستنا للحياة في بيت الرسول سترينا الاتجاه المثالي التشريعي الذي تمثله تصرفات الرسول ، وسترينا كذلك اتجاهات الزوجات وموقف الرسول منها مثنياً أو مصححاً أو مهذباً ، وعلى المسلمين أن يتبعوا نهج الرسول في جميع الحالات .

والانجاء المثالي لحياة الأسرة تبرزه أحاديث الرسول التي تُلزم كلا من الزوج والزوجة أن يرعى الآخر أسمى رعاية ، وأن تكون العشرة عامرة بالحب والوفاء وبالإخلاص ، وأحاديث الرسول في ذلك كثيرة موثقة منها :

- استوصوا بالنساء خيراً .
- خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي .
- أيتها امرأة مانت وزوجها راض عنها دخلت الجنة .
- لو كنت امرأة أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها .

فالرسول في هذه الأحاديث وسواها يعظ ويعلم ولكنه يضرب المثل بنفسه ، ويبين أنه خير الناس في أهله ، فأحسن الناس من كان كذلك ، وليس الذي يبدو أمام الناس سمحاً طيباً فإذا دخل بيته انقلب متسلطاً عابساً ، وتقول السيدة عائشة عن ذلك « كان رسول الله في بيته ألين الناس ضاحكاً باسماء » وكان يساعدهن في أعمال البيت ، وأثر عنه قوله « خدمتك زوجتك صدقة » وكان رسول الله يعامل زوجاته بالحسنى ، ويأخذهن بالنصيحة الطيبة ، ويسألن الرفق في أمورهن ، ويقسم بينهن بالعدل ويقول : « اللهم هذا قسمي فيما أملك : فلا تؤاخذني فيما لا أملك » أي يسأل الله ألا يؤاخذة في ميل القلب الذي لا يمكن للإنسان أن يسيطر عليه .

أما مكانة الزوج لدى زوجته فيوضحها الرسول لعائشة عندما سأله : أي الناس أعظم حقاً على المرأة ؟ أجاب : زوجها . وسأله وأي الناس أعظم حقاً على الرجل ؟ فأجاب : أمه .

وجاءت إلى الرسول زوجة من الزوجات ، فسألها الرسول : كيف أنت مع زوجك ؟ إنه جتتك ونارك ، أى أنك تدخلين الجنة أو النار حسب معاملتك له .

وكان الرسول صلوات الله عليه ينبه الرجال إلى احتمال النساء ، ففي كثيرات منهن نوع من الانحراف ينبغي أن يصبر عليه الرجل ، وهو في ذلك يقول :

— إن المرأة كالضلع إن ذهب تقيمها كسرناها ، وإن تركناها استسحمت بها على عوج .

— لرأحت إلى المرأة الدهر ثم رأيت منك شيئاً ، قالت ما رأيت منك خيراً قط .

(رواه البخارى)

ولم تكن زوجات الرسول — كما أشرنا آنفاً — على نفس واحد ومستوى واحد لدى الله ولدى الرسول ، ولذلك كان الوحي يجيء للرسول في مكة في بيت خديجة وفي المدينة في بيت عائشة ، وقد روى عن عائشة قولها : « فضلني الله على الأخريات بأن جعل الوحي ينزل على الرسول في بيتي » ولم ينزل في غير بيتها إلا قليلاً في بيت أم سلمة . وكان الرسول يقول : إن لعائشة مني شعبة ما تنزلها واحدة من النساء .

وكان الرسول كثير المداعمة لعائشة ، فقد شكّت له مرة آلاماً في رأسها فداعبها بقوله : ماذا لو متُّ وأنا حي فصليتُ عليك ودعوت لك ؟ فقالت له : فكأنني بك وقد عدت بعد دفني تعرس بإحدى نساءك على فراشي . . . وكان يسابق عائشة فسبقته مرة وسبقها أخرى فقال لها هذه بتلك .

وكانت الغيرة موجودة في بيت الرسول ، وكان الرسول ينظم الغيرة حتى لا تكون أداة تدمير للأسرة ، ويروى عنه قوله في الغيرة من الأجانب : « إن الله تعالى

يفار ، والمؤمن يفار ، وإني لغير ، وما من امرئ لا يفار إلا منكوس القلب ، ولكن من الغيرة ما يحبه الله ، ومنها ما يبغضه ، فأما الغيرة التي يحبها الله فالغيرة مع الريبة ، والغيرة التي يبغضها الله الغيرة بدون ريبة ، فإذا لم يكن هناك أدنى شك فلا داعي للغيرة ، بل يعلم الرجل زوجته أن تبعد عما قد يحدث شكاً في المستقبل ، أما مع الشك فلا بد من التعرف على أسباب الشك حتى لا تتفاقم الأمور .

أما الغيرة بين الضرائر فقد دعا الرسول ربّه أن يزِيلَ حدّتها وقصة ذلك أنه عند ما خطب أم سلمة ترددت في القبول وكان من أسباب ترددها ما قالته بأن عند الرسول من هي أجمل منها . فأحس الرسول فيها بخلق الغيرة فقال وإن كنت تغارين من النساء فيذهب الله الغيرة منك .

وبعد أن تزوج الرسول أم سلمة نشأ في بيت الرسول حزمان ، حزب فيه عائشة وحنصة وصفية وسودة ، والحزب الآخر أم سلمة وسائر زوجاته ، ونمت الغيرة في هذا الجو ، وترتب على الغيرة بعض الكيد ، وبعض الإساءات ، ولكن الرسول وقف منصفاً حكماً ، ليخفف من غيرة النساء ويقلل من وحدتهن ، وقد أورد الذهبي بعض مظاهر الغيرة وبعض الأحداث التي جرت مرتبطة بها :

فمن ذلك ما ترويه عائشة قالت : أتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم في غير يوم ، فذق الباب ، فسمعتُ الدق ولكن توانيت في الفتح حتى دق أكثر من مرة ، ثم فتحت له ، فقال : أما كنت تسمعين الدق ؟ قلت : سمعته ولكني أحبيت أن تكرر الدق لتعلم النساء أنك أئينني في غير يوم^(١) .

ويروى زيد بن أسلم أن رسول الله في مرضه الذي توفي فيه قالت له صفية بنت حيي : والله يانبي الله لوددت أن الذي بك حل بي ، فتغامت

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج ٢ ص ١٢٣ .

زرياته فأبصرهن الرسول ، فقال لمن : استغفرون الله . فقلن : من أى شيء ؟ قال : من نغامركن بها ، والله إنها لصادقة^(١) .

وعن عطاء بن يسار قال : لما قدم رسول الله من خيبر ومعه صافية سمع الناس يجالها فجئن لينظرن إليها ، وجاءت عائشة متتعبة ، ولكن الرسول عرفها ، فلما خرجت لحق بها الرسول وسألها : كيف رأيت ؟ قالت : رأيت يهودية . قال : لا تقولى هذا فقد أسلمت^(٢) .

فإن كانت سياسة الرسول الحكيمه وهو يتودد لتركب أنثى تعددت فيه الزوجات وآن لنا أن نتحدث عن تصرفات أحدثتها بعض الزوجات ونشرح كيف كان موقف الرسول من هذه التصرفات ، وأول ما يهمنى إن حياة النكشف كانت نمط الحياة عند الرسول ، وتقول عائشة : كان خبزنا الشعير أطحنه فى الرحى ، وطعامنا التمر والماء ، وأحياناً كنا نحصل على بعض اللبن ، ويمر شهران لا توقد نار لطهو طعام ، ولم يمتلئ جوف الرسول شبعاً قط وكان الفقر أحب إليه من الغنى ، ولم تكن الزوجات تستطعن ما استطاعه الرسول من العزوف عن الدنيا ، فاجتمعت الزوجات حول الرسول يسألنه النفقة ، فاعتزلهن الرسول شهراً أو حوالى ذلك ، فنزل قوله تعالى : يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحكن سراحاً جميلاً ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً^(٣) .

فبدأ الرسول بعرض عليهن ما عرضه الله سبحانه وتعالى ، وابتدأ بعائشة قائلاً لها استشيرى أبويك فى هذا الأمر ، فقالت عائشة : أفيلك استشير يا رسول الله ؟ فلما تلا عليها الآية قالت : أختار الله ورسوله والدار الآخرة . وكذلك فعلت الزوجات الأخريات . وهكذا عالج الرسول هذه

(١) المرجع السابق : ص ١٦٢ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٦٨ .

(٣) سورة الأحزاب : الآية ٢٩ .

الأزمة بحكمة وهدوء . فإما أن ترضى الزوجات بنسق الحياة الذى يعيش فيه الزوج وإلا كان تسريحهن هو المخرج .

وهناك حادثة أخرى تأمرت فيها عائشة وحفصة على الرسول ، فقد كانت زينب بنت جحش من أحب نسائه إليه وكان يدخل عندها نهاراً وهو يمر على زوجاته فيطيل عندها الجلوس فدبرت عائشة وشفقة مؤامرة ضده ، فما إن خرج ودخل على عائشة حتى قالت له هذه : ماذا أكلت أو شربت هند زينب ؟ إني أشم من فمك ريحاً غير طيب : قال الرسول : سقني زينب جرعة عسل . قالت : لقد رعى نحل المغابير (المغابير نبات لزج رائحته كريهة) ودخل الرسول على حفصة فقالت له ما قالت عائشة : فصدق الرسول هذا الادعاء ، وكان حريصاً على طيب رائحة فمه ، فحرّم على نفسه شرب العسل وقد كشف الله سبحانه وتعالى هذه المؤامرة فنزلت الآية الكريمة : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ؟ تَتَّبِعِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، إلى قوله تعالى : إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ، وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ^(١) ، وتاب الله على زوجات الرسول وغفر لهن .

وكان من نساء الرسول من تراجع الرسول وتناقشه ، ومنهن من قالت له : تكلم ولا تقل إلا حقاً . وكان الرسول يتنعم ويقول : وهل أقول غير الحق ؟ وقد سبق أن ذكرنا أن سودة لم تكن موافقة للرسول ولالبناته كما ينبغي ، وأنها قالت لسهيل بن عمرو قولة فيها تحريض للكفار على المسلمين ، ولما سمعها الرسول قال لها : يا سودة أعلّ الله ورسوله تحرضين ؟ فاعتذرت سودة ، وتقول عائشة عن سودة : مامن الناس امرأة أحب إلى أن تكون في صلاحها من سودة بنت زمعة . إلا أنها امرأة فيها حسد . وقد رأى الرسول انصراف قلبه عنها فعرض عليها الطلاق ، ولكنها توسلت إليه ألا يفعل فقبل ذلك منها ووسعتها رحمته ، وفي رواية أخرى أنه طلقها فعلاً . ولعل موقف سودة ومثيلاتها هو الذى أوحى للرسول أن يقول : إن المرأة كالضلع إن ذهب تقيمها كسرته وإن تركتها استمنت بها على عوج . ويعلق

(١) سورة التحريم : الآيات الأولى .

الإمام الشراكاني على هذا الحديث بقوله : إن فيه الحث على الصبر على مالا يستقيم من أخلاق النساء .

وكان الرسول كثير الاعتراف بالفضل لزوجته خديجة حتى بعد وفاتها ، فقد كان يكثر الحديث عنها بخير ويدعو لها ، وكان يذبح الشاة ويقسمها أجزاء ويبعث بأجزاءها إلى صاحبات خديجة ، وقد سبق أن ذكرنا أن عائشة كانت تقول : ما رأيت خديجة قط ولكني كنت أغار منها أكثر مما أغار من غيرها لكثرة ما كان يمدحها ويثنى عليها ، وفي مرة أعلن الرسول لعائشة أن خديجة لا تعدلها زوجة أخرى فغضبت عائشة وقالت له : هل كانت إلا عجزاً بدلك الله خيراً منها ؛ فقال لها بغضب : لا والله ما بدلتني الله خيراً منها ، آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بما لها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من الزوجات وقد ذكرنا ذلك من قبل .

* * *

الحجاب :

بقيت كلمه عن الحجاب بالنسبة لأمهات المؤمنين وبالنسبة للنساء المسلمات بوجه عام ، والذي عليه الجمهور أن أمهات المؤمنين هن حكم خاص بهن توضحه آيات سورة الأحزاب ، والحجاب عليهن معناه لزوم البيت ، وقد فُرض عليهن بعد غزوة الخندق ، كما أن نساء الرسول لا يجوز أن يتزوجن بعده ، وعن هذه الأحكام الخاصة بزوجات الرسول يقول تعالى :

— يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ، إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا ، وقرن في بيوتكن ، ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا^(١)

(١) سورة الأحزاب الآيتان ٣٢ - ٣٣ .

— يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ، ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤدى النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق ، وإذا سألتهم من متاعاً فاسألوهم من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهم^(١) .

— وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً^(٢) .

هذا عن زوجات الرسول ، أما النساء المسلمات بوجه عام فالجمهور على أن الحجاب عليهن معناه تغطية الجسم ماعدا الوجه والكفين ، وقد تحدد ذلك بما ورد في سورة الأحزاب وسورة النور ، قال تعالى :

— يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن^(٣) .

— وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منهن وليضربن بخمرهن على جيوبهن^(٤) .

هذا ولآية مسلمة أن تغطي جسمها كله بما في ذلك الوجه ، وذلك تفضل ممن تفعل ذلك ، ولكنه ليس واجباً ، فإذا خيفت الفتنة في حالة بعينها كان الغطاء أمثل .

الرسول وأولاده :

ذلك حديث عن الرسول بين زوجاته ، فلننتقل إلى الحديث عن الرسول وأولاده ، وأولاد الرسول — ماعدا إبراهيم — من السيدة خديجة ، وهم ابنان : القاسم والطاهر ، وقد ولد القاسم قبل الإسلام وبه كان

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٣ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٥٣ .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٥٩ .

(٤) سورة النور الآية ٣١ .

الرسول يكتفى ، ومات وعمره حوالى السنين ، أما الطاهر فقد ولد بعد الإسلام ولذلك سمي الطاهر وقد مات رضيعاً ، وكان الرسول لا يزال في مكة ، فقال العاص بن وائل في شماته بالرسول : إن محمداً أبتـر . أى لا يعيش له أبناء ، فنزلت الآية الكريمة : « إن شانئك هو الأبتر » وولدت السيدة خديجة للرسول أربع بنات هن زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة :

وكبرى بناته كانت زينب وقد تزوجت قبل الإسلام من أبى العاص ابن الربيع وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد ، فلما جاءت الرسالة آمنت به خديجة وبناته وثبت أبو العاص على الوثنية ، وأرادت زينب أن تلحق بأبيها فمنعها أبو العاص ، فعاشت معه فترة دون أن يكون بيتها وبينه ما بين الرجل وزوجته ، وكان أبو العاص من معدودى رجال مكة مالا وأمانة وتجارة . ففشى إليه وجوه قريش وقالوا له : اردد على محمد ابنته ، ونحن نزوجك أية امرأة أحببت من قريش ، فقال : لا والله ، لا أفارق صاحبتى فلما خير صاحبة ، وهاجر الرسول بدونها إلى المدينة ، فلما جاءت غزوة بدر كان أبو العاص مع المشركين ، ووقع في يد المسلمين أسيراً ، وبدأت قريش تفدى أسراها ، وكان فداء أبى العاص قلادة عرفها الرسول ، إنها قلادة خديجة رضى الله عنها وهبتها لابنتها زينب حين زواجها ، فلما رأى الرسول القلادة رقى لها ، وقال للمسلمين : إن رأيتم أن تردوا قلادة زينب وتطلقوا أسيرها فافعلوا . فقالوا : نعم يا رسول الله . فأطلقه الرسول بعد أن اشترط عليه أن يبعث بزينب إليه ويوثق يمينه ، ووجه الرسول زيد ابن حارثة ليتسلمها ، ولحقت زينب بأبيها في المدينة وبقي زوجها على الشرك .

وفى سنة ست من الهجرة خرج أبو العاص في تجارة إلى الشام ، وفى طريق عودته بعث الرسول زيد بن حارثة فى جيش من المسلمين فاعترضوا عبره واستاقوها وأمروه . فبعث أبو العاص إلى زينب يستجير بها فأجارته ، وقبل الرسول جوارها ، وقال للمسلمين : إنكم قد عرفتم مكان هذا الرجل منا ، فإن تردوا عليه ماله فإننا نحب ذلك ، وإلا فماله فىء مالمكم . فردوا عليه ماله . فعاد إلى مكة ورد الحقوق لأصحابها ثم وفد

إلى المدينة مسلماً ، فأعاد له الرسول زينب بنكاح جديد ومهر جديد^(١).

أما رقية فكانت قد تزوجت عتبة بن أبي لهب ، فلما نزلت السورة الكريمة : « تبت يدا أبي لهب » قالت أم عتبة واسمها أم جميل بنت حرب ابن أمية : قد هجانا محمد ، وعزمت على ابنها عتبة أن يطلق رقية ، وكذلك فعل أبوه فطلقها قبل أن يدخل بها فزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم من عثمان بن عفان وهاجرت معه إلى الحبشة ، وولدت له عبد الله ومرضت قبيل بدر ، فخلّف الرسول معها عثمان ، وتوفيت والمسلمون في بدر ، ودُفنت بالبقيع ، ومات ابنها بعدها بقليل^(٢) .

وأما أم كلثوم فكانت زوجة لعتب بن أبي لهب ، وطلقها زوجها مثلما فعل أخوه عتبة ، فلما ماتت رقية زوجها الرسول من عثمان وظلت معه حتى ماتت سنة ٩ هـ وبكى عليها عثمان وأطال البكاء فسأله الرسول : ما يبكيك ؟ فقال انقطاع صهرى منك يا رسول الله فقال . الرسول : انقطاع الصهر لا يكون بالموت ، وإنما يكون بالطلاق ، ولو كان عندنا ثالثة لزوجناك^(٣) .

وأما فاطمة فقد زوجها الرسول من علي بن أبي طالب رضي الله عنه سنة اثنتين للهجرة فولدت الحسن والحسين ومحسناً وزينب وأم كلثوم ، وقد مات محسن صغيراً وتزوجت زينب بنت علي عبد الله بن جعفر ولم تتجب منه ، وتزوجت أم كلثوم عمر بن الخطاب ، فولدت له زيد بن عمر وقتل عمر عنها ، وتوفيت أم كلثوم وابنها زيد في يوم واحد ، وأنجب الحسن والحسين ابناً على وفاطمة نسلاً كثيراً ، ومنهما وجد النسل الذي ينحدر من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى الآن .

وفاطمة تستحق مزيداً من الحديث عنها لمكانتها من الرسول من جانب ولأن منها عاش حتى الآن نسل الرسول من جانب آخر ، ويروى الذهبي

(١) البلاذري : أنساب الأشراف ص ٣٩٧ وما بعدها والذهبي : سير أعلام النبلاء ص ١٧٥ .

(٢) أنساب الأشراف : ص ٤٠١ .

(٣) المرجع السابق : ونفس الصفحة .

أن الرسول قال عنها : بأنها سيدة نساء العالمين في زمانها وكان يكنيها أم أبيها ، لما كان فيها من الحنان على الرسول صلوات الله عليه . الذي قلما يوجد في غير الأم ، وقد ولدت قبل البعثة بقليل ، وتزوجها الإمام على سنة اثنتين للهجرة عقب غزوة بدر ، ودخل بها عقب غزوة أحد ، وذلك بعد أن دخل الرسول بعائشة بأربعة أشهر ، وكانت من فاطمة خمسة عشر عاماً ، وقد روت كثيراً من الأحاديث عن أبيها وروى عنها ابنها الحسن والسيدة عائشة ، وأم سلمة ، وأنس بن مالك ، وكان صلى الله عليه وسلم يحبها ويكرمها ويسير إليها ، وكانت صابرة دينة خبيرة خاضعة شاكرة لله ، وكانت مشية فاطمة شديدة الشبه بمشية الرسول صلوات الله عليه ، وكانت تطمع في أن تترك أبيها في أرض فadak ، ولكن أبا بكر ذكر لها أنه سمع الرسول يقول : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة ، فوجدت عليه . كأنها لم تكن قد سمعت هذا الحديث من الرسول ، ولكنها لما مرضت أتى أبو بكر إلى بيتها واستأذن : فدخل على عليها وقال لها : يا فاطمة هذا أبو بكر يستأذن عليك . فسالت غلياً قائلة : أتحب يا علي أن أذن له ؟ قال علي : نعم ، فأذنت له فدخل عليها أبو بكر يترضاها ، وقال لها : والله ما تركت الدار والمال والأهل والعشيرة إلا ابتغاء مرضاة الله ورسوله ومرضاتكم أهل البيت . وما زال بها حتى رضيت .

وتوفيت بعد النبي صلى الله عليه وسلم بخمسة أشهر ونحوها وكان عمرها خمساً وعشرين سنة ، وكانت وفاتها يوم الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة إحدى عشرة هجرية .

وكان على رضى الله عنه قسم العمل في البيت بين أمه وبين زوجته ، فطلب من أمه أن تكفي فاطمة الخدمة خارج البيت ، أي تحضر ما يلزم للبيت من الخارج ، وتكفيها فاطمة العمل في البيت ، فتقوم بالطحن والعجن والخبز (١)

ورزق الرسول ابناً من مارية أسماء إبراهيم ، ولكنه مات وعمره حوالي العام .

هؤلاء هم أولاد الرسول ، فإذا كانت تعاليم الرسول بالنسبة للأولاد بوجه عام ؛ وماذا فعل أولاده ؟ حتى يمكن لنا أن نقتدى به في هذا المضيير ؟ .

أول ما نذكره أن الرسول كان يحب أولاده ويلاطفهم ، ويروى البخاري ومسلم أن الرسول قبّل الحسن بن علي وعنده الأقرع بن خابس التميمي ، فقال الأقرع إن لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحدا قط . فقال له الرسول : من لا يَرْحَم لا يَرْحَم (متفق عليه) .

ثم إن الرسول ألزم الأب أن يسوّى بين أولاده في العطاء والمعاملة ، ويروى أن زوجة بشير بن سعيد الأنصاري طلبت إليه أن يخص ولدها النعمان بمنحة فاستجاب لها ، وأرادت الزوجة توثيق هذه الهبة فطلبت من زوجها أن يشهد عليها الرسول فاستجاب بشير لرغبتها وذهب للرسول ، فسأله الرسول : هل للنعمان إخوة ؟ فأجاب نعم ، فسأله الرسول : فكليهم أعطيت مثل ما أعطيته ؟ قال بشير : لا . فقال الرسول : ليس يصلح هذا ، إن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم ، كما أن لك عليهم من الحق أن يبروك ، اتقوا الله واعدلوا بين أبنائكم^(١)

وكان الرسول يحب فاطمة حباً جماً ، وكانت إذا دخلت عليه قام إليها وقبلها وأجلسها بجواره ، وكان يحب ولديها الحسن والحسين ، ويحملهما على ظهره ويداعبهما ، وحدث مرة أن كان الرسول يصلي فأطال الصلاة فلما انتهى من الصلاة سأله أحد الصحابة عن سبب الإطالة فقال : إن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله .

وكان يحب زينب ابنته حباً شديداً . وكان يحب زوجها أبا العاص لحفاظه على زينب واحترامه لها مع اختلاف الدين ، وقد رأينا الرسول يقول عنه للمسلمين : إنكم قد عرقتم مكان هذا الرجل منا . . .

ولما ماتت زينب تركت بنتاً اسمها « أمامة » وأحبها الرسول ككل أحفاده ، وفي ليلة أهدى إليه قلادة ثمينة من خرز ثمين يوجد بظفار بحنوب

(١) انظر هذه الدراسة مفصلة في « الحياة الاجتماعية في التفكير الإسلامي » للمؤلف ص ٧١ وما بعدها .

الجزيرة ، فقال عليه السلام : لأهدين هذه القلادة إلى أحب أهل إلى ،
فقال بعض الزوجات قد فازت بها ابنة أبي بكر ، فلما أصبح دعا بأمامة
وألبسها العقد .

ولما رزق الرسول بابنه إبراهيم في أواخر أيامه فرح به كل الفرح ،
وتصدق بوزن شعر رأسه فضة . وكان الرسول يمشي لمارية كل يوم يداعب
ابنه ويناغيه ، فلما مات إبراهيم بكى الرسول عليه وقال : تدمع العين
ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى الرب ، وصادف أن كسفت الشمس
يوم موت إبراهيم فقال بعض الناس إنها كسفت حزناً على إبراهيم فقال
الرسول : إن الشمس والقدر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت أحد
ولا لحياته .

ما أجدر المسلمين أن ينتفعوا بهذا النموذج الذي شرحه الرسول ، وتعامل
به مع أولاده وأحفاده .

الرسول مع خدمه :

يمثل الخدم في كثير من البيوت عنصراً مهماً من السكان ، وقد أرشد
الرسول السادة والخدم على المعاملة المثلى من الطرفين ؛ فمن حقوق الخدم
يروى المعرور بن سويد قال : رأيت أبا ذر رضى الله عنه وعليه حلة وعلى
غلامه مثلها ، فسألت أبا ذر عن ذلك فذكر أنه سائبٌ خادماً على عهد
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له النبي : إنك امرؤ فيك جاهلية هم
إخوانكم ، وخولكم . جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه
مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم . ومن الواضح أنه ليس
من الضروري أن يلبس الخادم من نوع لباس سيده ، وإنما كان ذلك عقوبة
لأبي ذر على موقفه من خادمه .

وعن واجبات الخدم تجاه المخدم يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ..
والخادم راع في بيت سيده وهو مسئول عن رعيته .

فإذا جئنا إلى النموذج الواضح في بيت الرسول رأينا مثلاً علياً في هذا الشأن : كانت بركة أئامها الله حاضنة الرسول صلوات الله عليه بعد وفاة أمه ، ولذلك كان الرسول يدعوها أمّه ، ولما شب الرسول وتزوج من خديجة تقدم لخطبتها عبد الله بن زيد الخزرجي وكانت بركة تميل إلى البقاء في خدمة الرسول وزوجته الطاهرة ، ولكن الرسول وزوجته شجعا بركة على قبول الزواج ، وأحست بركة بأنها أدت واجبها في خدمة محمد حتى تزوج وبدت حياته طيبة مع زوجته العظيمة فوافقت على الزواج ، ورحلت مع زوجها إلى يثرب وأنجبت ابنها « أيمن » منه فصارت تدعى أم أيمن ثم مات زوجها فعادت بابنها إلى بيت الرسول .

وتقدمت السن بأم أيمن ، وزاد صلاحها في ظل الإسلام ، ويروى أنها جاءت للرسول مرة وهو بين أصحابه فأسرت له بشيء ثم عادت . فقال الرسول : من أراد أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليزوج أم أيمن . ولما سمع زيد بن حارثة ذلك تقدم للرسول بخطبها ، وتم زواجه منها بعد وليمة سخية أقامتها السيدة خديجة لأوفى خادمة ، وأنجب هذا الزواج « أسامة بن زيد » .

ويروى أن أم أيمن قالت يوم حنين : سبّ الله أقدامكم . فقال لها الرسول : اسكتي فإنك عسراء اللسان .

ونقف هنا وقفةً لتتحدث عن زيد بن حارثة الكلبي ، وقد ولد في الجاهلية ، وسبي وهو طفل في إحدى غارات القبائل ، وبيع رقيقاً في أسواق مكة ، وكان الذي اشتراه حكيم بن خزام لخديجة بنت خويلد ، ولما تزوج محمد بن عبد الله من خديجة وهبته زيداً فأحبّه وأعتقه وتبناه ، وكان يدعى زيد بن محمد حتى نزلت الآية الكريمة « ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله » فأصبح يدعى زيد بن حارثة .

وقد اهتدى أبوه إليه وأظهر الرسول استعدادّه لردّه لأبيه وذويه ،

ولكن زيدا اختار أن يبقى مع محمد ، وسقط زيد شهيداً في موقعة مؤتة فعين الرسول ابنه أسامة قائداً للجيش الذي أعده قبل وفاته لغزو الروم ليثأر لوالده ، وكان كبار الصحابة جنوداً في هذا الجيش تحت إمرة الشاب أسامة .

ومن الذين خدموا الرسول مولاه ثوبان ، وقد أخلص هذا للرسول أيما إخلاص حتى أن الرسول لاحظ . أن ثوبان يذوى ويذبل فسأله : ما بك يا ثوبان ؟ فأجاب ثوبان : إني أذكر الآخرة التي ستجعلني في مرتبة بعيدة عنك فأحس بالأمسى والحزن لفراقك . ويقال إن الله طمأنه على مستقبله في الجنة بالآية الكريمة « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » (١) .

ومن خدمه عليه السلام أنس بن مالك ، وهو يقص قصته مع الرسول بقوله : قدم الرسول إلى المدينة وليس معه خادم ، وكانت أمي (أم سليم) متزوجة من (أبي طلحة الأنصاري) بعد أبي فأسلمتني أمي لخدمة رسول الله وقال أبو طلحة للرسول وهو يقدمني : يا رسول الله إن أنسا غلام ذبي فليخدمك . وتوليت خدمة الرسول طيلة عهده بالمدينة ولقد لازمته في السفر والحضر ، وما قال لي مرة (أف) وما قال لشيء صنعته : لم صنعته ، ولا لشيء تركته : لم تركته .

ويروى أن أنسا أرسله الرسول في حاجة فانحرف إلى صبيان يلعبون في السوق ورآه الرسول وهو على هذه الحال فقال له : يا أنيس اذهب حيث أمرتك . وأرسل إحدى خدمه مرة لفضاء حاجة له فتباطأت في قضائها ، فقال لها عندما عادت : لولا خوف القصاص لأوجعتك بهذا السواك .

* * *

تلك صورة سريعة لحياة الرسول في بيته ، بين زوجاته وأولاده وخدمه ، وهي لاشك صبرة مشرقة ينبغي على المسلمين أن يتدارسوها وأن يتأسوا بها ، ففي ذلك صلاح لبيوتهم ولجتمعتهم .

(١) سورة النساء الآية ٦٨

الرسول بين أصحابه

وَضَعَ الرسول صلوات الله عليه أسس الحب والصدقة بين المسلمين منذ آخى بين المسلمين في مكة ثم آخى بين المهاجرين والأنصار بالمدينة ، فهو بهذه المواخاة يخلق رباطاً جديداً بين الأصحاب يصل إلى رباط النسب وأحياناً يزيد عليه ، واستمر الرسول في حياته اليومية يقوّي هذا الرباط ويوصي به ، وفيما يلي بعض أحاديث الرسول في هذا المجال :

— خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه . (رواه الترمذى)

فكلما كان الإنسان شديد الوفاء والإخلاص لصاحبه كان أقرب إلى الله

— لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولن تؤمنوا حتى تحابوا .

— ما لعبدى المؤمن عندى جزاء إذا قبضتُ صفيّه من أهل الدنيا ،

ثم أحسبه إلا الجنة (رواه البخارى)

وهذا الحديث يدلنا على ألم الصديق لفراق صديقه ، ذلك الفراق الذى

يضمن للإنسان الجنة إذا صبر عليه .

ومن هذه الأحاديث الشريفة نستطيع أن ندرك قيمة الصحبة والأصحاب :

وكان سلوك الرسول صلوات الله عليه هدياً رائعاً في هذا المجال . فهو يتحدث

عن أصدقائه أروع حديث ليضرب لنا المثل في طيب الصحبة ، وصفاء

الود ، فهو يقول عن أبى بكر :

لما أحد أعظم عندى يداً من أبى بكر ، واسانى بنفسه وماله وزوجنى ابنته

ويقول عن أبى بكر وعمر : أبوبكر وعمر منى بمنزلة السمع والبصر .

ويقول عن على : على أخى في الدنيا والآخرة .

وكان الرسول من أكثر الناس عرفاناً بالجميل ، ومن هنا كان يوصى

دائماً بالأنصار ، ويذكر أنهم فتحوا له ولأصحابه قلوبهم وبيوتهم ، وكانوا

خير رفيقة للمهاجرين . وهو في آخر خطاب يلقيه يهتف بالمهاجرين قائلاً :
« استوصوا بالأنصار خيراً فإنهم كانوا عييتي (موضع سرى) التي أوبت
إليها ، فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم » والرسول بهذا الحديث
الشريف يبرز للمسلمين أن الصديق بشر ، وأنه من الممكن أن يخطيء
أو يزل فلا بد أن يكون الإنسان مستعداً للعفر عن زلات صديقه . ونسيان
هناك ، لتدوم الصداقة وتردهر ، وليس من الصداقة في شيء أن يتلمس
الصديق خطايا صديقه ، وأن يضمها بعضها إلى بعض ناسياً ما يسترجعه
الود ورحم الصداقة من عفو وغفران .

ويتحدث أنس عن الرسول صلوات الله عليه وعن صلته بأصحابه حديثاً
فيأضاً نفتبس منه بضعة سطور : كان رسول الله يتفقد أصحابه جميعاً . حتى
لا يحسب أحد منهم أن غيره أكرم منه على رسول الله ، وإذا جلس إلى
أصحابه صبر حتى ينصرف عنه أصحابه ، وكان يجيب من دعاه إلى داره ،
ويقبل الهدية ويثيب عليها ، ويزور أصحابه ، ويتعرف أحوالهم . ويعود
مرضاهم ، ويلعب صبيانهم ، وكان إذا التفت أحد أذنه ليهمس له بشيء
صبر له ، ولم يُنح عنه رأسه حتى ينتهي الرجل من كلامه . وما أخذ أحد
بيده إلا استبقاها الرسول حتى يرسلها صاحبه ، وكان يذادى الناس بأحب
أسمائهم إليهم ، ويكنيهم تكريماً لهم ، ولا يقطع على أحد منهم حديثه حتى
ينتهي منه .

وكان يتمثل في رسول الله خلق الإيثار بأسمى درجاته . فلم يعرف عنه
قط أنه خص نفسه بشيء ، وقد انعكس خلق الإيثار على أصحاب الرسول ،
ففي غزوة مؤتة قُتل الأمراء الثلاثة الذين عينهم الرسول للقيادة : زيد بن
حارثة ، وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة . فالتفت ثابت بن أكرم
الأنصاري اللواء ، وصاح في المسلمين أن اتفقوا على رجل منكم يكون أميراً
وقائداً ، فصاح بعض الناس قائلين : أنت يا ثابت . فقال ثابت : ما أخذت
اللواء لأصبح قائداً ، ونظر إلى خالد بن الوليد وقال : أنت يا خالد أحق
باللواء لأنك أعلم مني بشئون الحرب . وقال خالد لثابت : أنت أكبر سناً

ومن أصحاب الرسول قى بدر ، فأجاب ثابت : يا خالد ما أخذت اللواء إلا لك ، وصاح بالمسلمين : أترضون خالد ؟ قالوا نعم . فأصبح خالد أمير الجيش .

وكان الرسول يحاول أن يتعرف على حاجات أصحابه ويعمل على قضائها لهم ، وكان يعد نفسه كفيلا بطعام أهل الصفّة الذين تفرغوا للعبادة بمسجد الرسول ، وقنعوا بالقليل من ضرورات الحياة ، وكان يكره أن يستخدم أصحابه في شيء يخصه ، فيروى أبو هريرة أنه ذهب مع الرسول إلى السوق ليشتري سراويل ، فاشتراها من تاجر ، وسحاول أبو هريرة أن يحملها عنه ، فقال الرسول : صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله ، واستكالا لهذه القصة يقول أبو هريرة إن الرسول كان سهلا إذا باع وإذا اشترى وأنه أوفى التاجر وزاد ، وأن التاجر حاول أن يقبل يد الرسول ، ف جذب الرسول يده منه ، وقال : هذا ما تفعله الأعاجم بملوكها ولست بملك ، إنما أنا رجل منكم .

وكان الرسول يحب الدعابة ، ويسم لها ، ويرى أنها تخفيف عن النفس من مشكلات الحياة ، وربما شارك فيها ، فيروى أنه قال لعنته صفية وكانت قد تقدمت في السن : يا عمة ، لا يدخل الجنة عجزوز ، فأجهشت صفية بالبكاء ، إذ حسبت أنها ستحرم من الجنة ، ولكن الرسول سرعان ما قرأ لها وهو ييسم قوله تعالى : « إنا أنشأناهن إنشاء ، فجعلناهن أبكارا ، عربا أترابا » فهتفت صفية قصده ، وعادت إلى السرور والأمل . ومن دعاباته أن أحد المسلمين طلب إليه أن يحمله على بعير ، فقال له : سأحملك على ولد الناقة ، وعسب الرجل أن الرسول سيقدم له بعيراً حديث الولادة . فقال : يارسول الله : ما أصنع بولد الناقة ؟ فأجابه الرسول : أليس البعير ولد ناقة ؟

وهناك قصة شهيرة ترىنا أن الرسول كان بين أصحابه يبدو كواحد منهم ، ولا يحب أن يمتاز عنهم بشيء ، فيروى أنه كان مع بعض أصحابه ، وأرادوا إعداد الطعام ، وأعدوا لذلك شاة ، فقال أحدهم : على ذبحها ، وقال آخر : وعلى سلخها فقال الرسول : وعلى جمع الحطب . فقالوا : يارسول الله نكفيك هذا . فأجاب : إننى أعرف أنكم تحبون أن تكفونى هذا ، ولكنى

أحب أن أشارككم الأعمال ، وأن أكون كراحد منكم ولا أمتاز عليكم بشيء . ومثل ذلك ما حدث عند ما جاء له وفد النجاشي زعيم الحبشة ، فقام يخدمهم بنفسه ، فقال له أصحابه : نحن نكفيك هذا . فقال : إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين ، وإنى أحب أن أخدمهم بنفسى .

ومن الأدب العالى الذى قدمه الرسول لأصحابه فى معاملتهم بعضهم لبعض قوله : من اطاع منكم فى كتاب أخيه بغير أمره ، فكأنما اطلع فى النار .

وكان الرسول يأبى أن يظهر فى أى مظهر من مظاهر السلطان أو الرياسة ، وكان يقول لأصحابه : لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح بن مريم ، إنما أنا عبد الله ورسوله . وقدم على أصحابه مرة فوقفوا له . فصاح بهم : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم ، وليجلس أحدكم حيث انتهى به المجلس .

وكان الرسول إذا جاءه أصحابه وهو يصلى يخفف من صلاته ليسأل حاجتهم ، وربما عاد للصلاة بعد ذلك ، وكان أطيب الناس نفساً وأكثرهم تبساً ما لم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب ، وضرب لأصحابه المثل فى الاستهانة بالمال ، فلم يهتم أبداً بالادخار والغنى ، وإنما كان خلقه الرضى والإيثار حتى ليروى أنه لم يشبع قط ، وقد عانى الجوع غير مرة ، وكان زهده فى اللباس كزهده فى الطعام ، ولم يترك رسول الله دينارا ولا درهما ، ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً إلا بغلته الشبهاء وسلاحه ، وأرضاً تركها صدقة ، وهو القائل فى ذلك : نجن معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة ، ولذلك لم تترك زوجاته شيئاً مما كان له بخير وفدك ، فقد رد أبوبكر ما كان يملكه الرسول للمساكين ، وعاشت الزوجات بما حدد لهن من أسهم فى بيت المال^(١) .

ومن تذكريم الرسول لأصحابه وحبه لهم أنه كان يغفر انحراف ذويهم ولعل أبرز مثال لذلك هو احتماله صلى الله عليه وسلم لنفاق عبد الله بن أبى كراهيته للإسلام ولرسول الإسلام ، وكان هذا الاحتمال من أجل

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف : ص ٥٢٠ .

عبد الله ابنه ، فقد كان هذا مسلماً حسن الإسلام على الرغم من نفاق أبيه ، وقد وصل من تكريم الرسول للابن أن قدم قبضه الطاهر ليكفن فيه الأب المنافق بعد موته .

وقد بلغ الرسول القمة التي لا يصلها أحد سواه عندما نزلت الآية الكريمة : « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم (١) » . فيروى أن الرسول لما نزلت هذه الآية استمر في تكريمه لابن الصالح وقال : لو أعلم أني إن زدت عن السبعين غفر له لزدت عليها .

وإذا كان الرسول قد بلغ هذا المدى من حبه لأصحابه ، وتعاونهم معهم ، وحياته بينهم ، فقد كافأه أصحابه بصور من النفاق فيه ، والحب له ، والتضحية من أجله بكل ما يملكون ، فأبو بكر الصديق الذي كان غنياً في مطلع الإسلام أنفق أكثر ماله في مكة ، وأخذ ما تبقى من المال معه وهو مهاجر مع الرسول . ثم أنه كان كما ذكرنا من قبل يسبق الرسول أحياناً وهما في الطريق إلى المدينة ويتبعه أحياناً ، فلما سأله الرسول عن ذلك قال : أتذكر التبرص فأسبقك ، وأتذكر اللحاق فأتبعك ، فهو بذلك يريد أن يتحمل الردى عن الرسول .

ويروى كذلك أن أحد الصحابة واسمه زيد بن الدثنة ، وقع في أسر المشركين فاشتراه صفوان بن أمية ليقته بأبيه ، وأوقفه صفوان وبدأ يطلق السهام حوله من كل جانب ليخيفه ، وناداه أبو سفيان وهو في هذه الحال قائلاً : أشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمداً الآن يلاقى حتفه بدلاً منك وأنت في أهلك ؟ فصاح زيد قائلاً : والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وأنا جالس في أهلي . قال أبو سفيان : مارأيت أحداً يحبه أصحابه كما يحب أصحاب محمد محمداً .

وفي غزوة أحد عندما اتجهت جهود المشركين للقضاء على محمد وقف

(١) سورة التوبة الآية ٨١ .

الصحابة درعا حاميا للرسول يتلقون عنه الضربات ، ويهتفون بأنه لا تطيب لهم حياة إذا اغتيل الرسول أو نزل به مكروه ، وسرى ذلك عند الحديث عن الغزوات .

وهكذا كانت حياة الرسول بين أصحابه ، وَضَعَ لهم نموذج التعاون والحب فاستجابوا ، وظهر مجتمع مثالي ما أوجبنا أن نتدارسه وأن نتمثل به ، فإن فعلنا نلنا خير الدنيا والآخرة ، وصدق الله العظيم الذى يقول « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم »^(١).

الرسول يربي الفرد المسلم

هناك رحلة طويلة من الكفر إلى الإيمان ، وكان على العرب الذين تركوا عبادة الأوثان ودخلوا دين الإسلام أن يدركوا أبعاد هذه الرحلة ، وأن يعرفوا ما يستوجبه الإيمان الحق من التزامات ، ويروى عن علي بن أبي طالب أنه قال : كنا جلوساً عند الرسول فأقبل علينا رجل من العالية فقال أخبرني يا محمد عن أشد شيء في هذا الدين وألينه ؟ ، فقال له الرسول : يا أبا العالية : ألين شيء في هذا الدين شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأشدّه يا أبا العالية الأمانة ، ألا إنه لا دين لمن لا أمانة له وإن صام وصلى .

وعلى هذا فقد قام الرسوم صلوات الله عليه بالمدينة بجهد كبير ليقدّم للمسلمين الآداب الجديدة التي خلقها الإسلام ، والأخلاق السامية التي لم يكن للمجتمع البشري عهد بها ، وقد بذل الرسول في ذلك أقصى الجهد لإعادة بناء الفرد عقب دخوله الإسلام ، فأخذ الرسول يعمل في جانبين متوازيين ، الجانب الأول تطهير الفرد المسلم من أنواع الشرور والآثام التي كانت متفشية ، والتي تميل لها النفس الأمارة بالسوء ، أما الجانب الثاني فهو العمل ليكسب الفرد المسلم أسمى الصفات وأكرم السجايا ، وذلك بتحديد الفضائل والحث على اتباعها والتمسك بها ، وكان الرسول صلوات الله عليه يتخذ كل الوسائل لتربية الفرد المسلم وإعادة بنائه بالقول حيناً وبالسلوك حيناً آخر ، وكان تأثير الرسول بكلامه وفعله شديداً على المسلمين ، فظهرت طبقة من الصحابة برزت فيهم صفات البر ، واختفت صفات الانحراف ، وسنعيش مع سيدنا رسول الله نعرض كلامه وتصرفاته وهو يعمل على تجنب المسلمين الرذائل وعلى شدهم إلى الخير وتمكين الفضائل من نفوسهم ، وليس، ما نعه هنا إلا محاولة لتجديد العهد بصدر الإسلام حياً، نستجيب لرسول الإسلام وهو يرشد ويعلم ويوجه .

وأول ما نبدأ به من صفات الرذائل التي حاربها الرسول صفة الظلم فالظلم من أخطر الصفات التي تهدد المجتمعات ، وهو عدوانٌ قوياً على ضعيف ، كأنما ظن القوي أنه سيظل قوياً ، وحسب أن الضعيف سيظل ضعيفاً ، وهو حساب خاطيء ، فليس هناك شيء يديم ، ولذلك نجد سيدنا رسول الله يهاجم الظلم ويحذّر منه ، قال عليه السلام :

— اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة .

— اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب (متفق عليه) .

وبين رسول الله أن الظالم سيقاد منه ، ولن يفلت من العذاب ، قال عليه السلام : « إن الله يلمى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

« وإذا كان الظلم نهياً أو استيلاءً فإن الظالم يطوق يوم القيامة بما نهيه أو اغتصبه ، قال عليه السلام : من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أراضين » (متفق عليه) .

ويكون الظلم أبشع وأفحش لو كان واقعاً من ولى الأمر على الرعية ، فولى الأمر يفترض أن يكون حامياً من الظلم وحارساً للرعية ، فإذا انتقض عليهم ظالماً وجائراً كان عقابه مضاعفاً وحسابه عند الله شديداً . قال صلى الله عليه وسلم :

— ما من عبد يسترعه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة .

— اللهم من ولى من أمر أمي شيئاً فشقّ عليهم فأشقّ عليه . ومن ولى من أمر أمي شيئاً فرفق بهم فرفق به .

ومن الظلم ظلم يُنزله الابن بوالديه وهو يسمى العقوق ، والرسول يَعُدُّ هذا العقوق نوعاً من الكبائر ويخوِّف بأن عقوبته لن تكون في الآخرة فحسب ، وإنما يجعل الله بها في الدنيا ، قال صلى الله عليه وسلم :

— الكبائر ثلاثة الإشرak بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس .

— ثلاثة لا ينفع معهن عمل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف .

— كل الذنوب يؤجل الله منها ما يشاء إلى يوم القيامة إلا عتق الرالدين
فإن الله يعجله لصاحبه في الحياة قبل المات .

ومن الأخلاق الذميمة التي نهى الرسول عنها وكرر النهى : الرشوة ،
وهو داء يصيب بعض الناس ، ويوهمهم بأنه يجلب لهم الخير ، وهو في الحق
يجلب عليهم البلاء ، ومال الرشوة يسحق ما يواجهه من أموال عند المرتشى ،
وفي عصرنا الحاضر تنتشر الرشوة باسمها الحقيقي أحياناً ، وباسم الهدية أحياناً
أخرى ، وهي هنا وهناك سمّت وضلال ، وقال صلى الله عليه وسلم :

— لعن الله الراشي والمرتشي . (رواية الأربعة) .

— من ارتشى في الحكم شدت يساره إلى يمينه ثم رمى به في قعر جهنم :
(رواه الحاكم) .

— الرشوة في الحكم كفر وهي بين الناس سمّت . (رواه الطبراني) .

— هدايا العمال غلول (متفق عليه) .

ويحذر رسول الله من الكبر ، ويدلّ تحذيره على أن المتكبر جاهل
نسى تكوينه ومبدأ حياته ومنتهاها ، ولو أنه تذكر ذلك أو تذكر من سبقوه
بما كان لهم من بناء وسلطان ، ثم ما انتهى إليه أمرهم ، ما بقي في نفسه شيء
من الكبر ، وعن خلق الكبر يقول صلى الله عليه وسلم :

— من كان في قلبه مثال حبة من خردل من كبر كبّه الله على وجهه في
النار . (رواه احمد) .

— من تعظم في نفسه واختال في مشيته لقي الله تعالى وهو عليه غضبان :

وفي بناء الفرد المسلم يهتم الرسول اهتماماً كبيراً بالنهي عن التجسس
ومحاولة كشف مساوئ الناس وعيوبهم ، قال صلوات الله عليه :

— من اطلع في بيت قوم بغير إذنه فقد حلّ لهم أن يفتقروا عينه .

— من استمع لحديث قوم وهم له كارهون صُبّ في أذنيه الآتاك
(الرضا ص المذاب) .

— كل أمتي معاقٍ إلا المجاهرون (فإذا كان الله قد ستره فليس لمسلم أن يكشف ستره) .

— لا تتبعوا عورات المسلمين ، فإن من تتبع عورات المسلمين فضحه الله .

وليس من التجسس أن تتبع إنسانا غلب على الظن أنه يريد الفتك بإنسان أو ارتكاب كبيرة لئلا تمنعه من ذلك .

وينزه الرسول الإنسان المسلم عن الخلاف ، وقد سبق أن أوردنا أن الرسول عندما أرسل عمرو بن العاص على رأس بعث ، ثم أمده بجند يزعمه أبي عبيدة بن الجراح أوصى الرسول أبا عبيدة بقوله لا تختلفا . وكما من مفسد ترتكب بسبب الخلاف والصراع ، وفي المجتمعات أفراد كأنما يبحثون عن مواطن الخلاف ، ومثل هؤلاء يتخلقون بأخلاق قدام المجتمع وتأتي عليه .

وفي بناء الفرد المسلم نجد الرسول صلوات الله عليه يتبع أرقى ألوان الفكر عندما يقول : إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر . وينهى الرسول عن الجلوس على الطرقات إلا بعد أداء حقها ، فعن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إياكم والجلوس على الطرقات ، فقالوا يا رسول الله : مالنا بدّ . فقال : فإن أبيتم إلا الجلوس فأعطوا الطريق حقه ، وقالوا وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

تلك وقفة قصيرة مع الرسول صلوات الله عليه ، وهو يحجب الفرد شرور النفس وآثامها ، فإذا جئنا إلى الجانب الآخر الذي يحث الرسول فيه الفرد المسلم على كريم الصفات وجميل السجايا ، وجدنا ثروة هائلة تجعل من الإنسان صبرة طيبة ونموزجا حيا يتناسب مع الصورة التي أرادها الله للإنسان المسلم ، وسنذكر في هذا المجال بضعة أحاديث تصور أهم الجوانب في بناء الإنسان المسلم .

وأحاديث الرسول في هذا المجال تتدرج في بناء الإنسان ، فهي تتجه في

المقام الأول لتعليمه الصدق والأمانة والكرم والأخلاص في العمل وما مائل ذلك ، ثم تتجه به بعد ذلك لتعليمه رعاية الآخرين ، فتحنه على صلة الرحم وأداء حق الجار والتنقيس عن المعسر ، وتنتقل الأحاديث خطوة أخرى فتبحث على الدقة في اختيار الصديق ، ولما كانت الحياة تحتاج لحراسة فإن الأحاديث توضح أن المجاهدين والمرابطين لهم عند الله أحسن الجزاء فهم يقدمون النفس والدم إذا قدم الكرماء المال والمتاع ، وتنتجه أحاديث الرسول في مجال بناء الفرد إلى اتجاهات أخرى متعددة سنراها فيما بعد .

عن الصدق يقول صلى الله عليه وسلم :

— عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر ، والبر يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، والفجور يهدي إلى النار وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً ، (رواه البخاري)

— وعن الأمانة يروى على بن أبي طالب رضي الله عنه الحديث الذي سبق أن أوردناه في مطلع هذا الكلام مرتبطاً بالرجل الذي جاء من أهل العالية .

— وعن الإخلاص في العمل وإجاده يقول عليه الصلاة والسلام : إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه .

— وعن أنس وقت للصدقة يروى أبو هريرة أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له يا رسول الله : أي الصدقة أعظم أجراً ؟ قال : أن تصدق وأنت صحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت هذا لفلان وهذا لفلان .

— وعن صلة الرحم يروى أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي عَمْرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ . (متفق عليه) .

— وعن حق الجار يقول صلى الله عليه وسلم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره . وقيل للرسول : إن فلانة تصوم النهار وتة الليل لكنها تؤذي جيرانها . فقال : هي في النار .

— وعن التنفيس عن المدين يقول أبو قتادة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من سره أن ينجيّه الله من كرب يوم القيامة فلينفّس عن معسر أو يضع عنه ، ويرؤى جابر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : رحم الله رجلا سمحا إذا باع ، وإذا اشترى ، وإذا اقتضى .

— وعن الدقة في اختيار الصديق يقول صلى الله عليه وسلم : المرء مع من أحب ، ويقول : الرجل على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخال . (رواه أبو داود) .

— وعن جزاء المجاهد يقول صلى الله عليه وسلم : من قاتل في سبيل الله وجبت له الجنة .

— وعن الحث على البعد عن الفقر والحرمان والعوز يقول صلى الله عليه وسلم : اليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول ، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى (متفق عليه)

— وعن الرفق بالناس يقول عليه السلام لعائشة يا عائشة عليك بالرفق ، فإنه لا يدخل شيئا إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه ، وإن الله رفيق يحب الرفق (رواه مسلم) .

— وعن حسن معاملة الخدم يقول ابن مسعود : كنت أضرب غلاما لي فسمعت صوتا من خلفي يقول : اعلم يا ابن مسعود فلم أفهم الصوت من شدة غضبي ، فلما دنا مني صاحب الصوت وجدته رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي : اعلم يا ابن مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام ، فقلت يا رسول الله : هو حر لوجه الله تعالى : فقال : لو لم تفعل للفحتك النار (رواه مسلم) .

تلك نماذج قليلة ، وهناك آلاف مثلها من أحاديث الرسول وهو يربّي الفرد المسلم ، مرتبطة هذه الأحاديث بأحداث ومواقف ، أو كانت من الترجية العام ، ولا شك أن هذا اللون من التربية شغل حياة الرسول في مقامه وسفره . ويجب على كل مسلم أن يتعرّف على هذه التوجيهات وأن يعمل بها ليسعد في الدنيا والآخرة .

الرسول يربي المجتمع الإسلامي

عاشنا رسول الله آنفا وهو يربي الفرد المسلم ، ورأينا كذلك وهو يربي الروابط بين الأفراد بالمواخاة ، ثم وهو يربي المساجد تجتمع فيها جموع المسلمين في الجماعة رابطة وغيوها ، وليريد أن نعيش الرسول صلوات الله عليه وهو يربي المجتمع بخلق روابط بين أفراد وجماعات ليتألف من هؤلاء الأفراد وهذه الجماعات مجتمع متحاب متعاون .

والذي يتبع أحاديث الرسول وتصرفاته في هذا المجال يجد قد بذل جهدا كبيرا في الإرشاد لتكوين مجتمع الأسرة ، وهو المجتمع الصغير الذي يتكون من وحدات المجتمع الكبير ، وقد عني الرسول بمجتمع الأسرة عناية كبيرة ، فحث على الاهتمام باختيار الزوجة الصالحة بقوله تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس ، ثم حث على العناية بالأولاد والعدالة بينهم في العطاء والمعاملة ، وأفاض في الحديث عن بيان حقوق كل من الزوج والزوجة تجاه الآخر ، وأوضح التكافل بين الوالدين والأبناء ، وألزم الأبناء برعاية الآباء حتى مع اختلاف الدين ، يروي أحمد أن قتيلة قدمت على ابنها أسماء بنت أبي بكر ، وكان أبو بكر قد طلقها في الجاهلية ، فرددت أسماء في استقبال أمها وقبول هداياها وبعثت إلى رسول الله تسأل عن هذا ، فأخبرها الرسول أن تحسن استقبالها وتقبل هداياها ، فزلت الآية الكريمة « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم » (١) . ونظم الرسول كذلك حقوق ذوى القربى ، وغير هذه من الموضوعات الخاصة بالأسرة ، وحسن تكوينها وتآلفها وقد شرحنا ذلك بإفاضة في مكان آخر (٢) .

وفي بناء المجتمع الإسلامي اتجه الرسول اتجاهات أشمل وأفسح ، ورسم خطوطا لاتباعها المسلمون لتكون منهم أعظم مجتمع عرفته البشرية ، وشملت

(١) سورة المتحنة الآية الثالثة .

(٢) الحياة الاجتماعية في التفكير الإسلامى للمؤلف ص ٦٣ وما بعدها .

هذه الخطوط تنظم الصلة بين الحاكم والمحكوم ، وشرح النظام الاقتصادي الذي يبرز التزامات الغنى وحقوق الفقراء ، ويؤكد ضرورة تطبيق التشريعات الإسلامية التي حفلت بها فترة المدينة ، وبجانب هذه الأسس الكبيرة كان الرسول يتلمس الوسائل لجعل كل إنسان يحس بأنه جزء من هذا المجتمع الإسلامي . وأن عليه أن يعمل لإسعاده ورفع شأنه ، وأن الفرد لا يحقق النجاح لنفسه إلا بنجاح مجتمعه .

وقد كان من أهم ما عني به الرسول صلوات الله عليه أن يحس المسلم بشمول الأخوة بينه وبين جميع المسلمين أخذاً من قوله تعالى « إنما المؤمنون إخوة » هذا المعنى الذي اهتم الرسول تمام الاهتمام بتأكيده وشرحه وتكراره في أحاديث ومناسبات متعددة نذكر منها :

— المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يخذله .

ثم يتجه الرسول لبيان مستلزمات هذه الأخوة ، وأن الحرص عليها وتقويتها فيه خير للجميع ، قال عليه السلام :

— المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً . (متفق عليه) .

— لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً (رواه مسلم) .

— مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

وينتقل الرسول من تصوير الأخوة على هذا النمط إلى صورة أخرى أرفع ، هي أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه ، قال عليه السلام :

— والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه (الشيخان) .

ثم يصل الرسول إلى القمة عندما ينقل الحب إلى العمل لصالح من أحب ، فإذا كان الإسلام ألزم المسلم أن يحب أخاه المسلم ، فإن عليه رعاية لهذه الأخوة أن يساعده ويعمل لإسعاده ، وفي ذلك نجد فيضاً من أحاديث

الرسول التي إن وعاهها المسلمون واتبعوها حققوا لمجتمعهم أسعد حياة ،
قال عليه السلام :

— ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا :
بلى يا رسول الله ، قال إصلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هي الحالقة
(رواه أبو داود) .

— من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من
كرب الآخرة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه ، ومن ستر مسلما
ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما دام العبد في عون
أخيه (متفق عليه) .

— إن شجرة كانت تؤذى المسلمين فجاء رجل فقطعها فدخل الجنة
(رواه مسلم) .

— سأل أبو برزة النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلمه طريقا ينتفع به ،
فقال له عليه السلام اعزل الأذى عن طريق المسلمين (رواه مسلم) .
— عرضت على أعمال أمتي حسنها وسيئها ، فوجدت في محاسن أعمالها
الأذى يماط عن الطريق .

— أن تعدل بين الاثنين صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة (متفق عليه) .
— ما من مسلم يغرس غرسا فيأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة
(رواه مسلم) .

وهكذا نجد أحاديث الرسول اشتملت العمل الصالح الذي يوجهه لخدمة
واحد بعينه أو يوجهه لخدمة المجمع بدون نظر للأفراد ، وكان الرسول في
قيادة المجتمع قدوة طيبة يباشر هذه الاتجاهات والفضائل ، فكان يدعو
بعمله بمثل ما يدعو بقوله ، مما خلق مجتمعا متعاطفا متحابا ، زلزل عروش
الباطل وأقام صرح الإسلام في أقصر فترة عرفها التاريخ .

أخلاق إسلامية ينرسها الرسول

هناك أحاديث شريفة ترتبط بأحداث محدودة روينا منها ونحن نتكلم عن الرسول صلوات الله عليه وهو يبنى الفرد المسلم ، أو المجتمع الإسلامى ، وهذه أشبه بالحبقة المتكامل : أو ببساطة من الزهر مستظما ، وهناك أحاديث لا نعرف أنها ارتبطت بحادثة معينة وإنما هى ثقافة عامة للجواهر المسلمين ، وهى كذلك تغرس فى نفوسهم أخلاق الإسلام فيما يقابله المسلم من شئون ، وهذه أشبه بالزهورات على النضرون طيبيية غير مصنوعة . والأحاديث الشريفة التى جاءت لمناسبة أشبه بآيات الذكر الحكيم التى نعرف لها سبب نزول ، وأما الأحاديث العامة فأشبه بآيات القرآن الكريم التى لا ترتبط بأسباب نزول .

ونقطة أخرى نقدم بها كلامنا عن الأخلاق الإسلامية ، هى أن الإسلام قدم للمجتمع أخلاقا لم تكن موجودة من قبل ، بل لا يستطيع المجتمع البشرى حتى الآن أن يبنى الأخلاق الإسلامية بكل اتجاهاتها ، فقبل الإسلام كانت العدالة والوفاء بالوعد تعد ضعفا ، ولهذا هجا شاعر إحدى القبائل بأنها لا تغدر ولا تنظم فقال :

قبيلته لا يغسرون بلمة ولا يظلمون الناس حبة خردل
ومثل ذلك ما قاله الآخر : ومن لا يظلم الناس يُظلم .

فجاء الإسلام وفرض العدالة ، بل أوحى بما هو أسمى من العدالة وهو الإحسان ، وقبل الإسلام لم تكن المساواة موجودة ، إذ كان العالم منقسما إلى سادة وعبيد ، ومع اختفاء الرق فى عصرنا الحاضر فإن المساواة لا توجد الآن ، فلا يزال هناك فى أرقى البلاد نزعات التفرقة العنصرية ولا يزال فى العالم ظلم ونهب يتضحان من الاستعمار أو بقاياها ولا يزال هناك جبايرة يخيفون الناس ويسعدون بأنهم مصدر خوف ورعب ، وهذا وسواه لأن المجتمع البشرى لم يصل بعد إلى الغاية التى سعى لها الفكر الإسلامى فى مجال الأخلاق .

ما الأخلاق الإسلامية التي قدّمها رسول الإسلام وجهده ليغرسها في المجتمع الإسلامي ؟ ذلك ما سنحاول الحديث عنه هنا .

ومن قراءاتي لأحاديث سيدنا رسول الله أستطيع أن أبدأ بأن أكوّن من الأحاديث المتناثرة صورة متكاملة لآداب اجتماع من الاجتماعات أو حفل من الحفلات ، فإذا كنت مقدما على اجتماع ، فإن الرسول يضع لك إرشاداً عن كل مرحلة من مراحل هذا الاجتماع أو الحفل ؛ من الاستعداد له حتى الانتهاء منه ، ومن الواضح أن الرسول لم يذكر هذه الأحاديث بهذا التسلسل ، ولكنني أستطيع أن أضخم الأحاديث بعضها إلى بعض لتشمل هذه الغاية ، وبعد ذلك نسجل مجموعة أخرى من الأحاديث عن صور أخرى من الأخلاق الإسلامية .

وأول ما نذكره متصلاً بالاشتراك في الاجتماعات أن المسلم إذا كان مقبلاً على اجتماع خاص أو عام أن يُعد نفسه لذلك بالنظافة وحسن السمّة ، وألا يأكل بصلاً أو ثرماً أو طعاماً تؤذي رائحته ، وفي ذلك يقول عليه السلام :

— بني الدين على النظافة ، والنظافة من الإيمان .

— كان رسول الله يكره رائحة العرق في المسجد .

— من أكل هذه (البصل أو الثوم) ، فلا يغشى مجلسنا حتى يزول منه الريح .

— إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده .

فإذا طرقت الباب للدخول فسألك أصحاب البيت : من الطارق ، فلا تقل : « أنا » فقط وهذا ما يحدث في كثير من الأحوال ، بل قل : أنا فلان ، فعن جابر قال : أتيت الرسول صلوات الله عليه فدفقت الباب ، فقال : من ذا ؟ فقلت : أنا ، فقال أنا ! ! أنا ! ! كأن لا أحد إلا أنت . إذا دق أحدكم الباب فستل من الطارق ؟ فليقل : أنا فلان .

وإذا دخلت إلى مجتمع قليل الأشخاص وقام لك الحاضرون فصافحهم ، وإذا لم يقوموا فقل « السلام عليكم ورحمة الله » ، واجلس حيث انتهى بك المجلس .

— عن أبي الخطاب قال : قلت لأنس : أكانت المصافحة في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم .

— دخل الرسول على جماعة فقاموا له : فقال : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم ، فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة .

وإذا كان اللقاء مع رجل شديد الصلة بالإنسان جاز عنقه وتقبيله ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : قدم زيد بن حارثة المدينة وجاء إلى بيتي واستأذن فاستقبله الرسول واعتنقه وتقبّله .

وإذا جلس القادم فينبغي ألا يكون مجلسه في مجلس رجل قام له بدون إذنه ، وألا يفرق بين اثنين بدون إذنه ، فعن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— لا يقيمن أحدكم رجلا من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا وتفسحوا .

— لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين في مجلس إلا بإذنه .

وفي تقدير الإنسان للجالسين ينبغي للإنسان أن يلاحظ السنَّ وأقدار الناس ، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : ما أكرم شاب شيخا لسنه إلا قبيض الله له من يكرمه عند تقدم سنه . وعن السيدة عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنزلوا الناس منازلهم .

وإذا تكلم الناس فليترك الجالس ما لا يعنيه فلا يتكلم فيه ، قال : عليه السلام : من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه (رواه الترمذى) .

— وإذا كان هناك طعام فإن الرسول يضع آداب تناول الطعام في أروع صورة ، قال عليه السلام :

— كل بيمينك ، وكل مما يليك .

— نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع (متفق عليه) .

— عن عائشة قالت : أول بدعة حدثت بعد رسول الله ، الشبع ، ورسول الله لم يشبع قط ، وكان طعامه الكفاف .

— وعنْها أيضاً قالت : لم يمتلئ جوف النبي شبعاً قط ، وكان في أهله لا يسألهم طعاماً ولا يتشبهاء ، إن أطعموه أكل ، وما يقدم له يقبله .

— ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيات يقمن صلبه ، فإن كان لابد آكلًا ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه .

— إياكم والبطنه فإنها مكسلة عن العبادة ، ومفسدة للجسم ، ومؤذية إلى السقم ، وعليكم بالقصد في قوتكم ، فهو أبعد عن السرف وأصح للبدن وأقوى على العبادة .

— لا تميموا القلب بكثرة الطعام والشراب ، فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء .

بقى بعد ذلك أن نورد مجمعة من الأحاديث عن صور أخرى رائعة من الأخلاق الإسلامية؛ قال صلى الله عليه وسلم في الرجل يخيف الناس فيتنقى الناس شره : إن شر الناس من ودَّعه الناس اتقاء شره .

وكان رسول الله يوصى بالبهايم ، ويأمر بحسن استعمالها ، ومن الأحاديث الشهيرة في ذلك قوله :

— دخلت امرأة النار في هرة حبستها ، فلا هي أطعمتها وسقيتها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض .

— اتقوا الله في البهائم المعجمة .

— غفر الله لامرأة مذنبه لأنها رأت كلباً يلهث من العطش فقدمت له الماء .

بل كان الرسول يوصى بالأشياء التي لها ارتباط بالإنسان ، ومن هنا كان يطلق أسماء طيبة على بعض هذه الأشياء ، فكان يسمى قصعته « الغراء » ، ومرآته « المِدْلَة » .

وَيَعِدُ الرِّسُولُ صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ الَّذِينَ يَقْضُونَ حُرَاجِجَ النَّاسِ بِالْزُهْدَةِ
مِنَ النَّارِ فَيَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى عِبَادًا اخْتَصَمَهُمْ بِحُرَاجِجِ النَّاسِ ، يَفْزَعُ إِلَيْهِمُ
النَّاسُ فِي حُرَاجِهِمْ ، أُولَئِكَ هُمُ الْآمِنُونَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ .

ونُخْتَمُ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةُ مِنَ الْأَحَادِيثِ بِذِكْرِ حَدِيثٍ يَوْضِحُ اخْتِلَافَ
الْحُكْمِ مَعَ اخْتِلَافِ الظُّرُوفِ ، فَقَدْ رَوَى سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي عَامٍ مِنَ الْأَعْوَامِ عَنْ الْأَضْحِيَّةِ : مَنْ ضَحَّى مِنْكُمْ
فَلَا يَصْبِحُنَ بَعْدَ ثَلَاثَةٍ وَفِي بَيْتِهِ مِنْ أَضْحِيَّتِهِ شَيْءٌ ، فَلَمَّا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ قَالُوا :
يَا رَسُولَ اللَّهِ نَفْعُنَا كَمَا فَعَلْنَا فِي الْعَامِ الْمَاضِي ؟ فَأَجَابَ : لَا ، كُلُوا وَأَطْعَمُوا
وَأَدْخَرُوا ، فَإِنَّ الْعَامَ الْفَائِتَ كَانَ بِالنَّاسِ جَهْدٌ ، فَأَرَدْتُ أَنْ تَعِينُوا عَلَى الْجَهْدِ .

الرسول يربي القضاة

يهم الإسلام بالقضاء اهتماماً كبيراً ، فالعدالة في القضاء مزدوجة الفائدة ، فيها إنصاف للمظلوم تهدأ نفسه ، وفيها تخويف للظالم حتى لا يتكرر ظلمه ، وقد وقف الرسول صلوات الله عليه من القضاء مرقف الشارح البارع للقرآن الكريم ، المطبق للفكر الإسلامى في هذا المجال المهم ، والذي يتابع مواقف الرسول في مجال تربيته للقضاة يجد أن هذه المواقف شملت القضاء من جميع جوانبه ومراحله ، كما توضح ذلك الاقتباسات التالية :

وأول مرقف يلحظه الباحث أن الرسول اتخذ المسجد مكاناً للقضاء ، واتخذ المسجد مكاناً للقضاء يحيل معنى أشار له ابن القيم ^(١) وهو قدسية القضاء ، فإدام القضاء يعقد في بيت الله فإن قدسيته تصبح واضحة ، وإذا كان القضاء قد عقد بعد ذلك في أمكنة أخرى ، واتخذت له قاعات خاصة فقد انسحبت القدسية إلى كل مكان يقام فيه ، وذلك ضماناً للعدالة وإحساساً بالمهمة الكبرى التي يزاولها القاضى .

وانعقاد جلسة القضاء في المسجد وضع أساساً ضروريا لهذه الجلسة هو « العلنية » أى أن تكون جلسة القضاء مفتوحة للجميع ، ويمكن لأى فرد أن يدخل ساحة المسجد ويتجه إلى حيث يكون مجلس القاضى ، وحضور الجاهل هذه الجلسة سيكون نوعاً من التعليم والتدريب من جانب ، وسيضمن من جانب آخر عدالة الحكم ، لأن الجاهل ستكون بمثابة المراقب الذى بحس بقدر التهمة ، ومدى الأدلة ، ونوع الحكم .

وبعد الحديث عن مكان التقاضى نتابع الرسول صلوات الله عليه وهو يبرز لنا أهم شروط القاضى والتزاماته ، ولعل أول شرط تقتبسه من كلام الرسول هو شرط العلم الذى لا يجلس الإنسان مجلس القاضى بدون ، يقول عليه السلام :

(١) زاد المواد ج ٢ ص ٥٦ .

القضاة ثلاثة : قاض في الجنة وقاضيان في النار ، قاض عرف الحق فقضى به فهو في الجنة ، وقاض عرف الحق فقضى بخلافه فهو في النار ، وقاض قضى على جهل فهو في النار ^(١) . فالجزء الأخير من الحديث يقرر أن القاضى الجاهل بالأحكام يدفع للنار وإن أصاب في قضائه ، لأن إصابته جاءت مصادفة ، والقاضى لا بد أن يكون على درجة كافية من العلم ولا تتحكم المصادفة في أحكامه .

ونستمر مع هذا الحديث الشريف فترى جزأه الأوسط يقبل ضرورة العدالة ، ويراهنا من أبرز شروط القاضى ، فالقاضى الذى عرف الحق وقضى بسواه يدفع به إلى النار مع القاضى الجاهل ، لأنه لم ينتفع بما علم ولم يؤد حق الله ، ويتكرر هذا المعنى في حديث آخر رواه البيهقي ونصه : إذا جلس القاضى في مكانه هبط عليه ملكان يسدانه ويوقانه ويرشدانه ، ما لم يجز ، فإن جار عرجا وتركاه . وهكذا نجد عون الله مع القاضى الذى يتجه للعدالة ، أما الذى يتجه للجور والظلم فيكفه الله لنفسه ، والويل كل الويل لمن لا يكون معه عون الله وتوفيقه .

وهناك خصلة يبرزها الرسول للحكام بوجه عام وللقضاة بوجه خاص ، تلك هى البعد عن شبهات الرشوة والهدايا ، يقول صلى الله عليه وسلم : هدايا العمال غلول ، ويُعَدُّ القاضى من أول العمال الذين يحرم عليهم أى شيء يشكك أو يؤثر في عدالتهم ، حتى أن القضاة المسلمين كانوا يكرهون أن يتخذوا أصدقاء يكثر التردد على منازلهم ، إذ قد يتوهم الناس أن هذا الذى يتردد على بيت القاضى له عنده منزلة قد تتخذ أساس استغلال غير مشروع .

ونتقل بنا أحاديث الرسول إلى نقطة أخرى مهمة ؛ هى التسوية بين المتخاصمين في مجلس الحكم ، وفي هذا الصدد يروى أبوداود عن عبد الله ابن الزبير أن الرسول صلى الله عليه وسلم قضى أن الخصمين يقعدان بين يدي القاضى ، ولم يكتف الرسول بالمساواة في المجلس بل ألزم القاضى أن

(٢) رواه أبوداود .

يسوَّى بين الخصمين في نقاط دقيقة نراها في قوله صلى الله عليه وسلم :
سوَّى بين الخصمين في لحظك ولفظك .

وبعد الجلسة والمساواة فيها . تجيء إرشادات الرسول حول ضرورة
سماع طرفي الخصومة قبل الحكم . وهز في ذلك بقول : إذا جلس الخصمان
بين يديك فلا تقض حتى تسمع كلام كل منهما : فإنه أحرى أن يقين
لك وجه الحق .

وعند سماع الطرفين بنَّه الرسول إلى موضع خطير هز إمكان أن يكون
أحد الطرفين فصيحاً وأن يكون في الآخر عيٌّ مما قد يؤثر على القاضي ،
وفي ذلك يقول المعلم العظيم : إنكم تختصمون إليَّ وإنما أنا بشر ، ولعل
بعضكم يكون أبلغ بحجته من الآخر ، وإنما أقضى بينكم على نحو ما أسمع ،
فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه . وإنما ذلك قطعة من النار يأتي
بها في عتقه يوم القيامة .

ويروى في هذا المجال أن رجلين اختلفا في ميراث وتقاضيا أمام الرسول ،
فقال لهما هذا الحديث : وخاف كل منهما أن ينال من صاحبه أكثر من
حقه ، فقال كل منهما للآخر : تركت حتى لك . فقال الرسول لهما :
أما الآن فقرما واقسما وتوخيا الحق . ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه :

وبعد سماع الطرفين على البحر السابق يجيء دور الأدلة ، ويوضح
الرسول أن البيئة على من ادعى واليمين على من أنكر . وقد طلب الرسول
البيئة مرة من مدع فأجاب هذا : ما عندي شهود فالعمل الذي بيننا لم يحضره
أحد . فقال الرسول إذن اليمين على صاحبك . فَتَقَسَّلَ المدعى هذا ،
ولكن الرسول ذكر المنكر قل أن يقسم بأن « من حلف يميناً يققطع بها
مال امرئ بغير حق جاء يوم القيامة وهذا الحق معلق في رقبتة » فعخاف
الرجل . ولم يحلف اليمين ، وترك ما اختلفا عليه للمدعى .

وبعد سماع قول الطرفين وسماع الشهود أو اليمين يجيء دور الحكم
الذي يَنبَنِي على النص أو على الاجتهاد ، وقد وضع الرسول أسس التدرج

في ذلك في حديثه مع معاذ بن جبل عندما اختاره ليرسله لليمن داعية وقاضياً ، وقد ذكرنا هذه الحادثة عند كلامنا عن تربية الرسول للعلماء والدعاة ، وخلاصتها أن القاضى يتبع كلام الله ، فإن لم يجد فيه نصاً يُعينه اتّبع كلام رسول الله ، فإن لم يجد حديثاً يساعده اجتهد رأيه في حدود الإطار الإسلامى الشامل ، وعندما قال معاذ للرسول ذلك فرح الرسول وقال : الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضى الله ورسوله .

ومن روعة الإسلام أن المجتهد عن علم يثاب على اجتهاده ومحاولته حتى وإن أخطأ ، وفي ذلك يقول الرسول عليه السلام : إذا اجتهد القاضى فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد .

ومن تقدير الاجتهاد ما روى أن رجلاً جاء يشكو إلى عمر من أمر ، فأحاله عمر إلى علي بن أبي طالب ، وقضى على في المسألة برأيه إذ لم يكن هناك نص يلجأ له ؟ وبعد فترة التقى عمر بالرجل الشاكى فسأله عمر : ماذا فعل علي في شكائك ؟ فأخبره الرجل ، فقال عمر : لو كنت أنا الذى قضيت لقضيت بكذا . . .

وكان رأى عمر في صالح الرجل ، فصاح به الرجل : وما يمنحك والأمر لك ؟ قال عمر : وكيف أعرف أن رأى أفضل من رأى على .

ولم يغير عمر الحكم الذى قضى به على .

ويوضح الرسول أبلغ وضوح أنه لا شفاعة في الحكم ، وأن القوانين الإسلامية يستوى في الخضوع لها الملك المتوج والفقيه البائس ، فعندما سرقت امرأة من بنى مخزوم وهم من أشرف قريش توقع قرمها أن الرسول سيقم عليها الحد ، فتشفعوا للرسول بأسماء بن زيد ، فلما تكلم أسمامة مع الرسول في ذلك صاح فيه الرسول : أتشفع في حد من حدود الله يا أسمامة ؟ إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف عاقبوه ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها (رواه البخارى) .

وقد تأثر القضاة المسلمون تأثراً عميقاً بهذا الانجاء النبوى الكريم ،
ومن ذلك ما يذكره الكندى أن توبة بن نمر الحضرمى لما ولى القضاء دعا
زوجته وسألها : كيف علمت محبتي لك ؟ قالت : جزاك الله من عشير خيرا .
فقال توبة والآن وقد علمت ما يُليّننا به من أمر الناس ، فأنت طالق ...

ولم تتركه الزوجة يكمل ما يريد أن يقول ، فصاحت خائفة من الطلاق ،
ولكنه قال لها اصبرى حتى تسمعى ما أريد أن أقول ، أنت طالق إن
كلمتني في خصم أو تشفعت في قضاء . فيروى أنها كانت ترفض أن تضع
له الماء في البيوّة خشية أن يكون في ذلك إشارة إلى استعجال في قضاء^(١) .

وهكذا كان نهج الرسول في القضاء تعليماً وتهذيباً للأجيال بدءاً من أسامة
ابن زيد ومعاذ بن جبل واستمراراً حتى الآن ، ودائماً في كل زمان ومكان ،
لأنه نهج سليم في ارشاد من هدى الله ومن موهبة الرسول ، وما أعظم
النهج الذى يتخذ هذين أساساً له .

الرسول يربي القوة العسكرية

إذا كان عهد الإسلام في مكة لم يحتاج إلى قوة عسكرية إذ لم يكن الإذن بالقتال قد نزل بعد ، فإن عهد المدينة كان حافلاً بالصراع إذ نزل قوله تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير » وقوله « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » وقد بدأت السرايا والغزوات عقب الهجرة واستمرت طيلة عهد المدينة ، ومن هنا كان من الضروري أن يربي الرسول القوة العسكرية لمواجهة بها الباطل الذي اتجه لتهديد الدعوة بحد السلاح عقب نجاح الهجرة .

ومن هنا اهتم الرسول اهتماماً كبيراً بالحث على القوة ، وتربية الرغبة في الجهاد عند المسلمين ، كما بذل جهداً كبيراً في إعداد المجاهد وفي التقليل من شأن من لم يكن له حظ في الجهاد ، فعن الحث على القرّة يقول صلى الله عليه وسلم « المؤمن القوي خير وأكرم عند الله من المؤمن الضعيف » وعن تربية الرغبة في الجهاد يقول عليه السلام :

— إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف .

— لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها .

— رباط يوم في سبيل الله خير مما طلعت عليه الشمس .

— من قاتل في سبيل الله وجبت له الجنة ، ومن جرح جرحاً في سبيل الله جاءت جراحه يوم القيامة لوناً الزعفران وريحها المسك .

وواضح أن من الناس من لا يقوى على خوض المعارك لهزم أو ضعف أو ما مائل ذلك ، وهؤلاء يحثهم الرسول على مساعدة المجاهدين ما استطاعوا ، وفي ذلك يقول عليه السلام : من جهز غازياً كان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجر الغازي شيئاً .

أما الذي لا يجاهد بنفسه ، ولا يساعد المجاهدين ، فالرسول ينذره ويتوعدده ، قال عليه السلام :

- من لقي الله وليس له أثر في سبيل الله ، لقي الله وفيه ثلثة (نفسان) .
 — من لم يغز ، أو لم يجهز غازيا ، أو لم يخلف غازيا في أهله بخير ،
 أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة .

وفي ضوء هذه الإرشادات ، والوعد ، والوعيد تكونت حول الرسول أعظم قزة عرفتها الجزيرة العربية ، وأحاطت هذه القوة بالرسول تعمل لئيل إحدى الحسنين : النصر أو الشهادة ، وسنعيش مع الرسول صلوات الله عليه وهو يعلم المسلمين فنون الحرب وإدارة المعركة في جميع مراحلها .
 ومن أهم ما عني به الرسول أنه كان إذا أراد خوض معركة ، كتم سر اتجاهه الذي يسعى إليه حتى عن أقرب الناس إليه ليفاجئ الأعداء بهجومه ، وهو هدف لمحاول كبار القادة أن يتمثلوه حتى الآن ، وقد روى عن كعب ابن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن يغزو غزوة ورى بغرها ، وعن أنس أن رسول الله قبيل غزوة بدر هتف بأصحابه قائلا :
 إن لنا هدفاً ، فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا ، وكان إذا عقد اللواء في سرية من السرايا لأحد أصحابه ، يركز اللواء في فناء المسجد ويختار بعض الأبطال ولا يحدد المكان لأمر السرية إلا عند التحرك ، وأحياناً كان يكتب له كتاباً ويطويه ويأمره بالاتجاه نحو الشمال أو الجنوب مثلاً ، وألا يفتح الكتاب إلا في مكان محدد ، وكل ذلك حتى لا يتسرب الخبر للعدو فيبادر بالهجوم وتفشل الخطة .

ومما عني به الرسول أنه قبل المعركة كان يبذل كل الجهد ليتعرف على أخبار العدو حتى يأخذ للأمر عدته ، يروى أنس أن الرسول قبيل غزوة بدر بعث بسبس بن بشر عينا ينقل له أخبار غير أبي سفيان ، كما أرسل طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى طريق الشام يتجسسان له الأخبار ، وكان له جواسيس بمكة يأتونه بأخبارها ، ومنهم عمه العباس وبشير بن سفيان العتيق^(١) . ولما نزل قريبا من بدر خرج بنفسه ومعه أبو بكر يستطلعان الأخبار متنكرين^(٢) .

(١) عبد الحمى الكتاني : التراتيب الإدارية ج ١ ص ٣٦ و ٦٢ .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٦٥ .

وقد بلغ من حرصه على التعرف على أخبار العدو أنه أمر زيد بن ثابت أن يتعلم لغة اليهود ليستطيع أن يتعرف أخبارهم^(١) ، ويروى أنه أرسل عبد الله بن جحش مع ثمانية من المهاجرين ووجههم تجاه مكة دون أن يعيّن لهم الغرض من رحلتهم ، وكتب إلى عبد الله كتابا أمره ألا يفتحه إلا بعد مسيرة يومين ، وسار عبد الله مع رفاقه طيلة اليومين ثم فتح الخطاب فإذا فيه : إذا نظرت في كتابي هذا فأمن حتى تنزل (نخلة) (بين مكة والطائف) فتربص بها قريشا ، وتعلم لنا من أخبارهم^(٢) .

ولما كان من الممكن ومن المتوقع أن يرسل الأعداء عيوناً لهم ليتعرفوا أخبار المسلمين فقد وضع الرسول نظاماً لمعاملة هؤلاء الجواسيس ، ومن التعاليم التي وضعها الرسول أن المسلمين إذا عرفوا الجاسوس تظاهروا بأنهم لم يعرفوه ، ثم يتركون بعض الأنباء الزائفة تتسرب إليه ليخدعوه ويخدعوا مرسله ، وإذا اضطر المسلمون أن يظهروا للجاسوس اكتشافهم لأمره فإنهم يحاولون أن يعاملوه بلطف ويستميلوه إليهم لعلهم يحصلون منه على أخبار تنفعهم ، أو ليرسلوا عن طريقه إلى العدو أخباراً غير صحيحة ، وقد عثر المسلمون يوم بدر على واحد من عيون قريش وأراد بعض المسلمين العدوان عليه ، ولكن الرسول نهاهم عن ذلك واستدعاه وسأله عن عدد قريش فلم يعرف ، فسأله عما ينحرون من الإبل كل يوم . فأجاب : بأنهم ينحرون تسعة في يوم وعشرة في يوم آخر فاستنتج الرسول أن العدد يتراوح بين تسعمائة وألف^(٣) .

واهتم الرسول اهتماماً بالغاً بتنظيم الجيش تنظيمًا شمل مسيرة الجيش وترتيبه ، فهو يسير بجيشه ، وتكون مسيرته هو في آخر الركب ليجمع الضعيف ، وليردف المنقطع ، وهو يلبس للحرب لباسه وعدته ، ويحمل الجيش الألوية ، وتنشد الأناشيد للتشجيع والحماية ، وإذا واجه الجيش

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٤٢ .

(٢) الجهاد والنظم العسكرية للمؤلف : ص ٨٩ .

(٣) عبد الرؤوف عون : الفن الحربي في صدر الإسلام ص ٢١٦ .

العدو قسمه الرسول إلى قلب وميمنة وميسرة . وجعل على كل منها قائدا ، وكان يرقف الرماة خلف الجيش لحماية ظهوره . وكان يحاول أن يقوم بعملية التفاف حول العدو ، ويتخذ للجيش كلمة سر ، وكان من كلمات السر (منصور - حم) وكان يضع كل محارب مع أفراد قبيلته في مكان معين ليتعاون أفراد القبيلة وليحرضوا على ألا توجد ثغرة في موقعهم ، وكان يوصي كبار مساعديه بالصبر والثبات . ومن وصيته لعبد الله بن جبير أمير الرماة في غزوة أحد قوله : انضح الخيل عنا بالنبل ، لا تؤتينا من قبلك ، إن كانت لنا أو علينا فائت مكانك ، لا تؤتينا من قبلك (١) .

وقد قاد الرسول أكثر الغزوات الإسلامية . فكان بذلك يدرب قاداته تدريبا عمليا على المعارك والصمود فيها ، وقد وصفه على بن أبي طالب في ذلك المجال بقوله : إنا كنا إذا اشتد البأس واحمرت الحدة اتقينا برسول الله ، فما يكون أحد أقرب من العدو منه ، ووصفه عبد الله بن عمر بقوله : مارأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أراضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) .

وقد تأثر القادة المسلمون بأقوال الرسول وفعله تأثرا كبيرا . وحققوا في الغزوات أسمى الأهداف التي يعجز الأبطال عن تحقيقها ، حتى ليروى أن على بن أبي طالب قتل في غزوة بدر نحو ثمانية عشر رجلا من المشركين ، كان منهم نوفل بن خويلد ، فلما التقى به على بن أبي طالب صاح نوفل بعلى : أسألك بالله والرحم أن تكف عني ، أنا أخو خديجة وخال فاطمة فقال على : لا قرابة بين مشرك ومسلم ، لقد جئت تقتل رسول الإسلام فحق عليك القتل ، وقتل . عبيدة بن الجراح أباه عندما حاول هذا الأب أن يقتله لدخوله الإسلام ، وقال له وهو يطعنه : خذها في سبيل الله ، وهكذا علمهم الإسلام أن الله ورسوله أحب إلى الإنسان من كل قريب وكل متاع كما ذكرت الآية الكريمة « قل إن كان آباءكم وأبناءكم وإخوانكم

(١) تاريخ الطبري : ج ٢ ص ١٩٢

(٢) انظر الجهاد والنظم العسكرية في التفكير الإسلامى للمؤلف : ص ٨٢ .

وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها . وتجارة تخشون كسادها ،
ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا^(١) .

ومما عني به الرسول عناية كبيرة التحذير من الفرار وعده الرسول من
الكبائر العظمى والموبقات السبع قال عليه السلام :

— ثلاثة لا ينفع معهن عمل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار
من الزحف .

— اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا وما هن يا رسول الله ؟ قال :
الشرك بالله ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال
اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات ، والسحر .

وقد يجوز الفرار لتدبير حربى فى حدود قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا
إذا لقيتم الذين كفروا زحفوا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره
إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم
وبئس المصير^(٢) .

وإذا كان الفرار مقبولا أحيانا من المسلمين لصالح المعركة فإن الرسول
صلى الله عليه وسلم لم يعط لنفسه الحق فى الفرار قط مهما كانت الأحوال .
كما حدث فى غزوة حنين . فقد فر أصحابه من هول المفاجأة ، ولكنه وقف
كالطود الشامخ لا يزل ولا يفر . وحكى القرآن الكريم هذا المرقف بقوله
« إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم »^(٣)

ونصل إلى نقطة مهمة لعل هنا أوان ذكرها ، فإنه مع هذه البطولة الفائقة
والثبات الرائع الذى ألمنا ببعض مظاهره لم يقتل الرسول أحدا بيده إلا شخصاً
واحداً هو : أبى بن خلف . ويروى ابن هشام سبب ذلك فىقول : إن أبى

(١) سورة التوبة : الآية ٣٥ .

(٢) سورة الأنفال الآيات ١٥ - ١٦ ..

(٣) سورة آل عمران الآية ١٥٣ .

ابن خلف كان يلقى الرسول بمكة فيقول له : يا محمد إن عندي « العوذ » فرسا أعلفه كل يوم سأقتلك عليه ، فيجيبه الرسول : بل أنا أقتلك إن شاء الله . فلما كانت غزوة أحد وجرح الرسول وناله الأذى جاء أبي وهز يصرخ قائلا : أين محمد ؟ لا نجوت أن نجا ، فهم المسلمون للقاءه ، ولكن الرسول قال لم : اتركوه وأخذ الحربة من الحارث بن الصمة وانتفض بها انتفاضة هزت القوم ، وضرب بها أبي بن خلف ضربة أصابت عنقه ، فانقلب عن فرسه ، وأخذ يتدحرج ، وأسرع إلى قريش يقول : قتلني محمد . فلما رأوا جرحه وجدوه غير بعيد الغور ، فقالوا له : هو عليك فابك من بأس ، فقال : أبداً كذبتهم . لقد روعني محمد . والله لو بصق على لقتلني ، ومات في الطريق إلى مكة (١) .

وكان الرسول يختار للسرايا عمالقة الأبطال المسلمين الذين عرف فيهم شدة البأس وعمق الصبر ، والشجاعة ، من أمثال عبيدة بن الحارث ، وسعد ابن أبي وقاص ، وعبد الله بن رواحه وزيد بن ثابت ، وأبي عبيدة بن الجراح ، ثم أصبح من خيرة قواده خالد بن الوليد ، وعمر بن العاص ، عندما دخلا الإسلام .

وهناك غزوة وحيدة لم تكن بقيادة الرسول . وإنما اختار لقيادتها بعض أبطال المسلمين ، تلك هي غزوة مؤتة ، وقد أدرك الرسول خطورة هذا اللقاء ، إذ كان أول لقاء مع جحافل الروم ، ولذلك اختار زيد بن جارية ليكون أمير القوم . وقال إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب ، فعبد الله بن رواحة ، فإن أصيب فليترض المسلمون قائداً من بينهم ، والرسول في هذا محتاط للمعركة ، فعيّن أكثر من واحد بالتوالي ثم يدع الزمام للجنود ليختاروا قائدهم أن سقط القواد الذين عينهم الرسول ، وكانت أهم وصية يُعنى بها الرسول هي التعاون بين المسلمين وقد سبق أن ذكرنا أنه أرسل عمرو بن العاص يقود ثلاثمائة رجل من المسلمين لمواجهة

جماعات من قضاة يتجمعون وراء وادي القرى ليغيروا على المدينة ، وكان ذلك عقب غزوة مؤتة ، وأحس عمرو أن قوة العدو أكبر من قوته ، فبعث إلى الرسول يطلب المدد ، فأرسل له الرسول مددا بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ، وكانت وصية الرسول لأبي عبيدة قصيرة وحاسمة هي : ان قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا ، وعندما وصل المدد قال عمرو : أنا أمير الجيش وأنتم مدد لي ، وقال بعض أتباع أبي عبيدة ان أبا عبيدة هو أميرنا ، ولكن أبا عبيدة سرعان ما حسم الأمر عندما قال : أن الرسول أمرني أن نراضى ، وهأنذا أترك الإمارة لعمرو . وهذا مثل تكرر بين قواد المسلمين .

وكان من عادة الرسول إذا أرسل سرية أن يسأل الجنود عند عودتهم عن أحوالهم وصلات قائدهم بهم ، وعن مدى التعاون الذي تم بينهم .

بقيت في مجال الحديث عن تربية القزة العسكرية أن الرسول صلوات الله عليه وضع نموذجاً لم تقو المدنية على تبنيه حتى الآن ، وذلك النموذج يتضح من أحاديث الرسول التي نروى بعضها فيما يلي :

— عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا بعث جيوشه قال : فاخرجوا باسم الله ، تقاتلون في سبيل الله ، لا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا الرلدان ، ولا أصحاب الصوامع .

— وعن أنس أن الرسول صلوات الله عليه قال : لا تقتلوا شيخاً فانياً ، ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة .

— وعن رباح بن ربيع أنه خرج مع الرسول في غزوة غزاها ، وكان على مقدمته خالد بن الوليد ، فرأى الرسول على امرأة مقتولة فقال : ما كانت هذه لتقتل ، ثم التفت إلى أحد أصحابه وقال له : الحق بخالد فقل له : لا تقتلوا امرأة ولا ذرية ولا عسيفاً (أجراً) .

ومن هذه الأحاديث الشريفة اتجه المسلمون إلى إنه لا يقتل شيخ ولا صبي ولا امرأة ولا عامل مادام هؤلاء لم يشتركوا في الحرب ، ولا يقطع

شجر ولا يُخسَرُ عامر ، ولا يؤذى حيوان ، ولا يحرق زرع وتلك
كما قلنا أفكار سامية رسمها الرسول صلوات الله عليه ، وسار عليها أصحابه
بعده ، وعلى الرغم من أن المدينة الحديثة اقتبست الكثير من الفكر الإسلامى
فى مجال السياسة والاقتصاد وغيرهما ، فإنها لم تستطع أن تقتبس اتجاهات الإسلام
وآدابه فى مجال السلم والحرب ، فالقوة لا تزال هى التى تحكم البشر ، وفى
الحروب الحديثة يتعرض الأبرياء للموت ، ويُدك العمران ، ويحرق الزرع ،
ولا يفرق المعتدون بين محارب ومسلم .

تلك هى القوة العسكرية التى بناها الرسول ، والتى قُدِّر لها أن تحقق
فى حياته أعظم انتصار على قوى الباطل بالجزيرة العربية فى مكة وفى المدينة
ونخبر وحنين والطائف وقدر لها بعد وفاته أن تنتصر على جيوش
الأكاسرة والقيصرة ، وأن ترفع علم التوحيد على السوارى فى أعظم
امبراطوريتين عرفهما ذلك الزمان .

الرسول يربي الولاة والحكام

لقد شاهد الرسول وهو بالمدينة اتساع الدولة الإسلامية التي أوشكت أن تشمل الجزيرة العربية كلها : ودعا الرسول أمراء البلاد المحيطة بالجزيرة وملوكها إلى الإسلام ، وامتدت آماله إلى دخول هذه الممالك في حوزة دين الله ، ومن هنا اتجه الرسول لتربية الولاة على الأقاليم في عهده ، وتربية الحكام من بعده ، وكان النمط الذي حرص الرسول عليه يتمشى مع قوله عليه السلام « اثنان من أمتي إذا صلحا صلح الناس ، وإذا فسدا فسد الناس : العلماء والأمراء » فالرسول صلوات الله عليه يدرك أهمية الحاكم بالنسبة للرعية ، فإذا كان صالحا أحسن اختيار معاونيه ، وأحسن معاونوه بالتالي سلوكهم مع الرعية ، فتستقر الأمور ويسعد الناس ، وعلى عكس ذلك يكون الحاكم الفاسد .

وتعاليم الرسول في مجال تربية الولاة والحكام تتدرج تدرجا طبيعيا ، فهي تتحدث عن ضرورة الرئيس ، ثم تنتهي للحديث عن شروطه والتزاماته ، ثم تلزمه بحسن اختيار معاونيه ، ومتابعتهم ، وسنروى من أحاديث الرسول فيما يلي ما يوضح هذه الخطوات .

فمن ضرورة الرئيس والرائد يقول صلى الله عليه وسلم :

— إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا عليهم أحدهم .

— لا يحل لثلاثة يكرنون في خلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم .

وعن شروط الرئيس أو الحاكم يضع الرسول صلوات الله عليه العلم والعدالة في قمة هذه الشروط ، ويحذر من الظلم والجهل وغش الرعية ، وفي ذلك يقول عليه السلام :

— إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسا أمام عادل ، وأبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأبعدهم منه مجلسا أمام جائر .

- كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمير الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وهي مسئولة عنه .

- ما من أميرات ليلة غاشا لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة .

- ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة .

ويحذر رسول الله أولئك الأمراء والولاة الذين يعذبون الرعية بأية صورة من صور التعذيب ، وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم : إن الله يعذب في الآخرة من يعذبون الناس في الدنيا ، ويقول : اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم فافرق به .

ويوجه الرسول صلوات الله عليه اهتماما كبيرا إلى اختيار المساعدين ، وينزل المسؤولية على الرئيس إن أساء الاختيار ، أو إن أغضى الطرف عن إهمال معاونيه وهو في ذلك يقول :

- من ولي من أمر المسلمين شيئا فولئى رجلا وهو يجد من هو أصلح منه فقد خان الله وخان رسوله وخان جماعة المسلمين .

- من قلد رجلا على عصابة وهو يجد في تلك العصابة من هو أَرْضَى منه ، فقد خان الله وخان رسوله وخان جماعة المسلمين .

وألزم الرسول الحكام والولاة أن يستشيروا استشارة خاصة أو عامة فيما يعرض لهم من شئون ليس فيها نص صريح . وأن يقبلوا رأى الأغلبية ، ففي غزوة بدر أراد الرسول أن ينزل بجنوده منزلا . فسأله الحباب بن المنذر : هل أنزلك الله هذا المنزل أو هو اجتهاد من عندك ؟ فأجاب الرسول : إنه اجتهاد من عندي . فقال الحباب : أما إذ كان الأمر كذلك فليس هذا بمنزل . وأشار بمكان آخر أيده فيه المسلمون فارتضاه الرسول .

وفى غزوة الأحزاب اتفق الرسول مع أهل الطائف على أن ينفضوا ويفكوا حصار المدينة ، وأعد لهم وثيقة نظير ذلك بأن يعطوا ثلث ثمار المدينة ، وعرض هذه الوثيقة على زعماء المدينة لتوقيعها فسأله سعد بن معاذ عما إذا كان للوحي دخل فى هذا الاتفاق؟ فقال له الرسول: إنما هو أمر صنعته للمسلمين راجيا من ورائه الخير . فرفض أهل المدينة التوقيع على الصحيفة ، وقال سعد : لأنهم لم ينالوا منا فى الماضى ثمرة إلا قرى ، أفبعد أن أعزنا الله بك ، يأخذون ثلث ثمار المدينة عنزة ؟ لا والله . ورجح هذا رأى وارتضاه الرسول (١) .

وعن الشورى ، يقول أبو هريرة : : ما رأيت أحدا قط كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ، وكان أبو بكر وعمر فى مقدمة الصحابة الذين كان يعتمد عليهم فى الاستشارة ، ويروى أنه قال لهما : وأيم الله لو أنكما تتفقان على أمر ما خالفتكما فيه

ويؤكد الرسول أن الولاية على الناس مهمة ضعبة وأنه ينبغي ألا يتقدم لها إلا من عزف فى نفسه أنه أهل لها ، فإن تقدم لها من ليس أهلا لها وتخدع الناس حتى اختير لهذا المنصب ، فإنه ينطبق عليه قوله صلى الله عليه وسلم :
- من أم قوما وهم له كارهون ، لم تجز صلاته أذنيه .

- إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون عليكم يوم القيامة ندامة .

وبوضح الرسول صلوات الله عليه وسلم أن الله يعين من اختير للرياسة بواسطة الناس ، أما الذى يسعى لها دون التأكد من التزاماتها ، فإن الله لا يعينه ويكله إلى نفسه ، وفى ذلك يقول عليه السلام لعبد الرحمن بن سمرة : لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، ويروى أن أبا ذر قال للرسول : ألا تستعملنى يارسول الله ؟ فضرب الرسول بيده على منكبه وقال : يا أبا ذر إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وهى يوم القيامة خزي وندامة ، إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها (٢) .

(١) رواه البخارى . (٢) رواه البخارى .

وعندما يختار الرئيس على هذه الأسس يجب طاعته ما لم يأمر بمعصية فلا يجب الطاعة ، قال عليه السلام : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وهناك موضوع مهم اهتم به الرسول صلوات الله عليه ، ذلك هو أنه ليس من حق الحاكم أن يتجسس على الرعية وأن يبحث عن عوراتهم ، فليس له دخل في عقائدهم ولا فيما يسترّون ما دام ذلك لم ينقلب إلى إثارة أو عمل يضر بالدولة ، وفي ذلك يقول عليه السلام :
— إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم .

— لا تتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف داره .

— ويروى أن رجلاً مشركاً فر أمام أسامة بن زيد في إحدى المعارك ولحق به أسامة فنطق الرجل بالشهادتين ، ولكن أسامة ضربه ضربة قاتلة ، فلما عرف الرسول ذلك صاح بأسامة : أقتلته بعد أن قالها ؟ قال أسامة : إنه قالها متعوذاً بها ، قال الرسول هل شققت عن قلبه لتعرف ذلك ؟

واهتم الرسول اهتماماً كبيراً بتحريم الهدايا على العمال إحساساً منه أنها رشوة قلّمت باسم الهدية ، ويروى أبو سعيد الخدري أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال في ذلك : هدايا العمال غلول (أى تحت وضلال) . وقد سبق أن ذكرنا ذلك .

وهكذا نجد الرسول صلوات الله عليه أحاط بكل الشؤون في مجال تربية الحاكم والوالي ، ويوم ينتفع المسلمون باتجاهات الرسول في هذا المجال ، فإن حالهم يصبح غير ما هم عليه الآن . حيث أصبح الحكم مغماً يسعى له كثيرون ممن لا كفاءة لهم ، ومن لا يعرفون الفكر الإسلامى ولا يدينون به ، ومن هنا يحيط هؤلاء أنفسهم بعناصر من طبقتهم ، فيعم الفساد ، وتنتشر البلوى ، وأغلب ما يعانى به العالم الإسلامى في العهد الحاضر يرتبط بغيبة الرئيس الصالح ، وظهور الحاكم الفاسد والأعوان الضلالة على مسرح الحكم والحياة .

الرسول والعمل

نخطيء بعض الناس إذ يظنون أن العمل هو العمل اليدوي أو الجسماني فقط ، وأن العامل هو ذاك الذي يضرب بفأسه في الأرض أو بآلته في المصنع ، ويتضح هذا الخطأ لو لاحظنا التقدم العلمي الهائل الذي ساد المجتمع المتمدين في أيامنا هذه ، حيث أصبح العمل في الحقول والمصانع يتم بالآلات غالباً ، وليس على العامل إلا أن يدير هذه الآلات ، ويراقبها ، ويصلحها إن توقفت ، وعلى هذا أصبح العامل يعمل بفكره في كثير من الحالات ، وهو بهذا ليس بعيداً عن المدرس الذي يعلمُ النشء، والطبيب الذي يعالج المرضى ، وليس بعيداً عن المهندس والمحاسب والجندي والتاجر فكل من هؤلاء يعمل بفكرة وجسمه لأداء واجبه .

ورسول الإسلام كان يعمل دائماً ، ولم يعرف الراحة منذ جاءته الرسالة ، فعندما نزل عليه قوله تعالى : « قم فأندب ... » وتصيب عرقاً بسبب لقائه مع جبريل ، قالت له زوجته السيدة خديجة فيما قالت : خذ بعض الراحة . فأجابها : لم يعد هناك يا خديجة وقت للراحة . وبدأت جهود الرسول لأداء واجبه ، وبدأ يعمل لنشر الدعوة سرّاً حيناً وجهراً حيناً ، ولإقناع ألوانا من العنت في هذا السبيل . فلما تمت الهجرة إلى المدينة ازدادت مسؤولياته ، فأخذ يعمل في حقول متعددة نعيش فيها الآن . فهو يربي الفرد المسلم . ويربي المجتمع الإسلامي . ويربي الدعوة ، ويربي الحكام والولاة ، ويربي القوة العسكرية ، ويغوض غمار الحروب ، ويبلغ التشريعات الإسلامية ، وغير هذه من الأعمال ، وفي ضوء هذا الواقع فلإننا نسخر من التفكير الشيوعي الذي يجعل « البروليتاريا » طبقة قائمة بذاتها ويطلب لها السيادة على باقي الطبقات ، كما نسخر من أي تفكير ينبثق عن هذا الوضع فجعل العمال والفلاحين في جانب وباقي الفئات في جانب آخر ، وبخاصة أن هذا التفكير يمزق المجتمع ، إذ يبعد الابن الذي أصبح طبيباً أو مهندساً مثلاً عن أبيه العامل أو الفلاح ، ويبعد الأخ الذي اتجه إلى الزراعة أو الصناعة عن أخيه التاجر أو المهندس . ويقلل من جهود الأمهات اللاتي يتفرغن لرعاية البيوت وتربية الأولاد وهكذا .

ومن الممتع حقا أن نجد الرسول صلوات الله عليه يفسر العمل في حدود النطاق الذي أوردناه، وهو السعى لطلب الرزق من أي باب حلال يناسب الإنسان ، قال عليه السلام : إن من الذنوب ذنوبا لا يكفرها صوم ولا صلاة ، وإنما يغفرها السعى لطلب الرزق ، وجاء أحد الصحابة ليلتحق بجيش المسلمين مجاهدا فسأله الرسول عن أبيه ، فقال : إنهما شيخان ضعيفان ، فقال له الرسول : أرجع ففهما جاهد ، وهكذا عد الرسول السعى لطلب الرزق عملا يغفر الذنوب ، وعد قضاء حاجة الأبوين جهادا .

وفي ضوء هذه الدراسة يصبح معنا كلمتان فقط : هما عامل وعاطل ، فالعامل هو الذي يكدح لخدمة نفسه ومجتمعه في أي مجال من المجالات بدءا من القاع إلى القمة ، والعاطل هو الذي لا عمل له في أي من مجالات الحياة ، وإذا لاحظنا ذلك فإننا نجد أن الرسول كان أكثر الناس عملا ، إذ تشعبت - كما رأينا - جوانب حياته ، فعمل كرئيس وكعلم وقاض وقائد وقل أن وجد في مجتمع المدينة ذلك العاطل الذي يعتمد على جهود الآخرين كما سنرى في هذه الدراسة .

ومع هذا فإذا أردنا أن نخصص هذا البحث للتعرف على موقف الرسول من العمل البدوي والجهادي فإننا نجد مادة خصبة في هذا النطاق ، إذ نجد الرسول يعمل ويبحث على العمل ، ويعد العمل لونا من العبادة ، يتقرب الإنسان به إلى ربه ، فيثيب الله عليه ويغفر به السيئات ، يقول صلى الله عليه وسلم : - يثاب المؤمن على كل عمل ابتغى به وجه الله ، حتى اللقمة يضعها في فم زوجته .

- ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده .

- وفي مطلع الحياة بالمدينة بنى المسلمون مسجدا كما ذكرنا من قبل ، واشترك المسلمون في هذا العمل ، وكان الرسول يعمل معهم كواحد منهم ، ومن أجل هذا كان المسلمون ينشدون :

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منا العمل المفضل

وابتكر الرسول نشيداً آخر. اتخذ مظهر السجع ليكون ترديده دافعا للحماسة والنشاط وهز :

اللهم إن العيش عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة
ويروى أن الرسول في هذا العمل حمل مرة لينة ثقيلة ، فأشفق عليه أحد المسلمين وتقدم ليحملها عنه ، فقال له الرسول : اذهب فخذ غيرها فلست بأفقر مني إلى الله .

وكان الرسول مرة في سفر مع بعض أصحابه فاتفقوا على إعداد شاة لطعامهم ، فقال أحد الصحابة : على ذبحها يارسول الله ، وقال آخر : وعلى سلخها ، وقال ثالث : وعلى طبخها ، فقال الرسول وعلى جمع الخطب ، فقالوا : يارسول الله نكفيك العمل . فقال : إني أعلم أنكم تكفوني ولكني أحب أن أعمل كما تعملون ولا أريد أن أتميز عليكم . وقد سبق أن ذكرنا ذلك عند الكلام عن « الرسول بين أصحابه » .

وفي غزوة الأحزاب اشترك الرسول مع المسلمين في حفر الخندق في شمالي المدينة ، فكان الرسول يضرب بالفأس ويرفع التراب بالمكنال حتى اغبر جلده ، وحمل أبي بكر وعمر الأتربة ، وكانا يستعملان في ذلك أثوابهما لقلة المكاتل ، وابتكر عبد الله بن رواحة نشيدا كانوا يرددونه وهم يعملون فينشطون ، ومنه :

يا رب ليلا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

وقد أثبتت كتب السيرة مجمعة من الأعمال المتعددة التي كان يقوم بها الرسول ؛ فقد كان يحلب شاته ، ويرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم نفسه .

وكانت زينب بنت جحش رضي الله عنها تبشر في بيت الرسول بعض الأعمال ، فيروى أنها كانت تحسن دبغ الجلود ، وتصنع منها أدوات تنفع الناس كالقرب والنعال ، وكانت تتصدق بها أو تبيعها وتتصدق بثمنها على رحمها وعلى فقراء المسلمين .

وكانت فاطمة رضى الله عنها بنت النبي وزوجة علي بن أبي طالب تعمل في شئون المنزل ما يرهقها : تطحن الحب بالرحى حتى أثّر ذلك في يدها وتحمل القربة في عنقها حتى أثرت في نحرها ، وتكنس البيت حتى اغبرت ثيابها ، ولما ذكر عليُّ للرسول ما تعانيه فاطمة من العمل وأنها تحتاج خادما يساعدها ، التفت لها الرسول وقال : يا فاطمة اتقي الله وأدى فريضة ربك ، واعملي عمل أهلك . وقد ذكرنا ذلك عند حديثنا عند تربية الدعاة .

وعقب الهجرة لم يجد المهاجرون غضاضة من العمل في مزارع اليهود ، إذ كان لليهود مساحات واسعة من الأرض آنذاك . ولم ينهم الرسول عن هذا العمل :

وهناك فائدة غير مباشرة ينالها المسلمون الذين يشتغلون بالزراعة والرسول صلوات الله عليه يرضحها للمسلمين بقوله : ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كان له أجره يوم القيامة .

وهناك نقطة مهمة مرتبطة بالعمل عنى الرسول بإيضاحها هي ضرورة إتقان العمل والإخلاص له ، وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم : إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه .

ويوضح الرسول صلوات الله عليه كما قلنا من قبل أن العمل عبادة ، يُروى أنه كان جالسا يرمي مع أصحابه ، فرأوا شابا ذا جلد وقرّة قد بكّر يسعى للعمل ، فقال أحد الجالسين : ويح هذا ، ليت شبابه وجلده في سبيل الله . فقال الرسول : لا تقولوا هذا ، فإنه إن كان يسعى على نفسه ليكفّها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله ، وإن كان يسعى على أربين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفّهم فهو في سبيل الله .

فإذا ذهبنا في دراستنا لموقف الإسلام من العاطل الذي لا يعمل نجد في كلام الرسول وتوجيهه خير إجابة لهذا السؤال :

فالرسول يستهجن موقف من ترك العمل حتى لو تفرغ للعبادة معتمداً على ما قد يقدمه له القادرون ، فقد روى أن قوما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن فلانا يصوم النهار ويقوم الليل ويكثر الذكر . فقال : أيكم يكفي طعامه وشرابه فقالوا : كلنا . فقال : كلكم خير منه .

وقد حاول أحد الصحابة أن يتفرغ للعبادة ، ويعتزل الناس ، فقال له الرسول : لا تفعل ، فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته سبعين مرة ، ومن أجل هذا كان أهل الصفة وهم فقراء المسلمين الذين يعيشون في مسجد الرسول يسارعون للجهاد إذا دُعِيَ المسلمون للجهاد ، كما كانوا يعملون ليحصلوا على ما يقتاتون به ، وكانوا يتصدقون بما يزيد عن حاجتهم أما العاقل الذي يسأل الناس ويمدُّ يده يطلب عونهم ومساعدتهم وهو قادر على العمل ، فإن الرسول يصيح في وجهه :

— اليد العليا خير من اليد السفلى (اليد التي تعطى خير من اليد التي تأخذ) .

— لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بخزمة من حطب فيبيعها خير له من أن يسأل الناس .

— ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ، وليس في وجهه مزعة من لحم (أى ينضب ماء وجهه ويجف لحمه وذلك كناية عن ضياع الشرف والإحساس) .

— إن من يسأل لغير حاجة ماسة يجيء يوم القيامة وفي وجهه نقطة سوداء .

وهكذا نجد الرسول صلوات الله عليه قد أقبل على العمل ، وزاوله ، وحث عليه ، وسوّى بينه وبين العبادة ، وأحياناً فضله عليها ، وإن أصحاب الرسول اقتدوا به في هذا المضمار مما ثبت في النفوس أن كلمة المعلم ، ومبضع الطبيب ، وقلم المهندس ، وجهد الزارع والصانع ، ألوان من العبادة ، فالإسلام دين عمران يحث على خير الدنيا كما يحث على خير الآخرة .

الرسول والشباب

في مطلع حديثنا عن الرسول والشباب نجد أن نوضح أن ليس هناك حد قاصد مميز يقف بين الصبا والشباب ولا بين الشباب والكهولة ، فلا نستطيع أن نقول لإنسان أنك اليوم تطوى عهد الصبا لتبدأ عهد الشباب ، أو أنك تطوى صفحة الشباب لتبدأ عهد الكهولة والشيخوخة ، لأن الصلوات بين هذه الأطوار صلوات متداخلة ، وهذا شيء من فضل الله ، لإمكان أن يعيش الإنسان فترة الصبا والشباب معا ، وفترة الشباب والكهولة معا ، فينتفع بهذا وذاك أو قل ينتفع بهذا لذاك .

ونقطة أخرى تتصل بأطوار الإنسان ، هي أن الزمن ليس الشيء الوحيد الذي يحدد هذه الأطوار ، فالصحة الجسدية والصحة النفسية لهما أثر كبير في تحديد الوقت الذي ينتقل فيه الإنسان من طور إلى طور ، ومن هنا نستطيع أن نؤكد أن الرسول وكثيرين من أصحابه كانوا شبابا وهم في العقد السادس أو بعده ، وسيرة الرسول توضح أنه كان شاب الجسم والعقل والقلب حتى تجاوز الستين ، ومرض مرض الموت ، وكان هو وأصحابه يديرون أمور الدولة بأعلى درجات الكفاءة وهم حول الستين من العمر .

والشباب جيل يقف في منتصف الطريق ، يأخذ عن السابقين وينقل للأحقين ، فهو جيل يتلقى تجارب الشيوخ وقدراتهم ، ويضيف لذلك ما جده من معارف وتجارب ، ثم ينقل هذا وذاك للجيل التالي الذي سيقف شبان اليوم معاهدين له ومدرين ، فحلقة الحياة والتجارب متصلة ، وإضافات التجارب والخبرات والفكر ينبغي أن تشجع ليصبح كل جيل ملأئما للعصر الذي يعيش فيه ، ولو لم يتلق الشباب عن الشيوخ لفقدوا خبرات الماضي وتجاربهم ، ولكان عليهم أن يبدؤوا من جديد فيما قد بدأه الجيل السابق ووصل فيه إلى حلول ونتائج ولضاق وقتهم عن إضافة الجديد .

ومن هنا كان اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بالشباب ، ذلك الاهتمام الذى يمثله الحديث الشريف « نصرت بالشباب » وهذا الحديث يصور عصر الرسول صلوات الله عليه أدق تصوير ، فجيل الشيوخ فى مطلع الرسالة لم يستطع أن يتخلى عن عبادة الأوثان ولا عن تقاليد العصر ، لأن نفوس هذا الجيل كانت قد رنخت فيها مع طول الزمن قيم الجاهلية ونظمها ، أما جيل الشباب فكانت عبادة الأصنام لم تتعمق فى نفسه ، وكان أميل للصفاء ، وراغبا فى التعرف على ما تحمله الدعوة الجديدة من فكر ، وقد حمله ذلك إلى دراسة الإسلام ففقه به الكثيرون منهم ، ووقف بذلك جيلان متعارضين ، جيل يصارع الإسلام ويبرز فيه جانب الشيوخ ؛ وجيل يدافع عنه ويبرز فيه جانب الشباب ، وبعض هؤلاء الشباب كانوا أبناء للشيوخ الذين عارضوا الإسلام وحاربوا المسلمين ، وبعض هؤلاء الشيوخ سقطوا فى المعارك وبضربات من أبنائهم أحيانا ، وسرى فيما بعد نماذج من شباب المسلمين الذين التفوا حول الرسول ، وكانوا عُدته فى مختلف المواقف .

الشباب والتحولات الفكرية :

فى ضوء ما ذكرناه آنفا نستطيع أن نقرر أن الشباب هم العدة الهائلة للتحولات الفكرية وبدونهم تنعثر الدعوات الجديدة ، لأن صفاء نفوسهم وفتاء عقولهم ، وعدم خضوعهم لأحمال هائلة من تقاليد الماضى يجعلهم مستعدين للدراسة والبحث وتقبل ما يعجز عن تقبله جيل الشيوخ ، بيد أننا نوضح نقطة شديدة الأهمية هى أن الشباب للأسباب التى ذكرناها آنفا قد تخدعهم دعوات لامعة المظهر ، فجئة المنبر ، فيقومون فريسة لهذه الدعوات ويعتقرونها ويتحمسون لها فترة من الزمن ، ولكنهم بعد حين يكتشفون حقيقتها ويتمردون عليها ، وهذا هو الفرق الهائل بين دعوة الإسلام العميقة السامية التى تلقاها الشباب ، وزادوا حماسا لها من يوم إلى يوم ، وبين دعوات الشيوعية والاشتراكية والناصرية التى خدع بها الشباب حيناً ، وأيدوها ثم تفهموها بعد حين فانفضوا عنها ، ومن هنا نوضح أن الشباب الذين اعتنقوا الإسلام بمبادئه كانوا يزدون حباً له وإقبالا عليه كلما مر الزمن ، إذ يتعرفون على مزيد

من مبادئه الرائعة، ويزيدون ارتباطاً برسول الإسلام الذي كان مثالا نادرا للقائد والرائد الذي يعمل للإسلام والمسلمين دون أن ينال أى شيء لنفسه وذويه ، وهذا يدفعنا أن ندعّر الشباب إلى التّريث في قبول الدّعوات الجديدة . فليست الدّعوات الجديدة من عند الله كما كانت دعوّة الإسلام ، وليست لها معجزات الإسلام ، ولهذا ينبغي على الشباب أن يستعملوا الأناة ، وإلا يتدفقوا على تأييد أيّة دعوّة جديدة بحكم الرغبة في التّغيير ، وذلك حرصا على جهودهم من الضياع ، وقد رأيت وأنا أستاذ بالجامعة جاعات من الشباب يتحمسون لفكرة ، وربما ارتكبوا الشطط في تأييدها ، ولكنهم عندما تقدّم بهم العمر تغلّوا عنها ، لقد اعتقروها بثورة عاطفية ، فلما نما العقل اجتنبوا انفعالات العاطفة .

الشباب مع الرسول :

إذا عدنا إلى مطلع الإسلام وجدنا أن الشباب - كما قلنا من قبل - كانوا خير نصير للدعوة الجديدة ، وأول من تقابل في هذا المجال عليا بن أبي طالب وهو أول من أسلم من الصبيان ، وكان آنذاك صبيا حدثا لم يبلغ الشباب بعد ، ثم تقابل أبا بكر الصديق وهو أول من أسلم من الرجال وكان أصغر عمرا من الرسول أى كان لم يكمل العقد الرابع من العمر ، ولم يستجب أبوه قحافة والد أبي بكر لدعوة الإسلام ، فقد كان من الشيوخ الذين يصعب تحريكهم إلى الفكر الجديد كما ذكرنا من قبل ، وظل أبو قحافة على الوثنية حتى مُتحت مكة ، أما ابنه أبو بكر فقد اتجه منذ عهد مبكر جداً إلى شباب مكة يدعوهم للدين الجديد ، ويذكر لهم مبادئه ويعرفهم بالرسول ، فاجتمع حوله نخبة رائعة من الشباب ، أخلصوا الإخلاص كله للدين الجديد ، وحملوا ألبسته معلمين ومهاجرين ومحاربين، ومن هؤلاء سعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة بن الجراح، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف ، وكان هؤلاء في قمة الشباب لم يصل بعضهم إلى سن العشرين بعد ، وسرعان ما دخل الإسلام كذلك شابان جديدان هما أبو ذر الغفاري، وعبد الله بن مسعود، وكانا من العشرة الأوائل الذين دخلوا هذا الدين ، ثم توالى بعد

ذلك دخول مجموعات من الشباب مثل أبي سلمة، والأرقم، وعثمان بن مطعون، وعبيدة بن الحارث، وسعيد بن زيد، وزوجته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب، وأسلمت شابات صغيرات منهن أسماء بنت أبي بكر وأختها عائشة، وأسلم خباب بن الأرت وعمير بن أبي وقاص أخو سعد، وعبد الله بن جحش، وجعفر بن أبي طالب، ثم أسلم حمزة، وعمر بن الخطاب وهما في ريعان الشباب، وأسلم عبد الله بن عمر وهو في الثالثة عشرة من العمر، وعندما تراجع المهاجرين في هجرة الحبشة الأولى نجدهم جميعا تقريبا من الشباب وزوجاتهم من الشابات، وقد احتمل هؤلاء كل ضيم في سبيل عقيدتهم، وربما كانوا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم، ولكن الآيات التي تبيح خوض المعارك ضد الكفار لم تكن قد نزلت بعد، فاستجاب هؤلاء للرسول وتركوا الديار والوطن فرارا بدينهم إلى حيث طمعوا في الرعاية والأمان، وعندما تمت الهجرة إلى المدينة وأذن بالقتال كان هؤلاء الشبان ليوث وغى وأبطالا مغاوير كما سرى عند الحديث عن الغزوات.

جيلان :

سبق أن أشرنا إلى وجود جيلين في مطلع الإسلام هما جيل الشيوخ وجيل أبنائهم الشباب، وقد تمسك الشيوخ أو أكثرهم بعقائدهم الوثنية، واتجه جيل الشباب إلى الإسلام وحدثت أحداث جديدة بالذكر بين الآباء والأبناء، وسنقص فيما يلي طرفا من هذه الأحداث.

وأول من تذكره هو أبو طالب عم الرسول، الذي كفله بعد وفاة عبد المطلب وأعلن حمايته عندما جاءت له الدعوة، ودافع عن الرسول دفاعا طويلا، وكانت هيئته من الأسباب التي جعلت قريشا تتردد في العدوان على الرسول، وكان درعا يحمي الرسول بقوة وصلابة، وما ينسب له في ذلك، البيت التالي :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوْسَدَ في التراب دفيناً

ومع هذه العلاقة وهذا الارتباط الوثيق ، لم يدخل أبو طالب دين الإسلام على أبي جح القرين .، فهو واحد من الشيوخ الذين ضعفوا عن التحول من عقيدة إلى عقيدة .

وإذا كان هذا هو موقف الشيخ الأب ، فإن من أبنائه من أسرع في دخول الإسلام وضرب أروع الأمثال في الدفاع عنه مثل علي بن أبي طالب الذي دخل الإسلام وهو صبي كما قلنا آنفا ، وبات في فراش الرسول ليلة الهجرة مستعداً أن يضحي بنفسه من أجل نجاة الرسول ، وهو أخ للرسول في المؤاخاة ، وبطل الأبطال في كل الغزوات ، ولقد عرفه التاريخ مبارزاً مقداماً في غزوة بدر وأحُد والأحزاب .

ومن أبنائه أبي طالب جعفر وكنيته أبر المساكين ، وكان الرسول يقول له : أشبهتُ خَلْقِي ومُخَلْقِي وتلك قمة الأوصاف العالية ، وكان الرسول يقول عنه : « طائر الجنة الفريد » وزوجته أسماء بنت عميس وهي من خيرة الزوجات ، أسلمت مع زوجها في وقت مبكر ، وقد هاجر جعفر إلى الحبشة . وطاب له المقام هناك ، فكان زعيماً للمسلمين والمتحدث باسمهم ومعلمهم ، وقد تصدى لعمر بن العاص في الحرار الذي دار بينهما أمام ملك الحبشة ، وانتصر جعفر أعظم انتصار .

وعندما عاد من الحبشة عقب انتصار المسلمين في معركة خيبر كان ثاني القادة الذين اختارهم الرسول لقيادة الجيوش في غزوة مؤتة ، وهناك لاقى ربه وهو يدافع عن الإسلام .

وننتقل في المقارنة بين جيل وجيل إلى الحديث عن أبي عبيدة عامر ابن عبد الله الجراح ، وكان أبوه في قمة المعادين للإسلام ، ولكن الشاب أبا عبيدة اعتنق الإسلام عندما دعاه أبو بكر لذلك ، فقد كان قلبه نقياً ، تلقى بترحاب دعوة الإسلام وتقبلها ، وهاجر عقب ذلك إلى الحبشة ، ولكن سرعان ما عاد ليوقف بحرار الرسول ، فحضر المشاهد كلها ، وفي مطلع هذه المشاهد أى في غزوة بدر واجه أبا عبيدة امتحاناً قاسياً ، فقد كان أحد

الأبطال المسلمين في هذه الغزوة ، وكان أبوه يقف في صفوف المشركين ، ولما دارت المعركة وحمل وطبسا انضح لأبي عبيدة حرص والده على قتله ، فقد كان هذا الوالد يحاول من حين إلى آخر أن يطعن ابنه ، فكان الابن يفلت منه ليقوم بدوره في الصراع ، ولكنه سرعان ما يجد أباه يراجعه مرة أخرى ، وأدرك أبو عبيدة أن أباه يعرقل جهده ، وقارن بين إرضاء الله ورسوله وبين إرضاء أبيه فوجد من واجبه أن يعمل لرضا الله ورسوله فطعن أباه طعنة قضت عليه ، وبكى أبو عبيدة عقب ذلك ، فسئل : أبكي لأنك قتلته ؟ فأجاب : لا ، ولكن كنت أتمنى أن يشرح الله صدره للإسلام ، وإني أبكي لأنه مات على الكفر .

وننتقل مرة أخرى في المقارنة بين جيل وجيل لتحدث عن أبي حذيفة ابن عتبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة هو سيد قريش في عصره ، من فصحاء العرب ، وبلغاهم وهو والد هند زوجة أبي سفيان ، وقد أرسلته قريش مرة ليعرض على محمد المال والسلطان ليكف عما جاء به مما أثار قومه ومزق صفوفهم ، فاستمع له الرسول بكثير من الصبر والأناة حتى انتهى من كلامه ثم سأله الرسول :

— أو قد فرغت ؟

— بلى .

— قال محمد : فاسمع مني قوله تعالى : « قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها ، وقلدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين » ، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرا ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح . وحفظنا ذلك تقدير العزيز العليم . فإن أعرضوا قتلنا أنذرناكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود (١) :

وقد ذكرنا من قبل أن عتبة بن ربيعة كان من فصحاء العرب وبلغائهم فأدرك أن هذا الكلام ليس من قول البشر ، وهزّه التهديد الذى جاء فى الآية الأخيرة ، فيُروى أنه وضع يده على فم الرسول ، وقال له : أنا شدك الله والرحم أن تكف .

وعاد عتبة إلى قومه ، ولكنهم رأوه على حال غير الذى كانوا يتوقعونه ، فقال بعضهم لبعض : لقد جاءكم أبى الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، ولما جلس سألوه : .

— ماوراءك ؟

— لقد سمعت قولاً ما سمعت والله بمثله قط . ماهر بالشعر ولا السحر ولا الكهانة

— قال له قومه : سمرك محمد بلسانه .

ومع هذا الإحساس الذى دب فى نفس عتبة لم يستطع أن يتخلى عن العقيدة التى كانت متغلغلة فى نفسه ، فبقى على الكفر . أما ابنه أبو حذيفة فكان له موقف آخر ، كان شاباً متفتح القلب والعقل ، لم تسيطر عليه عبادة الأوثان ، ولذلك ما إن أحس بصدق الدعوة حتى اعتنقها ، وضحى بما كان ينتظره من زعامة قريش بعد أبيه ، فقد كان أبوه يُعِدُّه لهذه الزعامة كما كان أبو حذيفة ينعم بالغنى والمجد والترف ، ولكن هذا كله لم يكن شيئاً ذا بال عند أبي حذيفة ، لقد كان الإسلام يفوق عنده كل شيء ، فأثر الفقر على الوثنية ، وأصبح يعيش فى نور الإسلام بعد ظلام الشرك ، ويسعد بالمعرفة بعد أن ترك الجهالة ، غير حافل بمال أو متاع ، وأى مال أسمى من راحة النفس ، وسعادة العقل ، وهدوء البال .

وقد سقط عتبة بن ربيعة فى المبارزة التى دارت فى مطلع غزوة بدر ، كما سقط فى هذه المبارزة شبيهة أخوه والوليد ابنه ، ولكن هؤلاء الصرعى من أقرب الناس إلى أبي حذيفة لم يؤثروا فيه ، بل أبلى بلاء حسناً فى هذه الغزوة وفى سواها .

وعندما يذكر أبو حذيفة يرتبط به اسم شاب مهم في التفكير الإسلامي هو سالم مريلى أبى حذيفة الذى كان أحد أربعة أوصى الرسول أن يؤخذ القرآن منهم وهم: عبد الله بن مسعود، وسالم مريلى أبى حذيفة ، وأبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وكان سالم عبدا لأبى حذيفة ، فلما دخل أبو حذيفة الإسلام أعتقه وتبناه ، ولما أبطل الإسلام التبنى سُمى سالم «مريلى أبى حذيفة» ، لأن أباه لم يكن معروفا ، وزوجه أبو حذيفة بنت أخيه الرليد واسمها فاطمة ، وهذا يرينا صورة رائعة من صور الفكر الإسلامى أن يتزوج مولى إحدى بنات السادة ، ولكن الإسلام رفع شأن هذا المريلى وجعله على القدر والمقام ، وظل أبو حذيفة ومولاه سالم يصارعان من أجل الإسلام في ميدان الفكر وميدان القتال حتى سقطا معا في معركة من معارك الردة وهما يحاربان مسلمة الكذاب ، ويروى أن بعض المسلمين رأى سالما وهو في النزاع الأخير فسأله سالم : ما فعل أبى حذيفة ؟ قالوا : استشهد ، قال سالم : فاضجعونى إلى جواره ، فأجابوه أنه إلى جوارك يا سالم . لقد عاشا البطلان معا وماتا معا في خدمة الإسلام .

وفى المقارنة بين جيلين ننتقل هذه المرة إلى صراع بين شباب مهمل الإسلام وبين أمه التى تمسكت بعقيدة الوثنية ، ذلك الشاب الذى كان لنا معه حديث من قبل إنه مصعب بن عمير . فقد كان مصعب من بيت جاه وغنى ، وكان يوصف فى مكة بأنه من أعطر أهل مكة . وكان زينة المجالس والنلوات ، ولكن طبيعة مصعب لم تكن خاضعة لهذا الترف ، وإنما كانت خاضعة للفكر ، لم يكن التعم يسيطر عليه ، وإنما كان عقله هو الذى يقوده ، فلما سمع عن الدعوة الجديدة تدارسها وتفهمها ، فهزت وجدانه وأثرت فيه ، فلم يقاومها ، ولا اهتم بما قد يناله إذا اعتنقها ، فدق باب الأرقم ابن أبى الأرقم وأعلن إسلامه .

وإذا كان مصعب قد وجد راحة الفكر فى الدين الجديد ، فقد واجه المتاعب المريعة من أمه ، وكانت أمه «خناس بنت مالك» . شخصية قوية لها فى نفوس القوم هبة وجلال ، ولذلك اضطرب مصعب أن يخفى إسلامه

عنها ، وعن عشيرته ، ولكن إسلام شخص مثل مصعب في جاهه ومكانته لم يكن من الممكن أن يظل سراً ، فسرعان ما انكشف الأمر ، وواجه مصعب صراعاً قاسياً من عشيرته وعلى رأس العشيرة أمه خناس ، وقد حاول هؤلاء بكل الوسائل أن يردوه عن اتجاهه ، ولكنهم فشلوا بطبيعة الحال . فانتقلوا إلى التحدى . فحيسته أمه في حجرة من حجرات البيت ، وأحكمت حرمانه من كل شيء ، ولكنه استطاع بحيلة من الحيل أن يفر من هذا السجن ، وأن يهاجر إلى الحبشة ، مؤثراً البعد عن الوطن والمال ليعيش في راحة النفس ، وعندما عاد من الحبشة إلى مكة ، عرفته مكة مرقع الثياب يعاني الفاقة والحاجة بعد أن كان مترفاً يرفل في ثياب النعم ، ولكن الأبطال لا يعينهم المظهر ، ولا تجلبهم زينة الحياة عن الخلود والخير المقيم .

وقد ذكرنا من قبل أن مصعباً كان مبعوث الرسول إلى المدينة ، ولما عاد إلى مكة من المدينة هددته أمه بحبسه مرة أخرى ، ولكنه قال لها : لأن حدث هذا لأحرصن على قتل كل من يتعرض لى ، فبست منه أمه وتركته .

ولم يكن مصعب وحده هو الذى لاقى العناء من أمه بسبب دخوله الإسلام ، بل إن هناك شاباً عظيماً آخر واجه نفس المشكلة ، ذلك هو سعد ابن أبى وقاص ، فقد دخل الإسلام وهو فى السابعة عشرة من العمر ، وكان من السابقين الأولين ويروى عنه قوله : أتى على يرم وأنا ثلث المسلمين ، إذ لم يكن هناك أكثر من رجال ثلاثة دخلوا الإسلام آنذاك .

وسعد بن أبى وقاص من أقارب والده الرسول ، وكان الرسول يعده خاله ، ويفخر به قائلاً : هذا خالى فليرنى أمرؤ خاله . وكان سعد بن أبى وقاص فى مطلع الإسلام من الشباب صافى النفس طيب السريرة ، ليس لعبادة الأصنام جلوس فى نفسه ، ولذلك أسرع بقبول دعوة أبى بكر ليدخل الإسلام ، قبل أن يدخل الرسول دار الأرقم ، ولما عرفت أمه (حمنة) أنه دخل الإسلام غضبت أشد الغضب ، وأعلنت الصوم احتجاجاً على سلوك ابنها ، وأقسمت أن تتمسك بالصوم حتى تموت أو يرتد ابنها عن الإسلام .

ولم يعبأ سعد بصوم أمه ولا بقسمها فقد كانت الآية الكريمة ترسم له خطته قال تعالى : « وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما » (١) فليست أمه هي التي تنظم حياته في هذا المضمار ، وليس لمخلوق طاعة في معصية الخالق . ومن هنا طال صوم أمه . وتدهورت بالتالي صحته . فأخذ بعض أهله والأم في الرمق الأخير لعله يرى حالتها فيستجيب لرغبتها . وذهب سعد ورأى أمه . ولكنه بكل الإيمان واللباث قال لها : والله يا أم لو كانت لك مائة روح فخرجت واحدة بعد الأخرى ما تركت ديني : فكلى أو لا تأكلى . وأدركت الأم ألا جدوى من التهديد ، وأن ابنها يعرف ما يجب عليه . وأن الدين ليس بالأمر الذي يساوم الإنسان فيه . فعادت عن صومها .

بقى أن نثبت عن الشاب سعد بن أبي وقاص بعض ما ينبغي أن يعرف عنه . فسعد أول من رمى بسهم في سبيل الله . وكان يفخر بذلك ويقول : والله لأنني أول رجل من العرب رمى بسهم في سبيل الله ، وكان الرسول معجبا به وبإخلاصه حتى أنه دعا له أطيب دعاء فقال : اللهم سدد رميته ، وأجب دعوته . فكان سعد على مر التاريخ مسدد الرمية ومجاب الدعوة . وكان مبشرا بالجنة فقد كان الرسول مرة يجلس مع أصحابه . ثم فكر هنية وشرح بصره وبصيرته ثم قال لأصحابه : يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة ، فأخذ أصحاب الرسول يتطلعون هنا وهناك ليعرفوا من هذا الذي ترتبط به هذه البشارة ، فطلع عليهم سعد بن أبي وقاص ، وقد سأله مرة عبد الله بن عمرو بن العاص عن الصفات التي ألتها هذا الرضي ؟ فقال له سعد : لا شيء أكثر مما نعمل جميعا ونعبد ، غير أني لا أحمل لأحد من المسلمين ضغنا ولا سوءا .

وتربط بسعد تلك القصة الشهيرة التي تفيد أن الغنى الحلال خير من الفقر والحاجة ، فيروى أن سعد كان مع الرسول في حجة الوداع فرض ،

وذهب الرسول إليه ليعوده، ولم يكن عند سعد من الأبناء آنذاك إلا بنت واحدة، فقال سعد للرسول :

يا رسول الله إني امرؤ ذو مال ولا يرثني إلا ابنة واحدة أفأتصدق بثلثي مالي ؟

فقال الرسول : لا . فعاد سعد يسأل : فبنصفه ؟ فقال الرسول : لا .

فقال سعد : فثلثه ؟ قال الرسول : نعم الثلث والثلث كثير . إنك إن تفر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى اللقمة تضعها في فم امرأتك .

وسعد آخر من مات من المهاجرين ، وكانت وفاته سنة ٥٤ هـ ، وكان يحتفظ بشرب قاتل به في بدر فكفّس فيه . رحمه الله رحمة واسعة .

وفي مجال المقارنة بين جيل الشيوخ وجيل الشباب نصل إلى اثنين من أكبر المشاهير في مكة ، هما : الوليد بن المغيرة وابنه خالد بن الوليد ، وقد سمع الوليد بن المغيرة آيات من القرآن الكريم من سورة السجدة ، وهذه الآيات تصور أروع تصوير حالة الشيوخ التي حاولنا إبرازها بقول الله تعالى : « وقالوا قلوبنا في أكنه مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب (١) » . نعم كانت قلوبهم في أكنه ، وكانت آذانهم لا تسمع ، وقد أقاموا حجابا كثيفا بينهم وبين دعوة الحق ، وعندما سمع الوليد بن المغيرة هذه الآيات وما تلاها من آيات في هذه السورة أدرك بقلته البلاغية مكانة هذا التنزيل ، وراح يصف لقرمه ما سمعه أبلغ وصف قال : سمعت من محمد أنفا كلاما ما هو من كلام الإنس ولا كلام الجن ، إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يُعلو عليه .

وهزت هذه الكلمات قريشا ، وخافت أن ينجذب الوليد إلى الإسلام ،

(١) سورة فصلت « الآية الخامسة .

فأرسلت إلى الوليد ابن أخيه أبا جهل يحمله ضد محمد وضد الدين الذي جاء به ، فاستجاب الوليد لابن أخيه ، وراح يصف محمدا بأنه ليس إلا رجلا يفرق بين المرء وأهله ، وجاءت آيات القرآن الكريم بأبلغ عبارة عرفها البلاغة العربية تصف الوليد وتهده وتزجره ، أنها قوله تعالى : « ذرني ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا مملودا وبين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا ، إنه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، سأصلبه سقر ، وما أدراك ما سقر » (١) :

وفي أحضان هذا الأب نشأ خالد بن الوليد . وكان حول خالد شيوخ أهل مكة الذين يحيطون بالوليد ، ومن بينهم أبو جهل ابن عم خالد وأكبر أعداء الإسلام ، ولم يجد خالد في هذه البيئة الفرصة ليتعرف على الإسلام ، ولهذا بقي عدة سنوات في صفوف الكفار ، وحارب ضد المسلمين ، وحقق على المسلمين انتصارا كبيرا في غزوة أحد ، مما يدل على قدرة عسكرية هائلة .

ومرت السنون وخالد يتبعه بقوته ولا يجد السبيل للتفكير . لأنه يعيش في مكة مع أعداء الإسلام ، بعد أن هاجر المسلمون إلى المدينة ، ومن هنا طالت فترة ابتعاد خالد عن دين الحق ، فدعوة الإسلام لم تدق نفسه ، ثم جاء صلح الحديبية وهدأت السيوف والحرب التي كانت شغل خالد الشاغل ، وأتيح للعقل الصافي أن يفكر ، وللنفس السمحة أن تقدر ، وهداه تفكيره إلى شيء يعبر عنه قوله : « والله لقد استقام المنسم ، وإن الرجل لرسول ، فحتى متى أبعد عنه ، ومتى سأذهب إليه فأسلم . وكان خالد يتمنى أن يجد رفيقا في هذه الرحلة الخطيرة التي تصور تحولها هائلا في تاريخ مكة وتاريخ المدينة ، ووجد خالد رفيقه ، وكان عثمان بن طلحة ، ولعثمان نفس الوضع

الذى تدارسه ، إنه كذلك كان فى عفوان الشباب وكان فى نفسه صفاء ،
أما أبوه فهو طلحة بن أبى طلحة وهو من طبقة الوليد بن المغيرة ، ومن أخطر
أعداء الإسلام ، إنه ذلك الأب الذى وقف بعنجهية وكبرياء فى مطلع
غزوة أحد يتحدى المسلمين ويطلب المبارزة ، وعندما بارزه على وقضى
عليه ، خرج أخوه عثمان بنحاسة الواله يطلب المبارزة أيضاً ، فصرعه حمزة ،
وتقدم الأخ الثالث أسعد والأخ الرابع مسافع فسقطا أيضاً فى ميدان المبارزة ،
وهنا يدل على عمق فى الباطل من هذا الجيل بهذه الأسرة ولكن عثمان
ابن طلحة كان يلجأ فى نفسه ما يلجأ فى نفس خالد ، فلما التقى به خالد
وذكر له ما يخطر بباله أسرع بالاستجابة ، وسارا معا شوطا ، فالتقيا
بعمر بن العاص وهو شاب من سراة قريش وعظماهم ودهاتهم ،
قال له حديثا بعض رفاقه : عجبت لك يا ابن العاص ، كيف تعرض
عن أقبلت عليهم الدنيا والآخرة ، وكان عمرو ينتظر الظروف التى تساعد له ليعلى
ما يضممر تجاه الإسلام ، فلما التقى بخالد وعثمان بن طلحة سألهما : إلى أين
المسير ؟ فأخبراه بغرضهما ، فقال : لقد دب فى نفسى مآدب فى نفوسكما ،
فرحبا به رفيقا ثالثا فى هذه الرحلة ، وذهب الثلاثة إلى الرسول بالمدينة ،
وأعلنوا إسلامهم وبايعوا رسول الله . وفى خجل من الماضى قال خالد
لرسول : استغفر لى كل ما أوضعت فيه من صدء عن سبيل الله ، فرد
الرسول ردا فيه شفاء للثلاثة جميعا قال : إن الإسلام يحب ما قبله ، وكان
الرسول يقول عن عمرو بن العاص : أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص ، وحمل
هؤلاء الثلاثة أعباء طويلة فى خدمة الإسلام كأنما أرادوا أن يكفروا عن مواقف
وقفوها من قبل مناضلين ضد الإسلام والمسلمين .

وعندما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة كان الشباب أيضاً
فى مطلع من عاونوه ، ومن هؤلاء معاذ بن جبل الذى دخل الإسلام وهو
فى مطلع الشباب ومات فى خلافة عمر وعمره ثلاثة وثلاثون عاما هـ

ووجد فى المدينة كذلك جيل الشيوخ الذين عارضوا الرسول وجيل
أبنائهم الشباب الذين دخلوا الإسلام وأخلصوا ودافعوا عنه ، ومن جيل

الشيوخ الذين لم يخلصوا للإسلام عبد الله بن أبي زعيم المنافقين الذي امتد كيده للإسلام طيلة حياته ، أما ابنه عبد الله فكان مسلما عميق الإسلام حتى أنه عندما أحس بغضب الرسول على أبيه . وخشى أن يأمر الرسول من يقوم بقتل الأب ، تقدم يعرض استعدادة لقتل أبيه إن أمره الرسول بذلك . وقد ذكرنا هذه القصة من قبل .

وبعد ، لقد كان الشباب عدة الإسلام ؛ حملوا فكره . وحملوا السيف للدفاع عنه ، نشروه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ودافعوا عنه عندما وقفت قوى الشر تهدده ، وكان رسول الإسلام يحتفى بالشباب ، ويقبل عليهم ، ويحسن معاشرتهم ، تقديرا لهذا النور الكبير الذي قاموا به ، والذي عبر عنه الرسول أروع تعبير عندما قال : نصرت بالشباب .

توجيهات طبية يقدمها الرسول

في مطلع هذا الحديث نحب أن نوضح حقيقة قد تحقق على بعض الناس عند قراءتهم عنوان هذا البحث ، تلك الحقيقة هي أن الرسول صلوات الله عليه ليس طبيبا ، وقد رأينا الرسول داعية ومربيا للدعاة ، ورأيناه حاكما ومربيا للولاة ، ورأيناه قاضيا ومربيا القضاة وهذا صميم عمله؛ يبلغ شرع الله ويشرحه ويطبّقه .

ولا يدخل في عمل الرسل ووظائفهم - كما يقول الإمام محمد عبده - ما هو من عمل المدرسين ومعلمي الصناعات ، فليس مما جاعوا له تعليم التاريخ ، ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب ، ولا طبقات الأرض ، ومقادير الطول فيها والعرض ، ولا ما تحتاج له النباتات في نموها من علم ذلك ونظائره ، يحتاج إلى الكسب والبحث ، هدى الله إليه البشر بما أودع فيهم من الإدراك والعقول ، وكل دخل الأديان في ذلك هو حراسة ليعتدوا حتى لا تشتط أو تزل (١) .

وعلى هذا نقرر أن الرسول صلوات الله عليه ليس طبيبا ، فالطلب صناعة من هذه الصناعات ، ولكننا مع ذلك نقرر أن الرسول صلوات الله عليه وضع في مجال حفظ الصحة قواعد عامة اعتبرها الأطباء بالغة القيمة في عالم الطب ، وكان اهتمام الرسول فيها بوجه خاص يتجه إلى الطب الوقائي وهو أهم أنواع الطب ، فأرقى الدول تهتم به أعظم اهتمام حتى تحول دون انتشار الأمراض والأوبئة ، واهتم الرسول كذلك بالطب العلاجي ، ولكن غالباً بدعوة المرضى إلى العلاج، وبيان أن لكل داء دواء وفي هذا الضوء نخطو لنسجل التوجيهات الطبية التي قدمها الرسول :

الدعوة إلى القوة :

وأول ما اهتم به الرسول الدعوة إلى القوة التي تتخذ الصحة أساسا

(١) الإمام محمد عبده : رسالة الوحيد ص ١٠٠ وكتاب « الإسلام » من سلسلة مقارنة الأديان المؤلف ص ١٠٧ .

لها ، ومن أحاديث الرسول في الدعوة للقوة قوله : المؤمنُ القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف (رواه مسلم) ولاشك أن القوة تعين على أداء الواجب ، ودقة العمل ، والمحافظة على سلامة الأسرة والوطن ، وهناك أحاديث أخرى كثيرة في هذا المجال نروى فيما يلي بعضها :
 — إن لجسدك عليك حقًا .

— يا عباس يا عم رسول الله سل الله العافية في الدنيا والآخرة ،
 (مسند أحمد) .

— سلوا الله اليقين والعافية ، فما أعطى أحد بعد اليقين خيراً من العافية .
 (البخاري) .

— من أصبح معافى في جسده ، آمناً في سربه ، عنده قوت يومه ،
 فكأنما حيزت له الدنيا (رواه الترمذي) .

— ومن المحافظة على الصحة ما أوصى به الرسول من الرياضة والترويح عن النفس ، وكان الرسول نفسه يباشر الرياضة ، فقد سبق عائشة رضي الله عنها مرة فسبقتة ، وسابقها أخرى فسبقها فقال : هذه بتلك ، وكان كذلك يهتم بالفروسية ورمى السهام ، ولا يكره الترويح المباح .

في مجال الطب الوقائي :

وننتقل بعد ذلك لتحدث عن الطب الوقائي ، والذي يتدارس أحاديث الرسول يجد نخبه منها تقود المسلم خير قيادة لصحة الأبدان وصحة العقول والنفس ، وأول ما نسوقه من ذلك ما روى أن المقرئ عندما أرسل مارية هدية للرسول ومعها بعض أهلها ومعها كذلك طيب قبل الرسول الهدايا الأخرى وردَّ الطيبَ قائلاً : لا نحتاج لطيب ، فنحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع ، ويقول في التحذير من التخمرة : المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء ، ويعلق أحد الأطباء المحدثين على هذا الحديث بقوله : والحقيقة

أن المعدة هي السبب في كثير من الأمراض المعوية وأمراض الكبد وفقر الدم وأمراض القلب^(١) .

وقد تكررت أحاديث الرسول في الحث على عدم ملء المعدة بالطعام ، ومن هذه الأحاديث نقتبس ما يلي :

- لا تمتلوا القلب بكثرة الطعام والشراب ، فإن القلب كالزراع يموت إذا كثر عليه الماء .

- إياكم بالبطنه ، غايتها مكسلة للصلاة وفسدة للجسم ، ومؤدية إلى السقم ، وعليكم والقصد في قوتكم فهو أبعد عن السرف ، وأصح للبطن .

ومن الأشياء التي اهتم الرسول بها اهتماماً كبيراً فيما يرتبط بالطب .
الوقائي ، النظافة ، وأحاديثه في هذا المجال كثيرة منها :

- النظافة من الإيمان .

- بنى الدين على النظافة .

- كان رسول الله يكره رائحة العرق في المسجد .

- إن الله طيب يحب الطيب ، جواد يحب الجواد ، فنظفوا أنفسكم ليرضى عنكم .

- لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة .

ومن الطب الوقائي الذي اهتم به الرسول عليه السلام الاعتراف بالخطيئة وضرورة المحافظة منها ، ومن أحاديث الرسول في ذلك قوله :

- فرُّ من المجذوم فرارك من الأسد .

- كلُّم المجذوم وبينك وبينه قيد رمح أو رمحين .

- إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها .

(١) دكتور محمود دياب : الطب والأطباء في مختلف العصور ص ١٠٣ .

— لا يورَد ممرض على مصح ، وإن الجرب الرطب قد يكون بالبعير ، فإذا خالط الإبل أو حككها . أو آوى إلى مباركها وصل إليها الممرض منه .

في مجال الطب النفسى :

وتكلم الرسول كذلك عن الطب النفسى ، فقال « من كثر همه سقم بدنه » وذلك إشارة إلى علاقة النفس بالبدن . ولقد أثبت الطب الحديث أن كثرة المموم تمرض النفس . وممرض النفس يمرض الجسم^(١) .

وجاء رجل إلى الرسول يسأله النصيحة فقال له الرسول : لا تغضب . فكرر الرجل سؤاله وكرر الرسول نفس الإجابة . وقد أثبت التجارب المختلفة أن الغضب كثيراً ما يسبب ألواناً من الأمراض التى تهجم على الإنسان وهو فى ثورة غضبه . وربما قضت عليه .

الدواء :

ومع المحافظة على الجسم والحرص على الوقاية من الأمراض . فإن الممرض يصيب الإنسان لسبب أو لآخر . والرسول فى هذه الحالة يؤكد أن لكل داء دواء . وأن المريض لابد أن يتناول الدواء ليستعيد صحته . وهو فى ذلك يقول :

— ما أنزل الله من داء إلا أنزل له دواء .

— عندما سئل : رأيت دواء نتداوى به هل يَرُدُّ قضاء الله ؟ أجاب : هو من قضاء الله . وكان الرسول فى قمة المروبة عندما عارض الحرافات وأنواع الدجل التى كانت شائعة آنذاك . وهو يقول فى ذلك : من علق تميمة فلا أئتم الله عليه . ومن علق ودعة فلا أودع الله له .

وكانت مواقف الرسول فى مجال الطب واسعة الصدى عند المسلمين . ويروى ابن أبى أصيبعة^(٢) عن بعض الحكماء قوله : من أراد الصحة فليجو .

(١) المرجع السابق .

(٢) طبقت الأطباء ج ١ ص ١١٢ .

الغذاء ، وليأكل على نقاء ، وليشرب على ظمأ ، ويتمدد بعد الغذاء ، ويتمشى بعد العشاء ، ولا ينام حتى يعرض نفسه على الخلاء ، وليحذر دخول الحمام عقب الامتلاء .

القراية القرية في الزواج :

وهناك موضوع يرتبط بصحة الأولاد أرشد له الرسول صلى الله عليه وسلم عندما نصح ألا يختار الإنسان للزواج فتاة شديدة القراية به فقال : « اغتربوا لا تغزوا » بمعنى أنه من الخير للفتى أن يخطب فتاة بما دم يختلف عن دمه بحيث لا يكون الفتى والفتاة منحدرين من أصول يقل فيها الدم الأجنبي ، ونصيحة الرسول ترمي إلى الاهتمام بسلامة الأولاد ، وقد أثبت الطب الحديث صحة هذا الاتجاه ، فن حالة القراية القرية قل أن ينجو الأطفال من الأمراض الموجودة بالأسرة أو العيوب الموروثة ، ولكن مع اختلاف الأمر يكثر أن يفلت الأطفال من عيوب أهل الأب وأهل الأم .

مكرمات للرسول

هذا الموضوع في تقديرى شديد الأهمية ، لأنه يصحح خطأ شائعاً ، فلا شك أن الدارس للسيرة النبوية يواجه مكرمات عظيمة حدثت للرسول صلوات الله عليه سبّروى فيها بعد نماذج منها ، ولكن بعض الناس يذكر أنها معجزات للرسول دون أن يفرّق بين المعجزة والمكرمة ، وهذا خطأ كبير ، ونريد هنا بادئ ذي بدء أن نوضح كلا من المعجزة والمكرمة واثكرامة .

فالمعجزة أمر خارق للعادة . يعجز البشر عن الإتيان بمثله ، يقدمه رسول من رسل الله على وجه التحدى دليلاً على صدقه ، وتحمل المعجزة معنى قول الله تعالى : « صدق عبدى فيما يبلغه عنى » ، وعلى هذا فالمعجزة شىء يتحدى الرسول به ليؤكد للناس صدقه في الدعوة التى جاء بها ، ورسول الله لهذا مأمورون باظهار المعجزات ليقدموها أدلة على صدقهم حتى يجذبوا الناس للدعوة التى يقدمونها .

أما المكرمة فلون آخر يهبه الله للرسول تكريماً لهم وإضفاء لعنابته بهم ، أو حلاً لمشكلة تواجههم في وقت من الأوقات ، ولا يقدم الرسول المكرمة للتحدى . وليس واجبا عليه إظهارها ، وهذان هما الفرق بين المعجزة وبين المكرمة .

أما الكرامة فشىء ليس عادياً يقع على يد إنسان أو يقع لإسان قريب من الله أو مجاهد في سبيله ، ويجب على من تقع له الكرامة أن يسترها ويخفيها . ولا يجوز له أن يتحدث عنها . ولا أن يعتقد بإمكان اطرادها (١)

وعلى هذا فالقرآن الكريم هو المعجزة الخالدة للرسول صلى الله عليه

(١) الرسالة القشيرية : باب كرامات الأولياء ، ج ٢ ص ٧٠٣ .

وسلم ، وقد قدمه الرسول متحديا به البلغاء والفصحاء في كل زمان ومكان ، قال تعالى :

— أم يقولون تقوله . بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين^(١) .

— قل لن اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا^(٢) .

— أو يقولون افراء قل فأتوا بعشر سور مثله مفريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله أن كنتم صادقين : فإن لم تستعجروا لن ينفعوا فاتنوا النار التي وفودها الناس والحجارة^(٣) .

— وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله^(٤) .

والقرآن الكريم يُعجز بأسلوبه ، ويُعجز بالفكر الذي ورد فيه ، فثلا هناك كما هو معروف أحداث قطع بها ، فقد وردت سورة تبت بدا أبي لهب ، وهي تقرر أن أبا لهب سيصل ناراً ذات لهب ، أي أنه لن يدخل الإسلام وفي هذا كل التحدي ، ومثل هذه الآيات وردت عن الوليد بن المغيرة ، وقد أوردناها من قبل ، ولم يدخل أبو لهب الإسلام ولا دخل الوليد من المغيرة ، فالله سبحانه عالم تماماً بأن هذا وذاك لن يدخل الإسلام فقرر لهما النار ، وعلم المستقبل لا يكون لغير الله تعالى ، ويتضح هذا الوضع لو تذكرنا أن الرسول صلوات الله ضاق بأبي سفيان بن حرب والحارث بن هشام وعمرو بن العاص فدعا عليهم وتمنى لهم الهلاك فنزل قوله تعالى : ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم^(٥) ، ومعنى هذا كما يقول ابن الصديق^(٦) ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم ، فقد أنوب عليهم . وقد أسلم هؤلاء جميعا وحسن إسلامهم ، ومات الحارث بن هشام شهيدا

(١) سورة الطور : الآيات ٢٣ - ٢٤ .

(٢) سورة هود : الآية ١٣ .

(٣) سورة البقرة : الآيات ٢٣ - ٢٤ .

(٤) سورة البقرة الآية ٢١ .

(٥) سورة آل عمران الآية ١٢٨ .

(٦) سيرة ابن هشام : ج ٣ ص ٤٩ .

بالشام ، وكان الرسول يقول عن عمرو بن العاص : أسلم الناس وآمن عمرو . وهذا هو الفرق بين علم الله وعلم سواه ، وذلك نوع من إعجاز الفكر ، دليل على أن القرآن من عند الله ، أما إعجاز القرآن بأسلوبه فالحديث عنه طويل ، وقد أوردته بإفاضة في كتابي « تاريخ التشريع الإسلامي » .

في خيرة هذا البيان نقرر أن الرسول صلوات الله عليه منحه الله مكرمات عظيمة لرفع قدره وشموله بعنايته تعالى . ولكن هذه ليست للتحدي فهي ليست معجزات ، ومن أهم هذه الأشياء الإسراء والمعراج الذي يقول بعض المتحججين إنه معجزة فائقة تلي المعجزة بها عنصران ضروريان هما : أن تقدم للناس ، وأن تكون للتحدي ، أما الإسراء والمعراج وهما في رأي حدثنا بالروح والجسد كما شرحت من قبل ، لكن لم يقدمهما الرسول للناس كدليل على نبوته ، ولم يكن يتحدى بهما ، وإنما قصهما على الناس ، فصدقه المسلمون صادقوا الإيمان وكذبه الضالون ، وقد شرحنا ذلك من قبل ، عند حديثنا عن الإسراء والمعراج .

وهناك مكرمات كثيرة حدثت للرسول في ظروف مختلفة ، وكان أكثرها يحدث للرسول وهو بين المسلمين الذين سبق لهم الإيمان ، ولم يقدمها الرسول لغير المسلمين دليلاً على نبوته ، وهذا يخرجها من نطاق المعجزات ، وسنرى فيما يلي بعض هذه المكرمات :

في طريق الرسول من مكة إلى المدينة مهاجراً مراً بأمر مبعده عاتكة بنت خالد « فأتى الرسول بشاة قليلة الدر ليذبحها ويأكل منها هو ورفاقه . فسبح الرسول ضرعها ، فامتلاً ضرعها باللبن ، فقال الرسول لأم مبعده : لا تذبحيها وانتفعي بلبنها ، فاستجابت له ، وأتت بشاة أخرى ذبحت وطبخ لحمها لحم ، فأكل الرسول صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعامر بن فهيرة وأعطتهم أم مبعده معهم بعض لحمها لطعامهم في الطريق وبنى عندها أكثر لحمها ، قالت أم مبعده : لقد بقيت للشاة التي مسح رسول الله ضرعها إلى عام الرمادة سنة ١٨ هجرية ، فكنا نحلها صبحاً وغبوقاً حتى عندما جفت الأرض ولم يبق من الزرع والمرعى قليل ولا كثير (١) .

(١) البلاذري : أنساب الأشراف ص ٢٦٢ والرسالة الثمانية للجاحظ ص ١١٢ .

وعندما كان المسلمون يحفرون الخندق اشتدت عليهم في بعض الأماكن كُدَيْة ، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا بإناء فيه ماء ، فتمضمض فيه ، ودعا الله ببعض الأدعية ، ثم نضح الماء على الكدية ، ويقسم من حضروا حفر الخندق أن الكدية أصبحت بعد ذلك كالكييب لا ترد فأسا ولا مسحاة (١) .

وبينما كان المسلمون يحيطون بالخندق وقد مسهم الجوع ، مرت برسول الله أخت النعمان بن بشير ومعه تمر أرسلته به أمها إلى أبيها بشير بن سعد وخالها عبد الله بن رواحة ، فقال لها الرسول : تعالى يا بنية ، ما هذا الذي معلك ؟ قالت : يا رسول الله هذا تمر بعثتني به أمي إلى أبي وخالى يتغديانه ، فقال : هاته . قالت : فصبيته في كفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فما امتلأت كفاه ، ثم أمر بثوب فبسطه ، وألقى عليه التمر ، وقال لأحد جلسائه : اصرخ في أهل الخندق أن هلموا إلى الغذاء ، فاجتمع أهل الخندق عليه ، وجعلوا يأكلون منه حتى عادوا عنه ، ولا يزال فوق الثوب تمر يتساقط من أطرافه (٢) .

وقصة أخرى مماثلة حدثت في الخندق أيضاً يرويها جابر بن عبد الله بقوله : عملنا مع رسول الله في الخندق ، وكانت عندي شوية غير سمينة ، فقلت لو صنعناها لرسول الله ﷺ ؟ فذكرت ذلك لامرأتى ، فطحنت لنا شيئا من شعير وصنعت منه خبزاً ، وذبحت تلك الشاة نشوينها ، فلما أمسينا وأراد الرسول الانصراف عن الخندق - وكنا نعمل فيه نهارة فإذا أمسيتا رجعتا إلى أهلنا - قلت يا رسول الله : إني قد صنعت لك شربة كانت عندنا وصنعنا معها شيئا من خبز الشعير ، وأحب أن تنصرف معي إلى منزلي ، فقال الرسول : نعم ، ثم أمر صارخا فصرخ أن انصرفوا مع رسول الله إلى بيت جابر بن عبد الله ، قال جابر : فقلت : إنا لله وإنا إليه

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٢٩ .

(٢) ابن هشام : ج ٣ ص ١٣٠ .

راجعون!! وكيف لي بطعام لكل هؤلاء . فأقبل الرسول وأقبل الناس معه . وأخرجنا ما عندنا من طعام . فسمي الرسول باسم الله . وبدأ يأكل هو ومن معه . وكلما فرغ قوم قاموا وجاء غيرهم . حتى نال أهل الخندق جميعا حاجاتهم من الطعام^(١) .

وأحط الزراع حول المدينة حيناً ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكوا ذلك إليه : فصعد رسول الله المنبر واستسقى . فحلبت أن انهر المطر ، فجاءه سكان المدينة يشكون الفزق ، فدعا الرسول ربه قائلاً : اللهم حولينا ولا علينا ، فأنجاب السحاب عن المدينة ، فصار حوالها كالإكليل . فقال رسول الله : لو أدرك أبو طالب هذا اليوم لسره ذلك ، وكان الرسول يشير بذلك إلى بيت من قصيدة أبي طالب يمدح الرسول ويؤكد أن الرسول يستسقى به ... وهذا البيت هو :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل^(٢)

وفي عام الوفود حضر إلى الرسول وفدٌ غادر أراد أن ينتهز فرصة كثرة الوفود ليندس بينها للنيل من الرسول صلوات الله عليه . وكان ذلك وفد بني عامر بقيادة عامر بن الطفيل ، وإربد بن قيس ، وجبار بن سلمى ، وكان عامر قد اتفق مع إربد على أن يشغل بالحديث الرسولَ وحينئذ يعلوه إربد بالسيف . وتم اللقاء ، وأخذ عامر يشغل الرسول ويناقشه وينتظر من إربد أن يتفد ما اتفقا عليه . ولكن إربد لا يفعل ، وخرج الوفد ، فصرخ عامر في إربد : كيف لم تنفذ ما اتفقنا عليه ؟ قال إربد : لا تعجل علي . فوالله ما هممت بالذي أمرتني به إلا دخلت بيني وبينه حتى ما أرى غيرك ، فأضربك بالسيف^(٣) ؟

ولم يعلن الوفد إسلامه . وأحسن الرسول الغدر من زعماء الوفد ،

(١) المرجع السابق : نفس الصفحة .

(٢) المرجع السابق : ج ١ ص ٢٥٢ . وثمال اليتامى أى غياثهم ومعينهم .

(٣) اس مشم ج ٤ ص ١٥٨ - ١٥٩ .

فدعا عليهم ، فلم يصلوا إلى بلادهم ، فقد أكل الطاعون عامر بن الطفيل ،
ومرت صاعقة على إربد فأحرقتة^(١) .

وأحب في ختام هذه المآذج أن أقرر أن هذا التكريم للرسول عند
بعض الأزمات شيء طبيعي ، ومثله يحدث لغير الرسل أحيانا ، فالله يكرم
أصفياه في كثير من الأحوال ، ويفتح لهم أبوابا لم يتوقعوها ، وإن أي رجل
مؤمن يمكنه أن يتذكر ألوانا من عون الله إليه ، وصدق الله العظيم الذي
يقول : ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب^(٢) .

(١) المرجع السابق .

(٢) سورة الطلاق : الآية الثالثة .

الرسول والمنافقون

طبيعة المنافقين أنهم لا يظهرون إلا إذا كان عدوهم أقوى منهم . ومن هنا فلم يكن هناك منافقون قبل الهجرة ، لأن المسلمين كانوا أقلية لا يرهبا المشركون ، ومن ثم لم يكن أعداء الإسلام في حاجة ليلجئوا للنفاق ، فلما اشتد ساعد الإسلام بعد الهجرة للمدينة ، وأصبح المسلمون أصحاب جاه وسلطان بهذا المركز الجديد، لم يستطيع أعداؤهم بالمدينة أن يواجهوهم بعقيدتهم المنحرفة وكراهيتهم للإسلام ، قالوا للنفاق ، أظهروا الإسلام وأخفوا الكفر .

والنفاق أخطر من العداء الصريح ، ففي العداء السافر يتخذ المسلمون أهبتهم ويكونون على حذر ، ولكن النفاق كان سائراً لأعداء الإسلام، وكان يمكن أن يكون مصدر خطر لولا أن الله سبحانه كشف أستارهم من حين لآخر مما جعل كيدهم يرتد إلى نخورهم في أكثر الأحوال كما سنرى فيما بعد .

عبد الله بن أبي :

وزعامة النفاق بالمدينة تركزت في عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي ، ويقول عنه ابن هشام^(١) : لم تجتمع الأوس والخزرج قبل الإسلام على رجل غيره ، وكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ، ثم يملكوه عليهم ، فجاءهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم وهم على ذلك ، فلما انصرف قوم عبد الله عنه إلى الإسلام ضعفن ، ورأى أن رسول الله قد استلبه ملكا ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه ظاهراً وأسرّاً النفاق .

أبو عامر الراهب ومسجد الضرار :

وهناك زعيم آخر آزر عبد الله بن أبي ، ذلك هو أبو عامر عبد عمرو ابن صيفي من الأوس ، وكان في قومه شريفا مطاعا ، وكان قد ترهب في

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٦٦ - ١٦٧ .

الجاهلية، ولبس المسوح فسمى الواهب . ولكن هذا الرجل لم يتجه للنفاق، بل خرج من المدينة إلى مكة وانضم إلى قريش في عدائهم لمحمد، فلما فتح المسلمون مكة خرج إلى الطائف ، فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام ومات هناك ، وصلة هذا الرجل بالنفاق أنه كتب إلى بعض أتباعه من المنافقين بالمدينة أن يبنوا مسجدا بالقرب من مسجد قباء يتجمعون فيه ، ويدبرون مكائدهم ضد الإسلام ورسول الإسلام متخذين من هذا المسجد وسيلة للتخفي ، وقد استجاب هؤلاء له وبنوا هذا المسجد ، وانتهوا منه قبيل غزوة تبوك ، وطلبوا من الرسول أن يصلي فيه ، فاستمهلهم حتى يعود من تبوك

وعند عودته نزل عليه قوله تعالى « والذين اتحلوا مسجدا ضارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون ، لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين^(١) » .

وعندما نزلت هذه الآيات أمر الرسول بعض أصحابه أن يذهبوا ويدمروا هذا المسجد الذي سماه القرآن « مسجد الضرار » وذهب أصحاب الرسول ودمروه^(٢) .

ويعدد البلاذري^(٣) منافق المدينة وأهمهم من الخزرج : عبد الله بن أبي وعدى بن ربيعة وابنه سويد ، وزيد بن عمرو ، وعقبة بن قديم ، وأهمهم من الأوس الجلاس بن سويد وأخوه الحارث ، وبجاد بن عثمان ، وثعلبة بن حاطب ، وأبو حبيبة بن الأزعر وهو ممن نوا مسجد الضرار .

(١) سورة التوبة الآيتان ١٠٧ - ١٠٨

(٢) البلاذري : أنساب الأشراف ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

اليهود والنفاق :

وهناك مركز آخر للنفاق بجوار مركز عبد الله بن أبي . وهو مركز تجمع اليهود الذين تظاهروا بالإسلام وهم يضمرون العداوة له ، ويتحدث ابن هشام ^(١) عن هذا المركز بقوله : وكان ممن تعوذ بالإسلام وأظهروه وهم منافقون بعض أحبار اليهود مثل : سعد بن حنيفة وزيد بن اللصيت . ونعمان بن أوفى بن عمرو ، وعثمان أخوه ، ويروى عن زيد بن اللصيت أنه قال حين ضلت ناقة رسول الله : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء : وهو لا يدرى أين ناقة ، وأوحى الله للرسول بما قال الرجل وبمكان الناقة ، ومنهم كذلك رافع بن حريملة وهو الذي قال الرسول عنه حين مات ، لقد مات اليوم منافق عظيم ، وكان هؤلاء المنافقون يحضرون المسجد ويسخرون من المسلمين حيناً ويتسمعون أحاديثهم حيناً آخر لينقلوها لباقي اليهود ولأعداء الإسلام ، وقد رآهم الرسول صلى الله عليه وسلم مرة وقد لصق بعضهم إلى بعض وأخذوا يتحدثون همساً ، فأمر بهم فأخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً ، وكان المسلمون يدفعونهم خارج المسجد وهم يقولون أف لكم من منافقين خبيثاء ، أخرجوا من مسجد رسول الله ، وكان هؤلاء من يهود بني قينقاع .

وكان برؤز النفاق في المركزين (مركز ابن أبي ومركز اليهود) عقب غزوة بدر وانتصارات المسلمين فيها . وذلك تمشياً مع ما ذكرناه من قبل من أن النفاق يظهر في مواجهة القوة والنصر .

المنافقون في غزوة أحد :

وفي مسيرة المسلمين إلى غزوة أحد وَجَدَ النفاق وسيلة ليعمل ويؤثر . فتدأخزل عبد الله بن أبي بثلاث الجيش ، وقال عن الرسول « أطاع الأحداث وعصاني . وما ندرى علام نقتل أنفسنا أمها الناس » وحاول بعض المسلمين أن يشوه عن هذا التصرف فقال قولةً حكاهما عنه القرآن الكريم في الآية

(١) سيرة ابن هشام ص ١٢٥ .

« لو نعلم قتالا لاتبعناكم ^(١) » وقد ضعف جيش المسلمين بسبب انسحاب عبد الله وأتباعه ، ولعل ذلك كان من أسباب هزيمة أحد .

وكشف منافقو المركزين عن فرحهم بما أصاب المسلمين في غزوة أحد ، وأعلنوا شياთهم ، فتظاهر عبد الله بن أبي وأعوانه بالحكمة لأنهم لم يدخلوا هذه المعركة ، وقالوا عن القتلى « لو أطاعونا ما قُتلوا ^(٢) » وأما اليهود فراحوا يعلنون أن محمداً لو كان نبيا ما هزم ، ولكنه طالب ملك؛ يتتصر أحيانا ويهزم أحيانا .

المنافقون عند حفر الخندق :

وفي الجهد الذي بذله المسلمون لحفر الخندق كان المنافقون يتسللون من العمل ويعودون لبيوتهم بدون إذن الرسول ^(٣) ، فنزل فيهم قوله الله تعالى « قد يعلم الذين يتسللون منكم لواذا ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ^(٤) » .

المنافقون عقب غزوة بني المصطلق :

ونزلت النوازل بالمركز اليهودى المنافق بعد أن طُرد بنزق قينقاع من المدينة ، وبعد أن طرد كذلك بنز النضير ، وقضى على بنى قريظة كما سئرى فيما بعد ، فألقت مسئولية النفاق كله على عبد الله بن أبي وصحبه ، وقد ثابر هذا الرجل على بذل أقصى الجهد لينجح في مهمته الدنيئة ، وقد شهدت غزوة بنى المصطلق موقفين خطيرين لموكب النفاق ، أما الموقف الأول فمحاولة عبد الله بن أبي أن يشعل نار الفتنة بين المهاجرين والأنصار عندما اقتبل واحد من المهاجرين مع أنصارى وهتف الأول : يا معشر المهاجرين وهتف الثانى : يا معشر الأنصار ، وقد تدخل الرسول يحزم بالغ

(١) سورة آل عمران الآية ٦٦ . (٢) ابن هشام ج ٤ ص ١٧ .

(٣) ابن هشام : السيرة ج ٣ ص ١٠٩ .

(٤) سورة النور الآية ٦٣ .

معلنا أن هذه الصيحة صيحة جاهلية وهي صيحة فتنة . وقد وحّد الإسلام الجميع فلتكن الصيحة : يا للمسلمين ، وماتت الفتنة بسبب هذا الموقف العظيم من الرسول صلوات الله عليه ، ولكن المنافق عبد الله بن أبي أن يضيع هذه الفرصة ، فصاح : قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، ولقد أصبحنا معهم كما قال الأول « سَمْنٌ كَلْبِكَ يَا كَلْكُ » أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليعرجن الأعز منها الأذل ، وكان ممن سمع ذلك منه مسلم صالح ، هو زيد بن أرقم ، فأخبر عمر بذلك وأخبر عمر الرسول قائلاً : مَرُّهُ ابْنَهُ عبد الله فليقتله ، ولكن الرسول قال : كيف ياعمر إذا تحدث الناس بأن محمداً يقتل أصحابه ؟ وعالج الرسول الأمر بطريقة أخرى كلها حكمة وذكاء ، فقد أمر بالرحيل في ساعة لم يكن يرتحل فيها ، وأطال الرحلة دون راحة على غير عادته ، حتى تعب المسلمون ، فلما حطروا الرحال للراحة ناموا جميعاً لفرط الجهد ، وبهذا لم يكن هناك وقت للنقاش حول هذا الموضوع .

وعرف عبد الله بن عبد الله بن أبي أن هناك اقتراحاً بقتل أبيه فذهب للرسول ليقول له : يا رسول الله ، إن كنت آمراً بقتل أبي فرتني بذلك أنفذ أمرك ، لأنني أخشى إن قتله غيري ، أن أثأر لأبي فأقتل مسلماً بكافر . فقال الرسول : بل تفرق به ونحسن صحبته ما بقي معنا .

وذهب ابن أبي إلى الرسول ينكر أنه قال ما حمّله إليه زيد بن أرقم ، ولكن سرعان ما نزلت في ذلك سورة « المنافقون » وكلها حكاية لهذا الرجل المنافق ، وفيها ما قال ضد المهاجرين « لئن رجعنا إلى المدينة ليعرجن الأعز منها الأذل » ولكن الآية الكريمة تستسر لتقول « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون » (١) .

هذا هو الموقف الأول لهذا المنافق المرتبط بغزوة بني المصطلق ، أما الموقف الثاني فيرتبط بحديث الإفك الذي لا نحب أن نجول فيه ولا أن يجول فيه المسلمون خضوعاً لقوله تعالى « ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا

(١) سورة المنافقون الآية الثامنة ، وانظر ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣

أن تكلم بهذا، سبحانه هذا بهتان عظيم وكل ما نذكره عنه هو أن السيدة الطاهرة النقية بنت أبي بكر الصديق وزوجة خاتم الرسل وأعظمهم ترمى بالفاحشة ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، وعلى كل حال فقد انتهز ابن أبي هذه الفرية لبصول ويجول لا اعتقاداً بصحة هذه الفرية ، ولكن لمحاولة وضع الأشواك حول الرسول ، فذلك هو الهدف الذي كان يسعى له ، وقد نزلت آيات الذكر الحكيم . تقرر طهارة عائشة وتهدد بالويل والثبور أولئك الذين قالوا بهذه الفرية أو أيدوها ، قال تعالى : إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شراً لكم . بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذي تورى كبره منهم له عذاب عظيم ، لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين ، لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم ، إذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهمر عند الله عظيم ^(١) .

المنافقون بعد فتح مكة :

وفتحت مكة في العام الثامن للهجرة ، ودخل أهل مكة في دين الله ، ولم يدخل هؤلاء جميعاً عن عقيدة وإيمان راسخ ، بل كان منهم من دخل إذ لا طريق أمامه إلا ذلك الطريق ، ومن دخل حرصاً على المغنم التي كان المسلمون ينالونها في حروبهم ضد العرب وضد اليهود ، ومن هنا وجد منافقون مكبون انضموا لموكب المنافقين ، وكان هؤلاء من أوائل الذين فروا في غزوة حنين التي حدثت بعد أيام من فتح مكة .

المنافقون في غزوة تبوك :

كانت غزوة تبوك اختباراً عظيماً نجح فيه المؤمنون صادقوا الإيمان ، وفشل فيه المنافقون وضعاف الإيمان ، فالمعركة مع الروم ، بقوتهم ، وبُعد

(٢) سورة النور الآيات ١١ وما بعدها وانظر سيرة ابن هشام ج ٣ ص ١٨٧ وما بعدها .

أرضهم ، والمركة في وقت القبط والحصاد ، فكانت هذه الغزوة وسيلة انتزها المنافقون فأعلنوا عن نفاقهم ، ومخالفتهم ، وأعلن القرآن الكريم منخط الله على هؤلاء ومن سار سيرتهم في عدم تأييد المساميين في هذه المركة وحدثت في هذه الغزوة أحداث من المنافقين ومماثلهم نوجزها فيما يلي :

- جاء المعذرون من الأعراب فاعتذروا للرسول ، فلم يعذرهم الله تعالى .
- خرج عبد الله بن أبي مع الرسول ، وعسكر الرسول على ثنية الوداع ، وعسكر عبد الله بن أبي على جبل ذباب غير بعيد من معسكر الرسول فلما سار الرسول بعسكره لم يتابعه عبد الله بن أبي وتخلف عنه وعاد للمدينة .
- خلف الرسول محمد بن مسلمة الأنصاري على المدينة ، وترك ابن عمه على بن أبي طالب ليقم في أهله وأهل الرسول ، فأرجف المنافقون ، بأن الرسول ترك عليا استقالا له وتخلصا منه ، فأخذ على سلاحه ولحق بالرسول ، وبلغه قول المنافقين ، فقال الرسول له : كذبوا ، لكني تركتك لتخلفني في أهلي وأهلك ، ارجع يا علي فلن يحبك إلا مؤمن ولن يبغضك إلا منافق . فعاد على ^(١)

وفي مواقف المنافقين وأمثالهم في هذه الغزوة نزلت آيات كثيرة من سورة التوبة نقتبس منها : لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة ، وسيحلفون بالله لو استطعنا اخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم ، والله يعلم أنهم لكاذبون ، عفا الله عنك . لم أذن لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ^(٢) :-

نهاية عبد الله بن أبي ونهاية تجمع المنافقين :

امتد العمر بعبد الله بن أبي فلم يمت إلا بعد غزوة تبوك ، ولما مات حضر ابنه عبد الله إلى الرسول فسأله قميصه ليكفن به أباه لعل الله يغفر له ، فاستجاب له الرسول تكريما له وأعطاه القميص ، ثم سأل عبد الله أن يصلي الرسول

(١) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١١٩ وما بعدها .

(٢) سورة التوبة الآيات ٤٢ وما بعدها .

عليه ، فاستجاب الرسول أيضاً ووقف أمام جثمانه ليصلي عليه ، ويروى أن عمر بن الخطاب وقف أمام الرسول وقال له : أتصلي على عدو الله الذي قال كذا وكذا وفعل كذا وكذا وكان الرسول يبتسم لعمر ، ثم قال له : يا عمر ، تأخر عني ، إني قد خيَّرت فاخترت (١). وصلى عليه ، وسار حتى دفن والرسول واقف على قدمه ، ثم نزل قوله تعالى « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ، ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله ومانوا وهم فاسقون » (٢) ، وبموت عبد الله بن أبي انهار موكب النفاق وتشتت المنافقون بعد أن اختفى الرجل الذي كانوا يحتمون به ويلتفنون حوله .

ولنتذكر في ختام هذا البحث أن سطوة عبد الله وأتباعه امتدت كما رأينا من مطلع الحياة بالمدينة إلى قبيل وفاة الرسول صلوات الله عليه ، وهذا يرينا الجهد المتواصل من أجل الدعوة الإسلامية ليس فقط في مكة ، وليس فقط من قريش أو اليهود أو الأحابيش أو هوازن بل أيضاً من جماعة المنافقين الذين تظاهروا بالإسلام وهم من ألد أعدائه ، ورحمك الله يا رسول الله على ما عانيت من جهد حتى تمَّ نور الله .

(١) يقصد الرسول قوله تعالى « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم » فالرسول أخذ الآية على ظاهرها على أنها تحبير له .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٤ ص ١٤٥ - ١٤٦ والآية رقم ٨٥ من سورة التوبة

الرسول والنصارى

يقول الله تعالى : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى » (١) ، والحق أن الدارس للتاريخ الإسلامى يجد مدلول هذه الآية واضحا كل الوضوح ، فقد عارض اليهود الإسلام بقسوة وقامروا على المسلمين من حين إلى آخر ، ووقف النصارى من المسلمين مواقف فيها الكثير من الود ، وكان اعتناقهم الإسلام سهلا فى حالات كثيرة متعددة .

ربما يخطر ببال القارىء ما عاناه المسلمون من الصليبيين ، والإجابة أن الصليبيين يُحسبون ظلما على دين المسيح ، ولم يكن هؤلاء ولا أمثالهم المستعمرون فى العصور الحديثة إلا مسيحيين بالاسم يعد أن فسدت المسيحية بالعقائد التى ابتكرها بولس (٢) . ومع أن عقائد بولس أصبحت منذ عهد مؤتمر « نيقية » سنة ٣٢٥ م هى عقائد المسيحيين فى الشرق والغرب ، فإن المسيحيين الشرقيين حافظوا على بقايا من روح المسيحية جعلتهم أقرب مودة للمسلمين حتى العهد الحاضر ، وجعلت العقلاء منهم شديدي التمسك نفسيا بالتراث المسيحى الأصيل ، ويمكن أن نحس طيب التعاون والتعامل بين المسلمين والمسيحيين فى مصر نتيجة لهذا الاتجاه ، وإذا واجهنا يوما اتجاه قاهر وعدوان بين المسلمين والمسيحيين فى الشرق فذلك انحراف طارئ تأثر فيه بعض المسيحيين الشرقيين بالصليبية الأثيمة ، وربما جاز القول أن بعض المسلمين قد يخطئون فيعاملون المسيحيين الشرقيين كما نعدو أن يعاملوا المسيحيين الصليبيين أو المسيحيين المستعمرين ، ولو أزلنا هذا الإحساس لعاد المسيحيون إلى الوصف الذى سجله لهم القرآن الكريم ، وأشهد الله أننى رأيت هذا اللون من التعاون والود عدة مرات ، وكان بهيج المنظر ، رائع النتائج .

(١) سورة المائدة الآية ٨٢ .

(٢) انظر هذه العقائد بكتاب « المسيحية » من سلسلة مقارنة الأديان المؤلف .

تلك مقدمة لم يكن منها بد ، لأننا رأينا موقف نجاشي الحبشة من المسلمين ، وسرى فيما يلي علاقات الرسول بالنصارى في الجزيرة العربية طيلة حياة الرسول عليه السلام :

يقول ابن هشام^(١) : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نصارى نجران ، وكان مكوناً من ستين راكباً ، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشrafهم ، وضمن الأربعة عشر رجلاً ثلاثة يتولون الأمر فيهم ، أحدهم أمير القوم ، والثاني منظم الرحلة والمشفع عليها ، والثالث الأسقف وهو الحنبلير والإمام ، واسم هذا «أبو حارثة» وكان ملك الروم قد شرّفوه ومولوه وبنوا له الكنائس وبسطوا له الكرامات . وفي الطريق إلى رسول الله عثرت بغلة «أبي حارثة» فقال أخوه «كوز» : تعس الأبعد « يقصد الرسول » تجيء له وتعثر ناقتك ؟ فقال له أبو حارثة : بل أنت تعست . فدُهِش كوز وسأل : ولم يا أخى ؟ فأجابه : انه والله النبي الذي كنا ننتظره . فسأل أخوه : ولم لا تتبعه وقد عرفته ؟ فأجاب : الروم يا أخى ، فقد شرّفونا ومولونا وأكرمونا ، وقد أبو إلا خلافه ، ويقول ابن هشام : وقد أضمر «كوز» في نفسه شيئاً وسرعان ما أعلن إسلامه .

وقد جرت محاورة بين الرسول وبين النصارى ، وأمدّ القرآن الكريم رسول الله بالهدى والرشد في هذه المحاورة فتم له النصر ، فقد قال تعالى رادا على من قال بالوهمية المسيح وأنه روح الله يمتاز بذلك عن باقي البشر : « هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء » أى أن عيسى كان من صُور في الأرحام ، وهم لا يدفعون ذلك ولا ينكرونه كما صور غيره من بنى آدم ، فكيف يكون لها وقد كان بذلك المنزل^(٢) .

وكان دخول «كوز» الإسلام فاتحة تدفق نصارى نجران على الإسلام ، على أن جماعة منهم احتفظوا بدينهم بضع سنوات ، حتى بعث الرسول لهم خالد بن الوليد قبيل حجة الوداع وسرعان ما استجاب هؤلاء لخالد ، ودخلوا

(١) السيرة النبوية ج ٢ ص ١٥٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٦١

دين الله ، فبعث خالد وفداً منهم إلى المدينة . واستقبل الرسول هذا الوفد بالترحيب والمودة^(١) .

عدي بن حاتم :

وهناك نصراني يستحق فسحة من الفراغ هو عدي بن حاتم الطائي ، وأبوه أشهر المشاهير في الكرم والجود ، وقد روى البخاري بعض قصة عدي ، وروى ابن هشام^(٢) بعضاً منها ، وكتبها بعض المؤرخين المحدثين^(٣) و نرجزها فيما يلي :

يروى ابن هشام أن عدي بن حاتم قال : كنت امرءاً شريفاً نصرانياً ، وكنت ملكاً على قومي ، وأسير فيهم بالمرباع ، آخذ ربيع الغنيمة وأدع الباقي لهم ، فلما سمعت بمحمد كرهته لمخالفته لي في الدين وفي العادات ، وكنت أخاف زحف المسلمين . فقلت لأفلام لي أعد لي عدداً من النوق القريبة ، واجعلها قريباً مني ، فإذا سمعت بمحمد يبطأ هذه البلاد ، فأدني ، ففعل . وبعد فترة جاءني مهرولاً وقال : ما كنت صانعا إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن ، فإن رايات محمد على وشك أن تصل هذه الأرض ، قال عدي : فقممت من فوري وفي عجلة من أمرى احتملت أهلي وولدي ، وقلت ألتحق بأهل ديني من النصاري بالشام ، وبسبب هذه العجلة لم يصحب عدي أخته « سفانة » التي يبدو أنها كانت بعيدة آنذاك عن خيام أخيها .

وكان الرسول صلوات الله عليه حزم أمره على القضاء على عبادة الأوثان في الجزيرة العربية بعد أن تم فتح مكة ، وبعد الانتصار على هوازن وثقيف ، فأرسل الرسول على بن أبي طالب على رأس جماعة لهدم صنم طيء الذي كان لا يزال هناك من يعبد . وفر عدي كما قلنا وتصدى بعض رجال طيء لعلي بن أبي طالب ، ولكنه سرعان ما هزمهم وأسر منهم

(١) دكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ٤٧٠ .

(٢) السيرة النبوية ج ٤ ص ١٦٦ وما بعدها .

(٣) دكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ٤٢٧ - ٤٢٨ وسيرة النبي العربي

للأستاذ أحمد التاجي ج ٢ ص ٢٢٠ وما بعدها .

وغم ، وكانت « سفانة » ضمن الأسرى الذين أخذوا للمدينة ، ووُضعت سفانة في مكان خاص بالأسرى من النساء غير بعيد من مسجد الرسول صلوات عليه بالمدينة .

وننتقل بالمشهد إلى المدينة وكانت سفانة امرأة لها هبة وقدرة بلاغية ، وحدث أن مر رسول الله بالمكان الذي به سفانة ، فاشأبت له وهتفت بقوة بنات الملوك ، وأجابها الرسول بحكمة الأنبياء ، فكان الحديث التالي :

— يا محمد ، هلك الوالد ، وغاب الرافد ، فامنن على من الله عليك .

— ومن رافدك يا فتاة ؟

— عدى بن حاتم

— الفار من الله ورسوله !! .

وكأنما أدركت المرأة بذكائها أن أخاها لا يصلح أن تستعين باسمه في هذه الأزمة ، فغيرت من أسلوبها عندما رأت الرسول في مرة تالية ، وكان الحوار التالي :

— يا محمد ، هلك الوالد ، وكان سيد قومه ، كان يفك العاني ، ويحمي النمار ، ويفرّج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ويقضي حاجة من سأله أية حاجة ، أنا ابنة حاتم الطائي .

— يا جارية هذه صفات المؤمنين ومن حقق أن نكرمك من أجل أبيك ، والتفت إلى من حوله وقال لهم : خلوا سبيلها فإن أباه كان يحب مكارم الأخلاق ، ولكن لا تعجلي يا فتاة بالعودة حتى تجدى من يكون لك ثقة ليلغك إلى أهلك ، وأذني قبل الرحيل .

وبعد فترة قضتها سفانة حرة طليقة بالمدينة جاءت للرسول لتقول له : يا محمد هنا رهط من قومي لي فهم ثقة وبلاغ فأذن لي أن أصحبهم ، فكساها الرسول وحملها على راحلة وأعطاهم نفقة مناسبة تبلغها مأربها وسيرها معززة مكرمة ، فقالت له عبارات دعاء تعتبر قمة من البلاغة والفكر ونصها :

شكرتلك يد افتقرت بعد غنى ، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر ، وأصاب الله بمعروفك موضعه ، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة ، وجعلك وسيلة لرد نعمة سألتي من كريم ، فسرَّ الرسول بدعائها وسأل الله الهداية لقومها .

وبرحلة سفانة إلى الشام ينتقل المشهد إلى خيمة عدى الواسعة التي أقامها في أحضان نصارى الشام ودار حوار بين سفانة وأخيها عدى كالآتي :

— مرحبا يا ابنة حاتم .

— اغرب عني أيها القاطع رحمه ، احتملت أهلك وولدك ، وتركت عورتك وبقية أبيك .

— غفرانك يا أختي فما صنعت ما ذكرت إلا في ساعة هزل ، ولكن قولى لى ماذا رأيت في هذا الرجل ؟

— والله ما رأيت فيه إلا خيراً وقصت عليه قصتها معه ، ثم قالت له : أرى والله أن تلحق به سريعا ، فإن يكن الرجل نبيا فللسابق إليه فضيلة ، وإن كان ملكا فلن تذلل عنده .

— هذا والله هو الرأى .

وانتقل المشهد إلى مسجد رسول الله بالمدينة ، فبينما كان الرسول جالسا في المسجد إذ دخل عليه رجل أعرابي تبدو عليه النعمة والمجد ، وسلم على الرسول فرد الرسول السلام ، وسأل الرسول : من الرجل ؟ فأجاب: عدى ابن حاتم ، وقد وصفه الرسول من قبل بأنه فرُّ من الله ورسوله ، ولكن الفارَّ عاد ودخل المسجد ، ولذلك احتفى به الرسول كعادته مع النصارى وكعادته مع الوافدين عليه ، وبخاصة الرؤساء وأصحاب الجاه الذين يُرجى أن يفتح إسلامهم ألباب لإسلام العديد من أتباعهم ، ولهذا نهض الرسول إلى عدى ، وفرش له عباة وأجلسه بجواره ، ثم — بعد فترة — أخذ بيده ، وصحبه إلى بيته .

وفي الطريق عرضت للرسول امرأة لها حاجة فاستوقفت الرسول ، فوقف لها ، وطالت وقفته ليستمع إلى شكاة المرأة وليقضى حاجتها ، فقال عدى في نفسه : ما هذا ملك فالملوك لا يفعلون ذلك ، وفي بيت الرسول لم يجد عدى فراشا وثيرا ولا أى مظهر من مظاهر الترف ، وقدم الرسول لعدى حشية من ليف ليجلس عليها ، ولم تكن هناك حشية أخرى ليجلس عليها

الرسول ، فحدث عدى نفسه بأن محمداً ليس مَلِكاً في مسكنه ومظهره
وخلقه ، ودار بين الرسول وبين عدى هذا الحوار :

— يا عدى تعتنق النصرانية ولا تتبعها .

— كيف ذلك ؟

— تسير في قومك بالرباع وليس هذا من المسيحية في شيء .

— هل أنت تعلم ديني أكثر مني ؟

— نعم ، فالقرآن الكريم فيه كثير عن النصرانية الحققة ، وأما ما تتبعه
فهو عادات عربية تحاول أن تخلطها بالدين .

يا عدى اسلم تسلم ، وإذا كنت ترى فينا فقراً الآن فوالله ليوشكن
المال أن يفيض على المسلمين فلا يجد من يأخذه ، وإذا كنت ترى فينا
ضعفاً فوالله لينتصرن المسلمون على أعنى قوى الأرض بعد وقت ليس
بالطويل ، وإذا كان الملك والسلطان في غيرنا فوالله ليوشكن أن تسمع
بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت للمسلمين ، يا عدى اسلم تسلم
فقال عدى : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

ويروى عن عدى قوله : وعشت حتى رأيت القصور البيض قد فتحت
للمسلمين ، ورأيت المال يفيض فيضا عليهم .

وهكذا كانت علاقة المسلمين بالنصارى علاقة فيها ود ، وفي كثير من
الحالات دخل المسيحيون الإسلام دون تردد طويل ، ولكن المسيحية عانت من
اضطراب في العقائد بسبب بولس ، ومن اتجاه للدم والسلب ، بسبب الفكر
الأوربي الذي كان فكراً دماً . يا قبل أن تدخل المسيحية أوروبا ، فلما دخلت
المسيحية أوروبا صبغوها بالدم والأنانية بدل أن يأخذوا منها الرحمة والإيثار ،
لقد خسرت المسيحية خسارة كبيرة باتصالها بأوروبا ، خسرت عقائدها لأن
أفكار بولس تربت بأوروبا ، وخسرت سماعتها لأن شعوب أوروبا كانت
شعوب حرب وغارات فانعكس ذلك على الدين المسيحي ، ليت المسيحيين
بالشرق يرجعون إلى طبيعة المسيحية الحققة ، ولا يقتبسوا المسيحية الغربية .

اليهود والمسلمون

سبق أن قلنا إن اليهود كانوا يعرفون أن نبيا آت له أن يبعث ، لأن ذلك كان مدوّنًا في كتبهم المقدسة : وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله : (الذين يتبعون النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل . . .)^(١) وكان اليهود يذيعون ذلك ، وكانوا كلما تغلب عليهم عرب يثرب يقولون لهم : غداً نتبع النبي الجديد ونقوى به عليهم ، ونقتلكم قتل عاد وإرم^(٢) وبعث محمد وهدى الله أكثر الأوس والخزرج لقبول دعوته ، أما اليهود فلم يدخل الإسلام منهم إلا عدد ضئيل مثل عبد الله بن سلام بن الحارث^(٣) ، أما غالبيتهم العظمى فقد حكى القرآن موقفهم بقوله (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به)^(٤) وربما نتساءل : لماذا كفروا به مع أنهم كانوا ينتظرونه ؟ والجواب أنهم أرادوه أن يكون منهم ولهم ، وأن يقوى سلطانهم على الناس ويعلى مكانتهم ، ولكن الإسلام جاء على يد رجل من العرب وليس من اليهود ، وسوى الإسلام بين الناس فلم يُميّزهم شعبا مختاراً كما كانوا يقولون ، وأسرع عرب يثرب ودخلوا هذا الدين وكان اليهود يريدون الدين الجديد لينتصروا به على العرب ، فأما وقد دخله العرب قبلهم فلا فائدة فيه لهم بناء على تفكيرهم .

ومع هذا فقد أحسن الرسول معاملتهم ، وعقد معهم المعاهدة التي سبق أن تحدثنا عنها ، وترك لهم حرية العبادة وأعطاهم الحقوق التي كفلها لهم الإسلام . وفي مقابل ذلك التزم اليهود بالتعاون مع المسلمين عسكريا لحماية وطنهم المشترك إذا تعرض لعدوان ، والتزموا كذلك بالتعاون ماديا إذا حدث ما يحتاج إلى التعاون المادي . وكانت روج المعاهدة هو العمل المشترك لهدف مشترك ، غير أن اليهود - كما أثبت التاريخ ذلك - لم يكونوا

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٧ (٢) ابن هشام ٢ : ٢٩٢

(٣) الذوى : تهذيب الأسماء ، القسم الأول ج ١ ص ٢٧١

(٤) سورة البقرة الآية ٨٩ .

مخلصين في عهدهم ، ولم يدخلوا في هذا العهد إلا ريثما يجدون لأنفسهم طريقاً آخر . فقد أحسوا منذ اللحظة الأولى أن الدين الجديد ينتزع منهم القيادة التي طالما افتخروا بها وهي الصلة بالله عن طريق الوحي ، وهي كذلك الافتخار بكتاب مقدس من عند الله .

وزاد حقد اليهود حينما رأوا دين محمد ينمو نمواً واسعاً في أقصر مدة عرفها التاريخ ، فاليهود يعرفون كيف ثعرت اليهودية ، وكيف حوربت المسيحية عدة قرون ، ولكن انتصار محمد بدا يتحقق في حياته وبعد سنين قليلة من بدء دعوته وبخاصة عندما تمت الهجرة وظهر الطريق ممهداً للنجاح الكامل .

وعقد اليهود العزم على المقاومة واتخذت مقاومتهم للإسلام جانب الصراع الفكري تاركين الصراع العسكري لقريش ، فبدءوا بالجدل الذي قصدوا به أن يشككوا الناس ويردون المسلمين عن الإسلام ، وأثاروا لذلك مسائل كالقضاء والقدر وخلق الأفعال ، وقد حكى القرآن ذلك الموقف بقوله (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره) (١) :

ومن ضلال اليهود أن قريشاً لما سألتهم لما لهم من معرفة بالأديان : يا معشر اليهود أنتم أعلم بالكتاب منا ، أفديننا خير أم دين محمد ؟ فأجابهم اليهود بأن دينهم أفضل من دين محمد ، وجاءت في ذلك الآية الكريمة « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ، أولئك لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً » (٢) .

ومن التشكيك والتفضيل أيضاً تلك القصة التي نزلت فيها الآية الكريمة :

(وقالت طائفة من أهل الكتاب : آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون) ^(١) ، ويذكر المفسرون فى سبب نزولها أنه قد تواطأ اثنا عشر حبراً من أحبار يهود خيبر ، فقال بعضهم لبعض : ادخلوا فى دين محمد أول النهار باللسان دون اعتقاد بالقلب ، ثم أعلنوا كفركم آخر النهار وقولوا : إنا نظرنا فى كتبنا وشاورنا علماءنا ، فوجدنا أن محمداً ليس هو المبعوث الذى كنا ننتظره ، وظهر لنا كذبه . فإذا فعلتم ذلك شك أصحاب محمد فى دينه وأتهموه ، وقالوا عنا : إنا أهل الكتاب ، وأعلم بذلك .

ولعل هذه الشبهة تجعلهم يشكون فى دينهم فيرجعون عنه .

ولما دبروا هذه الحيلة ، أخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بها ، فلم تتم لهم ، ولم يحصل لها أثر فى قلوب المؤمنين ^(٢) .

وهكذا لم يأت هذا الطريق بفائدة فلم يستطع اليهود أن يفتنوا مسلماً عن دينه ، ولم يستطيعوا أن يصدوا الناس عن دخول الإسلام ، ولذلك أدركوا أن الطريق للقضاء على الإسلام هو قوة الحسام وليس قوة اللسان ، وكان اليهود قد اتجهوا فى بدء الأمر كما قلنا إلى ترك قوة السيف إلى قریش ليقتضى العرب على العرب وليتولى العرب إخماد هذا الصوت الجديد ، ثم ظهر لليهود أن قوة قریش اضمحلت ، وأن محمداً هاجر وأصبح ذا قوة وعصية ، وأنه يستطيع أن يقاوم وأن يحمى دينه وأتباعه ، وتأكد لهم هذا المعنى عند ما تم للمسلمين النصر فى غزوة بدر ، ولذلك وجد اليهود ألا مناص من أن يدخلوا ميدان النضال بأنفسهم ليرجعوا كفة قریش أو - عند اللزوم - ليحملوا هم عبء هذا الكفاح ، وسند ذكر فيما يلى مراحل الصراع العسكرى بين المسلمين واليهود .

(١) سورة آل عمران الآية ٧٢ .

(٢) الجبل على الجبالين : ج ١ ص ٢٨٧ .

بنو قينقاع (العام الثاني للهجرة) :

كان بنو قينقاع أقوى جماعات اليهود الذين شملتهم المعاهدة مع المسلمين ، وكانوا أول من نكث العهد ، ويروى في ذلك أنه بعد غزوة بدر وانتصار المسلمين أبدى اليهود السخط والغضب ، وكان بنو قينقاع أكبر اليهود سخطاً وغضباً واستهانة بهذا النصر وهويينا من شأنه ، وحدث أن ذهبت امرأة من الأنصار إلى سريق الصاغة حيث يكثّر اليهود ، فتسلل خلفها رجل يهودي وهي جالسة وعقد طرف ثوبها إلى أعلاه ، فلما وقفت المرأة تكشّفت ظهرها فتضاحك اليهود : وصرخت المرأة شاكية ، فوثب رجل من المسلمين على اليهودي فقتله ، وشد اليهود على المسلم فصرعوه ، وأعلنوا نبذهم للعهد ، واستعدوا للحرب^(١) ، ولما كلمهم الرسول في ذلك وأنذرهم قالوا له في استهتار ظاهر : يا محمد ، إنك تحسب أننا كقومك ، لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصيت منهم فرصة ، إننا والله لئن حاربتنا لتعلمن أننا الناس . وكان هذا تهديدا ظاهرا ، وإنذارا بحيانة جسيمة ، ونزل بعد ذلك قوله تعالى (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء)^(٢) . ويروى أن الرسول قال عندما نزلت هذه الآية : إني أخاف خيانة بني قينقاع . وخرج الرسول في جمع من أصحابه وحاصر دورهم فقذف الله في قلوبهم الرعب ، فما استطاعوا الظهور ، ونزلوا على حكم الرسول ، وحينئذ تقدم عبد الله بن أبي وكان حليفهم قبل الإسلام فقال للرسول : أمّن في موالي ، فتركهم الرسول له واكتفى بإبعادهم عن المدينة ، فخرجوا منها ونزلوا أذرعات الشام ولم يلبثوا حتى هلك أكثرهم وكانوا حوالى ستمائة ، وكانوا يشتغلون بالصياغة والتجارة^(٣) .

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ٥٦ ودكتور جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦ ص ١٤٤ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٥٨ .

(٣) ابن هشام ج ٢ : ١٢٠ والطبري ج ٢ : ١٧٢ وزاد المقداد ج ٢ : ٧١ وفتح البلدان ج ٢٣ .

بنو النضير (العام الرابع للهجرة) :

كان بين المسلمين واليهود - في المعاهدة التي أشرنا إليها - حلف يقضى بالتعاون بين الفريقين مادياً عند الحاجة ، وحدث أن قتل أحد المسلمين رجلين خطأ ، فوجب على المسلمين أن يدفعوا الدية عنها ^(١) ، وأثقلت الدية المسلمين لأنهم كانوا لم يستقروا بعد من الناحية المالية بسبب كثرة المهاجرين الذين فروا بدينهم تاركين أموالهم وثوراتهم بمكة . ورأى الرسول أن يسأل بني النضير أن يسلموا في دفع هذه الدية عملاً بالحلف السابق ، فذهب بنفسه إلى الحى الذى يسكنون فيه ، وذكر لهم الخبر فقالوا له : « نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه » وطلبوا منه الجلوس ريثما يدبرون له المال الذى طلبه ، فجلس الرسول بجانب جدار ومعه من أصحابه أبو بكر وعمر وعلى .

وذهب اليهود ليفسكروا فيها يدفعون من المال ، ولكن سرعان ما هتف واحد منهم : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه .

وقال آخر : من منا يعلو هذا الجدار فيلقى عليه حجراً فيريحنا منه ؟ قال عمرو بن جحاش . أنا لذلك :

وصعد عمرو ، ولكن سرعان ما أوحى الله لمحمد أن اليهود يأتُمرون به ليقتلوه ، وطلب منه الانسحاب في صمت ^(٢) ، وانسحب الرسول وانتظره أصحابه ، وانتظر عمرو بن جحاش عودته . ولم يكن هيات ، فلحق أبو بكر وعمر وعلى بالرسول . وسألوه عن السبب في أنه تركهم ، فذكره

(١) كان الذى قتلها عمرو بن أمية الضمري ، وهو الوحيد الذى نجا من عامر بن الطفيل ومن أهل نجد الذين قتلوا جميع المسلمين الذين أرسلهم الرسول للدعوة أهل نجد للإسلام وكانت الموقعة عند بئر معونة ، وعندما كان عمرو بن أمية عائداً قابل رجلين من بني كلاب ابن ربيعة بينهما وبين الرسول عهد لم يملحه عمرو ، وقد خافهما هذا على نفسه فاغتالهما ، فالتزم الرسول بديتهما (البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٣ - ٢٤) .

(٢) ابن هشام ٢ : ٤١ ، ١٧٦ . ويحيى بن آدم : الخراج ص ٢٩ .

لهم وأشيع خبر المؤامرة . وراح بعض اليهود يلوم البعض الآخر على هذه الجريمة الشنعاء ، وفي هذه الحادثة نزل قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يسلطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم) (١) .

وأدرك المسلمون ألا مقام لبني النضير بينهم ، فقد كانت قريش تجمع جهودها للفتك بالمسلمين . فإذا كانت الجبهة الداخلية غير آمنة ، وإذا كان للمسلمين أعداء غادرون في معقلهم الوحيد ، فلا أمل للمسلمين في الانتصار ، لذلك كان طبيعياً جداً أن يصل المسلمون على القضاء على بني النضير بالمدينة حتى يأمنوا في عقر دارهم ، وحتى يفرغوا لعدوهم الأكبر الذي يترقب الوسائل بعد غزوة أحد ليقضى على المسلمين قضاء مبرماً .

وعلى هذا تهيأ المسلمون للخروج لبني النضير ، وسرعان ما التفت جيوش المسلمين حول حصون بني النضير ودورهم ، ولم يستطع بنو النضير أن يقابلوا المسلمين وجهاً لوجه محاربين ، فتحصنوا بالحى الذى يسكنون فيه ، وقفلوا المسالك عليهم ، وحاصروهم المسلمون مدة ستة أيام ، ثم ألقى الله في قلوبهم الرعب . فطلبوا من الرسول أن يسمح لهم بالخروج من المدينة ومعهم ما تحمل الإبل إلا الدروع (٢) ، فقبل الرسول منهم ذلك ، وخرجوا حيث نزل بعضهم خيبر ونزل آخرون الشام ، وكان من أشرافهم الذين نزلوا خيبر حنظل بن أنخطب وسلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع (٣) . وقد استطاعوا بشرفهم وثوراتهم أن ينزلوا من خيبر في مكان الرؤساء والأمراء ، وكانت حادثة بني النضير هذه في السنة الرابعة من الهجرة .

وهناك ملاحظتان هامتان نختم بهما حديثنا عن بني النضير وهما :

١ - أن بني قريظة بالمدينة لم يحسم أى سره لأنهم لم يشتركوا في المؤامرة ، مع ما لهم من صلة ببني النضير .

(١) سورة المائدة الآية ١١ وانظر تفسير الكشاف .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤ .

(٣) ابن هشام ٢ : ١٧٨

٢ - أن الاكتفاء من بني النضير بالخروج من المدينة ومعهم ثرواتهم كان حكماً في منتهى التسامح إذا قيس بالعمل الإجرامى الذى دبره هؤلاء .
بنو قريظة (العام الخامس للهجرة) :

قلنا آنفاً إن الاكتفاء من بني النضير بالخروج من المدينة ومعهم ثراؤهم الواسع كان عملاً في منتهى التسامح ، وقد تغلب الباعث الإنسانى الذى قضى بهذا الحكم على الحق القانونى وعلى الحرص اللازم لحراسة أمة ناشئة ودين جديد ، وإننا في الحقيقة ننظر إلى هذا التسامح فنجد سمحاً مبالغاً فيه . لأنه ممكن بني النضير من العمل بحرية كاملة بعيدين عن عين تنظر ، أو معاهدة تقيد أو منافس يراقب ، ونستطيع أن نقارن موقف الرسول بموقف قريش عندما اجتمعت قبيل الهجرة لتقرر مصير محمد ، وعندما رفضت دون تردد إخراجهم من مكة خوفاً من أن يعود إلى مكة مهاجماً بعد وقت قصير أو طريلاً ونسأل : لماذا لم ينتفع الرسول صلوات الله عليه بهذه التجربة ويغيرها من الأحداث المماثلة فيحكم على بني النضير بالقتل أو بحكم آخر أقسى من الإخراج ؟

ونجيب بأن عامل الرحمة كان قوياً جداً في نفس الرسول وبأنه لم يلجأ قط للقتل إلا عندما لم يجد سواه سبيلاً .

المهم أن بني النضير لم يكونوا جديرين بالعطف الذى عاملهم به الرسول ، إذ أنهم سرعان ما غدروا وأخذوا يجمعون الجموع ويثرون الناس للمهاجرة المسلمين والقضاء عليهم ، وقد استجابت لهم جماعات كثيرة كان يربط بينها كراهية الإسلام والكيد له ، ومن أهم هؤلاء قريش ، وخطفان ، وبنو مرة ، وغيرهم ، وزحمت هذه الجماعات أو هؤلاء الأحزاب على المدينة في الغزوة التى سميت بغزوة الأحزاب والتى سنتكلم عنها فيما بعد .

والمهم الآن أن نقول إن غزوة الأحزاب كانت من أشد ما عاناه المسلمون من ويلات ، لقد جاعوا فيها حتى ربطوا الحجارة على بطونهم ، وعاشوا في سجن ضيق يحيط بهم الأعداء من كل جانب ، ثم - في هذه الحالة الرهيبة - اتصل حبي بن أخطب أحد سادة بني النضير الذين هاجروا إلى خيبر ، بكعب ابن أسد سيد بني قريظة ، ودعاه أن يتقض عهده مع المسلمين وأن ينضم هم

وجماعة بنو قريظة إلى الأحزاب ، واستجاب كعب إلى هتاف حيي والأمل يراود الاثنين أن في ذلك قضاء نهائياً على المسلمين ^(١) ، فقد أصبح جناحهم مهيباً بالهجوم الشامل عليهم من الخارج ، ولم يبق إلا ضربة من داخل المدينة تنضم إلى هذه الضربات التي تنزل من الخارج فتقضي على الإسلام والمسلمين ، وقد صور القرآن الكريم حالة المسلمين أدق تصوير فقال : (إذ جاءوكم من فوقكم ، ومن أسفل منكم ، وإذا زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً) ^(٢) .

وهكذا غدر بنو قريظة في أخرج الأوقات ، ووجد المسلمون أنفسهم بين عدو من الأمام وعدو من الخلف ، عدو من الخارج وعدو من الداخل ، وإن نستمر في الكلام عن غزوة الأحزاب الآن ونتائجها ، فالكلام عن الغزوات له مكان آخر ، ولكننا هنا نواصل كلامنا عن بني قريظة .

لما سمع الرسول بغدر بني قريظة أرسل لهم سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عباد سيد الخزرج ليريا الأمر : ولينعنا بني قريظة عن هذا الغدر الفاجر . فذهب سيدا الأوس والخزرج . وقابلا كعب بن أسد ، وسألاه وحذراه ، فسخر منهما ، وأظهر لهما الخشونة والبغى ، ولم يسمع لرجاء منهما أو تحذير ^(٣) .

وانتهت غزوة الأحزاب وعاد المهاجرون دون أن يجنوا شيئاً ، وتركوا المدينة وفيها فريقان يشهر كل منهما سيفه في وجه الآخر ، وأحاط المسلمون بمساكن بني قريظة وشدّدوا عليهم الحصار ، وندم بنو قريظة على ما ارتكبوا ولات ساعة مندم ، واستمر الحصار خمسة وعشرين يوماً وعرض عليهم المسلمون أن يدخلوا الإسلام فيأمنوا على دماءهم وأموالهم وأبنائهم فأبوا ^(٤) ، ورضوا أن يسلموا بما يحكم به سعد بن معاذ في أمرهم ، وجيء بسعد فسلم له المسلمون واليهود زمام القضية ، وفكر سعد ، ولا بد أنه وضع نصب عينيه العوامل الآتية :

(١) ابن هشام ج ٢ ص ١٨٩ - ١٩٠ .

(٢) سورة الأحزاب الآيتان ١٠ - ١١ .

(٣) ابن هشام ٢ : ١٩ .

(٤) فيليب حتى : تاريخ العرب - ص ٨٤ .

١ - لقد سمح المسلمون لبني النضير بالخروج من المدينة ، وكانت نتيجة ذلك إهدار دماء المسلمين وتعريضهم وتعريض دينهم للخطر بسبب هجوم بني النضير وتآليبهم الأحزاب ، فلا يمكن والحالة هذه أن تتجه الأفكار لإخراج بني قريظة .

٢ - لقد كان ذنب بني قريظة عظيما ولولا عون الله لهلك المسلمون .

٣ - رأى سعد بنفسه سمخية بني قريظة منه ومن صاحبه عندما ذهب إليهم ، كما تذكر تحذيره إياهم ووقوعهم في الرسول أمامه وسبهم المسلمين بغير حق .

٤ - العفر عن بني قريظة وإخراجهم من المدينة سيعنى بلا شك انضمامهم إلى بني النضير حيث يتضاعف الخطر اليهودي على المسلمين .

لهذه الأسباب كان حكم سعد بديها : لقد حكم على الخوذة الغادرين بالقتل ، قتل الرجال وسبي النساء والأطفال ، وكان ذلك في العام الخامس للهجرة إثر غزوة الأحزاب . وربما ادعى بعض المتحذلقين أن هذا الحكم قاس ، والإجابة سهلة ، هي أن هذا الحكم هو الذي يحكم به حتى الآن في كل دول العالم ضد من ارتكبوا مثل هذه الخيانة العظمى وبخاصة وقت الحروب .

خبر (العام السابع للهجرة) :

(لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) (١)
صدق الله العظيم - وقد برهنت الأحداث طوال القرون على شدة عداوة اليهود للمسلمين ، لقد أساء يهود المدينة - كما قلنا - حتى عندما أحسن المسلمون إليهم ، وبعد يهود المدينة جاء دور اليهود في الشمال ، وقد وجد الرسول أن جانب هؤلاء ليس مأمونا ، فلم يكن بُدَّ من القضاء على هذا الخطر الداهم ، فهؤلاء هم الذين سببوا غزوة الأحزاب ، والذين بدعوا يدبرون

المؤامرات الأخرى للهجوم على المدينة بعد أن هشلوا في غزوة الأحزاب ، ولذلك نجد الرسول يُعِدُّ العدة للزحف على يهود خيبر ووادي القرى وفدك وتيما ، وكانت خيبر أقوى حصون اليهود وأخطرها ، لقد كان بها يهود من قبل ، ثم انضم لهم مهاجرو بني النضير ، فأصبحت خيبر أكثر بلاد اليهود في الجزيرة العربية عدداً وأعظمها قوة وأكثرها تحدياً للمسلمين ، ولذلك بدأ الرسول بها عندما اتجه إلى الزحف على مناطق اليهود بالشمال ، وكان ذلك في السنة السابعة للهجرة بعد أن هدأت العداوة بين المسلمين وبين قريش وعُقِدَ بينهما صلح الحديبية الذي سنتكلم عنه فيما بعد ، وحاصر المسلمون خيبر وامتد الحصار وطال ، وأخذت حصون اليهود بها تتساقط بسهولة أو بصعوبة في يد المسلمين^(١) ، ولم يجد اليهود بداً من أن يستسلموا ، واتفق معهم المسلمون اتفاقاً سمحاً مرة أخرى ، فقد تركهم الرسول يزرعون الأرض التي أصبحت للمسلمين بحكم الفتح ، وأصبح لليهود شطر الزرع والثمار نظير عملهم^(٢) . كما صار للمسلمين الإشراف على اليهود حتى لا يعودوا إلى ألوان الغدر مرة أخرى .

ولما تهاوت حصون خيبر طلب يهود فدك الصلح فصالحهم الرسول على نصف الثمر ونصف الأرض^(٣) ، أما يهود وادي القرى وتيما فقد امتنعوا وقاتلوا فيزيمهم المسلمون ، ثم تركوهم على نظام خيبر^(٤) ، وانكسرت بذلك شوكة اليهود وإن كانت الشوكة لم تَزُلْ نهائياً وبقيت كليله حيناً ، ومدمية كلياً وجدت سبيلاً إلى الإيذاء .

ولما يتصل بخيبر أنه بعد الانتهاء منها قدَّمت امرأة يهودية اسمها زينب بنت الحارث بن سلام شاة مشوية للرسول دست فيها السم وأكثر منه في ذراعي الشاة حيث عرفت أن الرسول يحب من الشاة ذراعها ، فلما

(١) ابن هشام ٢ : ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٢) أبو عبيد : الأموال ص ٩ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) البلاذري ص ٢٤٧ .

وَضَعَت الشاة بين يدي الرسول تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يستسغها ولفظها ، وكان يأكل معه بشر بن البراء ولكنه تعجل فابتلع ما وضعه في فمه ، وقال الرسول إن هذه الذراع لتخبرني أن الشاة مسمومة ، ودعا الرسول المرأة فاعترفت ، فسألها الرسول : ما حملك على ذلك ؟ فقالت بلغت من قومي ما لم يخف عليك ، فقلت إن كان ملكا استرحنا منه وإن كان نبياً فسيخبر . وقيل إنها دخلت الإسلام فعفا عنها الرسول ، وقيل قتلها الرسول قصاصاً ، لأن بشر بن البراء مات من هذا الطعام^(١)

نهاية اليهود بالجزيرة العربية :

ابتداء من العام السابع للهجرة . بدأت الآمال تتطلع إلى نشر الإسلام خارج الجزيرة العربية ، وبدأت وفود المسلمين تحمل رسائل الرسول ، أو تحمل دعوة الإسلام إلى أكثر الجهات . وأصبح واضحاً أن بقاء اليهود خلف هذه الوفود لا يؤمن ظهراً ، ولذلك روى عن الرسول قوله : لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً .

وفي عهد الخلفاء الراشدين امتد الإسلام وتجاوز أرض خيبر في طريقه إلى فارس والروم ، وأصبح يهود خيبر في ظهر المسلمين ، فعُذِرَ عمر عن خطرهم وخشي أن يضربوا المسلمين من الخلف كما فعل اليهود من قبل ، ورأى عمر ضرورة ضمان السلامة والوحدة في الجزيرة العربية قبل أن تتعمق جيوشه خارج هذه الجزيرة ، وزيادة على ذلك يروى البلاذري^(٢) وأن يهود خيبر ، عاثوا في المسلمين فألقوا ابن عمر من فوق بيت ودفغوا يديه ، لكل ذلك استقر رأى عمر على إجلائهم .

وقد عاملهم عمر طبقاً للشروط التي كانت بينهم وبين المسلمين ، فأهل فذلك كان لهم نصف الأرض فاشتراها عمر منهم ، وفي بعض الروايات أن

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٢٤٠ - ٢٤٢ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٣٦ و ٤٢ .

الرسول كان قد اشترى هذا النصف منهم في حياته ليكونوا على قدم المساواة مع باقي يهود الجزيرة ، وأذن لهم عمر ، ببيع ما يريدون ، وقبض ما كان لهم من متاع لم يستطيعوا حمله ودفع ثمنه لهم ، وأجلهم^(١) .

المستشرقون واليهود :

المستشرقون هم أولئك الغربيون الذين اشتغلوا بالدراسات الإسلامية والشرقية ، وكثير من المستشرقين أدى لهذه الدراسات خدمات كبيرة ، وبخاصة في طرق البحث التي سبقوا المسلمين في معرفتها وإجادتها ، ولكن مع الأسف كان أكثر المستشرقين من اليهود ، ولم يستطع هؤلاء أن ينسوا عواطفهم وهم يبحثون في الدراسات الإسلامية ، فاستعمل بعضهم أقسى الألفاظ وهو يتحدث عن الدين الإسلامي وعن الرسول محمد ، وهاجموا الإسلام في جميع مسائله سواء ما اتصل باليهود أو ما لم يتصل بهم ، وكانت دراسة بعضهم سلسلة من النقد أو القذف أو الهجاء^(٢) ، ويعد هذا عودة إلى النضال الفكري الذي نشره اليهود ضد الإسلام في مطلع الإسلام ، وليس لنا على كل حال أن نجاريهم في القذف والتعصب ، وإنما نقولها كلمة قوية قالها المنصفون من المستشرقين ، هي أن مبادئ الإسلام تعد من أرقى الفلسفات في شئون الدين وإدارة الدنيا . وإن معاملة المسلمين لغير المسلمين كانت دائماً سلسلة من التسامح واليسر . وكان هذا طابعها حتى مع من فتكوا بهم واستحاروا دماءهم ، وليست الحروب الصليبية وموقف صلاح الدين الأيوبي من الصليبيين ببعيد^(٣) .

(١) أبو عبيد : الأموال ص ٩ و ٩٨ .

(٢) ارجع لمقدمة هذا الكتاب : ١٠٠ نوكت نموذج لكتابة المستشرقين من هذا النوع ارجع القارىء مؤلفات جولدنبرغ .

(٣) اقرأ عن الحروب الصليبية الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

الاسلام والقتال

هناك عنصران رئيسيان للحديث عن الإسلام منذ الهجرة حتى وفاة الرسول ، وهذان العنصران هما :

١ - تكوين المجتمع الإسلامي ، ونشر الدعوة الإسلامية ، وتربية الدعاة على نحو ما ذكرنا من قبل .

٢ - حماية هذا المجتمع والدفاع عنه .

وقد تكلمنا عن العنصر الأول بإفاضة فيما سبق ، وآن لنا أن نتحدث عن العنصر الثاني .

وقد ذكرنا آنفاً أن المسلمين قضوا على اليهود بالجزيرة العربية حماية للإسلام والمسلمين وسنتحدث الآن عن حماية أوسع ، وعن حروب كثيرة حصلت في عهد الرسول وبعد وفاته ، وسنجعل سبيلنا في الحديث - كما نحاول دائماً - أن يكون بحثاً عملياً نبرز فيه اتجاه الإسلام واتجاه المسلمين درن أن يكون هناك مجال للتعصب .

ويعتقد بعض المستشرقين وبعض من لم تنح لهم الفرصة للتعلم في الدراسات الإسلامية أن القوة كانت عاملاً هاماً في انتشار الإسلام . ويتخذون من الحروب التي حدثت في حياة الرسول ، وبعد وفاته دليلاً على ذلك ، ولناقشة هذا الاتجاه نسأل هنا سؤالين هامين :

١ - هل انتشر الإسلام بالدعوة أو بالقوة ، وما الدليل على ذلك ؟

٢ - وإذا كان قد انتشر بالدعوة فلماذا حدثت الحروب بين المسلمين وغيرهم ؟

وللإجابة عن السؤال الأول نقول في قوة وإصرار : إن الإسلام لم ينتشر بالسيف وإنما انتشر بالدعوة ، ونضع البراهين الواحد بعد الآخر في سلسلة من آيات القرآن الكريم ، ثم في سلسلة من أحداث التاريخ بحيث لا يبقى للشك مجال .

فأما عن القرآن فهناك قوله تعالى :

— لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي^(١) .

— ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة^(٢) .

— لكم دينكم ولي دين^(٣) .

— فإنما عليكم البلاغ وعلينا الحساب^(٤) .

— فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر^(٥) .

وأما سلسلة التاريخ فترينا بوضوح أن الإسلام سلك طريقه بالدعوة متبعاً هذه الآيات البينات ، وإلى القارىء بيان ذلك :

١ — حينما كان الرسول في مكة . وحينما بدأ دعوته وحيدا لاسلاح معه ولا مال ، دخلها مجموعة من عظماء الرجال من أمثال أبي بكر وعثمان وسعد ابن أبي وقاص وطلحة والزبير ثم عمر بن الخطاب وحزرة بن عبد المطلب فهل يمكن أن نقول إن هؤلاء دخلوا بالقوة . وأين القوة في ذلك الوقت ؟ . وعن مسلمى مكة يقول الأستاذ العقاد^(٦) : إن كثيرين من الناس لم يخضعوا للسيف ليسلموا ، ولكنهم تعرضوا لإسلامهم للسيف ، واحتملوا السياف في سبيل الله .

٢ — واضطهدت قريش المسلمين اضطهاداً قاسياً ، وأنزلت بمحمد وأتباعه ألواناً من العذاب ، وفي وسط هذا العناء حينما كان محمد والمسلمون معه بمكة مغلوبين على أمرهم مستضعفين ، كان أهل المدينة يسعون للإسلام ويعتقونهم ويدعون له ذويهم وأهلهم ، فهل يمكن أن نقول إن الإسلام انتشر بالقوة بين سكان المدينة ؟

٣ — جاء الصليبيون إلى الشرق إبان ضعف الخلافة العباسية لمحو الإسلام والقضاء عليه ، وإذا بالإسلام يجذب جموعاً منهم فيدخلونه ويحاربون

(١) سورة البقرة الآية ٢٥ . (٢) سورة النحل الآية ١٢٥ .
 (٣) سورة البقرة الآية السادسة . (٤) سورة النحل الآية ١٤٢ .
 (٥) سورة الفاتحة الآيتان ٢١ ، ٢٢ . (٦) عبقرية محمد ص ٤٨ .

فى صفوف المسلمين ، يقول توماس أرنولد : « لقد اجتذبت الدعوة المحمدية إلى أحضانها من الصليبيين عدداً مذكوراً حتى فى العهد الأول أى فى القرن الثانى عشر ، ولم يقتصر ذلك على عامة النصارى بل إن بعض أمراءهم وقادتهم انضموا أيضاً إلى المسلمين حتى فى ساعات انتصارات المسيحيين » .

ويروى توماس أرنولد عن بعض مؤرخى النصارى قوله : إن سنة من أمراء مملكة القدس استولى عليهم الشيطان ليلة معركة حطين ، فأسلموا وانضموا إلى صفوف الأعداء دون أن يقهروا من أحد على ذلك ، ويعال توماس أرنولد لانتشار الإسلام بين الصليبيين بقوله : ويظهر أن أخلاق صلاح الدين وحياته التى انطوت على البطولة قد أحدثت فى أذهان المسيحيين فى عصره تأثيراً سحرياً خاصاً ، حتى أن نفرأ من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة انجذابهم إليه أن هجروا ديانتهم المسيحية وهجروا قومهم وانضموا إلى المسلمين . وكذلك كانت الحال عندما طرح النصرانية : مثلاً ، فارس إنجليزى من فرسان المعبد ، يدعى روبرت أوف سانت ألبانيس واعتنق الإسلام ، ثم تزوج بإحدى حفيدات صلاح الدين^(١) .

فهل يمكن أن نقول إن الإسلام انتشر بين الصليبيين بالقوة .

٤ - فى القرن السابع الهجرى هاجم المغول الجانب الشرقى من العالم الإسلامى ، وكان هجومهم وحشياً قاسياً مدمراً سفكوا الدماء فسالت أنهاراً ، وحطموا مظاهر الحضارة الإسلامية به ، وهدموا القصور والمساجد ، وأحرقوا الكتب وقتلوا العلماء ، وامتدت أيديهم إلى الخليفة فقتلوه وقتلوا معه أهله ، وأزالوا الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ وأصبحت للمغول اليد العليا ، وهوت أمامهم كل قوى المسلمين فى عاصمة الخلافة نوما حولها ، وسرعان ما جذب الإسلام إليه هؤلاء الفاتحين الغزاة ، فدخل المغول الدين الذى هاجموه وعملوا على تقويضه . فهل يمكن أن نقول إن الإسلام انتشر بين المغول بالقوة ؟ .

(١) إقرأ ما كتبه توماس أرنولد عن « حالات التحول إلى الإسلام بين الصليبيين » فى كتابه الدعوة إلى الإسلام ص ١٣٨-١٣٩ وما بعدها . من الترجمة العربية

يقول سير توماس أرنولد في ذلك : « لا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من خطوب وويلات خطباً أعنف قسوة من غزوات المغول ، فلقد انساب جيوش جنكيزخان ، واكتسحت في طريقها العواصم الإسلامية وقضت على ما كان بها من مدنية وحضارة ، على أن الإسلام لم يلبث أن نهض من رقدته وظهر من بين الأطلال ، واستطاع بواسطة دعائه أن يجذب أولئك الفاتحين البرابرة ويحملهم على اعتناقه (١) » .

٥ - وأين الدم في غزوات الرسول ؟ .

إن الإحصاء الدقيق الذي يعتمد على ما أورده ابن هشام نقلاً عن ابن إسحق بالنسبة لعدد الشهداء في الغزوات وأسمائهم ، وعدد قتلى المشركين ، يبين أن شهداء المسلمين في جميع الغزوات كانوا ١٣٩ شهيداً ، وقتلى المشركين في جميع الغزوات كانوا حوالي ١١٢ قتيلاً ، وتوزيعهم على الغزوات كالآتي :

الغزوة	شهداء المسلمين	قتلى المشركين	ملاحظات
بدر	١٤	٧٠	
أحد	٧٠	٢٢	
الخنديق	٦	٣	
بنو المصطلق	-	٣	
خيبر	١٩	-	لم يدخل اليهود في هذه الإحصائية فلهؤلاء حكم آخر بسبب خيانتهم .
مؤتة	١٤	١٤	بعضهم من المشركين وبعضهم من نصارى العرب والروم .
حنين	٤	-	لم يذكر ابن هشام قتلى للمشركين في
الطائف	١٢	-	هذين الموقعين .
تبوك	-	-	لا حرب ولا ضحايا .
	١٣٩	١١٢	

٦ - ويحددنا التاريخ بصراحة ووضوح أن أهم فترة انتشر فيها الإسلام هي فترة السلم الذى تلاصلح الحديبية بين قريش والمسلمين كما سيأتى ، وكانت فترة السلم سنتين ، ويقول المؤرخون إن من دخل الإسلام فى خلال هاتين السنتين أكثر ممن دخلوه فى المدة التى تقرب من عشرين عاما منذ بدء الإسلام حتى الصلح . وهذا يدلنا على أن انتشار الإسلام تبع السلم ولم يتبع الحرب .

٧ - وهناك فكرة هامة يجدر بنا أن نوضحها تماما ، ويجدر بالقارىء أن يفهمها ، تلك الفكرة هي أنه لاعلاقة بين انتشار الإسلام وبين حروب المسلمين مع الفرس والروم ، فقد كانت الحروب تشتعل ، وكان المسلمون ينتصرون ، ثم تتوقف الحروب وتتوارى السيوف . وحينئذ يتقدم الدعاة والمعلمون فيشرحون نظم الإسلام ومبادئه وفلسفاته (سيأتى الحديث عن فلسفة الإسلام ومبادئه فيما بعد) . وكانت هذه الدعوة السمحة تجذب لها الناس وبخاصة عندما رأت الشعوب المغلوبة الفرق الكبير بين حكم قيصر وطغيانه ، وبين بساطة عمر بن الخطاب وسماحته وتواضعه ، وبالذات دعوة دخل الناس أفواجا فى الدين الجديد ، فمنهم من أسرع فى الدخول . ومنهم من دخل بعد عام أو خمسة أعوام أو عشرة أو مائة ويقول Kirk (١) (إن غالبية أهل الشام ومصر السفلى فى القرن التاسع الميلادى كانت لا تزال مسيحية على الرغم من أن الإسلام كان قد مضى عليه فى هذه البقاع أكثر من قرنين) ونضيف أن من سكان مصر والشام من لم يدخل الإسلام حتى الآن ، وتستطيع أن ترى اليوم الآلاف أو الملايين من المسيحيين فى مصر وسوريا وغيرها من البلاد الإسلامية .

مرة أخرى لاعلاقة بين انتشار الإسلام وبين الحروب .

وأوضح من هذا ما ذكره Fage Roland Oliver من أن الإسلام لم يأخذ طريقه خلف الصحراء بإفريقية إلا بعد انحلال دولته الكبرى فى

المغرب ، وكانت وسيلة الإسلام لهذه البقاع هي الثقافة والفكر والدعوة فانتشر الإسلام بين شعوب البربر ، وقامت خلف الصحراء دول إسلامية لعبت في التاريخ دوراً كبيراً^(١) .

٨ - وانتشر الإسلام انتشاراً واسعاً في إندونيسيا وماليزيا وفي إفريقيا ، فأين القوة التي نشرته في هذه البلاد الفسيحة وجذبت له قلوب الملايين ؟

وكتب هذه السطور عاش في إندونيسيا عدة سنين ، ورأى بنفسه الإسلام وهو ينتشر بين الإندونيسيين بيسر وبساطة ، رآه وهو يهزم الديانات الأخرى والأفكار المتعددة ويتقدم إلى الطليعة لاندفعه إلا مبادئه السمحة وتعاليمه المعقولة الهادئة البسيطة ، فقد رأيت في اندونيسيا صراعاً بين الأديان والأفكار ، كل منها يريد أن يكون أسرع وصولاً إلى قلوب الإندونيسيين ، ولكل منها وسائل وطرق تعمل على تحقيق هذه الغاية ، فقد كانت المسيحية يساعدها أو قل يفرضها بطش المستعمر وماله ورجاله ، والكنفوشية يساعدها ملايين الصينيين الذين يقيمون في إندونيسيا ، وتدفعها الثروات الضخمة التي يملكها هؤلاء الصينيون ، والهندوكية والبوذية تساعدهما صلات الهند بإندونيسيا ، تلك الصلات الثقافية والحضارية التي تضرب في أعماق التاريخ ، ورأيت الإسلام تدفعه مبادئه ويرعاه الله ، يعلمه عرب هاجروا من بلادهم النائية في حضرموت بثقافة محدودة وبدون مال ولا سلطان على الإطلاق ، أو يعلمه إندونيسيون ينطبق عليهم وصف العرب في فقرهم وقلة سلطانهم ، فماذا كانت نتيجة هذا الصراع ؟

أما الكنفوشية فقد خرجت صفر اليدين ولم تجذب إليها فرداً واحداً تقريباً من أبناء إندونيسيا ، وقنعت الهندوكية والبوذية بنصيب ضئيل حصلت عليه غالباً قبل زحف الإسلام ، وجابت مدارس المسيحيين ومستشفياتهم ووظائفهم عدداً قليلاً لا يتجاوز المليونين ، وأغلبهم سقطوا في المسيحية مخدوعين ، فالطفل يدخل مدرسة مسيحية ويتلقى تعاليم هذه الديانة ثم يخرج مسيحياً ولا يعرف غير المسيحية ، والمريض يشترك في

الصلوات والأدعية التي تقام في المستشفيات وليس له إلا الاشتراك أو الطرد، وهكذا دواليك . أما الإسلام فقد سار وتسرب في النور وبالذعوة السلمية إلى أكثر من تسعين في المائة من سكان إندونيسيا وهم حوالى مائة مليون .

أما انتشار الإسلام في إفريقيا فندع الحديث عنه إلى شاهد عيان آخر ، ذلك هو الكاتب المسيحي الفرنسى هو بيري ديشان حاكم المستعمرات الفرنسية بإفريقية حتى سنة ١٩٥٠ وهو يقول (١) :

إن انتشار دعوة الإسلام بإفريقية لم يقم على القسر ، وإنما قام على الإقناع الذى كان يقوم به دعاة متفرقون لا يملكون حولا ولا طولا إلا إيمانهم العميق بدينهم ، وكثيراً ما انتشر الإسلام بالتسرب السلمى البطيء من قوم إلى قوم ، فكان إذا ما اعتنقته الأرستقراطية وهى هدف الدعاة الأول تبعها بقية القبيلة ، وقد يسر انتشار الإسلام أمر آخر هو أنه دين فطرة بطبيعته ، سهل التناول ، لا لبس ولا تعقيد في مبادئه ، سهل التكيف والتطبيق في مختلف الظروف ، ووسائل الانتساب إليه أيسر وأيسر ، إذ لا يطلب من الشخص لإعلان إسلامه سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح في عداد المسلمين ، وقد حجب الإسلام إلى الإفريقيين مظاهره البعيدة عن التكلف مثل الثوب الفضفاض ، والمسبحة ، والكتابة العربية ، والوقار الدينى ، وشعائر الصلاة ، مما يضيق على المسلم مكانة مرموقة وجاذبية ساحرة ، فالذى يدخل في الإسلام ولو في الظاهر يشعر بأنه أصبح ذا شخصية محترمة وأنه قد ازداد من القوة والحيوية .

وفي عام ١٩٧٣ أعلن الرئيس البير برنار يونجو رئيس جمهورية جابون أنه اعتنق الإسلام بعد أن درسه وتعرف على ما به من اتجاهات ونظم (٢) فكان هذا دفعة جديدة للزحف الإسلامى بإفريقية .

(١) للديانات في إفريقيا السوداء ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٢) صحيفة الأخبار القاهرية في ١٠/١/١٩٧٣ .

وربما نستطيع أن نضيف هنا ما لم يستطع ووبر ديشان أن يذكره ، وهو أن التحول في الإسلام كان معناه السعى للتحرر من الاستعمار ، واسترية طبيعة في النفوس ، والجموع المسلمة هي التي حملت راية الجهاد ضد المستعمرين بإفريقية وآسيا .

٩ - ونقول الباحثة الألمانية الدكتورة Ilse Lietenstadter (١) إن التخيير ببلاد الفرس والروم لم يكن بين الإسلام والسيف ، وإنما بين الإسلام والجزية ، وهي الخطوة التي استحدثت البناء لاستنارتها حين اتبعت بعد ذلك في إنجلترا إبان حكم المائكة العصابات .

ونجىء بعد ذلك إلى السؤال الثاني : لماذا حدثت الحروب بين المسلمين وغيرهم ؟

والإجابة على هذا السؤال سهلة يسيرة أشرنا إلى بعضها فيما سبق ، وسنذكر فيما يلي موجزاً شاملاً لها :

١ - الدفاع عن النفس : يقرر التاريخ أن المسلمين قبل الهجرة لم يؤذن لهم بقتال وقد ضرب عمار وبلال وياسر ، وضرب محمد وأبو بكر ، ومات ياسر تحت العذاب كما ذكرنا من قبل ، ولم يرفع هؤلاء أيديهم لرد الاعتداء الذي وقع عليهم ، ولكن المشركين أسرفوا في ذلك ووصلوا إلى حد تقرير قتل محمد ، وكان المسلمون كلما همت نفوسهم لرد الظلم ، أوتطلعت إلى القصاص من الظالمين ردهم رسول الله إلى الصبر وانتظار أمر الله قائلاً : لم أؤمر بقتال ،

لم أمر بقتال . فلما أفلت محمد من قريش وأفلت منهم المسلمون بالهجرة ، وضع المشركون خططهم على أن يقضوا قضاء عاجلاً على المدينة حتى تتخلص الجزيرة العربية من الإسلام والمسلمين . فكان من الضروري أن يدافع المسلمون عن أنفسهم ، فأذن الله لهم بالدفاع قال تعالى : «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ^(١) » ويتضح من الآية للذي يعمد النظر أن الإسلام لا يجب القتال . فالفعل (أذن) مبني للمجهول وفاعله عندنا كان مبنياً للمعلوم هو الله سبحانه وتعالى ، وقد بني الفعل للمجهول لأن الله لم يرد - فيما أفهم - أن يذكر اسمه الكريم متصلاً بالإذن بالقتال ، ثم إن نائب الفاعل محذوف تقديره : (القتال) أى أذن لهم القتال ، ولم يذكر نائب الفاعل أيضاً لأنه كلمة (القتال) وبديل نائب الفاعل ذكر سبب الإذن وهو (بأنهم ظلموا) قال الضحاك هي أول آية نزلت في القتال ، قال ابن عباس وابن جبير نزلت عند هجرة الرسول إلى المدينة . وروى النسائي والترمذي عن ابن عباس قال : لما أخرج الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر : «أخرجوا نبهم !! لهلكن ، فأنزل الله تعالى : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) ثم نزلت آية أخرى أكثر صراحة في الإذن بالقتال والدفاع عن النفس هي قوله تعالى : (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ^(٢)) ومع أن الإذن هنا صريح إلا أنه مشروط بأن يكون في سبيل الله لا في سبيل المال أو الجاه . وأن يكون للدفاع عن النفس ، وبدون اعتداء ، فالاعتداء يسبب سخط الله .

وهكذا كان السبب الرئيسي للقتال هو الدفاع عن النفس والعرض والمال . وهنا يبدو موضوع مهم يتصل بالحبشة : تلك البلاد التي ليست بعيدة عن الجزيرة العربية ، والتي للمسلمين بها عهد منذ مطلع الإسلام فقد هاجروا إليها كما سبق القول ، والموضوع المهم هو أن المسلمين لم يهاجروا الحبشة ،

(١) سورة الحج الآية ٣٧ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٩٠ .

لأن الحبشة لم تمسهم بسوء، ولو كان المقصود نشر الإسلام بالقوة لهاجموها فهي أقل قوة من الفرس والروم، وقد يقال إن البحر يحميها منهم، والجواب سهل، فقد ملك المسلمون بحرية قرية هاجوا بها القسطنطينية وسيطروا بواسطتها على أهم جزر البحر الأبيض المتوسط، ولكنهم لم يتجهوا للحبشة فما كانت أعمال المسلمين الحربية إلا دفاعاً ورداً لا اعتداء.

٢ - تأمين الدعوة وإتاحة الفرصة للضعفاء الذين يريدون اعتناقها :

كانت الدعوة الإسلامية مهددة، وكانت قريش تسلك كل السبل للقضاء عليها، ثم كان هناك كثير من سكان مكة ومن العرب يميلون للإسلام ويريدون الدخول فيه، ولكنهم كانوا يخافون أن ينزل بهم ما نزل بمن سبقوهم إلى الإسلام من عذاب وإيذاء، حتى اضطروا كثيرون ممن أحبوا الإسلام أن يعتنقوه سرا دون أن يعلنوا ذلك، وفي هؤلاء نزلت الآية الكريمة « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم... » (١) فأذن الله لرسوله وللمؤمنين أن يحموا الدعوة ويؤثروا مؤمنين من يدخل فيها قال تعالى : (وما لكم لا تفاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان) (٢).

٣ - الدفاع عن الأمة الإسلامية حتى لا تدكها جيوش الفرس والروم :

قبل الإسلام لم تكن هناك أمة عربية، وإنما كانت هناك قبائل عربية متحاربة متنافرة، ولذلك لم يكن الفرس والروم يقيمون حساباً للعرب : إذ كان العرب داخل جزيرتهم يصطرون صراعاً يكاد يكون متصلاً، وعلى هذا غض الفرس والروم بصرهم عن الجزيرة العربية لأنها لم تكون وحدة يمكن أن تصبح خطراً على الدوائين المجاورتين : الفرس والروم.

فلما جاء الإسلام آمن به بعض العرب وكفربه آخرون، وقام نزاع عنيف

(١) سورة الفتح الآية ٢٥ .

(٢) سورة النساء الآية ٢٥ .

في الجزيرة العربية بين المسلمين وغير المسلمين (قريش واليهود) ، وفي هذه المرحلة لم يهتم الفرس والروم أيضاً بهذا الدين الجديد ، وقالوا إنها حركة قام بها عربى وسيقتلها العرب واليهود ، وظنوا أنها نوع من الصراع بين القبائل العربية لا يلبث أن يموت .

ولكن سرعان ما بدأ الإسلام ينتصر على أعدائه وينتشر بين العرب ، وسرعان ما تكونت في الجزيرة العربية دولة قوية متحدة ، وبالإضافة إلى قوتها واتحادها كانت لها مبادئ الدين الجديد الذي اجتمع العرب حوله ، والذي استلزم الدعوة له ، وقد فوجئ كسرى وقيصر بحقيقة خطيرة هي أن الرسول أرسل لهما يدعوهما للإسلام في العام السابع للهجرة ، ويدعو قومهما كذلك واعتقد المملكان أن محمداً لم يقنع بتأسيس دولة عربية وإنما أخذ يطمع في مد سلطانة إلى أرضهما ، وكل هذا أدخل الذعر والخوف في نفوس الفرس والروم ، فقد أصبحت الجزيرة العربية منافساً خطيراً ، قوياً متحداً ، وأصبحت دولة لها دين ولها مبادئ ، تعمل على نشر هذا الدين وإذاعة أخباره واكتساب الأنصار إليه ، ومن أجل هذا دخل الفرس والروم المعركة ، وقررتا ضرورة القضاء على الدولة الإسلامية الجديدة والقضاء على الوحدة التي تكونت عند العرب ، وقد بدأ ذلك والرسول صلى الله عليه وسلم لا يزال حياً :

يروى أنه في سنة ٦٢٧ م (السادسة للهجرة) أسلم فروة بن عمر الجذامي هامل الروم على عثمان ، وأرسل مع مسعود بن سعد الجذامي بغلاً أشهب وفرساً وحملاً ، وأقصه كتابية وعباءة حريرية هدية للنبي ، ولما بلغ الرومان ذلك حاولوا إقناعه ليرتد فأبى ، فما كان منهم إلا أن ألقوا القبض عليه وسجنوه ثم صلبوه على ماء يقال له (عفرى) بفلسطين .

وفي سنة ٦٢٩ (٨٨) أوفد النبي جماعة قوامها خمسة عشر رجلاً إلى حدود شرق الأردن ليدعوا الناس إلى الإسلام ، وليستطلعوا أخبار الروم ، فخرج عليهم جمع غفير في مكان يقال له (طلة) بين الكرك والطفيلة وقتلهم كلهم إلا واحداً لاذ بالفرار (١) .

(١) كولونيل فريدريك : تاريخ شرق الأردن وقبائلها ص ٨٥ نقل عن « الرسالة الخالدة » لعبد الرحمن مزام ص ٢٢٨ .

وكانت تجمعات الروم تهدد المسلمين دائماً حتى كان المسلمون يتوقعون هجوم الروم عليهم كل لحظة ، ومما يدل على ذلك أن صحابيا في أثناء حياة الرسول دق باب عمر بن الخطاب في ليلة وعمر نائم ، فهب عمره ، نوم مذعورا وهو يقول : ما هو ؟ أ جاءت غسان ؟

وكما تحرش الروم بالمسلمين تحرش بهم الفرس أيضاً . فالتاريخ يروى لنا أن القبائل المراتية للفرس كانت توالى الإغارة على أرض المسلمين . ولم تكن حرب المسلمين مع الفرس إلا امتداداً للدفاع الذي قام به المسلمون ليحموا أنفسهم وذويهم من هؤلاء المغيرين .

على أن الحروب لم تكن في الحقيقة مع الشعوب . وإنما كانت مع قيصر وكسرى وجيوشهما ، هؤلاء الجبابرة الطغاة الذين كانوا يقفون حاجزاً يحول بين الناس وبين الدين الجديد ، فلما سقط هذا الحاجز بدأت الشعوب التي كانت خاضعة مغلوقة على أمرها : تفكر في الإسلام وتقبل عليه وتستعذب الحرية في ظلاله .

ويتجه البحث الحديث إلى اعتبار الزحف الإسلامي ضد الفرس والروم ليس إلا حركة تحرير قامت بها القبائل العربية لصالح الشعوب المستعمرة التي كانت خاضعة للاستعمار الفارسي أو الروماني .

ومبادئ الإسلام واضحة في أن أي قتال إنما هو لرد عدوان كما سبق ، وينص القرآن على أن على المسلمين أن يلجأوا للسلم إذا لجأ له أعداؤهم ، قال تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » (١) . وقال : « فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم . فاجعل الله لكم عليهم سبيلاً » (٢) . وقد سار الرسول على هدى هذه الآية الكريمة فزاه يخرج للملاقاة الروم عندما بلغه أن جموعهم تجمعت على أطراف الجزيرة ، وأنها تريد الهجوم ، فلما وصل إلى تبوك وجد أن جيوش الروم تراجع ففكر في مهاجمة الروم ، وإنما عاد أدراجه إلى المدينة .

ويتضح من الدراسات السابقة مايلي :

- أنه لا توجد آية واحدة في القرآن الكريم أو حادثة واحدة في تاريخه

(٢) سورة النساء الآية ٩٠ .

(١) سورة الأنفال الآية ٦١ .

صدر الإسلام تدل أو تشير إلى أن القتال في الإسلام كان لحمل الناس على اعتناقه .
 — وأن سبب القتال ينحصر في رد العدوان وحماية الدعوة وحرية الدين
 قال تعالى « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا
 عدوان إلا على الظالمين » (١) . فهذه الآية تقرر أن القرآن لم يقصد بالقتال
 أن يرغم الناس على التدين بما لا يريدون ، وإنما أراد به تحقيق حرية التدين
 للناس ، فأمر بالقتال حتى يصبح الدين لله دون إكراه أو إرغام ، إذ كانت
 قریش تحارب مَنْ دخل الإسلام .

— وأن المقصود من « الكفار » في قوله تعالى (قاتلوا الذين يلونكم من
 الكفار) هم المحاربون المعتدون ومثله كلمة « الناس » في الحديث الشريف
 أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله (٢) أو المقصود مشركو
 الجزيرة العربية ، فهؤلاء لهم حكم خاص قال تعالى (إلا الذين عاهدتم من
 المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ، ولم يظاهروا عليكم أحداً ، فأتموا إليهم
 عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ، فإذا انسלخ الأشهر الحرم فاقتلوا
 المشركين حيث وجدتموهم . . . كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم
 إلا ولأزمة ، يرضونكم بأفواههم ، وتأنى قلوبهم وأكثرهم فاسقون) (٣) .
 ويقرر المفسرون أن هذا الحكم (الإسلام أو القتال) خاص بمشركي الجزيرة
 للتعليل الذي ذكرته الآية الأخيرة ، وهو خطورتهم على الدعوة ونفائهم .
 وكلمة « يلونكم » تؤيد هذا الاتجاه فعناها المجاورون والأقربون .
 علاقة الحالة الاقتصادية بالغروب :

بقى موضوع نحب أن نحققه بإنصاف وعمق وهو مكانة الناحية الاقتصادية
 في الفتح ، وقد اهتم بهذه الناحية كثير من الباحثين ، وعددها بعضهم العامل
 الرئيسي في التوسع الذي قام به العرب ، يقول توماس أر نولد (٤) إن العرب

(١) سورة البقرة الآية ١٩٣ .

(٢) الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت : الإسلام والعلاقات الدولية ص ٣٧-٣٨ وانظر كتاب
 « الجهاد في التفكير الإسلامي » للمؤلف .

(٣) سورة التوبة الآيات ٤ - ٨ .

(٤) The Preaching of Islam p. 49

شعب نشيط فعال ، دفعته يد الجوع والحاجة إلى ترك صحاريه القاحلة واجتياح الأراضي الغنية للشعوب المجاورة المترفة .

ويقول داويت دونلدش^(١) : ونشك في الحقيقة فيما إذا كان الحماس الديني وحده كافياً لحملهم على القيام بهذه الغزوات الواسعة على البلاد المجاورة ، ويبدو أنهم واصلوا اندفاعهم بسبب الحاجة الاقتصادية الشديدة . ويقول الدكتور فيليب حتى^(٢) : إن الحاجة المادية هي التي دفعت بمعاشر البدو ، وأكثر جيوش المسلمين منهم ، إلى ما وراء تخوم البادية الفقراء ؛ إلى مواطن الحصب في بلدان الشمال ، ولئن كانت الآخرة أو شوق البعض إلى بلوغ جنة النعيم قد حجب لهم الوغى ، فإن ابتغاء الكثيرين لحياة الهناء واليدخ في أحضان المدنية التي ازدهر بها الهلال الحصب كان الدافع الذي حجب لهم القتال .

هل هذا الكلام صحيح ؟ وهل كان البدوي تواقاً إلى حياة الهناء واليدخ ؟ وهل ذلك كان الدافع لهذا البدوي أن يخرج ليهدم أكبر إمبراطوريتين عرفهما تاريخ العلم في ذلك الوقت ؟ نحب أن نقرر أن فكرة ربط الدعوة الإسلامية بالرغبة في الحصول على المال قديمة جداً ، بدأت منذ بدء الإسلام واتهم بها محمد نفسه قبل أن يهجم بها العرب والبدو بمدة طويلة ، ووجدت أدلة كثيرة تقوض هذه التهمة ، ولكنها مع ذلك لا تزال حية .

لقد اتهمت قریش محمدًا بأنه طالب مال وعرضت عليه ثرواتها لتكفه عن دعوته ، فصاح : والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت ذلك الأمر

وافقر محمد بعد غنى ، وافقر أبو بكر بعد غنى ، وافقر عمر الذي آل له السلطان على الإمبراطوريتين العظيمتين وظل يعيش في تقشف ظاهر ، وافقر عثمان بعد غنى عظيم ، ومع هذا بقيت التهمة بأن المسلمين حاربوا لأنهم كانوا طالبي مال وثراء .

وعند البدء في غزو فارس برزت هذه التهمة في عقل رسم قائد الفرس

(١) عقيدة الشيعة ص ١٨ .

History of the Arabs Vol. I, pp 195-196 (٢)

وظن أنه يستطيع أن يرضى هؤلاء البدو بحفريات من ذهب الفرس وينجو من قتالهم ، فطالب من سعد بن أبي وقاص أن يوجه إليه بعض أصحابه فوجه إليه المغيرة بن شعبه ، فقال رستم له قد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه إلا ضيق المعاش وشدة الجهد ، ونحن نعطيكم ما تشبعون به ونصرفكم ببعض ما تحبون^(١) والعجيب أن الدكتور حتى ذكر هذه القصة حجة لدعواه ونسى أن رأى رستم لا يمكن أن يكون دليلاً على المسلمين ، ونسى كذلك باقى الرواية حيث سخر المغيرة من رستم ومن رأيه ومن ماله ، وحيث صاحج به بالأمناس لكم من واحدة من ثلاث : الإسلام أو الجزية أو القتال .

والذى ظنه رستم ظنه فيما بعد ملك الصين عندما زحف قتيبة بن مسلم على هذه الأصقاع وأتاب عنه هيرة الكلابى لمقابلة ذلك الملك ، فقال له الملك : قل لصاحبك (يقصد قتيبة) إني عرفت حرصه وقلة أصحابه ، فليصرف وإلا بعثت عليه من يهلكه . فصاح به هيرة : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون ! وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاك ؟ وأما تخويفك إيانا بالموت فإن لنا أجالا إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه أو نخافه .

وعلى هذا فهذه التهمة قديمة وردها أيضاً قديم كما ترى ، على أننا لا نحاول أن ننكر أنه كان بين المحاربين العرب من كان يحب المال أو يسعى إليه ، ولكن الذى ننكره بقوة وإيمان هو أن يكون الدافع لهذه الحروب هو المال ، ومعنى الدافع هو القوة التى ترسم الخطط وتوجهه ، وهو كذلك الإحساس الداخلى الذى يحث المحاربين على العمل لتحقيق الأهداف التى رسمت لهم ، هذا الدافع كان إسلامياً صرفاً ، وإذا جاء المال فهو تابع له ولكنه لم يكن قط هدفاً لذاته ، ولعل Stanley Lane - poole كان أقرب المستشرقين إلى هذا الاتجاه إن تسليم فهو يقول : إن المحقق أن تهمس العرب للفتوح كان يؤججه عنصر قوى من التعصب للدين ، والرغبة فى نشره ، فقد حاربوا لأن مشوبة الشهداء وكثوس السعادة والنعم كانت تنتظر من يقتلون فى سبيل الله ، غير أننا

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٦٦ .

لأنستطيع أن ننكر أن ثروة الفياصرة والأكاسرة ، والأراضي الحصبة ، والمدن العامرة في الممالك المجاورة ، كانت عاملاً كبيراً في تحمس المسلمين (١) .

ربما كانت الرغبة في الثراء عند بعض المحاربين عاملاً ، ولكنها لم تكن قط الدافع الرئيسي لهذا الصراع ، ونضع فيما يلي بعض الأدلة لإبراز هذا الرأي .

أولاً - صارع المسلمون الشرك في قلب الجزيرة العربية أكثر من عشرين عاماً سقط فيها الكثيرون من خيرة المسلمين في الغزوات وحروب المرتدين والمتنبيين وماعى الزكاة ، وكانت كل هذه الحروب تدور في البادية الفقراء كما سماها الدكتور حتى ، بعيدة عن الأطلع في الأرض التي سماها مواطن الحصب وحياة الهناء بالشمال ، فما الدافع لكل هذه الضحايا ؟ أضف إلى ذلك أن المسلمين طالما حاولوا الانتصار دون حرب ودون غنائم كما سئرى في فتح مكة ، وطالما ردوا غنائم حصلوا عليها إذا أسلم أصحابها كما سئرى في غزوة حنين والطائف .

ثانياً - أى مال كان يمكن أن يتطلع إليه المسلمون والوصول إليه مخوف بالمخاطر ، وقد سبق أن أوردنا أن عمر بن الخطاب حينما دق بابنه أحد الصحابة وهو نائم ليلاً هب مذعوراً وهو يقول : ما هو ؟ أجاءت غسان ؟ وقد عاش البدو آلاف السنين في هذه الجزيرة القاحلة وكانوا يعرفون الخيرات في الشمال ، ولكن أحلام أحدهم لم تصل إلى أن يطمع أن يدك عروش الملوك وأن يجعلها تخضع لسلطان البدو الذين لا سلاح لهم ولا دربة ولا عدد ، في حين كان للروم والفرس جيوش جرارة ، وعتاد قوى ، ونظام كامل . وقد كان العرب لذلك يخافون حرب الروم ، وسئرى الهزيمة التي ستقع بهم في غزوة مؤتة ، وسئرى ترددهم في غزوة تبوك . وقد عبر عمر بن الخطاب وهو من هو قوة وبقينا عن قوة الروم بقوله : إنها الروم ربنا الأصفر ، عزم حديد وبأس شديد .

ثالثاً - لقد حافظ المسلمون قبل أن تكتسحهم الأطلع الدخية . على حياة التقشف والزهد ، وعندما حاصروا حصن يابليون بعد أن فرغوا من

الشام وغارس كانوا لا يزالون على بساطتهم وصفاتهم ، وقد أرسل لهم
التيوتس رسلا ليتعرفوا له أحوالهم فعاد الرسل إلى المقوقس وقالوا له : رأينا
قوماً الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس
لأحد منهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، جلوسهم على التراب ، وأميرهم كواحد
منهم ، ما يعرف كبيرهم من صغيرهم ولا السيد فيهم من العبد

رابعاً - طالت حرب المسلمين مع سكان شمال إفريقيا وامتدت ،
وسقط فيها عدد من الضحايا ، وكثير من بقاع الشمال الإفريقي صحراء قاحلة .
خامساً - لقد وقعت معارك شنيعة في داخل صفوف المسلمين ،
بدأت بموقعة الجمل واستمرت بعد ذلك ، وسقط آلاف الضحايا في هذه
المعارك ، وما كانت تضيف أرضاً خصبة ولا حياة هناء وبذخ .

ما الدافع الحقيقي لهذه الحروب ؟

إنها العقيدة التي رخص من أجلها كل شيء ، إنها الرغبة في الحصول على
إحدى الحسينين ، وهانت من أجل ذلك كل تضحية ، لقد كانت هناك أطماع
مالية ، ولكن هذه بدأت متأخرة وكانت عند من لم يتعمق الإيمان في نفسه ،
وكانت على العموم عاملاً ثانوياً ، من ذا الذي يحمل رأسه على يده ويقابل بها
أقوى جيوش الدمار والفتك لينال من بذخ العيش في أحضان الهلال
الخصيب ، والتاريخ الإسلامي مملوء بقصص البطولة ، وبهؤلاء الذين نسيمهم
بالفدائين الذين يلقون بأنفسهم في مراكز الخطر ليهلكوا وينجو الإسلام
وترتفع راية هذا الدين ، أين المال وترف الدنيا لهؤلاء الشهداء ؟

وقد استمرت الحروب دائرة بين الفرس والروم مئات السنين ، وكانت
حروب أطماع ودنيا ، ولكن هؤلاء أو أولئك لم يستطيعوا أن يحرزوا نصراً
مؤزراً ، لشيء واحد هو قلة العقيدة ؛ فلما هاجمهم البدو بسلاح العقيدة
غلّ سلاحهم كل سلاح وتهافت جيوش الفرس والروم تحت أقدامهم .

والآن بعد أن أوضحنا براءة الإسلام من تهمة انتشاره بالقوة ، وأوضحنا
أن العامل الاقتصادي لم يكن هدف المسلمين وسبب انتصارهم ، وأوضحنا
السبب في الحروب التي قام بها الرسول وأصحابه من بعده ، نخطو خطوة

جديدة لتقدم دراسة عن الحروب التي تمت في عهد الرسول . ثم نقيعها فيما بعد - عند الكلام عن الخلفاء الراشدين - بالحديث عن الحروب التي وقعت ضد الفرس والروم .

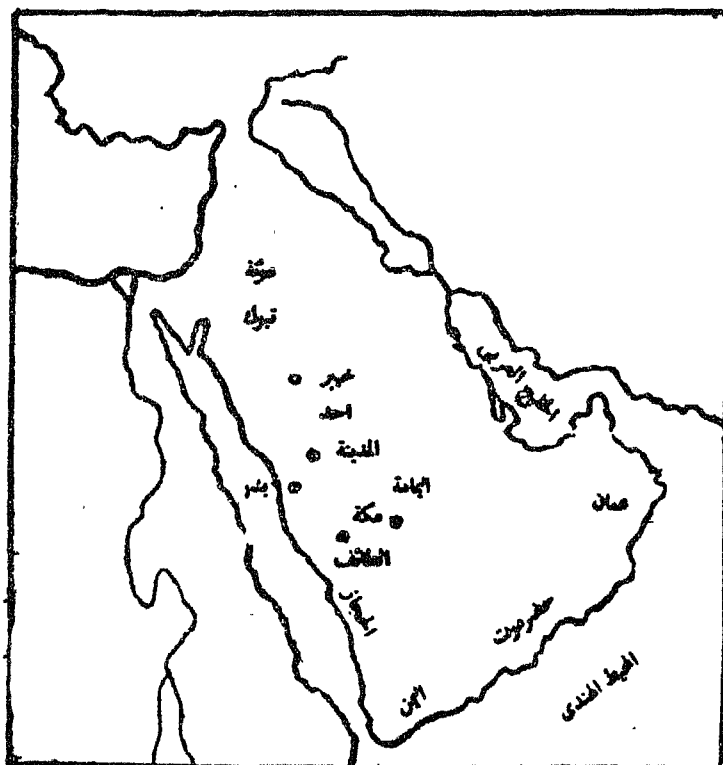
الغزوات والسرايا

تطلق الغزوة على الجيش الذي قاده الرسول بنفسه لمقابلة عدو ، سواء حصل قتال أو لم يحصل ، أما السرية فتطلق على الجيش الذي وكل الرسول عنه نائباً لرياسته . وهذا اصطلاح غالب ، فقد تطلق كلمة « غزوة » على ما هو في الحقيقة سرية . كغزوة مؤتة .

وكتابة تاريخ الغزوات أو تدريسها يختلف باختلاف ثقافة القارئ أو الطالب ، فإذا كانت الكتابة بالمجلات العسكرية أو كان التدريس بالكلية العسكرية فإن الاهتمام يتجه للمواقع الاستراتيجية . والتكتيك الحربي ، والحيل التي يقوم بها كل فريق رجاء النصر ، كما يتجه لدراسة التدريب والأسلحة والإمدادات وغير ذلك ، ولكن كتابة تاريخ الغزوات والسرايا أو تدريسها للمدنيين يختلف عن ذلك ، لأنه يتجه أكثر ما يتجه إلى دراسة نتائج المعركة لا إلى سيرها ، ويعتني بإيضاح ما ترتب على النصر أو الهزيمة من نظم وحضارات أما سير المعركة فليس كبير الخطر بالنسبة هؤلاء ، وتستغنى في دراسة الغزوات والسرايا هنا بالاتجاهين جميعاً ، مولين أهمية أكبر إلى ما ترتب على التوسع الإسلامي من سير الإسلام وانتشار حضارته .

ويقول المؤرخون إن الرسول اشترك في سبع وعشرين غزوة وقاتل في تسع منها : وإنه أرسل ما يقرب من ستين سرية ، ولا نزاع أن بعض هذه لم يكن بعيد الخطر ولم يذكر عنه المؤرخون معلومات كافية ، ولذلك سنكتفي هنا بالحديث عن الغزوات والسرايا ذات الأثر في سير الإسلام وتقدم المسلمين^(١) (انظر الخريطة رقم ٣) .

(١) اورد ابن القيم معلومات كافية منظمة عن مغازي الرسول وبعوثه . انظر زاد المعاد : الجزء الثاني والثالث ، وانظر الغزوات والسرايا في ابن هشام ٣ : ٣٥٤ وما بعدها .



(خريطة عظم ٢)

مواليم أشهر الفزوات

غزوة بدر الكبرى

زمنها : في السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة .
مكانها : عند بئر بين مكة والمدينة ، وكانت هذه البئر مملوكة لرجل اسمه بدر فسميت باسمه^(١) .

مقدمة :

في شهر إبريل سنة ١٩٧٧ أتيح لي أن أزور مواقع هذه الغزوة ، وأن أرى بئر بدر وأمس ماءها ، وماؤها لا يزال يندفع ، ولكن المجري الذي يستقبل هذه المياه بعيد عن النظافة ، ورأيت كذلك المكان الذي دارت فيه المعركة بين الحق والباطل ، والمكان الذي دفن فيه شهداء بدر ، وقرأنا لهم الفاتحة وبعض سور من القرآن الكريم ، كما رأينا المسجد الذي يقال إنه بنى في مكان العريش الذي كان الرسول يدبر منه المعركة .

ولقد تخيلت وأنا هناك أبطال المسلمين الأول وهم يسخرون من قوة أعدائهم ويقابلونهم بقلوب ملؤها الإيمان، فيُنزلون بهم بعون الله أفدح هزيمة .
ما أحوجنا قادة وشعباً إلى التعرف على أمجاد السابقين لنتنصر على شراذم البشر من الصهاينة الذين اغتصبوا الديار وهاجروا الذمار .

سبب غزوة بدر :

إن غزوة بدر كانت نتيجة طبيعية للهجرة إلى المدينة ، فقد أرادت قريش أن تقتل محمداً وهو بنكة ، ولكن محمداً نجا من هذه المؤامرة وهاجر إلى المدينة ، وأصبح المدينة مركزاً إسلامياً حراً طليقاً ، وهو بالإضافة إلى تهديده لأوثان قريش ، يهدد تجارتها الصاعدة والهابطة بين مكة والشام ، وإذا نجح المسلمون في تهديد تجارة قريش ، وحبسوا تجار مكة بحيث لا يصعدون للشمال ، فالويل والبوار لهؤلاء التجار ولتجارهم ، ومن

(١) ياقوت : معجم البلدان : ١٢٨ .

أجل هذا أصرت قريش على أن تقضى على هذا المركز الجديد الذى يهدد حياتها الدينية والاقتصادية جميعاً ، وراحت تُعيدُ العدة لزحف يكتسح من الطريق هؤلاء الذين يريدون أن يربضوا فيه .

هذا من جهة قريش ، وأما من ناحية المسلمين فإن تاريخهم يقرر أنهم احتملوا ألواناً من الضغط والعدوان إبان إقامتهم في مكة ، فلما اشتد عليهم الطغيان تركوا ديارهم وأموالهم ، وهاجروا بدينهم إلى المدينة ، ولكن قريشاً لاحقهم ، ودبّرت الوسائل للقضاء عليهم بالمدينة حتى لا يهددوا تجارتهم وحتى لا يستمروا في ذم آلتهم ، فوجد المسلمون أن القوة هي الطريق الوحيد لحمايتهم بعد أن عجزت كل الطرق السلمية لمنحهم هذه الحماية . وهكذا يرى الباحث أن الأمر قد أصبح بحيث صارت المعركة هي الشيء الوحيد الذى يحسم الأمر ، وأن هؤلاء وأولئك استقر رأيهم على النزول إلى ميدان القتال ، ليحدد ذلك الميدان نتيجة هذه الخصومة الطويلة .

وحدثت حادثة صغيرة يمكن أن نسميها (القشة التى قصمت ظهر البعير) تلك هي حادثة قافلة قريش التجارية ، التى كانت عائدة بتجارها من الشام إلى مكة ، وكان يقودها أبو سفيان بن حرب ، فقرر المسلمون أن يعترضوا طريقها ليشتموا لقريش قوتهم ، ولينالوا من أموالهم إن أمكن ذلك ، لتظفر أموال المسلمين التى سلبها قريش عقب هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة ، إذ كان المشركون قد استولوا على أموال من هاجر من المسلمين ، حتى أن الرسول عندما عاد لمكة معتمراً في العام السابع سأله أسامة : فى أى المنازل تنزل ؟ فأجاب : وهل ترك لنا عقيل منزلاً ؟ نحن نازلون بوادى كنانة . فقد كان عقيل قد استولى على منزل الرسول وباعه ، كما استولى هو وأخوه طالب - وكانا كافرين - على منازل أبيهما أبى طالب وحرماً منها أخويهما علياً وجعفر المسلمين (رواه البخارى) .

وعلى هذا خرج المسلمون للملاقاة القافلة ، ولكن أبا سفيان علم بخروجهم عن طريق عيونه وجواسيسه الذين كانوا يتقدمون القافلة ، فأرسل إلى مكة يطلب من قريش أن تسرع لحماية أموالها التى يريد المسلمون أن يأخذوها ، فخرج جيش قريش ، وكان عدده حوالى الألف فيهم أبطال

قريش وعظاؤها . وفي الوقت نفسه استطاع أبوسفیان أن يغير الطريق الذي قصده المسلمون ، وأن يتجه محاذياً البحر وينجر بتجارته .

الجيشان والمعركة :

أفلتت تجارة قريش كما قلنا ، ولكنها في الحقيقة لم تكن الهدف الأساسي الذي تحرك له الجيشان ، ولو كانت الهدف الحقيقي لعادت قريش بعد أن نجحت تجارتها ، ولعاد المسلمون بعد أن يشعروا بالاستيلاء على هذه التجارة ، وعلى كل حال فقد أفلتت القافلة التجارية ولكنها تركت في وادي بدر جيشين على أهبة القتال ، وكل من هذين الجيشين تدفعه عوامل عميقة ليحارب جاهدا رجاء أن يقضى على الجيش الآخر ، وكل من هذين الجيشين يدرك ألاطمأنينة له ولاهدوء ، وهناك الجيش الآخر يربص به ، حتى أصبحت المسألة قضية حياة أو موت . تعال بنا نستعرض بإيجاز الدوافع الحقيقية التي كانت وراء كل من هذين الجيشين .

فمن ناحية قريش أصبحت شكوكهم حقائق مؤلمة لهم ، لقد كانوا يخافون هجرة المسلمين ظنا منهم أن المسلمين سيعترضون طريق تجارتهم ويهددون حياتهم الاقتصادية ، فأصبح هذا الشك حقيقة واقعة ، فإن محمداً ما كاد يستقر بأصحابه بالمدينة حتى خرج بهم وبدأ يهدد القوافل التجارية ويحاول الاستيلاء عليها ، ولذلك لم يكن هنالك بدٌّ من أن تحارب قريش المسلمين لتقضي عليهم ولتعيد الأمن لطرقها التجارية .

ولايزال هتاف الأصنام يدوى في عقول قريش ، ويحثهم على الانتقام لآلهتهم التي أوْشك أن ينتصر عليها إله المسلمين .

وكان أبو جهل من القادة في جيش قريش ، وعداوة أبي جهل للإسلام قديمة وعميقة ، ورثها عن عمه الوليد بن المغيرة صاحب الثروة الضخمة التي تحدث عنها القرآن الكريم في الآيات : . . . وجعلت له ملامدوداً ، وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً (١) فن الضروري لأبي جهل أن يحرس

أفكاره وأفكاره ، وماله ومال ذويه ، وأى حراسة أهم من القضاء على
العدوان الذى يجثم فى الطريق يهدد التجارة الهابطة والصاعدة ؟

وفى المعسكر الآخر بوادى بدر كان يقف ٣١٤ رجلاً بعضهم من الأنصار
الذين تتعرض مدينتهم لهجوم غادر ، وأكثرهم من المهاجرين الذين كظموا
القيظ مهنين طويلة ، واحتملوا الاعتداء المتصل المتلون بمكة ، ثم هاجروا
إلى المدينة تاركين المال والأهل ، وإذا بجيوش قريش تلاحقهم .

هل كان من الممكن أن يرتد هذان الجيشان مع هذه الدوافع دون قتال ؟

الجواب . لا ، وهذا ما كان .

بيد أنه فى هذه المواجهة برز شيء جديد ، هو عدم التكافؤ بين الجيشين
المتقابلين من ناحية العدد ، ومن ناحية الاقتصاد ، ومن ناحية الحماس المترتب
عليهما ، فمن ناحية العدد لم يكن فى مقدور المدينة وحدها أن تقاوم قريشاً
وأتباعها ، ومن ناحية الاقتصاد كان جيش المسلمين مثقلاً بتبعات عظام ،
فإن المدينة لم يكن من السهل عليها أن تؤوى المهاجرين كلهم ، وتمدهم
بالحاجات الضرورية فى تلك الفترة الوجيزة من هجرتهم حتى مطلع هذه
المعركة . وفى الجانب الآخر كان اقتصاد مكة راسخاً قوياً يمدهم بما يحتاجه
المعارك من سلاح وطعام ووسائل مختلفة ، ومن ناحية الحماس كانت قريش
قوة صاخبة يحسب لها ألف حساب ، تزجروا وتتلهم على النيل من المسلمين ،
ولم يكن سهلاً على القلة المسلمة أن تواجه هذه الزجوة وهذا الصخب ،
وكانت قريش تحظى بتأييد كافة العرب ضد المسلمين الذين كانوا يُعدّون
فى نظر الكثيرين متمردين على الوثنية المألوفة .

وهنا تدخل يد الله لترجع الكفة التى كانت شائلة ، ولتقوى
الجماعة التى أحست الضعف ، وفى سورة الأنفال آيات كريمة تصور حالة
المسلمين ، كما تصور قوة الله وهى تدخل المعركة وترجع جانب المسلمين
على جانب قريش ، قال تعالى :

— إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة

مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ، إذ يفتشكم الناس أمة منهم ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ، ويثبت به الأقدام ، إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألني في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان (١)

— إذ يريكمهم الله في منامك قليلاً ولو أراكمهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ، ولكن الله سلم ، إنه عليم بذات الصدور ، وإذ يريكمهم إذ التفتيم في أعينكم قليلاً وبقلالكم في أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ، وإل الله ترجع الأمور (٢) .

والناظر في هذه الآيات يرى المدد المادى الذى قدمه الله لأهل بدر من المسلمين ، إذ بعث لهم ملائكة تقاتل في صفوفهم ، كما يدرك المدد المعنوى الذى أمدهم الله به ، فقد أرى رسوله في منامه أن عدد قريش قليل ، فشجعت هذه الرؤيا المسلمين على خوض المعركة ، وأبعدت التنازع من صفوفهم بعد أن طمأنتهم هذه الرؤيا إلى قلة عدد أعدائهم ، وفي نفس الانجاء حجب الله الرؤيا جزئياً عند اللقاء فرآهم المسلمون قليلاً ، وشجعهم ذلك على خوض المعركة ، ومثل هذا حدث لقريش فقد رأت المسلمين أقل من الحقيقة فاستخفوا بهم ، ثم هناك أيضاً القوة المعنوية التى ثبتت المسلمين وألقت الرعب في قلوب قريش .

ومن أجل هذا نقرر أن قوة الله كانت في المعركة وبها تحقق النصر قال تعالى : فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى (٣) .

(١) سورة الأنفال الآيات ٩ - ١٢

(٢) نفس السورة الآيات ٣ - ٤٤ .

(٣) نفس السورة الآية ١٧ .

عود إلى المعركة :

وتحدثنا الروايات التاريخية عن بعض الجهورد التي بذلها حكيم بن حزام وآخرون لمنع الحرب ^(١) ، ولكن هذه الجهود توقفت بسبب إصرار أبي جهل على الحرب ^(٢) ، وسرعان مابرز من قريش ثلاثة يعدون من خيرة أبطالها ، وهم ينتسبون إلى محد رفيع وأرومة عريفة ، وهم في الوقت نفسه أساطين بيت واحد ، أولئك كانوا : عتبة بن ربيعة وابنه الوليد وأخوه شبة ، وعتبة هذا جد معاوية بن أبي سفيان لأمه ، فهو أبوهند ، والوليد أخوها ، وشيبة عمها . وانخلع هؤلاء الأبطال من معسكر قريش واتجهوا إلى الفراغ الذي يفصل بين الجيشين وصرخوا في المعسكر الإسلامي : من يبارز ؟ .

ولم يكن من الممكن أن يحتفل المسلمون هذا التحدي ، وهم الذين هانت عليهم الدنيا . وضخوا بأعلى ما فيها ، بالمال والبنين من أجل العقيدة ، وحينئذ اختار الرسول من معسكره ثلاثة قريبي الصلة به ، وقدمهم للمبارزة ، وكان هؤلاء عمه حمزة وابني عمه عبيدة بن الحارث وعلى بن أبي طالب ، ودار صراع عنيف بين هؤلاء الأبطال الستة ، وثار الغيار وكثف حتى لم يعد الناس يستطيعون رؤية المتبارزين ، وكان لمعان السيوف يبدو للناس بين الغبار كأنه البرق بين الغمام ، وكانت صيحات الأبطال تشق الفضاء الصامت حولهم بعد أن خيم على الناس الرجوم والخذر ، ثم انجلت الموقعة عن قتل المشركين الثلاثة : قتل على قرنه الوليد ، وقتل حمزة قرنه عتبة ، وسقط شبة بسيوف الثلاثة ، وعاد حمزة وعلى سالمين وأصيب عبيدة بجراح بليغة مات بها ^(٣) .

وصارت تلك المبارزة عاملاً كبيراً يدعوا للحرب له فرؤية الدم أثارت الحمية والحماسة في الجانبين ، وهزيمة أبطال قريش كانت العار كل العار ، وبنو

(١) ابن هشام ٢ : ٦٧ وابن القيم : زاد المعاد ٢ : ٨٨

(٢) المرجعان السابقان .

(٣) ابن هشام ٢ : ٦٧ .

عبد شمس أصحاب العير والنفير الذين يضرب بهم المثل في القوة ما كان لهم أن يعودوا في ذلك الجؤ من الخزي والهزيمة .

وعلى هذا التقى الجيشان ، ودار صراع مرير ، بين القوة في جانب قريش ، والعقيدة في جانب المسلمين ، بين اعتداء المشركين ودفاع المسلمين ، أو قل بين جماعة قريش التي تستطيع أن تعيش إن انهزمت أو انتصرت ، وبين المسلمين الذين كانوا يدركون أنهم إن انهزموا فعنى ذلك فناؤهم والقضاء عليهم وعلى الدين الذي اعتنقوه ، وفي ضوء هذه الدوافع سجل المسلمون انتصاراً باهراً ، ومزقوا شمل عدوهم ، وقتلوا سبعين من خيرة أبطالهم فيهم القائد أبو جهل ، الذي أجهز عليه عبد الله بن مسعود ^(١) ، وفيهم كذلك أمية بن خلف الذي خر بسيف بلال ، فانتقم بذلك بلال لنفسه من التنكيل الذي عاناه قبل الهجرة من أمية بن خلف سالف الذكر ^(٢) ، أما المسلمون فسقط منهم أربعة عشر شهيداً ، وأسر من المشركين جملة من عظمائهم فدوا أنفسهم بالمال وغير المال صاغرين ، وكانوا على وشك أن تضرب رقابهم لولا سماحة محمد وشفاعة أبي بكر ^(٣) ، ولم يقتل من الأسرى إلا اثنان هما النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط ، فقد كانا شديدي السخرية والإيذاء للرسول وللمسلمين في مكة .

أهمية غزوة بدر :

من الممكن أن نقول إن غزوة بدر هي الغزوة الوحيدة التي انتصر المسلمون فيها انتصاراً حقيقياً ، وقد سقط من المسلمين عدد كبير في غزوة أحد ، وأحاط بهم الأحزاب في غزوة الخندق حتى أصابهم ألوان من العناء ، وانسحبوا في غزوة مؤتة ، وغير ذلك . ولكن هزائمهم هذه لم تضعف شوكتهم بعد أن رسخت أقدامهم

(١) التوحي تهذيب الأسماء القسم الأول ج ١ ص ٢٨٨ .

(٢) التوحي : تهذيب الأسماء ص ١٣٦ . وفي بعض الروايات أن الذي قتل أمية

هو حبيب بن اساف الخزرجي .

(٣) اقرأ موضوع أسرى بدر في كتاب المجتمع الإسلامي للمؤلف : وائراء كذلك

في زاد المعاد لابن القيم ٢ : ٦٧ .

بالانتصار الذي أحرزوه في غزوة بدر ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدرك أهمية هذه الغزوة تمام الإدراك ، ولذلك كان يهتف مناجياً ربه والمعركة تلور : يارب ، إن تهاك هذه الطائفة فلن تعبد في الأرض^(١) .

ومن هنا تتضح أهمية هذه الغزوة ، تلك الأهمية البالغة التي كانت أساساً متيناً لمستقبل الإسلام ، ولذلك سماها القرآن الكريم « يوم الفرقان » قال تعالى : (ويوم الفرقان يوم التقى الجمعان)^(٢) ، ويسمى المسلمون « غزوة الفرقان » لأن الله فرق بها بين الحق والباطل ، ومن أجل هذا اهتم المسلمون بذكرى هذه الغزوة ولا يزالون يحتفلون بها في كثير من بلدان العالم الإسلامي حتى اليوم ، وقد سمي كل من حضرها^(٣) من المسلمين « بدرياً » وكانت هذه التسمية شرفاً لا يعدله شرف ، ولو هزم المسلمون في هذه الغزوة لكان من المحتمل أن يتغير وجه التاريخ ، كما أشار لذلك حديث الرسول الذي أوردناه آنفاً وقد كان عون الله أكبر أسباب النصر الذي أحرزه المسلمون ، وقد سجل القرآن الكريم عون الله في الآية الكريمة (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة)^(٤) .

ومن أهم آثار غزوة بدر أن اليهود أزعجهم انتصار المسلمين فأخذوا يصغرون من شأن هذا الانتصار حتى لا يغتر به المسلمون ، وقد أدى ذلك إلى إخراج بني قينقاع كما سبق القول ، كما أدرك اليهود أن هزيمة قريش تحتم على اليهود أن يدخلوا الميدان محاربين بعد أن ضعف أملهم في أن قريشاً ستستطيع

(١) ابن هشام : ٦٨ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٤١ .

(٣) شخص واحد لم يحضر غزوة بدر ولكنه عد « بدرياً » وهو طلحة بن عبيد الله فقد سافر قبلها بأمر الرسول في تجارة إلى الشام ، ولعل ذلك كان وسيلة من الوسائل التي قام بها المسلمون لتخفيف الضائقة المالية التي كان يعانيها المهاجرون بالمدينة ، واختيار طلحة لذلك له مغزى ، فقد كان معروفاً في مجال التجارة بدقة الحس والمهارة ، وقد عده الرسول من أجل ذلك « بدرياً » وضرب له بأجره (ابن حجر : تهذيب التهذيب وابن هيد البر : الدرر) .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٢٢ .

وحدها القضاء على الإسلام والمسلمين ، فبدءوا يدبرون المكائد للقضاء على الرسول وعلى الدين الذي جاء به كما ذكرنا آنفاً

من أحداث غزوة بدر

الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم :

هناك فتية دخلوا الاسلام بمكة من بنى أسد وبنى مخزوم وبنى سهم ، فلما هاجر الرسول إلى المدينة حبسهم آباؤهم وأهلهم بمكة ، وفتنهم فافتنوا ، ثم ساروا مع المشركين إلى غزوة بدر ، فأصيبوا جميعا ، ونزل فيهم قوله تعالى « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا » (١) .

نهاية أمية بن خلف وابنه على :

قبيل نهاية غزوة بدر أدرك أمية بن خلف هو وابنه على أن الدائرة دارت على قريش ، فألقيا نفسيهما أسيرين في يدى عبد الرحمن بن عوف ، وأطمعاه في فدية واسعة ، وفرح بهما عبد الرحمن ، ولكن بلالا مؤذن الرسول رآهما فصاح : ، رأس الكفر لانبجوت أن نجما ، وكان أمية يعذب بلالا بمكة أقسى العذاب ليخرجه من الاسلام ، ولكن بلالا احتمل في سبيل الله ، وجاء الدور لبلال ليثار لنفسه في هذه الغزوة ، وتجمع آخرون من المسلمين معه ، وحاول عبد الرحمن أن يحمي أسيريه رغبة في الفداء ، ولكن بلالا وأعوانه تكاثروا على أمية وابنه ، وقضوا عليهما (٢) .

هجرة في بدر :

عندما ألقى أمية بن خلف نفسه أسيرا في يد عبد الرحمن بن عوف ، وقبل أن يقتله بلال ، سأل أمية عبد الرحمن قائلا : من الرجل منك

(١) ابن هشام - ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ والآية من سورة النساء رقم ٩٧

(٢) ابن هشام - ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

المعلم بريشة نعامه في صدره ؟ فأجاب عبد الرحمن : هو حمزة بن عبد المطلب قال أمية : ذلك الذي فعل بنا الأفاعيل (١) .

المسلمون قتلوا أقاربهم المشركين في بدر :

ذكرنا من قبل أن أبا عبيدة بن عبد الله بن الجراح قتل أباه في غزوة بدر عندما رأى أن أباه يتصدى له ويحاول قتله ، ولم يكن ذلك هو المثال الوحيد لقتل الأقارب ، فيروى أن عمر بن الخطاب قتل أخاه سعيد بن العاص ، وكان سعيد من سراقة قريش وسادتهم ، وفي هؤلاء نزل قوله تعالى « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حادَّ الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه » (٢) .

الرسول يوحى بعدم قتل بعض قريش :

طلب الرسول صلوات الله عليه إلى المسلمين أن يتحاشوا بقدر الإمكان قتل أعداد من القرشيين كانوا في صفوف المشركين يوم بدر ، وكان ضمن هؤلاء بنو هاشم لشدة ما عانوا مع المسلمين وهم يحمون محمداً في مكة ، ولأن بعضهم كان مسلماً يكتُم إسلامه بأمر الرسول ليظل عيناً للمسلمين ، وكان ضمنهم كذلك أولئك الذين بذلوا جهداً لتقص صحيفة المقاطعة حينما كان المسلمون في الشَّعب يعانون الفاقة والجوع (٣) .

مصائب أبي سفيان وزوجته في بدر :

كانت مصائب أبي سفيان وزوجته هند في غزوة بدر مصائب شديدة قاسية ، فقد قتل عتبة بن ربيعة سيد قومه والدهند ، كما قتل عمها شيبة وأخوها الوليد ، وقتل حنظلة بن أبي سفيان ، وأسر ابنه عمرو ، ولذلك لما طُلب إلى أبي سفيان أن يفتدى ابنه عمراً قال : أجمع على دى ومالى ،

(١) المرجع السابق ص ١٩٩ .

(٢) سورة المجادلة الآية ٢٢

(٣) سيرة ابن هشام - ٢ ص ٢١٠

قتلوا حنظلة وأفدى عمرا ؟ وحدث أن ذهب شيخ مسلم اسمه سعد بن النعمان إلى مكة معتمرا ، فأخذه أبو سفيان وحبسه وقال : لا أطلقه حتى يطلقوا . عمرا ، وذهب أهل سعد للرسول وطلبوا منه أن يعطيهم عمرا ليفتدوا به صاحبهم ، فاستجاب لهم الرسول^(١) .

نهاية أبي هلب :

كان أبو هلب قد تخلف عن معركة بدر ، وأرسل مكانه العاصي بن هشام ابن المغيرة ، وكان أبو هلب يجلس قلقا ينتظر الأخبار ، فرأى أبا سفيان ابن الحارث عائدا من المعركة ، فقال له أبو هلب : هلم إلى ، فعندك لعمرى الخبر ، فجلس إليه أبو سفيان وأحاط الناس بهما ، فقال أبو هلب : يا ابن أخي ، أخبرني كيف كان أمر الناس ، فأجاب : والله ما هو إلا أن لقينا القوم حتى منحناهم أكتافنا فأخذوا يقتلون فينا ويأسرون كيف شاءوا ، وأيم الله مع ذلك ما ملت الناس ، لقد كان مع محمد رجال بيض على خيل بلق بين السماء والأرض ، والله ما تبتى شيئا ، ولا يقوم لها معارض فاغتم أبو هلب وقام موليا ذليلا ، وما عاش بعد ذلك إلا سبع ليال ، ثم مات^(٢) .

ويقال أنه مات بمرض معد جعلت الناس يتحاشون لمس جثمانه بعد موته ، ويجذبونه بفراشه ويدفعونه بالعصى إلى حفرة .

كعب بن الأشرف يحرض للنار :

كان كعب بن الأشرف أعظم شعراء بني النضير وكان يهجو الرسول والمسلمين ويُشَبِّب بالحرائر من المسلمات (يتغزل فيهن) ، وبعد بدر ذهب إلى مكة ، وهناك أخذ يتدب قتل قريش ويحرض على الأخذ بثأرهم .

وأحس الرسول خطر هذا الرجل فقال : من يكفيني ؟

(١) المرجع السابق ص ٢١٣ .

(٢) سيرة ابن هشام ص ٢١٠ .

قال محمد بن مسلمة الأنصاري : أنا لذلك يارسول الله .

قال الرسول : افعل إن استطعت .

فقال محمد بن مسلمة : فأذن لي يارسول الله أن أنقول ببعض ما لا أعتقد حتى أجد طريقاً لثقة الرجل . فأذن له الرسول بذلك ، وبدأ محمد بن مسلمة يعقد صداقة صورية مع عدو الله ، ويظهر له أن الأنصار نالهم الضرر بسبب ترحيبهم بمحمد وبالمسلمين وخشع عدو الله اليهودي بذلك فشجع محمد بن مسلمة ليقوم بعمل ضد المسلمين بالمدينة في الوقت الذي تنجده قريش للثأر لقتلاها .

وفي لقاء أعده محمد بن مسلمة أيوهم كعب بن الأشرف بتنظيم خطة العمل بالمدينة ، خلا المكان لمحمد ورفاقه بكعب فتناول محمد ناصيته بقوة وسرعان ما اعتورته سيوف المسلمين وأتت عليه .

غزوة بدر وتعاليم الحروب في الاسلام :

وضعت سورة الأنفال التي نزلت في هذه المعركة ، أدق التعاليم الإسلامية للحروب ، ومن هذه التعاليم مايلي :

— الاستعداد للقاء العدو بكل ما ينبغي من أهبة قال تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)^(١) .
— الوحدة وعدم التنازع والشقاق ، وإذا كانت هذه الصفات لازمة في كل حال ، فهي عند الحروب ألزم ، قال تعالى (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين)^(٢) .

— الثبات في المعركة حتى النهاية بحيث يكون المسلم كالطود الأشم ، |

(١) سورة الأنفال الآية ٦٠ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٢٦ .

ينتصر أو يقتل وهو يصارع ، قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) (١) .

— إذا اشتد بالمسلمين الأمر والمركة تدور فليذكروا الله ، فإنهم يقولون بذكره ، قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) (٢) .

غزوة بدر والتشريع :

ارتبطت ألوان من التشريعات الإسلامية السامية بغزوة بدر ، ونورد هنا من هذه التشريعات بعض النماذج :

أولاً — المشورة وأن ينزل الرئيس عن رأيه إلى رأى المرءوسين إذا كان فى ذلك الخير للمسلمين ، فقد حدث فى غزوة بدر أن أراد الرسول أن ينزل بجندوه منزلاً ، فسأله الحباب بن المنذر : هل أنزلك الله هذا المنزل أو هو اجتهاد من عندك ؟ فأجاب الرسول بأنه اجتهاد من عنده ، فقال الحباب : أما إذا كان الأمر كذلك فليس هذا بمنزل ، وأشار بمكان آخر هو مكان بدر ، وارتضى المسلمون هذا المكان ، فانتقل له الرسول بجيشه .

ثانياً — تحذير المسلمين من أن يتطلعوا للأهداف المادية فى الحروب ، بل أن يكون هدفهم النصر لإعلاء لكلمة الله ، قال تعالى (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين) (٣) .

(١) سورة الأنفال الآية السابعة .

(٢) سورة الأنفال الآيتان ١٥-١٦ .

(٣) سورة الأنفال الآية ٤٥ .

ثالثاً - التشريع في توزيع الغنائم وقد ورد ذلك في قوله تعالى (واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) (١) .

تلك هي غزوة بدر وذلك حديثها بإجمال ، إنها معلم من معالم العظمة في التاريخ الإسلامي ، وموقف بطولي وقفته قوة صغيرة فسحقت قوة عاتية جبارة ، وحمى الدمار بعد أن عجزت العدالة والسياسة عن الحماية ، وسيظل رجالها قدوة للشبان المسلمين الذين يريدون الخلود ولو ضحوا بأنفسهم في سبيل الدين والوطن ، فقد برهنت غزوة بدر على أن إطالة العمر ليست ببضع سنوات يضيفها الإنسان بالجن ، فذلك هو الموت الحقيقي ، وكم من أحياء هم في الحقيقة أموات ، وإنما إطالة العمر تكون بتحقيق هدف وخلود ذكر ، فالموت لا بد أن يطوى الشجاع والجبان ، والسعيد هو الذي يتغلب عليه بذكر طيب يبقى على مر الزمن ، وستكون قوة الله دائماً مع المسلمين في المعركة لو اتجه المسلمون لله وعملوا على نصر دينه قال تعالى (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) (٢)

(١) سورة الأنفال الآية ٤ .

(٢) سورة محمد الآية السابعة .

غزوة أحد

زمنها : في منتصف شوال من السنة الثالثة للهجرة .

مكانها . سفح جبل أحد الذي يقع في الشمال من المدينة .

سببها : كانت هزيمة قريش في غزوة بدر كارثة قاسية عليهم ، وقد عقدوا العزم منذ ذلك التاريخ على الأخذ بالثأر ، وقد أفلتت قافلة التجارة التي سببت غزوة بدر ، ولكن المسلمين عرفوا الطريق الذي سلكه أبو سفيان بالقافلة وقرروا أن يعترضوه ، وحاول صفوان بن أمية بن خلف أن يتخذ طريق نجد إلى العراق ، ولكن المسلمين واجهوه أيضاً وغنموا ما في القافلة من بضائع .

ومن هنا انجبت كل القوى القرشية للملاقاة المسلمين في حرب أخرى ورصدوا لهذه الحرب أموالاً جمة ، بل رصدوا لها أسنة شعراء الكفر مثل ابن عزة الجمحي وسافع بن عبد مناف ^(١) .

وكانت قريش تخاف أن تتكرر هزيمة بدر ، ولذلك نجدهم يستعدون لغزوة أحد استعداداً كبيراً ، فيجمع أبو سفيان حوله ثلاثة آلاف من المقاتلين من قريش ومن عرب تهامة ومن الأحابيش ، والأحابيش هم بنو الحارث وبنو الهون من كنانة وبنو المصطلق من خزاعة ، والكنمة مأخوذة من تحبشوا أي تجمعوا ^(٢) . كما صحب أبو سفيان نساء كبرائهم حتى يكون ذلك حائلاً دون فرار الرجال ، كما كانت تقضى بذلك عادة العرب ^(٣) .

ولما سمع الرسول بقدوم هذا الجيش استشار أصحابه فيما يفعل ، فأشار الشبان ومن لم يحضر بدرأ عليه بالخروج للملاقاة جيش الأعداء ، وأشار

(١) ابن هشام ٢ : ١٢٦ وتاريخ الطبري ١ : ١٨٧

(٢) الروض الأنف ٤ : ٢٣١ .

(٣) ابن هشام ٢ : ١٢٦ - ١٢٧ . وابن القيم ٢ : ٩١

بعض الصحابة أن يتحصن المسلمون بالمدينة وأن يتولوا الدفاع من دورها وحاراتها . وكان الرسول يميل إلى هذا الاتجاه ولكن الاتجاه الأول حظى بتأييد أغلب المسلمين وبخاصة من لم يحضر بدرأ رجاء أن يتأولوا ما ناله البديريون من شرفه ، وعلى هذا خرج الرسول ومعه ألف مقاتل ، ولكن سرعان ما عاد عبد الله بن أبي بن سلول ومعه جماعة من المنافقين وكان هؤلاء حوالى ثلث الجيش وكانت حجة عبد الله في عودته هي أن الرسول عصاه واتباع رأى الولدان الذين أشاروا بمواجهة الأعداء خارج المدينة ، وسارت المئات الباقية ولكن في تناقل ظاهر سببه هذا الانقسام الذى أحدثه المنافقون^(١) وقد ذكرنا ذلك عند الحديث عن « الرسول والمنافقون » .

ووصل الرسول بجيشه إلى جبل أحد ، وأخذ ينظم هذا الجيش تنظيمًا دقيقًا واعيًا ، وأهم اهتمامًا كبيراً بظهور المسلمين خورفاً عليهم من خالد بن الوليد أن يلتف ومعه فرسان قريش الذين كانوا تحت إمرة فيضرب المسلمين من الخلف ، ولذلك اختار الرسول عدداً من خيرة الرماة ، وأمر عليهم عبد الله ابن جبير ، وأوقفهم لحماية ظهر المسلمين من خالد بن الوليد وأتباعه ، وأوصى الرسول عبد الله بقوله : انضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك ، لا تؤتين من قبلك^(٢) .

المعركة :

وبدأت المعركة بالمبارزة كالعادة ، فخرج من قريش طلحة بن أبي طلحة فبرز له عليٌّ فقتله ، فتيمة أخوه عثمان فصرعه حمزة ، فخرج أخوهما أسعد فقتله حلي ، فتقدم الأخ الرابع مسافع فقتله عاصم بن ثابت ، ثم بدأت المعركة الشاملة وأظهر المسلمون في مطلعها بطولة رائعة ، وزحزحوا قريشا عن أمكنتها ، وحاول خالد بن الوليد أن يلتف حول المسلمين ولكن المسلمين ردوه^(٣) .

وظهرت طلائع النصر ، وتراجعت قوات قريش ، وبدأ المسلمون

(١) ابن هشام ٢ : ١٢٧ - ١٢٨ .

(٢) تاريخ الطبرى ٢ : ١٩٢ .

(٣) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ١٩٣ .

يجمعون بعض الغنائم من الضحايا أو الفارين الذين يلقون متاعهم ويولون الأدبار ، ولكن النصر لم يكن قد كمل ، وأخطأ الرماة فأخلوا أمكنتهم ظناً منهم أن المعركة قد انتهت ، وحرصاً منهم على أن يسهموا في إيقاع الهزيمة بأعدائهم ، وعلى أن يأخذوا نصيبهم من الأسلاب ^(١) ، إذ كانت الأسلاب التي يجمعها الجندي في ذلك الوقت هي أهم مورد له ، وكانت كثرتها دليل بطولة المقاتل وخوضه المعركة بنجاح ، أما الذي لا يحصل منها على نصيب كبير فكان يعد متخاذلاً لم يخض غمارها ولم يندمج في نارها .

وقد أعطى خطأ الرماة فرصة لخالد بن الوليد الذي كان مختبئاً يترقب أن يخلو الطريق إليه ليدور ويضرب المسلمين من الخلف . فلما أخطى الرماة أماكنهم نفذ خالد تدبيره ، وكانت هذه المفاجأة بعيدة الأثر في صفوف المسلمين ، فاضطربوا واختلط عليهم الأمر ، وعظم الذعر حتى ضرب بعضهم بعضاً ^(٢) .

وأصيب الرسول بجراح في وجته وشُج في رأسه ، وكسرت رباطه ، وسقط في إحدى الحفر وقد خضبته الدماء ^(٣) . وصاح صائح قریش إن محمداً قد قتل ، ولعل المشركين صدقوا ذلك فاكثفوا بهذا وأوقفوا القتال ، وقد حاول كعب بن مالك الأنصاري أن يعلن أن محمداً لم يمت ، ولكن الرسول أسكته خوفاً من أن تستمر المعركة فتزيد الضحايا من المسلمين ^(٤) . وقد قتل في هذه المعركة سبعون رجلاً من المسلمين فيهم البطل حمزة عم النبي ، وقد مثلت هند بنت عتبة (الذي قتله حمزة يوم بدر) وزوجة أبي سفيان ، بجثة حمزة وشقت بطنه وأخرجت كبده ، وحاولت أكلها ^(٥) . ولذلك يقال للمعاوية : ابن آكلة الأكباد ^(٦) . وقاتل حمزة غلام

(١) ابن قتيبة : المعارف ص ٩٧ .

(٢) ابن القيم : زاد المقادير ٢ : ٩٣ .

(٣) تاريخ الطبري ٢ : ٢٩٨ وابن هشام ٢ : ١٣٦ .

(٤) ابن هشام ٢ : ١٣٦ - ١٣٧ وابن القيم ٢ : ٩٤ .

(٥) ابن هشام ٢ : ١٣٦ .

(٦) الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ص ٩١ .

حبشي اسمه» وحشي» كان يجيد قذف النبال ، وقد أغراه بقتل حمزه سيده جبير ابن مطعم ، وقال له : إن قتلت حمزة بعلمي طيمسة بن عدي فأنت حر ، فخرج وحشي وأخذ يتربص من حمزة فرصة حتى لاحت له ؛ فأطلق نباله خلسة ، فمخر حمزة صريعاً ، وقد أسلم وحشي بعد ذلك واشترك في حرب المتنبئين ، ويروى أنه قتل مسيلمة الكذاب ، ولذلك كان يقول : قتلت شر الناس وقتلت خير الناس بعد الرسول^(١) .

القرآن الكريم وغزوة أحد :

لقد صورت سورة آل عمران غزوة أحد أدق تصوير ، قال تعالى في هذه السورة « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ، إن بمسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداؤها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، وليعلم الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ، أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ، ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ، وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين ، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ، ومن يرد ثواب الدنيا يؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة يؤته منها ، وسنجزي الشاكرين^(٢) »

وقال تعالى : « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسنهم بإذنه ، حتى إذ فشلتم وتنازعتم في الأمر ، وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين . إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم في أخراكم^(٣) ،

(١) ابن هشام - ٢ من ١٢٧ و ١٢٢

(٢) سورة آل عمران : الآيات ١٣٩ إلى ١٤٤

(٣) سورة آل عمران الآية ١٥٢ - ١٥٣ .

ونورد هنا تعليقات وشروحات سريعة لهذه الآيات :

١ - حقق الله لكم النصر أول الأمر في أحد كما وعدكم ، فأعلمتم في أعدائكم القتل والضرب « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم (تقتلونهم) بإذنه » ، ولكنكم بعد ذلك دب فيكم الفشل والزعزاع وعصيتكم أمر القائد الأعلى ، وظهر منكم من يسعون للمال والدنيا ، فحققت عليكم الهزيمة للابتلاء والاختبار أولاً وحتى لا تعودوا لذلك مرة أخرى .

٢ - وكان ثبات الرسول عملاً عظيماً فقد وقف كالطود الشامخ يدعوكم للسودة للنضال « إذ تصعدون ولا تلون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم » .

٣ - ولا تكن هزيمتكم سبب ضعف واستكانة فإنكم الأعلون وكفنتكم في النهاية هي الراجحة ما دمت متمسكين بإيمانكم « ولا تنهوا ولا تحزنوا وأتت الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

٤ - الحرب هكذا يوم لك ويوم عليك . فإذا كنتم قد أصابكم قتل أو جراح في الأجسام ، وترك هذا في النفوس جراحاً فقد حدث مثل ذلك لأعدائكم من قبل ، فهذه طبيعة الحرب « إن يمسخكم قرح » .

• هذه الهزيمة الوقتية ذات فائدة لأنها تنقى وتطهر جماعة المؤمنين من ضعاف القلوب ومن المترددين « ولنجس الله الذين آمنوا . . . » .

٦ - إن الثواب بقدر المشقة والصبر على الشدائد والكوارث من أهم عوامل دخول الجنة .

٧ - ولقد كنتم تمنون الموت في سبيل الله ، فها هو وقع لأهليكم أمامكم فعليكم أن ترضوا بما حدث .

٨ - محمد . رسول كرسل الله السابقين وسيموت كما ماتوا ، فلا يكن موته سبب اضطراب أو ارتداد .

٩ - الموت آت لا محالة ، والاستشهاد أشرف أنواع الموت .

١٠ - لا يضعفكم ما أصابكم يوم أحد فسقذف الخوف والرعب في قلوب أعدائكم المشركين ليتحقق لكم ألوان جديدة من النصر .

غزوة حمراء الأسد

تعتبر غزوة حمراء الأسد جزءاً من غزوة أحد ، فالرسول أراد بها أن يوقف نتائج غزوة أحد عند الحد الذي وقع يوم الغزوة ، وكان يوم السبت منتصف شوال ، فاتجه في اليوم التالي (يوم الأحد السادس عشر من شوال) لما سمي غزوة حمراء الأسد ليضعف حماسة قريش إلى العودة لاستئصال المسلمين بعد هزيمتهم في أحد ، وكان هذا التصرف من الرسول دليل عبقرية عسكرية هائلة ، وتقدير للأمر من مختلف نواحيها .

وكان الرسول عقب غزوة أحد يتوقع غدراً من قريش ، ولم ينتظر الرسول ليرى مظاهر هذا الغدر ، بل احتاط حيطة رائعة ، ففراه يطلب أن يؤذن مؤذنه في الناس أن هلموا لطلب العدو ، وأضاف الرسول أنه لن يخرج معنا أحد لم يحضر معنا معركة الأمس وحينئذ جاء جابر بن عبد الله ليقول له : يا رسول الله إن أبي كان قد خلفني على أخواني السبع ، وآثر نفسه بالجهاد معك أمس وسقط في المعركة . فأذن لي أن التحق بجيشك اليوم فإني لم أتخلف أمس إلا لهذا العذر ، فأذن له الرسول بذلك وخرج الرسول وصحبه إلى حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم .

وعلى الطرف الآخر يُروى أن أبا سفيان بن حرب ومن معه من قريش أجمعوا أن يعودوا من الطريق للقضاء على المسلمين ، وكانوا يقولون قتلنا أشرفهم وقادتهم ، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ؟ إن هذا خطأ كبير ، وعلينا أن : ود إليهم لنأتي على بقيتهم ولنفرغ منهم .

وبينما كان أبو سفيان يأخذ أهله للعودة إلى المدينة مر به معبد بن أبي معبد الخزاعي ، ويقول ابن هشام إن خداعة مسلمهم ومشرِكهم كانت مكن سر الرسول صلوات الله عليه ، وموضع تقديره وكان معبد يومئذ مشركاً فقال للرسول عقب هزيمة أحد : يا محمد أما والله لقد عزَّ علينا ما أصابك ولوددنا أن الله نصرَك عليهم ، وسار معبد فقابل أبا سفيان بن حرب

بالروحاء ، ورآه وهو يستعد للعودة إلى المدينة ، فلما رأى أبو سفيان معبداً قال له : ما وراءك يا معبد ؟ قال معبد : محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط ، يتحرّقون عليكم تحرقاً ، قد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه في يومكم ؛ وندموا على ما صنعوا ، وفيهم من الحقن عليكم شيء لم يعرف مثله ، قال أبو سفيان : ويحك يا معبد ما تقول ؟ لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم ، قال معبد : إني أنهارك عن ذلك ، وقد أردت لكم السلامة .

وبقى الرسول في حمراء الأسد ثلاثة أيام هي يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء ، ثم رجع إلى المدينة بعد أن تأكد له أن قريشاً تنافرت إلى مكة ، وفي عودته ألقى المسلمون القبض على الشاعر الخائن « أبو عزة - الجمحي » الذي أكثر الهجاء ضد المسلمين وقد ذكرنا أنه كان ضمن أسرى بدر ، وأن الرسول من عليه على أن يكف عن هجاء المسلمين ، وتعهده أبو حمزة بذلك وإكفنه حنث في وعده ، وصاح يؤلب العرب على الثأر لقتلى بدر فلما أسره المسلمون بعد حمراء الأسد عاد يقول للرسول : يا رسول الله أقتلني ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : والله لا تمسح عارضيك بمكة وتقول خدعت محمداً مرتين : اضرب عنقه يا زبير . فضرب عنقه^(١) .

وهكذا استطاع الرسول بموهبته أن يُرهب العدو ويفت في عضدهم ويوهمهم أن بالمسلمين قوة ، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم ، وفي غزوة حمراء الأسد نزلت الآية الكريمة « الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ، لم يمسهمْ سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم^(٢) » .

(١) سيرة ابن هشام ج ٥ ص ٤٤

(٢) سورة آل عمران الآيات ١٧٢ - ١٧٤

الهزيمة التي أخافت المنتصر :

ولنعد إلى غزوة أحد لنقرر أن هزيمة المسلمين في هذه الغزوة أبرزت مجموعة من صفات المجد التي يتحلى بها المسلمون ، فمع الهزيمة برزت أنبل الصفات من ثبات وتضحية وصمود وعزيمة وإيمان وبطولة وسواها من صفات الشرف ، فكانت هزيمة لانهيار فيها ولا استسلام ، هزيمة بطيبل أن أصنمها بعد طول قراءة وتريث أنها أخافت المنتصر ، وجعلته يدرك أن الحصول على الانتصار على المسلمين ليس أمراً هيناً ، وأنه إن حدث مرة لسبب أو لآخر فليس من السهل أن يتكرر حدوثه .

ويمكننا أن نقول إنه بسبب انتصار المسلمين في غزوة بدر وبسبب موقفهم المشرف أو قل هزيمتهم المشرقة في غزوة أحد قررت قريش أن تكف عن حرب المسلمين وإن كانت لم تعلن هذا القرار ، والباحث في ثنايا التاريخ يجد الهدوء والنكوص والتردد تحل محل ما كانت تتصف به قريش من حاسة وعدوانية ضد المسلمين ، حتى أن قريشاً عندما هاجمت المسلمين بعد هذا في غزوة الأحزاب لم تكن وحدها ولم تكن هي مدبرة الهجوم ، بل إن اليهود هم الذين دبروه وجمعوا له جموع الأحزاب ومن بينهم قريش على ما سيظهر عند الحديث عن غزوة الأحزاب ، وكانت قريش أسرع المنسحبين في غزوة الأحزاب ، كما سنرى ، ويروى عن الرسول أنه قال عقب انسحابهم : لن تغزوكم قريش بعد عامكم . وبعد غزوة الأحزاب لجأت قريش إلى الصلح عام الحديبية ، وكانت قبل هت عظامها ، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله : (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً^(١)) .

ولنبرز فيما يلي بعض جوانب المجد التي أبرزها المسلمون في غزوة أحد .
وأول من نتحدث عنه في غزوة أحد هو محمد صلى الله عليه وسلم الذي انجهد ضده كل قوة المشركين ، وجعلت القضاء عليه هدفها الأسمى ،

ولكنه وقف كالطود الأشم لا يززعزع ، ولقد أدركه أبي بن خلف الجمحي وقد أخذ منه الإغيا مأخذه ، فقال أبي : أين محمد لأقتله ؟ فأراد بعض المسلمين أن يتصدى له ولكن الرسول قال لهم اتركوه ، وتناول الحربه من الحارث بن الصمة الأنصاري ثم طعنه بها في عنقه فكدّر أبي منهزماً وهو يصرخ قتلني محمد ، ففحص المشركون جراحه وقالوا له : ما بك من بأس فجراحك ليست عميقة الغور . فقال : كذبتم ، والله لو يصبق على لقتلني ، وصدق حدس عدو الله ، فأت من جراحه في مرجعه إلى مكة ، وقد سبق أن أوردنا هذه الحادثة عند الكلام عند تربية الرسول للقوة العسكرية.

وعندما تجمعت قوى الشر كلها ضد الرسول ، وقف سبعة من الأنصار يذودون عنه وصاروا صراعاً مريراً حتى قتلوا جميعاً دونه وكان آخرهم عمارة بن يزيد بن السكن ، ووقف أبو دجانة متخذاً من ظهره ترساً يقي به الرسول ، فأخذ النبل يقع فيه وهولاً يتحرك ، وصارع عبد الرحمن بن عوف صراعاً طويلاً وانهاالت عليه الضربات دون أن يتراجع ، ولما انتهت المعركة وجدوا به عشرين جراحاً بعضها في رجله سببت له العرج إلى أن مات ، وأشيع أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد مات ، فذهب أنس بن النضر إلى جماعة من الصحابة ورأى فيهم عمق الحزن فقال لهم ما يحزنكم ؟ قالوا : قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال لهم : وما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فمروا على ما مات عليه ، ونزل المعركة فصار صراعاً طويلاً عنيداً حتى قتل . وقد وجد المسلمون بجسمه أكثر من سبعين جرحاً بين ضربة وطعنة ورمية ، ولم يميزه أحد من كثرة ما به من دماء وجراح إلا أخته عرفته برسمة كانت في بنانه .

ولنتحول إلى مثل آخر من أمثلة الصراع المجيدة التي برزت في غزوة أحد ، ذلك هو عمرو بن ثابت الذي كان يلقب « الأصبرم » ، وكان عمرو يأبى الإسلام فلما كان يوم أحد قذف الله بالإسلام في قلبه فأسلم ، وأخذ سيفه ولحق بالنبي وقاتل قتالاً عنيفاً ، ثم سقط بين الجرحى ، ولما انجلت الحرب طاف الناس يلتمسون قتلاهم ، فوجدوا الأصبرم وبه رمق ، فدهشوا وتساءلوا

ما جاء بهذا الرجل ؟ لقد تركناه وهو منكر لهذا الأمر ، ثم سألوه ما الذى جاء بك إلى هذا المشهد ؟ أحذب على قومك أم رغبة فى الإسلام ؟ فقال : بل رغبة فى الإسلام آمنت بالله وبرسوله ، ثم لحقت بالرسول أقاتل معه فى سبيل الله حتى أصابنى ماترون . وسرعان ما مات متأثراً بجراحه ، وقد ذكره القوم للرسول فشهد له بالجنة ، فكان يقال رجل دخل الجنة من أول يوم ولم يصل قط ^(١) .

وفى غزوة أحد قاتلت أم عمارة الانصارية ؛ وهى نسيبة بنت كعب قتالا شديداً ، ودافعت عن الرسول دفاعاً يصوره قوله عليه السلام : ما التفت يميناً أو شمالاً إلا رأيت أم عمارة تقاتل دونى . وقد ضربت عمرو بن قنينة بالسيف ضربات قوية : فوقاه درعان كانتا عليه ، وضربها عمرو بالسيف فجرحها جرحاً عظيماً فى عاتقها ، وكان معها فى هذه الغزوة زوجها زيد بن عاصم ، وولداها حبيب وعبد الله ^(٢) وقد رأى النبى عليه السلام أحد المشركين وهو يضرب ابنها ضربة قاتلة . فناداها الرسول وقال لها : هذا ضارب ابنك . فسارعت نحوه وضربتته فى ساقه فسقط على الأرض . ثم سارعت فأجهزت عليه .

ومما أصاب الرسول صلوات الله عليه ، فى هذه الغزوة أن نشبت حلقتان من حلق المغفر فى وجهه ، فعض عليهما أبو عبيدة بن الجراح لينتزعهما ، ولم يتم له ذلك إلا وقد سقطت ثنيتاه من فرط الجهد ، وكان أبو عبيدة يفعثر بالهتَم الذى حدث له وهو يزيل الأسى عن الرسول .

ولنأت بعد ذلك إلى دور طلحة بن عبيد الله فى هذه الغزوة القاسية ، ويقرر التاريخ أن طلحة كان من الأربعة الذين برزوا فى هذه الغزوة وأبلوا فيها أحسن البلاء وهم على وحيزة وأبو دجانة وطلحة ، ويبدو أن طلحة جاهد فيها جهاداً جعله فى مكان يسبق منافسيه فى الفضل ، فقد كان أبو بكر يقول

(١) ابن عبد البر : الدور فى اختصار المغازى والسير ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٢) ابن عبد البر : المرجع السابق : ص ١٥٨ .

عندما تذكر أحد (ذلك يوم كله لطلحة) وبالإضافة إلى جهده حين دوران المعركة نجده بعد أن سقط الأنصار السبعة الذين كانوا يدافعون عن الرسول يتصدى وحده للدفاع ، ويغطي الرسول بجسمه ويتلقى عنه الضربات ، وفي نفس الوقت يتلمس الوسيلة ليرى المهاجمين ، وقد أصاب الشلل يده من كثرة ما نزل بها من ضربات ، وعاش بيد شلاء بقية عمرة تذكّره بالمجد الذي ناله وهو يدافع عن الإسلام وعن نبي الإسلام ، وقد عرض طلحة نفسه بذلك للموت أو لما هو أشد من الموت ، حتى كان الرسول يدهش لأن طلحة لم يمت مع تحديه للموت ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول عنه ، مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى شَهِيدٍ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى طَلْحَةَ . ولما سقط صلى الله عليه وسلم في الحفرة التي حفرها أبو عامر الراهب ، ألقى طلحة بنفسه في الحفرة وانتزع منها الرسول وأراد الرسول أن يصعد صخرة ولكن قواه لم تساعد ف جعل طلحة من جسمه سلماً إذ انحنى للرسول فلما صعد الرسول على ظهره ارتفع بجسمه حتى مكّن الرسول من الصعود إلى الصخرة .

وفقدت امرأة من بني دينار في غزوة أحد زوجها وأخاها وأباها ، فلما عرفت ذلك سألت : ما فعل رسول الله ؟ قالوا لها : هو بخير . فقالت كل مصيبة تخطئه صغيره ^(١) .

وهكذا كان لكثير من المسلمين في غزوة أحد أدوار جديرة بأن ينتفع بها الأبطال الباحثون عن الخلود ، وهكذا كانت هزيمة مشرفة ، أبرزت المنهزم في أرقى حالات الكفاح والصراع والتضحية والثبات ، وأثبتت للمتصرفة قوة خصمه حتى تردد فيما بعد أن يشن عليه الهجوم أو ينازله في معركة .

ويتجه بعض الباحثين إلى اعتبار غزوة أحد جراحاً كما وصفها القرآن الكريم وليست هزيمة ؛ فالهزيمة لا ترتبط بعدد القتلى ، وإنما تتحقق بالفرار ، أو الاستسلام ، أو فقدان أرض ، وذلك لم يحصل من المسلمين .

بعد المعركة :

رأينا المسلمين وقد انتصروا انتصاراً باهراً في غزوة بدر ، وقد انتزعوا انتصارهم بالصراع الرائع وبجدارة فائقة ، وسخر اليهود من انتصار المسلمين في بدر كما رأينا من قبل ، وظنت قريش أن هذا الانتصار مصادفة لن تتكرر ، ولذلك كانت غزوة أحد في منتهى الأهمية ، وهزم المسلمون فيها تلك الهزيمة المشرفة التي وصفناها ، فلم تعط هذه الغزوة لقريش وللاليهود النتيجة التي ترقبوها وهي القضاء على المسلمين أو إضعافهم ، وقد تركت هذه الغزوة أعداء المسلمين وهم في تردد ظاهر واضطراب واضح ، وكان على المسلمين في نفس الرقب أن ينتصروا على آثار الهزيمة ، وأن يستعيدوا بسرعة قوتهم ومكانتهم ، وأصبح واضحاً أن قريش وحدها لن تستطيع أن تقضي على المسلمين ، بل أصبح واضحاً أن قريشا لن تمسك بزمام المبادرة لحرب ضد المسلمين .

مزيد من علاج آثار أحد :

علان كبير أن قام بهما الرسول لاسترداد الزمام بعد غزوة أحد ، أما العمل الأول فهو أن الرسول عليه السلام أرسل بعد شهرين من غزوة أحد سرية إلى بني أسد الذين كانوا قد اعتزموا مهاجمة يثرب تقرباً إلى قريش وقد أنزلت هذه السرية ببني أسد هزيمة ساحقة .

أما العمل الثاني فهو موقف الرسول من بني النضير في العام الرابع من الهجرة ، ذلك الموقف الذي قلم من أظفار اليهود ، وأعاد للمسلمين كثيراً من الثقة في قوتهم ، كما منحهم رصيذاً من المال ، وبهذين العملين استعاد المسلمون زمام الانتصار في معاركهم ضد أعدائهم .

وقد أصبح واضحاً أن علواً جديداً لابد أن يتلقى زمام المبادرة ضد المسلمين ، وقد التقط يهود بني النضير هذا الزمام بعد أن طردهم المسلمين من المدينة ، فأخذ هؤلاء يجمعون الجموع لحرب المسلمين ، وفي هذا الجلو القلق جاءت غزوة الأحزاب .

غزوة الأحزاب أو الخندق

زمنها ، شوال من السنة الخامسة للهجرة .
مكانها : حول المدينة وبخاصة من الشمال .
سببها :

غزوة الأحزاب معروفة من اسمها ؛ إنها تجمعات من هنا ومن هناك تقصد القضاء على قوة الإسلام والمسلمين . وكان يهود خيبر وبخاصة بنو النضير الذين طردوا من المدينة هم الذين جمعوا هذه الجموع وحزبوا الأحزاب على رسول الله ، يروي ابن هشام^(١) أنهم خرجوا حتى قدموا مكة على قريش فدعواهم إلى حرب محمد وقالوا إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله ثم خرج هؤلاء اليهود إلى غطفان وبني مرة وأشجع وأثاروهم كذلك .

وكانت قريش تدرك أن هذه الغزوة ستكون آخر محاولة جدية بين مكة والمدينة بعد أن طال النضال عدة سنين ، ولذلك استجاب أبوسفیان لدعوة اليهود وحشد لهذه الغزوة كل قواه ، وعمل لها كل حيلة رجاء أن تنجح .

وتجمعت قوى الأحزاب في جيش هائل ؛ لعل الجزيرة العربية لم تشهد من قبل ، إذ كان عدده يربو على عشرة آلاف مقاتل^(٢) .

واتخذ المسلمون في هذه الموقعة موقف الدفاع ، إذ أشار سلمان الفارسي على الرسول أن يحفر خندقاً عميقاً واسعاً شمال المدينة ويلتف حولها من الغرب ، إذ كانت الجهات الأخرى محصنة بالجبال والنخيل ، كما أشار بأن تشبك أبنية المدينة وتسد مسالكها حتى تصبح حصناً واحداً ، وأن يخرج

(١) ابن هشام ٢ : ١٨٧ - ١٨٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٩ .

الرجال ليحرموا المدينة خلف الخندق ، وقبل الرسول ﷺ سلمان واشتغل بنفسه في حفر الخندق مع المسلمين وتمت التحصينة ، ومن الممكن أن نفهم أن المسلمين اتخذوا هذا الرأي عوداً إلى الفكرة التي عرضت قبيل غزوة أحد بأن يبقى المسلمون في المدينة ويكون الدفاع من الداخل ، وقد هُزم هذا الرأي في غزوة أحد ، ولكن هزيمة المسلمين في أحد رجعت هذا الرأي عند تجمعات الأحزاب ووضع المسلمون التراب الناتج عن حفر الخندق في ناحية المدينة ليساعد تراكم التراب في حماية المسلمين وليستريح به المسلمون الذين وقفوا خلف الخندق يدافعون عنه .

ولما وصلت جموع قريش وحلفاؤها وجدوا الخندق يحول بينهم وبين الالتقاء بالمسلمين ووجدوا جيش المسلمين خلف الخندق لحمايته ، فعسكر الجيشان متقابلين ، وتراميا بالنبال والسهام أياماً دون نتيجة تذكر ، وكان جيش المسلمين حوالى ثلاثة آلاف مقاتل ، وقد حاول أفراد من جيش المشركين أن يقوموا بمجازفة عبر الخندق ، ولكن المسلمين كانوا يحرسونه بقوة وإصرار ، وقد لقي بطل قرشي اسمه عمرو حنفة على يد علي بن أبي طالب حيناً قام بذلك ، وعبره أيضاً عكرمة بن أبي جهل فتصدى له علي وضيق عليه الخناق فلم يجسد عكرمة بداً من الرجوع والفرار^(١) ، وضرب الزبير بن العوام يوم الخندق عثمان بن عبد الله بن المغيرة ضربة هشمتة ووصلت إلى سرج الفرس ، فليل للزبير . ما أحد سيفك ، فغضب وقال : إن العمل لليد لا للسيف^(٢) .

وعند زيارتي للأرض المقدسة زرت بقايا الخندق ، ورأيت مواقع المدافعين وقد بنيت في أمكنتها مجموعة من المساجد تمتد مع الخندق كما كانت تمتد حصون الدفاع . وتسمى هذه المساجد الآن « مساجد الخندق » وتحتات الموقعة الصامدة الناجحة التي وقفها أسلافنا ضد قوى الشر المعتدية.

ولنعد إلى الأحزاب ، لنقرر أنه عندما طال الحصار وجسد الحلاف

(١) انظر ابن هشام ٢ : ١٩١ - ١٩٢ وابن القيم ٢ : ١١٨ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ ص ٢١٢ .

طريقه ليذبّ بينهم . فقد جاءوا معاً ليعملوا السيف في رقاب المسلمين فحال بينهم الخندق وعسكروا حوله ، وطالت أيامهم ونقصت مؤنهم ، وصدرت أوامر متناقضة ، وكل هذا أظهر حقيقة هامة هي أن الجيش المهاجم تفككت وحدته وظهر بينه النفور وأعلنت المنافسة ، وكان أبو سفيان يعد نفسه القائد العام ، ولكن أي سلطان لأبي سفيان على طلحة بن خويلد ، وعتيبة بن حصن ، والحارث بن عوف وغيرهم من الأبطال الذين كانوا يقودون قبائلهم للاشتراك في هذه المعركة ؟

وأوشك الخلاف أن يظهر وبخاصة بين هؤلاء الذين لم تكن لهم مصلحة حقيقية في هذا القتال ، إذ كان واضحاً أن قريشاً واليهود هما وحدهما الجماعتان اللتان تهتمان كل الاهتمام بالقضاء على الإسلام والمسلمين ، ولما أدرك حيي بن أخطب قرب وقوع الانقسام بين صفوف الأحزاب أسرع إلى كعب بن أسد زعيم بني قريظة وأغراه بالانضمام إلى الأحزاب . وبأن يضرب المسلمين من الخلف ، وحذّره من العاقبة إن تراخى . فتلك آخر فرصة إن أفلت منها المسلمون قويت شوكتهم ^(١) . فاستجاب كعب ونقض العهد على ما ذكرناه من قبل .

وحينئذ عظم البلاء على المسلمين « إذا جاءكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ^(٢) » .

وفي غمرة الآلام والشدة بدأت مظاهر النصر ؛ فقد جاء زعيم من زعماء العرب هو نعيم بن مسعود مسلماً ، وأبدى استعدادة للقيام بأي عمل يشترك به في الدفاع عن المدينة ، فطلب منه الرسول أن يخفى إسلامه وقال له : خذّل عنا فإن الحرب خدعة . فذهب نعيم إلى بني قريظة وقال لهم إن قريشاً لو عادت لسبب من الأسباب إلى مكة لكان جزاء بني قريظة قاسياً من المسلمين ؛ وأشار عليهم أن يطلبوا رهائن من سادة قريش ليتأكدوا أن

(١) ابن هشام ٢ : ١٨٩ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٠ .

قريشاً لن تدعهم وحدهم لمواجهة جيش المسلمين ؛ ومضى نعيم أيضاً إلى قريش فذكر لهم أن بنى قريظة اصطلحوا مع المسلمين سرّاً وأنهم سيطالبون برهائن من قريش ليقدموها إلى محمد . وحذر نعيم قريشاً من مكر اليهود ، وسرعان ما طلب بنو قريظة الرهائن مما أكد لقريش صحة ما قاله نعيم ، فلما رفضت قريش تسليم الرهائن تأكد بنو قريظة من عدم إخلاص قريش^(١) ، وهكذا وقع الشقاق بين الأحلاف مما أندر بالنهاية الفاشلة .

وجاء العون من الله ، ذلك العون العظيم الذى بحكية القرآن الكريم فى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تربوها ، وكان الله بما تعملون بصيراً^(٢) » . وقوله ، « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قريباً عزيزاً^(٣) » .

وكانت هذه الريح التى أرسلها الله عاتية ، كفأت القدور ، ونزعت الحيام ، وملأت الحلوق والعيون بالرماد ، لقد كانت قوة هائلة مجتة ، ولم يكن فى طاقة الأحزاب أن يحاربوها ، ولم يجدوا وسيلة إلا أن ينادوا بالرحيل فى خيبة أمل ظاهرة بعد أن استمر الحصار مدة شهر .

وفى صحيح مسلم حديث يرينا نتائج البرد والريح من جهة ؛ ونتائج الوقعة التى قام بها نعيم بن مسعود بين بنى قريظة والأحزاب من جهة أخرى ، يروى حذيفة بن اليمان أن الرسول صلى الله عليه وسلم استدعاه فى إحدى ليالى الخندق وقال له : يا حذيفة اذهب فادخل فى القوم فانظر ما يفعلون ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا ، قال : فذهبت فدخلت فى القوم والريح وجنود الله عز وجل تفعل بهم ما تفعل ، لا يقر لهم قرار ، ولا تهدأ لهم نار ، فقال أبو سفيان : يا معشر قريش لينظر كل امرئ من جلسه ، قال حذيفة رضى الله عنه : فأسرعت آخذ بيد الرجل الذى لى جنبى لأوهمه أنى مع قريش ،

(١) اس هشام ٢ : ١٩٣ وابن القيم ٢ : ١١٨ .

(٢) سورة الأحزاب الآية التاسعة .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٢٥ .

فقات له : من أنت ؟ فقال : أنا فلان بن فلان ، ثم قال أبو سفيان ؛ يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، والله ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإني مرتحل ، ثم قام إلى جملة وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله إلا وهو قائم . ولولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن لا أسدث شيئاً لقتلته بسهم ، قال حذيفة رضي الله عنه : فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم يصلي ، فلما انتهى من صلاته أخبرته الخبر ، وسمعت غطفان بما فعلت قريش فأتهموا راجعين إلى بلادهم^(١) .

أثر هذه الغزوة :

لقد عانى المسلمون في غزوة الأحزاب ألواناً من العناء والجمع من أثر الحصار الطويل . ولذلك نجد الرسول يغير من خطته الحربية بعد هذه الغزوة ، فلا يكتفى بالدفاع لأن اكتفائه بالدفاع أو شل أن يقضى على المسلمين ، ولكنه في الوقت نفسه لا يريد الهجوم لأنه لم يؤذن له إلا بالدفاع فقط ، ولذلك نجده يعمد إلى ما يسميه العسكريون « الهجوم الدفاعي » أى أن يهجم - مدافعاً - على تكتلات الأعداء التي تستعد للزحف على المسلمين ، وكانت هذه هي خطة المسلمين بعد ذلك فيما قاموا به من حروب .

غزوة الأحزاب وبدور المستشفيات في الإسلام :

حدث في غزوة الأحزاب حدث ذو بال في تاريخ الحضارة الإسلامية ، ذلك هو قيام المستشفيات في أول صورها في التاريخ الإسلامى ، ففي « مجد المدينة كانت هناك خيمة مخصصة لجرحى المعركة ، وكانت بالخيمة امرأة اسمها « ربيعة الأنصارية » لها خبرة بالطب ، فكانت تداوى الجرحى

(١) صحيح مسلم .

وتحبس نفسها لخدمة المرضى ، ولما أصيب سعد بن معاذ في هذه المعركة بسهم رماه به رجل قرشي أمر الرسول أن يوضع سعد في هذه الخيمة لتداويه « رفيدة » من جانب ، وليكون من السهل على الرسول أن يعود به من حين إلى آخر وهو يدير المعركة (١) .

وفي ختام الحديث عن غزوة الخندق نعطي فيما يلي نبذة قصيرة للتعريف بسلمان الفارسي الذي أشار بحفر الخندق :

سلمان الفارسي :

ينسب سلمان إلى بلاد فارس لأنه فارسي الأصل ، قيل كان من أصفهان ، وقيل من رام هرمز ، وكان ثائراً على عبادة النار وعبادة الأصنام ، وكان يطلب دين الله ، فدخل النصرانية ثم لم يرض عن طقوسها وتعتيداتها وتخليتها ، فراح يقرأ ويسمع لعله يصل إلى الحق .

ورحل إلى يثرب قبل الهجرة وتعرف على اليهود وعرف ديانتهم ولم يقبلها ، وهاجر الرسول صلوات الله عليه فاتصل به سلمان سرّاً وجلس إليه واستمع منه ، ففتّح قلبه للإسلام ودخل دين الله وأصبح من مشهوري الصحابة ، وكانت له جلسات خاصة مع الرسول تلقى عنه فيها الكثير من الفكر الديني ، وتقول عائشة رضي الله عنها في ذلك : كان لسلمان مجلس من رسول الله ينفرد به في الليل حتى كان يغلبنا على رسول الله .

ولم يحضر سلمان غزوه بدر ولا غزوة أحد ، وأعلن إسلامه عقب ذلك ، فلما تحزبت الأحزاب للهجوم على يثرب أشار سلمان بحفر الخندق ، وقبل المسلمون مشورته وعملوا في الحفر وحمل فيه الرسول بنفسه ، وقد نجحت فكرة سلمان نجاحاً عظيماً وردّ المهاجرون على أعقابهم لم ينالوا من المسلمين شيئاً ، وكانت مشورة سلمان موضع فخر له ، فقصد قال الأنصار سلمان منا لأنه جاء يثرب قبل الهجرة ، وقال المهاجرون سلمان منا

(١) انظر الإصابة (ترجمة سعد ورفيدة) .

لأنه هاجر يطلب الحق كما فعلنا ، وحسم الرسول الخلاف فأعطى سلمان
مزيدا من القربى بقوله : سلمان منا أهل البيت (١) .

واشترك سلمان بعد ذلك في كل الغزوات ، كما اشترك في كثير من
الفتوح .

واشتهر سلمان بالزهد والتقشف ، فكان يتصدق بكل عطائه ، ويقنع
بلباس خشن وخبز الشعير ، وكان من أهل الصفة ومن مؤسسى التصوف :
ومات سلمان في أواخر عهد عثمان حوالي سنة ٣٥ هـ .

(١) ابن هشام : السيرة ج ٣ ص ١٣٤ .

غزوة بني المصطلق

زمنها : شعبان من السنة السادسة :

مكانها : ماء يقال له « المريسيع » على مقربة من مكة .

سببها ، بنو المصطلق هم فرع من خزيمه سموا بنى المصطلق إذ كان جددهم رقيق الصوت ، فالمصطلق على وزن مفتعل من الصلق وهو الصوت ، ويروى في سبب هذه الغزوة أن الرسول تلقى أنباء تفيد أن بنى المصطلق . بعد هزيمة الأحزاب والقضاء على يهود المدينة . تصدوا لأمر المسلمين ، وعملوا على تدبير اغتيال الرسول عليه السلام ، وكان قائدهم الحارث بن أبي ضرار .

ولما سمع الرسول ذلك وتأكد من موقف بنى المصطلق العدائى . أسرع فاستعد لهم ونادى بالخروج إليهم ، وجعل لواء المهاجرين لأبى بكر ولواء الأنصار لسعد بن عباد ، وزحف المسلمون ونزلوا على ماء قريب من بنى المصطلق يقال له « المريسيع » وأحاطوا ببني المصطلق ، ففر من جاءوا المشاركة بنى المصطلق في هذه المؤامرة ، ووقف بنو المصطلق وحدهم في مواجهة المسلمين ، وجرى تراشق النبال ، وسرعان ما أحس بنو المصطلق بأنهم لا يستطيعون الوقوف في وجه المسلمين ، وأن الحرب ستأكلهم ، فاستسلموا . وأخذوا أسرى هم ونسائهم وغنمهم أموالهم .

وعلى هنا فالحديث من غزوة بنى المصطلق حديث قصير ، لأن الحرب لم تكن شديدة ، وكان التسليم سريعاً ، ولكن لهذه الغزوة أهمية عظيمة في التاريخ ، إذا ارتبط بها حادثان خطيران أولهما الفتنة التي أوشكت أن تحدث بين المهاجرين والأنصار ، تلك التي حاول المنافق عبد الله بن أبى أن ينتهزها فيشعل دعوة الجاهلية ، لتعظم وتأكل صفوف المسلمين ، وثانيهما حادثة الإفك التي حملها الرأس الأسود رأس ابن أبى أيضاً ، وقد تصدى

الرسول للحادث الأول فقضى عليه ، وتصدى القرآن الكريم لتبرئة السيدة
الفاضلة زوج الرسول وبنت أبي بكر ، وقد تحدثنا من قبل بشيء من
التفصيل عن هذين الحادثين .

ومما يتصل بهذه الغزوة ما سبق أن أوردناه من زواج الرسول من
جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار ، وكيف كان هذا الزواج بمنأى وبركة
على أسيرات بني المصطلق فأعتقهن المسلمون وهم يهتفون ، كيف نأسر
أصهار رسول الله ؟

الحديبية بين الحرب والسلام (*)

مرت شهور بعد غزوة الأحزاب ؛ ودخلت السنة السادسة للهجرة ؛ سنوات ست كانت طويلة على المهاجرين ؛ لم يروا خلالها مَنْ تخلف بمكة من أهلهم ، ولم تستحل عيونهم بوطنهم ؛ وخرموا زيارة الكعبة التي يحنون إليها ، ويتوجهون من بُعد للصلاة نحوها ؛ وأحس الرسول بما أحس به باقي المسلمين من شوق لمسقط الرأس ورغبة في زيارة الكعبة .

والبيت الحرام معظم قبل الإسلام وبعده ؛ وهو معظم عند المسلمين وعند قريش ؛ والأشهر الحرم لا يجوز فيها الحرب ولا القتال ؛ فلماذا لا يقدم محمد وأصحابه معتمرين ؟ وبأى حق تمنعهم قريش من دخول مكة للزيارة ثم العودة ؟ وليبق العداوة بعد ذلك أوفليتوقف ، وكانت هذه الأفكار هي شغل المسلمين الشاغل ، وفي هذه الفترة رأى الرسول رؤيا تفيد أن المسلمين سيدخلون مكة ، وبينما كان المسلمون بالمسجد ذكر الرسول للمسلمين خبر هذه الرؤيا ، فاجت جموعهم طرباً ، وطمعوا في زيارة سريعة إلى البيت الحرام : وسرعان ما أذن محمد في أصحابه بالرحيل إلى مكة ؛ ففرحوا واستجابوا وبدءوا رحلتهم في شهر ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة وكانوا حوالى الألف .

ودعا الرسول بعض العرب من غير المسلمين ليصبحوا المسلمين في الذهاب للعمرة ؛ حتى يكون في ذلك إعلان للعرب جميعاً لقريش بوجه خاص بأن الرحلة لا هدف لها إلا العمرة .

ستقول قريش إن المسلمين جاءوا للقتال ، وأنهم يدعون الاعتراف ولا يقصدونه ، وإذا فلبهرن المسلمون لقريش على حدة ، نيتهم بأن يلبسوا ملابس الإحرام قبل أن يبعدوا عن المدينة ، ويتركوا آلات الحرب إلا

(*) عرفت الحديبية بعدة أسماء مثل صلح الحديبية ، وأمر الحديبية ، وغزوة الحديبية ، ولذلك أسميناها « الحديبية بين السلم والحرب » وذلك تبعاً لطبيعة هذا الموقف .

السيوف في القرب للحراسة والدفاع طول الطريق ، وساق المسلمون الهدى سبعين بدنة ليكون ذلك تأكيداً لحسن نيتهم .

ولكن كل ذلك لم تستسغه قريش . فإن دخول المسلمين عليهم مدينتهم تحت أى اسم من الأسماء هو انتصار للإسلام وهزيمة للمشركين ، ومع هذا فرد معتمرٌ مُحَرَّمٌ يعتبر عند العرب اعتداء صارخاً . والحرب في نطاق الحرم لا تجوز ، ما الحيلة ؟ هي أن ترد قريش المسلمين قبل أن يقربوا من مكة ، وعلى هذا أرسلت قريش خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل على مجموعة من الفرسان ليصدوا المسلمين عن غايتهم^(١) ، ولكن المسلمين تحاشوا طريق خالد وعكرمة^(٢) ، واندفعوا في طريق آخر قادهم إلى الحديبية على بعد بضعة أميال من مكة ، حيث أصبح القتال محظوراً ، وفي هذا المكان بركت « القصواء » ناقة الرسول ، فظن بعض الناس أنها بركت من الجهد والتعب ، ولكن الرسول فسر ذلك بقوله ، حبسها حابس القيل ، ولم يكن بهذا المكان ماء ، فأعطى الرسول رجلاً من الصحابة سهماً من كنانته وأمره أن يفرزه في بئر من الآبار الجافة هناك ، ففعل الرجل . وانبثق الماء .

وبدأت في الجو مشكلة كبرى ، وأخذت الوساطة تلعب دورها للغشور على حل ، فأرسلت قريش بدليل بن ورقاء في رجال من خزاعة ليتعرفوا القصد الحقيقي من زحف المسلمين ، وسرعان ما تبين لهؤلاء أن المسلمين جاءوا معتمرين ولا يقصدون أى سوء . فنقل بدليل وأصحابه هذا الرأي لقريش ، ونصحوهم بأن يخلوا بين المسلمين وبين العمرة ، ولكن قريشاً رفضت قبول هذه النصيحة .

ثم أرسلت قريش حليفها الحلييس بن علقمة سيد الأحابيش لنفس الغرض ، فلما رأى الرسول أطلق الهدى أمامه ، وكان ذلك خير جواب قنع به الحلييس وعاد دون أن يقابل الرسول ليؤكد لقريش أن المسلمين بنوون

(١) ابن هشام ٢ : ٢٢٦ .

(٢) ابن القيم زاد المعاد ٢ : ١٢٣ .

العمرة لا سواها . وقد أغلظت قريش القول للحليس ورماه بعض القرشيين بالغفلة ، وبأنه — لقلة خبرته بشئون السياسة — انطلت عليه حيلة المسلمين فاكتفى برؤية بعض البدن وعاد أدراجه ، ولكن الحليس ثار لذلك . وهدد بأن الحلف الذي بين الأحابيش وقريش لا يتخذ الظلم دعامة له ، وأن التصدي للمعتمرين سيقابل من الأحابيش بالغضب والتحدى ، ولكن قريشاً استرضته واستجملته لتؤكد من أهداف المسلمين .

ثم أرسلت قريش رجلاً عرف بالحكمة وبعد الرأي وهو عروة بن مسعود الثقفي ، وعاد هذا ليصرخ في قريش : إني جئت كسرى في ملكه وقيصر في جبروته ، والنخاشي في أهته ، وإني والله ما رأيت ملكاً يطاع في قومه قط مثل محمد في أصحابه . . وإني لن يسلموه أبداً ، ونصح قريشاً بأن تدع المسلمين يعتمرون .

ورأى الرسول أن يلتقط زمام المبادرة ، وأن يرسل هو الرسل لتشرح لقريش رأى المسلمين : فأرسل خراش بن أمية الخزاعي رسولا إلى أهل مكة فهموا بقتله ، ولكنه استطاع الفرار بعون بعض الأحابيش الذين دافعوا عنه ومنعوه ، فلما عاد دعا الرسول بعمر ليعثه فقال عمر : إني أخافهم على نفسي لما عُرِف من عداوتي إياهم ، ولكني أدلك على رجل هو أعز بمكة مني وأحب لأهلها : عثمان بن عفان . فبعث به الرسول إلى مكة ليفاوض قريشاً ، وعندما دخل عثمان مكة لقيه أبان بن سعيد ، فأدخله في جواره طيلة بقائه بمكة ، ولما قابل عثمان زعماء قريش شرح لهم هدف المسلمين ، فقالوا له : إن شئت أن تطوف بأبيي فلك ذلك ، فأجاب عثمان : والله ما كنت لأطوف بالبيت ورسول الله والمسلمون ممنوعون من ذلك .

، وطالت بمكة غيبة عثمان أكثر مما توقع المسلمون ، وأشيع بين المسلمين أنه قتل ^(١) فأدرك المسلمون أنه لا بد من القتال ، وتمت « بيعة الرضوان »

(١) ابن هشام ٢ : ٢٢٩ . وانظر تفسير النسفي ج ٤ ص ١٣٢ والكشاف ج ٣ ص ٤٦٥ .

التي أقسم فيها المسلمون على الحرب حتى الموت أو النصر ، وقد أنشئ الله على هؤلاء المتتابعين بقوله « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً » (١) وهكذا اتخذ المسلمون السلم وسيلة لتحقيق هدفهم ، فلما لم ينفع السلم اتجهوا للاستعداد للحرب على أعلى مستوى .

ولكن عثمان سرعان ما عاد بعد أن نجح فى تهدئة قريش والتضاء على مخاوفهم ، وبعد أن ألان جانبهم نحو المسلمين .

بدأت بعد ذلك مفاوضات ترمى لإيجاد حل لهذه المشكلة ، وقد ظهر واضحاً من الاتصالات والمحادثات أن أهم نقطة تغنى بها قريش هى عودة المسلمين هذا العام دون أن يقتحموا مكة على سكانها حفاظاً لكرامتهم وخوفاً من أن يعثرهم العرب بذلك (٢) . ولما وافق الرسول على هذا المبدأ أصبح من السهل أن تبدأ مفاوضة شاملة هدفها وضع حد للعداء بين قريش وبين المسلمين ، ومثّل قريشاً فى هذه المفاوضات وفد على رأسه سهيل بن عمرو ، وتم صلح الحديبية بعد أن أحاطت غيوم كثيرة بالموقف ، وبعد أن كانت الحرب قاب قوسين أو أدنى .

شروط صلح الحديبية ومناقشتها :

وأسس هذا الصلح هى :

- ١ — أن تكون هناك هدنة بين الطرفين مدتها عشر سنوات .
- ٢ — يرد المسلمون من يأتهم من قريش مسلماً بدون إذن وليه .
- ٣ — لا ترد قريش من يعود لها من المسلمين .
- ٤ — من أراد أن يدخل فى عهد قريش دخل فيه ، ومن أراد أن يدخل فى عهد محمد من غير قريش دخل فيه .

(١) سورة الفتح الآية ١٨ .

(٢) انظر ابن هشام ٢ : ٢٢٩ وزاد المعاد ٢ : ١٢٥

٥ - ألا تتم عمرة المسلمين هذا العام، بل تؤجل إلى العام القادم، ويدخل المسلمون مكة في العام القادم بعد أن تخرج منها قريش ، وليس مع المسلمين من السلاح إلا السيوف في القرب ، ويبقى المسلمون بمكة ثلاثة أيام بلياليها^(١) نظرة في هذه الشروط :

لقد كان المسلمون قريبين من مكة ، ففنعهم هذه الشروط من دخولها، ولذلك تغلبت عليهم - فيما أعتقد - الناحية العاطفية فاستاءوا لهذه النتيجة ، وعدوا أنفسهم مغلوبين أذلاء ، وكانت نفوسهم تغلي بالألم ، وكان عمر جريئاً كعادته ، ولذلك نجده يترجم ما في نفسه وما في نفوس المسلمين من ثورة في المحاوراة التي دارت بينه وبين الرسول والتي ننقل نصها فيما يلي :

عمر : ألسنت رسول الله ؟

الرسول : بلى .

عمر : أولسنا بالمسلمين ؟

الرسول : بلى :

عمر : أو ليسوا بالمشركين ؟

الرسول : بلى ؟

عمر : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟

الرسول : إني عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني^(٢) .

على أن الباحث المنصف يدرك أن هذه المعاهدة كانت عظيمة الخير للمسلمين ، كبيرة النفع لهم، وكانت انتقالاً من العسر إلى اليسر وأن الرسول كان في منتهى الحكمة عندما قبلها وعقدها، وقد دلت الأحداث التي ظهرت بعد ذلك على هذه النتيجة الطيبة، وفيما يلي إيضاح لما في هذه المعاهدة من مزايا .

١ - اعترفت قريش في هذه المعاهدة بكيان المسلمين، فالمعاهدة دائماً

(١) انظر هذه الشروط في ابن هشام ٢: ٢٣٠ - ٢٣١ وزاد المواد ٣: ٧٦ ، ١٢٥ .

(٢) ابن القيم : زاد المواد ٣ ص ١٢٥ .

تكون بن نديين ، ولم يعد محمد وأصحابه ثائرين ، وإنما أصبحوا هيئة لها وجود ولها حقوق .

٢ - أعطت هذه الهدنة فرصة لنشر الدعوة والتفرغ لتعريف الناس بها وعندما مشت الدعوة مرتبطة باستسلام قريش دخلها الناس وحدانا وجماعات ، حتى قال المؤرخون إن من دخلوا الإسلام من تاريخ المعاهدة إلى فتح مكة أى فى أقل من سنتين أكثر ممن دخلوا الإسلام فى جميع السنين التى سبقت ذلك الصلح ، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك الصلح بكلمة « الفتح » فى قوله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً ، وينصرك الله نصراً عزيزاً » (١)

وقد نزلت هذه الآيات عقب صلح الحديبية ، ويقول المفسرون إن المقصود بالفتح هو الانتصارات التى تلت هذا الصلح وجعلت خليفاً عظيماً يدخلون الإسلام .

وقد طمأنت هذه السورة جماعة المسلمين ووعدتهم بتحقيق مآراه الرسول فى رؤياه ، قال تعالى : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً » (٢) .

٣ - وفى فترات النضال بين قريش وبين المسلمين لم يترك النضال للناس وقتاً للتفكير ، ولذلك نرى أنه عندما تمت الهدنة ، وعندما أخذ الإسلام فى أثناء هذه الهدنة ينتشر زينتشر ، بدأ كثيرون من أبطال قريش يفكرون فى الإسلام ومبادئه ، فأسرعوا إلى المدينة معلنين إسلامهم ، ومن هؤلاء البطل العظيم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة (٣) ، وقد كان ذلك نذيراً باستسلام مكة .

(١) سورة الفتح الآيات ١-٢ .

(٢) سورة الفتح الآية ٢٧ .

(٣) . النوى : تهذيب الأسماء القسم الأول ج ١ ص ١٢٠

٤ - أعطت هذه المعاهدة للمسلمين فرصة ليفرغوا لليهود ولينخلصوا منهم بعد أن فرقت هذه المعاهدة بين قريش وبين اليهود ، ولذلك غزا الرسول بعدها خيبر (سنة ٧ هـ) وانتصر كما ذكرنا من قبل ، ويقول بعض المفسرين إن المقصود بالفتح في الآية السابقة هو فتح خيبر وفدك .

٥ - والباحث المدقق يرى أن دخول المسلمين مكة للعمرة في العام القادم بعد خروج قريش منها إنما هو مزيد من الانتصار لا يعدله أن يدخلوا مكة والحذر بملأ قلوبهم ، لقد دخلوا مكة آمنين ، وانطلقت جموعهم تهتف بقوة وإيمان : لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وقد رأت قريش من شعاب الجبال حول مكة جموع المسلمين ، وسمعت أصواتهم التي تحمل التكبير والإيمان ، فاهتزت قريش لما رأت ، ووصل هتاف المؤمنين إلى قلوب الكثيرين .

٦ - في هذا الهدوء الذي أعقب العاصفة خطا التشريع الإسلامي خطوات مباركة ورسم هذا التشريع للمسلمين حياتهم في مختلف الواحي .

٧ - عد بعض المسلمين من الانهزام الواضح أن يلتزموا إعادة من يأتي لهم مسلماً من قريش بدون إذن وليه ، في حين لا يلتزم قريش برد من يأتي لها من المسلمين ، ورأوا في هذا الشرط عدم تكافؤ ، ولكن الأحداث برهنت على الخير الوفير في قبول هذا الشرط ، وقد وضح الرسول صلى الله عليه وسلم موقفه بقوله « إن من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه فسيجعل الله له فرجا ومخرجاً » وطبيعي أنه لا خير فيمن يرتد عن دينه ويعود لقريش بعد الإسلام . وأما هؤلاء الذين جاءوا من قريش مسلمين وردهم الرسول ، فقد برهنت الأحداث السريعة على أن هؤلاء دافعوا عن أنفسهم وأصبحوا خطراً على قريش نفسها ، لأن الرسول عندما ردهم - وفاء بالعهد - والتأثر ظاهر عليه ، لم يعد هؤلاء إلى مكة وإنما عسكروا في طريق قرافل قريش عند موضع يقال له « العيص » وأخذوا يعتدون على هذه القوافل اعتداء متصلاً ، ووصل عددهم حوالي ثلثمائة ، وكان يترعمهم

رجل اشتهر اسمه في هذه الأحداث هو « أبو بصير » ، فاضطرت قريش أن تطلب من الرسول أن يضمهم إليه^(١) .

ومع أبي بصير هناك رجل اشتهر أيضا هو « أبو جندل بن سهيل » وكان هذا شديداً على قريش ، قطع طريق تجارتهم الساحلى إلى الشام ، ومن شعره في ذلك :

أبلغ قريشا عن أبي جندل أنى بذى المروة بالساحل
في معشر تحقق راياتهم بالبيض فيها والقتنا الذابل
ليجعل الله لهم مخرجاً والحق لا يغلب بالباطل

ولكن في مجال إعادة أمن وفد مسالما إلى المدينة حدث شيء لم يكن في الحسبان ، ذلك أنه وفد إلى المدينة بعض النساء مسلمات ، فقد هاجرت من مكة للمدينة أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط فخرج أخوها عمارة والوليد يطلبان من الرسول ردها عملا بنصوص صلح الحديبية ، لكن الرسول رأى أن هذه النصوص لا تنطبق على النساء ، وكيف تعاد زوجة دخلت الإسلام لترغم على الحياة مع زوج مشرك ؟ وسرعان ما نزلت في ذلك آية كريمة قطعت كل تردد ، وهى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتنحنوهن الله أعلم بإيمانهن ، فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن إلى الكفار ، لاهن حل لهن ، ولا هم يحلون لهن ، وآتوهن ما أنفقوا ، ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتينوهن أجورهن^(٢) »

فبينت هذه الآية أن إسلام زوجة وبقاء زوجها على الشرك يقطع عقد الزوجية ، ويصبح من حق المسلمين أن يتزوجوا هذه الزوجة بعد رد ما قدم لها من صداق .

٨ - وكان مما أثار المسلمين أن سهيل بن عمرو رفض أن يكتب في عهد الصلح : محمد رسول الله ، وقال : لو كنا نعرف أنك رسول الله ما خالفناك ،

(١) سيرة ابن هشام - ٣ ص ٢٢٢

(٢) سورة المتحنة الآية العاشرة وانظر سيرة ابن هشام - ٣ ص ١٠٩ .

وقد قبل الرسول أن يحدف الوصف واكتفى باسمه ، ولكن هل غير هذا من الحقيقة شيئاً ! ألم يستمر محمد رسول الله كما كان^(١) .

وهكذا كان هذا الصالح فتحاً مبيناً كما وصفه القرآن الكريم .
ومما يذكر أن سهيل بن عمرو هذا أسلم يوم فتح مكة وحسن إسلامه
وكان من شهداء اليرموك .

ولنعد إلى سورة الفتح ، تلك السورة الكريمة التي نزلت في مرجع رسول
الله من الحديبية ، والتي حكى بعض أحداث هذه الغزوة . وكشفت الكثير
من أسرارها ، وقد أتيج لى أن أشرح هذه السورة في التلخيص المصرى
ضمن ما شرحت من سور ، فتعرفت عن طريق السورة وشرحها على
معلومات لم يوردها أكثر المؤرخين ، وفيما يلي لمحات مضيئة تقتبسها من
الذكر الحكيم وتفسيره مما يرتبط بحديث الحديبية :

- وأول ما نذكره أن سررة الفتح تنل في ترتيب السور بالمصحف
سورة محمد (تسمى أيضاً سورة القتال) وبين السورتين في تاريخ النزول
حوالى ثلاث سنوات ، وهى مدة ليست بطويلة ، ومع هذا فسورة
القتال طابعها الصراع المرير من أجل الحياة ، ثم تبدلت الأمور في تلك
السنوات الثلاث ، فلما جاءت سورة الفتح اتضح منها أن النعمة والبشر
واليسر قد أصبحت طابع الحياة عند المسلمين .

- ونجى بعد ذلك إذ آيات السورة فقتبس منها ونعلق عليها ، قال
تعالى : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً^(٢)) وفى تفسير هذه الآية يتجه أكثر
المفسرين إلى أن الفتح هو صاحب الحديبية الذى كان بعيد النتائج وكان فتح
مكة أحد نتائجه .

ويتشعب الفتح الوارد فى الآية - كما يرى المفسرون - إلى فتح فى
النفوس وفتح فى الدعوة : وفتح فى الأرض : فقد كشفت أزمة الحديبية

(١) انظر بعض الحكم التى تضمنتها الهدنة فى زاد المعاد ج ٢ ص ١٣٠ - ١٣٢ .

(٢) سورة الفتح الآية الأولى .

عن موقف المنافقين ، وهاجت نفوسهم المريضة ، كما وضحت صفاء المسلمين واتجاههم إلى بيعة الرضوان وذلك استعداداً للتضحية دون حدود ، وقد أوضحت آيات السورة اعتذارات المنافقين من الأعراب لأنهم لم يلحقوا بركب الرسول وهو قاصد مكة للعمرة ، ومع أنهم كانوا كاذبين في اعتذارهم فإن نفوسهم بدأت تعرف طريقها إلى الحق والنور ، أما نفوس المؤمنين فقد غمرها السرور حين عاهدت الرسول على الصمود مهما كانت النتائج .

وأما الفتح في الدعوة فيتضح من أن الدعوة الإسلامية سارت بعد الحديدية سيراً سلساً ، وانهارت كل العقبات من طريقها .

وأما الفتح في الأرض فإن المسلمين بعد الحديدية لم يبقوا محصورين في المدينة بل ذهبوا فقصوا على قوة اليهود في خيبر وتباء ووادي القرى ، وكانوا من قبل قد قصوا على يهود المدينة ، وبأنهم يار قوة اليهود وتوقف الصراع مع قريش فتحت الآفاق للدعوة الجديدة ودخلت دعوة الإسلام بقاعاً واسعة في الأرض .

— في سورة الفتح آيات ثلاث^(١) تصف حال قريش وحال المسلمين عندما تأزمت الأمور وظهر شبح الحرب ، وعندما كانت المفاوضات تدور ، فقد كان معسكر الكفار تسيطر عليه حمية الجاهلية وأنفها ، تلك الحمية التي لا تعتمد على منهج أو عقيدة ، وكانت جماعة المسلمين تسيطر على قلوبهم السكينة والطمأنينة ، يبايعون الرسول في ثقة وإيمان ، فهم يستعدون للحرب والتضحية بكل شيء ، ولكن في هدوء واستقرار وطاعة كاملة للفائد ، وتقوى شاملة لله العلى العظيم .

وهذه الآيات هي :

— هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم والله جنود السموات والأرض وكان الله عليمًا حكيمًا .

— لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً .

- إذا جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليمًا .

- وفي سورة الفتح آية كريمة كشفت أسرار قريش هي قوله تعالى :
(ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً^(١)) .
ويتضح من هذه الآية أنه لم يكن لدى قريش أى أمل فى النصر ، وأن الانهيار كان متغلباً فى أنفسهم ، ولم يعد فى طاقتهم أن يواجهوا المسلمين وأن يصعدوا أمامهم .

- وآية أخيرة نفتقدها من هذه السورة الكريمة توضح لنا السبب فى عدم سطوت الحرب مع رجحان كفة المسلمين ، وهذه الآية هي قوله تعالى :
(ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ، ليدخل الله فى رحمته من يشاء ، لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً^(٢)) فقد كانت هناك جموع من رجال مكة ونسائها دخلوا الإسلام سرّاً ، ولم يستطيعوا أن يعلنوا إسلامهم وسط عناد قريش وقسوتها ، ولو اشتعلت الحرب لكان من الممكن أن يصاب هؤلاء بسوء ، لأن المسلمين لم يعرفوا خبر إسلامهم ، ولو أنزل بهم المسلمون بعض الأذى ثم عرفوا فيما بعد خبر إيمانهم فإن المسلمين يحسون بالعار والألم ، ولو تميز هؤلاء من أولئك لكان من الممكن أن تقوم الحرب ويسلط الله فيها المؤمنين على الكافرين ، وهكذا شاء الله أن يكرم المجموع من أجل بعض أفرادها .

(١) الآية رقم ٢٢ .

(٢) الآية رقم ٢٠ .

كتب الرسول للملوك والرؤساء

واتساع نطاق الدعوة للإسلام

قلنا آنفاً إن القضاء على شوكة اليهود من جانب، وبمهادنة قريش من جانب آخر فتحاً باباً أوسع لنشر الدعوة للإسلام وقد رأينا من قبل مراحل الدعوة الثلاثة: الدعوة السرية، ودعوة بني هاشم، والدعوة العلنية وجاء الآن دور اتساع الدعوة وعالميتها تحقيقاً لقوله تعالى:

— تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً (١).

— وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين (٢).

ولم يضع الرسول الوقت، بل سرعان ما أرسل البعوث والكتب لرؤساء العشائر والإمارات بالجزيرة العربية، والملوك والرؤساء بالأقطار المحيطة بالجزيرة، يدعوهم أن يدخلواهم وأتباعهم وشعوبهم دين الله، ويبين لهم مبادئ هذا الدين وقواعده. وقد أفاضت المراجع العربية بالحديث عن هذه الكتب، فورد ذكرها في صحيح مسلم وتحدث عنها الواقدي (١) وأورد أبو عبيد نصوص كتب الرسول إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين. وملوك عمان، ولحاکم اليمن، ولبنى عبد كلال، وإلى النجاشي وكسرى وقيصر (٢)، وأورد ابن القيم تفاصيلها شملت أسماء حاملها، وما حصل لهم، ونتائج هذه المحاولة (٣) ويقول الخثعمي السهيلي (٤): إن من الملوك من اتبع محمداً كملوك اليمن وملك عمان، ومنهم من هاذن وأهدى إليه كالمقوقس، ومنهم من تعصى عليه كملك الغساسنة وكسرى فارس، ويقول النووي (٥): إن جاطب ابن بلتعنة كان رسول النبي عليه السلام إلى المقوقس؛ وكان دحية بن خليفة الكلبي رسوله إلى قيصر، وعبد الله بن حذافة السهمي رسوله إلى كسرى، وعمر بن أمية رسوله إلى النجاشي، والعلاء بن الحضرمي رسوله إلى المنذر ابن ساوى ملك البحرين. وكان كل منهم يعرف لغة الذين أرسل إليهم (٦)،

(١) تاريخ الواقدي ج ٢ ص ٣٣. (٢) الأموال ص ٢٠ - ٢٤.

(٣) زاد المعاد ج ١ ص ٣٠ - ٣٣. (٤) انظر الروض الأنف ج ١ ص ٢٥٠.

(٥) تهذيب الأسماء القسم الأول ج ٢ ص ١٥٠.

(٦) انظر كذلك عبد الحى الكتان: التراتيب الإدارية ج ١ ص ١٩٤ - ١٩٥.

وقد أوردنا هذه المراجع كلها عن هذا الموضوع لأن بعض المؤرخين لا يوافق على أن الرسول كتب للرؤساء والملوك بالدعوة ، وحجة هؤلاء المؤرخين أن كتب الرسول لم توجد في سجلات هؤلاء الملوك والرؤساء ، واعتقادى أن ذلك لا ينهض دليلاً ، فقد يكون هؤلاء الملوك قد استهانوا بهذه الكتب فأغفلوها ولم يثبتوها في سجلاتهم ، وقد تكون يد التدمير أثرت عليها في الاضطرابات الكثيرة التي نزلت بهذه الدول بعد إرسال الكتب ، على أن بعض المستشرقين ذكر هذه الكتب وأيد إرسالها ومن هؤلاء Wells^(١) ، ثم إننا لا نعتقد أن الرسول يتوانى في إرسال كتب يدعو فيها لدين الله وقد أتاحت له الفرصة بعد مهادنة قريش والقضاء على اليهود ، فطبيعة الدين الإسلامى أنه دين الناس جميعاً ، ولا بد أن يكون محمد بن عبد الله قد خطا في هذا سبيل ما استطاعه من خطوات .

وقد شهد عام ١٩٧٧ حدثاً خطيراً يتصل بهذه الرسائل ؛ إذ أعلن الملك حسين ملك المملكة الأردنية الهاشمية في مطلع ذلك العام أنه عثر على النسخة الأصلية التي أرسلها الرسول ﷺ إلى هرقل ملك الروم ، وقال الملك : إنه لم يعلن ذلك إلا بعد فحوص ودراسات علمية دقيقة ، قام بها علماء غربيون ، وقد أثبتت هذه الدراسات والتحليل أن الوثيقة التي عثر عليها قد كتبت على الرقاع التي كانت مستعملة آنذاك للكتابة ، وأن نوع الحبر هو النوع الذي كان مستعملاً ، وأن الخط والأقلام هي خطوط ذلك الزمان وأقلامه .

وقد أودع الملك حسين هذه الوثيقة في متحف خاص ، ويمكن الاطلاع عليها .

وهذا الكشف التاريخي الخطير يضع حداً للاختلاف حول هذه الكتب والرسائل ، ويؤكد صدق الروايات الإسلامية حول هذا الموضوع .

والذى يقرأ كتب الرسول إلى الملوك والرؤساء يجدها صيغت بمنتهى الحكمة والعروة ، فالرسول فيها سمح يدعو ولا يهدد ولا يقلل من مكانة

الملوك والرؤساء، بل يكتب لهم بالفاهم، ويعترف بمكانتهم، ويقرر أن سلطانهم في ظل الإسلام باق لهم، وهو بذلك يؤكد أنه ليس طالب مُلك، ثم هو يذكر أن هناك زكاة في أموال الأغنياء، ولكنه يؤكد أن الزكوات والصدقات لا تحل لمحمد ولا لآل محمد، وإنما تؤخذ من أغنياء المسلمين وترد على فقرائهم. وهذا يؤكد أنه ليس طالب مال، وهو عليه السلام مخاطب كل ملك حسب ظروفه، فإن كان من أهل الكتاب أشار إلى ما بين الأديان السماوية من روابط، وإن كان من غيرهم أشار إلى التزام البشرية بالعودة إلى الله وترك عبادة ما سواه.

وينبغي لإيضاح ذلك أن نقتبس هنا بعض نماذج من هذه الرسائل :

١ - إلى هرقل الروم :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم :

سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعوة الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم جميع الأرضيين^(١) « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

٢ - إلى كسرى الفرس :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس :

سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله :

(١) نسبة إلى أريوس وهو داعية مصري مسيحي كان يقول بالتوحيد الخالص (توفي

أدعوك بدعوة الله ، فإنى رسول الله إلى الناس كافة . لأنذر من كان
حيّاً ، وليحق القول على الكافرين .

أسلم تسلم فإن أبيت فعليك لثم كل المحجوس .

. - إلى أمير دمشق :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمير .

سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله وصدق برسوله .

إنى أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبق ملكك .

٤ - إلى المقوقس عظيم مصر :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى ،
أما بعد فإنى أدعوك للإسلام ، فاسلم تسلم ، وإن يسلم قومك يؤتك الله أجره
مرتين (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا
الله ولا نشرك به شيئاً ؛ ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ؛ فإن
تولوا فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون)

غزوة مؤتة

وبدء الصراع مع غير العرب

زمن الغزوة : جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة .

مكانها : قرية في شمال الجزيرة العربية على حدود الشام .

سببها : كانت غزوة مؤتة نتيجة لكتب الرسول إلى الملوك والرؤساء التي تحدثنا عنها آنفاً ، فإن الرسول بعث كتابه إلى الغساسنة مع الحارث بن عمير الأزدي ، وكان الغساسنة خاضعين لملك الروم ، ويرون أنفسهم أقوياء بسطان الروم ، فقتلوا حامل كتاب الرسول ، وسعروا بمن أرسله ، وكان ذلك عدواناً يستحق التأديب من جانب ، ومن جانب آخر فإن الأوان كان قد آن لتطهير الجزيرة العربية من الأعداء المناهضين للإسلام .

وَأعد الرسول لحرب الغساسنة جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل ، ولأول مرة لم يعين الرسول قائداً واحداً للجيش ، بل عين زيد بن حارثة أميراً للجيش وقال : فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب يصبح أمير الجيش ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة ، وكان هذا إحساساً من الرسول بصعوبة المعركة ، كما ترك هذا التصرف إحساساً لدى المسلمين بخطورة الأمر . وسار جيش المسلمين إلى الشمال ، وما إن وصل إلى قرب مؤتة حتى فوجئوا بأنهم يواجهون جيشاً قوامه حوالى مائة ألف بعضهم من الروم وبعضهم من الغساسنة وعن حضر لمساعدتهم من العرب المحيطين بهم الذين كانوا لا يزالون على الشرك .

وجلس المسلمون للمشورة ، واتجه بعضهم إلى الكتابة للرسول بالأمر ليرشدتهم إلى ما يجب أن يفعلوا أو ليرسل لهم مدداً من الرجال والسلاح ، ولكن عبد الله بن رواحة صاح في الناس قائلاً : أيها المسلمون ، والله إن التي خرجتم لطلبها هي الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ،

فانطلقوا بنا إلى إحدى الحسينين ، النصر أو الشهادة . فقال الناس : صدق والله ابن رواحة .

وتقدم المسلمون وبدأت المعركة ، وسرعان ما ظهر فيها عدم التكافؤ ، فقتل القادة الثلاثة الواحد بعد الآخر ، ثم آلت الراية إلى خالد بن الوليد الذى سرعان ما أدرك أن الاستمرار فى المعركة سيؤدى إلى فناء جيش المسلمين دون طائل ، فرأى أن ينسحب بجيش المسلمين ليضمن النجاة لجيشه حتى تكون عدة المسلمين أوفر للقاء الروم ومن معهم .

وعند ما أضمر خالد هذا رأى ، ومال له أصحابه واجه جيش الروم فى أول أيام قيادته بتنظيم جديد أوحى إلى الروم بأن وجوها جديدة انضمت لجيش المسلمين ، كما أمر بعض أتباعه أن يثيروا الغبار خلف الجيش ليوهم الروم أن مزيداً من المساعدات ينال على جيش المسلمين من المدينة ، وفى ظل هذا التصرف انسحب خالد بالجيش .

وغزوة مؤتة جديرة ببعض التعليقات المهمة :

أولاً : إن هول المعركة لم يكن بكثرة الشهداء وإنما بالجيش الصاخبة التى أعدها الروم وعرب الشمال لها ، أما الشهداء فهم اثنا عشر شهيداً فقط فيهم القادة الثلاثة ، ويبدو أن حامل الراية فى هذه المعركة الخطيرة كان يتقدم الجموع ، ولا يقتصر على إدارة المعركة ، ومن هنا سقط حاملو الراية مع قلة من سقطوا من المسلمين ، ويروى أن جيش الأعداء سقط فيه نفس العدد أيضاً .

ثانياً : يبدو للناظر فى هذه الغزوة أن الهبة المشتركة هى التى منعت الاستمرار فى المعركة ، وجعلت كلاً من الجيشين يقتنع بالمانورة والمناوشة ، فجيش الروم كان يعرف ما حققه المسلمون من انتصارات على الغزوات وضد اليهود ، والمسلمون كانوا يعرفون قدرات الجيوش الرومية التى كانت قد حققت حديثاً نصراً ضد الفرس ، وفى جو هذه الهبة المشتركة وقفت المعركة عند هذا الحد .

ثالثاً : لم يقبل المسلمون بالمدينة أن ينسحب خالد بالجيش ، وعدوا ذلك فراراً ، ولذلك جعل الناس يحثون الأرباب على الجيش ويصفونهم بأنهم فرار ، وهزءون بهم فيقولون : فررتم في سبيل الله ، ولذلك نخجل كثير من هؤلاء الفارين فتوقفوا عن الظهور أمام الناس مخافة هذا الهجوم ، فقد روى ابن هشام^(١) أن أم سامة زوج الرسول صلوات الله عليه وسلم سألت زوجة سلمة بن هشام بن العاص قائلة : ما لي لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله ؟ فأجابت : والله ما يستطيع أن يخرج ، كلما خرج صاح به الناس : يا فرار ، فررتم في سبيل الله . حتى قعد في البيت فما يخرج .

ولكن الرسول صلوات الله عليه قدّر الموقف ، وسماه « الكفرار » مدرّكاً للأسباب التي جعلتهم ينسحبون^(٢).

وقد أضمر خالد بن الوليد ذلك في نفسه ، ولذلك ثأر من الروم في صراعه معهم إبان فتح الشام ، فغسل عن نفسه هذا الوصف الذي أطلقه عليه المتسرعون ، وهيات لخالد بن الوليد أن يفر إلا عن حكمة وخطة .

رابعاً : أدرك المسلمون من هذه الغزوة أن الجولة الحربية الحقيقية ستكون ضد الروم ، وأخذوا يعدون العدة لها ليبدءوا بها في الوقت المناسب .

خامساً : رأينا الرسول بعد هزيمة أحد يسرع فيسير إلى حراء الأسد ليؤهم قريباً بقوة المسلمين ، وهو بعد غزوة مؤتة يفعل نفس الشيء ، فقد أرسل جيشاً بقيادة عمرو بن العاص إلى الشمال ، وأمدّه بجاعة فيهم أبو بكر وعمر بقيادة أبي عبيدة بن الجراح ، وأوصى الرسول أبا عبيدة بقوله : لا تختلفا . وقد أشرنا لذلك من قبل وعلق الدكتور محمد حسين هيكل على هذه الغزوة بقوله : « وتقدم الجيش فشلت جموع أهل الشام الذين أرادوا محاربته ، وعادت بذلك هيئة المسلمين في تلك النواحي »^(٣).

(١) السيرة النبوية ج ٤ ص ١٧ .

(٢) حياة محمد ص ٣٩٦ .

(م ٣٣ - التاريخ)

غزوة الفتح أو فتح مكة

زمنها : في رمضان من السنة الثامنة للهجرة ، وخروج الرسول إليها
كان في العاشر منه .

مكائنها : مكة المكرمة .

سببها :

مهدت لفتح مكة ظروف كثيرة أشرنا لبعضها فيما سبق . فقد قضى المسلمون في فترة الهدنة على أقوى وأوفى نصير لقريش وهو اليهود ، وأخذ نفوذ المسلمين يمتد فأحاط بمكة من كل جانب ، انضمت لهم كثير من بلاد الجنوب وتبعهم كثير من القبائل في الشمال وبقيت مكة في منتصف الجزيرة وحدها -- تقريباً -- على الشرك ، ولكن أهل مكة الآن غيرهم في الماضي ، فقد مضت إحدى وعشرون سنة ومكة تناضل ، ناضلت قبل الهجرة وناضلت بعدها ، وفي خلال هذه السنين تغيرت أحوال مكة ، فقد خسر في الحروب عدد كبير ممن كان يدعو للقضاء على محمد ، كأي جهل وعتبه وشيبة ، وكان هناك أبطال مغاوير تعتمد عليهم مكة عند الضرر كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة ، ولكن هؤلاء لحقوا بمحمد وخلفوا مكانهم خالياً ، وأهل مكة الباقون على الشرك هزتهم انتصارات المسلمين ، وأوشكوا أن يهتفوا معهم من مشارف مكة حينما كان المسلمون يرفعون أصواتهم مهللين ملين عند طوافهم بالبيت بعد أن أخلت قريش مكة لهم . ونشأ جيل جديد سمع بالإسلام منذ المهد ونعومة الأظفار فلم تتعمق عبادة الأصنام في نفسه ، وأحس بكثير من أهل مكة بالعقوق ، فالذين الذين ينع من مكة اعتنقه أكثر بلدان العرب إلا مكة ، ومحمد القرشي أصبح حظياً عند أكثر العرب ولكن القرشيين يعادونه . يا للعار !!!

ولنعد لخالد بن الوليد وأنداده لنذكر أن خالد بن الوليد هو ابن الزبير ابن المغيرة الذي كان من أقسى أعداء الإسلام ، والذي نزلت فيه الآيات

الكريمة « ذرني ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالا مملوداً ، وبنى شهوداً ومهدت له تمهيداً . ثم يطمع أن أزيد ، كلا ، إنه كان لآياتنا عنيداً » (١) وعثمان بن طلحة أبوه طلحة بن أبي طلحة الذي ذكرنا في غزوة أحد أنه خرج من صفوف المشركين يدعو المسلمين للمبارزة ولذلك فإسلام خالد وعثمان وكثيرين من أندادهما كان يمثل تحولاً خطيراً من جيل إلى جيل ، وبهى العاصمة الروحية العنيدة لتلقى الزمام للإسلام .

ثم إن قريشاً رأت نفسها تقف وجهاً لوجه ضد العرب أجمعين تقريباً ، وأدركت قريش أن وفود الحجاج التي لم تنقطع عن مكة منذ عهد إبراهيم سيقطعها عداء قريش للعرب ، واستمرار قريش على عبادة الأوثان بينما دخل أغلب العرب في دين الله ، وفطنت قريش إلى أن تجارتها لا يمكن أن تستمر في أمن إلى الشمال أو الجنوب بعد أن امتد نفوذ المسلمين إلى جميع هذه الجهات .

وهكذا وقفت مكة تنهادى على وشك السقوط مما جعل محمداً يوقن أن دخول مكة ليس إلا كما يقول العسكريون « عملية إنزال جنود » لن يحدث فيها حرب ولا قتال ، وأتيحت للمسلمين الفرصة للدخول مكة ، فقد نقضت قريش عهدها مع المسلمين ، إذ حدث قتال بين بنى بكر وخزاعة ، وبنو بكر حلفاء قريش ، وخزاعة حلفاء المسلمين ، وانضمت قريش لحلفائها في هذه الحرب واستنجدت بخزاعة بالمسلمين (٢) .

وأعد الرسول جيشاً عظيماً ، لم تشهده الجزيرة العربية من قبل ، إذ كان عدده عشرة آلاف شخص ، يسبرون في طاعة مطلقة لقائدهم العظيم .
حاطب بن بلتعة يحذر أهل مكة :

يقول ابن هشام (٣) : لما أجمع الرسول السير إلى مكة كتب حاطب بن بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم فيه بما أزمع عليه الرسول ليأخذوا حذرهم ، وأعطى الكتاب لامراً قبل إنها مولاة لبعض بنى عبد المطلب ، وجعل لها جعلاً على ذلك ،

(١) سورة المائدة الآيات ١١ - ١٦ .

(٢) ابن هشام - ٢ : ٢٦٣ .

(٣) السيرة النبوية ج ٤ ص ٢٩ - ٢٠ .

ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى للرسول بذلك . فبعث الرسول علياً ابن أبي طالب والزبير بن العوام لأخذ الكتاب من المرأة ومنعها من السير ، فلحقا بها في الطريق ، وقال علي : أين الكتاب الذي أرسله معك حاطب ؟ فأنكرت أن معها كتاباً . ففتش على رحلها فلم يجده ، فقال لها : والله ما كُذِبَ رسول الله ولا كُذِّبنا . فإما أن تظهره وإلا لنكشفنك . فلما رأت الجِدَّ منه استخرجته من ضمائر شعرها ، وعاد به على إلى الرسول ، فقال الرسول لحاطب : ما حملك على هذا ؟ فأجاب حاطب : يا رسول الله ، والله إنني لمؤمن بالله ورسوله ، ولكني امرؤ ليس لي في القوم أصل ولا عشيرة ، ولي بين قريش ولد وأهل فأردت أن تكون لي صنعة عندهم . قال عمر : مرني يا رسول الله لأضرب عنقه . فقال الرسول : وما يدريك يا عمر أن الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم .

ونزل في هذه الحادثة قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة . . . » (١) .

العباس وأبو سفيان :

وعلى هذا لم تعرف قريش هدف الرسول حتى أصبح على مقربة من مكة ، وأخذت قريش على غرة فأسقط في أمرها ، وبينما كانوا في جدل من أمرهم خرج العباس والتقى بالمسلمين عند الجحفة . ويقال إن العباس كان مسلماً يكتم إسلامه بأمر الرسول .

ولعب العباس دوراً مهماً في هذه الفترة مخافة أن يدخل جيش المسلمين مكة في حالة حرب . فلا تقوم لقريش بعدها قائمة ، فأخذ العباس بغلة الرسول ليدخل بها مكة ويحذر أهلها من جيوش المسلمين ، وعند ما كان في الطريق سمع صوت أبي سفيان بن حرب . وكان هذا خرج مع بُدَيْل بن ورقاء ليتجسس الأخبار . وسمع العباس صوت أبي سفيان فناداه : أبا حنظلة . ففرح أبو سفيان بصوت العباس وقال : أبا الفضل ؟ فقال العباس :

ويحك يا أبا سفيان ، لقد خرج لكم رسول الله في قوة لا تقهر ، فاركب خلقي بغلة رسول الله لعل أنال لك النجاة . فركب خلفه ولما رآه المسلمون حاولوا القضاء عليه ؛ ولكن العباس كان يهتف : قد أجرتة .

وعرض العباس الأمر على الرسول ولكن الرسول بحكمته أراد أن يبقى الخوف في نفس أبي سفيان فترة ، فقال للعباس : خذه إلى رحلك وأتني به في الصباح . وفي الصباح استقبل الرسول أبا سفيان بن حرب الذي فقد كل أمل ، والذي لم يعد يهتم إلا بأن يمنع الأذى والذل عن قومه ، وهتف به الرسول : ألم يأن لك يا أبا سفيان أن تعلم أنه لا إله إلا الله !

قال أبو سفيان : بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً^(١) .

فعاد الرسول يسأله : أما آن لك أن تشهد أني رسول الله ؟ فأجاب أبو سفيان في اضطراب : أمّا هذه ففي النفس منها شيء . فغمره العباس وحذره وطلب منه أن يتخلى عن تعصب الجاهلية ، فأعلن إيمانه بالله ورسوله .

وآمن أبو سفيان ، ولكن الرسول لم يتركه يعود إلى مكة حتى شهد بنفسه موكب الجيوش الإسلامية ، فرأى أبو سفيان ما لم يخطر له ببال ، حتى إذا انتهى العرض العسكري اللجب ترك أبو سفيان ليعود إلى مكة ، وكان أبو سفيان هناك لساناً يحدث الناس عن الزحف الذي لا يستطيع أحد إيقافه ، فقتل كل أمل في المقاومة^(٢) .

ودخلت جيوش المسلمين من جهات أربع ، وكان خالد بن الوليد من قادة الفتح ، ونادى منادى الرسول : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابيه عليه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن^(٣) . واستسلمت مكة .

وطاف المسلمون بالكعبة وأزالوا منها التماثيل والصور وحطموا الأصنام وهم يهتفون : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً^(٤) .

(١) ابن القيم : زاد المعاد ٢ : ٣٦٣ .

(٢) انظر ابن هشام ٢ : ٢٦٩ .

(٣) المرجع السابق والبلاذري ص ٥٢ .

(٤) ابن القيم : زاد المعاد ٢ : ١٦٥ وانظر الأصنام لابن الكلبي ص ٤١ وما بعدها .

الفاخون في مكة :

هل عرف التاريخ جماعة غلبت على أمرها وطردت . فلما استطاعت العودة إلى الوطن لم تمتد لهم يد ، ولم يحاولوا أن يأخذوا بثأر ! .
وهل عرف التاريخ عدوين يلتقيان بعد طول صراع مخضب بالدماء فلا يكون في لقاءهما شحنة ولا بغضاء ؟ .

لأنها روح الإسلام ، وسيطرة القائد الأعلى على أتباعه . ورحمته بمن كانوا بالأمس أعداءه ، فلقد اجتمعوا حوله حيث هتف فيهم : ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم . قال محمد : اذهبوا فأنتم الطلقاء^(١) .

وكان هذا هو كل الحساب بين الجيش الزاحف من المدينة وبين أهل مكة المستسلمين .

بعد الفتح

كان استسلام مكة عملاً هائلاً في تاريخ الدعوة الإسلامية . فقد توقف النشاط المعادي للإسلام من أخطر مركز بأشر العداء للدين الجديد أكثر من عشرين عاماً ، وهناك أحداث مهمة برزت بعد فتح مكة نتحدث عنها فيما يلي :

١ - تخوف الأنصار أن يبقى الرسول بمكة :

بعد فتح مكة قام الرسول على الصفا يدعو الله ويشكره . وكان الأنصار محيطون به ، فقال بعضهم لبعض سرّاً : أترون رسول الله وقد فتح الله عليه أرضه ودياره يقيم بها ؟ فلما فرغ الرسول من دعائه سألم : ماذا قلتم ؟ فقالوا : لا شيء يا رسول الله . فلم يزل بهم حتى أخبروه . فقال : معاذ الله ، الحيا محياكم ، والمات بما تكلم^(٢) .

(١) ابن هشام ٢ : ٢٧٤ وانظر أيضا البلاذري ص ٥٥ .

(٢) ابن هشام ج ٤ ص ٤٣ تحقيق طه عبد الرؤوف .

٢ - العذر الشامل إلا عن قليلين :

قلنا آنفا إن الرسول قدم عفوا شاملا لأهل مكة ، وكان قد عهد إلى أمراء الجيش ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، ولم يبيع الرسول دم أحد إلا عددا قليلا لأسباب مهمة ، وهؤلاء هم :

عبد الله بن سعد : أخو عثمان من الرضاعة ، وكان عبد الله من كتبة الوحي ؛ ثم ارتد عن الإسلام ، ولكن عثمان شفع له فقبل الرسول شفاعته وعفا عنه .

عبد الله بن خطل : كان مسلما وله مولى ، فطلب من مولاه إعداد طعام ولكن الخادم نام ولم يصنع الطعام فقتله عبد الله ، وخاف القصاص فارتد عن الإسلام وهرب إلى مكة ، فأبيع دمه لأنه قاتل ؛ ولأنه مرتد .

الحويرث بن وهب : كان يؤذى الرسول بمكة ، واعتدى على ابنتي الرسول وهما في طريقهما للهجرة من مكة إلى المدينة .

عكرمة بن أبي جهل : كان يساعد أباه في العدوان على المسلمين ، وبعد مقتل أبيه في غزوة بدر استمر على العدوان ، فلما فتحت مكة هرب إلى اليمن . وأسلمت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام واستأمنت له فعفا عنه الرسول فخرجت في طلبه وأعادته إلى مكة .

مقيس بن حبابه : قتل أحد الأنصار ؛ وفر إلى مكة وارتد عن الإسلام فبنتان : هذا بالإضافة إلى قيتين كانتا تنغبان بمن يقتل الرسول وتشجعان على الهجوم عليه ولكن الرسول عفا عن إحداهما (١) .

٣ - إسلام والد أبي بكر :

لما دخل الرسول مكة ودخل المسجد ، أتى أبو بكر بأبيه يقوده ،

(١) ابن هشام ٤ - ص ٣٨ - ٤٠ .

فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هلا تركت الشيخ في هيمته حتى آتته أنا فيه ؟ فقال أبو بكر : هو أحق أن يمشی إليك يا رسول الله ، فأجلسه الرسول بين يديه ثم مسح صدره ، وأعلن الشيخ إسلامه ^(١).

٤ - إسلام صفوان بن أمية :

عقب فتح مكة أسرع صفوان بن أمية بن خلف إلى جدّةه ليركب منها إلى اليمن ، فجاء عمير بن وهب إلى الرسول وقال له : يا نبي الله : صفوان ابن أمية سيد قومه ، وقد خرج هارباً منك ليتخذ نفسه في البحر فأمنته يا رسول الله ، قال الرسول دون تردد ، هو آمن ، قال عمير : أعطني يا رسول الله آية له يعرف بها أمانك فأعطاه عمامته . فخرج بها حتى أدركه وصاح به : يا صفوان : هذا أمان من رسول الله إليك ، أمان جاءك من أفضل الناس وأبر الناس وأحلم الناس ، من عزّه عزك وشرفه شرفك ، قال صفوان إنى أخافه على نفسي ، قال عمير ؟ هو أحلم من ذلك وأكرم ، فرجع صفوان مع عمير إلى الرسول ، ودخلا عليه وقال صفوان للرسول : إن هذا يزعم أنك قد أمّنتني . قال الرسول : لقد صدق ، قال صفوان : اجعلني في أمرى بالخيار مدة شهرين ، قال الرسول : أنت في الخيار فيه أربعة أشهر .

ويوماً بعد يرم بدأت صلوات صفوان تتوثق بالرسول ، وبدأ إعجابه به يظهر ، ولم تمض إلا أيام قلائل حتى كان صفوان في صفوف المسلمين في موقعة حنين قبل أن يدخل الإسلام ، وعندما تقوّل المنافقون على الرسول لآثر هزيمة المسلمين في الجولة الأولى بهذه الموقعة تصدى لهم صفوان معارضاً ومؤيماً . ولم يلبث أن دخل الإسلام قبل الأجل الذي منحه له الرسول ^(٢) .

٥ - إسلام كعب بن زهير :

لما عاد الرسول من غزوة حنين والطائف كتب بجير بن زهير بن

(١) سيرة- ابن هشام ج ٤ ص ٣٤ .

(٢) ابن هشام : ج ٤ ص ٤٤ وما بعدها .

أبى سلمى إلى أخيه كعب يخبره أن الرسول قتل رجلاً بمكة ممن كانوا يهجونهم ويؤذونه ، وأن بعض شعراء قريش المجانين قد هربوا في كل وجه ، فإن كانت لك في نفسك حاجة ، فاطر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً .

فلما تلقى كعب كتاب أخيه ضاقت به الأرض . وأشفق على نفسه ، فنظم قصيدة يمدح فيها الرسول . ويذكر خوفه وإرجاف الوشاة به ، ودخل على الرسول في المسجد ومعه صديق من المسلمين من جهينة . وكان الرسول لا يعرف كعب بن زهير ، فقال الجهيني للرسول : إن كعب بن زهير جاء تائباً مسلماً يطلب الأمان . فهل أنت قابل منه إن أنا جئت بك به ؟ قال الرسول صاوات الله عليه : نعم ، فتقدم كعب بن زهير وقال : أنا كعب بن زهير يا رسول الله ، وألقى قصيدته التي جاء فيها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم ينفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غصيف الطرف مكحول
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يشتكي قصر منها ولا طول

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول^(١)

٦ - مفتاح الكعبة :

عندما دخل الرسول المسجد بعد فتح مكة ، جاء له على بن أبي طالب وفي يده مفتاح الكعبة وقال : يا رسول الله ، هذا مفتاح الكعبة ، فاجعل لنا الحجابة مع السقاية ، صلى الله عليك ، فقال الرسول : أين عثمان بن طلحة ؟ فدعى له ، فأعطاه الرسول المفتاح وقال : هاك مفتاح الكعبة يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء^(٢) .

(١) ابن هشام ج ٤ ص ١٠٧ وما بعدها .

(٢) ابن هشام ج ٤ ص ٤١

٧ - الجزيرة العربية في الطريق إلى الاستسلام :

كان من الطبيعي أن استسلام مكة مهد الطريق لاستسلام الجزيرة العربية كلها ، لقد همد الخصم العنيد وألقى السلاح . وأصبح المسلمون سادة الكعبة وحماة البيت الحرام . وسارت سيرتهم في البر وحسن المعاملة مع الوافدين والركبان .

ومن أسماء مكة « أم القرى » وهذا يدل على مدى أهميتها بين بلدان الجزيرة العربية ، وبها الكعبة المشرفة التي يحج لها العرب من كل الأصقاع العربية ، وباسم الكعبة كانت لقريش الزعامة الروحية ، وبهذا كان استسلام قريش واستيلاء المسلمين على الكعبة وتحطيم الأصنام مطلع عهد جديد سعيد على الإسلام والمسلمين .

وكان هدف الرسول بعد استسلام مكة تطهير الجزيرة العربية كلها من أعداء الإسلام ليخلق منها وحدة لها ثقافتها ولها دينها ولها مبادئها ونظمها ، حتى يستطيع - بوحدة الجزيرة العربية واستقرارها - أن يواجه عدوه في الشمال ، ذلك العدو الذي يتحرش بالمسلمين ، ويعد العدة للتدخل في شئون الجزيرة العربية ، ولذلك سارع الرسول بأن دعا إلى الإسلام قبائل البدو المتناثرة حول مكة ، كما دعا مسيحي نجران وأمرأاء الجنوب الذين لم يكونوا قد انضموا للإسلام بعد ، وقد استجاب كل هؤلاء لدعوة الإسلام .

ثم هبت عقب ذلك من الطائف ومن بعض بلاد نجد حركة ضد الإسلام والمسلمين استلزمت أن يخوض المسلمون معركة حنين وغزوة الطائف وسنتكلم عنهما فيما يلي بشيء من التفصيل :

غزوة حنين والطائف

مقدمة :

تعتبر غزوة الطائف امتداداً لغزوة حنين ، ذلك لأن جموع هوازن التي كانت تنتشر بطونهم انتشاراً واسعاً في نجد ، وجموع ثقيف التي كانت تسكن الطائف المدينة الغنية التي تقع في الجنوب الشرقي من مكة . هؤلاء وأولئك حاربوا المسلمين في وادي حنين ، فلما انهزموا وتقهقروا لجثوا إلى الطائف وتحصنوا بها ، ولحق المسلمون بهم حيث استمرت المعركة ، ومن هنا كان الحديث عن معركة حنين ومعركة الطائف تحت عنوان واحد ، وسيأتي تفصيل ذلك .

الزمن : السنة الثامنة للهجرة بعد فتح مكة بأقل من شهر .
المكان : وادي حنين ومدينة الطائف . ووادي حنين يقع بين مكة والطائف وراء عرفات بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً^(١) .

السبب :

سبق أن قلنا إنه كانت هناك قوى كثيرة تعارض الإسلام وتعمل على القضاء عليه ، وأن هذه القوى ظهرت الواحدة تلو الأخرى ، فهناك قوى بكرت في الظهور ، فلما أخفقت ظهرت قوى أخرى وهكذا .

كانت قريش تعتقد أن الدعوة الإسلامية خرافة لا تلبث أن تموت من تلقاء نفسها ولذلك لم تَرَ داعياً أن تقاومها في بدء أمرها ، فلما لم تمت من تلقاء نفسها هبت قريش في وجهها للقضاء عليها .

وكان اليهود يظنون أن قريشاً كفيفة بالقضاء على الإسلام ، فلما أفلت الإسلام من مكة وهُزمت قريش في بدر انضم اليهود إلى المناضلين .

ولما بدأت هزائم اليهود بإخراج بني النضير تجمعت قوى الأحزاب للقضاء على الإسلام .

(١) النووي : تهذيب الأسماء واللغات ج ١ ص ٨٦ .

وقضى على اليهود ، واستسلمت مكة ، فهبت هوازن وثقيف للوقوف
في وجه الإسلام ؟

فلما استسلمت الجزيرة العربية كلها هب الفرس والروم للقضاء على
القوة الهائلة الناشئة في شبه الجزيرة العربية .

فلما انتصر الإسلام في كفاحه ضد الفرس والروم هبت أوروبا تحت
راية الصليب فيما يسمى بالحروب الصليبية للقضاء على الإسلام .

وانهزم فرسان الصليبيين واندكت ممالكهم التي أقاموها بالشرق ، فبدأ الاستعمار
الأوروبي يزحف على العالم الإسلامي ليقضي على الإسلام بالقوة أو برسائل أخرى
حديثه كالتبشير والتشكيك ونشر الإباحية والحلاعة باسم المدنية والحضارة .
وانتصر الإسلام في جميع الميادين ولا يزال ينتصر .

ونحن هنا نتحدث عن حلقة من حلقات هذا النضال ؛ عن نضال
المسلمين ضد هوازن وثقيف في وادي حنين ومدينة الطائف .

لقد استسلمت مكة ودخلها محمد مرفوع الرأس منتصراً ، وامتد سلطانه
إلى الكعبة ، البيت المقدس عند العرب جميعاً ، وخضع لنفوذه أغلب
الجزيرة العربية في الشمال والجنوب ، ولم يبق خارجاً عليه إلا قلة أهمها هوازن
وثقيف ، ومن هنا أدركت هوازن وثقيف أنه لم يبق قوة تستطيع الوقوف في وجه
المسلمين إلا قوتها ، وأحست هوازن وثقيف بهتاف اللات والعزى ومناة
يدوى في القلوب المظلمة ، ويحثها على الثأر للأوثان التي كسرها المسلمون
بالكعبة ؛ وللأصنام التي كبها المسلمون على الوجوه .

وهبت هوازن وثقيف بقيادة مالك بن عوف^(١) (من بني نصر من
هوازن) ولم يكن قد مضى على فتح مكة غير بضعة عشر يوماً كما جاء
في رواية ، أو بضعة وعشرون يوماً كما جاء في رواية أخرى^(٢) .

ولم يشمل المسلمون بالنصر الذي أحرزوه بفتح مكة ، ولذلك سرعان
ما أعدَّ الرسول جيشاً كبيراً يبلغ عشرة آلاف أو يزيد ، ومشى الجيش

ولكن في شيء غير قليل من الزهو ؛ فقد همدت قريشُ العدوَّ الأكبرَ
للمسلمين ، وها هم القرشيون يلحقون بجيش المسلمين لمحاربة هوازن وثقيف ،
وقد همدت أنفاسُ اليهود أقسى أعداء المسلمين ، فإذا عسى أن تكون
هوازن ؟ وماذا عسى أن تكون ثقيف ؟

وأدرك مالك بن عوف أن هذه آخر محاولة يقوم بها عبدة الأوثان ضد
الإسلام ، ولذلك نجده يُعَمِّلُ الحيلة للحصول على النصر ، فاختر للموقعة
أرضاً جبلية بها مرتفعات ولها مسالك لا يعرفها أغلب المسلمين ولا يجيدون
القتل فيها ، وحشد مالك خلف الجند النساء والأطفال حتى يدرك المحارب
أن هزيمته ستكون فناءً لأهله وماله ، وبذلك يستميت في القتال حتى النصر^(١)
وعسكر مالك بجنده في شعاب الجبال فأصبح هؤلاء الجنود مشرفين على
الطرق الضيقة حيث يمر جيش المسلمين .

وبينما كان جيش المسلمين يعبر المسالك الضيقة بجبال تهامة والزهو يشع
فيهم بسبب ضخامة العدة وكثرة العدد ، انقضَّ عليهم العدو من مكانه في
الشعاب والمرتفعات ، وفوجيء المسلمون بالضرب ينصب عليهم انصباباً ،
فاضطربوا وتفرقت جموعهم وغلبوا على أمرهم وولوا متقهقرين ، وقد
حكى القرآن الكريم هذه الهزيمة بقوله (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم
فلم تغن عنكم شيئاً ؛ وضائق عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين^(٢))

ونقل فيما يل عبارة ابن إسحق في ذلك الموضوع قال : حدثني عاصم
ابن عمر بن قتادة عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه جابر بن عبد الله قال :
لما استقبلنا وادى حنين انحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف حطوط إنما
ننحدر فيه انحذاراً ، وفي عماية الصبح وكان القوم قد سبقونا إلى الوادى ،
فكنوا لنا في شعابة وأجنابه ومضايقه ، قد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا ، فوالله
ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتاب قد شدت علينا شدة رجل واحد ،

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٢٨٢ .

(٢) سورة التوبة الآية ٢٥ .

وانتشر الناس راجعين لا يلوى أحد منهم على أحد^(١) .

ولم تكن انتصار هوازن وثقيف حاسماً ، ولم يكن إلا أثراً للمفاجأة التي لم يتوقعها المسلمون ، وإذا كانت جموع المسلمين قد فرت وكتبت على نفسها الهزيمة ، فإن الرسول وقف مكانه كالطود الشامخ الذي لا يعرف الفرار ، ووقف مع الرسول جماعة من المهاجرين والأنصار فيهم العباس عم النبي ، ولعل وقفة هؤلاء الرفقاء لم تكن طلباً للنصر وإنما كانت ليموتوا مع الرسول أو يعيشوا معه فلا معنى للفرار وتركه وحده أياً كانت نتائج المعركة (ثم أنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها^(٢)) .

وهكذا سرعان ما بدأ الاستعداد لمعركة حقيقية ، فهتف الرسول بأصحابه ونادى المهاجرين والأنصار ، وأمرعه العباس أن ينادى وكان صوته قوياً ففعل^(٣) ، واجتمع المسلمون حول قائدهم وواجهوا الأعداء ، وتوقف الجيش المنتصر عن تعقب المهزومين ليقابل المخاريين ، ونظر المسلمون الفارون خلفهم فلم يجدوا أحداً يتعقبهم ، بل رأوا معركة تدور وسمعوا صياح العباس يهتف بهم ؛ فارتدوا للمعركة وتكاثروا ، وحاربوا بشجاعة فائقة فانقلبوا من مدافعين إلى مهاجمين ، وتقدم البطل العظيم علي بن أبي طالب إلى صاحب راية المشركين فعقر جملة فهوت الراية ، ثم قتل حاملها ، واضطرب المشركون ، وتفرق جمعهم ، وولوا الأدبار ، وغنم المسلمون في هذه الموقعة غنائم كثيرة وسبايا عظيمة^(٤) .

أما المشركون فقد فارقوا أرض المعركة متفرقين فاتجه بعضهم إلى سهل أوطاس واتجه آخرون إلى نخلة ، كما ارتد مالك بن عوف وجمهرة أتباعه إلى الطائف حيث نزلوا مع ثقيف مدينتهم الحصينة الغنية ، وقد تتبع

(١) ابن هشام ٢ : ٢٨٩ .

(٢) سورة التوبة الآية ٢٦ .

(٣) ابن هشام ٢ : ٢٩٠ وابن القيم ٢ : ١٨٧ .

(٤) ابن هشام ٢ : ٢٩٠ .

وحدات من جيش المسلمين أولئك الفارين ، واتجه الرسول ومعه أغلب الجيش لحصار الطائف^(١) .

وحول الطائف بدأت معركة جديدة لها ظروف خاصة ، فالطائف مدينة حصينة قوية الجدران ، وقد رأيتُ بقايا أسوارٍ حول الطائف عرضها حوالى مترين ويُعتقد أنها بقايا أسوار الطائف الشهيرة ، ثم إن الطائف مدينة غنية كثيرة الخيرات تستطيع أن تمتدَّ المحاصرين بمثونة وافرة لمدة طويلة ، ويقول البلاذرى^(٢) إن أهل الطائف رمُّوا حصونهم وجمعوا الميرة ، ثم إن أهل الطائف لهم خبرة عظيمة بالرمى بالنبال ، ورد الذين يحاولون أن يتسللوا إليهم أو يقتحموا عليهم مدبرتهم .

وللمسلمين خبرة واسعة في الحصار ، فقد حاصروا بنى النضير وبنى قريظة وخيبر من قبل ، وانتهى حصارهم بالنجاح الذى أرادوه . ولكن قوة الطائف وقوة أهل الطائف كانت تفوق اليهود ومدن اليهود بدرجات كثيرة . ولذلك كان على المسلمين أن يقترحوا وسائل جديدة للنجاح في الحصار ، وكان على هوازن وثقيف أن تجد السبل التى ترد بها وسائل المسلمين ، ولذلك نجد ما يمكن أن نسميه حرباً فكرية ؛ فالمسلمون يستعملون المنجنيق وهو أداة ترمى الحجارة على الأعداء وتقوض الجدران ، ولكن جدران الطائف كانت أقوى من أن تهتز لهذه الضربات ، فاستعمل المسلمون الدبابة وهى أداة مصنوعة من الخشب أو الجلود يدخل المسلمون فيها ويتحركون فى حمايتها إلى الهدف ، فإذا وصلوا الأسوار نقبوها فى حين يحمىهم سطح الدبابة من نبال الأعداء^(٣) ولكن أهل الطائف ألقوا على المهاجمين قطع الحديد الملتهب فتعرضت الدبابة للاحتراق ، فتغلب المسلمون على ذلك بأن غطوا ظهر الدبابة بألواح من الحديد أو الصفيح ، فألقى المحاصرون عليها حجارة

(١) المرجع السابق ٣٠١ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٦٧ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٦٧ • ٦٨ .

ثقيلة دسوت بعضها ، وحاول المسلمون أن يحرقوا كروم الطائف ، وهي أغلى ما يعترُّ به أهل الطائف ، فأرسل هؤلاء إلى الرسول يخبرونه ألا يحرق الكروم ويخبرونه أن يأخذها لنفسه أو يدعها لله وللرحم (١) .

أما إذا تكلم أهل الطائف عن الله والرحم فقد أخذت عربيتهم تلين ، ثم إن الأشهر الحرم قد قرب دخولها ، والحصار قد طال مداه حتى كرهه المسلمون وبخاصة عندما تأكدوا من كثرة المثونة داخل الطائف ، وبعد الأمل في الاستسلام القريب ، وإزاء هذه الظروف لجأ الرسول إلى حل آخر هو حصار الطائف حصاراً أوسع : فهل تستطيع الطائف أن تعيش وحدها على الوثنية بعد أن دخلت الجزيرة العربية كلها في الاسلام ! وهل تستطيع الطائف أن تقف موقف العداء من العرب جميعاً !

ورفع الرسول الحصار عن الطائف وعاد إلى الجعرانة حيث كانت تنتظره السبايا والأسلاب التي حصل عليها المسلمون عند هزيمة هوازن ، وفي الجعرانة جاءه وفد من هوازن مسلمين تائبين وطلبوا أن يرد الرسول إليهم أموالهم وأهلهم ، فنزل لهم الرسول عن حقه وحق بنى عبد المطلب في المال والسبي وحجب الرسول للمسلمين التنازل عن حقوقهم ، ووعد من غلبه الحرص بجزء أوفى مما قد يجني من غنائم ، فاقتدى المسلمون بالرسول وتنازلوا عن حقوقهم في الأموال والسبايا (٢) .

وأعلن الرسول أن مالك بن عوف لو جاءه مسلماً لعفا عنه ورد إليه أهله وماله ، فخرج مالك من الطائف وقصد الرسول وأعلن إسلامه واسترد ماله وذويه (٣) .

(١) ابن القيم : زاد المعاد : ص ١٩٧ .

(٢) ابن هشام ٢ : ٣٠٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٠٧ .

أما الطائفة فسرعان ما أدركت قوة الحصار الواسع الذي فرضه عليها المسلمون ، وقد عبر بعضهم عن هذا الحصار بقوله « أفلا ترون أنه لا يأمن لكم سرب ، ولا يخرج منكم أحد إلا اقتطع ^(١) » ولذلك كونت ثقيف وفسداً جاء إلى الرسول وأعلن إسلام أهل الطائفة ودخول ثقيف فيما دخل فيه العرب جميعاً ^(٢) ، وقد تم إسلام الطائفة بعد غزوة تبارك التي تفهقر فيها الروم ولم يواجهوا المسلمين ، فأدركت الطائفة أن قوة المسلمين أعظم من أن يفكروا في مقاومتها ، وتم إسلام ثقيف في رمضان سنة ٩ هـ

ومن الطرائف التي يجدر ذكرها هنا أن بني ثقيف حاولوا أن يشترطوا أو أن يلتمسوا أن تبقى لهم إلهتهم « اللات » ولو فترة من الزمن ، ولكن هذا الالتماس قوبل بالسخرية ، فليس في الإسلام سبيل لاجتماع الوثنية والتوحيد ، وأمر الرسول من حطم هذا الصنم كما تحطمت أصنام مكة من قبل ^(٣) .

وهكذا أصبحت الجزيرة العربية لأول مرة في التاريخ دولة متحدة قوية ، لها مبادئها ولها حضارة ، ولم يبق في الجزيرة العربية إلا دين واحد التفت حوله الناس من الشمال ومن الجنوب .

(١) المرجع السابق ص ٣٢٥ .

(٢) أبي القيس : زاد المعاد ٢ : ١٩٧ والبلاذري ص ٦٢

(٣) انظر كتاب الأصنام لأبن الكبي - في عدة مواضع

غزوة تبوك

زمنها : رمضان من السنة التاسعة للهجرة .

مكانها : مدينة تبوك في شمال الجزيرة العربية .

سببها :

سبق أن تحدثنا عن غزوة مؤتة ، وقررنا أنه سقط فيها عدد من المسلمين فهم القادة الثلاثة الذين تولوا قيادة الجيش ، الواحد بعد الآخر ، وقلنا إنه لما تولى خالد بن الوليد قيادة جيش المسلمين استطاع أن يحتال حتى عاد بالجيش دون أن تقع هزيمة كاملة . وذكرنا كذلك أن الروم سقط منهم نفس العدد الذي سقط من المسلمين ، وأنهم لم يتابعوا المسلمين بعد انسحابهم وقتعوا بهذه النتيجة ، ولكن بقي نفوس الروم وفي نفوس المسلمين قلق كل من الآخر ، وعند ما حقق المسلمون بعد مؤتة ألواناً من الانتصارات ففتحو مكة ، وهزموا هوازن وثقيف ، أدرك الروم أن مسئوليتهم في مصارعة المسلمين ضرورية ، وأنه لم يبق غيرهم يلتزم بمواجهة المسلمين ، إذ لم يعد هناك أمل أن يتولى العرب القضاء على الإسلام ، فجمعت الروم جمعاً كثيرة بالشام ، ورزق هرقل أصحابه أجر سنة مقدماً ، وأجلبت مع هرقل لحمة وغسان وغيرهما (١) .

وزحف ذلك الجيش إلى أطراف الجزيرة العربية ، وجدَّ الرسول في إعداد جيش يقابل به جيش الروم ، ولكن الظروف هذه المرة كانت غير الظروف في الحروب السابقة ، ونستطيع أن نقرر شيئاً لم يذكره كثير من المؤرخين ، وهو أن العرب أرعبهم أن يقفوا وجهاً لوجه أمام الروم ، فالروم قوم غير قوة العرب في معداتهم وحصونهم وتدريبهم ، والعربي مدرب على القتال ولكن تبعاً لوسائل الحزب في الجزيرة العربية ، ثم إن الهزيمة التي لحقت بجيش مؤتة كانت لا تزال عالقة بالأذهان ، فخاف العرب من

(١) ابن القيم : زاد المعاد ٢ : ٢ .

تكرارها : والرؤم بلاد بعيدة عن عاصمة المسلمين ، والوصول إليها شاق عسير يتعب الزاحف وينال منه ، ويجعله بعيداً عن مراكز التموين والإمدادات ، ثم إن الوقت كان شديد الحرارة ، وكان وقت حصاد^(١) ، وكل هذه الظروف جعلت الرسول يعلن أصحابه قبل الخروج بهدفه حتى يستعدوا ، وكان من عادته أن يخرج بهم دون أن يخبرهم إلا بعد الخروج^(٢) . وكل هذه الظروف أيضاً جعلت المنافقين يعلنون نفاقهم ويتخلفون عن ركب المجاهدين ، بل جعلتهم يحاولون تثبيط الهمم وإضعاف العزائم ، وكانوا يجتمعون في بيت سويلم اليهودي ليذبروا تثبيط همم المسلمين عن الغزوة ، فوكل الرسول لطلحة بن عبيد الله ونفر من المسلمين أن يبرقوا هذا البيت : وقد أورد القرآن الكريم ظروف هذه القصة في آيات كثيرة من سورة التوبة نورد منها الآيات الآتية :

— يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أثأقلتم إلى الأرض أَرْضَيْتُمْ بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فامتناع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل^(٣) .

— لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة ، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون^(٤) .

— فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وقالوا لا تنفروا في الحر ، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون ، فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون ، فإن رجعت الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج ، فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً ، إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين^(٥) .

(١) ابن هشام ٢ : ٣١٦ وابن القيم ٣ : ٢ .

(٢) المرجعان السابقان .

(٣) سورة التوبة الآية ٢٨ .

(٤) سورة التوبة الآية ٤٢ .

(٥) سورة التوبة الآيات ٨١-٨٣ .

وبينما كان هناك عرب يرعبهم أن يقفوا في وجه الروم ، وبينما كان هناك منافقون ينشرون الخوف ويتلمسون الحيل حتى لا يلحقوا بجيش المسلمين ، كان هناك مسلمون امتلأت قلوبهم بالإيمان ، يستجيبون إذا دُعوا ، ويعرضون نفوسهم وأموالهم لخدمة الإسلام دون تردد أو خوف ، هؤلاء الذين أدركوا أنه « لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ، ولا يطنون موطئاً يغيظ الكفار ، ولا ينالوك من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » (١) . وكان عثمان بن عفان من أهم من سعى واحتسب في هذه الغزوة ، فقد روى أنه قدم مئات من الإبل بأقنابها وعدتها ، وبعض الخيول ، وألف دينار (٢) .

ومن هؤلاء الأبطال تكون جيش المسلمين في هذه الظروف الحرجة ، وقد سمي هذا الجيش « جيش العسرة » للصعوبات التي أحاطت بتكوينه وحظى أفراد هذا الجيش برضاء الله ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ﴾ (٣) .

وزحف الجيش مستعداً للفداء ، وإن جل الفداء ، وكان تعدادة ثلاثين ألفاً ، وقيل أربعين وقيل سبعين ، ولم يكن الروم ينتظرون أن يستجيب هذا العدد الضخم من المسلمين للحاق بالجيش في فترة الحصاد وزمن الحر القاسي ، ولذلك راعهم أن يقدم لهم هذا الجيش الكبير يقوده أبطال لا يعرفون الانهزام ، من أمثال أسيد بن حضير والحباب بن المنذر وخالد بن الوليد ، ولذلك نجد جيش الروم يتقهقر ليتخذ مكانه داخل بلاده مدافعاً بعد أن كان يريد الهجوم .

(١) سورة التوبة الآيتان ١٢٠ : ١٢١ .

(٢) تختلف الروايات في تقدير عدد الإبل التي قدمها عثمان ولذلك آثرت أن أذكرها هكذا بحملة (انظر زاد المعاد ١ : تهذيب الأسماء للنووي ١ : ٢٢٣ وابن هشام ٢ : ١٣٦ ، ٣٥٢)

(٣) سورة التوبة الآية ١١٧ .

ولم يرد الرسول أن يهاجم العدو بعد أن تقهقر ، وإذا فليذكر الرسول بجيشه عند تبوك حيث أُرهب الأعداء ، وعمل المعاهدات مع سكان الحدود بين الجزيرة العربية والشام ، وقد شملت هذه المعاهدات سكان تبوك وأيلة ، كما أرسل النبي خالد بن الوليد مع فريق من الجيش إلى دومة الجندل ، فعرضت له (١) .

وانتهت بذلك غزوة تبوك ، وهي آخر غزوات الرسول صلوات الله عليه .

الثلاثة الذين خلفوا

تخلف عن غزوة تبوك حوالي ثمانين شخصاً ، فلما عاد الرسول منها عودة مباركة جاء أكثر المتخلفين يعتذرون بمعاذير كاذبة ، فقبل رسول الله معاذيرهم الظاهرة وترك أمرهم إلى الله ، وقد نزلت آيات سورة التوبة تنهاجهم وتكشف سترهم ، ولكن كان من بين المتخلفين ثلاثة صدقوا الرسول واعترفوا أنهم لم يكن لهم عذر يمنعهم من المشاركة في هذه الغزوة وهؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، وقد عاملهم الرسول معاملة المذنبين ، فأمر بمقاطعتهم ، فأعرض المسلمون عنهم خمسين ليلة ، لا يكلمهم أحد ولا يعاملهم أحد حتى ضاقت عليهم الأرض لكنهم كانوا ثابتين عند موقفهم ، ويرون أن ذلك أبسر عند الله ورسوله من الكذب في اختلاق الأعذار ، وقد عانى هؤلاء أشد العناء حتى عفا الله عنهم ونزل فيهم قوله تعالى « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في سبيل الله من بعد ما كاد يزيغ قلوبهم فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم (٢) »

(١) ابن هشام ٢ : ٣١٩ .

(٢) سورة التوبة الآيتان ١١٧ - ١١٨ .

عام الوفود

قال ابن إسحق أول من دون السيرة النبوية : لما فتح رسول الله مكة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه ، ولذلك سمي العام التاسع للهجرة عام الوفود^(١) .

ويذكر ابن هشام^(٢) ، هذه الوفود ويقتبس مما ألقاه خطباؤها وشعراؤها ، ومن هذه الوفود وفد بني تميم : وبني عامر ، وبني ساعد بن بكر ، ووفد عبد القيس ، وبني خنيفة ، ووفد بني ظلي ، وبني زيد وكندة ، ووفد همدان ، وغيرها^(٣) ، وهكذا يلاحظ الباحث أمراً عجيباً ، ففي عشر سنوات - وما أقصرها في عمر الدول - نرى الرجل الذي كان يعرض نفسه على القبائل ، قد أصبح مجلس في داره حيث تفقد له وفود القبائل التي تقطن قريناً من المدينة لمواعدة عنها ، ونجد الإسلام الذي كان محدود الانتشار قليل الأتباع يصبح دين الجزيرة كلها ، ويصبح لأتباعه سهولة وكلمة مسموعة ، ونرى الرجل الذي خرج من مكة في جنح الظلام متسللاً والأعداء يحيطون به من كل جانب ، يعود إلى مكة منتصراً في جيش عظيم ، وتقف له مكة ؛ تحسن استقباله وتتبع دعوته ، وهكذا عمت الدعوة الإسلامية شبه الجزيرة العربية ، ونعم محمد بأن رأى زرعه يثمر . ودين الله ينتشر على يديه .

حج أبي بكر بالمسلمين سنة ٩ هـ

وعلى بن أبي طالب يؤدي عن الرسول بعض الأحكام

بعد شهور من غزوة تبوك بعث الرسول صلوات الله عليه أبا بكر أميراً على الحج في السنة التاسعة ليقم للمسلمين حجهم ، وكان هناك أناس من العرب ممن لا يزالون على الشرك يحجون إلى البيت الحرام تبعاً لتقاليدهم

(١) ابن هشام ٢ : ٢٢٢ .

(٢) المرجع السابق ٢٢٢ - ٢٥٠ .

(٣) انظر بعض الوفود أيضاً العقد المبركة ج ٢ ص ٣١ وما بعدها .

التي كانت قبل الإسلام ، وقد سمح المسلمون لهم بذلك بناء على معاهدات كانت بينهم وبين الرسول ، ويقول ابن هشام^(١) : إنه كانت هناك عهود بين الرسول وبين بعض المشركين على أن لا يُصدَّ عن البيت أحد جاءه وبعض العهود كانت إلى آجال مسماة ، وقد نزلت سورة براءة تحسم هذه الأمور ، واختار الرسول على بن أبي طالب ليؤدي عنه هذه التعاليم الجديدة ، وليُسمع جميع الحجيج أوامر الله الجديدة في هذا الشأن ، وعندما لحق على أبي بكر في الطريق سأله أبو بكر : أمر أو مأمور ؟ فقال على : بل مأمور من رسول الله لأداء على غير الامارة التي وُكِّلتُ إليك لنقود الحجيج ، فأقام أبو بكر للناس الحج في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها من قبل ، حتى إذا كان يوم النحر قام على بن أبي طالب فأذن في للناس بالذي أمره به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أيها الناس إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطرف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو له إلى مدته ، وأجل الناس أربعة أشهر من يومه ذاك ليرجع كل قوم إلى ما منهم أو بلادهم ، ثم لاعهد لمشرك ، ولا ذمة إلا لأخذ كان له عند رسول الله عهد إلى مدة فهو إلى مدته ، وقرأ على آيات مطلع سورة براءة في هذا الشأن ، ونقتبس منها الآيات التالية :

— براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ، واعلموا أنكم غير معجزي الله ، وأن الله مخزي الكافرين ، وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم ، وأن توليتهم فاعلموا أنكم غير معجزي الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ، إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ، ولم يظاهروا عليكم أحداً ، فاتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، إن الله يحب المتقين .

— يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا .

ومنذ ذلك اليوم لم يحج مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان .

(١) السيرة النبوية ج ٤ ص ١٣٩ وما بعدها .

تمام الدعوة

يروى المؤرخون أنه عندما نزلت سورة النصر ، وإذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، فسيح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان توابا ، ، عندما نزلت هذه السورة بكى بعض من سمعها ، قيل : ما يبكيك ! قال : إن معنى هذه السورة قرب وفاة الرسول ، فقد جاء نصر الله وفتحت مكة ، وجاءت أفواج الناس تدخل في دين الله ، وأمر محمد بالاستغفار بعد ذلك ، ومعنى هذا أن مهمة الرسول قد تمت بنجاح ، وبلغت مهمته العظمى يطلب الله منه أن يستغفر لذنبه ، وأن يستعد للقاءه .

ومثل هذا ما قيل في الآية الكريمة التي كانت خاتمة القرآن الكريم : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ ^(١) فقد دلت على كمال الدين وتمسك القرآن ، وأصبحت بذلك إشارة للرحيل .

حجة الوداع

تمت حجة الوداع في السنة المباشرة للهجرة ، وقد خرج الرسول لها في مائة ألف مسلم أو يزيدون ، وخطب الرسول في هذا الجمع الكبير من المسلمين خطابه الخالد ليُشهدهم على أنفسهم بأنه بلغ وأوفى . وليضع أسمى دستور للبشرية ، ومما جاء في خطابه قوله : (أيها الناس اسمعوا قولي فإني لا أدرى لعل لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً ، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلا بحقها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكم رموس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون ، وإن كل دم كان في الجاهلية فهو موضوع ، وإن الشيطان يشن أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه بطمع فيما سوى ذلك فاحذروه ، أيها الناس إن ربكم واحد وأبائكم واحد . كلكم لآدم وآدم من

(١) سورة المائدة : آية الثالثة .

تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، لافضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى (١) .

مرض الرسول ووفاته

- بعد حجة الوداع بحوالى ثلاثة شهور مرض الرسول بالحمى ، واشتد عليه المرض فلم يستطع أن يخرج للصلاة بالناس ، فأمر أبا بكر أن يصلي بهم (٢) ، وقد أحس الرسول بجزع المسلمين لمرضه وتوقع وفاته ، وعرف أنهم أحاطوا بالمسجد محزونين ، فخرج إليهم متوكئاً على عمه العباس وأبن عمه علي بن أبي طالب ، وجلس على أول مرقاة من المنبر وأحاط به المهاجرون والأنصار فخطب فيهم قائلاً : أيها الناس . بلغني أنكم تخافون موت نبيكم ، هل خلد نبي قبلي فأخلد فيكم ؟ ألا إنى لاحق بربي وأنتم لاحقون بي ثم أوصى المهاجرين بالأنصار وأوصى الأنصار بالمهاجرين ، ولم يطل مرض الرسول بعد ذلك ، فانتقل لجوار ربه يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول سنة ١١ هـ ، وكان صلى الله عليه وسلم في الثالثة والستين من عمره .

وقد وقع خبر وفاة الرسول وقمةً شديداً على المسلمين على الرغم مما قاله الرسول منذ مدة وجيزة ، وكان مفاجأة لم يصدقها الكثيرون منهم (٣) ، ووصل الجزع إلى الأبطال المغاوير ، فإن عمر بن الخطاب صرخ قائلاً : زعموا أن محمداً قد مات ، وإنه والله مامات ، لكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى ، والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) وعلم أبو بكر بنخبر الوفاة فحضر على عجل . ودلف إلى حجرة الرسول فرآه مسجياً ، فكشف عن وجهه وقبيله وقال : طبت حياً وميتاً ، ولولأنك نهيت عن البكاء لأنفدنا عليك ماء الشون . ثم خرج أبو بكر إلى الناس

(١) انظر الخطبة كلها في ابن هشام ٢ ص ٢٥٠ .

(٢) ابن هشام ص ٣٧٠ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ٢ : ٢١٩ .

(٤) ابن هشام : ٢ : ٣٧٢ .

فأيقظهم من غفلتهم ورد لهم أحلامهم بخطابه الرائع الذى جاء فيه : أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ﴾ ^(١) . وأفاق الناس وأفاق عمر حتى ليروى أن عمر قال : والله لظننت أنه ليس في القرآن آية كهذه حتى ذكرنيها أبو بكر .

وصلى الناس على الرسول أفواجاً ، ودفن في المكان الذى توفى فيه ، صلى الله عليه وسلم .

ومات محمد بعد أن أرسى معالم النور في عالم كان مليئاً بالظلمات ، ونشر العدالة في دنيا كان العادل فيها يعد ضعيفاً مغلوباً على أمره ؛ ونادى بالمساواة حيث كان نظام الطبقات أساس خضارة العالم . مات محمد ولكن تعاليمه حية خالدة ، تنساب من مكان إلى مكان ، تهدي الضال وترشد التائه ، وتمر السنون ودين الإسلام يشع جلالاً وعظمة ويفيض بأسمى المبادئ التى تعد غذاء لأرقى الحضارات .

لمحة من صفات الرسول

قلت في كتابي « المجتمع الإسلامى : أسس تكوينه ، أسباب ضعفه ، وسائل نهضته » إن أخلاق الرسول وصفاته الشخصية كانت من أهم العوامل التى ساعدت على نجاح المجتمع الإسلامى الأول . ، فقد كانت أخلاقه رخاءاً وسماحة وصفاء ، وحبيبك أن الله سبحانه وتعالى وصفه بقوله : ﴿ وإنك لعلی خلق عظیم ﴾ ^(٢) ، ووصف الرسول نفسه بقوله : « أدبى ربى فأحسن تأديبى » وقد كانت هذه الأخلاق من الأسباب التى جمعت الناس حول محمد ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ ^(٣) .

(١) سورة آل عمران : الآية ١٤٤ .

(٢) سورة القلم الآية ٤ .

(٣) سورة آل عمران الآية ١٥٩ .

وأخلاق الرسول السمحة بدأت قبل البعثة ، فلم يسجد لصنم قط ، وكان معروفاً بين أهله وقومه بالصادق الأمين ، ولم يشرك فيما تعود شبان قريش أن يقوموا به من عبث ومجون .

وبعث محمد وتبعه بعض الناس وعاداه آخرون ، ولكن أعداءه لم يستطيعوا أن يجدوا في أخلاقه مطعناً ، ولم يستطيعوا أن يزعموا أن فيه نقيصه ، أو ثلثة .

وعظم شأن الإسلام وانتشر ، وكبر سلطان محمد باعتباره الرئيس الديني والرئيس السياسي ، ولكن مظاهر السلطان لم تعرف طريقها إليه ، فقد ظل يحلب شاته ، ويرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم نفسه ، ويأكل مع الخادم ، ولم ير أصحابه فيه إلا رائداً وصديقاً ، كان ينههم عن الوقوف له إذا أقبل عليهم ، وكان يجلس معهم كواحد منهم ، وإذا قدم وهم جالسون اتخذ مكانه حيث انتهى به المجلس ، وكان يمازحهم ، ويداعب صبيانهم . ويجلسهم في حجره ، ويجيب دعوة الخمر والعبد والأمة والمسكين ، ويعود المرضى في أقصى المدينة^(١) .

ولم تقف سماحة نفسه عند أتباعه ، بل امتدت إلى أهل الكتاب . فكان يقبل دعوتهم ، ويحسن استقبالهم ، وقد فرش عباءته لنصارى نجران عندما وفدوا عليه وطلب منهم الجلوس عليها ، وكان يزور مرضاهم ويشيع جنازاتهم .

وكان زاهداً في الدنيا ، يؤثر على نفسه ولو كانت به خصاصة ، وكان لا يدخر شيئاً لغده ، حتى لقد توفي وقد رهن درعه عند يهودى في قوت عياله ، وكان شديد الزهد في الحياة المادية ، اتخذ فراشاً خشبياً ، وطعاماً بسيطاً ، بل لقد عانى الجوع أكثر من مرة ، وكان زهده في اللباس كزهده في الطعام .

وكان لا مع الذكاء ، عميق التفكير ، سريع البديهة ، وكانت تحيط به

(١) أنافس الإمام الغزالي في وصفه لأخلاق الرسول في أكثر من موضع بكتاب الإحياء . انظر كذلك زاد المعاد ج ١ : ٢٤-٤٧ .

أحياناً مشكلات جنسية ولكنه لم ينهزم أمام واحدة منها ، بل كان يبحث عن الحلول في وقت تقف فيه العقول عن التفكير ؛ وحسبك أن تذكر موقفه عندما اضطرب جيشه في غزوة أحد ، وخر صفوة من أتباعه ، وتشنت أفراد جيشه ، ومسه هو الضر وسقط في حفرة والدم ينزف منه ، ونادى منادى قریش إن محمداً قد مات ؛ فأراد أحد المسلمين أن يكذبه ، وأن يصيح بأن محمداً لا يزال حياً ، ولكن الرسول أسكته فقد أدرك - وهو في حالة تلك - أن خبر موته سيوقف نشاط المنتصرين ، ويضمن السلامة لكثير من أتباعه . وهذا ما كان .

ومحمد : ككل مصلح وكل رسول - كان له أعداء ، ولا يزال له أعداء ؛ ولكن أحداً من هؤلاء لم يستطع أن يجرحه في أخلاقه ، أو أن يجد في صفاته ما ينال منه . وكثير من المستشرقين الحائقين على الإسلام يذكر أن نجاح محمد كان نتيجة لذكائه ، وخلقه ، وحسن معالجته للأمور ، وتفوقه الذهني والخلق على رجاله عصره .

ومن خصائص الدين الذي جاء على يد محمد التوحيد المطلق الذي لا هوادة فيه ، وخلوه من التعقيدات اللاهوتية ، وبعده عن الكهنة والقرايين ، وقد اتخذ محمد كل الاحتياطات ليحول دون تأليه بعد مماته ، كما أن من أهم خصائص هذا الدين إصراره على أن المسلمين جميعاً إخوة متساوون تماماً مهما اختلفت ألوانهم أو أصولهم أو مراكزهم (١) .

رحم الله محمداً ! لقد كان نفحة سماوية أمدّها الله بالتأييد ، وحملها كريم الصفات ونبيل السجايا ، ومنح العالم على يده ديناً جديراً بأن يكون خاتم الأديان لما يكفله للبشرية من تنظيم أمور الدين وأمور الدنيا .

الدعوة الإسلامية وفلسفتها

انتشر دين الاسلام في حياة الرسول بين سكان الجزيرة العربية كلها، وانتشر بعد الرسول في كثير من بقاع الأرض ، ومن أجل هذا يحسن بنا أن نقف هنا وقفة نبين فيها مبادئ هذا الدين ، ووسائل انتشاره ، وأثره على العرب الذين حملوا مبادئه ، وناضلوا تحت رايته ، وبالتالي أثره على الإنسانية ، وقد درسنا حضارة الإسلام في كتب خاصة (١) ، ولكن قارئنا الآن قد لا يكون في وسعه أن يطلع على ما كتبتنا هناك ومن أجل هذا نورد له هنا طيفاً من هذه الدراسة تكفي للقانع ، وتنفذ الطموح إلى المزيد من الاطلاع :

١ - لمحة عن مبادئ الإسلام

وضع الإسلام الحثول لأمر الدين والدنيا : في أمور الدين يعف التوحيد المطلق في القصة ، فليس في الإسلام أية شبهة من خيالات التعدد (٢) ويحجى بعد ذلك الاعتراف برسالة محمد ، مع تأكيد أنه يظهر جاء برسالة من عند ربه فأداها أحسن أداء ، وهو معصوم في تبليغها ، ويمكن أن يفهم فيها سوى تبليغ الرسالة (٣) ، وبعد هذا تسيير أركان الإسلام لتقرر ضرورة إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً ، وتسمى هذه الأمور الأربعة للعبادات ؛ وللعبادات في الإسلام فلسفة رائعة تثبت أنها ذات فائدة عظيمة للروح والجسم جميعاً (٤) :

-
- (١) انظر كتاب الإسلام وهو الجزء الثالث من سلسلة مقارنة الأديان . وانظر موسوعة النظم والحضارة الإسلامية ، وهي في عشرة أجزاء للمؤلف .
 (٢) يراجع فصل « الله في التفكير الإسلامي » من كتاب « الإسلام » للمؤلف .
 (٣) يراجع فصل « النبوة » من كتاب « الإسلام » للمؤلف .
 (٤) يراجع فصل « فلسفة العبادات في الإسلام » في الكتاب السابق .

وفي أمور الدنيا يرسم الإسلام النظام السياسى والنظام الاقتصادى للمجتمع الإسلامى ؛ فيقرر أسس نظم الديمقراطية ، وأبداع اتجاهات العدالة الاجتماعية^(١) وفي أمور المجتمع ينظم الإسلام شئون الأسرة وشئون الميراث ويقرر أسس النظم الأخلاقية ، وقد كتبت هذه الأمور بإضافة فى كتاب « الحياة الاجتماعية فى التفكير الإسلامى » وكتاب « الإسلام » . فليرجع إليهما من يشاء .

٢ - طرق نشر الإسلام

أما نشر الإسلام فله شعبتان تتصل إحداهما بالدعوة الإسلامية بين من يعرفون اللغة العربية ، وتعم الأخرى من يعرفون اللغة العربية ومن لا يعرفونها ، أو قل إن دعوة الإسلام اتخذت سبيلها إلى قلوب الناس بطريق من اثنين أو بها معاً . وهذان للطريقان هما :

(١) إعجاز القرآن . (ب) مبادئ الإسلام .

سنحدث عن كل من هذين الموضوعين بشئ من التفصيل :

١ - القرآن الكريم وأثره فى انتشار الإسلام :

نريد هنا أن نتحدث عن القرآن الكريم ، ثم عن أثره فى انتشار الإسلام وحديثنا عن القرآن الكريم يتضمن الكلام عن الوحي ، وطرقه ، وعن المحتويات الإجمالية لهذا الكتاب المقدس الذى يُعد المصدر الأول للتشريع الإسلامى^(٢) .

أما عن الوحي فقد ذكر ابن القيم مراتبه وعددها ثمانية ، وأشار إلى أن أهمها ذلك الطريق الذى صورته الآية الكريمة « وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين »^(٣) .

(١) اقرأ « السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى » للمؤلف .

(٢) انظر دراسة شاملة عن القرآن الكريم فى الجزء السابع من موسوعة النظم والحفارة الإسلامية .

(٣) سورة الشعراء الآيات ١٩٢ - ١٩٤ .

ومعنى الآيات أن جبريل ينزل فيتصل بالرسول اتصالاً كاملاً حتى كأنهما شخص واحد ، ويلقى جبريل إلى الرسول الآيات التي أمر بحملها ، وقد روى أن الرسول كان يتفصد عرقاً عندما كان جبريل يأتيه على هذه الحالة ، وبجانب هذه الحالة ذكر ابن القيم حالات أخرى منها أن جبريل كان يأتي أحياناً في صورته كملك ، ويلقى للرسول ما يريد أن يلقيه ، وأحياناً كان جبريل يلقي ما جاء به في روع الرسول دون أن يظهر وبدون أن يتصل بالرسول ، وقد روى أن الرسول قال : إن روح القدس نفث في روعي ومن الحالات التي ذكرها ابن القيم أن الله سبحانه وتعالى قد يكلم الرسول بلا واسطة ملك^(١) .

أما محتويات القرآن فيمكن القول بإيجاز إنها — بالإضافة إلى المراءى والأخبار — تُنظم الإسلام وقوانينه الخاصة بالدين والدنيا ، وقد ورد عن القرآن قوله تعالى « ما فرطنا في الكتاب من شيء »^(٢) والمقصود أنه لا يوجد أمر ذو بال إلا وقد كشف القرآن عنه النقاب إجمالاً أو تفصيلاً حسب أهميته ، وقد كان القرآن كما سئرى مصدر إعجاز ، وكان مصدر تشريع ، ومصدر أخلاق ، وقد أمدنا القرآن الكريم في الدراسة التي عقدناها عن الحضارة الإسلامية^(٣) بمادة غزيرة كانت بمثابة الكنز الذي أخذنا منه لنشرح هذا الموضوع الخطير ، ويمكن أن نقول هنا بإيجاز إن بعض القرآن نزل في مكة وإن بعضه الآخر نزل في المدينة ، وما نزل في مكة حوالى الثلثين وما نزل في المدينة حوالى الثلث ، وقد اتجه الجانب المكى من القرآن إلى إبراز توحيد الله ، وإقامة الدليل على ذلك « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »^(٤) كما اهتم هذا الجانب بالدعوة لمكارم الأخلاق ، وضرب الأمثال بالأمم الماضية وما حصل لها عندما كذبت الرسل ، أما الجانب المدني من القرآن فقد ظهر فيه التشريع

(١) زاد المعاد ج ١ ص ٨١ . وما بعدها

(٢) سورة الأنعام الآية ٢٨ .

(٣) المؤلف موسوعة في النظم والحضارة الإسلامية تتكون من عشرة أجزاء . يراها القارئ .

ضمن قائمة « كتب المؤلف » في مطلع هذا الكتاب .

(٤) سورة الأنبياء الآية ٢٢ .

الإسلامي بتفصيله وإحاطته كنظم الميراث ، ونظم الدين ، ونظم الزواج ، والمحرمات من النساء على الرجال ، ونظم الطلاق وغيرها^(١) .

والقرآن الكريم هو معجزة الرسول الأولى ، وهو كذلك معجزة خالدة تشهد - على مر السنين وتعاقب الأجيال - على صدق محمد وسمو رسالته ، وأكثر الذين يجيدون اللغة العربية يعترفون دون تردد - سواء دخلوا الإسلام أو لم يدخلوه - أن القرآن لا يمكن أن يكون من قول البشر ، لأنه أسمى بأفكاره وأسلوبه من كل ما استطاعه البلغاء وما توصل له التفصيخاء ، أما الألفية من العرب التي لم تعترف بإعجاز القرآن فقد كانت متأثرة بمؤثرات أخرى قوية حملتهم هذا الحمل الصعب الذي ظهر أحياناً في تحديهم للقرآن ومحاولة الإتيان بمثله .

وهي هذا كان العرب بالنسبة للقرآن ثلاث طوائف :

- ١ - طائفة عرفت بالقوة والشجاعة فاعترفت بإعجاز القرآن ، واتبعت الرسول .
- ٢ - طائفة اعترفت بإعجاز القرآن ولكن صدتها أسباب أخرى عن اتباع محمد .

- ٣ - طائفة قليلة آثرت المكابرة ، وتحدث القرآن بدافع من غصبية أو حسد ، ولكنها على كل حال انهزمت في تحديها هزيمة منكرة .
- وسنعطى بعض التفاصيل عن كل من هذه الطوائف .

- ١ - وتمتاز الطائفة الأولى بأنها جماعة آثرت العدالة وكان في نفوس أصحابها طهارة من الأحقاد والأدناس ، كما كانت فيهم شجاعة وصراحة ، فما إن أدركوا إعجاز القرآن ، وأحسوا بالمعجزة قوية غلابة حتى انضموا لمحمد واعتنقوا الإسلام وتمسكوا به ، ولعل زعيم هذه الجماعة هو الخليفة طيب الذكر عمر بن الخطاب . فقد كان قبل إسلامه شديد أذى المسلمين ، وقد روى

(١) انظر كتاب تاريخ التشريع الإسلامي (للمؤلف) .

ابن هشام^(١) عن ابن إسحاق أن عمر خرج متوشحاً بسيفه ، فلقبه نعيم بن عبد الله فسأله ؛ إلى أين ؟ قال عمر : أريد أن أقتل محمداً ذلك الذي فرق أمر قريش وسب أهلها . قال نعيم : خير لك أن ترجع إلى أهل بيتك فنقيم أمرهم ؛ فقد التحقت أختك فاطمة وزوجها سعيد بن زيد بمحمد ، فثار عمر ، وقصد دار أخته وزوجها . فلما شارف الدار سمع صوت تلاوة إذ كان عندهما خباب بن الارت يقرئهما سورة « طه » فأيقن عمر بصدق ما سمعه عن أخته ؛ وانفذ إلى الدار غاضباً ، فلما أحس به خباب اختفى وأخفت فاطمة الصحيفة ، فصاح عمر بأخته : ماذا كنتم تقرأون ؟ فاضطربت أخته ؛ فاطمها عمر ولطم زوجها ، فصاحت به أمخته : إنه ليس من حقك أن تلطمنا . وسال منها الدم ، فأدرك عمر خطأه وهذا ، ثم طلب أن يرى هذه الصحيفة فقرأ فيها « طه » ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ؛ إلا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلاً لمن خلق الأرض والسموات العلى ، الرحمن على العرش استوى ، له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى : الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى . .) وكان عمر مثالا فى البلاغة والنصاحة ووزن الكلام ؛ فأدرك ما فى هذا الكلام من روعة وجلال وإعجاز ؛ فقصده محمداً وأعلن إسلامه .

وهناك رواية أخرى عن إسلام عمر يرويها ابن هشام ، عن ابن إسحاق عن عمر نفسه ، قال عمر : كنت للإسلام مباعداً ، وكنت صاحب خمر فى الجاهلية ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال قريش ، فخرجت يوماً أريد جالسائى فجئت مجلسهم فلم أجد أحداً منهم ، فذهبت إلى خمار لأشرب عنده بعض الخمر فلم أجده . فتحولت إلى الكعبة لأطوف بها قبل عودتى للبيت ، فلما جئت المسجد رأيت رسول الله قائماً يصلى ويقرأ القرآن فى صلاته ، فقلت : ماذا لو استمعت من محمد الليلة حتى أرى ما يقول ؟ فدنوت منه ولكنى لم أرد أن أروّعه ، فدخلت قبل أن يرانى تحت أستار الكعبة وجعلت أمشى رويداً رويداً حتى قمت مواجهاً الرسول وليس بينى وبينه إلا ثياب

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٥٤ . وما بعدها .

الكعبة ، وجلست أستمع له ، وطالت قراءته وعمقت نبراته ، وطال استماعي وعمق تأثري ، ورق قلبي ، فبكيت ، ودخلني الإسلام ، ولم أزل قائماً في مكاني ذلك حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته ثم انصرف ، فلحقت به وأعلنت له إسلامي فكبر وحمد الله (١) .

وابن هشام بعد أن يروي عن ابن إسحاق هاتين الروایتين يروي عنه أيضاً خاتمة التي تعبر أن يقولها وهي : والله أعلم أي ذلك كان .

والذي نراه احتمال حدوث السببين جميعاً ، واحتمال وقوع القصتين كليهما ، وقد تكون القصة الأخيرة وقعت له فرق قلبه للإسلام ثم دخل الإسلام بعد قصته مع أخته وختنه .

ونهج هذا النهج كثير من الفصحاء الشجعان ، ولحق بهم كثيرون من الفصحاء الذين كانت تنقصهم الشجاعة ؛ وظل هؤلاء يتغنون بجمال القرآن ويشيدون بما فيه من إعجاز وإبداع ، فقد روى أن لبيد بن ربيعة أحد شعراء المعلقات توقف عن قول الشعر بعد أن أسلم ؛ ولم يُرو عنه أنه قال شعراً في الأربعين سنة التي أمضاها في ظل الإسلام إلا قوله :

الحمد لله إذ لم يأتني أجل حتى اكتسيت من الإسلام سربالا
وكان إذا سئل عن شعره تلا سورة من القرآن ؛ وقال : أبدلني الله خيراً منه .

ويروي أن عربياً مرّ بفتاة تنشد الرجز التالي :

أستغفر الله للذنب كله
قلت إنساناً بخير حله
مثل غزال ناعم في دله
وانتصف الليل ولم أصله (٢)

فقال لها العربي : يافاة ، أرجوزتك أبلغ ما سمعت من القول .
قالت الفتاة . وهل ترك القرآن لنا بلاغة بعامه ؟ لو قرأت القرآن لوجدت أن أقوالنا هباء .

(١) المرجع السابق .

(٢) أي لم أنته الدف . والرعاية .

قال لها العربي . ماذا تقصدين ؟

قالت الفتاة . هذه ياعمها آية واحدة من قصار الآيات ، بها أمران ، ونهيان ، ووعدان ، مع جزالة وروعة أسلوب . (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ، ولا تخافي ، ولا تحزني ، إنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين) (١) .

فأخذ العربي يكرر الآية ويقول : نعم هذا نوع آخر من القول لاعهد لنا به .

٢ - ونجى الآن للطائفة الثانية ، هؤلاء الذين لم يتبعوا محمداً لسبب أو لآخر ، ولكنهم خضعوا للقرآن واعترفوا اعترافات جازمة بما للقرآن من حلاوة ، وما لأسلوبه من سحر وروعة ، إعجاز ومن هؤلاء الوليد بن المغيرة (أبو خالد بن الوليد) الذي - كما يقول البيضاوي (٢) - سمع محمداً وهو يقرأ سورة السجدة فجاء قومه وقال لهم : لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلوه ولا يعلو عليه . وكان كثيرون من قريش يحسون بإحساس الوليد ولكن قل فيهم من كان مثل الوليد شجاعة وجاهاً يستطيع أن يصرح بما في نفسه ، ولقد كان تصریح الوليد ذلك فاجعة لقريش ، لأن مثل ذلك دليل على ميل الوليد للإسلام . ولذلك صاحت قريش : صباً الوليد . قال ابن أخيه أبو جهل : أنا أكفيكموه ، وقام فقعد إليه حزيناً وكلمه بما أحماه فتأثر الوليد بكلام أبي جهل وقام إلى قريش وهتف فيهم : تقولون إن محمداً مجنون فهل رأيتموه يحنق ؟ وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى

(١) سورة القصص الآية السابعة .

(٢) ابن هشام ج ١ ص ٢١٨ .

شعراً ! فقالوا في كل منها : لا . فقال : ما هو إلا ساحر ، أما رأيتموه
يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه . ففرحت قريش بذلك بعد أن
ظنت أن الوليد مال للإسلام ، وقد روى القرآن الكريم هذه القصة مهدداً
للوليد بالزيل والثبور ، قال تعالى : (ذرني ومن خلقت وحيداً . وجعلت له
مالاً ممدرداً ، وبينت له شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزيداً ،
كلاً ، إنه كان لآياتنا عنيداً ، سأرهقه صعوداً ، إنه فكر وقدر ، فقتل
كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر
واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، سأصليه
سقر ، وما أدراك ما سقر ؟ لا تبقى ولا تذر ، لواحة للبشر)^(١) وسمع
الوليد هذا الكلام الملهب في معناه الرائع في نهجه وأسلوبه ، سمعه ولسان
حاله يقول : يتوعدني ولكنه جميل الأسلوب حتى في توعدته وتهديده .

وهناك قصة أخرى من هذا النوع تروىها كتب الأدب والتاريخ عن
ثلاثة من قريش هم أبو سفيان وأبیرجھل والأخنس بن شريق ، فهؤلاء لم
يتبعوا محمداً وكانوا من أقسى أعدائه . ولكنهم كانوا يتسللون فرادى إلى
جدار بيت الأرقم ليستمعوا من الكوآى والنوافذ إلى محمد وهو يتلو القرآن ،
وكان كل منهم يظن أنه وحده الذى يفعل ذلك ولا يدري شيئاً عن صاحبيه ،
وكان كل منهم يتخذ مجلسه في مكان مظلم بحيث لا تراه العيون ، وحدث مرة
بعد أن انتهى محمد من تلاوته للقرآن أن التقى الثلاثة بالقرب من دار الأرقم
وهم يتخذون طريقهم عائدين إلى بيوتهم ، وسأل كل منهم صاحبيه : من
أين جئنا ؟ وفي غمرة الدهشة لم يحر أحد منهم جواباً . واثم كل منهم الآخرى
بالذهاب لسماع محمد ، واعترفوا بأنهم في الذنب سواء ، ولكنهم أضافوا إلى
ذلك اعترافهم بخطورة العمل الذى عملوه : فإقبالهم على سماع القرآن قد يقودهم
لاتباع محمد وهذا ما لا يحبونه ، ولذلك أقسموا ألا يعودوا إلى ذلك مرة
أخرى ، وعادوا إلى بيوتهم .

وفي الليلة التالية تحدث أحدهم إلى نفسه قائلاً : إن أحداً من هذين

الرفيقين لن يذهب الليلة لسماع القرآن ، فما على^١ إن حنثت في يميني وذهبت لأسمع هذا الكلام العذب ؟ وذهب . ولكن كلا من الرفيقين الآخرين كان قد حدث نفسه بمثل ذلك وانتهى إلى نفس النتيجة ، ولما فرغ محمد من التلاوة أراد كل منهم أن يتأكد أنه وحده الذي جاء : فأخذ يطوف حول دار الأرقم ، فتقابل الثلاثة . ودار عتاب وشجار وأسف ممزوج بالضعف وأقسموا مرة أخرى ، ولكنهم حنثوا أيضاً مرة أخرى ، واقترح أحدهم في هذه المرة أن يجتمعوا في المساء في بيت أحدهم ليرقب بعضهم بعضاً ، إذ أن الواحد منهم وحده لا يستطيع أن يتغلب على دوافع الرغبة في نفسه ، وبذلك استطاعوا أن يتوقفوا عن استمرار ذهابهم لسماع القرآن (١).

٣ - أما الطائفة الثالثة فتشمل هؤلاء العرب الذين أعماهم الضلال فأرادوا أن يمحذوا ضوء الشمس الساطعة ، فأنكروا إعجاز القرآن وادعوا استطاعتهم أن يأتوا بمثله . وبدعوا ذلك ، وإذا بالإعجاز يأتيهم من ناحية أخرى هي أنهم تهاوؤا ، وأغلق عليهم ، فقالوا سخفاً أقل بكثير من كلامهم الذي تعودوا أن يقولوه في مناسبات غير مناسبات تحديهم القرآن ومحاولتهم تقليده والإتيان بمثله .

وقد تحدى الله سبحانه وتعالى كل البلغاء والقصحاء : غدعاهم إلى الإتيان بمثل هذا القرآن إن استطاعوا وأكد لهم أنهم لن يستطيعوا - ولو تعاونوا بحماس - أن يبلغوا هذه الغاية ، قال تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » (٢).

(١) ابن هشام ج ١ ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٢) سورة الإسراء : الآية ٨٨ .

ثم تحداهم الله بأن يأتوا بعشر سور فقط ؛ قال تعالى « أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات فادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » (١) . فلما عجزوا تحداهم الله أن يأتوا بسورة واحدة قال تعالى (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين » (٢) .

ولا شك أن السخف الذي قالوه لم يكن يستحق أن يروى ولكننا ثبتت منه نموذجاً واحداً مصداقاً لما قلناه .

سورة الضفدع

باضفدع يا ابنة ضفدع . نبي ما تنقين . أعلاك في الماء . وأسندك في الطين . لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين (٣) .

ومن الواضح أن محاولة هؤلاء المعاندين أن يأتوا بمثل القرآن تحمل في طياتها تقديرهم للقرآن الكريم وإعجابهم به ، ولو كان القرآن لم ينل إعلاهم وإعجابهم لما حاولوا تقليده ، ولما بذلوا الجهد لتحقيق ذلك .

وقد روى لنا التاريخ أنه عندما زالت مؤثرات العصبية والحسد عن هؤلاء عاد أكثرهم يعترفون بجلال القرآن ، وكثيرون منهم اعتنقوا الإسلام وأصبحوا من خيرة تابعيه ، ومن هؤلاء سجاح التي ادعت النبوة يوماً في بني نعيم وذكرت أنه أوحى إليها بقرآن . ثم فشلت في إقناع الناس وربما فشلت في إقناع نفسها ، وعندما خف داعي العصبية في التأثير عليها اعتنقت الإسلام ورجعت تروى القرآن الكريم . ومسحت من قلبها تلك الخرافات التي توهمت حيناً أنها تنافس آي الذكر الحكيم . ومن هؤلاء كذلك طليحة بن خويلد الذي ادعى النبوة وادعى الوحي والقرآن ، ثم لم تساعده بضاعته على إطالة الوقوف في وجه الحق فعاد يؤمن بإعجاز القرآن ويعتق الإسلام بحماسة ظهر أثرها في مواقفه الحربية مناضلاً مع المسلمين في حروبهم ضد الفرس . وقد سبقت الإشارة لذلك ، ولم يحن طليحة من التنبؤ الذي زعمه إلا تصغير

(١) سورة هود : الآية ١٣ . (٢) سورة البقرة : الآية ٢٢ .

(٣) نقلاً عن عبد المتعال الصعيدي : دراسات إسلامية ص ١٠٤ :

شأنه بتصغير اسمه واسم أبيه فأصبح اسمه طليحة بن خويلد وكان في الأصل طليحة بن خالد ، وظل الاسم المصغر علماً على الرجل حتى بعد أن تاب وأناب ، كأن العرب لم يستطيعوا أن يغفروا له غفراناً تاماً محاولته خديعتهم بما أسماه قرآناً .

ومن تقدير العرب للقرآن وإعجازه أن جميع من ادعوا النبوة منهم أحسوا بسطوة القرآن وأثره في نفوس الناس ، وكيف أنه جعل الكثيرين يدينون بالإسلام . ولهذا اتخذوا فصيح القول معجزة لهم فادعوا جميعاً نزول الوحي عليهم ، وادعوا أنه جاءهم بقرآن : وهذا دليل واضح على ما لنصيح القول من أثر عند العرب ، ولنا في حاجة إلى مزيد من القول عن قيمة الأسلوب الرائع عند العرب ، فطالما كانت جموعهم تلتف حول الشعراء يسمعون قصائدهم ويطربون لها ، وقد دعاهم تقديسهم للنصيح من القول أن يعلقوا خيولهم قصائد الجاهلية في الكعبة لتكون في مكان واحد مع معبوداتهم . ولتوضع في المكان الذي يحجون إليه ويتبركون به .

المبادئ الإسلامية وأثرها في انتشار الإسلام :

كان القرآن الكريم — كما قلنا آنفاً — من أهم الأسباب التي دعت الكثيرين من العرب إلى الدخول في الإسلام ، ولكن كيف دخل غير العرب من المصريين والسوريين والعراقيين والفرس وغيرهم في ذلك الدين ؟ هذا ما سنتحدث عنه هنا :

لقد قلت في كتابي « السياسة في التفكير الإسلامي » إن عمل الحكومة الإسلامية هو أن تعيش للمحكومين وأن تعمل على إسماعهم ، فالحكومة الإسلامية تتمتع ليستريح المحكومون ، والحكومة الإسلامية تسهر لينام المحكومون في هدوء وأمن ، ومثل هذا أو أبعد من هذا كانت الحكومة الإسلامية في عهد الرسول وعهد الخلفاء الراشدين .

لقد طالع الإسلام على الناس بمبادئ كانت أكثر مما يأملون . وأبعد مما يتصورون ، وطبق الرسول والخلفاء الراشدون هذه المبادئ . أو قل إنهم تحسسوا لها . واختلطت بدمائهم ، ووجلوا فيها لذة ونعماً ، فساروا

عليها ، بل ربما بالغوا في تطبيقها باسم هذه الفلذة وذلك النعيم .

ما هذه المبادئ

وما فلسفة الدعوة التي سببت تدفق الناس على الدين الجديد ؟

إن هذه المبادئ تجمعها كلمات قليلة ، ولكنها تنفي ثورة كبيرة .

لأنها ألقاها معدودة ولكنها تحقق أحلاماً أو ما هو أبعد من الأحلام .

لأنها :

- المساواة .

- العدالة .

- الحاكم الفقير :

لأنها هذه الكلمات أو هذه الصواعق التي قلبت الأوضاع وغيّرت الاتجاهات .

لقد نادى الإسلام بالمساواة في وقت كان النظام الطبقي متأصلاً في جميع النواحي ومختلف الأقطار في العالم كله .

ونادى الإسلام بالعدالة في عهد كانت العدالة تعتبر ضعفاً وخزياً . وهذا

شاعر عربي يعبر رجلاً بأنه من قبيلة ضعيفة لا تغدر بالعهد ولا تستطيع أن تظلم ، قال ذاك الشاعر :

قبيلته لا يغدوون بذمة - ولا يظلمون الناس حبة خردل

وأهاب الإسلام بالحاكم أن يعمل للناس لا أن يعمل لنفسه ، فخلق بذلك حاكماً من نوع جديد ، حاكماً فقيراً يوجد بين رعاياه من يفوقه غنى ويملك أضفاف ما يملك ، وقد حصل هذا في وقت كان الحاكم يعتبر نفسه مالكاً للناس ولما ملكه الناس ، كان سيداً يملك الأرض ورفيق الأرض ، كان يرتع في الملاذ ، وكان الناس يعملون ليحققوا له دوام هذه المتع وتلك الملاذ .

وعن المساواة والعدالة نذكر أنه قبل الإسلام كان بفارس ملوك يدعون

أن دماء إلهية تجري في عروقهم ، وأنهم من طبيعة غير طبيعة البشر ، أسمى درجة وأعز شأنًا ، ووجاء الإسلام فحقق المساواة بين محمد أو الخليفة من بعده وبين كل من أفراد الأمة ، فهذا زيد بن سفيانة اليهودي دان الرسول صلى الله عليه وسلم بدين ، وتأخر الرسول صلى الله عليه وسلم في أداء الدين

لعسرة أَلَسْتُ : به ، وجاء زيد فأمسك بتلابيبه وجذبه بقسوة وقال له : أما آن لك يا محمد أن تسدد ما عليك من دين ؟ وارتاع عمر لقسوة زيد ، فأخرج سيفه وهم بضربه ، فصاح به الرسول : ضع يا عمر سيفك في جرابه ! لقد كان خيراً لك أن تنصحنى بحسن الأداء وتنصحه بحسن الطلب ، وذهل اليهودى مما رآه من خلق رائع ومساواة تامة مع اختلاف المكانة والدين ، فأعلن إسلامه .

وهناك يهودى آخر له حادثة أخرى مع عمر ، فقد روى أن سيف عمر ضاع ثم رآه عمر مع يهودى فادعاه ، وادعى اليهودى أن السيف سيفه ، فقاضاه عمر إلى قاضيه ، فلما ذهبا للقاضى جلس عمر واليهودى بين يدى القاضى ، وسأل القاضى عمر ، فادعى السيف ، وسأل اليهودى فأنكر ، وطالب القاضى عمر بالبينة فلم تكن له بينة ، فحكم بالسيف إلى اليهودى ، وعجب اليهودى كيف يحقق الإسلام المساواة بين الخليفة عظيم الشئ وبين فرد عادى من أتباع ديانة أخرى ، وكيف يجلس معه عمر بين يدى القاضى ، ثم كيف يكون الحكم لصالح اليهودى ولا يقبل القاضى قول عمر . ولم يستطع اليهودى المقاومة فاعترف بأن السيف سيف عمر ودخل الإسلام .

وهناك قصة أخرى شهيرة عن عمر وجبيلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة ؛ فقد دخل جبيلة الإسلام وكان عمر يكرمه ويُبجِّله ، ولكن حدث مرة أن وطئ أحد العامة ذبل إزار جبيلة وجبيلة بطوف باليت ، فاستدار جبيلة وضرب الرجل بقسوة على أنفه فذهب الرجل وشكا إلى عمر ، فاستدعى عمر جبيلة وأجلسه بجوار خصمه للقضاء ، فاعترف جبيلة بأنه ضرب الرجل ، فحكم عمر بالقصاص . قال جبيلة : أنا ملك وهذا سotte تجلسه بجوارى وتقتصص له منى ؟ فأجابه عمر : لقد سوَّى الإسلام بينكما (١) .

ولم يستطع جبيلة أن يفهم هذه الفلسفة الجديدة التى جاء بها الإسلام ، فاستمهل عمر حتى يُرضى خصمه ويطيب خاطره ، فأمهله عمر ، فهرب جبيلة وارتد عن الإسلام . لقد خسر الإسلام جبيلة ؛ ولكن كم ألفاً من الناس

(١) انظر البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٤١ - ١٤٢ والعقد الفريد ج ٢ ص ٥٦ - ٩ :

دخلوا الإسلام على أثر هذه الحادثة؟ إنهم آلاف وآلاف دخلوا الإسلام حباً في هذه المساواة التي لم يكن لهم بها عهد .

بل يروى أن جبلة نفسه بعد أن صحا من تسرع وفكر في أمره أسف لما حدث منه ، وتمنى لو بقي على الإسلام وتأدب بآدابه . : وما يروى عنه في ذلك قوله :

تنصرتُ الأشراف من عار لظمة وما كان فيها لو صبرتُ لها ضرر
تكتفني منها لجاج ونخرة وبعثُ لها العين الصحيحة بالمرور
فيا ليت أُمي لم تلدني وليتني رجعت إلى الأمر الذي لي قال عمر (١)

تلك كانت فلسفة الإسلام ، تلك كانت النافذة التي هب منها عطر الإسلام فجذب الناس إليه من كل جانب . فاعتنقته الملايين بإخلاص وإيمان (٢) .

أما عن الحاكم الفقير فقد دهش الناس عندما رأوا لأول مرة حكاما يفقدون أموالهم ، وينزلون من صفوف الأغنياء إلى صفوف الفقراء ، وكان المهد بالحاكم أن يجمع الأموال ويزيد في ثروته ، فقد كان محمد - وكان بعض العرب يسمونه ملك الملوك - يرفع ثوبه ويخسف نعله ، ويبيت على الطوى ، وكان له مال وغنى بعد أن تزوج خديجة ، ألم يجدك يتيماً فأوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى (٣) ، ولكنه لم يصف شيئاً

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٦١ :

(٢) قد يحظر بيال القاري : أن العدالة والمساواة أصبحتان الأخلاق العالمية ولا يمتاز بهما الإسلام ، ونجيب بأن أوروبا التي يُظن أن العدالة والمساواة تسودان بها الآن كانت بعيدة كل البعد عنهما في المصور الماضية وفي ظلال الإقطاع ، ثم إن ما يوجد من عدالة الآن إنما هو عدالة محلية ، بين البيض فقط بعضهم والبيض ، فليس هناك من يطمع في عدالة الإنجليز في السودان أو إفريقية أو مصر أيام احتلالها لهذه البلاد ولا من يطمع في عدالة الهولنديين نحو الأندونيسيين ، بل ليس هناك من يطمع في عدالة ومساواة بين الأمريكيين البيض والأمريكيين الملونين . إن العدالة في الإسلام عامة وعالمية وهي منحة السماء لسكان للأرض . أما عدالة المدنيات الحديثة فمحلية ، وقد أخذتها الشعوب من الحاكم قسراً وبعد صراع طويل ولا نعدو الحق إذا قلنا أن ذلك كان اقتباساً من الإسلام :

(٣) سورة الفصحى : الآيات ٦ - ٨ :

إلى هذا المال ، ولم يحتفظ به ، بل فقده ، فلما مات كان مديناً ، وكان أبو بكر غنياً قبل الإسلام ثم أنفق أكثر ماله في سبيل الله ، ولما ولي الخلافة حمل تجارته على كتفه واتجه للسوق يريد أن يربح رزقه ورزق أولاده ؛ وكان عمر وتحت سلطانه فارس وسوريا ومصر يعيش في بيت صغير وينام في المسجد ويرتدى لباس الفقراء ، وفقد عثمان ماله مع أنه كان من أغنى تجار العرب ، وكان علىَّ يقدم ماعنده من الطعام إلى المحتاجين مع أنه في حاجة إلى ذلك الطعام حتى استحق أن تنزل فيه الآية الكريمة « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » (١) .

وأدرك الفرس والسيوريون والمصريون هذه الأحوال المثالية ، ووازنوا بين هؤلاء الحكام وبين الحكام الذين عرفوهم من قبل ، هؤلاء الذين كان لاهمَّ لهم إلا جمع المال وحرمان الرعية .

ولم يكن الحاكم فقط هو الذي انتبه من غفلته وعرف ربه ، ولكن المحكوم أيضاً انتبه من غفوته وعرف حقه ، وكان من قبل يؤمن بأنه وما يملك ملك لكسرى أو قيصر .

وانهال الناس يدخلون في هذا الدين الذي حقق لهم ما هو أبعد من الأحلام .

وتوضح لنا المراجع التاريخية أن انتشار الإسلام ارتبط بجهود العدالة والمساواة لا بجهود القوة والقسر ، فكلما جاء خليفة عادل كلما انتشر الإسلام ودخله الناس أفواجاً — وقد عقد زميلنا الدكتور عبد المنعم ماجد فصلا عن « إسلام المغرب ، المفتوحة » (٢) في عهد الخليفة طيب الذكر عمر بن عبدالعزيز ، يبين كيف انهال الناس على الإسلام يمتثلون في ذلك العهد ، حتى أصبح الإسلام دين الأكثرية الغالبة بين المصريين والفرس وأهل خراسان وسكان الشمال الإفريقي ، وحتى أعلن كثير من ملوك السند وملوك ما وراء النهر دخولهم الدين الإسلامي .

(١) سورة الحشر : الآية التاسعة .

(٢) التاريخ السياسي للدولة العربية ، الجزء الثاني .

٣- أثر الاسلام في العرب

بقى علينا أن نعرض للنقطة الأخيرة من نقاط هذا الموضوع وهي أثر الإسلام في العرب ، وهذه النقطة قد شرحتها بإطناب في كتابي « المجتمع الإسلامي » فبيّنتُ أثر الإسلام في الفرد وأثر الإسلام في المجتمع الجديد ، فمن أثر الإسلام في الفرد شرحت كيف نقل الإسلام الفرد من السيف إلى المسالمة ، ومن القوة إلى القانون ، ومن الثأر إلى القصاص ، ومن الإباحية إلى العُلَهر ، ومن النهب إلى الأمانة ، ومن الحياة القبلية إلى المسئولية الشخصية ؛ ومن الوثنية إلى التوحيد ، ومن امتنان المراه إلى إجلالها ، ومن نظام الطبقات إلى المساواة^(١) .

وعن أثر الإسلام في المجتمع الجديد أبينتُ القول في أسس تكوين هذا المجتمع بما في ذلك المؤاخاة بين المسلمين ، وتنظيم العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين ، وبما في ذلك تقرير نظم الإسلام في أمور السياسة والحكم والأمور الاقتصادية والاجتماعية وغيرها^(٢) .

ولاشك أن الإسلام حقق معجزة كبرى في المجتمع العربي ، ونقله من نمط إلى نمط ، وشمل تأثيره الأخلاق والنظم التي تهم شئون الدين وأمر الدنيا ، وفي الكتاب الذي أشرنا إليه دراسة وافية لاتدع استزادة لدارس . وقد تحدثنا عند الكلام عن الرسول في المدينة عن بعض هذه الاتجاهات ، ووضحنا كيف ربي الرسول الفرد المسالم وربى المجتمع الإسلامي وهكذا .

(١) اقرأ الفصل الثاني من كتاب المجتمع الإسلامي للمؤلف ص ٢٩ - ٤٤ .

(٢) اقرأ الفصل الثالث من كتاب المجتمع الإسلامي للمؤلف ص ٤٥ - ١٥٠ .

عَصْرُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ

١١ - ٤٠ هـ = ٦٣٢ - ٦٦١ م

أبو بكر الصديق

١١ - ١٣ هـ = ٦٣٢ - ٦٣٤ م

تعريف به

هو عبد الله بن أبي قحافة التيمي ، كان اسمه في الجاهلية : عبد الكعبة فسماه الرسول عبد الله ، وكنيته : أبوبكر ، قيل لأنه بكر في دخول الإسلام ، ولقبه الصديق ، لأنه بادر بتصديق الرسول في مواقف كثيرة حرجة ، وبخاصة في حادثة الإسراء والمعراج .

وكان في الجاهلية يشتغل بالتجارة ، وكانت تجارته واسعة ، فلما دخل الإسلام اتجه لخدمته ونشره ، ولم يوجه عناية للتجارة إلا بمقدار ما يكسب به قوته وقوت أهله ، وقد عرف في الجاهلية بالأمانة والهمة ، ولما جاء الإسلام بادر بدخوله ، ثم قام بدعاية ناجحة له ، فأسلم على يده مجموعة من أبطال الإسلام سبق أن ذكرناهم ، وهاجر مع الرسول إلى المدينة وكان « ثاني اثنين » لحآ للغار ليلة الهجرة ، ولعل من الحق أن نقرر أن طول الصحبة ، وإخلاص أبي بكر ، وصفاء نفسه ، جعلته أكثر المسلمين انتفاعاً بروح الإسلام واتجاهاته .

بيعته ومجلس شوراہ :

بعد وفاة الرسول أزداد الأنصار أن يكون الخليفة منهم ، وطمع على ابن أبي طالب في الخلافة ، امكانته في الإسلام ، وإصهاره الرسول وقرابته إليه (١) .

(١) ابن الأثير : الكامل ٣ : ٩٨ .

ولكن الأغلبية الساحقة انجذبت إلى أبي بكر وبايعته خليفة (١) وسرعان ما اجتمع حوله من تردد في بادئ الأمر في مبايعته . وعقب بيعته التي أبوبكر خطابه الرائع الذي أعلن فيه سياسته ، ومما جاء في هذا الخطاب من المبادئ السامية قوله : «أما الناس ، إني وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فتابعوني وإن أسأت فقوموني ، القوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق ، والضعيف فيكم قوى عندي حتى آخذ الحق له ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم .

وكان الرسول مع مكانته من ربه ومع إمداده بالوحي يلجأ للشورى فيما لاوحي فيه ، ومن هنا أدرك أبوبكر أن حاجته للشورى أشد وأعظم ، فكون « مجلس شورى » من كبار الصحابة وكان يلجأ له كلما جد أمر ذو بال

المشكلات التي واجهها أبوبكر :

رأينا في حديثنا عن الغزوات وانتشار الإسلام أن الإسلام بدأ ينتشر بعد صلح الحديبية ، أي بعد السنة السادسة للهجرة ، وأنه بعد هزيمة هوازن وثقيف بدأت الوفود ترد إلى الرسول معلنة إسلامها ، وكان ذلك في العام التاسع ، ومن هذا يتضح لنا أن كثيرين ممن دخلوا الإسلام آنذاك لم يدخلوه عن اقتناع تام ؛ فمنهم من دخله مع الداخلين دون دراسة ودون إيمان ، ومنهم من رأى الحروب ولم يفهم أنها دفاعية فدخل الإسلام تجنباً لخصوص الحروب ضد المسلمين ، ومنهم من دخل الإسلام طمعاً في منعم أو جاه ، فلما توفي الرسول أبرز هؤلاء ما كانوا يخفون . وضعاف الإيمان هؤلاء كانوا يظهرون عدم ولائهم للإسلام كلما سنحت لهم فرصة ، كما فعل المنافقون بعد غزوة بني المصطلق ، وفي مطلع غزوة تبوك ، وكالأعراب الذين وصف القرآن إيمانهم في الآية : (قالت الأعراب آمنا .

(١) للاطلاع على الاتجاهاات المختلفة حول اختيار الخليفة عقب وفاة الرسول ، راجع ابن هشام

: ٢٧٢ - ٢٧٣ و « السياسة في التفكير الإسلامي » للمؤلف ص ٢٧ وما بعدها

قل لم تؤمنوا ولكن قولوا : أسلمنا . ولما يدخل الإيمان قلوبكم^(١) ، ولكن وفاة الرسول كانت أعظم فرصة طؤلاء ، ليظهروا ما أخفوا وليعلنوا ارتدادهم .

وبجانب عدم التعمق في الإسلام كانت هناك العصبية ، وقد حارب الإسلام العصبية ودعا لتكوين أسرة واحدة هي أسرة الإسلام ، ولكن العصبية كانت تتجدد من حين لآخر ، وكان الرسول عدو العصبية يهجم عليها بعنف كلما ظهرت ، ومع ذلك لم تمت العصبية بل ظلت تظهر كلما أتت لها فرصة ، وكان كثيرون من العرب يرون في الإسلام وسيلة فرضت عليهم سلطان قريش ، فلما مات الرسول ، وظهر للعرب أن قريشاً أخذت السلطة ولن تدعها ، قويت هذه الحركات واشتدت . فظهر في كثير من القبائل من ادعى النبوة وأيده قومه باسم العصبية . مع أنه كان واضحاً لهم كذبه وبهتانه .

وهناك فريق ثالث أساء تأويل بعض آيات القرآن وبخاصة تلك المرتبطة بالزكاة ، أو أساء فهمها ، فضل^٢ واتبع طريقاً غير طريق المسلمين . ولهذا الأسباب نجد الجزيرة العربية تنقلب على عقبيها بعد وفاة الرسول ، ونجد الإسلام يواجه أزمة قاسية أوشكت أن تقوّض أركانه ، فهنا جماعة ارتدوا عن الإسلام ، وهناك آخرون أعلنوا أنهم أنبياء وتبعهم حواريون وأشياخ ، وفريق ثالث منعوا الزكاة . وتمرّدوا على ماحموا الإنابة والضريبة . وهكذا ظهر المرتدون والمتنبئون ومانعو الزكاة . وشمل هؤلاء أغلب الجزيرة العربية . ولم يبق تابعاً لدين الإسلام إلا مكة والمدينة والطائف ، وقد قامت هذه المدن بواجبها خير قيام . في إعادة الحق إلى نصابه ، ولم تبخل بشيء لإعادة مجد الإسلام وإعلاء شأنه ، وحملت قريش أكبر العبء في ذلك . وكان التنبؤ ظاهرة تدعو لسخرية الباحث بهؤلاء المتنبئين ، لأن العرب وجدوا أنه في حساب النبي محمد تحققت معجزة لم يصل لها خيال العرب ، وهي وحدة العرب وتآلفهم ، وبذلك ظهر المتنبئون متخذين ادعاء النبوة وسيلة لجمع الناس حولهم ، وقد بدأ ذلك الانحياز في أواخر

حياة الرسول عندما بدأ نجاح رسالته يظهر ، وقوى ذلك الاتجاه بعد وفاة الرسول وانتشار الفتن في الجزيرة العربية :

ومن أكثر المتنبيين خطراً مسيلمة الكذاب في بني حنيفة^(١) بالهامة ، وقد بدأ ادعائه في حياة الرسول ، إذ كتب إليه يقول : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، أما بعد فإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قریشاً لا ينصفون ، والسلام عليك ؛ فكتب له الرسول يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم : من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب ، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . والسلام على من اتبع الهدى^(٢) .

وهناك عوامل ساعدت على ازدياد خطر مسيلمة وهي :

- ١ - قوة بني حنيفة وبطولتهم الحربية .
- ٢ - استطاع مسيلمة أن يخدع الرجال بن جنفوة الذي أرسله محمد ليعظه ويرده عن غيئه ، ولما خدع الرجال كذب ولعل أن محمداً أشرك مسيلمة في الأمر .
- ٣ - تزوج مسيلمة من امرأة تدعى سمجاء كانت قد اذعت النبوة أيضاً في بني تميم ، الذين كانت ديارهم على مقربة من بني حنيفة ، وكانت مطاعة فيهم ، فانضم أتباعها إلى أتباع مسيلمة^(٣) .
- ويروى ابن طباطبا^(٤) قصة هذا الزواج ، ولا بأس من إيراد هذه القصة هنا لطرافتها مع حذف بعض الكلمات الصريحة التي أوردها ابن طباطبا متصلة بالعلاقات الجنسية ؛ قال ابن طباطبا :

(١) أوردنا دراسة شاملة عن مسيلمة وبني حنيفة في الجزء السابع من هذه الموسوعة عند الكلام من نجد .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٩٧ - ٩٨ .

(٣) المرجع السابق ص ١٠٨ وقد دخلت الإسلام بعد أن قتل مسيلمة ، انظر كذلك الكامل لابن الأثير ٢ : ٢٨٠ .

(٤) الفخرى في الآداب السلطانية ص ٥١ - ٥٢ .

وظهرت امرأة من العرب اسمها سجاح ادعت أيضاً أنها نبيه وأن الوحي ينزل عليها ، وتبعها بنو تميم وهم قبيلتها ، ثم سارت لقتال مسيلمة وكانت جموعها أكثر من جموعه ، فلما علم مسيلمة بمسيرها إليه فكر ، وكان داهية ذكياً ، فأرسل لها وقال : ينبغي أن نجتمع أنا وأنت في موضع ونتدارس ما نزل علينا من الوحي ، فمن كان على الحق اتبعه الآخر ، فأجابته إلى ذلك ، وأمر مسيلمة أن تضرب قبة من آدم (الجلد المدبوغ) ويستكثر فيها من العود والبخور وقال : إن المرأة إذا اختلت برجل بين العود والبخور نشطت أنوثتها . وهذا ما كان ، ففي هذه الخلوة الشاعرية أصبحت رجلاً وامرأة بعد أن كانا نبياً ونبيه ، واتفقا في النهاية على أن ما ورد لها من الوحي يصدر عن معين واحد ، وعلى أن تعلن تصديقها له ويعلن تصديقه لها ، كما يعلن رغبته في الزواج منها ليقوما معاً بأداء الرسالة ، وأعلنا ذلك للقوم ، وقدر مسيلمة المهر لأصهاره ، وكان ذلك المهر إعفاءهم - دون الناس - من صلاة العصر . ويقول ابن طباطبا إن كثيرين من بنى تميم لا يصلون العصر حتى الآن ، فقد توارثوا هذه العادة منذ ذلك الحين ، ومنهم من يعلن أنه لا يصلى العصر لأنه مهر فتاة القوم .

وقد أعطت وفاة الرسول فرصة - كما سبق القول - لأتباع مسيلمة ليزداد أملهم في النصر .

ومن الذين ادعوا النبوة أيضاً عبله ذو الخمار باليمن ، وهو المعروف بالأسود العنسى ، وطلحة بن خويلد في بني أسد ، وقد بدءا ادعاءهما في حياة الرسول أيضاً ، وكان من أتباع هؤلاء الأنبياء المزيفين كثيرون أدركوا ضلال المدّعين ولكنهم انضموا إليهم ليقفوا بهم ضد قريش التي تريد أن تستأثر بالحكم فيهم ، كما انضم هؤلاء أيضاً كثيرون من المرتدين ليستعينوا بهم في الوقوف في وجه الإسلام .

وهناك مرتدون آخرون لم ينضموا إلى أحد من المتنبيين ، ولكنهم اكتفوا بترك الإسلام ومن هؤلاء سكان البحرين (١) .

(١) انظر الحديث المنفصل عن هؤلاء في الجزء السابع من هذه الموسوعة .

أما مانعو الزكاة فأغلبهم من العين واليامة ، وقد منعها بعضهم عناداً ورأى فيها ضريبة إجبارية لم يرد أن يخضع لها ، ومن هؤلاء فيما يبدو مالك بن نويرة سيد بني حنظلة ، وقد اتهم أيضاً بأنه يساعد سمجاس ويؤيدها ^(١) ولكن أغلب مانعي الزكاة أساءوا فهم الآية الكريمة (أخذ ما أمم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) ^(٢) وظنوا أن الرسول وحده - والخطاب في الآية له - هو الذي يجوز له أن يأخذ الزكاة ، ففي ذلك تطهير وتزكية لهم ، وقد نسي هؤلاء التفسير الدقيق للآية الكريمة ، كما نسوا الآيات الأخرى التي تقرر أن للفقير حقاً في مال الغني ، مثل قوله تعالى : « والذين في أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم » ^(٣)

واستشار أبو بكر الصحابة والمسلمين فيما يفعل أمام هذه المشكلات العظام ، فرأى أكثر المسلمين ألا طاقة لهم بحرب العرب أجمعين ، كما رأى بعضهم أنه لا داعي لحرب مانعي الزكاة ماداموا ثابتين على إيمانهم ، ولكن أبا بكر صاحب مقسم ليحاربن الجميع حتى يثوب الجميع إلى الحق أو حتى يموت أبو بكر مجاهداً في سبيل إعلاء كلمة الله ، فاستجاب أغلب المسلمين أو كلهم إلى اتجاه أبي بكر ^(٤) ، ووضعت قريش أفلاذ أكبائها تحت إمرته وبدأ يعمل ، فكوّن أحد عشر جيشاً يقود كل منها بطل من أبطال العرب المشاهير ، مثل خالد بن الوليد وعمر بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وشريحسبيل بن حسنة وغيرهم ، وقد هزبت هذه الجيوش الجزيرة العربية ،

(١) قتل خالد بن الوليد مالك من نويرة هذا ، وقصة خالد مع مالك وزواج الأول من زوجة الثاني بعد قتله من الموضوعات التي أفاض المؤرخون المحدثون في شرحها وهناك فيها اتجاهان مختلفان : يمثل الدكتور هيكل أحدهما في كتابه « الفاروق همر » فيدين خالداً ويمثل الأستاذ صادق هرجون الاتجاه الثاني في كتابه « خالد بن الوليد » فيدافع عن خالد ويدبرته . وإل هذا جميل .

(٢) سورة التوبة الآية ١٠٣ .

(٣) سورة المعارج الآية ٢٤ ، ٢٥ .

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٠٤ .

وقبل أن يوجهها أبو بكر في اتجاهاتها المرسومة أرسل كتاباً للخارجين أجاب لهم فيه عن الشبهة التي كانت قد خطرت لهم ، ودعاهم إلى العودة إلى رحاب الإسلام ، وأنذرهم إن استمروا على غيهم ، وقد نجحت الكتب مع بعض الناس ، وبقى آخرون على ضلالهم ، فانجهت لهم الجيوش ، وكانت جولة هذه الجيوش ناجحة مظفرة فلم تلبث أن دكت الأرض حولهم . ومن أهم المعارك التي خاضها المسلمون ضد المتنبيين معركتهم ضد أربعين ألفاً^(١) من بني حنيفة وأتباعهم اتفوا حول مسيلمة ، ولما التقى الفريقان سرعان ماسقط الخائن الرجال بن عنقوة ثم شدَّ المسلمون على أعدائهم فتقهقروا ، وأراد مسيلمة أن يحتجى بحديقة فسحها لها سور مرتفع فراجع لها ودخلها ونادى أصحابه أن فلققوا به ، ولكن المسلمين تسوروها عليهم ودارت بها معركة عنيفة سقط فيها آلاف من الفريقين حتى سميت « حديقة الموت » وقتل مسيلمة على يد وحشى قاتل حمزة ، وقبل على يد معاوية ، وقيل اشترك في قتله جماعة من المسلمين^(٢) في طليعهم وحشى الذي رماه بحربة ، وعبد الله بن زايد بن عاصم الأنصاري الذي أجهز عليه بسيفه^(٣) ، وكان قائد جيش المسلمين في هذه المعركة البطل العظيم خالد بن الوليد^(٤) .

وانهزمت كذلك جيوش الأسود الذي كان يلقب نفسه رحمان اليمن وقتل غيلة في الليلة التي توفي الرسول في صبيحتها^(٥) وكان قد استولى على نجران وصنعاء وحضر موت وعدن والبحرين والاحساء ، ولم تطل مدته أكثر من أربعة أشهر .

أما طليحة بن خويلد فقد اتبعه قومه بنو أسد كما اتبعته طيء وخطفان ،

(١) ابن الأثير - الكامل ٢ : ٢٤٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٨ .

(٣) النووى : تهذيب الاسماء : القسم الأول ج ١ ص ٢٣٨ .

(٤) زرت وادى حنيفة الذي جرت به هذه المعارك ، ودونت مزيداً من التفصيل عنها

في الجزء السابع من هذه الموسوعة .

(٥) للطبرى ج ٣ ص ٢٥٢ وابن الأثير ج ٢ ص ١١٤ .

وعظم أمره عقب وفاة الرسول ، فأرسل له أبو بكر خالد بن الوليد على رأس جيش عظيم ، فتخلت عنه طيء وعادت للإسلام وظل معه بنو أسد ، ولكن طليحة انهار أمله أمام خالد ففر إلى الشام واختفى ثم أسلم في عهد عمر^(١) وحسن إسلامه واشترك في الفتوح .

ومما يذكر أن القراء (حفظة القرآن الكريم) كان لهم دور كبير في هذه الحروب ، فقد استطاعوا بصمودهم أن يبرهنوا على عزيمة قوية وعلى بطولة فائقة ، ويروى أنهم كانوا حاة اللواء في هذه الحروب ، ولما انكشف المسلمون في إحدى مواقع هذه الحرب كان غضب القراء بالغاً وصاحوا : ما هكذا كنا نفعل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذ كل واحد منهم يخط في الأرض خطأً بحيث لا يتجاوزوه إلى الوراء ، ويقاوم مستميتاً دون أن يتقهقر حتى ينتصر أو يموت .

ويُنسب للقراء أنهم في هذه الحروب ألّفوا كتاباً فداية انتحارية كان شعارها النصر أو الموت ، وقد استطاعوا بذلك أن يسحقوا الأعداء في مواقف كثيرة وبحقّقوا النصر للإسلام والمسلمين .

وعلى كل حال فقد جالت الجيوش الإسلامية جولة في الجزيرة العربية أعادت خلالها النائر إلى الهدوء . والفضال إلى الهداية ، وعادت الجيوش إلى المدينة وقد عادت للجزيرة العربية وحدتها وتمسكها بالدين الحنيف بعد أن زالت الشبهات والترهات بالحكمة عند من عرف الحكمة ، أو بالسيف عند من دفعته العvisية الضمانة إلى السيف ولم تعرف الحكمة إلى نفسه سيلاً .

التوسع الإسلامي في عهد أبي بكر :

إن انتفاض الجزيرة العربية جدد الأمل عند الفرس والروم بأن العرب سيقضون على الإسلام ، وقدمت الفرس والروم للعرب الثائرين على الحكم الإسلامي كثيراً من المساعدات وآوت الفارين منهم ، ولذلك لم يكف المسلمون يعيدون الجزيرة إلى وحدتها حتى كان الأوان قد آن للزحف نحو

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ١٠٥ .

الشمال لمواجهة العدوين الكبيرين اللذين يتربصان بالإسلام ، ويعملان على القضاء عليه ؛ ومات أبو بكر والمبارك دائرة بين المسلمين من جهة والفرس والروم من جهة أخرى ، وظهرت ثمرة هذا العمل في عهد عمر ؛ ولذلك سترجىء الكلام عن هذا التوسع الذى تم في عهد الخليفين لتحدث عنه عند الحديث عن الخليفة عمر .

وفاة أبي بكر :

مرض أبو بكر وتوفى بعد أن أمضى في الخلافة عامين وبضعة شهور ، وهى مدة وجيزة ولكنها حاسمة في تاريخ الإسلام ، لقد واجه أبو بكر فيها أخرج المواقف ، ويمكن القول إنه في فترة منها كان يقف وحده^(١) ، ولكنه بإيمانه وبقينه سرعان ما ضم المسلمين إلى رأيه ، ثم سار بهم يدك صروح الشرك ويقوض الشكوك والأوهام ، بل سار بهم يحطم قصور كسرى وقبصر ، ولانكاد نجد موقفاً عظيماً في الصدر الإسلامى إلا واسم أبي بكر بارز فيه ، رحم الله أبي بكر ، لقد تمثلت فيه كل المعانى الإسلامية الرائعة .

(١) ذلك عند إصراره على محاربة المرتدين والمنتشين ومانعى الزكاة في حين اتجه باقى المسلمين إلى المسألة قائلين : كيف نحارب الجزيرة العربية كلها .

عمر بن الخطاب

١٣ - ٢٣ هـ (٦٣٤ - ٦٤٤ م)

تعريف به :

هو عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي من بني عدى الذين كان لهم بين قريش - قبل الإسلام وبعده - شرف ومجد ومكانة عظيمة ، وكان عمر يشتغل بالتجارة ، وفي الجاهلية كان سفير قومه إذا تأزمت الأمور بينهم وبين الآخرين ، واشتهرت عنه قبل إسلامه وبعده شجاعة لاتعرف الخوف وعزيمة لاتعرف التردد .

وكانت الدعوة الإسلامية في مطلعها ضعيفة تحتاج إلى قوة ، ولذلك أثر عن الرسول أنه قال : اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين (عمرو بن هشام (أبوجهل) أو عمر بن الخطاب) وقد استجاب له الله فأسلم عمر في السنة الخامسة للدعوة ، وكان إسلامه فتحاً مبيناً ، وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : كان إسلام عمر فتحاً ، وكانت هجرته نصراً ، وكانت إمارته رحمة ، لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي في البيت خوفاً من قريش ، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فضليلاً^(١) ، وقصة إسلام عمر مشهورة ، وقد تحدثنا عنها عند كلامنا عن أثر القرآن في انتشار الإسلام .

توليته الخلافة :

شهد أبو بكر الخلافات التي حدثت عقب وفاة الرسول ، والأطماع التي أوشكت أن نفرق كلمة المسلمين ، وقبيل وفاة أبي بكر كانت الجيوش الإسلامية تخوض أقصى المعارك التي عرفها التاريخ في ذلك الحين ، إذ كانت الحروب دائرة بين المسلمين من جهة وبين الفرس والروم من جهة أخرى ، والجيوش في ميدان القتال تحتاج إلى عون متصل من العاصمة ، عون بالرأى والسلاح والرجال وغير ذلك ، ورأى أبو بكر أنه لو ترك المسلمين بلا خليفة فلنهم قد يختلفون اختلافاً كثيراً أو قليلاً ، واضطراب العاصمة سيؤدي إلى

(١) النوى : - يب الأسماء القسم الأول ج ٢ ص ٤ .

هزيمة كبيرة للجيوش المحاربة ، وقد تمتد الخلاف إلى الجيوش نفسها فيؤيد قائد مرشحاً ، ويؤيد قائد آخر مرشحاً آخر ، فتتقلب الحروب إلى معارك داخلية وهزائم قاتلة ، ومن أجل هذا رأى أبو بكر أن يعين خلفه بعد أن يستشير الناس ، أو أن يستشير الناس ويعين لهم من يرضونه ، وكان عمر هو مرشح الخليفة ومرشح الناس ؛ ومن غير عمر لهذا المكان وهناك عمر ؟ ولذلك كتب أبو بكر وثيقة تعين عمر بعد الاستشارة واتحاد الكلمة (١) .

التوسع الإسلامي في عهد أبي بكر وعمر :

تحدثنا من قبل عن أسباب تفكير المسلمين في محاربة الفرس والروم ، ونريد هنا أن نتبع مراحل هذا التوسع ، وقد بدأ النضال بين المسلمين من جانب والفساسنة ومعهم أحلافهم الروم من جانب آخر في غزوة مؤتة التي كان يقودها زيد بن حارثة مولى الرسول ، وقد قتل فيها هو واثان توليا القيادة بعده ، ثم جاءت غزوة تبوك ولكن المسلمين لم يثأروا فيها لقتلهم بسبب انسحاب جيش الروم وعدم وقوع حرب كما سبق .

فلما تمت انتصارات الإسلام في الجزيرة العربية ، ولما كانت مكاييد الفرس والروم مستمرة ، فقد أعد الرسول جيشاً عظيماً ولي أسامة بن زيد قيادته ليثأر لأبيه ولقتلى المسلمين ، ولكن الرسول مات قبل أن يسير هذا الجيش ، فسيره أبو بكر (٢) .

ولكن تسير أبي بكر لهذا الجيش كان عملاً سياسياً أكثر منه حربياً ؛ فليس من الطبيعي أن يرسل خليفة المسلمين جيشاً لمحاربة الروم في حين تنتفض عليه أغلبية العرب ، ولذلك رأى أبو بكر أن يرسل هذا الجيش سيجعل المتمردين يحسون أن بالمسلمين قوة كبيرة لولاها ما أقدموا على حرب الروم في هذه الظروف ، ونجحت سياسة أبي بكر . فإرسال هذا الجيش خوف الروم وخوف الثائرين العرب وحقق هذا الجيش انتصارات طيبة في الغارات السريعة

(١) انظر تفاصيل البيعة لعمر في كتاب « السياسة في التفكير الإسلامي » للمؤلف .

(٢) ابن هشام - ٢ ص ٣٦٥ وابن الأثير ٢ : ١٩٢ .

التي شنها على الروم . . . والتي كانت فاتحة المعارك الطويلة بين المسلمين وبين الفرس والروم . تلك المعارك التي سنرجزها فيما يلي :

الفرس والروم قبل الزحف الإسلامي وعوامل انتصار المسلمين :

سبق أن قلنا إن قبيلتي هوازن وثقيف في حربهما مع المسلمين حشدتا النساء والأموال خلف الجيوش ، حتى يعرف المحارب أن هزيمته معناها فناء أسرته وماله : ويفهم النقاد من ذلك أن هؤلاء الجنود لم يكونوا مخلصين في المعارك التي يخوضونها . ولو كانوا مخلصين لمحاربوا من أجل العقيدة بشجاعة أكثر من محاربتهم من أجل النساء والأموال . وقد حارب المسلمون من أجل عقيدتهم . فكسبوا انتصارات حاسمة في مختلف الميادين دون أن يكون خلفهم نساء ولا أموال . وفي ضوء ذلك نحب أن نعرف شعور الجندي الفارسي أو الجندي الرومي وهو في هذه المعارك الطاحنة بحارب المسلمين .

لقد مضى على ظهور الإسلام حينذاك حوالي ربع قرن وقد سمعت عنه الشعوب ببلاد الفرس والروم ، وسمعوا عما حققه من انتصارات . وسمعوا عن مبادئ السمحة ، ولأول مرة يسمعون عن دين سوى بين الملك والسوقة ، ولأول مرة يسمعون عن حكام فقراء يرقعون الثياب ويخسفون النعال . وبينما كانوا يسمعون عن ذلك ويعرفونه . كانوا يعيشون في حياة بعيدة كل البعد عنه . كانت دولهم دولا شاخنت وآن لها أن تزول . عظماءهم أضعفهم التنافس على السلطان وهدم البذخ . وشعوبهم أضعفها الخلافات الدينية واستبداد الملوك وظلم الحكام ، وكان الجندي يدرك أنه يدافع عن شيء لا حق له فيه . يدافع عن وطن يملكه السادة ويستمتع به الملوك ، فلماذا يبذل من أجله نفسه ؟ ولماذا يريق دمه ! ولقد كان الفرس يدركون أن جنودهم يحاربون دون رغبة . حتى اضطرب القائد الفارسي في موقعة نهاوند أن يقيد جنوده بالسلاسل حتى لا يفروا ، وقد سميت هذه الموقعة « موقعة ذات السلاسل »^(١) وسيأتي الكلام عنها . وقد فعل الروم مثل ذلك أيضاً ،

يروى البلاذري^(١) أن الروم في موقعة اليرموك تسلسلوا لثلاث بطعموا أنفسهم في الحرب .

وانتشر في فارس مبدأ الحق الإلهي المقدس ، وذلك يجعل الملوك ظل الله على الأرض ، ويُسبِّحُ الهوة بينهم وبين شعوبهم^(٢) .

وكان الفرس والروم في معارك تكاد تكون متصلة ، وكان الفرس أو كان الروم ينالون النصر ، ولكن الحرب تفضي المهزوم والمتنصر .

والإمبراطورية الرومانية كانت واسعة تمتد من الشام فصر وشمال إفريقيا إلى شبه جزيرة إيبيريا . وهي بذلك تشمل عدة دول وعدة أجناس ، وأباطرة الرومان قساة محتلون ، تثور عليهم الدول الخاضعة لهم من حين إلى آخر ، فيفسون في تأديبهم ، يريقون دماءهم ، ويأخذون أموالهم إذا انتصروا عليهم ، وإذا لم تثر هذه الدول فعنى ذلك أن الثورة كامنة ، إنها نار تتأجج في صدورهم ضد الاستعمار والاستبداد والضرائب الفادحة التي كانت تؤخذ على الرعوس والملابس وأثاث المنازل بل ، على الأموات .

وكان السكان يفضجون تحت حكم الرومان ، ولذلك كثيراً ما رجعوا بحكم المسلمين وانضموا إليهم في الكفاح ، يروى البلاذري^(٣) أن المسلمين بعد أن أخذوا حصص أعداء الرومان جيشاً كبيراً ليستعيدوا به هذه المدينة : ولكن أهل حصص انضموا للمسلمين وقالوا : لولا يتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفن جندهم قتل عن المدينة معكم وأقسموا ألا ينخل عامل حرق المدينة إلا إذا ظفروا .

وحسبك أن تعرف أن مصر كانت تعرف عند الرومان بمزرعة القمح ، حيث يزرع المصريون وتُسبِّت أرض مصر ، ويحصده المصريون ، ثم يؤخذ منهم نتاجهم دون عدل أو رحمة . وقبل أن يزحف المسلمون على الروم كانت الإمبراطورية قد بدأت تتصدع ، فقد أغار القوط على أسبانيا وأخذوها . وهاض الجناح الغربي ، وأوشك الجناح الشرقي أن يتحطم على يد العرب .

(١) المرجع السابق ص ١٤١ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٩٣١ .

(٣) فتوح البلدان ١ ص ٤٣ .

ويقول Kirk^(١) : إن غمار أهل المدن والريف في دول الشرق الأوسط الخاضعة للروم كانوا يعيشون في ضنك من جراء ثقل الضرائب الباهظة وفساد الموظفين ؛ فلم يدينوا بشيء من الولاء لهذا الحكم . ومن جهة أخرى نجد الكنيسة المسيحية باضطباغها بالصبغة الرسمية دخلت في دور الجمود المسيطر على رجال الحكم ؛ ولم يبق في الكنيسة شيء من الإخاء الذي امتاز به صدر المسيحية ، وحصل انشقاق في الكنيسة كان عامل الوطنية من أسبابه ، ولو أنه اتخذ شكلاً دينياً حول تفسير طبيعة المسيح ، ولم تثمر محاولات التقريب بين الطوائف المسيحية لأن الكنائس المحلية بدول الشرق الأوسط كانت تبغض الأباطرة وحكوماتهم فكانت النتيجة أن توقفت محاولات الأباطرة لاسترضاء شعوب الشرق الأوسط ، وحلت محلها اضطهادات شنيعة وحشية فاتسعت الهوة بذلك بين الفريقين إلى الأبد ، وتطورت الأمور في بلاد شرق البحر الأبيض المتوسط حتى بلغت الحد الذي يجعلها لقمة سائغة لأي فاتح يعرض عليهم من الحرية في شؤونهم مالم ينالوه على يد أباطرة الرومان .

وكانت الفرس تستعمر بلاد العراق ، وكان الاضطهاد الديني ببلاد الفرس على أشده ، وضعف سلطان الساسانيين الذي امتد حوالى أربعة قرون ، وآل الحكم إلى يزدرج الثالث آخر ملوكهم ، وكان شاباً في الحادية والعشرين من عمره قايل التجارب . ورث دولة ضعيفة لا يستطيع المسير بها في ركب الحياة .

ويتجه البحث الحديث كما ذكرنا من قبل إلى اعتبار الزحف الإسلامي حركة قامت بها القبائل العربية المتحررة بالجزيرة العربية لتحرير الشعوب العربية التي كانت ترواح تحت الاحتلال الفارسي أو الروماني .

في ضوء هذه الاعتبارات قامت الحرب بين المسلمين وبين الفرس والروم ، وآذنت دولة الباطل بالخضوع ، وقد كان هجوم المسلمين على

(١) موجز تاريخ الشرق الأوسط ص ١٤ بتصرف : وانظر كتاب « المسيحية » للمؤلف

الفرس والروم في وقت واحد لونا من الإرهاب ساعد في الحصول على النهاية الطيبة ، وسنرسم فيما يلي سير الحملات الحربية ونذكر أهم المواقع الحاسمة في إيجاز ، وقبل أن نشرع في هذا يجدر بنا أن نشير إلى أن الذي يقرأ كتب الفتوح مثل فتوح البلدان للبلاذري وفتوح الشام للواقدي وفتوح الشام للأزدى ، وفتوح مصر لابن عبد الحكم ، يرى اختلافاً كبيراً في الروايات التي توردها هذه الكتب أو حتى تلك التي يوردها الكتاب الواحد منها ، وهذا الاختلاف يتصل بالتواريخ ويتسلسل الفتوح وغيرها ، ولن نفي كثيراً بهذا الاختلاف إذ لا أرى كبير فائدة في معرفة ما إذا كانت دمشق فتحت قبل اليرموك أو بعدها ، وأى أجزائها فتح على يد خالد وأياها فتح على يد أبي عبيدة ، وأى أجزائها فتح صلحاً وأياها فتح عنوة وهكذا ، وهناك بلاد يرد ذكرها على أنها فتحت في عهد عثمان ، ثم ترد مرة ثانية على أنها فتحت في عهد معاوية ، وترد مرة ثالثة على أنها فتحت في عهد الوليد ولعل ذلك يرجع إلى أن فتحها الأول كان صلحاً على جزية ، ثم توقف السكان عن دفع الجزية فأعيد فتحها ، أو كان فتح ، فثورة على الفتح ، فاستعادة الفتح ،

المهم مرة أخرى أن هذا الاختلاف قابل الغناء فيما أرى ، ولذلك أثرت أن اكتفى هنا بإيراد الفتوح مسلسلة حسبما استطعت فهمها من التوفيق بين الروايات المختلفة التي وردت في الكتب السابقة وغيرها ، مع ملاحظة أن البلاذري كان أكثر هذه الكتب دقة وشمولاً ، ولذلك فسنعتمد عليه أكثر من سواه .

العراق وفارس ،

جرت المناوشات الأولى بين العرب والفرس في بلاد العراق على يد المشني ابن حارثة الشيباني ، وكان ذلك في مطلع عهد أبي بكر وبتكليف من الخليفة^(١) ولكن أباً بكر بعد أن شاهد نجاح المشني مع قلعة ما معه من العدة وقلعة من معه من العدد أرسل إليه جيشاً عظيماً يقوده سيف الله خالد بن الوليد ، وكتب

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٤٢ .

أبو بكر للمثنى يأمره بتلقى خالد والسمع والطاعة له^(١) ووصل خالد العراق فأخذت مدنه تصالحه وتخضع وتدفع له الجزية وتعهده على أن تكون معه على الفرس ، وأهم البلاد التي صالحها خالد أرض الحيرة^(٢) .

وسار خالد من الحيرة إلى الأنبار فحاصرها . ولكن مقاومتها لم تطل فطلبت الصلح واستسلمت^(٣) ، وكذلك استسلمت « عين التمر » بعد فترة من القتال والحصار ، وقد وجد خالد في عين التمر مجموعة من العرب أسره الفرس وأودعهم معبداً في هذه المدينة فأطلق خالد سراحهم^(٤) .

ومن أهم المعارك التي خاضها خالد بفارس موقعة « الأبله » وتسمى موقعة ذات السلاسل ، لأن الفرس ربطوا فيها جنودهم بالسلاسل^(٥) حتى لا يفروا من المعركة ، ولكن ذلك لم يفهم شيئاً . فقد فر منهم من وجد حيلة للفرار وسقط الباقون صرعى ، وقد ترتب على هذه الموقعة الاستيلاء على ميناء الأبله على الخليج الفارسي^(٦) .

وبينما كان خالد في تقدمه ذلك ، كانت الحملة على الروم تحتاز مرحلة صعبة ، فحول أبو بكر خالد بن الوليد إلى الروم ، وبذلك لم يقو جيش المثنى على الوقوف في وجه الفرس فارتد إلى أطراف الجزيرة العربية .

وفي عهد عمر كانت كفة المسلمين قد رجحت على الروم بعد انتصارهم في معركة أجنادين ، فاتجه عمر إلى معاودة الزحف على بلاد الفرس . وفيما يلي فكرة سريعة عن أهم المعارك الحربية التي دارت بين المسلمين وبين الفرس في عهد عمر ، والتي وضعت حداً لمقاومة الفرس وأدخلتها إلى الأبد جزءاً من العالم الإسلامي .

يوم الجسر : حدثت هذه الموقعة سنة ١٣ هـ ؛ وكان يقود جيش المسلمين فيها أبو عبيد بن عمر الثقفي أبو المختار بن أبي عبيد المشهور ، ومعه سليط

(١) المرجع السابق ص ٢٤٢ (٢) المرجع السابق (٣) المرجع السابق ص ٤٧٢

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٤٨ ،

(٥) ابن الأثير ، الكامل ٢ : ٢٩٢ .

(٦) ياقوت : معجم البلدان ١ : ٨٢ .

ابن قيس الأنصاري ، وكتب عمر للمثنى أن يكون في طاعة أبي عبيد، وكان يقود جيش الفرس قائد عظيم اسمه مرءانشاه ويقال إن اسمه رسم ، وتنسب هذه المعركة إلى جسر عند الحيرة عبرة المسلمون والتقوا بجيش الفرس ، وانتصر الفرس في هذه المعركة وقتل أبو عبيد وسليط^(١) .

يوم مهران أو يوم النخيلة : استمر عمر عاما بعد يوم الجسر لا يغزو فارس ، ولما دخلت سنة ١٥ بدأ يعاود غزوها ، فأرسل لها جيشا يقوده جرير بن عبد الله مع المثنى بن حارثة ، وكان يقود جيش الفرس قائد اسمه مهران ، وقد ثار المسلمون في هذه الموقعة لقتلهم في يوم الجسر . وقتل مهران وكثير من أتباعه^(٢) .

القادسية : حدثت موقعة القادسية في السنة السادسة عشرة ، وكان قائد المسلمين فيها سعد بن أبي وقاص وبلغ جيش المسلمين فيها جوارى عشرة آلاف وكان قائد الفرس رسم ذا الحاجب، ويتكون جيشه من مائة وعشرين ألف مقاتل . وقد مات المثنى بن حارثة قبل المعركة ، ومن القادة الذين كانوا يساعدون سعد بن أبي وقاص ، المغيرة بن شعبة وقيس بن هبة وطلحة ابن خويلد الذي كان قد ادعى النبوة ثم تاب وأناب ، وقبيل المعركة تم اتصال بين المسلمين والفرس رجاء الوصول إلى اتفاق يمنع الحرب ، ولكن هذا الاتصال لم يسفر عن نتيجة ، فقامت المعركة ، وهي من المعارك الهامة في تاريخ الحروب بين المسلمين والفرس فر فيها رسم وعشرات الآلاف من جنوده ، وغنم المسلمون فيها مغنم كثيرة ، وقد استمرت هذه المعركة عدة أيام^(٣) .

ومن الأحداث الهامة التي وقعت في هذه المعركة أن أبا محجن الثقفي أحد مشاهير الأبطال شرب الخمر في معسكر سعد ، فضربه سعد وحبس به ،

(١) البلاذري : ص ٢٥٢ :

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ٢٥٢ - ٢٥٤ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢٠ : ٢٠٩ ، ٢٦٥ .

(م ٣٧-التاريخ)

ولما قامت المعركة حزن أبو محجن لأنه لم يشترك فيها . فتقدم « إلى زبراء » وهي أم ولد لسعد وطلب منها أن تطلق سراحه وتعيده فرساً لسعد ليشهد المعركة ، وحلف لها أن يعود إلى سجنه عقب المعركة ، فأطلقتة وأعطته الفرس .

ورأى المسلمون فارساً مغواراً يشق الصفوف ويطعن في العدو يمنة ويسرة فلا تخطيء طعنته ، فقال سعد : لولا أن أبا محجن في السجن لظننت أن هذا هو أبو محجن ، وقبيل انتهاء المعركة انسحب أبو محجن وأعاد الفرس إلى مربطه وعاد هو إلى سجنه : وعرف سعد فيما بعد ذلك الخبر ، فأتى إلى أبي محجن وأطلق سراحه وقال له : إنك تستحق العفو بعد ما رأيت منك . قال أبو محجن وأنا والله لا أشرب الخمر أبداً فقد كانت على وشك أن تحرمي من الجهاد ^(١) .

المدائن : كان انتصار المسلمين في القادسية دافعاً لهم أن يستمروا في زحفهم ، واتجهوا في تقدمهم إلى القلب ليضربوه ، إلى العاصمة طيسفون ^(٢) التي أسماها العرب « المدائن » لكثرة ضواحيها حتى بدت للعرب كأنها مدائن لا مدينة واحدة ، وتقع المدائن على ضفتي نهر دجلة واستطاع المسلمون أن يستولوا على الجانب الغربي من المدينة فأسرع الفرس وأخذوا السفن للجانب الشرقي كما هدموا الجمور حتى لا يستطيع العرب عبور النهر ، ولكن المسلمين سرعان ما عبروا النهر بنحيوهم ، فاضطرب الفرس وقالوا والله ما هؤلاء إلى جن . وحاقت عليهم الهزيمة وهرب يزيد جرد بن شهر بار إلى حلوان ومعه وجوه قومه وأسرتهم وما خفف من متاعه .

وسقطت العاصمة الفارسية العريقة في أيدي المسلمين بما تحويه من فن وذنائر ، ولا شك أن سقوط العاصمة آذن بالانهيار الكامل لبلاد الفرس كلها ، وكان سقوط العاصمة في العام السادس عشر ^(٣) .

جلولاء : أعداء يزيد جرد عدته ليقابل المسلمين ، وبعث إلى كل النواحي

(١) انظر فتوح البلدان للبلاذري ٢٥٥ - ٢٧٩ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ٦ : ١٣٤ .

(٣) فتوح البلدان ٢٦٢ - ٢٦٣ وانظر أيضاً ابن الأثير ٢ ، ٣٥٤ .



الخريطة رقم (٤)
الجيش الإسلامي بفارس

يطلب العون فانهالت عليه الإمدادات ، وعسكر بمنطقة جلولاء وحفر الخنادق حول معسكره ، ولكن المسلمين اقتحموا عليهم خنادقهم ، ودارت معركة من أعنف معارك فارس يقول البلاذري عنها ^(١) إن المتحاربين استعملوا الرماح حتى تقصفت وتجالدوا بالسيوف حتى انثنت ، ولكن المسلمين ثبتوا حتى كتب لهم النصر وفر يزدرجرد مرة ثانية من حلوان ، وعقب الانهواء من جلولاء أصبح للمسلمين كل أرض السواد ، وكانت هذه الموقعة سنة ١٦ أيضاً تبعاً لرواية البلاذري ^(٢) .

نهاوند : موقعة نهاوند تسمى فتح الفتوح ، وقد أورد البلاذري أنها وقعت سنة ١٩ ، قال البلاذري : ويقال إنها وقعت سنة ٢٠ أو ٢١ ، ويبدو أن نهاوند كانت آخر محاولة جدية يقوم بها يزدرجرد ، فقد جمع لها جوعاً يرى بعض المؤرخين أنها وضلت ١٠٠ ألف ^(٣) ، وولى قيادتها قائداً عظيماً يسمى الفيرزان وحرص على ألا يهرب المحاربون فقيدهم بالسلاسل ^(٤) ، وقد اسمت الفرس في الدفاع والحرب ولكن المسلمين هزموهم . وكان قائد المسلمين في هذه المعركة نعمان بن مقرن المزني الذي ولاه عمر بعد أن عزل سعد بن أبي وقاص الذي لم يرض عمر عن بعض تصرفاته بالكوفة ^(٥) وقد سقط النعمان في ماطلع المعركة فتولى مكانه حذيفة بن اليمان وتم على يده النصر ^(٦)

بعد نهاوند : سار المسلمون بعد نهاوند فاستولوا على الأهواز ثم استولوا على قم وكاشان . ودانت لهم كذلك منطقة أذربيجان وكانت هذه الانتصارات الباهرة سبباً في إضعاف الروح المعنوية عند الفرس ، فاستسلم صلحاً عدد كبير منهم . واستسلم آخرون عنوة ، ولم يستطع يزدرجرد أن يقابل المسلمين

(١) المرجع السابق ١٦٤ .

(٢) المرجع السابق ١٦٣ - ٢٦٤ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٠٥ .

(٤) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٠١ .

(٥) ابن سعد ٣ / ص ٧٩ .

(٦) البلاذري ٢٠٠ - ٣٠١ .

بمثل ذلك مقابلة قوية، وظل أمره في نقصان حتى قتل بخراسان سنة ٥٣١ هـ في عهد عثمان وبموته انتهت دولة (آل ساسان) .

بقيت كلمة مهمة عن الفرس، فقد سقطوا في الميدان العسكري. ولكنهم ظلوا يصارعون الإسلام فكرياً فترات طويلة، كما أنهم شنوا على المسلمين حروباً شعواء بأسماء مختلفة يمكن القول إنها كانت من أهم أسباب ضعف العالم الإسلامي، ولا شك أن بلاد الفرس كانت سبب الانحراف في بعض الاتجاهات الشعبية، وأن التعاليم الفارسية القديمة ومحاولة التأثير للكرامة الفارسية ظهرت في حركات الزنادقة والزيج والقرامطة وسنباذو المقنع المروزي وبابك الخرمي وغيرهم ولا يوجد نظير لهذه الحركات الهدامة في الشام ومصر والشمال الإفريقي ...

الروم

كان اهتمام المسلمين بغزو الروم يفوق اهتمامهم بغزو فارس لأن شغب الروم على المسلمين سبق شغب الفرس . ولأن الشام ومصر وفلسطين دول محتلّة ليست مخصصة للروم، وأمل المسلمون أن يجدوا من الأهليين بعض المساعدة لطرد هؤلاء المستعمرين القساة، وقد جمع أبو بكر جيوشاً عظيمة وجهها نحو الروم في فيالق أربعة كبيرة يقردها :

١ - أبو عبيدة بن الجراح الذي لقبه الرسول بأمين الأمة ^(١) ويتجه لغزو حصص وله القيادة العامة .

٢ - يزيد بن أبي سفيان ويتجه لغزو دمشق .

٣ - شرسبيل بن حنينة ويتجه لغزو وادي الأردن .

٤ - عمرو بن العاص ويتجه لغزو فلسطين ^(٢) (انظر الخريطة رقم ٥). وكان تعداد الجيوش التي سيرت إلى الشام اثني عشر ألفاً ولكنها زادت إلى أربعة وعشرين ألفاً ^(٣) .

(١) ابن الأثير الكامل ج ٢ ص ٢٢٠ .

(٢) اقرأ تفاسيل اختيار هؤلاء القادة وصايا أبي بكر له في فتح الشام للواقدي ص ٣ - ١٠ وقرأ كذلك البلاذري : فتوح البلدان ص ١١٦ وهذيب الأسماء للزوي القسم الثاني ج ١ - ١٨ .

(٣) فتح الشام وفتح البلدان .

وقد سارت هذه الجيوش كلٌّ في الاتجاه الذي حدّد له ، ولما علم الروم بخطة العرب قسموا جندهم إلى أربعة أقسام كبيرة ليقاتلوا جيوش المسلمين الزاحفة ، وكانت حصون الروم قوية ساعدت على إضعاف تقدم المسلمين ، وقد استطاعت جيوش المسلمين أن تحرز نصراً ملحوظاً كالنصر الباهر الذي ناله عمرو بن العاص في المعارك التي قام بها على حدود فلسطين ، وهناك جيوش أخرى لم تستطع أن تحقق نصراً يذكر أمام الآلاف المحتشدة من جند الروم ، وأمام الحصون القوية التي تخطر وإبلا من المفدوفات التي سببت كثيراً من الخسائر للمسلمين .

وهنا حصل تغيير في خطة المسلمين إذ وجدوا أن جيوش الروم كثيرة العدة والعدد ، وأن جيوش المسلمين لن تنال منها ما تريد ما دامت متفرقة إلى فيالق أربعة ، وعرف الخليفة أبو بكر ذلك فأنهى الأمر إلى :

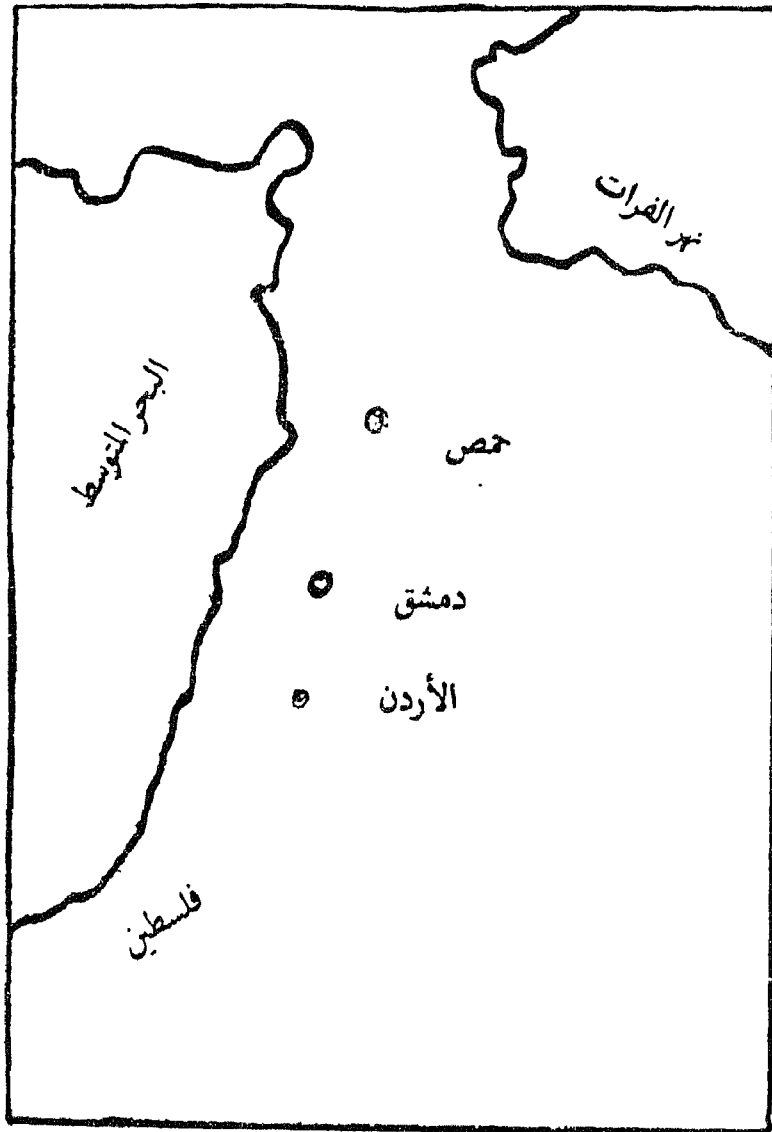
أولاً - تتوحد جيوش المسلمين لمقابلة الروم .

ثانياً - يتجه خالد بن الوليد من العراق للشام ليساعد جيوش المسلمين ويتولى القيادة العامة (١) .

وبدأت الجيوش تقرب وتجتمع ، وبدأ خالد يقوم برحلته التاريخية متخطياً المغاوز والصحارى ، وقد رأى خالد أنه إن اتخذ الطريق العادى من فارس إلى الروم فإن أخباره ستصل إلى الروم ، وربما اعترضته جيوشهم وحالت بينه وبين جيوش المسلمين ، ولذلك كان عليه أن يقتحم الصعاب ، وأن يتخذ طريقاً غير مأهول ، وهو بذلك يبعد عن الآبار ومنابع الماء ، ويعرض نفسه وجيشه لمجازفة لا يقوم بها إلا الأبطال الموهوبون .

واتخذ خالد عدته لهذا العمل ، وحمل معه ما استطاع حمله من الماء ، ثم أتى بجمال فعطشها ، ولما اشتد بها العطش أطلقها على الماء فلأت منه أكراشها ، ثم ربط أفواهاها حتى لا تتجر ، وسار بجيشه الصغير الذي لم يصل إلى الألف ، وكان يعطى الماء لجنوده بقدر ، حتى إذا انتهى ماتحملة الإبل

(١) الواقدي : فتوح الشام - ١ - ص ١٣ .



الخريطة رقم (٥)
اتجاهات الجيوش الإسلامية بالشام

من الماء ، عمد إلى الإبل التي اكتنز الماء بكروشها فذبح واحداً في كل مرحلة وأخذ مافي كروشها من ماء فانتفع به ، ويروى أن الماء قد نفذ ولم يصل الجيش بعد إلى عين ماء . فصاح خالد يرانده واسمه رافع بن عمير ، ولكن الرائد طمأنهم أنهم على وشك أن يصلوا ، ولم تطل عليهم الشقة بعد ذلك حتى نزلوا بمنابع الماء ^(١) ، وفجأة ظهر خالد ببلاد الشام والتقى بجيوش المسلمين واستغرقت رحلته ثمانية عشر يوماً .

وقد دارت بين جيوش المسلمين وجيوش الروم مجموعة كبيرة من المعارك ولكن تسجيل هذه المعارك وتسجيل سير الفتوح هو موضع خلاف كبير بين المؤرخين كما سبق القول عن فتوح فارس ، فقد اختلطت بعض الأسماء وبعض الأحداث وسأحاول أن أختار أهم المعارك وأذكرها سلسلة بقلر فهمي لها .

أجنادين : وقعت موقعة أجنادين ^(٢) سنة ١٣ هـ وكان خالد بن الوليد قائداً لجيوش المسلمين التي بلغت حوالي ثلاثين ألفاً ، وكان تيودور أخو هرقل قائداً لجيوش الروم التي أربت على مائة ألف ، وكان جيش الروم كثير الأسلحة والعتاد ، أما جيش المسلمين فكان قليل الأسلحة اللهم إلا الروح المعنوية القوية والثقة الهائلة في نصر مبین ، ودارت رحى الحرب ، فخر من جيش الروم أكثر من نصفه ، وأسرع الباقون بولون الأدبار ، وكانت هزيمتهم صاعقة على هرقل الذي لم يتوقع مثل هذه الهزيمة الساحقة ، ولذلك ترك حصص وهرب منها إلى أنطاكية ^(٣) .

وهناك بيت من الشعر يجدر بي أن أقتبسه من البلاذري فهو قوى الدلالة على الرعب الذي ملأ نفوس الروم من بطش المسلمين ، وهذا البيت كان يردده بعض جند الروم من العرب وهم يشربون ويتغنون وهو :

(١) الواقدي : فتوح البلدان ١ : ١٤ وانظر كذلك البلاذري ص ١١٨

(٢) انظرها في تهذيب الأسماء للتتوي ج ١ ص ١٧ .

(٣) البلاذري ١٢٠ - ١٢١ .

ألا علائقي قبل جيش أبي بكر لعل منايا نا قريب ولا ندرى^(١)

دمشق : أما المعركة الثانية الحاسمة في بلاد الشام فكانت حول دمشق ، وقد أحاط المسلمون بالمدينة الباسمة وبالغوطة الجميلة ، وتحصن الروم بالمدينة وأغلقوا أبوابها ، ووقف خالد بمنجوده على الباب الشرقي ، ونزل أبو عبيدة على باب الجابية ، وعمرو بن العاص على باب توما ، وشرحبيل على باب المفراويس ويزيد بن أبي سفيان على الباب الصغير ، وقد دارت مناوشات بين المهاجمين والمدافعين ، كما دارت اتصالات بين المسلمين وبعض الأساقفة بالمدينة المحاصرة ودخل المسلمون دمشق من ناحيتين : دخلها أبو عبيدة من الباب الشرقي قسراً ودخلها أبو عبيدة من باب الجابية سلماً على أصح الروايات^(٢) وكان ذلك سنة ١٤ هـ .

والذي نميل له أن أمير المسلمين وقت حصار دمشق كان أبا عبيدة ، أما خالد فكان عمر قد عزله قبل ذلك في أذيال معركة أجنادين ، عقب وفاة أبي بكر وتولية عمر الخلافة ، ومما يذكر بالفخر والإعجاب لسيف الله المسلول خالد بن الوليد أنه تلقى خبر عزله برضاً وقبول مع أنه كان في أوج النصر ، وأنه استمر يحارب في جلد وإخلاص تحت إمرة القائد الجديد ، وقد سبق أن وقف أبو عبيدة نفس الموقف الرائع عندما طلب منه أبو بكر أن يسلم القيادة العامة لخالد ، إنها في الحقيقة نماذج إسلامية رائعة ستظل ذكرها عاطرة على مر السنين .

وقد وضح عمر سبب عزل خالد وعزل المثني بن حارثة بقوله : إني لم أعزلها عن ريبة ، ولكن للناس عظموهما فخشيت أن يفتنوا بهما . ويرى ابن الأثير^(٣) أن غضب عمر سببه أن خالد أبداً إسناد الخلافة لعل ابن أبي طالب عقب وفاة الرسول ، ويرى بعض المؤرخين أن عزل خالد وتولية أبي عبيدة كان براعة سياسة من عمر ، فإن أبا عبيدة كان أكثر

(١) المرجع السابق ١١٨ .

(٢) الواقدي : ص ٤٦ - ٥٠ . والبلاذري ١٢٧ - ١٣٠ .

(٣) الكامل في التاريخ ٣٠٠ - ٣٧٦ .

قدرة على المسالمة والإدارة من خالده الذي كانت مقدرته أبرز في شئون الحرب وميادين القتال^(١)

أثيرموك : وأعد هرقل العدة إلى لقاء فاصل جمع فيه كل قواه ، مصمماً على الانتصار على المسلمين أو البأس عند الهزيمة ، وقد بلغت جموعه مائتي ألف جندي وتبالغ بعض الروايات العربية فتصل بالرقم إلى مليون أو مليون ونصف ، وقاد الجيش جبلة بن الأيهم آخر ملوك الفساسنة والقائد الأرمني ماهان ، وكان جيش المسلمين حوالى أربعة وعشرين ألفاً يقوده أبو عبيدة ، ودارت معركة عنيفة بالقرب من نهر اليرموك ، واستعداداً لهذه المعركة أخلى العرب دمشق وحمص وغيرها ، وتراجعوا لتكوين المعركة على حافة الصحراء ، إذ أن العرب أقدر على المعارك في مثل هذه البقاع^(٢).

وتسلست الروم وأتباعهم لثلاث طمعوهم أنفسهم في الحرب ، وقد درأت الدائرة عليهم وفرّ منهم حوالى سبعين ألفاً ، وتشتت الباقون إلى مختلف النواحي ، وكانت نساء المسلمين يخضن المعركة مع الرجال .

ولما بلغ هرقل هزيمة جنده فرّ من أنطاكية إلى القسطنطينية ، ويروى أنه ودع سوريا وداعاً حزيناً فقال : السلام عليك يا سورية ، سلام مودع لا يرجو اللقاء^(٣) .

تلك هي المواقف الحاسمة التي حدثت في الشام بين المسلمين وبين الروم وخاضتها جيوش المسلمين مجتمعة تحت قيادة واحدة ، ويجدر بنا أن نوضح أن الجيوش الإسلامية كانت تفترق بعد كل انتصار فتتجه اتجاهات مختلفة ، وكان كل منها يحوز انتصارات محلية^(٤) . ثم تجتمع كل الجيوش الإسلامية مرة أخرى لمقاتلة الجيوش الكسرية التي كان هرقل يعدّها لتهاجمه سبقاً .

وبعد موقعة اليرموك انقسم جيش المسلمين قسمين اتجه قسم إلى الشمال

(١) فيليب حتى : تاريخ سوريا ص ١٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١١ .

(٣) الواقدى . فتوح الشام ص ٩٦ وما بعدها والبلاذرى . فتوح البلدان ١٤٠ - ١٤٢ .

(٤) البلاذرى ص ٢٢ .

بقيادة أبي عبيدة ومعه خالد بن الوليد ، واتجه قسم آخر إلى الجنوب بقيادة عمرو بن العاص وشرحيل ، وبقي يزيد بن أبي سفيان في منطقة دمشق - وكان قد أرسل قبل ذلك لها - ليحمي ماحقه المسلمون من انتصارات بها .

وقد استطاع أبو عبيدة وخالد أن يستوليا على حمص وحماة وقنسرين واللاذقية وحلب ، واستطاع عمرو بن العاص وشرحيل أن يستوليا على عكا وحيفا ويافا وغزة وغيرها (١) .

ولم يبق أمام المسلمين إلا بيت المقدس ، وقد دافع عنه الروم دفاعاً شديداً أنزل كثيراً من الخسائر بجنود المسلمين ، ولكن جنود المسلمين صبروا ولعبت السياسة دورها فقد انفصل المسلمون بالمسيحيين بيت المقدس ، وكان المسيحيون يعانون المتاعب من حكم الروم ، كما كان المسلمون يعظمون بيت المقدس ولا يريدون مواصلة الضحايا من الجانبين ، وأحس أرطوبون قائد الروم بهذه المناورات تلورحوله فهرب إلى مصر ، وطلب المسيحيون الصلح على أن يحضر الخليفة بنفسه لتسلم المدينة ويتعهد لسكانها بالحرية الدينية فكتب عمرو إلى عمر بذلك فحضر عمر وكتب بنفسه كتاب الأمان (٢) المسمى « العهد العبرية » .

واتجه عمرو بعد ذلك لمقابلة قسطنطين بن هرقل عند قيسارية ، ولكن عوامل الذعر كانت قد استولت على الأمير الشاب فهرب تاركاً جيشه ، وسافر إلى القسطنطينية في ظلام الليل ، كما هرب أبوه من قبل من أنطاكية إلى القسطنطينية على أثر هزائم الروم في البرموك .

لقد بذل المسلمون آلاف الضحايا في حروبهم ضد الروم في سوريا وفلسطين ، فأصبحت هذه الديار بذلك غالية عليهم . فكلم لهم بها من أرواح أزهقت ودماء أريق .

(١) انظر تفاصيل فتح هذه المدن في الواقدي ج ١ ص ٦٣ ، ٦٥ ، ٨٥٥ ، و ج ٢

ص ٩ ، ١٦ .

(٢) الواقدي : فتح الشام ص ١١١ وما بعدها والبلاذري : فتوح البلدان ص ١١١٠

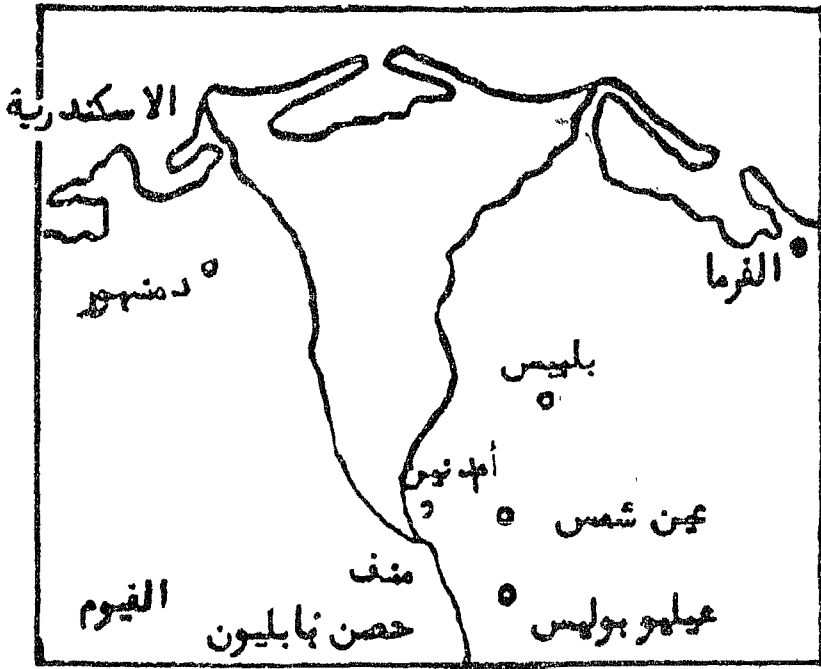
مصر : ليس بين مصر وفلسطين حدود طبيعية ، فإلى أين يقف عمرو ابن العاص في زحفة نحو الجنوب ؟ وفي مصر كما كان في فلسطين وسوريا جيش الروم ، ولن يحس المسلمون بالاستقرار في سوريا وفلسطين وهناك جيش كبير على مقربة منهم يتبع علوم الحائق عليهم . ومن هنا كان الزحف إلى مصر طبيعياً ، وكانت مصر تعاني ماعائته سوريا وفلسطين من تصف الروم وظلمهم وطمعهم ، ثم كانت مصر كالعهد بها دائماً غنية ، درة الشرق ، وأرضها خصبة ، ونيلها الخالد ينساب بالخير وعلى جانبيه تمتد الرياض والمزارع الفيانة ، ولمصر سيرتها الحيدة التي تضرب آلاف السنين في أعماق التاريخ ، والاستيلاء على مصر إنما هو ضمان لاستقرار الإسلام في كل هذه البقاع بآسيا وإفريقية التي آذنت بالتححر من سلطة دولة الروم .

فتفتح مصر إذا كان عملاً طبيعياً ؛ وبدونه ما كانت جيوش المسلمين بفلسطين تنعم بأمن أو استقرار ، ومن هنا لا مجال - فيما أعتقد - لتصديق الروايات التي تثير خلافاً بين الخليفة وبين قائده عمرو بن العاص حول الزحف على مصر (١) ؛ وما كانت هذه المعارك الضخمة تنشب في جومن التردد كالذي تصوره هذه الروايات : وما كان عمرو بن العاص بمستطيع أن يقف من الخليفة العظيم عمر بن الخطاب هذا الموقف الذي تحاول هذه الروايات أن تثبته ، وقد أورد الواقدي ما يقطع هذه الشكوك فقال : أرسل عمر بن الخطاب كتاباً إلى أبي عبيدة يقول فيه « وإذا قرأت كتابي هذا فأمر عمرو ابن العاص أن يتوجه إلى مصر بعسكره ... » (٢) .

وعلى هذا يبدو أن الرأي كان قد استقر بين الخليفة والقائد على فتح مصر ، فسار عمرو محترقاً محمراً سينا حتى وصل إلى العريش فاهتمل عليها دون مقاومة تذكر ، ثم سار حتى وصل الفروما وقد حاصرها بجيشه أكثر من شهر ، ولعب المصريون دوراً هاماً في مساعدة المسلمين ضد الروم حتى سقطت الفروما في يد المسلمين سنة ١٩ هـ (انظر الخريطة رقم ٧) .

(١) انظر بعض هذه الروايات في ابن عبد الحكم ص ٥٣ وما بعدها وفي البلاذري

(٢) الواقدي : فتوح الشام - ١ ص ٢٢ .



وتقدم المسلمون إلى بلبس ، وكان بها جيش كبير يقوده أرطوبون الذي فر من بيت المقدس ، وقد دار قتال كبير حول بلبس استمر مدة شهر قضى فيه المسلمون على قوة الروم وتسلموا المدينة ، ويقال إنه كان بها ابنة المقوقس وهو الحاكم المصرى الذى عينه قيصر الروم ليحكم البلاد باسمه ؛ ولما استولى عمرو على بلبس أكرم ابنة المقوقس وأرسلها معززة مكرومة إلى أبيها ؛ وكانت تلك سياسة رشيدة ساعدت على تقوية العلاقة بين العرب والمصريين .

وسار جيش المسلمين إلى أم دنين (المقس) ، ودار حوله قتال عنيف لم يستطع المسلمون الفوز فيه ، فأرسل عمرو يطلب عوناً من الخليفة فأرسل له الخليفة أربعة آلاف فيهم الزبير وعبادة بن الصامت والمقداد بن الأسود ، وكتب له بقوله « قد أمددتك بأربعة آلاف فيهم رجال الواحد منهم بألف رجل » والتقى جيش المسلمين بجيش الروم وكان تعداده عشرين ألفاً يقوده قائد عظيم اسمه « تيودور » وجرت المعركة عند عين شمس وقد هزم فيها جيش الروم هزيمة منكورة بسبب التقسيم الرائع الذى اقترحه عمرو ؛ إذ قسم جيشه ثلاثة أقسام كبيرة قابل الروم بقسم منها ، وفى أثناء المعركة هجم القسم الثانى من جهة وهجم القسم الثالث من الجهة المقابلة فحوصر جيش الروم واختل نظامه وكثرت الضحايا ، وفر منه من فر إلى حصن بابلون .

حصن بابلون : ودخلت سنة ٢٠ هـ . وكانت أهم معركة يستعد لها الطرفان هى معركة حصن بابلون : وقد حاصره المسلمون حصاراً طويلاً امتد ستة شهور : ثم بدأت المفاوضات للصلح فأرسل المقوقس وقد بدأ يتحدث باسمه إلى عمرو : فاستبقى عمرو الوفد بومين ليتعرفوا على أحوال المسلمين ، ثم طلب منهم أن ينقلوا للمقوقس أن يختار بين :

١ - الإسلام وبذلك يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين .

٢ - الجزية نظير الحماية ونظير الاستمتاع بمرافق الدواة من شرطة وقضاء وغيرها .

٣ - الحرب .

وعاد رسل المقوقس إليه لانهذه الثلاثة فقط ، بل بوصف حبيب الإسلام إلى المصريين . قالوا ؛ رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحد منهم في الدنيا رغبة ولا تهمة ؛ جلوسهم على التراب ، وأميرهم كواحد منهم . ما يعرف كبيرهم من وضعهم ، ولا السيد فيهم من العبد . وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد ، ينسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم .

ورأى المقوقس ضرورة الصلح مع هؤلاء . فمقده على الجزية . فهي أقل كثيراً مما يأخذه الروم من المصريين ، ولم يوافق هرقل على هذا الصلح ولكن المقوقس أمضاه .

الإسكندرية : لم يبق أمام المسلمين بعد حصن بابليون من المواقع المهمة بمصر إلا الإسكندرية وكانت عاصمة الديار المصرية ، وقد مار إليها المسلمون وفتحوا في الطريق إليها ما قبلهم من حصون ، وكانت الإسكندرية منيعة متصلة بالبحر ، وبأتى إليها المدد من القسطنطينية عن طريق البحر ، وبها أكبر حامية للروم بمصر ، وقد كانت هذه الظروف سبباً في طول إقامة المسلمين حول الإسكندرية حتى ضعف الأمل في فتحها ، وقد أحس الخليفة عمر بذلك فكتب لعمر وكتاباً شديداً يلومه فيه ويلوم المسلمين على ترددهم ، ويدكرهم أنهم إن لم يفتحوا الإسكندرية فإن حياتهم معرضة لخطر هجوم قوى من الروم يقضى عليهم بعد أن تضعف روحهم المعنوية ، ولما تسلم عمرو الكتاب قرأه على المسلمين ، فعقدوا العزم على العمل بإصرار وأمل ، وقاموا بحملة قوية على العاصمة أضعفت أمامهم قوى الروم ، وتمكنوا من التسلل إلى داخل الأسوار ، وأعملوا القتل والذعر في نفوس الجنود فهرب هؤلاء إلى سفنهم بالبحر ، وأسروا منهم عدد كبير ، وتقدم المقوقس مرة أخرى فأجرى الصلح مع المسلمين سنة ٢١ هـ على شروط أهمها :

١ - الجزية . ٢ - حرية العبادة .

٣ - أن ترحل حامية الروم وأن يبقى مع المسلمين رهينة منهم حتى لا يهاجروا مصر مرة أخرى^(١) .

وأصبحت مصر تابعة للخلافة الإسلامية .

(١) الراوندى : فتوح الشام ج ٢ ص ٥٤ وما بعدها .

الغالبون والمغلوبون :

هل كان الفتح الإسلامى انتصاراً للعرب وهزيمة للسوريين والمصريين ؟
لعل أدق إجابة هى تلك التى يذكرها الدكتور حنّى فى كتابه « تاريخ العرب » (١) وهى : « كان السوريون والمصريون يعتبرون العرب الفاتحين قوماً من بنى جنسهم يربطهم بهم ما لا يربطهم بأولئك الحكام السابقين الذين كانوا من الأجانب الغاصبين ، فالفتوحات الإسلامية من هذه الوجهة هى عند التحقيق انقلاب اجتماعى سياسى استرد به الشرق الأدنى مجده السابق الغابر ، فقد جاء الإسلام مهيباً بالشرق إلى النهوض من كبوته بعد ألف سنة اجتاحتها فيها سطوة الغريب ، فاستطاع الشرق بالإسلام أن يسترجع ماضيه لا فى ميدان السياسة فحسب بل فى ميدان الثقافة أيضاً حيث تسنى له أن يعيد قيادته الفكرية » .

ويمكن القول إن الفرس والعراقيين والمصريين والسوريين رأوا فى الإسلام متغصناً وسماحة أنقذتهم من الطغيان والإكراه والاستغلال التى عاشوا تحت ضغطها مدة طويلة ، لقد ضمن الإسلام لهم حرية الأديان وأعفاهم من الأعمال العسكرية نظير دفع جزية ضئيلة إلا من شاء أن يدخل صفوف المدافعين عن البلاد فله أن يدخل ويعنى من الجزية مع بقائه على دينه ، وترك المسلمون الأرض للمصريين والسوريين والعراقيين على أن يدفعواخراجها وهو أقل بكثير مما كان يأخذه الأكاسرة والقباصرة الذين كانوا يعتبرون أنفسهم ملاكاً للأرض ولرفيق الأرض ، وأمن المسلمون الأهلين على أموالهم ونسائهم وأولادهم ، « ورأى الأهلون فى المسلمين المساواة التى كانوا لا يحلمون بها ، وقام المسلمون بكثير من الإصلاحات التى تتصل بالقضاء والشرطة والطرق والرعى والهندسة والجسور ، وكان القانون الإسلامى يسرى على المسلمين أما غير المسلمين فقد ترك القمصل فى شئونهم القانون المدنى الذى كان

(١) ج ١ ص ١٩٤ و ١٩٨ .

معمولاً به قبل الفتح ، ووضع أمر تنفيذه في يد رؤسائهم الدينيين ، وهذا هو منشأ استقلال الطوائف الدينية بشئونها المالية ، ذلك النظام الذي ظل سائداً في البلاد الإسلامية إلى وقت انهيار الدولة العثمانية ، والذي لا يزال معمولاً به في الشئون المالية في معظم ممالك الشرق الأوسط التي لم يوحد فيها القضاء بجعله مديناً بحتاً لا دخل فيه للشريعة^(١) .

وفي الوقت نفسه قام الدعاة والفقهاء يتحدثون عن الإسلام وأخلاقه ومبادئه فلا عجب أن أقبل أهل هذه البلاد على الإسلام يعتقونه ويدينون به ، فأخذ الإسلام ينتشر رويداً رويداً ، وأخذت اللغة العربية أيضاً تنتشر ، وبما ساعد على انتشارها نزوح كثيرين من العرب الرحل من البادية وانخراطهم في غمار حياة الاستقرار بالمدن الغنية المفترجة^(٢) حتى كان رجال الكنيسة القبطية في القرن العاشر يضعون كتاباتهم باللغة العربية لكي يفهمها أتباعهم^(٣) .

عمر باني الدولة الإسلامية :

كانت مهمة الرسول العظمى هي تبليغ الرسالة ، وتعليم المسلمين ما فيه خير دينهم وديارهم ، وقد قام الرسول صلوات الله عليه بتبليغ الرسالة خير قيام ، وكذلك علم الناس ما فيه صلاح دينهم وديارهم ، ووضع للمسلمين أسس حياة سامية ، وحل كل المشكلات التي بدت لهم في عهده .

(١) Kirk : A Short History of the Middle East p. 29.

(٢) يرى الدكتور فيليب حتى (تاريخ العرب ١ : ١٥ - ١٤) أن البريزة العربية هي مهد الساميين وأن هذه الهجرة التي أشرنا إليها هي آخر هجرات الجنس السامي إلى الهلال الخصيب ومصر وشمال إفريقيا ، وقبل هذه الهجرة سمعت موجات من الهجرات من الجزيرة العربية حيث اختلط المهاجرون الساميون بالعناصر الأصلية بالبلاد التي هاجروا إليها ، وقد بدأ في هذه الهجرات قبل الميلاد بعدة آلاف من السنين وتكررت كلها ضاقت الجزيرة العربية بسكانها ، وقد كان الفراغة القديما نتيجة الامتزاج بين الساميين والحاميين ، وكان البابليون نتيجة امتزاج الساميين بالسومريين . وكان الفينيقيون نتيجة الامتزاج بين الساميين والسكان الأصليين بساحل الشام هذا ويرجع من جهة أخرى أن هجرات كبيرة جاءت إلى الجزيرة العربية من أواسط أفريقيا عبر باب الخندب .

(٣) تاريخ الطبري ج ٦ ص ٢٧٧ والكامل للمبرد ج ٢ ص ٤٨٨ .

ولكن الإسلام لم يتجاوز جزيرة العرب في حياة الرسول ، وحياة العرب بطبيعتها سهلة بسيطة ، فلما امتد الإسلام إلى الشام ومصر والفرس ، وانصل الإسلام بمحضارات هذه البلاد ، قابل الإسلام ظروفاً جديدة ، وظهرت مشكلات لم يكن للمسلمين بها عهد ، ولم تتضح هذه المشكلات بطبيعة الحال في عهد أبي بكر ، فقد كان عهده قصيراً ومات رضى الله عنه والنصر لم يكتمل في الحروب الدائرة بين المسلمين وبين الفرس والروم ، بل إنه قد مات والحروب مع هؤلاء في مطلعها ، ومن ثم فنبء المشكلات الجديدة وقع على عاتق الخليفة العظيم عمر بن الخطاب .

وكان عمر ملهماً ، فوفق أحمل توفيق في الاستجابة للحياة الجديدة وفي بناء الدولة الإسلامية ، فهو الذي دوّن الدواوين^(١) . وأنشأ بيت المال ، وصك النقود ، وكون جيشاً محترفاً لحماية الحدود ، ونظم المراتب ، وعين الولاة والقضاة ، ورتب البريد ، وأنشأ نظام الحسبة ، وثبتت الهجرة لتكون مبدأ للتاريخ عند المسلمين ، بحيث لا يترك التاريخ بها إلى أى حادث آخر قد يحىي ، وقد شرحنا ذلك عند الحديث عن الهجرة .

ولم يكتف عمر باقتراح ما دعت له الضرورة من نظم ، بل عدل فيما وُضِع من قبل عندما ظهرت ضرورة التعديل ، فهو الذي قرر أن تبقى الأرض المفتوحة في أيدي أصحابها واقترح لذلك نظام الخراج ، وكان المفروض أن يستولى المحاربون على ما فتحوه عنوة ، وهو الذي أعاد النظر في إعطاء المؤلفة قلوبهم ، ووضع شروطاً لمن يستحق هذا العطاء ، وغير ذلك من الأشياء^(٢) .

لقد ملأ محمد الدنيا نورا بدين الإسلام ، وأوشك هذا النور أن يخبو بعد وفاته في خضم الأحداث العاتية ، فحفظته همة أبي بكر ، ثم جاء عمر فزين البناء الشامخ وأمدّه بأروع النظم وأحسنها ، ولا زال العالم الإسلامى يعيش حتى اليوم وأعظم النور الذى يستمتع به مصدره الرسول الكريم وصاحبه العظيمان .

(١) Kirk : A Short History of the Middle East p .37

ومن انتشار الدين الإسلامى واللغة العربية بين السكان الأصليين بسوريا ومصر أعطينا تفاصيل وافية في الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

(٢) انظر « الاقتصاد في التفكير الإسلامى » المؤلف .

كلمة عن البريد :

ذكرنا آنفاً أن من أبرز أعمال عمر أنه مرتب البريد ، ونريد أن نعطي هنا مزيداً من التفصيل عن هذا الموضوع .

والبريد اسم لمسافة محددة هي اثنا عشر ميلاً ، ثم أطلق اللفظ على من يحمل الرسائل ويسير بها هذه المسافة ليسلمها إلى آخر يسير بها مسافة أخرى مماثلة وهكذا ، ثم أطلق اللفظ أخيراً على الرسائل نفسها ، وقد عرف البريد عند المسلمين منذ اتساع الدولة الإسلامية في مطلع عهد الخلفاء الراشدين ، واشتهر أمر البريد في خلافة عمر بن الخطاب ، بسبب اتساع الدولة وضرورة الصلة بين الخليفة وبين قواده وعماله عن طريق البريد ، ولم يكن البريد في عهد عمر خاصاً بأعمال الحكومة ، بل إن عمر كان يأمر منادياً ينادى في الناس بأن بريد المسلمين يريد أن يخرج إلى ناحية كذا فمن كانت له حاجة فليكتب . وكان عمر نفسه يتولى الكتابة أحياناً لمن لا يعرفون الكتابة ويريدون أن يكتبوا لذوهم المجاهدين^(١) .

وعلى هذا كان بريد المسلمين يشمل رسائل من الخليفة إلى عماله وإلى رؤساء جند المسلمين ، كما كان يحمل الرسائل من الناس إلى ذويهم بالميدان . وفي عهد معاوية رُتب البريد ترتيباً أدق ، وأصبحت له مناهج وطرق ومواعيد منتظمة ، ومحطات محددة ، وفي عهد الدولة العباسية بلغت محطات البريد نحو ألف محطة تربط العاصمة بمختلف النواحي ، وعين لكل محطة رئيس للملاحظة مبر السعاة والخيالة وحالة المحطات وكان جميع هؤلاء الرؤساء يقدمون تقاريرهم عن كل ما يحدث في الخطوط إلى إدارة البريد العامة بالعاصمة التي كانت تعرض الأمر على الخليفة دون تأخير . وأصبح البريد يخدم أغراض الخلافة برجه خاص ، وكان الخليفة يعين عامل البريد من أقرب المتصلين به ، كما كان عامل البريد يدخل على الخليفة دون حجاب . وقد استعمل العرب في أول الأمر الإبل لنقل البريد ، ثم استبدلوا بها البغال ثم الخيل لسرعتها ، وكانت الخيول تقف في كل محطة مستعدة لتلقى

(١) انظر كتاب الاعتماد في التفكير الإسلامي ، للمؤلف .

الرسائل من المحطة السابقة ، وتوصيلها للمحطة التالية وهكذا . وكانت شبكة البريد تغطي المملكة الإسلامية كلها ، وتوثق الصلات بين أجزائها .

عين عمر :

بحسب كثير من الغربيين بالدهشة إذ استطاع عمر أن يسيطر على العالم الإسلامي مع اتساعه في عهد المواصلات البدائية ، والإجابة سهلة ، فقد كان عمر يهتم اهتماماً كبيراً باختيار ولاته ، وبراقبهم بوسائل مختلفة بعد الاختيار ، حتى يتمكن القول بأن عيّن عمر كانت في كل مكان .

مقاتل عمر وعثمان وعلى :

إن بين مقتل عمر وعثمان وعلى رباطاً قريباً : ومن هنا غابى أوثر أن أتكلم عن مقاتلتهم في مكان واحد .

وسأتكلم هنا بالفكر الجديد الذي أملته على دراساتي في كتابي الأخير : « حركات فارسية لضرب الإسلام والمسلمين عَنِ العصور » فالدراسات التي وضعتها هذا الكتاب - معتمدة على أدق المصادر - تؤكد أن حركات نبئت في بلاد فارس فور انتصار المسلمين على الفرس في المعارك العسكرية ، فلقد كان سقوط فارس بسرعة عملاً مذهلاً ، أبرز انهيار هذه الدولة التي كانت قد استنفدت قوتها بسبب فساد مجتمعتها الذي عشت فيه المانوية والمزدكية والطبقية التي وصلت إلى اعتبار الملوك آلهة لهم حقوق إلهية مقدسة .

وفي هذا الجو كان اليهود الذين استوطنوا فارس منذ أن أطلقهم « قورش » من سجن بابل ، ينشرون الفوضى الأخلاقية ، ويعملون على أن يكسبوا الأموال بأي طريق .

وانتصر المسلمون انتصاراً سريعاً على جيوش الفرس الجرارة ، واستولوا على الأماكن الشاسعة التي كان الفرس قد مدّوا سلطانهم لها ، ووقف الفرس حيارى لا يستطيعون مقابلة القوة بالقوة ، فلبثوا إلى المؤامرات والثورات ، وكان عدوهم الأول هو عمر بن الخطاب الذي أعدّ الجيوش لاقتحام فارس وأعدّ الخطط التي تكفل النصر .

هل يقيمون بثورة في عهد عمر كالثورات التي قاموا بها في عهد عثمان وعلى ، وكالثورات العسكرية والفكرية التي قامت بها جماعات منهم فيما بعد كالقرامطة والزنادقة والباطنية وغيرهم ؟

الإجابة يوضحها لنا خالد بن الوليد ، فعندما عزل عمرُ خالداً من قيادة الجيش غضب خالد وقال لمن حوله : إن أمير المؤمنين استعملني على الشام ، فلما استقر الأمر وأصبحت الحال حنطة وعسلا عزلني وولى غيره . فنهض رجل من السامعين وصاح : مهلاً يا خالد فإن كلماتك تنير الفتنة . فقال خالد : لافتنه وعمر بن الخطاب حي .

نعم لم يكن من الممكن أن تقوم فتنة أو ثورة في عهد عمر ، فقد كان معروفاً بالعزم والحسم ، وأنه يضرب بقوة كل من يحاول أن يحدث أية فتنة أو يوحى بأية ثورة في عهده .

وعلى هذا كان الطريق لقتل عمر هو أن تدبّر مؤامرة سرّية في الظلام ، يقوم بها مجموعة من الفرس الخائفين ، وفي مقدمتهم أبو لؤلؤة الذي كان من أشد الفرس تعصباً لقومه ، وكان كلما مرّ به صبي فارسي مسح رأسه بيديه وقال : أكل كبدي عمر ، واشترك أبو لؤلؤة والهرمزان وهو سيد من سادة الفرس فقد سلطانه ، وجفينة وهو فارسي حائق ، في التدبير لهذه الجريمة وإعداد السلاح لها كما سنرى بعد قليل ، ونفذها أبو لؤلؤة .

والعجيب أن الخديعة وصفت أبا لؤلؤة بأنه « المجوسي » ولم تصفه بأنه « الفارسي » وكان يقصد بذلك إلقاء الظلام والضباب على هذا الحادث حتى لا تنتشر حقيقة الدور الفارسي في هذه الجريمة .

وهكذا قتل عمر بهذه المؤامرة السرية :

وجاء دور عثمان وعلى ، والخليفةان بعيدان كل البعد عن نهج عمر ، فعثمان يكره الدم ويميل للين والدعة حتى في الظروف التي تستوجب الحسم والقوة ، وقد أشار المغيرة بن شعبة عليه أن يقتل المتتمردين ، فقال : لا والله لا أكون أول من يخلف الرسول في أمته بسفك الدماء ، وما أحب أن ألقى الله وفي عنتي قطرة دم لأحد .

وعرض عليه معاوية أن يحرسه بجيش من أهل الشام فقال : لا ، إنهم سيشاركون أهل المدينة طعامهم ، وسيزحمون المدينة على المهاجرين والأنصار .

وعلى رضى الله عنه من هذا النوع ، فقد ظهر له أن الأشعث بن قيس منافق وأنه معا في الظاهر . ولكنه على صلة بأعدائه ، ومع هذا رفض أن يقتله ، وكان يقول لولائه : إياكم وسفك الدماء فإن أول ما يُسأل عنه المرء عند ربه ما سفك من دماء ،

وهكذا سمحت أخلاق عثمان وعلى للمتمردين بإعلان ثورتهم غير خائفين على أنفسهم ، وخدعوا بعض المسلمين فجذبوهم لصفوفهم كأبي ذر الغفاري الذي كان يكره المال ويدب الأغنياء .

وهكذا قامت الثورات الفارسية متخذة هذا الطريق أو ذاك متعللة بسبب أو بآخر ، فاشتدت الثورات وهي آمنة في عهد عثمان حتى راح ضحية لها ، واستمرت في عهد على حتى قضت عليه يدُ نسبا المؤرخون للخوارج ولكنها في الحق مدفوعة بدافع فارسي كان يرى للفتك بزعماء العصر : على ومعاوية وعمرو بن العاص ولكن الله سلّم الأخيرين .

ذلك هو المعنى الذي أريد أن أوضحه ، مؤامرة فارسية تؤيدها الأصابع اليهودية قتلت عمر ، ثم ثورات خطط لها الفرس واليهود وقادوها ووجهوها وخدعوا بعض الأبرياء فجذبوهم لها ، فقتلت عثمان وعلياً وآلافاً غيرهما في عهد على ، ثم انطلقت المؤامرات الفارسية على نطاق واسع باسم الشعوبية والباطنية والزنادقة والخرمية والقرامطة والدرزية والبايعة والبهائية فقتلت الملايين من المسلمين ولا تزال تقتل وتضرب ، حتى اليوم بصيحة الحميني .

تلك هي الأسباب الحقيقية لمقاتل الحلفاء الثلاثة ، أما الدراسات التقليدية فلإليك حديثها عن عمر ، وسيجيء فيها بعد حديثها عن عثمان وعلى رحمهم الله واقتصر من أبحاثهم .

مقتل عمر :

قتل عمر بن الخطاب في مؤامرة دبرها بعض أعداء الإسلام من الفرس واليهود ونفذها أبو لؤلؤة ، وهو مولى فارسي أسير في نهاوند وأصبح ملكاً للمغيرة بن شعبة ، ومن الواضح أن عمر أزال ملك الفرس وقضى على سلطانهم ، ولهذا كانت الطبقة العليا من الفرس هي وأتباعها تحقد على عمر وتتمنى الخلاص منه ، وقد تسلل القاتل إلى المسجد وعمر يبدأ في صلاة الفجر ولم ينتشر الضوء بعد ، فطعن الخليفة بخنجر عدة طعنات إحداها تحت سرتة فخرقت أمعاءه ، وصاح عمر ، فأقبل المسلمون يقبضون على القاتل ، فأنهال عليهم طعنات حتى قتل وجرح عددا منهم ، ثم استطاعوا القبض عليه فطعن نفسه وانتحر .

ومات الخليفة العظيم بعد ذلك ببضعة أيام تاركا أعظم الذكريات ، ومخلِّفا سيرة من أعظم السير الي يرويها التاريخ .

وكاد سر الجريمة ينطوى بموت القاتل ، ولكن شعاعا من الضوء ظهر فأوضح المؤامرة ، فقد ذكر عبد الرحمن بن أبي بكر أنه رأى في اليوم السابق لاطعن عمر ثلاثة يتهامسون هم الهرمزان وهو سيد من سادة الفرس ، فقد سلطانه ومكانته وأصبح يعيش بين عامة الناس بعد أن فقد الأمل في استرجاع نفوذه ، وجفينة وكان نصرانيا من أهل الحيرة يعلم الكتابة بالمدينة وأبو لؤلؤة . ويقول عبد الرحمن إن المتآمرين فوجئوا به فار تبكوا وسقط منهم خنجر له رأسان ، ولما رأى عبد الرحمن الخنجر الذي طعن به عمر قرر أنه نفس الخنجر الذي رآه أمس . وكان ذلك صبيبا في أن عبيد الله بن عمر حمل سيفه بعد موت أبيه وقتل الهرمزان وجفينة وابنة صغيرة لأبي لؤلؤة^(١) . وسياتي فيما بعد شرح موقف المسلمين من عبيد الله الذي حملته الحماسة أو قل الرعونة للقتل بالناس ، فالقصاص - على فرض ثبوت الجريمة - يتم بحكم للقضاء وبأمر الخليفة .

(١) تاريخ الطبري ٣ : ٣ : ٣ .

عثمان بن عفان

٢٣ - ٣٥ هـ (٦٤٤ - ٦٥٧)

تعريف به :

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية ، ولد بعد ميلاد الرسول بخمس سنين ، ودخل الإسلام على يد أبي بكر الصديق ، وكان من كبار الأنبياء قبل الإسلام وبعده ، وكان سخياً جداً بذل المال لخدمة الإسلام ، ففى جيش العسرة أمد المسلمين بمئات من الإبل بأقتابها وعدتها ، وعدد من الخيول ، وألف دينار كما سبق القول ، وفى مناسبات أخرى كثيرة كان يعطى ماله بدون حساب لخدمة الإسلام ومساعدة المسلمين .

وعثمان من المبشرين بالجنة ، وقد أثر عن الرسول قوله : لكل نبي رفيق ورفيقي فى الجنة عثمان . ولقوة صلته بالرسول زوجه الرسول من ابنته رقية فلما ماتت فى أثناء غزوة بدر زوجه الرسول بابنته الثانية أم كلثوم وقد بقيت معه حتى ماتت فى السنة التاسعة للهجرة ، ولذلك يسمى « ذا النورين » وقد أثر عن الرسول أنه قال له بعد موت أم كلثوم : لو أن لنا ثلاثة لزوجناك .

وقد مر بنا أن عثمان كان سفير الرسول لقريش وقت الحديبية ، وهذا يدل على علو مكانته . وكانت سفارته ناجحة .

توليته الخلافة :

عندما طعن عمر لم يكن فى نيته أن يولى خلفاً له ؛ فالظروف التى دعت أبا بكر أن يعين خلفاً له قد زالت إذ انتصرت جيوش المسلمين واستقرت الأحوال ، ولكن المسلمين خافوا الفرقة بعد موت الخليفة فعرضوا على عمر أن يعين خلفه ، وقد أثر عنه قوله ، إن استخلفت فقد استخلف من هو خير مني (يقصد أبا بكر) ، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني (يقصد الرسول صلوات الله عليه) . ويبدو لنا من دراسة هذه الفترة أن عمر كان متردداً ؛ فهو لا يريد أن يتحمل مسئوليات الناس بعد موته ،

ولا يريد في الوقت نفسه للمسلمين الفرقة بعده ، ولذلك نجده يقترح طريقاً وسطاً بين التعيين وعدم التعيين ، فيعين الستة المبشرين بالجنة ، وهم خيرة المسلمين ولن يكون الخليفة بطبيعة الحال إلا منهم ، ويطلب من هؤلاء الستة أن يختاروا من بينهم الخليفة بعد استشارة المسلمين . وهؤلاء الستة هم :

عثمان - علي بن أبي طالب - طلحة بن عبيد الله - الزبير بن العوام - سعد بن أبي وقاص - عبد الرحمن بن عوف .

وضم عمر إليهم ابنه عبد الله ليكون له رأى في الاختيار على ألا يختار للخلافة ، وحدد عمر ثلاثة أيام تنتهى المشاورة خلالها .

ومات عمر واجتمع هؤلاء للمشاورة ، فاقترح عبد الرحمن بن عوف أن يخرج أحدهم نفسه ويتولى الذى يخرج مشاورة الناس واختيار الخليفة من بين الخمسة الآخرين ، فقبلوا ذلك المبدأ ، ثم عرض عليهم استعدادهم ليكون هو ذلك الشخص فقبلوا ، وعاهدوه على ذلك ، وعاهدتهم على الحق والعدل . واستشار عبد الرحمن الخاصة والعامة واستشار المرشحين ، فوجد أن الإجماع يكاد يكون منعقداً على عثمان أو على ، فانحصرت الخلافة فيهما ، فاختر عثمان لكبر سنه وسهولة طبعه^(١) .

وأول قضية بحثها عثمان هى قضية عبيد الله بن عمر الذى قتل الهرمزان وجفينة وابنة صغيرة لأبي لؤلؤة كما سبق ، وقد اختلف رأى المسلمين في هذه القضية ، فقال بعضهم بوجوب قتل عبيد الله ، ورأى آخرون أن من الصعب قتل عمر أمس وقتل ابنه اليوم ، وتخلص عثمان من هذه المشكلة بأن حكم بالدية لأهل القتل وتحمل الدية فى ماله . وقيل إن عثمان حكم بالقصاص ولكن أهل القتل عفاوا عن عبيد الله واكتفوا بالدية^(٢) .

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٣٠٣ وقرأ التفاصيل الدقيقة فى كتاب السياسة فى التفكير الإسلامى • للمؤلف .

(٢) انظر تفاصيل هذه القصة فى تهذيب الأسماء للنووى القسم الأول ج ١ ص ٣١٥-٣١٦ .

سياسة عثمان :

إن الدارس لتاريخ عثمان رضى الله عنه يرى أن سياسته في الحكم كانت تنسجه للبين والعظة ولا تنسجه للحسم والعزم والتخويف ، وهو بهذا كان يختلف عن أبي بكر وعمر ، ويمكن أن نلاحظ علامات السياسة التي اتبعتها عثمان من خطابه الذي بدأ به خلافته ، قال رضى الله عنه للناس :

« إنكم في دار الزوال ، لا في دار البقاء ، وفي بقية أعماركم (أى تقدمت بكم الأعمار) فبادروا بخير ما تقدرون عليه ، وإن الدنيا طويت على الغرور فلا تغرركم هذه الحياة ، واعتبروا بمن مضى . أين الذين عمرّوا الأرض ونالوا منها ؟ ألم يأتوا إلى نهاية ؟ لا تغفلوا عن الواجب فإنه لا يغفل عنكم ارمئوا الدنيا واطلبوا الآخرة . »

التوسعة واليسر على الناس :

وكما اتّجه عثمان في سياسته إلى الرفق واللين اتجه كذلك للتوسعة على المسلمين ، فقد زاد في الأعطيات ، وأطلق للمسلمين حرية التمتع بالنعم الحلال ليذكروا الله على ما رزقهم من نعم ، وأباح للصحابة أن ينتشروا في البلاد رجاء أن يدعوا إلى الله ، وأن يستفيدوا من الاتصالات بالحضارات الأخرى ، وكان عمر رضى الله عنه قد منع الصحابة من مغادرة المدينة .

نسخه عدة صور من القرآن :

يروى أن حذيفة بن اليمان عاد إلى المدينة في عهد عثمان بعد أن كان يشترك في الفتوحات الإسلامية بعدة بلاد ، وقد فزّع حذيفة عند ما رأى اختلافات الناس هنا وهناك في قراءة القرآن الكريم ، فجاء إلى عثمان وقال له : يا أمير المؤمنين ، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في كتاب الله كما اختلف اليهود والنصارى .

فأرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر بطلب أن ترسل إليه المصحف الذي

كان قد جُمِعَ في عهد أبي بكر ، لكتابة عدة نسخ منه للأقطار المختلفة ، على أن يعيد الأصل إلى حفصة بعد ذلك .

وتسلم عثمان المصحف من حفصة ، وجمع مجموعة من القراء هم زيد ابن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام ، وطلب منهم أن يكتبوا عدة نسخ من هذا المصحف ولما تم ذلك أرسل عثمان نسخة إلى كل من البصرة والكوفة والشام ومكة ، وخصص نسخة لأهل المدينة ، كما حصل هو نفسه على نسخة .

وعثمان بذلك قد خدم الذكر الحكيم أجل خدمة ، وجمع الناس على قراءة واحدة هي ما ورد في هذا المصحف الشريف ، وأمرهم بحرق ما سواه من صحف أو كتابات .

لمحة من صفات عثمان

ان الدارس لحياة عثمان قبل الإسلام وبعده ، وقبل أن يتولى الخلافة وبعد أن تولاه يجد صورة زاهية لمسلم اجتمعت فيه أسمى الصفات وأرقى السجايا ، وسنورد فيما يلي خلاصة بصفات عثمان رضى الله عنه .

قمة في الطُّهر والتعفف :

وأول ما نذكره أن عثمان لم يشرب خمرأ في الجاهلية ، وكان يقول قبل الإسلام : إنها تذهب العقل ، والعقل أسمى ما منحه الله للإنسان ، وعلى الإنسان أن يسمو به ، لا أن يصارعه ، وفي الجاهلية كذلك لم تجذبه أغاني الشباب ولا حلقات اللهو ، ثم إن عثمان كان يتعفف عن أن يرى عورة .

حب الناس له :

ومن أطرف ما يروى عن حب الناس لعثمان لما تجمَّع فيه من صفات الخير أن المرأة العربية في عصره كانت تغنى لطفلها أغنية تحمِّل تقدير الناس له وثناءهم عليه ، ومن الكلمات الماثورة لهذه الأغاني ما يلي :

أحبُّك والرحمنُ
حبُّ قريش لعثمانُ

الحركات العسكرية في عهد عثمان :

١ - تتلخص الحركات العسكرية في عهد عثمان في ناحيتين .

القضاء على التمرد والثورات التي قامت في بعض النواحي التي دخلها الإسلام في عهد عمر .

٢ - استمرار التوسع الإسلامي في الميادين المختلفة التي انتهى عندها التوسع الإسلامي في عهد عمر .

وسنكلم فيما يلي كلمة موجزة عن كل من هاتين الناحيتين :

١ - القضاء على التمرد والثورات : بعد موت عمر بن الخطاب تمردت بعض الولايات على الحكم الإسلامي وقام بهذا التمرد عناصر توالى عهد ما قبل الفتح ، أو قامت بها قوى الاحتلال التي كان لها السلطان قبل الزحف الإسلامي ، وبرزت أهم الانتفاضات في خراسان والإسكندرية ، وقد قام بثورة خراسان أنصار الحكم السابق ، وأما الإسكندرية فقد هاجمها الروم بجيش كثيف يقوده بطل أرمني كبير اسمه مانويل ، وقد استطاع عثمان أن يقضى على الثورتين قضاء حاسماً ، إذ أرسل لكل جيشا كبير العدد والعدة ، فأعاد البلاد إلى الطاعة ، وقضى على الثائرين أو المهاجين :

٢ - التوسع الإسلامي : شمل التوسع الإسلامي تقريباً كل الميادين التي كانت الجيوش الإسلامية قد وصلت إليها في عهد عمر ، فزاد التوسع من الناحية البحرية ، إذ أصبح للمسلمين بحرية في عهد عثمان ، وعلى ذلك فقد انضم إلى الدولة الإسلامية برقة وطرابلس غرب مصر^(١) ، وانضم لها جزء من بلاد النوبة^(٢) في الجنوب ، ونضمت لها بلاد أرمينية^(٣) وأجزاء من طبرستان وهي المنطقة الجبلية جنوبي قزوین^(٤) ، وتخطت جيوش المسلمين نهر جيحون ودخلت بلاد ما وراء النهر في الدولة الإسلامية ، فاستولى المسلمون على بلخ وهراة وكابول وغزنة من بلاد الأتراك^(٥) .

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢١٥ - ٢٢٨ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٣) انظر فتوح أرمينية في البلاذري ص ١٩٧ وما بعدها .

(٤) المرجع السابق ص ٢٣٠ . (٥) المرجع السابق ص ٢٩٨ .

وعن طريق البحرية الإسلامية دخلت قبرص إطار الدولة الإسلامية ،
وقد قام بغزوها معاوية بن أبي سفيان سنة ٢٨ هـ^(١) ، ومن أهم المواقع
البحرية موقعة ذات السوارى أو ذات الصوارى ، وقد حدثت سنة ٣١ هـ
في البحر الأبيض المتوسط بالقرب من الإسكندرية بين جيش الروم يقوده
قسطنطين وبين عبد الله بن أبي مرجم إلى مصر ، وسببت « ذات السوارى »
نسبة إلى سوارى البواخر التي اشتركت فيها ، ويقال إنه اشترك فيها ألف
سفينة منها مائتان للمسلمين والباقي للروم ، وقد كسب المسلمون النصر في هذه
الموقعة^(٢) (انظر الخريطة رقم ٨) .

نهاية عثمان ودراسة الفتنة التي أدت إلى قتله :

إن دراسة الفتنة التي أدت إلى قتل عثمان عمل واسع ، خصه كثير من
الباحثين بدراسات مستقلة ، وسنحاول هنا إيجاز الموضوع في غير إهمال :

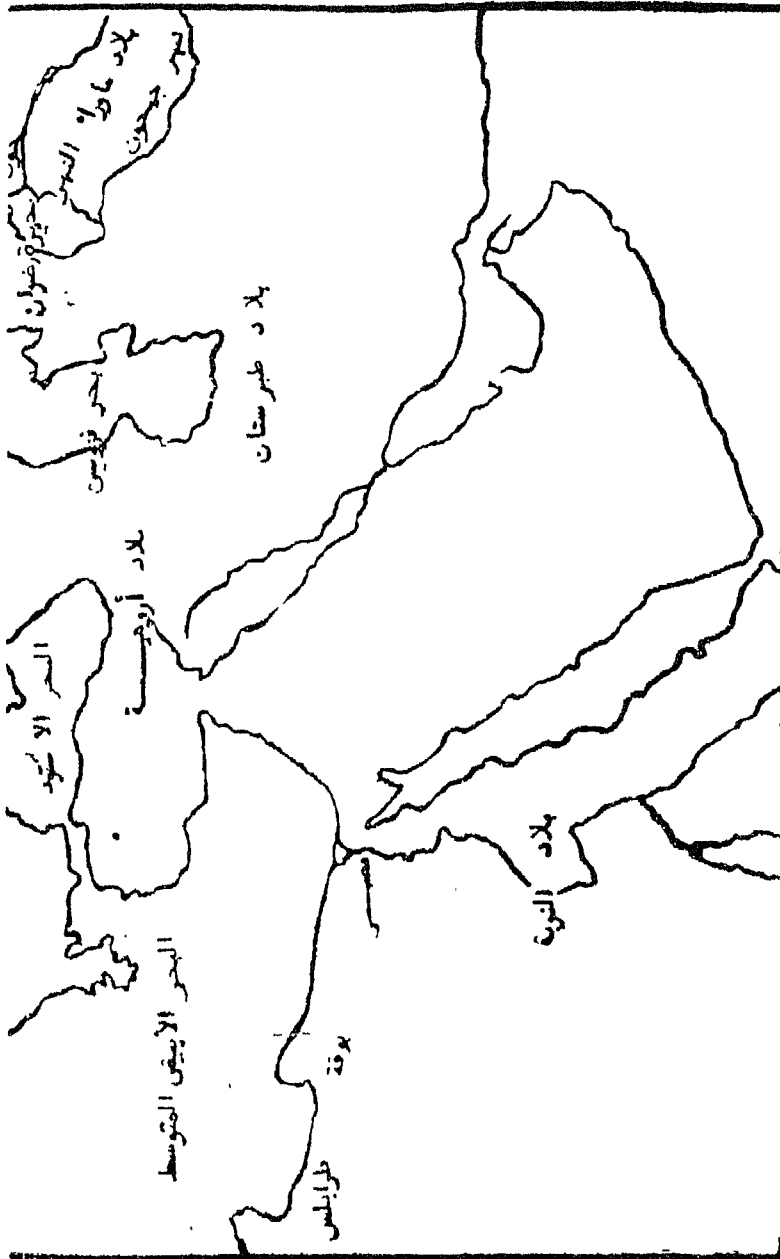
من الواضح أن بنى أمية كانوا في مطلع الإسلام أعداء هذا الدين ، وهم الذين
قادوا الجيوش عدة مرات للقضاء عليه ، ثم استسلم بنو أمية ودخلوا الإسلام
عند فتح مكة ، ولما مات الرسول صلى الله عليه وسلم لم يطمع بنو أمية في
الخلافة لقرب عهدهم بالإسلام ولموقفهم العدائي منه مدة طويلة ، ولكن
الأحداث التي مر بها الإسلام خلال خلافة أبي بكر وعمر أتاحت الفرصة
لبنى أمية ليعرضوا ما فاتهم ، فلهمت أسماء قادة مغاوير منهم في حروب الردة
والمتنبئين ، وفي الحروب ضد الفرس والروم ، ومن هؤلاء يزيد بن أبي سفيان
ومعاوية ، وهند أم معاوية التي كانت تخاصم مع الرجال موقعة اليرموك^(٣)
وبهذا استعاد بنو أمية مكانتهم ، وبالتالي طمعوا في الحصول على الخلافة .

وعندما مات عمر كانت هناك أسرتان كبيرتان تطمعان في هذه الخلافة ،
هما أسرة بنى هاشم وأسرة بنى أمية . وكان بنو هاشم أقدم طمعاً في الخلافة
من بنى أمية . فقد كان على يراها حقاً له عقب وفاة الرسول ، ولكن المسلمين

(١) المرجع السابق ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(٢) النوى : تهذيب الاسماء : القسم الأول ج ١ ص ٣٧٠ .

(٣) البلاذرى : فوج البلدان ص ٩٤١ .



اتفاق الدولة الإسلامية في عهد عثمان
(مراجعة رقم ٤)

لم يستجيبوا له حينذاك إذ رأت أغليبتهم أن الخلافة لو أسندت إلى هاشمي لأصبح من المتعذر إخراجها من بني هاشم .

وانتهت المشورة بعد موت عمر كما قدمنا إلى واحد من اثنين : عثمان وعلى ، أو بعارة أخرى إلى بني أمية أو بني هاشم ، وهنا أوشكت أن ترجع كفة بني هاشم لكن عاملين كبيرين ظهرا فرجحا كفة بني أمية ، وهذان العاملان هما :

أولاً - أن الأمل في إمكان إخراج الخلافة من بني أمية كان أقوى من الأمل في إخراجها من بني هاشم .

ثانياً - شدة عمر وصرامته جعلت الناس يرغبون عن علي حتى لا تمتد الشدة والصرامة ، ومالوا إلى عثمان حيث الدعة واليسر والتسامح .

وأسند الأمر إلى عثمان ، وإذا سرنا مع عثمان في خلافته فإننا نقرر أن عثمان تولى في ظروف يمكن تلخيصها في أن الناس كانوا فريقين ، أحدهما لا يرضى عن عثمان ولا يركيه ، والفريق الثاني يؤيده لاتقديراً له بل طمعاً فيه ، ومن هنا يبدو الوضع الحرج الذي وضع فيه عثمان من أول الأمر .

ثم لأن عثمان كان قد أتم السبعين من عمره عندما تولى الخلافة ، وتلك سن تؤذن بالزوال .

وجاء عثمان بعد عمر أو قل جاء اليسر بعد الصرامة ، والتردد بعد العزيمة القوية ، فانفلت المكبوت ، وانطلق السجين ، وأقدم الخائف .

وكان من اجتهد عمر أنه منع كبار الصحابة من مغادرة المدينة إلا بإذن ولاجل محدود ، فلما تولى عثمان لم ير ما رآه عمر أو ضعف عن أن ينفذه ، فعزجوا ، وكان خروجهم مطلع تشتت أدركه عمر ببصيرته النافذة ، فإن كل واحد من كبار الصحابة سافر إلى جهة واتخذ له مستقراً فيها ، وراح يتحدث عن مواقفه مع الرسول ، وكفاحه من أجل الإسلام ، والتف حوله معجبون كثيرون ، كما التف حوله أيضاً الطامعون ، وتفرقت الأمة ، وأصبح كل واحد من هؤلاء يمثل ملكاً له مظاهر العظمة وكثير من الأتباع .

وبدأ الغنى يظهر في العالم الإسلامي في أخريات عهد عمر ، والغنى وسيلة للبذخ والشيطان ، إن لم تكن هناك رقابة شديدة وتوجيه رشيد ، وبموت عمر ضعفت الرقابة وقل التوجيه ، فظهرت الآثام وانتشرت الشرور بين بعض الناس .

وبدأ الخليفة نفسه يعمل أشياء لم يعملها سابقوه . أشياء رآها بعض المسلمين أخطاء ورآها عثمان صواباً أو ضرورة . وكانت هذه الأعمال هي الشرارة التي انطلقت منها الفتنة العارمة . وأحب قبل أن أذكر هذه الأعمال أن أعيد أن عثمان لم يقم بها ارتجالاً أو استهانة . وإنما قام بها عن فلسفة وفكر واجتهاد هداه إلى أن من حقه أن يقوم بما قام به ، وهذا - فيما نرى - لا يلحق به ذنباً إن رأى بعض الناس أن طبيعة ما قام به عثمان مما يستدعي الذنوب .

وفلسفة عثمان هذه يمكن أن نجعلها ذات ثقتين . فشق منها يتصل بسياسته في ناحية الحكم ، وشق يتصل بسياسته في الناحية الاقتصادية .

أما فلسفة عثمان فيما يتعلق بالحكم فيمكن تلخيصها في أن سن عثمان كانت متقدمة عندما تولى الخلافة كما سبق القول . وهو لذلك كان أكثر من أبي بكر وعمر حاجة لمن يساعده في حل أعناء الحكم ، ثم إن عثمان من أسرة كبيرة كما قلنا آنفاً . ولكثيرين من أفراد أسرته مكانة مرموقة في الحياة العربية والإسلامية ، وكان منهم قادة وأمراء من قبل عهد عثمان .

وبمرور الزمن وظهور الشيفوخة في عثمان زادت حاجته إلى من يركب إليه . ورأى عثمان أن يعتمد في الماصعة وخارجها على أقاربه ، فهم موضع ثقته . وهم أحرص على إعانته والإخلاص له . ثم إن كفاءتهم لا ينكرها أحد ، ومكانة بني أمية بين العرب ليست موضع شك ، ولذلك ولاهم عثمان واستكثر منهم ، فالكوفة كانت للمغيرة بن شعبة فنقل ولايتها إلى سعيد بن العاص ، وكانت حصص إلى عمير بن سعد فضمها إلى معاوية وإلى دمشق . ومصر كانت لعمرو بن العاص فنقلت إلى عبد الله بن أبي سرح أخى عثمان من الرضاعة . وهكذا .

على أن هؤلاء الولاة الجدد في الحقيقة غير مطعون في كفاءتهم كما دافع بذلك عثمان عن نفسه ، ولكنني أحس على كل حال أن هؤلاء الولاة لم يعودوا يخافون الخليفة كما كان ولاه عمر يخافونه ، وبخاصة إذا كان الولا من بني أمية وفي دار الخلافة مروان بن الحكم وهو من بني أمية أيضا . وكان عثمان قد اتخذ مشيره ومدبره وأعطاه خاتمه .

تلك هي فلسفة عثمان في ناجية الحكم ، ميل لتولية أقاربه لثقتهم فيهم ، ولأمنه جانبهم ، واطمئنانه إلى مساعدتهم .

أما فلسفة عثمان فيما يتعلق بالاقتصاد فيمكن تلخيصها في أن عثمان كان من قلة غنياً جداً وسميحاً جداً ، كان يعيش في رخاء ، وكان مبسوط اليد ، لا يعرف البخل طريقه إليه ، وكان يملك ما يوسع به على نفسه وما يعطيه للآخرين ، ثم أفنى ماله كله في الإنفاق والعطاء وفي سبيل الله ، ولكنه وجد أمامه بيت المال فأخذ منه لنفسه وأعطى منه أقاربه وسائليه ، وأسرف أحياناً - كما تروى بعض الروايات - في الإنفاق وفي العطاء ، ونسى أنه في هذه المرة ينفق ويعطي مما لا يملك .

وحجة عثمان في ذلك أنه كان قبل الإسلام ذا مال كثير وتجارة واسعة ، ولو أنه استمر يرعى ماله وتجارته لدام ثراؤه فاكتفى وأعطى ذويه ، وأن شئون المسلمين وشئون الخلافة هي التي ذهبت بهذا الثراء ، بين منح للمسلمين عند حاجتهم وبين انشغال عن توجيه التجارة وإدارة المال ، ورأى عثمان أن من حقه - والحالة كما وصفنا - أن يتسع له بيت المال حتى لا يعيش في عسرة ، أو حتى لا يدع أقاربه في عسرة ، وإذا كان أبو بكر وعمر لم يفعلوا ذلك فقد تركا حقهما وهذا لا يرغمه أن يترك حقه ، أو قل إنهما لم يتعودا السعة التي عاش فيها عثمان ، ولم يتكفلا بأقاربهما كما تكفل عثمان .

على أن عثمان عندما أعطى المسلمين في غزوة تبوك أو في غيرها كان مانحاً ولم يكن مُقرضاً ، فهل له الحق أن يسترد من بيت المال بدل ما منحه لإعلاء شكامة الله ؟ ويجب عثمان بأنه لا يأخذ بدلا وإنما يأخذ حاجته نظير

تفرغه لخلافة المسلمين . ولكن حاجة عثمان لنفسه ولذويه كانت أكثر مما تعوده المسلمون .

وبدأت الثورات همساً . ثم ارتفع الهمس ، وأحس الخليفة أن الفتنة بدأت تظهر ، ولكن الخليفة أصر على ألا يقسو على النافرين وانسع لهم حلمه وحيأؤه ، وفي ظل هذين الخلقين نمت الفتنة غير خائفة من بطش الخليفة أو من انتقامه ، وكان عثمان يشوّر أحياناً ولكنها ثورة الشفوق لا تلبث أن تموت ، وهي تضر في فورتها وتضر في هلوها .

وكان على كلما اشتكى الناس إليه أمر عثمان أرسل ابنه الحسن إليه ، فلما أكثر على عليه قال له عثمان : إن أباك يرى أن أحداً لا يعلم ما يعلم ، ونحن أعلم بما نفعل فكف عنا . فلم يبعث على ابنه في شيء بعد ذلك^(١) .

وسارت الأمور في السنوات الست الأولى من خلافة عثمان مدفوعة بالقوة التي بذلها ابن الخطاب ، وظل الضوء الذي أشعله عمر ينير للناس ، ولكن الخليفة الجديد لم يمد المصباح بالزيت ؛ فلما أوشك الزيت أن يجف بدأ الظلام يدخل ، وبدأت الدولة تهتز ، وليس معنى هذا أن أعمال عثمان التي سببت حنق الناس وغضبهم لم تظهر إلا بعد ست سنرات من حكمه ؛ لا ، فقد ظهرت منذ اللحظات الأولى ، ولكنها كانت أشبه بالمرض يذب في الجسم السليم فيقاومه الجسم ، ولا يبدو عليه الضر ويظل المرض يشتد ما دام المريض لا يجد علاجاً حتى تضعف الصحة وينهار المريض ؛ وهكذا جاءت السنوات الست الثانية . وقد بدأت الدولة تهتز وأخذت المشكلة تستعصى ، وتقدم الناصحون للخليفة الشيخ يطلبون منه الاعتزال والراحة ولكن الخليفة صاح بهم قائلاً : كيف أخلع لباساً ألبسنيه الله تعالى ؟

واشتعلت الثورة ضد عثمان ، وبدأ منظموها في الكوفة والبصرة ومصر يعلنون ما كانوا من قبل يضمرون ، وظهر مع النافرين أعلام من الصحابة

(١) ابن عبد ربه : المقد الفريد ج ٤ ص ٢٠٨ .

أنكروا بعض تصرفات عثمان ، فأسرع ابن سبأ^(١) وهو الزعيم الحقيقي للثورة فاجتذبهم أو اجتذب آراءهم إليه ، لتقوى بهم حجته ، وترجح كفته ، ومن هؤلاء الصحابة أبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود .

وعبد الله بن سبأ هو الشخص الذي نقل الثورة من الكلام إلى العمل ولم يكن ابن سبأ مخلصاً في حركته ، فقد كان يهودياً ادعى أنه دخل الإسلام ولم يكن يضمّر للإسلام ولا للمسلمين خيراً ، فأنهز هذه الفرصة ليشعل الفتنة وينزل بالعالم الإسلامي ناراً ظلت متأججة عشرات السنين .

من الممكن أن يخطئ شخص أو يزل ، ولكن لإصلاح الخطأ طرفاً كثيرة عندما تحسن النية ، وابن سبأ كان أبعد ما يكون عن حسن النية ، فقد

.. (١) اتبعنا المراجع الشهيرة في حديثنا عن عبد الله بن سبأ وعن تصريح الدور الذي قام به لتجميع الشيعة في جماعة ؛ بعد أن كانوا أفراداً ، وفي إدخال كثير من الانحرافات والصلالات على مذهبهم متبعين الفرص المختلفة لذلك ، ووضعت في الجزء الثاني من هذه الموسوعة الفرق بين الشيعة الحقيقيين وبين مدعى التشيع هؤلاء الذين لم يكونوا شيعة ولا مسلمين ، وإنما ادعوا التشيع لإدخال الأكاذيب على المذهب الشيعي لأغراض في نفوسهم

ولقد اطلعت حديثاً على كتاب « عبد الله بن سبأ » للأستاذ مرتضى العسكري عميد كلية أصول الدين بالعراق ؛ وفيه يذكر المؤلف أن عبد الله بن سبأ أسطورة خلقها وضاع اسمه سيف بن عمر (توفي بعد السبعين والمائة للهجرة) وذكر المؤلف مواقف متعددة كانت الرواية فيها عن سيف مختلفة عن الرواية عن سواء ، وأبرز في رواياته صوراً من الأعراف .

بقي أن نورد سؤالاً مهماً هو . من الذي أدخل الانحرافات إلى المذهب الشيعي الذي نعرف في أصوله السليمة بعد ما نراه فيه من انحرافات وترهات .

في اعتقادي أن قوى كثيرة دفعت نفسها إلى صفوف آل البيت وشعبهم لانفرا من سببهم ، وطالما كشف أهل البيت نواياهم فصدروهم ، ولكن طالما استطاع هؤلاء بطريق أو بآخر أن يلقوا شحنة السم التي كانوا يحملونها ؛ وقد وضعت ذلك في الجزء الثاني من هذه الموسوعة .

ولهذا فأننا أقرر هنا أن ضالة بدأت هذا الشوط هي عبد الله بن سبأ أو شخص ما أطلق عليه هذا الاسم ، وأن مریدن كثيرين أخذوا عنه هذا الضلال وساروا فيه أزمنة طويلة وأشواطاً واسعة . فالاسم لا يهمننا ولكن يهمننا أن شخصاً قام بالدور الذي نسب إلى عبد الله بن سبأ وأن أشداساً قاموا بالأدوار التي تنسب للسبيين ولأعداء الشيعة وأعداء الإسلام الذين أسميناهم (مدعى التشيع) .

طالب له أن يجد ما عدّه هرواًصحابه أخطاء لعثمان ليجعلها سبباً لهو ينزلق فيها المسلمون .

ونجح ابن سبأ في الخطوة التي وضعها : ونجده - ليضمن النجاح - يقوم بالدعوة لعلّ ، فينشر مذهب الوصاية ، أى أن علياً وصى محمد كما أن لكل نبي وصياً ، وأن علياً خاتم الأوصياء كما كان محمد خاتم الأنبياء ، وأيد رأيه بأحاديث وضعها ، كما أشاع نظرية الحق الإلهي ، وهي نظرية فارسية عبرت مع الفرس إلى اليمن موطن ابن سبأ ، إذ كان الفرس يحتلون اليمن قبل أن يدخلها الإسلام ، ومغزى هذه النظرية أن علياً هو صاحب الحق الأول في الخلافة

وأثار ابن سبأ الشبهات ، وجمع حوله أنصاره ، كما جمع الساخطين على عثمان ، وزحف الثائرون إلى المدينة من الكوفة والبصرة حيث كانت مبادئ ابن سبأ قد وجدت مرعى خصباً بين البسطاء من أتباع علي . وزحف ثائرو مصر كذلك حيث كان ابن سبأ يعيش في ذلك الوقت ، وحيث وجد الوسيلة لإثارة المصريين ضد عبد الله بن أبي سرح وإلى عثمان وأخيه من الرضاة ، ويبدو أن تخطيطاً دقيقاً دفع هؤلاء وأولئك ليسيروا في نفس الوقت ثائرين من بلدان مختلفة إلى المدينة .

وفي المدينة التقت هذه الجموع الساخطة ، ولكن علياً تصدى لهم ، وشرح لهم أن أى اعتداء على الخليفة هو إضعاف للإسلام وتفرقة للمسلمين كما أن عثمان دافع عن نفسه دفاعاً مقبولاً ، وظهرت الآمال بأن الأحوال ستصلح ، ففعل الثائرون راجعين .

وأدرك ابن سبأ أنه هزم ، وأن الفرصة التي عمل لها عدة سنوات أوشكت أن تضيق ، ولذلك أعمل الحيلة ودبر أمره ، فيروى أن الثائرين حال عودتهم رأوا رجلاً أسود يمشى على بعد منهم وأنه يحاول أن يختنق عنهم ، فشكوا في أمره ، فلحقوا به وقبضوا عليه وقتلوه فوجدوا معه خطاباً عليه خاتم عثمان . وفي الخطاب أمر لوالى مصر أن يقتل هؤلاء الثائرين ويقتل معهم محمد بن أبي بكر^(١) الذي كان من زعمائهم ويمثل بحث الجميع ، وهكذا أصبحت المسألة

(١) يقول بروكلمان أن محمداً هذا هو ابن أبي حذيفة وينسب إلى أبي بكر بالبصرة (تاريخ الشعوب الإسلامية ١ . ١٧٥) وقد كان محمد هذا من أشياع علي لأنه تربى في بيته إذ تزوج علي بأمه بعد موت أبي بكر .

و نظر الثائرين دفاعاً عن النفس لأنهم أدركوا أن دماءهم مباحة ، فعادوا أدرأجهم إلى المدينة ، وواجهوا عثمان بالأمر ، فأقسم عثمان إنه لم يكتب الكتاب ، ولا أمر به ، وليس له به علم ، فطلبوا منه أن يسلمهم حامل خاتمه أو يقتص منه ، فأبى ، وقال إن حامل الخاتم لا يعمل هذا أبداً ، وأن أبناء السوء قتلوا خاتمه وزوروا عليه هذا الخطاب .

ويبدو أنه من المحقق أن هذا الخطاب حيلة دبرها ابن سبأ ليعيد إلى ثورته الحياة بعد أن أوشكت أن تموت .

وقد وضح لنا ابن عبد ربه مسألة الاختلاق ووضع الكتب والرسائل بأسماء الآخرين ، وكيف لعب ذلك دوراً هاماً في إشعال هذه الثورة ، ونحن ننقل عبارته ابن عبد ربه بنصها ، فهي تلقى ضوءاً ساطعاً على موضوع كثريه التخييط وتعددت الآراء ، قال :

لما قدم القواد قالوا لعلى : قم معنا إلى هذا الرجل . قال : لا والله لا أقوم معكم . قالوا : فلم كتبت إلينا ؟ قال : والله ما كتبت إليكم كتاباً قط . فنظر القوم بعضهم إلى بعض . وخرج على من المدينة . :

واستنكرت عائشة قتل عثمان فقال لها مروان : هذا عملك ، كتبت للناس تأمرينهم بالخروج عليه . فقالت : والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم بسواد في بياض حتى جلست في مجلسي هذا فكانوا يرون أنه كتب على لسان على وعلى لسانها : كما كتب أيضاً على لسان عثمان مع الأسود إلى عامل مصر ؛ فكان اختلاق هذه الكتب كلها سبباً في الفتنة (١) .

وعلى كل حال فإن اختلاق هذا الخطاب لم يكتشف في ذلك الحين ، وظن القوم أنه من عمل عثمان أو من عمل مروان ، وأن حياتهم أصبحت مهددة : فلم يعد هناك مجال للنقاش ، ولم يعد في طاقة على بن أبي طالب وأمثاله أن يقوموا بأى دور للوساطة ، ولم يعد الثائرون مستعدين لأية تسوية لا يكون فيها دم الخليفة أو اعتزاله ، وأحاط الثائرون ببيت عثمان وحاصروا الخليفة ونتوقف الآن عن السير مع هذه الأحداث لنسأل :

ما موقف كبار المسلمين من الدفاع عن عثمان ؟ وما موقف بنى أمية من ذلك ؟

(١) العقد الفريد ج ٤ ص ٣٩٢ - ٣٩٣ .

يروى لنا التاريخ أن بعض كبار المسلمين هجروا المدينة في الفتنة، وأن بعضهم اعتزل الفتنة خوفاً منها ولزم داره، ولكن كثيرين من شباب المسلمين وقفوا بباب عثمان يحرسونه. ويبدوون عنه، وكان في مقدمة هؤلاء الحسن والحسين وعبد الله بن الزبير.

أما بنو أمية فإن موقفهم يحيط به بعض الغموض؛ لقد كان معاوية يترك ماسوف ينزل بابن عمه الخليفة، فعرص معاوية على عثمان أن يذهب معه للشام فامتنع وأثر أن يبقى حيث عاش ومات الرسول وصاحبه، فعرص عليه أن يرسل له حرساً فأبى، وقال: لا أريد أن يشاركوا أهل المدينة زادهم وطعاهم، ثم تأزمت الأمور بعد ذلك ولكن معاوية لم يسرع لنجدة الخليفة، وقتل عثمان قبل أن تصل المدينة القرة الصغيرة التي أرسلها معاوية فعادت أدرانها من منتصف الطريق^(١): ويروى أن عامر بن وائلة الصحابي دخل على معاوية إبان خلافته فقال له معاوية، أليست من قتله عثمان: فقال عامر: لا ولكني ممن حضره فلم ينصره... ثم سأل عامر معاوية: وما منعك أنت من نصره ومعك أهل الشام؟ فأجاب معاوية: أليس طلبى بدمه نصرة له؟ فضحك عامر وقال: أنت وعثمان كما قال الشاعر:

لا أليفنك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زاداً^(٢)

ومثل ذلك ما قاله أبو أيوب الأنصاري لمعاوية، فقد روى ابن قتيبة أن أبا أيوب كتب إلى معاوية يقول: إن الذي تربص بعثمان وثبط أهل الشام عن نصرته لأنك^(٣)، وأوضح تحليل اعتقده الموقف بنو أمية أنهم ظنوا أن تدخلهم سينقل الخلاف من دائرة إلى دائرة، سينقله من خلاف بين المسلمين وبين خليفة المسلمين، إلى خلاف بين المسلمين وبين أمية، ولم يكن بنو أمية بطبيعة الحال يريدون ذلك.

على أن عثمان استطاع أن يرسل إلى الحجاج في موسم الحج الذي عقد

(١) المرجع السابق، ص ٢٩٨ وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ج ٤ - ١٢٢

(٢) السيوطي. تاريخ الخلفاء ص ٢٠٠

(٣) الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٠٦

وهو محاصر يطالب عونهم ، فتحركت شهامة الكثيرين للدفاع عن الخليفة ، واتجهوا إلى المدينة ، وفي نفس الوقت كان جند الشام قد بدءوا الزحف للمدينة لإرغام المحاصرين على فك الحصار ، فأدرك الثائرون أن الفرصة أو شكت أن تغلق من أيديهم ، فتسور بضعة منهم للدار بعد أن استمر حصارها اثنين وعشرين يوماً ، وهجم الذين تسوروا الدار على الخليفة وهو يقرأ القرآن ، وضربه الغافقي بحديدة كانت في يده ، وضربه آخر بالسيف ، ولما حاولت زوجته أن تدافع عنه قطعت أصابعها وهي تتلقى عنه الضربات .

وخر الشيخ فكان مصرعه باباً لفتنة شعواء دفع المسلمون عنها آلاف من أرواح الشباب الذين لا ذنب لهم ولا جريرة .

ولعل من المناسب أن نذكر أن القتلة الحقيقيين كانوا قلائل عرف منهم الغافقي ولم يعرف الآخرون ، وقد فر الغافقي بعد ذلك ولم يُعثَر له على أثر ، وأما الآخرون فلم تعرف شخصياتهم ، ولهذا أسند قتل عثمان إلى الثائرين والمحرضين مما وسع الهوة وسبب ألواناً من النكبات^(١) .

واختفاء الغافقي والقضاء عليه يذكرنا بقتل قاتل كيندى ، لأنها سياسة واحدة ، بها بصمات يهودية ، يراد بها دفن السر مع صاحبه .

(١) درایت دونالدش . عقيدة الشيعة ص ٤١ .

على بن أبي طالب

٣٥ - ٤٠ هـ (٦٥٦ - ٦٦١ م)

تعريف به :

هو على بن أبي طالب بن عبد المطلب ، ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة ، وهى البنت الوحيدة من نسل الرسول التى أعقبت وعن طريقها وُجدت ذرية سيدنا رسول الله حتى العهد الحاضر .

وقد سبق لنا أن قلنا إن أبا طالب كفّل محمداً بعد موت جده عبد المطلب ، فلما كبر محمد أراد أن يسدد هذا الدين لعمه ، فأخذ علياً ورباه فى بيته ، وبخاصة أن أبا طالب كان كثير الأولاد ، وأن مكة أصابها جَدب ، فست الضائقة حياة أبى طالب .

ولما بُعث محمد كان على صبيبا فآمن به . ولذلك يقال إن علياً أول من آمن من الصبيان ، وبات على فى فراش الرسول ليلة الهجرة مع علمه بأن الموت يطوف حول هذا الفراش ، ويوشك أن يتزل بمن ينام فيه .

وقد رضع على آداب الإسلام منذ الصبا ، وكان فى الفصاحة بالغاً للغاية ، ولعله كان الراوية الأول لأحاديث الرسول : وكان فى العلم سباقا لا يشق له غبار ، أما شجاعته فكانت مضرب الأمثال . وقد رأيناه فى الظليعة دائماً فى جميع غزوات الرسول ، ولا تكاد تخلو غزوة من على مصارعاً ومبارزاً غير هباب للموت ، ولا مقبلاً للخوف وزنا ، وطالما كسب بسيفه النصر للمسلمين ، ومن الواضح أن بطولة على والدماء التى سفكها مدافعاً عن الإسلام وراداً عنه مهاجمه ؛ أو ثمة كثيراً من الأعداء ، فقد كانت هناك جراح فى قلوب الكثيرين من الطعنات القاتلة التى وجهها على إلى أبطال منهم أو إلى ذريهم تقدموا مزهوين ببطولتهم ، معارضين للإسلام ، فلاقوا مصرعهم على يده كرم الله وجهه .

وفى ذلك المعنى يقول زيد بن على زين العابدين إمام الزيدية ما يلى :

كان على بن أبى طالب رضى الله عنه أفضل الصحابة ؛ إلا أن الخلافة

فَوُضِّتْ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الْمَصْلُحَةُ رَأُوهَا ، وقاعدة دينية راعوها ، من تسكين
ثائرة الفتنة ، وتطيب قلوب العامة ، فلإن عهد الحروب التي جرت في أيام
النبوّة كان قريباً ، وسيف أمير المؤمنين على من دماء المشركين من قريش
وغيرهم لم يجف بعد ، والضغائن في صدور القوم من طلب الثأر كما هي . .
فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل ، ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد ،
فكانت المصلحة أن يكون القائم بهذا الشأن في ذلك الوقت غيره ^(١) .

وأخلاق على : زهده ، ووفائوه ، وعدله ، وسماحته ، وصفاء نفسه ،
تجعله ثالث ثلاثة أخذوا عن الرسول العلم والخلق والروح ، فكان أبو بكر
وعمر وعلى مشاعل ينبعث ضوؤها في كل اتجاه .

البیعة لعلي :

ممكننا من الدراسة السابقة أن نستنبط أن علياً لم يكن مرغوباً فيه ،
فقد كان على غرة بني هاشم ، وكان يطالب بالخلافة باسم القرابة من الرسول ،
ومعنى هذا أن إسماعيل الخلافة إليه يعني أن تظل الخلافة في بنيهِ ، وهذا مبدأ
لا يقره الإسلام ، ولا تقبله العرب ، ولا يرتضيه الطامعون ، وكان لعلي - كما
قلنا آنفاً - أعداء كثيرون يكتمون العداوة أو يظهرونها ، لأنه الذي
قتل بسيفه زهرات الشباب في الغزوات المتعددة ، ثم كان حكم على معناه
العودة إلى حكم عمر في صلابته وحزمه ، وقد وجد كثير من الناس الراحة
في سهولة عثمان فكيف لهم بالعودة إلى الدقة والصرامة والحساب ؟ وكان
هناك كثيرون أثروا بالباطل ، وحصلوا ظلماً على نفوذ كبير ، ومعنى حكم
على ضياع ثروتهم وفقدان سلطانهم ، لهذه الاعتبارات وغيرها لم يكن على
مرغوباً فيه .

ولكن حل كان هناك حينذاك غير على يطمع في الخلافة مع وجود أبي الحسن ؟
لقد كان على على وشك أن يناهها بعد عمر فكيف يمكن أن يحرمها بعد عثمان ؟
وإذا كانت السن قد لعبت دورها في تأخير تولية على ، فقد أصبح الآن في
العقد السادس بل قد تخطى نصفه فلم يعد هناك طعن في مسألة السن .

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٢٨ .

ومن هنا ندرك أن تولية على كانت طبيعية رضى الطامعون أو كرهوا ، على أننا إذا لاحظنا الأسباب التي ذكرناها آنفاً والتي جعلت علياً غير مرغوب فيه نجد أنها كانت متصلة بالطبقة العليا ، تلك التي أزهق على أرواح شبابها في حروبهم ضد الإسلام ، وتلك التي كانت تنافسه ونخشى على ثرواتها ونفوذا من عدالته ، أما الجاهل والشعب فلم يكن لهم ملجأ سواه ، وكانوا يتطلعون إليه لينقذهم مما ألم بهم .

ومن هنا كانتبيعة على بيعة قامت بها الجاهل ، فهؤلاء الذين فتكوا بعمان ومعه من انضم إليهم هرعوا إلى على يبايعونه ، وقد أدرك على أن سيل الناس إليه سيل شعبي ، فصاح فيهم : إن هذا الأمر ليس لكم ، إنه لأهل بدر ، أين طاحه والزبير وسعد ولم يكن أحد من هؤلاء الخاصة يستطيع أن يواجهه العاصفة فيمتنع عن بيعه على ذلك الوقت . فبايع هؤلاء راضين أو كارهين ^(١) وتبعهم كثير من المهاجرين والأنصار وتلامه عامة الناس ، ولم تكن البيعة إجماعية بطبيعة الحال وكان بنو أمية قادة الممتنعين .

سياسة على :

سياسة الإنسان جزء منه ومراة لأخلاقه ، وعلى مجبول على الصراحة ، لا يعرف في الحق لومة لائم ، فكانت سياسته صدى لهذه الأخلاق ، فقد بادر على عقب بيعته فأصدر أمرين في منتهى الصرامة ، وهذان الأمران هما :

١ - عزل ولاية عثمان ، وقد أرسل على ولاية بدلهم ، ولكن أكثر ولايته عادوا إليه ولم يستطيعوا أن يدخلوا الولايات التي حددتها لهم ^(٢) .

٢ - استرداد القطن التي أقطعها عثمان لأقاربه من بيت المال مما يرى على مجافاته للحق ، وكذلك استرداد الهبات الكبيرة التي منحها عثمان كذلك من بيت المال .

ولم يسمع على لنصح أتباعه وأقاربه الذين أشاروا عليه أن يؤجل هذا

(١) انظر الطبري ج ٣ ص ٤٥٦ وما بعدها .

(٢) تاريخ الطبري ٤٦٢:٢ - ٤٦٣ .

التصرف ريثما تستقر له الأمور ^(١) . إذ توةموا أن تصرفه هذا سينتج تمرد بني أمية ، ويجعل معاوية يهب في وجهه يناضله ويحاربه .
ويوشك المؤرخون والمستشرقون أن يجمعوا على لوم علي ^٢ على هذا العمل ، وهم جميعاً تقريباً يصرحون أن التوفيق أخطأ علياً فيه ، وأن ذلك لم يكن من الحكمة ، والذي أعتقده أن ذلك الحكم على علي ^٢ مبالغ فيه ، وأنه من الأقوال التي تشاع فيأخذها الناس دون دراسة وبغير تمحيص ، وللتدليل على ذلك نسأل الأسئلة التالية :

- ١ - هل كان من الممكن أن يحتج علي ^٢ على الولاة الظالمين وأن يطلب من عثمان عزلهم ، حتى إذا تولى هو الخلافة تركهم ؟
 - ٢ - وهل كان من الممكن أن يثور على القضاة التي أعطيت بغير حق واضح لأقارب الخليفة حتى إذا تولى هو الخلافة أقرها ؟
 - ٣ - وهل كان التمرد الذي عاناه علي ناشئاً عن عزل الولاة واسترداد القضاة ؟ وإذا كان كذلك فلماذا ثار عليه طلائع والزبير واشتركوا في حرب الجمل ؟
 - ٤ - وهل يتخيل المؤرخون أن معاوية كان سيبيع علياً ويسير في ركابه لو لم يعزل ؟
 - ٥ - وأخيراً هل يمكن أن نطلب من علي ^٢ أن يكون شخصاً آخر غير علي ^٢ إن مطالبة علي ^٢ بترك والي يعتقد أنه ظالم ، أو الإغضاء عن مال يرى أنه أخلمن بيت مال المسلمين بدون حق هو بمثابة أن نطلب من الأسد أن يصبح هراً وهيئات أن يكون ذلك .
- لعل من الأفضل للمؤرخين أن يقولوا إن ذلك الوقت . لم يكن الوقت الملائم لعل ليصبح خليفة ، وكان من الخير للمسلمين أن يتولى الخلافة في ذلك الوقت شخص آخر غير علي ^(٢) ، شخص يستطيع أن يدور وأن يداهن ، شخص لم يشترك في الأحداث السابقة أو اشترك فيها بنصيب ضئيل ، ولكن يجب ألا ننسى أن أية محاولة لتولية شخص غير علي ^٢ حينذاك كان لا بد من فشلها ، فتولية علي ^٢ كانت قد أصبحت أمراً طبيعياً كما سبق القول .

(١) تاريخ الطبري ٣ : ٤٥٩ وما بعدها .

(٢) تاريخ الطبري ٣ : ٤٥٩ .

والخلاصة أن تولية على كانت طبيعية ، وأن سلوكه كان طبيعياً ، وأن التمرد الذى واجهه كان طبيعياً أيضاً وكان نتيجة لسير الأحداث ؛ وكان صراعاً على السلطة ، وإن اتخذ من أسبابه قتل عثمان ، أو المطالبة بثأره ، أو عزل الولاة ، أو استرداد ما سلب من بيت المال ويقول ، محمد بن سيرين : ما علمت أن علياً اتهم فى دم عثمان حتى يورع ، فلما يورع اتهمه الناس ^(١) .

وقد تمخض هذا التمرد الذى عاناه على عن موقعتين حريبتين كبيرتين هما موقعة الجمل وموقعة صفين ؛ وسنتكلم عن كل منهما فيما يلى :

موقعة الجمل :

أخذت هذه الموقعة اسمها من الجمل الذى كانت تركبه عائشة رضى الله عنها زوجة الرسول وبنت أبى بكر الصديق ؛ وخروج عائشة إلى المعركة لتحارب علياً كان حدثاً غير عادى ، ومن ثم ارتبطت هذه الموقعة بعائشة وبجملها ، وإن كان دور عائشة فى الحقيقة ضئيلاً جداً فى هذه المعركة .

وتحليل موقف عائشة يحتاج إلى شيء من الفراغ لن نضن به ، فقد كانت هناك عوامل تحث عائشة على عدم الاشتراك فى هذه المعركة ، وهناك عوامل أخرى كانت تدفع عائشة إلى الاشتراك فيها ، وقبل أن نتكلم عن هذه العوامل وتلك نذكر أن عائشة - كأغلب المسلمين - كانت نائرة على عثمان ، وكانت هى وطلحة من أشد الناس انتقاداً له ، ولما حوضر عثمان تركت عائشة المدينة وذهبت إلى مكة ، فلما قتل عثمان خرجت من مكة تقصد المدينة . فلما عرفت أن البيعة تمت لعلى غضبت ^(٢) وقالت : والله لا يكون هذا الأمر أبداً ، قُتِلَ عثمان مظلوماً ، والله لأطالبن بدمه ، وعادت إلى مكة وقدم عليها بمكة طلحة والزبير ، وقد استأذنا علياً بحجة أنهما يريدان العمرة ^(٣) كما قدم يعلى ابن أمية عامل عثمان على اليمن ومعه ما كان فى بيت مال اليمن من الأموال : وقدم كذلك

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٣٠٥ .

(٢) ابن طياتبا : الفخرى ٦٠ .

(٣) الطبرى ٣ : ٤٦٥ وقد أذن لهما على مع أنه لم يكن يخفى عليه عرضهما ، وقد روى أن قال لهما ؛ والله ما العمرة تريدان .

عبد الله بن عامر من البصرة بمال كثير ، والتف حول عائشة بطبيعة الحال
بنو أمية الذين كانوا بالحجاز وحثت عائشة الجميع على المطالبة بدم عثمان ،
وخرجت ومعها أتباعها تريد البصرة لتستعين بسكانها فيما أقدمت عليه^(١) .

هل كان حزن عائشة على عثمان هو الذى دفعها إلى ذلك العمل ؟ الحقيقة
لا ، فقد كانت هناك دوافع أبعد غوراً ، نذكر أهمها فيما يلي :

١ - كانت هناك وحشة بين علي وعائشة عبرت عنها عائشة بقولها :

إنه والله ما كان بيني وبين علي إلا ما يكون بين المرأة وأحائها^(٢) . ولعل
بعضها يرجع إلى موقف علي من عائشة في حادثة الإفك^(٣) .

٢ - نفيس على علي أبي بكر الخلافة وامتنع عن مبايعته زمناً ، فلماذا
تسرع عائشة لمبايعة علي ! ولماذا تركه يهتأ بهذه الخلافة من أول يوم ؟

٣ - العامل الأكبر والمهم هو عبد الله بن الزبير ؟ فهو ابن أختها أسماء ،
وإذ لم يكن لعائشة أولاد فقد أخذته من أختها وربته في بيتها وصار كأنه

(١) المرجع السابق ص ٤٦٩ - ٤٧٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٧٠ .

(٣) حديث الإفك حديث معروف تعدت عدم ذكره في هذا الكتاب تأديباً بأدب
القرآن الكريم الذى حثنا على عدم الخوض فيه ، قال تعالى : « ولولا إذ سمعتموه قلتم ما
يكون لنا أن نتكلم بهذا » (النور ١٦) . ورأى أن روى عائشة بالزنا كبيرة بشعة ، وليس
في تاريخ العرب ما يجعلهم هكذا يستسهلون رمى الحرائر بالمهر ، وإنما المسألة كانت من الأشواك
التي توضع حول الرسول والتي يقصدها عرقلة الدعوة ، وقد لعب المنافقون وعلى رأسهم عبد الله بن
أبي دورا كبيراً في ترويع هذه الفرية ، كما ذكرنا من قبل عند الكلام عن « الرسول والمنافقون »
ولكن آيات القرآن الكريم نزلت فقصت على السنة السوء قال تعالى « إن الذين جاءوا بالإفك
عصية متكلم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى
كبره منهم له عذاب عظيم » (اقرأ سورة النور الآية ١١ وما بعدها) ولم يشترك على قط على اتهام
عائشة ولكنه لم يدافع عنها ما أغضب عائشة عليه (البخارى وزاد المعاد ٢ : ١١٣ - ١١٥)
وابن هشام ٢ : ٢٢٠ - ٢٢٢) وقد رأيت حديثاً كتاباً نشر عن موضوع الإفك ورأى بناء
على ما ذكرت آنفاً أن هذا الكتاب ما كان ينبغي أن ينشر .

ابن لها حتى كانت تسمى أم عبدالله ، وكان عبد الله طموحاً بطمع في الخلافة ، ولكن وجود علي كان يحول بينه وبين تحقيق هذه الأمنية ، فدفع خالته عائشة لتخوض هذه المعركة ضد علي ، لعل عليا يسقط فيها فيخلوه الجور ، وكثيراً ما ترددت عائشة في مواصلة العمل لهذه المعركة ، ولكن عبد الله كان يحاول دائماً أن يزيل تردداتها ويحملها هذا الحمل الصعب ، فمن الممكن أن نقول إن عائشة دفعت لهذا العمل وإن الذي دفعها هو عبد الله ، والمرأة هي المرأة على كل حال ، تضعف أمام حيل الرجال ، ولا تقوى أمام وسائلهم ، وقد روى أن عائشة سمعت منازعة أصحابها وكثرة صياحهم فقالت : المنازعة في الحرب خور ، والصياح فيها فشل ، وما برأني خرجت مع هؤلاء^(١). وفي الحوار الرائع الذي جرى بين ابن الزبير ومعاوية في خلافة الأخير يقول معاوية لابن الزبير : . . . وخدعتم أم المؤمنين ، ولم تراعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أبرزتم زوجته للحتوف ومقارعة السيوف^(٢) ، ولعل عبد الله هو الذي دفع أباه أيضاً ليشترك في هذه الموقعة ، وهناك أدلة كثيرة تقود إلى هذه النتيجة ، فمن ذلك ما روى أن علياً قال للزبير : كنا نعدك من نبي عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ، ففرق بيننا^(٣) . ومن ذلك ما روى أن علياً ذكر الزبير بقول الرسول صلى الله عليه وسلم له : ستقاتل علياً وأنت له ظالم ، فتذكر الزبير ذلك وعزم على أن يدع الحرب ، وأعلن عزمه ، فجاءه ابنه عبد الله وحمله بقوله : لعلك خشيت رايات ابن أبي طالب وعلمت أنها تحملها فتية أجداد وأن تحتها الموت الأحمر ، فجبن^(٤) .

ولعلنا نستطيع أن نسبق التاريخ فنقرر أن طموح عبد الله بن الزبير استمر يدفعه بعد فشل معركة الجمل لينتزع فرصة أخرى ليضع نفسه خليفة ، وقد واثته الفرصة بعد مقتل الحسين في عهد يزيد بن معاوية ، فأعلن

(١) ابن عبد ربه المقد الفريد ج ١ ص ١١٠ .

(٢) المرجع السابق ج ٤ ص ١٨ .

(٣) ابن قتيبة ؛ الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٠ .

(٤) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥١٥ ، ٥١٩ .

نفسه خليفة : وظل يكافح عن ملكه المزعوم حتى دفع رأسه ورعوس الآلاف فداء لهذا الطموح . وقد أوردنا تفصيل ذلك في الجزء الثاني من هذه الموسوعة^(١) .

هذه هي العرامل التي دفعت عائشة لتشارك في قيادة الثائرين على علي^٢ أما العوامل التي كانت تعوقها عن الخروج فهي :

- ١ - شهدت عائشة بكاء الآلاف يوم خرجت من مكة لهذه الرحلة المشثومة ، حتى سمى ذلك اليوم يوم النحيب ، ولكن ذلك لم يمنعها من الخروج.
- ٢ - تلقت عائشة خطاباً طويلاً من أم سلمة تعظها وتذكرها أن خروجها للحرب هتك للحجاب الذي ضربه عليها الرسول^(٣) .
- ٣ - أهم من هذا كله الآية الكريمة « وقرن في بيوتكن »^(٤) التي لم يغيب عن عائشة مغزاها .

ولكن دفع عبد الله بن الزبير كان أقوى من كل شيء ، فإذا عائشة تفقد كل مقاومة ، وإذا بها ترضع في المودج ويمشي بها الركب ، وكانت تتجدد فيها المقاومة ، ولكن ابن الزبير كان يسرع فيخمد هذا الخاطر ؛ روى أن كلاباً نبحتها في الطريق فسألت : أين نحن ؟ فقبل لها : عند ماء الحوآب . فقالت : ما أراي إلا راجعة لأنني سمعت الرسول يقول لنسائه : كأني بإحداكن تنبها كلاب الحوآب : ولكن ابن الزبير سرعان ما جاءها بمن يقسم لها إن ذلك ليس ماء الحوآب ، واستشهد لها ببعض الأعراب وكان قد أكثرهم لذلك^(٥) .

وينبغي أن نذكر أن حديث الحوآب غير مسلم به ، وقد أنكره كثير

(١) ص ٢١٨ - ٢٢٨ من الطبعة السادسة .

(٢) انظر كتاب أم سلمة لعائشة ورد عائشة عليها في العقد الفريد ج ٤ ص ٣١٦ -

٣١٧ والإمامة والسياسة ج ١ ص ٥٥ .

(٣) سورة الأحزاب الآية ٣٣ .

(٤) تاريخ الطبري ج ٥ ص ١٧٠ وابن قتيبة ؛ الإمامة والسياسة ج ١ ص ٦١ .

من الباحثين القدامى والمحدثين^(١) .

ووصلت عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة ، وانضم إليهم خلق كثير ، كان فيهم مروان بن الحكم وبعض بنى أمية ، وأيدها بعض أهل البصرة وعارضها آخرون ، ووقعت مناوشات بين الطرفين قُتل فيها بضع مئات وبخاصة من معارضي عائشة^(٢) . ثم قدم على بجيشه الكبير ، وفيه كثيرون من السبئيين ومن الذين اشتركوا في الثورة على عثمان ، وحاول على أن يثنى عائشة وأصحابها عن قصدهم . ويذكر الذين باعوه منهم يبيعهم ، وأوشكت هذه السفارات أن تنجح وأن يكفى الله المؤمنين شر القتال^(٣) . ولكن السبئيين الذين أشعلوا الثورة على عثمان وحرصوا على قتله أدركوا أن الصلح بين الطائفتين سيكون على حساب رقابهم ، فعقلوا العزم على بدء الحرب ؛ مدركين أن الحرب وحدها هي التي يمكن أن تحميمهم من المفصلة ، وهكذا بدءوا المعركة في غفلة من على . وأجابهم أتباع عائشة ، والتحم الفريقان^(٤) .

إنه يؤخذ على على أن سلطانه على جيشه لم يكن تاما ، ولم يكن شاملا ، بل ربما أخذ عليه أنه اصطحب معه هؤلاء الشياطين من السبئيين واستعان بهم ، ولكن هل كان يستطيع على غير ذلك ؟ ومن معه غير هؤلاء بعد أن أعزله طلحة والزبير وعائشة ، ووقف عن بيعته عبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص ، واستعد لحربة معاوية وبنو أمية بالشام . كل ذلك يحمل بعض الباحثين يلمون على لقبوله الخلافة في ذلك الوقت ، وكان ابنه الحسن من أول من لاهمه على ذلك ، ولكن ألم يبايعه طلحة والزبير ؟ وألم يجتمع عليه وجوه الناس بعد عثمان ؟ وهل كان هناك من يجرؤ على التقدم لها حينذاك وأبو الحسن هناك كما قلنا ؟

وكانت معركة عفيفة فر منها الزبير لاجئاً ولا خوفاً من الموت، ولكن لعدم

(١) القاضي أبو بكر بن العربي . العراصم من القواصم ص ١٠١ وانظر تعليق الناشر في نفس الصفحة .

(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٠٣ . (٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٣٨ ومنهاج السنة لابن تيمية ج ٥ ص ١٨٥ و ج ٣ ص ٢٢٥ و ٢٤١

إيمانه بأنه على حق فيما أقدم عليه ، وعند عودته مر بماء لبني نعيم ، فراه الأحنف بن قيس فقال : جمع الزبير هذين المسكرين ثم ولى وتركهما ، فثار عمرو بن جرموز لذلك ، وكان في مجلس الأحنف ، فلحق بالزبير خفية حتى جلس لذا تحت شجرة ليستريح ثم اضطجع وغفا ، فقتله عمرو وهو نائم^(١) . أما طلحة فيروى أن مروان بن الحكم عندما رآه في مطلع المعركة قال : لا أنتظر بعد اليوم بثأري في عثمان فانتزع له سهماً فقتله^(٢) : أما عبد الله بن الزبير فقد ضربه الأشتر أحد قادة علي الأشداء حتى سقط ، ولكن لم يجهز عليه وبقي في خندق فلم يشترك في المعركة بعد ذلك واعتبر ذلك منه فراراً^(٣) ، وقد ظل ابن الزبير يعير بفراره وفرار أبيه من هذه المعركة ، فقد روى أنه هاجم عبد الله بن العباس مرة في المسجد الحرام ، فكان مما قاله ابن العباس له مدافعاً عن نفسه . وأما قرك يا ابن الزبير إني قاتلت أم المؤمنين ، فأنت أخرجتها وأبوك وخالك ، أما أنت وأبوك فقد قاتلتما علياً ، فلأن كان علي مؤمناً فقد ضللتكم بقتالكم المؤمنين ، وإن كان كافراً فقد بؤتم بسخط من الله بفراركم من الزحف^(٤) .

وبعد أن اختفى هؤلاء القادة بالموت أو الفرار ظلت المعركة تدور بدون قائد أو تحت قيادة عائشة شكلياً ، وسقط الآلاف في حماية الحمل وحماية أم المؤمنين أو في الهجوم على عائشة وعلى جملها كما قلنا ، ثم عتقر الحمل وانتهت المعركة بنجاح علي ، ولكنه أكرم عائشة وأعادها إلى مكة معززة مكرمة .

من المسئول عن موقعة الجمل :

لقد كانت هذه أول معركة تدور رحاها بين جيشين مسلمين ، وقد سقط فيها عدد من المسلمين يقدره بعض المؤرخين بعشرة آلاف ويقدره آخرون بأكثر من ذلك^(٥) ، فمن المسئول عن هذه المعركة الخطيرة ؟

(١) المقد الفريد ج ٤ ص ٣٢٣ .

(٢) المرجع السابق ٣٢١ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٢٦ و ص ٤١٤ .

(٤) ابن هب ربه : المقد الفريد ج ٤ ص ٤١٤ .

(٥) انظر الطبري ج ٢ ص ٤٤٣ وانظر المقد الفريد ج ٤ ص ٣٢٦ .

يجدر بي أن أبين رأيي بوضوح في هذا الصراع ، وفي مسئولية الذين قاموا به ، وطوائف المسلمين تختلف اختلافاً بيناً في تحديد المسئول ، ومن طوائف المسلمين من سكّت عن الخوض في هذا الموضوع ، أما السكوت فليس من المصلحة في شيء ، لأن هذه كانت أول معركة - كما قلنا - تدور بين جيشين مسلمين ، ويقف فيها المسلم يواجه المسلم . ويكذب ليريق دمه ، ويفخر بانتصاره في إراقة دماء إخوته المسلمين . ولم تكن هذه آخر المعارك بين المسلمين ، بل تلاها عشرات أو مئات مثلهما ، ولا تزال حتى اليوم نرى في كثير من الأحيان جيشاً مسلماً مهاجماً أو مستعداً للجورم على جيش مسلم آخر ، فليس من المصلحة في شيء أن نسكت ، بل لابد أن نبين المسئولية . ونلقها على من يستحقها رجاء أن يرتدع الطامعون بعد ذلك ، فلا يضعوا أنفسهم في هذا الموضع الشائك ، فيستحقوا لعنات الناس ، وعذاب الله ، وقسوة التاريخ .

وأما الاختلاف في إثبات المسئولية فمرجعه - عندي - سببان :

أولاً : أن أغلب الباحثين لا يدرسون هذه المشكلة دراسة موضوعية ، بل يتأثرون بأشخاصها فيدفعهم تأثرهم إلى هذا الجانب أو ذاك دون عمق وبدون إعمال فكر .

ثانياً : أن شيوخ الفرق الإسلامية أنفسهم متأثرون بمكانتهم في هذه الفرق ، فيغلب أن يتبع الواحد منهم رأى الفرقة التي هو منها ولا يشذ عنها : فأهل السنة تراهم أمهل حكماً وعدلو الصحابة جميعاً وتولواهم واعتقدوا إنجازهم ، وقليلاً ما يحاولون أن يحكموا على هذا أو ذاك بالخطأ ، وأحياناً أخرى يذكرون أن الأمر التبس عليهم فيلزمون أنفسهم السكوت ، والحقيقة أنه لم يلتبس وإنما أوشك أن يتضح وأن يقودهم إلى حكم قاس على المذهب ، وهم لا يطيقون أن يصرحوا بإدانة المذهب من هؤلاء ، فيؤثرون أن يغمضوا عيونهم .

وأما الشيعة فإنهم يدون حاجة إلى دراسة ، وبإدنى ذى بدء يلقون كل المسئولية على عائشة وأصحابها ، وربما كان الأمر كذلك ، ولكنهم لا يأخذون للنتيجة سبلها بل يصلون لها دون عناء ، ومثل الشيعة الخوارج في هذا الموضوع

ومنهم من لا يكتنون بتأنيهم أصحاب عائشة بل يقولون بتكفيرهم .
والمعتزلة و هم زعماء الحركة العقلية في التفكير الإسلامي يتأثرون أيضاً ،
ولللك نرى زعماءهم الأفاضل أمثال واصل بن عطاء وعمر بن عبيدو أبي هذيل
العلاف يقولون إن فريقاً من الفريقين مخطئ خطأ يفسق به ، ولكن أى
الفريقين ذلك ؟ لا يمينون^(١) وربما جازى أن أصفهم بأنهم يستطيعون التعيين
ولكنهم لا يريدون .

هل نستطيع أن ننظر إلى هذه المسألة نظرة موضوعية بصرف النظر عن
أشخاصها ، بل مع كامل التقدير والإجلال لماضي كل من هؤلاء الأشخاص ؟
أرجو هذا . وقبل كل شيء نحب أن نستبعد الكفر ، فليس لإنسان أن يكفر
من قال « لا إله إلا الله محمد رسول الله » معتقداً لها ، وزعماء هذه المعركة من
هذا الجانب أو ذاك من خيرة من قالها مؤمناً بها ، وقد روى عن الرسول
صلى الله عليه وسلم قوله : طلحة والزبير جاراي في الجنة ، وسئل على عن
أصحاب الجمل : أمشركونهم ؟ قال : من الشرك فروا . قيل : فنأفونهم ؟
قال : إن المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً . قيل : فاهم . قال : إخواننا
بغوا علينا^(٢) . فالذي نتكلم عنه هنا هو المسئولية تجاه هذه الحرب الضروس
التي أكلت كثيرين من المسلمين ، ولنعد لتحديد المسئولية فنسأل سؤالاً هاماً هو :
هل كانت هذه الحرب حرب مبادئ ؟ وهل حقيقة ثارت عائشة لدم
عثمان ؟ وثار طلحة والزبير لذلك ؟

لو كانت الحال كذلك لكان الأمر ، ولما عدا اجتهداً أخطأ فيه المجتهد ،
ولكن يبدو أن هذه الحرب لم تكن حرب مبادئ ولم تكن من أجل دم عثمان
وقد سئل مروان بن الحكم - وكان في جيش عائشة - إلى أين تسبرون .
فأجاب : لقتل قتلة عثمان . فقال السائل : فاقتلوا قادة جيشكم فهم قتلة
عثمان . وقد ترك الزبير المعركة كما قلنا لأنه لم يكن يعتقد أنه على حق ، ولم يكن
يدافع عن عقيدة ، وضرب مروان طلحة بسهم فأرداه . ولم تنج إلا عائشة ،

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ٢٥ - ٢٦ .

(٢) ابن عبد ربه : المقد الفريد ج ٤ ص ٣٣٠

نجحت لأنها أم المؤمنين، وقد ظلت — كما يقول المؤرخون — طول عمرها حزينة تسمى لو كانت مائت قبل معركة الجمل بعشرين عاماً^(١). ويروى أنها لما مرضت مرض الموت قيل لها: تدفينين مع رسول الله! قالت: لا، إني أحدثت بعده حدثاً، فادفنوني مع إخوتي بالبقيع^(٢).

إن هذه المعركة كانت لأطماع شخصية، وكانت تنفيساً عن كراهية شخصية. والأطماع الشخصية تتمثل في عبد الله بن الزبير^(٣)، والكراهية الشخصية تتمثل في عائشة. أما عبد الله فقد حل أكبر قسط من المسؤولية لأنه دفع خالته لتحقيق أحلامه، وأما الكراهية الشخصية فقد كانت تتمثل في عائشة، فإنها لم تكن على وفاق مع علي ويؤء طلحة والزبير بقسط من المسؤولية لأنهما اشتركا في دفع الناس إلى هذا الأتون.

وخطأ علي ينحصر — كما قلنا سابقاً — في أنه لم يكن له سلطان كامل على جيشه، فكان هو يسعى للصلح، وبين أتباعه من يعد المؤامرات لإشعال النار. ولو كان له سلطان كامل على جيشه لكان من الممكن ألا تقوم الحرب. فعبد الله بن الزبير — قبل الجميع — هو المسئول عن هذه الحرب الضروس وأقرر أنني لم أجدهم المؤرخين من ألقى التبعة على عبد الله بن الزبير، حتى في الكتب التي خصصت لهذا البحث مثل: عائشة والسياسة؛ للأستاذ سعيد الأفغاني وعلية وعائشة؛ للأستاذ عمر أبو النصر، والباحثون القدامى والمحدثون أياً كانت ميولهم يلقون التبعة على طلحة أو الزبير أو عائشة أو علي، ونسوا ابن الزبير وهو عندى مشعل هذه النار وإن استتر خلف الثلاثة الكبار.

وهناك شيء آخر نحب أن نبرزه عند الحديث عن القتل، وهو أن التاريخ يروى أن الآلاف الذين سقطوا في هذه المعركة سقطوا باسم النخوة والمروءة مدافعين عن أم المؤمنين وجملها، فأم المؤمنين وجملها كلفا المسلمين آلاف الأنفس من المدافعين والمهاجمين، فلما خرب الجمل وقفت المعركة

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٤١.

(٢) المقد الفريد ج ٤ ص ٣٣١.

(٣) أوردنا في الصفحات السابقة مزيداً من القول عن الدور الذي لعبه ابن الزبير لإشعال الحرب، والذي استحق به أن يتحمل المسؤولية.

رباه ! إن تكن قد غفرت للمخطئين في هذه المعركة فألهم المسلمين
التوفيق حتى لا يقف مسلم مرة أخرى يقتل أخاه ، ويجد الفخر في إزهاق
أرواح إخوته المسلمين .

بقيت كلمة أخرى نضيفها إلى ما ذكرناه عن عبد الله بن الزبير لعلها
تلى مزيداً من الضوء على شخصيته ، وهذه الكلمة تتعلق بارتباطه بالسيدة
عائشة في قصة أوردها ابن حزم ، وذكر فيها أن عائشة تصدقت مرة بسعة
وكرم ، ولكن يبدو أن ابن الزبير كان يتطلع لمال عائشة لينحدر إليه عن
طريق ميراث أمه أو عن أى طريق آخر ، فاعترض على تصرفات عائشة ،
وهدد بالحجر عليها ، وغضبت عائشة لذلك وقاطعته ،

وفيما يلي نص كلام ابن حزم :

نروى هذا الخبر عن طريق عبد الرازق عن معمر عن الزهري عن عوف
ابن الحارث ابن أخي عائشة أم المؤمنين لأمرها ، إن عائشة حدثت أن عبد الله
ابن الزبير قال في بيع أو عطاء أعطته : والله لتنتهين عائشة أو لأحجرن
عليها ، فقالت عائشة : أو قال هذا ؟ قالوا : نعم : فقالت : والله لا أكلم
ابن الزبير كلمة أبداً ، وقاطعته ، ولكنه تشفع لها وبكى لعبد الرحمن بن
الأسود والمسور ابن مخرمة حتى كلمته وكفرت عن عيبتها .

ويعلق ابن حزم على ذلك بقوله : إنها طامة الأبدي ، لاندري كيف استحل
ابن الزبير أن يرتكب هذه الخطيئة ، والله يغفر له إذ أراد مثله في كونه من
أصاغر الصحابة أن يحجر على مثل أم المؤمنين وهو لا يكاد يتجزى منها في
الفصل عند الله تعالى ، ولا يخلو الأمر من أن يكون ابن الزبير أخطأ وأصاب
هي وهو كذلك بلا شك ، أو يكون أصاب وأخطأ ومعاذ الله من هذا^(١)

(١) المجلد ٨ من ٢٩٢ - ٢٩٣ .

موقعة صفين^(١) :

حدثت موقعة صفين بين علي ومعاوية ، وقبل الحديث عنها يجدر بنا أن نستعرض حالة القوى العسكرية والإمدادات الحربية في العالم الإسلامي قبل بدء المعركة :

كان علي^٤ وأتباعه يعتقدون أن معركتهم الأولى والأخيرة يجب أن تكون ضد الأمويين الذين يقودهم معاوية بن أبي سفيان مؤيداً بأهل الشام ، فعاوية هو ابن عم عثمان ، وهو زعيم بني أمية ، وله جاء عريض بين جنده وأتباعه بالشام ، ولم يكن طلحة والزبير - بعد بيعتهما لعلي - محسوبين من الأعداء الألداء . وكذلك لم يظن ظان أن الحماسة والكراهية بين عائشة وعلي^٥ ستدفع بأهل المؤمنين أن تقود الجيوش وتخوض معارك الحرب ، وعلى هذا فاستعداد على اتجه لمقاومة معاوية من أول الأمر ، ولكن الأحداث تطورت ورأى على أنه لا بد من الاطمئنان إلى ظهره قبل أن يفرغ لأهل الشام ، فغاض معركة الجمل .

ما نتيجة معركة الجمل ؟

تبعيتها الساذجة أن علياً انتصر ، ولكن نتائجها الحقيقية كانت أعمق من ذلك ، لقد خسر من جيش علي عدة آلاف يقدرها المؤرخون بخمسة آلاف أو أكثر^(٢) ، فضعف بذلك جيش علي ، وخسر من أهل مكة والمدينة والبصرة ممن تبعوا عائشة وأصحابها عدد أكبر من ذلك ، وشذف هؤلاء القتل جراحاً ثير الحقد على علي^٦ ، ثم إن جيوش علي كانت حديثة الصلة به فليس له عليها يد ، وليس معه مال يغدق على الأبطال وينعم على الشجعان ، وإن كان معه مال فليس على بالذي يعطى من مال الله في ضيروجه . وعلى هذا كان مع علي أشد من الناس أكلت منهم الحروب وليس هناك ما يكلم جراحهم . وفي الجانب الآخر من العالم الإسلامي كان يقف معاوية متخذاً من دمشق عاصمة لإمارته التي تولاها منذ عهد عمر بن الخطاب ، وقد أضاف إلى إمارته

(١) من أهم المراجع التي نوصي بقراءتها في هذا الموضوع كتاب « وقعة صفين » لنصر ابن مزاحم الذي حققه الأستاذ عبد السلام هارون .

(٢) هذا هو المشهور في أكثر الروايات ، ويرى ابن عبد ربه أن من مات من جيشه كل كان خمائة فقط أما جيش عائشة فقد خسر منه عشرون ألفاً (انظر العقد الفريد ج ٢ ص ٢٢٦) وذلك تقدير مبالغ فيه فيما اعتد .

التي تولاهما منذ عهد عمر بلداناً أخرى ضمها إليه عثمان ، وهكذا امتدت
 السنون بآبى صفيان في الشام وهو سيامي ضليع ، يعرف الوسيلة إلى قلوب
 الناس عن طريق الدهاء أو العطاء ، والشام بلاد غنية فتيه لم يعرف سكانها
 منذ دخلوا الإسلام أو دخل الإسلام بلادهم حكماً أزهى ولا أطول من حكم
 معاوية ، وانضم حول معاوية آلهة الدهاء في الجزيرة العربية وعلى رأسهم عمرو
 ابن العاص ، كما تجمع حوله بنو أمية أو أكثرهم وكثير غيرهم من بطون
 العرب وقبائلها ، وكان لدى معاوية جيش لا يعرف غيره ولا يطيع سواه ،
 وزاد نفوذ معاوية إبان حكم عثمان فأصبح في الواقع الحاكم الأعلى والمرجع
 النهائي لكل الأمور ، وبينما كان على يخوض معركة الجمل ويفقد من جيشه
 عناصر صالحة ، كان معاوية يقوّي جيشه ويدعمه ، ويفرق على أتباعه المال
 ويشيرهم ضد قتلة عثمان ، وينصب لهم على المنبر فيص الحليفة ملوثاً
 بدمه وقد علقت به أصابع زوجته التي قطعها الدائرون وهي تتلقى عن زوجها
 الضربات ، ويتخذ من ذلك أساساً لفيض من الكراهية ينميه ضد على الذي
 اتهم بأنه كان يحمي القتلة ويستعين بهم ، وكان أهل الشام - كما لا يزالون
 دائماً - يحملون فكرة هامة هي أن إسناد الخلافة إلى على معناه ثبوت الأمر
 لبني هاشم ، وكانوا يرون كما يرى أغلب المسلمين وجميع الباحثين أن الخلافة
 من حق المسلمين كافة لا يختص بها بنو هاشم ، كما أن حياتهم قد طالت وطابت
 في ظل معاوية ، فلماذا لا يحرصون عليه ، ويشدون أزره ، لتدوم لهم هذه الحياة ؟
 في مثل هذا الجو زحف على لمقابلة جيوش معاوية ، والتقى الجيشان في
 موضع سهل على الفرات يقال له صفين ، والحق يقال إن على كان كالمهد به
 دائماً يميل إلى السلم والموادعة ، فقد تغلب أول الأمر أتباع معاوية على لماء
 ومنهوا عنه أتباع على ، فناهضهم على حتى أجلاهم عن الماء ثم لم يمنعهم
 عنه (١) ، وكتب على عدة كتب وأرسل عدة رسل لدعوة معاوية إلى البيعة
 وإلى الاتفاق ، ولكن هل كان سهلاً على معاوية أن يترك ملكاً شامخاً
 ويستجيب لدعوة على ؟

والتقى الجيشان ووقعت المعارك عدة أيام ، وكان من أبرز أنصار على ، القائد العظيم مالك الأشتر واستطاع على ببطولته الشخصيه وبمحاسنه بعض أتباعه أن يكون من جيشه قوة غالبه كسبت له النصر ، ومما ضمن لعلى النصر في هذه الموقعة إيمانه العظيم بالقضاء والقدر ، وأخذه من هذه العقيدة قوة غلاله ولاصحابه ، يروى ابن عديده^(١) أن علياً كان يخرج كل يوم بصفين حتى يقف بين الجيشين ويقول :

أيُّ يومٍ من الموت أفيرُّ يوم لا يُقدَّرُ أو يوم قُدِّرُ
يوم لا يُقدَّرُ لا أرهبه ومن المقدور لا ينجي الحذر

ولما أدرك معاوية هزيمة جيشه صاح بعمر بن العاص : هلم نحباتك يا ابن العاص فقد هلكنا . فتهتف عمرو بجنده : من كان معه مصحف فليرفعه على رجمه . فرفعوا المصاحف وقالوا : كتاب الله بيننا وبينكم ، وكأنما صادف هذا الحتاف هوى في نفوس أتباع علي الذين كانت الحرب قد أرهقتهم . فاستجاب أكثرهم ، وحاول علي أن يثبهم على مواصلة الحرب حتى ينالوا النصر الكامل ولكنهم لم يستجيبوا له وأرغموه على إعلان إيقافها ، ففعل^(٢) ويروى أن بعض أتباع علي ثاروا في وجهه قائلين : القوم يدعوننا لكتب الله وأنت تدعوننا للسيف . وهددوه بأنهم سيقاتلونهم إن لم يتوقف عن قتال المسلمين^(٣)

هل كان مع أهل الشام مصاحف يرفعونها والحرب دائرة ؟ ربما ، ولكن ابن قتبية يروى لنا رواية أقرب إلى المنطق من تلك الرواية الشائعة التي أوردناها آنفاً ، يقول ابن قتبية : إن الهزيمة ظهرت في جيش معاوية وبدأ الوهن ، فقام علي في ليلة من الليالي يتوعد أهل الشام ويذكر أنه سيخوض المعركة بنفسه خذاً ليصل إلى نهاية حاسمة ينجي بها ثمار ما أحرزه جيشه من انتصارات ، فلما بلغ معاوية قول علي هذا استشار عمرو بن العاص فقال له عمرو : إن رجالك

(١) للمقد الفريد ج ١ ص ١٢٣ .

(٢) قلدريخ الطبرى ج ٤ ص ٣٤ وما بعدها .

(٣) الشهر ستاني . الملل والنحل ج ١ ص ١٥٠ .

لا يقومون لرجاله ، ولا أقوم أنا ولا أنت له ، فأنت تقاتله على أمروقاتك على غيره ، وأنت تريد البقاء وعلى يريد القضاء ، وليس يخاف أهل الشام من على ما يخافه منك أهل العراق ، فادعهم إلى كتاب الله فإنك تقضى منه حاجتك قبل أن ينشب نخله فيك . فأمر معاوية أهل الشام أن ينادوا في سواد الليل نداء فيه صراخ واستغاثة يقولون : يا أبا الحسن من للربيتنا من الروم إن قُتِلنا ؟ الله الله البقية ، كتاب الله بيننا وبينكم . وأصبحوا وقد رفعوا المصاحف على الرماح وقلدوها أعناق الخيل^(١) .

وجاءت الهزيمة إلى على من هذا الطريق ، وإن المؤرخ ليستعرض حياة على العسكرية فيجده قد انتصر في المعارك التي خاضها كلها ، انتصر في موقعة الجمل ، وفي موقعة صفين ، وفي مواقعه ضد الخوارج ، ولكنه كان يهزم في مواقف الدهاء ، لأنه فيما اعتقد لم يؤثر الدنيا على الدين ، ولأن أتباعه أشد من كفا وصفنا آنفاً ، ليس له عليهم يد قوية . ولعل ذلك ليس من أخطائه بل من فعل الظروف التي لم يخلقها على ، وقد وضع معاوية أسباب انتصاره على على بقوله : أعنت على على بأربع ؛ كنت رجلاً أكرم سرى وكان رجلاً يظهره ، وكنت في أطوع جند وأصلحه وكان في أخبث جند وأعصاه ، وتركته وأصحاب الجمل وقلت : إن ظفروا به كانوا أهون على منه وإن ظفروا بهم اعتددت بها عليه في دينه ، وكنت أحب إلى قريش منه . فبالك من جامع إلى ومفرق عنه ، وعون لي وعون عليه^(٢) .

التحكيم :

وهكذا توقفت الحرب بين على ومعاوية واتجه الأمر إلى التحكيم وانتفى الرأي على أن يولى أهل العراق حكماً وأن يولى أهل الشام حكماً ، وأن يجتمع الرجلان لبحث أسباب الخلاف رجاء الوصول إلى حل ، وقد ارتضى أهل الشام عمرو بن العاص بإجماع منهم ، واختلف أتباع على ، وقدم أغلبهم

(١) الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٤٠ تستعطي مزيداً من التفاصيل الدقيقة لهذا الموضوع في الجزء الثاني من هذه الموسوعة عند الكلام عن قيام الدولة الأموية .

(٢) المبرد : الكامل ج ٢ ص ٦٩٩ - ٧٠٠ .

أبا موسى الأشعري على غير رغبة من علي ، واجتمع الحكمان في شهر رمضان سنة ٣٧هـ ولم يكن هناك تكافؤ في هذا التحكيم فعمرو بن العاص أستاذ الدهاء في الجزيرة العربية ، وأبو موسى فيه طيبة وبسر : وعمرو يربط مصيره بمصير معاوية وليس كذلك أبو موسى ، وخلفاء عمرو قوة مرحة إن كانت قد هُزمت في المعركة فإن الهزيمة لم تتم ، وقد أعلن اسماء أحرارهم واستعدوا من جديد ، وخلف أبي موسى أشتات متفرقوا الكفاية عطفوا للرأي . وفي الاجتماع دار نقاش طويل يرويه الطبري^(١) والمصمودي^(٢) ، وقد لعب فيه دهاء عمرو دوراً كبيراً وانتهى فيه إلى أن عثمان قتل مظلوماً ، أن من قتل مظلوماً فإن لولييه سلطاناً ، وأن معاوية هو أولى الناس بالمطالبة بدم عثمان . . ثم تحول النقاش إلى اقتراح عزل علي ومعاوية وترك الأمر للمسلمين ليولوا أمرهم من يشاءون ، وقدم أبو موسى الاقتراح فوافق عليه عمرو : وتقدم أبو موسى فأعلن الاقتراح ، وتبعه عمرو فأعلن موافقته على عزل علي وأعلن تثبيتته لمعاوية^(٣)

على أن الناقدين المحققين في العصر الحاضر يميلون إلى الاعتقاد بأن الذي جرى فعلاً هو أن الحكيم خلعا كلا الزعيمين ، وهذا مؤداه أن علياً وحده هو الذي خلع إذ لم يكن معاوية خليفة بعد^(٤) .

وعلى أي حال فإن خبر التحكيم على هذا الوضع يقبله بعض المؤرخين ويرده بعضهم ، وليس هذا الخبر بكبير الأهمية عندى لأنه لم يُردّ به قتل نجيبة مرغية ، وإنما يلجأ له معاوية لينجو من هزيمة بدأت تظهر ، وقد نجا فعلاً من الهزيمة ، وهب أن عمراً قرر فعلاً عزل معاوية فهل كان عزل معاوية موضوعاً يستطبعة عمرو بن العاص أو أبو موسى الأشعري ؟ وهناك تفصيلات مهمة لها صلة بهذا الموضوع أوردناها عند الحديث عن الخوارج في الجزء الثاني من هذه الموسوعة^(٥) .

(١) انظر تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٤٩ وما بعدها .

(٢) انظر مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤ وما بعدها .

(٣) ابن طباطبا ، الفخرى ص ٦٦ (٤) فيليب حتى ، تاريخ سوريا ص ٢٢ .

(٥) ص ٢١٤ وما بعدها .

بعد التحكيم :

كانت نتيجة التحكيم في صالح معاوية لا لإعلان عزل علي وتثبيت معاوية ، ولكن لأن الانقسام بعد التحكيم قد ظهر واضحاً في جيش علي ، وبدأ الخوارج يثرون على علي ويعزلونه لأنه قبل التحكيم^(١) ، والعجيب أنه كان بين الخوارج كثيرون ممن أرغموا علياً على قبول التحكيم ، وكانوا يعترفون بذلك ويقولون لعلي : أخطأنا فلماذا تتبعنا في خطئنا ، وأنت الخليفة يجب أن تكون أبعد نظراً وأعمق رأياً . ولم يكتف الخوارج باعتزال علي ، بل أخذوا يرتكبون الآثام ويعتدون على الناس في العراق ، وحاول علي أن يرشدهم للحق بمختلف الطرق فلم يستطع ، ولم يجد بداً من محاربتهم ، وكان كلما انتصر على جيش منهم ظهر جيش آخر ، وبدأ كبار الصحابة كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر بذهيبن إلى الشام وينضمون إلى معاوية لثبوت أمره ولتوفر الاستقرار عنده ، واستطاع معاوية بدهائه أن يضم مصر إليه بعد معركة قادها عمرو بن العاص ، وتبعاً لما يرويه المؤرخون فلأن الطريقة التي اتبعها معاوية حتى ضم مصر إليه كانت لونا من ألوان دهائه وحذقه السياسي ، ولا شك أنها تحسب - إن صح - من غفلات أمير المؤمنين ، فقد روى المؤرخون أن قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري كان والياً على مصر من قيسل علي بن أبي طالب ، وكان ضابطاً لها ، ولم يستطع معاوية أن يأتيه من أية ناحية من نواحيه ، فأعمل الحيلة ، وانتهى إلى أن تشاع أن قيساً من أنصاره وأنه يعاونه سراً ، وجازت الحيلة على علي وبخاصة أنه كان بمصر جماعة من أنصار عثمان ولكن قيساً وادعهم ، وهم وادعوه ، وهدأت البلاد ، ففهم علي من مواده قيس لهم أنه حقيقة على اتصال بمعاوية وأنه يميل إلى أنصار عثمان ، فعزله ، وعين بدله محمد بن أبي بكر ، ولم يكن محمد في كياسة قيس ، فاشتبك في حرب مع أنصار عثمان ، وزحفت جيوش معاوية بقيادة عمرو بن العاص ومعه معاوية بن خديج ألد أعداء محمد

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٤٦ وما بعدها .

ابن أبي بكر، وانضم جيش عمرو لأهلهاء محمد . وكان انتصر لعمر، وقتل محمد بن أبي بكر^(١)، وهكذا كان أمر علي في نقصان، في حين كان أمر معاوية في ازدياد متصل .

نهاية على :

لم يستقر الأمر على يوماً واحداً طيلة مدة خلافته، وكان يرفع خرقاً فتظهر له ألوان أخرى من البلى . ويظهر الثوب متهاطلا . ومن هنا يبدو النصيب والحظ فيما يعرض من أمور : وبينما كان عليّ يعدّ العدة لحملة جديدة على معاوية كانت هناك مؤامرة ثلاثية تدبر للقضاء على عليّ ومعاوية وعمر بن العاص . ومدير هذه المؤامرة هم ثلاثة من الخوارج اتفقوا على التخلص من الزعماء الثلاثة في ليلة واحدة . فاتجه عبد الرحمن بن ملجم لقتل علي بالكوفة، واتجه البرك بن عبد الله التميمي إلى الشام لقتل معاوية . واتجه عمرو بن بكر التميمي إلى مصر لقتل عمرو بن العاص . وقد نجح ابن ملجم من بين هؤلاء الثلاثة . فطعن علياً بسيفه طعنة قاتلة وهو نأدى للصلاة . وأمسك به المصلون، فلما مات علي قتل ابن ملجم فيه، أما البرك فقد طعن

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ص ٥٥١ - ٥٥٢ وتنسب المراجع التاريخية لمعاوية قصصاً ماثلة لهذه القصة استطاع بها معاوية أن يقص على أعد خصومه، فيروى المبرد أن أحد بطارقة الروم كان شديد الكيد للإسلام : شدة الرغبة في الإيقاع بالمسلمين كلما سحت له فرصة ؛ فعرف معاوية ذلك، فسأل : أي الطرف في أرض المسلمين يجبا هذا الطريق، فلما عرف ما يجبه الطريق أهده له، وتكررت هداية البطريق حتى عرف ما بين معاوية والبطريق من صلة، وظل البطريق مستمرا في الكيد للمسلمين حتى لا يظن أحد أن قبوله هدايا المسلمين ربط بينه وبينهم، ثم إن معاوية كتب لهذا البطريق رسالة جعلها في وضع كأنها سر من الأسرار، وأبدى معاوية في هذه الرسالة رضاه عن سلوك البطريق في تظاهره بالكيد للمسلمين، وأكد له ثقته فيه وفي رسالته الأخيرة التي رسم فيها ما بعده من ثورة على الإمبراطور . وطلب معاوية من حامل رسالته أن يتعرض لأن يظهر الكتاب بطريقة خفية، وضبط الكتاب وصلب البطريق ونجحت مكيده معاوية (انظر السكامل للمبرد ج ١ - ص ٤٥٥) .

معاوية طعنة غير قاتلة ؛ وأما عمرو بن بكر فقد جالس يرقب عمر ابن العاص ليخرج لصلاة الفجر ؛ ولكن هذا لم يخرج لمرض ألم به ، وأتاب عنه خارجة ابن حبيب السهمي ليصلي بالناس فظعن عمرو بن بكر خارجة وهو يحسبه عمراً بن العاص^(١) .

وانتهى بذلك على صاحب أفصح لسان ، وأقوم حسام ، وأعمق عرفان ، بين أتباع الرسول صلوات الله عليه ، وانتهى بعلى عهد الخلفاء الراشدين .

مصرع عمر وعثمان وعلي :

والآن بعد أن تحدثنا عن مصرع كل من هؤلاء الخلفاء على حدة ، وعن اليد الأنيمة التي امتدت لكل منهم ، نحب أن نتحدث عن اللوائح الحقيقية لهذا العدوان ، وعن اليد التي كانت تبعث من وراء ستار فتتحرك أبا لؤلؤة والسبئيين وابن ملجم .

وتكاد النصوص تزيح الستار عن حقيقة مؤلة هي أن الموالى هم الذين دبروا المؤامرات لقتل الخلفاء الثلاثة ، فقد صعب على رؤساء الفرس أن يزول عجلهم وأن ينقل السلطان للعرب ، فدبروا هذه المؤامرات ، لاستعادة السلطان فلم يكن لذلك من سبيل ، بل للثأر لكبريائهم ولأندادهم الذين فتكت بهم أو شردتهم سيوف المسلمين ، وقد وجد رؤساء الفرس من يساعدهم من بين الأتباع الذين كان لهم حاه ومال في النظام القديم وفقدوه في ظل الإسلام ، فاستهانوا بالحياة ، ويروي ابن سعد^(٢) أن أبا لؤلؤة كان من أشد الموالى تعصباً لقومه . وكان كلما مر به صبي من السبي مسح رأسه بيده وقال : أكل كبدي عمر . وقتل أبو لؤلؤة عمر ثاراً لقومه .

ولا تبرأ يد الموالى من قتل عثمان : فإنهم هم الذين أذاعوا الأراجيف ونظموا الدسائس ، ووضعوا الأحاديث ، وحركوا الجموع وقادوهم حتى تمت هذه الجريمة النكراء^(٣) .

(١) ابن مطاطبا ؛ الغفرى في الآداب السلطانية ص ٧٢ - ٧٣ .

(٧) الطبقات ج ٥ ص ٢٦٣٢ .

(٤) انظر الصراع بين الموالى والعرب للدكتور محمد بدیع شریف ص ٣١ .

وعن اغتيال علي يروى لنا المبرد نصاً يربط الحادثة النكراء بالموالى أيضاً ، فقد ذكر أن المؤامرة التي ذهب عليّ ضحيتها لا تختلف عن المؤامرة التي ذهب الخليفة الثاني ضحية لها ، فقد رأس تلك الهرمزان ودبر هذه زداويه فلم تكن مجرد نقمة من الخوارج بل مؤامرة لعبت فيها أيدي الموالى^(١) علي في الميزان :

تحدثنا في مطلع الكلام عن عليّ ، عن الصفات النادرة التي امتاز بها كرم الله وجهه عليّ أنداده . وكذلك تحدثنا عن مواقفه الخالدة مدافعاً عن الإسلام وراداً عنه أعداءه ، وكذلك تحدثنا عن سابقته وفضله وعلمه وفصاحته ، والحديث عن عليّ في هذا المجال طويل ، وربما كان من الحديث المعاد ، فلن تستطيع هذه العجالة أن تلم بما له من فضل ، وأن تحوى ما امتاز به من مكانة سامية في شتى النواحي .

ولاستكمال البحث نورد هنا بعض ما أخذ عليه ، وأهم ما أخذ عليه اعتقاده أنه صاحب الحق الأول في الخلافة بعد الرسول ، وأنه أولى بها دون سائر الناس ، وأن منحها لسواه قبله كان تخطياً له غير مشروع .

وبما أخذ عليه عدم استشارته شيوخ عصره في الأمور ، وإهماله لمشورتهم إن تقدموا بها ، ولما عاتبه طلحة والزبير في ذلك قال لهما : أي شيء جهلته حتى أستشير فيه ؟

وفي قضية عبيد الله بن عمر وقتله الهرمزان (وقد سبق إيرادها) نجد علياً يريد أن يعيد محاكمته وقتله مع أن عثمان قضى فيها منذ اثني عشر عاماً ونحمل مسئوليتها ، ولذلك نجد عبيد الله يهرب إلى الشام وبصير من القادة في جيش معاوية^(٢)

وكان على كثير التشكيك في عماله ، وربما تأثر بالشك فاتهمهم ، ولم يسلم من ذلك عبدالله بن العباس مما جعله يترك البصرة مقر ولايته ويعتزل بمكة ويقول أستاذنا الخضرى : إن من أكبر الأسباب في عدم استقامة الأمر لعلي يرجع إل عقيدته في نفسه ، وثقته المتناهية بما يراة ، واستغنائه عن

(١) المبرد : الكامل - ٢ ص ٥٤٩ : وما بعدها .

(٢) النوى ؛ تهذيب الأسماء القسم الأول - ١ ص ٣١ .

رأى الأشياخ من قريش : وشدة عليهم ، ويقارن أستاذنا الحضري بين عمر وعلى في الشدة فيقول : إن عمر كان يشتد والأمة كلها معه ولكن علياً كان يشتد ومعظم الأمة عليه^(١) .

أما موقف المسلمين من علي فيلخصه الشعبي بقوله : كان علي بن أبي طالب في هذه الأمة مثل المسيح عيسى بن مريم في بني إسرائيل : أحبه قوم فكفروا في حبه ، وأبغضه قوم فكفروا في بغضه^(٢) .

والحمد لله في البدء والختام

وإلى اللقاء في الجزء الثاني

(١) تاريخ الأمم الإسلامية - ٢ ص ٨٤ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد - ٤ ص ٣١٢ .

ثبت المراجع

ملاحظتان :

- ١ - المصادر المذكورة هنا هي التي اعتمد عليها هذا الكتاب ووردت في ذيل صفحاته أما المراجع التي أسهمت بطريق غير مباشر فلم تذكر في هذه القائمة .
- ٣ - رتب هذه المصادر حسب الترتيب الأبجدي لأسماء مؤلفيها ، مع اعتبار الاسم المشهور للمؤلف (فتلا ابن خلدون وليس عبد الرحمن بن محمد) ومع عدم اعتبار [ابن - ال] .

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - مجموعة من كتب التفسير
- ٣ - كتب الأحاديث الستة
- ٤ - مجموعة من كتب الفقه
- ٥ - دراسات موقعية (على الطبيعة)
- ٦ - Encyclopaedia of Islam
- ٧ - بعض المحلات العلمية
- ٨ - ابن أبي أصيبعة طبقات الأطباء
- ٩ - ابن الأثير الكامل في التاريخ
- ١٠ - أحمد أمين ضحى الإسلام
- ١١ - أحمد أمين يوم الإسلام
- ١٢ - أحمد التاجي سيرة النبي العربي
- ١٣ - دكتور أحمد الحوفي : الحياة العربية من الشعر الجاهلي
- ١٤ - دكتور أحمد شلبي (الأجزاء الأخرى من هذه الموسوعة)
- ١٥ - المجتمع الإسلامي
- ١٦ - تاريخ التربية الإسلامية

- ١٧ - دكتور أحمد شلبي تاريخ التشريع الإسلامى وتاريخ النظم القضائية فى الإسلام .
- ١٨ - دكتور أحمد شلبي السياسة فى التفكير الإسلامى
- ١٩ - " " " الاقتصاد فى التفكير الإسلامى
- ٢٠ - دكتور أحمد شلبي الحياة الاجتماعية فى التفكير الإسلامى
- ٢١ - " " " الجهاد والنظم العسكرية فى التفكير الإسلامى
- ٢٢ - " " " مقارنة الأديان « المسيحية »
- ٢٣ - " " " « الإسلام » .
- ٢٤ - What is History : Edward Carr
- ٢٥ - الأزدي فتوح الشام
- ٢٦ - الأزرق أخبار مكة
- ٢٧ - الأصفهاني الأغاني
- ٢٨ - Islam and the Modern Age Iies Lictenstrdter
- ٢٩ - Karl Marx isaiah Berlin
- ٣٠ - A Literary History of Persia Browne
- ٣١ - ابن بشر عنوان المجد
- ٣٢ - البلاذري فتوح البلدان
- ٣٣ - البلاذري أنساب الأشراف
- ٣٤ - البغدادي : عبد القاهر : الفرق بين الفرق
- ٣٥ - البغدادي : محمد أمين : سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب
- ٣٦ - التبريزي شرح المعلقات العشر
- ٣٧ - The idea of History : Collingwood
- ٣٨ - The Caliphate Thomas Arnold
- ٣٩ - The Preachiugbof Islam Thomas Arnold
- ٤٠ - الجاحظ كتاب التاج فى أخلاق الملوك
- ٤١ - الجاحظ البيان والتبيين

الرسالة العثمانية	٤٢ الجاحظ
Muhammadanism	٤٣ — Gibb
مذاهب التفسير الإسلامى «ترجمة الدكتور النجار»	٤٤ — Goldziher
كتاب الوزراء والكتاب	٤٥ — الجهمشيارى
تاريخ العرب قبل الإسلام (الطبعة الأولى)	٤٦ — د . جواد على
تاريخ التمدن الإسلامى	٤٧ — جورجى زيدان
قيمة التاريخ (ترجمة الشيخ نسيب وهبة الخازن)	٤٨ — جوزيف هورس
كشف الظنون	٤٩ — حاجى خليفة
جزيرة العرب فى القرون العشرين	٥٠ — حافظ وهبة
الفصل فى الملل والأهواء والنحل	٥١ — ابن حزم
المحلى	٥٢ — ابن حزم
تهذيب التهذيب	٥٣ — ابن حجر
تاريخ الإسلام السياسى	٥٤ — دكتور حسن إبراهيم
رجال حول الرسول	٥٥ — خالد محمد خالد
تاريخ الأمم الإسلامية	٥٦ — الخضرى
تقييد العلم	٥٧ — الخطيب البغدادى
المقدمة	٥٨ — ابن خلدون
العبر	٥٩ — ابن خلدون
عقيدة الشيعة	٦٠ — دوايت دونالدش
تاريخ الإسلام	٦١ — الذهبى
سير أعلام النبلاء	٦٢ — الذهبى
A Short History of Africa : Roland Oliver and J Fage	٦٣ —
les Religion de l'Afrique Noire : Hubere deschands	٦٤ —
طبقات الشافعية الكبرى	٦٥ — السبكي
الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ	٦٦ — السخاوى
عائشة والسياسة	٦٧ — سعيد الأفغانى
أسرار الحماسة (الطبعة الأولى)	٦٨ — سيد المرصنى

- ٦٩ - سيدير تاريخ العرب العام (ترجمة عادل زعير)
٧٠ - ابن سعد الطبقات
٧١ - A Short History of the Saracens : Sayid Areeer Ali
٧٢ - السيد تافسى أبو العزائم أسرار القرآن
٧٣ - السيوطى تاريخ الخلفاء
٧٤ - السيوطى حسن المحاضرة
٧٥ - الشهرستانى الملل والنحل
٧٦ - صادق غريجون خالد بن الوليد
٧٧ - صلاح الدين المنجد خطط دمشق
٧٨ - ابن طباطبا الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية
٧٩ - الطبرى تاريخ الأمم والملوك
٨٠ - دكتور طه حسين الفتنة الكبرى « عثمان »
٨١ - دكتور طه حسين الفتنة الكبرى « على وبنوه »
٨٢ - دكتور عاتشة عبد الرحمن نساء النبى
٨٣ - عباس العقاد مبادئ الإسلام وأباطيل خصومه
٨٤ - « » عبقرية محمد
٨٥ - « » عبقرية الصديق
٨٦ - « » عبقرية عمر
٨٧ - « » الصديقة بنت الصديق
٨٨ - عباس العقاد فاطمة الزخراء والفاطميون
٨٩ - ابن عبد البر الدرر فى اختصار المغازى والسير
٩٠ - « » الاستيعاب فى معرفة الأصحاب
٩١ - ابن عبد ربه العقد الفريد
٩٢ - ابن عبد الحكم فتوح مصر
٩٣ - عبد الحى الكتانى التراتيب الإدارية
٩٤ - عبد الرموف عوف الفن الحربى فى صدر الإسلام
٩٥ - عبد الرحمن عزام الرسالة الخالدة

- ٩٦ - عبد الكريم الخطيب الله ذاتاً وموضوعاً
- ٩٧ - دكتور عبد المنعم ماجد التاريخ السياسي للدولة العربية
- ٩٨ - عبد المتعال الصبيدي السياسة الإسلامية في عهد النبوة
- ٩٩ - د د د دراسات إسلامية
- ١٠٠ - ابن العبري مختصر تاريخ الدول
- ١٠١ - أبو عبيد الأموال
- ١٠٢ - ابن العربي أحكام القرآن
- ١٠٣ - حروة بن الورد ديوان حروة (طبعة بيروت)
- ١٠٤ - دكتور هز الدين إسماعيل الشعر العربي المعاصر
- ١٠٥ - ابن عساكر تاريخ دمشق
- ١٠٦ - علي بن أبي طالب (الإمام) نهج البلاغة
- ١٠٧ - دكتور علي النشار شهاب الإسلام في عهد النبوة
- ١٠٨ - عمر الدسوقي الفتوة (الطبعة الثانية)
- ١٠٩ - الغزالي الإحياء
- ١١٠ - أبو الفدا المختصر في أخبار البشر
- ١١١ - كولونيل فريدريك تاريخ شرق الأردن وقبائلها
- ١١٢ - Aistory of the Arabs : Philip Hitti
- ١١٣ - فؤاد حمزة قلب الجزيرة العربية (مصر ١٩٣٣)
- ١١٤ - قاسم أمين تحرير المرأة
- ١١٥ - ابن قتيبة عيون الأخبار
- ١١٦ - ابن قتيبة الإمامة والسياسة
- ١١٧ - ابن قتيبة المعارف
- ١١٨ - القزويني آثار البلاد وأخبار العباد
- ١١٩ - القشيري (الإمام) الرسالة القشيرية
- ١٢٠ - القلقشندي صبح الأعشى
- ١٢١ - ابن القيم زاد المعاد
- ١٢٢ - كبرك موجز تاريخ الشرق الأوسط (ترجمة عمر الاسكندري)

- ١٢٣ - كارل بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية
 ١٢٤ - ابن كثير السيرة النبوية
 ١٢٥ - ابن الكلبي الأصنام
 ١٢٦ - الكتدي قضاة مصر
 ١٢٧ - كمال أحمد عوف المرأة في الإسلام
 ١٢٨ - Mahammadan dynasties : Lana Poole
 ١٢٩ - الماوردي الأحكام السلطانية
 ١٣٠ - دكتور محمد بديع شريف الصراع بين الموالى والعرب
 ١٣١ - دكتور محمد حسين هيكل حياة محمد
 ١٣٢ - الصديق أبو بكر
 ١٣٣ - الفاروق عمر
 ١٣٤ - محمد صادق الصدر الشيعة
 ١٣٥ - محمد عبد الله دراز الدين
 ١٣٦ - محمد عبد الله عنان مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام
 ١٣٧ - تاريخ المؤامرات السياسية
 ١٣٨ - مرتضى العسكري عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى
 ١٣٩ - المسعودي مروج الذهب
 ١٤٠ - محمد أحمد جاد المولى أيام العرب في الجاهلية
 ١٤١ - محمد بن أبي الخطاب جمهرة أشعار العرب (المطبعة الرحمانية)
 ١٤٢ - محمد عبده (الإمام) رسالة التوحيد
 ١٤٣ - محمد هاشم عطية الأدب العربي وتاريخه
 ١٤٤ - محمد كرد علي نخطط الشام
 ١٤٥ - الإسلام والحضارة العربية
 ١٤٦ - محمود دياب (دكتور) الطب والأطباء في مختلف العصور
 ١٤٧ - محمود شلتوت الإسلام والعلاقات الدولية
 ١٤٨ - مصطفى الرافعي إعجاز القرآن
 ١٤٩ - د. مصطفى الرافعي الإسلام انطلاق لا بخود

- ١٥٠ - المقریزی الخطط
١٥١ - الميدانی مجمع الأمثال
١٥٢ - Macdonald Muslim Theology
١٥٣ - موریس دیموبین النظم الإسلامية (الترجمة العربية)
١٥٤ - ابن نافیا البغدادی الجمان فی تشبیهات القرآن
١٥٥ - نصر بن مزاحم وقعة صفین ()
١٥٦ - النووی تهذیب الأسماء
١٥٧ - Nicholson A Literary History of the Arabs
١٥٨ - ابن هشام السيرة النبوية
١٥٩ - Heernshaw علم التاريخ (ترجمة الأستاذ العبادي)
١٦٠ - Wasyf Ghali Tradition chevaleresque des Arabs
١٦١ - Wells A Short History of the World
١٦٢ - الهمدانی صفة جزيرة العرب
١٦٣ - الواقدي فتوح الشام
١٦٤ - ياقوت معجم البلدان
١٦٥ - يحيى بن آدم الخراج
١٦٦ - دكتور يوسف خليف الشعراء الصهايلك في العصر الجاهلي
١٦٧ - يوسف عبد الرازق معالم الهجرة

فهرس الأعلام

- ١ — تحاشيا للاطالة لم أضْمَنَ هذه الفهارس أسماء المؤلفين اكتفاء بورودها في ذيل صفحات الكتاب ، وفي قائمة المراجع .
- ٢ — ولم أضْمَنَ هذا الكتاف اسم الرسول صلوات الله عليه ولا أسماء الخلفاء الراشدين (أبى بكر — عمر — عثمان — على) لأن هذه الأسماء الخمسة وردت في أكثر صفحات الكتاب ، مما يجعل إيرادها هنا قليل الجدوى لمن يستعمل هذا الكشف .
- ٣ — رتبت هذه الأسماء ترتيبا أبجديا مع عدم اعتبار الملحقات (ابن — الن) .
- ٤ — حرف « م » يوضع بعد الريم للدلالة على أن الاسم ورد في الصفحة أكثر من مرة .

حرف الألف

أبو الدرداء : ٧٢	أبو أيوب الأنصارى : ٢٧٥ ، ٦٢٩
أبودجانة : ٤٩٧ ، ٤٩٨	أبان بن سعيد : ٥١٧
أبو ذر الغفارى : ٣٠٧ ، ٣١٦ ،	ابراهيم الخليل : ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤
٣٩٨ ، ٣٢٠ ، ٣١٩ ، ٣١٨ ، ٣١٧	عليه السلام : ١١٥ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠
أبى رُوَيْحَةَ القشعمى : ٢٨٤	برهة : ١٠١ ، ١٢٠
أبوسفيان : ١٢٧ ، ٢٣٠ ، ٣٨٩	أبو البخترى : العاص بن هشام :
٤٢٥ ، ٤٧٦ ، ٥٣١	٢٣٣ — ٢٣٠
أبوسلمى الخزومى : ٢١٦	أبو جهل : ٢١٨ ، ٢٣٠ ، ٢٦٩ ،
أبو طالب : ١٨٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٩ ،	٥٦٤
٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ،	أبو حذيفة : ٢١٧ ، ٢٢٥ ، ٤١٠
٤١٢ ، ٢٣٥	

أسعد بن زرارة: ٣٠٩
 أسعد بن أبي طلحة: ٣٢٢
 أسعد بن خضير: ٣٠٩
 الاسكندر المقدوني: ١٠٨، ١٠٩
 اسماعيل (عليه السلام): ٨٨،
 ١١٢، ١١٣، ١١٥
 أساء: ٣٨٢، ٤٠٨، ٦٣١
 أسيد بن خضير: ٥٤٦
 أكنم بن صيفى: ١٩٠
 امامة: ٣٥٩، ٣٦٠
 أم جميل: ٢١٧، ٢١٨
 أم حبيبة: ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٤٦
 أم سلمة: ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٤٠،
 ٣٤١
 أم الفضل: ٢١٦، ٣٣٨
 أم كلثوم بنت عقبة: ٥١٧
 أم كلثوم: ٣٥٧
 امرؤ القيس: ٩٣
 آمنة بنت وهب: ١٨٨
 أمية بن خلف: ١٤٧، ٢٣٠،
 ٤٨١، ٤٨٣
 أمية بن أبي الصلت: ١٦٣،
 ١٦٩
 أنس بن مالك: ٣٥٨، ٣٦٢، ٣٦٤
 أنس بن النضر: ١١٥
 أورليانوس: ١٠٥، ١٠٦
 أوس بن حارثة: ١٧٧
 اياس بن قبيصة: ١٠٨

أبو عامر الراهب: ٤٣٠
 أبو عبيد للثقفى: ٥٩٠، ٥٩١
 أبو عبيدة بن الجراح: ٢١٤،
 ٣١٣، ٣١٢، ٢٢٢
 ٣٩٣، ٣٩١، ٣١٤
 أبولهب: ٢١٧، ٢١٨، ٢٣٠،
 ٣٣٥
 أبو لؤلؤة: ٥١٤، ٥١٥
 أبو محجن الثقفى: ٥٩١، ٥٩٢
 أبو العاص بن الربيع: ٢٨٢
 أبو قحافة: ٤١٧
 أبو مسعود الأنصارى: ٣١٦
 أبو موسى الأشعرى: ٦٤٩، ٦٥٠
 أبو هذيل العلاف: ٤٦٤
 أبى بن خلف الجمحى: ٣٩٣، ٤٩٧
 أبى بن كعب: ٣٠٦، ٤١٤
 الأحنف بن قيس: ٦٤٠
 الأحيمر الأسدى: ١٣٧
 الاخنس بن شريق: ٥٦٤
 أذينة: ١٠٥
 الأرقم بن أبى الأرقم: ٢١٦، ٤٠٨
 إربد بن قيس: ٤٢٨
 أردشير بن بابك: ١٠٨
 أرياط: ١٠١، ١١٩
 أرطوبون: ٦٠٥، ٦٠٦
 إساف: ١٦٧
 أسامة بن زيد: ٢٧٢، ٣٨٦، ٣٩٩

وصتم : ٤٧٠ ، ٥٩١

رقية بنت الرسول : ٢٧٨ ، ٣٣١

الكاهنة رقية بنت نوفل : ١٨٨

رفيدة الانصارية : ٣٣٨

روبرت أوف سانت اليانس : ٢٩١

حرف الزاي

الزبير بن العوام : ٤٤ ، ٢٠٤ ،

٢١٣ ، ٢١٥ ، ٥٩٩

زبراء : ٤١٣

زنوبيا : ١٠٥ ، ١٠٦

زياد بن أبيه : ١٢٢

زياد بن الهيلة : ١٠٩

زيد بن أسلم : ٣٥١

زيد بن ثابت : ٦٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩٣

زيد بن حارثة : ١٩٠ ، ٣٥٦ ،

٣٦١ ، ٣٦٤ ، ٥٦٥

زيد بن الدثنة : ٣٦٧

زيد بن سفة : ٥٦٦

زيد بن عاصم : ٤٩٨

زيد بن علي : ٦٣١

زيد بن عمرو : ١٦٨ ، ١٧٣

زيد بن اللصيت : ٤٣٢

زينب بنت جحش : ٣٣٢ ، ٣٣٣ ،

٣٤٤ ، ٣٥٣

زينب بنت الحارث : ٤٥٣

زينت بنت خزيمة : ٣٣٠

زينب بنت محمد : ٢٧٨

زهير بن أبي سلمى : ١٤١ ، ١٦٠

زهير بن أبي أمية : ٢٣٣

حرف السين

سالم بن عوف : ٢٧٤

سالم مولى أبي حذيفة : ٣٠٥ ، ٢٩٣ ،

٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٢ ، ٣٩٣

سجاح : ٥٦٦ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠

سعد بن أبي وقاص : ٢١٤ ، ٢٩٠

٤٠٧ ، ٤١٣ ، ٦٣٣

سعد بن حنيف : ٤١٤ ، ٤٣٢

سعد بن الربيع : ٢٨٣ ، ٢٨٥

سعد زغلول : ٤٧

سعد بن عبادة : ٤٥١ ، ٥٠٨

سعد بن معاذ : ٢٨٣ ، ٣٠٩

سعيد بن العاص : ٤٤٣

سعيد بن زيد : ٢٢٠ ، ٣١٨

سفانة بنت حاتم : ٤٤١ ، ٤٤٢

سفيان الثوري : ٦٩

سفيان بن حرب : ٢١٧

السكران بن عمرو : ٣٢٨

سلام بن أبي الحقيق : ٤٤٩

سلمان الفارسي : ٥٠١ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧

سلمى بنت عمرو : ١٧٨

سلمى بن الاكوع : ٣٨٢

سلمى بن هشام : ٢١٧ ، ٥٢٧

طلحة بن عبيد الله : ٤٤ ، ٢١٤ ،

٢١٦ ، ٢٢٤ ، ٣٨٩ ،

٤١٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ،

٦١٨

طلحة بن الحسن : ١٥٩

طلحة بن عمرو : ١٥٨

طلحة بن عبد الله بن خنوف : ١٥٩

طلحة بن عبد الله بن عوف : ١٥٩

طليحة بن خويلد : ٥٠٣ ، ٥٦٧

٥٨١ ، ٥٩١

أبو الطمجان القيني : ١٣٤

حرف العين

عائشة : ٤٤ ، ٢٨٢ ، ٣٠٥ ،

٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ،

٣٣٣ ، ٣٥١ ، ٤٢١ ،

٦٢٨ ، ٦٣٤

عاتكة : ٢٣٧ ، ٤٢٦

العاص بن وائل : ٢٣٠

عاصم بن ثابت : ٤٩٠

عاصم بن عمرو : ٣٦١

عامر بن طفيل : ٢٧٧

عامر بن فهيرة : ٢٢٢ ، ٢٧٠

٢٨٧ ، ٤٢٦

عامر بن وائلة : ٦٢٩

عبادة بن الصامت : ٥٩١ ، ٢٦٧ ، ٦٠٥

العباس : ٢١٦ ، ٢٦٦ ، ٣٣٨

٥٣٠

سليط بن قيس الأنصاري : ٥٩٠

٥٩١

سليمان (النبي) : ٩٧

سمية : ٢٢٢

سنياذ : ٥٩٥

سهيل بن عمرو : ٢٧٤ ، ٢٧٥

٤١٣ ، ٥١٧

سودة بنت زمعة : ٢٧٥ ، ٢٨٣

٣٢٩ ، ٣٥٣

سيف بن ذي يزن : ١٠٢ م

حرف الشين

شابور الأول : ١٠٥

شرحبيل بن حسنة : ٥٩٥ ، ٥٩٩

شيبه بن ربيعة : ٢٣٠ ، ٤٨٠

شيبه بن هاشم : ١٨٥ ، ١٩٠

حرف الصاء

صلاح الدين الأيوبي : ٤٧

صفوان بن أمية : ٣٦٧ ، ٥٣٥

صفية : ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٥١

٣٥٢

صفية زغلول : ٤٧

صهيب بن سنان : ٢٦٧

حرف الطاء

الطاهر : ٣٥٥

طعيمة بن عدي : ٣٢٤

طلحة بن أبي طلحة : ٤١٧

- عبد الله بن حذافة : ٥١١
عبد الله بن الزبير : ١١٥ ، ٣٨٤ ،
٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨
عبد الله بن زيد الخزرجي : ٢٩٣
٣٦١
عبد الله بن زيد بن عاصم : ٤٠١
عبد الله بن سبأ : ٦٢٦ ، ٦٢٧
عبد الله بن سعد : ٥٣٣
عبد الله بن سلام : ٣٠١ ، ٣٠٢ ،
٤٤٤
عبد الله بن عامر : ٤٥٨
عبد الله بن عبد الأسد : ٣٣٣
عبد الله بن العباس : ٤٦٢ ، ٤٧٧
عبد الله بن عبد المطلب : ١٧٢ ،
١٨٦
عبد الله بن عمر : ٣٩١ ، ٥١٦
عبد الله بن مسعود : ٦٩ ، ٣٧٤ ،
٤٠٧ ، ٤١٢ ، ٤٨١
عبد المطلب : ١٠١ ، ١١٤ ،
١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ،
١٨٤
عبد الملك بن مهران : ١١٥ ، ٢٨٥
عبد مناف : ١١٩ ، ١٢٧
عبيدة الثاني : ١٠٤
عبد الله بن جحش : ١٦٨ ، ٢٢٥
عبيدة بن الحارث : ٤٠٨ ، ٤٨١
عبيدة بن عمر : ٦١٦ ، ٦٥١
عبد الجليل عيسى : ٢٤٠ ، ٢٦٠
عبد الدار : ١١٩ ، ٢٣٠
عبد الرحمن بن الأسود : ٤٦٧
عبد الرحمن بن أبي بكر : ٦١١
عبد الرحمن بن جابر : ٥٣٩
عبد الرحمن بن عوف : ٢٨٣ ،
٢٨٥ ، ٤١٧ ، ٤٩٧
عبد الرحمن بن ملجم : ٦٥١ ، ٦٥٢
عبد شمس : ١٢٧
الحسين بن عامر : ١٥٥
عبد القيس : ٨١
عبد الله بن أبي ربيعة : ٢٢٦
عبد الله بن أبي بكر : ٢٧٠
عبد الله بن أبي رواحة : ٣٦٤ ،
٣٩١ ، ٤٠٢ ، ٤٢٧ ،
٥٢٥
عبد الله بن أبي سرح : ٦٢٣ ،
٦٢٧
عبد الله بن أبي بن سلول : ٣٦٧
٤١٨ ، ٤٣٢
عبد الله بن جبيرة : ٣٩١ : ٤٣٤ ،
٤٣٦
عبد الله بن خطل : ٥٣٣
عبد الله بن أريقط : ٢٧٢ ، ٢٧٤
عبد الله التميمي : ٤٧٥
عبد الله بن جحش : ٣٩٠ ، ٤٠٨
عبد الله بن جدعان : ١١٦

- عبله : ٥٨٢
عتبان بن مالك : ٢٧٤
عتبة بن ربيعة : ٢٣٠ ، ٢١٧ ،
٤٨٠ ، ٤١١
عتبة بن حصن : ٤٨٩ ، ٥٠٣
عثمان بن الحويرث : ١٦٨ ، ١١١
عثمان بن طلحة : ٥١٥ ، ٥٢٨ ، ٥٣٥
عثمان بن عبد الله : ٣٣٤
عثمان بن مظعون : ٢٢٥ ، ٢٢٦ ،
٤٠٨ ، ٣٢٧ ، ٢٢٧
عداس : ٢٣٧
عدى بن حاتم : ٤٤٠ ، ٤٤١ ،
٤٤٣
عرايه بن أوس : ١٣١
عروة بن الورد : ١٣٣ ، ١٣٥ م
١٣٧ ، ١٣٨
عروة بن مسعود : ٥١٢
عفراء بنت عبيد : ٣٣٥
عقبة بن أبي معيط : ٢٣٦ ، ٤٨١
عكرمة بن أبي جهل : ٥١١ ، ٥٨٠
عمار بن ياسر : ٢٢٢
عمارة بن الوليد بن المغيرة : ٢٣١
عمارة بن عقبة : ٥١٧
عمارة بن يزيد : ٣٢٩
عمر بن لحي : ١٦٦
عمر بن عبد العزيز : ٥٧١
عمرو بن أمية الضمري : ٢٧٨
عمرو بن بكر التميمي : ٦٥١
عمرو بن ثابت : ٤٩٧
عمرو بن جحاش : ٤٤٨
عمرو بن جرموز : ٦٤٠
عمرو بن العاص : ٢٢٦ ، ٢٣٠ ،
٢٩٠ ، ٣١٣ ، ٣٧٢
٣٩٣ ، ٤١٧ ، ٤٢٥ ،
٥٢٨ ، ٥٨٠ ، ٥٩٥
عمرو بن حزم الأنصاري : ٣٢١
عمرو بن عبيد : ٦٤٢
عمرو بن عثمان : ٢١٦
عمرو بن عدى : ١٠٨
عمرو بن عوف : ٢٧٤
عمرو بن كلثوم : ١٧٦ م
عمرو بن قينة : ٤٩٨
عمرو بن معد يكرب : ١٦٠
عمرو بن المنذر بن ماء السماء : ١٧٦
عمرو بن ود : ٣١١
عمير بن سعد : ٤٠٨ ، ٦٢٣
عمير بن عثمان : ٢١٦
عيسى (عليه السلام) : ٢٤
حرف الفين
الغافقي : ٦٣٠
غطفان : ٨٨
حرف الفاء
الفضل بن الربيع : ٢٦

كنانة بن الربيع : ٤٤٩

حرف اللام

ليبد : ١٢٩ ، ٢٣١ ، ٥٦٢
ليلى بنت مهلهل : ١٧٦ ، ١٧٧

حرف الميم

مارية القبطية : ٣٤٧ ، ٣٤٨
مالك بن الأشتر : ٦٤٠
مالك بن عوف : ٥٣٩ ، ٥٤٢
مالك بن كنانة : ١٢٠
مالك بن النجار : ٢٧٤
مالك بن نويرة : ٥٨٠
مانويل : ٦١٩
ماهان : ٦٠٠
المثنى بن حارثة : ٥٩١ ، ٥٩٩
محمد بن أبي بكر : ٦٢٧
محمد بن القاسم : ١٢٢
محمد عبده : ٤٧
محمد بن مسلمة الأنصارى : ٤٨٦
المختار بن أبي عبيد : ٥٩٠
مرارة بن الربيع : ٥٤٧
مردا نشاه : ٥٩١
المرزبان : ١٠٢
مروان بن الحكم : ٦٢٤ ، ٦٢٨
مسافع بن أبي طلحة : ٤٩٠
مسروق بن أبرهة : ١٠١
ابن مسعود : ٧٢

الحمة الزهراء : ٢٨٢ ، ٣٠٦

٣١١ ، ٣٥٧ ، ٣٨٦

٣٩١

فاطمة بنت الخطاب : ٢١٦

فروة بن عمر الجزامي : ٤٦٦

الفيرزان : ٥٩٤

حرف القاف

القاسم : ٣٥٥
قاسم أمين : ٣٣٩
قتيبة بن مسلم : ٤٧٠
قريش : ١٨٣
قس بن ساعدة : ١٦٩ ، ١٩٠
قسطنطين بن هرقل : ٦٠٢
قصي بن كلاب : ١١٦ ، ١١٨ ، ١١٩
قيس بن سعد الأنصارى : ٦٥٠
قيس بن عاصم : ١٤١ ، ١٥٩
قيس بن هبيرة : ٥٩٦

حرف الكاف

كارل ماركس : ١٣٥
كسرى : ١٠٢ ، ١٠٧ ، ٢٢٤
كعب بن أسد : ٤٥١
كعب بن زهير : ٥٣٤
كعب بن الأشرف : ٤٨٥
كعب بن مالك : ٤٩١ ، ٥٤٧
كليب بن ربيعة : ١٥٧ م

- مسعود بن سعد الجزامي : ٤٥٦
 المسور بن مخرمة : ٣٣٦
 مسيلمة الكذاب : ٥٧٨
 مصعب بن عمير : ٣٠٨ ، ٢٦٦ ، ٣١٤ ، ٣١٠ ، ٣٠٩
 المطلب بن عبد مناف : ١٢٧
 المطعم بن عدى : ٢٣٣
 مضاض بن عمرو : ١١٧
 معاذ بن جبل : ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣١٤ ، ٣٢٠
 معاذ بن عفراء : ٢٧٤ ، ٢٧٥
 معاوية : ٦٣ ، ٣١٩ ، ٦٢٩ ، ٦٤٢ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧
 معاوية بن خديج : ٦٥٠
 معبد بن أبي معبد الخزاعي : ٤٩٤ ، ٤٩٥
 معتب بن أبي لهب : ٣٥٧
 المغيرة بن شعبة : ١٢٢ ، ٤٧٠ ، ٥٩١ ، ٥١٤
 مضاض بن عمرو : ١١٧
 المقداد بن الأسود : ٦٠٥
 المقوقس : ٦٠٥ ، ٦٠٦
 مقيس بن حباية : ٥٣٣
 المقنع المروزي : ٥٩٥
 المنذر بن الحارث : ١١٠
 المنذر بن ساوى : ٥٢١ ، ٥٢٢
 المنذر بن ماء السماء : ١٠٨
 ميسرة : ١٨٤
 ميسون : ١٧٨
 ميمونة بنت الحارث : ٣٣٨
 مهران : ٥٩٢
 مهلهل بن ربيعة : ١٥٧
 حرف النون
 نابغة بنى جعدة : ١٥٨
 نائلة : ١٦٧
 النجاشي : ١٠٠ ، ١٠١ ، ١١٩ ، ٢٢٦
 النخیرجان : ١٠٨
 نزار : ٨٨
 النضر بن الحارث : ٤٨١
 نسطورا : ١٩٥
 نسيبة بنت كعب : ٤٩٨
 النعمان بن مقرن : ٥٨٠ ، ٥٩٤
 النعمان بن المنذر : ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٧٨
 نعيم بن عبد الله : ٥٦١
 نعيم بن مسعود : ٥٠٣ ، ٥٠٤
 نوح : ١٦٥
 نوفل بن خويلد : ٢٢٣ ، ٣٩١
 نوفل بن عبد مناف : ١٢٧
 حرف الهاء
 هاجر : ١١٢
 هاشم بن عبد مناف : ١٢٧

ورقة بن نوفل : ١٦٣ ، ١٦٨	هالة بنت خويلد : ٣٥٦
الوليد بن عبد الملك : ٦٣	هيرة الكلابي : ٤٧٠
الوليد بن عتبة : ٤٨٠	هرقل : ٥٩٨
الوليد بن المغيرة : ١٤٧ ، ٢١٧ م ،	الهرمران : ٦١١ ، ٦٤٨
٤١٦ ، ٤١٥ ، ٢٢٦	هرم بن سنان : ١٤١
وهرز : ١٠١ ، ١٠٢	هشام بن المغيرة : ٢٦٥
	هلال بن أمية : ٥٤٧
	هند (أم عمرو بن المنذر) : ١٧٦ ،
حرف الياء	١٧٧
ياسر : ٤٦٣	هند بنت عتبة : ٣١٠ ، ٤٨٤ ،
يزدجرد : ٥٩٤ ، ٥٩٥	٤٩١
يزيد بن أبي سفيان : ٥٩٥ ، ٦٢٠	حرف الواو
يزيد بن معاوية : ١٧٨	واصل بن عطاء : ٦٢٨
يعلى بن أمية : ٦٣٥	الوضين بن عطاء : ١٢٣
يكسوم : ١٠١	وحشى : ٥٨١

فهرس الأمكنة

ملاحظة : تحاشياً للإطالة لم أضْمَنَ فهرس الأمكنة كلمتى « مكة والمدينة »
لكثرة ورودهما فى هذا الكتاب ، مما يجعل إيرادهما قليل الجدوى لمن يستعمل هذا
الكشاف .

الأحقاف : ٨٥ ، ٨٦	حرف الألف
أذربيجان : ٥٩٤	أذرعاع الشام : ٥٨١
أرمينيا : ٦١٩	الأبله : ٥٩٠ ، ٥٤٧
أسبانيا : ٥٨٧	أجنادين : ٥٩٠ ، ٥٩٨ ، ٦٠١
الاسكندرية : ٦٠٦ ، ٦١٣	أحد : ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩٤ ، ٤٩٦
افريقية : ٨٩ ، ٥٨٧ ، ٦٠٣	الاحساء : ٨٦

تشارد : ٥٨	أفغانستان : ٥٨
تياء : ٥١٩	أم دنين (المقدس) : ٦٠٥
حرف الجيم	الأنباط : ١٠٣ ، ٩٤ ، ٨٦ ، ٦٩
الجمرة : ٥٤٢	إندونيسيا : ٩٥ ، ٨١ ، ٥٨ ، ٢٤
جلولاء : ٥٩٢	أنطاكية : ٦٠٣ ، ٦٠٠
حرف الحاء	الأهواز : ٥٩٤
الحبشة : ١٠٠ ، ٨٩	أوطاس : ٨٩
الحجاز : ١٠٣ ، ٩٤ ، ٨١	أيريا : ٥٨٧
الحديبية ، ٤٥٣ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٣	إيران : ٥٧
حصن بابليون : ٦٠٥	حرف الباء
حضر موت : ١٢٤ ، ٩٦ ، ٨٦	باب المندب : ٩٦ ، ٩٥ ، ٧٩
حطين : ٤٥٨	باكستان : ٥٨
حلب : ٥٩٢	البتراء : ١٠٤ ، ١٠٣ ، ٨٦
حلوان : ٥٩٣	البحرين : ٩٨ ، ٨٩ ، ٨٦
حمص : ٦٢٣ ، ٥٩٠	بدر : ٤٧٦ ، ٤٧٥ ، ٣١٩
حماة : ٥٩٢	٤٧٨ ، ٤٧٧
حنين : ٥٣٧	البصرة : ٦٣٩
الحواب : ٦٣٨	برقة : ٦١٩
الحيرة : ١٤٥ ، ٩٣ ، ٨٧ ، ٨٦	بغداد : ٥٧
حيفا : ٥٩٢	البقيع : ٦٤٣
حرف الخاء	بلخ : ٦١٩
خراسان : ٦١٩	بنجلاديش : ٥٨
خيبر : ٤٥٣ ، ٤٥٢	بيت المقدس : ٦٠٥ ، ١٤٤
حرف الدال	حرف التاء
دار الندوة : ١٤٧	تبوك : ٥٤٨ ، ٥٤٤ ، ٧٠
دمشق : (جلق) : ١٠٩ ، ١٠٤ ، ١٠٣	تدمر : ١٠٤ ، ٩٤ ، ٨٦ ، ٦٩
	١٠٥

الطفيلة : ٤٦٦	دومة الجندل : ١٧٠ ، ٥٤٧
طله : ٤٥٢ ، ٤٦٦	حرف الزاي
طيسفون : ٥٩٣	زمزم : ١١٢ م ، ١١٣
حرف الظاء	زنجيار : ٥٨
ظفار : ١٢٤	حرف السين
حرف العين	سبأ : ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩
عدن : ١٢٠ ، ١٢٦	السفال : ٥٥
العراق : ٥٧ ، ٥٨٨	السند : ٥٥٥
العريش : ٥٩٣	سومطره : ٩٨
عسير : ١٢٣	سيناء : ٦٠٣
العقبة : ٢٤١ ، ٢٤٢	حرف الشين
عكا : ٥٩٢	الشام (سوريا) : ٨٩ ، ٩٥ ،
عكاظ : ١٤٦	١٠٩ ، ١٢٤
عمان : ٨٤ ، ٨٦ ، ١٢٣	شرق الأردن : ١٠٣
عين التمر : ٥٩٠	حرف الصاد
عين شمس : ٥٠٦	الصفاء : ١١٢
حرف الغين	صفين : ٦٤٥ ، ٦٤٧
غار ثور : ٢١٣ ، ٢٧١	صنعاء : ١٠٢ ، ١٢٦
غار حراء : ٢١٢ ، ٢١٥	الصومال : ٥٨ ، ٩٨
غزة : ٥٠٢	الصين : ٩٨ ، ٩٩
غزوة : ٦١٩	حرف الطاء
غسان : ٨٦ ، ٩٤ ، ١٤٥	الطائف : ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٧٠ ،
حرف الفاء	٣٩٩ ، ٥٧٧
فارس : ٥٨٨	طرابلس : ٦١٩
فدك : ٤٥٣ ، ٤٥٥	طبرستان : ٦١٩

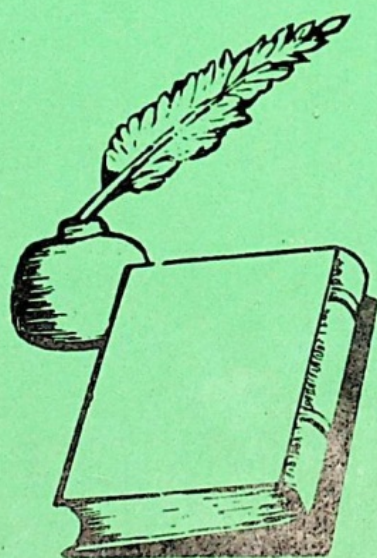
الملايو: ٥٥	الفرما: ٦٠٣
موتة: ٥٨٥	الفراديس: ٥٩٩
موريتانيا: ٥٨	فلسطين: ١٢٤، ٥٩٦
مهرة: ١٢٣، ٨٦	حرف القاف
حرف النون	القادسية: ٥٩١
نجد: ٨٥، ٦٧	قبرص: ٦١٩
نجران: ١٠٠، ٣٠٢	القسطنطينية: ٦٠٢، ٦٠٠
نهاوند: ٥٩٤، ٥٩٥، ٦١١	القليس: ١٢٠
النوبة: ٦١٩	قنسرين: ٦٠٢
النيجر: ٥٨	قم: ٥٩٥
نيجيريا: ٥٨	قناة السويس: ١٥٣
حرف الهاء	قيسارية: ٦٠٢
هراة: ٦١٩	حرف الكاف
الهند: ٩٥، ٩٨	كابل: ٦١٩
حرف الواو	الكرك: ٤٦٧
وادي الأردن: ٦٠٠	كنانة: ١٤٩، ٤٧٦
وادي القرى: ٥١٩	كندة: ٩٣
حرف الياء	الكوفة: ٦٢٣
يافا: ٦٠٢	حرف الميم
اليرموك: ٦٠٠، ٦٠٢، ٦٢٠	ماليزيا: ٥٨
اليمامة: ٥٧٨، ٥٨٠	مالي: ٥٥
اليمن: ٥٧، ٦٩، ٨٦، ٩٤	المدائن: ١٠٣، ٥٩٢
١٤٥، ١٤٠، ٩٥	المروة: ١١٢
	مسقط: ١٢٤
	مصر: ٨٢، ٥٨٧

رقم الايداع : ٣٤٥٧ لسنة ١٩٨١
رقم الايداع الدولي ٩٤ - ٧٠٠١ - ٩٧٧



مطبعة الاسراء

موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية



تأليف
الدكتور أحمد شلبى
دكتوراه من جامعة كامبردج

استاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

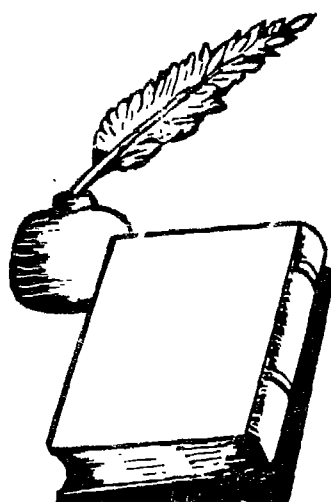
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى - القاهرة

مع إضافات واسعة وتحقيقات جديدة

مَوْشُوعَاتُ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ

٢

الدولة الأموية
والحركات الفكرية والثورية خلالها

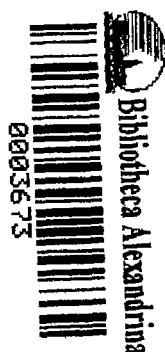


تأليف
الدكتور أحمد شلبي
دكتوراه من جامعة كمبودج

أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
والعائز لوسام « العلوم والفنون » من الطبقة الأولى
لكتاباته فى التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية



مكتبة الشوقى المصرية
٩ شارع عدلى - القاهرة



مَوْسُوقَعَتِ

التاريخ الإسلامى

٠١٣٥٨

وأحضارة الإسلامىة

٩٥٩.٥٩٢

٥٧١

٢٠١٣

١٩٧٢

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة أجزاء لتاريخ العلم الإسلامى كله من مطلع الإسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى أسهم بها المسلمون فى ترقية العمران وتطوير الفكر البشرى

٣

الدولة الأموية

والحركات الفكرية والثورية خلالها

الهيئة العامة للكتاب

تأليف

الدكتور أحمد رشدى

دكتوراه من جامعة كمبودج
أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الطبعة السابعة ١٩٨٤

مع زيادات واسعة وبخاصة عن الإسلام والفرق



٩٥٩.٥٩٢

٣٠

١٥٩٤

الناشر
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى
القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

التاريخ

شعاع من الماضي ينير الحاضر والمستقبل .

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى سنة ١٩٦٠

الطبعة الثانية سنة ١٩٦٦

الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٩

الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٢

الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٨

الطبعة السادسة سنة ١٩٨٢

الطبعة السابعة سنة ١٩٨٤

خطة البحث في هذه الموسوعة

إن خطة البحث التي أتبعها في كتابة « التاريخ الاسلامى » خطة جديدة ومريحة ، ويسرنى أن أبرزها في التخطيط التالى ليعرف القارىء كنهها ، وليسهل عليه متابعتها :

دراسة زمنية في هذه	ج ١	العرب قبل الاسلام — السيرة النبوية العطرة — عصر الخلفاء الراشدين
الأجزاء الثلاثة إذ	ج ٢	الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية خلالها
أن العالم الاسلامى	ج ٣	الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الأول ودور المسلمين خلاله في خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية
وحدة واحدة .		

ثم دراسة مكانية (قطاعات جغرافية) في الأجزاء الخمسة التالية لأن العالم الاسلامى انقسم الى دويلات كثيرة ، ويشمل كل جزء من هذه الأجزاء قطاعا من العالم الاسلامى ، بحيث يتناول تاريخه من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر مبتدئين من الغرب ومتجهين الى الشرق كالخطيط التالى :

الجزء الثامن	الجزء السابع	الجزء السادس	الجزء الخامس	الجزء الرابع
التاريخ الاسلامى للدول الاسلامية غير العربية بآسيا : ايران — افغانستان — الباكستان — بنجلاديش — ماليزيا — اندونيسيا — الاقليات الاسلامية بالصين والاتحاد السوفيتى والهند والفلبين وسنغافورة .	الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق من مطلع الاسلام حتى الآن . حول الجزيرة العربية : المملكة العربية السعودية — عمان اليمن — جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، دولة الإمارات العربية — قطر — البحرين — الكويت — العراق	الاسلام والدول الاسلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخلها الاسلام حتى الآن : دراسة عن — وسائل انتشار الاسلام بقلب افريقية . — الدول الاسلامية قبل الاستعمار الأوروبى . — الدول الاسلامية الحالية : موريتانيا — السنغال — جابيا — غينيا — مالى — النيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال	مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر — الحرب الصليبية : دوافعها — ادوارها — نتائجها — الامبراطورية الممناية (تركيا) منذ ظهورها حتى الآن	الأندلس الاسلامية وانتقال الحضارة الاسلامية منها الى أوروبا — المغرب — الجزائر — تونس — ليبيا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر — السنوسية : مبادئها وتاريخها

ونختم الموسوعة بدراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصرة :

الجزء التاسع : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد نجيب وعصر عبد الناصر
الجزء العاشر : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد أنور السادات

كتب للمؤلف

أولا : موسوعة التاريخ الاسلامي

دراسة تحليلية شاملة في عشرة أجزاء لتاريخ العالم الاسلامي كله من مطلع الاسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التي أسهم بها المسلمون في ترقية العمران ، وتطوير الفكر البشري :

١ — الجزء الأول : (الطبعة الحادية عشرة)

— مقدمة الموسوعة : نطاق التاريخ الاسلامي — تفسير التاريخ — هل التاريخ علم ؟ .. فلسفة التاريخ — فائدة التاريخ — مراحل تدوين التاريخ — قضية الالتزام في كتابة التاريخ الاسلامي — علم التاريخ بين المسيحية والاسلام ...
— تاريخ العرب قبل الاسلام : البدو والحضر — حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

— السيرة النبوية العظيمة : جوانب من السيرة تدون لأول مرة — الدعوة الاسلامية وفلسفتها — عصر الخلفاء الراشدين

٢ — الجزء الثاني : (الطبعة السابعة)

الدولة الاموية والحركات الفكرية والثورية في عهدها .

٣ — الجزء الثالث : (الطبعة السابعة)

الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسي الاول ، ويدور المسلمون في خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية .

٤ — الجزء الرابع : (الطبعة السادسة)

— الاندلس الاسلامية ، وانتقال الحضارة الاسلامية الى اوربا عن طريقها .
— المغرب — الجزائر — تونس — ليبيا (من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر) .
— السنوسية : مبادئها وتاريخها .

٥ — الجزء الخامس : (الطبعة السادسة)

— مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر .
— الحروب الصليبية : دوافعها — ادوارها — نتائجها .
— الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن .

٦ - الجزء السادس : (الطبعة الثالثة)

الاسلام والدول الاسلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخلها
الاسلام حتى الآن :

- دراسة عن وسائل انتشار الاسلام :
- مراكز الشمال - هجرات عربية وغير عربية - التجار - الطرق
الصوفية - مراكز داخلية .
- الدول الاسلامية قبل الاستعمار الاوربي :
- غانة - مالي - صنتي - دول الهوسا - برنو - ياجوسري -
واداي - الفونج - مقدشو - مملكة الزنج .
- الدول الاسلامية الحالية :
- موريتانيا - السنغال - جامبيا - غينيا - مالي - النيجر -
نيجيريا - تشاد - السودان - الصومال - جيبوتي .

٧ - الجزء السابع : (الطبعة الثالثة)

الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق :

- دول الجزيرة العربية من مطلع الاسلام حتى الآن :
- المملكة العربية السعودية - اليمن - جمهورية اليمن الجنوبية -
عمان - دولة الامارات العربية - قطر - البحرين - الكويت .
- العراق من مطلع الاسلام حتى الآن .

٨ - الجزء الثامن : (الطبعة الثانية)

الاسلام والدول الاسلامية غير العربية بآسيا من مطلع الاسلام حتى
الآن :

- ايران - افغانستان - الباكستان - بنجلاديش - ماليزيا - اندونيسيا
الاقليات الاسلامية في الهند والصين وروسيا والفيليبين ..

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر

٩ - الجزء التاسع : (الطبعة الثالثة)

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم . عصر محمد نجيب وعصر جمال
عبد الناصر (عصر المظالم والهزائم) .

١٠ - الجزء العاشر :

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم ، عصر انور السادات . (عصر النجاح
في الشؤون الخارجية والفشل في الشؤون الداخلية) .
(ترجمت أكثر أجزاء هذه الموسوعة لعدة لغات)

كتب المؤلف

ثانيا : موسوعة النظم والحضارة الاسلامية

دراسة تحليلية شاملة في عشرة اجزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية التي جاء بها الاسلام لهداية البشرية في شؤون العقيدة ، والسياسة ، والاقتصاد ، وفي مجال الحياة الاجتماعية والقربوية والعسكرية ، والتشريعية والقضائية ، كما تبرز جهود المسلمين في الحضارة التجريبية ، واجزاؤها هي :

١١ — الجزء الأول : تاريخ المناهج الاسلامية (الطبعة الثالثة)

مناهج التطعيم في صدر الاسلام — انحرافاتهما في عصور الظلام — وجوب تصحيحها .

١٢ — الجزء الثاني : الفكر الاسلامي : منابعه وآثاره (الطبعة السادسة)

١٣ — الجزء الثالث : السياسة (الطبعة السادسة)

في الفكر الاسلامي

مع المقارنة بالنظم السياسية المعاصرة .

١٤ — الجزء الرابع : الاقتصاد (الطبعة السادسة)

في الفكر الاسلامي

مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة . ومع دراسة شاملة للنقاط التالية :

- ١ — الاسلام والمسلمون في مواجهة المشكلة الاقتصادية .
- ٢ — مبادئ الاسلام الاقتصادية .
- ٣ — الاسلام والقضايا الاقتصادية الحديثة (شهادات الاستثمار ...) .
- ٤ — من تاريخ الاقتصاد في الاسلام (بيت المال : موارده ومصارفه ...) .
- ٥ — النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور واثار الفكر الاسلامي فيها .

١٥ - الجزء الخامس : التربية الإسلامية (الطبعة الثامنة)

نظمها - تاريخها - فلسفتها

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين ، ولنماذج التعليم وأمكنته ، وحالة المدرسين المالية والاجتماعية ، والأجساز العلمية ، والعقوبات ، والجوائز ، والمكافآت ، وملابس المدرسين ، ونقابة المعلمين ، وتكافؤ الفرص بين التلاميذ ، وتوجيههم حسب مواهبهم ..

١٦ - الجزء السادس : المجتمع الإسلامي (الطبعة السادسة)

أسس تكوينه .. أسباب ضعفه .. وسائل نهضته

١٧ - الجزء السابع : الحياة الاجتماعية (الطبعة الثالثة)

في الفكر الإسلامي

- في نطاق الأسرة : كالختان وتحديد النسل وعمل المرأة ...

- وفي نطاق المجتمع : كالأفراح والمآتم والموسيقى والفناء ...

١٨ - الجزء الثامن : تاريخ التشريع الإسلامي (الطبعة الثالثة)

وتاريخ النظم القضائية في الإسلام

مع بحوث واسعة عن القرآن الكريم : المصدر الأول للتشريع ومع دراسة شاملة لمصادر التشريع الأخرى

١٩ - الجزء التاسع : الجهاد والنظم العسكرية (الطبعة الثالثة)

في الفكر الإسلامي

بحث علمي يبرز موقف الإسلام من السلم والحرب ، كما يبرز اتجاهات الإسلام في مشكلات الحرب كالاستعداد للجهاد ووسائله ، وأخلاق المجاهد ، والخديعة في الحروب ، والثبات والفرار ، والرباط ، والتجسس والخيانة ، والهدنة والأسرى ..

٢٠ - الجزء العاشر : رحلة حياة (الطبعة الثالثة)

تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الإسلامية

كتب للمؤلف

ثالثا : مقارنة الأديان

سلسلة من الكتب في مقارنة الأديان ، تعتمد على أدق المراجع
بمختلف اللغات ، وتمتاز دراستها بالحيدة والعمق وتشمل :

٢١ — الجزء الأول : اليهودية : (الطبعة السابعة)

— دراسة لشتى المسائل اليهودية : اليهود في التاريخ من عهد
إبراهيم حتى الآن : الصهيونية ، أنبياء بني إسرائيل ، عقيدة بني إسرائيل ،
يهوه اله بني إسرائيل ، التعدد والتوحيد في الفكر اليهودي ، التابوت والهيكل ،
الكنة والقرايين ...

— مصادر الفكر اليهودي : العهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء
صهيون .
— اليهود في الظلام : الماسونية ، والروتاري ، الاغتيال ، التجسس ،
البليّة والبهائية .
— من صور التشريع في اليهودية .

٢٢ — الجزء الثاني : المسيحية : (الطبعة السابعة)

— المسيح والمسيحية في نظر المسلمين واليهود والفكرين الغربيين والكنيسة .
— بولس وأضع المسيحية الحالية ، التثليث ، صلب المسيح للتكفير عن
خطيئة البشر .
— شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، المجامع ،
طبيعة المسيح والآراء فيها ، الطوائف المسيحية ، الرهبنة والاديرة ، خرافة
ظهور العفراء في كنيسة الزيتون ، حركة الاصلاح الديني ونتائجها ونقدها .

٢٣ — الجزء الثالث : الاسلام : (الطبعة السابعة)

— الله في التفكير الاسلامي ، النبوة في التفكير الاسلامي ، غير المسلمين
في المجتمع الاسلامي ، الدين المعاملة ، المرأة في الاسلام ، الرق وموقف الاسلام
منه ، السياسة والاقتصاد في الاسلام .

٢٤ — الجزء الرابع : اديان الهند الكبرى : (الطبعة السابعة)

« الهندوسية — الجينية — البوذية »
— تقديم عن : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات في الهند ، الأديان
في الهند .
— دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا : مهابهارتا : يوجاواسستها ،
كيتا .
— أهم المعتقد الهندية : الكارما والناسخ ، الانطلاق والنرفاتا ، وحدة
الوجود .
— تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ واضعها .

كتب للمؤلف

رابعاً : كتب في الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

- ٢٥ — كيف تكتب بحثاً أو رسالة (الطبعة السابعة عشرة)
دراسة منهجية لكتابة البحوث واعداد رسائل الماجستير والدكتوراه
كتابان باللغة الانجليزية هما :

- ٢٦ ISLAM : Belief - Legislation - Morals
— ٢٧ History of Muslim Education مكتبة النهضة المصرية

وكتب باللغة الاندونيسية والماليزية :

- | | | |
|---------------------------------|---|----------|
| Pustaka National
(Singapore) | negaraN dan Pemerintahan Dalam Islam | — ٢٨ |
| | Masjarakat Islam | — ٢٩ |
| | Hukum Islam | — ٣٠ |
| | Sedjarah dan Kebudajaan Islam | 1 — ٣١ |
| | Sedjarah dan Kebudajaan Islam | 11 — ٣٢ |
| | Sedjarah dan Kebudajaan Islam | 111 — ٣٣ |
| | Perbandingan Agama (Jahudi) | — ٣٤ |
| | Perbandingan Agama (Masihi) | — ٣٥ |
| | Perbandingan Agama (Islam) | — ٣٦ |
| | Perbandingan Agama (Agama2 yang | — ٣٧ |
| | Terbesar di India : Hindu-Jaina-Buddha) | |
| | Sadjarah Pendidikan Islam | — ٣٨ |
| | Politik dan Ekonomi Dalam Islam | — ٣٩ |
| | Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam | — ٤٠ |
| | Perkembangan Keagamaan Dalam Islam | — ٤١ |
| | dan Maschi | |
| | Perang Salib | — ٤٢ |
| | Kurikulum Islam Dalam | — ٤٣ |
| | Perkembangan Sedjarah | |
| | Pengajian Al Quraan | — ٤٤ |
| Sedjarah Kehakiman Dalam Islam | — ٤٥ | |

كتب للمؤلف

خامسا : المكتبة الاسلامية لكل الأعمار

١٠٠ جزء من سير عظماء الاسلام ومن التاريخ والحضارة
وقصص القرآن للأولاد والشباب والسيدات والرجال
ظهر منها الأجزاء التالية :

المجموعة الأولى : السيرة النبوية العطرة :

- | | |
|------|---|
| ج ١ | محمد قبل البعثة |
| ج ٢ | من غار حراء .. الى غار ثور (قصة الاسلام في مكة) |
| ج ٣ | الاسراء والمعراج : دراسة تصحيح للقضاء على الشطحات . |
| ج ٤ | الهجرة للمدينة ووسائل الاستقرار بها |
| ج ٥ | الرسول الداعية ومربي الدعاة |
| ج ٦ | الرسول في بيته : أزواجه — أولاده واحفاده — خدمه |
| ج ٧ | الرسول في بيته : مشكلات الحياة في بيت الرسول وكيف عالجهما |
| ج ٨ | الرسول بين أصحابه — الرسول يربي الفرد المسلم ويربى المجتمع الاسلامي |
| ج ٩ | الرسول يربي القضاة ، ويربى القوة العسكرية ، ويربى الولاة والحكام |
| ج ١٠ | الرسول والشباب — الرسول والعمل |
| ج ١١ | توجيهات طبية يقدمها الرسول — مكرامات للرسول — الرسول والمنافقون |
| ج ١٢ | الرسول والنصارى — الرسول واليهود |
| ج ١٣ | الاسلام والقتال ، وهل انتشر الاسلام بالقوة او بالدعوة — غزوة بدر ودراسات جديدة حولها — أهم أحداث غزوة بدر |
| ج ١٤ | غزوة احد والهزيمة التي أخافت المنتصر — غزوة الأحزاب وكلمة عن سلمان الفارسي |
| ج ١٥ | صلح الحديبية — كتب الرسول للملوك والرؤساء — غزوة مؤتة وبداء الصراع ضد الروم . |
| ج ١٦ | فتح مكة — غزوة حنين والطائف — غزوة تبوك — الفترة الأخيرة في حياة الرسول |

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة :

- ج ١٧ (١) أبو بكر الصديق : حياته وعصره والمشكلات التي واجهها
ج ١٨ (٢) عمر بن الخطاب والتوسع في عهده — عمر باني الدولة
الاسلامية
ج ١٩ (٣) عثمان بن عفان والفتنة في عهده
ج ٢٠ (٤) علي بن ابي طالب : شخصيته وحياته والمشكلات التي
واجهها
ج ٢١ (٥) طلحة بن عبيد الله (٦) الزبير بن العوام
ج ٢٢ (٧) سعد بن ابي وقاص (٨) ابو عبيدة بن الجراح
ج ٢٣ (٩) عبد الرحمن بن عوف (١٠) سعيد بن زيد بن عمرو

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية :

- ج ٢٤ نظرة عامة للقرآن الكريم — طريقة الوحي — نزول القرآن
وتدوينه — أسماء السور وترتيبها — قراءات القرآن — فضائل
القرآن — القرآن والعلم — فضائل قراءة القرآن وحكم
التطريب في أدلته والتكسب به .
ج ٢٥ خصائص القرآن والأصول التي جاء بها لخير الناس في الدنيا
والآخرة — اعجاز القرآن ومظاهر الاعجاز — معجزات
الرسول في ميدان المقارنة .
ج ٢٦ غير العرب والاعجاز البلاغى للقرآن — وجوه الاعجاز في
القرآن — مواجهة واقعية بين العرب والقرآن — التكرار
في القرآن : أسرارہ واعجازه .

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم :

- ج ٢٧ دراسات عن القصص في القرآن — قصة أصحاب الكهف .
ج ٢٨ قصة الرجلين والجنيتين — قصة ذى القرنين وإياجوج
ومأجوج .
ج ٢٩ قصة موسى والخضر — قصة أصحاب الجنة .
ج ٣٠ قصة عزيز — قصة أيوب عليه السلام
ج ٣١ قصة قارون — قصة أصحاب الأخدود .
ج ٣٢ قصة اسماعيل عليه السلام .
ج ٣٣ قصة يوسف عليه السلام .
(الأجزاء التالية ستظهر تباعا إن شاء الله)

(لم تدخل أعداد « المكتبة الاسلامية » ضمن العدد الخاص بكتب للمؤلف)

كتب للمؤلف

سادسا : تعليم اللغة العربية لغير العرب

وقواعد اللغة العربية

- برنامج شامل ميسر لتعليم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب .
- أول سلسلة من نوعها في المكتبة العربية تبلا هذا الفراغ .
- دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف .
- تضم هذه السلسلة الكتابين التاليين :

٤٦ — تعليم اللغة العربية لغير العرب : (الطبعة الثالثة)

يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى : مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة ، فالتعبير ، فالاملاء ، فالخط والنصوص ، ثم يقفز بالطالب الى مرحلة متقدمة في القراءة والحادثة والكتابة ، مستعملا في هذه المرحلة موضوعات جذابة من الفكر الاسلامي والعربي اختيرت من امهات الكتب العربية ثم صيغت في أسلوب مناسب ، مع أسئلة وتمارين مفيدة .

٤٧ — قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها : (الطبعة الثالثة)

عرض لجميع أبواب النحو العربي بطريقة تربوية سهلة ودراسة واضحة لأهم أبواب الصرف

هذا الكتاب ضروري للمثقف العربي وغير العربي

كتب نفدت ولن يعاد طبعتها

- ٤٨ — في قصور الخلفاء العباسيين : أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة .
- ٤٩ — مصر في حربين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) دراسة مقارنة : وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٩ من هذه القائمة .
- ٥٠ — الحكومة والدولة في الاسلام : وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٣ من هذه القائمة .
- ٥١ — الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحي :
- ٥٢ — النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور وأثر الفكر الاسلامي فيها . وأكثر مادة هذين الكتابين تضمنها الكتاب رقم ١٤ من هذه القائمة .

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الأولى — الدولة الأموية (تاريخ يحتاج الى	١٧ — ٢٤
انضمام)	١٧ — ٢٤
مقدمة الطبعة الثانية	٢٥
في التقديم للطبعات التالية	٢٦
الدولة الأموية	
تعريف بالدولة الأموية :	٢٧ — ٣٢
تعريف بخلفاء بني أمية :	٣٤ — ١٠٧
معاوية	٣٤ — ٤٥
صفات معاوية ومبكراته ٣٨ — أعوان معاوية ٤٠	
يزيد	٤٦ — ٥٤
البيعة ليزيد ٤٦ — معاوية والبيعة ليزيد ٤٨ — موقعة الحرة ٥١ — نهاية يزيد ٥٣	
معاوية الثاني	٥٥
مروان بن الحكم	٥٦ — ٥٨
عبد الملك بن مروان	٥٩ — ٧٢
كفائته وأعماله ٦١ — الحجاج بن يوسف : ما له وما عليه ٦٣ — الصراع حول الكوفة ٦٤ — فتنة ابن الأشعث ٦٧ — اصلاحات الحجاج ٦٩ — الحجاز من السياسة للأدب والفن ٧١	
الوليد بن عبد الملك	٧٣ — ٧٦
اصلاحات الوليد الداخلية	٧٤
سليمان بن عبد الملك	٧٧ — ٨٠
عمر بن عبد العزيز	٨١ — ٩١
نموذج غريد	٨٣
يزيد بن عبد الملك	٩٢ — ٩٥
هشام بن عبد الملك	٩٦ — ٩٩

الصفحة	الموضوع
١٠٣ — ١٠٠	الوليد بن زيد
١٠٤	يزيد بن الوليد
١٠٥	ابراهيم بن الوليد
١٠٧ — ١٠٦	مروان بن محمد
١٤١ — ١٠٩	التوسع الاسلامى فى عهد الدولة الأموية :
١١٣ — ١١١	اسباب التوسع وميادينه
١١٩ — ١١٣	الميدان الأول : حروب المسلمين ضد الروم فى آسيا الصغرى
١٣٢ — ١٢٠	الميدان الثانى : حروب المسلمين فى شمالى افريقية والأندلس
١٢٠	شمالى افريقية
١٢٣	انتشار الاسلام بين البربر
١٢٤	الأندلس
١٢٩	المسلمون فى فرنسا
١٤١ — ١٢٣	الميدان الثالث : حروب المسلمين فيها وراء النهر وفى السند
١٣٤	جبهة ما وراء النهر
١٣٩	جبهة السند
٢٩٤ — ١٤٣	الحركات الفكرية والثورية فى عهد الدولة الأموية :
	الشيعية
١٤٦	مقدمة عن نشأة التشيع وأساليبها
١٦٨ — ١٥١	الشيعية ومدعو التشيع
١٦٩	فرق الشيعية وتطور معتقاداتها
١٧٢	الزيدية
١٧٥	الإنفا عثرية
١٨٠	المصممة والتقية والرجصة والمهدية
١٨٢	الاسماعيلية
	ثورات الشيعة :
١٩٥	الحسين بن على
١٩٦	تحركات الحسن وعقب وفاء معاوية
١٩٩	رحلة الحسين ومعركة كربلاء
٢٠٤	رأس الحسين ومخفقوا الآن
٢٠٥	الشيعة زعماء وزعماءهم فى مصر

الموضوع	الصفحة
المؤرخون والمعرفة	٢٠٦
التوابون	٢٠٩
المختار بن أبي عبيد	٢١٢
الزبدية	٢١٩

عبد الله بن الزبير

هل كان لابن الزبير فلسفة ؟	٢٢٢
كيف بنى ابن الزبير مجده	٢٢٤
بدء النهاية	٢٢٩
مزيد من الدراسة عن عبد الله بن الزبير	٢٣٢ — ٢٣٩
نجل ابن الزبير ٢٣٤ — سوء علاقته ببعض	
أهله ٢٣٥ — سوء علاقته بالبيت ٢٣٦	
ابن الزبير وموقعة الجمل ٢٣٧	

الخوارج

نشأة الخوارج	٢٤٠
موقعة النهروان ونتائجها	٢٤٥
نهاية على	٢٤٧
الخوارج في عهد الدولة الأموية :	
في عهد معاوية	٢٤٨
الخوارج والمهلب بن أبي صفرة (في عهد ابن الزبير ثم	
في عهد عبد الملك)	٢٤٩
الخوارج بقيادة قطرى بن الفجاءة	٢٥١
الخوارج وعمر بن عبد العزيز	٢٥٢
الخوارج في آخر الدولة الأموية	٢٥٤
انكار الخوارج :	
(أ) سبب حركات الخوارج	٢٥٥
(ب) ملامح الخوارج الفسالية	٢٦٣
(ج) فرق الخوارج وآراؤها في السياسة والدين	٢٧١
خلافاتهم بعد مساعدتهم عبد الله بن الزبير	٢٧٣
الازارقة	٢٧٥
التجديدات العقائدية	٢٧٦

الصفحة	الموضوع
٢٧٧	الاباضية
٢٧٧	العجلدة
٢٧٨	الصفرية

المعتزلة والمرجئة والجبرية

٢٨١	نشأة المعتزلة
٢٨١	المذاهب التي نشأت حول خلق افعال العبد
٢٨٢	رأى المرجئة
٢٨٤	رأى الجبرية
٢٨٥	رأى جمهور المسلمين
٢٨٨	رأى المعتزلة
٢٩٣	مبادئ المعتزلة
٢٩٧	كلمة ختام عن : الاسلام والفرق
٣٠١	ثبت المرجع
٣٠٦	فهرس الاعلام والأمكن

فهرس الخرائط والمخططات

٣٠	مخطط الأمر الإسلامية التي حكمت في القرون الاولى
٣٣	مخطط لخلفاء بني أمية
	خريطة لحروب المسلمين في الميدان الاول والثاني : آسيا الصغرى
١١٥	والقسطنطينية — شمالي افريقية والاندلس
١٣٦	خريطة لحروب المسلمين في الميدان الثالث : ما وراء النهر — السند
١٦٨	مخطط لفرق الشيعة
٢٧٨	مخطط للمشكلات الدينية التي بحثها الخوارج

مقدمة الطبعة الأولى

تاريخ يحتاج الى إنصاف :

باسم الله العلي العظيم نبدأ دراستنا لتاريخ الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية في عهدها ، ونحن ندرك الصعوبات التي تقابل الباحث وهو مقدم على دراسة تاريخ هذه الحقبة ، فلقد تحالفت ظروف كثيرة على الحط من شأن الأمويين بقصد أو ببدن قصد ، وتكاد المراجع التي بين أيدينا تخلو خلوا تاما من كلمة مدح أو ثناء على أكثر خلفاء هذه الدولة ، أما عبارات القذف والطعن فقد أسهبت فيها كتب كثيرة واقتصدت كتب أخرى ، وكان أيسرها ما اكتفى باللوم والتقريع .

ما الأسباب التي دعت الى ذلك ؟ وكيف الطريق لإحقاق الحق ؟

الاجابة عن ذلك أن بنى أمية وقفوا وجها لوجه أمام بنى هاشم ، وقف معاوية في وجه علي* وصارعه وكتب له النصر ، ووقف يزيد في وجه الحسين وسقط الحسين بسيوف يزيد ، وسقط زيد بن علي بن الحسين وابنه يحيى في معارك ضد جيوش الأمويين ، ولهذه الدماء أثرها لدى الرواة والكتّاب ، فأما رواة الشيعة وكتّابهم فقد وقفوا يعلنون سخطهم على بنى أمية ، ويصفونهم بالقسوة والوحشية ، وأما غير هؤلاء من الرواة والكتّاب فربما لم يروا هذا الرأي ، ولكنهم خافوا شعور الجماهير ، فأثروا السلامة وأغفلوا الموضوع كله أو لم يتعمقوا فيه .

ولا نزاع أن الأمر كان يختلف اختلافا كبيرا لو هب معاوية يتهم ربيلا غير علي* بأنه آوى قتلة عثمان وكون منهم جيشه ، ولو نشط يزيد في وجه ثائر آخر غير الحسين فهزمه ، وهكذا دواليك ، فالمسألة في الحقيقة ليست الا استغلالا لدماء القتلى باعتبارهم من آل البيت ، وأمسك من أساليبهم

« مدعى التشيع » بهذا الأمر ، وحركوا به العواطف ، وكان مدعو التشيع في أغلب فترات ذلك العهد يكوّنون طبقة الغوغاء ، ويثيرون الفوضى للنيل من الاسلام والمسلمين حتى يثأروا لأديانهم وعقائدهم المهزومة ، وكانوا لا ذلاق لهم مع على نفسه ، ومع أبناء على ، فطالما خدعوه ، بل قل إنهم هم الذين قتلوههم بسيفوفهم ولما فرغوا من دمائهم أخذوا ينوحون عليهم أو يتنظ هرون بذلك ، ويطلبون الأخذ بثأرهم كما سنرى فيما بعد .

وطبقة كهذه من الغوغاء كانت مخيفة أزعجت الرواة فلم ينقلوا من مفاخر الأمويين كل ما كان يمكن أن ينقل ، وأزعجت الكتاب فلم يدونوا ما وصلهم من أقوال الرواة ، وضاعت الحقائق التاريخية بين هذا الظلام الذى أسدله على العالم طغيان من أسموا أنفسهم « شيعية أهل البيت » وهم في الحقيقة ألد أعداء أهل البيت وألد أعداء الاسلام .

وسقطت الدولة الأموية قبل عهد التدوين وقامت على أثرها دولة بنى العباس ، وقد مسحت دولة بنى العباس كل ما يمكن أن يكون قد بقى حيا من مفاخر بنى أمية ، وبدلا من ذلك أضفت على تاريخ الأمويين ألوانا من الظلام وصنّوا من التشويه .

ولا نزاع أن العلويين عانوا من بنى العباس أكثر مما عانوه من بنى أمية ، ولكن ذلك لم يدوّن تدوينا كافيا ، لأن بنى العباس امتد بهم العمر وعوّن التاريخ في عهدهم ، فتأثر بسلطانهم ونفوذهم ما كتبه كثير من المؤرخين .

لقد اتهم يزيد بن معاوية بالجهل وسوء السيرة ، واتهم بذلك يزيد ابن عبد الملك وابنه الوليد ، ولا شك أنه وجد بين خلفاء العباسيين والفاطميين من كانوا كذلك ، ومع هذا فقد أسدل التاريخ الستار على كثير من مساوىء هؤلاء ، واهتم المؤرخون بانتقاص بنى أمية باحثين عن أسباب الانتقاص هنا وهناك .

وإذا تركنا هؤلاء الضعاف الذين لا بد من ظهورهم في كل دولة ، فاننا نرفع بعض أسماء الأمويين الى أسمى طبقة بين ساسة العالم كله في مختلف عصوره ، ونضع دون تردد بين هؤلاء أسماء معاوية وعبد الملك ابن مروان والوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز ، وبعض خلفاء الأمويين بالاندلس ، ونقرر دون تردد أيضا أنه قل من يضارع هؤلاء بين خلفاء بنى العباس وخلفاء الفاطميين والأدارسة •

والعجيب أن أغلب المؤرخين المحدثين من مسلمين أو مستشرقين تلقوا ما كتبه المؤرخون الأول على أنه حقائق ، فجاءت أكثر الدراسات الحديثة بعيدة عن الانصاف كما سنشير الى بعضها في هذا التقديم وفي أثناء الدراسة ، وجدد بتأريخ الأمويين أن يكتب من جديد وأن تتخذ أسسه من الواقع ، أى من حضارة الأمويين التي لا تزال تنطق بها دمشق وغيرها من العواصم الاسلامية ومدن الأندلس ، ومن صنوف التفكير التي أنتجها العقل الأموي كالبريد والسكة وتعريب الدواوين وتنظيم الجيوش وغيرها ومن انتصارات الأمويين التي سجلت زحفا للإسلام لا يزال واضح الجانب ، ومن أسس أخرى ستكون عمادنا فيما نقوم به من دراسة •

لقد انتهوا الأمويين بأنهم حكام عرب وليسوا حكاما مسلمين ، واستدلوا على ذلك بأنهم اضطهدوا الموالى ، والعجيب أنه وجد بين المؤرخين الأوروبيين من جذبة هذا الرأي مثل Wellhausen الألماني ولكن هذا الاتهام لا يقوى أمام النقد البريء وأمام الدراسة العميقة ، وحقيقة الأمر أن الفرس انضموا لعلى منذ العهد الباكر وحاربوا جيوش معاوية ، ثم اثاروا الفتن والدمار والتخريب ، واشعلوا ألوانا من الحروب ضد الأمويين وضد المسلمين على العموم ، وكان من نتيجة ذلك أن استحقوا سخط الأمويين •

فالمسألة لم تكن أكثر من دفاع عن النفس وكراهية متبادلة بين الفرس وبين الأمويين ، وكان المقصود من تحدى الفرس للأمويين إضعاف الجبهة الاسلامية ، ولقد كان بسوريا نفسها — موطن الخلافة الأموية — مسلمون

من غير العرب ، وكان بمصر مسلمون من غير العرب ، وكذلك كان في شمالي افريقية ، ولم ينل هؤلاء من سخط الأمويين ما ناله أهل فارس الذين بدعوا الخصومة واستمروا يتلمسون السبل لإشعال نارها .

ومما أخذ على بنى أمية أنهم شرعوا سبباً على بنى أمية طالب في حياته ، فلما مات استمروا على ذلك المنكر . وتساءل الناس : كيف لم يتسع حلم معاوية لذلك الأمر ، فيترك سبب خصمه الذى مات ؟ وقيل في هذا انه — أن عذ عيباً شخصياً — لا يقلل من صلاحية معاوية أو غيره من أبطال بنى أمية للخلافة ، ولا يحط من أقدارهم كقادة وساسة مبرزين ، وربما جاز لنا أن نأخذ الأمر من ناحيته السياسية فنذكر أن بنى أمية اضطروا لذلك اضطراباً ليصرفوا العامة من الناس عن تعلقهم بآل البيت لأنهم آل البيت ، فأخذوا يسيبون علياً لا لشيء إلا لأجل حماية دولتهم ، وقد وضع عبد العزيز بن مروان هذا الأمر في حديث له مع ابنه عمر ، قال عمر بن عبد العزيز : كان أبى عبد العزيز بن مروان يمر في خطبته يهدئها هدئاً ، حتى إذا وصل إلى ذكر أمير المؤمنين على تتعتع ، فسألته في ذلك فأجاب : يا بنى أدركت هذا منى ؟ قلت : نعم . قال : يا بنى أعلم أن العوام لو عرفوا من على ما نعرفه لتفرقوا عنا إلى ولده (١) .

فمثل هذا السبب كان دواء للعوام ، فلا شك أن الذى يترك معاوية على يستطيع أن يجد وسيلة يسبب بها هذا التصرف ، ولكنه من فعل العوام أن يدع رجل معاوية وينضم إلى ولد على لا لكفاءة ، ولا لدهاء سياسى أو مقدرة حربية ، وإنما فقط لأنه ابن على ، وشعور العامة هذا هو الذى دفع بنى أمية ليسبوا علياً ولينسبوا إليه أشياء أغلب الظن أنهم لا يؤمنون بها .

والذى يدعونا إلى التماس العذر كذلك لمعاوية في موقفه من سبب على أن معاوية كان معروفاً بالحلم وغفران السيئات ، فقد اتسع حلمه لعمر بن

الحاضر وجذبه اليه ، وسنرى فيما بعد أن احساس كل منهما نحو الآخر لم يكن وديا ، واتسع حلمه لزياد بن أبيه ، وكان زياد من أتباع على وقد تأبى على معاوية طيلة حياة على ، فلما مات على أمته معاوية واسترضاه وغفر له ، واتسع كذلك للمغيرة بن شعبة الذى كان قد اعتزل الفتنة ، واتسع لمروان بن الحكم الذى كان قد بايع لعلی ، واتسع لغير هؤلاء واتسع حلمه وكرمه للحسن والحسين فلم يمسسهما سوء في حياته ولا نقص شيء مما وعدهما به ، فالذى يجعله يستمر على موقفه من سب على بعد موته انما هو محاولة توطيد سلطانه بصرف العامة عن على وبنيه .

وفي هذا التقديم نذكر المؤرخين وبخاصة المسلمين منهم بألوان الحلم والاصلاح وسعة الصدر التى امتاز بها رجال مثل معاوية وعبد الملك والوليد وعمر بن عبد العزيز ، ونذكرهم كذلك بالزحف الاسلامى الذى قام به هؤلاء فاتحين أو معلمين مبشرين ، فلقد قام الثلاثة الأول بدفع راية الاسلام الى الامام في عدة جبهات حتى أصبحت تخفق على رقعة واسعة من الأرض تسوية الملايين أو مئات الملايين من البشر ، وقام الرابع بمثاليته وصلاحه بجذب هؤلاء الملايين الى الاسلام فاستجابوا أو قل انهم انهالوا وحدهم ينضمون للدين الذى انتج مثل هذا الخليفة النادر ، وقد ضاعت الاندلس التى فتحها الأمويون ولكن ضياعها كان في غير عهد الأمويين ، فالسؤال عن ضياعها أولئك الذين كان في أيديهم حكمها .

ذلك شعاع من النور نبدأ به هذه الدراسة نقصد به إحقاق الحق وتبجيه الدارسين ، الذين يسرون على النهج الذى رسمه الآخرون دون تفكير في دوافعه ، ودون يقظة ذهنية تعيد الأمور الى نصابها ، وما أحوالنا في حياتنا الاسلامية الحاضرة الى خلافة كخلافة بنى أمية تعيد وحدة العالم الاسلامى ، وتعيد قوته التى كانت تهدد أعظم الممالك في ذلك العهد ، ونرى ضوء هذا الشعاع سنسير في دراستنا غير مهادين للأمويين ولكن غير مدافعين أيضا . وانما باحثين عن الحق مهما صادفنا من متاعب أو مبادئ البحث عنه ، فإذا عثرنا عليه أثبتناه فترحين به غير ناظرين لنسواه .

وهذا التقديم يقودنا الى أن ننتقد بقوة ما ذكره Nicholson (١) من أن « المسلمين عدوا انتصار بنى أمية وعلى رأسهم معاوية انتصارا للاستقرارية الوثنية التي شنت العداء على الرسول وصحبه والتي جادها الرسول جهادا طويلا حتى أخضعها لسلطانه » ولسنا ندري من هم المسلمون الذين يعينهم نيكلسون ، فالذى يحدثنا عنه التاريخ بصرامة أنه في أثناء الصراع بين على ومعاوية كانت كفة معاوية تزداد رجحانا يوما بعد يوم ، في حين كانت كفة على تشيل وتضعف ، وأن كثيرين من أساطين المسلمين وفدوا على معاوية وأيدوه لما رأوا من الاستقرار عنده وما كان من الفوضى والتمرد بين أتباع على ، حتى اذا مات على كان طبيعيا أن التفت المسلمون حول معاوية جميعا ، ويثبت معاوية أسباب انتصاره على على فيبين أن منها أنه كان أقرب الى قريش من على ، وتلك حقيقة تكاد تكون واضحة لكل الباحثين في التاريخ الاسلامى ، يقول معاوية : « عُنْتُ عَلَى عَلَى بِأَرْبَعَةٍ : كُنْتُ أَكْتُمُ سِرَّهُ وَكَانَ رَجُلًا يَظْهَرُهُ ، وَكُنْتُ فِي أَصْلَحِ جُنْدٍ وَأَطْوَعُهُ ، وَكَانَ فِي أَجْبَثِ جُنْدِهِ وَأَعْصَاهُ ، وَتَرْكْتُهُ وَأَصْحَابُ الْجَمَلِ وَقُلْتُ : إِنْ ظَفَرُوا بِهِ كَانُوا أَهْوَنَ عَلَىَّ مِنْهُ وَإِنْ ظَفَرَ بِهِمْ طَعَنْتُهُ بِقَتْلِهِمْ ، كُنْتُ أَحَبَّ إِلَى قُرَيْشٍ مِنْهُ » (٢) .

وقد سبق أن أوردنا في الجزء الأول من هذا الكتاب (٣) رأى الأستاذ الخضرى فى على وأنه لم يكن محبوبا من شيوخ عصره لاهماله مشورتهم ولشدة اعتداده بنفسه ، ويختم الأستاذ الخضرى عرضه لهذا الموضوع بقوله : إن من أكبر الأسباب في عدم استقامة الأمر لعلى يرجع إلى عقيدته فى نفسه ، وثقته المنتاهية بما يراه ، واستغنائة عن رأى الأسياف من قريش ، وشدة عليهم ، ويقارن الأستاذ الخضرى بين شدة عمر وشدة على بقوله :

(١) A Literary History of the Arabs p. 139.

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٣٦٦ — ٣٦٧ .

(٣) ص ٦٣٤ من الطبعة الحادية عشرة .

ان عمر كان يشهد والأمة كلها معه ، ولكن عليا كان يشهد ومعظم الأمة عليه (١) .

ويبدو أن نيكلسون قال بهذا الرأي السطحي معتمدا على تأخر بنى أمية في دخولهم الاسلام ، وليس ذلك بمقياس صحيح ، فقد تأخر عمر في دخول الاسلام عن عثمان وسعد وطلحة والزبير .. ولكن ذلك لم يجعل أحدا منهم يرجح عمر ، وقد اعتر المسلمون جميعا وفي قمتهم الرسول صلوات الله عليه بدخول أبى سفيان دين الاسلام ، وكرمه الرسول بأن جعل بيته حراما يجد فيه الناس الأمن والدعة ، ويوم تولى معاوية تبعه الناس جميعا ولكن يوم تولى على هب في وجهه الآلاف هنا وهناك ، وهذا الرأي الذي أوردناه يزكيه فان فلوتن اذ يقول : « كان السواد الأعظم من العرب يرى في حزب بنى أمية حزب الدين والنظام » (٢) .

والطريقة التي اتبعناها في تأليف هذا الكتاب هي الطريقة التي وعدنا بها في الجزء الأول وسرنا على نهجها هناك ، وهي طريقة دراسة الأفكار مجمعة موحدة ، فقد جرت عادة المؤرخين أن يتكلموا عن الفتوحات في عهد معاوية عند الكلام عن معاوية ، وعن الفتوحات في عهد الوليد عند الكلام عن الوليد ، وهكذا ، كما جرت عاداتهم أن يذكروا نشاط الشيعة ونشاط الخوارج مبعثرة تبعا لكل خليفة ، واعتقادى أن هذا تمزيق للفكرة ، وتركيز لكل نشاط الدولة في شخص الخليفة ، ولذلك تحدثت عن الخلفاء فيما يتصل بهم وبمبولهم وأخلاقهم وأعوانهم ، أما الفتوحات فقد جمعت في مكان واحد حيث تحدثنا عن « الفتوحات في عهد الدولة الأموية » فدرسناها في ميادينها المختلفة ميدانا بعد ميدان ، وأما الشيعة والخوارج وغيرهما من الحركات الفكرية والثورية ، فقد نالت كل منها دراسة مستقلة شملت الناحية الفكرية والناحية الثورية ، وذلك يجعلنا أولا نرى الشعوب وما كان لها من

(١) تاريخ الامم الاسلامية ج ٢ ص ٨٤ .

(٢) فان فلوتن : السيادة الربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بنى أمية

ترجمة الدكتور حسن ابراهيم ص ٦٩ .

موجات فكرية وحركات ، ويجعلنا ثانيا نرى الموضوع الواحد في مكان واحد ، فذلك أقرب لنيله والتعمق فيه وأرجو أن تلاقى هذه الطريقة رضا القراء •

والآن هيا بنا الى دراسة فترة تعد في القمة من فترات التاريخ الاسلامي ، هي فترة الخلافة الأموية ، والله المسئول أن يهيئ لنا الهدى والقوة والرشاد وأن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، انه سميع مجيب •

جوكجاكرتا في الثالث من يوليو ١٩٦٠

دكتور أحمد شلبي
مدير المركز الثقافي العربي بجاكرتا
والأستاذ بجامعة اندونيسيا

مقدمة الطبعة الثانية

يسرنى بالغ السرور أن أقدم للقراء الأعزاء الطبعة الثانية للجزء الثانى من « موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية » ، وهو جزء يحوى تاريخ فترة من أهم فترات التفوق العربى والإسلامى ، انها فترة الأمويين بما لها من مآثر خالدة وآثار عميقة .

وموسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية بأجزائها التى ظهرت حتى الآن لقيت عناية المؤرخين والقراء ، وقد كتب لى كثيرون منهم يوجهون الثناء ، ومن الحق على أن أوجه الثناء اليهم ، فان اقبالهم هبوا الذى دفعنى الى مضاعفة الجهد ومحاولة المزيد من الاجادة ، وكتب آخرون يطلبون تحقيق فكرة أو مزيدا من الشرح ، فاستجبت لرغباتهم ما استطعت السبيل لذلك ، اذ لا بد أن يقوم ارتباط بين المؤلف وقرائه .

والحمد لله ، انجح التوفيق ، واهب النعم ، وباسمه تعالى أزف هذه الطبعة للقارئ الكريم بما فيها من تعديلات وزيادات اقتضاها استمرار البحث والتنقيب ودوام الاتصال بالقارئ ، الذى نعمل له ونجد لأرضائه .

والله ولى التوفيق .

المؤلف

فى الرابع من ديسمبر سنة ١٩٦٥

في التقديم للطبعات التالية

- أحق ما أذكره في هذه المناسبة :
- شكر الله على كريم عونه ،
وشكر القارئ على عظيم إقباله ،
ودعوة أن تظل معنا عناية الله وتأييده ،
- ووعده بمضاعفة الجهد في خدمة الدين والوطن باخلاص لا يعرف
التردد ، وإصرار لا يعرف الكلال •
- ومن الزيادات المهمة التي ظهرت في الطبقات المتأخرة ما يلي
- ١ — رأس الامام الحسين وأين مدفنها الآن •
- ٢ — السيدة زينب بنت الامام على وموقفها في كربلاء ومدفنها الآن •
- ٣ — مزيد من التحقيق عن مواقف عبد الله بن الزبير •
ومن الله العلي العظيم نسأل العون والتوفيق •

المؤلف

في الثاني والعشرين من يناير سنة ١٩٨٢

في التقديم للطبعة السابعة

وابتداء من الطبعة السابعة كتبت نقطة شديدة الأهمية هي أن
« الفرق الإسلامية » ليست في الحقيقة إسلامية ،
وليس لها جذور من الفكر الإسلامي ، وإنما هي حركات ظهرت في فترات
الضعف متأثرة بعوامل خارجية ، وليس كالفِرَق في اليهودية أو المسيحية ،
وأرجو أن يتدبر القارئ هذا الرأي الجديد بما يستحقه من عناية •

في الثاني والعشرين من يناير سنة ١٩٨٤

الدولة الأموية

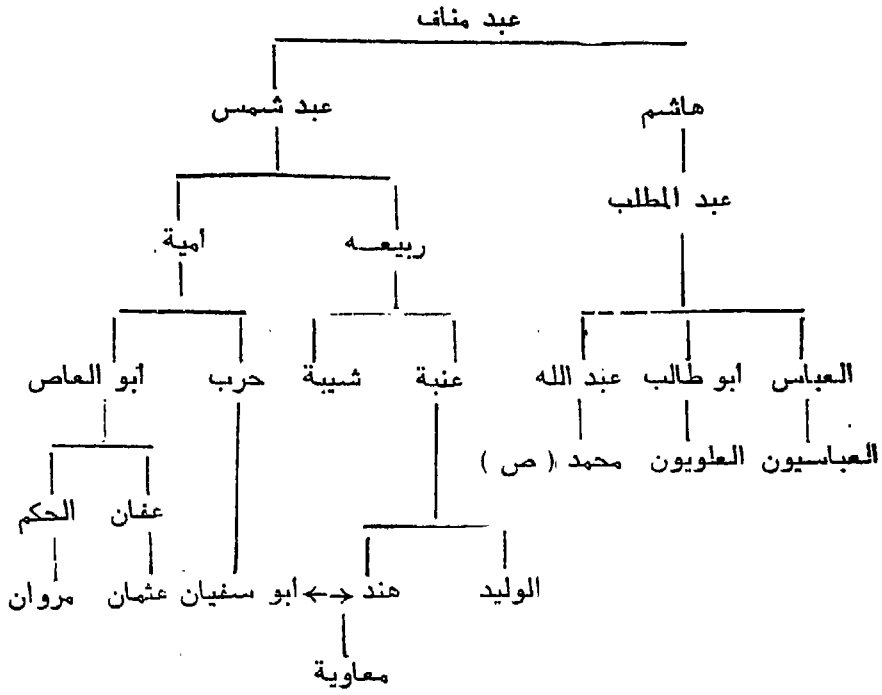
والحركات الفكرية والأدبية خلالها

الدولة الأموية (٤١ — ١٣٢ هـ)

تعريف بها :

تنسب الدولة الأموية الى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وكان أمية هذا سيدا من سادات قريش في الجاهلية ، وكان هو وعمه هاشم ابن عبد مناف متنافسين على الرياسة والشرف ، وقد تجمع لأمية عناصر السلطان في الجاهلية ، فهو منحدر من أرومة مجيدة ، وله مال كثير ، وعشرة من الأولاد النجباء ، وإذا تجمعت هذه الأركان الثلاثة لشخص في الجاهلية ضَمِنَ الشرف السؤدد .

ولما جاء الاسلام تغيرت العلاقة بين بنى أمية وبين أبناء عموماتهم بنى هاشم ، اذ انقلب التنافس الى عدااء ظاهر ، لأن بنى أمية وقفوا موقفا حازما ضد الرسول ودعوته ، وأما بنو هاشم فقد عاونوا الرسول وحرسوه سواء منهم من دخل الاسلام ومن لم يدخل فيه ، وفي غزوة بدر كانت قوة قريش متركزة تقريبا في بنى عبد شمس ، فأبو سفيان كان صاحب العير التي كانت قادمة من الشام الى مكة ولما استنفر قريشا لمساعدته بعد أن عرف أن المسلمين سيقطعون عليه الطريق ، نفر أهل مكة بقيادة عتبة بن ربيعة بن شمس جد معاوية لأمه . وهكذا كان قائد العير وقائد النفير من بنى عبد شمس ، وكانت حينذاك تتمثل في هذا الفرع ، من فروع قريش العزة والاباء ، ولهذا كان يضرب المثل بذلك فيقال للخامل : لست في العير ولا في النفير ، ولم يدخل بنو أمية الاسلام الا بعد أن لم يبق طريق غير الدخول فيه ، عندما زحف محمد بكلف التابعين له المؤمنين برسائلته وقيادته ليدخل بهم مكة .



عبد مناف

الجد الأعلى للأسر الإسلامية التي حكمت في القرون الأولى

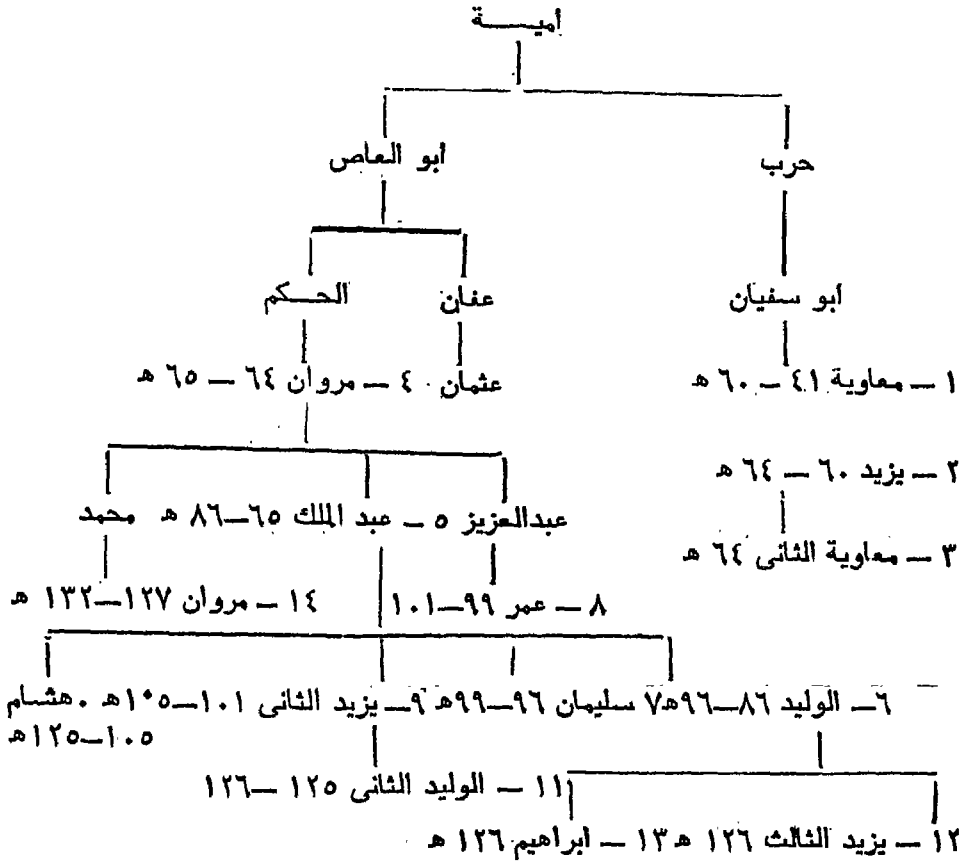
وعلى هذا كان بنو أمية من المتأخرين في دخول الاسلام ، ومن أشد الأعداء له قبل أن يدخلوا فيه ، ولكن ما أن دخلوا فيه حتى أظهروا بطولة رائعة وحماسة بالغة ، وكأنما كانوا يريدون أن يعوضوا ما فاتهم من السابق ، وأن يثبتوا الناس بمواقفهم مع الاسلام ما فعلوه ضده ، فلقد أبلوا بلاء حسنا في حروب الردة والمتنبئين ومانعي الزكاة ، كما كانوا سيوفاً مشهورة وقوى هائلة في زحف الاسلام خارج الجزيرة العربية كما سبق القول في الجزء الأول من هذه الموسوعة ، وحسبنا أن نذكر هنا أن أبا سفيان زعيم بنى أمية فكَّد إحدى عينيه وهو يشترك مع الرسول في مغازيه ثم فقد الأخرى في موقعة اليرموك وهو يقاتل تحت امره ابنه يزيد ، كما كانت هند زوجة أبي سفيان وأم معاوية تشترك في حروب الفتوح ، وروى عنها أنها كانت تصيح في النساء قائلة : عضدوا الرجال بسيوفكم .

وقد تطلع بنو أمية للخلافة منذ عهدا الباكر ، ولكنهم لم يكن لهم فيها أمل في عهد أبي بكر وعمر ، فلما طعن عمر وآسند الشورى لست من الصحابة فيهم عثمان ظهرا أمل بنى أمية ونما ، وأيدوا ترشيح عثمان غلانية وجهارا وفاز عثمان فاتجه بنو أمية الى تأسيس خلافة أموية منذ ذلك الحين ، حتى ليتمكن القول إن الخلافة الأموية بدأت منذ تولية عثمان ، فلقد كان جهد معاوية متجها في عهد عثمان الى تقوية نفسه واعداد الشام ليكون لها مستقبل السلطان الاسلامي . ويروى أن معاوية دخل على أبيه حينما استعمله عمر على الشام . فقال له أبوه : يا بنى ، ان هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا ، فرفعهم سبقهم وقصّر بنا تأخرنا ، فصرنا أتباعا وصاروا قادة ، وقد قلّدوك جسيما من أمرهم ، فلا تخالفن أمرهم فانك تجرى الى أمد لم تبلغه ، ولو بلغت لنتفست فيه (١) ، واستجاب معاوية لرأى والده ونصح به ، فأحسن السيرة ومهد لنفسه في الشام ، ولم ينزل معاوية عن سلطانه بعد مقتل عثمان ، وظل يصارع عليا حتى خر على وانتقلت الخلافة رسميا الى معاوية .

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ ص ١٤ — ١٥ .

ولبنى أمية فرعان كانت فيهما الخلافة ، هما فرع حَرَبِ بن أمية وفرع أبى العاص بن أمية ، وأكثر الخلفاء من الفرع الثانى ، أما الفرع الأول فليس منه الا معاوية وابنه يزيد وحفيده معاوية الثانى ، ولم ينعم يزيد بالملك لحظة ، أما معاوية الثانى فلم يبق فى الملك الا بضعة أيام ، وهكذا ناضل معاوية نضالا طويلا من أجل الخلافة ولما مات لم تستقر الخلافة فى أولاده ، وبذل معاوية جهدا ضخما ليبيع لابنه يزيد من بعده ولكن المشكلات الجسام كانت فى انتظار الابن ، فلم يضعه أبوه فوق السلطان ولكنه وضعه فوق الرعى التى استمرت تدور به دون استقرار حتى سقط ميتا ، فسبحان الله مالك الملك •

خلفاء بني أمية



ومن ملاحظة هذا الجدول يبدو لنا أن خلفاء الدولة الأموية أربع عشرة ومرتبة احدى وتسعون سنة ، وهناك أربعة من الخلفاء كانت مدتهم سبعين عاما هم معاوية وعبد الملك والوليد وهشام ، أما العشرة الباقون فمدة خلافتهم احدى وعشرون سنة فقط .

تعريف بخلفاء بنى أمية :

معاوية (٤١ - ٦٠ هـ)

ولد معاوية قبل الهجرة بحوالى خمسة عشر عاما ، ودخل الاسلام يوم فتح مكة مع من دخل من أهل مكة ، وكانت سنّته آنذاك ٢٣ عاما ، وكان الرسول حريصا على أن يقرب اليه حديثى العهد بالاسلام من عظماء الأسر حتى يضمن اقبالهم على هذا الدين ويتيح لهم الفرصة ليتعمق الاسلام في قلوبهم ، وعلى هذا قرب الرسول إليه معاوية وضمّه الى كتّاب الوحى^(١) ، وقد روى معاوية عن الرسول وعن كبار الصحابة وعن أخته زوجة الرسول أم حبيبة بنت أبى سفيان ، كما روى عنه عبد الله بن العباس وسعيد ابن المسيب وآخرون .

وكان يزيد بن أبى سفيان قائد أحد الجيوش الأربعة التى وجهها أبو بكر لفتح الشام ، وكانت وجهته دمشق ، ولما أراد أبر بكر أن يرسل مددا لهذه الجيوش كان معاوية على رأس المدد الذى أرسله ليزيد ، وحارب معاوية تحت امره أخيه ، وتولى قيادة الفيلق الذى فتح صيدا وببروت وغيرها من سواحل الشام ، ولما تم النصر للمسلمين فى عهد عمر ، ولى يزيد ولاية دمشق ، كما جعل معاوية واليا على الأردن ، وتوفى يزيد فى طاعون عمواس فى عهد عمر ، فضم عمر الى معاوية ولاية دمشق ، وكان معاوية قوى الشكيمة ، أمينا الى أبعد حدود الأمانة ، سياسيا بارعا ، وهذا مما حبه لعمر . ولما جاء عهد عثمان جئمت لمعاوية ولاية الشام كله ، وأصبح حكام الشام تحت أمره يوليهم ويعزلهم ، وظل أميرا عشرين عاما كما أصبح بعد ذلك خليفة عشرين عاما (٢) .

وفى عهد عثمان استطاع معاوية أن يكوّن نفسه ، ويضع الأساس

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٩٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١٩٥ .

للكه . وأن يجعل الشام تحت سيطر المطلق بحيث لا تعرف لها حاكما سواه . فلما قتل عثمان وبويح علي كان الأثران قد آن ليبدأ دور معاوية ، واعتقادي أن معاوية ما كان ينزل عن حكم الشام أيا كان الخليفة الذي يتولى بعد عثمان ، وأيا كان السبب الذي ينتهي حكم عثمان ، مقتولا مات أو مات ميتة عادية .

وهناك حديث مهم جرى بين معاوية وكبار الصحابة إبان الفتنة التي قتل فيها عثمان ، وهذا الحديث يصور لنا ثورة معاوية واستعداداته الكامل لما قد تدفع إليه الأحداث . قال ابن قتيبة يروي هذا الحديث :

قدم معاوية بن أبي سفيان في خلال الفتنة من الشام الى المدينة ، فأتى مجلسا فيه علي بن أبي طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعمار بن ياسر ، فقال لهم : يا معشر الصحابة ، أوصيكم بشيخي هذا خيرا ، فوالله لئن قتل بين أظهركم لأملأنها عليكم خيلا ورجالا ، ثم أقبل على عمار بن ياسر — وكان أشد الناس أثرا على عثمان — فقال له : يا عمار ، ان بالشام مائة ألف فارس كلهم يأخذون العطاء مع أبنائهم وعبدانهم ، ولا يعرفون عليا ولا قرابته ، ولا عمارا ولا سابقته ، ولا الزبير ولا صحابته ، ولا طلحة ولا هجرته ، ولا يهابون ابن عوف ولا ماله . ولا يبتغون سعدا ولا دعوته ، فإياك يا عمار أن تقع في فتنة إن عرِفَ أولها فقد لا يعرف آخرها (١) .

وفي ضوء هذا الاستعداد عارض معاوية خلافة علي ، ووجد الصدر الذي يظهره وهو أنه ولي دم عثمان ، وأن عليا تهاون في الدفاع عن عثمان وأوى قتلته ، وبدأت سلسلة من المعارك أهمها صفين التي هزم فيها معاوية في ميدان القتال ، وانتصر في ميدان الحنكة والسياسة كما قلنا عند الحديث عن علي في الجزء الأول من هذه الموسوعة ، وبعد معركة صفين قامت عدة

مبارك انتقص فيها معاوية ملك على وضيق عليه ، وكان على يعانى عناد خصمه وقوته ، ويعانى عناد الخوارج وقوتهم ، ويعانى فى العراق تمرد أتباعه وتفاقهم وقعودهم عن نصرته ، وفى نفس الوقت كان معاوية مسموع للكلمة ، يعلو شأنه السياسى من يوم الى يوم ، واستراح على من هذه المشكلات عندما طعنه ابن ملجم طعنة قاتلة ، وخلا الأمر لمعاوية .

ويعد مقتل على قامت محاولة ضئيلة ترمى الى البيعة للحسن بن على ، أو قل انه قد بويح فعلا من بعض الشيعة ، ولكن هذه المحاولة سرعان ما انتهت حينما أشيع أن قائده قيس بن سعد بن عبادة قد قُتِلَ ، فإذا ببعض أهل العراق — الذين كانت الفوضى ونكت العهد قد أصبحت من أبرز خصائصهم — ينهالون على بيت الحسن ، يهتكون حرمانه ، وينهبون متاعه حتى تلعغوه بساطا كان يجلس عليه ، ولم يسلم الحسن نفسه من بعض الطعنات من هؤلاء البرابرة العاديين (١) .

على أن الحسن بن على كان قد عاصر المشكلات التى عاناها أبوه ، وعرف الحسن أن أباه لم يستطع أن يتغلب عليها ، وإذا كان البطل عجز عن حل هذه المشكلات فما أخرى الحسن بطلب السلامة ، إيماناً منه أن تيسار الأحداث كان أقوى منه ، على أن صفات الحسن لم تكن تهيئه للخلافة . فلم تكن له ميزة أعظم من أنه ابن على ابى طالب ، وهذه لا تكفى قطعاً لتفيل المكانة ، فلم يكن للحسن علم أبيه ، ولم تكن له بطولة أبيه ، ولم تكن له سلبية أبيه ، ومع هذا غلبت آباء الأحداث ، فأنى للشباب الذى يروى أنه تزوج مائة زوجة (٢) أن يملا هذا الفراغ ، لقد قيل انه كان يجبر على أبيه القاع ويخلق له الأعداء بسبب كثرة الزواج والطلاق حتى أوصى على الناس ألا يتكبحوه بناتهم (٣) ، فكيف يستطيع الحسن أن يقود الناس

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ١٢٢ .

(٢) عقيدة الشيعة ص ٨١ وفى تاريخ الخلفاء للسيوطى (ص ١٦١) أن زوجته كن سبعين ، لها سرورية تكن مثلت ، واعتقداً أن هذه الأرقام مبالغ فيها وأنها من وضع أعدائه ، ولكن يبدو أنه كان كثير التزوج على أى حال .

(٣) عقيدة الشيعة ص ٩٠ .

ويوجه الأمور ؟ لذلك نجده يقنع بشروط اشترطها لنفسه ولذويه ، ويتعهد بالتنازل عن حقه في الخلافة اذا قبل معاوية هذه الشروط وهي :

- ١ — ألا يأخذ معاوية أحدا من أهل العراق بإحنة •
- ٢ — وأن يؤمن الأسود والأحمر ، ويحتمل ما يكون من هفوات الناس •
- ٣ — وأن يجعل له خراج الأهواز مسلما كل علم •
- ٤ — وأن يحمل الى أخيه الحسين ألفى ألف درهم •
- ٥ — وأن يفضل بنى هاشم في العطاء على بنى شمس (١) •

ولم تكن هذه الشروط موضع نظر من معاوية ، فانه كان مستعدا أن يعد بأي شيء نظير تنازل الحسن ، ولذلك يقال انه عندما عرف ميل الحسن للصلح على أساس التنازل نظير شروط ، أرسل له صحيفة بيضاء ممضاة ليكتب فيها ما يشاء من شروط •

وتم الصلح على هذا الأساس وتنازل الحسن لمعاوية وأعلن أنه سامع له مطيع (٢) •

ودخل معاوية الكوفة بعد ذلك (ربيع الثاني سنة ٤١ هـ) حيث التقى الحسن ومعاوية ، وبايع الناس معاوية ، وبايع معهم الحسن والحسين ، وسُمّي ذلك العام عام الجماعة لاجتماع الناس فيه على خليفة واحد ، وعاد معاوية بعد ذلك الى دمشق حيث اتخذها عاصمة للخلافة بعد أن كانت عاصمة امارته ، وعاد الحسن وأسرته الى المدينة وبقي بها حتى توفي سنة خمسين أو احدى وخمسين ، ويقال أنه توفي مسموما ، وأن زوجته هي التي سمته بإيعاز من يزيد بن معاوية حتى يخلو له الجو بعد معاوية ، ولكن ذلك

(١) عقيدة الشيعة ص ٨٦ •

(٢) تاريخ الطبري ج ٤ ص ١٢٤ •

الاتهام لم يثبت ، فقد روى أن الحسين جهد به ليخبره عن سقاه ، فأجاب :
الله أشد نقمة ان كان الذي أظن ، والا فلا يقتل بى برىء (١) .

ويروى ابن قتيبة قطعة من الأدب الرفيع تتصل بموت الحسن ، قال :
لما بلغ معاوية خبر موت الحسن أظهر فرحا وسرورا ، فلما عرف عبد الله
ابن العباس ذلك دخل على معاوية ، فقال له معاوية : يا ابن عباس ، هلك
الحسن . فأجاب ابن عباس : نعم هلك ، انا لله وانا اليه راجعون ، وقد
بلغنى الذى أظهرت من الفرح والسرور لوفاته ، أما والله ما سد جسده
حفرتك ، ولا زاد نقصان أجله فى عمرك ، ولئن أصبنا به لقد أصبنا بهن
كان خيرا منه ، جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجير الله مصيبيته ،
وخلف علينا من بعده أحسن الخلف . وبكى ابن عباس وبكى الحاضرون
جميعا ، قال معاوية : كم ترك بنين صغارا . قال ابن عباس : كلنا كان
صغيرا فكبر . قال معاوية : كم له من العمر ؟ فأجاب ابن عباس . الحسن
أعظم من أن يجهل أحد مولده . قال معاوية : أصبحت يا ابن عباس سيد
قومك . قال ابن عباس : أما ما أبقي الله أبا عبد الله الحسين فلا . قال
معاوية : لله أبوك يا ابن عباس ما استنبأتك الا وجدتك مستعدا (٢) .

صفات معاوية ومبتكراته :

وصفات معاوية أهملته للنجاح فى المنصب الكبير الذى تولاه ، فمنصب
الحاكم يحتاج الى حزم أحيانا وإلى سماحة أحيانا أخرى ، وكان معاوية
موهوبا فى الناحيتين ، يقول ابن طباطبا (٣) : كان معاوية جيد السياسة ،
حسن التدبير لأمر الدنيا ، عاقلا حكيما ، فصيحيا بليغا ، يحلم فى موضع
الحلم ويشد فى موضع الشدة ، الا أن الحلم كان أغلب عليه ، وكان كريما

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٩٢ .

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ١ ص ١٦٦ — ١٦٧ .

(٣) النخري فى الادب السلطانية والدول الاسلامية ص ٩٢ — ٩٣ .

بأذلا للبال محبا للرياسة مشغوبا بها ، حسن الصلاة بأفذاذ رعيته ، فلا يزال أشراف قريش مثل عبد الله بن العباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله ابن عمر ، وعبد الرحمن بن أبي أسكر ، وأبان بن عثمان بن عفان ، وناس من آل أبي طالب يقدون عليه بدمشق فيكرم فتواهم ويحسن قراهم ويقضى حوائجهم ولا يزالون يحدثونه أغلظ الحديث ويجيبونه أقبح الجبه وهو يداعبهم تارة ويتغافل عنهم أخرى ، ولا يعيدهم الا بالجوائز السنوية والصلوات الجمية . ومن حلمه أنه قال يوما لقيس بن سعد بن عبادة : يا قيس ! والله ما كنت أود أن تتكشف الحروب التي كانت بيني وبين على وأنت حي . فأجابه قيس : والله اني كنت أكره أن تتكشف هذه الحروب وإن كنت أمير المؤمنين . فلم يقل له شيئا . ومما أثر عن معاوية قوله : اني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت ، كانوا اذا شدوها أرختها . واذا أرخوا شددتها (١) .

ويرى البرد (٢) فلسفة لمعاوية في معاملته خصومه اذ يقول : اني لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وان لم تكن الا كلمة يشتقى بها مشتف جعلتها تحت قدمي ودبر أذني . ووصفه عبد الله بن العباس فقال : ما رأيت أليق من أعطاف معاوية بالملك والرياسة ، ومر عبد الملك بن مروان بقبر معاوية فأكثر الترحم عليه ، فقيل له : قبر من هذا ؟ فأجاب قبر رجل كان والله ينطق عن علم ويسكت عن حلم ، كان اذا أعطى أغنى واذا حارب أغنى (٣) . ويروى عن معاوية قوله : اني لأرفع نفسي عن أن يكون ذنب أعظم من عفوي ، وجهل أكثر من علمي ، وعورة لا أداريها بستري ، واساءة أوسع من احساني . ويروى عنه قوله كذلك : ما من شيء ألد عندي من غيظ أتجرعه (٤) .

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ ص ٢٩ .

(٢) الكامل ج ١ ص ٦١ .

(٣) الفخرى لابن طباطبا ص ٩٥ — ٩٦ .

(٤) الطبري ج ٤ ص ٢٤٨ .

وقد انتكر معاوية في خلافته أشياء لم يسبق إليها ، فهو الذى أمر أن ترفع الخراب بين يديه ، وهو الذى وضع المقصورة ليصلى بداخلها فى المسجد ليأمن هجمات الأعداء عليه حين صلاته ، وقد كان ذلك يسبب قنطرا ، عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وهما يصليان (١) * ومن ميكرات معاوية كذلك ترقية نظام البريد بحيث كانت الخيل المضمرة تتقدم مستعدة فى مراكز على طول الطريق ، فيركب صاحب البريد واحدا منها ويسرع به حتى يصل الى محطة أخرى فيستبدل به غيره ويتركه ليستريح وهكذا ، وأنشأ معاوية كذلك ديوان الخاتم (٢) *

أعوان معاوية :

ومن أعوان معاوية الذين اعتمد عليهم فى تذليل الصعاب وكبح جماح المتمردين عليه عمرو بن العاص ، وقد مر بعض الحديث عنه ، ولكننا نضيف نقطة مهمة توضح فطنة معاوية ودهاءه ، تلك أن أحاسيس عمرو تجاه معاوية لم تكن ودية ، ولا كانت أحاسيس معاوية ودية تجاه عمرو ، ولكن ادراك معاوية أن عمرا أحد الدهاة المشاهير وحاجته لمثل هذا الداهية ، وادراك عمرو أنه يستطيع أن يجنى ثمار ما يقدمه لمعاوية من خدمات ، هذا الادراك من الداهيتين جعلهما يتعاونان ويتبادلان المنفعة ويخفى كل منهما ما فى نفسه تجاه الثانى ، وقد كان ذلك الاحساس المكتنون يظهر من حين لآخر ، ولكن كلا منهما كان من القوة والفطنة بحيث يستطيع أن يعيد هذا الاحساس الى ستره ومخبئه * حدث ابن طباطبا (٣) قال : « ومن دهاء معاوية استمالته لعمرو بن العاص أحد الدهاة المشاهير ، وقد كان عمرو عندما نشبت الفتنة بين على ومعاوية معتزلا الفريقين ، فرأى أن يستميله

(١) المرجع السابق ٩٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٤ وصبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٦٨ وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٠٠ والسياسة فى الفكر الاسلامى للمؤلف ص ١٥٦ وما بعدها .

(٣) الفخرى ص ٩٣ .

ويتقوى به ، ووعده ولاية مصر ، ومصر كانت الأمل الذي تهنؤ له نفس ابن العاص ، وبهذا انضم عمرو الى معاوية وساعده بمساعدة كبيرة مع أن لم يكن بينهما مودة قلبية ، وكان يتباغضان سرا ، وربما ظهر ذلك على صفحات وجهيهما وفلتات ألسنتهما ، ومما يدل على ذلك أن معاوية سأل يوما جلساءه وفيهم عمرو : ما أعجب الأشياء ؟ فكانت اجابة عمرو قوله : أعجب الأشياء أن المبطل يغلب المحق • وكان بذلك يعرض على ومعاوية ، فقال معاوية يرد عليه : بل أعجب الأشياء أن يعطى الانسان ما لا يستحق اذا كان لا يخاف • وكان معاوية بذلك يعرض لعمرو وولاية مصر • ومع ما كان بين الاثنين فقد اتسعت نفس معاوية لعمرو واستفاد منه وأفاده •

ومما يدل على ذلك أيضا ما رواه الطبرى (١) أن عليا شق الجموع في موقعة صفين حتى أصبح على مقربة من معاوية ، ثم صاح به : يا معاوية علام يفتل الناس بيننا ؟ هلم أحاكمك الى الله فأبنا قتل صاحبه استقامت له الأمور • فقال عمرو لمعاوية : أنصفك الرجل • فقال معاوية لعمرو : ما انصفت اذ حشنتى على مبارزته وانك لتعلم أنه لم يبارزك رجل قط الا قتل • قال عمرو : ولكن لا يجعل بك الا مبارزته • فأجاب معاوية : طمعت فيها يعدى •

ويروى الطبرى (٢) كذلك أنه لما بايع الحسن معاوية وهذيل هذا الكوفة واجتمع بالناس في المسجد أراد معاوية أن يخطب الناس فأنشأ عليه عمرو أن يقدم الحسن ليخطب الناس ، ولكن معاوية كان سيء الظن بعمرو فقال له : أما تريدينى أن أخطب الناس ؟ فأجاب عمرو : بلى ، ولكنى أريد أن يدعو عى الحسن للجاهل ، والى على معاوية فاستجاب وقبحم الحسن ، فأجاد هذا فى خطابه القصير وغمز فيه معاوية وختم خطابه بقوله

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٢٩ ، ونظر كذلك الإلمية والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ١٠٢ .
(٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ١٢٤ .

تعالى « وان أدري لعله فتنة لكم ومتاع الى حين » (١) فاعتناظ معاوية من عمرو وقال له : هكذا أردت يا ابن العاص .

ولما كمل الأمر لمعاوية أعطى مصرَ لعمرو طعمة له جزاء خدماته ، فظل واليا عليها حتى مات سنة ٤٣ هـ ، وبعده ولاها معاوية عبد الله بن عمرو ابن العاص فبقى واليا عليها حوالى سنتين (٢) .

ومن أعوان معاوية كذلك المغيرة بن شعبة وزباد بن أبيه وعبيد الله ابن زياد .

والمغيرة بن شعبة كان والى الكوفة لمعاوية ، والكوفة والبصرة أكثر البلاد عداً للأُمويين ، ولذلك كان يختار لهما أقوى الولاة وأكثرهم إخلاصاً ، وكان المغيرة من أحسن الولاة الذين ساسوا الكوفة لأنه استطاع أن يضمن الطاعة لأمير المؤمنين بأقل ما يمكن من الضحايا والدماء ، وقد وضع سياسته بقوله : لا أحب أن أبدأ أهل المصر بقتل خيارهم وسفك دمائهم فيسعد الخليفة بذلك وأشقى ، ويعز في الدنيا معاوية ويذل المغيرة في الآخرة ، ولكنى قابل من محسنهم ، وعاف عن مسيئتهم ، وحامد حليمهم ، وواعظ سفاههم ، حتى يفرق بيننا الموت : ولكن يؤخذ على المغيرة استمراره على الطعن واللعن له ، ولعل ذلك كان اتباعاً لسياسة ذلك العصر . وقد ظل المغيرة واليا على الكوفة حتى مات سنة ٥١ هـ فضم معاوية ولاية الكوفة الى والى البصرة ذى اليقظة الحديدية والقلب القاسى زياد بن أبيه .

وزياد بن أبيه هذا كان واليا لعلى على فارس ، وقد حاول معاوية أن يستميله في حياة على فلم يستطيع ، فلما قتل على خشي زياد على نفسه فاعتصم بفارس ولم يبايع ، ورأى معاوية أن يتغلب عليه بالحكمة فأرسل اليه المغيرة بن شعبة وما زال به حتى بايع بعد أن أرسل اليه معاوية كتاب أمان .

(١) سورة البقرة الآية ٣٦ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ١٣٧ - ١٣٨ .

ويعرف زياد هذا بزياد بن أبيه أو بزياد بن سمية نسبة إلى أمه سميا ،
اذ لم يكن له أب معروف ، فقد جعلت به أمه نتيجة انفصال غير شرعى ،
ويقال إن أبا سفيان اعترف ببيع موته بحضرة بعض المشركين بأنه الذى
اجتمع بأمر زياد ، وزياد على كل حال ليس مسئولا عن هذه الجريمة التى
ارتكبها أمه أو ارتكبها الرجل الذى انفصل بأمه ، ووجب الله زيادا براءة
فائقة وبطولة فادرة ، مما حدا بأبى سفيان أن يعترف بأنه أبوه . ولكن
نسب زياد إلى أبى سفيان لم يثبت الا فى عهد معاوية سنة ٤٠ هـ حيث
اعترف معاوية بأخوته له لينتفع به وبمواهبه ، ومنذ ذلك الحين أصبح
يطلق عليه زياد بن أبى سفيان (١) .

وقد ولاه معاوية البصرة وخراسان وسجستان ، وكانت بلاد العراق
كثيرة الشغب على معاوية ، وكان الفسق والفجور والفواحش كثيرة
الانتشار فى بلاد العراق ، ولذلك استعان معاوية على هذه البلاد بأكثر
الناس صلة به وأقواهم الى اعادة الأمور الى نصابها ، ولما دخل زياد
البصرة خطب الناس خطبته المعروفة بالبراءة لأنه لم يبدأها بحمد الله ،
وهى خطبة قوية جدا عدد فيها مساوىء أهل البصرة وتوعدهم بالويل
والثبور ، وأقسم لهم فيها « لياخذن الولى بالمولى ، والمقيم بالظالمين ،
والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصى » حتى تستقيم قناتهم (٢) . وبر
زياد فى قسمه بل زاد عليه أن أخذ بالشبهة . ومما يروى عن أخذه الناس
بغير حق أن العسس قبضوا على أعرابى وجد فى الخلاء مساء ، وكان
زياد قد حرم على الناس أن يخرجوا من بيوتهم ليلا ، فلما مثل الأعرابى
بين يديه سأله زياد : هل سمعت النداء ؟ فأجاب : لا والله ، قدمت بحلوبة
لى وغشيتنى الليل فأقمت لأصبح ، ولا علم لى بما كان من الأمر . فقال
زياد : أظنك صادقا ، ولكن فى قتلك صلاح الأمة ، وأمر به فضربت عنقه (٣)

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٦٣ .

(٢) اقرأ هذا الخطاب فى الطبرى ج ٤ ص ١٦٥ — ١٦٦ .

(٣) الطبرى ج ٤ ص ١٦٧ .

تلك كانت سياسته الطاغية ، ولكننا نتفق مع المرحوم الأستاذ الخضري في قوله « ان عهد زياد بالعراق على ما فيه من قسوة كان عهد رفاهة وأمن ، وهذا مما يسيطره التاريخ لعرب العراق آسفا ، وذلك أنهم قوم لا يصلحهم الا الشدة ، واذا وليهم وال فيه لين ورحمة فسَدُوا وارتكبوا المصائب وأجرموا الى الأمراء والخلفاء من غير بينة واضحة (١) » .

وقد ظل زياد واليا على البصرة ، فلما مات المغيرة بن شعبه والى الكوفة ضم معاوية الكوفة الى زياد سنة ٥١ هـ ، كما قلنا من قبل ، وكان زياد أول من ولى الكوفة والبصرة معا (٢) ، وقد ظل زياد واليا عليهما حتى مات سنة ٥٣ هـ . فكان يقيم ستة أشهر بالكوفة وستة أشهر بالبصرة كما روى ذلك الطبري (٣) ولم تكن الكوفة والبصرة وحدهما هما التابعتين لزياد وإنما امتد حكمه الى نصف الامبراطورية الشرقى برمته ، وتركز اهتمام معاوية في الغرب (٤) .

واذا قورن زياد بالمغيرة رجحه المغيرة ، فالمغيرة حقق الهدف الذى حققه زياد بضحايا أقل ، وذلك هو مقياس عظمة الرجال .

ويرى أستاذنا الخضري ونرى معه أن الطريقة التى اتبعها زياد ، واتبعها المغيرة أحيانا ، هى بمثابة النظام العرفى الذى تلجأ له الدول فى الظروف الخاصة ، فليس بطبيعة الحال نظاما عاما خاضعا للقانون الاسلامى العالم (٥) .

ومن ولاية العراق القساة عبيد الله بن زياد ، وكان يسير سيرة أبيه ، وقد بدأ معاوية بتوليته خراسان عقب وفاة زياد فأبلى فيها بلاء حسنا .

(١) محاضرات فى التاريخ الاسلامى ٢ : ١٧٤ .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ١٧٤ .

(٣) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ١ : ١٤٧ .

(٤) محاضرات فى التاريخ الاسلامى ص ١٠٧ .

ثم نقله معاوية الى البصرة سنة ٥٥ هـ عندما عرف فيه قوة الشكيمة التي كان يعرفها في أبيه ، فلم يزل واليا على البصرة حتى توفي معاوية (١) فلما ثارت الكوفة في عهد يزيد ، وكتب أهلها يستدعون الحسين ، وأرسل هذا ابن عمه مسلم ابن عقيل ليرود له الطريق فاجتمع حوله أهل الكوفة ، حينئذ أشار ناصحو يزيد عليه أن يعزل والي الكوفة النعمان بن بشير وأن يضم ولاية الكوفة لعبيد الله بن زياد والي البصرة فعمل يزيد بذلك (٢) ، فقدم عبيد الله الى الكوفة وسارت الأحداث على نحو ما سنوضح فيما بعد عند الحديث عن الشيعة .

ونختم حديثنا عن معاوية ذاكرين أن عهده كان من أنضر عهود الخلافة الاسلامية ، كان فيه الأمن الداخلي مستتباً ، فقد غلبت على أمرها كل العناصر المعادية لمعاوية ، غلبت بخلقه وعطائه أو بسيفه ومضائه ، وكان عهده حافلاً بالرخاء والغنى ، أما العلاقات الخارجية فقد كان للمسلمين فيها النصر والغلبة ، كما سنوضح ذلك عند الحديث عن الفتوحات الاسلامية . لقد كان عهد معاوية طويلاً مولكته كان عريضاً أيضاً ، حفل بكل الأسباب التي تنبئ عن دولة عظيمة وأمة ناجحة .

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٥٨ .

(٢) المرجع السابق .

يزيد (٦٠ - ٦٤ هـ)

هو يزيد بن معاوية وأمه ميسون الكلبيّة ، وهى امرأة بدوية تزوجها معاوية قبل أن يلى الخلافة ولكنها لم تحتلم حياة الحضر ، ويروى عنها شعر تحن فيه الى حياة الخيام ودنيا البادية وتذم القصور والملابس المشفوف ، فأعادها معاوية الى أهلها ومعها ابنها يزيد ، فنشأ هذا فى البادية حيث أجاد اللغة والأدب والصيد ، بقدر ما جهل الخداع والسياسة والادارة .

البيعة ليزيد :

بدأت فكرة البيعة ليزيد سنة ٤٩ هـ وكان الذى بدأ بها المغيرة ابن شعبة ، ويروى أنه أحس بأن معاوية يتوى عزله عن الكوفة ، فذهب الى الشام وقابل يزيد وقال له : ذهب أعيان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبراء قريش وذوو أسنانهم ، وانما بقى أبناءؤهم وأنت من أفضلهم ولا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة . قال : أو ترى ذلك يتم ؟ قال : نعم (١) .

وأخبر يزيد أباه بذلك الرأى ، فاستدعى معاوية المغيرة وسأله فى ذلك ، فحسن المغيرة هذا الرأى ، ووصفه بأنه الطريق لحقن الدماء وجمع الكلمة ، فسأله معاوية : ومن لى بهذا ؟ فأجاب المغيرة : أنا أكفيك الكوفة ويكفيك زياد البصرة . وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك .

ويروى السيوطى (٢) دور المغيرة فى بيعة يزيد بصيغة أخرى ، قال : كتب معاوية الى المغيرة يقول : اذا قرأت كتابى فأقبل معزولا . فأبطأ المغيرة على معاوية ، فلما حضر سأله : ما أبطأ بك ؟ فأجاب : أمر كنت أوطئه وأهيه ،

(١) انظر الطبرى ج ٤ ص ٢٢٤ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٠٥ .

قال : وما هو ؟ قال : البيعة ليزيد من بعدك • قال : أو قد فعلت ؟ قال : نعم
قال معاوية : ارجع الى عملك •

ورواية ابن عبد ربه في العقد الفريد قريبة من هذا (١) •

وعلى كل حال فقد وضع المغيرة هذه البذرة في أرض خصبة فبدأت
تنمو وترتدح ، وكوفيء عليها بأن عاد الى الكوفة دون أن يعزل ، وقل كذلك
ان حركة المغيرة كانت تعبيرا عن هوى في نفس معاوية • هوى أغلب الظن
أنه ساوره منذ مدة ، ولكنه كان ينتظر الأوان لابراره ، فانتهاز معاوية هذه
الفرصة ليتحسس صدى هذا الرأي عند الآخرين ، فكتب الى زياد
يستشير ، فأجابه زياد بأن يترث ، وأضاف بأن يزيد صاحب تهاون منع
ما قد أولع به من الصيد (٢) • وكان القوم يعدون الصيد من أمور المنزق
والطيش في ذلك الوقت ، فهدأت الفكرة الى حين •

ومات المغيرة ثم مات زياد ، وأمر معاوية على أن يحقق لابنه أمه ،
واعتمد على عبيد الله بن زياد وأمثاله ممن بدعوا يرسلون اليه الرسائل
يؤيدون هذا الرأي ويثنون على يزيد • ولم يبق أمامه الا الحجاز يقوده
الحسين بن علي ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن
ابن أبي بكر ، وعبد الله بن عباس ، وقد أعلن هؤلاء رفضهم لتعيين يزيد
وهاجموا هذه الفكرة ، فاضطر معاوية أن يذهب بنفسه اليهم بالدينة ،
فانتقل هؤلاء الى مكة ، فلحق بهم معاوية ، وهناك حادتهم وذكرهم ببره
بهم وبأهلهم ، وصلت له لأرحامهم مع كرههم له ، ودعاهم لمبايعة ابن عمهم
يزيد ، فنفروا وثاروا فتوعدهم معاوية ، وصاح فيهم : « انى كنت أخطب
فيكم فيقوم الى القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس فأصفيح ، وانى
اليوم قائم بمقالة ، وأقسم بالله لئن رد على أحد منكم كلمة في مقامى
لا ترجع اليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف الى رأسه ، فلا يبقين رجلا

(١) اقرا الجزء الاول ص ٩٧ - ٩٨ •

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٢٢٥ •

إلا على نفسه » ثم دعا صاحب حرسه أمامهم فقال له : أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين مع كل منهما سيف ، فإن ذهب رجل منهم يرد على وأنا أخطب بكلمة تصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما ، ثم خرج الى المسجد وأخذهم معه ، ورقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا يبتز أمر دونهم ، ولا يقضى الا عن مشورتهم ، وانهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا على اسم الله ولما سمع الناس هذا القول اعتقدوا أن زعماءهم بايعوا فأقبلوا فبايعوا (١) .

ولما مات معاوية تجددت البيعة ليزيد رضى الناس أو كرهوا ، وامتنع عن البيعة الزعماء السابقون ، فكتب يزيد الى واليه على المدينة أن يشدد على هؤلاء النفر ، فبايع ابن عمر وابن عباس ، وابن أبى بكر ، وامتنع الحسين ، وعبد الله بن الزبير وظلا على عنادهما ، وعمل كل منهما على أن ينال الأمر لنفسه ، وبدأ صراع سنعرض له فيما بعد ، سقط فيه الحسين في كربلاء في عهد يزيد ، فخلا جو المعارضة لابن الزبير الذى كون له خلافة استمرت بنسب سنوات وظل يدافع عنها حتى سقط في عهد عبد الملك بن مروان على يد الحجاج بن يوسف .

معاوية والبيعة ليزيد :

هل كان معاوية مصيبا أو مخطئا في تعيينه ابنه يزيد خليفة من بعده ؟
عندى أن الاجابة عن هذا السؤال تكمن في بضع نقاط هى :

أولا : كان معاوية مصيبا في فكرة تعيين خليفة من بعده ، فالعالم الاسلامى آنذاك لم يكن قد نسي الأهوال التى مرت بعد قتل عثمان بسبب الطمع في الخلافة ، وقد أيد فكرة التمهين كبراء الحجاز الذين سبق ذكرهم

(١) انظر رواية الطبرى ج ٤ ص ٢٢٥ وما بعدها ، وقد أورد السيوطى في تاريخ الخلفاء ص ١٩٧ رواية أخرى تؤدى لنفس النتيجة ، وانظر كذلك العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٤ ص ٣٧١ وما بعدها .

عندما كتب معاوية لواليه على المدينة مروان بن الحكم يقول له : « انى كبرت سنى ودق عظمى وخشيت الاختلاف على الأمة من بعدى ، وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بهذا الأمر بعدى ، وكرهت أن أقطع أمرا دون مشورة من عندك ، فاعرض ذلك عليهم وأعلمنى بالذى يردون عليك » فلما أخبرهم مروان بنية معاوية فى تعيين خليفة من بعده وافقوا ، مع العلم أنه لم يحدد فى هذه المرحلة من سيكون ذلك الخليفة (١) .

ثانيا : نقم زعماء المدينة السالفو الذكر أن يعين معاوية ابنه خلفا له وصاح عبد الرحمن بن أبى بكر قائلًا : « ما الخيار أردتم لأمة محمد ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل » ووافقه على ذلك غيره من الزعماء بالمدينة ، ولعمري إن سؤالهما يخطر بالبال ويعجز الباحث أن يجد له جوابا وهو : لماذا لم يقل مثل هذا القول عندما كان على يطالب بالخلافة باسم قرابته من الرسول ؟ أو عندما تولى الحسن مكان أبيه عقب مقتل الأب ؟ ألا يجعلنا هذا نعتقد أن بنى هاشم هم الذين بدأوا بخلق فكرة التوارث فى الحكم الاسلامى ؟

ثالثا : ومن الناحية العملية كان نقل الخلافة من الأمويين الى غيرهم فى ذلك الوقت مطلبًا يكاد يكون مستحيلا ، فالولاة على الأقاليم كانوا من بنى أمية أو من اتباعهم ، وانتقال الحكم الى الحسن مثلا سيكون معناه عزل هؤلاء الولاة ، ثم رفضهم العزل أو رفض بعضهم ، ثم تكرار معارك الجمل ومعارك صفين على نحو أوسع . فلا يمكن أن نطالب بشيء دون أن يكون ممكن التنفيذ ، لقد كان الحكم فى عهدى أبى بكر وعمر يتبع هيئة معنوية هى الخلافة الاسلامية ، فأصبح بحكم الظروف آنذاك يتبع شخص الخليفة .

رابعا : لم يكن معاوية يقصد الخير للمسلمين فى تعيينه ابنه يزيد بقدر

(١) اقرا « السياسة فى الفكر الاسلامى » للمؤلف ص ١١٠ وما بعدها

(م - ٤) - التاريخ الاسلامى ؛

ما كان يقصد تهيئة أسباب السعادة لابنه ، وهذا مما يؤخذ عليه ، ولو كان يريد الخير للمسلمين لاختار من بنى أمية من هو أصلح من يزيد •

خامسا : على أن معاوية مع عظم سلطانه لم يستطع أن يهمل ديمقراطية الاسلام ، فنجده يعمل عدة سنوات لتولية ابنه ، ويبدل العطاء ويقرب البعيد ، ويقوم برحلات نائية يسأل فيها الناس أن يبايعوا ليزيد ، ولولا ديمقراطية الاسلام لعين معاوية ابنه دون هذا العناء الذى تشعب وطال •

سادسا : لم يكن يزيد كفئا لهذا الأمر الضخم ، ولكن هل كان معارضوه أفضل منه ؟

هل يعدّ أفضل منه عبد الله بن الزبير الرجل الذى ينسب اليه أكثر من أى شخص آخر أنه أثار حرب الجمل ، ودفع بخالته عائشة وهى زوج الرسول الى أتون الحرب ، ففض بهذا عنها الحجاب الذى فرضته الآية الكريمة « وقرن فى بيوتكن » (١) ، وتسبب فى معركة خر فيها الآلاف من المسلمين (٢) ؟ وهو كذلك الرجل الذى دفع بالحسين ليقاوم بنى أمية لا أملا فى نجاح الحسين ولا تأييدا له ، ولكن ليموت الحسين فيخلوا لابن الزبير الجو كما قال عبد الله بن العباس (٣) ، فاعتقادي أن مثل هذا الرجل لا يستوفى الصلاحية ليلى خلافة المسلمين •

وأما الحسين بن على ففضله أنه من الأرومة الطيبة ، وأنه قريب النسب بالمصطفى صلوات الله عليه ، وفيما عدا ذلك لا يثبت له التاريخ تجارب سياسية أو ادارية متعددة أو بارزة تجعله يفضل غيره فى جمل العبد ، ولعله أخطأه التوفيق حينما قبل دعوة أهل العراق وسار اليهم مع نسائه وأولاده ، وهو يعلم أن أهل العراق خذلوا أباه ، وأنهم كما

(١) سورة الأحزاب الآية ٢٣ •

(٢) اقرأ تحقيق هذه الأفكار وأسانيدھا فى الجزء الأول من هذه الموسوعة

(٣) سيأتى هذا الموضوع عند الكلام عن الشيعة فيما بعد •

وصفهم الفرزدق له : قلوب همه وسيوف مع بنى أمية وسنشرح فيما بعد
فلسفة الحسين رضى الله عنه في هذا الموقف عند الكلام عن موقعة
كربلاء .

وأما عبد الله بن عمر فرجل آخره أكثر منه رجل سياسة وإدارة .

وأما عبد الرحمن بن أبي بكر فيصفه معاوية بقوله : إذا رأى أصحابه
فعلوا شيئاً فعل مثله ، ليس له همة إلا في النساء واللهم (١) . وإذا صح
ذلك أو بعضه قلت أسهمه التى ترفعه الى حمل أعباء الخلافة .

وخلاصة القول أن تعيين معاوية خلفاً له عمل حكيم ، وأن كون
ال خليفة الجديد من بنى أمية أمر مسلم به للضرورة ، ولم يبق إلا تحديد
الأموى الذى يتولى الخلافة بعد معاوية ، ونعتقد أنه كان في بنى أمية
من يفضل يزيد كبعد الملك بن مروان مثلاً ، وإن كان يزيد لم يكن أقل من
منافسيه كما سبق القول ، وقد أخذ على يزيد قتله للحسين ورميه الكعبة
بالمجنيق ، ولكن يجب أن يقتسم معه هذا الذنب أولئك الذين دفعوا
الحسين لثورة لا أمل فيها ، وعرضوا مكة لمقذوفات المنجنيق ، وسيأتى
تفصيل ذلك .

ونختتم هذا الموضوع بملاحظة واضحة هى أن أكثر الذين طمعوا في
الخلافة ، أو رشحوا أنفسهم لها ، أو رشحهم الناس هم من أولاد الخلفاء ،
ومعنى هذا أن النظام الوراثى كان قد وجد طريقة الى أكثر القلوب
والعقول .

موقعة الحرة

ومن أهم الرجال الذين اعتمد عليهم يزيد ، عبيد الله بن زياد بن أبيه
ومسلم بن عقبة المري ، وقد مر الكلام عن الأول وسيجئ فيما بعد مزيد

(١) اقرأ وصف معاوية لهؤلاء الأربعة في الطبرى ج ٤ — ص ٢٢٨ — ٢٢٩ .

من الكلام عنه ، أما مسلم بن عقبة فأهم ما يرتبط باسمه موقعة الحرة ، ومن حديثها أن أهل المدينة خلعوا يزيد ، وسجنوا من بالمدينة من بنى أمية ثم أخرجوهم منها ، فأرسل اليهم يزيد ليعودوا الى الطاعة دون قتال فامتنعوا ، فأرسل لهم جيشا كثيفا بقيادة مسلم بن عقبة المرى ، وقال له يزيد : ادعهم الى البيعة ثلاثة أيام دون حرب ، ولا تقاثلهم الا بعد انقضاء هذه المدة ، ففعل مسلم ، ولكن أهل المدينة استمروا في عصيانهم ، فهاجمهم مسلم من جهة الحرة ، وانتصر عليهم ، وأباح المدينة لجنده ثلاثة أيام^(١) ، وكان ذلك في ذى الحجة سنة ٦٣ هـ .

ومن الأسباب الهامة التي أدت الى هزيمة أهل المدينة نذكر سببين رئيسيين .

الأول : أن أهل المدينة أخرجوا بنى أمية منها ، واكتفوا منهم بأن أخذوا عليهم العهود ألا يدلثوا على عوراتهم ، وألا يظاهروا عليهم ، وذلك كما ترى عمل ساذج ، فلا بد لبنى أمية المطرودين أن يساعدوا ذويهم ، وأن يرشدوهم الى أسير الطرق للتغلب على هؤلاء المتمردين على سلطان أسرته ، وهذا ما كان ، فقد أدلى عبد الملك بن مروان لمسلم بن عقبة بمعلومات وأفكار كانت من أهم أسباب النصر السريع ، فبناء على رواية الطبرى نصح عبد الملك مسلما أن يختار الحرة مكانا لهجومه ، وأن يبدأ الهجوم في مطلع النهار حيث تكون الشمس بين أكتاف أهل الشام فلا تؤذيهم ، وتكون في وجوه أهل المدينة فيصيبهم أذاها ويعييبهم شعاعها^(٢) .

الثاني : أن أهل المدينة ولوا عليهم رجلين ، قولى الانتصار عبد الله ابن حنظلة ، وولت قريش عبد الله بن مطيع ، وكان هذا دليل تفكك وانقسام من أول الأمر ، ويروى أن عبد الله بن عباس لما سمع بذلك قال : أميران !! هلك القوم^(٣) .

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٣٧٠ وما بعدها . والفخرى فى الأدب السلطانية ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٣٧٣ .

(٣) ابن عبد ربه ، المعتمد الفريد ج ٤ ص ٣٨٨ .

ولقد سقط في موقعة الحرة خيرة أبناء الأنصار والمهاجرين ، فمن المسئول عن هذه المعركة وهؤلاء الضحايا ؟

لست أستطيع أن أخلى أهل المدينة من مسئولية كبيرة ، فهب أن يزيد لم يكن صالحا للخلافة ، ولكن التفكير الاسلامي واضح في أن « الامام الجائر خير من الفتنة ، وكل لا خير ، وفي بعض الشر خيار » كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم (١) ، ولم يكن أهل المدينة يستطيعون أن يقفوا في وجه جيش الشام بعدده وعدده ، فلماذا استمروا في عصيانهم ؟ وقد دعاهم مسلم ثلاثة أيام وهو يحدق بهم ، ولكن العصبية والكبرياء دفعا القوم الى الاستمرار في اشعال هذه النار التي صاروا لها حطباً بعد وقت وجيز .

لا نخلى مسلم بن عقبة من مسئولية باهظة لحرقه وإسرافه في إراقة الدماء ، فالرجل كان مريضاً ، وكانت إحدى رجليه في المعركة والأخرى تتقدم إلى القبر ، ولكنه أراد أن يختم حياته بهذه القسوة وتلك الوحشية فلم يكتف بالانتصار واخضاع الثائرين ، ولكنه أباح مدينة الرسول ثلاثة أيام للجيش المنتصر ، كما استمر في إراقة الدماء بعد أن كتب له النصر ، وإذا كان ليزيد في هذا التصرف الأهوج فهو شريك لمسلم في هذه المسئولية .

نهاية يزيد :

كانت نهاية يزيد قريية ، فقد كان حكمه حوالى ثلاث سنوات فقط ، ومات وهو في شباب غض ، ولم يهنأ يزيد بالخلافة يوماً واحداً فقد ثارت في وجهه الأحداث ، فأخذ يعالجها ، ولكن العلاج كان أقسى من الداء ، ثار في وجهه الحسين كما سيأتى تفصيله عند الكلام عن الشيعة ، فقتله له عبيد الله ابن زياد ، وفتح قتله باباً من الشر على بنى أمية لم يقفل قط .

(١) اقرأ من هذا الموضوع في كتاب « السياسة في الفكر الاسلامي » للمؤلف .

وثارت عليه المدينة فكانت موقعة الحرة المشؤومة التي أراق مسلم بن عقبة فيها دماء مئات من الصحابة الأجلاء ومن أبنائهم ، فجلب ذلك الفعل سخط المسلمين على يزيد •

وثار عليه ابن الزبير بمكة فأرسل جيشا رمى الكعبة بالمنجنيق وهدمها كما سيأتى بيانه عند الحديث عن ثورة ابن الزبير ، ويقول ابن طباطبا أن ولاية يزيد كانت ثلاث سنين وبضعة أشهر ، وفى السنة الأولى قتل الحسين ابن على ، وفى السنة الثانية نهب المدينة وأباحها ثلاثة أيام ، وفى السنة الثالثة غزا الكعبة (١) •

ومات يزيد وخلف هذه التركة المثقلة ، فناء بها ابنه ، وحمها مروان ابن الحكم مدة عام ، ثم تولى حملها البطل عبد الملك بن مروان فاستطاع أن يلم الشعث ويوحد العالم الاسلامى مرة أخرى ، ويضمن عمرا جديدا للخلافة الأموية ، بعد أن كانت هذه الخلافة على وشك الزوال كما سيأتى فيما بعد •

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٩٨ ورواية الطبرى (ج ٦ ص ٣٧٠) تجعل موقعة الحرة سنة ٦٣ ، ومعنى هذا أن سنة ٦٢ لم يكن فيها أى من هذه الأحداث الثلاثة .

معاوية الثانى (٦٤ هـ)

لا نخصص فراغا طويلا للحديث عن معاوية الثانى ، فقد كان شابا ضعيفا لم تطل خلافته أكثر من أربعين يوما ، ثم تنازل عن الخلافة لمرضه ، وانزوى فى بيته حتى مات بعد ثلاثة أشهر •

كيف آلت الخلافة الى هذا الشاب المريض الذى لم يطمع فيها قط ؟ الجواب أن جده معاوية وضع أسس الوراثة فى الخلافة ، وكافح سنين عدة لتنتم البيعة ليزيد ، وبالتالي تهيأ الناس للأخذ بهذا النظام ، ولذلك بايع أهل الشام لمعاوية الثانى بعد موت أبيه ، ولكن ابن الزبير كان قد أعلن نفسه خليفة فى عهد يزيد ، ومات يزيد قبل القضاء على ابن الزبير ، ولما مات يزيد كبر أمل ابن الزبير فى النجاح ، وجاء معاوية الثانى فى هذه الظروف فأدرك أنه لا قوة له للاشتراك فى هذا الصراع ، فجمع الناس بالمسجد وخطب فيهم خطبة قال فيها ، انى قد ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم ، فأنتم أولى بأمركم ، فاختروا له من أحببتهم ، فما كنت لأترودها ميتا وما استمتعت بها حيا (١) •

وانتهت بذلك صفحة معاوية الثانى من التاريخ ، وانتهى بانتهائه العهد السفينانى وبدأ العهد الأموى الثانى ، وهو عهد بنى الحكم بن أبى العاص بن أمية ، ويروى أن عبد الملك بن مروان كان يرى أن بسرعة نهاية الفرع السفينانى جاءت نتيجة لقتل الحسين ، ولذلك كتب الى الحجاج يقول : جنبنى دماء بنى عبد المطلب فليس فيها شفاء الحرب (بفتح الراء ومعناه الغضب) وانى رأيت بنى حرب تداعى ملكهم لما قتلوا الحسين ابن على (٢) •

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٠٩ ، وانظر كذلك الفخرى لابن طباطبا ص ١٠٢ وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣١١ •

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٤٠١ •

مروان بن الحكم (٦٤ - ٦٥ هـ)

مر بنا الحديث عن مروان بن الحكم في عهد عثمان وفي موقعة الجمل ولما انتهت موقعة الجمل اعتزل مروان السياسة وباع عليا وأقام بالمدينة ، ولما آلت الخلافة الى معاوية قرابة معاوية اعترافا بالمساعدات التي قدمها اليه يوم كان حاملا لخاتم عثمان ، وإيماننا منه بأن مروان لعب دورا هاما في حرب الجمل أضعف به عليا وقضى بسهمه على طلحة ، وأما مبايعته لعلى بعد ذلك فقد أخذها معاوية على أنها ضرورة لحماية مصالح بنى أمية بمكة والمدينة ، يضاف الى ذلك حلم معاوية الذي اتسع للجميع ، ورغبته في الاستفادة من الكفاءات المختلفة .

وعلى هذا ولى معاوية مروان ولاية المدينة ، وفي عهد يزيد كان مروان مقربا اليه وكان بين مشيريه بدمشق . ومات يزيد ، ثم تنازل خلفه عن الخلافة دون أن يعين من يخلفه . واختلفت كلمة بنى أمية فيما بينهم ، واختلف الناس عليهم ، فأوشك ملكهم أن يضيع ، ويروى أن مروان نفسه كان على وشك أن ينطلق لابن الزبير فيبايعه لولا أن عبید الله بن زياد قال له : « استحييت لك ما تريد ، أنت كبير قریش وسيدها تصنع ما تصنعه ؟ » فدب الأمل في نفس مروان وأجاب : ما فات شيء (١) .

وكانت حالة ابن الزبير في ذلك الوقت في تقدم واضح ، فقد دان له الحجاز ، وتبعه أهل الكوفة والبصرة — وكان عبید الله بن زياد قد أخلأهما وفر تحت ضغط الأحداث — كما تبعه أهل الجزيرة وأمراء الشام وهم من قيس ، ولم يبق على الولاء لبنى أمية الا الأردن وكان واليها جسان بن مالك من كلب (٢) . وتلك النتيجة التي حققها عبد الله بن الزبير أو تحققت له ، جعلت بعض المؤرخين يراه خليفة ذلك العصر ، ويعد مروان بن الحكم

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٤٠٩ ، ٤١٢ .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٤٠٨ ، ٤١٠ .

متمردا عليه ولا يعترف هؤلاء بخلافة مروان ، كما لا يعترفون بخلافة عبد الملك الا من يوم موت ابن الزبير واجتماع الكلمة على عبد الملك (١) .

ويجدر بنا أن نعطي بعض التفاصيل عن الحالة بالشام في ذلك العهد ، فان العصبية كانت قد بدأت تظهر بين عرب الشمال (قيس) وعرب الجنوب (كلب) ، وكان عسيري الشمال يميلون الى ابن الزبير فبايعوا له وعلى رأسهم الضحاك بن قيس أمير دمشق ، والنعمان بن بشير أمير حمص ، وزفر بن الحارث الكلابي أمير قنسرين ، أما كلب فكانت تحضد الأمويين ولكنها انقسمت على نفسها ، فبعضها يريد البيعة لخالد بن يزيد ابن معاوية لأنهم أخوال أبيه ، ولأن منزلته ستكون لهم كما عبر عن ذلك مالك بن هبيرة ، وبعضهم يريد البيعة لمروان بن الحكم لسنه وتجاريه ، وكان على رأس هؤلاء الحصين بن نمير الذي أجاب : لا ، بعمر الله لا تأتينا العرب بشيخ ونأتهم بصبى ، وأخيرا اجتمعت كلمة كلب وبنى أمية في مؤتمر الجابية الذي عقد في ذي العقدة سنة ٦٤ على البيعة لمروان بن الحكم ، ثم خالد بن يزيد من بعده ، ثم عمرو بن سعيد بن العاص (٢) . وبهذا رضى كل الطامعين في الخلافة من بنى أمية كما رضى أتباعهم .

كان أمام مروان صراع طويل ، أوله صراع بالشام مع القيسية الذين يقودهم الضحاك بن قيس ، وبعد ذلك يخرج الصراع الى العراق والحجاز ومصر وغيرها ، وقد حصلت موقعة كبيرة بين الضحاك وبين مروان في « مرج راهط » في المحرم سنة ٦٥ هـ قتل فيها الضحاك وكثيرون من قومه وفر بعدها النعمان وزفر ، وخلت الشام بذلك لمروان (٣) . وبعدها سار الى مصر فافتتحها وبايعه أهلها وترك بها ابنه عبد العزيز والياً عليها ، وأرسل عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق الى فلسطين حيث كان مصعب بن الزبير قد زحف عليها ، فانتصر عمرو في هذه المعركة ، وعاجلت المنية

(١) اقرأ تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣١٢ ، ٢١٤ ، ٢١٥ والعقد الفريد

ج ٤ ص ٣٩٣ .

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٤٠٩ - ٤١٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٤١٥ - ٤١٧ .

مروان قبل أن تظهر نتيجة الصراع الذي بدأ في الحجاز والعراق فمات في رمضان سنة ٦٥ هـ بعد أن عهد بالخلافة من بعده لابنه عبد الملك ثم عبد العزيز وأهمل قسم مؤتمر الجابية السالف الذكر (١) •

وكان مروان يتمتع بحكمة وسداد رأى وفصاحة وشجاعة ، وكان يجيد قراءة القرآن ، ويروى كثيرا من الحديث عن كبار الصحابة وبخاصة عن عمر بن الخطاب وعثمان ، واليه يرجع الفضل في ضبط المكابيل والموازن •

ومن أهم الرجال الذين اعتمد عليهم مروان ، عبيد الله بن زياد وعبد الملك بن مروان وعبد العزيز بن مروان • وقد تحدثنا من قبل عن عبيد الله وسنعود للحديث عنه فيما بعد ، أما عبد الملك فلنا عنه حديث طويل عند الكلام عن خلافته ، والحديث على خلافة عبد الملك سيشمل كذلك حديثا عن أخيه عبد العزيز بن مروان •

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٤ ص ٧٤ •

عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ)

عبد الملك هو المؤسس الثاني للدولة الأموية ، تولى الخلافة والعالم الاسلامي متفكك ، فابن الزبير أعلن نفسه خليفة في الحجاز ، والشيعية ثائرون ، والخوارج متمردون ، والمختار بن أبي عبيد الثقفي يقود جيشا كبيرا يبطش به دون أن يعرف لماذا يبطش ، وسيأتي تفصيل الكلام عنه ، وقد استطاع عبد الملك أن يرد البلاد كلها الى الطاعة ، وأن يقضى على كل تمرد وعصيان ، فاستحق أن يوصف بأنه المؤسس الثاني للدولة الأموية .

وعبد الملك كان يتمتع بثقافة عالية وكان يعد أحد فقهاء المدينة ، من طبقة سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير ، ويقول الشعبي عنه ما ذكرت أحدا الا وجدت لى الفضل عليه الا عبد الملك فانى ما ذكرت حديثا الا زادنى فيه ، ولا شعرا الا زادنى فيه (١) . وكان يقال فقهاء المدينة أربعة : سعيد بن المسيب وعبد الملك بن مروان وعروة بن الزبير وقبيصة بن ذؤيب . وقال ابن عمر عنه : وكَدَ الناس أبناء وولَدَ مروان أباً (٢) .

وقد عهد له أبوه بالخلافة بعد فترة قصيرة من مؤتمر الجابية الذى تقرر فيه أن يلى خالد بن يزيد الخلافة بعد مروان ، ثم يليها من بعده عمرو بن سعيد بن العاص ، ولم يحدث التغيير الذى قام به مروان أثرا عند خالد وأنصاره لأن العالم الاسلامى — كما قلنا من قبل كان قد اتجه الى نظام التوارث السياسى ، ثم لأن شخصية عبد الملك كانت ترجح كل شخصيات ذلك العهد تقريبا ، وقد سخط علىبيعة عبد الملك عمرو بن سعيد فدفع رأسه ثمنا لهذا السخط كما سيأتى فيما بعد .

(١) الفخرى ص ١٠٦ .

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٦١٦ .

ويبدو أن عبد الملك كان رجل الساعة ، فقد كان ثابت الجاش لا ترعزعه الشدائد ، بل كان يميل الى مصارعة الشدائد ليزعزعها هو . ويروى المسمودي^(١) أن عبد الملك سار على رأس الجنود الشامية ليساعد عبيد الله ابن زياد الذي كان يحارب المختار بن أبي عبيد ، وحط عبد الملك رحاله في الطريق ليلة ، فجاءه خبر مقتل عبيد الله وانتهزام جنده ، ثم جاءه بعد قليل خبر انتهزام جيشه الذي أرسله لمحاربة ابن الزبير بالمدينة ، وتلاه خبر ثالث بدخول جنود ابن الزبير أرض فلسطين ، وخبر رابع بمسير امبراطور الروم مهاجما حدود الدولة الاسلامية عند المصيصة ، وخبر خامس بأن عبيد دمشق وأوياسها أطلقوا المسجونين وهاجموا السكان ، وخبر سادس أن بعض الاعراب أغاروا على حمص وبعلبك . . . قال المسمودي : يترؤى أن عبد الملك لم يترك ليلة قبلها أشد ضحكا ولا أحسن وجها ولا أبسط لسانا ولا أثبت جنانا من تلك الليلة تجلدا وسياسة . وواجه هذه الأحداث وانتصر عليها ، وأعاد الأمن وقطع دابر الفتنة .

ومن أهم الأحداث التي واجهت عبد الملك ثورة عمرو بن سعيد الأشدق ، وقد كان عمرو يطمع في الخلافة بعد مروان ، وكان مروان فيما يبدو يطمعه أن يقدمه على خالد لحدثه سن خالد ولا تشغاله بالعلوم عن الخلافة ، ولهذا نجد عمرو بن سعيد يجاهد الأبطال ليثبت الأمر لمروان ولكن مروان خدعه وولى عهده ولديه عبد الملك ثم عبد العزيز .

ويرأى عبد الملك من الحكمة أن يدا من عمرا فيبدو أنه وعده بالخلافة من بعده وذكره أن من العار أن يختلف بنو أمية وهناك ابن الزبير على وشك أن يقتصر أمره ويسحق أعداءه ، فبقى عمرو بين القفاعة بهذا الوعد وبين الرغبة في اعلانه وتشبيته ، وظل الحال على ذلك حتى سنة ٦٩ أو سنة ٧٠ هـ حيث خرج عبد الملك تجاه العراق يريد مصعب بن الزبير ومعه عمرو ، فقال هذا لعبد الملك : قد كان أبوك وعدنى هذا الأمر من بعده ، وعلى هذا

(١) مروج الذهب ج ٢ ١١٣ ، وانظر كذلك تاريخ الخلفاء للسيوطي

جاهدت معه وكان من بلائى معه ما لم يخف عليك ، فلجعل لى علناً هذا الأمر من بعدك • فلم يجبه عبد الملك بشيء • فانصرف عمرو عائدا الى دمشق فى غفلة من عبد الملك ، وهناك استولى عليها وتحصن بها ، ولما عرف عبد الملك ذلك عاد الى دمشق ودارت مناوشات بين الاثنين ولعبت السياسة دورا هاما فاصطالح الاثنان وعاد مظهر الصفاء بينهما ، ولكن عبد الملك لم يغفر لعمرو خروجه عليه ، ووجد أن ملكه مزعزع ما دام عمرو سبيء النية به •

وفى احدى الليالى أعد عبد الملك عدته واستدعى عمرا لزيارته فخرج هذا اليه فى عدة من مواليه وأتباعه ، ودخل عمرو ولكن أتباعه كانوا يحجزون أولا بأول خلف الأبواب ، فلما وصل عمرو الى حيث يجلس عبد الملك كان عمرو وحده ليس معه الا وصيف واحد ، وفتك عبد الملك بعمرو ، ولما أحس بأعوان عمرو يهتفون به ويحيطون بالقصر ألقى اليهم رأسه وألقى معها بذكر الأموال، فلما رأى الناس رأس عمرو يئسوا من مساعدته وأنهالوا على بدر الأموال يلتقطونها وينصرفون بها ، واستتب أمر دمشق لعبد الملك (١) •

عبد الملك : كفايته وأعماله :

كان عبد الملك يقود جيوشه بنفسه فى أكثر الأحوال • وكان النصر حليفه ، ومن أهم المعارك التى قادها معركة العراق ضد مصعب بن الزبير وقد انتصر فيها عبد الملك وقتل مصعب ، وسيأتى مزيد من الكلام عن عبد الله بن الزبير وصراعه مع الدولة الأموية ، ولكننا هنا نقول أن عبد الملك حينما أراد أن يقود جيش الشام ليلتقى بمصعب أشار عليه رؤساء أهل الشام أن يقيم هو بالشام ويبعث على الجيوش قائدا غيره ، فان لفرت جيوشه فذاك والا أمدتهم بجيوش أخرى ، وقالوا له : اننا نخشى أن

(١). اقرا القصة كاملة فى الطبرى ج ٤ ص ٥٩٦ - ٦٠٠ ، والمعقد الفريد ج ٤ ص ٤٠٨ - ٤٠٩ ، والامامة والسياسة ج ٢ ص ٢٣ - ٢٥ •

ثمساب يسوء فلا يكون للناس ملك يدبر أمرهم ، فأجاب عبد الملك : أنه لا يقوم بهذا الأمر الا قرشى له شجاعة وله رأى فى الحروب وله فراسة وسياسة ، وانى أجد هذه الشروط فى نفسى ، فأوثر أن أتولى أنا قيادة هذه الجيوش (١) .

ومن أخلاق عبد الملك اعتداده بنفسه وإيمانه أنه ليس هناك من يضارعه من معاصريه ، وهو يقول فى ذلك : ما أعلم أحدا أقوى على هذا الأمر منى ، وأن ابن الزبير لطويل الصلاة كثير الصيام ، ولكن لبخله لا يصلح أن يكون سائسا (٢) .

ومن أعمال عبد الملك المجيدة أنه عرّب الدواوين ، فقد كان ديوان الشام يكتب باليونانية ، وكان ديوان فارس يكتب بالفارسية ، وكان ديوان مصر يكتب بالقبطية ، فعزم عبد الملك على نقلها جميعا الى اللغة العربية وقد تم فى حياته نقل ديوان الشام الى العربية على يد سليمان بن سعد ونقل ديوان فارس على يد صالح بن عبد الرحمن ، أما ديوان مصر فقد تم نقله فى عهد الوليد (٣) وهناك مزيد من الكلام عن حركة التعريب عند الكلام على الدواوين فى كتاب « السياسة فى الفكر الاسلامى » .

ومن الأعمال المجيدة لعبد الملك أيضا سك النقود الاسلامية سكا منتظما (٤) .

ومن أعظم رجال عبد الملك أخوه عبد العزيز وقائده الشهير الحجاج ابن يوسف الثقفى ، أما أخوه عبد العزيز فقد سحب أباه مروان بن الحكم عندما ذهب ليسترد مصر من عامل ابن الزبير ، ولما تم لمروان ذلك ولى ابنه

(١) الطبرى ج ٥ ص ٦ - ٧ (٢) المرجع السابق ٢١٣ .
(٣) عن نقل ديوان الشام اقرا البلاذرى ص ١٩٦ - ١٩٨ ، وعن ديوان فارس اقرا ص ٣٩٨ .
(٤) عن أمر النقود اقرا البلاذرى ص ٢٤١ و ٤٥١ - ٤٥٦ و « الاقتصاد فى الفكر الاسلامى للمؤلف » .

عبد العزيز عليها وعاد هو . وقد كان عهد عبد العزيز من أحسن العهود على مصر ، أدخل خلاله ألوانا من الإصلاحات ، فبنى مقياس النيل ، وأقام قنطرة على خليج أمير المؤمنين ، كما أعاد بناء جامع عمرو وزاد فيه من جهاته الأربع (٢) ، وقد عنى عبد العزيز بمدينة حلوان عناية كبيرة ، واتجه لاعدادها لتكون عاصمة امارته ، فأنشأ بها بركة ماء ، وغرس الأشجار والنخيل ، وأقام المساجد ، ونقل لها بيت المال ودواوين الحكومة ، وكان عبد العزيز سمحا كريما لم يدخر مالا يذكر مع أن مصر كانت طلعة له ، أى لا يرسل من دخلها شيئا لعاصمة الدولة الاسلامية ، ويروى أنه أنفق كل ثروته ، فلما مات لم يترك غير سبعة آلاف دينار وهو مبلغ زهيد اذا قيس بهذا الرجل ومكانته وثرائه .

الحجاج بن يوسف ، ماله وما عليه :

كان الحجاج فيما نعرف أشهر القواد المسلمين ، وربما جاءت شهرته من ناحية بطونته ومقدرته الحربية التى استطاع بها أن يثبت عرش بني أمية وكان يهتر تحت خلفاء الأمويين ، وربما جاءت هذه الشهرة من ناحية قسوته وعنفه وسفكه الدماء بحق أو بدون حق ، ومن المؤرخين من يلوّمه على ما أزهق من أرواح وما سفك من دماء ، ومنهم من يلتمس له العذر ذاكرين أن الفتن بالعراق كانت متصلة ، وأن تاريخ العراق يثبت أنه لم يعرف الدعة الا فى ظل القهر والدماء والتتكيل ، فالمؤرخون بهذا يلقون اللوم على الثائرين لا على من أطفأ الثورة ، ولكن المقياس الذى نراه صحيحا هو اباحة الشدة اللازمة لضمان الأمن والسلام ، وأعتقد أن الحجاج كان يستطيع أن يحقق ذلك بأقل مما سفك من دماء وما أزهق من أرواح ولذلك لا نخليه من مسئولية ما سفك من دماء وما وزع من أموال بدون مبرر . وقد أدرك عبد الملك اسراف الحجاج فى الدماء والأموال فكتب إليه « أما بعد ، فقد بلغ أمير المؤمنين سرفك فى الدماء وتبذيرك فى الأموال ،

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢١٥ .

ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس ، وقد حكم عليك أمير المؤمنين في الدماء بالدية في الخطأ وبالقود في العمد ، وحكم عليك في الأموال بردها الى مواضعها .. » وقد رد الحجاج بكتاب جاء فيه : « أما يعد فقد أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرفي في الدماء وتبذيري في الأموال ، ولعمري ما بلغت في عقوبتي أهل المعصية ما هم أهل ، وما قضيت حق أهل الطاعة بما استحقوه ... ووالله ما قتلت الا فيك ولا أعطيت الا لك ... » .

وسنرى من استعراض الأحوال في ذلك العهد أن قسوة الحجاج كانت ضرورية ، ولكتها كما قلنا قد دخلها السرف :

الصراع حول الكوفة بين عبد الملك والمختار وابن الزبير :

كان المختار بن أبي عبيد الثائر بالكوفة عدوا لكل من عبد الملك وعبد الله بن الزبير ، ولذلك اشترك الاثنان في محاربته ، لأن كل واحد من هذين الاثنين كان يرغب في ضم مدُن العراق اليه ، ومن أهم المعارك التي وقعت موقعة الجازر ، وكان يقود جيش عبد الملك قائده عبيد الله بن زياد ، أما جيوش المختار ، فكان يقودها ابراهيم بن الأستر ، وقد دارت الدائرة على ابن زياد وقتل هو وحصين بن نمير وعدد كبير من جند الشام واستقرت الكوفة بذلك للمختار (١) .

وحينئذ ولى ابن الزبير أخاه مصعبا على البصرة وأمره بتخليص الكوفة من المختار ، فسار بجيش كبير وكانت ضلالات المختار قد ظهرت ، فتخلّى عنه لذلك ابراهيم بن الأستر ووجوه أهل الكوفة ، فقتله مصعب وقتل من بقى معه وخلص العراق بذلك لابن الزبير (٢) .

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ٤ : ٤٠٤ { ويروى صاحب الفخرى ان عبيد الله بن زياد قتل في عهد مروان بن الحكم في معركة ضد جيوش المختار (انظر ص ١٠٤) .

(٢) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٠٥ .

ولم يهنا ابن الزبير بالنصر الذي أحرزه ضد المختار ، إذ أن عبد الملك سرعان ما سار بنفسه ومعه قادته وجنده الى العراق والتقى بمصعب ومعه جنده العراقيون ، ولكنهم سرعان ما انقضوا من حوله فهزم وقتل غيلة (١) ، وكان الحجاج ضمن قادة عبد الملك في هذه المعركة ، ولما قتل مصعب استسلم قادته فأمنهم عبد الملك وأبقاهم في مناصب القيادة ومن هؤلاء المهلب ابن أبي صفرة الذي أصبح من خيرة القادة للخلفاء الأمويين وابراهيم بن الأستر الذي كان قد اصطنعه مصعب ثم أمته عبد الملك بعد قتل مصعب .

ولم يبق أمام عبد الملك الا الحجاز حول ابن الزبير ، فأرسل عبد الملك قائده الحجاج لمقاتلته ، فسار الحجاج سنة ٧٢ هـ وحاصر مكة ورماعها بالمجانيق . واشتدت الحال على أهل مكة حتى تخلوا عن ابن الزبير ، وكان ممن تخلى عنه ابنه حمزة وحبيب ، واستشار ابن الزبير أمه فيما يفعل ، فأشارت عليه أن يظل يدافع عن عقيدته حتى يموت كما مات أصحابه ، فاستجاب لرأيها وصمد في المعركة حتى قتل وعين عبد الملك الحجاج والياً على الحجاز .

وتجددت الفتن بالعراق كالعهد به ، فلم يجد عبد الملك بدا من تعيين الحجاج والياً على العراق ليقمع ثمرده فنقله من ولاية الحجاز الى ولاية العراق فسار للكوفة سنة ٧٥ هـ ودخلها في اثني عشر ركباً ، وصعد المنبر وهو ملثم ثم كشف اللثام وألقى خطابه الشهير الذي جاء فيه :

أنا ابن جلا وطلاع التنايا
متى أضغ العلامة تعرفوني

يا أهل الكوفة اني لأرى رعوساً قد أينعت وحنان قطفها واني

(١) العقد الفريد ج ٤ ص ٤١٠ .

(م هـ - التاريخ الاسلامي)

لصاحبها ، وكأني والله أنظر الى الدماء بين اللحي والعمام . . . وانكم كأهل قرية « كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » (١) . وبعد أن أتم خطابه القاسي المملوء بالتهديد والتحذير أمر غلامه أن يقرأ عليهم كتاب الخليفة اليهم فقرأ الغلام : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الملك أمير المؤمنين الى من الكوفة من المسلمين ، سلام عليكم . فلم يردوا السلام ، فقال الحجاج للغلام : توقف ، والتفت الحجاج للناس وصاح فيهم : يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون ! والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن ، اقرأ يا غلام . فبدأ الغلام يقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الملك أمير المؤمنين الى من بالكوفة من المسلمين ، سلام عليكم . فلم يبق أحد بالمسجد الا قال وعلى أمير المؤمنين السلام (٢) وترك الحجاج الكوفة الى البصرة حيث كرر شدته ووعيده ، وخضع أهل البصرة واستكانوا كما فعل أهل الكوفة . وامتد نفوذ الحجاج بعد ذلك حتى شمل الشرق كله ، فعين من قبلكه المهلب بن أبي صفرة واليها على خراسان وظل هذا في خراسان حتى وفاته سنة ٨٣ هـ (٣) .

ويعلق الأستاذ الخضري على موقف أهل العراق من الحجاج بقوله : وتبين هذه الخطبة حال أهل العراق وسكونهم الى الذلة ، يجيئهم الحجاج في بضعة عشر راجيا ، وفيهم الأشراف والرؤساء فيخطبهم ويتوعدهم بالمصائب وهم ساكتون لا يرد أحد منهم عليه قولا ، ويوبخهم على ترك السلام على أمير المؤمنين فيستكينون ويخضعون ، وهم الذين فتحوا أبواب الشور (٤) .

(١) سورة النحل الآية ١١٢ .

(٢) المبرد : الكامل ج ١ ص ٣٣٣ - ٢٣٤ .

(٣) ابن قتيبة : المعارف ص ٢٠٤ .

(٤) محاضرات في التاريخ الاسلامي ج ٢ ص ١٤٥ .

فتنة ابن الأشعث :

وخضع أهل العراق لتهديد الحجاج وأمرهم بالانضمام لجيوشه ففعلوا ، فجند من الكوفة عشرين ألفا ، ومن البصرة عددا مثل ذلك ، وأمر عليهم عبد الرحمن بن الأشعث الذي ينحدر من كندة ، تلك القبيلة التي كان منها ملوك في الجزيرة العربية قبل الاسلام (١) . وأرسل الحجاج عبد الرحمن وجيشه الى سجستان لحرب الملك رتييل ملك الترك ، وكان بين هذا الملك وبين المسلمين عهد على أن يدفع جزية ، ثم نقض العهد ، وهجم على سجستان الاسلامية ، وهزم جيش المسلمين ، وقتل والي سجستان عبيد الله بن أبي بكر ، فسير اليه الحجاج جيش العراق بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث الذي نجح في جولته الأولى نجاحا عظيما ، وفتح كثيرا من البلاد ، ثم توقف من تلقاء نفسه زاعما أن من الخير ألا يتعمق في تلك البلاد دفعة واحدة ، بل أن يأخذها مرحلة مرحلة ، وأن يجعل كل مرحلة في عام وكتب للحجاج بذلك ، فرد عليه الحجاج مسفها رأيه ، طالبا منه أن يستمر في السير ، فعرض عبد الرحمن بن الأشعث الأمر على جنوده واستشارهم ايطيع أم يخالف ، وهيهات أن يشير أهل العراق بالطاعة ، وهم يرون في الحجاج عدوهم الأول ، وقائد أعدائهم بنى أمية ، ثم أن الفتنة من طبيعتهم ، فزينوا له المخالفة ، وأكدوا له طاعتهم له واتباعهم لأمره فيما يتخذ من خطوات (٢) .

وهكذا استدار الجيش الذي أعده الحجاج ، ليحارب الحجاج ، وهكذا كانت فتنة ابن الأشعث الشهيرة ، وقدر لها أن تصادف بعض النجاح فقد هزم ابن الأشعث جيوش الحجاج واستولى على البصرة سنة ٨١ هـ ، ثم استولى ابن الأشعث على الكوفة سنة ٨٢ هـ ، وجرت بعد ذلك سلسلة من المعارك الفاصلة الطويلة في المكان المعروف بدير الجماجم سنة ٨٤ هـ ، واستمرت هذه المعارك حوالي مائة يوم ، وواصل عبد الملك ارسال المدد

(١) اقرا عن بنى الأشعث ملوك كندة في الجزء السابع من هذه الموسوعة

(٢) الطبرى ج ٥ ص ١٤٠ — ١٤٦

الى الحجاج حتى تم له النصر في هذه المارك وفي معارك مسكن » حيث استؤنف القتال بين الحجاج وبين ابن الأثعث مع فلول جيشه ، وفي فتنة ابن الأثعث هذه سقطت الآف لا تحصى من أشراف العراق ورؤسائه ، وبدأ رف الحجاج في قتل الأسرى بعد موقعة ذي الجراح ومسكن ، فكان ما أضعف فتن العراق بعد ذلك ، أما ابن الأثعث فقد فر ولجأ الى رمايل فطلبه الحجاج فقتل نفسه وأرسلت رأسه الى الحجاج (١) .

وقبل أن نترك فتنة ابن الأثعث يجدر بنا أن نشير الى رؤية أوردها الطبري لأنها أن صحت تعد سقطة كبيرة من سقطات الحجاج ، فقد روى الطبري (٢) أن ابن الأثعث كان أبغض رجل الى الحجاج بالعراق ، وأن الحجاج كان يقول : ما رأيته قط الا أردت قتله ، ويروي الطبري كذلك أن الحجاج لما عين ابن الأثعث على جيش العراق جاء اسماعيل بن الأثعث الى الحجاج فقال له : لا تبعثه فأني أخاف خلافه ، ووالله ما جاز جسر الفرات قط فرأى لي من الولاية عليه طاعة وسلطانا . فقال الحجاج : ليس هناك ما هو أرغب لي من أن يخالف أمري أو يخرج من طاعتي . وأمضاه على ذلك .

ان عهدنا بالحجاج أنه فطن ذكي لا يولى عدوا يباده الكراهية على أحد جيوشه الكبيرة ، ولكن اذا صحت هذه الروايات فأنها كما قلنا آتفا سقطة عظمى تحسب على الحجاج ويحتمل وزرها ، وبخاصة أن الجيش عراقي دأبه العصيان والتمرد ما وجد لذلك سبيلا ، وبين هذا الجيش وبين الحجاج ترات عظيمة وغل قديم ، ويقول الطبري (٣) أن أهل العراق أغروا ابن الأثعث بالثورة لاجتماعهم على بغض الحجاج والكراهية له .

وقد بلغ من قسوة هذه الفتنة أن عبد الملك أبدى استعدادا للتضحية بقائده الحجاج وعزله عن العراق اذا كان ذلك يرضى العراقيين ويعيدهم

(١) انظر الطبري ج ٥ ص ١٤٦ - ١٨٨ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٣) المرجع السابق ج ٥ ص ١٦٥ .

الى الطاعة (١) ، ولكى أهل العراق ما كانوا يطلبون غير التمرد وسفك الدماء ، ولم يكن لهم فيما يبدو هدف ثابت فى تلك الأثناء •

اصلاحات الحجاج :

بقى هناك شىء ذو بال يوضع فى الميزان عند الحكم على الحجاج • ذلك هو ما قام به من اصلاحات عمرانية ، والعجيب أن الذى يدرس الحجاج لا يجده عقلية عسكرية فقط ، بل يجده كذلك ذا عقلية بناءة فى زمن السلم ، وقد قام بإصلاحات مدنية جليلة النفع ، فهو الذى بنى مدينة واسط فى منتصف الطريق تقريبا بين الكوفة والبصرة وجعلها مقسرة حكمه ومنزل جنده الشاميين • وعمل على انعاش البلاد بعد أن أنهكتها الحروب عشرين عاما ، فأصلح القنوات التى تحمل مياه دجلة والفرات الى أطراف البلاد وتعهدها بالعناية الدائمة ، وأصلح السدود التى تصون خصب الأرض من عادية الصحراء ، وقاوم الحجاج بشدة الهجرات الريفية الى المدن ، وأقام التجارة على قواعد الطمأنينة والثقة باصلاح نظام النقد ونظام الموازين والمكايل والمقاييس ، وتذهب الروايات كذلك الى أنه عنى بإعجام القرآن (٢) •

على أن الحجاج لم يكن يعمل لنفسه ولا يعمل باسمه ، وعلى هذا فعبد الملك وابنه الوليد شريكان للحجاج فى كل ما قام به من خير وشر ، وقد وضع يزيد بن أبى مسلم ذلك لسليمان بن عبد الملك عندما سأله هذا : أترى الحجاج استقر فى قعر الجحيم بعد ؟ فأجاب أبو مسلم : يا أمير المؤمنين لا تقل ذلك فى الحجاج فإنه عن يمين أبىك وعن يسار أخيك ، فحيث كانا كان (٣) •

وبعد ، فهذا هو الحجاج وذلك قبس من حياته وتصوير سريع له شى

(١) المرجع السابق •

(٢) بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ١ ص ١٧٦ — ١٧٧ •

(٣) المبرد : الكامل ج ٢ ٥٤٧ — ٥٤٨ •

حالتى السلم والحرب ، ولمحة خاطفة للظروف التى أحاطت به والمشكلات التى عاش فيها ، فهل يميل القارئ بعد ذلك الى لومه أو الى الاعتذار عنه ؟

وإذا فعل منصب الخلافة بعبد الملك :

ولنعد الى عبد الملك الخليفة العالم ، والرجل النادر بين الرجال لنصور انقلابا فى حياته عندما تولى الخلافة ، فقد روينا شيئا عن مكانته العلمية وكيف كان معدودا بين مشاهير الفقهاء ، وكان فى القمة بين الباحثين والمجتهدين ، ثم ضاع منه هذا الاتجاه العلمى بين صليل السيوف الذى غمر معظم عصره ، ووقع القنا الذى شغل لبه ، ويبدو أن عبد الملك اندمج فى حياة الخلافة ، وسعد بها واطرح ماضيه العلمى فلم يؤثر عنه فى أثناء خلافته بحث علمى ذو بال ، ويروى أن الخلافة آلت اليه والمصحف فى حجره ، فأطبقه وقال : هذا آخر العهد بك (١) ، ولم يصح عبد الملك من سكرته بحب الجاه والسلطان الا فى آخر أيامه حيث سجل صحوته فى مقطوعة شعرية رقيقة نقتطف منها الأبيات التالية :

لعمري لقد عمرت فى الدهر برهة
ودانت لى الدنيا بوقع البوائر

فأضحى الذى قد كان مما يسرنى
كلمح مضى فى الزمنات الغواير

فيا ليتنى لم أعن بالملك ساعة
ولم أله فى لذات عيش نواضر

وكنت كذى طمرين عاش ببلغة
من الدهر حتى زار ضنك المقابر (٢)

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢١٧ .

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

الحجاز من السياسة .. للأدب والفن :

الحجاز هو مهبط الدعوة الإسلامية وعاصمة الدولة في عهدها الأول ولما انتقل على^١ إلى الكوفة اعتبر الحجاز أن ذلك عمل استراتيجي مؤقت دعت له دواعي الحرب بين علي وأصحاب الجمل ، أو بينه وبين معاوية والخوارج ، وأمل الحجاز أن يعود له السلطان عقب الانتهاء من تلك الحروب ، فلما تم النصر لمعاوية واتخذ دمشق عاصمة له لم يمت أمل أهل الحجاز إذ^٢ اعتبروا ذلك شيئاً مؤقتاً أيضاً سببه أن معاوية كان والياً على دمشق وكانت دمشق عاصمة لولايته عشرين عاماً قبل خلافته ، وعلى كسب^٣ حال لم يستطع الحجاز أن يقاوم معاوية لما أحرزه من انتصارات وما حققه من دهاء .

وفوجيء الحجاز بعد ذلك بحقيقة مرة هي انتقال الخلافة من الشورى إلى الوراثة ، واستمرار الخلافة في بني أمية ، ومعنى ذلك ضياع سلطان الحجاز نهائياً ، فذهب الحجاز يناضل ، ولعل أهم سبب لنضاله هو محاولته استعادة سلطانه الغابر ومجده الذي أوشك أن يزول ، فكانت وقعة الحرة التي قصصنا طرفاً من حديثها من قبل ، وفي هذه الموقعة المشؤومة سقط زهرة شباب الأنصار والمهاجرين ، كما سقط كثير من الصحابة والتابعين ، وهناك من نجا من هول المعركة ولكن حكم الإعدام كان ينتظره من مسلم بن عقبة .

وتجدد أمل الحجاز بعد ذلك في ابن الزبير بعد موت يزيد ، واتسع شأن ابن الزبير ، ولكن مكة تعرضت في عهد ابن الزبير لأهوال جيش الشام مرتين : أحدهما في عهد يزيد حينما سار إليها جيشه عقب الانتهاء من موقعة الحرة ، وقد آلت رئاسة هذا الجيش إلى الحصين بن نمير لموت مسله ابن عقبة قبل أن يصل الجيش إلى مكة ، وقد أنزل هذا الجيش النوازل بمكة ، ولكنها نجت من التدمير بموت يزيد وانسحاب ذلك الجيش .

وثانيتها في عهد عبد الملك حيث قضى الحجاج على ابن الزبير وقضى في نفس الوقت على أمل الحجاز في استرداد سلطانه .

وهكذا أصبح الحجاز ولا أمل له في السلطان السياسي ، وقد ضحى الحجاز بأعلى ما به من دماء ليستعيد مكانته ولكن هذه التضحيات لم تأت بباطل • ونشأ بعد ذلك جيل جديد في الحجاز ، جيل لم يطمع في سلطان سياسي ، ولم يكن موضع ثقة خلفاء دمشق فلم توكل لهم أعمال ذات بال ، وورث هذا الجيل ثروة طائلة جمعها الجيل السابق الذي كانت له الصدارة من قبل ، فاجتمع بذلك في أبناء مكة والمدينة الشباب والفراغ والجدة ، واتجهت المدينتان المقدستان الى الأدب والفن تجد فيهما السلوى عما فقدتا من جاه عريض وسلطان ضخم ، وهكذا أصبح النسيب فنا قائما بذاته بعد أن كان يظهر في مطلع القصائد فقط ، وظهر بمكة عمر بن أبي ربعة شاعر الغزل الشهير ، وظهرت الصالونات الأدبية وحلقات الغناء والموسيقى ، فظهر طويس وابن سريج والغريص ، وقد أبدع الغريص في الغناء حتى توهم الناس أنه يتلقى غناؤه من الجن ، ويروى أنه خرج مرة الى طريق الحجاج وتوقف حيث يراهم ولا يرونه وأخذ يغنى من شعر عمر بن أبي ربعة :

أيها الرائح المجد ابتكارا

قد قضى من تهامة الأوطارا

فملك الطرب قلوب السامعين وقالوا : طائفة من حجاج الجن (١)

وهكذا انتقل الحجاز من قمة الى قمة ، من قمة في السياسة الى قمة في شئون الأدب وشئون الفن •

(١) الاغاني ٣ : ٣٠٢ وما بعدها ،

الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ)

ولد الوليد سنة خمسين للهجرة ، وتلقى بعض الثقافات الاسلامية ، ولكن ثقافته في اللغة العربية كانت ضعيفة فكان بسبب ذلك لسانا ، ويروى أن أباه عبد الملك قال : أصرّ بالوليد علينا له فلم نرسله للبادية . وكانت البادية مدرسة لمن أراد أن يتعلم اللغة الفصحى بعيدا عما انتشر بالمدن الاسلامية من لحن بسبب اختلاط العرب بغير العرب ، ولكن أباه لم يدعه في لحنه وخطئه بل قال له في حزم : انه لا يلي أمر العرب الا من يحسن كلامهم . ولهذا دخل الوليد بيتا وأخذ معه جماعة من علماء النحو وأقام مدة يشتغل به (١) .

وكان مروان بن الحكم قد بايع لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز ، ولكن عبد العزيز مات قبل وفاة عبد الملك فعين عبد الملك ولديه : الوليد ثم سليمان سنة ٨٥ هـ ، وكتب بذلك الى البلدان فبايع الناس ولم يمتنع غير سعيد بن المسيب بالمدينة (٢) ولما مات عبد الملك جدد الناس البيعة للوليد .

وقد مر بنا الجهد الكبير الذي بذله عبد الملك ليعيد وحدة العالم الاسلامي ، والعناء المتصل الطويل الذي استلزم صراعا امتد حوالى عشرين عاما ، ولكن عبد الملك استطاع أن يحقق أمله وأن يصل الى غايته وترك لابنه الوليد ملكا مستقرا هادئا متحدا . وكان الوليد خير من يتسلم هذا الملك ، وأعظم من يرعى هذا التراث ، وكان عبد الملك رجلا صراعا في عهد يحتاج للصراع ، وكان الوليد رجلا سلم واصلاح فجاء في عهد سلم وقام بالاصلاح . ولقد بنى عبد الملك البناء شاهقا وجاء الوليد فزينه وحسنه ونمّاه .

(١) الفخرى ص ١٠٩ .

(٢) اقرا قصة ذلك في الطبري ج ٥ ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

اصلاحات الوليد الداخلية :

أن ما قام به الوليد من اصلاحات داخلية يدل دلالة واضحة على سمو روح الاسلام وعظيم مبادئه وتوجيهاته ، ويدل كذلك على عبقرية عظيمة لهذا الخليفة العظيم ، إنها أعمال لو تمت في العصر الحديث لكانت مفخرة ، فما بالك وقد تمت منذ حوالى ثلاثة عشر قرناً أى في عهد كان الظلام والجهل مطبقين على أكثر بقاع الدنيا ، تعال بنا نجل جولة سريعة في اصلاحات هذا الخليفة الفذ .

من أعمال الوليد العظيمة أنه تعهد الأيتام وكفلهم ورتب لهم المؤدين ، كما رتب للزمنى من يخدمهم ، وللمكفوفين من يقودهم ، ورتب لهؤلاء جميعاً الأرزاق المنتظمة (١) ، كما وضع المجذومين في بيت يرعاهم طبيباً حتى لا يخرجوا على الناس بعاهاتهم ورتب لهم الأرزاق الوافية ، وأعطى كل متعبدٍ خادماً يهتم بأمره وأجرى لهم الأرزاق الوافية (٢) .

واهتم الوليد كذلك بالعمران فأنشأ الطرق ومهدا وبخاصة الطرق المؤدية للحجاز ، كما حفر الآبار على طول هذه الطرق ، ووظف من يعنى بهذه الآبار ويمد الناس بمائها (٣) ، ويروى أن الوليد كان شديد السكف بالعمارات والأبنية واتخاذ المصانع حتى اشتهر بذلك شهرة سليمان بحب النساء والطعام ، وشهرة عمر بن عبد العزيز بالتقوى والورع ، وكان الناس يلتقون في عهد الوليد — والناس كما يقولون على دين ملوكهم — فيسأل بعضهم بعضاً عن البناء والعمران ، فلما تولى سليمان واهتم بالنساء والطعام كان الناس يتساءلون عن التزويج والجوارى ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز وبرز في التقوى كان الرجل في عهده يقابل الرجل فيسأله : ما وردك الليلة ؟ وكم تحفظ من القرآن (٤) .

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٣ .

(٢) الطبرى : ج ٥ ص ٢٢٤ - ٢٦٥ والنخري ص ١٠٩ .

(٣) المرجعان السابقان .

(٤) الطبرى ج ٥ ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

ومن آثار الوليد الخالدة في العمارة المسجد الأموي بدمشق ، وكان يعد أحد عجائب الدنيا ، ولا يزال حتى اليوم ناطقا بعظمة الوليد وجهده البالغ ، ومن آثاره كذلك عمارة المسجد النبوي وقد قام بذلك وإلى المدينة آنذاك عمر بن عبد العزيز ، فهدم البناء القديم بأمر الخليفة وأعاد بناءه بعد أن وسعه بادخال حجرات أزواج الرسل فيه ، وكذلك بادخال دور أخرى اشتريت لهذا الغرض .

وكان الوليد يميل إلى العدل والقسطاس ، روى أن محمد بن يوسف عامله على اليمن حمل له هدايا وألطا ، فقبل للوليد أن محمداً غصب هذه الهدايا من الناس وكلفهم عملها دون أجر ، فامتنع الوليد عن أخذ الهدايا وأصر محمد على أنها من ماله الخاص ، فلم يقبلها الوليد حتى حلف محمد بين الركن والمقام في مكة خمسين يمينا ما غصب شيئا منها ولا ظلم أحدا ولا أصابها إلا من طيب (١) .

وكان عهد الوليد على العموم عهد سعة ورخاء وأمن واطمئنان ، وفي ظل هذا اليُسْر وتلك الوحدة القوية ، ثم في ظل إيمان الوليد وقوته اتسع العالم الإسلامي وامتد حتى شمل الأندلس وشمل السند وغيرهما من البقاع على ما سيأتى أيضا .

ومن أهم الرجال الذين اعتمد عليهم الوليد الحجاج قائد أبيه وقد مر ذكره ، وقد أوصى عبد الملك ابنه الوليد بالحجاج وصية تمثل مكان الحجاج في ملك بنى أمية ، قال عبد الملك : وانظر الحجاج فأكرمه فإنه هو الذي وطأ لكم المنابر ، وهو سيفك يا وليد ويدك على من ناوأك ، فلا تسمع فيه قول أحد ، وأنت إليه أحوج منه اليك (٢) . وقد كانت هذه الوصية عميقة الأثر في نفس الوليد وجدير بها أن تكون كذلك روى عن الوليد قوله :

(١) المرجع السابق ص ٢٦٧ .
(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٠ .

كان عبد الملك يقول : الحجاج جلدة ما بين عيني وأنفي وأنا أقول : انه جلدة وجهي كله (١) .

وتختلف الروايات عن احساس الوليد تجاه الحجاج في أخريات أيام الحجاج ، فيروى الطبري أن الحجاج ثقل على الوليد قبيل موته ، ولكن الوليد لم يستطع أن يعزله أو يمسه بسوء وبقي الحجاج حتى مات ففرح الوليد بموته (٢) ولكن ابن عبد ربه يروى أنه لما مات الحجاج في آخر أيام الوليد بن عبد الملك تفجع عليه الوليد (٣) وتتفق رواية المبرد مغزى مع رواية ابن عبد ربه . فقد روى عن الأصمعي أن الوليد خرج يوماً على الناس وهو مشعان الرأس (منتفخ الشعر متفرقه) فقال : مات الحجاج ابن يوسف وقرّة بن شريك وجعل يتفجع عليهما (٤) . وذلك الرأي هو ما نميل إليه ، فكل الدلائل تدل على عمق الصلة بين الوليد والحجاج حتى آخر اللحظات .

ومن الرجال الذين اعتمد عليهم الوليد كذلك عمر بن عبد العزيز الذي ولاه المدينة سنة ٨٧ هـ وسيأتي مزيد من الكلام عنه عند الحديث عن خلافته ، ومنهم محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم وموسى بن نصير وسنحدث عن هؤلاء الثلاثة عند الحديث عن الفتوحات في عهد الدولة الأموية .

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٥ ص ٥٥ .

(٢) تاريخ الامم والملوك ج ٥ ص ٢٦٦ .

(٣) العقد الفريد ج ٥ ص ٥٥ .

(٤) الكامل في اللغة والادب ج ٣ ص ٥٢ .

سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ)

ولد سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦ هـ وروى ابن عبد شيت أخيه الوليد وكان الوليد قبيل وفاته قد ذكر في عزل أخيه سليمان بن ولادة السمرقانية ابنه ، قال تشاور الوليد ذلك فلم يستطع فعله فوافى الخليفة بن عبد الله بن القاسم وقتية بن قيس (١) فوافقه على ذلك ، فمضى بن عبد العزيز ومعه الخليفة إلى أن لك ولأخيك سليمان بيعة واحدة في أخصاصها فإذا أن قبضت كلها أو تسقط كلها ولكنها لا تتجزأ ، ولم يتم رأى الوليد اذلك ، ولهذا نقم الوليد على عمر بن عبد العزيز فعزله عن ولاية المدينة .

وقد كانت حادثة تغيير ولى عهد الوليد حادثة مشؤومة ، صبغت بطام عهد سليمان بلون كراهية ، وجعلت الفترة الأولى من حكمه مملوءة بالانتقام المر ، الانتقام لشخصه من القادة البارعين الذين ملأ ذكرهم البقاع ، وقد كان الحجاج يحس بالفجوة والكراهية بينه وبين سليمان ، وكان يتمنى أن يموت قبل الوليد ، وقد حقق الله أمنيته فنجا الحجاج بالموت من يد سليمان ، أما آل الحجاج ومحمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم فقد ذاقوا العذاب الوبيل من سليمان ، وهكذا عذب وقتل محمد بن القاسم درة عمره والذي على يده دخل الاسلام السند ، وقتل قتيبة بن مسلم الذي دقس الفتح الاسلامى الى خراسان وما وراء النهر والذي كان ميمون النقيبة ويلقب عند أهل خراسان بملك العرب . ويقال أن قتيبة بن مسلم هو الذى بادر — لخوفه من سليمان — بعزله ، فثار عليه بنو تميم وكانوا يكونون عنصرا هاما في جيشه وولى الشائرون أمرهم رجلا منهم أسمه وكيع ابن حسان التميمي ثم هجموا على قتيبة فقتلوه ، وعلى كل فقد قتل قتيبة من جراء ولاية عهد الوليد (٢) ويروى الطبرى (٣) أن رجلا من أهل خراسان

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٦٧ وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٩٩ .
(٢) اقرا تفاصيل قتل قتيبة في الطبرى ج ٥ ص ٢٧٣ وما بعدها وفي البلاذرى ص ٤١١ وما بعدها .
(٣) تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٢٨٣ .

قال للعرب : يا معشر العرب قتلتم قتيبة ، والله لو كان قتيبة منا فمات
فينا جعلناه في تابوت فكنا نستفتح به اذا غزونا .

وهناك تتكىل أوقعه سليمان بالقائد العظيم موسى بن نصير ، ولم
يكن هذا التتكيل مرجعه ولاية العهد ، ولكن سببه — فيما يروى — شره
سليمان وحببه للدنيا ، وتقول الرواية ان موسى بن نصير قدم من الأندلس
ومعه هدايا وطرف ، ولما كان في الطريق مرض الوليد وطمع سليمان في
الحصول على هدايا الأندلس وطرفه لنفسه ، فكتب الى موسى يطلب منه
أن يترث في سفره ريثما يموت الوليد ، فلم يقبل موسى وواصل سفره
فنقم عليه سليمان وعذبه وحبسه وصادر أمواله وألزمه غرامة كبيرة جعلته
يسأل العرب المعونة لسدادها (١) .

تلك كانت مأساة الانتقام التي حدثت في عهد هذا الخليفة ، وهي بلا شك
نقطة سوداء في تاريخه ، وفيما عدا هذه النقطة فاننا نجد بعض المؤرخين
يذكرونه بخير ، فيقول أنطوني (٢) ان الناس كانوا يقولون عن سليمان
أنه مفتاح الخير ، أطلق الأسارى ، وعفا عن المسجونين ، وأحسن الى
الغاسي ، واستخلف عمر بن عبد العزيز .

ويقول السيوطي (٣) ان سليمان كان من خيار بنى أمية وكان فصيحاً
مفوهاً ، مؤثراً للعدل ، محباً للغزو ، ويروى كذلك عن ابن سيرين أنه قال :
يرحم الله سليمان ، افتتح أيامه باحيائه الصلاة لمواقيتها ، واختتمها
باستخلافه عمر بن عبد العزيز .

والحقيقة أنه كان عملاً نبيلاً من سليمان أن يترك ولديه ويولى عهده
ابن عمه ، وقد رأى سليمان بنفسه حرص الآباء على تولية أبنائهم ، رأى

(١) ابن قتيبة : في الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٧٩ — ٨٠ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٣٠٤ .

(٣) تاريخ الخلفاء : ٢٢٥ — ٢٢٦ .

(٤) انظر فتوح البلدان ص ١٤٣ والأغاني ج ١٣ ص ١٦٠ ومعجم البلدان
عند الكلام عن بلدة « الرملة » .

ذلك في سكة يهـ معاوية ومروان ، وفي أبيه عبد الملك وأخيه الوليد ، ولكن سليمان كان من القلائد الذين آثروا المصلحة العامة للمسلمين وجعلوها ترجح مصلحة أبنائهم وتتغلب على عواطف الأبوة ، ثم إن اختياره كان موافقا الى أبعد حدود التوفيق ، فوضع بين خلفاء بني أمية الرجل الذي يعتبر بحق في عداد الخلفاء الراشدين •

وقد عرف عن سليمان حبه لقصره الصحراوي في الرملة وامضاؤه أغلب وقته فيه ، وكان اتجاها عاما للأمويين قبل سليمان وبعده أن يتخذوا القصور الصحراوية لتنتقلهم من ضجيج الحياة بدمشق الى هدوء الصحراء ونسيمها العليل وجوها الصحن السليم من الأوبئة ، ولكن سليمان يمتاز عن غيره بأنه تأنق في قصره بالرملة ، فلما تولى الخلافة استكمل القصر أناقته فأصبح كأنه عاصمة صغيرة ، لأن الخليفة بنى مسجدا بجوار القصر وحفر الآبار ومد الأنهار وأذن لكثير من أتباعه بالبناء حول قصره (١) •

وسليمان كان يمتاز بشباب مرق وجمال رائع ، وكان يعجب بنفسه اذا نظر في المرأة ويقول : أنا الملك الفتى ، ويروى أنه في يوم لبس حلة خضراء وعمامة خضراء واتجه الى المرأة فأعجب بنفسه وطرب بها ، وشهدته جارية من جواريه وهو في عجبه وتهيهه فأنشدت :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى
غير ألا بقاء للانسان
أنت خلو من العيوب ومما
يكره الناس ، غير أنك فان
فلم يمض أسبوع واحد حتى مات (٢) •

ومن الرجال البررة الذين اعتمد عليهم سليمان رجاء بن حيوة وسنتكلم عنه عند الكلام عن عمر بن بد العزيز ، ومن رجال سليمان المبرزين

(١) انظر فتوح البلدان ص ١٤٣ والاغاني ج ١٣ ص ١٦٠ ومعجم البلدان عند الكلام عن بلدة الرملة •

(٢) الطبري ج ٥ ص ٣٠٥ والعقد الفريد ج ٤ ص ٣٢٥ •

كذلك يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الذى خلف أباه كعامل على خراسان قبل عهد سليمان ، ولكن سرعان ما تشب الخلاف بين يزيد وبين الحجاج الذى كان له الاشراف على الشرق كله ، وكان الحجاج قد تزوج أخت يزيد ولكن ذلك لم يقلل من حدة الخلاف ، وانتهى الأمر بأن قبض الحجاج على يزيد وأسرته وأطلق أعوانه يعذبونهم ، ولم يقبل شفاعة زوجته فيهم بل مطلقها عندما رأى سخطها لما ينزل بآلها ، واستطاع آل المهلب الهرب من سجن الحجاج ، ولحقوا بسليمان بن عبد الملك فى الرملة فاستجاروا به ، وكانت بينهم وبينه صلة فأجارهم • وكتب الحجاج للوليد يوغر صدره ضدهم ، فطلب الوليد من سليمان أن يرسل له آل المهلب مقيدين فأرسلهم سليمان مقيدين فى سلسلة تضم ابنه أيوب أيضا ومعه خطاب من سليمان يستعطفه ويرجوه ألا يمس جواره ، فاستجاب له الوليد وكتب للحجاج أن يكف عن بنى المهلب فسكت الحجاج عنهم (١) •

ولما تولى سليمان الخلافة شغل آل المهلب له خير الأعمال ، وأصبح يزيد من كبار رجال دولته ، فأسندت له ولاية خراسان وقيادة جيوش المسلمين فى نواحى جرجان وطبرستان ، وقد انتصر فى معاركه بهذه النواحى انتصارا عظيما ، ولما كان فى قمة النصر كتب الى الخليفة يصف له الفتح العظيم والغنائم الكبيرة التى حصل عليها ويقول « وقد صار عندى من خمس ما أفاء الله به على المسلمين — بعد أن صار الى كل ذى حق حقه من الفىء والغنيمة — ستة آلاف ألف وأنا حامل ذلك لأمير المؤمنين ان شاء الله » (٢) •

ومات سليمان دون أن ترسل هذه الأموال ، فطالبه عمر بن عبد العزيز بها ، فادعى أنه كان يبالغ اعتقادا منه أن سليمان ما كان ليأخذ منه شيئا • فحبسه عمر (٣) ، وظل فى محبس عمر حتى مرض عمر ففر يزيد من المحبس وأعلى عصيانه ليزيد بن عبد الملك ، وسيأتى بعض التفصيل لموقفه من يزيد بن عبد الملك عند الكلام على هذا الخليفة •

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٣٠ وما بعدها •

(٢) المرجع السابق ٢٠٣ •

(٣) المرجع السابق ص ٣١٢ •

عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١) هـ

نحن الآن أمام صفحة رائدة من صفحات التاريخ الاسلامي ، صفحة وصلت ما انقطع من تاريخ أبى بكر وعمر ، ومن الممكن أن نقرر أن عهد عمر بن عبد العزيز من تاريخ عصره ما كان عهدا قائما بذاته ، له خواصه وله طابعه الاسلامي العفوية ، التي لم تتأثر بما يؤخذ على بنى أمية من انحرافات فاسدية .

رغم ذلك فإن عهد عمر بن عبد العزيز بمدينة حلوان بالقرب من القاهرة في أثناء ولاية ابن عمر ، كما جاء في تهذيب الأسماء للنووي (١) ، ويروى ابن عمر بن عبد العزيز أنه عاد بالمدينة (٢) ، ويتصل نسبه من جهة أمه بالخليفة الثاني من الخلفاء الراشدين ، وهذا يورث منه كثيرا من الخلال الكريمة والصفات النادرة ، كما أمضى سنه الأولى مع أعمام أمه بالمدينة ، فلتقى في هذا الجو العطر كثيرا من التوجيهات الرشيدة ونبت نباتا حسنا ، وكان لتربيته تلك أثر كبير فيما عرف عنه من مزايا ومحامد .

ولما شب تزوج فاطمة بنت عمه عبد الملك ، وكان عبد الملك يقربه ويحبه ، وفي عهد الوليد كانت لحمر ولاية المدينة ، فأحسن السيرة ولكنه كما يقول ابن عبد الحكم كان يعصف عطره ، ويسترسل شعره ، ويطول أزاره ، ويتبختر في مشيته ، وهو مع ذلك لا يعاب في بطن ولا فرج ولا حشم (٣) .

وقد عزله الوليد عن ولاية المدينة لخلاف بين عمر وبين الحجاج أو لرفض عمر الموافقة على عزل سليمان بن عبد الملك والبيععة لابن الوليد كما مر .

(١) انظر ترجمة حياة عمر بن عبد العزيز في تهذيب الاسماء .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٩ .

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٢٠ .

وعمر من الخلفاء القلائل الذين سغت لهم الخلافة دون أن يسعوا اليها ، أو يحاولوا الحصول عليها ، بل أنه كان حريصا على ابعادها عن نفسه ، ويرى فيها امتحانا قاسيا يثقل عليه حملة ، ولكن سليمان ابن عبد الملك كان يظهر اعجابه بعمر ويراه أكفأ بنى قومه ، فلما مرض (سليمان) استشار وزيره رجاء بن حيوة فيمن يعهد له بالخلافة وسأل رأيه في عمر ابن عبد العزيز ، فأثنى رجاء على عمر وحسن لسليمان أن يعهد اليه ، وأدرك عمر بفطنته اتجاه سليمان اليه ، فخلا برجاء وقال له : يا رجاء ، اننى أرى أمير المؤمنين فى الموت ، ولا أحسبه الا سيعهد ، وأنا أناشدك الله إن ذكرنى بشئ من ذلك إلا صددته عني ، وإن لم يذكر ألا تذكرنى له فى شئ من ذلك * وأراد رجاء أن يصرف عمر بن عبد العزيز عن الحديث فى ذلك الموضوع فقال له : لقد ذهب ظنك مذهباً ما كنت أحسبك تذهب ، أظن بنى عبد الملك يدخلونك فى أمورهم (١) وهكذا خدع عمر فسكت ولم يفتح بعد ذلك هذا الموضوع ، ولكن الأمر كان قد دبر على نحو الاتفاق الذى تم بين سليمان وبين رجاء ، فان سليمان عهد لعمر بن عبد العزيز ، وجعل من بعده يزيد بن عبد الملك وكتب بذلك عهدا وأعطاه لرجاء ، وطلب سليمان من بنى أمية ومن قادة الجند أن يبايعوا لمن ارتضاه الخليفة لهم فبايعوا ، ومات سليمان بعد ذلك ، فكنتم رجاء خبر وفاته وجمع وجوه الناس وطلب منهم تكرار البيعة ففعلوا ، ثم نعى رجاء لهم سليمان وفرض الكتاب ، وأعلى أن عمر هو الخليفة الجديد ، فاسترجع عمر حين ذلك وقال : والله ان هذا الأمر ما سألته قط فى سر ولا علانية (٢) ، ثم صعد المنبر وانطلق يقول : أيها الناس ، انى قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأى كان متنى فيه ، ولا طلبه لى ، ولا مشورة من المسلمين ، وانى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى فاختراروا لأنفسكم * وأخذ عمر ينزل من فوق المنبر ، ولكن الناس صاحوا به : قد اخترناك ، وأقبلوا عليه وبايعوه (٣) *

(١) ابن عبد الحكم ص ٣٠ - ٣١ .

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٣١ .

(٣) الطبرى ج ٥ ص ٣٠٧ وابن الجوزى ص ٥٥ والفخرى ص ١١٠ .

وسار عمر يدفن سليمان ، ولما رجع رآه مولاه مغتما ، فسأله : مالى أراك مغتما ؟ قال : لئلا ما أنا فيه فليغتم ، ليس أحد من الأمة الا وأنا ملزم أن أوصل اليه حقه ، غير كاتب الى فيه ولا طالبه منى (١) . وهكذا كان ادراك عمر للمسئولية منذ اللحظة الأولى ، ويروى أن زوجته دخلت عليه عقب توليته الخلافة فوجدته يبكي فقالت له : ألتىء حدث ؟ قال : لقد توليت أمر أمة محمد ، ففكرت فى الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعارى المجهود ، والمقهور والمظلوم ، والغريب والأسير ، والشيخ الكبير ، وعرفت أن ربى سألنى عنهم جميعا ، فخشيت ألا تثبت لى حجة فبكيت (٢) .

نموذج فريد :

ويمكن القول إن الخلافة شطرت حياة عمر شطرين ، فشطرت حياة عمر كان فيه خيلاء وغناء ، وعطر وثراء ، وكثير من مظاهر الجاه والسؤدد ، وأما الشطر الآخر فكان خشونة وصراعا ، ويغلب أن تكون كذلك حياة الملوك ، ولكن حياة الخشونة والحرمان يعرفها الملوك قبل أن ينالوا الملك ، فاذا نالوه نالوا معه نعيم الحياة ورخاء البال ، ولكن عمر بن عبد العزيز كان على العكس من ذلك ، كان شطر حياته قبل الخلافة شطر السعادة والثراء ، أما بعد الخلافة فكانت حياته حياة الكفاح والقناعة والعمل الدائب وسنذكر فيما يلى بعض التفاصيل لهذا الاجمال :

عمر سليل بنى أمية وأبوه عبد العزيز بن مروان ، وعمه الخليفة العظيم عبد الملك ، وزوجته فاطمة بنت عبد الملك وأخت الوليد ، ومن هنا انفسح له الرزق ، وعرف حياة القصور وعاش فيها ، وتربى فى نعيم وبحبوحة ورخاء ، وامتد ثراؤه فأصبحت له قطائع يستغلها فى الحجاز والشام وفى مصر واليمن والبحرين ، وقد ورد عليه منها دخل ضخيم من المال قدر بأربعين ألف دينار كل عام (٣) .

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٣١ .

(٢) ابن عبد الحكم ص ١٧٩ وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٣٦ .

(٣) عبد العزيز سيد الأهل : الخليفة الزاهد ص ٣٢ — ٣٣ .

وعرف عمر قبل الخلافة الطيب ومطرف الخز ، كما عرف الغناء وطرب له ، وصفق للمغنين ، ثم ثمادى في ذلك فغنى ووضع الألحان للغناء ، وزود عمر قصوره بأفخر الأثاث وأعلى الرياش (١) ، ويروى أنه كان مما يؤخذ على عمر قبل الخلافة مبالغته في التنعيم وإفراطه في حسن المظهر واختياله في مشيته (٢) . وكانت مشيته تسمى العمرية نسبة إليه ، وكان الجوارى يتعلمن من حسننها وتبختره بها ، وكان يستعمل نوعا رائعا من الطيب فإذا مشى ضاعت رائحته في المكان الذي يمر فيه (٣) .

ثم جاءت الخلافة الى عمر فكانت حدا فاصلا بين حياته السابقة وحياته اللاحقة ، فقد أحس بالمسئولية ضخمة ، وبالمظالم كثيرة ، والتبعات ثقيلة ، كما ذكرنا ، فبدأ يعمل بجد من اللحظة الأولى ، وأول ما ابتدأ به أنه جىء له بمراكب الخلافة عقب دفن سليمان ، وكانت هذه المراكب تشمل البراذين والخيول والبغال . فأجاب : دابتي أوفق لى ، وباع هذه المراكب ووضع ثمنها في بيت المال كما باع السراقات والفرش والأوطئة المخصصة للخلفاء وضم ثمنها كذلك الى بيت المال (٤) .

وعاد عمر بعد ذلك الى نفسه يحاسبها ، فجرد نفسه من كل نعيم ، ورد القطائع التي كانت قد وهبت له ، وتخلص من القطائع والأموال التي كان قد ورثها اعتقادا منه أنها لم تكن حلالا طيبا (٥) وقرع ثيابه واستبدل به كساء بثمانية دراهم ، ويروى ابن الحكم أن عمر كان قبل خلافته يرى الكساء الذي يبلغ ثمانمائة درهم خشنا ، فأصبح يرى الكساء الذي يبلغ ثمنه دراهم لينا ويبحث عن كساء أكثر منه خشونة (٦) ، وغسل عمر الطيب

(١) المرجع السابق من الصفحات ١٦ ، ١٧ ، ٤٠ ، ٤١ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٩ .

(٣) ابن الحكم ص ٢١ .

(٤) ابن عبد الحكم ص ٣٥ والطبري ج ٥ ص ٢٠٩ وتاريخ الخلفاء

للسيوطي ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٥) ابن عبد الحكم ص ٤٥ ، ٦٠ ، والسيوطي : تاريخ الخلفاء

ص ٢٣١ — ٢٣٢ .

(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٤٨ .

عن نفسه ، ودعا الحجام فقص فضلة شعره ، وباع ما عنده من ملابس
وعطر ووضع الثمن في بيت مال المسلمين وترك عمر ألوان الطعام الجميلة ،
وأخذ يأكل الطعام الجاف ، وتولى خدمة نفسه بنفسه ولم يسمح لأحد
أن يخدمه (١) .

وانثنى عمر الى زوجته وهى — كما قلنا — حفيذة خليفة وبنت خليفة
وأخت خلفاء ، وقد انحدر لها من هذا المحتد أغلى الجواهر واللاوى ،
وأثمن المتاع والرياش ، فقال لها عمر : قد علمت حال هذا الجوهر ومن
أين أصابه ذووك ، فإما أن تختارينى وتدعى كل هذا المتاع ، وإما أن
تختارى متاعك وأسرحك . فاختارته وقبلت العيش معه فى البساطة التى
أزادها (٢) .

وكان الخدم حين استخلف عمر ظنوا أنهم قد سادوا الناس ، فلما
صارت حالهم الى هذا الشر حزنوا لولايته وتفرقوا عنه ، وكان له غلام
يقال له درهم ، فقال له عمر بعد أن مضت أيام من خلافته : ما يقول الناس
يا درهم ؟ فأجاب : وما يقولون ؟ الناس كلهم بخير وأنا وأنت بشر . قال
عمر : كيف ذلك قال : انى عهدتك قبل الخلافة عطرا ، لباسيا ، فاره المركب
طيب الطعام ، فلما وليت رجوت أن استريح واتخلص من العمل والجهد ،
فزاد عملى شدة وصرت أنت فى بلاء . قال عمر : أنت حر ، فاذهب عنى
ودعنى وما أنا فيه حتى يجعل الله لى منه مخرجا (٣) .

وبذلك أصبح عمر وزوجته وبيته فى حالة أقرب الى الفقر كالصورة
اللتى ترسمها القصة التالية :

قدمت الى عمر امرأة من العراق تطلب عطاء لها ولبناتها الخمس ،
فلما صارت الى باب الخليفة قالت : هل على باب أمير المؤمنين حاجب ؟

(١) ابن عبد الحكم ص ٤٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٠ — ٦١ وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٣٢ .

(٣) ابن الجوزى ص ١٢٥ وابن عبد الحكم ص ٤٦ والمعتمد الفريد ج ٤

ص ٤٣٥ .

فقالوا : لا ، ادخلى ان احببت • فدخلت المرأة على فاطمة زوجة عمر وفي يدها قطن تغزله فسلمت وجلست ، ثم رفعت بصرها فلم تر فى البيت نسيئاً ذا بال فقالت : انما جئت لأعمر بيتى من هذا البيت الخراب • فقالت فاطمة : انما خرب هذا البيت عمارة بيوت أمثالك • ولما جاء عمر وعرف حالة المرأة بكى وفرض لها ولبناتها ما يكفين (١) •

ولما فعل عمر بنفسه ذلك أصبح مستعداً أن يفعل ذلك بالآخرين ، وكان كثيرون من بنى أمية قد نالوا بعض أموال المسلمين أو أموال البلاد المفتوحة عن طرق غير مشروعة كالاستيلاء ، أو عن طرق تبدو مشروعة وهى ليست كذلك كالقطاءع والهبات ، ويروى ابن الجوزى (٢) أن عمر انقطع عن الناس ثلاث ليال اضطرب لها وجوه بنى مروان وبنى أمية وأشراف الجند والعرب ، ووقفوا ببابه ينظرون ما يخرج عليهم منه ، أما هو فقد أخذ مع مزاحم وزيره ومستشاره يجمعان سجلات القطاءع التى اقطعت للأمرء وسجلات الهبات الضخمة التى صرفت لهم ، وعهود الأموال التى تجرى عليهم ، فلما اجتمعت السجلات والكتب أمر عمر أن يثكادى بصلاة جامعة ، فأجتمع الناس وخرج عمر فصعد المنبر ووقف مزاحم دونه وكان عمر يرتدى ثياباً رخيصة ، ثم خطب فقال : ان السابقين أعطوا عطايا ما كان لهم أن يعطوها وما كان لها أن تقبل ، وانى قد بدأت بنفسى فرددت الحقوق الى أصحابها ، رددت القطاءع والأموال الى بيت مال المسلمين ، وثنيت بأهلى : اقرأ يا مزاحم فأخذ مزاحم يقرأ سجلاً سجلاً ، ثم يأخذه عمر فيمزقه ويعلن عودة الأرض الى بيت المال أياً كان المعطى ، وأياً كان الموهوب له ، ومازالا كذلك حتى جاء وقت الظهر •

أما الأرض المغتصبة والتى لا سجل لها ، فقد أعلن عمر عودتها الى أصحابها أو الى بيت المال ان لم يكن لها صاحب •

(١) ابن عبد الحكم ص ١٧٧ .

(٢) عمر بن عبد العزيز ١٠٦ •

وسارع عمر فخلع الولاة الظالمين والعمال القساة ، فعزل أسامة ابن زيد التتوخي عن صدقات مصر ، وكان غاشما ظلوما كثير الاعتداء ، وعزل يزيد بن أبي مسلم عن افريقية ، وصالح بن عبد الرحمن عن العراق ، والحارث بن عبد الرحمن الثقفي عن الأندلس (١) .

وأوقف عمر الحروب مع غير المسلمين أو مع المتمردين من المسلمين ، واستبدل بذلك دعوة غير المسلمين للإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، كما حاجج المتمردين والخوارج ليتغلب عليهم بالدليل والاقناع ، وقد انتصر عمر في الحالتين ، انتصر في دعوته غير المسلمين للإسلام ، وانتصر في مناظراته مع الثائرين من المسلمين ، وكانت سيرته العطرة خير مساعد له لتحقيق هذا الانتصار ، فدخل كثير من ملوك السند الاسلام بدعوته وتبعتهم شعوبهم ، كما دخل الاسلام كثير من المصريين والسوريين والفرس الذين لم يكونوا قد دخلوا الاسلام من قبل على الرغم من دخول الاسلام بلادهم ، مكتفين بدفع الجزية والدخول في الذمة ، ثم جذبتهم سماحة عمر الى الاسلام مما جعل عصره يسمى « عصر إسلام البلاد المفتوحة (٢) » .

أما الخوارج — وسيأتي حديث خاص عنهم — فقد بهرتهم سيرته وأعماله فأوقفوا نشاطهم الثوري والتقوا مع عمر للتفاهم معه بالحجة ، فغلبهم بخلقه وعلمه وبيانه ، وانصاع إليه كثيرون منهم (٣) .

وخفف عمر من أثقال الخراج الذي يؤخذ من النصارى ، وأوقف أخذ الجزية ممن دخل الاسلام منهم ، فانهال الناس على الاسلام تقديرا للإسلام ولعمر خليفة المسلمين ، فكتب له عامل أهوج يقول : ان هذا يضر بالجزية . فتلقى عمر الجواب الآتي : قبح الله رأيك ، ارفع الجزية عن

(١) ابن عبد الحكم ص ٣٤ - ٣٥ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٤٠٩ ، واقرأ كذلك « التاريخ السياسي للدولة العربية للدكتور ماجد » عند الحديث عن عمر بن عبد العزيز .

(٣) الطبري ج ٥ ص ٣١١ وابن عبد الحكم في الصفحات ٨٣ ، ٨٩ ، ١٣٠ .

أسلم ، فإن الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جايب ، ولعمري عمر أثقى
من أن يسلم الناس جميعهم على يدية (١) .

وسوى عمر بين العرب وغيرهم كما تقضى بذلك شريعة الاسلام ،
فأوقف مشكلة الموالي التي أكثر المؤرخون الحديث عنها ، وقد أوردنا شرحها
في كتابنا « الاقتصاد في الفكر الاسلامي » .

وامتاز عهد عمر بكثير من الاصلاحات التي تدل على نضج في التفكير
وعلى الوعي الكامل ، وله في ذلك كتاب أرسله في صيغة بشرة دورية الى
جميع العمال ، شرح فيه بعض ما كان مشكلا ، ويمكن أن يمثل هذا الكتاب
مواد القانون الأساسي في عهد عمر ، ونحن نقتطف من هذا الكتاب بعض
الأفكار (٢) .

نظم عمر الدعوة للإسلام وبين سبلها ، وأباح الهجرة لمن يشاء الى
حيث يشاء ، ونظم الحمى ، وتحدث عن الفئ والغنيمة والأخماس ، وشرح
مضار الخمر والنبذ *** ونظم عمر الكيل والميزان حتى لا يوجد بخس
ولا تطفيف ، والغى عمر المكس والسفرة وقال ان المكس بخس والله نهى
عن البخس بقوله « ولا تبخسوا الناس أشياءهم (٣) » .

ومن اصلاحات عمر أنه أصلح كثيرا من الأرض للزراعة ، وحفر
الآبار ، وعمر الطرق ، وأعد الخانات لأبناء السبيل ، واهتم اهتماما كبيرا
بالمحتاجين والمرضى ، كما أكثر المساجد ولكنه لم يكن يتأنق في اعدادها ،
ولما طُلب اليه أن يدفع مبلغا كبيرا لذلك ، أجاب ، لأن أنفقه على أكباد
جائعة أحب الى من أن أنفقه على الجدران والأثاث .

وقد انتقلت الحالة الاقتصادية في عهد عمر بن عبد العزيز الى مستوى

(١) اقرا « الاقتصاد في الفكر الاسلامي » للمؤلف .

(٢) اقرا الكتاب كاملا في ابن عبد الحكم ص ٩٣ - ١٠٠ .

(٣) سورة هود الآية ٧٤ .

يدعو للدهشة ، فكل المراجع التي بين أيدينا تؤكد أن الفقر والعوز والحاجة قد اختفت في عهده ، ولم يعد لها وجود تقريبا ، حتي كان دافع الزكاة لا يجد من يأخذها منه ، ويروي ابن عبد الحكم عن رجل من ولد زيد ابن الخطاب قوله : انما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفا ، فما مات حتي جعل الرجل يأتي بركة ماله يبحث عن مستحق لها ، فما يبرح حتي يرجع بماله ، قد أغنى عمر الناس (١) .

ومثل ذلك أيضا يرويه يحيى بن سعيد قال : بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات افريقية فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيرا ، ولم نجد من يأخذها منا ، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، فاشتريت بها رقابا فأعتقتهم (٢) .

ومن اهتمام عمر بالفقراء ما يروي أن مولاة سوداء اسمها فرتونة من مصر أرسلت له خطابا تقول فيه أن عندها حائط قصيرا وأن دجاجها يضع بسببه ، فرد عليها عمر يذكر أنه كتب لعامل مصر ليرفع لها الحائط ويؤمن دجاجها ، وكتب في الحال الى العامل يطلب منه أن يمشي الى فرتونة ويباشر رفع حائطها وتأمينها وتأمين دجاجها (٣) .

ومن اصلاحات عمر في البريد أنه لم يجعله لحمل الأخبار الرسمية اليه فقط من العمال والموظفين كما كان من قبل ، وانما أصبح لخدمة الناس كذلك ، فقد أمر أن يتسلم عامل البريد كل الرسائل التي تعطى اليه لتوصيلها الى ذويها (٤) ، وكان خطاب فرتونة سالف الذكر أحد الرسائل غير الرسمية التي حملها البريد الى الخليفة .

وكان من الطبيعي أن يسير عمال عمر سيرته ، فلقد أحسن اختيارهم وأحسن مراقبتهم ، ويروي ابن عبد الحكم أنه خرج يوما مع وزيره مزاحم

-
- (١) ابن عبد الحكم ص ١٢٨ .
 - (٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦١ .
 - (٣) المرجع السابق ص ٦٥ — ٦٦ .
 - (٤) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٦٥ .

للغسس ، فرأيا راكبا قادمًا تجاه الشام من المدينة فاستقبلا الركب ،
وسألوا المسافرين عما خلفهم ، فقال رئيس الركب وهو لا يعرفهما : أن
ثبَّتْما جمعت لكما الخبر وإن ثبَّتْما بعضته لكما تبغيضا • فقالا : بل أجمعه
فقال : انى تركت المدينة والظالم بها مقهور ، والمظلوم بها منصور ، والغنى
موفور ، والعائل مجبور ، فسر بذلك عمر وقال : لأن تكون البلدان كلها
على هذه الصفة أحب الى مما طلعت عليه الشمس (١) •

ومن سياسة عمر فيما يتعلق بالعمال أنه رفع مرتباتهم حتى وصل
مرتب العامل أحيانا ثلاثمائة دينار ، ولما سئل عن ذلك أجاب : أردت أن
أغنيهم عن الخيانة (٢) •

وقطع عمر بن عبد العزيز سب على بن أبى طالب رضى الله عنه ،
وكان بنو أمية يسبون على المنبر ، كما سبق القول ، وجعل مكانه قوله
تعالى « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون (٣) » • وقد رثاه الشريف
الرضى لذلك بقوله :

يا ابن عبد العزيز لو بكت العـ
ـين فتى من أمية لـبـكيتك
أنـت أنقـذتـنا من السب والشـ
ـتم فلو أمكن الجزاء جزيتك (٤)

ولم يموت عمر بن عبد العزيز حتى هزل جسمه من كثرة ما بذل من
جهد وما عانى من حرمان • روى أن يونس بن أبى شبيب قال : شهدت
عمر بن عبد العزيز وإن حجة أزاره لغائبه فى عكنه (من سمته وبدانته)

(١) المرجع السابق ص ١٣٥ •

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٤٣ •

(٣) سورة النحل الآية رقم ٩٠ •

(٤) الفخرى ص ١١١ •

ثم رأيته بعدما استخلف ولو شئت أن أعد اضلّاعه من غير أن أمسها
لفعلت (١) . وقالت فاطمة زوجته : ما أعلم أنه اغتسل لا من جنابة ولا من
احتلام منذ استخلفه الله حتى قبضه (٢)

وعلى الزعم من قصر مدة خلافة عمر فقد ثقل على كثير من بنى قومه
لكثرة ما استرده منهم مما امتلكوه من قبل ، حتى لقد خيف أن يمسوه بسوء
أو ييسقوه سما ، ولذلك نصحه أرطاة بن منذر بأن يتخذ حرسا ويحترز في
لطعامه وشرايه ، فأجاب عمر : اللهم ان كنت تعلم أنى أخاف شيئا دون يوم
القيامة فلا تؤمّنْ خوفي (٣) .

وقبيل وفاة عمر مات أعوانه ، سهل أخوه ، وعبد الملك ابنه ، ومزاحم
مولاه ، ودخل المرض على عمر ، فيروى أنه قام وتوضأ ، ثم أتى المسجد
فصلى ركعتين ثم قال : اللهم إنك قد قبضت سهلا وعبد الملك ومزاحما
وكانوا أعوانى على ما قد علمت ، فلم أزد لك إلا حبا ولا فيما عندك إلا
رغبة فاقبضنى اليك غير مضيع ولا مفرط ، فما قام من مرضه حتى قبضه
الله تعالى (٤) . ولما أحسّ بدنو أجله اشترى موضع قبره بدير سمعان
ودفن فيه بعد وفاته عقب ذلك (٥) .

وأعوان عمر هم الذين مر ذكرهم بالاضافة الى رجاء بن حيوة وهم
طبعا من خيرة الأعوان ومن صفوة الناصحين ، ولا عجب فمثل عمر لا يصاحب
إلا النخبة الأمجاد .

-
- (١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٣٥ وابن عبد الحكم ص ٥٠ .
(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٣٤ .
(٤) ابن عبد الحكم ص ١١٤ : ١١٦ - ١٨٧ .
(٥) المرجع السابق ص ١١٤ .

يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ)

يمكن القول ان خلافة عمر بن عبد العزيز التى كانت نعمة وخيراً على الاسلام والمسلمين وضعت فى الوقت نفسه نهاية لدولة بنى أمية وذلك يرجع الى سببين :

أولاً — عرف المسلمون فى عهد عمر العدالة وذاقوا طعمها وأنسوا اليها، وصعب عليهم بعد عمر أن يعودوا الى احتمال الطغيان والظلم والعسف الذى حاول يزيد أن يعيدهم اليه .

ثانياً — كثرة عمر لسفك الدماء أعطى فرصة للشيعه أن يدبروا أمرهم ويعيدوا عدتهم للقضاء على بنى أمية ولوضع الأساس لدولة هاشمية ، وفى الجزء الثالث من هذه الموسوعة تفاصيل هذا الموضوع .

وقد سبق أن وصفنا الجهد الضخم الذى بذله عمر لرد المظالم وحماية بيت مال المسلمين باسترداد القطائع والهبات ، وسرعان ما هدم يزيد هبذا الجهد فأعاد القطائع وأعاد الهبات .

ومن أهم الأحداث التى وقعت فى عهد يزيد ثورة يزيد بن المهلب ، وقد سبق أن قلنا إن يزيد كان فى محبس عمر ، وهرب من محبسه فى مرض عمر الذى مات فيه ، وكتب ابن المهلب الى عمر يعتذر عن هربه ويقول « انى والله لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك ولكنى خفت أن يلى يزيد فيقتلنى شر قتلة » وكان من الواضح أن هناك عداء بين يزيد بن المهلب ويزيد بن عبد الملك ، فان الأول انضم الى سليمان بن عبد الملك فى تنكيله بآل الحجاج ، وكان بين يزيد بن عبد الملك وأسرة الحجاج مصاهرة ، فقد كان يزيد متزوجاً من بنت أخى الحجاج ، وقد مات عمر بن عبد العزيز بعد هرب يزيد بقليل (١) .

ولما فر ابن المهلب من السجن اتجه الى العراق ، وكان العراق كما كان دائما مستعداً أن يستقبل أعداء بنى أمية ويثور لهم ويحارب معهم وكانت البصرة مكانه المختار ، وفيها تجمع حوله الساخطون فكون منهم جيشاً كبيراً ، أما يزيد الخليفة فقد كون جيشاً من أهل الشام بقيادة أخيه مسلمة ، وقد انتصر جيش الشام وقتل ابن المهلب وتضعض جيشه وانزيم ، وكانت الواقعة بمكان يدعى العقير بالقرب من كربلاء ، ويقول الكلبى : نشأت وهم يقولون ضحى بنو أمية يوم كربلاء بالدين ويوم العقير بالكرم (١) ذلك لأنهم باعوا نساء بنى المهلب وأطفالهم على غير ما جرت به عادة العرب .

وكانت هذه هى النهاية المشؤومة لأسرة المهلب بن أبى صفرة التى طالما شهرت السيف فى وجه أعداء بنى أمية وطالما كسبت لهم النصر .

بقى أن نذكر عن يزيد شيئاً تعود المؤرخون أن يذكروه ، ثم لنا تعليقنا على ذلك بعد ايراد ذلك الخبر الشهير :

روى الطبرى (٣) والأصفهاني (٣) وعنهما روى ابن الأثير (٤) وابن طباطبا (٥) وغيرهما من المؤرخين القدامى والمحدثين أن يزيد هذا كان خليعاً شغف بجارتين اسم احدهما سلامة والأخرى حبابة ، فقطع معهما زمانه ، ولما مرضت حبابة اضطرب يزيد وظهر عليه اليأس ، فلما ماتت أفلت منه الزمام وسقه وأخذ يردد قول الشاعر :

كفى حزناً باللهائم الصب أن يرى
منازلَ مَنْ يهوى معطلة قفرا

(١) تاريخ الامم والملوك ج ٥ ص ٣٧٤ - ٣٧٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) الاغانى ج ١٣ ص ١٤٧ - ١٥٨ .

(٤) الكامل فى التاريخ ج ٤ ص ٦٦ .

(٥) الفخرى فى الاداب السلطانية ص ١١٢ .

وأشار عليه مسلمة أخوه ألا يظهر للناس خوف أن يبدو لهم سفهه واضطرابه ، فاعتزل الناس بعد موتها ولم يزل كذلك حتى مات بعد سبعة أيام من موتها ، فكانت سلامة الجارية الثانية تردد قول الشاعر وهي تبكي سيدها ومجدها الزائل •

لا تلمننا أن خشنا
أو هممننا بالخشوع

قد لعمري بيت ليلى
كأخى السداء الوجيع

للذى حل بنا اليو
م من الأمر الفظيع

هذا بعض ما رواه هؤلاء المؤرخون ، ولست أعفى يزيد من الخلاعة ومجون الشباب ، ولكنى أعتقد أن الخيال لعب دوراً كبيراً فى نسج هذه القصص ، كما لعب العدا لبنى أمية دوره فى عصر التدوين ، فإذا بالهفوة تصبح جريمة ، وبالصغائر تصبح كبائر ، وفى هذه القصة دليل واضح على هذا التصرف ، فان يسفه رجل فضلاً عن خليفة من أجل موت جارية ويمتد سفهه واضطرابه حتى يموت ، شئ الى القصص أقرب منه الى الحقائق ، فلم تكن الجوارى قد انتهت من الوجود ، ولا عجز سلطانه أن يهيبه له مائة حباية بدل التى نفقت ، ويبدو أن أعداء بنى أمية — كما أشرنا من قبل — هالهم أن يجد فى هذه الأسرة رجلاً نابه مثل ~~عمر بن عبد العزيز~~ ، ولم يستطيعوا أن يمسوا ذكره بسوء لأن صيته قد طبق الآفاق ، فعمدوا الى خلفه يثأرون منه ليقولوا من قيمة بنى أمية عملاً بسنتهم التى دأبوا عليها •

وقد انتبه الى هذا الاختلاق المستشرق كارل بروكلمان وهو فى ذلك يقول : (١) •

والروايات المعادية للأُمويين تصور يزيد الثانى كما صورت سَمِيَّةُ (يزيد الأول) من قبل رجلا مستهتراً انغمس فى مناعم اللهو والموسيقى ، وشغلته القيان والمغنيات ، فترك شئون الأُمصار الى أمرائه وعماله يصرفونها كما يشاءون • والواقع أن عهده القصير ظل حافلاً بضروب النشاط الجدى حتى بعد القضاء على الفتنة بالعراق ، فلقد وحد الإدارة فى مكة والمدينة وأدخل إصلاحات مالية كثيرة • • وانه لمن العسير أن ينسب الى مثل هذا الرجل من العاطفة ما جعله يحزن لوفاة جارية من جواريه المقربات — كما تحاول بعض الروايات أن تثبت — حزناً أدى الى وفاته •

هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ)

كان يزيد بن عبد الملك يريد أن يعين ابنه الوليد ولياً للعهد من بعده ، ولكن أصحابه أرشدوه الى أن الوليد صغير السن ولا يستطيع أن يحمل عبء الخلافة ، ولهذا عين يزيد أخاه هشاماً لولاية العهد على أن يجيء بعدد الوليد ، فتولى هشام تبعاً لذلك ، واتخذ هشام الرصافة مقراً له غالباً وهي تقع على نهر الفرات .

وقد طالت مدة هشام فكانت حوالى عشرين عاماً ، وكان هشام من خيرة الخلفاء ، اشتهر بالحلم والعفة . وقد نظم الدواوين وضبط الحسابات بعناية فائقة ، قال عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس — والفضل ما شهدت به الأعداء — جمعت دواوين بنى مروان فلم أرى ديواناً أصح ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام (١) ولذلك أصبحت مالية الدولة تسير في انتظام شامل ، ولم يعد هناك طريق لاختفاء أى مبلغ مستحق لبيت المال ، وفي حين كانت الموارد منتظمة كانت النفقات قليلة لأن هشاماً كان ممسك اليد ان لم نقل انه كان بخيلاً (٢) ، ومما روى من قصص امساكه ما روى الطبرى أن عقال بن شبة دخل على هشام حينما أراد أن يرسله الى خراسان سنة ١٢٥ هـ ، قال عقال : وكان هشام يلبى قباء أخضر ، فجعلت أتأمل هذا القباء ؟ ففطن هشام لذلك فسأل عقالا : مالك تطيل النظر الى القباء ؟ فأجاب عقال : رأيت عليك قباء مثل هذا قباء أن تلى الخلافة (منذ عشرين عاماً) انتهى لحسبت أنه لم يبق من دواوين بنى مروان من القباء مالى سواه ، أما ما تروونه من جمعى هذا المال ودواوينهم (٣) وهنالك روايات أخرى تذكر أن هشاماً كان يجود أحياناً ، وأن الشعر كان يهز نفسه

(١) الطبرى ج ٥ ص ٥١٦ .

(٢) أنظر الفخرى ص ١٢٢ .

(٣) الطبرى ج ٥ ص ٥١٥ .

فيسخو ، روى ابن عبد ربه أن نصيب بن رباح الشاعر الأسود دخل على هشام فأنشده قصيدة منها :

إذا استبقت الناس العـلا سبقتهم

يمينك عفوا ثم صلت شمالكا (١)

فقال هشام : بلغت غاية المدح ، فسلني فقال : يا أمير المؤمنين • يدالك بالعطية أطلق من لسانى بالمسألة • قال هشام : لا بد أن تفعل • قال نصيب : لى ابنة نفقت عليها من سوادى فكسدت ، فلو أنفقتها أمير المؤمنين بشئ يجعله لها ؟ فأقطعها هشام أرضا وأمر لها بحلى وكسوة فنفقت السوداء (٢) •

ويروى ابن عبد ربه كذلك أنه لم يكن فى ملوك بنى مروان أعطر ولا ألبس من هشام ، وأنه خرج حاجاً فحمل ثيابه معه على ستمائة جمل (٣) • وهكذا نجد حديث بخل هشام حديثاً منقوضاً ، ويبدو لى أنه كان دقيقاً غير مفرط ، لا يخدع ، فاعتبرت هذه الصفات بخلا فى وقت كان الخلفاء يتباهون أحياناً بالسرف •

وقد عرف هشام بالحلم والتقوى ، ويروى أن رجلاً أغلظ له القول فلم يزد عن أن قال له : ليس لك أن تغلظ لأمامك • ومن تقواه ما روى أنه تفقد بعض ولده فلم يجده حضر لصلاة الجمعة ، فسأله فيما بعد : ما منعك من الصلاة ؟ قال : نفقت دابتي • قال هشام : أعجزت عن المشى ؟ ومنعه الدابة عاماً كاملاً (٤) •

ومن تقواه وعدله ما روى أنه لم يكن يؤخذ خيل بيت ماله مالا حتى يشهد أربعون قسامة أن هذا المال أخذ من حقه ، وأن كل ذى حق أعطى حقه (٥) •

(١) صلت أى تبعت وتلت •

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٣٦٧ •

(٣) المرجع السابق ج ٤ ص ٤٤٦ •

(٤) و (٥) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٥١٦ •

(م ٧ - التاريخ الإسلامى)

وينقل ابن عبد ربه عن عبد الله بن عبد الحكم فقيه مصر قوله : سمعت
الاشياخ يقولون : سنة خمس وعشرين ومائة أدبل من الشرف وذهبت
المروعة وذلك عند موت هشام بن عبد الملك (١) .

ومن الرجال البارزين الذين اعتمد عليهم هشام ، خالد بن عبد الله
القسرى وأخوه أسد ، ونصر بن سيار ، ومروان بن محمد ، وفي مطلع
عهد هشام عزل هذا عمر بن ربيعة عن العراق وما كان اليه من عمل المشرق
وولى ذلك كله خالد بن عبد الله القسرى ، فعين أخاه أسداً أميراً على
خراسان في العام التالي (١٠٦ هـ) وبسبب العصبية التي اندمجت فيها أو
أثارها أسد في خراسان عزله الخليفة سنة ١٠٩ وأخذ الخليفة يولى بنفسه
عاملاً على خراسان فولى أئمرس بن عبد الله السلمي فالجنيدي بن عبد الرحمن
وغيرهما ، ولكن حال خراسان لم يصلح وأبستمرت الاضطرابات فيها فأعادها
الخليفة الى سلطان خالد بن عبد الله القسرى سنة ١١٧ فأعاد هذا أخاه
أسداً والياً عليها ، واستمرت ولاية خالد على الشرق خمسة عشرة عاماً
كانت له فيها اصلاحات ذات بال ، فقد جفف مستنقعات دجلة حول واسط ،
وبذلك أعد أرضاً واسعة للزراعة ، وكان خالد يغتر بأعماله وبغناه اللواسع
الذي جمعه طيلة مدة ولايته حتى وصل به الغرور أن قال لابنته : ما أنت دون
مسلمة بن هشام (الخليفة) فانك لتفخر على الناس بثلاث لا يفخر بمثلها
أحد مكثرت دجلة ولم يتكلف ذلك أحد ، ولى سقاية مكة ، ولى ولاية
العراق (٢) . وقد كان ذلك مع عوامل أخرى سبباً في أن عزله هشام سنة
١٢٠ هـ ، وبعد عزله نزلت به ألوان من المصائب وبخاصة في عهد الوليد بن
يزيد ، وقد مات تحت العذاب سنة ١٢٧ (٣) .

وبعد خالد تولى يوسف بن عمر ولاية الشرق فولى جديع بن علي

(١) العقد الفريد ج ٤ ص ٤٥١ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٢٦٨ .

(٣) الامالي والسياسة ج ٢ ص ١٢٤ .

المكرماتى خراسان ولكن سرعان ما عين الخليفة نصر بن سيار والياً على خراسان ، وبقي نصر والياً على خراسان حتى سقطت الدولة الأموية كما سترى في الجزء الثالث من هذه الموسوعة ، وبهذا عاصر نصر أعقد المشكلات في تلك البقاع .

وفي عهد هشام خطت الدولة الأموية خطوة نحو الضعف ، وذلك بسبب قيام العصبية بين عرب الشمال وعرب الجنوب وبخاصة في خراسان ، وكان هذا مما ساعد الشيعة على تحقيق انتصارات جديدة في تلك البقاع (١) ، وفي غير خراسان كانت هناك أيضاً ثورات سببها مع العصبية سوء سيرة بعض العمال ، وربما كانت أخلاق هشام من حرص على المال ودقة في انفاقه ومن لين وحلم ، مما ساعد على استمرار هذه الهزات والثورات .

أما مروان بن محمد فقد ولاء هشام أرمنية وأذربيجان وسيأتى الحديث عن الدور الذي قام به مروان لتثبيت الدولة ، ولكن محاولة مروان جاءت بعد فوات الأوان .

(٢) الاملية والسياسة ج ٢ ص ٣٧٩ .

الوليد بن يزيد (١٢٥ - ١٢٦ هـ)

ولد الوليد سنة ٩٠ من الهجرة وتولى أبوه الخلافة والوليد في الحادية عشرة ومرض أبوه مرض الوفاة والوليد في الخامسة عشرة ، وقد حكينا عن يزيد أنه كان فيه خلاعة ومجون ، والولد سر أبيه ، فلا عجب أن يكون في الوليد خلاعة أبيه ومجونه ، ولكن هناك شيئاً آخر ذا بال يبدو أنه أفسد حياة الوليد بن يزيد ، فيحكي الطبرى (١) أن يزيد بن عبد الملك عقب توليته الخلافة أراد أن يعقد لابنه الوليد ليكون ولياً لعهد ، ولكن الوليد لم يكن قد بلغ سن الرشد فاضطر يزيد أن يجعل هشاماً ولياً لعهد ، وبعد هشام يجيء الوليد بن يزيد ، ولكن يزيد بن عبد الملك ظل حياً حتى بلغ ابنه سن الرشد وجاز له في رأيه أن يكون خليفة من بعده ، فكان يزيد يأسف لأنه قدم أخاه على ابنه ، وروى عنه أنه كان يقول : الله بينى وبين من جعل هشاماً بينى وبينك •

وتولى هشام في مثل هذا الجو ، وأراد هشام بدوره — كمادة أكثر الخلفاء — أن ينحى ابن أخيه ليولى ابنه هو ، فيمكن القول أن الكراهية كانت متبادلة بين الوليد بن يزيد وهشام ، ليس فقط منذ تولى هشام الخلافة بل يرجع تاريخ هذه الكراهية الى ما قبل ذلك •

وكان في الوليد خلاعة ورثها عن أبيه كما أشرنا آنفاً ، وألقى به السخط خارج دمشق ، فعاش في البرية في ضيعة بالأردن ، وصادف أن مؤدبه عبد المصم بن عبد الأعلى كان مطعونا في خلقه ، وهذه الظروف فيها يبدو دفعت الصبى أن يخفف أساء وبلواه بأن يدفن همومه في الكأس ، وبين صحبة الجوارى • وفي أحضان الآثام •

وانتهز هشام هذه الفرصة فراح يشنع على الوليد ليأخذ من ذلك

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٥٢٠ •

وسيلة لعزله وتولية ابنه ، واعتقادي أنه لو صح عن الوليد ما أشيع عنه من انحراف ومعاص لكانت هذه فرصة تحقق لهشام مأربه ، ولذلك أرى أن الوليد لم يكن من الفسق بالدرجة التي تروى عنه ، ولو كان كذلك لما شهدناه خليفة مع أن هشاماً كان يتربص به ، وأرى كما ذكرت من قبل أن الروايات المعادية لبنى أمية أطنبت وبالغت وانتهزتها فرصة أن بنى أمية أنفسهم يذيعون عن الوليد هذا الفجور ويطنبون فيه .

ومما يروى عنه مما لا يسهل تصديقه أنه لما تولى الحج سنة ١١٩ حمل معه كلاباً في صناديق ، وحمل معه الخمر وأراد أن يشرب بجوار الكعبة في الحرم (١) وإن الإنسان ليحس أن هذه قصص موضوعة أريد بها التشويه لذلك الإنسان الضال . والا فهل ضاقت به الدنيا حتى يشرب في المكان المقدس الذي ذهب لتعظيمه وذهب ليقود جماهير الحجاج التي تؤمه من كل صوب ؟ وما كان من الممكن أن يجعله هشام أميراً للحج وفيه هذا الاتجاه للانحراف .

والذي يتأمل الروايات التي يوردها الطبري يدرك أن مثار سخط هشام كان احساسه بأن الوليد وكلي عهد له ولده ، وقد روى الطبري أن الوليد شرب يوماً هو ومؤدبه ونديمه عبد الصمد ، فلما أخذ منهما الشراب مأخذه قال الوليد لعبد الصمد : قل شعراً . فقال :

لعل الوليد دنا ملكه
فأسمى إليه قد استجمعا
وكننا نؤمل في ملكه
كتأميل ذي الجَدْبِ أن يثمر عا
عقدنا له محكمات الأمو
ر طوعاً فكان لها موضعاً

(١) الطبري ج ٥ ص ٥٢٠ — ٥٢١ تاريخ الحلفاء للسيوطي ٢٥٠ .

وبلغ ذلك الشعر هشاماً فقطع عن الوليد ما كان يجرى عليه ، وكتب إليه أن يخرج عبد الصمد من صحبتته (١) .

ومات هشام وتولى الوليد بن يزيد ولكن سيرته كانت قد لوّثت بالحق أو بالباطل أو قل بالحق وبالباطل معاً ، وربما يكون قد بالغ في فسقه حينما خلا له الجو وآل له المال الوفير الذي جمعه هشام باقتصاده ودقته ، فاذا به أغنى الناس . وقد كان على وشك أن يكون مأزوماً حينما قطع عنه هشام ما كان يجرى عليه ، فأفلت زمامه وافتضح أمره ، وبالف في طلب اللذة والركوب للصيد وشرب النبيذ ومنادمة الفساق ، كما اتهم باتصاله الجنسي بأمهات أولاد أبيه (٢) .

ومما أخذ على الوليد أنه اتجه الى الانتقام المر من أولاد هشام فأنزل بهم صنوف الأذى ، ضرب بعضهم وحبس آخرين منهم ، وصادر ما استطاع من أموالهم وممتلكاتهم (٣) .

وفي هذا الجو من الفسق والاثام به ، وفي هذا الجو من الكراهية والتحدى والانتقام هب الناس يتحدثون ساخطين عليه ، وبايعوا سراً يزيد ابن الوليد بن عبد الملك ، ولما تأكد يزيد من قوته أعلن ما كان سراً ، وزحف الى دمشق ، وخاص معارك ضد الوليد ، وقد صمد الوليد في بعضها ولكنه هزم في النهاية ، ودخل قصره ولجأ الى المصحف يقرأ فيه ويهتف : يوماً كيوم عثمان وتسوّر الثائرون بيته ، ودخلوا عليه وقتلوه (٤) .

واعتقادي أن قتل الوليد كان فرصة لواضعي الروايات من أعداء بني أمية فخلقوا من ذلك الشيء الكثير . وابتدعوا صوراً جديدة تنسب للوليد

(١) تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٥٢٢ .

(٢) الطبري : ج ٥ ص ٥٣٨ .

(٣) الطبري : ج ٥ ص ٥٢٥ — ٦٢٦ والعقد الفريد ج ٤ ص ٤٢٦ .

(٤) الطبري : ج ٥ ص ٥٥١ .

ألواناً من الفسق ، كما وضعوا باسمه الأشعار التي تصوره زنديقاً محتقراً
لأن القرآن الكريم مهاجماً تعاليم الاسلام ، والذي يجعلنى أرى فيها بعض
المبالغات أن مقاومة الوليد كانت كبيرة وأن أتباعه عند اصطدامه بجيوش
يزيد بن الوليد كانوا كثيرين ، وأن مروان بن محمد زحف لمساعدته بجند
لو أسرع قليلاً لحقق له النصر ، وأن الثورات التي طالبت بالثأر له لم تهدأ
حتى انتصر أتباعه بقيادة مروان بن محمد وأخرجت جثة قاتله يزيد بن
الوليد وصلب^(١) (١) ورجل فيه ذلك الفسق الذي يصورونه لا يعقل أن ينال
كل هذا التأييد .

وكان الوليد شاعراً ممتازاً ولكن أهم موضوعات شعره كانت تافهة ،
فلقد استغل مواهبه في الحديث عن الخمر والنساء ولما تولى الخلافة اتجهت
مواهبه الى شعر الشماتة من هشام .

(١) انطبرى : ج ٥ ص ٦٠٦ وما بعدها .

يزيد بن الوليد (١٢٦ هـ)

لم يهنأ يزيد بالخلافة التي سعى لها سرا وجهراً ، فكانت مدة خلافته حوالى ستة أشهر ، وكانت هذه المدة القصيرة مملوءة بالمتاعب فقد ثار أهل حمص في وجهه مطالبين بثأر الوليد ، وثار في وجهه أيضا مروان بن محمد ، وكانت الحروب على وشك أن تقع بينهما ، ويروى أن يزيد بن الوليد كتب الى مروان : أما بعد فانى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فاذا أتاك كتابى هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام • فأنته بيعته (١) • وهكذا نجد العصبية على أشدها لا في خراسان وحدها بل في الشام نفسها ، وكان جند الشام هم عدة بنى أمية ، فاذا انقسم هؤلاء الجند على أنفسهم كان ذلك ايذاناً بانقضاء دولتهم (٢) •

وقد مات يزيد بعد هذه الشهور الستة القليلة وأوصى بالخلافة من بعده لأخيه إبراهيم •

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ ص ٥٩ •
(٢) انظر الطبري : ج ٥ ص ٥٦٤ وما بعدها •

ابراهيم بن الوليد (١٢٦ هـ)

لم يستقر الأمر ليزيد بن الوليد وبالتالي لم يستقر الأمر لأخيه ابراهيم ، ولم تكن خلافته موضع اجماع من المسلمين ، ولم تتم له بيععة اجماعية ، ولذلك كان بعضهم يناديه خليفة وكان آخرون ينادونه أميراً (١) ، ومن أهم الثورات التي قامت في وجهه ثورة مروان بن محمد والى الجزيرة وأرمينية ، فانه إذا كان قد تمسك بالصبر في عهد يزيد ابن الوليد فانه لم يستطع أن يمضى بيعته لابراهيم ، ولذلك نجده يقود جيشاً كبيراً ويتجه به للشام مطالباً بئثار الوليد بن يزيد وبحقوق أبنائه ، فأرسل له ابراهيم بن الوليد جيشاً بقيادة سليمان بن هشام فهزمه مروان ، فعاد سليمان الى الشام فقتل ابني الوليد بن يزيد وسار الى تدمر ، وكان مروان قد ادعى في أول الأمر أنه يقاتل في سبيل هذين الولدين وكان القيسية يشدون أزره لذلك ، فلما قتل طالب بالأمر لنفسه فبايعه الناس (٢) .

(١) الطبرى : ج ٥ ص ٥٩٦ .
(٢) دوايت دونلدش : عقيدة الشيعة ص ١٢١ .

مروان بن محمد (١٢٧ - ١٣٢ هـ)

لم يستقر الأمر لمروان الا في عام (١٢٧ هـ) فقد كانت هناك شهور نضال ، اذ أن مرواناً لم يتول ببيعة سابقة وانما تولى بحد السيف فلم يحاربهم ، وهب في وجهه سليمان بن هشام فحاربه •

على أن الثورات استمرت في وجه مروان بعد البيعة ، وقد شملت هذه الثورات الشام كله ، فثار عليه أهل حمص فقاتلهم ، وثار عليه أهل الغوطة فحاربهم ، وهب في وجهه سليمان بن هاشم فحاربه •

وبالاضافة الى ذلك هبت ثورات الخوارج وهبت ثورات بالحجاز ، واشتد الصراع الشيعي في خراسان ، وكسب الشيعة النصر في كثير من المعارك •

لقد كان مروان شجاعاً صاحب دهاء ومكر (١) وكانت له خبرة واسعة في الحروب ، ومن أهم ما يتصل به أنه وضع خطة لاعادة تنظيم جيوش الخلافة • فبدلاً من تقسيم الجيش الى فرق تنتسب كل منها الى قبيلة ، رأى تأليف جيش نظامي يخدم أفراداً برواتب معينة بإمرة قادة محترفين وينقسم المجندون للخدمة العسكرية الى فرق قليلة العدد تفوق في سرعة حركتها وقوتها نظام الخطوط الطويلة عند العرب (٢) • ولكن هذا كله لم يغن شيئاً لأن الظروف كلها كانت ضده وكانت عوامل فشلته محكمة ، فقد جاء في وقت تلهل فيه ثوب الخلافة الأموية ، ولم يعد هناك أمل في إصلاحه ولا مكان لوضع الرقاع فيه ، وقد شغلت أحداث الشام والعراق والحجاز الخليقة فلم يستطع أن يقدم عوناً لواليه في خراسان فانهزم واليه نصر بن سيار أمام أبي مسلم الخراساني ، واستمر زحف الشيعة من خراسان حتى

(١) الفخرى ص ١١٧

(٢) الفخرى ص ١١٧

شمل العراق قمصر وخر مروان في مصر قتيلا في قرية اسمها بوضير من قرى الصعيد سنة ١٣٢ (١) بعد حياة مملوءة بالكفاح والجلاد ، وبموته انتهت الدولة الأموية •

اما زحف الشيعة فسيجد القارئ تفاصيله الوافية عند الكلام عن قيام الدولة العباسية في الجزء الثالث من هذه الموسوعة •

التوسّع الإسلامي
في عهد الدولة الأموية

أسباب التوسع وميادينه :

امتدت الدولة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين امتداداً شرحناه في الجزء الأول من هذه الموسوعة ، ولكن هذا الامتداد لم يصل بها الى حدود ثابتة ، فلا تزال هناك منازعات واتصالات حربية على الحدود في مختلف الجبهات ، ولا تزال الأرض التي امتد لها الاسلام معرضة لحملات من غير المسلمين وراء الحدود ، وأكثر من ذلك فقد حصل انتقاص في الدولة الإسلامية في أثناء الخلافات والثورات الداخلية ، وفي بعض الأحيان كان الخليفة المسلم يقف بين ثائر داخلي وتهديد من الخارج ، فكان عليه في هذه الحالة أن يشتري بالمال سلامة حدوده قبل أن يتقدم على مواجهة الفتن الداخلية وقمعها وسنذكر بعض أمثلة لذلك فيما بعد ، وعلى هذا كان لا بد من معارك أخرى بين بنى أمية وجيرانهم في أكثر الميادين التي انتهى عندها الفتح الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين ، وقد تسلسلت هذه المعارك على النحو الذي سيرد ذكره ، وسارت خطوة خطوة ، فربما كان هدف المسلمين الأول أن يفتحوا الشام وفلسطين للأسباب التي أوردناها في الجزء الأول من هذه الموسوعة ، فلما تم ذلك وجدوا ألا مناص من دخولهم مصر ليؤمنوا جيوشهم في فلسطين من زحف يقوم به جند الروم بمصر ، فلما تم لهم فتح مصر خافوا على جيوشهم بها من جند الروم بليبيا أو هوجموا فعلا بجيوش الرومان ، وهكذا دواليك ، قطيعة الحروب الامتداد ما دام لم يقف حد فاصل طبيعي بين الجيشين المتعادين •

هذا سبب أول لامتداد الفتح في عهد بنى أمية ، وهو سبب كما ترى إسلامي ، وهو في طبيعته دفاع وليس به صبغة العدوان ، وهناك بجانب ذلك سبب آخر لا يمكن أن نخفله ، وذلك هو الجهاد لنشر الاسلام ، وقد اتَّجِه بعض المسلمين هذا الاتجاه ورأوا أن من واجبهم أن يحاربوا غير المسلمين وبخاصة جنود الشرك التي تحول بين الفكر الإسلامي وبين قلوب الناس المتطلعين اليه •

على أن عصر بنى أمية يمتاز بأنه عنى بالدولة ، ومعنى هذا أن روح الملك والرغبة في السلطان بدأت تظهر عند الخلفاء ، وأصبح التوسع يحقق رغبة في نفس الخليفة ويضمن لدولته الهيبة أمام ملوك عصره .

وننتقل بعد ذلك الى نقطة أخرى هي أن التوسع والفتوحات لا بد لها من استقرار في الداخل ، ولا بد لها كذلك من خليفة قوى طموح ، وفي ضوء ذلك ، وفي ضوء الدراسات التي سبق أن سقناها عن خلفاء بنى أمية ، يتضح لنا أن الوقت المناسب للفتح والتوسع في العصر الأموي كان عصر معاوية ، والسنوات الأخيرة من عهد عبد الملك . ثم عصر الوليد ، وعلى هذا فقد نمت في هذه العهود فتوحات رائعة سنذكرها بشيء من التفصيل فيما بعد ، وفي غير هذه العهود توقفت الفتوحات أو حققت انتصارات محدودة ، فقد كانت الدولة الأموية مثقلة بثورات في الداخل ، أو كان يحكمها خلفاء محدودو المواهب كبعض خلفاء العهد الأخير ، أو خليفة يتجه طموحه لارضاء الله لا لتوسيع سلطانه ورقعة الأرض الخاضعة له كعمر بن عبد العزيز .

وبعد بنى أمية توقف التوسع الاسلامي فلم تستطع الدولة العباسية أن تخطو عسكريا للأمام خطوة واحدة ، بل لم تستطع أن تمد سلطانها على كل أملاك الأمويين بعد سقوط دولتهم ، على أن حركة التوسع العربي أن كانت توقفت في العهد العباسي فان حركة انتصار الاسلام لم تتوقف ، بل ان الاسلام واصل سيره بطرق الدعاة والتجار ... فاقترح قلب افريقية وعم ربوعها كما شرحنا ذلك في الجزء السادس من هذه الموسوعة ، وانتشر في الملايو واندونيسيا وقد أثبتنا ذلك في الجزء الثامن من هذه الموسوعة ، وقد استؤنفت بعد ذلك حركة التوسع العربي في ظل الغزنويين والعثمانيين ، والمهم الآن أن التوسع في العهد الأموي شمل الميادين الثلاثة المهمة التي انتهت عندها الفتح الاسلامي في عهد عثمان ، وهذه الميادين هي :

أولا : ميدان الحرب ضد الروم في آسيا الصغرى وفتح امتداد الحرب

فى هذا الميدان فشملت سار القسطنطينية وغزو بعض جزر البحر الأبيض المتوسط .

ثانيا : ميدان الشمال الافريقى ، وقد امتد هذا الميدان حتى المحيط ، ثم عبر مضيق جبل طارق وامتد الى أسبانيا .

ثالثا : الميدان الشرقى وقد امتد هذا الميدان من العراق تجاه الشرق ، ثم تفرع فرعين سار أحدهما الى الشمال تجاه ما وراء النهر وهبط الآخر الى الجنوب فشمّل بلاد السند .

وسنتكلم بالتفصيل عن كل ميدان من هذه الميادين الثلاثة :

الميدان الاول

حروب المسلمين ضد الروم فى آسيا الصغرى وحول القسطنطينية .

لا نزاع أن هذا الميدان كان من أهم الميادين بالنسبة للدولة الأموية ، فالدولة الأموية اتخذت دمشق عاصمة للدولة الإسلامية ، وأصبحت العاصمة بذلك قريبة من الحدود البيزنطية ، وكان معاوية والياً على سوريا منذ عهد عمر بن الخطاب ، ولذلك اعتبر مسئولاً عن سوريا منذ ذلك الحين ، فلا عجب إذا أن يتجه الأمويين لتحسين حدود سوريا وإبعاد العدو عنها ، ذلك العدو الذى كان يحلم باستعادة هذه الأرض الغالية التى فقدوها الى الأبد .

وفى أثناء الفتنة التى سبقت عهد معاوية ، تلك الفتنة التى شملت السنين الأخيرة من عهد عثمان وشملت كذلك خلافة على بن أبى طالب ، فى أثناء هذه الفتنة استعاد الروم بعض أجزاء من أرمينية التى كان قد تم (م ٨ - التاريخ الإسلامى)

فتجها (١) ، كما رأى معاوية تحفّز ملوك الروم للزحف على حدوده عندهما اشتراك في الفتنة التي تلت قتل عثمان ، ولذلك اضطر معاوية قبل أن يواجه جيوش على أن يعقد هدنة مع الامبراطور قنسطانز وأتباعه من الجراجمة (٢) على أن يدفع لهم اتاوة ليضمن سلامة أراضيهم (٣) .

ولما تم الأمر لمعاوية وسكنت الفتنة اتجه معاوية الى مواجهة القوة بالقوة ، وبدأ خطته باستئناف نظام الشواتي والصوائف للدفاع عن الثغور الاسلامية أو لزحزة العدو الى الوراء والاستيلاء على حصونه التي كانت تواجه حصون المسلمين (٤) على أن معاوية سرعان ما عدل فكرته وأراد أن يضرب ضربة قوية يقصم بها ظهر الامبراطورية البيزنطية ، وذلك بالاستيلاء على عاصمتها « القسطنطينية » وخيل اليه أن سقوط العاصمة سيجعل الامبراطورية كلها تخر له كما خرت من قبل امبراطورية الفرس بعد سقوط عاصمتها « المدائن » .

وقد أعد معاوية لهذا الأمر الجليل عدته فنمى اسطوله حتى صار ١٧٠٠ سفينة مزودة بالعدة والسلاح ، ثم غزا جزر شرقى البحر الأبيض المتوسط فاحتل منها رودس سنة ٥٣ هـ واقريطش (كريت) سنة ٥٤ هـ كما غزا جزيرة صقلية وجزيرة صغيرة اسمها أرواد بالقرب من القسطنطينية (٥)

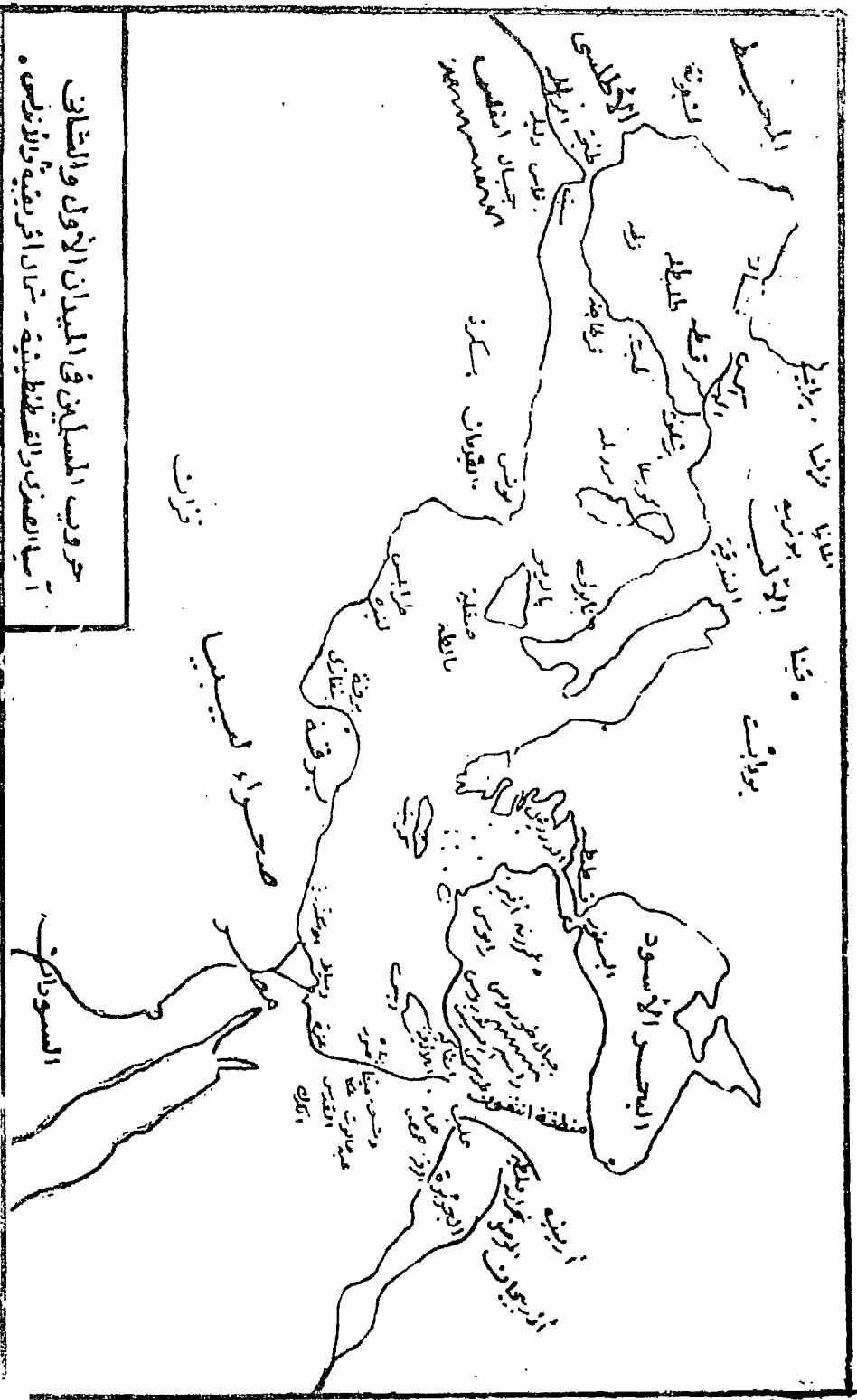
(١) معجم البلدان ج ١ ص ١٠٢ .

(٢) ينسب الجراجمة الى مدينة اسمها جرجومة بالقرب من انطاكية ، وقد صالحوا المسلمين في عهد ابي عبيدة ولكنهم لم يدخلوا الاسلام ، وانزل بعضهم الى جبال لبنان والمتبع لتاريخهم يجددهم يظاهرون المسلمين ان كانت للمسلمين الغلبة على الروم ، فاذا ظهر ضعف في الجانب الاسلامي ساعدوا الروم على المسلمين ولذلك كثر انتفاضهم وكثر اخضاعهم . (اقرأ البلاذرى ص ١٦٣ — ١٦٧) .

(٣) فتوح البلدان ص ١٦٤ واليعقوبى ٢ : ١٥٧ .

(٤) فتوح البلدان ص ١٦٦ و ١٨٩ .

(٥) انظر في البلاذرى « فتح جزائر في البحر » ص ٢٣٧ وانظر كذلك الطبرى ج ٤ ص ٢٣٨ وتتبع جزيرة أرواد بالقرب من الضفة الغربية لبحر . كما يقول بروكلمان (تاريخ الشعوب الاسلامية ١ : ٥١) .



حروب المسلمين في الميدان الأول والمثاني
 آسيا الصغرى والعظمى - شمال أفريقيا والأندلس

بالإضافة الى جزيرة قبرص التي كان معاوية قد فتحها في عر - شمن (١) ،
وكان جنادة بن أبى أمية قائد الأسطول الاسلامى فى أثناء غزو أكثر هذه
الجزر (٢) .

ولما هدد معاوية البر وسيطر على البحر تقدم لهدفه العظيم ، فأعد
مئات من المراكب الثقيلة عليها الأسلحة اللازمة لحصار مدينة القسطنطينية
قوية الأسوار محكمة الحصون ، وقد سارت مراكب المسلمين الى بحر مرمرة
وحققت فى طريقها انتصارات باهرة ، ثم وصلت المدينة العظيمة والقت
عليها الحصار ، وكان جيش المسلمين بقيادة يزيد بن معاوية (٣) ومعه
مجموعة من أبطال المسلمين المغاوير ، منهم الصحابى أبو أيوب الأنصارى
وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وابن العباس وتبعاً للرواية التى
يوردها ابن الأثير (٤) كانت القيادة لسفيان بن عوف ، وربما كانت القيادة
الفعلية لسفيان وكان معه يزيد حيث أراد معاوية لابنه أن يشتهر بالبأس
والنضال فى سبيل الله (٥) .

وحول المدينة العتيقة دارت معارك عنيفة بين المهاجمين والمدافعين ولكن
بدا واضحاً أن أسوار المدينة وحصونها كانت أقوى من عدة المهاجمين ولذلك
قاومت القسطنطينية هذا الحصار الطويل الذى امتد حوالى سبع سنوات
على أقوى الروايات (من سنة ٥٤ الى سنة ٦١) وقد مات فى هذه المعارك
الصحابى الشهير أبو أيوب الأنصارى ودفن تحت أسوار القسطنطينية ،
وبذلك أصبح قبر أبى أيوب مثار قصص وأشعار تدعو المسلمين لمعاودة

(١) انظر الجزء الأول من هذه الموسوعة ص ٢٢٣ .

(٢) البلاذرى ص ٢٣٧ .

(٣) الطبرى ج ٤ ص ١٧٣ .

(٤) الكامل فى التاريخ ج ٣ ص ٢٢٨ .

(٥) ويروى ابن عبد ربه أن القيادة الفعلية كانت فى يد يزيد (انظر العقد

الفريد ج ٤ ص ٣٦٧) .

البحار وفتح القسطنطينية ، حتى لا يبقى البطل أبو أيوب وحيداً في مدفنه
بتلك البقاع .

وانسحب الأسطول الاسلامي ولم يعرف بالضبط سبب انسحابه ،
وترى الروايات الأجنبية أن ذلك كان بسبب احتراق بعض قطع هذا
الأسطول بالنار عليها (١) ، ولكن اذ اتضح لنا أن انسحاب الأسطول
كان في أواخر عهد معاوية أو أوائل عهد يزيد كان من الضروري أن تربط بين
هذا الانسحاب وبين انتقال الخلافة من معاوية الى يزيد ، وما كان يدركه
معاوية من أن يزيد سيصادف بعض المتاعب ليستقر له الأمر وتجتمع حوله
الكلمة ، ثم ما صادفه فعلاً يزيد من ثورات وسخط شغلت عهده كله ،
وضرورة وجود يزيد نفسه في العاصمة الاسلامية في هذه الفترة وكان قبل
ذلك قائداً للجيش المحاصر ، ولا نزاع أنى أميل لهذا الرأي وبخاصة أن
المؤرخين العرب لم يذكروا شيئاً عن احتراق بعض قطع الأسطول
الاسلامي .

وانتسكس هذا الميدان في أثناء الفتن والحروب الداخلية التي تلت وفاة
معاوية واستمرت حتى شملت معظم عهد عبد الملك بن مروان ، فقد انتهز
الروم هذه الفرصة وهاجموا ثغور المسلمين واستولوا على بعضها (٢) ، كما
تدخلوا في شؤون أرمينية فاستولوا على بعضها أيضاً ، وساعدوا كذلك
بعض زعمائها على الاستقلال بمناطقهم (٣) ، وهاجموا ساحل سوريا
وهدموا بعض مدنه مثل عسقلان وصور وعكا (٤) ، ومرة أخرى اضطر
المسلمون أن يشتروا سلامة حدودهم بالمال ، فقد صالح عبد الملك ملك الروم

(١) انظر هذه الروايات في التاريخ السياسي للدولة المروية للدكتور
ماجد ٢ ج ٢ ص ٤٨ .

(٢) فتوح البلدان ص ١٨٩ .

(٣) فتوح البلدان ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٤) الطبري ج ٥ ص ٢ والبلاذري ص ١٦٤ .

على أن يؤدي له في كل جمعة ألف دينار خوفا على المسلمين (١) . فلما رأى عبد الملك على الفتن الداخلية عاد الى الميدان الخارجى يرد بقوة عبث الروم بمناطق الحدود ، فاسترد عبد الملك ما استولى عليه الروم من ثغور المسلمين ، وأعاد اخضاع أرمينية ، ونظم سلسلة الشسواتى والصوائف ، كما دعم حصون المسلمين وأكثر من حراسها وزودهم بالعتاد والسلاح ، وفي سنة ٨٤ هـ أرسل جيشاً بقيادة عبد الله بن عبد الملك فغزا الروم وفتح المصينة (٢) .

وجاء عهد الوليد أو قل جاء عهد الظفر الواسع ، ولكن ميدان الروم على كل حال كان قليل التأثير بحركة التوسع الهائلة التى امتاز بها عهد الوليد ، ولعل الميادين الأخرى شغلت بال الوليد وجنده فاتجه اليها بقوة دون ميدان آسيا الصغرى ، واكتفى فى ميدان الروم ببضع ضربات ان لم تكن حاسمة فقد كانت قوية ، فقد دفع خط الدفاع الاسلامى الى الأمام مسافة طويلة بأن استولى على بعض حصون الروم وأعاد ترميمها واعدادها وأسكنها الجنود الأتداء ، ومن هذه الحصون حصون مرعش وعمورية (٣) التى ستكون عظيمة الشهرة فيما بعد فى عهد المعتصم العباسى ، كما استولى على أنطاكية (٤) .

وتجدد الأمل مرة أخرى فى فتح القسطنطينية ، ويقال إن الوليد لم يرد أن يقدم على هذا التصرف قبل أن يمهد له الطريق بذكر حصون الروم وضمان سلامة الطريق ، ولكن الوليد مات عقب ذلك قبل أن يرسل جيشاً لمحاولة جديدة لفتح القسطنطينية لانشغاله فى الميادين الأخرى كما سبق القول ، أو لعدم ضمان سلامة الطريق للعاصمة العتيدة ، وعلى كل حال فقد قام سليمان بن عبد الملك بهذه المحاولة الجريئة ، وأطمعه فى ذلك اضطراب الأحوال فى الدولة البيزنطية والخلاف على العرش ، كما

(١) تاريخ الأمم والملوك ص ١٨٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) فتوح البلدان ١٦٧ والكمال لابن الأثير : ١١٠ .

(٤) الطبرى ج ٥ ص ٢٥٧ .

أعلمه انضمام ليون المشرعى اليه ، ووعده أن يحارب بجوار المسلمين وأن يحكم باسم الخليفة اذا وصل الى العرش .

وتحركت الحملة العظيمة برا وبحرا ، وتحرك معها الخليفة وترك عاصمته وأقام في دابق بالقرب من حلب ليكون أقرب الى ميدان القتال ، وكان قائد الحملة مسلمة بن عبد الملك وهو رجل شجاع مشهود له بالصرامة ، وحققت الحملة في طريقها كثيرا من الفوز حتى وصلت القسطنطينية وألقت عليها الحصار (١) ولكن هذه الحملة لم تأت بنتائج تذكر لأن ليون عندما وصل الى العرش بمساعدة المسلمين انقلب يحاربهم ، كما قاسى المسلمون من الشتاء صعوبات كثيرة ، ثم إن الروم استطاعوا أن يعرقلوا الطريق بين البلاد الاسلامية وبين الحملة الموقعة في بلاد الروم ، فضعف المدد عن هذه الحملة وبدأ موقفها يضعف ، وكان ذلك في مطلع عهد عمر بن عبد العزيز الذى أصدر أمره بفك الحصار وعودة الجيوش الاسلامية (٢) ، وهكذا نجت القسطنطينية من الحصار الثانى كما نجت من الحصار الأول .

ونجت بذلك القسطنطينية سنة ٧١٧ م من السقوط في أيدي المسلمين ، ولكن نجاتها كانت مؤقتة فبقيت بعد ذلك عدة قرون أخرى عاصمة بيزنطة حتى سقطت في أيدي المسلمين سنة ١٥٤٣ م على يد محمد الفاتح (١٤٥١ - ١٤٨١) على ما سنورده فيما بعد في الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٦١ - ٢٩٢ .

(٢) الطبرى ج ٥ ص ٣٠٩ .

الميدان الثانى

حروب المسلمين فى شمالى افريقية والاندلس

شمالى افريقية :

كانت منطقة ساحل افريقية الشمالى خاضعة لنفوذ الروم ، وكانت تحكمها حاميات رومانية ، أما ما عدا الساحل من صحارى ومزارع تمتد جنوبا الى بلاد السودان فيقول عنها ابن خلدون (١) ما يلى :

كان للبربر فى الضواحي وراء ملك الأمصار الرومية ما لا يحد من قوة وعدة وعدد وملوك ورؤساء وأقيال ، وأمرأؤها لا يرامون بذل* ، ولا ينالهم الروم والافرنج فى ضواحيهم تلك بمسخطة الاساءة .

ويصفهم ابن خلدون بأنهم كانوا فى دور البداوة عند الفتح العربى (٢) وكانوا لا تجمعهم أمة بل يعيشون فى حياة قبلية ، وكانت الوثنية ديانتهم كما كانوا يؤمنون بالسحر والكهانة ، وقد دخلت اليهم اليهودية والنصرانية مع الغزاة أو عن طريق مصر ولكن هاتين الديانتين كانتا قليلتى الانتشار (٣) .

وقد امتد الفتح الاسلامى — كما سبق القول — الى برقة وطرابلس فى عهد عثمان ، وكان المسلمون يقصدون بفتح برقة وطرابلس تأمين سلامة مصر ، ولكن البيزنطيين بدءوا يجددون حصونهم فى الساحل وبدءوا يرسلون الجيوش لحصونهم فيها ، وكان الأمر قد آل لمعارية ، فعزم على القضاء نهائيا على حكم الروم فى شمالى افريقية واعتمد على

(١) العبر ٦ : ١٠٧ .

(٢) المقدمة : ص ٢٩٤ .

(٣) العبر ٦ : ١٠٦ .

القائد الشهير عقبة بن نافع الفهري الذي كان مقيما في برقة يعد فتحها ،
وكان يعمل على أن يجذب البربر لدخول الاسلام .

وقد تولى عقبة قيادة جيش المسلمين بمهارة فائقة ، فأنزل بأعدائه
خسائر فادحة ، وانتصر على الروم في الساحل وعلى البربر في الداخل ،
فخضعت لسلطانه طرابلس وفزان وسار جنوبا حتى وصل بلاد السودان ،
ولم يكن المسلمون في هذه المرة يريدون تأمين مصر ، ولكنهم كانوا
يعتزمون التخلص من جيوش الروم وادخال البلاد نهائيا في الدولة
الاسلامية ، ولذلك أمر معاوية عقبة أن يختار مكانا مناسباً ينشئ به مدينة
اسلامية تكون معسكرا للجيش ومقرا للمسلمين ، فاختار عقبة أحد
الأودية البعيدة عن الساحل وأنشأ مدينة القيروان ، وكان تخطيطها على
نمط تخطيط الأمصار الاسلامية في البصرة والكوفة والفسطاط ، فشملت
المسجد ودار الامارة ودورا للقادة وأسرههم ومعسكرات للجنود ، وكان
انشاء قاعدة القيروان سنة ٥٠ هـ (١) .

وقبل أن نستعرض في وصف حملات المسلمين على شمالي افريقية
نقرر أن مقاومة هذه البلاد كانت قوية وقد استمرت حوالي ستين سنة
منذ فتحت برقة في أواخر العقد الثالث ، حتى تم القضاء على الروم ومن
ساعدهم من البربر سنة ٨٣ هـ .

ونعود بعد ذلك لقضية النضال في شمالي افريقية والمغرب فنذكر أن
معاوية بن أبي سفيان عزل والي مصر معاوية بن خديج سنة ٥٠ هـ وولى
عليها مسلمة بن مخلد الأنصاري ، كما ضم له المغرب أيضا ، فكان أول
من جمع له المغرب كله ومصر وبرقة وافريقية وطرابلس كما يقول
الطبري (٢) ، فعزل مسلمة عقبة عن افريقية وولى بدله مولى له يقال له
أبو المهاجر (٣) ، وقد نجح أبو المهاجر في النضال الذي قام به واستطاع

(١) الطبري ج ٤ ص ١٧٨ والبلاذري ص ٢٣٠ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ج ٣ ص ١٧٨ .

(٣) المرجع السابق والبلاذري ص

أن يضم اليه زعيما هاما من زعماء البربر اسمه كسيلة ، فتبعه عدد كبير من قبائل البربر . وقد حاول أبو المهاجر بعد أن أحس بانتصاره على البربر بطريق السياسة والقوة أن ينتصر كذلك على الروم ، فهاجم معقلهم الشهير « قرطاجنة » ، ولكن الروم دافعوا عن هذا المعقل ببسالة ردت عنه المهاجمين .

وفي أوائل عهد يزيد أعيدت القيادة لعقبة بن نافع (١) وظل أبو المهاجر تابعا له ، وقد استطاع القائدان العظيمان أن يسيرا في فتوحاتهما حتى وصلا الى المحيط الاطلسي ويروى أن عقبة صعد هناك ربوة وهتف : يارب ، لولا هذا البحر لخضيت مجاهدا في سبيلك ، ولو كنت أعلم بعده أرضا وناسا لخضته اليهم .

على أن هذه الفتوح لم تكن نهاية المطاف ، فقد كره البربر عودة عقبة للقيادة ، وكان كسيلة يظن على عقبة ، وكان عقبة يستصغر شأن كسيلة بعد ما أحرز من انتصارات ، وحدث أن عقبة كان عائدا من إحدى غزواته المظفرة ، فلما وصل الى بلدة « ضبنة » صرف جنده من القيروان وسار في ثلاثمائة من رفاقه يريد بلدة اسمها « تهودة » ، وعرف الفرنجة ذلك فأخبروا كسيلة وأمدوا البربر بالسلاح والأموال ، ففاجأ هؤلاء عقبة وأصحابه ، ودارت معركة غير متكافئة من ناحية العدد والاستعداد ، وقد خر فيها عقبة وأبو المهاجر وأكثر أصحابهما ، وأسر من بقى (٢) ، وأرقت كسيلة عن الاسلام وتبعه عدد من البربر ، ودفن عقبة في مكان لا يزال يحمل اسمه (سيدي عقبة) وبنى على ضريحه مسجد هو أقدم أثر لفن العمارة الاسلامية في افريقية ، ويقتل عقبة وأبى المهاجر وهزيمة جيشهما عاد السلطان مرة أخرى للروم في الساحل ، لكسيلة في الداخل وانسحبت جيوش المسلمين من القيروان الى برقة ، وحاول عبد العزيز ابن مروان والى مصر أن يعيد سلطان المسلمين على هذه البقاع فأرسل

(١) فتوح البلدان ص ٢٢٠ .

(٢) فتوح البلدان ص ٢٢٠ .

جيشا بقيادة زهير بن قيس ، ولكن هذا الجيش هزم وقتل قائده وكثير من أفرادِه (١) ، وساعد على هزيمة المسلمين وتقهروهم في ذلك الميدان اضطراب دمشق في تلك الأيام بسبب الفتن التي تلت وفاة معاوية .

وبدأت يقظة الخلافة الأموية في عهد عبد الملك فأرسل جيشا عظيما بقيادة حسان بن النعمان الضماني ، وقد استطاع هذا الجيش أن يقضى على الروم ويطردهم نهائيا من شمالي افريقية ، كما استطاع أن يقضى على مقاومة البربر ، وعادت هذه البلاد حتى المحيط الأطلسي جزءا من العالم الاسلامي كما تولى حسان تنظيم الشئون الادارية وشئون النقد والخراج وغير ذلك من دلائل الاستقرار ، ولم يعد شمالي افريقية تابعا لمصر ، بل أصبح ولاية خاصة يعين عليها وال من قبل الخليفة (٢) .

وعين موسى بن نصير واليا على شمالي افريقية والمغرب بعد حسان ، وقد كان تعيينه في أواخر عهد عبد الملك أو أوائل عهد الوليد واتخذ له لقب « أمير القيروان » وقد أكمل موسى سلطان المسلمين في هذه الديار ، ففرض على ما كان باقيا لبعض القبائل الجبلية من سلطان ، وأخذ الرهائن منها حتى لا تنشق عصا الطاعة مرة أخرى ، وفتح طنجة ولم تكن قد فتحت من قبل (٣) وخضعت له صلاحيات مدينة سبتة الواقعة على الساحل الاطريقي والممتدة في البحر تجاه الشمال ، وكانت سبتة تابعة للوك القوط يسكنون عليها حكامها ، وبذلك استقر المسلمون في هذه البقاع وبدعوا يتطلعون الى ما وراء المضيق :

انتشار الاسلام بين البربر :

يشمل الجزء الرابع من هذه الموسوعة شيئا من التفصيل عن حركة نشر اللغة العربية والدين الاسلامي بين البربر بالشمال الافريقي ، ولكتنا

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٣١ .

(٢) القرطبي : فتح الطيب ٢ : ١٢٢ والبلاذري ص ٢٣٤ .

(٣) فتوح البلدان ص ٢٣٢ .

الاندلس :

وخلف المضيق كانت تقع شبه جزيرة الأندلس (١) وإذا صح أن عقبة بن نافع قد امتطى جواده واتجه صوب الغرب ، الى المحيط الأطلسي ، فلم ير الا بحرا هائلا وأمواجا صاخبة وحسب أنه ليس هناك خلف البحر عالم آخر وناس يعيشون ، فان موسى بن نصير اتجه الى الشمال ورأى أوروبا وعزم على أن يعبر هذا المضيق ، وينشر الإسلام خلفه وخاصة أن سكان أسبانيا كانوا يحكمون مناطق من افريقية استولى عليها المسلمون ونزلوا لذلك في صراع مع المسلمين ، وكذلك قدم سكان أسبانيا عوناً كبيراً للروم الذين كانوا يحتلون قرطاجنة وسواها من مدن الساحل الافريقي رجاء أن ينتصر الروم في نضالهم ضد المسلمين واتخذت هذه المعونة صبغة الحروب الدينية فقد كان أفرادها يحملون الصليب ، وقام أهل الأندلس بعدة غارات على سواحل افريقية التي كانت قد استولى عليها المسلمون (٢) ، وكل هذه الأسباب ألزمت المسلمين أن يتخطوا المضيق الى ما وراءه .

وكان الرومانيون قد استولوا على شبه الجزيرة سنة ١٣٣ م وفي عهدهم دخلها عدد كبير من اليهود ، ثم غزاها الوندال في أوائل القرن الخامس الميلادي ، وبعد ذلك غزاها القوط في أوائل القرن السادس الميلادي فطردوا الوندال الى الساحل الافريقي ، وبقيت هذه البلاد بها

(١) أقدم أسماء الجزيرة هو « ايبيريا » نسبة الى الايبيريين الذين كانوا من اقدم من سكنها ، ولما استولى عليها الرومان في القرن الثاني اطلقوا عليها « أسبانيا » أي شاطئ الارانب ، وربما كان ذلك لان الفينيقيين عندما نزلوا ببعض جهات من الساحل قبل الرومان صادفوا به أسراباً من الارانب فاطلقوا على هذا الشاطئ كلمة أسبانيا التي جعلها الرومان بعد ذلك علماً على شبه الجزيرة كلها ، وبعد الرومان خضع جنوب شبه الجزيرة لقبائل الوندال فسمى هذا الجزء Vandalisia نسبة الى هذه القبائل ، وهو الاسم الذي اختاره المسلمون عندما نزلوا هذه البلاد فجعلوه بعد نوع من التعريب « الأندلس » كما جعلوه علماً على شبه الجزيرة كلها انظر « الأدب الأسباني » للدكتور أحمد هيكل ص ١٤ .

(٢) الامامة والسياسة ج ٢ ص ٦٨ .

مجموعة غير متجانسة من العناصر كما أنها مختلفة الأديان ، وكان الغداء حادا بين المسيحيين واليهود ، وطالما غلبَ اليهود على أمرهم ونزلت بهم ألوان من الأضرار ، وكان النزاع على العرش يكاد يكون متصلا بين الأمراء وبخاصة في الفترة السابقة لغزو المسلمين لها ، وهذه العوامل أيضا مما حمل المسلمين على الاستهانة بحكومة هذه البلاد وقوتها العسكرية ففكروا في غزوها .

وجاءت الخطوة المباشرة ، فقد آل الملك الى لذريق ، فأسخط ذلك أبناء الملك السابق غيطشة فهجروا أسبانيا الى افريقيا وتحالفوا مع المسلمين ، كما حدث خلاف بين الكونت جوليان حاكم سبته من قبل القوط وبين لذريق لا يقال من أنه انتكع عفاف ابنة جوليان (١) ، فأراد جوليان أن ينتقم لشرقه فشجع المسلمين على غزو أسبانيا ووصف لهم محاسنها ووعدهم بالتعاون معهم لنجاح هذا الغرض .

واستشار موسى الوليد بن عبد الملك خليفة المسلمين ، ونقل له الأسباب التي تدعو لغزو الأندلس وهون عليه أمرها ، فوافق الخليفة على الغزو .

وهناك أبطال ثلاثة قادوا جيوش المسلمين الزاحفة على أسبانيا هم طريف بن مالك وطارق بن زياد وموسى بن نصير نفسه ، وكان طريف ابن مالك أول هؤلاء الأبطال ، وكان زحفه بمثابة كشف وارتياح واستطلاع ، فقد عبر المضيق على رأس خمسمائة من الخيالة والرجالة ، تحملهم أربع سفن من سفن جوليان وكان ذلك سنة ٩١ هـ ، ولم يجد طريف مقابومة تذكر ، وعاد بغنائم كثيرة يشجع أمير القيروان على التقدم نحو الأرض الخضراء ، ولا تزال الجزيرة التي غزاها طريف في جنوب أسبانيا تحمل اسمه (٢) .

(١) المقري : نفح الطرب ج ١ ص ١٠٩ وانظر .

(٢) الكلل ٤ : ١٢٢ ومعجم البلدان ٥ : ٦٦ .

ودفع هذا النجاح أمير القيروان الى عمل حاسم يقصد به الاستقرار في الأندلس بعد أن ارتاد طريف له الطريق ، فاختر لهذا العمل العظيم مولاه البطل الكبير طارق بن زياد ، وقد سار طارق على رأس جيش قوامه سبعة آلاف أكثرهم من البربر ، وعبر المضيق على سفن أعداها له جوليان حاكم سبتة كما أعد لطريف من قبل ، وعبر طارق المضيق في رجب أو شعبان سنة ٩٢ هـ ونزل بجيشه على جبل يعرف باسمه حتى الآن هو جبل طارق Gibraltar وهناك أعد طارق جيشه للزحف في هذه الجزيرة الشاسعة العامرة ، ويروى أنه أحرق سفنه ليقطع على أصحابه أى أمل في العودة أو الهروب الى الساحل الأفريقى ، وألقى خطابه المشهور « أيها الناس أين المفر ، البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله الا الصدق والصبر (١) » وأنا أميل الى تصديق الخطاب ، ولكنى لا أميل الى تصديق الرواية القائلة أن طارقا أحرق سفنه ، وأعتقد أن مصدرها هو قوله « البحر من ورائكم » ففهم الرواة أنه أحرق سفنه ولم يبق لأصحابه سبيل الى الهرب ، ولا داعى لأن نستنتج من عدم وجود يملكها وتركت جيش طارق بين البحر والعدو ، أو أن وجود السفن لن تكون وقاية عند التقهقر للخلف تجاه البحر .

وعرف لذريق ملك القوط ويسميه الطبرى الأدرينوق خبر غزو المسلمين لبلاده فأعد جيشا كثيفا قيل أنه بلغ مائة ألف نسمة وقاده بنفسه ، وأرسل طارق الى موسى يطلب مددا فأرسل له خمسة آلاف ، وتقابل الجيشان في وادى بكة أو لكة وكان الفرق في العدد كبيرا وكذلك الفرق في العتاد ولكن جيش القوط كان من العبيد والمستضعفين ، وكان به أعداء كثيرون للذريق ، وكان اليهود يتحالفون سرا مع المسلمين ، ويقدمون لهم العون ، وحمل طارق بجيشه المتحد المؤمن المتعاون على جيش العدو ففرقه ومزقه ، واختفى لذريق فلم يعثر له على أثر وتشتت

جيشه (١) . وكان قتل الملك واندحار جيشه في المعركة الأولى مما ثبط الهمم ويسر فتح الأندلس على المسلمين . ويقول سبتانلى لين سول (٢) « ان انتصار المسلمين في وادى لكة ألقى بأسبانيا كلها في أيدي المسلمين ، ولم يكن طارق بحاجة الا الى القليل من الجهد ليقضى على المقاومة الضئيلة في بعض المدن » .

وسار طارق يفتح المدن وييسط سلطانه عليها فاستولى على قرطبة وغرناطة وطليلة . وكانت طليطلة عاصمة للبلاد .

وأدرك موسى بن نصير أن الجبهة اتسعت أمام مولاه طارق ، وأراد كذلك أن يكون له شرف الاشتراك الفعلى في فتح هذه البلاد الخصبة ، فقاد جيشا كبيرا عبر به المضيق واتجه الى مدينة حصينة اسمها قرمونة ففتحها ثم فتح اشبيلية عاصمة أسبانيا قبل غزو القوط لها ، وسار حيث التقى بطارق في طليطلة ، وقد كان اليهود أكبر عون للمسلمين في جميع هذه الفتوحات .

ولا يكاد الانسان يصدق الرواية التى تصور عداء وسخطا بين موسى وطارق وتصور موسى معتديا على طارق ومؤنبا له (٣) ، فكل الحقائق التى بين أيدينا تدل على تعاون الاثنين ، فقد أمد موسى طارقا بالمسد ، ثم جاء بنفسه وفتح بعض البلاد التى كانت خلف جيوش طارق فأمرّ الجيوش من أن تُضرب من الخلف ، وسار البطلان بعد ذلك متعاونين يفتحان باقى البلاد حتى تم لهما النصر ، فكيف يكون ذلك مع عداء واعتداء ؟ (٤) .

واتجه البطلان بعد ذلك الى الشمال ففتحوا سرقلية وبرشلونة ودانت لهما أقاليم أرغونة وقشتالة ، ثم اتجها الى الشمال الشرقى حتى

(١) الطبرى ج ٥ ص ٢٤٥ .

(٢) The Arabs in Spain (من الترجمة العربية لملى الجارم) .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٣٢ .

(٤) انظر الامامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ٧١ وانظر المجمل في تاريخ الأندلس للاستاذ عبد الحميد العبادى ص ٥٠ — ٥١ .

وَصَلَا إِلَى جِبَالِ الْبِرَانْسِ وَلَكِنَّمَا تَرَكَا الْمُنْطَقَةَ الْجِبَلِيَّةَ الْوَاقِعَةَ فِي الشِّمَالِ
لِلْعَرَبِيِّ مَنْطَقَةً (جَلِيْقِيَّة) تِلْكَ الْمُنْطَقَةُ الَّتِي أَوَى إِلَيْهَا الْقُوْطُ الْفَارُوقُ مِنَ
لِلزَّحْفِ الْجَارِفِ ، وَهَذَا الْإِتِّجَاهُ كَانَ ذَا أَثَرٍ كَبِيرٍ فِي التَّارِيخِ فِيمَا يَبْدُو .

مَا سَبَبُهُ وَمَا نَتَائِجُهُ ؟ .

رَبَّمَا كَانَ السَّبَبُ هُوَ اسْتِصْغَارُ شَأْنِ الْقُوْطِ وَالْإِتِّجَاهُ إِلَى تِلْكَ
الْمُنْطَقَةِ الَّتِي كَانَ مُوسَى يَأْمُلُ أَنْ يَدِينَهَا لَهُ جَنُوبَ أَوْرُوبَا ، وَأَنْ يَسْتَمِرَّ فِي
زَحْفِهِ حَتَّى يَفْتَحَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةَ مِنَ الْعَرَبِ بَعْدَ أَنْ عَجَزَ حِصَارُ الْمُسْلِمِينَ عَنْ
فَتْحِهَا مِنَ الشَّرْقِ (١) ، وَلَكِنْ يُؤْخَذُ عَلَيْهِ أَنَّهُ تَرَكَ ظَهْرَهُ مَهْدِدًا فَمَا دَامَ هُنَاكَ
عَدُوٌّ خَلْفَهُ فَكَيْفَ يَتَقَدَّمُ إِلَى الْإِمَامِ فِي الْأَمْتَانِ ؟ أَمَّا اسْتِصْغَارُ شَأْنِ الْقُوْطِ
فَلَمْ يَكُنْ عَمَلًا حَازِمًا ، فَهَمُّ فِي الْحَقِيقَةِ كَانُوا صَغَارًا عِنْدَمَا كَانَتْ الْوَحْدَةُ
شُعَارَ الْمُسْلِمِينَ ، فَلَمَّا اخْتَلَفَ أَمْرُ الْمُسْلِمِينَ وَتَفَرَّقُوا وَتَحَارَبُوا عَظُمَ شَأْنُ
الْقُوْطِ ، قَدْ يُقَالُ أَنَّ الْمُنْطَقَةَ الْجِبَلِيَّةَ كَانَتْ يُمْكِنُ أَنْ تَسْتَعَصِيَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ،
وَلَكِنْ ذَلِكَ الْقَوْلُ لَا يَثْبُتُ أَمَامَ الْحَقِيقَةِ الْوَاضِعَةِ ، هِيَ أَنَّ الْبِرِيرَ لَهُمْ خَبْرَةٌ
تَامَةً بِالْجِبَالِ وَالْحُرُوبِ فِيهَا .

أَمَّا نَتَائِجُ إِهْمَالِ مَنْطَقَةِ جَلِيْقِيَّةٍ ، فَكَانَتْ سَقُوطُ الْأَنْدَلُسِ فِيمَا بَعْدَ فِي يَدِ
الْمُسِيحِيِّينَ . فَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْمُنْطَقَةُ بِمِثَالَةِ حِمْنٍ قَرِيبٍ فِيهِ الْأَبْطَالُ ، أَوْ
مَدْرَسَةٍ تَرْبِي فِيهَا الدَّهَاءَ ، ثُمَّ خَرَجُوا فِيمَا بَعْدَ بِقُوَّتِهِمْ وَدَهْلَتِهِمْ ، وَوَسَّعُوا
الْهَوَّةَ بَيْنَ فِرْقِ الْمُسْلِمِينَ ، وَانْتَهَزُوا الْفُرْصَ وَظَلُّوا يَزْحَفُونَ حَتَّى اسْتَوْلُوا
عَلَى الْأَنْدَلُسِ بَعْدَ صِرَاعٍ طَوِيلٍ اِمْتَدَّ حَوْلَى ثَمَانِيَةِ قُرُونٍ . وَسَيَأْتِي تَفْصِيلُ
ذَلِكَ عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى تَارِيخِ الْأَنْدَلُسِ فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنْ هَذِهِ الْمَوْسُوعَةِ .

الْمُسْلِمُونَ فِي قَرْنِنَا :

بَعْدَ أَنْ تَمَّ فَتْحُ أَسْبَانِيَا اسْتَدْعَى الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْقَائِدِينَ الْعَظِيمِينَ
مُوسَى وَطَارِقًا إِلَى دِمَشْقَ ، وَقَدْ رَأَيْنَا فِيمَا سَبَقَ مَا أَصَابَ مُوسَى مِنْ

(١) الْأَمَلَةُ وَالْمَسِيلَةُ ج ١ ص ٧٦ .

(٢) ١ - التَّارِيخُ الْإِسْلَامِيُّ

سليمان بن عبد الملك ، أما طارق فقد انتهت حياته في غموض كما بدأت في غموض ، وكل ما ذكره المؤرخون أنه عاد الى الشام مع موله موسى ابن نصير بعد فتح الأندلس وانقطع خبره (١) ، وعلى هذا لم يحقق موسى أمله في اختراق جبال البرانس والزحف جنوبى فرنسا الحالية ، ثم جاء بعده السمع بن مالك في عهد عمر بن عبد العزيز فاخترق جبال البرانس وزحف الى الشرق ولكن محاولته لم تنجح فقتل سنة ١٠٢ هـ ، وتمت بعد ذلك غارات تكاد تكون متصلة في عهد عنبسة بن سحيم الذى كانت له الولاية بعد السمع ، على أن أعظم المواقع خطرا حدثت عندما تولى عبد الرحمن الخافى قيادة المسلمين سنة ١١٢ هـ ، فقد تقدم عبد الرحمن في فرنسا تقدما محسوسا وكسب النصر في كثير من المعارك وظل يتقدم حتى وصل الى بلدة تور الشهيرة (Tours) على مسيرة حوالى سبعين كيلو مترا من باريس جنوب نهر السين .

على أن تقدم عبد الرحمن وانتصاراته أزعجت الفرنجة والملايين وغيرهم من سكان البلاد المحيطة كما أثارت خوف المسيحيين في جميع أنحاء أوروبا ، ولذلك نجد هؤلاء جميعا يتجمعون بقيادة شارل مارتل ليقابلوا عبد الرحمن وجيشه في معركة سماها المسلمون « بلاط الشهداء » سنة ١١٤ هـ ، وقد خر عبد الرحمن في هذه المعركة وتقهقر جيشه بعد صراع طويل (٢) .

ويجدر بنا أن نلجأ الى غوستاف لوبون ليقرر لنا حقيقة هذه المعارك الفاصلة التى وقعت جنوبى فرنسا ومدى أهميتها .

يقرر غوستاف لوبون (٣) أن العرب استولوا على نصف فرنسا الحالية ، ولم يكن قصدهم الاستقرار بتلك البلاد ، وانما كانت غاراتهم

(١) دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ١ : ٣٤٣ .

(٢) الأستاذ المبادى : المجلد فى تاريخ الأندلس ص ٥٨ — ٦٠ .
Stanley Lane — Pople : The Arabs in Spain p. 27. و

(٣) حضارة العرب ص ٣١٣ — ٣١٨ باختصار .

ترى إلى التخويف وجمع الغنائم » وكان زحف العرب جارفاً أرب أصحاب الاقطاع بفرنسا . وأربعه شارك مارتن نفسه ، ويقتبس غوستاف لويون من المؤرخين العرب عبارة تنقل على صخب الزحف العربى ، وهذه العبارة هي « أن كثيرا من سنيورات الافرنج اشتكوا الى شارل مارتن من الأضرار التي أحدثها المسلمون بهم ، ومن الخزي الذي أصاب أوروبا من جراء اقتحام جيوشها أمام العرب » فلجأ شارل مارتن قائلا : دعوهم يصنعوا ما يشاءون فهم الآن كالسيل الذي يأتي على كل ما يعترضه ، ولكم إذا ما أثقلتهم الغنائم » وطلب لهم المقام بالبيوت الجميلة ، وألقوا وقاية العيش ، واستحوذوا الطمع على قاذتهم ، ودب الشقاق في صفوفهم ، زحفنا عليهم واثقين من النصر » .

وصحت نبوءة شارل مارتن . واتبع هو هذه الخطة التي رسمها ، فقد انتظر على العرب حتى هدأت ثورتهم ، وثقلت غنائمهم ، ودبت المناسفة بينهم ، ثم قلائهم بجيش كبير ، ودارت المعركة يوما كاملا ولم تسفر عن نتيجة حاسمة ، وفي ذلك الليل وبدأت المعارك تهدأ ، وحينذاك اقتحمت فرقة من جيش الفرنج معسكر المسلمين ، وخاف هؤلاء على غنائمهم ، فالتدوا للدفاع عنها تاركين الميدان ، وتقهقر بذلك الجيش العربى وتتبعهم شارك مارتن ، وأخذ ينهب البلاد التي يمر بها حتى أن أمراء النصارى خافوا زحفه فحالفوا العرب ليتخلصوا منه .

ويؤكد غوستاف لويون أن معركة بلاط الشهداء « بواتيه » لم تضع حدا لتقدم العرب كما يزعم كثير من المؤرخين ، بل ان المسلمين سرعان ما ألقوا من هول الهزيمة ، وأخذوا يستردون مراكزهم السابقة ، وقد سلم حاكم مرسيليا مقاطعة البروفنس اليهم سنة ٧٣٧ م ، واستولوا على الآرال ، ودخلوا مقاطعة سان ترويز سنة ٨٨٩ م ، ودامت اقامتهم في البروفنس الى نهاية القرن العاشر الميلادى ، وأوغلوا في مقاطعة الغالة وسويسرا سنة ٩٣٩ م .

وقد ترك العرب أثرا عميقا في الحضارة والدم في الأماكن التي احتلوها في جنوب فرنسا . فقد أدخلوا لها صناعة البسط ، كما أدخلوا كثيرا من أساليب الفلاحة ، ومن ناحية الدم فان هذه الأمكنة لا تزال عامرة بأحفاد العرب ، ويمكن أن يعرفهم الانسان ببشرتهم السمراء وشعورهم السوداء وأنوفهم التي يبرز فيها القنأ ، وعيونهم الثاقبة اللامعة ، ويمكن للمرء أن يعرف نساءهم بألوانهن الزيتية ووجوههن الأسيلة . وأعينهن الدعج النجل ، وحواجبهن الزج ، ويقرر غوستاف لوبون أن السبب في بقاء هذه الصفات حتى الآن أن هؤلاء السكان ألقوا جماعات صغيرة منفصلة عن بقية الأهلين الفرنسيين غير متصلة بهم بصلات التوالد .

ويصف لين بول الأندلس تحت سلطان المسلمين بقوله : « ويجب ألا يجول ببال أحد أن العرب عاثوا في البلاد أو خربوها بصنوف الألمان والظلم ، كما فعل قطعان المتوحشين قبلهم ، فان الأندلس لم تحكم في عهد من عهودها بسماحة وعدل وحكمة كما حكمت في عهد العرب الفاتحين (١) » وسنرى ذلك مفصلا عند الحديث عن الأندلس في الجزء الرابع من هذه الموسوعة .

الميدان الثالث

هروب المسلمين فيما وراء النهر وفي السند

ذكرنا في الجزء الأول من هذه الموسوعة (١) أن التوسع الاسلامي في عهد عثمان امتد حتى شمل المنطقة الجبلية جنوبى بحر قزوين ، ثم تخطت الجيوش الاسلامية نهر جيحون ودخلت بلاد ما وراء النهر في الدولة الاسلامية واستولى المسلمون على باخ وهرات وكابول وغزنة من بلاد الأترک .

وقبل أن نذكر الفتوحات الأموية في هذه الجبهة نصب أن نوضح حقيقتين هامتين :

أولاهما : يبدو من تتبع حركات الفتح الاسلامي في عهد الخلفاء الراشدين أن المسلمين لم يَتَبَتَّوْا في البلاد المجاورة لبحر قزوين : جنوبه وجنوبه الشرقى ، ويبدو أن سبب ذلك أنهم كانوا يسرعون بالاتجاه نحو الشرق والشمال الشرقى متجهين الى بلاد ما وراء النهر ، ولذلك بقيت خلفهم بعض الأماكن التى كان يحكمها حكام من الترك . وهى بلاد قوهستان وجرجان وكرمان وجيلان وطبرستان ، وكانت تخضع لهم حيناً وتمرد حيناً . وقد تقدم المسلمون في عهد الوليد - كما سيأتى - في جبهة ما وراء النهر وتركوا هذه البقاع أيضاً فلم يتم إخضاعها الا في عهد سليمان بن عبد الملك على يد قائده يزيد بن المهلب .

ثانيهما : في خلال الفتنة التى أدت الى قتل عثمان واستمرت طيلة خلافة على ٢ تمردت بلاد كانت قد ارتبطت بصلح مع الدولة الاسلامية في هذه المنطقة ومنها هرات وبلخ وغيرهما .

وجاءت الدولة الأموية وبدأت تحركاتها الكبيرة في هذا الميدان ، وهو

(١) انظر التوسع الاسلامي في عهد عثمان .

الميدان الشرقى ، وهو وثيق الاتصال ببلاد فارس التى فتحت فى عهد عمر ، وبلاد خراسان التى امتد لها الفتح الاسلامى فى عهد عمر وعهد عثمان ، ولكنها لم تكن قد استقرت نهائيا فى أيدي المسلمين . ولما كان هذا الميدان الشرقى قد اتخذ قاعدته بلاد العراق ، وكان يديره والى العراق ، فقد عددناه ميدانا واحدا ، ولكنه تفرع الى جبهتين فى عهد الوليد على يد قائده الحجاج بن يوسف الذى عين قائدين أرسل أحدهما الى الشمال الشرقى فأوغل فى بلاد ما وراء النهر ، وأرسل الآخر الى الجنوب الشرقى ففتح بلاد السند ، ولهذا سنتكلم فيما يلى عن كل من هاتين الجبهتين اللتين تفرعتا عن الميدان الشرقى .

جبهة ما وراء النهر :

بلاد ما وراء النهر أو ما بين النهرين هى البلاد التى تقع بين نهر جيحون Amu - Darya ونهر Syr - Darya وأهم الممالك التى تقع فى هذه البقاع هى :

• مملكة طخارستان على جانبى نهر جيحون وعاصمتها بلخ .

• مملكة صفانيان شمال نهر جيحون وعاصمتها شومان .

• مملكة الصغد وهى تمتد من جيحون الى سيحون وعاصمتها سمرقند وأهم مدنها بخارى .

• مملكة فرغانة على جانبى نهر سيحون وعاصمتها جخنده أو كاشان أو اخسيكت ، وكان ملكها يلقب بالاخشيد وهو اللقب الذى أطلق على الاخشيد مؤسس الدولة الاخشيدية بمصر لصلته نسبه بهذه البلاد .

• مملكة خوارزم فى أعلى نهر سيحون وعاصمتها الجرجانية .

• مملكة أشروسنة فى الشرق من فرغانة ، ولقب ملكها الأفشين ومنها

انحدر بعض الممالك الذين آل لهم السلطان في عصر ضعف الخلافة
العباسية بعد الواثق ، وقصبتها بنجكث .

مملكة الكاشغرية في شمال نهر سيحون وعاصمتها الطارنيكز أو
بنجكث (١)

ولم تكن هناك حدود ثابتة لهذه الممالك ، بل كان العدوان بينها يكاد
يكون مستمرا ، وكذلك كانت هذه البلاد عرضة لعدوان من الترك
والصينيين المجاورين لها .

وقد بدأ غزو هذه البلاد منذ عهد معاوية على يد قائده قيس ابن
الهيثم الذي كانت له ولاية خراسان ، فقد روى أن أهل بادغيس وهرات
وبلخ قد نقضوا الصلح ، فسار قيس الى بلخ فخرّب معبدها ، وعاد أهلها
يطلبون الصلح فوافق عليه قيس ، ولما علم أهل بادغيس وهرات بما نزل
بأهل بلخ طلبوا الصلح على الشروط التي نزل عليها أهل بلخ فأجيبوا
الى طلبهم (٢) .

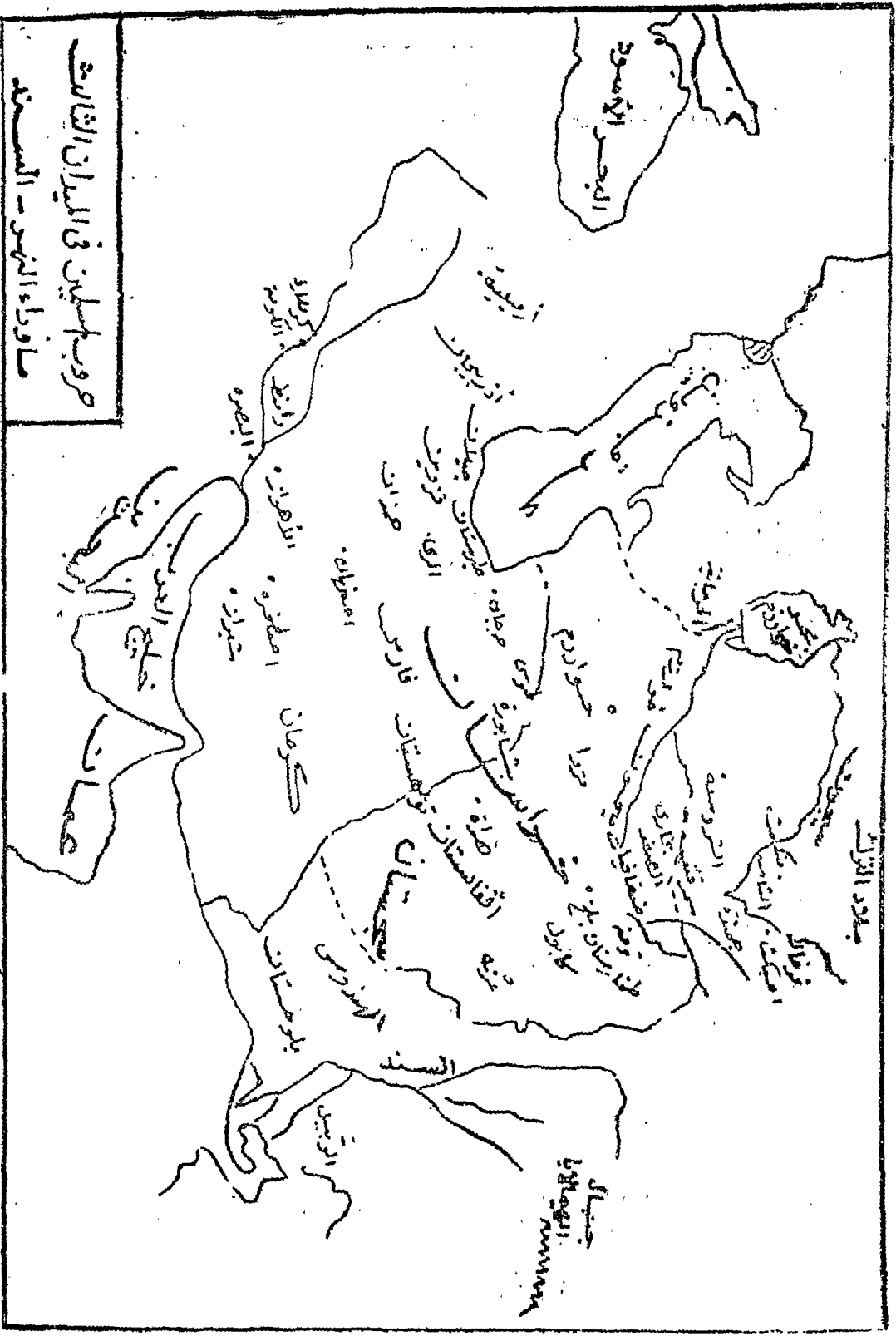
وولى معاوية أيضا زياد بن أبيه بلاد العراق ، ومن بعد زياد تولى
ابنه عبيد الله فكان لهما قيادة هذه الجبهة ، وفي عهد عبيد الله وصل
المسلمون في غاراتهم الى بخارى وسمرقند (٣) .

وتوقفت الغارات على هذه البلاد بعد معاوية بسبب كثرة الثورات
في العالم الإسلامي ، ولما أخمدت هذه الثورات ودب النشاط في الجبهات
الحربية كلها دب النشاط في هذه الجبهة أيضا ، وكانت ولاية العراق
وخراسان قد أسندت للحجاج بن يوسف فأعد القادة للهجوم على هذه

(١) انظر الدكتور عبد الهادي شعيرة : ممالك ما وراء النهر ص ٦ وما
بعدها وانظرها كذلك في البلاذري ص ٤٠٩ - ٤١٠ .

(٢) البلاذري ص ٣٩٩ - ٤٠٠ .

(٣) الطبري ج ٤ ص ٢٢١ والبلاذري ص ٤٠١ .



خريطة الخليج العربي
مأخوذة من المجلد - المسند

المنطقة ، ومن قادته فيها المهلب بن أبي صفرة الذي كانت له غارات ناجحة على هذه البلاد حتى فقتت عينه (١) . وتولى بعده ابنه يزيد ابن المهلب الذي فتح قلعة نيزك ببادغيس سنة ٨٤ هـ (٢) ، وفي العام التالي عزل الحجاج يزيد وولى أخاه المفضل ففتح بادغيس وشومان (٣) .

وهبت ثورة ابن الأشعث فشعلت الحجاج حيناً ، فلما انتهى منها عاد لهذه المنطقة بزحف أكثر نظاماً ونجاحاً وكان الزحف هذه المرة على يد القائد الشهير قتيبة بن مسلم .

ولم تكن حروب قتيبة بن مسلم غارات كتلك الغارات التي كانت طابع الحملات التي سبقت قتيبة في هذه الجبهة ، بل كانت فتوحاً منظماً ثابتاً ، وقد بدأت حملات قتيبة في أوائل عهد الوليد بن عبد الملك واستمرت حتى بدء عهد سليمان كما سبق القول ، وقد استطاع قتيبة في هذه الفترة أن يمد فتوحاته الى كل البلاد التي تقع على النهرين أو بينهما تلك التي أوجزنا ذكرها آنفاً (٤) ، ولم يكتف قتيبة بالفتوح ، بل دعا السكان الى دخول الاسلام وترك عبادة الأصنام ، فأجابوه بأن لهم أصناماً من اعتدى عليها أو استخف بها هلك ، وهم لا يستطيعون الاستخفاف بها لذلك ، فدخل قتيبة على الأصنام فأباح حليها لجنده ، وكبها على وجوهها بيده ، وحرقها ، ولم يصبه سوء بطبيعة الحال ، وكان ذلك مما سبب دخول كثير من سكان هذه البلاد في الاسلام (٥) .

ولما انتهى قتيبة من بلاد ما وراء النهر قرَّب من أرض الصين ، فاتجه اليها فاتحاً غازياً ، ولولا وفاة الوليد وقيام الخلاف بين سليمان

(١) انظر ترجمة المهلب في وفيات الاعيان .

(٢) الطبرى ج ٥ ص ١٨٦ .

(٣) المرجع السابق ص ١٩٤ .

(٤) انظر بعض تفاصيل هذه الفتوح في الطبرى ج ٥ ص ٢١٤ ، ٢١٥ ،

٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٧ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ،

واقرا كذلك البلاذرى ص ٣٩١ ، ٤٠٩ — ٤١١

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤١١ .

وقتية لكان من الممكن أن يتغير تاريخ الاسلام في الصين ، فقد روى الطبرى (١) أن قتيبة أرسل إلى ملك الصين وفدا برئاسة هيرة ابن المشرج الكلابى يدعو إلى الاسلام أو الجزية أو السيف ، فثار ملك الصين وقال لهيرة : اذهب إلى صاحبك فقل له ينصرف فانى قد عرفت حرصه وقلة أصحابه ، والا بعثت عليكم من يهلكم ويهلكه . فأجابه هيرة بثقة وقوة : كيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادرا عليها وغزاك ؟ وكيف يكون قليل الأصحاب من أول خيـلـه في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ؟ وأما تخويفك ايانا بالقتل فان لنا أجالا اذا حضرت فأكرمها القتل في سبيل الله ولسنا نكرهه ولا نخافه .

وأدرك ملك الصين القوة العظيمة التى تكمن خلف هؤلاء ، وعرف أن التهديد والثورة لا طائل تحتها ، فعاد يسأل فى هدوء : وما الذى يرضى صاحبكم ؟ فأجاب هيرة : أنه حلف ألا ينصرف حتى يطمأ أرضكم ويختم ملوككم (علامة السيطرة عليهم) ويأخذ الجزية . فقال الملك : انا نخرجه من يمينه فلا يحتث ، نبعث اليه بترائب من أرضنا فيطوؤه ، وبعض أبنائنا فيختمهم ، وتبعث له بجزية يرضاها . وهكذا افتدى ملك الصين نفسه وبلاده بالجزية ، وأغلب الظن أن قتيبة ما كان ليقتنع بذلك لو لم يتول سليمان بن عبد الملك الخلافة ، وكان بين سليمان وقتيبة ما شغل الأخير عن مواصلة جهده فى بلاد الصين الواسعة .

وهناك شخصان آخران بذلا جهدا ضخما فى ميدان ما وراء النهر وثبتا أقدام المسلمين فى تلك البقاع ، وهذان الشخصان هما أسد بن عبد الله القسرى ونصر بن سيار اللذان وليا خراسان فى عهد هشام بن عبد الملك فقادا حملات ناجحة موفقة فى هذه البلاد .

جبهة السند (*) :

بلاد السند هي البلاد المحيطة بنهر السند (Indus) ، وهي ممتدة غربا من ايران الى جبال الهيمالايا في الشمال الشرقي تاركة شبه القارة الهندية في جنوبها . وبلاد السند تكون جزءا كبيرا من دولة الباكستان الحالية .

وكانت بلاد السند جزءا من بلاد الهند قبل الفتح الاسلامي ، وان كانت الهند في الحقيقة تتكون من عدة ممالك بينها القوي والضعيف ، وكانت عرضة لاعتداءات من الخارج وبخاصة من ايران وبلاد الترك وبلاد الصين القريبة من شبه القارة الهندية .

وببلاد الهند كانت معروفة للعرب قبل الاسلام ، وكان العرب وحدهم هم واسطة المقايضات التجارية بين الهند والعالم الخارجي (١) .

ومنذ فتح المسلمون بلاد فارس تطلعوا الى ما وراءها فامتدت فتوحاتهم الى خراسان ثم أسلمتهم خراسان الى بلاد السند ، وعلى هذا بدأت حملات المسلمين على بلاد السند مبكرة منذ عهد عمر بن الخطاب ، وكان الذي قام بذلك في عهد عمر عامله عثمان بن أبي العاصي عامل البحرين وعمان . وكان قد أرسل لها جيشا بحريا ولذلك تعرض للوم عمر الذي كان يكره أن يركب المسلمون البحر ، اذ كتب اليه عمر يقول : يا أبا نيف ، حملت دودا على عود ، واني أحلف بالله لئن أصيبيوا لآخذن من ثؤمك مثلهم (٢) .

وفي عهد علي توجه الحارث بن مرة العبدى متطوعا الى بلاد السند بجيش من المتطوعين وأذن لهم على بذلك ، وقد انتصرت الحملة

(*) هناك دراسة مفصلة عن الاسلام في الهند .. في الجزء الثامن من هذه الموسوعة .

(١) دكتور احمد الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ٥٤ : ١ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٢٠ .

وغنمت كثيرا من الغنائم . وغزا معاوية كذلك هذه البلاد بواسطة فاشقة
للشهير المهلب بن أبي صفرة (١) .

وجاء عهد اليزيد فجاء عهد الفتح المنظم لهذه البلاد الواسعة
وكانت العراق وفارس وخراسان تحت سلطان الحجاج بن يوسف الثقفي
كما قلنا من قبل .

وحدث أن ساءت العلاقات بين المسلمين وبين داهر ملك السند مما
استدعى صداما مسلحا ، أما سبب سوء العلاقات فهو أن الحجاج أرسل
سعيد بن أسلم إلى مكران ، فخرج إليه معاوية ومحمد ابنا الحارث العلاف
فقتلاه ، إذ كانا من الخارجين على سلطان الأمويين في هذه الجهات ،
وكانا قد لقيا عند داهر ملك السند البرهمنى كل ترحيب حين لجأ اليه
برجالهما الخمسمائة ، وما لبثا — وقد نصراه في بعض حروبه — أن صارا
من أصحاب الحظوة عنده .

وبلغ الحجاج الخبر فسأل الخليفة أن يأذن له بمهاجمة السند ملجأ
الخارجين على الدولة ، ولكن الخليفة لم يأذن له ، ثم بعد ذلك تعرض
قراصنة من ديبيل لسفن كانت قادمة من جزيرة الباقوت (سيلان) وفيها
بنات وأرامل لتجار من المسلمين وإفاهم الأجل هناك ، فأسر القراصنة
هؤلاء النساء ، ولما طلب الحجاج من داهر تخليص نساء المسلمين من
الأمم لم يستجب له ، وادعى أنه لا يسيطر على لصوض البحر
هؤلاء .. (٢) فكان هذا وسواه باعثا للحجاج أن يلح على الخليفة ليشار
لهذا العدوان وليؤمن طريق التجارة وحدود البلاد الإسلامية من غارات
المعتدين ، ولما استجاب الخليفة لرغبة الحجاج أعد هذا حملة كبيرة لغزو
بلاد السند ووضع على رأسها القائد الشاب محمد بن القاسم الثقفي وهو
صهر الحجاج وابن أخيه ، وانقسمت الحملة قسمين ، سار قسم منها

(١) انرجع السابق ص ٢١ .

(٢) كتوبر أحمد الساداتى : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية

بطريق البحر ، وقاد محمد بن القاسم القسم البرى ففتح فى طريقه بعض البلاد حتى التقى بسفنه المحملة بالجنود عند ميناء الديبل ، واتجه بجنوده الى الشمال فخرت له الحصون والبلاد صلحا أو عنوة ، وأخيرا التقى بملك السند (داهر) الذى كان يقود جيشا واجه به جيش المسلمين ، وقد دارت بينه وبين المسلمين معركة كبيرة فر منها داهر وانوزم جنده ، ووقع كثيرون منهم أسرى فى أيدي المسلمين ، وبالقضاء على هذا الجيش أصبح الطريق ممهدا لمحمد بن القاسم ليسيطر على بلاد السند كلها دون كبير عناء حتى وصل الى كشمير فى شمال السند (١) .

وكان مما ساعد المسلمين على تحقيق النصر السريع ما لاقوه من عون من جماعتى الميذ والجات (الزط) السنديتين اللتين انضمتا للجيش الاسلامى ، ووجهتها الى أيسر الطرق ، وبذلت عونا واضحا فى معارك القتال ، وكانت هاتان القبليتان قد هاجر أكثر أفرادهما الى خارج السند لفرط ما كانوا يعانونه من سوء معاملة الحكومة البرهمية ، اذ كانوا فى عداد المنبوذين الذين يحرم عليهم امتطاء الدواب أو ارتداء غالى الثياب ، ولم يكن يباح لهم من المهن والحرف الا أدنىها .

وقد أفاد المسلمون من رجال الميذ والزط الى جانب شجاعتهم فى الحرب وشدة جلدتهم فيها ، معرفتهم بمسالك السند ودروبها وأحوال أهلها وأساليبهم فى النزال (٢) .

أما عن صلة المسلمين بأهل السند بعد فتحها فيحدثنا عنها مؤلف هندی بقوله : وقد أكرم القائد المسلم رؤساء الهنادكة من رجال الدين ، وأطلق للناس حرية العبادة ، على أن يوالوا المسلمين ويدفعوا الجزية عن طيب نفس (٣) .

(١) البلافرى : فتوح البلدان ص ١٢٣ وما بعدها .

(٢) دكتور أحمد الساداتى : المرجع السابق ص ٥٩ .

(٣) Passad : Medieval Muslim Rule in India p. 29.

الحركات الفكرية والثورية
في عهد الدولة الأموية

امتاز اليهود الأموي على قصره بمجموعة من الحركات الفكرية والثورية لم تتأت لسواه ، فهو بهذا كان أخصب العهود في ثوراته الفكرية وثوراته العسكرية ، وربما يكون من الحق أن نقرر أن هذه الموضوعات لم ندرس حتى الآن دراسة كافية ، وسنحاول هنا أن نجلى بقدر الطاقة هذه الحركات المهمة ، وهي :

— حركات الشيعة •

وسيتفرع عن حركات الشيعة حركة أخرى قام بها المختار بن أبي عبيد •

— ثورة عبد الله بن الزبير •

— حركات الخوارج •

— المعتزلة والجبرية والمرجئة •

الاسلام والفرق :

وقبل أن نتحدث عن الفرق في الاسلام ، نقرر بعد طول المعاناة والدرس والبحث أن هذه الفرق التي سنتحدث عنها ليست في الحقيقة اسلامية ، وأن الأجيال أسمتها اسلامية خطأ ، أو أطلق عليها بعض المفكرين الأوائل اسم « الفرق الاسلامية » ثم اقتبست الأجيال بعد ذلك هذه التسمية دون تمحيص •

انها في الحقيقة حركات ظهرت في عهود الضعف ، وكانت في ظهورها متأثرة بعوامل ليست اسلامية ، وهي بهذا ليست كالفرق في اليهودية أو المسيحية التي تتخذ جذورها من الفكر اليهودي أو المسيحي •

ولذلك فأننى أرجو أن يتدبر القارئ الكريم هذه القضية الجديدة بما تستحقه من عناية ، لعلنا ننقذ ديننا الحنيف من هذه الفرقة التي ارتبطت بتلك الفرق •

وسنشرح هذا بشيء من التفصيل عقب حديثنا عن هذه الفرق ، حيث سنبرز عناصر وأسباب قيامها ، مما سيوضح أنه ليست لها جذور اسلامية •

الشيعة

مقدمة عن نشأة التشيع وأسبابه :

الحديث عن الشيعة في التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلاميه يشمل في تقديري ناحيتين : اولاهما عقائد الشيعة وأفكارهم ، وثانيهما الحركات التي قام بها الشيعة للاستيلاء على الحكم ، ونسرى أن التطور في التفكير الشيعي وُلِدَ أكثره في العصر الأموي وسنرى كذلك أن الحركات التي قام بها الشيعة للاستيلاء على الحكم في العهد الأموي كانت أقوى حركات الشيعة وأكثرها جرأة واتصالا حتى أسقطت الدولة الأموية ، تلك الدولة التي أسقطها الشيعة لتقوم مقامها دولة علوية ، ولكن نتيجة الكفاح نالها العباسيون لا العلويون لأسباب وضحناها عند الحديث عن قيام الدولة العباسية في الجزء الثالث من هذه الموسوعة .

لهذا كان الحديث عن الشيعة في العهد الأموي حديثا ذا بال ، يلقي كثيرا من الضوء على الأحداث التي حصلت في العهد الأموي وفيما تلاه من عهود .

والشيعة هم الذين شايعوا عليا رضى الله عنه (١) ، وقد كان لعلي شيعة منذ اللحظات الأولى بعد وفاة الرسول ، ومن هؤلاء جابر بن عبد الله وحذيفة بن اليمان وسلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري وغيرهم ، ولما تم الأمر لأبي بكر في سقيفة بنى ساعدة ، وتغلب هو وعمر على الأنصار بسبب الحديث الذي يروى عن الرسول وهو « الأئمة من قريش » قال علي : احتجاجوا بالشجرة ونسوا الثمرة ، وقد فهم على من احتجاج أبي بكر وعمر بهذا الحديث أن المقصود القرابة ، فاذا كانت القرابة من الرسول مرجحا لنيل الخلافة ، فعلى أقرب الى الرسول من أبي بكر وعمر ، ولكن يبدو أن أبا بكر وعمر كانا يقصدان مكانة قريش وقوتها لا القرابة وحدها ،

(١) الشهرستاني : الملل والنحل - ١ ص ١٣١ .

فقريش أولى بالخلافة لقوتها ولأنها المطاعة بين العرب ، وقد وضـح
أبو بكر قصده ذلك بقوله في نفس الخطاب الذي ألقاه في السقيفة « ونحن
مع ذلك أوسط العرب أنسابا » ووضح عمر هذا الاتجاه أيضا بقوله « لو
دخلت قريش جحر ضب لاتبعتها العرب » (١) .

على أن سلوك أبي بكر وعمر كان مثاليا فلم يدعا — بأخلاقهما —
فرصة لأية أفكار معادية أن تظهر أو تنتشر ، ثم جاء عثمان وجاءت سنوه
الأخيرة التي سبق أن أوضحناها عند الحديث عن خلافته ، وخلاصة ذلك
شيخوخته وعمله أشياء لم يسبق للخليفين قبله أن عملاها ، فبدأت
حركات الشيعة تظهر وتقوى ، ثم جاء عبد الله بن سبأ (٢) وهو يهودي

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ١ ص ٦ وانظر ما كتبه المؤلف عن
هذا الموضوع في « السياسة في الفكر الاسلامي » .
(٢) اتبعنا المراجع الشهيرة في حديثنا عن عبد الله بن سبأ ، وفي تصوير
الدور الذي قام به لتجميع الشيعة في جماعة ، بعد أن كانوا افرادا ، وفي
ادخال كثير من الانحرافات والضلالات على مذهبهم متحينا الفرص المختلفة
لذلك ، ووضحت في هذا الجزء الفرق بين الشيعة الحقيقيين وبين مدعى
التشيع هؤلاء الذين لم يكونوا في الحقيقة شيعة بل لم يكونوا أحيانا من
المسلمين ، وإنما ادعوا التشيع ليحاولوا ادخال الأكاذيب على المذهب الشيعي
لأغراض في أنفسهم .

وقد أطلعت حديثا على كتاب « عبد الله بن سبأ » للأستاذ مرتضى
العسكري عميد كلية أصول الدين بالعراق ، وفيه يذكر المؤلف أن عبد الله بن سبأ
اسطورة خلقها وضاع اسمه سيف بن عمر (توفي بعد السبعين والمائة
للهجرة) وذكر المؤلف للتدليل على ذلك مواقف متعددة كانت الرواية فيها عن
سيف تختلف عن الرواية عن سواه ، وأبرز المؤلف في روايات سيف صورا
من الانحراف .

ومع أن هذا الطريق في الاستدلال ليس حاسما فاننا نورد سؤالا مهما
هو : من الذي ادخل الانحرافات الى المذهب الشيعي الذي نعرف في أصوله
السليمة بمدا عما نراه فيه من انحرافات وترهات ؟ .
في اعتقادي أن قوى كثيرة دفعت نفسها الى صفوف آل البيت وشيعتهم
لينفثوا من سمومهم ، وفي كثير من الحالات كشف أهل البيت نواياهم فصدوهم ،
ولكن مع ذلك استطاع هؤلاء في حالات كثيرة وبطرق متعددة أن يلتقوا بين
صفوف الشيعة شحنة السم التي كانوا يحملونها ، وقد وضحت ذلك
في هذا الجزء .

ولهذا فاني أقرر هنا أن زعامة ضالة نذات هذا الشوط ، هي

ادعى دخول الاسلام لا حبا فيه ولكن ليطعنه من الداخل ، فذلك أيسر عليه
من أن يحارب الاسلام وهو يعلن عدم اعتناقه .

ووجد عبد الله بن سبأ نفوسا ثائرة على الخليفة ، تنتقد تصرفاته
وتحتج عليها ، ووجد كذلك آخرين يدافعون عن الخليفة ويبررون
تصرفاته ، فاتخذ عبد الله جانب المعارضة ، فذلك أدعى لوهم الاسلام
والمسلمين ، ويمكن القول أنه ينسب الى عبد الله بن سبأ عمالان هاملان في
تاريخ الشيعة هما :

١ — كَوْن عبد الله من هؤلاء الثائرين جماعة بعد أن كانوا أفرادا
منتشرين ، وربط هذه الجماعة بحب آل البيت والتشيع لهم ، رغبة في
اكتساب عطف الجماهير .

٢ — بدأ عبد الله يدخل على تفكير الشيعة ألوانا من الآراء
والفلسفات ، فلم تعد المسألة مسألة « الشجرة والثمرة » ذلك التفكير
البسيط الذي بدأت به الشيعة وقال به على ، إنما زاد ابن سبأ صورا من
التعقيدات والابهامات ، وخلق الروايات ووضع الأحاديث ، وبذر بذور
الأفكار الضالة التي نسبت للشيعة فيما بعد ، وتبعه في ذلك كثيرون ممن
عاصروه ومن جاءوا بعده وساروا على شاكلته .

وهناك عوامل ساعدت عبد الله بن سبأ فيما قصد اليه ، وهذه
العوامل هي :

أولا — أن عثمان ، بسبب بعض أعماله ، وموقفه من أقاربه ، كانت
تشيل كفته إذا قورن بالخليفتين قبله .

عبد الله بن سبأ أو شخص ما أطلق عليه هذا الاسم ، وإن مريدين كثيرين
أخذوا عنه هذا الضلال وساروا فيه أزمنة طويلة وأشواط واسعة ،
فالاسم لا يهمننا ، ولكن يهمننا أن شخصا قام بالدور الذي نسب الى عبد الله بن
سبأ ، وإن اشخاصا قاموا بالأدوار التي تنسب للسبئيين ولأعداء الشيعة
وأعداء الاسلام ممن أسميناهم (مدعى التشيع) .

ثانياً — الميل الطبيعي المنبعث عن الحافظة لتأييد أقارب الرسول ،
وحبهم والولاء لهم •

ثالثاً — ما عرف عن علي من بطولة نادرة في نشر الاسلام ، ومن علم
زاهر وخلق قويم •

رابعا — الاحساس العام بأن عليا مضطهد ومبعد عن مكانة الخلافة
التي هو بها جدير ، واذا كان هذا الاحساس لم يظهر قويا في عهد أبي بكر
وعمر لسن الشيخين وكفائتهما النادرة ، فقد ظهر عند اختيار عثمان
وتفضيله على علي ، وكان الشعور العام أن عليا سينالها بعد عمر ، وقد
عبر على نفسه عن شعوره بأنه مضطهد بقوله لعبد الرحمن بن عوف عقب
اعلانه اختيار عثمان « ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا ، فصبر
جميل والله المستعان على ما تصفون » (١) وجاء في رواية ابن عبد ربه قول
علي في حديث الثوري عقب وفاة عمر : فأخذ عبد الرحمن بن عوف
موثيقنا وعهودنا على أن يخلع نفسه وينظر لعامة المسلمين ، فبسط يده
الى عثمان فبايعه ، اللهم ان قلت اني لم أجد (أحزن) فقد كذبت (٢) •

خامسا — اتخذ على الكوفة عاصمة له ابان خلافته ، وأصبحت
الكوفة منذ ذلك التاريخ مركز التشيع • وبالكوفة تنتشر الأديان المتعددة
والمذاهب المختلفة من زرادشتية الى مانوية ومزدكية وغيرها •

سادسا — سادت في فارس قبل الاسلام نظرية الحق الالهى الأوربية
(Divine Right) التي تقضى أن الأسر المالكة تجرى فيها دماء
إلهية وهى بهذا صاحبة الحق في الحكم ، وعلى الناس أن يسمعوا لها
ويطيعوا ، واختيار الملوك من هذه الأسر واجب مقدس « فقد خصهم الله
بالسيادة وأيدهم بروح من عنده ، فهم ظلل الله في أرضه ، أقامهم على

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٩٧ •

(٢) العقد الفريد ج ٤ ص ٣٠٣ •

مصالح عباده ، وليس للناس قبلكم حقوق ، وللملوك على الناس السمع والطاعة » (١) ، وقد دخل الفرس الاسلام وهذه النظرية ثابتة في عقولهم فرأوا لذلك أن أسرة الرسول هي الأحق بالحكم وعلى الناس أن يسمعوها لها ويطيعوها .

سابعاً - اندس بين الساخطين والثائرين كثيرون ممن غلبهم الاسلام على أمرهم ، فأرادوا تهديمه والنيل منه ، فتظاهروا بالدخول فيه ليمكنهم ذلك من الثورة على أولى الأمر المسلمين باسم الاسلام ، ومن تهديم قواعد الدين باسم الأحاديث الكاذبة التي وضعوها ، وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن سبأ سالف الذكر وكثيرون قبله حذوا حذوه . ويقول المقرئى (٢) : كان الفرس في سعة من الملك وعلو اليد وكانوا يعدون العرب أقل الأمم خطراً ، فلما زالت دولة الفرس على يد العرب تعاضلهم لديهم الأمر وتضاعفت المصيبة ، وراموا الكيد للاسلام فرأوا أن الكيد له بالحيلة أنجح ، فأظهر قوم منهم الاسلام واستمالوا أهل التشيع باظهار محبة أهل البيت واستبشاع ظلم علي ، ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن طريق الهدى .

ويروى ابن عبد ربه عن الشعبي قوله : الرافضة (٣) يهود هذه الأمة ، يبغضون الاسلام كما يبغض اليهود النصرانية ، ولم يدخلوا الاسلام رغبة ولا رهبة من الله ، ولكن مقتناً لأهل الاسلام وبغياً عليهم ، وقد أحرقهم على بن أبي طالب رضى الله عنه بالنار ، ونفاهم الى البلدان ، ومحنة الرافضة محنة اليهود ، قالت اليهود : لا يكون الملك الا في آل داود ، وقالت الرافضة لا يكون الملك الا في آل علي بن أبي طالب ، وقالت

(١) احمد امين : فجر الاسلام ص ١١١ .

(٢) الخطط ١ : ٣٦٢ .

(٣) الرافضة من الاسماء التي تطلق على الشيعة ، قيل إن زيد بن علي هو الذي سماهم الرافضة لانهم رفضوا مؤازرته ، وقيل سماهم الرافضة لانهم رفضوا أبا بكر وعمر ، أما الذين فضلوا علياً على عثمان ولكنهم تولوا أبا بكر وعمر فيسمون الشيعة (التعقد الفريد ج ٤ ص ٤٠٤) .

اليهود : لا يكون جهاد في سبيل الله حتى يفرج المسيح المنتظر ، وقالت
الرافضة لا يكون جهاد في سبيل الله حتى يخرج المهدي ، واليهود تستحل
دم كل مسلم وكذلك الرافضة ، واليهود حرقوا التوراة وعجز الرافضة
عن تحريف القرآن فقالوا بالمعنى الباطن وحرفوا معانيه (١).

ويقول الأستاذ أحمد أمين (٢) : « والحق أن التشيع كان مأوى يلجأ
اليه كل من أراد هدم الاسلام ، لعداوة أو حقد ، ومن كان يريد ادخال
تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية ، وزرادشتية وهندية ، ومن كان يريد
استقلال بلاده والخروج على مملكة الاسلام : كل هؤلاء كانوا يتخذون
حب أهل البيت ستارا يضعون وراءه كل ما شاءت أهواؤهم ، فاليهودية
ظهرت في التشيع بالقول بالرجعة ، وقال الشيعة : ان النار محرمة على
الشيعة الا قليلا كما قال اليهود « لن تمسنا النار الا أياما معدودات »
والنصرانية ظهرت في التشيع في قول بعضهم : ان نسبة الامام الى الله
كنسبة المسيح اليه ، وقالوا أن اللاهوت اتحد بالناسوت في الامام ، وان
النبوة والرسالة لا تنقطع أبدا ، فمن اتحد به اللاهوت فهو نبي ، وتحت
التشيع ظهر القول بتناسخ الأرواح وتجسيم الله ، والحلول ، ونحو ذلك
من الأقوال التي كانت معروفة عند البراهمة والفلاسفة والمجوس من قبل
الاسلام ».

تلك هي العوامل التي نقلت التشيع من البساطة الى التعقيد ،
ودفعته أحيانا حتى بعيد عن الاسلام وعن التفكير السليم ، وتلك هي
العوامل التي ساعدت عبد الله بن سبأ ، فأضافت الى أفكار الشيعة أفكارا
جديدة بل أضافت الى فرق الشيعة فرقا جديدة ادعت أنها شيعة وليست
في الحقيقة من الشيعة بل ليست من الاسلام كما سيتضح فيما يلي :

الشيعة وهدعو التشيع :

نقصد بهذه الدراسة أن نضع حدودا واضحة بنقض الرضوخ او كله

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٤٠٩ — ٤١٠ .

(٢) نجر الاسلام ص ٢٧٦ — ٢٧٧ .

بين الحق والباطل ، ونقصد أن نحاول أن نقوم بدراسة يبدو أنها لم توجد حتى الآن عناية واضحة من الباحثين ، تلك هي أن نفرق بين الشيعة ومدعى التشيع ، وهذا الموضوع في اعتقادي بالغ الأهمية ، فقد دخل « الشيعة » جماعات كثيرة كما رأينا أننا ليسوا من الشيعة في شيء ، بل ليسوا من الاسلام في شيء ، وأخذوا اسم الشيعة فوضعوه ستارا ونسجوا خلفه ألوانا من الترهات والأباطيل يقصدون بذلك الكيد للاسلام والمسلمين ، وحمل الشيعة وزر كل هؤلاء ، وأصبح كل هؤلاء يعدون من الشيعة في جميع المراحل القديمة والحديثة التي بين أيدينا ، ونحن نحتاج الى غربال دقيق ليعزل الحسا عن القمح فلا يعود الحسا يسمى قمحا بعد ذلك ، نريد أن نقول عن هؤلاء الذين يطلق عليهم « الشيعة الغلاة » ومن شاكلهم أنهم ليسوا شيعة على الاطلاق . بل ليسوا مسلمين على الاطلاق ، فاذا استطعنا أن نفعل ذلك أخرجنا من الشيعة عشرات من الفرق ادعت أنها شيعة وليست شيعة ، ووفرنا على الشهر ستاني وابن حزم وأحمد أمين وغيرهم عشرات من الصفحات التي ملئوها بسيرة هؤلاء الفسقة على أنهم من الشيعة وليسوا في الحقيقة ينسبون للشيعة من قريب أو بعيد ، ويقول كارل بروكلمان (١) في ذلك : ان التشيع الذي بدأ أول ما بدأ حزبا سلاليا خالصا ، انضوى تحت لوائه أكثر الذين دخلوا الاسلام بقصد المناضلة ضد السيادة العربية ، وكان في كثير من الأحيان ستارا يستخدمه الانتهازيون الذين لا ذمة فيهم ولا ذمام . لتحقيق أهدافهم الأنانية الصرفة ، المناهضة للحكومة .

وقد اتضح مما سبق أن كثيرين من أعداء الاسلام ومعتنقي المذاهب والأديان المختلفة وبخاصة من اليهود (٢) دخلوا الشيعة وانتسبوا الى آل البيت بقصد الكيد للاسلام ، وأدخلوا على مذهب الشيعة كما أشرنا أننا

(١) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١٣٧ .

(٢) انظر كتاب « اليهودية » من سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف

ص ٢٩٣ — ٢٩٦ .

ألوانا من الضلالات والكاذيب ، وكان أهم ما عني به هؤلاء الدخلاء هو الكلام عن الأئمة فنقلوهم من صفة الى صفة ، ومن مكانة الى أخرى بعيدة المدى ، ويقول دوايت دونالدش (١) اننا لو درسنا حياة الأئمة دراسة دقيقة وافية لانكسفت لنا حقيقة هامة هي أن رجالا لا يزيدون عن مستوى الشخص الحادي بشيء ، قد رفعوا الى مصاف الخالدين ، لقد كانت حياتهم الحقيقية مجردة عن التمجيد والتقديس ، فأحاطتهم القصص المتأخرة بهالة من الجلال ، وجعلتهم قديسين وأنبياء وآلهة .

ولم يكن جعفر الصادق يهتم بشيء الا بالعلم والفقه والزهد ، ولم يعد نفسه في سلسلة الأئمة ، وعاش على الرضا في رحاب المأمون وولي عهده فترة ، وهكذا ، فلما جاء المتأخرون من مدعى التشيع نسبوا لهؤلاء الأئمة ما لم يعرفه هؤلاء في حياتهم .

والآن نختب أن نوضح موقف الشيعة الحقيقيين وموقف آل البيت من هؤلاء الدخلاء ، والباحث يجد أن الشيعة الحقيقيين وآل البيت وقفوا من مدعى التشيع موقفين متضادين :

الأول : موقف كفاح وجهاد ضد ضلالاتهم ، وقد اشترك في هذا الموقف كثير من أئمة الشيعة ورجالهم ، فكانوا يفندون آراءهم ويهجمون على معتقدات الضالة التي يثيرونها ، وكانوا يبعدونهم ويدعون للبعد عنهم ، وينزلون بهم أشد العقوبات أن كانت في أيديهم سلطة ، ولم يدخروا على العموم وسعا في الكفاح ضدهم الا قاموا به ، ويروى الشهرستاني وابن حزم مجموعة من هذه المواقف نقتطف منها الأمثلة التالية :

على بن أبي طالب وابن سبأ : قال ابن سبأ مرة لعلي بن أبي طالب أنت أنت ، يقصد أنت الاله . فنفاه على الى الدائن (٢) . وربما يقال ان عقوبة النفي لم تكن كافية ، ولكن يجاب على ذلك أن فسق ابن سبأ لم يكن

(١) عقيدة الشيعة ص ٥٨ .

(٢) الشهرستاني ص ١٥٥ .

قد وضح بعد ، وأن الجملة التي قالها « أنت أنت » لم تكن ظاهرة الخلالة على المقصود الضال الذي كانت هذه الجملة مبدأه . ولذلك نجد موقف على قويا بالغ القوة عندما اتضح ذلك المقصود فيما بعد ، فسيروى ابن خزم (١) أن قوما من أصحاب عبد الله بن سبأ أتوا عليا وقالوا له : أنت هو فقال لهم : ومن هو ؟ فقالوا : أنت الله . فثار على وحكم عليهم بالاعدام حرقا ، وأمر باشعال نار وألقاهم فيها .

محمد بن الحنفية وابنه أبو هاشم مع المختار وعبد الله الكندي : ادعى المختار أنه من رجال محمد بن الحنفية ومن دعائه ، ولما عرف محمد تزيهاته وضلالاته تبرأ منه وأعلن ذلك لأصحابه فكان ذلك سببا في انفضاض الناس من حول المختار ، وبالتالي سببا في هزيمته وقتله (٢) ، وبعد موت محمد بن الحنفية قام مقامه ابنه أبو هاشم ، وبعد وفاة أبي هاشم ادعى عبد الله بن عمرو بن حرب الكندي أنه القائم بالأمر بدله ولكنه انحرف ، فثار عليه أتباع أبي هاشم واعتزلوه (٣) .

الباقر وأبو منصور العجلي : أبو منصور العجلي هو أيضا من الخلالة ، قال بإمامة الباقر ، ثم أضفى عليه وعلى الأئمة صفات الألوهية . فتبرأ منه الباقر وطرده (٤) .

جعفر الصادق ومدعو التشيع : جعفر الصادق من أعظم المفكرين المسلمين قدرا وأعلام منزلة ، وهو ابن الباقر وأمه أم فروة بنت القاسم ابن محمد بن أبي بكر الصديق . « وهو علم غزير في الدين ، وأدب كامل في الحكمة ، وزهد بالغ في الدنيا ، وورع تام عن الشهوات » ما تعرض الإمامة قط ، ولا نازع أحدا في الخلافة قط . ومن غرق في

(١) البصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ١٨٦ .

(٢) الشهر ستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٣٢ ومقدمة ابن خلدون

ص ١٦٥ .

(٣) الملل والنحل ج ١ ص ١٣٥ .

(٤) المرجع السابق ص ١٥٨ .

بحر المعرفة لم يطمع في شط ، ومن تعالى إلى ذروة الحقيقة لم يخف من خط ، ومن أنس الله توحش عن الناس .. « (١) » .

ورجل كهذا لم تغره الدنيا ولم يسع لها ، ولم يقبل في الدين تمويها ولا يستتر ضللا ، ولذلك نجد الشهرستاني بعد أن عدد كثيرا من قروق الغلاة يقول « وتبرأ من هؤلاء كلهم جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه ، وطردهم ، ولعنهم ، فان القوم كلهم حيارى ضالون جاهلون بحال الأئمة تائهون » (٢) .

ومن هؤلاء الذين طردهم جعفر ولعنهم ، أبو الجارود (٣) وأبو الخطاب الذي يقول الشهرستاني (٤) « ان الصادق لما وقف على غلوه الباطل في حقه تبرأ منه ولعنه ، وأمر أصحابه بالبراءة منه وشدد القول في ذلك ، وبالغ في التبرؤ منه واللعن عليه » .

الشيعة وأحمد بن الكيال : ادعى أحمد بن الكيال أنه يدعو لواحد من أهل البيت بعد جعفر الصادق لعنه من الأئمة المستورين كما يقول الشهرستاني ، وكان له أتباع من الشيعة ، ولكن هؤلاء رأوا ابن الكيال مبتدعا ضالا ، فلما وقفوا على بدعته تبرءوا منه ولعنوه : وأمروا شيعتهم بمنازلته وترك مخالطته (٥) .

ذلك هو موقف أئمة الشيعة وجمهور أتباعهم من هؤلاء الكفرة الذين تستروا خلف اسم الشيعة : موقف حازم ، موقف طرد وإبعاد وعزل وقتل أحيانا ، فبأي حق نستمر في عدنا هؤلاء الكفرة المضلين فرقا من الشيعة ؟

الثاني : أما الموقف الثاني الذي وقفه الشيعة الحقيقيون وأئمتهم

-
- (١) الملل والنحل ج ١ ص ١٤٧ .
 (٢) الملل والنحل ج ١ ص ١٦٠ ومقدمة ابن خلدون ص ١٦٥ .
 (٣) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٤٣ .
 (٤) المرجع السابق ص ١٥٩ .
 (٥) المرجع السابق ص ١٦٠ - ١٦٦ .

من مدعى التشيع فهو كما قلنا آتفا مناقض للموقف الأول ، فقد انساق بعض آل البيت تحت تأثير ما الى أن يصبخوا في عداد الضالين الذين أفسدوا التشيع ، ومن هؤلاء عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ابن أبى طالب الذى قال بالتناسخ وادعى الألوهية والنبوة وأنه يعلم الغيب^(١) ومنهم الحسن الصَّبَّاح صاحب قلعة أَلَمَوْت الذى ظهر سنة ٤٨٣ هـ وهو من نسل على بن أبى طالب^(٢) وكان زعيم فريق الحشاشين السفاكين الذين استحلوا الحرمات وعبثوا في شئون الدين ، ولكن من الحق أن نقرر أن هؤلاء قليلون جدا ، وبعيدو الصلة من الأئمة المعروفين .

ولكن الخطر على الشيعة جاء من طريق آخر . ذلك هو أن بعض قادتهم أحيانا ، باسم السياسة ، ورغبة في الانتصار على أعدائهم ، تغاضوا عن هؤلاء الدخلاء حتى ينتفعوا بهم وبجهودهم في نضالهم لاسقاط العدو المشترك وهو دولة بنى أمية ، وذلك التغاضى هو الذى سبب نوعا من الاندماج بين الأفكار الضالة والأفكار الصحيحة ، وهو الذى أتاح الفرصة لهؤلاء الدخلاء ليكسبوا أنصارا من بين الشيعة الذين يعملون معهم بوجه خاص ، ومن بين المسلمين على وجه العموم ، وللأسف تلقى بعض هؤلاء الشيعة مبادئ مدعى التشيع على أنها مبادئ شيعية حقيقية ، ودانوا بها وتحمسوا لها ، وأورثوها من جاء بعدهم ، فلم يعرف هؤلاء المتأخرون تلك الأباطيل التى كشفها أسلافهم من قبل وتبرعوا منها .

وهناك طريق ثان طويل جاء منه أعظم الخطر على الشيعة ، ذلك هو طريق الوضع والافتراء ، فقد كان مدعو التشيع في غاية الذكاء والفتنة والمثابرة ، فوضعوا من الأحاديث والروايات ما يؤيدون به مذهبهم ، واستطاعوا بحسن سبك الأحاديث أن يدفعوا بعضها لتأخذ مكانها في كتب الحديث الشهيرة ، ولكنهم بالإضافة الى هذا دونوا كتب حديث خاصة

(١) الشهر ستانى : الملل والنحل ج ١ : ص ١٣٥ .

(٢) ضحى الاسلام ج ٣ ص ٢٢٥ وانظر دراسة شاملة عنه في الجزء الثامن من هذه الموسوعة .

بهم ، ووضعوا المبادئ التي تيسر عليهم عملهم ، فلم يقبلوا الا الأحاديث التي تروى عن الشيعة ، واكتفوا في السند بذكر سلسلة الرواة حتى أحد الأئمة ولم يهتموا بذكر السند بين الامام والرسول ، لأن عصمة الامام كافية لايضاح أن الحديث المروى عنه صحيح (١) .

وقد بدأ مدعو التشيع وضع الأحاديث والروايات منذ عهدهم الباكر ، فوضعوا عن الرسول أحاديث لا حصر لها منها حديث قصة غدير خم ، وأحاديث عصمة الأئمة وفضلهم ، ووضع ابن سبأ وأعوانه كتباً ثلاثة كانت سبب الفتنة التي قتل فيها عثمان وأشعلت نارا التهمت آلاف الأنفس من المسلمين ، وعن وضع هذه الكتب يقول ابن عبد ربه (٢) ان قواد الثورة التي هبت في وجه عثمان جاءوا الى علي بن أبي طالب فقالوا له : قم معنا الى هذا الرجل . قال : لا والله لا أقوم معكم . قالوا : فلم كتبت اليينا ؟ قال : والله ما كتبت اليكم كتاباً قط . فنظر القوم بعضهم الى بعض وخرج علي من المدينة . واستنكرت عائشة قتل عثمان فقال لها مروان هذا عملك ، كتبت للناس تأمرينهم بالخروج عليه . فقالت : والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت اليهم بسواد في بياض حتى جلست في مجلسي هذا ، فكانوا يرون أنه كتب على لسان علي وعلى لسان عائشة كما كتب على لسان عثمان الى عامل مصر ، فكان اختلاق هذه الكتب الثلاثة سبباً في الفتنة .

واستمر الوضع بعد ذلك على لسان الأئمة ، ولناخذ اماماً واحداً كنموذج للأئمة الآخرين ، ذلك هو جعفر الصادق الامام العالم الورع العظيم ، الامام الذي حارب مدعى التشيع وتبرأ منهم كما مر ، ولكنهم لم يتركوه ، بل جعلوه — عن طريق ما وضعوه باسمه — من أنصارهم وقادتهم ونسبوا اليه أشياء تعتبر أسساً من أسس مذهب مدعى التشيع الذين تبرأ منهم جعفر وطردهم ، ومن ذلك أنهم نسبوا اليه أنه القاتل :

(١) عقيدة الشيعة ص ٢٨٦ .

(٢) العقد الفريد ج ٤ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

— من أذاع لنا سرا ووصلنا بجبال من ذهب لم يزد منا الا بعدا .

— التقية دينى ودين آبائى وأجدادى ومن لا تقية له لا دين له .

— من أطاعنا فقد أطاع الله ، ومن عصانا فقد عصى الله ، فنحن أبواب الله وحجبه وأمنائه على خلقه ، وحفظة مكنون سره ، والآخذون عهده وميثاقه (١) (فى الأصل والآخذين وجعفر الصادق أبعد ما يكون عن مثل هذا الخطأ النحوى الواضح فقد كان من أساطين اللغة والفقه) .

وان الانسان ليستعرض ألوانا من الأقوال التى نسبت الى جعفر فيجدها متضاربة تضاربا واضحا ، ويحكم بلا شك بأن بعضها على الأقل موضوع مختلف ، ولكن الذين يدققون — وبخاصة من الجماهير — قليلون ، ويقول الشهر ستانى (٢) ، ان جعفر تبرا مما كان ينسبه اليه بعض الغلاة وبرىء منهم ولعنهم ، وبرىء من خصائص مذاهب الرافضة وحمقاتهم فى القول بالغيبة والرجعة . . . لكن الشيعة بعده افترقوا ، وانتحل كل واحد منهم مذهباً ، وأراد أن يروّجَه على أصحابه ، فنسبه الى جعفر وربطه به والسيد برىء من ذلك « فبينما يبرأ جعفر من القول بالغيبة والرجعة يقول الناووسية وهم من فرق الامامية : ان الصادق حى ولن يموت ، وسيعود للظهور ويعلو أمره . ويروون عنه أنه قال : لو رأيتم رأسى يدهده عليكم (يد حرج) من الجبل فلا تصدقوا ، فانى صاحبكم صاحب السيف (٣) .

ومن التناقض الظاهر الذى رواه عنه مدعو الشيعة أن الأنطحية (احدى فرق الامامية) قالت بانتقال الامامة من جعفر الى ابنه عبد الله الأنطح ، ورووا عنه فى ذلك أقوالا تؤيد هذا الزعم ، وقد أورد الشهرستانى

(١) عارف تامر : اربع رسائل اسماعيلية ص ٥٦ - ٥٧ .

(٢) الملل والنحل ج ١ ص ١٤٧ .

(٣) الملل والنحل ص ١٤٨ .

هذه الأقوال فلنرجع لها من يشاء (١) ، ولكن الإسماعيلية يرون أن الإسماعيل بعد جعفر هو ابنه اسماعيل ويروون عن جعفر كذلك ما يؤيد ذلك (٢) ، بيد أن جمهور الامامية يرون أن الامام بعد جعفر هو ابنه موسى الكاظم ويروون عن جعفر أيضا ما يؤيد ذلك (٣) ، ليت شعري أى الأقوال قالها جعفر وأى الأئمة عين بعده ان كان قد عين ؟

ومر الزمن وطال عمر الاضطهادات التى نزلت بالشيعه ، فقد عانى الشيعة من العباسيين أكثر مما عانوا من الأمويين ، وفى خلال هذه الاضطهادات كانت الفرصة سانحة لأفكار مدعى التشيع لتنتساب وتمتج بأفكار الشيعة ، وبعد بضعة أجيال كان من العسير أن نميز بين الموضوع من الأحاديث والروايات وبين الصحيح منها ، وفجأة حدث حادث ذو بال ثبت إلى حد كبير مبادئ مدعى التشيع وأتاح الفرصة لضم الأحاديث والروايات الموضوعة وتدوين كتاب أو كتب منها ، ذلك الحادث هو استبداد البويهيين بالسلطة (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ) فقد كانوا أول أسرة مالكة مماثلة للشيعة ، وقد رأى البويهيون كيف أن الأمويين حينما كانت السلطة فى أيديهم أجبروا بعض المحدثين على رواية أحاديث موضوعة كما يقول الزهرى (٤) ، وكيف أنهم وضعوا الأحاديث فى فضل بيت المقدس وفضل عثمان ، ومنعوا رواية الأحاديث التى بها مدح للعلويين (٥) . ورأى البويهيون كيف أن العباسيين جهدوا لتوجيه الأحاديث والروايات للحط من قدر الأمويين واعلاء شأن آل البيت . فما يمنع اذا البويهيون أن يستعملوا نفس السلاح لاعلاء شأن التشيع الذى يدينون به ؟

ووجد البويهيون من علماء الشيعة من يحقق لهم هذه الرغبة وفى قمة هؤلاء محمد بن يعقوب الكليني (٣٢٩ هـ) ومحمد بن على بن الحسين

-
- (١) المرجع السابق .
 - (٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٤٩ .
 - (٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .
 - (٤) المرجع السابق .
 - (٥) المرجع السابق ونفس الصفحة .

ابن بابويه المعروف بالقمي (٣٨١ هـ) ومحمد بن الحسن الطوسي (٤٤٥ هـ) وغيرهم .

وكتاب الكافي للكليني من أعظم الكتب التي يعتمد عليها الشيعة ، وهو عندهم كالبخاري عند أهل السنة ، وهو ينقسم الى قسمين يعرف الأول بأصول الكافي ويعرف الثاني بفروع الكافي وبه ١٦٠٠٠ حديث ،

أما القمي فكان يقول عن نفسه انه ولد بدعاء صاحب الزمان (١) ، فان أباه لم يرزق بولد حتى تقدمت سنه ، ثم طلب ذلك الأب من ثالث وكلاء الامام الغائب أن يسأل صاحب الزمان أن يدعو الله أن يرزقه ولدا ، ففعل النائب ودعا صاحب الزمان واستجاب الله !!!

وعاش الطوسي بعد زوال ملك البويهين وأحرقت كتبه ورسائله أو أكثرها أمامه .

ولنعد الى الكليني لنقتبس من كتابه الكافي بعض ما ورد فيه مما نعتبره من أقوال مدعى التشيع وليس من التشيع في شيء :

١ - روى الكليني عن ضرورة الامام أن الباقر قال : انما يعبد الله من عرف الله ، ومعرفة الله تصديق الله عز وجل وتصديق رسوله وموالاة على والائتمام به وبأئمة الهدى عليهم السلام ، والبراءة الى الله عز وجل من عدوهم . وإن من أصبح بلا إمام أصبح ضالاً تائها وإن مات على هذه الحال مات ميتة كفر (٢) .

٢ - وعن الامام والوحي يروى الكليني عن علي الرضا أيضاً أن الامام يوحى اليه ويسمع الكلام ولكنه لا يرى من يكلمه (٣) .

(١) صاحب الزمان هو لقب الامام عند الاسماعيلية ، ويفهم من هذا اللقب أن الامام مدير الكون وصاحب السيطرة عليه .

(٢) الكافي ص ٨٤ ، ٨٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٨٢ .

٣ — وعن مكانة الأئمة يروى الكليني عن الرضا أيضا قوله : ان الإمامة في منزلة النبوة ، والامام مطهر من الذنوب مبرأ من العيوب وعن الباقر أن الأئمة إذا شاءوا أن يعلموا شيئا أعلمهم الله إياه ، وهم يعلمون متى يموتون ، ولا يموتون الا باختيارهم ، وأنه لا يخفى عليهم شيء (١) .

٤ — ومن التفاسير المروية عن الأئمة ما رواه الكليني أن الباقر فسر قوله تعالى « من جاء بالحسنة فله خير منها وهم فزح يومئذ آمنون ، ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار » (٢) أن الحسنه معرفة الامام وحب أهل البيت ، والسيئة انكار الامام وبغض آل البيت (٣) . وان جعفر الصادق قال : إن أعمال الناس تعرض على الأئمة بدليل قوله تعالى « فسيري الله عملكم ورسوله والمؤمنون » فالقصد بالمؤمنين الأئمة (٤) .

٥ — يروى الكليني أن جعفر الصادق قال ان عند الأئمة مصحف فاطمة وفيه مثل قرآننا ثلاث مرات ، وليس فيه من قرآننا حرف واحد (٥) .

٦ — ويروى الكليني عن الرضا قوله « الناس عبيد لنا في الطاعة موال لنا في الدين » (٦) .

فاذا تركنا الكليني وذهبنا الى الشهر ستاني وجدنا العجب العجيب ، وجدنا الشيعة يكفّرون الصحابة جميعا لخدلانهم عليا واختيارهم غيره . ويكفرون المؤمنين جميعا أو يحكمون بفسقهم لنفس السبب ، أما تكفير عائشة وعثمان وطلحة والزبير ومعاوية .. فأيسر ما قالوا به ،

(١) المرجع السابق ص ٩٦ ، ١٢٦ .

(٢) سورة النمل الآية ٩٠ .

(٣) الكافي ص ٨٧ .

(٤) المرجع السابق ص ٩٩ .

(٥) المرجع السابق ص ١١٥ .

(٦) المرجع السابق ص ٨٨ .

والعجب أن بعضهم يطعن عليا نفسه لأنه ترك طلب حقه وكان عليه أن يخرج ويدافع عن حقه ، ولم يَعْذُرْهُ في القعود (١) •

وبعضهم يفضل عليا على محمد ، وبعضهم يجعل عليا الها وهو الذي أرسل محمدا ، بل ان بعضهم آله جعفر الصادق وجلس لعبادته بكناسة الكوفة ، وزاد بعضهم فجعل الأئمة كلهم آلهة يظهر الله بصورتهم وينطق بلسانهم ويأخذ بأيديهم ويطلقون عليهم آلهة لذلك (٢) وأغلب هذه الآراء تروى على أنها من أقوال الأئمة ومن تعليمهم ، ولكن الشهرستاني لم يدع رواية ضالة الا انتقدها وانتقد نسبتها الى من تنسب اليه •

وننتقل خطوة أخرى الى مرجع شيعى هام اشتهر بذكر معجزات الأئمة ، وذلك هو كتاب « خلاصة الأخبار » من تأليف السيد محمد مهدي ، وقد نسب هذا الكتاب الى الأئمة معجزات أكثر مما نسب الى الرسل ، معجزات له يعرفها عصر الأئمة قط ، ولكن الوضاع خلقوها ، والرواة نقلوها ، ثم وجدت المؤلفين الذين يدونونها على أنها حقائق مسلم بها ، وفيما يلي بعض هذه المعجزات :

سأل رجل محمدا الباقر يوما : هل ورث النبي ﷺ علم جميع الأنبياء فأجاب الباقر : نعم • فسأل الرجل : هل تقدر أن تحيي الموتى وتبريء الأعمى ؟ فقال : نعم باذن الله ، ومسح بيده على عين رجل كان أعمى فأبصر •

ورأى موسى الكاظم (وفي رواية أخرى جعفر الصادق) امرأة وابنتها تبكيان ، فقال للمرأة : ما يبكيك أنت وابنتك ! فأجابت : كنت وصبيتي نعيش من هذه البقرة وقد ماتت فتحيرت في أمرى ، فوضع أصبعه الشريف على البقرة فقامت بسرعة سوية •

(١) انظر الشهرستاني ص ١٤٦ ، ١٤٦ ، ١٥٦ •

(٢) الملل والنحل ج ١ ص ١٥٦ ، ١٦٠ ، ١٦٨ •

ويذكرون أن يحيى بن أكتم القاضي سأل محمد التقى مسائل كثيرة قبل أن يعترف بإمامته ، وفي ختام هذه المسائل قال له : من الامام ؟ فأجاب محمد التقى : أنا . قال يحيى : وما برهانك ؟ فتكلمت عصا محمد التقى وقالت : أن صاحبي هذا هو امام العصر وحجة الله (١) .

هذه نماذج مما كتبه كتاب الشيعة كالكليني ومحمد المهدي وغيرهما ، أو مما رواه رواة الشيعة ونقله عنهم كثير من الكتاب والمؤلفين ، ناقدين أو غير ناقدين ، واعتقادي الجازم أن هذه الروايات كلها محض اختلاق وتلفيق ، فما كان للباقر في علمه وفضله وقرب عهده بالصدر الاسلامي أن يسمح لأتباعه أن يكفروا الناس ويكفروا أبا بكر مع أن زوجة الباقر هي حفيدة أبي بكر ، ولا كان جعفر الصادق يقبل مثل ذلك في جده ، وأى عقل يستطيع أن يصدق ما نسب للصادق عن أسطورة قرآن فاطمية ؟ وكيف استطاع الرضا وهو معاصر للمأمون أن يقول ما نسب اليه الكليني ، وثو قد قال ذلك ما غفره له المأمون ، ذلك الخليفة العالم الذي لم يستطيع أن يغفر لابن حنبل عدم موافقته على القول بخلق القرآن ويستطيع كل انسان أن يصرخ في وجه الكليني بأن الناس ليسوا عبيدا لآل البيت ، وأن المؤمنين إخوة ، ولا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى أما خرافة التأليه والتكفير والمعجزات فأوهى من أن نرد عليها وأن ننكر نسبتها الى الأئمة الافاضل .

بقى شيء يوضح لنا كيف تتسرب أفكار قوم وتمترج بأفكار الآخرين ، ذلك هو أن أفكار مدعى التشيع لم تتسرب فقط الى أفكار الشيعة بل تسربت أحيانا الى أفكار أهل السنة وامتزجت بها ، كعصمة الأنبياء التي لم يكن يعرفها الصدر الأول للإسلام في غير التبليغ ، قلما نسب مدعو التشيع العصمة المطلقة للأئمة ، واضطروا لذلك أن ينسبوها للأنبياء . تسربت هذه الفكرة الى أهل السنة ووجدت منهم من يعتنقها

(١) خلاصة الاخبار : الفصلان ٢٥ و ٣٧ .

ويدافع عنها (١) .

وهناك طريق ثالث (٢) يحتمل أن يكون من الطرق التي سببت التزديد في مذهب الشيعة ، وأتاحت الفرصة لمدعى التشيع أن يدخلوا أفكارهم ويمزجوها بأفكار الشيعة ، وهذا الطريق هو نشر الكتب ، فإذا فرض أننا أحسننا الظن بالكلينى وغيره ، وقلنا أنه لا يحتمل أن يصدر عنهم مثل هذه الخرافات والضلالات ، فإن يدا أخرى يحتمل أن تكون قد عبثت بمؤلفات هؤلاء الكتّاب فأضافت عليها قبل نشرها ما ليس منها ، وليست هذه اليد الا يد مدعى التشيع الذين لم يخل منهم مجال النشر في زمن من الأزمنة ، وربما لا يزال بعضهم يكافح حتى الآن .

وطريق رابع طرقه مدعى التشيع لينشروا أفكارهم عن طريق بعض الباحثين ، ذلك هو طريق الرشوة لهم حتى يقولوا غير ما يعتقدون . حكى الشعبى قال : لو أردت أن يعطونى رقابهم عبيدا وأن يملئوا بيتى ذهبا على أن أكذب على على كذبة واحدة لقبولوا ، ولكنى والله لا أكذب أبدا (٣) . وكلام الشعبى يدل على محاولاتهم هذا الطريق ، وإذا كان قد رفض بإباء فقد يكون هناك من استجاب لهم ، وعلى كل حال فإنه إذا تأبى العلماء على مدعى التشيع ولم يخضعوا لأغراء المال والجاه ، فإن مدعى التشيع يسلكون طريقا آخر ينسبون به ما يشاءون من الأفكار إلى مَنْ يشاءون من العلماء ، فقد كانوا يسمون بعض أتباعهم بأسماء مشاهير العلماء كالسدى وابن قتبية ، ثم ينقلون عن هؤلاء ، موهمين الناس أنهم ينقلون عن السدى وابن قتبية المعروفين (٤) .

وعندنا نموذج للوضع والتحريف يبدو من مقارنة كتاب الكافى سالف

(١) عقيدة الشيعة ص ٣٢٩ — ٣٣٠ .

(٢) الطريق الأول هو تعاون بعض آل البيت مع مدعى التشيع أحيانا باسم السياسة ، والطريق الثانى هو وضع الأحاديث والآراء ونسبتها للرسول والائمة وقد مر الحديث عن هذين الطريقين .

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٢ ص ٤٠٩ .

(٤) أحمد أمين : فجر الاسلام ص ٢٧٥ .

الذكر بكتاب المجموع الذي هو عند الزيدية كالكافي عند الإمامية ، فان ما روى في المجموع عن زيد عن أبيه على زين العابدين عن الحسين عن على بن أبي طالب يخالف ما روى في الكافي عن الباقر عن أبيه على زين العابدين عن الحسين عن على بن أبي طالب ، ويعمل الزيدية بأن الرواة عن زيد هم عدول الزيدية لا يطعن فيهم ، والرواة عن الباقر لم تثبت عدالتهم (١) ، فالمرؤى عنهم هم لم يتغيروا (على زين العابدين فالجسين فعلى بن أبي طالب) ولكن المرؤى هنا غير المرؤى هناك في موضوع واحد .

ومقارنة أخرى نثبتها هنا هي مقارنة الكافي سالف الذكر بالمراجع التي دونها الدعاة الفاطميون وسيأتى ذكرها ، وهذه المقارنة تظهر لنا المراجع الفاطمية أكثر اعتدالا مع أنها صادرة عن الاسماعيلية المعروفين بأنهم أكثر غلوا من الاثنى عشرية ، وسبب ذلك فيما أعتقد هو كثرة الوضع في الكافي وعدم الوضع في المراجع الفاطمية التي حفظت القاهرة مخطوطاتها دون تحريف يذكر .

بقى لنا موقف قصير نعرض فيه لرأى أستاذنا المرحوم الأستاذ أحمد أمين في ذلك الموضوع ، فقد قام رحمه الله بدراسة مذهب الشيعة ، واعتمد في دراسته على الكليني سالف الذكر ، وقدم لهذه الدراسة بأنها معتمدة على كتبهم فذلك أنصف لهم (٢) . وكان من نتيجة اعتماد الأستاذ أحمد أمين على كتاب الكافي وبقينه أنه نتاج شيعى أن كانت دراسته لمذهب الشيعة مملوءة بالهجوم عليهم ، ونقطة لهذه الأفكار دون هوادة بل بسخط وقسوة (٣) واعتقادي أن كتاب الكافي لا يمثل مذهب الشيعة بقدر ما يمثل أفكار مدعى التشيع والوضاع والضلالة ، وأنه

(١) كتاب المجموع ص ١١ وانظر ضحى الاسلام ج ٣ ص ٢٧٦ .

(٢) ضحى الاسلام ج ٣ ص ٢١٣ .

(٣) اقرا نجر الاسلام ص ٢٦٦ - ٢٧٦ وضحى الاسلام ج ٣ ص

لا يصلح أساسا لدراسة مذهب الشيعة الحقيقي ، ويرم نسلّم بهذا يكون من اللازم أن تسير دراسة الشيعة على غير النحو الذى سلكه الأستاذ أحمد أمين .

والخلاصة التى نؤمن بها أن الكافى ليس حجة على الشيعة ، وأن من الضرورى أن نحذف من الشيعة تلك الفرق التى تكونت لتفسد الاسلام وتمحو حضارته وأفكاره ، فاذا فعلنا ذلك بقيت عندنا جماعات الشيعة الأصيلة . تلك الجماعات الجديرة بالدراسة والتى تتفق مع غير الشيعة من المسلمين فى كثير من الأسس .

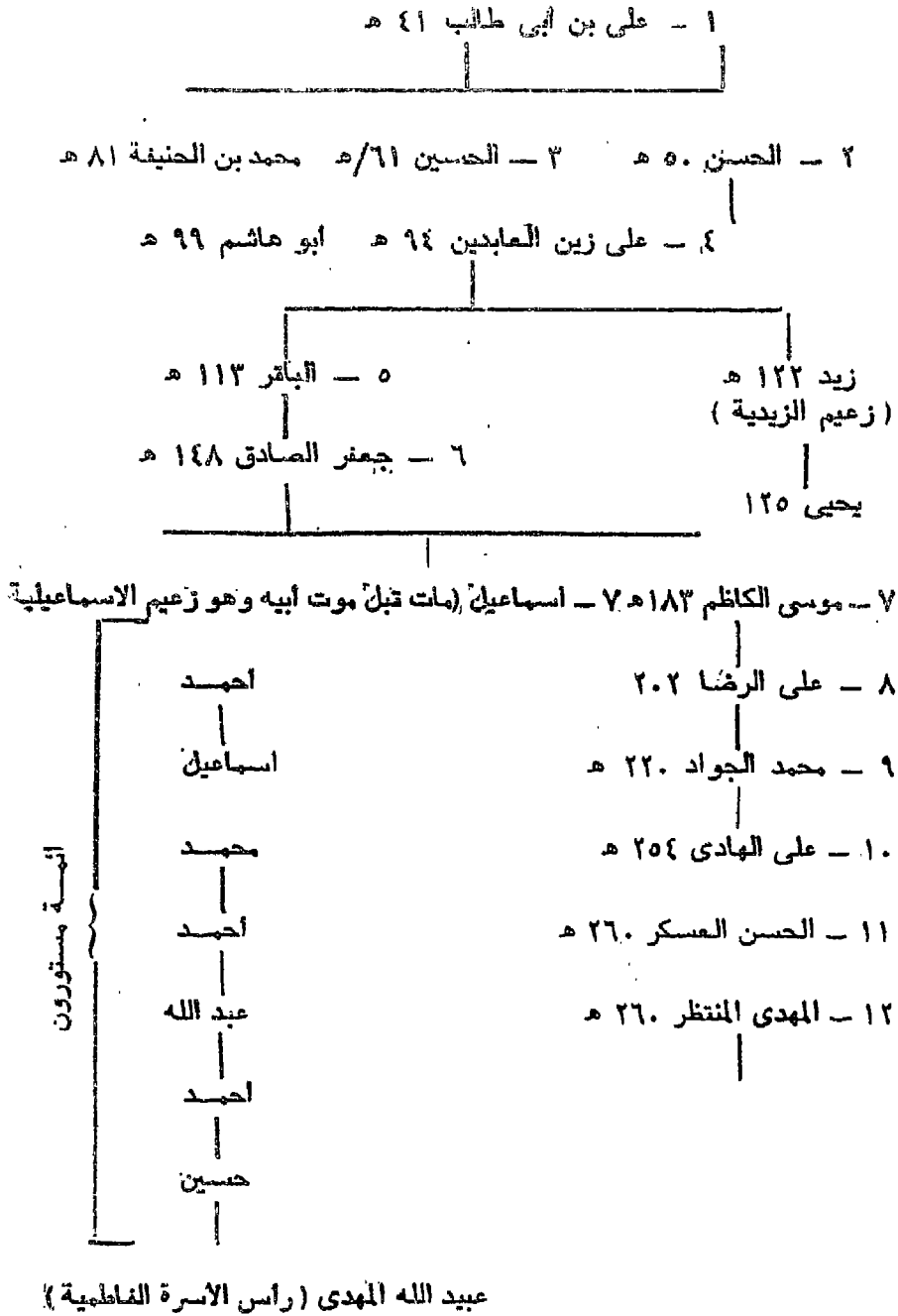
ولسنا ندعى سلامة الفرق الشيعية الحقيقية من آثار انسابت لهم من أفكار مدعى الشيعة ، بل اننا نعترف اعترافا تاما بأن كل فرق الشيعة أصابها شيء قليل أو كثير من أفكار مدعى التشيع ، ولكننا نريد أن نفرق بين التطور الذى حصل قطعاً فى التفكير الشيعى وبين الآراء الضالة التى نصبت انصباباً من تفكير آخر ، أو قل نريد أن نفرق بين جماعة شيعية تطور مذهبها لسبب أو لآخر وبين جماعة ليست شيعية على الإطلاق ، ولكنها أسدلت على نفسها هذا اللقب لاستغلاله ، للعبث بالاسلام من وراء ستار ، ويجب أن نحذف من الشيعة هذه الجماعات فهى ليست من الشيعة فى شيء ، بل ليست من الاسلام فى شيء كما قلنا من قبل . وكيف يعد من الاسلام ذلك الفريق من الكيسانية الذين قالوا ان الدين طاعة رجل ، وعندما يصل المسلم الى درجة الطاعة تسقط عنه الصلاة والصوم والزكاة والحج ، والذين أنكروا القيامة وقالوا بالتناسخ والحلول (١) ، وكيف نعد الحارثية مسلمين وقد أباحوا المحرمات وعاشوا دون أداء التكليف الشرعية (٢) وكيف نعد من المسلمين هؤلاء الذين سبق أن تكلمنا عنهم ممن يكفرون المسلمين جميعاً أو يألهون علياً وأولاده الى غير ذلك من ألوان الخطل والتخريف ، فالذى أثبتته بقوة هو أن من يسمعون بالشيعة

(١) الملل والنحل ج ١ ص ١٢١ - ١٣٢ .

(٢) المرجع السابق بعد ص ١٣٥ .

الحالة ليسوا شيعة على الإطلاق ، وليسوا مستحقين لهذا الاسم ولا جديرين به بل ليسوا مسلمين أيضا فلنكشف عنهم هذا الغطاء الذى استتروا خلفه زمنا طويلا وفى حمايته عبثوا بالتفكير الاسلامى وبثوا سمومهم ، واذا فعلنا ذلك فاننا — كما قلنا من قبل — نحذف من الشيعة عشرات الفرق تعد ظلما من الشيعة وهم ليسوا شيعة بل هم فى الحقيقة أعداء لآل البيت وأعداء الاسلام .

بقى أن نقرر حقيقة رائعة هى أن المسلمين فى مختلف النواحي أصدروا عمليا على مر التاريخ ذلك الحكم الذى حكمناه فانفضوا من حول هذه الفرق التى ادعت التشيع عندما ظهرت ضلالاتها ، حتى ماتت هذه الفرق ولم يبق لها أتباع قط ، أو لم يبق لها من الأتباع الا النادر الذى لا يؤبه له ، أما الفرق الشيعية التى استطاعت أن تعيش حتى العهد الحاضر فثلاثة : الزيدية والاثنى عشرية والاسماعيلية ، وفيما يلى تسلسل هذه الفرق من على بن أبى طالب ، وسنتكلم عنها فيما بعد .



فرق الشيعة وتطور اعتقاداتها :

قلنا أن فرق الشيعة التي استطاعت أن تعيش حتى العهد الحاضر هي الزيدية والإثنا عشرية والاسماعيلية ، وقد تطورت اعتقادات هذه الفرق بسبب اتصالاتها بمدعى التشيع ، وكانت في تأثرها مختلفا بعضها عن البعض ، فالزيدية أقلها تأثرا ، ويحيى بعدها الإثنا عشرية فهي بين بين ، أما الاسماعيلية فأكثرها تأثرا ، وبالتالي أكثرها بعدا عن الشيعة الحقيقية وسيأتى إيضاح ذلك . والإثنا عشرية والاسماعيلية فرعان لفرقة الامامية ، لاهتمامهم بمشكلة الامامة كما سيأتى ، ومن المناسب أن نذكر هنا أن الشيعة يستعملون كلمة امام وامامة فهما أوسع من كلمتى خليفة وخلافة ، والامام عندهم في يده أمور الدين ، وكان يلزم أن تستند اليه السلطة الزمنية في المملكة الاسلامية ، لتجمع له بذلك أمور الدين والدنيا ، ولكن أمور الدنيا غصبت من الأئمة وشغلها أولئك الذين يسمون خلفاء ، وبقيت أمور الدين في يد الامام لم ينازعه فيها أحد ، كما بقى له لقب امام دون أن يطلق على سواه ، فأصبح الأئمة بذلك هداة روجانيين وشفعاء (١) .

نقاط الاتفاق بين فرق الشيعة :

ومع اختلاف فرق الشيعة في المعتقدات فانهم جميعا يتفقون على معتقد هام ، هو أفضلية عليّ على جميع الخلق ، ويقول في ذلك ابن أبى الحديد (٢) : « يقول أصحابنا - وقد سلكوا طريقة مقتصدة - ان عليا أفضل الخلق في الآخرة ، وأعلاهم منزلة في الجنة ، وأفضل الخلق في الدنيا ، وأكثرهم خصائص ومزايا ومناقب والحاصل أنا لم نجعل بينه وبين النبي ﷺ إلا رتبة النبوة ، وأعطيناه كل ما عدا ذلك من الفضل المشترك بينه وبينه » .

وهذا المبدأ المتفق عليه ذكرناه قبل أن نذكر الفرق لأنه مشترك

(١) دوايت ، دونالدس : عقيدة الشيعة ص ١١٨ .

(٢) شرح صحيح البلاغة ج ٤ ص ٥٢٠ .

بينها جميعا ، وهو بلا شك أثر من الآثار التي تركها مدعو التشيع في الشيعة الحقيقية ، فما المقياس الذي وزن به على حتى أصبح أفضل الخلق في الدنيا والآخرة ؟ حتى لم يستثن هذا القول محمدا الا في العبارة الأخيرة ، ومما يدل على تأثر الشيعة بمدعى التشيع في هذا المعتقد قول ابن أبي الحديد في عبارته السابقة « وقد سلكوا طريقة مقتصدة » ماذا بعد ذلك ؟ وهل هناك مقام أرفع من هذا المقام ؟ نعم هناك قول العلويين الذين أشرنا اليهم من قبل والذين يفضلون عليا على محمد ، وهناك غيرهم ممن يؤلهون عليا وأبناءه ، فاذا اكتفى أصحاب ابن أبي الحديد بالقول بأفضلية عليّ على جميع البشر في الدنيا والآخرة فهم في نظره مقتصدون معتدلون •

وهناك معتقد آخر يتفق عليه الامامية أي الاثنا عشرية والاسماعيلية وذلك هو أن الامامة (وتشمل هنا الخلافة أيضا) خاصة بعلي ثم بأولاده من فاطمة أي بالحسن فالحسين فأولاد الثاني (١) ، ولا يجوز أن تكون الامامة (التي تشمل الخلافة كما سبق القول) لغير هؤلاء ، فاذا صارت أمور الناس الدنيوية (الخلافة) لغير هؤلاء فهو سلب وغصب لحق ثابت من علي وأولاده ، ورضاء الأئمة بذلك انما هو من باب التقية وسيأتى شرحها •

ولا يوافق الزيدية على هذا المعتقد بل يرون — كما سيأتى تفصيله — جواز امامة المفضول مع وجود الأفضل ، فمع أن عليا وأولاده أفضل الخلق الا أن خلافة غيرهم جائزة •

وبناء على قول الامامية السابقة ليس لأولاد علي من غير فاطمة حق في الامامة ، ومعلوم أن عليا لم يتزوج غير فاطمة في حياتها ، فلما مات تزوج ، ومن زوجاته آنذاك امرأة من بنى حنيفة أنجبت ولدا سمى محمدا

(١) أما أولاد الحسن فيرى أكثر أولاد الحسين انهم لاحق لهم في الامامة لأن تنازل أبيهم لمعاوية عن الخلافة أضاع حقهم •

وبناء على الاعتقاد سالف الذكر ليس لمحمد هذا حق في الامامة ، ورغبة من هؤلاء في ابعاد محمد عن حوزة الامامة أطلقوا عليه محمد بن الحنفية ، نسبة لأمه حتى كأنهم لا يريدون نسبته الى علي ، ولكن كان لمحمد هذا اتباع وشيعة بعد وفاة الحسين وبخاصة أن علي بن الحسين الذي شهد قتل أبيه وقتل ذويه في كربلاء استكان بعد هذه الحادثة الشنيعة ولم يجرأ ساكناً ضد بني أمية ، مما حدا ببعض الشيعة أن يتجهوا الى محمد ابن الحنفية وفضلوه على علي بن الحسين ، وبعد موت محمد بن الحنفية (٨١ هـ) انتقل أمره الى ابنه أبي هاشم الذي عندما أحس بالموت وهو في طريقه من دمشق الى المدينة عرج على الحميمة حيث يقيم علي بن عبد الله بن العباس فأعلمه أنه ميت وأوصى اليه اذ لم يكن له عقب وكان في صحبته جماعة من الشيعة فسلكهم اليه وأوصاه بهم ثم مات (١) ، وبهذا يعتقد العباسيون أنهم ورثوا علي بن أبي طالب بالاضافة الى حقهم بوصفهم ورثة للعباس بن عبد المطلب (٢) .

أما الزيدية والاثنى عشرية والاسماعيلية فيخرون امامة محمد هذا ، ومن ثم لا يعترفون بالفرق التي تفرعت عنه كالكيسانية (نسبة الى كيسان مولى محمد بن الحنفية وقيل مولى علي بن أبي طالب) والهاشمية والبيانبة والزمامية (٣) أما انكار الاثنى عشرية والاسماعيلية فواضح لأن محمدا ليس من أبناء فاطمة ، وأما انكار الزيدية لامامة محمد فلاته لم يخرج على خلفاء العصر مطالباً بامامته اذ أن ذلك شرط من شروط الامامة عند الزيدية كما سيأتى .

نقاط الخلاف بين فرق الشيعة :

وفيما عدا هذين المعتندين تختلف هذه الفرق الثلاثة بعضها عن بعض في الأسس والمعتقدات ، ومن ثم لزم أن نتكلم عن كل منها على حدة :

-
- (١) المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٢٠١ .
 - (٢) موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية للمؤلف ج ٢ ص ٨ .
 - (٣) انظر هذا في الفقه والنحل للشهرستاني ج ١ ص ١٢١ - ١٢٧ .

الزيدية :

الزيدية ينسبون الى زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي رضى الله عنهم ، وقد كان زيد هذا يضع للامامة شروطا هي أن يكون الإمام فاطميا عالما زاهدا شجاعا وأن يخرج مطالباً للامامة (١) فان لم يخرج مطالباً للامامة فليس اماما وجاز تعيين غيره ، وعلى هذا أجاز زيد خلافة أبى بكر وعمر مع وجود علي لأن عليا لم يخرج مدافعا عن حقه مطالباً به ، وبخاصة أنه يرى أن امامة المفضول جائزة مع وجود الأفضل . ولزيد في هذا الموضوع كلام دقيق أورده الشهر ستانى يجدر بنا أن نقترسه هنا ، قال :

كان علي بن أبى طالب رضى الله عنه أفضل الصحابة ، الا أن الخلافة فوضت الى أبى بكر لمصلحة رأوها ، وفائدة دينية راعوها (٢) . فان عهد الحروب التى مرت في أيام النبوة كان قريبا ، وسيف أمير المؤمنين عليّ من دماء المشركين من قريش وغيرهم لم يجف بعد ، والضغائن في صدور القوم من طلب الثأر كما هي ، فما كانت القلوب تميل اليه كل الميل ، ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد ، فكانت المصلحة أن يكون القائم بهذا الشأن من عرفوه باللين والتؤدة والتقدم بالسن والسبق في الاسلام والقرب من رسول الله ﷺ (٣) .

وتبعا للشروط التى اشترطها زيد للامام ، أراد هو أن يكون عالما فبدأ يتلقى العلم عن أشياخ عصره ، لأنه لم يؤمن بما أشاعه مدعو التشيع من أن الامام يوحى اليه ويعلمه الله ، ولذلك تتلمذ زيد على واصل بن عطاء فأخذ عنه كثيرا من مبادئ المعتزلة ، وبدأ زيد يجمع حوله الأنصار ويبث الدعاة ، وأخطأ زيد كما أخطأ أجداده من قبل فاتخذ من الكوفة أنصارا ولم يسمع لأهله الذين حذروه من الكوفة وأهلها ، وأعلن

(١) الشهر ستانى : الملل والنحل ج ١ ص ١٣٧ — ١٣٨ .

(٢) في الأصل وقاعدة دينية . ولعل « فائدة » احسن .

(٣) الملل والنحل ج ١ : ص ١٣٨ .

بها ثورته ، وبعد فترة انفض من حوله أهل الكوفة كالعادة وقتل زيد في معركة ضد يوسف بن عمر وإلى همام على العراق سنة ١٢٢ هـ .

وهرب يحيى بن زيد بعد هذه المعركة ، واتجه إلى خراسان فبلغ ، وهناك أعد عدته وأعلن الثورة ولكنه لاقى مصير أبيه فقتل وحرق سنة ١٢٥ هـ أيام خلافة الوليد بن يزيد .

وبعد يحيى لم ينتظم أمر الزيدية كما يقول الشهر ستانى (١) حتى ظهر ناصر الأطروش في بلاد الديلم بطبرستان وكان أهلها لم يدخلوا الاسلام بعد ، فدعاهم ناصر لدخول الاسلام على مذهب الزيدية فاستجابوا وانتشر مذهب الزيدية هناك ، ولا يزال لهذا المذهب أتباع كثيرون حتى الآن في اليمن .

والزيدية أقرب المذاهب إلى أهل السنة وأقربهم إلى الشيعة الحقيقتين لأنهم أجازوا خلافة أبى بكر وعمر ولم يطعنوا فيهما ، ولأنهم لم يدعوا ما ادعاه الامامية من أن الامامة خاصة لأولاد على من فاطمة ، بل أجازوا كونها في سواهم اذا لم يقيم هؤلاء بطلبها ، ولأنهم اشترطوا في الامامة شروطا يوافقهم أهل السنة على أكثرها كالعلم والشجاعة . وكان من نتيجة موقف الزيدية هذا أن ضعف فريقهم لأن الغلاة لم يرضوا عنه ، وكان من نتيجته بالتالى أن سلم مذهب الزيدية أكثر من غيره من الفلو لأن الغلاة انفصوا عنه فلم يوثقوا بالوضع الكثير والاختلاق .

وهذه النتائج تحتاج إلى مزيد من الايضاح : فلنسأل السؤال التالى : لماذا ضعف مذهب الزيدية ؟ وبالتالى لماذا سلم أكثر من غيره من الفلو والاختلاق ؟

للإجابة عن ذلك نعود فنتذكر ما سبق أن أوردناه من أن الشيعة كانت الموئل الذى يلجأ إليه أعداء الاسلام وتحت سبتار الشيعة

(١) الملل والنحل ج ١ ص ١٣٩ .

ظهرت ضلالات وبدع كثيرة ، وكان من نتيجة ذلك أن بعد عن الشيعة المخلصون للإسلام المصون له لأنهم لم يريدوا أن ينتموا الى طائفة تؤله عليا أو تكفر الصحابة ... وهكذا وقف زيد بين بين ، فلم يكن له أتباع من غير الشيعة لأنه شيعي على كل حال ، ولم يترد المخلصون للإسلام أن ينتموا لمذهب شيعي ان لم يكن قد فسد فقد يفسد فيما بعد ولم يكن للزيدية كذلك أتباع من الغلاة ، ويفسر لنا الطبري سبب ذلك فيروى أن رموس الشيعة اجتمعوا بزيد فقالوا له : ما قولك في أبي بكر وعمر ؟ قال زيد : رحمهما الله وغفر لهما ، ما سمعت أحدا من أهل بيتي يتبرأ منهما أو يقول فيهما الا خيرا ... وان أشد ما أقوله عنهما انا كنا أحق بسطان رسول الله ﷺ من الناس أجمعين ، وان القوم استأثروا علينا ودفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفرا (١) ... ولم يرق ذلك الغلاة فتركوا زيدا وأدخلوا أنفسهم في امامة غيره ، وهكذا قل أتباع زيد ، اذ لم يكن فيهم الغلاة ولا غير الشيعة ، ولم يبق حوله الا المعتدلون أو الشيعة الحقيقيون وهم قليلون . وهذا قلل أتباع زيد ولكنه حفظ مذهبه من الغلو .

ومن الأسباب التي أضعفت مذهب الزيدية وحفظته من الغلو أيضا ، أن زيدا اتجه الى الحرب وخاض غمارها ، ومدعو التشيع لم يكونوا محاربين قط ، انهم يريدون نشر أفكارهم ولا يريدون التضحية بدمائهم ، وكيف يضحون بدمائهم للدفاع عن تشيع لم يعتنقوه وانما ادعوه ، وهذا يفسر لنا كثيرا من أحداث التاريخ المتصلة بالشيعة : لماذا قالوا بالتقية ؟ ولماذا انفض أتباع علي عنه ؟ ولماذا انفض أتباع الحسن عنه وهاجموه وسلبوا متاعه ولماذا انفض أهل الكوفة عن مناصرة الحسين وتركوه يقتل ؟ .. والاجابة واحدة هي أن هؤلاء الناس لم يكونوا شيعة ولا أنصارا وانما ادعوا التشيع لغرض آخر كما ذكرنا ، فهم لا يدينون بولاء ولا حب لآل البيت . ومن ثم عصوهم ، وأسلموهم ، وقتلوهم أحيانا .

وعلم زيد وشجاعته حفظا مذهب الزيدية من الغلو أيضا ، وذلك لأن

(١) تاريخ الامم والملوك ج ٥ ص ٤٩٨ .

زيدا يدعو لنفسه وكان يشرح أفكاره ويكتبها فلم يدع لدعاة السوء مجالا ، ولا فتح لهم الباب ليعبثوا في دعوته ويشوهوا آراءه .

على أن مذهب الزيدية دخله الفساد أحيانا ، يقول الشهرستاني (١) ومالت الزيدية بعد ذلك عن القول بامامة المفضل ، وطعن في الصحابة طعن الامامية ، ويقول عند الكلام على الجارودية احدى فرق الزيدية : « زعموا أن النبي ﷺ نص على علي رضي الله عنه بالوصف دون التسمية ، بأنه الامام بعده ، والناس قصروا حيث لم يتعرفوا الوصف ، ولم يطلبوا الموصوف ، وانما نصبوا أبا بكر باختيارهم ، فكفروا بذلك ، وقد خالف أبو الجارود في هذه المقالة إمامه زيد بن علي فإنه لم يعتقد هذا الاعتقاد » (٢) .

الاثنا عشرية :

الاثنا عشرية أشهر فرق الامامية وتتبعها ايران من الناحية الرسمية ، وينبعضها كذلك أكثر شيعة العراق . والاثنا عشرية أقوى فرق الشيعة الموجودة الآن واذا أطلقت كلمة الشيعة فهم منها هذه الفرقة ، وهذه التسمية توحى بشيء ذي بال هو أن هذه الفرقة تكونت بعد منتصف القرن الثالث الهجري أى بعد أن أصبح الأئمة اثني عشر ، وبعد القول باختفاء محمد المهدي المنتظر سنة ٢٦٠ هـ .

والامامية أطول فرق الشيعة عمرا وأكثرها قوة ، وقد سميت هذه الفرق بالامامية لاهتمامهم بمسألة الامام ، وسيأتى تفصيل ذلك ، والاثنا عشرية أشهر فرق الامامية وأكثرها أتباعا ، وقد أصيبت الاثنا عشرية بالآراء الضالة أكثر مما أصيبت الزيدية ، ودخلها من تعاليم مدعى التشيع نصيب كبير وذلك للأسباب الآتية :

(أولا) طال عمر الاثنى عشرية فطال اتصالها بطوائف مدعى التشيع

(١) الملل والنحل ج ١ ص ١٤٠ .

(٢) الملل والنحل ج ١ ص ١٤٠ .

الذين تتابعوا يجمعهم هدف واحد وان اختلف الزمن ، ذلك المفسد هو الكيد للاسلام وافساد تعاليمه •

(ثانيا) الأئمة الاثنا عشرية كانوا أميل الى السلم ، والذي يستعرض تاريخ ثورات الشيعة بعد الحسين يجدها لا تتصل تقريبا بهولاء الأئمة ، وانما كان اتصالها بزيد بن علي ، وابنه يحيى ، وأولاد الحسن وغيرهم من آل البيت ، ويبدو أن السنة السلمية التي استنها على زين العابدين لما رآه من الأهوال عند مقتل أبيه وآل بيته ، قد عاشت في أولاده فمال أكثرهم الى حياة الدعة ، وحياة السلم هذه هي الحياة المحببة لمدعى التشيع ، فهم كما سبق القول لا يحبون اراقة دمائهم لدعوة شيعية لا يؤمنون بها •

(ثالثا) بدأ الوضع باسم الأئمة منذ العهد الأول كما سبق القول ، واختلط الشيعة بمدعى التشيع وتعاونوا معهم في بعض الأحيان ، وكانت النتيجة أن انسابت تعاليم مدعى التشيع بين الشيعة ، وبمرور الزمن ظهرت أجيال تلتقت هذه التعاليم على أنها تعاليم شيعية حقيقية فدانوا بها وتحمسوا لها •

وعلى هذا اذا أردنا أن نكتب الآن مذهب الامامية الصافي قبل أن تمتد له يد الوضع وقبل أن تدخله تعاليم مدعى التشيع لو أردنا ذلك ما استطعنا ، لأن مذهب الإمامية أكثره موضوع أو ككث ، فعناصره الهامة ليست شيعية على الاطلاق ، ومرجع هذا أن الامامة هي المشكلة الكبرى في مذهب الامامية ولذلك سمي بها المذهب ، مع أن هذه المشكلة موضوعة كلها فليست من الاسلام في شيء وقد أنكرها على رضى الله عنه نفسه ، يروى ابن عبد ربه أن عبد الله بن الكواء سأل عليا عما اذا كان الرسول عهد اليه فأجابه على : اللهم انى كنت أول من آمن به فلا أكون أول من كذب عليه ، لم يكن عندي عهد من رسول الله ﷺ ، ولو كان عندي

عهد^١ منه لما تركت أخا تيم وأخا عدي على منابرهما (١) . وقد سبق أن اقتبسنا من الشهر ستاني وهو يتحدث عن أمام من أعظم الأئمة الاثني عشرية وهو الامام جعفر الصادق فيقول : ما تعرض للامامة قط ولا نازع أحدا في الخلافة قط (٢) . وسبق كذلك أن تحدثنا عن الزيدية ، ورأى زيد نحو الخلافة ، والشروط التي وضعها ، واقراره بصحة خلافة أبي بكر وعمر .. (٣)

فإذا قال الامامية برأى جديد في الامامة رثفوا بها أنفسهم وجعلوها مركز اهتمامهم وتفكيرهم ، فهذا كله من وضع مدعى التشيع ، وقد بدأ ذلك بابن سبأ حيث كان « أول من أظهر القول بالنص بامامة علي وتلاه أتباعه والذين سلكوا مسلكه فنظموه هذا القول وجمعوا له الأدلة من هنا ومن هناك »

والآن ما هو موقفنا من الامامية ؟

الجواب عن ذلك أن السابقين الذين سماهم المتأخرون « الأئمة » لم يقولوا بالامامة على النسق الذي قال به هؤلاء المتأخرون كما سبق القول ، وكثيرا ما بايعوا سواهم للخلافة ، فأول الأئمة هو علي بن أبي طالب ، وقد بايع على أبا بكر وعمر وعثمان ، وبايع الحسن والحسين معاوية ، وقد بايع على زين العابدين يزيد ، ولم يكن هناك زمن هؤلاء حديث عن الامامة ، فلما مر الزمن ودخلت الترهات والأباطيل هذا المذهب ظهر حديث الامامة ، فإذا تحدثنا عن الامامة فانما نتحدث عن انحراف هذا المذهب الشيعي ، انحرافه عن رأى علي ورأى الأئمة الأول الى الوضع السائد الآن .

(١) المعقد الفريد ج ٤ ص ٣٠٣ .

(٢) الملل والنحل ج ١ ص ١٢٧ .

(٣) انظر ما سبق أن أوردناه عن الزيدية .

(٤) الملل والنحل ج ١ ص ١٥٥ .

الى أي حد انخرقت هذه الجماعة ؟ وما هو الوضع السائد الآن ؟
 الجواب عن ذلك أن الانحراف كان بعيدا جدا ، أو قل كان انتقالا
 لا انحرافا ، فأسسه الحديث عن الإمامة ولم توجد الإمامة بهذا المعنى
 في حديث الأئمة الأول ، أما للوضع الذي خلقه مدعو التشيع فهو مشكلة
 الإمامة ، وأهم تصوير لها هو ما ذكره المجلسي في كتابه « حياة القلوب »
 والمجلسي من العلماء المتأخرين ، عاصر الدولة الصفوية (من أواخر القرن
 ١٥ الى ١٧٢٧ م) التي اتخذت التشيع مذهبا رسميا ليران ، وفي كتاب
 « حياة القلوب » تفاصيل عن الإمامة لا توجد في سواء ، والكتاب يتألف
 من بلعين : الأول في ضرورة الامام والثاني يفسر آيات من القرآن يراها
 متصلة بالإمامة . وقصود الباب الأول تسعة هي :

- ١ — ضرورة الإمامة ويبين أن الزمان لا يخلو من امام .
- ٢ — عصمة الأئمة .
- ٣ — الإمامة ينص من الله والرسول ، وكل امام ينص على خلفه .
- ٤ — ضرورة الاعتراف بالامام .
- ٥ — انكار امام واحد كلنكار الأئمة جميعا .
- ٦ — ضرورة طاعة الامام .
- ٧ — الاحداء لا يكون الا بامام .
- ٨ — للفقهاء : القرآن وأهل البيت .
- ٩ — في النص على الأئمة .

أما قصود الباب الثاني فالتان وأربعون وكلها تفسير لآيات يرى
 المجلسي أنها نزلت في الإمامة ، ويصير في تفسيرها على المنهج الشيعي
 بكثير من التكلف أحيانا ، ومن هذا الكتاب ومن سواء من المراجع نستطيع
 أن نبرز أهم عناصر مذهب الإمامية عن الإمامة ، وهي :

أولا . الامامة ليست من المصالح العامة التي تفوض الى نظر الأمة ،
ويتعين القائم بتعيينهم ، بل هي ركن الدين وقاعدة الاسلام ولا يجوز
لنبي اغفالها ولا تفويضها الى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الامام لهم ،
وكل امام يعين خلته (١) . وليس في الدين والاسلام أمر أهم من تعيين
الامام ، فاذا عينه كانت مفارقتة للعالم على اطمئنان قلب بأمر الأمة ،
فانه انما بعث لرح الخلاف وتقرير الوفاق ، فلا يجوز أن يفارق الأمة
ويتركهم هملا يرى كل واحد منهم رأيا ، ويسلك كل واحد منهم طريقا لا
يوافقه في ذلك غيره ، بل يجب أن يعين شخصا هو المرجوع اليه ، وينص
على واحد هو الموثوق به والمعول عليه (٢) .

ثانيا : ولما كان واجبا على النبي محمد أن يعين الامام الذي يقوم
بأمر المسلمين بعده فانه قد فعل ، وعين عليا وكان ذلك نصا ظاهرا ، وتعيينا ،
صادقا من غير تعريض بالوصف بل بتحديد تام ، وقد تم ذلك عند
غدير خم ، فان الرسول عندما وصل الى هذا المكان في طريقه الى المدينة
عائدا من حجة الوداع أمر بالدوحات فقممن وأمر مناديه فنادى : الصلاة
جامعة . ثم قال عليه السلام : من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من
والاه وعاد من عاداه ، وانصر من نصره واخذل من خذله ، وأدر الحق
معه حيث دار ، اللهم قد بلغت (٣) ؟ (قالها ثلاثا) وقد تم ذلك التعيين بعد
أن نزل قوله تعالى « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وان لم
تفعل فما بلغت رسالتك ، والله يعصمك من الناس (٤) » والمأمور بتبليغه على
تفسيرهم هو تعيين على ، فلما تم التعيين نزل قوله تعالى « اليوم أكملت

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٦٤ .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٤٤ .

(٣) المرجع السابق ص ١٤٥ وهناك أدلة لهم مماثلة لهذا الدليل نجدها
في الشهرستاني وابن حزم ، وانظر قصة غدير خم في الجزء الاول من مسند
احمد (٨٤ ، ١١٨ ، ١٥٢) وفي عقيدة الشيعة لدوايت دونلدش ص ٢٢ .

(٤) سورة المائدة الآية ٧٠ .

لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً (١) ، وكمال الدين وتمام النعمة بناء على تفسيرهم هو هذا التعيين .

ثالثاً : تتحصر الامامة في علي وأبنائه من فاطمة : فهم أهل البيت والدوحة المباركة التي بها رضى الله عن الناس ، وليس لغير هؤلاء حق في الإمامة حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

تلك هي العناصر الأساسية لمذهب الامامة ، وهناك عناصر أخرى ليست أساسية وإنما تكميلية ، تسمى التعاليم وهي : العصمة والتقية والرجعة والمهدية ، وتكلم عنها كلمة فيما يلي :

العصمة والتقية والرجعة والمهدية :

ويقصدون بالعصمة أن الأئمة معصومون من ارتكاب الصغائر والكبائر ولا يجوز عليهم خطأ ولا نسيان (٢) ، ويقصدون بالتقية ، أن يظهر الإنسان خلاف ما يضمّر ليحافظ على نفسه أو ماله أو عرضه، أما المهدية والرجعة فبينهما صلة ، ومعنى المهدية هي القول بامام مهدي منتظر يأتي للأرض فيملؤها عدلاً بعد أن تملأ جوراً ، وهذا المهدي هو الامام الثاني عشر الذي اختفى سنة ٢٦٠ هـ وسيرجع فيها بعد ، وبعضهم يقول برجعة علي بن أبي طالب نفسه ، حدث عبد الله بن عباس قال : قرع اليوم على الباب رجلاً لما وضعت ثيابي للظهيرة ، فقلت : ما أتى به في مثل هذا الحين الا أمر مهم ، أدخلوه . فلمّا دخل قال : متى يبعث هذا الرجل ؟ قلت : أي رجل ، قال علي بن أبي طالب . قلت : لا يبعث حتى يبعث الله منّ في القبور ، قال : وانك لتقول بقول هذه الجهلة . قلت : أخرجوه عني لعنه الله (٣) . وكان كثير عزة يثبت الغيبة والرجعة وربما المهدية أيضاً لمحمد بن الحنفية وفي ذلك يقول :

(١) سورة المائدة الآية ٤ .

(٢) انظر تفاصيل كائنية عن مبدأ العصمة في عقيدة الشيعة ص ٣

وما بعدها .

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٢ ص ٥٨٨ .

الا أن الأئمة من قريش
ولاة الحق أربعة سواء
على والثلاثة من بنيهم
هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط ايمان وبر
وسبط غيثة كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى
يقود الخيل يقدمه اللواء
تغيب لا يرى فيهم زمانا
برضوى عنده غسل وماء

وفي تحفة الزائرين للمجلس وصف دقيق للصلة بين الامام الغائب
وأتباعه فهو يظهر لبعضهم ويكتب الآخرين ، ويتلقى رقايع أتباعه وينظر
فيها ، ويذكر المجلس أن المرید يكتب حاجته في رقعة ويجعل عنوانها الى
صاحب الزمان ويقفلها ويختمها ويلقيها في البحر أو في بئر عميقة فانها
تصل الى الامام (١) .

ولسنا في حاجة للرد على هذه الأسس وتلك التعاليم ، فليست من
الاسلام في شيء ، وليست الا صدى لديانات ومذاهب أخرى غير الاسلام
أشرنا اليها فيما سبق (٢) ، وقد أنكرها جعفر الصادق وبريء منها
وممن يقول بها (٣) .

وقد قلنا من قبل أن تأثر الاثنى عشرية بأفكار مدعى التشيع كان
أكثر من تأثر الزيدية ، وأقل من تأثر الاسماعيلية ، وقد اتضح لنا من

(١) تحفة الزائرين ص ٢٩٦ .

(٢) انظر ما أوضحناه في أول حديثنا عن الشيعة وانظر كذلك « آل محمد
في كربلاء » للأستاذ عمر أبو النصر ص ٥ - ٦ .

(٣) الشهر ستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١١٧ .

الكلام عن الاثنى عشرية أنهم كانوا أكثر تأثرا من الزيدية ، فموضوع الامامة والعصمة والتقية والرجعة والمهدية كلها موضوعات غريبة على التفكير الاسلامي قال بها الاثنا عشرية ولم يقل الزيدية بها ، وسنرى فيما بعد أن الاثنى عشرية لم يصلوا في تأثرهم الى حد تأثر الاسماعيلية ، فسنرى الاسماعيلية يقولون في الباري : إننا لا نقول إنه موجود أو لا موجود ، ولا عالم ولا جاهل ، كما سنراهم يرون الصوم هو الامساك عن افشاء سر الامام وأن الحج هو زيارته : الى غير ذلك مما بلغ أقصى الحدود في التأثير بالأفكار الهدامة .

بقيت كلمة تتصل بالزيدية والاثنى عشرية في العهد الحاضر ، وهي أن الدراسات الحديثة والأبحاث العلمية كشفت اللثام عن كثير من هذه الأباطيل التي سردنا جزءا منها ، ومن أجل هذا نجد جماهير المثقفين التابعين لهذه المذاهب يقربون كثيرا من الشيعة الصحيحة ، وبالتالي يقربون من أهل السنة ، وكما قرب هؤلاء من أهل السنة فإن أهل السنة كذلك قربوا منهم فبدءوا يدرسون فقههم ويقتبسون منه ، كما أخذوا جميعا يتبادلون الأفكار فيما يوحد أو يقرب بين طوائف المسلمين ، وإذا كان هذا هو شأن المثقفين من الزيدية والاثنى عشرية ، فإننا نقرر مع الأسف أن غير المثقفين منهم لا يزالون في ظلام حالك انحدر اليهم وبخاصة الى الاثنى عشرية من العصور السابقة ، ولا يزال موجودا حتى الآن ، وقد رأيت بنفسى صورا من هذا الظلام خلال العادات ، والتقاليد السائدة في العراق وايران ابان زيارتي لهذين القطرين .

الاسماعيلية :

الاسماعيلية تنسب نفسها الى الامامية ، وتتفق مع الاثنى عشرية في تحديد الأئمة الستة الأول من أئمة الاثنى عشرية ، وبعد جعفر الصادق يرون أن الامامة انتقلت لا الى ابنه موسى الكاظم كما يقول الاثنا عشرية ، بل الى ابنه اسماعيل ، ولذلك يسمون الاسماعيلية .

ويختفى أئمة الاسماعيلية من الظهور بعد اسماعيل ولا يظهر الا دعائهم ، ولذلك يسمى الأئمة هنا « الأئمة المستوزون » ثم يعودون للظهور حينما يقوى شأنهم في شمالي افريقية سنة ٢٩٧ هـ (٩٠٩ م) ثم ينحدرون الى مصر فيكونون الدولة الفاطمية سنة ٣٥٦ هـ .

والاسماعيلية أكثر من الزيدية والاثني عشرية تأثرا بضلالات مدعي التشيع لسبب واضح جدا هو استتارهم ، ففي فترة الاستتار وجد مدعو التشيع — وفيهم عناصر يهودية — الفرصة سانحة ليتسلطوا على أتباع هذا المذهب فينشروا بينهم ضلالاتهم ، فلما ظهر الاسماعيلية بعد ذلك كان مذهبهم مشوبا بكثير من الضلالات .

وشهر الأتباع الباطنية ، وانما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطنا ، ولكل تنزيل تأويلا ولهم ألقاب كثيرة تختلف باختلاف الجهات ، فبالعراق يسمون الباطنية والقرامطة والمزدكية ، وفي خراسان يسمون التعليمية والملاحدة . ويقولون : نحن اسماعيلية لأننا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم وهذا الشخص (١) .

ومن الواضح أن الاسماعيلية انفصلوا عن الاثني عشرية بعد جعفر ، ولذلك فليس لهم ماض مستقل ، واذا كان أطر الشيعة وأقربهم الى تفكير على رضى الله عنه هم قدماء الشيعة ، فان الاسماعيلية تأخر بهم العهد وبدعوا بعد ما انتشرت الضلالات وكثرت الأباطيل .

وبين أيدينا الآن « أربع رسائل اسماعيلية » كتبها أربعة من عليّة الدعاة الاسماعيليين ، ونشرها حديثا باحث اسماعيلي اسمه « عارف تامر » مقدما لها بمقدمة طويلة ، وهذه الرسائل كانت ضمن الذخيرة السرية للاسماعيلية ، ولم يسمح بنشرها الا في العصر الحديث وبجراة لم يتحدها الاسماعيليون ، وهي كما يقول الناشر « تغذى جمهور الراغبين

(١) الشهر ستاني : الملل والنحل ١ : ١٧٢ .

في الاطلاع على الفلسفة الاسماعيلية « (١) وسنعمد على هذه الرسائل —
بالاضافة الى بعض مخطوطات وأبحاث وكتب أخرى — لتصوير المذهب
الاسماعيلي .

وأول ما تبرزه هذه الرسائل هو مكانة الامام وهم يسمونه « القائم »
أو « صاحب الزمان » ويعدونه في أولى العزم من الأنبياء النطقاء وعدد
الأنبياء النطقاء المشرعين عند الاسماعيلية سبعة ، هم آدم ونوح وابراهيم
وموسى وعيسى ومحمد والقائم ، ويرون أن لكل نبي « أساسا » أى عمادا
يعتمد عليه في تبليغ رسالته ، والأسس عندهم سبعة : شيت لعيسى :
وعلى لمحمد ، أما أساس « القائم » فيقول عنه الناشر « أننا لا يمكننا
اذاعة اسمه حرصا على سرية المعتقدات » (٢)

ولكل واحد من هؤلاء السبعة يوم من أيام الأسبوع فأقدم صاحب
يوم الأحد ، ونوح صاحب يوم الاثنين ، وابراهيم صاحب يوم الثلاثاء ،
وموسى صاحب يوم الأربعاء ، وعيسى صاحب يوم الخميس ، ومحمد
صاحب يوم الجمعة ، ثم يهتف الداعي الفاطمي أحمد حميد الله الكرمانى
صاحب رسالة « أسبوع دور الستر » احدى رسائل هذه المجموعة قائلا
عن صاحب يوم السبت : أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما
يشركون ، قد جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ، واستقر
الوقت لصاحب يوم السبت ، القائم في الأرض مقام العقل في عالمه ، محط
رحال حملة النور في سالف الدهور ، مقصد الراحة ، وعنده تكون
الاستراحة ، ذو الكلمة المصونة ، والجوهرة المكنونة .

تأنس للخلق لكـ

تنزه عن كل لحم ودم

(١) عارف تامر : اربع رسائل اسماعيلية ص ١٩ .

(٢) عارف تامر : اربع رسائل اسماعيلية ص ٦٦ .

وعنه غدا تظهر المعجزات
ويظهر من أمره ما كنم
وتملا به الأرض عدلا كما
تمادى بها قبل جور وظلم
وعما قليل يزول الغناء
ويكمل دين به قد ختم
وينجز وعده الله السناء
وتظهر أنواره للأمم (١)

وعن هذا القائم يقول شهاب الدين أبو فراس صاحب رسالة « مطامع
الشموس في معرفة النفوس ». إحدى رسائل هذه المجموعة أيضا ما يلي :
« والامام علة المخترعات وحياة الكل ، وبه ترتيب الخلق والدين ، وهو
موجود غير مفقود ، لا يدركه الزمان ولا يدخل تحت حوادث الأيام ، وهو
نور سابح في الملكوت الأول ، أبدع الله به الحدود الروحانية ، واخترع
الهيكل الجرمانية ، وخلق الأشخاص الانسانية فاذا فرغت مدته وحان
وقته انتقل هذا الأمر الى شخص آخر من ذريته ، وهو الذي ينص عليه
ويشير اليه ، فاعلم ذلك يا أخى وتأمله تجد مطلوبك وقصدك وسبب
نجاتك (٢) » .

ويقول شمس الدين بن أحمد بن يعقوب الطبى صاحب رسالة
« الدستور ودعوة المؤمنين للحضور » ثالث رسائل هذه المجموعة
ما يلي عن صاحب الزمان : والصلاة والسلام والتحية والاكرام لذكرى
مولانا امام الزمان ، نقطة دائرة الوجود والأديان ، وقبله أهل الايمان ،
والطريق الواضح للجنان ، والثابت وجوده بالحجج والبرهان ، حقيقة
الحقائق ، نهاية الطرائق ، وغاية مقصد الخلائق ، وعلة وجود السابق

(١) المرجع السابق ص ١١ .

(٢) عارف تامر : أربع رسائل اسماعيلية ص ٩٩ .

واللاحق • حبل الله المتين ، ونوره المبين ، وحقسه اليقين وكتابه المستبين ، وظله الممدود ، وحوضه المورد ، ولوائه المعقود (١) •

والعمل من غير معرفة الامام وهديه لا يفيد ؛

ولولا الدليل واحسانه

لكانت لطائفنا في العدم (٢)

والصلاة في الحقيقة هي للأئمة ، ومن طبيعتهم أن يظهرُوا أحيانا وأن يستتروا أحيانا أخرى :

وهم القصد في الصلاة فلولا

ذكرهم لم يكن عشاء وظهر

قبلة العالمين في كل دور

ولهم في السور، ظهور وستر (٣)

ومن الصفات التي يصفونها على الأئمة ما ذكره عامر البصري في الرسالة الرابعة من هذه المجموعة وعنوانها « القصيدة الثائية » ونقتطف منها الأبيات التالية منبهين الى ما في الشعر من ركافة وأخطاء عروضية ونحوية :

بكل زمان فرد ذات بمظهر

بشكل ورسم فيه سر الامامة

يروه كمثل الجنس منهم مدانينا

ولكن تدانيه الى الجنس رحمة

(١) المرجع السابق ص ٥٥ •

(٢) المرجع السابق ص ٦١ •

(٣) المرجع السابق ص ٢٥ -

له الكون طوعا والزمان بأمره
وليس سواه ظاهرا بالخلقة

هو الحق والتحقيق في كل مظهر
وفي كل عصر يستجد بصورة (١)

تلك صور من انحرافات الاسماعيلية ، ولكن هذه الانحرافات تصل
الى قممتها في مسألة التأويلات ، وقد وضحتها رسالة « الدستور ، ودعوة
المؤمنين للحضور » للداعي الأجل شمس الدين بن يعقوب الطيبي وهي
احدى رسائل هذه المجموعة ، ولعل هذه الرسالة خير مرجع لايضاح
تأويلات الاسماعيلية .

ويقول مؤلف هذه الرسالة : اعتصمت بذى العزة والجبروت ،
وتحصنت بمالك الملك والملكوت ، وتوكلت على الحى الذى لا يموت ، الهنا
واله مبادئنا ، وأعترف ألا ظاهر الا وله باطن ، ولا صورة الا ولها معنى
كامل ، ولا قشر الا له لب ، ولا مدينة الا ولها باب ، ولا نور الا وله
حجاب ، ولا شريعة الا ولها طريقة ، ولا طريقة الا ولها حقيقة ولا حقيقة
الا ولها تنزيل ، ولا تنزيل الا وله تأويل (٢) .

وبعد هذه المقدمة التى يثبت بها المؤلف أن لكل ظاهر باطنا ولكل
تنزيل تأويلا ، يسرد مجموعة فذة من التأويلات العجيبة نقتبس منها
بعض نماذج !

الله : تأويل الكلمة

النبوة والرسالة : ظهور الكلمة بالحجاب وتنصيب الدليل والمرشد
وبالباب الى منهج الحق وطريق الصواب .

(١) عارف تامر : اربع رسائل اسماعيلية ص ٩٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١١١ .

القيامه	: قيام النفوس الجزئية بالمفارقة للمدركات الحسية والآلات الجسدانية ، وقيام الشرائع والأديان بظهور صاحب الزمان •
الضلال	: الواجب اظهاره واعلانه •
المصرام	: الواجب ستره وكتمانہ •
الطاعة	: الدخول في عهد امام الزمان •
المصية	: الميل الى ائمة الضلال والعدوان •
الصلاة	: صلة الداعي وموالاته الامام •
الزكاة	: ايصال الحكمة الى المستحق وارشاد الطالب الى منهج الحق •
الصوم	: الامساك عن افشاء سر الامام •
الحج	: القصد الى صحبة السادة الأئمة من آل البيت •
الاحرام	: الخروج من مذهب الأضداد •
النحر والخلق	: ازالة الباطل لاظهار الحق •
التماس الحجر الأسود	: قبول الدعوة من الناطق •
الربا	: الرغبة في الاكثار وطلب الحطام بافشاء الأسرار •
الفحشاء	: ذكر المحامد للطغاة المتمردين ونسبة المحاسن لأهل العناد المعتدين •
البغى	: تقديم المفضول على الفاضل •
الاحسان	: العلم باحاطة الامام وقدرته على ما بطن وظهر وتجلى واستتر •

أبناء ذي القربى : محبة الرسول وولاية أولاد البتول وتفضيل
الهاشميين والقول بأمامة الأئمة الفاطميين .

الظلم : وضع الإمامة في غير آل محمد (١) .

هذا طرف من التأويلات التي أوردتها هذا الداعي ، وبناء على
مذهب الاسماعيلية تسقط العبادة عن عرف هذه التأويلات ، ويستج
الاسماعيلية لذلك بقوله تعالى « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » (٢) أي
المعرفة التامة والتأويل (٣) .

ويختتم هذا الداعي سلسلة التأويلات الطويلة التي أوردتها بقوله :
هذا تأويل اعتقادي في الدين ، وخلاصة اجتاعدي في تحصيل علم اليقين
وهو دين الرسول الكريم ، وطلة أبناء ابراهيم الخليل ، ومذهب النبي
العظيم ، وعقيدة أهل البيت القويم ، فمن بدله بعد ما سمعه فأنما أضمره
على الذنب يبدلونه ، ان الله سميع عليم (٤) .

ويقول الشهرستاني ان الاسماعيلية خلطوا كلامهم ببعض كلام
الفلاسفة ، وصنفوا كتبهم على هذا المنهج ، فقالوا في الباري جل وعلا :
انا لا نقول هو موجود ولا موجود ، ولا عالم ولا جاهل ، ولا قادر ولا
عاجز (٥) .

وينسب للاسماعيلية الحسن بن محمد بن الصباح صاحب قلعة
« الموت » وقد اشتهر هو وأتباعه بالاعتقال والقتل ، وكانت تعاليمه ذات
درجات متفاوتة تبدأ بالتحريك وتنتهي بالكفر والتعرب الى الله بقتل
المسلمين .

-
- (١) عرفت تلمر : أربع رسائل اسماعيلية من ١٢ — ١٧ والآلة والنقط
للشهرستاني القسم الأول من ١٧٢ .
(٢) سورة الحجر الآية ٩٩ .
(٣) محمود البشير : الفرق الإسلامية من ٦٠ .
(٤) أربع رسائل اسماعيلية من ١٧ .
(٥) الآلة والنقط ج ١ من ١٧٢ .

ومن الواضح أن فرقة تسير على هذا الوضع ليست من الاسلام في شيء ، ولا تتبع مبادئها من روح الاسلام ، وليس لها من التشيع الا الاسم الذي ادعاه أتباعها ليستروا به هذه الضلالات (١) .

بقى أن نقول كلمة هامة نفرق بها بين الفاطمية وهم شعبة من الإسماعيلية وبين الإسماعيلية ، وتلك الكلمة لا تتصل بالنسب فذلك أمر ندعه الآن لنتاوله بالحديث عند الكلام عن الفاطميين في الجزء الرابع من هذا الموسوعة ، ولكنها تتصل بالمبادئ ، فقد كان الإسماعيلية أميل للزيف والضلال ، فلما تولدت عنها الدولة الفاطمية ، وظهرت هذه الأسرة للنور بعد أن عاش الإسماعيلية في الظلام عشرات السنين ، واستطاعت الدولة الفاطمية أن تحكم مصر ، لما تم ذلك اضطر الفاطميون أن يقللوا من غلواتهم ببعض الشيء ليضمنوا ولاء الناس لهم ، وليستطيعوا أن ينالوا لونا من الاستقرار ، فلم تعد الصلاة موالاة الامام ، ولم يعد الحج زيارته ، ولا صار الصوم الامساك على افشاء سره ، وانما اختفى هذا التأويل ، وظهرت هذه العبادات على حقيقتها كما يراها المسلمون ، ولعل الفاطميين قصدوا بذلك أن يقابلوا المصريين بمبادئ يمكن نشرها ، اذ وضح أنه من غير الممكن أن تعيش في النور تلك التعاليم التي ولدت في الظلام ، وأنه من غير الممكن كذلك أن تدين جماهير المصريين والسوريين لأفكار الإسماعيلية ، وكان ذلك أشبه بعصابات البرابرة والتتار التي هبطت تريد محق الحضارات ولكن الحضارات تغلبت عليها وأخضعتها لها ان لم يكن تماما فبعض الشيء . ويتضح ذلك كل الوضوح من مطالعة أهم المصادر الإسماعيلية التي دونت في العهد الفاطمي مثل دعائم الاسلام ، وتأويل دعائم الاسلام ، والمجالس المؤيدية ، والمجالس الستنصرية والمجالس والمسامرات ، فان ما في هذه المراجع ان بعد عن آراء المسلمين فان الشقة ليست واسعة . وفيما يلي نموذجان من هذه المصادر :

١ - من المجلس المباشر من الجزء الرابع من تأويل دعائم الاسلام .

(درس من داعى الدعاة للدعاة)

قال النعمان داعى الدعاة : قال رسول الله ﷺ صلوا صفوفكم وحاذوا بين مناكبكم فتعديل الصفوف وسد ما فيها من الفرج من واجب الصلاة ، ومثل ذلك فى الباطن اعتدال أهل الدرجات فى دعوة الحق على درجاتهم وحدودهم التى حددت لهم ، لا يتجاوز أحد منهم حده الى غيره ، ومن رأى منهم خلا فليجتهد فى سده (١) .

٢ - من المجلس التاسع من المائة الثانية من المجالس المؤيد به .

(درس للعمامة)

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله والصلاة والسلام على رسوله محمد وعلى أخيه وابن عمه على بن أبى طالب البرزخ بين البحرين : العذب الفرات والمالح الأبحاج ، وعلى الأئمة من ذريته هداة من ذرأ الله من خلقه والمتمين كلمة عدله وصدقته ، أيها المؤمنون صلوا ما أمر الله به أن يوصل بقوله « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » (٢) ، فأولوا الأمر هم الأئمة (٣) .

ومن الواضح أنه ليس معنى هذا اختفاء المذهب الاسماعيلى فى عهد الفاطميين ، ولكن المقصود هو قربه من الاعتدال وتجاوزه عن الضلالات الصارخة التى قال بها أكثر الاسماعيلية . وقد بقيت مبادئ الاسماعيلية يدعى لها فى شئ من الخفاء كما حدث فى رسالة حميد الدين بن عبد الله الكرمانى داعى الحاكم بأمر الله ، كما ترك لشعراء الفاطميين أن يعلنوا عن هذه المبادئ فى شعرهم ، ولم يكن الشعراء يلاقون الحرج الذى

(١) المجلس كله فى تأويل دعائم الاسلام ١٧٢ ب — ١٧٥ ب .

(٢) سورة النساء الآية ٥٩ .

(٣) المجلس كله فى المجالس المؤيدية وجه الورقة ١٩ الى ظهر الورقة ٢١ .

يلاقىه العلماء ، فالعلماء بطبيعتهم أكثر تحفظا من الشعراء ، ثم ان العلماء يلقون دروسهم الى طلاب لهم جانب ثقافى ولهم صلة بالتفكير الاسلامى ، ولا شك أنهم سينفرون من هذه الدراسات لو شطت وبالغت فى الغلو ، ولكن الشعراء يلقون شعرهم الى العامة وليس للعامة ثقافة الطلاب بطبيعة الحال .

أصف الى ذلك أن من طبيعة الشعر المبالغة بل الكذب أحيانا ، وليس ذلك من طبيعة العلم ، فالشعر يبنى على الخيال وأعذبه أكذبه كما يقولون ، أما العلم فيبنى على الحقائق ، وطبيعته الدقة والصدق ، ومن النماذج الشعرية التى حملت بعض تعاليم الاسماعيلية قول ابن هانى عن الخليفة الفاطمى :

ولله علم ليس يحجب دونكم
ولكنه عن سائر الناس محجوب

حل برقادة المسيح
حل بها آدم ونوح

حل بها الله ذو المعالى
وكل شيء سواء ربح

ما أجزل الله ذخرى قبل رؤيته
ولا انتفعت بايمان وتوحيد (١)

وقول الأمير تميم يمدح الخليفة :

يا ابن الأئمة والهادين متصلا
بصفوة الله أهل الوجى والسور

(١) انظر ديوان ابن هانىء ص ٧ و ٢٦ و ٣٠ .

ما أنت دون ملك المسلمين سوى
روح من القدس في جسم من البشر (١)
ومن شعر المؤيد في الدين قوله يمدح الخليفة أيضا :
فوجهك وجه الاله المنير
ونورك من نوره كالحجاب
يبدأك يبدأ الله مبسوطتان
وأنت له الجنب دون ارتياب
وأنت المنيب لأهل الثواب
وأنت المعاقب أهل العقاب (٢)

واختفت الاسماعيلية مرة أخرى من عالم النور بسقوط الفاطميين سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) وعادت الاسماعيلية الى عالم الظلام ، وطال اختفاؤها هذه المرة ، وظرت بالعالم الاسلامي يقظة في عهد السلاجقة والإبويين وساد مذهب أهل السنة ، وظن الناس أن الاسماعيلية اختفت الى الأبد ولكن ظهر أن للاسماعيلية قوى لا تزال تتحرك وتعمل ، ففي العصر الحديث جهد الاستعمار الأوربي ليجد أسلحة يقاوم بها الاسلام ويسيطر على المسلمين ، ويبدو أن الاسماعيلية كانوا أحد هذه الأسلحة فاذا بإمام اسماعيلي يظهر من جديد ، يساعد الانجليز ويساعده الانجليز يتيح له الانجليز أن ينشر مذهبه بين مسلمي مستعمراتهم ، ويضمن لهم هو أن يخضع أتباعه لهم ، وأشهر أئمتهم المحدثين أغاخان ، وهو من نسل الحسن بن محمد بن الصباح سالف الذكر ، وكان صاحب خيل وغنى وأرستقراطية رفيعة ، ولم يكن أغاخان عند أتباعه موضع نقد ، وقد مات حديثا بعد أن عين حفيده الشاب الأمريكي ليكون اماما لهذه الطائفة ، وهذا الامام هو ابن علي خان الشهير ، وهو سر أبيه وجده .

(١) ديوان الأمير تميم : نسخة خطبة بمكتبة المرحوم الاستاذ الدكتور كامل حسين ص ٥١ .

(٢) ديوان المؤيد في الدين ص ٤٣١ - ٢٣٢ .

وعن طريق الدعوة الاسماعيلية الجديدة انتشر الاسلام في افريقية ويوجد كثير من الاسماعيلية في الهند وقلة منهم في سوريا •

واذ كنا من قبل قد قلنا أن الدراسات الحديثة قربت بين الاثنى عشرية والزيدية وبين أهل السنة ، فان الاسماعيلية الحديثة ظلت في طريقها لم تلتق بأخواتها ولم تتعاون مع هذه الفرق في حقل الدراسات الاسلامية أو في حقل المستقبل السياسى للأمم الاسلامية حتى الآن ، ولكنى على يقين من أن يوما سريعا سيجىء حيث ينجذب كثيرون من رجال هذه الطائفة الى رحبة الاسلام الصحيح ، أو قل ان ما وصل لهم هو الاسلام الموجّه وجهة معينة خاطئة ، أما العقيدة الاسلامية التى وصلتهم فستبقى وستمتد جذورها وتورق أغصانها ، وأما هذا التوجيه الخاطىء فسينمى ويزول ، وما أجمل أن يحطم هؤلاء الاسماعيليون هذا الحاجز الصناعى الذى يحول بينهم وبين اخوانهم المسلمين ، وأن يلتقوا بهم متعاونين متساندين لخدمة الدين الذى يجمعهم والعقيدة التى تضم شملهم ، وما أجمل أن يعرف هؤلاء الاسماعيليون أصدقاءهم الحقيقيين وأعداءهم الحقيقيين ، وأن يتعاون الكل لما فيه مصلحة الجميع ، ذلك يوم لا شك آت وأغلب الظن أنه قريب •

على أن الوصول الى هذا يحتاج الى جهد من جانب المسلمين ليقدموا دعوة الاسلام الصافية الى هؤلاء الذين يحاول قادتهم أن يضلّوهم ، وقد جمعتنى الظروف وأنا طالب بجامعة كمبردج بمهندس من مسلمى افريقية الذين ينتمون الى طائفة الاسماعيلية ، وتحدثنا عدة مرات عن الاسلام ودعوته وأهدافه ، وأشهد لقد كانت استجابته أسرع مما توقعت ، وسرعان ما رأيته مسلما فقط بعد أن كان مسلما اسماعيليا ، ولقد كان فرحى بهذا الانتقال عظيما ، ولكن فرحه كان أعظم ، وسرعان ما أصبح الأغاخان جديرا بالنقد والنقد المرير ، بعد أن كان مقدسا لا يسأل عما يفعل ، ولقد وعد الصديق المهندس أن ينشر هذه الدعوة بين آله ومواطنيه ، وأرجو أن يكون قد فعل ، وان كانت حالته وثقافته الدينية قد لا تساعدانه على الوقوف أمام دعاة الاسماعيلية وما فى أيديهم من أسلحة مالية وجدلية •

ثورات الشيعة

ثورات الشيعة في خلال العهد الأموي كانت ثورات متصلة متشابهة البواعث متشابهة الأهداف ، فبواعثها كراهية الأمويين ، وأهدافها اسقاطهم ، وحركات الشيعة الثورية وثيقة الصلة بحركات الشيعة الفكرية ، فقد انضم مدعو التشيع للشيعة في تفكيرهم فأفسدوا أفكارهم كما سبق القول ، وكذلك انضم مدعو التشيع للشيعة في ثوراتهم فأفسدوا خططهم ، فالباحث المدقق يرى أن هدف مدعى التشيع في ثوراتهم لم يكن فقط اسقاط الأمويين بل اضعاف المسلمين جميعا وتقليل أظافرهم ، ومن أجل ذلك كانوا ينهزمون أو يصطنعون الهزيمة ، وهم من أجل ذلك أحيانا يقتلون زعيمهم الشيعي بأنفسهم ، يكونون معه ويدفعونه للثورة فإذا استجاب انقلبوا عليه وقتلوه ، وقد حاول الفرزدق الشاعر المشهور أن يعبر عن ذلك للحسين فقال له عن أهل الكوفة : « قلوبهم معك وسيوفهم عليك » (١) ونقول للفرزدق إن قلوبهم خانت. كسيوفهم ليست مع الحسين ولا مع المسلمين ، وبذلك السيوف قُتِلَ بعض الشيعة وكبارهم .

لقد كان أهل الكوفة يستجيبون لكل نداء للثورة حتى ليجد الباحث ثورات متصلة دون أن يجد لها سببا معقولا ، كأن الثورات أصبحت هدفا لذاتها ، واضطراب الأمن أصبح مقصودا لذاته ، وسنجد جولة نذكر فيها ثورات الشيعة في العهد الأموي منبهين أننا لن نكرر ذكر الشيعة ومدعى التشيع فذلك أساس حديثنا وهو مقصودنا ، ذكرناه أو اكتفينا بكلمة الشيعة عن هذا التعبير الطويل .

الحسين بن علي :

ذكرنا سابقا أن الحسين بن علي كان ضمن القلائل الذين لم يبايعوا

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٩٠ ،

ليزيد في حياة معاوية ، ولذلك وجد الحسين نفسه في حل من الخروج على يزيد بعد وفاة معاوية ، وقصة خروج الحسين ، ودعوة أهل الكوفة له ، وارساله ابن عمه مسلم بن عقيل وما تلا ذلك حتى مقتل الحسين ، قصة تذكرها المراجع الكثيرة التي بأيدينا بتفصيل كامل لا يدع حركة ولا يترك همسة دون تدوين (١) ، وسنوجز ذلك من مجموعة هذه الكتب .

تحركات الحسين عقب وفاة معاوية :

كان الحسين بالمدينة عند وفاة معاوية ، وكان أهم ما يريده يزيد أن تنتم له بيعة الحسين ، فهو زعيم المعارضين غير مدافع ، فأرسل الى والى المدينة يطلب منه أخذ البيعة له من الحسين وصحبه ، وكان والى هو الوليد بن عتبة بن أبى سفيان (٢) ، فاستدعى الوليد الحسين وطلب منه البيعة، فقال له الحسين : أَخَّرْنِي وَارْتُقِ . فأخره فخرج الحسين الى مكة من ليلته ومعه نساؤه وأهل بيته (٣) ، وفي مكة تلقى الحسين رسائل متعددة من أهل الكوفة يدعونه للسير اليهم ويعدونه بالبيعة له ، ومن أهم هذه الكتب كتاب من سليمان بن صرد ورفاعة بن شداد وشيعتهما من أهل الكوفة ، ونصه هو :

للعين بن على من سليمان بن صرد ورفاعة بن شداد وشيعتهما من المؤمنين المسلمين من أهل الكوفة . أما بعد فالحمد لله الذى قسم عدوك الجبار العنيد الذى اعتدى على هذه الأمة فانتزعها حقوقها ، وغصبها أمورها ، وغلبها على فيئها ، وتأمّر عليها على غير رضى منها ،

(١) يعتبر الطبرى من أهم هذه المراجع وقد ذكر هذه القصة في أكثر من مائة صفحة (انظر الجزء الرابع ص ٢٥٧ - ٣٦٠) .

(٢) هذه رواية الطبرى ج ٤ ص ٢٥٧ ، ويقول ابن قتيبة ان والى المدينة انذاك كان خالد بن الحكم (انظر الامامة والسياسة ج ١ ص ١٩٥) .

(٣) عمر ابو النصر : ال محمد في كربلاء ص ٦٣ .

ثم قتل خيارها واستبقى شرارها ، فبعدا له كما بعدت ثمود ، انه ليس علينا امام ، فاقدم علينا لعل الله يجمعنا بك على الهدى ، فان النعمان ابن بشير في قصر الامارة ، ولسنا نجتمع معه في جمعة ولا نخرج معه إلى عيد ، ولو قد بلغنا مخرجك أخرجناه من الكوفة وألحقناه بالشام (١) .

وتلقى الحسين خطابات أخرى كثيرة بهذا المعنى من جماعات الكوفة بلغت عدة مئات ، ومن هذه الخطابات خطاب يقول له : ان معك مائة ألف كاملي العدة والسلاح (٢) ، فاختار الحسين مسلم بن عقيل بن أبي طالب وقال له : سر الى الكوفة فانظر ما كتبوا به الى فان كان حقاً خرجنا اليهم ، فخرج مسلم حتى أتى الكوفة فالتف حوله الناس وبايعوه للحسين وظهر له النصر ، فأرسل للحسين بذلك وطلب منه الحضور .

وأدرك يزيد أن الكوفة لا بد أن تؤخذ بالشدّة ، وأن النعمان بن بشير لا يصلح لقيادة الكوفة في ذلك الوقت الخطير ، فعزله وولى عليها رجلاً باع دينه بدنياه ذلك هو عبيد الله بن زياد والى البصرة الذي ضم له الخليفة الكوفة فأصبح بذلك أمير البلدين ، وهى ثقة تدفعه أن يرتكب الصعاب ليثبت أنه بذلك جدير .

وسار عبيد الله الى الكوفة . وسارع يطلب مسلم بن عقيل ، وسرعان ما وجد مسلم نفسه وحيداً وانقضت من حوله الآلاف الاثنا عشر التى بايعته منذ أيام ، حتى ليروى الطبرى أنه لم يجد مأوى يأوى اليه ، فلجأ الى بيت هانىء بن عروة أحد زعماء الكوفة يطلب الحماية ، وعرف عبيد الله ذلك فأرسل إلى هانىء فجاءه فقبض عليه ، وألقى القبض على مسلم ، وجيء به أيضاً الى عبيد الله دون أن ينصره أحد ، وفي القصر قتل مسلم وألقى جثمانه الى الناس ، وأما هانىء فسحب الى الكناسة حيث قتل هناك وصلب (٣) .

(١) الامامة والسياسة ج ٢ ص ٣ والطبرى ٤ : ٢٦١ .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٢٩٤ .

(٣) الطبرى ج ٤ ص ٢٦٠ .

وفي تلك الأثناء كان الحسين يفكر في اللحاق بمسلم ولم يكن يعلم ما جرى له ، فكان الحسين يستشير الناس فيشيرون عليه ، وكان من الناس من يقدم مشورته ونصحه دون أن يستشار ، وظهر اتجاهان يمثل عبد الله بن الزبير أحدهما ويمثل عبد الله بن العباس الاتجاه الثاني ، فقد كان ابن الزبير يدرك أن أهل الحجاز لا يبايعون له ولا يتابعونه أبدا ما دام الحسين بينهم ، فان الحسين أعظم في أعينهم وأنفسهم منه وأطوع في الناس (١) ، ولذلك جاء ابن الزبير الى الحسين فحدثه ساعة وقال له : ما أدري ما تتركنا هؤلاء القوم (بنى أمية) وكفثنا عنهم ونحى أبناء المهاجرين وولاة هذا الأمر دونهم ، خبرني ما تريد أن تصنع ؟ فقال الحسين : والله لقد حدثت نفسي باتيان الكوفة ، ولقد كتب الى شيعتي بها وأشرف أهلها • فقال ابن الزبير : أما لو كان لي بها مثل شيعتك ما عدلت بها • وكان الحسين يدرك أن ابن الزبير يخدعه ويدفعه للخروج ليخلو له الجو ، ولذلك قال الحسين بعد خروج ابن الزبير : ان هذا ليس شيء يؤتاه من الدنيا أحب اليه من أن أخرج من الحجاز الى العراق (٢) •

أما ابن عباس فقد هتف بالحسين قائلا : ان أهل العراق قوم غدر فلا تقربنهم ، أقم بهذا البلد فانك سيد أهل الحجاز ولولا أن يرزأ بي أو بك لتشبثت بيدي في رأسك • قال ابن عباس : ولكن الحسين أجابني بقوله : لان أقتل بمكان كذا وكذا أحب الى من أن تستحل حرمة مكة بي • فكان ذلك الذي سلا نفسي عنه (٣) وحينئذ قلت له : فان أبيت الا الخروج فسر الى اليمن فان فيها حصونا وشعابا، وهي أرض عريضة طويلة ، ولأبيك بها شيعة وأنت عن بنى أمية في عزلة ، ومن هناك تكتب الى الناس وتبث دعائكم • فقال الحسين : يا ابن عم • أنى والله أعلم أنك ناصح مشفق ، ولكنني قد أزمعت على السير للكوفة • قال ابن عباس : فان كنت سائرا فلا تسر بنسائك وصبيتك ، فوالله اني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٦١ •

(٢) المرجع السابق ص ٢٨٨ وعقيدة الشيعة ص ٩٦ •

(٣) الأزرقي أخبار مكة ٣٦١ •

ونسأؤد وولده ينظرون اليه ، ولقد أقررت عين ابن الزبير بتخليتك اياه
والحجاز ، ثم خرج ابن عباس فمر بابن الزبير فقال : قرت عينك يا ابن
الزبير (١) .

رحلة الحسين :

وأهمل الحسين هذه النصائح وخرج في أخريات سنة ٦٠ هـ بأسرته
ونسائه وأطفاله وخدمه وقليل من مريديه وكان عددهم اثنين وتسعين ،
ويقول Wellhausen أنه مما هو جدير بالاعتبار أن الأنصار والقرشيين
تَخَلَّوْا عن الحسين فلم يخرج من المدينة واحد منهم معه ، ولم يكن منهم
بين شيعة الكوفة الا أفراد قلائل جدا (٢) وعلى كل حال فان الحسين قد
اتجه بهذه الجماعة الصغيرة الى الكوفة دون أن يعرف ما جرى لمسلم .

وفي الطريق قابله الفرزدق الشاعر سالف الذكر قادماً من الكوفة
فسأله الحسين : بيِّنْ لنا نبأ الناس خلفك . فأجاب الفرزدق : من الخير
سألت ، قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية ، والقضاء ينزل من السماء
والله يفعل ما يشاء . ويبدو أن الحسين نسي صدر هذا الكلام وتذكر عجزه
فعلق عليه بقوله : صدقت ، لله الأمر والله يفعل ما يشاء ، وكل يوم ربنا
في شأن ... ثم حرك الحسين راحلته وواصل سيره (٣) .

والتقى الحسين عند ماء من مياه العرب بزعيم عربي اسمه عبيد الله
ابن مطيع العدوي ، ويبدو من كلامه حكمته وبعد نظره ، فقال هذا للحسين :
أذكرك الله وحرمة الاسلام أن تنتهك ، أنشدك الله في حرمة رسول الله ،
أنشدك الله في حرمة العرب ، فو الله لئن طلبت ما في يد بنى أمية ليقتلنك
ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً أبداً ، لا تأت الكوفة ولا تتعرض لبنى
أمية .

ولكن الحسين أبى أن يسمع له ومضى (٤) .

(١) الطبري ج ٤ ص ٣٢٨٨ وعقيدة الشيعة ص ٩٥ .

(٢) Al Khawarig and Al Shiah p. 173.

(٣) الطبري ج ٤ ص ٢٩٩ والعقد الفرية ج ٤ ص ٣٨٤ .

(٤) الطبري ج ٤ ص ٢٩٨ .

وسار الحسين مرحلة أخرى حيث رأى رجلاً عائداً من الكوفة اسمه بكير بن ثعلبة الأسدي ، وكان من مريدي الحسين رجلان أسدنيان أيضاً فالتقيا ببكير وسألاه عن حال الكوفة فقال لهما إنه لم يبرح الكوفة حتى قتل مسلم بن عقيل وهانيء بن عروة ، وأنه رآهما بنفسه يُجْرَّان في السوق بأرجلهما • ووضح الأسدي لقريبيه أن أشراف الناس بالكوفة قد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم ، يستمال بالمال ودهم وتستخلص به نصيحتهم فسارع هذان المريدان الى الحسين وأخبراه الخبر ، وقالاه : ننشذك الله في نفسك وآل بيتك إلا انصرفت من مكانك هذا ، فانه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة ، بل نتخوف أن تكون الكوفة عليك ، ولكن بنى عقيل قالوا : والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا أو نذوق ما ذاق أخونا (١) ، فقال الحسين لأتباعه : من أحب منكم الانصراف فليصرف ليس عليه منا ذمام • فتفرق الناس عنه يميناً وشمالاً وبخاصة أولئك الذين انضموا اليه في أثناء رحلته ولم يبق معه الا أصحابه الذين جاءوا من المدينة وأفراد قليلون غيرهم (٢) • ودخلت سنة إحدى وستين ، ودخل معها الخطر ، وأحدث هذا الخطر بالحسين وبجماعته الصغيرة ، فان عبيد الله بن زياد لما استنقر له الأمر بالكوفة وانتهى من مسلم وهانيء ، وعرف أن الحسين في طريقه الى الكوفة ، بعث الحصين بن تميم على رأس جيش كبير وأمره أن ينزل القادسية وأن يضع المسالحي ، ويقدم الحر بن يزيد التميمي بين يديه في ألف من رجاله ليرتادوا له الطريق ، وصدرت الأوامر صريحة بأن يكون الحسين بين أمرين : أن يستسلم ويسلم نفسه الى ابن زياد ، أو يقاتل •

وفي مكان يقال له ذو حسم التقى الحسين بالحر بن يزيد ، والعجيب أن الصلاة كانت تحضر فيؤم الحسين رجاله ورجال خصمه ، بل أكثر من ذلك تركت للحسين فرصة أكثر من مرة ليخطب رجال الحر ويحثهم على الثورة على حكم بنى أمية (٣) •

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٩٩ — ٣٠٠ •

(٢) Al Khawarig and al Shiah p. 170.

(٣) انظر الطبري ج ٤ ص ٣٠٢ وما بعدها •

وعندما أحس الحسين بالخطر ، وأحسقت به سيوف الحر بدأ يفكر في الانصراف بأصحابه، ولكن الانصراف لم يكن له من سبيل، فقد قال له الحر :
أُمِرْنَا إِذَا نَحْنُ لِقَيْنَاكَ أَلَّا نَفَارِقَكَ حَتَّى نَقْدِمَكَ عَلَى عبيد الله بن زياد .
فقال له الحسين : الموت أدنى اليك من ذلك . ثم اقترح الحر على الحسين أن
الحتر: أُمِرْنَا إِذَا نَحْنُ لِقَيْنَاكَ أَلَّا نَفَارِقَكَ حَتَّى نَقْدِمَكَ عَلَى عبيد الله بن زياد .
يسأل رأييه ، فاتجه الحسين الى الطريق الصاعد الى كربلاء .

وعزز عبيد الله بن زياد جيوشه المرسلة الى الحسين بجيش آخر بقيادة رجل من أولاد السابقين الأولين هو عمر بن سعد بن أبي وقاص ، وكان تحت قيادته أربعة آلاف من الجنود ، وكان عبيد الله قد بعثه والياً على الرى وكلفه بمحاربة الديلم الذين ثاروا في هذه البقاع ، ولهذا الغرض جمع جيشه ولكنه تلقى أمراً بالسير الى الحسين حتى اذا فرغ منه سار الى ولايته بالرى ، ولما أظهر التثاقل في السير الى الحسين هدده عبيد الله بعزله عن ولاية الرى التي كانت أمه ، فسار بجيشه لمقابلة الحسين حتى لا تقلت منه هذه الولاية . وليس يدري الانسان كيف طغى حب المال والجاه فأعمى أفراداً من هذه النخبة التي كان عليها أن تسير سيرة آبائها في العمل للخير ورفع شأن الاسلام .

ومن الواضح أن القادة الذين سبق ذكرهم (الحسين والحر وعمر ابن سعد) كانوا يخشون دم الحسين ويتمنون ألا يمسه بسوء وكان ذلك دعاءهم دائماً ، وقد استطاع عمر بن سعد أن يحصل على اتفاق مع الحسين ظن فيه السلامة ، فقد عرض عليه الحسين أن يعود الى المدينة ، أو يسير الى أى ثغر من ثغور المسلمين فيكون مجاهداً في سبيل الله ، أو يسير الى يزيد بدمشق ، وأرسل عمر بهذا الى عبيد الله فسر به عبيد الله وأظهر الموافقة ، ولكن سرعان ما قال شمر بن ذى الجوشن : أتقبل هذا منه ؟ والله لئن رحل من بلدك ولم يضع يده في يدك ليكونن أولى بالقوة والعزة ولتكونن أولى بالضعف والعجز ، فلا تعطه هذه المنزلة ، فانها من الوهن ، ولكن لينزل

على حكمك هو وأصحابه • فقال ابن زياد : نعم ما رأيت ، الرأي لك (١) •

وارسل ابن زياد خطاباً قاسياً الى عمر بن سعد مع شمر بن ذي الجوشن وأمره أن يرسل الحسين اليه مع أصحابه فان أبى الحسين فليقاتله عمر ، فان قتله جعل الخيل تطلا صدره وظهره ، وختم ابن زياد خطابه بقوله : ان أنت مضيت لأمرنا جزيئك جزاء السامع المطيع ، وان أبييت فاعتزل عملنا وجندنا واخل بين شمر وبين العسكر فاننا قد أمرناه بأمرنا •

وأبى الحسين الاستسلام فلم يبق الا الحرب ، واشترك في حربه القادة السابقون الا الحر بن يزيد فاته عدل الى الحسين لما أبى ابن زياد أن يقبل ما عرضه الحسين وكان يظن أن فيما عرضه الحسين ما يكفي للسلامة (٢) ودارت معركة غير متكافئة ، جيوش معدة من جانب وجماعة صغيرة العدد قليلة العدد من جانب آخر ، وتساقط أتباع الحسين دونه ، وكان أول القتلى من جماعة الحسين مسلم بن عوسجة ثم عبد الله بن عمير الكلبي وهما من خيرة الأبطال ، ثم توالى النصر وتساقط الأهل والأصدقاء ولم يبق مع الحسين الا رهط من ثلاثة أو أربعة ثم هوى هذا الرهط بين يديه وبقي وحده • وتوضح لنا كل الروايات الموجودة أن رجال عمر بن سعد كانوا يتحاشون قتل الحسين ، وأتيحت الفرصة لكثيرين منهم ليقتلوه دون عناء ولكن كان كل منهم يتمنى أن يكون قتله على يد سواه ، كان الحسين يحمل عليهم فيولون الأدبار لا خوفاً ولكن جلالاً وهرباً من دمه • ويقول الطبري (٣) : ولقد مكث طويلاً من النهار ولو شاء الناس أن يقتلوه لفعلوا ، ولكن كان يتقى بعضهم ببعض ، ويحب هؤلاء أن يكتفهم هؤلاء دمه ، فنادى شمر في الناس : ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل ؟ أقتلوه ثكلتكم أمهاتكم • فحمل عليه الجند من كل جانب وضربه زرعة بن شريك التميمي ضربة على عاتقه فجعل ينوء ويكبو من قسوة الألم ، ثم جاء رجل فيه لوثة

(١) الطبري ج ٤ ص ٢١٣ — ٢١٤ والعقد الفريد ج ٤ ص ٣٧١ •

(٢) تاريخ الامم والملوك ج ٤ ص ٣٢١ ، ٣٢٥ •

(٣) الجزء الرابع ص ٢٤٦ •

اسمه سنان بن أنس قطعنه بالرمح وقضى عليه واحتز رأسه ، ومما يدل على جنون هذا القاتل أنه حمل الرأس وذهب الى عمر بن سعد وأنشد :

أوقر ركابي فضة وذهبا
أنا قتلت الملك المحجبا
قتلت خير الناس أمأ وأبأ
وخيرهم — اذ ينسبون — نسباً

فقال عمر : أشهد أنك لمجنون ، ولو سمعك ابن زياد تقول هذا لضرب عنقك ، وقد قتل من جيش ابن زياد سبعة وثمانون رجلاً ، وكان الحسين في الخامسة والخمسين عند مقتله ، وقد وجدت به ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة ، وكان قتله في العاشر من المحرم ، وإذا جاز لنا أن نتعجل الأحداث في كلمة قصيرة قلنا ان قتلة الحسين ما بقى أحد منهم الا وعوقب في الدنيا ، أما بالقتل أو بالعمى أو سواد الوجه أو زوال الملك في مدة يسيرة (١) ، وسيأتى فيها بعد تفصيل ذلك عند كلامنا عن المختار بن أبى عبيد .

والعجيب أن هذا المسمى عمر بن سعد تمادى في ضلاله وطاعة سيده ابن زياد فأمر أصحابه أن يوطئوا خيلهم الحسين ففعلوا حتى رضوا صدره وظهره (٢) ولم ينج من هذه المعركة الا خمسة هم على زين العابدين ، وكان مريضاً فلم يحضر المعركة ، وعمته زينب ، وأخوه الأصغر عمر ، وأختاه فاطمة وسكينة (٣) ، وحمل هؤلاء مع رأس الحسين الى الطاغية ابن زياد ، فأرسل الجميع الى يزيد ، وقد كان ارسال رءوس القتلى والشهداء الى أصحاب المصلحة في قتلهم سنة متبعة ليتأكدوا من نهاية خصومهم ، وفي مواضع متعددة بهذه الموسوعة ذكرنا نظائر لهذا الحادث ، ويروى أن يزيد

(١) انظر ابن الجوزى : تذكرة خواص الامة ص ١٥٨ .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٢٤٧ .

(٣) عقيدة الشيعة ص ١١٤ .

عندما رأى هذا الركب بكى وبكت معه نساء بنى أمية ، وأكرم يزيد مثوى هؤلاء ، وجزاهم عما سلب منهم ، وردهم الى المدينة (١) .

رأس الامام الحسين ومدفنها الآن :

أين دفن رأس الحسين ؟

موضوع يثار من حين الى آخر ، وليست لدينا معلومات دقيقة عنه ، ولكن لدينا أفكار حول الموضوع لعلها تنير لنا السبيل :

أولاً — إن اكرام الميت دفنه كما تقضى بذلك الشريعة الاسلامية ، ولقد دفن جسم الحسين حيث قتل في كربلاء ، أما الرأس فقد قضت الضرورة تأخير دفنه للالتزام عبيد الله بارساله الى يزيد بدمشق ، وبعد أن رأى يزيد الرأس كان من الطبيعى أن يدفن بسرعة .

ثانياً — لم يكن من مصلحة يزيد أن يسمح لأهل الامام الحسين باضطحاب الرأس في رحلة العودة الى المدينة لأن هذا يثير السخط عليه في كل مكان يمر به ابن بنت رسول الله ، وربما أشعل ثورات عليه .

ثالثاً — لا نتصور أن يقبل أهل الامام أن يدفن الرأس بدمشق خوفاً من أعداء آل البيت الذين كانوا كثيرين في بلاط يزيد ويخشى أن يحدثوا بالرأس الشريف حدثاً يتنافى مع جلاله ومكانته .

ولعل هذه الأفكار هي التي دعت الى حل وسط هو ما أشار اليه المقرئ (٢) وأبو الفدا (٣) بأن الرأس الشريف دفن بعسقلان في فلسطين ، ويرجح هذان المؤلفان أن الدولة الفاطمية عندما جاءت الى مصر نقلت رأس الحسين الى القاهرة . وهذا يتمشى من النمط المعروف عن الفاطميين ، فقد

(١) الفخرى ص ٩٩ — ١٠٠ .

(٢) الخطط ج ٢، ص ١٨٣ — ١٨٤ .

(٣) المختصر في أخبار البشر ج ١ ص ١٩١ .

نقلوا جثث آبائهم وأجدادهم من تونس الى القاهرة لأنهم كانوا يتجهون الى جعل مصر مركزا لنشاطهم في الشرق والغرب •

السيدة زينب ووفادتها الى مصر :

كانت السيدة زينب أخت الحسين وبنت الامام علي فصيحة لبيبة ، رقيقة القلب ، عالمة ، وقد أعادها يزيد مع ذويها الى المدينة ، وكانت آنذاك تعد كبيرة الركب ، فالتفت القلوب حولها ، وكانت شديدة التأثير على الناس بشخصيتها وبطولتها ، ويروى أنها لما عادت الى المدينة أحاط الناس بها ، واتخذوا دارها مزارا ومركزا لتجمعاتهم ، فخاف من ذلك حاكم المدينة عمرو ابن سعيد فكتب الى يزيد بذلك ، فأجابه يزيد بأن يطلب منها أن تختار لها أى بلد آخر لتعيش به عدا المدينة •

وكان معروفا عن مصر أنها شديدة الولاء لعلى بن أبى طالب ، وقد ظلت حريصة على الاعتراف بخلافته ، واستعصت على معاوية على الرغم من أن معاوية كان بالشام على حدود مصر ، وكان له جيشه وسلطانه ، ولم يستطع أن يقهر والى مصر الا بعد حيل طويلة أوردناها في الجزء الاول من هذه الموسوعة (١) ومن أجل حب المصريين لآل البيت واحسان السيدة زينب بذلك كان من الطبيعي أن تختار مصر محلا لاقامتها ، فحضرت الى مصر ومعها السيدة فاطمة والسيدة سكينة ابنتا الامام الحسين ، أما على ابن الحسين فلم يكن من الممكن أن يغادر الحجاز ليقوم بواجبه هناك ما وسعته الحيلة •

ويروى أنه لما سمع والى مصر بمقدمتها خف للقائها ومعه جمع من العلماء والأعيان واستقبلوها عند بلدة العباسية بالشرقية وخصص لها منزل أقامت به في القاهرة وماتت رضى الله عنها سنة ٦٢ هـ ودفنت في مكان أقامتها وأقيم لها بعد ذلك الضريح العظيم بالحى الذى عرف باسمها •

(١) ص ٦٣١ وما بعدها من الطبعة الحادية عشرة •

المؤرخون والمعرفة :

يختلف المؤرخون بطبيعة الحال في التعليق على معركة كربلاء ، فمنهم من اكتفى بذكر الروايات التاريخية دون أن يبدى رأيا فيها كالطبرى وابن الأثير وابن قتيبة وغيرهم ، ومنهم من علق عليها سابا أعداء الحسين ومنزلا لللعنة عليهم كابن طباطبا (١) والعقاد (٢) ، ومنهم من علق على نتائجها فقط كالسيد أمير على الذى يقول : أن مذبحة كربلاء أشاعت الذعر فى البلاد الاسلامية وأشعلت حماسة الفرس • ودفعتهم الى كفاح الأمويين حتى أسقطوا دولتهم وأقاموا دولة بنى العباسى (٣) •

وكان نيكلسون من المؤرخين القلائل الذين علقوا تعليقات عملية على هذه الحادثة فذكر أن المؤرخين المسلمين الذين كانوا فى الغالب يكرهون بنى أمية عدوا الحسين شهيداً وعدوا يزيد سفاكا ، ولكن ذلك لا يوافق رأى المحدثين من المؤرخين الذين يعدون الحسين ثائراً محدثاً فتنه ضحى بنفسه فيها •• (٤) •

وعلق Wellhausen كذلك على هذه الحادثة تعليقا فيه جراءة المستشرقين قال : وما كان مثل الحسين الا كمثّل آنية من الفخار اصطدمت بحديد هو عبيد الله ، لقد مضى الحسين كما مضى المسيح فى طريق مرسوم ليضع ملكوت الدنيا تحت الأقدام ، ومد يده كالطفل ليأخذ القمر ، ادعى أعرض الدعاوى ولكنه لم يبذل شيئا فى تحقيق أدناها بل ترك للآخرين أن يعملوا من أجله كل شيء ، وفى الواقع لم يكن أحد يوليه ثقة ، (يقصد ما دوناه فى هذا البحث من أن المهاجرين والأنصار وهم عصب الاسلام تخلوا عن الحسين ولم يؤيدوا حركته من أول الأمر) ولم يكذب يصطدم بأول مقاومة حتى انهار ، فأراد الانسحاب ولكن كان ذلك متأخراً ، فاكتفى بأن راح ينظر

(١) الفخرى فى الاداب السلطانية .

(٢) الحسين سيد الشهداء فى عدة أمكنة .

(٣) A Short History of the Saracens p. 87.

(٤) See - A Literary History of the Arabs p. 107.

الى أنصاره وهم يموتون في القتال من أجله ، وأبقى على نفسه حتى اللحظة الأخيرة (١) .

ونحب أن نعلق على هذه الحادثة من عدة جوانب :

فأولاً : لا نشك في أن ابن زياد كان طاغية جباراً ، خلا قلبه أو كساد من الانسانية ، فماذا كان عليه لو أرسل الحسين الى يزيد ليرى فيه رأيه ؟

ثانياً : هذا الشيخ النزق الذي يسمى عمر بن سعد كيف باع دينه وماضى أسرته ليرضى الدنيا ولينال الجزاء من السفاك عبيد الله بن زياد ؟ وماذا كان سيخسر لو اعتزل الأمر ؟ وكيف جاز له أن يهمل النسوة من أقاربه ؟ وأن يأمر أن تطاء الخيل صدر الحسين وظهره ؟

ثالثاً : نجى الى الحسين رضى الله عنه لنقرر أن تصرفاته في بعض نواحي هذه المشكلة كانت غير مفهومة للمنطق ولا مقبولة للعقل العادى ، والباحثون الذين يتبعون المنطق والعقل العادى ينظرون الى موقف الحسين ويحكمون عليه بالمقاييس العادية فيقصون عليه باللوم لأنه :

١ — لم يقبل نصيح الناصحين وبخاصة عبد الله بن العباس .

٢ — نسى أو تجاهل خلق أهل الكوفة وما فعلوه مع أبيه وأخيه .

٣ — خرج بنسائه وأطفاله وقلة من الأتباع متجاهلاً قوة خصمه العاتية .

٤ — عرف في الطريق غدر أهل الكوفة ومع هذا واصل السير مستجيباً لرأى بنى عقيل الذين أصروا — دون استعداد — على أن يأخذوا بثأر مسلم بن عقيل أو يموتوا على ما مات عليه .

٥ — أخذ الحسين يتقى السهام والضربات بأولاده وأهله وصحبه حتى خروا جميعاً بين يديه .

ونتهف في النهاية مع المنطقيين صارخين : يا لله : قد تكون ولاية يزيد العهد عملاً خاطئاً ، ولكن هل هذا هو الطريق لمحاربة الخطأ والعودة الى الصواب .

هذا هو اتجاه المنطقيين ، ولكن هذا الاتجاه ليس هو كل شيء في قضية ثورة الحسين رضى الله عنه ، فما كانت هذه الملاحظات لتغيب عن فكر الحسين ، ومن أجل هذا ينبغي علينا أن نذكر أن بعض المفكرين الذين يمتازون بالعمق يرون أن تصرفات الحسين ، كانت صادرة عن عقل عميق موهوب ، ليس من السهل على الطبيعة العادية أن تدرك كنهه ، وأن الحسين رأى أن صرح بنى أمية لايزعزعه الانتضحية جسيمة ، فجعل من نفسه وآله هذه التضحية وهذا الفداء ، ليثير الناس على قاتليه ، فيقضى بذلك على هذا الصرح ، وينقذ المسلمين من نظام توارث السلطة ، وسواء خطر هذا ببال الحسين أو لم يخطر فإن النتيجة كانت مطابقة لهذا الاتجاه ، وكان دم الحسين هو المعول الذى قوض الحكم الأموى .

وإذا كان التفكير الاسلامى يرى أنه لا يجوز الخروج على السلطان الجائر الا لجماعة لهم من القوة والمنعة ما يغلب على ظنهم معها أنها تكفى للنهوض وازالة الجور (١) ، فإن قوة الحسين ومن معه كانت كذلك ، ولكن على المدى الطويل ، فقد استطاع الحسين بهذه الدماء أن يسقط بنى أمية ، وتكاد هذه النتيجة تكون موضع اجماع من المؤرخين .

وعلى كل حال فقد كانت فتنة أيسر ما نقول عنها أنها وسعت باب الفرقة والتهمت الآلاف والملايين من المسلمين ولا يزال بابها مفتوحاً حتى كتابة هذه السطور ، وقد أخذ مدعو التشيع هذه الحادثة ليضعوا حولها ألواناً من الخرافات سنتحدث عن بعضها عند الكلام عن « التوابين » فيما يلى ، ومن أهم ما نورده هنا ما روى من أن الشيعة كانوا اذا مات شيعى وضعوا له قلادة من حلين تربة الحسين في رقبتيه ، وخاتماً في سبابتيه ،

(١) مقالات الاسلاميين للاشعرى ج ٢ ص ١٤٠ .

وضمنوا له بذلك الجنة (١) ، وما نسب إلى علي الرضا من أنه قال :
ان أكل طين من القبر حرام كآكل الميتة ، الا طين تربة الحسين فهو شفاء
من كل داء .

التوابون :

لم يضع عبد الله بن الزبير الفرصة ، فما إن قُتل الحسين حتى
أيقن أن الأمر خلا إليه ، فأعلن نفسه خليفة في مكة ، وأعلن الثورة على بني
أمية ، وقد ذاع أمره وعظم خطره ، وبخاصة عندما مات يزيد بعد مقتل
الحسين بسنتين وبضعة شهور واضطرب جبل بني أمية في الشام عقب موته ،
ومستكلم عن هذا فيما بعد ، ولكن الذي يهمنا الآن أن الطاغية عبيد الله ابن
زياد عجز عن ضبط الأمن في البصرة والكوفة عند ما اختل الأمر في الشام ،
فتسلل في الظلام ، وكان في البصرة حينذاك ، ونجا بنفسه من ثورة أعدائه
الكثيرين ، وفي هذا الجو ظهر التوابون .

والتوابون جماعة من شيعة الكوفة ينسب عنهم هذا الاسم . انهم
اعترفوا بضلالتهم ، وبأنهم دعوا الحسين إلى بلادهم ثم انفضوا عنه ،
ثم قتلوه (٢) ، وأرادوا أن يكفروا عن اثمهم وأن يزيلوا خطيئتهم ، وكان
سبيلهم إلى ذلك التوبة والتأثر للحسين ، وبذلك سمو التوابين ، انهم
سموا التوابين لادعائهم التوبة ، ولكن ممن يأخذون التأثر ؟ كان أولى
بهم أن يثأروا للحسين من أنفسهم ، بيد أنها الكوفة ومدعو التشيع بها ،
يعيشون في سلسلة من الثورات ، يثورون على بني أمية فيدعون الحسين
اليهم ، ويثورون لبني أمية فيقتلون الحسين ، ثم يثورون للحسين
فيحاولون التأثر له .

(١) عقيدة الشيعة ص ١٠٣ — ١٠٤ .

(٢) من الاسماء التي تذكرها المراجع التي بين أيدينا وتنسب لها القدرة
على التقلب شيث بن ربيعي التميمي الذي حارب ضد الحسين بعد أن كان أحد
الذين دعوه إلى الكوفة ، وحيد بن مسلم الأزدي الذي اشترك في قتل الحسين
ثم عاد فأصبح من أشد المتحسين للاخذ بثأره .

ويقول الطبري : ان الشيعة قد تلاقت بالتلاويح والتندم ، ورات أنها قد أخطأت خطأ كبيراً بدعائهم الحسين الى النصره وتركهم اجابته حتى قتل الى جانبهم دون أن ينصروه ، ورأوا أنه لا يفسل عارهم والاثم عنهم في مقتله الا بقتل من قتله أو القتل فيه ، ففزعوا بالكوفة الى خمسة نفر من رؤوس الشيعة (١) ، واستقر الرأي بعد مناقشات بينهم على أن تكون الرياسة الى سليمان بن صرد الخزاعي وكانت له صحبة مع الرسول • ولكن سليمان سرعان ما أدرك أن قتلة الحسين هم هؤلاء المطالبون بدمه ، وقد جاء في كلماته التي يرويها الطبري « انى نظرت فرأيت أن قتلة الحسين هم أشراف أهل الكوفة وفرسان العرب وهم المطالبون بدمه (٢) » ومع هذا هتف هؤلاء « يا لثارات الحسين » وتجمع عدد كبير وأصبح لهم السلطان على الكوفة ، وبدعوا يهددون سلطان الشام •

وفي هذه الأثناء كان مروان بن الحكم قد قفز الى الخلافة وانتصر على معارضية في الشام ، وبدأ يتطلع لاختضاع جميع الثائرين في العالم الاسلامي ، وكان « التوابون » من الثائرين الذين اتجهت لهم همته ، ومن الطبيعي أن يلجأ الى الطاغية العارف بمواطن الضعف في الكوفة وفي رجالها إلى عبيد الله بن زياد ، فسيره بجيش كبير من أهل الشام ، والتقى ابن زياد بالتوابين عند مكان يقال له « عين الورد » حيث دارت معركة عنيفة سقط فيها سليمان بن صرد وكثيرون من التوابين وانتصر أهل الشام (٣) • وكان ذلك سنة ٦٥ هـ •

ولم ينته التوابون بعد هذه الموقعة ، بل ظلوا يطلبون التوبة والغفران لذنبهم العظيم ، ولا تزال بقايا التوابين تعيش في العراق حتى العهد الحاضر ، ولقد رأيتهم عند زيارتي للعراق سنة ١٩٥٠ يجتمعون في أيام

(١) تاريخ الامم والملوك ج ٤ ص ٤٢٦ •

(٢) المرجع السابق ص ٤٣٢ •

(٣) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٤٦٢ وما بعدها وتاريخ اليعقوبي ج ٣ ص

وعقيدة الشيعة ص ١١٦ وتهذيب الاسماء للنووي القسم الاول ج ١ ص ٢٣٤ •

عاشوراء في الفترة التي قتل فيها الحسين ويكونون جمعات كبيرة ، ينشدون أناشيد حزينة حماسية ، ثم يتوقفون عن الانشاد فترة يضربون فيها صدورهم العارية بقسوة عنيفة عدة ضربات ، ثم يعودون الى الانشاد ثم الضرب وهكذا ، حتى تسيل الدماء من صدورهم أو تكاد ، ومنهم من لم يكتف بضرب نفسه بيده بل يعمد الى خنجر أو سيف فيضرب به رأسه ويسيل دمه ، وتعتبر تلك الأفعال عندهم من وسائل التوبة ، اذ أنهم يعتقدون أن أخطاء أجدادهم قد انحدرت اليهم ولا وسيلة لتكفير هذه الأخطاء الا اراقه دمائهم في نفس الفترة التي أريق فيها دم الحسين ، وبعضهم يبالغ في هذا التكفير فيسيل دمه على الأرض ليختلط بالتربة التي امتصت دم الحسين فكانه بذلك امتزج به ولم يضل عليه بدمه .

المختار بن أبي عبيد

من نتائج الطائف شخصيات بعيدة الغور ، واسعة الشهرة ، غير واضحة المعالم ، أو قل أنها مضطربة المعالم ، ومن أهم هؤلاء المختار بن أبي عبيد والحجاج بن يوسف الثقفي وزيايد بن أبيه وابنه عبيد الله . وقد ولد المختار في السنة الأولى للهجرة ، ولقب أحياناً بكيسان لأنه تلقى العلم عن « كيسان » مولى على أبي طالب ، أو لأن كيسان حثه على الأخذ بثأر الحسين وعرقه بقاتليه ، ويرى البغدادي أن « كيسان » كان لقبا أصيلا للمختار (١) .

والمختار شخصية من الشخصيات القلقة في التاريخ الاسلامي ، وأعتقد أن أدق وصف له أنه رجل كان يسعى للجاء والمال ولا يهتم بالوسائل التي توصله اليهما ، فهو مستعد أن يكذب وأن يناقض وأن يدعى النبوة أو الألوهية ، وأن ينقلب من صديق الى عدو ومن عدو الى صديق اذا كان ذلك يساعد على تحقيق مآربه . ومن الواضح أن مثل هذا الرجل لا بد أن يكون ذكيا حاد الذكاء ، ومنحرف الذكاء في نفس الوقت .

كان في صباه ملتحقاً بعمه سعد بن مسعود الذي كان عاملاً لعلى ابن أبي طالب على المدائن ، فعاملاً لابنه الحسن من بعده ، ولما انهارت قوى الحسن واعتدى عليه لجأ الى المدائن . فقال المختار لعمه : هل لك في الغنى والشرف ؟ قال العم : وما ذلك ؟ قال المختار : أن توثق الحسن وتبتأمن به الى معاوية . قال سعد : عليك لعنة الله ، أثب على ابن بنت رسول الله فأوثقه ؟ بثس الرجل أنت (٢) .

وهكذا كان المختار يريد أن يقدم الحسن قربانا لينال الخطوة مع عمه عند بني أمية ، ولكن هذه الأمنية لم تتم ، فليحاول المختار طريقا آخر أو طريقا أخرى للجاء والمال :

رأى المختار أن انضمامه للشيعة آنذاك سيجذب اليه كثيرين من

(١) الفرق بين الفرق ٢٦ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ١٢٢ .

الأنصار والأعوان ، ففتح باب داره بالكوفة لمسلم بن عقيل عندما وفد هذا الى الكوفة وبايعه وساعده (١) ، ولما قتل مسلم أمر ابن زياد بالقبض على المختار وضربه بقضيب فشتر به عينه كما يقول الطبرى ثم ألقاه فى السجن (٢) .

وكانت صفية أخت المختار تحت عبد الله بن عمر فبكت لما أصاب أخاها ، فكتب عبد الله الى يزيد بن معاوية يستشفع للمختار ، فأمر يزيد واليه ابن زياد أن يخلى سبيل المختار ، فأطلقه عبيد الله وأمره أن يدع الكوفة ففعل ، وطاف المختار هنا وهناك ثم انتهى به المطاف الى عبد الله بن الزبير بمكة ، وكان ابن الزبير قد أعلن نفسه خليفة ، وكانت حاجته الى المختار ظاهرة وحاجة المختار اليه واضحة ، ولكن « السيفان لا يجتمعان فى قراب واحد » فكان كل منهما يخشى الآخر ولا يطمئن اليه . وسنتقل فيما يلى رواية الطبرى التى تبين لنا حاجة كل منهما للآخر وحذره منه :

لما التقى المختار بابن الزبير قال المختار : انى قد جئتك لأبايعك على الا تقضى الأمور دونى ، وعلى أن أكون أول من تأذن له ، وإذا ظهرت استعنت بى على أفضل عملك . فقال له ابن الزبير : أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه .

ولكن المختار لم يقنع بأن ينزل على كتاب الله وسنة النبى ، فصاح بابن الزبير . وشر غلمانى أنت مبايعه على كتاب الله وسنة نبيه ، فمالى اذا فى هذا الأمر من الحظ الا ما لأقصى الخلق منك . لا والله لا أبايعك أبدا الا على الخصال التى ذكرتها .

قال عباس بن سهل وهو من أصحاب ابن الزبير : فالتقمت أذن ابن الزبير فقلت له : اشتر منه دينه حتى ترى رأيك . فقبل ابن الزبير شروط المختار وتمت عليها البيعة (٣) .

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٤١ .

(٢) المرجع السابق ٤٤٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٤٥ .

وصعد المختار بجانب ابن الزبير ابان محنة الحصار الأول لمكة الذى قام به الحصين بن نمير السكوتى فكان من أحسن الناس بلاء وأعظمهم غناء . وفى أثناء هذا الحصار مات يزيد واضطربت دمشق : وعلا أمر ابن الزبير ودان له أغلب العالم الاسلامى ، ولكن ابن الزبير لم يستعمل المختار على أية ناحية من النواحي التابعة له ، وكأنما أحس ابن الزبير بانتظام أمره فأهمل شأن المختار ، ولما أحس المختار بذلك فكر فى الكوفة فهى المهد الوثير لمن يرغب الفتنة ويعمل على اشعال الثورات ، وسأل المختار بعض القادمين من الكوفة فعرف أنهم يتبعون ابن الزبير ولكن بها رجالا يكتمون أمرهم وينتظرون من يقودهم ليأكل بهم الأرض . ولكن رجالا يكتمون أمرهم وينتظرون من يقودهم ليأكل بهم الأرض . قال المختار : أنا أبو اسحاق ، أنا والله لهم ، أنا أجمعهم على الحق . وأنفى بهم ركبان الباطل ، وأقتل بهم كل جبار عنيد . وبدأ رحلته الى الكوفة مهد الثورات ومركز الفتن (١) .

وفى الكوفة وجد المختار ثورة التوابين فى مطلعها وحاول أن تكون له قيادتها ولكن أغلب الشيعة اختاروا سليمان بن صرد لقيادتهم ، ولم ينضم اليهم المختار بل جلس ينتظر وتشكك فيه عامل ابن الزبير فحبسه ، فلما هزم التوابين وعاد شتاتهم الى الكوفة انتهز المختار هذه الفرصة فكتب الى قائدهم رفاعة بن شداد من السجن يقول « أما بعد فمرحبا بالعصبة الذين عظم الله لهم الأجر حين انصرفوا ، ورضى انصرافهم حين قفلوا ، أما ورب البنية التى بنا ما خطا خاطئ منكم خطوة ، ولا رثارثة الا كان ثواب الله له أعظم من ملك الدنيا ، وان سليمان قد قضى ما عليه وتوفاه الله فجعل روحه مع أرواح الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين . ولم يكن بصاحبكم الذى به تنصرون ، انى أنا الأمير المأمور ، والأمين المأمون ، وأمير الجيش ، وقاتل الجبارين ، والمنقم من أعداء الدين ، والمقيد من الأوتار . فأعدوا ، واستعدوا ، وأبشروا ، واستبشروا . أدعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٤٧ .

سلم والى الطلب بدماء آل البيت والدفاع عن الضعفاء وجهاد
الطين» (١) فلما تلقى قادة الشيعة ذلك حضروا الى المختار فانتزعوه من
السجن ، وبدأ الخطوة الأولى من خطوات قيادته •

وقام المختار بأمور متناقضة لم يسترها بعض الشيء الا ذكاؤه
الوقاد ، ولكنها على كل حال ظهرت للأعين النفاذة فقد ادعى المختار أن
ابن الحنفية هو الذى أرسله وأنه وزيره ويعمل باسمه للطلب بحق أهل
البيت والثأر من قاتلى الحسين وصحبه ، ولكنه فى نفس الوقت أمّن عمر
ابن سعد وجالسائه ولم يتعرض لقتلة الحسين بسوء (٢) ، حتى قال ابن
الحنفية لبعض رجال المختار : انه يدعى أنه لنا شيعة وقتلة الحسين
جلساؤه على الكرسي يهدثونه (٣) وادعى المختار أنه يسير على سنة القرآن
وهدى الاسلام ، ولكن ظهرت منه ألوان من الضلالات تبعده عن الاسلام
وحوزته ، فمن ذلك أنه كان عنده كرسي قديم قد غشاه بالديباج وزينه
بأنواع الزينة ، وقال : هذا من ذخائر أمير المؤمنين على كرم الله
وجهه ، وهو عتقنا بمنزلة التابوت لبني اسرائيل ، وكان اذا حارب
خصومه حمله فى الصف الأول وقال : قاتلوا ولكم الظفر والنصرة • وله
اسجاع يقلد بها القرآن • ووعود يدعى بها علم الغيب فان تحققت جعل
ذلك دليلا على صدق دعواه وان لم تتحقق قال : قد بدا لربكم ، وذلك
هو القول « بالبداء » أى أن الله يغير رأيه لانه يبدو له شيء جديد (٤) •
وهكذا نجد فى ادعاء المختار للتشيع لونا جديدا لم نره من قبل ،
فقد رأينا مدعى التشيع يقصدون الى تهديم الاسلام ، ولكن المختار
ادعى التشيع قاصدا الجاه والمال •

وقد تشكك بعض الشيعة فى أمر المختار عندما بدأ أمره يظهر فذهب
وفد منهم الى محمد بن الحنفية يسألون رأيه فيه ، وأجاب ابن الحنفية
جوابا مبهما اذ قال : والله لوددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء

(١) الطبرى ج ٤ ص ٤٧١ •

(٢) المرجع السابق ص ٤٤٩ •

(٣) المرجع السابق ص ٥٢٣ •

(٤) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٣٢ — ١٣٣ •

من خلقه ، وعاد هؤلاء بذلك القول فاتخذوه المختار دليل تأييد له من ابن الحنفية ، وجمع الجموع حيث خطب أعضاء هذا الوفد وذكروا أن ابن الحنفية يؤيد المختار (١) .

وقيل للمختار : ان ابراهيم بن الأستر هو القائد المهيب الجانب في الكوفة ، وانه اذا انضم للمختار ضمن المختار ألوانا من النجاح ، وكان ابراهيم متشككا في أمر المختار ، ولكن المختار لم يدعه للشك فوضع خطابا على لسان ابن الحنفية وقفله وختمه وحمله الى ابن الأستر وأحضر من اليهود من أيد أن هذا الخطاب من ابن الحنفية ، فلما قرأه ابراهيم وجد فيه اعتراف ابن الحنفية بأن المختار وزيره ورسوله للطلب بدماء آل البيت، ووجد فيه كذلك أمرا من ابن الحنفية لابراهيم أن ينضم للمختار مع أهله وعشيرته ، وخضع ابراهيم للأمر وانضم ، فكان من أكبر عوامل النصر التي تحققت للمختار (٢) .

وتجمعت للمختار بذلك عوامل الأمل في النصر فبدأ كفاحه المسلح وانتصر فيه ، فهزم أنصار عبد الله بن مطيع عامل ابن الزبير على الكوفة وخلص له الأمر فيها ، وامتد ملكه حتى الموصل وهبت بالبصرة ثورة تؤيده، وقرب بذلك من القمة (٣) .

ولكن الكوفة لم تجد في المختار قط ما يدعوها للاطمئنان اليه وتصديقه فيما يدعيه ، فقد كان حتى الآن يسمح لقتله الحسين بمصادقته ومجالسته وكانت ترهاته وأباطيله تنفثو وترداد ، وكان ابن الأستر نفسه يراوده الشك وهو يحمل هذا الكرسي في حروبه ، فليس له بذلك عهد في الحروب الاسلامية ، ولكن تصديق ابن الأستر كان أقوى من شكه فبقى مخلصا له الى حين .

وخطا المختار خطوة أخرى يريد أن يتوج بها انتصاراته فبدأ يحارب عبيد الله بن زياد ، وأرسل المختار لذلك جيشا بقيادة يزيد بن أنس،

(١) الطبري ج ٤ ص ٤٩٢ .

(٢) اقرأ نص الخطاب في الطبري ج ٤ ص ٤٩٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٥٠٧ وما بعدها .

ولكن جيش الشام غلبه وخر يزيد في هذه المعركة ، فأرسل المختار جيشا آخر بقيادة قائده الأول ابراهيم بن الأشتر ، ووجدت الكوفة الفرصة للثورة على المستر فقد بدأ ينهزم أمام أهل الشام ، وقد خلت الكوفة من قائده المهيب وأكثر أتباعه ، فهبت بالكوفة ثورة عارمة ، أعلن قائدها أن المختار كذاب وأنه غير مؤيد اطلاقا من محمد بن الحنفية ، وأحاطت الثورة بقصر الرياسة وفيه المختار ومنعوا عنه الماء وهددوا حياته ، ولكن ذكاء المختار لم يخنه ، فعالج أمره بحكمة أنقذته من هزيمة محققة ، فأرسل سرا يستدعي ابراهيم بن الأشتر وجيشه ، وفي نفس الوقت كتب للثوار يطلب أن يرسلوا وفدا مشتركا لابن الحنفية ليستبين للناس رأى ابن الحنفية ، وكان يقصد بذلك الإبطاء والتأخير حتى يعود جيش ابن الأشتر وعاد هذا الجيش ، وتولى المختار قيادة جزء منه وتولى ابن الأشتر قيادة الجزء الآخر وأنزلا بالكوفة هزيمة شنيعة ، ووجد المختار الفرصة سانحة ليتخلص من قتلة الحسين ، فنكل بهم وقتلهم ، أرضاء للشيعه من جهة وانتقاما منهم لما أبدوه من تأييد للثائرين ضده من جهة أخرى ، وكان في قمة من قتلهم عمر بن سعد بن أبي وقاص وابنه (١)

وعاد المختار بعد أن أخضع الكوفة لحرب عبيد الله بن زياد فأرسل اليه جيشا كثيفا بقيادة ابن الأشتر في ذي الحجة سنة ٦٦ هـ ، وفي مطلع العام الثاني دارت معركة عنيفة عند نهر خازر بالقرب من الموصل بين ابن الأشتر والطاغية ابن زياد ، وقد استطاع ابن الأشتر أن يضرب ابن زياد ضربة قدته نصفين ، وسقط في هذه المعركة أيضا الحصين بن نمير السكوتى الذى سبق له أن حاصر الكعبة ورمأها بالمنجنيق . ووصل المختار بذلك الى قمة مجده فدانته له الموصل وأرمينية واذربيجان ، وأرسل رأس ابن زياد الى المدينة وأحرق جثته (٢) .

ولكن المختار لم يدم في القمة طويلا ، فقد اجتمعت عليه عوامل هزت المجد الذى يجلس عليه ، وأهم هذه العوامل تراهاته وأباطيله

(١) الطبرى ج ٤ ص ٥٣٢ .

(٢) اليعقوبى ٦ : ٣ والطبرى ص ٥٥٥ .

تريد كل يوم ظهورا ووضوحا مما جعل ابن الحنفية يعلن براءته منه (١) .
وقد سبب هذا الاعلان خسارة كبيرة للمختار فقد فتر عنه قائده الاعظم
ابراهيم بن الاشتر وبقي بالموصل ، بعد هزيمته لعبيد الله بن زياد ، وظهرت
الجفوة بين المختار وبينه ، ومن العوامل التي أضعفت المختار كثرة الدماء
التي سفكها بالكوفة ليصل الى المجد أو ليحافظ عليه بعد أن وصل اليه ،
ومن هنا كذلك أنه اعتمد على الكوفة واتخذها عاصمة له ، ولا بد أن يهوى
الى القاع كل من اعتمد على الكوفيين أو وثق بهم . ثم يجيء العامل
الأهم وهو أن انتصارات المختار جعلته منافسا لخليفتي عظيمي أحدهما
عبد الله بن الزبير بمكة والثاني عبد الملك بن مروان بدمشق وهيئات أن
يستطيع المختار أن يصمد لهذين البيطلين أو لهذه العوامل مجتمعة .

وعين عبد الله بن الزبير أخاه مصعبا واليا على البصرة وأمره بحرب
المختار ، وصحب معه بطلا مغوارا هو المهلب بن أبي صفرة ، ودارت معركة
عنيفة بحمام أعين قضى فيها على جيش المختار الذي كان يقوده أحمر ابن
شميط بعد أن اعتزل ابن الأشر قيادة جيوش المختار ، ولم ينج من جيش
المختار الا الفرسان الذين ولوا بخيولهم هاربين ، وانتهر أهل الكوفة هذه
الفرصة فانقضوا من حول المختار وثاروا عليه ، وسرعان ما وجد نفسه
وحيدا ليس معه أحد ، فنزل بسيفه يحارب ويقا تل حتى خر قتيلًا في شوارع
الكوفة ، وكان ذلك في نفس السنة التي قتل فيها عبيد الله بن زياد ،
وكانت تلك نهاية المختار (٢) ،

بقي شيء يتعلق بهذه النهاية ، ذلك أن المختار — كما ذكرنا من قبل
— كان قد أسرف في التتكيل بأهل الكوفة والفتك بأشرافها عقب ثورتها
الأولى عليه ، وكان الموالي يمثلون عصب جنده في هذه الجولة ، فلما هزمت
جيوش المختار أمام مصعب هب أهل الكوفة ليتأروا لأنفسهم مما أنزله
المختار وأتباعه الموالي بذويهم من فناء وتدمير ، وشجعهم على ذلك مصعب
ابن الزبير ، وكانت نتيجة ذلك أن خر في المعارك عدد كبير واستسلم آلاف
من أتباع المختار وأكثرهم من الموالي ولكن مصعبا اعمل فيهم السيف بعد

الشهرستاني . الملل والنحل ج ١ ص ١٢٣ .

١ . تحتوي ج ٣ ص ٩ والطبري ج ٤ ص ٥٧٠ .

الاستسلام وقد عيب ذلك على مصعب ، ويروى أن عبد الله بن عمر رأى مصعبا بعد هذه الحادثة فصاح به : أنت قاتل سبعة الاف من أهل القبلة في غداة واحدة ؟ فأجابه مصعب مدافعا عن نفسه : انهم كانوا كفرة سحرة فقال ابن عمر : والله لو قتل عدتهم غنما من تراث أبيك لكان ذلك سرفا (١)

الزيدية :

بطلا الزيدية هما زيد بن علي بن الحسين وابنه يحيى بن زيد ، وقد قتل أولهما بالكوفة سنة ١٢٢ هـ وقتل الثاني بخراسان سنة ١٢٥ هـ وليس معنى هذا أن الكوفة هدأت بين مقتل المختار سنة ٦٧ هـ ومقتل زيد بن علي سنة ١٢٢ هـ ، لا ، فقد اشتبكت الكوفة في ألوان من الصراع غير شيعية كثورة ابن الأشعث وغيرها من الثورات الكبيرة والصغيرة حتى اخضعها الحجاج بالعصا والقسوة فطأطأت الرأس حتى هبت من جديد على يد زيد بن علي .

وقد تكلمنا فيما سبق عن زيد بن علي ومبادئه ، ولم يكن زيد بن علي من سكان الكوفة ، وإنما ساقه اليها ما ساق سواء من المطالبين بالخلافة من الشيعة من الوعود الخلافة والايمان المغلظة والعهود والمواثيق التي سرعاز ما تختفى وتذوب ، وقد أعد زيد نفسه للخلافة واستجمع كل الشروط التي يراها لازمة لحمل هذا العبء من عدالة وعلم وشجاعة ولم يبق الا أن يطالب بها ، فانتظر الفرصة التي سنحت بذلك .

وكان خالد بن عبد الله القسري واليا لمشام ، ثم غضب هذا عليه وألزمه بغرامة كبيرة ، ويقال أن خالدا ادعى أن له أموالا عند زيد بن علي ليتخلص من العذاب الذي كان نازلا به ، فطولب زيد بن علي بهذا المسأل فأنكر أن لديه أموالا لخالد فسيق الى الكوفة لمواجهة خالد ، وكان يوسف ابن عمر هو أمير الكوفة آنذاك ، وتمت المواجهة ، فاعترف خالد أنه ليس له مال عند زيد ، وأخرج زيد من الكوفة دون إبطاء خوفا من التفاسف الشيعة حوله ، واتخذ زيد طريقة الى المدينة ولكن أهل الكوفة تبعوه .

ويروى لنا اليعقوبى والطبرى وابن طباطبا وغيرهم أن أهل الكوفة قالوا لزيد نفس العبارات التى قالها أجدادهم لأجداده ، وسلخوا معه نفس السلوك الذى سلكه أجدادهم مع أجداده ، وأكدوا له ما أكده أجدادهم من قبل أنهم هذه المرة لن يخونوا ولن يسلموه ، ومن عباراتهم التى توردها المراجع السابقة قولهم : أين تذهب يرحمك الله ومعك مائة ألف سيف نضرب بها دونك ، وليس عندنا من بنى أمية الا نفر قليل لو أن قبيلة واحدة منا صمدت لهم لكفتهم بأذن الله • فقال : يا قوم انى أخاف غدركم فانكم فعلتم بجدى الحسين ما فعلتم فقلوا : نناشدك الله الا ما رجعت ونحن نبذل أنفسنا دونك ونعطيك من الايمان والمواثيق والعهود ما تثق به ••• ووقع الرجل العالم المفكر فى نفس الخطأ الذى ارتكبه أسلافه ، ووثق بقوم ليسوا جديرين بالثقة ، والتف حوله آلاف من الرجال وشرعوا الاسلحة ، وأعلن زيد دعوته ، فهب فى وجهه يوسف بن عمر ومعه قليلون من أهل الشام ، ولكن يوسف سرعان ما جذب الرجال من صفوف زيد فاذا بصفوف زيد تتناقض ورجال يوسف يتكاثرون ، ونظر زيد فوجد الناس قد انفضوا عنه وخذلوه وأسلموه ، ولم يبق معه الا شذمة يسيرة ظل يجاهد بها جهادا لا أمل فيه ، حتى هوى ودفن اتباعه القليلون جثته ، ولكن يوسف ابن عمر دل عليها فأخرجها وصلبها ثم حرقها وذرى رمادها فى الفرات (١) وانتهت بذلك ثورة أخرى من ثورات الكوفة •

وفر من المعركة بعد قتل زيد ابنه يحيى فاتجه متكررا الى خراسان حتى وصلها ، وحط رحاله فى بلخ وتوارى بها فكتب يوسف بن عمر بذلك الى هشام ، فكتب هذا الى نصر بن سيار يحذره من يحيى ، وقد استطاع نصر أن يلقى القبض على يحيى ويودعه السجن ، ولكن يحيى استطاع أن يهرب من سجنه ويجد له بعض الانصار الذين التقوا حوله ، والعجيب أنه استطاع بجماعة لا تزيد عن مائة وعشرين رجلا أن يهزم جيشا يقوده عمر ابن زرارة القسرى عامل نيسابور ، وقتل عمرو فى المعركة فكبر شأن يحيى

(١) انظر اليعقوبى ج ٣ ص ٤٦ وما بعدها والطبرى ج ٥ ص ٤٨٢ وما بعدها والفخرى لابن طباطبا ص ١١٢ وما بعدها •

وكثر أتباعه وسلاحه وأصبح خطراً يهدد الأمويين وكان ذلك في عهد الوليد ابن يزيد ، فاضطر نصر بن سيار أن يواجهه بنفسه بجيش كثيف بالقرب من مرو ، ودارت معركة عنيفة انتهت بقتل يحيى وصلبه ثم حرقه على نحو ما فعل بأبيه (١) .

وانتهت ثورات الزيدية بذلك ولكن انتقل ميدان الثورات الشيعية من الكوفة الى خراسان كان ذا أثر كبير جدا ، فلم تكن في خراسان خيانة الكوفة ، ولذلك لم تعداً خراسان ، وظلت تكافح الأمويين حتى أسقطتهم على نحو ما ذكرنا عند الكلام عن قيام الدولة العباسية في الجزء الثالث من هذه الموسوعة .

(١) اليعقوبى ج ٣ ص ٥٧ و ٦١ والطبرى ج ٥ ص ٥٣٦ — ٥٣٨ .

عبد الله بن الزبير

هل كانت لعبد الله بن الزبير فلسفة ؟

وهل تعد الحركة التي قام بها ثورة فكرية ؟ وهل تعد ثورة عسكرية ؟

الجواب عن هذه الأسئلة يوجه حكمنا على عبد الله بن الزبير في نتائج الحركة التي قام بها ، لقد قال كثير من الباحثين إن عثمان أخطأ ، وقلنا عند حديثنا عن عثمان تعبيرا قصيرا ولكنه بالغ الأهمية ، وهو أنه كانت لعثمان فلسفة اتبعها ، أى أنه اجتهد ووصل الى رأى رضى به واقتناه (١) . والمجتهد قد يخطئ وقد يصيب ، وهذا يخفف من ذنب عثمان ان كان فيما عمل ذنب ، أو لا يلحق به ذنبا أصلا أن كان في طبيعة ما قام به ما يستدعى الذنوب .

فهل كانت لابن الزبير فلسفة ؟ وهل كانت ثورته قائمة على مبادئ وفكر ؟ وإذا لم تكن كذلك فهل كانت ثورة عسكرية فحسب ؟

ان الاجابة عن هذه الأسئلة يستدعى ألوانا من البحث والعرض . والأدلة سنحاول أن نقوم بها ، ولكننا بادئ ذى بدء نسارع فنقرر أنه لم تكن لعبد الله بن الزبير فلسفة عامة على الإطلاق ، وأن ثورته لم تكن ثورة من أجل مبادئ ، بل أنها لم تكن كذلك ثورة عسكرية .

تعال بنا نبدا الحديث من أوله :

عبد الله بن الزبير موضوع حديثنا الآن ولد بالمدينة بعد ستة تقريبا من الهجرة ، وهو أول مولود للمهاجرين بالمدينة ، ولذلك فرح به المسلمون فقد كان هناك ادعاء بأن عقما أصاب المهاجرين ، وهو عريق النسب من جهة أبيه وأمه ، ونشأته عالية رفيعة ، فوالده الزبير بن العوام أحد السابقين الأولين واحد الأبطال المشاهير في الجزيرة العربية ، قيل له مرة وقد ضرب عدوه بسيفه ضربة قسمته نصفين : ما أحد سيفك !! فغضب وقال : ليس

(١) انظر موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية للمؤلف .

السيف ولكن اليد التي ضربت به (١) • وأمه أسماء ، المرأة التي اشتهرت بالحكمة والفصاحة وثبات الجنان ، وجده لأمه من خير الأجداد ، انه طيب الذكر أبو بكر الصديق الذي تجمعت له أكرم الصفات وأسمى الخلال ، وجدته لأبيه صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول صلوات الله عليه ، أسلمت وهاجرت ، وخالته عائشة زوجة الرسول الحبيبة (٢) ، ولما لم يكن لعائشة أولاد فقد أخذته من أختها أسماء فنشأ في بيت الرسول وأصبح كأنه ابن عائشة حتى كان يقال لها : أم عبد الله •

هل بعد هذا نسب ؟ وهل فوق تلك نشأة ؟ اللهم لا •

ولكن علماء النفس والأخلاق لا يتركون الغريزة ظهريا ، ويرون أن البيئة قد تغير من الغريزة ولكنها لا تزيلها ، فما هي أبرز الغرائز في عبد الله ؟ لقد أجمعت كل المراجع التي بين أيدينا على أن ابن الزبير كان بخيلا كرا ممسك اليد ، ولقد أوردنا من قبل ما ذكره عبد الملك بن مروان عن بخله ، ولم يغير سقاء أبي بكر وقناعة الرسول ، من خلق عبد الله ، وأخذ عبد الله من الجو الذي انحدر منه والذي عايش فيه خصلة كان فيها ركّاه • تلك أنه عاش في بيوت الرياسة والسؤدد ، بيت الرسول ، ولما مات الرسول اتجهت السلطة الى جده أبي بكر ، وبعد وفاة عمر كان أبوه من المرشحين الستة للخلافة وكان له فيها اطماع وهذا دفع عبد الله الى حب الرياسة وتمنى السلطان ، وغريزة حب السلطة طبيعية ، ونمتها هذه الظروف في بطل حديثنا ونماها كذلك ذكاء فيه وورع ، واحساس بالحكمال أو ما يقرب من الكمال •

ولكن قامت دونه حواجز كما قامت دون أبيه ، فبنو هاشم وبنو أمية أعرق محتدا وأوسع جاها وأكثر أنصارا ، ومن هنا دب فيه عامل الغيظ ، وإذا اجتمع الغيظ والذكاء والحرمان كانت النتيجة نارا ملتهبة يمتد لمحيها فيحرق الكثير •

وهذا هو المفتاح الذي يبرز لنا حقيقة هذا الرجل : طموح للرياسة ،

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ : ٢١٢ •

(٢) النوى : تهذيب الاسماء واللغات القسم الاول ج ١ ص ٢٦٦-٢٦٧

وادرأك أن دونها عقبات ، وعجز عن مقابلة هذه العقبات وجها لوجه ، وحيل مختلفة فيها حق وغيظ لازالة هذه العقبات من طريقه .

وقد بدأت هذه الأطماع في عبد الله مبكرة ، وقد تحدثنا في الجزء الأول من هذه الموسوعة عن الدور الذي لعبه ليدفع خالته عائشة الى حرب الجمل (١) رغبة أن يزيل من طريقه على بن أبى طالب الذي كان دون مرء يفضل عبد الله بن الزبير في كل شيء ، وكانت معركة غاشمة ظالمة سقط فيها الآلاف رجاء تحقيق هذا الطموح دون جدوى ، ومن الواضح أن هذا الرجل لم يواجه المشكلة بصراحة ، بل استتر خلف خالته ، ودفعها الى هذا الأتون ، واستتر كذلك خلف أبيه وخلف خاله طلحة بن عبيد الله .

والإنسان يحار في تحليل هذه الحادثة العجيبة ، ويدهش كيف جاز لرجل أن يدفع خالته لمثل هذا الصراع ، وليست لنا حالات مثل عائشة ، ومع هذا لا نرى من يدفع خالته الى مثل هذا اللظى ليحقق لنفسه أملا ، وقد قلنا من قبل أن ابن الأستر كبة ابن الزبير على وجهه فتظاهر هذا بالموت وترك خالته وحدها تعاني قيادة حركة لا مطعم لها فيها .

كيف بنى ابن الزبير مجده ؟

ولم ينجح أمله على كل حال في هذه المرة وبدأ يبحث عن أمل جديد وظهر هذا الأمل ، فقد قتل على ومات معاوية ، وآل الأمر الى طبقة ابن الزبير من أبناء الصحابة ، لقد تولاه يزيد ببيعة من أبيه وكان ظاهرا أن الناس لم يحبوا أن يجتمعوا على يزيد ، فليكن الأمل في نفس عبد الله ، ولكن كيف السبيل الى ذلك وهناك الحسين ؟ وله من محتده وأسرتة وشيعته ما يجعله أحق بالأمر منه ، وقد ذاق عبد الله الهزيمة عندما حارب عليها فأنى له بحرب الحسين ؟

لقد لجأ عبد الله الى حيلة سبق أن شرحناها وهى أنه دفع الحسين ليستجيب لنداء الكوفة وهو يعرف طبيعة الغدر في رجالها وطبيعة الخيانة ، وسقط الحسين ، فقوى الأمل في نفس عبد الله . وجدت ظروف أخرى

(١) انظر هذا الحديث في الجزء الاول من هذه الموسوعة للبولف .

جعلت كفته ترجح ، فقد هزت مصيبة كربلاء بنى هاشم فأخلدوا حيناً الى الدعة ، وجرت موقعة الحرة التى سقط فيها كثير من أبناء المهاجرين والأئصار فزاد سخط الناس على يزيد ، وهوجمت مكة ورميت الكعبة بالمنجنيق ، ومات يزيد ، وضعف ابنه معاوية عن تولى الأمر ، وانقسمت دمشق على نفسها ، وكل هذه الظروف جنى ثمارها عبد الله بن الزبير .

فلنبرز مرة أخرى أن عبد الله لم تكن له موهبة حصل بها على ما حصل عليه ، وانما هو عطاء الأقدار ، فابن الزبير لم يقيم بثورة عسكرية دبرها وقادها ، وانما هى ثورات فى الكوفة والبصرة والمدينة لأسباب متعددة ، ثم قسوة عنيفة أحمدها بها يزيد هذه الثورات ، فلما مات يزيد وانقسم الأمويون على أنفسهم حانت للرجل الرابض فى مكة الفرصة التى ينتظرها فتلقاها وبني مجده على أساسها ، ومن الواضح أنه لم يخرج مرة لقيادة جيش ، ولم يجازف مرة ليحمي ما حصل عليه من ملك ، كما سنرى فيما بعد موقفه مع الحصين بن نمير ، وانما بقى فى مكة ، وكانت ترد له البيعة من هنا ومن هناك ، ولا شك أن كفته تشيل اذا قارناه بنده عبد الملك بن مروان الذى طُلبَ اليه أن يكف عن قيادة الجيوش فأبى وألقى بنفسه فى خضم الصراع .

بقيت نواح أخرى جديرة بالايضاح فى حياة هذا الرجل نذكرها فيما يلى :

أولاً : لم تكن صلة ابن الزبير الطبيعية حتى بأقرب الناس اليه ، فقد كان أخوه عمرو فى صفوف أعدائه ، كان قائد جيش أموى حارب عبد الله . وانتهى أمره بأن قتله عبد الله ، وكان أخوه مصعب سيفاً بتجاراً ولكنه لم يسلم من عبد الله ، وقد خذله عبد الله كما سنرى بعد قليل (١) وقد تركه أولاده وانضموا لجيش الحجاج مما لا يعرفه خلق العرب فان أولاد مصعب لم يقبلوا أن يتركوا أباهم فى محنته على الرغم أن أباهم حثهم على ذلك ، وفضلوا أن يموتوا بين يديه .

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ١٠ .

ثانيا : كان الرجل ممسكا كرا واذا جاز لهشام بن عبد الملك مثالا أن يكون بخيلا فلا يجوز ذلك لعبد الله بن الزبير لأن هذا يكون ملكا وطبيعة تكوين الملك يحتاج الى السخاء ، ومن العجيب أنه كان كرا حتى في أخرج الأوقات ، وحين كان الدينار يكسب لصاحبه النصر •

ثالثا : هناك رواية يرويها بعض المؤرخين عن عبد الله بن الزبير ، وهى إن صحت كان عبد الله بن الزبير أنانيا الى أبعد حدود الأنانية ، فقد روى أن عبد الله لما هدم الكعبة أخذ الحجر الأسود فوضعه فى بيته ، فلما بلغ البناء الى موضع الحجر أمر فحفر له الحفار على قدره ، ثم أمر ابنه عبادا أن يأتى بالحجر فيضعه فى مكانه عندما يكون الناس فى صلاة الظهر مع عبد الله ، وأطال عبد الله الصلاة بالناس ليعطى ابنه فرصة الاستقلال بهذا العمل ، فلما أتم عباد وضع الحجر كبر فختم أبوه الصلاة ، وقد غضب المسلمون لهذا التصرف وقالوا : ما هكذا فعل الرسول ، ولقد حكمته قريش فجعل لكل قبيلة نصيبا (١) •

ومن الأنانية ما يروى أنه هدد بالحجر على عائشة لأنها أكثر الصدقات ، وكان ذلك منه طمعا فى أن يتول له ثراؤها ، وقد أقسمت عائشة ألا تكلمه لهذا السبب وقد أوردنا هذه القصة فى الجزء الأول من هذه الموسوعة (٢) •

رابعا : استغل عبد الله بن الزبير ضحايا أهل البيت ، فلما تقدم أمره اضطهدهم وقسا عليهم وتطور فى ذلك — اذا صح ما يقوله اليعقوبى الى درجة تهز اسلامه كما سنرى فيما بعد ، أما أنه بنى مجده على أشلاء البيت فيوضحه لنا خطابه الذى ألقاه عقب مقتل الحسين ، وقد رواه الطبرى وفيه يقول : ان أهل العراق غدر فجر ، وان أهل الكوفة شرار أهل العراق ، وانهم دعوا حسينا لينصروه فلما قدم عليهم ثاروا عليه • وعرضوا عليه الاستسلام لابن سمية أو الحرب ، فاختر الميثة الكريمة على الحياة الذميمة ، فرحم الله حسينا وأخزى قاتل حسين ، أفبعد الحسين نطمئن الى

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ٧ والازرقى : اخبار مكة ص ١٤٣ •

(٢) انظرها كذلك فى المحلى لابن حزم ج ٨ ص ٢٩٢ •

بنى أمية أو نقبل لهم عهدا ؟ لا ولا نراهم لذلك أهلا ، أما والله لقد قتلوه طويلا بالليل قيامه ، كثيرا في النهار صيامه ، أحق بما هم فيه منهم وأولى به في الدين والفضل ، أما والله ما كان يستبدل بالقرآن الغناء ، ولا بالبكاء من خشية الله الحداء ، ولا بالصيام شرب الدمام ، ولا بالمجالس في حلق الذكر الركض لطلاب الصيد ، فسوف يلقون غيا (وكان في ذلك يعرض بيزيد) فثار اليه السامعون ، وقالوا له : أيها الرجل أظهر بيعتك فإنه لم يبق أحد بعد الحسين ينازعك هذا الأمر وكان ذلك بدء أمره (١) .

أما اضطهاده لبنى هاشم بعد أن تقدم أمره ومدى هذا الاضطهاد فيرويه اليعقوبى بقوله : وتحامل عبد الله بن الزبير على بنى هاشم تحاملا شديدا ، وأظهر لهم العداوة والبغضاء ، حتى بلغ ذلك منه أنه ترك الصلاة على محمد في خطبته ، فقليل له : لم تركت الصلاة على النبي ؟ فقال : ان له أهل سوء يشربون لذكره ويرفعون رؤوسهم إذا سمعوا به ، وأخذ ابن الزبير محمد بن الحنفية وعبد الله بن العباس وأربعة وعشرين رجلا من بنى هاشم ليبياعرا له فامتنعوا فحبسهم ثم نفاهم نفى ابن عباس الى الطائف وظل بها حتى مات ، ونفى محمد بن الحنفية الى رضوى فظل بها حتى مات أيضا ، وانتهك حرمة الحرم فأزعج من استجار به (٢) .

خامسا : لقد حاول الرجل أن يستسلم الى الحجاج ، ولولا أمه لفعل ذلك ، وتلك خطيئة كبرى لا يعرفها المجاهدون وأصحاب المبادئ وقادة الثورات ، فهي رضا بالدنية من أجل الحياة الفانية .

ونتيجة هذه الدراسة أنه لم تكن لهذا الرجل فلسفة ، ولم تكن ثورته ثورة مبادئ ، بل لم تكن ثورة عسكرية أيضا ، وأنه لذلك مسئول عن الدماء التي أراقها ليحقق لنفسه حلما وليبنى لنفسه مجدا . ولم يكن له من تصرفاته ولا من عبقريته ما يستطيع به أن يواجه الأحداث أو يملأ المنصب الكبير الذي حاول أن يناله .

(١) تاريخ الطبرى ج ٤ ص ٣٦٤ .

(٢) ابن عبيد ربه : العتد الفريد ج ٤ ص ٤١٣ ويذكر ابن عبد ربه أن الذى أخرج بنى هاشم من السجن رجال بعث بهم المختار بن أبى عبيد « وانظر كذلك الطبرى ج ٤ ص ٥٤٤ — ٥٥٥ .

والآن نستطيع أن نذكر بإيجاز الخطوات التاريخية المتسلسلة للثورة التي قام بها ابن الزبير .

قلنا من قبل إن الناس دَعَوْهُ عقب قتل الحسين وعقب خطبته ، ليعلن نفسه خليفة ، وكان هذا هو الأمل الذي يتطلع اليه ، فسارع وأعلن خلافته وخلع يزيد وبائع له أهل مكة ، وكان ذلك سنة احدى وستين (١) . وفي نفس هذا الوقت أو بعده بقليل أظهر أهل المدينة سخطهم على يزيد ثم ثاروا عليه وعزلوه وأخرجوا بنى أمية من المدينة كما قلنا من قبل والعجيب أن أهل المدينة خلعوا يزيد ولكنهم لم يبايعوا لابن الزبير ، وذلك بلا شك دليل سخطهم عليه وعدم اطمئنانهم اليه ، وعلى اثر ثورة المدينة تمت موقعة الحرة حيث أهلك جيش الأمويين بقيادة مسلم بن عقبة خيرة أبناء المهاجرين والأنصار ، وأباح المدينة لرجاله ثلاثة أيام كما سبق القول ، والعجيب كذلك أن ابن الزبير لم يحرك ساكنا ، ولم يتقدم لمساعدة أهل المدينة في صراعهم ضد بنى أمية ، وبقي في مكة ينتظر دوره وزحف الجيش الأموي عليه ، وذلك فعل النعامة التي تغمض عينيها عندما يقرب منها الخطر ظانئة أن في ذلك سلامتها مع أن فيه حتفها .

وزحف جيش الأمويين المنتصر من المدينة الى مكة ، وكانت قيادته قد آلت الى الحصين بن نمير بعد موت مسلم بن عقبة ، ونزل الحصين أعلى مكة وأرسل خيلا اسفلها ونصب عليها المجانيق وضربها بالحجارة واستمر حصاره لها طيلة الشهور الأربعة الأولى من سنة ٦٤ هـ حتى جاءهم الخبر بهلاك يزيد (٢) ، وفي تلك الأثناء احترقت الكعبة بسبب شرارة تطايرت اليها من النار التي كان يشعلها أنصار ابن الزبير (٣) .

ولما جاء الخبر بموت يزيد أوقف الحصين ضربه وفك حصاره والتقى بعبدة الله بن الزبير وأسره اليه قائلا : ان يكن هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر ، هلم نبايعك ، ثم اخرج معي الى الشام فان هذا الجند الذي معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم فوالله لا يختلف عليك اثنان ،

(١) الطبري ج ٤ ص ٣٦٢ .

(٢) الامامة والسياسة ٢ : ١٠ .

(٣) الطبري ج ٤ ص ٣٨٣ .

وَتَوَّعَّنَ النَّاسَ ، وَتَهْدَرُ الدِّمَاءُ الَّتِي كَانَتْ يَوْمَ الْحَرَّةِ ، وَلَكِنْ عَبْدُ اللَّهِ رَدَّ عَلَيْهِ جَهْرًا رَدًا قَاسِيًا ، فَقَالَ الْحَصِينُ لَهُ : قَبِّحَ اللَّهُ مِنْ يَعِدُّكَ دَاهِيَةً ، أَكَلَمَكَ سِرًّا وَتَكَلَّمَنِي جَهْرًا • وَأَدْعُوكَ لِلْخِلَافَةِ وَتَعْدُنِي الْقَتْلَ وَالْهَلَكَةَ ، ثُمَّ تَرَكَهُ وَغَادَ لِلْمَدِينَةِ ، وَتَدْعُمُ ابْنَ الزُّبَيْرِ عَلَى الَّذِي صَنَعَهُ مَعَ الْحَصِينِ • فَأَرْسَلَ خَلْفَهُ يَطْلُبُ بَيْعَتَهُ وَأَنْ يَأْخُذَ لَهُ الْبَيْعَةَ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ عَلَى أَسَاسٍ أَنْ يَبْقَى عَبْدُ اللَّهِ فِي مَكَّةَ فَرَفَضَ الْحَصِينُ ذَلِكَ (١) •

وَضَعُفَ مَعَاوِيَةُ بْنُ يَزِيدَ عَنْ حَمَلِ هَذَا الْعَبَاءِ الثَّقِيلِ الَّذِي خَلْفَهُ لَهُ أَبُوهُ ، وَاخْتَلَفَ بَنُو أُمَيَّةَ عَلَى الْخِلَافَةِ ، وَبَدَأَتْ دَلَائِلُ النَّصْرِ تَبْدُو لِابْنِ الزُّبَيْرِ فَقَدْ حَقَّقَ كَثِيرًا مِنَ النِّجَاحِ فِي حَرْبِهِ ضِدَّ الْخَوَارِجِ (٢) ، وَانْهَزَمَ جَيْشُ ابْنِ زِيَادٍ الزَّاحِفِ عَلَى الْعِرَاقِ وَقَتْلَهُ الْمُخْتَارَ ، ثُمَّ دَارَتْ الدَّائِرَةُ عَلَى الْمُخْتَارِ وَصَرَعَهُ مَصْعَبٌ ، وَاتَّسَعَ مَلِكُ ابْنِ الزُّبَيْرِ حَتَّى شَمَلَ مِصْرَ وَالْمَكُوفَةَ وَالْبَصْرَةَ وَمِنْ بِالْقِبْلَةِ مِنَ الْعَرَبِ وَأَهْلِ الشَّامِ وَأَهْلِ الْجَزِيرَةِ إِلَّا أَهْلَ الْأُرْدُنِ (٣) •

بَدءُ النِّهَايَةِ :

وَبَدَأَتْ نِهَايَةُ الرَّجُلِ تَلُوحُ عِنْدَمَا اسْتَقَرَّ الْأَمْرُ لِمُرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ فِي الشَّامِ ، فَقَدْ سَارَعَ هَذَا وَهَزَمَ أَتْبَاعَ ابْنِ الزُّبَيْرِ فِي سُورِيَا فِي مَوْقِعَةٍ مَرَجٍ رَاهِطٍ ، ثُمَّ سَارَ إِلَى مِصْرَ وَمَعَهُ ابْنُهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ فَدَانَتْ لَهُ ، وَجَاءَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مُرْوَانَ بَعْدَ أَبِيهِ فَبَدَأَ زَحْفَهُ إِلَى الْمَشْرِقِ وَبَدَأَ صِرَاعَهُ مَعَ مَصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ الَّذِي كَانَ وَالِيَا لِأَخِيهِ عَلَى الْعِرَاقِيِّينَ ، وَهَزَمَ مَصْعَبٌ وَقَتَلَ عِنْدَ نَهْرٍ يُقَالُ لَهُ « الدَّجِيل » سَنَةَ ٧١ هـ وَلَكِنْ هَزِيمَةُ مَصْعَبٍ فِي الْحَقِيقَةِ كَانَتْ سِيَاسِيَةً أَكْثَرَ مِنْهَا حَرْبِيَّةٌ • وَقَدْ أَسْهَمَ أَخُوهُ عَبْدُ اللَّهِ فِي هَزِيمَتِهِ ، يَرَوِي ابْنُ قَتَيْبَةَ (٤) أَنَّ مَصْعَبًا جَاءَ بَعْدَ قَتْلِ الْمُخْتَارِ حَاجًا وَمَعَهُ رُؤُسَاءُ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَوُجُوهُهُمْ وَأَشْرَافُهُمْ ، فَقَدَّمَهُمْ إِلَى أَخِيهِ قَائِلًا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَقَدْ جِئْتُكَ بِرُؤُسَاءِ أَهْلِ الْعِرَاقِ وَأَشْرَافِهِمْ ، كُلُّهُمْ مَطَاعٌ فِي قَوْمِهِ ، وَهُمْ الَّذِينَ

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٨٦ •

(٢) سِيَأْتِي الْحَدِيثُ عَنْ مَوْقِفِ ابْنِ الزُّبَيْرِ مِنَ الْخَوَارِجِ عِنْدَ كَلَامِنَا عَنْ الْخَوَارِجِ •

(٣) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٤٠٨ •

(٤) الْأَمَامَةُ وَالسِّيَاسَةُ ج ٢ ص ٢٣ •

سارغوا إلى بيعتك ، وقاموا بإحياء دعوتك ، وناذبوا أهل معصيتك ، وسبعوا في قطع عدوك ، فهب لهم وأعطهم • فقال عبد الله : جئتنى بعييد أهل العراق وتأمر أن أعطيهم مال الله ، لا أفعل ، وأيم الله لوددت أنى أصرفهم كما تصرف الدنانير بالدراهم ، عشرة من هؤلاء برجل من الشام • قال رجل منهم : علقناك وعلقت أهل الشام • ثم انصرفوا عنه وقد يئسوا مما عنده • لا يرجون رفته ، ولا يطمعون فيما معه ، فاجتمعوا وأجمعوا على خلعه وكتبوا إلى عبد الملك بن مروان أن أقبل إلينا •

هذا سبب من الأسباب التي هزمت مصعب ، وهناك سبب آخر هو طبيعة أهل العراق التي كانت تدفعهم دائما للغدر والخيانة في جميع الأحوال وسبب ثالث هو حيلة قام بها عبد الملك بن مروان ، فقد كتب لرؤساء جنود مصعب يدعوهم للانضمام إليه ويعد كلا منهم الوعود الخلاب والمال والجاه والسلطان ، وكان إبراهيم بن الأشتر أحد هؤلاء ، فقد تلقى من عبد الملك كتابا مقفلا أدرك إبراهيم ما فيه فأخذه إلى مصعب وتولى مصعب فتحه بنفسه • قال مصعب : انه يعدك بالجاه والمال اذا خذلتني • قال إبراهيم : وقد كتب بمثل ذلك إلى كل القادة ، والرأى عندي أن تقتل هؤلاء القادة الخونة قبل أن يوجهوا الحرب ضدك • قال مصعب : ما كنت لأفعل ذلك حتى يستبين لى أمرهم • قال إبراهيم : فأخري • قال مصعب : ما هي ؟ قال : احبسهم حتى يستبين لك ذلك • قال مصعب : ما كنت لأفعل • قال إبراهيم : فعليك السلام والله لا ترانى بعد في مجلسك أبدا (١) ، أما القادة الآخرون فسرعان ماتخلوا عن مصعب في أخرج الأوقات ، ولما تحققت هزيمة مصعب وكان بجواره ابنه عيسى أرسل له محمد بن مروان رسولا يعطيه الأمان على أن يكف ، فقال مصعب : ان مثلى لا ينصرف عن هذا الموقف الا غالبا أو مغلوبا • فنادى محمد بن مروان عيسى بن مصعب أن هلم إلى يا ابن أخى فما في الحرب الآن من فائدة • قال مصعب لابنه : ان عمك أمتك فامض له ، قال عيسى : والله لا تتحدث نساء قريش أنى أسلمتك وتركتك وحدك للقتل ، وصرع عيسى بين يدي أبيه ، وبقي مصعب يكافح وحده حتى

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٤١٠ •

من السلف زائدة بن قدامة لثأر كان له عنده (١) ، ودانت العراق لعبد الملك ، وكان ذلك في ذى القعدة سنة ٧٢ هـ .

ولم يبق أمام عبد الملك الا ابن الزبير في مكة فأرسل له عبد الملك قائدة البطل الحجاج بن يوسف في عشرين ألفا من أهل الشام ، ولم يخرج ابن الزبير لمواجهة الجيش بل تحصن بالحرم ، فرماه الحجاج بالمجانيق ، وانفض الناس من حول ابن الزبير وانفض من حوله ذووه وولداه حمزة وخبيب ، وكان لشدة بخله يجرى على أصحابه في هذه الأيام نصف صاع من التمر ، فتثاقلوا عنه فقال لهم : أكلتم تمرى وعصيتم أمرى . وقد حاول هو أن يستسلم ، ولكن أمه صاحت به : لا تمكن عبيد بنى أمية منك ، ولضربة سيف في عز خير من ضربة سوط في ذل ، قال لها : يا أماء أنى أخاف أن تقتلنى هؤلاء القوم أن يمثلوا بى . قالت : يا بنى ان الشاة لا تتألم للسليخ اذا ذبحت . ودنا منها ليعانقها فمست على جسمه الدرع فقالت له : ما هذا صنيع من يريد ما تريد . فخلع درعه وخرج يقاتل حتى قتل سنة ٧٣ هـ . وأرسل الحجاج رأسه الى عبد الملك وطلب جسمه . وبعد بضعة أيام خرجت أمه على الحجاج وهى عجوز عمياء فقالت له : أما لهذا الراكب أن ينزل ؟ فسأل الحجاج من هذه ! فقيل له أنها أسماء أم عبد الله ابن الزبير ، فأنزله الحجاج اكراما لها وأمر بدفنه (٢) .

وقد رآه عبد الله بن عمر وهو مصلوب فقال : يرحمك الله أبا خبيب ، لولا ثلاث كن فيك لقلت أنت أنت : الحادك (٣) في الحرم ، ومسارعك الى الفتنة ، وبخل بكفك ، وما زلت أتخوف عليك هذا المركب وما صرت اليه منذ

(١) الطبرى ٥ : ٨-٩ واليعقوبى ٣ : ١٠-١١ الامامة والسياسة ٢٣-٢٦

(٢) الطبرى واليعقوبى والامامة والسياسة وابن الاثير والنخري .

(٣) هكذا فى الاصل ولعلها « لجاجك » اذ لا يمكن ان نصف ابن الزبير بالاحاد ، وربما قصد بالاحاد الانحراف الذى اوردناه من قبل عن توقف ابن الزبير عن الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فى الخطبة .

كنت أراك ترمق بغلات شهباء كن لابن حرب فيعجبك ، إلا أنه أسوس
لدنياه منك (١) .

وأغلب الظن أنه كان في ابن الزبير غير هذه العيوب الثلاثة ، ولكنها
عادة العرب لا يذمون بأكثر من ثلاث ، ولا يمدحون بأكثر من ثلاث فالثلاث
الكريمة عندهم دليل تفوق ، والثلاث الدنيئة دليل تخلف .

مزيد من الدراسة عن عبد الله بن الزبير

خلال يناير سنة ١٩٧٧ كنت أستاذًا زائرًا بجامعة الامام محمد بن
سعود الإسلامية بالرياض ، والتقيت بطلاب هذه الجامعة ودارت مناقشات
حول عدة موضوعات ، وقد كان عبد الله بن الزبير موضوعا لبعض هذه
المناقشات ، فقد قال لي أحد الطلاب انه يعتقد أنني قسوت على عبد الله
ابن الزبير فيما كتبت عنه بالجزء الأول والثاني من هذه الموسوعة ، فهو
صحابي ولا يمكن أن نصفه بالبخل والأنانية و ...

وأجبت اجابات محددة كالآتي :

أولا — أنا لست صانع التاريخ ولكني مدوّن للتاريخ ، فاذا كانت
المصادر تقرر أنه كان بخيلا التزمنا بأن نصفه بالبخل ، واذا كانت المصادر
تجمع على موقفه من الحسين ومن آل البيت كان علينا أن نروي ذلك ،
وهكذا .

ثانيا — سألت طلابي : من هو الصحابي ؟ وأجاب بعضهم بأنه الذي
التقى بالرسول وآمن به . وقلت أن هذا التعميم خاطيء فان كثيرين من
الناس التقوا بالرسول وأعلنوا إيمانهم به ، ثم كانوا منافقين ، وبعضهم

لترتد عن الاسلام في حياة الرسول أو بعد وفاته ، وتخلصت من ذلك الى تقرير الحقائق التالية :

١ — الذين التقوا بالرسول وأعلنوا ايمانهم به لم يكونوا أبدا في درجة واحدة من المعارف والصفات والمواهب .

٢ — روى عن الرسول صلوات الله عليه أنه تحدث لمعاصريه عن صحابته فقال : « بأيهم اقتديتم ، ومعنى هذا انه يحث معاصريه على الاقتداء بصحابته ، فكان « الصحابة » طائفة خاصة تعمقت صلتهم بالرسول ، وقوى انتفاعهم به . وبالمبادئ السامية التي جاء بها ، وقد كانت الوفود تنفذ للرسول ، وتعلن ايمانها بالاسلام ، وتعيش بالمدينة بضعة أيام ، فاذا حان موعد عودتها بعث الرسول بعض صحابته معهم ، ليقرئهم القرآن ويعلمهم ويؤمهم في الصلاة . . . وفي ضوء هذا التفكير يمكن أن نتعرف على عبد الله بن الزبير ، فقد توفي الرسول وهو في التاسعة من عمره ، وكان الرسول في سنين ما بعد الهجرة منشغلا بين الغزوات وتبليغ التشريع وبناء المجتمع الجديد ، وبالتالي لم تطل لقاءاته مع ابن الزبير الذي كان بين الطفولة ومطلع الصبا طيلة معاصرته للرسول

وربما قنع هؤلاء الطلاب أو أكثرهم بذلك المنطق ، ولكن بقي في نفسى شيء ، فأنا حريص كل الحرص على الدقة ما استطعت السبيل لذلك وبخاصة أن أحد الطلاب اعترض على الاعتماد على اليعقوبى لتشييعه واحتمال التحامل منه .

وظل هذا الموضوع يشغلنى حتى عدت الى القاهرة ، وفي القاهرة أثرت الموضوع ، وجمعت المصادر المتصلة بابن الزبير لأتدارسه من جديد لعلنى أصل الى أدق الحقائق التاريخية بكل الانصاف والتجرد ، ويشهد

إله أننى كنت مستعداً لأى اتجاه تدفعنى له الدراسة الجديدة ، وقد جعلت من المبادئ التى اتخذتها لاعادة الدرس ألا أعتمد على المحقوبى إلا اذا انفرد بذكر قضية معينة ، وفى هذه الحال نذكرها بصيغة الاحتمال لا بصيغة التسليم والقبول .

وبدأنا الدرس بصبر وأناة ، وأقرر بدقة وعمق أننا لم نجد فضائل ومفاخر تنسب لابن الزبير خلال الفترة الطويلة التى تمتد من عهد الامام على الى عبد الملك بن مروان ، فيما عدا اشارات الى ورعة وكثرة صلاته وتعبده وهى أشياء نسلم بها ، أما علاقاته بأهله وبآل البيت وبالناس ، فقد وجدنا عنها مزيداً من الروايات نقدم فيما يلى بعضها :

بخل ابن الزبير :

يقول المسعودى (١) : ان ابن الزبير أظهر الزهد فى الدنيا والعبادة مع الحرص على الخلافة ، وكان يقول : أنا العائذ بالبيت والمستجير بالرب ، مع شحه بالدنيا على سائر الناس ، وفى شحه يقول أبو وجرة مولى الزبير :

ان الموالى أمست وهى عاتبة

على الخليفة تشكو الجوع والحربا

ويذكر ابن كثير (٢) أن الثورى يروى عن عبد الله بن أبي بشير عن عبد الله بن مساور أنه قال : سمعت ابن عباس يعاتب ابن الزبير على الخيل ويقول له : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . ايس بمؤمن من مات شبعان وجاره جائع وهو يعلم .

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٩٦ .

(٢) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٩ .

(١) ويقول ابن طباطبا (١) ان عبد الله بن الزبير كان قد اعتصم بمكة وبايعه أهل الحجاز والعراق ، وكان عظيم الشح ولذلك لم يتم أمره .

وذكر ابن الأثير (٢) أنه عندما اشتد القتال بين ابن الزبير وبين الحجاج ، غلت الأسعار عند ابن الزبير غلاء باهظا ، وأصاب الناس مجاعة شديدة ، مع أن بيوت ابن الزبير كانت مملوءة قمحا وشعيرا وذرة وتمرا وكان ابن الزبير يحفظ ذلك ولا ينفق منه ليزيل مجاعات الناس .

ويروي ابن شاذان الكتبي (٣) : ان علي بن زيد قال عن عبد الله ابن الزبير انه كانت فيه صفات لا تصلح معها الخلافة ، كان بخيلا ، ضيق العطن ، سىء الخلق ، حسودا ، كثير الخلاف .

سوء علاقته ببعض أهله :

كان يزيد بن معاوية قد ولي الوليد بن عتبة بن أبي سفيان المدينة ، فسرّح منها جيشا الى مكة لحرب ابن الزبير بقيادة عمرو بن الزبير أخى عبد الله ، وكان عمرو منحرفا عن عبد الله ، وقد هزم جيش عمرو ، وظفر عبد الله بن الزبير بأخيه ، فأقامه للناس بباب المسجد الحرام مجردا ، ولم يزل يضربه بالسياط حتى مات (٤) .

(١) الفخرى فى الاداب السلطانية ص ٨٧

(٢) الكامل فى التاريخ : أخبار سنة ٧٣ هـ

(٣) فوات الوفيات : ج ١ ص ٤٤٨

(٤) المسعودى : مروج الذهب : ص ٩٩ — ١٥٠

وقد وردت هذه القصة ببعض الزيادات والتفاصيل في ابن الأثير^(١)
وابن كثير^(٢) .

وقد ذكرنا من قبل أنه خذل أخاه مصعب بن الزبير مع بطولته ومكانته
العسكرية ، وأن ولديه تركاه وانضما لجيش الحجاج .

بـ سوء علاقته بآل البيت :

يروى المسعودي^(٣) : أن ابن الزبير سأل ابن عباس قائلاً أنت الذي
تؤنبني ؟ فقال ابن عباس : نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول : ليس المسلم الذي يشبع ويجوع جاره . فقال ابن الزبير : انى
لأكتم بغضكم أهل البيت منذ أربعين سنة .

ويذكر ابن شاکر الكتبي^(٤) أن عبد الله بن الزبير أخرج محمد بن
الحنفية من مكة ، ونفى عبد الله بن عباس الى الطائف .

ويروى المسعودي^(٥) كذلك أن عبد الله بن الزبير قبض على الحسن
ابن محمد بن الحنفية ، وحبس في السجن المعروف بسجن غارم ، وهو
سجن موحش مظلم ، وأراد قتله لولا أن الحسن احتال وتخلص من
السجن وهرب مخترقاً الجبال حتى وصل « منى » وبها أبوه محمد بن
الحنفية . وفي ذلك يقول ابن كثير :

(١) ج ٤ ص ١٧

(٢) ج ٨ ص ١٤٩

(٣) مروج الذهب : ج ٢ ص ١٠٢

(٤) فوات الوفيات : ج ١ ص ٤٤٨

(٥) مروج الذهب : ج ٢ ص ١٠٠

تقول مرء أنت بالبيت عائد

يسل العائد المظلوم في سجن غارم

ويسمر المسعودى كذلك أن ابن الزبير عمد الى من بمكة من بنى هاشم فخصرهم في الشعب ، وجمع لهم خطبا عظيما لو وقعت فيه شرارة من نار لما سلم من الموت أحد ، وكان فيهم محمد بن الحنفية •

ويستمر المسعودى ليذكر أن المختار بن أبى عبيد أرسل خيلا عظيمة بقيادة أبى عبد الله الجدلى ، لانتقاذ آل البيت من الشعب قبل أن يهلكوا وقد خاف أبو عبد الله أن يعرف ابن الزبير خبر هذا الزحف فيعجل بالقضاء على بنى هاشم ، فاختار ثمانمائة ، وزحف بهم في هدوء ، فما شعر ابن الزبير إلا والرايات تخفق فوق رأسه • قال أبو عبد الله : فجئنا الى بنى هاشم بالشعب فأخرجناهم ، وقال لنا محمد ابن الحنفية : لا تقتلوا إلا من قاتلكم فلما رأى ابن الزبير جموعنا وقواتنا لاذ بأستار الكعبة وقال : أنا عائد بالكعبة (١) •

ويتحدث ابن الأثير والمسعودى أحاديث طويلة عن الجهود التي بذلها ابن الزبير ليحسّن للامام الحسين أن يخرج من مكة الى الكوفة ليخلو له الحجاز ، ويؤكد هذان المؤلفان أن ابن الزبير لم يكن مخلصا في نصحه ذلك للحسين ولم يرد له الخير (٢) •

ابن الزبير وموقعة الجمل :

تحدثنا في الجزء الأول من هذه الموسوعة عن الدور الذي قسام به

(١) المرجع السابق ونفس الصفحة
(٢) الكامل ج ٤ ص ١٥ - ١٦ ومروج الذهب ج ٢ ص ٨٧

عبد الله بن الزبير حتى حدثت موقعة الجمل التي سقط فيها آلاف المسلمين ونورد هنا بعض الروايات التي تتصل بموقعة الجمل ، حتى تكمل الصورة عن عبد الله بن الزبير :

ماء الجواب : ذكرنا عند الحديث عن موقعة الجمل أن السيدة عائشة توقفت في الطريق عندما نبحتها كلاب وقيل لها أنها بموقع يسمى « الجواب » ... ويروى ابن الأثير (١) أن عبد الله بن الزبير قال لها أن ذلك المكان ليس الجواب ، وأن من قال ذلك فقد كذب ، فلما تمسكت السيدة عائشة بموقفها جاءها عبد الله من طريق آخر ، اذ صرخ قائلاً : النجاة النجاة ، لقد أدرككم على بن أبي طالب ، فارتحلوا الى البصرة .

الزبي والعودة قبل معركة الجمل :

عندما ذكر الامام علي بن الزبير بقول الرسول له : ستحاربه وأنت له ظالم أصر هذا علي ترك القتال والعودة ، فقال له ابنه عبد الله لماذا تتركنا ؟ فقال يا بنى : ذكرني أبو الحسن بأمر كنت قد نسيت . فقال لا والله ولكنك فررت من سيوف بنى عبد المطلب ، فأنها طوال حداد تحملها فتية أنجاد . قال : لا والله ، ولكني ذكرت ما انسانية الدهر فاخترت العار على النار . أبالجبن تعيرني لا أبالك ثم أمال سنانة وشد في الميمنة . فقال على أفرجوا له فقد هاجوه ثم رجع فشد في المسيرة ، ثم رجع فشد في القلب ، ثم عاد الى ابنه فقال : أيفعل هذا جبان ؟ ثم مضى منصرفاً (٢) .

(١) الكامل ج ٣ ص ٨٢

ينكر القاضي أبو بكر بن عبد العزيز حديث الجواب ويقرر أن الرسول لم يقل هذا الحديث ، ولا جرى هذا الباطل ...
(انظر العواصم من القواصم ص ١٦١) وقد روى الطبري والمؤرخون من بعده هذا الحديث ولكن الشيخ محب الدين الخطيب يجرح الرواة أو يصفهم بأنهم مجهولون .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٠

اختفاء عبد الله بن الزبير بعد معركة الجمل :

بعد أن سقط الآلاف في معركة الجمل هتف بعض النسوة في وجهه على بأنه قاتل الأجنة فقال علي : لو كنت قاتل الأجنة لقتلت من في هذا البيت . وأشار الى بيت ذكر انه يعرف أن به مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عامر ، ولكنه لا يريد بهم سوء ، وقد خاف أتباع علي أن يأخذهم هؤلاء على غرة فأمسكوا بقوائم سيوفهم استعدادا لما قد يحدث (١) .

ولما عرفت السيدة عائشة أن عليا يعرف مخبأ عبد الله بن الزبير طلبت من علي أن يؤمنه فاستجاب لها وأمنه (٢) .



هذا هو عبد الله بن الزبير بكل الدقة التاريخية والحيدة ، ولله في خلقه شئون .

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٤
(٢) المسعودي السابق ونفس الصفحة .

الخوارج

لأن جديد من الحركات الفكرية والثورية التي حدثت في الدولة الأموية والحديث عن الخوارج سيثمل — كما اتبعنا في حديثنا عن الشيعة — أفكارهم وتاريخهم ، ولكننا هنا نتساءل هل نبدأ حديثنا عنهم بشرح أفكارهم ثم نتحدث عن تاريخهم كما سرنا عند الكلام عن الشيعة ؟ أو نبدأ هنا بذكر تاريخهم ثم نقلوه بشرح أفكارهم ؟

عندي أن النهج الثاني أكثر ملاءمة للخوارج ، فسرى أن تاريخهم كان أقدم من أفكارهم ، لقد ثاروا على عليّ ثم حاولوا أن يجدوا سببا لثورتهم ، وطالما أعياهم العثور على السبب فعادوا الى علي ، ثم عاودهم الحنين الى الانشقاق فعادوا ينشقون عليه ، وذلك بخلاف الشيعة الذين تكونت أفكارهم قبل أن تبدأ ثوراتهم وحركاتهم ، فاذا كان النهج الأول لاءم الشيعة فاعتقد أن الثاني يلائم الخوارج .

والخوارج هم الاسم الغالب على هذه الطائفة وقد اشتق هذا الاسم من الفعل « خرج » لأنهم خرجوا على علي بعد أن كانوا ضمن أتباعه ، وهم يطلقون على أنفسهم « الشراة » أى الذين شروا آخرتهم بدنياهم ، كما يطلق عليهم أيضا الحرورية نسبة الى حروراء وهو موضع على الفرات بقرب الرقة نزلوا به إثر عودة عليّ وجيشه من صفين ولم يريدوا أن يدخلوا الكوفة ، ومن الأسماء التي تطلق عليهم أيضا « المحكمة » أى الذين يقولون لا حكم الا الله .

وقد سبق أن تحدثنا في الجزء الأول من هذه الموسوعة عن نشأة الخوارج ولكننا كنا هناك نتحدث على خلافة علي ، فاقصرنا — فيما ذكرناه من حديث الخوارج على ما يتصل بعلي ، ونحن هنا الآن نتحدث عن الخوارج أنفسهم ، وذلك يقتضى أن نعود للكلام عنهم بشئ من التفصيل .

فبقي موقعة صفين كاد على أن يحرز النصر ، ولكن معاوية حينئذ رأى نفسه أوشك أن يهزم في ميدان القتال لجأ الى الميدان الذي لا يجاريه على فيه ، وهو ميدان الدهاء والحيلة ، وكان مع معاوية داهية للعرب عمرو بن العاص فصاح به معاوية : هلكتا يا ابن العاص فهلّم مضبأتك فأنشأ عمرو أن يرقع الجنود المساحف على أسنة الرماح وأن يصيحوا فريد تحكيم كتاب الله .

وأحرك على الخدعة ، ولكن سيوف جنده كانت قد كلت ، وكأنما كانوا ينتظرون هذه الصيحة بصبر وشيك النفاد ، فتراجع كثير منهم واستجابوا لرغبة أعدائهم ، وحاول على أن يحثهم على المضي في الحرب حتى يكسبوا النصر الذي كان منهم قاب قوسين أو أدنى ، ولكن سلطان على على جيشه كان دائما ضعيفا كما أوضحنا ذلك عند الحديث عن على فلم يذعن هؤلاء له ، وأصروا على وقف القتال ، وتولى قيادة المتمردين الأشعث بن قيس الكندي ومسعر بن فدكي التميمي وزيد بن حصين الطائي ، وصاح هؤلاء بعلى : القوم يدعوننا الى كتاب الله وأنت تدعوننا للسيف . فأنجأهم على : أنا أعلم بكتاب الله ، انفروا الى بقية الأحزاب . . . وحاول على أن يثنىهم أو على الأقل أن يرجى الاستجابة الى طلبهم ليعطى قائده الأستر فرصة يتوج بها انتصاراته على جيش معاوية ، اذ لم يكن قد بقى أمام الأستر الا شذمة قليلة من أهل الشام على وشك الهزيمة ، ولكن الأشعث بن قيس صاح بعلى : لترجعن الأستر أو لنفعلن بك ما فعلنا بعثمان (١) ، فأرسل على الى الأستر يستدعيه ولكن الأستر أجابه : ليس هذه الساعة تزيلني عن موضعي ، وقد رجوت أن يفتح الله لي فيها فلا تعجلني . ولما عرف الأشعث وأصحابه إجابة الأستر زادت ثورتهم واتهموا عليا بأنه الذي أوعز للأستر بالاستمرار في القتال ، وأطلت الفتنة ، فأعاد على الرسول للأستر وقال له : ويحك : قل للأستر أن يقبل فان الفتنة وقعت . فعاد رسول على وهو يزيد بن هاني يخبر الأستر بذلك ولما أحس

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٠٥ .

(م ١٦ - التاريخ الاسلامي)

يزيد التردد من الأستر قال له : أتحب أنك ظفرت هنا وأميز المؤمنين يقتل أو يسلم هناك ؟ قال الأستر : لا والله ، سبحان الله • قال يزيد : هو كذلك ، لقد هددوه بالقتل أو بدفعه لأهل الشام ان لم تعد • فعاد الأستر وأوقف القتال (١) •

وهكذا انتصر الأشعث بن قيس ورفاقه (٢) ، ولكن هذا الانتصار كان مطلع فرقة ومطلع حروب قاسية ، فان الأستر وأتباعه هاجموا هؤلاء المتمردين واغلظوا لهم القول وعدوهم خونة (٣) ، على أنه يبدو أن الغالبية من أصحاب على استطابت الى حين هذا الهدوء ونعمت بالراحة التي لم تكحل لهم عينا منذ مطلع خلافة على ، واستأذن الأشعث عليا أن يأتي معاوية ليسأله ماذا يريد برفع المصاحف ، فأذن له على أن يأتيه ، فلما جاءه قال معاوية : لنرجع نحن وأنتم الى ما أمر الله به في كتابه ، تبعثون منكم رجلا ترضونه • ونبعث منا رجلا ، ثم نأخذ عليهما أن يعملما بما في كتاب الله لا يعدو انه ، ثم نتبع ما اتفقا عليه (٤) •

وبدأت بذلك مرحلة أخرى من الخلاف في جيش على ، فقد أجمع أهل الشام رأيهم على اختيار عمرو بن العاص داهية العرب ، ورأى على أن يقدم عبد الله بن العباس ، ولكن أصحاب على أبوا عليه ذلك وقالوا ان ابن العباس قريب القرابة منك ، ضنين بأمرك ، فعرض على أن يقدم الأستر فصاحوا به : وهل سَعَرَ الأرضَ غيرُ الأستر ، والعجيب أن هؤلاء لم يسمحوا لعلی أن يختار شخصا قريب الصلة به ، وأصروا على أن يختاروا شخصا محايدا ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك مع معاوية وتركوه يختار شخصا تجتمع فيه كل الصفات التي تسبب رجحان كفته ، فهو قريب من معاوية ،

(١) تاريخ الطبری ج ٤ ص ٣٤ — ٣٦ •

(٢) سيأتي مزيد من ابراز دور الأشعث عند الكلام عن « سبب حركات الخوارج » بعد قليل •

٣٥٤ — ٣٦ •

(٣) انظر خطاب الأستر لهؤلاء عقب عودته من ميدان القتال : السلبى

(٤) المرجع السابق ص ٣٦ •

متحد معه في المسالحي ، ثم هو داهية من دواهي العرب • ليت شعري كيف قبل على هذا الوضع الذليل ؟ ألم يكن في مقدوره أن يتنازل عن خلافة لا سلطان له فيها ؟ وعلى كل حال فقد قدمت الأغلبية أبا موسى الأشعري • فقال على لهم : لقد عصيتُموني في أول الأمر فلا تعصوني الآن ، وليس أبو موسى بثقة لي ، فقد فارقتني وخذّل الناس عني ، ثم هرب مني حتى أمّنته • ولكن أهل العراق أصرّوا على رأيهم ، فاستسلم على عن غير رضا (١) وحدد الطرفان دومة الجندل مكانا للاجتماع على أن يكون في شهر رمضان من نفس العام (٣٧) وكتبت وثيقة بهذا الاتفاق (٢) •

وعاد الجيشان بعد أن استقر الرأي على التحكيم ، ولكن عودة جيش معاوية كانت تعتبر عودة ظافرة لنجاتهم من الهزيمة ، ولوحدتهم كلمتهم ، وللأمل في المستقبل ، وكانت عودة جيش على تنبئ بهزيمة لا محيص عنها ، فقد عادوا في صراع وخلاف ومناوشات ، ووصل على الى الكوفة ولكن ببعض جيشه ، أما البعض الآخر فقد اعتزله وخرج عليه وعرج على قرية حروراء ، ولم يرد هؤلاء أن يدخلوا الكوفة ، والعجيب أن هؤلاء كانوا ممن أكرهوا عليا على قبول التحكيم •

وذهب على الى هؤلاء الخوارج وحادثهم قائلا : أنشدكم الله ، هل علمتم أن أحدا كان أكره للحكومة مني ؟ قالوا : اللهم لا • قال أفعلمتم أنكم أكرهتموني عليها حتى قبلتها ؟ قالوا : اللهم نعم • قال : فعلام خالفتُموني ونابذتموني ؟ قالوا : انا أتينا ذنبا عظيما فتبنا الى الله منه ، فقتب أنت الى الله منه ، واستغفره نعد اليك • فقال على : استغفر الله من كل ذنب • فرجعوا معه وكان عددهم حوالي ستة آلاف (٣) •

وأشاع هؤلاء في الكوفة أن عليا اعتبر التحكيم اثما وندم عليه وعاد

(١) الطبري ج ٤ ص ٣٦ والامامة والسياسة ج ١ ص ١٢٦ — ١٢٧

(٢) الطبري ج ٣ ص ٣٨ ، ٤٠ ، ٥٢ •

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٢٨٨ •

عنه واستغفر الله منه . فجاء الأشعث بن قيس عليا وسأله عن ذلك فقال
علي : من زعم أنى رجعت عن الحكومة فقد كذب ، ومن رآها ضاللا فهو
أضل منها . فخرج عنه الخوارج مرة أخرى ، فأرسل اليهم عبد الله
ابن عباس فناظرهم ووضع لهم ما خفى عليهم .

قالوا له : ان عليا أتى عظيما حينما حكم الرجال في الدماء ولا حكم
الآله .

فأجاب : أما علمتم أن الله أمر بتحكيم الرجال في أرنب تساوى
ربع درهم تصاد في الحرم ، وفي شقاق رجل وامرأته ؟ وأما علمتم أن
النبي أمسك عن القتال للهدنة بينه وبين أهل الحديبية ؟

قالوا : نعم ولكن عليا محا نفسه من خلافة المسلمين .

فأجاب : وكذلك فعل الرسول ، فقد محا اسمه من النبوة عند صلح
الحديبية ولكنه ظل نبيا .

وقبل بعضهم رأى عبد الله بن عباس فرجع الى علي ، وهتف
آخرون بعد أن أعياهم الحق : لا تحاجوا هذا ، فانه من القوم الذين
قال الله فيهم « بل هم قوم خصمون » (١) ، وقال فيهم أيضا ،
« وتنذر به قوما لذا » (٢) ، واستمر هؤلاء في انشقاقهم ولم يريدوا
العودة الى علي (٣) .

وجاء أوان التحكيم ، واجتمع الحكمان بدومة الجندل ، ولم
يكن أبو موسى كفئا لهذا العمل الخطير ، ولا كان يستطيع أن يكون
نظيرا للداهية عمرو بن العاص ، وكان أهل العراق خلف أبي موسى
غير متفقين في الرضا عنه كما كانوا متفرقي الكلمة ، وكان أهل الشام

(١) سورة الزخرف الآية ٨ .

(٢) سورة مريم الآية ٩٨ .

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٧ ص ٣٨٩ .

كلف ابن الحاص كالبنيان المرصوص ، وكانت نتيجة التحكيم تناسب هذه المقدرات ، كانت هزيمة وخدعة جازت على أبى موسى كهما وصفناها في الجزء الأول من هذه الموسوعة ، والذي يهمنا هنا أنها فتحت باباً جديداً في الفرقة وفتحت جانب الخارجين على على ، ولم يعد هناك أمل في عودة الخوارج اليه .

وربما جاز القول بأنه هنا تكوّن حزب الخوارج ، وبدأت أفكارهم تظهر وتتضح مشوبة بمبالغات عنيفة وصلت الى تكفير عثمان وتكفير أصحاب الجمل ، ثم تمادى هؤلاء فعبثوا بأموال الناس وبأرواحهم واستباحوا قتل كل من لم ينضم اليهم من المسلمين ، اذ عدوا من سواهم كفاراً ومرتدين ، وكان من ضحاياهم عبد الله بن خباب ، اذ لقوه وفي عنقه المصحف ومعه زوجته وهي حامل فقالوا له : ان هذا الذي في عنقك يأمرنا بقتلك : ثم ذبحوه ، وبقروا بطن زوجته ، ولما لالاهم على بقتله ليقتلهم فيه ، قالوا : كلنا شركنا في قتله وأمرنا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي فخرج بهم الى النهروان ، وهي كورة واسعة بين بندان الحالية وواسط (١) . وكانت بيعة ابن وهب في منزل زيد بن حصين ، وتولى بيعته زعماء الخوارج وهم عبد الله الكواء وعروة بن جرير بن عاصم (٢) ، وبدأ بذلك صراع الخوارج الحربي .

موقعة النهروان :

واضطر على ازاء ذلك أن يسير للخوارج بجيشه ، وخطب فيهم على يحثهم على الطاعة والعودة لرحابه وتقديم قتلة عبد الله بن خباب ، وذكرهم أنهم هم الذين أرغموه على قبول التحكيم ، فقالوا له مقالة شنيعة ، قالوا : انا كفرنا بتحكيمننا الرجال ، وتبنا الى الله

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٢٥٤ .

(٢) الامامة والسياسة ج ١ ص ٣٧ و ١٤٢ والشهر مستأنى : الملل والنحل القسم الاول حصص ١٠٧ - ١٠٨ والطبرى ج ٤ ص ١ : ٨٩ .

وعدنا الى الاسلام فاشهد على نفسك بالكفر وتب الى الله كما تبنا وعد الى الاسلام بعد اليك ، وسخر على من هذا الطلب الدنى . وقال لهم : أبعد ايمانى ومجرتى وجهادى مع رسول الله أشهد على نفسى بالكفر ؟ وما دخل الكفر لحظة نفسى منذ آمنت بالله فقالوا لن نخاطبك بشيء غير هذا وبيننا وبينكم الحرب ، فاستعد على لمحاربتهم ونظم جنده ، وقبل أن يلتقى الفريقان أمر على* أبا أيوب الأنصارى فرفع لهم راية أمان وناداهم : من جاء منكم الى هذه الرواية فهو آمن ، ومن دخل المصر فهو آمن ، ومن انصرف الى العراق فهو آمن ، ومن خرج من هذه الجماعة فهو آمن فانصرف بعضهم وبقي أكثرهم ، ووقف على بجيشه وقفة استعداد وتهيؤ ، ولكنه قال لأصحابه لا تبدؤهم بالحرب حتى يبدؤكم ، وسرعان ما تسد الخوارج على أصحاب على فشدد هؤلاء عليهم ، ولم تكن الا جولة سريعة حتى خر هؤلاء ، ويقول الثعالبى فى رواية ابن قتيبة (١) : والله ما لبثوا الا فواقاً حتى صرعهم الله كأنهم قيل لهم : موتوا فماتوا ، ويقولون انه لم ينج منهم الا عدد لم يبلغ العشرة ، وما قتل من جيش على* الا أقل من عشرة (٢) .

وموقعة النهروان ذات نتائج خطيرة أهمها أنه لم يعد هناك أمل فى عودة الخوارج الى صفوف على أو الى صفوف الجماعة على العموم ، وكان الخوارج يتذكرون ما حل باخوانهم فى النهروان فتشتد حماسهم وتتأجج أحقادهم ، ومن نتائج النهروان كذلك أن تفرق الذين نجوا من المعركة فذهب اثنان الى عمان ، واثنان الى كرمان ، واثنان الى سجستان ، واثنان الى الجزيرة وواحد الى اليمن ، وظهرت بدع الخوارج فى هذه المواضع منهم (٣) حيث انضم لهم جمهور من الساخطين .

(١) الامامة السياسية ج ١ ص ١٤٤ .

(٢) الشهر ستانى : الملل والنحل : القسم الأول ص ١٠٧ .

(٣) المرجع السابق .

نهاية على :

ودبر الخوارج مؤامرة للفتك بعلي بن أبي طالب ومعاوية وعمرو بن العاص ، ولكن هذه المؤامرة لم تنجح إلا في القضاء على علي ، وكان قتله على يد عبد الرحمن بن ملجم ، وقد عد الخوارج ابن ملجم بطلاً مجاهداً واعتبروا عمله هذا وسيلة تقربه إلى الله وتضمن له الجنة ، وفي ذلك يقول عمران بن حطان أحد شعراء الخوارج :

يا ضربة من منيب ما أراد بها
الا ليبلغ عند العرش رضوانا

أنى لأذكره يوماً فأحسبه
أوفى البرية عند الله ميزاناً (١)

الخوارج في عهد الدولة الأموية :

لئن عادى الخوارج علياً وكرهوه فقد كان عداؤهم لبني أمية أشد وأعمق ، ولذلك نجد صراعهم يطول في عهد الدولة الأموية ، ونجدهم في كثير من الأحيان يظفرون ويكوتون لأنفسهم سلطة ونفوذاً ، فقد استطاع خوارج العراق أن يستولوا على كرمان وبلاد فارس ويهددوا البصرة ، وقد تصدى لهم المهلب بن أبي صفرة وطال صراعه معهم ، ولولا انسحاقهم على أنفسهم لكان من المحتمل أن يكون لهم الظفر والفوز ، ومن أشهر قادة هذا الفرع نافع بن الأزرق وقطرى بن الفجاءة ، ويعرف هذا الفرع بالأزارقة ، وهناك فرع آخر من الخوارج نال نصيباً من التوفيق وان لم يصل إلى مكانة فرع العراق ، ذلك هو الفرع الذي استولى على جنوب الجزيرة العربية والطائف ، ومن أشهر قادة هذا الفرع أبو طالوت نجدة بن عامر وأبو فديك .

(١) الشهر ستاتي : المال والنحل القسم الاول ص ١٠٩ .

وسنذكر فيما يلي بعض التفاصيل لنشاط الخوارج في عهد الدولة الأموية :

في عهد معاوية :

كان تنازل الحسن بن علي لمعاوية ، وبيعته وبيعة الحسين اليه ، سبباً هاماً لهدوء الشيعة في أثناء عهد معاوية ، وقد دخل معاوية الكوفة وبايعه أهلها سنة ٤١ هـ عقب تنازل الحسن ، ولكن بقي عدو آخر لمعاوية أكثر من الشيعة إخلاصاً لفكرته وأكثر منهم استعداداً للتضحية ، ذلك من الخوارج ، وقد كان بين الخوارج وبين علي نوع من الصلات ، فقد كانوا في يوم من الأيام أتباعه وجنده ولذلك اعتزله بعضهم دون أن يحاربوه ، ولكن عداءهم لمعاوية كان عميق الجذور ، ولذلك أحسوا أن الواجب يدفعهم لمقاتلة هذا الغاصب ، الذي يعيش عيشة الملوك ، ويسكن القصور ، ويلبس الرياش ، ويتخذ الحجاب .

ومن أجل هذا توالى ثورات الخوارج في عهد معاوية ، ولعل أول من ثار في عهد معاوية من الخوارج هو فروة بن نوفل الأشجعي فقد هتف في الخوارج عقب تنازل الحسن لمعاوية ودخول هذا الكوفة قائلاً : قد جاء الآن مالا شك فيه ، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه ، وقد أرسل إليه معاوية خيلاً من أهل الشام فردها مهزومة ، وحينئذ صاح معاوية في أهل الكوفة : لا أمان لكم عندي حتى تكفوا بوائقكم . فخرج أهل الكوفة يحاربون الخوارج ، فقال لهم الخوارج : ويلكم ما تبغون منا ؟ أليس معاوية عدونا وعدوكم ؟ دعونا حتى نقاتله فإن أضربنا كنا قد كفييناكم عدوكم ، وإن أصابنا كفييتمونا ولكن أهل الكوفة استمروا في قتالهم حتى هزموهم (١) .

وفي العام التالي (٤٢ هـ) تجمع جرحى النهروان والذين اعتزلوا القتال يوم النهروان وتذكروا صراهم الذين ماتوا للدفاع عن مبادئهم ، وجعلوا أمارتهم إلى المستورد بن علفة وحيان بن ظبيان

(١) الطبري ج ٤ ص ١٢٦ .

ومعاذ بن جوين ، وكانت القيادة للأول ، وتجمع حول هؤلاء عديد كبير من الخوارج وأصبح لهم سطوه ونفوذ واتعدوا على يوم يخرجون فيه ، ولكن والى الكوفة المغيرة بن شعبة استطاع أن يقبض على بعض زعمائهم قبل اليوم الموعد وفيهم حيان ومعاذ ، ولكن المستورد بن علفة الذى أعطاه الخوارج لقب أمير المؤمنين لم يقبض عليه ، فأعد العدة وخرج بأصحابه ، ولكن المغيرة أرسل له جيشاً كثيفاً بقيادة معقل ابن قيس فاستطاع هذا الجيش أن ينتصر عليهم بعد معارك طويلة (١) .

ولما تم الصلح بين معاوية وزيد بن أبيه عين هذا والياً على البصرة سنة ٤٥ هـ ، وبعد موت المغيرة سنة ٥١ هـ امتدت ولاية زياد فشملت الكوفة أيضاً ، وقد بذل زياد جهداً كبيراً فى حرب الخوارج حتى قلم أظفارهم وأضعف شوكتهم .

ولما مات زياد ، وتولى البصرة ابنه عبيد الله بن زياد سنة ٥٥ هـ بدأت حركات الخوارج تظهر من جديد ، ولكن عبيد الله قابلهم بشدة وصرامة لا تقلان عن شدة أبيه وصرامته ، فقتل منهم جماعة صبراً منهم عروة ابن أدية أخو أبى بلال مرداس بن أدية (٢) ، كما قتل فى الحروب منهم عدداً كبيراً منهم أبو بلال مرداس (٣) سالف الذكر ، وبعد قتل أبى بلال تجرد عبد الله لاستئصالهم وهلاكهم كما يقول الطبرى (٤) .

الخوارج والمهلب بن أبى صفرة : (عهد ابن الزبير ثم عبد الملك)

يرتبط تاريخ الخوارج فى أزهى عصورهم بالبطل الكبير المهلب بن أبى صفرة ، فقد شهد العقد السادس الهجرى والسنون الأولى من العقد السابع وفاة الأبطال الذين سدوا كل الطرق فى وجه الخوارج ،

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٣١ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ٢٣١ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٦٠ .

(٤) المرجع السابق ص ٣٦ .

فقد توفي المغيرة بن شعبة وزيايد بن أبيه ومعاوية وعبيد الله بن زياد ،
فكأنما انطلق الخوارج بذلك من العقال ، وساعد على ذلك ذكرهم
للدماء التي أراقها الأمويون منهم وللأرواح التي ازهقوها في شدة
وغلظة ، كما ساعد على ذلك أيضاً اضطراب الأحوال بعد موت معاوية ،
ثم انه كان قد تهيأ للخوارج قيادة رائعة على يد البطلين الشهيرين
نافع بن الأزرق وقطرى بن الفجاءة •

وبينما تطور شأن الخوارج على هذا النحو ظهرت في وجوههم
قيادة تشبههم في البطولة أو ترجحهم ، تلك هي قيادة عبد الملك بن
مروان والحجاج والمهلب بن أبي صفرة ، ولهذا يمكن القول أنه في
عصر عبد الملك ارتطمت قوتان جبارتان ، وتصارعت جبهتان جديدتان ،
ولولا الانقسام الذي وقع في صفوف الخوارج لكان من المحتمل أن
يتغير وجه التاريخ •

وكان الخوارج بعد موت معاوية قد انضموا الى ابن الزبير ،
ولكنهم كما سنبيّن فيما بعد (١) عادوا ولاموا أنفسهم على نصرته ورحلوا
من مكة ، ولكنهم انقسموا قسمين كما ذكرنا من قبل ، فاتحة الأزارقة
الى البصرة واتجه النجدات الى اليمامة (٢) ، وكان الفرع الأول أقوى
وأشدّ مراساً كما كان أكثر تأويلاً ، فقد استحل نافع بن الأزرق قتل
الأطفال وكفّر القعدة وعد مال المخالفين حالاً لأصحابه (٣) ، ولقى
نافع نجاحاً كبيراً بسبب اضطراب الدولة الأموية آنذاك فدانت
له الأهواز وأصبح له النفوذ في السواد ، ولكنه بمبادئته السابقة جلب على
نفسه كثيراً من الأعداء حتى أولئك الذين لم يكونوا من أنصار بني
أمية ، ولذلك اجتمع أهل البصرة وولوا عليهم المهلب بن أبي صفرة
الذي تصدى لقتالهم وهزمهم وقتل قائدهم نافع بن الأزرق ولكنهم

(١) ص ٢٦٤ و ٢٧٣ من هذا الكتاب •

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٨٠ •

(٣) انظر شرحه لرايه في العقد الفريد ج ٢ ص ٣٩٧ — ٣٩٨ •

جددوا نشاطهم مرة أخرى في نواحي كرمان وأصبهان وبخاصة عتقيا
أبعد المهلب عن الوقوف في وجوههم ، إذ امتد نفوذ ابن الزبير إلى
البصرة وعين مصعب المهلب والياً على الجزيرة وعين مكانه عمرو بن
عبيد الله بن معمر لحرب الخوارج ، ولكن هذا لم يستطع أن يملا
فراغ المهلب فطلب أهل البصرة من مصعب إعادة المهلب فأعاده (١) ،
قطرى بن الفجاءة :

وكانت قيادة الخوارج قد آلت إلى بطل شهير هو قطرى بن الفجاءة
الذى يقول :

فصبراً في مجال الموت صبراً
فما نيل الخلود بمسقطاع
سبيل المسوت غاية كل حى
وداعيه لأهل الأرض داع
وما للمرء خير من حياة
إذا ما عُدد من سقَطِ المتاع (٢)

وانتهى أمر ابن الزبير ، وألقى على عاتق الحجاج وعبد الله
حرب الخوارج ، فأقرا المهلب ليستمر في نضاله ضد الأزارقة ، وضما له
عبد الرحمن بن مخنف ، ولكن الخوارج باغتوا جيش ابن مخنف ليلاً
فأوقعوا به هزيمة بالغة قتل فيها ابن مخنف نفسه ، واستمر المهلب
يحاربهم في شدة مزوجة بالسياسة والفتنة مما كسب له النصر .

وحدث خلاف بين أتباع قطرى فانقسموا قسمين ، بايع أكثرهم
عبد ربه الكبير وبقي أقلهم مع قطرى ، وحارب بعضهم بعضاً حرب
فناء فاضمحلوا ، وكان من سياسة المهلب أن يتركهم يفتنى بعضهم البعض

(١) انظر تفاصيل حروب المهلب مع الخوارج في الطبرى ج ٤ ص ٤٧٨
وما بعدها واليعقوبى ج ٣ ص ١ ، والعقد الفريد ج ٢ من ٣٩١ .
(٢) الطبرى وترجمة حياة قطرى في ابن خلكان وانظر العقد الفريد ج ١
ص ١٢٣ .

وقد آذن ذلك بضعف الجمع فاستطاعت جيوش الأمويين قتل قطري وعبيدة بن هلال وعبد ربه الكبير سنة ٧٧ هـ وهزيمة جيوشهم (١) .

شبيب بن يزيد :

ومن الخوارج الذين هددوا الحجاج وزلزلوا سلطانه ، البطل العظيم شبيب بن يزيد الشيباني الذي أثر عنه قوله : الليل يكفيك الجبان ونصف الشجاع ، وكان اذا أمس الليل قال لأصحابه : اتاكم المدد (٢) وقد خرج سنة ٧٦ هـ وهزم كثيراً من جيوش بنى أمية حتى دخل الكوفة وهدد قصر الحجاج نفسه ، وقد هب الحجاج لمحاربته ودارت بينه وبين الحجاج معارك طاحنة طالما هزمت فيها جيوش الحجاج ، وأخيراً ضعف شبيب وفر ودخل الأهواز ، فأرسل اليه الحجاج جيشاً بقيادة سفیان بن أبرد فطلبه سفیان حتى حاصره في البحر فأغرقه سنة ٧٨ هـ (٣) .

النجدات في اليمامة وسياسة القعود :

وينبغي أن نوضح أن نجدة وأصحابه ممن اتجهوا الى اليمامة كانوا يميلون الى القعود ، أى عدم الحرب ، ولذلك كان نشاطهم محدوداً في هذه البقاع ، وينبغي أن نوضح أيضاً أن الضربات الشديدة التي أوقعها بالخوارج عبد الملك والحجاج والمهلب أزالت خطرهم حتى عم الهدوء آخر عهد عبد الملك وشمل الى حد كبير عهدي الوليد وسليمان .

الخوارج وعمر بن عبد العزيز :

هب الخوارج من جديد في عهد عمر بن عبد العزيز ، وكان خروجهم بالعراق بالقرب من الحيرة ، وكان قائدهم رجلاً من بنى شيبان يسمى شوذب ، وقد أرسل عمر للخوارج جيشاً كبيراً أمر عليه

(١) الطبرى ج ٥ ص ١٢٦ .

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ١١٣ .

(٣) اليعقوبى ج ٣ ص ١٧ .

مسلمة بن عبد الملك وأمره ألا يحاربهم إلا إذا حاربوه أو أفسدوا في الأرض ، وأرسل في الوقت نفسه رسولا الى شوذب يدعوه لمناظرتة ليريا أين يكون الحق ، فاستجاب له شوذب وأرسل رجلين من رجاله ، والتقيا بعمر ، ودارت بينهما هذه المناقشة :

عمر : ما الذى أخرجكم علينا ؟

أحد الرجلين : لا ننكر عليك عدلك ولا سيرتك ، ولكن هناك أمراً أخرجنا عليك ، وهو أن أهلك كانوا ظالمين وسميتهم أنت الظلمة ، وسميت أعمالهم مظالم فalcنهم ، فانك إن لعنتهم اتفقنا معك .

قال عمر : لقد حارب أبو بكر المرتدين وسبى نساءهم وذرائعهم ، فلما جاء عمر أعاد هؤلاء الى ذويهم ، فهل لعن عمر أبا بكر ، وهل تلعنون أنتم أحدهما ؟

الرجل : لا

عمر : وهل كان فرعون ظالماً يستحق اللعن ؟

الرجل : نعم

عمر : متى عهدك بلعنه ؟

الرجل : لا أذكر أنى لعنته

عمر : لا عهد لك بلعن فرعون وتريدنى أن العن أهلى ؟

الرجل : وموضوع آخر هو يزيد ، لماذا تقره خليفة من بعدك ؟

عمر : صيره غيرى .

الرجل : أفرأيت لو وليت مالا لغيرك ثم وكلته الى غير مأمون عليه أترك كنت أدبت الأمانة ؟

عمر : أنتظرانى ثلاثة أيام .

وانتهت هذه المناظرة باقتناع الرجلين بأن عمر على حق وأنه يحاول بكل جهده أن يعمل لخير الاسلام والمسلمين ، فبقى أحدهما مع عمر وغادر الآخر لينبئ شوذب بما جرى . ويقول الطبرى أن بنى أمية خافوا أن يعزل عمر يزيد فدسوا له السم فمات بعد أيام (١) .

الخوارج في آخر الدولة الأموية :

نشطت حركات الشيعة مع مطلع القرن الهجرى الثانى ، واتجهت لهم الأنظار ، وبدعوا يحققون انتصارات سياسية ثم عسكرية ، وهذا أخفى نشاط الخوارج فلم يعد لهم كبير شأن ، وقد تجددت على العموم ثورة شوذب بعد موت عمر بن عبد العزيز ، وحقق بعض الانتصارات في الكوفة وما حولها فتصدى له مسلمة بن عبد الملك وسعيد بن عمر الحرشى ففضيا عليه على الرغم مما أبداه من بطولة فائقة وعبقرية حربية نذرة (٢) . وممن ثار في عهد هشام البهلول بن عمير الشيبانى ، وكانت ثورته بالكوفة فتصدى له خالد بن عبد الله القسرى ، ثم رحل البهلول تجاه الموصل فتبعه جيش خالد حتى قتل ذلك الثائر هناك (٣) وآخر حركاتهم في عهد الدولة الأموية تلك الحركة التى قام بها أبو حمزة الخارجى بمكة سنة ١٢٩ هـ وقد امتدت انتصاراته الى المدينة سنة ١٣٠ ولكن مروان بن محمد أرسل له جيشاً قضى عليه وعلى أتباعه (٤) .

وسقطت الدولة الأموية بعد أن ضعف شأن الخوارج وكلفت عزيمتهم ولم يبق منهم الا بقية ضئيلة سنرى مرة أخرى ثوراتها ونضالها عند الحديث عن الخلافة العباسية في الجزء الثالث من هذه الموسوعة ان شاء الله .

(١) اقرأ المناقشة كاملة في سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٣٠ — ١٢٣٤ وقرأ كتب عمر الى الخوارج ص ٨٣-٨٤ ، ٨٦ : ٨٩ — ٩٠ .
(٢) الطبرى ج ٥ ص ٣٢٦ — ٢٧ والعقد الفريد ج ٢ ص ٢ ، ٤ — ٤٠٣ .

(٣) اليعقوبى ج ٣ ص ٥٤ .

(٤) المرجع السابق ص ٦٦ .

وقد واجه الخوارج ازهى انتصاراتهم فى عهد الدولة الأموية، وكانوا عرباً الى البداوة أقرب ، كانوا قليلي الصلة بالثقافات الخارجية، وهذه العوامل جعلت مذهب الخوارج قليل الفلسفة وجعلت أفكارهم قليلة العمق ، فهم لم يدرسوا بعمق من تلقاء أنفسهم ، ولم يفتحوا أبوابهم وقلوبهم لثقافات الخارج كما فعل الشيعة منذ عهدهم الباكر ، ولم يغمروهم طوفان الفلسفة الذى غمر العالم الاسلامى فى خلال الدولة العباسية ، لأن هذا الطوفان لم يكن قد بدأ ابان عنفوان الخوارج ، فلما بدأ طوفان الثقافة والفلسفة يعم العالم الاسلامى كان نجم الخوارج ، يؤذن بالزوال ، وسنرى فى دراستنا لمبادئهم كيف كانت آراؤهم ضحلة وأفكارهم قليلة العمق .

أفكار الخوارج :

حديثنا عن أفكار الخوارج سيشمل ثلاثة أبحاث :

(أ) سبب حركات الخوارج .

(ب) ملامح الخوارج الغالبة .

(ج) فرق الخوارج وآراؤها فى السياسة والدين .

وستتكلّم عنها واحداً واحداً .

(أ) سبب حركات الخوارج :

لا يكاد الباحث يجد سبباً حقيقياً جديراً بأن يدفع الخوارج الى اراقّة الدماء التى أراقوها وازهاق الأرواح التى أزهاقوها ، والى سلب أموال المسلمين وقتل نساءهم وأطفالهم ، وقد هزم الخوارج عدة مرات عندما نوقشت آراؤهم ، هزموا أمام على عندما رفضوا دخول الكوفة ، وهزموا أمام عبد الله بن العباس عندما أرسله على اليهم كما سبق القول ، وناقشهم عمر بن عبد العزيز فهزموا واستسلموا اليه ، ولذلك نقرر أنه لم تكن هناك أسباب حقيقية ذات شأن تدفعهم

لما إرتكبوا من اثم ، وما أراقوه من دماء وما شغلوا من جيوش المسلمين
وأضاعوا من جهد القادة والمجتود .

تعال بنا تبحث في ثنايا تاريخهم عن الأسباب التي دفعتهم لهذا
الحق الذي سبب لهم والمسلمين خسارة بالغة .

وأول ما تجده هو أنهم كانوا عرباً ، وليسوا كالشيعية يتحدر
أكثرهم من غير العرب ، وطبيعة العربي الثورة لأنفسه الأسباب ، وإذا
درسنا أيام العرب وحروبهم لا نجد سبباً ذا بال يستحق أن تراق له
الدماء التي أريقَت ، وأن تشهر له السيوف والرماح التي شمرت ،
وحسبك أن تتذكر أن حرب البسوس التي استمرت عدة سنوات وسقط
فيها عدد ضخم من الضحايا ، تسببت لأن كليب بن ربيعة سيد تغلب
الذي كان يخفى مواقع الحيا ، طعن يسهم ناقة لخاله جساس بن مرة
من بكر ، فلم يغفرها جساس الأحق وقتله فيها مع أن أخت جساس
كانت زوجة لكليب ، وهيت الحروب بعد ذلك ولاقت الجزيرة العربية
منها الأهوال (١) .

ذلك فيما أعتقد سبب هام لثورات الخوارج ، إنهم عرب يقاتلون
لأنفسه الأسباب ، فلا تشغل نفسك بالسؤال : لماذا خرجوا ولماذا يقاتلون ؟
فانه يمكن القول ان القتال عندهم كان عملاً عادياً يوشك أن يكون
كالطعام والمشي ، ويقول ابن عبدربه (٢) في ذلك : وكانت الخوارج
تقاتل على القدح يؤخذ منها ، واللسوط والعلق الحسيين (ما تتبلغ به
الملشية من الشجر) أشد قتال ، وسقط في بعض أيامهم رمح من
خارجي فقاتلوا عليه حتى كثرت الجراح والقتل ، وصاحب الرمح
يرتجزر :

(١) اقرأ أيام العرب في الأغني وقرأ أيام العرب في الجاهلية لجلاد
السولي .

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٢٦٥ — ٢٦٦ .

الليل ليل فيه ويل ويل
وسل بالقوم الثروة لليل
أن جسر للأعداء قينا قول

على أن هذا السبب أسلم نسب آخر هو أيضاً من عادة العرب ،
ذلك هو الأخذ بالنار ، فقد حارب على الخوارج في النهروان وقتل
أكثرهم ، وهب الخوارج بعد ذلك يتذكرون ما حصل لآخوانهم في
النهروان ، ويعملون للأخذ بثأرهم ، ويقول الطبرى (١) : أنهم كانوا يأتون
مصارع إخوانهم في النهروان فيتوضئون ويصلثون ويتذكرون إخوانهم
ويكون ثم يبحثون للأخذ بثأرهم .

واعتمادى كذلك أن من الأسباب التي دعت الخوارج للثورة على
عليّ ومحاربه أن ولائهم له لم يكن كاملاً ، ويبدو أن اتصالهم بالشيعية
ومدعى التشيع في جيش عليّ نقل اليهم هذا الاتجاه ، وبخاصة أن
صلتهم بعلي كانت حديثة بدأت عندما انتقل على إلى الكوفة ، وأن
علياً لم يصدق عليهم المال والهبات ، فلم تتوثق به صلة الكثيرين
الذين يجذبهم متاع الحياة الدنيا .

ويكن القول كذلك أن بعض من أثاروا الفتن في وجه علي لم يكن
ولاؤهم للإسلام كاملاً ، وحسبنا أن نذكر الأئمة بن قيس الذي أصر
على إيقاف القتال وهدد علياً أن استمر على حرب معاوية ، ولعب دوراً
كبيراً جلب الهزيمة والفرقة إلى جيش علي .

من هو الأئمة بن قيس هذا ؟ وإلى أي حد كان ولاؤه للإسلام ؟
وحبه لاتجاهات هذا الدين ؟

يذكر لنا التاريخ أن الأئمة هذا ارتد عن الإسلام بعد وفاة الرسول
وحاربه أبو بكر ، فلما رأى الهزيمة أوشكت أن تحقيق به كتب إلى أبي بكر

(١) تاريخ الطبرى ج ٥ ص ٦١ .

(م ١٧ — التاريخ الإسلامى)

يعلم عودته للإسلام ويطلب العفو ... وعفا عنه أبو بكر ولكن أغلب الظن
أن الإسلام لم يتعمق في طيات قلبه (١) .

وللأسف هذا ابن اسمه محمد وهو الذي آمن مسلم بن عقيل
وهتف به : انك لا تكذب ولا تتخذع ولا تغر ، ودنا محمد من مسلم
وقال : لك الأمان . قال مسلم : آمن أنا ؟ قال محمد : نعم . سرعان
ما أسلمه محمد الى حتفه ولم يبال بما قدمه له من الوعود (٢) .

وللأسف هذا حفيد اسمه عبد الرحمن وقد مر بنا أنه خرج
بجيش الحجاج ، ثم استدار بالجيش يحارب الحجاج .

تلك قصة أسرة الظن أنها لا تعرف الولاء للإسلام ولا لقادة
الإسلام .

ويبدو كذلك أن من اسباب نشأة الخوارج أن يد معاوية لعبت
فأحدثت الانقسام في جيش على وسببت ظهور الخوارج ، يقول
اليعقوبي (٣) ، أن أهل الشام لما رفعوا المصاحف قال على : انها مكيدة
وليسوا بأصحاب قرآن ، فاعترض الأشعث بن قيس الكندي وقد كان
معاوية استماله وكتب اليه ودعاه الى نفسه ، فقال : قد دعانا القوم
للحق والقرآن فلا تدعنا للسيف ... » ويذكر ابن قتيبة (٤) أيضا أن
معاوية أرسل عتيبة بن أبي سفيان الى الأشعث وقال له : ألن الى الأشعث
كلما فانه ان رضى بالصلح رضيت به العامة ، فناداه عتبة وكلمه .

وتاريخ معاوية وذكاؤه ودهاؤه تجعل من الأقرب أنه لم يكتف برفع

(١) النوى : تهذيب الاسماء القسم الاول ج ١ ص ٢٢٢ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ٢٨٠ .

(٣) تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ١٣٤ .

(٤) الإمامة والسياسة ج ١ ص ١١٢ .

المصاحف، بل هيأ في جيش علي من يقبل هذه الخدعة، ويؤكد المستشرقون أن
الأشعث مثل دوزي Dozy وبرنوف Brünnow وميلر Müller عبء
التهمة الرئيسي عليه ، فيقال إن أهل الشام قالوا له (للأشعث) قبل
المعركة : اننا اذا شعرنا بخطر الهزيمة سنرفع المصاحف على أسنة الرماح
فاعمل بحيث بوقف القتال • ووفقاً لهذه الخطة عمل الأشعث (١) •

وقد ذكرنا من قبل كيف تحمس الأشعث لوقف القتال ، وهدد
علياً بسله أو تسليمه لأهل الشام ، ولم يرد أن يعطى فرصة قصيرة
للأشعث ليكمل برا انتصاراته ، وكل هذا يوحى بثبوت التهمة ضد هذا
المارق •

قد يقول قائل : ان هذا الادعاء لا يقبل لأن الخوارج عادوا
معاوية وحاربوه ، فكيف نتهم يد معاوية بأنها لعبت أو أثارت الفتن في
جيش علي ؟

والجواب على ذلك واضح فان يد معاوية عندما لعبت لم تلعب
مع الجميع بطبيعة الحال ، وانما لعبت مع بعض القادة كالأشعث
مثلاً وتنته الجماهير الحمقاء ، واعتقادي أن هذه الجماهير لم تكن
تعرف الخدعة بل كانت كراهيتها لمعاوية أكثر من كراهيتها لعلی ،
ولذلك استمروا في حروبهم ضد معاوية كما استمروا في عدائهم لبنی
أمية •

وامتدت حياة الخوارج وكان صراعهم مع بنی أمية عنيفاً قاسياً ،
وأغلب الظن أن العصبية القبلية كانت أيضاً من دوافع هذه الحروب ،
فقد تجددت هذه العصبية التي حاربها الاسلام ، ووجدت بعض القبائل
أن من المشين أن تلقى عصا القيادة الى بنی أمية ، فهبوا في وجوههم •

وكانت البصرة والكوفة مركزا للخوارج ، وفيهما التقى الخوارج طويلا بالشيعية ومدعى التشيع ، وأغلب الظن أنهم أخذوا عنهم حبهم للثورات وميلهم للفتن والعصيان .

وأخيراً فمن أهم الأسباب لحركات الخوارج مبالغتهم في تقديرهم لرأيهم ، فانهم يرون الرأي فيصبح عندهم عقيدة ولا يحيدون عنه ، وقد يكون ذلك الرأي خطير النتائج أو قاسياً عنيفاً ولكنهم لا يهتمون بذلك ، لقد كانوا عبيداً مخلصين لأرائهم لا يقيمون وزناً لسواها ولا يتوانون في التضحية من أجلها ، فقد قالوا لعبيد الله بن خباب : ان القرآن الذي على صدرك يأمرنا بقتلك ، وهيهات أن يأمر القرآن بقتل مسلم لم يرتكب جريمة ، ولكن هكذا اعتقد الخوارج وهكذا نفذوا عقيدتهم ، ومما اعتقدوه كذلك على هذا النحو ما ورد أنهم كانوا يستحلون دم المسلم المخالف ولكنهم يحفظون دم الذمي ولا يريقونه ، ويقولون : احفظوا ذمة نبيكم ، ومما روى في ذلك أن واصل بن عطاء زعيم المعتزلة كان يسير في رفقة من صحابة فأحسوا الحرورية فذعروا فقال واصل لأصحابه ، لا تكلموهم ودعوني وإياهم ، ثم سأله الخوارج ، ما أنت وما أصحابك ؟ قال : مشركون مستجرون ليسمعوا كلام الله . قال الخوارج قد أجرناكم . قال واصل : فاعلمونا . فجعلوا يعلمونهم أحكامهم وجعل واصل يقول قد قبلنا ، فسر الخوارج منهم وقالوا لهم : امضوا مصاحبين ما عليكم من بأس . قال واصل : ليس ذلك لكم فان الله يقول : « وان أجعد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » (١) ، فنظر الخوارج بعضهم لبعض وقالوا : هذا حق وأرسلوا منهم من أبلغهم مأمنهم (٢) .

وأما الآن وثيقتان هامتان لرعيمين من زعماء الخوارج تبينان لنا كيف كوّن الخوارج آراءهم وبنوا معتقداتهم .

(١) سورة التوبة الآية السادسة .

(٢) المبرد : الكامل في اللغة والأدب ج ٢ ص ٢٥٤ .

الوثيقة الأولى كتبها نجدة الى نافع بن الأزرق لما بلغه استعراضه (١)
للناس وقتله الأطفال واستحلاله الأمانة ، ونص الوثيقة هو كما أوردها
ابن عبد ربه (٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم .

أما بعد ، فان عهدى بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم ، وللضعيف
كالأخ البر ، لا تأخذك في الله لومة لائم ولا معونة ظالم ، فلما شريت
نفسك في طاعة ربك ابتغاء رضوانه ، وأصبحت من الحق فصه تجرد لك
الشیطان ، فلم يكن أحد أسهل وطأة عليك منك ومن أصحابك ، فاستمالك
واستغواك ، فغويت ، وكفرت الذين عذروهم الله في كتابه من قعدة
المسلمين وضعافهم ، فقال جل ثناؤه وقوله الحق ووعد الصدق « ليس
على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج
إذا نصحوا لله ورسوله » (٣) ، ثم سماهم أحسن الأسماء فقال « ما على
المحسنين من سبيل » (٤) ثم استحللت قتل الأطفال وقد نهى رسول الله
عن قتلهم ، ويشملهم قوله جل ثناؤه « ولا تزر وازرة وزر أخرى » (٥)
وقال في القعدة خيرا ، وفضل الله من جاهد عليهم ولا تدفع منزلة أكثر
الناس عملا منزلة من هم دونهم قال تعالى « لا يستوى القاعدون من
المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ،
فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد
الله الحسنى » (٦) فجعلهم الله من المؤمنين وفضل عليهم المجاهدين ،
ورأيت من رأيك ألا تؤدي الأمانة الى من يخالفك والله يأمر أن تؤدي
الأمانات الى أهلها فانق الله .

(١) أى اعتراضه الناس وقتلهم دون أن يبالي مسلما قتل أم كافرا .

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ٣٩٦ — ٣٩٧ .

(٣) سورة التوبة الآية ٩١ .

(٤) سورة التوبة الآية ٩١ .

(٥) سورة الانعام الآية ١٦٤ .

(٦) سورة النساء ٩٥ .

أما الوثيقة الثانية فجواب نافع بن الأزرق لنجدة ونصه كما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، فقد أتاني كتابك تعظني فيه وتذكرني وتعيب على ما دنت به من تكفير القعدة وقتل الأطفال واستحلال الأمانة ، سأفسر لك ذلك أن شاء الله . أما هؤلاء القعدة فليسوا كمن ذكرت ممن كان على عهد رسول الله ، لأنهم كانوا بمكة مقهورين محصورين لا يجدون إلى الهرب سبيلا ، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقا ، وهؤلاء قد فقهوا في الدين وقرءوا القرآن ، والطريق لهم نهج واضح ، وقد عرفت ما يقول الله فيمن مثلهم اذ قال : « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيه كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين في الأرض . قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » (١) وقال : « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله » (٢) وقال : « وجاء المعذرون من الاعراب ليؤذن لهم ، وقعد الذين كذبوا الله ورسوله » (٣) : « سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم » (٤) فساماهم بالكفر .

وأما أمر الأطفال فان نبي الله نوحا كان أعرف بالله يا نجدة منى ومنا ، قال : « رب لاتذر على الارض من الكافرين ديارا ، انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا » (٥) فساماهم بالكفر وهم أطفال وقبل أن يولدوا فكيف جاز ذلك في قوم نوح ولا يجوز في قومنا ؟

وأما استحلال الأمانات ممن خالفنا فان الله عز وجل أحل لنا أموالهم كما أحل لنا دمائهم ، فدمائهم حلال طلق (طيب) وأموالهم فيء للمسلمين فائق الله يا نجدقوراجع نفسك (٦)

-
- (١) سورة النساء الآية ٩٧ .
 - (٢) سورة التوبة الآية ٨١ .
 - (٣) سورة التوبة الآية ٩٠ .
 - (٤) سورة التوبة الآية ٩٠ .
 - (٥) سورة نوح الآية ٢٦ — ٢٧ .
 - (٦) العقد الفريد ج ٢ ص ٣٩٧ — ٣٩٨ .

وهكذا كان استدلال نافع ، ومن الواضح أنه استدلال واه ضعيف ، ولكن الازارقة كانوا يزونه سليماً كأئنة التنزيل ، وكانوا يدينون به ويعملون بمقتضاها ، وقد جلب عليهم هذا سخط الكثيرين حتى أعداء بني أمية ، ولكنهم لم يباؤوا بسخط أحد أو رضاه ، وكان كل اهتمامهم أن يسيروا في الطريق الذي اعتقدوا أنه الحق مهما كانت نتائج سيرهم

(ب) ملامح الخوارج الغالبة :

امتاز الخوارج بملامح وصفات خاصة قل أن توجد في سواهم ، وسنبز في الصفحات التالية خصائص الخوارج وأخلاقهم وسنرى أنها خصائص عربية تختلف عن أخلاق الشيعة الذين كان طابعهم العام غير عربي ، سنرى أن أخلاق الخوارج عربية في خيرها وشرها ، عربية في البساطة وعدم العمق ، عربية في الصراحة والوضوح ، عربية في الشجاعة وحب الوغى ، عربية في الفردية وضعف الروح الجماعية ، عربية في الوفاء ، عربية في عدم تقديس الزعماء • وفيما يلي تفصيل لهذا الاجمال :

وأول ما نبرزه من ملامح الخوارج هو البساطة والسطحية وعدم العمق في فهم الامور ، وعدم الغور في تقدير نتائج ما يقدمون عليه ، ولا شك أن من سطحياتهم وأخذهم بالظاهر الخاطيء ما أوردناه آنفا مما استدل به نافع بن الازرق على صحة قتل الاطفال والنساء ، وما أوردناه ذلك من قتلهم عبد الله بن خباب متأولين حل قتله ، وقصة ذلك أن في القرآن آية نصها « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون (١) » وآية أخرى نصها « ان الحكم الا (٢) لله » وعلى « حَكَمَ الرجال وعلى هذا حكموا بكفره ، فلما قدم عليهم عبد الله بن خباب وسأله رأيهم في على « أثنى عليه ومدحه ، قالوا له : ان القرآن الذي في رقبتهك يأمرنا بقتلك • لأن عبد الله يتولى علياً وعلى « في نظرهم كافر (٣) •

(١) سورة المائدة الآية ٤٤ .

(٢) سورة الانعام الآية ١٥٧ .

(٣) اقرأ قصة عبد الله مع الخوارج في العقد الفريد ج ٢ ص ٣٩٠ .

والعجيب أنهم في الوقت الذي قتلوا فيه عبد الله يأنفون أن يقبلوا هبة صغيرة من نصراني وأصروا على دفع ثمنها له ، فدهش النصراني وقال : تقتلون مثل عبد الله بن خباب ولا تقبلون من جنى نخله الا بثمن (١) .

ومن بسلطتهم وعدم تعمقهم أنهم يقدمون على ابن الزبير ويحاربون معه وينصرونه حتى تنجلي جيوش الأمويين عن مكة ، وحينئذ فقط يطلبون معرفة كنهه ، وهل يعترف بكفر عثمان وعلى وكفر أبيه الزبير وخالته عائشة ... ومن الطبيعي أن يرفض عبد الله هذا الحق ، وحينئذ ينفضون عنه ويهاجمونه ويشعلون الحرب في المناطق التابعة له (٢) .

ومن ملامح الخوارج الغالبة تشددهم في العبادة ومبالغتهم فيها ، فقد روى أن ابن عباس عندما ذهب اليهم رسولا من على رأى منهم جباها قرحة لطول السجود ، وأيدياً كثفنت الابل (أى ما يمس الأرض عندما يترك البعير لغلظ أيديهم من كثرة السجود) وهم مشغورون للعبادة (٣) ، ومما يذكر عن مبالغتهم في العبادة ما روى أن زياد بن أبيه قتل أحد الخوارج ثم دعا مولاه فقال له : صف لى أمره واصدق : قال المولى : أأظن أم أختصر ؟ فأجابه زياد : بل اختصر . قال المولى : ما أتيت به بطعام في نهار قط ، ولا فرشت له فراشا بليل قط (٤) .

ويصف أبو حمزة الخارجى أتباعه بقوله في خطبة ألقاها بمكة : يا أهل مكة تميروننى بأصحابى ، ترعمون أنهم شباب ، وهل كان أصحاب رسول الله إلا شباباً ، شباب والله مكتهلون في شبابهم ، غضيضة عن الشر اعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة ، وأطلاح سهر (بهم نكافة من

(١) المرجع السابق .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٣٧ واقرأ المراسلات والمناقشات بين ابن الزبير وبين نافع من الأزرق في العقد الفريد ج ٢ ص ٣٩١ وما بعدها .

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٢ ص ٣٨٩ .

(٤) الشهرستاني : الملوك والنحل القسم الاول ص ١٠٨ .

شدة السهر) نظر الله اليهم في جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقا اليها ، واذا مر بآية من ذكر النار شهق كأنه زفير جهنم بين أذنيه ، موصول كلالهم بكلالهم كلال الليل بكلال النهار ، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم واستقلوا ذلك في جنب الله ، حتى اذا رأوا السهام قد فوقت ، والرماح قد اشرعت ، والسيوف قد انتضيت ، ورعدت الكتبية بصواعق الموت وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتبية لوعيد الله ، ومضى منهم الشباب قدما حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعت اليه سباع الأرض ، وانحطت اليه طير السماء ، فكمن من عين في منقار طير طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله .

وجماعة فيهم هذا الورع وهذه التقى لا يهتمون في ايمانهم ، ولا يقال عنهم ما قلناه من قبل في مدعى التشيع من أنهم تظاهروا بدخول الاسلام ليكيدوا له وليخضدوا شوكته ، فالخوارج مسلمون حقيقة ، يسمعون لخير الاسلام ومجده ، ولكنهم في سعيهم ضلوا الطريق دون أن يدركوا أنهم ضلوا ، فواصلوا السير في طريق الضلال وأوغلوا فيه ، ولقد وصفهم عمر بن عبد العزيز أبلغ وصف حين قال لهم : انكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها (١) .

ويقول Wellhausen ان الخوارج لم يكونوا بذرة فاسدة بذرها اليهودي ابن سبأ سرا ، بل كانوا نبتة اسلامية حقيقية ... ولم يكونوا فرقة تعيش في الظلام بل كانوا ظاهرين علنا على أوسع أساس (٢) .

على أن الخوارج اذا لم يكونوا أعداء للاسلام والمسلمين بطريق

(١) ابن عبد الحكم : منيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٣١ .

(٢) الخوارج والشيعة ص ٢٥ - ٢٦ .

مباشر فقد آل أمرهم ليتصبحوا أعداء خطرين على الاسلام والمسلمين ،
فقد ابتدعوا في الاسلام ما ليس منه ، وأسرفوا في التثكيل بالمسلمين ،
وأزهقوا آلاف الأرواح وقضوا باليتم والتزمل والثكل على آلاف الأطفال
والزوجات والأمهات ثم شغلوا جيوش الدولة فأوقفوا نشاطها وأتاحوا
لجيوش الأعداء أن تهدد العالم الاسلامي وأن ترحف على أطرافه .

وليس معنى دفاعنا عن اسلام الخوارج أنهم كانوا جميعا موالين
للالسلام ، لا ، فان من فرقهم العجاردة الذين أنكروا كون سورة يوسف
من القرآن وزعموا أنها قصة من القصص (١) ، ومنهم اليزيدية الذين
زعموا أن الله تعالى سيبعث رسولا من العجم وينزل عليه كتابا قد كتب في
السماء (٢) ، وقد كفر الفريقان بهذا التفكير السقيم .

ومن الملامح البارزة في الخوارج الشجاعة وحب الوغى والاستهانة
بالدنيا دفاعا عن رأى يعتقدونه أو مبدءا يدينون به ، ويحكى الطبرى أن
جماعة من الخوارج كسروا سجن الكوفة وخرجوا منه عقب وفاة المغيرة
ابن شعبة ثم اجتمع هؤلاء ليتدبروا أمرهم ويتدارسوا شئونهم فخطبهم
زعيمهم حيان بن ظبيان وحبب اليهم الموت في سبيل المبدء ، وذكر أن
لا أمل في النصر لقلّة العدد والعدة ولكنه قال ان حربنا للظلمة يخرجنا من
الاثم ، وهتف فيهم : تعالوا الى الموت ، أخرجوا أنفسكم من الفتن ،
هلموا الى جنة الخلد ، فأطاعوه ، وأشعلوا ثورة كانوا جميعا ضحية لها
وكانوا يعتقدون أنهم سيكونون ضحية (٣) .

وقيل للمهلب بن أبى صفرة : ما أعجب ما رأيت في حرب الازارقة ؟
فقال : فتى كان يخرج الينا منهم في كل غداة فينشد :

(١) الشهر ستانى : الملل والنحل القسم الاول من ١١٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٢ .

(٣) الطبرى ج ٤ ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

وسائلة بالغيب عني ولو دبرت
مقارعتي الابطال طال نحيبها

إذا ما التقينا كنت أول فارس
يجود بنفس أثقلتها ذنوبها

ثم يحمل فلا يقوم له شيء الا أقعده ، فاذا كان من الغد عاد لمثل ذلك (١) .

والمهلب بطل مغوار يرجع اليه الفضل في تحطيم صخرة الخوارج وهز سلطانهم ، ومع هذا فالمهلب قاسى منهم كثيرا وعانى من صمودهم له وثباتهم أمام حملاته ، يذكر الطبرى (٢) وابن عبد ربه (٣) أن عبد الملك بن مروان أعطى للمهلب خراج بلاد فارس وخراج كثير من الكور الأخرى المجاورة ليستعين بها على حرب الخوارج ويبدو أن الحجاج نفس على المهلب ذلك وظن أنه يتهاون في حرب الخوارج ليبقى له هذا الجاه والغنى ، فكتب له يستعجله حربهم فأجاب المهلب : ان من البلية أن يكون الرأى بيد من يملكه دون من يبصره (٤) ، ولكن الحجاج لم يسكت عنه ، وأرسل اليه البراء بن قبيصة مع خطاب يقول فيه : « لقد اصطلمت هذه الخارجة وأنت تحب طول بقائهم لتأكل الأرض حولك ، فانهض لهم واجاهدهم واياك والعلل والأباطيل » فأخرج المهلب بنييه في الكتائب ، وخرج هو يدير المعركة العظمى وأخرج البراء ليشهد ، فرأى البراء قتالا أشد ما يكون القتال ، ورأى الرجال تحمل على الرجال في حرب شعواء ، وتكرر ذلك المنظر في عدة أيام ، فقال البراء للمهلب : ما رأيت كبنيك فرسانا قط ، ولا كفرسانك من العرب فرسانا ، ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك قط أصبر

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ ص ١٢١ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٥ ص ١٢٠ وما بعدها .

(٣) العقد الفريد ج ١ ص ١٤٥ والكامل للمبرد ج ٢ ص ١٧٢ .

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١ : ١٤٥ .

ولا أباس ، ووالله ما يعينك عليهم الا الله ، وأنت بهم معذور ، وعاد البراء
ليخبر الحجاج بذلك •

وخرج مرداس أبو بلال في أربعين رجلا أيام عبيد الله بن زياد ،
فأرسل لهم هذا أسلم بن زرعة الكيلاني في ألفين ، ودارت معركة بين
الفريقين في مكان يقال له آسك ، والعجيب أن تدور الدائرة على أسلم
وأصحابه ، فقال أحد شعراء الخوارج في ذلك :

ألفاً مؤمن منكم زعمتم
ويقتلهم بآسك أربعوناً

كذبتهم ليس ذاك كما زعمتم
ولكن الخوارج مؤمنوناً

هم الفئة القليلة قد علمتم
على الفئة الكثيرة ينصرون (١)

وتروى عن الخوارج مجموعة ضخمة من المواقف يستعذبون فيها
الموت حباً للقاء الله ، فمن ذلك أن عليّ بن أبي طالب حمل على خارجي
وضربه بسيفه ضربة قاتلة ، فلما أحس الخارجي بالموت قال : حبذا
الروحة الى الجنة • وهناك خارجي آخر طعن برمح ، فجعل يندفع نحو
قاتله ويقول : وعجلت اليك ربى لترضى (٢) •

ولما خرج حوثره الأقطع يقود جماعة من الخوارج في عهد معاوية
استعان معاوية بأبي حوثره ليرد ابنه ، فجاء الأب يطلب من الابن الكف عن
الثورة فلم يجبه ، فقال الأب لحوثره : أجيئك بابنك لعلك تراه فتحن اليه ؟

(١) الطبري ج ٤ ص ٢٣٢ وابن عبد ربه ج ١ ص ٢٥٥ •

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ ص ٢٥٦ •

فقال حوثره : يا أبت • أنا والله الى طعنة نافذة أتقلب فيها على كموب
الرمح اشوق منى الى ابنى (١) •

ومما قال مرداس أبو بلال بعد أن قتل بعض أصحابه يتعجل الموت
للحاق بهم :

أبعد ابن وهب ذى النزاهة والتقوى
ومن خاسر فى تلك الحرب المهالك

أحب بقاء أو أرجى سلامة
وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا ؟

فيسار ب سلم نيتى وبصيرتى
وهب لى التقى حتى الاقى أولئك (٢)

وكان بين صفوف الخوارج مجموعات كبيرة من النساء ، ولم يكن
هؤلاء أقل من الرجال شجاعة واستعدادا للموت ، ومن هؤلاء أم حكم
زوجة قطرى بن الفجاءة ، وكانت تشترك فى الحروب بشجاعة فائقة
وايمان بالغ ، ومن رجزها وهى تحمل على صفوف الأعداء :

أحمل رأسا قد سئمت حمله
وقد مللت دهنه وغسله
الا فتى يحمل عنى ثقله (٣)

وكان شعيب بن يزيد الشيباني يخوض حروبه الطاحنة الطويلة
ضد جيوش الحجاج ومعه مجموعة من النساء اللائى لم يكن أقل من الرجال

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ ص ٢٥٣ والكامل للمبرد ج ٢ ص

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٢ ص ٣٩٩ — ٤٠٠ •

(٣) الاغانى ج ٦ ص ٦ — ٧ •

حماسة وبطولة ، ومن هؤلاء زوجته غزالة وأمه جهيزة ، وقد ماتت زوجته في ساحة الوغى بين صليل السيوف وطعن الرماح (١)

ومن ملامح الخوارج الوفاء ، يذكر الطبرى (٢) أن عبيد الله بن زياد قبض على مرداس أبى بلال الذى تحدثنا عنه من قبل وأودعه السجن ، ولكن السجن رأى عبادة مرداس وصلاحه ، فكان يأذن له في مطلع الليل فينصرف الى داره ويعود الى السجن في مطلع الفجر دون أن يعلم ذلك أحد ، وكان لعبيد الله بن زياد جليس على صلة صداقة بأسرة مرداس ، فسمع هذا الجليس من ابن زياد ذات ليلة أنه ينوى قتل مسجونى الخوارج اذا أصبح ، وصدرت الأوامر للسجان بتقديمهم صباحا الى المقصلة ، فعرف مرداس وهو في بيته ذلك الخبر من جليس ابن زياد ، وقيل لمرداس : انج بدمك ولا تعد الى السجن • قال مرداس : انى أكره أن أواجه ربى وأنا خائن • وعزم على أن يعود في مطلع الفجر كعادته • أما السجن فأمضى ليلة سوء اثفاقا من أن يعلم مرداس الخبر فلا يرجع فلما جاء الوقت الذى يرجع فيه اذا به يعود • فقال له السجان بعد أن شمله السجن : هل بلغك ما عزم عليه الأمير ؟ قال : نعم • قال : ثم غدوت ؟ قال : نعم ولم يكن لى أن أخون ولا أن أقابل احسانك لى بفرار تعاقب أنت بسببه • وفى الصباح جلس ابن زياد وقدم الخوارج للموت حتى جاء دور مرداس فوثب السجنان — وكان ظئرا لابن زياد — وأخذ بقدمه وقال : هب لى هذا وقص قصته فوهبه له وأطلقه •

ومن الملامح شديدة الوضوح في الخوارج ما يمكن أن نسميه « الفوضى » والاضطراب وعدم الخضوع للنظام ، ولولا ذلك لكانت قوتهم غالبية ، ولكان من العسير القضاء عليهم ، ومن فوضاهم أنهم عادوا الناس جميعا ، وأعلنوا الحرب على كل من يكن من جماعتهم ،

(١) انظر البيهقي ج ٣ ص ١٧ والطبرى ج ٥ ص ٩٥ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ٥ ص ٣٣٢ .

ومن فوضاهم أنهم كانوا كثيرون الفرقة • يخرج بعضهم على بعض لأوهى الأسباب ، ويعتبرون الصديق عدواً دون جريرة تذكر ، وكان خروجهم على على نموذجاً أخذوه في جميع تاريخهم فاستسألوا الخروج على الزعماء في كثير في الاحايين وكفروا الرؤساء واستحلوا دماءهم ، والأمثلة على ذلك تزدحم بها كل المراجع التي بين أيدينا وقد مر منها نماذج عديدة ، ومن فوضاهم البالغة أنهم كانوا يحكمون بتكفير الناس لأتفه الأسباب أو بدون سبب ، حتى قال بعضهم أن الإمام إذا كفر كفرت الرعية (١) ، وليت شعري كيف يزول اعتقاد المؤمنين إذا ضل إمامهم ؟ ومن فوضاهم مثال أورده الشهرستاني (٢) يدعو للسخرية والضحك ، فقد نقم أصحاب نجدة بن عامر عليه بعض تصرفاته فاستتابوه فتاب ، ثم ندموا على استتابته وقالوا : أخطأنا وما كان لنا أن نستتيب الإمام ، وما كان له أن يتوب باستتابتنا إياه ، فتابوا من ذلك وطلبوا منه أن يتوب من توبته والا نابذوه فتاب من توبته ، ولكن ذلك لم يكفهم أيضاً فقال بعضهم أن هذا اقرار منه بصحة أحد الذنبيين : صحة ذنب تاب منه أولاً أو صحة توبة من غير ذنب ، فكفروه ووثبوا عليه وقتلوه •

تلك هي صور من ملامح الخوارج فيها خير وفيها شر ، وذلك لأنه لم تكن لهذه الجماعة مبادئ ثابتة مبنية على دراسات عميقة ، فما أبعدهم عن الدراسات ، وما أبعدهم عن العمق فيها •

(ج) فرق الخوارج وآراؤها في السياسة والدين :

قلنا فيما سبق إن من ملامح الخوارج حب الفرقة والانقسام وعدم احترام الزعماء ، وقد ظهر لنا ذلك في عهودهم المبكرة ، فهم يخرجون على على ثم يدعوهم فيعود أكثرهم إليه ، ويخرجون مرة أخرى فيرسل إليهم

(١) الشهرستاني : الملل والنحل القسم الأول ص ١١٤ •

(٢) المرجع السابق ص ١١١ - ١١٢ •

عبد الله بن عباس فيشطرون ويعود شطرهم ويبقى الآخر ، ويحارب بعضهم علياً ويعتزله آخرون دون حرب ، ولكنهم بعد موت علي أجمعوا أمرهم على كراهية معاوية وعلى حربه وهتف فيهم زعيمهم فروه بن نوفل الاشجعي قتلًا : قد جاء الآن ما لا شك فيه فسيروا الى معاوية فجاهدوه ... (١) وهكذا التقى للخوارج وزال ترددهم وشكهم ، فتكونت منهم قوة جيلة .

ووضع الخوارج برنامجهم ودعوتوا اتجاهم في تلك الفترة الاولى من حياتهم ، وكان برنامجا سياسيا جل الحديث فيه عن الخلافة ، فقالوا ان الامامة غير ضرورية ، وعلى الناس أن يتتصفا فيما بينهم (٢) ، ويجوز لهم أن ينصبوا اماما ، ويلزم أن يختاره المسلمون اختيارا حرا ، ولا يشترط فيه أن يكون من قريش ، ويجوز أن يكون حرا أو عبدا أو نبطيا ، وتلزم طاعته ما أطاع الله ورسوله ، فان لم يطع الله وجبت الثورة عليه وعزله وطبق الخوارج هذه النظرية وقد عبر عروة بن أذينة أصدق تعبير عن وجهة نظر الخوارج في تطبيق هذه النظرية ، فقد سأله زياد بن أبيه عن أبي بكر وعمر فقال شيئا خيرا ، وسأله عن عثمان ، فقال : كنت أوالى عثمان على أحواله في خلافته ست سنتين ثم تيرأت منه بعد ذلك للأحداث التي أحدثها ، وشهد عليه بالكفر ، وسأله عن علي فقال : كنت أتولاه الى أن حكم الحكمين ثم تيرأت منه بعد ذلك وشهد عليه بالكفر ، وسأله عن معاوية فسببه سببا قبيحا (٣) .

وهكذا كان الخوارج حتى عهد معاوية قوة واحدة تقريبا ، وحديثهم كله عن نظرية الخلافة سائلة الفكر . وبناء على هذه النظرية يعد معاوية غاصيا ، لأنه لم يتم اختياره بطريقة حرة ، ثم هو بعيد عن العدالة ، فيصرى الظاهر ومن ثم كان واجبا عليهم الخروج عليه ففعلوا ، وإذا كان

(١) الطبري ج ٤ ص ١٢٦ .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل : القسم الأول ص ١٠٧ ، ١١٢ .

(٣) الملل والنحل ص ١٠٨ .

هناك تردد في عدائهم لعلی فقد جاء في عهد معاوية مالا شك فيه من الامر،
كما ورد في عبارة ثروة السالفة الذكر .

خلافاتهم بعد مساعدتهم عبد الله بن الزبير :

ومضى معاوية وتولى الخلافة بعده ابنه يزيد ، ولم يتولها بانتخاب ،
ولا كان في نظرهم صالحا لها ، ولذلك هبوا في وجهه كما هبوا في وجه أبيه ،
ورأوا عبد الله بن الزبير يحاربه ويخرج عليه فأحبوه لخروجه على الامام
الجائر ، ولوقوفه للدفاع عن البيت الحرام الذي كانت جيوش الأمويين
تسمى لذلك بعد أن هدمت المدينة المنورة وقتلت صناديدها فقالوا : يجب
علينا أن نمنع حرم الله منهم ، ونمتحن ابن الزبير فان كان على رأينا
بايعناه ، فلما صاروا اليه عرفوه أنفسهم وما قدموا له ، فأظهر لهم أنه
على رأيهم . فساعدوه حتى عادت جيوش الشام ، ثم أقبلوا يلوم بعضهم
بعضا ، وقالوا : كيف ننصر هذا الرجل دون أن نعرف كنهه ، تعالوا بنا
ندخل على هذا الرجل فننظر ما عنده ، فان قدم أبا بكر وعمر وبريء من
عثمان وعلى وكفّر أباه وطلحة بايعناه ، وإن كانت الأخرى انشغلنا بما
يجدى علينا . ولم يوافقهم ابن الزبير على رأيهم ، فخرجوا من مكة ،
ولكنهم انقسموا جماعتين كبيرتين لكل منهما رأى واتجاه ، وأخذوا يتكلمون
في اللاهوت فشملت أبحاثهم الجديدة السياسة والدين ، وكانوا من قبل
يتكلمون في السياسة لا يتعدونها . واتجهت الجماعة الاولى الى البصرة
وكان على رأسها نافع بن الأزرق فسميت الازارقة ، وكان من أصحاب
نافع عبد الله بن الصفار وعبد الله بن اباض وحنظلة بن بيهس ، واتجهت
الجماعة الثانية الى اليمامة ، وكان من زعمائها عبد الله بن ثور أبو فديك
وعطية بن الأسود واليشكري وأبو طالوت ، ثم اتفقت هذه الطائفة على
اختيار نجده بن عامر رئيسا لها فسميت النجدات (١) ، وكان مصدر

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٣٦ وما بعدها — العقيد الفريد ج ٢ ص ٣٩٠
وما بعدها .

الانقسام هو بدوهم الكلام في اللاهوت واختلافهم في الرأي ، وقد كان هذا الانقسام نذير انقسامات أخرى كثيرة حدثت لأوهى الأسباب •

ويجدر بنا هنا أن نثبت وثيقة تبين لنا مطلع التفكير الديني عند الخوارج وأسلوبه وكيف كان ذلك التفكير سببا في انقسامهم الى فرق وشيع •

يقول الطبري (١) ان اتباع نافع دخلوا البصرة بعد عودتهم من مكة ، ووجدوا في البصرة تلك الخلافات والاضطرابات التي أعقبت وفاة يزيد فانتهاز نافع هذه الفرصة وأعلن الخروج والثورة ، وتبعه أغلب الخوارج ، وتخلف عنه قليل منهم عبد الله بن الصغار وعبد الله بن اباض ورجال معهما لم يروا الخروج ، ونظر نافع بن الازرق ورأى أن ولاية من تخلف عنه لا تنبغى ، وأن من تخلف عنه لا نجاة له ، فقال لأصحابه : ان الله قد أكرمكم بمخرجكم وبصركم بما عمى عنه شريككم ، أستم تعلمون أنكم انما خرجتم تطلبون شريعته وأمره ، فأمره لكم قائد ، والكتاب لكم امام ، وانما تتبعون سنته وأثره فقالوا : بلى • فقال : أليس حكمكم في وليكم حكم النبي صلى الله عليه وسلم في وليه ، وحكمكم في عدوكم حكم النبي صلى الله عليه وسلم في عدوه ، وعدوكم اليوم عدو الله وعدو النبي صلى الله عليه وسلم ، كما أن عدو النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ هو عدو الله وعدوكم اليوم ؟ فقالوا : بلى • قال : فقد أنزل الله تبارك وتعالى « براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين » (٢) وقال « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » (٣) فقد حرم الله ولايتهم ، والمقام بين أظهرهم ، واجازة شهادتهم وأكل ذبائحهم ، وقبول علم الدين منهم ، ومناكحتهم ومواريتهم ، وقد احتج الله علينا بمعرفة هذا ، وحق علينا أن نعلم هذا الدين ولا نكتم ما أنزل الله ، والله عز وجل يقول : « ان الذين يكتُمون ما أنزلنا من البيانات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٣٤٩ وما بعدها .

(٢) سورة براءة الآية الأولى .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٢١ .

أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، (١) فاستجاب له الى هذا الرأي جميع أصحابه ، فكتب به الى عبد الله بن الصغار وعبد الله بن اباض ومن قبلهما من الناس ، فلما قرأ عبد الله بن الصغار الكتاب وضعه خلفه ، فقال له ابن اباض : مالك !! لله أبوك ؟ فدفع الكتاب اليه ، فقرأه وقال : أى رأى ؟ صدق نافع لو كان القوم مشركين ، ولكنه كذّابٌ وكذّابنا فيما يقول ، وان القوم كفار بالنعم وهم براء من الشرك . فقال ابن الصغار : برىء الله منك فقد قصرت ، وبرىء الله من الازرق فقد غلا ، برىء الله منكما جميعا . وقال آخر : فبرىء الله منك ومنه وتفرق القوم .

ذلك هو أسلوب تفكيرهم ومطلع خلافتهم ، وقد انشعب الازارقة بهذا الى ثلاث فرق هي : الازارقة أتباع ابن الازرق ، والاباضية أتباع ابن اباض ، والصفورية أتباع ابن الصغار (٢) ، ويضاف اليهم النجدات سالفة الذكر ، وبهذا تتكون الفرق الاربعة الاولى من فرق الخوارج ، وقد توالى بعد ذلك انقساماتها وتشيعها الى شيع وأحزاب ، وسنتكلم فيما يلى بايجاز عن أهم فرق الخوارج ، ثم نتكلم عن آرائهم في المشكلات الدينية التى بحثوها .

الازارقة :

أصاب أبى راشد نافع بن الازرق الذين خرجوا مع نافع من البصرة الى الاهواز فغلبوا عليها وعلى فارس وكرمان ، وكان مع نافع من زعماء الخوارج عطية بن الاسود (٣) ، وقطرى بن الفجاءة وعبيد ابن هلال اليشكرى وصخر بن حبيب وصالح بن مخراق وعبد ربه الكبير وعبد ربه الصغير ، والازارقة أعظم فرق الخوارج ، وأكثرهم خطرا ،

(١) سورة البقرة الآية ١٥٩ .

(٢) انظر العقد الفريد ج ٢ ص ٣٩١ ، اما الشهر ستانى فيذكر الصفورية وينسبهم الى زياد ابن الاصفر سيأتى الحديث عنهم (انظر الملل والنحل القسم الأول ١٢٣) .

(٣) انشق عنه وعاد الى اليمامة فكان من زعماء النجدات كما سبق القول .

وأبعدهم انتصارات ، وقد هزَموا كثيرا من جيوش المسلمين ، وتصدى لهم المهلب بن أبي صفرة ، اختاره أهل البصرة ليزود عنهم وعن حرمهم ، ثم أقره ابن الزبير على حربهم ، وبعد ابن الزبير أقره عبد الملك بن مروان والحجاج ، وقد استمرت الحرب بين المهلب والازارقة تسعة عشر عاما ، ونولا بطولة المهلب وانقسام الازارقة لامتدت هذه الحروب أكثر مما امتدت ، ومن أعظم قادتهم بعد نافع قطري بن الفجاءة وقد تحدثنا من قبل عن اتجاهات الازارقة الدينية ، ويقول الشهرستاني (١) أن أهم بدعهم هي :

١ — تكفير من سواهم من المسلمين وتخليدهم في النار وإباحة قتلهم •

٢ — تكفير القعدة •

٣ — إباحة قتل أطفال المخالفين ونسائهم •

٤ — إسقاط الرجم عن الزانى اذ ليس في القرآن ذكره •

٥ — الحكم بأن أطفال المشركين في النار مع آبائهم •

٦ — النقية غير جائزة في قول ولا عمل •

٧ — تكفير من ارتكب الكبيرة •

النجدة العانرية :

أتباع نجدة بن عامر ، وكان قد ذهب الى اليمامة بعد خروجه من مكة كما سبق القول • ثم أراد العودة للوحدة مع نافع وتقريب وجهات النظر فسار بعسكره تجاه البصرة فقابله أبو فديك وعطية بن الاسود مع اتباع لهما عائدين من معسكر نافع ، وذكروا لنجدة بدع نافع ، وأعادوه وباعوه رئيسا لهم ، ونجدة متساهل جدا اذا قيس بالازارقة • فهو لا يكفر القعدة ويبيح النقية ويعذر بالجهالات ، ويرى أن الدين أمران : أحدهما معرفة

(١). الملل والنحل : القسم الأول ص ٤٠٩ — ٤١٠ .

الله ومعروفة رسوله والاقرار بها جاء من عند الله جملة وهذا واجب على جميع المسلمين ، والأمر الثانى هو ما سوى ذلك والناس معذورون أن جهلوه ، ولذلك سمي هؤلاء العاذرية ، ويرى أن من كذب كذبة صغيرة أو كبيرة وأصر عليها أشرك ، ومن زنى وشرب وسرق دون اصرار لا يشرك^(١) .

الإباضية :

أتباع عبد الله بن أباض ويرون صحة مناكحة المخالفين من المسلمين ، والتوارث معهم ، وأن دار مخالفهم من أهل الاسلام دار توحيد الا معسكر السلطان فانه دار بغى ، ويقبلون شهادة مخالفهم وقالوا ان أفعال العباد مخلوقة لله احداثا وابداعا ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازا ، ولا يسمون امامهم « أمير المؤمنين » ولا يسمون « مهاجرين » ولا يجيزون قتال مخالفهم الا بعد دعوتهم ، ولم يبق من الخوارج الا طائفة من الاباضية تقيم فى عمان وفى جهات قليلة بشمالى افريقية^(٢) . ويكره اباضية عمان أن يسموا خوارج .

العجاردة :

أتباع عبد الكريم بن عجرد ، وهو من تلاميذ عطية بن الاسود من النجدات ، وقيل انه من تلاميذ ابن بيهس ، ولا مانع أن يكون قد تنقل بين هذا وذاك ، ويتوقف العجاردة فى أمر أطفال المسلمين حتى البلوغ فيدعون للاسلام ، أما اطفال المشركين ففى النار مع آبائهم ، ويتولون القعدة ، ويرون الهجرة فضيلة لا فريضة ويكفرون بالكبائر ، ويتضح فى العجاردة الميل للانقسام ، ويذكر الشهر ستانى من أقسام العجاردة سبعة هم : الصلتية والميمونية والحمزية والخلفية والاطرافية والسبعية والحازمية^(٣) .

(١) انظر الفرق بين الفرق للبغدادى والفصل فى الأهواء والنحل لابن حزم والملل والنحل للشهر ستانى .
(٢) المراجع السابقة .
(٣) المراجع السابقة ايضا .

المستفزة :

يختلفون في نسبة هذه الفرقة من الخوارج فينسبها بعضهم الى زياد بن الاصفر ، وينسبها آخر الى عبد الله بن الصفار ، وتنسب كذلك الى الصفرة لأن أصحابها اصفرت وجوههم من طول العبادة وكثرة الصوم وهى بهذا المعنى تبدأ بصالح بن مسرح الذى كان — كما يقول الطبرى (١) — ناسكا مخبئا مصفر الوجه صاحب عبادة ، ثم خرج يقود فريقا من الخوارج ، ومن أهم رجاله شبيب بن يزيد الشيباني الذى تنسب له طائفة الشيبية ، وقد تولى شبيب قيادة الفرقة بعد موت صالح ، ويوضع شبيب في عالم البطولة مع نافع بن الازرق وقطرى بن الفجاءة ، وقد دوخ شبيب جيوش الحجاج ، وقتل أربعة وعشرين من أمراء هذه الجيوش ، وسجل انتصارات باهرة ، واستطاع أن يدخل الكوفة مرتين ويزعج الحجاج ، ويبيت الذعر في نفوس بنى أمية ، ولكن الحجاج صمد له وأرسل اليه الجيش بعد الجيش حتى استطاع سفيان بن أبرد الكلبى أن يحاصره وهو يعبر نهر دجيل ، وهاجم سفيان السفن واضطرب شبيب وغرق سنة ٥٧٧هـ أو ٧٨ كما سبق القول •

ومبادئ الشيبية هى المبادئ العامة للخوارج ، ويحكى أن الاسرى من أصحاب شبيب لما وقفوا بين يدى الحجاج أخذ يضرب رؤوسهم واحدا واحدا ، حتى جاء دور واحد منهم فقال : أمهلنى حتى أقول كلمة وأنشد :
أبـرا الى الله من عمرو وشيعته

ومن على ومن أصحاب صفين
ومن معاوية الطاغى وشيعته

لا بارك الله في القوم الملاعين
وهو بذلك يسجل مبادئ جماعته (٢) •

(١) الطبرى ج ٥ ص ٥٠ •

(٢) انظر الطبرى واليعقوبى وكتب الفرق السابقة •

والمشكلة الدينية الوحيدة التي أجمع عليها الخوارج هي اعتقادهم بأن العمل جزء من الإيمان ، فليس الإيمان هو فقط الاعتقاد والنطق بالشهادتين وإنما يلزم — أن يتم مع ذلك — العمل بأوامر الدين كالصلاة والصوم والحج والعدل والصدق •

وفيما سوى هذا المبدأ (العمل جزء من الإيمان) نجد الخوارج يختلفون فرقا وشيعا كما مر ، وفيما يلي جدول بموجز آرائهم في أ المشكلات التي تعرضوا لها :

التعبد	التعود	اطفال المخالفين	مرتكب الكبيرة
الأزارقة : لا تخموز التعبدية في قبول ولا عمل ، ولم يستطع مروة بن الأنيسة أن يقول بالتعبدية لنجوم من العمل ، فقد سألته زياد بن أبيه قائلا : ما رأيك في ؟ فاجاب : ان اولئك اريية ، وافررك اسطعقك ولتس ليما يبهتسا حاص ربك التجدات : التعبدية جلالا و عظاما المسفرة : التعبدية جلالا في العسول مروت	الأزارقة : يكثر التعددة ومن لم يهاجروا مع نافع التجدات : التعود جلائز والخروج المسفرة : التعود جلائز	الأزارقة : يجوز قتل اطفال المخالفين ونسائهم التجدات : لا يجوز قتلهم المجاردة : يوقف الحكم عليهم حتى البلوغ الاباحية : التوقف ولكن بسبيل الانقاص	الأزارقة : كافر كفر ملة يخرج بذلك من الاسلام الاباحية : كافر كفر نعمة فلا يخرج عن الاسلام المسفرة : ما كان من الاعمال له حد في القرآن سمي مرتكبه باسنيه ، فمن ارتكب الرئي سمي لاني ومن سرت سمي مسارقا ، ولا يسمى كلرا ، اما الكفار التي لم يفسده القرآن على يدها لم تكن يبهتسا بقرنها كركه العسلاة والفرار من الرفض الاباحية : ما فيه حد يعد صاحبه ، ويسمى باسمه ، وما لا حد ليه فهو مطلق

المعتزلة

والمرجئة والجبرية

المعتزلة لون آخر من الحركات التي قامت ابان عهد الدولة الأموية ولها طابع يختلف عن طابع الحركات التي سبق الحديث عنها ، فهي حركة فكرية محضة ، لم تكون جيشا ولم تشتهر سيفا ، وما روى عن اشتراك بعض قادتها كعمرو بن عبيد في الهجوم الذي شنه يزيد بن الوليد وسقط به الوليد بن يزيد ، لا يجعلها فرقة ذات مبادئ عسكرية ، لان الثورة ضد الوليد لم تكن ثورة المعتزلة ، وانما كانت ثورة بعيدة الجذور تتصل بكفاءة الخليفة وأخلاقه كما سبق أن شرحنا ، فاشتراك بعض المعتزلة فيها انما هو اشتراك فردي يدخل في حدود المبادئ العامة التي تثير الناس على خاكم باغ أو خاكم مستهتر .

واذا كانت حركة المعتزلة فكرية دينية ، واذا كانت لم تكون جيشا ، ولم تشتهر سيفا ، فانها عندما قويت لم تأنف أن تستعمل الضغط ضد مخالفيها كما شرحنا ذلك عند الكلام عن مشكلة خلق القرآن في الجزء الثالث من هذه الموسوعة (١) ، يوم أرغم الخليفة المأمون العلماء على اتباع رأى المعتزلة في القول بأن القرآن مخلوق ، واقتضت فلسفته أن يعد فاسقا وخارجا على الدين من يقول بأن القرآن ليس مخلوقا (٢) ، وقد عد استعمال الضغط من مواقف المعتزلة المعينة ، وكان هذا الضغط من أهم الاسباب التي قضت على هذا المذهب .

ذلك هو لون حركة المعتزلة ، حركة فكرية ، بحثت كثيرا من المبادئ الدينية وبحثت كذلك بعض الاحداث السياسية بحثا فكريا كما سنأتى

(١) انظر موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ج ٢ ص ١٢٩ — ١٣٤ .

(٢) انظر كتابه الى نائبه ببغداد اسحق بن ابراهيم في جمهرة رسائل العرب للأستاذ صفوت ج ٢ ص ٥٤٠ — ٥٤٧ .

ايضاحه ، وكان سلاحها فلسفيا عقليا ، فلما اعتنق المأمون بعض مبادئها دافع عن عقيدته بالقوة والضغط ، واذا كان هذا قد عيب على المعتزلة ، فانه يمكن الدفاع عنهم بأن هذا كان تصرف الحاكم لا تصرف المعتزلة ، أما هم فقد ظلوا في حركاتهم الفكرية والفلسفية دون أن يحملوا سلاحا أو يثيروا فتنا عسكرية ، وبهذا ظل طابعهم بعيدا عن طابع الشيعة أو طابع الخوارج .

والحديث عن المعتزلة سيقترضنا الكلام ولو بإيجاز عن فرق أخرى لها صلة بالموضوعات التي تكلم فيها المعتزلة وذلك كالجبرية والمرجئة وأهل السنة .

ومذهب المعتزلة يرتبط ارتباطا كبيرا بمذهب الخوارج الذين سبق أن تحدثنا عنه ، أو قل ان مذهب الخوارج أثار مشكلة كانت سببا لا في قيام المعتزلة فحسب بل في قيام المرجئة والجبرية أيضا . وهذه المشكلة هي مشكلة مرتكب الكبيرة فقد سبق أن ذكرنا أن الازارقة أكبر فرق الخوارج وأهمها قالت بكفر مرتكب الكبيرة كفر ملة أى خروجه من الاسلام وخلوده في النار ، وهذا القول أثار بحث المفكرين حول حقيقة الايمان ، وهل تأدية الفرائض والابتعاد عن الكبائر جزء منه أو ليست جزءا ، وما مكانة من آمن بالله ورسوله ثم قصر في تأدية الفرائض أو ارتكب الكبائر وذلك هو ما يدخل ضمن المشكلة المعروفة في اصطلاح المتكلمين باسم « خلق أفعال العباد » وفي هذا البحث ظهرت اتجاهات ثلاثة تكونت حولها مذاهب المرجئة والجبرية والمعتزلة :

رأى المرجئة :

قالت المرجئة : ان الايمان هو الاقرار بوحدانية الله وبرسالة محمد اقرارا قلبيا . فمن أقر بذلك عن اعتقاد فهو مؤمن سواء أدى الفرائض أو لم يؤديها ، بعد عن الكبائر أو ارتكبها ، ويقول شاعرهم :

ولا أرى أن ذنبنا بالغ أحدا م الناس شركا إذا ما وحدوا الصمدا

أما من قصر في أداء الفرائض أو من ارتكب الكبائر فيرى بعض المرجئة عدم الحكم عليه في الدنيا وارجاء الحكم الى الله يوم القيامة (١) ، ومن هذا المذهب اتخذت كلمة « المرجئة » من الارجاء أى التأخير . ويرى اليونسية أصحاب يونس بن عون النميري أن الايمان هو المعرفة بالله والخضوع له وترك الاستكبار عليه والمحبة بالقلب ، فمن اجتمعت فيه هذه الخصال فهو مؤمن ، وما سوى ذلك من الطاعة ليس من الايمان ولا يضر تركها حقيقة الايمان ولا يعذب على ذلك اذا كان الايمان خالصا واليقين صادقا (٢) . ويقال ان كلمة « المرجئة » اتخذت من هذا المذهب من أرجأ أى أعطى الرجاء في العفو ، وعلى هذا المذهب ما روى من قولهم : لا تضر مع الايمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، وما قاله عبيد المكتئب من أن العبد اذا مات على توحيد لا يضره ما اقترف من الآثام واجترح من السيئات (٣) .

وقال غسان الكوفي أحد زعماء المرجئة ، ان الايمان هو المعرفة بالله تعالى وبرسوله ، والاقرار بما أنزل وبما جاء به الرسول ، والايمان لذلك لا يزيد ولا ينقص (٤) . وهذا الرأي يخالف رأى أهل الحديث والسنة ، فأنهم يرون أن الايمان يزيد وينقص بزيادة الطاعات أو نقصها لقوله تعالى : « واذا تلئت عليهم آياته زادتهم ايمانا (٥) » والذي يقبل الزيادة يقبل النقصان ، ولما سئل صلى الله عليه وسلم : هل يزيد الايمان وينقص

(١) الشهرستاني : الملك والنحل ج ١ ص ١٢٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق والفصل لابن حزم والفرق بين البغدادى ومقاتل الاسلاميين للأشعرى وانظر كذلك
Nicholson : A Literary History of the Arabs p. 28'.

(٤) المرجع السابقة

(٥) 'أنفال : الآية الثانية .

أجاب : نعم يزيد حتى يدخل صاحبه الجنة ، وينقص حتى يدخل صاحبه النار ، ويوافق أبو حنيفة على رأى غسان الكوفي وله تأويلات في الأدلة السابقة (١) .

رأى الجبرية :

وقالت الجبرية : ان الأفعال التى يأتى بها الانسان ، محامد كانت أو رذائل ، ليست من عمله ، وانما هى من خلق الله أجراها على يد الانسان فالعبد ليس له فعل ولا قدرة على فعل ، ومن ثمّ فالملؤم لا يكفر بما يرتكبه من كبائر لانه مجبر على ارتكابها ، وهو كالريشة المعلقة فى الهواء تتحرك كيفما يحركها الريح . ومن كلام جهنم بن صفوان زعيم الجبرية الذى سميت باسمه هذه الفرقة أحيانا فقيـل « الجهمية » ما يلى : ان الانسان لا يقدر على شئ ، ولا يوصف بالاستطاعة ، وانما هو مجبور فى أفعاله ، لا قدرة له ولا اختيار ، وانما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق فى سائر الجمادات ، وتنسب اليه الأفعال مجازا كما تنسب الى سائر الجمادات ، كما يقال : أثمرت الشجرة وجرى الماء ، وتحرك الحجر ، وطلعت الشمس وغربت ، وتغيـمت السماء وأمطرت ، واهتزت الارض وأنبتت . . الى غير ذلك ، والثواب والعقاب جبر ، كما أن الأفعال جبر قال : واذا ثبت الجبر فالتكليف أيضا كان جبـرا (٢) .

ويدعم جهنم وأصحابه رأيهم فى القول بالجبر بآيات يرونها تؤيد ذلك ، مثل قوله تعالى « انك لا تهـدى من أحببت ولكن الله يهـدى من يشاء » (٣) وقوله «ولو شاء ربك لآمن من الأرض كلهم جميعا » (٤) وقوله « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » (٥)

(١) انظر محمود البشيشى : الفرق الاسلامية ص ١٦ .

(٢) الشهر ستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٨٠ ومثل هذا ما ورد فى كتب الفرق السابقة .

(٣) سورة القصص الاية ٥٦ .

(٤) سورة يونس الاية ٩٩ .

(٥) سورة البقرة الاية ٧ .

وقوله « ولا ينفعكم نصحي ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم (١) » .

رأى جمهور المسلمين (أهل السنة) :

وقد تصدى القرآن الكريم وجمهور المسلمين للرد على هذا المذهب الخطير ، الذى يدعو للكسل والتوانى ويلغى المسؤولية ، واعتمدوا على آيات كريمة من القرآن الكريم ، قال تعالى :

— سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء . كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ ان تتبعون الا الظن ، وان أنتم الا تخرصون . قل : فله الحجة البالغة (٢) » .

— وقال الذين أشركوا : لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء . كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين (٣) » .

— واذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله ، قال الذين كفروا للذين آمنوا : أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ان أنتم الا فى ضلال مبين (٤) » .

— وقالوا : لو شاء الرحمن ما عبدناهم . ما لهم بذلك من علم ، ان هم الا يخرصون (٥) » .

وقال تعالى مثبتا أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت :

-
- (١) سورة هود الآية ٣٤ .
 - (٢) سورة الأنعام الآية ١٤٨ .
 - (٣) سورة النمل الآية ٣٥ .
 - (٤) سورة يسن الآية ٤٧ .
 - (٥) سورة الزخرف الآية ٢٠ .

- لا يكلف الله نفسا الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت (١) .
- فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره (٢) .
- وأن ليس للانسان الا ما سعى وأن سعيه سوف يرى (٣) .

ويقول الامام جعفر الصادق في هذا الموضوع : ان الله تعالى أراد بنا شيئا ، وأراد منا شيئا ، فما أرادنا بنا طواه عنا ، وما أرادنا منا أظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما أرادنا بنا عما أرادنا منا ، وما بالنا نشتغل بالباطن عن الظاهر ؟ (٤) .

ويقول الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شارحا للرأى الصواب في اختيار الانسان وجبره ما يلي :

نعم ، يعلم الله — بشمول علمه — ما سيكون عليه الانسان باختياره من هدى أو ضلال ، خير أو شر ، وليس في علم الله بذلك شيء من معاني القهر والالزام ، وانما هو مجرد انكشاف ما وقع وما سيقع على السنة الدائمة التي رسمها الله ، وهي سنة الاختيار التي بنى عليها التكليف والثواب والعقاب (٥) .

ولعل أستاذنا الامام محمد عبده هو أكثر من كتب في هذا الموضوع توثيقا واحكاما ، ونحن هنا نقتبس بعض ما كتبه ، ففيه — فيما نعتقد — القول الفصل . قال رحمه الله عن أفعال العباد (٦) :

« كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ولا يحتاج

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٨ .

(٢) سورة الزلزال الايتان ٧ — ٨ .

(٣) سورة النجم الآية ٣٩ .

(٤) الشهر ستاني : الملك والنحل : القسم الاول ص ١٤٧ .

(٥) الاسلام عقيدة وشريعة ص ٤٧ .

(٦) رسالة التوحيد ٥٧ — ٦٢ باختصار .

في ذلك الى دليل يهديه ولا معلم يرشده ، كذلك يشهد أنه مدرك لأعماله الاختيارية ، يزن نتائجها بعقله ، ويقدم عليها بإرادته ، ويقدرها بقدرة ما فيه من حس . ويعد انكار شيء من ذلك مساويا لانكار وجوده في مجافاته لبداهة العقل .

« وكما يشهد ذلك في نفسه يشهده أيضا في بنى نوعه كافة متى كانوا مثله في سلامة العقل والحواس ، ومع ذلك فقد يريد ارضاء خليل فيغضبه ، وقد يطلب نيل رزقه فيفوته ، وربما سعى الى منجاة فسقط في مهلكة ، فيعود باللائمة على نفسه أن لم يحكم النظر في تقدير فعله ، ويتخذ من خبيثته أول مرة مرشدا له في الأخرى ، فيعاود العمل من طريق أقوم ، وبوسائل احكم ، ويتقد غيظه على من حال بينه وبين ما يشتهي أن كان سبب الاخفاق في المسمى منازعة منافس له في مطلبه فينبري لمناضلته ، وتارة يتجه الى أمر أسمى من ذلك ان لم يكن لتقصيره أو لمنافسة غيره دخل فيما لقي من مصير عمله ، كأن هبت ريح فأغرقت بضاعة ، أو نزلت صاعقة فأحرقت ممتلكات له ، أو علق أمله بمعين فمات ، أو بذى منصب فعزل ، يتجه من ذلك الى أن في الكون قوى أسمى من أن تحيط بها قدرته فيخضع ويخضع ، ولكنه يحاول مرة أخرى .

« أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من احاطة علم الله وإرادته ، وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار فيما وقع عليه الاختيار فهو من طلب سر القدر الذي نهينا عن الخوض فيه ، واشتغال بما لا تكاد تصل العقول اليه .

« ودعوى أن الاعتقاد بكسب العبد لأفعاله يؤدي الى الاشراك بالله ، دعوى من لم يلتفت الى معنى الاشراك على ما جاء به الكتاب والسنة ، فالاشراك اعتقاد أن لغير الله أثرا فوق ما وهبه الله من الأسباب الظاهرة ، وأن لشيء من الأشياء سلطانا على ما خرج من قدرة المخلوقين ، وهو اعتقاد من يعظم سوى الله ، مستعينا به فيما لا يتقدر العبد عليه ،

كالاستتصار في الحروب بغير قوة الجيوش ، والاستشفاء من الامراض بغير قوة الادوية التى هدانا الله اليها ، والاستعانة على السعادة الاخرية أو الدنيوية بغير الطرق والسنن التى شرعها الله لنا .

« هذا هو الشرك الذى عليه الدنيويون ومن ماثلهم ، فجاءت الشريعة الاسلامية بمحوه ، ورد الامر فوق القدرة البشرية والاسباب الكونية الى الله وحده ، وتقدير أمرين عظيمين ، هما ركنا السعادة وقوام الاعمال البشرية .

الأول — أن العبد يكسب بارادته وقدرته ما هو وسيلة لسعادته .
الثانى — أن قدرة الله هي مرجع لجميع الكائنات ، وأن لا شئ سوى الله يمكن له أن يمد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه .

« وواهب الوجود يهب الانواع والاشخاص وجودها ، ويهب لها توابع الوجود ، ومن تابع الوجود في الانسان أن يكون مفكرا مختارا في عمله على مقتضى فكره ، فأعمال الانسان حاصلة عن الكسب والاختيار وعلم الله بها ليس بسالب للتخير في الكسب » .

ونضيف ان ما هو مكتوب علينا ليس الا تسجيلا لما سيحدث وليس أمرا به فاذا كان المؤرخ يدون الماضى فان قدرة الله تحيط بالحاضر والمستقبل احاطتها بالماضى ولذلك سجل على كل انسان ما سيحدث منه دون أن يكون ذلك أمرا باحدثه .

رأى المعتزلة :

وقال المعتزلة : ان الشخص هو الذى يخلق أفعاله بنفسه ، وهو بذلك مستحق للثواب فيما يعمله من خير ، ومستحق للعقاب فيما يرتكبه من آثام ، واستدل المعتزلة على رأيهم بآيات من القرآن الكريم منها .

- كل نفس بما كسبت رهينة (١) .
- فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (٢) .
- انا هديناه المسبيل اما شاكرًا واما كفورًا (٣) .
- ان هذه تذكرة فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا (٤) .
- عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد (٥) .
- وان ليس للانسان الا ما سعى ، وان سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الاوفى (٦) .
- ومن يكسب اثما فانما يكسبه على نفسه (٧) .
- واذا كان الانسان هو الذى يخلق افعال نفسه وهو لذلك مسئول عنها مسئولية كاملة يثاب على الخير ويعاقب على الشر ، فما مكانة ما تكب الكبيرة عند المعتزلة ؟

الجواب عن هذا السؤال يرويه لنا الشهرستاني (٨) بقوله :

دخل رجل على الحسن البصرى فقال : يا امام الدين ، لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم كفر يخرج به مرتكبها عن الملة ، وهم وعيدية الخوارج ، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر ،

-
- (١) سورة المدثر الآية ٣٨ .
 - (٢) سورة الكهف الآية ٢٩ .
 - (٣) سورة الدهر الآية ٣ .
 - (٤) سورة المزمل الآية ١٩ .
 - (٥) سورة فصلت الآية ٤٦ .
 - (٦) سورة النجم الآية ٣٩ — ٤١ .
 - (٧) سورة النساء الآية ١٠ .
 - (٨) الملل والنحل ١ : ٥٢ .

والكبيرة عندهم لا تضر مع الايمان ، بل العمل على مذهبهم ليس ربحاً من الايمان ، ولا يضر مع الايمان معصية ، كما لا ينفع مع الفكر طاعة ، وهم مرجئة الامة ، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً ؟

فتفكر الحسن في ذلك ، وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء ، أنا لا أقول أن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً • بل هو في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر •

ويقول الشهرستاني ان واصلًا قام من حلقة الحسن ، واعتزل الى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن • فقال الحسن : اعتزل عنا واصل • فسمى هو وأصحابه معتزلة ، ويورد الشهرستاني الايضاح الذي أدلى به واصل لتأييد اتجاهه وهو : أن الايمان عبارة عن خصال خير اذا اجتمعت سمي المرء مؤمناً وهو اسم مدح ، ومرتكب الكبيرة لم يستجمع خصال الخير ، ولا استحق اسم المدح ، فلا يسمى مؤمناً ، وليس هو بكافر مطلقاً ، لان الشهادة وأعمال خير أخرى موجودة فيه لا وجه لانكارها ، لكنه اذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة ، فهو من أهل النار خالداً فيها اذ ليس في الآخرة الا فريقان « فريق في الجنة وفريق في العسير » لكن عذابه أخف من عذاب الكفار (١) •

وهكذا كان موضوع « مرتكب الكبيرة » سبباً في الانقسام الذي حصل في حلقة الحسن البصري وبالتالي سبباً في قيام المعتزلة ، ولكن الباحث المدقق يدرك أن الخلاف بين الحسن وتلميذه واصل كان قد بدأ قبل بحث موضوع مرتكب الكبيرة ، وفي « الملل والنحل للشهرستاني » ما يؤكد اتجاه واصل وصديقه عمرو بن عبيد الى القول بأن الانسان هو الذي يخلق أفعال نفسه وهو موضوع أوسع من موضوع مرتكب الكبيرة ، وكذلك الى القول بنفي صفات الله ، وكان رأى واصل وعمرو بن عبيد

مخالفا لرأى الحسن في هذين الموضوعين (خلق الافعال ونفى الصفات) ، ولكن واصلا وزميله ظلا في حلقة الحسن مع اختلاف الرأى ، فلما جاءت مسألة « مرتكب الكبيرة » وسعت شقة الخلاف وسببت الاعتزال ، يقول الشهرستاني بعد تقريره : اعتزل واصل وتابعه على ذلك عمرو بن عبيد بعد أن كان موافقا له في القدر وانكار الصفات (١) .

ومن الملاحظ أن واصلا لم ينتظر اجابة الحسن عندما عرض السؤال عن مرتكب الكبيرة ، لأن واصلا كان يعرف اجابة أستاذه ، فالحسن كان من أهل الحديث في القول بالقضاء والقدر أى بأن الله هو الذى يخلق أفعال العبد ، وليس للعبد فيها الا الاختيار والميل وهو مايسمونه بالكسب ، كما كان واصل يدرك اتجاه أهل الحديث الى أن أفعال العبد ليست جزءا من الايمان ، وعلى هذا فقد أدرك واصل أن رأى الحسن سيجعل مرتكب الكبيرة مؤمنا عاصيا . فسارع واصل وأعلن رأيه .

ونشأ بذلك مذهب المعتزلة على كل حال ، وأميل الى الاقتناع بما أوردناه أنفا عن الشهرستاني وهو ما ذكرته كل كتب الفرق التى بين أيدينا من أن تسمية المعتزلة جاءت من اعتزال واصل حلقة الحسن وقول الحسن « اعتزلنا واصل » وقد أورد الأستاذ المرحوم أحمد أمين وجوها أخرى للتسمية ، وضعف هذا الرأى الشهير ، واعتقاده أن ما أورده الأستاذ لم يضعف هذا الرأى الشهير ، وما اقترحه من أسباب أخرى لهذه التسمية لا يرجح أيضا هذا الرأى (٢) .

وهكذا بدأت المعتزلة ، وكان بدؤها مرتبطا بمعارضة رأى الخوارج في مرتكب الكبيرة كما قلنا ، ولكنها — كما قلنا أيضا — كانت لها آراء أخرى غير الكلام في مرتكب الكبيرة ، ولما تم استقلال هذه الطائفة بدأ شيوخها يعلنون آرائهم ويقررون اتجاههم ، وكان ذلك في مطلع القرن

(١) انظر المال والنحل الفصل والفرق بين الفرق ومقالات الاسلاميين .

(٢) فجر الاسلام ص ٢٨٨ — ٢٨٩ .

الهجرى الثانى ، واعتمد المعتزلة على العقل فى تقرير مبادئهم ، ولذلك عنوا بالعقل وأحلوه مكانا ساميا ، ثم اعتمدوا على الفلسفة وبخاصة عندما ظهرت النهضة العلمية فى العالم الاسلامى ، وترجمت فلسفات أمم متعددة الى اللغة العربية ، وكانت الفلسفة سلاح أعداء الاسلام يهاجمونه بها ، فاتخذ المعتزلة هذا السلاح سلاحا لهم ، وتصدوا للدفاع عن الاسلام به ضد كل من يناوىء الاسلام أو يتخطاه ، ويقول الشهرستاني عن نفى المعتزلة لصفات البارى ما يلى : وكانت هذه المقالة فى بدئها غير ناضجة وكان واصل بن عطاء يسير فيها على قول ظاهر وهو الاتفاق على استحالة وجود الهين قديمين أزليين ، قال « ومن أثبت معنى وصفة قديمة فقد أثبت الهين » ولما طالع أصحابه كتب الفلاسفة انتهى نظرهم فيها الى رد جميع الصفات الى كونه عالما قادرا ، ثم الحكم بأنهما صفتان ذاتيتان هما اعتباران للذات القديمة كما قال الجبائى أو حالان كما قال أبو هاشم وميل أبى الحسن البصرى نحو ردهما الى صفة واحدة وهى العالمية هو عين مذهب الفلاسفة (١) .

ويقول الأستاذ أحمد أمين (٢) : والحق أن المعتزلة هم الذين خلقوا علم الكلام فى الاسلام ، وأنهم أول من تسلح من المسلمين بسلاح خصومهم فى الدين ، ذلك أنه فى أوائل القرن الثانى الهجرى ظهر أثر من دخل فى الاسلام من اليهود والنصارى والمجوس والدهرية ، فكثير من هؤلاء أسلموا ورعوسهم مملوءة بأديانهم القديمة ، ولم يزد عليهم الا النطق بالشهادتين ، فسرعان ما أثاروا فى الاسلام المسائل التى كانت تثار فى أديانهم ، وكانت هذه الاديان التى ذكرناها قد تسلحت من قبل بالفلسفة اليونانية والمنطق اليونانى ، ونظمت طريق بحثها وتعمقت فى ذلك فواجهوا الاسلام وهو الدين الذى يمتاز ببساطة عقيدته فأثاروا حوله الشكوك وليس هؤلاء الذين أسلموا هم الذين فعلوا ذلك فقط ، بل كانت

(١) الملل والنحل ١ : ٥١ .

(٢) فجر الاسلام ٢٩٩ — ٣٠٠ .

البلاد الاسلامية مملوءة يذوى الأديان المختلفة الذين ظلوا على أديانهم وكان منهم كثيرون في بلاد الدولة الاموية يشغلون مناصب خطيرة ، هؤلاء هؤلاء أثاروا مسألة القدر على هذا النمط الفلسفى ، وكانت معروفة في دينهم ، وأثاروا مسألة صفات الله وخلق القرآن ولها نظير في النصرانية وأثار الزرادشتيون كثيرا من مسائلهم ، وكل ذلك دعا المعتزلة أن يتسلحوا بسلاح عدوهم مجادلوهم علميا ، وردوا هجمات القائلين بالجبر والمنكرين لله ، كما ردوا ما أثاره اليهود والنصارى والمجوس من شكوك ، ونشطوا لهذا العمل نشاطا بديعا .

مبادئ المعتزلة :

والاعتقادات التى ينضوى تحتها مذهب المعتزلة هي :

١ — العدل : يطلق المعتزلة « العدل » على ما سبق أن شرحناه من أن الانسان يخلق أفعال نفسه خيرا وشرها ، ويستحق — بناء على ذلك — الثواب والعقاب ، والرب منزّه عن أن يضاف اليه شر وظلم وفعل هو كفر ومعصية ، لأنه لو خلق الظلم كان ظالما ، وانفقوا على أن الله تعالى لا يفعل الا الصلاح والخير ، ومن أجل هذا المبدأ يطلق على المعتزلة « العدلية » أى الذين كقولون بالعدل ، كما يطلق عليهم من أجله أيضا « القدرية » ، أى الذين يعارضون القضاء والقدر ، ولا يقولون بهما ، وهذا اللقب يكرهه المعتزلة ، ولا يرضون به اسما لهم ويرون أن الأولى أن يطلق هذا اللقب على من يقول بالقدر لاعلى من ينفى القول به ، والسبب في كراهيتهم لهذا اللقب أنه ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : (القدرية مجوس هذه الامة) ، وقوله : (القدرية خصماء الله في القدر) ولهذا السبب نجد القائلين بالقدر يلصقونه بالمعتزلة ، والمعتزلة يلصقونه بالقائلين بالقدر (١) .

(١) الملل والنحل والفصل والفرق ومقالات الاسلاميين في اماكن متعددة .

وهذه الأحاديث تفيدنا أن القول في القدر بدأ منذ عهد الرسول ، وأنه موضوع قديم كثر الحديث فيه ، وينسب دخوله للعالم الاسلامي الى رجل نصراني أسلم ، وتلقاه عنه معبد الجهني وغيلان الدمشقي ، وكان هذا الموضوع يطرأ في المجالس الاسلامية من حين الى آخر ، فلما جاء المعتزلة وقالوا به أكسبوه صبغة علمية وجعلوه أكثر دقة واتقاناً .

٢ — التوحيد : يطلق المعتزلة « التوحيد » على ما سبقت الإشارة اليه من نفى المعتزلة لصفات الله ، فانهم قالوا « بنفى الصفات القديمة » أصلاً لأنه لو كانت هناك صفات قديمة لتعدد القدماء ، وهذا شرك ، وقالوا ان الله عالم بذاته ، وقادر وحى بذاته ، ومتكلم بذاته ، وبناء على ذلك قالوا بخلق القرآن لأنه ليس هناك قديم الا الله .

ومن أجل هذا المبدأ يطلق أعداء المعتزلة عليهم لقب « المعطلة » لأنهم عطلوا صفات الله وألغوها ، ومن أجل هذا المبدأ كذلك يطلق على من يقول باثبات صفات الله تعالى « الصفاتية » ، ومن أجل المبدأين السابقين يطلق المعتزلة على أنفسهم « أهل العدل والتوحيد » (١) .

٣ — الوعد والوعيد : اتفق المعتزلة على أن المؤمن اذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب ، والتفضل معنى آخر وراء الثواب ، واذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار ، لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار . وسموا هذا « الوعد والوعيد » (٢) .

٥ — الحسن والقبح العقليان : اتفق المعتزلة على أن العقل يستطيع أن يميز الحسن من القبيح ، فطبيعة كل من الحسن والقبح معروفة ، وعلى الانسان أن يعتنق الحسن ويتجنب القبيح ، ولا يلزم لذلك ارسال الرسل ، وان قصر الانسان في المعرفة استوجب العقوبة ، ويستوجبها كذلك اذا عرف الحسن ولم يتبعه ، أو عرف القبيح ولم يتجنبه ، وأما

ازسأل الرسل فكان مزيد عون من الله تعالى « ليهلك من هلك عن سنة ويحيا من حي عن بينة (١) » .

٦ — وهناك اتجاه لواصل بن عطاء زعيم المعتزلة يبدى به رأيه في أصحاب الجمل وأصحاب صفين ، فقال أن أحد الفريقين فاسق لا محالة ، لكنه لا يعينه ، وقد عد الشهرستاني ذلك الاتجاه قاعدة عند المعتزلة (٢) . ولست أراه قاعدة لانه كلام عن حادثة معينة . والقاعدة أو المبدأ يجب أن يكون شاملا عاما يطبق على الاحداث الفردية ، الا اذا قصد الشهرستاني أن واصلا أراد أن أى خلاف أو حرب بين المسلمين يكون أحد الفريقين فيه فاسقا لا بعينه ، بيد أنا لا نعتقد أن واصلا يقول ذلك ، فقد يكون أحد الفريقين معتديا فيعتبر فاسقا بعينه .

تلك خلاصة المبادئ التي قال بها المعتزلة ، وقد بدأت كما قلنا من قبل سهلة يسيرة كما يتضح من سردها آنفا ، ولكنها في العصر العباسي تعقدت ودخلتها الفروض والتعريفات والشذوذ أحيانا حتى مرقت في بعض تصرفاتها عن طبيعة الدين الاسلامي ، ونحب هنا قبل أن نطوى صفحة المعتزلة أن نثبت ما أخذ على هذه الفرقة من زلات واخطاء :

فأولا : بالغ المعتزلة في احترام العقل وتقديره ، والعقول كثيرا ما تزل وتخطيء ، وقد حَمَلَ العقل بعضهم الى القول بأن حركات الخلد تنقطع ، وتصير الجنة والنار ومن فيهما الى سكون دائم خمودا ، وتجتمع اللذات في ذلك السكون لأهل الجنة ، وتجتمع الآلام في ذلك لاهل النار . وسبب ذلك القول هو أن العقل هيا لهم أن ما له أول له آخر والجنة والنار لهما أول فلا بد أن يكون لهما نهاية وآخر (٣) .

وثانيا : يمتاز الاسلام بسهولته ويسره ، ولكن المعتزلة عقدوا هذه

(١) المرجع السابقة في عدة امكنة والآية رقم ٤٢ من سورة الانفال .

(٢) الملل والنحل ١ : ٥٢ — ٥٤ .

(٣) الملل والنحل ١ : ٥٤ .

العقيدة السمحة بما أدخلوه عليها من فلسفات ودراسات لاهوتية ، وكونية لم تشرح الاسلام بمقدار ما أضفت عليه من غموض •

ثالثا : نزل المعتزلة محيط الفلسفة ليدافعوا بها عن الاسلام ، ولكن كثيرا منهم طعن نفسه بالسلاح الذي بيده ، أو بعبارة أخرى غرق بعضهم في هذا المحيط الفلسفى وتخطبوا فيه وضلوا ، حتى قال بعضهم بالتناسخ وبقدرة الله (جلا وعلا) على الكذب والظلم ، ولو كذب أو ظلم كان كاذبا أو ظالما (١) (تعالى الله عن ذلك) •

رابعا : عندما بحث المعتزلة موضوع الفتن التى وقعت فى صدر الاسلام جوز أكثرهم الطعن فى الصحابة ونالوا منهم وهاجموهم هجوما عنيفا لا يناسب ما لهؤلاء من تاريخ حافل بالخير لنشر الاسلام وتأييد الرسول ، ووصل الهجوم الى التشكيك والتفسيق أحيانا (٢) •

كل هذه الأسباب بالاضافة الى تأييدهم استعمال الضغط ضد من لم يقل بخلق القرآن كانت سببا فى انفضاض الناس من حول المعتزلة ، ثم فى تدهور مذهبهم واضمحلال أمره •

وبعد ، ذلك هو العصر الأموى ، عصر حافل بالحركات السياسية والحركات الفكرية ، ولا نزاع أنه لا ينافس عصر آخر فيما خلد من فتوح وما جذب للاسلام من جموع ، وما نشأت به من أفكار ، ولم تكن الآراء التى ظهرت فى العصر العباسى الا ذات جذور أموية ، فالعصر الأموى ك عصر فريد بين عصور التاريخ الاسلامى ، وهو جدير بأن يكون رة للمسلمين فى جميع البقاع حتى العهد الحاضر •

(١) الملل والنحل ص ٦١ ، ٦٧ •

(٢) المرجع السابق ص ٥٩ •

كلمة ختام

الاسلام والفرق

وبعد ، أيها القارئ الكريم ، لقد عشنا معاً جولة طويلة حول ما يسمى « الفرق الإسلامية » ، فهل هذه الفرق هي فعلاً فرق إسلامية ؟ ذلك سؤال مهم نطرحه لأول مرة للمناقشة والنظر .

إن الباحث في مقارنة الأديان يجد فرقاً كثيرة في اليهودية والمسيحية والجنينية وفي غيرها من الأديان السماوية والوضعية ، ويتضح للباحث أن هذه الفرق لها جذور في الأديان نفسها ، فلكل منها فهم خاص للقضايا الدينية الكبرى ، أو لقضية منها على الأقل ، ولنضرب لذلك بضعة أمثلة لتوضيح هذه النقطة :

ففى اليهودية يوجد الفرّيسيون والصدّثوقيون والقراءءون ، ولكل من هؤلاء فهم خاص لبعض العقائد اليهودية ، فالفرّيسيون يعتقدون في البعث وقيامه الأموات وفي وجود الملائكة والعالم الآخر ، كما يعتقدون أن التوراة ليست هى كل الكتب المقدسة التى تشرح اليهودية ، ولكن هناك بجانبها روايات شفوية وشروح وتفسير تناقلها الحاخامات من جيل الى جيل وتكوّن فيها التلمود ...

أما الصدّثوقيون فينكرون البعث والحياة الآخرة وينكرون التلمود ويعتمدون على التوراة فقط وينكرون وجود الملائكة ...

والقراءءون ينكرون التلمود ويقولون بالاجتهاد وضرورة تصحيح الأخطاء التى وقع فيها السابقون من اليهود فى بعض صور التشريع كزواج بنت امرأة الأب .

فاذا جئنا للطوائف والفرق المسيحية وجدناها كذلك تفترق فى المعالم الكبرى وينبع خلافها من فهم المصادر الأولى ، فالكنيسة الكاثوليكية

تقول إن روح القدس نشأ عن الله الأب والله الابن معا ، ولكن المسيحية الأرثوذكسية تقول إن روح القدس نشأ عن الله الأب وحده ، وقالت الكاثوليكية بالمساواة الكاملة بين الله الأب والله الابن ، وقالت الأرثوذكسية بأفضلية الله الأب عن الله الابن ...

وقال البروتستانت بأن فهم الكتاب المقدس متروك لكل قادر عليه ، ولكن الكاثوليك والأرثوذكس قالوا بأن فهم الكتاب المقدس وقف على رجال الكنيسة دون سواهم .

وفي الجينية وأديان الهند فروق كثيرة ترجع الى أصول العقائد ، وهذا واضح لمن يقرأ كتابنا « أديان الهند الكبرى » .

وبهذا يتضح أن الفرق والطوائف في الأديان نشأت مبكرة . وكانت نشأتها حول فهم الفكر الديني ... ثم هي لذلك لاتزال تعيش حتى الآن .

فماذا نرى عندما نريد أن نطبق هذا التفكير على الفرق الإسلامية ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال توضح لنا أن الاسلام ليست به فرق على الإطلاق ، فهذه الفرق التي تدارسنا تاريخها يتضح انتمائها لأفكار غير اسلامية ، فالتشيع كما رأينا فكر دخيل ، وأفكار ألقى بها عبد الله بن سبأ ومن جاء بعده ، وليست لها جذور إسلامية ، حتى أن المفكرين المسلمين اصطالحوا على تسميتها بالرافضة ، فهي ترفض كثيرا مما اتفق عليه المسلمون ، وهي أيضا مرفوضة من أكثر المسلمين ، وقد رفضها الإمام على نفسه واستنكر ما قاله زعمائها كما روينا ذلك فيما سبق .

والخوارج بدو لا فكر عندهم ، وقد ذكرنا أنهم حاربوا للرغبة في الحرب شأن البدو ، وأنهم بعد أن حاربوا تساءلوا : لماذا نحارب ؟ وقد حاربوا عليا وأعداء على ، وحاربوا الأمويين ، كما حاربوا أعداءهم العباسيين ، بل حارب بعضهم بعضا ، وأنكر بعضهم اتجاهات البعض .

والمعتزلة فكر فلسفى وافد من الخارج سرعان ما مات واختفى
في عهد المتوكل سنة ٢٣٢ و اختفى معه المرجئة والجبرية •

وبمناسبة الحديث عن اختفاء المعتزلة والجبرية والمرجئة نقرر
أن الخوارج اختفوا أيضا وانفض الناس عنهم تماما حتى أن أهل عمان
الذين تعيش الاباضية في بلادهم ينكرون أنهم خوارج ويغضبون إن
سُمّوا بذلك ، ويرون أنهم لا يرتبطون بالخوارج الذين خرجوا على
الإمام على وإنما يرتبطون بعبد الله بن إياض الذى خرج على
عبد الملك بن مروان وهم معتدلون جدا في مذهبهم ويعتبرون أنفسهم
ورثة الفكر الإسلامى الأصيل (١) •

أما الشيعة فاذا أردنا بها التفكير الأساسى لها وهو حب آل البيت
فذلك ليس مذهباً ولا فرقة ، وهو اتجاه عادى يكثر في مصر التى يحب
سكانها آل البيت دون أى تغيير في المبادئ الإسلامية ، ودون أى تمسك
بما سمي الإمامة وما تفرع عنها •

أما الشيعة بمبادئهم في الإمامة ، وحق آل البيت فيها ، وامتيازات
الإمام ، ... وغير ذلك مما شرحناه في هذا الجزء فذلك شيء دخيل
على الإسلام ، وهى عقائد جلبها عبد الله بن سبأ وأتباعه واستنكرها
الإمام على نفسه واستنكرها أبناؤه وأحفاده كما ذكرنا ، ومن هنا فالذين
يعتقدون هذا المذهب لا يتبعون مذهباً إسلامياً •

ونصل بذلك الى حقيقة مهمة هي أنه لا فرق في الإسلام • وأن الفرق
التي ظهرت والتي تحدثنا عنها آنفا كانت أولا ظواهر لانحرافات خاصة ،
وكانت ثانيا قصيرة العمر ، إذ انفض عنها كل المسلمين وكم تكون سعداء
يوم تتخلى الشيعة عن المبادئ الوافدة لتعود الوحدة التي ننشدها
للمسلمين جميعا •

(١) انظر ماكتبناه عنهم من الجزء السابع من هذه الموسوعة ص ٢٣٣
وما بعدها من الطبعة الثانية •

مرة أخرى ، إن الباحث في الديانات يجد أن الفرق تتوافر فيها
العوامل الآتية :

- ١ — قديمة النشأة إذ تظهر غالبا مع ظهور الدين •
 - ٢ — اتصالها بالمبادئ الأصلية في العقيدة •
 - ٣ — بقيت هذه الفرق على مر السنين والقرون •
- وهذه العوامل لا توجد فيما يسمى الفرق الإسلامية ؛ فهي :
- أولا : فرق طارئة تأخرت في الظهور •
 - ثانيا : مصدرها ثقافات أجنبية وافدة •
 - ثالثا : انفض المسلمون عنها من وقت مبكر •
- ولم يبق من الفرق الإسلامية إلا الشيعة التي لا تزال مرتبطة بثقافة وافدة ، وهي تحاول أن تربط نفسها بروابط إسلامية كبعض الأحاديث النبوية ، ولكن جمهور المسلمين يردّون هذه الأحاديث •
- لقد تحدث بعض المؤلفين الأوائل عن الفرق ، ثم اقتبست الأجيال التالية هذا الحديث دون وقفة تمحيص ، ومن توفيق الله أننى وقفت أمحص وأدرس ، فقادتنى الدراسة لهذه النتيجة الطيبة التي تحمى ديننا من شرور الخلافات ، والتي تنسب ما عانته الأجيال السابقة من صراعات الى الثقافات الوافدة التي كانت في أكثرها تكن الشر للإسلام •
- ومن الواضح أننا لا ننكر وجود الخوارج والمعتزلة والمرجئة والجبرية ، ولكننا ننكر أنها فرق إسلامية ، إن هؤلاء وأولئك تجمعات تأثرت بثقافات أجنبية وظهرت في التاريخ مسالمة أو محاربة ، وفطن المسلمون أن هؤلاء لا يمتون بفكرهم الى الإسلام فانفضوا عنهم وسرعان ما اختبئوا من أفق التاريخ ، وقد ظهر على منوالهم سواهم كالبابية والبهائية والقرامطة ، وليس من العلم في شيء أن نطلق على هذه الفرق وأمثالها فرقا إسلامية •

والله أعلم

ثبت المراجع

ملاحظات:

١ - المصادر المذكورة هنا هي التي اعتمد عليها هذا الكتاب ووردت في ذيل صفحاته ، أما المراجع الأخرى التي أسهمت في هذا العمل بطريق غير مباشر فلم تذكر في هذه القائمة .

٢ - الطريقة التي اتبعت في تنظيم هذه القائمة بنيت على أساس علم اعتبار الملحقات (ابن - ال) .

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - مجموعة من كتب التفسير .
- ٣ - كتب الأحاديث الستة .
- ٤ - مجموعة من كتب الفقه .
- ٥ - Encyclopoedia of Islam
- ٦ - بعضي المجلات العلمية
- ٧ - ابن الأثير
- ٨ - أحمد أمين
- ٩ - أحمد أمين
- ١٠ - أحمد أمين
- ١١ - أحمد زكي صفوت
- ١٢ - دكتور أحمد الساداتى
- ١٣ - دكتور أحمد شلبى
- ١٤ - دكتور أحمد شلبى
- ١٥ - دكتور أحمد شلبى
- ١٦ - دكتور أحمد شلبى
- ١٧ - دكتور أحمد هيكى
- ١٨ - الأزدي
- ١٩ - الأزرقى
- ٢٠ - الأشعرى
- ٢١ - الأصفهاني
- الكامل في التاريخ
- فجر الاسلام
- ضحى الاسلام
- يوم الاسلام
- جبهة رسائل العرب
- تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية
- تاريخ التربية الاسلامية
- موسوعة التاريخ الاسلامى (بأجزائها المختلفة)
- اليهودية من سلسلة « مقارنة الأديان »
- السياسة في الفكر الاسلامى
- الأدب الأسباني
- فتوح الشام
- أخبار مكة
- مقالات الاسلاميين
- الأغاني

A Literary History of persia	Browne	— ٢٢
فتوح البلدان	البلاذرى	— ٢٣
البغدادى (عبد القاهر) الفرق بين الفرق		— ٢٤
البغدادى (محمد امين) سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب		— ٢٥
ديوان الامير تميم (مخطوط)	الامير تميم	— ٢٦
The Caliphate	Thomas Arnold	— ٢٧
The Preacting of Islam	Thomas Arnold	— ٢٨
Muhammadanism	Gibb	— ٢٩
The Arab Conquests in Central Asia	Gibb	— ٣٠
The Traditions of Islam	Guilliaume	— ٣١
تاريخ التمدن الاسلامى	جورجى زيدان	— ٣٢
تذكرة خواص الامة	ابن الجوزى	— ٣٣
كشف الظنون	حاجى خليفة	— ٣٤
شرح نهج البلاغة	ابن ابي الحديد	— ٣٥
الفصل فى الملل والنحل	ابن حزم	— ٣٦
المحلى	ابن حزم	— ٣٧
تاريخ الاسلام السياسى	دكتور حسن ابراهيم	— ٣٨
الفاطميون فى مصر	دكتور حسن ابراهيم	— ٣٩
ليبيا بين الماضى والحاضر	دكتور حسن سليمان	— ٤٠
الامم الاسلامية	الخضرى	— ٤١
المقدمة	ابن خلدون	— ٤٢
العبر	ابن خلدون	— ٤٣
وفيات الاعيان	ابن خلكان	— ٤٤
The Muslims in Spain	Dozy	— ٤٥
عقيدة الشيعة	دوايت دونلدش	— ٤٦
تاريخ الاسلام	الذهبى	— ٤٧
طبقات الشافعية	السبكى	— ٤٨
تاريخ العرب العام (ترجمة عادل زعتر)	سيدىو	— ٤٩

The Arabs in Spain	Stanley Lane Poole	— ٥٠
Muhammadian Dynasties	Lane - Poole	— ٥١
الطبقات	ابن سعد	— ٥٢
A Short History of the Saracens	Sayid Ameer Ali	— ٥٣
أسرار القرآن	السيد ماضى أبو العزائم	— ٥٤
خلاصة الأخبار	السيد محمد المهدي	— ٥٥
تاريخ الخلفاء	السيوطي	— ٥٦
ممالك ما وراء النهر	د. عبد الهادي شعيرة	— ٥٧
فوات الوفيات	ابن شاکر الکتبی	— ٥٨
الملل والنحل	الشهرستاني	— ٥٩
خطط دمشق	صلاح الدين المنجد	— ٦٠
الفخر في الآداب السلطانية والدول الإسلامية	ابن طباطبا	— ٦١
تاريخ الأمم والملوك	الطبري	— ٦٢
(ناشر) أربع رسائل اسماعيلية	عارف تامر	— ٦٣
مبادئ الإسلام وباطيل خصومه	عباس محمود العقاد	— ٦٤
الصدیقة بنت الصدیق	عباس محمود العقاد	— ٦٥
الحسين سيد الشهداء	عباس محمود العقاد	— ٦٦
فتوح مصر	ابن عبد الحكم	— ٦٧
سيرة عمر بن عبد العزيز	ابن عبد الحكم	— ٦٨
المجل في تاريخ الأندلس	عبد الحميد العبادي	— ٦٩
العقد الفريد	ابن عبدربه	— ٧٠
الخلیفة الزاهد	عبد العزيز سيد الأهل	— ٧١
التاريخ السياسي للدول العربية	دكتور عبد المنعم ماجد	— ٧٢
أحكام القرآن	ابن العربي	— ٧٣
تاريخ مختصر الدول	ابن العبري	— ٧٤
تاريخ دمشق	ابن عساکر	— ٧٥
عقائد الاسماعيلية	على بن حنظلة	— ٧٦
آل محمد في كربلاء	عمر أبو النصر	— ٧٧
الاحياء	الغزالي	— ٧٨
حضارة العرب	غوستاف لوبون	— ٧٩

السيادة العربية والشيعية والاسرائيليات	٨٠ — فان قلوطن
Medieval Moslm Rule in India	٨١ — Parasad
المختصر في أخبار البشر	٨٢ — أبو الفدا
History of the Arabs	٨٣ — Philip Hitti
عيون الأخبار	٨٤ — ابن قتيبة
الامامة والسياسة	٨٥ — ابن قتيبة
المعارف	٨٦ — ابن قتيبة
آثار البلاد وأخبار الأعشى	٨٧ — القزويني
صبح الأعشى	٨٨ — القلقشندي
البداية والنهاية	٨٩ — ابن كثير
اصول الكافي	٩٠ — الكليني
موجز تاريخ الشرق الاوسط (ترجمة عمر الاسكندري)	٩١ — كرك
تاريخ الشعوب الاسلامية	٩٢ — كارل بروكلمان
The Origin of Ismaillism	٩٣ — Lewis. Pernard
الاحكام السلطانية	٩٤ — الماوردي
الكامل	٩٥ — الميرد
تحفة الزائرين	٩٦ — المجلسي
الشيعية	٩٧ — محمد صادق الصدر
مواقف حلوسة في تاريخ الاسلام	٩٨ — محمد عبد الله عنان
تاريخ المؤامرات السياسية	٩٩ — محمد عبد الله عنان
رسالة التوحيد	١٠٠ — محمد عبده (الامام)
ايام العرب في الجاهلية	١٠١ — محمد احمد جاد المولى
خطط الشام	١٠٢ — محمد كرد علي
الاسلام والحضارة العربية	١٠٣ — محمد كرد علي
محمود شلتوت (الامام) الاسلام عقيدة وشريعة	١٠٤ — محمود شلتوت
الفرق الاسلامية	١٠٥ — محمود الشيبيني
العواصم من القواصم	١٠٦ — محيي الدين بن العربي

مروج الذهب	١٠٧ — المسعودى
اعجاز القرآن	١٠٨ — مصطفى الرافعى
Muslim Theology	١٠٩ — Macdonald
نفع الطيب	١١٠ — المتبرى
الخطط	١١١ — المقرئى
ديوان المؤيد فى الدين	١١٢ — المؤيد فى الدين
المجالس المؤيدية	١١٣ — المؤيد فى الدين
(مخطوط) المجالس والمسائرات	١١٤ — النعمان بن محمد
(مخطوط) دعائم الاسلام	١١٥ — النعمان بن محمد
(مخطوط) تاويل دعائم الاسلام	١١٦ — النعمان بن محمد
(مخطوط) اسباب التأويل الباطن	١١٧ — النعمان بن محمد
تهذيب الاسماء	١١٨ — النسوى
A Literary History of the arabs	١١٩ — Nicholson
ديوان ابن هانئ	١٢٠ — ابن هانئ
A Short History of the world	١٢١ — Wells
Al Khawarig and Al Shiah	١٢٢ — Wellhausen
The Arab Kingdom and its Fall	١٢٣ — Wellhausen
ديوان ابن هانئ	١٢٤ — الواقدى
معجم البلدان	١٢٥ — ياقوت
تاريخ اليعقوبى	١٢٦ — اليعقوبى

فهرس الأعلام

ملاحظات :

- ١ — الطريقة التي اتبعت في تنظيم هذه الأعلام مبنية على عدم اعتبار الملحقات [ابن — ال] .
- ٢ — إذا تكرر الاسم في صفحة واحدة وضعنا رقم الصفحة وبعده حرف « م » أى مكرر .
- ٣ — لم نورد في فهرس الأعلام أسماء مؤلفي المراجع التي اعتمدنا عليها اكتفاء بورودها في ذيل صفحات الكتاب وذلك تحاشيا للاسهاب .

حرف الألف

أسامة بن زيد التنوخى ٨٧
 أسد بن عبد الله القسرى ٩٨ ، ١٣٧
 أسلم بن أبى زرة الكلابى ٢٦٧ م
 أسماء بنت أبى بكر ٢٢٢ ، ٢٣٣
 اسماعيل بن الأشعث ٦٧ ، ٦٨
 اسماعيل بن جعفر ١٦٧ ، ١٨٢ ، ١٨٣
 الأشتر ٢٤١ ، ٢٤٢
 الأشعث بن قيس الكندى ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩
 أشرس بن عبد الله السلمى ٩٨
 الأصمعى ٧٦
 أغا خان ١٩٣ ، ١٩٤
 أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ٢٩
 أيوب بن سليمان بن عبد الملك ٨٠ ، ٨٢

حرف الباء

الباقر ١٥٤ ، ١٦١
 البراء بن أبى قبيصة ٢٦٨
 بكر بن ثعابة ٢٠٠

حرف الجيم

جابر بن عبد الله ١٤٦
 أبو الجارود ١٥٥ ، ١٧٥

آدم عليه السلام ١٨٤
 أبان بن عثمان بن عفان ٣٩
 ابراهيم عليه السلام ١٨٣ ، ١٨٨
 ابراهيم بن الأشتر ٦٤ ، ٦٥ ، ٢١٦ م ، ٢١٧ م ، ٢١٨ م ، ٢٣١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣
 ابراهيم بن الوليد ١٠٤ ، ١٠٥
 أبو أيوب الأنصارى ١١٥ م
 ابن أبى الحديد ١٦٩
 أبو بكر ٣١ ، ٣٣ ، ١٠٠ ، ١٤٦ م ، ١٤٨ م ، ١٤٩ م ، ١٦٣ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ٢٢٣ م ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٧٦
 أبو جهل ٢٩
 أبو حمزة الخارجى ٢٥٠ ، ٢٦٤
 أبو ذر الغفارى ١٤٦
 أبو طالوت ٢٤٧
 أبو منصور العجلى ١٥٤
 أبو المهاجر ١٢٢ م
 أبو سفیان ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ١٠٤ ، ١١٥
 أبو موسى الأشعرى ٢٤٣ ، ٢٤٥ م
 أحمد بن حميد الكرماني ١٨٥
 أحمد بن شميظ ٢١٩
 أحمد بن الكيالى ١٥٥

٥٣ ، ٥٤ م ، ١٦٥ ، ١٦٨ ،
 ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ،
 ١٩٥ م ، ١٩٦ ، ١٩٧ م ،
 ١٩٨ م ، ١٩٩ م ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،
 ٢٠٧ م ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٧ ،
 ٢٢٠ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،
 ٢٢٩ ، ٢٤٢ م
 الحصين بن تميم ٢٠٠ ، ٢٠١
 الحصين بن نمير ٦٤ ، ٧١ ، ٢١٤ ،
 ٢١٧ ، ٢٢١ م ، ٢٢٨ م
 أم حكيم (زوجة قطري بن
 الفجاءة) ٢٧٠
 الحكم بن العاص بن أمية ٥٥
 حمزة بن عبد الله بن الزبير ٦٥ ،
 ٢٣٢
 حميد الدين عبد الله الكرمانى ١٩١
 حنظلة بن بيهس ٥٥
 حوثة الاقطع ٥٠
 حبان بن ظبيان ٢٤٩ .

حرف الخاء

خالد بن عبد الله القسرى ٩٨ م ،
 ٢٢٠ ، ٢٥٣
 خالد بن يزيد بن معاوية ٥٧ ، ٥٩
 خبيب بن عبد الله بن الزبير ٦٥ ،
 ٢٤٠

حرف الدال

درهم (غلام عمر بن عبد العزيز)
 ٨٥

حرف الراء

رتبيل (الملك) ٦٦
 رجاء بن حيوة ٧٩ ، ٨٢ م ، ٩٢

جديع بن على الكرمانى ٩٨
 جساس بن مرة ٢٥٥
 جعفر الصادق ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ،
 ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٧٣ ،
 ١٧٧ ، ١٨١ .
 الجنيد بن عبد الرحمن ٩٨
 جهم بن صفوان ٢٨٤
 جهيزة (أم شبيب بن يزيد الشيباني)
 ٢٦٤
 جوليان (الكونت) ١٢٦ ، ١٢٧

حرف الحاء

الحارث بن عبد الرحمن الثقفى ٨٧
 الحاكم بأمر الله ١٩٠
 حباية جارية يزيد بن عبد الملك ٩٤ م
 أم حبيبة بنت أبى سفيان ٣٣
 الحجاج بن يوسف الثقفى ٤٧ ، ٦١ ،
 ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ م ، ٦٦ م ،
 ٦٨ م ، ٦٩ م ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ،
 ٨٠ ، ٨١ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ،
 ١٣٩ ، ٢١٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ،
 ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٥٠ م ،
 ٢٥١ م ، ٢٥٢ ، ٢٧٤ ،
 ٢٧٦ ، ٢٧٩
 حنيفة بن اليمان ١٤٦
 الحر بن يزيد التميمى ٢٠٠ ، ٢٠١
 ابن حزم ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥
 حسان بن مالك ٥٦
 حسان بن النعمان الفسائى ١٢٣ م
 الحسن بن على ٢١ ، ٢٥ ، ٣٦ ،
 ٣٨ ، ٤١ ، ٤٩ ، ١٦٨ ،
 ١٧٠ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ م
 الحسن البصرى ٢٨٩ ، ٣٠٠ م
 الحسن بن الصباح ١٥٦ ، ١٨٨ ،
 ١٩٣
 الحسين بن على ٢١ ، ٢٥ ، ٣٦ م ،
 ٣٨ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ م ،

رفاعة بن شداد ١٩٤ م ٢٠٨

الرسول (محمد عليه السلام) ٢٥
٢٧ ، ٢٩ م ، ٣٠ ، ٣١ ،
٤٦ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٧٥ ،
١٤٤ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٧٩ ،
١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٩٠ ، ٢٢٧ ،
٢٤٠ ، ٢٤٤ ، ٢٥٧ ، ٢٦٢ ،
٢٦٣ ، ٢٨٤ ، ٢٩٠

حرف الزاي

الزبير بن العوام ٢٧ ، ٣٤ ، ٢٢٢
زرعة بن شريك التميمي ٢٠٣
زفر بن الحارث ٥٦ م
زهير بن قيس ١٢٢

زياد بن أبيه ٢١ ، ٢٥ ، ٣١ م ،
٣٢ ، ٤٤ م ، ٤٧ ، ٢١٢ ،
٢٦٤ ، ٢٧٢

زياد بن الأصفر ٢٧٨
زيد بن حصين الطائي ٢٤١ ،
٢٤٥

زيد بن الخطاب ٨٩
زيد بن علي بن الحسين ١٧ ، ١٧٣ ،
١٧٤ م ، ١٧٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،
زينب بنت الامام علي ٢٠٥

حرف السين

ابن سريج ٧٢
سعد بن أبي وقاص ٢٧ ، ٣٤
سعد بن مسعود ٢١٢
سعید بن عمر الجرشي ٢٥٤
سعید بن المسيب ٣٣ ، ٥٩
سفيان بن أبرد الكلبی ٢٥٣ ، ٢٧٩
سفيان بن عوف ١١٥
سكينة بنت الامام الحسين ٢٠٥
سلامة جارية يزيد بن عبد الملك ٩٤

سليمان بن سعد ٦٢

سليمان بن صرد ١٨٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ،
٢١٣

سليمان بن هشام ١٠٦ ، ١٠٧ ،
سليمان بن عبد العزيز ١٣٧ ، ٢٤٢ ،
سليمان بن عبد الملك ٦٩ ، ٧٣ ،
٧٤ ، ٧٧ ، ٧٨ م ، ٨٠ ،
٨١ م ، ٨٣ ، ٩٣ ، ١١٨ ،
١٣٣ ، ١٣٧ .

السمح بن مالك ١٣٢

سنان بن أنس ٢٠٤

سهل بن عبد العزيز ٩١
السيد محمد المهدي ١٦٣ م
ابن سيرين ٧٨

حرف الشين

شارل (مارتل) ١٣٠
شبيب بن يزيد الشيباني ٢٥٢ ،
٢٧٠ ، ٢٧٨ م ، ٢٧٩ م

الشریف الرضی ٩٠
شمس الدين بن أحمد بن يعقوب
الطيبي ١٨٥ ، ١٨٦
شهاب الدين أبو فراس ١٧٨ ، ١٨٦
شمس بن ذی الجوش ٢٠٢ ، ٢٠٣ ،
شونب الشيباني ٢٥٢ ، ٢٥٣

حرف الصاد

صالح بن عبد الرحمن ٦٢ ، ٨٧
صالح بن مخراق ٢٧٦
صالح بن مسرح ٢٧٨
صخر بن حبيب ٢٧٦
صفية بنت عبد المطلب ٢١٤

حرف الضاد

الضحاك بن قيس ٥٧

حرف الطاء

طارق بن زياد ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩
 طريف بن مالك ١٢٥ ، ٢٤٠
 طلحة بن عبيد الله ٢٧ ، ٣٤ ، ٥٦ ، ٢٣١
 طويس ٧٢

حرف العين

عائشة (زوجة الرسول) ٥١ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ م ، ٢٦٥
 عامر البصري ١٨٦
 العباس بن عبد المطلب ١٧١
 عباس بن سهل ٢١٣
 عبد الله بن أبي بكر ٣٩
 عبد الله بن أبيض ٢٧٤ م ، ٢٧٥ ، ٢٧٧
 عبد الله بن الأنطح ١٥٨
 عبد الله بن ثور أبو فديك ٢٤٧ ، ٢٧٧
 عبد الله بن حرب الكنزي ١٥٤
 عبد الله بن حنظلة ٥٢
 عبد الله بن خباب ٢٤٥ م ، ٢٥٩ ، ٢٦٤
 عبد الله بن الزبير ٣٩ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٦٤ م ، ٦٥ م ، ٧١ ، ١١٥ ، ١٤٢ ، ١٦٢ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢١٣ م ، ٢١٩ م ، ٢٢٥ ، ٢٢٤ م ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ م ، ٢٣٧ م ، ٢٦٤
 عبد الله بن الصفار ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٩
 عبد الله بن سهل ٩١
 عبد الله بن عباس ٣٣ ، ٣٨ م ، ٣٩ ، ٤٧ ، ٥٢ ، ١٨٠ ، ١٩٨

٢٠٧ ، ٢٢٧ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦٥ ، ٢٧٢
 عبد الله بن عجرد ٢٧٨
 عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس ٩٦
 عبد الله بن عمر ٣٩ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٢١٩ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢
 عبد الله بن عمرو بن العاص ٤٢ ، ١١٥
 عبد الله بن عمر الكلبى ٢٠٢
 عبد الله بن الكواء ١٧٧ ، ٢٣٥
 عبد الله بن مطيع العدوى ٥٢ ، ١٩٩ ، ٢١٦
 عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ١٥٦
 عبد الله بن المهدي ١٦٨
 عبد الله بن هلال اليشكري ٢٧٤ ، ٢٧٦
 عبد الله بن وهب الراسبي ٢٤٥ م
 عبد الله بن زياد ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٦ م ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٩٤ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢١٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠
 عبيدة بن هلال ٢٥١
 عبد ربه الصغير ٢٧٦
 عبد ربه الكبير ٢٥٠ ، ٢٧٦
 عبد الرحمن بن أبي بكر ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠
 عبد الرحمن بن الأشعث ٦٨ ، ٦٩ م ، ٢٥٨
 عبد الرحمن الخافقي ١٢٥ ، ١٣٣
 عبد الرحمن بن عوف ١٤٢ ، ١٤٩
 عبد الرحمن بن مخلف ٢٥١
 عبد الرحمن بن ملجم ٢٤ ، ٢٤٧
 عبد العزيز بن مروان ٢٠ ، ٢٤ م ، ٥٨ م ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٧٣ ، ٨٣ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠
 عبد الملك بن سهل ٩١

عمر بن عبد الله بن معمر ٢٥١
عمرو بن العاص ٢٠ ، ٢٤ ، ٤١ م
٤٢ ، ٢٤١ م ، ٢٤٢ م
٢٤٥ م ، ٢٤٧

عمرو بن عبيد ٦٠ ، ٦٦ ، ٦٧

عمران بن حطان ٢٤٧

على بن أبي طالب ١٩ ، ٢١ م ، ٢٣ ،
٢٤ م ، ٢٥ م ، ٣١ م ، ٣٤ م
٣٦ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٨٩ ، ١١٤ ،
١٤٨ ، ١٤٩ م ، ١٥٢ م ، ١٥٤
م ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ،
١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ،
١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٦ م ، ١٧٨ ،
١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٩٠ ، ٢١٢ ،
٢٢٤ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ،
٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٧ ،
٢٥٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ،
٢٧٣ ، ٢٧٤

على بن الحسين ١٧٠ ، ٢٠٥

على خان ١٩٣

على الرضا ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ ،
١٦٨

على زين العابدين ١٦٤ ، ١٦٨ ،
١٧٦ ، ٢٠٤

على بن عبد الله بن العباس ١٧١

عقال بن ثبته ٩٦

عقبة بن نافع ١١٩ م ، ١٢١ م ،
٢٦٩ م

عيسى بن مصعب بن الزبير ٢٣١

حرف الفين

الغريض ٧٢

غزالة زوجة شبيب بن يزيد الشيباني

٤٨

غسان الكوفي ٢٨٣

غيطشة ١٢٦

غيلان الدمشقي ٢٩١

عبد الملك بن مروان ١٩ ، ٢١ ،
٢٣ ، ٢٥ ، ٣٨ ، ٤٩ ، ٥٢ ،
٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ م ،
٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ م ، ٦٤ م ،
٦٥ م ، ٦٧ ، ٦٩ م ، ٧٣ م ،
٨٣ ، ١١٢ ، ١١٧ م ، ١٢٣ ،
م ، ٢١٨ ، ٢٢٥ ، ٢٣٠ ،
٢٣١ ، ٢٣٢ م ، ٢٥٠ م ،
٢٥٢ ، ٢٦٨ ، ٢٧٦

عتبة بن ربيعة ٣٠ ، ٧١ ، ٩٨

عتبة بن أبي سفيان ٢٠٥

عثمان بن عفان ٢١ ، ٢٧ ، ٣١ م ،
٣٣ ، ٣٤ م ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٦ ،
٧٠ م ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٢١ ،
١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٥٧ ، ١٦١ ،
٢٢٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٢ ، ٢٧٦

عروة بن ادية ٢٤٩

عروة بن اذينة ٥٠

عروة بن جرير ٢٥٥

عروة بن الزبير ٦٠

عطية الاسود ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ،
٢٧٨

عمار بن ياسر ٣٤

عمر بن الخطاب ٢٧ م ، ٣٠ ، ٣٣ م ،
٤٠ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٨١ م ،
١١٣ ، ١٣٣ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ،
١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٧ ، ٢٠٣ ،
٢٧٢ ، ٢٧٦

عمر بن زرارة القسري ٢٢٥ م

عمر بن سعد بن أبي وقاص ٥٧ ،
٥٨ ، ٥٩ م ، ٦٠ ، ٢٠١ ،
٢٠٧ ، ٢١٥ ، ٢١٧

عمر بن عبد العزيز ١٩ ، ٢١ ، ٢٣ ،
٢٤ ، ٢٥ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ،
٧٨ ، ٨١ م ، ٨٢ م ، ٨٣ م ،
٨٤ ، ٨٥ ، ٨٨ م ، ٨٩ م ،
٩٠ ، ٩٣ م ، ٩٥ ، ١١٢ ،
١١٩ ، ١٣٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥

حرف الفاء

- فاطمة بنت الرسل ١٦١ ، ١٨٠ ، ١٨٣
فاطمة بنت الامام الحسين ٢٠٥
فاطمة بنت عبد الملك بن مروان زوجة
عمر بن عبد العزيز ٨١ ، ٨٣ ، ٨٦
فرتونة ٨٩
الفرزدق ٥١ ، ١٨٣ ، ١٩٩
فرعون ٣١ م
فروة بن نوفل الاشجعي ٢٤٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣

حرف القاف

- قبيصة بن ذؤيب ٥٩
قتيبة بن مسلم ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٣٧ ، ١٣٨
ابن قتيبة ٣٤ ، ١٦٥
قرة بن شريك ٧٥
قطرى بن الفجاءة ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٦٦ ، ٢٧٨
القمي ١٥٨ ، ١٥٩
قيس بن سعد بن عبادة ٣٥ ، ٣٨
قيس بن الهيثم ١٣٥

حرف الكاف

- كثير عزة ١٨٠
كسيلة ٢٢٦
كليب بن ربيعة ٢٥٦
كيسان مولى محمد بن الحنفية ١٧٠

حرف اللام

- لفریق ١٢١ ، ١٢٩
ليول المرعشي ١١٨

حرف الميم

- المأمون ١٦٤ ، ٢٢٤
مالك بن هيرة ٥٧
محمد بن الأشعث بن قيس ٤٦
محمد الباقر ١٦٠ م ، ١٦٢ ، ١٦٣
محمد بن الحارث ١٣٩
محمد بن الحسن الطوسي ١٥٩
محمد بن الحنفية ١٥٥ م ، ١٦٨ ، ١٧١ ، ٢٠٠ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٧ م
محمد الفاتح ١٢٠
محمد بن القاسم الثقفي ٧٦ ، ٨٧ ، ١٤٠
محمد بن مروان ٢٣١
محمد (المهدي المنتظر) ١٦٧ ، ١٧٥
محمد بن يعقوب الكليني ١٥٩ ، ١٦٤ ، ١٦٥
محمد بن يوسف ٧٥
المختار بن أبي عبيد الثقفي ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٤ م ، ٢٠٣ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٤ م ، ٢١٥ م ، ٢١٦ م ، ٢١٧ م ، ٢١٨ م ، ٢١٩ م ، ٢٢٠
مروان بن أدية (أبو بلال) ٢٤٩ م ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠
مروان بن محمد ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ٢٥٣
مروان بن الحكم ٢٥ ، ٤٨ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ م ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٨ ، ٧٣ ، ٢٣٠
مزاحم وزير عمر بن عبد العزيز ٨٦ ، ٩١ ، ٩٠ ، ٨٧
المستورد بن علفة ٢٤٩
مسعد بن غذك التميمي ٢٤١
أبو مسلم الخراساني ١٠٧
مسلم بن عوسجة ٢٠٢
مسلم بن عقبة المري ٥٢ م ، ٥٣ ، ٦٤ ، ٧١ ، ٢٢٨

حرف النون

ناصر الأطروسي ١٧٣
نافع بن الأزرق ٢٤٧ ، ٢٥٠ ،
٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،
٢٧٤ م ، ٢٧٥ م ، ٢٧٦ م ،
٢٧٧ م ، ٢٧٨ م
نجدة بن عامر ٢٤٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ،
٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٢٧٤ م ، ٢٧٧
نصر بن سيار ١٠٨ ، ١٣٨ ، ٢٢٢ م
نوح (عليه السلام) ١٨٥ ، ٢٦٣

حرف الهاء

ابن هانيء ١٩٢
هانيء بن عروة ١٩٧ ، ٢٠٠
هيرة بن المشرج ١٣٧
هشام بن عبد الملك ١٠٢ ، ١٣٨ ،
٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٦
هشام البهلول بن عمر الشيباني ٢٥٤
هند زوجة أبي سفيان ٣١

حرف الواو

واصل بن عطاء ٦٥ م ، ٢٨٧ م ،
٢٩٢ م
وكيع بن حسان التميمي ٧٧
الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ١٩٦ م
الوليد بن عبد الملك ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٧ م ،
٦٩ ، ٧٣ م ، ٧٤ م ، ٧٥ م ،
٧٦ م ، ٧٧ م ، ١٠٢ ، ١١٨ ،
١٢٦ ، ١٣٧
الوليد بن يزيد بن عبد الملك ١٩
٢٢ ، ١٠٥ ، ١١٢ ، ١١٧ م ،
١٧٣ ، ٢٢٢

مسلم بن عقيل ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ،
٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢٥٨

مسلمة بن عبد الملك ١١٨ ، ٢٥٢ ،
٢٥٣

مسلمة بن مخلد الأنصاري ٢٢٧

مسلمة بن المهلب ٩٤

المسيح ١٥١ م ، ٢٠٨ ، ٢١٦ ،
٢١٧ ، ٢١٨

مصعب بن الزبير ٦٠ ، ٦١ ، ٦٥ م ،
٢١٩ ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ،
٢٣١ ، ٢٥١

معاذ بن جوين ٢٩٠

معاوية بن أبي سفيان ١٧ ، ١٨ ،

١٩ ، ٢٠ ، ٢١ م ، ٢٣ م ، ٢٩ ،

٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ م ، ٣٦ م ،

٣٧ م ، ٣٨ م ، ٣٩ م ،

٤٠ م ، ٤١ م ، ٤٢ م ، ٤٤ م ،

٤٥ م ، ٤٧ م ، ٤٩ م ، ٥٠ م ،

٥٥ ، ٦٩ م ، ٨١ ، ١١٣ ،

١١٤ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،

١٣٥ م ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،

٢١٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٤١ ،

٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٧٢

معاوية الثاني ٣١ ، ٥٤ م ، ٢٢٩

معاوية بن خديج ١٢١

معبد الجهني ٧٠

المعتصم ١١٨

معقل بن قيس ٢٤٩

المغيرة بن شعبة ٢١ ، ٤٢ م ، ٤٣ ،

٤٦ ، ٤٧ م ، ٢٤٩ م ، ٢٦٩ ،

المهلب بن أبي صفرة ٦٥ ، ٦٦ ،

١٣٥ ، ١٣٨ ، ٢١٥ ، ٢٤٧ ،

٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ،

٢٧٣

موسى الكاظم ١٥٩ ، ١٨٢ ،

موسى بن نصير ٧٦ ، ٧٨ ، ١٢٢ ،

١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ،

موسى (عليه السلام) ١٢٧

ميسون الكلبية ٤٦

حرف الياء

يزيد بن معاوية ١٧ ، ١٨ ، ٢١ م ،
٢٢ ، ٣١ م ، ٣٨ ، ٤٦ ،
٤٨ م ، ٤٩ ، ٥٠ م ، ٥١ م ،
٥٣ م ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦١ ،
٢٢٤ م ، ٢٢٥ م ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

يزيد بن المهلب ١٣٣

يزيد بن الوليد بن عبد الملك ١٠٢ ،
١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ٢٨١

يزيد بن هانيء ٢٤٢

يوسف بن عمر النخعي ١٧٣ ، ٢٢١ ،
٢٢٢ م ، ٢٨٣

يحيى بن الحكم القاضي ١٦٣ م

يحيى بن زيد بن علي ١٧ ، ٢٢٠

يحيى بن سعيد ٨٩

يزيد بن أبي سفيان ٣٠ ، ٣١ م

يزيد بن أبي مسلم ٦٩

يزيد بن عاصم ٢٤٥

يزيد بن عبد الملك ١٨ ، ٩٣ ، ٩٤ ،
٩٥

يزيد بن علي ١٧٥

فهرس الأماكن

حرف الجيم

جرجان ٨٠ ، ١٣٤
الجزجانية (عاصمة مملكة خوارزم)
١٣٥
الجزيرة ١١٧ ، ٢٢٧ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢
جبلان ١٣٤
حرف الحاء
الحجاز ٥٦ م ، ٦٥ م ، ٦٩ م ، ٨٤ ،
١٠٦ ، ١٩٨ م
حلب ١١٨
حلوان ٨١
حمص ١٠٤

حرف الخاء

خراسان ٦٦ ، ٨٠ ، ٩٨ ، ٩٩ ،
١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٣٤ ،
١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٨٣ ، ٢١٩ ،
٢٢١

حرف الدال

دابق ١١٨
دمشق ٢٣ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٥٦ ، ٥٧ ،
٦٦ ، ٧٠ م ، ١١٢ ، ١٢٣ ،
٢٠٨ ، ٢١٦
دير الجماجم ٦٧
دير سمعان ٩٢
الديبل ١٤٠
الديلم (بطبرستان) ١٧٣
حرف الزاء
رودس (جزيرة) ١١٤

حرف السين

سبته ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨
سرقسطة ١٢٩

حرف الالف

الأردن ٣١ ، ٥٥ ، ٢٢٩
أرغونة ١٢٧
أرمينية ٩٩ ، ١١٣ ، ١١٧ م ، ٢١٧
أرواد (جزيرة) ١١٤
أذربيجان ٩٩ ، ٢١٧
آسيا الصغرى ١٠٣
أشبيلية ١٢٧
الأنطلس (وإسبانيا) ٨٧ ، ١١٢ ،
١١٣ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ،
١٢٧ ، ١٨٤
اندونيسيا ١١٢
أنطاكية ١١٨
أفريقية ٨٧ ، ١١٢ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ،
١٨٤
الأهواز ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٧٨
إيران ١٣٨ ، ١٨٣

حرف الباء

البحرين ٨٤
برشلونة ١٢٧
برقة ١٢٠ ، ١٢٢
البصرة ٤٢ م ، ٤٤ م ، ٤٦ م ، ٥٦ ،
٦٦ ، ٩٤ ، ١٢١ ، ١٩٦ ،
٢٠٨ م ، ٢١٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤٦ ،
٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٨ ، ٢٧٤ ،
٢٧٦
بغداد ٢٤٦
بلخ ١٣٤ م ، ١٣٥ ، ٢٢٢

حرف التاء

تور ١٢٥

عسقلان ١١٧

العقير ٩٤

عكة ١١٧

عمان ٢٤٦

عمورية ١١٨

حرف الفين

غدير خم ١٥٧

غرناطة ١٢٧

غزنة ١٣٣

الغوطة ١٠٦

حرف الفاء

فارس ٢٤ ، ٦٢ ، ١٣٦ ، ١٥٠ ،

٢٧٦

الفسطاط ١٢١

فلسطين ٥٨ ، ١١١

حرف القاف

القادسية ٢٠٠

القاهرة ٨١ ، ١٦٥

قبرص ١١٥

قرطبة ١٢٧

القسطنطينية ١١٣ ، ١١٤ ، م ١١٥

م ١١٨ ، م ١٢٠

قشتالة ١٢٧

قنسرين ١٢٧

قوهشان ١٢٠

القيروان ١٢١ ، ١٢٢

حرف الكاف

كابول ١٣٣

كربلاء ٤٩ ، ٩٤ ، ٢٠٣ ، ٢٢١

كرمان ١٣٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٧٦

كريت ١١٥

كشمير ١٢٠

سمرقند ١٣٤

السند ٨٧ ، ١١٣ ، ١٣٩ ، ١٤١ م ،

١٤٢ م

سوريا ٢٣ ، ١١٣ ، ٢٣٠

سيلان ١٤٠

حرف الشين

الشام ٢٩ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٥٢ ،

٥٧ م ، ٦١ ، ٦٢ ، ٨٤ ، ٩٤ ،

١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١٣٠ ،

١٩٦ ، ٢٠٨ ، ٢١١ ، ٢٢٩ ،

٢٤٨ ، ٢٣٠

شمالى افريقية ٢٤١ ، ٢٤٦

شومان (عاصمة مملكة صفانيان)

١٣٤

حرف الصاد

صقلية ١١٤

صور ١١٧

حرف الطاء

الطائف ٢٢٧

طبرستان ٨٠ ، ١٣٣

طخارستان ١٣٤

طرابلس ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢

طليطلة ١٢٧ م

طنجة ١٢٣

حرف العين

العراق ٣٥ ، ٣٧ ، ٤٣ م ، ٤٤ ،

٥١ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ،

٦٤ م ، ٦٧ م ، ٩٤ ، ٩٥ ،

٩٨ م ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٣٩ ،

١٤٤ م ، ١٧٨ ، ١٨٢ ، ١٩٧ ،

٢١١ م ، ٢٢٦ ، ٢٢٩ ،

٢٤٣ ، ٢٣٠

المصيصة ٦. ١١٧
المغرب ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤
مكة ٢٩ م ، ٣٣ م ، ٥٣ ، ٩٥
١٩٦ ، ٢١٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٩
٢٢٥ م ، ٢٢٨ ، ٢٦٧ ، ٢٧٦
الملايا ١١٢
الموصل ٢١٦ ، ٢٥٣
حرف النون
النهران ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٠٥
تيسابور ٢٢١

حرف الهاء

هراة ١٣٣

حرف الواو

واسط ٢٤٥
وادي لك ١٢٧ ، ١٢٨

حرف الياء

اليامة ٢٤٠
اليمن ٨٤ ، ١٩٧ ، ٢٤٦
اليرموك ٣٠

الكوفة ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦
٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ١٢١
١٤٨ ، ١٧٣ ، ١٨٤ ، ١٩٥ م
١٩٨ م ، ١٩٩ م ، ٢٠٠
٢٠١ ، ٢٠٩ م ، ٢١٠ م
٢١٣ م ، ٢١٤ م ، ٢١٦
٢١٧ م ، ٢١٨ م ، ٢١٩ م
٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦
٢٢٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦
٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣
٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٦٧ ، ٢٧٩

حرف الميم

الحيثة ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥١
٥٢ ، ٥٣ ، ٥٨ م ، ٦٠
٨١ ، ٨٥ ، ١٩٨ ، ٢٠١ م
٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦
٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٥٣ ، ٢٦٨
الدائن ١١٥ ، ٢٠٩
مرعش ١١٨
مصر ٢٤ ، ٤٠ ، ٥٨ م ، ٨١ ، ٨٤
٨٧ ، ٨٩ ، ٩٩ ، ١٠٧
١١١ ، ١٢٢ م ، ١٢٣ ، ١٨٢
١٩٧ م ، ٢٢٩ ، ٢٣٠

رقم الايداع ٢٣٥٣/١٩٨٤

مطابع سجل العرب

HISTORY and CIVILIZATION of ISLAM

**A study, in Ten Volumes,
on History of MUSLIM NATIONS
in All Muslim Ages and Lands**



دكتور أحمد شلبي

2

The Umayyad Peiod With its Religious and Revolutionary Movements

By

AHMED SHALABY,

B.A. (Hon.) Cairo University,

Ph. D. Cambridge University,

Professor of Islamic History and
Civilization

Faculty of Dar-El Ulum, Cairo University

ملقى دراساته في الأزهر وفي كلية دارالعلوم
(جامعة القاهرة) وفي جامعة لندن وجامعة كمبودج .
زار الولايات المتحدة الأمريكية كما زار أكثر دول أوروبا
وآسيا وأفريقيا، ومثل مصر في عدة مؤتمرات دولية .
درس مجموعة من اللغات الأجنبية ويحيد الإنجليزية
والاندونيسية .

اشتغل بالتدريس بجامعة القاهرة حتى وصل الى درجة أستاذ
ورئيس قسم التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية، وقد
حاضر - منتديا وزائرا ومُعاضرا - في جامعة الأزهر،
وعين شمس، واندونيسيا، والسودان، وماليزيا، والمملكة
العربية السعودية، وليبيا، وفي معهد الدراسات الاسلامية،
ومعهد البحوث والدراسات العربية، ومعهد الدراسات
الدبلوماسية .

- مؤلفاته تزيد من خمسين كتابا ظهرت الطبعة الحادية
والعشرون من بعضها وأهم هذه المؤلفات :

- ١ - موسوعة التاريخ الاسلامي في عشرة مجلدات
- ٢ - موسوعة الحضارة الاسلامية في عشرة أجزاء .
- ٣ - مقارنة الأديان في أربعة أجزاء .
- ٤ - كيف تكتب بحثا أو رسالة .
- ٥ - المكتبة الاسلامية لكل الاعمار (١٠٠ جزء من
التفسير والتاريخ وقصص القرآن للأولاد والشبان
والسيدات والرجال) .

٦ - ISLAM: BELIEF, LEGISLATION, MORALS

٧ - HISTORY OF MUSLIM EDUCATION

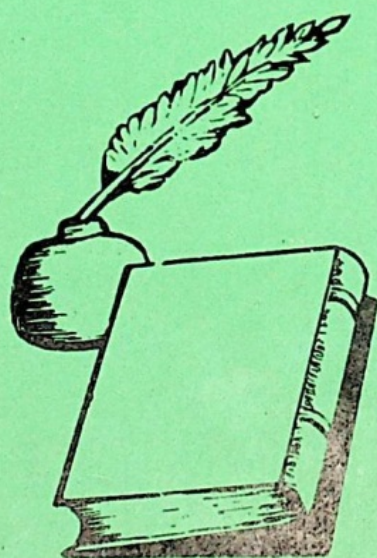
كتب بعض كتبه بالانجليزية والاندونيسية، وترجم أكثر
مؤلفاته الى الأوردية، والتركية، والاندونيسية، والماليزية
والعربية، والفارسية .

Published by :

THE RENAISSANCE BOOKSHOP

9 Adly Street, Cairo.

موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية



تأليف
الدكتور أحمد شلبى
دكتوراه من جامعة كامبردج

استاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى - القاهرة

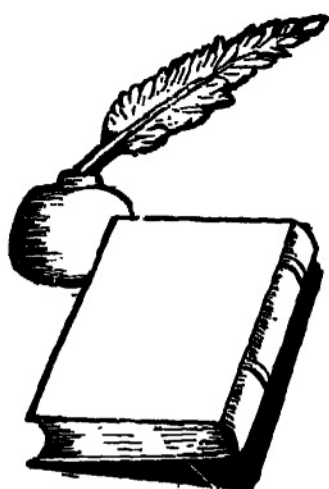
مع إضافات واسعة وتحقيقات جديدة

موسوعة التاريخ الإسلامى

٣

الخلافة العباسية

مع اهتمامات خاصة بالعصر العباسى الاول



تأليف
الدكتور أحمد شلبى
دكتوراه فى الفلسفة من جامعة كبرى
أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامى والفتاوى الشرعية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع صلاح - القاهرة



الطبعة الثامنة (١٩٨٥) مع زيادات واسعة وتنقيحات مهمة

مَوْشِيَّوَعَبَرٌ
التاريخ الإسلامى
واحضارة الإسلاميه

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة اجزاء لتاريخ العالم الإسلامى كله ،
من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر ، مع دراسة الجوانب الحضارية
التي أسهم بها المسلمون فى ترقية العمران وتطوير الفكر البشرى

٣

الخلافة العباسية

مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الأول
وبدور المسلمين خلاله فى خدمة الدراسات الإسلامية والحضارة العالمية

تأليف

الدكتور أحمد رشدي

دكتوراه من جامعة كمبريدج
استاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الطبعة الثامنة (١٩٨٥) مع تعديلات واسعة وزيادات مهمة



مكتبة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
رأىها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

التاريخ . . .

شعاع من الماضي يني الحاضر والمستقبل

أحمد شلبي

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى سنة ١٩٥٤

الطبعة الثانية سنة ١٩٦٢

الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٦

الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٠

الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٤

الطبعة السادسة سنة ١٩٧٨

الطبعة السابعة سنة ١٩٨٢

الطبعة الثامنة سنة ١٩٨٥

خطة البحث في هذه الموسوعة

ان خطة البحث التي اتبعتها في كتابة « التاريخ الاسلامي » خطة جديدة ومريحة ، ويسرنى ان ابرزها في التخطيط التالي ليعرف القارئ كلها ، وليسهل عليه متابعتها :

دراسة زمنية في هذه	ج ١	العرب قبل الاسلام — السيرة النبوية العطرة — عصر الخلفاء الراشدين
الاجزاء الثلاثة اذ	ج ٢	الدولة الاموية والحركات الفكرية والثورية خلالها
ان العالم الاسلامي	ج ٣	الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسي الاول ودور المسلمين خلاله في خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية
وحدة واحدة .		

ثم دراسة مكانية (قطاعات جغرافية) في الاجزاء الخمسة التالية لأن العالم الاسلامي انقسم الى دويلات كثيرة ، ويشمل كل جزء من هذه الاجزاء قطاعا من العالم الاسلامي ، بحيث يتناول تاريخه من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر مبتدئين من الغرب ومتجهين الى الشرق كالتخطيط التالي :

الجزء الثامن	الجزء السابع	الجزء السادس	الجزء الخامس	الجزء الرابع
التاريخ الاسلامي للدول الاسلامية غير العربية بآسيا ايران — افغانستان — الباكستان — بنجلاديش — ملايزيا — اندونيسيا — الفلبين — الاتحاد السوفيتي والهند والفلبين وسنغافورة .	الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق من مطلع الاسلام حتى الآن . دول الجزيرة العربية : المملكة العربية السعودية — عمان اليمن — جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، دولة الامارات العربية — قطر — البحرين — الكويت — العراق	الاسلام والدول الاسلامية جنوب صحراء افريقية منذ خلفها الاسلام حتى الآن : — وسائل انتشار الاسلام بقلب افريقية . دراسة عن — الدول الاسلامية قبل الاستعمار الاوربي . — الدول الاسلامية الحالية : موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيا — مالي — النيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال	مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر — الحروب الصليبية : دواعيها — ادوارها — نتائجها — الاجرطورية المشرقية (تركيا) منذ ظهورها حتى الآن	الانحسار الاسلامي وانتقال الحضارة الاسلامية منها الى اوروبا — المغرب — الجزائر — تونس — ليبيا ، من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر — السنوسية : مبادئها وتاريخها

ونختتم الموسوعة بدراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر :

الجزء التاسع : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد نجيب وعصر عبد الناصر
عصر المظالم والهزائم

الجزء العاشر : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد انور السادات

كتب المؤلف

أولاً : موسوعة التاريخ الاسلامى

دراسة تحليلية شاملة في عشرة اجزاء لتاريخ العالم الاسلامى كله من مطلع الاسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى اسهم بها المسلمون في ترقية العمران ، وتطوير الفكر البشرى :

١ - الجزء الاول : (الطبعة الثانية عشرة)

- مقدمة الموسوعة : نطاق التاريخ الاسلامى - تفسير التاريخ - هل التاريخ علم ؟ .. فلسفة التاريخ - مائدة التاريخ - مراحل تدوين التاريخ - قضية الالتزام في كتابة التاريخ الاسلامى - علم التاريخ بين المسيحية والاسلام ...
- تاريخ العرب قبل الاسلام : البدو والحضر - حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

- السيرة النبوية العطرة : جوانب من السيرة تدون لأول مرة - الدعوة الاسلامية وفلسفتها - عصر الخلفاء الراشدين

٢ - الجزء الثانى : (الطبعة الثامنة)

الدولة الاموية والحركات الفكرية والثورية في عهدها .

٣ - الجزء الثالث : (الطبعة الثامنة)

الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الاول ، وبدور المسلمين خلاله في خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية .

٤ - الجزء الرابع : (الطبعة السابعة)

- الاندلس الاسلامية ، وانتقال الحضارة الاسلامية الى اوربا عن طريقها .

- المغرب - الجزائر - تونس - ليبيا (من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر) .

- السنوسية : مبادئها وتاريخها .

٥ - الجزء الخامس : (الطبعة السادسة)

- مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر .

(تدوين جديد لتاريخ مصر وتورها السياسى والحضارى) .

- الحروب الصليبية : دوافعها - ادوارها - نتائجها .

- الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن .

٦ - الجزء السادس : (الطبعة الخامسة)

الاسلام والدول الاسلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخلها
الاسلام حتى الآن :

- دراسة عن وسائل انتشار الاسلام :
- مراكز الشمال - هجرات عربية وغير عربية - التجار - الطرق
الصوفية - مراكز داخلية .
- الدول الاسلامية قبل الاستعمار الاوربي :
- غانة - مالي - صنفى - دول الهوسا - برنو - باجىرمى -
واداي - الفونج - مقدشو - مملكة الزنج .
- الدول الاسلامية الحالية :
- موريتانيا - السنغال - جابيا - غينيا - مالي - النيجر -
نيجيريا - تشاد - السودان - الصومال - جيبوتي .

٧ - الجزء السابع : (الطبعة الثالثة)

الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق :
- دول الجزيرة العربية من مطلع الاسلام حتى الآن :
المملكة العربية السعودية - اليمن - جمهورية اليمن الجنوبية -
عمان - دولة الامارات العربية - قطر - البحرين - الكويت .
- العراق من مطلع الاسلام حتى الآن .

٨ - الجزء الثامن : (الطبعة الثانية)

الاسلام والدول الاسلامية غير العربية بآسيا من مطلع الاسلام حتى
الآن :
ايران - افغانستان - الباكستان - بنجلاديش - ماليزيا - اندونيسيا
الاقليات الاسلامية في الهند والصين وروسيا والفلبين ..

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر

٩ - الجزء التاسع : (الطبعة الثالثة)

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد نجيب - عصر جمال
نضيد الناصري (عصر المظالم والهزائم) .

١٠ - الجزء العاشر :

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم ، عصر انور السادات .
(تريجت اكثر اجزاء هذه الموسوعة لعدة لغات)

(م ١ - التاريخ الاسلامي ج ٣)

كتب للمؤلف

ثانيا : موسوعة النظم والحضارة الاسلامية

دراسة تحليلية شاملة في عشرة اجزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية التي جاء بها الاسلام لهداية البشرية في شئون العقيدة ، والسياسة ، والاقتصاد ، وفي مجال الحياة الاجتماعية والتربوية والعسكرية ، والتشريعية والقضائية ، كما تبرز جهود المسلمين في الحضارة التجريبية ، واجزاؤها هي :

١١ - الجزء الاول : تاريخ المناهج الاسلامية (الطبعة الرابعة)

مناهج التعليم في صدر الاسلام — انحرافاتهما في عصور الظلام — وجوب تصحيحها^(١)

١٢ - الجزء الثاني : الفكر الاسلامي : منبذة وآثاره (الطبعة السابعة)

١٣ - الجزء الثالث : السياسة (الطبعة السادسة)

في الفكر الاسلامي

مع المقارنة بالنظم السياسية المعاصرة^(٢)

١٤ - الجزء الرابع : الاقتصاد (الطبعة السادسة)

في الفكر الاسلامي

مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة ، ومع دراسة شاملة للنقاط التالية :

- ١ - الاسلام والمسلمون في مواجهة المشكلة الاقتصادية .
- ٢ - مبادئ الاسلام الاقتصادية .
- ٣ - الاسلام والقضايا الاقتصادية الحديثة (شهادات الاستثمار ...) .
- ٤ - من تاريخ الاقتصاد في الاسلام (بيت المال : موارده ونصارفه ...) .
- ٥ - النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور واثر الفكر الاسلامي فيها .

١٥ — الجزء الخامس : التربية الإسلامية (الطبعة الثامنة)
نظمها — تاريخها — فلسفتها

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين ، وناهج التعليم وامكانته ، وحالة المدرسين المالية والاجتماعية ، والإجازات العلمية ، والعقوبات ، والجوائز ، والمكافآت ، وملابس المدرسين ، ونقابة المعلمين ، وتكافؤ الفرص بين التلاميذ ، وتوجيههم حسب مواهبهم ..

١٦ — الجزء السادس : المجتمع الإسلامي (الطبعة السابعة)
أسس تكوينه .. أسباب ضعفه .. وسائل نهضته
ابتداء من الطبعة السابعة : رؤية جديدة — تخطيط جديد — أداء جديد .

١٧ — الجزء السابع : الحياة الاجتماعية (الطبعة الثالثة)
في الفكر الإسلامي

— في نطاق الأسرة : كالختان وتحديد النسل وعمل المرأة ...
— وفي نطاق المجتمع : كالأفراح والمآتم والموسيقى والفناء ...

١٨ — الجزء الثامن : تاريخ التشريع الإسلامي (الطبعة الثالثة)
وتاريخ النظم القضائية في الإسلام
مع بحوث واسعة عن القرآن الكريم : المصدر الأول للتشريع
ومع دراسة شاملة لمصادر التشريع الأخرى

١٩ — الجزء التاسع : الجهاد والنظم العسكرية (الطبعة الثالثة)
في الفكر الإسلامي (العلاقات الدولية)

بحث علمي يبرز موقف الإسلام من السلم والحرب ، كما يبرز اتجاهات الإسلام في مشكلات الحرب كالاستعداد للجهاد ووسائله ، وأخلاق المجاهد ، والخديعة في الحروب ، والثبات والفرار ، والرباط ، والتجسس والخيانة ، والهدنة والأسرى ..

٢٠ — الجزء العاشر : رحلة حياة (الطبعة الثالثة)
تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الإسلامية

كتب المؤلف

ثالثا : مقارنة الأديان

سلسلة من الكتب في مقارنة الأديان ، تعتمد على أدق المراجع
بمختلف اللغات ، وتمتاز دراستها بالحيدة والعمق ، وتشمل :

٢١ - الجزء الأول : اليهودية : (الطبعة السابعة)

— دراسة لثنى المسائل اليهودية : اليهود في التاريخ من عهد
ابراهيم حتى الآن : الصهيونية ، أنبياء بنى اسرائيل ، عقيدة بنى اسرائيل ،
يهوه اله بنى اسرائيل ، التعدد والتوحيد في الفكر اليهودي ، التابوت
والهيكل ، الكهنة والقرابين ...

— مصادر الفكر اليهودي : العهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء

صهيون .

— اليهود في الظلام : الماسونية ، والروتاري ، الاغتيال ، التجسس ،
البابية والبهائية .

— من صور التشريع في اليهودية .

٢٢ - الجزء الثاني : المسيحية : (الطبعة الثامنة)

— المسيح والمسيحية في نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة .
— بولس وأصح المسيحية الحالية ، التثليث ، صلب المسيح للتكريم من
خطيئة البشر .

— شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، المجامع ،
طبيعة المسيح والآراء فيها ، الطوائف المسيحية ، الرهبنة والاديرة ،
خرافة ظهور العذراء في كنيسة الزيتون ، حركة الإصلاح الديني ونتائجها
ونقدتها .

٢٣ - الجزء الثالث : الاسلام : (الطبعة الثامنة)

— الله في التفكير الاسلامي ، النبوة في التفكير الاسلامي ، غير المسلمين
في المجتمع الاسلامي ، الدين المعاملة ، المرأة في الاسلام ، الرق وموقف
الاسلام منه ، السياسة والاقتصاد في الاسلام .

٢٤ - الجزء الرابع : اديان الهند الكبرى : (الطبعة السابعة)

« الهندوسية — الجينية — البوذية »

— تقديم من : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات في الهند ، الأديان
في الهند .

— دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا : مهابهارتا : يوجياواسستها »
كتبها .

— أهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الاطلاق والنرفانا ، وحدة
الوجود .

— تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ واضعها .

كتب المؤلف

رابعاً : كتب في الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

- ٢٥ — كيف تكتب بحثاً أو رسالة (الطبعة السابعة عشرة)
دراسة منهجية لكتابة البحوث واعداد رسائل الماجستير والدكتوراه.
كتابان باللغة الانجليزية هما :

- ٢٦ ISLAM : Belief - Legislation - Morals
— ٢٧ History of Muslim Education
مكتبة النهضة المصرية

وكتب باللغة الاندونيسية والملاييزية :

- | | | |
|---------------------------------|--|------|
| | Negara dan Pemerintahan Dalam Islam | — ٢٨ |
| | Masyarakat Islam | — ٢٩ |
| | Hukum Islam | — ٣٠ |
| | Sedjarah dan Kebudayaan Islam 1 | — ٣١ |
| | Sedjarah dan Kebudayaan Islam II | — ٣٢ |
| | Sedjarah dan Kebudayaan Islam III | — ٣٣ |
| | Perbandingan Agama (Jahudi) | — ٣٤ |
| | Perbandingan Agama (Masihi) | — ٣٥ |
| | Perbandingan Agama (Islam) | — ٣٦ |
| Pustaka National
(Singapore) | Perbandingan Agama (Agama2 yang
Terbesar di India : Hindu-Jaina-Buddha) | — ٣٧ |
| | Sadjarah Pendidikan Islam | — ٣٨ |
| | Politik dan Ekonomi Dalam Islam | — ٣٩ |
| | Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam | — ٤٠ |
| | Perkembangan Keagamaan Dalam Islam
dan Masehi | — ٤١ |
| | Perang Salib | — ٤٢ |
| | Kurikulum Islam Dalam | — ٤٣ |
| | Perkembangan Sedjarah | |
| | Pengajian Al Quraan | — ٤٤ |
| | Sedjarah Kehakiman Dalam Islam | — ٤٥ |

كتب المؤلف

خامسا : المكتبة الاسلامية لكل الاعمار

١٠٠ جزء من سير عظماء الاسلام ، ومن التاريخ ، والحضارة ،
وقصص القرآن للأولاد والشباب والسيدات والرجال
ظهر منها الأجزاء التالية :

المجموعة الأولى : السيرة النبوية العطرة : (١٦ جزءا)

- | | | |
|------|--|---|
| ١ ج | محمد قبل البعثة | الطبعة الثانية مع زيادات واسعة وتحسينات شاملة |
| ٢ ج | من غار حراء .. الى غار ثور (قصة الاسلام في مكة) | |
| ٣ ج | الاسراء والمعراج : دراسة تصحيح للقضاء على الشطحات . | |
| ٤ ج | الهجرة للمدينة ووسائل الاستقرار بها | |
| ٥ ج | الرسول الداعية ويربى الدعاة | |
| ٦ ج | (١) الرسول في بيته : زوجات الرسول — أسباب تعدد الزوجات | |
| ٧ ج | (ب) الرسول في بيته : مشكلات الزوجات وكيف عالجهما —
الحجاب — أولاد الرسول — اعتقاده — خدمه | |
| ٨ ج | الرسول بين أصحابه — الرسول يربى الفرد المسلم —
الرسول يربى المجتمع الاسلامى . | |
| ٩ ج | الرسول يربى الغضاة ، ويربى القوة العسكرية ، ويربى
الولاة والحكام | |
| ١٠ ج | الرسول والشباب — الرسول والعمل | |
| ١١ ج | توجيهات طبية يقدمها الرسول — مكرمات للرسول —
الرسول والمنافقون | |
| ١٢ ج | الرسول والنصارى — الرسول واليهود | |
| ١٣ ج | الاسلام والقتال ، وهل انتشر الاسلام بالقوة او بالدعوة —
غزوة بدر ودراسات جديدة حولها — أهم أحداث غزوة بدر | |
| ١٤ ج | غزوة احد والهزيمة التى أخافت المنتصر — غزوة الأحزاب
وكلمة عن سلمان الفارسى | |
| ١٥ ج | صلح الحديبية — كتب الرسول للملوك والرؤساء — غزوة
مؤتة وبدء الصراع ضد الروم . | |
| ١٦ ج | فتح مكة — غزوة حنين والطفاء — غزوة تبوك —
الفترة الأخيرة فى حياة الرسول | |

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالحنة : (٧ أجزاء)

- ج ١٧ (١) أبو بكر الصديق : حياته وعصره والمشكلات التي واجهها
ج ١٨ (٢) عمر بن الخطاب والتوسع في عهده — عمر باني الدولة
الاسلامية
ج ١٩ (٣) عثمان بن عفان : حياته واخلاقه والفتنة في عهده
ج ٢٠ (٤) علي بن ابي طالب : شخصيته وحياته والمشكلات التي
واجهها
ج ٢١ (٥) طلحة بن عبيد الله (٦) الزبير بن العوام
ج ٢٢ (٧) سعد بن ابي وقاص (٨) ابو عبيدة بن الجراح
ج ٢٣ (٩) عبد الرحمن بن عوف (١٠) سعيد بن زيد بن عمرو

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية : (٥ أجزاء)

- ج ٢٤ نظرة عامة للقرآن الكريم — طريقة الوحي — نزول القرآن
وتدوينه — أسماء السور وترتيبها — قراءات القرآن — فضائل
القرآن — القرآن والعلم — فضائل قراءة القرآن وحكم
التطريب في أدائه والتكسب به .
ج ٢٥ خصائص القرآن والاصول التي جاء بها لخير الناس في الدنيا
والآخرة — اعجاز القرآن ومظاهر الاعجاز — معجزات
الرسل والمقارنة بينها .
ج ٢٦ غير العرب والاعجاز البلاغي للقرآن — وجوه الاعجاز في
القرآن — مواجهة واقعية بين العرب والقرآن — التكرار
في القرآن : اسراره واعجازه .
ج ٣٤ و ٣٥ (ترقيم مؤقت ، وفي الطبعة الثانية ان شاء الله سيأخذان رقم
٢٧ و ٢٨ وتتسلسل الأرقام بعد ذلك) .
الأخلاق الاسلامية من القرآن الكريم
جمع الايات القرآنية عن الأخلاق ، وتصنيفها ، وشرحها شرحا
ميسرا

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم : (٧ أجزاء)

- ج ٢٧ دراسات عن القصص في القرآن قصة أصحاب الكهف .
ج ٢٨ قصة الرجلين والجنين — قصة ذى القرنين وباجوج
وباجوج .
ج ٢٩ قصة موسى والخضر — قصة أصحاب الجنة .
ج ٣٠ قصة عزيز — قصة ايوب عليه السلام
ج ٣١ قصة قارون — قصة أصحاب الأخدود .
ج ٣٢ قصة اسماعيل عليه السلام .
ج ٣٣ قصة يوسف عليه السلام .

المجموعة الخامسة : الدولة الأموية : تاريخ يحتاج الى انصاف :

(٦ أجزاء)

- ج ٣٦ تاريخ الدولة الأموية : الانحراف في تدوينه ومحاولة انصافه — معاوية الخليفة الأموي الأول : عام الجماعة — الدهاء — الإصلاحات الداخلية — التوسع .
- ج ٣٧ عبد الملك بن مروان :
أحد فقهاء المدينة الأربعة .
البطولة — السياسة — الإصلاحات الداخلية — التوسع
- ج ٣٨ نموذجان فريدان متعاصران :
الوليد بن عبد الملك .
عمر بن عبد العزيز .
- ج ٣٩ التوسع العظيم في العهد الأموي وأهم ميادينه .
- ج ٤٠ الشيعة ومدعو التشيع .
قصة استشهاد الإمام الحسين .
- ج ٤١ جزء عن « من شهداء الاسلام » : حمزة بن عبد المطلب — جعفر بن أبي طالب — عمار بن ياسر — عمر المختار .

المجموعة السادسة : المرأة في ظل الاسلام (١٠ أجزاء)

- ج ٤٢ المرأة في الحضارات القديمة .
المرأة في أوروبا خلال العصر الوسيط .
ماذا قدم الاسلام للمرأة .
- ج ٤٣ المرأة العربية من الجاهلية للإسلام : الخنساء .
- ج ٤٤ سيدات مسلمات : السيدة زينب بنت الإمام علي .
- ج ٤٥ سيدات مسلمات : بنتا الحسين : نفيسة وسكينة .
- ج ٤٦ سيدات مسلمات : عائشة بنت طلحة .
- ج ٤٧ سيدات في البلاط العباسي : الخيزران — زبيدة .
- ج ٤٨ المرأة في الأندلس بين الطب والسياسة والأدب .
- ج ٤٩ سيدات في قصور مصر : ست الملك — شجرة الدر .
- ج ٥٠ زيجات شهيرة في التاريخ الاسلامي : بوران — قطر الندى .
- ج ٥١ الاماء اللاتي تفوقن في الشعر والغناء : سلامة — طل — عريب .

(الأجزاء التالية ستظهر تباعا ان شاء الله)

(لم تدخل أعداد المكتبة الاسلامية ضمن العدد الخاص بكتب المؤلف)

كتب للمؤلف

سادسا : تعليم اللغة العربية لغير العرب

وقواعد اللغة العربية

- برنامج شامل ميسر لتعليم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب .
- أول سلسلة من نوعها في المكتبة العربية تملأ هذا الفراغ .
- دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف .
- تضم هذه السلسلة الكتابين التاليين :

٤٦ — تعليم اللغة العربية لغير العرب : (الطبعة الرابعة)
يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى : مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة ،
التعبير ، نالاملاء ، الخط والنصوص ، ثم يتفرع بالطلب الى مرحلة متقدمة
في القراءة والمحادثة والكتابة ، مستعملا في هذه المرحلة موضوعات جذابة من
الفكر الاسلامي والعربي اختلفت من ايهات الكتب العربية ثم صيغت في اسلوب
مناسب ، مع اسئلة وتمارين مفيدة .

٤٧ — قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها : (الطبعة الرابعة)
عرض لجميع ابواب النحو العربي بطريقة تربوية سهلة
ودراسة واضحة لاهم ابواب الصرف

هذا الكتاب ضروري للمثقف العربي وغير العربي

كتب نفدت ولن يصاد طبعا

- ٤٨ — في تصور الخلفاء العباسيين :
اكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة .
- ٤٩ — مصر في حربين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) دراسة مقارنة :
واكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٩ من هذه القائمة .
- ٥٠ — الحكومة والدولة في الاسلام :
واكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٣ من هذه القائمة .
- ٥١ — الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحي .
- ٥٢ — النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور واثار الفكر الاسلامي فيها (١)
واكثر مادة هذين الكتابين تضمنها الكتاب رقم ١٤ من هذه القائمة .

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
١٧ — ١٩	مقدمة الطبعة الأولى
١٩	في تقديم الطبعة الرابعة
	تعريف بالخلافة العباسية :
	نسب العباسيين ٢٠ — عصور الخلافة العباسية
	اجمالا ٢٠ — أسماء خلفاء بني العباس ٢٢ —
	تسلسل خلفاء بني العباس ٢٥ — ٢٦ .
	خريطة توضح أهم الأمكنة والبلدان التي ورد لها ذكر
٢٧	في هذا الكتاب
	الخلافة العباسية في العصر الأول
	قيام الدولة العباسية والتخطيط له :
	العلويون ودراسة موقفهم ٢٨
	العباسيون ومحور (الحميمة — الكوفة —
	خراسان) ٣٠
	عاملان ساعدتا على نجاح الحركة ٣٣
	الانتصار والتقاء مراكز المحور ٤٤
٤٥ — ٥٢	أبو سلمة الخلال وموقفه من الخلافة العباسية ..
	نهاية بني أمية :
	معركة الزاب ومقتل مروان ٥٣
	يزيد بن عمر بن هبيرة واستسلام واسط ٥٤
	تعريف بخلفاء العصر العباسي الأول :
٦٤ — ٧٤	أبو العباس عبد الله السفاح :
	نشأته وتوليته الخلافة ٦٤ — لقب السفاح ٦٥ —
	من أخلاق السفاح ٦٥ — القضاء على الأمويين
	ونفوذهم ٦٩ — السفاح وولاية العهد ٧٢ —
	الاسلام وفكرة ولاية العهد ٧٣ — وزراء السفاح
	وكبار الرجال في عهده ٧٣ — وفاة السفاح ٧٤ .
٧٥ — ١١٥	أبو جعفر المنصور :

الصفحة

الموضوع

- نشأته وتوليته الخلافة ٧٥ — شخصية المنصور ٧٥ —
 حرص المنصور ٧٧ — المنصور والشراب والندماء ٨٠
 وزراء المنصور وكبار رجال دولته ٨١
 — المنصور وعبد الله بن علي ٨٢ — نهاية عبد الله
 ابن علي ٨٥ — ابن المقفع وصلة الفتك به
 بعبد الله بن علي ٨٩
 — المنصور وأبو مسلم الخراساني ٩٥ — أبو مسلم
 ومحاكمته وقتله ٩٧
 — محاولات الثار لأبي مسلم : سبباذ ١١١ —
 الراوندية ١١٢
 — المنصور وولاية العهد ١١٣ — وفاة المنصور ١١٥

المهدي : ١١٦ — ١٣٠

- نشأته وتوليته الخلافة ١١٦ — بين عهدين ١١٧ —
 اصلاحاته الداخلية ١١٧ — المهدي والعلويون ١١٩ —
 المسعودي واصلاحات المهدي وكرمه ١٢٠ —
 المهدي والندماء والشراب ١٢١ — مزيد من صفات
 المهدي ١٢٢ — وزراء المهدي ١٢٣ — يعقوب بن داود
 ١٢٣ — الفيض بن أبي صالح ١٢٧ — كبار
 الشخصيات في عهد المهدي ١٢٧ — المهدي والمقفع
 الخراساني ١٢٨ — المهدي وولاية العهد ١٢٨ — وفاة
 المهدي ١٢٩ .

الهادي : ١٣١ — ١٤١

- نشأته وتوليته الخلافة ١٣١ — حزم الهادي ويقلته
 ١٣٢ — الهادي والشراب ١٣٤ — وزراء الهادي وكبار
 رجال دولته ١٣٤ — الهادي وولاية العهد ١٣٥ —
 وفاة الهادي ومؤامرة الخيزران للتخلص منه ١٣٦ .

الرشيد : ١٤٢ — ١٦٥

- نشأته وتوليته الخلافة ١٤٢ — شخصية الرشيد
 وأخلاقه ١٤٢ — مظمة الدولة في عهد الرشيد ١٤٦ —
 ترف القصور في عهد الرشيد ١٤٧ — أحداث مهمة في

الموضوع	الصفحة
عهد الرشيد ١٥٤ - ثورة خراسان ١٥٥ - الرشيد وولاية العهد ١٥٦ - وزراء الرشيد وكبار رجال دولته ١٦٤ - نهاية الرشيد ١٦٤ .	
الأمين :	١٦٦ - ١٧٣
نشأته وتوليته الخلافة ١٦٦ - الأمين وولاية العهد ١٦٧ - السفينى ومحاولة احياء الخلافة الأموية ١٦٨ - وزراء الأمين وكبار الرجال في عهده ١٦٨ - شخصية الأمين وأخلاقه ١٦٩ - سيرة الأمين ونقد التاريخ ١٧٢ - نهاية الأمين ١٧٣ .	
المأمون :	١٧٤ - ١٩١
نشأته وتوليته الخلافة ١٧٤ - المشكلات التي صادفها المأمون ١٧٤ - المأمون والطويون ١٧٩ - دول تنشأ في عهد المأمون ١٨٠ - أخلاق المأمون ١٨٠ - محنة خلق القرآن ١٨٢ - وزراء المأمون ١٨٧ - زواج المأمون من بوران ١٨٧ - كبار الرجال في دولة المأمون ١٨٩ - كلمة ختامية عن ولاية العهد في العصر العباسي الأول ١٩٠ - مدى خطورة ولاية العهد لأكثر من واحد ١٩٠ - وفاة المأمون ١٩١	
المعتصم :	١٩٢ - ١٩٧
نشأته وتوليته الخلافة ١٩٢ - المعتصم والترك ١٩٣ العباس بن المأمون وثورته على المعتصم ١٩٦ - وزراء المعتصم ١٩٦ - وفاة المعتصم ١٩٧ .	
الواثق :	١٩٨ - ٢٠٠
نشأته وتوليته الخلافة ١٩٨ - الأتراك بعد المعتصم ١٩٨ - ثورة الجزيرة العربية في عهد الواثق ١٩٩ الواثق ومحمد بن عبد الملك الزيلى ١٩٩ - نكبة الكتاب في عهد الواثق ١٩٩ - صفات الواثق وفاته ٢٠٠	

الصفحة	الموضوع
٢٠٠ — ٢٠٢	الشرايب والمذاهب فيه :
	المشكلات الكبرى التي قابلها العباسيون خلال هذا العصر :
	مقدمة ٢٠٣
	(أ) العلويون ٢٠٤ : — النفس الزكية ٢٠٤ —
	ابراهيم بن عبد الله ٢٠٦ — الحسين بن
	على بن الحسن بن الحسن ٢٠٧ — يحيى
	ابن عبد الله ٢٠٧ — ادريس بن عبد الله ٢٠٨
	محمد الديباج ٢٠٩
	(ب) الخوارج وحركاتهم في هذا العصر ٢١٠ — ٢١٢
	(ج) الزنادقة ٢١٣ — ٢١٦ — الخرمية ٢١٦ — ٢١٧
٢١٨ — ٢٢٧	عواصم الخلافة العباسية في هذا العصر :
	الكوفة ٢١٨ — الحيرة ٢١٨ — الأنبار (الهاشمية)
	٢١٨ — بغداد ٢١٩ — الكرخ ٢٢٤ — الرصافة ٢٢٥
	سامرا ٢٢٥
٢٢٧ — ٢٤٨	النهضة الثقافية :
	مقدمة ٢٢٨
	١ — حركة التصنيف ٢٢٩
	٢ — تنظيم العلوم الاسلامية ٢٣١ — التفسير
	ومولده ونضله عن الحديث ٢٣٢ — الفقه
	ومذاهبه ٢٣٤ — النحو ومدارسه ٢٣٦ —
	التاريخ ومولده ٢٣٩
	٣ — الترجمة من اللغات الأجنبية ٢٤١
	جهود المسلمين في خدمة الحضارة العالمية
	٢٤٥ — ٢٤٨
٢٤٩ — ٢٦١	العلاقات الخارجية :
	الانتدلس ٢٤٩ — الادارسة والاقالبة والطاهرية
	والزيادية ٢٥٠ — بين المسلمين والبيزنطيين ٢٥٠ —
	الصوائف والقنواطي ٢٥٢ — العواصم والثغور
	٢٥٤ — أحداث عهد المهدي والرشد والمعتصم ٢٥٥

الموضوع	الصفحة
مشاهير وزراء العصر :	٢٦٢ — ٢٢٠
تقديم :	
١ — قلق العباسيين يجعلهم يأخذون الناس بالشبهة ٢٦٢	
٢ — الربيع بن يونس وابنه الفضل يدبران المؤامرات ٢٦٣	
أبو أيوب المورياني	٢٦٤ — ٢٧١
أبو عبيد الله معاوية بن يسار	٢٧٢ — ٢٧٧
البرامكة : مكانتهم ونكبتهم والحديث عن أساليبها	٢٧٧ — ٣٠٥
الفضل بن الربيع وموقفه بين الأمين والمأمون ..	٣٠٦ — ٣١٩
الفضل بن سهل	٣١٩ — ٣٣٠
رحلة تاريخية ٣٢٧ — المأمون وحرمة الدم ٣٢٨	
دراسة نفسية عن مركز القاهر الذي مثله الربيع وابنه : ..	٣٣١ — ٢٨٤
رأى Adler في تكوين مركب النقص ..	٣٣٢
Hadfield والطفولة ..	٣٣٤
الربيع بن يونس وابنه الفضل في ضوء الدراسات النفسية ..	٣٣٦
دراسة مقارنة بين آل الربيع وأتراب آل الربيع :	٣٣٩
الاحتد ٣٣٩ — تذكير الملوك بذمام متقدم ٣٤٣ — قيادة الجيوش وفنون الحرب ٣٤٦ — شئون السياسة والإدارة ٣٥١ — البلاغة والأدب ٣٥٧ — الكرم ٣٦٤	
صورة أخرى من السجايا ٣٨٢ — نتيجة الدراسة ٣٨٥	
الخلافة العباسية بعد العصر العباسي الأول :	
مقدمة عن الصراع بين العباسيين والفرس وكيف أنه أضعف الجبهتين وخلق قوى تحكم في الخلافة ..	٢٨٧
الأثر :	٣٩٢ — ٤٠٥
نشأتهم ..	٣٩٢
الأثر بعد المعتصم ..	٣٩٤
نهاية الخلفاء في هذا العصر والعصر الذي يليه ..	٣٩٦
مشاهير وزراء هذا العصر ..	٣٩٦

أهم الأحداث في هذا العصر :

- (١) صحوۃ الخلافة ٣٩٨ — (٢) ثورة الزنج
٣٩٩ — (٣) منصب أمير الأمراء ٤٠٠ —
(٤) الدول التي استقلت خلال هذا العصر ٤٠٣
(٥) زواج المعتضد بالله من قطر الندى ٤٠٤

٤١٧ — ٤٠٦	بنو بويه :
٤٠٦	نشأتهم
٤١١	فروع بني بويه
٤١٢	مشاهير وزراء هذا العصر
	أهم أحداث هذا العصر :

- (١) بغداد وشيراز ٤١٤ — (٢) اخوان
الصفاء ٤١٤ — (٣) الدول التي استقلت في هذا
العهد ٤١٤ — (٤) الخلاف المذهبي ٤١٥

٤٤٤ — ٤٢٦	السلجقة :
٤١٨	نشأة السلجقة
٤٢٠	السلجقة في بغداد
٤٢١	مشكلة البساسيري
٤٢٢	العلاقة بين الخلفاء وسلطين السلجقة
٤٢٣	العاصمة العينية والعاصمة السياسية
٤٢٣	مشاهير الوزراء في هذا العهد
٤٢٦	فروع السلجقة
٤٢٧	تدهور السلجقة
	أهم أحداث هذا العصر :

- (١) تبادل الزواج بين السلجقة وبينى العباس
٤٢٩ (٢) فتح آسيا الصغرى ونتائجه ٤٣٠
(٣) الحشاشون ٤٣١ (٤) الدول التي نشأت
على انقاض السلجقة ٤٣٤ (٥) العمارة في
العهد السلجوقي ٤٣٤ (٦) النهضة الفكرية في
عهد السلجقة ٤٣٥

٤٤١ — ٤٣٧	مراجع الكتاب
٤٤٢	نهرس الاعلام
٤٥٢	نهرس الامكنة والبلدان

مقدمة الطبعة الأولى

باسم الله العلي العظيم أقدم هذا الجزء من موسوعة « التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية » • وفي هذا الجزء نتحدث عن الدولة العباسية ، وهي دولة — كما يقول ابن طباطبا (١) — كثيرة المحاسن ، جمة المكارم ، أسواق العلوم فيها قائمة ، وبضائع الآداب فيها نافقة ، وشعائر الدين فيها معظمة ، والخيرات فيها دائرة ، والدنيا عامرة ، والحرقات مرعية ، والثغور محصنة ، وما زالت على ذلك حتى أواخر أيامها ، فانتشر الشر ، واضطرب الأمر •

وقد خُصَّص أكثر هذا الجزء للعصر العباسي الأول ودور المسلمين خلاله في خدمة الثقافة الإسلامية والعالمية ، وهذا العصر يعتبر في المجال الثقافي والعلمي قمة بين عصور التاريخ الإسلامي ، فقد حدث فيه حادثان عظيمان يرتبطان بالعلوم والمعارف ، وهذان الحادثان هما :

أولاً — تدوين العلوم الإسلامية :

يعتبر هذا العصر عصر تدوين العلوم الإسلامية كما سترى فيما بعد ، ففيه ظهر أئمة الفقه ، وأئمة النحو ، والمؤرخون ، والمفسرون ، وعلماء مقارنة الأديان وبدأ هؤلاء يدونون العلوم الإسلامية ، وكانت العلوم قبل هذا العصر تعتمد على الرواية غالباً ، ولم يتم تدوين يذكر قبل هذا العصر •

ثانياً — الترجمة للغة العربية :

شهد هذا العصر الترجمة للغة العربية من اللغات المتعددة التي ارتبطت بالعالم الإسلامي فلقد بدأ المسلمون خلاله يتصلون بالثقافات الأجنبية من فارسية وهندية ويونانية ، وترجموا أهم الأبحاث إلى اللغة العربية ، وكثيراً

(١) الفخرى في الاداب السلطانية والدول الإسلامية ص ١٢٨ •

ما ضاعت الأصول المترجمة بعد ذلك ، ولم يبق إلا اللغة العربية حارسا لهذه الثقافات العالمية ، ولم يكتف المسلمون بالترجمة بل أضافوا إليها ، وانتقدوا ، وابتكروا ، وانتقلت ثقافتهم الى الغرب عن طريق أسبانيا وصقلية فكانت من أهم الأسباب للنهضة الأوروبية كما سنوضح ذلك فيما بعد ،

فاذا كان عصر الخلفاء الراشدين وعصر بنى أمية وسعيا محيط العالم الاسلامي ونشرا به أفانين الفكر الاسلامي ومبادئه وتشريعاته ، فان العصر العباسي الأول أضاف الثقافة العالمية ، ورفع مشعل الترجمة ، وجعل العالم الاسلامي مركز النور والمعرفة للعالم كله بحفظه تراث الانسانية وكان هذا التراث على وشك أن يفنى -

وسنسیر فی دراسة أحداث هذا العصر على النهج الذى رسمناه واتبعناه فى الجزأين السابقين ، أى دراسة الأفكار التى تعنى بموضوع واحد مجمعة تحت عنوان يشملها ، فالنهضة الثقافية نتكلم عنها كوحدة متصلة وتتبعها فى عصور خلفاء هذا العصر ، والعلاقات الخارجية نخصها بحدیث يشملها فى العصر العباسي الأول كله ، وكذلك نعمل لتصوير نشاط الشيعة والخوارج ، وغير هذه من الموضوعات ، ونحن بهذا نختلف عن جمهور الباحثين الذين تعودوا أن يتكلموا عن الأحداث التى وقعت فى عهد المنصور ثم عن الأحداث التى وقعت فى عهد المهدي فالهادي فالرشيد . . . لأن ذلك فيما أرى تمزيق للفكرة وتركيز لكل نشاط الدولة فى شخص الخليفة ، وهو ما لا ترتضيه المدرسة التاريخية التى نعتق اتجاهها .

وبعد العصر العباسي الأول سنذكر العصور العباسية الأخرى بإيجاز ، تاركين التفاصيل عنها الى الأجزاء التالية التى خصصت للقطاعات الجغرافية ، حيث سنتبع تاريخ الدول التى كانت تابعة

للخلافة العباسية ثم انفصلت عنها بعد العصر الأول ، وسنذكر تاريخ هذه المناطق من مطلع الاسلام حتى الآن •

والله المسئول أن يلهمنا التوفيق ويجعل هذا العمل خالصاً لوجه الكريم •

المعادي في أول أبريل سنة ١٩٦٢ •

دكتور أحمد شلبي

في تقديم الطبعة الثامنة

في تقديم الطبعة الثامنة لهذا الجزء أتجه الى الله واهب التوفيق شاكرًا فضله ، والى القراء معترًا بإقبالهم ، وأدعو الله أن يمنحني مزيداً من العون ومزيداً من التوفيق لأقدم للقراء ما يكافئ إقبالهم وتشجيعهم ، ومن الطبيعي أنني أدخِل على كل طبعة جديدة تحسيناتٍ واسعة تجعل الفكرة أقرب للتناول ، والفترة التاريخية التي ندرسها أكثر وضوحاً •

والله ولي التوفيق ،،

المعادي في الثالث من يوليو سنة ١٩٨٥ •

المؤلف

تعريف بالخلافة العباسية

نسب العباسيين :

تنسب الخلافة العباسية الى العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ،
فمؤسس دولة بنى العباس هو عبد الله (السفاح) بن محمد بن علي بن
عبد الله ابن العباس ، ويعتبر قيامها انتصار الفكرة التي نادى بها بنو هاشم
عقب وفاة الرسول بإسناد الخلافة الى أهل الرسول ، وذويه ، وقد
هزمت هذه الفكرة في مطلع الاسلام وانتحر التفكير الاسلامي
الصحيح وهو أن الخلافة ملك للمسلمين يولون على أنفسهم من يشاءون ،
ولكن الفرس الذين كانوا يدينون بمبدأ الحق الإلهي المقدس ظلوا يعملون
لنشر مبادئهم ، حتى استطاعوا أن يأتوا ببني هاشم الى الخلافة •

وكان العلويون أقرب الى الرسول في نظر الجماهير لمكانة فاطمة من
أبيها ، ولمكانة علي من ابن عمه وصهره ، ثم لمكانته هو في الاسلام
سبقا وكفاحا ، ولكن العباسيين بعد أن نالوا السلطان أذاعوا أنهم أحق
بني هاشم بميراث الرسول لأن جدتهم عم الرسول ولا ينحدر الميراث الى
ابن العم مع وجود العم ، وليس لأولاد البنات ميراث مع وجود العصبية ،
وقد قال شاعرهم في ذلك :

أننى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثه الأجداد

عصور الخلافة العباسية إجمالا :

استمرت الخلافة العباسية من سنة ١٣٢ هـ الى سنة ٦٥٦ هـ فمدتها
٥٢٤ سنة ، وفي سنة ٦٥٦ زحف التتار على العالم الاسلامي وقتلوا الخليفة
وكثيرين من أهله ، وأعلنوا نهاية الخلافة العباسية •

والمدة الطويلة التي قضاها بنو العباس في منصب الخلافة لم تكن
بطبيعة الحال على نمط واحد من ناحية مدى سلطة الخلفاء ، وإتقانها

تفاوتت هذه السلطة ، مما جعل المؤرخين يقسمون مدة الخلافة العباسية الى عصور ، وقد اختلفت وجهات نظر المؤرخين في اتجاه التقسيم وسببه ، والذي نراه أن نقسم مدة الخلافة العباسية الى عصور ثلاثة تختلف ملامح كل عصر منها عن سواه ، وهذه العصور هي :

العصر الأول (١٣٢ — ٢٣٢ هـ) وكانت السلطة خلاله في أيدي الخلفاء

العصر الثاني (٢٣٢ — ٥٩٠ هـ) وقد ضاعت السلطة خلاله من أيدي الخلفاء .

العصر الثالث (٥٩٠ — ٦٥٦ هـ) وفيه عادت السلطة الى أيدي الخلفاء ولكن في بغداد وما حولها أي في منطقة صغيرة من العالم الإسلامي .
وستنكلم فيما يلي عن كل من هذه العصور بشيء من التفصيل .

العصر الأول (١٣٢ — ٢٣٢ هـ) :

كانت السلطة خلال هذا العصر في أيدي الخلفاء على جميع المملكة الإسلامية عدا الأندلس ، وكان خلفاء هذا العهد أبطالاً ، يقوون الجيوش ويخوضون الوغى ، وكان أكثرهم علماء يجيدون الفتياء ويجتهدون ، ويحبون العلم ويقربون ذويهم ، وبهزون أعواد المنابر ، وفي هذا الجزء حديث مستفيض عن تاريخ هذا العصر .

العصر الثاني (٢٣٢ — ٥٩٠ هـ) :

في هذا العصر ضاعت السلطة السياسية من أيدي الخلفاء ، وانتقلت الى القوى الآتية :

(١) الأتراك (٢٣٢ — ٣٣٤ هـ) فيما عدا فترة صحت فيها الخلافة على يد الموفق إبان خلافة أخيه المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) ثم على يد المعتضد بن الموفق إبان خلافة المعتمد وخلافة المعتضد نفسه بعد عمه (٢٧٩ — ٣٨٩ هـ) .

(ب) البويهيين (٣٣٤ — ٤٤٧ هـ) •

(ح) السلاجقة (٤٤٧ — ٥٩٠ هـ) •

العصر الثالث (٥٩٠ — ٦٥٦ هـ) :

عندما ضعف سلاطين السلاجقة أخذت دولتهم في الانحلال والتفكك ، فقام بها حكام كثيرون عثر فوا بالشاهات والأتابك ، واستقل كل منهم بجزء من مملكة السلاجقة ، فانتهاز الخليفة (الناصر سنة ٥٩٠ هـ) هذه الفرصة وأعلن استقلاله ببغداد وما حولها ، وظل الخليفة ومن بعده أولاده يستمتعون باستقلال كامل في هذه المنطقة الصغيرة حتى دهم التتار بقيادة هولاكو العالم الإسلامي وهدموا بغداد وقتلوا الخليفة وأنهوا خلافة بنى العباس سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) •

وستحدث في الأجزاء التالية من هذه الموسوعة إن شاء الله عن الدول الإسلامية التي كانت مرتبطة بالخلافة العباسية ، أو تلك التي لم ترتبط بها ، وسيمتد حديثنا عن هذه الدول من أول علاقتها بالاسلام حتى العهد الحاضر ، وسنتبع القطاعات الجغرافية تبعا لخطة البحث التي أثبتناها في مطلع هذا الكتاب •

أسماء خلفاء بنى العباس :

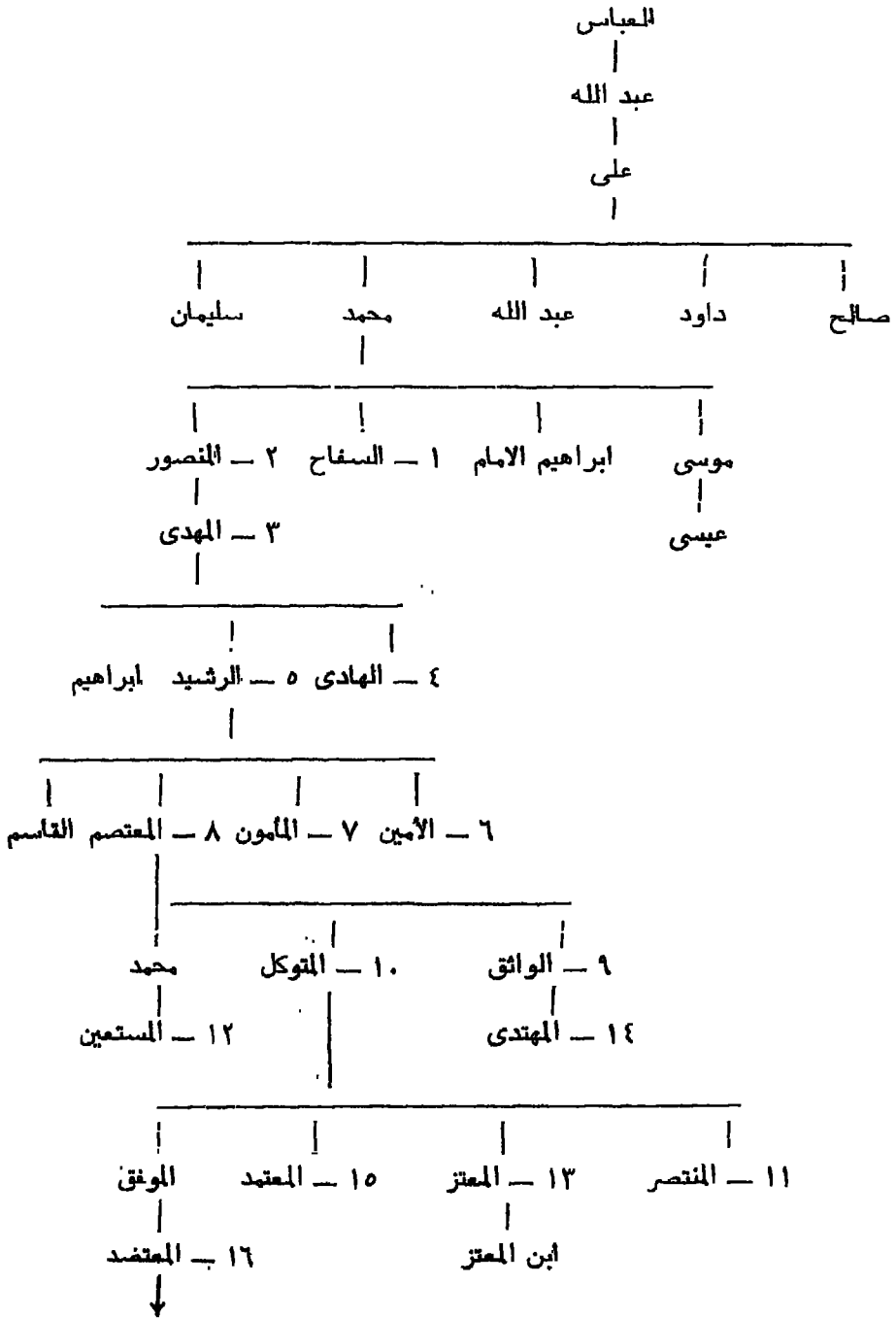
وفيما يلي قائمة بأسماء خلفاء بنى العباس وبدء خلافة كل منهم :

- ١ — أبو العباس السفاح ١٣٢ هـ
- ٢ — أبو جعفر المنصور ١٣٦ هـ
- ٣ — أبو عبد الله محمد المهدي بن المنصور ١٥٨ هـ
- ٤ — أبو محمد موسى الهادي ١٦٩ هـ
- ٥ — أبو جعفر هارون الرشيد ١٧٠ هـ
- ٦ — أبو موسى محمد الأمين ١٩٣ هـ

- ٧ — أبو جعفر عبد الله المأمون هـ ١٩٨
٨ — أبو إسحق محمد المعتصم هـ ٢١٨
٩ — أبو جعفر هارون الواثق هـ ٢٢٧
١٠ — أبو الفضل جعفر المتوكل هـ ٢٣٢
١١ — أبو جعفر محمد المنتصر هـ ٢٤٧
١٢ — أبو العباس أحمد المستعين هـ ٢٤٨
١٣ — أبو عبد الله محمد المعتز هـ ٢٥٢
١٤ — أبو إسحق محمد المهتدى هـ ٢٥٥
١٥ — أبو العباس أحمد المعتمد هـ ٢٥٦
١٦ — أبو العباس أحمد المعتضد هـ ٢٧٩
١٧ — أبو محمد علي المكتفى هـ ٢٨٩
١٨ — أبو الفضل جعفر المقتدر هـ ٢٩٥
١٩ — أبو منصور محمد القاهر هـ ٣٢٠
٢٠ — أبو العباس أحمد الراضى هـ ٣٢٢
٢١ — أبو إسحق إبراهيم المتقى هـ ٣٢٩
٢٢ — أبو القاسم عبد الله المستكفى هـ ٣٣٣
٢٣ — أبو القاسم الفضل المطيع هـ ٣٣٤
٢٤ — أبو الفضل عبد الكريم الطائع هـ ٣٦٢
٢٥ — أبو العباس أحمد القادر هـ ٣٨١
٢٦ — أبو جعفر عبد الله القائم هـ ٤٢٢
٢٧ — أبو القاسم عبد الله المقتدى هـ ٤٦٧
٢٨ — أبو العباس أحمد المستظهر هـ ٤٨٧
٢٩ — أبو منصور الفضل المسترشد هـ ٥١٢

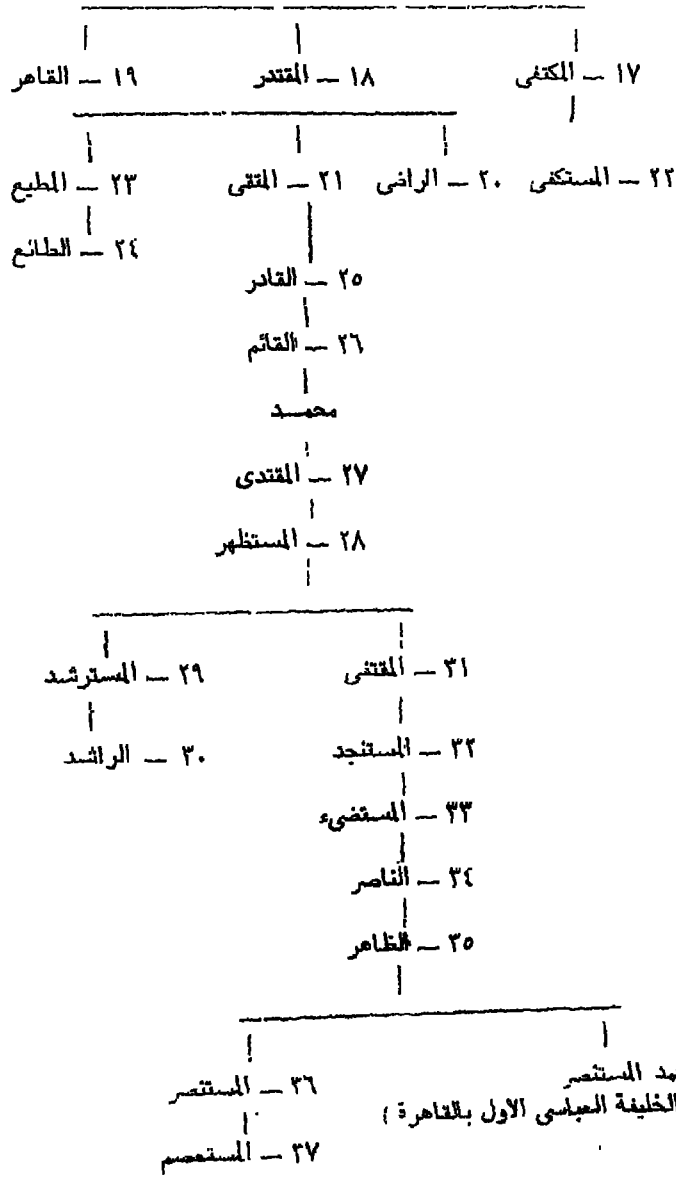
- ٣٠— أبو جعفر المنصور الراشد هـ ٥٢٩
٣١— أبو عبد الله محمد المقتدى هـ ٥٣٠
٣٢— أبو المظفر المستنجد هـ ٥٥٥
٣٣— أبو محمد الحسن المستضيء هـ ٥٦٦
٣٤— أبو العباس أحمد الناصر هـ ٥٧٥
٣٥— أبو نصر محمد الظاهر هـ ٦٢٢
٣٦— أبو جعفر المنصور المستنصر هـ ٦٢٣
٣٧— أبو أحمد عبد الله المستعصم هـ ٦٤٠ هـ ٦٥٦

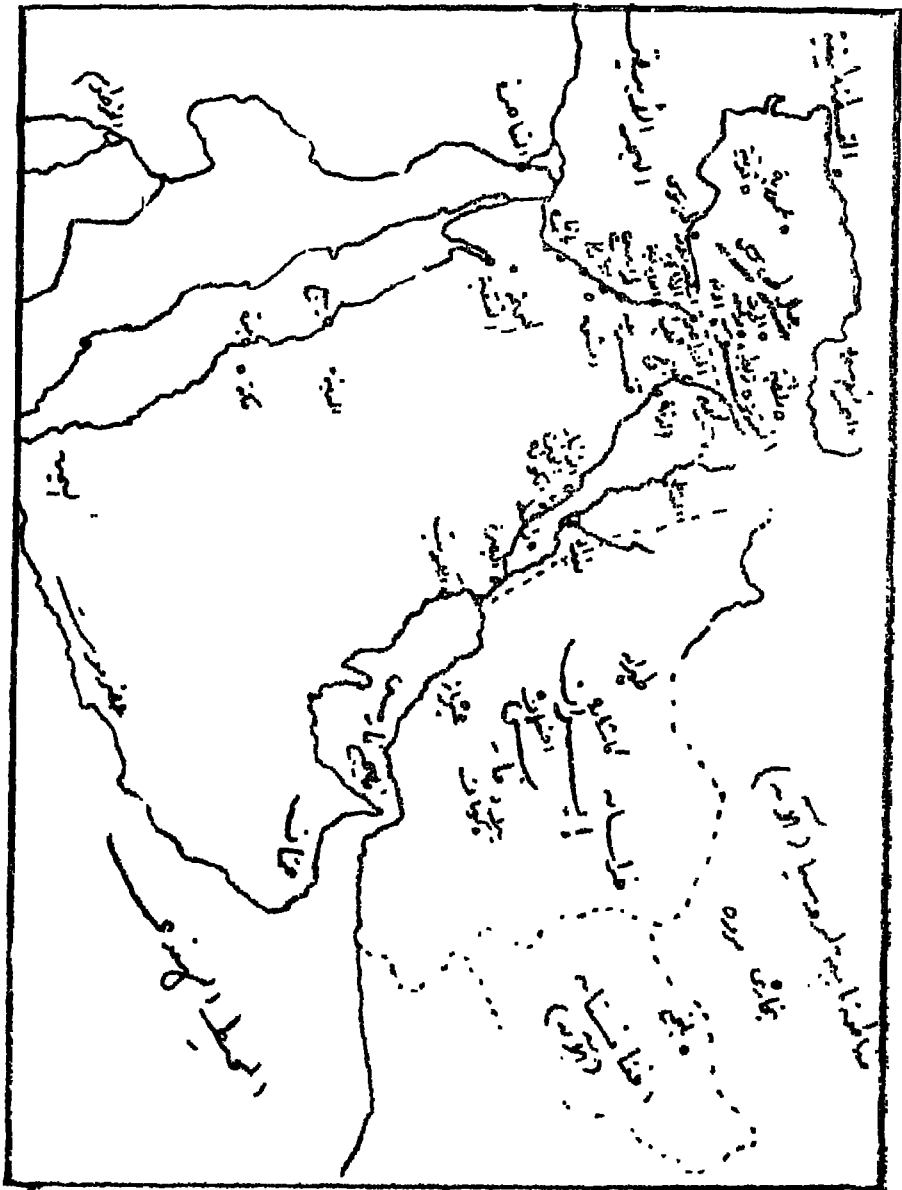
تسلسل خلفاء بني العباس



(تابع) تسلسل خلفاء بني العباس

١٦ - المعتضد





نحو هذه الخريطة أم الأسماء والبيانات التي ورد لها ذكر في هذا الكتاب

الخلافة العباسية في العصر الأول

قيام الدولة العباسية

والتخطيط له

حتى أوائل سنة ١٣٢هـ لم تكن قد ظهرت الكلمتان «العباسيون» و «العلويون» في أفق التاريخ ظهوراً واضحاً ، بل كان هناك تعبير يشمل هؤلاء وأولئك ، ذلك هو « بنو هاشم » أو « الهاشميون » أو « آل البيت » ، وكان هؤلاء يكافحون معاً ، ويناوئون بنى أمية متساندين ، رجاء أن ينتزعوا لأنفسهم الخلافة التي اعتقدوا أنها حق لهم اغتصبه الأمويون .

ولكان العنصران اللذان يتكوّن منهما « الهاشميون » يختلفان اختلافاً بيّناً ؛ فالعلويين فيهم طيبة وصفاء يعتقدون أن الخلافة حقهم ، وأن الناس جميعاً يسعون ليردوها إليهم ، وأما العباسيون فكان فيهم دهاء وسياسة ؛ ولقد وقف العلويين مدة طويلة في قمة الزعامة من بنى هاشم وهب زعماء بنى هاشم من العلويين في وجه بنى أمية عدة مرات وناوخوا سلطانهم ، ولكن الأمويين كانوا يضربون هذه الحركات ضربات قاسية ، ويقضون على زعمائها ، ومن ضحايا العلويين يبرز الحسين بن علي وحفيده زيد ثم يحيى بن زيد ، ولم يكتف الأمويون بقتل زيد وابنه يحيى بل مثلوا بجثثيهما ، وأحرقوهما حتى صارتا رمادا تنوره الرياح . وفي الجزء السابق من هذه الموسوعة تفصيل هذه الأحداث .

وبالإضافة إلى ما خسره معسكر العلويين من ضاحيا ، وعدم توافر الدماء السياسي فيهم ، نجد أن معسكر العلويين تنتشر فيه للخلافات حول الزعامة ، كما يكثر به انشقاق الأتباع على هؤلاء الزعماء ، انشقاقاً أدّى إلى قيام فرق كثيرة خرجت من أصل واحد ، كان قبلاً مرهوب الجانب ، عزيز

السلطان ، فقد ظهر الخلاف في صفوف بنى على منذ عهدهم المبكر ، فبعد استشهاد الحسين في موقعه كربلاء غير المتكافئة ، اختلف العلويون في قضية الإمامة ، هل تنتقل بعده إلى أخيه محمد بن على وهو ابن الحنفية (١) وليس بابن فاطمة ، أم إلى على زين العابدين بن الحسين ؟ ويصف التاريخ محمداً هذا بأنه أقوى من الحسن والحسين خلقاً ، وله حزب قسوى^٢ يظهره ويقدمه للإمامة وهم الكيسانية ... وهؤلاء يعتقدون أن الأئمة أربعة ، وهم على وبنوه الثلاثة ، الحسن والحسين ومحمد (٣) .

وقال كثيّر عزة في ذلك :

ألا إن الأئمة من قریش	ولاة الحق أربعة سواء
على ^٣ والثلاثة من بنيہ	هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر	وسبط غيبتہ كربلاء
وسبط لا تراه العين حتى	يقود الخيل يتبعها اللواء
تغيّب لا يترى فيهم زماناً	برضوى عنده غسل وماء (٣)

... وهكذا انقسم العلويون بعد مصرع الحسين قسمين : قسم اتبع محمد بن على وقسم مال إلى على زين العابدين ، وكان مما أضعف شوكة القسم الثاني جنوح زين العابدين إلى اليهود ومسامتته للأمويين ، وبعد موت على زين العابدين انقسم أتباعه قسمين مع ولديه محمد الباقر وزيد ، كما كان في أولاد الحسن بن على من ينافس أولاد عمهم الحسين في طلب ذلك الأمر ، وعلى هذا أصبح معسكر العلويين كثير الزعماء ، مختلف الآراء ، وكان من أقوى جماعات العلويين هذه الجماعة التي دانت بالولاء لحمد ابن الحنفية ، ثم لابنه أبي هاشم من بعده :

(١) أمه خولة بنت جعفر بن قيس من بنى حنيفة .

(٢) دوايت دونلدش : عقيدة الشيعة ص ١١٣ .

(٣) الأغاني ج ٨ ص ٣١ .

محور (الحميمة — الكوفة — خراسان) :

وهناك مركز هاشمي آخر كان يعمل أيضاً ليثير السخط على الأمويين ، وليقوض عرشهم ، وله إدارة تمتاز بالدقة والكياسة والفطنة والدهاء ، ذلك المركز هو « الحميمة » ، وكان يستغل ضحايا العلويين ولحماءهم وهو يهدم البيت الأموي الحاكم ويعمل على أن تتداعى دعائمه ، وتنهيار أركانه ...

ومن الحميمة خرج الفرع الهاشمي الذي أطلق عليه فيما بعد « العباسيون » ومن هنا لزم أن نمحه مزيداً من العناية والإيضاح :

كان علي بن عبد الله بن العباس مسالماً للأمويين وصديقاً لهم ، لا يطلب شيئاً لنفسه ، وكان يميل إلى الزهد والعبادة ، وقد أقطعه الوليد ابن عبد الملك بلدة الحميمة من أرض الشام ، بالقرب من دمشق ، فانتقل لها من الحجاز ، وأقام بها هو وأسرته ؛ ولم يكن موقع الحميمة ، ولا أخلاق علي بن عبد الله بن العباس ، مما يوحى بأن الحميمة تعمل جاهدة لقلب نظام الحكم ، ونقلت السلطان من أسرة إلى أسرة ، ولذلك لم يحفل الأمويون كثيراً بمراقبتها ، واقامة الأرصاد حولها ؛ وكانت الحميمة في المواقع ساكنة هادئة ، كما كان علي بن عبد الله جديراً بالثقة التي أولاها له الأمويون ، أما محور النشاط والحركة والفكر ؛ فكان محمداً ابنه الذي عرف بأنه راجع العقل ، كثير الفطنة ، كبير الطموح ؛ وقد انتفع بحوادث التاريخ ، فرأى ما يلي :

١ — أن الفشل الخريع كان دائماً نصيب العلويين ، لأنهم يسيرون خلف إمام معين ، فإذا قُتل هذا الإمام أو مات ، خلف فراغاً وفرقة .

٢ — تعود العلويون أن يهبوا فجأة في وجه الأمويين مطالبين بالخلافة .

٣ — رأى محمد بن علي أن أتباع العلويين طالما تخلوا عنهم في أثناء المعركة لعدم تعمق الفكرة في نفوسهم .

٤ — ورأى كذلك أن البلاد الإسلامية ليست سواء في الاستجابة لدعوة الهاشميين •

وانتهى محمد بن علي من دراسته وتفكيره إلى وضع الأسس الآتية ليسير عليها ففيها علاج لما وقع فيه العلويون من أخطاء •

أولاً : أن تكون الدعوة للرضا من آل محمد ، — أي من يُختار للخلافة من آل محمد عقب انتصار الدعوة الهاشمية — وهو بهذا لا يغضب أولاد عمه من العلويين ، ثم هو لا يربط الدعوة بفرد معين ، حتى لا تضعف إذا مات أو اغتيل ، بل تظل الدعوة في طريقها إلى الأمام ، وإن قتل فرد أو أفراد من الزعماء أو الأتباع ، وكانت الجماهير تعتقد أن « الرضا من آل محمد » علوي ، كما كان العلويون يعتقدون ذلك ، وعلى هذا كان ظاهر الحركات للعلويين وكانت بواطنها وإدارة شئونها وإهدادها بالدهاء والتوجيه يسيطر عليه العباسيون •

ثانياً : ألا يقوم الهاشميون بثورة لقلب نظام الحكم قبل أن يمهّدوا لها ويُعِدُّوا العدة لقيامها ؛ بإثارة الناس ضد الحكم القائم الغاشم وتهيئة النفوس للدعوة الجديدة •

ثالثاً : يكون محور (الحميمة — الكوفة — خراسان) فتكون الحميمة مكان التدبير والتنظيم ، وتكون الكوفة نقطة الاتصال يلتقى فيها الذين يحملون الأوامر والتوجيهات من الحميمة ، مع الدعاة الذين عادوا من خراسان لينقلوا إلى القادة نتائج كفاحهم « وليتلقوا التعليمات الجديدة ، أما مقر العمل فليكن خراسان ، وهو اختيار ناجح كل النجاح ، لكل مركز من مراكز هذا المحور :

فالحميمة تقع في أحضان دمشق كما سبق القول ، مما يوحي بأنها

لا يمكن أن تتخذ مكاناً لمثل هذه الحركات • وهى بالإضافة إلى ذلك قرية صغيرة ، قليلة الاتصال بالقرى والمدن •

والكوفة فى منتصف الطريق ، تتجمع بها العناصر الموالية لآل البيت منذ اتخذها على عاصمة له ، وهى فى عدااء سافر مع بنى أمية ، وتعدت نفسها خصيمة دمشق ومنافستها كعاصمة للعالم الإسلامى •

وفى خراسان ميزات واضحة لاحتضان الدعوة الجديدة وتمييزها وإنجاحها ، فهى تدعى بالوراثة فى السلطان أى بنظرية الحق الملكى المقدس كما يسميها المحدثون من الباحثين *The Divine Rights* ، وهى كذلك تريد أن تتأثر لكرامتها وسلطانها التليد الذى حطمه الأمويون ، وتسعى جاهدة فى استعادة مجدها السالف بعد أن صيرهم الأمويون موالى لا يرقون إلى رتبة العرب الذين كانوا إلى عهد قريب أقل منهم مستوى وأحط ثقافة •

ثم كان بعد خراسان عن مركز الخلافة بدمشق عاملاً مهماً من العوامل إلى أدت كذلك إلى اختيارها كمركز للعمل والنشاط ، وأخيراً كانت هناك الانقسامات القبلية التى سادت خراسان والتى استغلها الدعاة ، وهم ينشرون الفكر الجديد •

ولقد وصف محمد بن على بن عبد الله لدعاته الولايات الإسلامية وميولها وصفاً دقيقاً فى العبارة التالية :

أما الكوفة وسوادها فشيعة على ولده ، أما البصرة وسوادها فعثمانية تدعى بالكف ، تقول : كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل ، وأما الجزيرة فحرورية مارقة ، ومسلمون فى أخلاق النصارى ، وأما أهل الشام فليسوا يعرفون إلا آل أبى سفيان وطاعة بنى أمية ، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبوا بكر وعمر ، ولكن عليكم بخراسان فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر ، وهناك صحور سليمة وقلوب فارغة

لم تنقسمها للأهواء ولم تتوزعها النحل • وهم جند لهم أبدان وأجسام
ومناكب وكواهل وأصوات هائلة • • • وبعد فانى أتفان الى المشرق والى
مطلع سراج الدنيا مصباح الخلق (١) •

عاملان ساعدا على نجاح الحركة :

وقبل أن نسير فى وصف الحركة ، يجدر بنا أن نقرر أن عاملين كبيرى
الأهمية حدثا حوالى التقاء القرن الأول الهجرى والقرن الثانى ، وكان لهما
أثر حسن فى بدء حركة النضال بدءاً قوياً من جهة ، وفى تقوية جانب
الحمية من جهة أخرى •

العامل الأول : هو خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) التى
أشاعت العدالة وملأت النفوس اطمئناناً • وهيات للمعارضة أن تتكلم
دون خوف من إراقة الدماء أو إزهاق الأرواح •

العامل الثانى : هو أن أبا هاشم بن محمد بن الحنفية زعيم طائفة
الكيسانية أبرز الفرق العلوية المناضلة للأمويين ، قصد دمشق وأفدأ على
الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك فبرمه هشام ووصله ، ثم رأى من
فصاحته وسمو مكانته وعلمه ما حسده عليه وخوفه منه ، فيقال أنه بعث
إليه وهو فى طريقه إلى المدينة من وضع له السم فى لبن ، فلما أحس
بالألم عدل إلى على بن عبد الله بن العباس بالحمية فأعلمه أنه ميت ،
وأوصى إليه ، وكان فى صحبتة جماعة من الشيعة فسلمهم إليه وأوصاه
بهم ثم مات (٢) •

وليس الذى يهمنا فقط أن الحمية كسبت عدداً من المناضلين لينضموا

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ٢٩٢ — ٢٩٤ •
(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠١ •

إلى صفوف رجالها ، وليكونوا هم وأتباعهم الكثيرون في خراسان والعراق قوة يعتمد عليها زعماء الحميمة ، بل الذي يهمهم فوق ذلك هو أن الجانب العملي والسلطة الفعلية التي كانت للحميمة مركزها ، قد قويت بإضافة الجانب النظري إليها ، فقد أصبح زعماء الحميمة وارثين لعلی بن أبی طالب ، بالإضافة إلى حقهم بوصفهم ورثة للعباس بن عبد المطلب •

والآن بعد أن تعرفنا على مكانة كل مركز من مراكز هذا المحور ، نستطيع أن نتتبع الدور الذي قام به كل منها في تاريخ الدعوة العباسية :

الحميمة :

كانت للحميمة تبدو هادئة كما قلنا ، فأمرأء العباسيين يعكفون في المساجد ، ويتخذون الصلاة والتقوى أبرز مظاهرهم ، وهم يديرون الدعوة عن طريق أتباعهم بالكوفة وخراسان ، وقد بدأ زعماء الحميمة دعوتهم في مطلع القرن الهجري الثاني بتعيين الدعاة والنقباء ، وتنظيم العمل لهم ، ويسمى هذا الدور بالدور السري للدعوة ، وقد ظل من سنة ١٠٠هـ إلى سنة ١٢٧هـ ثم جاء بعده دور العمل والجهر ، وقد بدأ سنة ١٢٧هـ عندما أرسلت الحميمة أبا مسلم للخراساني إلى خراسان ليقود المناضلين من أهل خراسان ضد الأمويين •

وقد سار محمد بن عبد الله بن العباس يدبر الأمر بالحميمة ، ويرسل الدعاة ويعين النقباء ، ويشرف منها على سير الأمور بالكوفة وعلى ما يدور بخراسان ، وتوفي أبوه علی بن عبد الله سنة ١١٧هـ فلم تتغير وفاته من الأمر شيئاً ، فقد سبق القول بأنه كان زاهداً بعيداً عن متاعب السياسة والكفاح ، ولذلك ظل محمد دعواً على العمل ، دون أن يثير حوله شك الأمويين أو تفوح لهم منه شبهة ، وفي سنة ١٢٥هـ توفي محمد بن علی بعد أن عهد إلى ابنه إبراهيم بالأمر ، وكانت الدعوة تسير قدماً • وتنتقل من نجاح إلى نجاح • وتولى مروان بن محمد عرش الخلافة

الأبمية عقب ذلك ، ولكنه أحس أن الدنيا تنتفض عليه ، وأن عرشه يهتز من تحته ، وأن خراسان على وجه الخصوص تضطرب ، وقد فقد سلطانه عليها ، فحاول جاهداً أن يعرف من الرأس المدبر ، وباسم من تقوم هذه الحركة العاتية الطاغية ، ولكنه فشل ، فكل شيء كان محكم للتدبير متين الحبك ، ولم يظهر له الأمر إلا بعد فوات الأوان ، يحكى المسعودي ^(١) أن بعض أصحاب مروان ، ممن وكل بالطرق ، أحضروا بين يديه رسولا من خراسان يحمل كتابا من أبي مسلم الخراساني الى ابراهيم الإمام ^(٢) يخبره فيه خبره ، وما آل اليه أمره . فقال مروان للرسول : لا تترع . . . كم دفع لك صاحبك ؟ قال : كذا وكذا ؛ قال : فهذه عشرة آلاف درهم لك ، وانما دفع اليك شيئا يسيرا ، والامض بهذا الكتاب الى ابراهيم ، ولا تعلمه بشيء مما جرى ، وخذ جوابه فأتني به ، ففعل الرسول ذلك : فتأمل مروان جواب ابراهيم إلى أبي مسلم بخطه ، يأمره فيه بالجلد والاجتهاد والحيلة على عدوه ، وأن يقتل من يشك فيه بخراسان ، وغير ذلك من أموره ونهيه ، فكتب مروان من الجزيرة إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك عامل مروان على دمشق ، يأمره أن يكتب إلى عامل البلقاء ، فيسير الى الحميمة ليأخذ ابراهيم بن محمد ، فيشد وثاقه ويبيع به إليه في خيل كثيفة ، ففعل الوليد ما أمر به ، وجاء العامل ابراهيم وهو جالس بمسجد القرية ، وهو ملفف فقبض عليه ، ونفذ أمر الخليفة ، وكان ذلك في بدء سنة ١٣٢ هـ .

وقد أدرك ابراهيم عاقبته ومصيره ، فولى أخاه أبا العباس عهده ، وعقد له من بعده ، وأمره بالمسير الى الكوفة . وأمر أهل بيته أن يسيروا

(١) مروج الذهب ج ٢ . ص ٢٠٤ .
(٢) يبدو أن مكانة أبي مسلم كانت تدفعه أحيانا أن يتخطى الكوفة ويتصل مباشرة بالامام بالحميمة لأنه رسول الامام دون واسطة ، ومع هذا كان في أكثر الاحوال يتصل بأبي سلمة بالكوفة كما سيأتي .

معه ، ويسمعوا له ويطيعوا ، ونعى لليهم نفسه • فسار أبو العباس عبد الله ابن محمد ومعه أبو جعفر أخوه ، وداود وعبد الله عماء ، وعيسى بن موسى ابن محمد بن علي وغيرهم الى الكوفة ^(١) ، وانتهى بذلك دور الحميمة بعد أن تركت في التاريخ ذكراً خالداً •

ويقال إن السفاح فصل أخاه أبا جعفر المنصور لأن أم السفاح كانت عربية ، أما أم أبي جعفر فكانت أم ولد ، والذي نسجله هنا أن الوقت الذي اختير فيه السفاح لم يكن يشجع على المنافسة ، فقد كان واضحاً أن الذي يختار للقيادة إنما يختار لمشكلات عريضة ، وآمال لم يحن بعد تحقيقها ، ولذلك وافق جميع زعماء بني العباس على هذا الاختيار •

أما إبراهيم الإمام فقد سيق الى مروان حيث حبس في سجن حران ، مع جماعة من أعداء مروان بن محمد ، ولم يزل في سجنه حتى مات ، ويقال إن رأسه جعل في جراب فيه نورة مسحوق ، فاضطرب ساعة ثم خمد ^(٢) •

وقد قال سديف بن ميمون في رثائه :

قد كنت أحسبني جلدأ فضعضني قبر بحرآن فيه عصمة الدين
فيه الإمام وخير الناس كلهم بين الصفائح والأحجار والطين

الكوفة :

هذا ما كان من أمر الحميمة ، أما ما كان من أمر الكوفة ، فإن أول من قام بالأمر فيها ميسرة مولى بني العباس ، وكان من كبار أعوانه فيها شيخ عظيم يدعى بكر بن ماهان ، وكان داهية واسع الثراء والجاه ، فساعد آل البيت بجأه وماله ، فلما مات ميسرة في عهد محمد بن علي ، أقامه

(١) الجهنياري : الوزراء والكتاب ص ٨٥ •

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠٥ والنورة : الجير •

محمد مقام ميسرة بالكوفة ، وأصبح قائد الدعوة في هذه المنطقة ، وحلقة الاتصال بين زعماء الحميمة ونشاط خراسان .

يروى الطبرى (١) أن بكر بن ماهان قدم من السند سنة ١٠٥هـ وكان بها مع الجنيد بن عبد الرحمن مترجماً له ، فلما عزل الجنيد قدم بكر الكوفة ومعه أربع لبنات من فضة ولبنة من ذهب ، فلقى أبا عكرمة الصادق وميسرة وغيرهما فذكروا له دعوة بنى هاشم فقبلها وأنفق ما معه عليهم وعلى الدعوة ، واتصل بمحمد بن علي ، ولما مات ميسرة عين محمد بن علي بكر بن ماهان مكانة بالكوفة كما ذكرنا .

وكان بكر بن ماهان قد زوج ابنته من حفص بن سليمان المعروف بأبي سلمة الخلال ، فلما مرض بكر وحضرته الوفاة أيام ابراهيم الإمام كتب بكر الى ابراهيم يقول :

إنه كتب في أول يوم من أيام الآخرة ، وآخر يوم من أيام الدنيا ، أنه استخلف حفص بن سليمان .

فاستجاب ابراهيم لرأى بكر وكتب الى أبي سلمة يأمره بالقيام بأمر أصحابه ؛ وكتب الى أهل خراسان أنه قد أسند أمر الكوفة إليه (٢) ، وعندما توالى الانتصارات للخراسانيين وأصبح واضحاً أن الفوز للهاشميين ، صار أبو سلمة يكتب « وزير آل محمد » وكان أبو مسلم يكتبه : للأمير حفص بن سليمان وزير آل محمد من عبد الرحمن بن مسلم أمير آل محمد (٣) .

ومما هو جدير بالذكر أن هذا الوزير أخذ لقب الوزارة قبل أن يأخذ زعماء الحميمة لقب الخلافة .

(١) تاريخ الامم والملوك ج ٥ ص ٣٧٦ .
(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٨٤ .
(٣) المرجع السابق ص ٨٥ .

خراسان :

اتخذت الدعوة بخراسان طريقين ، الطريق الأول هو الاتصال بشيوخ الحميمة بمشايع خراسان ودهاقينها ممن عرف عنهم الميل لآل البيت والسخط على أفعال بنى أمية ، وكان كثير من هؤلاء يستجيبون للدعوة سرّاً (١) . أما الطريق الثانى فهو الدعاة الذين كانوا يرسلون للى خراسان في ثوب تجار غالباً ، ومن أشهر دعاة العباسيين بخراسان سليمان بن كثير ، وكان الدعاة يعرفون إمام العصر ولكنهم لا يذكرونه باسمه للناس وإنما يكفون بالحديث عن وصفه وأنه الرضا من آل محمد .

وكان لكل داعية اثنا عشر نقيباً يختارهم بنفسه أو يعيّنهم إمام الحميمة له ، دون أن يتصل بهم الإمام ، ولهذا لم يكن النقباء يعرفون إمام العصر ، وكان هذا من أبرز الفروق بين الدعاة والنقباء ، وكان لكل نقيب مجموعة من الأتباع أو المريدين يصل عددهم الى سبعين ، وللهؤلاء المريدين مجموعاتهم كذلك التى تنتشر في خلايا سرّية تجم كل جهات خراسان .

وكانت أبرز الشعارات التى يتحدث بها الدعاة والنقباء هى المساواة بين العرب وغير العرب ، وفضل آل البيت ، وحققهم في الإمامة ، كما كانوا يبرزون أخطاء الأمويين ويصورونهم حكماً دينيين لا يهتمون بالإسلام وروحه وفلسفته .

وكان أهل خراسان ينسحبون على دعاة الشيعة ويساعدونهم مادياً وأدبياً ، وحدث أحياناً أن انكشف أمر هؤلاء الدعاة وبخاصة في عهد أسد بن عبد الله القسرى (٢) الذى أنزل بهم صوراً من التنكيل والعقاب بلغت القتل

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٢١ - ١٢٣ .

(٢) تولى إمارة خراسان مرتين . عزل في الاولى سنة ١٠٩ هـ ثم تولى سنة ١١٧ هـ وظل حتى مات سنة ١٢٠ هـ وهو أقسى ولاية خراسان على الشيعة ، وكان هؤلاء يأتونه من الناحية القبلية ، فيزعمون له أنهم يمنيون مثله ، وأن الذين يتهمونهم بالتشيع إنما هم الخيرية أعداؤه وأعداؤهم ، وقالوا له : ان المضرة يربون أن يثاروا منا لوقفنا العدائى من مسلم بن قتيبة الذى ولى خراسان بين سنتي ١٠٩ - ١١٧ .

أحياناً ، ولكن الخراسانيين سرعان ما تستروا على من أخذ مكانهم من
الدعاة والتقاء الجدد •

وعن طريق هذا التنظيم أصبحت أرجاء خراسان تموج بالمسخط على
البيت الأموي الحاكم وتدين بالولاء لآل البيت ، وفى سنة ١٢٧ هـ قرر زعماء
الحميمة أن يخطوا نحو أهدافهم خطوة كبيرة ، وأن ينتقلوا بالقضية من
الدعوة إلى العمل ، فاختاروا بطلا عسكريا وداهية من أعظم الداهية فى
التاريخ ، ذلك هو أبو مسلم الخراساني ليقود المناضلين من أهل خراسان
ضد الأمويين ، وقد تجمع مع أبى مسلم جموع المستجيبين للدعوة الجديدة ،
ولقى أبو مسلم زعماءهم حيث هتف فيهم :

أشعروا قلوبكم الجراءة فانها من أسباب الظفر ، وأكثروا ذكر
للضغائن فانها تبعث على الإقدام ، والزموا الطاعة فانها حصن المحارب (١) •

وعقد لقواده الأولوية وهو يتلو قوله تعالى : (أذن للذين يقاتلون
بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير) (٢) •

وبدأ أبو مسلم كفاحه العنيف الناجح (٣) •

والذى يتحتم أن نبرزه هنا هو أن أبا مسلم كان داهية من دهاة
السياسة ، فوق شجاعته ونبوغه فى الحروب وميادين القتال ، وحنكته
السياسية ومقدرته على حياكة المؤامرات والدسائس ، كانت من أهم ما
ضمن له النصر فى هذا العراك الطويل ، ونسوق لذلك مثالين ذكرهما
ابن الأثير ، قال :

لما وصل أبو مسلم خراسان جيس نبض رجاله ، ودرس الأحوال

(١) العقد الفريد ج ١ ص ١٥٨ •

(٢) سورة الحج الآية رقم ٣٩ •

(٣) ابن الأثير ج ٥ ص ١٣٣ •

هناك ، فأدرك أنه يستطيع أن يبدأ العمل بكثير من الأمل ، فأعدّ عدته ونظم عسكره وحصن موقعه ، ثم كتب الى نصر بن سيار عامل الأمويين على خراسان كتابا قال فيه :

من أبى مسلم الى نصر بن سيار ، أما بعد : فان الله تباركت أسماؤه ، وتعالى ذكره ، غير أقواما في القرآن فقال (!) وأقسموا بالله جهد أيمانهم ، لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا ، استكبارا في الأرض ومكر السيئ ، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ، فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة تحويلا (!) .

وقد كتب على نصر أن يتلقى كتابا كهذا من أبى مسلم ، يهدد فيه ، ويبدأ بنفسه ، وكان جواب نصر أن وجه الى أبى مسلم جيشا عظيما بقيادة مولى له اسمه يزيد ، فقابله جيش أبى مسلم بقيادة مالك بن الهيثم الخزاعي ، ووضع أبو مسلم في هذا الجيش صناديد رجاله ، وعرفهم أن هذه أول معركة ، وعليها يتوقف مستقبل الدعوة الناسئة ، وبقي أبو مسلم ينظر عن كتب الى المعركة وهي تدور ، وكان مستعدا أن يدفع إليها أبطالاً جديدا إذا دعت الحاجة ، ولكن انتظار أبى مسلم لم يطل فقد انهزم الجيش الأموي ، والأسير قائده يزيد بعد أن جرح ، فأكرمه أبو مسلم ، وأنزله منزلا حسنا ، وأمر بمداواته حتى يبرأ ، ثم خيره بين البقاء معهم داخلا في دعوتهم ، وبين الرجوع الى نصر على أن يعطى عهد الله وميثاقه ألا يحاربهم ، ولا يكذب عليهم ، وأن يقول فيهم ما رأى ، فاختر الرجوع الى مولاه وأعطى ذلك العهد ، وقال أبو مسلم لمن معه : إن هذا سيرد عنكم أهل الورع وسيفيدكم فائدة كبيرة ، فلما قدم يزيد على نصر قال له نصر : لا مرحبا بك ، والله ما ظننت القوم استبقوك إلا ليتخذوك حجة علينا ، فقال يزيد :

هو والله ما ظننت وقد استخلفوني ألا أكذب عليهم ، وأنا أقول إنهم يصلون الصلاة لمواقيتها بأذان وإقامة ، ويتلون كتاب الله ، ويذكرون الله كثيرا ، ويدعون إلى ولاية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أظن أمرهم إلا سيعلو ، ولولا أنك مولاي ، اعتقتنى من الرق ، ما رجعت إليك ، ولأقمت معهم (١) .

وقد صدق حدس أبي مسلم ، وصدق ما توقعه نصر ، فقد كان ذلك الحادث فتحاً جديداً ، سبب انهيار الوفود على أبي مسلم ، كما سبب ألوانا من التراجع في صفوف نصر ، إذ كان الأمويون يذيعون أن هذه حركة مجوسية تسعى للقضاء على الاسلام وعلى النظام .

أما المثال الثانى فهو مقدرة أبى مسلم الفائقة على استغلال العصبية القبلية في خراسان ، وقد كان العرب هناك متنافرين متحاربين ، فهناك اليمينيون يقودهم جديع بن شعيب المعروف بالكرمانى ثم أبنيه على من بعده . أما الغزاريون فقد انقسموا جبهتين : يقود شيان الحرورى جبهة ربيعة ، وتدين مضر لنصر بن سيار الوالى الأموى ، والعجيب أن القوم أدركوا أن دعوة أبى مسلم خطر عليهم جميعا ، ولذلك فكروا في نزع الخلافات التى بينهم ، ووقف الحروب المشتعلة ولو مؤقتاً ، ليتفرغ نصر بن سيار وحده أو بمساعدتهم لمصاربة أبى مسلم العدو المشترك ، ولكن أبى مسلم كان يقظا كبير الفطنة ، ففرق بينهم كلما أوشك شملهم أن يجتمع ، وأوغر صدور طائفة على الأخرى ، وأثار الموتور منهم أن يطلب بالثأر من واتره ، فضمن بذلك أن يظل الخلاف بين قبائل العرب ، وأكثر من ذلك ، فقد تعاون مع فريق منهم وهم اليمينيون ليحارب مضر ، واجتمع ضد نصر جيش أبى مسلم وجيش على بن الكرمانى وكان جيش

(١) ابن الاثير ج ٥ ص ١٣٤ .

الكرمانى أسبق الى الاستبأك بجيش نصر ، وتأخر جيش أبى مسلم قصدا .
وبينما كانت الحرب دائرة بين نصر وعلى بن الكرمانى كان جيش أبى
مسلم يتسوّر « مرو » ويحف الى دار الامارة وأبو مسلم يثلو قوله
تعالى (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان :
هذا من شيعته ، وهذا من عدوه) (١) .

وهرب نصر بعد هزيمته فى هذه الموقعة الفاصلة ، ثم تخلص أبو
مسلم من زعماء اليمانيين . وقد كان منذ حين حليفاً لهم ، وواصل زحفه
بعد ذلك حتى دانت له خراسان كلها (٢) .

وتقتضينا الأمانة التاريخية أن نقرر أن نصر بن سيار كان فكياً واعياً ،
بذل غاية الجهد فى الوقوف أمام أبى مسلم وصدد تياره ، ولكن الظروف
كلها كانت تسير على غير ما يهوى وما يرسم ، ذكر المسعودى وغيره
من المؤرخين كتباً ثلاثة أرسل بها نصر يستنجد ، ويصور الحالة التى
تحيط به ، وفى كل كتاب من هذه الكتب مقطوعة من الشعر ، كأنه أرادها
سجلاً ، أكثر من النثر خلوداً ، وأفصح تعبيراً . وكان كتابه الأول الى
مروان الخليفة يستنجد به ويستمد منه العون ، وقد ضمنه الأبيات الآتية :

أرى بين الرماد وميض نار	ويوشك أن يكون لها ضرام
فان لم يطفها عقلاء قوم	يكون وقودها جثثاً وهام
فان النار بالعودين تذكى	وإن الحرب أولها كلام
أقول من التعجب ليت شعري	أليقاس أمية أم نيام
فان يك قومنا أضحوأ نياما	فقل : قوموا فقد حان القيام

ولكن مروان كان مشغلاً بحروب الخوارج بالجزيرة ، وبحربه مع
نعمان بن ثابت بالشام ، وبغير هذين من الفتن ، فكتب الى نصر يقول :

(١) سورة القصص : الآية رقم ١٥ .
(٢) ابن الأثير ج ٥ ص ٢٤١ وما بعدها .

« إن الحاضر يرى ما لا يرى الغائب • فاحسم أنت هذا الداء الذى ظهر عندك » (١) •

أما الكتاب الثانى فقد وجهه نصر الى يزيد بن عمر بن هبيرة عامل مروان على العراق ، يستمد منه العون ويسأله النصرة ، وقد ضمنه أبياتاً من الشعر يسجل فيها أن الشر الذى نبت فى خراسان سيصل الى العراق ، إن لم يتعاون الجميع على كبحه والإجهاز عليه ، وفيما يلى هذه المقطوعة الشعرية :

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه
وقد تبينت ألاء خير فى الكذب
بأن أرض خراسان رأيت بها
بيئاً لو أفرخ قد حدثت بالعجب
فراخ عامين إلا أنها كبرت
لما يطرُن ، وقد شربن بالزغب
فان يطرُنَ ولم يحتل لهن بها
يُلهِبُن نيران حرب أيما لهب

••• لكن نصراً لم يتلق أى عون من يزيد الذى تشاغل بدفع فتن العراق (٢) •

أما الكتاب الثالث فقد كان الى مروان الخليفة ، وقد أرسله نصر بعد أن هزم فى خراسان وغادرها وقد ذكر فى هذا الكتاب أن هذا الأمر الذى أزعجه سينمو حتى يملأ البلاد ، وضمن كتابه هذه الأبيات الشعرية :

إننا وما نكتم من أمرنا كالثور إذ قرَّب للناسخ
أو كالتى يحسبها أهلها عذراء بكرأ وهى فى التاسع

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠٢ •

(٢) المرجع السابق ج ٣ ص ٢٠٢ •

كنّا نرفقيها فقد مئزقت^١ واتسع الخرق على الراقع
كالثوب إذ أنهج فيه البلى أعيّا على ذي الحيلة الصانع^(١)
وقد نزل نصر بعد أن ترك خراسان (سادة) من بلاد همدان والري
فمات بها كمدأ^(٢) .

وكانت انتفاضة خراسان على الدولة الأموية وخضوعها للعباسيين
مطلعاً رائعاً لانتصارات الهاشميين ، قوّى بعده جانبهم وعزّت كلمتهم ،
ثم سارت الجيوش والفرق من خراسان تغزو وتنتصر ، حتى وصلت
العراق حيث اصطدمت ببطل من أبطال العرب هو يزيد بن عمر بن هبيرة
وسيأتي ذكره فيما بعد ، وقد دافع يزيد وأعوانه عن العراق بشجاعة
نادرة ، ولكنه اضطر أخيراً أن يخلي الكوفة عاصمته وأن يلجأ الى واسط
التي كان لها سور قوي^٣ حيث تحصّن بها حتى قتل مروان كما سنذكر
فيما بعد .

وكان أبو مسلم يتطلع الى النصر الذي أحرزه فيطرب وينشد :
أدركت بالعزم والكتمان ما عجزت
عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا
ما زلت أسعى بجهدى في دمارهم
والقوم في غفلة بالشام وقد رقدوا
حتى طرقتهم بالسيف فانتبهوا
من نومة لم يَنمَها قبلهم أحد
ومن رعى غنما في أرض مسبعة
ونام عنها تولى رعيها الأسد^(٣)

الانتصار والتقاء مراكز المحور:

تمّ انتصار أبي مسلم في خراسان ، وأصبح الأمر كله فيها اليه ،
فبقى هو في خراسان أميراً لها . وبعث جيوشه بقيادة قحطبة بن شبيب

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٠٤ .

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٠٤ .

(٣) ابن خلكان : وفیات الاميان ج ١ ص ٢٨٢ .

الطائي لمواصلة الزحف تجاه العراق ، وقد سار هذا يحقق نصرا تلو نصر حتى وصل الكوفة •

ومن الطريف أن الكوفة التي أنشئت لتكون نقطة اتصال بين خراسان والحميمة ، أصبحت في أوائل سنة ١٣٢هـ نقطة الالتقاء بين الجيوش الزاحفة من خراسان والهاتفة لآل البيت ، وبين آل البيت النازحين من الحميمة ، أو قل الهارين منها • وأصبح أبو سلمة نفسه نقطة الاتصال ، فلقد سارت الجيوش الموالية للهاشميين الى الكوفة ، بعد أن أظهرت انتصاراتها على ابن هبيرة في العراق ، فألجأته الى إخلاء الكوفة ، والتحصن بواسط ، فلما وصلت هذه الجيوش الكوفة لإحدى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ١٣٣هـ ، أظهروا أبا سلمة وسلموا اليه الرياسة ، وحوالى ذلك التاريخ وصل الكوفة سرءا ركب الهاشميين القادم من الحميمة حيث وضعوا مقاليد أمورهم في يد أبي سلمة ، وقد أنزلهم هذا في دار الوليد ابن سعد الجمال مولى بنى هاشم وتولى خدمتهم بنفسه ، وكنتم أمرهم (١) •

وهكذا أصبح الأمر كله في يدى أبي سلمة ، ولذلك سنخصصه في الصفحات التالية بحديث شامل لنرى كيف تصرف ولنرى بالتالى بزوغ مجد بنى العباس •

أبو سلمة الخلال

هو حفص بن سليمان ، وسمى الخلائل نسبة الى خلل السيوف وهي أعماذها ، فقد كان يعملها • وكانت العرب تسمى من يعملها الخلائل (٢) ، وقيل أنه سمي الخلائل نسبة الى الخل فقد كانت له هوانيت يعمل فيها الخل (٣)

(١) الجهشاري ص ٨٥ والفخرى ص ١٢٤ •

(٢) الجهشيارى : ص ٨٤ •

(٣) الفخرى ص ١٣١ •

ولأبى سلمة ولصهره بكر بن ماهان من قبله نصيب كبير في إقامة الدولة العباسية . فقد كان أبو سلمة عالما بالسياسة والتدبير ، ذا غنى ويسار ، حسن التصرف فيما يعترض الدعوة من مشكلات ، كما كان ينفق ماله بسخاء من أجل الدعوة وعلى رجالها ، وكان مركزه الكوفة نقطة الاتصال بين الحميمة وخراسان ، كما سبق القول ، ولكنه كان ينتقل كثيرا الى خراسان للإشراف على تقدم الدعوة ونجاحها ، ومن هنا يجب أن نعترف بفضل هذا الرجل في الوصول بالدعوة الجديدة الى هذا النجاح العظيم .

ولما زحفت جيوش الخراسانيين من نصر الى نصر ، ووصلت الكوفة ، أظهر قوادها أبا سلمة ، وسلموا اليه الرئاسة ، وفي نفس الوقت تقريبا وصل الكوفة بنو العباس النازحون من الحميمة كما قلنا وسلموا زمام أمرهم الى أبى سلمة ، ولم يكن الزاحفون من خراسان يعرفون خبر وصول بنى العباس من الحميمة الى الكوفة ، ولا كان النازحون من الحميمة يعرفون أن أتباعهم بخراسان وصلوا بزحفهم الى الكوفة ، وكان أبو سلمة وخاصة خلصائه هم الذين يعرفون ذلك .

كيف تصرف أبو سلمة ؟

هل كان مخلصا لخطط عليه الأمر فتعذر ؟

هل خان الأمانة التي وضعها بنو العباس في يده ؟

هل كان مخدوعا مع المخدوعين فظن أن الأمر حقا للرضا من آل

محمد فحاول أن يختار هو الرضا من آل محمد ؟

هل كان أنانيا فأراد أن يبقى الأمر في يده ويعيّن خليفة من الطويعين يحس دائما أنه مدين بمنصبه لأبى سلمة ؟

تعال بنا لنرى :

يروى أن وزير آل محمد فكر فيمن يسنّد له الخلافة ، فهداه

تفكيره — على ما يقال — الى ثلاثة من أعيان العلويين هم جعفر الصادق ،
وعبد الله المحض بن الحسن بن علي ، وعمر الأشراف بن زين العابدين ،
فأرسل إليهم كتباً مع رجل من مواليهم ، وقال له : اقصد أولاً جعفر
الصادق ، فإن أجاب فأبطل الكتابين الآخرين ، وإن لم يجيب فالتق عبد الله
المحض ، فإن أجاب فأبطل كتاب عمر ، وإن لم يجب فالتق عمر . فذهب
الرسول الى جعفر الصادق أولاً ودفع اليه كتاب أبي سلمة ، فقال جعفر :
مالى ولأبى سلمة وهو شيعة لغيري ؟ فقال له الرسول : اقرأ الكتاب .
فقال الصادق لخادمه : أدن السراج مني ، فأدناه . فوضع
الكتاب على النار حتى احترق ، فقال الرسول ألا تجيبه ؟ فقال : قد رأيت
الجواب . ثم مضى الرسول الى عبد الله المحض ودفع إليه الكتاب فقرأه
وقبّله ، وركب في الصال الى الصادق وقال : هذا كتاب أبي سلمة
يدعوني فيه الى الخلافة ، قد وصل على يد بعض شيعتنا من أهل
خراسان . فقال له الصادق : ومضى صار أهل خراسان شيعتك ، أنت
وجهت إليهم أبا مسلم ، هل تعرف أحدا منهم باسمه أو بصورته ؟ وكيف
يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك ؟ فقال عبد الله : هذا
الكلام منك لشيء . فقال الصادق : قد علم الله أنى أوجب النصح على
نفسى لكل مسلم ، فكيف أدخره عنك ؟ فلا تَمَنَّ نفسك بالباطلي ، فإن
هذه الدولة ستتم لهؤلاء . وقد جاعنى مثل الكتاب الذى جاءك . فانصرف
عبد الله من عنده وقد عدل عن الاستجابة لدعوة أبي سلمة . وأما عمر
الأشرف بن زين العابدين فانه رد الكتاب وقال : أنا لا أعرف صاحبه
فأجيبه (١) .

كان هذا يجرى والسفاح وذووه يقيمون بالكوفة دون أن يعرف
أحد من خبرهم شيئاً سوى أبي سلمة وخاصة خدمة كما قلنا ، وكانت

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٨٦ والفخرى ص ١٣٢ .

جيوش الخراسانيين تعسكر في ذلك الوقت بظاهر الكوفة بحمام أعين^(١) ، واستمر الحال على ذلك نحواً من أربعين يوماً ، فسأل الخراسانيون أبا سلمة عن الامام فأجاب : لا تعجلوا ، ليس هذا وقت خروجه لأن واسطاً لم تفتَحْ بعد^(٢) .

ثم حدث بعد ذلك أن خرج أحد قادة الخراسانيين واسمه محمد بن إبراهيم الحميدى ، وكنيته : أبو حميد السمرقندى ، يريد الكنفاسكة فلقى سابقاً الخوارزمى ، وهو غلام كانوا أهوه لإبراهيم الإمام ، فسأله أبو حميد عن الخبر ، فأخبراه أن إبراهيم الإمام قد قتله مروان ، وأنه أوصى قبل مقتله إلى أخيه أبى العباس واستخلفه من بعده ، وأنه قدم الكوفة ومعه عامة أهل بيته . فسار معه أبو حميد حتى دخل على القوم فعزاهم في إبراهيم الإمام وسأل عن ابن الحارثية ، فأشاروا إلى أبى العباس ، فسلم عليه بالخلافة ، وقبل يده ورجله وباعيه ، وخرج فأعلم جماعة من القواد المرابطين بظاهر الكوفة بحمام أعين ، فاستقروا رأيهم على المضى إلى أبى العباس ومبايعته ، فخرجوا إليه ، فلما عرف أبو سلمة هذا ركب في أصحابه إلى أبى العباس ، فأغلق الباب^(٣) دونه ، فاستفتح أصحاب أبى سلمة الباب ، وقالوا : وزير آل محمد ، فأسمعه من بالداخل بعض ما يكره ثم أدخلوه ، فاستقبل القبلة فسلم ثم سجد ، وقبل يد أبى العباس وقدميه ، وبدأ في الاعتذار ، فقال أبو العباس : عذرك يا أبا سلمة ، غير متفقد ، وحققك لدينا معظّم ، وسابقتك في دولتنا مشكورة وزلتك مغفورة ، أنصرف إلى معسكرك لا يدخله خلل^(٤) فانصرف إلى معسكره بحمام أعين^(٥) .

ولكن الحقيقة أن أبا العباس قال هذا وهو يضر غيره ، فلم تكن زلة أبى سلمة مغفورة لديه . ولكن أبا العباس كان لا يزال في حاجة إلى تأييد أبى سلمة ومناصرته ، ومن هنا قال هذا القول وهو يخفى سواه .

(١) مكان بالكوفة منسوب إلى أعين ، مولى سعد بن أبى وقاص .

(٢) ابن الاثير ٥ : ١٥٣ .

(٣) الطبرى ٩ : ١٣٥ ، والجهشياري ٨٦ — ٨٧ ، وابن الاثير ٥ : ١٥٣ .

خرج أبو العباس بعد هذا الى المسجد ، وخطب الناس وأخذ بيعتهم ،
ووزع أهله وذويه على الجيوش المحاربة في الميادين المختلفة ، كما ولى
خاصته الإمارة على البلاد التي دانت لهم ، ثم التفت بعد ذلك الى أبي سلمة
ليأتمر به انتقاما منه لما اقترف ، فقد كان جهد بنى العباس الطريل
على وشك أن يضيع بسبب تصرف أبي سلمة وخيافته .

ولكن أبا العباس حينما همّ بأبى سلمة قال له داود بن علي : لا آمن
عليك أبا مسلم — إن فعلت — أن يستوحش ، ولكن اكتب اليه فعرفه ما كان
من أبي سلمة ، فكتب أبو العباس الى أبي مسلم يُعَلِّمُهُ بما عزم عليه
أبو سلمة من نقل الدولة عنهم وختم خطابه له بقوله : إننى قد وهبت
جرمه لك . ولكن باطن الكتاب كان يفيد حثّ أبي مسلم على قتل أبي
سلمة ، فلما قرأ أبو مسلم الكتاب ، فطِنَ لغرض السفاح ، فوجه بالمرءار
ابن أنس الضبى ومعه قوم من أهل خراسان لقتل أبي سلمة فلما
وافى المرار ومن معه ، أمر السفاح منادياً ينادى بالكوفة : إن أمير
المؤمنين قد رضى عن أبي سلمة ، ثم دعاه قبل مقتله بيوم واحد فخلع
عليه ، ثم دعاه في الليلة التالية فسهر معه عامة ليله ، فلما انصرف
أبو سلمة الى منزله ، اعترضه المرءار بن أنس وأصحابه فقتلوه . وأُغْلِقَتْ
أبواب المدينة ، وقيل لأبى العباس : إن أبا سلمة قتله الخوارج . فقال
للبيدين والفم (١) .

وكان مقتل أبي سلمة في رجب سنة ١٣٣ هـ (٢)

(١) دعاء بالسوء ومعناه كبه الله حتى يسقط على يديه وفمه .
(٢) انظر لذلك الموضوع : الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٩٠ ،
ابن الأثير : الكامل ٥ — ١٦٣ — ١٦٤ ، وابن خلكان : الوفيات ١ — ١٦٣ ،
وابن خلدون : العبر ٣ : ١٧٦ وابن طباطبا : الفخرى ص ١٣٣ .

قضية أبي سلمة في الميزان :

بقيت لي كلمة عن ذلك الموضوع أحاول أن أنصف بها الحق ، ويجدر بي قبل أن ألقى بهذه الكلمة ان أوضح أن تلك الكلمة أو هذا الرأي إنما هو من قبيل ما يعرف في المناهج التاريخية بفلسفة التاريخ ، وإذا كانت أحداث التاريخ لا تتغير فإن فلسفة التاريخ أو بعبارة أخرى التعليق على أحداث التاريخ يمكن أن يتغير ، وعلى هذا فإن من الطبيعي أن يختلف مؤرخ عن مؤرخ في وجهة النظر بالنسبة لحدث من الأحداث التاريخية ، بل إن المؤرخ الواحد قد يبدى اليوم رأيا في موضوع ، ثم يبدى غدا سواء نتيجة معلومات جديدة تصل اليه أو فكرة تخطر بباله •

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن حكمنا على شخص ما بأنه مدين ليس معناه أنه يستحق القتل بالنسبة للقانون الاسلامي ، فالحكم بالقتل في التشريع الاسلامي له قواعده وأسبابه (١) ، ولكن دنيا السياسة تختط لها على مسؤوليتها ما تراه ، وكل ما يعيننا هنا هو أن نقرر أن هذا الشخص في رأينا مدين أو برى ، أما عقوبة المدين فقد قضى بها الخلفاء على مسؤوليتهم ، وكان بعضهم يدافع عن رأيه بأنه يريق دم فرد ليضمن السلامة للألوف الذين سوف تأكلهم نار الحرب لو نجح هذا الرجل في إعلان ثورته ، وسيكون هؤلاء الضحايا من أتباعه ومن معارضيه •

ولنعد إلى موضوعنا لنعرض رأينا في أبي سلمة للخلال :

يؤخذ كثير من الناس بالدور الضخم الذي لعبه أبو سلمة للخلال في الكوفة ، بل يزعمون قصداً فيذكرون أنه لعب دورا كبيرا في قيام الدولة العباسية ، ومن أجل هذا يتلمسون الوسائل للدفاع عنه •

وهناك كذلك من يشكك في الاتهام الذي نسب الى أبي سلمة

(١) في الحديث الشريف لا يحل دم المسلم الا ثلاث : المرتد ، والقاتل عبدا ، والزاني المحسن •

بمحاويلته تحويل نتائج الدعوة للعلويين ، ويعتمد هؤلاء على ما جاء في رواية ابن خلكان (١) ونصها « إن القوم توهموا من أبي سلمة أنه مال إلى العلويين » .

وهناك أيضا من يرى إمكان أن يكون أبو سلمة كتب للعلويين لأنه خدع في فهم دعوة الحميمة التي كانت تسير باسم الرضا من آل محمد كما كان زعماء الحميمة أنفسهم يعنون ذلك . فلما نجحت الدعوة وجد أبو سلمة — وهو وزير آل محمد — أن من واجبه أن يعين الخليفة ، وهواه تفكيره إلى أن العلويين أولئى بالخلافة من سواهم ، إذ قامت الدعوة الجديدة متصلة بكفاحهم ، واستغلت رفاتهم وضحاياهم ، ثم هم أكثر شهرة بين الناس ، وتعرفهم الجماهير أكثر مما يعرفون بنى العباس .

ويتساءل آخرون : ألم يكن من الأوفق أن يتغفر هذا الخطأ لأبي سلمة — على فرض التسليم بالخطأ — كفاء جهاده الطويل ، وكفاحه المرير ، وثروته العريضة التي أنفقها من أجل الدعوة ونجاحها ؟

ونجيب على وجهات النظر هذه بالترتيب :

أما القول بأن أبا سلمة لعب دورا كبيرا في قيام الدعوة العباسية فهو خطأ كبير ندعو القائلين به لتصحيح أنفسهم وتمحيص آرائهم ، فلا شك أنه لعب دورا كبيرا ولكن ضد بنى أمية ، أما فيما يتعلق بقيام الدولة العباسية فهو شيء تم من وراء ظهره كما سبق البيان ، وأبو سلمة أجدر أن ينتهم بمقاومة قيام دولة بنى العباس من أن ينسب إليه العمل لقيامها .

أما رواية ابن خلكان التي تشكك في اتهام أبي سلمة بالرغبة في تحويل الخلافة إلى العلويين فهي رواية لا يمكن الأخذ بها ، إذ من الثابت

(١) وفيات الاميان ١ : ١٦٣ .

أن أبا سلمة احتجز القادمين من الحميمة طيلة أربعين يوماً ، دون أن يخطو للإمام أية خطوة نحو إظهار الإمام علوياً أو غير علوياً أو حتى نحو السير بالأعمال الحربية تجاه نصر جديد ، ولم يذع خبر قدوم بنى العباس إلى الكوفة ، وتركهم في شبه سجن كان هو وحده المتصرف فيه .

أما القول بأن أبا سلمة كتب للعلويين لأنه خدع في دعوة الحميمة ، فذلك شيء إن جاز على الجماهير فلا يجوز على القادة والوزراء ، وهل كان أبو سلمة يظن أن بنى العباس يضعون الخطط ويثثون الدعاة ، ويشعلون الثورة ، فإن فشلت الحركة أو ظهر خلل فيها قدموا دماءهم فداء لذلك كما حدث لإبراهيم الإمام ، وإن نجحت الخطة سلموها لقمة سائغة إلى العلويين الذين لم يسهموا في هذا النضال الطويل بقليل من الجهد أو كثير ؟ هل كان أبو سلمة يظن ذلك ؟ وهل لمثل أبي سلمة وضع التمويه الذي لجأ له قادة الحميمة ؟

وأخيراً هل مثل هذه الزلة يعفى عنها في عالم السياسة ؟ الإجابة بالنفي فيما أرى وفي كلٍّ أو جلٍّ ما يرويه التاريخ من أحداث مماثلة ، أما للعقوبة فمن الممكن أن تختلف ، ونرى في الأحداث المماثلة من لجأ إلى القتل أو اتجه إلى السجن أو اكتفى بالعزل حسب الظروف والأحوال .

ذلك كان انحراف أول وزير لدولة بنى العباس ، وتلك كانت نهايته .

نهاية بنى أمية

أعلنت الخلافة العباسية بالكوفة كما سبق القول ، وفريد هنا أن نقول إنه عقب اعلان خلافة بنى العباس بقى على العباسيين أن يتغلبوا على قوتين كبيرتين لبنى أمية ، إحداهما يقودها الخليفة الأموي مروان بن محمد ومقرها الجزيرة ، والثانية يقودها زيد بن عمر بن هبيرة ومقرها واسط ، وطبيعى أن تتجه الجهود أولا للخليفة الأموي ، فخلافة بنى العباس لن تتوطد دعائمها حتى يسقط هذا الخليفة .

معركة الزاب ومقتل مروان :

دفع أبو العباس خيرة جنده لمواجهة مروان ، وولى أبو العباس عمه عبد الله بن على قيادة هذا الجيش وكان مع مروان جيش كبير من أهل الشام ، يقدره المؤرخون بمائة وعشرين ألف مقاتل (١) ، ومع هذا فلم يكن من الممكن أن يحقق هذا الجيش النصر لثرائده بسبب الظروف التى كانت محيطة بالموقف ، فدولة ناشئة قوية يدفعها نصر إلى نصر ، وروحها المعنوية قوية جياشة ، ودولة تغرب شمسها وتلاحقها الهزائم ، قلّ أمل ذويها فى النصر ، وضعفت الانكسارات نفوسهم .

والتقى الجيشان على نهر الزاب الأعلى وهو أحد روافد نهر دجلة من جهة الشرق ، وكانت معركة شديدة حامية ، فيها العدد والذخيرة مع مروان ، وفيها العزيمة والإصرار مع عبد الله بن على ، وهيهات أن يتجدرى عدد أو عتاد إذا تهاوت الروح المعنوية وضعف الإيمان بالمستقبل ،

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ٣ ص ٤٧ وابن طباطبا ص ١٢٥ .

وهكذا انتصر بنو العباس وانحدر جيش مروان والاحتوى عبد الله بن علي عسكره ، وكانت موقعة الزاب موقعة فاصلة ، لم يستطع مروان بعدها أن يلم شعث جنده أو أن يقف في وجه الجيش الزاحف الصاخب ، وفتحت بعدها أبواب الشام فأخذت البلاد الشامية تسقط واحدة بعد الأخرى حتى اكتمل النصر للعباسيين ، أما مروان بن محمد فقد انحدر الى حران فلحق به عبد الله بن علي ، فسار الى قنسرين فحمص فدمشق ، وعبد الله يتابعه ويستولى على البلاد عنوة أو صلحا ، واستمر مروان في تهقيره فسار الى فلسطين فمصر ، أما عبد الله بن علي فقد استقر بالشام وأرسل أخاه (صالح بن علي) لمتابعة مروان الذي اتجه نحو مصر العليا ، ودارت المعركة الأخيرة بين فصيلة من جند العباسيين وبين مروان في قرية « بوصير » بمركز الراسطي بمحافظة بنى سويف ، وقد خر مروان في هذه المعركة ، فاجتزأ العباسيون رأسه وحملوه الى أبي العباس السفاح بالكوفة ، فلما رآه العباس سجد ثم رفع رأسه وقال : الحمد لله الذى أظهرنى عليك وأظفرننى بك ، لم يبق ثأرى قبلك .

وبموت مروان انتهى ملك بنى أمية وأصبح السفاح الخليفة الوحيد بالعالم الإسلامى (١) .

يزيد بن عمر بن هبيرة واستسلام واسط :

بعد سقوط مروان اتجهت قوى العباسيين إلى يزيد بن عمر بن هبيرة للقضاء عليه ، إذ أصبح يمثل آخر حضون الأمويين وقلاعهم ، ويزيد بطل من أبطال العرب ، وهو كما يقول ابن قتيبة (٢) أحد القواد القلائل الذين جتمع تحت أمرهم العراقيان (الكوفة والبصرة) . وكان شبيخا جسيما طويلا خطيبا شجاعا ، ظل يحارب العباسيين حتى بعد أن أعلنوا خلافتهم ،

(١) انظر معركة الزاب بالفخرى لابن طباطبا ص ١٢٥ — ١٢٧ .

(٢) المعارف ص ١٤٩ .

ولم يئنه عن مداومة العدااء إلا قتل مروان بن محمد وانتهاء حكم الأمويين ، وهكذا كانت واسط التى تحصن بها ابن هبيرة ، آخر حصن عز على العباسيين تسو فره ، وما دخلوه إلا صلحاً (١) ولئعد إلى المسألة بشىء من التفصيل •

لما دخل أبو مسلم الخراسانى مدينة مرو حاضرة خراسان سنة ١٣٠هـ أقام بها ووجهه قحطبة بن شبيب الطائى — وكان قد وفد عليه حديثاً من قبل إبراهيم الإمام — فى جيش من اللخراسانيين لقتال جيوش الأمويين ، فواتاه النصر عليهم حتى بلغ العراق ، وكان يزيد بن عمر بن هبيرة والياً عليه ، فأراد قحطبة أن يعبر الفرات ليواصل الضغط على ابن هبيرة ، ولكن معن بن زائدة الشيبانى أحد الأبطال العرب الذين كانوا فى ذلك الحين مع ابن هبيرة ضرب قحطبة ضربة أوقعته فى الماء فأغرقته ، وحينئذ تولى الحسن بن قحطبة قيادة جيش العباسيين مكان أبيه ، وواصل زحفه على جيش الأمويين ، فاضطر ابن هبيرة أن يخلى الكوفة وأن يدخل مدينة واسط حيث تحصن بها تحصناً محكماً ، لستمر أحد عشر شهراً ، حتى جاءهم خبر مقتل مروان بن محمد ، أتاهاهم به اسماعيل بن عبد الله القسرى وقال لهم : علام تقتلون أنفسكم وقد قتل مروان ؟ فجنحوا حينئذ إلى الصلح (٢) •

ووجهه العباسيون قوتهم كلها نحو واسط ؛ المعقل الأخير لبنى أمية ، حيث تجمع خيرة الصناديد والأبطال العرب ، ولذلك أرسل أبو العباس السفاح أخاه المنصور لمعاونة الحسن بن قحطبة ، وكتب أبو

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٦٧ — ٢٦٨ ، ابن الاثير ج ١ ص ١٦٤ وما بعدها .

(٢) ابن الاثير ج ٥ ص ١٦٥ •

العباس الى الحسن يقول : إن العسكر عسكرك ، والقواد قوادك ، ولكنى أحببت أن يكون أخى حاضراً ، فاسمع له وأطع ، وأحسن مؤازرته ، فلما قدم أبو جعفر المنصور على الحسن تحول الحسن عن خيمته وأنزله فيها ، وكان الحسن هو المدبر لذلك العسكر بأمر المنصور (١) .

وقد أدرك المنصور قوة ابن هبيرة وأنصاره من أبطال العرب ، كما يئس ابن هبيرة من النصر بعد أن قتل مروان ودالت دولة الأمويين ، فجرت بينهما محادثات للصلح ، ونشط السفراء بين الاثنين ، حتى جعل أبو جعفر لابن هبيرة أماناً ، وكتب به كتاباً ، مكث ابن هبيرة يشاور فيه العلماء أربعين يوماً حتى رضيه ، فأنفذه أبو جعفر الى أخيه السفاح ، فأمر بامضائه . وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من عبد الله بن محمد بن علي أبي جعفر وولى أمر جيش المسلمين ، ليزيد بن عمر بن هبيرة ومن معه من أهل الشام والعراق وغيرهم في مدينة واسط وأراضيها من المسلمين والمعاهدين ، انى أمنتكم بأمان الله الذى لا إله إلا هو ، الذى يعلم سرائر العباد ، ويعلم ما تخفى الصدور ، واليه الأمر كله ، أماناً صادقاً لا يشوبه غش ، ولا يخالطه باطل ، على أنفسكم ولزاريكم وأموالكم ، وأعطيت يزيد بن هبيرة ، ومن أمنتته في أعلى كتابى هذا الوفاء بما جعلت لهم من عهد الله وميثاقه الذى واثق به الأمم الماضية من خلقه ، وأخذ عليهم به أمره ، عهداً خالصاً مؤكداً ، وذمة الله (٢) وذمة محمد ، ومن مضى من خلفائه الصالحين ، وأسلافه الطيبين ، التى لا يسع العباد نقضها ، ولا تعطيل شئ منها ولا الاحتقار لها ، وبها قامت السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، تعظيماً لها ، وبها حقنت الدماء . وذمة روح

(١) المرجع السابق .

(٢) معطوف على قوله تعالى غيما سبق « من عهد الله وميثاقه » .

الله وكلمته عيسى بن مريم وذمة ابراهيم ، واسماعيل ، واسحق ، ويعقوب ،
والأسباط ، وأعطيتك ما جعلت لك من هذه العهود والمواثيق ، ولئن معك
من المسلمين وأهل الذمة ، بعد استئماري فيما جعلت لك منه أمير المؤمنين ،
أعز الله نصره ، فأمر بإنفاذه لكم ، فاطمئن إلى ما جعلت لك من
الأمان والعهود والمواثيق ، وثق بالله ولأمر المؤمنين فيما سلّم منه ورضى
به ، وجعلته لك ولئن معك على نفسى ، ولك على الوفاء بهذه العهود
والمواثيق والذمم أشد ما أخذ الله وحرّمه وما أنزل الله تبارك وتعالى
على نبيه محمد (ص) ، فانه جعله كتابا مبينا لا يأتيه الباطل من بين
يديه ولا من خلفه ، وثورا وحجة على العباد ، حتى ألقى الله وأنا
عليه . وأنا أشهد الله وملائكته ورسله ، ومن قرىء عليه كتابى هذا من
المسلمين والمعاهدين بقبول هذه العهود والمواثيق ، واقرارى بها على
نفسى ، وتوكيدى فيها ، وعلى تسليمى لك ما سألت ، لا يغادر منها
شيء ، ولا ينكث عليك فيها ، وأدخلت في أمانك هذا جميع من قبلى
من شيعة أمير المؤمنين من أهل خراسان ، ومن أمير المؤمنين عليه طاعة
من المسلمين وأهل الذمة ، وجعلت لك ألا ترى منى لنقضها ، ولا ازوراراً ،
ولا شيئاً تكرهه في دخولك على الى مفارقتك اياى ، ولا ينال أحداً معك
أمر يكرهه ، وأذنت لك ولهم في المسير والمقام ، وجعلت لهم أماناً صحيحاً ،
وعهداً وثيقاً ، وان عبد الله بن محمد [يعنى نفسه] إن نقض ما جعل لكم في
أمانكم هذا ، فنكث أو غدر بكم ، أو خالف إلى أمر تكرهه ، أو تابع على
خلافه أحداً من المخلوقين في سر أو علانية ، أو أضمر لك في نفسه غير
ما ظهر لك ، أو أدخل عليك شيئاً في أمانه ، وما ذكره من تسليم أمير
المؤمنين ، التماس الخديعة والمكر بك ، والإدخال المكروه عليك ، أو نوى
غير ما جعل لك من الوفاء به ، فلا قبيل الله منه صرفاً ولا عدلاً ،
وهو برىء من محمد بن على ، وهو يخلع أمير المؤمنين ، ويتبرأ من
طاعته ، وعليه ثلاثون حجة يمشيها من موضعه الذى هو به من مدينة

واسط الى بيت الله الحرام الذى بمكة حافياً راجلاً ، وكل مملوك يملكه من اليوم الى ثلاثين حجة [سنة] بشراء أو هبة أحرار لوجه الله ، وكل امرأة له طالق ثلاثاً ، وكل ما يملكه من ذهب أو فضة أو متاع أو دابة أو غير ذلك فهو صدقة على المساكين ، وهو يكفر بالله وبكتابه المنزل على نبيه ، والله عليه فيما وكّد وجعل على نفسه فى هذه الأيمان راع وكفيل ، وكفى بالله شهيداً » (١) •

ذلك هو كتاب الأمان ، وقد أثبتته كله ليرى القارىء ما فيه من قوة وتوكيد ، وأنه لم يدع ثغرة للغدر وعدم الوفاء ، ومع هذا فلتواصل سيرنا لنرى ماذا تم لابن هبيرة ورجاله بعد ذلك :

لما تم كتاب الأمان ألقى كل من المعسكرين السلاح ، وانتهى الهجوم والدفاع ، وخرج ابن هبيرة الى أبى جعفر فى ألف وثلثمائة ، فاستقبله الحاجب وأذن له وحده أن يدخل على المنصور ، وقضى معه ساعة ثم خرج وظل يتردد عليه يوماً بعد يوم فى خمسمائة فارس وثلثمائة راجل ، فقيل لأبى جعفر : إن ابن هبيرة يأتى فيتضعض له للعسكر ، وما نقص من سلطانه شيء ، فأمره أبو جعفر ألا يأتى الا فى حاشيته ، فكان يأتى فى ثلاثين ، ثم صار يأتى فى ثلاثة أو أربعة (٢) • وكلم ابن هبيرة المنصور أول ما اتصل به فقال : ان دولتكم هذه جديدة ، فأذيقوا الناس حلاوتها • وجنّجهم مرارتها ، لتسرع محبتكم الى قلوبهم ، ويعذب ذكركم على ألسنتهم ، ومازلت منتظراً لهذه الدعوة ، فأمر أبو جعفر برفع الستر بينه وبينه ، فنظر الى وجهه وبأسطه بالقول حتى اطمأن قلبه ، فلما خرج قال أبو جعفر لأصحابه : عجباً لمن يأمرنى بقتل مثل هذا (٣) •

(١) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٦٣ - ١٦٦ •

(٢) ابن الاثير ج ٥ ص ١٢٥ •

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١ : ٤٩ طبعة لجنة التأليف ، والمبرد :

الكامل ١ : ١٤٤ •

ولا شك أن هذه الجملة الأخيرة تشير الى أن قسوى مهمة كانت تدفع أيا جعفر المنصور للقضاء على ابن هبيرة ، ولكن اعجاب المنصور بالبطل العربى من جهة وحرصه على التوفاء بعهده من جهة أخرى جعلت المنصور يصمد فترة من الزمن فى وجه القواى التى تدفعه للفتك به ، بيد أن دوافع التخلص من ابن هبيرة ثابرت وتكاثرت ، وكان أبو مسلم الخراسانى من أهم من أشاروا بقتله ، فقد كتب الى أبى العباس السفاح يقول : (إنه قلّ طريق سهل تلتقى فيه حجارة إلا ضرّ ذلك بأهله ، لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة) فكتب أبو العباس الى جعفر يأمره بقتل ابن هبيرة وألح عليه فى ذلك ، فكتب المنصور اليه : « لا أفعل وله فى عنقى بيعة وإيمان » فكتب اليه أبو العباس « والله لتقتلنه أو لأبعثن اليك من يخرجك من عندك ويقولى ذلك عنك (١) » . وازاء الاصرار نزل أبو جعفر على رأى السفاح ورأى أبى مسلم ودبر مؤامرة للقضاء على ابن هبيرة . وقد وصف ابن الأثير (٢) وابن خلكان (٣) هذه المؤامرة التى حيكت للتخلص من ابن هبيرة وهالك موجزاً لها :

بعث أبو جعفر مَن ختم بيوت المال فى واسط ، ثم بعث الى وجوه مَن مع ابن هبيرة من القيسية والمضرية فأحضرهم ، فأقبل محمد بن نباتة ، وحوثرة بن سهيل فى اثنين وعشرين رجلاً فخرج حاجب أبى جعفر ، واستدعى ابن نباتة وحوثرة فأدخلا حجرة دون حجرة أبى جعفر ، بها ثلاثة من خواص المنصور ومائة من رجاله . فلما دخل ابن نباتة وحوثرة نزع سيوفهما وكنفا ، ثم أدخل بعدهما اثنان وفعل بهما كذلك ، وهكذا الى أن نزع سيوف الجميع وكنفوا فقال أحدهم : أعطيتونا الأمان ثم خنتم ، إنا لنرجو أن يدمركم الله ؛ وقال آخر : كأننى كنت أنظر إلى هذا ؛ ثم قتل الجميع وأخذت خواتمهم ، ثم أرسل المنصور نحواً من مائة

(١) الامامة والسياسة ٢ : ١٦٧ وابن خلكان ٢ : ٣٦٨ .

(٣) الكامل فى التاريخ ج ٥ ص ١٦٦ .

(٢) وفيات الاعيان ج ٥ ص ٣٩٦ .

من أشداء رجاله الى ابن هبيرة بحجة أنهم يريدون نقل خزائن بيت المال ، فقال ابن هبيرة لحاجبه : انطلق فدلكهم عليها ، ولكنهم بدل أن يأخذوها بدعوا ينظرون هنا وهناك ليطمئنوا أنه ليست هناك قوة تدافع عن ابن هبيرة ، فأنكر ابن هبيرة وقال : أقسم بالله إن في وجوه القوم لشرأ ، وكان معه ابنه داود وكاتبه عمر بن أيوب ، وحاجبه ، وعدة مواليه ، وابن له صغير في حجرة ؛ فأقبل رسل أبي جعفر نحروه ، فقام حاجبه في وجوههم ، فضربه أحدهم ضربة صرعة ، وقاتل ابنه داود فقتل ، وقاتل الموالى حتى قتلوا ، ونحطى ابن هبيرة ابنه الصغير من حجره ، وخر ساجداً ، فقتل وهو ساجد ، ومضوا برعوسهم الى أبي جعفر وبهذه النهاية الأليمة انتهت فلول الأمويين ورسخ ملك بنى العباس .

تعريف بخلفاء العصر العباسي الأول

هناك مدرستان مختلفتا الاتجاه فيما يتعلق بالحديث عن الخلفاء المسلمين ؛ فالمدرسة القديمة تهتم بالدراسة العرضية أى بفترة زمنية تبدأ من البيعة للخليفة وتنتهى بموته أو سقوطه ، ويكون اسم الخليفة هو العنوان العام للبحث ، وترد تحته الأحداث المختلفة بعناوين فرعية ، بعضها للشئون الداخلية ؛ كالحركات الثورية وكالاصلاحات الداخلية وكالاهتمام بشئون الثقافة ونحو ذلك ، وبعضها للشئون الخارجية كالتوسع والحروب والارتباطات الدولية •

وحجة أصحاب هذه المدرسة أن الخلفاء المسلمين كانوا — في عهد تمتعهم بالسلطة — ذوى نفوذ قوى كان ينعكس على الدولة ، فالخليفة العالم يهتم بالعلم ، والخليفة القوى يوسع دائرة سلطانه ويكثر من الفتوح وهكذا ، ويقول المثل العربى فى ذلك « الناس على دين ملوكهم » ومن أجل هذا أبرزت هذه المدرسة شخصية الخليفة وجعلت كل الأحداث صدى له وارتباطاً به •

وهذه المدرسة تعدّ امتداداً للمدرسة الزمنية التى كانت نهج بعض المؤرخين المسلمين الأول ، كالطبرى وابن الأثير وغيرهما ممن أوردوا الأحداث مرتبطة بالأعوام ، فذكروا أحداث السنة الأولى الهجرية ثم الثانية ، ثم الثالثة وهكذا •

أما المدرسة الحديثة فتتخذ الاتجاه السالف وترى أن البحوث إن جاز لها أن تتم على هذا المنهج فى الماضى ، فلا يجوز أن تستمر فى الحاضر على النهج القديم ، وذلك لسببين هامين هما :

أولاً : أن الأحداث داخلية كانت أو خارجية لا تتوقف بنهاية عام أو موت خليفة ، وإنما تسير من عام إلى عام ، ومن خليفة إلى خليفة ،

وهذا لا يجعل من المستساغ أن يثقف الحديث عنها لأن العام قد انقضى أو الخليفة قد مات ، ليستأنف الحديث مرة أخرى في العام التالي أو في عهد للخليفة الجديد ، فليس ذلك إلا تقطيعاً لأوصال الحديث بحون داع ، فحركات الخوارج أو حركات الشيعة ، والحروب الداخلية والخارجية يلزم أن يدرس كل منها مرتبطاً بالأجزاء منذ بدأ حتى انتهت .

ثانياً : لا يميل الباحثون المحدثون الى ربط كل الأحداث بالخلفاء ، ويرى هؤلاء الباحثون أن الأحداث أقوى من الخليفة مهما كانت شخصيته ومهما كان سلطانه ، فهو ليس الخالق الوحيد أو الخالق المهم للأحداث ، وإنما هناك عوامل متعددة توجه سير التاريخ ؛ فحركات الشيعة والخوارج مثلاً ليست من صنع الخلفاء ، مروان بن محمد كان أقوى من كثير من خلفاء بنى أمية ، ولكن الأحداث كانت أقوى منه فسقط وضاعت الخلافة في عهده ، والمأمون كان من أعظم الخلفاء المسلمين ولكن للثورات في الداخل والخارج شغلت عصره واستنفدت الكثير من جهده .

وتتميل هذه المدرسة الى الدراسة الطولية أى دراسة الحدث ذاته دراسة تشمل العوامل التي أدت الى ظهوره ثم السير معه حتى نهايته ، وتمتد هذه الدراسة بطبيعة الحال من عام الى عام ، ومن خليفة الى خليفة ، فلا يكون الخليفة عنوان البحث ، بل يكون الموضوع هو العنوان ؛ وذلك مثل الموضوعات التي سبق ذكرها كالخوارج والشيعة والعلاقات الخارجية ، وهكذا ويمتد الحديث عن العصر كله الذي يتوخذ كوحدة واحدة لتجانس هام فيه ؛ كالعصر العباسي الأول الذي اتفق المؤرخون على أن له طابعاً يميزه عما سواه من عصور دولة بنى العباس .

على أننا وإن ارتضينا اتجاه هذه المدرسة فإننا لا نستطيع إغفال الحديث عن الخلفاء في فترات عنفوانهم ، فطالما استطاعوا أن يفرضوا أنفسهم وأفكارهم على شعوبهم كما حدث في قضية خلق القرآن التي

سنعرض لها فيما بعد ، وطالما انعكست حياتهم على حياة الكثيرين من معاصريهم ، جدا كانت حياتهم أو لهواً •

ثم إن هناك أحداثاً تُعَدُّ من أعمال خليفة معين وينبغي لذلك أن تُنسب له ، وتُدرس معه ، وذلك كموقف الخليفة من تعيين ولى عهده ، وكالاصلاحات الداخلية التى يتجه لها هذا الخليفة أو ذاك ، وعلى العكس من هذا هناك أحداث أخرى ليست من صنع الخليفة ، وليست خاصةً بعهده كحركات الشيعة والخوارج ، وتلك ينبغي أن تُدرس مستقلة فى نطاق العصر (١) •

ومن أجل هذا فإننا نتخذ اتجاه المدرسة الحديثة ؛ فنتكلم عن التيارات متجمعةً ، ولكن مع بيان الأحداث التى كان الخلفاء مصدرها ، ومع إعطاء صورة عن الخلفاء فى عصورهم الزاهية ، وستساعدنا هذه الصورة فى بيان أثر الخلفاء فى أحداث العصر ، وبخاصة فى عصر كالعصر العباسى الأول الذى أعطيناه مزيداً من العناية فى هذا الجزء من « موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية » فلنبداً فى الأخذ بهذا الاتجاه ، ولنرسم لكل خليفة من خلفاء هذا العصر صورة أشد ما تكون صدقاً ودقة •

(١) وجهة النظر هذه اتبعناها ابتداء من الطبعة (الرابعة) •

أبو العباس عبد الله السفاح (١٣٢ — ١٣٦هـ)

نشأته وتوليته الخلافة :

هو أول خلفاء بني العباس ، ولد بالحميمة سنة ١٠٤هـ ، وأمه ربطة بنت عبيد الله الحارثي ، بويج له في اليوم الثالث من شهر ربيع الأول سنة ١٣٢هـ بالكوفة ، بعد مناورة فاشلة قام بها أبو سلمة الخلال ترمي لإسناد الخلافة للعلويين كما ذكرنا . وكان أبو العباس عند توليته الخلافة مريضاً ، ولذلك نجده يصعد المنبر بمسجد الكوفة ويلقى خطاباً غير طويل ، وقد تحدث في هذا الخطاب عن أرومة الرسول وأحقيتهم للخلافة ، وذكر بني أمية وجورهم وطغيانهم ، وذكر أهل الكوفة بالخير ، فكان مما قاله لهم : أنتم محل محبتنا ، ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثكنم عنه تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا ؛ وحباكم الله بدولتنا ، فأنتم أسعد الناس بنا ، وأكرمهم علينا ، ولقد زدتم في أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا لحمل الأمانة . وختم أبو العباس خطابه بجملة ذات بال هي : أنا السفاح المبيح والثائر المبيد (١) .

وعقب اللقاء هذا الخطاب جلس أبو العباس على المنبر ، ووقف دونه عمه داود بن علي ، فألقى خطاباً طويلاً ذكر فيه آل البيت وأنهم أحق بميراث الرسول ، وقرر أهداف بني العباس من الخلافة فقال : إنا والله ما خرجنا لهذا الأمر لنكثر لجيناً ولا عقياناً (اللجين الفضة والعقيان الذهب) ولا نحفر نهراً ، ولا نبني قصراً ، وإنما أخرجتنا الأنفة من ابتزازهم حقنا وسوء سيرة بني أمية فيكم وخرقهم بكم . . وذكر بالخير والثناء أهل خراسان (٢) .

(١) انظر الخطاب كله في الطبري ج ٩ ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(٢) انظر الخطاب كله في الطبري ج ٩ ص ١٢٦ — ١٢٨ .

وعقب هذين الخطابين نزل الخليفة وتبعه عمه داود بن علي فدخلوا القصر ، وناب أبو جعفر المنصور عن أخيه في أخذ البيعة له من الناس •

لقب « السفاح » :

يهنأ أن نعلق على الجملة الأخيرة من خطاب أبي العباس وهي : « أنا السفاح المبيع والثائر المبيد » ، فقد أصبح « السفاح » لقباً لأبي العباس عقب هذا الخطاب ، واللفظ يحتمل سفك الدماء وتهديد من تحته نفسه بالتمرد ، كما يحتمل السخاء وبذل المال ، وقد جاء في القاموس سفح الدم كمنع : أراقة ، والدمع أرسله • ويستمر صاحب القاموس فيقول : والسفاح المعطاء والفصيح (١) •

وقد ورد لفظ « السفاح » في الخطاب بعد الجملة التي قرر فيها أبو العباس الزيادة في أعطيات جند الكوفة وهذا يجعل بعض الباحثين يميل الى أن المقصود باللفظ العطاء وبذل المال ، على أن باقى الجملة (أى قوله والثائر المبيد) يرجح ما مال له أكثر المؤرخين من أن المقصود للتهديد بسفك دماء المخالفين •

من أخلاق السفاح :

ولكان أبو العباس السفاح كريماً حليماً وقوراً ، عاقلاً كاملاً ، كثير الحياء ، حسن الأخلاق (٢) ، ويقول عنه السيوطي (٣) إنه كان أسخى الناس ، ما وعد عدة فأخراها عن وقتها ، ولا قام من مجلسه حتى يقضيها • ومما يدل على كرم السفاح وسماحته هذه القصة الطريفة التي يرويها الأصفهاني ، وهالك نصها : « كان أبو دلامة واقفاً بين يدي السفاح فقال له : سلنى حاجتك • قال أبو دلامة : كلب أتصيد به • قال أعطوه إياه ،

(١) القاموس المحيط ج ١ ص ٢٢٨ — ٢٣١ •

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٢٨ •

(٣) تاريخ الخلفاء ص ١٠٠ •

قال : ودابة أتصيد عليها • قال : أعطوه دابة • قال : وغلّام يصيد بالكلب
قال أعطوه غلاما • قال : وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه • قال :
أعطوه جارية • قال : هؤلاء عبيدك يا أمير المؤمنين ، فلا بدّ لهم من دار
يسكنونها • قال : أعطوه داراً • قال : فان لم تكن لهم ضيعة فمن
أين يعيشون ؟ قال : أعطيتك مائة جربب عامرة ومائة غامرة • قال : وما
الغامرة ؟ قال : لا نبات فيها • قال : قد أعطيتك أنا يا أمير المؤمنين
خمسمائة ألف جربب غامرة من فيافي بنى أسد : فضحك الخليفة وقال :
اجعلوها كلها عامرة : قال أبو دلامة : فأذن لى أن أقبل يدك • قال :
أما هذه فدعها • قال أبو دلامة : والله ما منعت عيالى شيئاً أقلّ ضرراً
عليهم منها « (١) »

وكان أبو العباس فى أوائل أيامه يظهر للندماء : ثم لحتجب عنهم بعد
سنة ، أشار عليه بذلك أسيد بن عبد الله الخزاعى ؛ فكان يطرب ويستهج
ويصيح من وراء الستار : « أحسنت والله ، أعد هذا الصوت » ؛ وكان
لا يحضره نديم ، ولا مغن ، ولا مئله ، فينصرف الا بصلّة أو كسوة
قلعت أو كرت ، وكان لا يؤخر احسانه لعد ، ويقول : « العجب ممن
يفرح بانسان فيتعجل السرور ، ويجعل ثواب من سره تسويقاً
وعِدّة » « (٢) »

والسفاح من الخلفاء القلائل الذين قنعوا بزوجة واحدة • ولم
يتجه للجوارى والحصان ، ولعل من أسباب ذلك ، شخصية زوجته أم سلمة
ومكانتها منه ، ويحدثنا المسعودى (٣) عن أبى العباس وأم سلمة حديثاً
طريفاً نقّبسه فيما يلى : كانت أم سلمة قد تزوجت من عبد الله بن الوليد

(١) الاغانى ج ٩ ص ١١٦ •

(٢) الجاحظ : التاج فى أخلاق الملوك ص ٣٣ والسعودى : مروج الذهب

ج ٢ ص ٢١٨ •

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٢١٥ — ٢١٧ •

بن المغيرة المخزومي ، فمات ، فتزوجت بعده من عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك الأموي فمات ، فبينما هي جالسة ذات يوم ، إذ مر بها أبو العباس السفاح وكان جميلا وسيما ، فسألت عنه وعرفته ، وأرسلت له مولاة لها تعرض عليه أن يتزوجها ، وقالت لمولاتها : هذه سبعمائة دينار قدميها له اذا اشتكى الفاقة • وكانت أم سلمة تمتلك كثيرا من المال والحشم والجواهر • فأنته المولاة وعرضت عليه ذلك ، فقال السفاح : أنا مملق لا مال عندي • فدفعت اليه المال ، وأقبل الى أخيها وطلب أن يزوجه منها ، فزوجه إياها ، فأصدقها خمسمائة دينار ، وأهدى من يلوذ بها مائتي دينار ، وزفت له في ثياب موشاة بالجواهر ، وحظيت عنده حتى أصبح لا يقطع أمرا إلا بمشورتها حتى أفضت الخلافة إليه •

فلما كان ذات يوم في خلافته ، خلا به خالد بن صفوان فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنى فكرت في أمرك وسعة ملكك ، وقد مككت نفسك امرأة واحدة ، فان مرضت مرضت ، وإن غابت غاب الأ نس عنك ، وحرمت نفسك التلذذَ بظريفات الجوارى والتمتع بما يئسْتَهى منهن ، فان منهن يا أمير المؤمنين الطويلة الغيداء ، وإن منهن البضة البيضاء ، والدقيقة السمراء ، والبربرية العجزاء ، ولكل منهن فتنة ومذاق • وجعل خالد يطنب في الوصف وكان إطنابه يزيد الموضوع حلاوة وطلاوة • فلما فرغ من كلامه ، قال أبو العباس : ويحك يا خالد ! ما صكك مسامعي والله كلام أحسن مما سمعته منك ، فأعد على كلامك ، فقد وقع بمنى موقعا • فأعاده عليه خالد أحسن مما ابتدأه ، ثم انصرف ، وبقي السفاح مفكرا فيما سمع منه ، فدخلت عليه زوجته أم سلمة ، فلما رأته مفكرا مغتما قالت : إنى لأنكرك يا أمير المؤمنين ، فهل حدث أمر تكرهه أو أتاك خبر فارتعت له ؟ قال : لم يكن من ذلك شيء ، قالت : فما قصتك ؟ فجعل ينزوي عنها ، فلم تزل به حتى أخبرها بحديث خالد ، فقالت : فما قلت لابن الفاعلة ؟ قال لها : سبحان الله ! ينصحنى وتشتمينه ؟ وخَرَجَتْ من عنده مغضبة ، وأرسلت الى خالد جماعة من الرجال

الأقوياء وأمرتهم ألا يتركوا فيه عضواً صحيحاً ، قال خالد يحكى ما حدث له :
انصرفتُ إلى منزلى وأنا على السبرور بما رأيت من أمير المؤمنين وإعجابه بما
ألقيت إليه ، ولم أشك أن صلته ستأتينى • فلم ألبث حتى وصل
الى أولئك الرجال وأنا قاعد على باب دارى ، فلما رأيتهم قد أقبلوا
نحوى ، أيقنت بالجائزة واصلة ، حتى وقفوا على فسالوا عنى ،
فقلت هأنذا خالد • فسبق الى أحدهم بهراوة كانت معه ، فلما أهوى
بها على وثبت فدخلت منزلى وأغلقت الباب على واستترت ، ومكثت
أياماً على هذه الحال لا أخرج من منزلى ، ووقع فى خلدى أنى أتيت من
قبل أم سلمة ، وطلبنى السفاح طلباً شديداً ، ولم أشعر ذات يوم إلا
بقوم هجوموا على وقالوا : أجب أمير المؤمنين • فأيقنت بالموت ، فركبت
وليس على لحم ولا دم • فلما وصلت الى الخليفة أو ماء الى بالجلوس ،
ونظرت فاذا خلف ظهرى باب عليه ستور قد أرخيت ، وأحسست حركة
خلف الستور ، فقال : يا خالد ! لم أرك منذ ثلاث • قلت : كنت عليلاً
يا أمير المؤمنين ، قال : ويحك ، إنك وصفت لى فى آخر دخلة من أمر
النساء والجوارى ما لم يخرق مسامعى قط كلام أحسن منه ، فأعده
على • قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، أعلمتك أن العرب اشتقت اسم الضرة
من الضر ، وأن أحدهم ما تزوج من النساء أكثر من واحدة إلا كان
فى جهد ، فقال : ويحك ! لم يكن هذا فى الحديث ؟ قلت : بلى والله
يا أمير المؤمنين ، وأخبرت أن الثلاث من النساء كأنهن المقدر يغلى • قال
أبو العباس : برئت من قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم إن
كنت سمعت هذا فى حديثك • قال : وأخبرت أن الأربع من النساء
شر دائم لصابهن ، يشيبن ويهرمن ويُسقمهن • قال : ويحك ؟
ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبل هذا الوقت •

قال خالد : بلى والله ، قال : ويحك ! وتكذبنى ؟ قال : خالد قلت
هامساً : وتريد أن تقتلنى يا أمير المؤمنين ؟ قال الخليفة : مر فى حديثك ،
قال : وأخبرت أن أبكار الجوارى رجال ، ولكن لا خصى لهن ، قال خالد :

فسمعت الضحك من وراء الستر ، فقلت : نعم وأخبرتك أيضا أن بنى مخزوم ريحانة قريش ، وعندك ريحانة من الرياحين ، وأنت تطمح بعينك الى حرائر النساء وغيرهن من الإماء • قال خالد ، فقيل لى من وراء الستر : صدقت والله يا عماء وبررت ، بهذا حدثت أمير المؤمنين ، ولكنه بدل وغير ونطق عن لسانك • فقال أبو العباس : مالك قاتلك الله وأخزأك وفعل بك وفعل ! فتركته وخرجت وقد أيقنت بالحياة ، فما شعرت إلا برسلة أم سلمة قد ساروا الى ومعهم عشرة آلاف درهم وتخت وبرذون وغلالم •

القضاء على الأمويين ونفوذهم :

لم ينس زعماء الدولة الجديدة عقب انتصارهم ، ضحاياهم من الهاشميين الذين اعتدى عليهم الأمويون ، وأزهقوا أرواحهم ، وحينما تضرعت ابنة مروان بن محمد الى صالح بن على هاتفئة : نحن بناتك وبنات أخيك يا عم ، فليسعنا من عفوكم ما وسعكم من جورنا ، أجب : لا نستبقى منكم أحدا ، رجلا ولا امرأة ، ألم يقتل أبوك بالأمس ابن أخى ابراهيم بن محمد ؟ ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن على ابن الحسين ، وقتل امرأة زيد بالحيرة بيد يوسف بن عمرو الثقفى ؟ ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد ؟ ألم يقتل عبيد الله بن زياد مسلم ابن عقيل ؟ ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن على بيد عمر ابن سعد مع من قتل بين يديه من أهل بيته ؟ • • • فما الذى استبقيتم منا أهل البيت ؟ (١) •

وهكذا كان ينقم العباسيون على الأمويين ، ومن أجل هذا كان انتقامهم مرءا قاسيا ، يقصدون به أن يثأروا لقتلهم ، وأن يضمثوا ألا تقوم الدولة الأمويين قائمة ، أو يرفع لها صوت ، وقد عقد

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٠٧ •

الأصفهاني (١) فصلاً خاصاً ذكر فيه من قُتِلَ في عهد أبي العباس السفاح من بني أمية ، كما خصص ابن الأثير (٢) فصلاً مماثلاً لهذا الغرض . وفيما يلي لقطات من ذلك .

لما قُتِلَ مروان بن محمد وحُمِلَتْ رأسه الى أبي العباس السفاح ووضعت أمامه خراً لله ساجداً ، ثم رفع رأسه وقال : الحمد لله الذي أظهرني عليك ، وأظفرني بك ، ولم يَبْقُ ثأري قبيلتك وقبيل رهلك أعداء الدين ، ثم تمثك بقول الشاعر :

لو يشربون دمي لم يَرَوْ شاربهم
ولا دماؤهم للغيظ ترويني (٣)

ودخل سديف الشاعر على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وكان السفاح قد صفح عنه وأكرمه ، فقال سديف :

لا يغررك ما ترى من رجال
إن تحت الضلوع داء دويماً
جرد السيف وأرفع العفو حتى
لا ترى فوق ظهرها أموياً

فقال سليمان : قتلتنى يا شسيخ ودخل السفاح ، وأخذ سليمان فقتل (٤) .

(١) الاغانى ج ٤ : ٩١ — ٩٤ .

(٢) الكامل في التاريخ ٥ : ١٦١ وما بعدها .

(٣) الاغانى ٤ : ٩١ — ٩٢ ، ويروى أنه بعد أن قتل مروان واحتوى قائد عباسي اسمه عامر على مسكره : دخل هذا الى الكنيسة التي كان فيها بنات مروان ونسأوه ، فتمعد على غرائسه ، وأكل من طعامه ، فقالت له ابنة مروان الكبرى : يا عامر ! ان دهرنا أنزل مروان عن غرائسه ، واتبعك عليه فاكلت من طعامه ليلة قتله ، محتويًا على أمره . حاكيا في ملكه وحرمة وأهله ، لتأدر أن يغير ذلك . فوصل هذا الكلام الى السفاح فاستهجن ما فعله عامر وكتب اليه يويخه . شرح ابن أبي الحديد ٣ : ٢٠٥ .

(٤) الاغانى ٤ : ٩٤ ، وابن الاثير ٥ : ١٦١ .

واستطاع عمرو بن معاوية سليل بيت أبي سفيان أن يحصل على عفو
أبي العباس بقصيدةٍ يقول فيها :

كيف بالعفو عنهم وقديماً قتلوكم وهتكوا الحرمات
أين زيد وأين يحيى بن زيد يا لها من مصيبة وتراث
والإمام الذي أصيب بحرّاً ن إمام الهدى ورأس الثقات
قتلوا آل أحمد لأعفا الذنوب لمروان غافراً السيئات

فكان هجأؤه لقومه وسيلةً لنجاته ، وقد استشاط أبو العباس غيظاً
عقب سماع هذه القصيدة ، وجدّد في بنى أمية القتل والتدمير .

وقتل سليمان بن علي بالبصرة جماعة من بنى أمية عليهم الثياب
الموشاة ، وأمر بهم فجرّوا بأرجلهم فألقوا على الطريق فأكلتهم الكلاب (١) :

ودخل شبيل بن عبد الله مولى بنى هاشم على عبد الله بن علي بالمشام ،
وعنده من بنى أمية نحو تسعين رجلاً على الطعام فأقبل عليه شبيل فقال :

أصبح الملك ثابت الأساس

بالبهاليل من بنى العباس

طلبوا وتر هاشم فشقوها

بعد ميل من الزمان وباس

لا تقيّلن عبد شمس عشاراً

واقطعن كل رقعةً وغراس (٢)

ذللها أظهر التودد منها

وبها منكم كحزّ المواسي

ولقد غاظنى وغاز رفاقي

قربهم من نمارق وكراسي

(١) ابن الأثير ٥ : ١٦١ .

(٢) الرقعة : النخلة الطويلة ، والمقصود بالرقعة والغراس من شبيل منهم
ومن لا يزال طفلاً .

أنزلوها بحيث أنزلها الله
— به مدار الهوان والإتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيداً
وقتيلاً بجانب المهراس
والقتيل الذي بحران أمسى
ثاويًا بين غربة وتكاسر

فلما سمع عبد الله ذلك أمر بهم فقتلوا جميعاً ، وبسطت عليهم
الأنطاع وجلس فوقها عبد الله ليأكل طعامه ، وهو يسمع أنين
بعضهم (١) .

ولم يكتف العباسيون بالتنكيل بالأحياء بل يقال إن عبد الله بن
على أمر بنبش قبور بني أمية بدمشق فنُبش قبر معاوية ، ويزيد ،
وعبد الملك ، وهشام فلم يوجد في القبر إلا العضو بعد العضو ، إلا هشام
ابن عبد الملك ، فانه وجد صحيحاً لم يَبْلُ منه إلا أرنبة أنفه ، فضره
بالسياط وصلبه وحرقه وذراه في الريح ، مثلما فعل هذا بيزيد بن على
ابن الحسين منذ بضع سنوات (٢) .

وربما علك بعض الباحثين لمثل هذه المعاملة بأن الشام بعد سقوط
الأمويين كانت لا تزال تموج بأنصارهم ، ولولا هذه القسوة لمَهَبَتْ
بالشام حركات كان يمكن أن ترزعزع عرش الدولة الناشئة .

السفاح وولاية العهد :

كانت ولاية العهد مثار متاعب لخلفاء هذا العصر ، وبخاصة بسبب
ولاية العهد لأكثر من واحد ، تلك السياسة التي اتبعها أكثر خلفاء العصر

(١) المرجع السابق . وقد وردت هذه القصيدة في الاغاني ٤ : ٩٢ — ٩٣
منسوبة الى سديف وذكرت القصة في الاغاني والفخري ص ١٢٩ على انها وقعت
امام الخليفة .

(٢) ابن الاثير ٥ : ١٦١ .

العباسي الأول ، واستنفذ التفكير فيها كثيراً في نشاطهم ، والعجيب أن أغلب قصور الخلفاء في هذه الفترة شُغلت بمشكلة ولاية العهد ، شغل بها المنصور والمهدي والهادي والرشيد والأمين ، وقل من خلفاء هذا العصر من انتفع بالأحداث والتاريخ فتلافى الوقوع في هذه المشكلة ، ويجدر بنا قبل أن نتكلم عن الأحداث المتصلة بولاية العهد في هذا العصر أن نذكر كلمة موجزة عن الاتجاه الإسلامي نحو ولاية العهد :

الإسلام وفكرة ولاية العهد :

تحدثنا عن فلسفة الاسلام تجاه ولاية العهد في كتابنا « السياسة في الفكر الاسلامي » ولكننا هنا نذكر إلمامة قصيرة عن هذا الموضوع فنقرر أن الاسلام لا يعرف التوارث في الحكم ، ولا يقر حكومة للمستقبل مع حكومة قائمة بالأمر ، والاسلام يدع للمسلمين أمر اختيار رئيسهم وليس ذلك الأمر للخليفة ، ولكن أغلب الخلفاء تحايلوا لتعيين ولاية العهد من أبنائهم ، ومنهم من اختار اثنين أو ثلاثة من الأبناء مما عقد المشكلة وزادها صعوبة .

ومع هذا فموقف الخليفة السفاح من هذه المشكلة كان يسيراً بالنسبة لتطورات المشكلة فيما بعد ، إذ المعروف أنه عقد ولاية العهد لأخيه المنصور وجعل من بعده ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد ابن علي ، وتوفي بعد ذلك بمدة وجيزة .

وزراء السفاح وكبار الرجال في عهده :

وأشهر الرجال الذين اعتمد عليهم السفاح أخوه أبو جعفر المنصور ، وأعمامه عبد الله وداود وصالح أولاد علي بن عبد الله بن العباس ، وأبو مسلم الخراساني ، وسيرد فيما بعد مزيد من الحديث عن أهم هؤلاء ، أما وزراء السفاح فهم أبو سلمة الخلال وقد سبق الحديث عنه ، وخالد بن برمك ، وسيرد ذكر مفصل له مع الكلام عن البرامكة .

وبمناسبة الحديث عن الوزارة والوزراء ينبغي أن نذكر ملاحظتين مهمتين :

الأولى — أوردنا في كتابنا « السياسة في الفكر الاسلامي » دراسة شاملة عن منصب الوزارة : نشأته وتطوره وأنواعه وشروط الوزراء وعملهم فليرجع لذلك من يشاء .

الثانية — بعض الوزراء في العصر العباسي الأول كانوا تابعين للخلفاء ومنفذين لتعليماتهم ، وسنورد مع كل خليفة وزراءه من هذا النوع ، ولكن هناك وزراء آخريين في هذا العصر لعبوا دوراً كبيراً في الحياة العامة ، وكان لهم نفوذ أوسع ، وسنخص هؤلاء بحديث خاص عنوانه « مشاهير وزراء العصر » وبخاصة أن هؤلاء قد ارتبطوا بالمؤامرات التي حاكها الربيع بن يونس وابنه الفضل .

وفاة السفاح :

بقى السفاح في الخلافة أربع سنين وتسعة أشهر ، ومات في مدينة الأنبار يوم الأحد في النصف الأول من شهر ذي الحجة سنة ١٣٦هـ ، وقد تلت وفاته أحداثٌ سنشرحها في حديثنا عن الخليفة المنصور فيما يلي :

أبو جعفر المنصور (١٣٦ — ١٥٨ هـ)

نشأته وتوليته الخلافة :

فحل بنى العباس هيبة وشجاعة وحزما ورأيا وجبروتا (١) وهو المؤسس الحقيقي للدولة العباسية ، كان العضد الأقوى والمساعد الأشد للسفاح في أثناء حياة السفاح ، ثم آل له الأمر سنة ١٣٦ هـ فواجهته مشكلات جسام استطاع بمواهبه أن يتغلب عليها ، فدعم بذلك أساس الدولة وقوى بنيانها .

وقد ولد المنصور بالحمية سنة ١٠١ هـ من أم ولد اسمها سلامة ، وولاه السفاح عهده ، فلما مات السفاح — وأبو جعفر بالحجاز أميرا للحج — أخذ عيسى بن موسى البيعة له بالأنبار ، وبايعه الناس في كل مكان عقب ذلك إلا عبد الله بن علي ومن معه وستحدث عنه فيما بعد .

شخصية المنصور :

نقتبس من ابن طباطبا بعض فقرات تشرح لنا نواحي مهمة في حياة المنصور ، قال :

كان المنصور من عظماء الملوك وحزمائهم وعقلائهم وعلماهم وذوى الآراء الصائبة منهم والتدبيرات السديدة ، وقورا شديدا الوقار ، حسن الخلق ، تراه في بيته من أشد الناس احتمالا للعبث والمزاج ، فاذا لبس ثيابه وخرج الى المجلس العام تغير لونه ، واحمرت عيناه ، وانقلبت جميع أوصافه ، وهو يقول في ذلك لأولاده : يا بني إذا رأيتموني قد لبست ثيابي وخرجت الى المجلس فلا يدنون أحد منى مضائقه أن أعرفه بشيء (٢) .

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٠١ .

(٢) الفخرى ص ١٣٥ — ١٣٦ ، وأمره إي أخيه وأزمجه .

ويروى ابن طباطبا عن يزيد بن عمر هبيرة قوله في المنصور : ما رأيت رجلا في حرب أو سلم أكر ولا أنكر ولا أشد تيقظا من المنصور ، لقد حاصرني تسعة شهور ، ومعى فرسان العرب ، فجهدنا كل الجهد لننال من عسكره شيئا ، فما قدرنا لشدة ضبطه لعسكره وكثرة يقظته ، ولقد حصرني وما في رأسى شعرة بيضاء ، ثم انقضى ذلك وما في رأسى شعرة سوداء (١) .

والمنصور هو الذى أصل الدولة وضبط المملكة ، ورثب القواعد ، وأقام الناموس واخترع أشياء ذات بال (٢) . وقد قابل المنصور ثورات خطيرة من شأنها أن تهز العروش وترزع النفوس ، ولكن المنصور كان ثابت الجأش خلالها واستطاع بكياسته ومهارته أن ينتصر فيها جميعا ، لقد ثار في وجهه عمه عبد الله بن على ومعه صناديد الجيش العباسى ، وتفاقم في عهده خطر أبى مسلم ، وهب في وجهه محمد بن عبد الله (النفس الزكية) وأخوه إبراهيم ، ولكنه في هذه وسواها كان بطلا ، وكان سياسيا حكيما فانتصر فيها جميعا انتصارا مؤزرا كما سنرى ذلك فيما بعد ، وقد استطاع المنصور بذلك أن يجعل ملك بنى العباس راسخ الأساس قوى الدعائم ، وأن يترك لابنه المهدي مملكة عريضة مهيبة الجانب في الداخل والخارج .

ولا أدل على حذق المنصور وعمق تفكيره من تصرفه إزاء هذه المشكلات . فقد استعان بأبى مسلم الخراسانى في القضاء على عبد الله لبن على ، حتى إذا فرغ أبو مسلم من ذلك جاء الدور عليه . وكذلك استعان بعيسى بن موسى في القضاء على محمد بن عبد الله بن الحسن وأخيه إبراهيم ، واختار عيسى بن موسى لأنه كان في ذلك الحين وليا

(١) المرجع السابق ص ١٣٦ — ١٣٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٣٧ .

لعهده ، فهو حريص على سلامة هذا الملك الذي سيؤول إليه فيما بعد ، ولما انتهت عيسى من مهمته كاشفه المنصور بنيته ، وأرغمه على أن يقدم المهدي على نفسه في ولاية العهد .

وكان المنصور شديد الشغف بابنه المهدي ، فكان إذا صادر أحدا على مال وضع ذلك المال في مكان خاص ببيت المال ، وكتب عليه اسم صاحبه ، فلما مرض مرض الوفاة قال لابنه المهدي : يا بني إني قد أفردت كل شيء أخذته من الناس على وجه المصادرة ، وكتبت عليه أسماء أصحابه ، فإذا وليت أنت فأعده إلى أربابه ، ليدعو لك الناس ويحبوك^(١) .

حرص المنصور :

ومما عرف به المنصور أنه كان شديد الشغف بالمال ، بارعا كل البراعة في ابتكار الطرق لجمعه والحصول عليه ، روى أنه عمل للكوفة والبصرة خندقا وسورا ، وقرر أن يجمع نفقاتهما من الأهلين ، ورغب ألا يفوته أحد منهم ، فأمر أن يُمْنَح كل فرد بهما خمسة دراهم ، فتقدموا جميعاً لأخذ هذه الدراهم وبذلك تمكن من حصر عددهم ، ثم أمر أن يجبى من كل واحد أربعون درهما . فقال الشاعر في ذلك :

يا لقوم ما لقينا من أمير المؤمنين

تقسم الخمسة فينسا وجباننا أربعينا^(٢)

وكان المنصور بخيلا ممسك اليد ، حدثت الوضين بن عطاء قال : استترارني أبو جعفر وكانت بيني وبينه خلالة وصداقة قبل الخلافة ، فصرت إلى مدينة السلام ، فخلونا يوما ، فقال يا أبا عبد الله ، ما مالك ؟

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ١٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٢ .

قلت الخبر الذى يعرفه أمير المؤمنين • قال : وما عيالك ؟ قلت ثلاث بنات
والمرأة وخادم لمن ، فقال لى : أربع نساء فى بيتك ؟ قلت : نعم • وردد
للمنصور على ذلك ثلاثاً حتى ظننت أنه سيموئلى • ثم رفع رأسه إلى
وقال : أنت أيسر العرب ، أربع مغازل يدُرْنَ فى بيتك (١) •

ويُروى أن أبا دلامة دخل على المنصور فأنشده :

رأيتك فى المنام كسوت جلدى ثياباً جمّة وقضيت دينى
فصدّقى يا غدتك الناس رؤيا رأيتها فى المنام كذلك عيني

فأمر له بذلك ، وقال له : لا تتعلم على ثانية ، فأجعل حلمك أضغاثاً
والأحققه (٢) •

ولما مات ابنه الأكبر جعفر ، جزع المنصور عليه ، وطلب من حاجبه
الربيع بن يونس أن يحضر له من بين بنى هاشم من ينشده قصيدة
أبى ذؤيب :

* أمن المنون وريبها تتوجع *

لعله يتسلى بها ، ولكن الربيع لم يجد من بين بنى هاشم من يحفظها ،
فحزن لذلك المنصور ، وأمره أن يحضر له من ينشده إياها من بين العامة ،
وجد الربيع حتى أحضر له شيخاً كبيراً مؤدّباً ، وبدأ الشيخ ينشد
القصيدة حتى قال :

* والدهر ليس بمتع من يجزع *

فقال المنصور : صدق والله ، أنشدنى هذا البيت مائة مرة ليعتدد
هذا المصراع على ، ففعل الرجل ، فلما انتهى الشيخ من الإنشاد خرج ،

(١) المرجع السابق ص ١٠ •

(٢) الاغانى ج ٩ ص ١١٢ •

(٣) الاغانى ج ٩ ص ٥٩ •

فتبعه الربيع وقال له : أأمر لك أمير المؤمنين بشيء ؟ فأراه صرة في يده فيها مائة درهم (١) .

وهناك أقاصيص كثيرة لا يقف المنصور موقف المانع المقتر فحسب ، ولكنه يسترد أو يحاول أن يسترد مِنَحاً دفعها سواه من الأجواد ، فقد روى الأصفهاني أن المؤمل الشاعر قدم على المهدي بالرّثى ، وهو إذ ذاك ولى عهد ، فامتدحه بأبيات ، فمنحه المهدي عشرين ألف درهم ، فكتب بذلك صاحب البريد الى المنصور ، فكتب المنصور الى المهدي يعذّله ويلومه ، وطلب الشاعر حتى أمّتي به ، فقال له المنصور أتيت غلاماً غراً كريماً فخذعته فانخدع ، أنشدنى ما قلت فيه ، فأنشده قصيدته التى منها :

هو المهديّ إلا أن فيه مشابه صورة القمر النير
لقد سبق الملوك أبوه حتى بقوا ما بين كابٍ أو حسير
فإن بلغ الصغير مدى كبير فقد خُلِقَ الصغير من الكبير

فقال المنصور : أحسنت ولكن هذا لا يساوى عشرين ألف درهم ، يا ربيع أعطه منها أربعة آلاف وخذ الباقي ، ولما آلت الخلافة الى المهدي حضر الشاعر ورفع له ظلامة بين رقاع المظالم فلما قرأها المهدي ضحك ، وأعاد له ما أخذ منه ، وزاده أربعة آلاف درهم (٢) .

وكان مسلم الحادى ممن يجيدون الحداء ، وقد حدا يوماً للمنصور حداء أطرب المنصور وأعجبه حتى ضرب برجله المحمل ، ثم قال : يا ربيع ، أعطه عشرين درهماً ، فقال مسلم : يا أمير المؤمنين ، والله لقد حدثت لهشام ، فأمر لى بثلاثين ألف درهم ، فقال المنصور : تأخذ من مال المسلمين ثلاثين ألف درهم من أجل حداء ؟ يا ربيع ، وكلّ به من يستخلص منه هذا المال . قال الربيع : فما زلت أمشى بينهما وأروض المنصور فما سكت حتى قبل مسلم على نفسه أن يحدو للمنصور فى ذهابه وإيابه بغير مؤونة (٣) .

(١) البيهقى ، المحاسن والمساوىء ٢٧٠ — ٢٧١ .

(٢) الابشيهى ، المستطرف فى كل فن مستظرف ١ : ١٧٢ .

المنصور والشراب والندماء :

ولم يكن المنصور يحب الشراب ، والا يسمح به على مائدته ، فقدم عليه بختيشوع الطبيب مرة ، فأمر المنصور أن يُعَدَّ له طعام ، فلما جلس بختيشوع الى المائدة طلب شراباً ، فقيل له : لا يُشرب على مائدة أمير المؤمنين . فقال : لا أكل طعاماً ليس معه شراب ، فأخبر المنصور بذلك ، فقال : دعوه ، فلما حضر العشاء فُعل به مثل ذلك ، فطلب الشراب ، فقيل له : لا يشرب على مائدة أمير المؤمنين فتعشى وشرب ماء دجلة ، فلما كان من الغد ، نظر الى مائه وقال : ما كنت أحسب شيئاً يغنى عن الشراب ، فهذا ماء دجلة يغنى عنه (١) .

وكان المنصور لا يظهر لنديم قط ، فاذا جلس يسمع جعل بينه وبين الستارة عشرين ذراعاً ، وبين الستارة والندماء مثلها ، وكان لا يثيب أحداً من ندمائه وغيرهم درهماً فيكون له رسماً في ديوان ، ولم يقطع أحداً ممن كان يُنسب إلى ملهية أو ضحك أو هزل موضع قدم من الأرض ، وكان يتذكر أعطياته مدة لا تقل عن عشر سنوات ، ويستطيع أن يتذكر بها من نالها ، وكان أبو جعفر يقول : من صنع مثل ما صنع إليه فقد كافأ ، ومن أضعف كان مشكوراً ، ومن علم أن ما صنع فالى نفسه صنع ، لم يستبطىء الناس في شكرهم ، ولم يستردهم في مودتهم ، ولا تلتمس من غيرك شكر ما وقَّيْتُ به عرضك ، واعلم أن طالب الحاجة لم يكرم وجهه عن مسألتك ، فأكرم وجهك عن رده (٢) .

ومن أجمل ما وُصف به أبو جعفر المنصور قول ابن هرمة :

إذا ما أتى شيئاً ، مضى كالذى أتى
وإن قال : إني فاعل ، فهو فاعل

(١) الطبرى ٩ : ٣٠٩ .

(٢)

كريم له وجهان : وجه له الرضا
أسيل ، ووجه في الكريهة بأسل
فأمم الذي آمنت آمنة الردى
وأمم الذي حاولت بالشكل ثاكل (١)

وزراء المنصور وكبار رجال دولته :

وزر للمنصور أبو أيوب المورياني والربيع بن يونس ، وطبيعي أنه
في عهد خليفة قوى كالمصور كان نفوذ الوزراء محدوداً ، ولم يكونوا
سوى صدى لاتجاهات الخلافة ورغباته .

وعلى ذكر الربيع بن يونس ينبغي أن نقول كلمة سريعة سنعود لها
بكثير من الشرح والتفصيل ، تلك الكلمة هي أن الربيع بن يونس وابنه
الفضل بن الربيع مثلاً في قصور الخلفاء العباسيين دوراً بالغ المدى في
مجال الدسّ والمؤامرة ، واستطاع كل منهما أن يوقع الردى بمن نافسه
في هذه القصور ، وكان أبو أيوب المورياني من ضحايا الربيع ، كما كان
من ضحايا معاوية بن يسار الذي كان وزيراً للمهدى . ثم جاء الفضل
ابن الربيع فورث الدس عن أبيه ، فكان من أهم العوامل التي قضت بنكبة
البرامكة ، كما أثار الفتنة بين الأمين والمأمون ، تلك الفتنة التي كانت سبب
حرب طويلة قاسية .

تلك كلمة موجزة سنشرحها بتفصيل كاف فيما بعد .

ومن أهم الرجال الذين اعتمد عليهم المنصور في الميادين العسكرية ،
عيسى بن موسى ، وأبو مسلم الخراساني ، وممن بن زائدة الشيباني ،
ومن العلماء الذين تألقوا في عهد المنصور محمد بن عبد الرحمن بن أبي

(١) أبو علي القالي : ذيل الامالي والنوادر ص ٤٠ .

ليلى قاضى قضاة المنصور ، والإمامان العظيمان أبو حنيفة النعمان ومالك ابن أنس •

هذا ولم يستتب الأمر لأبى جعفر المنصور إلا بعد صراع طويل مرير ضد عمه عبد الله بن على الذى ادعى أن السفاح عينه ولياً لعهدده وأنه لذلك أولى بالخلافة من المنصور ، ثم ضد أبى مسلم الخراسانى الذى كان نفوذه يهدد سلطان العباسيين ، وفيما يلى وصف "لهذا الصراع ضد هذين البطلين •

المنصور وعبد الله بن على

كان السفاح قبيل وفاته قد عقد لأخيه المنصور وجعله ولى عهد المسلمين ، وجعل من بعده ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن على ، ثم توفى السفاح بعد مدة ولجيزة كما قلنا ، وكان المنصور آنذاك حاجباً بمكة ، فقام عيسى بن موسى بأخذ البيعة للخليفة الجديد ، وكتب له يعلمه بموت السفاح والبيعة له ، وقد جزع أبو جعفر عندما وصله الخبر جزعاً شديداً • فسأله أبو مسلم الخراسانى وكان يحج معه : ما هذا الجزع وقد أنتك الخلافة ؟ فقال : أتخوف شر عمى عبد الله بن على وشغبه على • قال أبو مسلم لا تخفه فأنا أكفيكه ان شاء الله ، انما عامة جنده ومن معه من أهل خراسان ، وهم لا يعصوننى ، فسرّى عن المنصور ، وبايع له أبو مسلم كما بايع له الناس هناك •

ولما عرف عبد الله بن على وهو والى الشام خبر وفاة السفاح والبيعة للمنصور ، أمر منادياً فنادى : الصلاة جامعة • فاجتمع الناس عليه ، فقرأ عليهم كتاب عيسى بن موسى اليه بوفاة السفاح ودعاهم الى نفسه ، وأعلمهم أن السفاح حين أراد أن يوجه الجنود الى مروان بن محمد ، دعا بنى أبيه فأرادهم الى السير اليه ، وقال : من سار منكم اليه ، فهو ولى عهدي • فلم يثتدّب غيرى ، وعلى هذا خرجت من عنده ، وقتلت من قتلت • وشهد له أبو غانم الطائى وخفاف المرزوى وغيرهما من القواد ، فبايعه جيشه كما بايعه أهل الشام والجزيرة الذين كان هواهم مع

الأمويين ، وكانوا يرحّبون بأى خلاف يقع فى صفوف العباسيين ،
واتسع بذلك نفوذ عبد الله ، وهكذا أعلن عبد الله بن على تمرده على
ال خليفة الجديد ، فتحقق بذلك ما توقعه المنصور •

ولما عرف المنصور ما فعله عبد الله كتب إليه :

سأجعل نفسى منك حيث جعلتها
وللدهر أيام لهن عواقب

وسيرّ إليه جيشاً عظيماً بقيادة أبى مسلم ، وهكذا تقف وجهاً لوجه
قوتان عظيمتان على رأسهما أعظم قائدين فى ذلك التاريخ •

أسباب انتصار أبى مسلم على عبد الله بن على :

وقد جرت عدة أحداث جعلت كفة أبى مسلم ترجح كفة عبد الله بن
على • ومن ذلك ما يذكره المؤرخون من أن عبد الله خاف ألا ينصحه أهل
خراسان الذين كانوا معه ، فقتل منهم نحواً من سبعة عشر ألفاً ، وإن كان
هذا الرقم يبدو أنه مبالغ فيه إلى حد كبير •

ومن ذلك أيضاً ما روى أن عبد الله تشكك فى قائد من أمهر قواده
هو حميد بن قحطبة • وأراد أن يتخلص منه ، ولكن الطريق الذى
سلكه لذلك لم يكن طريقاً حكيماً ، فانه أخبره أنه ولاء إمارة
حلب وكتب معه كتاباً الى واليها ، فلما سار حميد ومن معه شوطاً
بدأ حميد يوجس خيفة من الكتاب المغلق الذى يحمله ، ففتحه
فوجد به أمراً بالفتك به موجهاً الى والى حلب ، فقرأه حميد على من
معه ، وأخبرهم عزمه على أن ينحدر الى العراق ، فتبعه ناس كثيرون
ممن كانوا معه •

ومن ذلك أيضاً خدعة قام بها أبو مسلم ، فان جيش عبد الله
كان قد اتخذ له مكاناً حصيناً عسكر فيه ، فأرسل أبو مسلم اليه
يقول : إنى لم أومر بقتالك ، ولكن أمير المؤمنين ولانى الشام ، فأنا
أريدها • فقال من كان مع عبد الله من أهل الشام : كيف نكون معك وهذا

يأتى بلادنا فيقتل من قدر عليه من رجالنا ويسبى ذرارينا ؟ ولكن نخرج الى بلادنا فنمنعها ونقاتله ، وبعثاً حاول عبد الله أن يخبرهم أنها خدعة من أبى مسلم ، فلما نزل عبد الله عند رغبتهم ، وترك مكانه الحصين وتحول نحو الشام ، تحول أبو مسلم وعسكر في ذلك المكان الحصين .

ودارت الحرب الضروس بين القوتين الهائلتين ، وكانت سجالات في أغلب معاركها ، وبعد خمسة أشهر استطاع أبو مسلم أن ينتصر وأن يهزم أصحاب عبد الله ، ولما أحس عبد الله الهزيمة سأل أحد أصفياه أن يشير عليه بالفرار أو البقاء . فأشار عليه أن يصبر ويقاقل حتى الموت ، فان الفرار قبيح بمثله ، وقد عابه على مروان بن محمد ، لكن الحرص على البقاء تغلب على عبد الله ، ففرّ ولجأ إلى أخيه سليمان بن علي بالبصرة ، واستطاع بهذا أن يطيل عمره فترة من الزمن ، ولكنها بلا شك كانت فترة مملوءة بالأكدار سنعود للحديث عنها بعد قليل ، وبفرار عبد الله استسلم جيشه فاحتواه أبو مسلم (١) .

ويخطر الآن بالذهن سؤالان لهما شيء من الأهمية :

(أولاً) هل حقيقة وعد السفاح عبد الله بولاية العهد ؟ وبماذا توحى الروايات التاريخية ؟ .

الظاهر لى صدق عبد الله في هذا الزعم ، بدليل شهادة هؤلاء الشهود ولستمرارهم على الكفاح بجانبه هذه المدة الطويلة دون أن تظهر أية بادرة لخوكرهم ورجوعهم عن شهادتهم ، ثم ان توكشع المنصور أن يثور عبد الله دون سواء ليكدل على أن هناك وعداً من السفاح توقع المنصور أن يكون دعامة يعتمد عليها عبد الله في دعواه ، غير أن هذا الوعد ان كان قد حصل لم يثدعم بسجل كتابى .

(ثانياً) وإذا كان عبد الله يسعى لهذا المنصب لأنه رأى في نفسه الكفاءة له ، فلماذا ثار على المنصور ولم يثر على السفاح ؟

(١) ابن الاثير ج ٥ ص ١٧٣ — ١٧٥ ، ومروج الذهب للمسعودى ص ٢٣٤ .

الجواب : أن الوقت الذي ولى فيه السفاح لم يكن يسمح بالخلاف بين صفوف العباسيين ، فكل ما كانوا يهتمون به في ذلك الجو هو نزع السلطان من الأمويين ، وجعل الخلافة فيهم ليحققوا بذلك هدفاً طال سعيهم إليه ، وكفاحهم من أجله .

وهل كان منصب الخلافة عند تولية السفاح منصباً براقاً يدعو للتنافس ؟ .. أعتقد أن الإجابة يجب أن تكون بالنفي .. لأن السفاح تولى في فترة شاذة ، ولا تزال لدى مروان جيوش قوية تدافع عنه ، فالذي يشغل هذا المنصب سيكون كبش الفداء لو أصيبت الحركة بنكسر ولو مدة قصيرة .

نهاية عبد الله بن علي :

لجأ عبد الله بن علي كما قلنا إلى البصرة حيث يقيم أخواه سليمان وعيسى فبلغ ذلك المنصور ، فأرسل إلى سليمان وعيسى في إشخاص عبد الله ، فتوسطا له عند المنصور ، ليرضى عنه ولا يؤاخذ به بما جرى منه ، فقبل شفاعتهما ، واتفقا على أن يكتبوا له أماناً من المنصور ، وكان عبد الله بن المقفع يعمل كاتباً لعيسى بن علي فطلب إليه عيسى وسليمان أن يعمل نسخة للأمان فعملها ووكدها ، واحترس من كل تأويل يجوز أن يقع فيها ، وترددت بين أبي جعفر وبينهم في النسخة كتب إلى أن استقرت على ما أرادوا من الاحتياط ، بحيث لا يتهماً لأبي جعفر إيقاع حيلة فيها لفرط تأكيد ابن المقفع ، واحتياطه ، وفيما يلي فقرات من هذا الكتاب الطويل .

« وإن أئنا نلت عبد الله بن علي أو أحداً ممن معه بصغير من المكروه أو كبير ، أو أوصلت إلى أحد منهم ضرراً براً أو علانية ، على الوجوه والأسباب كلها ، تصريحاً أو كتابة ، أو بحيلة من الحيل ، فأنا نقي من محمد بن علي بن عبد الله ، ومولود لغير رُسدة [أي ولد سفاح وزنى] ، وقد حل لجميع أمة محمد خلعي وخربتي والبراءة مني ، ولا بيعة لي في رقاب المسلمين : ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من

طاعتى ، وإعانة من ناوأنى من جميع الخلق ، ولا موالاة بينى وبين أحد من المسلمين ، وأنا متبرئ من الحول والقوة ومدّع ، وكافر بجميع الأديان ، ألقى ربى على غير دين ولا شريعة ، محرّم المأكّل والمشرب ، والمناكح والركب والرق والملك والملبس على الوجوه والأسباب كلها ، وكتبت بخطى ، ولأنية لى سواه ، ولا يقبل الله منى إلا إياه والوفاء به (١) .

فوقّع المنصور الكتاب وأرسله الى عمه عيسى قائلاً : اذا وقعت عيني على عبد الله فهذا للأمان له ، لأننى لا آمن أن أعطيه إياه قبل رؤيتى له ، فيسير فى البلاد ، ويسعى على الفساد . فقدم سليمان وعيسى بعبد الله وقواده ومواليه على المنصور فى ذى الحجة سنة ١٣٩ هـ ، فلما قدموا عليه أذن لسليمان وعيسى فدخلوا عليه ، وأعلماه حضور عبد الله ، وسألاه الإذن له ، فشغلها بالحديث ، وكان قد هياّ لعبد الله مكانا فى قصره ، وأمر به أن يصرف اليه بعد دخول سليمان وعيسى ففعل به ذلك ثم نهض المنصور وقال لسليمان وعيسى : خذا عبد الله معكما الآن ، فلما خرجا لم يجدا عبد الله فعلما أنه ألقى القبض عليه ، فرجعا الى المنصور فمُنِعَا عنه (٢) . وأُخِذَتْ عند ذلك سيوف من حضر من أصحابه وحبسوا ، ثم أمر المنصور بقتل بعضهم بحضرته ، وبَعَثَ الباقيين الى أبى داود خالد ابن ابراهيم بخراسان فقتلهم هناك (٣) .

أما عبد الله فقد ظل فى الحبس ، حتى سنة ١٤٧ هـ ، وقد أراد المنصور أن يحج هذا العام بعد تقليده المهدي ولاية العهد وتقديمه فيها على عيسى ابن موسى ، ولكن المنصور أحس بأن حياة عبد الله ربما تكون خطراً على ابنه كما كانت خطراً عليه ، ولذلك نجد المنصور يتوق إلى أن يتخلص نهائياً من عمه عبد الله بن على ، ويود لو استطاع أن يجعل المؤامرة مزدوجة ،

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ١٠٣ — ١٠٤ .

(٢) لم تقع عين المنصور على عبد الله ومعنى هذا عدم التزامه بتنفيذ العهد . ومن عجيب أن يقتنع الناس بمثل هذا العهد ، وكان عليهم أن يتذكروا ما حدث لأبى سلمة ولابن هبيرة .

(٣) ابن الاثير ٥ : ٣٨٠ .

فيتخلص في الوقت نفسه من ابن أخيه عيسى بن موسى ، وهكذا دبر المنصور المؤامرة التي يحكيها لنا الجهشيارى (١) ، وابن الأثير (٢) كما يلي :

دفع المنصور عمه عبد الله بن علي إلى عيسى وأمره سراً بقتله ، وقال له : إن الخلافة صائرة اليك بعد المهدي ، فاضرب عنقه ، وإياك أن تضعف فتتنقض على أمرى الذى دبرته ، ثم مضى إلى مكة ، وكتب إلى عيسى من الطريق يستعلم منه ما فعل فى الأمر الذى أمره به ، فكتب عيسى فى الجواب : قد أنفذت ما أمرت به ، فلم يشك أنه قتله ، وكان عيسى حين أخذ عبد الله من المنصور دعا أحد كتابه وأخبره الخبر ، فقال الكاتب : أراد أن تقتله ثم يقتلك به ، لأنه أمر بقتله سراً ، ثم يدعيه عليك علانية ، فلا تقتله واكتم أمره ، ففعل عيسى ذلك . فلما قدم المنصور ، أو عز إلى أعمامه من يحركهم للشفاعة فى أخيهام عبد الله ، ففعلوا وشفعوا ، فقبل شفاعتهم ، وقال لعيسى فى حضرتهم : إبنى كنت دفعت اليك عمى وعمك عبد الله ليكون فى منزلك ، وقد كلمنى عمومك فيه ، وقد صفحت عنه ، غافلتنا به .

قال عيسى : يا أمير المؤمنين ، ألم تأمرنى بقتله ؟ قال المنصور ما أمرتك بقتله . قال : بلى أمرتنى . قال : ما أمرتك إلا بحبسه ، وقد كذبت . ثم قال المنصور لعمومته : إن هذا قد أقر لكم بقتل أخيكم ، قالوا فادفعه إلينا للقتل ، فسلمه اليهم وخرجوا به إلى الرحبة ، واجتمع الناس ، وذاع الأمر ، وقام أحدهم ليقتله ، فقال عيسى : أفعال أنت ؟ قال : إى والله . قال : ردونى إلى أمير المؤمنين ، فردوه إليه ، فقال له : إنما أردت أن أقتله لتقتلنى ، هذا عمك حى سوى ، قال : اتئتابه ، فأتاه به ، قال : يدخل حتى أرى رأبى . ثم انصرف الجمع .

وإذ أخفقت هذه المؤامرة ، أعمل المنصور فكره لينجح فى مؤامرة

(١) الوزراء والكتاب ص ١٣٠ .

(٢) الكلل فى التاريخ ٥ : ٢١٥ - ٢١٦ .

أخرى ، فدفع عبد الله بن علي إلى أبي الأثرر الملهب بن أبي عيسى ، فلم يزل عنده محبوباً ثم أمره بقتله ، فدخل عليه ، وأخذ معه جارية له ، فبدأ بعبد الله فخنقه حتى مات ، ثم مده على الفراش ، ثم أخذ للجارية ليخنقها ، فقالت : يا عبد الله ، قِيتلةٌ غير هذه ، فكان أبو الأثرر يقول : ما جزعت لأحد قتلته غيرها ، ثم وضعها بعد أن خنقها على الفراش بجانب عبد الله ، وأدخلت يده تحت جنبها ويدها تحت جنبه كالمتمتعين ، ثم أحضر القاضي ابن علام وغيره فنظروا إلى عبد الله والجارية على تلك الحال وتقرر قتلهما رجماً فأمرَ بالبيت فهدم عليهما (١) .

وقيل في قتله : إن المنصور جعله في بيت أساسه ملح ، وأجرى الماء في أساسه فسقط عليه فمات (٢) .

وهكذا انتهى عبد الله ، لم يخن عنه حسبه ولا نسبه ، ولا جهاده لتكوين الدولة ، ولا وقوفه في وجه مروان وأمام جيوش الأمويين ، ولا كتاب الأمان المحكم ، ومن العجيب أن هذه السنوات الطويلة بين هزيمة عبد الله سنة ١٣٦هـ وبين مقتله سنة ١٤٧هـ كرواية ابن الأثير ، أو سنة ١٤٩هـ كرواية الطبري لم تستطع أن تخفف من حلق المنصور عليه ، أو بغضه له ، ويحق للإنسان أن يتساءل : ما كان ضرر المنصور لو عفا عنه بعد أن تقلمت أظافره كما عفا المأمون عن إبراهيم بن المهدي وعن الفضل بن الربيع (٣) .

(١) المسعودي : مروج الذهب ٣ : ٢٤٤ .

(٢) ابن الأثير : ٥ : ٢١٦ .

(٣) اقرأ من هذا الموضوع غير المراجع السابقة : الفخري ص ١٤٤

وما بعدها وابن خلدون ، من ج ٢ ص ١٨٥ .

ابن المقفع

وصلة الفنك به بعبد الله بن علي

وقصة عبد الله بن علي لها ذيل وتكملة ، فهناك مؤامرة أخرى تتصل بهذه القصة ، إنها المؤامرة التي راح ضحيتها أديب فريد ذائع الصيت هو عبد الله بن المقفع ، فلنسرده فيما يلي خطوط هذه المؤامرة :

يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة في كتابه « ابن المقفع » : « إن حياة أبي جعفر المنصور — وبخاصة الجانب الخفي منها — تدل دلالة واضحة على نزعته ، وتوضح للمؤرخين بجلاء كيف أصبحت الخلافة على أيدي العباسيين ملكاً يستهان فيه بواجبات الدين والقرابة والأخلاق معاً ، ولا ينظر فيه إلا للمطامع المادية والأهواء السياسية ليس غير (١) » وهذا القول — في تقديرنا — ينقصه التحليل ، وفيه تعميم لا يقبله الفكر العلمي .

والقضاء على ابن المقفع — على أي حال — له جانب خاص من الخطر ، ذلك لأنه قطع لتيار من الثقافة الرفيعة ، وقضاء على قبس من النور الوهاج ، وقد عبر ابن المقفع عن هذا المعنى في مقطوعة شعرية رائعة تذف بها في وجه قاتله * هي : والله إنك لتقتلني ، فتقتل بقتلي ألف نفس ، ولو قُتِل مائة مثلك ما وفوا بواحد ، ثم أنشد :

إذا ما مات مثلي مات شخص يموت بموته خلق كثير
وأنت تموت وحدك ليس يسدى بموتك لا الصغير ولا الكبير (٢)

ومات ابن المقفع غدرا كما سيأتي بيانه ، ولكن الغدر بهذا الرجل حدثٌ جليل ، لأنه كان مثالا في الوفاء ، فمن المؤلم أن تكون نهاية هذا الوفي الأمين غدرا وخيانة * وقد ذكر الجهمياري صورا من وفاء ذلك الرجل نقبتس فيما يلي بعضها :

(١) دكتور عبد اللطيف حمزة : ابن المقفع ص ٢٣٣

(٢) الجهمياري : الوزراء والكتاب ص ١١٠ .

طَلَبَ عَبْدُ الحميد بن يحيى كاتبُ مروان بن محمد عقب قتل هذا الخليفة ، وكان عبد الحميد قد لاذ بابن المقفع لصداقة بينهما ، ففاجأهما الطلب ، وهما معا . فقال الذين دخلوا عليهما : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل واحد منهما « أنا » خوفاً من أن يتّال صاحبه بمكروه ، وخاف عبد الحميد أن يسرعوا الى ابن المقفع ، فقال : ترفقوا ، فإنّ في علامات ، فولوا بنا بعضكم ، ويمضى بعضٌ يذكر تلك العلامات إن وجّه بكم ، ففعل ذلك ، وأخذ عبد الحميد (١) .

وكان بين ابن المقفع وبين عمارة بن حمزة مودة ، فأنكر أبو جعفر المنصور على عمارة في وقت من الأوقات شيئاً ونقله الى الكوفة ، وكان ابن المقفع اذ ذاك بها ، فكان ابن المقفع يأتيه فيزوره ، فبينما هو ذات يوم عنده ورد على عمارة كتاب وكيله بالبصرة ، يُعلِّمُه أن ضيعة مجاورة لضيعة تباع ، وأن ضيعة لا تصلح إن ملكها غيره ، وأن كلا من الضيعتين تساوي ثلاثين ألف درهم ، وأنه ان لم يبتعها فالوجه أن يبيع ضيعة ، فقرأ عمارة الكتاب وقال : نحن مع حالنا في الاضاعة والاملاق الى البيع أحوج ، وكتب الى وكيله ان يبيع ضيعة وينصرف اليه . وسمع ابن المقفع الكلام وانصرف الى منزله ، ومن هناك أرسل سَفْتَجَةَ (٢) الى الوكيل بثلاثين ألف درهم . وكتب اليه على لسان عمارة : انى كنت كتبت اليك ببيع ضيعتى ، ثم حضرنى مال ، وقد أنفذت اليك سَفْتَجَةَ ، فابتع الضيعة المجاورة ، ولا تبع ضيعتى ، وأقم بمكانك ، وأنفذ الكتاب بالابتياح الى ، فورد للكتاب على الوكيل فنفذ ما فيه ، وكتب الى عمارة يذكر له أنه قد اشترى الضيعة المجاورة ، وأنه صارت له ضيعة نفيسة . فلما قرأ عمارة الكتاب ، أكثر

(١) الجهشياري . الوزراء والكتاب ص ٨٠ .

(٢) السفتجة : أن يعطى مالا لآخر . وبلاخر مال في بلد المعطى غيوغيه اياه هناك . كما في القلموس المحيط ١ : ١٩٤ . فكان عمارة اذان ابن المقفع بالكوفة وسدد ابن المقفع الدين من ماله بالبصرة لوكيل عمارة .

التعجب ولم يعرف السبب ، ثم سأل عن حضر ورود كتاب الوكيل ، ففيل له : ابن المقفع ، فعلم أنه من فعله ، فلما صار إليه بعد أيام وتحدثنا ، قال عمارة : بعثتَ بتلك الثلاثين ألف درهم الى الوكيل ، وكنا اليها هاهنا أحوج . قال : فان عندنا فضلا ، وبعت اليه بثلاثين ألفا أخرى (١) .

ولكن خلق الوفاء النادر لم يغن عن ابن المقفع شيئا ، بل غدر به واغتيل ، فلماذا ؟ ثم ان ابن المقفع رجل أديب ليست له أطماع سياسية يخشى منها على كيان الدولة ، كما كان يخشى على الدولة من ابن هيرة أو من الثائرين العلويين وأمثالهم من رجال السياسة والحرب ، ومن هنا يتساءل الباحثون — دون جواب شاف — عن السبب الذي حدا بتدبير مؤامرة لاغتيال هذا الأديب الكبير ، ومن هنا يحاول الدكتور عبد اللطيف حمزة في كتابه عن « ابن المقفع » (٢) أن يتلمس العلة التي دعت للفتك بهذا الرجل ، ويميل ، أو على حد تعبيره « يزعم » أن الزندقة كانت هي السبب الذي تذرعه المنصور في قتله (٣) ولكن الدكتور حمزة يعود فيسأل : « واذا كان ابن المقفع قتل لزندقته ، فلماذا يقتله المنصور غدرا ، ويطريق المؤامرة ، وكان يكفي أن يتذرعه المنصور بهذه التهمة الكبرى فيقتله جهرا ويعلم من الناس جميعا ؟ » . وينتهي الدكتور حمزة من بحثه بأن يعلن أن قتل ابن المقفع كان علانية . ولكن سيادته بذلك يخالف جميع المصادر التي بأيدينا والتي تنص على أن ابن المقفع مات بمؤامرة دُبِّرت لاغتياله ، وقتلته بمؤامرة معناه أن الزندقة لم تكن سبب الفتك به .

ويقول الدكتور طه حسين إن رسالة الصحابة (٤) وحدها كانت

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٠٩ — ١١٠ .

(٢) من ص ٢٢٧ الى ص ٢٤٠ .

(٣) ص ٢٣٦ .

(٤) اقراها بجمهرة رسائل العرب التي جمعها الاستاذ أحمد زكى سنوت

ج ٣ من ص ٢٥ الى ص ٤٧ .

السبب في قتل ابن المقفع (١) لأن ابن المقفع كتب هذه الرسالة للمنصور ، ووضع نفسه فيها موضع الناقد وصاغ هذا النقد في صورة بلاغية رائعة فيها إجلال واحترام ودعاء ، ولكن النقد لم يخف على المنصور ، فحنق عليه ، إذ أن الحاكم المستبد يكره النصيح ويضيق بالنقد مهما كان رقيقاً مهذباً ، ويضيف الدكتور طه حسين أن هذه الرسالة كانت برنامج ثورة •

وأيا ما كانت الأسباب فإن السبب المباشر ، وطريقة تنفيذ المؤامرة ، يوضحها لنا كل من الجهشياري ، وابن خلكان وهما خلاصة ذلك :

مرّ بنا أن ابن المقفع هو الذي أُملى كتاب الأمان الذي أمضاه المنصور لعبد الله بن علي ، وقد سبق أن أوردنا منه بعضه ، وظهر منه أن ابن المقفع وكده وتوكيداً عظيماً استجابة لرأي عيسى بن علي وأخيه سليمان اللذين كانا يعرفان خلق الغدر في ابن أخيهما المنصور ، فأرادا أن يحتاطا لأخيهما عبد الله بن علي ، وألا يدعيا للمنصور فرصة للحنث بعهدده ، فطلبوا من ابن المقفع مزيداً من الاحتراس والحيلة ، وقد استجاب لهما ابن المقفع ، ولكنه — والحق يقال — ارتكب الشطط في ذلك وأسف ، فما كان له أن يكتب على لسان الخليفة عبارة مثل « وإن أنا نلت عبد الله بن علي بمكروه • • فأنا نفى من محمد بن علي بن عبد الله ، ومولود لغير رشدة » . [أي ولد سفاح وزنى] فهذا وهنله مما ورد في الكتاب ، أثار حنق المنصور على الكاتب ، فسأل : من كتب هذا الأمان ؟ فقيل : ابن المقفع كاتب عيسى بن علي • فقال أبر جعفر : فما أحد يكفينيه (٢) •

لقد حكم المنصور بالإعدام على ابن المقفع بهذه الجملة ، فقد كان حوله أعوان سوء يعرفون كيف تحقق أمثال هذه الرغبات ،

(١) انظر « من حديث الشعر والنثر » ص ٤ .

(٢) الوزراء والكتاب ص ١٠٤ .

وكان ضمن حاشية الخليفة مولاه أبو الخصيب مرزوق بن ورقاء الذى كان يعرف أن سفيان بن معاوية والى البصرة يضطغن على ابن المقفع أشياء كثيرة (١) . ويتمنى لو تتاح له الفرصة لينتقم منه على استخفافه به واحتقاره له ، فكتب أبو الخصيب الى والى البصرة — وكان ابن المقفع يقيم بها مع عيسى بن على — يخبره برغبة الخليفة ، فسُرَّ سفيان والى البصرة بهذا التفويض الذى يشفى غلته ، وظل ينتظر الفرصة لينفذ ما طلب منه وما يتوق له .

وحدث بعد ذلك أن عيسى بن على قال يوماً لا بن المقفع : سرّ الى سفيان فقل له كذا وكذا ، فقال له : وجّه معى ابراهيم بن جبلة فإنى لا آمن سفيان . فقال : كلا ، انطلق اليه ولا تخف ، فإنه لم يكن ليعرض لك وهو يعلم مكانك منى ، فقال ابن المقفع لإبراهيم بن جبلة : انطلق بنا الى سفيان نبلغه رسالة الأمير . فمضيا ، فجلسا على باب الديوان ، وبعثا الى سفيان يطلبان الإذن بالدخول عليه ، فجاء الآذن لابراهيم ابن جبلة فدخل ، ثم خرج الآذن فأذن لابن المقفع ، فلما دخل عدل به الى مقصورة أخرى فيها شيرويه الملاحى وعتاب الحمدي ، فأخذهما فشداهما وقيداه ، فقال ابراهيم لسفيان : إيذن لابن المقفع . فقال سفيان للآذن : إيذن له فخرج الآذن ثم رجع فقال : قد انصرف ، فقال سفيان لابراهيم : هو أعظم كبراً من أن يقيم وقد أذنت لك قبله . ما أشك فى أنه قد غضب . ثم قام سفيان وقال لابراهيم : لا تبرح حتى أعود لك ، ودخل المقصورة التى فيها ابن المقفع . فقال له لما رآه : وقعت والله . فقال ابن المقفع أنشدك الله . فقال سفيان : أمى مغتلمة كما كنت تقول ، إن لم أقتلك قتلة لم يقتل بها أحد قط . وأمر بتتور فسُجِر ، ثم أمر فقطعت أعضاؤه عضواً عضواً وألقى فى التتور ، وكان ابن المقفع وهو يعذب ينشد قبل أن ترهق روحه البيتين الذى سبق إيرادهما :

(١) انظر صوراً منها فى الجهشيارى ١٠٤ — ١٠٥ وابن خلكان

إذا مات مثلى مات شخص
يموت بموته خلق كثير
وأنت تموت وحدك ليس يدري
بموتك لا الصغير ولا الكبير

ولما فرغ سفيان من ابن المقفع ، رجع الى ابراهيم فحدثه ساعة ،
ثم خرج ابراهيم ، فقال له غلام ابن المقفع ، ما فعل مولاي ؟ قال :
ما رأيته ، قال : بل دخل بعدك ، فقال : ما رأيته ، ورام الرجوع الى
سفيان فحُجِبَ ، وانصرف ، وانصرف معه غلام ابن المقفع ، وهو يبكي
ويصيح قَتَلَ سفيانُ مولاي (١) .

ولما عرف عيسى بن علي وسليمان أخوه أن ابن المقفع دخل دار سفيان
سليما ولم يخرج منها ، ثارا وتوعدا ، وخلصا سفيان الى المنصور ،
وأحضراه اليه مقيدا ، وحضر الشهود الذين شاهدوا ابن المقفع وقد
دخل دار سفيان ولم يخرج ، فأقاموا الشهادة عند المنصور ، فقال لهم
المنصور : أنا أنظر في هذا الأمر ، ثم قال للشهود : رأيتم إن قتلت سفيان
به ثم خرج ابن المقفع من هذا البيت وأُشِيرَ الى باب خلفه ، وخاطبكم ،
ما تروني صانعا بكم ؟ أأقتلكم بسفيان ؟ فرجعوا كلهم عن الشهادة ،
وأضرب عيسى وسليمان عن ذكره ، وعلموا أنه قَتَلَ برغبة المنصور (٢) .

(١) الوزراء والكتاب ١٠٥ — ١٠٧ .

(٢) ابن خلكان ١ : ١٥٠ .

المنصور وأبو مسلم الخراساني

مقدمة عن علاقة الفرس بالعباسيين :

كان للفرس دور كبير في قيام الدولة العباسية ، ومن الواضح أن بلاد خراسان اختيرت بعناية ودقة لهذه المهمة الكبيرة ، وقد سبق أن أوردنا (١) رأى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الذي استعرض به جهات العالم الاسلامي موقع اختياره على خراسان ليغرس فيها النبت الذي شاءه ، وقد أثبتت التجارب أن خراسان كانت جديرة بثقة زعماء الحميمة .

هذا فيما يتعلق بالدور الذي لعبه الفرس متصلا بالحركات التمهيدية لقيام الدولة ، أما الجولات العسكرية التي أعلنت بعد الدور السري فقد تمت على أرض فارسية وبسيوف الفرس . وجيوش أبي مسلم هي التي زحفت بعد الاستيلاء على مرو وخراسان فاستولت على الكوفة . وقضت بقيادة عبد الله بن علي على آخر قوة أموية جمعها مروان بن محمد على نهر الزاب . كل هذا وسواه تم بواسطة الفرس ، فلماذا كان كل هذا الجهد ؟ وماذا كان هدف الفرس من هذا الصراع ؟ وهل كانت هناك أسباب خفية لذلك ؟

نعم كانت هناك أسباب خفية أفصحت عنها بعض الأحداث ، لقد ذكر المؤرخون نظرية الحق الالهي The Divine Right التي كانت سائدة في فارس قبل الاسلام ، والتي تقضى أن الأسرة المالكة تجري فيها دماء إلهية ، وهي بهذا صاحبة الحق في الحكم ، وعلى الناس أن يسمعوها لها ويطيعوها ، واختيار الملوك من هذه الأسرة واجب مقدس (٢) فكان صراع الفرس في جانب آل البيت تحقيقا لهذه النظرية .

(١) ص ٣١ ، ٣٢ .

(٢) انظر الجزء الثاني من موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية للمؤلف . من الطبعة الثامنة .

هذا جانب ، وجانب آخر أهم ، هو أن بلاد فارس كانت قبل الاسلام دولة عظيمة الخطر ، وكان الفرس يعدون العرب أقل الأمم خطرا ، فلما زالت دولة الفرس على يد العرب ، ويئس الفرس من الانتصار على العرب ، لجئوا الى حيلة أخرى هي أن يستعملوا فريقا من العرب ليضربوا به العرب الآخرين ، وليضعوا فريقهم في كرسي السلطان ، ثم ليحكموا العالم الاسلامي عن طريق هذا الفريق أو هذه الدمية التي شاء الفرس أن تكون لها الاسم وأن يكون لهم السلطان الحقيقي ، وقد أفصح قادة الفرس أحيانا عن هذه النوايا ، ومن ذلك :

١ — كتب المنصور لأبي مسلم الخراساني يوليه الشام ومصر بدلا من خراسان ، ولكن أبا مسلم يصرخ في وجه هذا الاقتراح ويقول : يوليني الشام وخراسان لي (١) ؟ .

٢ — قال مؤدب المأمون في عهد هارون الرشيد للفضل بن سهل إن المأمون لجميل الرأي فيك ، وإنى لا أستبعد أن يحصل لك من جهته مال كثير . فاعتاظ الفضل من ذلك وقال للمؤدب : لك على حقد ؟ الى إليك إساءة ؟ فقال المؤدب : لا والله ، ما قلت هذا إلا محبة لك . فقال : لى إنى أحصل عن طريقه مالا كثيرا ؟ والله ما صحبته لاكتسب منه مالا قل أو جل ، ولكن صحبته ليمضى حكم خاتمي هذا في الشرق والغرب (٢) .

ذلك كان هدف الفرس وقد اتضح في تصرفات الكثيرين منهم ، اتضح في تصرفات أبي سلمة الخلال وأبي مسلم الخراساني والبرامكة وآل سهل ، على ما رأينا آنفا ، وعلى ما سنرى فيما بعد . بيد أن العباسيين لم يكونوا في هذا العصر من السهولة بالمدى الذى توقعه الزعماء الفرس ،

(١) الطبرى وابن الاثير وسيأتى ذلك مفصلا بعد قليل .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٩٧ والجشيارى : الوزراء والكتاب

لقد كان خلفاء بنى العباس في العصر الأول أبطالا عمالقة ، وكانوا لا يقبلون أن يكونوا دُمى في يد أحد ، ومن هنا وقع صراع طويل بين هاتين القوتين ، ومن هنا كان الفرس يريدون إسناد الأمر للعلويين إذ كان هؤلاء الى اليسر والبساطة أقرب ، وكان يمكن أن يحقق الفرس معهم ما عجزوا عن تحقيقه مع العباسيين ، ولكن يقظة العباسيين حالت دون ذلك . فلم يبق إلا ثورات يقوم بها الفرس بشكل مباشر أو خفى ضد الحكم العباسي ، ولم يبق على العباسيين إلا أن يضربوا بيد من حديد كل حركة ضدهم وكل ثورة تهدد كيانهم ، وكثيرا ما لجأ الأفريقان الى الحيل والدسائس والمؤامرات ، لجأ لها الفرس لينالوا السلطان ، ولجأ لها العباسيون للقضاء على منافئهم ، وسنرد هنا صورا من الحركات والمؤامرات ، التي حدثت في عهد المنصور ، ولا شك أن في قمتها ذلك الصراع الذي حدث بين المنصور وبين أبي مسلم الخراساني ، وهالك الحديث عنه :

أبو مسلم الخراساني ومحاكمته وقتله:

يقترن اسم أبي مسلم الخراساني بالانتصارات التي أحرزها العباسيون ، أو قل : يقترن اسمه بدولة العباسيين ، ومن الحق أن نوضح أنه حين كان بنو العباس يستمتعون بهدوء الصهبة ، وصفاء العيش فيها كان أبو مسلم يحمل العبء كله في خراسان ، لقد زوده ابراهيم الإمام حين أرسله الى خراسان ببعض النصائح وبعث له براءة النصر ، ولكنه لم يزوده بالمال ، ولم يرسل له فيالق الجنود ، بل ترك الأمر الى أبي مسلم ، ليجمع حوله الجند ، وتكاليف الكفاح .

وكانت في أبي مسلم ملامح النجابة ، وقوة العزم ، والنبوغ النادر ، وكل هذا لم يفارقه قط طيلة المدة التي لمع فيها اسمه ، وكان اسم أبي مسلم معروفا في العالم الاسلامي بأسره ، في المدة بين ١٢٨ و ١٣٣ هـ

حينما كان ابراهيم الامام وأبو العباس السفاح والمنصور لا يعرفهم إلا خاصة ذويهم في الحميمة ، وبقي أبو مسلم بعد سنة ١٣٢ هـ الدرع الواقى للدولة الجديدة ، فهو يحبط كل مؤامرة تثور في وجهها ، وهو يرسل الجيوش والقواد لتحاصر ابن هبيرة ، وتصارب عبد الله بن على ويلقى به كلما حزب أمر ، أوهبت عاصفة .

ومع هذا فالسيفان لا يجتمعان في جراب واحد كما يقول المثل العربى ، وإذا كانت بطولة أبى مسلم أسهمت في إقامة الدولة العباسية ، فإن بطولة أبى مسلم نفسها جعلت من المستحيل استمرار الثقة بينه وبين الخلفاء الذين أصبح لهم السلطان الشرعى عقب إعلان الدولة العباسية ، وناعد للمسألة من أولها :

طفولة أبى مسلم قد اختلفت فيها الآراء (١) ، ولعل من أوضحها أنه كان مولى لبكر بن ماهان الذى سبق الحديث عنه ، وعن بكر تلقى أبو مسلم أصول التشيع ، ثم اتصل بمحمد بن على سنة ١٢٥ هـ ثم بابنه ابراهيم ، وكانت تظهر عليه مخايل النجابة ، وقوة العزم ، ونبوغ الشباب ، وكانت الشيعة بخراسان في حاجة الى مثله ليشرعوا في العمل ، فاختره ابراهيم لتلك المهمة ، وأرسله الى خراسان وأوصاه (٢) .

ونزل أبو مسلم خراسان ليجد نفسه أمام بطل من أبطال العرب ، هو نصر بن سيار ، معه الجند والمال ولكن أبا مسلم أعمل الحيلة على النحو الذى سبق إيضاحه ، حتى كتب له النجاح ، ودانت له خراسان ، وزحفت جيوش أبى مسلم تتبع غلول الأمويين ، وتهاجم العراق ، حتى كتب لها النصر هنا ، كما كتب لها هناك .

وكان أبو مسلم غيورا على الدعوة ، حتى لقد دبر قتل أبى سلمة خلال حينما اتهم بالميل للعلويين ، مع ما بين الاثنين من صلة

(١) انظر في ذلك ابن خلكان ١ : ٢٨٠ — ٢٨١ .

(٢) الحضرى : محاضرات في تاريخ الدولة العباسية ص ٢٨ .

الصداقة والرحم (١) . وحينما اتهم سليمان بن كثير بأنه قال لأحد العلويين : « إذا شئتم فادعونا الى ما تريدون » لم يتردد أبو مسلم أن يستدعى سليمان ، ويسأله : أت حفظ قول الامام لى « ومن اتهمته فاقتله ؟ » فأجاب سليمان : نعم . قال أبو مسلم : فانى أتهمك . قال سليمان : أنشدك الله ، فأجاب : لا تتأشدينى ، فإنك منطوي على غش الإمام . وقتلكه (٢) .

وهكذا كان موقف أبى مسلم من الدعوة ومن العباسيين ، ولكن أبى مسلم كان مسرورا بالنصر الذى أحرزه ، فبدأ منه شىء من الاغتيال أو التيه ، وكان العباسيون يخشون أن ينقلب عليهم ، والعباسيون أعرف الناس بقدرته وشجاعته وبراعته ، وبخاصة بعد أن أصبح معه المال والرجال . وكان المنصور أكثر العباسيين حقدا على أبى مسلم ، وكراهية له ، أما أسباب هذه الكراهية ، فهى قبل كل شىء التنافس وخوف المروق ، يتروى أن أبى جعفر المنصور سأل سلكم بن قتيبة : ما ترى فى أبى مسلم ؟ فأجاب سلكم : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا (٣) « قال المنصور : حسبك الله أبى أمية . لقد أودعتها أذنا وافية (٤) » .

وقد تزعم المنصور — منذ كان وليا للعهد — حركة خفية ترمى الى الايقاع بأبى مسلم والفتك به (٥) . وبخاصة بعد أن زار خراسان ،

(١) كان أبو سلمة صهر بكر بن ماهان ، وكان أبو مسلم مولى بكر

(٢) ابن قتيبة : الامامة والسياسة ٢ : ١٦١ .

(٣) سورة الانبياء الآية ٢٢ .

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١ : ٩٣ ، ابن خلكان ١ : ٣٨٣ .

(٥) ويبدو أنه من الاسباب التى دعت المنصور وهو ولى العهد أن ييغض أبى مسلم ويكيد له ، أن المنصور كان يتوقع أن يجله أبو مسلم ويكرهه أبان حياة السفاح ، ولكن أبى مسلم كان يتجه بالاجلال والاكبر الى الامام فقط ، ويرتفع بنفسه عن أن ينحنى لسواه ، وسيرد فى هذا البحث أمثلة تؤيد هذا الاتجاه فى أبى مسلم ونزيد هنا ما رواه ابن عبد ربه (العقد الفريد ١ : ٢٠) أن أبى مسلم نخل على السفاح وعنده المنصور ، فسلم أبو مسلم على أبى العباس ، فقال له : يا أبى مسلم ، هذا أبو جعفر ، فأجاب أبو مسلم : يا أمير المؤمنين ، هذا موضع لا يؤدى فيه الا حنك .

ورأى بنفسه نفوذ أبى مسلم هناك : فعاد السفاح يقول : لست بخليفة
ما دام أبو مسلم حيا (١) .

ومرت الأيام وأبو مسلم يزداد في خراسان سلطانا وجاها ، وكلما
توطد سلطانه بخراسان كلما قلَّ تقديره وإجلاله لخلفاء بنى العباس ،
ويقول الجهشيارى (٢) في ذلك : فتقلت وطأة أبى مسلم على أبى العباس ،
وكثر خلافه إياه ورده لأمره .

ولم يكن في حول العباسيين أن يقوموا بأى تصرف ضد أبى مسلم
وهو في خراسان ، فقد كانوا يدركون أنه هناك أقوى منهم جاها وأوسع
سلطة ، ولذلك تجدهم يلتمسون الوسائل لإخراجه من خراسان واستقدامه
الى العراق حتى يكون من الممكن أن يرجحوه في القوة والنفوذ ، وبدأت
بذلك مؤامرة صامتة ، اشترك فيها أبو الجهم بن عطية الذى كان ينوب
عن أبى مسلم في قصر الخليفة ، والذى وافق على أن ياتمر مع الخليفة
ضد أبى مسلم ، وكان عمله الطبيعى أن يكون ناصحا لأبى مسلم ،
وأن يكتب له ما يجرى في قصر الخلافة من أسرار ، ويحكى لنا الجهشيارى
هذه المؤامرة فيقول (٣) :

قال أبو العباس لأبى الجهم : اكتب اليه وأشر عليه بالاستئذان
في القدوم علينا لتجديد العهد لنا . فكتب اليه أبو الجهم بذلك ،
فقبل رأيه وكتب مستأذنا ، فمنعه أبو العباس وقال له : خراسان لا تحتل
مفارقتك لها وخروجك عنها . وتركه شهرا ، ثم قال لأبى الجهم :
أعد الكتاب بمثل ذلك . فأعاده ، فكتب أبو مسلم مستأذنا ، فمنعه
وأجابه : إن خروج أمير المؤمنين اليك أسهل من الإذن لك ، وإخلائك ما
قد أصلحه الله بك . ثم تركه شهرا وقال لأبى الجهم : أعد الكتاب وأشر

(١) البداية والنهاية ١٠ : ٥٤ .

(٢) الوزراء والكتاب ص ٦٣ .

(٣) الوزراء والكتاب ص ٦٣ .

عليه بأن يذكر شدة شوقه ومحبته لمشاهدة نعمة الله عندنا . ورغبه في الاستئذان كذلك للحج ، فكتب أبو الجهم بذلك له . وكتب أبو مسلم الى أبي العباس بنحو ما كتب به أبو الجهم فوافق أبو العباس .

وهكذا جرّت هذه المناورات لإغراء أبي مسلم بالقدوم ، ومن الواضح أن رفض أبي العباس رغبة أبي مسلم مرتين كان المقصود به بعث الطمأنينة في نفس أبي مسلم ، وجعله يحس بالرضا عنه وعن سيرته بخراسان وعدم حرص الخليفة على إبعاده عنها .

ولما أذن الخليفة لأبي مسلم بالحضور والحج كتب له أن يحضر في خمسمائة من الجند ، فكتب اليه أبو مسلم : انى قد وترت الناس ولست آمن على نفسى ، فكتب اليه : أن أقبل في ألف ، فانما أنت في سلطان أهلك ودولتك ، وطريق مكة لا يحتمل العسكر ، وأمر السفاح القواد وسائر الناس أن يتلقوه ، ولما وصل أبو مسلم دخل على السفاح فأكرمه وعظمه (١) .

وكان أبو العباس حينما أذن لأبي مسلم بالقدوم للحج أدرك أن من الطبيعي أن يكون أبو مسلم أمير الحج في ذلك العام ، ولكنه لم يرد أن يمنحه هذا الشرف إذ كان ذلك سيزيده جلالا في العالم الاسلامى كله ، فكتب الى أخيه المنصور — وكان أميرا على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان — يقول : « إن أبا مسلم كتب إلى يستأذن في الحج ، وقد أذنت له ، وقد ظننت أنه إذا قدم فسيبألنى أن أوليّه إقامة الحج للناس ، فاكتب لى تستأذننى في الحج ، فانك اذا كنت بمكة لم يطمع أن يتقدمك » فكتب أبو جعفر يستأذن في الحج ، فأذن له ، فوافى الأبار حيث اجتمع العدو ان اللدودان بعاصمة الخلافة .

وقد انتهب المنصور فرصة بُعد أبى مسلم عن خراسان ووجوده في

(١) انظر ابن الاثير ٥ : ١٧١ ، وابن خلدون ٣ : ١١٩ .

عاصمة الخلافة في جند قليلين ، فقال للسفاح : يا أمير المؤمنين ،
أطعني ، واقتل أبا مسلم ، فوالله إن في رأسه لغدرة ، وحاول السفاح
أن يثنى أخاه عن ذلك قائلاً له : يا أخى قد عرفتَ بلاءه وما كان منه :
ولكن المنصور أجاب : إنما ذلك كان بدولتنا ، ووالله لو بعثت سنورا لقام
مقامه وبلغ ما بلغ في هذه الدولة . وخضع السفاح لهذا الضغط المتواصل ،
فسأل المنصور : كيف تقتله ؟ فأجاب المنصور : إذا دخل عليك وحادثته ،
واقبل عليك . دخلت فتغفلته ، فضربته من خلفه ضربة أثبت بها على
نفسه ، فسأل أبو العباس : كيف بأصحابه الذين يؤثرونه على دينهم
ودنياهم ؟ فأجاب المنصور : لو علموا أنه قتل تفرقوا وذلوا . ولكن التردد
غلب على السفاح . فقال : عزمت عليك إلا كفت عن هذا .

وثابر المنصور على إصراره ، فهتف : أخاف والله إن لم تتخذ به
اليوم أن يتعشى بك غداً . فاستسلم أبو العباس وقال : دونكه فأنت
أعلم . وبينما كان المنصور يستعد لهذا الأمر كان أبو العباس يراود
نفسه ، فرجع عن موافقة المنصور ، وبعث إليه ألا ينفذ الأمر الذى
عزم عليه (١) .

وإذا كان هناك وفاء في نفس السفاح حال دون الفتك بأبى مسلم ،
فإن أبا مسلم لم يفلت من ضغط السفاح ، وتضييقه عليه ، ومحاولة
الحد من نفوذه وسلطانه ، وقد رأينا كيف أنه حذّر لأبى مسلم عدد
الجند الذين يقدم فيهم ، ليقلل من جلال موكبه ، وليزيل عظمة ركبه ،
وكيف أنه لم يشأ أن يمنحه إمارة الحج واستقدم أخاه المنصور لهذا
الغرض ، فلما وافى موسم الحج قال أبو العباس لأبى مسلم : لولا أن
أبا جعفر حاج لوليتك الموسم ، ويهمس أبو مسلم معلقا على هذا بقوله :
أما وجد أبو جعفر عاما يحج فيه غير هذا (٢) .

(١) الطبرى : ٩ : ١٥٣ ، الامامة والسياسة ٢ : ١٧٠ ، ابن الاثير
١٢١ : ٥ .

(٢) ابن الاثير ٥ : ١٧٥ .

ويذهب الفارسان العظيمان للحج ، ويتتاريان في الإعطاء والسقاء
ويحتفى بالحجيج بهذا أو ذاك • فتزید الهوة بين الاثنين •

وبينما كان أبو جعفر وأبو مسلم في الحجاز ، ورد الخبر بوفاة
السفاح وتولية المنصور الخلافة ، ويقف أبو مسلم من المنصور مرقفا
كله ولاء يرويه لنا ابن الأثير (١) فيقول : إن المنصور حينما بلغته وفاة
السفاح والبيعة له كتب إلى أبي مسلم يستدعيه ، فأقبل أبو مسلم إليه ،
فأخبره المنصور الخبر ، فبكى أبو مسلم واسترجع ونظر إلى أبي جعفر
وقد جزع جزعا شديدا ، فقال له : ما هذا الجزع وقد أتت الخلافة ؟
قال أتخوف شرّ عمى عبد الله وشغبه علىّ ، فأجاب أبو مسلم : لا تخفه
فأنا أكفيكه إن شاء الله ، إنما عامة جنده ومن معه من خراسان ، وهم
لا يعصونني فسرّني عن أبي جعفر ، وفي رواية أخرى لابن الأثير
أيضا (٢) : أن أبا مسلم عرف الخبر قبل المنصور فكتب إليه : عافاك
الله ومنّمع بك ، إنه أتاني أمر قطعني ، وبلغ مني مبلغا لم يبلغه مني
شيء قط ، وفاة أمير المؤمنين ، فنسأل الله أن يعظم أجرك • ويحسن
الخلافة عليك ، إنه ليس من أهلك أحد أشد تعظيما لحقك ، وأصفي
نصيحة لك ، وحرصا على ما يسرك ، مني • ويسوق ابن الأثير أيضا (٣)
وابن طباطبا (٤) رواية تدل على مدى استعداد أبي مسلم لخدمة المنصور ،
وهالك نصها :

لما عاد أبو مسلم والمنصور من الحج قال أبو مسلم له : إن شئت
جمعت ثيابي في منطقتي وخدمتك • وإن شئت أتيت خراسان
فأمددتك بالجنود ، وإن شئت سرت إلى حرب عبد الله • فأمره المنصور
بالمسير لحرب عبد الله •

(١) الكامل في التاريخ ٥ : ١٧٢ •
(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة •
(٣) المرجع السابق ص ١٧٣ •
(٤) الفخرى ص ١٤٤ •

ولبى أبو مسلم الأمر وزحف الى عبد الله كما سبق القول • واستطاع أبو مسلم أن يثبت عرش بنى العباس ، وأن ينتصر على أعداء الخليفة العباسى •

وما إن انتهت هذه العاصفة بفضل أبى مسلم حتى أسفر المنصور عن عدائه إليه ، ووجد الفرصة سانحة ، فقد مات السفاح الذى كان درعا له ، ثم إن أبا مسلم بعيد عن خراسان عرينه الحصين ، فصمم أبو جعفر ألا يدع أبا مسلم يعود إلى ذلك العرين ، وكانت هذه هى النقطة الفاصلة ، فبعث أبى مسلم عن خراسان فيه أمنٌ للخليفة وتصغيرٌ لأبى مسلم ، ووجود أبى مسلم بخراسان يعطى قدره ولا يجعل أحداً يضاهيه في جبروته • وسارت الأحداث سراعاً على النحو التالى :

لما ظفر أبو مسلم بعبد الله بن على ، بعث أبو جعفر إليه مولاة أبا الخصيب ، ليكتب ما أصاب أبو مسلم من الأموال ، فهم أبو مسلم بقتله ، وقال : أمين على الدماء خائن في الأموال ؟ ثم كتّم أبو مسلم في أبى الخصيب ، وقيل له : إنما هو رسول • فخلّى سبيله • فرجع إلى أبى جعفر فأخبره بما كان (١) •

ظهرت حينئذ الوحشة بين الاثنين ، وحرص المنصور على منعه من الرجوع إلى خراسان فكتب إليه كتاباً مع يقطين بن موسى • يقول فيه : لقد وليتك مصر والشام ، فذلك خير لك من خراسان ، فَوَجّهْ إلى مصر من أحببت وأقم بالشام لتكون قريباً من أمير المؤمنين فإن أحب لقاءك أتيتك من قريب • فلما أتاه هذا الكتاب غضب وقال : يوليئى بالشام ، وخراسان لى ؟ فكتب الرسول الى أبى جعفر بذلك ، وأقبل أبو مسلم من الجزيرة مجمعا على الخلاف وخرج يريد خراسان ، فسار المنصور من الأنبار الى المدائن وكتب الى أبى مسلم في المسير اليه ، فاستشбар أبو مسلم خواصه ، فأشاروا عليه ألا يذهب إلى المنصور بعد ما كان بينهما ، فكتب إليه أبو مسلم :

(١) ابن الاثير ج ٥ : ١٧٠ •

« إنه لم يبق لأمر المؤمنين — أكرمه الله — عداً إلا أمكنه الله منه ، وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان : أن أخوف ما يكون الوزراء ، إذا سكنت الدهماء . فنحن نأفرون من قربك ، حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت ، حريثون بالسمع والطاعة ، غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة ، فإن أرضاك ذاك فأنا كأحسن عبيدك ، وإن أبيت إلا أن تعطى نفسك إرادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسى » (١) .

وهكذا أسفر العلاء ووضح البفض ، وأدرك المنصور أن إفلات أبى مسلم منه ، ووصوله إلى خراسان ، سيكون صدعاً للدولة ، وربما كان قضاء عليها ، فأعمل فكره ، واتخذ كل الوسائل ليحول بين أبى مسلم وبين خراسان . والحقيقة أن هذا كان امتحاناً قاسياً مرّ به أبو جعفر المنصور ، واستطاع بمواهبه أن ينجح فيه ، بعد أن استغل كل السبل التي تحقق له هذا الهدف .

فأولاً — أرسل إلى أبى مسلم كتاباً يردّ به على كتابه السابق وفيه : قد فهمت كتابك ، وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم ، الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة يستترّ جرائمهم ، فلم سواءت نفسك بهم ؟ وأنت في طاعتك ومناصحتك والاضطلاع بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت عليه ، وليس مع الشريعة التي اشترطتها سمع منك ولا طاعة ، وحمّل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالة لتسكن إليها إن أصغيت إليها . وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك ، فإنه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده من الباب الذي فتحه عليك .

وثانياً — طلب المنصور من عمه موسى بن على ومن حضر من بنى هاشم أن يكتبوا إلى أبى مسلم ، فكتبوا إليه يعظمون أمره ويشكرونه ،

(١) الطبرى ٩ : ١٦١ وابن الأثير ٥ : ١٧٤ — ١٧٥ .

ويسألونه أن يتم ما كان منه وعليه من الطاعة ، ويحذرونه عاقبة البغى ،
ويأمرونه بالرجوع إلى المنصور •

وثالثاً — لما ظهر للمنصور أن الملاينة أصبحت لا تفيد ، وعرف إصرار
أبى مسلم على المسير إلى خراسان خوفاً من أبى جعفر ، ونزولاً على
إشارة ناصحيه وأصفيائه ، أرسل أبا حميد المروزي وقال له : كلم أبا
مسلم بألين كلام ، أمته وأعلمه أنني رافعه ، وصانع به من الخير ما لم
يصنعه أحد إن هو صلح ورجع ، فإن أبى أن يرجع فقل له : يقول لك أمير
المؤمنين : لست من العباس ، وإني برىء من محمد ، إن مضيت مشاقاً
ولم تأتني ، إن وكلت أمرك إلى أحد سوالي ، أو لم أقاتلك بنفسى ،
ولو خضت البحر لخضته ، ولو اقتحمت النار لاقتحمتها حتى أقتلك
أو أموت قبل ذلك • فذهب أبو حميد وألقى برسالة اللين واللفظ واستعمل
فيها أسلوباً رقيقاً عذبا وأفسح لأبى مسلم من الآمال ، ورسم له صورة
رائعة للمستقبل ، ولكن أبا مسلم لم يقبل ، فلما يئس أبو حميد ألقى
بالرسالة الأخرى وحذر ، فاضطربت لها نفس أبى مسلم •

ورابعاً — أرسل أبو جعفر الى أبى داود خليفة أبى مسلم بخراسان
كتاباً يوليه هذه البقاع ، ليضمن انحيازه الى الخلافة ، وكان في الكتاب :
إن لك إمرة خراسان ما بقيت • وقد سُرَّ أبو داود بهذا المنصب الخطير
فكتب الى أبى مسلم : إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله ، وأهل بيت نبيه صلى
الله عليه وسلم ، فلا نخالفن إمامك ، ولا ترجعن إلا بإذنه •

وخامساً — أراد أبو مسلم أن يستوثق من الحالة لدى المنصور ،
ومن هوى الهاشميين نحوه ، فأرسل أحد أصفيائه ، واسمه أبو إسحاق ،
ولكن سرعان ما اشترك هذا أيضاً في المؤامرة ، فإنه لما قدم على بنى هاشم
أحسنوا استقباله وأجازوه المنصور ، وقال له : أصرفه عن وجهه ولك ولاية
خراسان ، فرجع أبو إسحاق ولخدع أبا مسلم ، وقال له : ما أنكرت
منهم شيئاً ، رأيتهم معظمين لحقك ، يرون لك ما يرونه لأنفسهم وأشار

عليه أن يرجع الى أمير المؤمنين فيعتذر إليه مما كان (١) .
وهكذا سُدَّت كل الطرق في وجه أبي مسلم وجازت عليه الحيلة ،
فلم يكن بد من رجوعه إلى المنصور .

وواصل أبو جعفر الحيلة ، وأبو مسلم في الطريق إليه ، خوفاً من أن
يتردد فيعود الى التمرد ، فنرى الخليفة يوعز الى أبي أيوب المرويانى أن
يرسل إلى أبي مسلم من يخبره أن أمير المؤمنين قد عزم على أن يوليه
ما وراء بابه ، ويريح نفسه ، ويتودع ، وليبلغه هذا لا على أنه رسالة ،
وإنما على أنه شيء عرقه فسارع من نفسه ليلغله : طمعاً في أن يكافئه أبو
مسلم على هذه البشري عندما تصير له الأمور (٢) . وحين اقترب أبو مسلم
من الأنبار نجد المنصور يأمر الناس بثلثي الاحتفاء به ، فيتلقاه بنو
هاشم والناس مرحبين مستبشرين (٣) .

ووصل أبو مسلم ، ودخل على المنصور فاستقبله هذا الاستقبالا
حسناً ، وقبل أبو مسلم يده ، وجالسه ساعة ، ثم أمره المنصور أن ينصرف
ليروِّح عن نفسه ، ويدخل الحمام ويستريح .

والآن .. وقد تمكن المنصور من أبي مسلم كان من الممكن أن يفتك به
بحسب شتى . ولكن المنصور سلك طريقاً آخر جعل للفتك بأبي مسلم لونا
خاصاً في التاريخ ، فقد استدعى المنصور أبا مسلم في اليوم التالي لوصوله ،
وأجرى له محاكمة ، أهملها بعض المؤرخين وذكرها بعضهم ، ولكن أحداً
على العموم لم يبرز خطرهما ، ولم يبين أهميتها . وتمتاز هذه المحاكمة
بشئيين هامين :

أولهما : أن الخصم فيها كان وحده الحكم .

ثانيهما : أن الحكم كان قد حُدِّد قبل بدء المحاكمة ، فإن المنصور

(١) الطبرى ٩ : ١٦١ وما بعدها ، وابن الأثير ٥ : ١٧٦ — ١٧٧ .

(٢) الجهشيارى ص ١١٢ .

(٣) ابن الأثير ٥ : ١٧٧ .

كان قد دعا عثمان بن نهيك • وأربعة من الحرس ، منهم شبيب بن رواح •
وحرب بن قيس ، وأجلسهم خلف الرواق ، وأمرهم بالدخول ، وقتل أبي
مسلم إذا صفق بيديه •

وجرت المحاكمة ، وكشف القناع عن تهمّ أبي مسلم على النحو
التالى :

المنصور : أخبرنى عن سيفين لعبد الله بن على أصبتهما •
المتهم : هذا أحدهما ، وانتضاه أبو مسلم وناولهُ للمنصور فقلّبه
وهزه ، ثم وضعه تحت فرائشه •
المنصور : كتبت إلى السفاح تنهاه عن الموات ، كأنك أردت أن تعلمنا
الدين •

المتهم : ظننت أنه لا يحل ، فلما أتانى كتابه اقتديت برأيه •
المنصور : أخبرنى عن تقدمك إياى بطريق مكة •
المتهم : كرهت اجتماعنا على إلقاء فيض ذلك بالناس •
المنصور : فجارية عبد الله بن على ، أردت أن تتخذها لنفسك ؟
المتهم : لا ، إنما وكلت بها من يحفظها •
المنصور : فمراغمتك ، ومسرك الى خراسان ؟
المتهم : خشيت منك ، فقللت آتى خراسان ، واكتب بعذرى فأذهب
ما فى نفسك •

المنصور : فالمال الذى جمعته بحران •
المتهم : أنفقته فى الجند تقوية لكم •
المنصور : ألبست الكاتب الى تبدأ بنفسك ؟ وتخطب آسية بنت على ؟
وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن العباس ؟ • لقد ارتقيت — لا أم

لك — مرتقى صعبا ، وما الذى دعاك الى قتل سليمان بن كثير ، مع أثره فى دعوتنا ؟

التهتم : أراد الخلاف فقتلته •

وضاق أبو مسلم بهذه التهم الصغيرة التى تتضاعل أمام كفاحه من أجل الدولة فقال : كيف يقال لى هذا بعد بلائى وما كان منى ؟

فأجابه المنصور : يا ابن الخبيثة ، لو كانت أمة مكناك لأغنت ،
انما كان ذلك بدولتنا وريحنا • فأقبل أبو مسلم يقبل يد الخليفة ويعتذر •
ولكن المنصور ازداد غضبا ، فكبر ذلك على أبى مسلم وصاح :

دع هذا فانى أصبحت لا أخاف إلا الله •

فشتمه المنصور ، وصفق بيديه فخرج الكمين وأخذوه بسيوفهم حتى
قتلوه ولفوه بالبساط وكان ذلك فى شعبان سنة ١٣٧هـ وخرج الوزير فصرف
الناس وقال : الأمير قاتل عند أمير المؤمنين ، فانصرفوا وأمر لهم بالجوائز ،
ودخل عيسى بن موسى فسأل عن أبى مسلم ، فقال المنصور كان هنا •
فأخذ عيسى يثنى على أبى مسلم وبلائه وطاعته فقال المنصور : والله ما
أعلم على وجه الأرض عدوا أعدى لكم منه ، هو ذا فى البساط ، فاسترجع
عيسى ، فأنكر عليه المنصور وقال : وهل كان لكم ملك معه ؟

ومما قاله المنصور والسيوف تعتور أبا مسلم :

زعمت أن الدين لا ينقضى فاستوف بالكيل أبا مجرم
سقيت كأسا كنت تسقى بها أمر في الحلق من العلقم (١)

ومما قاله أبو دلالة فى ذلك :

أبا مسلم خوفتنى القتل فانتحى عليك بما خوفتنى الأسد الورد

(١) المسعودى • مروج الذهب ٢ : ٢٢٥ وما بعدها ، وابن الاثير
٥ : ١٧٧ — ١٧٨ ، وابن خلدون : العبر ٣ : ١٨٣ — ١٨٤ •

أبا مسلم ما غيرَ الله نعمة على عبدِه حتى يغيِّرَها العبدُ (١)
وهكذا خَفَّتْ ذلك الصوت الذي طالما أَرعد ، وانكَبَ ذلك الأسد
الهصور الذي طالما أخاف وعربد •

وقد علق الاستاذ الخضرى على نهاية أبى مسلم تعليقا جديرا بالذكر
نقتبسه فيما يلى (٢) :

« إن نوابغ القواد الذين خدموا الخلفاء وأسسوا ملكهم انتهت
حياتهم فى الغالب بمثل ما انتهت به حياة أبى مسلم ، وسبب ذلك أن هؤلاء
القواد يكونون فى بادى الأمر ذوى الكلمة المسموعة والسلطان الواسع
بين جنودهم لأنهم هم المباثرون للحروب والوفائع وهم الذين يقدمون
للجند أعطياتهم ، فإذا ساعدتهم الحظ وتمت على أيديهم الانتصارات
الباهرة • وقامت الدولة ببأسهم وشدة حزمهم ، لم يكن لنفوذهم فى
الدولة حد يقفون عنده ، لأنهم يرون أن الأمر إنما جاء لصاحبهم بفضل
مجهودهم الذى بذلوه ، فإذا كان الخليفة بعيد الهمّة ذكى القواد لم يسعه
أن يحتل كل هذا ، وإذا ألجأته الضرورة حمّله على مضض ، فإذا أمكنته
الفرصة لم يتأخر عن انتهازها • وليس من طبيعة القائد الفاتح أن يضرب
صفحا عما له من الآثار ويتنازل عن اجتناء الثمرة وقت إدراكها •

« ومع ما بدا من أبى مسلم من العسف الشديد لا نبخسه حقه ولا
نتأخر عن الاعتراف بأنه كان من نوابغ الرجال الذين أسسوا الدول العظام
ولو كانت الضحايا التى ذهبت فى تأسيس الدولة أقل مما ضحى به لعددناه
من كبار السواس الا أنه سفك دماء كثيرة وكانت التهمة فى نظره كافية
لإزهاق نفس المتهم ، فمثل هذا نصفه بالقوة والعزيمة والثبات ولكن لا
نصفه بحسن السياسة وسعة الدهاء ، وما رأيت أجهل من أبى مسلم فى
قدومه على المنصور بعد ما احتج به على سليمان بن كثير شيخ الدعوة

(١) الاغانى ٩ : ١١٥ •

(٢) محاضرات فى تاريخ الدولة العباسية ص ٨١ ، ٨٢ •

بقوله : أتذكر قول الامام لى : من اتهمته فاقتله ؟ فاذا كانت هذه قاعدة يرى العمل بها والاجبا • أفلا يكون فيما صنعه مع أبى جعفر ما يدعو الى الريية فيه فيستحق به القتل ؟ فهو اذا كان قادما على القتل بمقتضى أصل كثيرأ ما نفذه ، ولذا لا يكون قتله محلا للاستغراب « وكذلك نولّى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون » (١) •

ويقول ابن طباطبا (٢) : وكأن المخترع نعدولة يكون عنده من الدالة والتبسيط ما تأنف منه نفوس الملوك ، فكلما زاد تبسطه زادت الأنفة عندهم حتى يوقعوا به •

محاولات النار لأبى مسلم

عقب مقتل أبى مسلم قام الفرس بحركات متعددة تعبيرا عن سخط الفرس ضد العباسيين ، وكانت هذه الحركات — من جهة أخرى — محاولة للأخذ بثأر أبى مسلم ، وسنوجز هنا القول عن اثنتين من تلك الحركات ، وسنذكر — عند الحديث عن المهدي — حركة المقنع الخراسانى (٣) التى كانت أيضاً تسير فى هذا المضمار :

(١) سنباذ :

كان سنباذ رجلا مجوسيا من بعض قرى نيسابور ، وكان من أصحاب أبى مسلم وصنائعه ، فلما قتل أبو مسلم نار سنباذ ، وكثر أشياعه ، وأطاعه أكثر أهل الجبال ، وغلب على كثير من بلاد خراسان ، واضطر المنصور أن يرسل اليه جيشا كثيفا خاض معه معارك واسعة ، وتظهر لنا قوة سنباذ والعدد الذى دان له بالولاء مما تذكره لنا للمراجع عن القتلى الذين خروا من أتباعه فى المعارك ضد جيش الخلافة ، فقد

(١) سورة الانعام الاية ١٢٩ •

(٢) الفخرى ص ١٤٨ — ١٤٩ •

(٣) ص ١٢٧ •

ذكر ابن طباطبا (١) أن عدد القتلى من جيش سنباذ بلغ حوالى ستين ألفا (٢) .

(ب) الراوندية :

تنسب هذه للطائفة الى مدينة « راوند » وهى بالقرب من أصفهان ، وقد كانت هذه المدينة مهد دعة هذه الطائفة ، ومن ثم نسبوا اليها .

وكانت هذه الجماعة تقصد الى أن تثار لأبى مسلم الخراسانى ، ولكنها اتخذت طريقا ملتويا ترمى به أن تُعَمَّى على الخليفة ، وأن تثير عليه سخط الناس ، فأظهرت له الاجلال والعبودية ، وأعلنت ألوهيته ، وأن روح الله حلت به ، وأن عبادته واجبة ، وأنه الذى يطعمهم ويسقيهم ، وقد جاعوا الى قصر المنصور فطافوا به وقالوا : هذا قصر ربنا ، فأخذ المنصور رؤساءهم وحبس منهم مائتى رجل ، وقد ثار الباكون عليه ، فخرج لهم ، ويبدو أنه ظن أنهم ربما امتنعوا عن أن يمسه بسوء وهو إلههم كما يزعمون ، ولكنهم تكاثروا عليه وكادوا يقتلونه ، وفى هذا الوقت ، قفز رجل ملثم ، وقاتل بين يدى المنصور قتالا شديدا ، وأبلى بلاء حسنا ، ولم يزل يقاتل حتى تكشف الحال عن نصر له مظفر ، وعن هزيمة ساحقة للراوندية ، وحينئذ قال المنصور : من أنت ؟ قال طَلَبْتُكَ يا أمير المؤمنين ، معن بن زائدة ، قال المنصور : أمثلك الله على نفسك ومالك وأهلك ، مثلك يصطنع ، وأحسن اليه ، ووالاه اليمن . وكان معن مستترا من المنصور بسبب قتاله مع ابن هبيرة ضد جيوش العباسيين (٣) .

وقد حدثت هذه المعركة فى مدينة « الهاشمية » (٤) ولذلك كان يطلق على هذه المعركة « الهاشمية » وقد ورد ذكر ذلك اليوم فى قصيدة مروان

(١) الفخرى ص ١٤٧ .

(٢) انظر كذلك ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ٥ ص ١٨٠ .

(٣) ابن الاثير ٥ : ١٨٧ — ١٨٨ ، الفخرى ١٢٨ — ١٢٩ .

(٤) سنتحدث عن مدينة الهاشمية عند الكلام عن « عواصم الخلافة العباسية فى هذا العصر » .

ابن أبي حفصة الذي منحه معن بن زائدة عليها ، مائة ألف درهم • ويروى
المسعودي (١) أن معن بن زائدة دخل على المنصور فقال له : هيه يا معن ،
تعطى مروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم من أجل قوله :

معن زائدة الذي زيدت به شرفا على شرف بنو شيبان
إن عدّ أيام الفعّال فإنما يوماه يوم ندى ويوم طعان

فقال : كلا يا أمير المؤمنين ، إنما أعطيته لقواله :

مازلتَ يوم الهاشمية ذائداً بالسيف دون خليفة الرحمن
فمنعت حوزته وكنت رقاءه من وقع كل مهنّد وسنان
قال المنصور : أحسنت يا معن (٢) •

المنصور وولاية العهد :

سبق لنا أن ذكرنا أن السفاح قبل وفاته عقد لأخيه المنصور وجعله
ولى عهد المسلمين ، وجعل من بعده ابن أخيه عيسى بن موسى ، فلما آلت
الخلافة للمنصور عيّن ابنه المهدي ولياً للعهد بعد عيسى بن موسى ، وكان
المنصور في السنين الأولى من خلافته يستعين بعيسى بن موسى في الملمات ،
ويلقى به في خضم الأحداث ليدفع به النوازل ، ولقد قال له المنصور عندما
ثار العلويون : والله ما يثراد إلا أنا أو أنت • فلما أن تذهب لقتالهم أو
أذهب أنا • وقد كان عيسى يتقبل هذا بمزيد من الرضا • أليس ولى عهد
المسلمين وهذا الملك سيؤول إليه يوماً ؟

بيد أن المنصور كان يضم شيئاً آخر فإنه ما كان يحس
ياستقامة الأمر إليه على ما يهوى ، حتى كشف عن نيتيه ،
ليزحزح عيسى بن موسى ويقدم عليه ابنه المهدي ، وإن ارتكب

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٣١ - ٢٣٢ •

(٢) انظر أيضا الاغانى ج ٩ ص ٤٠١ •

من أجل ذلك أبعد الشطط ، وأوقع الناس في الحرج ، إذ كانوا قد أقسموا
أغلظ الإيمان أن يحترموا الوثيقة التي دوّنها السفاح •

وواجه المنصور عيسى بالأمر وطلب منه زحزحة نفسه ليعتقدم
المهدى عليه في ولاية العهد ، ولكن عيسى رفض هذا الطلب وقال : ماذا
أصنع بالإيمان التي في رقبتى وفي رقاب الناس بالعناق والطلاق والحج
وانصدقة ؟ ليس إلى ذلك سبيل ؛ فتغير المنصور عليه ، وباعده بعض
المباعدة ، وصار يأذن للمهدى قبله ، ويجلسه عن يمينه في المكان الذي كان
يجلس فيه عيسى ، وأخذ ينتقص أداه فكان يأمر أن يحفر الحائط من
المكان الذي جلس فيه عيسى ينتظر الإذن ، وبهذا يسقط التراب على رأسه ،
ثم يأذن له فيدخل دون أن ينفذ التراب ، فيقول له المنصور : يا عيسى •
ما يدخل على أحد بمثل ما تدخل أنت به من الغبار والتراب ، أفكل هذا
من الشارع ؟ فيقول عيسى : أحسب ذلك يا أمير المؤمنين ؛ ولا يشكو •

وهناك أساليب كثيرة من هذا النوع ذكرتها كتب التاريخ (١) وكلها
تدل على الضغط والقسر اللذين عومل بهما عيسى بن موسى ليستجيب
لرغبة الخليفة ، وسواء كان قد استجاب عيسى أو أرغم ، سواء أتم هذا
من جهته أو أن جماعة شهدوا عليه أنه خلع نفسه وهو لم يخلعها • فإن
الأمر على كل حال انتهى على النحو التي تريده القاهرة ، ولكن هذه
القوة القاهرة لم تكتف بأن تنال مرامها ، بل ألزمت عيسى أن يواجه
الناس في المسجد الجامع ، ومعه الوزير ، ليعلن بنفسه للجموع : إني
قد سلمت ولاية العهد للمهدى ، وقدمته على نفسي • ولكن الوزير لم
يكتف بهذا ، فقال : ليس هكذا أيها الأمير ولكن قل : لحقته ومكانته ،
وأخبر بما رغبت فيه وأعطيت • ويعلن عيسى بعد هذا قوله : نعم قد بعثت
نصيبي من تقدمي في ولاية عهد عبد الله أمير المؤمنين لابنه محمد المهدى

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ٢١٤ — ٢١٥ ، والفخرى ص ١٤٩ — ١٥٠ •

من بعده ، بعشرة آلاف درهم ، بطيب نفس منى ، ورغبت فى تصييرها إليه ، لأنه أولى بالتقدم فيها ، وأحق ، وأقربم عليها ، وأقوى على القيام بها منى (١) • فكان بعض المثجّان من أهل الكوفة إذا مر بهم عيسى بن موسى يقولون : هذا الذى كان غداً فصار بعد غد (٢) •

وفاة المنصور :

فى سنة ١٥٨هـ خرج المنصور حاجاً ، وفى الطريق إلى مكة عرضت له العلة ، ولكنه قاومها وحث الخطا ، بيد أن الموت نزل به قبيل دخوله مكة فى السادس من ذى الحجة •

(١) الجهشيارى ص ١٢٧ •
(٢) المصدر السابق •

المهدي (١٥٨ - ١٦٩ هـ)

نشأته وتوليته الخلافة :

ولد المهدي بالحميمة سنة ١٢٦ هـ ، وعندما تولى المنصور الخلافة كان المهدي في العاشرة من عمره وكان عيسى بن موسى ولياً لعهد المنصور تبعاً لعهد السفاح ، ولكن المنصور عثى بابه المهدي ليؤمله لولاية عهده ، فاتجه لتثقيفه ، كما اتجه لتعليمه البطولة وقيادة الجيوش ، فأما فيما يتعلق بتثقيفه فقد عهد به إلى المفضل الضبي الذي تولى تعليمه اللغة والأدب ، وحسب له الشعر والفصاحة ، وقد ألف له المفضل كتاب « أمثال العرب » وجمع له مختارات شعرهم في « المفضليات » ، فنشأ المهدي فصيحاً يقول الشعر ويجيده ويحفظ كثيراً منه ومن أمثال العرب (١) .

أما البطولة وقيادة الجيوش فإننا نجد المنصور يدفعه إليها منذ بلغ الخامسة عشرة ، فقد أرسله إلى خراسان وطبرستان على رأس جيوش كبيرة للقضاء على فتن وثورات بها ، وبخاصة فتنة على الجبار بن عبد الرحمن الأزدي (٧٥٧) الذي كان عاملاً للمنصور على خراسان وتمرد عليه ، وطبعى أن المنصور وضع مع ابنه خيرة القواد ومشاهير الأبطال ليضمن النصر لجيش المهدي ، وعقب انتصار المهدي في هذه الحروب تزوج ريطة بنت عمه السفاح سنة ١٤٤ هـ .

واكمل المهدي ثقافياً وحربياً فولاه أبوه العهد ثم قدّمه على عيسى ابن موسى كما ذكرنا آنفاً ، واستعان به أبوه في إدارة شئون خراسان ، ولما عاد من الرمي بنى المنصور له ولجندة مدينة الرصافة سنة ١٥١ هـ ثم جعله أميراً للحج سنة ١٥٣ هـ .

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٦ ص ٣٩١ .

و في سنة ١٥٨ هـ ذهب المنصور ليحج وترك المهدي نائباً عنه ببغداد ، فمات المنصور في رحلته كما سبق ، وتمت البيعة للمهدي عقب ذلك ، وكان أبو دلالة الشاعر أول من هنا المهدي بالخلافة ، وعزاه في وفاة أبيه ، وكانت قصيدته في ذلك رقيقة جميلة نقتطف منها الأبيات التالية :

عيناى : واحدة تثرى مسرورة بأمرها جذلى ، وأخرى تذرف
تبكى ، وتضحك تارة ، ويسوؤها ما أنكرت ، وليسرها ما تعرف
فيسوؤها موت الخليفة محرمًا ويسرؤها أن قام هذا الأرف
أهدى لهذا الله فضلَ خلافةٍ ولذلك جناتِ النعيم تثرَ خرف (١)

بين عهدين :

يبدو الفرق واضحاً جداً بين عهد المنصور وعهد المهدي ، فالمنصور — وعهده يعتبر امتداداً لعهد أخيه السفاح — كان يبنى دولة ويؤسس ملكاً ، وكان له أعداء يقفون في طريقه ، وأمامه صعاب تعترض تقدمه ، وكانت الخزانة في أول عهد المنصور خاوية لكثرة ما أعطى السفاح للأصدقاء والجند يستميلهم ويشجعهم ، لهذا نجد عهد المنصور يمتاز بالبطش والعنف ، ويمتاز كذلك بالحرص والبخل ، وكلا الاتجاهين ردٌّ فعل للأحداث حوله ، ليقضى على أعدائه ويزيل من طريقه الصعاب ، ثم ليوطد بالمال ملكه ، ويحيى عهد المهدي وقد استقرت الدولة وأمنت على نفسها وتغلبت على أعدائها ، واتسعت مقدراتها المالية ، ومن أجل هذا اشتهر المهدي باليسر والرخاء وبإصلاحات داخلية رائعة تدل على نضج في التفكير ، ورقى في الإدارة والسياسة ، وسنتحدث عن هذه الإصلاحات فيما يلي :

إصلاحاته الداخلية :

بدأ المهدي عهده ، بأن أطلق المسجونين إلا من كان محبوساً بأمر القضاء ، كما أجرى الأرزاق على مَنْ بقى مسجوناً وعلى المجنومين ،

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٠٦ — ١٠٧ .

وكانوا من قبل يتركون فريسة للجوع إلا أن يثوّنهم ذوبهم ، وأمر المهدي بالزيادة في المسجد الحرام ، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان المهدي أول خليفة عباسي جلس للنظر في المظالم ، وكان إذا جلس قال : أدخلوا عليّ القضاء حتى يتحتم عليّ ردّ المظالم ولو بدافع الحياء منهم ، ومن المظالم التي أنصفها المهدي تلك القضية التي يقتصّ خبرها مسور بن مساور ، قال : ظلمني وكيل المهدي وغصّبني ضيعة لي • فكتبت إلى المهدي أتظلم ، فوصلت الرقعة وعنده عمه العباس وأحد قضاته ، فاستدعاني المهدي وسألني عن حالتي فذكرته ، فقال : أترضى بأحد هذين ؟ قلت : نعم • فاستدعاني حتى التصقت بالفرائش وحاكمني ، فقال له القاضي : أطلقها له يا أمير المؤمنين • قال : قد فعلت (١) •

وأمر المهدي ببناء القصور في الطرق المؤدية إلى مكة لحراسة المسافرين وإيوائهم ، وكذلك أمر ببناء الأحواض التي يستقي منها رجال القوافل ويستقون منها دوابهم ، وأكثر من الآبار والتكيا وعمر ما كان منها موجوداً ، وأقام المهدي البريد بين بغداد وأشهر المقاطعات الإسلامية •

وقد سبق أن ذكرنا أن المنصور أوصى المهدي أن يرد الأموال التي صادرها إلى أصحابها ، وكان المنصور قد احتفظ بهذه الأموال وعليها أسماء أصحابها ليجبّ ابنه إلى الناس •

ومن مآثر المهدي أنه رفع عن دافعي الضرائب المؤنّ والكسور ، فمن جهة المؤن قضى المهدي أن يتحمل بيت المال نفقات جياة الأموال ، وكان على الناس من قبل أن يتحملوا هذه النفقات ، وأما الكسور فقضتها : أن الناس حتى عهد المنصور كانوا يؤدون الخراج بالدرهم الوافي وهو ثمانية دوانيق لا بالدرهم المستعمل بين الناس وهو ستة دوانيق ، فلما ولي المهدي قال : معاذ الله أن ألزم الناس ظملاً ، فقيل له : إن يَحْطَ

(١) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٦ ص ١٩ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ •

أمير المؤمنين هذا خسرت بيوت الأموال ١٢٠٠٠٠٠٠ من الدراهم في العام . فقال : على أن أقرر حقاً وأزيل ظلماً مهما نقصت بيوت الأموال (١) .

وليس هذا كل ما فعله المهدي مع أهل الخراج ، بل إنه أمر أن يطالبوا باللين واليسر وكانوا من قبل يُعذبون بصنوف من العذاب ؛ فلما تقلد المهدي الخلافة تقدم الى عبد الله وزيره ، أن يكتب الى جميع العمال برفع العذاب عن أهل الخراج (٢) .

المهدي والعلويين :

وقرَّب المهدي العلويين ، وأطلق المسجونين منهم ، وأوقف اضطهادهم الذي عانوه في عهد أبيه ، وكان السبب في ذلك أنه كان يصلي في بهو في ليلة مقمرة ، فقرأ في صلاته قوله تعالى « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم » (٣) فلما أتم صلاته التفت إلى الربيع بن يونس وقال : يا ربيع ، استدع لي موسى بن جعفر . وكان هذا محبوساً عند الربيع ، فلما حضر موسى قال له المهدي : يا موسى إني قرأت هذه الآية فخفت أن أكون قد قطعت رحمك فوثق لي أنك لا تخرج عليّ . قال : نعم ، ووثق له . فخلاه (٤) .

ومما زاد في إحسان المهدي للعلويين مكانة يعقوب بن داود منه ، فقد كان هذا كبير الميل للعلويين ، وقد انتهاز فرصة رضاء المهدي عنه وتقريبه له فأمن العلويين . ولولا كثيراً من الزيدية أعمالاً للدولة في الشرق والغرب (٥) ولما حج المهدي سنة ستين ومائة وفي صحبته يعقوب بن داود أخذ هذا منه أماناً للحسن بن عبد الله بن الحسن ، وأحضره له

(١) جميل نخلة مدور ، حضارة الاسلام في دار السلام ٦٤ - ٦٥ ، وانظر الماوردي . الاحكام السلطانية ص ١٢٨ .

(٢) انجشيارى الوزراء والكتاب ١٤٢ - ١٤٣ .

(٣) سورة محمد الآية ٢٢ .

(٤) ابن الاثير ج ٦ ص ٢٨ .

(٥) انجشيارى ص ١٥٨ .

فأحسن إليه المهدي ووصله بمال ، وأقطعه مالا من الصوافي بالحجاز ،
وأحمدَ فعلَ يعقوب في ذلك (١) .

المسعودي وإصلاحات المهدي وكرمه :

يقول المسعودي في ذلك (٢) : كان المهدي محبباً الى الخاص والعام ،
لأنه افتتح أمره بالنظر في المظالم ، والكف عن القتل ، وتأمين الخائف ،
وإنصاف المظلوم ، وبسط يده في العطاء ، فأذهب جميع ما خلفه المنصور
وهو ٦٠٠٠٠٠٠٠٠٠ من الدراهم و ١٤٠٠٠٠٠٠٠ من الدينار سوي
ما جباه في أيامه ، فلما فرغت بيوت الأموال أتى أبو حارثة الهندي خازن
بيوت أمواله ، فرمى بالمفاتيح بين يديه وقال : ما معنى مفاتيح لبيوت
فرغ ما بها ، ففرق المهدي عشرين عاملاً لجباية الأموال ، فوردت الأموال
بعد أيام قلائل ، ففتشاًغل أبو حارثة عن الدخول على المهدي ثلاثة أيام ،
فلما دخل عليه : قال له المهدي : ما أخذك ؟ قال : الشغل بتصحيح
الأموال . قال المهدي : أنت أعرابي أحمق ، كنت تظن أن الأموال لا تأتينا
إذا احتجنا إليها ؟ قال أبو حارثة : ان الحادثة اذا حدثت لم تنتظر حتى
توجه في استخراج الأموال وحملها . ولقي : إن المهدي فرق في عشرة أيام
من صلب ماله عشرة آلاف درهم ، فعند ذلك قام شبة بن عقال على رأسه
خطيباً فقال : وللمهدي أشباه ، فمنها القمر الزاهر ، والربيع الباكر ،
والأسد الخادر ، واللبح الزاخر ، فأما القمر الزاهر فأشبهه منه حسنه
وبهائه ، وأما الربيع الباكر فأشبهه منه طيبه وهواءه ، وأما الأسد الخادر
فأشبهه منه عزمه ومضاؤه ، وأما البحر الزاخر فأشبهه منه جوده وسخاؤه .

وكان سرف المهدي مقصوداً له ، حكى الجهشيارى (٣) : أن المهدي
أرلأد أمراً فقال له يعقوب بن داود : هذا يا أمير المؤمنين السرف ، فقال

(١) الجهشيارى ص ١٥٦ .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .

(٣) الوزراء والكتاب ص ١٥٩ وانظر كذلك ابن الاثير ج ٦ ص ٢٤ .

المهدى : ويك ! ! وهل يحسن السرف إلا بأهل الشرف ؟ ويك يا يعقوب !
لولا الإسراف لم يعرف المقتل من المكثر •

وقد سبق أن أوردنا قصة المؤمل الشاعر مع المهدى في عهد المنصور ،
تلك القصة التى تدل على كرم المهدى وسخائه ، ونضيف الآن قصة أخرى
تدل على هذا السخاء ، ذكر عبد الأعلى بن عبد الله الجمحى أنه حمل دينا
في معسكر المهدى ، ولأن المهدى ركب يوماً بين اثنين من رجاله أحدهما
اسمه عبد الله والثانى اسمه عمر بن بزيغ ، وركب الجمحى خلفهم على
برذون قطوف [ضعيف المشى] ، فقال المهدى : ما أنسب بيت قالتة
العرب ؟ فقال عبد الله :

ومما ذرفت عيناكِ إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتل

فقال المهدى : هذا أعرابى قح • فقال عمر بن بزيغ : قول كثير :
أريد لأنسى ذكرها ، فكأنها تمثل لى ليلى بكل سبيل

فقال المهدى : ما هذا بشىء ؛ إنه يحاول أن ينسى ذكرها ، فقال
الجمحى : حاجتك عندى يا أمير المؤمنين ، فقال : الحقنى • قلت : لا لحاق
لى مع دابتنى • فقال المهدى : احملوه على دابة قوية • فقلت : هذا أول
الفتح • وحضات عليها فلحقته ، فقال : ما عندك ؟ قلت : قول الأحوص :
إذا قلت إنى مؤتلف بلقائها فحتم التلاقى بيننا ، زادنى سقما
فقال : أحسنت والله • اقضوا دينه (١) •

المهدى والندماء والشراب :

وكان المهدى أول أمره يحتجب عن الندماء متشبهاً بالمنصور نحواً من
سنة ، ثم ظهر لهم ، فأشار عليه أبوه عون بأن يحتجب عنهم ، فقال : إليك

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ١٤٤ — ١٤٥ •

عنى يا جاهل ، إنما اللذة فى مشاهدة السرور ، وفى الدنو ممن سرنى ،
فأما من وراء ، فما خيرها ولذتها ؟ ولو لم يكن فى الظهور للندماء والإخوان
إلا أنى أعطيهم من السرور بمشاهدتى مثل الذى يعطوننى لجعلت لهم
ذلك حظاً وافراً (١) :

وكان المهدي لا يشرب النبيذ ، ولكن أصحابه كانوا يشربون عنده
فكان يعقوب بن داود ينهاه عن ذلك ويعظه ، ويقول : ليس على هذا
استوزرتنى ولا عليه صحبتك ، أبعد الصلوات الخمس فى المسجد الجامع
يُشرب عندك النبيذ ؟ فضيق على المهدي حتى قيل :

فدع عنك يعقوب بن داود جانباً وأقبل على صهباء طيبة النشر (٢)

مزيد من صفات المهدي :

وكان المهدي كثير العطايا ، يواترها ، قلء من حضره إلا أغناه ،
وكان لين العريكة ، سهل المعاملة لذيق المنادمة ، ضاحك السن ، قليل
الأذى والبذاء (٣) •

وكان كثير العفو ؛ يروى أنه عتب غير مرة على أحد القواد ، وقال له
فى آخر الأمر : إلى متى تذنّب ؟ فأجاب : إلى أبكر نسيء ، ويبيّيك الله
فتعفو عنا ، فاستحيا منه ورضى عنه (٤) •

ومن حيله الطريفة التى لجأ إليها ليقلل من ورع أحد علماء عصره
وعفته ، ما ذكره الفضل بن الربيع قال : دخل شريك — وكان كثير الورع
والابتعاد عن مواطن الشبه — على المهدي يوماً ، فقال له المهدي : لابد
أن تجيئنى إلى خصلة من ثلاث • قال : وما هى يا أمير المؤمنين ؟ قال :

(١) الجاحظ : التاج ٣٤ — ٥٢ •

(٢) ابن الاثير ٦ : ٢٤ •

(٣) الجاحظ : التاج ص ٣٥ •

(٤) ابن الاثير ٦ ، ٢٧ •

إما أن تلى القضاء ، أو تحدثَ ولدى وتعلمهم ، أو تأكل أكلة • ففكر شريك ثم قال : الأكلة أخفهن على نفسى • فطلب المهدي إلى الطباخ أن يعد له مائدة كثيرة الخير • وبدأ شريك يأكل ، واستهواه الطعام اللذيذ فأكل حتى شبع ؛ قال القيم على المطبخ للمهدي بعد ذلك : يا أمير المؤمنين ليس يفلح الشيخ بعد هذه الأكلة أبداً • قال الفضل بن الربيع : فقال شريك بعد هذا إلى حياة الرخاء ؛ فترلى القضاء ، وعلم الأولاد ، وحدث ، ولقد كتبَ بأرزاقه مرة إلى الجهبذ فاختلفا عند الدفع ، فقال الجهبذ : إنك لم تبع قمحا • قال له شريك : بلى والله لقد بعت أعظم من القمح ، لقد بعت ديني (١) :

وزراء المهدي

لم يكن للوزراء في عهد المنصور نفوذ يذكر بسبب قوة الخليفة وحرصه على أن يدبر الأمور بنفسه ، ولذلك كان الوزراء بجواره قوة تنفيذية فقط تعمل بوجيه وإرشاده ؛ دون سلطان أو ابتكار ، فلما جاء عهد المهدي واستقرت الأمور ، لجأ الخليفة إلى شيء من الدعة ، وكل كثيراً من الأمور للوزراء يديرونها حسبما يرون ، وربما دعاه إلى ذلك مكانة أول وزرائه أبو عبيد الله معاوية بن يسار الذي كان مثالا نادرا في الكفاءة والنزاهة ، فاطمأن له المهدي وترك له أمور الدولة ، وقد حسده الربيع بن يونس ودبر ضدّه الحيل ، وحاك المؤامرات ليتخلص منه ، ونجح الربيع في دسه وائتمازه كما سيأتى خبر ذلك مفصلا عند الكلام عن ابن يسار في « مشاهير وزراء العصر » •

يعقوب بن داود :

واستوزر المهدي بعد ابن يسار يعقوب بن داود بن طهمان وكان

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٧ •

وابناه : على^١ ويعقوب ، ككتاباً لتصر بن يسار أمير خراسان (١) ، وكان يعقوب يعتقد مذهب الشيعة ، وقد التحق هو وأخوه فترة بإبراهيم بن عبد الله بن الحسن ، فلما قُتِلَ إبراهيم سُجِنَ يعقوب في عهد المنصور ، وظل بالسجن حتى أطلقه المهدي مع من أطلق من المسجونين .

وتحالفت ظروف كثيرة لصالح يعقوب ، فقد كانت وزارة المهدي في يد أبي عبيد الله بن يسار وكان الربيع بن يونس يكيده ، فوجد الربيع من الضروري أن يدفع لِساحة المهدي رجلاً له كفاءة ممتازة ، وشخصية قوية ، ليتحول انتباه الخليفة إليه ، ولينازع أبا عبيد الله في مكانته ، وفي الوقت نفسه كان المهدي يخاف من بنى الحسن أن يحدثوا أمراً لا يتدارك ، فطلب رجلاً له أُنْسٌ^٢ ببنى الحسن ليستعين به على أمرهم ، فدلّه الربيع على يعقوب بن داود ، فاستحضره المهدي وخطبه ، فرأى أكمل الناس عقلاً وأفضلهم سيرة ، فشغف به ، واستخلصه لنفسه (٣) .

وبدأت بكل هذا كفة معاوية بن يسار تشيل ، وأخذت كفة يعقوب ترجح ، وانتهى الأمر بعزل معاوية وإسناد الأمر كله ليعقوب ، فاستوزره الخليفة واتخذة أخاً في الله ، وفوض إليه الأمور كلها وسلم إليه كل الدواوين ، وشغل الخليفة وقته باللّهو واللعب وسماع الأغاني ، وسعد بعض الناس بمكانة يعقوب من المهدي ، وسخط آخرون ، ومنم باركوا هذه الصلة سلّم الخاسر الذي يقول :

قل للامام الذي جاءت خلافته تهديّ إليه بحق غير مردود
نعم المعين على التقوى أعنت به أخوك في الله يعقوب بن داود

وعبّر بشار بن برد عن سخط الآخرين بقوله :

بنى أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود

(١) ابن طباطبا ، الفخرى ص ١٦٠ .

(٢) المرجع السابق .

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خلافة الله بين الناي والعود (١)

وعمل يعقوب على التقريب بين الخليفة وبين بنى الحسن ، فأخذ أماناً للحسن بن عبد الله بن الحسن واستحضره ، فأحسن إليه المهدي ، وَوَصَلَهُ بِمَالٍ ، وَأَقْطَعَهُ أَرْضاً ، وأحمد فعل يعقوب في ذلك كما سبق (٢) .

وكانما كانت ميول المهدي الطيبة نحو العلويين مشجعاً ليعقوب ليزيد صلته بالعلويين قوة ، فاتخذ أعداء يعقوب ذلك وسيلة لإثارة المهدي ، وبخاصة أن يعقوب أرسل إلى العلويين فأتى بهم من كل ناحية ، وولاهم أمور الخلافة في الشرق والغرب ، وكان ذلك مما أخذ عليه (٣) .

وبدأ الخليفة يشك في ولاء يعقوب إليه ، ودخل في روعه أن يعقوب لا يزال على ولاءه للعلويين ، فأراد المهدي أن يمتحنه في ذلك ، فدعا به يوماً وهو في مجلس فرسه موردة ، وعليه ثياب موردة ، وبين يديه جارية لم يتر أحسن وجهاً منها ، ويقع المجلس وسط بستان رائع . ثم قال الخليفة : يا يعقوب ، كيف ترى هذا المجلس ؟ قال : في غاية الحسن ، فمتع الله أمير المؤمنين به ، قال المهدي : فهو لك وجميع ما فيه ومائة ألف درهم ، وهذه الجارية ، ليتم سرورك ، فدعا له يعقوب بما يجب .

وقال له المهدي : لي إليك حاجة أريد أن تضمن لي قضاءها .

قال يعقوب : أنا عبدك الطائع لجميع ما تأمر به .

قال المهدي : تقسم بالله وتضع يدك على رأسي وتقسم به ثلاثاً أنك ستفعل .

فأقسم يعقوب بالله وبرأس الخليفة ثلاثاً أنه سيفعل ما يريده الخليفة ،

(١) المرجع السابق ص ١٦١ والوزراء والكتاب للجهشياري ص ١١٥ .

(٢) الجهشياري ص ١١٥ .

(٣) المرجع السابق ص ١١٨ .

فذكر له الخليفة رجلاً علوياً وقال له : أحب أن تكفيني أمره فأتى خائف أن يخرج على .

قال يعقوب : سمعاً وطاعة .

وجعل يعقوب الجارية قريبة منه لشدة سروره بها وفرط حرصه عليها ، ووجهه للعلوى فأحضره وخاطبه فوجده لبيباً ذكياً ، وأحسن العلوى بما يثرد به فقال ليعقوب : ويحك يا يعقوب ، تلقى الله بدمي ، وأنا رجل من ولد فاطمة وليس لي ذنب ؟ قال يعقوب : لا والله ، خذ هذا المال وانج بنفسك ، وكانت الجارية ترى ذلك فأرسلت الى الخليفة من يعلمه به ، فشحن الخليفة الدروب بالرجال حتى حصل العلوى وجعله في بيت قريب من مجلسه ، ثم استدعى يعقوب بعد عدة أيام وسأله عن العلوى فقال : أراح الله منه أمير المؤمنين . قال المهدي : قد مات ؟ قال يعقوب : نعم قال : بالله ؟ قال يعقوب : أي بالله . فطلب المهدي من يعقوب أن يضع يده على رأسه ويقسم على ذلك ، ففعل . فقال المهدي لعلام له : أخرج إلينا مَنْ في هذا البيت ، فأخرج العلوى . فلما رآه يعقوب تحير وامتنع عليه الكلام فما درى ما يقول . فقال له المهدي : قد حل لي دمك ، ولو آثرت إراقتك لأرقتك ، ولكن احبسوه في المطبق (سجن مظلم تحت الأرض) فحبس به ، وأمر أن يطوى خبره عنه وعن كل أحد ، فأقام في الحبس ما تبقى من عهد المهدي وجميع أيام الهادي وخمس سنين وشهرين من أيام الرشيد .

ثم ذكر يحيى بن خالد الرشيد به ، وشفع إليه فيه ، فأمر بإخراجه ، فأخرج وقد ذهب بصره ، فأحسن إليه الرشيد ورد إليه ماله ، وقال له : ما تريد يا يعقوب ؟ قال : يا أمير المؤمنين ما بقى فيّ مستمّ تنع ولا بلاغ ، وأريد المجاورة بمكة ، فأمر له بما يصلحه ، وذهب إلى مكة وجاور بها ، حتى مات سنة ١٨٦ هـ (١) .

(١) الجهشيارى . الوزراء والكتاب ص ١١٩ — ١٢١ والفخرى لابن طباطباص ص ١٦١ — ١٦٢ .

الفيض بن أبي صالح :

والفيض بن أبي صالح من أهل نيسابور ، كان ذووه نصارى ، فانتقلوا الى بنى العباس وأسلموا ، وتربى الفيض في الدولة العباسية وتأدب وبرع ، وكان سخيّاً مفضلاً متخرفاً في ماله ، جواداً عزيز النفس كبير الهمة كثير التيه والكبر ، وكان يحيى بن خالد إذا استعظم أحد كرمه وجوده قال : لو رأيتم الفيض لصغر عندكم أمرى (١) ، وفي كرمه يقول الشاعر :

ولائمة لامتك يا فيض في الندى

فقلت لها لن يقدح لللوم في البحر

أرادت لتتني الفيض عن سكن الندى

ومن ذا الذي يتنى السحاب عن القطر

وكان الفيض قد وصف للمهدى لما عزم على إبعاد يعقوب بن داود ، فلما قبض عليه أحضر الفيض واستوزره وفوض الأمور إليه ، ومات المهدي وهو وزيره ، فلما ولي الهادي لم يستوزره ، وبقي الفيض الى أول عهد الرشيد حيث مات سنة ١٧٣ هـ .

كبار الشخصيات في عهد المهدي :

لمع أفراد من أسرة البرامكة في عهد المهدي كما لمعوا من قبل في عهدي السفاح والمنصور ، وسنخصص للبرامكة حديثاً خاصاً فيما بعد .
ومن كبار الرجال في دولة المهدي أيضاً شريك القاضي وعافية القاضي

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٢٣ - ١٢٥ والفخرى لابن طباطبا ص ١٦٣ - ١٦٥ .

ومالك بن الهيثم ، ويزيد بن منصور خال المهدي والمشرف على تربية الهادي ، وأبان بن صدقة (١) .

المهدي والمقنع الخراساني :

ولعل حركة المقنع الخراساني كانت محاولة فارسية للتأثر لأبي مسلم الخراساني أيضاً ، أو أنها كانت محاولة فارسية لسلب النفوذ والسلطة من العباسيين .

وقد ظهر المقنع الخراساني في مدينة مرو ، وكان رجلاً أعور قصيراً ، يسمى المقنع لأنه عمل لوجهه قناعاً من ذهب ليغطي عورته ، وادعى المقنع الألوهية ، وكان يقول : إن الله خلق آدم ثم تحول في صورته ، ثم خلق نوحاً وتحول في صورته وهكذا للى أبي مسلم الخراساني ، وسمى نفسه هاشماً ، وكان يقول بالتناسخ ، وبإيعه خلق كثيرون ، وكانوا يسجدون له ، ويتجهون بسجودهم إليه إذا كانوا بعيدين عنه .

وكان ظهور المقنع في عهد المهدي ، وقد أقلق الخليفة ظهوره وبخاصة أن أتباعه كثروا وأحرز بعض الانتصارات ، وأسروا كثيراً من نساء المسلمين وأطفالهم ، وقد أرسل إليه المهدي جيشاً كبيراً ولكنه اعتصم بقلعة عزاء تسلقها ، وطال الحصار حتى يئس المقنع من النجاة فأشعل ناراً وألقى بنفسه فيها ولحق به كثيرون من أهله والمؤمنين به .

المهدي وولاية العهد :

اتجه المهدي إلى جعل الخلافة لابنيه الهادي والرشيد ، ولكن عيسى ابن موسى — الذي كان ولياً للعهد بعد المهدي بوصية من المنصور — كان يقف حائلاً دون تحقيق هذه الرغبة .

(١) انظر الوزراء والكتاب للجيشياري ص ١٠٤ و ١٠٦ .

ومن سوء حظ عيسى بن موسى أنه عانى مرتين الاضطهاد والتعسف بسبب ولاية العهد ، وقد ذكرنا المرة الأولى في عهد المنصور ، وهو الآن في عهد المهدي يواجه هذا العناء للمرة الثانية ؛ يقول للجهمشياري (١) : ولما حال الحول على المهدي في الخلافة ، تقدم الى أبي عبيد الله بمناظرة عيسى ابن موسى على أن يخلع نفسه من ولاية العهد ، فناظره وقال له : إن المنصور قدّم المهدي عليك وعوضك ، فإن أخرجت نفسك من هذا الأمر عوضك المهدي ما هو أنفع لك وأبقى عليك ، وإن أبيت استحل منك المحظور بمعصيتك وخلافك أمره ، وقد لزمك طاعته ووجب عليك القبول منه . ويضيف ابن الأثير (٢) أن عيسى رفض أن يذعن لهذه الرغبة فأوعز المهدي الى أمير الكوفة أن يعمل على الإضرار به ، ولكن هذا لم يجد سبيلا الى الإضرار بعيسى لأنه كان مقيما بالرّحبة بالقرب من الكوفة ، وكان لا يأتي للكوفة إلا قليلا ، فاستقدمه المهدي الى بغداد فامتنع عن القدوم ، ولكن المهدي أرغمه على الحضور ، وأوعز الى بعض رجاله لينكلوا به ويسيموه العذاب في بغداد . وإزاء هذا العنت لم يجد عيسى بدا من الاستسلام ، فخلع نفسه ، واستطاع المهدي بذلك أن يجعل ابنه الهادي ولياً للعهد سنة ستين ومائة . وفي سنة ست وستين ومائة أخذ المهدي البيعة بولاية العهد لابنه هارون الرشيد ، ليكون خليفة بعد أخيه موسى الهادي .

وفاة المهدي :

اختلف في سبب موت المهدي ف قيل إنه طارد ظبياً في إحدى مرات خروجه للصيد ، فدخل الظبي باب خربة ، فدخل فرس المهدي خلفه دون أن يتمكن المهدي من ردّه ، وكانت عتبة الباب العليا غير مرتفعة ، فاصطدم بها الخليفة ، وسقط ومات لساعته ، وقيل إن إحدى جواريه جعلت سماً

(١) الوزراء والكتاب ص ١٤٥ — ١٤٨ .

(٢) الكامل في التاريخ ج ٦ ص ١٥ .

في بعض المآكل لجارية أخرى ، فأكل المهدى منه نظرفاً وهو لا يعلم ،
فمات ؛ وقال أبو العتاهية يصف جواريه وقد برزن بعد موته يكيّنه
وعليهن المشّوح *

رحن في الوشى وأقبل—	ن عليهن المشّوح
كل نطاح له يو	ما من الدهر نطّوح
لستَ بالباقي ولو	عمّرتَ ما عمّر نوح
فعلى نفسك نح إن°	كنت لأبد تنوح (١)

الهادي (١٦٩ - ١٧٠ هـ)

نشأته وتوليته الخلافة :

استطاع المهدي — كما ذكرنا آنفاً — أن يزيل عيسى بن موسى من طريق ابنه الهادي ، ثم عينَ ابنَه للهاديَ ولياً للعهد سنة ١٦٠ هـ ثم عاد فعين الرشيد سنة ١٦٦ هـ ولياً للعهد بعد الهادي . ولما توفي المهدي تمت البيعة للهادي ، وكان الهادي آنذاك بجرجان يقود جيوش الخلافة في حروب ضد العصاة والمتمردين هناك ، وكان أخوه هارون بالعاصمة ، فأخذ هارون البيعة للهادي وأرسل إليه يعزيه ويهنئه .

ويصف ابن طباطبا (١) الهادي بأنه كان متيقظاً ، غيوراً ، كريماً شهماً ، أيّداً ، شديد البطش ، جرىء القلب ، مجتَمع الحسِّ ، ذا إقدام وعزم وحزم .

ويقول الجاحظ عن الهادي (٢) : كان الهادي شكس الأخلاق ، صعب المرام ، قليل الإغضاء ، سييء الظن ، قلٌّ من توقّاه وعرف أخلاقه إلا أغناه ، وما كان شيء أبغض إليه من ابتدائه بسؤال ، وكان يأمر للغنى بالمال الخطير الجزيل ، فيقول : لا يعطيني بعدها شيئاً ، فيعطيه بعد أيام مثل تلك العطية .

ومن فصاحة الهادي ما قاله لإبراهيم بن مسلم بن قتيبة وقد مات له ولد فاشتد حزنه عليه ، فقال له الهادي : يا إبراهيم ، سرّك ابنك وهو عدوّ وفتنّةٌ وحَرَنك وهو صلاة ورحمة ؟ قال إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، ما بقى مني جزء فيه حزن إلا امتلأ عزاء (٣) .

(١) الفخرى ص ١٦٥ .

(٢) التاج في أخلاق الملوك ص ٣٥ .

(٣) المرجع السابق ص ١٦٦ ، ويروى الجهشيارى هذه القصة على أن الطفل ابن إبراهيم الحراني (انظر ص ١٢٩) .

نكاه وحيلة :

ومن ذكاء الهادى وحسن تصرفه عند المليمات ما يرويه المسعودى (١) أنه كان فى بستانه يوماً فجاءه رجاله وقد ظفروا ببطل من أبطال الخوارج ، فأمر بإدخاله ، فلما قرب الخارجى منه نزع سيفاً من أحد الحرس وتأهب للاعتداء ، فهرب منه الحرس خوفاً ، وأقبل الخارجى يريد قتل الهادى ، ولكن الهادى ظل رابط الجأش ، حتى قرب منه الخارجى ، فصاح للهادى : اضرب عنقه • فتوهم الخارجى أن خلفه أحد أتباع الهادى فاستدار إليه ، وحينئذ انقضَّ الهادى عليه ورمى به الى الأرض وأخذ السيف منه وقتله به •

عزم الهادى ويقظته :

وكان الهادى حازماً ، يعرف اللهو ، ولكن اللهو لا يشغله عن واجبه • بل يعطى الجد وقته ، ويدع للهو مجالسه ؛ لم يستفد منه لاه أكثر مما يجب أن يستفيد ؛ ولا أذى منه جاداً وإن سبب جِدُّه للهادى بعض الضيق ؛ ومما يدل على أن اللهو لم يكن يستبد بالهادى ما حكاه الجاحظ قبال :

جلس الهادى يوماً وعنده بعض المغنين فقال لهم : من أطربنى اليوم منكم فله حكمته • فغناه إبراهيم الموصلى :

* سُلَيْمى أجمعت بَيْنَنَا *

فطرب حتى قام من مجلسه واستعاده ، فأعاده إليه • فقال الهادى : أنت صاحبى فاحتكم • فقال إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، حائط عبد الملك ابن مروان ، وعينه الجرارة بالمدينة • فدارت عينا الهادى فى رأسه حتى صارتا جمرتين ثم قال : يا ابن اللخناء ، أردت أن تسمع العامة أنك أطربتنى ، وإنى حكمتك فأقطعتك ، أما والله لولا بادرة جهلك التى غلبت

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٥ — ٢٥٦ •

على صحيح عقلك وفكرك ؛ لضربت الذى فيه عيناك ، وسكت هنيهة .
قال إبراهيم : فوأيت ملك الموت قائماً بينى وبينه ينتظر أمره . ثم دعا
إبراهيمَ الحرانى فقال : خذ بيد هذا الجاهل فأدخله بيت المال فليأخذ منه
ما شاء (١) .

ومما يدل على حصافة الهادى وأنه كان لا يتبع هواه ما حكاه عبد الله
بن مالك قال : كنت أتولى شرطة المهدي فكان الخليفة يأمرنى بضرب ندماء
الهادى ومن يغشون له وحبسهم صيانة له منهم ؛ فكنت أفعل ، وكان
الهادى يرسل إلى بالتخفيف عنهم فلا أقبل ، فلما مات المهدي وولى
الهادى أيقنت بالتلف ، فاستحضرنى يوماً ، فدخلت عليه وهو جالس على
كرسى ، والسيف والنطع بين يديه ، فسلمت ؛ فقال : لا سلم الله عليك ،
أتذكر يوم بعثت إليك فى أمر الحرانى وضربه فلم تقبل قولى ؟ وكذلك يوم
بعثت إليك فى أمر فلان وفلان — وعدد ندماءه — فلم تلتفت الى قولى ؟
قلت : نعم ، أفنتأذن لى فى ذكر الحجة ؟ قال : نعم . قلت : ناشدتك الله ،
لو أنك قلدتني ما قلدنى المهدي ، وأمرتني بما أمر ؛ فبعث إلى بعض
بنيك بما يخالف أمرك فاتبعت قوله ، وتركت قولك ، أكان يسرك ذلك ؟
قال : لا . قلت فكذلك أنا لك ، وكذلك كنت لأبيك . فاستدنانى فقبضت يده ،
ثم أمر بالخلع ، وقال : وليتك ما كنت تتولاه ، فامض راشداً ، فمضيت
مفكراً فى أمرى وأمره ؛ وكان الذى يدور فى نفسى أن الخليفة حكمت
يشرب ، والقوم الذين عصيته فى أمرهم هم ندماءه ووزراؤه وكتابه ،
وكأنى بهم حين يغلب الشراب عليه يغلبونه على رأيه ، ويحسنون له هلاكي .
قال عبد الله : فإنى لجالس وعندي بنكية لى والكانون بين يدي ، وقدامي
رقاق وكامخ ، وأنا أشطره بالكامخ وأسخنه بالنار وأكل وأطعم الصغيرة ،

(١) الجاحظ : التاج ٣٦ — ٣٧ . ويذكر الجهشيارى هذه القصة ولكنه
يروى أن الشعر الذى غنى به الموصلى هو .
وإنى لتعرونى لذكرارك هزيمة كما انتفض العصفور بأكله القطر
(انظر الوزراء والكتاب ص ١٣٣ — ١٣٤) تحقيق الصاوى .

وإذا بوقع حوافر الخيل ، فظننت أن الدنيا قد زلزلت ، فقلت : هذا ما كنت أخافه ، وإذا بالباب قد فتح ، وإذا الخدم دخلوا والهادى فى وسطهم على دابته ، فلما رأيته وثبت فقبلت يده ... فقال لى : يا عبد الله ، إنى فكرت فى أمرك ، فقلت : ربما سبق إلى ذهنك أنى اذا شربت* وحولى أعداؤك أزّلوا حسن رأيى فيك فيقلقك ذلك ، فصرت إلى منزلك لأونسك ، وأعلمك أن ما كان عندى من الحقد عليك قد زال جميعه ، فهات وأطعمنى مما كنت تأكل ، لتعلم أنى قد تحرّمت بطعامك (١) *

الهادى والشراب :

ومن جهة الشراب ، فقد خطا الهادى خطوة جديدة فى تاريخ نشره ؛ لقد كان المنصور — كما سبق — لا يشرب ولا يسمح بالشراب على مائدته ، فخطا المهدي الخطوة الأولى بأن سمح لندمائيه بالشرب فى حضرته مع أنه هو لم يشرب ، ولكن الهادى والرشيده شربا ، إذ كانا قد تعلما الشراب فى قصر أبيهما وهما أميران ؛ يروى إبراهيم الموصلى — وكان كثير الشرب شغوفاً به — أن المهدي قال : لا تدخل على موسى وهرون ألبتة ، فوالله لئن دخلت عليهما لأفعلن بك ولأصنعن * فقلت : نعم * ثم بلغه أنى دخلت عليهما وشربت معهما ، وكانا مستهترين بالنبيذ ، فضربنى ثلاثمائة سوط ، وقيدنى وحبسنى (٢) *

هذا وقد اتضح شرب الهادى قبل خلافته وبعدها من قصة عبد الله ابن مالك التى سبق إيرادها *

وزراء الهادى وكبار رجال دولته :

لما بويح الهادى استوزر الربيع بن يونس ثم بعد فترة استوزر إبراهيم ابن ذكوان الحرانى ، وكان إبراهيم قد اتصل بالهادى فى أيام

(١) ابن الاثير ٦ ، ٣٤ — ٣٥ ، الفخرى ١٦٥ — ١٦٦ .

(٢) الاغانى ج : ٥ : ص ٤ .

حدثته ؛ كان يدخل عليه مع معلم كان يعلم الهادي ، فخف إبراهيم على قلب الهادي وألفه وصار لا يصبر عنه ، ثم سعى به الى المهدي فكره لابنه صحبتته ، فنهاء عنه فلم ينته ، فتهده بالقتل والهادي لا يباعده ، واشتدت به السعيات الى المهدي ، فأرسل الى ابنه الهادي أن أرسل إلى إبراهيم الحرائي ، ولما توانى الهادي في إرساله هده المهدي بعزله من ولاية العهد ، فأرسله الهادي . ولما رآه المهدي أقسم ليقنته . ولكن المهدي مات من ليلته فنجأ الحرائي من القتل ، وآل الأمر إلى الهادي فاستوزره (١) .

ومن الرجال الذين اعتمد عليهم الهادي على بن عيسى بن ماهان ، وإسماعيل بن صبيح ، وعبد الله بن مالك . ومحمد بن فروخ ، ويزيد بن مزيد ، والثلاثة الأخيرون كانوا قادة جيوش الهادي وهم الذين زيغوا له خلع هرون الرشيد وتولية جعفر ابنه .

الهادي وولاية العهد :

لما مات المهدي سنة ١٦٩ تولى ابنه الهادي الخلافة تنفيذا لوصية أبيه ، وعلى الرغم من ضيق عهد الهادي ، فإنه اتسع لمحاولات جمة قام بها هذا ليخلع أخاه ، ويوصى بالخلافة لابنه جعفر ، ولندع الجهشيارى وابن الأثير ينكلمان : تنكر موسى لهارون الرشيد وعمل على خله وتقليد لابنه جعفر ، وهو طفل ، وبذل لهارون (الهني والمرى) من أعمال الرقعة ، فعزم هارون على القبول وقال : إذا نزلت على (الهني والمرى) وخلوت بابنة عمى أم جعفر ، فما أريد شيئاً . ولكن يحيى بن خالد منعه من تنفيذ ما عزم عليه ، وقال له : إنها الخلافة ، ولعل ما تقدّر أنه يبقى لك لا يبقى ، ولم يزل به حتى عدل . ووصل الى الهادي

(١) ابن طباطبسا : الفخرى ص ١٧٨ والجهشيارى الوزراء والكتاب ص ١٢٦ .

امتناع الرشيد وموقف يحيى ، فأوعز الى رجاله بتحقيق شأن الرشيد ، وإثارة عيوبه وانتقاصه في مجلس الجماعة ، كما استحضر يحيى وسأله : لِمَ تدخل بينى وبين أخى وتفسده على ؟ فقال يحيى : من أنا حتى أدخل بينكما ؟ انما صيرنى المهدي معه ثم أمرتنى أنت بالقيام بأمره ، فانتهيت الى أمرك • فسكن الهادى اليه ووصله ، وبدأ يناظره في خلع الرشيد ، فقال له يحيى ان حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم وجرأتهم على حل العقود التى تعقد عليهم ، ولو تركت الأمر في بيعة أخيك بحاله ، وببيع لجعفر من بعده كان أوكد لبيعته • فقال له : صدقت ونصحت • ولكن للهادى لم تطب نفسه بعد ذلك لهذا رأى فأرسل الى يحيى وحبسه ، ولكن يحيى سأل أن يخلو بالهادى ، فأجيب ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، أرأيت إن كان ما نعوذ بالله منه قبل بلوغ جعفر ، وقد خلعت هرون فهل تتم الخلافة لمن لم يبلغ الحلم ؟ فقال : لا • قال يحيى : فدع الأمر حتى يبلغ جعفر فاذا بلغنا الله ذلك ، فعلى أن آخذ بيد هرون حتى يبايعه : واذكر يا أمير المؤمنين أنك لو بايعت لجعفر قبل بلوغه ، وحدث ما نعوذ بالله منه ، وثب على هذا الأمر أكابر أهلك ، وخرج عن ولد أبيك ، والله لو لم يعقد المهدي لهرون ؟ لوجب أن تعقد أنت له ليكون في بنى أبيك • فشكر له هذا القول وأطلقه (١) •

ولكن الهادى عاود محاولاته : وضيق على الرشيد ، فأشار عليه يحيى أن يخرج للصيد ، ففعل ، ولم ينقبذ الرشيد من محاولات الهادى إلا موت الأخير دون أن يصل إلى الهدف الذى سعى إليه (٢) •

وفاة الهادى ومؤامرة الخيزران للتخلص منه :

ليست وفاة الهادى عادية كوفيات غيره من الخلفاء ومن الناس ، ولكنها طراز وحدها قل أن يتكرر في أى مكان أو أى زمان ، فأغلب

(١) الجهشيارى ١٦٩ — ٧٠ ، وابن الأثير ج ٩ ص ٣٢ •

(٢) انظر المسعودى : روج الذهب ج ٢ ٢٦١ •

المؤرخين يرون أن الهادى مات قتيلاً بمؤامرة دبّرتها أمه الخيزران ، وأسارع فأقرر أن الانسان يحس أن الطبيعة الانسانية تأبى أن ترتكب أم^١ هذا المنكر الجسيم مع ابنها ، ولهذا يتردد بعض المؤرخين المحدثين في التسليم بهذه المؤامرة ، ولهم الحق في التردد ، غير أن الطبيعة الانسانية أيضاً تقرر أن نفس الانسان أعز عليه من كل نفس ، وأن حق الدفاع عن النفس مشروع .

فاذا جاز ما يذكره بعض المؤرخين من أن الهادى حاول أن يسم^٢ أمه ، كان في ذلك ما يرجح إمكان تبخير الخيزران مؤامرة^٣ للفتك بالهادى ، بغاها عن نفسها ، ورغبة في استعادة نفوذها الذى فقدته بسبب صرامة الهادى وشراسته ، ولنسحق فيما يلى من المعلومات التاريخية ما يلقي الضوء على هذه التيارات الخفية ، التى اتخذت من قصر الخلافة في ذلك العهد مسرحاً لها :

كان المهدي سمحاً ، رضى^٤ الخلق ، صفى^٥ النفس ، قطع الخنبا ، ضاحك السن ، قليل الأذى والبذاء^(١) وكانت زوجته الخيزران امرأة قوية ، تحب النفوذ ، وتهوى السلطان ، وقد وجدت في أخلاق المهدي ما وافق طبيعتها وشجعها على التمادى ، فكانت تأمر وتنهى ، وتشفع وتبّررم وتتقص^(٢) : ويقول Sayed Ameer Ali^(٣) : إن المهدي جعل لها السيادة عليه وعلى من في بلاطه ، فازدحم قصرها بالأمراء والعظماء والطامعين في المناصب وطلاب الحاجات .

ولما مات المهدي وتولى الهادى الخلافة ، ظنت المرأة أن سلطانها سيتسع ، ونفوذها سيمتد ، وتخيلت أن الابن سيكون أكثر استجابة لها من الزوج ، وحسبت أنها ستتغلب على ذلك الشاب الحدث ،

(١) الجاحظ . التاج : ص ٣٥ .

(٢) الفخرى ص ١٦٧ .

(٣) A Short History of the Saracens p. 231.

وتطويه تحت جناحها أكثر مما فعلت بأبيه ، ولكن الهادي كان يختلف اختلافاً بيّناً عن المهدي ، لقد كان كما يقول الجاحظ (١) : « شكس الأخلاق ، صعب المرام ، قليل الاغضاء ، سيء الظن » . وكانت الغيرة من أبرز صفاته ، فقد حكى ابن الأثير (٢) : أن المهدي مات والهادي بجرحان يحارب أهل طبرستان ، فشغب جند بغداد يطالبون بأرزاقهم ، فاستدعت الخيزران يحيى البرمكي والربيع بن يونس لتستشيرهما فيما يمكن تدبيره حتى يصل الخليفة الجديد ، فأما الربيع فدخل عليها ، وأما يحيى فامتنع لما يعلم من غيرة الهادي ، وعمل على جمع المال وتهذئة الجند ، فلما علم الهادي بذلك كتب الى الربيع يتهدده بالقتل ، وكتب الى يحيى يشكره ، ولولا حيلة أشار بها يحيى على الربيع ، لكان من المحتمل أن يوقع الهادي بالربيع .

ولكن أولئك الذين منحوا حساسية مرهقة كحساسية يحيى بن خالد كانوا قليلين ، ومن أجل هذا بقي باب الخيزران كما كان من قبل ملجأً للوزراء والأمراء ، والعلماء ، والشعراء ، وطلاب الحاجات ، وكانت الخيزران تستبد بالأمور دون الهادي ، وتسلك بالأمر مسلكها مع المهدي ، حتى مضت أربعة أشهر كان الناس خلالها ينثالون الى بابها ، وكانت المراكب تغدو إليها وتروح (٣) .

واحتل الهادي هذه الفترة بدافع البر بأمه ، ولكن المرأة تبادت ، وأوشكت أن تنكر وجوده ، وكانت تبرم الأمر ، وتقدمه اليه ليوقعه ويمضيه ، فتيقظت شخصيته ، وتحركت نفسه ، ووجدت آلا مناص من وقف هذا التيار الجارف ، ووضع حدًا لهذا العدوان للصارخ على مسئولياته وواجباته .

(١) التاج ص ٣٥ .

(٢) الكامل في التاريخ ٦ : ٢٩ .

(٣) ابن الأثير ٦ : ٣٣ .

وبدأ الهادى مقاومته بتأجيل النظر فى طلباتها وعدم الإسراع فى تلبية رغباتها ، سألته مرة أن يولى خاله الغطريف اليمن ، فوعدها بذلك ، ثم كتبت له يوما رقعة تنتجّر فيها أمره ، فردّ إليها رسولها يقول لها خيرّيه بين اليمن وطلاق ابنته (زوجة الهادى) ، أو المقام عليها دون أن يولّى اليمن • فأيهما اختار فعلته • فأخطأ الرسول فى فهم كلام الهادى ، وعاد للخيزران ليقول لها : يقول لك الخليفة : اختارى للغطريف ، فظننت أنه يخيّرهما بين ولايات متعددة ، فاخترت ولاية اليمن ، وأعدت الرسول بذلك ، فقال للهادى : اخترت ولاية اليمن ، فغضب الهادى ، وطلق ابنة خاله ، ولما وصل خبر الطلاق بيت الهادى ، ارتفع الصياح منه ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : من دار بنت خالك ، وعرف أن الرسول أخطأ فى تبليغ الرسالة (١) •

ثم تقدمت الخيزران بمطلب جديد ، وأخطأها فى هذه المرة التوفيق أيضا ، وبلغ طغيانها القمة ، فقد بدا للهادى : أولا — أنها لا ترجو ولكنها تأمر ، وتضمن النفاذ سلفا لصاحب الحاجة ، وثانيا — أنها لا تكتفى بالتوسط فى الأمور العادية ، ولكنها تبرم الرأى أيضا فى عظامم الأمور ، وثالثا — ظهر للهادى أن صلتها ليست مقصورة على أخيها الغطريف وأمثاله من محارمها ، بل تمتد الى غيرهم من القادة والرؤساء • فتحرّكت فيه النخوة والغيرة ، وأصر على أن يثبت شخصيته ، ويسيطر وحده على زمام الأمر ، فبدأت العاصفة ، ولنسمع الى المسعودى ، وابن الأثير ينقلان لنا هذه الرواية :

كلمت الخيزران ابنها الهادى ذات يوم فى أمر ، فلم يجد الى إجابتها سبيلا ، فاعتل لها بعة ، فقالت : لا بد من إجابتي ، قال : لا أفعل ، قالت : فانى قد ضمننت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك ، فغضب الهادى ، وقال : ويل لابن الفاعلة ، قد علمت أنه صاحبها ، لا قضيتها

(١) الاغانى ١٣ : ١٢ ، ١٣ والطبرى ١٠ : ٤٣ •

لك ، قالت : إذا والله لا أسألك حاجة أبدا • قال إذا والله لا أبالي ، وقامت مغضبة • فقال : مكانك فاستوعبي كلامي ، والله — وإلا كنت نفياً من قرابتى من رسول الله (ص) — لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى وخاصتى ، لأضربن عنقه ، ولأقبض ماله ، ما هذه المواقب التى تغدو وتروح الى بابك ؟ أما لك مغزل يشغلك ؟ أو مصحف يذكرك ؟ أو بيت يصونك ؟ إياك وإياك ، لا تفتحى بابك لمسلم ولا ذمى •

فانصرفت وهى لا تعقل ما تظن ، دون أن تنطق بحلو أو بمر • ثم إنه قال لأصحابه : أيما خير ، أنا وأمى أو أنتم وأمهاتكم ؟ قالوا : بل أنت وأمك ، قال : فأياكم يجب أن يتحدث الرجال بخبر أمه ، فيقال : فعلت أم فلان ، وقالت أم فلان ؟ قالوا : لا نحب ذلك ، قال فما بالكم تأتون أمى فتتحدثون بحديثها ؟ فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها (١) •

وهكذا تأزمت الأمور بين الخليفة وأمه ، وأحست الخيزران بفرغ كبير بعد أن جفاها الناس ، ولم يعد أحد يستطيع أن يسعى إليها ، فنقمت على ابنها ذلك وكرهته •

ولم تقف المسألة عند هذا الحد ، بل جدت أمور أخرى ، تفاقم الخلف بسببها ، وعظمت الهوة ، فالهادى يصير على خلع الرشيد ، والرشيد هو الأمل الباقي للخيزران ، لأنه الابن الوديع السمع ، الذى يترجى أن يكون صورة من أبيه ، تستعيد الخيزران فى ظله نفوذها ومكانتها الذابلة (٢) • وامتلأ القصر فى ظل هذه الحركات بالجواسيس ، فللهادى عيون على أمه من خدمها ، وللخيزران على ابنها عيون من خدمه ، وتعرف الخيزران من عيونها أن الهادى يتسقط أخبارها ، ويحاصرها بحصار قوى ، وتقع فريسة للانفعالات المختلفة والعواطف

(١) المسعودى • مروج الذهب ٧ : ٢٥٧ — ٢٥٨ وابن الاثير ٦ :

٣٣ — ٣٤ •

(٢) الفخرى ص ١٦٨ •

المتباينة ، فمرة تثور نفسها ، ويتجلى خوفها على الرشيد فنتمنى لو تنتقم من الهادئ وتزيله من الوجود ، ولكن كيف وهو ابنها وقطعة من كبدها ، فهل تقوى على ذلك ؟ •

ويعرف الهادئ أن أمه تؤلب الرشيد عليه ، وتحثه على ألا يظلم نفسه ، فيتزايد حنقه عليها ، ويصر على أن يفعل شيئاً ، فيرسل لها طعاماً مسموماً ، ولكنها تختبر هذا الطعام قبل أن تتناوله فتلقى بعضاً منه الى كلب ، فيتروح ، ويهوى لساعته ، ويسألها الهادئ عن الطعام ، فتقول : كان طعاماً طيباً ، ولكنه يدرك أنها لم تأكل منه فيقول : ما أكلت منه ، ولو فعلت لاسترحمت منك ، متى أفلح خليفة له أم (١) ؟

وتصبح المسألة بالنسبة للخيزران دفاعاً عن النفس ، ويتحقق لها أن الهادئ عاق ، وأن من الممكن أن تضع مكانه ابناً آخر عرف بالبر والرحمة والحنان • فيقال : إنها أوعزت الى بعض الجوارى فقتلته بالجلوس على وجهه وهو مريض ، وظللن يكتمن أنفاسه حتى زهقت روحه ، فأرسلت الى يحيى بن خالد تعلمه بموته (٢) • وكان ذلك في ربيع الأول سنة ١٧٠هـ •

(١) ابن الاثير ٦ : ٣٤ •

(٢) المرجع السابق وابن خلدون ٣ : ٢١٧ ، والفخرى ص ١٦٨ •

الرشييد (١٧٠ - ١٩٣ هـ)

نشأته وتوليته الخلافة :

يعتبر عصر هارون الرشيد واسطة العقد بالنسبة للخلافة العباسية أو قل بالنسبة للتاريخ الاسلامي الوسيط كله ، فقد اكتملت للدولة ألوان من العظمة والقوة والمجد العلمي ، وكانت الدولة مهيبه الجانب ، فاحترمتها الدول المجاورة وهابتها ، وفي الداخل كان الرشيد أقوى من كل الأحداث ومن الفتن التي ثارت هنا وهناك ، فكان الاستقرار طابع الدولة والعظمة طابع الخليفة ، ويقول السيوطي إن أيام الرشيد كانت كلها أيام خير ، كأنها في حسنها أعراس (١) .

وقد ولد الرشيد بالري سنة ١٤٥ هـ وأمه أم ولد شهيرة هي الخيزران سألقة الذكر ، وهي أم الهادي ، ونشأ الرشيد نشأة رائعة ربّت فيه قوة الشخصية وسماحة النفس ، وألقى به أبوه المهدي في خضم الأحداث ، فجعله أميراً للصائفة سنة ١٦٣ هـ وفي سنة ١٦٤ ولده المغرب كله من الأنبار حتى أطراف إفريقية ، فكان الرشيد يرسل من قبله الولاة لهذه البقاع ، وفي سنة ١٦٥ هـ عاد المهدي فعين الرشيد أميراً للصائفة مرة أخرى حيث جرت معركة هرقله الشهيرة التي سنتحدث عنها فيما بعد ، وكانت إيريني آنذاك وصية على ابنها قسطنطين السابع ، وفي سنة ١٦٦ عينه أبوه ولياً للعهد بعد الهادي ، ولما مات الهادي تولى الرشيد الخلافة سنة ١٧٠ هـ .

شخصية الرشيد وأخلاقه :

كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائمهم ، كان يحج سنة ويغزو سنة طيلة خلافته إلا سنين قليلة ، وكان يصلى في كل يوم مائة ركعة ، وحج ماشياً ولم يحج ماشياً غيره ، وكان يتشبه في أفعاله

(١) تاريخ الخلفاء ص ١١٢ .

بالمصور إلا في بذل المال ، فإنه لم يثر خليفة أسمح منه بالمال ، وكان لا يضيع عنده إحسان محسن ولا يؤخر ، يحب الشعر والشعراء ، ويميل الى أهل الأدب والفقه • وكان كثير التواضع للعلماء (١) •

وكان من أبرز صفات الرشيد أنه ربيع عاصفة حيناً ، ونسيم رخاء حيناً آخر ، وأن عواطفه أكثر تحكما فيه من عقله ، يثور فيزار ويضطرب ، ويوعظ فيبكي وينتخب ، وكان يقرب الفكه الهذار ، كما يدنى الفارس المغوار •

ومما يدل على تحكم عواطفه فيه أنه مرة حبس أبا العتاهية ، وجعل عليه عيناً يأتيه بما يقول ، فراه يوماً وقد كتب على الحائط :

أما والله إن الظلم لؤم وما زال المسيء هو الظلوم
الى ديّان يوم الدين نمضى وعند الله تجتمع الخصوم

فأخبر بذلك الرشيد فبكى وأحضره واستحله وأعطاه ألف دينار (٢) • وقال الأصمعي : صنع الرشيد طعاماً ، وزخرف مجالسه ، وأحضر أبا العتاهية وقال له : صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا ، فقال أبو العتاهية :

عش ما بدا لك سالماً في ظل شاهقة القصور

فقال الرشيد : أحسنت ثم ماذا ؟ فقال :

يسعى إليك بما اشتهيت لدى الرواح وفي البكور
فقال : حسن ، ثم ماذا ؟ فقال :

فاذا النفوس تقعقت في ظل حشجة الصدور
فهناك تعلم موقنا ما كنت إلا في غرور

(١) الفخرى ١٦٩ — ١٧٠ •

(٢) ابن الاثير ٦ : ٧٢ •

فبكى الرشيد ، فقال الفضل بن يحيى لأبى العتاهية : بعث إليك أمير المؤمنين لتسره فأحزنته ! فقال الرشيد : دعه ، فإنه رآنا في عمى فكره أن يزيدنا منه (١) .

وقد أدرك بعض المقربين إليه من الشعراء هذه النزعة العاطفية فيه ، فكان أبو العتاهية مثلاً يستغل هذه النزعة ليمكر بالرشيد ، وليثير أحزانه ويستنزل دموعه انتقاماً منه في بعض الأحيان ، حدث أبو العتاهية قال : كان الرشيد يعجبه غناء الملاحين في الزلاجات إذا ركبها ، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم ، فقال : قولوا لمن معنا من الشعراء أن يعملوا لهؤلاء شعراً يغنون فيه . فقل له : ليس أحد أقدر على هذا من أبى العتاهية وهو في الحبس ، قال أبو العتاهية : فوجهه الى الرشيد أن أقول شعراً ليسمه منهم ، ولم يأمر بإطلاقى ، فغاضنى ذلك ، فقلت والله لأقران شعراً يخزنه ولا يسره به ، وعملت شعراً ، ودفعته الى من حفظه من الملاحين ، فلما ركب الحراقة سمعه ، وهو :

خانك الطرف الطموح	أيها القلب الجموح
لدواعي الخير	والشر دثوث ونزوح
هك لمطلوب بذنب	قوية منه نصوح ؟
كيف إصلاح قلوب	إنما هن قروح
أحسن الله بنا أن	الخطايا لا تفوح
فيذا المستور منا	بين ثوبيه فضوح
كم رأينا من عزيز	طويت عنه الكشوح
صاح منه برحيل	صائح الدهر الصدوح
موت بعض الناس في الأر	ض على قوم فتوح

(١) الفخرى ١٦٦ - ١٧٠ ، ابن الأثير ٦ : ٧٢ - ٧٣ .

سيصير المرء يوماً جسداً ما فيه روح
كلنا في غفلة والـ موت يغدو ويروح

قال : فلما سمع ذلك الرشيد جعل يبكي وينتحب (١) .

وكما كان الرشيد سريع البكاء كان سريع الضحك ، فقد روى ابن الأثير (٢) أن الرشيد كان لا يصبر عن ابن أبي مريم الضحك الفكه حتى أنه أسكنه معه في قصره : وقد مر به الرشيد في فجر ليلة وهو نائم ، فكشف اللصاف عنه وقال : كيف أصبحت ؟ فأجاب : ما أصبحت بعد ، اذهب الى عملك . قال الرشيد : قم الى الصلاة . فأجاب : هذا وقت صلاة أبي الجرود ، وأنا من أصحاب أبي يوسف (٣) . فمضى الرشيد يصلي ، ثم قام ابن أبي مريم ، وجاء حيث يصلي الرشيد ، فسمعه يقرأ في الصلاة « ومالي لا أعبد الذي فطرني » (٤) فقال ابن أبي مريم : ما أدري والله !! فما تمالك الرشيد أن ضحك ، ثم قال وهو مغضب : أفي الصلاة أيضاً ؟ قال ابن أبي مريم : ما صنعت ؟ قال : قطعت على صلاتي . قال : والله ما فعلت ، إنما سمعت منك كلاماً غمّتي حين قلت : « ومالي لا أعبد الذي فطرني » فقلت : لا أدري . فعاد الرشيد الى الضحك ، ثم قال : إياك والقرآن والدين ، ولك ما شئت بعدهما .

وكان الرشيد واسع العطاء كثير السخاء يهتف به الشاعر فيستجيب ويفيض جوده ، حتى يصل به الى حد السرف ، وقد وقف رجل من بني أمية في طريقه ومعه كتاب فيه :

(١) الاغانى ٣ : ١٧١ — ١٧٢ .

(٢) الكامل في التاريخ ٦ : ٧١ — ٧٢ .

(٣) أبو الجرود أحد الفقهاء الذين يرون التبكير بصلاة الصبح ويميلون الى ادائه في الغسق ، وكان أبو يوسف لا يرى ذلك .

(٤) سورة يس الآية رقم ٢٢ .

(م ١٠ — التاريخ الاسلامى ج ٣)

يا أمين الله إني قائل قول ذي لب وصدق وحسب
لكم الفضل علينا ، ولنا بكم الفضل عن كل العرب
عبد شمس كان يتلو هاشما وهما بعد لأم ولأب
فصيل الأرحام منا إنما عبد شمس عم عبد المطلب
فأمر له بألف دينار لكل بيت وقال : لو زدتنا لزدناك (١) •

هذا مثل عادي من جود الرشيد ، ولن نحاول إثبات أمثلة أخرى ،
فجود الرشيد الزاخر تفيض به كل كتب الأدب والتاريخ •

عظمة الدولة في عهد الرشيد :

كانت دولة الرشيد من أحسن الدول وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً ،
وأوسعها رقعة مملكة ، فقد جبي الرشيد معظم الدنيا ، وكان أحد
عماله صاحب مصر ، ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء
والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والندماء ما اجتمع على باب
الرشيد ، وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة ، ويرفعه الى أعلى درجة ،
وكان أديباً شاعراً ، رواية للأخبار والآثار والأشعار ، صحيح الذوق
مهيباً عند الخاصة والعامة (٢) •

وفي عهده تقرر أن يلتزم بيت المال بالإنفاق على المسجونين بأن
يصرف لكل منهم ما يكفي لطعامه ، وأن تقدم لهم كسوة للصيف وكسوة
للشتاء (٣) ، وكان المهدي قد قدّم بعض ذلك على أنه عطء ، ولكن الرشيد
جعله التزاماً •

ومن أهم ما اكتسب الشهرة لهرون الرشيد رعايته للعلم وتأسيسه

(١) المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٣٨٠ ، والجهشياري : الوزراء والكتاب
ص ١٤٤ •

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٧١ — ١٧٢ •

(٣) الخراج لأبي يوسف ص ٨٨ •

« بيت الحكمة » ذلك المعهد الذى كان المنار للثقافة والفكر فى العالم آنذاك ، والذى انبعثت منه الشطة التى أضاعت الطريق للنهضة الأوربية فيما بعد . ومما كسب الشهرة للرشيد كذلك كتاب « ألف ليلة وليلة » ذلك الكتاب الذى صورّ سحر الشرق أجمل تصوير ، والذى احتل أرفع مكان فى الأدب العالمى ، وقد تُرجم هذا الكتاب الى معظم لغات العالم .

ترف القصور فى عهد الرشيد :

يقول ابن خلدون^(١) : « إن الأمة إذا تغلبت وملكت ما بأيدي أهل الملك قبلها ، كثر رياشها ونعمتها ، فتكثر عوائدهم ، ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته ، الى نوافله ورقته وزينته ، ويذهبون الى اتباع من قبلهم فى عوائدهم وأحوالهم ، وينزعون مع ذلك الى رفاه الأحوال فى المطاعم والملابس والفرش والآنية ، ويتفاخرون فى ذلك ، ويفخرون غيرهم من الأمم فى أكل الطيب ، ولبس الأنيق ، وركوب الفاره ، وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك ، وترفعهم فيه ، الى أن يبلغوا من ذلك الغاية التى للدولة أن تبلغها بحسب قوتها ، وعوائد من قبلها ، ولا يحصل الملك إلا بالمطالبة والمغالبة ، فإذا حصلت الغاية ، انقضى السعى إليها ، وقلت المتاعب التى كانوا يتكلفونها فى طلب الملك ، وأثر نووه الراحة والسكون والدعة ، ورجعوا الى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس فيبنون القصور ، ويجرون المياه ، ويفرسون الرياض ، ويستمتعون بأحوال الدنيا » .

وذلك هو ما تمّ أو بعض ما تمّ فى عهد الرشيد ، وساعده على ذلك شبابه الغض ، وقصر أبيه الذى نشأ فيه ، ورجاله الذين حملوا عنه أعباء الحياة ومسئوليات الملك ، مهدوا له سبل الترف وأسباب النعيم . ثم من المسلم به أن المال عصب المتعة وسلم الترف ، وقد توافر المال

لدى الرشيد ولدى رجاله ، وللمال سحر وإغراء ، روى ابن خلدون^(١) أن المحمول الى بيت المال فى أيام الرشيد بلغ ٧٥٠٠ قنطار فى كل سنة ، وذلك يعادل خمسة وسبعين مليوناً من الجنيهاً غير الضريبة العينية التى تشمل الحبوب والأقمشة وغيرها ، وإيراد^٢ كهذا فى تلك الأيام كان إيراداً أقرب الى الخيال منه الى الحقيقة ، ومن لك فى خليفة كان يستلقى على ظهره ، وينظر الى السحابة المارة ويقول : اذهبى الى حيث شئت فسيأتنى خراجك^(٣) ؟

وأصبح بهذا عهد الرشيد عهد شباب الدولة ونضارتها كما سبق ، وهو يعتبر فى الذروة من عهود بنى العباس ، وقد وصلت بغداد فيه الى قمة مجدها ، ومنتهى فخارها ، وامتدت الأبنية فى كل جانب منها امتداداً عظيماً حتى صارت بغداد كأنها مدن متلاصقة تبلغ الأربعين ، وبلغ سكانها نحواً من مليون نسمة^(٤) . وأصبحت مركزاً تجارياً عظيماً وسوقاً رائجة تنال عليها البضائع والأموال من كل صوب .

ولم يكن الرشيد وحده هو الذى وصل الى هذا الحد ، بل إن رجال دولته وعظماءها وكثيراً من ولاته وقواده كانوا فى أوج عظمتهم ، وأنصر أيامهم ، وأكثرها بهجة وجلالاً ، لقد كثرت فى ذلك العهد القصور الشاهقة التى تموج بالرياش الفاخر ، والأثاث الثمين ، وتمتع بالجوارى والقيان وترخر بالشعر والموسيقى والغناء . وقد قرأ القرم آيات القرآن الكريم التى تصف الجنة ، فتعجلوا هذه الأوصاف فى الدنيا ، فهنا قصر الخلد الذى شُيِّد بجنة الخلد التى وعد بها المتقون^(٥) . وهناك قصر السلام الذى لوحظ فى تسميته قوله تعالى « لهم دار السلام

(١) المقدمة ١٢٧ .

(٢) صبح الاعشى ٣ : ٢٧٠ .

(٣) طه الراوى : بغداد مدينة السلام ص ٣٤ .

(٤) انظر سورة الانعام الآية ١٢٨ .

عند ربهم » (١) • وأغلب قصور هذا العهد تجرى من تحتها الأنهار وتموج بحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون •

وحول قصر الخلد كانت الجنات الملتفة ، والحدائق المتسعة ، والأزهار المونقة ، من ورد وبهار ، ويسمين وجلنار ، وسوسن وأقحوان ، الى غير ذلك مما اختلفت ألوانه ، وعبق أريجيه ، وتضوءع الجو بطيبه ، وفي خلال ذلك تجرى القنوات والگردان والجداول ، ومن دونها دجلة تزهى بفلحها وزوارقها ، وقد أقبل الأمراء والسراة : يشيدون حول الخلد قصورهم ، ويفتثون في هذه القصور ما مكنتهم وسائلهم الكثيرة ، وأموالهم الوفيرة ، وأخيلتهم الخصبة ، وروح الترف التي كانت تسيطر عليهم • فها هو ذا بإزاء الخلد ، وعلى الضفة المقابلة في ذلك المنحنى ، قصر أبى أيوب سليمان بن أبى جعفر المنصور ، الشاعر الأنيق الرقيق ، وعم الخليفة ، وها هو ذا الى جنوبى الخلد ، قصر أم جعفر زوج الرشيد الحبيبة ، ثم ها هي ذى قصور البرامكة في رحبة الخلد تجاه باب خراسان ، الى غير ذلك من القصور التي جمعت من الزينة ومظاهر الترف ما جعل من تلك الضاحية جنة الأرض •

وكانت مجالس اللهو والغناء والموسيقى فيها ، تتضاعف فتنتها ، وتريدها متاعاً الى متاع ، وكان يناوح هذه الضاحية القائمة على الشاطئ الغربى للنهر ضاحية الرصافة ، وضاحية الشماسية ، وكلتاها من أحياء السراة والمترفين ، وفي الشماسية كانت إقطاعات البرامكة ، وفيها بنو طائفة من القصور الرفيعة ، وكان قصر الخلد يشرف على هذه الأحياء الأنيقة في الشاطئ الشرقى ، فكان ذلك مما يزيده جمالاً منظره وروعةً وفتنة • وكان يتألف من الضفتين في هذا الوضع مجموعة مونقة من القصور والجنان ، يتوسطها النهر فجملت بذلك بين الجمال

المطبوع والمصنوع ، وتمثلت فيها على أحسن وجه مظاهر هذه الحضارة التي اكتملت للعراق في هذه الفترة (١) .

وقد وصف على بن الجهم القصر الهاروني [لعله منسوب الى هارون الرشيد] بقصيدة رائعة منها :

وقبة ملك كأن النجو م توحى إليها بأسرارها
تخبر الوفود لها سجدا إذا ما تجلت لأبصارها
وفوارة ثأرها في السماء فليست تقصر عن ثأرها
ترد على المزن ما أنالت الى الأرض من صوب مدرارها
إذا أوقحت نارها بالعراق أضواء الحجاز سنا نورها
لها شرقات كأن الربيع كساها الرياض بأنوارها (٢)

ويقول Richard Coke (٣) : وحظى هرون الرشيد بصيت عريض قل أن سجله التاريخ لغيره من الملوك والسلاطين ، وعليه تدور أقاصيص ألف ليلة وليلة ، التي ترجمت الى معظم اللغات ، وانتشرت بذلك في جميع أقطار العالم ، وتسربت الى أغلب البيوت والمنازل ، وعلى الرغم من بعض نواحي الضعف في شخصية الرشيد ، يعتبر بحق أحد عظماء الملوك في التاريخ ، وفي عهد الرشيد شمل الرخاء الامبراطورية الاسلامية على نحو لم يتوافر من قبل ، وكانت حكومة الرشيد مهيبة الجانب في الداخل والخارج ، وشاعت العدالة بين الناس ، واتصلت بغداد بتجارة واسعة مع بقاع العالم المختلفة التي كانت معروفة في ذلك العهد ، ويمتاز هرون الرشيد بأنه بالإضافة الى حماية رعيته وتأمينهم ، جلب لهم ألوان الحضارة والمدنية والفنون والآداب . وفي عهد هارون وصلت بغداد الى قمة العظمة واتسعت اتساعا عظيما في كل اتجاه ، وتألفت الأبنية

(١) طه الحاجري : قصر الرشيد ٢١ - ٣٢ .

(٢) الاغانى ج ٩ ص ١١٤ .

(٣) Baghdad; the City of peace p.p. 61-64 abridged. (٣)

فيها ، وشمل التجديد والزخرفة جميع الأبنية التي بنيت قبل عهد الرشيد : حتى أصبحت تتمشى مع العهد الجديد ، فأصبحت سجمة بغداد ، وجمالها ، والثقافة فيها ، وألوان الملبات والسرور ، وصنوف الترف والرفاء أصبح كل ذلك مشهوراً في العالم كله ، وما استطاع الرحالة أن يجدوا لبغداد في عهد الرشيد نظيراً •

والقصة التالية ترينا صورة من الترف والغنى التي كانت طابع الهدايا التي اعتاد المعظماء والسرارة أن يقدموها في المناسبات المختلفة ، قال المسعودي (١) : كانت أم جعفر قد كتبت إلى أبي يوسف تستفتيه في مسألة ، فأفتاها بما عرّف أنه يوافق هواها على حسب ما أوجبته الشريعة عنده ، وأدّاه اجتهداه إليه ، فشرعت أم جعفر من الإفتاء ، وبعثت إلى أبي يوسف بحقّ فضة فيه حقان ، في كل حق لون من الطيب ، كما بعثت له بجام ذهب فيه دراهم وجام فضة فيه دنائير ، وشفعت ذلك بغلمان ، وتخوت من ثياب ، وحمار ، وبغل ، ويستمر المسعودي فيذكر أن الهدية وصلت أبا يوسف وعنده بعض أصحابه ، فقال أحدهم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أهديت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها ، فقال أبو يوسف تأولت الخبر على ظاهره ، لقد كان ذلك حينما كانت هدايا الناس التمر واللبن ، أما الآن فهدايا الناس العيّن والورق (الذهب والفضة) وأمثالهما وذلك للمهدى إليه خاصة تبعاً لقوله تعالى « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » (٢) •

وكان اهتمام القوم بالمحافل والأندية اهتماماً ملحوظاً ، كما اهتموا بالصيد والقتص ، وعثوا من أجل ذلك بتربية صنوف متعددة من السباع والطيور •

(١) مروج الذهب ٢ : ٢٦٥ •

(٢) سورة الحديد الآية ٢١ •

أما عن ملابسهم وطعامهم فعندنا من النصوص ما يوضح الترف البالغ الذى وصل اليه القوم فيها : دخل أبو قابوس النصرانى الحميرى — وكان منقطعا الى البرامكة — على جعفر بن يحيى فى يوم بارد ، فتبين عليه جعفر أثر البرد ، فالتقى اليه مطرف خز كان شراؤه جملة كبيرة ، وانصرف أبو قابوس ، فحضره عيد لهم ، فالتمس فى ثيابه ما يشاكل ذلك المطرف فلم يجده ، فقالت ابنته : لو كتبت الى جعفر فعرفته حالك لوجه إليك ما تلبسه مع هذا • • فكتب إليه :

أبا الفضل لو أبصرتنا يوم عيدنا
رأيت مباحاة لنا فى الكنائس
فلو ضم هذا المطرف الخز جبة
لباهيت أصحابى به فى المجالس
فلا بد لى من جبة من جبابكم
ومن طيلسان من جياد الطيالس
ومن ثوب قوهى وثوب غلالة
ولا بأس لو أتبعك ذاك بخامس
إذا تمت الأثواب فى العيد خمسة
كفتك ، فلم تحتج الى لبس سادس
لعمرك ما أفرطت فيما سالت
ولا كنت لو أفرطت فيه بيأس

فلما قرأ جعفر بن يحيى هذه القصيدة وجه اليه من كل صنف ذكره عشر قطع (١) •

ذلك مثال واضح للابس سراة الناس فى هذا العهد ، وهو يطابق أيضا ما ذكره الأصفهاني (٢) من أن ابراهيم بن المهدي كان يلبس

(١) الحشيارى : الوزراء والكتاب ٢١٠ .

(٢) الاغانى ٥٩ : ٩ — ٦٠ .

المطرف وجبته من الخز ، وأنه أهدى المطرف مرة الى إسحق الموصلى
عندما لقننه هذا لحناً من ألحانه ، وأن قيمة هذا المطرف كانت مائة
ألف درهم فيما يذكرون •

فاذا ذهبنا الى الطعام ذكرت لنا المصادر ما يدل على الترف
البالغ الذى هو الى السرف أقرب : حدث ابراهيم بن المهدي قال :
استقرت الرشيد بالرقه ، فزارنى ، وكان يأكل الطعام الحار قبل البارد ،
فلما وضعت البوارد رأى فيما قرَّب اليه منها جام قريض سمك ،
فاستصغر القطع وقال : لم صغر طبابخك تقطيع السمك ؟ فقلت : يا أمير
المؤمنين ، هذه ألسنة السمك • قال : فيشبهه أن يكون فى هذا الجام
مائة لسان • فقال مراقب مطبخه : يا أمير المؤمنين ، فيها أكثر من مائة
وخمسين ، فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك ، فأخبره أنه أكثر من ألف
درهم • • قال ابراهيم بن المهدي : وكان شراء الجام مائتين وسبعين
دينار (١) •

فانظر مدى هذا الترف فى تلك العصور المبكرة ، وعاء على المائدة
ثمينة مائتان وسبعون ديناراً وأغلب الظن أن كل الأوعية على المائدة
من هذا الطراز ، ثم هناك الطعام الحار والطعام البارد ، وألسنة
السمك لون من ألوان البوارد ، وقيمة هذا اللون فى الوعاء ألف درهم ،
ولو أن ابراهيم بن المهدي أكمل لنا وصف المائدة لنقل لنا صورة
رائعة لطعامهم وشرابهم وربما بدت لنا الى الخيال أقرب منها الى
الحقيقة •

فاذا تركنا هذه المائدة التى أعدت للخليفة ، وذهبنا الى مائدة أخرى
لم تكن معدة ولا مقصودة بقدر ما كان الأئس والطرب هما المقصودين
ولم تكن مقدمة الى خليفة ولا الى أمير ، وإنما الى رجل قد يكون من
الطبقة الثانية أو الثالثة ، إذا ذهبنا الى هذه المائدة فماذا سنرى هناك ؟ ••

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٧٩ — ٢٨٠ •

استمع الى مخارق يحدثنا حديث هذه المائدة فيقول : جاءني أباي
العتاهبة فقال : قد عزمت على أن أتزود منك يوما تهبه لى ، فمتى تنشط ؟ •
فقلت متى شئت • • فقال : أخاف أن تقطع بى (أى أن تخلف وعدك)
فقلت : والله لا فعلت وإن طلبنى الخليفة • فقال : يكون ذلك فى غد •
فقلت : أفعل • • فلما كان الغد باكرنى رسوله (رسول أبى العتاهية)
فجئته ، فأدخلنى بيتا نظيفا ، فيه فرش نظيف ، ثم دعا بمائدة عليها
خبز سميد وبقل وملح وجدى مشوى فأكلنا منه ثم دعا بسمك مشوى
فأصبنا منه حتى اكتفينا ، ثم دعا بخلواء فأصبنا منها وغسلنا
أيدينا ، وجاعونا بفاكهة وريحان وألوان من الأنبذة فقال : اختر ما
يصلح لك منها • فاخترت وشربت ثم أخذت أشرب ويشرب معى ، وأغنى
له وهو يسمع حتى صارت العتمة (١) •

إن ترف هؤلاء القوم قد بلغ الغاية وأربى ، وإن دراسته دراسة كاملة
تستدعى عملا مستقلا ، فلنتوقف الآن عنه لننتقل بالحديث الى موضوع
آخر •

أحداث مهمة فى عهد الرشيد :

وتبرز فى عهد الرشيد أحداث ذات بال سنوليها العناية فى مواضعها
المخصصة لها ، ومن هذه الأحداث ثورات الخوارج وسيرد ذكرها
عند الحديث عن الخوارج ، ومنها كذلك الحرب مع الروم وسترد عند
الكلام عن العلاقات الخارجية ، كما سيرد الحديث مفصلا عن البرامكة
فى حيز خاص بين « مشاهير وزراء العصر » •

وفى عهد الرشيد ظهرت دولة الأدارسة ببلاد المغرب • كونهما
إدريس بن عبد الله الذى فرّ من موقعة « فخ » التى حصلت فى عهد
الهادى ، وسيأتى ذكرها عند الكلام عن ثورات العلويين ، واتخذ
الرشيد حيلة للوقوف فى وجه الأدارسة ، فأقطع إبراهيم بن الأغلب

(١) الاغانى ٣ : ١٧٣ - ١٧٤ •

منطقة تونس ، وكان ذلك بدءاً لقيام دولة الأغالبة كما سيأتي فيما بعد (١) .

ثورة خراسان :

وفي عهد الرشيد حصلت أزمة عنيفة في خراسان ، فان الرشيد — مخالفاً رأى يحيى بن خالد — عيّن على بن عيسى بن علي بن ماهان والياً على خراسان ولكن هذا الوالي استبدّ بالأهلين وعسف وظلم ، فأخذ من أموالهم ما طاب له دون حساب ، واضطهد منهم من اشتكى أو من هدّد بالشكوى ، ووصلت أخباره الرشيد ، كما وصلته الأنباء أن على بن عيسى يهدد الساكنين بأنه لا يخشى الرشيد ، وأن طاعته له مشروطة بعدم التدخل في شئون ولايته ، فغضب الرشيد على علىّ وسار لمحاربته بنفسه ، ولكن علياً قابله بالرى وقدّم فروض الطاعة كما قدم ألواناً من الهدايا والطرف للرشيد وكبار رجال دولته الذين صحبوه ، فرضى عنه الرشيد وعاد إلى بغداد وأعادته إلى خراسان .

وعاد على بن عيسى لينتقم بحرارة ممن اتهمهم بالكتابة ضده إلى بغداد . وفي نفس هذه الفترة ، وبين هذا الغيظ المستعر في نفوس أهل خراسان ثار رافع بن ليث بن نصر بن سيار ، وانضم له الخراسانيون نكاية في على بن عيسى ، وعمت الثورة البلاد وتفاقمت ، وأدرك للرشيد أن لابد من عزل على بن عيسى ، فأرسل له هرثمة بن أعيناً على رأس جيش كبير ، فقبض هرثمة على علىّ بن عيسى وأهله وصادر أمواله الطائلة ، وأرسل علياً ، مكبلاً إلى بغداد . ولكن هرثمة لم يستطع أن يقضى على ثورة رافع التي وجدت استجابة تامة من الجماهير ، فاضطر الرشيد أن يسير بنفسه لمواجهة هذا الثائر . وكانت هذه هي الرحلة التي مات فيها الرشيد على ما سنذكر فيما بعد .

ومن الواضح أن ثورة رافع كانت رد فعل لطغيان عامل الخليفة ،

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٨ .

فكان هو السبب الرئيسى لقيامها. واستفحالها ، ويذكر المؤرخون أن السبب المباشر لثورة رافع أنه تعرّف على زوجة يحيى بن الأشعث ، وكانت امرأة ذات مال وجمال ، فشكت له من زوجها وأنه هجرها ، فأغراها رافع بالردة لتنفصم عرى الزوجية ، ثم العودة للإسلام ليتزوجها هو ، وفعلت المرأة وتزوجها رافع ، وعلم الرشيد بذلك فكتب الى على بن عيسى ليفرق بينهما وليعاقب رافعا على فعلته ، ولكن رافعا استجار بابن على بن عيسى فأجاره ، ثم هب ثائراً وتبعه الناس وقوى أمره على ما مرّ ذكره ، وقد ظل رافع فى سلطانه حتى خضع للمأمون عندما أقام هذا بخراسان وحسنت سيرته (١) .

الرشيد وولاية العهد :

إذاً جاز لنا أن نتلمس العذر للخلفاء السابقين فى سياستهم الخاصة بمشكلة ولاية العهد ، فإنه لا يجوز لنا أن نتلمس العذر للرشيد ، ذلك أن المشكلة كانت محصورة فى أولاده دون أى دخيل يزعجه ، وكان يعرف من من أولاده يجب أن يكون وليّ عهده ، ثم كان يدرك أن السياسة التى يتبعها فى هذا الموضوع سياسة فاشلة ستؤدى الى القطيعة وسفك الدماء .

ولكن الرشيد اهتدى الى هذه النتائج عندما استغل عقله وفكره فى هذا الموضوع ، غير أنه كان أحياناً يطرح العقل والفكر ، ويستجيب لنداء القلب والعاطفة فى بعض الأمور حتى الخطيرة التى تتعلق بمستقبل الدولة وسير الأمور فيها . ولنعالج المشكلة من أولها :

يروى الجهشيارى (٢) أن الرشيد كان يحب زوجته زبيدة ، ويحبها بها وجداً شديداً ، وأنه لما عرض عليه الهادى أن يقطع إعطاء كبيراً على أن يخلع نفسه من ولاية العهد ، قبّل ذلك العرض وقال : « إذا

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ١٠ ص ١٠٠ وما بعدها .

(٢) الوزراء والكتاب ص ١٧٠ .

نزلتُ على (الهنئ والمرى) وخلوت بابنة عمى فما أريد شيئاً * *
وهكذا كانت زبيدة تعدل الخلافة عند الرشيد ، ألا يعدل رضاها ولأية
العهد لابنها الأمين ؟ ويقول السيوطى (١) : إن الرشيد بايع لمحمد لحرص
أمه زبيدة على ذلك *

والأمين ابن زبيدة ، فمن الطبيعى أن تحبه وأن ترجو له المجد
والخير ، ولكن من انحق على أن أقرر ، أنتى — على الرغم من محاولاتي —
لم أجد فيما قرأت حديثاً صريحاً من زبيدة للرشيد تحضه على إثثار ابنها ،
وإن كان من الحق أيضاً أن نقرر أنها لم تسلم من الإيعاز والتدبير ،
ولننظر الى القصة الآتية لنرى ما فيها من الإيعاز : روى المسعودى (٢)
أن أم جعفر دخلت على الرشيد فقالت له : ما أنصفت ابنك محمداً ،
حيث وليته العراق وعريته من العدو والقواد ، وصيرت ذلك الى عبد الله
دونه * فقال لها الرشيد : إنى وليت ابنك للسلم وعبد الله الحرب ،
وصاحب الحرب أحوج إلى الرجال من صاحب السلم *

لا نزاع أن هذه القصة توحى بأنها كانت يقظة تتطلع لمصلحة ابنها ،
وتبنى له مستقبله ، وفيها إيعاز بأنها تفطن لكل ما يدور حول ابنها ، ولا
تسمح لأحد أن يمتاز عليه *

ومن جهة التدبير فقد دل عليه ما ذكره ابن الأثير (٣) أن سبب البيعة
للأمين أن خاله عيسى بن جعفر بن المنصور جاء الى الفضل بن يحيى بن
خالد فسأله فى ذلك ، وقال له : إنه ولدك وخلافته لك ؛ فوعده بذلك وسعى
فيها حتى بايع الناس له بولاية العهد *

والذى أفهمه من هذه الرواية أن سعى عيسى كان بتدبير أخته زبيدة *
وأنه كان باسمها يتكلم ، ثم كان هذا يتفق ورأى بنى هاشم الذين يفضلون

(١) تاريخ الخلفاء ص ١١٣ *

(٢) مروج الذهب ٢ : ٢٧٣ *

(٣) الكامل فى التاريخ ٦ : ٤٠ *

محمد بن زبيدة على المأمون بن مرآجل • وقد استطاع عيسى بحديثه الى الفضل أن يأتى البيوت من أبوابها : فقد كان البرامكة يحرصون على إرضاء زبيدة ، لتميل الى جانبهم بدلا من انحيازها الى جانب الفضل بن الربيع الذى كان بها يقوى وعليها يعتمد •

وانضم بذلك البرامكة الى المعسكر الذى يعمل لصالح محمد الأمين ؛ وأرسلوا الوفود للرشيد يحثونه على البيعة له ، فخضع الرشيد لكل هذه الرغبات ، وعقد لابنه محمد ولاية العهد سنة ١٧٥ هـ ولقبه بالأمين •

ويورد الأصفهاني قصة تبين صورة من الصور التى اتبعت فى للتأثير على الرشيد ، كما تبين إدراك الرشيد لعقلية الأمين والمأمون • قال الأصفهاني (١) •

وجه الفضل بن يحيى وفداً من خراسان الى الرشيد يحرّضونه على إعلان البيعة لابنه محمد ، ويبدون استبشارهم وسرورهم لما أذيع من عزم الرشيد على هذا الأمر ، وقد وقف شاعرهم محمد بن ذؤيب العماني ينشد عنهم أرجوزة طويلة منها :

لما أتانا خَبَرٌ مشهُرٌ
أَغْرَثَ لا يخفى على مَنْ يَبْصُرُ
جاء به الكوفى والمبصرُ
والراكب المنجد والمغفورُ
قلت لأصحابى ووجهى مُسْفِرُ
فاز بها محمد فأقبروا
وقتلَ الأمرُ الأغرَّ الأزهر
فابتهج الناس به واستبشروا
وهللوا لربهم وكبروا

شكراً ، ومن حقهم أن يشكروا
فانظر لنا وخذ من لا ينظر
واجسر كما كان أبوك يجسر
لا خير في مجتمجم لا يظهر
ولا كتاب بيعة لا يتشر
وليت شعري والحديث يؤثر
أترقد الليل ونحن نسهر
خوفاً على أمورنا ونضجر ؟
فأحكم الأمر وأنت تقدر
فمثل هذا الأمر لا يؤخر

فلما فرغ من الإنشاد قال له الرشيد : أبشريا عمانى بولاية محمد
العهد فقال : أى والله يا أمير المؤمنين ، بشرى الأرض المجدبة بالغيث ،
والمرأة النزور بالولد ، والمريض المدنف بالبيرة • قال الرشيد : ولم ذاك ؟
قال لأنه نسيج وحده ، وحامى مجده ، ومورى زنده • قال : فما بالك فى
عبد الله ؟ قال مرعى ولا كالسعدان • فتبسم الرشيد وقال : قاتله الله من
أعرابى ، ما أعرفه بمواضع الرغبة ، وأسره الى أهل البذل ، وأبعده
من أهل الحزم والعزم ، والذين لا يستمنح مالديهم بالثناء ، أما والله
إنى لأعرف فى عبد الله حزم المنصور ونسك المهدي ، وعز نفس الهادي ،
ولو شئت أن أنسبه إلى الرابعة لنسبته •

ثم إن الرشيد بعد أن عقد البيعة للأمين لم يستشعر الراحة ، ولم
تطب نفسه لهذا التصرف ، وبالتالي أدرك البرامكة سوء المغبة فى هذا
الوضع الجائر ، فليس من العدل أن تكون ولاية العهد للأمين دون المأمون
مع أن الأول أحدث سناً وأقل كفاءة ، وكان المأمون فى حجر جعفر فأشار
هذا على الرشيد بأن يبايع له بعد محمد (١) •

(١) الجهشيارى ص ٢١١ •

ويسوق لنا المسعودي عن الأصمعي رواية تدل على أن نفس الرشيد لم تهدأ للظلم الذي لوثكبه في حق الدولة ، وحق ابنه المأمون ، قال الأصمعي : بينما أنا أسامر الرشيد ذات ليلة إذ رأيته قد قلق قلقاً شديداً ، فكان يقعد مرة ، ويضطجع مرة ، وهو يبكي ، ثم أنشأ يقول :

قلَّدَ أمور عباد الله ذا ثقة
موحِّدَ الرأي لانكسٍ ولا برِّمٍ
واترك مقالة أقوام ذوي خطل
لا يفهمون إذا ما معشرٌ فهموا

فلما سمعت منه ذلك علمت أنه يريد أمراً عظيماً ، ثم قال لروان الخادم : على يحيى • فما لبث أن أتاه ، فقال : يا أبا الفضل ، إني قد عنيت بتصحيح هذا العهد ، وتصويره إلى من أرى سيرته ، وأحمد طريقته ، وأثق بحسن سياسته ، وآمن ضعفه ووهنه ، وهو عبد الله ، وبنو هاشم مائلون إلى محمد بأهوائهم ، وفي محمد ما فيه من الانقياد لهواه ، والتصرف مع طبيعته ، والتبذير لما حوته يده ، ومشاركة النساء والإماء في رأيه ، وعبد الله المرضى الطريقة ، الأصيل الرأي ، الموثوق به في الأمر العظيم ، فإن ملت إلى عبد الله أسخطت بني هاشم ، وإن أفردت محمداً بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية ؛ فأشسر على في هذا الأمر برأيك ، مشورة يعم فضلها ونفعها ، فإنك بحمد الله مبارك الرأي ، لطيف النظر • فقال يحيى : يا أمير المؤمنين ، إن كل زلة مستقالة ، وكل رأي يتلافى خلا هذا العهد ، فإن الخطأ فيه غير مأمون ، والزلة فيه لا تستدرك ، ولننظر فيه مجلس غير هذا ؛ فعلم الرشيد أنه يريد للخلوة ، فأمرني بالتتنحي فقممت وقعدت ناحية ، وكنت أسمع كلامهما ، فما زالا في مناظرة ومناظرة طويلة ، حتى قضى الليل ، واقتربا على عقد الأمر لعبد الله بعد محمد (١) • وعلى هذا بايع الرشيد سنة ١٨٢ هـ لعبد الله المأمون بولاية العهد

بعد الأمين وولاه ولاية خراسان وما يتصل بها الى همدان (١) •

ويبدو أن التوفيق قد أخطأ الرشيد فيما يختص بولاية العهد ،
ويبدو كذلك أن محمد بن ذؤيب العماني أحس أن في أرلجيزه فعل السحر
على الرشيد وأنه يستطيع بها أن يعين ولاية اليهود • ولذلك نجده يجيء
مجلس الرشيد وينشده أرجوزة منها :

قل للإمام المقتدى بأمته (٢)
ما قاسم دون مدى ابن أمته
وقد رضينا فقم وسمه

وما إن يسمع الرشيد ذلك القول ، حتى يهتز ويبتسم ويقول : ويحك
يا ابن ذؤيب • أما رضيت أن أوليه العهد وأنا جالس فأردت أن أقوم على
رجلي ؟ فقال له العماني : ما أردت يا أمير المؤمنين قيامك على رجلك ،
إنما أردت قيام العزم • قال الرشيد : فإننا قد ولينا العهد • وأمر بالقاسم
أن يحضر ، فلما حضر أوماً إليه الرشيد فجلس مع أخويه وقال له :
يا قاسم ، عليك جائزة هذا الشيخ ، فقد سألنا أن نولي العهد وقد فعلنا •
فقال : حكمك يا أمير المؤمنين (٣) •

قال المسعودي (٤) : « فبايع الرشيد لابنه القاسم بولاية العهد
بعد المأمون فإذا أفضت الخلافة الى المأمون كان أمره إليه ، إن شاء أن
يقره أقره ، وإن شاء أن يخلعه خلعه » •

وفي هذه العبارة التي أضافها الرشيد في بيعة القاسم ما يدل على
أن الأمر كان مضطرباً عليه ، وأنه لم يكن يصدر في أحكامه عن عقيدة

-
- (١) ابن الاثير ٦ : ٥٣ •
(٢) أمه : رايه او محتده •
(٣) الاغانى ١٧ : ٨٠ •
(٤) مروج الذهب ٢ : ٢٧٣ •

وإيمان ؛ وما كان للرشيـد أن يتصرف بمثل هذه الروح في هذه الأمور الخطيرة • وقد سبق لنا أن قررنا أن الرشيـد كان يدرك أن السياسة التي يتبعها في هذا الموضوع سياسة فاشلة ، ويعرف أنها ستؤدى الى القطيعة وسفك الدماء • ولنستمع الآن إلى الكسائى يحدثنا عن إحساس الرشيـد في هذا الأمر ، قال الكسائى : جلست عند الرشيـد مرة ، فلما وثبت للقيام قال : اقعد • فلم أزل عنده حتى خف عامة من كان في مجلسه ولم يبق إلا خاصته • فقال لى : يا على ، ألا تحب أن ترى محمداً وعبد الله ؟ فقلت : ما أشوقنى إليهما يا أمير المؤمنين ، وأسرنى بمعاينة نعمة الله على أمير المؤمنين فيهما • فأمر بإحضارهما ، فلم ألبث أن أقبلت ككوكبى أفق يزينهما هدوء ووقار ، وقد غصا أبصارهما ؛ وقاربا خطوهما حتى وقفنا على باب المجلس ، فسلما على أبيهما بالخلافة ، ودعوا له بأحسن الدعاء ، فأمرهما بالدنو منه ، فصير محمداً عن يمينه ، وعبد الله عن يساره ؛ ثم أمرنى أن أستقرئهما وأسألهما ، ففعلت ، فما سألتهما عن شئ إلا أحسنا الجواب فيه ، والخروج منه ؛ فسرّ بذلك الرشيـد حتى تبينته فيه ، ثم قال لى : يا على كيف ترى مذهبهما وجوابهما ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، هما كما قال الشاعر :

أرى قمرىّ مجد وفرعىّ خلافة يزينهما عرق قديم ومحتد

يا أمير المؤمنين ، هما فرع زكا أصله ، وطاب مغرسه ، وتمكنت في الشرى عروقه! وعذبت مشاربه ، أيوهما أغرّ ، نافذ الأمر ، واسع العلم ، عظيم الحلم ، يحكمان بحكمه ، ويستضيئان بنوره ، وينطقان بلسانه ، ويتقلبان في سعادته ، فأمتع الله أمير المؤمنين بهما ، وآتس جميع الأمة ببقائه وبقائهما • فما رأيت أحداً من أولاد الخلفاء ، وأغصان هذه الشجرة المباركة ، أذرب لسانا ، ولا أحسن ألفاظاً ، ولا أشده اقتداراً على تأدية ما حفظ منهما • فضمهما الرشيـد إليه ، وجمع يديه عليهما فلم يبسطهما حتى رأيت الدموع تتحدر على صدره ، ثم أمرهما بالخروج •

فلما خرجا أقبل على فقال : كأنك بهما وقد حم القضاء ، ونزلت مقادير السماء ، وبلغ الكتاب أجله قد تشئت كلمتهما ، واختلف أمرهما ، وظهر تعاديهما ، ثم لم يبرح ذلك حتى تسفك الدماء ، وتقتل القتلى ، وتهتك ستور النساء ، ويتمنى كثير من الأحياء أنهم في عداد الموتى !! (١) •

كان الرشيد بهذا كأنما يقرأ المستقبل ، ومن أجل ذلك بذل وبذل البرامكة معه أقصى الجهد رجاء أن يوفى ولاية عهده بما وعدوا ، وأن يبروا بما أقسموا عليه ، واتجهت عنايتهم إلى الأمين فهو ولي العهد الأول ، وفي يده مفتاح الفتنة إن غدر ، وتضاعفت جهودهم لأن الثقة بالأمين لم تكن قوية ، وقد سجل الرشيد ذلك في رده على زبيدة حينما قالت له : أعريت محمداً من العدة والقواد ، وصيرت ذلك إلى عبد الله دونه ، فأجابها : إنا نتخوف ابنك على عبد الله ، ولا نتخوف عبد الله على ابنك (٢) •

وكان أبرز ما فعله الرشيد ليتحاشى الغدر من أولاده ، وليحمى المسلمين من فتنة عاصفة ، أن سار إلى مكة حاجاً سنة ١٨٦ ومعه أولاده ووزيره والفقهاء والقضاة والقواد ، وهناك كتب كتاباً على محمد الأمين وأشهد فيه من حضر ، بالوفاء للمأمون ، وكتب كتاباً على المأمون وأشهد فيه على الوفاء للأمين ، وعلق الكتابين في الكعبة ، وجدد العهود عليهما فيها (٣) •

وقد أراد جعفر البرمكي أن يؤكد على الأمين أن يكون وفياً لأخيه باراً بعهده ، فطالبه أن يضيف في قسمه قوله : خذلني الله إن خذلتني • فقال ذلك ثلاث مرات (٤) :

(١) المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٢٧١ •

(٢) المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٢٧٣ •

(٣) ابن الاثير ٦ : ٥٧ ، وابن خلدون ٣ : ٢٢٢ •

(٤) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٣ والجيشياري : الوزراء والكتاب ص ٣٢٢ •

ولم ينفع كل هذا الاحتياط فما إن مات الرشيد حتى هبت فتنة هوجاء بين الأميين والمأمون ، فأكلت الآلاف من المسلمين ، وكان الأميين أحد ضحاياها ، وسنرى تفصيل ذلك عند الكلام عن الأميين وولاية العهد (١) .

وزراء الرشيد وكبار رجال دولته :

شغل البرامكة مناصب مختلفة في دولة الرشيد ، وكان إليهم مرجع كل الأمور أو أكثرها ، وبعد نكبة البرامكة استوزر الرشيد الفضل بن الربيع ، وسيأتى حديث خاص عن البرامكة وعن الفضل بن الربيع .

وقد عده الخطيب البغدادي رجال القمة في بلاط الرشيد فقال (٢) : اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لأحد في مجال الجد والهزل ، وزراؤه البرامكة ، لم يثر مثلهم سخاء وعظمة ، وقاضية أبو يوسف ، وشاعره مروان بن أبي حفصة ، كان في عصره كجبرير في عهد بنى أمية ، ونديمه العباس بن محمد ، وحاجبه الفضل بن الربيع أتتبه الناس وأشدهم تعاضدا ، ومغنيه إبراهيم الموصلي واحد عصره في صناعته ، وضاربه زلزل ، وزامره برصوما ، وزوجته أم جعفر أرغب الناس في خير ، وأسرعهم الى كل بر (٣) .

نهاية الرشيد :

قلنا فيما سبق إن الرشيد اضطر أن يسير بنفسه لقمع الثورة التي قام بها رافع بن ليث بخراسان ، وقد أناب الرشيد عنه ببغداد ابنه الأميين وخلف معه يحيى بن سليم الكاتب يكتب له ويدبر أمره (٤) ، وصحب الرشيد في هذه الرحلة ابنه المأمون ووزير الفضل بن الربيع ، واسماعيل بن صبيح ، وجمع كبير من كبار القادة ، وجيش ضخم به أمهر

(١) ص ١٦٧ .

(٢) تاريخ بغداد ج ١٤ ص ١١ .

(٣) انظر كذلك الوزراء والكتاب للجشهياري ص ١٤٦ تصحيح الصاوى .

(٤) الوزراء والكتاب ص ٢١٤ تصحيح الصاوى .

جنود الخلافة ، ولكن العلة اشتدت على الرشيد في الطريق ، فحط رجاله في طوس ، ولما اشتدت وطأة المرض عليه بعث بابنه المأمون على رأس جيش الى خراسان ، ومعه مؤدبه الفضل بن سهل ، وبقى الرشيد بطوس ومعه وزيره الفضل بن الربيع وقطعة من الجند وبعض الأموال ، ولكن الرشيد أحسَ بدنو أجله فأوصى وزيره الفضل بن الربيع — إن حم القضاء — أن يلحق بالمأمون ، ومات الرشيد بعد ذلك • وكانت وفاته سنة ١٩٣ هـ وسنَّه أربع وأربعون سنة ، وبضعة أشهر • أما موقف الفضل بن الربيع من وصية الرشيد فسيأتى تفصيله فيما بعد (١) •

(١) ص ٣١١ وما بعدها .

الأمين (١٩٣ — ١٩٨ هـ)

نشأته وتوليته الخلافة :

ولد أبو عبد الله محمد الأمين سنة ١٧٠ هـ بعد مولد أخيه المأمون بستة أشهر ، وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، وليس في خلفاء بني العباس مَنْ أمه وأبوه هاشميان سواه (١) .

وقد جعل الرشيد ولاية عهده الأولاده الثلاثة الأمين فالمأمون فالقاسم ، وزاد الرشيد على ذلك فقسم الدولة بينهم ، فجعل خراسان خالصة للمأمون له عليها النفوذ الكامل ، وجعل الجزيرة للقاسم ، وجعل العراق للأمين ، وتوفي الرشيد كما سبق القول بطوس وهو في طريقه لخراسان لقمع ثورة رافع بن ليث ، وكانت وفاته بعد أن أوفد ابنه المأمون لخراسان لنفس الغرض ، وتخلف هو بسبب المرض ، ولما مات الرشيد تمت البيعة للأمين في كل البقاع دون خلاف من أحد .

وقد خان الفضل بن الربيع وصية الرشيد بأن يتبع المأمون إلى خراسان هو ومن معه ، وعاد الفضل بعد موت الرشيد إلى بغداد بليعاز الأمين ، وكان هذا التصرف سبباً فيما تلا ذلك من أحداث سنذكرها فيما بعد عند الكلام عن الفضل بن الربيع بين « مشاهير وزراء العصر (٢) » والمهم هنا أن نذكر أن الفضل — خوفاً من المأمون بسبب ذلك — باعد بين الأخوين وعمل على عزل المأمون والقاسم وتولية موسى ابن الأمين ، وفيما يلي حديث ذلك .

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٨٧ ، ويقول الاستاذ الخضرى ان ذلك لم يتفق لغيره من الخلفاء جميعا الا لعلى بن أبى طالب وابنه الحسن اذا اعتبرنا ان الحسن كان من الخلفاء .

(٢) ص ٣١٢ وما بعدها .

الأمين وولاية العهد :

انتهى دور الرشيد في مأساة ولاية العهد على النحو الذى رأيناه من قبل ، وبدأ الآن دور ابنه الأمين ، ولسنا فى حاجة الى البحث والتتقيب عما كان يضمرة من الوفاء أو النكث ، فان الأمين يكفيننا عبء محاولة الغور فى نفسه لنستشف ما كان يخطر تها ، لأنه هو عبر عن خطرات قلبه ، عقب القسم الذى أدّاه فى البيت الحرام ، حكى الفضل بن الربيع أن محمداً قال عند خروجه من بيت الله : يا أبا العباس ، هو ما أجد من نفسى أن أمرى لن يتم ، فقال له : ولم ذاك أعزّ الله الأمير ؟ قال : لأنى كنت أحلف وأنا أنوى الغدر . قال له الفضل : سبحان الله !! أفى هذا الموضع ؟ فقال الأمين : هو ما قلت لك (١) .

وما إن توفى الرشيد وتسلم الأمين الخلافة حتى جدّ ليوفى لنفسه ما أحب وليحقق ما كان أضمر . فخلع المأمون والقاسم ، وباع لابنه موسى بالعهد بعده ، وأرشد وزيره الفضل بن الربيع أحد الحجة وسأله التلطف فى أخذ الكتابين اللذين كان الرشيد علقهما فى بيت الله الحرام بالبيعة ، ففعل الحاجب ذلك ، وسرق الكتابين ، ورجع بهما الى الفضل ، فدفعهما الى محمد فمزقهما (٢) .

لقد فتح الأمين بذلك باب العاصفة التى هبت فأنت عليه ، وعلى ملكه ، وعلى أولئك الذين زينوا له النكث بالعهد ، وعدم الوفاء بالوعد ، ولنا عودة فيما بعد الى تفاصيل هذا الغدر ، وأثر الفضل بن الربيع فيه عند حديثنا عن هذا الوزير بين « مشاهير وزراء العصر » .

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٢٢ .

(٢) المرجع السابق ٢٩٢ .

السفنياني ومحاولة إحياء الخلافة الأموية :

وقد انتهر على بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية المعروف بالسفنياني فرصة الفتنة بين الأمين والمأمون فخرج في الشام داعياً الى نفسه ومحاولاً أن يعيد مجد بني أمية ، وقد استطاع أن يتغلب على عامل الأمين بدمشق ، وأن يحتل عاصمته الأمويين ويمد نفوذه الى ما حولها من بلاد ، وكانت بغداد في شغل عنه بحروبها ضد المأمون ، وبهذا أوشك أن يتمكن سلطان السفنياني ، وأن يتم له الاستقلال ببلاد الشام ، ولم تكن الجيوش التي بعثها الأمين بقيادة الحسين بن علي ابن عيسى ذات غناء في القضاء على السفنياني ، ولم يضعف من شوكته إلا نزاع داخلي هب بين اليميين والمضريين ، فشغل دمشق عن تحقيق آمال السفنياني وتلاشت أحلامه لهذا السبب (١) .

وزراء الأمين وكبار الرجال في عهده :

وقد وزر للأمين الفضل بن الربيع ، ومع أن هذا اختفى سنة ١٩٦هـ عندما قلّ الأمل في انتصار الأمين ، فإنه لم يعرّف عن الأمين أنه استوزر أحداً سواه ، ومن أهم الرجال الذين اعتمد عليهم الأمين ، العباس بن الفضل بن الربيع وكان يتولى الحجابة للخليفة ، وبكر بن المعتمر وكان له ديوان الخاتم (٢) . ومن رجاله كذلك على بن عيسى بن ماهان وقد قتل في حروبه ضد طاهر بن الحسين ، والحسين بن علي بن عيسى وكان كآبيه في قلة غنائه وقلة وفائه ، وقد انتهر فرصة رجحان كفة المأمون في حروبه ضد الأمين ، فثار على الأمين وقبض عليه وسجنه وباع للمأمون ، ولكن جند الحسين ثاروا عليه وأطلقوا سراح الأمين وأعادوه للخلافة ، ومع هذا عفا الأمين عنه ولكنه لم يستقر ، فحاول الهرب من بغداد ربما لتدبير غدر جديد ، ولكن جند الأمين قبضوا عليه وقتلوه .

(١) انظر الطبري ج ٦٠ ص ٥٥ وما بعدها .

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٣٦ .

شخصية الأمين وأخلاقه :

يقول ابن طباطبا (١) : كان الأمين كثير اللهو واللعب منقطعاً الى ذلك مشغلاً به عن تدبير مملكته .

ويروى الجاحظ عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي أنه قال ، ما كان أعجب أمر المخلوع ، أما تبذله فما كان يبالي أين قعد ومع من قعد ، وكان لو كان بينه وبين ندمائه حجاب خرقتها كلها وألقاها عن وجهه حتى يقعد حيث قعدوا ، وكان من أعطى خلق الله لذهب وفضة ، وأنهبهم للأموال إذا طرب أولها ، وقد رأيتته وقد أمر لبعض أهل بيته في ليلة بوقر زورق ذهباً فانصرف به ، وأمر لى ذات ليلة بأربعين ألف دينار فحملت أمامى . . . وقد رأيتته يوماً وعلى رأسه بعض غلمانته فنظر اليه فقال : ويلك ! ! ثيابك هذه تحتاج الى أن تغسل ، انطلق فخذ ثلاثين بكرة فاغسل بها ثيابك [البكرة كيس فيه عشرة آلاف درهم] (٢) .

وكان الأمين في نهاية الشدة والقوة والبطش حتى يروى أنه قتل مرة أسداً بيديه ، وله فصاحة وبلاغة وأدب ، ولكنه كان سيئ التدبير ، ضعيف الرأي ، أرعن ، لا يصلح للامارة (٣) .

وعقب بيعته أرسل في طلب الخصيان وابتاعهم ، ووجه الى جميع البلدان في طلب الملهمين وضمهم اليه ، وأجرى عليهم الأرزاق ، واحتجب عن أخوته وأهل بيته ، واستخف بهم وبقواده وقسم ما في بيوت الأموال وما بحضرته من الجواهر في خصيانه وجلسائه ومحدثيه ، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلواته ، وعمل خمس حراقات في دجلة على صورة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس ، وأنفق في عملها مالا عظيماً ، فقال أبو نواس في ذلك :

(١) الفخرى ص ١٨٧ .

(٢) التاج ٤٢ — ٤٣ .

(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١١٦ .

سَخَّرَ الله للأمين مطايا لم تسَخَّرْ لصاحب المحراب
فإذا ما ركابه سرن برًّا سار في الماء راكباً ليث غاب
عجب الناس إذ رأوك على ص رة ليث تمر مرّ السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه كيف لو أبصروك فوق العقباب
ذات زور ومنسر وجناح ين تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير في السماء إذا ما اه تعجلوها بجيئه وذهاب (١)

ويسجل لنا أبو الفرج الأصفهاني عن مخارق صورة ناطقة من صور مجنون الأمين وخلاعته ، وهي تدل على أن الرجل كان ينغمس في المرح والخلاعة الى قمته ، وأنه كان ينسى نفسه إذا دقت الدفوف وحفّت به الجوارى ، قال مخارق : مرت بى ليلة ما مرّ بى قط مثلها ، جاعنى رسول محمد الأمين وهو خليفة ، فأخذنى وركض بى إليه ركضاً ، فحين وافيت وجدت ابراهيم بن المهدي قد انتهى به على مثل حالى ، فنزلنا فاذا هو فى صحن لم أر مثله ، مثلي شمعاً من شمع محمد الأمين الكبار ، وكانت الدار مملوءة بالوصائف يغنين ويطنطن ، ومحمد فى وسطهن يرتكض ، فجاءنا رسوله فقال : قوموا فى هذا الباب مما يلى الصحن فارغوا أصواتكما بالغناء وإيا كما أن تقصّرا ، ثم أخذ الجوارى والمختنون يزمرون ويضربون :

هذى دنائير تنسانى وأذكرها وكيف تنسى محباً ليس ينساها

فما زلنا نشق حلوقنا ونرفع أصواتنا خوفاً من التقصير ، ومحمد يجول دون سأم ، يدنو منا مرة ويبعد أخرى ، ويحول الجوارى بيننا وبينه أحياناً حتى أصبحنا (٢) .

ومن عجيب ما روى عن الأمين أنه ظل سادراً فى ضلاله ومجونه حتى الساعة التى كان فيها عرشه يهتز من تحته ، والشدة تحيط به

(١) ابن الاثير ٦ : ٩٩ — ١٠٠ .

(٢) الاغانى ١٦ : ١٣٣ .

من كل جانب ، حدث علّوّه أن الأمين كان يجلس الى إحدى جواريه
تغنيه وقد أحيط به ، وبلغت حجارة المنجنيق بساطه (١) .

ومن ذلك أيضا ما رواه ابراهيم بن المهدي قال : استأذنت
الأمين يوما ، وقد اشتد الحصار عليه من كل وجه فلما دخلت إذا هو
كالوَالِه وحوله خدمه وغلما نه ، وكلهم يبحثون في بركة ماء القصر ، وفي
المجرى الذى يصل البركة بدجلة ، والأمين يتبعهم ويشرف عليهم ،
فسلمت عليه فلم يرد ، فثنيت بالسّلام ، فقال : لا تؤذونى ، فمقرطى
قد ذهب من البركة الى دجلة (والمقرطة سمكة كانت قد صيدت له وهى
صغيرة ، فقرطها حلقتين من ذهب فيهما حبّتا در) فقال ابراهيم بن
المهدى : فخرجت وأنا يائس من فلاحه ، وقلت : لو ارتدع فى وقت
لكان هذا الوقت (٢) .

ومما يدل على ثقافة عقل الأمين ما حدث حماد بن إسحق
عنه قال : دخلت على الأمين فرأيتّه مغضبا كالحا ، فقلت له : ما لأمر
المؤمنين ، تتم الله سروره ولا نقصه ، أراه كالحائر ؟ قال : غاظنى
أبوك الساعة لا رحمه الله ، والله لو كان حيا لضربتة خمسمائة سوط ،
ولولاك لنبشت الساعة قبره وأحرقت عظامه . فقلت : أعوذ بالله من
سخطك يا أمير المؤمنين ، ومنّ أبى وما مقداره حتى تغتأظ منه ؟
وما الذى غاظك فلعل له فيه عذرا ؟ فقال : شدة محبته للمأمون ،
وتقديمه إياه على ، حتى قال فى الرشيد شعرا قدّم فيه المأمون على ،
وغنّيته الساعة فأورثنى هذا الغيظ . فقلت : والله ما سمعت بهذا
قط ، ولا لأبى غناء إلا وأنا أرويه ، ما هو ؟ فقال :

أبو المأمون فينا والأمين له كنفان من كرم ولين

فقلت له : يا أمير المؤمنين ، لم يقدم أبى المأمون لشدة محبته

(١) الجاحظ : التاج ص ٤٣ . و
(٢) المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٣٠١ - ٣٠٢ .

له ، وإنما لأن الشعر لا يصح^١ وزنه إلا هكذا • فقال : كان ينبغي له
إذ لم يصح الشعر إلا هكذا أن يدعه الى لعنة الله • فلم أزل أداريه
وأرفق به حتى سكن ، فلما حضر المأمون سألتني عن هذا الحديث
فحدثته به فجعل يضحك ويعجب منه (١) •

سيرة الأمين ونقد التاريخ :

أوردنا فيما سبق طرفا مما ذكرته كتب الأدب والتاريخ عن مجون
الأمين واستهتاره ، وهناك رأى يثير الشك حول ما نسب للأمين من
خلاعة وإحلال ، ويرى هذا الاتجاه أن ما كُتِبَ عن الأمين أو أكثره
مصنوع ، ذلك لأنه كتب في عهد المأمون ، فروعى فيه إظهار الأمين في
صورة ماجنة خليعة إرضاء للخليفة القائم وتبريرا لقتل الأمين ، كما
تأثر ما كتب عن الأمين بنهايته وهزيمته أمام أخيه ، والمهزوم غالبا
يتحمل اللوم والمسئولية ، وربما كان في الأمين ميل للهوى والعبث ،
ولكن الكتاب بالفوا في تصويره مبالغة واضحة •

وأنا لا أقبل هذا الراى لأن فيه تشكيكا في التراث الضخم الذى بين
أيدينا ، ثم إن ما كتب عن الأمين لم يكتب كله ولا جله في عهد المأمون ،
وإذا فلا نفوذ للمأمون في توجيه هذا التاريخ ، وقد كُتِبَ عن الأمين كثير
من ثقات المؤرخين والكتاب ، وكلهم أجمعوا على خلاعته وإسرافه في
التهتك والمجون مع أنهم استقوا معلوماتهم عن مصادر مختلفة ، ورواة
متعددين ، ولا يمكن أن نعتقد أن هذه المصادر وأولئك الرواة قد أجمعوا
على باطل ، هذا ولم يتول الخلافة أحد من ذرية المأمون ، وعلى ذلك فلا
يمكن أن نقول إن نفوذ المأمون عاش طويلا وأثر في كتابة تاريخ هذه
الحقبة ، وهناك دليل قاطع على خلاعة الأمين ومجونه ، وهو المديح الذى
سجله له شاعراه الحسين بن الضحاك وأبو نواس وغيرهما ، ففى هذا
المديح ذكر لا المواقف عظمة وبطولة حربية ، وإنما وصف لحراقات دجلة

ولياالى الأنس فيها والجوارى والغلمان (١) .

وقد رضى المعتصم والوائق والمتوكل عن الحسين بن الضحاك أو الخليع كما يسميه الأصفهاني ونادموه وشربوا معه مع أنه كان النديم المفضل لدى الأمين وكان مغضوبا عليه من المأمون ، وهذا يدل على أن تيار السخط ضد الأمين وأتباعه كان قد توقف ، فلا بد بعد ذلك أن يكون المؤرخون قد كتبوا بوحى من النزاهة والعدالة يدعوننا الى أن نجل آراءهم ، ونثق في كتابتهم الى حد كبير ، وليس معنى هذا أن كل ما كتب عن الأمين صحيح في جملته وتفصيله ، فانى أميل الى القول بأن بعض الرواة استغلوا حماقة الامين ومجونة فوضعوا بعض الاقاصيص عنه ، ولكن هذا يجب ألا يثير الشكوك حول التراث العلمى الضخم الذى كتبه الثقات من المؤرخين ، هذا ومن مهمة المؤرخ الحديث أن يزن الأمر وأن ينتقى لكتابته ما تدل الدلائل على صحته وصدقه ، وهذا ما حاولناه فيما قدمناه من دراسات عن الأمين : إذ اعتمدنا على أوثق المصادر وعلى ما سجله شاعرا الأمين وصفياه الحسين بن الضحاك وأبو نواس .

نهاية الأمين :

زحفت جيوش المأمون من خراسان بقيادة طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين ، وصلت في زحفها الى أسوار بغداد ، وأخذت تدق لأبوابها ، وانفض أغلب أتباع الأمين عنه ، فحاول هذا أن يستسلم لهرثمة حيا ولكن رجال طاهر هاجموه وقضوا عليه ، وانتهى بذلك عهده ، وسنروى ذلك مفصلا عند الكلام عن الفضل بن الربيع بين « مشاهير وزراء العصر » .

(١) اقرأ ديوان أبى نواس في مواضع متعددة وقرأ كذلك عصر المأمون لفريد رفاعى ٣ : ٢٩٢ — ٣٠٢ وترجمة الحسين بن الضحاك في الاغانى ٦ : ١٦٥ — ٢٠٥ وقد أوردنا بعض هذا الشعر فيما سبق .

المأمون (١٩٨ — ٢١٨ هـ)

نشأته وتوليته الخلافة :

ولد عبد الله أبو العباس المأمون سنة ١٧٠ هـ في نفس الليلة التي مات فيها عمه الهادي ، وقد سبق أن ذكرنا أن ولادته كانت قبل أخيه الأمين بستة أشهر ، وأمُّ المأمون أم ولد اسمها مارجل ، وقد فضّله الأمين بسبب أمه زبيدة فكانت له ولاية العهد الأولى مع أن المأمون — بالإضافة الى أنه أسن منه — كان أذكى وأقدر على تصريف الأمور كما سبق •

وعلى كل حال فقد جعله الرشيد ولياً للعهد بعد الأمين ، كما أسند اليه ولاية خراسان وما يتصل بها الى همدان ، ولم يجعل للأمين أى سلطان عليه فيها •

وقد سبق أن أشرنا الى الصراع الدامى بين الأمين والمأمون ، ذلك الصراع الذى أثارته حماقة الأمين وخيانة الفضل بن الربيع حينما عملا على عزل المأمون من ولاية العهد وتولية موسى بن الأمين ، فتسببا في معارك حربية طويلة سقط في نهايتها الأمين سنة ١٩٨ هـ فتولى المأمون الخلافة عقب ذلك ، وسيأتى تفصيل هذا الخلاف عند الكلام عن الفضل بن الربيع (١) والفضل بن سهل (٢) بين « مشاهير وزراء العصر » •

المشكلات التى صادفها المأمون :

انتصر المأمون على أخيه وأصبح خليفة ، ولكن التركة التى تسلمها كانت مثقلة ، مليئة بالمتاعب والأحداث ، فانشغاله في حروبه ضد أخيه هيئاً الفرصة للساخطين وأعداء الدولة ، وانتصاره بسيوف الفرس أثار العرب ، وانتقاله من خراسان الى بغداد أثار الفرس • وهكذا هبت

(١) ص ٣١٢ وما بعدها .

(٢) ص ٣٢٦ وما بعدها .

حركات متعددة في وجه المأمون ألزمته أن يبذل جهداً كبيراً طيلة خلافته ليداوى الصدع الذي قدّر عليه أن يقابله • ومن أهم ما شهده عصر المأمون من تمرد ما يلي :

- ١ — ثورة أبي السرايا •
- ٢ — ثورة نصر بن شبث •
- ٣ — ثورة بغداد •
- ٤ — حركات الزط المدمرة •
- ٥ — ثورة المصريين •
- ٦ — ثورة بابك الخرمي •

وسنذكر فيما يلي كلمة عن كل من هذه الثورات فيما عدا ثورة بابك التي سيجيء الحديث عنها عند الحديث عن الزنادقة لأن ثورة بابك لم ترتبط فقط بعهد المأمون بل كانت بعيدة الجذور في مجال الانحراف •

ثورة أبي السرايا :

أبو السرايا هو السري بن منصور الشيباني ، أحد القادة الكبار في جيش هرثمة ، ويبدو أنه أحس بخيبة أمل فقد رأى — كما سيأتى تفصيل ذلك — أن هرثمة بعد أن انتصر في صراعه ضد الأمين قد جرّده الفضل بن سهل من السلطة وعين بدلاً منه أخاه الحسن بن سهل ، ومن أسباب ثورة أبي السرايا كذلك تأخّر أجره وأجر الجند معه ، فخرج من جيش هرثمة وتبعه عدد كبير ، ودعا للطالبيين واستولى على الكوفة وامتد سلطانه الى المدائن وما حول الكوفة من مدن وأرسل له الحسن ابن سهل عدة جيوش ولكنها انهزمت أمام قوة أبي السرايا ، ولم يجد الحسن بدا من الاستعانة بهرثمة ، فسار هرثمة الى أبي السرايا وأوقع به ، واضطر أبو السرايا الى الهرب وإخلاء الكوفة ، وطاردته جنود الخلافة

حتى تمّ القبض عليه وهو جريح جراحاً بالغة أصابته في إحدى الممارك
التي هزم فيها ، وجرى به إلى الحسن بن سهل فقتله وصلبه سنة
٨٢٠٠ بعد ثورة استمرت عشرة أشهر (١) .

٢ - ثورة نصر بن شبيب :

نصر بن شبيب عربي شريف رأى كفة العرب تشيل وكفة الفرس
ترجح مع قتل الأمين وانتقال الأمر للمأمون ، فقاد ثورة يدافع بها
عن العنصر العربي ، وبدأت ثورته عقب مقتل الأمين أي سنة ٨١٩٨ ،
وانتخذ من يكسوم شمال حلب مركزاً له ، ثم زاد نفوذه وكثر أتباعه
وتوالت انتصاراته ، ونصح له بعض أتباعه والبيعة لأحد العلويين
بالخلافة ، ولكنه أجاب : أبايع لبعض أولاد السوداوات فيقول إنه
خلقني ورزقني ؟ فقالوا : تباع لبعض بني أمية . فأجاب : أولئك قوم
قد أدبر أمرهم والدبر لا يقبل ، وإنما هواي في بني العباس ولكني
أحاربهم محاربة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم .

وقد أصدر المأمون أوامره لطاهر بن الحسين ليسلم بغداد للحسن
ابن سهل ويخرج لمصاربة نصر ، فخرج طاهر ودارت عدة معارك بين
الاثنتين دون نتيجة حاسمة ، ويبدو أن طاهراً لم يكن جاداً في حربه ضد
نصر ، فلما قدم المأمون بغداد عين لحربه عبد الله بن طاهر ، أما طاهر
بن الحسين فقد جعلت له ولاية خراسان ، ونشط عبد الله في حرب نصر حتى
ضيق عليه ، فاضطرّ لطلب الأمان ، فأعطاه المأمون كتاب أمان ودخل
بغداد مسالماً سنة ٢١٠ بعد حروب طويلة مدمرة (٢) .

٣ - ثورة بغداد وتعيين إبراهيم بن المهدي خليفة :

بعد مقتل الأمين حاول الفضل بن سهل — كما سيجيء
تفصيله — أن يستبد بالسلطان ، فعين أخاه الحسن بن سهل والياً على

(١) ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٢٤٢ وما بعدها .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٢٥٢ .

العراق ، وكان للفضل السلطان في خراسان ، واتضح أن المأمون كانت تعمى عليه الأمور من خلفه ، وأبعد الفضل بن سهل عن العاصمة القائدين المظفرين طاهراً وهرثمة كما مر ، وعمل الفضل كذلك على تعيين ولي العهد من العلويين فهيأ بذلك للسلطان أن يثقل من بني العباس الى العلويين ، وكل هذا أثار ثائرة بغداد ، فتمردت على الحسن بن سهل ، وحاول هذا أن يتغلب على هذه الصعاب فلم يستطع ، وزاد في دقة موقف المأمون أن الحسن بن سهل مرض مرضاً أبعدته عن مسرح الأحداث ، فانتهاز أهل بغداد هذه الفرصة ، فاجتمعوا وقرروا عزل المأمون وتولية ابراهيم بن المهدي ، وكان ذلك في أول سنة ٢٠٢ هـ ، ودانت لإبراهيم الكوفة والسواد والمدائن • •

وابراهيم هو ابن الخليفة المهدي ، وأخو هرون الرشيد ، اسجه للشعر والموسيقى والغناء فبرز فيها ، ولكنه عندما أتيت له فرصة لدخول معمة السياسة دخلها دون تردد ، فالعرش والجاه والسلطان لها بريق يجذب القلوب ويستهوئ النفوس ، ويندر أن يستطيع مقاومتها إنسان •

وأمام هذه الأحداث قرر المأمون أن يتصرف بحزم ليستعيد ملكه ونفوذه ، فقام برحله من مرو الى بغداد ، وتخلص في الطريق من الفضل ابن سهل ومن الرضا ، فكان ذلك كافياً لعودة الناس اليه وانفضاضهم من حول ابراهيم بن المهدي الذي دفعه الخوف الى الاختفاء ، ودخل المأمون عاصمة ملكه سنة ٢٠٤ هـ حيث استتب له الأمر •

وكان ابن عائشة وهو ابراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن ابراهيم الإمام ، من أنصار ابراهيم بن المهدي واختفى معه حيناً ، وقد انتهاز ابن عائشة المشكلات التي كان يعانيها المأمون بعد وصوله بغداد فدبّر مؤامرة سنة ٢١٠ هـ ترمى الى خلق المأمون واعادة ابراهيم بن المهدي للخلافة وكان لا يزال مختفياً ، وقد عرف المأمون خبر هذه المؤامرة في شهر

صفر سنة ٢١٠هـ فقبض على ابن عائشة وأنزل به العقاب على هذه المؤامرة ، وعفا عن أكثر من ذكرت أسماؤهم معه في هذا التدبير .

وقد ظل ابراهيم بن المهدي مختفيا حتى ربيع الآخر من هذا العام فقبض عليه حرس المأمون ، واقتادوه اليه ، فقال له المأمون : هيه يا ابراهيم ؟ فقال ابراهيم : يا أمير المؤمنين ، وليّ الثأر محكم في القصاص ، والعفو أقرب للتقوى ، وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب ، وجعل كل ذي ذنب دونك ، فان تعاقب فيحقك ، وإن تعف فبفضلك . قال المأمون : بل أعفو يا عماء ، أطلقوا عن عمى حديده ، وردوه الى مكرما (١) .

٤ - ثورة الزط :

الزط - كما يقول ابن خلدون (٢) - قوم من أخلاط الناس انتهزوا فرصة انشغال الجند بالحروب ، فغلبوا على طريق البصرة وعاثوا فيها ، وأفسدوا البلاد ، ويرجع أصلهم الى الهند ويُعرفون بالثُور ، وكان همهم الشغب والخطف ، وقد حاول المأمون بعد عودته الى بغداد أن يتغلب عليهم ، ولكنهم كانوا إذا توقعوا الهزيمة انماعوا في الفياض ، فإذا خف ضغط الجند عادوا الى فسادهم وتجمعاتهم ، وعلى هذا طال أمد فسادهم حتى تغلب عليهم المعتصم سنة ٢١٩هـ بواسطة قائده عجيف بن عنبسة الذي أوقع بهم الهزيمة عدة مرات ، فاستسلموا وطلبوا الأمان فنقلوا الى ثغر « عين زربة » . وانتهى بذلك خطرهم .

٥ - ثورة المصريين :

هبت بمصر ثورة عارمة بدأت بخلافات بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، فقد ناصرت القيسية الأيمن وناصرت الكلبيّة (اليمينيون) المأمون وانتهز بعض المصريين هذه الثورة فهبوا في وجه العرب ، وقد

(١) الاغانى ج ٩ ص ٥٧ والطبرى ج ص ٧٠ وما بعدها .

(٢) العبر ج ٣ ص ٢٥٧ .

انتدب المأمون^١ عبد الله بن طاهر للقضاء على هذه الثورة ، وقد تمكن من ذلك عبد الله ، ولكنه لما ترك مصر عادت الثورة فاضطر المأمون أن يحضر بنفسه لإصلاح الأحوال وإعادة الأمن إلى نصابه (١) :

المأمون والعلويون :

نال العلويون في عهد المأمون حظوة عظيمة ، ولأول مرة في تاريخ هذه الدولة ، يعلن الخليفة العباسي أنه نظر في ولد بني العباس وولد على فلم يجد في وقته أفضل ولا أحق بالأمر من على بن موسى الرضا ، فبايع له بولاية العهد ، وضرب اسمه معه على الدراهم والدنانير ، وزوجه ابنته أم حبيبة ، كما زوج ابنته الأخرى أم الفضل من محمد بن موسى الرضا ، وأمر المأمون^٢ بخلع السواد شعار العباسيين ولبس الخضرة شعار العلويين ، وربما كان ذلك اتساعاً في أفق المأمون ، أو ربما كان ذلك محققاً لآمال الخراسانيين الذين كانوا إلى أولاد على^٣ أميل .

وقد فسر المأمون موقفه من العلويين لعمه أبيه زينب بنت سليمان ابن على ، وكانت موضع تعظيم العباسيين وإجلالهم وهي من طبقة المنصور . وقد سألت زينب^٤ المأمون : ما الذي دعاك إلى نقل الخلافة من بيتك إلى بيت على ؟ فقال : يا عمه ، إنى رأيت علياً حين ولى الخلافة أحسن إلى بني العباس ، فولى عبد الله البصرة وعبيد الله اليمن وقتل سمرقند ، وما رأيت أحداً من أهل بيتي حين أفضى الأمر إليهم كافئوه على فعله في ولده ، فأحببت أن أكافئه على إحسانه ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، إنك على بر^٥ بني على^٦ والأمر فيك ، أقدر منك على برهم والأمر فيهم (٢) .

وعلى كل حال فلم يتم الأمر للعلويين بسبب ثورة بغداد التي سبق الحديث عنها ، فأرغم المأمون على التخلص من على الرضا وخلفه

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٩٢. وتاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمان ج ٢ ص ٣٧ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٦٤ - ١٩٥ والمسعودى ج ٢ ص

٢٢ - ٣٢٣ .

الخضرة وعاد للسواد (١) وسيأتى فيما بعد (٢) من التفضيل عن نهاية على الرضا .

دول تنشأ في عهد المأمون :

حدث في عهد المأمون شيء حصل نظير له في عهد الرشيد ، فقد سبق أن أشرنا الى نشأة الأدارسة في المغرب والأغالبة في تونس ، وفي عهد المأمون بدأت الدولة الطاهرية بتعيين طاهر بن الحسين أميراً لخراسان سنة ٢٠٥هـ وقد استمرت الدولة الطاهرية الى سنة ٢٥٩هـ .

وبدأت أيضاً الدولة الزيادية بتعيين محمد بن ابراهيم الزيادى (من ولد زياد بن أبى سفيان أميراً لبلاد اليمن وتهامة وكان ذلك سنة ٢٠٣هـ ، ليقتضى على المنتسبين بها ، فذهب الى اليمن وفتح تهامة ، واختط مدينة زبيد سنة ٢٠٤هـ ومات سنة ٢٤٥هـ وتوارث أولاده الملك من بعده فأصبحت لهم اليمن دولة شبه مستقلة ، وقد ظل الملك في أحفاده ومواليه حتى سنة ٤٠٩هـ .

أخلاق المأمون :

المأمون من ألمع شخصيات الخلفاء العباسيين ، ويعتقد كثير من الباحثين أنه لولا شخصية المأمون وكفائته لَهَزَت أحداث عصره الدولة الإسلامية ولعرّضت للخطر والانحلال .

ومن أبرز ما يذكر للمأمون ثقافته الرفيعة وحبه للعلم وخدماته الثقافية التى جعلته فى القمة بين خلفاء المسلمين ، وقد جمع فى بيت الحكمة كنوز العلوم الأجنبية ، وأمر بأن تُستترى وتجمع له المؤلفات الأجنبية ، ثم أمر بترجمتها الى اللغة العربية وفى عهده ظهر الفيلسوف العربى الكبير الكندى الذى كتب فى عدة علوم ، وترجم الحجاج بن يوسف بن مطر

(١) اقرأ ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ٦ ص ١١١ .

(٢) ص ٢٣٥ .

للمأمون مصنفات إقليدس وكتاب بطليموس الشهير عند العرب
بالمجسطى ، وسنتحدث عن النهضة الثقافية في مكان خاص .

وكان العفو من أبرز صفات المأمون ، وهو كما يصفه شيخ كوفي
« يوسف العفو مع قلة التثريب (١) » وقد عفا المأمون في مواضع قل من
يعفو في نظائرها ، وعفا عن أشخاص جلّ ذنبيهم وعظمت جريرتهم إليه
وكان يقول : لو عرف الناس حبي للعفو لتقربوا إليّ بالذنوب (٢) ولا معنى
لعقوبة بعد قدرة (٣) .

لقد عفا عن الفضل بن الربيع الذي هيج عناصر الشر عليه ، وأعد
قيدا من قضة وسلمه الى علي بن عيسى ليقيّده به عقب القبض عليه ، واكتفى
المأمون عقب انتصاره بأن قال : أجعلته بحيث إذا قال لم يطع ، وإذا دعا
لم يجب ، ورد عليه داره ولم يوقع به أى عقاب (٤) .

وعفا عن ابراهيم بن المهدي الذي نصب نفسه خليفة في بغداد حينما
كان المأمون في مرو على الرغم من أن المعتصم والعباس بن المأمون
أشارا بقتل ابراهيم ، ولكن المأمون هتف : أطلقوا عن عمي حديده ،
وردوه الى مكرا ، فلما رمد قال : يا عم ، صرّ الى المنادمة ، وارجع
الى الأفس ، فلن ترى منى أبداً إلا ما تحب وخلع عليه وحمله ،
وأمر له بخمسة آلاف دينار (٥) .

وعفا عن الحسين بن الضحاك الذي يقول في رثاء محمد الأمين :
فلا تمّت الأشياء بعد محمد ولا زال شمس الملك فيه مبددا
ولا فرح المأمون بالمالك بعده ولا زال في الدنيا طريدا مشردا

(١) المسعودي : مروج الذهب ٢ : ٣١٩ .

(٢) الفخرى ص ١٩٥ .

(٣) فريد رفاعي : عصر المأمون ١ : ٣٥٠ .

(٤) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٣٠٣ .

(٥) الاغانى ٩ : ٥٧ .

والذى يقول :

أردّ يدأ منى إذا ما ذكرته على كبد حرّى وقلب مفتت
فلا بات ليل الشامتين بغيطة ولا بلغت آمالهم ما تمنّت

ويطلب الحسين العفو فتدمع عينا المأمون ويقول : قد عفوت عنك ،
وأمرت بإدرار أرزاقك وإعطائك ما فات منها ، وجعلت عقوبة ذنبك امتناعي
عن استخدامك (١) .

وكان المأمون قليل اللهو ، أقام بعد قدومه بغداد عشرين شهراً لم
يسمع حرفاً من الغناء ، ثم سمعه من وراء حجاب ، متشبها بالرشيد ،
فكان كذلك سبع حجج ، ثم ظهر للندماء والمغنين (٢) .

وكان لا يشرب النبيذ إلا قليلاً (٣) ، وقد صرفه عن اللهو والشراب
انصرافه الى العلم ، وحبه للكتب وتمشّحه باللذة العقلية ، ثم إعادة بناء
الدولة بعد أن أوشت أن تتصدع ، وتذهب ريحها .

محنة خلق القرآن :

ومن المسائل التى أثّرت فى عهد المأمون مسألة خلق القرآن ، أو
محنة خلق القرآن كما اصطلح على تسميتها . وقد وقف فيها المعتزلة
مؤيدين بالمأمون ضد أهل السنة والمحدثين ، وكان المعتزلة يقولون بنفى
صفات المعانى عن الله تعالى ومنها الكلام ، لأن إثباتها يؤدى الى تعدد
القدماء ، وذلك يناهى التوحيد ، وكان من النتائج اللازمة لذلك قولهم :
إن القرآن مخلوق لأنه أصوات وحروف ، وهى ليست قائمة بذاته تعالى ،
بل يخلقها الله فى غيره كاللوح المحفوظ أو يوحى بها جبريل أو إلى النبى ، وكان
المعتزلة يؤيدون قولهم بأدلة عقلية وأدلة نقلية ، ولكن أهل السنة والمحدثين

(١) الأغنى ٦ : ١٧٥ .

(٢) 'لجأظ : الناج ص ٤٢ .

(٣) انظر الطبرى ١٠ : ٢٥٦ .

عارضوهم بإصرار وبدون أدلة قوية يعضدون بها وجهة نظرهم ، وتدخّل المأمون تدخلا عنيفاً واستغل سلطانه ليرغم الناس على القول بخلق القرآن ، ويأخذ عليه كثير من المفكرين هذا المرقف الذي حارب فيه الحريات ، واستعمل السيف لتقوية جانبه ، وأرهب علماء عصره الذين عارضوه فيما اعتقد ، ولكن المنصف ربما استطاع أن يلتمس العذر للمأمون ، لأنه لم ير المسألة تمسه هو فلو كانت تمسه لعفا كشأنه في حب العفو ، ولكنه رأى المسألة أعمق ، رآها مسألة إسلامية تتعلق بصميم العقيدة ، ورأى أن من لم يعترف بها يصبح خارجاً على الدين ، فأعلن أن من واجبه وهو خليفة للمسلمين يقوم بشئون دينهم ودنياهم ألا يستعمل في أمور الدولة هؤلاء الخارجين ، وأن من واجبه أن يحمي جماهير الناس من فكرتهم التي يراها مارقة كافرة ، وقد زاد سخط المأمون على المحدثين ، لجمود موقفهم ، ولعدم دفاعهم عن آرائهم بالمنطق أو بالمنقول ، ومن ثم استهدفوا لغضبه وإيقاعه بهم ، وقد وضع المأمون المشكلة وموقفه منها في كتابين أرسلهما وهو بالرقعة للى نائبه في بغداد إسحق بن إبراهيم ، ومن هذين الكتابين نقتطف ما يلي :

أما بعد ، فإن من حق الله على خلفائه في أرضه ، وأمنائه على عباده ، الذين ارتضاهم لإقامة دينه ، وحملهم رعاية خلقه ، وإمضاء حكمه وسنته ، والائتمام بعدله في بريته ، أن يجهدوا لله أنفسهم ، وينصحو له فيما استحفظهم وقلدهم ، ويدلّثوا عليه تبارك اسمه وتعالى بفضل العلم الذي أودعهم ، والمعرفة التي جعلها فيهم ، ويهدوا إليه من زاغ عنه ، ويردّوا من أدبر عن أمره ، وينهّجوا لرعاياهم سمت نجاتهم ، ويكفّوهم على حدود إيمانهم ، وسبيل فوزهم وعصمتهم : ويكشفوا لهم عن مغطيات أمورهم ومشتبهاتها عليهم ، بما يدفعون الريب عنهم ، ويعود بالضياء والبينة على كافتهم ، ويتذكروا ما الله فرضه من مساءلتهم عما تكملوه ، ومجازاتهم بما أسلفوه وقدّموا عنده : وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله .

ومما تبيّنه أمير المؤمنين برويته ، وطالعه بفكره ، فتبين عظيم خطره ، وجليل ما يرجع في الدين من وكفه [الوكف : العيب والإثم] وضرره ، ما ينال المسلمين من القول في القرآن الذي جعله الله إماماً لهم ، وأثراً من رسول الله وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم باقياً لهم ، واشتباهاه على كثيرين منهم ، حتى حسّس عندهم ، وتزيّن في عقولهم ألا يكون مخلوقاً ، فتعرضوا بذلك لدفع خلق الله الذي بان به عن خلقه ، وتفرد جلالته بابتداع الأشياء كلها بحكمته ، وإنشائها بقدرته ، والتقدم عليها بأوليته التي لا يبلغ أولاهها ، ولا يدرك مداها ، وكان كل شيء من دونه خلقاً من خلقه ، وحدثاً هو المحدث له ، وإن كان القرآن ناطقاً به ، ودالاً عليه ، وقاطعاً للاختلاف فيه ، وضاهوا به قول النصارى في ادعائهم في عيسى ابن مريم أنه ليس بمخلوق ، إذ كان كلمة الله ، والله عز وجل يقول عن القرآن : « وجعلناه قرآناً عربياً » (١) وتأويل ذلك إنا خلقناه كما قال جل جلاله : « وجعل منها زوجها ليسكن إليها » (٢) ، وقال « وجعلنا الليل لباساً وجعلنا للنهار معاشاً » (٣) ، وقال « وجعلنا من الماء كل شيء حي » (٤) ، فسوّى عز وجل بين القرآن وبين هذه الخلائق التي ذكرها في شية الصنعة [أى في حسن الصنعة] ، وأخبر أنه جاعله ، وحده فقال : « بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ » (٥) ، فدل ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن ، ولا يحاط إلا بمخلوق ، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم « لا تحرك به لسانك لتعجل به » (٦) ، وقال : « وما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث » (٧) ، وقال : « من أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته » (٨) ، وجعل له أولاً وآخرأ فدل على أنه محدود في قوله : « لا

-
- (١) سورة الزخرف الآية ٣ .
 - (٢) سورة الاعراف الآية ١٨٩ .
 - (٣) سورة النبأ الآية ١٠ .
 - (٤) سورة الانبياء الآية ٣٠ .
 - (٥) سورة البروج الايتان ٢١ ر ٢٢ .
 - (٦) سورة التين الآية ١٦ .
 - (٧) سورة الانبياء الآية ٢ .
 - (٨) سورة الانبياء الآية ٢ .

يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » (١) ، وقرر أنه نسخ بعضه في قوله تعالى : « ما ننسخ من آية أو ننسها » (٢) ، وقال عز وجل « كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق » (٣) ، فأخبر أنه قصص لأمر أحدثه بعدها ، وتلا به متقدمها ، وقال : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » (٤) ، وكل محكم مفصل له محكم مفصل ، والله محكم كتابه ومفصله ، فهو خالقه ومبتدعه •

ثم هم الذين جادلوا بالباطل ، فدعوا إلى قولهم ، ونسبوا أنفسهم إلى السنة ، وفي كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته ، مبطل قولهم ، ومكذب دعواهم ، يرد عليهم قولهم ونحلتهم ، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة ، فاستطالوا بذلك على الناس وأغروا به الجهال •

وقد عظم هؤلاء الجهلة بقولهم في القرآن ، التلثم في دينهم والجرح في أمانتهم ، وسهلوا السبيل لعدو الإسلام ، واعترفوا بالتبديل والإلحاد في قلوبهم ، حتى عرّفوا ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التي هي لله وحده [وهي الوحدانية والقِدَم] ، وشبهوه به ، وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة خطأ في الدين ، ولا نصيبا من الإيمان واليقين ، ولا يرى أن يحلّ أحدا منهم محلّ الثقة في أمانة ، ولا عدالة ، ولا شهادة ، ولا صدق في قول ولا حكاية ، ولا تولية لشيء من أمور الرعية ، وإن ظهر قصد بعضهم [استقامته] ، وعُرف بالسداد مسدود فيهم ، فإن الفروع مردودة إلى أصولها ، ومحمولة في الحمد والذم عليها ، ومن كان جاهلا بأمر دينه الذي أمره الله به من وحدانيته فهو بما سواه أعظم جهلا ، وعن الرشيد في غيره أعمى وأضل سبيلا ، فاقرا على جعفر

-
- (١) سورة فصلت الآية ٤٢ •
 - (٢) سورة البقرة الآية ١٠٦ •
 - (٣) سورة طه الآية ٩٩ •
 - (٤) سورة هود الآية الاولى •

ابن عيسى وعبد الرحمن بن إسحق القاضي ككتاب أمير المؤمنين بما كتب به إليك وانصصهما على علمهما في القرآن ، وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شيء من أمور المسلمين ، إلا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده ، وأنه لا توحيد لمن لم يقر بأن القرآن مخلوق ، فإن قالوا يقول أمير المؤمنين في ذلك ، فتقدم إليهما في الامتحان من يحضر مجالسهما بالشهادات على الحقوق ، ونصنهم عن قولهم في القرآن ، فمن لم يقل منهم إنه مخلوق أبطلاً شهادته ، ولم يقطعا حكما بقوله ، وإن ثبت عفاقه بالقصد والسداد في أمره ، وأقل ذلك بمن في سائر عملك من القضاة ، وأشرف عليهم إشرافاً يزيد الله به ذا البصيرة في بصيرته ، ويمنع المرتاب من إغفال دينه ، واكتب الى أمير المؤمنين بما يكون منك في ذلك إن شاء الله (١) .

وقد ترجم أحمد بن حنبل الفريق الذي عارض فكرة خالق القرآن ، ولكن المطلع على كتب الأدب والتاريخ يدرك أن أحمد بن حنبل وأنصاره لم يدافعوا دفاعاً عقلياً ولا نقلياً عن رأيهم ، ومن أمثلة ذلك أن الواحد منهم كان يقول : إن القرآن مجمول لقوله تعالى : « إنا جعلناه قرآناً عربياً » (٢) ، فإذا سئل : هل المجمول مخلوق ؟ أجاب : نعم . فإذا قيل له : فالقرآن إذاً مخلوق رفض أن يجيب بالإيجاب (٣) .

وقد احتمل أحمد بن حنبل وبعض أصحابه كثيراً من الأذى والضرر لموقفهم ذلك ، وعدم تحولهم عن رأيهم ، وقد اعتبرت الجماهير هذا الموقف لونا من ألوان البطولة والإيمان فيهم ، وينبغي أن نبرز أن الضرب المتلف وقع بهؤلاء بعد وفاة المأمون ، ويخيل لي أن شيئاً من هذه القسوة العنيفة ما كان ليحصل لو كان المأمون حياً ، ولكن المأمون نصح أخاه المعتصم بأن يأخذ الناس بالقول بخلق القرآن ، وكان المعتصم رجل حرب ، فتلقى هذا التوجيه من أخيه كما يتلقى الجندي أوامر قائده ، ونفذه تنفيذاً حرفياً

(١) أحمد زكى صفوت : جبهة رسائل العرب ٣ : ٤٠ — ٤٧ .

(٢) سورة انز خرف الآية ٣ .

(٣) انظر نموذج من هذه المناقشات في طبقات الشافعية ١ : ٢٠٥ — ٢١٥ .

فكان فيه قاسياً وغلظاً ، وقد ظلت الحال على ذلك حتى جاء عهد المتوكل فأوقف القول بخلق القرآن وانتصر الى أهل السنة ودالت بذلك دولة المعتزلة .

وزراء المأمون :

وكان المأمون من الخلفاء العظام ، ومع الخليفة العظيم يهون شأن الوزراء ، أو قل إنها تأخذ مكانها الصحيح فلا يطغى الوزير على الخليفة ، وقد أراد الفضل بن سهل أول وزير للمأمون أن يستأثر بالسلطان وأن يجعل المأمون تابعاً له ، وكانت هذه ذلة كبيرة من الفضل دفع حياته ثمناً لها وسنتحدث عن الفضل حديثاً خاصاً عند الكلام عن « مشاهير وزراء العصر »

وأراد المأمون أن يخفف على آل الفضل المصيبة فيه ، فكان مما فعله أن استوزر الحسن أخاه وقرىبه إليه ، وكان المأمون شديد المحبة لمفاوضته ، فكان إذا حضر الحسن طال الحديث بينهما وكلما أراد الانصراف منعه المأمون وظل ذلك حتى مرض الحسن فانقطع عن مجلس المأمون ، واستخلف الحسن عنه أحمد بن أبي خالد لذلك ، ثم استوزره المأمون ، ولكن ظلت مكانة الحسن بحيث كان في الصدارة كلما استطاع أن يحضر لدار الخلافة .

زواج المأمون من بوران :

ومن الأحداث الهامة المتصلة بالحسن بن سهل زواج المأمون من بوران بنت الحسن بن سهل ، ويقول عنه ابن طباطبا (١) : بذل الحسن في هذا الزواج من الأموال ونثر من الدر ما يفوق حد الكثرة ، حتى إنه عمل بطايع من عنبر وجعل في وسط كل واحدة منها رقعة بضيفة من ضياعه ونثر هذه البطايع فمن وقعت في يده بطيخة منها فتحها وتسلم الضيفة التي فيها ، وكانت دعوة عظيمة تتجاوز حد

التجمل والكثرة ، حتى أن المأمون نسبه في ذلك إلى السرف ، وفرش
الحسن للمأمون حصيراً منسوجاً من الذهب ، وينثر عليه ألف لؤلؤة من
كبار اللؤلؤ ، فلما رآه المأمون قال : قاتل الله أبا نواس ، كأنه
شاهد مجلسنا هذا حيث يقول :

كأن صفرى وكبرى من فقاقتها
حصباء در على أرض من الذهب (١)

أحمد بن أبي خالد الأحول :

ومن وزراء المأمون أحمد بن أبي خالد الأحول ، ويرى أنه لما
عرض المأمون على أحمد الوزارة تنصل منها ، وقال : يا أمير المؤمنين
أعفنى من التسمية بالوزارة ، وطالبني بالواجب فيها ، واجعل بيني
وبين العامة منزلة يرجونى لها صديقى ويخافنى لها عدوى ، فاستحسن
المأمون جوابه ، وقال لابد من ذلك ، واستوزره .

وأحمد بن أبي خالد كان جليلاً القدر من عقلاء الرجال ، وكان
قبل الوزارة كاتباً فصيحاً بصيراً بالأموال ، وظل أحمد بالوزارة حتى مات
سنة ٢١١ هـ (٢) .

أحمد بن يوسف :

كان أحمد كاتباً فاضلاً ، أدبياً شاعراً ، فطناً بصيراً بآداب
السلطين ، يروى ابن طباطبا أنه لما مات أحمد بن أبي خالد استشار
المأمون الحسن بن سهل فيمن يولييه الوزارة ، فأشار عليه بأحمد بن
يوسف وابن عباد بن يحيى ، وقال : هما أعرف الناس بطبع أمير المؤمنين ،
فقال : اختر لى أحدهما . فاختار له أحمد بن يوسف ، ففوض المأمون
إليه الوزارة .

(١) انظر كذلك ابن خلكان ج ١ ص ٧٢ ولطائف اللطائف ص ٧٤ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٩٩ .

ويحكى أن المأمون استشار أحمد بن يوسف في رجل ، فوصفه أحمد وذكر محاسنه ، فقال له المأمون : يا أحمد لقد مدحتك على الرغم مما بينكما من عدا . فقال أحمد : لأنى كما قال الشاعر :

كفى ثمناً بما أسديت أنى صدقتك في الصديق وفي عِدائى
وأنى حين تندبنى لأمر يكون هواك أغلب من هوائى

ويقال إنه زل في مجلس المأمون مرة فأسف وأصابه كمد^١ لازمه حتى مات .

وبعد أحمد بن يوسف استوزر المأمون أبا عباد بن يحيى كما يقول ابن طباطبا (١) وبعض المؤرخين لم يذكروا أبا عباد بين وزراء المأمون ، وليس لابن يحيى امتياز يذكر : واستوزر المأمون بعده أبا عبد الله محمد بن يزيد بن سويد وكان متأدبا بارعا في كل شيء ، كما كان شاعراً مجيداً ، وقد ظل بالوزارة حتى مات المأمون (٢) .

كبار الرجال في دولة المأمون :

ومن كبار الرجال في دولة المأمون ، يحيى بن أكثم التميمي وكان قاضى القضاة للمأمون ، كما كان من كبار المحدثين ، وقد غضب عليه المأمون في أخريات حياته فذكر عنه في وصيته للمعتصم أن به خبث سريرة وسوء طوية ، وحذر المعتصم من الاعتماد عليه ، ولم نر في كتب التاريخ التى أطلعنا عليها أسبابا وأحداثا تسبب هذا الاتهام .

ومن كبار الرجال كذلك في دولة المأمون أحمد بن أبى داود المعتزلى ، وكان عالماً فاضلاً مسموع الكلمة في البلاط ، وقد طال عمره وتعمقت صلته بكثير من الخلفاء ، فكان قاضى القضاة للمأمون والمعتصم والواثق وأول عهد المتوكل ، وفي سنة ٢٢٣ هـ مرض وعجز عن العمل ، فقام ابنه

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٠١ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٢ .

أبو الوليد مقامه ، ولم يكن أبو الوليد كأبيه في حسن سيرته ، فغضب المتوكل عليه وصادر أمواله وأموال أبيه ، وأعاد يحيى بن أكثم إلى الرضا وولاه قضاء القضاء والمظالم من جديد •

كلمة ختامية عن ولاية العهد :

يجدر بنا أن نقرر أن المأمون كان أول خليفة عباسي أفاد من أحداث التاريخ ، ونظر للخلافة لا على أنها ملك خاص له يتوارثه أبناؤه وينقل في ذرائعه ، بل على أنها مصلحة عليا يجب أن يلاحظ فيها خير الناس وإسعادهم • ومن أجل هذا عين شخصا واحدا ليكون ولي عهده ، ولاحظ الكفاءة والمقدرة فيه ، فتجاوز ابنه وعين أخاه المعتصم • واقتدى المعتصم بالمأمون فعهد بولاية العهد لشخص واحد هو ابنه الواثق ولا يؤخذ عليه أنه عين ابنه ، لأن الواثق في الحقيقة كان جديرا بإسناد هذا المنصب إليه ، وكان الواثق في درجة رفيعة من خوف الله وخشيته ، ولذلك لم يعين وليا لعهد ، وقال عندما سئل عن ذلك : لا أريد أن أتحمل وزرها حيا وميتا • وهكذا كان المأمون أستاذا لخلفائه الأقربين في مسألة ولاية العهد ، كما كان أستاذا لهم في سواها من المسائل •

مدى خطورة ولاية العهد لأكثر من واحد :

في ختام الكلام عن ولاية العهد نسأل سؤالا هاما : هل كانت ولاية العهد لأكثر من واحد مصدر خطر على الدولة الإسلامية ، وسببا من أسباب سقوط الأمويين والعباسيين ؟

لقد كتب المؤرخون كثيرا في هذا الموضوع ، ورائتوا إلى نتيجة واحدة هي أن هذا النظام كان من دواعي الاضطراب والضعف في هاتين الدولتين ، ومن أهم العوامل التي أدت إلى سقوطهما ، ولكني لا أرى هذا الرأي وأعتقد أن هذا الجرح لم يكن بعيد الغور ، وأن تغيير ولي العهد كان — كما ذكرنا في أول بحثنا هنا عن ولاية العهد — مثار متاعب للخلفاء لا للدولة الإسلامية ، إذ كان هذا التغيير يستلزم اضطهاد شخصي ولي

العهد الذى كان يثودى بنفسه لو رفض الإذعان كما فُعلَ بعمر بن سعيد ابن العاص ، أو يطاطىء للعاصفة ويتتحنى عن ولاية العهد كما فُعلَ عيسى بن موسى •

أما الحرب التى أثارها عبد الله بن على ، وتلك التى أثارها المأمون فقد كان الدافع لها إحساس هذين بالقوة ، فمع الأول جيش كبير ، ومع الثانى خراسان ، زعماءها وجنودها ، ولولا هذه القوة لثم إيعادهما دون كبير عناء ، ولظلت المسألة محصورة فى نطاق القصور دون أن تصل الى ميادين القتال ، وقد كان الفضل بن سهل يدرك هذا تماما ولذلك نجده يشير على المأمون أن يسافر مع أبيه فى رحلة خراسان ، وكان الرشيد قلده هذه البلاد وما إليها الى همدان ، ولكن الرشيد عزم على تخليفه ببغداد • فقال الفضل للمأمون : لا تقبل ، وسله أن يشخصك معه ، فانه عليل وغير مأمون إن يحدث عليه حادث أن يكُتبَ عليك أخرك فيخلعك (١) •

فهذه الحروب لم يكن سببها تولية العهد لأكثر من واحد ، ولكن كان سببها القوة التى استشعرها المأمون ليدافع عن حقه ، واستشعرها عبد الله بن على فطالب بالخلافة ، مع أنه لم تكن لديه وثيقة بولاية العهد •

وقد تدهورت الدولة الفاطمية فى مصر بعد مدة قصيرة من قيامها ، أى منذ عهد الحاكم ، مع أنه لم يكن فى نظام هذه الدولة جعل ولاية العهد لأكثر من واحد •

وفاة المأمون :

توفى المأمون وهو غاز بطرسوس سنة ٢١٨هـ وكانت سنه آنذاك ثمانية وأربعين عاما رحمه الله رحمة واسعة كفاء ما قدم للإسلام والمسلمين من جهد وخير •

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٦١ •

المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ)

نشأته وتوليته الخلافة :

ولد أبو إسحق محمد المعتصم سنة ١٨٧ هـ من أم اسمها ماردة ، واتجه في نشأته اتجاهها عسكرياً ، دفعته اليه شجاعته وإعجابه بالبطولة ، ولهذا لم تكن له ثقافة عالية ، فحرمه الرشيد من ولاية العهد . وفي خلال خلافة المأمون كان المعتصم يده اليمنى فيما صادف من مشكلات وما خاض من حروب ، وقد جعله المأمون والياً على الشام ومصر ، ثم عينه ولياً لعهد ، فتولى الخلافة عقب وفاة أخيه .

وتصرف المأمون في ولاية العهد يضعه في صف واحد مع خيرة الخلفاء المسلمين وقادة الرأي ، فقد كان أئنه العباس يحظى بمكانة رفيعة بين الجند وتؤمله مواهبه للخلافة ، ولكنه تركه إذ رأى أن المعتصم يرجحه كفاءة وشجاعة ، وهو موقف لم يقفه إلا القلة الممتازة من الخلفاء والسلطين . وأدرك المأمون أن أخاه المعتصم تنقصه الثقافة والخبرة العلمية ، ولذلك نجد المأمون يضع للمعتصم دستوراً مفصلاً يشرح له ما يجب أن يفعل وما يجب أن يدع . ويشمل هذا الدستور مسألة خلق القرآن ، وضرورة أخذ الناس بها لأنها - في رأى المأمون - أصل من أصول الدين لاتصالها بالوحدانية ، كما يشمل هذا الدستور " حيث المعتصم على القضاء على الخرمية ، ويشمل أيضاً تحليل بعض الشخصيات البارزة ، يوصيه ببعضهم ويحذره من الآخرين ، وقد سبق أن أوردنا من الوصية ما يتعلق ببيحيى بن أكتم . ونقتبس من الطبرى (١) بعض فقرات أخرى منها :

« وخذ بسيرة أخيك في القرآن ، واعمل في الخلافة عمل المرید لله الخائف من عقابه وعذابه ولا تغفل أمر الرعية ،

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ج ١٠ ص ٢٩٤ .

الرعية الرعية ، العوام العوام ، فان الملك بهم ، الله الله فيهم وفي غيرهم من المسلمين خذ من أقويائهم لضعفائهم ، وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم والخرمية فأغزهم ذا حزم وصرامة واكتفه بالأموال والسلاح والجنود والفرسان والرجالة ، فان طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك وأبو عبد الله أحمد بن داود لا يفارقك ، وأشركه في المشورة في كل أمرك ، فانه موضع لذلك . . . » .

ومن أجل هذا يمكننا أن نقول إن المعتصم كان في أغلب أمره امتدادا لأخيه المأمون ، كان امتدادا له في مسألة خلق القرآن ، وفي موقفه من الزط حتى استطاع أن يقضى عليهم كما ذكرنا من قبل ، وفي صراعه الناجح مع الخرمية ، وفي هيبته وجلاله أمام الروم حيث أثبت لكفاءة ممتازة في موقعة عمورية ، وستأتي تفاصيل صراعه مع الخرمية (١) ومع الروم (٢) في أمكتها المخصصة لها من هذا الكتاب .

ولم تكن للعلوين حركات خطيرة خلال عهد المعتصم ، وكل ما قام به هؤلاء هو الثورة التي أشعلها محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي ابن الحسين بن علي ، وقد بدأها في الكوفة ثم رحل عن الكوفة واستأنف نشاطه في خراسان ، ولكن عبد الله بن طاهر أخفت هذه الثورة وقبض على محمد وسلمه للمعتصم الذي سجنه في سامرا ، ولم يعرف عن السجين شيء بعد ذلك (٣) .

المعتصم والترك :

دفعت الأحداث المعتصم إلى فقدان الثقة في الفرس والعرب ، أما الفرس فقد انتصح أنهم يقصدون إلى الاستبداد بالسلطة ، وقد ظهر منهم ذلك في ظروف متعددة ، وأنزل بهم الخلفاء العباسيون ألوانا

(١) ص ٢٢٠ — ٢٢١ .

(٢) ص ٢٦٤ — ٢٦٦ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٧ .

(م ١٣ — التاريخ الاسلامي ج ٣)

من التتكيل بدأت بأبى سلمة الخلال فأبى مسلم الخرساني
فالفضل بن سهل ، وأصبح واضحا أن الثقة بين الخلفاء وبين الفرس
لم تعد موفورة ، وأما العرب فقد أدركوا أن سلطانهم قد زال بزوال
دولة الأمين بسيوف الفرس مما سبب ثورة نصر بن شبيب التي يرى
بعض الباحثين أنها كانت دفاعا عن العرب ، وماتت ثورة نصر ولكن
الثقة بين الخلفاء والعرب لم تعد كما كان يجب أن تكون . وقد اضطر
المعتصم في ضغط هذه الأحداث أن يبحث عن عنصر جديد يعتمد عليه
وتتوفر الثقة بينه وبينه .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد كان على المعتصم أن يخوض
غمار حروب طويلة ومعارك شديدة ضد الزط وبابك الخرمي والروم
ولهذا رأى ضرورة تقوية جيشه بعناصر عرفت بالشجاعة والبطولة لينتصر
بهم في هذه الحروب .

ويعلل الامام محمد عبده (١) تصرف المعتصم بقوله : إن الخليفة ظن
أن الجيش العربي قد يكون عوناً لخليفة علوي ، لأن العلويين كانوا ألصق
ببيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فأراد أن يتخذ له جيشاً أجنبياً من
الترك والديلم وغيرهم من الأمم التي ظن أنه يستعبد بها بسلطانها ،
ويصطنعها بإحسانها ، فلا تساعد الخارج عليه ، ولا تعين طالب مكانه
من الملك .

من أجل هذا فتح المعتصم الطريق للترك ليصلوا الى جيش
الخليفة ، وقد استقدمهم المعتصم من بلاد ما وراء النهر ، إما عن
طريق النخاسة وإما على سبيل الجزية التي كان على أمراء هذه البلاد
أن يؤدوها ، وبدأ المعتصم بأن أسند لهؤلاء الأتراك أمر سلامته
الشخصية فجعل منهم حرسه الخاص ، ثم أدخلهم في جيشه المحارب
واستطاعوا بشجاعتهم وبطولتهم أن ينالوا تقدير الخليفة ، وأن يصلوا الى

(١) الاسلام والنصرانية مع العلم والمدينة ص ١١٢ - ١١٣ .

القمة في أمور الحرب ، وحرصا على مكانتهم عملوا على إسقاط أسماء كثيرين من العرب من الجيش الاسلامي ليخلو لهم الجو .

وقد أراد المعتصم أن يتخلص من سلطان الفرس وسلطان العرب ولكنه وقع وأوقع أولاده وأوقع الدولة الاسلامية في شر مرير حيث وضع شاء أو لم يشأ أمور الدولة في أيدي هؤلاء الأوغاد الطغاة (١) .

وقد بدأ شر الأتراك يظهر في عهد المعتصم ، فاعتدوا على كثيرين من الناس ، في بغداد واعتدى الناس عليهم ، ولما كثرت الشكوى منهم بنى المعتصم مدينة سامرا وانتقل إليها ونقل إليها جيشه .

وعلى كل فان شخصية المعتصم لم تدع للأتراك فرصة للطغيان ، وكذلك لم يستطيعوا في عهد الواثق بن المعتصم أن يستبدوا بالأمر ، ولكنهم بعد الواثق أخذوا يزحفون بسرعة الى السلطة الكاملة ، فكان لهم منها نصيب كبير في عهد المتوكل ثم اكتمل سلطانهم في عهد المنتصر .

وأهم القادة الأتراك الذين لمعت أسماءهم في عهد المعتصم ، الأفشين (حيدر بن كاوس) وقد كان له سهم بارز في الانتصارات التي شهدتها عهد المعتصم ضد الزط وبابك الخرمي والروم ، ولكنه اتهم بالردة وبمحاولة الاستقلال ببلاده أئروسنة (التركستان الروسية) وقامت الأدلة على ذلك فقبض عليه المعتصم وسجنه وظل بالسجن حتى مات ، ومن زعماء الأتراك كذلك إيتاخ وأشناس وبغا الكبير .

وبعد ، فهل يلام المعتصم على أنه جلب الأتراك الأوغاد ومنحهم القيادة في جيش المسلمين أو أنه يكتسب له العذر ؟ سؤال قدمنا عناصر الإجابة عنه بإيجاز ، وأغلب المؤرخين يلقين على المعتصم تبعة ما جلبه الأتراك من فساد على الاسلام والمسلمين .

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٤٦ — ٤٨ .

وكان من نتائج المكافأة التي منحها المعتصم للأتراك أن دبر العرب ثورة ضد الخليفة وضد الأفسشين ، وكانت هذه الثورة ترمى الى قتل المعتصم وقائده وتنصيب العباس بن المأمون خليفة ، وفيما يلي موجز الحديث عن هذه الثورة :

العباس بن المأمون وثورته على المعتصم :

كان العباس بن المأمون — كما سبق القول — قائدا مبرزاً في حياة أبيه ، ولكن المأمون آثر عليه أخاه المعتصم لميزات رآها فيه ، وعقب موت المأمون تردد بعض القادة في البيعة للمعتصم ، وفكروا في البيعة للعباس ، ولكن هذا التردد كان قصير العمر لأن العباس نفسه أسرع بالبيعة الى عمه تنفيذاً لرغبة أبيه .

بيد أن موقف المعتصم من العرب وتفضيله الأتراك عليهم ومنحه الأفسشين سلطاناً استطاع به أن يسقط من الجندية أسماء كثيرين من أبطال العرب ، كل هذا جدد الرغبة في البيعة للعباس ، وتم اعداد مؤامرة بقيادة عفيف بن عنبسة صاحب المكانة المرموقة في حروب المعتصم ، وكانت المؤامرة تقصد قتل المعتصم والأفسشين وأشناس وتعيين العباس خليفة وإعادة تنظيم الجيش وقادته ، ولكن هذه المؤامرة كشف أمرها ، وقد كشف عنها مدبروها أنفسهم ، إذ يقال إنهم شربوا خمراً وأثقلوا منها ، فلعبت الخمر بهم فأفضوا بسر المؤامرة الى من نقلها للمعتصم ، فقبض المعتصم على المتآمرين ، ومنع الماء عن العباس حتى مات ولحق به عفيف بن عنبسة يده اليمنى في هذه المؤامرة .

وزراء المعتصم :

تحدثنا آنفاً عن أهم الرجال في دولة المعتصم ، ونخصص بعض الفراغ هنا للحديث عن وزرائه ، ونشير الى أنه مع قوة الخليفة وظهور عناصر الأتراك بجانبه مع ما نعموا به من نفوذ وسلطان ، ثم مع مكانة

أحمد بن أبي داود ، مع هذا كله لم يكن للوزارة شأن كبير . وفي ضوء ذلك نوجز الكلام عن هؤلاء الوزراء :

أول من وزر للمعتصم كاتبه قبل الخلافة الفضل بن مروان ، وكان عامياً لا علم له ولا معرفة ، كما أنه لم يكن حسن السيرة ، ولم يطل صبر المعتصم عليه فنكبه وصادر أمواله (١) .

ثم استوزر بعده أحمد بن عمار ، وهو رجل ثرى كريم ، ولكنه كان جاهلاً بآداب الوزارة وجاهلاً بالأدب واللغة ويروى أنه ورد على المعتصم كتاب يذكر فيه العامل « خصب الناحية وكثرة الكلا » فسأل الخليفة بوزيره عن الكلا فلم يعرف ، فقال الخليفة : خليفة أمى ووزير عامى ، واستند عني أحد الكتاب فأدخل محمد بن عبد الملك الزيات فسأله الخليفة عن الكلا فشرحه شرح عالم فطن ، فصرف المعتصم أحمد ابن عمار صرفاً جميلاً واستوزر الزيات (٢) .

وكان الزيات من خيرة الناس ذكاء وأدباً وخبرة ومعرفة بآداب الرياسة وقواعد الملوك ، وقد نهض بأعباء الوزارة نهوضاً لم يكن لمن تقدمه من أترابه ، ولكنه كان جباراً متكبراً ، وقد ظل وزيراً للمعتصم حتى مات المعتصم (٣) .

وفاة المعتصم :

توفي المعتصم سنة ٥٢٢٧ هـ بعد أن عهد بالخلافة من بعده لابنه الواثق .

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٠٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٠٨ .

الوائق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ)

نشأته وتوليته الخلافة :

ولد الوائق سنة ١٩٦ هـ من أم ولد رومية اسمها قراطيس ، ونشأ مقتديا بعمه المأمون في صفاته واتجاهاته ، وكانت له شخصية كبيرة وعقل راجح وبصيرة في تدبير الأمور ، وقد ولاه أبوه السلطان في بغداد عندما انتقل مع جيشه الى سامرا ، وعهد له بولاية العهد ، فتولى الخلافة بعد موت المعتصم سنة ٢٢٧ هـ ، ويقول عنه ابن طباطبا (١) : كان الوائق من أفاضل خلفاء بني العباس ، وكان ليبياً فطناً فصيحاً شاعراً ، وكان يتشبه بالمأمون في حركاته ومسكناته ، ولما ولي الخلافة أحسن الى بني عمه الطالبين وبرّهم .

الأتراك بعد المعتصم :

وصل القواد الأتراك في عهد الوائق الى مكانة مرموقة ، وقد خلع الوائق على أشناس لقب السلطان ، وبذلك اعترف له بحقوق تعدو نطاق المهام العسكرية الخاصة ، حتى إذا توفي الوائق في سن مبكرة كان وصيف — خَلَفَ أشناس — قد أمسى من القوة بحيث يستطيع أن يرفع الى العرش الرجل الذي يرتضيه ، وبخاصة أن الوائق لم يختار أحداً لولاية عهده وقد نَصَبَ وصيف بادئ الأمر محمد بن الوائق خليفة على المسلمين ، وكان لا يزال دون سن الرشد ولكنه سرعان ما استبدل به عمه جعفر المتوكل على الله ، وقد حاول الخليفة الجديد أن يتخلص من صانعي الملوك فأوقع بابن الزيات وقضى على إيتاخ ، ولكن محاولته لم تنجح لأن الأتراك ثاروا ضده مع ابنه المنتصر واستطاعوا قتله ، واكتمل لهم بذلك السلطان ، وبدأ عصر ضعف الخلافة (٢) .

(١) المرجع السابق ص ١٣٥ .

(٢) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٥٢ — ٥٤ .

ثورة الجزيرة العربية في عهد الواصل :

هبت في عهد الواصل ثورات قوية في نواح متعددة من الجزيرة العربية ، فبنو سليم من قيس غيلان أشعلوا ثورة تمرد وفساد حيث كانوا ينزلون بالقرب من المدينة ، وتمرد بنو مرة وفزارة في فداك • وتمرد بنو نمير في اليمامة ، وقد أرسل الواصل لهؤلاء وأولئك خيرة قواده فأعادوا الأمن الى نصابه وقبضوا على المردة والعصاة ، وأعملوا السيف في بعض المجرمين وأخمدوا كل الفتنة ، ولمع في هذه المعارك اسم بغا الكبير الذي قاد جيش المسلمين في أكثر هذه المعارك •

الواصل ومحمد بن عبد الملك الزيات :

كان الزيات وزير المعتصم كما سبق القول ، وكان المعتصم أمر لابنه الواصل بمال وهو ولى للعهد وأحاله به على ابن الزيات ، ولكن الوزير لم ينفذ ذلك الأمر وأشار على المعتصم ألا يعطيه هذه العطية ، فقبل المعتصم قوله ، فأنقسم الواصل إن آل اليه الأمر أن يقتل ابن الزيات شر قتلة •

وآل الأمر للواصل ، فرأى أولاً أن يجد من يصلح للوزارة غير ابن الزيات فاستدعى عشرة من الكتاب واختبرهم فلم يجد فيهم من يرضيه ، فقال للحاجب : أدخل من الملك محتاج اليه ، محمد بن عبد الملك الزيات • فأدخله الحاجب ، فقال له الواصل : سأستبقيك خوفاً من خلوي الدولة من مثلك ، وسأ كفر عن يميني ، فاني أجد المال عوضاً ولا أجد عن مثلك عوضاً (١)

نكبة الكتاب في عهد الواصل :

اشتهر عن الواصل هذا الحادث الذي نكب فيه الكتاب ظناً منه

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٠٨ •

بأنهم يرتشون ، وقد تسلم بيت المال مبالغ كبيرة منهم ، نسردها
فيها يلي :

أحمد بن الخصيب وكتابه	١٠٠٠ر٠٠٠	دينار
سليمان بن وهب كاتب إيتاخ	٤٠٠ر٠٠٠	»
أبو الوزير	١٤٠ر٠٠٠	»
إبراهيم بن رباح وكتابه	١٠٠ر٠٠٠	»
نجاح	٦٠ر٠٠٠	»
للحسن بن وهب	١٤ر٠٠٠	»
أحمد بن إسرائيل	١٤ر٠٠٠	»

صفات الواثق ووفاته :

قلنا إن الواثق جعل المأمون قدوته ، ومن هنا يتضح لنا موقفه
من التشدد في القول بخلق القرآن ، وتقريب العلماء ، ورعايته للرعية ،
وعدم حرصه على تولية ابنه العهد ، ومات الواثق سنة ٢٣٢ بعد قرن
من قيام الدولة العباسية ، ويعتبر هذا القرن أزهى عصور الدولة ،
وبموت الواثق بدأ عهد جديد سنوجز القول عنه فيما بعد .

الشراب والمذاهب فيه

نختتم حديثنا عن الخلفاء بكلمة عامة عن المذاهب في الشراب ، فقد
رأينا مواقف الخلفاء تجاه الشرب وكيف قربوا نحوه رويداً رويداً حتى
انتصر الميل إلى الشرب والمناذمة جميعاً ، وبذلك شاع بين طبقات الناس ،
فما هي الاتجاهات في هذه المسألة ؟

يبدو لي أنه كانت هناك اتجاهات ثلاثة نحو هذا الموضوع :

١ — مذهب أهل الورع والتقوى ، وهؤلاء استجابوا لقوله تعالى :
« إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان
فاجتنبوه لعلكم تغفلون » ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة
والبغضاء في الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة . فهل
أنتم منتهون ؟ (١) » .

وقد عدَّ هؤلاء القوم كلَّ مسكر خمرًا ، فحرموا كل أنواع المسكرات ،
ثم حرموا قليلَ ما يسكر كثيره ، وقد قال بهذا الأئمة الثلاثة ، مالك
والشافعي وابن حنبل (٢) .

٢ — مذهب المستهترين من الشعراء ومن جرى مجراهم ، وهؤلاء
أعلنوا تمردهم ، وشربوا كل الأنواع ، وأمضوا لياليهم بين الكأس والطاس ،
وقد عبر عنهم أبونواس بقوله :

فإن قالوا : حرامٌ قل : حرام
ولكن اللذذة في الحرام

وقوله :

حجٌ مثلى زيارة الخمار
واقْتِنائي العَقَارَ شربُ العَقَارِ

ما أبالي إذا الدامة دامت
قولاً ناهٍ ولا شناعة جار (٣)

وقوله :

لمثلى من الفتيان حلت له الخمرُ
وطابت له اللذات واسترخِص السكر (٤)

(١) سورة المائدة الايتان ٩١ — ٩٢ .

(٢) ابن تيمية : السياسة الشرعية ص ١١٣ .

(٣) ديوان أبي نواس ص ٢٠٥ .

(٤) اى صار السكر مرخصا به .

فقد كان شريبي لا يكدر مجلسي

ولا يعترى فيه خِصامٌ ولا هُجْر (١)

٢ — مذهب الامام أبي حنيفة وأكثر أهل العراق الذي يفسر الخمر في الآية السابقة بعصير العنب ، ويقولون بحصر الحرمة فيها ، أما النبيذ وهو ما أخذ من الثمر فليس حراماً اذا لم يسكر ، ويستدلون على هذا بقوله تعالى « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسناً » (٢) . مادام ذلك لم يسكر ، فاذا أسكر كان خمراً ، كما يستدلون على ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم : حرمة الخمرة بعينها والسكر من كل شراب . ويروى أن عيسى بن موسى سأل أحد شيوخ العلماء عن النبيذ فقال : حلال ، وقد أدركنا أبناء الصحابة والتابعين وهم يشربونه ، وروى بعضهم أن عمر بن الخطاب كان يشرب النبيذ ويقول : إنا نأكل لحوم هذه الإبل فنشرب عليها النبيذ الشديد ليقطعها في بطوننا (٣) [أى ليساعد في عملية الهضم] ، ويروى الجهمياري (٤) . أن شريكا القاضي تحدث عند أبي عبيد الله معاوية بن يسار يوماً بحديث في تحليل النبيذ ، فقال عافية القاضي وكان حاضراً : ما سمعنا بهذا الحديث ، فقال شريك : وما يضر عالماً أن جهل جاهل ؟ .

وذكر أبو سهل الرازي عن منصور بن أبي مزاحم قال :

كنت عند أبي عبيد الله ، وحسن بن حسن عنده ، وشريك حاضراً . فقال أبو عبد الله لشريك : حدثنا في النبيذ . فحدثه بحديث همّام عن عمر بن الخطاب فيه . فقال حسن : ما سمعنا بهذا في الملة الأخيرة ، إن هذا إلا اختلاق . فقال شريك : أجل ، شغلك عنه جالسك على الطنافس ، في صدور المجالس ، وعرفناه بسعينا . فاستزاده أبو عبيد الله ، فقال : لا أعرض الحديث للكذب (٥) .

(١) ديوان أبي نواس ص ٣٠٦ .

(٢) سورة النحل الآية رقم ٦٧ .

(٣) الاصفهاني : محاضرات الادباء ١ : ٤١٢ .

(٤) الوزراء والكتاب ص ١٤٤ .

(٥) المرجع السابق ونفس الصفحة .

المشكلات الكبرى

التي قابلها العباسيون خلال هذا العصر

صادف العباسيين كثيرا من المتاعب ولم يضمنوا بالأرواح ولا بالدم الذكى في سبيل إقامة دولتهم ، ولكن قيامها لم يكن نهاية الكفاح ، ولم يضع حداً للتعيب والعناء ، بل استمر هذا الجهاد بنفس العنف والقسوة للمحافظة على هذه الدولة ، ورعاية شؤونها ، وكانت تتجدد المشكلات أمام الخلفاء العباسيين ، وكلما تخطوا مشكلة برزت أخرى ، وقد شملت هذه المشكلات القضاء على العلويين الذين هبوا المرة بعد الأخرى في وجه بنى العباس ، وشملت كذلك القضاء على ثورات هبت من صفوف بنى العباس أنفسهم ، ومن صفوف الذين ساعدوا على قيام الدولة العباسية ثم انقلبوا في بعض الأحيان يكيّدون لها ، وغير ذلك من الثورات ، وقد تحدثنا من قبل عن بعض هذه المشكلات وسنورد فيما يلى حديثا عن أنواع أخرى منها :

ومما يذكر أن القوة لم تكن دائما الوسيلة التي يلجأ إليها للقبالة هذه الانتفاضات وتلك الثورات ، بل كثيرا ما لجأ الخلفاء الى سلاح آخر هو سلاح المؤامرة والتدبير السرى ، عن طريق طعنة صامتة ، أو سم زعاف ، ويصف ابن طباطبا هذا الاتجاه في خلفاء بنى العباس فيقول : كانت الدولة العباسية دولة ذات خُدَع ودهاء ، وغدر ، وكان قسم التحيّل والمخادعة أوفر من قسم القوة والشدة (١) .

وعلى هذا النحو تخلص الرشيد من إدريس بن عبد الله ، وتخلص المأمون من الفضل بن سهل ، وتخلص المعتصم من محمد بن القاسم ، وسنرى فيما بعد صورا مفصلة عن هذه المؤامرات التي دارت في

قصور الخلفاء ، وسنرى كذلك بعضا من بطانة الخلفاء يتعرفون بأنهم يحكمون تدبير الدسائس للنيل من أعدائهم عن طريق هذا السلاح الخطير .

ويعطى الخلفاء بأن الفتك بأعدائهم يمثل هذه الصورة كان يحمى الدولة من ثورات لا تدرى نتائجها ، فهو تضحية بشخص أو بأشخاص قليلين رجاء السلامة للكثيرين . وذلك هو رأيهم على مسئوليتهم .

وهناك حقيقة ينبغي إبرازها ، وهى أن توالى الثورات والفتن فى هذه الدولة جعل الخلفاء العباسيين يحسون أن دولتهم مهددة ، وأنه ينبغي للمحافظة عليها أن يقتلوا أحيانا بالشبهة ، وهكذا تلاحقت الحركات ، وبالتالي توالى حملات الإيقاع والتكيد ، وفيما يلى صورة موجزة لأحداث هذا العصر :

(١) العلويون

احتل العلويين كما قلنا من قبل عبء الكفاح الطويل الشاق ، ولكنهم فى طرفة عين وجدوا أنفسهم صفر اليمين ، بل زاد غيظهم لأن غيرهم جنى ثمار كفاحهم ، وتملك الغرس الذى سقوه بدمائهم ، ومن أجل هذا قامت قائمتهم ، وهبوا هنا وهناك يزعزعون هذا البنيان ، ويحاولون أن يحطموا أركانه ، ولكن هيهات ، لقد كان بنياننا متين الأساس ، حديد التشييد ، ولم يكن هدسه سهلا ، فاضطرت القوتان ؛ لا يأتى العلويون بهذا أن يثيروا العصيان والتمرد ، ولا يدخر العباسيون قوة فى التكنيل بهم ، حتى إن المؤرخين يذكرون أن العلويين قاسوا من قسوة العباسيين أضعاف ما احتملوه من طغيان الأمويين . وفيما يلى الخطوط الهامة لهذا الصراع العنيف :

النفس الزكية :

هو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب الملقب بالنفس الزكية ، كان من سادات قریش ، وأكثر رجالها فضلا وشرفا وعلماً ، وقد امتنع عن مبايعة السفاح كما امتنع هو وأخوه

ابراهيم عن البيعة للمنصور ، وقد اختفى محمد منذ ظهور أمر العباسيين ، وجدّ هؤلاء في البحث عنه دون جدوى ، ولما اشتد خوف المنصور منه ، نكل بابيه عبد الله المحض ، وحبس آل الحسن كلهم ، فدفع ذلك محمدا الى إعلان ثورته في شهر رجب سنة ١٤٥هـ وقد دخل المدينة المنورة ومعه بعض أعوانه ، فانهزم أمامهم أمير المدينة ، وأطلق محمد سراح المسجونين ، واستتب لمحمد الأمر فيها .

وكان المنصور في ذلك الحين مشغولا ببناء بغداد ، فأوقف العمل وسارع ليكون قريبا من التأثير . وقد استطاع بمهارته أن يسدّ عليه مسالك النجاح ، فأقفل أبواب الكوفة لأن أهلها شيعة علويون يخشى أن ينضموا لمحمد بن عبد الله ، كما أخذ يعمى الأخبار على أهل خراسان خوفا من الانضمام بعواظهم أو بسيوفهم للتأثير العلوى .

ومن الحيل التي عملها المنصور ليخدع محمدا وليوهمه أن دعوته قد عمت البقاع ، وأن عليه الخروج بها من المدينة ليتلقى التأييد الكامل ، أن كتب لمحمد علكى اللسن القادة أو دفع هؤلاء للكتابة اليه يدعونه للظهور ويعلنون له أنهم يتبعونه ويؤيدونه ، فعجل محمد بالظهور ظنا منه أن الجيوش التي سيرسلها المنصور ستتضم إليه ، وتأخذ جانبه . وأعد المنصور جيشا لمحاربته بقيادة ولى عهده في ذلك الحين عيسى ابن موسى وقال له : امض أيها الرجل ، فوالله ما يراد غيرى وغيرك ، وما هو إلا أن تشخص أو أشخص أنا ، فاستجاب عيسى وسار بجيشه ، ودارت رحى الحرب ، فانهزم العلويون وأعوانهم في رمضان من العام نفسه ، وخرّ محمد صريعا بعد أن أبدى ضروبا من البسالة والاقدام .

وتمتاز هذه الثورة العلوية عن غيرها من الثورات ، بالكتب الرائعة التي تبوّهت بين أبى جعفر المنصور ومحمد بن عبد الله ، وقد شحنت بالحجج السياسية والمنطقية والدينية ، وقد دافع كل منهما في كتبه الى صاحبه عن وجهة نظره ، وبيّن أحقّيته بخلافة المسلمين ، ونقّص حجج خصمه ، ولم تتجدّ هذه الكتب من الناحية العملية ، بل كان منطق السيف أقوى ، ولكها ظلت بالرغم من هذا سجلات مهمة ، يرجع اليها

الدارسون والباحثون ، وكان المنصور يتولاها بنفسه ، فلما عرض عليه وزيره أبو أيوب أن يتولى الاجابة عنه قال : يا هذا ، ليس ذلك اليك ، اذا نحن تقارعنا عن الأحساب فدعني وإياها (١) .

ابراهيم بن عبد الله :

هو أخو النفس الزكية السالف الذكر وكان حصيفا ذاهية ، اختفى عن عين المنصور ولكن المنصور لم يخفف عن عينه ، يحكى ابن طباطبا (٢) أن ابراهيم كان في حالة تغيبه يحضر الى عسكر المنصور متخفيا ، وربما جلس مع المنصور على السباط وقد نزل ابراهيم الكوفة ليقوم بدعوته فيها ، ولكنه وجد الكوفة مملوءة بالأرصاد والعيون ، فلم يجد بدا من إعمال الحيلة لمغادرتها الى البصرة ، فأرسل رجلا من أتباعه يسمى سفيان بن زيد الى المنصور فقال له : يا أمير المؤمنين ، تؤمّني وأدلك على ابراهيم ؟ فقال المنصور : أنت آمن ، أين هو ؟ قال : بالبصرة ، فوجّه معي برجل تثق به ، واحملني على دواب البريد ، واكتب الى عامل البصرة حتى أدله على مكانه فيقبض عليه ، فوجّه معه أبا سويد ، وخرج سفيان بن زيد ومعه غلام عليه جبة من الصوف ، وعلى عنقه سفرة فيها طعام ، وركبا مع سويد على خيل البريد ، فلما وصل البريد الى البصرة قال سفيان لأبى سويد : انتظر حتى أتعرف خبر الرجل ، ومضى ولم يعد ، وكان الغلام الذى عليه الجبة الصوف هو ابراهيم بن عبد الله (٣) .

وفي البصرة دعا ابراهيم لنفسه فاستجاب له الناس ، وانتهاز فرصة اشتغال المنصور بحرب النفس الزكية فمدّ سلطاته حتى شمل الأهواز وواسط ، ولكن ما كاد عيسى بن موسى ينتهي من حرب النفس

(١) الجهشيارى ص ١١٥ وانظر عن هذه الثورة ومن الكتب المتبادلة بين المنصور ومحمد : ابن الأثير : ١٩٦ وما بعدها ومروج الذهب ٢ : ٢٣٧ وما بعدها . والفخرى ص ١٤٢ وما بعدها . والطبرى الجزء التاسع . وصبح الاعشى الجزء الاول ص ٢٣١ وما بعدها .

(٢) الفخرى ص ١٤٤ .

(٣) تاريخ اليعقوبى ٢ : ٤٥٣ — ٤٥٤ .

الزكية ، حتى جاء كتاب المنصور يستحثه بالقدوم ليتولى حرب ابراهيم ، فسار اليه وهزم جيشه وقتله قبيل نهاية ذى القعدة من العام الذى قتل فيه أخوه (١) .

الحسين بن على بن الحسن بن على بن أبى طالب :

كان الحسين بن على من سادة بنى هاشم وفضلائهم ، وكان قد عزم على الخروج ، واتفق معه جماعة من أعيان أهل بيته ، ثم وقع من عامل المدينة تهضم لبعض آل على فى عهد الخليفة الهادى ، فثار آل أبى طالب بسبب ذلك ، واجتمع على الحسين ناس كثيرون فكسروا السجون وأخرجوا من بها ، وبويع الحسين بن على ، فلما عرف الهادى خبر هذه الثورة ، أرسل اليهم محمد بن سليمان بن على فى عسكر كثيف ، فالتقوا بموضع يقال له « فخ » بين مكة والمدينة فاقتتلوا قتالا شديدا ، ثم قتل الحسين بن على وحمل رأسه إلى موسى الهادى (٢) ، ولم تنته موقعة « فخ » عند هذا الحد ، بل فر منها رجالان من العلويين كان لهما شأن كبير فى التاريخ فيما بعد ، على ماسيلى إيضاحه :

يحيى بن عبد الله :

هو أحد الرجلين اللذين فرّا فى موقعة فخ ، وقد سار الى بلاد الديلم ، ودعا لنفسه ، فاشتدت شوكته ، وكثرت جموعه ، وأتاه الناس من الأمصار ، وكان ذلك فى عهد الرشيد ، فاغتم الرشيد بذلك ، وندب له الفضل بن يحيى فى خمسين ألفا ، وولاه جرجان وطبرستان والرى وغيرها من هذه المناطق ، فتوجه الفضل بالجنود ، فتلاطف بالثائر العلوى وحذره وخوفه ، ورغبه وبسط أمله ، وكاتب صاحب الديلم ، وبذل له ألف ألف درهم على أن يسهل له موافقة يحيى على الصلح ، فوافق يحيى

(١) انظر المراجع السابقة .

(٢) الفخرى ص ١٦٦ — ١٦٧ ، ابن الاثير ج ٦ ص ٣٠ ، ومروج

الذهب ج ٢ ص ٢٥٦ — ٢٥٧ .

على ذلك بشرط أن يكتب له الرشيد أماناً بخطه ، يشهد فيه القضاة والفقهاء
وجلة بنى هاشم ومشايخهم ، فأجابته الرشيد الى ذلك وسراً به ، وعظمت
بذلك منزلة الفضل عنده ، وسير الأمان مع هدايا وتحف ، فقدم
يحيى مع الفضل الى بغداد ، فلقبه الرشيد بكل ما أحب ، وأمر له
بمال كثير (١) .

ثم خاف الرشيد منه بعد ذلك فقبض عليه وسجنه ، وسعى أحد
الزبيريين بالسجين وأتهمه بأنه يدعو لنفسه ، فجمع الرشيد بينهما ،
فأنكر يحيى ما ادعاه الزبيرى ، وطلب منه أن يحلف فقال الزبيرى
والله الطالب الغالب ولكن يحيى قاطعه قائلاً : دع هذه اليمين
فإن الله إذا مجده العبد الحائث لم يعجز عقوبته ، ولكن احلف بيمين
البراءة ، قل برئت من حول الله وقوته ، ودخلت في حول نفسى وقوتها
إن كان فارتاع الزبيرى من هذه اليمين وتردد ، ولكن الرشيد
سأله ما معنى امتناعك إن كنت صادقاً . . . ولم يجد الرجل بدا من
الحلف ففعل ، ولكن ما انقضى النهار حتى مات (٢) .

وكان البرامكة يحسون أنهم مسئولون عن سلامة يحيى ، لأنهم
الذين استنزلوه من حصونه ، ولهذا سهلوا له سبيل الخروج من بغداد
بعد ما توثقوا منه أنه لن يقوم بنشاط ما ، وقد نقم الرشيد منهم
ذلك فكان هذا من أسباب الايقاع بهم على ما سيأتى ، أما يحيى بن
عبد الله فقد أعيد القبض عليه وقتله الرشيد سرّاً قتله .

إدريس بن عبد الله :

هو الرجل الثانى الذى فرّ من موقعة « فخ » وقد ولى وجهه
تجاه مصر فشمالى إفريقيا حتى استقر بالمغرب الأقصى ، وقد التقى
حوله البربر واعتقوا دعوته ، فأنشأ هناك الدولة الإدريسية ، والبربر

(١) ابن الاثير ج ٦ ص ٤١ .

(٢) الفخرى ص ١٧١ .

أشداء أقوياء ، ثم هم بمنأى عن بغداد عاصمة الخلافة ، ولذلك تردد الخليفة في أن يرسل له جيشاً لمحاربته خوفاً على الجيش في هذه البقاع البعيدة ، ولأنه ظن أن جيشه لو هزم لكان في ذلك إغراء لإدريس وحثاً له على مواصلة الهجوم على الدولة في مصر وتجاه الشام ، ويقال أن الرشيد لجأ إلى حيلة غير كريمة ، فبعث رجلاً داهية اسمه سليمان بن جرير تظاهر بالخروج على العباسيين ، واللجوء لإدريس فاطمأن له إدريس وقرّبه وأخذَ بسحر بيانه ، وبهذا أتى إدريس من مأمنه ، فقد دس له الرجل السم فقتله ، غير أن القضاء على إدريس لم يكن قضاءً على الدولة الإدريسية ، فان البربر أجمعوا أمرهم على أن يظلوا على استقلالهم ، وكان إدريس قد ترك أمّةً حاملاً ، فانتهزوا وضعها فلما وضعت ولداً ذكراً أسموه إدريس ، ودانوا له بالطاعة ، كما دانوا من قبل لأبيه ، وكانت الدولة الإدريسية أول دولة تنشق من العالم الذي كان يدين للعباسيين بالولاء ، ولم يجد الرشيد بدءاً من أن يقطع إبراهيم بن الأغلب منطقة تونس ليقف في وجه الأدارسة إذا حاولوا الزحف على مصر والشام ، وقد تكونت فيما بعد دولة الأغلبة على أثر هذا الإقطاع (١) .

محمد الديباج :

هو محمد بن جعفر الصادق ، وعلى الرغم من تسامح المأمون مع العلويين وحسن تقديره لهم ، فقد خرج محمد الديباج ودعا لنفسه بمكة في عهد المأمون ، فاستجاب له أهل مكة وبايعوه بالخلافة وسموه أمير المؤمنين ، وكان بعض أهله قد حسن له ذلك . وكان محمد بن جعفر شيخاً عالماً يقرأ عليه العلم وقد روى عن أبيه علماً جماً ، وكان الغالب على أمره ابنه وواحد من بنى عمه لا تحمد سيرتهما ، وأرسل المأمون إليهم عسكرياً فكانت الغلبة له ، وظفر به المأمون وعفا عنه (٢) .

(١) انظر مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٨ وأبا الفدا : المختصر في تاريخ البشر ٢ : ١٣ .

(٢) الفخرى ص ١٩٥ .

وفي عهد المأمون كذلك خرج إبراهيم بن موسى بن جعفر باليمن وكان كما يقول الأستاذ الخضرى (١) جزاراً لكثرة من قتل باليمن من الناس ، وفي موسم الحج أرسل بعثاً ، فأخذ هذا البعث يسطو على الحجاج ، وسرق كسوة الكعبة المعظمة ، وسارت جيوش الخلافة فقضت على هذه الثورة واستردت الكسوة والأموال المنهوبة .

(ب) الخوارج

نشط للخوارج في العصر العباسي الأول بعد أن ضعفتهم قوة الأمويين وشدة بأسهم . والخوارج كما هو معروف عنهم لا يأبهون بالموت ولا يربعهم سيل الدماء ، وجماعة كهؤلاء يرهقون أعداءهم ويقلقون من يتصدى لهم ، وقد هبت حركاتهم من حين إلى آخر طوال العصر الذي نتحدث عنه .

نفى عهد أبى جعفر المنصور كانت بلاد شمالى إفريقية مسرحاً لحركات الخوارج ، وقد عانى عمر بن حفص وإلى هذه البلاد هو ورجاله عنفاً كبيراً كما عانى السكان ألواناً من اعتداءات الخوارج وتتكليهم ، وقد استطاع أبو حاتم الخارجي أن يحاصر القيروان حتى اشتدت الحال على أهلها فلم يبق في بيت أهلها دينار ، ولا عند أهلها شيء من طعام ، ودام الحصار ثمانية أشهر ، وكان الجنود يخرجون فيقاتلون الخوارج طرفي النهار حتى جهدهم الجوع ، وأكلوا دوابهم وكلابهم ، وقتل عمر بن حفص في أحد معاركه مع الخوارج ، فلما عرف المنصور ذلك أرسل يزيد حاتم في ستين ألف فارس ، فالتقى بالخوارج وبمن معهم من البربر فهزمهم هزيمة شاملة ، وشئت جموعهم ، وقتل منهم نحواً من ثلاثين ألفاً ، وكان جند الخليفة يقتلون الخوارج وهم يصيحون : يالثرارات عمر بن حفص (٢) !

(١) محاضرات في تاريخ الدولة العباسية ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٢) ابن الاثير ج ٢ ص ٢٢١ ، ٢٢٣ .

وفي عهد المهدي ثار عبد السلام بن هاشم اليشكري بالجزيرة ، واشتدت معركته ، وكثر أتباعه ، وهزم عسكر المهدي ، وقتل قائد العسكر فأعدّ المهدي جيشاً كبيراً بقيادة شبيب بن واج ، ومنح كل فارس في هذا الجيش ألف درهم معونة ، وقد استطاع هذا الجيش أن يتغلب على الثائر ويقتله (١) .

ثم ثار بالموصل خارجي اسمه ياسين من بني تميم ، فخرج إليه عسكر الموصل لهزمهم ، وتغلب على أكثر ديار ربيعة والجزيرة ، فوجه اليه المهدي أبا هريرة محمد بن فروخ وهرثمة بن أعين فحارباهما ، فصبر لهما حتى قتل مع عدة من أصحابه وأنهزم الباقيون (٢) .

وفي عهد الرشيد هبت للخوارج عاصفة قوية كان يقودها رجل ذو بأس شديد ، أعاد للخوارج عهدهم الزاهر في أيام بني أمية ، ذلك هو الوليد بن طريف الذي يقول عن نفسه :

أنا الوليد بن طريف الشاري قَسَوْرَة لا يَصْطَلِكِي بناري

وقد ثار الوليد في الجزيرة سنة ١٧٨ هـ ، واشتدت بها شوكته ، وكثر أتباعه ، وهزم عدة من جيوش الرشيد ، فأتجهت للقضاء عليه عناية الخليفة ، فاختار بطالا من رجاله هو « يزيد بن مزيد » وهو ابن أخي معن بن زائدة ، والوليد بن طريف وميزيد بن مزيد كلاهما من وائل ، وكلاهما في الحرب ليث غاب ، وتوالت يزيد محاربة ابن عمه طريف ، فقتل أحد الشعراء :

وائل بعضهم يقتل بعضا لا يفتل الحديد إلا الحديد

وقد جعل يزيد يخالل الوليد ويمكر به ، دون أن يقضى عليه ، ودون أن يظهر له عنف القادة وقسوتهم ، ولكن مسلم بن الوليد يلجأ إلى حسن التعليل فيصف ذلك بقوله :

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ١٩ .

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٢٦ .

يَفْتَرُّهُ عند اشتداد الحرب ، مبتسم
إذا تَغَيَّرَ وجهه الفارس البطل
مُوفٍ على مَهَجٍ ، في يوم ذى رَهَجٍ
كأنه أَجَلٌ يَسْمَى إلى أَمَلٍ
ينال بالرفق ما يعيا الرجال به
فالموت مستعجلاً يأتي على مهل

ولكن الرشيد غضب لهذا التواني من يزيد وكتب اليه « لو وجهت
أحد الخدم لقام بأحسن مما تقوم به ، ولكنك مداهن متعصب ، وأقسم
بالله لو أخرت مناجزته لأوجهن إليك من يحمل رأسك » فاستعدَّ يزيد
للقاء الفاصل ، والتقى الجيشان ، وفي وسط المعركة أحسَّ يزيد بعطش
قاتل ، ولكنه رمى بخاتمه في فيه وجعل يلوكه ويقول : اللهم إنها شدة
شديدة فاسترها • وكان له النصر • ويقال أن أسد بن يزيد كان شديد
الشبه بأبيه لا يفصل بينهما إلا ضربة في وجه يزيد فكان أسد يتمنى مثلها ،
وقد تحققت أمنيته في تلك المعركة فأصابته ضربة كأنما خُطَّتْ على
ضربة أبيه • وخر الوليد قتيلًا في هذه المعركة ، فرثته أخته ليلى بقصيدة
مؤثرة تقول فيها :

أيا شجر الخابور مالك موركاً	كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يجب الزاد إلا من التقى	ولا المال إلا من قنا وسيف
حليف الندى، معاش يرضى به الندى	فإن مات لا يرضى الندى بحليف
فقدناك فقدنا الشباب وليتنا	فدينناك من فتياننا بألوف
وما زال حتى أرق الموت نفسه	شجاً لعدو أو نجاً لضعيف
ألا يا لقوم للحمام واللبي	وللأرض همت بعده برجوف
وللبدر من بين الكواكب إذ هوى	وللشمس لما أزمعت لكسوف
ولليث كل الليث إذ يحملونه	إلى حفرة ملحودة وسقف
عليه سلام الله وقفاً فإننى	أرى الموت وقائعاً بكل شريف (١)

(١) ابن الاثير ٦ : ٤٧ — ٤٨ بتصرف والاغانى ١١ : ٨ — ٩ •

(ج) الزنادقة

كان يطلق لفظ زنديق على من اعتنق مذهب المانوية أو الثنوية (أى عبدة النور والظلمة) ثم اتسع معنى هذا اللفظ حتى أطلق على كل ملحد أو مبتدع ، ثم تطور مرة أخرى فأصبح يطلق على من كان مذهبه مخالفاً لمذهب أهل السنة ، وأطلق أحياناً على من يحيا حياة المجون من الشعراء والكتّاب وكان التطرف والاستهتار سمة هؤلاء حتى قلّدهم فيها من ليس على مذهبهم ، كأبى جعفر بن زياد الذى قيلت فيه الأبيات التالية :

يا ابن زياد يا أبا جعفر أظهرت دينا غير ما تخفى
مزدق الظاهر باللفظ فى باطن إسلام فتى عفاً
لست بزنديق ولكنما أردت أن تؤسم بالظرف

أما الزندقة التى شغلت العباسيين وتفتشت بين رعاياهم ، فقد وصفها الخليفة المهدى لابنه المهادى بقوله : يا بنى ، إذا صار الأمر إليك ، فتجرد لهذه العصابة ، [عصابة مانى] ، فإنها تدعرك الناس الى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش ، والزهد فى الدنيا ، والعمل للأخرة ، ثم تخرج من هذا الى تحريم اللحوم ، ومس الماء الطهور ، وترك قتل الهوام تخرجاً ، ثم تخرج الى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاعتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطريق بحجة إنقاذهم من ضلال الظلمة الى هداية النور ، فارفع فيها الخشب ، وجرد السيف ، وتقرّب بذلك الى الله ، فإنى رأيت جدى العباس رضى الله عنه فى المنام قلدى سيفين لقتل أصحاب الاثنين (١)

وقد ظهرت الزندقة قبل أن يظهر الإسلام ، فالزندقة ليست خروجاً على الإسلام خاصة ، وإنما هى خروج على جميع الأديان ، وعلى كل القوم والمعايير الأخلاقية السامية .

(١) الطبرى ١٠ : ٤٢ وابن الاثير ٦ : ٢٥ .

وأشهر فرق الزندقة تنسب الى مزدك ، الذى ظهر فى أيام قباد بن فيروز ، (قباد هذا هو أبو كسرى أنوشروان) ، وقد دعا مزدك الناس إلى الزندقة ، وإباحة الحرّم ، وألا يَمْنَعَ أحد منهم أخاه ما يريد من ذلك (١) .

وظهر من الزنادقة فى العهد الأموى عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب الوليد بن يزيد ، والجعد بن أدهم مؤدب مروان بن محمد ، ثم ظهر حماد عجرد ، وهو كما يقول أبو الفرج الأصفهاني (٢) « من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، إلا أنه لم يشتهر فى أيام بنى أمية شهرته فى أيام بنى العباس ، إذ أصبح خلالها خليعاً ماجناً متّهماً فى دينه ، مرمياً بالزندقة » وفى خبر آخر يقول : كان بالكوفة ثلاثة نفر يقال لهم حمادون : حماد عجرد ، وحماد الراوية ، وحماد الزبرقان يتنادمون على الشراب ويتناشدون الأشعار ويتعاشرون معاشرة جميلة ، وكانوا كأنهم نفس واحدة ، يترّمون بالزندقة جميعاً ، وأشهرهم بها حماد عجرد (٣) .

وكان أبو نواس يرمى بالزندقة أيضاً ولكنه كان يبرأ من الزندقة ، ويقول
إن السبب فى أنه رُمى بها أنه قال مرة لحماد الراوية :

ادع غيرى إلى عبادة الاثنى ن فإنى بواحد مشغول

ولكن حماداً أذاع هذا البيت ونسبه إلى بشار بعد أن جعله :

ادع غيرى إلى عبادة الاثنى ن فإنى عن واحد مشغول

وحاول أبو نواس أن يظهر براءته ولكنه لم يتمكن ، فألقى به فى حبس الزنادقة ، وعن ذلك الحبس يقول أبو نواس : كنت أتوهم أن حماد عجرد إنما يرمى بالزندقة لجونه فى شعره ، حتى حبست معه فى

(١) الاغانى ٨ : ٦١ .

(٢) الاغانى ١٣ : ٧٠ .

(٣) المرجع نفسه .

حبس الزنادقة ، فإذا حماد عجرد إمام من أئمتهم ، وإذا له شعر مزاج بيتين بيتين ، يقرعون به في صلواتهم (١) .

ويروى الجهشيارى (٢) أن سليمان بن أبي جعفر قال عن أبي نواس في حضرة الأمين : إنه ثنوى . فسأل الخليفة : أيشهد عليه أحد بهذا فاستشهد سليمان بجماعة ذكروا أن أبا نواس وضع قدحا في يوم مطير فسقط فيه مطر كثير ، ثم شربه أبو نواس وقال : يزعمون أن مع كل قطرة ملكاً ، فكم ترانى شربت من الملائكة ؟ فحكم عليه الأمين بالحبس مع الزنادقة ، فقال في سجنه أبياتاً منها :

لا العذر يقبل لى فتقبل توبتى فيهم ولا يرضون حلف يمينى
أما الأمين فليست أرجو دفعه عنى ، فمن لى اليوم بالأمون

فبلغت أبياته المأمون ، فقال : والله لئن لحقته لأغنيته غنى لا يؤمله .
فمات قبل دخول المأمون مدينة السلام .

ويروى الجهشيارى (٣) أن السبب الحقيقى في غضب الأمين على أبي نواس قوله :

ولو لم أكل فضلا لكنت صيانتى
فمى عن جميع الناس حسبى من الفخر
فلا يطمعن في ذاك منى طامع
ولاصحاب التاج المحجب في القصر

وكان الزنادقة يدينون بما اعتنقوه ، فأفكارهم عندهم عقيدة ودين ، ومن أجل هذا كانوا يعترفون بها إذا سئلوا عنها ، وإن كان في ذلك

(١) الاغنى ١٣ : ٧١ .

(٢) الوزراء والكتاب ص ٢٤٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٤١ .

الاعترافِ حتفهم ، ولقد قُدِّم للمهدي يوماً زنديق فسأله المهدي فاعترف ، فاستتابه فأبى أن يتوب ، فضرب عنقه وأمر بصلبه (١) .

ويقول الجهشيارى (٢) : إن ممن يعتقد الزندقة قوما يرون أن جحد ما يدينون به محذور ، وأن التقية غير جائزة ، وقد اتَّهم يزيد بن الفيض كاتب المنصور بالزندقة في عهد المهدي فلما سئل أقر بالزندقة فحبس ، وهرب من الحبس فلم يتقدر عليه (٣) .

وكان المهدي أكثر الخلفاء العباسيين إيقاعاً بالزندقة وتعقباً لهم ، عين موطفاً خاصاً لهذا الغرض أسماه « صاحب الزنادقة » وممن شغل هذا المنصب عمر الكلوداني ثم محمد بن عيسى بن حمدويه الذي قَتَلَ من الزنادقة خلقاً كثيراً كما يقول ابن الأثير (٤) .

وقد أوصى المهدي ابنه الهادي أن يتعقب هذه الطائفة ، كما سبق ، وقد استجاب الهادي لوصية أبيه ، فكان شديداً عليهم ، كثير الطلب لهم ، لكن عهده كان قصيراً ، يروى أنه قال : لأقتلن هذه الفرقة ، وأمر أن يهيا له ألف جذع ، فمات بعد هذا القول بشهرين (٥) .

وكثيراً ما اتَّهم أناس بالزندقة للتكيد بهم دون أن يكونوا زنادقة ، أى أن الرمي بالزندقة اتَّخذ وسيلة للإيقاع بالأبرياء في كثير من الأحيان .

الخرمية :

وحول الزندقة تجمع أحياناً جماعات من المارقين ، وكونوا لأنفسهم مذهباً تعصبوا له ودافعوا عنه بقوة السلاح ، والخرمية أهم من يذكر في هذا الصدد . وفيما يلي كلمة عنهم وعن زعيمهم بابك الخرمي (٥٢٢هـ) .

(١) الطبرى ١٢ : ٤٢ .

(٢) الوزراء والكتاب ص ١٥٣ .

(٣) المرجع السابق ص ١١٦ .

(٤) الكامل في التاريخ ٦ : ٦٢ .

(٥) الاثير ٦ : ٣٥ .

تسمى هذه للطائفة « الخرمية » نسبة الى مدينة بفارس اسمها (خُرَّمَة) وقد تسمى « الحرّمية » بالحاء المهملة لأنها تحرّم القتل والغصب والحروب والمثلة (التكيل والتعذيب) ، وهذه الطائفة وَجِدَتْ قبل بابك بزمان طويل فهي امتداد لأفكار مزدك الذى تحدّثنا عنه ، وكانت تقول بالتناسخ ، وتغرى باللذات والانعكاف على الشهوات والاختلاط والمشاركة فى الحرّم والأهل ، ولكنها — كما سبق — تحرّم القتل والحروب والمثلة ، وفى عهد بابك أحلّ هذا ما حرّمته الحرّمية ، فأضاف الى القول بالتناسخ والإغراء باللذات ... القتل والغصب والمثلة ، ولذلك غلبت النسبة لهذه الطائفة بالحاء المعجمة لا بالحاء المهملة إذ لم يعد للتحريم مجال .

وقد انتهز بابك المشكلات التى سبقت عهد المأمون وعاصرت سنيه الأولى فظهر سنة ٢٠١ هـ فى أذربيجان وقوى أمره وعز جانبه حتى أوشك أن يعزل المقاطعات الفارسية عن العرب (١) ، وقد أرسل له المأمون عدداً من أكبر قواده . ولكنهم منوا بالهزائم المتعددة ، وأصبحت همذان وأصبهان تابعة له ، وتعاون بابك مع امبراطور الروم — على ما سيأتى — لإضعاف قوة المسلمين ، ومع أن المأمون أحرز فى أواخر أيامه بعض الانتصارات على بابك ، الا أن بابك لم تدمّر قوته الا فى عهد المعتصم ، وقد أوصى المأمون ولىّ عهده الجيد فى حرب بابك ، فاستعد المعتصم استعداداً كبيراً للقضاء على هذا الثائر العنيد ، وكان الأفشين آنذاك قائد جيوش المعتصم ، فاستطاع أن يثّرل ببابك الهزيمة الأخيرة سنة ٢٢١ هـ ، وأن يقبض على بابك وأخيه عبد الله وبعض آل بيته ، ويدخل بهم سامراً وهم أسرى مكبّلون ، وقتل بابك وصلّب بسامراً ، وقتل عبد الله وصلّب ببغداد ، وكان يوم الانتصار على بابك من أزهى أيام النصر التى شهدتها المسلمون .

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ٣٥ .

عواصم الخلافة العباسية

في هذا العصر

هناك عاصمتان رئيسيتان للعصر العباسي الأول هما : بغداد وسامراء
وهناك بجانبهما عواصم اتخذها العباسيون مراكز لسلطانهم قبل إنشاء
بغداد ، وسنمر بهذه مروراً سريعاً لنقف وقفة أطول مع العواصم
الرئيسية :

الكوفة :

كانت الكوفة هي العاصمة الأولى للخلافة العباسية ، فقد سبق
القول أن خلافتهم أُعلِنَتْ فيها ، ولكن العباسيين كانوا يعرفون أن
الكوفة وسوادها شيعية على* وولده (١) . وأنه ليس من الخير للعباسيين
أن يتخذوا عاصمتهم بين قوم لا يدينون لهم بالولاء ، ولا يكتثون لهم
للمحبة والإخلاص ، ولذلك سرعان ما تركوا الكوفة الى الحيرة .

الحيرة :

لم تكن الحيرة مكاناً يمكن أن يستقر به العباسيون ، ولم ينتقلوا
إليها إلا بدافع الرغبة في سرعة مغادرة الكوفة ، فلم تكن الحيرة في الحقيقة
إلا مكاناً مؤقتاً نزلوا به ليفكروا في اختيار عاصمة دائمة بحيث تكون
مكاناً أكثر صلاحية وأحسن مقاماً . وفي الحيرة استقر رأيهم على أن
يتخذوا الأنبار عاصمة للكهم .

الأنبار (الهاشمية) :

تقع الأنبار على بعد عشرة فراسخ من المكان الذي أنشئت فيه بغداد

(١) راجع خطاب محمد بن علي بن عبد الله لإمعاته حين أراد توجيههم الى
خراسان وقد سبق إيراده ص ٣١ .

فيما بعد ، وقد أسسها أحد ملوك الفرس ، فجدها السفاح وأسماءها الهاشمية وانتقل إليها ونقل إليها دواوينه ، وظل بها حتى مات .

وفي الهاشمية ثار الراوندية على المنصور ، وكان ذلك في اليوم الذي يطلق عليه « يوم الهاشمية » وقد سبق الحديث عنه عند الكلام على الراوندية . وبسبب قسوة هذا اليوم أدرك المنصور أن بقاءه في مدينة كهذه غير مأمون للعاقبة ، وتشاءم منها إذ كان على وشك أن يقتل فيها ، لذلك قرر أن يشيّد مدينة جديدة تحقق له الحماية ، وتصلح أن تكون عاصمة هذا الملك الكبير . ونشأت بذلك فكرة مدينة بغداد عروس الشرق .

بغداد :

نشأت في ذهن المنصور ورجاله صورة عن مكان ممتاز تقوم فوقه العاصمة الجديدة ؛ مكان طيب الهواء ، حسن الجو ، تحصنته الطبيعة ضد غارات المعتدين ، يسهل الاتصال بينه وبين أكثر بقاع الدولة الإسلامية ، وقد تحقق في بغداد كل ما يطلبه المنصور أو جلّته ، فهي على نهر دجلة ، وعلى صفحته تآتيتها الميرة والطرائف من الهند والسند والصين والبصرة والأهواز وواسط والموصل وديار بكر وربيعة ، ثم هي أقرب نقطة بين دجلة والفرات ، فتسهل الصلة بينها وبين البلاد الواقعة أيضا على الفرات والقرية منه وهذا المكان بين أنهار ، فلا يستطيع أن يصل إليه العدو إلا على جسر أو قنطرة ، فإذا قطعت الجسور وأثريلت القناطر تعذر على العدو أن يصل إليه ، والمكان وسط بين بلاد العرب والعجم (١) .

وقد تحقق المنصور بنفسه من توافر هذه المزايا في المكان الذي تقرر أن تقوم فيه عاصمة ملكه ، وشرع في إعداد للعدة ، ثم في التنفيذ ، يقول

(١) انظر لفظ بغداد في معجم البلدان لياقوت .



الخطيب البغدادي (١) « إن المنصور لما عزم على بناء بغداد أحضر المهندسين وأهل المعرفة بالبناء ، والعلم بالذرع والمساحة ، وقِسْمة الأرضين ، فمثّل لهم صفتها التي في نفسه ، وطلب منهم أن يتبعوا ذلك في بناء المدينة » ويكمل الطبري ذلك فيقول (٢) : إن المنصور لما عزم على بناء بغداد أحب أن ينظر إليها عياناً ، فأمر أن تخط بالرماد ، ثم دخل من وضع كل باب ، ومر في طرقات المدينة ورحابها ، وهي مخطوطة بالرماد ، ثم أمر أن يوضع على تلك الخطوط حب القطن ويصّب عليه النفط • وتوقد فيه النار ، فنظر إليه والنار تشتعل • وبذلك أمكنه الوقوف على رسم مدينته الجديدة • ولنعد الى الخطيب البغدادي (٣) الذي يقول :

- (١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٦٦ — ٦٧ .
- (٢) تاريخ الامم والملوك ج ٩ ص ٢٤١ .
- (٣) تاريخ بغداد ج ٦ ص ٥٧ .

« إن المنصور كتب إلى كل بلدة يأمر بإرسال من فيه ممن يفهم شيئاً في أمر البناء ، فتكامل له من الفعلة وأهل المهن والصناعات ألوف كثيرة » وعند ذلك أمر المنصور بحفر الأساس على الرسم • وكان ذلك سنة ١٤٥ هـ ، ورضع المنصور بيده أول أجره في بنائها وقال : باسم الله ، والحمد لله ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ثم قال : لبنوا على بركة الله (١) •

وكانت المدينة مدورة ومن أجل ذلك سميت « المدينة المدورة » وفي وسط الدائرة يقع قصر الخليفة المسمى « قصر الذهب » وجامع المنصور • ولم يكن حول هذين بناء إلا داراً بناها للحرس وأخرى بناها للشرطة ، وجعل حول ذلك منازل أولاده ، ثم قصور الأمراء ، وكبار رجال الدولة ، فدواوين الحكومة ، ثم دور الأهالي تتخللها الأسواق ، وكان هدف المنصور من اختيار هذا الرسم ألا يكون أحد أقرب إلى داره من الآخرين في درجته ، وأن يكون الخليفة في مكان حصين يحيط به حرسه وأصفياؤه فيأمن بذلك السوء ، وكان للمدينة أربعة شوارع رئيسية تمتد من وسط الدائرة إلى الأسوار ، ويتفرع من هذه الشوارع أخرى صغيرة تصل إليها •

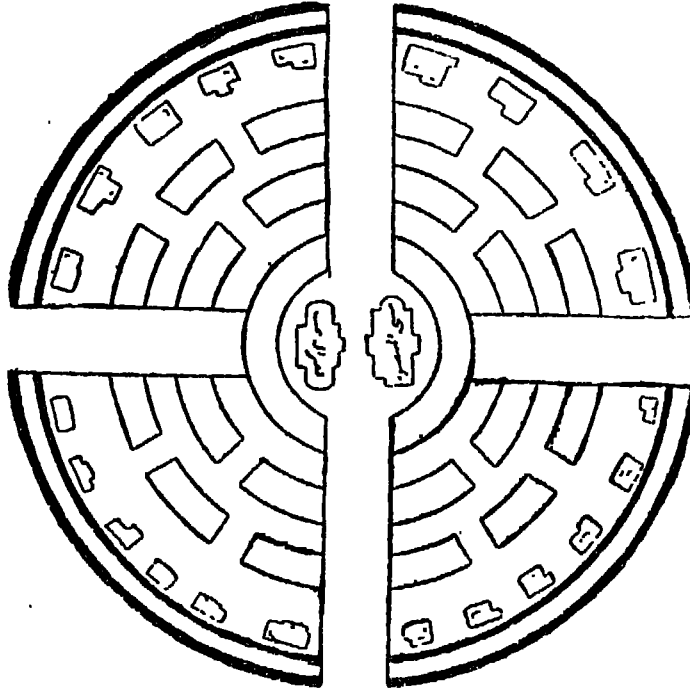
وأقيم للمدينة في أول الأمر سوران : قطر دائرة السور الداخلي مائتا ذراع وألف ذراع وارتفاعه خمسة وثلاثون ذراعاً وعرضه من أسفله عشرون ذراعاً ، أما السور الخارجي فعرضه من أسفله خمسون ذراعاً ، ومن أعلاه عشرون ذراعاً ، وارتفاعه ثلاثون ذراعاً (٢) • وعرض ما بين السورين مائة وسقون ذراعاً ، وفي كل سور أربعة أبواب ، تقابل الشوارع الأربعة الرئيسية ويتجه كل باب منها إلى جهة باسمها ، وهي باب الكوفة ، وباب البصرة ، وباب خراسان ، وباب الشام ، على

(١) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٣٨ — ٣١٠ •

(٢) ابن الأثير ٦ : ٢٠٨ •

كل باب قبة ذاهبة في السماء ، وعلى رأس كل قبة تمثال ، وبين كل قبتين ثمان وعشرون برجاً ، ثم إن المنصور أقام سوراً ثانياً داخلياً على النسق السالف زيادة في الأحكام (١) .

عدد الأيام



رسم تخطيطي لخطة بغداد عند إنشائها

وكان العمل في بناء بغداد قد توقف قليلاً في بادئ الأمر ، عندما ظهرت ثورة العلويين في المدينة ثم في البصرة ، فلما تمكن المنصور من قمع هاتين الثورتين استأنف العمل ، وقد تم بناء بغداد سنة ١٤٦ هـ ، فانتقل لها الخليفة ونقل لها جنده وخزائنه ودواوينه ، وظل العمل يسير في بناء الأسوار وإعداد الخندق حتى تم ذلك سنة ١٤٩ هـ (٢) .

وبلغت تكاليف نفقتها ٨٣٣٠٠٠ درهم (٣) واشتغل فيها عدد عظيم

(١) طه الراوي ، بغداد مدينة السلام ١١ — ١٢ .

(٢) الطبري ١ : ٢٤١ .

(٣) ابن الأثير ٥ : ٢١٣ .

من الفعلة والمهندسين والفضلاء ، ومن أبرز من عمل فيها الحجاج بن أرمطة الذي أسهم في تخطيط المدينة والإمام أبو حنيفة وكان يقوم بعدّ الأجر واللبن وابتكر للعد طريقة حديثة هي أن يعدّه بالقصب اختصاراً (١) .

ويروى ابن طباطبا (٢) أنه لما عظمت النفقة في بناء بغداد أشار أبو أيوب المورياني بهدم إيوان كسرى واستعمال أنقاضه ، فاستشار المنصور خالد بن برمك في ذلك فقال : لا تفعل يا أمير المؤمنين فإنه آية الإسلام ، فإذا رآه الناس علموا أن مثل هذا البناء لا يخضع أصحابه إلا أمر سماوى ، ثم هو مصلّى على بن أبى طالب عليه السلام ، والمؤونة في نقضه أكثر من نفعه . فقال له المنصور : أبيت يا خالد إلا ميلا إلى العجمية ، ثم أمر المنصور بهدمه ، فهدمت منه ثلثة ، فبلغت النفقة على هدمها أكثر مما حصّل منها . فأمسك المنصور عن هدمه وقال لخالد : قد صرنا الى رأيك وتركنا هدم الإيوان . فقال خالد : يا أمير المؤمنين ، أنا الآن أشير بهدمه لئلا يتحدث الناس أنك عجزت عن هدم ما بناه غيرك . فأعرض المنصور عنه وأمسك عن هدمه .

ولما تمت عمارة بغداد حفرت قناة للملاحة تأخذ ماءها من الفرات وتنشق العراق ، فوصلت بغداد بالفرات ، ومن ثم أصبحت العاصمة الجديدة على صلة نهريّة بآسيا الصغرى وسورية .

ولم يمض على إنشاء بغداد فترة طويلة حتى أصبحت عامرة زاخرة بالمدينة والعلم والفضل وتطلعت لها أنظار المسلمين ، وتسمعت لأخبارها آذان العالم ، واحتلت بغداد بسرعة مكان الصدارة في السياسة والنشاط الاجتماعى والعلمى فى الشرق الأوسط كله ، واحتفظت طويلا بمكانتها هذه على الرغم مما أصابها من هزات ، وما حل بها من محن وخطوب (٣) .

(١) الفخرى ١٣٩ — ١٤٠ ، أورد الخطيب البغدادي رتباً غير صحيح لتكاليف البناء ولكن الناشر صححه (انظر تاريخ بغداد ١ : ٦٩) .

(٢) الفخرى ص ١٣٤ — ١٣٥ .

(٣) Richard Coke : The city of pease p. 33.

وكان مولد بغداد في ساعة سعيدة تدعو للتفاؤل وتبشر بالخير ، فقد ر لها — فوق كونها عاصمة الامبراطورية الاسلامية الضخمة ، وأعظم مركز تجارى في مطلع العصور الوسطى — أن تصبح محط أنظار العالم كله في الثقافة والآداب ، ومقصد العباقرة والموهوبين الذين أخذوا يفدون لها من بقاع العالم الاسلامى الفسيح (١) .

الكرخ :

يعتبر الكرخ من ملحقات بغداد ، فقد حدث أن زار رسول ملك الروم الخليفة أبا جعفر المنصور ، فأمر هذا حاجبه الربيع بن يونس غطاف به المدينة ، فلما عاد قال له : كيف رأيت مدينتنا ؟ قال رأيت بناء حسناً إلا أنى رأيت أعدائك معك بالمدينة وهم السوق ، فالجواسيس يوافون من جميع الأطراف باسم التجارة ، والتجار هم بثرء الآفاق ، فيتجسسون الأخبار ويعرفون ما يريدون ثم ينصرفون من غير أن يعلم بهم أحد ، فلما انصرف الرسول أمر المنصور بإخراج الأسواق من بغداد وبنى لها مدينة الكرخ (٢) .

ويقول الخطيب البغدادي عن بناء الكرخ (٣) : إن المنصور وضع أساس الكرخ في الجهة الجنوبية بين الصراة ونهر عيسى ، ونقل إليها أسواق بغداد ، وأفرد لكل حرفة سوقاً خاصة ، ومن هذه الأسواق سوق العطارين وسوق الحدادين ، وسوق النجارين ، وسوق البزازين ، وسوق الرياحين (لبيع الأزهار) وسوق القصابين ، وقد قيل إن المنصور أمر بجعل هذه الأسواق في آخر الأسواق قائلاً : إنهم سفهاء وفي أيديهم الحديد القاطع . ثم أمر المنصور أن يبنى لهم مسجد بالكرخ يجتمعون فيه يوم الجمعة حتى لا يدخلوا المدينة (٤) .

(١) Ibid pp. 48-49.

(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٢١٣ ، ومعجم البلدان لياقوت

ج ٧ ص ٢٣٣ .

(٣) تاريخ بغداد ج ١ ص ٨٠ .

(٤) ياقوت : معجم البلدان ج ٧ ص ٢٣٤ .

الرصافة :

تقع الرصافة في الجانب الشرقي من بغداد ، ويروى ابن طباطبا قصة بنائها فيقول : كان الجند قد شغبوا على المنصور ، فقتل المنصور لقتلهم بن العباس بن عبيد الله بن العباس : ما ترى التياث الجند ؟ إني خائف أن تجتمع كلمتهم • فقال له : يا أمير المؤمنين ، الرأي أن تعبّر ابنك إلى الجانب الشرقي ، وتعبّر معه قطعة من العسكر ، وتبنى له مدينة ، فيصير هو في مدينة وعسكر بالجانب الشرقي ، وأنت بمدينة وعسكر بالجانب الغربي ، فإن رآبك حدث من أحد الجانبين استعنت عليه بالجانب الآخر • فقبل قوله وبني الرصافة (١) •

والتحق الناس بالرصافة وعمرها ، فصارت مقدار مدينة المنصور ، وعمل بها المهدي جامعا أكبر من جامع المنصور وأحسن ، وكان الفراغ من بنائه سنة ١٥٩ هـ وهي السنة الثانية من خلافة المهدي ، وفي الرصافة يقول علي بن الجهم •

عيون لها بين الرصافة والجسر

جكبن الهوى من حيث أدري ولا أدري (٢)

وصارت الرصافة المكان المختار لدفن الخلفاء فبنيت الثرب الجلية • ونقلت لها الفرش العظيمة ، وكانت في أيام بني العباس حرما إذا لجأ إليها خائف أمن • (٣) •

سامرا

يقال إن اسمها مأخوذ من « سمر » من رأى « وتقع على شرق نهر دجلة على بعد ثلاثين فرسخا (حوالي مائة كيلو متر) شمال بغداد ، وهي

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٥٠ — ١٥١ •

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ٢٥٤ •

(٣) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٥١ •

(م ١٥ — التاريخ الاسلامي ج ٣)

مدينة قديمة جددتها العباسيون وبخاصة هارون الرشيد الذي حفر نهرا عندها سماه الطاقول ، ثم بنى بها المعتصم قصرا وأهداه لأئسنائش .

وحدث أن بغداد ضاقت بالترك الذين استكثر منهم المعتصم ، فقد بلغ تعدادهم حوالى سبعين ألفا ، ومدوا أيديهم وأذاهم الى حرَم الناس ، وسعوا فى بغداد بالفساد ، وشكا الناس للخليفة ، وهدده الشيوخ بسهام السحر ، (بالدعاء عليه ليلا) فوطد العزم على الخروج بجنده من بغداد ، فاختر سامرا وبنى بها قصرا فخما له ، ومسجدا عظيما ، وبنى عساكره دورا حول قصره ، وانتقل المعتصم وقواده وجنده الى سامرا ، وظل بها المعتصم حتى مات ، وأقام بها الوائق حتى مات أيضا ، وتلاه المتوكل فأقام بها وبنى أبنية كثيرة فخمة ، كما بنى مسجدا أعظم عليه النفقة ، وجعل له منارة عالية لتعلو أصوات المؤذنين فيها ، وحتى يتنظر إليها من بعد ، وقد جمع الناس فى هذا المسجد وتركوا المسجد الأول ، وشق من دجلة قناتين تدخلان الجامع وتتخللان شوارع سامرا .

ومن أبنية سامرا الجليلة قصر المتوكل المعروف بالعروس ، وقد أنفق عليه المتوكل ثلاثين ألف ألف درهم ، والقصر المختار وقد بلغت تكاليفه خمسة آلاف ألف درهم ، والقصر الوحيد وتكاليفه ألف ألف درهم .

ولم ترك سامرا كل يوم فى صلاح وزيادة وعمارة منذ أيام المعتصم حتى آخر أيام المنتصر بن المتوكل ، فلما ولى المستعين وقويت شوكة الأتراك واستبدوا بالملك ، والتولية والعزل ، وفسدت دولة بنى العباس بدأت أحوال سامرا فى النقصان ، وبخاصة بسبب العصبية التى كانت بين الأتراك ، ولما جاء المعتضد انتقل من سامرا إلى بغداد فأذن ذلك بخراب سامرا ، وأسرعت للفناء ، حتى أصبحت تستوحش الناظر إليها بعد أن لم يكن فى الأرض كلها أحسن منها ولا أجمل ولا أعظم ولا آنس

ولا أوسع ملكاً فسبحان من لا يزول ولا يحول (١) .

ومن أهم المعالم التي لا تزال موجودة بسامرا موضع المشهد الذي تزعم الشيعة أن به سرداب القائم المهدي ، وقد زرتُ أنا هذا المكان سنة ١٩٥٠ ، فنزلت درجا ضيقا مظلماً حتى انتهيت إلى حجرة قائمة يجلس بها بعض الشيوخ أمام فوهة مغطاة ، وانطلق شيخ يشرح غيبة المهدي في هذا السرداب وأنه سيخرج منه . ولكن مرافقتي — وكان من الرسميين المعروفين بالعراق — نبّه الشيخ إلى أنني موفد من قبل جامعة القاهرة لزيارة العراق ، فتأسف الشيخ لما بدر منه من شرح أعدّه للعامة ، وسكت عن الكلام عن الإمام والغيبة والعودة ، وانتقلنا إلى حديث آخر .
ياله من تضليل للعامة يسأل عنه الخاصة أمام الله .

وقد أورد كارل بروكلمان وصفاً دقيقاً لسامرا ، وعنى بوجه خاص بفن العمارة فيها ، ونحن نقتبس منه بعض دراساته عنها :

أنشأ المعتصم قناتين من نهر دجلة ، خلعتا على المدينة الجديدة — بالإضافة إلى النهر نفسه — منعة الحصن البحري ، وقد اعتمد المعمارون المسلمون في أبنية سامرا على نماذج فهلوية ، فقصر الخليفة المتوكل كان على طراز قصور المدائن الفهلوية من حيث التصميم ، ومئذنة الجامع الكبير كانت على طراز الأبراج البابلية ذات السلالم الخارجية الملتوية (٢) .

ونرى أنه من الممكن أن نوافق على أن المماريين المسلمين انتفعوا بالجهود المعمارية التي كانت قبل الإسلام ، ولكن الذي لا شك فيه أن العمارة في الإسلام كانت بها ابتكارات جعلت لها طابعاً إسلامياً خاصاً .

(١) هذه المادة خلاصة ما ذكره ياقوت عن سامرا (انظر معجم البلدان ج ٥ ص ١٢ — ١٩) وانظر كذلك الفخرى لابن طباطبا ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .
(٢) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ٤٩ — ٥٠ .

النهضة الثقافية (*)

مقدمة :

صور Professor Nicholson النشاط العلمي في العالم الإسلامي تصويراً دقيقاً يحسن أن نقتبس منه السطور التالية ، لتكون مطلع حديثنا عن النهضة الثقافية في هذا العصر ، قال : كان جلة الباحثين وطلاب العلم من المسلمين يرحلون في حماس ظاهر وسط للقارات الثلاثة (وهي عالم ذلك العصر) ثم يعودون الى بلادهم ، كما يعود النحل محملاً بالعسل الشهي ، فيجلس هؤلاء الباحثون ليرووا شغف الجماهير التي كانت تنتظر عودتهم لتلتف حولهم ، فينالوا من علومهم ومعارفهم زادا وفيراً ، وخيراً عميماً ، كما كان هؤلاء للباحثون يعكفون أحياناً على تدوين ما جمعوا وما سمعوا ، ثم يخرجون للناس كتباً هي بدوائر المعارف أشبه ، مع نظام وبلاغة عذبة ، وهذه الكتب هي المصادر الأولى للعلوم الحديثة بأوسع ما تحتمله كلمة العلوم من معنى ، وهي مرجع العلماء والباحثين ، ومنها يستمدون فنونا من الثقافة والمعرفة أعمق بكثير مما يظن الناقدون (١) .

ومن الطبيعي أن يكون العصر العباسي الأول أنسب العصور لملاءمة للنهضة الثقافية ، فمدنيّة الإسلام بدأت فيه تستقر بعد هدوء حركة التوسع والفتوح التي كانت طابع للعصر الأموي ، والثقافة تنتشر في الأمة إذا هدأت ، واستقرت أمورها ، وانتظم ميزانها الاقتصادي ، وجلّ هذا قد توافر للأمة الإسلامية بعد قيام الدولة العباسية ، وتمكّن السفاح

(*) المؤلف كتابان جديران بالذكر هنا ، هما .

١ — تاريخ التربية الإسلامية .

٢ — الفكر الإسلامي : منابعه وآثاره (مترجم عن الانجليزية) .

نفى هذين الكتابين حديث واسع عن النهضة الثقافية وجهد المسلمين لخدمتها ، فليرجع اليهما من أراد مزيداً من الدراسة والبحث .

A Literary History of the Arabs p. 281.

(١)

وللمنصور من تثبيت الدولة ، والضرب على أيدي أعدائها ، وما إن تمَّ النصر الحربى حتى أفسح رجل الحرب الطريق لرجال الإدارة والمسال والقانون والآداب ، فظهر فى ذلك العصر نخبة من الشعراء والفلاسفة والمؤرخين والرياضيين ورجال الدين ، وقادة الفكر الذين أكسبوا اللغة العربية أغنى وأبرز تراث أدبى حظيت به (١) .

وكانت النهضة العلمية فى ذلك العصر تتمثل فى ثلاثة جوانب :

• (١) حركة التصنيف

• (٢) تنظيم العلوم الإسلامية

• (٣) الترجمة من اللغات الأجنبية

وهاك حديثاً قصيراً عن كل جانب من هذه الجوانب :

١. — حركة التصنيف :

مرت حركة كتابة الكتب بمراحل ثلاثة ينبغى أن يمتاز كل منها عن الآخرين .

المرحلة الأولى وهى أدناها وأيسرها ، عبارة عن تقييد الفكرة أو الحديث أو نحو ذلك فى صحيفة مستقلة أو مع غيرها .

والمرحلة الثانية وهى أوسطها شرفاً عبارة عن تدوين الأفكار المتشابهة أو أحاديث الرسول فى ديوان واحد ، فهنا أحكام فقهية جمعت فى ديوان ، أو مجموعة من الأحاديث ، أو أخبار تاريخية وهكذا .

أما المرحلة الثالثة وهى أشرفها فهى مرحلة التصنيف وهى أدق من التدوين ، لأنها ترتب ما دون وتنظيمه ووضعه تحت فصول محددة

وأبواب مميزة •• قال الزبيدي (١) : « وصنفه تصنيفا جعله أصنافا : وميز بعضها عن بعض ، قال الزمخشري ومنه تصنيف الكتب (٢) • وهذه المرحلة وصل لها المسلمون في العصر العباسي الأول ، وكان الأئمة قبل ذلك يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف غير مرتبة ، حتى سنة ١٤٣ هـ إذ شرع العلماء المسلمون في تصنيف الحديث والفقه والتفسير وكتب العربية والتاريخ وأيام الناس ، ومن أشهر المصنفين في هذا العصر مالك للذي ألف الموطأ ، وابن إسحاق الذي كتب السيرة ، وأبو حنيفة الذي صنف الفقه والرأى (٣) • ويرجع الى أبي جعفر المنصور الفضل في توجيه العلماء هذا الاتجاه ، وقد كان المنصور كما يقول السيوطي (٤) كامل العقل ، جيد المشاركة في العلم والأدب ، فقيها تلقى العلم عن أبيه وعن عطاء بن ياسر ، ويروى أنه قابل الإمام مالكا في موسم الحج ، وفاتحه في مسائل كثيرة من العلم ، ثم قال له :

يا أبا عبد الله لم يبق في الناس أفقه مني وهناك : وإني قد شغلتنى الخلافة ، فاجمع هذا العلم وكونه ، ووطنه للناس توطئه ، وتجنب فيه شذائد عبد الله بن عمر وورخص عبد الله بن العباس ، وشواذ عبد الله بن مسعود ، واتصد الى أوسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابه رضى الله عنهم •

فاعتذر مالك : فلم يقبل المنصور منه ، فوضع مالك « كتاب الموطأ » وأثر عن مالك قوله : والله لقد علمنى المنصور التصنيف (٥) • ويقول حاجي خليفة (٦) : « واختلف في أول من صنف فقيل للإمام

(١) تاريخ العروس ٦ : ١٦٨ •

(٢) انظر تصدير الاستاذ يوسف العش لكتاب « تقييد العلم » للخطيب البغدادي ص ٨ •

(٣) الذهبي . دول الاسلام حوادث سنة ١٤٣ ، والسيوطي . تاريخ الخلفاء ١٠١ — ١٠٢ •

(٤) تاريخ الخلفاء ص ١٠١ •

(٥) أحمد زكي صفوت : العلوم والمعارف في العصر العباسي ٣ — ٤ •

(٦) كشف الظنون ١ • ٢٦ •

عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج البصري (١٥٥هـ) وقيل أبو النصر سعيد بن عروبة (١٥٥هـ) وقيل ربيع بن مسعود بن صبيح (١٦٠هـ) ومن مشاهير من عملوا بالتصنيف في هذا العصر معمر بن راشد (١٧٩هـ) وسفيان الثوري (١٦١هـ) ومالك بن أنس (١٧٩هـ) وعبد الله بن مبارك (١٨١هـ) (١) .

وسواء أكان هذا أول من صنف أو ذاك فإن المتفق عليه أن هذا العصر هو عصر التصنيف ، وأن النضج العلمي الذي ينشأ عن طبيعة التطور ، بالإضافة إلى الاتصال بالنتاج الأجنبي الذي كان قد وصل إلى درجة كبيرة من دقة التأليف والتنظيم قد كانا من أهم الأسباب التي نقلت النتاج في البلاد الإسلامية من التدوين إلى التصنيف ، ولسنا في حاجة إلى القول بأن حركة التصنيف لم تتوقف بعد ذلك، بل سارت قدماً وأخذت طريقها نحو مزيد من الدقة وحسن الترتيب .

٢ - تنظيم العلوم الإسلامية

العلوم الإسلامية هي هذه الطائفة من العلوم التي نبتت من طبيعة الحياة الإسلامية ، وهي التي تتعلق بالدين ولغة القرآن ، ويطلق عليها بعض المصنفين « العلوم النقلية » ، إذ أن الباحث فيها ليس له إلا أن ينقل ويروي ، فالمرس والمحدث ليس لهما إلا أن يرويا ما تلقياه عن طائفة عن أخرى مرفوعة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وليس للغوي إلا أن ينقل اللغة من العرب الخلف ، أو عن سماع منهم مباشرة أو بواسطة .

ولكن تسمية هذه العلوم بالعلوم النقلية في هذا العصر العباسي لم تعد تسمية دقيقة ، ذلك لأن علماء هذا العصر استباحوا لأنفسهم أن يعتمدوا على العقل والمنطق في التدليل على ما يذهبون إليه ، فأصبح المحدث يحكم على هذا الحديث أو ذاك بأنه موضوع لأنه يخالف العقل

(١) انظر أيضاً الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد : ١٠ : ٤٠٠ و ١٤ :

والفكر الاسلامي ، وأصبح يفتى في مسألة فقهية لم يرد فيها نص صريح
باجتهاده وتفكيره ، وإن خالف في ذلك من سبقوه من المجتهدين ، وأصبح
أحيانا يتوكل النص للتوفيق بين طوائف النصوص التي يظهر فيها شيء من
الاختلاف ، وأحيانا يحكم بغير ما سجله النص اعتماداً على أن النص روعيت
فيه حالة خاصة . ومن أجل ذلك آثرت أن أطلق على هذه العلوم « العلوم
الإسلامية » وما يؤيد اتجاهي أن علم الكلام محدود ضمن هذه العلوم ،
والمفكرون — كما يقول الأستاذ أحمد أمين (١) — أظهر عنصر عقلي في
الحركة العلمية . وهم لا يميلون كثيراً الى المنقول ، ولا يثقون بكل ما فيه ،
شكاً المحدثين وغيرهم به ، وكانت لهم مذاهب مقررّة في العدل والتوحيد
وصفات الله وأفعال العباد ونحو ذلك ، تثبتت لهم ببحثهم .

والعلوم الإسلامية تدين للعصر العباسي الأول بما وصلت إليه من
دقة وتنظيم ، وهناك الحديث عن بعضها ، وعمّا نالته من تطور في هذه
الفترة من التاريخ :

التفسير ومولده وقضله عن الحديث :

يمكن القول إن هذا العصر شهد ميلاد علم تفسير القرآن ، وفصله
عن علم الحديث . . . أما ميلاد علم تفسير القرآن ، فلأن ما سبق
هذا العهد لم يكن تفسيراً للكتاب المنزل كله ، ولا لبعضه مرتباً وإنما كان
تفسيراً لبعض آيات من هنا ومن هناك ، وعن لغرض معين ، أو يختلف
الناس في معناها ، أما في العصر الذي نتحدث عنه ، فقد تطور التفسير
تطوراً عظيماً ، وأصبح متسلسلاً شاملاً ، يحكى ذلك ابن النديم بقوله :
« إن عمر بن بكر كان منقطعاً إلى الحسن بن سهل ، فكتب الى الفرّاء :
إن الأمير الحسن بن سهل ربما سألني عن الشيء بعد الشيء من القرآن ،
فلا يحضرني فيه جواب ، فإن رأيت أن تجمع لي أصولاً ، أو تجعل في
ذلك كتاباً أرجع إليه ، فعلت » فقال الفرّاء لأصحابه : اجتمعوا حتى

(١) ضحى الاسلام ج ٢ ص ١٤٦ — ١٤٧ .

أُملَى عليكم كتاباً في القرآن ، وجعل لهم يوماً ، فلما حضروا ، خرج إليهم وكان بالمسجد رجل يؤذن ، وهو من حَفَظ القرآن ، فالتفت إليه الفراء وقال له : اقرأ بفاتحة الكتاب ، فقرأ ، ففسرها الفراء ، ثم لستوفي الكتاب كله : يقرأ الرجل ويفسر الفراء ، قال أبو العباس : لم يفعل أحدٌ قبله مثله : ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه « (١) » وكان هذا أول تفسير للقرآن كله مرتباً على حسب ترتيب الآيات ، وكان فاتحة لمن جاء بعد ذلك ، ليسلكوا هذا الطريق ، حتى جاء الطبري الذي حشد في تفسيره كل اللزايا التي سبقه بها أسلافه .

أما فصل التفسير عن الحديث فقد ظهر في هذه الفترة أيضاً ، فقد كان المسلمون قبل ذلك يفسرون آيات القرآن بأحاديث للرسول أو بأقوال التابعين ، فلما كان العصر العباسي الزاهر ، استقلَّ تفسير القرآن ، وأصبح كثيرٌ من المفسرين يلجئون في تفسير القرآن إلى اجتهادهم هم مستعينين أحياناً بحديث للرسول ، أو بقول تابعي ، أو شعر عربي ، والمهم أن صلب التفسير أصبح كلام المفسر لا روايات أو أخباراً ينقلها دون أن تبرز شخصيته فيما يدوّن . وقد مال المعتزلة بوجه خاص إلى استعمال العقل في التفسير (٢) كما فعل الجاحظ في قوله تعالى « إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ، طلعتها كأنه رءوس الشياطين » (٣) إذ قال في تفسير ذلك : إن الناس لم يروا شيطاناً قط على صورة من الصور ، ولكن لما كان الله قد جعل في طباع جميع الأمم استقباح صور الشياطين واستسماجها وكراميتها ، وأجرى على ألسنة الناس جميعهم ضرب المثل في ذلك ، رجع بالإيحاش والتفجير والتفريع إلى ما قد جعله الله في طباع

(١) الفهرست ص ٦٦ طبعة أوربا .

(٢) اقرأ في هذا الموضوع « المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن ، لجولدزهر ، ترجمة الدكتور علي حسن عبد القادر .

(٣) سورة الصافات : الآيتان ٦٤ و ٦٥ .

الأولين وعند جميع الأمم (١) ... وهذا التشبيه أوضح من قول من زعم من المفسرين أن رموس الشياطين نبات ينبت باليمن •

وإذا كان المعتزلة قد اتجهوا بالتفسير هذا الاتجاه فإن علماء الفقه قد اهتموا في تفسيرهم للقرآن باستنباط الأحكام منه ، واهتم اللغويون بغريب القرآن ، واستنبط النحويون من القرآن قواعد النحو ، وأخذ المؤرخون من القرآن الكريم أخباراً توضح السيرة النبوية بوجه خاص وسير الأنبياء السابقين والشعوب بوجه عام ، ووجد دارسو الحضارة الإسلامية في القرآن الكريم أهم عناصر الفكر الاسلامي في السياسة ، والاقتصاد ، والحياة الاجتماعية ، وغيرها ، وهكذا • فكان القرآن قاسماً مشتركاً ، تلجأ اليه الطوائف الثقافية المتعددة لتجد فيه زادا يغذي النفس غذاءً روحياً ، ومثونة تمد العلوم المختلفة بالخير الوفير •

الفقه ومذاهبه :

من مفاخر هذا العصر أنه عاش فيه أئمة الفقه الأربعة وهم أبو حنيفة (١٥٠ هـ) ومالك (١٧٩ هـ) والشافعي (٢٠٤ هـ) وأحمد بن حنبل (٢٤١ هـ) • وهؤلاء الأئمة هم بلا منازع أكبر أئمة الفقه في العالم الإسلامي ، ومذاهبهم هي أشهر وأوسع المذاهب انتشاراً حتى العهد الحاضر •

مدرسة الرأي ومدرسة الحديث :

وهناك طريقتان في التشريع تستحقان بعض العناية ، وهما طريقة أهل الرأي وطريقة أهل الحديث ، فالطريقة الأولى تعتمد على استنباط حكم ما من النصوص المأثورة إذا لم يرد لهذا الحكم نص صريح ، وسُمِّي هؤلاء بأهل الرأي لإتقانهم معرفة الحلال والحرام وقدرتهم على استخراج المعاني من النصوص لبناء الأحكام ، ودقة نظرهم في النصوص ، وكثرة

(١) كتاب الحيوان ج ٤ ص ٣٩ — ٤٠ ، وانظر كذلك الكامل للبرد ج ٢ ص ٢٩ •

(٢) انظر تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ١٤١ •

تفريعيهم عليها • وأما طريقة أهل الحديث فهي التمسك بالحديث والعمل بالنص وحده ، فهم يريدون أن يرجعوا الفقه كله الى الرسول ويرفضون الأخذ بالرأى (١) •

وقد لُتجه زعماء مدرسة العراق الى الأخذ بالرأى لقلة الأحاديث المعتمدة عندهم ، ولخوفهم أن يكون الحديث موضوعاً ، مما جعلهم يتهيجون لأحديث ، ويستسهلون الرأي الذي يعتمد على الفكر والمنطق ، وعلى نصوص القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه •

أما أهل المدينة موطن للرسول فقد كثرت عندهم الأحاديث لكثرة من يحفظها هناك ، فأغنتهم الأحاديث عن استعمال الرأي والقياس ، وكانوا يرون في الاعتماد على هذه الأحاديث منجاة لهم من الزلل ، ومن أجل هذا كان الواحد منهم يحيل السائل الى سواء من العلماء لعله يجد عند هذا أو ذاك حديثاً يفتى به ، وبينما كان أهل المدينة يتحررون هكذا من استعمال الرأي كان أهل العراق لا يكتفون بالاجتهاد في المسائل التي يُسْتَفْتَوْنَ فيها ، بل كانوا يفترضون الفروض ليبحثوا ويجتهدوا ، كمافترضهم أن يطلق رجل امرأته نصف تطلقه ، أو يحلف بالطلاق أن زوجته أجمل من القمر ، وهكذا مما يدل على سعة الهوة بين المدرستين ، غير أن هذه الهوة لم تستمر طويلاً ، إذ أن الرحلات لتلقى العلم قاربت بين وجهتي النظر • فأخذ المحدثون معهم الحديث الى العراق ، كما أخذ العراقيون معهم فتاواهم وآراءهم الى المدينة ، ثم رحل عدد من كبار الأئمة كمحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ، الذي رحل الى المدينة وقرأ موطأ مالك ، وكالشافعي الذي رحل الى العراق وإلى المدينة فنال من هذه ، ومن تلك •

(١) على حسن عبد القادر : نظرة عامة في تاريخ الفقه الاسلامي

ليعوضها ما فقدته ، وبهذا يصير أنايا مَبْغُضًا غيره ، كما تؤدي به هذه الظروف في الغالب الى أن يكون عصيبا ثوريا ، ثم إن حرمان الطفل من يحميه ويقيه ، يجعله يحس بأنه مهدد ، عُرْضةٌ لعدوان الآخرين ، ومن هنا ينظر للعالم نظرة عدائية وتشب فيه هذه الخصلة فيتصدى للناس ويعاديهم :

الربيع بن يونس وابنه الفضل في ضوء الدراسات النفسية :

تلك خلاصة الفكرة التي أوضحها Hadfeild وهي — مع ما سبقها — تخضع أيدينا على العلة في نفس الربيع بن يونس ، هذه العلة التي ورثها عنه ابنه الفضل ، وهاك عن هذا بعض البيان :

لقد كانت طفولة الربيع بائسة حقاً • طفولة تعسة شقية ، فهو كما يقول الأصفهاني (١) نقلاً عن آل أبي فروة : « لقيط ، وَّجِدَ منبوذاً ، فكفله يونس بن أبي فروة » أما الجهشياري فيروي رواية أخرى في ذلك الموضوع وهي : كان يونس بن أبي فروة شارباً شاطراً بالمدينة (٢) • فعلق أمةً لقوم بها ، فوقع عليها ، فجاءت بالربيع واستعبد الربيع ، ولم يكن ليونس من الأقرباء من بيتاع الربيع ، فابتاعه زياد بن عبد الله الحارثي خال أبي الجباس السفاح (٣) •

ويتحدث الربيع عن نفسه فيقول : كنت في خمسين وصيفاً أهدوا للمنصور ، ففرقتنا في خدمته ، فصرت الى ياسر صاحب وضوئه أعاونه في عمله (٤) •

(١) الاغتني ١٧ : ١٢١ •

(٢) شاربا : نسبة الى الشراة وهم الخوارج : وشاطرا : نسبته الى الشطار وهم جماعة كانوا يقومون بأعمال السلب السريع •

(٣) الوزراء والكتاب ص ١٢٥ •

(٤) الاغتني ٦ : ٨٢ •

أبو جعفر الرؤاسي (١) والكسائي (١٨٢ أو ١٨٣ أو ١٨٦ هـ كما ذكره ابن خلكان ج١ : ص ٣٣١ أو ١٨٩ هـ كما ذكره غيره) والفراء (٢٠٨ هـ) ، ولا نزاع أن من يطلع على هذه الأسماء يدرك أننا حتى الآن نعتمد في الدراسات النحوية على النتائج والأفكار التي ظهرت في هذا العصر الزاهر .

وكانت مدرسة البصرة تختلف اختلافاً بيّناً عن مدرسة الكوفة ، فالأولى كانت تُعنى بوضع قواعد أساسية للغة العربية تبعاً لأغلب ما ورد عن العرب ، فإذا ظهر ما يخالف هذا الغالب عدّوه شاذّاً ، فإذا ثبتت صحته قالوا يحفظ ولا يقاس عليه ، وربما ضعّفوا قائله أو خطّوه ، وقد ترجم ابن خلكان لعيسى بن عمر الثقفي أحد زعماء هذه المدرسة وأول من ألف في النحو بعد أبي الأسود الدؤلي (٦٧ هـ) وتتضح من هذه الترجمة قيمة النتائج العلمي الذي وضع في هذا العصر ، كما تتضح منها الأسس التي قامت عليها مدرسة البصرة ، قال ابن خلكان (٢) ولعيسى بن عمر كتاب في النحو سماه الجامع ، يقال إن سيبويه أخذه وبسّطه وحشّاه عليه من كلام الخليل وغيره ، ولما كمل البحث والتحشية نسب إلى سيبويه ، وهو كتاب سيبويه المشهور ، والذي يدل على صحة هذا القول أن سيبويه لما فارق عيسى بن عمر ولازم الخليل بن أحمد ، سأله الخليل عن مصنّفات عيسى ، فقال سيبويه : صنّف نيفاً وسبعين مصنفاً في النحو ، وأن بعض أهل اليسار جمعها ، وأتت عنده عليها آفة ، فذهبت ولم يبق منها في الوجود سوى كتابين أحدهما اسمه الإكمال ، وهو بأرض فارس عند فلان ، والآخر للجامع وهو هذا الكتاب الذي أشتغل فيه ، وأسألك عن غوامضه ، فأطرق الخليل ساعة ، ثم رفع رأسه وقال : رحم الله عيسى وأنشد :

(١) لم أجد تاريخ وفاته في بغية الوعاة ولا غيره من المراجع التي تمكنت من الحصول عليها ، وهو على كل حال أستاذ الكسائي (١٨٢ هـ) والفراء (٢٠٨ هـ) .

(٢) وفیات الاعيان ١ : ٣٩٣ — ٣٩٤ .

ذهب النحو جميعاً كله غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع وهما للناس شمس وقمر

ويقال إن أبا الأسود الدؤلى لم يضع في النحو إلا باب الفاعل
والمفعول فقط وأن عيسى بن عمر وضع كتاباً على الأكثر (أى تبعاً لغالبية
ما ورد عن العرب) وبوجهه وهذبه ، وسمى ما شذء عن الأكثر لغات ،
وكان يطعن على العرب ، ويخطئ المشاهير منهم مثل النابغة وغيره .

وقد بدأت مدرسة الكوفة متأخرة عن مدرسة البصرة ، بل إنها
تفرعت عنها ، ومثشتها أبو جعفر الرؤاسي ، وقد احتضنها الخلفاء
العباسيون وقربوا زعماءها ، وكان التنافس على أشده في عهد الرشيد
بين سيبويه والكسائي اللذين انتهت إليهما رئاسة المدرستين في ذلك
الحين ، ويذكر ابن خلكان قصة المناظرة التي حدثت في مجلس الرشيد بين
سيبويه والكسائي والتي زعم الكسائي فيها أن العرب تقول : كنت أظن
الزنبور أشد لسعاً من النحلة فإذا هو إياها ، فقال سيبويه : بل الصحيح
فإذا هو هي ، ففتشاجرا طويلاً ، واتفقا على مراجعة عربى خالص ،
فاستدعى الأمين عربياً وسأله ، فقال كما قال سيبويه . فقال له : نريد
أن تقول كما قال الكسائي ووعدته بجائزة ، فقال العربى : إن لسانى لا
يطاوعنى ، فقررروا أن شخصاً يقول : رأى سيبويه كذا ورأى الكسائي
كذا فالصواب مع من ؟ فيقول العربى : مع الكسائي . فقال
العربى : هذا يمكن . وعقِدَ المجلس وسئل العربى فأجاب : مع الكسائي
وهو كلام العرب ، فعلم سيبويه أنهم تماثلوا عليه ، وتعصبوا للكسائي
فخرج من بغداد (١) .

وكانت الأسس التي راعتها مدرسة الكوفة أيسر كثيراً من تلك التي
تمسكت بها مدرسة البصرة ، فقد كان الكوفيون يقبلون كل ما نطق به

(١) وفيات الاعيان ١ : ٣٨٥ — ٣٨٦ .

عربى ، ويتخذونه على أنه اتجاه عربى تجوز محاكاته ويرتبون عليه القواعد ،
روى لهم قول الشاعر :

✽ ياليت عدة حول كلّه رجب ✽

فأجازوا لذلك أن تؤكد النكرة بالمعرفة إذا كانت النكرة مؤقتة ،
وقاسوا على ذلك جواز قولك ، صمت شهراً كلّه وتهجدت ليلة كلّها ،
أما البصريون فطعنوا أولاً فى نسبة الشطر الى عربى أصيل ، وثانياً قالوا :
إذا صحّت نسبة هذا الشطر الى عربى فهو شاذ لا يقاس عليه (١) ،
وهكذا نشأت مسائل خلافية بين البصريين والكوفيين ، جمع ابن الانبارى
كثيراً منها فى كتابه « الإنصاف فى مسائل الخلاف » .

هذا وقد كانت الكوفة والبصرة مثلاً واضحاً للعصبية البلدية التى
حلت محلّ العصبية القبلية التى كان يدين بها العرب من قبل .

التاريخ ومولده :

كما كان الحديث أباً لعلم التفسير كذلك كان أباً لعلم السيرة ، فقد
كان الصحابة والتابعون يروون الأحاديث عن مولد الرسول ، ورضاعته
ونشأته ، وشبابه ، وبعثته ، وما عاناه فى مكة ، وكيف استقبل فى المدينة ،
وكذلك كانوا يروون الأحاديث المتعلقة بغزواته ، وباستعداده لنشر الإسلام
فى خارج جزيرة العرب ، ولما صُنِفَت الأحاديث وضعت الأحاديث المتعلقة
بسيرة الرسول وغزواته تحت عنوان خاص هو « باب المغازى والسير »
ولا يزال هذا الباب موجوداً فى أشهر كتب الحديث كالبخارى ومسلم
مع بعض الاختلاف فى التسمية . وكان هناك من الصحابة والتابعين من
يهتم اهتماماً خاصاً بهذا النوع من الحديث ، ومن هنا نبتت فكرة استقلال
علم السيرة عن الحديث . فلما جاء عصر التدوين فى العصر العباسى الأول ،

(١) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ج ٢ ص ٢٩٥ — ٢٩٧ .

كانت هذه الفكرة قد قويت ووجدت من ينفذها تنفيذاً علمياً دقيقاً ، وهو محمد بن إسحق (١٥٢ هـ تقريباً) وكتابه في السيرة أقدم كتاب نعرفه في هذا الموضوع ، وقد وصلنا هذا الكتاب بعد أن اختصره ابن هشام (٢١٨ هـ) في كتابه المعروف بسيرة ابن هشام .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعد العدة لنشر الإسلام في خارج جزيرة العرب عن طريق الكتب والبعض ، ولكن السياسة السلمية لنشر الإسلام لم تتجح ، واعتدّى على بعض المبعوثين بالأيذاء والقتل فأعدّ الرسول العدة للثأر ، ولتقويض القوى الغاشمة التي تقف حائلاً بين الدعوة وبين الشعوب المغلوبة على أمرها على حدود جزيرة العرب ، وكان ككتاب السيرة قد كتبوا ذلك ضمن ما كتبوه عن سيرة الرسول (١) ولكن روح الرسول صلى الله عليه وسلم سعدت للرفيق الأعلى قبل أن يتم هذا ، فأتته بعده أبو بكر وعمر ، ومن هنا اتجه كتاب السيرة للى وصل سيرة الرسول بسيرة من جاء بعده من الخلفاء لأنهم قاموا بإكمال ما بدأه ، وأصبح يطلق على هذا النتاج الجديد كلمة « التاريخ » . ومن أشهر من صنفوا فيه في عصرنا هذا للعلامة محمد بن عمر الواقدي (٢٠٧ هـ تقريباً) فقد ألف كتاب التاريخ الكبير الذي اعتمد عليه الطبرى كثيراً حتى حوادث سنة (١٧٩ هـ) أما الكتاب نفسه فلم يصبح وروده لنا ، وللواقدي كتاب آخر يعرف بالمغازي وهو بين أيدينا ، وليس هذا هو كل ما وصل لنا من علم الواقدي ، فإن علمه قد جاءنا عن طريق شخص آخر من مؤرخي هذا العصر أيضاً وهو كاتبه محمد بن سعد (٢٣٠ هـ) الذي كانت شهرته « كاتب الواقدي » وقد خلف لنا محمد بن سعد كتابه القيم « الطبقات الكبرى » وهو في ثمانية أجزاء يتحدث في الجزء الأول والثاني عن سيرة الرسول وفي الأجزاء الستة الباقية عن أخبار الصحابة والتابعين ، ومحمد بن سعد هذا هو أحد شيوخ العلامة البلاذري (٢٧٩ هـ) .

(١) انظر بعث الرسول لاسامة بن زيد ليثار لوالده في ابن هشام ج ٣

٣ — الترجمة من اللغات الأجنبية

كانت النهضة الفكرية عند المسلمين في هذا العصر (٧٥٠ — ٨٤٨ م) تعتمد اعتمادا ملحوظا على نشاط واسع في للترجمة من السنسكريتية واليونانية ، ففي سنة ٧٦٢ م وضع المنصور حجر الأساس لعاصمته الجديدة (بغداد) وجمع حوله فيها صفوة العلماء من مختلف النواحي ، وشجع على ترجمة كتب العلوم والآداب من اللغات الأخرى الى اللغة العربية ، فاستجاب كثير من الباحثين لهذه الرغبة ، ودفعهم التشجيع الأدبي للإجادة والإكثار ، ومن أبرز هؤلاء عبد الله بن المقفع (٧٥٧ م) الذي كان مجوسيا ودخل الإسلام ، وأشهر ما ترجمه كتاب (كليلة ودمنة) ، وقد وضع الأصل بالسنسكريتية ، ثم ترجم إلى الفارسية ، ومنها ترجمه ابن المقفع الى العربية ، وكان المقصود من هذا الكتاب تعلم الآداب بواسطة أقاصيص على ألسنة الحيوانات ، وقد فقد الأصل السنسكريتي لهذا الكتاب ، كما فقدت ترجمته الفارسية ، ولم يبق منه إلا أجزاء لا تزال موجودة في البانشاتانترا (The panchatantra) والمهابهاراتا (The Maha Bharta) وقد حفظته اللغة العربية للفكر الانساني ، ومنها ترجم هذا الكتاب الى جميع اللغات الأوروبية تقريبا والى كثير من اللغات الأخرى .

وهناك رحالة هندي شديد الشغف بالعلم أدخل الى بغداد كتابا هاما في علم الفلك اسمه سندهانثا (Sindhanta) ، وساعد في ترجمته الى اللغة العربية ، وكذلك فعل هذا للرحالة بالنسبة لكتاب آخر في الرياضيات .

ومن مشاهير المترجمين الطبيب النسطوري جورجيس بن بختيشوع (٧٧١ م) وكان المنصور قد استدعاه من جند يسابور ليكون طبيبه الخاص ، ثم اشتغل بالترجمة ، ومن المترجمين أيضا بختيشوع بن جورجيس (٨٠١ م) وجبريل تلميذ بختيشوع (٨٠٩ م) ، والحجاج ابن يوسف بن مطر (الذي ذاع اسمه بين سنتي ٧٨٦ — ٨٦٣ م) وهو (١٦ — التاريخ الاسلامي ج ٣)

أول مترجم لكتاب العناصر لإقليدس ، كما أنه من أوائل من ترجموا المجسطي (وكان يحيى بن خالد البرمكى أول من ترجم بعضا من إلياذة هوميروس) وأبو يحيى بن البطريق (المتوفى بين ٧٩٦ ، ٨٠٦) الذى ترجم أكثر كتب أبقراط (٤٣٦ ق م) ، وجالينوس (٢٠٠ م) ، كما قام بترجمة أخرى لكتاب المجسطي لبطليموس والعناصر لإقليدس ، وعلى كل حال فلم يكن بين هذه التراجم التى ظهرت فى هذا الوقت المبكر ترجمة شاملة شافية .

وفى سنة ٨٣٢ م شيد الخليفة المأمون (١) فى بغداد أول مجمع علمى (Academy) ومعه مرصد ومكتبة جامعة وهيئة للترجمة ، ويقول حَتَّى (٢) : إن هذا المعهد برهن على أنه أهم مجمع علمى شُيِّد منذ عهد جامعة الاسكندرية التى شُيِّدت فى النصف الأول من القرن الثالث ق م ، وفى هذا المعهد تُرْجِمَت أمهات الكتب من اللغات المختلفة الى اللغة العربية ، وعين يحيى بن ماسويه (عاش بين سنتى ٧٧٧ ، ٨٥٧ م) لرئاسة هذا المعهد ، وهو طبيب نسطورى وتلميذ لبختيشوع ، يعرف عنه أنه ترجم للرشيد عدداً من المخطوطات الطبية وظل هذا المعهد يواصل نشاطه فى خدمة للترجمة حتى بعد انتهاء العصر العباسى الأول . ويرى بعض الباحثين أن صفوة ما قام به هذا المعهد من جهود علمية تكمَّ إيَّان كانت الرئاسة مسندة الى حنين ابن إسحاق (٨٧٣ م) تلميذ يحيى بن ماسويه وحواريه ، وقد كان حنين ابن إسحاق فى بادئ الأمر تابعاً لابن ماسويه الطبيب ، يساعده فى اعداد بعض الأدوية ، ثم كلَّفه أولاد موسى بن شاعر بأن يطوف بالبلاد التى تتكلم اليونانية ليجمع منها المخطوطات ذات القيمة العلمية الكبيرة لترجمتها ، ثم أسند له الإشراف على دار الحكمة وعلى هيئة الترجمة فيها ، وأخيراً عين طبيباً للخليفة المتوكل .

(١) من المرجح أن بيت الحكمة أسسه هارون الرشيد وإن كان قد ازدهر فى عهد المأمون (انظر تاريخ التربية الاسلامية للمؤلف ص ١٥٩ وما بعدها) .
(٢) History of the Arabs p. 305 .

وقد استطاع حنين بمساعدة المترجمين في بيت الحكمة أن ينقل إلى اللغة العربية كتب إقليدس (حوالي ٣٠٠ ق م) وبعضاً من كتب جالينوس وأبقراط وأرشميدس وأبولونوس ، وترجم لأفلاطون كتاب الجمهورية وكتاب السياسة وكتاب القوانين ، وترجم المقولات والطبيعات والخليقات وهي بعض مؤلفات أرسطو ، وشرح ثامسطيوس (Themistius) على الكتاب الثلاثين فيما وراء الطبيعة ، والعهد القديم وكتاباً في الطب ينسب إلى بولس الأجنيني ، ونقل إسحاق بن حنين إلى اللغة العربية كتباً كثيرة منسوبة إلى أفلاطون وأرسطو وفورفوريوس والإسكندر الأفروديسي وغيرهم .

ومن بين صفوة المترجمين للذين كانوا يعملون في بيت الحكمة حبش ابن أخت حنين وعيسى بن يحيى وموسى بن خالد (١) .

وبالإضافة إلى الكتب السابقة هناك مجموعات من الكتب في الدراسات المختلفة استوردت إلى بيت الحكمة حيث تمت ترجمتها أيضاً ، وتعتبر مجموعات الكتب الفارسية والهندية أقدم ما وجهت إليه عناية المشرفين على بيت الحكمة ، وسبب ذلك أن يحيى بن خالد كان في عهد الرشيد يشرف على شؤون الدولة بوجه عام ، وعلى النهضة الثقافية بوجه خاص ، ويحيى فارسي الأصل والثقافة ، فاهتم بأن ينقل إلى اللغة العربية ألواناً من ثقافة الفرس فجلب إلى بيت الحكمة مجموعة من الكتب الفارسية ، وعيّن لترجمتها أشخاصاً لهم سيطرة على اللغة الفارسية ومعرفة باللغة العربية من أمثال أبي سهل الفضل بن نوبخت ، وعلان الشعوبي ، ويقول ابن النديم (٢) عن ابن نوبخت : له نقول* من الفارسي إلى العربي ، ومثواه* في علمه على كتب الفرس ، وكان للفرس صلة بالهند ، ومعرفة بالثقافة الهندية ومدى رقيها* . ومن أجل هذا نجد يحيى بن خالد

(١) هذه الفقرات مقتبسة (من كتاب الفكر الاسلامي : منابعه وآثاره)
الذي ترجمه المؤلف من الانجليزية ص ٤١ — ٤٥ .
(٢) الفهرست ص ٢٧٤ .

يرسل في طلب أشهر الكتب الهندية ومجموعة من علماء الهنود الممتازين ، ويعين من يترجم هذه الكتب ويترجم أفكار هؤلاء العلماء الى اللغة العربية ، وبهذا نقلت فنون من الثروة العلمية ، من الهندية إلى العربية •

ثم جاءت الثروة الضخمة في أخريات عهد الرشيد ، وخلال عهد المأمون عن طريق التراث اليوناني • وقد حفلت المراجع العربية بالحديث عن ذلك :

ذكر ابن أبي أصيبعة (١) أن الرشيد قلد يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب القديمة ، مما وجد بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم ، حين ملكها المسلمون ، ووضعه أميناً على الترجمة •

فهذه مجموعة من الكتب اليونانية جلبت من أنقرة وعمورية الى بيت الحكمة ، وهناك مجموعة أخرى جلبت من قبرص ، يحدثنا عنها ابن نباتة المصري فيقول (٢) : إن المأمون جعل سهل بن هارون كاتباً على خزانة الحكمة ، وهي كتب الفلاسفة التي نقلت للمأمون من جزيرة قبرص ، وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل اليه يطلب خزانة كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليها أحد ، فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانته ، وذوى الرأي عنده ، واستشارهم في حمل الخزانة الى المأمون ، فكلهم أشاروا بعدم الموافقة ، إلا مطراناً واحداً فإنه قال : الرأي أن تعجل بإيفادها إليه ، فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية إلا أفسدتها ، وأوقعت بين علمائها • فأرسلها واغتنط بها المأمون •

وهناك مجموعة ثالثة جاءت من القسطنطينية الى خزانة للحكمة ويحدثنا عنها ابن النديم (٣) فيقول : إن المأمون كانت بينه وبين ملك

(١) عيون الانباء ١ : ١٧٥ •

(٢) سرح العيون ص ٦٦ •

(٣) الفهرست ص ٢٤٣ •

الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون ، فكتب الى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم ، فأجاب الى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج ابن مطر ، وابن البطريق ، وسكّم صاحب بيت الحكمة ، وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه اليه أمرهم بنقله فنقل ، وقد قيل إن يوحنا بن ماسويه كان ضمن من أُرسلوا الى بلاد الروم ، وأحضر المأمون أيضا حنين بن إسحاق ، وكان فتى السن ، وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين الى اللسان العربى ، واصلاح ما ينقله غيره فامثّل لأمره .

جهود المسلمين في خدمة الثقافة العالمية :

تلك بعض مجموعات الكتب اليونانية التي وردت الى بيت الحكمة ، وقد عيّن لها مشاهير العلماء لترجمتها وكان المترجمون ممن لهم خبرة علمية بالموضوع الذى يترجمون منه ، بالاضافة الى سيطرتهم على اللغتين اليونانية والعربية ، ومن أشهر الذين اشتغلوا بترجمة هذه الكتب يوحنا بن ماسويه وحنين بن إسحاق وابنه إسحاق ، وحمد بن موسى الخوارزمى ، وسعيد بن هارون ، وعمر الفراء خان وغيرهم .

ولم يكن الخلفاء وحدهم هم الذين عسوا بتزويد اللغة العربية بهذا الزاد العظمى الرفيع ، بل إن من أفراد الشعب من أولى الترجمة عناية كبيرة ، وبذل من أجلها مالا كثيراً ، وقد اشتهر من هؤلاء بنو شاكروهم محمد وأحمد والحسن وقد كان لهم مترجمون لا يفتأون يعملون المهم ، ويلتزمون العمل فى مكتباتهم ، ومن هؤلاء المترجمين جبيش بن الحسن وثابت ابن قرة (١) .

وكان الخلفاء والأغنياء يبدلون العطايا بسخاء للمترجمين ، مما دفع

(١) القفطى ص ٣٠ — ٣١ ، وابن أبى أصيبعة ج ١ ص ١٨٧ .

هؤلاء الى مزيد من الجهد ، فقد روى أن المأمون كان يعطى حنين بن إسحق من الذهب زنة ما ينقله من الكتب الى اللغة العربية مثلاً بمئثل (١) .

ويجدر بنا قبل أن ندع حديث الترجمة أن نوضح حقيقتين هامتين :

أولاً — أن المسلمين لم يكونوا مترجمين فقط ، وإنما كانوا مبتكرين ومبتدئين في هذه المواد التي نقلوها من اللغات الأجنبية ، فقد فسروها وأضافوا إليها شروحات وتعليقات عظيمة القيمة ، جلية القدر .

ثانياً — لعب المسلمون بهذا دوراً كبيراً في خدمة الثقافة العالمية ، فقد أنقذوا هذه العلوم من فناء محقق ، إذ تسلموا هذه الكتب في عصور الظلام ، فبعثوا فيها الحياة ، وبن طريق معاهدهم وجامعاتهم وأبحاثهم وصلت هذه الدراسات الى أوروبا ، فتترجمت مجموعات كبيرة من اللغة العربية الى اللاتينية ، وقد كان ذلك أساساً لثقافة أوروبا الحديثة ، ومن أهم الأسباب التي أدت الى النهضة الأوروبية (٢) .

ولنسق ما قلناه بعض المستشرقين اعترافاً بذلك :

يقول Bulus في كتابه «The Influence of Islam» (٣) :
إن المسلمين أخذوا كثيراً من علوم البيزنطيين ، والأقباط ، والهنود ، والفرس ، ولكن من الحق أن نؤكد أن المسلمين حين ترجموا هذه العلوم الى لغتهم زادوا عليها وحوروا فيها ، وصنعوها صبغة جديدة ، حتى أصبحت علومهم هم ، وسارع العرب حين تيسرت لهم هذه المواد

(١) ابن أبي أصيبعة ج ١ ص ١٨٧ .

(٢) اقرأ تفاصيل ذلك في كتاب الفكر الاسلامي : منابعه وآثاره ص ٧٩ ، ٨٥ ، ١٠٨ ، ١٣٨ ، ١٧١ الذي ترجمه المؤلف من الانجليزية .

(٣) See Chapter XI.

الى ترجمتها دون إضاعة وقت ، فترجموا الى لغتهم من الهندية ما يعرف الآن بالأرقام العربية ، كما ترجموا الحساب بما في ذلك الكسور العشرية ، أما الجبر فاذا لم نقل إنه من اختراعهم فمن الواجب أن نعترف بجهدهم في ترقيته والتطور به ، ونحن (يقصد الأوربيين) مدينون للعرب بما وصلنا له في هذه العلوم الرياضية من نتائج ، أما طلاب مدارسنا فقد كانوا — في دراستهم لمادة الجبر — يعتمدون اعتمادا جوهريا على كتاب عربى ترجم الى اللاتينية ، وألّف هذا الكتاب في عهد المأمون عقب التجارب التى قام بها محمد بن موسى ، ولم يكن العرب مترجمين أو مهذبين لهذه العلوم فحسب ، بل إنهم اخترعوا كثيرا وبخاصة في الفلك ، فاخترعوا الاسطرلاب لقياس الارتفاع واستطاعوا أن يتعرفوا وقت ظهور النجوم ذوات الأذنان ، وساعة كسوف الشمس وخسوف القمر ، وفي الطب استطاع المسلمون أن يكشفوا مرض الجدرى الذى لم يعرفه اليونان ، وقد ظهرت براعتهم الفائقة في كشف صنوف الأدوية وكانوا يعرفون علم الكيمياء معرفة تدعو للاجلال والتقدير ، ونجموا بهذا في تعرف صفات أحماض المعادن وغيرها من المعلومات الكيماوية الجوهرية التى نقلت عنهم الى أوروبا .

ويقول غوستاف لوبون (١) : وقد وجد العرب في بلاد فارس وسورية حينما استولوا عليها ، خزائن من العلوم اليونانية ، وكان بعض هذه العلوم قد نقلت الى اللغة السريانية ، فأمرؤا بنقل ما في اللغة السريانية الى اللغة العربية ، ثم أمرؤا بأن ينقل الى اللغة العربية ما لم يكن قد نقل من قبل الى اللغة السريانية . فأخذت بذلك دراسات العلوم والآداب تسير قُدُماً نحو الرقى ، ولم يكتف العرب بما نقل الى لغتهم ، فقد تعلم عدد غير قليل منهم اللغة اليونانية ليستقوا منها علوم اليونان . وقد كانت معارف اليونان واللاتين القديمة أساسا لثقافة متعلمى العرب ، ولكن العرب المفطورين على قوة الابداع لم يكتفوا بحال الطلب ، ولم

(١) حضارة العرب ص ٢٦٠ من الترجمة العربية .

يلبثوا أن تحرروا بما عرف عنهم من النشاط ، حتى عاد الإغريق وهم ليسوا أساتذة العرب •

ويقول Philip Hitti (١) إن العهد العباسي الأول ليزهوا باليقظة الفكرية التي تمت فيه ، وقد كانت هذه اليقظة ذات أثر بعيد في الحركات الفكرية والثقافية في العالم ، وكانت تعتمد الى حد بعيد على الثقافات الأجنبية ، وبخاصة الفارسية والهندية واليونانية وكان المسلم العربي حاذقاً ، ذكياً ، مشغولاً بالاطلاع ، راغباً في الاستفادة والتزود من هذا الزاد الفكري الرفيع ، ومن أجل هذا كانت استفادته شاملة ، وارتفاعه واضحاً ، وسرعان ما سيطر على ثقافة هؤلاء الأقوام ، وأصبح يضج يده على أهم مؤلفات أرسطو الفلسفية ، وأحسن شروح الأفلاطونية الحديثة وأكثر ما كتبه جالينوس في الطب ، بالإضافة الى النتاج الفارسي والهندي • وينبغي ألا نبالغ في فضل اليونان على المسلمين ، إذ أن الثقافة اليونانية استمدت قبلاً عناصرها ومقوماتها من معارف مصر القديمة ، وبابل وفينيقية ، ثم عانت هذه المعارف الى العالم الاسلامي ، وهي في ثوب يوناني ، وعن طريق إسبانيا وصقلية عبرت. هذه العلوم الى أوروبا مرة أخرى هدية من الشرق الاسلامي إبان العصور الوسطى (٢) •

ويقول Hearanshow (٣) موضعاً فضل العرب على أوروبا : لقد خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين ، فإذا هم جلوس عند أقدانهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة ، لقد بثت الأوربيون أشباه الهمج عندما رأوا حضارة المسلمين التي رجحت حضارتهم رجحاناً لا تتضح معه المقارنة بينهما •

(١) History of the Arabs pp. 306-307.

(٢) للتعرف على عناصر الثقافة الاوربية المستمدة من الثقافات العربية

The Legacy of Islam

يرجع الى : (٣) What is History p. 62.

العلاقات الخارجية

توافرت للخلافة الاسلامية في هذا العصر عناصر السيادة والقوة والسلطان ، وكانت كما يقول Richard Coke (١) مهية الجانب في الداخل والخارج ، وكانت الدول الأجنبية تخافها وتخطب ودها ، كما عُد بعض خلفائها كالرشييد • سيد عصره ، وواحد زمانه ، ومع هذا فقد حدث نوع من الانكماش في بعض النواحي ، وسنلم فيما يلي بأبرز الحركات الخارجية لهذا العصر :

الأندلس :

ولعلّ أهم حدث يتصل بالسياسة الخارجية لهذا العصر ، هو انفصال الأندلس عن العالم الاسلامي الذي خضع لسلطان العباسيين ، وقد كانت بلاد الأندلس غارقة في بحر من الخلافات القبلية عندما أعلن بنو العباس بدء دولتهم سنة ١٣٢ هـ وقابل العباسيون مشكلات جمة عقب قيام دولتهم ، فصرفهم ذلك عن إخضاع الأندلس لسلطانهم ، وظلت الأندلس تعاني الاضطراب الداخلي بين المشرية واليمينية حتى استطاع عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك المعروف بعبد الرحمن الداخل أن يدخل الأندلس سنة ١٣٨ هـ وأن يعيد بها ملك بني أمية •

وقد حاول أبو جعفر المنصور أن يستميل عبد الرحمن الداخل ويخضعه اليه ولكنه لم يفلح ، ففكر أن يخضعه لسلطانه بالقوة ، ولكنه عجز لبعث الشقة ولانشغال جيوش الخلافة بالمشكلات الداخلية ، فلم يبق إلا أن يستعين عليه بصلوات ود أقامها مع ملوك الفرنجة ، وعلى هذا قامت علاقات طيبة بين خلفاء هذا العصر ومعاصريهم من ملوك

(١) Baghdad : The City of peace p. 92.

الفرنجة ؛ بين المنصور وبيبين (Pepin) ، وبين المهدي وشارل مارتل (Charles Martel) ، وبين الرشيد وشارلمان (Charlemagne) ، وكثيراً ما تبولت الهدايا والسفراء بين هؤلاء ، وكان بين هدايا الخلفاء الى ملوك الفرنجة كثير من التحف الشرقية الرائعة ؛ وفيل ، وساعة مائية دقيقة ، حسبها الفرنجة آلة سحرية اول ما رأوها .

وكان الدافع لهذه العلاقة في هذه الفترة سياسياً كما ذكرنا ، إنه يدل على تغلب الروح السياسية على الروح الدينية عند المسلمين والمسيحيين جميعاً ، فقد كان خليفة بغداد يكيد بهذه الصداقة الى أمير الأندلس المسلم ، ويهدئه بملك الفرنجة ، كما كان ملك الفرنجة يقوم بنفس الدور تجاه إمبراطور الدولة البيزنطية المسيحية .

وقد تتبعنا تاريخ الأندلس منذ دخول الاسلام لها حتى زوال ملك المسلمين منها في الجزء الرابع من هذه الموسوعة .

الادارة والأغلبة والطاهرية والزيادية :

وقد سبق أن تحدثنا في هذا الكتاب عن قيام دولتي الإدارة والأغلبة بشمالى إفريقيا في خلال العصر العباسى الأول ، وذكرنا ظروف نشأة كل منهما ، وفي الجزء الرابع من هذه الموسوعة حديث عن المغرب وتونس منذ استقلالهما عن الخلافة العباسية حتى العهد الحاضر ، كما تحدثنا من قبل عن قيام الدولة الزيادية والطاهرية في عهد المأمون ، وفي الجزأين السابع والثامن من هذه الموسوعة ورد حديث مفصل عنهما غليظالعه من يشاء .

بين المسلمين والبيزنطيين :

أما الحدود بين المسلمين والبيزنطيين فقد كانت ميدانا لنشاط حربى محدود ، ولكنه يكاد يكون متصلاً ، ومن الملاحظ أن ذلك النشاط لم يكن على نمط نشاط المسلمين في العهد الأموى ، إذ كان هدف

الأمويين الزحف والتوسع ، واحتلال القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، ليتم بذلك احتلال بلاد الروم كما تم من قبل احتلال الفرس ، أما العباسيون فقد غيروا هذه السياسة ، وجعلوا نشاطهم الحربى عبارة عن غارات الغرض منها إظهار القوة ، وتخويف العدو ، والرد على ما قد يقوم به من نشاط مماثل ، وقبل أن نسير في وصف هذه الإغارات يجدر بنا أن نسأل : لماذا لم يسير العباسيون على سياسة الأمويين في الزحف والتوسع ؟ وما الذى أقعدهم دون العمل على إسقاط القسطنطينية ؟

يقول الدكتور حسن إبراهيم (١) : إن ذلك يرجع الى سببين هامين :

أولهما : مناوأة أهالى بلاد الشام للعباسيين ، لأنهم كانوا لا يزالون على ولائهم للأمويين • (وأي حركة للزحف تجاه القسطنطينية كان لابد أن تتخذ بلاد الشام قاعدة لها ، فاذا لم تكن هذه القاعدة مأمونة الجانب مؤيدة للجيش العسكرية فيها والمتحركة منها ، فان النصر يكون صعبا) (٢) •

ثانيهما : عدم اهتمام العباسيين بإنشاء أسطول قوى في البحر الأبيض المتوسط يضارع أسطول الأمويين من قبل ، وفتح القسطنطينية لا يمكن أن يتم بدون أسطول •

ويمكن أن تضاف لهذين السببين أسباب أخرى لا تقل خطراً عنهما ، فالإمبراطورية الإسلامية كانت قد اتسعت اتساعاً عظيماً يستلزم جهداً كبيراً للسيطرة عليها ، وتأمين حدودها ، ثم إن العباسيين رأوا أنهم فقدوا الأندلس ، وأن بلاد شمالى أفريقية تثير التمرد عليهم من حين الى آخر ، فأدركوا أن من الخير لهم أن يتجهوا الى السيطرة على ما

(١) تاريخ الاسلام السياسى ٢ : ١٨٥ •

(٢) الذى بين القوسين زيادة للإيضاح اضيفت لما ذكره الدكتور حسن إبراهيم •

في أيديهم ، والمحافظة على إمبراطوريتهم ، بدل أن يواجهوا قوتهم الى التوسع فتضعف شوكتهم في الداخل ، ويعرضهم ذلك الى فقدان أجزاء أخرى من الامبراطورية . هذا الى كثرة الحركات الداخلية التي شغلت العباسيين في عصرهم الزاهر الذي كان يمكن أن يكون عصر فتوح .

الصوائف والشواتى :

واكتفى العباسيون إذا بالإغارات ليومهم الأعداء أنهم أقرباء ، وأنهم دائماً على أهبة الزحف عليهم والإيقاع بهم ، وقد اتخذت هذه الاغارات شكلاً منتظماً ، وكانت تسمى الصوائف والشواتى ، ويحدثنا قدامة بن جعفر عنها حديثاً مفصلاً فيقول (١) : ومما يعرفه أهل الخبرة من الثغوريين ، (سكان إقليم الثغور وهى المناطق الحربية المواجهة لبلاد الروم) أن تقع الغزاة التى تسمى الربيعية لعشرة أيام تخلو من أيار (مايو) ، بعد أن يكون الناس قد أربعوا دوابهم ، وحسنت أحوال خيولهم ، فيقيمون ثلاثين يوماً وهى بقية أيار وعشرة من حزيران (يونيو) فانهم يجدون الكلا فى بلد الروم ممكناً ، وكأن دوابهم ترتب ربيعاً ثانياً ، ثم يقفلون فيقيمون الى خمسة وعشرين يوماً ، هى بقية حزيران وخمسة من تموز (يوليو) حتى يقوى ويسمن الظهر ، ثم يجتمع الناس لغزو الصائفة ، ثم يغزون لعشرة تخلو من تموز فيقيمون الى وقت قفولهم ستين يوماً ، فأما الشواتى فانهم جميعاً يقولون : إن كان لابد منها فليكن مما لا يبعد فيه ولا يوغل ، ولكن مسيرة عشرين ليلة بمقدار ما يحمل الرجل لفرسه مما يكفيه على ظهره . (لعدم الكلا حينئذ فى بلاد الروم) وأن يكون ذلك آخر شباط (فبراير) فيقيم الغزاة الى أيام تمضى من آذار (مارس) .

ومن هذا يتضح أن جل نشاطهم الحربى كان فى الصيف ، وأنهم

(١) نبذة من كتاب الخراج وصناعة الكتابة ، مطبوعة مع كتاب المسالك والملك لابن خرداذبة — انظر ص ٢٥٩ .

كانوا يتحرزون أن يقوموا باغارات في الشتاء إذا لم تدفع الضرورة لذلك ، أما الصوائف فمن الممكن أن نقول إنها كانت منتظمة ، وقد بكر العباسيون بالقيام بها منذ نشأة دولتهم ، حتى يوقعوا في خلد عدوهم ، أن الأحداث الداخلية لم تضعف شوكتهم ، ولم تشغلهم عن الهجوم على الأعداء وأول صائفة قام بها العباسيون كانت سنة ١٣٣ هـ وقد قام بها سعيد بن عبد الله (١) : ثم انتظمت بعد ذلك ، فتجد الطبرى وابن الأثير يقرران الحج بالناس بالقيام بغزو الصائفة ، فيقولان : وحج بالناس فلان وغزا الصائفة فلان ، فاذا لم يقم العباسيون بغزو الصائفة فإننا نجد ابن الأثير يذكر ذلك معللا له ، فهو يقول في حوادث سنة ١٣٧ هـ : « ولم يكن للناس في هذه السنة صائفة لشغل السلطان بحرب سنباذ » (٢) ويقول في حوادث سنة ١٣٩ هـ « ولم يكن بعد ذلك صائفة فيما قيل إلا سنة ١٤٦ هـ لاشتغال المنصور بابنى عبد الله ابن الحسن » وهكذا كانت الصائفة حلقة من برنامج العباسيين لا تتخلف لغير ضرورة قاسية ، ومن أهم الصوائف التي حدثت في عهد المنصور تلك الصائفة التي مرت الإشارة إليها والتي ذكرها ابن الأثير في حوادث سنة ١٣٩ هـ ، وكانت رداً على غارة ثنها ملك الروم على ملطية سنة ١٣٨ هـ ، فهدم أسوارها ودخلها عنوة ، وقد أعد المنصور رده على هذه الغارة في الصائفة التالية ، وجعل قيادتها الأخيه العباس بن محمد وعمه صالح بن على ، وغزا مع صالح أختاه أم عيسى ولبابة وكانتا نذرتا إن زال ملك بنى أمية أن تجاهدا في سبيل الله .

وقد بدأ صالح باصلاح ما أفسده الروم في السور ، ثم دخل في أرض الروم ، وثأر للمسلمين واستنقذ أسراهم .

وطالما كانت الجيوش الزاحفة لغزو الصائفة تسير بقيادة الخليفة

(١) ابن الأثير ٥ : ١٦٨ .

(٢) مر ذكره ص ١١١ عند الكلام عن محاولة الثائر لأبى مسلم . (انظر ابن

الأثير ج ٥ ص ١٨٠) .

نفسه أو ولى عهده ، ومما يجب أن يذكر أن الصوائف التي تمت في عهد هرون الرشيد كانت من أقصى الصوائف وطأة على البيزنطيين ، وأكثرها إذلالاً لهم ، وطالما تولاها الرشيد بنفسه •

العواصم والثغور :

يقتصد بلفظ العواصم سلسلة الحصون الداخلية الجنوبية بطرقها الحربية ، لأنها تعصم الحدود وتعينها على صد غارات البيزنطيين ، ولأن المسلمين كانوا يعتصمون بها من العدو ، ثم هي للتمييز بينها وبين الحصون الشمالية الخارجية الملاصقة للحدود البيزنطية وهي الحصون التي سميت بإقليم الثغور ، لمواجهة الثغرات أو المنافذ التي في أرض العدو ، وكان إقليم الثغور ينقسم قسمين : أحدهما في الشمال الشرقي ، ويسمى بالثغور الجزيرية (نسبة إلى أرض الجزيرة شمال العراق) ومن حصونها الهامة زبطرة وحصن منصور والحدث ، والقسم الثاني بالثغور الشامية في الجنوب الغربي حيث تقترب من ساحل خليج الاسكندرون ، ومن أهم حصون هذا القسم المصيصة وأذنة وطرسوس (١) •

وقصة إنشاء العواصم والثغور أن الرشيد لم يكتف بنظام الصوائف لإبراز قوته وحماية بلاده ، ولكنه اقتدى بالبيزنطيين الذين أقاموا على أطراف بلادهم المجاورة لبلاد المسلمين خطا دفاعيا وضعوه تحت إشراف رجال حربيين لتجسوا بحكام الثغور ، ولما رأى الرشيد أن هذا الخط الدفاعي يمكن أن يصبح قاعدة للهجوم ، أسس إقليما مشابها لإقليم الأطراف البيزنطي على حدود البلاد الإسلامية الشمالية ، وسماه إقليم العواصم والثغور ، وكان هذا الإقليم جزءا من أرض قنسرين والجزيرة ، ففصله هارون الرشيد عنه ، وعين ابنه المعتصم أميرا له ، وجعل عاصمته أنطاكية وامتد إلى حلب ومنبج وشمل أنطاكية ومنطقة الساحل (٢) •

Le Starange : The land of the Eastern Caliphate p. 128. (١)

والدكتور العدوي : الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ٧١ — ٧٢ •

(٢) ياقوت : معجم البلدان ٣ : ١٦ و ٦ : ٢٣٧ •

عهد المهدي والرشيدي والمعتمد :

ومع أن نظام الصوائف والشواتي كان يمثل العلاقات الحربية بين المسلمين والبيزنطيين في هذه الفترة ، فقد كانت ظروف خاصة تجدها أحياناً ، فتجعل الصائفة أو الشاتية زحفاً عميقاً ومعركة حربية حامية ، أوسع مدى ، وأشد عنفاً من الهجوم الخاطف الذي كان طابع الصوائف والشواتي ، وقد لمح اسم هارون الرشيد في هذه المعارك خلال خلافة أبيه وخلال خلافته هو ، كما لمح فيها اسم المعتمد ابنه ، وقد سجل التاريخ والشعر العربي بعضاً من هذه المعارك التي نقدم أمثلة منها :

خليج القسطنطينية :

كانت الصائفة التي شنها المهدي على البيزنطيين سنة ١٦٥ هـ قوية جارفة بسبب النشاط العدائي الذي قام به البيزنطيون على الحدود الإسلامية قبيح هذا الزحف ، وقد سير المهدي ابنه الرشيد على رأس هذه الصائفة في حوالي مائة ألف مقاتل . وكان مع الرشيد القائد العظيم يزيد بن يزيد الشيباني ، وقد كتب لجيش المسلمين النصر في زحفه ، واستطاع الرشيد أن يصل بجيشه الى خليج القسطنطينية . فأوقع الرعب في قلب إيريني (Irene) أرملة ليو الرابع (Len IV) وكانت وصية على ابنها ، فطلبت الصلح ، وتم الصلح على جزية قدرها سبعون ألف دينار كل عام ، وأن تقيم لجيش المسلمين الأدلاء والأسواق في طريق عودتهم ، وقتل وجرح من الروم في هذه الوقائع ٤٠٠٠٠هـ وكانت مدة الهدنة ثلاث سنوات .

وفي هذه الغزوة يقول مروان بن أبي حفصة مخاطباً الرشيد :

أطقتَ بـقسطنطينية الروم مسنداً
إليها ألقنا حتى اكتسى الذل سورها

وما رُمَّتْهَا حتى أُنْتُك ملوكُهَا

بجزئيتها ، والحرب تغلى قدورها

وكان من أثر هذه الانتصارات التي أحرزها المهدي أن هابه الملوك ، فأرسل إليهم رسلا يدعوهم الى الطاعة ، فدخل أكثرهم فى طاعته . ومنهم ملك طبرستان ، وملك السند ، وملك قرغانة ، وملك سجستان ، وملك الترك ، وبعض ملوك المناطق بالهند والصين (١) .

هرقلة :

وتعرضت بعد ذلك الحياة الداخلية فى الدولة البيزنطية الى أحداث جسام وتصارعت فيها قوى ثلاث : قوة الملكة وقوة ابنها الأمير الذى تخطى مرحلة الصبا الى مرحلة الرشد ، وقوة ثالثة يقودها بعض قواد الجيش الساخطين ، وانهزمت الملكة أولا ، واعتلى الأمير العرش ، باسم قسطنطين السادس ، ولكن المرأة عادت فقبضت على ابنها وسلمت عينيه واستولت على الحكم ، وفى أثناء حكمها تمت معركة خليج القسطنطينية التى تحدثنا عنها آنفا ، والتى كانت بقيادة هرون الرشيد ، وانتهت بهزيمة ساحقة للبيزنطيين وبصلح يدفعون بمقتضاه جزية كبيرة غير أن قوة الجيش ظلت فى طريقها الى أن نجحت ، وأعلن نقفور — الذى قاد حركة الانقلاب — نفسه إمبراطورا على الدولة البيزنطية سنة ٦٨٧ هـ .

وكان الجيش البيزنطى يعتقد أن الضعف الذى ظهرت به الامبراطورية البيزنطية أمام جيوش المسلمين ، راجع الى أن الدولة تحكمها امرأة ، ولذلك نجد نقفور يبعث الى هرون الرشيد الذى كان قد آلت له خلافة المسلمين بالرسالة التالية :

من نقفور ملك الروم الى هرون ملك العرب .

أما بعد ، فإن هذه المرأة وضعتك موضع الشاه [الملك] . ووضعت نفسها موضع الرئخ [الشاه ، والرخ من أدوات الشطرنج] ، وينبغى أن

تعلم أنى أنا الشاه ، وأنت الرخ ، فأدّ الى ما كانت المرأة تؤدى إليك (١) .

فلما قرأ الخليفة هذه الرسالة استفزّه الغضب ، حتى لم يستطيع أحد من جلسائه أن ينظر اليه : ثم دعا بدواة ، وكتبَ على ظهر الكتاب :
من عبد الله هرون أمير المؤمنين ، الى نقفور كلب الروم :
أما بعد فقد فهمت كتابك ، والجواب ما تراه لا ما تسمعه ،
والسلام على من اتّبع الهدى (٢) .

وشخص الرشيد من يومه الى أعدائه ومعه جيش هائل ، وعجزت كل القوى البيزنطية أن توقف ذلك الجيش الزاحف حتى وصل الى هرقلّة ، وقد غنم في طريقه وأقننى ، كما شاعت له رغبته ، وعسكر جيش المسلمين حول هرقلّة ، وبدأ يقذف حصونها بججارة ملتعبة حتى سقطت ، وقد سجن الشاعر العربى هذه الصورة في قوله :

هوت هرقلّة لما أن رأت عجباً
جواثماً ترتضى بالنفط والنار
كأن نيراننا في قلب قلعتهم
مصبغات على أرسان قصار (٣)

وأدرك نقفور أن الملكة إيرينى لم تكن سبب الهزائم التى حلت ببيزنطة ، وإنما سببها هو قوة المسلمين الجارفة ، وإيمانهم بالهدف الذى يحاربون من أجله ، فسال الصلح على مال يؤدى كما كانت إيرينى

(١) صبح الاعشى ١ : ١٩٢ .

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) الاغانى ١٧ : ١٨ .

تفعل من قبَل ، وقَبِلَ هرون الرشيد ذلك بعد أن أدَّبَهُ ، ولكن الرجل لم يستطع أن يبرِّ بما وعد ، فما إن غادر الرشيد أرض الروم حتى نقض نقفور العهد ، ظاناً أن شدة البرد ستمنع الرشيد من العودة إليه ، وقد كان النكت شديد الوقع على قادة المسلمين ، حتى أن أحدا منهم لم يستطع نقله للرشيد ، فاحتيك بشاعر من جنده يكنى أبا محمد عبد الله ابن يوسف ، ويقال هو الحجاج بن يوسف التيمي ليقول في ذلك شعرا وينشده الرشيد ، فقال :

نقض الذى أعطيته نقفور فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فانه غنم أذاك به الإله كبير

فعرف الرشيد بذلك خبر النكت ، وعاد من فوره ، وأثخن في بلاد الروم ، وفتح هرقله ، ولم يبرحها حتى أخذ الجزية من نقفور عنه وعن آله ورجاله ، وكان مقدارها ٧٠٠٠٠ دينار (١) .

عمورية :

هذه قصة هرقله ، فلننتقل بعدها الى قصة تحاكيها مجدا وشرفا ، الى قصة عمورية .

كان الامبراطور ميخائيل الثانى معاصرا للمأمون ، وقد مئى كل منهما بئائر عنيد أشعل نار الفتنة في الداخل ، وأثار القلاقل في وجه سيده ، مئى المأمون ببابك الخرمى ، ومنى ميخائيل بتوماس الصقلبي ، وبابك هو زعيم الخرمية ورئيسها الأكبر ، وكانت هذه الطائفة إحدى طوائف الفرس التى تعيث في الارض فسادا ، وتخيف السبيل ، وتبيح الحرمات ، وقد سبق الحديث عنها .

وأما توماس الصقلبي فرجل أرمنى الأصل ، قاد الثائرين على

(١) الطبرى ١٠ : ٩٩ ، الجهشيارى ٢٠٧ ابن خلعون ٣ : ٥٥٥ .

الامبراطور بسبب الفساد الذى استشرى فى الدولة ، وسوء الأحوال الدينية والاجتماعية ، وقويت هاتان الثورتان ، واستفحل شأنهما ، إذ أيد المأمون ثورة توماس وأمدّه بالعون : وفعل ميخائيل وخلفه ثيوفيل مثل ذلك بالنسبة الى بابك الخرمى ، ولكن ميخائيل استطاع بعد كثير من الجهد أن يقضى على المتمرّد عليه قبل أن يتمكن المأمون من الانتصار على الثائر فى بلاده ، ومات المأمون بعد أن أضعف شوكة بابك ، وأوصى ولى عهده المعتصم أن يجدد ليقلّم أظفاره ويقضى عليه .

وأعد المعتصم حملة كبيرة بقيادة قائده التركى الأفشين ، وبعث بها لمحاربة هذا الثائر ، ولما ضيق عليه الخناق ، وأحس بابك أن الدنيا ضاقت به ، أرسل الى الامبراطور ثيوفيل بن ميخائيل ، يخبره أن جيوش المسلمين اجتمعت عليه ، ويغريه بالخروج لغزو بلاد المسلمين ويمنّيه بأن الغزو سيكون سهلاً ما دامت جيوش المسلمين مشغولة فى حربها معه ، واستجاب ثيوفيل لنداء بابك ، وكان بذلك يخدم غرضين ، فهو يخفف الضغط عن حليفه ، ثم هو يثار لأمتّه من المسلمين الذين طالما نكلوا به ويقومه ، ولكن المعتصم كان حازماً ، فاحتكم طغيان البيزنطيين على أرضه دون أن يخفف ضغطه على بابك ، وظل كذلك الى أن انتصر عليه . وشتت شمل جيشه ، ومثّل به .

أما ثيوفيل فكان قد اتخذ زيطرة مسقط رأس المعتصم هدفاً لهجومه ، ويحدثنا ابن الأثير (١) أنه قتل من بها من الرجال وسبى الزويه والنساء وأغار كذلك على أهل ملطية وغيرها من حصون المسلمين ، ومثّل بمن صار فى يده من المسلمين ، وسمل عيونهم ، وقطع أنوفهم وأذنانهم ، وكان من بين من أسر من النساء امرأة هاشمية كبر عليها الضيم والقسوة ، فصاحت : وامعتصاه ، ونقل بعض الحاضرين خبر هذه الصيحة الى المعتصم وقد انتهى من بابك فأجاب : لبيك يا أماء .

(١) الكامل فى التاريخ ٦ : ١٩٢ .

وسأل المعتصم : أى بلاد الروم أمنع وأحصن ؟ فقيل : عمورية ، لم يعرض لها أحد منذ كان الاسلام ، وهى عين النصرانية ، وأشرف عندهم من القسطنطينية ، وهى مسقط رأس ثيوفيل . فتجهز المعتصم بجهازا لم يتجهزه خليفة قبله ، وسار بنفسه ومعه خيرة قواده ورجاله سنة ٥٢٢٣ هـ . ولم تستطع عمورية أن تقف فى وجه هذا الجيش الصلد الجبار ، فخرت صريعة ، وثار المعتصم لمن نكّل بهم من المسلمين والمسلمات ، وأكل اللهب هذه المدينة فلم يترك منها إلا حطاما (١) .

وقد خلد أبو تمام قصة هذه الواقعة فى قصيدته التى يقول فيها :

السيف أصدق أنباء من الكتب
فى حدّ الحد بين الجد واللعب
يا يوم وقعت عمورية انصرفت
عنك انى حثلا معسولة الحلب
أبقيت جدّ بنى الاسلام فى سعد
والمشركين ودار الشرك فى وصب
أم لهم ، لورجوا أن تقتدى جعلوا
فداءها كل أم برة وأب
من عهد اسكندر أو قبل ذلك قد
شابت نواصى الليالى وهى لم تشب
.....
.....
لقد تركت أمير المؤمنين بها
للنار يوما ذليل الصخر والخشب

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

غادرت فيهم بهيم الليل وهو ضحى
يغلكه وسطها صبح من اللهب
إن كان بين ليالى الدهر من رحم
موصولة أو ذمام غير مقتضب
فبين أيامك اللاتى نصرت بها
وبين أيام بدرٍ أقرب النسب (١)

(١) ديوان أبى تمام ، القصيدة كلها من ص ٧ - ١٢ .

مشاهير وزراء العصر

تقديم :

١ — قلق العباسيين يجطهم يأخذون الناس بالشبهة :

أمدتنا الدراسة السابقة بمادة غزيرة عن العناء الذى منى به العباسيون قبيل إقامة دولتهم ، وبعد أن أقاموها ، وعن القلق الذى ظل يساور نفوسهم خليفة بعد خليفة ، من أجل المحافظة على كيان هذه الدولة ، التى كانت تتوالى عليها الهزات والمحن ، وتقوم فى وجه خلفائها المشكلات والمتاعب بين حين وحين ، ففى الشام يوجد للأمويين أنصار وأشباع ، حتى فكر عبد الرحمن الداخل فى إعادة هذه البلاد الى سلطان الأمويين (١) ، وكانت ثورات العلويين تنتشر فى كل مكان ، وفى كل عهد ، ينجح بعضها فيقطع من جسم الدولة دولة تنظّل شوكة فى ظهر العباسيين ، ويخفق بعضها بعد أن يرهق الخلفاء ويقض مضاجعهم ، وبين هذا وذاك يهتّب الخوارج والزنادقة ، والعرب أحيانا ، والفرس أحيانا أخرى لتقويض بنيان الامبراطورية وتحطيم مثلها ، ويقف البيزنطيون بالمرصاد على حدود العباسيين كأنما يترقبون فرصة اضطراب داخلى ليزحفوا على الدولة ويكثروا فيها القتل والأسر والتنكيل . هذا وغيره مما مر ذكره جعل الخلفاء العباسيين يحسون أن دولتهم مهددة بالفناء والزوال ، وأنه ينبغى أن يقتلوا كل من حامى حوله شبهة ، أو من خيف منه المروق ، حتى ينجو المجموع ، وأصبحت المسألة دفاعا عن النفس وعن الدولة ، فقد أحس الخلفاء العباسيون أنهم سيكونون هم ودولتهم وقودا لكل انقلاب يتم ، أو مؤامرة تنتصر .

(١) دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ٢ : ١٨٥ ، وانظر كذلك ابن الاثير ٩ : ٦٣ عند كلامه عن سبب انتقال الرشيد من بغداد الى الرقة .

٢ — الربيع بن يونس وابنه يدبران المؤامرات :

وقد قلنا من قبل إن القوة لم تكن دائماً هي الوسيلة التي يلجأ إليها الخلفاء العباسيون لمقابلة الانتفاضات والثورات ، بل كثيراً ما لجأ الخلفاء الى سلاح آخر هو سلاح المؤامرات والتدبير السرى عن طريق طعنة في ظلام ، أو سم زخاف ، واقتبسنا من ابن طباطبا في وصفه لهذا الاتجاه في هذا العصر قوله : كانت الدولة العباسية دولة ذات خُدَع ودهاء وغدر ، وكان قسم التحييل والمخادعة أوفر من قسم القوة والشدة .

وطبيعى أن هذا السلاح لم يكن هناك ما يدعو لاستعماله مع الجماهير وعامة الناس ، وإنما كان خاصاً للذين تُخشى عاقبة مواجهتهم بالعداء وجهاً لوجه ، ويرتبط هذا السلاح ببعض مشاهير الوزراء الذين عقدنا هذا الفصل للحديث عنهم ، فبعض هؤلاء لم يكتفوا بمنصب الوزارة كما يجب أن يكون ، ولم يقبلوا أن يحتلوا الدرجة الثانية بعد الخلفاء ، بل أرادوا أن يكونوا في طبقتهم ، أو أرادوا أحياناً أن يكون لهم السبق عليهم ، فاثاروا بذلك حقد الخلفاء ، ولم يكن في وسع الخلفاء أن يعلنوا عليهم السفط ، فلجأوا الى سلاح الائتثار كما سبق القول .

وأصبح هذا السلاح كبير الأهمية عند الخلفاء ، فتخصص فيه أناس وبرعوا في إحكامه ، ونالوا شهرة في التاريخ كمديرين للدسائس والمؤامرات ، وتقربوا للخلفاء بذلك ، وفي مقدمة من لعب هذا الدور في قصور خلفاء هذا العصر الربيع بن يونس وابنه الفضل .

وسنقص فيما يلى خبر مَن لم نتحدث عنهم من قبل من وزراء هذا العصر ، وهم نخبة ذائعة الصيت ، سنقص خبر البرأمة الأعلام الأمجاد ، وخبر الفضل بن سهل الذى تعتبر خلافة المأمون منحة منه ، وخبر سواهم من مشاهير وزراء العصر الذين لعبوا دوراً بالغ الأهمية في سياسة الدولة ، وسنرى كيف زل بعضهم ، أو كيف دبّر صانعو الدسائس زلات لهم فكانت الضربة القاضية .

أبو أيوب المورياني

ينسب أبو أيوب المورياني إلى قرية تسمى « موريان » وهى من قرى الأهواز ، وأسمه سليمان بن مخلد ، وكان خفيفاً ظريفاً ، حسن التأتى لما يريد ، أخذ من كل علم طرفاً ، وكان يقول : ليس من شئ إلا وقد نظرت فيه إلا الفقه ، وقد نظرت فى الكيمياء والطب والنجوم والحساب والسحر (١) .

وقد عرفه أبو جعفر قبل قيام الدولة العباسية ، وكان ذلك فى مناسبة وقف فيها أبو أيوب موقف النحامى لأبى جعفر المنصور والمدافع عنه ، فلقد روى أن أبا أيوب كان يكتب لسليمان بن حبيب بن المهلب بن أبى صفرة وإلى مروان بن محمد علكى البصرة ، وكان المنصور ينوب عن سليمان فى بعض الكور ، فاتهمه سليمان بأنه احتجز مالا لنفسه ، فأحضره وقال له : هات المال الذى أختنته . فقال : لا مال عندي ، فدعا له بالسياط ، فقال أبو أيوب : أيها الأمير ، لا تضربه ، فإن الخلافة إن بقيت فى بنى أمية فلن يسوغ لك ضرب رجل من بنى عبد مناف ، وإن صار الملك إلى بنى هاشم لم تكن بلاد الإسلام لك بلاداً ، فلم يقبل منه ، وأخذ يضرب أبا جعفر ، ولكن أبا أيوب ألقى نفسه عليه ، ولم يزل يسأل الأمير حتى أمسك عن ضربه ، فكان أبو جعفر يتذكر هذا لأبى أيوب ويشكره عليه (٢) .

فلما قامت الدولة العباسية رأى أبو جعفر أن ينتفع بخبرة المورياني وأن يكافئه على إحسانه إليه ، فاستدعاه إلى قصره وأسند له بعض الأعمال . وكانت كفاءة أبى أيوب ، وإقبال أبى جعفر عليه كفيلاً أن

(١) الجهشيارى ص ٩٧ وابن خلكان ١ : ٢١٦ .

(٢) هذه القصة مضطربة فى المراجع التى بين أيدينا ، وهذا أيسر وابق ما استطعت أن أورده عنها . (انظر الجهشيارى ص ٩٨ وابن خلكان ١ : ٢١٦) .

يرقيا بالرجل ويضمنا له المجد العريض ، وهكذا ترقى أبو أيوب حتى وصل إلى قمة المجد فأُسندت له وزارة المنصور ، وضُمَّت إليه الدواوين مع الوزارة ، وغَلَبَ على المنصور غلبة شديدة ، وصرف أهله في الأعمال ، حتى قالت العامة : إنه سحر أبا جعفر ، واتخذ دهنًا يمسح به وجهه إذا أراد الدخول عليه ، وضرب العامة المثل بدهن أبي أيوب ، وبلغ من حب المنصور له أن أم سليمان الطَّلَحِيَّة اتخذت لأبي جعفر مجلسا في الصيف ، وجعلت فيه الرياخين واللَّحِج وسائر الطيب ، فلما صار إليه أعجب ببرِّه وحسنه ، ولكنه قال لها : ما أَحْسَنُ بهذا النعيم . قالت : ولم يا أمير المؤمنين ؟ قال : إنه ليس معي أبو أيوب يحدثني ويؤنسني ، قالت : يا أمير المؤمنين ، وإنما هيأتة لسرورك فتبعث إليه فبعث إليه فحضر ، فقال له : يا أبا أيوب لم يطب لى هذا الموضع ولذته دون أن تكون معي ، فدعا له أبو أيوب وأقام معه (١) .

وبينما كان أبو أيوب ينزل من نفس المنصور هذه المنزلة بسبب سالفه إحسانه وعظم كفايته ، كان هناك شخص آخر بادی الطموح يشغل منصباً كبير الخطر في قصر المنصور ، ذلك هو الربيع بن يونس الذي كان له منصب الحجابة (٢) ، وكان الربيع جليلاً نبيلاً منفذاً للأمر ، فصيحاً ، كافياً ، حازماً ، عاقلاً ، فطنا ، خبيراً بالحساب والأعمال ، حاذقاً بأمور الملك ، بصيراً بما يأتى ويذر (٣) .

وكان الربيع يتطلع الى منصب الوزارة ، ولكن كيف السبيل إليه وشاغله أبو أيوب المورياني ، وهو من هو خبرة ومقدرة وحسن صلة بالمنصور ؟ ولكن الربيع كان لا يعرف اليأس ولا يستكين للقنوط ، وكان إذا عزم على أمر اتجه له بكل مواهبه ، وشق له كل السبل حتى يكتسب

(١) الجهشيارى ٩٧ — ٩٨ .

(٢) ابن خلكان ١ : ١٨٥ .

(٣) الفخرى ص ١٥٤ .

له النصر ، ويصل إلى الهدف الذى يبتغيه ، وهو فى سبيل مآربه لا يرحم ولا يكثر بالمثل العليا والقيم الأخلاقية •

وهناك سبب هام مَهْدَ الطريق للربيع ، وذلك له للصعاب ، ذلك هو ثقته أن الملوك لا يدوم رضاهم ، وأن المنصور واحد من هؤلاء الملوك لا تؤمن غدته ، وكان أبو أيوب الموريانى نفسه يدرك ذلك فى المنصور ، رَوَى أنه كان يجلس يوما ، يأمر وينهى وهو فى سلطانه وجلاله ، فأرسل له أبو جعفر يستدعيه ، فامتنع لونه وتخبر ، ومضى إليه ثم رجع • قال له بعض أصحابه فى ذلك ، فقال سأضرب لكم مثلا : زعموا أن البازى قال للديك : ما فى للأرض حيوان أقل وفاء منك • قال الديك : وكيف ذلك ؟ قال : أخذك أهلك بيضة فحضنوك ، ثم خرجت على أيديهم ، وأطعموك فى أكفهم ، ونشأت بينهم حتى إذا كبرت صرت لا يدنو منك أحد إلا طرت هاهنا وهاهنا وصحت وصوت ، وأنا أخذت من الجبال كبيرا فعلمونى وألفونى ثم يخلى عنى ، فأتخذ صيدى فى الهواء وأجىء به الى صاحبى • فقال له الديك : إنك لو رأيت من البزاة فى سفافيدهم المدة للشئ ، مثل الذى رأيت من الديوك لكنت أكثر نفورا منى • وعلق أبو أيوب على هذه القصة بقوله لأصحابه : وأنتم لو علمتم ما أعلم لم تتعجبوا من خوفى مع ما ترون من تمكن حالى (١) •

وإذا فليبدأ الربيع كفاحه السرى الصامت ضد أبى أيوب وليتخذ من الدسائس والسعيات سلاحه البتار ، وليستعن لتحقيق أمله بأهل الوشاية والسعاية ، ووجد الربيع ضالته فى أبان بن صدقة ، الذى كان يكتب لأبى أيوب ويشى به • حدث الجهشيارى قال : (٢) كان أبان يكتب لأبى أيوب وكان يشرف على أمره كله ، فحسده مَخْلَد ابن أخى أبى أيوب ، فرفع عليه سعاية للى أبى جعفر بمائة ألف دينار ، فأمر المنصور

(١) ابن خلكان ١ : ٢١٦ •

(٢) الوزراء والكتاب ١١٦ •

بأخذه بها ، فأدخل أبان بيتا وطنين عليه بابيه ، ثم ندم مخلد على فعله ،
ولامه عمه أبو أيوب لَمَّا وقف على ما كان منه ، فقال مخلد : أنا أؤدى
عنه عشرة آلاف دينار ، وقال أبو أيوب : أنا أؤدى عنه كذا ، وقال مسعود
أخو مخلد : أنا أؤدى عنه كذا ! فتوزعها الموريانيون بينهم ، وأخرجوا أبانا
من الحبس ، فخرج وفي نفسه ما فيها ، فكان يأتى أبا أيوب ، فيقيم عنده
نهاره كله ، فإذا كان الليل انصرف ومعه غلمان أبى أيوب ، فإذا انصرفوا
وعلم أنهم قد وصلوا الى منازلهم ، خرج حتى يأتى الربيع ، فيسعى بأبى
أيوب ، ويكتب له أخباره وأمواله ، فيوصل للربيع ذلك الى المنصور .

وتغير قلب المنصور على أبى أيوب شيئا فشيئا ، واخذ حبه له يضعف
رويدأ رويدأ ، واستمر الربيع في زحفه وسعيه ، حتى لا يدع لأبى جعفر
فرصة للتحقيق أو طلب اليقين ، وظل الحال على ذلك الى أن كبا أبو
أيوب كبوة ، واركب خطأ ماليا فاستغل الربيع ذلك أوسع استغلال ،
وظل يغرى به للمنصور حتى نال مناه ، فأوقع المنصور بوزيره وفكك به ،
أما هذه الزلة التى اقترفها الموريانى فاليك عنها البيان :

كان المنصور يحب المال وجمعه كما سبق الحديث عن ذلك ، وعرف
أفراد حاشيته فيه هذا الميل ، فعاونوه عليه ، واتفق أن رخصت أسعار
الطعام في عهده رخصا واضحا ، فأشار أبو أيوب عليه أن يشتري طعام
سواد الكوفة وسواد البصرة ، وأن يدهمه لبيع عند ما ترتفع الأسعار ،
طمعا في الربح ، فأذن المنصور لوزيره في ذلك ، وجرت الصفقة باسم أبى
أيوب الذى كتب على نفسه كتابا بما أخذ من مال المنصور ثمنا للطعام
الذى اشتراه ، ولكن المنصور لم يكن يعرف من التجارة الا جانبا واحدا
هو جانب الربح ، ولم يحالف للتوفيق هذه الصفقة ، اذ تتابع الرخص ،
فطالب المنصور وزيره بالمال ، وأرهقه بالمطالبة ، فتحمل منه الشيء بعد
الشيء حتى ساءت حالته المالية دون أن يوفى ما عليه .

وعنت للموريانى فرصة ليسدد للخليفة دينه ، وليستعيد ولو

مؤقتا مكانته ، وقصة ذلك أن المنصور كان يحب ابناً له يقال له « صالح » ويرقئ عليه ، وكان قد أقطع أولاده قطائع خلاه ، فكان يريد إقطاعا له ، فقال مرة لأبى أيوب : ماترى حال ابنى ؟ ليس له ضيعة ! فأجاب أبو أيوب . يا أمير المؤمنين بالأهواز مزارع عاطلة ، تحتاج الى ثلثمائة ألف درهم ، تَعْمُرُ بها ويقوم منها حاصل جيد ، فأطلق له للمنصور ثلثمائة ألف درهم ، وأمره بعمارة اقطاع لابنه صالح ، فأخذ أبو أيوب المال ، فأدى منه صدرا من خساراته فى الطعام ، ولم يعمُر الضيعة ، وصار فى كل سنة يحمل عشرين ألف درهم ويقول : هذا حاصل ضيعة صالح .

تلك كانت زلة أبى أيوب ، ولست أحاول الدفاع عنه ، ولكنى أسجل اعتقادى ، وهو أن المنصور أيضا ملوم ، لأنه قبل أن يتاجر فى أقوات الناس ، وأنه أراد أن يأخذ الربح ولا يتحمل الخسائر فأوقع وزيره فى الشطط .

وعلى أية حال فقد نقل « أبان » أنباء الضيعة الخيالية والتصرف فى الثلثمائة ألف درهم الى الربيع ، فرحب الربيع بهذه الأنباء ، التى أمثل أن يكون فيها حتف الوزير ، وهرع الى المنصور فأعلمه ، فسأله المنصور : من أين عرفت هذا ؟ فأجاب : من « أبان بن صدقة » وأبان هو المصدر الخبير الذى لا يتطرق الى أخباره شك ، وحث الربيع الخليفة أن يخرج بنفسه لزيارة هذه البقاع ، وليرى كيف غرّه الموريانى وخدعه ، واستجاب المنصور للإلحاح الربيع ، وقال لأبى أيوب : إنى أحب أن أزور الأهواز ، وأن أرى ضيعة صالح ، وبدأ رجال الخليفة وعلى رأسهم الربيع يعدون العدة لهذا الشخوص .

وعرف أبو أيوب — بعد فوات الأوان — أن « أبانا » يأتى الربيع كل ليلة فيحدثه بكل شئ ، ويشى بالوزير عنده ، فقال له أبو أيوب : لِمَ تفعل هذا ؟ إن كان مخلص قد رفع عليك سعاية ، فقد خلصتك ، فلماذا تقتلنى ؟ فأسفر أبان عن عدائه وقال : إن مخلصا أراد قتلى . فقال له

أبو أيوب : فعلتها ؟ اخرج فلا تقربنى ، فقال أبان : آتى الربيع والله ،
ثم لا أعود اليك ، وخرج حتى آتى الربيع ، وكاشف بالعداء أبا أيوب •
ودبر أبو أيوب أمره وأعمل فكره طلبا للنجاة والسلامة ، وكتب الى
وكلائه بالأهواز أن يعجلوا بحيلتين :

أولا : أن يغمروا الضيعة بالماء حتى لا يستطيع الخليفة أن يتوغل
فيها •

ثانيا : أن يعمّروا حافة هذه الضيعة بإقامة القرى والمنازل ،
وغرس النخل والأشجار ، وإنبتات النبات ، حتى إذا حط الركب رحاله
بالقرب منها ، ظن الناظر اليها أنها عامرة مزدهرة •

ونفذ وكلاء أبى أيوب أوامره بكل دقة وإخلاص ، وسار ركب
المنصور حتى اقترب من الضيعة ، فقال أبو أيوب : هذه هى الضيعة ،
ولولا فيضان الماء لأمكنك أن تجول فيها ، فرأى المنصور الماء والخضرة ،
فكاد الأمر يشتهه عليه ، لكن الربيع تدارك الأمر فأكد للخليفة أن هذا
تمويه ، وحثه على البقاء الى أن ينحسر الماء ليرى الضيعة بنفسه من
الداخل ، والا كانت رحلته هباء • فقرر المنصور أن يبقى حيث هو حتى
تجف الأرض ليجول فيها بنفسه •

وفى أثناء اقامته بالأهواز ، وهى موطن أبى أيوب الموريانى عنيت
فرصة أخرى للربيع ليثير سخط الخليفة على الوزير ، وحكاية ذلك أن
المنصور اشتهى هناك سمكا طريا ، فقال له أبو أيوب يا أمير المؤمنين إني
أهوازى سمكى ، ولنا عجائز يحسن صنعة السمك ، فان رأيت أن تأذن لى
فأهيئه لك ؟ فقبل أبو جعفر وأذن له فى اعداده ، فمضى لذلك ، وبعد فترة
نهض أبو جعفر عن مجلسه ، ودعا الربيع ليصب عليه الماء ليغسل وجهه ،
قال الربيع : فبينما أنا أصب عليه ، إذا رُسل أبى أيوب قد دخلوا بشيء
كثير من السلالات ، فيها ضروب من خبز البُرّ والرقاق وخبز الأرز ، وصنوف

السّمك التى اتخذت ضروباً من الصّنع الحارة والباردة ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، قد علم سليمان ما يريدّه أمير المؤمنين به ، فهل يأمن أمير المؤمنين أن يكون قد دسّ له فى هذا الطّعام شيئاً ؟ فجزع المنصور ، ودعا بطعام غيره فأكل منه (١) .

وهكذا نجح الربيع فى أن يبلّغ بالعلاقة بين المنصور ووزيره هذا الوضع ، فأصبح الخليفة يخشى أن يسمّه الوزير ، ولا نزاع أنّه لا يمكن أن تستقيم علاقة بين الاثنين بعد هذا ، ثم وصلت العلاقة الى أبعد درجات السوء عندما جفت للأرض ، فوجد المنصور أنّها عامرة الظاهر جدبة فى الداخل فلم يقتل شيئاً ، وعاد الى بغداد وقد أضمر أمراً .

وفى بغداد استدعى المنصور أبا أيوب وقال له : يا خوّزى (٢) ، أكنت آمناً أن يطلع أمير المؤمنين على خيانتك ، فيكون جزاؤك فى العاجل إراقة دمك ، واستباحة نعمتك ، وفى الآجّل حلول دار الفاسقين ، ومأوى الظالمين الناكثين ؟ .. فقال : يا أمير المؤمنين ، إن للتهم فلتات ترجع بالنّدم ، ولك من رسول الله صلى الله عليه وسلم عدل السياسة ، وشرف القراية ، فأقبلنى ، قال : لا يسعنى مع عظيم جرمك ، وجليل ذنبك ، إقبالك ، ولا العفو عنك ، وحبسه وحبس أخاه وبنى أخيه ، وطولبوا بالأموال ، وعذبوا وضيق عليهم ، ثم أمر المنصور بأبى أيوب فقتل ، قال صالح بن سليمان : سمعت المنصور عقيب ذلك يتحدّث أن ملكاً من الملوك كان يساير وزيراً له فضربت دابة الوزير رجلاً الملك ، فغضب ، وأمر بقطع رجل الوزير ، فقطعت ، ثم ندم فأمر بمعالجته حتى جف موضع القطع ، ثم قال الملك لنفسه : هذا لا يحببنى أبداً وقد قطعت رجله ، فقتله ، ثم قال : وأهل هذا الوزير لا يحبوننى أبداً وقد قتلتهم فقتلهم جميعاً .

(١) لقد أكل رجال الخليفة من هذا الطّعام الشهى ، ولم يجدوا فيه شيئاً يضر .

(٢) نسبة الى خوزستان ومنها أبو أيوب .

قال صالح بن سليمان فعلمت أنه سيفعل ذلك في أهل المورياني ففعله
وقتلهم جميعا ، وما عدا ظني •

وقد قال أبو حبيبات الشاعر الكوفي في ذلك •

قد وجدنا الملوك تحسد من أء طته طوعا أزيمة التدبير
فلذا مارأوا له النهى والأمر أتوّه من بأسهم بنكير
شرب الكأس بعد «حفص» سليما ن ، ودأرت عليه كف المدير (١)
أسوأ العالمين حالا لديهم من تسمى بكاتب أو وزير
••• وبموت أبي أيوب خلا الجو للربيع بن يونس ، فجنا ثمار دسه
وائتماره ، وأسند له منصب الوزارة ، فظل يشغله حتى وفاة المنصور (٢) •

(١) المراد بحفص هو حفص بن سليمان (أبو سلمة الخلال) والمراد
بسليمان سليمان بن مخلد (أبو أيوب المورياني) •
(٢) وردت قصة هذه المؤامرة مبعثرة وغير مرتبة في كثير من المراجع ،
وما سقناه هنا خلاصة ما ورد في هذه المراجع مع تقديم وتأخير وتصرف ،
ويمكن الرجوع إليها في الجهشيارى ٩٧ — ٩٨ ، ١٠٢ ، ١٠٣ — ١١٥ — ١١٦ ،
١١٧ — ١١٩ . ١٢٠ — ١٢٣ وفي الفخرى ١٥٢ — ١٥٣ وابن خلكان ١ :
٢١٥ — ٢١٦ •

أبو عبيد الله معاوية بن يسار

يقول ابن طباطبا (١) إن أبهة الوزارة ظهرت في عهد المهدي بسبب كفاءة وزيره أبي عبيد الله معاوية بن يسار ، فإنه رتب الدواوين ، وقرر القواعد ، وكان كاتب الدنيا ، وأوحد الناس حذقاً وعلماً وخبرة وكان يعمل كاتباً للمهدي ونائباً له قبل الخلافة ، ضمه المنصور إليه ، وكان قد عزم على أن يستوزره لكنه أثر به ابنه المهدي ، فكان غالباً على أمره ، لا يعصى المهدي له أمراً ، وكان المنصور لا يزال يوصيه فيه ، ويأمره بامتثال ما يشير به ، فلما مات المنصور ، وجلس المهدي على كرسى الخلافة فوض إليه تدبير المملكة ، وسلم إليه الدواوين وكان مقدماً في صناعته ، فاخترع أموراً : منها أنه نقل الخراج إلى المقاسمة ، فقد كان السلطان يأخذ عن الأرض خراجاً مقررّاً ولا يقاسم ، فلما ولي أبو عبيد الله الوزارة قرر أمر المقاسمة ، وهو الذي قرر الخراج على النخل والشجر ، وصنف كتاباً في الخراج ، ذكر فيه أحكامه الشرعية ودقائقه وقواعده ، وهو أول من صنف كتاباً في الخراج ، وتبعه الناس بعد ذلك فصنفوا كتب الخراج .

ولنعد إلى الوراء قليلاً لنرى ماذا حدث قبيل انتقال الخلافة للمهدي :

في سنة ١٥٨ هـ خرج المنصور حاجاً وأخذ معه وزيره الربيع بن يونس ، وفي الطريق إلى مكة عرضت للمنصور علة أجهده ، ولكنه قاوم ، وسار الركب يحد الخطأ ، غير أن المنية فلجأت قبيل دخول مكة في السادس من ذي الحجة في نفس العام ولم يحضره عند وفاته إلا الربيع ، فكتّم موته ، ومنع النساء وغيرهن من البكاء عليه ، فلما أصبح الصبح ألبس الربيع المنصور ملابساً ، وسنده ، وأجلسه خلف كفة خفيفة ، يرى شخصه منها ، ولا يفهم أمره وحضر وجوه بني هاشم فاتخذوا مجالسهم بحيث يرون الخليفة ، وتقدم الربيع إليه فكانما يحادثه ، ثم

(١) الفخرى ١٥٧ — ١٥٨ .

عاد الربيع إليهم ينقل أمر الخليفة في تجديد البيعة للمهدى ، ففعلوا ثم أخرجهم الربيع ، وبعد برهة خرج إليهم باكياً ناحباً معلناً موت أبى جعفر المنصور (١) .

هل كان هناك ما يدعو الى هذا ؟ ... ثم أليس للموت حرمة ؟ وكيف جاز للربيع أن يسخر جثمان المنصور هذا للتسخير ؟ لقد استخف المهدى ولستخف مدبر أمره أبو عبيد الله معاوية بن يسار بالربيع من أجل هذا التصرف ، وعلق المهدى عليه بقوله : ما منعت هبة أمير المؤمنين من هذا الفعل به ؟ (٢) والعجب أن الربيع قام بهذا العمل يرجو من ورثته الحظوة عند المهدى ورجاله ، ولكن المهدى ورجاله سفروا وكروهوا منه هذا التصرف البغيض ، وكان ذلك نقطة التحول في العلاقات بين الربيع ومعاوية بن يسار .

عاد الربيع من مكة فخورا بما فعل ، مغتبطا بما قدّم للخليفة الجديد ، ولكن الأخبار كانت سبقتة ، وتركت في نفس المهدى ووزيره أثراً سيئاً ، فلما وصل الربيع بغداد ، حضر ساعة وصوله الى باب أبى عبيد الله ، فقال له ابنه الفضل : يا أبى ، تترك أمير المؤمنين ، وتترك أهلك ، وتأتى أبا عبيد الله ؟ فقال الربيع : يا بنى هو صاحب الرجل والغالب على أمره ، فليس ينبغي لنا أن نعامله كما كنا نعامله من قبل ، فلما وصل الى الباب وقف عليه وطاق وقوفه الى أن جاءه الإذن ، فهم أن يدخل هو وابنه ، ولكن الحاجب قال له : إنما استأذنت لك وحدك يا أبا الفضل فقال له الربيع : أرجع فأعلم أبا عبيد الله أن الفضل معى ، ثم أقبل الربيع على الفضل فقال : هذا من ذاك (٣) ثم خرج الإذن فأذن لهما جميعاً ، فدخلوا ، ولكن أبا عبيد الله لم يحفل باستقبالهما كما كانا يتوقعان ، وجعل يسأل الربيع عن سفره وسيره وحاله ، والربيع

(١) ابن الاثير ٦ : ١٢ .

(٢) الفخرى ١٥١ .

(٣) أى أن هذا التصرف موحى به من أبى عبيد الله .

(م ١٨ — التاريخ الاسلامى ج ٣)

يتوقع أن يسأله عما كان منه من أمر المنصور وتجديده البيعة للمهدى ، فأعرض أبو عبيد الله عن ذلك ، فذهب الربيع ليبتدئه بذكره ، فقال له أبو عبيد الله : قد بلغنا نبؤكم فلا حاجة لإعادته ، فاغتاظ الربيع ثم قام فخرج ، وقصد منزله منصرفا ، وفي الطريق أقبل على الفضل فقال له : يا بنى أنت أحمق ، فقال الفضل : ما حمقى ؟ قال : إنه يدور برأسك الآن أنه كان ينبغي ألا نجى ، فاذا جئنا وحجبنا كان ينبغي ألا ننتظر ، فاذا دخلنا فلم يأبه بنا ، كان علينا أن نرجع ولا نكله ، قال الفضل : نعم ، ذلك ما يدور برأسى ، قال الربيع : ذلك هو الحق بعينه ، ولم يكن الصواب غير ما فعلته كله ، ولكن ، والله الذى لا إله إلا هو لا خلِّقن جاهى ، ولا تنفقن مالى حتى أبلغ مكروه أبى عبيد الله (١) .

وهكذا يتضح الربيع على حقيقته ، لقد أراد الزلفى الى المهدى ووزيره عن طريق إظهار الحرص على قيام خلافة المهدى وتجديد البيعة له ، ولكن مواهبه خانتته فأسف وكبا ، وفشل فى الوصول الى مأموله عن هذا الطريق ، فليسلك الطريق الذى لا يفضلك فيه ، وهو طريق الدس والائتمار ، وليؤكد القسم من أول يوم أن يبذل الجاه والمال ليبلغ مكروه الوزير ، ولنتخط مؤقتا بعد الأحداث الهامة لنصل الى حقيقة مروعة تدل على مدى الانحلال فى نفس الربيع ، تلك هى أن الربيع لم يتمكن من بلوغ أمنيته إلا بعد خمس سنوات أى ابتداء من سنة ١٦٣ ، ومعنى ذلك أن هذه السنوات الخمس لم تخفف من حدة نفسه ومن سخطه البالغ على أبى عبيد الله ، مع أنهما كانا خلال هذه السنوات الخمس يعملان فى بلاط واحد ، ولم تذكر لنا كتب الأدب والتاريخ — فيما قرأت — أن خلافا قام بينهما فى أثناء هذه الفترة ، بل بالعكس كان هناك تعاون ومجاملة ، ولكن نفس الربيع الطالكة تحب التشفى وتكره أن ترى النعمة على مخلوق ، ولذلك زادت هذه المدة كراهية فى ابن يسار ، وعزما على القيل منه .

(١) الجهنيارى ١٥٢ — ١٥٣ والفخرى ١٥٨ .

ولكن كيف الطريق للنيل من أبى عبيد الله ؟ لقد جهد الربيع نجيد منفذا في أخلاقه ، ولكنه باء بالخيبة ، إذ تؤكد المراجع التي بين أيدينا أن ابن يسار كان الى الكمال أقرب ، فلم يجد الربيع بدءاً من أن يلجأ الى أعداء أبى عبيد الله لعله يجد عندهم العون والنصح ، فيما يهدم الرجل ويقوض مكانه وسعاده ، فاستدعى داهية من أعداء الوزير اسمه القشيري ، وخلا به وسأله : تعلم ما فعل بك أبو عبيد الله وما فعل بي ، فهل عندك في أمره حيلة ؟ . . . قال الرجل — والفضل ما شهدت به الأعداء — : أبو عبيد الله ليس بجاهل في صناعته ، وإنه الأحذق الناس ، وما هو بظلمين فيما يتقلده ، لأنه اعف الناس ، حتى لو كانت بنات المهدي في حجره لكان لهن موضعاً ، وليس بمكتم بانحراف عن هذه الدولة ، لأنه ليس يؤتى من ذلك ، وليس بمكتم في دينه ، لأن عقده وثيق ، ولكن هذا كله يجتمع لك في ابنه ، لأنه ردىء الطريقة مذموم السيرة ، يرمى بالزندقة ، والقول يسرع اليه ، فانفجرت أسارير الربيع ، وقبل الرجل بين عينيه ، ولاح له وجه الحيلة في الوزير (١) .

وكان المهدي كما قلنا من قبل شديداً على الزنادقة يعنى بالبحث عنهم ، ويهتم بالفتك بهم ، فدنس عليه الربيع من أخبره بزندقة ابن الوزير ، وأكد له ذلك ، فسأل المهدي الوزير عن ابنه ، فأجاب بأنه حفظه القرآن ، وعلمه أمور الدين ، ولكن الربيع يواصل دسه وتحديه بأن الابن زنديق ، وأنه يشجع سواء من الثبائن على الزندقة ، وأن هؤلاء يحتمون به ويجهأ أبيه ، فجده المهدي في طلبه حتى جىء به . فسأله المهدي عن شيء من القرآن فلم يعرف ، فقال لأبييه : ألم تخبرني أن ابنك يحفظ القرآن ؟ . . . قال : بلى يا أمير المؤمنين ، ولكنه فارقتني منذ مدة فكسبه ، فقال له الخليفة : قم فتقرب الى الله بدمه . فقام أبو عبيد الله ولكنه ارتعد وتعثر ، فقال العباس بن محمد عم المهدي :

(١) الجهشيارى ١٥٣ والفخرى ١٥٩ .

يا أمير المؤمنين ، إن رأيت أن تعفى الشيخ من قتل ولده ، ويتولى ذلك غيره ، فأمر المهدي بعض من كان حاضراً بقتله فضربت عنقه (١)

تلك كانت المؤامرة الأولى التي دبّها الربيع ضد أبي عبيد الله ، وقد كانت ضربة قاسية على الرجل الكهل ، أورثته الذلة والانكسار ، ولكن هذه المؤامرة لم تصل بالربيع الى ما أراد ، لأن أبا عبيد الله ظل يعمل للمهدي كما كان ، ولم تنقص مكانته قليلا ولا كثيرا ، ومن أجل هذا تتفتق عبقرية الربيع عن مؤامرة أخرى يضرب بها الرجل نفسه ، ويوقع بها بين الوزير والخليفة •

قال الجهشيارى (٢) : ولما قتل المهدي عبد الله بن أبي عبيد الله ، قال الربيع لبعض خدام المهدي : لك على ثلاثة آلاف دينار ، إن فعلت شيئا لا يضرك ، قال له : وما هو ؟ • قال : إذا دخل أبو عبيد الله على المهدي فصار بحضرته ، قبضت على سيفه ، ومشيت الى جانبه ، فسينكر ذلك عليك أمير المؤمنين ، فتقول : يا أمير المؤمنين ، قتل ابنه بالأمس ، فكيف آمنه عليك أن يخلو بك ومعه سيفه اليوم ، ففعل الخادم ذلك ، فكان هذا مما أوحش المهدي من أبي عبيد الله •

ويروى ابن طباطبا قصة مماثلة لهذه القصة ، هاك نصها (٣) : دخل أبو عبيد الله يوما على المهدي ليعرض عليه كتباً قد وردت من الأطراف فتقدم المهدي بإخلاء المجلس ، فخرج كل من به إلا الربيع ، فلم يعرض أبو عبيد الله شيئا من تلك الكتب ، انتظارا لخروج الربيع ، فقال المهدي : يا ربيع اخرج ، فتنحى الربيع قليلا ، فقال المهدي : ألم آمرك بالخروج ؟ • قال : يا أمير المؤمنين ، كيف أخرج وأنت وحدك ، وليس معك سلاح ، وعندك رجل من أهل الشام يدعى معاوية ، وقد قتلت

(١) المرجعان السابقان .

(٢) الوزراء والكتاب ١٥٤ .

(٣) الفخرى ١٥٩ — ١٦٠ .

بالأمس ولده ، وأوغرت صدره فكيف أدعك معه على هذه الحال وأخرج ؟ • • فثبت هذا المعنى في نفس المهدي ، إلا أنه قال : يا ربيع ، إني أثق بأبي عبيد الله في كل حال • ولكن الواقع أن المهدي داخله الشك والحذر ، فلم يأمر الربيع بالخروج ، وإنما قال لأبي عبيد الله : اعرض ما تريد فليس دون الربيع سر (١) •

قال الجهمياري (٢) : ثم صرف المهدي أبا عبيد الله عن وزارته سنة ١٦٣ هـ ، واقتصر به على ديوان الرسائل ، ثم عزله عن ديوان الرسائل سنة ١٦٧ هـ وقلده الربيع بن يونس • وقال ابن طباطبا (٣) : إن المهدي قال للربيع : إني أستحي من أبي عبيد الله بسبب قتل ولده ، فأحجبه عني ، فحجب عنه وانقطع بداره ، واضمحل أمره ، ويضيف ابن طباطبا أنه تهيأ للربيع بذلك ما أراد من إزالة نعمة ابن يسار •

وانطوت بالدس والائتمار صفحة وزير من خيرة الوزراء وأكثرهم كفاءة وأنصعهم تاريخا •

البرامكة

مات الربيع بن يونس أو قتله الهادي ، ولكن مؤامراته ودسائسه لم تتوقف بموته ، لأن الفضل ابنه كان قد حذق هذا الفن ، واستطاع أن يبرهن على أن الولد سرّ أبيه ، وكان الفضل قد شُب في قصر المنصور ، وانحدر منه إلى قصر المهدي ، ورأى أباه يشي ويدبر المؤامرات ، فنهج نهجه ، وسار سيرته ، ومن يشابه أباه فما ظلم ، ولكن الفضل امتاز عن أبيه بشيء ، هو أن الأحداث التي قام بها كانت بعيدة المدى ، قوية الصدى ، قاسية النتائج ، فإذا كان أبوه قد تأمر ضد أبي أيوب الموراني ،

(١) انظر القصة أيضا في الاغانى ٢١ : ٨٠ •

(٢) الوزراء والكتاب ١٥٦ •

(٣) الفخرى ١٦٠ •

وأبى عبيد الله معاوية بن يسار ، فانها على كل حال كانت مؤامرات ضد أفراد ، ولم تنتسح شهرتها ، أما مؤامرات الفضل فقد كانت ضد البرامكة ، وأثارت الخلاف بين الأمين والمأمون ، ذلك الخلاف الذى ذهب ضحيته آلاف الناس وفيهم الأمين نفسه ، ومثل هذه المؤامرات ، فضلا عن أنها فتكت بالكثيرين ، اتخذت شهرة واسعة ، حتى ليوشك الانسان أن يدعى أن غالبية المثقفين فى بقاع الارض يعرفون عنها كثيرا أو قليلا ، وبخاصة أولئك الذين لهم صلة بالدراسات الاسلامية .

ونكبة البرامكة موضوع مطروق لجمهرة الكتاب والمؤرخين ، وقد كتبوا فيه كثيرا جدا ، والتشتمت العلل والأسباب التى حدثت بالرشيد الى أن يوقع بهم ، ولذلك أبادر قبل سرد آراء الآخرين فأسائل نفسى : هل من الممكن أن نضيف جديدا الى ما قيل عن هذا الموضوع ؟ . . . وأجيب بشيء من الثقة والأمل ، أن هذا ممكن ، وأن طبيعة الدراسة التى نقوم بعرضها فى هذا الكتاب توحى لنا بهذا الجديد :

فأولا — جهد المؤرخون والكتاب فى تعرف الأسباب التى دعت الرشيد أن ينكل بالبرامكة ، وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى ، وأنا أقول إن هذا الاختلاف ، وذلك التلمس للعلل ، يجعلنى أعتقد أن البرامكة كانوا أبرياء ، وهذه البراءة أوقعت المؤرخين فى حيرة ، لأنهم لم يتصوروا أن قسوة كهذه تنزل بقوم أبرياء بين عشية وضحاها ، فراحوا هنا وهناك ينتقون ، ويتسقطون الأخبار ، ويتلمسون الدوافع ، ولو كشف عنهم لعلموا أن الرشيد نفسه لم يكن يعرف لما ارتكب سببا جوهريا ، ومما يؤيد هذا الاتجاه ما أورده خلكان (١) : أنه لما مات يحيى بن خالد وجد فى جيبه رقعة كتب فيها بخطه : قد تقدم الخصم (يقصد نفسه) والمدعى عليه (يقصد الرشيد) فى الأثر ، والقاضى هو الحكم العدل الذى لا يجوز ولا يحتاج الى بيعة . فحملت هذه الرقعة الى الرشيد فلما قرأها لم يزل يبكى يومه كله ، وبقي أياما يتبين الأسى فى

(١) وفيات الاعيان ٣ : ٣٢٥ .

وجهه ، إذ كان يدرك أنه معتد فيما أوقع بالبرامكة من تنكيل ، دون داع أو سبب ، ولكن العهد كان يَبْرُزُ فيه الأخذ بالشبهة كما سبق القول •

وثانياً — أحبُّ أن أبرِزَ حقيقةً مهمة هي أن الذى يستعرض أحداث هذا العصر ، يدرك أن البرامكة إذا قيسوا بسواهم من أعلام هذه الفترة كانوا بلا شك أعظم حظاً وأوفر نصيباً في نعيم الحياة ، وإلا فقل لى بربك : مَنْ مِنْ وزراء هذا العهد وكبار رجاله غفل عنه الزمن مدة كهذه ، وامتد له الجاه دون تعثر طيلة أكثر من نصف قرن من الزمن ؟ • لقد ظهر البرامكة مع ظهور الدولة ، وبدأ نجمهم يتألق منذ سنها الأولى ، ونالوا من بسطة الحياة ونعيم العيش ما لم ينله سواهم حتى سنة ١٨٧هـ حين أوقع بهم الرشيد ، ماذا نرى إذا قسنا هؤلاء بأبى سلمة الخلال ، الذى قتل في نفس العام الذى بدأ فيه النصر ، وبأبى مسلم الخراسانى ، الذى نكب ودم كفاحه من أجل الدولة لا يزال يقطر من سيفه ، وبالفضل بن سهل الذى غدرَ به دون أن يجنى أية ثمرة لجهاده الطويل ؟ • • • ثم إذا قسنا البرامكة بأبى أيوب المورىانى وبمعاوية ابن يسار ؟

لا نزاع بعد هذا أن السؤال لا ينبغي أن يكون : لما أوقع الرشيد بالبرامكة ؟ بل يجب أن يكون : كيف أفلت البرامكة من السفاح ؟ ونجوا من سيف المنصور ؟ ولمَ لم يثرَمْ أحد منهم بالزندقة في عهد المهدي ؟ • ولماذا غفل عنهم الرشيد سبعة عشر عاماً وهو السريع التغير الحاد المزاج ؟ • •

وثالثاً — لم يقتل الرشيد من البرامكة إلا جعفر بن يحيى ، وسجن الآخرين ، وهذا في تاريخ تلك الحقبة أيسر أنواع التنكيل ، فعهدنا بالإيقاع أن يقتل مع الرجل أهله وذووه كما حدث لأسرة المورىانى • وإذا فلماذا برزت نكبة البرامكة وفاقَت في الشهرة سواها من النكبات والمؤامرات ؟ • • أرى أن الجواب هو أن شهرة الرشيد التى

سارت بها الركبان ، أنفذت معها شهرة هذه النكبة ، ولولا ما أتيج
للرشيد من شهرة عالمية لم تتَّحَّ لسواه ، وصيت ذائع لم يثوافر لغيره ، لظلت
نكبة البرامكة حدثاً عادياً محدود الانتشار .



وقد نال البرامكة من المؤرخين كامل العناية والاهتمام ، وقد صورهم
ابن طباطبا تصويراً بلغ الغاية أو تجاوزها فهو يطلق عليهم « الدولة
البرمكية » ، ويبتدئ حديثه عنهم بكلمة قصيرة رائعة ، هاك نصها :
اعلم أن هذه الدولة كانت غيرة في جبين الدهر ، وتاجاً على مفرق
العصر ، ضربت بمكارمها الأمثال ، وبذلت لها الدنيا أفلاذ أكبادها ،
ومنحتها أوفر إسعادها ، فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرة ، والبحار
زاخرة ، والسيول دافعة ، والغيوث ماطرة ، أبواق الآداب عندهم
نافقة ، ومراتب ذوى الحرمات عندهم عالية ، والدنيا في أيامهم عامرة ،
وأبهة المملكة ظاهرة ، هم ملجأ اللئيم ، ومعتصم الطريد (١) .

وينسب البرامكة الى جدهم برمك ، وكان برمك هذا كاهن بيت
النار بمدينة بلخ ، فكان يقوم بالإشراف على هذا البيت ، كما كان
قصى وأولاده من بعده يقومون بسدانة الكعبة في الجاهلية (٢) ، والبرامكة
بهذا ينتمون الى أصل فارسي عريق ، إذ كان جدهم يقوم بأجل عمل في
دولة الفرس قبل الاسلام .

وخالد بن برمك أول برمكى اتصل بالعباسيين ، وكان في عسكر
قحطبة بن شبيب الذى سبق الحديث عنه ، وكان يتقلد خراج كل
ما افتتحه قحطبة من الكور ، وتقلد الغنائم وقسمها بين الجند ،
فكان يقال : ما من أحد من أهل خراسان إلا ولخالد عليه يد ومئة ، لأنه

(١) الفخرى ١٧٢ .

(٢) دكتور حسن ابراهيم ٢ : ٤٩ .

قسَّط الخراج ، فأحسن فيه الى أهله ، وكان خالد مع قحطبة على سطح من سطوح منازل القرية التي بها عسكرهم ، فرأى خالد الوحش تُقْبِل نحو هذه القرية ، فقال لقحطبة : أيها الأمير قد أُتينا فمُرّ من ينادى بالسلاح ، فعجب قحطبة منه وسأل : كيف عرفت ذلك ؟ فقال خالد : لا تتشاغل بكلامي ، ومُرّ بالنداء ، ففعل ، وما هي إلا فترة قصيرة حتى ظهر جيش أموى يقوده البطل « ابن ضُبَّارَه » وانتهت المعركة بهزيمة الأمويين وقتل قائدهم ، وسُئِل خالد : كيف عرفت خبر مقدم جيش الأمويين ؟ فأجاب : رأيت الوحش ينفر نحونا فعلمت أن شيئاً عظيماً أخافه وأذعره . ولما قتل ابن ضُبَّارَة أخطأ قحطبة فأرسل رأساً غير رأسه الى أبي مسلم ، ثم عثِرَف رأس ابن ضُبَّارَة ، فأراد قحطبة أن يوجه به ، فمنعه خالد بن برمك وقال : إن فعلت ذلك أبطلت الأول والثاني (١) .

ولما عقدت البيعة لأبي العباس ، وحضر خالد بن برمك لمبايعته ، سأله أبو العباس السفاح : من الرجل ؟ فقال : مولاك خالد بن برمك ، وقص عليه قصته ، وقال : أنا كما قال الكميت بن زيد :

وما لى إلا آلَ أحمدَ شيعَة

وما لى إلا مذهب الحق مذهب

فأعجب أبو العباس بفصاحته وذكائه ، وأقره على ما كان يتقلد من الخنائم ، وجعل اليه بعد ذلك ديوان الخراج وديوان الجند ، وكثر فيه حامده وحسن أثره ، وكان سبيل ما يثبت في الدواوين أن يثبت في صصف ، فكان خالد أول من جعله في دفاقر (٢) .

(١) الجهشيارى ٨٧ — ٨٨ بنصرف فقد أورد مسألة الرأس قبل الحديث عن المعركة .

(٢) الجهشيارى ص ٨٩ .

ولما قُتل أبو سلمة الخلال أصبح خالد وزيرا للسفاح ، ويقال أنه تشاعم من لقب الوزارة فلم يقبله ، وإن أخذ يقوم بأعمال الوزير ، ولم يزل على وزارة السفاح حتى توفي هذا ، وتولى أخوه المنصور ، فأقر خالدًا على وزارته ، فبقي سنة وشهورا ، وكان أبو أيوب المورياني قد غلب على المنصور ، فاحتال على خالد بأن ذكر للمنصور تغلب الأكراد على فارس ، وأنه لا يكفيه أمرها سوى خالد فندبه إليها ، فلما بعد خالد عن الحضرة ، أصبح أبو أيوب وزيرا كما سبق (١) .

ويقول المسعودي (٢) : لم يبلغ مبلغ خالد بن برمك أحد من ولده في جودة رأيه ، وبأسه ، وجميع خلاله ، لا يحيى في رأيه ، ولا الفضل ابن يحيى في جوده ، ولا جعفر في كتابته وفصاحته ، ولا محمد في رأيه وهمته ، ولا موسى في شجاعته .

قال الجاحظ : وحدثني ثمامة قال : كان أصحابنا يقولون : « لم يكن يرى لجليلس خالد دار إلا وخالد بناها له ، ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها له ، ولا ولد إلا وخالد ابتاع أمه إن كانت أمه ، أو أدى مهرها إن كانت حرة ، ولا دابة إلا وخالد حمله عليها » . وكان خالد أول من سمى المستمحيين الزموراء ، وكانوا يسمون قبل ذلك السؤال ، فقال خالد : أنا أستقبح لهم هذا الاسم وفيهم الأحرار والأشراف (٣) .

أما عن يحيى بن خالد ، فقد كان محظوظا في بلاط المنصور والمهدى ، وقد تربى الرشيد في حجره ، ورضع ألبان زوجته ، وأغدق عليه يحيى حبه وعطفه وحنانه ، ومن أجل هذا كان الرشيد يناديه أباه ، ولما شب الرشيد وضعه المهدي تحت كفالة يحيى ، فأحسن هذا تربيته ، ثم أقره المهدي على وضعه في أثناء خلافته ، فكان يحيى للرشيد مربيا

(١) ابن خلكان ١٠٦٠ .

(٢) مروج الذهب ٢ : ٢٨٢ .

(٣) الوزراء والكتاب ص ١٥٠ والافغانى ٣ : ٢٦٠ .

حفيأ وأبا رحيما ، وقد استطاع أن يدفع عنه الهادى حينما أراد هذ
أن يخلع نفسه ليولى ابنه مكانه ، وقد سجنه الهادى لذلك كما سبق
القول (١) .

فلما تقلد هارون الخلافة ، دعا يحيى بن خالد فقال له : يا أبت ،
أنت أجلسنى هذا المجلس ببركة رأيك ، وحسن تدبيرك ، وقد قلدك
أمر الرعية ، وأخرجته من عنقى إليك ، فاحكم بما ترى ، واستعمل من
ثئت ، واعزل من رأيت ، فانى غير ناظر معك فى شئ ، ودفع اليه
خاتمه (٢) ، فنهض يحيى بن خالد بأعبياء الدولة أتم نهوض ، وسد
الثغور ، وتدارك الخلل ، وجبى الأموال ، وعمر الأطراف ، وأظهر
روفق الخلافة ، وتصدى لمهمات المملكة ، وكان كاتباً بليغاً لببياً سديداً ،
صائب الآراء ، حسن التدبير ، ضابطاً لما تحت يده ، قويا على الأمور ،
جواداً يبارى الريح كرماً وجوداً ، ممدحاً بكل لسان ، حليماً عفيفاً ،
وقوراً مهيباً ، وفيه يقول القائل :

لا ترانى مصافحاً كف يحيى إننى إن فعلت ضيعت مالى
لو يمس البخيل راحة يحيى لسخت نفسه ببذل النوال (٣)

وكان يحيى يحظى بعطف الخيزران وإقبالها عليه ، وتحبيب ابنها
الرشيد فيه ، ومن أجل هذا كان يحيى يعرض عليها أمور الدولة ،
ويورد ويصدر عن أمرها ، فلما ماتت الخيزران سنة ١٧٣ هـ استقل
يحيى بالأمر ، وأصبح يورد ويصدر عن رأيه (٤) .

ومن أعمال يحيى أنه شق نهراً كان يسمى أبا الجنة ، فازدهرت
بسببه أرض واسعة كانت جرداء ، وأمر بإجراء القمح على أهل الحرمين ،

(١) ابن خلدون ٣ : ٢٢٣ .

(٢) الجهشيارى ١٧٧ ، وابن الاثير ٤ : ٣٦ .

(٣) الفخرى ١٧٣ — ١٧٤ .

(٤) الجهشيارى ١٧٧ وابن خلدون ٣ : ٢٢٢ .

وتتقدم بحمله من مصر إليهم ، وأجرى الأرزاق على أحفاد المهاجرين والأنصار ، وعلى أهل الدين والآداب ، واتخذ كتاتيب لليتامى (١) .

وكان ليحيى بن خالد أبناء أربعة ، هم الفضل وجعفر ومحمد وموسى ، وكلهم سادة نجب ، وعياقة أمجاد ، وسنذكر عن كل منهم كلمة قصيرة :

الفضل بن يحيى :

كان الفضل من كرام الدنيا وأجواد أهل عصره ، وكان قد أرضعته الخيزران أم الرشيد ، وأرضعت أمه زبيدة بنت منير الخليفة هرون الرشيد ، وفي ذلك يقول مروان بن أبى حفصة :

كفى لك فخراً أن أكرم حرة
غذتك بشدى والخليفة واحد

لقد زنت يحيى في المشاهد كلها
كما زان يحيى خالداً في المشاهد (٢)

وكان الرشيد يثق فيه ويتجأه ، ومن أجل هذا جعل محمداً ابنه في حجره ، وأسكنه معه في قصره المعروف بالخلد ، وضم إليه أعماله ودواوينه (٣) .

وكان الرشيد في أول الأمر يمنحه خاتمه ، ثم رأى أن ينقل الخاتم إلى جعفر ، إذ كان الفضل متمزناً لا يشرب النبيذ ، ولا يميل إلى المرح ، فكان ذلك يباعد بينه وبين الرشيد ، فقال الرشيد ليحيى ، إننى احتشمت أن أكتب لأخى الفضل ليعطى الخاتم لجعفر فاكفنيه ، فكتب يحيى إلى

(١) الجهشيارى ١٧٧ .

(٢) ابن خلكان ١ : ٤٠٨ — ٤٠٩ والفخرى ١٧٧ .

(٣) الجهشيارى ص ١٩٣ .

الفضل يقول : قد أمر أمير المؤمنين بتحويل الخاتم من يمينك الى شمالك •
فكتب اليه الفضل ، قد سمعت مقالة أمير المؤمنين في أخى ، وأطعت • وما
انتقلت عنى نعمة صارت اليه ، ولا غريت عنى رتبة طلعت عليه (١) •

وكان الفضل لا يشرب النبيذ مع شيوعه وكثرة شاربيه فى ذلك الحين ،
وأثر عنه قوله فى ذلك : لو علمت أن الماء ينقص مروءتى ما شربته
أبداً (٢) •

وفى سنة ١٧٢ هـ ظهر يحيى بن عبد الله ببلاد الديلم على ما سلف
ذكره ، وهوى أمره ، فشق ذلك على الرشيد ، فأنهض اليه الفضل ،
وقد استطاع الفضل بدعائه أن يستنزل يحيى من حصونه بعد أن أمنه
ووعده وتوعده ، وقدم به على الرشيد فأكرمه الرشيد ، كما أبرّ الفضل
وشكر فعله (٣) •

وفى سنة ١٧٦ هـ قلده الرشيد المشرق كله من النهران الى أقصى بلاد
الترك فشخص الى عمله سنة ١٧٨ هـ ، وودعه الرشيد والأشراف والوجوه
وساروا معه ، فلما وصل الى خراسان ، أزال سيرة الجور ، وبنى
المساجد والحياض والربط ، وأحرق دفاتر البقايا ، وزاد الجند ، ووصل
الزوار والقواد والكتاب ، فاستقرت الأمور هناك واستقامت (٤) •

وبلغ كرم الفضل الغاية حتى مدحه أحد الشعراء بقوله :

ما لقينا من جود فضل بن يحيى
ترك الناس كلهم شعراء

(١) ابن خلدون ١ : ٤٠٨ - ٤٠٩ •

(٢) الهشيارى ١٩٤ •

(٣) الجهشيارى ١٩٠ •

(٤) ابن خلدون ١ : ٤٠٩ •

علم المفحمين أن ينطقوا الشع
ر رصيناً ، والباخلين السخاء^(١)

جعفر بن يحيى :

كان جعفر بن يحيى فصيحاً لبياً ، ذكياً فطنا كريماً حلماً ، وكان
الرشيد يأنس به أكثر من أنسه بأخيه الفضل لسهولة أخلاق جعفر ، وجِدُّ
أخيه الذى غلب عليه ، فنقل له الخاتم على ما مر ذكره ، فصار جعفر
متمكناً عند الرشيد ، غالباً على أمره ، وبلغ من علو المرتبة عنده ما لم
يبلغه سواه ، حتى ليقال إن الرشيد اتخذ ثوباً فضفاضاً ، كان يدخله هو
وجعفر جميعاً بملابسهما ، وقلاده الرشيد بريد الآفاق ، ودور الضرب
والطراز فى جميع الكور^(٢) .

وقد وصف ابن مناذر الألفة بين الرشيد وجعفر بقوله :

قد تقطع الرحم القريب وتكفر الذئ
عمى ولا كتقارب القلبين
يئدنى الهوى هذا ويدنى ذا الهوى
فإذا هما نفس ترى نفسين^(٣)

والذى يتطلع الى الفضل بن يحيى وأخيه جعفر يجد أنهما تقاسما
حياة الرشيد ومملكته ، ورُدَّتْ لهما جميع الأمور فيها ، فبينما كان
المشرق كله للفضل كما سبق ، كان المغرب من الأنبار الى افريقية الى
جعفر ، وقد قلَّده سنة ١٨٦ بالاضافة الى عمله مع الرشيد ، فأقام جعفر

(١) الجهشيارى ١٩٥ .

(٢) الجشيارى ٢٠٤ وابن خلكان ١٠٧ .

(٣) الاغانى ١٧ : ٢٦ .

مع الرشيد وأتاب عنه من أدار هذه البقاع الشاسعة (١) • ثم كما كان محمد الأمين في حجر الفضل كان عبد الله الزلامون في حجر جعفر ، وقد اهتم به جعفر كل الاهتمام ، وأشار على الرشيد أن يبايع له بالعهد بعد محمد ، وقام بالأمر حتى عقده له وأخذ الأيمان على بنى هاشم بذلك ، وكتب به الى العمال (٢) •

وقد امتاز جعفر بمكانة خاصة لأنه كان سلساً يعرف الجد واللهم ، فكان بذلك أقرب الى نفس الرشيد من أخيه كما مر ، وقد وصل جعفر الى مكانة من الرشيد أقرب الى الخيال منها الى الحقيقة ، ومما يدل على ذلك قصته مع عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس وقد رواها الجهشيارى (٣) والأصفهاني (٤) وابن خلكان (٥) وابن طباطبا (٦) • وهاك موجزا لها :

قال إبراهيم بن المهدي : جلس جعفر بن يحيى يوماً للشرب ، وأحبب الخلوة ، فأحضر ندماء الذين يأنس بهم ، وجلس معهم ، فكنت فيهم ، وقد هبىء المجلس ولبسنا الثياب المصبغة ، (وكانوا إذا جلسوا في مجلس الشراب واللهو لبسوا الثياب الحمر والصر والخر) •

ثم إن جعفر بن يحيى تقدم الى الحاجب ألا يأذن لأحد سوى رجل من الندماء كان قد تأخر اسمه عبد الملك بن صالح ، ثم جلسنا نشرب ، ودارت الكؤوس وخفقت العידان ، فجاء في هذه الساعة عبد الملك بن صالح ابن علي الهاشمي ، وكان شديد الوقار والدين والحشمة ، وكان الرشيد قد التمس منه أن يناديه ويشرب معه ، وبذل له على ذلك أموالاً جلية

(١) الجهشيارى ١٩٠ •

(٢) المرجع السابق ٢١١

(٣) للوزراء والكتاب ٢١٢ — ٢١٤ •

(٤) الاغانى ٥ : ١١١ — ١١٢ •

(٥) وفیات الاميان ١ : ١٠٦ •

(٦) الفخرى ١٨١ — ١٨٢ •

فلم يقبل ، فكان ذلك سبب موجدة الرشيد عليه ، فأدخله الحاجب ظانا أنه عبد الملك الذى أذن جعفر بإدخاله ، فلما دخل عبد الملك وراه جعفر كاد عقله يذهب من الحياء ، وفطن الى أن القضية قد اشتبهت على الحاجب ، وأدرك عبد الملك الحرج الذى وقع فيه جعفر وأصحابه ، فدعا غلامه وناولوه سواده وقلنسوته ، وأقبل على المجلس وسلم وقال : افعلوا بنا ما فعلتم بأنفسكم فدنا منه خادم فألْبَسَه حريرة ، وجاء فجلس ودعا بطعام فأكل ، ودعا بنبيذ فأتوه برطل فشرب ، وقال : ارغقوا بنا فليس لنا عادة بهذا ، ثم باسطنا ومازحنا ، وما زال حتى انبسط جعفر ابن يحيى وزال انتقباضه وحيأؤه ، فلما أراد الانصراف قال له جعفر : سل حاجتك فما تحيط بمقدرتى بمكافأة ما كان منك ، فقال : إن فى قلب أمير المؤمنين سخط ، فقتلناه الرضا عني ، فقا لجعفر : قد رضى عنك أمير المؤمنين • قال وعلى ٤٠٠٠٠٠ درهم ، قال جعفر : أنها لعندى حاضرة ، ولكن أجعلها من مال أمير المؤمنين فإنه أنبل لك وأحب إليك ، قال : وابراهيم ابني أحب أن أشهد ظهره بصير من أولاد الخلافة ، قال : قد زوجته أمير المؤمنين العالية ابنته ، قال : وأحب أن يخفق لواء على رأسه ، قال قد ولّاه مصر • وانصرف عبد الملك ونحن نعجب من إقدام جعفر على ذلك ، فلما كان من الغد وقفنا على باب الرشيد ، ودخل جعفر فلم يلبث أن دعى بأبى يوسف القاضى ومحمد بن الحسن وابراهيم ابن عبد الملك وخرج ابراهيم وقد خلّع عليه وزوج ، وحملت البدر الى منزل عبد الملك ، وخرج جعفر ، فأشار إلينا باتّباعه الى منزله ، فلما صرنا اليه قال : تعلقت قلوبكم بأول الحديث من أمر عبد الملك فأحببتم علم آخره ، فأتى لما دخلت على أمير المؤمنين ، ابتدأت القصة كما كانت من أولها الى آخرها بدون تغيير ، فجعل يقول : أحسن والله ، حتى إذا أقمت خبرة قال : ما صنعت به ؟ فأخبرته بما سأله ، فجعل يقول : أحسنت ! أحسنت ! •

ولما هاجت العvisية بالشام سنة ١٨٠ هـ قال الرشيد لجعفر :

إما أن تخرج إليها أو أخرج أنا فقال له جعفر : أنا آفك بنفسى ،
وشخص لها ، فسكن الفتنة ، وأعاد الناس الى الأمن والطاعة (١) .

وقد زاد اتصال جعفر بالرشيد ، وأصبح يدخل فى كل أمر من
أمره ، فى الجد واللهو على السواء ، وقد تخوف يحيى على جعفر من
ذلك ، وقال للرشيد : يا أمير المؤمنين ، إني أكره مداخل جعفر ، ولست آمن
أن ترجع العاقبة عليه فى ذلك منك ، فلو أعفيتة ، واقتصرت به على ما يتولاه
من جسيم أعمالك لكان أحبّ الىّ ، وآمن عليه عندى ، فطمأنه الرشيد ،
وقال له : لا عليك يا أبت (٢) .

وقبل أن ندع يحيى وابنيه هذين نسوق عنهم القصة الطريفة
القاتلية : قال أبو القاسم الزهرى : كنت أسير مع يحيى بن خالد وهو بين
ابنيه الفضل وجعفر ، فاذا بأبى الينبغى العباس بن طرخان واقف على
الطريق فنادانى : يازهرى ، فاستشرفت له : فقال :

صحت البرامك عشرا ولا (٣)

وييتى كراء وخبزى شرا

فسمعه يحيى ، فالتفت الى الفضل وجعفر وقال : أسمعتما ؟ قال
الزهرى : فلما كان من الغد جاعنى العباس فقلت له : ويحك ! ما هذا
الذى عرضت له نفسك بالأمس ؟ . فقال : اسكت ، ما هو إلا أن
انصرفت الى منزلى حتى جاءتني من قبل الفضل بكّرة ، ومن قبل جعفر
بكّرة ، ووهب لى كل واحد منهما دارا ، وأجرى لى ما يكفينى (٤) .

(١) ابن الاثير ٦ : ٥٠ .

(٢) الجهشيارى ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٣) ولا : متوالية .

(٤) الجهشيارى ٢٠١ - ٢٠٢ .

محمد وموسى :

كان هذان من سادة رجال العصر وأمجاده ، ولكنهما لم يصلا الى مركز الفضل وجعفر ، وقد وصفهما ابراهيم الموصلى مع الفضل وجعفر بقوله : أما الفضل فيرضيك بفضله ، وأما جعفر فيرضيك بقوله ، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد ، وأما موسى فيفعل أكثر مما يجد (١) .

وفي الإخوة الأربعة يقول الشاعر :

أولاد يحيى بن خالد وهم أربعة ، سيد ومتبوع
الخير فيهم إذا سألت دائم مفرق فيهم ومجموع (٢)

وكان ليحيى ابن خامس يسمى ابراهيم : توفي وسنه تسع عشرة سنة ، فلم يكن له دور في ادارة الدولة ومناصبها ، ومما يتصل به أن يحيى أحضر يوماً المؤدبين والمشرفين الذين ضم اليهم ابنه هذا وسألهم : ما حال ابراهيم ؟ فقالوا : بلغ من الأدب كذا ، ونظر في كذا ، واتخذنا له من الضياع كذا قال : ما عن هذا سألت ، هل اتخذتم له في أعناق الرجال منناً ؟ فسكوا ، فقال يحيى : لقد قصرتم ، هو الى هذا أخرج ، وأمر بحمل ٥٠٠٠ درهم وتفريقها باسمه في الناس (٣) .

هذا هو يحيى وهؤلاء هم أولاده ، كواكب ذلك العهد ، وسادة هذا العصر غير منازعين ، وبينما كان هؤلاء يشغلون هذه المكانة السامية كان الفضل بن الربيع يدس عليهم • ويشى بهم ، ويؤلب الرشيد وأهله ضدهم ، وقد انتبه لذلك ابن خلدون (٤) فقال انه بسبب نبوغ

-
- (١) الجهشيارى ١٩٨ .
(٢) المسمودى ٢ : ٢٨٢ .
(٣) الجهشيارى ١٨٠ .
(٤) المقدمة ص ١٢ .

البرامكة وبعد صيتهم ، كشفت لهم وجوه المنافسة والحقد ، ودبغت الى فراشهم الوثير عقارب السعاية ، وقد تولى كبر هذا الأمر الفضل ابن الربيع وأشياع الفضل بن الربيع ، الذين كانوا يختفون خلف الأسباب التي قيل إنها سبب النكبة فأخذوا يعظمون صغيرها ، ويبرزون خفيها لدى ولي الأمر ، واليك عن هذا بعض التفاصيل :

في أوائل عهد الرشيد كان الأمر كله متروكا للبرامكة ، ولم يكن للفضل بن الربيع سلطان يذكر ، وكانت الخيزران — صاحبة الأمر والنهي في الدولة — تعمل على إبعاده عن القصر ، خوفا منه ومن وشايته وسعايته ، ولما يئس الفضل من استرضاء الخيزران ، أراد أن يتقرب الى الرشيد عن طريق زبيدة ، فوثق بها صلته ، وأظهر لها الخضوع والامتثال ، ولكن زبيدة وزوجها الرشيد كانا قليلي النفوذ في حياة الخيزران ، ومن ثم لم ينل الفضل شيئا يذكر من نباهة الذكر الى أن توفيت أم الخليفة سنة ١٧٣ هـ . يقول ابن الاثير (١) في ذلك « إنه لما ماتت الخيزران حمل الرشيد جنازتها ، ودفنها في مقابر قریش ، ولما فرغ من دفنها أعطى الخاتم للفضل بن الربيع وأخذه من جعفر بن يحيى ، ويضيف : إن الرشيد قال لابن الربيع : وحق المهدى ، إني كنت لأهم لك بالشئ من التولية وغيرها ، فتمنعني أمي ، فأطيع أمرها ، فخذ الخاتم من جعفر » .

وهكذا بدأ الفضل بن الربيع يزحف ، غير أن البرامكة كانوا أرسخ قدما ، وأقوى مركزا من أن يزحزحهم الفضل ببسّر ، أو يتغلب عليهم بسهولة ، ومن ثم احتاج الى جهد كبير ووقت طويل حتى وصل الى بغيته ، وكان في حيله وائتماره يتمثل اتجاهات أبيه ويترسم خطاه ، فكما كان الربيع يتخذ أبان بن صدقة كاتب أبي أيوب المورياني عينا له

(١) الكامل في التاريخ ٦ : ٤٠ .

على أبي أيوب ، كذلك اتخذ الفضلُ إسماعيل بن صبيح كاتب البرامكة عينا له عندهم ، وكما كان الربيع يستعين بالقشيري عدو معاوية بن يسار ، كذلك استعان الفضل بعلی بن عيسى بن ماهان عدو البرامكة ، وأوعز اليه أن يشي لدى الرشيد بموسى بن يحيى بن خالد ، ويتهمه أنه يكاتب أهل خراسان ليسير إليهم ويخرجهم عن الطاعة فحبسه الرشيد ثم أطلقه (١) .

وهناك سلاح آخر استعان به الفضل بن الربيع ، ذلك هو زبيدة ، وكان الفضل يعرف شغف الرشيد بها ويدرك مكانتها لديه ، فعرّفها الفضلُ أن من يحقها أن تأمر وتنهى في القصر كما كانت الخيزران تفعل في حياة زوجها ، وأنه لولا البرامكة الذين سلبوا صاحب السلطة نفوذه لكان لها ما أرادت ، ثم جدّت ظروف ولاية العهد ، ومال يحيى جعفر — كما سبق — الى العهد للمأمون ، وشدّدا الأيمان في الكعبة لدى الأمين بالوفاء لأخيه ، فاتخذ الفضل من هذا فرصة ، ليغري زبيدة بهؤلاء ، وليؤكد لها أن هوى البرامكة مع المأمون على الأمين .

وهناك جانب هام من جوانب هذه القضية ، يحدثنا عنه عبد الله ابن سليمان بن وهب فيقول : ان من أسباب زوال أمر البرامكة تقصيرهم في الفضل بن الربيع ، ومن أمثلة هذا التقصير ما روى أن الفضل بن الربيع دخل على يحيى وقد جلس لقضاء حوائج الناس ، فعرض عليه الفضل عشر رقاع ، فتعلّل يحيى في كل رقعة بعة ولم يوقع في شيء منها ، فاضطرب الفضل غيظا وخرج وهو يقول :

متى وعسى يثنى الزمانُ عِناهُ

بتصريف حال والزمان عِشور

فَتَقَضَى لِبَنَاتِ وَتُسَفَى حَسَائِفُ

وتحدث من بعد الأمور أمور (١)

وهكذا اندفع الفضل بن الربيع يهيماء السوء ، فأخذ يستر المحاسن ويظهر القبائح ، كما يقول ابن خلكان (٢) ، وكان من نتيجة وشاية الفضل ابن الربيع أن بدت من الرشيد مظاهر فتور تجاه البرامكة ، وفيما يلي صور لذلك الفتور :

في سنة ١٧٩ هـ صرف الرشيد محمد بن خالد بن برمك عن حجابته ، وقلدها الفضل بن الربيع ، وكانت أهمية هذا — بالإضافة الى الانحراف عن البرامكة — أن تمكن الفضل بن الربيع من الخليفة ، وأصبح بحكم منصبه من المقربين اليه المتصلين به وبأهله ، فمكن هذا للفضل ولدائسه ، وجعل الرشيد أقرب الى الاستجابة (٣) .

وفي نفس السنة عاد الفضل بن يحيى من خراسان ، فاستعمل عليها الرشيد منصور بن يزيد بن مزيد خال المهدي . وأخذ الرشيد يصرف الفضل عن الأعمال شيئاً فشيئاً ، ثم ظهر من الرشيد في سنة ١٨٣ هـ سخط على الفضل ، فشخص الفضل اليه بالرعدة ، ومعه أمته زبيدة بنت منير ، فرضى عنه ، وأقر الأمين معه لحضائنه ، ولم يرد اليه شيئاً من أعماله (٤) .

وكان يحيى بن خالد يدخل على الرشيد بغير إذن ، فدخل عليه يوماً وعنده جبريل بن بختيشوع الطبيب ، فسلكم ، فرد الرشيد رداً ضعيفاً ، ثم أقبل الرشيد على جبريل فقال : أيدخل عليك منزلك أحدٌ بدون إذن ؟

-
- (١) ابن خلكان ج ١ ص ٤١٣ .
(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٠٨ .
(٣) انظر الوزراء والكتاب ص ٢٣٣ .
(٤) الجهشيارى ٢٢٧ وابن الأثير ٦ : ٤٩ .

فقال : لا • قال فما بالنّا يَدْخُل علينا بدون إذن ؟ • • فقال يحيى :
يا أمير المؤمنين ، ما ابتدأت ذلك الساعة ، ولكن أمير المؤمنين خصنى به ،
حتى أنى كنت لأَدْخُل عليه وهو فى فراشه ، وما علمت أنّ أمير المؤمنين
كره ما كان يحب ، وإذ قد علمت ، فأنى سأكون فى الطبقة التى تجعلنى
فيها ، فاستحيى هارون ، وقال ما أردت ما تكره (١) •

وحدث بختيشوع الطبيب قال : دخلت يوما على الرشيد وهو جالس
فى قصر الخلد بمدينة السلام ، وكان البرامكة يسكنون بحذاءه من الجانب
الآخر وبينهم وبينه عرض دجلة ، قال : فنظر الرشيد فرأى اعتراك
الخيول ، وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد ، فقال : جزى الله
يحيى بن خالد خيرا ، تصدى للأمور وأراحنى من النكد ، ووفّر أوقاتي
على اللذة • ثم دخلت عليه وقد شرع يتغيّر عليهم ، وكان الفضل بن الربيع
بين يديه فنظر فرأى الخيول كما رآها تلك المرة ، فقال : استبد يحيى
بالأمور دونى ، فالخلافة على الحقيقة له وليس لى منها إلا اسمها !
قال : فعلمت أنه سينكبهم ، ثم نكبهم عقيب ذلك (٢) •

كان هذا الفتور وذلك الانحراف أول ثمرة يجنيها الفضل بن الربيع
لوشايته وإفساده ما بين الرشيد والبرامكة ، ولكن الفضل لم يكتف
بذلك ، بل استمر يدس للبرامكة لدى الرشيد ، واستطاع أن يدق على
وتر حساس إهيج الرشيد وأثار حفيظته ، فأذاع أن البرامكة ملاحدة
وثنيون يحنّون الى دين أجدادهم ، وأنهم يؤيدون العلويين سرّا ،
ويودّون نقل الخلافة اليهم ، ثم قفز بوشايته الى القمة حين أسر الرشيد
ولخاصته أن البرامكة يعملون للوصول الى الخلافة ، وأوعز الى مغن أن
يغنى للرشيد بهذين البيتين :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعدّ وشفت أنفسنا مما نَجِدْ

(١) ابن الاثير ٦ : ٥٨ •

(٢) الجهشيارى ٢٢٥ — ٢٦٢ والفخرى ١٨٤ •

واستبدعت مرة واحدة وإنما العاجز من لا يستبد (١)
ودس الفضل كذلك من رفع الى الرشيد مقطوعة شعرية بدون توقيع
جاء فيها :

قل لأمين الله في أرضه	ومن اليه الحل والعقد
هذا ابن يحيى قد غدا مالكا	مهلك ما بينكما حد
أمرك مردود الى أمره	وأمره ليس له رد
وقد بنى الدار التي ما بنى الـ	فرس لها مثلا ولا الهند
الدر والياقوت حصباؤها	وتربها العنبر والند
ونحن نخشى أنه وارث	ملكك إن غيبك اللحد
ولا يباهى العبد أربابه	إلا إذا ما بطر العبد

قال ابن خلكان : فلما وقف الرشيد عليها أضمر لجعفر السوء (٢) .
وأثمرت جهود الفضل بن الربيع ، ونجح دسه ، فوصل الى الغاية
التي أجهده نفسه من أجلها ، وتمت نكبة البرامكة ، التي يرويها المؤرخون
كما يلي :

كان الرشيد قد حج ومعه جعفر بن يحيى ، فلما عادا من الحج
ركبا السفن من الحيرة الى الأنبار ، ثم صحبه جعفر الى قصر الخلافة
بالأنبار وهناك ضمه الرشيد وقال له : لولا أنى أريد الجلوس الليلة مع
النساء ما فارقتك ، فسار جعفر الى منزله وواصل الرشيد الرسل
اليه باللطاف الى وجه السحر ، وحينئذ استدعى الرشيد غلامه مسورا
(وقيل إنما استدعى غلامه ياسرا) وقال لقد انتخبك لأمر لم أرض
له محمدا ولا عبد الله ، فحقت ظنى ، واحذر أن تراجعنى فتهلك . قال :
يا أمير المؤمنين ، لو أمرتنى بقتل نفسى لفعلت ، قال : اذهب الى جعفر بن
يحيى وجئنى برأسه الساعة . فوجم مسور لا يحير جوابا ، فقال له : مالك ؟

(١) أحمد أمين : هرون الرشيد ص ٢٢١ .

(٢) وفيات الاعيان ١ : ١٠٨ .

ويلك !! قال : الأمر عظيم ، وودت أنى مت قبل وقتى هذا • فقال : امضى
لأمرى • فمضى حتى دخل على جعفر وأبو زكار يغنيه :

فلا تبعد فكل فتى سيأتى عليه الموت يطرئ أو يتغادى
وكل ذخيرة لأبد يوماً وإن بقيت تصير الى نفاد
ولو غوديت من حدث الليالى فديتك بالطريف وبالتلاد

قال جعفر : يا مسرور ، سررتنى بقدومك وسؤتتى بدخولك من غير إذن •
فقال مسرور : الأمر أكبر من ذلك ، أجب أمير المؤمنين الى ما يريد بك ،
فقد أمرنى أن آتية برأسك •

فوقع جعفر على رجليه يقيلهما ، وقال : عاود أمير المؤمنين ، فان
الشراب قد حمله على ذلك •

فقال مسرور : ما أظنه شرب اليوم •

قال جعفر : دعنى أدخل دارى وأوصى •

قال مسرور : لا سبيل الى الدخول ، ولكن أوص ما بدا لك •

قال جعفر : لى عليك حق ، ولا تقدر على مكافأتى إلا الساعة •

قال مسرور : تجدنى سميحاً إلا فيما يخالف أمر أمير المؤمنين •

قال جعفر : خذنى معك ، وأعلمه أنك نفذت أمره ، فان ندم أخبرته ،
وان أصرّ عدت فننفذت ما يريد •

قال مسرور : أما ذلك فنعم •

وسار به الى الرشيد ، ثم تركه بحيث يسمع ودخل الرشيد فأخبره
بقتله ، فصاح الرشيد : وأين رأسه يا ابن اللخناء ؟ • فعاد مسرور الى
جعفر فغضب عنقه وحمل الى الخليفة رأسه (١) •

(١) الجهشيارى ٢٣٤ والمسعودى ٢ : ٢٨٨ — ٢٨٩ وابن الاثير ٦ : ٥٨
وابن خلكان ١ : ١٠٩ والفخرى ١٨٦ •

ووجه الرشيد مَنْ أَحاط بيحيى وولده وجميع أسبابه ، وحَوَّل
الفضل بن يحيى فحْبَسَ في بعض منازل الرشيد ، وحبس يحيى في منزله
وَأَخَذَ ما وجد لهم من مال وضياع وغير ذلك ، وأرسل الرشيد من ليلته
الى سائر البلاد في قبض أموالهم ووكلائهم ، ورقيقهم وأسبابهم وكل
ما لهم ، فلما أصبح أرسل جيفة جعفر الى بغداد وأمر أن يُنصَب
رأسه على جسر ، ويُقطع بدنه قطعتين تنصب كل قطعة على جسر (١) .
ولم يوجد ليحيى بن خالد إلا خمسة آلاف دينار ، وللفضل إلا أربعون
ألف درهم ، ووجد لمحمد بن يحيى سبعمائة ألف درهم ، ولم يوجد لموسى
شيء ولا لجعفر شيء (٢) .



تلك كانت نكبة البرامكة ، فما الأسباب التي يذكرها المؤرخون لهذه
النكبة ؟ أحب قبل أن أروى هذه الأسباب أن أذكر أنها لو كانت
أسبابا واضحة ترتبَتْ عليها هذه الكارثة لأوردناها قبل إيراد الحادثة
نفسها ، ولكن الواقع أن نكبة البرامكة تمت : ثم أخذ المؤرخون يتلمسون
العلل والأسباب لها بعد حدوثها ، فإمل ما نسبر عليه هنا هو تصوير
للواقع كما كان . أما هذه الأسباب فإليك عنها البيان :

مسألة العباسية : رُوي أن الرشيد كان شديد التعلق بجعفر ، ولم يكن
له صبر عنه ، وكان الرشيد شديد المحبة لأخته العباسية ، وكانت من أعز
النساء عليه ، ولا يقدر على مفارقتها ، فكان إذا غاب أحدهما (جعفر
أو العباسية) لا يتم له سرور ، فرأى أن يثْرَوْع جعفر من العباسية ليحل
لهما أن يجتمعا ، ولكنه اشترط على جعفر أن يكون الزواج لهذا الهدف
فقط ، وحرّم عليه الاجتماع بالعباسية دون أن يكون هو ثالثهما ،
ففتزوجها على ذلك ، وظل الحال على ذلك مدة دون أن يرفع جعفر فيها
عينه ، ودون أن يتبين وجهها ، ثم أرادت العباسية أن تلتقي بزوجهما
وتخلو به ، ولمحّت له بذلك ، فأعرض كل الاعراض ، فلما أعيتهما

(١) ابن الاثير ٦ : ٥٨ .

(٢) الجهشيارى ٢٤١ .

الحيلة بعثت الى عثابة أم جعفر ، وطلبت منها أن تقدمها الى ابنها جعفر كأنها جارية من جواريتها ، فامتنعت عثابة ، لكن العباسة طمأنتها وأنذرتها وأغرته حتى قبلت ، ووعدت ابنها بأنها ستقدم اليه جارية لا ككل الجوارى ، فتعجلها جعفر ، وأخذت تسوّف حتى تشوّق جعفر ، فقالت له بعد أن اتفقت مع العباسة : سأقدمها لك الليلة ، فشرّب جعفر بعض النبيذ ، والتقى بالجارية الفاتنة ، وتم بين الزوج والزوجة اللقاء ، ثم قالت العباسة له : كيف رأيت خديعة بنات الملوك ؟ * قال : وأى بنات الملوك أنت ؟ * قالت : أنا مولاتك العباسة ، فذعر ، وذهب الى أمه وقال لها : بعتنى والله رخيصة ، واشتملت العباسة منه على ولد ، وتمارصت حينما ظهر بها الحمل ، ثم استأذنت في الذهاب للحج فذهبت ووضعت هناك ، وعادت بعد أن وكلت أمر طفلها الى غلام وحاضنة (١) * .

حكاية يحيى بن عبد الله : سبق لنا أن تحدثنا عن يحيى بن عبد الله ، وكيف استنزله الفضل وأغراه بالاستسلام بعد أن قوى أمره ببلاد الديلم ، وكتب الرشيد له أمانا ، واستقبله استقبالا حسنا ، ثم وثرى يحيى بن عبد الله فقبض عليه الرشيد وحبسه عند جعفر ، ولما خاف يحيى بن عبد الله أن يفتك الرشيد به اتصل بجعفر وقال له ، اتق الله في أمري ، ولا تتعرض أن يكون خصمك غدا محمدا صلى الله عليه وسلم ، هو الله ما أحدثت حدثا ، ولا آويت محدثا ، فرق له جعفر ، وقال : اذهب حيث شئت في بلاد الله * قال : فكيف أذهب ولا آمن أن أؤخذ ؟ فوجه معه من أبلغه مأمنه (٢) * .

تلك هي الأسباب المحددة التي يذكرها المؤرخون وهي كما يبدو لى أسباب ساذجة يمكن نقدها أو نقضها ، ولكن الأسباب الحقيقية كانت

(١) المسعودى ٢ : ٨٨٦ — ٢٨٧ وابن الاثير ٦ : ١٧ . وابن خلكان ١ : ١٠٧ والفخرى ١٨٥ .

(٢) الاغانى ١٧ : ٤٣ وابن الاثير ٦ : ٥٧ .

خفية ، إنها تلك اليد التي تعبت في الظلام ، وهذه الأفعى التي تنفت سُمومها من وراء ستار ، إنها الفضل بن الربيع الذي اختلق هذه الأسباب أو كبرها وصوغها ذات خطر يمس العرض ويهدد التاج •

ففى حكاية العباسية نجد زبيدة — وقد ملأها ابن الربيع حنقا على البرامكة ورغبة في التخلص منهم — تقص على الرشيد خبر اتصال جعفر بزوجته ، دون أن تذكر له حيلة العباسية على جعفر في ذلك ، وتضيف زبيدة أن رائحة هذه الفضيحة قد شاعت في جوانب القصر فلم يبق فيه أحد إلا وقد علم بها (١) •

وفى حكاية يحيى بن عبد الله ، عرف الفضل بن الربيع قصة إخلاء سبيله عن طريق العين التي كانت له في قصر جعفر ، فنقل الخبر الى الرشيد مع التخويف من يحيى بن عبد الله ، والتحذير من أن يصل الى بلاد الديلم فنتجمع حوله الجموع هناك مرة أخرى ، وقد حدث أن التقى الرشيد وجعفر على المائدة في هذا المساء ، فجعل الرشيد يلقّم جعفرا ويحادثه ، ثم سأله عن يحيى ، فأجاب : هو بحاله في السجن ، فقال : بحياتى ؟ ففطن جعفر وقال : لا ، وحياتك وقص عليه أمره ، وقال : علمت أنه لا مكروه عنده • فقال الرشيد : نعم ما فعلت ، ما عدوت ما كان في نفسى • فلما قام جعفر نظر الرشيد اليه وقال : قتلنى الله إن لم أقتلك (٢) •

ولعل من الخير أن نورد آراء بعض الباحثين القدامى والمحدثين حول الأسباب التي دعت الى نكبة البرامكة ، وقد كان لبعضهم دراسة ذات بال فيها ، لم تقتئد بالأسباب الساذجة التي سبق إيرادها ، ولنرو في هذا المجال آراء ابن خلدون وابن خلكان والخضرى •

(١) المسعودى : مروج الذهب ٢٠ : ٢٨٧ •

(٢) ابن الأثير ٦ : ١٨ — ٥٩ • أما نهاية يحيى فقد ذكرنا من قبل أن الرشيد أعاد القبض عليه وقتله •

يرى ابن خلدون (١) أن نكبة البرامكة كانت ناشئة عن استبدادهم على الدولة ، واحتجابهم أموال الجبائية ، حتى كان الرشيد يطلب القليل من المال فلا يصل اليه ، فغلبوه على أمره ، وشاركوه في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في أمور الدولة ، فعظمت آثارهم ، وبعد صيتهم ، وعمرؤا مراتب الدولة بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها عن سواهم ، من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم . . . فعظمت الدالة منهم ، وانبسط الجاه عندهم ، وأنصرفت نحوهم الوجوه ، وخضعت لهم الرقاب ، وقصرت عليهم الآمال .

ويروى ابن خلكان (٢) أن سعيد بن سالم سئل عن جنائية البرامكة التي استوجبت غضب الرشيد فقال : والله ما كان منهم ما يوجب بعض عمل الرشيد بهم ، لكن طالت أيامهم ، وكل طويل مملول ، والله لقد استطال الناس أيام عمر بن الخطاب وما رأوا مثلاً عدلاً وأمناً ، وسعة أموال وفتوح ، وقد رأى الرشيد مع ذلك أنس النعمة بهم ، وكثرة حمد الناس لهم ، ورميهم بأمالهم دونه — والمملوك تتنافس بأقل من هذا — فتعنت عليهم وتجننى وطلب مساعتهم .

ويقول الأستاذ الخضرى (٣) :

« وأولع المؤرخون بذكر نكبة البرامكة وأجهدوا قرائحهم في تعرف أسباب إيقاع الرشيد بهم ولم يكن هذا العمل بدعاً في الدولة العباسية فان للمنصور والمهدى سلفاً في ذلك فقد أوقع المنصور بوزيره أبى أيوب الموريانى ، قتله هو وأقاربه واستصفى أموالهم لخيانة مالية اطلع عليها منهم ، وأوقع المهدى بوزيره أبى عبيد الله معاوية بن يسار ويعقوب بن داود لوشاية كانت بهما مع نزاهة الأول وحسن سيرته ،

(١) المقدمة ١١ — ١٢ .

(٢) وفيات الأعيان ١ : ١٠٨ .

(٣) محاضرات في تاريخ الدولة العباسية ص ١٦١ — ١٦٢ .

ومع ما كان للمهدي من الولوع بالثاني حتى كَتَبَ للجمهور أنه اتخذه
أخاً في الله • كل هذا قد سُبِقَ به الرشيد •

« ويرى المؤرخ أن هذا هو طبيعة الملك الاستبدادي ، يحب الملك
فيه أن يكون ذا السلطان الذي لا يشارك ، والحوّل الذي لا يقاوم ،
واليد الطولى التى لا تضارعها يد ، وكبار الرجال الذين يعينونه ويقومون
بتأييد سلطانه كثير منهم لا يقف عند حد في مكانته ونفوذه ، فلا يزالون
يرتفعون حتى تتنبه اليهم أفكار الخلفاء بما يليق به اليهم الحاسدون
والواشون من تفوّق سلطانهم على سلطانه ، واشتداد وطأتهم وعلو
أيديهم ، فتدخل الغيرة في قلوب أولئك الخلفاء ، والغيرة بدء الشعور
بعيوب أولئك الرجال ، فلا تزال معانيهم تتجسم وهفواتهم الصغيرة
تعظم ، وحينئذ يرى هذا السلطان المستبد ألا مناص من الايقاع بمن
كان سيفه الذي لا ينبو في الخطوب اشفاقا من هذا السيف أن ينقلب
عليه فيقتنص منه ملكه الذي دونه كل شيء •

وليس هذا خاصا بالرشيد والبرامكة ، بل كل مستبد هذا شأنه مع
وزرائه وأعوانه إلا قليلا من الوزراء يعلمون طباع الملوك فيقفون عند حد
لا يهيج الغيرة والحسد في قلوب الناس وقلب السلطان ، وهؤلاء أندر من
الكبريت الأحمر ، لأنهم يتغلبون على ما في طبع الانسان من عدم الوقوف
عند حد في العظمة والنكاثر في الأموال ، فعلى الوزراء وأعوان المستبدين
أن يلاحظوا ذلك وهذا ما يجعلنا نلاحظ أن وزراء المستبدين من الرؤساء
يصرّحون دائما بأن نشاطهم تنفيذ لرغبات وأوامر الرئيس ، حتى يحافظوا
على رضاه •

وأعيد هنا ما سبق أن أوردته من أنه ليس هناك ما يدعو لالتماس
الأسباب لنكبة البرامكة ، فليست هذه النكبة بدعاً في هذا العصر ،
وليست أشق وأقسى مما جرى فيه من نكبات ، فلقد كان عصرا طابعه
الأخذ بالشبهة لما أوردنا من أسباب واضحة •

وعلى كل حال فقد كتب للفضل النجاح في سعايته ، وتمت نكبة

البرامكة ، ولكن العجيب أن الايقاع بهم لم يشف غلة ابن الربيع ، بل ظل يحقد عليهم ويكره ذكرهم ، حدث أبو العتاهية قال : مازال الفضل بن الربيع من أميل الناس الى ، وكنت أدخل عليه فأنشده ، ويستحسن إنشادي ويطلب مني أن أعود اليه للسمر والانس ، وقد ذهبت اليه مرة فأقبل على يستشدي ، ويسألني فأحدثه وهو راض مسرور حتى أنشدته :

ولى الشباب فما له من حيلة
وكسا ذؤابتى المشيب خمارا
أين البرامكة الذين عهدتهم
يالأس أعظم أهلها أخطارا

فلما سمع ذكر البرامكة تغير لونه ، ورأيت الكراهية في وجهه ، وما رأيت منه خيرا بعد ذلك (١) .

ولما انقضى أمر البرامكة اختلطت الأمور ، وقصد الفضل بن الربيع لخدمة الرشيد في حضرته ، وأضاع ما وراء ذلك ، فندم الرشيد على ما كان منه في أمر البرامكة ، وتحصر على ما فرط منه نحوهم ، وخطب جماعة من خواصه بأنه لو وثق بصفاء النية منهم لأعادهم الى حالهم وكان كثيرا ما يقول : حملونا على نصحائنا وكفائتنا ، وأوهمونا أنهم يقومون مقامهم ، فلما صرنا الى ما أرادوا منا . لم يغنوا عنا شيئا ، وينشد :

أقللوا عليهم لا أبا لأبيكم
من اللوم أو سددوا المكان الذى سدوا

وذكر الفضل بن مروان : أن أمور البريد بعد البرامكة كانت مهمة ، وأن الرشيد توفي وفي الديوان أربعة آلاف خريطة لم تنقص (٢) .

وقد حرّم الرشيد على الشعراء أن يترثوا البرامكة ، وأمر بالمؤاخذة على ذلك (٣) ، ولعل الرشيد أحس بأنه لو ترك للشعراء المعنان لأسرفوا

(١) الاغانى ٣ : ١٦٤ .

(٢) الجهشيارى ٢٥٨ ، ٢٦٥ وابن خلكان ١ : ١٠٨ .

(٣) الفخرى ١٧٤ .

في رثائهم وذكر مآثرهم ، مما قد يهيج الشعور ضد الخليفة ، ويحیی ذكر هذا الحادث الأليم ، ولكن الشعراء برهنوا على أن القوة لا سلطان لها على العواطف وخطرات القلوب ، وأنه اذا كان الرشيد استطاع بتجابه وصولجته أن يسجن ويقتل ، فما كان ليستطيع أن يسيطر على جنان الشاعر ولا أن يمسك منه قلمه ، أو يحطم ريشته ، ومن ثم انطلق الشعراء ينظمون في البرامكة الرثاء الدامع الحزين ، ويصورون في أدبهم الخالد ما كان لبنى برمك من مآثر وأفضال ، وفيما يلي نماذج من هذا الرثاء :

قال الرقاشي :

أخى استرحنا واستراحت ركبنا
وأمسك من يتجدى ومن كان يجتدى
فقل للمطايا : قد أمنت من الشرى
وقطر الفيافي فدأ بعد فدأ
وقل للمنايا : قد ظفرت بجعفر
ولن تظفري من بعده بمسود
وقل للمعطايا : بعد فضل تعطلي
وقل للرزايا : كل يوم تجددى

وقال أيضا :

هدا الخالون من شجو فناموا
وعينى لا يداعبها منام
وما سهرت لأنى مستهام
إذا أرق المصب المستهام
ولكن الحوادث أرقتنى
فلى سهر إذا هجد النيام

أصبتُ بسادة كانوا نجوماً
بهم نُسقى إذا انقطع الغمام

أما والله لولا خوف واشٍ
وعينٍ للخليفة لا تنام

لطفنا حول جزعك واستلمنا
كما للناس للحجر استلام

على المعروف والدنيا جميعاً
ودولة آل برمكٍ السلام

وقال دعبل الخزاعي كما في رواية ابن خلكان أو المنذر بن المعيرة
كما في رواية البيهقي :

ولما رأيت السيف قد قدَّ جعفرًا
ونادى مناد للخليفة في يحيى

بكيت على الدنيا وأيقنت أنه
قصارى الفتى يوما مفارقة الدنيا

أجعفر إن تهلك فرب عزيمة
كشفت ، ونعمى قد وصلت بها نعمى

فقل للذى أبدى ليحيى وجعفر
شماتته : أبشر لتأتيهم العقبى

لئن زال غصن الملك عن آل برمك
فما زال حتى أثمر الغصن واستعلى

وقال صالح بن طريف :

يا بنى برمك واهاً لكم ولأيامكم المقتبلة

كانت الدنيا عروساً بكم^(١) فهي الآن ثكول^(٢) أرمله (١)

ويقول Richard Cok (٢) عن أسرة البرامكة وعن نكبتهم ما يلي :

« وبلغت الادارة والنظام ذروة النجاح في عهد الخلفاء العباسيين الأول بفضل الخدمات التي قدمتها أسرة البرامكة العظيمة التي كان أفرادها موهوبين عباقرة ، وقد كان سلطان البرامكة يتلو أو يماثل سلطان الخليفة .

« وفي نوبة من نوبات غضب هارون الرشيد ، وبدون سبب واضح ، ألقى بأفراد هذه الأسرة كلها في أعماق السجون ، وصادر أملاكهم الواسعة ، ولم يكتف بقتل جعفر ، بل صلبه على الجسر ، وقد سببت هذه الداهية التي نزلت بالبرامكة إحساساً عميقاً من الأسف ، انعكس على شعر أكثر الشعراء المعاصرين .

« وقد وصل جعفر الى قمة الشهرة والمجد ، ليس فقط لأنه أقوى شخصية بعد الخليفة ، بل أيضاً لأنه كان كريماً الى درجة الاسراف ، والأدب العربي يحسب أفاضل لا نهاية لها عن سخائه وكرم ضيافته ، وجوده الذي كثيراً ما كان الى الاسراف أقرب ، وهناك أيضاً حكايات تفوق الحصر عن ألفت هارون وعلاقته به ، وكذلك عن ذكائه وسرعة بديهته في تصريف الأمور .

ومن الناحية الاجتماعية والعقلية ، تركت نكبة البرامكة فراغاً في حياة بغداد لم يملأ قط فيما بعد » .

(١) الجهشيلارى ٢٣٩ وابن خلكان ١ : ١١٠ والبيهقى : والمحاسن
والمساوىء ص ١٢٢ .

(٢) The City of Peace pp, 68-73 abridged.

الفضل بن الربيع

وموقفه بين الأُميين والمأمون

تعتبر المؤامرة التي دبرها الفضل بن الربيع هذه المرة أفظع مؤامرات العصر العباسي الأول كله وأقساها ، فعهدنا بالمؤامرة تنتهي بالفتك بفرد واحد أو بأفراد قلائل ، ولكن الفضل في هذه المرة دفع آلاف الناس الى الموت ، وزج بهم في حرب طويلة مدمرة ليصل الى تحقيق أمله وإرضاء شهواته ، ولكن الحظ لم يحالفه هذه المرة ، بل كتب لمسه الفشل ، وأصبح الأُميين وقودا لهذه النار التي أشعلها وزيره ، وأجج أوراها ناصحوه ومستشاروه •

ويرجع تاريخ هذه المؤامرة الى حياة الرشيد ، فقد سبق أن ذكرنا أنه لما ثار رافع بن ليث بخراسان ، وعجزت جيوش الخلافة هناك عن إخماد هذه الثورة ، اضطر الرشيد أن يغادر الرقعة ومع جيش كبير ليواجه بنفسه ذلك الثائر ، ولكن الرشيد مرض في الطريق فحط رحاله في طوس ، ثم أرسل ابنه المأمون مع بعض الجند الى خراسان وبقي هو ومع وزيره الفضل بن الربيع وأكثر أمواله ومتاعه ، وبقيّة جيشه على أن تزول عنه العلة فيلحق بالمأمون ، ولكن العلة زادت عليه ، وأحس شبح الموت يقترب منه ، فأحضر وزيره وقواده وكبار رجاله ، وأوصى أمامهم للمأمون بجميع ما في عسكره ، من مال وأثاث ورقيق وكراع^(١) ، وأوصى كذلك أن يسير باقي الجيش من طوس الى خراسان ليساعد المأمون فيما هو بصدده من نضال وكفاح ، وأخذ بذلك العهد على الفضل واسماعيل بن صبيح وغيرهما من كبار رجاله الذين كانوا معه (٢) •

(١) الكراع : الخيل وقيل اسم يجمع بين الخيل والسلاح .

(٢) انظر الجشيارى ص ٢٧٣ وابن الاثير ٦ ة ٧٣ .

هذا هو جانب المأمون والرشيد من مشكلتنا ، وهناك جانب آخر كان يدبّر أمرا مخالفا ، ذلك الجانب هو الأمين والفضل بن الربيع ، أما الأمين فما إن عرف مرض أبيه حتى أرسل أحد أتباعه المخلصين وهو بكر بن المعتمر ، وجعل له في كل يوم ألف دينار وأرسل معه كتبا ظاهرة فيها السؤال عن الخليفة والدعاء له ، وتسلّم هذه الكتب إذا كان الخليفة حيا ، وكتبا باطنة الى الفضل واسماعيل بن صبيح تسلم بعد وفاة الخليفة ، وفيها أمره الى القوم بالقول الى بغداد ، والاحتياط على ما في العسكر بحيث لا يتسرب منه شيء الى خراسان ، ووصل بكر بن المعتمر والرشيد لا يزال حيا ، فسلم الكتب الظاهرة ، ولكن أخبار الكتب السرية وصلت الى الرشيد ، فطلبها من بكر فأنكر وجود شيء منها معه ، فأمر الرشيد بضربه ، وطلب من الفضل تقريره فان أقر وإلا ضرب عنقه ، وكان بكر يدرك أن الفضل يستجيب للغدر الذي يريده الأمين ، وأنه لن يكثر بأوامر الرشيد اذا مات الرشيد ، ومن ثم أرسل بكر الى الفضل من يقول له أن يسوّف في تنفيذ أوامر الرشيد معه لأنه يحمل من الأمين سرا خطيرا فيه للفضل نفع وخير ، واستجاب الفضل كعادته الى رغبة الأمين الذي قد يصبح خليفة بين عشية وضحاها ، فأرجأ وما طل في تعذيب بكر وتقريره (١) .

هذا هو الدور الأول الذي لعبه الأمين ، ولا نزاع أنه قام به اطمئنانا الى استجابة الفضل ، أما الفضل فقد أوفى بما أراد الأمين وزاد ، فانه تظاهر بالقسوة على بكر ، ولكن الواقع أنه خفف عنه ما استطاع الى ذلك سبيلا ، وما إن صعدت روح الرشيد حتى استهان الفضل بالميت المسجى على سريرته — كما فعل أبوه من قبل بالمنصور — وخلع من عنقه طاعته ، ونسى أو أهمل العهود والوعود التي أقسم على الوفاء بها

(١) ابن الاثير ٦ : ٧٣ والجهشياري ٢٧٣ — ٢٧٤ .

أمامه ، وسارع الى بكر بن المعتمر وهو في سجنه فقال للسجان : خلوا عن أبي خليفة ، فقال بكر : ليس هذا وقتا تكتنئني فيه ، فدعا الفضل بخلع فخلعها على بكر ، وقال له : أعظم الله أجرك في أمير المؤمنين ، ثم أخذه معه الى حيث وضع جثمان الرشيد فأطلع بكر عليه ، وكشف الفضل عن وجه الرشيد ليؤكد أنه مات ، ثم قال له : هات الكتب التي معك ، فأحضر بكر صندوقا صغيرا كان معه ، قد بثقت قوائمه وجعلت الكتب فيها ، وجعل الجلد فوقها فشق الجلد وكسرت القوائم ، وسلم بكر الكتب الى أصحابها ، وكان بين الكتب كتاب الى الفضل يطلب اليه العودة بالمال والجند والمعتاد ، وكتب الى صالح بن الرشيد بأمره ألا ينفذ رأيا أو يبرم أمرا الا برأى الفضل ، وأقر الأمين الخدم على ما في أيديهم من الأموال والخزائن والسلاح ، وأمر ألا يُصرف عطاء أو رزق للعسكر بدون رأى الفضل ، وأقر كل من كان اليه عمل على عمله كصاحب الشرطة والحرس والحجابة ، فلما قرعوا الكتب أخذوا يتسارعون في تنفيذ وصية الرشيد فيلحقون بالمأمون أو تنفيذ أمر الأمين فيعودون الى بغداد ، ولكن الفضل وهو كبير الزكب ومدير أمره صاح فيهم لا أدع ملكا حاضرا لأمر لا أدري ما يكون عن أمره ، ولست أملك إلا طاعة امام العصر والخليفة الآن ، واستغل رغبة الجند في العودة الى أهلهم ، فأمرهم بالعودة الى بغداد ، غير مكثرت بما عاهد الله عليه ولا موف بما وعد أن يقوم به (١) .

وكان من الممكن أن يعفو المأمون عن الفضل ، وأن يغفر له هذه الزلة ، كما عفا عنه فيما بعد مع تراكم الذنوب عليه ، وكثرة الجرائم التي ارتكبها ، ولكن الفضل — كما يقول ابن خلكان (٢) — خاف من المأمون إن انتهت الخلافة اليه أن ينتقم منه لهذا التصرف ، فزين للمأمون أن يخلع المأمون من ولاية العهد ، ويجعل ولاية عهده لابنه موسى .

(١) المرجعان السابقان .

(٢) وفيات الاعيان ١ : ١١٢ .

والفضل هنا أناني بعيد العمق في الأنانية ، لقد أراد أن يضمن لنفسه النجاة ، ولو أدى ذلك الى الدمار والحرب والخراب وقتل الأبرياء وتيتم الأطفال ، فقسم العالم الاسلامي معسكرين وانطلقت السيوف والحرب بين الرجل وأهله ، وبين المسلم وأخيه المسلم ، وتساقط الجند في الميدان ، وقتل القواد والرؤساء ، وتوقفت أعمال العمران ، ومست يدُ الدمار حضارة بغداد ، وتعرض سكانها الى أزمة عنيفة ، وكل هذا ليفدى الفضل نفسه ، ويضمن لشخصه السلامة .

ومسألة أخرى نأخذها على الفضل بن الربيع ، وهي تعجيله بإثارة هذه الفتنة ، فقد بدأ يشعل أوراها عقب وصوله بغداد عائدا من طوس ، ولا يكاد الانسان يجد سببا مقبولا لذلك التذكير بالشر إلا شغف الفضل بالشغب والمؤامرات وسفك الدماء ، أما ما أجمع عليه المؤرخون من أن الفضل خاف أن تقضى الخلافة للمأمون وهو حي فينكل به ، فلا أميل الى التسليم به لأن الأمين كان في مقتبل العمر وشرخ الشباب ، وكانت صحته وقوته مضرب الأمثال حتى ليقال إنه صارع مرة أسدا بدون سلاح فصرعه (١) ، صحيح أن الأعمار بيد الله ، ولكن الظواهر لم تكن توحي بضرورة هذا التعجيل ، وقد كان المنصور يعترم نقل ولاية العهد من عيسى بن موسى الى المهدي ، ولكنه لم يتقدم على هذا إلا بعد أحد عشر عاما من ولايته حينما استقرت له الأمور ، فلو أن الفضل أرجأ هذا التغيير بعض الوقت وسعى في اصلاح ما بين الأخوين ، وحث الأمين أن يستجيب الى رغبة المأمون في التقرب والتجرب ، لكان من المحتمل أن تتحسن الأحوال . وأن تصفو العلاقات ، ولكنه الفضل الذي ورث أباه في الشغف بالدس والائتمار ، فسلك ذلك الطريق الجعوج ، وزج بالعالم الاسلامي في هذا الأتون فهاهو ذا التاريخ لا ينسى ، وإنما يجدد عليه ذكرى هذا الموقف المشين .

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١١٦ .

ولم يكن الأمين في أول الأمر يفكر في عزل المأمون ولا يميل إليه . ولكن الفضل هو الذى فتح هذا الباب ، ولم يزل يصغّر عنده أمر المأمون ، ويزيّن له خلعه ، وكان مما قاله له : ما تنتظر بعبد الله والقاسم ؟ فإن البيعة كانت لك قبلهما ، وانما أدخلنا فيها بعدك ، وأيد على بن عيسى بن ماهان الفضل فيما ذهب إليه ، فوافقهما الأمين ، وعزم على تنفيذ ذلك ، وتحمس له ، حتى إنه قال يرمي للفضل : يا فضل ، أحياء مع المأمون ؟ لابد من خلعه فاعتبط الفضل بهذا وأخذ يغريه ويقول له : فمتى ذلك ؟ إذا انتظرت له حتى يخلب على خراسان وما فيها صعب عليك أن تنال ما تحب (١) .

وهكذا اتفق على ذلك الخليفة محمد الأمين ووزيره الفضل بن الربيع وعلى بن عيسى بن ماهان الذى كان الأمين يلقبه شيخ الدعوة ونائب هذه الدولة ، وعارض هؤلاء جماعة آخرون من السادة والقادة ، ولكن كفتهم شالت أمام كفة الخليفة وأشياعه (٢) .

وبينما كانت بغداد تضطرب بهذه التيارات ، كان المأمون بخراسان يثجل العهد الذى قطعه على نفسه ، ويقف من أخيه الأمين موقف الوالى المخلص من الخليفة العظيم ، فهو يواتر كتبه له ، ويحشدها بعبارات الاجلال والتعظيم ، ثم يواصل ارسال الهدايا العظيمة اليه من طرّف خراسان من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح (٣) .

غير أن موقف المأمون لم يغير من الأمر شيئاً ، بل اندفع الفضل بن الربيع ينفذ ما تم الاتفاق عليه مع الأمين وعلى بن عيسى ، واتخذ لخلع المأمون خطوات متتالية مثابرة أغرى بها الأمين فاستجاب الأمين لإغرائه :

(١) ابن الاثير ٦ : ٧٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) ابن الاثير ٦ : ٧٤ والخضرى ٢ : ٢١٦ .

فكان أول ما فعله أن كتب بولاية العهد الى موسى بن الأمين على أن يكون تاليا للمأمون والقاسم ، وكتب الى جميع العمال بالدعاء له بعد الدعاء لهما (١) .

ثم استدعى القاسم من الجزيرة وعزله عما كان بيده ، فأدرك المأمون أن عزل القاسم ليس إلا تمهيدا لعزله هو أيضا (٢) .

ثم كتب الأمين الى عامل المأمون على الرى يأمره أن يرسل اليه ببغداد بعض طرف الرى ، وقد كان ذلك تجاهلا لموضع المأمون ، فمن حقه هو وحده أن يتصل بعماله تبعا لوصية الرشيد ، ولكن الأمين كما ذكرنا بدأ يهمل هذه الوصية ويتمرد عليها ، وقد استجاب عامل الرى للخليفة ، فأرسل اليه الطرف والهدايا ، ثم أحس بخطئه فكتب الأمر على المأمون ، وعن الفضل بن سهل ، مدبر دولة المأمون ، ولكن ذلك بلغ المأمون فعزل ذلك العامل وولى آخر مكانه (٣) .

ثم أشار اسماعيل بن صبيح على الأمين أن يكتب للمأمون يعرفه حاجته اليه ، ويبايعه شوقه الى قربه ، وإيثاره الاستعانة برأيه ومشورته ، ويسأله القدوم عليه ، فقبل الأمين هذا الرأى ، وأمر اسماعيل أن يكتب ففعل ولكن المأمون أدرك هذه الخدعة ، فلم يلتفت الى الأمين ولم يجبه (٤) .

وكتب المأمون للأمين يطلب منه أن يرسل له زوجته أم عيسى بنت الهادى وولديه منها ، وكان المأمون خلفهم ببغداد عند رحلته ، وأن يرسل له مائة ألف دينار كان الرشيد أوصى بها اليه من بيت المال ،

(١) ابن الاثير ٦ : ٧٥ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) ابن الاثير ٦ : ٧٥ .

(٤) الجهشيارى ص ٢٩٢ وابن الاثير ٦ : ٧٦ .

فأجاب الأمين أنه صرف المال في أمور المسلمين فيما هو أولى من وصية الرشيد ، ورفض أن يرسل للمأمون زوجته وولديه قاتلاً إنه لا يرى تعريضهم لمشقة السفر ، وأنهم يجرون عنده مجرى حرمه وولده (١) .

ثم كتب الأمين الى المأمون يسأله التجافي له عن بعض كور خراسان ، وأن يطلق له إنفاذ رجل يتقلد البريد من قبله ليكتبه بأخباره ، وأن يرسل اليه كل عام مما يتبقى عنده من المال بعد نفقاته ، فاستشار المأمون أصحابه ، فأشار بعضهم بالموافقة معلّين ذلك بأنهم يطلبون السلامة ويتحاشون الخلاف لسوء ما يؤدي الى من عواقب ، ولكن الفضل ابن سهل وأخاه الحسن عارضا هذا الرأي ، وقال الفضل ، انا ان أجبنا هذه المرة فسيتجاوز هذا الطلب الى غيره ، وسنكون بذلك قد تعجلنا الوهن بما أعطيناه ، وقال الحسن : لا تهنوا لقلّة فيكم ، فليس النصر بالقلّة والكثرة ، وجراح الموت أيسر من جراح الضيم ، وقال المأمون : إن إيثار الدعة يؤدي الى فساد العاقبة في الدنيا والآخرة ، وكتب يمنع الأمين من ذلك ويدفعه عنه (٢) .

ثم وجه الأمين الى المأمون أربعة أنفس وهم العباس بن موسى بن عيسى بن موسى ، وعيسى بن جعفر بن المنصور ، وصالح صاحب المصلى ، ومحمد بن عيسى بن نهيك ، ومعهم كتاب يطلب الأمين فيه الى المأمون أن يقدم موسى بن الأمين على نفسه في ولاية العهد ، فلمسا قرأ المأمون الكتاب رفض أن يستجيب لهذه الرغبة الجامحة ، وأخبر بذلك الرسل ، فقال العباس بن موسى : لقد جرت العادة بذلك أيها الأمير ، وهذا جدى عيسى بن موسى قد خلع من قبل ، فصاح الفضل بن سهل : اسكت ، إن جدك كان أسيراً في أيديهم ، وهذا بين أخواله وشيعته . ثم قاموا ، فخلا الفضل بن سهل بالعباس بن موسى ، ووعدّه إمرة الموسم ومواضع

(١) الجهشيارى ص ٢٣٧ (تحقيق الشاوى) .

(٢) الجهشيارى ٢٨٩ — ٢٩٠ وابن الاثير ٦ : ٧٦ .

من مصر ، فأجاب سرا بيعة المأمون ، ووعد أن يكتب للمأمون بأخبار بغداد عند عودته ، ثم عاد مع أصحابه فأخبروا الأمين بأن المأمون يرفض تقديم موسى عليه ، وأصبح العباس عيناً للمأمون في بلاط الأمين (١) .

وتأكد المأمون أن الأمور تسير من سيئ الى أسوأ ، وأنه لابد أن يتدخل السيف ليكون الحكم الفاصل في هذا النزاع ، فأقلل الحدود بينه وبين العراق ، وأمر ألا يُسَمَّح لأحد باجتياز هذه الحدود إلا بأذن خاص وبعد تفقّيش دقيق ، وبهذا صارت أمور المأمون مستورة عن الأمين ، ولكن أمور الأمين كانت تتسرب للمأمون بترتيب العباس بن موسى ، ثم شرع المأمون بعد ذلك يعدّ نفسه ، ويهيئ جنده ، وتحبب الى الناس ، واتصل بالعلماء وبالفقهاء ، وبينما كان المأمون يفعل ذلك ، كان الأمين يملأ وقته باللهو والعبث واللذة والشراب ، وسارت الركبان في الآفاق بغدر محمد الأمين ، وبحسن سيرة المأمون ، فاستوحش الناس من الأمين وانصرفوا عنه ، وسكنوا الى المأمون ، ومالوا اليه (٢) .

وانتهر الفضل بن الربيع فرصة وقوف المأمون في وجه الأمين وعدم استجابته لرغبة ما من رغباته ، فألح على الأمين في خلع المأمون ، وتولية ابنه موسى بدله ، فاستجاب الأمين وخلع المأمون والقاسم وولى ابنه موسى وسماه الناطق بالحق ، وكان ذلك في صفر سنة ١٩٥هـ ، وكتب الفضل ابن الربيع عن الأمين بذلك ، بالنهي عن الدعاء للمأمون والقاسم على المنابر وأحضر أحد الحجبة وسأله التلطف في أخذ الكتابين اللذين كان الرشيد قد علقهما في الكعبة بالبيعة لأولاده ، ففعل ذلك ، وسرقهما وسار بهما اليه ، فدفعهما الى الأمين فمزقهما (٣) .

(١) ابن الاثير ٨٦ .

(٢) الجهشيارى ص ٢٩٢ .

(٣) الجهشيارى ص ٢٩٢ وابن الاثير ٦ : ٧٧ .

وتأزمت الأمور ولم يبق حكما الا السيف ، فأخذ كل من الطرفين يعد العدة للصراع الحربى ، وكان الفضل بن سهل أحكم وأعلم بالأمور من ندّه الفضل بن الربيع ، فقد وجه المأمون والفضل بن سهل همهما الى الجند ، وعثيا بتزويد الجيش بأحسن زاد ، ومدّه بأقوى عتاه ، وكوّن ذو الرياستين جيشين عظيمين يقودهما بطلان من خيرة الأبطال ، هما طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين ، وسار الأول يقصد بغداد من الجنوب والثانى يقصدها من الشمال ، وبذل كل منهما جهده ليسيطر على جنده وليضمن لقوته النصر .

أما الفضل بن الربيع فقد وقع فى شرك أعداه له الفضل بن سهل ، إذ أوعز الى رجال من خراسان أن يكتبوا لعلى بن عيسى بن ماهان والى خراسان إبان عهد الرشيد ، والذى أساء السيرة وطغى وبغى فعزله الرشيد لجوره وشكوى الناس منه ، وفى هذه الكتب المصطنعة ذكّر قادة خراسان لعلى بن عيسى أنه إن قاد جيش الأميين فله منهم السمع والطلاعة ، وإن جاءهم غيره قاوموه ، فأطلع على بن عيسى الأميين على هذه الكتب ، ثم كان للفضل بن سهل عين عند الفضل بن الربيع ، فكتب ابن سهل الى ذلك العين أن يحسّن لابن الربيع إيفاد على بن عيسى ويعطّل ذلك بأن عليا أعرف بمسالك البلاد وحصونها ، وله صلة ببعض رجالها . وبهذه الحيل تحققت أمنية ابن سهل ، وعيّن على بن عيسى قائدا لجيش الأميين ، فأشاع ابن سهل بين أهل خراسان أن الطاغية فى طريقه إليهم ، وأنهم ان لم يجدوها فى قتاله ، استأنف فيهم تنكيله وتعذيبه ، فهرع القوم ليدافعوا عن أنفسهم وحترّمهم (١) .

وحدثت أول معركة بين جيوش الأميين بقيادة على بن عيسى بن ماهان — الذى استهان بجيوش طاهر (٢) — وبين طاهر بن الحسين ، ودارت

(١) انظر ابن الاثير : ٧٩ وابن خلدون ٣ : ٢٢٣ .

(٢) انظر المسعودى : مروج الذهب ٢ : ٢٩٩ .

الدائرة على جيش الأمين ، وقتل على بن عيسى ، فكتب طاهر الى الفضل ابن سهل يقول : أطال الله بقاءك ، وكبت أعدائك ، وجعل من يشنؤك فداءك كتبت اليك ورأس على بن عيسى بين يدي ، وخاتمه في اصبعي وعسكره تحت أمري ، والحمد لله رب العالمين (١) فلما قرأ الفضل بن سهل هذا الكتاب ، وصح عنده الخبر دخل على المأمون فسلم عليه بالخلافة ، وأمر أن يخطب له ويخطب بأمر المؤمنين (٢) .

وأحرزت جيوش المأمون انتصارات متلاحقة ، وأخذت تتقدم من فوز الى فوز ، ومن نصر الى نصر . ولكن عسكر الأمين اضطرب بعد وفاة على ابن عيسى وعم الشؤم بغداد ، وكوّن الأمين جيشاً آخر بقيادة عبد الرحمن ابن جبلة لمواجهة طاهر ، ولكنه لاقى ذلك المصير نفسه ، ثم دعا الفضل ابن الربيع أسد بن يزيد بن مزيد ليقود الجند فاشتدّ أسد فيما القسمه من الأموال والعتاد والرجال والسلاح ، فأخذه الفضل الى الأمين ، وعرفه ذلك ، فغضب وأمر بحبسه (٣) .

وحدث أن وليّ الأمين عبد الملك بن صالح الشام والجزيرة رجاء أن يمدّه بالجنود الأشداء ليستعين بهم الأمين في حربه ضد أخيه ، وذهب عبد الملك الى الرقة ، فكتب رؤساء أهل الشام وأهل القوة والبأس فجاءوا ، ولكن سوء الحظ كان حليف الأمين ، فان حادثة تافهة حدثت بين هؤلاء الجنود ، فاشتبكوا في قتال عنيف كان من نتائجه نشبت هذا الجيش وعدم انتفاع الأمين به (٤) .

وثار الحسين بن على بن عيسى بن ماهان على الأمين في بغداد وخلعه في رجب سنة ١٩٦ هـ وأخذ البيعة للمأمون ، وأيده في ذلك العباس بن

(١) الجهندي ص ٢٩٣ .

(٢) ابن الاثير ٦ : ٨٥ .

(٣) ابن الاثير ٦ : ٧٩ وما بعدها .

(٤) ابن الاثير ٦ : ٨٥ - ٨٦ .

موسى بن عيسى ، ولكن هذا لم يتم ، إذ عاد بعض الجند فانشقوا
على الحسين ، وأطلقوا سراح الأمين ، وأجلسوه على كرسى الخلافة مرة
أخرى (١) .

وكان داود بن عيسى بن موسى عاملا للأمين على مكة والمدينة ، فلما
رأى نكث الأمين بالمأمون ، وعرف سرقة الكتابين من الكعبة ، جمع الناس
بمكة وقال لهم : لقد علمتم ما أخذ الرشيد علينا وعليكم من العهد
والميثاق عند بيت الله الحرام لا بنيه لنكون مع المظلوم منهما على ظالمه ،
ومع المغدور به على الغادر ، وقد رأيتم كيف بدأ محمد يظلم ويغدر فننقض
بيعة أخويه ، ويبيع لابنه الطفل ، وأخذ الكتابين من الكعبة فمزقهما
ظلما ، ولهذا فقد رأيت خلعه والبيعة للمأمون فأجابه الناس الى ذلك ،
وكتب لابنه سليمان بالمدينة أن يعلن هذا ففعل ، وكان ذلك في
رجب ١٩٦هـ (٢) .

ورأى الفضل بن الربيع تدبيره يفشل ، ورأى دولة الأمين تضعف
وتضمحل فظهر بمظهر غير كريم ، ذلك لأنه لم يقف بجوار خليفته يطعم
معه مرارة العيش في هذه الأيام الكدرة ، ويشرب معه كأس المتاعب
حتى الثمالة ، ولم يبرز ليتحمل بشاعة مسئولية ما قدّمته يداه ، وإنما
استتر في رجب سنة ١٩٦هـ تاركا الأمين وحده في هذه الليالي السود (٣) .

أما طاهر فقد واصل انتصاراته ليدخل بغداد على النحو المرسوم
أي من جهة الأهواز والبصرة ، وسار هرثمة ليدخلها من جهة الموصل ،
وكانت المقاومة التي لقيها هرثمة أقل من تلك التي قابلها طاهر الذي اتجهت
أكثر الجهود لإيقاف زحفه ، ولكنه استطاع الاستيلاء على فارس بعد
أن أوقع بعاملها محمد بن يزيد ، ومن فارس أرسل عماله الى اليمامة

(١) ابن الاثير ٦ : ٧٦ .

(٢) المرجع السابق : ٧٧٦ — ٧٩ .

(٣) الجهشيارى ٣٠١ — ٣٠٢ .

والبحرين وعُثمان ، واتجه هو الى واسط فهرب منها عاملاً قاتلاً ، انه طاهر ولا عار في الهرب منه ، وفي واسط تلقى البيعة للمأمون من أمير الكوفة العباس بن موسى الهادي ومن أمير البصرة المنصور بن المهدي ، ثم سار إلى المدائن فاستولى عليها دون قتال ، وهكذا دقت جيوش طاهر أبواب بغداد ، ومرت بعاصمة المسلمين أحلك الليالي ، وكثر فيها الخراب والهدم والحرائق ، حتى درست منازل ، واختفت أبنية شاهقة ، وانضم إلى جيوش المأمون كثيرون من أهل بغداد ، ونشط الغوغاء والفساق يسلبون وينهبون ، وكثر القتل والغرق لأهل مدينة السلام ، وانتشر الجوع ، وعمت الآفات ، وقد وصف بعض شعراء بغداد في هذه الفترة القاسية وصفا يغني عن المزيد من الشرح فقال :

فقدت غصارة العيش الأنيق	بكيت دماً على بغداد لما
ومن سعة تبدلنا بضيق	تبدلنا هموماً من سرور
فأفنت أهلها بالمنجنيق	أصابتنا من الحساد عين
ونائحة تنوح على غريق	وقوم أحرقوا بالنار قسراً
وباكية لفقدان الشقيق	وصائحة تنادي : وا صباحاً
مضمخة المجاسد بالخلوق	وحوراء المدام ذات دل
ووالدها يفر إلى الحريق	تفر من الحريق إلى انتهاب
بلا رأس بقارعة الطريق (١)	ومعترب بعيد الدار ملقى

واشتد الأمر بأهل بغداد ، وتفرق كثير منهم عن الأمن ، وانضم عدد من ساداتهم إلى جيوش المأمون المحاصرة ، وقدّموا لها العون والمساعدة . أما الأمن فقد جمع أولاده وأمه زبيدة ومن تبقى معه من

(١) ابن الاثير ٦ : ٩١ - ٩٢ .

الجواري بمدينة المنصور (١) ، فتقدم طاهر فحصره وأخذ عليه الأبواب وضيق عليه ، ورفع أعلامه على سوارى بغداد ، ثم كاتب الأمين^٢ هرثمة ابن أعين • وطلب منه الأمان على أن يستسلم اليه ويسلم البردة والقضيب والخاتم ، فقبل هرثمة ، ولكن طاهرا كان للأمين بالمرصاد ، وأراد أن يحظى بشرف النصر ، وأن يحول بين الأمين وهرثمة ، ونزل الأمين الى دجلة حيث كانت حراقة هرثمة في انتظاره فأحسن رجال هرثمة استقباله ، واندفعت الحراقة نحو معسكر هرثمة ، ولكن زوارق طاهر لحقت بالحراقة ، ورمى رجال طاهر الحراقة بالنشاب والآجر فأغرقوها وقبضوا على الأمين وذبحوه ، وأخذوا رأسه الى طاهر ، فأرسل بها الى المأمون (٢) •

وهكذا تلقى الأمين وتلقى أهل بغداد النتائج القاسية لهذه الحرب الضروس التي تسبب الفضل بن الربيع في إشغالها ، أما الفضل فقد ظل في مخبئه ، بعيدا عن هذه الكوارث التي أنزلها بالآخرين ، وبمناى عن الملمات التي حلت بكل بيت من بيوت بغداد وبعشرات الآلاف من شبان المسلمين •

ويبدو من دراسة هذه الأحداث أن الفضل بن الربيع لم يكن يقوى على مواجهة الأحداث الكبار والثبوت أمامها ، وتدبير أمورها وإنما كان رجل دعة ونعيم •

والعجيب أنه ظل مختفيا حتى قتل الأمين ، ثم واصل استتاره حينما كان الخلاف ناشبا بين الحسن بن سهل عامل المأمون على العراق وبين العباسيين وأهل بغداد الذين ثاروا — كما سبق القول — لثقلية المأمون عليا الرضا عهده ، ولأنه بلغهم أن الفضل بن سهل مسيطر على المأمون

(١) هي بغداد التي بناها المنصور وكانت في عهد الأمين تمثل جزءا من العاصمة التي اتسعت اتساعا كبيرا •

(٢) ابن الأثير ٦ : ٩٥ — ٩٦ باختصار •

وأن المأمون أشبه بسجين عنده • ولما انتصر العباسيون وأهل بغداد ، وخلعوا المأمون وبايعوا ابراهيم بن المهدي بالخلافة ، لم يتخرج الفضل ابن الربيع من الظهور ، والاتصال بابراهيم بن المهدي ، فرسمه ابراهيم بحجابته ، ولكن الأخبار وصلت بغداد بعد حين بأن المأمون في طريقه اليها ، وأنه تخلص من الفضل بن سهل • • • فاختلف أمر ابراهيم بن المهدي وفي هذه الحال عاد الفضل بن الربيع الى الاستتار تاركاً ابراهيم بن المهدي ليواجه الأحداث وحده كما خلّى من قبل محمدا الأمين (١) •

وظل الفضل مختفياً الى أن قدم المأمون بغداد واستقر له الأمر ، فتوسل الفضل الى المأمون أن يغفر له جريمته الكبرى ، فغفر له ، واكتفى بأن أهمله ولم يستعمله ، فكانت مرتبته منحة في دار المأمون (٢) وظل كذلك الى أن مات سنة ٢٠٨ هـ مخلفاً هذه الذكريات المرة التي تتجدد من حين الى حين ، والتي تدل على أن الدس والائتمار عاقبتهما الفشل والخيبة •

الفضل بن سهل

من الممكن أن نقرر أن دولة المأمون منحة قدمها له الفضل بن سهل ، وأنه لولا الفضل ما كانت دولة المأمون • ولعلّ هذا على أمره ، وقد كان الفضل بن سهل — منذ عهد الرشيد — يكتب للمأمون ويتولى أمره كله ، ومنذ ذلك الحين أخذ الفضل يرى ويدبر ليضمن للمأمون حقه ، وليحميه من أن يطغى عليه سلطان أو يستبد به مستبد ، وأول لبنة وضعها الفضل ليشيد عليها دولة المأمون كانت في حياة الرشيد ، وقد سبقت الإشارة اليها ، فان خراسان لما انتفضت على الرشيد بقيادة رافع بن ليث بن نصر بن سيار ، وعجزت جيوش الخلافة هناك عن ردها الى الطاعة ، رأى الرشيد أن يخرج لها بنفسه فغادر

(١) انظر الجهنباري ص ٣٠٢ •

(٢) الاغاني ٣ : ١٥٢ •

الرقعة (وكان الرشيد قد انتقل اليها من بغداد (١) واستخلف عليها ابنه القاسم ، وفي طريقه الى خراسان مرّ ببغداد فاستخلف عليها ابنه محمد الأمين ، وأمر المأمون بالبقاء معه ببغداد ، وهنا بدت حنكة الفضل ، فقد قال للمأمون : لا تقبل ، وسله أن يشخصك معه ، فانه عليل وغير مأمون إن يحدث إليه حادث أن يثب عليك أخوك فيخلعك ، وأمه زبيدة وأخواله من بنى هاشم ، فسأل المأمون أباه أن يشخصه معه ، وألح ، فأجابه بعدماتناع (٢) .

وقد بدأ المأمون بهذا يفلت من استبداد الأمين وسطوته ، وسار المأمون مع الرشيد في طريقهما الى خراسان ، غير أن العلة استفحلت على الرشيد في أثناء رحلته كما مرّ ، فحطّ رجاله في طوس ، ثم أمر المأمون أن يأخذ بعض الجند ويواصل سيره الى خراسان ففعل ، وصحب معه كاتبه ومدير أمره الفضل بن سهل ، وأحس الرشيد بالمرض يزداد به فجدّد العهد لأبنائه الثلاثة ، وأوصى بما معه من مال وعتاد لابنه المأمون ، كما أوصى أن يلحق بالمأمون ما تبقى بطوس من القواد والجنود ، ولم يطل به المقام فلفظ أنفاسه الأخيرة بطوس ودفن بها .

وتوالت بعد ذلك أيادي الفضل بن سهل على المأمون ، ولم يدخر وسعاً في نصحه والاخلاص اليه :

عندما حنث قواد الرشيد وجنوده بالعهد ورجعوا من طوس الى بغداد ، هم المأمون بأن يلحقهم ببعض جيشه ليردهم ، ولكن الفضل

(١) يعلل الرشيد انتقاله من بغداد الى الرقة بقوله : والله انى لا طوى مدينة ماوضع بشرق ولا غرب مدينة ايمن ولا ايسر منها ، وانها لدار مملكة بنى العباس ، ما بقوا وحافظوا عليها ، ولا رأى أحد من آبائي سوطاً ولا نكبة فيها ، ولتسم الدار هي ، ولكنى أريد المناخ على ناحية أهل الشقاق والنفاق والبغضاء لاثمة الهدى ، والحب لشجرة اللعنة بنى أمية ، مع ما فيها من المارقة ، والمتخصصة ، ومخيفى السبيل ، ولولا ذلك ما فارقت بغداد (ابن الاثير ٦ : ٦٣) .

(٢) الجهشيارى ص ٢٦٦ وابن الاثير ٦ : ٦٨ .

ابن سهل قال له : إن فعلت ذلك لم آمن أن يقبضوا عليك ويجعلوك
هدية الى محمد (١) .

ورأى الفضل أن الهوة تتسع بين الأمين والمأمون ، فأخذ يعدّ المأمون
للاذمر العظيم ، ويمهد له الطريق الى الخلافة ، فحببه الى الناس ،
وحبب اليه العدالة والانصاف ، وقال له : لقد قرأت القرآن ، وفهمت
أمر الدين ، والرأى أن تجمع الفقهاء ، وتدعوهم الى الحق والعمل به ،
وإحياء السنة وأن تقعد على اللبثود ، وتواصل النظر في المطالم ، وتكرم
القواد والرؤساء وأبناء الملوك . ففعل ذلك ، وحطّ عن خراسان ربع
الخراج (٢) .

وبهذا أحبه أهل خراسان وأقبلوا عليه ، وكانوا يقولون : ابن
أختنا ، وابن عم رسول الله ، ولما رأى رافع بن ليث سيرة المأمون انقاد
له ، ودخل في طاعته سنة ١٩٤ هـ فأعطاه الأمان ، وسار اليه رافع ،
فأكرمه المأمون وبخّص به (٣) .

ولما اشتد الخلاف بين الأمين والمأمون من أجل ولاية العهد خاف
المأمون عاقبة ذلك فرق وعزم على الاجابة الى خلع نفسه ، ومبايعة
موسى بن الأمين ، فخلا به الفضل وشجعه على الامتناع وضمن له
الخلافة ، وقال له هي في عهدي (٤) . وكان مما قاله الفضل للمأمون :
إن هذه الدولة لم تكن قط أعز منها أيام المنصور ، فخرج عليه المقنع
وهو يدعى الربوبية ، وقيل كان يطلب بدم أبى مسلم فضضع العسكر
بخروجه بخراسان ، وخرج بعده يوسف البرم وهو كافر فتضعضوا أيضا
له ، ثم أخبرنى أيها الأمير ، كيف رأيت الناس ببغداد عندما ورد عليهم

(١) الجهشيارى : ٢١٧ وابن الاثير ٦ : ٧٤ .

(٢) الجهشيارى ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٧٩ .

(٤) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٨٩ .

(م ٢١ - التاريخ الاسلامى ج ٣)

خبر رافع ؟ قال ، رأيتهم اضطربوا اضطرابا شديدا ، قال : فكيف بك وأنت نازل بين أخوالك وبيعتك في أعناقهم كيف يكون اضطراب أهل بغداد ؟ اصبر وأنا أضمن لك الخلافة • قال المأمون : قد فعلت ، وجعلت الأمر إليك (١) •

أسلمت هذه الخطوات المسألة الى الجولة العسكرية التي كان لها وحدها الفصل في هذا الخلاف ، وسبق أن ذكرنا الجهود الكبيرة التي بذلها الفضل بن سهل لترجيح كفة المأمون ، وكان من هذه الجهود حسن اختيار قادة جيشه ، وحسن إعداد الجيش بما يلزمه من مال وعتاد ، ثم كان منها تلك الحيلة التي جعلت قائد جيش الأمين شخصا كريها لا يمكن أن يتحقق على يده انتصار وهو على بن عيسى بن ماهان •

كل هذا كان جميلا من الفضل بن سهل ، وكان المأمون أول المعترفين بأياديه وحسن تدبيره ، وما إن ظهرت للمأمون علامات نصره ، وبدأت جيوش الأمين تتراجع ، وتنهزم ، حتى أغدق المأمون على الفضل ومنكاه وعظم شأنه • يحكى ابن الأثير (٢) : أنه لما صح عند المأمون خبر قتل ابن ماهان وعبد الرحمن بن جبلة قائدئ الأمين ، أمر المأمون أن يخطب له ويخطب بأمر المؤمنين ، ودعا الفضل بن سهل وعهد له على المشرق ، وجعل له عمالة قدرها ثلاثة ملايين من الدراهم ، وعقد له لواء على سنان ذي شعبتين ، ولقبه ذا الرياستين : رياسة الحرب ، ورياسة التدبير ، وولى الحسن بن سهل ديوان الخراج (٣) •

وجعل المأمون للفضل لقب الإمارة مع لقب الوزارة ، وهو أول وزير يجمع له اللقبان (٤) •

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٦ : ٤ •

(٢) الكامل في التاريخ ٦ : ٨٥ •

(٣) انظر الجهنشيارى ٣٠٥ — ٣٠٦ •

(٤) الجهنشيارى ٣٠٦ •

وكتب له توقيعاً طويلاً يدل على مدى إجلاله ، واعترافه بفضلِهِ .
وهاك نصه :

أغنيتَ يا فضل بن سهل بمعاونتك إياي على طاعة الله ، وإقامة
سلطاني ، فرأيت أن أغنيك وأحببت أن أسبق إلى الكتاب لك بخطي ، بما
رأيتهُ على نفسي ، وقد أقطعتك السَّيْب بأرض العراق ، عطاء لك ولعقبك ،
لما أنت عليه من النزاهة عن أموال رعيتي ، ولما قمت به من حق الله
وحقي ، فلم تأخذك في لومة لائم ، ولم تراقب ذا سلطان ولا غيره ، وقد
جعلتُ لك بعد ذلك مرتبة من يقول في كل شيء فيسمع منه ، ولا تتقدمك
مرتبة أحد ما لزمته ما أمرتك به ، من العمل لله ولنبيه ، والقيام
بصلاح دولة أنت ولي بقيامها ، وجعلت ذلك كله بشهادة الله ، وجعلته لك
كفيلاً على عهدي ، وكتبت بخطي سنة ١٩٦ هـ (١) .

ويبلغ من إكرام المأمون له وتقريبه إليه أن عرض أن يزوجه إحدى
بناته على الرغم من عادة استهجان تزويج بنات الخلفاء من غير ذوى
قرباهم ، وقد جهد المأمون في إقناع الفضل ، ولكن الفضل استكثر هذا
التكريم على نفسه فشكر واعتذر (٢) .

وسارت الأمور على هذا النحو من الحب والتعاطف بين الاثنين ،
حتى قتل الأمين وألت الخلافة إلى المأمون ، وهنا يبدأ الانحراف ، ولكنه
كان في هذه المرة من جانب الوزير الذي أخذه الغرور بعد ذلك ، وكأنما
خطر له أن يجعل للمأمون الاسم ، ولنفسه القول والعمل ، وسلك طريقاً
وعراً ، وكان هوفاً تحته ، وكان ضحيته .

وأول ما عني به الفضل أن يمد سلطانهُ إلى بغداد عاصمة الدولة
فان خضوعها له معناه سيطرته على شؤون الخلافة كلها ، ولكن كيف

(١) انظر الجهشيارى ص ٣٠٦ .

(٢) انظر الجهشيارى ص ٢٠٧ .

له أن يستبد ببغداد وفيها البطلان الفاتحان طاهر وهرثمة ، ومن أجل ذلك نجده يسارع فيسمى بالايقاع بطاهر لدى المأمون ، فانه ما إن قتل طاهر الأمين حتى دخل الفضل يقول للمأمون : ما فعل بنا طاهر ؟ سل علينا سيوف الناس وألسنتهم ، أمرناه أن يبعث به أسيرا ، فبعث به عتيرا (١) .

وواصل الفضل جهده لإخضاع بغداد له ، ولإبعاد القائدين العظمين عن العراق ، فأوعز الى المأمون أن يولى الحسن بن سهل أخا الفضل كور الجبال والعراق والحجاز واليمن ، فاستجاب المأمون وكتب الى طاهر وهرثمة أن يسلم ما في أيديهما الى الحسن (٢) .

ولم يكف الفضل بحرمان طاهر وهرثمة من الاستمتاع بثمار كفاحهما الطويل ، بل كتب إليهما ليشتبك كل منهما في حرب جديدة ، فوجه طاهرا لمحاربة نصر بن شيبث (٣) ووجه هرثمة لمحاربة أبي السرايا واستمر يدس عليهما لدى المأمون . فقال عن طاهر : إنه غيّر جاد في محاربة نصر ، وقال عن هرثمة : إنه هو الذي أوعز لأبي السرايا في التمرد . وكان أبو السرايا من أتباع هرثمة ثم خرج عليه مع بعض الجند لتأخر أجورهم كما سبق القول ، وعلى الرغم من هذا الدس الذي قام به الفضل فان النصر كان حليف القائدين العظمين في هذه المعارك الجديدة ، فقد قتل أبو السرايا واستأن نصر واستسلم للمأمون (٤) .

وأدرك هرثمة ما يراد به ، وأدرك أن المأمون مغلوب على أمره ، وأن الأخبار تخبره عليه ، ولا تصله صحيحة ، فقرر أن ييسر الى

(١) الجهنياري ص ٣٠٤ .

(٢) ابن الأثير ٦ : ١٠١ .

(٣) هو نصر بن شيبب كما يذكره ابن خلدون (٣ : ٢٤١) .

(٤) انظر ابن الأثير ٦ : ١٠١ وما بعدها وابن خلدون : العبر ٣ : ٢٤٢ وما بعدها .

المأمون ، فجاءته كتب الفضل في الطريق بأن يرجع للشام ، فأبى وقال : لا أرجع حتى آتى أمير المؤمنين ، وقرر أن ينقل للمأمون ما يدبره الفضل بن سهل وما يكتُم عنه من الأخبار ، وألا يدع المأمون حتى يردّه الى بغداد ليتوسط ملكه ، فعلم الفضل بذلك ، فقال للمأمون : إن هرثمة قد أثقل عليك البلاد والعباد وجاء مشاقا مخالفا ، وأنه إن ترك كان مفسدة لغيره ، فتغير قلب المأمون على هرثمة ، فلما بلغ هذا مرو خشى أن يكتُم قدومه عن المأمون فأمر بالطبول فدقّت لكي يسمعها الخليفة ، فسمعها وقال : ما هذا ؟ فقال الفضل : هرثمة قد أقبل يرعد ويبرق ، فزاد حنق المأمون ، فلما قدم أدخله المأمون وصرخ فيه : وضعت أبا السرايا ليثور على ، ومالأت أعدائي ، فرغب هرثمة أن يتكلم فلم يقبل منه كلام ، وأمر به فضرب أنفه ، وسحب من بين يديه ، وسجن ، ثم دس الفضل اليه من قتله (١) .

وحسّن الفضل بن سهل للمأمون أن يجعل على بن موسى الرضا ولي عهد المسلمين والخليفة من بعده ، فاستجاب المأمون لذلك ، كما أمر جنده بطرح السواد ولبس الشارة الخضراء ، وكتب بذلك الى الآفاق (٢) .

وقد فسّر نعيم بن حازم هذا التصرف من الفضل بن سهل بقوله : إنك إنما تريد أن تزيل الملك عن بني العباس الى ولد على ، ثم تحتال عليهم ، فتصيّر الملك كسرويا (٣) .

وكان لهذه الأعمال التي أتى بها الفضل ، وبخاصة تحويل الخلافة من العباسيين الى العلويين ، صدى كبير في العالم الاسلامي ، ولم يطق أهل بغداد صبرا على هذا العبث ، وخطر لكثير منهم أن يرحلوا الى

(١) ابن الأثير ٦ : ١٠٧ . وابن خلدون ٣ : ٢٤٥ .

(٢) ابن الأثير ٦ : ١١١ .

(٣) الجهشيارى ص ٣١٣ .

مرو ليخبروا المأمون بالحالة السيئة التي وصلت إليها الدولة ، والتي كانت نتيجة السياسة الغاشمة التي سار عليها الفضل ، ولكن هؤلاء خافوا أن يلاقوا نفس المآل الذي لاقاه هرثمة وهو يسعى لمثل هذا الهدف ، فاجتمع أهل بغداد ، وخلصوا المأمون ، وبايعوا ابراهيم بن المهدي بالخلافة ، ولم يتخلف أحد من بنى هاشم عن مبايعته ، وبعد أن أخذ ابراهيم البيعة استطاع أن يسيطر على السواد والكوفة والمدائن وما حول ذلك (١) .

ولم ينقل الفضل الى المأمون شيئاً من هذا . وإنما موّه عليه وكذبه ، وكان لا يدخل على المأمون إلا من وثق الفضل فيه ، ومن ثم بقيت الأخبار بمنأى عن المأمون ، وكان « عليّ الرضا » ممن يدخلون على المأمون ، فأخبره بما الناس فيه من فتنة وقتال منذ قتل الأمين ، وبما كان الفضل يستتر عنه من أخبار ، وأخبره أن أهل بيته والناس قد نقموا عليه أشياء ، وأنهم يقولون عنه : مسحور ، مجنون ، وأنهم قد بايعوا ابراهيم بن المهدي بالخلافة ، فقال له المأمون : لم يبايعوه بالخلافة ، وإنما صبروه أميراً يقوم بأمرهم ، فأعلمه أن الفضل قد كذبه في هذا التبليغ ، وأن الحرب قائمة بين الحسن بن سهل و ابراهيم ، وقال للمأمون : إن الناس ينقمون عليك مكان الفضل والحسن منك ومكان بيعتك اليّ بولاية العهد ، فقال : ومن يعلم هذا غيرك ؟ فقال : يحيى بن معاذ ، وعبد العزيز بن عمران ، وغيرهما من وجوه العسكر ، فأمر بإدخالهم فدخلوا ، فسألهم عما أخبره به عليّ الرضا ، فلم يخبروه حتى يجعل لهم الأمان من الفضل ألا يعرض إليهم ، فضمن لهم ذلك كتابة ، فأخبروه بالبيعة ل ابراهيم بن المهدي ، وأن أهل بغداد قد سموه الخليفة السنّي ، وأنهم يتهمون المأمون بالرفض لمكان عليّ بن موسى منه ، وأعلموه بما فيه الناس ، وبما موّه عليه الفضل من أمر هرثمة ، وأن هرثمة إنما

(١) المرجع السابق ص ٣١٢ ، وابن الاثير ٦ : ١١ ، وابن خلدون

جاء لينصحه ، فقتله الفضل ، وأضافوا للخليفة أنه إن لم يتدارك أمره خرجت الخلافة من يده ، وأعلموه أن طاهر بن الحسين قد أبلى في طاعته ما يعلمه ، فأخرج من الأمر كله ، وجعل في زاوية من الأرض بالرقعة ، لا يستعان به في شيء ، وأنه لو كان ببغداد لضبط المثلث (١) .

فأدرك المأمون حقيقة الأمر ، وعرف الفخ الذي نصبه له الفضل ، وأنكر عليه تمويهه الأمر وكذبه عليه ، وتحركت شخصية المأمون القوية التي تكره أن تخضع ، وتأبى أن تقنع بالاسم وتدع للغير القول والفعل ، وعزم أمره على أن يحطم ذلك السجن الذي نسجته حوله الفضل وأعوانه ، وقرر أن يرحل إلى بغداد ، ووجد من الحكمة أن يدارى أمره ، ألا يجاهر بالعداء حتى يفلت من هذا الحصار ، وأن يدعى أنه ذاهب إلى بغداد ليعيد سلطان الحسن بن سهل على المارقين ، وبدأ المأمون رحلته في أوائل سنة ٢٠٢هـ تلك الرحلة التي لها شأن كبير في التاريخ .

رحلة تاريخية :

سار المأمون من مرو ، ومعه حاشية كبيرة على رأسها الفضل ابن سهل ، ومعه كذلك بعض الجنود ، وظل الركب يسير حتى وصل سرخس فحط الركب رحاله ، وفيها دبر المأمون من فتك بالفضل بالحمام في شعبان سنة ٢٠٢هـ ثم تظاهر المأمون بالحزن العظيم ، وطلب قاتليه حتى وجدهم فقتلهم فيه ، وأرسل رعوهم إلى الحسن بن سهل مع تعزية رقيقة .

ثم استأنف الركب سيره إلى طوس فحط رحاله مرة أخرى ، وفيها مات على الرضا فجأة ، آخر صفر سنة ٢٠٣ من غيب أكله ، ويقال إن المأمون دس له السم فيه ، والانسان يتردد في قبول هذا الاتهام ، ولكن الظروف المحيطة ربما دفعت المأمون إلى ارتكاب مثل ذلك العمل ، وبخاصة أنه بعد موت علي الرضا بادر فأرسل إلى بني العباس وأهل

(١) ابن الأثير ٦ : ١١٨ وابن خلدون ٣ : ٣٤٦ .

بغداد يعتذر من عهدته لعلی الرضا ويخبرهم أنه قد مات ، ويدعوهم إلى الرجوع لطاعته (١) .

واستأنف الרכب سيره من طوس ، وكتب المأمون إلى طاهر بن الحسين أن يوافيه من الرقة ، فسار إليه في جيش عظيم ، وفي النهروان التقى المأمون وطاهر وأعيان أهل بيته والقواد ووجوه الناس الذين انفضوا من حول إبراهيم بن المهدي عندما عرفوا أن المأمون عائد إلى بغداد ، وأن الفضل وعليهما الرضا قد قُتِلَ عليهما ، وأما إبراهيم بن المهدي فإنه لما رأى ذلك توارى واختفى ، وسار هذا الרכب العظيم إلى بغداد فدخلها في صفر سنة ٢٠٤ هـ وقد التقى الناس جميعا حول المأمون ، وعادت إلى الخلافة سطوتها ، ولم يبق من آثار الماضي سوى لبس الخصرة الذي خلعه المأمون بعد بضعة أيام من وصوله استجابة إلى رجاء قواده وأهل بيته (٢) . وعاد إلى للشارة السوداء .

المأمون وحرمة الدم :

قلنا فيما سبق إن ظروفًا كثيرة دفعت خلفاء هذا العصر إلى الأخذ بالثبته ، وإلى تدبير المؤامرات للقضاء على من خيف منه المروق ، أو ظهرت منه بادرة عقوق ، وعلى هذا فتك المنصور بأبي مسلم الخراساني

(١) كان على بن موسى من خيرة العلويين ، وأشرنهم ، وأنبههم ، وأقلهم أطماعا ، وكان يقول : ينبغي أن أخذ برسول الله أن يعطى به ، ولم يقتل فيه أبو نواس شعرا قط ، فسأله بعض أصحابه : ما رأيت أوقع منك ، ما تركت خيرا ولا طردا ولا معنى إلا قلت فيه شيئا . وهذا على بن موسى الرضا في عصره لم تقتل فيه شيئا . فقال أبو نواس : والله ما تركت ذلك إلا أعطاه له : وليس قدر مثلى أن يقول في مثله ، ونظم أبو نواس هذه المحادثة في قوله :

قيل لي : أنت أحسن الناس طرا في فنون من الكلام النبويه
لك من جيد القريض مدح يثر الدر في يدي مجتنيه
فلماذا تركت مدح ابن موسى ؟ والخصال التي تجمعن فيه ؟
قلت لا أستطيع مدح أمام كان جبريل خادما لأبيه

(٢) ابن الأثير ٦ ، ١١٨ وما بعدها وابن خلدون ٣ : ٣٤٩ .

وبعبد الله بن علي وابن المقفع وأبى أيوب المورياني ، وفتك الرشيد بالبرامكة • ويمكن أن يُعَدَّ في هذا الباب أيضا تلك المؤامرة التي دبرها المأمون للقضاء على الفضل بن سهل ، وتلك التي راح ضحيتها علي الرضا •

ولكن من الواضح أن المأمون كان لا يحب سفك الدماء وكان يكره الفدر ، ويميل إلى العفو والتسامح ، وأنه إن كان قد لجأ إلى التآمر للتخلص من بعض الأفراد ، فإن ظروفًا قاهرة كانت تدفعه ، ومشكلات عظيمة كانت تؤثر فيه ، فهو لم يرتكب هذا العمل ليشفى به غلة ، أو يرضى نفسًا متعطشة للدم ، لا ، ولكن المأمون ارتكبه ليسكن به فتنة ، ويهدى ثورة فلم يكن القتل هنا للتشفى والانتقام ، وإنما كان للضرورة الملحة التي تحتّمه ، ومن أجل هذا عفا عن الفضل بن الربيع والحسين بن الضحاك كما مر •

وظاهرة أخرى بدت في أعمال الفتك التي أوعز بها المأمون ، فإن فتكه كان مقصوراً على من يخشى أذاه ، لا يتعداه إلى أهله أو إلى مصادرة أمواله •

وظاهرة ثالثة كانت تلازم المأمون في هذا الشأن كذلك ، وهي أنه كان يبدو وكأنه لا يَدَّ له فيما حدث ، ولا تدبير منه ، فهو لا يجاهر به بعد فعله ، ثم إنه كان يبذل أقصى الجهد ليخفف وقع المصائب على أهل ضحيته وذويه • فقد روى أنه بعد موت الفضل دخل على أمه فوجدتها تبكي ، فقال لها : أنا ابنك مكانه يا أماه فدعني البكاء ، فقالت : إن ابناً ترك لي ابناً مثلك لجدير أن يبكي عليه (١) •

(١) نيل الامالى ص ٨٦ •

ولم يكتف المأمون بهذا ، بل استورز الحسن بن سهل بعد أخيه ،
ومال إليه ، وتزوج ابنته بوران كما مر^(١) .

وأما بالنسبة لعلی الرضا فإن المأمون زوج ابنته الأخرى من ابن
علی الرضا ، وظلّ يصدق علی العلويين ويحسن اليهم وإلى شيعتهم وكان
عهده بالنسبة لهم عهد يبر ورخاء ، وقد مرّ الحديث عن ذلك .

(١) الفخرى ١٩٧ .

دراسة نفسية

عن

مركز التآمر الذي مثله الربيع وابنه

هناك رأى يقول بالتفسير المادى للتاريخ ، ورأى آخر يتجه في تفسير التاريخ اتجاهًا روحيا ، وهنا سنرى تفسيرا آخر للتاريخ هو التفسير النفسى (١) ، فلنحاول في هذا الفصل أن نقوم بدراسة نفسية ، نعلمها تقوينا الى فهم أحداث هذا العصر ، وذلك بواسطة دراسة أفعال الربيع بن يونس وابنه الفضل ، لتستكشف الانفعالات التى كانت تضطرب فى نفسيهما ، ونشاهد العوامل التى دفعتهما الى تدبير هذه المآمرات ، والقيام بهذا الدور القاسى المشين ، وقد أتيج للرجلين نعمة مباحة فى تصور الخلافة ، وأسندت الى كل منهما أرقى المناصب فى الدولة ، فلماذا كانا يجدان اللذة فى السعاية بالشر ، ويحسان بالسعادة فى إشقاء الآخرين ؟

والذى يبدو لى أن مركب النقص Inferiority Complex أو الإحساس بالنقص Inferiority Feeling كان آفة هذين الرجلين ، وبسببهما حقيقًا على نظرائهما ، ومشيا فى قصور الخلفاء بالسعاية والوشاية : •

ما هو مركب النقص ؟ وما هو الإحساس بالنقص ؟ وكيف يتكون هذا ويوجد ذاك ؟ وما نتائجهما ؟ وأثرهما فى علاقات الفرد بالآخرين ؟ • من أجل هذا يتحتم أن نرجع الى علم النفس لنتلقى الاجابة عن هذه الأسئلة :

(١) اقرأ ما كتبناه من « تفسير التاريخ » بقدمة هذه الموسوعة بالجزء الاول منها .

رأى Adler في تكوين مركب النقص :

ونبدأ أولاً بتبيين الفرق بين مركب النقص والاحساس بالنقص ،
فمركب النقص عقدة لاشعورية ، تبقى كامنة في لا شعور الفرد وتظهر
نتائجها في تصرفاته ، دون قصد منه أو إعداد شعوري ، ويميل كثير من
أساطين علم النفس الى الاعتقاد بأن العقد اللاشعورية عموماً تتكون في
طفولة الشخص ، وبخاصة في السنين الخمسة الأولى من حياته ، والطفل
في حياته الأولى يقظ تماماً ، فهو يسجل كل ما يحيط به ، على الرغم من
أنه يبدو صغيراً ساذجاً ، وتتكون عنده في هذه الفترة العقد النفسية
ومركب النقص إذا وجد هناك ما يدعو لها ، ويبرز Adler (١)
الكلام عن الضعف الطبيعي الذي يبدأ به الطفل ، ذلك الضعف الذي
يتزايد إذا عومل الطفل معاملة سيئة ، أو صادف بيئة يحس فيها أنه
غير محظوظ أو غير سعيد ، أو كان به نقص عضوي Physical أو إحساس
بنقص وإن لم يوجد النقص ذاته ، ومن الأمثلة التي يوردها Adler
للمعاملة السيئة التي تضاعف عوامل الضعف الطبيعي في الطفل ، الزجر
والانتهاز ، والتهم ، والاستهزاء والقسوة .

ويستمر Adler (٢) في كلامه فيقول : إن هذه المضاعفات التي
حدثت بالطفل ، وجعلته أكثر إحساساً بضعفه ، وأنشأت مركب النقص
فيه ، تدفعه الى طريق من ثلاثة :

١ — أن يصاب بصدمة عصبية تجعله يميل الى الإذعان والخضوع
الى بيئته ، والاعتناء بتأخره عن أقرانه .

٢ — أن يعمل طيلة عمره ليعوّض ما به من نقص .

Individual Psychology : Psycho - Analysis p. 200. (١)

Ibid p. 201. (٢)

٣ — أن يتصارع مع البيئة التي يعيش فيها ، فيكون دائم الهجوم على من يظن أنه يعوقه ، ويسهّل عليه أن يتراجع وينهزم اذا ضعف عن الهجوم •

ويظل الطفل بعد ما يشب متأثرا تأثرا لا شعوريا بما سجله إبان السنوات المبكرة من حياته ، ومن أجل هذا نجد الطفل الذي عومل معاملة سيئة في طفولته يصير عندما يكبر أبا مستبدا ، أو زوجا قاسيا طاغية ، لينفص عن الضغط الذي احتبسه في نفسه أيام طفولته (١) •

هذا عن مركب النقص ، أما الاحساس بالنقص فهو مظهر شعوري ، يشعر به كل شخص عادي في مواقف كثيرة من حياته العادية ، دون توقف على سن معينة ، وهذا الشعور قد يزيد عن الحد العادي ، فينقلب الى سمة من سمات الشخصية المرضية ، فيشعر المتصف بهذه السمة دائما أنه غير قادر على مجاراة غيره بالطرق المشروعة ، فيعتمد الى الوسائل المستترة التي يستطيع عن طريقها أن ينال من منافسه •

ويقول Adler (٢) أن الانسان يجهد نفسه ليتفوق على الآخرين ، وأن هذه الرغبة في التفوق تنمو مع نمو الشخص ، لأنها ضرورة ذاتية للحياة نفسها ، فهو دائما يكافح طلبا للغاية ، لينقل نفسه من النقص الى الكمال ، ويستمر الانسان في هذا النضال السلمي ما لم تتف عتبة في سبيل نجاح محاولته ، فاذا اعترضته صعوبات وعقبات من جهة الآخرين ، فان ذلك يؤدي به الى الغضب الذي يتمخض عنه سلوك عدائي •

والشخص الذي تكون فيه مركب النقص في طفولته أو أحسن بالنقص في أي فترة من فترات حياته ، وحاول أن يعوض هذا النقص

Ibid p. 207. (١)

Ibid pp. 223-224. (٢)

عندما كبر فاعترضته عقبات من جهة الآخرين ، هذا الشخص اذا كان ذكيا موهوبا ، متفوقا. ظاهرا في الناحية العقلية ، فان اصطدامه بمن يعمقه عن الوصول الى الكمال يكون عنيفا قاسيا ، وربما لجأ الى طرق شتى من الانحراف ، ليعبر عما يخالج نفسه من نزعات مكبوتة كالحيل والكيد ، دون اعتبار للقيم والمعايير الأخلاقية (١) .

Hadfield والطفولة :

وهناك ناحية أخرى وثيقة الصلة بموضوعنا الذى نتحدث عنه شرحها بإفاضة Hadfield (٢) وموجزا « أن الطلب الرئيسى الذى يحتاج اليه الطفل هو الحماية والأمن ، وتلك حاجة من الحاجات الطبيعية ، إذ أنه خلال طفولته عاجز طبعيا عن حماية نفسه وإمدادها بما يحفظ عليها الحياة ، ومن أجل هذا كان محتاجا لمن يحميه ، ويقيه الخطر ، ويمده بالطعام والشراب ويهيئ له العناصر اللازمة لحياته ، وحاجة الطفل ليست حيوية فقط ، ولكنها أيضا نفسية ، فهو لا يحتاج الى الحماية والأمن فحسب ، ولكنه يحس بهذه الحاجة .

« الذى يحضى الطفل عادة ويمده بحاجاته هو الأم ، لأنها تستجيب بطبعها الى هوائه الصامت وتكمل نقصه ، وتقوى ضعفه بإحاطته بجوء من الحب ، فتقضى الأم بذلك حاجات الطفل ، لا على أنها واجبات تؤديها ، وإنما على أنها لذة تمارسها ، إذ يدفعها حبها له الى رعايته ، وتجد في ذلك سعادة لها ونشوة ، هذا من جهة الأم ، وأما من جهة الطفل فان حاجته الى الحماية والطعام .. تصبح عنده وسيلة يئنس بها ما هو أعظم عنده منها ، وهو حب أمه وشغفها به ، وهو ييكن لتسرع اليه فيحس أنها تحبه ، ويترتب على ذلك أن يصبح حب الأم للطفل أهم

(١) انظر الدوافع النفسية للدكتور مصطفى فهمى ١٥٧ - ١٥٨ .

(٢) Psychology and Mental Health pp. 121 abridged.

مطالبه ، والمحور الهام في حياته ، وسيترتب على هذا الحب أن تحميه الأم ، وتمدده بما يحتاج إليه •

« وعندما يتأكد الطفل من حب أمه له ، وما يترتب على هذا الحب من حماية ووقاية ، تتربى فيه الثقة بالنفس ويستطيع — في يقين من أنها ترعاه وتحميه — أن يواجه الحياة ، ويلقى بنفسه في متاعبها دون تهيب • لأنه واثق من أنها ستنتشله إذا أخفق أو كبا ، وهو بمواجهته للحياة هكذا يهيئ نفسه للمستقبل ، ويلتزم بين نفسه وبين الحياة ، وتتكرر مواجهته للحياة على هذا الوضع ، فيعتاد ذلك ويحس بأنه تخلص رويدا رويدا من حاجته للحماية ويكون حريته واستقلاله • ويدخل معمعة الحياة ، ويمارس ألوانا من النشاط وصنفا من المخاطر ، محتملا العبء والتبعة وحده دون اعتماد على شخص آخر •

« والطفل يعكس ما يراه في طفولته ، فإذا أحس بأنه محبوب ، تعلم هو أن يحب الآخرين ، وعلى هذا فالطفل الذي حظى بحب أمه في طفولته ، ينشأ اجتماعيا يحب الناس ، ويصير وفيًا لأصدقائه ، قرينا موفقا في زواجه •

« فإذا ما حرّم الطفل هذا الحب ، كانت نظرتة للحياة نظرة مغايرة ، وبدت تصرفاته غير عادية ، وغمرته حالة من الاضطراب النفسي ، فكأنه فقد الثقة ليواجه الحياة بوضوح ، وتشمله حساسية الخشية والخوف • فيحس أنه غير قادر على تحمل المسئوليات ، ومواجهة الصعاب ، فلا يلقي بنفسه في المخاطر ، ولا يمارس أنواعا من التجارب والتدريب ، لأنه غير مطمئن الى من ينشله إذا تورط ، فيشب وهو طفل في حذره وخشيته • ويكون كبير الاستعداد ليصبح عصبيا حاد المزاج •

« وحرمان الطفل الحب يجعله لا يحب الآخرين ، فما دام لا ينال حبا لا يستطيع أن يمنحه ، وإذا حرم حب الآخرين فإنه يحب نفسه

ليعوضها ما فقدته ، وبهذا يصير أنانيا متبغضا غيره ، كما تؤدي به هذه الظروف في الغالب الى أن يكون عصبيا ثوريا ، ثم إن حرمان الطفل من يحميه ويقيه ، يجعله يحس بأنه مهدد ، عرضة لعدوان الآخرين ، ومن هنا ينظر للعالم نظرة عدائية وتشب فيه هذه الخصلة فيتصدى للناس ويعاديهم :

الربيع بن يونس وابنه الفضل في ضوء الدراسات النفسية :

تلك خلاصة الفكرة التي أوضحها Hadfield وهي — مع ما سبقها — تضع أيدينا على العلة في نفس الربيع بن يونس ، هذه العلة التي وكرها عنه ابنه الفضل ، وهاك عن هذا بعض البيان :

لقد كانت طفولة الربيع بائسة حقاً • طفولة تعسة شقية ، فهو كما يقول الأصفهاني (١) نقلا عن آل أبي فروة : « لقيط ، وجيد منبوذاً ، فكفله يونس بن أبي فروة » أما الجهشياري فيروي رواية أخرى في ذلك الموضوع وهي : كان يونس بن أبي فروة شارياً شاطراً بالمدينة (٢) • فعلق أمة لقوم بها ، فوقع عليها ، فجاءت بالربيع واستعبد الربيع ، ولم يكن ليونس من الأقرباء من يبتاع الربيع ، فابتاعه زياد بن عبد الله الحارثي خال أبي العباس السفاح (٣) •

ويتحدث الربيع عن نفسه فيقول : كنت في خمسين وصيفا أهدوا للمنصور ، ففقرتني في خدمته ، فصرت الى ياسر صاحب وضوئه أعاونه في عمله (٤) •

(١) الاغانى ١٧ : ١٢١ •

(٢) شارياً : نسبة الى الشراة وهم الخوارج : وشاطراً : نسبه الى الشطار وهم جماعة كانوا يقومون بأعمال السلب السريع •

(٣) الوزراء والكتاب ص ١٢٥ •

(٤) الاغانى ٦ : ٨٢ •

تلك هى طفولة الربيع القاتمة : لقيط منبوذ ، أو عبد اشترى بالمال أو أحد خمسين وصيفا أهدوا للمنصور ، ثم يكون حظه أن يلتحق بمن يحمل الإبريق للخليفة ، وكل هذا يدلنا على أن الربيع عانى طفولة مرّة ، وكان هدفا لكثير من الزجر والانتهاز والتهكم والاستهزاء والقسوة ، وفى قصر زياد بن عبد الله الحارثي ، ثم فى قصر الخليفة ، رأى غيره من الأطفال السعداء الباسمين المحظوظين • ووازن بين ذلك وبين حرمانه وتعاسته وما يعانیه من إهمال وازدراء ، فتكوّن عنده مركب النقص •

هذا عن الربيع ، أما الفضل فقد كان مثقلا بالعبء الذى ورثه له أبوه ، لقد كان ابن لقيط ، وطالما عانى فى طفولته من جراء هذا العار •

والربيع بن يونس ذكى موهوب بلا مناضل ، ولذلك لم يقنع بالحالة المتواضعة التى نشأ فيها ، كما لم يرثته أن يبذل العمر كله مجدها ليعوض ما به من نقص ، وإنما أراد الطفرة ، وحاول أن يصل بسرعة الى هدفه وبغيتته ، ولذلك لجأ الى الطريق الأخير الذى تحدث عنه Adler فتصارع مع البيئة التى عاش فيها ، وكان دائم الهجوم على من يظن أنه يعوقه عن الوصول الى غرضه ، وسار الفضل بن الربيع سيرة أبيه ، واتضح فيه نظرية Adler سالفة الذكر لأنه عندما فشل لم يثبت أمام العاصفة ، وإنما تراجع واختفى •

وهكذا عانى الربيع وابنه الفضل طفولةً تعيسة كومت فيهما مركب النقص ، فاذا سرنا معهما الى عهد الرجولة ، وجدنا أنه لم يتوافر لهما فى هذا العهد راحة النفس ورضا الضمير ، على الرغم من أن الظروف قذفت بهما الى المجد ، ووضعتهما فى أسمى المناصب ، وعلى العكس قذفت بهما هذه المناصب الى العيش مع لذات وأتراب يفضلونهما فى كثير من الصفات التى كانت ذات خطر عظيم فى تلك الأيام ، لقد عاشا مع البرامكة ومع آل سهل ، ومع معن بن زائدة ، ومع معاوية بن يسار • ومع طاهر بن الحسين وغيرهم من السادة والقادة والناهبين • فظهر فى

الربيع وابنه الإحساس بالنقص بالقياس الى هؤلاء الأتراب ، ولم تقف المسألة عند هذا الحد ، إذ لم يَغْفُلْ أتراب الربيع وابنه عن انحطاط هذين وانحدارهما عن النظراء واللذات ، فكثيرا ما نكأ هؤلاء جراح الربيع والفضل ، وكثيرا ما قذفوهما بالحقيقة المرة ؛ قال الربيع يوما لرجل كرهه الترحم على أبيه في حضرة المنصور : كم تكرر ذكر أبيك وتترحم عليه ؟ • فقال له الرجل : إنك معذور في نقدك ، لأنك لم تذق حلاوة الآباء • وتتازع الفضل بن الربيع وجعفر بن يحيى في حضرة الرشيد ، فقال جعفر للفضل : يالقيط ، فاضطرب الفضل ، وقال اشهد يا أمير المؤمنين ، فقال جعفر للرشيد : تراه عند من يقيمك هذا الجاهل شاهداً يا أمير المؤمنين ، وأنت حاكم الحكام (١) • فهو في هذه القصة طعنه في نسبه وطعنه في علمه ومعرفته بمخاطبة الملوك •

وأراد الربيع وابنه أن يكتمل لهما المجد ، ولكن هيهات أن يتم هذا وفي القصر معاوية بن يسار ، والبرامكة ، وغيرهم من الأمجاد المغاوير ، ويقول ابن خلكان (٢) : إنه لما آل الأمر للرشيد ، واستوزر البرامكة ، كان الفضل بن الربيع يروم التشبه بهم ومعارضتهم ، ولم يكن له من المقدرة ما يدرك به اللحاق بهم ، فكان في نفسه إحن وشحناء ، فسعى بهم ، وأوغر قلب الرشيد عليهم •

لقد تكوّن مركب النقص في الربيع وابنه منذ طفولتهما التعسة ، فلما شبّا وقذفَ بهما حظهما وذكأؤهما إلى الإمام صديهما بالبيئة الجديدة التي كوّنت فيهما الإحساس بالنقص ، ولم يكن لهما من المقدرة ما يشجعهما على مواجهة هذه الظروف وجها لوجه ، ثم كانت لهما موهبة ظاهرة في الناحية العقلية ، ومن أجل هذا ظهر الانحراف في

(١) الجهشباري ٢١٦ • وابن خلكان ١ : ٤١٢ •

(٢) وثقات الاميان ١ : ٤١٢ •

التعبير عما بنفسيهما من نزعات مكبوتة ، فلجأ الى التحايل والكيد ،
والدس ، دون أى اعتبار للقيم والمعايير الأخلاقية •

ومسألة أخرى نستقيها من كلام Hadfield سالف الذكر ، فلقد سبق
القول إن الربيع كان لقيطاً ، أو أنه كان ثمرة لا لتقاء غير شرعى بين يونس
ابن أبى فروة الشاطر الشارى وبين أمة لقوم بالمدينة • • واشتراه زياد
ابن عبد الله ، وسواء أكان هذا أو ذاك فقد حُرِّم الربيع أمه أو حُرِّم
حب أمه ، وهذا الحرمان — كما سبق القول — جعل الربيع خذرا ،
لا يواجه العالم بصراحة ، وإنما يواجهه بغموض والتواء ، كما جعله أنانيا ،
مبغضاً لغيره ، عصبياً ثورياً ، يحس بأنه هدف لهجوم الآخرين ، فبادر
بالهجوم عليهم ، وتعمقت في نفسه نظرة عدائية بالنسبة للعالم ، وقد
توافرت كل هذه الاتجاهات في الربيع ، كما ورثها ابنه الفضل •

دراسة مقارنة بين آل الربيع وأتراب آل الربيع

بقى علينا بعد هذا أن نقوم بدراسة مقارنة ، تبين لنا مركز
الربيع والفضل بين اللذات والأتراب في هذه البيئة الجديدة ، والذي
أبادر فأسجله أن الدراسة التى قمت بها لأفذاذ الرجال في هذا العصر
بيّنت لى بوضوح ، أن لذات الربيع والفضل ونظراءهما كانوا يفضلونهما
في الصفات التى تسود بالقصور ، والتى كان يتغنى بها الشعراء ويمجدون
ذويها : في المحتد ، والكرم ، والبلاغة ، وقيادة الجيوش ، وسياسة الدولة ،
وغيرها من الصفات التى تلزم ليتحلى بها من يتصدى لشغل هذه المناصب
الرفيعة ، وإدارة هذه الدولة الفسيحة • ولناخذ في هذه الدراسة التى
كوّنت الاحساس بالنقص في نفسى الربيع والفضل •

المحتد

كلن المحتد وطيب الأرومة من أهم دواعى الفخر والتباهى في تلك
الأيام ، وكان الناس في ذلك العصر — كشأنهم في أغلب العصور التاريخية —

يتفاخرون بالأجداد ويهتمون بعزة المنبت ، وكان أقسى ما يرمى به شاعر^(١)
شاعرا أو قبيلة أن يصفها بأن أصلها غير عريق ، وأن منبتها غير طيب ،
والذى يطالع مثلا نقائص جرير والفرزدق يرى أن كلا الشعاعين تحدث
عن حسبه ونسبه في أكثر قصائده ، وفيما يلى مقتطفات قصيرة من
أقوال الشعراء تدل على الاعتداد البالغ بالنسب والأرومة . قال
الأعشى :

فَجَرَّوْا عَلَى مَاعُوذُوا وَلَكَّ عِيدَانُ عَصَاة (١)

وقال الأعجم :

قالوا : الأشاقر تهجوكم ، فقلت لهم :
ما كنت أحسبهم كانوا ولا خلّقوا
وهم من الحسب الزاكي بمنزلة
كلّ حليب الماء لا أصل ولا ورق^(٢)

ويقول الفرزدق يهجو جريرا :

كم من أب لى يا جرير كأنه
قمر المجرّة أو سراج نهار
ورث المكارم كابرا عن كابري
ضخم الدسيعة يوم كل فخر (٣)

ويقول جرير للفرزدق :

خالى الذى اعتسر الهذيل ونخيله
فى ضيق معترك وضيق مجال

(١) حماسة أبى تمام ص ٢٥١ .

(٢) النقائص ٣٣٠ .

جئنى بفالك يا غرزدي واعلمن
أن ليس خالك بالغاً أخوالى (١)

وقال البعيت وهو حدادش بن بشر يهجو جريرا :

وكل تراث المجد أورثتنى أبى
إذا ذكر الغالى من الحسب الجزل

أغرء ييارى الريح فى كل شتوة
إذا اغبرء أقدام الرجال من المحل

وإن لنا جداً كريماً ونجوة
تتم نواصيها الى كاهل عبئل (٢)

وعمى الذى اختارت معدة فحكّموا
فألقوا بأرسان الى حكم عدل (٣)

فإذا ما انتهينا من تقرير أهمية المحتد والأرومة ، فماذا تذكر لنا
المراجع عن محتد الربيع وابنه وعن محتد نظرائهما من كبار الرجال
فى بلاط العباسيين ؟ . . .

لقد مر الحديث عن نسب الربيع وأرومته ، ولكننا لا ندعه قبل أن
نضيف الى ما سبق رواية هامة يوردها ابن طباطبا ، قال (٤) « . . .
وبلغنى أن علاء الدين بن الجوينى صاحب الديوان كان ينتسب الى الفضل
ابن الربيع ، فان كان قد انتحل هذا النسب ففضيحة ظاهرة ، وإن كان
حقاً فقد كان العقل الصحيح يقتضى ستره ، فانه نسب لا يوجد أركل

(١) المرجع السابق ٣٢٤ .

(٢) نجوة : مرتفع : من الارض لا يناله السيل : كاهل : شرف وعبل :

ضخم .

(٣) النقاىض ١٣٧ — ١٣٩ .

(٤) الفخرى ١٥٣ — ١٥٤ .

منه ، فان جده أبا فروة كان ساقطاً ، وكان عبداً للحارث حفر القبور
بالمدينة ، والحارث مولى عثمان بن عفان ، فأبو فروة عبدُ عبدِ عثمان ،
وفي ذلك يقول الشاعر :

وإن ولا كيسانَ للحارثِ الذي
ورلى زمناً حفر القبور بيثرب

وأبو فروة خرج على عثمان يوم الدار ، وكفاه بذلك عاراً ، فانظر
هل ترى نسباً أسقط أو أركل من هذا ؟ •

ذلك هو أصل الربيع بن يونس وابنه ، وهذا هو محتدهما ، وقد
كانا يشغلان أرقى المناصب في قصور الخلفاء العباسيين الأول التي كانت
تردان بطائفة من ذوى الأصل العريق ، والمحتد الرفيع ، ومن هؤلاء :

البرامكة :

ينتسب البرامكة كما سبق القول — الى أصل فارسي عريق ، إذ
كان جدهم برمك سادن النشوبهار ، وهو معبد المجوس ، فكان يقوم
بالإشراف الكامل عليه ، وبخاصة على الثنثون الحينية مثلما كان قصي
وأولاده من بعده يقومون بسدانة الكعبة ، وهذا العمل من أمجد الأعمال
وأشرفها (١) • وفي نسب البرامكة يقول أبو الحجناء :

عند الملوك مضرة ومنافع
وأرى البرامك لا تضر وتنفع
إن العروق إذا استسرت بها الثرى
أشبر النبات بها ، وطاب المزرع
وإذا جهلت من امرئ أعراقه
وقديمه فانظر الى ما يصنع (٢)

(١) ابن خلكان ٢ : ٣٢١ والدكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي
٤٩٠ : ٣ .
(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، ٢٠٣ .

بنو سهل :

بنو سهل ينحدرون من محتد عريق ، وأرومة شامخة ، يقول عنهم ابن طبلطبا (١) : إنهم من أولاد ملوك الفرس قبل الاسلام .

طاهر بن الحسين :

توضح القصة التالية سمو العنصر الذى ينتسب اليه طاهر ، حدث الجيشيسارى قال (٢) : نذب الفضل بن سهل ، طاهر بن الحسين لقيادة جيش المأمون ، ومواجهة جيوش الأمين ، فلما عرف الحسين بن مصعب والد طاهر ذلك ، أنكره ، وقال لطاهر : الفتن لا يتعرض فيها إلا كل خامل ، لا أصل له ولا نباهة ، ليذكر فيها ، أو يعطب فلا ييسالى ، وأنت فلكك قديم مؤثقل ، فقال طاهر لأبيه : لم يذهب على ما قلت ، ولكنى خفت إن لم أقبل ما دُعيت اليه ، أن يقلد الأمر غيرى ، وأصم اليه ، فلأن أكون متبوعا أفضل من أن أكون تابعا .

تذكير الملوك بنمام متقدم

نستعير هذا العنوان من ابن عبد ربه (٣) ، فقد أثبت ، وأورد تحت ما يدل على أن الملوك كثيرا ما يقدرّون الصنيعة التى قدّمت لهم قبل أن يكون لهم الملك ، ويذكرون العون الذى أمدّهم به سواهم إبان كفاحهم من أجل إقامة الدولة ، وقد كانت الدولة العباسية دولة ناشئة فى ذلك الحين ، وكان نجاح دعوتها أثرا من آثار الكفاح والنضال لبعض رجالات هذا العصر ، كما كان بعض الخلفاء العباسيين يحسون بأنهم مدينون لبعض أتباعهم ممن أمدّوهم بالعون قبل الخلافة ، أو عملوا على تصيير الخلافة لهم ، فمن الطبيعى إذاً أن يفخر هؤلاء بما قدموا من

(١) الفخرى ص ١٩٦ .

(٢) الوزراء والكتاب ٢٩١ .

(٣) العقد الفريد ج ٢ ص ١١٧ طبعة لجنة التأليف .

جهد ، وأن يحس سواهم بأنه أقل قدرا ومقاما ، ويمكن القول على هذا إن الذين كانت لهم سابقة جهد ومؤازرة ، حظوا بدلالة على الخلفاء ، ومنزلة سامية لديهم ترجح كثيرا منزله هؤلاء الذين جاءوا ليجنوا ثمرة دون أن يبذروا بذورا أو يغرسوا غرسا ، ومما حكاه ابن عبد ربه (١) أنه لما صارت الخلافة الى أبي جعفر كتب اليه رجل من إخوانه يقول :

إنا بطانتك الأولى كنا نكابد ما تكابد
ونرى فنشعر بالعداوة والبعاد لمن تباعد
ونبئت من شفق عليك ربيثة والليل هاجد
هذا أوان وفاء ما سبقت به منك المواعد

فوقع أبو جعفر عن كل بيت منها : صدقت ، ثم دعا به وألحقه بخاصته .

فاذا استقر لنا هذا المعنى فإننا نتساءل ، ما الدور الذى قام به الربيع وابنه فى إقامة هذه الدولة ؟ أو ما هى اليد التى كانت لهما عند أى من الخلفاء ؟ ثم ما هو دور الآخرين فى ذلك ؟

إن التاريخ يقرر بما لا يدع مجالا للشك أن الربيع وابنه ليس لهما أى فضل فى إقامة هذه الدولة ، ولم يظهر الربيع وابنه إلا بعد أن تم النصر للعباسيين ، بل إنهم كانوا حتى عهد المنصور خدما أو مساعدين للخدم ، وقد مر بنا ما حكاه الربيع من أنه كان فى خمسين وصيفا أهدوا للمنصور ففرقهم فى خدمته ، فصار الى ياسر صاحب وضوئه . ثم أعجب به المنصور لخفته وذكائه فأعتقه وأحله محل ياسر (٢) .

(١) المرجع السابق ص ١٦٨ .

(٢) الاغانى ٥ : ٨٢ .

وإذا فات الربيعَ وابنهَ هذا الشرفُ فانهما حاولا جاهدين أن يكون لهما نصيب في تصيير الخلافة الى بعض الخلفاء ولكنهما فشلا في كلِّ محاولة قاما بها ، فمن المحاولات التي قام بها الربيع ما سبق أن أوردناه عن موقفه بعد موت المنصور وإجلاسه إياه جلسة الأحياء وهو ميت ... وكان بذلك يطلب الخطوة لدى المهدي ، ويظن أنه يقدم للخليفة الجديد يداً عظيمة ، ولكن نصيبه من المهدي كان الازدراء والتأنيب ، فما كان له أن يسفّر هكذا جثمان الخليفة الراحل دون ما يدعو الى ذلك .

وهناك محاولة أخرى قام بها الفضلُ وهي إيعازه للأمين أن يخلع المأمون والقاسم ويجعل ابنه موسى وليا للعهد ، وكان بذلك يرجو أن تكون له الخطوة في قصر الأمين ويعدّه في بلاط ابنه ، ولكن هذه المحاولة أيضاً باءت بالفشل ودفع الأمين رأسه ثمنا للغدر الذي أوعز به الفضلُ بن الربيع .

وإذا سلب التاريخُ الربيعَ وابنهَ هذا الشرف ، فماذا سجل لسواهما من رجالات القصر الآخرين ؟ ذلك ما نجيب عليه فيما يلي :

البرامكة :

للبرامكة دور هام في إقامة الدولة العباسية تحدّثنا عنه كثيرا ، وكان نصيب خالد بن برمك في ذلك نصيب الأسد ، فقد كان يخوض المعركة ضد الأمويين ، وبفضله استطاع الجيش العباسي الانتصار على الجيش الأموي الذي كان يقوده ابن ضبارة . هذا عدا تنظيمه الخراج للدولة الناشئة ، وجمع المال بيسر وسهولة للمناظرين من آل البيت .

وبعد خالد يجيء دور يحيى الذي استطاع أن يحفظ الخلافة للرشيد ، وما كان الرشيد لينالها لولا يحيى بن خالد ، وقد عبر الرشيد بنفسه

عن ذلك أدق تعبير في قوله ليحيى : يا أبت أنت أجلسنتى في هذا المجلس ببركتك ، ويمنك ، وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك الأمر (١) .

أبو أيوب المورياني :

كان المنصور — كما سبق — يحس بفضل أبي أيوب المورياني عليه ، فأبو أيوب هو الذى شفع له لدى سليمان بن حبيب ، فلما لم يقبل سليمان شفاعته أبى أيوب وانهالت السياط على المنصور ، ألقى أبو أيوب بنفسه عليه ، ولم يزل يسأل الأمير حتى أمسك عن خريه ، ويقول ابن خلكان (٢) : « فاعتدها المنصور له » .

طاهر بن الحسين :

ينحدر طاهر من أسرة كافحت في جانب العباسيين منذ بدء حركتهم . يقول الجهشيارى (٣) : وكان المتولى لمكاتبة الإمام عن الدعوة ، والقيّم بأمرهم ، وقراءة الكتب إليهم بمحضر جماعتهم ، طلحة بن زريق ، أخو مصعب بن زريق جد طاهر بن الحسين ، ويقول ابن خلكان (٤) : كان مصعب ابن زريق جد طاهر كاتباً لسليمان بن كثير صاحب دعوة بنى العباس ، فكان بذلك خير معين على نجاح الدعوة ، وتصيير أمورها الى النصر .

قيادة الجيوش وفنون الحرب

تعتمد الدولة الناشئة على القوة في تثبيت دعائمها ، وتأمين حدودها ، ولهذا كان من الطبيعي أن يحظى القواد والأبطال المغاوير بمكانة عظيمة لدى الخلفاء والملوك . فهل كلن الربيع بن يونس وابنه الفضل ممن لهم خبرة بقيادة الجيوش وفنون الحرب ؟

(١) ابن خلكان ٢ : ٣٣٧ .

(٢) وفيات الاميان ١ : ٢١٦ .

(٣) الوزراء والكتاب ص ٨٤ .

(٤) وفيات الاميان ١ : ٢٣٧ .

الإجابة هنا تنطلق قوية ، لا تردد فيها ، وهى أن هذين الرجلين لم يكن لهما فى ميادين الحروب مجال ، ولنعد الى يوم الهاشمية بشئ من التفصيل لنرى موقف الربيع فيه ولنسمع رأى المنصور ، ومعن بن زائدة فى الربيع ، حدث الأصفهاني (١) قال : خرج المنصور راكبا بغلة يمسك بزمامها الربيع بن يونس ، فوثب الراوندية على المنصور ، وتغلبوا على غلمانهم ، وكادوا يقتلونه ، فوثب معن بن زائدة وهو مثلثم ، فانتضى سيفه ، وقتل ، فأبلى بلاء حسنا ، ثم جاء تجاه المنصور ، وقال للربيع : تنح فانى أحق بالجسام منك فى هذا الوقت وأعظم فيه غناء ، فقال المنصور : صدق فادفعه اليه : فأخذه ، فلم يزل يقاتل حتى انكشفت تلك الحال ، فقال له المنصور : من أنت ، لله أبوك ؟ قال أنا طلبتك يا أمير المؤمنين ، معن بن زائدة . قال قد أمنك الله على نفسك ومالك فمثلك يصطنع ، وأخذه معه وخلع عليه .

وليس بغريب بعد هذا الذى سجله الأصفهاني ، أن ينقضى ذلك العصر كله بما فيه من حروب ووقائع دون أن نجد الربيع يقود جيشا أو نرى الفضل يتقدم جندا ، فاذا تركنا الربيع وابنه الى سواهما من الأتراب والنظراء فماذا نرى ؟ .

معن بن زائدة :

نسير خطوة أخرى مع معن بن زائدة ، مستكملين رواية الأصفهاني عنه (٢) قال : ثم دعا جعفر معن بن زائدة يوما ، وقال له : إني قد أمكنتك الأمر ، فكيف تكون فيه ؟ قال : كما يحب أمير المؤمنين ، قال : قد وليتك اليمن فابسط السيف فى العصاة حتى يعودوا الى الطاعة والهدوء . قال : أبلغ من ذلك ما يحب أمير المؤمنين . فولاه اليمن

(١) الاغانى ٩ : ٤١ .

(٢) المرجع السابق ، ونفس الصفحة .

وتوجه اليها وبسط فيها السيف حتى كان له فيها ما تمنى ، وما أَرْضَى
أبا جعفر المنصور •

يزيد بن يزيد :

هو ابن أخى معن بن زائدة ، وكان سيفاً من سيوف بنى للعباس ،
يلقون به فى خضم الأحداث فيكسب النصر ويحرز الفوز ، وقد كان يزيد
وعبد الله بن مالك وغيرهما من القواد أغروا الهادى بخلع الرشيد وتولية
ابنه جعفر والاية العهد (١) فأحفظ ذلك قلب الرشيد على يزيد ، ولكنه عفا
عنه لبأسه وقوته ولحاجته الى مثله ، وقد سبق أن تحدثنا عن بطولة يزيد
فى حرب الخوارج والإيقاع بالوليد بن طريف ، وفى يزيد وشجاعته يقول
مسلم بن الوليد :

سد الثغور يزيد بعد ما انفرجت	بقائم السيف لا بالختل والحيـل
يغدو فتعدو المنايا فى أسنته	شوارعاً تتحدى الناس بالأجل
قد عود الطير عادات وثقن بها	فهن يتبعنه فى كل مرتحل
إذا انتضى سيفه كانت مسالكة	مسالك الموت فى الأبدان والمقل
الزائد يشون قوم فى رماحهم	خوف المخيف وأمن الخائف الوجـل
كبيرهم لا تقوم الراسيات له	حليماً ، وطفلهم فى هدوى مكتهـل
اسلم يزيد فما فى الملك من أودر	إذا سلمت ولا فى الدين من خلـل
وافخر فما لك فى شيبان من مثـل	كذلك ما لبنى شيبان من مثـل
له من هاشم فى أرضه جبل	وأنت وابنك ركنا ذلك الجبل (٢)

(١) الجهشيارى ص ١٧٤ .

(٢) ديوان مسلم بن الوليد ص ٤٧ وأبو هـبل العسكرى : ديوان المعانى

البرامكة :

سبق أن تحدثنا عن خالد بن برمك من ناحية خبرته الحربية ، وموقفه في يوم « ابن ضبارة » ، ولن نعود للحديث عن ذلك ، ولكننا نضيف الى خالد موقفاً آخر من مواقفه الحربية الناجحة ، حدث الجهشيارى (١) قال : « أغزى المودى ابنه هارون الصائفة سنة ١٦٣ هـ وأنفذ معه خالد بن برمك ، وقلد كتابته ونفقاته وتدبير أمر عسكره يحيى بن خالد ففتح عليهم ، وحسن أثر يحيى فيما قام به : وأحمد فعله وتدبيره » وكانت سن الرشيد في ذلك الحين خمسة عشر عاماً فلا نزاع أن أمور الجيش كانت في يد البرامكة من الوجهة العملية ، وأن ما حصل عليه الجيش من نصر إنما كان وليد خبرة خالد ويحيى ومعرفتهما بشئون الحرب .

وكان الفضل بن يحيى قائداً مبرزاً ، وقد سبق أن ذكرنا أن الرشيد ندبه سنة ١٧٦ هـ لمواجهة يحيى بن عبد الله حينما اشتد أمره ببلاد الديلم ، وقد استطاع الفضل أن يثبزل يحيى من حصونه بعد أن استعمل معه أساليب التحذير والترغيب والترهيب وغيرها ، حتى استسلم دون حرب مكثفياً بأمان الرشيد وحماية الفضل (٢) .

وقد سجل نصيب الشاعر هذه الحادثة في قصيدة رائعة منها :

قاد الجياد الى العدو كأنها
رجل الجراد تسوقهن جنوب (٣)
من كل مضطرب العنان كأنه
ذئب يبادره الفريسة ذيب
تهوى بكل مغاور عاداته
صدق اللقاء فما له تكذيب

(١) الوزراء والكتاب ص ١٥٠ .

(٢) ابن الاثير ٦ : ٤١ .

(٣) رجل الجراد : الجماعة الكثيفة منه . والجنوب : ريح الجنوب .

حتى صبحن الطالبى^١ بعارض
فيه المنايا تغتدى وتثوب
خاف ابن عبد الله ماخوفته
فارتد ثم أتك وهو منيب
ولقد رآك الموت ، إلا أنه
بالظن يخطئ مرة ويصيب
فرمى إليك بنفسه فنجأ بها
أجل^٢ إليه ينتهى مكتوب
فكسوته ثوب الأمان وإنه
لا حبله واه ولا مقضوب^(١)

ولجعفر بن يحيى موقف كموقف أخيه ؛ فإنه لما هاجت العصبية
بين النزارية واليمنية بالشام وأصبحت الدولة كلها مهددة بذلك الشر
وتلك الفتنة ، قال الرشيد لجعفر : إما أن تخرج أنت إليها ، وإما أن
أخرج أنا ، فخرج جعفر ومعه القواد والعساكر والسلاح والأموال ،
فلما وصل الشام ظفر بجماعة ممن سعوا بالفساد ، وشرعد آخرين ،
وسرعان ما ملأت هيئته النفوس ، فسكنت الفتنة واستقامت الأمور^(٢)
وقد مدحه مسلم بن الوليد بقصيدة طويلة بعد أن هدأ الثورة وألّف
بين القلوب ، جاء فيها :

استفسد الدهر^٣ أقواماً فأصلحهم
محمّل^٤ نكبات الدهر محتمل
به تعارفت الأحياء وأتلفت^٥
إذ ألفتهم إلى معروفه السبل
كأنه قمبر ، أو ضيغم هصر^٦
أو حية ذكر^٧ أو عارض هظك^(٣)

(١) الاغتلى ٢٠ : ٣٦ .

(٢) المرجع السابق ، والجهشيارى ص ٢٨ .

(٣) ديوان مسلم بن الوليد ص ٥٧ .

وعن موسى بن يحيى يقول الأستاذ الخضرى^(١) : وأما موسى بن يحيى فكان أشجع القوم ، وأشدّهم بأساً ، لم ينل من الشهرة ما ناله أخواه الفضل وجعفر إلا أنه كان في تلك الدولة عاملاً سرياً وقائداً بأسلاً ، وقد ولاه الرشيد الشام لما هاجت بها الفتن وظهر العصيان قبل الحادثة التي ذهب فيها أخوه جعفر فذهب إليه ومعه القواد والأجناد فاستطاع أن يخمد الثورة ويضع حداً للفتن ، وفي هذه الحادثة يقول الشاعر :

قد هاجت الشام هيجاً يشيب رأس وليده
فصب موسى عليها بخيبله وجنوده
فدانت الشام ذعراً من بأسه وحديد

شئون السياسة والادارة

تحتاج الدولة الى ساسة حكماء ، وعابرة موهوبين ، وذوى خبرة وكياسة يدبرون أمرها ، ويتصدون لحل مشكلاتها ، ويسهرون على سلامتها ، وحسن سير الأمور فيها ، فلتنظر نظرة الى كبار رجال هذا العصر ، لنرى النصيب الذي أسهم به كل منهم في تدبير هذه الشؤون ، ورعاية هذه الدولة :

الربيع بن يونس وابنه الفضل :

سنرى فيما يلي كيف كانت سياسة الربيع وابنه سياسة فاشلة ، قصيرة النظر ، والحقيقة أن الانسان ليئتمس لهما العذر ، فالسياسة علم عميق يحتاج الى سعة اطلاع وخبرة وعربة ، وأنتهى للربيع ذلك وقد كان بالأمس القريب خادماً صغيراً ووصيفاً حقيراً ؟ كيف يقاس بالبرامكة في هذا الشأن ؟ والبرامكة ذوو المجد المؤنث ، قرعوا حكمة الفرس ، وعرفوا سياسة الدول قبل أن يصلوا الى خلفاء بنى العباس .

(١) محاضرات في تاريخ الدولة العباسية ٢٥٩ - ٢٦٠ .

وأقرر أنه ليس للربيع بن يونس — فيما قرأت — موقف واحد
يذكر فيشكر ، ويدل على سداد الرأي ، وعلو القدم في شئون السياسة ،
ومن خلال سياسته موقفه من جثمان المنصور عقب وفاته ، وقد مر
الحديث عنه .

أما الفضل بن الربيع فقد أغرق في الفشل وأبعد فيه ، وقد سجل
التاريخ عليه أموراً تدل على عدم معرفته بسياسة الدول وتدبير الأمور
فيها ، وقد أشرنا في مواضع متفرقة الى بعض تلك الأمور ، ونعود
هنا فنستوفيها موجزين القول فيما سبق أن أوردناه :

لما انقضى أمر البرامكة اختلت الأمور ، ولم يقو الفضل على
الإشراف على قصر الخليفة وعلى مملكته ، إذ شغلته خدمة الخليفة ، وتدبير
شؤونه الخاصة ، فأضاع ما وراء ذلك من الشئون والأمور ، فتعطلت
المصالح واضطربت الأمور ، وكانت الصحف التي ترد من الولايات
لا تجد من يفضيها ويحيب عنها ، وكان الرشيد يرى ذلك فيتمثل
بقول الشاعر :

أفلطوا عليهم — لا أبأ لأبيكم —

من الملوم أو سدثوا المكان الذي سدثوا

ومن خرق الفضل أنه أسند قيادة جيش الأمين الى علي بن عيسى
ابن ماهان ، وقد كان هذا والياً على خراسان فأساء السيرة ، وعبت
بالأموال والرجال ، لها إن ولاء الفضل قيادة جيش الأمين حتى جد
الخراسانيون في حربه خوفاً من أن يعود إليهم شره وعدوانه .

ولجا الفضل بن الربيع الى بطل من أبطال العرب هو أسد بن يزيد
ابن مزيد ليتولى قيادة جيوش الأمين ، ولكن أسداً — في سبيل تقوية
جنده — اشترط شروطاً خاصة في الأموال والعطاء والرجال ، فغضب
الفضل ، وسار به الى الأمين فأمر بحبسه (١) .

(١) الجهمياري : الزوارء والكتاب ص ٢٩٤ .

وكان الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان قد ثار على الأُميين وخلعه ، ودعا للمؤمن في بغداد ، ولكن جند الأُميين تغلب بعد حين على جند الحسين ، وأعيد الخليفة ، وقُبض على الحسين وجيء به الى الأُميين فعفا عنه ، ثم ظهر سوء تدبير الفضل وخرقه إذ عين الحسين هذا قائداً لجيوش الأُميين التي تحارب المؤمن ، ولكن نفس الحسين ما كانت تكثر أي لون من ألوان الولاء للأُميين بعد أن خلعه وحارب جنده ، ولذلك نجده يسارع بالهرب (١) .

فإذا تركنا الربيع وابنه لنعرج على الآخرين من النظراء والأنداد فإننا نجدهم أبرع سياسة ، وأكثر حكمة ، وأعمق فهمًا للأمر ، ونسارع — ونحن لا زلنا على ذكر من موقف الفضل بن الربيع من أسد بن يزيد بن مزيد — فنروى ما فعله الفضل بن سهل في موقف مماثل ، روى الجهشياري (٢) أن الفضل بن سهل نذب طاهر بن الحسين لقيادة جيوش المؤمن فرآه مثاقلاً ، فقال له : ما أمنيئك ؟ قال : أمنيئي أن أخطب على منبر فوسنج (البلدة التي كانت تسكنها أسرته بخراسان) ويكون في صندوقى مائة ألف درهم . فولاه فوسنج وأمر له بمائة ألف درهم . وتركه أياماً ثم دعاه الى الشخصوص فاستجاب ؛ فقال الفضل : إذا نال الرجل المنى ، خاض الدماء .

وقبل أن ندع الفضل بن سهل نروى ما ذكر عنه من أنه أمضى ثلاثين سنة وهو يعذب نفسه في تعلم الحكمة والمروءة والأدب فلا غرو إذا كتب له النجاح فيما قام به من أعمال (٣) .

ونترك الآن الفضل بن سهل الى معاوية بن يسار والبرامكة :

(١) ابن الاثير ٦ : ٨٦ — ٨٧ .

(٢) الوزراء والكتاب ٢٩٠ — ٢٩١ .

(٣) انظر الجهشياري ٢٨٠ — ٢٨١ .

(م ٢٣ — التاريخ الاسلامي ج ٣)

معاوية بن يسار :

داهية من كبار الدهاة ، وسياسي من أساطين السياسة ، شهد له عدوه القشيري — والفضل — ما شهدت به الأعداء — بأنه ليس بجاهل في صناعته ، وأنه لأحقق الناس ، وما هو بظنين فيما يتقلده ، وإنه لأعف الناس ، كان يقوم بأمر المهدي في حياة المنصور فجاءه المهدي يوماً فرحاً مستبشراً ، وأخبره أن المنصور ذكر له أنه كبر وعجز عن مباشرة الأعمال ، وأنه ينوى أن يدع الأمر له ، فقال معاوية : أيها الأمير ، اتق الله ولا تظهر الأمير المؤمنين قبعولا ، فإنه إنما سبرك بما عرض عليك . وعلمه إجابة يلقيها إذا عاد المنصور فحادثه في هذا ، وبعد أيام قال المنصور للمهدي : هل فكرت فيما قلت لك ؟ قال المهدي : والله لا أتعرض لهذا الأمر ، ولا أنهض به ، ولا أغرئ أمير المؤمنين من نفسي ، ويبقى الله أمير المؤمنين ، ويمتحننا بحياته ، قال المنصور من صدك عنه ؟ ومن ناظوت فيه ؟ فقال : شاورت معاوية ، فاستدعى المنصور معاوية وسأله وأمنه فقاتل معاوية : إني أدركت أنك ما عرضت عليه ذلك وأنت تريده ، وإنما أردت أن تختبر عقله ، قال المنصور : وكيف عرفت ذلك ؟ قال : من حرصك على العمل وحبك له ، وشغفك به ، بذلك الجهد في الليل والنهار للنظر فيه ، فعلمت أنك لا تدع شيئاً يكون موقعه منك هذا الموقع لتؤثر به غيرك . قال المنصور : ما كنت أحسب أن أحدا يدرك ما أدركت ، وقد أصبت الرأي ، بارك الله عليك (١) .

وهكذا كان دهاء معاوية بن يسار بالغاً المدى ، فحمى المهدي من سقطة أوشك أن يقع فيها ، ولولا فطنة معاوية بن يسار لكان من الممكن أن يسىء الأب الظن بابنه .

(١) الجهتشياري : الوزراء والكتاب ١٢٨ — ١٢٩ .

البرامكة :

لقد مرت بنا ألوان رائعة ، وأمثلة موفقة ، تدل دلالة واضحة على براعة البرامكة وتفوقهم في شئون السياسة ، وإدارة الدولة ، وقد ورث هذه البراعة كابر منهم عن كابر ، ونحن فيما يلي نورد مثالا قليلة اكتفاء بما سبق ذكره عن هؤلاء الرجال الإفذاذ :

أمرت الخيزران أن يقتل من كان تسرع الى خلع الرشيد ، ودعا الىبيعة جعفر بن الهادي ، فقال لها يحيى : أو خير من ذلك ؟ قالت : وما هو ؟ قال : يرمى بهم في نحور الأعداء ؛ فإن أصابهم العدو استرحت منهم ، وإن دفعوا العدو كان لنا منهم خير* ، ولهم في ذلك عنا شغل ، فأذنت له في ذلك ، فنجنا القوم جميعاً (١) .

وقد سبق أن تحدثنا عن الموقعة التي دارت بين الرشيد ونقفور ، وصورنا كيف هُزم الأخير وطلب الصلح على مال يؤديه : ثم عاد فغدر ، ونقض العهد ظاناً أن شدة البرد ستمنع الرشيد من العودة إليه ، وقتلنا إن هذا النكث كان شديد الوقع على قادة المسلمين حتى أن أحداً منهم لم يجرؤ أن ينقله للرشيد ، ولكن يحيى بن خالد كان فطناً حكيماً ، فعرف بسياسته ودهائه كيف يخبره ، وكيف يصور له هذا الأمر على أنه بتسري وغنم ، فأوعز الى الحجاج المكي بهذه المعانى فصاغ هذا منها قصيدة مظلماً :

نقض الذي أعطيته نقفور فعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه غم أذاك به الإله كبير

فقال الرشيد ليحيى : لقد علمت أنك احتلت في إسماعى هذا الخبر على لسان المكي ؛ ونهض نحو الروم فافتتح هرقلة (١) .

(١) الجهشيارى : العزراء ص ١٧٨ .

(٢) الطبرى ١٠ : ٩٧ : والجهشيارى ص ٢٠٧ .

وحينما كان الفضل والياً على خراسان ، ومقيماً بها ، ورد على الرشيد -ويحيى بن خالد بين يديه - كتاب صاحب البريد * يذكر فيه أن الفضل بن يحيى متشاغل بالصيد واللذات ، فلما قرأ الرشيد الكتاب ، ألقى به الى يحيى ، وقال له : يا أبت اقرأ هذا الكتاب ، واكتب إليه بما يردعه ، فمد يده الى دواة الرشيد ، وكتب الى الفضل على ظهر كتاب صاحب البريد :

« حفظك الله يا بنى وأمتع بك ، لقد انتهى الى أمير المؤمنين مما أنت عليه ما أنكره * فعاد ما هو أزين بك ، فإنه من عاد الى ما يزينه أو يشينه لم يعرفه أهل دهره إلا به والسلام » *

انصب نهاراً في طلاب العلا
واصبر على فقد لقاء الحبيب
حتى إذا الليل أتى مقبلاً
واستترت فيه وجوه العيوب
فكابد الليل بما تشتهى
فإنما الليل نهار الأريب
كم من فتى تحسبه ناسكاً
يستقبل الليل بأمر عجيب
أرعى عليه الليل أسنانه
فبات في لهو وعيش خصيب
ولذة الأحمق مكشوفة
يسمى به كل عدو رقيب
وكان يحيى يكتب والرشيد ينظر إليه * فلما فرغ قال الرشيد :
أبلغت يا أبت ، فلما ورد الكتاب على الفضل كان يلزم المسجد والجدة
طيلة النهار (٣) *

(١) ابن خلکان : وفيات الاعيان : ١ : ٤٠٩ . والمسعودی : مروج الذهب ٢ : ٢٨٢ .

البلاغة والأدب

تحدث ابن عبد ربه عن أثر البلاغة والأدب فقال (١) : « سحر البيان يمازج الروح لطافة ، ويجرى في النفس رقة ، والكلام الرقيق مصايد القلوب ، وإن منه لما يستعطف المستشيط غيظاً ، والمندمل حقداً ، حتى يطفىء جمرة غيظه ، ويسل دفائن حقهده ، وإن منه لما يستميل قلب اللئيم ، ويأخذ بسمع الكريم ويصره .. وكَم مَنْ تخلّص من أنشودة الهلاك ، وتفلت من حبال المنية ، بلطيف التوصل ، ولين الجواب ، حتى عادت سيئاته حسنات ، وعييض الثواب بدلا من العقاب » .

وأتى الحجاج بأسرى من الخوارج فأمر بضرب أعناقهم ، فأخذ السيف ينفذ أمره ، ثم قدّم منهم شاب فقال : والله يا حجاج لئن كنا أسأنا في الذنب فما أحسنت بالعقاب ، فقال الحجاج : أفألهذه الجيف ، أما كان فيهم من يقول مثل هذا ؟ وأمسك عن القتل (٢) .

وكان الرشيد يكره الشيعة ويقتلهم ، وكان مسلم بن الوليد (صريح الغواني) قد رمى عنده بالتشيع فأمر بطلبه ، فهرب منه ، ثم أمر بطلب أنس بن أبي شيخ ، فهرب منه . ثم قبض عليهما وهما عند قينة ببغداد ، فلما عرف الرشيد ذلك قال : الحمد لله الذي أظفرني بهما ، يا غلام أحضرهما . فلما دخلا قال الرشيد : إيه يا مسلم ، أنت القاتل :

أنس الهوى ببني على في الحسنا
وأراه يطمح عن بني العباس

(١) العقد الفريد ٢ : ١٢٢ وما بعدها (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) .

(٢) العقد الفريد ٢ : ١٧٣ — ١٧٤ .

قال : بل أنا الذى أقول يا أمير المؤمنين :

أنسَ الهوى ببنى العمومة فى الحشا
مستوحشا من سائر الإيناس

وإذا تكاملت الفضائل كنتم
أولى بذلك يا بنى العباس

فمجب الرشيد من سرعة بديته ، ثم سأله أن يقول شعراً فى
أنس وذعره فقال :

تلمظ السيف من شوق الى أنس
فالموت يلحظ والأقدار تنتظر

فليس يبلغ منه ما يؤمّله
حتى يؤامر فيه رأيك القدر

وبهذا استطاع مسلم أن يسترضى الرشيد فعفا عنه ، وأجازه ،
وأما أنس فقد لقى حقه (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن من البيان لسحرا » .

وقالت العرب : أنفذ من السهم كلمة فصيحة .

وقال الراجز :

لقد خشيت أن تكون ساحراً
راويةً حيناً وحيناً شاعراً

وقالوا : البيان بصر ، والعى عى

وقالوا : ليس لمنقوص البيان بهاء (٢) .

(١) العقد الفريد : ١٨٠ — ١٨٢ .

(٢) المرجع السابق ١٢٢ — ١٢٣ .

وقال يحيى بن خالد : ما رأيت رجلاً قط إلا هبته حتى يتكلم ، فإن كان فصيحاً عظم في صدرى ، وإن قصّر سقط من عيني (١) .

وكان البيت من الشعر يرفع ويخفض ، إذ كانت البلاغة قوية التأثير على الجماهير ، ومما يدل على ذلك هجاء جرير لقبيلة نمير بقوله :

فغض الطرف أنك من نمير
فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

فلم تكن كعب ولا كلاب بأسمى محتداً من نمير ، ولكن الشاعر ألحق بنمير هذه التهمة ، فذاعت ، وتلقاها الناس كأنها حقيقة مسلم بها . ومن تأثير الشعر ما رواه ابن هشام (٢) أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن نفذ أمره بقتل النضر بن الحارث استمع إلى القصيدة التي رثته بها أخته قتيلة : والتي منها :

أحمد يا نجل خير كريمة
في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما
من الفتى وهو المغيظ المحنق

فقال الرسول : لو بلغنى هذا الشعر قبل قتله لمننت عليه .

وبعد ، لعلنا بهذا صورنا خطر البلاغة والبيان في تلك العصور ، لنستطيع أن نضع في الميزان كبار رجال في قصور العباسيين ، ولعلنا أعرينا أو كدنا أن نعرى الربيع بن يونس وابنه الفضل من التفوق والامتياز فيما أسلفنا من فصول ، وذلك لأنها كانت محددة المعالم واضحة ، كالمحتد والذمام المتقدم . . . ولكننا هنا ونحن نتحدث عن

(١) الأبيهي : المستطرف في كل فن مستظرف ١ : ٤٠ ،

(٢) السيرة النبوية على هامش الروض ٢ : ١١٨ - ١١٩

البلاغة والأدب لا نستطيع أن نصدر حكماً فاصلاً كالأحكام التي سبق إيرادها ؛ ذلك لأن لكل إنسان نصيباً من البلاغة والأدب ، فما ظنك بالربيع بن يونس وابنه ، وقد عاشا في القصور التي تزدان بالمجالس الأدبية ، وتتجاوب فيها قصائد الشعراء ، ويقصدها البلغاء والفصحاء ؟ ولكننا مع ذلك نؤكد بنزاهة وثقة أن حظ الربيع وابنه من البلاغة والأدب كان ضئيلاً جداً ، بالقياس إلى هؤلاء الأثواب والنظرء ، وحجتنا في ذلك قوية إلى حد كبير ، فقد اعتمدت في بحث هذه القضية على مراجع ثلاثة هامة ، أولها جمهرة رسائل العرب ، هذه الرسائل التي قلم بجمعها من المراجع المتعددة الأستاذ أحمد زكي صفوت ، ورتبها ترتيباً دقيقاً ، وخصص الجزء الثالث من أجزاءها الأربعة لرسائل العصر العباسي الأول ، وهو مجلد ضخم يقع في ٥٦٠ صفحة من القطع الكبير ، وبه رسائل رائعة لأعلام الناس في ذلك العهد ، ولكن المؤلف مع سعة قراءته واستقصائه وبذله الجهد لم يجد أية رسالة تنسب إلى الربيع ابن يونس ، ولم يجد للفضل بن الربيع إلا رسالة واحدة قصيرة بعث بها إلى المأمون يستعطفه ويسأله الرضا عنه (١) وفي هذا المجلد سبع قطع من روائع الأدب العربي منسوبة إلى أبي عبيد الله معاوية بن يسار (٢) وسبع قطع ممتعة منسوبة إلى يحيى بن خالد (٣) وست قطع جزلة قوية لظاهر بن الحسين (٤) . وسبع قطع في أرقى درجات البيان والفصاحة منسوبة إلى الحسن بن سهل (٥) وغير هذه من رسائل للفضل بن سهل ، وهرثمة وجعفر بن يحيى ، والفضل بن يحيى وغيرهم من أئداد الربيع وابنه ونظرائهما .

(١) أقرأها ص ٤٣٣ .

(٢) انظرها في الصفحات الآتية : ١٧٥ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،

(٣) انظرها من ص ١٦٣ إلى ص ١٦٨ .

٢٢١ .

(٤) أقرأها في الصفحات الآتية : ٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٧١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٥ ،

٤٩٧ .

(٥) أقرأها في الصفحات الآتية : ٤٠٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ،

٤٣٣ ، ٤٣٤ .

والمرجع الثانى الذى اعتمدت عليه هو العقد الفريد ، وقد عقد ابن عبد ربه فيه بابا طويلا أسماه « كتاب التوقيعات والفصول » وأورد فيه جملة كبيرة رائعة من التوقيعات وفصول العتاب والشكر وحسن التواصل والبلاغة وغيرها ، وقد خلا ذلك الباب كله من أى شئ يسند الى الربيع بن يونس أو ابنه الفضل ، ولكنه حفل بأفنانين من القول مسندة الى أتراب الربيع وأتراب الفضل ، ومن عاشوا معهما فى قصور الخلفاء^(١) .

والمرجع الثالث هو كتاب الوزراء والكتاب للجهمي ، وطبيعة موضوع هذا الكتاب تجعله يعنى عناية كبيرة بالوزراء ؛ بيئتهم الأولى ، وكيف وصلوا الى مناصب الوزارة ، والأعمال الجسام التى قاموا بها ، وما أثيرَ عنهم من شعر أو نثر يستحق التسجيل ، ولكن الجهمي لم يذكر للربيع بن يونس أو لابنه الفضل شيئا يتصل بالأدب أو البيان ، مع أنه أورد لسواهما من المعاصرين تحفاً غالية من الأدب الرفيع .



وعن أدب البرامكة يتحدث الجاحظ وهو مَنْ هو فى معرفته بجيد القول ووزن الكلام — فيقول : حدثنى سهل بن هارون قال : والله إن كان الناس سجعوا الخطب ، ونظموا القريض ، فما هم إلا عيال على يحيى بن خالد وجعفر بن يحيى ، ولو كان كلامهم يَصْغُرُ درءاً ، أو يَحْصِلُهُ المنطق جوهرأ ، لكان كلامهما ، والمنطقى من لفظهما ... ولقد عبرت معهم ، وأدركت طبقة المتكلمين فى أيامهم ، وهم يرون أن البلاغة لم تكتمل إلا فيهم ، ولم تكن مقصورة إلا عليهم ، ولا انقادت إلا لهم^(٢) .

(١) اقرأ هذا فى العقد الفريد : كتاب التوقيعات والفصول ج ٤ ص ١٥٥

الى : طبعة لجنة التأليف .

(٢) العقد الفريد ٥ : ٥٨ .

وبين يدي وأنا أكتب هذه السطور فصول رائعة من أدب البرامكة وأدب غيرهم من معاصري الفضل بن الربيع وأبيه ، وبودي لو اتسع المجال لعرض هذه النماذج الممتعة ، القوية البيان ، الرصينة الأسلوب ، الخطوة العبارة ، ولكن هيهات ، فلنكتف إذًا منها بما قللت ألفاظه ، وسمت قيمته ، وأرجو أن أوفق في الاختيار ، فان من العسير أن تختار أروع جمانة إذا كان ما بين يديك قطعاً من الجمان الفذ الفريد !

من كلام أبي عبيد الله معاوية بن يسار : التماس السلامة بالسكوت ربما كان أولى من التماس الحظ بالكلام ، وقمع نخوة الشرف أيسر من قمع بطر الغنى ، والصبر على حقوق النعمة ، أصعب من الصبر على ألم الحاجة ، وعز الغنى مانع من الانصاف إلا لمن كان في غريزته فضل كرم ، وفي أعراقه علو همة (١) .

ومن كلام يحيى بن خالد : العجب للسلطان ! كيف يحسن ؟ ولو أساء كل الإساءة لوجد من يزيكه ، ويشهد بأنه محسن (٢) .

وكان يقول لست ترى أحداً تكبر في إمارة ، إلا وقد دل على أن الذي نال ، فوق قدره ، ولست ترى أحداً تواضع في إمارة إلا وهو في نفسه أكبر مما نال .

ومن قوله أيضاً : لا أرحم بين أحد وبين الملوك (٣) .

وأوصى يحيى ابنه جعفرًا بقوله : يا بني انتقِر من كل علم شيئاً ، فانه من جهل شيئاً غاذاه ، وأنا أكبرك أن تكون عدواً لشيء من الأدب .

(١) الجهمياري : ١٥٦ .

(٢) المرجع السابق : ١٣٩ .

(٣) المرجع السابق : ٢٠١ .

ومن قوله : الدنيا دول ، والمال عارية ، ولنا بمن قبلنا أسوة ،
وفينا لمن بعدنا عبرة •

وكان جعفر بليغاً كاتباً ، وكان إذا وقع نسخت توقيعاته ، وتدورست
بلاغاته ؛ حكى أنه جلس للمظالم فوقع في ألف قصة ونيف ، ثم
أُخْرِجَتْ فعرضت على العمال والقضاة والكتاب ، فما وُجِدَ فيها
شيء مكرر ، ولا شيء يخالف الحق •

ومن توقيعاته لرجل لا يعرفه قصده يأمل بره : هذا يمتد
بحرمة الأمل ، وهي أقرب الوسائل •

ووقع على رقعة محبوس : العدوان أوبقه ، والتوبة تطلقه (١) •

ووقع لبعض عماله وقد شكى منه : كثر شاكوك ، وقل شاكروك ؛
فإما اعتدلت ، وإما اعتزلت (٢) •

ووقع في قصة محبوس : لكل أجل كتاب •

وفي قصة رجل سأل أن يعاد ابنه من الغزو فقد طالت غيبته :
غيبه يوسف كانت أطول •

ووقع لمصور بن زياد وقد كتب يعتذر : لم نزرعك لنحمدك (٣) •

وكان الفضل بن يحيى أديباً شاعراً ، حدث عبد الله بن ياسين عن
أبيه قال : كتبنا عند الفضل بن يحيى ، فخفضنا في الشعر ، فإذا هو من
أروى الناس له وأجودهم طبعاً فيه ، فقلت له ، أصلحك الله ؛ لو قلت

(١) انظر المرجع السابق : ٢٠٢ — ٢٠٥ •

(٢) ابن خلكان ١ : ١٥٠ •

(٣) العقد الفريد ٤ : ٢١٩ •

شيئاً من الشعر فإنه يزيد في الذكر ، وينبئه ؛ فقال : هيهات : شيطان الشعر أخبث من أن أسلطة على عقلى (١) .

وقال طاهر بن الحسين لكتابه وهو يحارب الأمين : اكتبوا الى أبى عيسى بن الرشيد كتاباً تتقربون به اليه وتتباعدين ، ولا تطمعوه ولا تئسوه ؛ فقالوا : إن رأى الأمير أن يعلّمنا كيف ذلك وتحدّثنا لنا ، فعل ، فقال اكتبوا وأملئ عليهم كتاباً تقرب وتباعد ، ولم يطمع ولم يئس (٢) .

ولما عزم جعفر بن يحيى على استخدام الفضل بن سهل للمأمون ، قرظه يحيى بن خالد بحضرة الرشيد ، فقال له الرشيد : أوصله إلى ، فلما وصل أدرسته حيرة فسكت ، فنظر الرشيد الى يحيى نظرة منكر لاختياره ، فقال الفضل : يا أمير المؤمنين ، إن أعدل الشواهد على فراهة المملوك أن تملك قلبه رهبة سيده فقال له الرشيد ؛ لئن كنت سكّنت لتصورغ هذا الكلام لقد أحسنت ، ولئن كانت بديهة لهو أحسن وأحسن (٣) .

الكرم

الكرم في الجاهلية والاسلام ، وفي البلاد المختلفة من العالم ، خصلة من أكرم الخصال ، وسجية عن أعظم المسجيات ، وإذا كان الكرم كذلك في كل مكان ، فإن قدره أسمى في منبت الاسلام الأول ، ذلك لأن تلك الصحارى الجرداء ، والفيافي القاحلة ، يلزم فيها السخاء والقروى أكثر مما يلزم في أى مكان آخر ، ومن أجل هذا تغنى العرب بحلية الكرم ، وعدوا السخاء أصلاً هاماً من أصول الحاسن ، ثم استمر

(١) الجهشيلرى : الوزراء والكتاب ص ١٩٧ .

(٢) اقرا الكتاب في جمهرة رسائل العرب ٣ : ٣٧١ — ٣٧٢ .

(٣) الجهشيلرى : الوزراء والكتاب ٢٣١ .

معهم هذا الاتجاه أينما ذهبوا وحيث أقاموا ، ولو كان مقامهم في البلاد المتمدينة المتحضرة .

ومما يروى عن الكرم والحث عليه ما ذكره نافع قال : لقي يحيى ابن زكريا ابليس ، فقال له : أخبرني من أحب الناس إليك ، وأبغضهم لديك قال : أحبهم الى كل مؤمن بخيل ، وأبغضهم الى كل منافق سخي ، قال يحيى : ولم ذاك ؟ قال إبليس : لأن السخاء خلق الله الأعظم ، فأخشى أن يطالع الله عليه في بعض سخائه فيغفر له (١) .

ومن الحث على الكرم قوله تعالى (لن تتالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) (٢) وقوله صلى الله عليه وسلم : تجاوزوا عن ذنب السخي ، فإن الله أخذ بيده كلما عثر ، وفاتح له كلما افتقر . وقول بعض السلف : منع الموجود سوء ظن بالمعبود وذلك لقوله تعالى (قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ، وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه) (٣) . وقول أكثم بن صيفي : صاحب المعروف لا يقع ، وإن وقع وجد له متكا . وقد وجد مكتوبا على حجر : اعلم أن تقتيرك على نفسك توفير لخزانة غيرك ، فكم من جامع لبعل حليلته (٤) .

وقد ذهب بعض العرب في السخاء مذهباً جعل الحديث عن سخائهم أقرب الى الخيال منه الى الحقيقة . حكى عن حاتم أنه خرج في الشهر الحرام الى أرض عنزة ، فلما وصلها هتف به أسير فيهم قائلاً : يا أبا سكرانة ، قد أكلنى الأسار والقمل . قال حاتم : والله ما أنا في بلادى ، ولا معى شيء ، وقد أسأت إلى إذ نوءت باسمى . ثم ذهب الى العنزيين وساوهم فيه واشتراه منهم ، وقال : خلوا عنه ، وأنا أقيم مقامه في

(١) الجاحظ : المحاسن والاضداد ص ٥٨ .

(٢) سورة آل عمران الآية رقم ٩١ .

(٣) سورة سبأ الآية رقم ٣٩ .

(٤) المستطرف في كل فن مستظرف ١ : ١٥٧ .

قبيده حتى أؤدى ثمنه ؛ ففعلوا ، وأرسل حاتم الى قومه من جاءه
بالفداء (١) •

وحكى أن قوما من العرب جاءوا الى قبر بعض أسخياتهم يزورونه
فباتوا عند قبره ، فرأى رجل منهم صاحب القبر في المنام يقول له :
هل لك أن تبيعنى بعيرك بنجيبى ؟ فقال الرجل : نعم ، قال الميت : إذا ،
أقسمت عليك إلا قمت فذبحت بعيرك للأضياف الذين باتوا بساحة قبرى ،
وسياتيك نجيبى حالا ، فقام الرجل وذبح بعيره ونال هو ومن معه من
لحم البعير • وفى اليوم التالى أبصروا ركبا قادمين نحوهم ، ثم تقدم
من الركب شاب فنادى : هل فيكم فلان ؟ فقال صاحب البعير : نعم ،
أنا فلان ، فقال : هل بعت من فلان الميت شيئا ؟ قال : نعم ، بعت به بعيرى
بنجيبه فى النوم ، وذبحت البعير طوعا لأرادته ، قال الشاب : هذا
نجيبه فخذ ، وأنا وآله ، وقد رأيته فى النوم يأمرنى أن أدفع لك
هذا النجيب (٢) •

هذه فيما يبدو قصة موضوعة ، ولكنها بدون شك تصور الشغف
بالكرم ، الذى اتصف به واضع القصة وراويها ومدونها ، وذلك عند
النقاد يفوق فى الدلالة على الميل للسقاء كون الحادثة حقيقة واقعة •
وقد تغنى شعراء العرب بالكرم ، وسجلوا عنه آيات من الشعر
نورد فيما يلى طرفا منه :

فلا الجود يفتنى المال قبل فكاكه
ولا البخل فى مال الشحيح يزيد
فلا تلتمس رزقا بعيش مقتتر
لكل غد رزق يعود جديد

(١) الجاحظ : المحاسن والاضداد ص ٦١ •

(٢) المستطرف فى كل فن مستظرف ١ : ١٦٧ — ١٦٨ •

إذا ما أتاه السائلون توقعت
عليه مصابيح الطلقة والبشر
له في ذرا المعروف نغمى كأنها
مواقع ماء المزن في البلد القفر

لا تكثرى في الجود لائمتى
وإذا بخلت فأكثرى لومى
كففى ، فسلت بمالك أبدأ
ما عشت هم غد الى يومى

وهينى جمعت المال ثم خزنته
وحانت وفاتى ، هل أزد به عمرا
إذا خزن المال البخيل فإنه
سيورثه غما ويعقبه وزرا

ذلك هو الكرم ، وهذا هو مذهب القوم فيه ، وإجلالهم له ولذوية ،
فماذا عندنا عن كرم الربيع وابنه الفضل ؟ وماذا عندنا عن كرم سواهما
من الأتراب والنظراء ؟

أما عن الربيع بن يونس فأقرر مطمئنا أنه لم يكن له في ميدان
الكرم والسخاء مجال ، وقد أصدرت هذا الحكم بعد الاطلاع على مظان
وردت بها فصول خاصة للحديث عن الكرم والكرماء ، مثل كتاب
الحاسن والمساوى للجاحظ (١) . والعقد الفريد لابن عبد ربه (٢) ، وديوان

(١) انظر محاسن السخاء من ص ٥٨ الى ص ٦٦ .

(٢) انظر كتاب الزبرجدة في الاجواد والاصفاد ج ١ من ص ٢٦٢ الى

المعاني لأبى هلال العسكري (١) ، والمحاسن والمساوى للبيهقي (٢) ،
والمستطرف في كل فن مستظرف للأبشيبي (٣) ومحاضرات الأدباء لأبى
القاسم الأصفهاني (٤) بالإضافة الى عدد كبير من كتب الأدب والتاريخ
والتراجم ، وأنا لا أقول إن الربيع كان بخيلاً لأننى فى الحقيقة لم أعثر
على ما يدل دلالة واضحة على بخله ؛ وإن كنت قد عثرت على ما يدل
على أنه كان الى المنع وحرمان الآخرين أميل ، حدث الأصفهاني قال (٥) ،
التقى العسس فى عهد المنصور بأبى دلالة الشاعر فى إحدى الأمسيات
وقد شرب وسكر ، فقبضوا عليه ، وخرقوا ثيابه وساجه (٦) ، وجاءوا
به الى أمير المؤمنين ، فأمر أن يوضع فى حظيرة الدجاج ، فلما أفاق
أبو دلالة من سكره نادى غلامه وجاريته فلم يجبه أحد إلا السجان فإنه
قال له : ما شأنك ؟ فقال أبو دلالة : من أنت ؟ وأين أنا ؟ فقال
السجان : أنت فى الحبس وأنا فلان السجان . قال : ومن حبسنى ؟
قال : أمير المؤمنين . قال : ومن خرّق طيلسانى ؟ قال : الحرس . قال
أبو دلالة للسجان : اثنتى بدواة وقرطاس ففعل ، فكتب الى أبى جعفر .

أمير المؤمنين فدتك نفسى
علام حبستنى وخرقت ساجى ؟
أمن صفراء صافية المزاج
كان شعاها لهب السراج
وقد طبخت بنار الله حتى
لقد صارت من النطف التضاج

-
- (١) انظر كتاب المبالغة فى اوصاف خصال الانسان المحمودة من الجود
والشجاعة ... ج ٩ ص ١٠٣ الى ص ١٥٧ .
(٢) انظر محاسن السخاء من ص ٢٠٠ الى ٢٦٩ .
(٣) انظر الباب الثالث والثلاثين فى الجود والسخاء وذكر الامجاد واحاديث
الاجواد ج ١ من ١٥٦ الى ص ١٧١ .
(٤) انظر ما جاء فى الجود والاجواد ج ١ ص ٤٠٠ الى ٤٠٦ .
(٥) الاغانى ٩ : ١٢٣ .
(٦) الساج : الطيلسان الأخضر .

تَهْتَسُّ لَهَا لِقُلُوبٍ وَتُسْتَهِيهَا
إِذَا بَرَزَتْ تَرَقُّقُ فِي الزَّجَاجِ
أَقَادُ إِلَى السَّجُونِ بِغَيْرِ جَرَمٍ
كَأَنِّي بَعْضُ عَمَالِ الْخُرَاجِ
وَلَوْ مَعَهُمْ حَبِسْتُ لَكُنْ سَهْلًا
وَلَكِنِّي حَبِسْتُ مَعَ الدَّجَاجِ
وَقَدْ كَانَتْ تُخَبِّرُنِي ذُنُوبِي
بَأَنِّي مِنْ عِقَابِكَ غَيْرِ نَاجِ
عَلَى أَنَسَى وَإِنْ لَأَقِيتَ شَرًّا
لَخَيْرِكَ بَعْدَ هَذَا الشَّرِّ رَاجِ

فلما قرأ الخليفة هذه المقطوعة الشعرية دعا بأبي دلامة وسأله :
أين حبست ؟ قال : في بيت الدجاج . قال : فما كنت تصنع ؟ قال :
أقوىء معهن حتى أصبحت . فضحك الخليفة وخلى سبيله وأمر له
بجائزة فقال الربيع : إنه شرب الخمر يا أمير المؤمنين وقد ظهر ذلك في
قوله : وقد طبخت بنار الله يعنى الشمس . فقال أبو دلامة : والله ما عنيت
إلا نار الله المبرقة التى تطلع على فؤاد الربيع . فضحك المنصور ، وقال :
خذها يا ربيع ، ولا تعاود التعرض .

أما الفضل بن الربيع : فلم يرد له ذكر أيضا في المظان التى سبق
ذكرها ، كما لم تسجل له أغلب كتب الأدب والتاريخ شيئا في مجال الجود ،
ولكن الأصفهاني أورد ما يدل على كرم الفضل مع أبي العتاهية بوجه
خالص ، حدث أبو الفرج قال (١) : دخل أبو العتاهية على الرشيد
فأنشده :

الله هوّن عندك الدنيا وبغضها إليـكا

(١) الاغانى ٣ : ١٥٤ .

فأبيتَ إلا أن تصغَّ ر كل شيء في يديكا
ما هانت الدنيا على أحد كما هانت عليك

فقال الفضل للرشيـد : يا أمير المؤمنين ، ما مـدحت الخلفاء
بأصدق من هذا المدح ؛ فقال : يا فضل ، أعطه عشرين ألف درهم ،
فغدا أبو العتاهية على الفضل فأنشده :

إذا ما كنت متخذاً خليلاً فمثل الفضل فاتخذ الخليل
يرى الشكر القليل له عظيماً ويعطى من مواهبه جزيلاً
أراني حينما يـمـمّت طرفي وجدت على مكارمه دليلاً

فطرب الفضل وقال : لولا أن أساوى أمير المؤمنين لأعطيتك
مثلها ، ولكى ساوصلها إليك في دفعات ، ثم أعطاه ما أمر به الرشيـد ،
وزاد له خمسة آلاف درهم من عنده •

ولست أدري كيف طرب الفضل لهذا الشعر المتداعى الهزيل ، فهو
عندى إما قليل الملاحين ، فشره بأن مدحه شاعر ، أو غير خبير بالشعر
وفنون الأدب •

ولننتقل الى موقف آخر بين الفضل وأبى العتاهية ، وهو أيضا
مما سجله الأصفهاني ، قال (١) : حدث حبيب بن الجهم النـمـيري قال :
حضرت الفضل بن الربيع متنجزاً جائزتي وفرضى ، فلم يدخل عليه أحد
قبلى ، فاذا « عون » حـاجـبه قد جاء فقال : هذا أبو العتاهية قدم يسلم
عليك ، وقد وصل من مكة ، فقال الفضل للحاجب : اعفنى منه الساعة
حتى لا يشغلنى عن ركوبى ، فخرج إليه عون فأخبره بذلك ، فأخرج
أبو العتاهية من كـمـه نـعـلا فدفعها الى عون ليوصلها الى الفضل ، وقد

كتب على شراكها (١) مكتوب ، قال حبيب فدفعها الفضل إلى " لأقرأ له ما على شراكها - فقرأت :

نعل بعثت بها ليلبسها قِرْمٌ بها يمشى إلى المجد
لو كان يصلح أن أشركها (٢) خدى جعلت شراكها خدى

فقال الفضل لحاجبه : احملها معنا ، فحملها ، فلما دخل على الخليفة قتال له : يا عباسى ، ما هذه النعل ؟ فقال : أهداها إلى أبو العتاهية ، وكتب بيتين ، وأمير المؤمنين أولى بلبسها لما وُصف به لابسها ، فقال الخليفة وما هما ؟ فقراهما له الفضل ، فقال : أجاد والله ، هبوا له عشرة آلاف درهم .

وأرى وربما شاركنى هذا الرأى كثير من النقّاد - أن الفضل هنا احتال لتدفع جائزة أبى العتاهية من مال سواء ، وذلك موقف لا يشرف الفضل من قريب أو من بعيد .

على أن كرم الفضل مع أبى العتاهية لم يدم طويلا ، حدث أبو العتاهية قال : ما زال الفضل بن الربيع من أميل الناس إلى " ، وقال لى مرة : أتت تعرف شغلى ، فعُدْ إلى " فى وقت فراغى أقعد معك وآنس بك ، فلم أزل أراقب أيامه حتى كان يوم فراغه فصرت إليه ، وبينما هو مقبلٌ على يستتشدنى ويسألنى فأحدثه حتى أنشدته .

ولى " الشباب فما له من حيلة
وكسا ذؤابتى المشيبُ خمارا
أين البرامكة الذين عهدتهم
بالأمس أعظم أهلها أخطارا

(١) شراك النعل جلدها الاسفل الذى يمس الأرض .

(٢) أشركها خدى : أجعل خدى شراكا .

فلما سمع ذكر البرامكة تغير لونه ، ورأيت الكراهية في وجهه ،
فما رأيت منه خيراً بعد ذلك (١) .

وفي الفضل بن الربيع يقول اسماعيل القراطيسي :

لئن أخطأتُ في مدحِك ، ما أخطأتُ في منعي

لقد أنزلتُ حاجاتي بوادٍ غير ذي زرع (٢)

وهكذا لم يدوّن اسم الربيع وابنه الفضل بين أهل الجود
والسقاء ، فإذا تركناهما وقصدنا إلى الحديث عن كرم سراهما
من الأثراب ؛ وجدنا ثروة ضخمة من القول عن هؤلاء النظراء ، وإنني
لأوشك أن أكف عن ذكر شيء في هذا الصدد لشهرته وكثرة ترده في
كتب الأدب والتاريخ وبخاصة في المظان سائلة الذكر ، ولكني استيفاء
للبحث سأذكر نماذج قليلة جداً لهذا السقاء العريض :

معن بن زائدة :

يروى ابن عبد ربه (٣) أنه كان يقال في معن : حدثت عن البحر
ولا خرج وحدثت عن معن ولا خرج ، ويروى أنه أتاه رجل يسأله أن
يحمله ، فقال معن لخلامه : يا غلام أعطه فرساً وبرذوناً وبغلاً وبعيراً
(العير : الحمار) وبعيراً وجارية ، وقال : لم أعرف مركوباً غير هؤلاء
لأعطيتك .

وأتى أحد الشعراء معناً وهو عامل بالبصرة ولكن الشاعر لم يستطع
لقاؤه فقال لبعض الخدم : إذا دخل الأمير فعرّفني ، فلما دخل أعلمه
بذلك ، فكتب الشاعر بيتاً ونقشه على خشبة ، وألقاها في الماء الذي
يدخل البستان ، حينما كان معن جالساً على القناة فلما رأى معن الخشبة
أخذها وقرأ ما عليها فإذا فيها :

(١) الاغتلى ٢ : ١٦٤ وقد سبق إيراد هذه القصة ، ولكن اعادتها
هنا هامة .

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٩٩ .

(٣) العقد الفريد ج ١ ص ٣٤٩ — ٣٥٠ .

أيا جـود معن نـاج معنأ بحاجتى
فليس إلى معن سـواك شـفيح

فقال معن : من الرجل ؟ فأتى به إليه ، فأعطاه عشر بدر فأخذها
الرجل وانصرف ، وفى اليوم التالى رأى معن الخشبة فاستدعى الرجل
وأعطاه عشر بدر أخرى ، وفعل كذلك فى اليوم الثالث ، فلما حصل للرجل
هذا المال الوفير ، أخذه وترك البصرة خوفاً أن يسترد منه كله
أو بعضه ، فلما كان فى اليوم الرابع طلب معن الرجل ، فلم يجده ،
فقال معن : لقد والله ساء ظنه بنا ، ولقد هممت أن أعطيه حتى لا يبقى
عندى درهم ولا دينار (١) .

وفى معن يقول الشاعر :

يقولون معن لا زكاة لماله
وكيف يُزكى المال من هو بأذله
تراه إذا ما جئت به متهللاً
كأنك تعطيه الذى أنت نائله
تعوّد بسط الكف حتى لو أنه
أراد انقباضاً لم تطمه أنامله
فسلو لم يكن فى كفه غير نفسه
لجاد بها فليتنق الله سائله (٢)

ومن قول معن :

دعيتى أنهب الأموال حتى
أعف الأكرمين عن اللثام (٣)

(١) الاصفهاني : محاضرات الأنبياء ج ١ ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٢) الفعالي : أحسن ما سمعت ص ١٢٥ .

(٣) الأبيشي : المستطرف فى كل فن مستظرف ج ١ ص ١٦١ .

ويُحكى أن المهدي خرج يتصيد فلقيه الحسن بن مطير الأسدي
فأنشده :

أضحت يمينك من جود مصورة
لا ، بك يمينك منها صورة الجود
فقال المهدي : كذبت يا فاسق ، وهل تركت في شعرك موزعا
للأحد ، مع قولك في رثاء معن بن زائدة :
فيا قبر معن كنت أول حفرة
من الأرض خُطَّتْ للمكارم مضجعا
ويا قبر معن كيف وارىت جوده
وقد كان منه البر والبحر مترعا
ولكن حويت الجود ، والجود ميت
ولو كان حيا ضيقت حتى تصدعا (١)
ومما قيل في رثاء معن أيضا :

أقمنا باليمامة بعد معن
مقبلا لا نريد به زوالا
وقلنا : أين نرحلك بعد معن .
وقد ذهب النوال فلا نوالا (٢)

يزيد بن يزيد الشيباني :

حكى أبو قدامة القشيري قال : كنا مع يزيد بن يزيد يوماً ، فسمع
صائحاً يقول : يا يزيد بن يزيد ، فطلبه يزيد ، وقال له : ما حملك على

(١) ذيل ثمار الاوراق على هامش الجزء الثاني من محاضرات الادباء
ص ٧٩ .

(٢) الاغانى ج ٩ ص ٤٢ :

هذا الصباح ، فأجاب : فقدت دابتي ونفدت نفقتى ، فتذكرت قول الشاعر :

إذا قيل من للجود والمجد والندى
فنادر بصوت : يا يزيد بن مزيد

فأمر له يزيد بفرس أبلق كان معجباً به وبمائة دينار وخلعة سنينة (١) .

ويقول مروان بن أبى حفصة فى يزيد بن مزيد وكرمه :

أفريت مالك تعطيه وتنبهه
يا آفة الفضة البيضاء والذهب (٢)

البرامكة :

إنها ثروة ضخمة يجدها الباحث عن البرامكة فى كتب الأدب والتاريخ ، ولا شك أن الإنسان يحار فيها ، أيها يأخذ وأيها يدع ، وهى فى الحقيقة بالخيال أشبه : حتى أن بعض المعاصرين من الكتاب يشكّون فى صحة الأرقام التى أوردتها كتب الأدب والتاريخ مشيرة الى عطاياهم وهباتهم ، وقد وقع مثل هذا الشك لبعض الأقدمين ، ذكروا أن أحد وزراء العباسيين فى العصر الأخير قتال لجلسائه : إن هذه الأرقام من مبالغات الوراقين والأدباء المملقين ، تعمدوها ليصطادوا بها أموال الأمراء والوزراء ، ويستندروا بها أكف أولى الأريحية من الأغنياء ، وكان فى المجلس أحد الأذكياء ، فقال له : يا سيدى ، لماذا لا يكذب الناس على مولانا الوزير ؟ فلم يحمر الوزير جواباً (٣) .

(١) الأبنسيه : المستطرف ج ١ ص ١٦٧ .

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٢٩٤ .

(٣) ظه الراوى : بغداد مدينة السلام ص ١٨ .

ولا يميل الباحثون والنقاد الى التشكك في كرم البرامكة ، ويبدو لي أنه ليس من السهل أن نتشكك فيما بين أيدينا من تراث أدبي واسع ، وبخاصة أن كرم البرامكة موضوع متفق عليه من جميع الكتاب والمؤرخين تقريباً ، وإنني لأميل الى رد هذه التهمة التي تنتقض ما قيل عن كرم البرامكة ، إذ أن الوراقين الذين تحدثوا عن ذلك الكرم ، هم أنفسهم الذين سجلوا شح المنصور وحرص الربيع بن يونس ، ولو كان الغرض للحث على العطاء ما فعلوا ذلك ؛ فالنتيجة التي أميل الى الأخذ بها هي تلك التي أخذنا بها عند حديثنا عن مجون الأمين وخلاعه ، وهي أن البرامكة كانوا كراماً بلا شك بجليل أنهم أفنوا كل ثرواتهم ، ولم يكن بخزائنها عند وقوع النكبة بهم ما يغنى ، وقد كانت لهم مواقف في الكرم بعيدة المدى ، غير أن الكتاب فيما يظهر ، اتخذوا من كرم البرامكة موضوعاً للمبالغة والإطغاب ، فأضافوا الى الحقائق الباهرة ، أفاصيص أخرى سارت بها الركبان ، ولكن هذا يجب ألا يؤثر في القضية المعروضة وهي أن البرامكة كرام الى حد يقرب من السرف ، إن لم يكن هو السرف ذاته .

وكرم البرامكة مشهور منذ جدهم خالد بن برمك الذي سمي طلاب الأعطيات زواراً وكانوا يشمون من قبل سؤالاً كما سبق القول .

وقد وضع يحيى دستور البرامكة في الكرم فقال : أعط من الدنيا وهي مقبلة فإن ذلك لا ينقصك منها شيئاً ، وأعط منها وهي مدبرة ؛ فإن منعك لا يبقى شيئاً (١) . فهو يحدث على الإعطاء في كل حال ، ولم يكن البرامكة ينتظرون شكر الناس على ما بمنحون ، ومن طرائف يحيى في ذلك أنه قيل له : إن هاهنا قوماً جاءوا يشكرون لك معروفاً ، فقال : هؤلاء يشكرون معروفاً فكيف لي بشكر شكرهم (٢) .

وكان يحيى أستاذاً في الكرم فهو يعلم الرشيد السخاء ، فإن لم يكن

(١) المستطرف ١ : ١٦٣ وابن خلكان ٢ : ٣٢٤ .

(٢) العقد الفريد ١ : ٣٢٢ .

السخاء غاية لزمتم الحيلة لمداراة قلة البذل ؛ حدث ابن خلكان (١) قال : وكان يحيى يساير الرشيد يوماً فوقف له رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، عطبت دابتي ، فقال الرشيد : يعطى خمسمائة درهم ؛ فغمزه يحيى ، فلما نزلوا ، قال الرشيد له يا أبت أومأت إلىّ بشيء ولم أعرفه ؛ فقال يحيى : مثلك لا يجرى هذا المقدر على لسانه ، إنما يذكر مثلك خمسة آلاف ألف ، أو عشرة آلاف ألف ؛ فقال الرشيد : ولكن اذا سئلت سؤال صاحب الدابة كيف أقول ؟ فقال يحيى : تقول تشتري له دابة أحسن منها .

ولم يكن كرم البرامكة عن غنى وإنما عن طبع ، وربما دفعوا كل ما عندهم ليسدوا ثغرة ، أو لينبؤوا معروفاً ، روى أن الرشيد دعا صالحاً صاحب المصلى وقال له : اخرج الى المنصور بن زياد فقل له : لقد صحت عليك عشرة آلاف ألف درهم (عشرة ملايين) فاحملها إلىّ في يومك هذا ، فإن هو دفعها كاملة قبل مغيب الشمس ، وإلا فاحمل رأسه إلىّ ، وإياك ومراجعتى في شيء من أمره ، قال صالح : فخرجت الى المنصور فعرفته الخبر ، فقال إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله ما عندي منها ثلاثمائة ألف ، دعنى أوص ، ثم خذ في عملك ، ودخل ليوصى فارتفع الصراخ من منزله وحجر نسائه ، ثم خرج وما فيه لحم ولا دم فقال : امض بنا الى يحيى ابن خالد . فمضيت معه فدخل على يحيى وهو يبكي ، قال يحيى : ما وراءك ، فقص عليه القصة . فقلق يحيى بأمره ثم دعا خازنه وقال له : كم عندك من المال ؟ قال خمسة آلاف ألف ، فقال : هاتهما ، ثم وجهه الى الفضل برسالة يقول فيها : إنك قد أعلمتني أن عندك ألفى ألف درهم ، قد غرت أن تشتري بها ضيعة وقد أصبت لك ضيعة يبقى ذكرها وشكرها ، وتحمد ثمرتها ، فوجهه إلينا بالمال ، فوجه به . ثم قال للرسول : امض الى جعفر فقل له أبعث إلىّ بألف ألف درهم لحقّ لزمنى ، ففعل جعفر فقال صالح : هذه ثمانية آلاف ، ثم أطرق يحيى إبطاؤه ألفكر ، لأنه لم يكن بقى عند البرامكة شيء ، ثم رفع رأسه الى

خادمه ، وقال : امض الى دنانير فقل لها : وجهي إلى العقد الذي عندك فبعثت به ، وكان ثمنه أكثر من مائة ألف دينار • فأخذ صالح الأموال والعقد وترك المنصور وانصرف ، فلما وضع المال أمام الرشيد وأخبره الخبر قال الرشيد : أما إني قد علمت أنه إن نجا لم ينج إلا بأهل هذا البيت ، اقبض المال ، واردد العقد على دنانير •

وكان المنصور بن زياد هذا عاقفاً ففتكر لإحسان يحيى له ، وإنقاذه إياه من الموت ، وتمثل عند خروجه قول الشاعر :

فما بقيت على تركتني
ولكن خفتما صد النبيل

قال صالح : فلما عرفت ذلك كرهت في المنصور عقوقه وخبت سريرته ولم تطلب نفسي أن أدع يحيى دون أن أعرفه خبر ذلك الرجل سيئ الطبع ، فعدت الى يحيى في اليوم التالي وأخبرته خبر المنصور ، فقال يحيى : يا صالح ، إن المنخوب القلب ربما سبقه لسانه بما ليس في ضميره ، وقد كان الرجل في حال عظيم ، فقال صالح : والله ما أدري من أي أمريك أعجب ؟ أمن كرمك أم من عفوك ؟ ولكني أعلم أن الدهر لا يتخلف •
مثلك أبداً (١) •

ومما يحكى عن الفضل أن رجلاً من أتباعه سار معه رجل كوفي ، من الكوفة الى خراسان ، فسأل الكوفي عن أفعال الفضل فأخبره التابع بإنهابه الأموال الجلييلة في العطايا ، فقال الكوفي : خبرني عن هذه الأموال التي ينهبها ، هل يراها وينظر إليها ؟ فقال : لا • فقال الكوفي : فمن هنا تهون عليه • فلما وصل ذكر التابع للفضل حديث الكوفي ، وكان الفضل متكئاً فاستوى جالساً ، وقال لغلامه : يا غلام ، إيت بصاحب بيت مالي ، فأتى به • فسأله عما عنده ، فقال عشرة آلاف درهم • قال الفضل : تحمل إلى الساعة وتشتق عنها البدر شقاً وتشتت في وسط الدار •

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ٢٢٢ — ٢٢٤ •

فَفَعَّلَ ذلك ثم قام الفضل وأحضر الرجل الكوفي ، وأخذ الفضل يعبت بالمال بيده ويفرقه على زواره وعلى المحتاجين ، وأعطى الكوفي منه مبلغاً كبيراً وقال له : هذا لك لتنبهك إياي على هذا الفعل (١) .

وكان جعفر يكره البخل والبخلاء ، ومما يروى عنه في ذلك ما سبق أن أوردناه من أنه قال يوماً لخدمته : احمل معنا ألف دينار فإني أريد أن أمرّ بالأصمعي ، فإذا حدثني وأضحكتني فضع الكيس في حجره ، ثم سار إليه ومعه أنس بن أبي شيخ ، فصدته الأصمعي بكل شيء فلم يضحك ، وانصرف دون أن يضع الخادم المال ، فقال أنس لجعفر : إنه قد أضحكك بجهده فلم تضحك وليس عادتك رد شيء قد أمرت بإخراجه من بيت مالك ، فقال له جعفر : ويلك ! قد وصلناه بخمسمائة ألف درهم ولم أدخل بيته قبل هذه المرة ، وقد رأيت جرفته مكسورة ومُصلاّه وسخا ، وكلّ ما عنده رثاء ، فعلام أعطيته الأموال إذا لم تظهر الصنيعة عنده ولم تتطرق النعمة بالشكر عنه ؟ ثم أنشد :

فعاوجوا فأتثنوا بالذي أنت أهله
ولو سكتوا أثنت عليك الحقائق (٢)

وفي كرم جعفر يقول أشجع السلمي :

يحب الملوك ندى جعفر ولا يصنعون كما يصنع
وليس بأوسعهم في الغنى ولكن معروفه أوسع
وكيف ينالون غاياته وهم يجمعون ولا يجمع (٣)

ونلقتهم هذا البحث بأبيات قليلة مما قيل في كرم البرامكة ، قال أبو النضر :

(١) البيهقي : المحاسن والمساوي ٢٢٧ - ٢٢٨ .
(٢) أبو هلال العسكري : ديوان المعاني ٧ : ١٢٩ الجهشيارى ٢٠٦ .
(٣) الجهشيارى ٢١٥ .

إذا ما الطايا لم تكن برمكية
فتلك العطايا ما تزيين ولا تحلى (١)

وقال نصيب الشاعر وقد نفحه الفضل ثلاثين ألف درهم :

جواد الربيع الذى كنا نؤمله
فكلنا بربيع الفضل مرتبع
كانت تطول بنا فى الأرض نجعتنا
فاليوم عند أبى العباس نفتجع
إن ضاق مذهبنا أو حل ساحبتنا
ضنك وأزم^٢ فعند الفضل متسع^٣
ما سلم الله نفس الفضل من تلف
فما أبالى أقام الناس أم رجعوا (٢)

بنو سهل :

كان بنو سهل يسيرون سيرة البرامكة فى كرمهم وخلالهم كلها ،
ومما يؤثر عن الحسن بن سهل أنه قيل له : لا خير فى السرف ، فقال :
لا سرف فى الخير (٣) . وقد قال له رجل مرة : لقد صرت لا استكثر
كثيرك ولا أستقل قليلك . قال الحسن : وكيف ذلك ؟ قال الرجل : لأنك
أكثر من كثيرك ؛ ولأن قليلك أكثر من كثير غيرك (٤) .

وصنف سهل بن هارون كتاباً يمدح فيه البخل ويذم الجود ليظهر
قدرته على البلاغة ، ثم أهداه للحسن بن سهل فى وزارته للمأمون ،
واستماحه ، فكتب إليه الحسن : لقد مدحت ما ذمته الله ، وحسنت

(١) البيهقى : الحاسن والمساوى ٢٠١٨ .

(٢) الأغاني ٢٠ : ٣١ .

(٣) المستطرف ٢ : ١٥٧ .

(٤) العقد الفريد ٢ : ١٣٥ .

ما قبَّحه الله ، وما يقوم صلاح لفظك بطلاح معنك ، وقد جعلنا ثواب
نصحك قبول قولك فيه ، فما نعطيك شيئاً (١) .

وقد سبق لنا القول بأن الفضل بن الربيع تجهّم لأبى العتاهية
عندما أنشده هذا قصيدة منها :

أين البرامكة الذين عهدتهم
بالأمس أعظم أهلها أخطاراً

وقد ذكر أبو العتاهية هذا الحديث للحسن بن سهل فقال له الحسن :
لئن كان ذلك ضرراً عند الفضل بن الربيع ، لقد نفعت عندنا ، وأمر له
ب عشرة آلاف درهم ، وعشرة أثواب ، وأجرى له كل شهر ثلاثة آلاف
درهم ، فلم تزل دارمة عليه الى أن مات (٢) .

وحسب الحسن بن سهل كرمه الفياض عندما زوج بوران ابنته من
الخليفة المأمون ، حينما بذل من الأموال ، ونثر من الدرر ما يفوق حد
الكثرة ، حتى أنه عمل بطايع من عتبر وجعل في وسط كل واحدة منها
رقعة بضبيعة من ضياعه أو فرس من خيوله ونثرها فمَن وقعت في يده
بطيخة منها فتحها ، وتسلم ما كتب فيها (٣) .

ومما قيل في الفضل بن سهل :

لفضل بن سهل يد يقتصر عنها المشك
فباطنها للندي وظاهرها للقبيل
وبسطتها للغنبي وسطوتها للأجل (٤)

(١) جمهرة رسائل العرب ٣ : ٤٧٣ .

(٢) الأغنى ٣ : ١٦٤ .

(٣) الفخرى ٣ : ١٩٧ .

(٤) المرجع السابق .

صوى الأخرى من السجاييا

لا تزال هناك صفات كثيرة تشيل فيها كفة آل الربيع ، وترجح كفة الآخرين عند إجراء أية مقارنة ، وليس عندنا من الفراغ ما يتيح لنا أن نتتبع كل هذه الصفات على النسق الذى اتبعناه فيما مضى ، ولذلك نكتفى فى ختام هذه المقارنة بأن نسجل صوراً سريعة لهؤلاء وأولئك •

سبق أن تحدثنا عن الربيع والفضل وابنه من ناحية تشجيعهما للوشاية وإغرائهما للواشين ، وهنا نضع بجانب ذلك دستور جعفر بن يحيى تجاه الوشاة ، فقد روى عنه أنه قال : أنا للذى يوشى به كما قال الشاعر :

وإذا الواشى أتى يسمى بها
تقع الواشى بما جاء يضر (١)

أما دستور الفضل بن سهل فقد ذكره فى قوله لرجل جاء يسمى بآخر : إن صدقتنا أبغضناك ، وإن كذبتنا عاقبتناك ، وإن استقلقتنا أقتلناك (٢) •

وكان الربيع وابنه لا ينسيان الإساءة ، ولا يصفحان عن مذنب ، كما سبق القول ، ولكن العفو كان صفة لازمة لكثيرين من أئداد الفضل وأبيه ، فلقد حكى أن أبا الهول الحميرى كان قد هجا الفضل بن يحيى ، ثم أتاه راغباً إليه معتذراً ، فقال له الفضل : بأى وجه تلقانى ؟ فقال : بالوجه الذى ألقى به الله عز وجل ، وذنبى إليه أكثر من ذنبى إليك ، فضحك الفضل ووصله (٣) •

(١) الجهشيارى ص ٢٢٨ •

(٢) المرجع السابق ص ٣٠٨ •

(٣) ابن خلكان ١ : ٤٠٩ •

وفي رواية ابن طباطبا (١) أن الشاعر اعتذر للفضل بقصيدة منها :

وما لى الى الفضل بن يحيى بن خالد
من الجرم ، ما يُخْشَى على مثله الحق
فَجَدُّه بالرضى لا أبتغى منك غيره
فما لى إلى غير الرضى منكم قصد

فقال له الفضل لا أحتمل تفريقك بين رضى وإحسانى ، فهما مقرونان ، ثم رضى عنه ووصله .

ومما أعزّه من الدهاء الرخيم ومن عدم الوفاء لوصايا الخلفاء وإرشاداتهم ما حكاه الأصفهاني عن الفضل بن الربيع قال : كان ابن جامع من أصحاب الهادي إبان حياة المهدي ، وكان المهدي يخشى على ابنه أن يفسده ابن جامع ، ولهذا ضربه المهدي وطرده من بغداد ، فرحل هذا الى مكة ، فلما مات المهدي وتولى الهادي سارع الفضل بن الربيع وأرسل رسولا من قبله وأعطاه دنائير وقال له : إذهب الى مكة فأتني بابن جامع واحمله في قبة ولا تعلم بذلك أحدا ، ففعل الرسول ما أمّر به ووضع ابن جامع في بيت الفضل واشتريت له جارية ، فقد كان ابن جامع صاحب نساء ، فقال الهادي ليلة لجلسائه : أما فيكم أحد يرسل الى ابن جامع وقد علمتم موقعه مني ؟ فقال الفضل بن الربيع : هو والله عندي يا أمير المؤمنين ، وقد فعلت ما أردت ، ويعد الفضل إليه فأتني به في الليل ، فوصل الهادي الفضل بعشرة آلاف دينار وولاه حجابته (٢) .

وكان الربيع وابنه آلى الشر والإغراء به أميل منهما الى الخير ومنحه ؛ حدث ابن مناذر قال : حج الرشيد بعد إيقاعه بالبرامكة ،

(١) الفخرى ١٧٧ .

(٢) الاغانى : ج ٦ ص ٧٩٠ .

وخرج معه الفضل بن الربيع ، وكان مضيئاً مملقاً (١) (أى بخيلاً) ،
فهيأت في الرشيد قولاً أجدت تنميقة ، فدخلت عليه فوجدته يسأل عنى
ويطلبنى ، فبدرنى الفضل بن الربيع قبل أن أتكلم وقال : يا أمير المؤمنين ،
هذا شاعر البرامكة ومادحهم ، فتتكر الرشيد وعبس وجهه ، فقال الفضل :
مره يا أمير المؤمنين أن ينشيدك قوله فيهم :

أتانا بنو الأملاك من آل برمك

فقال لى الرشيد أنشد ؛ فأبيت ، فتوعدنى حتى أنشدت :

أتانا بنو الأملاك من آل برمك

فيا طيب أخبار ، ويا حسن منظر

إذا وردوا بطحاء مكة أشرفت

بيحيى وبالفصل بن يحيى وجعفر

ثم قلت : يا أمير المؤمنين كانوا أولياءك فمدحتهم قبل أن يلقاهم
سخطك وتحل بهم نقمتك ولم أكن في ذلك مبتدعاً ، ولا خلا أحد من
مدحهم ٠٠٠ فأمر بى فلطمت على وجهى وسحبت من المجلس (٢)

وبجانب هذا الذى تسبب فيه الفضل بن الربيع نستوق القول
عن موقف مماثل للفضل بن سهل ، كان عبد الله التميمي الشاعر قد وصف
للأمين غلامه كوثرأ فقال :

ما لمن أهوى شبيهه	فبهِ الدنيا تتيه
وصله حلو ولكن	هجره مر كرية
من رأى الناس له الفضل	ل عليهم حسدوه
مثل ما قد حسد القا	ثم بالملك أخوه

(١) هذا دليل واضح على شح آل الربيع يضاف لما سبق .

(٢) الاغنى ١٧ : ٢٥ — ٢٦ .

وقد شاع البيت الأخير حتى سمعه المأمون ، فلما قتل الأمين قدم
الانتمى على المأمون ليمدحه ، فلم يأذن المأمون له ، ولكن الفضل بن سهل
تدخل في الأمر وخففه من غضب المأمون على الشاعر وسأله العفو عنه ،
واستجاب المأمون لرغبة وزيره وأذن للشاعر بالمثل بين يديه وبمدحه ،
وحينئذ يقول المأمون : قد وهبت جريرتك لله والأخى الفضل بن سهل ،
وأمر له بعشرة آلاف درهم (١) .

ولنجعل خاتمة القول في هذه المقارنة أن نسوق هذه السطور
الملائل التي تدل على وفاء يحيى بن خالد وسمو خلقه ؛ حدث الجهمياري (٢)
قال : كان ليحيى قبل الوزارة حاجب يقال له « سَمَاعَة » فلما تقلد الوزارة
رأى أحد أخوانه « سَمَاعَة » يقل عن حجابته ، فقالوا له : لو اتخذت
حاجباً غيره ؟ فقال يحيى : كلا ، هذا يعرف إخواني الأقدمين .

نتيجة الدراسة

وبعد : هذه صفحة الفضل وأبيه ، وتلك صفحة النظراء والأنداد ،
فهل كان من الممكن أن يعيش الربيع وابنه في هذا الجو دون أن تتصارع
في نفسيهما العوامل المختلفة ؟ ودون أن يدفعهما الحقد والحسد الى
البشاية والسعاية بؤلاً وأولئك ؟ .. إن هذه الأحداث التي برزت للعيان
وتلك المؤمرات التي أوقعت الموت بالأفراد والجماعات ، كانت نتائج طبيعية
للدوافع التي كمنّت في نفس الربيع وابنه والتي شرحناها بكثير من
التفصيل .

وهكذا كان العالم الاسلامي يرى إيقاعاً بالمورياني وأهله ، ويشهد

(١) المرجع السابق ١٨ : ١١٧ — ١١٨ .

(٢) الوزراء والكتاب ص ٢٠٢ .

(م ٢٥ — التاريخ الاسلامي ج ٣)

نكبة البرامكة ، ويئن تحت عبء الحرب بين الأمن والمأمون ، وهو لا يدري أن الربيع وابنه يقفان من وراء ستار ، يحدّثان هذه النكبات ، ويقذفان العالمَ الاسلامي بكثير من الشرر .

* * *

ويعد ، ذلك هو العصر العباسي الأول ، الذي يقف بين عصور الدولة الاسلامية موقف العملاق ، فخوراً شامخ الرأس ، لعلنا أوضحنا معالنه ، وأبرزنا أهم فلسفاته واتجاهاته ، ولنتجه بعد ذلك لحراسة الخلافة العباسية بعد العصر الأول ، وفرجو من الله العون والتوفيق :

الخلافة العباسية

بعد العصر العباسي الأول

مقدمة :

نواصل هنا كلامنا بايجاز عن باقى عصور الخلافة العباسية التى ذكرناها فى مطلع هذا الجزء ، أما الدراسة التفصيلية لهذه العصور فستأتى فى الأجزاء التالية من هذه الموسوعة التى ستتجه للحديث عن المناطق الاسلامية من أقصى الغرب (أسبانيا) حتى أقصى الشرق (اندونيسيا) تبعا للخطة التى وضعت فى مطلع كل جزء من أجزاء هذه الموسوعة .

ومن الواضح أن الخلافة العباسية لم تستطع أن تسيطر على كل أجزاء العالم الاسلامى الذى كان خاضعا للأمويين ، لأن الأندلس أفلتت من سلطانهم ، ولم تخضع لنفوذهم ، ثم إن الخلافة العباسية صادفت من أبدا عهدا صراعا مريرا ضد الفرس الذين أسقطوا الدولة الأموية وفتحوا الطريق للحكم الهاشمى ، فما أن سقطت الدولة الأموية حتى اتضح أن الفرس ناصرُوا العباسيين ليستغلوا هذا الانتصار لصالحهم ، وليضعوا فريقا من العرب فى كراسى الخلافة ؛ ثم ليحكموا العالم الاسلامى عن طريق هذا الفريق ، أو هذه الدمى التى شاء الفرس أن تكون لها الاسم ، وأن يكون لهم السلطان الحقيقى ، بيد أن العباسيين لم يكونوا فى هذا العصر فى الوضع الذى فهمه زعماء الفرس ، لأنهم كانوا أبطالاً أقوياء ، لا يسمحون لأحد أن يستغلهم أو يسلب سلطانهم كما ذكرنا من قبل ، لهذا قام صراع طويل بين القوتين ، لعب فيه أبو سلمة الخلال وأبو مسلم الخراسانى ، وسنباذ ، والراوندية ، والمقنع الخراسانى أدوارا خطيرة ، كما لعب بنو سسك والبرامكة أدواراً واسعة ، وجاء فى قمته ذلك الصراع الذى استشرى بين الأميين والمأمون ، ذلك الصراع الذى يسميه بعض الباحثين صراعا بين الفرس

والعرب ، وكانت النتيجة أن ضعف الطرفان جميعاً ؛ ضعف خلفاء بنى العباس ، وضعف طموح الفرس وبدأ التفكك يظهر في الدولة ، ونتيجة لهذا التفكك بدأ استقلال بعض المناطق في عهد هارون الرشيد وعهد المأمون كما ذكرنا من قبل ، ثم أدهى — بعد العصر العباسي الأول — الى مزيد من التفكك وإلى حركات استقلالية واسعة ، وصفناها في الأجزاء التالية من هذه الموسوعة .

أما الفرس فقد قنعوا — بعد ما أصابهم من عناء — بالاستقلال في بلادهم فقامت الدولة الطاهرية ، ولم يتحقق لهم الحلم الذي راودهم بحكم العالم الاسلامي بأسره .

ومع ما أصاب الخلافة العباسية من ضعف فانها بقيت الى سنة ٩٥٦ هـ أى استمر عمرها ٥٢٤ سنة ، ومعنى هذا أن أجزاء من العالم الاسلامي أخذت تستقل ، وأخذ النفوذ يضيع من يد الخليفة ، ولكن بقيت الخلافة رمزاً دينياً حياً ، وحيثما كانت أداة يستغلها الذين آلت لهم السلطة الفعلية في بغداد ليجمعوا المال لخزائنها باسم بيت المال ، وليدعوا السلطان على العالم الاسلامي باسم الخليفة الذي كان فاقد السلطان . وقد عبّر الخليفة المعتمد عن هذه الحالة بمقطوعة شعرية قال فيها :

أليس من العجائب أن مثلي
يرى ما قل ممتهناً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً
وما من ذاك شيء في يديه

وفي سنة ٩٥٦ هـ زحف التتار على العالم الاسلامي وقتلوا الخليفة وكثيراً من أهله وأعلنوا نهاية الخلافة العباسية . وهكذا طال عهد الخلافة العباسية ، مع أن الخلفاء العباسيين فقدوا نفوذهم بعد العصر العباسي الأول ، إذ استبد الأتراك ، وبنو بويه ، والسلاجقة بالسلطة ، ومن أجل هذا يتساءل الباحثون : لماذا أبقي هؤلاء على الخلافة العباسية بعد أن سلبوا سلطة الخلفاء ؟

والإجابة هي أن هؤلاء الذين كانوا حكاما فطيين رأوا من مصلحتهم أن يثبّقوا الخلفاء ليدعّوا السلطة على العالم الاسلامى باسمهم ، فقد كانت للخلافة قدسية وجلال ، وكانت رمزاً وحدة العالم الاسلامى ، تلك الوحدة التى كانت موطن الاجال والتقدير من المسلمين .

ويقول البيرونى (١) : إن الخلفاء العباسيين لم يكونوا قادرين على القيام بأدوار سياسية مهمة فى ذلك الوقت ، غير أنهم كانوا لا يزالون يتمتعون بقوة معنوية تجعل الحكام والسلاطين يحرصون على الظفر بموافقتهم على ترليهم السلطة حتى تكتسب سلطتهم صفة الشرعية ، لأن الخليفة العباسى كان أمير المؤمنين الذى تهفو إليه قلوب المسلمين فى جميع أرجاء العالم السنى .

وإذا كان الممالك أو البويهيون أو السلاجقة قد سلبوا الخلفاء سلطانهم الدنىوى وسلطة الحكم ، فما كان بوسعهم أن يأخذوا المكانة الروحية التى كان يتمتع بها الخلفاء ، إذ ساد فى ذلك الحين مبدأ صلة الخلافة بالرسول .

وقد عقد ابن خلدون فى مقدمته (٢) فصلا يجيب به عن مثل السؤال الذى أوردناه آنفا ، ويقول ابن خلدون فى هذا الفصل « إن المتغلبين على السلطان لا يشاركونه فى اللقب الخاص به ، لأن اللقب استحق منذ أول الحولة بعصبة وقوة لم تزل باقية ، وبها انحفظ رسم الدولة ويقاؤها ، وهذا المتغلب إن كان صاحب عصبة من قبيل الموالى والصنائع ، فعصبيته مندرجة فى عصبة أهل الملك وتابعة لها ، وليس له صبغة فى الملك ، وهو لا يحاول فى استبداده انتزاع الملك ظاهرا ، وإنما يحاول انتزاع ثمراته من الأمر والنهى والصل والعقد والابرام والنقض . . . وهو يتجافى عن سمات الملك وشاراته وألقابه ، ولو تعرض لشيء من ذلك لنفسه عليه أهل العصبة وحاولوا الاستئثار به دونه » .

(١) الآثار النابتة عن القرون الخالية ص ١٣٢ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٣١ .

وسنرى مثالا لذلك في تاريخ الأندلس عندما حاول عبد الرحمن بن المنصور الحاجب أن يصبح ولي عهد الخليفة هشام الثانى الأموى فدفع رأسه ثمننا لهذه المحاولة •

وإذا كان الخلفاء قد بقيت لهم السلطة الروحية فى عهد المماليك والسلاجقة ، فظلوا المرجع لشئى الدين ، فان البويهيين لم يعترفوا للخلفاء بهذا الجانب من السلطان ، وسبب ذلك أن البويهيين كانوا شيعة وكان الخلفاء العباسيون سنيين ، وسنعود لهذا الموضوع بمزيد من البيان عند الكلام عن بنى بويه •

وكان الاتجاه السائد أن تكون بالعالم الاسلامى خلافة واحدة ، وكانت تنمرد هذه الدولة أو تلك وتتنفض على الخلافة ، ويدعى أصحابها ما يشاءون من الإلقاب دون أن يدعوا لقب الخلافة (١) ، فلما قامت الدولة الفاطمية فى الشمال الافريقى فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، اتخذ زعمائها لقب الأئمة والخلفاء ، ذلك لأنهم شيعة اسماعيلية ، والاسماعيلية والامامية يرون أن الامامة (وتشمل الخلافة) خاصة بعلى ثم — من بعده — بأولاده من فاطمة ، أى بالحسن فالحسين فأولاد الأخير ، ولا يجوز أن تكون الامامة (وتشمل الخلافة كما سبق القول) لغير هؤلاء ، فإذا سارت أمور الناس الدنيوية (الخلافة) لغير هؤلاء فهو سلب* وغصب لحق ثابت لعلى وأولاده ، ورضاء الأئمة بذلك إنما هو من باب التقية ، فإذا قوى الأئمة أعلنوا بطلان ذلك واستعادوا اللقب (٢) ، وذلك ما فعله الفاطميون •

(١) هذا الموضوع مخطف من الموضوع الذى اشرنا اليه آنفا واستشهدنا عليه بكلام ابن خلدون ، فهناك فى بغداد متغلب على الخلافة دون أن يلغى الخلافة أو يأخذ لقب الخليفة ، وهنا — فى مصر مثلا — مستقل عن الخلافة بجزء من العالم الاسلامى دون أن يدعى خلافة ثانية ، فهناك الحديث عن عدم سلب اللقب وهنا الحديث عن عدم تكراره .

(٢) انظر فى ذلك كتاب « السياسة فى الفكر الاسلامى » للمؤلف .

وقد فتح الفاطميون بذلك باب التعدد في لقب الخلافة ، وكان
الأمويون في الأندلس قد كوّنوا لهم بها سلطانا مستقلا عن ملك
العباسيين ، ولكنهم لم يتخذوا لقب الخلافة بناء على نظرية عدم
التعدد لهذا اللقب ، فلما فتح الفاطميون باب التعدد ، اتخذ عبد الرحمن
الناصر لقب الخلافة لنفسه (١) سنة ٣١٧هـ فأصبح في العالم الاسلامي
ثلاثة خلفاء ، ومرت فترة عقب ذلك هان فيها اللقب وادعاه كثيرون ،
ولكن من الحق أن نقرر أن الشعور العام كان يميل نحو عدم تعدد
الخلفاء في العالم الاسلامي ويميل الى الرجوع في ذلك الى ما شهدته
صدر الاسلام وعصور القوة من وجود خليفة واحد ، ومن عدم الاجترار
على حمل هذا اللقب ، للاحساس العام بضخامته وعبء مسؤولياته ،
وضرورة الاتفاق عليه من أكثر الدول الاسلامية أو كلها ، وعلى هذا
شهدنا مئات الرؤساء والملوك يتخذون ألقابا متعددة لكنهم لم يستطيعوا
حمل هذا اللقب الخطير .

والآن يتحتم علينا — كتتمة للحديث عن الخلفاء العباسيين —
أن نتحدث عن السلطات التي سيطرت على هؤلاء الخلفاء ممثلة في الممالك
وبنى بويه والسلاجقة ، فخلال هذه العصور تم التفكك الذي تكوّنت
بسببه الدول المستقلة التي ستكون موضوع الأجزاء التالية من هذه
الموسوعة ، وستتكمّل هنا عن الأثرak وعن بنى بويه والسلاجقة من زاوية
واحدة هي تسلطهم على شؤون الخلافة ، أما فيما يتعلق بتاريخ البلاد
التي حكموها فإن ذلك كان موضع اهتمامنا عندما تكلمنا عن الأقطار التي
سيطر عليها هؤلاء في الأجزاء التالية من هذه الموسوعة .

(١) عند الحديث عن الاندلس سنورد الاسباب الاخرى التي دفعت
عبد الرحمن لهذا التصرف .

الأتراك

نشأتهم :

نقشبس فيما يلي سطورا مما أوردناه من قبل عند حديثنا عن الخليفة المعتصم خاصة بمطلع سلطان الماليك الأتراك في بغداد وهذه السطور هي :

دفعت الأحداث المعتصمَ الى فقدان الثقة في الفرس والعرب ، أما الفرس فقد اتضح أنهم يقصدون الاستبداد بالسلطان ، وقد ظهر منهم ذلك في ظروف متعددة ، وأنزل بهم الخلفاء العباسيون ألقافا من التكنيل بدأت بأبى سلمة الخلال ، فأبى مسلم الخراساني ، فالبرامكة ، فالفضل بن سهل ، وأصبح واضحا أن الثقة بين الخلفاء وبين الفرس لم تعد متوفرة ، وأما العرب فقد أدركوا أن سلطانهم قد زال بزوال دولة الأمين بسيف الفرس مما دفع نصر بن شبيب للثورة في وجه المأمون دفاعا عن العرب (١) ، وماتت ثورته ولكن الثقة بين الخلفاء والعرب لم تعد كما كانت من قبل ، وقد اضطر المعتصم في ضغط هذه الأحداث أن يبحث عن عنصر جديد يعتمد عليه وتتوفر ثقته فيه .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد كان على المعتصم أن يخوض غمار حرب طويلة ومعارك شديدة ضد الزط وبابك الخرمي والروم ... ولهذا رأى ضرورة تقوية جيشه بعناصر عرفت بالشجاعة والبطولة ليتنصر بهم في هذه الحروب .

ويلاحظ الامام محمد عبده (٢) تصرف المعتصم بقوله : إن الخليفة ظن أن الجيش العربي قد يكون عوناً لخليفة علوي لأن العلويين كانوا

(١) العبر لابن خلدون ج ٣ ص ٢٥٣ .

(٢) الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ص ١١٢ — ١١٣ .

ألصق ببيت النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فأراد أن يتخذ له جيشا أجنبيا من الترك والديلم وغيرهم من الأمم التي ظن أنه يستعدها بسلطانه ، ويصطنعها بإحسانه ، فلا تساعد الخارج عليه ولا تعين طالب مكانه من المثلث •

ولعل التاريخ لا يساعد على قبول رأى الأستاذ الامام في هذا الموضوع ، فقد وقف الجيش العربى عدة مرات يضرب العلويين بقسوة بالغة باسم الأمويين والعباسيين ، ولهذا نميل الى السبيين اللذين أوردناهما قبل ايراد رأى الأستاذ الامام •

وعلى كل حال فقد فتح المعتصم الطريق للترك ليصلوا الى جيش الخلافة ، وقد استقدمهم المعتصم من بلاد ما وراء النهر ، وبدأ بأن أسند لهم أمر سلامته الشخصية فجعل منهم حرسه الخاص ، ثم أدخلهم في الشرطة ثم في جيشه المحارب واستطاعوا بشجاعتهم ويطولاتهم أن ينالوا تقدير الخليفة ، وأن يصلوا الى القمة في أمور الحرب ، وحرص هؤلاء على مكانتهم فعملوا على إسقاط أسماء كثيرين من العرب من الجيش الاسلامي ليخلو لهم الجو •

وقد أراد المعتصم أن يتخلص من سلطان الفرس وسلطان العرب ولكنه وقع وأوقع أولاده وأوقع الدولة الاسلامية في شر مريب حيث وضع — ثناء أو لم يشأ — أمور الدولة في أيدي هؤلاء الأوغاد الطغاة (١) •

وقد بدأ شر الأتراك يظهر في عهد المعتصم فاعتدوا على كثيرين من الناس في بغداد ، واعتدى الناس عليهم ، ولما كثرت الشكوى منهم بنى المعتصم مدينة سامرا وانتقل اليها ونقل اليها جيشه •

وعلى كل فان شخصية المعتصم لم تدع للأتراك فرصة للطغيان ، وكذلك لم يستطيعوا في عهد الواثق بن المعتصم أن يستبدوا بالأمر

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٤٦ — ٤٨ •

ولكنهم بعد الوائق أخذوا يزحفون بسرعة الى السلطة الكاملة ، فكان لهم منها نصيب كبير في عهد المتوكل ثم اكتمل سلطانهم في عهد المنتصر .
وأهم القادة الأتراك الذين لمعت أسماءهم في عهد المعتصم ، الأفشين (حيدر بن كلاوس) وقد كان له سهم بارز في الانتصارات التي شهدتها عهد المعتصم ضد الزط ويابك الخرمي والروم ، ولكنه انشغل بالردة وبمحاولة الاستقلال ببلاده أشر وسنة ، وقامت الأدلة على ذلك ؛ فقبض عليه المعتصم وسجنه ، وظل بالسجن حتى مات ، ومن زعماء الأتراك إيتاخ وأشناس وبغا الكبير .

وبعد ، فهل يلام المعتصم على أنه جلب الأتراك الأوغاد ومنهمم القيادة في جيش المسلمين ، أو يُلْتَمَس له العذر ؟ سؤال قدمنا عناصر الاجابة عنه بايجاز . وأغلب المؤرخين يلقون على المعتصم تبعه ما جلبه الأتراك من فساد على الاسلام والمسلمين .

الأتراك بعد المعتصم :

وصل القواد الأتراك في عهد الوائق الى مكانة مرموقة ، وقد خلع الوائق على أشناس لقب السلطان ؛ وبذلك اعترف له بحقوق تعدو نطاق المهام العسكرية الخالصة ، حتى اذا توفي الوائق في سن مبكرة كان وصيفٌ — خكف أشناس — قد أمسى من القوة بحيث يستطيع أن يرفع الى العرش الرجل الذي يرتضيه ، وبخاصة أن الوائق لم يختار أحدا لولاية عهده ، وقد نَصَبَ وصيفٌ بادىء الأمر محمد بن الوائق خليفة على المسلمين ، وكان لا يزال دون سن الرشد ، لكنه سرعان ما استبدل به عمه جعفر المتوكل على الله ، وقد حاول الخليفة الجديد أن يتخلص من صانعي الملوك ، فأوقع بابين الزيات ، وقضى على إيتاخ ، ولكن محاولته لم تتم لأن الأتراك ثاروا ضده مع ابنه المنتصر واستطاعوا قتله ، واكتمل لهم بذلك السلطان وبدأ عصر ضعف الخلافة (١) .

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٥٢ — ٥٤ .

ومن زعماء الأتراك الذين ظهوروا في هذا العصر غير الذين مر ذكرهم بغا الصغير المعروف بالشرابي ، وقد عاصر المتوكل والمنتصر ، وفي عهد المستعين ظهر بايكبك وأتامش وسيما الشرابي وكلباتكين ، وفي عهد المعتز ظهر صالح بن وصيف وموسى بن بغا ، وفي عهد المهدي برز مفلح ، وفي عهد المقتدر ظهر مؤنس المظفر .

وقد احتفظ هؤلاء الزعماء بقيادة الجيش ، وأحيانا تولى بعضهم الوزارة مثل أتامش الذي تولى وزارة المستعين ، وعن طريق قيادة الجيش كان للأتراك السلطان الكامل تقريبا في شئون القصر وشئون الدولة فيما عدا فترة خلافة المعتمد والمعتضد التي سنتحدث عنها فيما بعد تحت عنوان « صحوة الخلافة » .

وخلفاء هذا العصر هم :

المتوكل	٢٣٢ — ٢٤٧ هـ
المنتصر	٢٤٧ — ٢٥٢ هـ
المستعين	٢٥٢ — ٢٥٦ هـ
المعتز	٢٥٦ — ٢٥٨ هـ
المهدي	٢٥٨ — ٢٦٩ هـ
المعتمد	٢٦٩ — ٢٨٩ هـ
المعتضد	٢٨٩ — ٢٩٥ هـ
المقتدر	٢٩٥ — ٣٢٠ هـ
القاهر	٣٢٠ — ٣٢٩ هـ
الراضي	٣٢٩ — ٣٣٣ هـ
المستفي	٣٣٣ — ٣٣٤ هـ

(وقد عاصر المستفي آخر نفوذ عهد المماليك ومطلع نفوذ البويهيين) .

نهاية الخلفاء في هذا العصر والعصر الذى يليه :

قلنا فيما سبق إن المماليك هجموا على الخليفة المتوكل وقتلوه ، ونضيف الآن أن قتل المتوكل فتح الطريق للاعتداء القاسى الظالم المتهور على الخلفاء ، وقد استمر هذا التصرف طيلة عهد المماليك وامتد الى عهد البويهيين ، فتعرض الخلفاء خلال هذين العهدين لسبب ولغير سبب الى عنف بربرى ، شمل القتل ، وسمل العينين ، والايقاف فى الشمس المحرقة ، والضرب ، وكان خلع الخلفاء أيسر ما ينزل بهم ، وقتل من الخلفاء من نجا من هذا المصير ، وقد دون السيوطى وابن طباطبا (١) صورا من هذه النهايات الأليمة فليراجعها القارىء هناك ، ومن الذين مسهم هذا المصير المعتز بالله الذى أوقف فى الشمس وضرب ثم قتل صبورا ، والمقتدر الذى قطعت رأسه وألقيت جثته بالطريق عدة أيام ، والقاهر الذى خلع ، والمستكفى الذى خلع وسملت عيناه واعتقل حتى مات ، والطائع الذى قبض عليه بقسوة وخلع .

مشاهير وزراء العصر :

حفلت كتب التاريخ والأدب بأسماء لمعت فى هذا العصر فى عالمى السياسة والأدب ، وشغل بعضها منصب الوزارة ، وجدير بنا من أجل هذا أن نذكر هنا مشاهير وزراء العصر :

وزر للمتوكل محمد بن عبد الملك الزيات الذى وزر للمعتصم والواثق من قبل ، كما وزر له أبو الوزير ، ومحمد أبو الفصل الجرجرائى ، وعبيد الله ابن يحيى بن خاقان .

ووزر للمنتصر : أحمد بن الخصيب .

ووزر للمستعين : أحمد بن الخصيب (السابق ذكره) ، وأتامش ، وعبد الله بن محمد بن يزيد ، والجرجرائى (السابق ذكره) .

(١) انظر تاريخ الخلفاء والفخرى عند نهاية كل من خلفاء هذين العهدين .

وزير للمعتز : جعفر الإسكافي ، وعيسى بن فروخنشاه ، وأحمد بن
إسرائيل الأنباري •

وزير للمعتدي : الإسكافي (السابق ذكره) وسليمان بن وهب •

وزير للمعتد : الخاقاني (السابق ذكره) ، والحسن بن الجراح ،
وسليمان بن وهب (السابق ذكره) ، وإسماعيل بن
بلبل ، وعبيد الله بن سليمان بن وهب •

وزير للمعتضد : عبيد الله بن سليمان (السابق ذكره) ، وابنه القاسم •

وزير للمكتفي : القاسم (السابق ذكره) والعباس بن الحسن •

وزير للمقتدر : العباس بن الحسن (السابق ذكره) ، وأبو الحسن
علي بن محمد بن الفرات ، ومحمد بن عبيد الله بن يحيى
الخاقاني ، وعلي بن عيسى بن الجراح ، وحامد بن
العباس ، وعبد الله بن محمد بن عبيد الله الخاقاني ،
وأبن مقله ، وسليمان بن الحسن بن مخلد •

وزير للمقتدر : ابن مقله (السابق ذكره) . ومحمد بن القاسم بن
عبيد الله بن وهب •

وزير للرازي : ابن مقله (السابق ذكره) ، وعبد الرحمن بن عيسى
ابن داود بن الجراح ، والكرخي ، وسليمان بن مخلد ،
والفضل بن الفرات ، والبريدي •

وزير للمعتقي : ابن مخلد (السابق ذكره) ، والبريدي (السابق
ذكره) ، ومحمد بن أحمد الإسكافي القراريطي
(عدة مرات) •

وزير للمستكفي : محمد بن علي السامري (١) •

(١) انظر معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي
لزامبور ص ٦ وما بعدها .

أهم الأحداث في هذا العصر

بالإضافة الى سلطان المماليك الذى طغى على سلطان الخلفاء ، هناك أحداث هامة وقعت في هذا العصر ، نلمح بها فيما يلي .

١ - صحوة الخلافة :

كانت المشاغبات والمؤامرات والفتن طابع هذا العصر ، وكان بعض الأتراك يشغب على البعض الآخر ، ويهدد القوى الضعيف ، ويكثوي اليوم من كان بالأمس مستكيناً فيقتسو ويعربد ، وكانت عاصمة الخلافة غارقة في هذه الاضطرابات ، فكثر بذلك الحركات الاستقلالية في أجزاء كثيرة من العالم الاسلامي ، واختلت ميزانية الدولة لقلة ما يرد من الولايات ، ولكثر النفقات ، ولاضطراب الأمن ، وتوالت انتصارات صاحب الزنج الذى ستحدث عنه فيما بعد ، ولذلك نجد الأتراك يتفقون فيما بينهم على ترك قيادة الجيش لأحد العباسيين ليكون له السلطان عليهم رغبة في تهدئة الأحوال ، ومن هنا تركوا للخليفة المعتمد أن يختار قائد الجيش من أسرته ، فاختار أخاه الموفق ، واسترجع العباسيون بذلك السلطان من الأتراك ، وتعتبر هذه الفترة فترة صحوة للخلافة العباسية ، وبعد وفاة الموفق تولى ابنه المعتضد قيادة الجيش ، فلما توفى عمه الخليفة نودى بالمعتضد خليفة للمسلمين ، وكانت صحوة بنى العباس هذه من سنة ٢٥٦ الى سنة ٢٨٩ هـ ، وعاد بنو العباس بعد المعتضد الى ضعفهم ، ولكن السلطان لم يعد للمماليك على نحو ما كان عليه من قبل ، فقد برزت سلطة نساء القصر كما برز منصب أمير الأمراء ، الذى تركت فيه السلطة ، ولم يكن هذا المنصب خاصاً بالأتراك ، وإنما قفز له رجال من هنا وهناك كما سنرى فيما بعد عند الحديث عن هذا المنصب ، ومع هذا فقد ظان العصر كله يعرف بعصر نفوذ الأتراك ، فقد كان هؤلاء خلف نساء القصر كما كانوا عنصر بارزاً في الجيش على كل حال .

٢ — ثورة الزنج :

كانت منطقة البصرة وواسط تعج بآلاف الزنوج الإفريقيين الذين كانوا أرقعاء أو اجراء لدى كبار الملاك في هذه المنطقة ، وفي عهد الخليفة المعتمد على الله ظهر في هذه البقاع رجل فارسي اسمه على بن محمد ، وكان هذا الرجل ذكياً طموحاً فصيحاً بليغاً لبياً (١) أخذ يسلك عدة طرق لتقوده الى الزعامة والمجد ، فادعى كذباً أنه علوي النسب وذكر أن اسمه على بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبي طالب ، ولكن هذا النسب لم يجلب له كبير فائدة ، إذ كان آل البيت كثيرين في تلك البقاع ، وقد جرب الناس تأييدهم فلم ينالوا منه ما يشجعهم على المضي فيه ، فجهر الرجل بعقائد الخوارج اعتقاداً منه أنها تلائم اتجاهات المساواة والديمقراطية التي يتطلع لها العديد من الطبقات الدنيا (٢) ، ثم خطا الرجل بادعاءاته خطوة أخرى ذهب بها تجاه النبوة أو الألوهية ، إذ زعم أنه ظهرت له آيات عرف بها ما في ضمائر أصحابه (٣) .

ولم تنفعه كل هذه الاتجاهات وأخيراً وجد ضالته حينما أدرك أن الزنج يمكن أن يكونوا سلماً يرتقى عليه وينال به ما يطمح فيه من جاه ومال ، فادعى أنه رسول العناية الإلهية لتحرير الأرقعاء ، واتصل بعدد توسم فيه النشاط والذكاء اسمه ريحان بن صالح ، ووعدده أن يكون قائداً ، وأمره أن يجذب من العبيد من يتوسم فيهم القوة والاستجابة للدعوة الجديدة ، ونجحت الفكرة ، وتجمع حوله عدد كبير من العبيد ، فخطب فيهم ومنعاهم ، ووعددهم أن يقودهم ويملكهم الأموال ، وأقسم لهم ألا يغدر بهم ، ولا يخذلهم ، ولا يدع شيئاً من الإحسان إلا أتى به إليهم ، وقد وصل تعداد أتباعه ١٥٠.٠٠٠ غلام (٤) .

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٢١ .

(٢) Neldeka : Sketches from Eastern History .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٧ ص ٧٣ .

(٤) الخضرى : محاضرات في تاريخ الدولة العباسية ص ٤١٤ .

وجاء عيد الفطر فصلى بهم وخطبهم ، وفي خطبته شرح لهم ما وقع بهم من ظلم ، ورسم لهم مستقبلا سعيدا ، وأغراهم بالجهاد ليستمتعوا بالأموال التي سينالونها من الظالمين ، وبدأ بذلك نضال^١ مريد بينه وبين جيوش الخلافة ، وقد قتل القائد التركي (جعلان) في إحدى معاركه ضد صاحب الزنج وكانت ثورة الزنج مدمرة تحرق المدن وتبيد الزرع ، وقد استولى الزنوج على مدينة الأيلة والأهواز وواسط والبصرة وعبادان ، وكانوا يحرقون بعضها ويذبحون أكثر سكانها وينهبون ما يجدونه فيها من مال وعتاد ، حتى عم الرعب هذه البقاع ؛ وهُدِّت عاصمة الخلافة بزحف هؤلاء الغوغاء .

ولجأ الخليفة الى أخيه الموفق ليحارب صاحب الزنج ، ووضع في يده مقاليد الأمور ليُعيد نفسه وجنده على النحو الذي يريده ، ودارت معارك رهيبة بين القائدين الكبيرين ، واضطر الموفق أن يبني له قلعة تواجه مدينة « المختارة » التي كان صاحب الزنج قد اتخذها عاصمة له ، وأقام كل فريق يرباط ضد الفريق الآخر ، وفي آخر الأمر كانت الغلبة للجيش العباسي الذي أباد الزنج قتلا وأسرا ، وقتل صاحب الزنج ودمرت مدينته ، وقد استمرت ثورة الزنج أكثر من أربعة عشر عاماً (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ) ، وسقط فيها مليونان ونصف في رواية ابن طباطبا^(٢) ومليون ونصف في رواية السيوطي^(٣) ، ونجا العالم الاسلامي من الفوضى والجهل اللذين كانا طابع هؤلاء الرعاع .

٣ — منصب أمير الأمراء :

أمام قوة المعتضد ضعفت قوى الوزراء ، وأنهار نفوذ المماليك ، فلما مات المعتضد وتولى ابنه المكتفي الخلافة عاد الضعف لخلفاء هذا العصر ، فلما ثقلت العلة على المكتفي اتجهت النية الى اختيار

(١) الفخرى : ص ٢٢١ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٤ .

شخص ضعيف ليتولى الخلافة ، ويحدثنا ابن مسكويه (١) أن العباس بن الحسن وزير المكتفى استشار معاونيه آنذاك فيمن يقلده الخلافة ، فأشار عليه أبو الحسن علي بن محمد بن الفرات « بألا ينصب في هذا الأمر من قد عرف دار هذا ، ونعمة هذا ، وبستان هذا ، وجارية هذا ، وضيفة هذا ، وفرس هذا ، ومن لقي الناس ولقوه ، وعرف الأمور وتحسك ، وحسب حساب نعيم الناس » وأشار ابن الفرات بجعفر ابن المعتضد ، فقلل له الوزير : ويحك !! جعفر صبي . فقال ابن الفرات : إلا أنه ابن المعتضد ؛ ولم تجيء برجل يأمر وينهى ويعرف مالنا ، وبمن يياثر التدبير بنفسه ، ويرى أنه مستقل ؟ ولم لا نسلم هذا الأمر الى من يدعك تدبيره أنت ؟ » .

واستجاب الوزير لرأى ابن الفرات وعين جعفرا ولقبه المقتدر ، وفي هذا الجو ظهرت سلطة نساء القصر ، وأصبح لمن الأمر والنهى والحوار والطول ، يقول ابن طباطبا (٢) : واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخطيط كثير ، لصغر سنه ، ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه ، فكانت دولة تدور أمورهم على تدبير النساء والخدم . وعن نفوذ نساء القصر . يقول ابن مسكويه أيضا : إنه لما قتل المقتدر وأشير بتوليته ابنه أبي العباس ، عارض هذا الرأي أبو يعقوب بن إسماعيل النويختي ، وقال : بعد الكد استرحنا ممن له والدة وخالة ، فنعود الى تلك الحالة (٣) .

١ وفي المؤامرة التي تم بها القبض على المتقى وخلعه وتولية المستكفى يقول ابن مسكويه (٤) أيضا : إن المرأة التي سمرت في هذا

(١) تجارب الأمم ج ٥ ص ٣ .

(٢) الفخرى ص ٢٣٠ .

(٣) ابن مسكويه : تجارب الأمم ج ٥ ص ٢٤٢ .

(٤) المرجع السابق ج ٦ ص ٧٥ واقرأ الصولى : أخبار الرضى بالله

والمتقى بالله ص ٢٨٢ .

(م ٢٦ — التاريخ الإسلامى ج ٣)

الأمر هي المعروفة بحسن الشيرازية ، فلما تمت للمستكفي الخلافة
غيّرت اسمها وجعلته (عكّم) وصارت قهرمانة المستكفي واستولت على
أمره كله . ويضيف صاحب كتاب الميرون (١) أنها صارت تكبس منازل
التجّار والمستوردين فتحوز ما تجده لنفسها ، وانبسطت يدها حتى
صارت تأخذ أموال الناس التي لا شبهة فيها .

وفي وسط هذا الجو كثرت الفوضى وتوالى المؤامرات ومصادرات
الأموال ، وأصبح كرسي الوزارة أرجوحة يتداوله ابن الفرات وعلى بن
عيسى وبطامد بن العباس وابن مقلّة وغيرهم ، ولم يعد أحد يطمئن على
نفسه ولا على ماله ، وتسبب عن هذا استقلال الولاة عن السلطة
المركزية ، وقلّت الأموال التي تحمل إلى العاصمة ، فقطع محمد بن رائق
والى البصرة ما كان يحمّل من البصرة ومن واسط (٢) . وقطع البريدي
والى الأهواز ما كان يحمل من الأهواز ، واستولى بنو بويه على فارس ،
فأنفذ الرازي لابن رائق رسولا يعرفه « أنه قلده الامارة ورياسة الجيش ،
وجعله أمير الأمراء ، وردّه إليه تدبير أعمال الخراج والضيايع ، وأعمال
المساعون في جميع النواحي ، وفوض إليه تدبير المملكة ، وأمر بأن يخطب
له على جميع المنابر في الممالك ، وبأن يكتب ، وأنفذ إليه الخلع
واللواء (٣) » .

وهكذا انتقل سلطان الخليفة إلى أمير الأمراء ، ولكن هذا المنصب
لم يضع حدا للاضطراب ، بل ربما سبب زيادة الفوضى ؛ إذ تطلحن على
هذا المنصب كبار القادة ؛ أراد أبو عبد الله البريدي ، كما حصل
عليه بحكم الديلمي (٤) نائب ابن رائق على واسط ، وقد استطاع هذا
أن ينتصر على ابن رائق ، ويرغمه على الفرار ، ويقول بإمرة الأمراء

(١) هامش تجارب الأمم ج ٦ ص ٧٥ .

(٢) ابن مسكويه : تجارب الأمم ج ٥ ص ٢٣٣ .

(٣) ابن مسكويه : تجارب الأمم ج ٥ ص ٣٥١ .

(٤) الصولي : المرجع السابق ص ١٠٦ .

مكانه ، ولكن الأمر لم يستقر له فقد غلبه كورتيكين الديلمي ، ثم عاد ابن رائق الى احتلال المنصب مرة ثانية (١) ، ولكن سرعان ما غلبه الحميدانيون (٢) ، بيد أن هؤلاء أخلوا الطريق لتمرزون أحد القبادة الأتراك ليأخذ هذه المكانة (٣) وبعد توزون جاء ابن شيراز (٤) ، وهكذا لم يَخْصُصْ هذا المنصب حدا للفوضى والاضطراب .

وقد بدأ عصر إمرة الأمراء قبل البويهيين بعشر سنوات ، وآل هذا اللقب أخيرا الى بنى بويه ، وكان معز الدولة أول من لُقِّبَ به منهم (٥)

وفي فترة إمرة الأمراء بطل أمر الوزارة ، فلم يكن الوزير ينظر في شيء من أمر النواحي ، ولا الدواوين ، ولا الأعمال ، ولا كلن له غير اسم الوزارة فقط ، وأن يحضر في أيام المواكب دار السلطان بسواد وسيف ومنطقة ، ويقف ساكنا ، وصار ابن رائق وكتابه ينظران في الأمر كله ، وكذلك اتجه الى هذه العناية كل من تقلد الامارة بعد ابن رائق ، وصارت أموال النواحي تحمل الى خزائن أمراء الأمراء ، فيأمرون وينفقون فيها ، وينفقونها كما يرون ، ويطلقون لنفقات الخلفاء ما يريدون ، وبطلت بيوت الأموال (٦) .

٤ — الدول التي استقلت خلال هذا العصر :

بدأ استقلال الدول عن الخلافة العباسية منذ العصر العباسي الأول حيث استقل الأدراسة والإغالبية والطاهرية والزيادية ، كما سبق القول ، وفي عصر سلطة المماليك كثرت الحركات الاستقلالية ، وأنف كثير

(١) ابن مسكويه : المرجع السابق ج ٦ ص ٢٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٤ .

(٤) الصولي ص ٢٥٥ وما بعدها .

(٥) ابن مسكويه ج ٥ ص ٣٥٢ .

(٦) ابن مسكويه : ج ٥ ص ٣٥٢ .

من الولاة أن يتبع بغداد بعد أن ضاعت هيبة الخلفاء ، وبعد أن استبد المماليك بالأمر ، ولولا جهود الموفق وابنه المعتضد لكان من الممكن أن يحدث مزيد من الانقسامات والحركات الاستقلالية ، ومن الدول التي استقلت في هذا العصر الدولة الصفارية بفارس ، والسامانية بخراسان ، والزيدية بطبرستان والرى والجبل ، واليعفرية بصنعاء ، والحمدانيون بالموصل وحلب ، والطولونيون والإخشيديون بمصر والشام ، والفاطميون في الشمال الأفريقي ، ولم يبق في يد الخليفة وابن رائق غير السودان والعراق (١) ، وقد تكلمنا عن هذه الدول عند حديثنا عن المناطق التي قامت بها في أجزاء هذه الموسوعة .

٥ - زواج المعتضد من قطر الندى :

ومن الأحداث الاجتماعية البارزة في هذا العصر زواج الخليفة المعتضد من قطر الندى ابنة خماروية بن أحمد بن طولون سلطان مصر ، وتعتبر هذه الزيجة من أبرز الزيجات التي دوتها التاريخ ، ولا يضاهيها في عظمتها ومواكبها وما أنفق عليها إلا زواج الرشيد من زبيدة بنت عمه جعفر ، وزواج المأمون من بوران بنت الحسن بن سهل ، وأنه ليشهد من الاسراف ما أنفقه آباء الزوجات الثلاث في هذه المناسبات .

وقد أصدق المعتضد زوجته قطر الندى مليون درهم (٢) ، ولكن هذا الصداق ضئيل إذا قيس بالتكاليف الباهظة التي تحملتها خزانة خماروية ، وقد أجمل ابن دقماق (٣) الحديث عن جهاز الأميرة فقال : لقد حملت معها ما لم يَرَ مثله ، ولا سَمِعَ به من قبل ، وأورد المقرئزي (٤) بعض التفاصيل عن الجهاز فذكر أن مما حواه مائة هون من الذهب لادق الطيب ، وألف تكة ثمن كل منها عشرة دنانير ، ودكة

(١) ابن مسكويه : تجارب الأمم ج ٥ ص ٣٦٦ — ٣٦٧ .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ١٧٤ .

(٣) الانتصار بواسطة عقد الامصار ج ٥ ص ٦٧ .

(٤) الخطط ج ١ ص ٣١٩ .

(سرير) من الذهب عليها قبة من ذهب مشبك في كل عين من التشبيك
قرط معلق فيه حبة من الجواهر نادر القيمة •

وأقيمت الحفلات والمآدب بمناسبة الزفاف فكانت مملوءة بالبدخ
والسرف ، فأسمطة^١ فاخرة ، وصحاف من الذهب ، وألوان مختلفة من
الطعصام ، وكانت الأميرة تظهر في هذه المآدب وقد أثقلها الحرير
والماس ، فرأسها يحمل أكليلا من الذهب ، وعلى رأسها طرحة مرصعة
بالجواهر ، وفي أذنيها قرط تتفرد به الأذنان ، وفي معصمها الأساور
الناخرة ، وتحلى أصابعها خواتم فريدة •

وأعد خمارويه عددة غريبة لرحلة ابنته ، فبنى لها قصرا في
نهاية كل مرحلة من مراحل الرحلة الطويلة بين القاهرة وبغداد ، وأعد
كل قصر بما يحتاجه من أساس ورياش •

وعلى الجملة فإن المؤرخين يقررون أن هذه النفقات الضخمة أثرت
على ميزانية مصر ، وتركت خماروية في شدة وضيق (١) ، وكانت من أسباب
اضمحلال دولة الطولونيين ثم سقوطها •

(١) انظر التنوحي : نشوار المحاضرة ص ٣١٢ •

بنو بويه

نشأتهم :

تقع بلاد الديلم أو بلاد جيلان في الجنوب الغربي لبحر قزوين (بحر الخزر) ويسكنها عنصر ممتاز يطلق عليه اسم الديالة أو الجيل ، وقد خضعت هذه البلاد للحكم الاسلامي منذ عهد عمر بن الخطاب ، ولكن أهلها ظلوا على دينهم وآثروا دفع الجزية *

وفي الجنوب الشرقي لبحر قزوين تقع بلاد طبرستان ، وكانت — على العكس من بلاد الديلم — قد انتشر الاسلام بين أهلها *

وقد حصل خلاف بين طبرستان وبين بني طاهر الذين كانت لهم خراسان ، فاستدعى أهل طبرستان علويًا اسمه الحسن بن زيد لقيادتهم ، وقد استطاع هذا أن ينتصر بهم ، وأن يكون له دولاً سيرد ذكرها فيما بعد . والمهم أن نفوذ الحسن الديني تسرب الى بلاد الديلم ، وقد ساعدت بلاد الديلم جارتها طبرستان في حروبها ضد بني طاهر ، وانضم الجميع تحت قيادة الحسن بن زيد ، ومن ثم أخذ الاسلام ينتشر بين سكان بلاد الديلم *

ودخل بلاد الديلم بعد ذلك داعية مسلم اسمه الحسن بن علي ولقبه الأطروش ، وقد نجح هذا في نشر الاسلام في هذه البقاع بصورة أوضح *

في هذه البلاد نشأ بويه الذي ينسب إليه البويهيين ، وكان رجلاً فقيراً يشتغل بصيد السمك كما تشير الى ذلك أغلب الروايات ؛ ويقول ابن طباطبا (١) « إن أبا شجاع بويه وأباه وجده كانوا كآحاد الرعية الفقراء ببلاد الديلم ، وكان بويه صياد سمك ، وقد كان معز الدولة بعد

تملكته البلاد يعترف بنعمة الله تعالى ويقول : كنت أحتطب الحطب على رأسى .

ويروى ابن خلكن (١) عن أبى الفرج ابن الجوزى فى كتابه شذوذ العقود أن معز الحولة كان فى أول أمره يحمل الحطب على رأسه ، ثم ملك هو وإخوته البلاد .

على أن الأمجاد التى حصل عليها بنو بويه دفعت بعض الرواة والمؤرخين الى أن يتوهموا لهم نسبا رفيعا ، فنسبوهم أحيانا الى ملوك آل ساسان ، وأحيانا الى وزراء هؤلاء الملوك (٢) .

وكان لبويه أبناء ثلاثة هم على والحسن وأحمد ، وقد رأى هؤلاء أن يتخذوا الجندية مرتقا لهم ، فالتحقوا بجيش « ما كان بن كالى (٣) » أحد القادة المشهورين من أبناء الديلم ، وأظهروا فى عملهم براعة وتفوقا ، فدفعهم هذا الى الصفوف الأولى بين الأجناد .

ويعتبر « ما كان بن كالى » القائد الثانى من القادة الديلمية العظام ، أمم القائد الأول فهو ليلى بن النعمان الذى قتل وهو يقود جيش الزيدية ويحاول أن يقتحم به ملك السامانيين ، فلما قُتِلَ « ليلى » تولى « ما كان » القيادة مكانه ، ولكن أحد قواد « ما كان » واسمه أسفار بن شيرويه خرج عليه ، ولمع نجمه ، وكان يعاونه قائد ديلمى آخر اسمه مرداويج بن زيار ، وقد أستطاع أسفار ومرداويج أن يحققا نصرا مؤثرا ضد « ما كان » (٤) ولكن سرعان ما قُتِلَ أسفار سنة ٣١٦ هـ فالت سلطاته الى مرداويج وأخيه وشمكير .

(١) وفيات الأعيان : ج ١ ص ٥٩ .

(٢) انظر سلسلة النسب التى أوردها ابن خلكن فى وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٦ . وانظر كذلك الفخرى لابن طباطبا ص ٢٤٤ .

(٣) فى ابن مسكويه : ما كان بن كالى (انظر الجزء السادس ص ١٦١ من تجارب الأمم) .

(٤) ابن مسكويه : تجارب الأمم ج ٥ ص ١٧٦ .

أمّا بنو بويه فأنهم بعد هزيمة « ما كان » انجازوا إلى مرداويج بعد أن استأذنوا « ما كان » وقتلوا له : إن الإصلاح لك مفارقتنا إليك لتخف عنك مؤونتنا ، فإذا تمكنت عدنا لك ، فأذن لهم ، ولقتدى بهم جماعة من القواد ، وصاروا إلى مرداويج فقبلهم وأكرمهم ، وقلد كل واحد من قواد « ماكان » ناحية من النواحي الخاضعة له ، وكان نصيب على بن بويه ولاية الكرج^(١) (أو الكرج) كما استعان مرداويج بالحسن ابن بويه وبأخيه أحمد في أعمال أخرى مهمة^(٢) .

وخرج هؤلاء الولاة الجدد إلى الري وبها وشمكير بن زيار وأبو عبد الله العميد وزير مرداويج ، وأقاموا بالري فترة ليرحلوا بعدها كل إلى عمله ، وحدث في هذه الأثناء أن تدبر مرداويج أمره فأسف لأنه عقد هذه الولايات إلى هؤلاء القواد ، فكتب إلى أخيه وشمكير ليمنعهم من الخروج من الري ، وإن كلن بعضهم خرج منع من بقى ، وكانت الكتب تصل أولا إلى العميد فيقف عليها ، ثم يعرض على وشمكير جملة ما ، فحين وقف على الكتب تقدم إلى على بن بويه سرا أن يبادر إلى عمله ، إذ كانت بينهما مودة ، فقد كان على بن بويه قبل ذلك أهدها بغلة حسنة وأطافا كثيرة ، واحتجز العميد الكتب إلى اليوم التالي ، فأطلع عليها وشمكير ، بعد أن صار على بن بويه على مسافة بعيدة ، ففاز بالولاية التي كانت سبب ملكه^(٣) .

ووصل على بن بويه إلى الكرج حيث استمال الزعماء والقادة إليه باحسانه وسماحته . وضاق مرداويج به وخافه على ملكه ، فاندفع على بن بويه يقوى نفسه ويعد عدته للوقوف في وجه سيده ، ووسع ملكه فاستولى على اصفهان ، ثم استولى بمعونة أخويه على شيراز سنة ٣٢٢ (٩٤٣) وجعلها مقر سلطانه ، ومع هذا فقد حاول ترضية مرداويج فاعترف له بالسيادة ووضع عنده أخاه الحسن رهينة .

(١) ابن مسكويه : تجارب الأمم ج ٥ ص ٢٧٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٧٧ — ٢٧٨ .

ولم تطل المنافسة بين بنى بويه ومرداويج ، فقد هجم عليه بعض جنده من الأتراك وقتلوه سنة ٣٣٣ وهو في الحمام ، وانتهر الحسن ابن بويه فرصة الهرج الذى تلا مقتل مرداويج فهرب من بلاطه بعد ليلة من مقتله وعاد الى أخيه على (١) .

وفتح الباب عقب ذلك لانتصارات بنى بويه ، إذ استطاع الحسن أن يستولى على الرى وهمدا نوبقية بلاد الفرس في نفس العام ، كما استطاع أحمد أن يستولى على كرمان ، وزحف على بلاد الأهواز فاحتلها ، واحتل بعدها واسط ، واكمل لبنى بويه بذلك السلطان على مساحة كبيرة من أملاك الدولة العباسية ، فكتب على الى الخليفة العباسى يطلب الاعتراف به ، فاستجاب له الخليفة وكتب له بذلك .

ويقول ابن خلكان (٢) عن عماد الدولة : فكان عماد الدولة سبب سعادتهم التامة وانتشار صيقتهم ، واستولوا على البلاد وملكوا العراقيين والأهواز وفارس وساسوا أمور الرعية أحسن سياسة .

وكننت الأحوال كما قلنا قد ساءت في بغداد ، وضعف الماليك وأمراء الأمراء عن تفسير حفة الأمور على نحو ما ذكرنا من قبل ، وفي سنة ٣٣٤ كتب قتادة بغداد الى أحمد بن بويه ليدخل بغداد ويتولى السلطان بها ، ففعل ، وقد رحب به الخليفة العباسى وعينه « أمير الأمراء » وخلع عليه ولقبه معز الدولة ولقب أخاه عليا عماد الدولة والحسن ركن الدولة (٣) ، وخضع خلفاء بنى العباس حينئذ من الزمن لبنى بويه ، وأصبح مصير العالم الاسلامى مرتبطا بهؤلاء السلاطين الجدد ، ولم

(١) ابن مسكويه : تجارب الأمم ج ٥ ص ١٦٣ ، ٣١٤ — ٣١٥ .

(٢) وفیات الاعيان ج ١ ص ٣٦٤ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٣٣٤ .

يبقى للخلفاء معهم نفوذ ولا سلطان ، وذهبت هيئة الخلافة طيلة هذا العهد (١) .

وخلفاء ذلك العهد هم :

المستكفي ٣٣٣ - ٣٣٤ هـ

وقد عاصر آخر عهود الأتراك ومطلع عهد بني بويه .

المطيع ٣٣٤ - ٣٣٦ هـ

الطائع ٤٦٣ - ٣٨١ هـ

القادر ٣٨١ - ٤٢٢ هـ

القائم ٤٢٢ - ٤٦٧ هـ

وقد عاصر « القائم » آخر عهد البويهيين ومطلع عهد السلاجقة .

فروع بني بويه :

اقتسم بنو بويه على والحسن وأحمد المناطق التي تم لهم فتحها ، وتعاونوا على إدارتها والسيطرة عليها ، تاركين للأخ الأكبر على بن بويه (عماد الدولة) السلطان العام والتوجيه في مهام الأمور ، ويروى لنا ابن مكسويه (٢) صورة توضح لنا سلطة عماد الدولة ومكانة أخويه منه ، قال :

وصل معز الدولة من العراق إلى الأهواز ليلقي أخاه عماد الدولة ، فلما لقيه قبل الأرض بين يديه ، واجتهد به عماد الدولة أن يجلس بين يديه فلم يفعل ، وكان يتردد اليه كل يوم بالعادة والعشية فيقف ولا يجلس كان عماد الدولة يقول عن الحسن وأحمد أخويه : إنهما أخوأي بالنسب ، وابنأي بالتربية ، وصنيعتأي بالولايات .

(١) أبو الريحان البيروني : الآثار الباقية ص ١٣٢ .

(٢) تجارب الأمم ج ٦ ص ١١٣ .

وبجانب السلطان العباسي الذي ترك لعل بن بويه ، كان له السلطان المباشر على الجزء الجنوبي من بلاد فارس (سجستان ومكران وكرمان) وكان للأخ الأوسط الحسن (ركن الدولة) الجزء الشمالي من بلاد فارس (بلاد الجبل والري وطبرستان) أما الأخ الأصغر أحمد (معز الدولة) فكان له العراق (الأهواز وواسط وبغداد) .

وقد ظل الحال كذلك طيلة عهد هؤلاء الثلاثة الكبار ، وهو نظام يحمل في طياته بذور الفرقة ، ولئن استطاع مؤسسو ملك البويهيين أن يتعاونوا فيما بينهم طيلة حياتهم فسرعان ما دب الشقاق بين أولادهم ، ووصل الشقاق إلى الحروب التي هدأت قواهم ، وسنتحدث عن ذلك عند كلامنا عن العراق وفارس وقد فتحت هذه الحروب الطريق لقوى ناشئة لتعلن استقلالها عن بني بويه كما سنرى فيما بعد .

مشاهير وزراء هذا العصر :

ولم يكن للخلفاء في عهد البويهيين وزراء ، ويقول ابن الأثير (١) في ذلك : فلما كانت أيام معز الدولة لم يبق للخليفة وزير ، إنما كان له كاتب يدير أقطاعه وأخراجاته لا غير .

وكان أبو الفرج السامري وزيراً للمستكفي قبل دخول البويهيين بغداد ، وقد ظل في عمله مدة ٤٢ يوماً فقط ، ثم خلفه أبو عبد الله بن سليمان ليدير شؤون الخليفة الخاصة ، ويقول زالمباور (٢) . وهو يعدّ وزراء الخلفاء : إن ثمة ثغرة كبيرة تشمل عهود المطيع والطائع والقادر .

أما بنو بويه فقد اتخذوا لهم وزراء يحملون العبء معهم ، وقد

(١) الكامل في التاريخ : حوادث ٢٣٤ .

(٢) معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ج ١

اشتهر من وزرائهم مجموعة جديرة بالذكر نوردّها فيما يلي (١) :

وزروا لركن الدولة	عباد بن عباس (والد الصاحب بن عباد) ابن العميد : أبو الفضل محمد بن الحسين ابن ابن العميد : أثير الفتح بن محمد
وزرا لمعز الدولة	الحسن بن محمد بن هارون المولبي العباس بن الحسن الشيرازي
وزرا لمعز الدولة	الشيرازي (السابق ذكره) أبو طاهر محمد بن بقية

وقد رثى أبو الحسن الأنباري ابنَ بقية عقب قتله وصلّبه بقصيدته الشهيرة التي مطلعها :

علو في الحياة وفي الممات لحق أنت إحدى المعجزات

نصر بن هارون (نصراني) وزير لعضد الدولة
الصاحب بن عباد وزير لمؤيد الدولة

أبو نصر سابور بن أردشير الذي بنى مدرسة في بغداد
سنة ٣٨٣ هـ (٩٩٣) وجعل لها خزانة كتب كان وزير لبهاء الدولة
يتردّد عليها أبو العلاء المعري إبان إقامته ببغداد (٢)

(١) من جميع وزراء بني بويه اقرأ زامباور في المرجع السابق ج ٢
ص ٣٢٤ — ٣٢٧ واطّرا كذلك ابن مسكويه في تجارب الأمم الجزء السادس في
عدة صفحات .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٢٥٦ .

أهم أحداث هذا العصر

١ - بغداد وشيراز :

لقد كلن الممالك مستبدين بالخلفاء في العهد السابق ، ولكن بغداد بقيت العاصمة السياسية والدينية ، أما في عهد البويهيين فقدت بغداد أهميتها السياسية فقد انتقلت الى شيراز حيث كان يقيم على بن بويه عماد الدولة ، الذي كان له السلطان العام على دولة بنى بويه كما وضعتنا من قبل ، وبعد على لم تعد السلطة السياسية الى بغداد وتنازعتها الأجيال التالية من أبناء البويهيين كما سنرى عند الكلام على العراق وفارس .

أما سلطان بغداد الديني فقد مال الى الغروب أيضا بسبب الاختلاف المذهبي بين الخلفاء والبويهيين ، وقد عطل هذا الخلاف السلطان الروحي للخليفة وستحدث عن ذلك فيما بعد .

٢ - اخوان الصفا :

ازدهرت في هذا العهد جماعة « اخوان الصفا » وبشرت في ظل بنى بويه ألوان الفلسفة والحكمة التي نسبت لها (١) .

٣ - الدول التي استقلت في هذا العهد :

جمع البويهيون في أثناء قوتهم بعض ما كان قد استقل عن الخلافة من الولايات الاسلامية ، فلما استشرى الضعف في سلطان بنى بويه استقلت عن الخلافة العباسية ممالك كثيرة منها دولة عمران بن شاهين بالبليخة ، والدولة النجاشية باليمن ، والدولة العقيلية بالموصل ، ودولة الأكراد بديار بكر والدولة المرداسية بطلب ، والدولة السامانية فيما

(١) اقرأ ما كتب عن اخوان الصفا بكتاب « الفكر الاسلامي : منابعه وآثاره » الذي ترجمه المؤلف من الانجليزية .

وراء النهر وفي خراسان ، والدولة السبكتيكية بغزنة ، وقد تحدثنا عن هذه الدول في الأجزاء التالية من هذه الموسوعة تبعا لمنطقة كل منها .

٤ — الخلاف المذهبي :

سبق أن شرحنا أن التعاليم الاسلامية دخلت بلاد الديلم على أيدي شيعية ، تتمثل في الحسن بن زيد ثم الحسن بن علي الأطروش ، وعلى هذا فكل معارف هذه البلاد عن الاسلام كانت طبقا للتفكير الشيعي ، ومن أهم أسسه الوصاية لعلي بالخلافة ، وجعل الخلافة في أبناء علي من السيدة فاطمة (١) .

ومنو بويه من الديلم ، وتلك كانت معتقداتهم الدينية ، ومن أجل هذا ما كادت الأمور تستقر لهم حتى فكروا في الاطاحة بخلفاء العباسيين الذين يعدهم الفكر الشيعي مغتصبين ، وملك كرسى الخلافة بمن يستحقه من العلويين ، أو المبايعه للخلفاء الفاطميين بالقاهرة ، ولكن أحد أصفياء معز الدولة أشار عليه ألا يفعل ، وقال له أنت الآن مع خليفة لا تعتقد أنت ولا أحد ممن معك بصحة أحقيته للخلافة ، ولو أمرتهم بقتله لفعلوا ، أما إذا بايعت لعلوى فانك ستكون مع خليفة قد سلمت أنت وأصحابك بحقه في الخلافة ، ولو أمرهم بقتلك لفعلوا ، فترك هذا الرأي (٢) .

وعلى كل حال فقد أعشى بريق السلطان عيون بني بويه ، ولم يريدوا أن يتنازلوا عن مكانة حصلوا عليها ، فأبقوا بني العباس كالدمى ينتفعون بها دون أي التزام نحوهم أو إجلال ، وأدرك خلفاء بني العباس ذلك فمالوا للدعة والرضا والتسليم ، وتركوا كل الأمور للبويهيين الذين أصبحوا سادة حقيقيين للموقف .

على أن البويهيين — وإن أبقوا الخلفاء العباسيين للسبب

(١) انظر الجزء الثاني من هذه الموسوعة منذ الكلام من الشيعة .

(٢) ابن الاثير : حوادث سنة ٣٣٤ .

السابق — كانوا دعاة متحمسين للمذهب الشيعي على الرغم من أن سكان بغداد كانوا غالبا يدينون بالمذهب السنن ، ومن مظاهر حماسة البويهيين للتشيع أن أمروا فكتب على مساجد بغداد ما يلي :

لعن الله معاوية بن أبى سفيان ، ولعن من غصب فاطمة رضى الله عنها فدكا ، ومن منع أن يدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام ، ومن نفى أبا ذر الغفارى ، ومن أخرج العباس من الشورى (١) .

ولكن أهل السنة أزالوا هذا من حيطان المساجد ، فأشار الوزير علكى معز الدولة أن يكتب لعن الله الظالمين لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يذكر أحدا فى اللعن إلا معاوية . فوافقه على ذلك (٢) .

وبللاضافة الى ذلك أمر معز الدولة أن يحتفل الناس فى بغداد بأعياد الشيعة ؛ ففى العاشر من المحرم كان على التجار أن يغلقوا دكاكينهم وأن يلبسوا أقبية سوداء ، وعلى النساء أن يخرجن منشورات الشعير مسوعدات الرجوه ، مشقوقات الثياب ، نائحات ، لاطمات الوجوه .

وفى الثامن عشر من ذى الحجة أمر معز الدولة أن يظهر الناس فى أحسن لباسهم ، وأن تترزين الجدران وتضاء الأنوار ، وتفتح الأسواق احتفالا بحدث غدیر خم إذ يروى الشيعة أن الرسول عندما صدر عن حجة الوداع وصار بغدير خم ، أمر بالدوحات فقممّن له ، وأمر مناديه فنادى : الصلاة جامعة ، ثم خطب عليه السلام فكان مما قاله : من كنت مولاه فعلى مولاة ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ،

(١) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .
(٢) المرجع السابق وابن مسكويه : تجارب الامم ٣ : ١٦٢ .

وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار •
ألا هل بلغت^(١) ؟

والشيعة هم الذين يروون هذا الحديث ، ويفسرونه بأن معناه
الوصية لعلي بقيادة أمور المسلمين بعد الرسول •

ومن الواضح أن أهل السنة في بغداد كانوا يعارضون هذه
الاتجاهات ، ولكن لم يكن في يدهم حول يعارضون به رغبة السلطان ،
على أن مثل هذا التضارب كان يحدث بليلة واضطرابا ويديم التوتر بين
السكان •

(١) الشهر ستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٤٤ وانظر كذلك مسند
احمد ص ٨٤ ، ١١٨ ، ١٥٢ وعقيدة الشيعة لدوايت دونلدش ص ٢٢ •

السلاجقة

نشأة السلاجقة :

شهد القرن الثانى الهجرى ، وكذلك القرن الثالث والرابع أفراجا من قبائل الأتراك (الغز) تهاجر من أقصى تركستان تحت ضغط سياسى أو اقتصادى أو كليهما ، متجهة نحو الغرب ، محاولة الاستقرار فى اقليم ما وراء النهر و اقليم خراسان ، ولم تكن هذه القبائل فى أول أمرها موحدة القيادة ، ولم تكن تنسب الى أصل تعرف به ، فلما ظهر سلجوق فى النصف الثانى من القرن الرابع جمع شمل هذه القبائل ، ووحدها تحت زعامته فنشبت إليه وخضعت لحكم أبنائه وأحفاده من بعده .

ونزل السلاجقة بالقرب من السامانيين والغزنويين ، فدخلوا الاسلام ، وتعصبوا للمذهب السنى الذى كان منتشرا بتلك البقاع ، والذى هو أقرب الى العقل السلجوقى ، وكانت الحروب مشتعلة بين السامانيين والغزنويين ، فانضم السلاجقة للسامانيين وساعدوهم ، وكافأهم السامانيون على ذلك بأن سمحوا لهم بالاستقرار قريبا من شاطئ نهر سيجون ، وانهارت الدولة السامانية فى أواخر القرن الرابع (سنة ٣٨٩) أمام عنفوان الغزنويين فأتاح هذا للسلاجقة الفرصة للاستقلال بما تحت أيديهم من أملاك الدولة المنهارة . كما ذكرنا بالتفصيل فى الجزء الثامن من أجزاء هذه الموسوعة .

ومات سلجوق وهو فى المائة من عمره أو تجاوزها ، فتولى رئاسة هذه القبائل ابنه اسرئيل ، وبدأ محمود الغزنوى يتوجس خيفة من هذه القوة الناشئة ، ولكنه تظاهر بالمسألة واستدعى اسرئيل لمفاوضته وقبض عليه غدرا وألقاه فى السجن ، فاختر السلاجقة أخاه ميكائيل بن سلجوق لقيادتهم ، فمال هذا لمسألة محمود الغزنوى ، إذ أدرك أن قوتهم لا تسمح بمصارعة قوة الغزنوى ، ومع هذا فان سياسة المسألة لم

تدم طويلا ، إذ هجم عليهم محمود الغزنوى وشنت شملهم سنة ٤١٨ ومات ميكائيل عقب ذلك ثم مات محمود الغزنوى ، وألت أمور السلاجقة الى ابنى ميكائيل جفرى بك وطغر بك ، ومكهد موت السلطان محمود الغزنوى الطريق لنجاح السلاجقة ، إذ لم يستطع ابنه مسعود أن يملأ الفراغ الكبير الذى كان يشغله أبوه ، فانهزم أمام السلاجقة فى موقعة سرخس ٤٢٩ وعاد الى الهند تاركا خراسان وماوراء النهر للقوة الجديدة . وأعلن طغرل بك قيام دولة السلاجقة فى هذه السنة ، ويعد أن تم استقرارها اعترف بها الخليفة العباسى سنة ٤٣٢ (١) .

واستمر اتساع سلطان السلاجقة بعد ذلك وبخاصة فى عهد ملكشاه الذى استولى على بخارى سنة ٤٨٢ ثم على سمرقند بعد حصار أسهم الأهالى فى نجاحه بأن قدموا المؤن والذخائر لجيش السلاجقة كرمز للترحيب بهم ليخلصوهم من العسف الذى كان طابع الحكام الغزنويين فى هذه الفترة (٢) .

ولنقتبس من ابن طباطبا (٣) طرفاً مما ذكره عن نشأة السلاجقة ، قال :

هم قوم أصلهم من الترك والخرز ، وكانوا يخدمون مع ملوك الترك ، ونشأ زعيمهم سلجوق ، وكانت إمارات النجابة لائحة عليه ، ودلائل السعادة ظاهرة على حركاته ، فقربه ملك الترك واختص به ، ولقبه « شباش » ومعناه فى لغتهم « قائد الجيش » فنبغ سلجوق بعلومته ، واستمال قلوب الرجال بكرمه وعقله ، وانقادت الأكابر اليه ، فيقال ان زوجة ملك الترك قالت لزوجها : إني أتوسم فى سلجوق تغلبا عليك ، والرأى

Barthold : Turkestan Down to the Mongol Invasion (١)
pp. 302 - 303.

Barthold : Ibid p. 136.

(٢) واقرا كذلك السلاجقة فى إيران والعراق للدكتور عبد النعيم حسنين ص ١٦ وما بعدها ، والجزء الثامن من موسوعة التاريخ الاسلامى للمؤلف .
(٣) الفخرى ص ٢٥٥ .

عندى أن تقتله فقد كثر ميل الناس اليه . فقال لها : سأنظر في أمره ، ثم أحس سلجوق بشيء من ذلك العزم ، وظهر له التغير ، فجمع عشيرته ومن اتبعه أو حالفه ونفر بهم من بلاد الترك الى بلاد المسلمين ، فلما دخلها أظهر الاسلام ليكون المسلمون عوناً له ، وليمكنّوه من الرعى والسكى فنزل في (جند) بدائرة بخارى حيث يصب نهر سيحون في بحيرة خوارزم (أراك) وشرع سلجوق في غزو من قاربه من أمراء تلك المنطقة ، وكان الملك الترك إتاوة على تلك البلاد المتاخمة له فقطعها وطرود نوابه .

وبعد أن دخل السلاجقة بلاد الاسلام اشتهروا أيضاً بلقب « التركمان » وقد انحازوا إلى مذهب أهل السنة الذي كان يتلاءم وعقولهم البسيطة ، فأقبلوا على هذا المذهب بكل ما في نفوسهم الفظة من قوة وحماسة (١) .

ونشب بعد ذلك نزاع بين الغزنويين بعضهم والبعض ، فانتهز السلاجقة هذه الفرصة واحتلوا خوارزم وطبرستان . وقاموا بحملات ضموها فيها أذربيجان ، واستطاعوا بجهد يسير أن يقضوا على بقايا البويهيين في فارس ، ووقفوا بذلك على أبواب العراق .

السلاجقة في بغداد :

بينما كان نجم السلاجقة يتألق كان نجم البويهيين في طريقه الى الأفول ، وجذبت ظروف أسرع بالسلجقة الى بغداد ، فقد كان السلطان البويهي (الملك الرحيم) ضعيفاً ، وكان أحد قواده الأتراك واسمه البساسيري صاحب السلطان الحقيقي في بغداد ، وقد تمرد هذا القائد على سيده البويهي وعلى الخليفة ، وحاول أن يستبد بالأمر وأن يدعو للخليفة الفاطمي (المستنصر) فاستنجد الخليفة العباسي (القائم) بزعيم

(١) انظر تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان ج ٢ ص ١٢٥ .

المسلاجقة (طغرل بك) وانتهاز طغرل بك هذه الفرصة وسار بجيوشه حتى دخل بغداد سنة ٤٤٧ هـ وأحسن الخليفة استقباله ، ولقبه يمين أمير المؤمنين ، وخضع له الملك الرحيم ، واستقر الرأي على أن يذكر في الخطبة اسم القائد السلجوقي بعد اسم الخليفة ثم يليه اسم الملك الرحيم ، ولكن طغرل بك سرعان ما قبض على الملك الرحيم وأرسله أسيرا الى الري ، فألقى به في السجن ، وحذف اسم الملك الرحيم من الخطبة وانتهى بذلك عهد البويهيين وبدأ سلطان المسلاجقة (١) .

مشكلة البساسيري :

هرب البساسيري من وجه الجيش السلجوقي ، واتجه الى الشمال ، وهناك تحالف مع قريش بن بدران أحد أمراء الدولة العقيلية ، وهاجم الموصل ودخلها ، ودعا فيها للخليفة الفاطمي ، فتبعه طغرل بك واقتحم عليه الموصل وتمكن من قمع فتنة البساسيري سنة ٤٤٩ هـ وبسط نفوذه على ديار بكر ، ثم عين أخاه لأمه ابراهيم ينال واليا على الموصل والجزيرة ، وقفل راجعا الى بغداد بينما فرّ البساسيري صوب الشام (٢) .

غير أن ابراهيم ينال تمرد على السلطان السلجوقي ، وغادر الموصل واتجه بجيشه مراغما الى همذان — وكان قد تمرد بها من قبل — ثم استسلم وعفا عنه طغرل بك — فلحق به طغرل بك بجيشه ، وأوقع به هزيمة ساحقة آنذاك ، فانتهاز البساسيري الفرصة وعاد الى بغداد ، واستولى على السلطة ، وأعلن تبعية بغداد للخليفة الفاطمي ، واستجار الخليفة العباسي بقريش بن بدران فأجاره ، ونجا بذلك من

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٤٧ هـ والراوندي : راحة الصدور ص ١٠٦ نقلا عن عبد النعيم حسنين ص ٣٩ ومصاد الدين الاصفهاني : تاريخ آل سلجوق ص ١٠ .
(٢) الراوندي : راحة الصدور ص ١٠٧ نقلا من عبد النعيم حسنين ص ٤١ .

القتل ، وظلت بغداد تابعة للثأهرة أكثر من عام (٤٥٠-٤٥١) حتى انتصر طغرل بك على أخيه ، وعاد الى بغداد حيث هزم البساسيري وقتله ، وأعاد الخليفة العباسي الى سلطانه ، واستقرت بذلك قدم السلاجقة في بغداد حيث بدأ عهد جديد على الخلافة العباسية (١) .

وخلفاء العباسيين خلال العهد السلجوقي هم :

القائم ٤٢٢ — ٤٦٧ هـ .

وقد غاصر آخر عهد البويهيين ومطلع عهد السلاجقة

المقتدى ٤٦٧ — ٤٨٧ هـ .

المستظهر ٤٨٧ — ٥١٢ هـ .

المسترشد ٥١٢ — ٥٢٩ هـ .

الراشد ٥٢٩ — ٥٣٠ هـ .

المقتفى ٥٣٠ — ٥٥٥ هـ .

المستجد ٥٥٥ — ٥٦٦ هـ .

المستضيء ٥٦٦ — ٥٧٥ هـ .

الناصر ٥٧٥ — ٥٦٢٢ هـ .

[وقد غاصر الناصر آخر عهد السلاجقة ثم استقل ببغداد وما حولها

سنة ٥٥٩٠ هـ] .

العلاقة بين الخلفاء وسلطين السلاجقة :

كانت العلاقة بين خلفاء العباسيين وسلطين السلاجقة مغايرة للعلاقة التي كانت بين هؤلاء الخلفاء وسلطين البويهيين ، ويذكر المؤرخون

(١) عماد الدين الاصفهاني : تاريخ آل سلجوق ص ١٥ و ١٧ وابن خلكان ج ١ ص ٦١ - ٦٢ .

أن أهم سبب لذلك هو الاتفاق المذهبي ، فهو لاء وأولئك يدينون بالمذهب السنى ، مما يسر التعاون بين الجانبين ، ومما دفع السلاجقة الى إجلال الخلفاء واحترامهم احتراماً عميقاً ، ويبدو لى أنه بالإضافة الى هذا السبب كان البويهيون أجلاً قساة ، ولم يكن السلاجقة كذلك ، فمن الممكن أن يكون هناك اختلاف فى المذهب مع تبادل الاحترام ومع التعاون للخير المشترك والنفع العام .

ويقول الراوندى (١) معللاً ولاء السلاجقة للخلفاء العباسيين ما يلى :

أثرت بداءة السلاجقة فى تعصبهم الشديد للإسلام بعد اعتناقهم له ، كما أثرت فى ميلهم المفرط الى أهل السنة والجماعة بعد اعتناقهم المذهب السنى ، ومن هنا كان تصرفهم تجاه الخلفاء ، فكانوا يظهرون لهم الولاء ، ويدينون لهم بالطاعة والاحترام .

العاصمة الدينية والعاصمة السياسية :

فى خلال العهد السلجوقى استعادت بغداد بعض مكانتها ، فأصبحت العاصمة الروحية حيث يعيش الخليفة متمتعا بسلطاته الدينية ، أما السلطة السياسية فكانت فى عاصمة السلاجقة ؛ نيسابور أولاً ثم الرى (٢) ، ولعل انفراد الخليفة ببغداد مع إجلال السلاطين واحترامهم له هياً له صوراً من النفوذ ، وأعاد له ما كان قد فقد من قبل من هبة وجلال .

مشارير الوزراء فى هذا العهد :

فى عهد السلاجقة استعاد الخلفاء بعض النفوذ كما ذكرنا من قبل ، ومن أجل هذا أصبح لهم وزراء على العكس من فترة سلطة

(١) راحة الصدور ص ٩٨ نقلاً عن سلاجقة ايران والعراق ص ٢١ .

(٢) كانت أصفهان عاصمة كذلك لبعض سلاطين السلاجقة

وكذلك مرو .

البويهيين إذ لم يكن للخليفة إلا كاتب يدير أملاكه الخاصة فقط كما سبق القول ، ومن وزراء هذا العهد اشتهر :

أبو نصر محمد بن محمد بن فخر الدولة بن جُهمير^١ وزير القائم
أنو شروان بن خالد القاشاني » المسترشد
ابن العطار » الناصر

على أن نفوذ وزراء سلاطين السلاجقة كان أوسع مدى وأفسح مجالاً ، وبخاصة أن الحياة البدوية التي عاشها السلاجقة الأول والتي انحدرت تقاليدها إلى آبائهم وأحفادهم ، جعلتهم محدودى الخبرة في شؤون السياسة والدواوين ، ومن ثم كان لزاماً عليهم أن يعتمدوا على الوزراء في حمل هذه الأعباء ، وقد استتبع هذا أن نعم وزراء السلاجقة بنفوذ كبير ، وكان الوزير السلجوقي يلقب « خواجه بزرگ » أى السيد الأعظم ، وله الاشراف على جميع الدواوين .

وقد تولى وزارة السلاجقة مجموعة من الرجال الأفاضل ، ويثوضع في قمتهم الوزير الشهير بنظام الملك وسبع من أولاده وأحفاده ، ومن وزراء السلاجقة غير أسرة نظام الملك :

أبو نصر بن منصور الكُندَرى وقد وزر لطفولاً بك ولألب أرسلان
تاج الدين أبو الغنائم وزير لألب أرسلان بعد اغتيال نظام الملك
على بن الحسن الطغرئى وزير السلطان سنجر
سعد بن على بن عيسى وزير السلطان سنجر أيضاً
شرف الدين القاشاني وزير السلطان محمود بالعراق
الإستاذ الطغرئى وزير السلطان مسعود بن محمد بالعراق^(١)

(١) انظر كذلك وزراء السلاجقة في « معجم الانساب والاسرات الحاكمة » لزمايور ٣٣٨ — ٣٤٠ .

ونعود لنظام الملك لنذكر لمحة (١) عنه ، فالكلام عن السلاجقة لا يتم دون تخصيص فراغ لنظام الملك ، فقد تمت سلطنة ألب أرسلان بعون نظلم الملكوتأييده ، وصحب نظام الملك السلطان ألب أرسلان في معظم حروبه ، كما غزا مع الأمير الشاب ملكشاه عدة غزوات استوليا فيها على كثير من حاميات الأعداء وحصونهم ، وقاد وحده الجيوش عدة مرات وخاض بها معارك كحرب له فيها النصر (٢) .

ولما اغتيل ألب أرسلان ازدحم أولاده على الملك ، ومرة أخرى لعب نظام الملك دورا مهما حتى وطد الملك لملكشاه وخاض في سبيل ذلك كثيرا من المعارك ، ولذلك رد ملكشاه كل الأمور اليه وقال له : أنت الوالد . وحلفت له ، ولقبه أتابك ، وأقطعه أقطاعا زائدا ، وخلا ملكشاه لشبابه وملذاته (٣) .

ولم يكن نظام الملك سياسيا فقط ، بل كان قائدا عسكريا ، وكان فيلسوفا وعالما ، واسع الثقافة ، يحب العلماء ويقربهم ، وهو مثني المدارس النظامية ، وهي من أقدم الجامعات في العالم ، وهو مؤلف كتاب « سياسة تامة » حيث رسم فيه الطريق لإدارة شؤون الولايات بما يكفل نجاح الحكام وصلاح الرعية .

ويدل على مكانة نظلم الملك ، ذلك الموقف الذي وقفه عندما أحس بتغيّر ملكشاه عليه ونقصه لسياسته ، ويروى لنا عماد الدين الأصفهاني (٤) وابن الأثير (٥) هذا الموقف الذي نستطيع تلخيصه فيما يلي :

نسب تصرف خاطيء لأحد أحفاد نظام الملك ، فغضب لذلك ملكشاه ، وأرسل يقول للوزير : إن كنت شريكى في الملك ويدك مع يدي في السلطة

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٢٥ .

(٢) السبكي : طبقات الشافعية ج ٤ ص ١٢٩ وابن خلكان ج ١

ص ٢٠٢ .

(٣) تاريخ آل سلجوق ص ٥٧ — ٥٨ .

(٤) الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ١٣٨ .

فلذلك حُكِّمُ ، وإن كنت نائبي فيجب أن تلزم حد التبعية والنيابة . . .
فأجاب الوزير : قولوا له إن كنت ما علمت أنى شريكك في الملك فاعلم ،
فإنك ما نلت هذا الأمر إلا بتدبيرى ورأى . . . وان ثبات تلك القلكنسوة
(التاج) مرتبط بهذه الدواة ، ومتى أُطْبِقَتْ هذه زالت تلك (١) .

وسنذكر نهاية « نظام الملك » بعد قليل (ص ٤٣٣) .

فروع السلاجقة :

قسم السلاجقة دولتهم منذ إنشائها الى أقاليم ؛ وعينوا على كل
اقليم منها حاكما من أفراد البيت السلجوقي ، كانوا يطلقون عليه لقب
(شاه) أى ملك ، ثم اختاروا رئيسا على الدولة جميعها أطلقوا عليه لقب
(السلطان) كان بمثابة ملك الملوك ، يخضع لنفوذه حكام الأقاليم ،
وتنفذ كلمته في جميع أنحاء الدولة .

وقد اتبع السلاجقة هذا النظام منذ عهد طغرل بك ، وكان حاكم
كل اقليم مستقل بشئون اقليمه الداخلية ، كما كان له الحق في فتح
ما يستطيع اليه سبيلا من المناطق المجاورة ، وضمها الى حوزته ، وكانت
سيطرة السلاطين شاملة على مختلف الأقاليم ، في إبان قوة الدولة ، فلما
ضعفت الدولة وتجزأت فقد السلاطين هذه السيطرة وأصبح حكام الأقاليم
مستقلين تماما في جميع شئونهم (٢) .

وقد وضع هذا النظام بذور الانقسام الذى آلت له الدولة
السلجوقية ، ونشأ عن هذا الانقسام خمس فرق هم السلاجقة
العظام ، وسلاجقة كرمان ، وسلاجقة العراق وكردستان ، وسلاجقة
سوريا ، وسلاجقة الروم بومن الواضح أن بعضها تفرع عن السلاجقة
العظام كسلاجقة العراق ؛ وبعضها كان في مناطق فتحت حديثا
كسلاجقة الروم .

(١) انظر كذلك المنتظم لابن الجوزى ج ٩ ص ٦٧ .

(٢) الدكتور عبد النعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق

زمن أبرز سلاطين السلاجقة طغرل بك مؤسس الدولة (توفى سنة ٤٥٥) وابن أخيه ألب أرسلان (توفى سنة ٤٦٥) وملكشاه بن ألب أرسلان (توفى سنة ٤٨٥) وهم من السلاجقة العظام ، وعلى الرغم من بعض حركات الانحلال التي هبت خلال عهودهم فقد كانوا أقوى من هذه الحركات ، واستطاعوا أن يقضوا عليها ، ويحتفظوا بسطانهم على جميع الولايات السلجوقية .

تدهور السلاجقة :

تجمعت عوامل متعددة على إضعاف السلاجقة ، بعضها خارجي وبعضها داخلي فالعوامل الخارجية تتمثل في الحروب الصليبية ، وقد أوردنا لها ذرأسة مستقلة عقب الكلام عن مصر وسوريا (١) ، ومن العوامل الداخلية ثورة الاسماعيلية ممثلة في الحشاشين ، وستحدث عن هذه الثورة فيما بعد ، ومنها الانقسامات الداخلية التي كانت نتيجة طبيعية لاتساع ملك السلاجقة وبخاصة في عهد المواصلات البطيئة ، كما كانت نتيجة طبيعية لحياة السلاجقة القبلية ، ومن العوامل الداخلية كذلك تمرد بعض الحكام الذين كانوا عبيدا لسلاطين السلاجقة وولادة من قبلهم ثم تمردوا عليهم وأعلنوا استقلالهم ، وذلك كشاهات خوارزم وشاهات الغور ، على أن أهم عوامل الانحلال الداخلي تتمثل في قيام إمارات الأتابك ، وفيما يلي كلمة عن قيام هذه الامارات :

كانت نواة هذه الامارات تلك الاقطاعات التي أقطعها الوزير نظام الملك للقادة والمبرزين في الدولة بدل رواتبهم ، ويحدثنا عنها عماد الدين الأصفهاني (٢) ، فيقول :

وكانت العادة جارية بجباية الأموال من البلاد ، وصرفها الى الأجناد ، ولم يكن لأحد من قبل إقطاع ، فرأى نظام الملك أن الأموال

(١) في الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

(٢) تاريخ آل سلجوق ص ٥٥ .

لا تحصل من البلاد لاختلالها ، ولا يصح منها ارتفاع لاعتلالها ، ففرقتها
على الأجناد اقطاعا ، وجعلها لهم حاصلا وارتفاعا •

ولم يكن في هذه الاقطاعت خطر على تماسك الدولة إبان قوتها ،
فلما بدأ ضعفها ، عمد كل مالك الى إقطاعه وعاش فيه سيدا وأميرا ،
واستقل عن السلاجقة ، ومن هذه أتابكية دمشق ، وأتابكية الموصل
وأتابكية الجزيرة وغيرها ، وقد استغل بعض الأتابك أفرادا من البيت
السلجوقي ، وحركوهم كالدمى ، وراح الأتابك باسم أمراء السلاجقة
ينشرون سلطانهم ويوسعون نفوذهم (١) •

(١) تاريخ آل سلجوق ص ١٨٧ •

أهم أحداث هذا العصر

١ — تبادل الزواج بين السلاجقة وبنى العباس :

إذا كان بنو العباس قد تزوجوا من بنات سلاطين السلاجقة فذلك شيء عادي ؛ لأن بنى العباس قد اتخذوا زوجات من كثير من الأجناس والألوان ، ولكن الشيء الذي حدث في عهد السلاجقة وكان غير عادي ، زواج سلاطين السلاجقة من بنات الخلفاء .

يقول عماد الدين الأصفهاني (١) عن زواج الخليفة القائم من ابنة أخى طغرل بك ما يلى : وفي المحرم من سنة ٤٤٨ هـ عقد الخليفة على ابنة أخى طغرل بك أرسلان خاتون خديجة بنت داود بن ميكائيل ، وقصد بذلك تعظيمه والتبجيل ، ولئلا يجد الأعداء بهذه الوصلة الى قطع سبيل المودة بينهما السبيل .

وتزوج كذلك الخليفة المقتدى سنة ٤٧٥ هـ من ابنة السلطان ملكشاه (٢) .

ونقص لنسب كتب التاريخ أن طغرل بك بعد أن زوج ابنة أخيه للخليفة أرسل يطلب لنفسه بنت الخليفة ، وكلف وزيره أبا نصر الكندري بالقيام بهذه المهمة ، وروت هذه المراجع كيف فزع الخليفة عندما سمع هذا الطلب « ونذب للجواب أبا محمد بن التميمي للاستعفاء لأنه لم تجر به سنة الخلفاء » (٣) ولكن الاستعفاء لم يقبل ، وأجاب الكندري عليه بقوله « إن الاستعفاء لا يحسن مع رغبة السلطان وضراوته في السؤال » . وفي المحرم سنة ٤٥٥ هـ توجه السلطان الى بغداد حيث زفت له ابنة الخليفة وبرى الأصفهاني أن السلطان دخل اليها وقبل الارض بين يديها ، وجلس بأزائها على سرير ملبس بالفضة ، وكان قد أنفذ

(١) تاريخ آل سلجوق ص ١٠ - ١١ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٨ .

(٣) المرجع السابق ص ١٨ .

لها مع بنت أخيه زوجة الخليفة عقدين نفسين ثمينين وجاما خسروانيا من إبريز العين . . . وبقي مدة أسبوع يَهَبُ ويخلع ، ويمنح ولا يمنع (١) .

٢ — فتح آسيا الصغرى ونتائجه :

لم يتقدم الفتح الاسلامي في آسيا الصغرى طيلة العهد التي سبقت السلاجقة ، واكتفى المسلمون من جانب والبيزنطيون من جانب آخر بغارات لم يقصد بها الاقامة بقدر ما قصد التخويف أو الاستيلاء على الغنائم والأمتعة ، ولكن السلاجقة دخلوا في آسيا الصغرى معارك كان يقصد بها القضاء على البيزنطيين في تلك البقاع وطرده سلطان الروم من آسيا نهائيا ، وقد نجح السلاجقة في ذلك ، فأوقعوا سنة ١٠٧١م هزائم حاسمة بالجيوش البيزنطية ، واستولوا في أثرها على معظم آسيا الصغرى التي لم يمتح للعرب فتحها قط، وجعلوها مقرا لنزول الأتراك فيها (٢) .

ومن المعارك التاريخية المهمة التي حدثت في آسيا الصغرى معركة « ملازكرد » وقد ألقى فيها الامبراطور الروماني رومانوس ديوجينيس بقواته وبأخلاط من العسكر المسيحي الذي استجد به ليقف في جه زحف السلاجقة بقيادة ألب أرسلان ، وقد حاول السلاجقة — استعظاما لجيش الروم — عقد صلح مع الامبراطور الروماني ، ولكن الامبراطور رفض هذا العرض مدعيا أن الصلح سيتم في الرى عاصمة السلاجقة .

وهذا الموقف دفع السلاجقة للاستماتة في المعركة، وإلى خوضها باصرار وعناد لا كمتهاجمين فقط بل كمدافعين عن أرضهم وأهليهم الذين هددهم الامبراطور بالتدمير والأسر . ونجح السلاجقة في هذه المعركة نجاحا ضخما فمزقوا شمل جيش الروم ، وفرشوا أرض المعركة بالضحايا

(١) الاصفهاني : المرجع السابق ص ٢٤ .

(٢) Kirk : A Short History of the Middle East p. 67.

وأسروا الامبراطور نفسه ، وفداه قومه بفدية عظيمة ، وتمّ صلح اعترف فيه
ررمانوس بما فتحه المسلمون من أجزاء آسيا الصغرى ، وتعهد بدفع
جزية سنوية للمسلمين •

رتعد هذه المعركة نقطة تحول في التاريخ الاسلامى بصفة عامة
وتاريخ غربى آسيا بصفة خاصة ، لأنها يسرت القضاء على نفوذ الرزم
في أكثر أجزاء آسيا الصغرى ، وفتحت الطريق لزحف جديد (١) •

وقد كان هذا التصرف مثيرا لأوروبا فكان من العوامل التى سببت
الحروب الصليبية •

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كان الأتراك العثمانيون من بين
المطوائف التى اشتكرت في هذه المعارك ، وأقامت في آسيا الصغرى ،
واضعة بذور الدولة العثمانية التى ستظهر في الأفق فيما بعد والتى ستقضى
على بقايا الروم بآسيا ، وتحل القسطنطينية وقد تكلمنا عنها في الجزء
الخامس من هذه الموسوعة •

٣ — الحشاشون :

من أهم الجماعات التى نشرت الذعر في كثير من البلاد الاسلامية
خلال عهد السلاجقة جماعة من الحشاشين الذين اشتهروا بالقتل والغدر
والقتل حتى أصبحت الكلمة الانجليزية التى تحمل اسمهم Assassins
تعنى الفتنك والسفاكين •

وزعيم الحشاشين هو الحسن بن الصباح ، وهو في الراجح فارسي
من طوس (٢) وإن ادعى غير ذلك ، وقد درس في صباه مذهب الباطنية
واعتقه ، وسافر الى مصر سنة ٤٧١هـ (١٠٧٨) لمزيد من دراسة المذهب

(١) Muir : The Roman Impire Vol. 3, p. 217.

واقرا سلاجقة ايران والعراق ص ٥٨ •

(٢) حتى : تاريخ العرب ج ٢ ص ٥٣٦ •

الاسماعيلي ، وعاد سنة ٤٧٣هـ (١٠٨٠) الى فارس داعية للفاطميين ، فاستجاب لدعوته كثيرون استطاع بهم أن يستولى سنة ٤٨٣هـ على قلعة حصينة هي قلعة الاموت (عش النسر أو ملجأ العقبان) وهو حصن خطير في أعلى الجبال بالشمال الغربى من بحر قزوين ، وكانت هذه القلعة أحد حصون السلاجقة ، وقد ربح الحسن بن الصباح أتباعه على المذهب الباطنى ، واتخذ لنفسه لقب داعى الدعاة وجعل أتباعه على درجات ، فالطبقة التى تليه هي طبقة الدعاة ، يليها طبقة الفدائيين الذين كانوا دائماً على استعداد لتلبية أوامر داعى الدعاة دون أن يسألوا عن سبب الأوامر ، وقد زار ماركو بولو سائح البندقية العالمى هذه البقاع في النصف الثانى من القرن الثالث عشر ووصف لنا الوسائل التى كان الحسن بن الصباح يستعملها في التأثير على أتباعه من طبقة الفدائيين ليحملهم على ما يريد ، وفيما يلى موجز لهذا الوصف (١) .

كان لداعى الدعاة بستان عظيم ، به مسابح ماء ، وطيور تفرد ، وزهور عاطرة ، وغابات كثيفة ، وأمكنة للاستراحة خلافة ، وكان على بابه قلعة عظيمة لا يستطيع أن يتخطاها أحد ، وكان داعى الدعاة يختار من الفدائيين أقواهم وأشدهم بأساً وأمثلهم للطاعة ، ويقدم لهم الحشيش وأقداحاً من الشراب المسكر حتى يناموا ، ثم يأمر بحملهم الى البستان ويضعهم هناك وهم سكارى ، ويفيق الفدائيون ليجدوا حولهم البهجة وفتيات كالخمر العين ، ويظل الفدائيون فترة في هذا النعيم ثم تسقيهم العنيد شراباً ينامون به ، وعندئذ يحملون مرة أخرى الى قصر داعى الدعاة ، فإذا أفاقوا من نومهم حسبوا ما رأوا حلماء ، أو ظنوه زبارة الى جنة الخلد . وكان داعى الدعاة يذكر لهم أن من أطاع أوأمره أو قتل دونهم ، حملته الملائكة الى جنات النعيم ، التى رأوا بأنفسهم صورة منها .

وبعد قلعة الأموت استطاعت هذه الجماعة الاستيلاء على حصون أخرى في فارس وسوريا خلال فترة قصيرة من الزمن ، وأخفقت جميع محاولات الدولة السلجوقية في القضاء عليهم حتى إذا كانت سنة ١٠٩٢ أنفذ الحشاشون حكم الموت في نظام الملك ، وإن يكن ثمة مجال للاعتقاد بأن السلطان نفسه كان على علم بالمؤامرة بعد أن تخطى سن الرعونة والملذات ، وضاق ذرعا بنفوذ وزيره المتعاضم وسلطانته المطلق^(١) .

ومن الحصون التي استولى عليها الحشاشون في سوريا حصن مصياد وحصن الكهف^(٢) ، ومن أشهر ذعاتهم في الشام راشد الدين سنان^(٣) (المتوفى سنة ١١٩٢) الذي كان مقيما في مصياد ويلقب بشيخ الجبل ، وقد أبلى الحشاشون بلاء حسنا في الحروب الصليبية، ولكنهم حاولوا اغتيال صلاح الدين الأيوبي ، فرد على هذه المحاولة بأن حاصر قلعة مصياد ، وأوشك على الإيقاع بهم ، ولكن شيخ القلعة قطع على نفسه عهدا ألا يتعرض له أحد من أتباعه ، فارتد عنهم صلاح الدين ، وبقيت بعد ذلك قوتهم حتى اشترك في القضاء عليهم المغول والسلطان بيبرس سلطان مصر والشام ، فاحتل المغول معاقلمهم في فارس حوالي ١٢٦٠ واحتل السلطان بيبرس حصونهم بسوريا سنة ١٢٧٢ فنشبت شملهم منذ ذلك الحين ، ولا يزال أكثرهم بالهند يعرف الواحد منهم بالخوجة أو المزي ، ويدينون بالولاء إلى أغا خان الهندي^(٤) وينسبون أنفسهم للطائفة الاسماعيلية التي يرون نسبها ينتهي لاسماعيل بن جعفر الصادق^(٥) .

٤ — الدول التي نشأت على أنقاض السلاجقة :

أهم الدول التي نشأت على أنقاض السلاجقة هي كما أشرنا

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ١٢٧ —

(٢) انظر ابن الأثير ج ١، ص ٥٢ .

(٣) فيليب حتى : تاريخ العرب ج ٢ ص ٥٣٨ .

(٤) عن الاسماعيلية ومعتقداتهم اقرأ الجزء الثاني من هذه

لبعضها أنفا دولة شاهات خوارزم التي نشأت بخوارزم عقب انحلال السلاجقة العظام وسلاجقة العراق وكردستان ، ودولة الغز التركمان التي حلت محل سلاجقة كرملن ، وشاهات الغرر (الدولة الغورية) ، والدولة الأرتقية وقد حلتا محل سلاجقة سوريا ، والدولة العثمانية . وقد حلت محل سلاجقة الروم ، هذابالا صافة الدي الأتابكيات التي عدنا بعضها أنفا . وقد أوردنا الحديث عن هذه الدول في الجزأين الخامس والثامن من هذه الموسوعة .

٥ - العمارة في العهد السلجوقي :

إن بداوة السلاجقة جعلتهم يشغفون بالمباني الفخمة والنقوش الجميلة ، واللوحات المزخرفة ، فقد كانت مثل هذه الأشياء تبهر أنظارهم ، وترضى أذواقهم ، وتسدما في نفوسهم من فراغ ، وقد أثر هذا في الفنون فراجت راجا ملحوظا في عصرهم ، فارتقت فنون النقش والتصوير والصنعة والعمار (١) فكان السلاجقة عامة يعشقون الفنون الجميلة ويرعونها ، وكان سلاطينهم يحضرون الفنون ويشجعون رجالها (٢) .

ومباني السلاجقة بأصفهان كانت خير دليل على عنايتهم بالعمارة ، فقد شيّدوا فيها أبنية شاهقة ورفعوا العماائر الضخمة ، ويروى أن ألب أرسلان كان إذا أمر ببناء أو عز بأن يكون أسمى بنيا ن وأسمقه ، وأشرف مكان وأشرفه ، وكان يقول : آثارنا هذه تدل على علو همتنا ووفور نعمتنا (٣) .

ويذكر Barthold أن فترة حكم ألب أرسلان امتازت بالتقدم المعماري الهائل ، فقد أعاد تشييد قلعة بخارى وسور المدينة ، وبني في سمرقند مسجدا رائعا وقصرين عظيمين تحول أحدهما بعد ذلك إلى مدرسة ،

(١) كريستى ويلسون : تاريخ صنایع ایران (ترجمة غرياد) ص ١٤٢
نقلا عن سلاجقة ایران والعراق .

(٢) M. S. Dmand : A Handbook of Muhammadan Art p. 113.

(٣) عماد الاصفهاني : تاريخ آل سلجوق ص ٤٥ .

كما أنه أكثر من المساجد والمناثر في المدن والقرى (١) .
النهضة الفكرية في عهد السلاجقة :

شهد العصر السلجوقي نهضة فكرية واسعة ، وضع أساسها نظام الملك (٢) وزير ألب أرسلان وملكشاه فقد أنشأ هذا الوزير العالم ، شبكة من المدارس التي أخذت اسمها من اسمه ، فسميت « النظامية » وكانت في البلاد الآتية : بغداد — بلخ — نيسابور — هراة — أصفهان — البصرة — مرو — آمل — الموصل (٣) ويقول السبكي إنه كان لنظام الملك في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة (٤) .

وبالإضافة إلى ذلك فقد رعى نظام الملك عباقرة عصره أمثال الغزالي الذي اشتهر في محيط العلوم الإسلامية والتصوف والفلسفة ، وكان من ألمع مدرسي النظامية ، وعمر الخيام الذي اشتهر في الدراسات الطبيعية والرياضية ، وعرف في أوروبا برباعياته (٥) .



ذلك موجز القول في السلطات الثلاث (المماليك والبيهيمن والسلاجقة) التي كان لها نفوذ على خلفاء بني العباس ، وتلك أهم المظاهر لكل عهد من هذه العهود ، وأهم الأحداث التي وقعت بكل فترة من هذه الفترات الثلاث .

بقيت بعد ذلك أحداث أوسع مدى ، لا تتصل بعصر واحد من هذه العصور ، بل بأكثر من عصر ، وذلك كالحرب الصليبية التي بدأت خلال العهد السلجوقي ، أو قل بعد ظهور الضعف في قوة آل سلجوق ، واستمرت بعد نهاية السلاجقة وبعد سقوط الخلافة العباسية ، وكالغول

(١) Barthold : Turkestan Down to the Mongol Invasion p. 319 .

(٢) اقرأ ترجمة له في ابن خلكان ج ١ ص ١٤٣ — ١٤٤ .

(٣) اقرأ عن المدارس النظامية وعن نظام الملك كتاب « تاريخ التربية الإسلامية » للمؤلف ص ٣٥١ — ٣٥٨ .

(٤) طبقات الشافعية الكبرى ج ٣ ص ١٣٧ .

(٥) اقرأ ما ورد عن الغزالي وعمر الخيام بكتاب « الفكر الإسلامي :

منابعه وآثاره » الذي ترجمه المؤلف عن الإنجليزية ص ٨٣ وما بعدها .

الذين بدأ نشاطهم في آخر عهود السلاجقة ، وتطورت قوتهم فزحفوا على العالم الاسلامى وأسقطوا الخلافة العباسية ، وكالأتراك العثمانيين الذين بدعوا تكوين دولتهم في آسيا الصغرى على أنقاض السلاجقة . وقد تحدثنا عن الجروب الصليبية والإمبراطورية العثمانية أحاديث مفصلة في الجزء الخامس من هذه الموسوعة . تكلمنا عن الغزى بالتفصيل في الجزأين السابع والثامن من هذه الموسوعة .

العصر العباسى الأخير

وقد انتهز الخليفة العباسى ببغداد فرصة ضعف السلاجقة وقيام هذه الحركات الاستقلالية ، فأعلن استقلاله ببغداد وما حولها ، وبدأ بذلك العصر الأخير من عصور الخلافة العباسية ، وخلفاء هذا العصر هم :

الناصر ٥٧٥ — ٦٢٢

[عاصر آخر السلاجقة ثم استقل ببغداد سنة ٥٩٠]

الظاهر ٦٢٢ — ٦٢٣

المستنصر ٦٢٣ — ٦٤٠

المستعصم ٦٤٠ — ٦٦٦

والمستعصم هو الخليفة العباسى الأخير ، وقد قتلته المغول الذين اكتسحوا العالم الاسلامى ، وأنهوا الخلافة العباسية .

ومرة أخرى نذكر القارئ بما سبق أن ذكرناه في مطلع حديثنا عن عصور الخلافة العباسية بعد العصر الأول ، وهو أننا تناولنا هنا الكلام عن الممالك وبنى بويه والسلاجقة تناولنا عاماً سريعاً ، أما فيما يتعلق بتاريخ البلاد التى حكموها فان ذلك كان موضع اهتمامنا عندما تكلمنا عن الأقطار التى سيطر عليها هؤلاء في الأجزاء التالية من هذه الموسوعة .

فالى اللقاء مع هذه الأجزاء .

مراجع الكتاب

أولا - المراجع العربية

ملحوظتان :

١ - المصادر المذكورة هنا هي التي اعتمد عليها هذا الكتاب ووزعت في ذيل صفحاته ، أما المراجع الأخرى التي أسهمت بطريق غير مباشر فلم تذكر في هذه القائمة .

٢ - الطريقة التي اتبعت في تنظيم هذه القائمة بنيت على عدم اعتبار الملحقات (ابن - ال) .

- ١ - الأبشيهي : المستطرف في كل فن مستظرف : « القاهرة ١٩٣٥ »
- ٢ - أبو تمام : الحماسة ، « القاهرة ١٩٢٧ »
- ٣ - أبو تمام : ديوان أبي تمام ، « تحقيق محيي الدين الخياط »
- ٤ - أبو الريحان البيروني : الآثار الباقية عن القرون الخالية : النقائض 1924 Leipzig
- ٥ - أبو عبيدة : البداية والنهاية ، « القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٣٢ »
- ٦ - أبو الفداء : المختصر في تاريخ البشر ، « القاهرة ١٩٢٥ هـ »
- ٧ - أبو الفرج الأصفهاني : الأغاني ، « طبعة الساسي »
- ٨ - أبو نواس : ديوان أبي نواس ، تحقيق الأستاذ محمود كامل ١٩٣٣
- ٩ - أبو هلال العسكري : ديوان المعاني ، « القاهرة ١٩٥٢ هـ »
- ١٠ - أبو يوسف : الخراج
- ١١ - ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء Ed, August Muller 1848
- ١٢ - ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ، « طبعة دار الكتب »
- ١٣ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ « القاهرة بدون تاريخ »
- ١٤ - الإمام أحمد : مسند أحمد
- ١٥ - د. أحمد أمين : ضحى الاسلام ، القاهرة « الطبعة الثانية »

- ١٧ — د. أحمد أمين : هارون الرشيد ، « القاهرة ١٩٥١ »
- ١٨ — أحمد زكى صفوت : جبهة رسائل العرب ، « القاهرة ١٩٣٧ »
- ١٩ — أحمد زكى صفوت : العلوم والمعارف في العصر العباسي ، « القاهرة ١٩٢٩ »
- ٢٠ — د. أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي (عشرة اجزاء)
- ٢١ — د. أحمد شلبي : موسوعة الحضارة الاسلامية (عشرة اجزاء)
- ٢٢ — د. أحمد شلبي : مقارنة الأديان (أربعة اجزاء)
- ٢٣ — الأصفهاني (حسين) : محاضرات الأدباء ، « القاهرة ١٢٨٧ هـ »
- ٢٤ — البيهقي : المحاسن والمساوي ، تحقيق فردريك شوال ١٣٢٠ هـ
- ٢٥ — التنبوخي : نشوار الحضارة
- ٢٦ — ابن تيمية : السياسة الشرعية ، القاهرة ١٢٧٠ هـ
- ٢٧ — الثعالبي : أحسن ما سمعت ، القاهرة (الطبعة الثانية) ١٩٥٢
- ٢٨ — الجاحظ : الحيوان ، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون
- ٢٩ — الجاحظ : التاج ، تحقيق أحمد زكى باشا « القاهرة ١٩١١ »
- ٣٠ — الجاحظ : المحاسن والأضداد ، « القاهرة ١٩٣٢ »
- ٣١ — جميل نخلة مدور : حضارة الاسلام في دار السلام « المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٣٦ »
- ٣٢ — الجهشيارى : الوزراء والكتاب ، تحقيق الأستاذة : السقا والابيارى وشلبي « القاهرة ١٩٣٨ »
- ٣٣ — ابن الجوزى : المنتظم
- ٣٤ — جولدزيرهر : المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن ، ترجمة الدكتور على حسن عبد القادر « القاهرة ١٩٤٤ »
- ٣٥ — حاجى خليفة : كشف الظنون ، Leipzig 1835
- ٣٦ — د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى « القاهرة ١٩٤٩ »
- ٣٧ — ابن خرداذبة : المسالك والممالك « القاهرة ١٣٢٠ هـ »
- ٣٨ — المخزرى : محاضرات في تاريخ الدولة العباسية « الطبى ١٩٣٠ »

- ٣٩ — الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، « القاهرة ١٣٤٩ هـ »
 ٤٠ — ابن خلدون : المقدمة ، طبعة عبد الرحمن محمد « بنون تاريخ »
 ٤١ — ابن خلدون : المعبر وديوان المبتدأ والخبر ، « القاهرة ١٢٨٤ هـ »
 ٤٢ — ابن خلكان : وفيات الأعيان ، « القاهرة ١٢٩٩ هـ »
 ٤٣ — ابن دقماق : الانتصار بواسطة عقد الأمصار
 ٤٤ — دوايت دونلدش : عقيدة الشيعة ، « القاهرة ١٩٤٦ »
 ٤٥ — الراوندي : راحة الصبور
 ٤٦ — الذهبي : دول الاسلام ، « حيد آباد ١٣٣٧ هـ »
 ٤٧ — زامباور : معجم الأنساب والأمر الحكمة في التاريخ الاسلامي
 ٤٨ — السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، « القاهرة ١٣٢٤ هـ »
 ٤٩ — السيوطي : تاريخ الخلفاء ، « القاهرة ١٣٠٥ هـ »
 ٥٠ — الشهرستاني : الملل والنحل
 ٥١ — الصولي : أخبار الراضي بالله والمتقى بالله
 ٥٢ — ابن طباطبا : الفخرى ، تحقيق على الجارم بك ومحمد عوض ابراهيم « القاهرة ١٩٣٨ »
 ٥٣ — الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، « طبعة القاهرة »
 ٥٤ — طه الحاجري : قصر الرشيد ، « دار المعارف بالقاهرة ١٩٤٩ »
 ٥٥ — د. طه حسين : من حديث الشعر والنثر ، « القاهرة ١٩٤٨ »
 ٥٦ — طه الراوي : بغداد مدينة السلام « دار المعارف بالقاهرة » (سلسلة اقرا العدد ٢٧)
 ٥٧ — ابن عبد ربه : العقد الفريد ، (لجنة التأليف والترجمة والنشر) « الطبعة الأولى »
 ٥٨ — د. عبد اللطيف حمزة : ابن المقفع ، « الطبعة الثانية »
 ٥٩ — د. عبد المنعم حسنين : سلاجقة ايران والعراق
 ٦٠ — د. العدوي (ابراهيم) : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية « القاهرة ١٩٥١ »
 ٦١ — د. علي حسن عبدالقادر : نظرة عامة في تاريخ الفقه الاسلامي « ١٩٤٢ »
 ٦٢ — عماد الدين الاصفهاني : تاريخ آل سلجوق

- ٦٣ — غوستاف لوبون : حضارة العرب ، (الترجمة العربية) ، « مطبعة الحلبي ١٩٤٥ »
- ٦٤ — الفخر الرازي : تفسير القرآن الكريم ، « القاهرة ١٣٠٨ هـ »
- ٦٥ — غريد رفاعي : عصر المأمون ، « القاهرة ١٩٢٧ »
- ٦٦ — فيليب حتى : تاريخ العرب
- ٦٧ — الفيروزآبادي : القاموس المحيط ، « المطبعة المصرية »
- ٦٨ — القلى (أبو علي) : ذيل الآمالى ، « مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٦ »
- ٦٩ — ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ، « مطبعة الحلبي ١٩٣٧ »
- ٧٠ — ابن قتيبة : المعارف ، « القاهرة ١٩٣٤ »
- ٧١ — قدامة بن جعفر : الخراج ، « لندن ١٩٠٦ هـ »
- ٧٢ — القفطى : أخبار الحكماء Leipzig 1320 H.
- ٧٣ — القلقشندي : صبح الأعشى ، « القاهرة ١٩١٣ »
- ٧٤ — كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، بيروت ١٩٥٤ »
- ٧٥ — كرستين ولسن : تاريخ صنایع ایران
- ٧٦ — الموردي : الأحكام السلطانية ، « القاهرة ١٩٠٩ »
- ٧٧ — المبرد : الكامل ، مطبعة مصطفى محمد ١٣٥٥ هـ
- ٧٨ — محمد المرتضى الحسيني : تاج العروس ، « القاهرة ١٣٠٦ هـ »
- ٧٩ — محمد عبده : الإسلام والنصرانية مع العلم والمذنية
- ٨٠ — الميسعودي : مروج الذهب « المطبعة البهية ١٣٤٦ هـ »
- ٨١ — المقریزی : الخطط ، « القاهرة ١٣٧٠ هـ »
- ٨٢ — ابن مسكويه : تجارب الأمم
- ٨٣ — مسلم بن الوليد : ديوان مسلم بن الوليد
- ٨٤ — د. مصطفى فهمي : الحوائج النفسية ، « القاهرة ١٩٥١ »
- ٨٥ — المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم « لندن ١٩٠٦ »
- ٨٦ — ابن نباته : سرح العيون ، « القاهرة ١٢٧٧ هـ »
- ٨٧ — ابن النديم : الفهرست ، Leipzig 1871
- ٨٨ — ابن هيثم : النسيئة النبوية ، « القاهرة ١٩١٤ »
- ٨٩ — ياقوت : معجم البلدان ، « القاهرة ١٩٠٦ »
- ٩٠ — اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، Ed. Houtsma 1883
- ٩١ — اليعقوبي : كتاب البلدان ، « لندن ١٨٦٠ »
- ٩٢ — يوسف العث : تصدير كتاب تقييد العلم للخطيب البغدادي « دمشق ١٩٤٩ »

ثانياً — المراجع الأجنبية

- ٩٣ — Adler : Individual Psychology, Home University Library
- ٩٤ — Barthold : Turkestan down to the Mongol Invasion.
- ٩٥ — Bolus : The Influence of Islam, London 1932.
- ٩٦ — Dimand : A Handbook of Mohammadan Art.
- ٩٧ — Hadfield : Psychology and Mental Health, London 1950.
- ٩٨ — Khuda Bakhsh : Islamic Libraries, The Nineteenth Century.
- ٩٩ — Kirk : A Short History of the Middle East.
- ١٠٠ — Muir : The Roman Empire.
- ١٠١ — Neldeka : Sketches from Eastern History.
- ١٠٢ — Nicholson : A Literary History of the Arabs, Cambrids 1930.
- ١٠٣ — Le Strange : The Lands of the Eastern Caliphate, Cambridge 1930.
- ١٠٤ — Philip Hitti : History of the Arabs, Macmillan Forth Edition.
- ١٠٥ — Richard Coke : Baghdad : the City of Peace. London 1927.
- ١٠٦ — Sayed Ameer Ali : A Short History of the Saracens London 1916.
- ١٠٧ — Thomas Arnold Ed. : The Legacy of Islam, London 1947.

فهرس الأعلام

- ملحوظات :** ١ — تحاشيا للاطالة لم اضمن هذه الفهارس أسماء المؤلفين
اكتفاء بورودها في نيل صفحات الكتاب وفي قائمة المراجع .
- ٢ — ولم اضمن هذا الكشف أسماء الخلفاء العباسيين لأن هذه
الأسماء وردت في أكثر صفحات الكتاب مما يجعل أيرادها
هنا قليل الجدوى لمن يستعمل هذا الكشف .
- ٣ — رتبته هذه الأسماء ترتيبا أبجديا مع عدم اعتبار الملحقات
« ابن — ال »
- ٤ — حرف (م) يوضع بعد الرقم للدلالة على أن الاسم ورد في
الصفحة أكثر من مرة .

حرف الألف	ابن بقية ٤١٣
ابن بن صدقة ١٢٨ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٩١	أبو إسحاق ١٠٧
ابراهيم بن الأغلب ٢٠٩	أبو الأسود الذؤلى ٢٣٧ ، ٢٣٨
ابراهيم الامام ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٩٨ ، ٥٢ ، ٤٨	أبو أيوب المورياني ٨١ ، ١٠٧ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٣٨٥
ابراهيم بن جبلة ٩٣	أبو بكر ٢٤٠
ابراهيم بن رباح ٢٠٠	أبو تمام ٢٦٠
ابراهيم بن عبد الله بن الحسن ٧٦ ، ١٢٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧	أبو الجرود ١٤٨
ابراهيم بن زكوان الحرائى ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥	أبو حبيب (الشاعر) ٢٧١
ابراهيم بن عبد الملك بن صالح ٢٨٧ ، ٢٨٨ م	أبو جعفر الرؤاسى ٢٣٧ ، ٢٣٨
ابراهيم بن محمد بن عبد الوهاب	أبو حاتم الخارجى ٢١٠
ابن ابراهيم الامام = (ابن عائشة) ١٧٨ م	أبو حارثة الهندى ١٢٠ ، ١٢١
ابراهيم بن مسلم بن قتيبة ١٣١ م	أبو الحجناء ٣٤٣
ابراهيم بن المهدي ٨٨ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٧٠ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٢ ، ٢٨٧ ، ٣١٩	أبو الحسن الأتبارى ٤١٤
ابراهيم الموصلى ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٦٥	أبو الحسن على بن الفرات ٤٠١
ابراهيم بن موسى بن جعفر ٢١٠	أبو حميد المروزى ١٠٥
ابراهيم بنال ٤١٨	أبو حنيفة ٨١ ، ٢٠٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦
	أبو الخصيب مرزوق ٩٣ ، ١٠٢
	أبو دلامة ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٨ ، ١١٠ ، ١١٧
	أبو داود خالد بن ابراهيم ٨٦ ، ١٠٧
	أبو زكار المغنى ٣٠٢
	أبو السرايا ١٧٥ ، ١٧٦

أحمد بن حنبل ١٨٧ ، ٢٠١ ، ٢٣٤
 أحمد بن خالد ١٨٨ ، ١٨٩
 أحمد بن الخصيب ٢٠٠ ، ٣٩٦ ،
 ٣٩٧
 أحمد بن طولون ٤٠٥
 أحمد بن عمار ١٩٨
 أحمد بن يوسف ١٨٩ ، ١٩٠
 الأخفش ٢٣٦
 ادريس بن عبد الله ٢٠٣ ، ٢٠٨
 أرسطو ٢٤٣
 أرشميدس ٢٤٣
 اسحق بن حنين ٢٤٥ ، ٢٤٦
 اسحق الموصلي ١٥٤ ، ١٦٩ ، ١٨٤
 أسد بن عبد الله القسري ٢٨
 أسد بن يزيد بن مزيد ٢١٢
 إسرائيل بن سلجوق ٤١٨
 أسفار بن شبرويه ٤٠٨
 الاسكندر الأفروديسي ٢٤٣
 اسماعيل بن بلبل ٣٩٧
 اسماعيل بن صبيح ١٣٥ ، ١٦٥ ،
 ٢٩٢ ، ٣١١
 اسماعيل بن عبد الله القسري ٥٥
 آسية بنت علي ١٠٩
 أسيد بن عبد الله الخزاعي ٦٦
 أشجع السلمي ٣٧٩
 أثناس ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٢٥ ،
 ٣٩٤
 الأصمعي ١٤٦ ، ١٦٠ ، ٣٧٩
 الأعجم الشاعر ٣٤١
 أغاخان ٤٣٣
 الأفشين ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢١٧ ،
 ٣٩٣
 أنفلاطون ٢٤٣
 أقليدس ١٨١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣
 الب أرسلان ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ،
 ٤٣٥ ، ٤٢٧
 أكرم بن صيفي ٣٦٦
 أم جعفر ١٥٣

أبو سلمة الخلال ٣٧ ، ٤٥ ، ٤٦ ،
 ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٧٣ ،
 ٩٦ ، ٩٩ ، ١٩٥ ، ٢٨٢ ،
 ٣٨٧ ، ٣٩٢
 أبو سهل الرازي ٢٠٣
 أبو عبد الله بن سويد ١٨٨ ، ١٩٢
 أبو عبد الله بن أبي سليمان ٤١٣
 أبو عبد الله البريدي ٤٠٣
 أبو عبد الله العميد ٤٠٣
 أبو العتاهية ١٣٠ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،
 ١٥٥ ، ٣٠٢ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ،
 ٣٧١
 أبو عمرو بن العلاء ٢٣٦
 أبو الفرج بن الجوزي ٣٦٩
 أبو الفرج السامري ٤١٣
 أبو قابوس النصراني ١٥٣
 أبو القاسم بن عبيد الله ٣٩٧
 أبو محمد التميمي ٤٢٩
 أبو مسلم الخراساني ٣٤ ، ٣٥ ،
 ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ،
 ٧٣ ، ٧٦ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ،
 ٨٤ ، ٩٥ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،
 ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،
 ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ،
 ١١٢ ، ١٩٥ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ،
 ٣٨٧ ، ٣٩٢
 أبو نصر الكندري ٤٢٩
 أبو نواس ١٦٩ ، ١٧٣ ، ٢٠١ ،
 ٢١٥
 أبو هاشم بن محمد بن الحنفية ٣٣ ،
 ٣٥
 أبو هريرة محمد بن فروخ ٢١١
 أبو الهول الحميري ٣٨٢
 أبو الوزير ٣٩٦
 أبو يوسف القاضي ١٤٨ ، ١٥٣ ،
 ١٦٤ ، ٢٨٨
 ابن أبي مريم ١٤٧ ، ١٤٨
 أنماش ٣٩٥ ، ٣٩٦
 أحمد بن إسرائيل ٣٠٠ ، ٣٩٧
 أحمد بن أبي داود ١٩٠ ، ١٩٨
 أحمد بن بويه ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١

حرف الجيم

الجاحظ ٢٣٣
جالينوس ٢٤٢ ، ٢٤٣
ابن جامع ٣٨٣
جبريل بن بختيشوع ٢٤٢
جديع بن شعيب (الكرماني) ٤١ ، ٤٢
جرير ١٦٤
الجمعد بن أنعم ٢١٤
جعفر بن زيادة ٢١٣
جعفر بن عيسى ١٨٦
جعفر الصادق ٤٧ ، ٢٠٩
جعفر بن الهادي ٣٥٦
جعفر بن يحيى البرمكي ١٥٢ ، ٢٨٧ ، ٢٨٦ ، ١٦٤ ، ١٥٤
٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٨٢ ، ٣٧٩ ، ٢٩٨
الجنيد بن عبد الرحمن ٣٧
الجهم بن عطية ١٠٠
جورجيس بن بختيشوع ٢٤١

حرف الحاء

حاتم الطائي ٣٦٦
حامد بن العباس ٣٩٧ ، ٤٠٢
حبيب بن الجهم ٣٦٩
حبيش ٢٤٥
الحجاج بن أرطاة ٢٢٣
الحجاج بن يوسف ١٨٢
الحجاج بن يوسف بن مطر ٢٤١
حرب بن قيس ١٠٨
الحسن بن الأطروش ٤١٥
الحسن بن بويه ٤١ ، ٤١١
٤١٥ ، ٤١٦
الحسن بن الجراح ٣٩٧
حسن بن حسن ٢٠٢

أم حبيبة ١٧٩
أم عيسى بنت علي بن عبد الله ٢٥٣
أم عيسى بنت الهادي ٣١١
أم سلمة ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨
أم سليمان الطلحية ٢٦٥
أم الفضل ١٧٩
أنس بن أبي شيخ ٣٧٨
إيتاخ ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٣٩٤
أيريني ١٤٢ ، ٢٥٦

حرف الباء

بابك الخرمي ١٧٥ ، ١٩٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩
بختيشوع ٨٠
برصوما ١٦٥
برمك ٢٣٥
البيساسري ٤٢١ ، ٤٢٢
ابن البطريق ٢٤٥
بطليموس ١٨١ ، ٢٤٢
بغا الصغير ٣٩٥
بغا الكبير ١٩٧ ، ٣٩٤
بكر بن ماهان ٣٦ ، ٣٧ ، ٩٨
بكر بن المعتز ١٦٦ ، ٣٠٤
بوران بنت الحسن بن سهل ١٨٨ ، ٣٨١
بولس الأجنيني ٢٤٣
بيبرس ٤٣٣
بيين ٢٥١

حرف القاء

التميمي ٣٨٥
توماس الصقلي ٢٥٨
توزون ٤٠٣

حرف القاء

قابت بن قرة ٢٤٥
قائيل بن ميخائيل ٢٥٩

حرف الدال

داود بن طهمان ١٢٢
داود بن علي ٦٤ ، ٦٥
داود بن عيسى بن موسى ٣١٦
دعبل الخزاعي ٣٠٤
دنائير ٣٧٨
ديوجينيس ٤٣٠

حرف الذال

أبو ذؤيب ٧٨

حرف الراء

ابن رائق ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤
راشد الدين سنان ٤٣٣
رافع بن ليث ١٤٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦
٣١٩ ، ٣٢٠
الربيع بن يونس ٧٤ ، ٧٨ ، ١١٩
١٢٤ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ٢٦٣
٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧
٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١
٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥
٢٧٦ ، ٢٧٧
ربيع بن مسعود ٢٣١
الرقاشي ٣٠٣
رومانوس ٤٣٠
ربيعان بن صالح ٣٩٩
ربطة بنت عبيد الله الجارلي ٦٤

حرف الزاي

زبيدة بنت جعفر بن المنصور (كنيته
أم جعفر وهي زوجة الرشيد)
١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٣
١٦٦ ، ٢٩٢ م ، ٢٩٨
٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٤٠٤
زبيدة بنت منير ٢٨٤ ، ٢٩٣
زلزل ١٦٥

الحسن بن زيد ٤٠٧ ، ٤١٦
الحسن بن سهل ١٧٦ ، ١٧٧
١٨٨ ، ١٨٩ ، ٣١٨ ، ٣٨٠
٣٨١

حسن الشيرازية ٤٠٢
الحسن الصباح ٤٣٢ ، ٤٣٣
الحسن بن عبد الله بن الحسن
١٢٠ ، ١٢٥
الحسن بن علي ٢٨ ، ٢٩
الحسن بن قحطبة ٥٦
الحسن بن مطير ٣٧٤
الحسن بن وهب ٢٠٠
الحسين بن الضحاك ١٧٣ ، ١٨٢
٣٣٧

الحسين بن علي (الامام) ٢٨ ، ٢٩
الحسين بن علي بن الحسن بن
الحسن ١٦٨ ، ٢٠٧
الحسين بن مصعب (والد طاهر)
٣٤٤

حماد بن اسحق ١٧١
حماد الراوية ٢١٤
حماد الزبرقان ٢١٤
حماد مجرد ٢١٤ ، ٢١٥
حميد بن قحطبة ٨٣
حنين بن اسحق ٢٤٥ ، ٢٤٦
حوثرة بن سهل ٥٩ ، ٦٠

حرف الخاء

خالد بن ابراهيم (ابو داود) ٨٦ ،
٩٨ ، ١٠٦
خالد بن برمك ٧٣ ، ٢٢٣ ، ٢٨٠
٢٨١ م ، ٢٨٢ م ، ٣٧٦
خالد بن صفوان ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩
خديجة بنت داود بن ميكايل ٤٢٩
خفاف المروزي ٨٢
الخليل بن أحمد ٢٣٦ ، ٢٣٧
خواججه بزرگ ٤٢٥
الخيزران ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩
١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ٢٨٣
٢٩١

الشافعي (الانعام) ٢٣٤ ، ٢٠١
٢٣٥
بنو شاكرا ٢٤٥
شبل بن عبد الله ٧١
شبيب بن رواح ١٠٨ ، ٢١١
شريك القاضي ١٢٣ ، ١٢٨ ، ٢٠٢ ،
٢٠٣
شيبان الحروري ٤١
شبة بن عقال ١٢٢
شرويه اللاديسي ٩٣
ابن شيراز ٤٠٣

حرف الصاد

الصادق (أبو عكرمة) ٣٧
صالح (صاحب المصلى) ٣١٢ ،
٣٧٨ ، ٣٧٧
صالح بن الرشيد ٣١٤
صالح بن سليمان ٢٧١ ، ٢٧٢
صالح بن علي ٦٧ ، ٢٥٤
صالح بن المنصور ٢٦٨
صالح بن وصيف ٣٩٥
صلاح الدين الأيوبي ٤٣٣ م

حرف الفساد

ابن ضبارة ٢٨١

حرف الطاء

طاهر بن الحسين ١٦٨ ، ١٧٦ ،
١٨٠ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٦
طغرل ٤٢٩
طلحة بن زريق ٢٥٥ ، ٣٤٧

حرف العين

عائبة القاضي ١٢٨
العباس بن طرخان ٢٨٨ ، ٢٨٩
ابن عباد بن يحيى ١٨٩ ، ١٩٠

الزهرى (أبو القاسم) ٢٨٩
زياد بن أبي سفيان ١٨٥
زياد بن عبد الله الحارثي (خال
السفاح) ٣٣٧ ، ٣٤٠
زيد بن علي زين العابدين ٢٨ ،
٦٩ ، ٣٠
زينب بنت سليمان بن علي ١٨٠

حرف السين

سديف ٧٠ ، ٧١
سعيد بن أبي عروبة ٢٣١
سعيد بن عبد الله ٢٥٣
سعيد بن هرون ٢٤٦
سفيان بن زيد ٢٠٦
سفيان بن معاوية ٩٣ ، ٩٤
سلامة ٧٥
سلجوق ٤١٨ ، ٤١٩
سلم الخاسر ١٢٥
سليط بن عبد الله بن العباس ١٠٩
سليمان بن جرير ٢٠٩
سليمان بن أبي جعفر الفصور
(أبو أيوب) ٢١٥
سليمان بن حبيب ٢٦٤
سليمان بن علي ٧١ ، ٨٤ ، ٨٥ ،
٩٢ ، ٨٦
سليمان بن كثر ٩٩ ، ١٠٩ ، ١١١ ،
٣٤٧
سليمان بن هشام بن عبد الملك ٧٠
سليمان بن هب ٢٠٠ ، ٣٩٧
سماح ٣٨٥
سنباذ ١١٢ ، ٣٨٧
سهل بن هارون ٢٤٤ ، ٣٨٠
سيبويه ٢٣٦ ، ٢٣٧
سپما الشرايى ٣٩٥

حرف الثسين

شارل مارقل ٢٥٠
شارلمان ٢٥٠

عبد الله بن المبارك ٢٣١
عبد الله المحض ٢٠٥ ، م
عبد الله المقفع ٨٥ ، ٨٨ ، ٨٩ ،
٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ،
٢٤١
عبد الله بن مسعود ٢٣٠
عبد الله بن الوليد بن المغيرة ٦٦
عبد الملك بن الزيات ٣٩٤
عبد الملك بن صالح (نعيم جعفر)
٢٨٨ ، ٣١٥
عبد الملك بن صالح العباسي ٢٨٧
عبد الملك بن عبد العزيز بن جريح
٢٣١
عبد الملك بن مروان ٣٢٤
عبد الله بن سليمان بن وهب ٣٩٧
عتاب الحمدي ٩٣
عتابة (أم جعفر) ٢٩٨
عثمان بن عفان ٣٤٢
عثمان بن نهيك ١٠٨
عجيف بن عتبة ١٨٨ ، ١٩٧ ، ١٩٨
عطاء بن ياسر ٢٣٠
علاء الدين بن الجويني ٣٤٢
علان الشعبي ٢٤٣
علوية ١٧٦
علي بن الجهم ١٠١
علي الرضا ١٧٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٦
علي زين العابدين بن الحسين
٢٨ ، ٢٩
علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن
معاوية (السفيتي) ١٦٨
علي بن عبد الله بن العباس ٢٩ ،
٣٠ ، ٣٣ ، ٣٤
علي بن عيسى بن الجراح ٣٩٧ ،
٤٠٢
علي بن عيسى بن ماهان ١٣٥ ،
١٤٦ ، ١٨٢ ، ٢٩٢
علي بن محمد ٣٩٨ ، ٣٩٩
علي بن محمد بن الفرات ٣٩٧ ، ٤٠١
علي بن موسى ٣٢٧

العباس بن الحسن ٣٩٧
العباس بن عبد المطلب ٢٠ ، ٣٤
العباس بن الفضل بن الربيع ١٦٨
العباس بن المأمون ١٩٧ ، ١٩٨
العباس بن محمد ١٦٤ ، ٢٧٥
العباس بن موسى بن عيسى بن موسى
٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨
عبد الأعلى الجهمي ١٢١
العباسة (أخت الرشيد) ٢٩٨ ، ٢٩٩
عبد الجبار بن الأزدي ١١٦
عبد الحميد بن يحيى الكاتب ٨٩
عبد الرحمن بن اسحق ١٨٦
عبد الرحمن بن جبلة ٣١٥
عبد الرحمن بن عيسى بن داود بن
الجراح ٣٩٠
عبد الله بن محمد الخاقاني ٣٩٧
عبد الرحمن بن محمد بن يزيد ٣٩٧
عبد الرحمن بن معاوية (الداخل)
٢٤٩ ، ٢٦٢
عبد الله بن يحيى بن خاقان ٣٩٦
عبد السلام بن هاشم البشكري ٢١١
عبد الصمد بن عبد الأعلى ٢١٤
عبد العزيز بن عمران ٣٢٨
عبد العزيز بن الوليد الأموي ٦٦
عبد الله بن أبي عبيد الله ٢٧٦
عبد الله التميمي (الشاعر) ٣٨٤
عبد الله بن زياد ٦٩
عبد الله الخرمي ٢١٧
عبد الله بن سليمان بن وهب ٢٩٢
عبد الله بن طاهر ١٧٦ ، ١٧٨ ،
١٩٤
عبد الله بن العباس ٢٣٠
عبد الله بن علي ٥٣ ، ٥٤ ، ٧١ ،
٧٢ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ،
٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ،
٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٢ ،
٩٥ ، ٩٨ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٩٢
عبد الله بن عمر ٢٣٠
عبد الله بن مالك ١٣٣ ، ١٣٥ ،
١٣٦ ، ١٤٠

١٧٤ ، ١٨١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،
 ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ،
 ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ،
 ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ،
 ٣٨٦
 الفضل بن سهل ١٦٥ ، ١٧٧ ،
 ١٩٢ ، ١٩٥ ، ٢٠٣ ، ٢٦٢ ،
 ٢٧٩ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ،
 ٣٨٥ ، ٣٩٢
 الفضل بن الفرات ٣٩٧
 الفضل بن مروان ١٩٨ ، ٣٠١
 الفضل بن نويخت ٢٤٣
 الفضل بن يحيى ١٤٦ ، ٢٠٧ ،
 ٢٠٨ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ،
 ٢٨٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٣
 غورغوريوس ٢٤٣
 الفيض بن أبى صالح ١٢٧ ، ١٢٨

حرف القاف

قثم بن العباس ٢٢٥
 قباد بن غيروز ٢١٤
 قحطبة بن شبيب الطائي ٤٢ ،
 ٥٣ ، ٢٨٠ ، ٢٨١
 قراطيس أم الواثق ١٩٨
 قريش بن بدران ٤٢١
 القشيري ٢٧٥
 قطر الندى ٤٠٤

حرف الكاف

كثير عزة ٢٤
 الكرخي ٣٩٧
 الكسائي ١٦٢ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨
 كورتكين الديلمي ٤٠٣
 الكندري ٤٢٩
 كوثر ٣٨٤

حرف اللام

ليل بن النعمان ٤٠٨

علي الكرمانى ٢٧ ، ٢٨
 علي بن موسى الرضا ٣٨٦
 عماد النحولة ٤١٠ ، ٤١١
 عمارة بن حمزة ٩٠ ، ٩١
 عمر بن أيوب ٦٠
 عمر الأشرف ٤٧
 عمر بن بزيغ ١٢١
 عمر بن حفص ٢١٠
 عمر بن الخطاب ٢٠١ ، ٣٠٥
 عمر الخيام ٤٣٥
 عمر بن سعد ٦٩
 عمر بن عبد العزيز ٣٣
 عمر بن الفرخان ٢٤٥
 عمر الكلوداني ٢١٦
 عمران بن شاهين ٤١٤
 عمرو بن سعيد بن العاص ٦٦
 عمرو بن معاوية ٧٠
 عيسى بن جعفر بن المنصور ٣١٢
 عيسى بن علي ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٢ ،
 ٢١٣
 عيسى بن عمر الثقفي ٢٣٦ ، ٢٣٧ ،
 ٢٣٨
 عيسى بن فروخنشاه ٣٩٧
 عيسى بن موسى ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٦ ،
 ٨٢ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٠٦ ،
 ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٣١ ،
 ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧

حرف الفين

ألفطريف (خال الهادي) ١٣٩ م

حرف الفاء

فاطمة الزهراء ١٩ ، ٢٩ ، ١٢٦
 الفراء ٢٣٢
 الفرزدق ٣٤١
 الفضل بن أبي صالح ١٢٧
 الفضل بن الربيع ٧٤ ، ٨١ ، ٨٨ ،
 ٩٦ ، ١٢٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،
 ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٣

حرف الميم

- ماردة (أم المعتصم) ١٩٣
 ماركوبولو ٤٣٢
 ماکان بن کالی ٤٠٨
 مالک (الامام) ٨١ ، ٢٠١ ، ٢٣٩ ، ٢٤١
 مالک بن الهيثم الخزاعي ٤٠ ، ١٢٨
 ماني ١٩٧
 محمد بن ابراهيم الحميدي ٤٨
 محمد بن ابراهيم الزياتي ١٨٠
 محمد بن أحمد الاسكافي ٣٩٦
 محمد بن اسحاق ٢٤٠
 محمد الباقر ٢٨
 محمد بن الحسن (الفقيه) ٢٣٥ ، ٢٨٨
 محمد الديباج ٢٠٩
 محمد بن ذؤيب العمالي ١٦١
 محمد بن رائق ٤٠٢ م ، ٤٠٣ ، ٤١٣
 محمد بن سعد ٢٤٠ ، ٢٤١
 محمد بن سليمان بن علي ٢٠٧
 محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ٢٠٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٤ ، ٧٦
 محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ٨١
 محمد بن عبد الملك الزيات ١٩٨ ، ٣٩٦ ، ٢٠١ ، ١٩٩
 محمد بن عبيد الله الخاقاني ٣٩٧
 محمد بن علي (ابن الحنفية) ٢٨ ، ٣٣ ، ٣٠ ، ٢٩
 محمد بن علي السامري ٣٩٧
 محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ٩٨ ، ٩٥ ، ٣٢ ، ٢٩
 محمد بن علي بن موسى الرضا ١٧٩
 محمد بن عمر الواقدي ٢٤١
 محمد بن عيسى حمويه ٢١٦
 محمد بن عيسى بن نهيك ٣١٢
 محمد بن فروخ ١٣٥

- محمد بن الفضل الجرجاني ٣٩٦ ، ٤٠١
 محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي ٢٠٣
 محمد بن نباته ٥٩ ، ٦٠
 محمد بن موسى الخوارزمي ٢٤٧ ، ٢٤٨
 محمد بن الواثق ٣٩٤
 محمد بن يزداد (وزير المأمون) ١٩٤
 محمود الغزنوي ٤١٨ ، ٤١٩
 مخارق ١٧٠
 مرائل (أم المأمون) ١٧٤
 المزار بن أنس الضبي ٤٧ م ، ٢٦٨
 مرداويج ٤١٠
 مرزوق بن (رواء) أبو الخصيب ٨٩ ، ١٠٤
 مروان بن أبي حفصة ١١٣ ، ١٦٤ ، ٣٧٥
 مروان بن محمد ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٢ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٨٣
 مروان الخادم ١٦٠
 مزدك ١١٩
 مسرور (خادم الرشيد) ٢٩٥ ، ٢٩٦
 مسعود ٤١٩
 مسلم الحادي ٧٩
 مسلم بن عقيل ٦٩
 مسلم بن قتيبة ٩٥
 مسلم بن الوليد ٣٦٠ ، ٣٦١
 مسور بن مساور ١١٨
 مصعب بن زريق (جد طاهر) ٣٤٧
 معاوية بن أبي سفيان ٧٢
 معاوية بن يسار (أبو عبيد الله) ٨١ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٩
 ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨
 معز الدولة ٤٠٣ ، ٤٠٧
 معمر بن راشد ٢٣١
 معن بن زائدة الشيباني ٨١ ، ١١٣ ، ٢١١ ، ٢٤٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣
 (م ٢٩٠ — التاريخ الاسلامي ج ٣)

نعيم بن حازم ٣٢٦
نقفور ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨

حرف الهاء

هرثمة بن امين ١٧٤ ، ١٧٥ ،
١٧٦ ، ١٧٧ ، ٢١١ ، ٣١٨
هشام بن عبد الملك ٣٣ ، ٦٩ ، ٧٢

حرف الواو

الوضين بن عطاء ٧٧
أبو الوليد بن أحمد بن أبي داود ١١٨
الوليد بن طريف ٢١١ ، ٢١٢ ،
٣٤٨
الوليد بن سعد الجمال ٤٥
الوليد بن عبد الملك ٣٠
الوليد بن معلوية ٣٥
الوليد بن يزيد ٦٩

حرف الياء

ياسر (خادم الرشيد) ٢٩٦
ياسر (خادم المنصور) ٣٣٥
ياسر من بني تميم ٢١١
يحيى بن الأشعث ١٤٤
يحيى بن أكرم ١٩٠ ، ١٩٣
أبو يحيى بن البطريق ٢٤٢
يحيى بن خالد البرمكي ١٢٧ ،
١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٦٠ ،
٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ،
٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ،
٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ،
٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ،
٣٨٥
يحيى بن زيد ٢٨
يحيى بن سليم ١٦٥
يحيى بن عبد الله ٢٠٧ ، ٢٠٨ ،
٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩
يحيى بن ماسويه ٢٤٢ ، ٢٤٣ م

مفلح ٣٩٥
الفضل الضبي ١:١٦
ابن مقلة ٣٩٧ ، ٤٠٢
المقنع الخراساني ١٢٦ ، ٣٨٧
ملكشاه بن الب أرسلان ٤٢٥ ،
٤٢٧ ، ٤٣٥
ابن مناذر ٣٨٣
المنصور بن زياد ٣٦٥ ، ٣٧٧ ،
٣٧٨
المنصور بن أبي مزاحم ٢٠٣
منصور بن يزيد بن مزيد ٢٨١
المنذر بن المغيرة ٣١٠
المهلب بن أبي عيسى (أبو الأزهري)
٨٥
موسى بن الأمين ١٦٦ ، ١٦٧ ، ٣١١
موسى بن بغا ٣٩٥
موسى بن جعفر ٦٢ م ، ٦٣
موسى بن خالد ٢٤٣
موسى بن شاعر ٢٤٢
موسى بن علي ١٠٦
موسى بن يحيى البرمكي ٢٩٠ ،
٢٩١ ، ٢٩٧
الموفق ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٣
مؤنس الخادم ٣٩٥
مؤنس المظفر ٣٩٥
ميكائيل بن سلجوق ٤١٨
ميكائيل جعفر بك ٤١٨ ، ٤١٩
ميخائيل الثاني ٢٥٨ ، ٢٥٩
ميسرة ٣٦ ، ٣٧

حرف النون

نجاح (الكاتب) ٢٠٠
نصر بن سيار ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ،
٤٣ ، ٤٤ ، ٩٨ ، ١٢٤
نصر بن شيبث ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٩٥
نصيب (الشاعر) ٣٨٢
النضر بن الحارث ٣٦٠
نظام الملك ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٣٣
نعيم بن ثابت ٤٣

يزيد بن معاوية ٦٩	يحيى بن معاذ ٣٢٧
يزيد بن منصور (خال المهدي) ١٢٨	ابن يزداد بن سويد ١٩٠
يعقوب بن داود ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢	يزيد بن علي بن الحسين ٧٢
١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ٣٠٨ ، ١٢٦	يزيد بن حاتم ٢١٠
يوحنا بن ماسويه ٢٤٤ ، ٢٤٥	يزيد بن عمر بن أبي هبيرة ٤٤ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٦ ، ٩٨ ، ١١٣
يقطين بن موسى ١٠٥	يزيد بن الفيض ٢١٦
يوسف البرم ٣٢٢	يزيد بن يزيد ١٣٥ ، ٢١١ ، ٢١٢ م
يوسف بن عمرو الثقفى ٦٩	٢٥٥ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥
يونس بن حبيب ٢٣٦	

فهرس الأمكنة والبلدان

حرف الألف	
الأبله ٤٠٠	بلخ ٢٨١ ، ٤٣٥
أذربيجان ١٠١ ، ٢١٧ ، ٤٢٠	البلقاء ٣٥
أذنة ٢٥٤	بلنسية ٤١٣
أرمينية ١٠١	بوصير ٣٩
أصبهان ٢١٧	
أشروسنة ١٩٦ ، ٣٩٤	
الاموت ٤٣٢ ، ٤٣٣	
انطاكية ٢٥٤	
أفريقية ١٤٢ ، ٢٨٦	
الاسكندرونة ٢٥٤	
الأنبار ٧٥ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٤٢	
٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٨٦ ، ٢٩٥	
اندونيسيا ٣٨٧	
الأندلس ٢١ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢	
٣٩٠ ، ٣٩١	
أنقرة ٢٤٤ ، ٢٤٥	
الأمواز ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٦٤ ، ٢٦٩	
٤١١ ، ٤٠٠	
حرف الباء	حرف التاء
البحرين ٣١٧	
بخارى ٤٣٤	
البذ ٢٥٨	
البصرة ٣٢ ، ٨٣ ، ٩٠ ، ١٨٠	
٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٢	
٢٢٣ ، ٣١٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠	
بغداد ٢٢ ، ١٢٩ ، ١٣٨ ، ١٤٣	
١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٦٥ ، ١٦٨	
١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٢	
١٩٨ ، ٢٠٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠	
٢٢٤ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٠	
٣١١ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٨	
٣١٩ ، ٣٢٠	
البطيحة ٤١٤	
حرف الجيم	حرف الحاء
الجبيل ٤٠٤	
جرجان ١٣١ ، ١٣٨ ، ٢٠٧ ، ٤٠٣	
الجزيرة ٤٠ ، ٨٠ ، ٩٩ ، ١٠٣	
١٦٤ ، ١٩٩ ، ٢١٠ ، ٢١١	
٢٥٤ ، ٣١١	
جعلان ٤٠٠	
جيلان ٤٠٦	
	الحجاز ٧٥ ، ١٠٣
	حران ٣٦ ، ٤٠
	حطب ٨٣ ، ١٧٦ ، ٢٥٤ ، ٤١٤
	الحمية ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦
	٤٦ ، ٥٢ ، ٦٤ ، ٩٨
	الحيرة ٢١٨
	حمام أعين ٤٨
حرف الخاء	
خراسان ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣	
٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ م	
٣٩ ، ٤٠ ، ٤٦ م ، ٤٧ ، ٤٨	
٦٤ ، ٨٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧	
٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٣	

حرف الشين

الشم ٣٠ ، ٣٢ ، ٥٦ ، ٨٢ ، ٨٣ ،
١٠٥ ، ١٦٨ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ،
٢٨٨
الشماسية ١٥١
شمالي أفريقية ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٨٦ ،
٤٠٤

حرف الصاد

صنعاء ٤٠١
الصين ٢٢٠ ، ٢٥٦
صقلية ٢٤٨

حرف الطاء

طبرستان ٢٠٧ ، ٤٠٤ ، ٤١٢ ،
٤٢٠
طرسوس ١٩٢ ، ٢٥٤
طوس ١٦٥ ، ١٦٦ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ،
٣٢٠ ، ٤٣١

حرف العين

عبدان ٤٠٠
العراق ٣٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٨٣ ، ٩٨ ،
١٠٠ ، ١٥١ ، ١٥٧ ، ١٦٦ ،
١٧٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥
عمان ٣١٧
عين زربة ١٧٩
عمورية ١٩٤ ، ٢٤٤ ، ٢٦٠

حرف الفين

غزنة ٤١٥

حرف الفاء

غارس ٢٣٩

١٠٥ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٥١ ،
١٥٧ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٣ ،
١٧٤ ، ١٩٢ ، ٢٠٥ ، ٢٢٢ ،
٢٨٥ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٣٠٦ ،
٣١١ ، ٣١٤ ، ٣٢٠ ، ٤٠٤
خرمة ٢١٦
خوزستان ٢٧١

حرف الدال

دجلة ١٥١
دمشق ٣٠ ، ٣١ ، ٣٥ ، ١٦٨ ،
ديار بكر ٢١٩
الدليم (بلاد) ٢٠٧ ، ٢٨٥ ، ٢٩٩ ،
٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٤

حرف الراء

راوند ١١٢
الرحبة ١٢٩
الرصافة ١٥١ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،
٢٢٨
الرقعة ١٥٤ ، ١٨٤ ، ٢٠٦ ، ٢٩٣ ،
٣٢٠
الري ٤٤ ، ٧٩ ، ١٤٣ ، ٢٠٧ ،
٣١١

حرف الزاي

الزباب ٥٣ ، ٥٤
زبطرة ٢٥٤ ، ٢٥٩

حرف السين

سامرا ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢١٧ ،
٢١٩ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،
سجستان ٢٥٦ ، ٤١٢ ،
سرخس ٣٢٨ ، ٤١٩ ،
سمرتند ١٧٨ ، ٤١٩ ،
السند ٢١٩
السواد ٣٢٦
سيحون ٤١٨

مصياد ٤٣٣
المغرب ١٧٨ ، ٢٥٠
مكران ٤١٢
مكة ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١٦٣ ،
٣١٦ ، ٢٠٧
ملائكرد ٤٣٠
ملطية ٢٥٩
منبج ٢٥٤
موريان ٢٦٤
الموصل ٢١٩

حرف النون

النهروان ٣٢٩
نيسابور ١١٢ ، ١٢٧

حرف الهاء

الهاشمية ١١٣
هراه ٤٣٥
هرقطة ١٤٢
همدان ١٦١ ، ١٩٢
الهند ٢١٩ ، ٢٥٦
الهنى والمرى ١٥٦

حرف الواو

واسط ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ،
٥٦ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٢٠٧ ،
٢١٩ ، ٣١٧ ، ٤٠٠

حرف الياء

اليامة ١٩٩
اليمن ١١٣ ، ١٣٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،
٢٠٩

فخ ١٤٣ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨
فذك ١٩٩
فرغانة ٢٥٦
فلسطين ٥٦
فوسنج ٣٤٤

حرف القاف

قبرص ٢٤٤
القسطنطينية ٢٤٤ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ،
٢٥٦ ، ٢٦٠
قنشرين ٤٠ ، ٢٥٤
القيروان ٢١٠

حرف الكاف

كربلاء ٢٩
كرستان ٤٢٦
الكرخ ٢٢٤ ، ٢٢٥
كرمان ٤٢٦ ، ٤٣٤
الكوفة ٣٠ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ ،
٣٦ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨ ،
٥٠ ، ٥١ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٩٠ ،
١٢٨ ، ١٩٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،
٢٢٢ ، ٢٣٦

حرف الليم

المدائن ١٠٥
المدينة ٢٠٧ ، ٣١٦
مرو ٤٢ ، ٥٥ ، ٩٥ ، ١٢٨ ، ١٧٧ ،
٤٣٥
الرداسية ٤١٥
المختارة ٤٠٠
مصر ١٧٩ ، ١٩٣ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ،
٢٨٧ ، ٣١٣

رقم الايداع ٥٤٤٨ هـ لسنة ١٩٨٥
مطابع سجل العرب

HISTORY and CIVILIZATION of ISLAM

**A study, in Ten Volumes,
on History and Civilization of Islam
in All Muslim Ages and Lands**



دكتور أحمد شلبي

III

The Abbasid Caliphate

BY

AHMAD SHALABY

**B. A. (Hon.) Cairo University,
Ph.D. Cambridge University,
Professor and Head of the Department
of Islamic History and Civilization,
Faculty of Dar El Ulum, Cairo University**

Eighth Edition (1985) Revised

Published by :

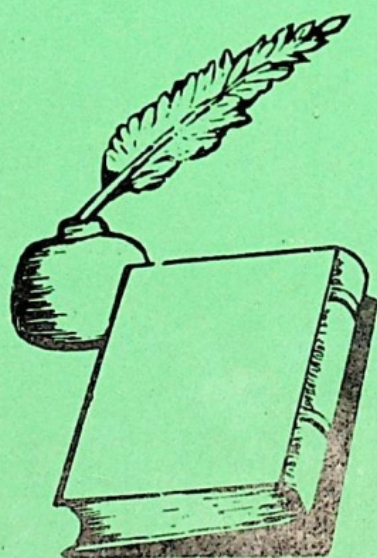
**THE RENAISSANCE BOOKSHOP
9 Adly Street, Cairo**

— تلقى دراساته في الأزهر وفي كلية دارالعلوم
(جامعة القاهرة) وفي جامعة لندن وجامعة كمبردج .
— زار الولايات المتحدة الأمريكية كما زار أكثر دول أوروبا
وآسيا وأفريقيا ، ومثل مصر في عدة مؤتمرات دولية
— درس مجموعة من اللغات الأجنبية ويجيد الإنجليزية
والاندونيسية .
— اشتغل بالتدريس بجامعة القاهرة حتى وصل الى درجة أستاذ
ورئيس قسم التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، وقد
حاضر - مستديبا وزائرا - في جامعة الأزهر ،
وعين شمس ، واندونيسيا ، والسودان ، وماليزيا ، والمملكة
العربية السعودية ، وليبيا ، وفي معهد الدراسات الاسلامية ،
ومعهد البحوث والدراسات العربية ، ومعهد الدراسات
الدبلوماسية .
— مؤلفاته تزيد عن خمسين كتابا ظهرت الطبعة الخامسة عشرة
من بعضها وأهم هذه المؤلفات :

- ١ - موسوعة التاريخ الاسلامي في عشرة أجزاء .
- ٢ - موسوعة الحضارة الاسلامية في عشرة أجزاء .
- ٣ - مقارنة الأديان في أربعة أجزاء .
- ٤ - كيف تكتب بحثا أو رسالة .
- ٥ - المكتبة الاسلامية المصوّرة لكل الاعمار (١٠٠ جزء
من السّبر والتاريخ وقصص القرآن للأطفال
والشبان والسيدات والرجال) .
- ٦ - ISLAM: BELIEF, LEGISLATION, MORALS
- ٧ - HISTORY OF MUSLIM EDUCATION

— كتب بعض كتبه بالانجليزية والاندونيسية ، وترجمت أكثر
مؤلفاته الى الأوردية ، والتركية ، والاندونيسية ، والماليزية
والفرنسية ، والفارسية .

موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية



تأليف
الدكتور أحمد شلبى
دكتوراه من جامعة كامبردج

استاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

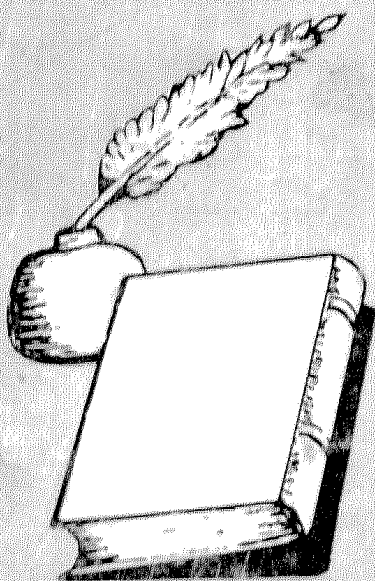
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى - القاهرة

مع إضافات واسعة وتحقيقات جديدة

موسوعة التاريخ الإسلامى

٤

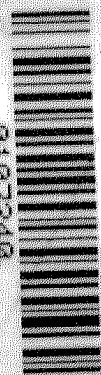
— الأندلس الإسلامية وانتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا عن طريقها
— المغرب ، الجزائر ، تونس ، ليبيا : من مطلع الإسلام حتى الوقت الحاضر
— السنوسية : مبادئها وتاريخها



تأليف
الدكتور أحمد شلبى
مكتوبه فى الفلسفة مشهورة بكنة

التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة
والجائز لوسام : العلوم والفنون ، من الطبقة الأولى
لكتابات فى التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية

مكتبة النهضة المصرية
شارع عدلى ، القاهرة



0107240

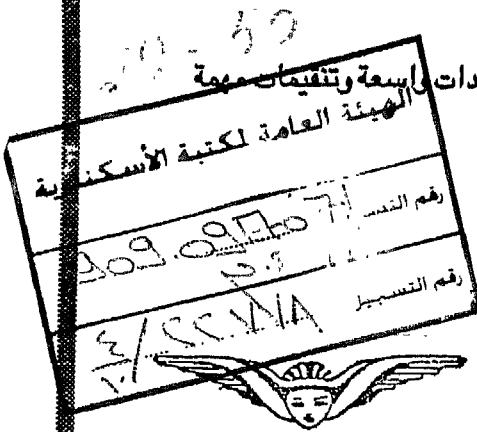
Bibliotheca Alexandrina

موسوعة التاريخ الإسلامى

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة أجزاء لتاريخ العالم الإسلامى كله،
من مطلع الإسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى
أسهم بها المسلمون فى ترقية العمران وتطوير الفكر البشرى .



— الأندلس الإسلامية وانتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا عن طريقها
— المغرب ، الجزائر ، تونس ، ليبيا : من مطلع الإسلام حتى الوقت الحاضر
— السنوسية : مبادئها وتاريخها .



مكتبة التفتة والنشر
مكتبة التفتة المصنعة
لأصحابها حسن محمد وأولاده
١ - شارع عدل باشا بالقاهرة

تأليف

الدكتور أحمد شلبي

دكتوراه من جامعة كمبردج (إنجلترا)

أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامى

والحضارة الإسلامية

بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

حقوق الطبع محفوظة سهرت

الطبعة الأولى سنة ١٩٦١

الطبعة الثانية سنة ١٩٦٥

الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٧

الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٣

الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٧

الطبعة السادسة سنة ١٩٧٨

الطبعة السابعة سنة ١٩٨٢

الطبعة الثامنة سنة ١٩٨٤

الطبعة التاسعة سنة ١٩٨٨

الطبعة العاشرة سنة ١٩٩٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَبِهِ نَسْتَعِينُ

خطة البحث في هذه الموسوعة

خطة البحث التي أتبعها في كتابة « التاريخ الإسلامي » خطة جديدة ومريحة ،
سرنى أن أبرزها في التخطيط التالي ليعرف القارى كنهها ، وليسهل عليه متابعتها :

١ -	العرب قبل إسلام - السيرة النبوية العطرة - عصر الخلفاء الراشدين	دراسة زمنية في هذه الأجزاء الثلاثة إذ أن العالم الإسلامي وحدة واحدة .		
٢ -	الدولة لأمية والحركات الفكرية والثورية خلالها			
٣ -	الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسي الأول وبدور المسلمين في خدمة الدراسات الإسلامية والحضارة العالمية			
ثم دراسة مكانية (قطاعات) في الأجزاء الخمسة التالى لأن العالم الإسلامى انقسم إلى دويلات كثيرة ويشمل كل جزء من هذه الأجزاء قطاعا من العالم الإسلامى . بحيث يتناول تاريخه من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر مبتدئين من الغرب ومنتهين إلى الشرق كالتخطيط التالى :				
الجزء الثامن	الجزء السابع	الجزء السادس	الجزء الخامس	الجزء الرابع
إندونيسيا - الأقليات الإسلامية بالسند والاندلس لمصر تونس والهند والفلبين تاريخ الإسلام للدول الإسلامية غير العربية بآسيا إيران - أفغانستان - باكستان - بنغلاديش - ماليزيا	إسلام والدول الإسلامية بالجزيرة العربية والعراق من مطلع الإسلام حتى الآن . هذه الجزيرة العربية : المملكة العربية السعودية - عمان - ليبيا - دولة الإمارات العربية نظر - البحرين - الكويت - ثم العراق (سوريا العراق والكويت ١٩٩٠ - ١٩٩١) .	إسلام والدول الإسلامية بسوريا مصر - إثيوبية مدغشقر إسلام حتى الآن دراسة عن - وسائل انتشار الإسلام بطلب الرعية - الدول الإسلامية قبل الاستعمار الأحدث - الدول الإسلامية الحالية : موريتانيا - السنغال - جابونيا - غينيا - مالي - النيجر - نيجيريا - تشاد - السودان - الصومال - جيبوتي - أوغندا	عصر ديسوريا من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر - الحروب الصليبية : دوافعها أدوارها . نتائجها الإمبراطورية العثمانية (تركيا) منذ ظهورها حتى الآن	- الأندلس الإسلامية وانتقال الحضارة الإسلامية منها إلى أوروبا . - المغرب - الجزائر - تونس - ليبيا - من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر السنوسية : مبادئها وثرائها .
وتختتم الموسوعة بدراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر : الجزء التاسع : ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم : عصر محمد نجيب وعصر عبد الناصر الجزء العاشر : ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم : عصر أنور السادات				

وتختتم الموسوعة بدراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر :

الجزء التاسع : ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم : عصر محمد نجيب وعصر عبد الناصر
الجزء العاشر : ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم : عصر أنور السادات

كتب للمؤلف

أولاً : موسوعة التاريخ الإسلامى

دراسة تحليلية شاملة في عشرة مجلدات تشمل تاريخ العالم الإسلامى كله .
من مطلع الإسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التي حققتها الدول
الإسلامية عبر التاريخ . (الطبعة الرابعة عشر)

الجزء الأول : العصر الجاهلى - السيرة النبوية العطرة وعصر الخلفاء الراشدين

الجزء الثانى : الدولة الأموية وإنصاف تاريخها .

الجزء الثالث : الخلافة العباسية والدور الحضارى خلال عصرها الأول .

الجزء الرابع : الأندلس الإسلامية ، وانتقال الحضارة الإسلامية عن طريقها إلى
أوروبا - المغرب - الجزائر - تونس - ليبيا من مطلع الإسلام حتى الآن

الجزء الخامس : تاريخ مصر وسوريا من مطلع الإسلام حت الآن - الحروب الصليبية -
تاريخ الإمبراطورية العثمانية (تركيا) منذ ظهورها حتى الآن .

الجزء السادس : الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء إفريقيا منذ دخلها الإسلام
حتى الآن موريتانيا - السنغال - جامبيا - غينيا - مالى - النيجر -
نيجيريا - تشاد - السودان الصومال - جيبوتى - إثيوبيا

الجزء السابع : دول الجزيرة العربية والعراق من مطلع الإسلام حتى الآن . المملكة
العربية السعودية - اليمن - عمان - دولة الإمارات العربية - قطر -
البحرين - الكويت - ثم العراق (أحداث العراق والكويت ١٩٩٠ -
١٩٩١) دراسة محايدة .

الجزء الثامن : الدول الإسلامية غير العربية بآسيا : إيران - أفغانستان - الباكستان -
بنجالاديش - ماليزيا - إندونيسيا - منذ دخلها الإسلام حتى الآن
الأقليات الإسلامية فى الهند والصين وروسيا والفلبين .

الجزء التاسع : ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم . عصر جمال عبد الناصر : عصر
المظالم والهزائم .

الجزء العاشر : ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم : عصر أنور السادات .

كتب للمؤلف

ثانياً : موسوعة الحضارة الإسلامية

دراسة تحليلية شاملة في عشرة مجلدات ، تبرز الاتجاهات الحضارية التي جاء بها الإسلام لهداية البشرية في شئون الفكر ، والسياسة ، والاقتصاد ، والعلاقات الدولية ، وفي مجال الحياة الاجتماعية والتربوية والتشريعية والقضائية ، والعسكرية ، كما تبرز جهود المسلمين في الحضارة التجريبية كالطب والرياضة والفلك (الطبعة العاشرة) .

الجزء الأول : موجز عام للحضارة الإسلامية - المناهج الإسلامية : أصولها الصحيحة - انحرافاتهما - وجوب تصحيحهما .

الجزء الثاني : الفكر الإسلامي : منابعه وآثاره ، مآثر المسلمين في مجال الدراسات العلمية والفلسفية .

الجزء الثالث : السياسة في الفكر الإسلامي - مع المقارنة بالنظم السياسية المعاصرة

الجزء الرابع : الاقتصاد في الفكر الإسلامي - مع المقارنة بالنظم الاقتصادية الحالية ، ومع دراسة القضايا الاقتصادية المعاصرة (شهادات الاستثمار ..)

الجزء الخامس : التربية والتعليم في الفكر الإسلامي .

الجزء السادس : المجتمع الإسلامي : تكوينه وعلاج مشكلاته في الفكر الإسلامي .

الجزء السابع : الحياة الاجتماعية في الفكر الإسلامي : نطاق الأسرة ونطاق المجتمع كالخطبة والمهر وحقوق الأولاد رواتبهن وكالأفراج والمآتم والموسيقى والغناء

الجزء الثامن : التشريع والقضاء في الفكر الإسلامي (مع دراسات واسعة عن مصادر التشريع الإسلامي وبخاصة عن القرآن الكريم وتدوينه ومعجزاته) .

الجزء التاسع : العلاقات الدولية في الفكر الإسلامي وماذا قدم الإسلام في نطاق هذه العلاقات للمجتمع البشرى .

الجزء العاشر : رحلة حياة : تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الإسلامية .

ثالثاً : التفسير الميسر للقرآن الكريم

تفسير موجز وواضح يهدف لأن تفهم القرآن الكريم إذا قرأته أو سمعته ، مع وقفات تفصيلية عند بعض القضايا القرآنية المهمة .

كتب المؤلف

رابعاً : مقارنة الأديان

سلسلة من الكتب في مقارنة الأديان ، تعتمد علي أدق المصادر بمختلف اللغات وتمتاز دراستها بالحيدة والعمق وتشمل :

الجزء الأول : اليهودية : (الطبعة العاشرة)

- دراسة لشتى المسائل اليهودية : اليهود في التاريخ من عهد إبراهيم حتى الآن : الصهيونية ، أنبياء بنى اسرائيل ، عقيدة بنى اسرائيل ، يهو إله بنى اسرائيل ، التعدد والتوحيد في الفكر اليهودي ، التابوت والهيكل ، الكهنة والقرايين ...

- مصادر الفكر اليهودي : العهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء صهيون .

- اليهود في الظلام : الاغتيل ، التحسس ، الماسونية ، الروتاري ، الليونز - شهود يهو ، البابية والبهاية

- من صور التشريع في اليهودية .

الجزء الثاني : المسيحية : (الطبعة العاشرة)

- المسيح والمسيحية في نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة .

- يولس واضع المسيحية الحالية ، التثليث ، صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر .

- شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، المجمع ، طبيعة المسيح والآراء فيها ، الطوائف المسيحية ، والرهبنة والأديرة ، خرافة ظهور العذراء في كنيسة الزيتون ، حركة الإصلاح الديني ونتائجها ونقدها .

الجزء الثالث : الاسلام : (الطبعة العاشرة)

- الله في التفكير الإسلامى - النبوة في التفكير الإسلامى ، غير المسلمين في المجتمع الإسلامى ، الدين المعاملة ، المرأة في الاسلام ، الرق وموقف الاسلام منه ، السياسة والاقتصاد في الاسلام - آراء المفكرين الغربيين في الاسلام ورسول الاسلام .

الجزء الرابع : أديان الهند الكبرى : (الطبعة العاشرة)

« الهندوسية - الجينية - البوذية »

- تقديم عن : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات في الهند ، الأديان في الهند .

- دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا : مهابهارتا : يوجاواسستها ، كيتا .

- أهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الانطلاق والنرفانا ، وحدة الوجود .

- تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ واضعيها .

كتب للمؤلف

خامسا : كتب فى الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

- كيف تكتب بحثاً أو رسالة .

دراسة منهجية لكتابة البحوث واعداد رسائل الماجستير والدكتوراه

(الطبعة الثانية والعشرون - مع ثلاثة ملاحق مهمة)

- الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الاسلام ، واستمرارها حتى الان :

عرض للهجمات الصليبية الغربية عسكرية وفكرية على العالم الإسلامى عبر العصور .

الرسول صلى الله عليه وسلم فى بيته : زوج مثالى - زوجاته - أولاده - أحفاده - خدمة

- أحداث العراق والكويت : ماذا أبرزت من مشكلات ، وما السبيل للتغلب عليها -

دراسة تاريخية نفسية محايدة (الزهراء للإعلام العربى)

كتابان باللغة الانجليزية هما :

- ISLAM : Belief - Legislation - Morals .

- History of Muslim Education .

مكتبة النهضة المصرية

وباللغة الفرنسية

- Islam : Croyance - Législation - Morale .

وباللغة الإندونيسية والماليزية :

- Nagara dan Pemerintahan Dalam Islam .

- Masharakat Islam .

- Hukum Islam .

- Sedjarah dan Kebudajann Islam I

- Sedjarah dan Kebudajann Islam II

- Sedjarah dan Kebudajann Islam III

Pustaka National
(Singapore)

- Perbandingan Agama (Jahudi)

- Perbandingan Agama (Masihi)

- Perbandingan Agama (Islam)

- Perbandingan Agama (Agama2yang

- Terbesar di India : (Hindu - Jaina - Buddha)

-Sadijarah Pendidikan Islam

- Politik dan Ekonomi Dalam Islam

- Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam

- Perkembangan Keagamaan Dalam Islam dan Masa

- Perang Salib

- Kurikulum Islam Dalam Perkembangan Sedjarah

- Pengajian Al Quraan

- Sedjarah Kchakiman Dalam Islam

كتب المؤلف

سادسا : المكتبة الإسلامية لكل الأعمار

تخطيط يشمل ١٠٠ جزء ، يقرأها كل فرد من أفراد الأسرة ظهر منها ٧٧ جزءاً كالآتي :

المجموعة الأولى : السيرة النبوية العطرة (١٦ جزءاً)

وتشمل سيرة الرسول ﷺ وجوانب منها تُدَوَّن لأول مرة .

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة (٧ أجزاء)

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية (٥ أجزاء)

نزول القرآن وتدينه - القرآن والعلم - فضائل القرآن - إعجاز القرآن - الأخلاق الإسلامية من القرآن الكريم .

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم . (٧ أجزاء)

المجموعة الخامسة : الدولة الأموية : تاريخ يحتاج إلى إنصاف (٥ أجزاء)

لماذا انحرف تدين التاريخ الأموي ؟ وكيف أعدت كتابته .

المجموعة السادسة : شخصيات إسلامية

صقر قريش - هارون الرشيد - الخليفة المأمون - الناصر لدين الله - عبد الرحمن الناصر .

المجموعة السابعة : صراح وشهداء وانتصارات

- من شهداء الإسلام .

- الحروب الصليبية : بذوها مع مطلع الإسلام واستمرارها حتى الآن .

- شهر رمضان وانتصارات المسلمين فيه .

المجموعة الثامنة : الإسلام والمرأة (٥ أجزاء)

حالة المرأة في الحضارات غير الإسلامية - ماذا قدم الإسلام للمرأة ؟

نماذج من السيدات المسلمات : من بيت النبوة « السيدة زينب والسيدة سكينة » ونماذج
فى السياسة والأدب والعلوم والفنون - زيجات شهيرة فى التاريخ : « زبيدة - بوران - قطر
الندى » .

المجموعة التاسعة : كتب معترقة :

مكة المكرمة : من التهيؤ لاستقبال دين جديد إلى التنكيل بمن اتبعه (٣ أجزاء فى مجلد
واحد) .

- الميراث فى الشريعة الإسلامية : دراسة شاملة .
- تاريخ الطب فى الإسلام .
- حركات من منطقة فارس ضد الإسلام والمسلمين عبر العصور (٣ أجزاء فى مجلد
واحد) .
- تطوير دراسة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ودور « دار العلوم » فى هذا
المجال
- مع أنبياء الله الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم وعددهم ٢٥ نبيا لإبراز التوجيه
الإلهى والقُدوة الحسنة .
- الإسلام فى أوروبا خلال التاريخ الوسيط والتاريخ الحديث .
- الصحوة الإسلامية : مظاهرها - معوقاتهما (الحرب والتطرف) - الصحوة تستعيد
نشاطها .
- السلفية : من روائع السلفية - تعثر السلفية أحيانا .
- مدن مقدسة إسلامية : مكة المكرمة - المدينة المنورة - القدس الشريف (منذ ظهورها
حتى الآن) .
- صرخة تحذير : المسلمون الذين يتعرضون للقهر فى عدة أمكنة .
- علماء وأدباء من خراسان وبلاد ماوراء النهر عبر التاريخ .
- السيرة النبوية للناشئة (اربط حياة أولادك بسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم)
- الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاق .
- تعلم اللغة العربية لغير العرب .
- قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها .

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
٢٠ - ١٨	مقدمة الطبعة الأولى
٢١	مقدمة الطبعة العاشرة
٢٢	تفكك الدولة الإسلامية : عرض سريع
	الأندلس
٢٤	مقدمة
٢٥ - ٢٩	الأندلس فى رحاب الإسلام
٢٩	الحكام الأيوبيون بالأندلس
٣٠	الأندلس فى عهد الحكام الأمويين :
٣١	نظرة عامة - الفن الداخلية والحروب الخارجية
٣٣	الخلاف على ولاية العهد
٣٤	ثورات المسيحيين - أوروبا كلها تصارع المسلمين
	تعريف بالحكام الأمويين بفترات حكمهم
	القرن الهجرى الثانى :
٣٦	صقر قریش : عبد الرحمن الداخل :
٣٧	دهاء الأمويين
٣٨	مقاتل الهاشميين
٣٩	من هو عبد الرحمن الداخل
٤٠	تدمير : حيث ولد عبد الرحمن وأثرها عليه
٤١	نبوءات حول عبد الرحمن الداخل - رحلة البطل
٤٣	الأمويون فى الشمال الأفرقى والأندلس
٤٥	شخصية عبد الرحمن الداخل
٤٦	لباسه وخاتمة ولفه ومولاه بدر
٤٧ - ٤٨	رسائل عبد الرحمن للأمويين بالأندلس وحالة الأندلس آنذاك
٤٩	عبد الرحمن والصمبل بن حاتم
٥١	أوبيعة لعبد الرحمن بالأندلس - يوسف الفهرى وموقعة الصارة
٥٣	عبد الرحمن وابنة يوسف الفهرى
٥٤	محاولة العباسيين لاسترداد الأندلس - شارلمان ومؤامرة الخونة والصلح مع شارلمان
٥٦ - ٥٧	عبد الرحمن يدعو للخلافة العباسية - المبادئ الإسلامية وحياتها
٥٧ - ٥٩	صور من صراع بعبد الرحمن الداخل
٦٠ - ٦٤	تصوير الخلاف بين عبد الرحمن وتابعه بدر
٦٥	سياسة عبد الرحمن و بطولته
٦٧	جوانب إنسانية فى عبد الرحمن
٦٩	انجهايات عبد الرحمن العاطفية

٧٠ - ٧١ ثقافة عبد الرحمن وشعره - ذكريات الهوى عند عبد الرحمن
عبد الرحمن في نظر الباحثين والدارسين

٧٧ - ٧٨ نفوذ الفقهاء على عهد عبد الرحمن - جهود عبد الرحمن في مجال الحضارة
٧٩ - ٨٠ وفاة عبد الرحمن - مجالس العلم والأدب في عهد عبد الرحمن

عبد الرحمن اسم الثلاثة الحكام العظام بالأندلس في العهد الأموي

من عبد الرحمن الداخل إلى عبد الرحمن الأوسط :

هشام بن عبد الرحمن

٨٢ انجهاات هشام الداخلية
٨٣ عصر نفوذ الفقهاء
٨٤ موقفة من أهل لزمة وحروبه الخارجية

الحكم بن هشام

٨٤ صلة الحكم بن هشام بافقهاء و موقفة الرض
٨٦ - ٨٧ المختدق أو الحفرة وهل يجوز هذا الغدر ؟

القرن الهجرى الثالث

عبد الرحمن الأوسط :
٨٨ - ٨٩ نفوذ الفقهاء في عهده - زرياب
٩٠ رحلة بعض مفكرى المشرق للأندلس - ثورات في عهد عبد الرحمن الأوسط
٩١ - ٩٢ ثورة قرطبة (حركة الاستهاد) - غارات النورمان
من عبد الرحمن الأوسط إلى عبد الرحمن الناصر :
٩٤ محمد بن عبد الرحمن وابناه المنذر وعبد الله

القرى الهجرى الرابع

٩٥ عبد الرحمن الناصر :
٩٦ الأندلس قبل عبد الرحمن
٩٧ عهد الرحمن شعله نور بين الظلام
٩٨ صراعه ضد المارقين
هوأقف بارزه لعبد الرحمن :
٩٩ - ١٠٠ موقفه من مجاعة أملت بالبلاد - الصراع ضد ابن حفصون
١٠١ - ١٠٢ لقب الخلافة - خطر الفاطميين
١٠٣ أعوان الناصر - عهد رخاء - أهم منشآت الناصر
١٠٤ جوانب حضارية في عهد الناصر
١٠٥ سفارات عهد الناصر إلى القسطنطينية وفرنسا وغيرها
١٠٧ خلفاء عبد الرحمن الناصر - الحكم المستنصر ثم ابنه هشام
١٠٨ الدولة العاصرية

١١٢ - ١١٣	بنا المنصور - نهاية الخلافة الأموية
١١٣ - ١١٤	بنو حمود - عصر ملوك الطوائف
١١٦	أعم مظاهر عصر الطوائف
١١٨	المرابطون في الأندلس :
١١٩	الضعف يدب في المرابطين
١٢٠	الموحدون في الأندلس
١٢١	الأندلس بعد الموحدين (بنو الأحمر بغرناطة)
١٢٢	الحاكم الخائن
١٢٤	الممالك المسيحية التي قاومت المسلمين بزيستيا
١٢٦	مسلمو الأندلس بعد سقوط غرناطة
١٢٧	كلمة عن معاهدة تسليم غرناطة وقوة غرناطة آنذاك

الحضارة الإسلامية بالأندلس

١٣٠	رجالها - أنواع الحضارة الإسلامية
	الحضارة الفكرية :
١٣٠	لعلوم الشرعية
١٣٢	لعلوم الفلسفية - العلوم العقلية
١٣٤	لموسيقى والفن - اللغة العربية وآدابها
	الحضارة العمرانية :
١٣٩	قرطبة وضواحيها
١٤٢	-المؤتمر الإسلامي المسيحي بقرطبة
١٤٣	-مسجد قرطبة الجامع
١٤٤	-الصلاة من جديد بمسجد قرطبة
١٤٥	-حمامات قرطبة - مدينة الزهراء
١٤٨	غرناطة
١٥٠	الحضارة الإسلامية تغزو أوروبا وتوظفها
١٥١	من الفكر الإسلامي للفكر الغربي في الفلك - من الفكر في الرياضة
١٥٢	من الفكر الإسلامي الغربي في الموسيقى
١٥٣	من الفكر الإسلامي للفكر الغربي في الفلسفة
١٥٥	اعترافات المفكرين الغربيين

شمالى أفريقية

١٥٨	موجز تاريخ الشمال لأفريقي
١٦٢	الأتراك العثمانيون في الشمال الأفريقي
١٦٥	سكان الشمال الأفريقي - الجنس
١٧٠	أخلاق السكان - اللغة
١٧١	الدين - الأسلام
١٧٢	عمر بن عبد العزيز والإسلام في أفريقية
١٧٤	مذهب مالك وجهود سحنون بن سعيد

١٧٥	الوحدة المغربية
١٧٧	الحروب الصليبية فى شمالى أفريقيا
١٧٩	دور المغرب العربى فى نشر الاسلام
١٨٠	المدن والأصوار بالشمال الافريقى
١٨١	ألقاب الحكام بالمغرب العربى خلال العهد العثمانى
	مراكش (المغرب)
١٨٤	الأدارة
١٨٦	الحكم القبلى وسلطة الفاطميين - المرابطون
١٩٠	الموحدون
١٩٥	بنو مرين
٢٠٠	الأشراف
٢٠١	العلاقة بين الأشراف والعثمانيين
٢٠٤	الاستقلال الطويل وسياسة العزلة
٢٠٦	نهاية العزلة
٢٠٧	الاستعمار فى المغرب - الخطوات نـ
٢٠٨	الحال فى مراكش أمذاك
٢٠٩	الاحتلال
٢١٠	المغرب تحت نير الاحتلال
٢١١	الهرب فى مراكش
	حركات المقاومة للاستعمار :
٢١٤	المقاومة العسكرية : عهد الكريم الخطاى فى الريف
٢١٩	حركات المقاومة فى الأطلس - المقاومة السياسية : الأحزاب
٢٢٢	دور السلطان محمد بن يوسف
٢٢٥	النضال من الخارج - نتائج النضال الطويـ
٢٢٦	المغرب بعد الاستقلال :
٢٢٦	القواعد العسكرية الأجنبية
٢٢٨	موريتانيا
٢٣٠	طنجة
٢٣٢	الجهوب الاسبانية
٢٣٦	المشكلة فى إطار جديد - مشكلة البوليساريو (زعماء المنطقة)
٢٣٩	الشئون الداخلية بعد الاستقلال
	١٠-١
٢٤٥	مقدمة - تسمية الجزائر
٢٤٦	الدولة الرسمية
٢٤٧	الفاطميون وآل زيوى
٢٤٨	بنو حماد
٢٥٠	الرايطون والموحدون

٢٥٠	دولة بنى زيان
٢٥٣	الجزائر فى عهد اضطراب - العثمانيون بالجزائر
	الاحتلال الفرنسى للجزائر :
٢٥٩	قبيل الاحتلال
٢٦٣	فرنسا فى الجزائر - قرّنة أرض الجزائر
٢٦٤	فرنسة السكان
٢٦٧	محاوية اللغة العربية والاسلام
٢٧٠	الابادة والتشريد
٢٧٢	الاستيلاء على مصادر الثروة
٢٧٣	حرمان الجزائريين من العلم
٢٧٤	المرأة الجزائرية
	حركات المقاومة :
٢٨١	ثورة الأمير عبد القادر الجزائرى
٢٨٢	ثورة محمد المقرانى
٢٨٤	قفزة فى المطالب
٢٨٦	الثورة الكبرى
٢٨٩	العرب فى المعركة
٢٩١	المعركة
٢٩٤	المرأة الجزائرية فى حرب التحرير
٢٩٩	المفاوضات وأسسها ونتائجها
٣٠١	استقلال الجزائر - صراع مع المستوطنين
٣٠٣	الجزائر بعد الاستقلال :
٣٠٥	الجزائر المستقلة والوحدة العربية
٣٠٦	الاشتراكية فى الجزائر
٣٠٨	دستور الجزائر - مشكلات الحدود بين المغرب والجزائر
٣١٠	حركة يونيو سنة ١٩٦٥ وعزل ابن بيللا - العهد الجديد ومنجزاته
٣١١	وفاة بومدين وانتخاب الشاذلى بن جديد رئيسا للدولة
٣١١	من الشاذلى بن جديد إلى بوضياف
٣١٢	اغتيال بوضياف وتعيين على كافي

تونس

٣١٥	مقدمة عن حدود تونس
٣١٦	الأغالبة
٣١٧	جهود الأغالبة فى الداخل وفتوحاتهم فى جزر البحر المتوسط
٣١٨	صقلية و جزر أخرى - المسلمون فى جنوب أوروبا

الفاطميون فى شمال افريقية

٣٢٢	نسب الفاطميين
٣٢٥	الدعوة الفاطمية ووسائل نجاحها

٣٢٨	الفاطميون في إفريقية - زحف الفاطميين إلى مصر
٣٣١	المعز لدين الله يتجه إلى مصر
٣٣٢	إفريقية بعد انتقال المعز لمصر
٣٣٣	آل زيري
٣٣٥	الموحدون - بنو حفص
٣٤١	الأتراك العثمانيون بتونس
٣٤٥	الاحتلال الفرنسي لتونس ومقاومته - قهيل الاحتلال
٣٤٦	عملية الاحتلال
٣٤٧	فرنسا في تونس
	حركات التحرير :
٣٥١	ثورة القيروان - جيش التحرير التونسي - المقاومة السياسية
٣٥٥	الهاى محمد المنصف - الميثاق الوطنى
٣٥٦	محاولة التسوية ودور الرئيس بورقيبة
٣٥٦	المستوطنون يناهضون الاستقلال
٣٥٧	دور الدول العربية والأسبوية
٣٥٨	النضال الأخير
	خطوات الاستقلال :
٣٥٩	تصريح يوليو سنة ١٩٤٥ - اتفاقية يونيو (١٩٥٥)
٣٦٠	بين بورقيبة وصالح بن يوسف - الاستقلال التام
٣٦١	تونس بعد الاستقلال
٣٦١	من بورقيبة إلى زين العابدين بن على
٣٦٣	تاميم الزايع لتي يملكها الفرنسيون

ليبيا

٣٦٦	تقديم
٣٦٧	طرابلس دبرقة وفزان قبل العثمانيين
٣٦٨	ليبيا في العهد التركى
٣٧٠	عهد الأغالية
٣٧٢	طرابلس تحت سلطان الفاطميين
٣٧٣	ليبيا بين مصر وتونس
٣٧٥	القرنجة في الشمال الزفريقى
٣٧٦	الأيوبيون ثم بنو حفص في إفريقية
٣٧٩	طرابلس بين بنى ثابت وبن مكى وبنى حفص
٣٨٠	الاستعمار الأسباني في طرابلس
٣٨١	فرسان القديس يوحنا في طرابلس
٣٨٢	الأتراك العثمانيون في الشمال الأفريقى
٣٨٥ - ٣٩٤	العثمانيون وأسرة القرملى
٣٩٤	أحوال ليبيا السياسية والاقتصادية والاجتماعية آنذاك

٣٩٦	الاحتلال الإيطالى لليبيا
٤٠١	فطائع الإيطاليين فى ليبيا
٤٠٤	كفاح الليبيين للاستقلال
٤٠٦	معركة القرضابية ورمضان السويحلى
٤١١	صراع عمر المختار ونهايته الشرفية
٤١٥	الادارة الانجليزية الفرنسية بعد الحرب العالمية الثانية
٤١٧	اعلان الاستقلال
٤٢٠	نهاية الملكية وقيام ثورة الفاتح
٤٢٢	ليبيا فى المجال الدولى وشطحات الشوار
٤٢٩	أزمات ومواقف تشير الغرب والمجتمع
٤٣١	انحرافات السياسة الليبية
٤٣٣	السنوسية

فهرست الخرائط والصور واللوحات

٥٠	خريطة أسبانيا الإسلامية
١٣٨	أحد أبراب مدينة طليطة
١٤٠	جامع قرطبة
١٤٧	عقد فى قصر الجعفرية
١٤٩	رده فى يهو السباع بفرنناطة
١٦١	مخطط الدول التى حكمت الشمال الأفريقى من الفتح الاسلامى
٢١٥	الإمير محمد الحظايبى
٢٢٣	السلطان محمد بن يوسف
٢٣٣	موريتانيا والجنوب الاسبانى
٢٧٥	المرأة الجزائرية فى الزى الوطنى
٢٨٠	الأمير عبد القادر الجزائرى
٣٠٩	مشكلا الحدود بين المغرب والجزائر
٣٢٠	الفتوحات الإسلامية بالبحر المتوسط وجنوب أوروبا
٤٠٧	البطل رمضان السويحلى
٤١٣	البطل عمر المختار

مقدمة الطبعة الأولى

باسم الله العلى العظيم أقدم هذا الجزء من «موسوعة التاريخ الإسلامى» وإنى أحس بسرور بالغ حين أتقدم به للقراء الأعزاء ولاشك أن إقبالهم العظيم على الأجزاء التى ظهرت من هذه الموسوعة قد دفعنى إلى مواصلة الجهد لأخطو للأمام خطوات أخرى ، ويعلم الله أننى منحت هذه الموسوعة كل وقتى وكل جهدى ، واعتبرت نفسى مرتبطاً بوعده مع القراء الأفاضل ، والله أدعو أن يساعدنى لأوفى هذا العهد ، وأنجز هذا الوعد .

وأنا أشعر بفيض من السعادة مع هذا الجزء قل أن عرفت فى كل الكتب التى كتبتها ، وذلك لإحساسى أنه سيملاً فراغاً كبيراً فى الدراسات التاريخية والإسلامية ، ولما أتوقعه له من نجاح نتيجةً للاعتبارات الآتية :

١- سار هذا الجزء فى دراسة البلاد التى انتظمها منذ مطلع صلتها بالإسلام حتى العهد الحاضر ، ومن الحق أن نقرر أن هذا عمل لم يعمل على هذا النمط مؤرخ من قبل ، وإذا كان هناك مؤرخون أفاضل اشتركوا معى فى موضوعات الجزء الأول (صدر الإسلام) أو الجزء الثانى (الخلافة الأموية) أو الجزء الثالث (الخلافة العباسية) مثلاً فإن أحداً منهم لم يسر بمؤلفه حتى العهد الحاضر ، وطبيعى أن هذا العمل كان شاقاً للغاية ، إذ احتاج إلى مراجع تختلف باختلاف العصور وباختلاف البلدان ، وعندما وصلنا السنين الأخيرة احتاج البحث إلى أحدث المراجع وإلى كثير من الوثائق والصحف والنشرات .

٢- وضع هذا الجزء موضع التنفيذ منهاجنا الذى اتبعناه فى «موسوعة التاريخ الإسلامى» وخلاصة هذا المنهاج أن نتبع الدراسة الزمنية طالما كان العالم الإسلامى وحدة واحدة ، فقد خُصص الجزء الأول من هذه الموسوعة لدراسة صدر الإسلام ، والجزء الثانى للدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية فى عهدها ، والجزء الثالث للخلافة العباسية .

ومن المعروف أن العالم الإسلامى تفكك بعد العصر العباسى الأول ، ومرت به بعد ذلك حركات تجمع وتفكك ، ومن ثم أصبح نهجنا ابتداء من هذا الجزء

« الجزء الرابع » أن نتبع الخط الجغرافي وليس الخط الزمني ، أى أن نتكلم عن قطاع جغرافى من قطاعات العالم الإسلامى مبتدئين من الغرب ومتجهين إلى الشرق ، ونظل مع تاريخ هذا القطاع من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر .

وفى القطاع الجغرافى الذى خُصص له هذا الجزء سندرس الأندلس منذ فتحها المسلمون حتى سقوطها فى أيدي الفرنجة ، ثم نتكلم عن الشمال الإفريقى كله كلاً ما عاما من ناحية التاريخ والحضارة ، وبعد ذلك نفصل القول فى تاريخ كل دولة من دوله مبتدئين بالمغرب فننتحدث عن المغرب من هذه الموسوعة من الفتح الإسلامى حتى العهد الحاضر ، ثم ننتقل كذلك إلى الجزائر فتونس فليبيا ، وقد خصص الجزء الخامس للقطاع المجاور (أى مصر سوريا) ، وهكذا حتى وصلنا فى الجزء الثامن إلى إندونيسيا فى أقصى الشرق ، والحمد لله .

٣- حقق هذا الجزء هدفاً كان غير واضح فى أذهان كثير من الباحثين ، ذلك هو الإطار الزمني لما يسمى « التاريخ الإسلامى » ، فقد كانت هناك اتجاهات خاطئة تقف بالتاريخ الإسلامى عند سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، ونحسب أن نقولها بقوة إن التاريخ الإسلامى يشمل تاريخ الدول الإسلامية منذ دخلها الإسلام حتى العهد الحاضر ما دام الإسلام ديناً لها ، فما يسمى التاريخ الحديث أو المعاصر لمصر وسوريا والسودان إنما هو جزء من التاريخ الإسلامى وعلى هذا يلزم أن يزود الباحث فى التاريخ الإسلامى بالمناهج الحديثة للبحث فى التاريخ الحديث ، بالإضافة إلى تعرفه على المنهج الذى لا بد منه للباحث فى التاريخ الوسيط ، وقد قلنا فى تحديد نطاق التاريخ الإسلامى إنه يشمل تاريخ الدول الإسلامية منذ دخلها الإسلام حتى العهد الحاضر مادام الإسلام ديناً لها لنقرر مع الأسف أن التاريخ الإسلامى توقف أحياناً فى بعض الأقطار لتوقف الإسلام بها ، كما حدث فى الأندلس وفى قطعة من فلسطين نرجو أن يعود لها سريعاً ضوء الإسلام والتاريخ الإسلامى .

* * *

وقد عنيثُ فى هذا الجزء بالموضوعات الحضارية المتصلة بتاريخ هذه المنطقة ،

وعقدت لها دراسات مستقلة ، وذلك كحضارة المسلمين بالأندلس وكمشكلة الجنس واللغة فى الشمال الإفريقى وكالسنوسية ، وغير هذه من الموضوعات .

وأرى لزماً على أن أتقدم بموفور الشكر للمستشارين الثقافيين بعدد من السفارات العربية بالقاهرة ، الذين تفضلوا بإمدادى بكثير من الوثائق التى كانت المعين الوحيد فى تصوير الحلقات الحديثة من تاريخ هذه الدول .

والله أرجو أن يحقق النفع بهذا الكتاب ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم .

المعادى فى الخامس من سبتمبر سنة ١٩٦٣

دكتور أحمد شلبى

مقدمة الطبعة العاشرة

صدرت الطبعات السابقة من هذا الجزء ، فأقبل عليها القراء إقبالاً أشكر الله عليه ، وأحمد له للقراء الأفاضل الذين شجعوا « موسوعة التاريخ الإسلامى » واستقبلوا كل أجزائها بترحاب وشوق ، ومثل هذا الإقبال يدفع المؤلف إلى مزيد من الجهد والإجادة ، ويسرنى اليوم أن أقدم الطبعة العاشرة وفيها تعديلات ذات بال تشمل ناحيتين مهمتين :

الناحية الأولى : تتصل بتاريخ الأندلس ، فقد زدت فى دراسته عمقاً وبحثاً وإسهاباً من طبعة إلى طبعة ، وفى الطبعة العاشرة التى أقدمها اليوم يسرنى أن أضيف إضافات واسعة عن تاريخ الأندلس ، فقد أتيج لى زيارتها عدة مرات إحداها فى سبتمبر سنة ١٩٧٤ عضواً فى الوفد الذى مثل مصر فى المؤتمر الإسلامى المسيحى الذى عقد فى مدينة قرطبة ، وفى خلال هذه الزيارة استطعت أن أحصل على معلومات شديدة الأهمية تضيف الكثير للتاريخ الإسلامى بهذه البلاد كما كتبتُ بحثين طويلين أحدهما عن « صقر قريش » ورحلته من الشام إلى الأندلس وجهوده وجهود مولا بدر فى تأسيس السلطة الأموية بالأندلس .

والبحث الثانى عن الخليفة عبد الرحمن الناصر ومواهبه والسفارات التى دارت بينه وبين ملوك أوربا ، وقد أضفتُ هذين البحثين لهذه الطبعة العاشرة .

الناحية الثانية : متابعة الأحداث بدول المغرب العربى ليكون الكتاب مشتملاً على المعالم المهمة لتاريخ هذه المنطقة حتى يوم صدور هذه الطبعة وفى هذه الطبعة دراسة عن ماجدٍ من مشكلات حول بلاد المغرب ،علاقاتها بأسبانيا من جهة ومناطق الصحراء من جهة أخرى ، وفيها دراسة عن الأحداث التى جرت بالجزائر من أواخر عهد الرئيس الشاذلى بن جديد حتى عهد الرئيس على كافي ، وانتقال السلطة فى تونس من بورقيبة إلى زين العابدين بن على ، وفيها عرض للأحداث التى جرت حول ليبيا وعلاقتها بدول الغرب .

والله ولى التوفيق ...

المعادى فى الرابع من ديسمبر سنة ١٩٩٥

المؤلف

تفكك الدولة الإسلامية فى القرن الهجرى الثانى

عرض سريع :

ظلّ العالم الإسلامى وحدة واحدة طيلة عهد الخلفاء الراشدين وعهد الدولة الأموية ، وكان الخليفة فى المدينة أو دمشق مسئولاً عن جميع أرجاء هذا العالم ، يدبّر أمره ويعين له الولاة ؛ ويسقط الدولة الأموية بدأ التفكك فى العالم الإسلامى ، فلم تخضع للعباسيين كل الأرجاء التى كانت تابعة لبنى أمية ، إذ لم يمتد سلطانهم إلى الأندلس ، بل ظلت بعد سقوط الأمويين فى حالة الاضطراب والصراع الداخلى مدة ست سنوات ، حتى قفز إليها عبد الرحمن الداخل واستقل بها عن بنى العباس الذين غلبوا أجداده فى باقى البقاع وأقصوهم عن السلطان .

وفتحت الأندلس الباب لتمرّد المقاطعات واستقلالها ، وحدثت ظروف مختلفة ساعدت على مزيد من التفكك واستقلال البلدان من حين إلى آخر ، وقمت فى العالم الإسلامى حركات انحلال واسعة ، كما قمت به أحياناً حركات اندماج ^(١) ؛ وسنحاول أن نلم بهذه الحركات فى هذا الجزء والأجزاء التى تليه .

وتاريخ حقبة الانحلال صعب للغاية ، لغموض بعض فتراتهما ، ولطول هذه الحقبة وكثرة التعقيد فى تاريخها ، وسنسير فى دراستها تبعاً للمنهج الجغرافى التاريخى الذى شرحناه فى المقدمة ، وسنقف عند كل دولة لها شأن فى نشر الإسلام ، أو أثر فى الحضارة الإسلامية لنمنحها دراسة وافية وبياناً شافياً ، أما الدول غير ذات الخطر فى التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية فلن تطول معها وقفتنا .

والله المستول أن يسدد خطانا ويلهمنا التوفيق .

(١) كالأذى تم على أيدى البرهبيين والسلافة فى مطلع عهد هؤلاء وأولئك .

الأندلس

ملحمة :

عاش المسلمون بالأندلس حوالي ثمانية قرون ، كانت الأندلس خلال فترة طويلة منها قبلة العلوم ومصدر الأزدهار والتقدم في شتى الميادين ، وقد تسبب عن ذلك أن جذبت هذه البلاد كثيرين من علماء الشرق ، وأن نشأ بها كثيرون من العلماء الأفاضل ، وكانت نتيجة ذلك أن دَوَّنَ تاريخ الأندلس وتاريخ الفكر الإسلامي بالأندلس في مجموعة خصبة من المراجع ، في قمتها ما دونه المقري (١) وابن خلدون (٢) وابن القوطية (٣) والضبي (٤) وابن بسام (٥) وصاحب أخبار مجموعة (٦) والسلوي (٧) وابن عذارى (٨) والمراكشي (٩) .

وغربت شمس الإسلام بالأندلس فهزُّ هذا الحادث نفوس المسلمين ، وأثار أحزانهم وآلامهم ، ولم يجدوا من وسيلة - علي مر الزمن - إلا الحديث عن الأندلس : تاريخها ، وحضارة الإسلام فيها ، وظهرت نتيجة لذلك مؤلفات عدة كتبها الباحثون المسلمون ، شملت مختلف النواحي عن الأندلس وحضارتها ، ولا تزال المؤلفات عن ذلك الموضوع تظهر حتى الآن ، والأندلس قطعة من أوروبا ، فلا عجب أن يهتم بتاريخها المؤرخون الغربيون فيما دونه من أبحاث ودراسات ، وكثير منهم أنصفوا الحكم الإسلامي ، واعترفوا بأفضاله علي التقدم الأوربي ، وسجلوا أن الأزدهار العلمي بالأندلس كان من أهم أسباب النهضة الأوربية .

وقد تركت لنا هذه العناية بجوانبها المختلفة مجموعة ممتازة من المؤلفات ،

(١) نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب .

(٢) العبر وديوان المبتدأ والخير .

(٣) تاريخ افتتاح الأندلس .

(٤) بغية الملتمس في تاريخ الأندلس .

(٥) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة .

(٦) أخبار مجموعة في فتح الأندلس (مجهول المؤلف) .

(٧) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى .

(٨) البيان المغرب في أخبار المغرب .

(٩) المعجب في تلخيص أخبار المغرب .

شملت مختلف النواحي السياسية والعلمية والعمرانية والأدبية للفردوس المفقود.

ومن أجل هذا يعتبر تاريخ الأندلس أكثر وضوحاً من تاريخ كثير من الدول الإسلامية ، وهو في الوقت نفسه يجعل الموضوع خصباً يمكن أن تكتب فيه مجلدات ضخمة تُخصص له ، ونحن هنا سندون خلاصة هذا التاريخ ، إذ لا يتسع كتابنا هذا للتفاصيل الدقيقة عن كل الأقطار الإسلامية ، ولكننا مع ميلنا ألي الإيجاز لن ندع حادثاً ذا بال دون أن نسجله ونعلق عليه .

* * *

وقد تحدثنا في الجزء الثاني من هذه الموسوعة عن فتح الأندلس ^(١) في عهد الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي ، وأصبحت الأندلس بعد فتحها جزءاً من إمارة إفريقية ، إذ أن أمراء إفريقية هم الذين فتحوها ، فاعتبرت لذلك امتداداً لولايتهم ، غير أن الأندلس أخذت شيئاً فشيئاً تكون شخصيتها وتأخذ استقلالها الإداري ، فاستقلت عن إفريقية وأصبح لها والي خاص يتبع الحكومة المركزية بدمشق ، بل خطت خطوة أخرى فأخذ أهلها يعينون هذا والي وليس للخليفة إلا أن يوافق عليه ^(٢) ، وظلت كذلك حتي سقطت الدولة الأموية بدمشق ، فاستقلت الأندلس استقلالاً تاماً عن المشرق .

الأندلس في رحاب الإسلام :

وقبل أن نسير في دراستنا عن الأندلس الإسلامية يجدر بنا أن نتكلم عن التغيير السريع الذي حدث للمجتمع الأسباني بعد أن أصبح المسلمون أصحاب السلطان فيه ، وطبيعي أننا لا نقصد هنا أن نتكلم عن الحضارة الإسلامية بالأندلس ، فلهذا الموضوع مكان آخر ، وإنما نقصد التغيير السريع الذي أحدثه المسلمون بالمجتمع الأسباني ليساير الفكر الإسلامي والاتجاه العقائدي للفتاحين .

ولعل Stanley Lane-Poole خير من يحدثنا عن هذا الموضوع ، فمنه نقتبس

(١) انظر موسوعة التاريخ الإسلامي ج ٢ ص ١١٩ - ١٣١ من الطبعة العاشرة .

(٢) انظر المجلد في تاريخ الأندلس للأستاذ عبد الحميد العبادي ص ٦٢ .

بضع فقرات عن العلاقة بين الفاتحين والسكان الأصليين ، وعن التغيير الذي أحدثه المسلمون بالمجتمع الأسباني إثر دخولهم فيه ، قال (١) :

- يجب ألا يخطر بهال أحد أن العرب عاثوا في البلاد أو خربوها بصنوف الإرهاق والظلم كما فعل المتوحشون قبلهم ، فإن الأندلس لم تحكم في عهد من عهودها بسماحة وعدل وحكمة كما حكمت في عهد العرب الفاتحين .

- ولم تكن ميول الأسبان إلى المسيحية عميقة ، فقد فرضها قسطنطين عليهم فرضاً ، وكان كثيرون منهم يحنون للوثنية ، علي أنهم في الواقع لم يكونوا في حاجة إلى دين جديد ، بل كانوا في حاجة إلى العيش في أمن ورغد ، وقد منحهم المسلمون هذين الأملين .

- وكان للأسبان أن يحتفظوا بشرائعهم وقضاتهم وعين لهم حكام من أنفسهم ، يديرون المقاطعات ، ويجمعون الضرائب ، ويفصلون فيما شجر بينهم من خلاف ، وكان التسامح الديني سائداً ، فلم يدع للأسبان سبباً للشكري .

- ودفع النصاري واليهود الجزية وهي مقدار ضئيل يتدرج حسب منزلة المطالبين بها فهي تبدأ من اثني عشر درهماً إلى ثمانية وأربعين ، وقد قسمت اثني عشر قسطاً يجبي قسط كل شهر للتخفيف عن الرعية ، أما ضريبة الأراضي فقد كانت تتفاوت حسب جودة الأرض ، وقد فرضت بعدل ومساواة علي النصاري واليهود والمسلمين جميعاً ولم تمتد يد المسلمين إلى أملاك الأهلين التي كانت لهم قبل الفتح فيما عدا الإقطاعات ، وظفر السكان الأصليون بحق لم يكن لهم أيام القوط وهو نقل ملكيتهم لسواهم عندما يشاءون .

- أما فرح العبيد بما طرأ علي نظام الحكم من التغيير فقد كان عظيماً حقاً بعد أن لاقوا من ضروب العسف والقسوة من القوط والرومان ما تقشعر له الأبدان ، فتركهم المسلمون أحراراً يزرعون الأرض كما يشاءون علي أن يقدموا للدولة نصيباً من الغلة ، أما عبيد المسيحيين فقد أحراراً يتخلصون من الرق عن طريق إعلان إسلامهم .

(١) العرب في أسبانيا ص ٣٨ ، وما بعدها .

- وكان الفتح العربي في جملته نعمة ورخاء علي الأندلسيين المحكومين ، لأنه أبطل ما كان يملكه كبار النبلاء ورجال الكنيسة من الضياع الواسعة وحولها ملكيات صغيرة ، ثم إن هذا الفتح رفع عبء الضرائب عن الطبقة الوسطى ، واكتفى منهم بالجزية (علي غير المسلمين) ، ثم حث علي تحرير العبيد والرفق بهم .

- وكان من أثر هذه المعاملة وهذا التسامح أن رضي المسيحيون بالنظام الجديد ، واعترفوا في صراحة أنهم يؤثرون حكم العرب علي حكم الإفرنج أو القوط حتي أن القساوسة أنفسهم لم يكونوا شديدي التألم لحكم العرب كما يدل علي ذلك التاريخ المنسوب إلى (ايزيدور الباجي) الراهب الصالح .

العوامل التي ساعدت علي تأسيس الدولة الأموية بالأندلس :

امتازت الأندلس من بين الأقطار التي فتحها المسلمون بعوامل خاصة كانت مشار الاضطرابات والنزاعات من حين إلي حين ، وقد ظلت هذه العوامل تشور حيناً وتكبح حيناً ، كانت تشور فتسبب التفكك والانحلال ، وتكبح فتعود الأندلس إلي الوحدة والقوة ، ولكنها في النهاية اشتدت وأدت إلي الكارثة الأليمة وهي غروب الإسلام من الأندلس . وسنشرح فيما يلي بإيجاز عوامل الانحلال لنبين كيف مهدت لإمارة الأمويين بالأندلس ، ثم استمرت هذه العوامل حتي استولى الفرنجة علي الأندلس كلها .

وأول ما نذكره أن المسلمين لم يكملوا فتح الأندلس ، وأغرتهم المساحة الشاسعة التي دانت لهم بما فيها من خصوبة ودفء ، فتركوا الشمال الغربي من شبه الجزيرة للمسيحيين ، وهذا الجزء هو المسمي (جليقية) Glicai وهو جزء قاحل وعرجلي شديد البرودة ؛ وعلي هذا عاش المسلمون مع أعدائهم دون أن يحاولوا محاولة جادة أن يقضوا عليهم ، وقد أوي القوط الفارون من الزحف إلي هذه المنطقة ؛ ويبدو أن المسلمون لم يهتموا بها لانعزالها وجفافها ، ولأنهم لم يهتموا بالقوط الفارين لضعف شأنهم عند الفتح ، ولكن هذه المنطقة أصبحت مركزاً تربوي فيه دهاة المسيحيين وأبطالهم ، ومنها خرج المحاربون الذين استطاعوا أن يستردوا أسبانيا فيما بعد .

وبالإضافة إلى هذا فإن الأوروبيين خافوا الزحف الإسلامى ، فوقفوا يؤيدون مسيحيى أسبانيا ويدونهم بالعتاد والرجال للدفاع عن المسيحية أو لحراسة أوروبا من المسلمين الغزاة ، كما فعلوا بعد ذلك مع الأتراك عندما اجتاحت أوروبا من الشرق .

والمسلمون الذين دخلوا أسبانيا جاءوا من الشمال الأفريقى ، ويتكوّنون من عنصرين رئيسين هم العرب والبربر ، وقد بدأ الخلاف بين العرب والبربر من مطلع عهد المسلمين بالأندلس ولم يتوقف قط ، ثم إن العرب ينيّون أو مضربون ، وهم فى خلاف لا ينقطع حول الإمارة والمال والسلطان ، وقد أخذوا بذور هذا الخلاف معهم من الجزيرة العربية ، والبربر تجمعهم هذه الكلمة (البربر) ولكنهم فى الواقع قبائل ، يميلون دائماً للحياة القبلية ولا يطول ولاؤهم للسلطة المركزية البعيدة عنهم .

وهناك أخيراً المسلمون من الأسيان . وهؤلاء اعتنقوا الدين الإسلامى ولكنهم لم يندمجوا اندماجاً تاماً مع العرب ؛ وحاولوا من حين لآخر أن يكوّنوا لهم جبهة خاصة (١) .

وهناك كذلك الصقالبة ، والصقالبة فى الأصل سكان البلاد المتاخمة لبحر الخزر بين القسطنطينية وبلاد البلغار ، ثم اكتسب اللفظ مدلولاً خاصاً فى أسبانيا الإسلامية ، فصار يطلق على أسرى الحرب الذين كانوا يقعون فى أيدي الجرمان ويبيعون للمسلمين فى شبه الجزيرة ... وكانوا يندمجون فى سلك الجنديّة ، أو كانوا يوجهون للخدمة فى القصور (٢) ، وبعض هؤلاء دخلوا الإسلام ، وبعضهم ظل على دينه ولكنهم على كل حال كانوا عنصر قلق واضطراب ، وظلوا متميزين دون أن يندمجوا فى أية طائفة أخرى .

هذه العوامل كانت تشور من حين لآخر ، وكانت إحدى ثوراتها مشتعلة عندما أعلن بنو العباس دولتهم ، ولكن بنى العباس كانوا فى شغل عن إخماد هذه

(١) عن هذه الخلافات اقرأ ابن خلدون : المعبر ، والمقرى وابن عذارى فى صفحات متعددة وقرأ

كذلك « أخبار مجموعة » ص ٥٧ بعدها .

(٢) دكتور لطفى عبد الهديع : إسلام فى أسبانيا ص ٣٦ .

الفتنة ، إذ قابلتهم عقب قيام دولتهم مشكلات جمة صرقتهم عن الأندلس ، فثقلت الأندلس قمع في الاضطراب والفن مما هباً للفتى المضامر عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك المعروف بعبد الرحمن الداخل أن يدخل الأندلس ؛ وأن يقيم بها ملك بنى أمية ، أو قل أن يمنح الحياة والاستمرار لملك بن أمية في هذه البلاد بعد أن توقف سلطانهم في غير الأندلس من بقاع . وكانت الأندلس بذلك أول مقاطعة انشقت على الخلافة العباسية .

الحكام الأمويون بالأندلس :

عندما استقر أمر الأندلس لعبد الرحمن الداخل بعد صراع طويل كونه بها ملكاً لبني أمية توارثه أبناؤه وأحفاده ، واستمر حتى سنة ٤٢٢ هـ ومن الطبيعي أن ملك بنى أمية بالأندلس مرّ خلال هذه الفترة بعصور قوة وعصور ضعف ، وفيما يلي أسماء الحكام من بنى أمية بالأندلس ، وتواريخ بدء سلطانهم ، مع إشارات سريعة لأهم الأحداث المتصلة بهم ، ثم يتلو ذلك حديث عن الأندلس في خلال حكم كل منهم :

عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) ١٣٨ هـ

هشام (الأول) بن عبد الرحمن ١٧٢ هـ

الحكم (الأول = الرضى) بن هشام ١٨٠ هـ

عبد الرحمن (الثانى = الأوسط) بن الحكم ٢٠٦ هـ

ظهرت بعض الدويلات شبه المستقلة إبان هذه الفترة كدولة بنى حجاج بإشبيلية ذى النون بالولايات الغربية ، وقد أعادها عبد الرحمن الثالث الى الطاعة .	{	٢٣٨ هـ	محمد بن عبد الرحمن
		٢٧٣ هـ	المنذر بن محمد
		٢٧٥ هـ	عبد الله بن محمد

عبد الرحمن (الثالث = الناصر) بن محمد أزهى عصور الأمويين بالأندلس

بن عبد الله (حفيد عبد الله بن محمد)

الحكم (الثانى = المستنصر) بن عبد الرحمن ٣٦٠ هـ

هشام (الثانى بن الحكم) ٣٦٦ - ٣٩٩ هـ

وفى عهد هشام هذا ظهرت « الدولة العامرية » ، وعُزل هشام مع نهاية هذه الدولة ، وأصبح خلفاء بنى أمية دُمى تحركها القوى المختلفة حتى سقطت الخلافة الأموية سنة ٤٢٢ هـ وبدأ عهد ملوك الطوائف كما سيظهر من الدراسة التالية .

الأندلسى فى عهد الحكام الأمويين

نظرة عامة :

استعملنا كلمة حكام لتشمل الأمراء قبل إعلان الخلافة وتشمل الخلفاء بعد إعلانها ، وقد شغل عبد الرحمن الأول (الداخل) وابنه هشام وحفيده الحكم الإمارة الأموية بالأندلس خلال أكثر القرن الهجرى الثانى (١٣٨ - ٢٠٦) وشغل عبد الرحمن الأوسط وابنه محمد وحفيده المنذر وعبد الله الإمارة الأموية بالأندلس خلال القرن الهجرى الثالث (٢٠٦ - ٣٠٠) ، أما عبد الرحمن الناصر (الثالث) وابنه الحكم وحفيده هشام فقد شغلوا هذا المنصب خلال القرن الرابع الهجرى (٣٠٠ - ٣٩٩) .

وقد جدَّ عبد الرحمن الداخل ليبدأ الإمارة الأموية ويدعمها ، وكذلك سار ابنه وحفيده ، ولذلك يعتبر القرن الثانى عهد دعم الإمارة ، أما القرن الثالث فقد انتهى الأمر فيه إلى الانحلال والتفكك من الناحية السياسية وبخاصة بعد عبد الرحمن الأوسط ، أما من الناحية الحضارية والفكرية فقد خطت الأندلس خطوات واسعة للأمام بسبب جهود عبد الرحمن الأوسط سالف الذكر .

ثم يجىء القرن الرابع الذى يعتبر أزهى عصور الحكم الإسلامى بالأندلس من الناحية السياسية والحضارية ، وكان السلطان فيه لعبد الرحمن الناصر ، ثم لابنه الحكم (المستنصر) من بعده ، ثم لهشام بن الحكم الذى استبد المنصور ابن أبى عامر وابناه بالسلطة دونه ، ولكن مع نجاح كبير .

الفن الداخلية والحروب الخارجية :

تحدثنا آنفا عن الاضطرابات التي سادت الأندلس عقب فتحها وساعدت على قيام الإمارة الأموية ، وقد استمرت هذه الاضطرابات فكانت خلف كل هزيمة مُنى بها المسلمون ، ولذا نرى أن نعود لها هنا بمزيد من الإيضاح مذكّرين القارئ أن هذه الفتن صحبت تاريخ المسلمين بالأندلس من أوله إلى نهايته ، فالكلام عنها هنا يغنى عن تكرار الحديث عنها فى كل عصر من عصور الإسلام بالأندلس .

لم يكن هناك ارتباط قوى بين العناصر الإسلامية التي وفدت إلى الأندلس ؛ فالعرب كانوا في جانب والبربر في جانب ، والعرب ليسوا وحدة واحدة وإنما هم شيعٌ وأحزاب وكذلك كان البربر ، ثم نبعت عناصر إسلامية فى الأندلس من الصقلية ومن السكان الأصليين ، ولكل من هؤلاء وأولئك طابع واتجاهات ، ويمكننا أن نقول بوجه مجمل يحتمل كثيراً من التفاصيل لو اتسع الوقت والفراغ : إن الصخب والاضطرابات والحروب بين هذه العناصر بعضها والبعض الآخر بدأ مبكراً واستمر استمراراً يكاد يكون متصلاً ، ولم يهدأ إلا تحت ضغط القوة ، وكان يهدأ ليبدأ ثورة عارمة عندما تتوانى أو تضعف هذه القوة .

وقد نقل المقرئ عن مؤرخ أندلسي اسمه (الحجاري) نسبة إلى وادى الحجارة بالأندلس أن شارل مارتل قال لقومه من الفرنجة حين شكّوا إليه وقوف العرب على أبواب بلادهم : انتظروا ، لا تواجهوهم فى إقبال أمرهم ، فإن لهم إرادة قوية ونية صادقة ، وحصانة ضد الهزائم ، فلتصبروا حتى تهدأ أمورهم ويأخذوا فى التنافس على الرياسة والملك والمال ، وعند ذلك تتفرق كلمتهم ويضعف أمرهم فتتمكّنون منهم بأقل مجهود ، ويعقب المقرئ على ذلك بقوله : فكان والله ذلك ^(١) .

وقد بدأت هذه الحركات منذ عهد عبد العزيز بن موسى بن نصير الذى قُتل فى شوارع إشبيلية بتدبير بعض أعدائه ، واستمرت هذه الحركات فأكلت كثيراً

(١) انظر : المجمل فى تاريخ الأندلس : للاستاذ العبادى ص ٦٤ .

(م ٣ - التاريخ الاسلامى)

من الحكام والولاة وكثيراً من الرجال والنساء ، وقاد هذه الحركات زعماء كثيرون منهم : الصميل بن حاتم من بنى قيس ، وأبو الصباح اليحصبي ، وهشام بن عزرة من البهريين ، ومحمد بن عبدان ، وسعيد بن الحسين الأنصاري ، ومطروح بن سليمان بن يقظان ، وبنو حفص ، وأسرة بنى ذى النون من البهرى وغيرهم كثيرون .

نموذج من الثورات الداخلية :

ونعرض فيما يلى للقارئ نموذجاً من الثورات التى انبثقت من أسرة واحدة هى أسرة فرتون بن موسى ، وفى مدينة واحدة هى سرقسطة :

موسى بن موسى بن فرتون كثير الفتن والثورات مات سنة ٢٤٨ هـ

فرتون بن موسى بن موسى ثار فى وجه الإمام محمد وخلعه واشتدت الحروب بينه وبين الإمام حتى مات سنة ٢٦٠ هـ

لب بن موسى بن موسى كثير الثورات ، قتل عرب سرقسطة من قبائل شتى إذ أخرجهم إلى مرج يعرف بمرج العرب فقتلهم به ، مات وهو يصطاد سنة ٢٦١ هـ

إسماعيل بن موسى بن موسى ثار فى أيام الإمام محمد بن عبد الرحمن وأيده إخوته ودمر وقتل ، ومات سنة ٢٧٦ هـ

محمد بن لب بن موسى	ثار فى عهد الإمام محمد حتى قتله
لب بن محمد بن موسى	أحد أتباعه الخائفين عليه سنة ٢٨٥ هـ
عبد اله بن محمد بن لب	كثير الثورات قتل سنة ٢٩٤ هـ
مطرف بن محمد بن لب	مات مسموماً سنة ٣٠٣ هـ
	ثائر قتل سنة ٣٠٣ هـ (١)

ذلك نموذج للثورات التى انبثقت فى كل مكان واثتى كان من نتائجها ضياع الأندلس ، ولاشك أن الاختلافات والصراع يضعف بها المنتصر والمهزوم وتعود بالويل على الجميع فى النهاية ،

ولعل هذا الذى يعلمنا فى حاضرتنا ومستقبلنا حتى لا تتكرر المأساة ، وبخاصة أن عدواً صهيونياً يعيش بيننا وينتفع بأخطائنا ويرسم خطته ليسرق أرضنا الطيبة .

الخلاف على ولاية العهد :

وهكذا كانت الثورات داء عميق الغور ، وكان بجانب هذا الداء داء آخر ليس أقل غوراً من الثورات ، ذلك هو الخلاف على ولاية العهد بين أبناء الأمراء ، وقد بدأ هذا الخلاف مبكراً أيضاً ، بدأ عقب وفاة عبد الرحمن الداخل نفسه ، إذ ثار ولداه سليمان وعبد الله فى وجه أخيهما هشام بن عبد الرحمن واستمر هذا النوع من الثورات ينخر فى جسم الأمة طيلة عهد المسلمين بالأندلس تقريباً حتى شهدناه فى أيامها الأخيرة بعد وفاة أبى الحسن على بن سعد بين أخيه وابنه ، وكان فى اختلافهما نهاية الحكم الإسلامى بالأندلس .

طلب العون من الأعداء :

وحقيقة مخجلة نردها هنا قبل أن نتجاوز هذا الداء إلى سواء تلك هى أن فرق المسلمين المتحاربة طالما اتصلت بأعدائها المسيحيين يطلبون منهم العون

والنصرة ضد أبناء دينهم ، وكان المسيحيون يستجيبون بطبيعة الحال فيفتنون بعض المسلمين بالبعض ويقفون موقف المتفرج الذى يرى فى انتصار أى من المتصارعين انتصارا له .

ثورات المسيحيين :

وداء ثالث منيت به الأندلس وهو مسيحيو الأندلس الذين فروا إلى جليقية أو الذين أقاموا فى المدن المختلفة مغلوبين على أمرهم ، ولم يدخلوا الإسلام واجدين فى الفكر الإسلامى ما يتيح لهم البقاء على دينهم لو دفعوا الجزية ، وسرعان ، ما وجد هؤلاء وأولئك الفرصة للشورة والثأر لهزائمهم من المسلمين ، وكانت الفرصة تتاج للمسيحيين بسبب الثورات الكثيرة التى قام بها المسلمون والتى قللت من شأن المسلمين وهذت قواهم ، وشغلتهم عن المسيحيين العدو الحقيقى ، وفى هذا الجو جمع هؤلاء المسيحيون جموعهم ، وبدعوا يضربون ضرباتهم التى لم تُضِغْ فرصة دون أن تنتهزها ، وكانت ضرباتهم مثابرة عنيدة ، وشجعهم عليها ما حققوه من نجاح متصل ، وكان المسيحيون بالمدن الإسلامية يهبون ثائرين ، فإذا اتجهت القوة الإسلامية لإخماد ثورتهم زحف مسيحيو جليقية منتهزين فرصة انشغال الجيش بالحركة الداخلية :

أوروبا كلها تصارع المسلمين :

وداء رابع هو دول أوروبا التى أحست منذ عهد الفتح الإسلامى للأندلس أن أسبانيا ليست غاية وإنما هى طريق إلى أوروبا كلها ، ولذلك وقفت المسيحية تدافع عن نفسها بإصرار ، فهاجمت المسلمين كلما أتاحت لها الفرصة ، وعقدت المسيحية الأوروبية العهود والمواثيق والصلات مع خلفاء بغداد نكاية فى إمارة الأندلس الإسلامية التى كانت قلدى فى عيون هؤلاء وأولئك ^(١) .

* * * *

(١) تاريخ الأندلس ص ٧٤ .

وبعد : هذا شعاع يبين الخط الذي سارت فيه أحداث الأندلس ، ولو أردنا التفصيل فى هذا الموضوع لوجدنا مادة واسعة ، ولكنها - فيما نرى - ستكون تكراراً لأحداث متشابهة لا يختلف فيها إلا الأشخاص ، أما الدوافع فهي هي لم تتغير : إنها العنصرية والقبلية والأناية فى الجانب الإسلامى يقابلها انتهاز الفرص من الجانب المسيحى .

وقد أحسن ابن الشباط حين يقول : إن المسلمين بالأندلس لم يقصدهم عدو إلا هزم وانصرف مغلوباً ، وإنما خذلهم التحاسد ، وفرط الخلاف ، والتباغض فيما بينهم ^(١) .

(١) تاريخ الأندلس ص ٧٤

تعريف بالحكام الأمويين وبفترات حكمهم

القرن الهجرى الثانى

صقر قریش : عهد الرحمن الداخل :

إن الحوار الذى دار فى مجلس الخليفة أبى جعفر المنصور عن عهد الرحمن الداخل يعتبر - فى تقديرى - مدخلا مهما يصوّر لنا حياة الرجل الذى عقدنا عنه هذه الدراسة ، فلقد روى أن المنصور فى ليلة من ليالى سمره سأل سُمارة : -

من هو صقر قریش ؟

قال أحد السمار : إنه أنت يا أمير المؤمنين ، سكّنت الزلازل ، وأبدت الأعداء ، وحسنت الداء .

قال المنصور : ليس هذا بشئ فقد حَقَّقْتُ ما حقّقناه بسند ضخم من الخراسانية والهاشمية والعباسية ، وجموع الكوفة والبصرة .

قال آخر : أنه معاوية يا أمير المؤمنين ، فقد انتصر بباطله على أصحاب الحق ، ولعب بالسيف والخيلة حتى هزم أعداءه وحقق لنفسه النصر .

قال المنصور : وهذا أيضا ليس بشئ ، فقد كان مع معاوية أهله الذين هاجروا إلى الشام من الحجاز ، ونهض معاوية بمركب حمّله عليه عمر و عثمان ، وكان معه مال وثراء جمعه من ولاية طالت بدمشق ، وكان جنود أهل الشام لا يعرفون سواه ولا يدينون لغيره ، وقوى معاوية بدهاء عمرو بن العاص وإخلاص المغيرة بن شعبه ، وما كان معاوية لينجح بدون هذه العوامل .

قال ثالث : إذن هو عبد الملك بن مروان الذى انتقل من فقيه بالمدينة إلى قائد بطل واجه قوى متعددة كالزبيريين ، والمختار بن أبى عبيد ، وجموع الخوارج ، واطماع الروم وثورة ولى العهد عمرو بن سعيد الأشدق ، ويروى أن أخبار هزائم جيوش عبد الملك فى تلك الميادين وصلته فى ليلة واحدة فلم يتطرق اليأس إلى قلبه ، ولم يُرَ فى ليلة قبلها أشدّ ضحكا ولا أحسن وجها ولا أبسط لسانا ولا أثبت جنانا من تلك الليلة تجلدا وسياسة ، وواجه كل هذه الأحداث وتغلب عليها

قال المنصور : وهذا أيضا ليس شيئا ، فقد كان عبد الملك فى بلده ، وبين أهله وتحتته مال دمشق ، وعن يمينه وشماله جند الشام ، وهناك قحطانية يتألفها وقيسية يداريها وكان قبل كل شئ ولى عهد أبيه الذى أسهم فى ترطشة الأمور له.

قال الحاضرون : فمن هو إذن صقر قريش يا أمير المؤمنين ؟

قال المنصور : صقر قريش هو عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام الذى عبر البحر وقطع القفر وحيدا ، ودخل بلدا أعجميا منفردا فمصر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودون الدواوين وأقام فى الأندلس ملكا عظيما بعد انقطاع من أسرته بحسن تدبيره وشدة شكيمته .^(١)

نعم ذلك هو صقر قريش الذى عقدنا عنه هذه الدراسات القصيرة . ولنعد للقصة من أولها :

دهاء الأمويين :

من الحق أن نعترف أن فى الأمويين فطنة ودهاء للخروج من الأزمات ، فمنذ قامت الثورات فى وجه عثمان بن عفان التحج الكثيرون من الأمويين إلى الهجرة إلى دمشق حيث المأمن الذى يطمعون بالسلامة عنده ، فقد كان معاوية أميرا للشام وكان واسع الجاه فأحسن استقبالهم وكون بهم قوة واجه بها الأحداث .

وتكرر هذا الوضع عندما شالت كفة الأمويين فى أواخر العهد الأموى بسبب صراع أبى مسلم الخراسانى فى خراسان ، فوجد الأمويون أن مأمنهم يكون فى الهجرة إلى الغرب البعيد ، إلى الأندلس التى فتحوها بجهودهم ، وهناك لن يكونوا فى متناول يد السلطات الهاشمية التى كان انتصارها قد بدأ ، ومن هنا فإن عبد الرحمن بن معاوية فكر عقب سقوط الأمويين فى اللجوء إلى الأندلس حيث تجمع العديد من أسرته .

(١) ابن عهده : العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠١ - ٢٠٢

مقاتل الهاشميين :

ولكن هل كان من الضروري أن يفرَّ عبد الرحمن وغيره من وجه العباسيين ؟

والإجابة أن ذلك كان ضروريا جدا فقد تم انتصار الهاشميين بسيوف الفرس وبقيادة أبي مسلم الخراساني ، ومعنى ذلك أن القيادة الجديدة تكره العرب عموما والأمويين بوجه خاص . ثم إن تاريخ الأمويين يسجل عليهم أنهم قتلوا وقتلوا بالكثيرين من الهاشميين فلهم ينسب مقتل الإمام الحسين رضى الله عنه ومقتل زيد بن علي زين العابدين ومقتل ابنه يحيى ومقتل إبراهيم الإمام وهو أخو السفاح والمنصور ، وقد قُتِلَ مع هؤلاء كثيرون من أهلهم وأتباعهم .

وربما اتجه العباسيون أحيانا إلى العفو عن بعض الأمويين الذين لم ينسب لهم عدوان على الهاشميين ، ولكن هواة الدم من الشعراء كانوا يذكرون العباسيين بضحاياهم ويعدون الأمويين على العديد منهم ، فتشور الرغبة في الثأر وسفك الدماء :

يروى أن سديف الشاعر دخل على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وكان السفاح قد صفح عنه وأكرمه ، فقال سديف :

لا تغرُّك ما ترى من رجال إن تحت الضلوع داء دوبا
جرَّد السيف وارفع العفو حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا

فقال سليمان بن هشام لسديف : قتلتني يا شيخ ودخل السفاح وأخذ سليمان وقتل (١) .

وإذا كان سديف أثار ضغائن العباسيين دون أن يذكر ضحاياهم ، فإن شاعرا آخر دخل على السفاح وعنده بعض آل أبي سفيان وكان أبو العباس السفاح قد عفا عنهم ، لبَّعدهم عن الصراع ، فأنشد الشاعر قصيدة جاء فيها :

كيف بالعفو عنهم وقديما قتلوكم وهتكوا الحرمات

وابن الأثير ٥ : ١٦١

(١) الأغاني ٤ : ٩٤

أبن زيد وأبن يحيى بن زيد يا لها من مصيبة وترا
والإمام الذى أصيب بحران إمام الهدى ورأس التقات
قتلوا آل أحمد لاعفا الذنب عنهم غافرو السيئات

فلما سمع السفاح هذه القصيدة جدد القتل والتنكيل بمن كان قد عفا عنهم من قبل .

ومن هنا يتضح أن فرار عبد الرحمن الداخل كان طبيعيا ، فهو شاب يُخشى أن يقود حركة مضادة للعباسيين ، وتضيق به بلاد الشرق لوقوعها تحت سيطرة المنتصرين ، ولذلك كان لابد لعبد الرحمن من الفرار ، فلنعرف بهذا البطل الذى أثنى عليه أبو جعفر المنصور مع مكانة المنصور وجلال قدره ، ثم لنتتبع خطواته إلى الأندلس :

من هو عبد الرحمن الداخل ؟

هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، فهو سليل الأبطال من الأسرة الأموية ولقبه "الداخل" لأنه اقتحم الصعاب ودخل الأندلس على الرغم من كل المتاعب .

وأبوه معاوية كان أحد الأبطال الأمويين ، وينسب له أنه كان يفرز الصائفة والشاتية ، وقد مات معاوية فى حياة أبيه هشام فمنح هشام مزيدا من العناية لابنى معاوية عبد الرحمن وأخيه الوليد .

وأم عبد الرحمن من البربر من قبيلة « نفزاوة » بطرابلس فى الشمال الإفريقى .

وقد وُكِّد عبد الرحمن فى مكان قريب من « تدمر » وهى مدينة تاريخية نعرف بها فيما يلى :

تدمير :

مدينة قديمة تقع فى الشمال الشرقى لدمشق ، وكانت واحة تقع بين سوريا وبابل شمال الصحراء السورية ، وتعتمد الواحة على ماء الينابيع ، ولها أهمية تاريخية لوقوعها بين حوض الفرات ووادى دمشق ، ويقال إن فى تدمير استقبال النبى سليمان موكب بلقيس ، ويقال كذلك أن بلقيس دُفنت فى تدمير وأن تابوتها اكتشف فى زمن الخليفة الوليد ، وكانت تدمير عاصمة الزبّاء (زنوبيا) ومن آثار تدمير معبد الشمس وقلعة المعنى التى يُنسب بناؤها إلى فخر الدين المعنى ، وكانت تدمير مكانا تاريخيا صحىّ الهواء بنى فيه خلفاء الأمويين قصورا للمتعة والراحة.

وعلى هذا فقد تنفّس عبدُ الرحمن أنفاسه الأولى فى مركز من مراكز الحضارة العربية العظيمة ، وكان مولده سنة ١١٣هـ أى أن قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ قد بدأ وعبد الرحمن على مشارف العشرين من عمره .

عودةً للتعريف بعبد الرحمن :

وامتاز عبد الرحمن بمزايا جسدية وعقلية ، فقد كان شبابه قويا لا يعرف الخوف ولا التردد كما كان شجاعا لا يعرف الضعف ولا التراجع ، وكان قاسيا على أعدائه رفيقا بأتباعه وأصدقائه .

وهذه الصفات التى تراوحت بين القسوة والوفاء كانت طبيعية فى الرجل ، فهو فتى شريد فرّ من القتل عدة مرات ، رأى أهله يُقتلون ، وأمجاد قومه تفتال ، وعائش مجموعة من المشكلات ؛ فسلطان قومه ينهار ، والدولة الجديدة معها سيوف الفرس التى لا تعرف الرحمة بالعرب ، وهو يندفع فى صحراء إفريقيا وقفارها ، ويتجه للأندلس وهى حافلة بالاضطرابات ، فلا غرو أن يكون قاسيا وأن يحاسب بالشبهة ، ثم أن يكون رفيقا بمن آزره وأيده فى محتته .

ونبغ عبد الرحمن فى الثقافة العربية التى أخذ منها قسطا عظيما أمده بالفصاحة والبلاغة وجودة الأداء على إن رحلته من الشام إلى الأندلس فى هذه الظروف الحالكة زادت من بطولته وضاعفت تجاربه وجعلت منه شخصية أسطورية

فريدة .

نبوءة لعبد الرحمن من مسلمة بن عبد الملك :

جاء فى كتاب "أخبار مجموعة" أن مسلمة بن عبد الملك تنبأ لعبد الرحمن الداخل وهو صبي بأن دولة بنى أمية ستحيى على يديه بعد انهيار ، وأن مسلمة رأى ذلك فى رؤيا تكررت ، وكان يذيعها .

ونبوءة أخرى لرجل يهودى عراف :

ويذكر صاحب كتاب أخبار مجموعة أن عبد الرحمن بن حبيب والى إفريقية اشتد فى طلب عبد الرحمن لأن عرافا يهوديا كان يقول : يغلب على الاندلس رجل من أبناء الملوك يقال له عبد الرحمن ، له صغيرتان ، وقد أرسل عبد الرحمن ابن حبيب صغيرتين رجاء أن يكون هو الغالب على الاندلس ، ولكن اليهودى قال له : لست أنت لأنك لست من أبناء الملوك ، فلما عثر عبد الرحمن بن حبيب على عبد الرحمن الداخل ووجد له صغيرتين قال هو هذا سأقتله . فقال اليهودى : إن قتلته فليس هو لأن لم يصل للاندلس ولم يحكمها (أخبار مجموعة ص ٥٦)

رحلة البطل :

سقطت الدولة الأموية عقب موقعة الزاب ، وفر مروان بن محمد الخليفة الأموى الأخير من هذه الموقعة إلى مصر فلاحقه صالح بن على ودارت المعركة الأخيرة بين فصيلة من جند العباسيين وبين مروان وقلول جنده فى قرية "بوصبر" بمركز الواسطى بمحافظة بنى سويف فسقط مروان وموته انتهى ملك بنى أمية وأصبح السلطان للخليفة العباسى الأول أبى العباس السفاح .

واتجه الأمويون عقب ذلك إلى القضاء على الأمويين وأنصارهم ، وكانت سيوف الفرس تواقة للنيل من الأمويين والقضاء على القوة العربية ، وسقط الكثيرون من الأمويين صرعى حتى أولئك الذين نالوا العفو من الخلفاء العباسيين فى أول الأمر كما ذكرنا من قبل أما عبد الرحمن بن معاوية فكان من الشباب الأموى الذى لم يتوقع عفوا ولا صفحا فكان لابد أن يعتمد على نفسه وعلى جهده .

وكان بعض أقارب عبد الرحمن ورفاقه قد اتخذوا طريقهم إلى الأندلس عندما رأوا ميزان قوة الأمويين يشيل ، ولكن عبد الرحمن لم يقبل أن يهرب من المعركة ، وآثر أن يحمل العبء فيها حتى آخر لحظة ، فلما انتهت دولة بني أمية اتجه تفكير عبد الرحمن إلى أن يتجه لأخواله في الشمال الإفريقي ومن هناك يواصل مسيرته إلى الأندلس .

ومن الواضح أن فكرة الرحلة إلى الأندلس كانت مغامرة ، ولكن ما يمكن أن يحدث لصقر قرش لم يكن أكثر مما شاهد من نوائب ومتاعب ، ولذلك لم يتردد في سلوك هذا الطريق ، ثم إن الهدف كان عظيما ، فهو يسعى لملك ، أو قل إنه يؤسس دولة بعد ضياع ، وهذا سهل له كل صعب .

ولعل عبد الرحمن الداخل تصور جدّه البعيد معاوية بن أبي سفيان ، وهو يبني الدولة الأموية ويأخذ زمام الحكم في العالم الإسلامي ، وينتقل من وإلى مثل عشرات الولاة إلى خليفة ، فاتخذ عبد الرحمن من معاوية قدوة له ، ولكن ظروف معاوية كانت على كل حال أيسر من ظروف عبد الرحمن .

وفي مطلع رحلته وهو على حافة نهر الفوات أوشكت خيول العباسيين أن تدركه هو وأخاه فألقى بنفسه في اليم هو وأخوه ليحملها اليم إلى جانب الغربي ، وقد أمنتهم العباسيون على نفسه لو استسلم ولكنه لم يثق في تأمينهم ، أما أخوه المسكين فيبدو أنه وثق في وعدهم وأيمانهم فلم يستمر في السباحة وسلم نفسه لهم فقتلوه ، وأما عبد الرحمن فقد وصل إلى الجانب الآخر ، ثم تنكر واتجه إلى الشمال الإفريقي .

إن هروب الشاب وحيداً من وجه دولة أصبح لها نفوذ وسلطان ليعد قدرة هائلة بجميع المقاييس ، وأصبح في هذه المسافة الشاسعة شخص واحد يقاوم دولة فتية في مطلع حياتها وأزهى أيامها .

وقام الجواسيس والعيون بدور واسع ليسدوا الطريق في وجه عبد الرحمن ، وفي نفس الوقت ظهر شخص فيه ملامح قريبة من ملامح عبد الرحمن فكان عبد الرحمن يظهر في بلد ، ويظهر شبيهه في بلد آخر مما يولد الشكوك حول المكان

الحقيقى الذى يوجد فيه عبد الرحمن .

فى الشمال الافريقى :

ووصل عبد الرحمن إلى منتصف السلامة عندما وصل إلى أخواله من قبيلة نفزة أو نفزاوة بالشمال الافريقى ، وهناك ألقى لهم زمام أمره ، وأحس الخليفة العباسى أن هذا الشاب فى طريقه إلى الاندلس فبذل أقصى الجهد حتى لا يصل عبد الرحمن إلى غايته ، وقام صراع فكرى بين عامل العباسيين على الشمال الإفريقى وبين عبد الرحمن ، فضيق العامل النوافذ على عبد الرحمن ، ويقال أن جند عامل العباسيين وصل إلى البيت الذى كان يختفي فيه عبد الرحمن ولم تكن هناك وسيلة لإخفاء عبد الرحمن إلا بأن تدخله امرأة تحت ثيابها ، ولم يخرج من تحت ثياب المرأة إلا بعد أن غادر جند العباسيين المكان بعد أن فتشوه بعناية .

وهذا البحث عن عبد الرحمن بالشمال الافريقى نوعا ما ، وانشغل العباسيون عن عبد الرحمن بمشاكلهم وثوراتهم بالعراق والشام ، كما أن محاولة خلق الاستقرار لدولة العباسيين ألهم الكثير من وقتهم وجهودهم ، وهذا أعطى فرصة لأحداث تتصل بإفريقية وينبغى أن نقف هنا وقفة لنعرض بعض هذه الأحداث :

١- الأندلس والعباسيون :

يمكن القول إن الأندلس كانت منقطعة الصلة بالعباسيين فالدعوة الهاشمية والدعاية الهاشمية كانت تدور فى خراسان وبلاد فارس ، أى كانت تدور فى الجانب الشرقى من العالم الإسلامى ، وكانت دمشق عاصمة الأمويين تقف فى طريق هذه الدعاية ، فلم تستطع الدعوة لآل البيت أن تتخطى السور الأموى فى الشام ليكون لها أثر فى مصر أو الشمال الإفريقى أو فى الأندلس وعندما قامت دولة العباسيين وسقط النظام الأموى لم يتبدل شئ إلا الولاة الذين ولاهم العباسيون أو بعض الجنود التى أرسلوها ، أما احساس الجماهير فلم يتغير تقريبا ، بل ظل متعاطفا مع الأمويين .

وكان بُعد الأندلس عن مركز الخلافة يدفع هذه البلاد لتتجه للاستقلال ،

وبخاصة أن المركز الجديد للخلافة اتجه للمزيد من البعد عندما اندفع للشرق أى إلى بغداد .

٢- الشمال الافريقى والأمويين :

فإذا جئنا للشمال الافريقى وجدنا هذه المنطقة تدين للأمويين ، فالفتح الإسلامى بها كان عملاً أموياً ، ومن هنا كانت هذه المناطق لا تعرف غير الأمويين ، وكانت المصاهرة بين بنى أمية والبربر فى الشمال الافريقى تدعم هذه الاتجاه .

وما يدل على ضعف الارتباط بين الشمال الافريقى والعباسيين ، أن مناطق الشمال الافريقى بدأت تستقل عن العباسيين بعد فترة ليست طويلة من قيام الدولة العباسية ، فقد ظهرت الدولة الرستمية بالجزائر سنة ١٦٠هـ وأعلنت استقلالها عن العباسيين ، ثم قامت دولة الأدارسة فى المغرب سنة ١٧٢هـ ، وتوقع العباسيون زحفاً مضاداً لهم يجئ من هاتين الدولتين ، فأقاموا فى تونس دولة شبه مستقلة هى دولة الأغالبة سنة ١٨٤هـ لتقف فى وجه استقلال المنطقة .

وكل هذا يدل على اتجاه الشمال الافريقى للانفلات من العباسيين .

٣- عهد الرحمن الداخل ورحلته :

إن اختيار عبد الرحمن للاتجاه للمغرب اختيار ذكى ، فهو يمشى مع التيار ويسابقه ، وكان هذا هو الاتجاه الذى حاول مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، أن يلجأ إليه ، بل لجأ له أيضاً أمويون آخرون فروا أو حاولوا الفرار من العنف العباسى .

ولكن فرار عبد الرحمن لم يكن ليطلب السلامة فقط كما فعل الآخرون من بنى أمية بل كان سعياً لتأسيس ملك أموى فى الأندلس بدل ملك الأمويين الذى انهار فى الشرق ، وكان عبد الرحمن يسير ومعه أمجاد قومه ، غير حافل بما عرفه وسمعه من عنت العباسيين ، فهو لم يتأثر بالخوف أو الذعر من الدماء التى أراقها المنتصرون ، بل رسم لنفسه هدفاً ، يعتبر تعويضاً عما فتده قومه ، وهذا يدل على بطولة هذا الشاب الذى جمع تجربة الشيوخ مع دماء الشباب .

وكانت الصراعات فى الاندلس تنادى عبد الرحمن أن يستغلها ليحقق أطماعه، كما كانت الاندلس تتطلع إلى قطع التبعية بالخلافة النائية وإقامة حكم مستقل بها رجاء تحقيق الاستقرار .

٤- شخصية عبد الرحمن الداخل :

من أمجاد عبد الرحمن الداخل أن انتصارات العباسيين وعنفهم لم تنل من شخصيته ولم تهز كيانه ، وقد قابلهم عبد الرحمن وهم فى قمة أمجادهم ومطلع فتوتهم واستطاع أن يحقق أمله على الرغم منهم ، وقد اعترف الخليفة المنصور ببطلته وعظمته وسماه « صقر قریش » كما ذكرنا فى مطلع هذا البحث ، كما أن المنصور مع جلال قدره أخذ بشيء من الخوف عندما رأى رؤوس أعوانه ملقاة أمامه ، ودُهِش من جرأة عبد الرحمن وقدرته على توصيل هذه الرؤوس إلى باب الخليفة العباسى، وقال قوله الشهيرة « الحمد لله الذى جعل بيننا وبينه بحراً » كما سنرى فيما بعد .

ويقول الباحثون إن البطل يُعجَّب بالبطل ، وقد كان المنصور بطلاً فى ميدان الحرب وميدان السياسة ، هدد أباً مسلم الخراسانى وقضى عليه ، وانتصر على أبطال العرب بقيادة ابن هبيرة ، ومن هنا كان يرى نفسه فى عبد الرحمن ، ويشاهد فيه صورته .

ومن صفات عبد الرحمن الجسمانية أنه كان أعور ، أصهب (شعره يميل للحمرة) خفيف العارضين ، له خال فى وجهه ، وله ضفيران من ذوائب شعره .

ومن أبرز الصفات التى تتضح فى شخصية الداخل الدهاء البارز ممزوجاً بالخزم مع القمع ، وإدراكه أن أتباعه لا بد أن يكونوا مستعدين للنظام والسلام ، فلن يفلت منه من خان أو اتجه للخداع أو الكسل وكان يدرك أن الشدة هى وسيلته الوحيدة لينجح فى أهدافه .

ومع ما عرف به من شدة وغدر وعنف فإن هذه الصفات كانت ضرورية لرجل فى مثل حالته ، ومع هذا فإن ابن حيان مؤرخ الاندلس (ت ٤٦٩) يصفى عليه مجموعة من الصفات الرائعة ، فيقول كان عبد الرحمن راجع الحلم ، راسخ

العلم ، ثاقب الفهم ، كثير الحزم ، نافذ العزم ، بريثا من العجب سريع النهضة
فى طلب الخارجين عليه ، متصل الحركة ، لا يخلد إلى راحة ، ولا يسكن إلى
دعة ، ولا يكل الأمور إلى غيره ، ثم لا ينفرد فى إبرامها برأيه ، شجاعا
مقداما ، بعيد الغور ، شديد الحذر ، قليل الطمأنينة ، بليغا ، مقوها ، شاعرا ،
محسنا ، سمحا ، طلق اللسان ،

وسنرى هذه العبارة فيما بعد عندما نتكلم عن الحكم على عبد الرحمن بين
الاعتدال والقهر .

لباسه وخاتمه ولفبه :

كان عبد الرحمن جم البساطة والتواضع ، يؤثر ليس البياض ، ويهتّم به ،
ويعود المرضى ويزور الناس ويخاطبهم ، ولم يتوقف عن ذلك إلا فى أخريات
عهده حينما نصحه بعض مشيريه ، وذكر له ضرورة الترفع استبقاء لهيبه الملك
وحلّوا من شر المتآمرين .

وكان نقش خاتمه « عبد الرحمن بقضاء الله راض » .

وقنع عبد الرحمن بلقب الداخل والأمير ولم يتخذ الألقاب التى كانت شائعة
كالظفر أو الناصر أو المنصور .

٥ - وصول مولاه بدر :

ومن أهم الأحداث التى أنعشت عبد الرحمن فى فترة الاختفاء بالشمال
الإفريقى وصول بدر التابع الأمين لعبد الرحمن ، وكان بدر يحمل لسيده الأموال
والجواهر التى أرسلتها أخت عبد الرحمن إليه ، واسمها « أم الإصبع » وبدر من
جانب والأموال من جانب آخر كانا عوناً عظيماً لعبد الرحمن لبلوغ أهدافه ،
فبدر فيه الولاء والوفاء من جانب والقوة والتجربة من جانب آخر ، والمال
ضرورى فى مثل أزمة عبد الرحمن ، وينتظر أن يجلب الأتباع ويرد عنه بعض
الذين يلعب المال بأذهانهم ، وقد سعد عبد الرحمن بوصول تابعه بدر ، وسعد بدر
باللحاق بسيده عبد الرحمن ، وكان بدر بالنسبة لعبد الرحمن يمثل الناصح الأمين

، والتابع الشفوق ، وبدأ معا يرسمان خطة المستقبل وكان وصول بدر إلى مكناسة "حيث كان عبد الرحمن يقيم آنذاك .

٦- رسائل عبد الرحمن إلى الأمويين بالأندلس :

وهناك حدث آخر اتفق فيه رأى عبد الرحمن ومولاه بدر ، وهو ارسال رسائل إلى جماعات الأمويين فى الأندلس ، وربما لغيرهم أيضا من ذوى الشأن ، ويحمل بدر هذه الرسائل ، فيقدمها ويشرحها ويغرى الناس هناك بالاستجابة للأمير الذى سيصل إلى الأندلس فيوحدها ، ويرفع شأنها ، وكان فى بدر كفاءة الإقناع والانتصار فيما يديره من حوار .

كما كان الأمويون بالأندلس يحتاجون إلى دم جديد يقوى وحدتهم ويشحذ عزيمتهم ، ويرجع كفتهم أمام القوى العربية والبربرية الأخرى التى تميل للعباسيين أو تتجه للاستقلال عن العباسيين والأمويين جميعاً .

كلمة عن الأندلس آنذاك :

وإذا بدأت الصلات بين عبد الرحمن الداخل والأندلس عن طريق مؤنة بدر ، فمن الأفضل أن نتعرف على أحوال الأندلس آنذاك .

بين فتح الأندلس سنة ٩١ - ٩٢ هـ وقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ أربعون سنة لم تكن كافية لخلق الاستقرار فى هذا القطر النائي ، ومن دلائل عدم الاستقرار أن الولاة فى هذه المدة وصلوا إلى عشرين أميراً ، وقد استدعى فاتح الأندلس موسى بن نصير إلى دمشق ، وبدل أن يكافأ على هذا العمل البطولى نُكِّلَ به ، وكان موسى قد عيّن ابنه عبد العزيز نائباً عنه فى إدارة البلاد حتى يعود إذ كان يطمع فى العودة ، ولكن الخليفة سليمان بن عبد الملك قيل إنه أرسل من قتل عبد العزيز بن موسى فى شوارع إشبيلية ، وفتح هذا الغدر باباً لدماء اتصلت عقب ذلك .

ومن مشكلات الأندلس أن المسلمين لم يكملوا فتح الأندلس كما قلنا من قبل وأغرتهم المساحة الشاسعة التى دانت لهم بما فيها من خصوبة وثراء ، فتركوا الشمال الغربى من شبه الجزيرة للمسيحيين ، وهذا الجزء هو المسمى

(جليقية) Glicai وهو جزء قاحل وجبلى شديد البرودة ، وعلى هذا عاش المسلمون مع أعدائهم دون أن يحاولوا محاولة جادة أن يقتضوا عليهم ، وقد أوى القوط الفارون من الزحف إلى هذه المنطقة ، ويبدو أن المسلمين لم يهتموا بها لانعزالها وجفافها ، كما أنهم لم يهتموا بالقوط الفارين لضعف شأنهم عند الفتح ، ولكن هذه المنطقة أصبحت مركزا تربى فيه دهاة المسيحيين وأبطالهم ، ومنها خرج المحاربون الذين استطاعوا أن يستردوا أسبانيا فيما بعد وبالإضافة إلى هذا هناك ما ذكرناه من قبل من موقف الأوربيين وانضمامهم إلى أهل جليقية فى مواجهة المسلمين ، وهناك كذلك المسلمون الفاتحون وما كان بينهم من خلاف ثم المسلمون من الأسبان والنصقالية ومشكلاتهم ، وكل هذه القوى قد تجمعت فى أسبانيا آنذاك .

وكان آخر الولاة الأمويين بالأندلس هو يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب الفهري وهو مضرى ، وقد وصل إلى الإمارة بعد خلاقات طائفة بين اليمنيين والمضريين ، واتفق الطرفان أخيرا على أن تكون الإمارة عاما لهؤلاء وعاما لأولئك ، واختير الفهري سنة ١٢٩ بناء على هذا الاتفاق ، فلما انقضى الحول وأراد اليمنيون الاستيلاء على الامارة قتل الفهري كثيرين من زعمائهم واستبد بالأمر^(١) .

رسائل عبد الرحمن إلى الأندلس :

أشرنا آنفا إلى الوفاة التى أرسلها عبد الرحمن إلى الأندلس ، وكانت رسائل عبد الرحمن لزعماء الأندلس يحملها مولاة بدر ، وكان بدر جديرا يحمل هذا العبء ، فأخذ بدر يسلم الرسائل إلى أصحابها ويقدم معها الأمانى والوعود ، وواجه فى هذا الشأن مشكلات جمة نظرا للخلافات بين المسلمين هناك ، ولكن عزمته لم تفتقر .

وكانت رسائل عبد الرحمن بارعة فى أسلوبها السياسى فهى لم تكن على غط واحد ، وإنما كانت حافلة بالأمانى والوعود ، وتخطب أهواء الزعماء من عرب

(١) أبن الاثير حوادث سنة ١٣٠

وبربر ، وقدكهم فى الأمل ، حتى تناقَسَ أغلبُ الزعماء فى الترحيب بالبطل الذى توقعوا على يديه كل خير .

ولعب بدر دوراً هاماً فى إزالة الشكوك من نفوس بعض الزعماء الذين أحسوا بأن البطل القادم من الشرق سيزيل سلطانهم ويقضى على نفوذهم وتأخرت عودة بدر من الأندلس للشمال الإفريقى بسبب تلك المتاعب ، وهذا بعث القلق فى نفس عبد الرحمن ، وكان هذا يتجه للبحر ليستقبل عودة تابعه الأمين ، وبينما كان بين اليأس والرجاء لمح مركب بدر قادمة من بعد ثم ظهرت ابتسامة بدر التى تحمل الأمل لعبد الرحمن .

وعندما كان بدر بالأندلس يتصل بالزعماء والقادة ليجذبهم إلى جانب سيده عيد الرحمن الداخل كان عبد الرحمن يعيش فى طنجة على مقربة من أرض الأندلس ، يعايش أريجها ويدرس تاريخها ومشكلاتها ويخطط لحياة جديدة فيها .

وصول عبد الرحمن للأندلس :

ولم تمضي بعد ذلك أيام حتى كان عبد الرحمن ينتقل من الشمال الإفريقى إلى ساحل البيرة بالأندلس ، أو قل ينتقل من ميدان الصراع النفسى إلى ميدان صراع عكسرى ، وكان ذلك سنة ١٣٨ هـ والتف حوله الأمويون بالأندلس واتخذ عبد الرحمن جانب اليمينية لأنهم مغلوبون على أمرهم ، أمام يوسف الفهرى الذى ينتمى للمضربة ، واتخذ عبد الرحمن أهبطه لمعركة فاصلة كما اتخذ يوسف الفهرى أقصى الاستعداد لتلك المعركة الخطيرة .

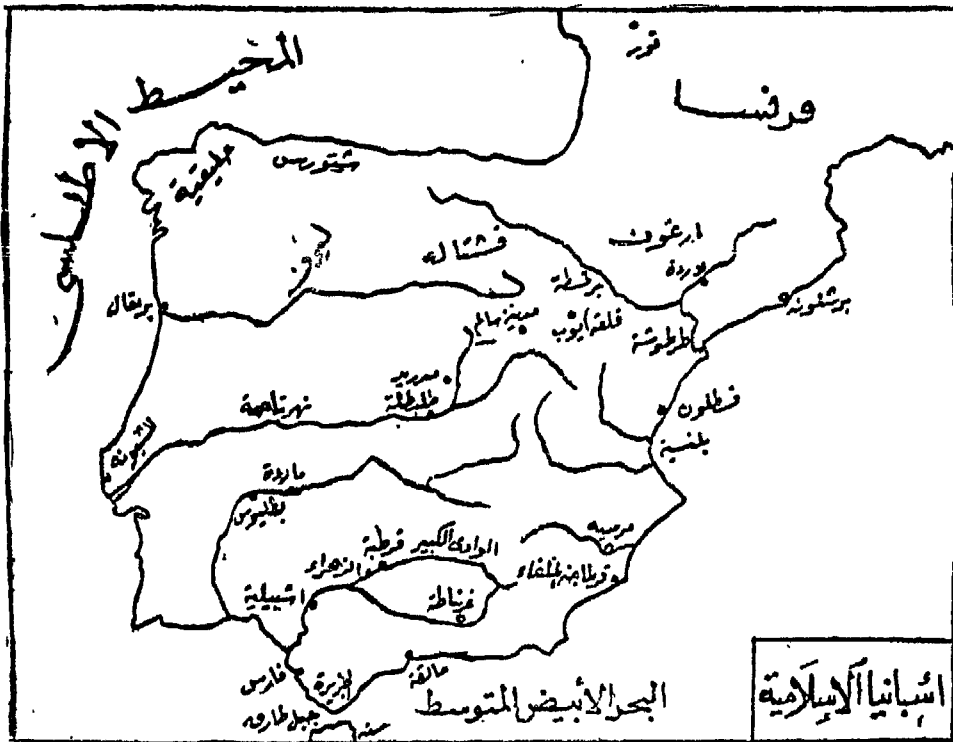
عيد الرحمن الداخل والصميل بن حاتم :

عندما نزل عبد الرحمن بلاد الأندلس بدأ يتصل بالزعماء ورؤساء القبائل ، وكان بمن اتصل بهم الصميل بن حاتم وهو من زعماء المضربين ، فقال الصميل إلى الاستجابة وقال لمن حمل له دعوة عبد الرحمن : إن عبد الرحمن بن معاوية

(١) دكتور لطفى عبد البديع : الاسلام فى أسبانيا ص ٣٦ .

(٢) أبى الاثير حوادث سنة ١٣٠

حقيق بالأمر ، وأنا مستعد لتأييده على أن يكون لى من الأمر شيئ وأزوجه
 ابنتى ، فيصبح واحدا منا ، فإن فعل قبلنا منه ، وعرفنا حقه وإن كره هان علينا
 ، على أن الصميل عاد وراجع نفسه وقال : إن عهد الرحمن من نسل قوم لا
 نستطيع مجاراتهم ولا الحياة بجانبهم (١) .



(١) أخبار مجموعة ص ٦٠ ، وبن القرطبة : تاريخ افتتاح الاندلس ص ٤٨ بتصرف .

أول بيعة لعبد الرحمن :

يذكر ابن القوطية أن أول بيعة لعبد الرحمن كانت في كورة رية ، وكانت رئاسة العرب في هذه المنطقة إلى جدار بن عمر القيسى ، وكان ذلك يوم عيد الفطر ، واجتمع الناس في المسجد لصلاة العيد ، فقال جدار للخطيب : اخلع يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، وأخطب لعبد الرحمن ابن معاوية بن هشام ، فهو أميرنا وابن أميرنا ، ثم التفت جدار إلى الحاضرين بالمسجد وقال : يا أهل رية ما تقولون ؟ فأجابوا نقول ما تقول ، فخطب الخطيب له وبايعه الحاضرون عند انقضاء الصلاة ، وبعد ذلك أخذت البيعات تتوالى عليه من هنا وهناك ، فكثرت أتباعه ، ولم يبق إلا السيف ليقضى بالأمر بين الزعيم الأموي وبين الفهري^(٢) .

يوسف الفهري يحاول التقرب من عبد الرحمن الداخل :

عندما أحس يوسف الفهري بازدياد الحركة الموالية لعبد الرحمن الداخل حاول أن يقترب منه فأرسل له وقد يدعو للمعاودة والمعاونة ويتعهد له بعدم الغدر ، ولكن اتباع عبد الرحمن الداخل حذروه من الاستجابة وذكروا له أن الصميل بن حاتم هو وزير الفهري وهو لا يؤمن على شيء^(٣) .

معركة المصارة :

تعتبر هذه الموقعة هي الباب الذي فتح الطريق لعبد الرحمن ليصل إلى قرطبة ، وكان عبد الرحمن قد سار بجيشه تجاه القرية المسماة (المصارة) ومعه جيش عرمرم من الأمويين ومن اليمنيين ومن والاهم ، وصاح عبد الرحمن في جيشه يقول : هذا اليوم هو أساس ما يبنى عليه ، فإما ذل الدهر ، وأما عز الدهر ، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون تريحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون . وكان أمير الاندلس آنذاك يوسف بن عبد الرحمن الفهري وصاحبه الصميل في الشمال لإخماد بعض الفتن المحلية ، ولكن زوجة يوسف طيرت الخبر إلى زوجها فعاد مسرعا ومعه الصميل ودارت المحاولات السلمية التي أشرنا إليها ولكنها

(٢) ابن القوطية ٤٩ - ٥٠ ، وابن الاثير : الكامل ج ٤ ص ٢٣٥ .

(٣) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٤٥ - ٤٦ .

لم تنجح ، ووقف الجيشان وبينهما نهر الوادى الكبير عند قرية المصاره ، وكان ذلك يوم وقفة عيد الاضحى سنة ١٣٨ هـ ، واتجه عبد الرحمن إلى الحيل التى عرف بها ونهغ فيها فأرسل إلى يوسف الفهرى رسالة يقول فيها : نحن فى أيام مباركة ولا ينبغي لنا أن نتحارب وأن يذبح بعضنا بعضا ، فى الوقت الذى جرت فيه سنة الإسلام أن يذبح المسلمون الضحايا فى هذا العيد المبارك ، وأهدى عبد الرحمن استعداده للقاء مع يوسف لإجراء مفاوضات رجاء كشف غمه الحرب عن المسلمين .

وأخذ يوسف الفهرى بهذا الأسلوب فوافق عليه ودعاه لعبور النهر ، وأرسل له ولجيشه قدراً كبيراً من المؤن والذخائر .

وعندما عبر عبد الرحمن بجيشه أعلن هذا أن المفاوضة تكون على أساس ترك السيادة والرياسة لعبد الرحمن فهو بها أولى ، وهو صاحب الحق الشرعى وسليل فاتحى الأندلس ، ولم يكن من الممكن أن يوافق يوسف على هذا المبدأ فبدأت المعركة .

وما يتصل بهذه المعركة أن عبد الرحمن كان يركب حصانا فارها ، فسمع همسا بأن هذا الشاب لا خبرة له فى الحرب ، وأنه من الممكن عندما يحبس بهزيمة أو تقهر أن يسرع بالنجاة بفرسه الفاره .

وحينما سمع عبد الرحمن ذلك الهمس ، نظر فيمن حوله فوجد رجلا يركب حصانا أعرج فناداه واستبدل معه حصانه ، وأدرك الذين كانوا يتهامون صلابه عبد الرحمن وإصراره ، وأن الموت أهون إليه من الفرار .

وقامت المعركة فحقق فيها عبد الرحمن نصرا عظيما ودخل بعدها مدينة قرطبة فى ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ .

أما جيش يوسف والصميل فقد وقعت عليه الهزيمة وفر يوسف والصميل وقد جددا حملتهما بعد ذلك ولكن دون جدوى ، وقتل يوسف سنة ١٤٢ هـ وسجن

الصميل حيث مات فى السجن .

ومن أسباب الانتصار فى هذه المعركة أن اليمنيين كانوا فى قمة الحماس والرغبة فى الانتصار على المضربة التى كانت قد هزمتهم هزيمة منكرة قبل ذلك فى موقعة « شقنده » .

عهد الرحمن و ابنه يوسف الفهرى :

ومما يذكر أنه بعد هزيمة يوسف وفراره اندفع جند عبد الرحمن فدخلوا القصر وأخذوا ينهبون ويغنمون مما فيه دون مراعاة حرمة أو قيم ، وقد جاءت ابنة يوسف تشكو إلى عبد الرحمن فاستقبلها استقبالا طيبا واعتذر لها ، وأمر بأن يُردَّ إليها كل ما أخذ من القصر ، وأعاد عبد الرحمن الابهتسامة إلى فمها ، فشكرته ، وأهدت له جارية جميلة اسمها « حلل » ، أصبحت أم ابنه هشام الذى تولى الملك من بعده .

ويصف ابن الشباط ^(١) فترة الصراع التى اجتازها عبد الرحمن فى مطلع عهده بالاندلس بقوله :

وفى الاندلس تجمع حول عبد الرحمن كل من كان من بنى أمية بها ، ومن يقول بقولهم ، ومن يجدُّ على يوسف الفهرى موجدة لمظلمة جرت عليه ، أو لتقصير قصر به ، أو لعطاء حُرْمه ، فاجتمع عنده جمع كبير وقصد بهم قرطبة دار إمرة الفهرى ، فبرز إليه الفهرى فى جيش لا يحصى كثرة ، فاقتتلا وتحاربا ، وهزم الفهرى فى النهاية وهرب ، واستبيح عسكره ، وقتل أكثره ، ودخل غبد الرحمن قرطبة ، ودانت له الاندلس بأسرها ، وتعرف الموقعة الحاسمة التى انتصر فيها عبد الرحمن على يوسف الفهرى باسم « المصاراة » وكانت فى منتصف مايو ٧٥٦م (١٣٨) .

(١) تاريخ الأندلس ص ٥٦ .

محاولة العباسيين استرداد الأندلس :

شجع العباسيون واليهيم على إفريقية " العلاء بن مغيث " على إخضاع الأندلس والقضاء على عبد الرحمن الداخل ، وإعادة الأندلس لتكون خاضعة وتابعة لوالى العباسيين بالقيروان ، ورغبة فى تحقيق النصر اتفق العلاء بن مغيث مع هشام بن عبد ربه الفهرى والى طليطلة على التعاون ضد عبد الرحمن ، ولكن عبد الرحمن سارع ففوضى على حركة هشام وقيض عليه وصلبه ، ثم استدار لمواجهة العلاء بن مغيث الذى عبر البحر من إفريقية سنة ١٤٦ بجيش قوامه سبعة آلاف من المحاربين الأشداء ، وفى جنوب الأندلس استقبل العلاء كثيرين من العرب والبربر الساخطين على عبد الرحمن .

واقعه عبد الرحمن بجيشه لمواجهة العلاء ، وقبل أن تبدأ المعركة سمع عبد الرحمن همسا باحتمال أن يهرب عبد الرحمن وأصحابه من هذه المعركة ، فأمر عبد الرحمن بإشعال نار عالية ، وقال لأصحابه سنخرج إلى العلاء خروج من لا تحده نفسه بعودة ، فإذا انتصار وزحف وإما نهاية مشرفة ، ثم أخرج سيفه من غمده وألقى قراب السيف فى اللهب وتأثر رجاله بذلك فألقوا أيضا بأغماد سيوفهم فى النار ، وكسب عبد الرحمن المعركة ، وقتل العلاء بن مغيث وكثيرين من أتباعه .

وبعث عبد الرحمن برؤوس كثيرة منهم إلى القيروان ومكة المكرمة فألقيت فى أسواقها سرا ومعها اللواء الأسود ^(١) وقد أشرنا لذلك من قبل .

شارلمان ومؤامرة الخونة :

تقص علينا المراجع التاريخية خبر هذه المؤامرة الدنيئة التى اشترك فيها بعض العرب الموتورين من عبد الرحمن الداخل والذين صغرت نفوسهم ، فحاولوا الانتصار عليه ولو بالتآمر مع شارلمان ضده ، وهؤلاء الخونة هم سليمان بن يقظان الأعرابى الكلبي حاكم برشلونه ، وعبد الرحمن بن حبيب الفهرى ، وأبو

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٢ .

السعود الفهرى ، وأبو الاسود بن يوسف ^(١) ، وقد اتصل هؤلاء بأبى جعفر المنصور وطلبوا عونه فأعانهم بجيش من شمالى افريقية ، واتصلوا بشرلمان الذى كان يتطلع لهذه الفرصة ليمد سلطانه إلى أسبانيا وليرضى الكنيسة ، وكان الاتفاق يقضى بأن يهاجم الفهرى جنوب أسبانيا بجيش من افريقية ، وأن يهدد الكلبي لشرلمان ليغزو أسبانيا من الشمال ، وسارت المؤامرة فى طريق التنفيذ غير أن تحديد الوقت لم يتم بدقة كافية ، فقد نزل الفهرى جنوب أسبانيا قبل أن يهاجم شارلمان شبه الجزيرة فاستطاع عبد الرحمن الداخل أن يقضى على الفهرى ، وينقلب فيقضى على الكلبي ، فلما وصل شارلمان لم يجد حلفاء فى انتظاره ، ورأى أسبانيا مستعصية عليه ، وفى الوقت نفسه بلغه خبر ثورة السكسون ضده فى الشمال ، فانسحب متكبدا أمام عبد الرحمن خسائر فادحة ، وعاد هذا الجيش يجر أذيال الخيبة ، وزاد على ذلك أن اعترضته قبائل البشكنسن وهو يعبر ممرات البرنيز ، ويقال أن ذلك تم بتدبير عبد الرحمن الداخل ، وقد أنزلت هذه القبائل بمؤخرة جيش شارلمان الدمار ، ومزقتها شرمزق ، وقتل من قواد شارلمان قائد بطل اسمه رولان Rolan وهو الذى أوحى لشاعر فرنسى بالملحمة التى سُميت « أغنية رولان » ويعدها الفرنسيون أول أنشودة حماسية فى الأدب الفرنسى ^(٢) وقد أحسن المؤرخ الأندلسى ابن الشباط حين يقول : إن المسلمين بالأندلس لم يقصدهم عدو إلا هزم وانصرف مغلولاً ، وإنما خذلهم العحاسد وفرط الخلاف والتباغض فيما بينهم ^(٣) وقد ذكرنا كلمات ابن الشباط من قبل ونحن نكررها رجاء العبرة فى عصرنا الحاضر .

(١) Stanley Lane-Poole : Muslims in Spain p 29

(٢) اقرأ أخبار هذه المعركة فى :

١ - أخبار مجموعة ص ١١٣ .

٢ - ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٣ - ١٢٤ .

٣ - الأستاذ العبادى : تاريخ الأندلس ص ٧٤

صلح ودعوة للمصاهرة :

التقى عبد الرحمن عقب ذلك بشرلمان ، وكان عبد الرحمن يعرف قدر الرجال ، فوجد فى شارلمان ما يدعو للتقدير والإعجاب ووجد فيه شارلمان ما يدعو للتقدير والإعجاب أيضا ، فتودد له عبد الرحمن مع ما كان له من القوز والانتصار عليه ، فتمت بين الاثنين معاهدة ألزمت شارلمان ألا يتطلع لأسبانيا ، وخطرت فكرة مصاهرة بين الاثنين بأن يتزوج عبد الرحمن بنت شارلمان ، ولكن عبد الرحمن كان فى شغل عن الاهتمام بالمرأة والحريم ، فلم تتم المصاهرة ولكن تمت المعاهدة .

عبد الرحمن يدعو للخلافة العباسية :

وبما يذكر أن عبد الرحمن واجه المشكلات الكثيرة التى رآها فى الاندلس بأن يدعو للخلافة العباسية رجاء أن يتغلب على الأصوات التى كانت لا توافق على انقسام فى العالم الإسلامى ، وكذلك ليرضى بعض أتباع العباسيين ، ويخفف من حنقهم عليه ، وقد ظل فى دعوته هذه فترة ستة أشهر ، ثم عدل عنها وواجه المشكلة بصراحة .

لم يعلن نفسه خليفة :

بعد أن أعلن عبد الرحمن استقلاله بالاندلس لم يعلن نفسه خليفة ، إذ كان من المصطلح عليه أن يكون فى العالم الإسلامى خلافة واحدة يستحقها من يحكم أغلب العالم الإسلامى ، وسيطر على الأماكن المقدسة ، ولم يتكرر المنصب فى الدولة الإسلامية إلا عندما أقام الفاطميون دولتهم بالشمال الأفريقى، وأعلنوا أن الخلافة من حقهم ، فهم آل البيت ، وأن الأمويين غاصبون، وفتح الفاطميون بذلك الباب للتعهد فى منصب الخلافة ، وهذا أتاح لعبد الرحمن الناصر فيما بعد أن يعلن نفسه خليفة بالاندلس .

المبادئ الإسلامية وخيانتها :

لقد رأينا خيانة مريعة قام بها أولئك الذين ارتبطوا بشرلمان ليلقضى على حركة عبد الرحمن الداخل ، وقد أثبت التاريخ للأسف الشديد صورا من هذه الخيانات قام بها المسلمون والمسيحيون جميعا ، فالانتصار الشخصى عند بعض الناس كان أهم من انتصار الدين وأتباعه وإذا كان العصر الوسيط قد شهد مثل هذه الخيانات ، فإن العصر الحديث لا يزال يشهد نظائر لها ، وهو عيب يسقط فيه من صغرت نفوسهم ، ومن تسلطت عليهم الأنانية وهؤلاء يستحقون اللعنة دائما على ما ارتكبوا من اثم .

ومن أحداث الخيانة التى ترتبط بالأشخاص الذين نتدارس الآن سيرهم ما حدث من خلفاء بغداد المنصور والمهدى والرشيد الذين أقاموا علاقات طيبة مع معاصريهم من ملوك الفرنجة بفرنسا وبين شارل مارتل وشارلمان وتبادلوا معهم الهدايا ، وذلك نكاية فى أمراء المسلمين بالأندلس وتهديدا لهم ، وذلك فى مقابلة حلف آخر بين البيزنطيين بالقسطنطينية وبين الأمويين بالأندلس للنكاية فى خلفاء بغداد .

ويعتبر هذا وذاك من نتائج ضعف الإحساس الدينى ومن دوافع الأنانية الشخصية .

صور أخرى من صراع عبد الرحمن :

من أهم الانتصارات التى حققها عبد الرحمن الداخل ما ذكرناه من انتصاره على يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، الذى كان والى العباسيين على الأندلس ، وعلى مساعده الصميل الكلابى وكذلك انتصاراته على الجيش الذى أرسله المنصور لاستعادة الأندلس بقيادة العلاء بن مغيث كما مر . ثم انتصاراته على شارلمان والحونة ، ولكن ذلك لم يضع حدا لمتاعب عبد الرحمن الداخل فطبيعة

الحياة فى الاندلس كانت تستدعى حروبا متصلة تقريبا ، وكثرة الحروب وعنفها وتسلسل الغزوات فى عبد الرحمن قسوة بالغة واتجهها للنصر بأى ثمن ، ويحار الباحث هل يلوم الظروف التى دفعت عبد الرحمن للمبالغة فى القسوة والعنف أو يلوم عبد الرحمن الذى سيطر العنف والتنكيل على نفسه حتى أفقده الأحاسيس الطيبة أحيانا ، وسنرى فيما يلى مجموعة من الثورات التى هبت فى وجه عبد الرحمن وصورا من الحروب التى خاضها طيلة حياته ، وللقارىء بعد ذلك أن يري رأيه فى لومه أو الاعتذار عنه :

- فى سنة ١٤٣ هـ واجه عبد الرحمن ثورة شديدة قادها زرق بن النعمان الذى نجح فى الاستيلاء على اشبيلية ، فحاصره عبد الرحمن ، ثم قبض عليه وقتله - وما كاد عبد الرحمن يحقق هذا النصر حتى ثار ثائر جديد سنة ١٤٤ هـ فى إشبيلية أيضا هو عبد القفار اليمان ، وقد احتاجت هذه الثورة لجهد كبير حتى تم القضاء عليها .

- وفى سنة ١٤٧ هـ ثار على عبد الرحمن واليه على طليطلة حياة بن الوليد ، وقد استطاع عبد الرحمن أن يأسره ويقتله .

- وشهدت سنة ١٤٨ ثورات ثلاثا قام بها سعيد المطرى صاحب لبلة واستولى على إشبيلية وغيث بن علقمة صاحب شذونة ، وابن خراشة الأسرى صاحب جيان ، وقد هزمهم عبد الرحمن جميعا بعد جهود مضنية .

- وفى سنة ١٤٩ هـ ثار على عبد الرحمن حليفه السابق أبو الصباح اليحصبى الذى خرج بإشبيلية بعد هزيمة سعيد المطرى ، ولم تنته هذه الثورة إلا بعد حيل كثيرة قام بها عبد الرحمن .

- هناك دعى بربرى اسمه شقيا بن عبد الواحد اتخذ لقب الامام وادعى أنه من نسل فاطمة الزهراء ، وقد ثار فى غرب الأندلس وطالت ثوراته واستولى على ماردة وقورية سنة ١٥١ هـ وهزم الجيش الذى أرسله له عبد الرحمن ، فخرج له

عبد الرحمن بنفسه سنة ١٥٢ هـ فلاذ الدعي بالهرب إلى الجبل ، فلاحقه عبد الرحمن سنة ١٥٤ هـ وشدد فى مطاردته ولكن دون جدوى .

وعاد المدعى فكون جيشا هزم جيش عبد الرحمن الذى كان يقوده عبيد الله بن عثمان ، وفر هذا القائد ، وكان ذلك سنة ١٥٥ هـ .

- وفى سنة ١٥٦ ثار حيوة بن ملايس ومعه عمر بن طالون واتخذا من اشبيلية مركزا لنشاطهما ، وقد حاربهما عبد الرحمن وشتت شملهما .

وفى سنة ١٥٧ هـ ثار سليمان والى برشلونة وتحالف مع الحسين الأنصارى والى سرقسطة ضد عبد الرحمن وانتصر عليهما عبد الرحمن وقبض على بعض أتباعهما وأعدمهم وسليمان هذا هو الذى تحالف مع شارلمان ، وقد لقي سليمان حتفه سنة ١٦١ .

- وفى عهد الخليفة المهدي العباسى حاول العباسيون مرة أخرى تهديد الأندلس فعبر عبد الرحمن بن حبيب القهرى البحر من إفريقية إلى مرسية ولكن هذه الحملة فشلت تماما .

هذه صورة من الثورات المتلاحقة التى واجهت عبد الرحمن الداخل والتى لم تسمح بأن تهدأ له نفس أو يغمض له جفن وكان دائما مهدداً ، ولعل هذا هو الذى دفعه للعنف ، وقد وصل العنف إلى خلافه أو بالأحرى تنكيله بمن كان أحب الناس إليه وهو مولاه بدر .

الحلاف بين صقر قریش ومولاه بدر :

ولقد حمل بدر مع سيده كل العبء من أوله حتى سنة ١٥٦ ؛ أتى له بالمال والجواهر التى لعبت دورا كبيرا فى جذب الأعوان ، وذهب إلى الأندلس مخاطرا بنفسه وعارضا أمر سيده علي بنى أميه بالأندلس وعلي سواهم حتى أقنعهم ، ثم عاد يدعو سيده للرحلة بعد أن مهد الطريق إليه .

وقد أمضى بدر ربع قرن فى التخيلى والصراع والحروب (من سنة ١٣٢ إلى سنة ١٥٦) تقدمت سنه وكل عوده ، ولكن عبد الرحمن كان لا يزال متشبثا بالشباب فلم يرحم مولاه وحسبه تخلى عنه فعاقبه وقسا عليه ونفاه إلى الشمال حتى مات ، بالقسوة الحظ ونكران الجميل .

ولكن هذه النهاية لم تأت فجأة ، بل دار حوار طويل بين بدر وبين رفاقه فى الحروب ثم بين الأمير وبين بدر وهاك صورة هذا الحوار الذى تخيله الباحث كالآتى:

(بدر مع مجموعة من القادة زملاء المعارك)

١ - لقد حققنا الكثير من الانتصارات ، ودانت لنا أكثر البلاد ، وإنى أتساءل : أما لهذه الحروب من آخر ؟ وأما أن لنا أن نهدأ ونعيش فى استقرار؟

٢ - أن ربع قرن من الزمان مر علينا دون أن نهدأ فى بيت أو نذوق راحة السلام .

٣ - ما لك يا بدر لا تتكلم ؟ وهل لا يرضيك كلامنا ؟

بدر : أنا أحس بما تحسون به ولكن مولاي الأمير لم يحقق غاياته بعد .

١ - عليك يا بدر أن تنصحه ، وأنت رفيق صباه وشبابه ، حملت له المال من أخته ، ومهدت له الطريق فى الأندلس قبل أن يراها ، وطالما تعرضت للأخطار ، وقُدت معه الجيوش وخضت المعارك ، فليس أحد يجزؤ على الكلام معه مثلك ، ولا يقبل الأمير من أحد ما يقبله منك .

بدر : كيف أنصحه بآنكف عن القتال وأنا أرى حماسه تتزايد وأطماعه تتضاعف ، وأكاد لا أراه إلا والزرد حول جسمه والسيف فى يده .

٢ - إذا كان أميرنا لا يزال ينعم بالشباب فنحن يا بدر نتجه للأفول ، ان

الامير فى الاربعين من عمره أو تخطى الاربعين بقليل ولكننا يابدر تجاوزنا الخمسين .

٣ - لقد ذكرتنى ، لقد وصلت إلى هذه السن ولم أنعم بعد بالراحة وشغلنى الطعان والصراع عن حياة الاستقرار .

٢- هل لازلت تطمع فى الاستقرار أم أنك تقول وداعا لحياة الدعة والأسرة والراحة ؟

١- ضاع العمر كله سعيا وراء السلام ويبدو أن السلام لن يجرى .

٢- ليس العمر فقط يا رفيقى ولكن الجسم مزقته الحراب والطعنات ولم يبق فيه موضع لطعنة رمح أو ضربة سيف .

بدر : وريدكم أيها الرفاق حتى يقنع أميرنا بما قنعنا به ، فنحن لن نتركه ولن نتخلى عنه .

١- نحن لا نريد ولا نستطيع أن نتخلى عنه ، فحبه ينساب فى دمائنا ، وأوامره حبيبة إلى نفوسنا ، ولكننا نرجوكم أن تنصحه أن يتدارس أحوالنا وأحوال هذا الوطن الذى تعبنا حتى وصلنا به إلى الحالة التى هو عليها الآن .

٢- لقد حققنا كثيرا من النجاح يمكن أن نعيش فى جنباته ، وليس من الضرورى أن نهب كلما ظهر خائن ، فأغلب أعدائنا تنقضى ثوراتهم من نفسها أو بجهود محلية .

٣- ويجب أن يتضح أننا فى حاجة للراحة بعد هذا الجهد الطويل ، فالناس يتعبون ليستريحوا فى النهاية ، أما إذا امتد التعب وضاع الأمل فى الراحة فإن التعب يصبح عديم الفائدة .

بدر : أرجوكم أن نظل على الولاء والوفاء لأميرنا ، وأعدكم أننى سأنتهز

أقرب فرصة لأرفع إليه مشاعرنا وأضع أمامه آمالنا .

الجميع فى صوت واحد : شكرا لك يا بدر ونرجو لك التوفيق .

وسارت حياة عبد الرحمن فترة عقب ذلك على نمط حياته ، كفاح من جانب ومحاولة التقاط الأنفاس والنبيل من متع الحياة من جانب آخر ثم حدث اليوم المشهود الذى قطع ما كان متصلا ، فقد استدعى الأمير مولاہ بدرأ ، فهُرِعَ هذا للقاءه كالعادة ، وصوت رفاقه يدب فى نفسه ويلاحق بدرأ فى مسيرته للقاء سيده .

الأمير : يا بدر طال الصراع مع الدعى البربرى شقيا بن عبد الواحد وقد أرسلنا الجيش بعد الجيش ولكنها لم تقهره ، وجاء الدور على أنا وأنت وصفوة رفاقك لنذهب له . فاعِدُوا أنفسكم بأقصى ما تستطيعون من سرعة .

بدر : سمعا وطاعة يا مولاي ... ولكن .

الأمير : (بحدّة) لكن ماذا يا بدر ؟ أن كلمة لكن منك شئ غريب لم أعوده منك ، قل ماذا عندك .

بدر : يا سيدى أنت تعرف مكانك منى وطاعتى لك ..

الأمير (مقاطعا) كأن هذه الطاعة أتت إلى نهايتها .

بدر : معاذ الله يا سيدى أن تتوقف هذه الطاعة ، فقد كنت تابعك الامين منذ انفلتتنا من الشام حتى الآن وكل ما أرجو أن تعطينى أذنك لحظة لأنقل لك ما فى نفسى (يجهش بالبكاء) .

الأمير : أعطيك أذننى يا بدر ليس لحظة بل ، حتى تُفرغ ما عندك (ينادى)

يا حارس لأتدخل أحداً علينا حتى نفرغ من جلستنا .

الحارس : لبيك يا سيدى .

بدر : (فى تأثر) يا مولاي إن الناس يعملون فترة ليستريحوا فى نهاية الأمر، ونحن كافحنا طويلا فمتى نستريح .

الأمير : هل أخذ منك الجهد مأخذا وأتى على كل جهدك .

بدر : تذكر يا مولاي أبطال الإسلام - كم سنة كافحوا ؟ كم سنة جالد خالد بن الوليد وأبو عبيدة وعمر بن العاص ؟ وكم سنة جاهد جدك العظيم عبد الملك ، وقارن ذلك بربع قرن رأينا فيه من الأحوال ما تعرف فمتى نستريح ؟

الأمير : يا بدر كنت أعدك جزءا منى ولكن يبدو أننى أخطأت فنحن اثنان ولسنا واحداً .

بدر : أنه من الشرف أن أكون بعض سيدى ومن الشرف أن أكون تابعه المخلص الامين ولكن الطاقة البشرية ..

الأمير : يا بدر لم نكمل خطتنا ولم نحقق أهدافنا بعد .

بدر : لقد أقمنا ملكا منذ جولتنا الأولى بهذه الديار ، وسيدى هو قائد هذا الملك وسيده ، وهزمتنا أعداءنا فى المشرق وأعدائنا فى المغرب ، وأصبح لنا الأمر كله ، وفى تقديرى أن علينا أن نستريح ، أما الحركات التى تظهر فيضربها جيشنا وقادتنا الذين ربيناهم .

الامير : أنا يا بدر لا آمن لأحد وسأقود بنفسى جيوشى وكنت أتمنى أن تكون معى .

بدر : سيدى تختلف الأفلاك والأشجار فى قوة احتمالها فإذا كان سيدى لا يزال به الفتاء والقوة فإننى أحس أن عظمى قد وهن .

ومولاي يعرف أننى فى الشام وفى افريقية وفى الاندلس لم أسع لمال أو جاه وإنما سعيت لأكون فى خدمة مولاي ، وكم نزفت الدماء منى فى الحروب وكان يمكن ألا تبقى فى جسمى بقية ، ولكنى عشت ، بيد أنى أحس أن جسمى لم يعد يقوى على مواصلة الجهد ونفسى لم تعد تحمل إزهاق الأرواح وسفك الدماء .

الأمير : إذا تراخيت أنت يا بدر فإننى أحس أن مهمتى لم تنته بعد فلتبتعد بيننا الأقدار ، وإذا كانت قرطبة مركز حياتى فلتتخذ لك مكانا فى أقصى الشمال تعيش فيه ما بقى من عمرك .

بدر : كان يطيب لى أن أبقى بين يديك حتى يحين الأجل ، ولكن لكل شئ نهاية فوداعا يا سيدى وأنت تعرف أننى ما خنت ولا خدعت ولكنى كنت صادقا مع مولاي ومع نفسى .

الامير : وداعا يا بدر فلتكن لك الراحة ولى الجهد والحرب فلكل منا هدف يسعى إليه والطاقة بقدر الأمل .

* * * * *

واختفى بدر من الساحة وواصل عبد الرحمن جهوده وبحس الباحث باللوعة تنتاب الأمير لفقده أحب الناس إليه والذي كان أكثر الناس إخلاصا له ، وأكثرهم عوناً له فى الملمات ، ولكن الأمير وجد أنه من المستحيل أن تُفرض عليه وصاية، وأن يحس أحد من أتباعه بسيطرة عليه ، وتلك هى طبيعة الزعماء بالنسبة لأنصارهم الأقربين ، فأبو سلمة الحلال بذل جهداً كبيراً حتى قامت الدولة

العباسية ، ولكن لا يجتمع السيفان فى قراب واحد كما يقولون ، فكان لابد أن يختفى أبو سلمة وأبو مسلم الخراسانى ليكون الأمر كله فى يد العباسيين ، ومثل هذا حدث مع جوهر الصقلى الذى هبأ كل شئ للخليفة المعز لدين الله الفاطمى : فَتَحَ مصر ، وبنى القاهرة ، ووضع أساس الأزهر الشريف ، فلما وصل المعز مصر كان لابد لجوهر أن يتجه إلى الظل .

إنها الحقيقة سجلها التاريخ عدة مرات ، فالزعامات لا تقبل أن تقتسم النفوذ مع الآخرين .

وربما تعن للباحث نقطة أخرى هى أن الأمير أحس أنه لو تساهل مع بدر فان ذلك سيلزمه بالتساهل مع الآخرين الذين قدموا له ألوانا من المساعدات تقرب مما قدمه بدر إليه ، والزعامات قاسية القلب ، جاحدة ، لها نظائر فى التاريخ القديم والوسيط والحديث وقد رأى عبد الناصر - فى التاريخ الحديث - أن محمد نجيب سيلتقط الزمام منه فعزله وسجنه دون جريرة وأنزل به أبشع أنواع الضر لِيخلو الأمر لعبد الناصر .

وهكذا كان اختفاء بدر من الساحة ضروريا .

سياسة عبد الرحمن ويطولعه :

أن دراسة تاريخ عبد الرحمن تدعو للاعتقاد أنه كان داهية ذكيا ، وكان شخصا مناسبا تماما للظروف التى أحاطت به ، وهو كذلك شاب تنساب فى شرايينه دماء السيادة التى انحدرت له من أبى سفيان قبل الإسلام ومن معاوية وعبد الملك والوليد بعد الإسلام .

ولقد كان من سياسة عبد الرحمن أنه بدأ انتصاراته فى الأندلس بالدعوة للعباسيين لتستقر له الأمور مؤقتا حتى يهيئ نفسه لجولة جديدة ، ومن سياسته

أنه لم يتخذ لقب خليفة حتى لا يتضاعف أعداؤه وقنع بلقب الأمير ليطمئن
العباسيين أنه لا يسعى لسلب الخلافة منهم فيكتفى بذلك شرهم .

ومن سياسته أنه كان حلو الحديث يجذب إليه رفاقه ومحدثه ويؤثر فيهم ،
وكم استطاع عن هذا الطريق أن ينال ثقة خصومه وأن يقلل من حماسهم ضده .

ومن سياسته أنه أحاط بالقوى المتعددة التى تحيط به ، من يمنية ومصرية
ومن جماعات البربر واستطاع أن يمسك بالخيوط كلها فى يده حتى يظل يضرب
على مختلف الأوتار تبعا للظروف والاحتياجات .

ومثل هذا يقال بالنسبة لأقاربة من الأمويين المقيمين بالأندلس ، فقد حاول أن
يجمعهم حوله ، ويُسعدِهم ويسعد بهم ، ولكن عندما ظهرت خيانة من بعضهم
فإنه انقلب ناراً تلتهم وعذابا لا يبقى ولا يذر .

ومن سياسته أنه كان فى جيشه يبدو واحدا من الجند ، يقف فى الصفوف
الأولى غير هباب ، وهذا يدفع جنده إلى حبه والارتياح له ، وقد رأيناه من قبل
يركب حصانا أعرج ليدل على أنه لن يترك صفوف الجيش وليس مستعدا
للهرب بحال من الأحوال ، ورأيناه كذلك يستشير قبل المعارك ويهتف : من
منكم يعاهدنى على دخول المعركة دخول من لا تحدثه نفسه بالحياة ؟ ويجيبه
بضع مئات باستعدادهم لذلك ، فيشعل نارا يلقي بها قراب سيفه ، ويقلده ،
أتباعه بإلقاء أشماد أسياقهم فى النار ، ويخوضون المعركة بهذا الوضع فيحققون
النصر .

ومن سياسته أنه كان عند اللزوم يضرب بقسوة حتى يتضمن السلامة ، وقد رأيناه يصلب والى طليطلة هشام الفهرى حتى لا يقدم غيره على ما أقدم عليه ، ويقتل العلاء بن مغيث ، ويرسل رأسه إلى الخليفة أبى جعفر المنصور فيهدد بذلك كل قوة تحاول الهجوم عليه من المشرق أو المغرب .

ومن سياسته أنه أذل النصارى وحقق عليهم أعظم صور الانتصارات وأرغمهم على دفع الجزية إليه وعندما أمن جانبهم سمح لهم بممارسة شعائر ديانتهم ، وسمح لهم بإقامة الكنائس ودور العبادة .

وعندما أراد بناء مسجد ، بقرطبة واختار له مكانا تشغله إحدى الكنائس القديمة اشترى أرضه من النصارى ولم يقبل أن يصادر هذه الأرض مع إمكانه أن يفعل ذلك .

ومثل هذا حدث مع شارلمان ، فبعد أن انتصر عبد الرحمن عليه استجاب للعرض الذى قدمه شارلمان للتصافى والود وكتب معه معاهدة أعلن فيها شارلمان نيته لفكرة ضم الأندلس إلى ممتلكاته وتعهد عبد الرحمن بعدم الهجوم على أرض شارلمان .

لقد كان عبد الرحمن شيخا فى تجارته ، شابا فى فتوته وصلابته .

بقى أن نقول عن عبد الرحمن الداخل إنه كان فى الحروب بطلا مغوارا ، وأن أرض المعارك كانت بالنسبة له حرما مقدسا ، وأن المعركة كانت له صلاة يتفانى فيها ويندمج ، ولا يشده عنها أى إحساس بمال أو ولد أو نعيم ، مثلما يفعل العابدين المخلص فى صلاته وتسابيحده .

جوانب إنسانية فى عبد الرحمن :

إن الصعوبات القاسية التى عاناها عبد الرحمن الداخل لم تمنعه من أن يستمتع بجوانب إنسانية عالية ، وقد رصد التاريخ مجموعة من هذه الجوانب جديرة بالتسجيل ، ولعل من أهمها تطفه لجذب الأنصار ، فقد كان فى حاجة

إلى المؤيدين والرفاق، ولذلك اتجه بكل مواهبه لجذب الأنصار ، وقد ظهر اتجاهه ذلك منذ كان فى الشمال الأفريقى حيث جمع حوله مجموعة من الأقوياء الأشداء أضفوا عليه الحماسة ثم ارتحلوا معه إلى الأندلس ، وهناك فى الأندلس جذب الكثيرين من الأنصار من العرب والبربر حتى استطاع بهم أن يحقق أعظم نصر على أعدائه ومنافسيه .

ومن جوانبه الإنسانية أنه أحسن استقبال الفارين من أهله وأقربائه ، وأولئك الذين وفدوا إليه من إفريقية أو الذين استطاعوا الإفلات من دمشق ، وينسب له أنه قال فى ذلك : « من أعظم ما أنعم الله تعالى به علىّ تمكّنى من إيواء من يصل إلىّ من أقاربى ، والتوسع فى الإحسان إليهم ولعلى بذلك أرضى الله والرحم .

ومن جوانبه الإنسانية رحمته بأفراء من أسرة (غيطشة) فقد وفد عليه أخو (غيطشة) فرآه عبد الرحمن فى حالة تدعو للثناء ، فسأله عبد الرحمن عن أسباب مظهره المتدهور ، فأجاب بأن رجال عبد الرحمن سلبوا ضياعه وثرأه ، وتذكر عبد الرحمن على الفور أفضال أسرة غيطشة على الزحف الإسلامى على الأندلس ، ولولا عونهم لتعثر هذا الزحف ، فتأثر عبد الرحمن لذلك وأمر بأن يُردَّ إلى أخى غيطشة كل ما سلب منه من مال أو ضياع .

ومن جوانبه الإنسانية أنه كان يقعد للمظالم ، وينصف من له حقّ دون تردد أو تهاون ، ويرد المعتدى أيا كان ذلك المعتدى ، وكان فيه جانب عظيم من الارتباط بشعبه أو ما يسمّى بالديمقراطية ، فكان يجالس الناس ويتجيب إليهم فى أوقات يسره ، ولا يبعده عنهم إلا طغيان الحروب التى التهمت أكثر وقته .

ومن هذا الجانب كذلك ما يروى أنه كان يزور أصدقاء ويعود المرضى ، ويشيع الجنائز ويواسى الحزين ^(١) .

ومن جوانبه الإنسانية أنه مرة أسر واحداً من الذين ثاروا عليه ، وأركبه بغلا

(١) المقربى نفع الطيب هـ ١ ص ١٥٧ .

وهو مقيّد بالسلاسل ، ولحق البغلُ وراكبهُ بعيد الرحمن وهو يمتطى حصانا فارها ، فالتفت عبد الرحمن إلى الأسير وقال :

يا بغل ، ماذا تحمل من النفاق والشقاق ؟

فقال الأسير :

يا فرس عبد الرحمن ، ماذا تحمل من العفو والرحمة ؟

فاهتز عبد الرحمن لذلك وعفا عنه .

التجاهات عبد الرحمن العاطفية :

كان الجانب العاطفي في عبد الرحمن قوياً جداً ، فمع ما خاض من حروب وما أزهق من أرواح ورأي من دم ، كان رقيق القلب مستدق العواطف ، لم يستطع المجد الذي أحرزه أن ينسيه ملاعب الصبا ، ولم تستطع حداث الأندلس أن تزيل من نفسه شغفها بشواهد النخل ونهر بردّي .

وكان عبد الرحمن محباً للحياة متطلعاً لمظاهر الجمال في الزهرة والمرأة والماء فكان إذا انفلت من قعقة السيوف سرعان ما تجذبه زهرة أو ابتسامة أو خرير مياه ، وسنري عندما نتكلم عن شعره ما قاله في نخلة رآها بالأندلس فأحس أنها غريبة مثله ، جذورها في الأندلس ولكن هواها في دمشق .

ومن اتجاهاته العاطفية أنه يأخذ بالقال ؟ ويروي أنه كان يقف علي سواحل طنجة ينتظر عودة مولاه بدر من الأندلس ، راجياً أن يحمل له من الأخبار ما يدفعه إلى الإبحار للأرض الجديدة التي تمنى أن يقيم بها ملكاً يعوضه عما فقدته أهله بالشرق .

وجاءت السفينة التي تحمل بدرا ، وكان مع بدر رفيق جاء معه من الأندلس ، فسأل عبد الرحمن عن اسمه ف قيل إن اسمه تمام أبو غالب ، فصاح عبد الرحمن سعيداً وقال : لقد تمّ أمرنا وغلبنا إن شاء الله .

ثقافة عبد الرحمن وشعره :

عبد الرحمن الداخل أمير من أمراء بني أمية ، وهو حفيد لهشام بن عبد الملك ، نشأ في بيئة عربية ، وفي بيت السيادة والشرف ، فانسابت له أفانين الثقافة العربية ، طالع الشعر العربي وجلس مجالس الأدب والفن ، فانعكست كل هذه الثقافة علي شخصيته .

ثم جاءت فترة التشرد والغربة فشحذت ذهنه ، وفتقت ملكات الأدب والشعر فيه وقد روت لنا كتب الأدب والتاريخ نماذج من شعره وأدبه ، وسنسوق فيما يلي بعض ما دونته هذه المراجع من أدب عبد الرحمن .

وأول ما نعرضه بيتان من الشعر قدمهما عبد الرحمن لولديه سليمان وهشام وهذان البيتان يدلان علي اطلاعه ، وتذوقه للشعر العربي ، وعلي محفوظاته من هذا الشعر ، فقد أنشد عبد الرحمن مرة بيتين من الشعر هما :

وتعرف فيه من أبيه شماتلا ومن خاله أو من يزيد ومن حُجْرٍ
سماحة أصل مع وفاء لفرعه ونائل هذا إن صحا أو إذا سَكِرَ

وسأل عبد الرحمن ابنه سليمان لمن هذان البيتان يا سليمان ؟ وماذا ترى فيهما من فكرة ؟ فأجاب سليمان : يبدو أنهما لأحد أجلاف العرب وما كنت لأتتبع مثل هذا الشعر وأحفظه وأعرف قائله .

وتقدم عبد الرحمن بنفس البيتين لابنه هشام وسأله نفس السؤال ، فأجاب هشام : البيتان يا سيدي لامريء القيس ملك كنده من قصيدة يمدح بها سعد بن الضباب . وأضاف هشام هذان البيتان يا سيدي ينطبقان على مولاي الأمير ، فهذه الشمائل هي شمائله وشمائل آله وأجداده .

وكان هذا الموقف ونظائره من الدواعي التي دعت عبد الرحمن أن يختار هشاماً لولاية عهده ، فقد كانت الثقافة عنصراً مهماً لدي السادة وأمراء البيوتات .

وقد روى الرواة بعض شعره وهو يدل على صفاء نفسه ، وارتباطه بأرض العرب على الرغم من أنه جدّه فى الأندلس ملكا بدل الملك الذى فقدّه ، وجاها عريضا بدل الجاه الذى حرّمه .

ولعل من أجمل ما قال من شعر تلك القصائد التى ترتبط بنخلة رآها فى بستانه فهيجت لواعج شوقه وذُكرته بوطنه البعيد ، فقال فيها أبياتا تعد من روائع الشعر العربى ومن روائع الشعر الذى يبرز عواطف الأمير ويصور حرمانه من وطن يملك عليه لبه ويحيط بجنانه ، قال عبد الرحمن :

تبدّت لنا وسط الرصافة نخلة تنامت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت : شبيهى فى التقرب والنوى وطول التنائى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة فمثلك فى التقصاء والمنتأى مثلى

ويبدو أن الأمير كان يري فى هذه النخلة غُريته ويعدّه عن الوطن الحبيب ، وكان ذلك يدفعه لتكرار المناجاة والإحساس بأنه هو والنخلة غريبان عن الديار ، ومن أجل هذا كرر الشعر مناجيا النخلة فقال فى قصيدة أخرى .

يا نخل أنت غريبة مثلى فى الغرب نائية عن الأهل
فابكى ، وهل تبكى ملبسةً عجباً لم تطيع على أمل
لو أنها تبكى إذن لبكت ماء الفرات ومنبت النخل

ذكريات الهوى عند عبد الرحمن :

وعبد الرحمن كما سبق القول ترك بلاد الشام وهو فى حوالى العشرين من العمر ، وأمير فى مثل هذه السن لابد أن يكون له فى بلاد الشام حب وهوى ، وإذا كان عبد الرحمن قد استطاع أن يفلت من العباسيين ، وأن يتخطى الأهوال عبّر مصر وشمال أفريقيا حتى وصل الأندلس فما كان لفتاته وحبّه أن تغامر مثل ما غامر عبد الرحمن ، وتحس من قصيدة قالها عبد الرحمن أن جراح الهوى

يذكره بحبه فى دمشق ، ولذلك قال قصيده بعث بها مع الريح الذى يطوى البلاد
طيا وينتقل غير خائف ولا مذعور ، قال عبد الرحمن فى هذه القصيده :

أيها الراكب الميَّسَم أَرْضى أَقْبِرْ من بعضى السلام لبعضى
إن جسمى كما علمتَ بأرض وقوَّادى ومالكيه بأرض
قدَّرَ البينُ بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضى

عبد الرحمن بين الجهد واللهو :

مما يرتبط بشعر عبد الرحمن ما ذكره صاحب أخبار مجموعة أن عبد الرحمن
كان فى غزوة من غزواته ، فوقع بعض الطيور من الغرائق إلى جانب عسكره
، وكان بعض أتباع عبد الرحمن يعرفون شغفه بالصيد فجماعوا إليه يحشونه على
اصطيادها ولكن عبد الرحمن فكر قليلا ثم انطلق يقول (١) :

دعنى وصيد الطير والغرائق
فإن همى فى اصطياد المارق
فى نفق إن كان أو فى حالق
إذا التظلت هوائج الطرائق
وغبت عن روض وقصر شاهق
بالقفر والإيطان فى السرايق
فقل على مَنْ نام فى النمايق
إن العلا شدت بهم طارِق
فاركب إليها ثبج المضايق

(١) أخبار مجموعة : ص ٧ : ١٠

ومن شعر عبد الرحمن قصيدة قالها حين بلغه أن بعض أصدقائه يُن عليه
ويدعى أن ما حققه عبد الرحمن كان بدافع الحظ لا بدافع الجهد :

سَعْدِي وَحَزْمِي وَالْمُهَنْدِ وَالْقَنَا	وَمُقَادِرٌ بَلَّغَتْ وَحَالَ حَائِلُ
إِن الْمُلُوكَ مَعَ الزَّمَانِ كَوَاكِبُ	نَجْمٌ يَطَالِعُنَا وَنَجْمٌ أَقْلُ
وَالْحَزْمُ كُلُّ الْحَزْمِ أَلَا يَغْفُلُوا	أَيُّرُومُ تَدْبِيرِ الْبَرِيَةِ غَافِلُ؟
وَيَقُولُ قَوْمٌ سَعْدُهُ لَا عَقْلُهُ	خَيْرُ السَّعَادَةِ مَا حَمَاهَا الْعَاقِلُ

على أن صراع عبد الرحمن الداخل لم يسمح له بالأهازيج التي كان يمكن أن
يقولها لو كان عنده فراغ من الوقت ، أو ربما قال ولكن الرواة شغلوا بعماركه
وصراعاته فلم يدوتوا لنا إلا القليل من شعره ، ذلك القليل الذي صور نبض قلبه
وشدة ارتباطه بالوطن الذي نأى عنه .

عبد الرحمن في نظر الباحثين والدارسين :

كانت حياة عبد الرحمن حافلة بالمتاعب والآلام منذ فر من الشام سنة ١٣٢هـ
حتى وصل إلى الأندلس سنة ١٣٨ ثم كانت حافلة بالجهد والقلق بعد ذلك ، لقد
كان في المرحلة الأولى فردا يواجه دولة ، وكان في المرحلة الثانية يواجه مع هذه
الدولة صراع العرب والبربر ونصارى الأندلس وشارلمان ... وهذا الكم
الهائل من الأعداء رعى في نفسه الذعر والأرق ، ودفعه إلى الاعتقاد بأن
السلامة لا تكون إلا بالقسوة والعنف .

والدارس لتاريخ عبد الرحمن قد يلومه لقسوته ، وقد يعتذر عنه بسبب
الظروف التي دعت لهذه القسوة ، وسنلم فيما يلي ببعض أعماله التي جلبت
عليه سخط بعض المؤرخين ثم نتجه للحكم عليه بما نراه وما يراه بعض الباحثين
الذين تحدثوا عنه ووصفوه .

وأول ما نورده هو غدره ببعض أقاربه ، فقد قتل عبد السلام بن يزيد بن
هشام وهو ابن عمه ، وقتل ابني أخيه أبان بن معاوية ونفى أخاه الوليد ...

ولكن عبد الرحمن يعتذر عن هذا فى أبيات من قصيدة له يوضح فيها جهده وإكرامه لأهله ثم خيأَتْهُمْ له يقول عبد الرحمن :

وجنّد الجند فى ثبات	ومصرّ المصر حين أجلى
ثم دعا أهله جميعا	حيث كانوا أن هلمْ هلا
فجاء هذا طريد جوع	شديد رَوّع يجاف قتلا
فنال أمتاً ونال خيراً	وحاز مالا ونال أهلا

ويبدو أن المناقبة لعبت ببعضهم فزلّ ، فلاقى نتيجة الزلل ، أو شدّه باطل فهوى .

وعلى كل حال فنحن أمام حدث لا نعرف بالضبط سببه حتى يكون حكمنا منصفاً ، ولكننا نعرف بالتأكيد أن عبد الرحمن فتح صدره لأهله ، واشتد عضده بهم ، ولا نرى أنه انقلب على بعضهم إلا بسبب يلجأ له عادة أولئك الذين يقيمون دولاً ، وقد قضى المنصور على عمه عبد الله بن على عندما زل هذا عن الطريق الصواب .

ومع القصيدة السابقة يقول عبد الرحمن كلمات فى معناها توضح موقفه من أهل بيته ، ثم عقوبتهم الذى استوجب إنزال العقوبة بهم ، يقول عبد الرحمن : ما عجبى إلا من قوم هيأنا لهم الأمن والنعمة بعد أن خاطرنا بحياتنا حتى نحقق لنا الأمل ، ثم أشركناهم فيما نلنا ولكنهم سرعان ما واجهونا بسيوفهم ومؤامراتهم ، ونازعونا ما منحه الله لنا ، فأطلعنا الله على عوراتهم فعاجلنا هم قبل أن يعاجلونا ، وأدى ذلك إلى أن ساء ظننا فى البرئ منهم ، وساء ظنه أيضا فىنا ، وصار يتوقع من تغيرنا عليه ما نتوقع نحن منه .

ومن الغدر الذى ينسب لعبد الرحمن أنه أغرى أهل طليطلة بأن يعقدوا معه صلحا ، وأن يبعثوا إليه برؤسائهم لتوقيع عقد الصلح ، ولما وصل له هؤلاء الرؤساء صلبهم جميعا .

والحق أن الذى يتابع تاريخ طليطلة يجده حلقات متصلة من الثورات ضد عبد الرحمن مما يكون قد دفعه للتخلص من هؤلاء الزعماء الذين طالت معارضتهم وتسببت فى فيض من الدماء .

وكان عبد الرحمن قد استعان باليمينية عندما دخل الأندلس لأنهم كانوا مغلوبين على أمرهم ضد المضرية ، وبعد أن قضى عبد الرحمن على يوسف الفهري زعيم المضرية وعلى زعيم المضرية الثانى "الصميل" أحس أن اليمانية تدلّ عليه وتفاخر بأنها السبب فى انتصاراته ، فأغرى بهم البربر وأوقع بهم هزيمة كبرى سقط فيها عدة آلاف دفنوا فى قبر واحد .

وليس من السهل أن نعدّ ذلك جرما ارتكبه عبد الرحمن فمؤسس الدولة يريد أعوانا مخلصين لا يدلّون عليه إن نصره ، ولا يُشعرونه بأفضالهم عليه ، فإن ذلك يضعف مكانته بين رجاله .

والآن بعد أن عرضنا صورا من الفدر وصورا من الاعتذار عنه نتجه لنقتبس من الآخرين موقفهم من عبد الرحمن فى هذا الشأن :

وأول من يقابلنا Stanley Lane - Poole فى كتابه Mnslims in Spain الذى ترجمه الأستاذ على الجارم بك ، وفى هذا الكتاب هجوم ونقدٌ أحيانا واعتذار عن عبد الرحمن أحيانا أخرى ومن الهجوم واللوم قوله :

حقق عبد الرحمن كثيرا من النصر ، وأثبت غير منازع أنه سيد الموقف ولكن ظلما قاسيا ناكسا للعهد كظلم عبد الرحمن لابد أن يجر وراءه عقابه وآلامه ، فإن الظالم قد يستطيع إخضاع قومه ، ولكنه لن يستطيع أن يفوز بإخلاصهم ، والملك الذى ينال بالسيف لا يبقى إلا بالسيف فقد نفر الناس من الامير الأموى بعد أن تجرعوا مرارة حكمه ، وأبى الأماناء من رجال الدولة أن يدخلوا فى خدمة رجل خداع فتاك مثله^(١)

Arabs in Spain P. 55 (١)

ثم يعود Lane Poole فيعتذر عنه ويقول :

وقد تكون حروبه الطويلة للقبائل قد أفسدت طبيعته العربية السمحاء ، ولم يستطع أن يحتفظ بملكه بين العناصر المضطربة المشاغبة إلا بأن يكون سريعا عند انقلب قوى العزيمة غير متحرج إذا صمم ، شديد البطش لا يرمى إلا ولاذمة ، سياسيا داهية ، أعد لكل مفاجأة عدتها ، وكثيرا ما دهمته الحوادث فرأت فيه بطلا هاما .

وإذا تركنا الجارم ولين بول وانتقلنا إلى غيرهما من الباحثين والمؤرخين ، نواجه مدحا وثناء على عبد الرحمن ، يقول أبو جعفر المنصور بطل العباسيين وقاهر أعدائهم :

لا تعجبوا لامتداد أمرنا بل العجب من الفتى القرشى ، الفذ فى جميع شئونه . ذلك الذى قذف بنفسه فى لجج الميالك لابتناء مجده ، فاقترح جزيرة شاسعة نائية المحل ، عصبية الجند ، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته ، واستمال قلوب عبيتها بسياسته حتى انقاد له عصيهم ، وذلك له أبيهم ، فاستولى فيها على السلطة قاهرا لأعدائه حاميا ذماره ، مانعا لحوزته جاذبا الرعية إليه بالرهبة والرغبة ، إن ذلك لهو الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه .

ويقول عنه ابن حيان :

كان عبد الرحمن ناجح الحلم ، واسع العلم ، ثاقب الفهم ، كثير الحزم ، نافذ العزم ، بريئا من العجز سريع النهضة متصل الحركة ، لا يخلد إلى راحة ولا سكن إلى دعة ، ولا يكل الأمور إلى غيره ، ولا يتفرد فى إبرامها برأيه ، سجعنا مقداما ، بعيد الغور شديد الحدة ، قليل الطمأنينة ، بليغا مفوها ، شاعرا محسنا ، سمحا سخيا ، طلق اللسان ، هابه وليه وعدوه ، وكان يحضر الجنائز يوصلى عليها ، ويؤم الناس إذا كان حاضرا صلاة الجمعة أو الأعياد ، ويخطب على المنبر ، ويعود المرضى ويكثر معاشرته الناس .

وهكذا نرى فيضا من المدح يذكره المؤرخ الأندلسى ابن حيان ، وإذا كان ابن

حيان قد قنع بذكر المحاسن ، ولم ير فى الأمير انحرافا يدافع عنه ، فإن المقرئ
تحدث عن الحسنات والمساوى فى عبد الرحمن ، وذكر أن شدة كانت ضرورية
لعصره وظروفه يقول المقرئ :

إنه كان من الصعب على عبد الرحمن أن يسلك سبيلا أخرى لتوطيد الحكم
بين مشاغبي العرب والبربر ، وأنه لم تكن لديه وسيلة لاجتثاث الفوضى إلا أن
يقابل هذه الفوضى بالشدة والعسف لأن كلا الفريقين لم يعتد الحكم المنظم .

وما يدل على أن شدة عبد الرحمن كانت رد فعل لانتفاضات أتباعه
وانحرافهم ما سبق أن أوردناه عن تسامحه مع النصارى ، ومعاهده مع شارلمان
، فهؤلاء قنعوا بالهزيمة وأرادوا أن يعيشوا بعدها حياة آمنة ، فأمنهم عبد
الرحمن وسمح لهم ببناء كنائسهم ومباشرة طقوس دينهم دون أى عدوان عليهم .

نفوذ الفقهاء على عبد الرحمن الداخل :

ذكرنا من قبل أن عبد الرحمن الداخل كان قاسيا ، وكانت القسوة وسيلته
لإحكام السيطرة على بلاد تكثر فيها الخلافات والفتن ، ولكن هذه القسوة كانت
تختلف بالنسبة للفقهاء إذ كان على عبد الرحمن أن يصطنعهم ، ويروى أن عبد
الرحمن كان مع رعيته سريعا إلى العقاب والبطش ، ولكنه كان طويل الصبر
واسع الحلم مع الفقهاء ، فيروى أن قاضيه عبد الرحمن بن طريف البحصي
تحدى رغبته وحكم فى إحدى القضايا ضد رغبة الأمير ، فقد كان للأمير صنعة
من صنائعه ، وقد اختلف هذا مع شخص آخر فى ملكية ضيعة مهمة ، وأشار
الأمير بالتأني فى الحكم ومحاولة إرضاء صنيعته ، ولكن القاضى أسرع فأصدر
حكمه على غير ما يهوى الأمير ، وأضاف القاضى شيئا من لوم عبد الرحمن إذ
قال : أيها الأمير ، ما الذى يحملك على أن تقف بجانب أحد رعيتهك ضد واحد
آخر من الرعية ، وأنت تجد وسيلة ترضى بها صنيعك من مالك دون حيف ، وقد
أخذ عبد الرحمن بهذا رأى فاشتري الضيعة من صاحبها وأهداها لصنيعته (١)

(١) الخشتى : تاريخ قضاة الأندلس ص ١٣ - ٤٤ .

وهناك مثل آخر يدل على ما استمتع به الفقهاء من مكانة فى ذلك العهد ، فقد رفض المصعب بن عمران أن يتولى القضاء لعبد الرحمن الداخل مخافة تدخله فى القضاء على ما وصفنا آنفاً ، فلما جاء هشام بعد أبيه طلب هشام من المصعب أن يتولى القضاء فقال له : إنه على غير أخلاق أبيه ، بل زاد على ذلك أن اشترط على نفسه شرطاً قاسياً فقال : ونفسى طيبة بما تفعل لصالح الأمور ، ولو وضعت المنشار على رأسى لم أعترضك . (٢)

جهود عبد الرحمن فى مجال الحضارة :

وضع عبد الرحمن أساس الجهود التى بنيت عليها حضارة شاهقة علمت أوروبيا صوراً من التقدم والمعرفة ومن هذه الأعمال الحضارية التى قام بها عبد الرحمن أنه أكمل سور قرطبة وأنشأ فيها داراً للسك النقود ، واهتم اهتماماً كبيراً بأمر البريد وإصلاح طرق المواصلات وجلب كثيراً من البذور والنباتات الشرقية فطور بها الزراعة بالاندلس .

ومن مفاخر عبد الرحمن أنه كوّن جيشاً هائلاً يخيف المتمردين من العرب أو البربر أو النصارى ثم بنى أسطولاً ضخماً ليدفع عن سواحله أى غزو ، وليهدد به أى معتد ، وكان جزء من هذا الأسطول يعمل فى التجارة مما رفع شأن البلاد فى الجانب الاقتصادى .

ومما يذكر عن أسطول عبد الرحمن أنه كان الدعامة التى اعتمد عليها الأسبان بعد تحول السلطة من العرب إليهم فاستطاعوا أن يتسلطوا بهذا الأسطول على البحر المتوسط ثم أن يكتشفوا الأرض الجديدة فى النصف الثانى من العالم .

ومن أهم أعمال عبد الرحمن العمرانية أنه أسس الجامع الكبير بقرطبة وأنفق عليه ثمانين ألف دينار ، فأصبح هذا الجامع بعد أن أنجزه خلفاؤه ووسعوه ، وزادوا فى زخرفته ، قبلة للمسلمين فى الغرب وأصبح جديراً بأن يقول فيه بعض المؤرخين ، إنه ليس فى بلاد الاسلام أعظم منه ، ولا أعجب بناءً وأتقن صنعة .

ومن أعمال عبد الرحمن المعمارية أنه جمل المدن فى مملكته ، وبنى للماء

العذب قناة لتحمله إلى العاصمة ، وشيد مدينة أسماها الرصافة في ظاهر قرطبة على غط القصر الذي كان جده هشام قد بناه في الشمال الشرقي من الشام ، وجلب عبد الرحمن المياه للرصافة كما أدخل فيها النباتات الأجنبية ، وبخاصة النباتات الشرقية .

ومن أهم الجهود الحضارية التي تنسب لعبد الرحمن أنه وضع بذور الحركة الفكرية في الأندلس تلك الحركة التي جعلت الأندلس مركزا هاما من مراكز الثقافة العالمية والتي ظهرت بصورة واضحة أيام خلفاء عبد الرحمن .

وفاة عبد الرحمن :

لكل شيء في هذا العالم نهاية ، وعبد الرحمن الداخل الذي ترك الشام عند سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢ أمضى ما يقرب من نصف قرن في صراع وقلق وحروب ودماء ، والقليل من عهده كان في جنبات المتعة والتعيم ، ولكن عبد الرحمن كان يرى متعته في الانتصارات والمعارك وفي التفوق ، وليس فقط في الكاس والطاس كما يفعل الآخرون ، ومن أجل هذا نقول : إن الفترة من هربه سنة ١٣٢ إلى عام وفاته سنة ١٧٤ ، كانت فترة رائعة عند الرجل ، قابل الأحداث وحده في أول الأمر ، ولكن سرعان ما أصبحت معه قوة ترهب الآخرين ، وعندما نام عبد الرحمن نومته الأخيرة ارتسمت أمامه معاركه وانتصاراته ، فملأت نفسه سعادة لاقى بها ربه .

لقد شبهه بعضهم ^(١) بالنسر ، وأجمل ما جاء في هذا التشبيه أن وفاة عبد الرحمن تزكت فيضا من الزمجرة والقوة وأتاحت لابنه هشام من بعده أن يحكم حكما هادئا ، وأن يعيش على صدى قوة أبيه .

وعندما أسلم عبد الرحمن الروح لبارئته كان ابنه وولى عهده هشام في (ماردة) يصارع بعض الثائرين فصلى سليمان بن عبد الرحمن عليه ، وأخذ البيعه لأخيه ، ودفن عبد الرحمن في ضواحي قرطبة ، وسرعان ما عاد هشام

(١) دكتور على شلق : عبد الرحمن الداخل ص ١٢٦ .

ليتولى ملكا ثبت أبوه أركاناه ورفع معالاه .

إن البطل يستحق الثناء والدعاء وعبد الرحمن بطل بكل المقاييس لقد دخل
الاندلس فردا ، وسرعان ما دانت الجموع له ، فهو من صفوة أبطال المسلمين
وخيرة الشجعان فيها .

رحمه الله رحمة واسعة .

مجالس العلم والأدب فى عهد عبد الرحمن :

إن مجالس العلم والأدب التى ازدهرت فيما بعد بالاندلس والتحق بها طلاب
من كل دول أوروبا هذه المجالس بدأت فى عهد عبد الرحمن الداخل ، ومن
العلماء والمشاهير فى هذه الفترة يحيى بن أبى عيسى وقد بدأ نشاطه من عهد
شبابه .

ومن أدباء العصر بالاندلس قمام بن عامر ، وقد تولى الوزارة فيما بعد
وغيرهم .

ومن علماء عصر عبد الرحمن الداخل محمد بن يحيى السبأى ، وعبد الوهاب
بن أبى هند ، ويحيى الغزال الجياني ، وهو شخصية فذة جمعت بين الأدب
والحكمة والسياسة ، ولقب بالغزال لأناقته وقد عاصر عبد الرحمن الداخل وابنه
هشاما وحفيده الحكم كما عاصر عبد الرحمن الأوسط بعد ذلك ، وكان شعره يميل
للدعاية والتهكم اللاذع وبه نزعة فلسفية ، وكان متضلعا فى علوم عصره يأخذ
بقسط من الفلسفة والقلك والتنجيم ، وكان يتناول فى شعره أحيانا قضايا تشير
الريبة ، وكان عباس بن فرناس من أهم أصدقاء الغزال .

وقام صراع بين الفقهاء المتعصبين وبين المفكرين المستنيرين كالأغزال وعباس ،
ووصل الحال إلى أن قدم عباس للمحاكمة بتهمة الزندقة ، ولكن القضاء برأه ،
ومن أقوال الغزال يهاجم الفقهاء .

لست تلقى الفقيه إلا غنيا	ليت شعرى من أين يستغنونا
يقطع البر والبحار - طلاب	الرزق والقوم هاهنا قاعدونا
إن للقوم مضربا غاب عنا	لم يُصَبْ قصد وجهه الراكبونا

عبد الرحمن اسم لثلاثة من الحكام العظام بالآندلس فى العهد الأموى

حكمت الآندلس الإسلامية فى العهد الأموى بمجموعة من الحكام تفاوتت مكانتهم قوة وضعفاً ، والذي يهمنا هنا أنه كان من بينهم ثلاثة من الحكام العظام كل منهم يسمى عبد الرحمن وهم : -

- عبد الرحمن الأول (الداخل) ١٣٨ - ١٧٢ هـ

عبد الرحمن الثانى (الأوسط) ٢٠٦ - ٢٣٨ هـ

عبد الرحمن الثالث (الناصر) ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ

وقد تكلمنا عن عبد الرحمن الداخل فيما سبق وهنا نتحدث عن عبد الرحمن الأوسط ثم عن عبد الرحمن الناصر

من عبد الرحمن الداخل إلى عبد الرحمن الأوسط :

هناك أحداث ذات بال حدثت فى الفترة بين عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الأوسط ، وهى ترتبط بحكام هذه الفترة ، وسنقص فيما يلى خبر هؤلاء الحكام وما جرى فى عهدهم من أحداث حتى نصل إلى عبد الرحمن الأوسط .

هشام بن عبد الرحمن

ولى عهد أبيه :

كان عبد الرحمن الداخل يدرك أن إمارة الآندلس ليست كغيرها من الإمارات ، لأنها تقع أمام عدوين لدودين هما القوط فى جليقية والمسيحيون فى فرنسا ، ثم لأنها بلاد كثرت بها العناصر البشرية ، وبالتالى كثرت اضطراباتهما واتصلت ، من أجل هذا حرص عبد الرحمن على اختيار أكفأ أبنائه لهذا المنصب الخطير ، ووقع اختياره على هشام متخطياً ابنه الأكبر سليمان ، وقد درّب عبد الرحمن ابنه هشام على فنون السياسة والحرب ، ووضعه أميراً على منطقة ماردة

غير بعيد من الأعداء بالشمال ليكون على خبرة بخططهم الحربية .

وعاد هشام من ماردة عقب موت أبيه وتولى إمارة أسبانيا ، ولكن أخويه - سليمان الذى كان واليا على طليطلة منذ عهد أبيه وعبد الله الذى كان فى قرطبة عند وفاة عبد الرحمن وولاه هشام ولاية ماردة عقب بيعته - حنقا عليه واجتمعا على الثورة فى وجهه ، وقد استطاع أن يخضعهما بعد نضال طويل ، وصالحهما على أن يرحلا من أسبانيا نظير مبلغ كبير نصيبا لهما من تركة والدهما ، وعبد الله هذا كان يعرف بعبد الله البلنسى لأن أباه كان قد ولاه على « بلنسية » وقد امتد العمر بعبد الله فثار على عبد الرحمن الأوسط كما سنرى فيما بعد .

الهجمات هشام الداخلية :

اتخذ هشام عمرين عبد العزيز نموذجا له ، وزاده ميلا إلى الخير وبذل العناية فى الإصلاح ما تكلّف له به أحد المنجمين من أن ما بقى من عمره لا يزيد عن ثمانى سنوات ، لذلك تفرغ الأمير فى هذه المدة للاستعداد للدار الآخرة ، فكان له من أعمال التقوى والإصلاح ما لا يحصر عدا ، آوى المضطهدين ، وأرسل الوعاظ والدعاة إلى جميع أجزاء مملكته للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعين بالمدن عسسا لمنع الشجار ومنع ارتكاب الجرائم ، وكان يعود المرضى ، وكثيرا ما كان يخرج فى الليالى العاصفة وهو يحمل الطعام للمريض من الزهاد حتى إذا بلغ داره جلس بجانب فراشه يؤنسه ويرعاه (١) ، وكان يختلط بالرعية ويتحسس أخبار الناس وينظر فى مطالبهم ، وكان يرسل من يثق فيهم من رجاله إلى كور الأندلس ومدنها يسألون الناس عن أحوالهم وسيرة عماله فيهم ، فإذا انتهى إليه أن أحدهم أسرف على الرعية حل عليه سخطه وعزله عن عمله ، كما كان يهتم بالزكاة فيجمعها ويوزعها فى وجوها .

وقد عنى هشام باللغة العربية ونشرها حتى أصبحت تدرس بمدارس اليهود ، وكان يطوف شوارع قرطبة ويختلط بالرعية ، وينظر بنفسه فى المظالم ، ويشيع جنازات الموتى (٢) .

(١) Lane-Poole : The Aralis in Spain P.P

(٢) العبادى : المجلد فى التاريخ الأندلس ص ٨٦ - ٨٧

عصر نفوذ الفقهاء :

وانتشر مذهب مالك فى عهده بسرعة واسعة ، ويرجع ذلك إلى أن الامام مالكا - وكان معاصرا لهشام - كان يثنى على اتجاهات هشام ويذكره بالخير ، ومن أجل هذا رحب هشام بالاتجاهات مالك فى الفقه وشجع على الأخذ بها واتباعها ، كما شجع هشام تلاميذ مالك الذين أخذوا عنه بالمدينة وفى مقدمتهم زياد بن عبد الرحمن ويحيى بن يحيى الليثى على نشر مذهب مالك فى مختلف النواحي ، وانتهاز يحيى هذه الفرصة فوسّع نفوذه ، مستغلا تقوى الأمير وميله للخير ، وعلى هذا أخذت الفتاوى تصدر على مذهب مالك ، وأصبح يحيى مصدر هذه الفتاوى وخطا هذا بنفوذه خطوة أخرى فأخذ يعين تلاميذه فى المناصب القضائية المختلفة وأحيانا فى المناصب السياسية ، وبذلك زاد نفوذ الفقهاء واستفحل حتى سُمّيَ هذا العصر : « عصر نفوذ الفقهاء » وسنرى أثر هذا فى عهد الحكم بن هشام .

وهكذا كان العنصر الدينى جزءا من الحياة السياسية ، ولم يكن الالتزام الدينى متروكا للرؤساء ولضمايرهم ، بل كان الفقهاء يقفون بجانب الحكام للإشراف على تنفيذ الاتجاهات الدينية .

ويرى بعض الباحثين أن هذا وضع طبيعى ، فان دولة إسلامية تتمرد على الخلافة الإسلامية ببغداد لابد أن تتظاهر بالتدين ليكون ذلك وسيلة لتثبيت أركانها ، وبدون ذلك تهتز ويضعف أمرها .

إصلاحات هشام :

وصرف هشام أكثر عهده فيما يعود على بلاده بالخير ، فجعل مدينته قرطبة وزينها بالمباني الفخمة والبساتين النظرة ، وجدد القنطرة التى بناها السمع بن مالك الخولانى ، وأحكم هشام بناءها حتى أصبحت مضرب المثل فى إحكام البناء ^(١) . ولما قيل إن الناس يهمسون بأنه اهتم بهذه القنطرة ليسهل عليه الوصول إلى الصيد ، أقسم ألا يعبرها مرة أخرى ، وبر فى قسمه ^(٢)

(١) المقرئ : نفع الطبيب خاص ص ١٦٠

(٢) Lane-Poole P. 92

موقفه من أهل الذمة :

وتسامح هشام مع أهل الذمة من المسيحيين واليهود بالملكة ، فأذن لهم بإنشاء المدارس والمعابد واستعمل عددا منهم فى وظائف الدولة .

هروبه الخارجية :

تأثرت حروب هشام الخارجية باتجاهه للتحوى والصلاح ، فقد أعلن هشام الجهاد ضد أعداء الدين وخاض معاركه ضد المسيحيين بالشمال الغربى باسم السياسة ، وقد استجاب لدعوته آلاف من المسلمين فهبوا معه للجهاد ، كما قدم الأغنياء أموالا وعتادا حربيا كثيرا وقد قاد هشام بنفسه شطر الجيش وخاض المعركة ضد مسيحيى جليقية فأحرز النصر المؤزر ، كما قاد وزيره عبد الملك بن مغيث الشطر الثانى وهاجم فرنسا ، وقد حقق هذا وذاك صورا من الانتصارات وعادا بغنائم كثيرة . (١)

الحكم بن هشام

يقول ابن خلدون (٢) عن الحكم بن هشام إنه « أول من جند بالأندلس الأجناد المرتزقة ، وجمع الأسلحة والعدد واستكثر من الحشم والخواشى ، وارتبطت الخيول على بابيه ، واتخذ الممالك وكان يسميهم الخرس لعجمتهم ، وقد بلغت عدتهم خمسة آلاف ، وكان يباشر الأمور بنفسه ، وكانت له عيون يطالعون أحوال الناس ، وكان يقرب الفقهاء والعلماء والصالحين .

صلة الحكم بن هشام بالفقهاء :

على أن صلة الحكم بالفقهاء لم تكن كصلة أبيه ، فقد كان يجلهم ولكن على أن يدبر هو الأمور ويستعين بمن يراه فى ذلك من رجال الدين وغيرهم ، لذلك لم يدع فى أيدي رجال الدين ما كان فى أيديهم من نفوذ أيام أبيه ، وقد سخط عليه رجال الدين لذلك وساعدهم على سخطهم أنه كان يحب الصيد والرياضة والترف

(١) Pozy : Histong to Mnslin is S painp . 242

(٢) انظر ابن الاثير حوادث سنة ١٢٩ مع ملاحظة ان ابن الاثير يجعل جيش جليقية بقيادة عبد الملك

(٣) (العبر : ج ٤ ص ١٢٧)

والطرف فتقولوا فى حقة ، واشتركوا فى مؤامرة لإسقاطه ، وقد أدى هذا التحدى إلى موقعة الرىض وتسمى هذه الموقعة « ثورة الفقهاء » وفيما يلى حديث عنها .

ثورة الفقهاء أو موقعة الرىض :

ترتبط الثورة بضاحية من ضواحي قرطبة تقع فى الجنوب منها واسم الضاحية « الرىض » ولذلك أصبح الحكم يسمى « الرىضى » بعد هذه الحادثة ، وقصة هذه الثورة أنه كان يسكن فى الرىض مجموعة من الفقهاء ، كما كان يسكن فيها كثيرون من الأسبان الذين دخلوا الإسلام حديثا ، وأغلبهم لم يكن الإسلام قد تمكّن من نفسه ، إذ كان قد دخله لأغراض سياسية أو اقتصادية .

وكان هشام (أبو الحكم) ورعا تقيا يقرب الفقهاء ويجلهم ، وقد حصل هؤلاء على سلطان كبير فى عهده كما سبق القول ، فلما تولى الحكم لم يكن كأبيه فى زهده وورعه ، إذ كان شابا له شغف بالمرح والصيد ، ثم اتجه فى معاملة الفقهاء اتجاها يغير مسلك أبيه ، فقد سلبهم ما كانوا قد حصلوا عليه من نفوذ ، وكان يرى أن الإسلام لا يعرف طبقة دينية كهذه الطبقة ، لها كهنوت خاص ، ويبيدها وحدها تفسير القرآن وإصدار الأحكام ، ومن أجل هذا أوقف نشاط هذه الطائفة ، فنقمت عليه .

واتخذ الحكم حرسا من الزنوج وأشباههم كانوا يعرفون « بالخرّس » لأنهم لا يتكلمون العربية و كانوا قساة يكرهون الجماهير ، وتكرههم الجماهير .

وفى مثل هذا الجو كان الرىض يقف موقف العداء من الأمير وحرسه ، وفكر الفقهاء فى عزل الأمير وتولية آخر ، ولكن هذه المؤامرة اكتشفت وأنزل أقصى عقاب بمدبريها ، وزادت هذه الحادثة من التوتر والكراهية بين سكان الرىض وبين الأمير .

وحدث مرة أن ضرب أحد جنود الحرس بعض العامة من سكان الرىض ، فثار الناس على الحرس وهب الفقهاء يحتجون على الاعتداء ، وقادوا الجماهير فى ثورة عارمة هاجموا بها القصر ، ودارت معركة بين الشوار وبين الحرس كان جانب

الشوار فيها أقوى وأشد ، وشوهد الحكم آنذاك وهو يضمخ رأسه بالعطر ، فسأله أحد خدمه : أهذا وقت الغالية يامولاي ؟ فأجاب الحكم : اسكت أيها الغر ، كيف يعرف العصاة رأسى من بقية الرؤوس إذا لم يتميز برائحته العطرة .

ودبر الأمير وسيلة أنقذته من الهزيمة ، فقد أرسل بعض أتباعه فأشعلوا النار فى مساكن الريض وأسرع الشوار يُنقذون زوجاتهم وأولادهم من النار ، فلحق بهم الحرس ضربا وتقتيلا^(١) و كانت موقعة الريض سنة ٢٠٢ هـ .

ويقول Lane-Poole^(٢) : وقد نجى الحكم بهذه الضربة القاصمة مقره وسلالته ، وكان كريبا قبض يده عن الإيذاء بعد انتصاره ، وهدم الريض ونفى سكانه من الأسبانيين إلى خارج البلاد ، إلى الاسكندرية واقريطش وقاس ، وعفا عمن نجا من الفقهاء

ومن الأحداث البارزة أيضا التى وقعت فى عهد هشام حادثة الخندق أو الحفرة ، وفيما يلى وصف موجز لها :

الخندق أو الحفرة :

اشتهرت طليطلة بالفتن التى يتلو بعضها بعضا ، وبالاضطرابات والعصيان والتمرد ، فقد كان بها طائفة من النبلاء الأسبان يشيرون هذه الفتن ، ويشعلون هذه الشورات ، وقد استقر رأى الأمير الأموى « الحكم » على أن يتخلص من هؤلاء ، فولى على المدينة رجلا أسبانيا مسلما اسمه عمرو بن يوسف ، وأوصاه أن يدبر مؤامرة يتخلص فيها من النبلاء الثائرين فى ولايته ، وحدث أن ذهب ولى العهد عبد الرحمن بن الحكم (عبد الرحمن الأوسط فيما بعد) لزيارة المدينة وهو غلام فى منتصف العقد الثانى ، فأقام له عمرو مأدبة دعا إليها الرؤساء والنبلاء ، وتوافد هؤلاء على الوالى .

ولكن الوالى كان قد أعد استقبالا غير الذى يتوقعونه ، فقد حفر لهم فى القصر خندقا عميق ، وعندما بدأت طلائع النبلاء تَفِدُ إلى القصر ، كان أتباع

(١) المقرئ : نفع الطبيب ج١ ص ١٦٠

(٢) Arahs in Spain p . 66

عمروس يقودونهم إلى هذا الخندق ، حيث تضرب أعناقهم ويطرحون به ، و
تخلص الحكم بذلك من كثيرين من مثيرى الشغب فى طليطلة وهدأت المدينة بعد
ذلك . (١)

هل يجهز هذا القدر ؟

الإجابة على هذا سهلة ، فقد تكررت أمثال هذه الأحداث فى التاريخ القديم
والحديث ودنيا السياسة تستبجح مالا تبيحه الأديان .

ويرى الذين يوقعون بأعدائهم بمثل هذا الطريق أنهم توقعوا منهم فتنة تاكل
العديد من الناس ، فتخلصوا من القليلين لحماية المجموع . وهى وجهة نظر على
كل حال .

القرن الثالث الهجرى وعبد الرحمن الثانى (الأوسط)

ونجىء الآن إلى عبد الرحمن الأوسط وهو ابن الحكم بن هشام ، وأمه أم ولد
اسمها « حلاوة » وقد ولد بمدينة طليطلة سنة ١٧٦ هـ إذ كان أبوه آنذاك أميراً
عليها فى عهد جده هشام .

وكان أبوه قد جعله ولياً لعهد ، ولما مات والده نودى به حكماً على الأندلس
وأخذ له البيعة الوزير الحاجب عبد الكريم سنة ٢٠٦ هـ وظل حاكماً حتى توفى
سنة ٢٣٨ هـ .

وعهد عبد الرحمن الأوسط كان حافلاً بالمفاخر الحضارية كما كان حافلاً
بالصراع والثورات ، ومن مفاخره الحضارية أنه أول من أسس قواعد البلاط
الأموى بالأندلس ، وأحاط مراسم الخلافة بالهيبة والفخامة ، ووضع نظام
الفروسية الذى اقتبسته أوروبا بعد ذلك ، ورتب تقاليد مهمة للوزارة ، وشجع
الحركة العلمية ، وهو الذى أسس مسجد إشبيلية وعمر أسوارها ، كما أنه
أضاف بهرين إلى أبهاء جامع قرطبة ، وأسس مساجد أخرى فى كثير من مدن
إسبانيا .

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٦ أو ابن القوطية ٩٠ ص ٤٥ - ٤٦

وعنى عبد الرحمن الأوسط بجلب الكتب والمخطوطات من الشرق ، كما أنه جلب إلى الأندلس روائع التحف التي كانت في قصور بغداد إذ أنتهز فرصة مقتل الأمين وغيبة المأمون عن بغداد فابتاع كل ما وصلت له يده من تحف قصور الرشيد .

ومن الجوانب الحضارية مذكره الرازي المؤرخ الأندلسي من أن عبد الرحمن الأوسط قسم وقته بين تعمير قرطبة وتجميلها ، وبين الصيد في سهول الوادي الكبيره ، وبين مجالس العلم والآداب والموسيقى ، وكان يرسل رسله لبغداد ليصفوا له ما وصلت إليه العاصمة العباسية من تقدم ويحاول تطوير الحياة في قرطبة على هذا النمط .

من نفوذ الفقهاء في عهد عبد الرحمن الأوسط :

كان للحكم والد عبد الرحمن الأوسط جارية تنال إعجاب الحكم وتقديره اسمها « عجب » وكان لها ابن أخ طائش بدرت منه عبارة قس الذات الإلهية ، فألقى القبض على هذا الفتى الطائش ، وظهر أنه سيحكم بقسوة على استهتاره ، وحينئذ تقدمت « عجب » تشفع له لدى عبد الرحمن الأوسط ، فقال لها : مهلا يا أماء ، فلا بد أن يكشف أهل العلم عما يجب عمله فيما قال ، فإننا معشر بني مروان لا تأخذنا في الله لومة لائم ، وما نرى أن الله رفع ملكنا وجمع في هذه الجزيرة شتاتنا ، وأعلى فيها ذكرنا ، إلا بإقامة حدوده وحكم المفتيان : عبد الملك بن حبيب وإصبع بن خليل على الفتى بالصلب ونفذ الحكم .

وفي رأى الفكر الإسلامى أن هذا الحكم قاس إذ كان لابد أن يستتاب هذا الفتى المخطئ قبل أن ينفذ فيه حكم الإعدام .

ومن أشهر فقهاء هذا العصر محمد بن وضاح وتقى بن مخلد وكان الأخير لا يقنع بالفقه المالكي ولا بموطأ مالك ، فقد قرأ كتاب الأم للإمام الشافعي ، وقام بتدريسه ورأى الفقهاء في ذلك خروجاً على فط الحياة ومدعاة للبلبله الفكرية والسياسية ولجئوا إلى محمد بن عبد الرحمن في ذلك ذاكرين أن ذلك يقود إلى اختلاف كلمة الناس واستعان الفقهاء بالعامه ضد تقى بن مخلد ، فاستدعاه الأمير وسأله وقرأ مسند ابن أبي شيبه الذى كان تقى يعتمد عليه فارتضاه

الأمير ونسخ منه نسخة لمكتبته وأمر الفقهاء ألا يعرضوا لتقى بن مخلد ،
وانتهز تقى هذه الفرصة فراح يؤلف ويوسع نفوذه الفكرى ، واتسع مع هذا قدر
الأمير فأصبح يسمى الإمام وإمام الجماعة وقد كان هذا اللقب خطوة تجاه الخلافة
التي أعلنها عبد الرحمن الناصر فيما بعد .

وبلغ من اهتمام علماء الأندلس بالحديث الشريف أن حبيب بن الوليد
المعروف بـ « دحون » قابل فى المدينة فى أثناء رحلته بالمشرق جارية ضليعة فى
علوم الحديث فتزوجها وعاد بها للأندلس وكأما عاد بثروة هائلة .

زُرِّيَاب :

جانب مهم من جوانب الحضارة فى عهد عبد الرحمن الأوسط وهو جانب
يرتبط بالموسيقى والفنان العظيم زُرِّيَاب ، وقد آن لنا أن نتحدث عن هذا الرجل
وعن دوره الحضارى فى الأندلس فى عهد عبد الرحمن الأوسط .

وكان زرياب مولى الخليفة المهدي ثالث خلفاء بنى العباس ، وكان تلميذا
لإسحق الموصلى ولكنه امتاز بمواهب عالية وبفكر خلاق ، وتقدم فى الغناء
والموسيقى تقدما محسوسا حتى ادعى أن الجن هى التى تعلمه الأصوات ،
وحدث أن قدمه إسحق للرشيد فأعجب به الرشيد ، وهتف : هذا طليتى ، وبعد
فترة دبت الغيرة فى نفس إسحق ، وخاف أن يحتل زرياب مكانه فى البلاط ،
فصاح فيه أن يختار واحدة من اثنين ، إما الهجرة فى أرض الله الواسعة بمواهبه
وفنه ، وإما أن يبقى مراغما فيستهدف غضب إسحق وسخطه ، ولم يقو المغنى
الناشئ على الثانية فأثر الأولى ، واتخذ طريقة إلى الشمال الإفريقى حتى
وصل القيروان .

وعرف الحكم بن هشام خبره فاستدعاه وأمله ، واستجاب زرياب وأخذ طريقة
إلى قرطبة ، ولكن الحكم مات قبل أن يصل زرياب ، فتردد هذا فى مواصلة
السير ، ولكن عبد الرحمن الأوسط أرسل له يحثه على مواصلة السير ويعده
خيلا ، فقدم زرياب وأحسن عبد الرحمن الأوسط استقباله وهيا له مقاما طيبا .

وكان زرياب موسيقيا بارعا ومغنيا رائعا ، وله فى الموسيقى والغناء

ابتكارات ممتازة ، فهو الذى زاد وترا خامسا علي أوتار العود ، وقد أحدث فى بلاط قرطبه جوا جديدا كما علم أولاده وبناته فنونه ، وعلم غير بناته من الجوارى حتى انتشرفنه وذاع صيته وطبقت شهرته آفاق الأندلس .

ولم يكن زرياب مغنيا وموسيقيا فحسب ، ولكنه كان أبعد من ذلك ، كان رجل « اتيكيت » ومنتشا لثقاليده سيطرت على المجتمع ، فزیه أصبح الزی المفضل لدى الطبقة العليا ، وتسريحة شعره اقتبسها منه الرجال ، وأخذ الناس عنه إعداد الموائد ، وتقديم الطعام ، وترتيب أثاث البيت ، وغير هذه من شئون المجتمع .

وإذا كان زرياب منح الأندلس هذا الفكر الجديد المتلون فقد منحته الأندلس الجاه من خاصته والثراء ، وقربه الأمير حتى عدّ من خاصته ، وبلغ من ثرائه انه كان يركب فى مائه غلام .

صلات المسلمين بأوروبا المسيحية :

ومع أن الإسلام واجه المسيحية وجرى صراع بين المسلمين والمسيحيين فإن السياسة تدخلت أحيانا ، فقام وفاق بين البيزنطيين بالقسطنطينية وبين الأمويين بالأندلس لمواجهة حلف آخر بين خلفاء بغداد وبين الفرنجة بفرنسا مما يوحى بتغلب السياسة على الدين أحيانا .

رحلة بعض مفكرى المشرق للأندلس :

إن التطور السريع الذى حصلت عليه الأندلس فى ميدان الحضارة خلال القرن الثانى ، وما عُرِف عن هذه البلاد من رخاء وخير ، ثم منافسة الأمويين بالأندلس للعباسيين ببغداد ، كل هذا دفع بأفواج من المفكرين إلى الرحلة من المشرق للأندلس ، وقد رحب بهم عبد الرحمن الأوسط أيما ترحيب ، فكان عهده - كما قلنا من قبل - مطلع التقدم الحضارى الخصب الذى عرفت به الأندلس ، وبخاصة إذ كان عبد الرحمن الأوسط رجلا واسع الثقافة منجبا للمعرفة ، رفيع الذوق

ثورات فى عهد عبد الرحمن الأوسط :

كانت الثورات متتالية فى الأندلس ، لم يوقفها إلا حزم الحاكم ، وقد شهد عصر عبد الرحمن الأوسط عدة ثورات نشير لها إشارة سريعة فيما يلى :

- ثورة عم أبيه عبد الله البلنسى أحد أبناء عبد الرحمن الداخل فى بلنسية سنة ٢٠٨ .

- الفتنة بين المضريين واليمنيين وقد استمرت من سنة ٢٠٨ الى سنة ٢١٣ .

- ثورة ماردة بقيادة بعض زعماء البربر .

- ثورة طليطلة سنة ٢١٤ بقيادة هشام الضراب .

- حملات ضد أمراء الشمال المسيحيين .

على أن هناك حركتين خطيرتين كانتا شديدتى الأثر فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، وهما : -

١ - ثورة قرطبة (حركة الاستشهاد)

٢ - غارات النورمانديين .

وفىما يلى حديث عن كل منهما :

١ - ثورة قرطبة (حركة الاستشهاد) .

يقرر مؤرخو العرب أنه لم يُعرَف عن الاسبانيين شىء من التحمس الدينى للمسيحية قبل انتشار الإسلام بأسبانيا ، إذ أن المسيحية مستهم مساً خفيفاً ، حتى أن الكثيرين منهم هرعوا إلى الإسلام راغبين راضين ، وعاش المسلمون والمسيحيون فى اختلاط وصداقة وحسن معاملة ، وأخذ النصارى يبغضون لثقتهم اللاتينية ويصدفون عن آدابها ، وتعلموا اللغة العربية وأحبوا آدابها ^(١) .

أما الأسبان الذين بقوا على المسيحية فقد عاملهم المسلمون خير معاملة ،

Dozy : The Muslim in Spain P.P 279 - 280 (١)

تركوهم أحرارا فيما يعبدون ، لم يتدخلوا قط فى عقائدهم ، وكان المسلمون لا يذكرون اسم عيسى إلا أتبعوه بالصلاة عليه ، وكانوا يحيطون اسمه بالإجلال والتبجيل ، وفى الوقت نفسه تركَ المسيحيون أحرارا يتجرون كما أرادوا ، ويجمعون الثروة حيثما وجدوها .^(١)

وكان من الطبيعى إذن أن عاش المسلمون والمسيحيون فى أمن ومودة ، وفجأة ظهر فى قرطبة فى عهد عبد الرحمن الأوسط قس مسيحي اسمه (يولوغىوس) ، اشتهر بالتعصب والجرأة بل بالتهور ، فأخذ يسب الإسلام ، ويهاجم الأسبان الذين اعتنقوه ، ويحجب لأتباعه الاستشهاد فى سبيل الخط من الإسلام والهجوم عليه ، وساعده على ذلك شاب غنى بقرطبة اسمه (الفارو) وتبعته فتاة جميلة اسمها (فلورا) وقسيس آخر اسمه (برفكتوس) وكانت الفتاة مسلمة فارتدت عن الإسلام وأخذ برفكتوس يسب محمدا ، ويسب القرآن ، ويحط من قدر الإسلام ، فحوكم وأعدم ، وأثار أعدامه ثائرة زملائه المتعصبين ، فعُدوا هذا انقميس قديسا ، وتلاه قسيس آخر اسمه إسحق جاء لنقاضى يدعى أنه يريد الدخول فى الإسلام ، ولما مثَّلَ أمام القاضى أطلق لسانه يشتم محمدا صلوات الله وسلامه عليه ويسب الإسلام والقرآن ، فحكم عليه أيضا بالإعدام ، وتوالى بعد ذلك الأحداث المماثلة وطالما رأى قضاء المسلمين ألا يقابلوا هذه النزعة بالعنف ، فأخذوا يهدثون من ثورة المنحرفين ويحكمون بالحبس بدل الإعدام ، ولكن الشائرين كانوا يطلبون الموت بإصرار ليلحقوا بمن سموهم الشهداء ، حتى أن القاضى رفض أن يحكم بالإعدام على (فلورا) ولكنها ثارت ، وطالبت بالموت ، وراحت ترغى وتزبد وتتمادى فى هجومها على الإسلام ، حتى حكم عليها بالإعدام ، وهكذا أعدم فى هذه الحركة أحد عشر متعصبا فى شهرين .^(٢)

وقد تدخلت الكنيسة نفسها لإيقاف هذه الموجة الحانقة ، ويقول Hitti^(٣) إن هذا الشوق الهستيرى إلى التضحية بالنفس لم يتوقف حتى أعدم أسقف قرطبة يولوغىوس نفسه سنة ٨٥٩ بأمر من محمد الأول (٨٥٢ - ٨٨٦) الذى انتهج

(١) Dozy : The Muslims in Spain P.P 279 - 280

(٢) History of the Arabs P. 615

سياسة صارمة مع هؤلاء ، وبلغ عدد الذين أعدموا فى هذه الحركة نحو أربعة وأربعين .

شارات النورمان :

وفى عهد عبد الرحمن الأوسط بدأت غارات النورمان على أسبانيا ، والنورمان قوم من أهل الشمال موطنهم الأصلي البلاد الاسكندنافية ، وكانوا فى ذلك الوقت متوحشين لامدنية لهم ، يركبون مراكب صغيرة ذات أشرعة سوداء ، ثم يلغون أعنة مراكبهم على الساحل ويهجمون على السكان كالجراد يقتلون السكان ويحرقون المساكن وينهبون ما يستطيعون الحصول عليه ، ويعودون بسرعة إلى مراكبهم وقد أشعلوا النيران خلفهم ، وكان المسلمون لذلك يسمونهم المجوس (عبدة النار) وفى عهد عبد الرحمن الأوسط هاجموا لشبونة وإشبيلية وأوقعوا الرعب فى الأهالى ، ثم امتدت غاراتهم حتى شملت الجانب الشرقى من الأندلس ، وشملت كذلك بلاد فرنسا وإنجلترا وجنوب إيطاليا وصقلية فى القرن التاسع الميلادى .

وكان من أثر غارات النورمان على أسبانيا أن أنشأ المسلمون بحرية كبيرة لتحمي لهم الشواطىء من مثل هذه الهجمات البربرية المدمرة ، وكان جزء من هذه البحرية يتخذ البحر المتوسط مركزا له لحماية أسبانيا الشرقية ، والجزء الآخر ينزل بمياه المحيط الأطلسى ليحمى أسبانيا الغربية .

وقد عاد النورمان للهجوم على أسبانيا فى عهد محمد بن عبد الرحمن ، وكانت الفوضى والضعف قد انتشرت فى البلاد ، ولذلك استطاع النورمان أن يهاجموا مالقة ورنده وأن يدمروا المباني والمساجد وينهبوا كثيرا من الثروات ، وقد تصدى لهم الأسطول الإسلامى فقلل من خطرهم واستعاد بعض ما نهبوه واستولى المسلمون على بعض مراكبهم ، ولولا اضطراب الأحوال فى أسبانيا لكان من الممكن حماية الشاطىء تماما من غارات هؤلاء المعتدين .

وتوفى عبد الرحمن الأوسط بقرطبة سنة ٢٣٨ بعد عهد حافل بالحضارة وحافل بالثورات ، وسنتحدث فيما بعد عن الحضارة فى عهده .

من عهد الرحمن الأوسط إلى عهد الرحمن الناصر :

(٢٣٨ - ٣٠٠ هـ)

نريد أن نتكلم بإيجاز عن الفترة التي وقعت بين عبد الرحمن الأوسط وعبد الرحمن الناصر على نحو ما تكلمنا من قبل عن الفترة بين عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الأوسط .

محمد بن عهد الرحمن وابناه المنذر وعبد الله :

وحكام هذه الفترة هم محمد بن عبد الرحمن الأوسط وابناه المنذر وعبد الله ، ويمكن الكلام عن هؤلاء الحكام تحت عنوان واحد ، وذلك للتشابه في أحداث هذه الفترة ، فقد بلغت الاضطرابات ذروتها خلالها وبدأ التفكك الكامل يظهر ، وهبت الثورات من العرب ومن المستعربين ونشطت قوة المسيحيين .

وقد بدأت هذه الأحداث متصلة بمحمد بن عبد الرحمن الذي تولى الإمارة بعد أبيه عبد الرحمن الأوسط ، وكان محمد هذا بخيلاً ، حرص على جمع المال من أى طريق حتى أنقص مرتبات الموظفين وقبّل الإنفاق على مصالح الدولة ، وكان فى الوقت نفسه كثير الشراب محباً للدعة ، فهب الأنصار والأعداء فى وجهه ، وقام محمد يدافع عن سلطانه فأوقع بالمسيحيين الذين يقودون حركة الاستشهاد ويسبون الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وبينما كان محمد يقضى على حركة الاستشهاد ، ويحارب طليطلة ، كانت الثورات قد ظهرت فى كل مكان ، فأمضى محمد هو وابنه المنذر حياتهما فى نضال مستمر ، مرة ضد الثوار العرب وبخاصة بنو حجاج الذين أعلنوا استقلالهم بإشبيلية ، ومرة ضد الثوار البربر الذين استقلت كل قبيلة منهم بمكان وبخاصة أسرة ذى النون فى الولايات الغربية وابن تاكيت بماردة ، ومرة ضد المستعربين وبخاصة ابن حفصون فى الجنوب الغربى (مالقة ورندة) ومرة ضد عبد الرحمن بن مروان بماردة ولشبونة ، ثم العدو الكبير فى الشمال .^(١)

وجاء عبد الله بن محمد إلى السلطة وقد بلغ الاضطراب غايته ، وما زاد فيه

(١) اقر اخبار هذه الحروب فى ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥ - ١٣٦

أنه كان شيخا قد تقدّمت به السن ، وكان مترددا بين الشدة والخنوع ، ثم إن محمدا ومطرفا ابني الأمير عبد الله لم يكونا على وئام ، وكان المطرف كثير السعاية ضد أخيه محمد عند أبيهما حتى إذ تمكّنت سعائته وظهر سخط الأمير عبد الله على ابنه محمد هرب هذا ولحق بابن حفصون ثم استأمن وعاد ، ولكن هذا أكد للأب الخوف من ابنه ، واستمر المطرف في السعاية حتى أصدر الأمير أمره بحبس محمد ببعض حجرات القصر ، وخرج الأمير لبعض غزواته وترك ابنه المطرف نائباً عنه في العاصمة ، فانتهز هذا تلك الفرصة وقتل أخاه ، وقد حزن الأمير عبد الله على ابنه وأدرك أنه مظلوم ^(١) فاحتضن ابنه (عبد الرحمن بن محمد الناصر) وكان طفلاً رضيعاً ، وعنى بتربيته ، وكأنما كان يعدّه للنهضة الكبرى التي شملت البلاد وأنقذتها من الاضطراب الذي أوشك أن يقضى عليها.

القرن الهجرى الرابع

ويدخل القرن الرابع الهجرى ، وهو أزهى عصور المسلمين بالأندلس ، وكان النجاح فيه تاماً في ميدانى السياسة والحضارة ، وقد تولى عبد الرحمن الناصر الحكم فى الأندلس طيلة النصف الأول من هذا القرن فأثبت أنه أكفأ الحكام الأمويين بالأندلس ، وجاء بعده ابنه الحكم فحفيده ، هشام ، وكان هشام صغير السن فتولى الحكم باسمه المنصورين أبى عامر وأولاده ، وكان المنصور من أقوى الرجال الذين برزوا فى تاريخ الإسلام ، وهكذا حفل هذا القرن بخيرة الرجال الذين ازدهى بهم ملك الأندلس ، والذين كان كل واحد منهم غرة فى مفرق زمانه وستبكلّم عن حكام هذا القرن من الأمويين ثم نتبعهم بحديث عن « الدولة العامرية » التى تنسب لابن أبى عامر .

عبد الرحمن الناصر

بطل من أعظم أبطال التاريخ الإسلامى ، وعلم من أشهر أعلام بنى أمية بالأندلس ، خلّف جده عبد الله بعهد منه ، وكان عبد الله قد أحس - كما قلنا - بخيانة يديرها ابنه (والد عبد الرحمن) فأوعز لابنه الثانى بقتله ، أو انتهز

(١) المرجع السابق ص ١٣٦ - ١٣٧

الابن فرصة سخط أبيه على أخيه فقتله ليخلو له الجو ، وكان عبد الرحمن طفلاً فاحتضنه جده ورعاه وأصبح أثيراً عنده ليعوضه عن فقد أبيه .

ولما شب ألقى جده خاقه إليه وآثره علي أبنائه ^(١) ولم يعترض على ذلك أحد ^(٢) ، فقد كان الملك آنذاك حافلاً بالمرارة والقسوة فلم يكن يطمع أحد فيه ، ثم كان فى شباب عبد الرحمن وشخصيته ما يبعث الخوف والتردد فى نفوس من يتجهون إلى التمرد ، فرحب به أعمامه وأعمام أبيه ، وشاع البشر والتفاؤل بهذا الفتى الرشيد .

الأندلس قبل عبد الرحمن :

ويصف المقرئ حال الأندلس عند تولية عبد الرحمن ، كما يصف الجهود التى بذلها عبد الرحمن والنتائج التى حصل عليها بقوله : وكانت الأندلس كثيرة المخالفين مضطربة بنيران المتغلبين ، فأطفأ عبد الرحمن تلك النيران ، واستنزل أهل العصيان ، وقد خاض غمار غروب طويلة ضد اللصوص والمارقين وأخضع هؤلاء وأولئك كما هاجم المسيحيين فأذلهم وأعادهم الى معاقلهم ، فسلم له البربر والعرب .

والملك العظيم - كما يقول Lone-Poole - ^(٣) أثر الحاجة الملحة والخطب العظيم فإذا اشتدت آلام الأمة وطال بأسها ، وازد حمت أيامها بالكوارث ، جاء الملك العظيم ينقذ قومه من براثن الخطر ، ليعيد إليهم الرفاهية والأمن ، وكانت الأندلس أحوج ما تكون إلى منقذ ومعين فى مطلع القرن الرابع الهجرى ، فقد انتشر العصيان فى دويلات الأندلس ، وتناوب عرش المملكة أمراء لاغناء فيهم آخرهم عبد الله جد عبد الرحمن الذى كان متقلباً مضطرباً ، يتأرجح بين الشدة والاسترخاء دون أن ينجح فى أى منهما ، فاهتبل كل نبيل أو زعيم من العرب أو البربر والأسبان فرصة ضعفه وسوء حكمه وما أصبحت فيه الأندلس من الفوضى فاقتصر نفسه بقسم من المملكة وقام يتحدى الأمير من وراء حصونه .

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ١٦٠

The Arabs in Spain P. 88 (٢)

The Arabs in Spain P. 88 (٣)

ولم يبق للأمير من يستنصر به إلا الجنود المرتزقة الذين أخضعوا له أهل قرطبة إخضاعاً ظاهرياً بحيث إذا جاوز المرء قرطبة لم يجد عربياً واحداً يرجى منه أن ينصر الأمير أو يدافع عن الدولة الأموية .^(١)

وفى وسط هذا الاضطراب السياسى اضطرب الاقتصاد ، فقد قلت العناية بوسائل الري واضطرب الأمن ، وانتشر اللصوص الذين سرقوا الماشية والمزارع ، وأحالوا الحقول إلى قفر يباب ، كما انتشر قطاع الطرق الذين هاجموا التجار وسطوا على قوافل التجارة .

وهكذا تطلع الناس فوجدوا أنهم لم ينجوا شيئاً من هذا التفكك إلا الخراب والدمار ، ولم يبق لهم من أمل إلا أن يظهر حاكم قوى يضرب على أيدي العصاة ، ويعيد الاستقرار والوحدة والأمن ، وكأنما عاهد كل منهم نفسه أن يكون جندياً من جنود هذا الحاكم لو ظهر هذا الحاكم للعيان .

عبد الرحمن شعلة نور بين الظلام :

وجاء عبد الرحمن الناصر كالشعلة انبثقت بين الظلام الحالك ، وكان مملوفاً بالفتاء والذكاء ، والإخلاص والوفاء كما كان أكبر من هذه الأحداث ، وسرعان ما أعلن سياسة واضحة لا تقلب فيها ولا غموض ، كانت هذه السياسة ترسمه ناراً متأججة مدمرة على من يناصبه العداوة وترسمه وفيماً صديقاً لمن يستسلم له ويتعاون معه ، وقد وضع عبد الرحمن هذه السياسة فى منشور بعث به هنا وهناك يدعو المتمردين إلى الطاعة ويعددهم بالعفو والعون إن استجابوا ، ويهدد وينذر من يعاند ويؤثر العصيان ، وقد وفى عبد الرحمن بما وعد فأما أمير استجاب لنداء عبد الرحمن قرىه عبد الرحمن وأغدق عليه وأنزله بقرطبة معزواً مكرماً مع أسرته وذويه^(٢)

وكأنما دفعت الشعوب حكامها إلى الطاعة ، فقد كان هؤلاء الحكام يدركون ما آل له أمر الشعوب من بؤس وشقاء ، ولذلك نجد عبد الرحمن يجول هنا وهناك فيخضع له أكثر الحكام وتلتف حوله أكثر الولايات .

(١) Ebid P. 89

(٢) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٢٦ - ١٢٧

صراعه ضد المارقين :

أما الحكام الذين استمروا فى تمردهم فقد لاقوا من عبد الرحمن صرامة هدتهم وعنفا قضى على استبدادهم ، ويتمثل هؤلاء فى ابن حفصون الذى استبد فى « ببشتر » ثم صارعه عبد الرحمن بهنفا حتى سقط ، وسيأتى حديث عنه وعن أولاده فيما بعد ، ويتمثل كذلك فى طليطلة التى عرفت دائما بكثرة الثورات والتمرد ، وقد شدد عبد الرحمن عليها الحصار وأحكمه وأطاله ثم أقام على الجبل القريب منها حصنا سماه « مدينة الفتح » ليعلم للثائرين أنه لن يتركهم ولن يتخلى عن حصارهم حتى يستسلموا ، وفعلا لم تجد المدينة الثائرة غير طريق الاستسلام فألقت السلاح بعد أن أعيت ثورتها كثيرا من الأمراء قبل عبد الرحمن . (١)

وفى خلال الاضطراب الداخلى الذى سبق إمارة عبد الرحمن ، ثم فى مطلع عهد هذا الحاكم انتهز المسيحيون فرصة هذا الاضطراب فحققوا كثيرا من الانتصارات ، وكانوا قساة فى انتصاراتهم ، فقد دمروا وقتلوا الأسرى ، وهدموا المساجد وأحرقوا الكتب ، ولذلك هب عبد الرحمن لتأديبهم ، فأرسل لملكة ليون جيشا بقيادة أحد قواده اسمه ابن أبى عبيدة ، وقد حقق هذا نصرا كبيرا فى أول الأمر ثم خر فى الميدان ، إذ كان فى جيشه بعض المرتزقة الذين لم يصمدوا فى المعركة وآثروا الفرار ، وبقي ابن أبى عبيدة مع صفوة جنده ، يقاتلون ويواجهون عددا كبيرا فقد أثر القائد البطل الموت على الهزيمة والفرار وكان له ما أراد ، وسرعان ما أرسل عبد الرحمن جيشا ثانيا بقيادة أحد خواصه فثار لابن أبى عبيدة ولم يكتف عبد الرحمن بذلك بل سار بنفسه وأوغل فى مناطق المسيحيين ونكل بهم وشتت شملهم ودمر حصونهم وانضم أمير مسلم خائن اسمه محمد بن هاشم لملكة ليون ، وكان هذا الأمير حاكما لأرجونه ، فسارع عبد الرحمن ينكل بالمتحالفين وحقق نصرا كبيرا ، ولما استسلم محمد بن هاشم عفا عنه الأمير العظيم . (٢)

(١) انظر الأدب الأندلسى للدكتور احمد هيكى ص ١٩٩

(٢) ابن خلدون : المعبر ح ٤ ص ١٤١ - ١٤٢

(التاريخ الإسلامى ج ٤ م ٧)

ويلاحظ أن عبد الرحمن الناصر كان يقود جيشه بنفسه فى كثير من الأحوال ، وكانت جولاته العسكرية تمتد أحيانا عدة أشهر ، وهذا ترك أثراً عظيماً فى نفوس جنده لأنه احتمل معهم أهوال الحرب ، وعاش حياتهم الخشنة ، وتعرض لما يتعرض له المجاهدون من شظف العيش ومن القلق والتضحية .

وقد هزم عبد الرحمن فى إحدى مواقع مع مملكة ليون وهى موقعة الخندق ولكنه سرعان ما استعاد قوته وسيطرته مما دعا الممالك المسيحية إلى طلب الصلح معه ، وتم هذا الصلح على النحو الذى أراده المسلمون .

أحداث بارزة فى حياته :

وهناك أحداث بارزة فى حياة عبد الرحمن الناصر جديرة بالشرح والإيضاح وهى

١ - موقفه من مجاعة أملت بالبلاء .

٢ - الصراع مع ابن حفصون .

٣ - لقب الخلافة .

٤ - رد خطر الفاطميين .

وستتكلّم عنها بشيء من التفصيل فيما يلى :

١ - موقفه من مجاعة نزلت بالبلاء :

فى مطلع عهد الناصر وبالضبط سنة ٣٠٢ هـ حل بالأندلس قحط شديد فعزّت الأقوات وارتفعت الأسعار ، ومن الممكن أن نتخيل أو نعتقد أن الناصر كان على صلة بتاريخ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وما قام به ابن الخطاب فى عام الرمادة من جهد للتغلب على المجاعة التى نزلت بالمسلمين فى الجزيرة العربية فقد هبّ الناصر طيلة هذه الأزمة يوزع الأقوات ، وفتح خزائنه لعون الناس دون حدود ، وقلده القادرون فى هذا الموقف النبيل مما خفف من حدة الأزمة ، وما زاد الشعب ارتباطاً بزعيمه الذى يروى أنه عانى معهم الجوع حتى انتهت المحنة .

٢ - الصراع مع ابن حفصون :

عمر بن حفصون ، ينحدر من أسر النبلاء الأسبان ، كان مسلما أو هكذا كان يدعى أول مرة ، وكان يعمل فى الجيش بقرطبة ، ولكنه رأى فترة الضعف التى مر بها الحكم الإسلامى بالأندلس بين عبد الرحمن الأوسط وعبد الرحمن الناصر (أى عهد محمد والمنذر وعبد الله) فثار فى وجه حكام قرطبة ، وانضم له كثير من الأسبان المسلمين ، والنصارى الخائنين على حكم العرب ، وحارب جيش الخلافة وانتصر عليه عدة مرات ، وأصبح بذلك زعيم المقاطعة الجنوبية واستطاع أن يعزل قرطبة عن بقية الأندلس ، واتخذ حصن بيشتر مركزا له . (١)

ولما خطا ابن حفصون شوطا طويلا فى النصر العسكري ، أراد أن يحقق نصرا سياسيا فاتصل بالعباسيين وعمالهم الأغلبية فى إفريقيه مؤملا أن يقلدوه إمارة الأندلس (٢) ، ولكن هؤلاء كانوا يدركون عدم إخلاصة ، فلم يستجيبوا له .

واندفع ابن حفصون يخلن سنة ٢٩٩ نصرانيته التى كان يُسرُّها من قبل كما يرى ابن عذارى (٣) وأحس المسلمون بالخطر يحدق بعرويتهم ودينهم ، وأصبح ابن حفصون يعتبر لدى الأسبان الحامى الذى يذود عن الوطن المكتوب . (٤)

وساقت الأقدار لحكم أسبانيا آنذاك البطل عبد الرحمن الناصر ، وقد دارت بينه وبين ابن حفصون معارك شديدة انتصر عبد الرحمن الناصر فى أكثرها حتى تقلص سلطان ابن حفصون إلى قلعته الجبلية فى بيشتر حيث مات سنة ٣٠٥ هـ وسلم أولاد ابن حفصون القلعة بعد ذلك للأمير العظيم ، وعادت الأندلس تدين بالولاء لأعظم ملوك الأمويين الذين حكموها .

ومن الواضح أن انشغال عبد الرحمن الناصر بحرب ابن حفصون أعطى فرصة للنصارى فى الشمال للعبث والفساد والعدوان على المسلمين ، وعندما انتهى الناصر من ابن حفصون اتجه بقوة إلى هؤلاء الغادرين فأنزل بهم صنوفا من

(١) انظر اخبار مجموعة ص ١٥٠ وابن خلدون : ١ : ١٣٥

(٢) ابن خلدون : المعبر ح ٤ ص ١٣٥

(٣) البيان المغرب فى اخبار المغرب ٢ : ١٤٣

(٤) فيليب حتى ح ٣ ص ٦٧١

الهزائم ، ولا يتسع المقام لتتبع ضرباته القاصمة هنا وهناك فى أرض النصارى ، ولكننا نقول بإجمال إنه أذلهم وقضى على شوكتهم وألزمهم الخشوع ، واستولى على الكثير من حصونهم ومعقلهم .

ولابد أن نذكر أن انتصارات عبد الرحمن الناصر العسكرية كان مرجعها إلى ما بذل من جهد فى إعداد جيشه ، فقد اهتم الناصر بحشد عدد ضخم من الرجال فى جيشه ، وأمر عليهم من يثق فى إخلاصة وبطولته ، وأسبغ النعم على الجيش حتى لا يتطلع رجاله لمزيد من النعيم ، وأمد الجيش بالعدة والآلات بسخاء ، ثم - وهذه نقطة مهمة جدا - تولى عبد الرحمن بنفسه قيادة الجيش فى حالات كثيرة ، فكان نعم القدوة ، وكما اهتم عبد الرحمن بالجيش اهتم بالأسطول ، فدعم وحداته وضم لها وحدات جديدة مما ضمن للأندلس أسطولا قويا يحمى الشواطئ الطويلة التى تحيط بالبلاد من أكثر الجهات أو من كلها .

٣ - لقب الخلافة :

قنع عبد الرحمن الداخل وستة ممن خلفوه فى الحكم بلقب أمير ، إذ كان من المصطلح عليه أن تكون فى العالم الإسلامى خلافة واحدة يستحقها من يحكم أغلب العالم الإسلامى بما فى ذلك الأماكن المقدسة ، ولكن الفاطميين عندما بدأت دولتهم بالشمال الإفريقى فى أواخر القرن الثالث الهجرى (٢٩٦ - ٢٩٧ هـ) اتخذوا الخلافة لقباً لهم ، لأنهم شيعة يرون أن الخلافة من حق أولاد على من فاطمة ، ولا يعترفون لغيرهم بالخلافة إلا تقيّة ، وبهذا فتح الفاطميون باب التعدد فى الخلافة ، فأتاح ذلك فرصة للأمراء الأمويين بالأندلس ليدعوا لأنفسهم هذا اللقب وساعد على ذلك أن ملك الأمويين بالأندلس كان قد وصل إلى الذروة والاستقرار فى عهد عبد الرحمن الناصر فى النصف الأول من القرن الرابع بينما فقد الخلفاء العباسيين كل سلطان وأصبحوا أقرب إلى الضعف وانهييار السلطان ، وبالإضافة إلى هذا فإن عبد الرحمن الناصر رأى أنه لا يسلب لقباً من أحد ، وإنما يستعيد لقب آبائه وأجداده ، بل عاب على السابقين من الأمراء الأمويين بالأندلس عدم التمسك بهذا اللقب ، ويظهر ذلك فى المنشور الذى أعلنه سنة ٢١٧ هـ وفيه يقول :

وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمر المؤمنين ، وخروج الكتب عنا وورثوها علينا بذلك ، إذ كل مدعو بهذا الاسم منتحل له ، ودخيل فيه ، متَّسِم بما لا يستحقه ، وكان هذا اللقب حقا أضعناه واسما ثابتا أسقطناه .^(١)

٤ - خطر الفاطميين : -

قامت الدولة الفاطمية فى الشمال الإفريقى وامتدَّ سلطانها حتى المحيط الأطلسى فى يوم من الأيام ، وكان ذلك قبيل عهد الناصر وخلاله ، وقد وقفت بذلك وجهها لوجه أمام الأمويين بالأندلس ، وما زاد الأمر حرجا بالنسبة لعبد الرحمن الناصر أن الفاطميين ورثوا عن الأغالبة أسطولا كبيرا كانوا يهددون به سواحل أوروبا وأسبانيا .

وقدّم ابن حوقل الرحالة الشيعى تقريره عن أسبانيا ، وكان تقريراً يغرى بالوحف عليها فقد جاء فيه أنها بلاد غنية طيبة الهواء كثيرة الماء وأن حكومتها ضعيفة ، وقد بدأ الفاطميون لذلك يرسلون إليها دعايتهم وينذون الطرف إليها .

وفطن عبد الرحمن إلى هذا الخطر فاتجه لإشعال ثورات واضطرابات بالشمال الإفريقى ليشغل الفاطميين عن بلاده ، وبخاصة أنه أدرك أن عدوة المغرب التى وصل لها الفاطميون كانت دائما قاعدة لغزو الأندلس ، ومن أجل هذا اتجه عبد الرحمن إلى ثغر « سبتة » واتصل ببعض زعماء البربر بالشمال الإفريقى فأيدوه ، وحالف أمير مكناسة ، ووصل الأمر إلى أن دُعِيَ له على منابر المغرب ، وهكذا لم يقف عبد الرحمن جامدا حتى يهاجمه العدو ، بل هاجم هو العدو ، وذلك أعلى نمط فى السياسة العسكرية ، على أن السبب الأهم الذى أبعد الخطر الفاطمى عن الأندلس هو أن اتجاه هؤلاء كان إلى قلب العالم الإسلامى إلى مصر والشام والعراق حيث يمكن أن يسيطروا على العالم الإسلامى كله .

بقيت فى أحاديثنا عن عبد الرحمن الناصر موضوعات ذات بال نتدارسها فيما يلى : -

(١) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٦٦

١ - أعوان الناصر :

إن الحركات الثورية المتصلة تقريبا والتي قام بها العرب والبربر بشكل مستمر تقريبا جعلت عبد الرحمن الناصر يفقد كثيرا من الثقة فى هؤلاء وأولئك ، وألزمته أن يتجه إلى الموالى والصقالبة ليتخذ منهم خدمة ومساعدته ، وكان هؤلاء قليلى الأطماع لأنهم ينحدرون من منابت وضيعة ويقنعون بالقليل من المال والنفوذ وبعض الثراء ، وكان هؤلاء من الصقالبة غالبا ، والصقالبة فى الأصل هم من الأسرى الذين ينتمون للأجناس الصقلية السلافية ، ثم اتسع نطاق استعمالاتها بالأندلس فأصبحت تطلق على المسيحيين الذين ينتسبون إلى بلاد مختلفة ، وكان هؤلاء يؤتى بهم فى عهد طفولتهم وصباهم ويربون تربية إسلامية ، وقد تدرج سلطانهم فى الحياة من خدم فى القصور حتى أصبحوا قادة الشرطة والجيش ومن مشاهيرهم « أفلح » رئيس الخيالة و « درى » صاحب الشرطة و « ياسر » و « تمام » وكان فى يدهما الشئون الخاصة للأمراء والملوك .

٢ - عهد رخاء :

إن استقرار الأحوال عقب انتصارات الناصر الباهرة ، حقق الأمن ، فازدهرت التجارة والزراعة والصناعة ، وتبعاً لذلك أصبح عهد الناصر عهد ازدهار ورخاء وأصبح الناصر أغنى ملوك عصره ويذكر دوزى أن الناصر قسم الجباية ثلاث أقسام قسم لنفقة الجيش ، وقسم للبناء والمنشآت العامة ، وقسم يدخر للطوارئ .

٣ - أهم منشآت الناصر :

كان من مظاهر العظمة أن اتجه الناصر إلى التشييد والبناء ، وفى مقدمة منشآت الناصر مدينة الزهراء فى الشمال الغربى لقرطبة ، وكانت ضاحية مهمة من ضواحي قرطبة ، ويقال إنه سماها باسم جارية كانت حظية عنده اسمها « الزهراء » وبنى الناصر قصرا جديدا فاخرا أسماه : دار الروضة كما أنشأ فى الزهراء مسجدا عظيما ومجموعة من المنشآت الحربية ومنشآت الترفية ، وما ينسب للناصر من المنشآت معاهد قرطبة التى كانت من أهم المعاهد العلمية التى كسبت الأماجد للمسلمين بالأندلس .

وللأسف كان عهد الزهراء قصيرا فقد عاشت حاضرة الملك منذ انتقل لها
الناصر سنة ٣٢٩ هـ إلى نهاية عهد ابنه الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ ، وبعد
المستنصر أصبح محمد بن ابي عامر وصيا على الخليفة الطفل هشام المؤيد ابن
الحكم ، وانتقل ابن ابي عامر إلى ضاحية جديدة بناها هو اسمها « الزاهرة »
وانتهى بذلك مجد الزهراء التي فاقت قصور ألف ليلة وليلة والتي لم يعرف لها
نظير في الإسلام .

وما يدل على شغف الناصر بالعمران والمباني تلك المقطوعة الشعرية التي
تنسب للناصر وهي : -

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها	من بعدهم فبالسن البنيان
أوما ترى الهرمين قد بقيا ، وكم	ملك محتة حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاضم شأنه	أضحى يدل على عظيم الشأن

٤ - جوانب حضارية في عهد الناصر : -

وامتداداً لأحاديثنا عن منشآت الناصر نتحدث عن بعض الجوانب الحضارية
المرتبطة بالفكر والثقافة فقد ظهر في عهد الناصر مجموعة من الشيوخ الذين
برزوا في الجانب الفكري ، ومن هؤلاء قاسم بن اصيغ البياني (سنة ٣٤٠ هـ)
ويقولون عنه إنه جمع من العلم أضعاف ما جمع غيره ، وعلا قدره في عهد
الناصر حتى جلس الناصر للاستماع منه ، وجلس كذلك أمامه الأمير الحكم
المستنصر قبل أن يلي الخلافة .

ومن هؤلاء كذلك محمد بن عبد الملك بن أمين (ت ٣٤٠ هـ) وكان فقيها
عالما ، ومن هؤلاء أحمد بن خالد بن يزيد المعروف بابن الحجاب (ت ٣٢٢ هـ)
وكان يوصف بأنه إمام وقته غير مدافع في الفقه والحديث وكان مع هذا رجلا
متواضعا منصرفا عن الدنيا .

ومن أطباء ذلك العصر يونس الخرائي وأبو الحكم المغربي وسلمة بن أحمد ،
وكانوا يعالجون المرضى ويعلمون الطب .

٥ - سفارات عهد الناصر :

إن تبادل السفارات والبعوث كان ابتكارا إسلاميا ، قام به الرسول صلى الله عليه وسلم فى العام السابع للهجرة ^(١) ، وسار عليه المسلمون بعد ذلك كما وضعت فى مكان آخر (كتاب العلاقات الدولية فى الفكر الإسلامى) وقد جرت مناوشات وحروب بين المسلمين بالأندلسى بين المسيحيين فى الشمال الغربى لأسبانيا وكذلك بين المسلمين والفرنجية ، ولكن انتصارات عبد الرحمن الداخل جعلت المسيحيين فى أمكنة متعددة يلجأون للوسائل السلمية من معاهدات وسفارات بينهم وبين قرطبة ، وسنورد فيما يلى حديثا عن أهم هذه السفارات .

أ - سفارة امبراطور القسطنطينية :

فى سنة ٣٣٦ هـ وفدت إلى الناصر سفارة الامبراطور قسطنطين السابع وكانت تحمل هدايا ثمينة ، واحتفل الناصر بقدوم هذه السفارة ، فزين القصر بأبدع زينة ، وأعد موكب العسكر إعداداً جيداً . وجلس الناصر على عرشه الضخم يحيط به كبار رجاله ، وقد أخذت السفارة بهذه المناظر البديعة وقدمت كتاب الامبراطور للخليفة المسلم .

وقد بعث الناصر سفيرا من عنده يحمل أعظم الهدايا للامبراطور قسطنطين السابع ردا على سفارته .

وكانت هذه السفارة تجديدًا للعلاقات بين الدولة البيزنطية ودولة الإسلام بالأندلس ، وكانت تحمل لونا من التحالف بين القوتين ضد الدولة العباسية التى كانت خصما للطرفين ، كما كانت توحيدا لقوة الطرفين فى مواجهة الدولة الفاطمية التى بدأت تشير المتاعب ضد البيزنطيين فى البحر المتوسط ، وتشير المتاعب أيضا ضد حكومة قرطبة فى المغرب الأقصى وقد أشرنا إلى مثل هذه العلاقات من قبل .

(١) أقرأ الجزء التاسع من موسوعة الحضارة الإسلامية عن العلاقات الدولية فى الفكر الإسلامى

ب - سفارة ملك الصقالبة :

كان ملك الصقالبة يدعى بطرس أو بيتر وكان ملكا لبلغاريا التي كانت تعرف آنذاك بمملكة الصقالبة ، وكان لهذه السفارة أثر كبير فى توطيد مكانة الصقالبة بالدولة الإسلامية والثقة بهم .

ج - سفارة ملك فرنسا :

أرسل ملك فرنسا « لويس الرابع » سفارة إلى الخليفة الناصر ، وكان هدفها طلب الصداقة والمودة وعدم الاعتداء ، وقد استجاب الناصر لهذه الأهداف .

د - سفارة امبراطور المانيا :

حدثت هذه السفارة سنة ٣٤٢ هـ وكان امبراطور المانيا هو « أوتو » وكان آنذاك يعتبر زعيم النصرانية ، وهدف هذه السفارة كان منع التوغل الإسلامى فى سويسرة وغيرها من القطاعات التابعة لامبراطور المانيا . ، وكان سفير الامبراطور حبراً يدعى « يوحنا » وكان يحمل مجموعة من الهدايا الثمينة ، وقد عيّن وقد لاستقبال السفير ، ولكن الخليفة رفض مقابلته لأن أوتو سبق أن اعتقل سفير الخليفة مدة ثلاثة أعوام ، وذكر الخليفة أنه سيعتقل رسول أوتو ضعف هذه المدة لأنه أرفع مقاماً من ملك المسيحيين وقد قابله الخليفة عقب ذلك واستعرض معه القضايا التي أثارها .

هـ - سفارة ملك ليون :

فى سنة ٣٤٤ هـ أرسل ملك ليون « اردرفو الرابع » سفارة للخليفة الناصر بـرجو عقد معاهدة سلام ومودة ، وقد استجاب الناصر لذلك .

د - سفارة مملكة نافار برئاسة ملكتها « طوطة » :

وفى سنة ٣٤٧ هـ حضرت ملكة نافار بنفسها على رأس سفارة من المملكة فاستقبلهم الناصر واستجاب لمطالبهم فى التصالح والمساعدة .

ز - سفارة البابا يوحنا الثاني عشر : -

وفى نفس العام ٣٤٧ وفدت للناصر سفارة البابا يوحنا الثاني عشر ، وكانت تطلب السلم والتعاون بين المسلمين والنصارى ، فأجابهم الناصر الى ما طلبوا^(١)

وهكذا كانت هذه السفارة أوضح دليل على جلال الدولة الإسلامية وهيبته .

وهكذا بعد جهاد عنيف أصبح عبد الرحمن الناصر سيّد الأندلس كلها ، فالأمراء يدينون له بالطاعة التامة ، والممالك المسيحية خرت أمامه مهزومة أو عقدت معه صلحا أرضاء وباتت هذه الممالك تنظر له نظرتها إلى السيد الأعلى ، بل كانت تحتكم إليه فيما يدبُ بينها من خلاقات ، وقد طلب منه ملك نافار طبيباً يعالجه من السمّة المفرطة فاستجاب له عبد الرحمن وأرسل له طبيباً كان طبه كبير الفائدة ، ويقول ابن خلدون عن عبد الرحمن : أنه أوطأ عساكر المسلمين من بلاد الإفرنج سالم يطأه فى أيام سلفه ، ومدّت إليه أمم النصرانية من وراء الدروب يد الإذعان ، وأوقدت إليه رسلهم وهداياهم من رومة ومن القسطنطينية على سبيل المهادنة والسلم والاحتمال فيما يعنّ من مرضاته ، ووصل إلى سُدته ملوك الجلالقة من أهل جزيرة الأندلس المتاخمين لبلاد المسلمين ، فقبلوا يده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزه وامتطوا مركبه .

ولعبد الرحمن دور فريد فى خدمة الحضارة الإسلامية بالأندلس سنتكلم عنه فيما بعد .

خلفاء عهد الرحمن الناصر

ابنه الحكم المستنصر ثم هشام بن الحكم

اهتم الناصر بتنشئة ابنه الأكبر « الحكم » تنشئة تؤهله لقيادة البلاد من بعده فوكل تعليمه إلى أحد مشاهير العصر وهو أبو على القالى ، وأشركه معه فى حروبه وفى إدارة الدولة ثم أعلن اختياره ولياً للعهد ، وكان الناصر شديد الحرص

(١) هناك مزيد من التفاصيل عن هذه السفارات فى ابن خلدون والبيان المغرب ونفع الطيب وتراجم إسلامية للأستاذ محمد عبد الله

على استقرار الدولة ، وبلغ من حرصه على ذلك أنه قتل ابنه الثانى عبد الله عندما عرف تدبير هذا لمعارضة أخيه ، ويقول ابن خلدون : كان الناصر قد رشح ابنه الحكم المستنصر وجعله ولى عهده ، وآثره على جميع ولده ، ودفع إليه كثيرا من التصرف فى دولته ، وكان أخوه عبد الله يساميه فى الرتبة فقص ذلك ، وأغراه الحسد بالنكث فنكث ، وداخل من فى قلبه مرض من أهل الدولة فأجابه ، وكان منهم ياسر الفتى وغيره ، ونمى الخبر بذلك إلى الناصر فاستكشف أمرهم حتى وقف على الجلى فيه فقبض على ابنه عبد الله وعلى ياسر الفتى وعلى من انضم لهما وقتلهم أجمعين ، وهكذا ضحى عبد الرحمن الناصر بابنه من أجل سلامة بلاده أحسن الله جزاءه .

وهكذا تولى الحكم فى حالة استقرار يكاد يكون تاما ، فقد مهد له أبوه كل شىء فى الداخل والخارج ، وكان الحكم نفسه بطلا عظيما فحافظ على ما آل له من سلطان ، ولم يقو أحد على التمرد عليه سوى المسيحيين فى الشمال الذين ظهر عليهم شىء من النكث بالعهود فى مطلع عهد الحكم ظنا منهم أنه ليس كأبيه شجاعة ومقدرة ، ولكن سرعان ما سارت لهم جيوشه تدك الأرض ، فعادوا إلى الخضوع وسلموا حصونهم التى كان عليهم أن يسلموها .

على أن الدور الضخم الذى لعبه الحكم المستنصر كان فى ميدان العلم والحضارة واستقدام العلماء ، وإنشاء المكتبات ، وتزويدها بأنفع الكتب مما كان له بالغ الأثر فى الرقى الحضارى الذى سنتكلم عنه فيما بعد .

وبعد الحكم جاء ابنه هشام ، وكانت سنه عند ما آل له الأمر عشر سنوات فقام الحاجب المنصور بالوصاية عليه ، وبدأت بذلك « الدولة العامرية » التى سنتكلم عنها فيما يلى : -

الدولة العامرية

مؤسس الدولة العامرية هو محمد بن عبد الله بن أبى عامر القحطاني ، ينحدر من أسرة لها شرف ووجاهة ، وبجانب أسرته كان هو طموحا ذكيا ظاهر التفوق على أقرانه ومعاصريه ، رحل محمد إلى قرطبة حيث التحق بجامعة

وكان أبوه مدرسا بها ، ويحكى المراكشي ^(١) أنه كان جالساً مع ثلاثة من زملائه الطلبة فقال لهم : إنى سأكون حاكم الأندلس ، ولكل منكم أن يتخير خطة أوليه إياها إذا أفضى إلى الأمر ، فاختار الأول ولاية ريد ، واختار الثانى حسبة السوق ، وطلب الثالث - ساخرا - أن يطاف به قرطبة على حمار ووجهه إلى الخلف ، فلما أفضى الأمر إلى المنصور بلغ كلا منهم غايته .

ولما انتهى محمد من دراسته فتح دكانا بجوار قصر الخلافة كان يكتب فيه للناس شكاوهم وعقودهم ، واتصل به فى هذا الدكان بعض خدم القصر ، وعن طريقهم اتصل بالسيدة « صبح » زوجة الخليفة الحكم ، وولت إليه السيدة القيام ببعض أمورها فأظهر حذقا ومهارة فيما وكل إليه ، فأوصت الخليفة به ، فولاه قضاء بعض النواحي ، وبدأ نجمه يسطع ، ودفعه تفوفه إلى كرسى الوزارة ، فأظهر كفاءة ممتازة . ^(٢)

ومن منصب الوزارة مُهّد الطريق لابن أبى عامر ، وقام بمؤامرات عديدة متلاحقة أخلت له الجور ، وفيما يلى سرد موجز لهذه المؤامرات التى خلقت به وإن كانت قد خلت من عنصر الأخلاق .

١ - لما مات الحكم اتجه صقالبة القصر إلى البيعة لأخيه « المغيرة » أو عمه ولكن ابن أبى عامر خنق المغيرة بتحريض السيدة « صبح » وجعفر المصحفى الحاجب ، وأعلنت البيعة لهشام وهو طفل صغير .

٢ - تأمر مع المصحفى للقضاء على صقالبة القصر والخصيان وكانوا ثمانمائة ، وقد قتت نكبتهم وإخراجهم من القصر .

وبقى أمام ابن أبى عامر رجلان كبيران هما المصحفى الحاجب (رئيس الوزراء) وغالب بن عبد الرحمن قائد الجيش فأدخر كيده ضدّهما إلى حين ، وفى هذه الأثناء ظهرت مهارته العسكرية ونجح نجاحا كبيرا فى حملاته ضد نصارى الشمال ، حتى أصبح معروفا لدى الجند بأنه القائد الذى لا يغلب (ولذلك لقب المنصور) وأحبه الجند وأحاطوا به ، وساعده ذلك على السير نحو

(١) تلخيص أخبار القرب ص ١٧ - ١٨ باختصار .

(٢) العبادى : المجلد فى تاريخ الأندلس ص ١٤٧ - ١٤٨

هدفه بالاستمرار فى مؤمراته للتخلص من باقى منافسيه .

٣ - أوقع بين غالب والمصحفى ، تزوج بنت غالب و اتهم المصحفى بالخيانة والسرقة فحكم عليه بالسجن ، وظل سجيناً حتى مات ، وتولى ابن أبى عامر الحجابة عقب سجن المصحفى .

٤ - استعان على غالب بجعفر بن أحمد بن حمدون صاحب الزاب بمن معه من البربر وظل يناوئه حتى قتله .

٥ - قتل جعفرًا هذا بمساعدة ابن جهور وابن ذى النون .

٦ - قدم البربر وآخر العرب وأسقط بعضهم من مراتبهم وجعل البربر عماد جيشه وموضع ثقته .

٧ - وهنا يجىء تصرف مدمر قام به ابن أبى عامر ليكمل به حرصه على أن تخلو الزمامة له ، وذلك هو القضاء على زعامات الأمويين الموجودين بالاندلس ، إما بقتلهم أو إبعادهم إلى الشمال الأفرى ، واتخذ لذلك حجة هى تأمين الخليفة من أولئك المتطلعين للسلطة الذين اتهمهم بمؤامرات لم يقوموا بها .

وكان من نتيجة هذا العمل الظالم أنه بعد خلع هشام بن عبد الرحمن الناصر سنة ٣٩٩ هـ لم يكن فى الساحة من يملأ الفراغ من الأمويين ، ولذلك سرعان انتهت الخلافة الأموية وظهر عصر ملوك الطوائف الذى أسلم لمزيد من الضعف والانحيار لمكانه المسلمين بالاندلس .

وإنها كانت أنانية دفع المسلمون ثمنها دماء سالت وأرواحاً أزهقت ، فليتعظ بذلك أولئك الذين يعيشون لأنفسهم ويحسبون أن الدنيا خالدة فى أيديهم ، فإذا مدحنا بطولات ابن أبى عامر فإننا نسخط عليه ونستنزل عليه اللعنات لظلمه ولواقفه التى وضعت الأساس لنهاية ملك المسلمين بالاندلس .

ودانت له بذلك كل الأمور فجلس على سرير الملك ، وأمر بأن يحيى بتحية الملوك ، وتسمى بالحاجب المنصور ، ونفذت الكتب والمخاطبات والأوامر باسمه ، وأمر بالدعاء له على المنابر عقب الدعاء للخليفة ، وعند ماشب الخليفة الحجة إلى القراءة والكتب وترك الأمر كله للمنصور ، وكان المنصور جديراً بما وصل

إليه من سلطان^(١)

ويقول عنه ابن الشباط ، كان ابن أبى عامر فى غاية من الذكاء والشهامة والشجاعة ، فرأى هشاما صبيبا غرا ، مشتغلا باللعب والخلاعة ، فحجر عليه ، وضرب على يديه بعد أن استتمال الأجناد بالإحسان إليهم ، والرعاية لهم والامتنان عليهم ، فمالوا معه جملة ، واتفقوا على هذه الفعلة ، فبنى لنفسه قصرا^(٢) ونقل إليه بيت المال ، واستكتب الكتاب ، واستعمل الحساب وأنفذ إلى جميع الأعمال من وثق بأمانته من العمال ، ولم يترك لهشام سوى الخطبة والضرب باسمه للدينار والدرهم .

ثم سمت به همته وشجاعته إلى قود العساكر التى هى فى طاعته وغزا بلاد الروم ، إلى أن ذل منها كل صعب ففتح الله على يديه برشلونه Borcelona وقتل ملكها بورل Borell وسبى أهلها وخربها ، وغنم منها غنائم كثيرة من عبيد وخدم ومال وسلاح وثياب وبهائم وآب إلى قرطبة سالما غانما ، ثم غزا عدة غزوات وقتل فى الروم جملة حتى دانت له أقاصى بلاد الشرك ، ودخلت بالسلم تحت سلطانه ووافاه رسول صاحب القسطنطينية العظمى ورسول صاحب روما وقشتاله بهدايا وألطف ، وغرائب أتحاف ، وكلهم يخطب أمانه ويطلب أن يتحاشى مكانه ، وأقام على هذه الحال مع هشام ثمانى وعشرين سنة .^(٣)

ويقول الاستاذ العبادى^(٤) عنه : كان المنصور يتولى الغزو بنفسه ، ولم يهزم قط فى الخمسين غزوة التى غزاها طوال حكمه البالغ خمسا وعشرين سنة ، وهو لذلك يعد قائدا من الطراز الأول وما رأى أسبان الشمال هزائم ولا مذلة كهزائهم على يديه ، فمذتهم الكبيرة قد دمرها ، ووصل إلى أقصى الركن الشمالى الغربى من أسبانيا حيث بلدة القديس يعقوب التى هدمها كلها إلا قبر القديس ، ومن هنا جاء لقب المنصور ، وهذه الانتصارات التى لم ير الأندلسيون مثلها فى أى عهد سابق جعلته عند المسلمين محبوبا فقد رد إليهم كرامتهم .

(١) انظر ابن خلدون : العبر ج ٤ ١٤٧ - ١٤٩ وابن الخطيب : الاحاطة ج ٢ ص ٦٧ وما بعدها

(٢) القصر المعروف باسم المدينة الزاهرة فى شمال شرقى قرطبة .

(٣) الامبراطور هو بازيل الثانى

(٤) المجمل فى تاريخ الأندلس ص ١٥٢ - ١٥٣

وقد تحدث ابن الدلائى بشئء من التفصيل عن هذه الغزوات الناجبة .

ابن المنصور : -

توفى المنصور سنة ٣٩٢ هـ فتولى مكانته ابنه عبد الملك ، وكان كأبيه كفاءة ومقدرة وظل فى سلطانه سبع سنوات ثم مات فتولى أخوه عبد الرحمن ، ولم يكن هذا كأبيه أو كأخيه فى الكفاءة والمواهب ، ومع هذا فقد كان أكثر طمعا فى المناصب منهما فجرب أن يرغم الخليفة على أن يعهد إليه بالخلافة ، فأصدر الخليفة قرارا بتوليته العهد ، وكان فى ذلك حتفه ، إذ ثار عليه العرب وبخاصة المضربون ، وانفض جنده من حوله ، وقتله بعض منافسيه سنة ٣٩٩ هـ وبموته انتهت الدولة العامرية وانتهى ملك الخليفة أيضا إذ عزله المضربون ^(١) .

وقد ذكرنا من قبل أن المنصور ابن أبى عامر كان قد قتل وشرذ زعماء الأمويين ، ولهذا لم يكن هناك من يملأ هذا الفراغ ، ومن أجل ذلك انتهت الخلافة الأموية تماما بالأندلس سنة ٤٢٢ هـ وأسلم ذلك لعصر ملوك الطوائف كما قلنا من قبل ، وحدثت حروب داخلية بين طوائف المسلمين ، وانتهاز العدو المسيحى هذه الفرصة فتعاظم وتجبج واتجه سلطان المسلمين بالأندلس نحو الأقاليم

وهنا نعيد كلمة ابن الشباط مؤرخ الأندلس ونصها : إن المسلمين بالأندلس لم يقصدهم عدو إلا هزم وانصرف مغلولاً ، وإنما خذلهم التحاسد وفرط الخلاف بين بعضهم البعض .

ونقول إن كلمات ابن الشباط تصف داء لا يزال موجودا حتى اليوم ، ولا يزال أقوى سلاح يعتمد عليه أعداء الإسلام والمسلمين .

(١) ولم يعد بنو أمية بعد ذلك لإدعى لا نفوذ لها .

نهاية الخلافة الأموية بالأندلس :

ولم يعد خلفاء بنى أمية بعد ذلك إلا دُمِّيَّ تحركها القوى المضطربة ، فقد ولىّ المضربون بعد عزل هشام خلفاء ضعافاً كما يبدو فيما يلي :

محمد (الثاني) بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر ٣٩٩ هـ

سليمان بن الحكم ٤٠٠

محمد (الثاني) [للمرة الثانية] ٤٠٠

هشام (الثاني) [للمرة الثانية] ٤٠٠

(الذي كان قد عزله المضربون)

سليمان [للمرة الثانية] ٤٠٣ - ٤٠٧

الأندلس بعد الأمويين

بنو حمود :

وهنا تقفز إلى السلطة أسرة بنى حمود ، وهي أسرة يتصل نسبها بأدارة شمالي إفريقية ، وكانت تقيم في سبتة على الشاطئ الإفريقي ، وقد دخلت هذه الأسرة قرطبة ، وقبضت على ناصية الأمر بطريق صريح مباشر ، وأخذت تعيث بالخلفاء الأمويين ، فمرة تضع خليفة أموياً بدون أن تمنحه أى سلطان ، ومرة أخرى يتولى أفرادها الحكم بدون خليفة أو يدعى حكامها أنهم خلفاء ^(١) ، وتعتبر هذه الفترة حتى انقضاء الخلافة الأموية سنة ٤٢٢ هـ فترة فوضى وهزائم وانحلال وتفكك للدولة ولجأ بعض المتصارعين من الحكام المسلمين للنصارى فطلب العون ضد حاكم مسلم آخر ، ودفعوا لذلك الإتاوات ، وتلقوا ألفونسو السادس . وفيما يلي أسماء خلفاء بنى أمية وملوك بنى حمود خلال هذه الفترة :

على الناصر بن حمود ٤٠٧

عبد الرحمن (الرابع) بن محمد ٤٠٨ هـ من الأمويين

القاسم المأمون بن حمود ٤٠٨ هـ

(١) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٢ وابن خلدون : المعبر ج ٤ ص ١٥٣ - ١٥٤ .

يحيى بن على بن حمود	٤١٢ هـ
القاسم [للمرة الثانية]	٤١٣ هـ
عبد الرحمن (الخامس) بن هشام	٤١٤ هـ من الأمويين
محمد (الثالث) بن عبد الرحمن	٤١٤ هـ من الأمويين
يحيى بن على [للمرة الثانية]	٤١٦ هـ
هشام (الثالث) بن عبد الرحمن (الرابع) ^(١)	٤١٨ - ٤٢٢ هـ من الأمويين

ولم يستطع بنو حمود أو الأمويون الذين وضعهم بنو حمود فى دست الخلافة أن يحافظوا على وحدة الدولة وسيلطانها ، فاستقل عن قرطبة كثير من المقاطعات ، وبدأ ما يسمى فى تاريخ الأندلس بعصر ملوك الطوائف ، وفى سنة ٤٢٢ أعلن الوزير أبو الحزم بن جمهور^(٢) أنه لم يعد هناك من يستحق لقب الخلافة ، وأنه لذلك أوقف هذا المنصب ، كما أعلن أنه سيحكم مملكة قرطبة حكماً دستورياً جمهورياً ، أى سيقوم بالحكم جماعة من كبار رجال الدولة ، غير أن هذا الحكم كان جمهورياً فى الصورة لا فى الواقع لأن سلطة رئيس المجلس كانت تشبه سلطة الإمبراطور تمام الشبه^(٣) .

عصر ملوك الطوائف :

يمتد عصر ملوك الطوائف من سنة ٤٢٢ هـ إلى سنة ٤٨٤ هـ وهو عصر مليء بالاضطراب والفوضى والتناحر والقبلية الصارخة والأناية الهدامة ، فلم يكن ابن جمهور يعلن انتهاء الخلافة حتى استقل كثير من الأمراء بمدنهم ومقاطعاتهم بالإضافة إلى من استقلوا من قبل ، وأصبح فى الأندلس حوالى عشرين أسرة حاكمة ، وكان السلطان على العموم للبربر فى الجنوب وخضع الشرق للصقالبة ، وانتشر فى المدن الأخرى أمراء وحكام آخرون^(٤) ومن أهم إمارات هذا العهد إمارة بنى عباد باشبيلية التى كونها القاضى محمد بن عباد لنفسه وذريته وتغلب

(١) زامبور : معجم الاتساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ج١ ص ٢ -

(٢) اقرأ أخبار ابن جمهور فى العبر لابن خلدون ج٧ ص ١٥٩ .

(٣) ستانلى لين بول : العرب فى أسبانيا ص ٥٢ ترجمة الاستاذ الجارم .

(٤) ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والأندلس ص ١٢٢ .

(التاريخ الإسلامى ج٤ م ٧)

على قاسم ابن حمود (وهو أخو على الذى مر ذكره بين حكام قرطبة) فقد أراد قاسم هذا أن يضم إشبيلية إلى ماله التى مكن لنفسه فيها ، ولكن بنى عباد انتصروا عليه . وقد استمرت إمارة بنى عباد بإشبيلية من سنة ٤١٤ إلى نهاية عهد ملوك الطوائف حيث فتحها المرابطون كما سنذكر فيما بعد ، وخلال قيام إمارة بنى عباد استطاعت هذه الإمارة أن تضم لها بعض الإمارات الأخرى الصغيرة مثل :

٤٥٠ - ٤٣١	إمارة بنى حمود بالجزيرة
٤٤٥ - ٤٠٥	إمارة رونده
٤٤٥ - ٤٠٤	إمارة موردن
٤٤٥ - ؟	إمارة أركس (تاريخ نشأتها غير واضح)
٤٤٣ - ؟	إمارة وكتنه وشلطيشى (تاريخ نشأتها غير واضح)
٤٤٢ - ٤١٤	إمارة نبله
٤٤٤ - ٤١٩	إمارة بنى قرين بشلب
٤٤٤ - ٤٠٧	إمارة سنت مارية
٤٣٦ - ؟	إمارة مارتله Mertole (تاريخ نشأتها غير واضح)
٤٦٩ - ٤٢٢	إمارة بنى جمهور بقرطبة

ويقول المقرئ^(١) : وقد استفحل أمر المعتمد بن عباد بإشبيلية ؛ فاستولى على قرطبة من بنى جمهور وجعل عليها ولده ؛ ثم كانت له وعليه حروب وخطوب ، وفرق أبناءه على قواعد الملك وأنزلهم بها ، واستفحل أمره بغرب الأندلس ، وعلت يده على من هناك من ملوك الطوائف .

وهناك إمارات أخرى لم تخضع لبنى عباد ، وظلت مستقلة حتى اقتحمها المرابطون أو أستولى عليها المسيحيون ، وهى

٤٤٩ - ٤٠٧	إمارة بنى حمود بمالقة
٤٨٣ - ٤٠٣	» بنى زبرى بغرناطة
٤٩٧ - ٤٠٢	» بنى رزين بالسهلة

(١) نفع الطيب ج ١ ص ٢٠٧ .

إمارة بنى القاسم بالفنت ٢ - ٤٨٥
 » بنى الأفطس فى بطليوس ٤١٣ - ٤٨٧
 » بنى ذى النون بطليطلة ٤٠٠ - ٤٧٨ أستولى عليها ألفونس السادس
 » العامرين ببلنسية ٢ - ٤٩٥
 » بنى هود بسرقسطة ولاردة وقلعة أيوب ٤١٠ - ٥٣٦ الزحف المسيحى
 وأغلب ملوك الطوائف لا يستحقون الذكر ، وأكثرهم جاء وليد الضعف
 أو المصادفات (١) ، وليس إلا بنو عباد ، هم الذين يستحقون أن نقف عندهم
 ونعدد ملوكهم ، فهم الذين حاولوا ضم الشعث وبعث الحياة من جديد فى الدولة
 المتجهة للأفول ، وهذا ثبت ملوكهم :

القاضى محمد (الأول) بن إسماعيل بن قريش بن عباد ٤١٤
 عباد المعتضد بن محمد ٤٣٤
 محمد (الثانى) المعتمد بن عباد ٤٦١ - ٤٨٤

وفتحها بعد ذلك المرابطون كما فتحوا باقى الإمارات كما سنرى فيما بعد .
 ومن الواضح أن أكثر إمارات الطوائف بدأت قبل سقوط الخلافة الأموية ، إذ
 أن هذه الخلافة كانت ابتداء من أول القرن الخامس الهجرى اسمية فقط ، ولم
 يكن لها سلطان يعتد به . وقد ادعى بعض الأمراء لأنفسهم « الخلافة » ،
 وادعوا تبعاً لذلك ألقاب الخلفاء كالمعتضد والمعتمد (٢)
 أهم مظاهر عصر الطوائف :

يصور لنا Stanley Lane - Poole (٣) هذا العصر تصويراً دقيقاً فيه عظة لمن
 يتعظ ، وفيه ضوء لمن يحب أن يعيش فى النور ونقتبس منه بضعة سطور ، قال:
تمزقت الدولة إلى إمارات صغيرة فى الوقت الذى وحد فيه ألفونس

(١) عن ملوك الطوائف أقرأ معجم الانساب والاسرات الحاكمة لزامبار ج ١ ص ٨٦ - ٩٢ .
 Lane-poole : Muh Dynasties pp. 23-26 , و

(٢) عن ملوك الطوائف أقرأ العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٥٥ وما بعدها

(٣) The Arabs in Spain pp. 153-154. (٣)

السادس تحت إمرته أشعورياس وليسون وقشتالة ، وقد عرف ألفونس ما يجب أن يفعله تمام المعرفة ، فقد رأى أنه لم يكن عليه إلا أن يمدّ حبله للملك الطوائف مدا كافيا ليشنقوا به أنفسهم ، لأن هؤلاء الجبهة لم ينظروا فى العواقب ، ولم يعنوا إلا بأنفسهم ، ولم يتركوا جهدا دون أن يبذلوه لإضعاف منافسيهم ، وكانوا يجثون عند قدمى ألفونس لاستجداء معاونته كلما ضعفوا عن مقاومة إخوانهم المسلمين ، وتقررت كل الدويلات الإسلامية إلى ألفونس بتقديم الإتاوات ، وكان ألفونس يزد فيها كل عام كلما زادت قوته ، لأنها تمن عطفه وحمايته ... وقد بذل ملوك الطوائف هذه الإتاوات للاستعانة بجيوش ألفونس ضد بعضهم البعض .

وكان ألفونس يقدم خطوطه فى كل فرصة ، ويستولى على الحصون والقلاع واحدة إثر أخرى ، حتى وثب وثبة استولى فيها على طليطلة سنة ٤٧٨ هـ وقد أحدث بوثيته هذه فزعا كبيرا فى صفوف المسلمين بأسبانيا (١) .

وقد آذن ذلك بدعوة المرابطين لإنقاذ أسبانيا من الزحف المسيحى بعد أن عجز الأمراء عن أن يوحدا صفوفهم ويتعاونوا على صد هذا العدوان .

(١) الأستاذ العبادى : المجلد فى تاريخ الأندلس ص ١٧٢ .

المرابطون فى الأندلس

اتجه ألفونس بعد طليطلة إلى النيل من مملكة بنى عباد بإشبيلية ، فهى أكبر الممالك الإسلامية بالأندلس ، وسقوطها معناه سقوط غيرها بسرعة ، وأدرك المعتمد بن عباد ألا قبل له بالوقوف فى وجه الزحف المسيحى ، وساء ما آل له حال أمراء المسلمين بالأندلس ، فقرر الاستعانة بالمرابطين حكام الشمال الإفريقى (وستحدث عنهم فيما بعد) . ولما حذر بعض أتباعه من نتيجة دعوة المرابطين للجزيرة الخضراء قال قولته الشهيرة : لأن أكون سائق جمال فى صحراء إفريقية خير من أن أرى غنازير فى قشتالة^(١) ، وذلك موقف جدير بالشاء ، نسجله بالإجلال لهذا العاهل العظيم الذى عمل خير بلاده ولم تشغله نفسه .

وكان أمير المرابطين آنذاك هو يوسف بن تاشفين الذى سارع بتبليبه نداء المسلمين ، فزحف إلى أسبانيا بجيوش جرارة ، وأوقع بألفونسو وجيشه فى موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ ، وكان ألفونسو وسط خمسين ألفا من جنده أبيدوا عن آخرهم ، ولم ينج ألفونسو وقلّة من فرسانه لا تتجاوز خمسمائة إلا بشق الأنفس ، واسترد المسلمون بهذه الموقعة بلنسية وفكوا حصار سرقسطة وعادت لهم السيادة بالجزيرة الخضراء^(٢) .

وبعد هذا النصر عاد يوسف إلى شمالى إفريقية ولم يترك بالأندلس إلا حامية صغيرة ، فتجدد هجوم النصارى ، وعاد ملك أشبيلية يطلب النجدة ، فقاد يوسف جيشه هذه المرة وهو ينوى الاستقرار بأسبانيا والقضاء على النفوذ المسيحى ونفوذ ملوك الطوائف جميعاً ، وتم له ما أراد ، وأصبحت الأندلس تابعة للمرابطين (وسيأتى ذكر ملوكهم عند الكلام عن شمالى إفريقية) .

وكان المعتمد يقصد أن يجنى ثمار كفاح المرابطين هذه المرة كما جنى ذلك فى المرة السابقة ، ولكن ابن تاشفين كان قد غير سياسته وجاء هذه المرة ليقيم

(١) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٤٢ .

(٢) ابن الخطيب : الحال الموشية ص ٤٣ وابن خلدون : المعبر ج ٦ ص ٨٦ - ٢٧٧ ، وابن خلكان ٢ : ٤٨٢ وما بعدها .

بالأندلس ، فلما لم يُظهر له المعتمد الرضا والولاء نفاه إلى شمالي إفريقيا حيث قضى باقى أيامه (١) .

الضعف يدب فى المرابطين :

إن صفات البطولة والحماسة التى امتاز بها المرابطون الذين زحفوا إلى الأندلس فى الطبقة الأولى من ملوكهم لم تتوافر فى الطبقة التالية لهم ، فقد مال الجيل الجديد إلى لين العيش ولذائذ الحياة ، فضعف أمرهم ، وبدأ الانحلال فى دولتهم ، وما إن وافت سنة ٥٤٠ حتى انتهى ملك المرابطين فى شمالي إفريقيا والأندلس ، وعادت الأندلس إلى الإمارات والطوائف ، ولكن هذا العصر كان قصيراً هذه المرة أى فى المدة من ٥٣٨ إلى ٥٤٢ ، ثم تمّ خضوع الأندلس للقوة الجديدة التى ورثت ملك المرابطين فى إفريقيا وهى قوة الموحيدين ، وفى خلال هذه الفترة القصيرة ظهرت الإمارات التالية :

بنو مردانيش ببلنسية ٤٣٩ - ٥٥٥

حمدين بن محمد (بنى هود) بقرطبة ٥٣٨ - ٥٤١

كما ظهر ابن ميمون بقادس ، واللمتوني بخرناطة ، وغيرهم من صغار المتغلبين على المدن والمقاطعات .

(١) ابن الخطيب : الاحاطة ج ٢ ص ٨٣ ، وابن خلكان جص ٤٨٤ .

الموحدون فى الأندلس

تغلب الموحدون على المرابطين بشمالى إفريقيا كما سيأتى فيما بعد ، وتم لهم النصر سنة ٥٤١ هـ حيث سقطت مراكش فى أيديهم ، وسيأتى ذكر ملوكهم عند الكلام عن شمالى إفريقيا ، ورأى الموحدون أن يرثوا ملك المرابطين بالأندلس كما ورثوه فى إفريقيا فبدؤوا حملاتهم لذلك ، وتم لهم النصر ، ومن أهم المعارك التى حقق فيها الموحدون انتصارا عظيما ضد المسيحيين معركة الأرك سنة ٥٩١ هـ ، ولكن الموحيدين عادوا فهزموها فى موقعة حصن العقاب سنة ٦٠٩ هـ فهان بذلك أمرهم وتعرضوا لحملات المسيحيين والمنافسين من المسلمين ، حتى تبددت قوتهم وتركوا الأندلس سنة ٦٣٣ هـ ، وما سبب انهيار سلطان الموحيدين بسرعة فى الأندلس أنهم حكموها بنواب لهم ، ولم يتخذوها مركزا لسلطانهم ، وعسير أن تحكم بلاد الأندلس بهذه الصورة .

(١) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ١٩٣ - ١٩٤ ، والمجمل للعبادى ص ١٨٤ - ١٨٥

الأندلس بعد الموحدين

ترك الموحدون الأندلس بعد هذه الهزيمة الحربية وبسبب كثرة المنافسين من المسلمين ، وما إن جلا الموحدون عن الأندلس حتى تعرضت الإمارات والمدن الإسلامية لزحف سريع لم يكن يتوقف إلا ليستعد لجولة أخرى ؛ وفى خلال سنين قليلة اكتسح المسيحيون أكثر البقاع الإسلامية ، فاحتل فرديناند الثالث ملك قشتالة وجايم الأول ملك أرجوان مدن بلنسية وقرطبة ومرسية سنة ٦٣٦ ومدينة إشبيلية سنة ٦٤٦ وأصبح ملك المسلمين محصورا فى مقاطعة غرناطة ، وهى الرقعة التى تقع بين جبال نيفادا التى يسميها العرب جبال الثلج وبين ساحل البحر المتوسط .

وفى أغلب هذه المنطقة أعلن ابن هود نفسه حاكما سنة ٦٣٣ واتخذ مرسية عاصمة له ، ولكن دولته كانت قصيرة العمر فقد قضى نحبه سنة ٦٣٦ فى نفس العام الذى سقطت فيه عاصمته وتحول حكم الأندلس إلى بنى نصر أمراء غرناطة (١) .

بنو الأحمر فى غرناطة ولماذا طال ملكهم :

بدأ ملك غرناطة سنة ٦٣٦ واستمر بعد ذلك قرنين ونصف قرن ، وهى مدة أطول مما كان ينتظر ، ومرجع طولها أن القوى قد تجمعت فيها فلم تعد هناك طوائف وقوى مشتتة يهدم بعضها بعضاً ، ثم إن الجنود الأشداء من المسلمين هرعوا إلى غرناطة من الممالك الإسلامية التى هوت ليقدموا سواعدهم وسيوفهم لخدمة الجزء الباقى للمسلمين بهذه البلاد ، وكان ابن الأحمر رجلا بصيراً بالأمر أحسن سياسة رعيته وتفانى فى خدمة مملكته ، وساعد بنو مرين ملوك مراكش الجدد بنى الأحمر فى صراعهم ضد المسيحيين مما أطال عمر المسلمين بالأندلس ، هذا إلى أن انشغال ملوك الفرنجة بتنظيم ما فتحوه شغلهم حيناً عن السير فى فتوحات جديدة .

وفيما يلى أسماء ملوك بنى الأحمر :

(١) عن بنى هود ملوك سرقطة اقر العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٦٨ .

٦٢٩	محمد (الأول) الغالب
٦٧١	محمد (الثاني) بن محمد الأول
٧٠١	محمد (الثالث) بن محمد الثاني
٧٠٨	نصر بن محمد الثاني
٧١٣	إسماعيل (الأول) بن فرج
٧٢٥	محمد (الرابع) بن إسماعيل
٧٣٣	يوسف (الأول) بن إسماعيل
٧٥٥	محمد (الخامس) بن يوسف
٧٦٠	إسماعيل (الثاني) بن يوسف
٧٦١	محمد (السادس) بن إسماعيل
٧٦٣	محمد (الخامس) [للمرة الثانية]
٧٩٣	يوسف (الثاني) بن محمد الخامس
٧٩٧	محمد (السابع) بن يوسف الثاني
٨١٠	يوسف (الثالث) بن يوسف الثاني
٨٢٠	محمد (الثامن) بن يوسف الثالث
٨٣١	محمد (التاسع) بن نصر
٨٣٣	محمد (الثامن) [للمرة الثانية]
٨٣٥	يوسف (الرابع) بن محمد السادس
٨٣٥	محمد (الثامن) [للمرة الثالثة]
٨٤٨	محمد (العاشر) بن عثمان
٨٤٩	سعد بن علي
٨٥٠	محمد (العاشر) [للمرة الثانية]
٨٥٧	سعد بن علي [للمرة الثانية]
٨٦٦	أبو الحسن علي بن سعد
٨٨٧	أبو عبد الله محمد (الحادي عشر) بن علي
٨٨٨	أبو الحسن علي [للمرة الثانية]
٨٩٠	محمد (الثاني عشر) بن سعد (المعروف بالزغل)

أبو عبد الله محمد الخائن (للمرة الثانية) ٨٩٢ - ٨٩٧ هـ = ١٤٩٢ م

الحاكم الخائن :

مخزاة أبى عبد الله آخر حكام المسلمين بالأندلس جديرة بالخسرة والأسف فقد باع هذا الرجل كل المثل من أجل أطماع شخصية ، حارب أباه من أجل الملك لأنه أحس أن الأب (أبو الحسن على بن سعد) يؤثر أخاه (محمد بن سعد المعروف بالزغل) عليه ، وهكذا قام نزاع دام مات على أثره أبو الحسن هماً وكمداً ، فلما تولى أخوه محمد بن سعد ، تعاون أبو عبد الله مع فرديناند وإيزابلا لإسقاطه ، وكانت جيوش أبى عبد الله تتصدى لجيوش عمه كلما اتجهت هذه الجيوش للدفاع عن حصون المسلمين وبلادهم ؛ فلما تم النصر للمسيحيين ضد الزغل ارتكب هذا الأحمق أبشع ألوان حماقاته حينما بعث يهنئ فرديناند بالنصر .

وئكن فرديناند استدار إليه وهاجمه وسلب منه ممتلكاته ، وسلم هذا الخائن مفاتيح آخر مدينة إسلامية بالأندلس لفرديناند ، وأخذ يبكي ملكاً أضعفه بخيائته التى لا ينساها له التاريخ ، وهاجر هذا الخائن إلى إفريقية حيث أخذ يعيش على السؤال والاستجداء .

الممالك المسيحية التى قاومت المسلمين بأسبانيا

قلنا فيما سبق إن المسلمين لم يكملوا فتح الأندلس ، وأن المساحة الشاسعة الغنية التى خضعت لهم أغرتهم بالاستقرار دون أن يواصلوا الزحف ليسيطروا على شبه الجزيرة كلها ، وعلى هذا تركوا فى الشمال الغربى من شبه الجزيرة جزءاً قاحلاً وعراً شديد البرودة دون أن يدركوا ما يمكن أن يكون لهذا الجزء من خطر .

وفى هذا الجزء لجأت الجماعات المسيحية التى لم تشأ أن تدخل الإسلام ، أو تتعاون مع المسلمين ، والتفت هذه الجماعات حول زعيم يسمى « بلايو » واتخذ هؤلاء من جبال « استورياس » كثيرة المغارات والكهوف حصناً لهم ، ولما أدركوا غفلة المسلمين عنهم استطاعوا أن يكوّنوا لهم فى القرن الثامن الميلادى أول مملكة مسيحية فى العهد الإسلامى هى مملكة « جليقية » وكانت هذه المملكة أساس القوى التى باشرت الصراع ضد المسلمين ، مستعملة سلاح خديعة المسلمين من جانب ، والمثابرة على الكفاح من جانب آخر .

وكانت هناك جماعات أخرى من الشائرين تلتقى مع الجماعة السابقة فى هدفها ، ولكنها لاتخضع لنفس الزعامة ، وقد انتهزت هذه الجماعة فرص النجاح التى أدت إلى تكوين مملكة « جليقية » فجمعت ضفوفها ، وكونت مملكة مسيحية ثانية إلى الشرق من « جليقية » اسمها مملكة « نابراً » وكان ذلك فى القرن التاسع الميلادى .

وانحج المسلمون إلى الشرق ، إلى فرنسا وإلى أوروبا ، وانتصروا وفشلوا فى زحفهم الجديد ، فهياً ذلك الوضع الفرص لمساحات جديدة يجلو عنها المسلمون فى الشمال الغربى ، بسبب أو آخر ، فلما جاء القرن العاشر الميلادى تكونت بهذه النواحي مملكتان أخريان هما مملكة « كاستيليا » و « أراجون » .

وفى القرن الحادى عشر ظهرت مملكة البرتغال فى المنطقة الغربية من شبه الجزيرة .

والذى يلاحظ الخريطة يدرك أن المناطق المسيحية الأسبانية بذلك أصبحت

تكون قوسا حول المسلمين من الشمال والغرب وأن الجيوش الأوربية كانت تواجههم فى الشرق ، مما يمكن معه أن يتصور الباحث أن المسلمين أصبحوا بين شقى الرحا أو فكى الكماشة كما يقولون فى الاصطلاح الحديث ، وكان هذا أساس ما لحق بالمسلمين من هزائم على مر الزمن ، فقد كانت قوى الأعداء تحيط بهم متفتحة العيون مترقبة الأحداث مستعدة للزحف كلما دب خلاف فى الداخل، أو مستعدة لتمنح السلاح لأحد الطرفين المتحاربين من المسلمين ، أو لكلا الطرفين لتجنى فيما بعد ثمار انتصارات المنتصر .

ولم تكن الممالك المسيحية متحابية دائماً ، بل كانت يدب بينها عداً أحياناً وتعاون أحياناً أخرى ، ومن هنا شهدت هذه العصور حركات تداخل وانقسامات بين هذه الممالك فكانت تتجمع فيقتل عددها فى بعض الفترات وينجح الشقاق فيزيد عددها فى فترات أخرى ، ولكنها فى جميع الأحوال كانت شديدة العدا للمسلمين .

وفى القرن الخامس عشر ، كانت أعظم دول أسبانيا المسيحية هى مملكتى « أراجون » التى يحكمها « فرديناند » ومملكة « كاستيليا » التى يحكمها الملكة « إيزابيلا » وقد تزوج الملك من الملكة فتوحدت المملكتان والقوتان ، واستطاعت المملكة الجديدة أن تستولى على غرناطة منتهزة خيانة حاكمها الخائن الذى تحدثنا عنه من قبل ، وكان ذلك فى سنة ٨٩٧ هـ - ١٤٩٢ م .

مسلمو الأندلس بعد سقوط غرناطة :

كان من شروط التسليم أن تظل للمسلمين حريتهم الدينية وأموالهم ، على أن يصبحوا من رعايا الحكومة الأسبانية المسيحية ، وقد رُتت الحكومة الأسبانية بهذا الوعد عددا من السنين يصل إلى أصابع اليدين ، ثم بدأ الاضطهاد المرير ، يحث عليه رجال الدين ، وينفذه رجال السياسة ، ووصل هذا الاضطهاد إلى القسر على التنصر ، والتهديد بالنفى والرق والقتل ، واندفعت محاكم التفتيش فى أعمالها الوحشية اندفاعا قاسيا ، مما أرغم كثيرين من المسلمين على التنصر أو الهجرة إلى الشمال الإفريقى وإلى مصر .

وقد بدأ فرديناند نفسه هذا السلوك التعسفى ، وحث فى الإيمان والعهود التى قطعها على نفسه ، وقد بلغ من ظلمه فى معاملة المسلمين أنه كان يحرق بعضهم ، ويصادر أموالهم ، ويتتبعهم بالأذى والعذاب فى كل مكان .

على أن هذه الوحشية بلغت مداها فى عهد فيليب الثالث (١٦٠٩ - ١٦١٤) الذى وضع الأساس للقضاء على الإسلام فى أسبانيا تماما ، ولما تمسك عدد كبير من السكان بالإسلام يقدره بعض المؤلفين ^(١) بخمسة ملايين ، استولى هذا الملك على أموالهم وطردهم بصورة غير إنسانية ومهلهلة لم تزد على ثلاثة أيام ، وكثيرون منهم لم يصلوا إلى الشاطئ الآخر وابتلعهم اليم ، مما أثار بعض العطف من قلة قليلة من الأسبان كانت لها قلوب وضمائر .

وهكذا اختفى الوجود الإسلامى من أسبانيا فى مطلع القرن السابع عشر ، وربما كانت هناك قلة قليلة بقيت مسلمة فى الخفاء ، ولكن أبناء هؤلاء وأحفادهم نشأوا لا يعرفون إلا المسيحية دينا ، والأسبانية لغة وإن كانت الملامح العربية فرضت نفسها على الأسبان بما لا يحتمل الزوال .

وهناك حقيقة سمعتها من الأسبان إبان زيارتى لأسبانيا فى سبتمبر سنة ١٩٧٤ هى أن أكثر زوجات الأمراء والجنود المسلمين الأول كن من الأسبانيات

(١) دكتور أحمد هيكال : موجز عن أسبانيا ص ١٢ .

وكذلك كانت أكثر زوجات الأمراء والعظماء فى العصور المختلفة ، ونتيجة هذا هى أن الأجيال المتأخرة من المسلمين كان يتضح بها الدم الأسباني ، ويقول هؤلاء : إن الأسبان المسيحيين طردوا الأسبان المسلمين فالصراع كان فى الحقيقة بين دينين ولم يكن بين شعبين أو بين جنسين .

كلمة عن معاهدة تسليم غرناطة :

كتبته المعاهدة باللغة القشتالية ، وتقع فى سبع ورقات بها سبعة وستون بنداً ، وهى مذبلة بتوقيعات تصل إلى عشرين توقيعاً من بينها توقيع الملك الخائن أبى عبد الله ووزرائه وكذلك توقيعات الملكين الكاثوليكين ، وذيلت المعاهدة بضمان الملكين وقسمها بدينها وشرفهما الملكى على تنفيذ كل ماورد بالمعاهدة من بنود ، والمحافظة على ما بها من امتيازات لأهل غرناطة .

قوة غرناطة عند توقيع المعاهدة :

ويؤكد التاريخ أن غرناطة عندما وقّعت هذه المعاهدة لم تكن على حافة السقوط ، وإنما كانت لاتزال بها قوة ومقدرة على مقاتلة العدو ، وكان الجانب الأسباني يدرك بوضوح هذه الحقيقة ولذلك قام بعدة حيل للوصول إلى هذه المعاهدة ، ومن أكبر حيلهم ضغطهم المتصل على الملك الصغير أبى عبد الله الخائن بأن جعلوه يحس بأن لا أمل فى المقاومة مع أن القوة خلفه كانت لاتزال عميقة وصارخة ، ولكن الملك تولى عن الأبطال وانهار ، وقنع بما أكده له الأسبان من حياة طيبة بعد المعاهدة .

وتقرر الدراسة حول هذه الفترة أن غرناطة لو أُتيح لها ملك غير هذا الملك ، وقيادة رشيدة كانت تستطيع أن تزجل التسليم قرناً على الأقل ، ومن أجل هذا يسجل التاريخ أن النساء والرجال فى غرناطة قد بالغوا فى النحيب عندما كانت الأمور تسير لتوقيع هذه المعاهدة والاستسلام .

وكان من نتائج إحساس أهل غرناطة بالقوة أن أشعلوا عدة ثورات بعد توقيع هذه المعاهدة ، ولكن الملك الخائن كان يعارض هذه الثورات بما قليل من قدرها

ونتائجها .

ما أهم بنود هذه المعاهدة ؟ :

أهم بنود هذه المعاهدة ما يلي :

أولاً : أن يسلم أهل غرناطة طوعية واختياراً خلال ستين يوماً من تاريخ إبرام المعاهدة قلاع الحمراء والحصن وأبوابها وأبراجها وأبواب غرناطة والبيازين.

ثانياً : لا يأتي أولئك الذين يتسلمون غرناطة من الواجهة وإنما عليهم أن يدخلوا من الأبواب الجانبية وهذا يدل على قوة المسلمين .

ثالثاً : يتعهد الملكان الكاثوليكيان وخلفاؤهما إلى الأبد بأن يترك الملك والقادة والوزراء والعلماء والفقهاء والفرسان وسائر الشعب تحت حكم شريعتهم ، وأن تظل لهم مساجدهم ومعابدهم وممتلكاتهم ، وأن تترك لهذه المساجد مراردها كاملة وأن يكون لهم حق الاحتفاظ بتقاليدهم وعوائدهم .

رابعاً : اهتم الجانب الإسلامي بأن يسجل حقوق رعايا المسلمين فألزم الملكين الكاثوليكين بسلامة اليهود والبيازين وممتلكات هؤلاء .

ماذا حدث بعد هذه المعاهدة ؟

لم تكن هذه المعاهدة إلا حبراً على ورق كما يقولون فما إن تمّ التسليم وتوقيع المعاهدة حتى بدأ الجانب الكاثوليكي في خرق بنودها ، فقد انتهكوا حرمة جامع غرناطة الكبير وأقاموا فيه قداساً ، ورقصوا فيه وشربوا الخمر ، وتوالت بعد ذلك الانتهاكات على يد فرديناند وخلفائه ، ثم صدر المرسوم المشهور بالتخلص من مسلمي الأندلس نهائياً بالحرق أو الإغراق ، أو الطرد إلى شواطئ المغرب ، وأصبحت هذه المعاهدة توصف بأنها معاهدة الذل ، وكان من أشنع ما أقدم عليه رجال الدين المسيحي بقيادة الحبر الأعظم أن يشعلوا النيران وبلقوا فيها

المسلمين، وقد بلغ من فجورهم أنهم كانوا يحضرون أهل الذين سيحرقون ليشهدوا فجيرة إحراق ذوبهم ، وكان الحبر الأعظم يذكر لأهل المحروقين أن هذه النيران ستطهرهم من الذنوب ، وكلما كان الإحراق بطيئا وقاسيا كان التطهير فى نظره أدق وأكمل ، وكان يتعرض للإحراق كل من يضبط وهو يصلى أو يتهم بأنه قال لا إله إلا الله ، أو قام بأية شعيرة إسلامية .

هذه صورة من صور العناء التى لقيها المسلمون فى الأندلس التى تلقاها كل جماعة تتصارع فيما بينها وتنسى العدو الذى يتحين الفرص للقضاء على الجميع .

الحضارة الإسلامية بالأندلس

رجالها :

تدين الحضارة الإسلامية بالأندلس إلى مجموعتين كبيرتين من الناس ، إحداهما مجموعة العرب والمفكرين الذين نزحوا للأندلس عقب موجة الفتح أو بعده ، وطبيعى أن هذه البلاد الخضراء الخصبة اجتذبت لها كثيرين من هؤلاء ، وساعد على ذلك ما كان يقدمه أمراء الأندلس من صور الترحيب والتكريم لهؤلاء الوافدين لينافسوا بهم قصور الشرق وحضارته . والمجموعة الثانية نشأت بالأندلس وكثيراً ما كانت نتيجة المصاهرة والارتباط بالشعب الأسباني ؛ وكان لهذه المجموعة - كما يقول الدكتور ضيف ^(١) « نزعة عقلية جديدة ومميزات وصفات خاصة ليست للعرب الخالص » .

أنواع الحضارة الإسلامية :

اتجهت الحضارة الإسلامية بالأندلس عدة اتجاهات ، وشملت أكثر ألوان المعارف أو كلها ، ويمكن على العموم أن نقسمها قسمين هما :

الحضارة الفكرية والحضارة العمرانية ، وسنتكلم عن كل منهما فيما يلى :

الحضارة الفكرية

تشمل الحضارة الفكرية ألوان التفوق الفكرى التى انتعشت بالأندلس ، وازدهرت ، وسنخصص كلا من هذه الألوان بكلمة :

العلوم الشرعية :

اهتم أمراء الأندلس وحكامها بالعلوم الشرعية اهتماماً كبيراً فالإسلام دين ودولة ؛ ومعنى هذا أنه ينظم الأمور الدينية من توحيد إلى بعث وحساب ... كما ينظم حياة المجتمع من سياسة واقتصاد وزواج وطلاق ووصية وميراث وبيع

(١) بلاغة العرب فى الأندلس ص ١٠

(التاريخ الإسلامى ج ٤ م ٩)

وشراء ، ومن هنا كان لابد من الاهتمام بالفقعة لدراسة هذه الاتجاهات ، وفى جو المنافسة بين بغداد وقرطبة اتجهت قرطبة إلى مذهب مالك حتى لا تحتضن مذهب أبى حنيفة الذى كان مذهب العباسيين ، وأول من عمل على نشر مذهب مالك بالأندلس زياد بن عبد الرحمن اللخمي ، فتغلب به على مذهب الأوزاعي الذى كان منتشراً من قبل ، على أن الفضل فى تثبيت مذهب مالك يرجع إلى يحيى الليثى بن يحيى الذى كان يترفع عن الوظائف ، ولكنه يضع فيها أتباعه ومريديه حتى سيطر على جهاز الدولة وأصبح له فيه نفوذ كبير ، حتى عرف عهد هشام بن عبد الرحمن بعهد نفوذ الفقهاء كما شرحنا من قبل (١) .

ومن فقهاء الأندلس المشهورين أبو بكر بن القوطية الذى اشتهر بالفقعة والتاريخ ، ومع مذهب مالك وجدت بالأندلس مذاهب أخرى ولكنها لم تصل إلى نفوذ مذهب مالك وانتشاره ، ومن الفقهاء الشافعية عثمان بن أبى سعيد الكنانى وأحمد بن عبد الوهاب بن يونس ، ومن فقهاء الظاهرية منذر بن سعيد البلوطي .

ومن العلماء الأندلسيين ذائع الصيت فى الدراسات الإسلامية ابن حزم (على بن أحمد) مؤلف الإحكام فى أصول الأحكام ، والفصل فى الملل والأهواء والنحل ، والمحلى ، ولا تزال كتبه مراجع مهمة للباحثين ، وبخاصة كتاب الفصل « الذى بسط فيه القول فى تاريخ العقائد ، وهو علم لم تعرفه أوروبا إلا فى القرن التاسع عشر (٢) » .

ونبغ فى القراءات بالأندلس أبو القاسم الشاطبى وقد عاش فى شاطبة ، ولها نُسب ، وعاش كذلك فى بلنسية ، ثم انتقل إلى مصر واستوطنها وبعد بها صيته ، وأصبحت منظومته فى علوم القراءات مرجعا لكثيرين من المشتغلين بهذه الدراسة .

(١) انظر جذوة المقتبس ص ٦٠

(٢) دكتور لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ص ٤٢

العلوم الفلسفية :

مرت الفلسفة فى الأندلس بعصور قوة وعصور ضعف ، فقد كانت تسير قدماً أحياناً فيحقق الفلاسفة ألواناً من الفكر الراقى ، وكان الفقهاء أحياناً يشعرون ضدها ، وتنجح ثوراتهم فتصاب الفلسفة بنكسة مدمرة ، فتحرق كتبها ويؤذى أعلامها ، ويعتبر عصر الخليفة المستنصر عصر نهضة للفكر الفلسفى ، فقد قرَّب الفلاسفة مع من قرب من العلماء ، وحشد فى مكتبته الشهيرة أكثر المصنفات الفلسفية ، فلما جاء عهد ابنه هشام اتجه المنصور بن أبى عامر الذى كانت له الوصاية على الخليفة القاصر اتجاهاً مخالفاً لاتجاه المستنصر ، فأحرق كتب الفلسفة وتخلص منها وَعَدُّ المشتغلون بها من الزنادقة والملحدِين .

على أن الأندلس تزدهر بأنها أنجبت مجموعة من أساطين الفلاسفة فى قمتهم ابن باجة وابن طفيل وابن رشد ^(١) ، وكل من هؤلاء يعتبر رائداً فى ميدان من ميادين الفلسفة والفكر سار على منواله كثيرون فى الشرق والغرب كما سنرى فيما بعد .

العلوم العقلية :

نهضت الأندلس نهضة كبرى فى رعايتها للعلوم العقلية من طب إلى موسيقى ورياضة وفلك وكيمياء وغيرها ، ومن علماء الأندلس فى هذا المجال عباس بن فرناس ويمكن أن نقول عنه إنه سبق عصره بفترة طويلة ، فقد رأى أن يطير كالأطائر ، واتخذ العدة لذلك ، وكسا نفسه بربش طويل ، ومدَّ له ذراعين بربش متفرع كالجنّاحين ، وطار فعلاً فى الجو مسافة طويلة ، ولكنه نسي أن يعمل له ما يشبه الذنب ، وعلى كل حال فقد كانت محاولة بارعة سابقة لأوانها ، واشتغل عباس هذا أيضاً بالكيمياء وبالفلك ، وكان أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة .

(١) اقرأ عن هؤلاء الإعلام فى كتابنا « الفكر الإسلامى : مناهة آثاره » ١٥٦ - ١٧٨ (الطبعة السابعة) .

ومن علماء الفلك المشهورين إبراهيم بن يحيى النقاش المعروف بابن الزرقالي ويسميه الغربيون Azarchel وهو الذى قدر فترة خسوف الشمس وحدد مدتها ، وابتكر إسطرلابا حديثا حدد به البعد بين المجموعة الشمسية والنجوم ، وكذلك البعد بين الأرض والقمر ، ومما يذكر أن الأبحاث الحديثة بينت أن الفرق ضئيل جداً بين ما وصل إليه الزرقالي وبين ما وصل له العلم الحديث (١) .

ونبغ فى الطب بالأندلس مجموعة كبيرة من الرجال والنساء ، ومن هؤلاء أحمد بن إياس من أهل قرطبة وهو الذى تهر فى علم الأدوية حتى ضبط منها مالم يضبطه أحد فى عصره ، وألف فيها كتاباً جليلاً لا نظير له ، جمع فيه ما تضمنه كتاب ديسقوريدوس وكتاب جالينوس ورثبه أحسن ترتيب (٢) .

ومن اشتهر بالطب بنو زهر من أعيان إشبيلية ، وقد توارثوا هذا العلم جيلاً بعد جيل ، وأولهم أبو مروان عبد الملك وسار على نهجه ابنه أبو العلاء وحفيده أبو مروان .

واشتهر من نساء الأندلس بالطب أم الحسن بنت القاضى أبى جعفر الطنجالى ، وكانت امرأة واسعة الاطلاع كثيرة المعارف ، أجادت عدة علوم مع الطب ولكنها فى الطب كانت أبرز وأشهر (٣) ، واشتهرت كذلك بالطب أخت الحفيد ابن زهر وابنتها ، فكانتا عالمتين بصناعة الطب والمداواة ، ولهما خبرة جيدة فيما يتعلق بمداواة النساء ، وكانتا تدخلان إلى نساء المنصور ولا يقبل لمداواة أهل المنصور سواهما (٤) .

وقد سبق أن قلنا إن الأطباء المسلمين كانوا يباشرون الطب فى بلاط ملوك المسيحيين ، وقد استجاب عبد الرحمن الناصر لرجاء ملك نافار فأرسل له طبيباً عالجه من السمّة المفرطة التى كان يعانىها .

(١) الفكر الإسلامى : مناهة وآثارة وتأليف M. Sharif ترجمة الدكتور أحمد شلبى ص ١٠٧

(٢) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ج ٢ ص ٤٩

(٣) لسان الدين بن الخطيب : الاحاطة ج ١ ص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٤) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ج ٢ ص ٧٠

الموسيقى والفن :

يمتد عهدها عهد العهد الرحمن الأوسط - كما قلنا من قبل - برقى واضح فى الحضارة الإسلامية بالأندلس ، وبخاصة فى مجال الموسيقى والغناء وفى تنظيم الأزياء وتقنين الآداب الخاصة بالموائد والحفلات والأثاث وما مائلها ، ويرتبط كل هذا برجل شهير هو الحسن بن نافع ولقبه « زُرَّاب » وقد تحدثنا عنه من قبل .

اللغة العربية وآدابها :

كانت اللغة العربية وسيلة ، وكانت غاية ، كانت الوسيلة التى نُشرت بها العلوم والمعارف ، فأقبل عليها الأندلسيون مسلمين وغير مسلمين يتعلمونها ويجيدونها ، وأهملوا لغتهم الأصلية كما سنرى فيما بعد ، وكانت غاية ؛ فأدائها الرفيعة كانت متعة ولذة تهزُّ النفس وتختلط بالوجدان ، ولنسر مع اللغة لنراها وسيلة ونراها غاية .

وقد برع فى اللغة العربية وعلومها كثير من رجال الأندلس ، وطبقت شهرتهم الآفاق وانتهت اليهم الرئاسة أحيانا فى اللسان العربى متنا وقواعد ، ومن هؤلاء ابن سيده صاحب المخصص والمحكم ، وابن مالك صاحب الألفية التى لقيت فى الشرق والغرب كل الاهتمام من الشيوخ والطلاب ، وكان حفظها ودراستها هدفاً للراغبين فى التفوق والبراعة فى اللغة ، وهى من المؤلفات القليلة التى مرت القرون عليها دون أن تنال منها ، بل كانت دائما موضع التقدير والإقبال حتى القرن الذى نعيش فيه ، ومن أئمة اللغة الأندلسيين كذلك ابن خروف وابن الحاج الذى برع فى لسان العرب وفى العروض ، وأبو على الإشبلى المعروف بالشلوين ، وأبو الحسن ابن عصفور وأبو حيان الغرناطى .

وبفضل جهود هؤلاء الأئمة ، وبسبب ما للغة العربية من جمال وسحر انتشرت هذه اللغة انتشارا واسعا فى أسبانيا حتى أصبحت لغة الناس جميعا ،

ويقول Dozy (١) فى ذلك :

هجر أهل أسبانيا اللغة اللاتينية ، واشتغلوا باللغة العربية وآدابها ، وكانوا لا يكتبون بغيرها حتى أن أحد العلماء المشهورين منهم شكّا من ذلك وقال : إننا نحب قراءة الشعر العربى والقصص العربية ، وندرس المسائل الدينية والفلسفة الإسلامية باللغة العربية لتتعلم لغة رشيقة وعبارة بليغة ، ولا يكاد يوجد عندنا من يقرأ الكتاب المقدس باللغة اللاتينية ، وكل شبابنا الأذكيا لا يعرفون غير لغة العرب وآدابها ، لأنهم يقرءون الكتب العربية ويدرسونها بهمة عظيمة ، ويدعوهم كثرة اطلاعهم على هذه الكتب إلى الإعجاب بآداب اللغة العربية ، فإذا حدثتهم عن كتاب من الكتب اللاتينية سخروا منها وقالوا إنها لا تستحق عناية قارئ أو مستفيد ، ومن أجل ذلك نسى المسيحيون لغتهم ، فلا تكاد تجد فى الألف منا واحداً يمكنه أن يكتب رسالة باللاتينية ، أما إذا أرادوا أن يكتبوا باللغة العربية فإن كثيراً منهم يكتبون بعبارات بليغة وأسلوب منمق ، وقد يفوقون العرب أنفسهم فى ذلك حتى فى الشعر ونظم القوافى .

ويقول Nicholson (٢) .

وفى أوائل القرن التاسع كانت اللغة العربية هى لغة الوثائق الرسمية ، وفى هذا الوقت ترجم قسيس من أهل إشبيلية الكتاب المقدس إلى اللغة العربية لتلاميذه ، فغضب منه زميل له واتهمه بالعمل لنشر اللغة العربية ، ودافع القسيس عن نفسه بأن هذه هى الوسيلة الوحيدة لتعليم التلاميذ ، وقد دامت هذه الحال زمناً طويلاً فى قرطبة وطليطلة حتى بعد أن استولى ألفونس السادس على طليطلة سنة ١٠٦٥ م . ويقول « كوند » أن أدب أهل أسبانيا مأخوذ من أدب العرب ومتأثر به ، ولا شك أن الأسبانيين مدينون للعرب بلغتهم وآدابهم ومعارفهم الفلسفية

History of The Arabs in Spain p. 103 (١)

A Literary History of the Arabs p. 176. (٢)

أما الكتاب والشعراء الأندلسيون فأكثر من أن يحصيهم عد ، ومن الكتاب
المشاهير :

أبن عبد ربه	مؤلف	العقد الفريد .
أبن بسام	»	الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة .
الفتح بن خاقان	»	كتاب القلائد .
الحججارى	»	المسهب فى فضائل المغرب .
أبو عامر بن شهيد	»	التوايع والزوايع .
الحميد	»	جذوة المقتبس فى ذكر ولاية الأندلس .
الضبى	»	بغية الملتبس فى تاريخ الأندلس .
أبن الخطيب	»	الإحاطة فى أخبار غرناطة .

ومن الشعراء الممتازين :

يحيى الغزال ، وأبن هانىء ، وأبن الخطيب ، وأبن زيدون ، والمعتمد أبن عباد ،
والوزير أبن عمار ، وأبن خفاجة ، وأبن حمديس ، وكثيرون غيرهم .
وفى الأندلس ظهرت الموشحات والأزجال ، وكان لها طابعها وسحرها
وجمالها .

الحضارة العمرانية

تنوعت نواحي العمران التي عنيَ بها المسلمون بالأندلس ، ففي التجارة عنوا بالطرق والجسور والأسواق ، وفي الزراعة كانت عنايتهم كبيرة ؛ فقد أدخلوا نظام الري الذي لم يصل الأسبانيون إلى مثله من قبل ، وشقوا الأنهار وحفروا الترع وأجروا الخللجان ، وفي بلنسية وصلوا الترع بجبال نيفادا التي هي مقر الثلوج المستديمة ، وبنو القناطر على الترع لحجز المياه حتى يرتفع الماء أمام القنطرة فيسقى الأماكن المرتفعة ، وكانت دورة الزراعة بذلك ثلاثية في أمكنة كثيرة من أسبانيا ^(١) ، ولكن أروع نواحي عمرانهم بدت في المنشآت البنائية من مدن وقصور ومساجد وقلاع وغيرها ، ولا تزال آثارها ناطقة بالروعة والتفوق وستظل كذلك عدة قرون أخرى ، ومن المفاخر العمرانية التي شيدها المسلمون بالأندلس جامع قرطبة ، ومدينة الزهراء ضاحية قرطبة ، وقصر الجعفرية في سرقسطة ^(٢) ، وسور طليطلة ، وقصر المأمون ابن ذي النون بها ، والمسجد الجامع بإشبيلية ، وقصر الحمراء بغرناطة ، وسنخص بالتفصيل قرطبة وغرناطة كنموذجين للفن العمراني الذي اهتم به أمراء الأندلس :

(١) Stanely Lane poole : the Arabs in Spain p. 117 (وانظر التعليق بالهامش)

(٢) في هذا القصر يقول مشيدُه أحمد المقتدر بالله :

قصر السرور ومجلس الذهب بكما بلغت نهاية الأرب

لو لم يحز ملكي خلافتكما كانت لدى كفاية الطلب

والشعر يدل على جلال القصر وفخامة مجلس الذهب ، وإن دل كذلك على ضعف الهمة والخنوع.



(أحد أبواب مدينة طليطلة)

قرطبة

كانت قرطبة عاصمة الأندلس قبل دخول الإسلام ، وقد اتخذها بنو أمية عاصمة لهم لاتساع شوارعها ، وهوائها المعتدل ، ونهرها العظيم وخصوبة بقعتها ، ثم لتوسطها بين الشرق والغرب ^(١) .

غير أن المسلمين أكسبوا المدينة رونقا جديدا ، وقد بدأ ذلك منذ عهد السمع ابن مالك الذى بنى القنطرة الفخمة على نهر الوادى الكبير ، وقد جدها هشام ابن عبد الرحمن الداخل كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

واتخذ عبد الرحمن قصر قرطبة القديم مقرا له بعد أن زينّه وجملّه بأحسن زينة ، ولكنه سرعان ما بنى قصر الرصافة الذى سبق أن تحدثنا عنه وأحاطه بالبساتين الواسعة والرياض الفينانة التى نقل لها كثيرا من أشجار الشرق ونباته ، ثم توالى بقرطبة بناء القصور الفخمة ذات المناظر الخلابة والجنان الفاتنة ، ومن هذه القصور : الكامل والمجدد والروضة والزهد والمعشوق والمبارك ، والرشيقي وقصر السرور والتاج والبديع ، ويقال إنه كان بها خمسون ألف قصر للعظماء ورجال الدولة ، وفى قمتها قصر الدمشق الذى غمقت ساحاته وفناؤه وحاكى به الأمويون قصورهم بدمشق ، وفيه يقول ابن عمار :

كل قصر بعد الدمشق يُدَمُّ فيه طاب الجَنَى ولذُ المشمُّ
منظر رائق وماء غدير وثرى عاطر وقصر أشمُّ ^(٢)

ومن مفاخر قرطبة المسجد الجامع الذى بدأه عبد الرحمن الداخل ، وأتمه ابنه هشام ، وتعهدّه الأمراء من بعده بالتجميل والزيادة حتى صار من أجمل المساجد فى العالم وأكثرها روعة .

(١) المرقى : نفع أطيب ج١ ص ٢١٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٤ ، والعرب فى أسبانيا ص ١١٩ .



جامع قرطبة من الداخل
وتظهر أعمدته الكثيرة الفخمة

وينقل ابن الشباط ^(١) وصف مدينة قرطبة من « اختصار اقتباس الأنوار » وهو كما يلي : « قرطبة قاعدة الأندلس ، وأم المداين ومستقر الخلافة ، ودار الإمارة ، كان فيها الخلفاء من بنى أمية ، وآثارهم بها ظاهرة ، وأبنيتهم فيها وفيما جاورها بينة ، وفيها الجامع المشهور أمره ، الشائع ذكره ، من أجمل مصانع الدنيا كبر مساحة . وإحكام صناعة ، وجمال هيئة ، اهتم به الخلفاء من بنى أمية فزادوا فيه زيادة حتى بلغ الغاية فى الإتقان ، واستولى على أمد الإحسان ، فصار يحار فيه الطرف ويعجز عن حسنه الوصف .

« وقرطبة على نهر كبير ، فوهته بجبل شقورة ^(٢) ، وير النهر على قرطبة وتصب فيه تحت قرطبة أودية ، ثم ير إلى اشبيلية ، وعليه قنطرة عظيمة حصينة من أجمل البنيان قدراً وأعظمه خطراً ، وهى من الجامع فى قبليته وبالقرب منه ، وانتظم بها الشكل إلى الشكل ، وجاءت كالفرع لذلك الأصل .

« ولما كانت قرطبة على الضفة التى ذكرناها محل الإمارة ومستقر الخلافة ، كثر بها العلم والعلماء ، واستقر بها النبلاء والفضلاء ، وصارت دار الهجرة للعلم . ومكان الرحلة لأولى الفهم ، وكان من بها من الخلفاء رضى الله عنهم يقيمون هم العلماء ويكبرون من يولونه خطة القضاء ، ويختارون للخطة أهليها ، ويوفونهم حقوقهم فيها ، فكان للقضاء بها المنزلة العالية والرتبة

(١) تاريخ الاندلس لابن الكردموس ووصفه لابن الشباط (نسان جديان) تحقيق الدكتور مختار العبادى ص ١٤١ و ١٤٢ .

(١) جبل شقورة Sierra de Segnura سلسلة من الجبال الضخمة المرتفعة المغطاة بالغابات والمراعى وبعض النباتات والورود . ويشير الكتاب العرب إلى أنه فى قلب هذه المنطقة الجبلية كانت توجد مدينة حصينة تسمى شقورة أيضاً ، وكانت قاعدة لامارة بعض حكام المسلمين أمثال إبراهيم بن همشك أواخر أيام المرابطين . ومن المنحدرات والسفوح الشرقية لهذه الجبال ينبع نهر شقورة أو النهر الأبيض الذى يروى مدينة مرسية وأوريوله Orihuela شرقى أسبانيا ويصب فى البحر الأبيض المتوسط .

والجدير بالذكر أنه من نفس جهال شقورة السالفة الذكر ينبع أيضاً نهر الوادى الكبير الذى ير بقرطبة واشبيلية (من هامش للمحقق الدكتور مختار العبادى ص ١٤٢) .

السامية ، وكان الخلفاء منقادين لأحكامهم ، منقذين لها نقضهم وإبرامهم ، مع ما خُصَّ به أهل قرطبة من علو الهمة ، واجتماع الكلمة ، وتجمعهم على الحقائق واتباعهم لأحسن الطرائق ، فصارت لهم بذلك النجدة والعزة ، وجازوا أعلى المنازل والرفعة .

المؤتمر الإسلامى المسيحى بقرطبة :

وقد أتيت لى أن أزور قرطبة أكثر من مرة ، ومن أبرز الزيارات وأطولها تلك الزيارة التى كنت فيها عضوا فى وفد مصر إلى المؤتمر الإسلامى المسيحى الذى عقد بقرطبة فى سبتمبر ١٩٧٤ وحضره مندوبون لعدد كبير من الدول الإسلامية والمسيحية ، وألقيت فيه عدة بحوث مهمة ، وكان بحثى فى هذا المؤتمر عن «المشكلات الإنسانية والأخلاقية فى نظر الإسلام والمسيحية» وكانت مدينة قرطبة جديرة بأن يعقد بها هذا المؤتمر لأنها شهدت مجد الإسلام ، وعن طريقها وصلت علوم الإسلام إلى أوربا ، وكانت منارة الفكر خلال العصور الوسطى حيث كان يؤمها طالبو العلم والمعرفة من الغرب ، وهى الآن مدينة مسيحية ، وعلى هذا تجمع فى قرطبة أروع المساجد وأعظم الكنائس ، وعاش فيها المسلمون والمسيحيون ، وإذا كان سكانها الآن من المسيحيين فإن دماء عربية إسلامية تجري فى عروقهم انحدرت من التاريخ ، وهذا جعل مدينة قرطبة أنسب مدينة ليعقد بها المؤتمر الإسلامى المسيحى فى محاولة التجمع التى نقوم بها ضد الصهيونية واللا دينية .

وطالما سرت فى الشوارع الضيقة بقرطبة التى يمكن أن نسميها أزقة ، ورأيت منازل هذه الشوارع شديدة الشبه بالأحياء القديمة بدمشق ؛ فأبوابها هى نفس الأبواب ، والشرفات هى الشرفات ، والساحة الداخلية بكل بيت مع نافورة أحيانا تشبه تلك التى تراها فى الطراز العربى القديم بعاصمة الأمويين ، وقد حق للشاعر نزار قباني أن يقول وهو يتجول فى هذه الشوارع إنه كثيراً ما فكر فى أنه يسير فى شوارع دمشق لا فى قرطبة ، وأوشك أن يضع مفتاح باب أجداده فى أبواب كثيرة تشابهه ليدير المفتاح ويندفع للداخل .

مسجد قرطبة الجامع :

وعدد مساجد قرطبة أربعمئة وواحد وتسعون مسجداً بناءً على قول ابن الدلائى (١) ولكن أعظمها المسجد الجامع الذى أشرنا إليه آنفاً .

والمسجد الجامع يعتبر عملاً فريداً من نوعه ؛ إذ أنه يمثل الفن الخلافى بشكل مثالى ، ولقد بدئ ببنائه فى أواسط القرن الثامن الميلادى بأمر من عبد الرحمن الأول ، ثم أدخلت عليه سلسلة من التحسينات والإضافات فى عهدى عبد الرحمن الثانى والحكم الثانى ، وتمّ بناؤه وبناء المئذنة الشاهقة فى نهاية القرن العاشر فى عهد المنصور بن أبى عامر ، ولقد انتصبت ساحة كبيرة أمام مدخل المسجد مزروعة بالمئات من أشجار البلع والتارنج .

وتوحى صفوف الأعمدة اللامتناهية التى تشكل باحاته وعددها تسع عشرة باحة (من الشمال إلى الجنوب) بغابة من أعمدة المرمر يذكر ابن الدلائى أن عددها ١٣٠٧ أعمدة ، وترتفع فوق أعمدته - التى تعلوها تيجان من الطراز الرومانى والقوطى والخلافى - أقواس متلاحقة على شكل « حدوة » يتتابع فيها اللونان الأبيض والأحمر .

والزيادات التى تمت فى عهد الحكم الثانى جاءت مناسبة وفى محلها ، وبلغت أوجها فى المحراب العظيم الذى يحتوى على أجمل قبة وأروع نقوش عرفت فى الفن العربى والأسبانى .

ويذكر ابن الدلائى أن مساحة المسجد ثلاثة وثلاثون ألفاً ومائة وخمسون ذراعاً ، وأن ارتفاع صومعته بلغ ثلاثة وسبعين ذراعاً فى عهد عبد الرحمن الناصر (٢) .

وعندما سقطت قرطبة فى أيدي الفرنجة توقفت الصلاة فى هذا المسجد العظيم ، ثم تقدم الفرنجة فأقاموا كنيسة فى جزء منه ، وهذا الجزء يمثل حوالى

(١) نصوص عن الأندلس ص ١٢٤ تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهوانى .

(٢) ترصيع الأخبار وتنويع الآثار لابن الدلائى ص ١٢٤ .

عشر المساحة العظيمة التى يشغلها المسجد ، ولا يزال المسجد بهجالة وعظمته يطفى على ما فى هذه الكنيسة من فن وزخارف ، فمن المعروف أن الفن المسيحى لا يتعدى صورا خرافية لملائكة تنشر أجنحتها ، وفتاة قتل السيدة العذراء ، مع صورة طفل يمثل السيد المسيح ، ويحاول الذهب أن يطفى هذه الكائنات ، ولكن روعة الفن الإسلامى أجمل وأعظم تأثيراً فى نفوس المشاهدين، وطالما سمعت هذا التعليق من مثقفين مسيحيين شاهدوا معنا بقرطبة هذه الآثار وتلك .

الصلاة من جديد بمسجد قرطبة :

وفى خلال المؤتمر الإسلامى المسيحى الذى عقد بقرطبة والذى أشرنا إليه آنفا تمت اتصالات ليقيم المسلمون شعائر صلاة الجمعة بهذا المسجد العظيم ، وقد نجحت هذه الاتصالات فسمحت السلطات الأسبانية للمسلمين أن يقيموا بهذا المسجد شعائر صلاة الجمعة يوم الثالث عشر من سبتمبر سنة ١٩٧٣ وعندما أذيع هذا الاتفاق توافد على قرطبة عدد من الطائرات من المغرب تحمل مجموعة من المسلمين الذين وفدوا لأداء الصلاة فى هذا المسجد بهذه المناسبة التاريخية العظيمة ، كما حضر إلى قرطبة سفراء الدول الإسلامية بأسبانيا من العاصمة مدريد ، وكان موقفا عاطفياً أن تؤدى الصلاة من جديد فى هذا المسجد بعد أن توقفت به الصلاة حوالى ثمانية قرون ، وقد دعونا الله من الأعماق أن يحفظ العالم الإسلامى ، وأن يعيد للرشاد غير المسلمين لثقتى فى رحاب الله ، وقد انطلقت فى هذه المناسبة دموعنا من شدة التأثر ، وأحسنا أن التاريخ يعود من جديد ونحن نقف بين يدى الله فى المكان المقدس الذى وقف فيه زعماء المسلمين بالأندلس لمدة قرون دون أن يخطر ببالهم أن أجيالا ستجئ بعدهم تعبث بما خلفه الأجداد ، وتتصارع فيما بينها ليقضى بعضها على بعض فيتتيح هؤلاء وأولئك الفرصة لأعداء الإسلام أن تصبح لهم اليد العليا على المسلمين ، بعد أن كان المسلمون أصحاب القوة والسلطان .

وتسألنى بعد ذلك : هل سيقى المسجد مفتوحاً للمصلين ؟

وأجيب بأننا لم نستطع أن نسأل هذا السؤال خوف أن نتلقى إجابة تعكر صفو ما كنا ننعم به من لذة ونعيم ، فقد كان التكبير والأذان وخطبة الجمعة والصلاة بهذا المسجد حدثاً رائعاً ما كان ينبغي أن نعمل أى شئ يكدره أو يذهب روعته.

والإجابة المحققة أن استمرار فتح المسجد ، أو العودة لإغلاقه ، جزء من سلطة المسيحيين الأسبان الذين وضعت هزائماً الزمام فى أيديهم ، فلهم الشكر إن واصلوا فتحة ، وعلى مسلمى تلك الأيام الوزر أن انتهى تناحرهم إلى قفل بيوت الله .

حمامات قرطبة :

وكان بقرطبة تسعمائة حمام ويقول Stanley Lene - Poole (١) وللحمامات شأن كبير فى المدن الإسلامية ؛ لأن النظافة عند المسلمين ليست من الإيمان فحسب ، بل هى شرط لازم لأداء الصلوات والعبادات بشكل عام ، ذلك فى حين كان مسيحيو العصور الوسطى ينهون عن النظافة ويعدون بها من عمل الوثنيين ، وكان الرهبان والراهبات يفخرون بقذارتهم حتى أن راهبة دونت ببعض مذكراتها فى صلف وعجب أنها إلى سن الستين لم يمس الماء منها الا أناملها عندما كانت تغمسها فى ماء الكنيسة المقدس .. وحينما عادت أسبانيا إلى الحكم المسيحى أمر المسيحيون المنتصرون بهدم كل الحمامات العامة فى أسبانيا .

مدينة الزهراء :

وأحيطت قرطبة بكثير من الضواحي الجميلة من أبدعها ضاحية الزهراء التى بناها عبد الرحمن الناصر ، وننقل فيما يلى عن ابن خلدون ما دونه عن مباني الناصر ومن بينها ضاحية الزهراء الفاتنة : يقول ابن خلدون (٢) .

(١) The Arabs in Spain 119 - 120 من الترجمة العربية

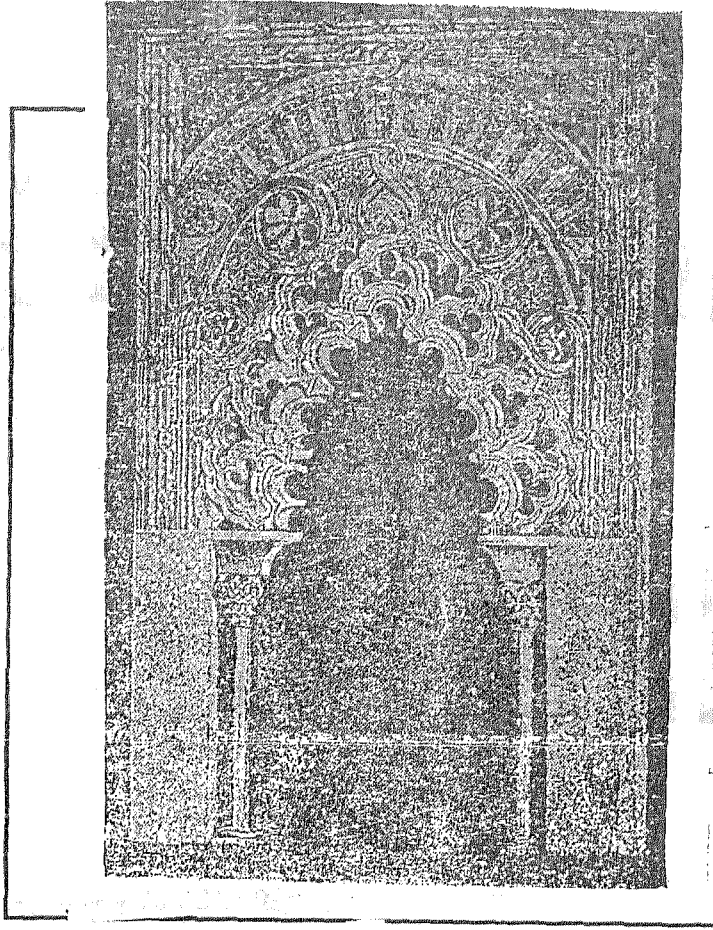
(٢) العبر ج ٥ ص ١٤٤ .

ولما استفحل الملك الناصر وجه نظره إلى تشييد المباني والقصور ، وكان أجداده قد بنوا قصورهم على أكمل الإنفاق والصفامة ، وكان منها المجلس الزاهر ، والبهو الكامل ؛ والقصر المنيف ، فبنى هو إلى جانب الزاهر قصره العظيم ، وسماه « دار الروضة » وجلب الماء إليه من الجبل واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية ، ثم أخذ فى بناء المتنزعات وساق الماء من أعلى الجبل على بُعد المسافة ، ثم اختط مدينة الزهراء واتخذها منزلا وكرسيا للكه ، فأنشأ فيها مجالات للوحش فسيحة الفناء متباعدة السياج ، ومسارح للطيور ، واتخذ فيها دارا لصناعة الآلات منها آلات السلاح للحرب ، وآلات الحلى للزينة ، وغير ذلك من المهن .

ورأى الناصر أنه إذا انخفض ماء نهر الوادى الذى تقع عليه قرطبة والزهراء أصبح لا يصلح للشرب فحفر قناة قر بالجبل طولها ثمانون كيلو مترا وتم بناؤها سنة ٣٢٩ هـ ، وهى قناة غربية الصنعة ، لا تزال آثارها الهندسية باقية حتى الآن^(١).

(١) المرقى : أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٦٦

(التاريخ الإسلامى ج ٤ م ١٠)



عقد من قصر الجعفرية بسرقسطة

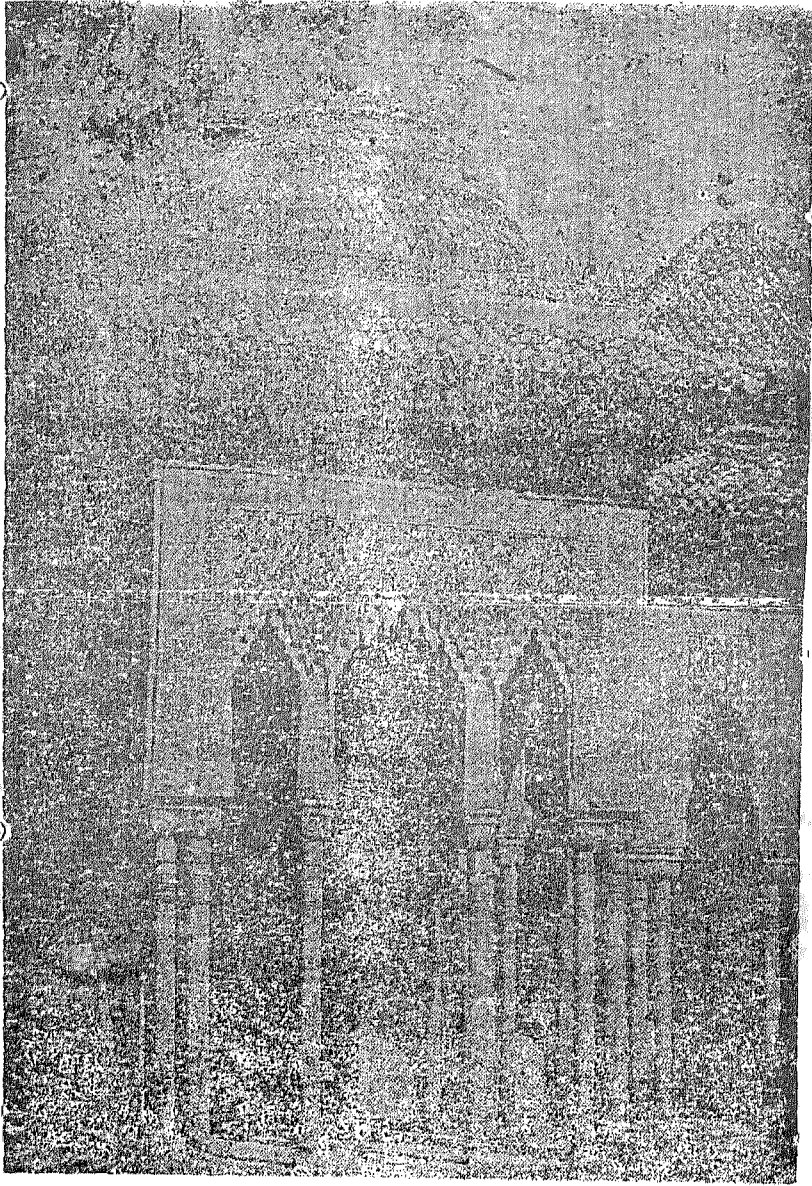
وعلى الرغم من مرور الزمن فإن بقايا مدينة الزهراء لاتزال تمثل ثروة فنية وأثرية بالغة الأهمية ، ويعرض المتحفان الأثريان فى قرطبة وفى مدينة الزهراء نفسها كنوز السيراميك التى استخرجت منها وأدوات الزينة والأحجار المنحوتة.

غرناطة

قلنا فيما سبق إنه تجمع فى غرناطة كل بقايا القوة العربية والفكر الإسلامى ، ومن أجل هذا طالت مقاومة غرناطة أكثر مما كان يتوقع منها ، وكان يمكن أن تمتد قوتها فترة أخرى لولا الخلافات الداخلية فى آخر الأمر بين أعضاء البيت المالك . وليس غريبا إذن أن تصل غرناطة إلى درجة عالية فى التطور والتقدم .

وقد زار Stanley Lane - Poole غرناطة وطاف بها وزار قصورها ، ودور لهذا أجمل وصف وأروع ، ونحن نقتبس فيما يلى بعض ما قاله عن غرناطة ناقلًا أو واصفًا ^(١) .

كان لغرناطة منزلة قرطبية فى إنهاض الآداب والعلوم ، وكان لبنائها ومهندسيها شهرة ذائعة فى أرجاء أوروبا ، فهم الذين بنوا الحمراء التى دعيت بهذا الاسم للون التربة التى أنشئت عليها ، وهم الذين موهوا حيطانها بالزخرف الذهبى البديع ، وزينوها بالأشكال المصبوبة ذات الهندسة العربية الفائقة التى لاتزال إلى اليوم موضع دهشة الفنانين وإعجابهم فى أنحاء العالم ، وتعد غرناطة ببرجيتها السامقين لؤلؤة فى جيد الزمان ، فقد بنيت عند نهاية المرج المرع وفى سفح جبال نيفادا التى يسميها العرب « جبال الثلج » وإذا أهل المرء من إحدى قمم غرناطة أو الحمراء التى تقف ديدباناً فى نهاية المرج ، وسرّح نظره فى فضاء المرج الأفيع وقد تعانقت أشجاره وتبسّمت أزهاره ، رأى بين الجداول والكروم والبساتين وغياض البرتقال ما يملأ النفس سرورا وبهجة ، وفى الحق أن غرناطة تفضل كل مدينة بالأندلس فى جمال منظرها واعتدال جوها ، فإن النسيم الذى يهب عليها من الجبال الثلجية يجعل أشد أيام القيظ فيها من أجمل الأيام وألطفها ، أما تربتها فمنقطعة النظير فى الخصوبة وقوة الإنبات ، وقد أنشئ قصر الحمراء فوق شرف (ربوة) من الأرض تحيط به قمم عالية صعبة المنحدر ، تتدفق فى سفحها الشمالى أمواه نهر حدر ، وقد حصّن القصر بأسوار غطيت بالمرمر ، وشهدت عند كل مسافة بحصون تشرف عليه ، وتشبه



رده فی بهو السباع بقصر الحمراء بغرناطة

الرقعة التى قامت عليها الحمراء سن ربح ، فهى دقيقة الطرف عريضة الجانبين ، يبلغ طولها نصف ميل من الشرق إلى الغرب .

وساحة القصر تسمى ساحة الرياحان لكثرة ما بها من هذا النبات ، ويخرج من هذه الساحة ممر يوصل إلى فناء به بركة من الرخام تتألق فوقها الشمس ، ومن فناء البركة يصل السائر إلى بهو الرسل حيث الفخامة والجلال ، وبهو السباع أشهر جزء وأبدعه فى هذا القصر وإن كان أقل اتساعا من ساحة الرياحان ، وبهذا البهو مائة وثمانية وعشرون عموداً من المرمر وضعت أجمل وضع ونسقت أبدع تنسيق .

الحضارة الإسلامية تغزو أوربا وتوقفها :

انتقلت الحضارة الإسلامية إلى أوربا ، وأيقظتها من سباتها ، سواء فى ذلك الحضارة الفكرية أو الحضارة العمرانية ، وتم نقل هذه الحضارة بطريق الطلاب الأوربيين الذين التحقوا بالجامعات الإسلامية فى قرطبة وإشبيلية ومالقة وغرناطة ثم عادوا إلى بلادهم يحملون أفانين من العلم والمعرفة والحكمة ^(١) ، أو عن طريق المدجنين وهم المسلمون الذين كانوا يعيشون فى كنف الممالك المسيحية قبل سقوط غرناطة ، أو عن طريق المستعربين وهم المسيحيون الذين كانوا يعيشون فى كنف الحكم الإسلامى ، وظلوا هم وأولادهم مصابيح هدى لأوربا بعد انتهاء ملك المسلمين ، وكذلك عن طريق الموريسكيين وهم المسلمون الذين أرغموا على ترك الإسلام أو على الأقل التظاهر بذلك بعد سقوط غرناطة .

وسنذكر فيما يلى نماذج من المعارف التى نقلت من الحضارة الإسلامية لأوربا ، وأغلب ما نذكره مقتبس من كتاب « الفكر الإسلامى : منابغة وآثارة » الذى قمت بترجمته من الإنجليزية وبه تفصيل كاف عن هذا الموضوع فليرجع إليه من يشاء .

من الفكر الإسلامى للفكر الغربى فى الفلك :

هناك مؤلفات أربعة لأبى معشر ، وكذلك الجدول الفلكى الذى صنعه الخوارزمى ، وقد ترجمها كلها للغة اللاتينية أدلارد البائى (Adelard of Bath) ويوحنا الاشبيللى (John of Seville) أما الجدول الفلكى الذى صنعه البتانى ، فقد ترجمه إلى اللاتينية (Plato of Trivoli)، ثم أعاد ترجمته بعد ذلك ألفنسو العاشر (Alfonso X) وترجم جرارد الكرمونى كتاب الهيثة لابن جابر وقد نشرت هذه الترجمة سنة ١٥٣٤ ، وقد سجل هذا الكتاب تقدما واضحا وأدخل تحسينات كبيرة على أبحاث بطليموس . وقد ترجمت إلى اللاتينية أبحاث أخرى كثيرة فى الفلك كتبها البحاثة المسلمون أمثال أبى بكر والقايسى والبتانى والفرغانى وغيرهم ، وقد كان لهذه الأبحاث أثر واضح فى تقدم هذا العلم بأوربا ، فمن المسلم به أن الجداول الفلكية التى وضعها (Ahphonsine) وأكملها Alfonso العاشر لم تكن الا تجديدا للفكر الإسلامى فى علم الفلك ومثل ذلك يقال عن جداول Toledan التى اتُخذت أساسا لها ما كتبه المسلمون وبخاصة ما كتبه الزرقالى ، وكذلك مؤلفات Ramond of Marseilles التى كانت فى الحقيقة اقتباسا من جداول الزرقالى ، وقد حلت الجداول الفلكية التى صنعها المسلمون محل جداول اليونان والهنود وأغنت عنها ، وقد شاع استعمالها حتى وصلت الصين ، وانتفع Copernicus بثقافة الفلكيين المسلمين بدليل أنه أورد فى كتابه De Revolution orbium Coelestium اقتباسات من الزرقالى والبتانى .

وبجانب هذا نجد اللغات الأوربية تستعمل بعض الألفاظ الفلكية العربية مثل Al - sumut المأخوذة من السموت ، و Nadir المأخوذة من كلمة ناظر مما يؤكد أن تراثا إسلاميا ضخما تسرب إلى أوربا المسيحية .

من الفكر الإسلامى للفكر الغربى فى الرياضة والطب :

وقد إلى معاهد المسلمين بأسبانيا كثير من التلاميذ الذين أصبحوا فيما بعد أساتذة وقادة فى الدراسات الرياضية والطبية ، ومن بين هؤلاء أدلارد البائى

(Adelard of Bath) ومورلى النور فلكى Mer'ey of Norfolk البريطانى . وكان هؤلاء يعودون إلى بلادهم ليعلموا أقوامهم ما تلقوه من أساتذتهم المسلمين ، كما كانوا يترجمون أهم ما كتبه الباحثون المسلمون ، فقد ترجم أدلارد سالف الذكر كتاب الخوارزمى عن النظرية الهندية فى الحساب والاحصاء ، وقد حملت هذه الترجمة للغرب - بجانب هذه النظرية - الأرقام التى سميت فى الغرب بالأرقام العربية ، أما الأرقام الغبارية فقد نقلت إلى الغرب بواسطة جريرت (Gerbert) الذى تلقى ثقافته فى أسبانيا أيضا قبل أن يحتل منصب البابوية باسم سلفرستر الثانى (Silverster II) (٩٩٩-١٠٠٣م) ولم تستعمل هذه الأرقام فى الغرب قبل منتصف القرن الثالث عشر ، وكان استعمالها على يد لونردوفيبانوسى (Leonardo Febanocci of Pisa) ، وقد تلقى هذا دراسته أيضا على يد مدرس مسلم . ومؤلفات لونردو كانت حجر الأساس فى الرياضه عند الأوربيين ، وقد حوت هذه المؤلفات النسب المثلثية الستة التى وضعها الرياضيون المسلمون ، ومثل هذا يقال عن مؤلفات (Jacob of Florance) التى كان واضحا أنها كررت ما قدمه العرب من دراسات فى الرياضه . أما المؤلفات الرياضية التى كتبها (Goerge Purbach) أستاذ الرياضيات فى فينا فى القرن الخامس عشر فقد اعتمدت أكثر الاعتماد على أبحاث الزرقالى ، ولجورج هذا تلميذ اسمه Johannes Muller أصبح فيما بعد أستاذا فى Padua وله بحث فى الرياضيات نشر أكثر من مرة خلال القرن السادس عشر ، ويعتبر أول بحث كامل فى حساب المثلثات كتبه أوربى ، وقد كان هذا البحث بكل تأكيد أقل مستوى من الأبحاث التى كتبها العرب .

من الفكر الإسلامى للفكر الغربى فى الموسيقى :

عند نهاية القرن الثانى عشر كانت أهم المؤلفات العربية فى الموسيقى قد تمت ترجمتها إلى اللغة اللاتينية ، وقد تمت هذه الترجمة فى مدينة توليدو Toledo ، ولا تزال آثار هذه الترجمات ظاهرة فى الموسيقى الغربية حتى العهد الحاضر ، اذ يتجلى فيها ما نقله Franco of Cobogne (١١٩٠ م) وهو - إلى حد كبير - يتبع الكندى فى أبحاثه واتجاهاته الموسيقية ، وبعد فرانكو هذا ظهرت رسالة

بعنوان Ochetus وهي تنسب إلى John of Gerald وموضوعها دراسة الأنغام ، ويرى الدكتور حتى احتمال اقتباس عنوان هذه الرسالة من كلمة إيقاعات العربية، وبالتالي اقتباس موضوعها من الفكر الإسلامي .

وقد اقتبس الغرب - بالإضافة إلى الموسيقى الإيقاعية ودراسية الأنغام - كلمات اصطلاحية كثيرة في الموسيقى نذكر منها الكلمات الآتية :

الأصل العربي	الكلمة اللاتينية
العود	The Lute
الرباب	The Rebic
النفير	Anafil
البانديرة (باللغة العامية)	Pander
صنوج	Sonojas
القيثارة	The Guitar
النقارة	The Naker
القانون	The Kanoon

من الفكر الإسلامي للفكر الغربي في الفلسفة :

انتقل من الفكر الإسلامي للفكر الغربي نظريات وأفكار فلسفية متنوعة ، فقد أبدى بيكون (Roger Bacon) وكاردان (Cardanus) عظيم الاهتمام بأبحاث الكندي وأفكاره ، ووافق كاردان الكندي على قوله بوحدة العالم وارتباطه ؛ وللكندي عن مصادر المعرفة نظرية لا تزال مدرسة (كانت Kant) تُعنى بها حتى الآن ، فهو يرى أن مصادر المعرفة هي : الحواس ، والعقل ، والخيال .

وعن الفارابي يقول Carra de Vaux إن منطق الفارابي كان عظيم التأثير على الباحثين الأوروبيين الذين عنوا بالمنطق وقد أخذ موسى بن ميمون عن الفارابي نظريته للتدليل على وجود الله ، وعن ابن ميمون تلقاها توماس الأكويني ، وسارت هذه النظرية في الغرب حتى تدارسها الفيلسوف كانت .

ولابن سينا تلاميذ من الغرب ساروا على نهجه وتأثروا به ، ومن هؤلاء الفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون سالف الذكر والقديس توماس وألبرت العظيم الذى عاصر القديس توماس وتلميذ ألبرت المسمى Ulrich of Strasburg ودانتى يضعه بين أبقراط وجالينوس ، أما Scaligar فيرى أنه نذُ لجالينوس فى الطب ومتفوق عليه فى الفلسفة .

واتجاهات ابن طفيل التى أبرزها فى كتابه « حى بن يقظان » - التى تشير إلى أن الإنسان يستطيع أن يعرف الله بدون وحى وبدون معلم - أصبحت شائعة فى أوروبا واعتنقها كثيرون على أثر ترجمة هذه القصة إلى اللاتينية التى قام بها إدوارد بيبكون، وقد نشرت الترجمة مع نصها العربى فى اكسفورد سنة ١٦٧١ ، ثم ترجمت بعد ذلك إلى أكثر اللغات الأوروبية ، ولم يكتف الأوربيون بترجمتها بل ظهر من كتابهم من عمل على تقليدها مثل قصة Robinson Crusoe التى ألفها Deniel Defoe فى القرن الثامن عشر .

أما ابن رشد فقد شغلت فلسفته أوروبا ، وظهرت آراؤه فى كتب الفلسفة الأوروبية وكانت حوالى نهاية القرن الثانى عشر سائدة فى أوروبا ومنتشرة بين المفكرين ، وفى القرن السادس عشر صارت فلسفة ابن رشد كما يقول Renan الفلسفة الرسمية التى تدين بها الطبقات المتعلمة بإيطاليا .

* * *

أما الحضارة العمرانية فتتمثل فيما نقله المدجنون والموريسكيون إلى أوروبا من ألوان الفن المعمارى ؛ فإلى المهرة من المدجنين ترجع من غير شك بعض الآثار المسيحية ذات الطابع العربى ، كالعقد الذى فى ديرسان جون ، والعناصر المعمارية فى كنيسة سانتيا جودل أرابال ، والعقد الذى فى مصلى سان يدور ، وبعد سقوط قرطبة فى أيدي المسيحيين لم تجد السلطات الحاكمة سوى المدجنين تصعد إليهم بالأعمال الفنية ، فكان النجارون والبناءون منهم يعملون فى الكاتدرائية الكبرى ^(١) .

(١) دكتور لطفى عبد البديع : الاسلام فى اسبانيا ص ١٦٧ .

اعتراف المفكرين الغربيين :

إن انتفاع أوروبا بحضارة المسلمين اعترف به كل المنصفين من الباحثين الأوربيين ، وسننقل فيما يلى أقوال بعض منهم فى هذا الشأن :

يقول العالم الفرنسى جوزيف كالميث فى كتابه « تاريخ أسبانيا » :

قد يظهر للوهلة الأولى أن تعارض الدينين كان يمكن أن يضع عقبة كأداء أمام تبادل التأثير بين الثقافتين ، ولكن الحق أنه لم تقم هذه العقبة على الأرض الأسبانية ، إذ أن الظاهرة الملحوظة كانت ظاهرة عمل متبادل مستمر متغلغل إلى الأعماق ، غير أن فى وصفنا هذا التأثير بالتبادل شيئا من التجوز لأن الجانب الإسلامى كان أكثر نشاطاً ، أى أن الإسلام هو الذى قدم عنصر الإنتاج ، وأن العالم المسيحى هو الذى تلقى الأثر الانفعالى .

ويقول العالم الفرنسى الأستاذ فورييل فى كتابه « تاريخ الشعر » :

إن من الوقائع الجديرة بالملاحظة تلك الجاذبية وذلك الاتصال الاجتماعى اللذين استقرا منذ زمن بعيد بين العرب والاسبانيين ، وجعلنا ينموان على التوالى ، وهاتيك السهولة التى خضع بواسطتها الأخيرون لذلك السمو النبيل الذى أفاضه عليهم الأولون ، إذ استهوتهم عبقريتهم الفائقة فاستساغوا لغتهم ، وألفوا عاداتهم بل أخيلتهم . وكان الإجماع فى ذلك العهد يعزو إلى العرب كل ما كان يبدو خليقاً بالإعجاب ، أو كل ما كان يقتضى وجود فن من الفنون الرفيعة .

ويقول غوستاف لوبون فى كتابه « حضارة العرب » :

..... إنما من العرب وحدهم قد أخذ سكان أوروبا إلى جانب قوانين القروسية ، الاحترام والتلطف الذين تفرضهما هذه القوانين عليهم للمرأة فرضاً ، وإذاً فليست المسيحية - كما يُظن فى الغرب بصورة عامة - هى التى رفعت المرأة وإنما هو الإسلام .

ويقول أناتول فرانس فى كتابه « الحياة مزدهرة » :

إن أشام أيام التاريخ هو يوم معركة بواتيه فى سنة ٧٣٢ حين تتهافتت العلوم والفنون والحضارة العربية أمام البربرية الفرنجية .

وهكذا ينعت أناتول فرانس هذا اليوم بالشؤم ، فلو أن الأقدار شامت تتغلغل الحضارة الإسلامية فى أوروبا حتى تشملها كلها لتغير وجه التاريخ ولكان للإنسانية بفضل المبادئ الإسلامية ، شأن غير الشأن البربرى الذى تعيش فيه أوروبا الآن غارقة فى الطغيان والظلم والوحشية (١) .

ويقول Baker (٢)

ازدهرت حضارة المسلمين فى أسبانيا وصقلية ازدهارا عظيما ، ومنهما انتقلت تأثير الحضارة الإسلامية إلى فرنسا وإيطاليا . فقد نَقَلَتَ فلسفة قرطبة وحكم معلمها الكبير ابن رشد إلى جامعة باريس وتجمعت بالرمو ببيوت عربية الارتفاع شأنها بالجغرافيين والشعراء منهم تحت حكم ملوكها النورمانديين وخلد فردريك الثانى ، بل ان أهمية الثقافة التى نقلتها إلى الغرب العناصر الإسلامية فى صقلية وأسبانيا كانت تعادل على أقل تقدير أهمية تأثير الشرق على الغرب فى الحروب الصليبية (٣) .

(١) الإسلام من قبل الإسلام ، الأستاذ سيمون لىكتوير ، ص ١٧٠-١٧١

(٢) التراث الإسلامى ص ٨٨

(٣) نقله Cambridge Medieval History المجلد الثانى ص ٢٠

شمالى إفريقيا

شمالى إفريقيا (*)

موجز تاريخ الشمال الإفريقى :

تكلّمنا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب (١) عن فتح المسلمين لشمالى إفريقيا ، وعن جهود عقبة بن نافع الفهري فى هذا المجال ، وكيف خلّص الشريط الساحلى من حكم الروم ، ثم سار إلى الجنوب حتى وصل بلاد السودان ناشرا سلطانه وناشرا كذلك دين الاسلام بين السكان الأصليين ، وقد أسس عقبة مدينة القيروان لتكون عاصمة لهذه المساحة الكبيرة ، إيداناً باستقلال هذه البلاد عن مصر ، فقد كانت من قبل تابعة لوالى مصر ، فأصبح لها الآن والخاص ، ومن أشهر ولايتها كذلك موسى بن نصير الذى اتخذ لنفسه لقب أمير القيروان ، وفتح طنجة ولم تكن قد فتحت من قبل ، ودانت له ، وكانت تابعة للملك القوط يعينون عليها حكامها .

وعُرف شمالى إفريقيا فى التاريخ الإسلامى بكثرة القلاقل ؛ فالحياة القبلية لاتعرف الاستقرار السياسى والتبعية الشاملة لوال أو أمير ، ومن هنا استنفذ فتح هذه البلاد جهودا كبيرة ، وظلت المنطقة بعد الفتح تستجيب لعوامل الإثارة والسخط ، ولعل مما ساعدها على ذلك - وبخاصة فى عهد خلافة بنى العباس - بعدها عن بغداد مقر الخلفاء العباسيين ، زد على ذلك أن العباسيين فقدوا الأندلس الحضراء الفينانة ، وكان الشمال الإفريقى طريقاً للأرض الحضراء ،

(١) يشمل الشمال الإفريقى فى وضعه الجغرافى مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب ، ولكن الباحثين اصطلاحوا على إطلاق هذا التعبير على تونس والجزائر والمغرب فقط ، أما مصر فقد عرفت بإسمها ولم تدخل فى هذا الاصطلاح ، وبقيت ليبيا تستقل بإسمها أحيانا أو يشملها أحيانا اصطلاح شمالى إفريقيا ، على أن التعبير بهرقة وطرابلس كان أكثر استعمالا .

(١) ص ١١٩ وما بعدها من الطبعة العاشرة .

فإذا كانت هذه الأرض المخصصة قد ضاعت من أيدي العباسيين فأى جدوى فى الاحتفاظ بالطريق ، وبخاصة إذا كان يفيد قليلا ويتكلف كثيرا فى المحافظة عليه . ومن هنا كثر قيام الدول وسقوطها فى شمالى افريقية نتيجة لكثرة الحركات الداخلية وضعف السيطرة المركزية .

وعلى العموم فقد استطاع الوالى العباسى القدير يزيد بن حاتم المهلبى أن يحافظ على وحدة هذه البلاد وولاتها لبغداد طيلة سنى ولايته (١٥٤ - ١٧٠ هـ) وبعد وفاته وقعت البلاد فريسة الفوضى والتفكك ، ويمكن القول إنه مع نهاية القرن الثامن الميلادى توقف سلطان العباسيين فى هذه البقاع ، ولم يعد يتجاوز حدود مصر الغربية ، وظهرت فى هذه البلاد دول سنورد الكلام عنها فيما بعد ، بعضها يدين لزعماء انبثقوا من الداخل ، وبعضها يدين لزعماء وفدوا من الخارج ، وقد كان استقلال بعضها تاما كالأدارسة ، وحافظ بعضها على علاقة ما بمركز الخلافة فى بغداد كالأغلانية ، وبجانب الدول ، ظهرت فى تلك البلاد حركات استقلالية قبلية لم تصل إلى درجة تكوين الأسرات الحاكمة ، ولن نقف عند هذه الحركات القبلية لكثرتها وقصر عمرها وعدم جدواها ، وسنولى اهتمامنا بالدول التى تكونت بها أسر حاكمة ، والتى استحقت أن تحسب فى عداد الدول من جهة مساحتها ونظمها .

وأول الدول التى ظهرت بالشمال الافريقى الدولة الرستمية بالجزائر ، وقد بدأت سنة ١٦٩ واستمرت حتى سنة ٣٠٥ هـ وعقب ظهورها قامت دولة الأدارسة بمراكش (١٧٢ - ٣٧٥) ثم دولة الأغالبة فى تونس (١٨٤ - ٢٩٦) ، وقبل نهاية القرن الثالث الهجرى ظهرت الدعوة الإسماعيلية بالشمال الافريقى ، وسرعان ما انبثقت عنها الأسرة الفاطمية التى استولت على تونس وأنهت سلطان الأغالبة ، ثم امتد سلطانها حتى شمل الشمال الافريقى كله تقريبا ، وسنتكلم عن « الفاطميين فى شمالى افريقية » عند حديثنا عن تونس ، ثم ان الفاطميين فتحوا مصر ، وبنى قائداهم جوهر الصقلى مدينة القاهرة ، وانتقل لها خلفاؤهم سنة ٣٦٢ هـ واتخذوها عاصمة ملكهم ، وحاولوا أن يجعلوا شمالى افريقية ولاية تابعة لهم ، ولكن ذلك لم يتم لهم ، فسرعان ما قامت حركة

انشقاق واستقلال قام بها الأمراء المحليون ونشأت عن ذلك دولة آل زيري (٣٦٢ - ٥٤٣) فى صنهاجة بتونس الحالية ، مع شريط من شرق الجزائر ، ونشأت كذلك دولة بنى حماد (٣٩٨ - ٥٤٧) فى بوجاية بباقي الجزائر ، أما مراكش فقد انتشر بها الحكم القبلى .

وتجمع بعد ذلك شمل الجزء الغربى من شمالى افريقية تحت سلطان المرابطين الذين تغلبوا على الحكم القبلى فى مراكش ، كما ورثوا بعض دولة بنى حماد ، ثم عبروا بسلطانهم إلى الأندلس كما مر .

بيد أن الموحيدين الذين جاؤا على أنقاض المرابطين استطاعوا أن يخضعوا شمالى افريقية كله لسلطانهم ، وأن يحلوا محل المرابطين بالأندلس أيضاً ، وطرردوا بذلك النورمانديين الذين أخذوا بقيادة روجر الثانى مكان آل زيري فى تونس ، كما حلوا محل النفوذ المصرى الذى كان يشمل صحراء ليبيا ويمتد أحياناً إلى طرابلس .

ولما ضعفت دولة الموحيدين بدأ الانحلال يظهر فى شمالى افريقية فظهرت دولة بنى حفص فى تونس سنة ٦٢٥ - ٩٤١ (١٢٢٨ - ١٥٣٤ م) ودولة بنى زيان بتلمسان غرب الجزائر سنة ٦٣٣ - ٧٩٦ (١٢٣٥ - ١٣٩٣ م) ودولة بنى مرين بمراكش وقد ظهرت سنة ٥٩١ (١١٩٤) ثم قضت على بقايا الموحيدين واستولت على عاصمتهم سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٩) وظلت حتى سنة ٩٥٧ (١٣٥٠) ، ويجوار هذه الدول ظهرت أيضاً بعض حركات استقلالية صغيرة قوامها القبائل التى كانت تنتهز الفرص ليدفع زعمائها أنفسهم للسيادة والسلطان ، وفى سنة ٧٩٦ هـ (١٣٩٣ م) امتد سلطان بنى مرين حيث شمل الجزائر ، وأصبح ملك بنى زيان تابعاً لبنى مرين يولون عليه من يشاءون من بنى زيان ولكن بنى مرين دب فيهم الضعف واستبد بنو وطاس وزراؤهم بالأمر ، فهياً ذلك لبنى زيان أن يستقلوا بأمر الجزائر ، كما هياً للأشراف أن يظهروا بمراكش .

وفيما يلى تخطيط عن دول الشمال الإفريقى والأندلس من مطلع الاسلام حتى الآن .

(التاريخ الإسلامى ج ٤ م ١١)

التاريخ الميلادي	اسبانيا	المغرب	الجزائر	طرابلس وتونس	التاريخ الهجري
٧٠٠	الأمازيغيون في تونس	الدولة الأموية			١٠٠
		الدولة العباسية			
٨٠٠		الادارة	الرسمية	الاغالبية	٢٠٠
٩٠٠		الفاطميون			٣٠٠
١٠٠٠	الزحف الحميري	قبائل	بنو حجة	بنو زيان	٤٠٠
١١٠٠		المرابطون			٥٠٠
١٢٠٠	الزحف المغربي	الموحدون			٦٠٠
١٣٠٠		بنو الأحمر	آل	بنو زيان	٧٠٠
١٤٠٠		بنو هود	مرين	بنو حجة	٨٠٠
١٥٠٠			ثم آل رطاس	الفرنجية	٩٠٠
١٦٠٠	الزحف العثماني	الأتراك	العثمانيون		١٠٠٠
١٧٠٠			(استقلال محلي)		١١٠٠
١٨٠٠			باشوات - البايات - الدايات		١٢٠٠
١٩٠٠			استقلال فرنسي		١٣٠٠
١٩٥٠		استقلال	استقلال	استقلال	١٣٥٠

من عمل المؤلف وخاص بالجزء الرابع من موسوعة التاريخ الإسلامي

وفى أوائل القرن السادس عشر كانت الأسر الحاكمة بشونس والجزائر تؤذن بالأفول وتتهيئ الفرصة لدم جديد يظهر فى أفق البلاد ، وهو عنصر الأتراك العثمانيين ، وهكذا انتهى المطاف بالشمال الإفريقى إلى سلطتين كبيرتين ، إحداهما سلطة الأشراف فى مراكش ، والأخرى سلطة الأتراك العثمانيين فيما عدا ذلك ، وسيأتى حديثنا عن الأشراف ضمن كلامنا عن مراكش فيما بعد ، أما الآن فنتكلم كلمة عن الأتراك العثمانيين الذين حكموا أكثر الشمال الإفريقى مع أن مركز سلطانهم كان فى القسطنطينية ، وستجد كلمتنا هنا بصلة العثمانيين بشمالى افريقية ، أما الكلام عن الإمبراطورية العثمانية فمكانه الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

الأتراك العثمانيون :

كان سقوط دولة الموحدين (سنة ١٢٦٦ م) كارثة كبرى أصابت الجناح الغربى الإسلامى ، (أى الشمال الإفريقى والأندلس) فقد قام على أثرها فى الشمال الإفريقى دول متنازعة ، وفى الأندلس انتهز الفرنجة هذه الفرصة فاستعادوا نشاطهم ، وجددوا زحفهم على المسلمين هناك ، بعد أن كان الموحدون قد ردوهم على أعقابهم وأوقفوا تقدمهم ، وسقطت دولة المسلمين بالأندلس فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى (١٤٩٢) ، وفى نشوة النصر أراد الفرنجة أن يواصلوا زحفهم ، وأن يحتلوا الشمال الإفريقى ، وبما أغراهم بذلك تلك الدول الضعيفة التى تكونت به بعد سقوط الموحدين ، والتى لم يكن يحسب لها حساب يذكر فى ميزان القوى .

وهكذا تعرض الشمال الإفريقى لحملات متتابة نجح بعضها وأتاح للمسيحيين أن يحتلوا بعض بقاعه ، فاحتل الأسبان طرابلس سنة ١٥١٠ وظلوا بها حتى سنة ١٥٣٠ حيث أسلموها لقرسان القديس يوحنا الذين كانوا قد اتخذوا مالطة مركزاً لهم ، واحتل الفرنجة كذلك طنجة ، وبعض جهات السوس ، وأغادير ، ووهران ، وغيرها من مدن الساحل ، وبالإضافة إلى ذلك كان للفرنجة نفوذ كبير لدى بلاط بعض ملوك الشمال الإفريقى ، كبنى حفص ، الذين كان

مَلِكُهُم الأخير ألعوية فى يد امبراطور أسبانيا .

واقب عليه المسلمون لمقاومة الأسبان والبرتغاليين عن طريق الهجوم الخاطف بالبحر المتوسط ، أو ما يمكن أن نسميه المقاومة البحرية أو الجهاد البحرى ، وظهر فى هذه الآونة أخوان كان لهما سلطان شامل على النصف الغربى لهذا البحر ، وهما عروج وخير الدين بربروس (أى ذو اللحية الشقراء) ، وقد احتل بعض جزر هذا البحر وبعض شواطئه الهامة ، حيث اتخذها مراكز لنشاطهما البحرى ، ومنها جزيرة جربة المجاورة لساحل طرابلس ، ومنها تلمسان وبعض ثغور تونس والجزائر ، وعظمت قوتيهما فلم يكن فى وسع أية دولة أن تبأشر نشاطا ما فى البحر المتوسط دون أن تدفع إتاوة لهذين الشقيقتين اللذين كانت لهما بحرية تُدخلُ العرب فى قلوب الفرنجة جميعاً ، ولجأ مسلمو الشمال الإفريقى لهذين الأخوين يطلبون عونهما ضد الزحف المسيحى ، فاستجابا لذلك ، وشنا حملات موفقة ضد المسيحيين ، ومات عروج فتولى خير الدين قيادة هذا الاتجاه ، ورغبة فى مزيد من النجاح والاستقرار زار خير الدين الأستانة ، وعرض على السلطان العثمانى (١) خدماته ، وكان العثمانيون قد ضموا قبيل ذلك سوريا ومصر (١٥١٦ - ١٥١٧) إلى أملاكهما ، وأصبح الشمال الإفريقى هو الخطوة الطبيعية التالية للتقدم العثمانى ، فرحب السلطان العثمانى بهذا العرض ، وضمَّ خير الدين إلى خدمته وأمدّه بالسفن والعتاد بالإضافة إلى سفنه وعتاده ، وأصبحت قوة خير الدين جزءا من القوة العثمانية ، وزحف خير الدين على شمالى افريقية فاستولى على الجزائر من بنى زيان سنة ١٥١٨ ، ثم استولى على تونس سنة ١٥٣٤ ولكن الامبراطور شارل الخامس امبراطور أسبانيا قاد أسطولا أسبانيا فتح به تونس سنة ١٥٣٥ وأعاد الملك الحسن آخر ملوك بنى حفص إلى عرشه ، بيد أن العثمانيين جددوا حملاتهم على شمالى افريقية بقيادة سنان باشا ، فاستولوا على طرابلس سنة ١٥٥١ من فرسان القديس يوحنا المالطيين كما أعادوا سلطانهم على تونس سنة ١٥٦٨ واكتمل بذلك سلطان العثمانيين على شمالى افريقية فيما عدا الجزء الغربى حيث قامت به دولة

(١) أنظر ذلك فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

الأشراف كما قلنا من قبل .

وأخذت القسطنطينية تعين الولاة على أقطار الشمال الإفريقى ، بيد أنه سرعان ما برزت شخصية هذه الأقطار فجعلت سلطة العثمانيين إسميةً فحسب ، ولكن بقيت على كل حال صلة بين الأتراك العثمانيين وبين هذه الأقطار ، حتى اقتحمها الاستعمار الأوربى ، وقد استتبع هذا الاستعمار البغيض صنوفاً من الكفاح حتى عادت لهذه الأقطار سيادتها واستقلالها .

* * *

والآن ، وقبل أن نتكلم عن دول الشمال الإفريقى دولةً ، نحب أن نشرح بإيجاز بعض المسائل التى تتصل بالشمال الإفريقى كله .

سكان الشمال الإفريقي

الجنس :

يطلق علي السكان الأصليين بالشمال الإفريقي كلمة «بربر» وهو التعبير الذي استعمله ابن خلدون في تاريخه « العبر » حين فصل القول في البربر وأنسابهم ومواطنهم ، وبخاصة في الجزء السادس من مؤلفه سالف الذكر ^(١) ويذكر ابن خلدون أن سبب تسميتهم «بربر» أن أفريقش بن قيس بن صيفي من ملوك التبابعة غزا المغرب وإفريقية وبنى بها المدن والأمصار ، وأن إفريقية سميت باسمه ، وأنه سمع السكان الأصليين يتكلمون بأصوات مختلفة فقال لهم: ما أكثر بربرتكم . أي كلامكم غير المفهوم له ، فسموا البربر ^(٢) :

وفي القاموس : البربر كثير الكلام والجلبة والصياح ، والفعل بربر ^(٣) ، وعلي هذا فالتسمية بالبربر لا علاقة لها بالجنس ، وإنما علاقتها باللغة ، فلما كانت لغة السكان الأصليين غير عربية أصبحت في نظر العرب رطانة أو بربرة ، وهي اصطلاحات استعملها العرب هنا وهناك ، وكانت كلمة بربر في نصيب السكان في شمالي إفريقية ، يقول الأستاذ الطاهر أحمد الزاوي ^(٤) ان كلمة « بربر » أطلقها العرب علي الأمة التي تسكن الساحل الإفريقي لأنهم يتكلمون بلغة ليست مفهومة للعرب ، والعرب يطلقون كلمة بربر علي الأصوات المتجمعة غير المفهومة لهم .

وجاء الاستعمار الذي بدأ أواره في الشمال الإفريقي منذ سقوط الأندلس في أواخر القرن الخامس عشر ، وللاستعمار اصطلاحاته الكاذبة الخداعة ، التي يرمي من ورائها إلي الإذلال والفتن ، ومن هذه الاصطلاحات الكاذبة كلمة «استعمار» نفسها ، إلتى أصبحت - وإن كان اشتقاقها من العمران - تدل

(١) انظر صفحة ٨٩ وما بعدها . (٢) المرجع السابق ص ٨٩ .

(٣) الفيروزبادي : القاموس المحيط ج ١ ص ٣٧٠ (٤) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ٦

علي الخراب وتجليه ، ومنها « الجهاد البحري » الذي قام به المسلمون للذود عن حياتهم ، فقد سماه الاستعمار : قرصنة ، وعلي هذا المضمار استعمل القرصنة كلمة بربر يقصدون بها معني مجازيا أشار له الأب لويس معلوف ^(١) بقوله : وفي المجاز ، البربري هو المتوحش الهمجي . وكان القرصنة يقصدون بذلك إثارة فتنة طائفية بين سكان الشمال الافريقي من ينحدر من أصل عربي ومن لا يجري الدم العربي في عروقه ، ويستوي في هذا من يعرف اللغة العربية الآن ومن لا يعرفها ، فالجهل باللغة العربية ليس دليلا علي البعد عن الجنس العربي ، وقد شاهدت في إندونيسيا آلاف الشبان والشابات الذين ينحدرون من أسر عربية معروفة هاجرت إلى إندونيسيا ، ومع هذا لا يعرفون اللغة العربية ، وسنتحدث فيما بعد عن اللغة في شمالي افريقية ، فلنواصل الآن كلامنا عن الجنس .

ويحسب بعض الناس أن اتصال العرب بالشمال الافريقي بدأ مع الاسلام ، وأن أول هجرة عربية لهذه البقاع كانت مع الفتح ، وأن الفتح الاسلامي جعل بالشمال الافريقي عنصرين هما البربر والعرب ، وبهنا - إظهارا للحق وإنصافا للتاريخ أن نقرر حقيقتين هامتين :

أولا - عرف العرب شمالي افريقية قبل الاسلام بعهد طويل ، ولنسمع من ثقات المؤرخين والباحثين ما يروونه حول هذا الموضوع : قال ابن خلدون ^(٢) غزا ملوك اليمن شمالي إفريقيا مرارا ، فاستكان لغلبهم السكان ، ودانوا بدينهم ، وذكر ابن الكلبي أن حميرا من ملوك اليمن ملك المغرب مائة سنة ، وأنه الذي بني مدائنه ، واتفق المؤرخون علي أفريقش بن قيس بن صيفي من التبابعة غزا المغرب ، واختط به المدن العظيمة والمباني الشهيرة .

ويقول الفيروزبادي ^(٣) إن من يسمون « البربر » هم من ولد قيس عيلان أو هم بطنان من حمير : صنهاجة وكتامة صاروا إلي المغرب أيام فتح أفريقش لإفريقية

(١) المتجدد ص ٣١ . (٢) العبر ج ٦ ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٣) القاموس المحيط ج ١ ص ٣٠٧ - ٣٨١

ويقرر ابن خلدون هذه المسألة فيروي عن البكري أنه كان لمضر ولدان : إلياس وعيلان ، فولد عيلان قيسا ودهمان ، وينتمي البربر الي قيس بن عيلان بن مضر ، وفي ذلك يقول الشاعر :

أيها السائل عنا ، أصلنا قيس عيلان بنو العنبر
إن قيسا قيس - عيلان هم معدن الحق علي الخير
حسبك البربر قومي إنهم ملكوا الأرض بأطراف الأسل^(١)

ويقول الدكتور فيليب حتي^(٢) : إن معظم سطح الجزيرة العربية صحراء لا تصلح للحياة ، محيطة بها حافة ضيقة تصعب الحياة فيها ، ويحيط البحر بهذه الحافة ، فإذا ما زاد عدد السكان عن طاقة الأرض لا حتمالهم ، كان علي الفائضين أن يبحثوا لهم عن مدي حيوي يعيشون فيه ، ولم يكن باستطاعة أكثرهم اجتياز البحر حيث لم تكثر في تلك الأزمان وسائل ذلك ، فلم يبق إلا أن يسلكوا طريق الساحل الغربي من الجزيرة نحو الشمال ، وقد سلك هذا الطريق نحو افريقية مها جرون ساميون حوالي سنة ٣٥٠٠ ق .م واستقروا هناك ، ويرى النساب بالشمال الافريقي أن لواتة من حمير ، وهوارة من كندة من السكاسك ، وزناتة من التباينة أو من العمالة ، وغمارة وزواوة ومكلاتة من حمير^(٣) .

هذه هي الحقيقة الأولى ومنها يتضح أن العرب جاؤا الي شمالي أفريقية بأعداد وفيرة ، وأقاموا به قبل الفتح الاسلامي بعدة قرون .

ثانيا - أما الحقيقة الثانية فتتصل بالعرب الذين وفدوا علي الشمال الافريقي قبل الإسلام . والذين سنتحدث عنهم فيما بعد ، وتلك الحقيقة هي أن العرب وجدوا في شمالي افريقية صورة من الحياة التي تركوها في بلادهم : صحراء

(١) العبر ج ٦ ص ٩٥

(٢) History of the Arabs V. 1 P. 10-14 .

(٣) طاهر الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ٧ .

ومراعي وخياما وإبلا وأغناما ، وحياة قبلية ، وعادات لا تختلف كثيرا عن عاداتهم ، فاندمجوا في السكان اندماجا تاما ، بل سنري فيما بعد أن بعض القبائل العربية مثل قبيلة لمتونة تترك الساحل وتقيم للعزلة في الصحراء ثم تخرج لنا باسم المرابطين و يمتد سلطانها شمالا حتي يشمل الأندلس وجنوبا حتي بلاد السنغال ، ويروي لنا ابن خلدون ^(١) في ذلك أيضا أنه قيل ليغمرا سن زعيم بني زيان إن نسبه يتصل بالأدارة الوافدين من الشرق . فأجاب إن كان هذا صحيحا فينفعنا عند الله ، وأما الدنيا فإننا نلناها بسيوفنا .

وهكذا لم ينزل العرب بالساحل فقط كما فعل الرومان ، بل أقاموا بالساحل وبالداخل ، ولم يقف العرب من السكان الأصليين موقف عزلة بل اندمجوا فيهم، واختلطوا بهم اختلاطا تاما بالتزاوج وتبادل العادات وطول العشرة ووحدة الدين والأهداف ، وكانت لهم أغلبية عددية ، فعرّبوا السكان .

ولذلك فنحن لا نقول ما قائله الأستاذ طاهر الزاوي من أن القبائل العربية التي نزلت بالشمال الإفريقي تبررت بطول الزمن في لغتها وزبها وعاداتها ^(٢) ، بل نقول إن السكان الأصليين تعربوا من كثرة الزحف العربي إلي بلادهم وطول الاختلاط بالعرب وبخاصة عندما جاء الإسلام مع العرب في الهجرات التي سنتكلم عنها فيما بعد ، فأصبح الدم العربي والدين الاسلامي هما طابع السكان في هذه البقاع ، فالذين يسميهم الاستعمار البربر ليسوا في الحقيقة إلا بعضاً من هذا المزيج طالت عزلتهم في الصحراء ، وطبيعة البعد والعزلة تحدث أحيانا بعض الفوارق ، وجاء الاستعمار فحاول أن يخلق هوة بين السكان بعضهم والبعض باسم العرب والبربر وقد وجد له أحيانا بعض الأتباع كالجلاوي ، باشا مراکش ، الذي كان أداة في يد الاستعمار عندما أراد أن يشير بين السكان زوينة تفريق عنصري بدون أساس ، وسنتكلم عن مشكلة « الظهير البربري » عند الكلام عن مراکش « المغرب » .

(١) العبر ج ٧ ص ٢٢ .

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ١٤٠ .

بقي الآن أن نذكر الهجرتين الأخيرتين اللتين تمَّ بهما الامتزاج بين السكان في هذه المنطقة .

فأما الهجرة الأولى منهما فهي الهجرة التي حدثت مع الزحف الاسلامي ؛ وقد بدأ هذا الزحف في عهد عثمان ابن عفان ، واستمر بين مد وجذر حتي عهد عبد الملك بن مروان حيث استطاع موسي بن نصير أن يثبت أقدام المسلمين في الشمال الاقريقي كله حتي المحيط الأطلسي ، وفي خلال هذه الفترة ثم بعد استقرار أقدام المسلمين بهذه المنطقة وفدت لها وفود كثيرة أقامت بها ولم تبحر بها .

أما الهجرة العربية الثانية فقد حدثت سنة ٤٤٤ هـ ، وسنتحدث عنها بالتفصيل عند الكلام عن تونس ، وقوام هذه الهجرة قبائل بني هلال وبني سليم الذين دفعهم الخليفة الفاطمي المستنصر إلي شمال إفريقيا ، فانتشروا في أقطاره ، وانتصبوا في السهول والواحات والجبال ، واختلطوا بالسكان الأصليين اختلاطا وثيقا ؛ فتصاهر العنصران وامتزجا ، ونتج عن ذلك سلالة عربية تلوّن الغالبية العظمي من السكان (١) .

ويعلق الأستاذ توفيق المدني (٢) علي هذه الهجرة بقوله كان الخليفة الفاطمي المستنصر يريد أن ينتقم من أمراء صنهاجة في المغرب العربي لأنهم خلعوا بيعته ، وخطبوا للخليفة العباسي ، فأمر أعراب الصحراء الشرقية المصرية بالاجتياز الي أرض المغرب ، وما كان يدور بخلده يومئذ أنه وطد أقدام العربية في هذه الأرض الي الأبد .

وتبعاً لما ذكرناه لا يرحب السكان بالشمال الإفريقي بكلمة « بربر » ويرونه تعبيراً مستهجنًا ، وإنما ينسب الشخص منهم الي القبيلة التي ينتمي اليها ، كالمصامدة والزواوة وصنهاجة ، أو ينسب نفسه الي الكتلة التي تشمل عدة

(١) أحمد النائب : المنهل العذب ج ١ ص ١٢١ .

(٢) هذه هي الجزائر ص ٢٨ - ٢٩ .

قبائل كالأمازيغ أو الشلوح وعلى العموم فسكن قبائل الأمازيغ في الجزائر والريف المراكشي ، وقبائل الشلوح في الأطلس الكبير .

أخلاق السكان :

يصف ابن خلدون أخلاق السكان بشمالى أفريقية أجمل وصف وأروع ، وينسب لهم عقدا من أسمى الصفات وأكرمها ، ونحن نقتبسة فيمالي : وأما تخلقهم بالفضائل الانسانية ، وتنافسهم في الخلال الحميدة ، وما جبلوا عليه من الخلق الكريم ، من عزّ الجوار ، وحماية النزى ورعى الأزمّة والوسائل ، والوفاء بالقول والعهد ، والصبر على المكارة ، والثبات في الشدائد ، وحسن الملكة ، والإغضاء عن العيوب ، والتجافى عن الانتقام ، والرحمة بالمسكين وبر الكبير ، وتوقير أهل العلم ، وحمل الكّل وتهيئة الكسب للمعدوم ، وقرى الضيف ، والإعانة على النوائب ، وعلو الهمة ، وإباء الضيم ، ومقارعة الخطوب ، وغلاب الملك ، وبيع النفوس من الله في نصر دينه ، فلهم في ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف ، لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتبعيه من الأمم ، وحسبك ما اكتسبوه من حميدها ، واتصفوا به من شريفها أن قادتهم إلى مراقى العزّ ، وأوقت بهم علي ثنايا الملك ، حتى علت علي الأيدي أيديهم ، ومضت في الخلق بالقبض والبسط أحكامهم (١) .

وذلك - كما ترى - وصف رائع يعطي صورة بهيجة لسكان هذه المنطقة ، ولا يدع وسيلة لمزيد .

اللغة :

وفد العرب علي الشمال الإفريقي قبل الإسلام كما ذكرنا من قبل ، كما وفدو علي مصر والشام في نفس الوقت تقريبا ، وقد اختلط العرب المهاجرون بالسكان الأصليين في كل هذه البقاع ، ولكن اللغة العربية لم تنتشر مع العرب الذين جاءوا قبل الاسلام ، ومعنى هذا أن انتشار الدم العربي سبق انتشار اللغة

(١) العبر وديوان المتدا رالحبر ج ٦ ص ١٠٤ .

العربية ، فلما جاءت الهجرات العربية بعد الاسلام بدأت اللغة العربية تنتشر بين السكان بسبب القرآن الكريم وأحاديث الرسول وحضارة الإسلام . وهذه الحقيقة تنطبق علي مصر والسودان كما تنطبق علي دول الشمال الافريقي وعلي غيرها من الدول العربية الحالية . ويمكن القول إن الشمال الإفريقي كان محتاجاً للغة ، ذلك لأن الحياة القبلية متعددة اللغات ، فكل قبيلة كانت لها لغة ، وقبل الإسلام لم تكن هناك صلة وثيقة بين القبائل ، فكانت كل قبيلة في عزلة عن القبائل الأخرى ؛ فلما جاء الإسلام خلق رباطاً بين هذه القبائل ، بسبب الدعاة والمعلمين والجنود والموظفين (العمال والولاة) فأصبح لابد من لغة مشتركة ، فأقبل السكان علي تعلم اللغة العربية لهذا الهدف ولعمق صلتها بالإسلام .

واقترح الاستعمار إفريقية في القرن التاسع عشر ، وتنفيذا لسياسة المعروفة « فرق تسد » بدأ يتلمس الأسباب للتفريق ، فاخترع فكرة العرب والبربر وعزل من سماهم البربر عن باقي السكان وشجع فيهم اللغات المحلية وكانت لا تزال لها بقايا من الماضي ، كما دفع لغته لتكون اللغة المشتركة ، وأخذ يحاول فرنسة السكان أو طلينتهم ، وعلي هذا وجدت الآن قلة ضئيلة لا تعرف اللغة العربية ، ويهمنا أن نقرر أن أكثر هؤلاء عرب بدين شك ، ولكن الاستعمار حال بينهم وبين اللغة العربية ، ومن الواضح أن عهد الاستقلال قد أولي اللغة عناية جعلتها لغة الجميع .

الدين :

كان سكان الشمال الافريقي من قديم الزمان يدينون بالمجوسية ، وكانوا أحياناً يدينون بدين من غلب عليهم من ، الأمم ^(١) وكان اليهود يلجأون للشمال الافريقي كلما نزلت بهم نائبة ، فمن أيام بختنصر (٥٨٦ ق م) إلي أيام انهيار الدولة الإسلامية بالأندلس (١٤٩٢ م) كانت وفود اليهود ترد علي المنطقة ، ولكن اليهود اعتبروا أنفسهم دائماً جالية مستقلة ، فلم يختلطوا بالسكان ، ولم يشاركوا في الدفاع عن البلاد ، ولا راعوا مصلحتها في

(١) ابن خلدون : ج ٦ ص ١٠٦ .

المعاملات الاقتصادية ، ثم إنهم في العصر الحديث ساعدوا الاحتلال الأجنبي واشتغلوا له سماسرة وتراجمة ، وأتاحت حكومة باريس سنة ١٨٧٠ لنزلاء الجزائر من اليهود أن يتجنسوا بالجنسية الفرنسية فانتهزوها فرصة وخلعوا الجنسية الجزائرية (١) ، ولا يزال منهم حتى الآن عدد كبير وبخاصة في المغرب ، لا يزالون ولا ولاء لهم إلا للمال ، ولا خلق لهم إلا الاستغلال .

وجاءت المسيحية مع الفرنجة قبل الاسلام ، وقد نجح البيزنطيون سنة ٥٧٦ في قلب عقيدة أكثر سكان الساحل والأمصار الي المسيحية ، أما ما عدا الساحل فقد بقي دون أن يمتد له النفوذ البيزنطي أو تجذبه الديانة المسيحية (٢) .

الاسلام :

وجاء الاسلام وامتد نفوذه فشمل الساحل كله ، ثم انحدر به دعائه إلي الجنوب ، فاقتحموا الصحراء ووصلوا بلاد السنغال والسودان ، ودخل السكان هنا وهناك دين الإسلام ، ولكن اعتناقهم هذا الدين تزعزع من حين لآخر في أول العهد به (٣) ، ويبدو أن السكان وبخاصة في الصحراء ضاقوا آنذاك بالتكاليف والنظم التي يحتمها الإسلام علي أتباعه في شئون الدين والدنيا ، ولكن الإسلام استقر نهائيا منذ ولي موسي بن نصير السلطة في هذه البلاد .

عمر بن العزيز والإسلام في افريقية :

استقر سلطان المسلمين بالشمال الافريقي منذ عهد موسي بن نصير كما رأينا آنفاً ، وسنري أنه في عهد الأغالبة تم تعريب هذه البلاد واكتمل نشر الإسلام بها ، ولكن هناك حلقة هامة في هذا المجال تتصل بالخليفة طيب الذكر عمر بن عبد العزيز ، يلزم أن نوردها هنا :

جاء في « أخبار مجموعة في فتح الأندلس » (٤) النص الآتي :

(١) توفيق المدني . هذه هي الجزائر ص ٤١ - ٤٣ .

(٢) أنظر تاريخ الفتح العربي الإسلامي في ليبيا ص ١٠٧ وابن خلدون : المعبر ج ٦ ص ١٠٧ .

(٣) ابن خلدون : المرجع السابق ص ١٠٣ و ١٤٧ .

(٤) مجهول المؤلف ص ٢٢ - وأنظر كذلك « السياسة في الفكر الإسلامي » .

لما ولي عمر بن عبد العزيز رحمه الله الخلافة ، عزّل عبد الله بن يزيد عن إفريقية وولاه إسماعيل بن عبيد الله ، وذلك أن الخلفاء كانوا إذا جاءتهم جبايات الأمصار والآفاق يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها ، فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتي يحلف الوفد بالله الذي لا إله إلا هو ما فيها دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه ، وأنه فضّل أعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية بعد أن أخذ كل ذي حق حقه ... فلما وفدوا بإخراج إفريقية زمان سليمان بن عبد الملك أمروا بأن يحلفوا ، فحلف ثمانية ونكل إسماعيل بن عبيد الله ونكل بنكوله السمح بن مالك الخولاني ، فأعجب عمر بن عبد العزيز بفعلهما ، ثم اختبر منهما صلاحاً وفضلاً ، فلما ولي عمر الخلافة ولي إسماعيل بن عبيد الله إفريقية ، وولي السمح بن مالك الأندلس .

وهكذا اختار عمر بن عبد العزيز ولاته تبعاً للصلاح والتقوي ، وكانت إفريقية في أشد الحاجة لمثل هذا الوالي ليحبب أهلها في الإسلام وينشره بينهم ، ولم يكتف عمر بن عبد العزيز بهذا الاختيار ، بل أرسل مع الوالي الجديد عشرة من فقهاء التابعين وعلمائهم يفقهون الناس في أمور الدين ، ويبيّنون لهم الحلال والحرام ، وأشهر هؤلاء عبيد الله بن يزيد المعافري ، وسعيد بن مسعود التجيبي ، وإسماعيل بن عبيد الأنصاري ، وعبد الرحمن بن رافع التنوخي ، وموهب بن حي المعافري ، وحيان بن أبي جبلة القرشي ، ويكر بن سودة الجذامي ، وجعثل بن عاهان بن عمير ، وقد انساب هؤلاء بين الناس وكانوا قدوة صالحة ومعلمين مخلصين بارعين ، بنوا كثيراً من المساجد ، وجلسوا بها ويدورهم يعلمون الناس ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، فانتشر بهم الإسلام واستقر في إفريقية ^(١) . ويقول ابن خلدون عن إسماعيل بن عبيد الله أن عمر بن عبد العزيز استعمله علي إفريقية عقب توليته الخلافة ، وكان حسن السيرة أسلم جميع البربر في أيامه ^(٢) . ويقول محمد بن أبي القاسم : إنه علي

(١) طاهر الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٢) العبر ج ٤ ص ١٨٨ .

رأس المائة الأولى دانت إفريقية للعرب من برقة إلى السوس ، ولم تقم بعدها للنصارى قائمة (١) .

مذهب مالك وجهود سحنون بن سعيد :

أما فيما يتعلق بتثبيت مذهب مالك بإفريقية ، فإنه يجدر بنا أن نضيف عالمًا آخر إفريقي المنبت هو سحنون بن سعيد بن حبيب ، وقد ولد بالقيروان وتلقى العلم بإفريقية أولاً ثم توجه إلى الشرق فزار مصر والحجاز والشام ، وأخذ الفقه عن مشاهير الفقهاء هنا وهناك ، ثم عاد إلى إفريقية فأظهر بها علم أهل المدينة ومذهب مالك ، وهو أول من ثبته بإفريقية ، ولما اشتهر سحنون خاطبه الأمير محمد بن الأغلب في إسناد قضاء إفريقية إليه ، فقبل بعد تردد طويل ، واشتراط إلزام المتنازعين من البيت المالک بالحضور لديه مع الخصوم ، وأن تطلق يده في جميع الناس ، فقال الأمير : نَعَمْ ، ولا تبدأ إلا بأهلي ، أجر الحق عن مفرق رأسي ، وأحدث سحنون اتجاهات جديدة في القضاء ، فأنشأ وظيفة صاحب المظالم للفصل في القضايا الصغيرة ، وكان يجلس إلى الناس في الأسواق والمجتمعات تسهلاً عليهم في حل النزاع ، وكانت الحسبة تابعة للأمراء فأحيلت في عهد سحنون إلى القضاء ، ولشدة تمسكه بالعدالة سمي « سراج القيروان » ولم يمنعه القضاء من بث العلم ، فقد جاء إليه طلبته من الأندلس وجميع أقطار إفريقية ، وتخرج عليه نحو سبعمائة رجل ، وكان يدرس بجامع عقبة بالقيروان ، وقد ألف كتاباً في مذهب مالك سماه « المدونة الكبرى » (٢) .

ثم حدث شيء آخر عميق الصلة بانتشار الإسلام في هذه البقاع وبالتعصب له ، ذلك أن الفرنجة هاجموا شمالي إفريقية وغربها عقب سقوط الأندلس ، وهب المسلمون يدافعون عن بلادهم ، فارتبط الإسلام بالحرية ، وارتبطت المسيحية بالعدوان والاستعمار ، فرسخت قدم الإسلام ولم تجد المسيحية لها أرضاً بهذه

(١) المونس في أخبار إفريقية وتونس ص ٨ .

(٢) انظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا للأستاذ الطاهر الزاوي ص ١٤٨ .

البقا ، وفي الدور الاستعماري الأخير حاولت فرنسا وإيطاليا نشر المسيحية ، ولكن باءت هذه المحاولات بالفشل الذريع ، ولإعطاء فكرة دقيقة عن أديان السكان بهذه المناطق ننقل الإحصائيتين التاليتين :

الإحصاء الرسمي للسكان بالمغرب سنة ١٩٤٧ :

من المسلمين	٨.٠٨٨.٥٥١
من اليهود	٢٠٣.٨٣٩
من الجاليات الأجنبية (١)	٢٤.٩٩٧

أما الجزائر فسكانها كالآتي :

من المسلمين	٩.٠٠٠.٠٠٠
من اليهود	٢٠٠.٠٠٠
من الجاليات الأجنبية (٢)	٨٦٦.٠٠٠

الوحدة المغربية

يقول ابن خلدون (٣) : المغرب قطر واحد مميز بين الأقطار ، فحده من جهة المغرب البحر المحيط . . . ومن جهة الشمال البحر الرومي . . . ومن جهة القبلة (الشرق) والجنوب العرق ، وهو صحراء تمثل سياجاً علي المغرب من جهة الجنوب ، تبتديء من المحيط وتنتجه نحو الشرق علي سمت واحد حتي تلتقي بصحراء مصر الغربية .

(١) محمود الشرقاوي : المغرب الأقصى ص ١٩ .

(٢) ترفيق المدني : هذه هي الجزائر ص ٢٧ .

(٣) العبر : ٦ ص ٩٨ - ١٠٠٠ .

وجاء في مقدمة الدستور المغربي الذي أعلن في ديسمبر سنة ١٩٦٢ أن «المملكة المغربية جزء من المغرب الكبير»^(١). وقد جرت في شهر (فبراير سنة ١٩٦٣) مشاورات لتحقيق الوحدة بين أقطار المغرب الكبير يشترك فيها مندوبون من تونس والجزائر والمغرب ، والحقيقة أن هذه الأقطار الثلاثة وليبيا رابعتها نعمت بالوحدة في عهود إسلامية كثيرة ، فقد نعمت بالوحدة الكاملة في العهد الأموي ومطلع العهد العباسي ، ونعمت بالوحدة الكاملة أيضاً في العهد الفاطمي .، وعهد الموحدين ، وبوحدة شبه كاملة في العهد العثماني ، إذ كانت العلاقات طيبة في الغالب بين العثمانيين في ليبيا وتونس والجزائر وبين الأشراف في المغرب .

وظروف دول الشمال الإفريقي واحدة في دعائم كثيرة ، في الجنس واللغة والدين والتاريخ والأمال وفي وحدة الأرض والمناخ والتقاليد ، ويرجي أن تكون وحدتها جناحاً للوحدة العربية الكبرى حين يلتئم شمل العرب في وحدتهم الشاملة .

أما عن موقف ليبيا ، فإن ليبيا تمثل حلقة اتصال بين المغرب العربي من جانب وبين مصر من جانب آخر ، ذلك لأن طرابلس - كما يري الباحثون - تتجه إلى المغرب ، أما برقة فتتجه بوجهها نحو الشرق ، نحو مصر ، لكثرة ما كانت برقة جزءاً منها^(٢) .

ومما يؤكد وحدة دول المغرب العربي أن أرضه واحدة ، ويتحدث المغاربة عن التراث المغربي الذي يتميز بالتداخل والاستمرار إذ أنه لا يوجد بين أقاليم المغرب العربي بعضها والبعض أي فاصل أو حاجز مما هو مألوف بين البلدان الجغرافية كالأنهار الكبرى والجبال العالية ، والبحار المتسعة والصحاري المترامية ، ومن الواضح أن مثل هذا التناسق الجيولوجي والاستمرار الجغرافي من شأنه أن يفرض على سكانه من البشر بيئة طبيعية تلقي ظلالها المنسجمة

(١) دستور المغرب .

(٢) أنظر ابن خلدون: المعبر ج ٦ ص ١٠١ و ١٠٢ . (التاريخ الإسلامي ج ٤ م ١٢)

على الجميع بمقدار متساو من التأثير والانفعال المشترك (١) .

وقد نشرت الصحف العربية الصادرة صباح ١٦ مارس سنة ١٩٦٣ أنه قد تم توقيع ثماني اتفاقيات بين الجزائر والمغرب قبل عودة الملك الحسن الثاني إلى بلده من الزيارة الرسمية التي كان يقوم بها للجزائر ، وقد نصت هذه الاتفاقيات على توثيق الروابط بين البلدين في ميادين الثقافة والسياسة والتشريع والاقتصاد ، وصدر بلاغ مشترك جاء فيه أن هذه الاتفاقيات هي الخطوات الأولى في سبيل إقامة « المغرب الكبير الذي يتوق الشعبان المغربي والجزائري إلى إنشائه ».

الحروب الصليبية في شمالي إفريقيا

شغلت الحروب الصليبية الكبرى في سوريا ومصر أذهان المسلمين وأقلام الباحثين والمؤلفين ، حتي لأوشك الناس أن يغفلوا أمر حروب صليبية أخرى وقعت في الشمال الافريقي ، فقد تعرض الشمال الافريقي لهجوم صليبي قام به أسير المنصورة الملك لويس التاسع ملك فرنسا ، الذي فدا نفسه بجزية كبيرة ليفك المصريون إساره علي ألا يعود للهجوم علي الشرق الإسلامي ولكن الرجل كانت تدفعه عصبية مجنونة ضد المسلمين ، فبحث في وعده وفهاجم تونس .

وبعض المفكرين يعتبر هذه الغزوة الصليبية حملة صليبية ثامنة ، إذ أنها أضافت حملة جديدة للحملات الصليبية السبع علي الشرق ، وقد حدث نزول لويس وحلفائه في تونس في آخر ذي العقدة سنة (٦٦٨ هـ = ١٢٦٩ م) علي رأس جموع كبيرة (١) ولم يكن نزول الصليبيين أرض تونس مفاجأة للمستنصر الخليفة الحفصي ، فقد كان هذا متوقعا ، إذ سبقت به الأخبار إلي تونس ، فراح الخليفة الحفصي يعد العدة لرد الغزاة ، وأدرك الحفصيون أن الغزاة يتجهون الي

(١) مقال عن «الاسس التاريخية لوحدة المغرب العربي» للاستاذ الشيخ طه الولى نشر بعدد نوفمبر ١٩٧٠ بمجلة دعوة الحق .

(١) ابن أبي دينار : المونس س ١٣٦ .

قرطاجنة لينزلوا بها ، فزحف التونسيون لملاقاتهم في هذا المكان ، وربما كان في وسع التونسيين أن يردوهم عن النزول في قرطاجنة ، ولكنهم أدركوا أن الجيش الفرنسي قد يحاول أن ينزل في ميناء آخر ، ولم تكن هناك قوات بالمواني الأخرى تستطيع الذود عنها ، فرجع الرأي الذي كان يتجه لاستدراج الصليبيين إلي قرطاجنة ، علي أن يحاصر الجيش تونس هؤلاء الغزاة ويتمكن منهم .

بيد أن الصليبيين سرعان ما استفادوا من الأبنية والحصون الموجودة بقرطاجنة وأضافوا لها عددا من الأسوار والخنادق ، وفي نفس الوقت كانت مؤنهم ومعداتهم العسكرية تفد لهم عن طريق البحر من صقلية أو عن طريقها ^(١) .

واستعداداً للصراع ضد الغزاة ، نظم الخليفة الحفصي جيشه واستنفر المغرب لمساعدته ، فاستجاب له جند من المغرب الأوسط ، كما استجاب له بعض عرب المشرق ، وبذلك اجتمع له من المسلمين عدد لا يحصى ، وخرج العلماء والفقهاء والمرابطون مع المجاهدين ليأخذوا نصيبهم من الجهاد ^(٢) وظل الخليفة عاقدا مجلس الحرب لا ينهيه ، وقد سقط في هذا الصراع عدد كبير من الفريقين ، وبعد حوالي أربعة شهور أصيب جيش الغزاة بهولاء ، قضى علي عدد كبير منهم ، وامتد هذا الهولاء الي لويس التاسع فقضى عليه في العاشر من المحرم سنة (٦٦٩ هـ ١٢٧٠ م) ودفن بمدينة قرطاجنة ويقال في موت الملك أسباب أخرى غير هذا السبب .

وأصبح واضحا بعد ذلك أن حلا سلميا لا بد أن يوقف هذا الصراع إذ اتضح أن القوة غير ذات جدوي ، ودارت مفاوضات بين الخليفة المستنصر وزوجة لويس التاسع علي أساس أن يترك الصليبيون تونس ، وتعتد هدنة بين الطرفين مدتها خمسة عشر عاماً ، علي أن تدفع تونس التكاليف التي أنفقتها الحملة ، وقد قدرت بمبلغ كبير ^(٣) .

(١) ابن أبي دبنار والمعبر لابن خلدون ج ٦ ص ٢٩٢ .

(٢) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٢٩٣ .

(٣) ابن خلدون : المرجع السابق ص ٢٩٤ .

وكتب عقد الصلح ، وجلا عن تونس جيش الغزاة في ربيع الأول من نفس العام وتذكر كتب الأدب أن شاعرا تونسيا تحدث عن نهاية لويس في قصيدة أبرز فيها أن حظ لويس في مصر كان دارا سجن فيها ، وأن حظه في تونس كان قبرا دفن به .

ويرى بعض المؤرخين أن حماس الفرنسيين الحالي ضد الشمال الإفريقي ليس ألا تلبية لمتاف تخيلوه ينبثق من مقبرة شهيدهم الدفين ، فكان ذلك ضمن الأسباب التي جعلت الشمال الإفريقي هدفا للاستعمار الفرنسي مدة طويلة (١) .

علي أن سقوط أسبانيا في أيدي المسيحيين قد جدد الاتجاه الصليبي في نفوس الأوربيين ، فأصبح الشمال الإفريقي هدف المسيحيين المنتصرين ، وبخاصة الأسبان والبرتغاليون ، فقامت حروب صليبية قاسية ، طويلة المدي ، تعرضت فيها سواحل شمالي إفريقية إلي هجمات مسيحية متصلة ، وسقط بعضها في أيدي المهاجمين كما سنري فيما بعد ، ولا تزال للأسف حتى الآن بقايا لهذه الحروب الصليبية ، تتمثل في القواعد العسكرية وبعض المدن الساحلية التي لا يزال يحتلها أبناء الصليبيين الأول كما سنري فيما بعد .

دور المغرب العربي في نشر الإسلام

كان التوتر العسكري بين المعسكر الإسلامي بشمالي إفريقية والمعسكر المسيحي بالأندلس وأوربا ، داعيا لأن يتعصب سكان المغرب العربي للإسلام ويعملوا علي نشره وازدهاره ، إذ ارتبط الإسلام بالوطن وبالحرية كما ذكرنا آنفاً ، ولعل هذا كان ضمن الدوافع للنشاط الضخم الذي قام به سكان المغرب العربي لنشر الإسلام في قلب قارة إفريقية ، ويسجل التاريخ سيرة المبشرين ورجال الطرق الصوفية الذين انسابوا عبر الصحراء ، فنشروا دين الله علي ساحل الأطلسي وفي قلب القارة ، وقد أوردنا تفاصيل شاملة لهذا الموضوع عند

(١) شمال إفريقية لأستاذ سعيد العريان وآخرين ص ١٧ .

كلامنا عن الدول الإسلامية بقلب القارة ، أي عند الكلام عن السنغال ومالي وغينيا وغيرها ، في الجزء السادس من هذه الموسوعة .

المدن والأمصار بالشمال الإفريقي :

يذكر ابن خلدون أن المدن والأمصار بإفريقية والمغرب قليلة ، ويعلل ذلك بأن العمران بهذه المنطقة كان بدوياً ، وطبيعة الحياة البدوية لا تقيم المدن ولا تشيد الأمصار ، أما الدول التي ملكت الشمال الإفريقي من غير أبنائه فلم يطل أمد حكمها ، وبالتالي لم ترسخ الحضارة هناك ولا الصنائع التي هي من توابع الحضارة (١) .

تلك هي ملاحظة ابن خلدون ، وهي وصف للواقع حتي عهد هذا الباحث الكبير ، وإذا كان لا يزال لهذه الحقيقة ظل الآن فإن ذلك ينحصر في داخل الصحراء ، أما الساحل الإفريقي فيزدان في الوقت الحاضر بمجموعة رائعة من المدن التي لا تقل جمالا ومدنية عن المدن المقابلة لها علي الساحل الأوربي ، كما أن العصر الوسيط حفل بمجموعة ذائعة الصيت من المدن التي أنشأها المسلمون ، ومن أهم المدن بالشمال الإفريقي عواصم أقطاره : مدينة الرباط عاصمة المغرب ، ومدينة الجزائر عاصمة الجزائر ، ومدينة تونس عاصمة تونس ، ومدينتا بنغازي وطرابلس عاصمتا ليبيا .

وبجانب العواصم ، هناك المدن الإسلامية التي لعبت دورا كبيرا في شئون السياسة والثقافة والاجتماع أشبه بالدور الذي لعبته القاهرة وبغداد ودمشق ، ومن هذه المدن فاس التي تزدهر بجامعة القرويين ذات الصيت البعيد والأثر الحميد في الحياة الإسلامية ، ومنها مدينة الدار البيضاء التي ينسب لها مؤتمر القمة الإفريقي الأول ، ومنها كذلك مدينة مراكش ، وتلمسان ووهران وبجاية وقسنطينة ، والقيروان وبنزرت والمهدية وسفاقس ، ودرنة وسورطة ، وغيرها من المدن التي لمعت في التاريخ الوسيط والحديث .

(١) العبر ج ١ ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

ألقاب الحكام بالمغرب العربي خلال العهد العثماني

حمل الحكام بالمغرب في العهد العثماني ألقابا مختلفة ليست في الحقيقة دقيقة المعنى ، كما أن معناها كان يتغير من حين إلى حين ، أو كان اللفظ يستعمل في مكان بمعنى وفي مكان آخر بمعنى آخر ، وسنحاول فيما يلي أن نورد خلاصة لعلها أوفى ما يشرح هذه الألقاب بإيجاز :

البيلر بك : لقب الحكام العثمانيين في الفترة الأولى من الحكم العثماني ، وحامل هذا اللقب سلطان مدني وعسكري ، فهو الحاكم وهو قائد الجند ، ومدة سلطانه غير محددة بزمان .

الباشا والأغا : الباشا لقب الحكام العثمانيين في الفترة التالية للفترة الأولى والأوجاق ومدة سلطانه ثلاث سنوات ، وهو مدني فقط ، ويقوم بجواره رئيس الجند (الأغا) وهو يقود الجند وحده أو بمعونه (الأوجاق) وهو المجلس الأعلى للجند ، ويتكون من كبار الضباط .

وفي ظل هذا النظام كثرت الخلافات بين الباشا الحاكم المدني والأغا الحاكم العسكري .

الداي : لقب حمله رئيس الجند بالجزائر عندما استبد الجند باختياره ، ولكن الداي سرعان ما تجاوز سلطاته العسكرية ، وأخذ ينافس الباشا في الأمور المدنية ، وقد حل الداي أخيرا محل الباشا ، وأصبح الحاكم المدني والعسكري ، ولم يبق للقسطنطينية إلا أن توافق علي من يرتضيه الجند للرياسة .

الباي : لقب استعمل في تونس ، وله معنى الداي الذي استعمل في الجزائر ويمتاز الباي بصفة الوراثة فيه ^(١) ، وقد استعمل هذا اللقب في بادئ الأمر لحكام الأقاليم .

(١) انظر زامباور : معجم الأنساب والأسرار الحاكم ص ١٢٦ - ١٣١ ، والمغرب الاقصى ص

والآن نبدأ كلامنا عن أقسام الشمال الافريقي قطعاً قطراً ، مبتدئين من أقصى الغرب متجهين نحو الشرق (المغرب فالجزائر فتونس فليبيا) وقد سبق في التسلسل التاريخي الذي أوردناه آنفاً - أن ذكرنا الدول التي قامت بهذه المنطقة، ونريد الآن أن نعطي تفاصيل وافية عنها ، مع ملاحظة أن هناك دولاً حكمت الشمال الافريقي ، ولكن كان تاريخها أكثر ارتباطاً بمنطقة أخرى ، وذلك مثل الفاطميين الذين ارتبط تاريخهم بمصر ، والأتراك العثمانيين الذين كانوا يحكمون من القسطنطينية وهؤلاء لن نفصل القول عنهم هنا بل أوردنا عنهم التفاصيل عند الكلام عنهم في مراكزهم الأساسية بالجزء الخامس من هذه الموسوعة ، وسنتناول هنا من تاريخهم ما يخص الشمال الافريقي فقط .

وطبيعي أننا سنفصل القول أو نوجزه عن كل دولة من الدول التي قامت بشمال افريقيا حسب مكانة هذه الدولة وحسب الدور الذي لعبته في تاريخ الإسلام وتاريخ الفكر الاسلامي .

أولاً
مراكش
« المغرب »

الأداسة ١٧٢ - ٣٧٥ هـ (٧٨٨ - ٩٨٥ م)

في عهد الخليفة الهادي (١٦٩ - ١٧٠ هـ) هب العلويون في المدينة المنورة بشورة ضد العباسيين ، وكان يقودها الحسين بن علي بن الحسن ، وقد أرسل الخليفة لهم جيشا كثيفا التقى بالثائرين في مكان يقال له « فح » بين مكة والمدينة ، وهزم العلويون في هذه الموقعة ^(١) وقد فر عقب الهزيمة بعض زعماء العلويين ، منهم ادريس بن عبد الله الذي ولي وجهه تجاه مصر وعبرها إلى المغرب الأقصى ، ويقول ابن خلدون ^(٢) إنه نزل علي قبيلة اسمها (أورية) وهي بطن من بطون البرانس ، وأميرها يومئذ في « وليلي » اسمه إسحق بن محمد بن عبد الحميد ، واستجار إدريس بأمير القبيلة فأجاره ، وجمع البربر علي دعوته ، فاجتمعت عليه زواغة ولواته وسراته وغمات ونفزة ومكناسة وغمارة وكافة برابرة المغرب ، فبايعوه وأقمروا بأمره ، وتم له الملك والسلطان بالمغرب وقامت باسمه دولة ورثها أعقابها ، وكانت عاصمته « وليلي » ثم أصبحت العاصمة « فاس » ابتداء من سنة ١٩٢ (٣) .

ودولة الأداسة هي أول دولة شيعية في التاريخ ^(٤) ، وكانت تشمل مراكش الحالية والجزء الغربي من الجزائر ، وينسب للأداسة أنهم أول من نقلوا الحضارة الإسلامية إلى المغرب ، وقد قاد إدريس الأول أنصاره إلى ميادين جديدة وراء نهر ابن رراق في جبهات لم تستطع الجيوش الرومانية التوغل فيها ، فدخلت هذه البلاد الدين الإسلامي بسهولة ^(٥) .

(١) انظر الجزء الثالث من هذه الموسوعة ص ١٥٦ وانظر كذلك الفخري ص ١٦٦ - ١٦٧ ، وابن الاثير ج ٦ ص ٣٠ ، ومروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٦-٢٥٧ ، والاستقصا للسلاوي ج ١ ص ٦٧ .

(٢) العبر ج ٦ ص ١٤٧ .

(٣) زامباور . معجم الانساب والأسرات الحاكمة ج ١ ص ١٠٣ .

(٤) Hitti : History of the Arabs II : 541 .

(٥) محمد الشرقاوي : المغرب الأقصى ص ٢٠ .

ولكن هذه الدولة كانت تقع جغرافيا بين قوتين تناصبانها العداء ، وهما
 الأمويون بالأندلس والعباسيون ثم الفاطميون بتونس ، ومن هنا وُجِهت للدولة
 طعنات من الجانبين ، هذا بالإضافة إلى الخلافات بين أبناء السلاطين ، تلك
 الخلافات التي طالما أسفرت عن انقسام الدولة وضعفها ، وقد بدأت هذه
 الخلافات منذ عهد محمد بن إدريس ، ثم اشتدت حتى أصبح عسيرا أن يعرف
 بالضبط صاحب السلطة الرئيسية لكثرة من يدعونها من الأمراء الذين استقل كل
 منهم بمنطقة من المناطق ، ومن هنا لم تذكر المراجع التي بين أيدينا التواريخ
 الكافية لأمراء بعض فترات الحكم الإدريسي كما سنرى فى قائمة ملوكهم ،
 ويجانب الخلافات بين أمراء الأدارسة ، كانت هناك الحياة القبلية التي لا تعرف
 الاستقرار ، وكل هذا أدى إلى انهيار الدولة وسقوطها ، وفيما يلي قائمة
 ملوكها :

إدريس (الأول) بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ١٧٢ = ٧٨٨

إدريس (الثانى) بن إدريس الأول ١٧٧ = ٧٩٣

محمد بن إدريس الثانى ٢١٣ = ٨٢٨

على (الأول) بن محمد ٢٢١ = ٨٣٦

يحيى (الأول) ٢٣٤ = ٨٤٩

يحيى (الثانى) بن يحيى الأول ؟

على (الثانى) بن عمر بن إدريس الثانى ؟

يحيى (الثالث) بن قاسم بن إدريس الثانى ؟

يحيى (الرابع) بن إدريس بن عمر ٢٩٢ = ٩٠٤

الحسن بن قاسم ٣١٠ = ٩٢٢

(١) زامبارد ج ١ ص ١٠٣ .

الحكم القبلى وسلطة الفاطميين :

عندما انحل سلطان الأدارسة أصبح السلطان فى يد القبائل التى سبق الحديث عنها ، وأحيانا فى يد أفراد من أسرة الأدارسة تزعموا الحركات الانفصالية .

وفى خلال هذا التفكك ظهر الفاطميون بتونس ، ثم أخذوا يبدون سلطانهم شيئا فشيئا حتى اكتمل لهم السلطان على الساحل الإفريقى كله ، ولكن نفوذ الفاطميين فى المغرب اكتفى بالساحل ولم يتجه نحو قلب القارة ، بل ظلت الحياة القبلية مهيمنة بالجنوب ، ولما انتقل الفاطميون إلى مصر أخذ سلطانهم يأفل بالشامل الإفريقى (١) ، وأتيحت الفرصة للحياة القبلية لتنتشر وتزدهر ، وظلت الأحوال كذلك حتى جاء المرابطون فأنهوا الحكم القبلى ، وأصبح لهم السلطان بالساحل والداخل .

المرابطون ٤٤٨ - ٥٤١ = ١٠٥٦ - ١١٤٧ :

المرابطون هم عدة قبائل تنسب إلى خمير ، وأشهر هذه القبائل قبيلة لمتونة ، وقد دخلت هذه القبائل المغرب مع موسى بن نصير وتوجهوا مع طارق إلى طنجة ، ولكنهم بعد ذلك أحبوا الانفراد والبعد عن ضوضاء المدن ، فدخلوا الصحراء بالمغرب الأقصى واستوطنوها (٢) .

ويحكى لنا ابن خلدون (٣) مطلع قصة المرابطين فيقول : إن يحيى بن إبراهيم زعيم قبائل الملثمين خرج للحج فى رؤساء من قومه سنة ٤٤٠ هـ فلقوا فى منصرفهم بالقيران شيخ المذهب المالكى أبا عمران الفاسى ، فطلبوا منه أن يرسل معهم فقيها يعلمهم ويرشدهم ، فاختار لهم عبد الله بن يس الجزولى ، فرحل معهم يعلمهم القرآن ويقيم لهم الدين ، ثم مات يحيى بن إبراهيم ، وافترق أمر

(١) ستتكم عن الفاطميين عند الحديث عن تونس .

(٢) الاستاذ العبادى : المجلد فى تاريخ الاندلس ص ١٧٥ .

(٣) المعبر ج ٦ ص ١٨١ - ١٨٣ .

المُلاحَين ، وطرخوا عبد الله بن يس ، واستصعبوا عمله وتركوا الأخذ عنه لما نجششوا فيه من مشاق التكليف ، فأعرض عنهم وترهب ، وتنسك معه يحيى بن عمر من رؤساء لمتونة وبعض المريرين وانتبهوا الناس فى روة أسموها « رباطا » أى قاعدة يرايطون فيها للجهاد ضد الكفار ، أو يفرغون فيها للعبادة والتأملات الروحية والتعليم ، وكانت دروس عبد الله بن يس للمرابطين معه تشمل إصلاح أخلاق الفرد ، كما كانت تهاجم نظم الحكم القائمة ، وإرهاق الرعية بالضرائب الفادحة ، وقضى على ذلك عشر سنوات تكاثر فيها مريدوه حتى صاروا ألفا ، فهتف : إنكم لن تغلبوا عن قلة ، وقد تعين علينا القيام بالحق والدعاء إليه وحمل الكافة عليه ، فاخرجوا بنا لذلك . فخرجوا وقاتلوا من استعصى عليهم من قبائل لمتونة وكثالة ومهمومة حتى ثابوا إلى الحق واستقاموا على الطريقة ^(١) وترك ابن يس قيادة « المرابطين » العسكرية ليحيى بن عمر وكانت له زعامة فى لمتونة ، فلما توفي يحيى سنة ٤٤٨ (١٠٥٦ م) خلفه أخوه أبو بكر وابن عمه يوسف ابن تاشفين ، وبدأ بهما ملك المرابطين ، وتوفى ابن يس سنة ٤٥١ هـ (١٠٥٩ م) وبدأ الخلاف يدب بين أبى بكر ويوسف ، وحسم الخلاف بأن اتجه أبو بكر نحو الجنوب فنشر الإسلام هناك ^(٢) وواصل يوسف سيره شمالا ، وكان النصر الأكبر فى ركا به ، فقد كان متدينا حازما داهية ، فاستطاع أن يستولى على فاس سنة ٤٦٣ (١٠٧٠ م) وعلى طنجة سنة ٤٧١ (١٠٧٨ م) ، وهكذا استمر فى توسعه فى الشمال والجنوب حتى مات أبو بكر سنة ٤٨٠ (١٠٨٧ م) فأصبح يوسف زعيم المرابطين غير منازع ، وامتد ملكه تجاه الشرق فشمل جزءا من الجزائر ، واتجه نحو الجنوب ، حتى بلاد السنغال ^(٣) ، وعبر مضيق جبل طارق فضم أسبانيا لسلطانه كما سبق القول .

(١) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٨٣ .

(٢) تفاصيل ذلك فى الجزء السادس من هذه الموسوعة .

(٣) كارل بركلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١٧٢ - ١٨٣ .

ويقول ليفى بروفنسال ^(١) عن المرابطين ما يلى :

هؤلاء الملتزمون أبناء الصحراء الذين لم يلبثوا أن تهيأت نفوسهم بحيث اضطلعوا بدور الملوك الصيد ثم لم يلبثوا أن «تأسبنوا» بمجرد الاتصال بالحضارة الإسلامية بالأندلس ، برزوا حقا فى العصر الوسيط المغربى ، ولم يكن هذا شأن القارس البربرى العظيم يوسف بن تاشفين وحده ، وإنما كان أيضا شأن ابنه على بن يوسف الذى استهل حكمه بحقبة من الرخاء والازدهار ، والذى ازدان بلأطه بمراكش بخيرة العلماء والأدباء الذين وفدوا من الأندلس وعاشوا فى رحابه بافريقية ^(٢) .

وأختط يوسف مدينة مراكش سنة ٤٥٤ ونزلها بالخييام ، وأدار سورها على مسجد وعلى رقعة صغيرة لاختزان أمواله وسلاحه ، وأكمل تشييدها وأسوارها على ابنه سنة ٥٢٦ وجعلها عاصمة لمملكته ^(٣) ، ويرى ليفى بروفنسال ^(٤) أن زعيم الملتزمين لاحظ فى اختياره موقع عاصمته أن يستطيع مراقبة حركات الجبليين الذين كانت تحوم حولهم الشكوك والريب والذين قمخضت عنهم حركة الموحدين .

وملوك المرابطين هم :

١٠٥٦ = ٤٤٨	أبو بكر بن عمر
١٠٨٧ = ٤٨٠	يوسف بن تاشفين
١١٠٦ = ٥٠٠	على بن يوسف
١١٤٣ = ٥٣٧	تاشفين بن على
١١٤٦ = ٥٤١ ^(٥) توفى سنة توليته .	ابراهيم بن تاشفين
١١٤٧ = ٥٤١	اسحق بن على

(١) الاسلام فى الغرب والاندلس ص ٢٤١ و ٢٤٨ .

(٢) انظر كذلك ابن خلكان ج ٢ ص ٣٦٥ . (٣) العبر لابن خلدون ج ١ ص ١٨٤ .

(٤) الاسلام فى المغرب والاندلس ص ٢٤٣ .

(٥) زامباور : ج ١ ص ١١٣ ولين بو ص ٤٣ .

ولم يكتتمل سلطان المرابطين قرنا ، وقد بدأ ضعفهم بعد فترة غير طويلة من بدء حكم على بن يوسف بن تاشفين ، وقد أورد ليفى بروفنسال فى الدراسة العميقة التى قام بها عن المرابطين أهم الأسباب التى جعلت هذا الملك الضخم يتهاذى ويهوى بسرعة ، وهو يوافق ابن خلدون على أن نجم على بن يوسف لم يأفل إلا فى اللحظة التى جرد فيها ابن تومرت زعيم الموحدين وأتباعه الحملة على المرابطين (١) .

على أنه كانت هناك أسباب أخرى هيأت لضعف أمير المرابطين ولم تمكنه من الدفاع عن عرشه ، وأهم هذه الأسباب تطلع النساء إلى أن يكون لهن دور المشيرات بل الأمرات فى البلاط ، وللنساء فى مجتمع لمتونة الصحراوى منزلة حرصن على أن يحتفظن بها فى بلاط المرابطين ، وأتاحت لهن الحرية التى لم يفقدنها على الإطلاق عند رحيلهن أن يتدخلن بشغف فى شئون الدولة ، والتمتع بالسلطة التى استطعن الاحتفاظ بها ، وأن تكون كلمتهن مسموعة لدى الأزواج والأبناء (٢) .

وبجانب سلطة النساء كانت هناك سلطة الفقهاء المتزمتين الذين كان من أبرز خصالهم قلة البحث ، والميل الظاهرى للتزهد والحث عليه مع حرص مستور على الدنيا وزخرفها ، وتحث تأثير هؤلاء انقطع الأمير للعبادة والتبتل ، وأمر بحرق كتب الإمام الغزالى الذى فضح ميول أمثال هؤلاء الفقهاء ونزعاتهم الآثمة (٣) .

ولما انقطع الأمير للعبادة استبد بالأمير أمراء الأقاليم من أسرة المرابطين ، وأخذ كل منهم يصرح بأنه خير من أمير المسلمين وأحق بالأمر منه .

وهكذا انحلت دولة المرابطين وضعف شأنها ، فكانت نهاية على بن يوسف (٥٣٧) هى فى الحقيقة نهاية حكم هذه الأسرة إذ سقطت عاصمتهم بعد ذلك

(١) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٨٨ - ١٨٩ . ليفى بروفنسال فى المرجع السابق ص ٢٥٠

(٢) ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ص ٢٥١ .

(٣) ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

بحوالى أربع سنوات فى يد القوة الجديدة الناشئة ، قوة الموحدين .

الموحدون ٥٢٤ - ٦٦٨ (١١٣٠ - ١٢٦٩) .

فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى انتشر بالشمال الافريقى مذهب المجسمة الذى يفسر الآيات القرآنية التى بها تشبيه للذات الالهية تفسيراً حرفياً ، وقد أثار ذلك الاتجاه بعض الباحثين والمفكرين بهذه المنطقة ، فاتجهوا اتجاهاً مخالفاً ، خلاصته أن الله سبحانه وتعالى وحده لا يتصورها العقل الإنسانى ، وهو فوق التشبيه ، وأن آيات التجسيم تحمل معنى مجازياً ليس غير ، والله سبحانه منزّه عن التشبيه بالخلق ، والقول بغير ذلك كفر وإلحاد ، وأطلق هؤلاء المفكرون على أنفسهم لقب « الموحدين » أى الذين يعتقدون بوحداية الله فيما يتعلق بالتركيب ، فيرون أنه ليس مكوناً من أجزاء ، كاعتقادهم بوحدايته فى الوجود ، أى أنه لا إله سواه ^(١) .

ولم يكن هذا هو الشطط الدينى الوحيد الذى ارتكب فى عهد المرابطين ، بل كان هناك شطط آخر هو أن سكان المغرب كانوا قد اعتنقوا مذهب مالك ، ولكنهم بالغوا فى تبعيتهم لهذا المذهب ، فلم يعودوا يرجعون للأصول (القرآن والحديث) يستنبطون منها الأحكام ويتخذونها مادة للدراسة ، بل اتجهت العناية إلى كتب الفروع ، ولم يكن يعطى لدى أمراء المرابطين إلا من علم فروع مذهب مالك ، وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها ^(٢) ، وقد ثار الموحدون ضد هذا الاتجاه أيضاً ، وقاموا بدعوتهم على أساس ضرورة العودة للقرآن والحديث وفهمهما والأخذ عنهما ، وعرفوا من أجل ميلهم للحديث « بالمحدثين » .

والزعيم الأول للموحدين أو المحدثين هو محمد بن تومرت ، ويرى ابن خلدون أن نسبه يرجع إلى على بن أبى طالب ، وأن جده الأعلى وفد مع إدريس إلى

(١) ابن خلدون : المعرجة ص ٢٢٦ .

(٢) انظر ليفى برونفالس : الاسلام فى المغرب والاتدلس ص ٢٤٩ - ٢٥٠ وكارل بروكلان ج ٢ ص ١٩٠ .

المغرب ، ولكن نسبة الطالبى وقع فى هرغة من قبائل المصامدة ، ووسخت عروقه فيهم ، والتحم بعصبيتهم ، فلبس جلدتهم ، وانتسب بنسبهم وصار فى عددهم^(١).

فتجمع فى محمد بن تومرت دم العلويين وأخلاق البربر ، وقد طاف محمد بالبلاد الإسلامية للعلم والتجربة ، فزار قرطبة وبغداد ودمشق والقاهرة ، وأصبح له فى الطريقة الأشعرية إمامة وقدم راسخة^(٢) ، وعاد بهذه الطريقة الى المغرب حيث قابل علي بن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين فى دولة المرابطين وقد دب الخوف فى قلب ابن تاشفين ، إذ أدرك أنه تجمّع فى محمد بن تومرت صفات الزعيم بالإضافة إلى العلم والأرومة الطيبة التي ينحدر منها ، وقد أشار بعض المستشارين على بن تاشفين بقتله ، ولكن وزير على هون عليه أمره فاكتمى بإبعاده^(٣).

وانحدر ابن تومرت إلى الصحراء حيث يعلم الناس ، فاجتمع عليه مريدون كثيرون سحرتهم لباقتة وقوته ، فبايعه مريدوه علي الطاعة ، ولقبوه بالمهدي ، وانهال عليه الناس ، فقوي أمره ، وعظمت شوكته ولم يكتف بشرح مبدئه المتصل بالتوحيد ، ولا بشرح ضرورة العودة للقرآن والحديث عند استنباط أحكام الفقه الاسلامى ، بل جاوز ذلك فهاجم الحكام الذين يسلبون أموال الناس بالباطل ، ولا يقومون بواجباتهم تجاه المحكومين كما قررتها شريعة الاسلام ، وكان واضحا أنه يهاجم بذلك سياسة المرابطين ، ويعلن أنهم تخلوا عن المبادئ الإسلامية التى كانوا يدعون لها إبان إقامة دعوتهم^(٤).

وهددت هذه الدعوة ملك المرابطين الذى كان قد بدأ يهتز ويهرم ، للأسباب

(١) العبر ج ٦ ص ٢٢٦ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٢٧ .

(٣) ان خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٨ وما بعدها .

(٤) ان خلكان : المرجع السابق .

الكثيرة التي أوردناها آنفا ، وأصبح الصراع العسكري ضروريا ليكتب النصر للجبهة الناشئة أو يعيد الشباب لجبهة المراهطين ، ودارت معركة عنيفة بين المراهطين والموحدين ، وكان يقود جيش الموحدين عبد المؤمن بن علي أبرز مریدی المهدي ، وقد دارت الدائرة على الموحدين وقتل أكثر جنودهم ، ولم ينج عبد المؤمن وقله من أصحابه إلا بشق الأنفس ، ويروى أن المهدي عندما تلقى خبر هذه الهزيمة سأل :

ما فعل عبد المؤمن ؟

فأجيب : هو على جواده الأدهم قد أحسن البلاء .

قال المهدي : ما بقي عبد المؤمن فلم يهلك أحد ^(١) . وأعاد المهدي بهذه العبارة الثقة إلى مریديه وأتباعه .

واتجه الموحدون إلى إعداد أنفسهم وتكوين جيوشهم من جديد ثم عاودوا الاصطدام بالمراهطين فحققوا بعض الانتصارات ، ودفع النصر محمدا بن تومرت إلى مواصلة النضال ضد المراهطين ، فأعد جيشا كبيرا زحف به على مراكش وحاصرها ، ولكنه فك الحصار ، إذ تلقت المدينة معونة حربية من أمير سجلماسة ، ومرض المهدي سنة ٥٢٤ فأوصى بالخلافة بعده لعبد المؤمن ، وتوفى المهدي عقب ذلك ، فكتب عبد المؤمن وأصحابه خبر وفاة المهدي خوفا من سخط المصامدة ضد ولاية عبد المؤمن ابن علي ، لكونه من غير جلدتهم ، فأرجأ إذاعة خبر الوفاة إلى أن يخالط بشاش الدعوة قلوبهم ، ودفنوا المهدي داخل الدار ، وكان عبد المؤمن وأصحابه يدخلون إلى مدفنه ويعقدون الجلسات ، ويتخذون القرارات ، ثم يخرجون بها على أنها من إرشاد ابن تومرت ورأيه ، فلما تمكن أمر الدعوة وتمت مصاهرة بين عبد المؤمن والشيخ أبي حفص أمير هنتانة وكبير المصامدة أعلنوا موت المهدي واستقر الأمر لعبد المؤمن ^(٢) .

(١) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٢٧ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٢٧ و ٢٢٩ .

واستطاع عبد المؤمن أن يحقق أهداف أستاذه ، فواصل انتصاراته الحربية حتى أسقط دولة المرابطين واحتل عاصمتهم سنة ٤٥١ (١١٤٦ م) ، وزحف بعد ذلك على الأندلس ، حيث ورث المرابطين فى الجزيرة الخضراء كما ورثهم فى الشمال الافريقى .

ولم يكتف الموحدون بما كان تحت سلطان المرابطين فى الشمال الافريقى ، بل إنهم ساروا إلى الشرق ، واصطدموا بالنورمانديين الذين كانوا قد هزموا الحسن الزيرى فى تونس واحتلوا المهديّة سنة ١١٤٨ ومدوا سلطانهم من السوس إلى طرابلس ، وقد استطاع الموحدون أن يهزموا النورمانديين ويُجلّوهم عن الساحل ، ثم سار الموحدون إلى الشرق فاحتلوا برقة حيث كان يسيطر النفوذ المصرى ، وكانت لهم أساطيل مرهوبة الجانب ، وفلسفة فى الحكم قوامها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع الزهد فى الدنيا ^(١) .

ومن أشهر ملوكهم أبو يوسف يعقوب المنصور ويقول عنه ابن خلكان ما يأتى :

كان الأمير يشده فى إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس ، وقتل فى بعض الأحيان على شرب الخمر ، وقتل العمال الذين تشكو الرعايا منهم ، وأمر برفض فروع الفقه ، وأن الفقهاء لا يفتون إلا بالكتاب والسنة النبوية ، ولا يقدمون أحداً من الأئمة المجتهدين المتقدمين ، بل تكون أحكامهم بما يؤدى إليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، ولقد أدركنا جماعة من مشايخ المغرب وصلوا إلينا وهم على ذلك الطريق مثل أبى الخطاب بن دحية وأخيه عمرو ومحيى الدين بن العرى نزيل دمشق وغيرهم ، وكان يعاقب على ترك الصلوات ، ويأمر بالنداء فى الأسواق بالمبادرة إليها ، فمن غفل عنها أو اشتغل بمعيشة عزه تعزيراً بليغاً ، وكان قد عظم ملكه ،

(١) ليفى برونسال : الاسلام فى المغرب والأندلس من ٢٥٨ وما بعدها وكارل بروكلمان ج٢ ص ١٩٤ .

واتسعت دائرة سلطته حتى أنه لم يبق بجميع أقطار بلاد المغرب من البحر المحيط إلى برقة إلا من هو فى طاعته ، وداخل فى ولايته إلى غير ذلك من جزيرة الأندلس ، وكان محسنا محبا للعلماء ، مقربا للأدباء ، مصفيا إلى المدح ماثبا عليه (١) .

وملوك الموحيدين هم :

محمد بن تومرت (المهدي)	حتى سنة ٥٢٤ = ١١٣٠
عبد المؤمن ن على	من ٥٢٤ = ١١٣٠
(استولى على مراكش سنة ٥٤١ = ١١٤٦)	
أبو يعقوب يوسف الأول	٥٥٨ = ١١٦٣
أبو يوسف يعقوب المنصور	٥٨٠ = ١١٨٤
محمد الناصر	٥٩٥ = ١١٩٩
أبو يعقوب يوسف الثانى	٦١١ = ١٢١٤
أبو محمد عبد الواحد المخلوع	٦٢٠ = ١٢٢٣
أبو محمد عبد الله العادل	٦٢١ = ١٢٢٤
يحيى المعتصم بالله	٦٢٤ = ١٢٢٧
أبو العلاء ادريس المأمون	٦٢٦ = ١٢٢٩
عبد الواحد بن المأمون	٦٣٠ = ١٢٣٢
أبو الحسن على السعيد	٦٤٠ = ١٢٤٢
أبو حفص عمر المرتضى	٦٤٦ = ١٢٤٨
أبو العلا الوائق	٦٦٥ = ١٢٦٦
إلى ٦٦٨ = ١٢٦٩ (٢)	

ودب الضعف فى جسم الدولة عقب الهزيمة الساحقة التى نزلت بالموحيدين فى موقعة حصن العقاب بالأندلس التى أشرنا لها من قبل ، وعلا سلطان الوزراء ،

(١) انخلكان : وفيات الاعان ج ٢ ص ٤٣٢ .

(٢) زامبادج ١ ص ١١٣ - ١١٤ ولين بول ص ٤٧ .

فأذن ذلك بتفكك الدولة ، وظهر - كما ذكرنا من قبل - بنو حفص فى تونس ، وبنو زيان بتلمسان ، وبنو مرين بمراكش ، بجوار بعض الحركات القبيلية الاستقلالية ، وقد احتل بنو مرين عاصمة الموحدين سنة ٦٦٨ وانتهت بذلك دولة الموحدين .

بنو مرين ٥٩١ - ٩٥٧ = ١١٩٥ - ١٥٥٠ :

جبل زنانة هو موطن بنى مرين ، وهم قوم أشداء يعيشون فى حياة قبلية بين فجييع وسجلماسة ، ويميلون للقفار والصحارى والصيد والغارات ، دعاهم المرابطون للاشتراك معهم فى رد عدوان الفرنجية على المسلمين بالأندلس ، فلبوا الدعوة وكانت لهم صولة فى الهجمات الناجحة .

ودالت دولة المرابطين وجاء الموحدون إلى الحكم ، وبنو مرين على حالهم من الحياة البدوية التى تعد القروسية والغارة من أهم دعاماتهم ولما بدأ الضعف يظهر على ملك الموحدين بدأ بنو مرين يقومون بغزوات خاطفة على ما يجاورهم من بلدان الموحدين ، وشكا الناس للخليفة بمراكش (محمد الناصر آنذاك) فبدأ صراع بين القوتين ، وكان بنو مرين تحت قيادة زعيم اسمه عبد الحق بن محيو ، خاض بهم معارك ضد جيوش الموحدين وكتب له النصر فيها ، فكان يوزع الغنائم على الناس ولا يأخذ لنفسه منها شيئاً ، مما جمع قلوب أتباعه عليه وحببهم فيه .

واستمرت الحروب بين القوة الناشئة وقوة الموحدين التى بدأ الهرم يظهر عليها ، ومما ساعد بنى مرين أن قوى أخرى أخذت تغير على الموحدين فى تونس حيث ظهر بنو حفص ، وفى تلمسان حيث ظهر بنو زيان ، وفى الأندلس حيث الفرنجية ، وعلى هذا استطاع بنو مرين أن يحققوا ألواناً من النصر ، فلما تولى أبو بكر بن عبد الحق زعامتهم سنة ٦٤٢ بدأ شأن بنى مرين يعلو ، فقد فتح مكناسة سنة ٦٤٦ ثم بايعه أهل فاس فأصبحت فاس عاصمة للدولة الجديدة ، وسار فى فتوحاته بعد ذلك من نصر إلى نصر ، ثم جاء بعده أخوه يعقوب بن

عبد الحق الذى استطاع الاستيلاء على مراكش عاصمة الموحدين سنة ٦٦٨ وعلى سجلماسة سنة ٦٧٢ وبهذا دانت بلاد المغرب لبنى مرين (١) .

ومما يذكر أن بنى مرين كانوا فى أول نشأتهم يدعون لبنى حفص فى تونس ويحاربون الموحدين باسم الحفصيين ، إذ كان بنو حفص قد أعلنوا استقلالهم بتونس عن الموحدين قبل قيام بنى مرين ، وواضح أن سبق بنى حفص يرجع إلى أنهم أقاموا دولتهم فى تونس بمنأى عن عاصمة الموحدين ، أما حركات بنى مرين فكانت حول العاصمة حيث موطن القوة فى أية دولة ، وكان بنو حفص لذلك يمدون بنى مرين بالمال والعتاد ، ولكن لما رسخت أقدام بنى مرين بالمغرب ، قطع يعقوب هذه الدعوة ، وأعلن استقلاله ، إذ خضعت لسلطانه مراكش عاصمة الموحدين الذين كان يدين لهم الشمال الافريقى كله بالولاء .

وقد لعب يعقوب بن عبد الحق دوراً كبيراً لمناصرة مسلمى الأندلس ، وطالما كسب معارك عنيفة ضد الفرنجة ، ولكنه كان يكتفى بهذا النصر وبالفنائم يحصل عليها ، فلم يعمل لتوطيد قدمه فى أسبانيا ، ويعتبر عهد يعقوب أنصر عهود بنى مرين (٢) .

وفى سنة ٧٩٦ كانت دولة بنى زيان بتلمسان (الجزائر) قد ظهر عليها الضعف والوهن فزحف عليها بنو مرين وضموها لدولتهم . وفيما يلى أسماء ملوك بنى مرين :

١١٩٥ = ٥٩١

عبد الحق بن أبى خالد محيو

١٢١٧ = ٦١٤

عثمان بن عبد الحق

١٢٣٩ = ٦٣٧

محمد (الأول) بن عبد الحق

١٢٤٤ = ٦٤٢

أبو بكر بن عبد الحق

(١) محمد فريد وجدى : تاريخ بنى مرين بدائرة المعارف ج ٨ ص ٦٧٢ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ٦٨٢ - ٦٨٣ .

١٢٥٨ = ٦٥٦	يعقوب بن عبد الحق
١٢٨٦ = ٦٨٥	يوسف بن يعقوب
١٣٠٦ = ٧٠٦	عامر بن أبي عامر بن يوسف
١٣٠٨ = ٧٠٨	سليمان بن أبي عامر بن يوسف
١٣١٠ = ٧١٠	عثمان (الثاني) بن يعقوب
١٣٣١ = ٧٣١	علي بن عثمان
١٣٤٨ = ٧٤٩	فارس بن علي
١٣٥٨ = ٧٥٩	محمد بن فارس (ولى ثم عزل فى الحال)
١٣٥٨ = ٧٥٩	محمد السعيد بن فارس
١٣٥٩ = ٧٦٠	إبراهيم بن علي بن عثمان
١٣٦١ = ٧٦٢	تاشفين بن علي
١٣٦١ = ٧٦٣	عبد الحلیم بن عمر بن عثمان (الثاني)
١٣٦١ = ٧٦٣	محمد (الثاني) بن أبي عبد الرحمن بن علي
١٣٦٦ = ٧٦٨	عبد العزيز بن علي
١٣٧٢ = ٧٧٤	محمد (الثالث) بن عبد العزيز
	أحمد بن إبراهيم
١٣٧٤ = ٧٧٦	عبد الرحمن بن أبي بفلویش بن عمر
	(وليا معا ثم انفرد أحمد بالحكم بعد ثمانى سنوات)
١٣٨٤ = ٧٧٦	موسى بن فارس
١٣٨٦ = ٧٨٨	المنتصر بالله بن أحمد
١٣٨٦ = ٧٨٨	محمد (الرابع) بن أبي الفضل بن علي
١٣٨٦ = ٧٨٨ (٤٣ يوما)	أحمد بن إبراهيم (للمرة الثانية)
١٣٩٣ = ٧٩٦	أبو فارس بن أحمد
١٣٩٦ = ٧٩٩	عبد العزيز بن أحمد

عبد الله بن أحمد فترة اضطراب وانحلال ٨٠٠ = ١٣٩٧
 عثمان (الثاني) بن أحمد وكثرة عدد مدعى السلطان ٨٠١ = ١٣٩٨
 عبد الحق بن عثمان (الثاني) ٨٣١ = ١٤٢٧ (١)

وكانت الحياة البدوية طابع ملك بنى مرين ، ولذلك كثر فيهم إسقاط الخلفاء ، ولم تحظ الدولة بالاستقرار ، ويبدو هذا من القائمة السابقة ، وكان هذا التصرف من أسباب ضعف بنى مرين ، وهناك أسباب أخرى أضعفت بنى مرين وهدت ملكهم ، وهى حروبهم الطويلة مع إمارتى تلمسان وتونس ، وتكتل المسيحيين ضدهم فى معاركهم بالأندلس ، وقد نتج عن ضعف بنى مرين شيثان هامان .

١- طمع البرتغاليون فى دولة بنى مرين وأخذوا يهاجمون ثغور مراكش ، واستطاعوا أن يستولوا على سبتة سنة ٨١٨ ، وعلى قصر المجاز (قصر مصمودة) سنة ٨٦٢ ، وعلى طنجة سنة ٨٦٩ ، وعلى أصيلا سنة ٨٧١ ، وعلى مدينة آلفى وبعض جهات السوس فى السنة المذكورة ، بحيث لم يبق من ثغور مراكش بيد أهلها إلا القليل .

٢- طمع الوزراء فى السلطان وأخذوا يستبدون بالأمر شيئا فشيئا وخاصة فى عهد عثمان بن أحمد الذى تولى الخلافة وسنه ست عشرة سنة فغرق فى طفولته ونزوات صباه وسلم الأمر كله للوزراء ، وكان وزراء العهد الأخير من بنى وطاس ، وهم بطن من بطون بنى مرين ، ولكنهم لا ينحدرون من عبد الحق مؤسس الدولة ، وكان لهم طمع فى السلطان منذ نشأة الدولة ، ولكنهم قهروا بسبب قوة الخلفاء من بنى عبد الحق ، واكتفوا بالوزارة حيناً والولاية حيناً آخر ، فلما تضعف بنو عبد الحق برز بنو وطاس واستبدوا بالأمر ، وأصبح لهم الملك والسلطان ، وقائمة ملوكهم هى :

(١) زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ج ١ ص ١٢٢ - ١٢٣ .

$$١٤٧١ = ٨٧٦$$

أبو عبد الله محمد (الأول) الشيخ

$$١٥٠٤ = ٩٠٧$$

محمد (الثاني) الملقب بالشيخ البرتقالي

وهو ابن محمد الأول

$$١٥٢٩ = ٩٣٦$$

أحمد بن محمد (الثاني)

$$١١١٥٥٠ = ٩٥٢$$

محمد (الثالث) بن أحمد

وفي عهد محمد الأول سقطت دولة المسلمين بالأندلس ، ولجأ أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة إلى بني وطاس ليعيش في حمايتهم ، وفي عهد بني وطاس ثقلت وطأة الفرنجة على الساحل الأفريقي ، وهددوا مدنه ، واحتلوا مدينة أغادير ثم احتلوا وهران سنة ٩١٠ ، وقد اشتغل بنو وطاس بحروبهم مع الفرنجة ، وأهملوا الجبهة الداخلية مما آذن لدولة الأشراف السعديين بالظهور ابتداء من سنة ٩١٥ ثم قويت شوكة الأشراف عندما هزم بنو وطاس في حروبهم ضد الفرنجة ، وأخذ الفرنجة يُنزلون بالمسلمين ألوان البغى ، فالتف الناس حول الأشراف الذين أخذوا على عاتقهم حركة الجهاد ضد البرتغاليين ، فبدأت كلمتهم بذلك ترجح على بني وطاس (٢) .

وبمناسبة غروب الإسلام في الأندلس نقرر أن مراكش لعبت دورا مهما في تاريخ الاسلام بهذه البلاد بواسطة المرابطين والموحدين وبني مرين ، ويمكن القول إن تدخل المراكشيين لمساعدة المسلمين بالأندلس قد أطال عمر الإسلام في أسبانيا ، ولولا عون مراكش لكان من الممكن أن ينتهي الحكم الإسلامي مبكرا عدة قرون .

(١) زمبادور ج ١ ص ٢٣ .

(٢) دكتور صلاح العقاد : المغرب العربي ص ٥٣ .

الأشراف ٩١٥ هـ = ١٥٠٩ م حتى الآن

الأشراف ينتسبون للرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق الحسن بن علي ، وقد حكم مراكش منهم فريقان ، الأشراف السعديون أو الحسينيون (٩١٥ - ١٠٦٩ = ١٥٠٩ - ١٦٥٨) والأشراف الفلالليون . أو السلجماسيون أو العلويون (من سنة ١٠٧٥ = ١٦٦٤ حتى الآن) ومن الملاحظ أن هنالك ست سنوات بين حكم الفريق الاول والثاني ظهر في خلالها الحكم القبلي وزعامات الطرق الصوفية ، ومن بين الأسر التي ظهرت حينئذ أسرة الشبانات وزعميها يسمي عبد الكريم ، وقد استطاع الشبانات أن يقتلوا الخليفة الأخير من خلفاء الأشراف السعديين ، وأن يستبدوا بالأمر ، وانتهى بذلك عهد الأشراف السعديين.

ولما تغلب الأشراف الفلالليون على الأمور قضوا على أسرة الشبانات واستأنفوا حكم الأشراف .

ونعود إلى قيام دولة الأشراف ، فنقرر أن الأشراف السعديين بدءوا حكمهم في إقليم السوس الذي سبق أن ذكرنا أن البرتغاليين كانوا قد احتلوه ، وقد تجمع مسلمو هذا الاقليم حول الشريف أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن ليقودهم في معاركهم وحركاتهم ضد الفرنجة ، إذ كان أمراء بنى وطاس قد غلبوا عليه ، واستمر بعد ذلك نجم الأشراف في الصعود ، وحقق عبد الله وابنه أبو العباس أحمد كثيرا من الانتصارات ضد المسيحيين ، وكانت مراكش مضطربة ، آذن نجم حكامها بنى وطاس بالأقول ، فكتب أهلها وأمراؤها إلى الأشراف يطلبون منهم دخول مراكش سنة ٩٥١ وأخذها ، وأسقط عبد الله بذلك دولة بنى وطاس ، ثم استمر يضم بلاد المغرب واحدة بعد واحدة حتى استولى على مكناسة سنة ٩٥٥ وخلص له بذلك أمر المغرب الأقصى .

ومن أهم ما ينسب إلى الأشراف السعديين أنهم بذلوا جهدا كبيرا في الاتجاه جنوبا إلى قلب القارة الإفريقية ، فاستولوا على تومبكتو وكانم وغيرها من بلاد

إفريقية ، وكان هذا مما ساعد على دفع الاسلام نحو هذه البقاع .

العلاقة بين الأشراف والعثمانيين :

وقد اقتحم العثمانيون الجزائر فى النصف الأول من القرن السادس عشر فعاصروا الأشراف ، وكانت تحدث بينهم مناوشات أحيانا ، وكانوا أحيانا أخرى يتعاونون معا ضد العدو المشترك بأسبانيا . وكان الأشراف يستقلون استقلالاً تاماً فى أكثر الأحيان ، ولكن الظروف كانت ترغمهم أحيانا لإظهار نوع من التبعية للسلطان العثمانى ، وعلى العموم فإن العلاقة لم تكن طيبة فى مطلع عهد الأشراف العلويين ، فقد بدأت هذه الأسرة عهدها بالاصطدام مع الحكومة العثمانية بالجزائر حتى بعث عثمان باشا إليها يلوم الشريف على تفرقة كلمة المسلمين ، ولكن هذه العلاقات تحسنت فى عهد السلطان محمد بن عبد الله الذى اتجه نحو توثيق الروابط مع الدولة العثمانية والشرق الإسلامى بصفة عامة (١) .

وفيما يلى أسماء سلاطين الأشراف :

الفرع الحسنى :

أبو عبد الله القائم بأمر الله بن عبد الرحمن بن على ٩١٥ = ١٥٠٩
أبو العباس أحمد الأعرج ٩٢٣ = ١٥١٧
أبو عبد الله محمد (الأول) المهدي بن القائم ٩٥٥ = ١٥٤٨

(كان ينافس أخاه أحمد - استولى على مراکش

سنة ٩٥١ ثم آل له الأمر كله سنة ٩٥٥)

عبد الله المتوكل بن محمد المهدي ٩٦٤ = ١٥٥٦
محمد (الثانى) بن عبد الله (المتوكل) ٩٨١ = ١٥٧٣
عبد الملك (الأول) بن محمد المهدي ٩٨٣ = ١٥٧٥

(١) دكتور صلاح العقاد : المرجع السابق ص ٦٩ و ٧٥ .

١٥٧٨ = ٩٨٦	أحمد (الأول = المنصور) بن محمد المهدي
١٦٠٣ = ١٠١٢	محمد (الثالث) بن أحمد (الأول)
	عبد الله الواثق أخوان لمحمد خرجا
١٦٠٣	زيدان الناصر عليه بنافساه
١٦٠٨ = ١٠١٦	زيدان (وحده)
١٦٢٩ = ١٠٣٩	عبد الملك (الثاني) بن زيدان
١٦٣٠ = ١٠٤٠	الوليد بن زيدان
١٦٣٥ = ١٠٤٥	محمد (الرابع) بن زيدان
١٦٥٤ = ١٠٦٤	أبو العباس أحمد (الثاني) بن عبد الملك
١٦٥٨ = ١٠٦٩ إلى	

الفرع الفلالي :

١٦٦٤ = ١٠٧٥	الرشيد بن محمد بن علي
١٦٧١ = ١٠٨٢	اسماعيل السمين بن محمد
١٧٢٧ = ١١٣٩	أحمد الذهبي بن اسماعيل
١٧٢٩ = ١١٤١	سد الله بن اسماعيل
	عبد الملك بن اسماعيل (مدع)
	علي بن اسماعيل (مفتصب) فترة اضطراب
	المستضى بن اسماعيل (مفتصب)
١٧٥٧ = ١١٧١	محمد (الأول) بن عبد الله
١٧٨٩ = ١٢٠٤	يزيد بن محمد
١٧٩٢ = ١٢٠٦	هشام بن محمد
١٧٩٥ = ١٢٠٩	سليمان بن محمد
١٨٢٢ = ١٢٣٨	عبد الرحمن بن هشام
١٨٥٩ = ١٢٧٦	محمد (الثاني) بن عبد الرحمن
١٨٧٣ = ١٢٩٠	الحسن (الأول) بن محمد

١٨٩٥ = ١٣٠٤	عبد العزيز بن الحسن
١٩٠٨ = ١٣٢٥	عبد الحفيظ بن الحسن
سنة ١٣٢٩ = ١٩١١	تم فى عهده الاحتلال الفرنسى
١٩١٢ = ١٣٣٠	يوسف بن الحسن
١٩٢٧ = ١٣٤٥	محمد بن يوسف
١٩٥٣ = ١٣٧٢	محمد بن عرفة وضعت فرنسا على أثر غم من ارادة الشعب
١٩٥٥ = ١٣٧٤	محمد بن يوسف (عودة لسلطانه)
	(للمرة الثانية - عاد بضغط الشعب المغربى والشعوب العربية - تحقق فى عهده الاستقلال التام) .
١٩٦٠ = ١٣٧٩ (١)	الحسن (الثانى) بن محمد
	حتى الآن

ومن أشهر سلاطين الأشراف الحسنيين السلطان أحمد بن محمد المهدي الملقب بالمنصور ، وقد جاء إلى الحكم سنة ١٥٧٨م عقب فتنة داخلية واسعة وقعت بين سلفه محمد بن المتوكل بن محمد المهدي يؤيده العثمانيون ، وقد حدثت هذه الواقعة سنة ١٥٧٨ عند وادى المخازن شمال قاس ، وتسمى معركة الملوك الثلاثة ، إذ سقط فيها ملك البرتغال واندحر جيشه ، كما سقط فيها الملكان الحسنيان المتنازعان (محمد بن المتوكل وعمه عبد الملك) قال أمر مراكش للمنصور ، ولحكمه أهمية كبرى فى تاريخ مراكش إذ وضع نظاما للإدارة الداخلية (المخزن = الحكومة) خلاصته أنه كان يستعين ببعض القبائل ضد البعض الآخر ، وكانت القبائل المقرية إليه تنوب عنه فى حوض السنغال ، وقد أولى المباني العظيمة والعمائر اهتمامه ، ومن مبانيه القصر المسمى بالبديع ، وقد صرف عليه مالا طائلا وفرشه بالرخام والفسيفساء والطنافس والحريز (٢) .

(١) زامباور : ج ١ ص ١٢٥ - ١٢٦ حتى يوسف بن الحسن والتكملة من الوثائق وتتبع التاريخ الحديث .

(١) فريد وجدي : المرجع السابق ص ٦٩٣ ، والمغرب العربى للدكتور صلاح العقاد ص ٥٧ .

ومن أشهر سلاطين الأشراف العلويين السلطان إسماعيل السمين ، وقد تخلى عن النظام الحربي الذي ابتكره المنصور ، وعمد إلى تجهيد جيش ثابت يدين له بالولاء ، واختاره من الإفريقيين الذين جلبهم من البلاد التابعة له في قلب القارة ، وأصبح نفوذ القبائل في عهده محدودا ، وضرب بيد قوية كل نفوذ يعارضه ، وبعد أن استقر له الأمر بالداخل ، اتجه إلى الفرنجة فحاربهم وانتصر عليهم في معارك كثيرة ، استطاع بها أن يسترد المهدية من الأسبان سنة ١٦٨١م كما أخذ طنجة من الإنجليز سنة ١٦٨٤م ثم أخذ العرايش من الأسبان سنة ١٦٨٩م ، وقد طال ملكه فوصل سبعا وخمسين سنة حتى كان بعض الجهلة يعتقدون أنه خالد لا يموت ، وقد وصل ملكه إلى تخوم السودان ونهر النيجر ، وكان شغوفًا بالعمارة كالمَنصور ، فأكثر من تشييد القلاع العظيمة في أمكنة مختلفة من مملكته ، كما أكثر من تشييد القصور الشاهقة والمدارس والمساجد^(١).

الاستقلال الطويل وسياسة العزلة :

وقد سبق أن أشرنا إلى المواني والثغور التي اقتحمها الأسبان أو البرتغاليون عقب غروب الإسلام في الأندلس ، ووضحنا الصراع الذي دار لإنقاذها ، ونحب هنا أن نقرر حقيقة مهمة هي أن المغرب (مراكش) فيما عدا هذه الثغور قد نجح من شر الاستعمار علي مر التاريخ حتي نكب بالاستعمار الفرنسي في القرن العشرين ، وهكذا كانت مراكش هي البلد العربي الوحيد الذي نجح من العثمانيين في القرن السادس عشر وما يليه ، ونجح من الاستعمار الأوربي طيلة القرن التاسع عشر ، وتلك حقيقة يفخر بها سكان المغرب ويحرصون بقدر الطاقة علي استمرارها .

وقد صرخ السلطان عبد الحفيظ في وجه فرنسا بهذه الحقيقة عند إعلان الحماية ، وجاء في صرخته ما يلي : « إنني ألقت نظر الحكومة الفرنسية إلي

(١) فريد وجدي : المرجع السابق ص ٩٩٧ وصلاح العقاد : المرجع السابق ص ٦٩ - ٧١ .

كون المغرب لم يخضع منذ الفتح الإسلامي لأية دولة أجنبية كمستعمرة وأنه ما فتى يتمتع باستقلاله منذ ثلاثة عشر قرناً » .

وقال للوزير الفرنسي رينو : « إنني أفضل التنازل عن العرش علي أن أتسبب فيهما يحط من قدري ، وأن يدخل الاستعمار الي مملكتي » ولكن الأحداث علي كل حال كانت أقوى من السلطان .

ولعل حرص المغاربة علي الاستقلال هو الذي دفعهم الي سياسة العزلة ، فقد اقترح العثمانيون شمالي إفريقية حتي حدود مراكش ، وتطلعت دول أوربا الي مد سلطانها علي الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط معلنة أن سلامتها لا تتحقق بدون ذلك ، وكان التنافس بين العثمانيين والأوروبيين واسع النطاق ، كما كانت أعمال المغامرين في البحر الذين يطلق عليهم الأوروبيون « قراصنة » من أهم الأسباب لإثارة العداء بين الساحل العربي وبين الغربيين ، وقد رأت مراكش أن تبعد بنفسها عن هذا المحيط الصاخب ، فلجأت الي سياسة العزلة وبخاصة في عهد مولاي سليمان (١٧٩٥ - ١٨٢٢) فقد صالح الأسبان واعترف بمراكزهم الساحلية ، وباع السفن المراكشية وأوقف حركة الجهاد في البحر ، وكرم علي رعاياه الخروج للتجارة في بلاد المسيحية ، وخصص ميناء طنجة ليكون مقراً للممثلين الأجانب فلا يتعدونه الي العاصمة الداخلية (فاس) ، وحدد المواني التي يجوز للتجار الأوروبيين أن يقيموا فيها ، وحظر علي جميع الرعايا المسيحيين اختراقها الي الداخل .

ونتيجة لهذا أصبحت مراكش موضع إثارة للرحالة الأوروبيين ، وكان علي من يريد دخولها أن يتنكر ويظهر بمنظر المسلم ويتخذ اسماً إسلامياً ومن فعلوا هذا دي مانجو باديا الفرنسي الذي تنكر في شخصية أحد أثرياء المسلمين علي بك العباسي وزار مراكش ونشر عنها كتابه « رحلة الي مراكش »^(١) .

(١) دكتور صلاح العقاد : المغرب العربي ص ٧٦ .

نهاية العزلة :

بيد أن اقتحام الفرنسيين للجزائر سنة ١٨٣٠ كان بمثابة الإعلان عن تحطيم سور العزلة ، فقد تسربت الأسلحة للمجاهدين الجزائريين شاء شريف مراكش أو لم يشأ ، ولجأ الي مراكش كثيرون من الهاربين من عنت الاستعمار الفرنسى وعلى رأسهم عبد القادر الجزائري ، وطلبت بعض مدن الجزائر حماية الشريف المراكشى ، وتوالت احتجاجات فرنسا ، وحاول السلاطين أن يوفقوا بين رغبتهم فى العزلة وبين مسئوليتهم تجاه الأحداث الجديدة ، ولكنهم عجزوا عن ذلك ، وامتد لهم الاستعمار الأوربي الممقوت ، محطماً أغنية الاستقلال الدائم التى كان يتغنى بها سكان القطر الشقيق ، وسندرس فيما يلى الخطوط العريضة لهذا الاحتلال وطرق مقاومته ، حتى نصل بتاريخ مراكش الى فترة كتابة هذه السطور

الاستعمار فى المغرب

الخطوات نحو الاحتلال :

كان غزو الجزائر سنة ١٨٣٠ واحتلال تونس سنة ١٨٨١ أول خطوة لاحتلال المغرب ، وكانت العوامل العالمية هى التى تؤخر الزحف الفرنسى تجاه المغرب ، وبخاصة لأن مؤتمر مدريد المنعقد سنة ١٨٨٠ جعل المسألة المراكشية مسألة دولية ، إذ قرر أنه ليس لأية دولة أن تعتمد الى تعديل الوضع الراهن فى مراكش إلا بموافقة الجميع ، وبناء على هذه المعاهدة لم يكن للأجانب حق امتلاك الأراضى الزراعية إلا بتصريح من السلطان ، وكان السلطان آنذاك هو مولاي الحسن ، ويعرف عنه غيرته على وطنه وعدم إتاحة الفرصة للنبيل منه ، فكان يرفض بصورة منتظمة منح هذا التصريح (١) .

وأهل القرن العشرون وقد وطدت فرنسا العزم على التغلب على هذه العوامل العالمية ليتم لها استكمال النفوذ فى الجانِب الغربى من الشمال الإفريقى ، وسعيًا وراء إرضاء الدول ذات الشأن وقعت فرنسا المعاهدات التالية :

- معاهدة ١٩٠٠ مع إيطاليا وهى اتفاقية سرية تعهدت فيها الحكومة الفرنسية باعتبار طرابلس وورقة خارجيتين عن منطقة نفوذها ، وإذا حدث تغيير فى وضع مراكش أمكن لإيطاليا التصرف بحرية فى هذه المنطقة (٢) .

- عززت هذه الاتفاقية باتفاقية أخرى سنة ١٩٠٢ اعترفت فيها إيطاليا بمصالح فرنسا فى مراكش ، واعترفت فرنسا بمصالح إيطاليا فى طرابلس (٣) .

- اتفاق ٨ أبريل سنة ١٩٠٤ وهو اتفاق سرى أيضا تم بين فرنسا وبريطانيا يقضى بإطلاق يد بريطانيا فى مصر ، وإطلاق يد فرنسا فى مراكش ، على أن

(١) دكتور عبد الحميد البطريق وآخرون : افريقية حلم الاستعمار البريطانى ص ٢٢١ .

(٢) دكتور صلاح العقاد : المغرب العربى ص ٢٢٩ .

(٣) محمود الشنتيطى : قضية ليبيا ص ٤٦ .

يعطى الجزء الشمالى من المغرب لأسبانيا ، وأن يوضع نظام دولى لمنطقة طنجة.
- اتفاق ٣ أكتوبر من نفس العام بين فرنسا وأسبانيا وفيه أيدت أسبانيا الاتفاق السابق .

- ميثاق الجزيرة ^(١) سنة ١٩٠٦ ، وقد ضم عدة دول هى بريطانيا وفرنسا وألمانيا والنمسا وأسبانيا والولايات المتحدة والمغرب ، وقد عقد بناء على طلب ألمانيا واحتجاجاتها على المعاهدات الثنائية السابقة ، ولكن فرنسا ظفرت فى هذا المؤتمر أيضا وخسرت مراكش ، ويبدو أن تساهل ألمانيا كانت نتيجة لأن أغراضها فى هذه المنطقة لم تكن عميقة ، وكانت فرنسا قد أعدت العدة فى جلسات خاصة تحضيرية لتأييدها الدول فى موقفها وكان لها ما أرادت .

وقرر هذا المؤتمر أن توجد شرطة فرنسية لأمن الموانى ، وحظر على مراكش أن تستورد الأسلحة بدون إذن الدول المشتركة فى الميثاق ، وغير ذلك من النتائج الاقتصادية والسياسية التى كانت انتقاصا لحقوق مراكش وتأييدا لامتداد نفوذ فرنسا فيها ^(٢) .

الحال فى مراكش آنذاك :

كانت مراكش فى العقد الأول من هذا القرن تعاني اضطرابا سياسيا خطيرا مصدره زيادة تدخل الدول ، وضعف السلطان عبد العزيز بن مولاي الحسن الذى لم تكن سنه ولا تجاربه تؤهله لقيادة الدولة فى هذه العواصف ، وتبع هذا الاضطراب السياسى اضطراب اقتصادى عسير ، وسار السلطان ، تستهويه مدينة أوروبا وما تحتويه من بهرجة زائفة ، فقلد الأوروبيين فى بلاطه وتصرفاته ، ومد يده للاستدانة من الدول وبخاصة فرنسا ، ثم جاءت المعاهدات السابقة وبوجه خاص ميثاق الجزيرة الذى لم يدع أملا لأهل مراكش فى عون أية دولة من

(١) الجزيرة مدينة صغيرة على ساحل أسبانيا الجنوى .

(٢) انظر المغرب العربى للدكتور صلاح العتاد ص ٢٤٦ وما بعدها .

الدول ، إذ قبلته جميع الأطراف ، وكل هذه الأشياء أثارت الرأى الداخلى ، فقامت القبائل بحركات انفصالية واسعة ، كما هبت ثورة عارمة قادها أحمد بن محمد الرسولى وهو من الأشراف المغامرين ، وهددت هذه الثورات السلطان فأرسلت فرنسا سنة ١٩٠٩ قوة لإخماد الثورة ، وحشدت أسبانيا قواتها فى مليلة وسبتة ، فزادت ثورة الشعب ، وخُلع السلطان عبد العزيز ، وتولى مكانه مولاي عبد الحفيظ بإرادة الشعب ، ولكن السلطان الجديد سرعان ما قبل شروط فرنسا وأسبانيا بالتخلى عن فكرة الجهاد وبقبول المعاهدات الدولية الخاصة بمراكش ، وبخاصة ميثاق الجزيرة ، وأن تتحمل مراكش مصاريف الاحتلال للقوات الفرنسية التى سميت «شرطة أمن الموانى» فأثار موقفه هذا سخط المواطنين .

الاحتلال ومعاهدة الحماية :

فقد السلطان ولاء الشعب ، وعنف الثورات ضده ، وفى مارس سنة ١٩١١ هاجمت القبائل مدينة فاس العاصمة ، فاستنجد السلطان بالقوات الفرنسية ، فهبت لنجدته واحتلت فاس ، وتقدمت أسبانيا فاحتلت العرايش ، ولما احتجت ألمانيا على هذا الاحتلال أرضتها فرنسا بتنازلها عن الكونغو الفرنسية ، وعقد مؤتمر بالجزيرة اعترفت فيه ألمانيا بأن احتلال فرنسا لمراكش ضرورى لحفظ الأمن ، وأرغمت فرنسا السلطان على قبول الحماية فقبلها بعد تردد إذ كان قد فقد ولاء الأهالى ولم يبق له من نصير إلا فرنسا ، فوقع السلطان عبد الحفيظ فى ٣٠ مارس سنة ١٩١٢ معاهدة قَبِلَ بها الحماية .

وتنص معاهدة الحماية على أن تلتزم فرنسا بحماية شخص السلطان وعرشه هو وأولاده من بعده ، وبإدخال الاصلاحات الإدارية والقضائية والاقتصادية والمالية والعسكرية التى تتفق وحاجات البلاد ، وبتكليف السلك السياسى والقنصل الفرنسى بتمثيل المغرب فى الخارج . وفى مقابل ذلك يسمح السلطان بأن تحتل القوات العسكرية الفرنسية الأراضى المغربية التى ترى حكومة فرنسا

أنها ضرورية لتأمين المعاملات التجارية فى البلاد ، وأن تقارس كل الأعمال البوليسية فى المياه والأراضى المغربية ، وأن يمتنع السلطان عن عقد أى اتفاق دى صبغة دولية أو عقد أى قرض أو منح أى امتياز بدون موافقة فرنسا . وتنص المعاهدة أيضا على أن يصدر السلطان القوانين التى تقترحها فرنسا ، وأن يمثل فرنسا لدى السلطان مندوب يحمل لقب «مقيم عام» للإشراف على تنفيذ المعاهدة ، ولرعاية شئون الأجانب فى المغرب .

وقد نصت المعاهدة أيضا على أن تتفق فرنسا مع أسبانيا بشأن مصالح الأخيرة فى المغرب ، وبناء على ذلك عقدت معاهدة بين فرنسا وأسبانيا فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٩١٢ وتقضى بوضع الجزء الشمالى من المغرب والمعروف بمنطقة الريف تحت حماية أسبانيا على أن يظل خاضعا لسيادة السلطان الدينية (١) ، واكتمل بذلك السلطان لفرنسا فى المغرب ولأسبانيا فى الريف ، كما استقر النظام الدولى بطنجة .

المغرب تحت نير الاحتلال :

احتلت فرنسا الجزائر قبل احتلال مراكش بإحدى وثمانين سنة ، ويمكن القول إن الجزائر كان حقل التجارب الذى استعملت فيه فرنسا مختلف الأساليب للقضاء على المواطنين أو فرنستهم ، وقد طبقت ذلك فيما بعد فى تونس ثم فى المغرب ، ومن أجل هذا آثرنا أن نورد عند الكلام عن الجزائر تفاصيل كافية عن سياسة فرنسا فى مستعمراتها بالشمال الإفريقى ، ونكتفى هنا بأن نجمل القول فى هذا الموضوع فنذكر أن فرنسا أشاعت فى مراكش الفقر والجهل والمرض ، واستولت على مصادر الثروة وفى مقدمتها الأرض الزراعية التى منحتها للمهاجرين الفرنسيين ، وشجعت حركات الانحلال والثورات الداخلية ، وواصلت ضغطها على المثقفين وعلى حركات التحرير ، على أن المغرب امتاز بوضع خاص عن كل الشمال الإفريقى ، ذلك هو ارتفاع نسبة السكان الأصليين الذين يطلق

(١) محمود الشرقاوى : المغرب الأقصى ص ٦٧ .

عليهم «البربر» ^(١) بالقياس إلى نسبتهم في الجزائر أو تونس ، فمن الطبيعي أن عدد هؤلاء يقل كلما اتجهنا نحو الغرب ، وهذا الوضع أتاح الفرصة للاستعمار الفرنسي لإثارة العصبية المفتعلة بين العرب والبربر ، وسنولى هذا الموضوع مزيداً من العناية فيما يلى :

البربر فى مراكش :

قلنا من قبل إن الصلات الوثيقة بين العرب والسكان الأصليين ، وكذلك انتشار الإسلام ، والمصاهرة ، وانتقال كثيرين من الأدارسة ومن القبائل العربية إلى الجنوب حيث عاشوا بين البربر وذاهوا فيهم ، كل هذا خلق شعباً مراكشياً واحداً ، ولكن فرنسا كانت تبحث عن ثغرات لتنفيذ سياسة « فرق تسد » التى اقترحتها أرسطو منذ مئات السنين لتلميذه الإسكندر المقدونى ونفذها التلميذ فنجحت فى فارس ، وأصبحت منذ ذلك الحين وسيلة الأوروبيين فى كل مكان ينزلون به .

وخلقت فرنسا قضية أسمتها قضية البربر وجعلتها وسيلة للتفريق فأصدرت سنة ١٩١٤ ظهيراً (مرسوماً) يخرج البربر من دائرة القضاء الشرعى فى الأمور المدنية ، ويجعل مجلس الجماعة أو القبيلة البربرية مختصاً بنظر تلك الشئون ، ولم يثر هذا المرسوم رد فعل حين صدوره لأنه حدث إثر صدمة الاحتلال ، ولعدم وجود وعى كاف آنذاك ، ثم لأنه كان مجعلاً فلم يُبْعِد بوضوح الهوة بين العرب والبربر ^(١) .

واستمرت فرنسا تعمل فى هذا المضمار ، فكان المقيم العام «لوسيان سان» يحيط نفسه بجماعة من المستشارين ركزت اهتمامها فى الدعوة لفصل البربر عن

(١) سنستعمل هنا هذا التعبير ايضاً لهذه القضية ، مع ملاحظة ما سبق أن قررناه من أن الدم العربى انساب فى السكان الأصليين للأسباب التى أوردناها من قبل ، حتى أصبحت قلة ضئيلة جداً ، تلك التى لا يجرى الدم العربى فى عروقها من بين سكان شمالى افريقية .

(٢) دكتور صلاح العقاد : فى المرجع السابق ص ٣٠٦ يتصرف .

حكومة المخزن ، بحجة أن الأخيرة تمثل العرب ، وترى هذه الجماعة فى فصل البربر عن العرب مقدمة لإدماجهم فى البيئة الفرنسية ، وقد تضمنت هذه الخطة فكرة إحياء اللغة البربرية عن طريق كتابتها بحروف لاتينية ، ووضع المستشرق جودفروى مستشار التعليم فى مراكش مشروعا مفصلا لهذا الغرض ، وفى نفس الوقت ركز المبشرون نشاطهم فى أقاليم البربر حتى صار لهم ١٣٨ مركزاً فى سنة ١٩٣٢ (١) .

وفى هذه الظروف أصدر الفرنسيون « الظهير البربرى » فى ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ فى مطلع عهد السلطان محمد بن يوسف ، وكان هذا الظهير يرمى لغاية مزدوجة هى إخراج البربر من الكتلة العربية ، وإبعادهم عن دائرة الإسلام ، وتحقيقا لذلك حرّم الظهير تعليم اللغة العربية على البربر ، وقرر إنشاء مدارس خاصة لأولادهم يقتصر تعليم اللغات فيها على الفرنسية والبربرية التى أصبحت تكتب بحروف لاتينية ، كما قرر الظهير عدم تطبيق الشريعة الإسلامية على البربر فى الأحوال الشخصية والمعاملات ، وأصبح أكثر القضاة بناء على هذا من المبشرين الذين كان كل همهم جذب البربر للمسيحية بكل الطرق . وقد عارض غالبية البربر هذا الظهير وحكموا عليه بالموت فى مهده ، وأرسلوا وفودهم إلى العاصمة محتجين عليه ، وقامت فى العالم الإسلامى كله حملات ضده ، ولكن بعض الباشوات الإقطاعيين أيدوه وعارضوا السلطان وكتلة المغاربة والبربر فى اتجاههم الودوى ، وعلى رأس هؤلاء الباشوات تهاوى الجلادى ، باشا مراكش الذى باع ذمته فترة ما للاستعمار . ولكن حركة المقاومة كانت أشد وأقوى ، فاضطرت فرنسا إلى التوقف عن تأييد هذا الظهير الجائر ، وأعلنت أن تطبيقه أمر اختياري .

(١) علال الفاسى : السياسة البربرية ص ٤٧ وما بعدها .

حركات المقاومة للاستعمار

إن الفترة التى قضّاها الأسبان والفرنسيون فى مراكش كانت مزدهمة بحركات المقاومة ، وتكاد هذه الحركات تكون سلسلة متصلة الحلقات ، وقد أظهر المغاربة فيها بطولة رائعة ، اعترف بها العدو وأعجب بها ، ونقل فيما يلى بعض سطور مما قاله الجنرال جيوم الذى كان ضابطاً فى جيش فرنسا عند الاحتلال ، ثم أصبح فيما بعد مقيماً عاماً فى المغرب .

« إن الإحساس السائد عند المغاربة والبرابرة والذى تنحنى أمامه جميع الإحساسات الأخرى ، هو هيامهم الفطرى بالاستقلال ، وإن كراهيتهم الغريزية لكل سيطرة لتفسر لنا ما أبدوه من مقاومة يائسة لكل توغل أجنبي ، ورغم شدة تعلق المغربى بمتاعه ، فهو لا يتردد مع ذلك فى التضحية به كله فى هذا الكفاح ، فكل واحد يدافع عن بلده إلى النهاية بشدة تدعو إلى الدهشة ، والبربرى يسهم فى النضال بمجرد أن يبلغ سن حمل السلاح ، واحتقاره للموت يزيد فى أنفته ، فهو دائماً مستعد للدفاع عن تراب قبيلته ، والهيبوب للغارة تلبية لنداء إخوانه . إنه محارب لا نظير له . »

ومما قاله أيضاً فى هذا المجال :

« لم تستسلم أية قبيلة دون مقاومة ، بل إن بعضها لم يلق سلاحه حتى استنفد كل وسائل الصراع ، ولم تَضَع أية قبيلة إلا بعد أن هزمتها بأسلحتنا ، واتسمت كل مرحلة من مراحل تقدمنا بالقتال ، وكنا كلما توقفنا أنشأ المراكشيون جبهة جديدة وشيدوا سلسلة من التحصينات ، وكل هذا أرغم قواتنا سنوات طويلة أن تقف موقف اليقظة والحذر معرضه للأخطار ، وفى موقف عسكري مشين . »

ولم تكن حركات المقاومة عسكرية فقط بل كانت سياسية أيضاً وسنختار فيما يلى أبرز الحركات العسكرية والسياسية لندرس منهاجها وأهدافها ، ونتائج الصراع بينها وبين الاستعمار .

المقاومة العسكرية

الأمير عبد الكريم الخطابي في الريف :

كلمة الريف معناها الشائع في المغرب طرف الشئ أو نطاقه الخارجى ، ومن ثم أطلق (الريف) على شمالى المغرب ، وقد نصت المعاهدات السالفة على منح هذه المنطقة لأسبانيا ، وبدأت أسبانيا تحتلها ابتداء من سنة ١٩٠٩ ومنذ بدأ الزحف الأسباني قابله سكان الريف بالحديد والنار ، وقاد الثورة زعيم اسمه أحمد بن محمد الرسولى من سنة ١٩١١ ولكن هذا الزعيم كان أحيانا يبدو وكأنه يسعى لتحقيق أغراض خاصة ، على أن الحرب العالمية الأولى ، وسياسة أسبانيا المسالمة خلالها ، هدأت من الأحوال فى هذه الفترة بشكل ملحوظ .

وبعد نهاية الحرب جددت أسبانيا أعمالها العسكرية ، قاصدة احتلال منطقة نفوذها احتلالا شاملاً ، فاصطدمت بقوة كبيرة يقودها الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي الذى آلت له قيادة قبيلة بنى ورياغل فى مطلع العقد الثالث ، وقد صمد الأمير الخطابي فى معاركة مع أسبانيا صمودا رائعا ، كما صمد أبوه من قبل ، وحقق ألوانا من الانتصارات فى المعارك التى خاضها ، وهزت انتصاراته دعائم الاستعمار الأسباني فى هذه البقاع ، وأوشك الأسبان أن يعترفوا بالهزيمة ، ولكن فرنسا أدركت أن هزيمة حليفها الغربية ستؤدى إلى هزائم تتعرض لها هى أيضا ، فأمدت الأسبان بالرجال والعتاد حتى تم النصر للقوى الجائرة سنة ١٩٢٦ واستسلم الأمير الخطابي ، فنفاه الفرنسيون إلى جزيرة رى أونيون بالمحيط الهندى ، ثم أرادت فرنسا أن تنقله سنة ١٩٤٧ إلى فرنسا ، ولكنه عندما وصل بورسعيد غادر الباخرة التى أقلته والتجأ إلى مصر ، أو قل قرر أن يعيش فى بقعة من الوطن العربى أن لم تكن المغرب فهى شقيقة للبلاد ، وظل بمصر حتى توفى فى فبراير سنة ١٩٦٣ .

على أن أسبانيا أدركت أن من العسير الاستمرار فى تحدى الشعب العربى فى مراكش الذى كان يدين بوحدة أراضيه ، ولذلك اعترفت بتبعية الريف لمراكش

فعين سلطان مراكش خليفة له بالريف واعترفت به أسبانيا ، واستمر هذا الوضع حتى تمت الوحدة ، وكان آخر خليفة للسلطان هو مولاي حسن بن المهدي .

وتكريماً للخطابي البطل الكبير نثبت هنا موجزاً لتاريخ حياته :

ولد الأمير محمد الخطابي بقرية « أجادير » في ١٥ شعبان سنة ١٣٠١هـ (سنة ١٨٨٢م) وأبوه الأمير « عبد الكريم الخطابي » كان حاكم قبيلة « بني ورياغل » إحدى قبائل الريف المراكشي التي يبلغ عددها ٤٠ قبيلة .

وبدأ الأمير الصغير يتلقى العلم في الرابعة من عمره ، وحفظ القرآن كله في كتاب في القبيلة ، وحمل السلاح في سن السابعة ، وأثبت أنه أكثر صبيبة القبيلة إجادة للتصويب .

وفي سن الرابعة عشرة تلقى دروسه في الفقه والنحو والحديث والبلاغة والسيرة النبوية ، ثم رحل إلى فاس والتحق بمدرسة « جامعة انقرويين » وهي أقدم جامعة إسلامية .



الأمير محمد الخطابي

وأتم الأمير دراسته وعين فى منصب قضائى ، ولما بدأت فرنسا وأسبانيا فى احتلال المغرب تصدى الأمير عبد الكريم الخطاطبى والد البقيد لمقاومة الأسبان فى الريف ، فترك الأمير محمد بن عبد الكريم وظيفته ورحل إلى قبيلته ليناضل العدو بجانب أبيه .

واستطاع الأعداء فى إحدى المعارك أن يخطفوا الأمير « محمد » وراحوا يسامون والده لكى يهادنهم فى مقابل إنقاذ ابنه الأكبر ... ولكن الأمير عبد الكريم رفض المساومة وأعلنهم بأنه يضحي فى سبيل وطنه بكل شئ .

ولكن الأمير لم يستسلم وفكر فى الهرب ، وألقى بنفسه من نافذة المعتقل فأصيب فى رجله ، وقبض عليه حرس المعتقل وأعادوه إلى السجن حيث حاول الطبيب الأسبانى أن يبتسر ساق الأمير ، ولكنه أصر على أنها سليمة ورفض إجراء عملية البتر .

وحاول الاستعمارىون الأسبان مساومة الأمير داخل السجن ، لكى يرسل إلى والده خطابا يناشده فيه مهادنة جيش الأسبان ، ولكنه رفض الخضوع لهم ، واضطر الأسبان إلى إطلاق سراحه كمحاولة لتهدئة الحالة فى الريف المراكشى .

ولم يكد الأمير ينضم إلى قبيلته حتى كان الأسبان قد دبروا اغتيال والد الأمير عبد الكريم ، فتولى الأمير محمد بن عبد الكريم القيادة بعد أبيه .

وقضى الأمير الشاثر سبعة شهور فى الاتصال بالقبائل لتصفية ما بينها من خلافات ، ثم بدأت أولى المعارك التى قادها ضد المستعمرين الأسبان بمعركة صغيرة اسمها معركة « جبل المقاومة » ... وكان المجاهدون قوة صغيرة تحرس الجبل ، واتصل بهم نيا استعداد الأسبان للهجوم عليهم ، فأشعلوا النار فى أشجار الغابة ، ورأت القوات المراقبة فى القرى المجاورة إشارة النيران فأسرعت بالانضمام إلى القوة الصغيرة حول الجبل ، وعند الفجر دارت المعركة ... وبعد ساعات اضطر الأسبان للتسحاب بعد أن لحقتهم الهزيمة .

ثم جاءت المعركة الكبرى معركة «أغريين» وكان المجاهدون ألفين يواجهون ٣٠ ألف جندي أسباني تحت قيادة الجنرال «سلفستري» وكان العرب مسلحين بالبنادق فقط ... وكان الأسبان مسلحين بالبنادق والمدافع الرشاشة ومدافع الميدان ... والمدافع الجبلية ...

أرسل الجنرال «سلفستري» إنذارا إلى الأمير البطل يطلب منه التسليم قبل مضي ٢٤ ساعة فرد عليه بهجوم مباغت سريع ... واستمرت المعركة قوية رهيبة طوال خمسة أيام ... وعلى امتداد جبهة طولها ٦٠ كليوا مترا تنتهى عند قرية (سيدي إدريس) على شاطئ البحر الأبيض المتوسط .

وكان للهجوم المفاجئ أثره فى انتشار الذعر بين صفوف الأسبان ... فقام المجاهدون العرب بحركة التفاف سريعة حتى طوقوهم تماما بعيدا عن ذخيرتهم .. وشدوا عليهم الحصار عدة أيام أكلوا فيها خيولهم .. وأخيرا وبعد أن قتل العرب منهم ثمانية آلاف وأسروا ثلاثة آلاف ، لاذ الباقون بالفرار وتركوا كميات هائلة من البنادق والمدافع الجبلية وصناديق الذخيرة . أما الجنرال (سلفستري) فقد أثر الانتحار .

واستمرت المعارك بعد ذلك ... وكان المجاهدون العرب يحاربون الجيوش الأسبانية بما يغمون من أسلحتها .

وقد خاض الأمير الخطابي ضد الأسبان أكثر من مائتى معركة وكان النصر حليف المجاهدين العرب فى كل معاركهم بقيادة الأمير البطل ، وحاول الأسبان أن يدخلوا مع المجاهدين فى مفاوضات أساسها منحهم الحكم الذاتى تحت الحماية الأسبانية ، وعرضوا على الأمير الراحل منصب السلطان ، ولكنه رفض المنصب ... ورفض المفاوضة .

ولما شعرت فرنسا - وكانت تقف موقف المتفرج - أن أسبانيا ستخرج حتما من الريف المراكشى بقوة السلاح خشيت من انقضاى المجاهدين عليها فى

الجنوب بعد انتصارهم على الأسبان ، فاثرت أن ندخل المعركة فوراً لتتخذ الأسبان من وطأة القتال مع المجاهدين وفتحت جبهة جديدة للقتال فى غرب مراكش ، واستعملت أساطيلها وألقت فى المعركة بمليون جندي وخمسين طائرة .. وكانت الطائرات تلقى القنابل المحرقة والقنابل شديدة الانفجار . ثم بدأت تلقى قنابل الغازات السامة وفقد الأمير المجاهد بصره بفعل الغازات ، ولم يسترده إلا بعملية جراحية .

وقد اشترك فى المعارك الدامية أكثر من أربعين ألفاً ضد الأسبان والفرنسيين .. استشهد معظمهم كما استشهد كثير من السكان الأمنيين فى الهجمات الوحشية التى شنها العدو .

وفى ٢٦ مايو ١٩٢٦ وقع الأمير البطل مع كل أفراد عائلته فى الأسر وشردت فرنسا وأسبانيا كل أعوانه وجنوده .

وحرمت الدولتان على شعب مراكش أن يسمى أبناءه باسم «عبد الكريم» ومن كان يقدم على هذه التسمية يقدم للمحاكمة .

ويدون محاكمة قررت فرنسا نفى الأمير وأسرته إلى جزيرة (رى أونيون) بالقرب من مدغشقر .. وهناك عاش الأمير وأربعون من حاشيته فى قصص مهجور ، وكانت السلطات الاستعمارية تصرف للأمير وحاشيته ١٢ ألف فرنك شهرياً . وهو مبلغ يساوى ١٢ جنيهاً مصرياً . فاضطر الأمير أن يعمل بالزراعة ويتاجر مع التجار الباكستانيين ليغضى تكاليف حياته وحياة أسرته .. وكان من نتيجة هذا التبادل التجارى مع الباكستانيين أن تمكن هؤلاء من أن يحملوا إلى الأمير الرسائل والصحف العربية خلصة - ليكون على علم بتطورات الموقف فى العالم العربى .

وبعد ٢١ عاماً فى هذا المنفى قرر المستعمرون نقله إلى منفى آخر بفرنسا .. وفى الطريق إلى المنفى الجديد مرت الباخرة اليونانية التى كان يستقلها الأمير

وحاشيته بقناة السويس .. ورست على شاطئ بورسعيد للتموين فى صباح أول يونيو سنة ١٩٤٧ .. فتمكن الأمير وحاشيته من مغادرة الباخرة والالتجاء إلى أرض مصر كما أشرنا من قبل (١) .

حركات المقاومة فى الأطلس :

بجانب الثورة الصاخبة فى الريف التى ألمنا بها آنفا كانت حركات المقاومة فى الأطلس مستمرة ، وفى أثناء الحرب العالمية الأولى سدد سكان الأطلس للفرنسيين ضربات قوية ، وفى آخر العقد الثانى من القرن العشرين كانت حرب العصايات بالأطلس الأوسط تقض مضجع المستعمر وتنزل به ألواناً من الخسائر فى الأرواح والعتاد . وفى المدة من سنة ١٩٣١ إلى سنة ١٩٣٦ كان الأطلس الأكبر يوج بحركات مقاومة صلبة عنيفة .

المقاومة السياسية :

تألفت فى المغرب جماعات السياسة التى كانت تتكلم باسم الشعب وتدافع عن حقوقه وتمثله ، وكانت تعنى بتحدى المستعمر والتشهير بأعماله ، وإعلان المقاومة السلبية كالإضراب والمظاهرات السلمية ، وأخيراً كانت تهدد بالحركات الثورية المدمرة ، وستلم فيما يلى بأبرز هذه الجماعات ، ويمبادئ كل منها وما صادفته من نجاح .

كتلة العمل الوطنى :

تكونت كتلة العمل الوطنى بالمغرب فى العقد الرابع ، وكان من أبرز أهدافها تنوير الرأى العام الفرنسى والعالمى بحقيقة الأوضاع فى المغرب ، كما كان من أبرز أهدافها توحيد الصراع بين أجزاء الوطن الذى مزقه الاستعمار ، وكان لها فروع فى منطقة الريف ، ومن أبرز أعضاء الكتلة علال الفاسى وأحمد بلا فريج وعبد الحالى الطريس وعبد السلام بنونة ، وأصدرت الكتلة مجلة فى باريس

(١) صحيفة الأخبار فى ١٩٦٣/٢/٧ بتصرف .

اسمها « مغرب » واخرى فى فاس اسمها « عمل الشعب » وبرنامج الكتلة يتلخص فيما يلى :

١- تطبيق دقيق لمعاهدة سنة ١٩١٢ «معاهدة الحماية» وإلغاء كل حكم أجنبى مباشر .

٢- الوحدة الإدارية والقضائية فى المغرب كله .

٣- مشاركة المغرب فى تولى شئون الحكم .

٤- إنشاء مجالس بلدية ومحلية وغرف تجارية ومجلس وطنى يتألف من أعضاء مغاربة .

وفى أول نوفمبر سنة ١٩٣٦ طالبت كتلة العمل الوطنى بحرية الصحافة ، فكان رد السلطات الفرنسية على هذا الطلب ، اعتقال زعماء الحركة الوطنية ، فقامت مظاهرات كبيرة فى جميع مدن المغرب ، واضطرت السلطات الفرنسية إلى اطلاق سراح الزعماء .

وفى ١٨ مارس سنة ١٩٣٧ أصدرت السلطات الاستعمارية قراراً بحل كتلة العمل الوطنى .

الحزب الوطنى :

فى أبريل سنة ١٩٣٧ قرر أعضاء كتلة العمل الوطنى المنحلة تأسيس «الحزب الوطنى» لتحقيق مطالب الشعب المغربى .

وفى أول سبتمبر سنة ١٩٣٧ قام سكان مكناس بمظاهرة فى الشوارع ضد القرار الذى اتخذته السلطات الفرنسية لتحويل مياه «بوفكران» التى كانت تسقى المدينة نحو أراضى الفرنسيين . وأطلق الجنود النار على المظاهرين ، فقتل أكثر من خمسة عشر شخصاً ، وجرح نحو مائة شخص .

ومنعت السلطات الاستعمارية إصدار الصحف الوطنية « عمل الشعب » و « الأطللس » و « المغرب » . وأصدر المقيم العام الفرنسي أمراً باعتقال زعماء الحزب الوطنى وهم علال الفاسى ومحمد اليزيدى وعمر عبد الجليل وأحمد مكوار . فثار الشعب ضد هذا الإجراء التعسفى . وفى الثالث من نوفمبر سنة ١٩٧٧ نقل علال الفاسى إلى الكابون حيث بقى منفياً تسعة أعوام .

حزب الاستقلال :

تأسس فى أول يناير سنة ١٩٤٤ حزب الاستقلال ، من نخبة من أبناء المغرب لتحقيق أمانى البلاد فى الحرية والاستقلال ، وفى ١١ يناير سنة ١٩٤٤ قدم الحزب عريضة إلى جلالة ملك المغرب وممثل دول فرنسا ودول الحلفاء وجاء فى هذه العريضة ما يلى :

« الحماية نظام فرض بالقوة على الأمة المغربية فى ظروف استثنائية تشهد بذلك المقاومة المسلحة التى قابل بها المغرب الاحتلال العسكرى والتى استمرت من سنة ١٩٠٧ إلى سنة ١٩٣٦ وقد وقع عملياً خرق هذه المعاهدة فى نصها وروحها من طرف أولئك الذين التزموا باحترامها ، وبذلك لم يصبح للسيادة المغربية أى وجود ، وقد طبقت الحماية بكيفية تضمن مصالح الجالية الأوروبية وتؤخر وتعرقل تطور العنصر المغربى . وأهمل النص على مبدأ حقوق الشعوب فى حكم نفسها بنفسها الذى ورد فى مختلف تصريحات الدول الحليفة لاسيما ميثاق الأطلنطى .

« ولهذه الأسباب كلها يعبر حزب الاستقلال عن إرادة الأمة حين يطالب باستقلال المغرب ووحدة أراضيه، وإقرار نظام ديمقراطى فى ظل الأسرة الحاكمة، مع توثيق الروابط بدول العالم عامة والدول العربية والإسلامية بوجه خاص » .

وفى يناير سنة ١٩٤٤ اعتقل السيد أحمد بلا فريج الأمين العام لحزب الاستقلال ، والسيد محمد اليزيدى وغيرهم من قادة الحركة التحررية فى المغرب،

فقام الشعب بعدة مظاهرات عنيفة فى فاس والرباط ، أسفرت تلك المظاهرات عن مئات القتلى ، وعدد كبير من الجرحى ، واعتقل أكثر من خمسة آلاف شخص فى مختلف أنحاء المغرب ، وهكذا عاش المغرب فى إرهاب طوال سنتى ١٩٤٤ و ١٩٤٥ (١) .

مقارنة وتطور :

ويتضح من دراسة مبادئ هذه الجماعات أنها بدأت سهلة يسيرة متواضعة ، ولعلها كانت ترمى من ذلك إلى عدم إراقة الدماء وإلى السير خطوة خطوة نحو الهدف الرئيسى وهو الاستقلال والوحدة ، ولكن المشرفين على هذه الجماعات سرعان ما أدركوا أن المستعمر لا يحب أن يرى صوتاً يرتفع ممثلاً الشعب ومتحدثاً باسمه ، وسواء لدى الاستعمار أن يطالب بالقليل أو الكثير ، لأن المستعمر لا يريد أن يرى قوة أمامه تطالبه وتواجه جبروته ، ولذلك تطورت هذه الجماعات وأعلنت فى صراحة مطلبها الأساسى وهو الاستقلال التام إذ لم تجد سياسة المسالمة والخطوات الوثيدة .

دور السلطان محمد بن يوسف :

تطور السلطان محمد بن يوسف تطوراً ملحوظاً حتى أصبح فى أثناء الحرب العالمية الثانية ويعدها محور حركات الاستقلال بالمغرب ، وينسب بعض الباحثين إلى السلطان أنه كان فى مطلع عهده بالعرش يسالم المحتل ويسير سيرة أسلافه ، حتى أنه وافق على إصدار الظهير البربرى ، ولكن الباحث المنصف لا يسعه إلا أن يعترف لهذا السلطان بالوطنية العميقة ، والإخلاص والتفانى فى سبيل بلاده ، وفى سبيل العروبة والإسلام ، وليس ما أخذ عليه فى مطلع عهده إلا نتيجة طبيعية للظروف حوله وللمشكلات التى ورثها السلطان عن الماضى ، حتى إذا اشتد عوده ، وتدبر أمره أخذ يحتضن المناضلين ، ويؤيد الحركات

(١) محود الرشقاوى : المغرب العربى ص ٤٢ - ٤٤ يتصرف .

(التاليف الإسلامى ج ٤ م ١٥)



القومية ماديا وأديبا ، ولعل مما ساعد على دفع السلطان لهذه الغاية - بالإضافة إلى وطنيته وحبه لبلاده - أن الأحزاب السياسية انفتحت حوله ، وأعلنت تمسكها بالنظام الملكى ، الذى لم تعرف البلاد سواء منذ استقلالها فى القرن الهجرى الثانى ، على أن يتطور النظام الملكى ليصير دستوريا ، وكان السلطان يلتقى مع الأحزاب فى هذا التطور .

وأصبح الانسجام كاملا بين السلطان وبين حزب الاستقلال ، وكان السلطان يبدو فوق الأحزاب ولكنه فى الحقيقة كان زعيما لكل الوطنيين ، وكان الشباب المثقف الذى جمعه حزب الاستقلال يرى فى السلطان رائداً وقائداً ، ولما زار السلطان طنجة فى أبريل سنة ١٩٤٧ ألقى هناك خطابا حمل نفس الاتجاهات التى كانت شعار حزب الاستقلال ، وهى اتجاه مراكش نحو البلاد العربية والإسلامية ، وحرصها على الوحدة والاستقلال ، وهكذا اتحدت القوى المناضلة للاستعمار ، ولم تعد فرنسا تجد الثغرة التى تعودت أن تنفذ منها ، وفى ضرب الحركات الوطنية بحجة حماية عرش السلطان أو الاستجابة لتعليماته ، وفى هذا الجو لجأ الاستعمار للباشا تهاوى الجلاوى ، فصاح هذا يدعى أن محمد بن يوسف رجل حزبى ، بل قادى فى طغيانه فصرخ فى وجه السلطان قائلاً : « أنت لست سلطان مراكش ولكنك سلطان حزب الاستقلال » ، وهدد الجلاوى باستعمال القوة إذا لم يعزل هذا السلطان ، بل زحف فعلا إلى العاصمة ومعه أتباعه الذين أمدهم الاستعمار بالسلاح ودفعهم بالمال ، وانتهزت فرنسا هذه الفرصة التى دبرتها ، فأوعزت لممثلها « دون جوان » ، فقدم للسلطان عريضة فى يناير سنة ١٩٥١ تتضمن المطالبة بالتبرؤ من حزب الاستقلال ، وفصل كبار الموظفين الذين عرف عنهم الاتصال به . ورفض الملك المطالبين فهدده المقيم العام بالعزل ، ولكن الأزمة سويت مؤقتا ، ثم تجددت سنة ١٩٥٣ حيث قدمت فرنسا للسلطان إنذاراً ليوقع على وثيقة بالتنازل عن العرش ، وإلا فإنه سيخفى خارج البلاد ، وقد مزق السلطان هذه الوثيقة واختار النفى ، فأرسلته فرنسا مع أفراد أسرته إلى جزيرة كورسيكا ، وعينت بدله سلطانا أميا زائفا هو محمد بن عرفة الذى اختاره الجلاوى الخائن .

النضال من الخارج :

إن نفى السلطان استتبع خروج أكثر الزعماء من البلاد حيث واصلوا نضالهم من خارج البلاد ، وبخاصة عن طريق جامعة الدول العربية ، وفى أروقة الأمم المتحدة ، وقد حملت صحف القاهرة نصيبها كاملاً فى هذا النضال ، وصبت دون هوادة سخطها على الغاصب الأثيم ، وأشهد لقد رأيتها تخصص كل يوم جانباً كبيراً من صفحاتها تهاجم به قوى الاحتلال بدول الشمال الأفريقى وتذك صرحه ، ولم تجد الاحتجاجات الفرنسية والإيطالية أي صدى ، فقد كانت كل القوى المصرية تؤيد بحماسة كل حركات التحرير والاستقلال . وقد دفعت هذه الجهود قضية مراكش إلى المحيط العالمى ، فنظرتها الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة ١٩٥٢ و١٩٥٣ و١٩٥٤ وأوصت بالمفاوضة المباشرة بين الطرفين لتقرير الحقوق والمصالح الشرعية المقررة للشعب المراكشى .

نتائج النضال الطويل :

بينما كانت الحركات فى الخارج تزعزع أقدام فرنسا وتشوه سمعتها كانت الثورة فى داخل مراكش على أشدها ، فقد كان نفى السلطان مبعث حركات ثورية عنيفة ، فكثر الاغتيالات الفردية وبخاصة لأعوان الاحتلال ، كما قاطع الشعب المنتجات الفرنسية ، وكثرت الاضطرابات ، وإزاء الخسائر الداخلية والضغط الخارجى لم تجد فرنسا بدا من إعادة السلطان الشرعى إلى عرشه بعد عامين من الصراع المرير ، وقد عاد السلطان بعد أن صدر تصريح مشترك بينه وبين فرنسا فى ٦ نوفمبر سنة ١٩٥٥ اعترفت فيه فرنسا باستقلال مراكش وبإقامة ملكية دستورية بها ، واستمرت المفاوضات بعد ذلك حتى انتهى الطرفان إلى إتفاقية ٢ مارس سنة ١٩٥٦ وفيما يلى ما ورد بها .

أولاً : إلغاء الحماية : إن جلالة سلطان مراكش وحكومة الجمهورية الفرنسية .. قد تحقق لديهما - لما اجتاز مراكش من التطور فى ميدان الرقى - أن معاهدة الحماية المبرمة فى فاس فى ٣٠ مارس سنة ١٩١٢ أصبحت لا تتلاءم

ومقتضيات الحياة العصرية ، وأنه لا يمكن من الآن فصاعدا للعلاقات الفرنسية المراكشية أن تبقى خاضعة لمقتضيات بنودها .

ثانياً : الاعتراف باستقلال (مراكش) : إن حكومة الجمهورية الفرنسية تعلن اعترافها باستقلال مراكش الذي يقتضى بالأخص تمثيلا دبلوماسيا وجيشا وطنيا .

ثالثاً : وحدة الأراضي المغربية : الجمهورية الفرنسية تؤكد عزمها على أن تحترم وحدة الأراضي المراكشية المضمونة بحكم المعاهدات الدولية وتعمل على احترامها .

وفى ٧ أبريل من نفس العام وقعت اتفاقية بين مراكش وأسبانيا واعترفت فيها أسبانيا بمثل ما اعترفت به فرنسا من قبل ، وتحققت بذلك أهداف مراكش ، وانضمت لهيئة الأمم المتحدة ولجامعة الدول العربية ، ولم يبق أمامها إلا بعض المشكلات التي خلفها الاستعمار البغيض ، وستكون هذه المشكلات موضوع دراستنا التالية :

المغرب بعد الاستقلال :

لم يضع الاستقلال نهاية لكفاح المغاربة ، إذ قد ترك الاستعمار بالمغرب جراحاً احتاجت إلى مواصلة الصراع ، حتى يكتمل للوطن استقلاله وحرته ، وقد تغلب الصراع المغربي على بعض هذه المشكلات بسرعة ، ولكن بعضها استلزم صراعاً طويلاً ، وسنذكر فيما يلي إلمامة عن المشكلات التي واجهت المغرب بعد إعلان استقلاله ووحدته :

١- القواعد العسكرية الأجنبية :

أعلنت فرنسا استقلال مراكش كما ذكرنا آنفا ولكنها أرادت استقلالاً كما تفهمه فرنسا ، أى مع الاحتفاظ ببعض القواعد العسكرية بحرية وجوية ، وكان المغرب يريد استقلالاً تاماً تتطهر به البلاد من أقدام المستعمر قماما ، وخافت فرنسا أن يتجدد نضال المغاربة ، وأدركت أن لا بد من الجلاء الكامل ، فأخذت

تسحب قواتها من المغرب منذ سنة ١٩٥٧ . وبمناسبة إجراء أول تجربة ذرية فرنسية في الصحراء الكبرى ، ألغى المغرب الاتفاقية الدبلوماسية التي عقدت مع فرنسا سنة ١٩٥٦ وطالب بالجلء الكامل ، ثم توصل الطرفان إلى اتفاقية في سبتمبر سنة ١٩٦٠ تجلو فرنسا بمقتضاها عن جميع قواعدا في المغرب في صيغاد أقصاه مارس سنة ١٩٦١ باستثناء بعض القواعد الجوية التي يقتصر تشغيلها على التدريب .

ولكن المعارضة في المغرب ممثلة في حزب اتحاد القوى الشعبية ظلت تنتقد استمرار بقاء القوات الفرنسية على أية صورة من الصور ، فلما تولى الحسن الثاني الملك ، حسبت فرنسا أنها إن تساهلت في إخلاء القواعد ، تستطيع أن تجذبه نحوها ، وتصرفه عن سياسة التضامن العربي التي بدأها والده ، فأعلنت استعدادها للجلء عن هذه القواعد ونفذ الوعد فعلا في أكتوبر سنة ١٩٦١ إذ جلت القوات الفرنسية عن آخر قاعدة جوية لها في مدينة مراكش (١) .

ولم تكن القواعد العسكرية الأجنبية بالمغرب تتمثل في القواعد الفرنسية فقط ، بل كانت هناك كذلك القواعد الأمريكية ، التي أقيمت بناء على اتفاق أبرم بين فرنسا وبين الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٥٠ دون موافقة الجانب المغربي ، وقد حرصت أمريكا على البقاء بهذه القواعد التي اعتبرت كبيرة الأهمية بالنسبة للأمن الأمريكي ، وحيجة أمريكا أنها عقدت بشأن هذه القواعد اتفاقية مع فرنسا التي كانت صاحبة سلطة شرعية آنذاك حولتها لها معاهدة الحماية ، ولا يرى الجانب المغربي والعربي هذا الرأي ، فليس من سلطان المستعمر أن يمنح مثل هذه الحقوق .

والقواعد الأمريكية عبارة عن ست قواعد جوية في سيدي سليمان وابن جرير ويولهو ونواصير ، وقد بدأ إنشاؤها سنة ١٩٥١ ، وفي سنة ١٩٥٨ حولت

(١) دكتور صلاح العتاد : المغرب العربي ص ٧٣ بتصرف .

قاعدة نواصير إلى قاعدة للطائرات العسكرية البعيدة المدى مع ضمها إلى شبكة قواعد حلف الأطلس (١) .

وقد صارع الشعب المغربي وصحافة المغرب وحكومته لإزالة هذه القواعد ، واستقر الرأي فى النهاية بين الرئيس إيزنهاور والملك محمد بن يوسف على أن تصفى هذه القواعد مع نهاية عام ١٩٦٣ واتخذت الإجراءات لتصفيتها فعلا فى الموعد المحدد ، وبمناسبة الزيارة الرسمية التى قام بها الملك حسن الثانى للولايات المتحدة فى شهر (مارس ١٩٦٣) طلبت أحزاب المعارضة بالمغرب من أحمد بلافريج وزير الخارجية تأكيداً بأن الملك الحسن الثانى لن يسمح ببقاء القواعد العسكرية الأمريكية فى المغرب بعد انتهاء العام الحالى ، وقالت الصحيفة الناطقة بلسان أكبر هذه الأحزاب أن الحزب قد لاحظ أن الملك الحسن لم يشر إلى القواعد الأمريكية فى خطابه الأخير بينما توقع الشعب منه تأكيداً بإخلائها فى الموعد المحدد ، وطلب هذا الحزب بياناً رسمياً يزيل الحيرة والشائعات التى تتروى حول احتمال بقاء هذه القواعد فترة أخرى (٢) .

وفى هذه الزيارة صدر بلاغ رسمى فى واشنطن وقعه كيندى والملك الحسن بأن القوات الأمريكية ستجلى فى موعدها .

(ب) موريتانيا :

مشكلة موريتانيا كانت تعد من أعقد المشكلات التى واجهها المغرب بعد الاستقلال ، ولن نخوض طويلاً فى موضوع موريتانيا الآن ، فقد أصبحت موريتانيا فى العرف الدولى دولة مستقلة ذات سيادة ، كما صارت عضواً فى هيئة الأمم المتحدة . ومن أجل هذا أفردنا لها حديثاً خاصاً عند كلامنا عن الدول الإسلامية فى غربى أفريقية ، وسنكتفى هنا - تبعاً لطبيعة دراستنا - بالحديث عن موريتانيا قبل أن تصبح جمهورية مستقلة فنصور رأى المنرب فى المشكلة

(١) روم لاندو : أزمة المغرب الأقصى ص ٢٣٠ وما بعدها .

(٢) صحف القاهرة فى ١٩/٣/١٩٦٣ .

ورأى موريتانيا فيها ، ونحن دعاة وحدة ، ونرى فى الوحدة قوة ومجدا ، ولكننا سنخوض القول فى هذه المشكلة باتجاه علمى محايد نزيه .

الصلة بين موريتانيا والمغرب عميقة الجذور ، ومن موريتانيا التى كان العرب يسمونها شنقيط انبثقت دولة المرابطين ، كما شملها حكم الموحدين وبنى مرين ، وانتشرت بها اللغة العربية والدين الاسلامى خلال هذه العصور .

لكن سكان موريتانيا هم من القبائل ، وقد قلنا إن طبيعة القبائل لا تميل للخضوع لحكومة مركزية ، وترى ذلك تبعية يكثر أن تتمرد عليها القبائل ، ومن أجل هذا كان سكان موريتانيا ينتهزون الفرص لإعلان نوع من الاستقلال عن حكومة الشمال ، وهكذا عاشت موريتانيا أكثر الوقت تتأرجح بين الاندماج فى المغرب أو إعلان الاستقلال عنه وإقامة حكم محلى قبلى .

وجاء القرن التاسع عشر وهو القرن الذى طغى فيه الاستعمار وعريد ، فحاولت المجترة أن تمد نفوذها إلى منطقة موريتانيا ، وعقدت اتفاقية مع « بيروك عبد الله » زعيم قبيلة « تكنة » ولكن المغرب احتج على ذلك أشد الاحتجاج ، وأبان أن أى اتفاق حول هذه المنطقة يجب أن يتم مع السلطان ، وهكذا انسحبت بريطانيا وأعلنت عدم تمسكها بهذه الاتفاقية .

وكان الاستعمار الفرنسى قد تمكن من منطقة السنغال فى مطلع القرن العشرين وزحفت قواته إلى موريتانيا ، وعارضها السلطان والأهالى ، ولكن مراکش نفسها سرعان ما خرت تحت الاستعمار الفرنسى والأسباني ، وهكذا أصبح الأمر لفرنسا فى الشمال وفى الجنوب ، فانتهزت فرنسا هذه الفرصة لتفرق بين سكان الشمال وسكان الجنوب ، ولا نزال نذكر ما سجلناه من قبل عن « الظهير البربرى » وليس هذا الظهير إلا محاولة أخرى لاقتطاع مساحات جديدة من المغرب بطريق أو بآخر ، وإذا كان هذا الظهير لم ينجح فإن سياسة الفصل بين موريتانيا والمغرب قد قدر لها النجاح .

وكان المغرب يرى - ويؤيده كثير من الشباب المثقف الموريتاني بزعامة « حرية ولد بابا » الذى يقيم مع كثير من رفاقه بالمغرب - أن المغرب يمتد فيشمل موريتانيا ، وأن روابط الجنس والدين والتاريخ لا تدع مجالا لانفصال موريتانيا عن المغرب .

ورأى زعماء موريتانيا المستقلة بزعامة ولد دادا الذى اختير أول رئيس لجمهورية موريتانيا الاسلامية ، أن موريتانيا لها طابع يخالف طابع سكان الشمال ، كما يخالف طابع سكان قلب افريقية ومن ثم فموريتانيا تكون حلقة اتصال بين القسمين ، ولا يجوز أن تندمج مع أى منهما ، وقد أيدت فرنسا هذا الاتجاه ، واحتفظت بمنطقة موريتانيا بعد إعلان استقلال مراكش ، ثم منحت هذا الإقليم الاستقلال الذاتى سنة ١٩٥٨ ، ثم منحتة الاستقلال التام باسم جمهورية موريتانيا الاسلامية فى نطاق الجامعة الفرنسية فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٦٠ (مشروع ديجول) ، وبمقتضاه انضمت موريتانيا إلى هيئة الأمم المتحدة (١) . وقد نجح هذا الاتجاه أخيرا وأعلنت موريتانيا أنها دولة عربية وانضمت لجامعة الدول العربية وحضرت مؤتمرات القمة العربية ومنها المؤتمر الذى عقد بالرباط يوم ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٧٤ وقبلت المغرب هذا الاتجاه فانحلت المشكلة وتم الاتفاق بين البلدين الشقيقين .

(ج) طنجة :

وهناك ثلاث مدن أو ثلاثة مواقع تطل على المضيق الذى يصل البحر المتوسط بالمحيط الأطلسى ، وهذه المواقع هى : سبتة وطنجة على الساحل الاfricanى ، وجبل طارق على الساحل الأوروبى ، وتكون هذه المواقع شكلا يشبه المثلث ، ومن التواءات السياسة العالمية أن تحتل بريطانيا جبل طارق ، وكان من الطبيعى أن يتبع أسبانيا ، وأن تحتل أسبانيا سبتة ، وطبيعى أن سبتة جزء من المغرب ، أما طنجة فقد قضى الاستعمار إبان قيامه أن تكون مدينة دولية .

(١) محمد اسماعيل وعبد الحالق عامر : قضية موريتانيا ص ٦٣ .

ومساحة طنجة حوالى مائتى ميل مربع ، وسكانها حوالى مائة ألف نسمة أكثرهم من المسلمين ، وقد احتلها البرتغال عندما قوى جانب الفرنجة فى شبه جزيرة إيبيريا وضعف جانب المسلمين ، وذلك فى القرن الخامس عشر ، وفى القرن السابع عشر تزوج ملك بريطانيا شارل الثانى الأميرة كاترين البرتغالية ، وكانت طنجة هدية البرتغال للعريس ، ولكن المغرب استطاع أن يستردها فى عهد الأشراف بعد معارك طاحنة .

وفى عهد العزلة المراكشية الذى تحدثنا عنها ، سمح لأعضاء التمثيل الأجنبى بالحياة فى طنجة حتى لا يتوغلوا فى البلاد تأكيداً لسياسة العزلة ، وهكذا أصبحت طنجة مدينة دبلوماسية ، وبمرور الزمن أصبح للدبلوماسيين سلطان بالمدينة ، وأصبحوا يتدخلون فى تنظيمها وإدارتها بحكم ارتباط ذلك بمصالحهم الاقتصادية والاجتماعية ، ثم عقدت المغرب معاهدة مع بريطانيا سنة ١٩٥٦ ومع أسبانيا سنة ١٨٦١ وفى هاتين المعاهدتين اعترفت المغرب بامتيازات خاصة للدولتين فى طنجة ، ولما احتجت الدول الأخرى التى لها مصالح فى طنجة لحرمانها من مثل هذه الامتيازات رضخت المغرب ومنحت هذه الامتيازات للدول المحتجة .

وعندما أعلنت فرنسا الحماية على مراكش اشترطت بريطانيا - لكى تعترف بهذه الحماية - أن تصبح طنجة مدينة دولية ، وتم لها ذلك كما ذكرنا من قبل ، وبقتضى هذا أصبح لطنجة مجلس تشريعى خاص يتكون من ٣٦ عضواً موزعة كما يلى :

٦ من المغاربة - ١٢ يهودياً - ٤ أسبان - ٤ فرنسيون - ٣ بريطانيون - ٣ طليان - واحد لكل من بلجيكا وهولندا والبرتغال وأمريكا والرئيس الأعلى لهذا المجلس هو مندوب الملك .

أما الإدارة الدولية فكانت تتألف من قناصل بلجيكا وفرنسا وبريطانيا وهولندا وإيطاليا والبرتغال وأسبانيا .

ومن جهة القضاء كان بطنجة محكمة مختلطة مكونة من خمسة قضاة ،
ينتمون إلى فرنسا وأسبانيا وبريطانيا وبلجيكا وإيطاليا .

وفى سنة ١٩٤٠ انتهز فرانكو ظروف الحرب العالمية فاحتل المدينة وأضافها
إلى القسم الشمالى (الريف) الخاضع لأسبانيا ، ولكن هزائم الحلفاء انقلبت إلى
انتصارات ، فأمر الحلفاء فرانكو ليعيد طنجة إلى سابق عهدها ،
فانصاع للأمر.

وعندما بدأ عهد الحرية للمغرب لم تكن مشكلة طنجة عسيرة الحل إذ يبدو
أن كل دولة من الدول صاحبة الامتياز لم تر ما يدعو أن تقف موقف العداء من
الأمانى الوطنية المغربية ، فكانت كثرة الأيدى المسيطرة على المدينة من دواعى
تيسير حلها ، وأسرت المغرب بعد الاستقلال فمدت نفوذها إلى طنجة فى يوليو
سنة ١٩٥٦ ، وألغت المجلس التشريعى والمحكمة المختلطة ، وأخضعت طنجة
للنظام الاقتصادى المعمول به فى المغرب ووافقت الدول التى كانت صاحبة الشأن
بطنجة على هذه الإجراءات وعادت المدينة للوطن الأم ^(١) .

(د) الجيوب الأسبانية :

سلمت أسبانيا باستقلال المغرب ووحدة أراضيها فى ٧ أبريل سنة ١٩٥٦ ،
وأخلت بناء على ذلك منطقة الريف ، ولكنها احتفظت بـ ١٠ هامة فى الشمال
ومناطق واسعة فى الجنوب ، وتعرف هذه وتلك بالجيوب الأسبانية وهى :

مدينة سبتة : تقع على الساحل الافريقى مقابل جبل طارق ، وتبلغ
مساحتها حوالى ٢٠ ك م مربعا ، وسكانها حوالى ٦٠ ألف نسمة ، ويرجع
احتلال أسبانيا لها إلى القرن السادس عشر عقب غروب الإسلام فى الأندلس
وهجوم الفرنجة على الساحل الافريقى ، وقد استطاعت أسبانيا خلال هذا العهد
الطويل أن تصبغ المدينة بالصبغة الأسبانية من ناحية الدين واللغة والجنس ،

(١) اقرأ أزمة المغرب الأقصى تأليف روم لاندو ص ٢٠٨ وما بعدها :



موريتانيا وطنجة والجيب الأسبانية

فالأكثرية الساحقة من السكان أسبان مسيحيون لغتهم الأسبانية ، ومن هنا فمشكلة سبتة مشكلة عويصة نوعا ما .

مدينة مليلة : تقع إلى الشرق من سبتة ، وبينهما مدينة تطوان ، ومليلة لا تختلف كثيرا فى مساحتها وعدد سكانها وظروفها عن سبتة ، ولذلك تعتبر مليلة عسيرة الحل أيضا .

وللظروف التى أوردناها حول سبتة ومليلة يعد من الصعب الوصول إلى حل بشأنهما ، فقد طغى الظلم على العدالة ، وأوشك الضباب أن يحجب ضوء الشمس ، ولكن المغرب يصر على تحرير سبتة ومليلة ، فهما بلا شك جزء من الوطن المغربي ، وكانتا فى عهد احتلال أسبانيا للريف تابعتين للمنطقة المحتلة ، ولكن القوة الغاشمة لم ترد أن تخليهما عندما أخلت الريف ، مدعية أن احتلالهما بعيد فى تاريخه وظروفه عن احتلال الريف ، وعلى كل فلا بد لليل أن ينجلى ، ولا بد للقيد أن ينكسر .

سيدي إفنى : تقع سيدي إفنى على ساحل المحيط الأطلسى ممتدة حوالى أربعين ميلا ، أما عرض المنطقة فحوالى ١٥ ميلا ، وهى قليلة السكان نسبيا ، إذ يبلغ عدد سكانها حوالى ألف نسمة أكثريتهم الساحقة من المغاربة المسلمين ، وسند أسبانيا فى استمرار السيطرة على هذه المنطقة وثيقة يرجع تاريخها إلى سنة ١٨٦٠ جاء فيها : إن السلطان يتنازل بصورة دائمة لصاحب الجلالة الكاثوليكية عن أرض كافية مجاورة لسانتا كروز لإقامة مصايد .

ومن الناحية الواقعية لم تحتل أسبانيا هذه المنطقة إلا فى سنة ١٩٣٥ عندما احتلت فرنسا المنطقة المحيطة بسيدي إفنى ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فليس فى هذه المنطقة ما يعرف أبدا بسانتا كروز ، ولكن الأسبان احتلوا بدعوى أنها هى ، ثم إن الوثيقة التى يعتمد عليها الأسبان لا تعنى التملك ، وإنما تعنى فقط إمكان الانتفاع بهذه المنطقة فى إقامة مصايد ، ولكنها روح البغى الغربى التى تتلمس الوسائل للاحتلال والعدوان . وبهذه الروح أعلنت

أسبانيا سنة ١٩٥٨ أن منطقة سيدى إفنى أرض أسبانية ، وألحقها بجزر الكنارى الأسبانية المقابلة لها بالحيط الأطلسى . ولكن المغرب ظل يدافع عن رأيه ، حتى اضطرت أسبانيا أن تعيد هذه المنطقة للمغرب فى سبتمبر سنة ١٩٦٣ .

منطقة طرفاية : تقع هذه المنطقة جنوب المغرب ، وكانت أسبانيا قد ماطلت فى تسليمها عند إخلاء الريف ، وظلت تحتفظ بها حتى أكتوبر سنة ١٩٥٧ حين وجدت ألا مناص من تسليمها للوطن الأم .

الساقية الحمراء : تقع جنوب منطقة طرفاية ، وهى قسم من الصحراء الجنوبية ولا يوجد سند لدى أسبانيا لادعاء أنها أرض أسبانية كما ادعت فى سيدى إفنى .

منطقة ريودورو : تقع جنوب الساقية الحمراء وهى أكبر مساحة منها ، وتعتبرها أسبانيا مستعمرة قائمة بذاتها .

ويرى بعض الباحثين أن احتفاظ أسبانيا بالساقية الحمراء ومنطقة ريودورو ليس إلا للمساومة ، أى لتمنحهما أسبانيا للمغرب نظير اعتراف هذه لأسبانيا بحقها فى سبتة ومليلة ، وربما كان هذا ما يدور حقيقة فى رأس ولاة الأمر الأسبان ، ولكن الذى لاشك فيه أنه لا مساومة فى الحقوق الوطنية وأنه لن يوجد الزعيم الذى يستطيع أن يتنازل عن شبر من الأرض المغربية لقوى الاحتلال الغاشمة ، وسيأتى اليوم الذى تعود فيه الأرض السليبة كلها للوطن الأم شاء المستعمر أو لم يشأ .

وقد كانت أسبانيا تتخذ من الخلاف بين المغرب وموريتانيا ذريعة للبقاء فى هذه الصحراء ، ولذلك كان من الحكمة أن تم الوفاق بين المغرب وموريتانيا حتى تفقد أسبانيا هذا السلاح ويقول جلالة الملك الحسن :

« اتفقتُ مع موريتانيا لنقطع الطرق على كل من يقول إن العرب ليسوا متفقين » .

« وقد أعلنت الجزائر أنها ليست لديها مطالب فى الصحراء المغربية .. لا تحت الأرض ولا فوقها » .

« وستطالب الدول العربية أسبانيا بالدخول فى مباحثات مع المغرب ، وقد وعدت الدول العربية بمساندة المغرب بكل القوة وبكل الإمكانيات » .

وأخيرا قال الملك الحسن الثانى :

المغرب يريد الحوار مع أسبانيا ولكن إذا اضطر لسلوك سبل أخرى فإنه سيسلكها ..

ويقول وزير خارجية المغرب إن قضية الصحراء المغربية ستعرض على الأمم المتحدة فى دورتها التاسعة والعشرين (١٩٧٤) ولن تقبل الاستفتاء الذى تقول به أسبانيا لأن السكان الأصليين ٥٠.٠٠٠ وثوات الاحتلال ٧٠.٠٠٠ وتريد أسبانيا أن تكون لقوات الاحتلال أصوات فى الاستفتاء فهو بهذا استفتاء مزيف، ويضيف الوزير : أن عام ١٩٧٥ حاسم بالنسبة لهذا الموضوع ، حربا أو سلاما:

ويرى العرب فى كل البقاع أن قضية الصحراء المغربية قضية عربية وليست مغربية فحسب .

المشكلة فى إطار جديد

لقد انتهت مشكلات الحماية والاحتلال الأوروبى للمغرب العربى ، وتخلت دول الغرب عن كل الأماكن العربية فى هذه المنطقة وفى غيرها ، ولم يعد هناك وجهه لأسبانيا فيما أسميناه الجيوب الأسبانية ، منذ مطلع سنة ١٩٧٦ ، ولكن المشكلة فى هذه المناطق لم تنته بعد ، بل اتخذت طابعا جديدا ، فإن المساحة التى تقع بين المغرب وبين موريتانيا أصبحت منطقة ساخنة كما يقولون ، وفيها صراع مسلح ، وأصبح أطراف المشكلة كالآتى :

١- يرى المغرب أنه صاحب الحق فى هذه المنطقة ، وأنها كانت أرضا مغربية قبل الاستعمار ، وإذا كانت قد نسبت أحيانا لموريتانيا فسميت الصحراء الموريتانية ، فإن ذلك كان لأن موريتانيا نفسها كانت جزءا من الأرض المغربية.

ويقدم المغرب دليلا على حقه فى هذه المنطقة هو أن محكمة العدل الدولية قررت أن للمغرب صلات تاريخية بهذه المنطقة ، وهذه الصلات تتيح الحق للمغرب أن يمد حدوده لهذه المنطقة .

وقد انضمت موريتانيا لاتجاه المغرب وأيدت وجهة نظره .

٢- زعماء المنطقة :

أصبح لمنطقة هذه الصحراء زعماء يطلقون على أنفسهم «جبهة تحرير الصحراء» (البوليساريو) وهؤلاء يطالبون باستقلالهم وتكوين دولة فى هذه المنطقة ، خاصة بهم .

ويؤيدون وجهة نظرهم هذه بأن محكمة العدل الدولية أعطتهم الحق فى تقرير المصير .

وتقف الجزائر مع هؤلاء لأن منطقتهم ستكون معبرا للجزائر للوصول للمحيط، وعندما تتكون دولة صغيرة مستقلة فى هذه المنطقة ، فإنه يكون من السهل أن تحتويها الجزائر وتصل عن طريقها بسهولة إلى المحيط الأطلسي .

وتجيب المغرب على هذه الأفكار بأن حق المصير لا يمكن أن يكون لجزء ثابت من دولة من الدول ، فلا يمكن أن يكون هناك حق تقرير المصير فى سيناء مثلا بعد جلاء اسرائيل عنها .

ثم إن قيام دولة فى هذه المنطقة بسبب بعض المتمردين الذين لا يزيد عددهم عن اثنى عشر ألفا عمل غير مستقيم ، وبخاصة أن هؤلاء يتلقون مساعدات من الشيوعيين وستكون دولتهم ذبلا للشيوعيين .

وتضيف المغرب بأن الدولة المقترحة لا يتجاوز سكانها ١٧٥ ألفاً وقد بايع الشيخ خطرى ولد سعيد شيخ قبائل الرقيبات ، وهى أكبر قبائل الصحراء الملك الحسن فى (أغادير) وأتباع هذا الشيخ يزيدون عن ثلاثين ألف نسمة .

٣- الجزائر : رأينا أن الجزائر أصبحت طرفاً فى هذه القضية ، وهى تقدم مساعدات منتظمة للبوليساريو ، ورأينا السبب الرئيسى الذى دفع الجزائر لهذا الاتجاه ، ويضاف إلى هذا أنه كان هناك اتفاق وقع بالحروف الأولى بين الجزائر والمغرب يوافق المغرب بمقتضاه على إعطاء منطقة تندوف إلى الجزائر ، ولكن المغرب لم يوف بتعهدده ، ولم يكمل الاتفاقية ، والجزائر فى أمس الحاجة لنقل كثير من صادراتها عبر الصحراء إلى المحيط ، ويرى المغرب أن من حقه أن يستولى أولاً على أرضه ، وبعد ذلك تتم مفاوضات على تيسير وسائل المواصلات .

والمغرب يتهم الجزائر بأنها هى التى تراجعت فى سياستها ، إذ أن الرئيس الجزائرى الراحل هوارى بومدين كان قد أعلن فى مؤتمر القمة العربى فى الرباط فى أكتوبر سنة ١٩٧٤ أن بلاده ليست لها مطامع اقليمية فى الصحراء ، ولكنها عادت تبرز هذه المطامع وتدافع عنها .

ويجيب الجانب الجزائرى بأن هذا التصريح كان لونا من اللباقة السياسية والمجاملة لأنه حدث فى الرباط عاصمة المغرب ، ثم أن تراجع المغرب فى وعدها الخاص بأقليم تندوف دفع الجزائر لتعيد النظر فى تصريحها السابق .

ولانزال القضية موضوع نزاع بين هذه الأطراف وليس من الميسور أن نقرأ المستقبل عنها ، وكل ما نذكره ونؤيده أن العالم يتجه للتجمع لا للتفكك ، وقد اتجهت ليبيا مرة للوحدة مع مصر ، واتجهت مرة أخرى للوحدة مع تونس ، بل تغذت الحركات الشاسعة سنة ١٩٨٠ لتعلن الوحدة مع سوريا .

(التاريخ الإسلامى ج ٤ م ١٦)

ولهذا فإننا نتمنى أن يحصل وفاق لتجميع القوى بدلا من التفكك الذى لن يولد إلا الضعف والرهن .

الشئون الداخلية بعد الاستقلال .

إن التطور السياسى الذى مرّ به المغرب صحّبه تطور فى الشئون الداخلية ، وسنذكر هنا إلمامة سريعة عن أبرز نواحي التطور المغربية .

ولعل أهم نقطة فى التطور الداخلى بالمغرب هى حركة التطور الدستورى ، فأسرة الأشرف التى حكمت منذ أوائل القرن السادس عشر لاتزال تحكم ، وطبيعى أنه كان لابد لسلطين هذه الأسرة فى العهود الأخيرة أن ينتهجوا طريقا جديدا غير الذى سار فيه أسلافهم ، والحقيقة أنهم فعلوا ذلك إلى حد كبير ، فضمنوا بذلك استمرار سلطانهم ، ويعتبر الملك محمد بن يوسف حلقة الاتصال بين اتجاهات السلطين فى أثقرون الماضية وبين الاتجاهات الحديثة .

وقد سبق أن ذكرنا أن حزب الاستقلال أعلن تمسكه بالنظام الملكى الذى لم تعرف البلاد نظاما سواه منذ فجر اتصالها بالاسلام ، ولكن الحزب اشترط أن تصبح الملكية دستورية ، وفى الوقت الذى اتجه فيه حزب الاستقلال لإجلال الملك والتمسك به اتجه السلطان كذلك للشعب يعبر عن أمانيه ويكافح الاستعمار معه، وما إن بدأت مراحل الاستقلال حتى أصدر الملك «الميثاق الملكى» سنة ١٩٥٨ ونصه كما يلى :

« إن السيادة تخص شخص الملك ، وإن مراكش مملكة دستورية باسم المملكة المغربية ، وإن الوزراء مسئولون أمام الملك ، وسوف يتم الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية ، مع إعلان الحريات الكاملة ، وتقوم مجالس ريفية إقليمية وبلدية على أساس مدنى حديث ، وليس على أساس قبلى ، وستتمتع الجمعية الاستشارية بحق المناقشة والتصويت على الميزانية ، وسيتم انتخاب أعضائها من بين أعضاء المجالس البلدية والمحلية ، وبعد ذلك يصدر الدستور ،

وتظهر أول جمعية برلمانية وطنية على أساس مبدأ الاقتراع العام .

وقد بدئ بتنفيذ الخطوات التي وردت بهذا الميثاق ، وكان آخر ما نفذ منها إصدار الدستور فى ديسمبر سنة ١٩٦٢ فى عهد الملك الحسن الثانى .

ومن الوثائق التى بين أيدينا نص الدستور وهو يتكون من تصدير (مقدمة) ومن اثنى عشر باباً تحوى مائة وعشرة فصول ، وقد جاء فى المقدمة ما يلى :

« المملكة المغربية دولة اسلامية ذات سيادة كاملة ، لغتها الرسمية اللغة العربية ، وهى جزء من المغرب الكبير .

« وبصفتها دولة أفريقية فإنها تجعل من أهدافها تحقيق الوحدة الإفريقية .»

وقد أخذ النقاد العرب على هذه المقدمة أنها عنيت بالمغرب الكبير وبالوحدة الإفريقية دون اهتمام بالوحدة العربية ، مع أن المغرب عضو نشيط فى جامعة الدول العربية .

وبالباب الأول عبارة عن أحكام عامة ومبادئ أساسية ، وأهمها :

الفصل الأول : نظام الحكم بالمغرب نظام ملكية دستورية ديمقراطية واجتماعية .

الفصل الثانى : السيادة للأمة تمارسها مباشرة بالاستفتاء ، وبصفة غير مباشرة على يد المؤسسات الدستورية .

الفصل الثالث : الأحزاب تسهم فى تنظيم المواطنين وتمثلهم .

الفصل الخامس : جميع المغاربة سواء أمام القانون .

الفصل السادس : الاسلام دين الدولة ، والدولة تضمن لكل واحد حرية ممارسة شئونه الدينية .

وبما ورد كذلك فى الباب الأول تقرير المساواة بين الرجل والمرأة فى التمتع

بالحقوق السياسية وضمان حرية التجول والرأى والاجتماع ، وضمان حق الملكية الفردية مع ضمان أن يضع القانون لها حداً » إذا دعت لذلك ضرورة النمو الاقتصادي والاجتماعى المخطط للبلاد .

أما الباب الثانى فمخصص لحقوق الملك ، وفى الباب الثالث شئون البرلمان.. ونرجو أن يكون عهد الدستور عهد يمن ورخاء على المغرب الصديق .
وقمت انتخابات أول مجلس نيابى بالمغرب فى ١٧/٥/١٩٦٣ .

* * * * *

الأحزاب

وأقدم الأحزاب الموجودة حالياً فى المغرب حزب الاستقلال ومن أبرز زعمائه علال الفاسى ، وقد زاد قوة عندما اندمج فيه حزب الإصلاح الذى كان يزاول نشاطه فى منطقة الريف بزعامة عبد الحالى الطريس .

وفى سنة ١٩٥٩ حصل انشقاق فى حزب الاستقلال فخرج منه عبد الله ابن إبراهيم الذى ألف حزبا جديدا هو اتحاد القوى الشعبية ، وله نفوذ كبير فى المدن الصناعية إذ ينضم له أكثر العمال .

وهناك حزب الشورى والاستقلال الذى كان يسمى حزب الشعب بزعامة محمد حسن الوزانى .

* * * * *

ويتجه المغرب على العموم إلى سياسة الحياد الإيجابى ، وهو عضو نشط فى الكتلة الإفريقية ، وهى تضم الدول الإفريقية التى اكتملت حريتها والتى لا تسير فى فلك المعسكرات المتصارعة فى الغرب أو الشرق .

* * * * *

الاقتصاد

وعن المجال الاقتصادي بين أيدينا نص الخطاب الذى ألقاه محمد الدويرى
عضو اللجنة التنفيذية لحزب الاستقلال ووزير الاقتصاد الوطنى والمالية فى مؤتمر
حزب الاستقلال المتعقد من ١٢ إلى ١٤ يناير سنة ١٩٦٢ .

وفى هذا الخطاب أهم الاتجاهات الاقتصادية بالمغرب المستقل ، وأهم
مشروعات المستقبل ، ويبرز منها :

- القضاء على تبعية المغرب الاقتصادية لفرنسا بفصل الفرنك المغربى عن
الفرنك الفرنسى ، ثم بجعل البنك المركزى المختص بإصدار الأوراق النقدية
خاضعا للمغرب .

- إلغاء ميثاق الجزيرة والمعاهدات الثنائية التى كانت تقيد حق المغرب فى
فرض رسوم جمركية على واردات الدول المشتركة فى الميثاق أو المعاهدات .

- إعادة توزيع الأرض على المواطنين وتنظيم الضرائب بإعفاء صغار الملاك
منها .

- مغرية الاقتصاد الوطنى بإخضاع البنوك وشركات التأمين لصالح الوطن ،
وتأمين الطاقة الكهربائية والسكك الحديدية .

* * * * *

الثقافة

وفى المجال الثقافى واجه عهد الاستقلال نوعين من الثقافة فى المغرب ،
أحدهما ينبع من جامعة القرويين والآخر من المدارس الفرنسية ، وقد قام جامع
القرويين أو جامعة القرويين بجهد ضخم عبر القرون الطويلة ، فخدم الثقافة
الاسلامية العربية ، وتخرج منه قادة وزعماء كثيرون ، ولكن العصور الحديثة
احتاجت إلى تطور فى المناهج وطرق البحث لم تستجيب لها جامعة القرويين أو لم

تصحها الظروف لهذه الجامعة ، فبدأت فى عصر الاستقلال وكأنها قاصرة عن تغذية الاتجاهات الفكرية الحديثة .

أما المدارس الفرنسية فكانت بؤرا تفسد عقول المغاربة ، وتوجههم وجهة خاطئة ، وتحاول أن تفرنس طلابها .

ولذلك كان على المغرب الحديث أن يطور ثقافته الوطنية حتى يصل إلى المستوى الملائم ، وأن يتدخل فى السم الذى تنفثه المدارس الفرنسية ، فيقلل منه بإغلاق هذه المدارس أو تنظيم الإشراف عليها .

وقد نجح المغرب فى هذا وذاك ، ومدت جمهورية مصر العربية يدها فى أكثر الأحوال لتحقيق هذا الهدف الغالى .

* * * * *

وقد أدى المغرب دوره كاملا فى الصراع العربى الصهيونى ، فسرعان ما قفز جنود المغرب إلى ميدان المعركة كلما نشبت المعركة ، وسرعان ما تبرع أهل المغرب بالدماء للجرى ، وكان صوت المغرب سباقا فى كل المجالات العربية والاسلامية ، وقد استوى فى هذا الاتجاه كل طبقات الشعب المغربى من الجماهير حتى القادة ، ومن القاع حتى القمة .

ثانياً الجزائر

مقدمة :

عندما يتحدث مؤرخ منصف عن الجزائر ، يحس أنه يتحدث عن عمالقة أمجاد ، ظهر الفرنسيون أمامهم أقزاما صفارا ، فلقد دون الجزائريون فى سجل الزمن أروع صفحات البطولة والمجد ، وأخذوا بقوة الإيمان وقوة السلاح حقهم بأيديهم من دولة كبرى تؤيدها أكثر الدول الكبرى ، فبرهن الجزائريون بذلك على أنهم أكبر من كل هذه الدول ، وكان من وسائلهم إلى النصر أن جعلوا صدورهم مقابر دفنوا بها أسلحة العدو ، وجهد العدو ، ومال العدو ، حتى إذا ضعف ذلك كله انقض الجزائريون على عدوهم فدوخوه ، وفتكوا به ، حتى ألقى السلاح واستسلم وفر من أرض الأبطال المغاوير إلى الحياة الناعمة على ضفاف السين . فالحديث عن الجزائر حديث عذب يسجل للعرب فى كل مكان نموذجا جديرا بالتحية والإكبار .

تسمية الجزائر :

كانت الجزائر تعرف « بالمغرب الأوسط » حتى عهد العثمانيين فى مطلع القرن السادس عشر ، فلما جاء الأتراك العثمانيون لهذا القطر جعلوا عاصمتهم مدينة ساحلية تسمى « جزائر بنى مزغنة » وكانت تسمى هكذا لوجود عدد من الجزر الصغيرة أمامها تستعملها لحماية سفنها ، وأخذ الأتراك وأهل البلاد يعمرّون هذه المدينة ، وينشئون بها الدور والقصور ، ويصلون بينها وبين الجزر الصغيرة التى تقع أمامها بالردم أو بالجسور حتى تكون هذه المجموعة مدينة كبيرة أطلق عليها « مدينة الجزائر » وأحيانا « الجزائر » فقط ، ثم أطلق هذا الاسم على القطر كله ^(١) .

(١) أحمد توفيق المدني : هذه هى الجزائر ص ٩ - ١٠ و ٦٩ تنصرف .

هل نطلق على هذا القطر «المغرب الأوسط» في سيرنا التاريخي حتى نصل إلى القرن السادس عشر ، ثم نطلق عليه الجزائر ابتداء من هذا القرن ؟ هذا هو الصواب ، وهو ما سنتبعه ، وربما يقال إنا نكتب الآن بعد أن أصبح اسم «الجزائر» أبرز ، وأكثر شيوعا ، وأدق دلالة ، فلا مانع - أيضا - من استعمال هذه التسمية عن أية فترة من فترات التاريخ .

والمغرب الأوسط كان جزءا من الدولة الإسلامية في العهد الأموي ثم في مطلع العهد العباسي ، ولكن استقلال الأندلس عن بني العباس بالإضافة إلى العوامل الأخرى التي أبرزناها عند الكلام عن الدولة العباسية ، فتح الباب لاستقلال ولايات أخرى وبخاصة في الشمال الإفريقي الذي كان بعيدا عن بغداد عاصمة العباسيين فلم ينل من رعاية الخلفاء مانالته بقاع أخرى من العناية والاهتمام ، وبدأ المغرب الأوسط حياته الاستقلالية التي سنتتبعها فيما يلي ، مع ملاحظة أن المغرب الأوسط حافظ دائما على صلاته بباقي دول الشمال الإفريقي على الخصوص ، وبالعالم العربي والإسلامي بوجه عام ، واندماج أحيانا في بعضها كما سنرى فيما بعد ، ولم يكن هذا الاندماج انتقاصا لاستقلاله قط ، كما لم يمثل استقلاله أي بعد عن المحيط العربي والإسلامي .

الدولة الرستمية ١٦٠ - ٢٩٦ هـ = ٧٧٦ - ٩٠٨ م :

تمثل الدولة الرستمية أبرز حركة استقلالية مبكرة بالمغرب الأوسط ، وقد أسسها القاضي عبد الرحمن بن رستم ، الذي بني مدينة تيهرت ^(١) وجعلها عاصمة دولته ، وقد شملت الدولة الرستمية كل أرجاء البلاد الجزائرية الحالية ماعدا بعض جهات قليلة بالجنوب والشرق ، وآل رستم من الخوارج الإباضية ، فكان الحكم عندهم يقوم على الشوري وانتخاب الإمام ، وكانت دولتهم تعني بالعدل ونشر الأمن بين الناس ، وكانت تهتم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،

(١) تسمى أيضا تاهرت وتسمى الآن تيارت .

١. قائمة الرستميون هم :

١٦٠ هـ = ٧٧٦ م

١٦٨ = ٧٨٤

٢٠٨ = ٨١٧

٢٥٨ = ٨٧١

? ?

٢٨١ = ٨٩٤

٢٩٦ = ٩٠٨ (١)

عبد الرحمن بن رستم

عبد الوهاب بن عبد الرحمن

الأفلق بن عبد الوهاب

أبو بكر بن الأفلق

محمد بن الأفلق

يوسف بن محمد

يعقوب بن الأفلق

الفاطميون وآل زيري :

انبثق ملك الفاطميين - كما قلنا من قبل - في تونس ، ومن هناك بدأ يمتد إلى الشرق والغرب . وقد خرب أبو عبد الله الداعي مدينة تاهرت سنة ٢٩٦ (٢) واستولي علي الجزائر ، وواصل الفاطميون زحفهم حتي وصلوا المحيط الأطلسي ، كما سنبين ذلك مفصلا فيما بعد عند الكلام عن تونس حيث المركز الرئيسى للعبيديين بالشمال الإفريقي ، وهكذا أصبحت الجزائر فاطمية السياسة والمذهب ، فلما فتح الفاطميون مصر وانتقل المعز لدين الله الي القاهرة عاصمته الجديدة سنة ٣٦٣ هـ ، أناب عنه بلكين بن زيري الصنهاجي في حكم الشمال الإفريقي ، واستمر بلكين في المهديّة كما كان خلفاء الفاطميين ، وعين ابنه المنصور أميرا علي المغرب الأوسط ، فلما مات بلكين وتولي ابنه المنصور مكانه ، عهد هذا لأخيه حماد بن بلكين بولاية الجزائر ، وقد آل أمر حماد الي الاستقلال بالجزائر ، وتكوين دولة بني حماد ، كما سنبين ذلك فيما يلي :

(١) أحمد توفيق المدني : هذه هي الجزائر ص ٥٦ وزامبارو : معجم الأنساب ج ١ ص ١٠٠ -

١٠١ .

(٢) زامبارو : المرجع السابق ص ١٠١ .

بنو حماد : ٣٩٨ - ٥٤٧ هـ = ١٠٠٧ - ١١٥٢ م :

تولي حماد بن بلكين ولاية الجزائر في عهد أخيه المنصور ، وظل يحكمها باسمه طيلة حياته ، وبعد وفاة المنصور تولي ابنه باديس ، فأبقى عمه حمادا في مكانه ، وعهد اليه بحرب زناته وبحرب بعض القبائل التي ثارت في المغرب علي حكم آل زيري ، وجعل باديس لعمه ولاية كل بلد يفتحه ، وقد حقق حماد انتصارات كبيرة ضد الثائرين ، واختط مدينة القلعة بجبل كتامة واتخذها عاصمة له ورفع أسوارها ، واستكثر فيها من المساجد والفنادق ، فاستبحرت في العمارة . واتسعت في التمدن ، ورحل اليها طلاب العلوم وأرباب الصنائع . . . ثم ان بطانة باديس نفسوا علي حماد مكانته وسعوا بالوشاية بينه وبين عمه ففسد ما بينهما وطلب باديس من عمه حماد أن يسلم بعض ما في يده الي المعز بن باديس ، فأبى حماد ، وخالف باديس ، وقمادي في مخالفته ، فأعلن اعتناق مذهب أهل السنة وطرح التشيع ، وقامت حروب بين فرعي آل زيري ، ومات باديس في أثنائها فثبت سلطان بني حماد وبدأت دولتهم ، وتم نوع من الوفاق بين آل حماد وآل باديس علي أن يعود آل حماد للمذهب الشيعي وأن يبقى لهم السلطان في الجزائر والمغرب (١) .

وفيما يلي ملوك بني حماد ،

٣٩٨ = ١٠٠٧

حماد بن بلكين بن زيري

٤١٩ = ١٠٢٨

القائد بن حماد

٤٤٦ = ١٠٥٤

محسن بن القائد

٤٤٧ = ١٠٥٥

بلكين بن محسن

٤٥٤ = ١٠٦٢

الناصر بن علناس بن حماد

٤٨١ = ١٠٨٨

المنصور بن الناصر

٤٩٨ = ١١٠٤

باديس بن المنصور

(١) ابن خلدون : المعبر ج ٦ ص ١٧١ - ١٧٢

١١٠٦ = ٥٠٠

العزیز بن المنصور

١١٢١ = ٥١٥

یحیی بن العزیز

التي فتح الموحدین سنة ٥٤٧ = ١١٥٢^(١)

ويعتبر عهد الناصر وابنه المنصور من أزهى عصور آل زيري بالشمال الإفريقي ، فقد اتسع ملك الناصر ، ودان له بالطاعة كثير من قبائل البربر ، وفتح جبل بوجاية واختط به مدينة عظيمة أسماها الناصرية ، وهي التي عرفت باسم (بوجاية) وبنى بها قصر اللؤلؤة وكان من أعجب قصور الدنيا ونقل إليها الناس وأسقط الخراج عن ساكنيها ، واتخذها عاصمه له ابتداء من سنة ٤٦١ ، وما زاد ملكه قوة وثباتا أن زحف بني هلال وبني سليم (سنة ٤٤٤) أضعف من ملك باديس بالمهدية ، وأثار هناك الاضطراب ، فقام بذلك آل حماد^(٢) .

وينسب للمنصور أنه هو الذي حضر ملك بني حماد ، وتأنق في اختطاط المباني وتشبيد المصانع ، واتخاذ القصور ، وإجراء المياه في الأراضي والبساتين ، فبنى في القلعة قصر الملك ، والمنار ، والكواكب ، وقصر الشام ، وبنى في بوجاية قصر اللؤلؤة ، وقصر أميمون^(٣) .

ومن الأحداث الهامة في هذا العهد نزوح جماعات من مهاجري الأندلس إلى الجزائر ، وقد جاء هؤلاء بعلومهم وآدابهم وثقافتهم في الصناعة والزراعة ، فساعدوا على ترقية العلوم والمعارف والآداب ، كما ساعدوا على تنمية الثروة بالجزائر^(٤) .

(١) زامبار : معجم الأنساب والأسر الحاكمة في التاريخ الإسلامي ج١ ص ١١٠ و Stanley Lane-Poole, Muh Dynasties p. 40.

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٧٤ .

(٣) ابن خلدون : المرجع السابق ص ١٧٥ .

(٤) محمد توفيق المدني : هذه هي الجزائر ص ٦٠ .

المرابطون والموحدون :

امتد سلطان المرابطين فاقتطع جزءا من ملك بنى حماد ، وإذا كان بنو حماد قد استطاعوا أن يحرسوا أكثر ملكهم من زحف المرابطين ، فإنهم لم يستطيعوا أن يثبتوا أمام زحف الموحيدين ، فأخلوا لهم الطريق ، وامتد سلطان الموحيدين - كما سبق القول - حتى شمل الشمال الافريقى كله ، فابتلع دولتى آل زيري ، وسار شرقا حتى تاخم حدود مصر.

دولة بنى زيان ٦٣٣ - ٧٩٦ = ١٢٣٥ - ١٣٩٣ م :

قلنا فيما سبق إن الضعف دب فى جسم الموحيدين عقب هزيمتهم فى موقعة حصن العقاب بالأندلس ، وأن الدولة تفككت عقب ذلك ، وقام على أثرهم بنو حفص بتونس ، وبنو زيان بتلمسان بالمغرب الأوسط وبنو مرين بمراكش ، فلنواصل كلامنا هنا عن بنى زيان.

كان بنو زيان ولاية للجزائر من قبل الموحيدين ، فلما ضعف الموحدون ، واستقل بنو حفص عنهم ، أعلن بنو زيان أيضا استقلالهم واتخذوا تلمسان عاصمة لهم^(١) ، وبنو زيان من قبيلة بنى عبد الواد ، ويجمعهم نسب مع بنى مرين ، وكان بنو عبد الواد متغلبين فى أكثر الأزمان على المغرب الأوسط ، وزعيمهم بطل من أبطال التاريخ اسمه يغمر اسن ، وبسبب شخصيته الضخمة وجهده الكبير استطاع أن يثبت أركان دولته ، ويدعم استقلالها ، فقد كان بنو حفص أسبق فى إعلان استقلالهم عن الموحيدين ، وكانوا - فى بادئ الأمر - ينظر إليهم على أنهم ورثة الموحيدين ، فكانوا يطمعون فى أن يصبح بنو زيان بالجزائر وبنو مرين بالمغرب تابعين لهم ، ولكن أمر بنى مرين قوى بإسقاطهم عاصمة الموحيدين مما جعلهم يحسون بأنهم أجدر من بنى حفص بوراثة سلطان الموحيدين ، وقد سبق الحديث عن ذلك ، والذي نريد إثباته هنا أن بنى زيان وقعوا بين فكى الرحا ،

(١) ابن خلدون : العبر ج ٢ ص ٧٢ .

أى بين بنى حفص وبين بنى مرين ، وكلاهما يطلب السلطة الكاملة على الشمال
الافريقى ، فاحتاج بنو زيان لتثبيت سلطانهم إلى جهاد طويل ، وفى بعض
الأحيان اضطر بنو عبد الواد لمحاربة جيوش تونس والمغرب فى وقت واحد (١) .

وملوك بنى زيان هم :

١٢٣٥ = ٦٣٣	يغمر اسن بن زيان
١٢٨٢ = ٦٨١	عثمان (الأول) بن يغمر اسن
١٣٠٣ = ٧٠٣	محمد (الأول) بن عثمان
١٣٠٧ = ٧٠٧	موسى (الأول) بن عثمان
١٣١٨ = ٧١٨	عبد الرحمن (الأول) بن موسى
١٣٤٨ = ٧٤٩	أبو سعيد عثمان (الثانى)
	أبو ثابت الزعيم
١٣٥٢ = ٧٥٣	أبو حمو موسى (الثانى)
١٣٧٦ = ٧٨٨	أبو تاشفين عبد الرحمن (الثانى)
١٣٩٣ = ٧٩٦ (٢)	أبو زيان محمد (الثانى)

وعن مؤسس هذه الأسرة يقول ابن خلدون (٣) :

كان يغمراسن بن زيان من أشد بنى عبد الواد بأسا وأعظمهم فى النفوس
مهابة وإجلالا ، وأعرفهم بمصالح قبيلته ، وأقواهم كاهلا على حمل الملك ،
واضطلاعا بالتدبير والرياسة ، شهدت له بذلك آثاره قبل الملك ويعدده ، وكان
مرموقا بعين التجلة ، مؤملا للأمر عند المشيخة ، تعظمه فى الأمور الخاصة ،
وتفزع إليه فى نوائبها العامة ، فلما تولى الأمر بعد أخيه أبى عزة سنة ٦٣٣
قام به أحسن قيام ، واضطلع بأعبائه ، وظهر على الخارجين على أخيه ،

(١) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٢) زامبار : معجم الأنساب ج ١ ص ١١٨ - ١١٩ .

(٣) العبر ج ٧ ص ٧٩ .

وأصارهم فى جملة وتحت سلطانه ، وأحسن السيرة فى الرعية ، واستعمال
عشيرته وقومه وأحلافهم بحسن السياسة والاصطناع ، وكرم الجوار ، واتخذ
الآلة ، ورتب الجنود والمسالح ، واستلحق العساكر من الروم والغز ، وفرض
العطاء واتخذ الوزراء والكتاب ، وبعث فى الأعمال ، ولبس شارة الملك
والسلطان ، ومحا آثار دولة الموحدين ، وعطل من الأمر والنهى دستها ، ولم
يترك من رسوم دولتهم وألقاب ملكهم إلا الدعاء على منابرهم للخليفة بمراكش ،
وتقلد العهد من يده تأنيساً للكافة ومرضاة للأكفاء من قومه ، وكانت له
مع ملوك الموحدين من آل عبد المؤمن ومديلتهم آل بنى حفص مواطن فى التحرش
والمنازلة ، وكذلك بينه وبين بنى مرين قبل أن يملكوا المغرب وبعد ملكه ، وقائع
متعددة كتب له الفوز فى أكثرها .

ويعتبر عهد أبى حمو موسى من أزهى عهود بنى زيان ، فقد أصبحت
تلمسان فى أيامه حاضرة من أعظم الخواضر ، وصارت من أهم عواصم العلم
والسياسة والعالم العربى قاطبة ، وفى عهد بنى زيان على العموم نبغ جماعات
من أشهر العلماء والأدباء والكتاب والمفكرين ، ولعل فى قمة هؤلاء عبد
الرحمن الثعالبى مؤلف الجواهر الحسان ، والمقرئ مؤلف نفع الطيب ، كما
امتازت هذه الدولة ببناء المدارس الفسيحة التى تعتبر من آيات الفن المعمارى
العربى ، وأجريت على طلبتها وشيوخها الأرزاق^(١) .

النظام الإدارى فى عهد بنى زيان :

أطلق ملوك بنى زيان على أنفسهم « أمير المؤمنين » ، وقسموا السلطة
ثلاث شعب : هى السلطة العسكرية ويتولاها صاحب السيف ، والسلطة الإدارية
ويتولاها صاحب القلم ، والسلطة القضائية ويتولاها قاضى القضاء . ويعتبر كل
من هؤلاء فى رتبة وزير كما نعرفه الآن ، وبجوار هؤلاء كان هناك صاحب المال

(١) أحمد توفيق المدني : هذه هى الجزائر ص ٦٥ - ٦٧ بتصرف .

(وزير صابية) وصاحب الأسفال (وزير التعمير) وكان رئيس الوزراء يلقب (مزاوول) وله الإشراف على كل هؤلاء .

وفى كل مدينة أو قبيلة كان يوجد المحافظ (الوالى) وهو حافظ النظام الإسلامى ، وإلى جانبه المحتسب وهو المشرف على الحسبة ، والقاضى وغيرهم من موظفى الدولة وجباة الضرائب ^(١) .

الجزائر فى عهد اضطراب :

دخل العثمانيون الجزائر - كما سيأتى - سنة ١٥١٨ ، وقد شاهدت الجزائر بخاصة والشمال الإفريقى بعامة أسوأ فترات تاريخها خلال القرن الذى سبق دخول العثمانيين ، لقد كان قرنا حافلا بالأحداث المرة السوداء ، كانت الأندلس تلفظ آخر أنفاسها ، وكان الخلاف ناشبا بين بنى مرين وحكام تلمسان من بقايا بنى زيان وبنى حفص ، وامتد طغيان الفرنجة إلى الساحل الإفريقى انتقاما من سكانه ، لأنهم طالما مدوا يد المساعدة لمسلمى الأندلس ، وطالما أخذوا يتلقون وفودهم ويضمّدون جراحهم ، وهكذا عاشت الجزائر فترة مريرة بين سنة ١٣٩٣ وسنة ١٥١٨ وكانت السلطة فيها أحيانا لبنى مرين يعينون من يشامون من بنى زيان ، وامتدت أحيانا سلطة الفرنجة للجزائر بالتعيين والعزل إن صحت رواية زامباور ^(٢) واستعاد بنو زيان أحيانا سلطانهم ، ولكن هذا كله كان إيذانا بدم جديد ينقذ الجزائر مما كانت تعاني .

العثمانيون بالجزائر ١٥١٨ - ١٨٣٠ :

شرحنا من قبل أحوال الشمال الإفريقى قبيل امتداد الخلافة العثمانية إليه ، ووضحنا الجهاد البحرى الذى لجأ له المسلمون للدفاع عن الساحل الإفريقى ضد غزو الفرنجة ولإنقاذ الفارين المسلمين من الأندلس بعد سقوط غرناطة ، ولتعد

(١) محمد توفيق المدنى : المراجع السابق ص ٦٥ وانظر بغية الرواد ليحيى ابن خلدون .

(٢) معجم الأنساب ج ١ ص ١١٩ .

إلى كاتب جزائرى ننقل كلامه فى هذا الموضوع :

يقول الأستاذ أحمد توفيق المدنى ^(١) :

احتل الأسبان مرسى وهران والمرسى الكبير وهددوا مدينة جزائر بنى مزغنة
تهديدا مباشرا ، واستولوا على أكبر الجزيرات الواقعة تجاهها وجعلوا منها
حصنا يضع البلدة تحت رحمته ، ثم أخذوا يوالون غاراتهم البرية قاصدين مدينة
تلمسان ، ولم تكن دولة بنى زيان فى آخر عهدها تستطيع أن تجمع الأمة لقتال
هؤلاء المستعمرين الذين كانوا تحت قيادة راهب متهوس ربما لم يعرف التاريخ
راهبا أكثر منه تعصبا وبعدا عن روح دين عيسى عليه السلام ، فكانت الحملة
الأسبانية حملة نهب ولصوصية ، وانتقام من الإسلام ، وانتهاك فظيع لحرمات
المسلمين ، وكانت أخبار غارات الأسبان على ساحل المغرب العربى حديث الناس
أجمعين فى ذلك العهد .

وحدث عن لصوصية البحر ولا حرج ، فالأسبان والبرتغاليون قد أنشأوا مع
غيرهم من رجال أوروبا سفن القرصنة ، وانهالوا على مهاجرى الأندلس التمساء ،
فما كان يصل منهم إلى أرض الجزائر إلا القليل الذى فقد كل متاع وكل مال .
وكاد المغرب العربى كله يسقط تحت تلك الضربات الفتاكة ، لولا أن تدخل
القدر ، وحدثت المعجزة .

أما هذه المعجزة فهى الأخوان عروج وخير الدين بارباروس ومحاولاتهما
المباشرة للدفاع عن الساحل ، ثم المحاولة التى لجأ لها خير الدين بالانضمام إلى
قوة الأتراك العثمانيين التى كانت تمثل آنذاك وحدة الإسلام والمسلمين أمام القوة
المسيحية ، وامتد بذلك سلطان العثمانيين للجزائر سنة ١٥١٨ فأذن ذلك بعهد
جديد .

(١) هذه هى الجزائر ص ٦٨ .

وملامح الجزائر فى العهد العثمانى نوجزها فى السطور التالية :

كان على خير الدين بربروس أن يقابل فى الداخل بعض المقاومة التى كان قوامها بعض القبائل وبعض الحفصيين بتونس ، وقد خاض خير الدين وخلفاؤه معارك ضد هؤلاء وأولئك حتى تم لهم النصر ، وامتدت حدود الجزائر العثمانية نحو الجنوب ، فأصبح المغرب الأوسط كله تابعا للسلطنة العثمانية حتى واحات الميزان الموغلة فى الصحراء ^(١) وهذا يفند دعوى الفرنسيين أن الحكم العثمانى بالجزائر اكتفى بالساحل ، وكانت هذه الدعوى حلقة من سلسلة الأكاذيب التى قصد بها محاولة فصل الصحراء عن الجزائر بحجة أنه لم تكن قبل الاحتلال الفرنسى جزءا من البلاد ، وأن فتحها لم يكن إلا بالقوى الفرنسية ، وقد تداعت هذه الأكاذيب أمام قوة التاريخ وإصرار المفاوض الجزائرى .

ولم يكن الصراع الداخلى هو كل ما شغل خير الدين وخلفاءه ، فقد كان عليهم أن يتصدوا للعدوان الأوروبى ، وقد نجحوا فى هذا الميدان أيضا ، فاستردوا أكثر المدن الساحلية التى كانت قوى الاستعمار الأوروبى قد استولت لها ، واستطاع خير الدين أن يسيطر على الملاحة بالبحر الأبيض المتوسط ، فكان على الدول المسيحية أن تدفع له إتاوة نظير السماح لسفنها بالسير فى هذا البحر .

وقد سبق أن ذكرنا أن الأساطيل العثمانية استولت على الجزائر ثم بعد ذلك استولت على تونس وطرابلس ، ومن أجل هذا كانت الجزائر تمثل المركز الرئيسى لسلطان العثمانيين بالشمال الإفريقى ، ولكن سرعان ما انفصلت تونس وطرابلس عن الحاكم العام بالجزائر ، وأصبح لكل منهما رئيس يتصل بالأستانة مباشرة .

(١) محمد بن الأمير عبد القادر : تحفة الزائر ص ٦٧ .

نظام الحكم بالجزائر آنذاك :

كانت الجزائر فى العهد التركى تحكم بطريق الباشوات الذين يعينهم الباب العالي ، وقد بلغ عددهم ستة وعشرين باشا ، وفى سنة ١٦٧١ اختار الحرس الانكشارى بالجزائر - الذى وضع أساسه خير الدين بربروس على غرار الجيش الانكشارى التركى - اختار هذا الحرس رئيسا للجيش من أعضائه ، ومنحه نفوذا كبيرا وأطلق عليه لقب «الداى» فاستطاع الداى أن يطغى على سلطان الباشا ، وفى سنة ١٧١٠ توحد المنصب فأصبح الداى هو الباشا ، وظل الحال كذلك حتى الاحتلال الفرنسى سنة ١٨٣٠ .

وخلال هذه المدة ظل الحكام أفراداً ، دون أن تتكون منهم أسرة يمكن أن نعتها من الأسر الحاكمة فى الإسلام ، وقد أورد زامباور ^(١) قائمة بأسماء حكام الجزائر إبان العهد العثمانى ، سواء منهم من أرسل من قبل الباب العالي وكان له السلطان وحده ، أو أولئك الباشوات الذين تولوا مناصبهم مع وجود مندوب الحرس الانكشارى الذى انتخب محلياً ، كما أورد قائمة بأسماء الدايات الذين تجمع فى أيديهم السلطان بعد سنة ١٧١٠ ، ومن مراجعة هذه القوائم لا يستطيع الباحث أن يجزم بوجود أية علاقة نسب بين هؤلاء الحكام لأن الاسم الفردى هو المعروف فقط مثل : شيخ حسين - شعبان أغا - حاج محمد ، ويبدو أن توارث السلطان كان قليلاً ، وقد تولى - على العموم - حسن بن خير الدين بربروس بعد أبيه ، كما تولى حسين على ، الداى الذى تم الاحتلال الفرنسى فى عهده بعد أبيه على خوجة .

وبجوار الباشا أو الداى كان هناك الديوان ، وهو يمثل السلطة التشريعية ويتكون أعضاؤه من كبار الدولة ورؤساء الجند ، وهو الذى ينتخب الداى .

أما السلطة التنفيذية فكانت فى يد الباشا أو الداى يعاونه مجلس وزراء

(١) انظر معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ج١ ص ١٢٦ - ١٢٩ .

مؤلف من ستة رجال : خوجة الخيل للحرب ، ووكيل البحر للبحرية ، والخزناجى للمالية وحسابات الدولة ، والأغا وهو قائد الجند العام ، والقبودان وهو أميرال الأسطول ، والباشكاتب وهو وزير الداخلية ، أما الخارجية فهي من اختصاص الباشا ، والقول الفصل فيها للديوان .

وقد قسم الديوان أرض الجزائر إلى ثلاث عمالات : قسنطينة شرقا ، وتيطرى وسطا ، ووهران غربا . ووضع على رأس كل عمالة والياً يدعى « الباي » وكان هذا مسئولاً عن أعمال ولايته ، أما مدينة الجزائر العاصمة وسواها ، فكانت موضوعة تحت سلطة وزير الحرب « الأغا » . ولم يبق فى قطر الجزائر مكان لم يتبع هذه الإدارة المركزية المحكمة ، إلى أقصى تخوم الجنوب (١) .

ومن أهم الدايات الذين ينبغى أن نقف عندهم الداى محمد باشا المعروف بالمجاهد (١٧٦٩ - ١٧٨٨) ، وهو الذى أكمل انتصارات الجزائريين على الأسبان ، وقد ضيق هذا الداى الخناق على الجيوب الأسبانية التى أفلتت من يد خير الدين وخلفائه الأقربين فأسقطها جيئاً بعد جيب ، ولم يكتف محمد باشا بهذا بل هاجم سواحل أسبانيا وحقق بعض الانتصارات ، ولما هاجم شارل الثالث ملك أسبانيا الجزائر سنة ١٧٧٥ انتقاماً منه ، استطاع محمد باشا أن يحصد عدداً من رجال الحملة الأسبانية وأن يكسب النصر ، وقد أدت هذه الانتصارات إلى جلاء الأسبان عن وهران سنة ١٧٩١ أى بعد وفاة الباشا ، ولكن الفضل يرجع إليه ، لأنه هو الذى دمر قوى الأسبان وجعل بقاىهم بوهران مستحيلاً (٢) .

وهكذا عاشت الجزائر حوالى ثلاثة قرون يشملها التقليد الذى ساد أغلب الولايات التى ضمها العثمانيون لسلطانهم ، بمعنى أنه لم تكن تابعة تسمية كاملة للقسطنطينية ، ولم تكن مستقلة استقلالاً تاماً ، وكانت الروابط الإسلامية هى أساس هذه العلاقة التى لم

(١) محمد توفيق المدنى : هذه هى الجزائر ص ٧٠ - ٧١ .

(٢) انظر المغرب العربى للدكتور صلاح العقاد ص ٤٢ .

تجعل العهد العثماني بالجزائر عهد احتلال ، وقد ظلت الحال على هذا حتى جاء الاحتلال الفرنسي البغيض سنة ١٨٣٠ وسنعرض له فيما يلي بما يستحقه من بيان .

الاحتلال الفرنسي للجزائر

سيكون حديثنا عن الاستعمار الفرنسي للجزائر ، وعن الثورات التي هبت تقاومه ، حديثاً به شئ من التفصيل ، فليست هذه الثورات الجزائرية الرائعة إلا مجدا يضاف إلى أمجاد العرب ، وإلا سلسلة من البطولات التي قل أن شهد التاريخ لها مثيلا ، ونحن نثبتها بفخر للأجيال القادمة ، ليعرف الأحفاد ماذا عمل الأجداد ، وليدرك الذين سينعمون بالاستقلال العربي أن هذا الاستقلال كان غالى الثمن ، بذلت في سبيله أرواح جمة وسكبت من أجله دماء غزيرة ، حتى كان حديث العالم ، وحتى أرغم الجبابرة بأسلحتهم الفتاكة ، وكثرتهم الهائلة ، وأعوان السوء ، أن يظأطشوا الرؤوس أمام الإصرار والإيمان بحق العربي في الحرية التامة والاستقلال الذي لا تشوبه شائبة ، ولنبدأ فيما يلي هذا الحديث :

الجزائر اليوم :

الجزائر هي أكبر قطر بين أقطار الشمال الإفريقي ، تتسع حدودها من جهة الشرق حتى تتجاوز تونس وتصل إلى ليبيا وتنحدر جنوبا حتى تصل إلى بلاد الهجار حيث تعيش عشائر الطوارق .

والجزائر بلاد زراعية ومساحة الأرض الصالحة للزراعة بها حوالى ١٥٦٠٠٠٠٠ فدان بخلاف المناطق الجبلية التي تكثر فيها المراعى ، وتزرع الكروم في حوالى مليون فدان ، وفيما عدا الكروم تكثر في الجزائر مزارع الزيتون والبقول والنخيل وأنواع الفواكه ، وإذا أدخلنا في حسابنا تلك المساحات

(١) دكتور عبد الرحمن زكى : أفريقية الإسلامية ج١ ص ١١٩ ، وسعيد العرياز : شمال أفريقية ص ٢٠ .

الشاسعة التى تغطيها الغابات والمراعى فإن الأرض المنزرعة بالجزائر تصل إلى حوالى خمسين مليوناً من الأفدنة (١).

وبالجزائر ثروة معدنية هائلة تشمل الفحم والحديد والرصاص والزنك والنحاس والمنجنيز والفوسفات والكبريت والبترول .

وتتمتع الجزائر بموقع استراتيجى ممتاز ، فهى فى الشمال تطل على البحر الأبيض المتوسط وتحتل مسافة طويلة من ساحله مما يجعل لها مكانة هامة فى الملاحة بالنصف الغربى لهذا البحر ، وهى تواجه بموقعها هذا جنوب أوروبا ، وفى بعض الأمكنة تضيق المسافة بينها وبين الساحل الأوروبى مما يزيد فى أهميتها ، أما موقع الجزائر بالنسبة لإفريقية فعظيم الأهمية ، لأن صحراء الجزائر تنساب جنوباً حتى تؤثر فى قلب القارة وتتصل بكثير من دولها . أما مكانتها بالنسبة للمغرب العربى فبالغة الأهمية لأنها منه واسطة العقد ، وتتصل بجميع أقطاره .

ولاشك أن ثروة الجزائر وموقعها الجغرافى كانا من أهم الأسباب التى أطمعت فيها الاستعمار البغيض الذى آن لنا أن نتحدث عنه .

قبيل الاحتلال :

هناك سببان يا رئيسيان كانا من أهم عوامل الصراع بين ساحلى البحر الأبيض المتوسط : الإفريقى والأوروبى ، وهذان السببان هما التعصب الدينى والجهاد البحرى الذى يسميه المسيحيون « قرصنة » . فقد كانت الجزائر تتزعم دول المغرب الإسلامى ، وكانت فرنسا تتزعم الدول الكاثوليكية على الشاطئ المقابل ، وكان دور الجزائر فى الدفاع عن الإسلام والمسلمين يتمثل فى الجهاد البحرى الذى استمر عدة قرون ، وأذل كثيراً من الدول المسيحية وأرغمها على دفع إتاوات منتظمة لدايات الجزائر ، واثارت أوروبا لهذا الوضع ، وأنفت من هذه المهانة ، وتكتلت وتدخلت البحرية البريطانية والبحرية الهولندية لإيقاف

(١) أنظر « الأمة العربية » للدكتور عبد الحميد البطريق ص ٦٣ و « هذه هي الجزائر » للأستاذ أحمد توفيق المدني ص ٧٩ - ٨٠ .

النشاط الجزائري ، وفى أوائل القرن التاسع عشر كانت بريطانيا أكثر الدول الغربية حماسة وتحمدا للجزائر الإسلامية ، ولكن فرنسا عادت تستعيد زعامتها فى هذا المضمار بسبب موقعها من البحر الأبيض المتوسط وبسبب حماستها للدول الكاثوليكية ، تلك الحماسة التى يصورها كليرمون وزير الحرية لملك فرنسا بقوله :

« لقد أرادت العناية الإلهية أن تتأثر حمية جلالكم للقضاء على ألد أعداء المسيحية ، ولعله لم يكن من باب الصدفة أن يدعى لويس « التقى » لكى ينتقم للدين وللإنسانية وربما يسعدنا الحظ لننشر المدنية بين السكان الأصليين وندخلهم النصرانية » .

وبما دفع فرنسا للتصدي للجزائر فقداها مستعمراتها خلال حروب نابليون ، ورغبتها فى تكوين امبراطوريتها مرة أخرى ، والحصول على مستعمرات جديدة ، وكأما كانت انجلترا تريد أن تشغل فرنسا فى الجزائر حتى تثبت انجلترا سلطانها فى المستعمرات التى حصلت عليها من فرنسا سنة ١٨١٥ ، ورجبت دول أوروبا باتجاه فرنسا إلى الجزائر لتدع تراث تركيا « الرجل المريض » بأوروبا للدول الغربية المتنافسة على هذا التراث ، وهكذا شهد العقد الثانى والثالث من القرن التاسع عشر فرنسا وهى تتجه شيئا فشيئا نحو احتلال الجزائر ، وترك لها الدول الأوروبية هذه الغنيمة لسبب أو آخر .

ولم تكن تركيا آنذاك بقيادة على أن تساعد الجزائر مساعدة جدية ، فقد كانت هى نفسها تمر بمرحلة قاسية من الهزائم والاضطرابات الداخلية واعتداء المسيحيين .

خطوات الاحتلال :

قصة الديون التى كانت على فرنسا للجزائر تصور السبب المباشر لاحتلال الجزائر ، وليست هذه القصة بحلقاتها المختلفة بمتفق عليها فى الروايات العربية والفرنسية ، وسنحاول هنا أن نوجزها أقرب ما يكون لما نراه صحيحاً :

كانت فرنسا تغانى ضائقة اقتصادية ثقيلة عقب الثورة الفرنسية وكانت دول أوروبا تقف موقف العداء من فرنسا إبان زحف نابليون ، ونتيجة لذلك مدت فرنسا يدها تطلب العون الاقتصادى من الجزائر فى شكل حبوب تشتريها بأثمان مؤجلة ، وكان التجار اليهود يقومون بدور الوساطة فى هذه التجارة ، وحلت مواعيد السداد ولكن فرنسا تلكأت فى الدفع ، مدعية حيناً أن أثمان السلع التى قدر الدين على أساسها مبالغ فيها ، وزاعمة حيناً آخر أن السلطات الفرنسية لم تتسلم البضائع ، كما أصمت أذنيها أحياناً عن المطالبة ولاذت بالصمت .

ثم كان ذلك الحادث الشهير الذى يعتبر سبباً مباشراً لاحتلال الجزائر ، ففى يوم عيد الفطر (٢٧ أبريل سنة ١٨٢٨) ذهب قنصل فرنسا لقصر الداي للتهنئة بهذه المناسبة ، فسأله الداي عن السبب فى أن ملك فرنسا لم يرده على رسالة الداي التى كان قد أرسلها منذ مدة ، فكان رد القنصل جافاً غليظاً يحمل فى ألفاظه ترفع جلالة الملك عن مكاتبة الداي ، وقد أثار هذا الرد داي الجزائر فصرخ فى وجه القنصل ملوحاً له بالخروج من حضرته ، وكان الداي يحمل مروحة بيده ادعى القنصل أنها اصطدمت بوجهه ، وعدت حكومة فرنسا هذه إهانة لها وللشعب الفرنسي ، وهددت بالانتقام المسلح ، وحاصرت ساحل الجزائر ، وبدأت اتصالات لتسوية الموقف ، فأوفدت فرنسا إلى الجزائر مندوباً عن الحكومة هو المسيو « لا برتنيير » La Bretonnière ليحصل على اعتذار حكومة الجزائر عما بدر من الداي تجاه القنصل مما سبب غضب الرأي العام الفرنسي ، ولكن مبعوث فرنسا لم ينجح فى مهمته ، وفى أثناء عودته فى صيف سنة ١٨٢٩ جنحت سفينته بفعل الريح أو هكذا قيل ، فدخلت مناطق محرمة ، فأطلق جنود الساحل الجزائريون النار عليها ، وعلي الرغم من أن الداي عاقب المسئولين عن إطلاق النار ، ألا أن فرنسا اعتبرت الحادثة متعمدة ، فقرر بوليناك Polignac وزير خارجية فرنسا أن يبدأ الغزو الفرنسى للجزائر ، وأيده فى ذلك وزير الحربية الذى وضّح أن فى احتلال الجزائر مشغلة للشعب الفرنسى الذى لا ينى ساخناً

علي الأحوال الداخلية ، وما جاء فى تقريره بهذا الشأن قوله : إن شعباً معروفاً بالشغب مثل الشعب الفرنسى لا بد له من حين لآخر أن يرى حوادث خطيرة تخرج به عن الحياة المألوفة ، واحتلال الجزائر سيغذى هذا الخيال ، وسيتمكن الملك من حل البرلمان الذى قويت المعارضة فيه .

وبدأت الحملة ، وضربت السفن الفرنسية الساحل الجزائرى ، ونزلت القوات فى حماية الضرب عند شبه جزيرة سيدى فرج على بعد عشرين كيلو متراً من مدينة الجزائر ، وكان ذلك فى يوم ١٣ يونيو سنة ١٨٣٠ ، وقاوم الجيش الجزائرى يؤيده المتطوعون هذا الغزو بصلابة وعناد ، ولكن الاستعداد الفرنسى كان أقوى بكثير من الدفاع الجزائرى ، فانهار هذا الدفاع ، واستولى المهاجمون على معسكر « مصطفى ولى » ثم تقدموا فاحتلوا مدينة الجزائر فى ٥ يوليو ، وسيق الباشا وكبار رجاله إلى المنفى ، وبدأ بذلك دور جديد فى تاريخ الجزائر^(١).

ويرى بعض المؤرخين أن حادثة القنصل كانت مدبرة ، وأنها كانت مؤامرة حيكت من قبيل الاستفزاز ، فليس فى العرف الدبلوماسى ما يسوغ أن يرده ممثل دولة أجنبية على سلطان البلاد بمثل هذا الرد العنيف ، ويمكن أن يقال كذلك إن حادثة السفينة مفتعلة ، وأن جنوحها كان قد دُبر بقصد الإثارة ، فمن الواضح أن فرنسا كانت قد عقدت العزم على احتلال الجزائر للأسباب التى سبق أن سقناها ، وأنها اصطنعت الأسباب التى تؤدى إلى تحقيق هذا الاتجاه ، وعلى كل فقد نجحت فرنسا فى الجولة الأولى لهذا الزحف الاستعمارى ، ولكنها فتحت على نفسها ميدان نضال طويل مرير ، هزمت فيه فى الجولات التالية كما سنشرح ذلك فيما بعد .

(١) أنظر « الأمة العربية » للدكتور عبد الحميد البطريق ص ٦٣ و « هذه هي الجزائر » للأستاذ أحمد توفيق المدني ص ٧٩ - ٨٠ .

فرنسا فى الجزائر

استعمار فرنسا للجزائر وصل القمة فى الطغيان والعريضة ، تجاهل الجوانب الإنسانية ، واحتقر المثل العليا ، واخترع الأساليب التى تمكّن له وتثبيت قدمه ، أياً كانت هذه الأساليب ، وأياً كان ما فيها من قسوة ووحشية ، وسنرى أبرز الخطوط لهذا الاستعمار الغاشم لتظل وصمة للمستعمرين وذكرى للأجيال القادمة.

وقد اتجهت سياسة فرنسا فى الجزائر نحو الوصول إلى هدفين هامين هما :

١ - فرنسة أرض الجزائر .

٢ - فرنسة السكان .

وذلك على نحو ما فعلت بريطانيا باستراليا ونيوزيلاندة ، وعلى نحو ما يحاول اليهود أن يفعلوا بفلسطين ، فإذا لم يستجيب الجزائريون لهذه الأهداف - وهو ما حدث فعلاً - فحرب إبادة ضد السكان وطرد لهم إلى الجبال والصحراء ليعيشوا حياة بدائية ساذجة ، ولتتم الفرنسة عن طريق جلب الفرنسيين ومن والاهم ليحلوا محل المغلوبين على أمرهم .

تعال بنا نقدم مزيداً من البيان عن هذه السياسة الغاشمة .

فرنسة أرض الجزائر :

فى سنة ١٨٤٨ أعلن مجلس النواب الفرنسى أن أرض الجزائر قطعة طبيعية من فرنسا ، وأن المنطقة الشاطئية جزء لا يتجزأ من فرنسا نفسها . وخضع العلم للسياسة فأعلن العلماء الجيولوجيون الفرنسيون أن الشمال الأفريقى كان منذ القدم متصلاً بالساحل الجنوبى لفرنسا فى سلسلة جبال واحدة تصدعت فى العصور الجيولوجية القديمة ، فكان بوغاز جبل طارق ومضيق مسينا (١) .

(١) كتاب « نهضة الشعوب الإسلامية » للأستاذ محمد حبيب أحمد ص ١٦١ .

وزادت مبالغة الفرنسيين ، فأعلن ساستهم أن الشمال الإفريقي ألزم لفرنسا من الناحية الاجتماعية والعمرانية من سهول نورماندى بشمال فرنسا نفسها^(١) .

وبناء على هذا الاتجاه نجد فرنسا تحتج أشد الاحتجاج على إنزال جنود أمريكيين بالجزائر سنة ١٩٤٢ دون إذن من فرنسا ، وقال لافال وزير خارجية فرنسا فى احتجاجه : إن المنطقة كلها هى من تمديدات الأرض الفرنسية الطبيعية^(٢) .

وكان التنظيم الإدارى بالجزائر يعمل فى ظل هذا الهدف ، أى على اعتبار أن الجزائر أرض فرنسية ، فهناك « الوالى العام » وهو فرنسى يعينه مجلس الوزراء الفرنسى ، ويتلقى التعليمات من وزير الداخلية ، وهو يرأس الإدارات الحكومية التى تشملها الولاية العامة ، وهذه الإدارات هى : الداخلية - المالية - البريد - الأشغال العامة - المواصلات - الفلاحة - التجارة - العلوم ، وكل إدارة من هذه الإدارات يتولى أمرها مدير عام فرنسى ، ويباشر العمل فيها مثأت من الموظفين الفرنسيين .

هذه هى الولاية العامة وقروعهها ، وكانت هناك فى الجزائر تقسيمات إدارية ، فكانت الجزائر تنقسم إلى ثلاث مديريات فرنسية مكملة لمديريات فرنسا وهى : مديرية قسنطينة ، والجزائر ، ووهران ويحكم كلا منها حاكم فرنسى ، هذا بخلاف الصحراء التى كانت تحكم حكماً عسكرياً^(٣) .

فرنسة السكان :

إن فرنسة أرض الجزائر يتبعها بالضرورة فرنسة السكان ، وقد اتخذت خطة فرنسة السكان طريقين : أولهما محاولة فرنسة الجزائريين ، والثانى جلب

(١) المرجع السابق .

(٢) The New York Times : November 21 1942.

(٣) أحمد توفيق المدني : هذه هى الجزائر ص ٩٩ - ١٠٠ .

أشتات من الأوروبيين بصفة عامة ومن الفرنسيين بصفة خاصة ليستوطنوا الجزائر أو هذه الأرض الفرنسية بإفريقية .

ولم يكن الطريق الأول مثمراً ، فإن السكان العرب لم يريدوا أن يكونوا فرنسيين ، ولم يخدعهم هذا التعبير ، وأدركوا أنها أكذوبة يراد بها تمكين نفوذ الفرنسيين بأرضهم ، فإن العربى لا يمكن أن يصير فرنسيا بين عشية وضحاها وينسى الدم والعرق التليد ، والمسلم لا يمكن أن يصير كاتوليكيّاً أو أن يرى الأمن فى ظل حكومة كاتوليكية ، وهو يعرف الحروب الصليبية وألوان التدمير التى أنزلها الفرنسيون والمسيحيون بالمسلمين هنا وهناك . وتبعاً لذلك اتجهت فرنسا - كما قال وزير الحرية الفرنسى - إلى القضاء على الشعب الجزائرى ، أو على الأقل تشريدته فى جهات الداخل ، وإحلال جاليات أوروبية محله فى القرى والمدن الساحلية (١) ، وستحدث فيما بعد عن الإبادة والتشريد اللذين منى بهما شعب الجزائر تحت الحكم الفرنسى .

ولم يستجب للفرنسة من سكان الجزائر إلا اليهود الذين لا يدينون بالولاء لوطن ، والذين يحبون أن يأكلوا على كل مائدة ، وقد صدر قانون سنة ١٨٧١ بمنحهم الجنسية الفرنسية .

ولجأ الفرنسيون للطريق الثانى ، وأخذوا له كل الوسائل ، ففى سنة ١٨٣١ كان هناك عدد من المهاجرين السويسريين والألمان يميناء المهافر ينتظرون السفن التى تقلهم إلى الولايات المتحدة ، فأنزلتهم السلطات الفرنسية فى إحدى السفن التى حملتهم قسراً إلى الجزائر .

وفى سنة ١٨٣٥ بدأت الحكومة الفرنسية تنشئ المستعمرات الزراعية بالجزائر وتجلب لها المهاجرين من أوروبا لتوزع عليهم الأراضى بالمجان وتقدمهم بالمعونات المالية والفنية (٢) .

(١) سعيد العريان وآخرون : شمال أفريقية ص ٣٤ .

(٢) دكتور صلاح العقاد ك المغرب العربى ص ١٤٤ .

وأخذت فرنسا تنشر دعاية واسعة بين معدمي الأسبان والظليان كى يفدوا إلى الجزائر حيث الأرض والقروض والثروة والغنى .

وعقب هزيمة فرنسا أمام الألمان ١٨٧١ وفد إلى الجزائر آلاف من أهل الألزاس حيث مكنتهم فرنسا من الأرض والمال .

وفى سنة ١٨٨١ أصدرت فرنسا قانون الجنسية وهو يضيفى الجنسية الفرنسية على أبناء كل الأوربيين الذين يولدون فى الأراضى الجزائرية (١) .

وفى سنة ١٩٢٠ صدر دستور الجزائر الذى أصبح كل جزائرى بمقتضاه مواطناً فرنسياً ، ولكن نصت المادة رقم ٣٠ منه على أن هناك فئتان من الجزائريين أولهما فرنسية بحتة وهى تضم الأوربيين والمسلمين الذين قبلوا التعامل وفقاً للقوانين الفرنسية حتى فى الأحوال الشخصية ، وثانيهما فرنسية محلية ، وهى تضم المسلمين الذين خضعوا للقوانين الفرنسية محتفظين بالتعامل فى الأحوال الشخصية وفقاً للقوانين الإسلامية (١) .

وقد أدرك الجزائريون أن هذا طلاء خداع ، لا يقصد قط مساواة الجزائري بالفرنسي ، بل يقصد إحكام قبضة المستعمر على البلاد ، ولم يكن فهم الحقيقة يحتاج إلى عناء ، فإن ممثلي الجزائر بالبرلمان الفرنسي كانوا قلة وصلت أحياناً إلى شخص واحد ، وفى المجالس الجزائرية كان ممثلو الفرنسيين ينتخبون بالاقتراع العام وممثلو الجزائريين يعينهم الحاكم ، وكان الفرنسيون المقيمون فى الجزائر يعيشون فى الأحياء الراقية ، وتيسر لهم سبل الحياة ، ولأولادهم سبل التعليم ، ولم يكن الجزائريون ينعمون بشيء من ذلك ، ومن هنا من جهة ، وللوطنية والحرية من جهة أخرى لم يُقبل الجزائريون على الجنسية الفرنسية وقاوموها .

(١) أحمد توفيق المدني : هذه هي الجزائر ص ٩٨ .

(٢) دكتور عبد العزيز رفاعي : الحركة القومية فى إفريقيا ص ١١٥ .

وأُسفر العداء ، وسارت فرنسا في طريقها تحارب ، وتبيد وتشرد ، وتنشر الجهل والفقر بين الجزائريين ، وسار الجزائريون في طريقهم يقاومون ويناضلون ، وستتكلم فيما بعد عن المقاومة ولكننا الآن نواصل كلامنا عن سياسة فرنسا الخرقاء بالجزائر .

محااربة اللغة العربية والإسلام :

أدركت فرنسا أن الإسلام واللغة العربية هما الصخرة الصلبة التي تتحطم أمامها كل المشروعات التي ترمي لـ « فرنسا » الجزائريين ، فوحدة الشعب الجزائري لم تتم إلا بسبب وحدة الدين ووحدة اللغة ، فعمدت فرنسا إلى تحطيم هذه الصخرة ، ظانة أن القضاء عليها قضاء علي الوحدة ، وفي القضاء على الوحدة قضاء على المقاومة الجزائرية وهكذا وضعت فرنسا المشروعات لهذا الهدف المارق ، فجعلت اللغة الفرنسية لغة الدولة الرسمية ، ووضعت الحواجز للحد من إنتشار اللغة العربية والإسلام ، فأصدرت في ٢٤ ديسمبر ١٩٠٤ قانوناً يقضي « بأنه لا يجوز لأي معلم مسلم أن يفتح أو يتولي إدارة مكتب لتعليم اللغة العربية إلا بترخيص من عامل المنطقة أو قائد الفيلق العسكري ، ومن يخالف ذلك يعتبر مستولاً أمام القانون ، ويُعاقب بالحبس أو الغرامة أو بكلا العقوبتين » وكان هذا الترخيص في الواقع عقبة من العسير تخطيها ، ولم يكتف الاستعمار بهذا ، بل عمد لمحااربة المدارس التي كانت قد فتحت قبل هذا القرار ، فأصدر قراراً يفرض على معلمي المكاتب العربية معرفة اللغة الفرنسية ، ولما كان معظم هؤلاء المعلمين من خريجي « جامعة الزيتونة » بتونس ، أو « جامعة القرويين » بالمغرب ، ولا يعرفون الفرنسية ، فقد كان هذا القرار سبباً لإغلاق عدد كبير من المدارس الأهلية ^(١) .

والحق أن فرنسا نجحت في مضمار محااربة اللغة العربية إلى حد كبير ، وقد كنت باندونيسيا إبان الزيارة الرسمية التي قام بها السيد عباس فرحات رئيس

(١) شمال افريقية للأستاذ سعيد العريان وآخرين ص ٧١ .

حكومة الجزائر المؤقتة آنذاك ، وفي مطار جاكارتا احتشد آلاف المستقبليين واستمعوا لكلمة رئيس حكومة إندونيسيا مرحباً بالضيف الكبير ، وتلاه رئيس حكومة الجزائر العربية فألقي كلمته باللغة الفرنسية ، وكانت كلمة تحمل النار المضطربة ضد المستعمر ، ولكنها للأسف كانت بلغة المستعمر ، وكانت دليلاً علي حدة النضال بين القوة الفرنسية والإيمان الجزائري ، ومثل هذا ما حصل عندما زارت المجاهدة الجزائرية جميلة بوحريد القاهرة ، فقد تكلمت بلغة فرنسية، وذكرت أنها تخجل من أن يكون حديثها باللغة الفرنسية ، ولكنها أخذت ذلك دليلاً علي عنف الاستعمار وتدخله القاسي في إرادة الشعوب .

واستدار المستعمر لمحاربة الإسلام ، ونقتبس في هذا المجال فقرات من التقرير الرسمي الذي رفعته إلي الملك شارل العاشر ملك فرنسا لجنة التحقيق الفرنسية التي أوفدت للجزائر سنة ١٨٣٣ لتنقل للسلطات الفرنسية صورة تصرفات قوي الاحتلال مع السكان الأصليين ، يقول التقرير :

« لقد أهدرت السلطات الفرنسية حقوق الشعب وداست مقدساته وسلبت حرياته ... وضمت السلطات الفرنسية أعيان الأوقاف الدينية إلى مصلحة الأملاك واعتدت على الملكية الفردية ... ودنس جنودنا المساجد ، ونبشوا القبور ، وانتهكوا حرمة منازل المسلمين ... وأعدمت السلطات الفرنسية شيوخاً من أولياء الله الصالحين لأنهم تجرأوا على الشفاعة لمواطنيهم ... وألقت السلطات في السجون بعض شيوخ القبائل الأبرياء لأنهم آووا جنوداً فرنسيين كانوا قد فروا من المدينة ، وأنعمت هذه السلطات بالأوسمة على الخونة الذين باعوا بلادهم باسم المفاوضة » .

ويختم التقرير بالجملة الآتية : « وجملة القول أن السلطات الفرنسية فاقت في تصرفاتها الوحشية جرائم البرابرة الذين ذهبت قواتنا - فيما تزعم - لتحمل إليهم نور المدنية ، فكيف يجوز لنا بعد ذلك أن نشكو من مقاومة الجزائريين للاحتلال الفرنسي » ؟ (١) .

(١) نقلاً من شمالي إفريقية للاستاذ سعيد العريان وآخرين ص ٣٦ - ٣٧ .

ويصف مسيو برك أحد كبار الموظفين الفرنسيين بالجزائر ما يلاقيه الإسلام بالجزائر من تعنت وتحذ بقوله : لقد وصل بنا امتهان الدين الاسلامى واحتقاره ، إلى درجة أننا أصبحنا لا نسمح باختيار المفتى أو الامام إلا من بين الذين اجتازوا سائر درجات التجسس ولا يمكن لموظف دينى أن ينال أى رقى إلا إذا أظهر للإدارة الفرنسية إخلاصا منقطع النظير ^(١) .

ومن الوسائل التى اتخذت لمحاربة الاسلام هدم المساجد وإضعاف القضاء الشرعى ، ومن أمثلة هدم المساجد أن مدينة الجزائر كان بها وحدها ١١٢ مسجدا فلم تبق السلطات منها إلا خمسة وهدمت الباقى أو حولته إلى كنائس ، ومن المساجد التى حولت إلى كنائس مسجد كتشاوة الذى أصبح كاتدرائية ، ومسجد على تبشى الذى أصبح كنيسة باسم « قديسة الانتصار » ^(٢) .

واستولى الاستعمار على أموال الأوقاف التى حُبست على التكايا والربط وتعليم الإسلام ، وحارب الاستعمار القضاء الشرعى فقلل من محاكمه ، وجعل من حق المتقاضى أن يستأنف الحكم الصادر منها أمام المحاكم الفرنسية كما اعترف الاستعمار بالقضاء المبني على العرف القبلى لإثارة النزعة العنصرية بين السكان ^(٣) .

وفى الوقت الذى كان الإسلام يحارب وتُغلق مدارسه وتصادر أوقافه ، كانت التسهيلات تمنح بسخاء للمبشرين المسيحيين ليعملوا على نشر المسيحية فى الجزائر ، ويتلخص برنامج التنصير الذى أسسه الكردنال لافيجرى منذ عام ١٨٦٧ فيما جاء على لسانه من أنه « يجب أن نجعل من الأمة الجزائرية مهذا لأمة مسيحية كريمة ، وأن نضئ أرجاءها بنور مدنية ، وحِيها الانجيل ، وأن نربط مصير إفريقية بحياة الشعوب المسيحية ... تلك هى رسالتنا الأبدية » .

(١) انظر (هذه هى الجزائر) للاستاذ محمد توفيق المدنى ص ١٩٤٨ .

(٢) هذه هى الجزائر ص ١٤٠ بالهامش .

(٣) انظر افريقية الإسلامية للدكتور عبد الرحمن زكى ج ١١٠ - ١١١ .

(التاريخ الإسلامى ج ٤ م ١٨)

الإبادة والتشريد :

قلنا من قبل إن وزير الحربية الفرنسية وضع دستور إبادة الجزائريين أ تشريدهم منذ ظهرت استحالة «فرنستهم» وسنقتبس هنا فقرات قصيرة عن بعض الوقائع والتصرفات الوحشية كنموذج لهذه السياسة العمياء ، وسنجعل اقتباساتنا مما دونه الكتاب الفرنسيون أنفسهم ^(١) .

يقول المؤرخ كريستيان فى كتابه « افريقيا الفرنسية » :

« تلقى الجند أمرا من القائد العام الجنرال روفيقو ، بالخروج من مدينة الجزائر ليلة ١٦ أبريل سنة ١٨٣٢ ، ففاجأ بهم قبيلة العوفية عند الفجر وهى نائمة تحت خيامها ، وأمعن فى ذبح أولئك المساكين الذين لم يستطع أى واحد منهم الدفاع عن نفسه ، وهكذا وقع قتل كل نفس حية فى القبيلة ، دون أى تمييز بين جنس وسن . وعند الرجوع من هذه الحملة المخجلة (كذا بالأصل) كان الفرسان الفرنسيون يحملون رؤوس القتلى على أسنة رماحهم .

ويقول الجنرال شانقارنيبي : لقد كانت التسليحة الوحيدة التى أستطيع أن أسمح بها للجند أثناء فصل الشتاء ، هى السماح لهم بغزو القبائل المعادية التى تسكن فيما بين وادى الحراش وبورقيقة .

ويقول المؤرخ دهبوزايد عن ذلك ما نصه : أما الغنيمة من الحيوان فى هذه الغزوات فقد بيعت إلى ممثل قنصلية الدافارك . وأما بقية الغنائم الصامتة فقد عرضت للبيع فى سوق باب عزون ، وكان من بين الغنائم أساور نساء وهى لاتزال فى أيديهن المقطوعة ، وأقراط نساء لاتزال تلتصق بها قماش من آذانهم . ثم وزع ثمن كل ذلك على السفاكين من رجال الطابور الفرنسى ، وفى ذلك اليوم أصدرت السلطة أمرها لسكان الجزائر المسلمين بأن يضيئوا ليلا حوانيتهم ، اظهارا لسرورهم بذلك الانتصار .

(١) نقلا من كتاب «هذه هى الجزائر» للاستاذ أحمد توفيق المذنى ص ٩٥ وما بعدها .

أما حديث حريق الكهف الذى آوت إليه قبيلة مع حيواناتها ، سنة ١٨٤٤ ،
فأمرأة أمام الجنود الفرنسيين ، فقد صار مضرب المثل فى الخساسة والدناءة
والوحشية ، إذ ما كان الجنود يكتشفون ذلك الكهف الفسيح ، حتى وضعوا
أمامه وعلى مداخله أكواما من الخطب والقش ، ثم أوقدوا فيها النيران ،
واستمروا يغذون تلك النار ليلة كاملة . فما جاء الصباح ، ودخل الجند الكهف ،
حتى كانت جثث ٧٨٠ من الضحايا البريئة بين رجال ونساء وأطفال ، مفككة
الأوصال ممزقة الأشلاء ، تحت أقدام الثيران والحيوانات التى دفعتها غريزتها
لطلب النجاة ، فداست كل شئ ثم لقيت حتفها مع الناس .

ومن أفظع ما شوهد داخل الكهف ، رجل أسلم الروح وهو ممسك بقرنى أحد
الثيران وخلفه امرأته وابنه الصبى ، كأنه كان يدفع عنهما الثور الهائج من شدة
اللهب ، وقد مات الجميع على ذلك الوضع . ولما وصف أحد النواب الفرنسيين
هذه الأساليب بالوحشية ، أجاب رئيس الحكومة بأن هذه الأعمال قد تكون
وحشية لو أن الحرب كانت فى أوروبا ، أما فى إفريقيا فهذه هي الحرب بعينها .

ويقول سانت أرنو أحد القواد الفرنسيين فى كتاب مطبوع يعتبر ديوانا
للفظائح والفضائح : لقد كنت أستطيع مع جنودى اقتفاء أثر أية فرقة فرنسية
دون أن أضل الطريق ، لأننى كنت أسير على هدى الحرائق التى تشعلها فى
القرى والدواوير العربية .

ولنختم هذه الصفحة البشعة من تاريخ الاستعمار الفرنسى للجزائر بفقرة من
تقرير لجنة البحث الرسمية التى بعث بها ملك فرنسا لإطلاع البرلمان على حقيقة
ما وقع فى الجزائر وهذه الفقرة هى :

« لقد ذبحنا جماعة من الناس كانت تحمل جوازات مرور موهورة بختمنا ،
وقد أبدنا فى مذابح عامة - لمجرد الشك - طوائف عديدة من السكان ، تبين
فيما بعد أنها كانت بريئة مما اتهمناها به . ولقد حاكمنا جماعة من وجوه القوم
وأشراف الأمة ورجال الصلاح فيها ، ما كان لهم من ذنب إلا أنهم تقدموا أمام

بطشنا ، يسألوننا الشفقة والرحمة ببناء البلاد المساكين ، ولقد وجدنا حكاما منا يصدرن أحكاما بإعدامهم ، وجدنا جلادين منا يقومون بتنفيذ تلك الأحكام . إننا قد فقنا فى أعمال الوحشية ، هؤلاء الذين جئنا لتمدينهم .

ومما قاله أحد نواب فرنسا أثناء مناقشة هذا التقرير : إننا قد ارتكبنا فى ثلاثة أشهر ، من الفظائع وأعمال التنكيل ، أكثر مما نسب للأتراك خلال ثلاثمائة سنة (١) .

الاستيلاء على مصادر الثروة :

تعتبر الأرض الزراعية من أهم مصادر الثروة فى الجزائر ، وقد حرص المستعمر على أن يضع يده عليها بمجرد استيلائه على الجزائر ، وكانت أرض الأوقاف الإسلامية أول أرض صدرت القرارات بمصادرتها سنة ١٨٣٠ ، ثم صدرت فى نفس العام أملاك أبناء الجزائر الذين ينحدرون من أصل تركى ، وفى سنة ١٨٣٢ صدر قرار يقضى باستيلاء الدولة الفرنسية على كل أرض لا يملك صاحبها عقدا بملكيتها ، وهناك آلاف من الأقدنة استولى عليها الفرنسيون لعدم وجود صك ملكية ، إذ كانت قد توارثها أبناء القبيلة عن أسلافهم ، وربما كانت فى الأصل أرضا مواتا أحياها الأجداد السابقون . وفى سنة ١٨٤٦ صدر قرار بامتلاك الدولة لكل الأراضى التى تقيم بها القبائل الرحالة ، وعقب هزيمة الزعيم محمد المقرانى سنة ١٨٧١ صدر قرار بمصادرة جميع الأراضى فى منطقة الثورة .

وهكذا استولت السلطة الاستعمارية على أكثر الأراضى وأجودها ، ويعترف الإحصاء الرسمى الفرنسى بأن توزيع الأرض الجزائرية انتهى إلى الوضع الآتى :
..... ٥ هكتار تملكها الدولة الفرنسية ومنها أرض الأوقاف الإسلامية .
..... ٤ هكتار تملكها البلديات أى النظام الفرنسى المحلى .

(١) من سجلات مجلس الأمة الفرنسى .

٢,٥٠٠,٠٠٠ هكتار يملكها ٢٦,٠٠٠ مستعمر فرنسى وأوروبى .

٨,٥٠٠,٠٠٠ هكتار يملكها تسعة ملايين من الجزائريين .

ويلاحظ أن الأرض التى وضع الاستعمار عليها يده هى الأرض الساحلية والخصبة ، أما الأرض التى تركت للجزائريين فهى الجبال والنجود والصحراوات وقد أقامت فرنسا فى هذه المساحات مستعمرات زراعية وجلبت آلاف الأوربيين حيث وزعت عليهم الإقطاعات ، ويسرت لهم أحدث الطرق فى الزراعة بينما ترك الجزائريون فى أرضهم القاحلة يزرعونها بالأساليب العتيقة .

ولم يقف الاستعمار عند الأرض الزراعية ، بل تعداها إلى جميع مصادر الثروة فاستولى على الثروة المعدنية ، وعلى مراكز الصناعة وأسواق التجارة ، ونشر البطالة والجوع بين أصحاب البلاد .

حرمان الجزائريين من العلم :

تحدثنا من قبل عند الكلام عن « محاربة اللغة العربية والإسلام » عن الوسائل التى اتبعتها فرنسا لتقفل مئات الكتاتيب والمدارس التى كان يديرها الجزائريون ، واستطاعت فرنسا بهذه الأساليب أن توصل هذه الأبواب التى كانت تنشر العلم والنور ، ولم تفتح فرنسا بديلا لهذه المعاهد التى أمر الاستعمار بالقضاء عليها .

نعم فتحت فى الجزائر مدارس ومعاهد ، ولكنها كانت مدارس فرنسية دما ولحما ، كل عنايتها باللغة الفرنسية والتاريخ الفرنسى والحضارة الفرنسية ، أما اللغة العربية فيغلب أن يهمل شأنها ، ويقل أن توجه لها عناية محدودة بالمدارس الابتدائية ، حيث تعلم على أنها لغة أجنبية أو لغة قديمة كاللاتينية ، وأما الدين الإسلامى فلا عناية به على الإطلاق ، ومع هذا فلم تكن هذه المدارس مفتوحة لأبناء الجزائر ، وإنما كانت للفرنسيين والأوربيين ، وكان أبناء الجزائر فيها قلة ، غرباء فى ديارهم ، ولندجاً إلى بعض الأرقام لتقرير ذلك من

احصائيات التعليم بالجزائر سنة ١٩٥٥ .

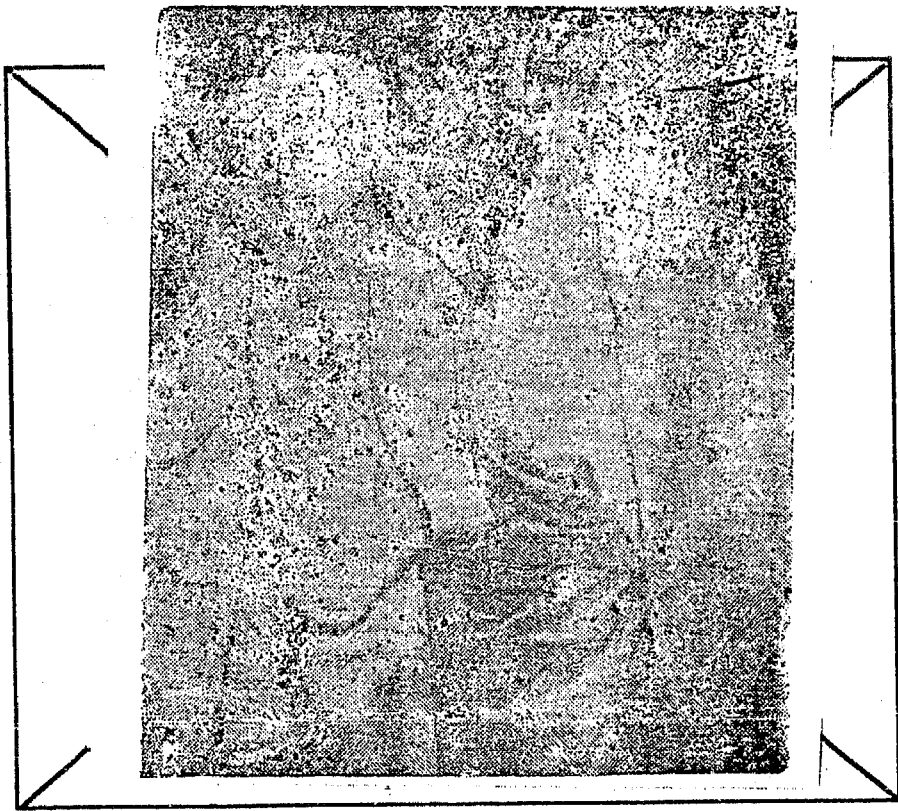
المدارس الابتدائية بالجزائر تفتتح أبوابها لجميع الأوروبيين واليهود أى نحو ١٥٠,٠٠٠ تلميذ ، ولا يقبل من أبناء الجزائريين إلا نحو ١٠٪ من الأولاد الذين هم فى سن التعليم .

أما فى المدارس الثانوية فتقل نسبة الجزائريين جدا ، ويبدو أن الإدارة الفرنسية سمحت لبعض الجزائريين بالالتحاق بالمدارس الابتدائية ، واكتفت بهذا المستوى لهم ، فلم تسمح إلا لنسبة ضئيلة جدا بالالتحاق بالمراحل العلمية الأخرى ، فتلاميذ المدارس الثانوية عددهم ٣٤,٨٦٨ منهم ٥٣٠٠ فقط من الجزائريين وطلاب الجامعة الجزائرية عددهم ٥١٤٦ طالبا من بينهم ٥٥٧ طالبا جزائريا فقط .

وبسبب هذا الحرمان من مدارس الحكومة ، وبسبب إغلاق المدارس الأهلية ، كان بعض الجزائريين يعلمون أولادهم داخل المنازل ، وفى سرية تامة كإنما كانوا يرتكبون منكرا يعاقب عليه القانون ، أما الغالبية العظمى فقد شملها الجهل والامية .

المرأة الجزائرية :

انجذبت الاستعمار إلى المرأة الجزائرية رجاء أن يخلعها من المجتمع العربى ويدفعها نحو المجتمع الغربى ، وكان الاستعمار يأمل من وراء ذلك أن تكون المرأة وسيلة يذوب على أثرها المجتمع الجزائرى فى المجتمع الفرنسى ، فقد اعتقد الاستعمار أن المرأة مفتاح المجتمع الجزائرى كما هى مفتاح أى مجتمع آخر ، فأرادت فرنسا أن تذيب المجتمع الجزائرى عن طريق المرأة وعن طريق اجتذابها نحو التقاليد الفرنسية ، وكانت أول خطوة لذلك هى أن تعمل فرنسا على أن تتخلص المرأة الجزائرية من الحجاب و « الحايك » فالحجاب والحايك حاجز حصين بين التقاليد الفرنسية والتقاليد الجزائرية ، وتمسكت المرأة الجزائرية



بالحجاب والحايك لا حبا فيهما ولا جمودا وإيمانا بالقديم ، بل تمسكا بالحاجز الذى يرمز لإصرار المرأة الجزائرية ألا تذوب فى المجتمع الذى تدعو له فرنسا .

وقد كتب الأستاذ أحمد بهاء الدين فى صحيفة أخبار اليوم ^(١) تحقيقا صحفياً عنوانه « ١٥٠ ساعة فى الجزائر » شرح فيه الدور الذى حاولته السياسة الفرنسية للتأثير فى المرأة الجزائرية لتجعلها تتمرد على تقاليد قومها وعادات وطنها ، قال :

ومن الوهلة الأولى ، يندهش الزائر لانتشار الحجاب و « الحايك » إلى هذا الحد ، والحجاب هو مثلث من القماش الأبيض المطرز فى نهايته ، يغطى الوجه و « الحايك » هو الاسم المحلى للمعلاة البيضاء الواسعة التى تلتف المرأة

(١) عدد أول ديسمبر سنة ١٩٦٢ .

المحتجبة بها .

ويندهش الزائر لانتشار الحجاب و « الحايك » فى مجتمع قريب من أوروبا إلى هذا الحد ، وممتزج بالأوروبيين على هذا النطاق ، فى مجتمع خاض غمار ثورة تقدمية لا نظير لها ، اشتهرت خلالها البطولات جنبا إلى جنب مع الأبطال . . . وذاع صيت « الجميلات » أو بالأحرى « الفاطمات » اللاتى يقجرن القنابل ويحملن المدافع الرشاشة ويصمدن للتعذيب الوحشى فى أعمال السجون فكيف صمد هذا الحجاب الحريرى الرقيق فى وجه كل هذه الأحداث ؟

من حديثى مع الجزائريين ، ومن قراءتى لكتاب بديع اسمه « الثورة الجزائرية فى عامها الخامس » للمرحوم المناضل الدكتور فرانس فانون ، خرجت بالإجابات التى أسجلها فيما يلى :

منذ سنة ١٨٣٠ تقريبا بدأت معركة الاستعمار الفرنسى ضد الحجاب ، ولم تكن معركة بريشة تستهدف تحرير المرأة وتطويرها بدليل عدم اهتمام الاستعمار بتحرير الرجل وتطويره ، وإنما كانت معركة تستهدف القضاء على شخصية المرأة الجزائرية وعلى موقفها الاجتماعى ، ثم تستهدف إذابة المرأة الجزائرية فى الشخصية الأوروبية .

ولم يكن هذا قرارا « إداريا » اتخذته الإدارة الفرنسية ، ولكنه كان قرارا توصل إليه خبراء فرنسا فى العلوم النفسية والاجتماعية والسياسة . . وقد صاغوا قرارهم هذا فى عبارة شهيرة هى : اكسبوا النساء أولا والبقية تتلو .

ذلك أن خبراءهم قالوا لهم : إن المجتمع العربى بوجه عام ، وإن كانت تسوده فى الظاهر سلطة الأب ، فإن الذى يؤثر فيه ويوجهه فى الخفاء وخلف الحجب والأستار ، سلطة الأم والحالة ، والجدلة العجوز .

وبناء على ذلك فما على فرنسا إلا أن « تغزو النساء أولا » ، وبذلك تكسب عنصر المقاومة والعزلة والمقاطعة فى المجتمع الجزائرى . . على فرنسا أن تفتش

عن المرأة الجزائرية ، خلف حجابها ، وحيث يخيفها الرجل » .

ثم إن هذا سوف يكسب الإدارة الاستعمارية صورة تقديمية ، فهذه الإدارة الاستعمارية سوف تدعو إلى « تحرير » المرأة المظلومة ، المضطهدة السجينة خلف حجابها ، وخلف مشربيتها ، انها فرصة ذهبية لوضع الرجل الجزائرى فى قفص الاتهام ، وإيقافه فى موقف الظالم . . المتعسف . . المستبد .

كذلك فإنها فرصة لإلقاء تبعة التخلف والتأخر والفقر والأمية ، لا على عاتق الاستعمار والاستغلال الأجنبى ، ولكن على عاتق المجتمع الجزائرى وعلاقاته الداخلية المختلفة .

كان المستعمر يعتقد - بوجه عام - أنه كلما قل « الاختلاف » بين المجتمع الجزائرى والمجتمع الأوروبى ، كلما قلت مقاومة المجتمع الأول لسطوة الثانى ، وقلت قدرته على المقاومة ، والتمنع ، والرغبة فى الاحتفاظ بشخصيته الاصلية.

كانت الدعوى الأساسية للاستعمار الفرنسى فى الجزائر هي أنه لا يوجد شىء اسمه شعب جزائرى ، ولا يوجد شىء اسمه شخصية جزائرية ولذلك فقد كانوا حرسين أولا وقبل كل شىء على تدمير كل ما يمكن أن يميز هذا المجتمع الجزائرى ويذكره بأن له شخصية مستقلة حتى ولو كان هذا المثلث الرقيق من القماش الأبيض .

وكان المجتمع الجزائرى ، كلما اشتدت ضراوة الهجوم على ملامحه هذه ، لا يفكر إلا فى أن يزداد تمسكا بها ، وتأكدا لاستمرارها .

وقد بلغ الهجوم الفرنسى على الحجاب درجة وصلت أحيانا إلى أن بعض المصانع والمؤسسات ذات الإدارة الفرنسية كانت تعمد إلى إقامة حفلات تدعو إليها كل جزائرى يعمل فيها للحضور مع زوجته ، ويقول رئيس العمل الفرنسى لمروسة الجزائرى : إن المصنع أسرة كبيرة فيجب أن تحضر زوجتك وبناتك ، هل هن محجبات ؟ مستحيل ، ويتأزم الرجل الجزائرى ، هل يحضر زوجته إلى

الحفلة، وبذلك يكون قد خضع لمشيئة الفكر الفرنسى .. أو يقول له : زوجتى لن تنزع الحجاب ، ويفقد عمله ؟ . نعم ، فقد كان أحيانا يفقد عمله لهذا السبب .. وكان هذا الإصرار الفرنسى كافيا لأن يقنع الجزائري والجزائرية بأن نزع الحجاب عمل مشبوه .

وهكذا أصبح للحجاب والحايك مغزى جديد ، وهكذا اكتسب القوة والبقاء ، وإزاء تركيز الاستعمار الجهد ضد الحجاب عمّد الوطنيون إلى تقديس الحجاب ، وإزاء محاولة الاستعمار نزع الحجاب كدليل على « التعايش السلمى » بين المجتمعين الأوروبى والجزائرى ، احتفظ الجزائريون بالحجاب كدليل على المقاومة السلبية للمجتمع الأوروبى .

وهكذا .. بعد أن كان الحجاب شيئا يعبر عن موقف المرأة من الرجل .. أصبح رمزا على موقفها - بل وموقف أسرتها - من الاحتلال .

وقد كانت « صحوة الموت » بالنسبة للاستعمار الفرنسى فى الجزائر هى : ثورة المستوطنين فى ١٣ مايو سنة ١٩٥٨ ، وإسقاط الجمهورية الرابعة فى فرنسا ، واستيلاء ديغول على الحكم .

يومها فتش الاستعمار فى دفاتره القديمة عن كل سلاح مفلول ، يحاول أن يجريه لآخر مرة . ومن بينها سلاح السفور وتحرير المرأة الجزائرية .

وعقد سوستيل اجتماعات « شعبية » سيق لها الناس بالقوة . وخطب داعياً إلى تحرير المرأة ، وتحث ضغط السلاح أكرهت بعض النساء على خلع الحجاب فى حركة مسرحية أمام الجماهير بعد الخطاب .

وكان هذا الحادث كله كأنه كلمة سر ، ففى اليوم التالى لم تظهر امرأة جزائرية واحدة فى الطريق سافرة .. حتى اللواتى كن أسفرن عن وجوههن عدن إلى الحجاب .. كأنهن يقلن للمستعمر أن المرأة الجزائرية لا تخلع حجابها بدعوة من المستعمر ..

* * *

ربما كان فى هذ التصوير بعض المبالغة التى تدعو لها طبيعة الكتابة الصحفية ، والذى نراه أن الدوافع التى ذكرها الأستاذ بهاء الدين صحيحه إلى حد كبير ، وكان من نتائجها أن تمسكت المرأة الجزائرية بالحجاب ، ثم أصبح ذلك تقليدا لا يلزم أن تفلسفه كل امرأة ، ومن الطبيعى أن تغير التقاليد يحتاج لبعض الوقت وبعض الجهد .

* * *

وهكذا سارت فرنسا فى عدة طرق لفرنسة شعب الجزائر أو لإبادته أو طرده إلى قمم الجبال وجوف الصحراء ، ولكن فرنسا فشلت فى كل المحاولات ، وحافظ شعب الجزائر على إسلامه وعرويته وتقاليده ، وخرج من المعمة مزهواً مرفوع الرأس ، بعد أن خاض معركة ضخمة ، وقاوم مقاومة عنيدة ، وانتهت بأن ذل المستعمر واستسلم ، وسندرس فيما يلى أهم حركات هذه المقاومة :

حركات المقاومة

يمكن القول أن ثورات الجزائر كانت متصلة منذ وُظنت قدم المستعمر أرض الوطن حتى انزاحت عنه ، وكانت تتوقف ثورة هنا لتبدأ ثورة هناك على الرغم مما يلاقيه الشائرون من قسوة ووحشية تعدت الإنسان أحيانا إلى الحيوان ، بل امتدت الوحشية إلى الأشجار فأزالتها ، وإلى المساكن فدمرتها ، والآبار فردمتها ، ومع هذا كانت حركات المقاومة لا تهدأ ، وكان الإصرار على الحرية لا يخفت ، ومن بين هذه الحركات الثورية ، برزت ثورات عارمة كانت أكثر استعدادا وأبعد نتائج ، وسنذكر فيما يلى إلمامة عن هذه الثورات الكبيرة ، مع ملاحظة أن هذه الثورات الوطنية كانت فى نفس الوقت ثورات إسلامية ، اشترك فى الكثير منها قادة الطرق الصوفية والشيوخ والفقهاء كما سنرى فيما بعد .



الأمير عبد القادر الجزائري

الأمير عبد القادر الجزائري

ثورة الأمير عبد القادر الجزائري :

ما إن وضع الاستعمار قدمه في الجزائر حتى هبت ثورة القبائل عنيفة صارمة، وكان يقودها محيي الدين الحسني أحد زعماء الأشراف ، فظل يحارب سنتين ثم تخلى عن القيادة سنة ١٨٣٢ لانه البطل الامير عبد القادر ، ورغبة منه في أن تكون الثورة قتل الجزائر كلها ولمصلحة الشعب الجزائري كله ، اتخذ لنفسه لقب الجزائري ، والتف حول الأمير عبد القادر آلاف من الشبان ، وأيدته القبائل تأييدا تاما ، وأعلنها حربا دينية على المستعمرين الكفرة ، فقد كان الأمير عضوا في الطريقة الدرقاوية الصوفية مما جعل كفاحه يتسم بالطابع الديني ، وبفضل نضال الأمير ورجاله لم يستطع الاستعمار أن يتعمق في داخل البلاد ، وظل على الساحل مهددا بهجمات القوى الوطنية التي تعمل بصدق وإيمان لتحرير الوطن العزيز . وسيطر عبد القادر وقواته على ثلثي الجزائر ، ووصلت قوة عبد القادر ذروتها سنة ١٨٣٩ فطالبت فرنسا بعقد معاهدة مع الأمير ، وتمت هذه المعاهدة ، فاعترفت فرنسا للأمير بالسلطة فيما تحت يده ، وعاملته معاملة الند ، وتبادل الطرفان الأسرى .

وكانت هذه المعاهدة للأسف حلقة انتقال لصالح فرنسا ، ذلك لأن بعض اتباع الأمير نفسوا عليه ما حصل عليه من مكانه ، ولم يستجيب آخرون للاستمرار في دفع الضرائب التي يبنى بها الأمير نفسه ويقوى جيشه ، كما أن الأمير قيد نفسه بقيود في هذه المعاهدة سببت ضعفه ومنها عدم شرائه الأسلحة إلا من فرنسا ، ووربط اقتصاده باقتصاديات فرنسا .

هذا من جهة الجبهة الجزائرية أما الجبهة الفرنسية فلن تكن مخلصه في هذه المعاهدة ، بل أرادتها وسيلة لتخلص نفسها من أزمة الهزائم أمام الأمير ، ولتعيد بناء قواتها بالجزائر ، وقد صرح بيجو الذي عقد المعاهدة بذلك ، إذ قال عند مناقشتها بالبرلمان الفرنسي « ان الدول تلتزم بمعاهداتها طالما كانت هذه المعاهدات تخدم مصالحها » .

ولم تدم هذه المعاهدة أكثر من بضعة شهور ، استعادت فرنسا خلالها نشاطها وقوت حاميتها بالجزائر حتي وصلت ١٨٠ ألف مقاتل مزودين بأضخم الأسلحة ، ثم أسفر عداؤها ، وبدأت المعارك مرة أخرى ، ولكن كان الزمام هذه المرة بيد فرنسا ، وعمد الفرنسيون إلي وسيلة غير كريمة في صراعهم مع الأمير ، تلك هي إحراق القرى وتدمير الزراعة ، بقصد تجويع الجزائريين ، ولم يستطع الأمير بعد جهاد مجيد طيلة خمسة عشر عاماً أن يستمر في الصراع ، فاستسلم سنة ١٨٤٧ حيث اعتقلته السلطات الفرنسية ، وألقت به في السجن خمس سنوات ، ثم نفى إلي سوريا حيث مات هناك ١٨٨٣ .

ثورة محمد المقراني :

في حرب السبعين مع ألمانيا خرت فرنسا صريعة ، وخشيت أن تسبب هزيمتها نشاطاً ضدها في الجزائر ، فراحت تنكل بالجزائريين وتصليهم كثيراً من العنت ، وأصدرت عدة قوانين جائرة بالنسبة لهم ، منها أنه يجوز للحاكم العام اعتقال أى جزائري يشك في ولائه لفرنسا ، كما يجوز له مصادرة أموال الجزائريين متى رأى ذلك نافعا للاحتلال .

إزاء ذلك هبت ثورات متعددة في الجزائر ، فتشورة في جبل أوراس ، وأخرى بالقرب من وهران ، ولكن أهم ثورات ذلك العهد كانت ثورة الجرجرة التي قادها محمد المقراني سنة ١٨٧١ يؤيده زعيم أعظم طريقة صوفية بالجزائر وهي الطريقة الرحمانية ، وقد انضم للمقراني حوالي مائة ألف من رجال القبائل ، استطاع المقراني أن يكتسح بهم قوات فرنسا ، وأن يستولي علي منطقة كبيرة من الجزائر حتي أصبح غير بعيد من العاصمة ، وقد تنبّهت فرنسا إلي خطورة هذه الثورة فضاعفت قواتها ، وعادت تحرق القرى وتردم الآبار وتسحق كل ما تصل إليه يدها ، وفي هذه المعارك الرهيبة استشهد سترن ألف جزائري وقتل عشرون ألف فرنسي ، وقد سقط المقراني نفسه شهيداً في معركة البويرة إحدى

معاركه الشهيرة سنة ١٨٧١ فتولي أخوه مكانه واستمر في المقاومة حتي وقع أسيراً في مطلع العام الثاني .

وكان من نتائج هذه الثورة أن حكمت فرنسا بالإعدام علي عدد من اشتركوا في هذه الثورة ، وبالسجن علي عدد آخر من أهدوها ، كما فرضت غرامة مالية ثقيلة علي زعماء القبائل ، فلما عجزوا عن دفعها استولت السلطات الفرنسية على أموالهم وأراضيهم بديلا عنها .

تطورات فكرية في القضية الجزائرية :

بعد هزيمة ثورة الجرجرة التي قادها المقراني هبت حركات ثورية أخري ولكنها كانت محدودة الأثر ، واحتلت فرنسا تونس سنة ١٨٨١ واحتلت انجلترا مصر سنة ١٨٨٢ وتحرشت فرنسا بالمغرب وتحرشت إيطاليا بطرابلس ثم احتلالهما في أول العقد الثاني من القرن العشرين وكل هذا أضعف قوة النضال الجزائري ، وجعل الجو مليئاً بالضباب والألم ، وأصبحت تسوية القضية مع فرنسا بشكل يضمن بعض حقوق الجزائريين هو الأمل الذي يتحدث به الناس .

وهبت الحرب العالمية الأولى واشترك فيها الجزائريون بجانب أعداء ، ووضعت الحرب أوزارها ، وأعلن الرئيس الأمريكي ولسن مبادئه التي يعتبر من أهمها حق تقرير المصير ، وقاد الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر هيئة جزائرية وراح يتحدث باسم الجزائريين ، ولكن مطالبه كانت متأثرة بالاعتبارات الحالكة التي سبق إيرادها ، فنادى بوجوب إصلاح الحالة في الجزائر على قاعدة المساواة بين الجزائريين والفرنسيين ، وبإلغاء الأحكام الاستثنائية ، وبإيقاف الهجرة إلى الجزائر وغير ذلك من المطالب الإصلاحية ولم تستجيب فرنسا حتى لهذه الإصلاحات المتواضعة ، ونفت الأمير خالد من الجزائر .

وفى سنة ١٩٢٦ تآلفت فى باريس جمعية « نجم شمالى افريقية » وكان من أهرز مؤسسيتها أحمد الحاج مصالى ، الشهير بمصالى الحاج ، وقد تولى رياستها وعاونه فيها خيرة رجال المغرب العربى ، وفى نفس العام ظهر فى عاصمة الجزائر « نادى الترقى » وكان أحمد توفيق المdney من أهرز مؤسسيه ، ومن نادى الترقى نشأت فكرة تكوين « جمعية العلماء المسلمين الجزائريين » التى قاومت البدع والضلالات الدينية ، وعملت على إحياء الثقافة الإسلامية الحقيقية ، وكان اتجاهها ذا صلة بالفكر الذى حمل لواء جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده .

قفزة فى المطالب :

وسارت هذه القوى أو تلك الدعائم يسند بعضها بعضا ، وكان أثرها واضحا فى الحياة الجزائرية ، ومهد ذلك للتطور الفكرى الضخم الذى شهدته القضية الجزائرية بعد ذلك ، فبينما كان الاتجاه العام يرمى إلى المناداة بإصلاحات شبيهة بتلك التى نادى بها الأمير خالد ، إذ وقف مصالى الحاج متحدثا باسم « نجم شمالى افريقية » فنقل الاتجاه من هدف إلى هدف ، ونقل الفكر الجزائرى بوضوح وعلائية من دائرة إلى دائرة . فقد أعلن أن مطلب الجزائر شئ أعلى وأعز من هذه الإصلاحات ، إنه الاستقلال التام للجزائر وللوطن المغربى كله ، وهتف : « الجزائر بلادنا ، والعربية لغتنا ، والإسلام ديننا » وطالب بإرجاع الأرض المغتصبة للجزائريين ، ويانسحاب جيش الاحتلال من القطر الجزائرى ، وكانت تلك هى الصرخة التى دوت فلم تخمد ، وذلك هو المشعل الذى ارتفع فلم يهمد (١) .

وأزعج هذا النداء السلطات الفرنسية فقاومت به وسائل مختلفة كان من أهمها حل جمعية « نجم شمالى إفريقية » فى مارس سنة ١٩٣٧ وسرعان ما أعلن السيد مصالى الحاج فى نفس الشهر « تأسيس حزب الشعب الجزائرى » بدلا

(١) أحمد توفيق المdney : هذه هى الجزائر ص ١٦٤ .

من جمعية « نجم شمالي إفريقية » وقد طبع هذا الحزب الشعب الجزائري بطابعه الاستقلالي الثوري ، واستجاب الشعب لنداء هذا الحزب استجابة منقطعة النظير، وكان جواب الحكومة الفرنسية على قيام هذا الحزب أن ألقت القبض على الزعيم مصالى الحاج وبعض رفاقه بدعوى أنهم أعادوا تنظيم مؤسسة حلها القانون ، وحكم عليهم بالسجن ، ولكن حزب الشعب انطلق كالشهاب الثاقب ، ولم ترده مظالم الاستعمار ولا مكائد الحكومة (١) .

وأعلن زعماء حزب الشعب تأسيس حزب جديد هو «حزب انتصار الحريات الديمقراطية» ووجهت فرنسا اضطهادها لهذه المؤسسة الجديدة ، ولكن هذه المؤسسة بدأت تنقسم على نفسها ، وظهر فيها تياران يتزعم أحدهما الزعيم مصالى الحاج رئيس الحزب ، ويتزعم الثانى الشباب المثقف من أعضاء الحزب ، ويروى الأستاذ أحمد توفيق المدنى قصة هذا الانقسام ونتيجة بقوله (٢) :

بينما كان رأى الرئيس فيما سبق هو الراجح ، وإرادته هى العليا ، أصبحت آراؤه تناقش ، وإرادته تعارض أحيانا من قبل الأغلبية ، فأعلن الرئيس أن هذه الطريقة تؤدى إلى فساد الحزب واضمحلاله وانحلاله ، وطالب بإعطائه «التفويض المطلق» فى سياسة الحزب ، فرفضت الأغلبية عليه ذلك ، وأصبح الانقسام ضربة لازب ، إذ تمسك السيد مصالى برأيه ، وهاجم أغلبية اللجنة المركزية هجوما عنيفا وأذاع أمر ذلك الخلاف على الناس .

ففى أيام ١٣ و١٤ و١٥ يوليو سنة ١٩٥٤ ، انعقد فى بلجيكا مؤتمر الحزب ولم يحضر اجتماعه اللجنة المركزية ، وقرر السيد مصالى وأنصاره فصل أعضاء اللجنة المركزية من الحزب وتفويض الرئيس فى إدارة سياسة الحزب وتوجيهها حسبما يراه صالحا .

(١) هذه هى الجزائر ص ١٦٨ - ٢٦٩ .

(٢) المرجع السابق ص ١٩٠ - ١٩١ .

(التاريخ الإسلامى ج ٤ م ١٩)

لكن لم يمض على ذلك شهر واحد ، حتى عقد رجال اللجنة المركزية مؤتمرا فى مدينة الجزائر أيام ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ أغسطس سنة ١٩٥٤ أعلنوا فيه أن الزعامة الفردية قد انقضى أجلها ، وأعلنوا فصل السادة أحمد الحاج مصالى ومؤيديه من الحزب ، وأن رجال اللجنة المركزية هم الذين يمثلون الحزب ويدبرون سياسته ، ويتولون توجيهه .

ووقعت من جراء الانقسام بعض الحوادث المؤلمة ، بين الإخوان الذين كانوا إلى الأمس القريب يدا واحدة ، يوجهون الأمة نحو حركة تحرير فى معركة طاحنة ، لكن الأمة حسمت بدمائها وبأرواح شهدائها هذا النزاع .

* * *

ومن الجماعات التى جاهدت فى سبيل الحرية وناضلت من أجلها جماعة أحباب البيان والحرية ، وهى تضم عددا وفيرا من المكافحين والعلماء ، كلفوا عباس فرحات بإعداد بيان ليصدر باسمهم ، فأعده عباس فرحات ، وفحواه المطالبة بالاستقلال وأنه مطلب الجميع ، وتجمعت الجموع حول هذه الطائفة فسميت باسم ذلك البيان « أحباب البيان والحرية » .

الثورة الكبرى :

بطش الفرنسيون بكل القوى المناضلة ، وأوقعوا بالمنادين بالاستقلال ضروبا من العسف كان منها القتل والنفى والسجن ، وجاء يوم ٨ مايو سنة ١٩٤٥ إبان احتفال الحلفاء بالانتصار على المحور فخرج الجزائريون يهتفون بمطالبهم فى الحرية والاستقلال فى مظاهرة كبيرة ، فاعتدى عليهم الجنود الفرنسيون كما اعتدوا على غيرهم من الآمنين ، وحدثت مذبحة رهيبة شملت الرجال والنساء والأطفال ، وكان الدم يجرى فى الشوارع أحمر قانيا ، ودمرت قرى بأكملها ، وحلت كل الهيئات وزج بأنصارها فى السجون ، ودفن بعض المثقفين أحياء .

وكانت هذه المجزرة هى الأساس للإعداد للثورة الكبرى ، فإن لقيفا من

الشبان بدءوا منذ ذلك اليوم يعدون العدة لثورة العمالقة ، وأحست فرنسا بالخطر فحاولت أن تخدع الجزائريين بإجراء بعض الإصلاحات على أن تكون داخل إطار الوحدة بين فرنسا والجزائر ، ولكن الاستقلال كان قد أصبح الأمل الوحيد للشعب الجزائري ، وكيف يتحد جزائري مع فرنسي مع أن كل جزائري ضحى بأفراد من أسرته اغتالتهم أسلحة الفرنسيين ؟ هذا ولم تكن هذه الإصلاحات إلا ذرا للرماد فى العيون ، فقد كان تطبيقها جائرا يلغيها من أساسها .

ومرت بالبلاد فترة عصيبة وتوالت قسوة المستعمر الأثيم ، فكان لابد من سلاح جديد ينزل الميدان ، وكان لابد من مقابلة القوة بالقوة بعد أن عجز البيان وقُلت أسلحة السياسة ، كان لابد من الثورة الكبرى .

جماعة من الشبان كانوا يعملون فى تكتّم شديد داخل الجزائر وخارجها ، وكانوا يعدون أنفسهم لحرب طويلة مريرة ، ففى الداخل كان التنظيم السياسى يأخذ أهبطه وجيش التحرير الوطنى يتكون ، وفى الخارج كانت الأسلحة تُجمّع ، والدعاية تُنشر والتأييد يُطلب ، وكانت القاهرة مركزا هاما من أهم المراكز التى استجابت للجزائريين واحتضنتهم وأيدتهم ، وكان يقيم بها قبيل اندلاع الثورة كبيبران من أبطالها هما أحمد بن بيلا ومحمد خيضر وانتشر أبطال آخرون هنا وهناك فى بلاد العالم ، ومن هؤلاء محمد اليزيد وبو ضياف وأحمد توفيق المدنى وعباس فرحات والحسين آية أحمد والبشير الإبراهيمى والدكتور أحمد فرنسيس وغيرهم .

أما فى الجزائر فكان القادة الأفذاذ بالقاسم قرين ومصطفى بولعيد وهوارى بومدين يجمعون حولهم الأبطال المغاورين الذين استرخصوا الحياة ، وخرجوا من بيوتهم لينزل بهم الموت أو ليعودوا أحرارا .

وفى فجر غرة نوفمبر سنة ١٩٥٤ دقت ساعة البدء ، فانطلقت أول رصاصة، وانطلق معها المنشور الأول من « جبهة التحرير الوطنى الجزائرى » وقد شمل المنشور بيان أهداف الجبهة وهو الحرية والاستقلال ، كما بين المنشور أن أعضاء

هذه الجبهة مستقلون عن الطرفين اللذين كانا يتنازعان النفوذ في الحركة الوطنية، ووضع أن الجهاد لن يقف إلا إذا تحققت الأهداف ، وأن الجبهة ترحب بالمفاوضات السلمية إذا أطلق سراح جميع المسجونين السياسيين وصدر تصريح رسمي فرنسي بالاعتراف بالشخصية الجزائرية ، على أن تبقى قوات المقاومة تباشر نشاطها حتى تتم المفاوضات بنجاح (١) .

ولم يكذ خبر هذه الجبهة يذاع حتى انهالت عليها جموع المثقفين والمناضلين ، ولكن مصالى الحاج ومن بقى معه أبوا الانضمام لها ، وأعلنوا تأسيس « الحركة الوطنية الجزائرية » وقد عيب هذا الموقف على المجاهد القديم ، واستنكر الجيش هذه الفرقة ، وحملت جبهة التحرير الوطنى عبء هذا النضال مع جيش التحرير والتفت حولهما كل الصفوف أو أغلبيتها الساحقة (٢) .

وكان زعماء جبهة التحرير في قمة الوعي السياسى فقد أدركوا أنهم في حاجة الى صراع عنيف لينقلهم عن دائرة « الأرض الفرنسية » إلى دائرة « المستعمرة » ثم إلى دور آخر من الصراع لتحرير المستعمرة من الاستعمار ، وقد عبر أحد زعمائها المرحوم ديدرش مراد الذي سقط شهيدا في أتون هذه الحرب التحررية عن هذه الآراء بكلمات حكيمة ننقل بعضها :

يجب أن تعرفوا أن الحرب لن تنتهى في عام أو عامين ، يجب أن تتيقنوا أنها ستطول ، يجب أن تبعدوا من طريق حساباتكم مثال تونس أو حتى مثال الهند الصينية ، فقضية الجزائر لا يمكن أن تقاس بقضية تونس ، حتى نأمل في النجاح بعد عامين ، وقضية الجزائر لا يمكن أن تقاس بقضية الهند الصينية التي تقع في أقصى الشرق وتفصلها عن فرنسا آلاف الأميال ، إن الجزائر أهم في نظر الاستعمار وأخطر من كل ذلك ، إنها ليست مستعمرة كالهند الصينية أو كبقية المستعمرات في آسيا وإفريقيا ، إنها دستوريا أرض فرنسية .

(١) أقرأ المنشور كله في كتاب « هذه هي الجزائر » ص ١٩٩ - ٢٠٤ .

(٢) أنظر المرجع السابق ص ٢٠٥ .

ولهذا فمطلوب من هذا الشعب أن يقود كفاحا عسيرا ، مطلوب منه أن يقدم توضيحات لم يسبق لأى شعب أن قدمها فى كفاحه ضد الاستعمار ، مطلوب منه أن يكافح عدة سنوات ليصل إلى نتيجة بسيطة بالنسبة للهدف ، وهى أن يحمل العالم على النظر إلى الجزائر بوصفها « مستعمرة » فى إفريقيا ، لا امتدادا لفرنسا الأوربية . مطلوب من شعبنا سنوات من الكفاح والتضحية لا لشيء إلا لنحمل فرنسا على التسليم بأننا مستعمرة .

« نعم . . . سيوجد هناك من يأسف لآلام الحرب ، وسيوجد من يرفع صوته بضرورة التخفيف من وطأة هذه الآلام ، ولكن يوجد هناك من مبدأ الأمر من يعترف بالطابع السياسي لمشكلتنا ، سيحاولون أن ينظروا إلى آلامنا نظرة إنسانية لا سياسية .

« وهذه الحقائق يجب أن نتذرع بها كى لا نتأثر عندما نجد أن بقضيتنا سياسيا ، بل يجب أن نتوقع ذلك منذ البداية ، يجب ألا تغفل عن أن سنوات الكفاح الأولى ستهدف فقط إلى الخروج من دائرة « الأرض الفرنسية » كما ستهدف فى نفس الوقت إلى تحقيق وحدة الشعب وراء أهداف الثورة . . وبعد ذلك ، بعد ذلك فقط ، يبدأ الكفاح من أجل الاستقلال . »

العرب فى المعركة :

من الحق أن نقرر أن الجزائر لم تكن وحدها فى الثورة الشعبية ، فإن العرب أخذوا فيها بنصيب كبير ، وقد بلغ من حماسة العرب وإحساسهم بالمسئولية أن اتخذت جامعة الدول العربية قرارا صريحا بمنح الجزائر مبلغا كبيرا من المال كل عام يمثل ميزانية لجهة التحرير الوطنية ، وتشترك دول الجامعة فى دفعه ، كما قامت الصحافة العربية ووسائل الاعلام الأخرى بدور كبير فى المعركة ، فواصلت حملاتها ضد عدوان فرنسا على الجزائر المكافحة .

وحملت مصر بصفة خاصة جزءا كبيرا من هذا العبء الضخم ، وقد سجل

الزعيم أحمد بن بيلا عندما كان رئيس وزراء الجزائر هذه الحقيقة فى خطاب تاريخى ألقاه فى السادس من مايو سنة ١٩٦٣ إبان زيارة جمال عبيد الناصر للجزائر ، ومن حق التاريخ علينا أن نثبت هنا فقرات من هذا الخطاب المهم الذى كشف بعض أسرار لم تكن قد أذيعت من قبل ، قال سيادته :

- إننى أريد أن أفصح عن بعض الأسرار التى ظلت فى طى الكتمان مدة طويلة ، فمن حق التاريخ أن يدون هذه الأسرار ، ومن حق الشعب العربى أن يعرفها .

- لقد كنا فى سنة ١٩٥٤ نعد لثورتنا الكبرى ولم نجد أحدا فى الشرق أو الغرب يؤازرنا ويقف بجوارنا ويؤيدنا إلا شخصا واحدا هو الرئيس جمال عبيد الناصر ، الذى أحسن استقبالنا ، وأحسننا ونحن نكلمه أنه يحمل معنا العبء ، وسرعان ما أيدنا تأييدا مطلقا ، وأمدنا بالسلاح والمال والرجال .

- ويوم كان فى الجزائر جزائريون لا يرون احتمالا للنصر ، ويوم كانت الأحزاب - كعادتها - تتصارع من أجل الكسب السياسى ، وجدنا فى القاهرة رجلا لم يتردد لحظة فى أن يضع كل الإمكانيات المادية والمعنوية لمصر تحت تصرف ثورة الجزائر ومن أجل انتصارها .

- أيها الجزائريون ، إن معنا الآن رجالا من مصر خاضوا معنا معارك الاستقلال فوق أرض الجزائر .

- إن السفن المصرية طالما شقت عباب البحر الأبيض المتوسط تحمل لنا الأسلحة والدواء والطعام ، وكان بعضها يرسو فى ليبيا وبعضها فى الريف (بالمغرب) وفرغ رجالنا حمولتها ويتسلمون منها امداداتها الضخمة .

إن اشتراك فرنسا فى معركة بورسعيد كان انتقاما من مصر بسبب مساعدتها للجزائر ، وبذلك ارتبط مستقبل الجزائر بمستقبل مصر إلى الأبد .

- إن من يريد أن يستفيد عليه أن يرجع إلى التاريخ والتاريخ ، القريب

ويسمى «بعبيد» . . ارجعوا إلى التاريخ وهو ينطق بحروف من نور ، ونحن نقول بصراحة إننا فى هذه البلاد نعرف هذا التاريخ ، نعلنها صراحة أنه لا يوجد انسان خلصنا ونصرنا مثل جمال عبد الناصر .

- ونحن نقول لمن يريدون استغلال هذه البلاد فى مناوراتهم التى ترمى إلى تفكك العرب والوحدة العربية . . ونقول لمن يدبرون هذه المناورات ... هيهات ، هذا البلد عربى ، وهذا البلد يعرف قدر مصر ، وقدر جمال عبد الناصر فى حرب التحرير » .

ونحب أن نضيف إلى هذه الحقائق حقيقة أخرى هى أن فرنسا ظلت تؤيد إسرائيل ماديا وأديبا لتوقف نشاطنا فى الجزائر ، وأنها أشارت أحيانا إلى 'متعدادها لإيقاف مساعدتها لإسرائيل لو أوقفنا مساعدتنا للجزائر ، ولكن مصر أعلنت أنه لا مساومة فى الحقوق العربية ، ولم تستأنف علاقتنا السياسية مع فرنسا - التى قُطعت عند الاعتداء الثلاثى - إلا بعد تسوية مسألة الجزائر.

المعركة :

زمجرت المعركة كما قلنا من قبل فى غرة نوفمبر سنة ١٩٥٤ وحسبتها فرنسا من تدبير رجال السياسة القداماء فألقت القبض عليهم ، ولكن سرعان ما أدركت بأن رجال السياسة - مثل فرنسا - لا يعرفون مركز هذه الصيحة ولا مدبر هذه الثورة العارمة ، فأطلقت سراحهم .

وحشدت فرنسا جيشها وعتادها لمقاتلة الشائرين وتدميرهم ، ولكن راعها أن الثورة هذه المرة لم تكن فى مكان واحد ، بل انبثقت فى كل مكان ، وأشعلت النار فى كل ركن من أركان الجزائر ، وحاولت فرنسا أن تبعث بجندها هنا وهناك ولكن كان معنى ذلك تشتيت قواها من جهة ، ومن جهة أخرى مواجهة الشائرين فى ميدان حرب وهو ما كان يتحاشاه الجنود الفرنسيون ، الذين اعتادوا أن يوجهوا عتادهم إلى حرب الأمنين وهجمات الغدر والخيانة .

وتعاون الغرب مع فرنسا لقمع الجزائر ، فأمدت أمريكا الجيش الفرنسي بما شاء من ذخائر ، واستعملت في الجزائر أسلحة الأطلنطى ، وأيدت الدول الغربية فرنسا في الأمم المتحدة عدة مرات فأقرت معها أن مشكلة الجزائر مشكلة داخلية لا يجوز لهيئة الأمم المتحدة أن تعرض لها ، ولعبت الخيانة دورا هاما حينما أرغمت فرنسا طائرة كانت تحمل بن بيلا وأربعة من رفاقه إلى النزول حيث أرادت فرنسا ، وقبضت عليهم فرنسا وزجّت بهم في السجون .

وهب الشعب الجزائري كله في لون من البطولة قل أن يشهده التاريخ ، دفعت الأم أبناءها لخوض معركة الشرف ، ودفعت الزوجة زوجها ، وأصبح من العار ألا يشترك رجل في ميدان القتال ، وحملت النساء عبء العمل في الحقل بدل الرجال ، بل لبسن السلاح وحملن القنابل ودخلن المعركة مع الرجال كما سنوضح ذلك فيما بعد .

واستعمل الشائرون البطش بالعدو الغادر ، أنزلوا به الضربات القاسية ، وهجموا على حاناته في أعياده ومواسمه ، وفاجأوا معسكراته ، ونسفوا خيامه ومعداته ، وكان جل اعتماد الجزائريين على الأسلحة التي ينالونها من الفرنسيين القتلى أو الفارين .

واتجه الجزائريون إلى محاربة الاقتصاد الفرنسي وهو من أهم الأسس الاستعمارية ، فدمروا مزارع المحتلين وحرقوا مصانعهم ، واختطفوا معداتهم ، واستولوا على كثير من أموالهم وسياراتهم ، ولم تعد المستعمرات الفرنسية بالجزائر إلا جحيما لا يأمن فيها إنسان على نفسه أو ماله أو ذويه .

والخونة الذين وقفوا سلبيين أو عاونوا الاستعمار من أبناء الجزائر تخطفتهم أسلحة الثورة وأردتهم قتلى وصرعى .

ومرت الأيام ، وأخذ جانب الجزائريين يشتد ويقوى ، وجانب المحتل يضعف ويتدهور ، واستطاعت الثورة الجزائرية أن تستولى على كثير من بقاع الجزائر

وأن تقيم بها سلطة جزائرية تجبى الضرائب وتنشر الأمن ، وتنظم المرافق العامة ، وقاد هذا إلى إعلان قيام جمهورية الجزائر وتأليف وزارة مؤقتة بالقاهرة برئاسة عباس فرحات سنة ١٩٥٨ وقد اعترفت بها الدول العربية وبعض الدول الاسلامية ، وانضمت الجزائر لجامعة الدول العربية وظل عباس فرحات رئيسا للوزارة المؤقتة حتى سنة ١٩٦١ حيث خلفه يوسف بن خده ، وقد ظل هذا رئيسا للوزارة المؤقتة حتى تم تشكيل المكتب السياسى الذى كان مرحلة انتقال بين الوزارة المؤقتة والوزارة الأولى بعد الاستقلال برئاسة أحمد بن بيللا .

ولنعد إلى فرنسا لنراها إثر ما نزل بها من هزائم تلقى بآخر سهم فى جعبتها ، وكان هذا السهم أن تترك المجال للجنرال شارل ديغول ، وجاء هذا الرجل يصرخ ويزمجر ، ويهدد ويتوعد ، وابتدأ حكمه بالاستفتاء الذى أراد أن يسجل به أن الجزائر تريد الوحدة مع فرنسا ، وأجرى الجنرال العجوز الاستفتاء فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٥٨ وأعلن النتيجة التى يريدونها ، لا التى يريدونها الجزائريون ، وسخر العالم من هذه النتيجة ، واستمرت المعارك تصرخ ، فإن الجزائريين كانوا قد عقدوا العزم على أن يحصلوا على الاستقلال بمجهودهم ، لا أن يأخذه منحة من أحد .

ومرت السنون وبلغ شهداء الجزائر مليونا أو أكثر من مليون ، وروى الأبطال أرضهم الحبيبة بالدماء ، واختلطت أشلاء القتلى بالتراب الجزائرى ، وأصبح واضحا للعالم كله ألا مناص من هزيمة فرنسا ، ولم تعد فرنسا بمستطاعة أن تواصل القتال بعد أن سقط آلاف من جنودها فى الميدان ، وبعد أن اضطرت ميزانياتها وتهدم اقتصادها من جراء تكاليف الحرب التى بلغت أحيانا ما يعادل مليونا من الجنيهات الاسترلينية كل يوم ، وصرخت الأمهات هناك ، وقامت الثورات بمدن فرنسا تنادى بالجللاء عن الجزائر .

ودخل العام الثامن ، والأبطال يقوون والمحتل يضعف وترق عظامه ولم يجد السياسى العجوز بدا من أن يعنى الرأس وأن يشأطى للحق ، فأعلن الرغبة فى

المفاوضات ، وقبل أن نتكلم عن المفاوضات يجدر بنا أن نسجل حلقة هامة من حلقات هذا الصراع الطويل ، ذلك هو دور المرأة الجزائرية فى هذه المعارك .

المرأة الجزائرية فى حرب التحرير :

سبق أن ذكرنا أن فرنسا أرادت أن تقضى على اثرة الجزائرية عن طريق محاربة العباة والخمار ، والزج بالمرأة فى المحيط الغربى لبتبعها الرجل ، وقد فشلت هذه المحاولة كما قلنا ، ونريد أن نعتمد على التحقيق الصحفى الذى كتبه من الجزائر الاستاذ أحمد بهاء الدين عن دور المرأة فى النضال الوطنى قال تحت عنوان « قصة فاطمة » (١) :

« فاطمة » هو الاسم الذى تعود الفرنسيون أن يرمزوا به للمرأة الجزائرية ، فالكتاب الفرنسى إذا قال « الفاطمات Les FATMAS » فهو يعنى الجزائريات . وحتى سنة ١٩٥٥ كانت الشررة الجزائرية ثورة الرجل فقط . فالطابع الثورى الفدائى لهذه الثورة فى أيامها الأولى والحاجة إلى السرية المطلقة ، جعلت المناضل يحمل وحده مسئولية هذا العمل الخطير الذى يشترك فيه. ولكن تطور الثورة أدى إلى تطوير أشكال الإرهاب ضد فرنسا ، وبالتالي أصبحت الحاجة ماسة إلى تطوير أساليب النضال ذاتها . فلم يعد هناك هدأزاء تشبث العدو ووحشيته من الحرب الشاملة ، الحرب التى لا تستثنى أى عنصر أساسى من عناصر الأمة .. وهكذا برزت ضرورة إشراك المرأة الجزائرية فى المعركة ، ولم يكن هذا القرار سهلا .

كان لابد من تحقيق هدفين : الأول إشراك المرأة فى المعركة ، والثانى هو الاحتفاظ للمعركة بمستواها العالى من الاستعداد للتضحية والفداء وتحمل كل

(١) عدد أول ديسمبر سنة ١٩٦٢ من أخبار اليوم بتصرف . وقد وصف بعض الأخوة الجزائريين هذه الملاحظات بعدم الدقة والشمول عقب أطلاعهم عليها فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب. ورأى أن الاستاذ أحمد بهاء الدين دون ملاحظاته كما رآها أو سمعها ، وليس من الضرورى أن يكون ذلك عن استقراء كامل ، فقد تكون هناك صور تخالف هذه الملاحظات ، وخیال الكاتب فى مثل هذا الموقف ضرورى للغاية .

آلام الكفاح الهائل ، أى أن المرأة سيكون عليها أن تقدم نفس ما يقدمه الرجل من تضحيات ... كيف :

كيف تواجه المرأة الجزائرية المستعمر ، وتتصدى له ، وهى التى تربت على أن تتجنبه ؟

المرأة التى تعودت الحجاب وجدار البيت وأمان العزلة .. كيف تتحمل مواجهة السفور ، والطريق المزدحم ، والخطر المتربص ، والمكائد ، والطلقات القاتلة ، بهذه السرعة ؟

وقد رأى رجال الثورة وحشية المستعمر .. إذ مروا جميعا بسجونهم ومعسكرات اعتقاله ، وغرف التعذيب فيها .. ولن يتردد المستعمر فى ارتكاب نفس الوحشية مع النساء . المرأة التى تقع سوف تعذب بالتأكيد حتى الموت ، كالرجل تماما .

ألا يمكن أن يكون قرار إدخالها المعركة ذا أثر قاتل على الثورة ذاتها ؟

إن المرأة الجزائرية لم تدرب على القتال كالرجل ، ولم يسبق لها مواجهة الموت فى صفوف الجيش الفرنسى كبعض المناضلين ، ولم تفكر قط فى العمل السرى ، بل أنها لم تقرأ قصص البطولة فى الروايات ، ولم تشاهدها فى السينما حتى يقال إنها اندفعت وراء الخيال .. لا شئ من هذا قط ، ومع ذلك فقد فوجئ العالم بهذه المرأة تخرج للصراع ، وفى طيات ثيابها قنابل يدوية ، أو رسالة سرية ، تواجه أقصى تجربة : تجربة التآمر ، فى الشارع الصاخب .. ، المزدحم ، الذى يعج بالجنود وينظرات الأعداء الفاحصة .. أقصى تجربة يمكن أن تتعرض لها الأعصاب .

ثم إن الثورة - فى تطورها - تحتاج إلى مهمات جماعية كثيرة غير القتال فى ساحات القتال ، كجمع الأموال ، والتجسس ، ومقاومة التجسس ، ونشر الوعي السياسى ، وتكوين التشكيلات السرية الواسعة ، وإعداد خلية احتياطية

لكل خلية تناضل فعلا ، لتحل محلها إذا ضربت أو انكشفت .. قل هذا أجبر رجال الثورة على البحث عن عنصر جديد يقوم بالمهام ذات الطابع الفردى . وهكذا تقرر ، بعد تردد طويل ، أن تدخل المرأة ساحة النضال والشرف .

وفى البدء تقرر ألا يشترك فى التنظيمات السرية إلا زوجات المناضلين ثم أدى اتساع الثورة إلى إشراك الأرامل والمطلقات ، ثم كل النساء دون الفتيات ، لأن البنات الجزائرية التى لم تتزوج قلما يكون قد سبق لها الخروج إلى الشارع على الإطلاق ، ولكن الفتيات بدأن يتطوعن بكثرة ، ويثرن إذا رفض تطوعهن ، ويروى شهود العيان أن البنات الشابات كن يجتمعن ويقسمن أن لا يتزوجن إلا إذا كان العريس عضوا فى جبهة التحرير . وهكذا اتسعت الثورة فشملت كل نساء الجزائر ، دون قيد ، كما شملت من قبل كل رجالها .

وفى البدء ، كانت المرأة المناضلة تقوم بمهمة ضابطة اتصال بين خلايا ، أو ناقلة لرسائل ومعلومات ، أو حاملة لمتفجرات أو بطاقات شخصية مزورة بالملئات أو أموال الثورة بالآلاف ، أو تقوم بمهمة السير فى الطريق عشرات من الأمتار أمام مناضل رئيسى أو فرقة من المناضلين لتسرع بتحذيرهم إذا اكتشفت حركة غير عادية أو كميناً معداً .. كانت المرأة تقوم بكل هذا وهى مازالت فى حجابها وعباءتها التقليديتين .. ولكن ضراوة المعركة كسرت كل قيد .. لم يعد حى « القصبة » حصناً طبيعياً للنساء . لقد اقتحم الغزاة حى القصبة كما أصبح على المناضلين أن يقتحموا أحياء الغزاة .

إن الأوروبيين والجزائريين لم يعيشوا مختلطين ، فقد كان لكل من الفريقين أحياء خاصة به تماما . وعلى ذلك فالمرأة التى تؤدى مهمة فى حى أوروبى ، إذا لبست عباءة وحجابا فسوف تلفت الأنظار .. وسوف تسقط فى الحال ، لا بد لها إذا أن تسير فى الزحام كما تسير الأوروبيات ، حتى لا يعرف حقيقتها أحد . لا بد إذا أن تخلع الحجاب والعباءة ، خصوصا إذا كانت شقراء حتى يحسبوها فرنسية عابرة .

لم تكن المرأة الجزائرية تعبر الأحياء الأوروبية قبل الثورة قط إلا لضرورة ماسة كالذهاب إلى المقابر فى أقصى المدينة إذا مات أحد أهلها ، ويومها تعبر الحى الأوروبي فى سيارة ، وفى الصباح الباكر جدا على الأغلب ، لأنها تعبر أرضا حراما ، تخشاها . فأصبح عليها الآن أن تخلع حجابها وتتحطمها وحدها ، متخفية ، فى طيات ثيابها حيثيات عذابها وموتها .

وفى بعض الأحيان ، كان يحدث أن يقع على عاتق امرأة جزائرية لم تعرف القراءة والكتابة قط ، أن تستظهر تعليمات دقيقة معقدة ، حتى تحفظها عن ظهر قلب ، ثم تخترق بها - فى ذاكرتها - الأحياء الأوروبية ، لتصل إلى خلية أخرى فى أقصى المدينة فتبلغها التعليمات المعقدة ، التى قد تؤدى لحظة واحدة فيها إلى ارتباكات خطيرة ، ثم تعود ، حتى لا تحمل ورقة تدينها أو تكشف اتصالاتها .

وقد يحدث أن يكون على فتاة ألا تبتعد كثيرا عن مبنى معين يجتمع فى داخله المناضلون حتى تنبههم إلى ما قد يلم من خطر ، وعليها أيضا ألا تقف ساكنة لا تستلفت النظر .. وعلى هذا كان دور المرأة معقدا ، وكان لابد من البراعة لتقوم المرأة بهذا الدور .

وعندما مرت السنوات ، كان كل الرجال الجزائريين الأبطال فى أى مدينة من المدن قد أصبحوا معروفين للبوليس الفرنسى ، فإذا مر واحد منهم فى الطريق فتشوه أكثر من مرة ، لهذا ابتكر المناضلون طريقة هى أن يسير المناضل الذاهب إلى مهمة مسلحة ، دون أن يحمل أى سلاح فالذهاب إلى مقهى لينسفه بقبيلة مثلا ، أو إلى أى مكان يحتشد فيه الجنود الفرنسيون ليطلق عليهم مدفعه الرشاش ، لا يحمل سلاحا قط ، أما السلاح فتحمله فتاة جزائرية بريئة ذات مظهر عادى ، لا يفكر البوليس فى خطرها ، وفى لحظة معينة ، وفى نقطة قريبة من مكان العمل المسلح تسلم الفتاة السلاح للرجل ، الذى يستخدمه خلال لحظات فى أداء المهمة ، هذه الفتاة تكون أشبه بقائد الأوركسترا . إنها

تستطلع، وتقيس الحظر، وتتصرف، لأن الاستشارة مستحيلة، تتصرف سواء بأن تسلّم السلاح للرجال فلا يكون هناك مجال للتراجع عن المخاطرة، أو تتصرف بالعودة بسلاحها إذا اكتشفت أن الظروف غير ملائمة.

وهكذا وصلت المرأة الجزائرية إلى قلب عمليات النضال المسلح ذاتها، وأصبح الكثير من خطط المقاومة يعتمد أساسا عليها، ولم تقض سنوات قليلة حتى خطط المرأة الجزائرية خطواتها الأخيرة: أصبحت تقوم هي بنفسها بتفجير القنابل بين البوليس الفرنسي، وضباط الباراشوت، ومراكز تجمع المستعمرين. وحتى في العلاقات الاجتماعية ذاتها، حدث تغير كبير.

ففي حالات كثيرة كان ينزل أحد المناضلين ضيفا على أسرة، ويقوم أفراد الأسرة بالعناية به ~~المختلين~~ وإخفاء سره حتى يتمكن من العودة لنشاطه.

علاقات انسانية جديدة تماما على البيت الجزائري المحجب، المنفصل، أحاطتها الثقة والشرف والفداء.. وحررت النفسية الجزائرية تحريرا سليما عميقا.

ولعل من اللحظات التي لا تنسى، تلك الأيام الأولى لدخول المرأة ساحة النضال.. حتى كان الناس يصادفون فتاة جزائرية تسير سافرة، دون أن يعرفوا أنها في مهمة. فيتهايمسون عن سيرتها وعن تقليدها للفرنسيات. ويصل الهمس إلى الأب. وحين يواجهها الأب بغضبه، يكتشف بعد اللحظة الأولى - من عينها - أن الأمر ليس أمر سفور. إنما الأمر هو أن ابنته الشابة قد دخلت التنظيم السري، ويحل محل خوف الأب التقليدي على سمعة ابنته خوف من نوع جديد.. خوف عليها من الموت، أو من التعذيب الرهيب، وفي أيام تصبح الأسرة كلها، بما فيها الأب القديم صاحب الأمر والنهي، واقفة خلف البنت الشابة، كل أعصابها مشدودة إليها، ويكون التطور الطبيعي أن تصبح الأسرة كلها أعضاء في التنظيم السري، بعد أن دخلته أضعف عناصر الأسرة.

وهكذا ، فوق موج الأحداث ، دخلت الجزائر كلها ، رجالها ونساؤها وأطفالها ، بوتقة الثورة ، لتصهرها الأحداث ، كما لم تصهر قبلها شعبا عربيا قط .

وأصبح جنود الاستعمار يطاردون الجميع : السافرة والمحجبة .. والجزائرية التى تشبه الأوروبيات ، والأوروبية التى تشبه الجزائريات .

وهكذا قدمت الجزائر فى معركة التحرير أغلى ما عندها من دماء وأرواح ، ولم ترض الجزائر فى سبيل استقلالها بالرجل المشقف ولا بالأثم المحجبة ، ولا بالعذراء الفاتنة . إن الحرية مطلب غال ، ومن أجل هذا لم تبخل الجزائر فى سبيله بشئ ، ولا بد عند الحديث عن نساء الجزائر أن ندون بحروف من نور اسم جميلة بوحريد وجميلة بوياشا كرمز للمرأة الجزائرية المناضلة ، وللأولى ذكر عم الدنيا بسبب بطولتها الرائعة وشخصيتها الفذة ، وموقفها الباسل عندما حكم عليها القضاء الفرنسى بالإعدام ، ولكن ضمير الإنسانية حكم عليها بالنجاة وحكم على القضاء ودولتهم بالموت ، وكان لضمير الإنسانية ما شاء .

المفاوضات وأسسها ونتائجها :

فى التمهيد للمفاوضات وقف الجانب الجزائرى موقف المنتصر فرفض بإباء أنصاف الحلول ، وأصر قبل البدء فى المفاوضات أن تستبعد فكرة الاستقلال الذاتى للجزائر ، أو الحكم الذاتى ، وأصر على الاستقلال التام ، وأصر الجانب الجزائرى كذلك على أن تسير المفاوضات فى ظل قصف المدافع ، ولم يقبل قط أن يوقف نشاط جيش التحرير قبل أن تنجح المفاوضات ، وأصر الجانب الجزائرى أيضا على أن تستبعد فكرة ضم مفاوضين آخرين لهيئة المفاوضات غير مندوبى جبهة التحرير ، وقال ان الجبهة وحدها هى التى تتكلم باسم الجزائر ، وأصر أخيرا على أن تستبعد فكرة اقتطاع الصحراء ، أو خضوع الصحراء إلى أى اتفاق آخر فالوحدة الوطنية كانت الأساس للمفاوضات .

وفى ظل هذه الشروط بدأت المفاوضات فى إيجان على الحدود السويسرية ودام الاجتماع عدة أسابيع ، ودارت المباحثات بين صلافة الوفد الجزائرى ومساومة الوفد الفرنسى ، وانتصر الحق فى النهاية على المساومة الرخيصة ، وأصدر المؤتمر قرارات تحقق الكثير من أمل الجزائر ، وقد تولت الوزارة الفرنسية لشئون الجزائر إذاعة هذه القرارات يوم ١٩ مارس سنة ١٩٦٢ ، وفيما يلى موجزها :

(أولاً) وقف إطلاق النار :

وقف جميع المعارك المسلحة داخل الجزائر وعلى حدودها ، والإفراج عن جميع أسرى الحرب خلال ٢٠ يوما ، وإعلان عفو عام عن المسجونين . وإبعاد القوات المسلحة عن السياسة ، وأخيرا إلغاء جميع التدابير التى اتخذت لمواجهة الطوارئ بصفة تدريجية .

(ثانياً) فترة الانتقال :

تبقى الجزائر تحت السيادة الفرنسية خلال فترة انتقال ، وتنتقل سلطات الحكومة الفرنسية إلى المندوب السامى الفرنسى . ويعاونه فى المحافظة على الأمن القائد الفرنسى الأعلى ، ويتم تأليف هيئة تنفيذية تضم ١٢ عضوا يمثلون الجماعات السياسية المختلفة فى الجزائر ، وتقوم هذه الهيئة بإدارة البلاد ومساعدة المندوب السامى الفرنسى فى الإعداد للاستفتاء على تقرير المصير . وتشرف الهيئة التنفيذية على الإدارات المحلية فى الجزائر وعلى قوات الأمن المحلية التى تتألف من المجندين الوطنيين الذين دربوا تحت إشراف الضباط الفرنسيين وتضم هذه القوات أيضا وحدات من جيش التحرير الوطنى الجزائرى .

(ثالثاً) تقرير المصير :

سيدلى المواطنون الجزائريون بأصواتهم فى الاستفتاء الذى سيختارون فيه

بين:

(أ) بقاء الجزائر كجزء لا يتجزأ من فرنسا .

(ب) الاستقلال وقطع كل علاقة تربط بين الجزائر وفرنسا .

(ج) الاستقلال والتعاون مع فرنسا .

وقد تم الاتفاق على أن يجرى هذا الاستفتاء بعد فترة لا تقل عن ثلاثة أشهر من إعلان وقف إطلاق النار ، وعلى أن يشمل الاستفتاء جميع أنحاء الجزائر ومنطقة الصحراء . ثم تذاغ نتيجة الاستفتاء فى جميع هذه المناطق دفعة واحدة .

وقد تم الاتفاق أيضا على اعتبار جبهة التحرير الجزائرية حزبا سياسيا معترفا به خلال فترة الانتقال . كما تقرر السماح لجميع اللاجئين الجزائريين فى الخارج بالعودة إلى الجزائر ، وإقامة لجان فى المغرب وتونس لتنظيم عودتهم .

واتفق الجانبان على تخفيض القوات الفرنسية فى الجزائر إلى ٨٠ ألف جندي فى خلال سنة واحدة من إعلان نتيجة الاستفتاء على تقرير المصير . على أن يتم سحب هذا العدد من القوات الفرنسية خلال مدة أقصاها ٢٤ شهرا ، كما يتم الجلاء عن المنشآت العسكرية تبعا لذلك .

ونص الاتفاق أيضا على استخدام فرنسا لقاعدة المرسى الكبير لمدة ١٥ عاما ، واستخدام عدد آخر من المطارات والمنشآت العسكرية .

استقلال الجزائر :

نفذت هذه القرارات بدقة ، فأطلق سراح بن بيللا وزملائه حيث عادوا إلى وطنهم يباشرون مسئولياتهم ، وقررت الجزائر مصيرها فاختارت الاستقلال الكامل ، واعترفت به فرنسا فى ٢ يوليو سنة ١٩٦٢ ، وانضمت الجزائر لهيئة الأمم المتحدة ، وبدأت الجزائر عهد النور .

صراع مع المستوطنين :

نزع المستوطنون من فرنسا وغيرها من دول أوروبا معتقدين أنهم يزحفون إلى

ارض فرنسية ، أو على الأقل إلى أرض يسود بها النفوذ الفرنسى ، ثم شملت هؤلاء جميعا الجنسية الفرنسية كما أوضحنا من قبل ، فلما احتدمت الحرب بين فرنسا والجزائر ، وقف هؤلاء بجانب دولتهم وأخذوا دوراً كبيراً فى الحرب الاستعمارية ، ولم يرضوا بجهد أو مال لترجع كفة المستعمرين ، ولكن هذه الجهود ذهبت هباء أمام إصرار الجزائريين ، وبدأت فرنسا تتجه للاستسلام وتسوية المشكلة التى أكلت الشبان الفرنسيين وأرهقت ميزانية فرنسا ، وغضب المستوطنون لاتجاه فرنسا الجديد ، وعارضوه ، ووقف دييجول بين نارين ، ولكنه كان يدرك أن نار المستوطنين سرعان ما تخبو ولن يكون لها صبر الأبطال العرب، فاستمر دييجول فى سياسته الجديدة التى ترمى إلى إعطاء الجزائريين الحق فى تقرير مصيرهم ، واحتدم غضب المستوطنين ، فدبرت مؤامرة قادها ثلاثة من الجنرالات الفرنسيين بالجزائر برئاسة الجنرال سالان قائد المنظمة الإرهابية ، وكانت هذه المؤامرة ترمى إلى الاستقلال بالجزائر لمصلحة المتآمرين .

وفى اليوم الذى أعلن فيه اتفاق إيفيان أذاع الجنرال سالان قائد المنظمة الإرهابية سألقة الذكر بيانا من الإذاعة السرية للمنظمة أعلن فيه أن الحرب الحقيقية قد بدأت ، وأنه أصدر أوامر لقواته بمهاجمة «مراكز العدو» فى المدن الجزائرية الكبرى ، ودعا أنصار الهيثة إلى التعبئة وحمل السلاح ، وعلقت المنظمة اعلانات بهذه الدعوة فى جميع أنحاء وهران ، كما وزعت منشورات بمختلف البلاد تحمل هذه التعليمات ، وطغت هذه المنظمة طغيانا عنيفا ، فهددت الحريات وحرقت المزارع ، واعتدت على الأبرياء ، وكان من خططها الفاشلة محاولة خطف زعماء الجزائر عقب إفراج فرنسا عنهم ، وقد اشتركت فرنسا من جهة ، وأبطال الجزائر من جهة أخرى فى مناهضة هؤلاء المارقين ، حتى خروا مهزومين بسرعة عجيبة ، ممثلين آخر حلقة من حلقات الأمل الفرنسى لاستعمار الجزائر الخالدة .

الجزائر بعد الاستقلال

لقد تم استقلال الجزائر بعد جهاد طويل تحدثنا عنه فيما سبق ، واستقبلت الجزائر عهد الحرية ، ولكنها استقبلت معه المسؤوليات الضخمة ، تلك المسؤوليات التى خلفها الماضى أو التى تتطلبها مواجهة المستقبل .

لقد خلف الاستعمار عبئا ثقيلا ، وخلف الكفاح مسؤوليات ضخمة ، وبناء الدولة يتطلب جهادا وصبرا ، ولكن أبناء الجزائر جديرون بحمل هذا العبء ، والعمل الدائب للوصول ببلادهم إلى بر السلامة .

وكان أمام أولياء الأمر بالجزائر مشكلة تكوين جيش وطنى يحرس الاستقلال من أعدائه بالخارج وأعدائه بالداخل ، وقد كان للجزائر جيش أو قل عصايات مسلحة كسبت للجزائر معركة الحرية ، ولكن الجيش الجديد مسؤولياته أكبر وتنظيمه أدق ، ويحتاج إلى مطارات وطائرات ، ويحتاج إلى عتاد هائل وعدد كبير من الجنود والضباط الفنيين ، وقد أخذت الجزائر تكون جيشها ، ووصلت أو قاربت الغاية التى ترجوها .

وكان أمام الجزائر مشكلة التعليم وهى مشكلة معقدة تطلبت أبنية للمدارس والمعاهد ، وتطلبت الأساتذة والمدرسين واحتاجت إلى الكتب والمعامل ، وكان هناك بجوار ذلك مشكلة تعريب التعليم أو قل تعريب اللسان الجزائرى الذى - كما قلنا - أرغمه الاستعمار على اطراح لغته الأصلية وتعلم اللغة الدخيلة ، وقد سارت الجزائر شوطا طويلا فى هذا المضمار ، وستبلغ فيه غايته.

وكان أمام الجزائر مشكلة اجتماعية قاسية خلفها الطغيان الفرنسى ، هى مشكلة الآلاف من اليتامى أبناء المليون شهيد ، ولم يكن لهؤلاء عائل إلا الدولة التى ضحى الشهداء من أجلها بأرواحهم ، وقد اتجهت الدولة لهؤلاء اليتامى بكل أحاسيسها وعواطفها ، فأسست لهم جمعية اسمها « جمعية الجيل الجديد » ، وأشرفت عليها المجاهدة جميلة بوحريد ، ومن أجل هذه الجمعية

تنازلت المجاهدة جميلة عما كان يمكن أن تناله من مناصب سياسية براقة لتتفرغ مع زميلات لها لخدمة هؤلاء وللعمل على كفايتهم دموعهم وجعلهم يتطلعون إلى المستقبل بأمل ورجاء ، وطافت المجاهدة البلاد العربية الشقيقة تدعو لهذا المشروع الانساني ، فاستجاب لها العرب في كل مكان ، ومد الغنى والفقير لها يده ليحمل نصيبا من هذا العبء الكبير ، وتقول المجاهدة جميلة بوياسا في حديث لها مع مندوبة جريدة الأهرام (١) : انتهت الجمعية من تنفيذ مشروعها الأول وهو جمع كل طفل يهيم على وجهه في شوارع المدن والقرى بالجزائر وتم إنشاء مدرستين داخليتين في كل حي إحداهما للأولاد والأخرى للبنات ويسير البرنامج اليومي للمدرستين حسب خطة ترمي إلى إعادة بناء هؤلاء الأطفال بدنيا وعقليا .

وكان امام الجزائر مشكلة أخرى أهم وأشمل وهي بناء الدولة من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدولية ، فجهاز الحكم كان يحتاج إلى إعداد ، والمشروعات الصناعية والزراعية تحتاج إلى تصميم ورعاية ، والأسرة والمواصلات ومياه الشرب والمساكن والكهرباء وغيرها من المسائل الاجتماعية كانت تنتظر جهدا ودراسة لإعادة بنائها وتنظيمها وهناك كذلك التصدير والاستيراد والقروض والتمثيل السياسي وهي مسائل اقتضت حلا سريعا .

والحق يقال لقد استطاعت الجزائر أن تحقق هذه الأهداف التي تطلعت لها ، ولكن هدفا واحدا وقف عقبة لم يستطع الذين قهروا فرنسا أن يقهروه ، ذلك هو العودة في نظم الحكم إلى الشورى الإسلامية ، أو ما يسمى في العصر الحديث بالديمقراطية السليمة ، لقد تعلم الجزائريون من الإسلام آفاق الجهاد ضد العدو فانتصروا ، ولكنهم لم يتعلموا آفاق الديمقراطية ليعودوا للشعب - لا للقوة - ليعتار الحاكم .

وهذا - للأسف - هو ما حدث في أفغانستان أيضا ، فقد حقق الأفغان

(١) عدد ٢١ مايو سنة ١٩٦٣ .

مجززة الانتصار على الاتحاد السوفيتى وأعدائه ، ولكنهم عتب ذلك وقفوا
عارب بعضهم بعضا ، لأنهم يتعلموا من الإسلام الجهاد والتضحية وعجزوا عن
استيعاب روح الإسلام فى موضوع الشورى ولله الأمر من قبل ومن بعد .

ومن المفار التى يسجلها التاريخ للحرب الأمجاد أن الدول العربية -
وبخاصة جمهورية مصر العربية - وقفت مع الجزائر تحل معها مشكلاتها
وتؤازرها فى كفاحها السلمى كما آزرتها فى كفاحها الحربى ، وقد قدمت
الكويت مليون جنيه استرلينى هدية لشعب الجزائر (١) ، أما جمهورية مصر
العربية فأهدت الجزائر بعض السفن الحربية لتكن نواة أسطول الجزائر ، وأهدت
م معها كثيرا من الأسلحة والعتاد الحربى ، كما قدمت وتقدم أعدادا ضخمة من
المدرسين الذين سيوكل لهم تعريب اللسان الجزائرى والتدريس فى مدارس
الجزائر ، وقدمت قرضا قدره عشرة ملايين من الجنيهات بدون شروط وبدون
فوائد ، وفى المشروع الاجتماعى الذى ترعاه المجاهدة جميلة ، أسهم الشعب كله
فى اكتتاب واسع ، كما أسهمت الحكومة بدورها بمبلغ كبير .

الجزائر المستقلة والوحدة العربية :

لقد وضع رئيس حكومة الجزائر دور هذه البلاد فى موكب الوحدة العربية
فقال:

- إن الجزائر المستقلة ترحب بالوحدة العربية ، وتراها أملا للعرب ، وتأمل
الجزائر أن تضم قريبا لعلم الجمهورية العربية المتحدة نجمة رابعة ترمز للجزائر .
(كان ذلك أيام الوحدة التى ضمت مصر وسوريا واليمن) .
- نحن شعب عربى لا عنصرى ، فالعروبة دم وتاريخ وفلسفة .
- وحدة المغرب العربى خطوة فى سبيل الوحدة العربية الشاملة ولا نريد
مغربا عربيا يعزلنا عن باقى الشعوب العربية .

(١) أذيع فى ٢٠ ديسمبر ١٩٦٢ أن حكومة الكويت ستقرض الجزائر عشرة ملايين دولار بدون
فائدة وعشرة ملايين أخرى بفائدة .

- كان الفرنسيون هنا يمثلون اسرائيل أخرى بالجزائر ، وقد انتهينا منهم
وستنتج به كل قوانا لناخذ دورنا فى تخليص فلسطين العربية للعرب .

الاشتراكية فى الجزائر :

حدد الرئيس أحمد بن بيلا فى حديث له مع مندوبى الصحف عقب توليه
السلطة بالجزائر أن الوصول إلى السلطة ليس غاية فى حد ذاته ، وإنما السلطة
مقدمة للمسئولية الثورية الفعلية ، وقال : إننا لم نصل إلى السلطة لنحكم وإنما
وصلنا إلى السلطة لنعمل ولنحقق الغاية الحقيقية من الثورة وهى خدمة الشعب ،
وأعلن بن بيلا أن ثورة الجزائر ثورة الفقراء وليست ثورة الاقطاعيين ، وأن ارادة
الشعب والثورة كانت قبل ٢ يوليو الماضى سنة ١٩٦٢ - ، وهو تاريخ حصولنا
على الاستقلال - تنصب على الانتصار ضد الاستعمار ، ولكنها بعد الاستقلال
- مركزة على بناء الاشتراكية ^(١) فى البلاد ، وهذا يتطلب نضالا أكثر قداسة
وأهمية من نضالنا السابق . وإن تنمية الجزائر - لكى تكون تنمية سريعة
ومنتظمة وموجهة نحو سد احتياجات الشعب الأساسية - يجب أن تتم فى إطار
الاشتراكية ، والملكية الجماعية لوسائل الإنتاج ، والتخطيط العلمى .. وهذه
المهام ، لا يمكن أن تتحقق على يد طبقة الرأسماليين ، مهما كان تبصرها ،
فهذه الطبقة إن تقلدت زمام الحكم لا تلبث أن تمارس مصالحها الخاصة ، وإن
الطموح نحو الاشتراكية هو هدف أساسى لكل الشعوب المتخلفة ، والتى كان
تأخرها وكانت أوضاعها السياسية والاقتصادية من صنع الاستعمار .

وفى ضوء هذه الاتجاهات افتتح ابن بيلا التنظيمات الاشتراكية بالجزائر ،
وبدأها بتأميم ما يسمى « الأملاك الشاغرة » فقد انسحب من الجزائر إبان
المرحلة الانتقالية وعقب الاستقلال أكثر من ستمائة ألف مستوطن ، كانوا يملكون
جزءا كبيرا من ثروة البلاد ، وقد انسحب هؤلاء من أراضيهم ومصانعهم وتركوها

(١) كان ما يسمى « الاشتراكية » هو أغنية ذلك العهد فى كثير من البلاد وقد تراجعت هذه
الأغنية الآن ، لأن الاشتراكية أفقرت الأغنياء ولم تغن الفقراء .

وقد توقف فيها كل نبض للحياة ، كما تركوا آلاف العمال دون عمل ، وتسبب عن ذلك خطر الضائقة الاقتصادية الناتجة عن توقف الإنتاج وانتشار البطالة .

وتكرر نداء الحكومة الجزائرية إلى من يريد منهم أن يعود ويقبل قوانين البلاد ، فلم يستجب أحد ، وعندئذ كان لابد من خطوة ثورية ، وقد خطت حكومة الجزائر هذه الخطوة ، فحددت وقتا ليعود خلاله أصحاب الأملاك الشاغرة، وأعلنت ذلك ، ولما لم يستجب أصحابها لنداء العودة اتخذت الحكومة فى ٢٢ مارس سنة ١٩٦٣ قرارها الحازم الذى يغلق الباب نهائيا فى وجه أصحاب هذه الأملاك .. فلقد انتهت الفرصة الطويلة الكريمة التى منحتها لهم الثورة ، دون أن يعودوا . فكان لابد أن تنتهى ملكيتهم لها إلى الأبد ، وتتحول إلى ملكية الشعب ... سواء كانت منشآت صناعية أو تجارية أو مالية أو معدنية ، وكذلك الضياع الزراعية وأرض الغابات ، وكل المساكن والعمارات.

وهكذا تهيأ الجو لى يقف أحمد بن بيلا ، أمام ميكروفونات وعدسات التلفزيون ليعلن القوانين الجديدة : القوانين الاشتراكية ... القوانين التى تجعل كل ما كان يسمى «أملاكا شاغرة» مؤسسات مملوكة للمجتمع ، يديرها - نيابة عنه - عمالها وموظفوها .

واحتجت فرنسا على هذه الإجراءات الاشتراكية . ووصفتها بأنها انتهاك لاتفاقية إيفيان ، وجاء فى البيان الذى أصدرته الحكومة الفرنسية عقب اجتماع ديجول بأعضاء لجنة الشؤون الجزائرية بأن التعاون بين الجزائر وفرنسا أصبح معرضا للخطر نتيجة لهذه الإجراءات .

وكان رد حكومة الجزائر على هذا الاحتجاج أن أعلن رئيسها أحمد بن بيلا أن الثورة الاشتراكية ستعم الجزائر ، وأن هذه الثورة التى بدأت بتأميم الأملاك الشاغرة ستدعم بتطبيق قانون الإصلاح الزراعى ابتداء من عام ١٩٦٤ على أساس تحديد الملكية بنحو خمسين هكتارا ، وأن الحكومة وضعت يدها فعلا

على مليون ومائتى ألف هكتار من الأراضى ، وستأخذ من المستوطنين والاقطاعيين الذين يملكون الكثير مزيدا مما يفيض عن حاجتهم .

دستور الجزائر :

فى سبتمبر سنة ١٩٦٣ أقر الشعب الجزائرى أول دستور للجزائر وانتخب الرئيس أحمد بن بىلا رئيسا للجمهورية الشعبية الجزائرية ، وعقب انتخابه أصدر قراره بتأميم أهم الصحف الرئيسية بالجزائر ، ووعد بتأميم الإقطاع والحد من سلطة رأس المال .

مشكلات الحدود بين المغرب والجزائر:

يمكن القول إنه بسبب العلاقات الوثيقة على مر التاريخ بين دول الشمال الإفريقى ، وبسبب الطبيعة الصحراوية فى المنطقة الجنوبية لهذه الدول ، ثم بسبب خضوع المغرب والجزائر وتونس لمستعمر واحد هو فرنسا ، لهذه الأسباب تداخلت الحدود أو أزيلت الحدود فى بعض المناطق .

وتم استقلال المغرب قبل أن يتم استقلال الجزائر ، وفى خلال حرب التحرير الجزائرية لم تكن هناك فرصة للاتفاق على الحدود ، فلما انتهت هذه الحروب بانتصار الجزائر بدأت المشكلة تظهر وبخاصة حول منطقة « تندوف » فى الجنوب من المغرب .

وهذه المنطقة غنية بمناجم الحديد ، ثم هى حصد فاصل بين المغرب وبين موريتانيا ، وترى المغرب أن موريتانيا جزء منها لا يتجزأ ، ولكن هذا رأى يصعب التدليل عليه ما دامت منطقة تندوف ليست تابعة للمغرب ، فهذه المنطقة بمناجمها ومواقعها تبدو ضرورية لمملكة المغرب ، ولدى دولة المغرب بعض خرائط تبين أن « تندوف » جزء منها ، ولديها كذلك بعض وثائق تثبت استغلال المغرب لهذه المنطقة .

والجانب الجزائرى يرى أن هذه الخرائط والوثائق مصنوعة لغرض الاستيلاء على المنطقة الغنية .



مشكلات الحدود بين المغرب والجزائر

ولسنا - هنا - نحب أن ندخل معركة التحرى والفحص والجدل ، ولكننا نكتفى بأن نقول إن الدولتين لم تستطعا - للأسف - أن تصلا إلى اتفاق وهبت معارك بين الدولتين الشقيقتين فى أكتوبر سنة ١٩٦٣ وسقط على أرض المغاوير قتلى من هؤلاء وأولئك ، وتوقفت المعارك بعد أن سالت الدماء الظاهرة على الأرض الزكية .

حركة يونيو ١٩٦٥ وعزل بن بيللا :

فى أواخر يونيو ١٩٦٥ حدث تغيير فى قيادة الجزائر ، فقد تألف مجلس ثورة برئاسة العقيد هوارى بومدين وقرر هذا المجلس عزل أحمد بن بيللا والقبض عليه ، ونشر من أسباب ذلك اتهامه بالإسراف فى بعض النواحي ، واستخدام أموال الدولة فى غير وجوهها ، والارتجال ، وعدم التخطيط^(١) ، وقبض معه على بعض أشخاص أهمهم عبد الرحمن الشريف مدير مكتبه ، وابن علا الحاج الأمين المساعد للحزب ورئيس المجلس الوطنى ، وتولى مجلس الثورة الجزائرى حكم البلاد برئاسة الرئيس هوارى بومدين ، الذى يمثل البلاد باسم هذا المجلس .

* * *

وفى الثانى من فبراير سنة ١٩٦٨ تسلمت الجزائر القاعدة البحرية الكبرى فى المرسى الكبير ورفرف عليها علم الجزائر ، وكانت اتفاقية ايفيان بين فرنسا والجزائر تنص على أن تحتفظ فرنسا بهذه القاعدة حتى سنة ١٩٧٥ : ولكن فرنسا رأت أن تسلم القاعدة قبل الموعد كبادرة ودية .

* * *

العهد الجديد ومنجزاته :

حققت الجزائر فى المجال الداخلى كثيرا جدا من الانتصارات أمام المشكلات التى واجهتها بعد الاستقلال ، وكانت عزيمة الشعب قوية نوقف فى كل ميدان

(١) صحيفة الأهرام يوم ٣١ يونيو ١٩٦٥ .

يناضل حتى قهر هذه المشكلات ، وحتى رفرغ الخيزر والاطمئنان والشراء على السكان .

وفى المجال العربى حملت الجزائر مسئولياتها بجدارة وثقة ، وقفت إبان هزيمة ١٩٦٧ قوة صامدة كما وقفت عند الانتصارات مشاركة مؤيدة ، ولم تبخل بمال أو دماء على معركتنا ضد العدو الصهيونى ، وكانت سياستها من الوسائل التى تجمع الشمل ، وتقوى العزم ، وتذيب الصعاب .

وفى المجال الدولى أصبح صوت الجزائر مجلجلا ، جريئا يعمل حسابه ، ويخطب وده ، وسارت سياسة الجزائر فى طريقها تعمل على تحرير الدول التى تأخر تحريرها ، وكانت نموذجاً طيباً أمام الشعوب التى تسعى لتحطيم قيود الاستعمار ولتنال الحرية .

وفاة بومدين وانتخاب الشاذلى بن جديد :

فى أواخر سنة ١٩٧٨ مرض الرئيس هوارى بومدين فجأة ، وسرعان ما اشتد عليه المرض ، ثم أسلم الروح ، وانطوى بموته بطل كافح الاستعمار حتى انتصر ، ثم كافح الاتجاهات للفرنسة التى كانت على وشك أن تشمل الجزائر ، وكان نجاح بومدين عظيماً فى بث الروح العربية والإسلامية بين الجزائريين ، رحمه الله وأجزل ثوابه .

وفى مطلع عام ١٩٧٩ اختير العقيد الشاذلى بن جديد رئيساً للجمهورية الجزائرية ، وأدى اليمين الدستورية فى قصر الشعب يوم الجمعة التاسع من فبراير ، وقد دعونا له بكل التوفيق والسداد ليحقق لبلاده ما تتمناه من عز ورفاهية .

من الشاذلى بن جديد إلى بوضياف :

فى خلال عهد الشاذلى بن جديد الذى زاد عن اثنى عشر عاماً طرأت على

الجزائر ظروف اقتصادية أليمة ، ظروف سياسية تدعو للحسرة وبين الضغط السياسى والاقتصادى قامت جبهة إسلامية أسمت نفسها جبهة الإنقاذ الإسلامية ، وكان الشعب محتاجا لمثل هذه الجبهة ، وعندما سمح للأحزاب بدخول الانتخابات بالجزائر لأول مرة فى ديسمبر سنة ١٩٩١ اكتسح هذا الحزب الإسلامى الميدان وقال أكثر الأصوات وأكثر الدوائر على الرغم من أن الحكومة هى التى كانت تدير الانتخابات ، وانصرف الشعب قاما عن الحكومة واتخذ الشعب جانباً جبهة الإنقاذ فحصلت جبهة الإنقاذ فى الجولة الأولى على ١٨٨ مقعدا وحصلت الحكومة على ١٦ مقعدا لا غير وكان ذلك بسبب الاتهامات والشبهات التى ثارت ضد الحكام.

ولكن الحكومة العسكرية لم تقبل هذه الهزيمة القاتلة ، فألغت نتائج الانتخابات ، وثار الرأى العام ، واستقال الشاذلى بن جديد أو أرغم على الاستقالة واعتذر عبد المالك بن جيليس وهو الشخص الذى كان يلى الشاذلى فى الرتبة أو الوضع السياسى فلم يقبل أن يتولى منصب رئيس الجمهورية فى هذه الفترة الحالكة وجئ برجل اسمه محمد بو ضياف ، كان من زعماء ثورة الاستقلال ولكنه أبعد عن البلاد وعن السلطة وراح يعيش فى المنفى منذ ٢٨ عاما وللأسف قبل أن يتحمل مسئولية فترة طويلة كان فيها طريدا وغائبا عن البلاد وفى عهده فتحت معتقلات للشبان ، وانتهى الرجل بأن أطلق عليه الرصاص وهو يلقي خطابا فى بلدة « عنابة » شرقى الجزائر بعد ستة أشهر من توليه منصبه ، ولم تستقر أصابع الاتهام على القاتل .

وينبغي أن نذكر أنه فى هذه المحنة لعبت الاتجاهات المختلفة بكلمة « الديمقراطية » فقد أعلنت السلطات الحاكمة بالجزائر أن إلغاء نتائج الانتخابات كان يرمى لحماية الديمقراطية ، وأعلنت جبهة الإنقاذ أن إلغاء نتائج الانتخابات كان ضربة للديمقراطية .

مسكينة كلمة « الديمقراطية » كأن الحكام المسلمين لا يعرفون حقيقة مدلولها .

على كافى رئيسا للجزائر :

وهناك مجلس أعلى للأمن يدير شئون البلاد ، بعد اغتيال بوضياف ، وقد
أختار هذا المجلس « على كافى » رئيسا للمجلس الحاكم بالجزائر بعد بو
ضياف.

واللهم نسأل أن توفق هذه البلاد الشقيقة لما يجلب لها ولشعبها الحرية
والأمان .

ثالثاً تونس

على أن طرابلس أحيانا نزعَت نفسها من تونس وحققت لنفسها استقلالاً عاشت فيه فترة قصيرة أو طويلة ، وكثيرا ما عادت بعد هذه الحركات الانفصالية لتلتقى مرة أخرى بتونس في « إفريقية » بيد أنها ابتداء من عهد الأتراك العثمانيين أخذت في الاستقلال عن تونس ، وسنتحدث عن فترات استقلالها عند حديثنا عن « ليبيا » فيما بعد .

وشملت تونس كذلك منطقة فزان في بعض فترات التاريخ ، فامتد لها سلطان أمراء القيروان ، على أن منطقة فزان في الغالب كانت تتبع نظاما قبليا لا يعرف الاستقرار ، وسنتحدث عنها عند حديثنا عن « ليبيا » .

والآن نبدأ حديثنا عن الأغلبية الذين حققوا أول حركة استقلالية في « إفريقية » :

الأغلبية ١٨٤ - ٢٩٦ هـ = ٨٠٠ - ٩٠٩ م :

تكونت دولة الأدارسة في المغرب الأقصى ، وظهر نفوذ بني رستم في المغرب الأوسط ، وخاف العباسيون على سلطانهم بإفريقية وبخاصة أنه بدأ يتزعزع عقب وفاة الوالي العباسي القدير يزيد بن حاتم المهلبى سنة ٧٠ (١) ، وفى وسط هذه الاضطرابات ظهر القائد إبراهيم بن الأغلب الذى استطاع أن يعيد للعباسيين سلطانهم على هذه البلاد ، وقد تقدم إليه السكان أن يطلب من الرشيد الولاية عليهم ، فكتب إبراهيم إلي الرشيد فى ذلك على أن يستغنى إبراهيم عن المائة ألف دينار التى كانت تحمل من مصر إلي إفريقية كل عام ، وأن يحمل هو من إفريقية إلى بغداد أربعين ألفا ، وبلغ الرشيد غناؤه فى ذلك ، واستشار فيه أصحابه فأشاروا عليه به ، فكتب له بالعهد فقام إبراهيم بالولاية ، وضبط الأمور ، وسكنت البلاد بولايته ، وابتنى مدينة العباسية قرب القيروان وانتقل إليها بجملته ، وسرعان ما ازدهرت هذه المدينة وظهرت فيها المباني الشاهقة وألوان من النشاط العلمي والاقتصادى (٢)

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ من ص ٩٣ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ج ٤ ص ١٩٦ وخروج الذهب للمسعودى ج ٢ ص ٢٣٨ والمختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا ج ٢ ص ٣ .

بعد تم الاتفاق على أن تكون هذه الولاية دائمة طيلة حياة إبراهيم ووراثية
 من أولاده ، على أن يتولى الخليفة في بغداد اعتماد الولاة واحدا بعد الآخر ،
 وبدأت بذلك أسرة الأغالبة التي حققت لهذه المنطقة أول استقلال يكاد يكون
 دائما .

وفيما يلي قائمة ملوك الأغالبة :

٨٠٠ = ١٨٤	إبراهيم (الأول) بن الأغلب
٨١١ = ١٩٦	عبد الله (الأول) بن إبراهيم
٨١٦ = ٢٠١	زيادة الله (الأول) بن إبراهيم
٨٣٧ = ٢٢٣	الأغلب السعدى بن إبراهيم
٨٤٠ = ٢٢٦	محمد (الأول) بن الأغلب السعدى
٨٥٦ = ٢٤٢	أحمد بن (محمد الأول)
٨٦٣ = ٢٤٩	زيادة الله (الثانى) بن (محمد الأول)
٨٦٤ = ٢٥٠	محمد (الثانى) بن أحمد
٨٧٤ = ٢٦١	إبراهيم (الثانى) بن أحمد
٩٠٢ = ٢٨٩	عبد الله (الثانى) بن إبراهيم (الثانى)
٩٠٣ = ٢٩٠	زيادة الله (الثالث) بن عبد الله (الثانى)
إلى ٩٠٩ = ٢٩٦ (١)	

جهود الأغالبة فى الداخل وفتوحاتهم فى جزر البحر المتوسط :

وقد حقق الأغالبة نجاحا رائعا فى الداخل والخارج ، ففى الداخل كمل انتقال
 إفريقية إلى المحيط الإسلامى ، وطرحت إلى الأبد بقايا الدين المسيحى ، كما تم

(١) معجم الأنساب لزماور ج ١ ص ١٠٦

انتشار اللغة العربية بها مكان اللغة اللاتينية واللغات المحلية ، التى كانت منتشرة قبل الأغالبة ^(١) .

واستطاع الأغالبة كذلك أن يقضوا على الفتن والقلقل فى ربوع افريقية ، وأن يعيدوا إلى البلاد الأمن والاطمئنان ، وتم فى عهد الأغالبة امتزاج واسع بين العرب وبين السكان الأصليين بسبب المصاهرة ونشر الثقافة العربية والإسلامية ، ومما ينسب للأغالبة أنهم أدخلوا للشمال الافريقى فنون العمارة التى كانت معروفة فى دمشق وبغداد والقاهرة آنذاك ، وقد أنشأوا مدينة رقادة التى خلدها ابن هانئ فى شعره فيما بعد ، كما شيّدوا بالمدن التى كانت موجودة كتونس والقيروان وطرابلس كثيرا من المباني التى لاتزال آثارها باقية ، واهتم الأغالبة بالطرق والبريد والمواصلات ، وفى ظلهم ازدهر كثير من العلماء والباحثين والفنانين .

وفى الخارج ذاع صيت الأغالبة وأصبحوا مركز قوة هائلة بالشمال الإفريقى والبحر المتوسط . ويقول عنهم Stanley Lane - Poole ^(٢) : إن الأغالبة لم ينالوا فقط سلطانا وطيدا فى البر ، بل شمل سلطانهم البحر الأبيض المتوسط أيضا ، فكانوا سادته والمسيطرين على الملاحة فيه ، وكانت لهم بحرية قوية ألقت الرعب فى سواحل فرنسا وإيطاليا وكورسيكا ، واحتلت صقلية ومالطة وسردينية وبعض المدن الساحلية بفرنسا وإيطاليا ، وهددت ضواحي روما ، وسرى فيما يلى أهم فتوحات الأغالبة فى البحر الابيض المتوسط وجنوب أوروبا:

صقلية : ٢١٢ - ٤٨٣ (٨٣٧ - ١٠٩٠) :

كانت صقلية خاضعة للإمبراطورية البيزنطية ، وقد شملها اضطراب وفوضى فى مطلع القرن التاسع الميلادى ففر منها أحد القادة البيزنطيين واتجه إلى افريقية وحسن لحاكم إفريقية (زيادة الله بن إبراهيم) أن يفتح هذه الجزيرة ، وكانت بحرية الروم قد أغارت من صقلية على الساحل الافريقى ، فخرّبت بعض منازل

(١) أنظر. Hitti; History of the Arabs p. 458

(٢) . Muh. Dynasties pp. 36 - 37

المسلمين وألقت الرعب فى قلوبهم ^(١) ، وقد رأى زيادة الله أن الفرصة سانحة ليشار للمسلمين ، فأعد حملة كبيرة بقيادة قاضى القضاة (الامام أسد بن الفرات) وأبحرت فى ربيع الأول سنة ٢١٢ (٨٢٧ م) ووصلت الحملة إلى الجزيرة فاستولت على مدينة مازورة ، ثم تقدمت فحاصرت سرقوسة حيث مات الإمام أسد وكثير من رجاله حول أسوارها ، فتولى القيادة محمد بن الجوارى الذى استطاع أن يقتحم الحصار ويدخل سرقوسة ، وتقدمت الحملة بقيادة زهير بن عوث الذى تولى القيادة بعد موت ابن الجوارى فاحتلت العاصمة (بلرم) وتهاوت مدن الجزيرة بعد ذلك فى أيدي المسلمين ، وأسندت ولاية الجزيرة إلى أمير أغلبى هو أبو الأغلب إبراهيم بن عبد الله .

وكانت مدينة المسلمين آنذاك فى أوج عظمتها ، فانسابت إلى الجزيرة ألوان الثقافة والفن من العالم الإسلامى ، وتعتبر صقلية لذلك مركزا هاما من مراكز نقل الفكر الإسلامى والعربى إلى الغرب ، وحظيت الجزيرة بتقدم زراعى باهر خلال العصر الإسلامى ، وقد جاء فى دائرة معارف لاروس ما يلى : ^(٢)

أن صقلية مدينة للعرب بأسمى ما عرفته من تقدم زراعى ، فالقطن وقصب السكر والفسق و غيرها لم تعرفه الجزيرة إلا باحتلال العرب .

وقد زار ابن حوقل جزيرة صقلية فى أثناء حكم المسلمين لها وتحدث عن مساجدها الكثيرة ومدنيتها الراقية ، كما تحدث عن معلمى الصبيان ومؤذبيهم ^(٣) .

وقد دام بقاء المسلمين فى صقلية حتى سنة ١٠٩٠ حيث اغتصبها النورمانديون . ولكن حضارة المسلمين بصقلية عاشت بعدهم زمنا طويلا ، وقد كان روجر الأول (المتوفى سنة ١١٠١) عربى المظهر ، اعتمد على المسلمين فى جيشه ، وشمل العلوم العربية برعايته ، وقرب الفلاسفة الشرقيين ، وقلد المسلمين فى التسامح الدينى ، فسمح لكل سكان صقلية بممارسة طقوسهم

(١) ابن الاثير حوادث سنة ٢١٢ .

(٢) المجلد ٤ ص ٦٧٩ .

(٣) أنظر كتاب صورة الأرض ص ٢٦ - ١٣٠ .

وقد زار ابن جببير صقلية فى القرن الثانى عشر الميلادى فرأى الأزياء الإسلامية مستعملة شائعة ، فقد كان روجر الثانى يلبس الجبة المطرزة بالحروف العربية ، كما رأى ابن جببير النساء النصرانيات ترتدين أزياء المسلمين (١) .

جزر إسلامية أخرى بالبحر المتوسط :

توالت هجمات بنى الأغلب على جزر البحر الأبيض المتوسط منذ مطلع دولتهم ، وما جاءت سنة ٨٠٩ حتى نازعوا القرنجية فى كورسيكا ونازعوا البيزنطيين فى سردينيا ، وابتداء من سنة ٨٢٥ مكنوا لمسلمى كريت فاستطاع هؤلاء - فى حماية بنى الأغلب - أن يكون لهم نفوذ بالجزيرة ، أما مالطة فقد بدأ هجوم الأغلبية عليها ابتداء من سنة ٨٢٤ وظلوا يهاجمونها حتى تم لهم النصر بها سنة ٨٦٩ ، وقد ظل لهم السلطان بالجزيرة حتى انتزعها الفاطميون منهم سنة ٩٠٩ ، واستمر ملك الفاطميين لمالطة حتى سنة ١٠٩٠ عندما اغتصبها انثورمانديون .

المسلمون فى جنوب أوروبا :

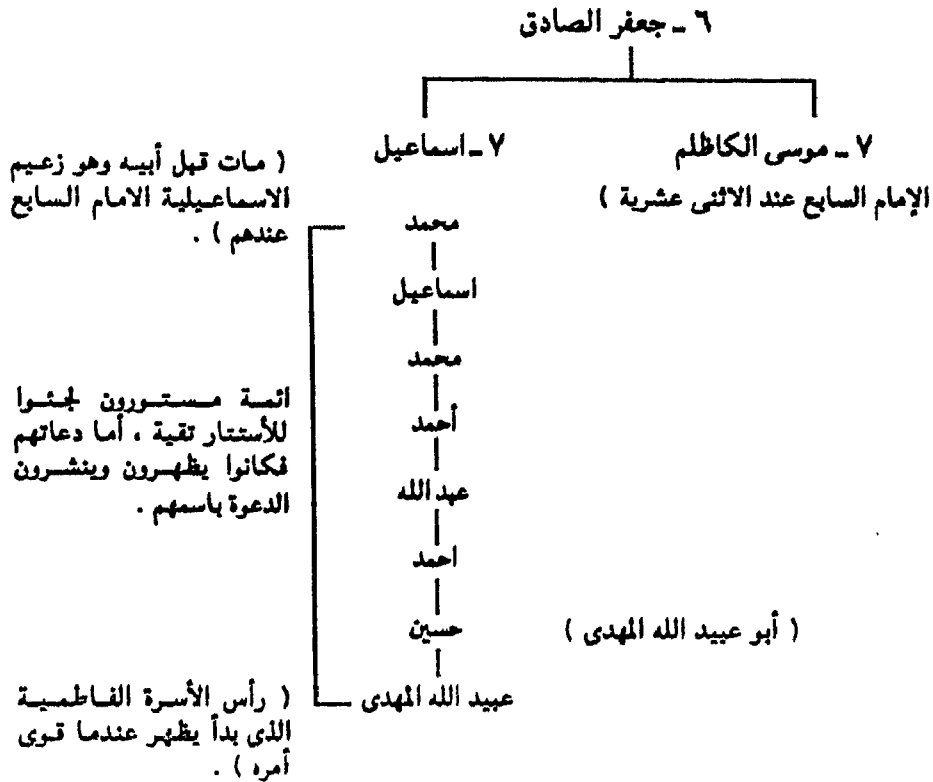
شهد القرن التاسع والعاشر غارات ناجحة قام بها بنو الأغلب على جنوبى فرنسا وجنوبى إيطاليا ، وقد استطاع المسلمون أن يحتلوا ساحل بروفانس الفرنسى سنة ٨٩٠ وظلوا أصحاب النفوذ بهذا الساحل حتى سنة ٩٧٥ ، على أن أعظم ضغط بنى الأغلب كان ضد إيطاليا التى تعرضت لهجوم متصل من صقلية وتونس ، وقد فتح العرب برنديزى سنة ٨٣٦ ونابلى سنة ٨٣٧ وكالبريا سنة ٨٣٨ وتارنتو سنة ٨٤٠ وبارى سنة ٨٤١ وبنفنتو سنة ٨٤٢ وهوجمت روما سنة ٨٤٦ ونهب أسطول الفاطميين جنوة سنة ٩٣٤ على أن هذه الفتوحات لم تكن طويلة العمر ، ولعل أطول مدة قضاها المسلمون بإيطاليا هى احتلالهم لمدينة تارنتو الذى دام من ٨٤٠ إلى ٨٨٠ .

(١) رحلة ابن جببير ص ٣٣٣ .

الفاطميون فى شمالى افريقية

نسب الفاطميين :

أوردنا فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة ^(١) قائمة بفروع الشيعة التى تسلسلت من على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ومن هذه القائمة تظهر صلة الفاطميين بإسماعيل بن جعفر الصادق الذى تنسب إليه طائفة الإسماعيلية ، ونعيد هنا من هذه القائمة ما يتصل بنسب الفاطميين مع التذكير بأن أول هذه القائمة هو الإمام على كرم الله وجهه ، ويحى بعده ابنه الحسن ، فالحسين ، ثم على زين العابدين ، فابنه الباقر :



(١) ص ١٦٨ من الطبعة السابعة .

وليس من الحقائق التاريخية المقطوع بها ربط الفاطميين بإسماعيل بن جعفر ، أو ربط الإسماعيلية الحالية بالفاطميين أو بإسماعيل بن جعفر هذا ، بل إن هناك من ينكر نسب الفاطميين ولا يراهم ينحدرون من فاطمة ، ويحاول هؤلاء أن يربطوا نسب الفاطميين بجده يهودى أو نصرانى .

وكان قد شاع ببغداد إنكار نسب الفاطميين ، وأراد الخليفة العباسى القادر (٣٨١ - ٤٣٢) أن ينتفع بهذه الإشاعة فى النضال السياسى بين العباسيين والعلويين ، فجمع جماعة من أئمة أهل السنة والشيعة حيث وقعوا على محضر سنة ٤٠٢ هـ يشهدون فيه أنهم سمعوا مما شاع وعرف وتواتر بين الناس أن الفاطميين لا يتصل نسبهم بعلى بن أبى طالب وإنما ينسبون إلى ديصان بن سعيد الخارجى (١) .

ومما ساعد على التشكيك فى نسب الفاطميين اتصالهم الذى لا ينكر بالإسماعيلية ولم يكن الإسماعيلية يستمتعون بسمعة طيبة ، ومن أجل هذا كان الطعن فى أية فكرة إسماعيلية يلاقى قبولا من الجمهور ، ومما ساعد على التشكيك كذلك فترة الستر التى اختفى فيها الأئمة وظهر الدعاة ، ولذلك لم يتفق المؤرخون الذين قالوا بصحة النسب ، على التسلسل بين جعفر الصادق وعبيد الله المهدى (٢) .

وكثير من الباحثين لا يقبلون الطعن فى نسب الفاطميين ، وينفرون من هذا التشكيك ، ويرون أن أسسه باطلة : وأنه ليس إلا من المناورات التى تدفع لها السياسة لا البحث العلمى الصحيح ، وقد أنكر هذا التشكيك من كبار المؤرخين ابن الأثير (٣) وابن خلدون (٤) والمقرئزى (٥) ، واتخذ ابن خلدون هذا التشكيك مثالا من أمثلة الوهم التى يضل بها بعض المؤرخين فقال : ومن الأخبار الواهية

(١) انظر : أهر الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ج ٢ ص ١٥٠ .

(٢) قارن التسلسل السابق بما أورده ابن خلدون فى الجزء فى الجزء الثالث من العبر ص ٣٦٠ .

(٣) الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ١٧ .

(٤) العبر ج ٣ ص ٣٦٠ وج ٤ ص ٣١ وما بعدها .

(٥) الخطط ج ١ ص ٣٤٨ - ٣٤٩ .

ما يذهب إليه الكثير من المؤرخين والأثبات في العبيديين خلفاء الشيعة بالقيروان والقاهرة في نقيهم عن أهل البيت صلوات الله عليهم ، والطعن في نسبهم إلى إسماعيل الامام بن جعفر الصادق ويعتمدون في ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بنى العباس تزلفاً إليهم بالقدح فيمن ناصبهم وتفننا في الشتمات بعدوهم (١) .

ثم راح ابن خلدون بعد ذلك يفند هذا التشكيك الظالم :

وأول ما يذكره ابن خلدون هو الكتاب الذي أرسله المعتضد العباسي (٢٧٩ - ٢٨٩) إلى ابن الأغلب بالقيروان ، وابن مدرار بسجلماسة يأمر بالقبض على الثائر العلوي الذي سار من الشام إلى المغرب ، وقد تم القبض عليه فعلاً وأودع السجن ولم يخرج منه إلا بعد أن تم النصر للداعي أبى عبد الله الشيعي كما سيأتى ، ففي هذا الكتاب اعتراف بأن الثائر العلوي .

وثانى أدلة ابن خلدون تلك القصيدة الرائعة التي قالها الشريف الرضى ، وهو من خيرة العلماء والأدباء والنسابة ، وهو كذلك من المقطوع بنسبهم العلوي ، وقد جاء في هذه القصيدة ما يلى :

ما مقامى على الهوان وعندى	مِقُولُ صارم وأُتِفَ حمى ؟
أحمل الضيم فى بلاد الأعادى	وئصر الخليفة العلوى ؟
من أبوه أبى ومولاه مولا	ى إذا ضامنى البعيد القصى ؟
لف عرقى بعرقه سيدا النسا	س جميعاً : محمد وعلى

وأما المحضر الذى وقعته الأئمة والأعلام فلا يقيم له ابن خلدون وزناً لأنه شهادة على السماع ، فهؤلاء شهدوا أنهم سمعوا .. والشهادة على السماع فى مثل هذه جائزة ، وطبيعى أن هذه الشهادة لا تفيد عدم النسب إلا عند الجماهير التى لا تفكر ولا تبحث عناصر الموضوع ، فهؤلاء الأئمة لم يذكروا أنهم تأكدوا من عدم صحة النسب أو لم يذكروا النسب الذى يروونه صحيحاً ، بل اكتفوا بقولهم

(١) مقدمة المقدمة .

أنهم سمعوا ، وذلك ليس دليلا ، هذا بالإضافة إلى أن هذا المحضر تم سنة ٤٠٢ هـ أى بعد أكثر من قرن على ظهور الفاطميين بالشمال الافريقى ، ولو كان الفاطميون كاذبين حقيقة لبادر أعداؤهم العباسيون يعلنون ذلك عند ظهور حركتهم فى أواخر القرن الثالث . ويقرر ابن خلدون أن طبيعة الوجود فى الانقياد إليهم وظهور كلمتهم أدل شئ على صحة نسبهم ، ويضيف قائلا : وأما من يجعل نسبهم فى اليهودية أو النصرانية لميمون القداح وغيره فكفاه إثما تعرضه لذلك (١) .

ولا يستساغ أن يكافح الدعاة هذا الكفاح القاسى ، وأن يبذل أبو عبد الله الشيعى كل هذا الجهد لتكوين دولة كبيرة بالعرق والدم ثم يسلمها إلى رجل يهودى أو نصرانى ، وكيف جاز أن يخفى هذا السر فى الشرق والغرب مع أن إيضاحه كان كافيا للقضاء على محاولات الفاطميين إقامة دولة لهم فى ميدان الشمال الافريقى ومصر .

الدعوة الفاطمية ووسائل نجاحها :

من المحقق أن دعاة الإسماعيلية كانوا يعملون بصبر وجلد لتنتشر دعوتهم فى ربوع الأرض وليسقطوا الخلافة العباسية ، وكانوا يتخذون من مشاهد كربلاء والنجف مراكز يتعرفون فيها على المتحمسين من شيعة آل البيت ليضيفوهم إلى موكب الدعاة ، كما كانوا يدركون أن فرص النجاح أقوى لو انتشرت آراؤهم بالأماكن النائية عن مركز الخلافة .

وهكذا كان اليمن وشمالى افريقية من أهم الأماكن التى وجهوا لها عنايتهم ، فكان لهم باليمن داعية شهير اسمه أبو عبد الله الحسين بن أحمد وشهرته : أبو عبد الله الشيعى ، وكان لهم بالشمال الافريقى داع اسمه الحلوانى وآخر اسمه أبو سفيان ، ونجحت الدعوة فى المكانين ، غير أن الشمال الافريقى كان أهم للدعوة من جهة أنه يتمتع - بالإضافة إلى عزلته - بانفساحه واتصاله بمصر مما يجعل الأمل أفسح فيما يتعلق بمستقبل الدعوة ، وقد نجح أبو سفيان

(١) أنظر النص فى مقدمة ابن خلدون .

والخلوانى نجاحا كبيرا ، وبعد وفاتهما اختير أبو عبد الله الشيعى ليواصل جهده هناك ، وكان أبو عبد الله عالما ذكيا لسنا ، مع تعصب للتشيع وإخلاص لآل البيت ، وسافر أبو عبد الله من اليمن للحج حيث التقى بمكة مع وفد من كتامة جاؤا من المغرب ، وطلبوا منه أن يصحبهم إلى بلادهم ليواصل دعوة أبى سفيان والخلوانى ففعل ، وفى إفريقية أعلن أبو عبد الله أنه يدعو إلى « أبى عبيد الله المهدي » من نسل على بن أبى طالب ، وأنه يقيم بالشام ، وقد نجحت دعوة أبى عبد الله بإفريقية نجاحا عظيما على الرغم مما واجهه من مشكلات ، وسرعان ما نقل دعوته من الكلام للعمل ، فأعد من كتامة جيشا عظيما ، زحف به على مدن إفريقية وأخذ يحتلها واحدة بعد واحدة ، وساعده على النجاح أن السلطان الأخير من أسرة الأغلبية زيادة الله الثالث كان قليل الكفاية سيئ السلوك ، فلم يستطع أن يصمد أمام القوة الشيعية النامية بهذه البلاد ، فأفسح لها الطريق .

وفى خلال هذه الانتصارات مات أبى عبيد الله المهدي ، وقامت الدعوة لابنه عبيد الله المهدي ، ولكن سرعان ما أحس الخليفة العباسى (المكتفى) بالخطر ، وعرف أن عبيد الله المهدي هو مركز هذه الحركات ، فأرسل إلى واليه بالشام يطلب منه أن يقبض على عبيد الله الذى كان يقيم فى (سلمية) بالقرب من حماة ، ولما عرف عبيد الله هذا فر من سلمية متجها نحو المغرب ومعه ابنه أبو القاسم وخاصة مواليه ، وقد تزيا عبيد الله بزي التجار ، وعبر القاهرة واتجه إلى الاسكندرية فبرقة فطرابلس ، وكتب المعتضد لزيادة الله بن الأغلب ولابن مدرار يطلب منهما القبض على هذا العلوى كما مر ، فبث هذان العيون وأصدروا التعليمات لولاتهما بالقبض عليه ، وقد نجح عبيد الله من أتباع زيادة الله بالتخفى أحيانا وبالرشوة أحيانا أخرى ، ولكنه فى النهاية وقع فى يد عامل سجلماسة الذى قبض عليه وعلى ابنه وأودعهما السجن .

ولكن أمر أبى عبد الله الشيعى كان يزداد قوة ، وجيوشه توالى زحفها هنا وهناك ، ولم يستطع زيادة الله الأغلبى أن يقف فى وجهه ، فهوى جيشه وفر الأمير الأغلبى ، وتم النصر لأبى عبد الله الشيعى الذى أسرع إلى السجن فأخرج سيده ويابح إليه فى حفل كبير ، وكان أول ظهور عبيد الله بسجلماسة سنة ٢٩٦ ، ثم دخل رقادة سنة ٢٩٧ حيث تسلم مخلفات بنى الأغلب ، وبويع

عقب ذلك بيعة عامة بالقيروان ، وبدأت دولته فى الظهور والاستقرار .

ويقال أن عبيد الله أوجس عقب ذلك خيفة من الداعى أبى عبد الله الشيعى ، ومن أخيه أبى العباس ، فقبض عليهما وأمر بقتلهما سنة ٢٩٧ ، ومثل هذا الحادث كثير الوقوع فى التاريخ ، فمؤسس الدولة الحقيقى يرى لنفسه حقاً يعارض أطماع من قامت الدعوة باسمه ، كما حدث بين المنصور العباسى وبين أبى مسلم الخراسانى ، أو بين المعز لدين الله الفاطمى وبين جوهر الصقلى مع تفاوت فى النتائج بحسب الظروف .

وتولى عبيد الله المهدي زمام الأمور بالقيروان ، وكانت دول إفريقية الثلاث آنذاك تتدهور أحوالها وتضعف قواها ، فورثها العبيديون جميعاً ^(١) . وقد بدعوا بتونس كما ذكرنا فأسقطوا ملك الأغالبة ، ومنه مدوا نفوذهم إلى الجزائر وأسقطوا ملك آل رستم ، فمراكش حيث قضوا على بقايا الأدارسة ، ودان لهم الشمال الإفريقى كله ، وبنى عبيد الله المهدي سنة ٣٠٣ واتخذها عاصمة لذلك الكبير . كما اتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين وخليفة المسلمين وإمام الملة ^(٢)

وخلفاء الفاطميين بالشمال الإفريقى هم :

عبد الله المهدي ٢٩٧ = ٩٠٩

أبو القاسم القائم بن المهدي ٣٢٢ = ٩٣٤

المنصور بن القائم ٣٣٤ = ٩٤٥ بني مدينة المنصورية واتخذها عاصمة له

المعز لدين الله ٣٤١ = ٩٥٢ ^(١)

(انتقل إلى مصر سنة ٣٦٢ = ٩٧٢ حيث سنواصل الكلام عنه عند حديثنا عن مصر فيما بعد) .

(١) يعرفون بالعبيديين نسبة إلى جدهم عبيد الله ، ويفضلون هم أن ينسبوا إلى فاطمة فيقال : فاطميون .

(٢) انظر تاريخ الإسلام للذهبي ج ٣ ص ٨٤ .

الفاطميون فى أفريقيا :

ورث الفاطميون ملك الأغالبة وأسطولهم ، وبهذا استطاعوا أن يواصلوا نشاط الأغالبة بالبحر الأبيض المتوسط وأن يوسعوا نفوذهم فى الشمال ويتطلعوا إلى فتح مصر .

على أن الفاطميين فى شمالى أفريقيا قابلوا عدداً من الثورات فى أمكنة مختلفة ، ومن أصعب الثورات التى قابلها الفاطميون تلك الثورة التى أشعلها أبو زيد مخلد بن كيداد الذى يلقب بصاحب الحمار ، وكان يتخذ جبال أوراس مركزاً له ، وقد تبعه كثير من المغاربة وبخاصة من الخوارج الذين كانوا لا يرون رأى الشيعة فى الاعتقاد ، وقد بدأت هذه الثورة سنة ٣٢٦ هـ على أثر تعليمات أصدرها الخليفة أبو القاسم القائم بسبب الصحابة (١) وظلت هذه الثورة عشر سنوات فاشتد فى مقاومتها الخليفة القائم وابنه الخليفة المنصور ، ويرى أنه لما مات القائم أخفى المنصور موته حتى لا يتقاعس جنده ، وقد كسب الفاطميون الحرب فى النهاية ، ولكن بعد أن كبدهم كثيراً من الخسائر فى الأرواح والأموال .

ولم يتمكن الفاطميون من نشر التشيع فى شمالى إفريقيا لأن الحرب التى أشرنا إليها آنفاً علمتهم أن استقرارهم السياسى يتوقف على تنازلهم عن بعض معتقداتهم المذهبية ، فأثر الفاطميون السلامة ، وقللوا تحمسهم المذهبى ، وكان هذا مما دعاهم إلى نوع من الاعتدال الذى ظهر عليهم عندما دخلوا مصر ، وبخاصة أنهم قابلوا فى مصر جماعات مثقفة ظهر أنها لن تتقبل بسهولة مزاعم الشيعة التى كانت تنشط فى بعض الأحيان .

زحف الفاطميين إلى مصر :

تطلع الفاطميون منذ سنيهم الأولى إلى مصر ، ولم تكد تظهر دولتهم بشمالى إفريقيا حتى أخذوا يعدون العدة للزحف إلى المشرق ، والإستيلاء على وادى

(١) زامباور : معجم الانساب ج ١ ص ١٤ .

(٢) أنظر تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٨٤ .

النيل الخصب ذى الحضارة العتيقة . وساعدهم على ذلك أن مصر كانت تمر
بمرحلة من الفوضى والاضطراب خلال الفترة الواقعة بين سقوط الدولة الطولونية
سنة ٢٩٢ (٩٠٦) وقيام الدولة الإخشيدية سنة ٣٢٣ (٩٣٥) إذ عادت
مصر خلال هذه الفترة إلى سلطان العباسيين المباشر وكان العباسيون آنذاك يرون
بفترة قائمة انعكست على كل البلاد التابعة لهم .

وفى خلال هذه الفترة قام الفاطميون بمحاولات ثلاث لاقتحام مصر ، كانت
الأولى سنة ٣٠١ (٩١٣) بقيادة أبى القاسم بن عبيد الله المهدي يعاونه
حباسة بن يوسف ، واستطاعت أن تستولى على برقة والاسكندرية ، ولكن
الحلقة العباسية دافعت عن مصر دفاعاً صارماً فأرسل الخليفة المقتدر مؤنسا
الحسام على رأس جيش كبير أنزل الهزيمة بالجيش الفاطمى وأعادته إلى
المغرب ^(١) . وكانت الحملة الثانية بقيادة أبى القاسم أيضاً سنة ٣٠٧ وكان
الزحف بجيش برىّ تعاونه بعض السفن الحربية التى ورثها الفاطميون من
الأغالبة ، واستولت هذه الحملة على الاسكندرية ولكن مؤنسا الحسام جاء لمصر
مرة أخرى فانتصر على المهاجمين وأرغمهم على الجلاء عن الاسكندرية ^(٢) ،
وجاءت الحملة الثالثة سنة ٣٢١ ورحب بعض المصريين بها فراراً من الفوضى
التي كانت تعانيها مصر ، فاستطاعت أن تدخل الإسكندرية وتستقر بها ثلاث
سنوات ، ولم يجد الخليفة العباسى بداً من أن يكل مصر إلى وال قوى يستقر
بها على أن تكون له وأولاده ، فاختر لذلك الاخشيدي سنة ٣٢٣ واستطاع
الاخشيدي أن يرد الفاطميين ^(٣) وأن يهب مصر نوعاً من الاستقرار والهدوء أرغم
الفاطميين على إيقاف زحفهم على مصر ، وتأجيل أطعامهم فى ضمه لدولتهم .

ومما ساعد على توقف الزحف الفاطمى على مصر قيام ثورة أبى يزيد مخلد
بن كيداد التى سبق أن تحدثنا عنها والتى استمرت عشر سنوات (٣٢٦ -
٣٣٦) أكلت خلالها كثيراً من الرجال وابتلعت أموال الدولة وكان لابد من فترة
هدوء بعدها لإصلاح الأحوال وإعادة بناء الدولة وتكوين الجيش .

(١) المقرئى : اتعاظ الحنفا ص ٤١ والمخطوط ج ١ ص ٢٢٧ .

(٢) الكندى : كتاب الولاء والقضاة ص ٢٧٧ - ٢٨٧ ووفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٥ .

(٣) ابن خلدون : المعبر ج ٤ ص ٣٩ .

وآلت الخلافة الفاطمية إلى المعز لدين الله سنة ٣٤١ وتجمعت الظروف التي توحى بإمكان النصر لو حاول الفاطميون من جديد زحفهم إلى مصر ، وكانت شخصية المعز هي مفتاح النصر ، فقد كان واسع الثقافة يعرف كثيرا من اللغات ، شديد الولع بالعلم والأدب ، كما كان حسن التدبير مهيب الجانب (١) .

وكانت الخلافة الفاطمية في عهد المعز قد استعادت أنفاسها بعد أن زالت الآثار التي سببتها ثورة أبي يزيد ، وأعادت البلاد الي الاستقرار والرخاء واستطاعت الخلافة في عهد المعز أن تمتد غربا حتي وصلت المحيط الاطلسي وقضت على بقايا الأدارسة وعلي سلطان القبائل الذي كان قد انتشر بمراكش علي إثر ضعف الأدارسة وكانت جيوش الخلافة الزاحفة الي الغرب يقودها جوهر الصقلي الذي أرسل الي مولاه المعز هدية من سمك المحيط الاطلسي إيذانا ببلوغ نفوذه شاطئ البحر (٢) .

وهكذا أمن الخليفة ظهراء فأنجبه بكل قواه تجاه الشرق وساعده علي ذلك أن الدولة الإخشيدية كانت قد انقرضت وأن أمور ~~الخلافة~~ كانت في اضطراب واضح وأن الضعف العباسي كان بارزا لن يستطيع أن يهدئ الاضطراب أو أن يرد عن مصر جيوش الطامعين وكان من آثار هذا الاضطراب أن كتب بعض المصريين الي المعز يرحبون بالتقاء مصر بإفريقية تحت سلطانه وغادر مصر الي افريقية يعقوب بن كلس الذي كان وزيرا لكافور ، فأغرى المعز بفتح مصر وجعلها مركز سلطانه (٣) فأخذ المعز يعد العدة لهذه الجولة فأنشأ الطرق وحفر الآبار . وأعد العتاد والزاد والرجال . الأشداء ، وجعل علي رأس جيشه كاتبه جوهر الصقلي الذي بدأ الزحف في الرابع عشر من شهر ربيع الأولي سنة ٣٥٨ ، وسرعان ما استولي علي برقة ، ثم استولي علي الاسكندرية بدون مقاومة ، وفي الاسكندرية تمت المفاوضة بين جعفر بن الفرات نائبا عن شعب مصر وبين جوهر الصقلي ، وانتهت المفاوضة بالترحيب بالجيش الزاحف علي أن يضمن جوهر للمصريين حرية العقيدة

(١) وفيات الأهيان : ج ٢ ص ١٣٣ .

(٢) الرجوع السابق ج ٢ ص ٤٤٠ - ٤٤١ .

(٣) يراجع هذا العهد في المقرئى : اتعاط الحنفى ص ٦٧ - ٧٨ وأقرأ ابن خلكان : ج ٢ ص ١١٨ -

، وأن يقوم بما تتطلبه البلاد من وجوه الإصلاح ، كما تعهد بنشر العدل والطمأنينة في النفوس وضمن الاستقرار الداخلي والدفاع عن البلاد ضد أي عدوان خارجي ودخلت مصر بذلك في ظل الفاطميين .

المعز لدين الله يتجه الي مصر :

واتجه جوهر الي الإصلاح الداخلي ، ومن أبرز منشآته بناء الأزهر الشريف ومدينة القاهرة التي بناها في منطقة العواصم الاسلامية والفرعونية ^(١) ، وما إن انتهى جوهر من دعم ملك الفاطميين أرسل الي مولاه بذلك ، فانتقل الخليفة الي مصر ومعه أسرته وخدمه وأتباعه وأمواله وجثث آبائه الخلفاء الذين ماتوا في افريقية ودخل المعز القاهرة سنة ٣٦٢ وخرَّ لله ساجدا علي هذا الفتح العظيم ، وسنوقف الآن حديثنا عن الفاطميين في مصر لنستأنفه فيما بعد عند الكلام عن مصر وسوريا في الجزء الخامس من هذه الموسوعة ، ونستمر في حديثنا الآن عن الشمال الافريقي بعد انتقال مركز الخلافة الفاطمية الي القاهرة .

(١) من أجل هذا عارض كثير من الباحثين الاتجاه الي الاحتفال سنة ١٣٥٩ هـ بمرور ألف سنة على إنشاء القاهرة الحقيقية أن القاهرة الآن ملتقى عواصم مصرية عديدة بعضها اسلامي كالفسطاط والمعسكر والتقطان وبعضها لفرعوني كمنف أو منفيس على النيل ، وهي تمتد من الفسطاط الحالية الي موقع أبي الهول ومن بقاياها ميت رهينة .

(التاريخ الإسلامي ج ٤ م ٢٢)

إفريقية بعد انتقال المعز لمصر :

كان خلفاء الفاطميين ينوون الاحتفاظ بمنطقة « افريقية » تابعة لهم فاستعمل المعز بلكين بن زيري الصنهاجي واليا عليها ، ولكن سرعان ما قامت حركة استقلالية بمراكش قوامها القبائل التي استقلت بمكناسة ومغراوة وغيرها وتم سلطان آل زيري فيما تبقى من الشمال الافريقي ، ثم انقسمت هذه الأسرة الحاكمة الي فرعين ، فرع بنى حماد فى الجزائر وينسب هذا الفرع إلى حماد بن بلكين بن زيري ، وفرع المنصور بن زيري الذي بقي يحكم من المنصورية عاصمة الفاطميين بالشمال الإفريقي ، واتجه الفرعان خطوة خطوة إلى الاستقلال ، بل اتجها - أكثر من ذلك - إلى التخلص من الشيعة وإعادة ربط بلادهم ببني العباس فى بغداد كما سبق القول ، واتجهت حكومة الفاطميين الي تحدى آل زيري وبخاصة في تونس إذ أن تونس متاخمة لمصر لأنها كانت تشمل طرابلس المجاورة لبرقة التي كانت تعد جزءا من مصر ، ثم إن تونس كانت مقرا للخلافة الفاطمية عدة سنوات قبل فتح مصر وبها عاصمتان هامتان سميتا باسم خليفتي من خلفاء الفاطميين ، وهاتان العاصمتان هما المهدية والمنصورية ، ومن أجل هذا ظل الفاطميون متمسكين بسلطانهم علي « افريقية » وكان لهم النصر في أكثرها وعلي كل حال فما جاء سنة ٤٣٥ حتي اجتاحت « افريقية » ثورة ضد المذهب الشيعي ، وبدأ السكان يعودون الي المذهب المالكي ، وفي سنة ٤٤٠ كان هذا الاتجاه قد قوي فأبطلت الخطبة للفاطميين وأقيمت الخطبة لبني العباس ، وفي سنة ٤٤٣ أعلنت برقة أيضا هذا الاتجاه ^(١) واعتبر هذا تهديدا للملك الفاطميين ، فكتب الخليفة المستنصر الفاطمي للمعز بن باديس يتودده ويتهدده ، وكان مما جاء من رسالة المستنصر للمعز : هلا اقتفيت آثار آبائك في الطاعة والولاء ؟ ولكن رد المعز بن باديس كان جافاً وشديداً ^(٢) فاستشاط الخليفة الفاطمي غضبا واستشار وزيره أبا محمد اليازوردي فيما يمكن أن يفعل ف أشار عليه باصطناع القبائل العربية من بني سليم وبني هلال الذين كانوا يعيشون غير مستقرين بصعيد مصر ، شرقي نهر النيل ، فوافق علي ذلك ، وأرسل وزيره

(١) دكتور حسن سليمان : ليبيا فى الماضى والحاضر ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٣٧ - ١٣٨ .

اليوم بينبشهم بأن لهم عمالة افريقية ، وأن الخليفة قلدهم أمرها ، وأرضخ الخليفة للأمراء العطاء ، ووصل عامتهم بغيرا ودينارا لكل منهم ، قال لهم أعطيتكم المغرب وملك المعز بن باديس الصنهاجى ، فطمعت العرب في ذلك وجاوزوا النيل الي برقة سنة ٤٤٤ ونزلوا بها واقتحموا أمصارها واستباحوها وكان عددهم أربعائة ألف^(١) .

ويعلق الدكتور حسن سليمان^(٢) على هذا الحادث بقوله أنه كان انتقاما شنيعا قام به الخليفة الفاطمي ضد المعز بن باديس ، وقد حاربه العرب حربا لا هوادة فيها وأنزلوا به الهزائم عدة مرات ، كما أن هؤلاء الغزاة أحدثوا انقلابا كبيرا في شمالى افريقية من حيث الاقتصاد والسياسة والسلالات ، فقد استعمرت البلاد ، وغلبت عليها البداوة ، واضطرب الأمن ، وتقوض سلطان الحكومة المركزية . وسقطت بعض المدن الكبيرة فى يد العرب ، واستقلت غيرها بأمر نفسها يحكمها أمراء من أهل البلاد ، أو عمال جهروا باستقلالهم .

وقد ارتدع بعض أمراء آل زيرى من هذا الحادث فعادوا للاعتراف بخلفاء القاهرة ، ومن هؤلاء يحيى بن قميم ثم ابنه على . ولكن سلطان الفاطميين علي كل حال كان ضئيلا على الشمال الافريقى منذ نزحوا إلى مصر ، ولذلك يعتبر المؤرخون أن آل زيرى كانوا هم الحكام الحقيقيين لهذه البلاد بعد الفاطميين ، ومن أجل هذا ننتقل من الحديث عن الفاطميين لنسجل كلمة قصيرة عن آل زيرى .

آل زيرى ٣٦٢ - ٥٤٣ = ٩٧٢ - ١١٤٨ :

عندما أزمع الخليفة المعز لدين الله أن يرسل الى مصر استشار خاصته فيمن يوليه علي الشمال الافريقى ، وانتهت المشاورة باختيار بلكين بن زيري ، وهو من قبيلة صنهاجة التي ينتهي نسبها الي حمير وقد أسند المعز اليه ولايه افريقية وأوصاه^(٣) ، واستثنى من ولايته طرابلس وسرت برقة حيث ألحقها

(١) ابن خلدون : العبر ٦ ص ١٢ والنائب الأنصارى ج ١ ص ١١٦ .

(٢) ليبيا فى الماضى والحاضر ص ١٤٩ .

(٣) اقرأ هذه الرصية فى ابن خلكان ج ١ ص ٩٣ .

بعحكم مصر وولي عليها عبد الله بن يخلف الكتامي الذي اتخذ طرابلس مقرا له وفي عهد العزيز بن المعز أرسل له بلكين هدية ثمينة سنة ٣٦٧ هـ وطلب منه أن يضم إلى إمارته المقاطعات الثلاث . فاستجاب العزيز لذلك واستدعي عبد الله الكتامي وأخذ بلكين يولي عليها من عنده ، وكان أول ولاته عليها عوصلة بن بكار .

وأمرآء آل زيرى هم :

٩٧٢ = ٣٦٢	يوسف بلكين بن زيرى
٩٨٣ = ٣٧٣	منصور بن يوسف
٩٩٦ = ٣٨٦	باديس بن منصور
١٠١٧ = ٤٠٨	المعز بن باديس
١٠٦١ = ٤٥٣	تيم بن المعز
١١٠٧ = ٥٠١	يحيى بن تيم
١١١٥ = ٥٠٩	على بن يحيى
١١٢١ = ٥١٥	حسن بن على

الى ٥٤٣ = ١١٤٨ (١) .

وضعف شأن آل زيرى بسبب خلافاتهم مع الفاطميين وحروبهم مع بنى هلال وبنى سليم كما مر ، وما أضعف آل زيرى بشمالى افريقية أيضا أن قوة النورمانديين (٢) بدأت تنمو وتهدد سلطان المسلمين ، كما استطاعوا أن يستولوا على بعض مدن الشمال الافريقى كالمهدية وتونس وطرابلس ، وفى الوقت نفسه بدأت قوة الموحدىين فى النشاط بالشمال الإفريقى كله ، مما أذن بنهاية آل زيرى

(١) زامبور : معجم الأنساب ج ١ ص ١٠٩ .

(٢) النورمانديون قوم جاءوا من شمالى أوربا فى القرن التاسع واجتاحوا بلاد فرنسا وإنجلترا وظهروا أمام القطنطينية وأسسموا إمارات فى جنوب إيطاليا وصقلية و ينسب لهم أقليم النورماندى فى شمال غرب فرنسا .

الموحدون :

سبق أن تكلمنا عن الموحدين وأبنائهم مدوا نشاطهم حتي تاخم حدود مصر شرقا وأشرف علي المحيط الاطلسي غربا ، فكانت تونس إحدى ، مناطق سلطانهم الفسيح ، ولكن ثار عليهم ثائر اسمه يحيى بن غانية ينتمي الي المرابطين (غانية جدة يحيى وهي احدي أميرات المرابطين) سنة ١١٩٠ وجرت بينه وبين الموحدين حروب انتهت بهزيمته سنة ١٢٠٧ ، وكان ذلك من الاسباب التي جعلت الموحدين يلجأون الي بطل من أبطال دولتهم لتكون له ولاية تونس ليحميها من أمثال هذه الحركات ، وهذا البطل هو عبد الواحد بن أبي حفص جد الاسرة الحفصية التي سنتحدث عنها فيما يلي^(١)

بنو حفص : (٦٢٥ - ٩٤١ هـ = ١٢٢٨ - ١٥٣٤ م) :

إن بنى حفص جديرون بكلمة أطول ، لأن رقعة ملكهم امتدت على مساحة أوسع من سواهم ، ولأنهم حملوا لقب الخلافة ، واعتبرو أنفسهم ورثة الموحدين .
ويُنسب بنو حفص الى الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى من قبيلة هنتاتة ، وقد كان هو وبنوه من خيرة رجال الموحدين ، فكان بينهم الوزراء وعندما هبت ثورة ابن غانية في تونس قاد الخليفة الناصر جيشا عظيما لمحاربة هذا الثائر ، واصطحب معه قائدا من قواده الابطال هو عبد الواحد ابن أبي حفص ليساعده في تحقيق هذا الهدف ، وقد أبلى عبد الواحد في ذلك بلاء حسنا حتى انتهت هذه الحروب بهزيمة ابن غانية سنة ١٢٠٧ م كما ذكرنا آنفا .

وانتجه الخليفة الناصر الى عبد الواحد بن أبي حفص فعينه والياً على تونس ليحميها من الحركات المعارضة للموحدين واستطاع عبد الواحد أن يحكم تونس بمهارة وحكمة ، وأن يؤمنها من كل الثورات حتى مات سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) .

وبعد عبد الواحد عيّن الموحدون على تونس ولالة من الأسر الحاكمة فلما جاء عهد الخليفة العادل الموحد عاد هذا الى أبناء عبد الواحد ابن أبي حفص فعين

(١) أنظر المعبر لابن خلدون ج ٦ ص ٢٧٥ وما بعدها .

منهم والياً على تونس وكان اسمه « عبو » .

وبدأ الضعف في أوصال الموحدين ، ووصل الخلاف بين أفراد الأسرة الحاكمة إلى درجة شديدة ، حتي صار هناك خليفتان من الموحدين في آن واحد هما المعتصم والمأمون ، حوالي نهاية الربع الثاني من القرن السابع الهجري .

وهنا قفز من الحفصيين بطل اسمه « أبو زكريا » وهو أخو الوالي « عبو » فاستغل لصالحه الشخصي خلافات الموحدين ، وباع للمأمون سنة ٦٢٥ هـ ، وباسمه استطاع أن يتغلب علي أخيه عبو ويأخذ منه ولاية تونس .

وباستيلاء أبي زكريا علي ولاية تونس سنة ٦٥٢ يبدأ عهد الدولة الحفصية فإنه سرعان ما تطلع للاستقلال ، وخطا نحوه فرفض العمال الذين أرسلهم الخليفة الموحد المأمون ثم خطا خطوة أخرى ، فأعلن عدم تبعيته لدولة الموحدين

وانتجه أبو زكريا الي توسيع حدود إمارته شرقا وغربا فمهد سيطرته من مقره في طرابلس إلى قسنطينة وبجاية والجزائر وتلمسان ، وعدة مناطق أخرى ، كما ذاع صيته في المغرب والاندلس في القرن السابع الهجري وجاءته وفود عدة بلدان تحمل له البيعة ، ويحفظ لنا الشعر العربي وثيقة تبين أنه كان ملاذ المسلمين إذا نزلت بهم نازلة ، فعندما حاصر الفرنجية مدينة بلنسية بالأندلس هتف شاعرها بالأمير الحفصي قائلاً :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا

إن السبيل الى منجاتها درسا

وهب لها من عزيز النصر ما التمس

فلم يزل منك عز النصر ملتصا

وقد استجاب الأمير أبو زكريا لهتاف الشاعر ، وأرسل أسطولا حاقلا بالطعام والسلاح والرجال ، ولكن حصار بلنسية كان محكما فوصلها الأسطول وهي تستسلم ، فلم يتمكن قائده من إنقاذها (١) .

(١) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٣٨٣ وما بعدها .

ويعتبر الأمير أبو زكريا الحفصي واحدا من الشخصيات البارزة في القرن السابع الهجرى ، كما يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة الحفصية ، وإن كان قد اكتفى بلقب الأمير ولم يتلقب بلقب الخلافة .

وتوفي أبو زكريا سنة ٦٤٧ هـ ، وقد دعم أركان الدولة الحفصية ليأتي من بعده ابنه الأمير المستنصر والموحدون على وشك السقوط فأعلن سنة ٦٥٠ هـ أنه أصبح خليفة المسلمين ، وكان قريب الشبه بأبيه من حيث سياسته وعدله وتعتبر مدة حكمه فترة ازدهار للدولة الحفصية و فى عهد المستنصر هذا تعرضت تونس للحملة الصليبية التى قادها لويس التاسع ، وقد سبق أن تكلمنا عنها .

ويتحدث ابن خلدون ^(١) عن الآثار التى أظهرها المستنصر فيذكر منها بناء المصيد بناحية بنزرت ويصف كيفية الصيد فيه وموكب الصائدين الذى كان يضم البازات والصقور والكلاب السلوقية والفهود المدربة على الصيد ومن آثاره إيوانه الذى يعتبر من أفخم الإيوانات .

ومن الآثار التى تدل على عظم مكانة الدولة الحفصية الحنايا التى كانت توصل المياه الى البساتين وتستفيد مدينة تونس من جزء من مياهها . كما يقدم لنا ابن خلدون وصفا رائعا لبستان أبى فهد أحد هذه البساتين ، ويذكر أنه كان آيه من آيات الجمال فى المغرب .

وقد اهتمت الدولة الحفصية فى عهد المستنصر بالمدارس ، وكان من مدارس ذلك العهد مدرسة السيدة « عطف » أم الخليفة الحفصي المستنصر وقد أمرت ببنائها وأسماها المدرسة التوفيقية وألحقها بالمسجد الذى شيدته ، وأطلق عليه اسم جامع التوفيق ^(٢) .

ومن الإصلاحات المالية التى نفذت فى أوائل عهد الدولة الحفصية ما ذكره ابن خلدون ^(٣) من استحداث عملة جديدة اسمها « الحندوس » سكنت من

(١) العبر ج ٦ ص ٢٨٢ .

(٢) انظر ابن دينار المؤنس ص ١٣٤ - ١٣٥ .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٨ ص ٢٨٨ .

انساحس بميمه العمله العضيده التي كانت متداوله انداك والتي لحقها الغش من قبل اليهود القائمين بصرفها وسكها وكان غرض الدولة من سك هذه العملة كذلك التسهيل علي الناس في المعاملات .

واستمر حكام الدولة الحفصية يحملون لقب الخلافة حتى آخر أيامهم ، وقد قلنا إنهم كانوا يطمعون في الاستيلاء علي مكانة الموحدين ويعدون أنفسهم ورثتها ، ولكن بنى زيان الذين آل لهم السلطان بالجزائر وقفوا في طريقهم مما سبب حروبا عنيفة بين القوتين سبق أن تحدثنا عنها ^(١) ثم إن بنى مرين ورثوا عاصمة الموحدين فناقسوا بنى حفص في أمنيتهم في التسلط على الشمال الإفريقي كله ونجحوا فترة من الزمن إذ مدوا سلطانهم الى تونس سنة ٧٤٧ (١٣٤٦) وظل لهم السلطان بضع سنوات كان حكام بنى حفص خلالها يعترفون لبنى مرين بالسيادة ^(٢) .

ويلاحظ في تاريخ بنى حفص كثرة الخلافات والانقسامات بين أعضاء الأسرة الحاكمة ، كما يلاحظ خضوع بعضهم أحيانا للملوك المسيحيين ، وفيما يلي قائمة ملوك بنى حفص :

أبو زكريا يحيى (أول)	١٢٢٨ = ٦٢٨
أبو عبد الله محمد (المستنصر الأول)	١٢٤٩ = ٦٤٧
أبو زكريا يحيى (الثانى)	١٢٧٧ = ٦٧٥
أبو إسحق إبراهيم	١٢٨٩ = ٦٧٨
أبو حفص عمر (المستنصر الثانى)	١٢٨٤ = ٦٨٣
أبو عبد الله محمد (الثانى)	١٢٩٥ = ٦٩٤
أبو بكر (الأول) شديد	١٣٠٩ = ٧٠٩

(١) انظر تفاصيلها في ابن خلدون ج ٨ ٨١

(٢) ابن خلدون : الرجوع السابق ١٨٢

أبو البقا خالد (الأول)	$1309 = 709$
أبو يحيى زكريا	$1311 = 711$
أبو ضربة محمد (الثالث)	$1317 = 717$
أبو يحيى أبو بكر (الثاني)	$1318 = 718$
أبو حفص عمر (الثاني)	$1346 = 746$
أبو عباس أحمد (الأول)	$1349 = 750$
أبو إسحاق إبراهيم (الثاني)	$1350 = 751$
أبو البقا خالد (الثاني)	$1368 = 768$
أبو العباس أحمد (الثاني)	$1370 = 772$
أبو فارس عبد العزيز	$1394 = 794$
محمد (الرابع)	$1433 = 837$
أبو عمر عثمان	$1435 = 839$
أبو زكريا يحيى (الثالث)	$1488 = 893$
أبو عبد الله (الخامس)	$1493 = 899$
أبو محمد الحسن	$1525 = 932$
إلى	$1534 = 941$

وأزهى عصور بنى حفص هو عصر أبي زكريا وعصر ابنه المستنصر ثم عصر أبي العباس أحمد ، وعصر ابنه (أبو فارس عبد العزيز) الذي استراح الناس إلى حكمه الطويل إذ بلغت مدة حكمه أكثر من إحدى وأربعين سنة ولعل في طول المدة التي قضها أبو العباس أحمد وابنه أبو فارس عبد العزيز - والتي بلغت حوالي ستة وستين عاماً - ما يكشف عن هدوء الدولة في ذلك الوقت ، ويصف ابن أبي دينار أبا العباس بأنه كان شجاعاً ديناً عاقلاً صفوحاً . كما ذكر

عنه أنه هو الذي شيّد رسوم بنى حفص بعد اندراسها ، وأقام منار بنى حفص فى الخلافة ودعم أساسها ^(١) .

ويصف صاحب المؤنس أبا فارس بأنه واسطة بنى حفص ، وأنه الذى أكمل ما بدأ أبوه من تقدم وعمران ، وإذا ذكرت خلافة الحفصيين بدونه يظهر فى خلافتهم النقص ، ومما يدل على عظم مكانة الخليفة اهتمامه بالعلم والكتب وإنشاؤه مكتبة ضمت العديد من أمهات الكتب ، وقد أوقف هذه المكتبة على طلبة العلم ينتفعون بها ، وقد رتب لهذه المكتبة موظفين يناولون الطلاب ما يريدونه من كتب ، وكانت هذه المكتبة تفتح يومياً فى أوقات معينة .

ويتهاموي مستوي الحكام الحفصيين بعد ذلك لكثرة الخلافات بين أبناء الأسرة ولكثرة الثورات ضد الحاكم ، وفي عهد أبى محمد الحسن الذى بويع فى ربيع الثانى سنة ٩٣٢ هـ زاد الأمر سوءاً ، وخرجت عن طاعته عدة مدن ، وكان الأتراك يجاورونه على حدود بلاده الغربية ، إذ كانوا قد مدوا سلطانهم حتى قسنطينة ، وانتهم الأعراب فرصة الاضطراب فعاثوا فساداً بالبلاد ، واستعان الحسن بالأسبان ليثبت ملكه ، وانتهم الأسبان هذه الفرصة فأنزلوا بالناس ألواناً من الهوان ، واضطر ابن الحسن أن يثور على أبيه لهذا الموقف ، والتف كثير من الناس حول الابن ونشبت معركة بين الابن والتونسيين من جهة ، والأب والأسبان من جهة أخرى ، وقد قبض على الأب الخائن وكان جزاؤه سمل عينيه ، ولعل البيت الذى أنشده ذلك الخليفة بعد خلعه لما استخف به الناس هو خير دليل على ما وصلت إليه حالة الدولة الحفصية إذ نراه ينشد متمثلاً :

وكنا أسوداً والرجال تهابنا فجاء زمان فيه نخشي الأرباب

وقام الأسبان بمذبحة فى تونس سنة ٩٤١ ويعدّها جاءت فترة اضطراب كان السلطان خلالها غير مستقر تبعاً لنفوذ العثمانيين أو الأسبان بالمنطقة ، ودأب ذلك حتى سنة ٩٧٦ (١٥٦٨) حيث رجحت كفة الأتراك العثمانيين ^(٢) .

(١) المؤنس : ١٥١

(٢) المرجع السابق ص ١٥٥ .

الأتراك العثمانيون بتونس (٩٧٦ - ١٢٩٩ = ١٥٦٨ - ١٨٨١) :

ضعف شأن بني حفص كما ضعف شأن الدول الإسلامية الأخرى بالشمال
الأفريقي أمام هجمات القرصنة ، مما استلزم دماً إسلامياً جديداً ينقذ المنطقة من
هجمات المسيحيين وتمثل هذا الدم في الأتراك العثمانيين كما ذكرنا من قبل ،
وكان احتلال الأتراك العثمانيين لتونس سنة ١٥٣٤ ، ولكن الحسن الحفصي لجأ
إلى الأسبان فاستعادوا له تونس في العام التالي ووضعوه على كرسى السلطان
الزائف ، وأصبحت تونس « مستعمرة » أسبانية تحت إمرة أمير حفصي ، وقد
التزم الأمير الحسن بدفع غرامة مالية سنوية لأسبانيا وتنازل لها عن مواني عناية
وينزرت ، وبقيت البلاد التونسية بعد ذلك مسرحاً للفتن والثورات أكثر من ثلاثين
سنة ، حتى عاد لها السلطان العثماني سنة ١٥٦٨^(١) .

وكانت تونس في بدء أمرها تعتبر تابعة للإدارة العليا العثمانية بالجزائر ،
وظلت الحال كذلك حتي سنة ١٥٩٠ حيث انفصلت تونس عن الجزائر وأصبحت
يحكمها الباشوات الذين يعينهم الباب العالي ويجوارهم الدايات الذين يختارهم
الجيش ، وسرعان ما استبد الداي بالأمر وأصبح الداي هو الباشا ، ومن دايات
العهد الأول الداي عثمان (١٥٩٤ - ١٦١٠) ومرجع شهرته عنايته بال عمران
وتنظيم الأسطول التونسي ، وإقرار المسلمين الفارين من الأندلس ومساعدتهم .
وجاء بعده صهره الداي يوسف ، فكان كسابقه في نشاطه وإخلاصه . وظل في
منصبه حتى سنة ١٦٣٧ ، وزحف للسلطان بعده الباي أسطا مراد ، وكان مديراً
مالياً ولكنه بقوته وصل إلى السلطان ، وظل محتفظاً بلقب « راي » وقد بقي
هذا لقباً لحكام تونس حتى إعلان الجمهورية ، وفي سنة ١٧٠٥ اختير الحسين
بن علي التركي « باياً » لتونس واستمر في منصبه ثلاثين سنة ثبت فيها
السلطان لأسرته ، وتوارث أولاده وذووه هذا المنصب مكونين الأسرة الحسينية .

وحكام تونس في العهد العثماني قبل الأسرة الحسينية عددهم ستة وعشرون ،
ويقول أن توجد صلة نسب بين بعضهم والبعض الآخر سواء منهم من عينه الباب

(١) إحسان حقى : تونس العربية ص ٨٦ .

(م ٢٠ - التاريخ)

العالي أو من اختارته الحماية العسكرية ، وكالحال في الجزائر لا يورد زامباور إلا اسماً واحداً لكل منهم مثل : موسى - حاج شعبان - أحمد جلبى ، ومن بين هؤلاء الحكام واحد تولى ثلاث مرات وهو محمد طبق ، ولا نرى في ذكر أسمائهم كبير فائدة ^(١) .

والبايات الحسينيون هم :

١٧٠٥ = ١١١٧	حسين (الأول) بن على
١٧٣٥ = ١١٤٨	على بن محمد بن على (ابن أخى حسين)
١٧٥٦ = ١١٧٠	محمد بن حسين
١٧٥٨ = ١١٧٢	على بن حسين
١٧٨١ = ١١٩٦	حمودة بن على
١٨١٣ = ١٢٢٩	عثمان بن على
١٨١٤ = ١٢٣٠	محمود بن محمد بن حسين
١٨٢٣ = ١٢٣٩	حسين (الثانى) بن محمود
١٨٣٥ = ١٢٥١	مصطفى بن محمود
١٨٣٧ = ١٢٥٣	أحمد بن مصطفى
١٨٥٤ = ١٢٧١	محمد (الثانى) بن حسين (الثانى)
١٨٥٩ = ١٢٧٦	محمد الصادق بن حسين (الثانى)
(بدأت الحماية الفرنسية فى عهده)	

؟ ؟

على بن حسين

(١) انظر هذه الأسماء فى معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى لزامباور ج ١ ص ١٣٠ .

محمد الحاج بن علر ١٣٢ = ١٩٠٢

الناصر بن محمد ١٣٢٤ = ١٩٠٦

الحبيب بن الناصر ١٣٤١ = ١٩٢٢

محمد المنصف بن الناصر ١٣٦١ = ١٩٤٢

(عزله الاستعمار الفرنسي ونفاه)

محمد الأمين (ابن عم المنصف) ١٣٦٢ = ١٩٤٣^١

(حتى يونيو سنة ١٩٥٧ حيث أعلنت الجمهورية)

ويتضح من هذه القائمة أن البايات عاصروا العهد التركي وعهد الحم
الفرنسية وأسهم بعضهم فى حركات التحرير ، وسنورد فيما يلى لمحات عن
تونس فى العهد العثماني :

عندما استبد الجيش الانكشارى بتعيين حاكم تونس أصبحت العلاقة بين
العثمانيين وبين تونس ضئيلة ، فلم يبق إلا الرباط الدينى والموافقة على اختيار
الداى أو الباي ونحو ذلك من الأمور التى تمس السيادة ، فلما قامت الأسرة
الحسينية زاد اتجاه تونس نحو الاستقلال ، ولم يبق عليها إلا رابطة الولاء
للخلافة .

وسجل عهد البايات محاولات متكررة للإصلاحات الدستورية والاجتماعية
وتنظيم العلاقات مع الدول الأجنبية ، وينسب إلى حسين بن على مؤسس الأسرة
الحسينية القضاء على العصابات المسلحة التى لم تكن تدين بالولاء للحكومة
المركزية ، وإخضاع القبائل العاصية ، كما عمل هو ومن جاء بعده على استقرار
الأمن الداخلى والعناية بالجيش من ناحية العدد والعتاد ، وياشر البايات ألواناً
من النشاط الزراعى والتجارى ، وعقدوا المعاهدات مع الدول الأجنبية ،
واستقبلوا الفنيين الأجانب وقناصل الدول الأجنبية .

(١) زامهار : معجم الأنساب والأسر الحاكمة ج ١ ص ١٣١ حتى الحبيب بن الناصر والتكملة من
متابعة التاريخ الحديث .

وينسب إلي الباي أحمد بن مصطفى وخلفه محمد الثاني محاولات هامة للإصلاح الإجتماعى ، ولكن هذه الإصلاحات استلزمت مالا كثيرا مما دفع إلي الاستدانة من فرنسا وإلى فرض الضرائب ، وكلا الطريقين وضع الأشواك فى طريق تونس .

ومن الإصلاحات السياسية ذلك الدستور الذي أصدره الباي محمد الصادق سنة ١٨٦١ الذي اعترف فيه باستقلال القضاء ، ويتكون بمقتضاه مجلس أعلى يعين الباي أعضاءه ، ويكون لهذا المجلس حق التشريع وإقرار الضرائب والاشراف علي أعمال الباي والوزراء ، ولكن فرنسا وإيطاليا عارضتا هذا الدستور لأنه حدد امتيازات رعاياهما بتونس ، وسوى بينهم وبين التونسيين ، وهكذا كان الدستور قصير العمر .

ومن بين بايات تونس يبرز الباي محمد المنصف الذي - بجوار نضاله لتحرير بلاده كما سنشرح ذلك فيما بعد - كان مصلحاً اجتماعياً ، وكان يسير سيرة خلفاء المسلمين الأول فى أخلاقه وفي القيام بتبعات منصبه ، فكان ينزل إلى الأسواق يتفقد أحوال الرعية ، ويدخل الجوامع فيبث روح الوطنية والدين فى نفوس المصلين ، ويزور المعاهد والمدارس ليرعى التطور العلمى وما يجب أن يصحبه من تطور فى الوطنية .

وفى القرون التي سبقت احتلال فرنسا لتونس سجل التاريخ ألواناً من التقارب والتعاون بين فرنسا وتونس ، فقد عينت فرنسا أول قنصل لها فى تونس سنة ١٥٧٧ فى عهد الملك هنري الثالث بعد موافقة الآستانة ، وفى عهد هنري الرابع أوفدت فرنسا بعثة إلي الآستانة ، وبعد مفاوضات دامت عدة شهور نجحت فى الحصول على عدة امتيازات تجارية فى تونس ، وفى سنة ١٦٦٥ تم توقيع معاهدة بين فرنسا والوالي مصطفى ، أصبح للقنصل الفرنسى بمقتضاها الأسبقية علي القناصل الأجانب كافة ، ثم عقدت بعد ذلك عدة معاهدات أخرى بين البلدين وظلت العلاقات ودية خلال القرن الثامن عشر^(١) .

(١) سعيد العريان وآخران ، شمال إفريقية ص ٩٤ .

الاحتلال الفرنسي لتونس

قبل الاحتلال :

هناك ظروف مهدت لفرنسا أن تحتل تونس ، وبعض هذه الظروف مرجعه تونس نفسها ، وبعضها ظروف فرنسية ، كما أن هناك ظروفاً عالمية ساعدت على تحقيق هذا الاحتلال :

فمن ناحية تونس يجدر بنا أن نتذكر ما قلناه من قبل من أن بعض البايات أرادوا أن يقفزون بتونس ، وأن يحققوا لها ألواناً من الإصلاحات الاجتماعية والإدارية ، ولكن المال أعوز هؤلاء نظراً للطفرة التي أرادوا أن يتبعوها .، فلجأ هؤلاء إلى فرض ضرائب جديدة وإلى عمق قروض من الخارج ، وقد أدت الضرائب الجديدة إلى ثورة داخلية عارمة سنة ١٨٦٤ واستطاعت الثورة أن تنتصر وأن تستولي على بعض الموانئ ، ولم تهدأ إلا بعد تدخل سلمي قامت به الدولة العثمانية ، وأما القروض الخارجية فكانت خطوة تجاه الاحتلال ، إذ حدث أن توقف النشاط البحري الذي كانت تزاوله تونس فتكسب عن طريقه حصيلته مالية كبيرة ، وتلا ذلك مجاعة حدثت بالبلاد وبخاصة في السواحل ، وعجزت تونس عن الوفاء بتعهداتها المالية للدولة صاحبة القروض ، فتألفت لجان مختلفة لدراسة مالية تونس وعمل تنظيم لها ، وتهيأ للأجانب بذلك أن يتدخلوا بعنف في الشؤون التونسية .

أما الظروف الفرنسية فتتلخص في أن فرنسا كانت تنظر إلى تونس على أنها امتداد طبيعي للجزائر ، وكانت فرنسا تدرك أن احتلالها للجزائر الذي كان قد تم سنة ١٨٣٠ لا يكتمل بدون احتلال تونس ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كانت فرنسا تتطلع للاستفادة من ثروة تونس الطبيعية التي لو أحسن استغلالها لكانت مصدر خير وفير لفرنسا وللفرنسيين ، فأرض تونس خصبة للغاية ، وحاصلاتها من القمح والشعير والزيتون والبلح وافرة ، وتربة تونس غنية بالمعادن كالفسفات والحديد والرصاص مما تعد فرنسا في أشد الحاجة إليه

أما الظروف العالمية فخلاصتها أن الموقع الاستراتيجي الذي تحتله تونس بالنسبة للبحر الأبيض المتوسط يجعل السيطرة عليها هدفاً هاماً من أهداف

فرنسا ، إذ أنه من الواضح ان السيطرة علي تونس معناها السيطرة علي المنطقة الوسطي لهذا البحر ، هذا إلى أن تونس قريبة من الساحل الايطالي ومن جزيرة صقلية ، ولايطاليا مصالح في تونس ورعايا كثيرون ، ولذلك كانت فرنسا تخشى أن تسبقها ايطاليا إلى احتلال تونس .

ومن الظروف العالمية التي ساعدت فرنسا علي احتلال تونس موقف المجتد وموقف ألمانيا ، أما الأولى فقد كانت تعد العدة لاحتلال قبرص ، واحتلتها فعلاً سنة ١٨٧٨ ، ووافق اللورد سالسبوري رئيس وزراء بريطانيا آنذاك علي تغض بلاده الطرف عن أطماع فرنسا في تونس نظير سكوت فرنسا علي استيلاء بريطانيا علي قبرص ، أما ألمانيا فقد كانت تشجع الفرنسيين علي التوسع في المغرب العربي ، لتصرفهم عن توجيه نشاطهم نحو الحدود الألمانية بعد أن فقدوا الأتزان ومعظم اللورين في الحروب السبعينية ، وقد قال بسمار في يناير سنة ١٨٧٩ للسفير الفرنسي « أعتقد أن تونس الآن أصبحت كالكثيرى الناضجة أن الألوان لقطفها ، وليس الباى جديراً بها ، فإذا لم تسار فرنسا إلى التقاطها قطعنها يد أخرى ، ولست أدري في الواقع ماذا تنوي فرنسا أن تفعله بإزائها ولكنني أنتهز الفرصة لأكرر رغبتني في إظهار حسن نية ألمانيا ، وليس لها أية مصلحة في الوقوف في طريقكم إلى تونس » (١) .

وهكذا دفعت هذه الظروف المختلفة فرنسا إلي العمل لاحتلال تونس .

عملية الاحتلال :

كانت الخطوة الأولى التي خطتها فرنسا للسيطرة على تونس أن أخذ تعامل الباى علي أنه ملك مستقل ، قاصدة بذلك نزع تونس من تركيا ، وقطع كل العلاقات بينهما ، مهددة للخطوة الثانية ، وهي خطوة الانقضاء على تونس بعد أن تقف في الميدان وحدها ، وبدأت فرنسا تبحث عن المناسبة التي تهيب لها الاعتداء الأثيم ، وكانت جيوش فرنسا - بعد احتلال الجزائر - تقف علي الحدود بين الجزائر وبين تونس ، فحدث احتكاك بين القبائل التي تسكن الشمال الغربي لتونس وبين دورية فرنسية ، فأصدرت فرنسا الأمر لجيشها أن يزحف

(١) نقلا عن الأمة العربية للدكتور عبد الحميد البطريق ص ٦٦ .

على تونس بحجة تأديب هذه القبائل ، التي كانت في الحقيقة تدافع عن نفسها ، ولم تشأ تونس أن يقع صدام مسلح بين القوتين ، فلم تعترض طريق الزحف الفرنسي ، وحسبت أن القوة الفرنسية ستعود بعد انتهاء مهمتها ، ولكنها واصلت تقدمها حتي احتلت العاصمة ، كما أن بعض وحدات الأسطول الفرنسي اقتحمت ميناء بنزرت وأنزلت بالمدينة بعض فصائلها وأصبح واضحاً أن الزحف الاستعماري مقصود ، وأن الأسباب التي تذرعت بها فرنسا أسباب مفتعلة ، واتضح من الظروف التي لاهست هذا الحادث أن الزحف كان صليبياً دينياً ، إذ يروي أن الأسقف الكاثوليكي أصدر أمراً إلي جميع المبشرين ورجال الدين ليصحبوا الجيش الزاحف ليكونوا في خدمته ، وكان احتلال تونس في أبريل سنة ١٨٨١ .

واتضح بذلك نيات فرنسا تجاه تونس وتخلت عنها تركيا ، وكان العالم العربي يعاني فترة قاسية من الضعف والهوان ، فلم تنل تونس أي عون خارجي ووقفت وحدها في الميدان ، فلم يكن في طاقتها الصمود ، وأرغم الباي أن يوقع معاهدة (باردو) في مايو سنة ١٨٨١ التي نصت على حق فرنسا في احتلال المراكز التي تراها لازمة لاستتباب الأمن والسلام والهيمنة على الإدارة المحلية ، وحماية الرعايا الفرنسيين ومصالح فرنسا الخارجية .

وفي سنة ١٨٨٣ عقدت معاهدة (المرسى) التي وضعت البلاد بموجبها تحت الحماية على أن يثقل فرنسا مقيم عام توضع في يده السلطات التي تضمن له تقديم المشورة ، ولم تعترف تركيا آنذاك بالاحتلال الفرنسي لتونس ، ولكنها في الوقت نفسه لم تعاون تونس في محنتها ، علي أن حكومة تركيا عادت فالتزمت في معاهدة (سيفر) التي عقدت سنة ١٩٢٠ برفع يدها عن البلاد العربية ، وكان معنى ذلك اعترافها بالأمر الواقع وبلاحتلال الفرنسي لتونس .

فرنسا في تونس :

بادرت فرنسا بعد أن احتلت تونس إلى إعلان أنها حلت محل الأتراك العثمانيين في سيادة البلاد ، وتنفيذاً لذلك عينت لها « مقيماً عاماً » يباشر

(التاريخ الإسلامي ج ٤ م ٢٣)

سلطات الوالى العثمانى أيام قوة العثمانيين ، فأخذ يتولى تتويج الباي ولكن سرعان ما تجاوزت فرنسا الحدود التى كان سلطان الأتراك يقف عندها ، فمدت أطماعها نحو كل شيء رغبة فى تمكين سلطانها بالبلاد وتثبيت أقدامها بها ، وفى الناحية السياسية والإدارية أخرجت الدولة التونسية من الأسرة الدولية مخالفة بذلك وعودها فى معاهدة (باردو) ، وقبضت على السلطة التنفيذية والتشريعية بالبلاد ، وأفقدت الباي شخصيته كحاكم ، وانتقل سلطانه من الناحية العملية إلى المقيم العام ، وأصبح المديرون والمحافظون خاضعين للمراقبين الفرنسيين الذين جعلت تعليماتهم واجبة التنفيذ ، وألغت فرنسا المجلس التشريعى ونقلت سلطانه إلى الباي اسماً وإلى المقيم العام من الناحية العملية ، إذ اشترط لتنفيذ القوانين التى يصدرها الباي أن يوافق عليها المقيم العام .

وفى الناحية الإقتصادية أسرع فرنسا فاتخذت طريقها للإستيلاء على الاقتصاد التونسى ومصادر الثروة بالبلاد ، فاستولت على أملاك الدولة من الأرض البور ، ثم استولت على الغابات والأراضي المملوكة للأفراد الذين لا يستطيعون إثبات ملكيتهم لها ، ثم أراضي القبائل والأوقاف ، وسلمت هذه المساحات الشاسعة للشركات الفرنسية والمهاجرين الفرنسيين ، وعمدت إلى الثروة المعدنية فأستندت إلى الشركات الفرنسية مهمة البحث عنها والحصول عليها ، وركزت كل النشاط الصناعى فى يد الشركات الفرنسية ، ووضعت نظاماً جمركياً جعل تونس سوقاً للبضائع الفرنسية وحدها ، كما جعل صادرات تونس لا تتجه لغير فرنسا ^(١) .

واحتضنت فرنسا كل أفراد الجاليات الأوروبية من مالطيين وروس وأسبان وإيطاليين ويهود ، بل منحتهم الجنسية الفرنسية ليكبر عدد رعاياها ، واتجهت إلى هؤلاء بالرعاية على حساب شعب تونس ، فجعلت الوظائف الكبرى فى أيديهم ، واتجهت بالميزانية إلى مرتبات الموظفين مهمة كل المنشآت العمرانية والثقافية والصحية ، حتى أنه خصص أكثر الميزانية التونسية للموظفين أو بعبارة أخرى إلى جيوب الفرنسيين والمتفرنسين ، وبدل الإحصاء الرسمى عن سنة

(١) دكتور عبد العزيز الرفاعى : الحركة القومية فى إفريقيا ص ١٤١ .

١٩٥١ أن عدد موظفي الحكومة التونسية في هذه السنة كان ٣١.٦٩٦ موظفاً منهم ٢٢ ألف موظف من الفرنسيين والمتجنسين بالجنسية الفرنسية ، وهم الذين يشتغلون بالوظائف الهامة ، ويتقاضى الموظفون ٨٢٪ من مجموع اعتمادات ميزانية ذلك العام ، والعجيب أنه عندما تضرر التونسيون لأن الوظائف الكبرى لا تعطي لهم ، ولأنهم لا تتساوي مرتباتهم من الفرنسيين والمتفرنسين حتي إذا تساوت المناصب ، كان جواب فرنسا حث هؤلاء التونسيين علي التجنس بالجنسية الفرنسية ليكسبوا لأنفسهم هذه الامتيازات الأدبية والمادية ، وربما أغري هذا بعض ضعاف النفوس ، لولا أن الصحافة هبت في وجه هذه القحة ، ولولا فتوي المفتي العام الذي أعلن ضرورة مقاطعة الذين يتجنسون بالجنسية الفرنسية ، وعدم جواز دخولهم المساجد وعدم مصاهرتهم وعدم دفنهم في مقابر المسلمين ، وعلي هذا انعقد إجماع الشعب علي مقاطعة هذا الاتجاه الغاشم .

وفي الناحية العلمية والثقافية اتجهت فرنسا إلي محاربة اللغة العربية والفكر الإسلامي ، كما اتجهت لنشر اللغة الفرنسية وتشجيع التبشير المسيحي ، وقطعت الاعانات عن المدارس الرسلامية ، فضعت وانقرض أكثرها ولم يبق إلا جامعة الزيتونة تصارع الأحداث وتناضل للبقاء ، وفرضت فرنسا الأحكام العرفية على تونس أكثر من عشرين عاماً صادرت خلالها حرية الفكر وحرية النشر والاجتماع إلا ما يؤيد أغراضها ويحقق أهدافها .

وهكذا عبرت تونس فترة طويلة من الزمن ، وهي تحتل بنار الاستعمار الفرنسي ، وتكتوي بلهبه ، حتي هب أهلها يناضلون للحرية والاستقلال ، ذلك النضال الذي آتى ثماره وحقق لشعب تونس ما هو جدير به من حرية واستقلال .

حركات التحرير

ترتبط الحركات الفكرية بتونس بالحركات الفكرية بمصر ارتباطاً كبيراً ، وقد تم احتلال مصر وتونس في عامين متتاليين ، وضغط الاحتلال الإنجليزي علي الفكر المصري حيناً من الزمن فلم تظفر تونس بأى عون مادي أو أدبي يذكر من شقيقتها الكبرى ، وكان هذا بالإضافة إلي قسوة الاحتلال الفرنسي من الأسباب التي أبطأت البدء نوعاً ما في حركات التحرير بتونس .

ولكن مصر سرعان ما استردت أنفاسها واستعادت نشاطها وانعكس ذلك على تونس التي كانت تتدفق عليها صحافة مصر ومطبوعاتها العلمية والأدبية بطريق أو بآخر ، بل أكثر من ذلك زارها الزعيم محمد فريد والامام محمد عبده واتصلا بالزعماء والمصلحين ونشروا بتونس أفانين الفكر المصري واتجهاته فى الساسية والإصلاح الدينى ، ولعل هذا كان من الأسباب التى اتجهت بالحركات التحررية بتونس فى فترة من الزمن إلى الاستقلال فى نطاق الولاء للخلافة العثمانية على نمط ما كان ينادى به مصطفى كامل بمصر ، وسيأتى بيان ذلك عند الحديث عن تركيا فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة ، ولعله كذلك هو الذى دفع إلى تأسيس حزب تونس الفتاة سنة ١٩٠٨ ، ويتضح من التسمية ومن تاريخ تأسيسه صلته بحركة تركيا الفتاة وبالحزب الوطنى المصرى ، وكان هذا الحزب برياسة على باش حمبه أحد الزعماء النابهين .

وسنلم فيما يلى بأبرز الحركات التحررية بتونس ، وتشمل هذه الحركات المقاومة التى بها طابع العنف والقوة كما تشمل المقاومة السياسية والعملية ، ومع أن تونس سارت فى الطريقتين وأسهمت بالدم والجهد لنيل حريتها إلا أن الظروف خدمتها فقللت من ضحاياها فى ميدان العنف ، ومرجع ذلك أولا إلى حرب الجزائر التى استنفدت جهد الفرنسيين ونشاطهم كما سبق ، فلم ترد فرنسا أن تحارب فى جبهتين ، وتساهلت فى تنظيم علاقاتها بتونس ، وترجع ثانياً إلى السياسة التى اتبعها قادة تونس وهى « الاستقلال على مراحل » وانتهاز الفرص تبعا للمبدأ القائل « ما لا يدرك كله لا يترك كله » . وقد برهنت الأحداث على نجاح هذا المبدأ فى تونس أروع نجاح ، وعلى أن الخطوة الأولى وهى الحكم الذاتى سرعان ما أسلمت للخطوة الثانية وهى الاستقلال التام فى مدى أسرع جداً مما توقع المتفائلون .

وعلى هذا سيكون اهتمامنا أكبر بحركات المقاومة السياسية ، ولكننا على كل حال سنذكر أبرز الحركات العسكرية :

ثورة القيروان :

ثارت منطقة القيروان عقب الاحتلال ثورة عارمة وامتدت الثورة على الساحل ، من سفاقس حتى حدود طرابلس ، واحتل الثوار ميناء سفاقس وطرّدوا نائب الباي إذ اعتبروا الباي خائناً لقبوله معاهدة الحماية ، وعينوا أحد رؤساء القبائل وهو على بن خليفة أميراً عليهم ، وقد شغلت هذه الثورة فرنسا عدة شهور واستنفذت كثيراً من الجهد الحربي الفرنسي، ولم يستطع الفرنسيون احتلال القيروان إلا بعد أن هجرها الثوار واتجهوا إلى داخل البلاد وكان ذلك في ٢٧ أكتوبر ١٨٨١ .

جيش التحرير التونسي :

وأبرز حركات المقاومة التونسية قادها جيش التحرير التونسي في مطلع النصف الثاني من هذا القرن ، وأكثر قادته من الذين مارسوا النضال في حرب اليهود بفلسطين ، وعلى الرغم من أن عدد هذا الجيش لم يكن كبيراً إلا أنه استطاع أن ينزل الرعب في قلوب الفرنسيين حتى ظنوه كبير العدد كثير العدد ، وكان هذا الجيش يتبع السياسة التي سارت عليها فرق الارهاب الفرنسية التي أنزلت الرعب في القلوب بالاغتيالات السياسية التي قامت بها وتستر عليها البوليس الفرنسي أو شجع عليها ، ومن أجل هذا قام جيش التحرير التونسي بألوان من حرب العصابات واغتيالات الخونة من التونسيين واغتيالات المستوطنين الذين يتحدون الحركات الوطنية ، وتدمير ممتلكاتهم والقضاء على مصالحهم ، حتى شعر هؤلاء بأن حياتهم في تونس أصبحت مليئة بالكدر وغير باعثة على الاطمئنان ، وقد دفع هذا حكومة فرنسا أن تبحث عن حل للمشكلة التونسية لا خدمة لمصالح تونس بل خدمة لمصالح المستوطنين ومحاولة لخلق جو من الاستقرار والأمن لها .

المقاومة السياسية :

اتخذت المقاومة السياسية خطتين ، خطة المقاومة من الداخل وخطة المقاومة من الخارج ، ففي الداخل تكونت النقابات والأحزاب ولعبت هذه وتلك دوراً

بارعاً فى الحركات الوطنية ، وفى الخارج اتجه الزعماء إلى الأمم المتحدة ، وجامعة الدول العربية ، والكتلة الآسيوية الأفريقية ، والصحافة العربية ، وقد كانت الأخيرة كبيرة النفع فى الصراع الطويل وظلت تهتف بإخلاص ومثابرة لصالح القضية ، فنشرت ألواناً من ظلم المستعمر وسوء تصرفه ، ودفعت الرأى العالمى إلى التآلب ضد الاستعمار الفرنسى ، وكانت صحافة مصر على الخصوص لساناً عالياً لم يضعف ولم يهدأ حتى أعيد الحق لأصحابه . وكان الزعيم الحبيب بورقيبة يعيش فى مصر فى هذه الأثناء ، ويمد الصحافة المصرية بكثير من الأنباء ، كما كان يجد من بنى مصر كل عون وتأييد .

أما جامعة الدول العربية فقد كان دورها فى خدمة تونس أقل مما يرجى منها ، ويقول الباحثون إن الجامعة فى ذلك الحين كانت مشغولة بقضية فلسطين ، والدماء التى تنزف فيها فلم يكن عونها على النحو المأمول منها ، ولعل هذا الذى دعا زعيم تونس بعد الاستقلال إلى عدم المشاركة الفعالة فى نشاط هذه الجامعة .

أما الكتلة الآسيوية الأفريقية فقد حاولت معاونة تونس فى نطاق سلطاتها ، فرفعت الأمر لهيئة الأمم المتحدة ، ولكن هذه كانت لا تزال تئن تحت سلطان الغرب المستعمر ، ولم تكن قد انهالت لها الأصوات المتحررة بعد ، ومن هنا لم يكن تدخلها ذا نتيجة تذكر .

عاملان هامين لم يكونا فى الحسبان دفعاً قضية تونس إلى نهايتها الحميدة ، وقد أشرنا إلى أولهما من قبل وهو حرب التحرير الطاحنة فى الجزائر التى كانت ميداناً ابتلع كل نشاط الفرنسيين وجهدهم ، والعامل الثانى هو ثورة الجيش فى مصر فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وقد أمضت هذه الثورة فترة من الزمن تدعم نفسها فى الداخل وتقضى على أعدائها ثم اتجهت لتكون ثورة عربية تدافع عن الدول العربية وقضايا شعوبها بحماس يفوق اهتمامها بشعب مصر فى كثير من الأحيان .

والآن نتحدث بشىء من التفصيل عما أوجزناه فى السطور السابقة :

حزب تونس الفتاة :

سبق أن أشرنا إليه وقد ألفه على باش حمبه سنة ١٩٠٨ وكان نضاله متصلاً بالحركة الإسلامية التي كانت تنادى بالتححرر فى نطاق الجامعة الإسلامية ، وكان من رجال الحزب البارزين عبد العزيز الثعالبي ، وهو من خريجي جامعة الزيتونة ، وكان يحمل اتجاهات شيوخها السياسية والدينية ، تلك الاتجاهات التي تعارض الاحتلال الأوربي وترى فيه عدواناً صليبيّاً ، واضطهاداً دينياً ، وقد أزعجت هذه الحركة فرنسا وسببت لها كثيراً من المتاعب ، فحلت الحزب سنة ١٩١١ وشتتت شمل القائمين به ، فإذا بهم بين مبعّد ومعتقل .

الحزب الدستوري :

حملت نهاية الحرب العالمية الأولى نهاية الامبراطورية العثمانية ، فلم يعد هناك أمل فى مواصلة الجهد الذى كان يرمى إلى الاستقلال فى محيط الاطار العثمانى ، فاتجهت الحركة التونسية إتجهاً جديداً يرمى إلى الاستقلال التام ، وحمل عبء هذا الاتجاه الزعيم عبد العزيز الثعالبي سالف الذكر ، وقد خدع الثعالبي كما خدع سواه من قادة الحركات التجريبية العربية بمبادئه ولسن ، فتقدم لمؤتمر الصلح سنة ١٩١٩ يطلب استقلال تونس ولكن العصاةة التي كان يبيدها الأمر كانت نفس العصاةة المستعمرة التي يهملها الاستمرار فى احتلال الدول الصغيرة واستنزاف ثرواتها ، ومن ثم فقد أبعد طلب الثعالبي كما أبعدت مطالب الدول العربية الماثلة .

وقد ظهر آنذاك اتجاهان ، أحدهما اتجاه الثعالبي الذى يطالب بالاستقلال التام ، ويرى فى الاحتلال الفرنسى لتونس عدواناً صليبيّاً كما سبق القول ، أما الاتجاه الثانى ويقوده بعض الشبان ذوى الثقافة الغربية فيرمى إلى المطالبة بالإصلاحات الداخلية أولاً ، على أن يُنال الاستقلال على مراحل ، وعلى الرغم مما بين الاتجاهين من خلاف فقد تعاونوا ، وقدم الجميع مطالبهم موحدة إلى الباي وإلى المقيم العام ، وخلاصتها منح البلاد نظاماً دستورياً ، وقيام حكومة مسئولة أمام مجلس تشريعى منتخب ، وإنشاء جيش قومى ، وفتح جميع الوظائف أمام التونسيين . ولما كان الدستور هو المطلب الرئيسى لهذه الجماعة فقد ألفوا حزبا

أطلقوا عليه « الحزب الدستوري » سنة ١٩٢٠ وكان موقف الباي محمد الناصر وديا من هذه الإصلاحات ولكن فرنسا ثارت عليها ورفضتها ، واتخذت قرارات لصالح الاستعمار والمستوطنين غلفتها ببعض الإصلاحات ، ولم يقبلها من الوطنيين إلا قلة ضئيلة ارتبطت مصالحهم بمصالح الاستعمار ، وأعلن الوطنيون تأليف حزب اسمه « حزب الإصلاح » ومرت فترة من الزمن ضعف خلالها الحزب الدستوري من كثرة ما تحده المستعمر وضغط عليه وعلى رجاله ، وانتهى الأمر بأن حلت السلطات الفرنسية هذا الحزب سنة ١٩٣٣ .

الحزب الدستوري الجديد :

كان « الحزب الدستوري » غير موحد الصفوف بسبب النزعتين اللتين ذكرناهما فيما سبق ، لذلك ما كادت السلطات الفرنسية تحمله حتى هبت جماهير الشبان فيه بتأليف حزب جديد اسمه « الحزب الدستوري الجديد » سنة ١٩٣٤ وانتخب الدكتور الماطري رئيسا له والزعيم الحبيب بورقيبة أمين سر له ، وكان من أعضائه صالح بن يوسف والدكتور تامر وكثيرون من الشباب المتحمسين لبلادهم ، وبدأ الحزب يهتم بالتحرير السياسي وبالتقدم الاجتماعي في نفس الوقت ، ووضح بورقيبة سياسة الحزب في عبارته الشهيرة « إن الحزب يجاهد لترشيد الشعب التونسي » . وتقدم الحزب بمطالبه الإصلاحية وكان فيها كثير من التساهل رجاء السير بالقضية خطوة الى الأمام ، ولكن المستعمر أصاح لنداء المستوطنين الذين كانوا لا يريدون التنازل قيد أنملة عما نالوه من حقوق جائرة ، وقد رفضت مطالب الحزب ، وبدأ أنصار « الحزب الدستوري » القداماء يظهرون مرة أخرى ويعيبون على الحزب « الدستوري الجديد » ما سموه بالتهاون في حقوق البلاد ، وأذاعوا أن المستعمر لن يعطي شيئا مهما كان ضئيلا ، وأن الحقوق تؤخذ من الغاصب لا ترجى منه . وإزاء ذلك خاف الحزب الدستوري الجديد أن تضيق شعبيته ، وأن يتهم بالتساهل في حقوق البلاد فدعا الحبيب بورقيبة إلى مؤتمر سنة ١٩٣٧ حيث ظهر خلاف بين الماطري الذي كان يتزعم سياسة الاستمرار في التساهل وبين بورقيبة الذي وجد ألا مناص من التشدد مع المستعمر ، وتغلبت وجهة نظر بورقيبة ، وتأكدت زعامته واختفى الماطري من الميدان ، وقد أثبت بورقيبة جدارة ومقدرة في تسيير الأمور . ومن أبرز ما ذكر

له أنه عارض - فى أثناء الحرب - الاتجاه الذى كان يرمى الى التعاون مع المحور (المانيا وايطاليا) وكتب بذلك رسالة الى زميلة الدكتور تامر ، وقد عرض نفسه الى خطر كبير إذ كتب هذه الرسالة فى وقت كان المحور مسيطراً على الأمور فى أوروبا وفى الشمال الأفريقى (١) .

الباى محمد المنصف :

ارتقى الباى محمد المنصف عرش تونس فى نوفمبر سنة ١٩٤٢ ، وكانت فرنسا آنذاك جريحة صريحة أمام القوة الألمانية ، وفى نوفمبر من العام نفسه دخلت القوات الألمانية تونس ، وقد انتهز الباى هذه الفرصة فلعب دورا هاما فى حركة التحرير ، وساند القائمين بالحركة و استقل باختيار الوزراء ، ولكن الحلفاء عادوا فدخلوا تونس سنة ١٩٤٣ فأعلن الجنرال جيرو خلع الباى محمد المنصف ونفيه .

الميثاق الوطنى (أغسطس سنة ١٩٤٦) :

وفى أغسطس سنة ١٩٤٦ وجد الحبيب بورقيبة الدعوة لعقد مؤتمر وطنى ، وعقد هذا المؤتمر فى ليلة ٢٣ أغسطس سنة ١٩٤٦ وكانت توافق ليلة القدر واشترك فيه الحزب الدستورى ، والحزب الدستورى الجديد ، والاتحاد النقابى التونسى للعمل ، وأساتذة جامعة الزيتونة واتحاد الموظفين و قد هاجم البوليس المؤتمر واعتقل عددا كبيرا من أعضائه ، ومع ذلك فقد أصدر المؤتمر ميثاقا أعلن على العالم « أن نظام الحماية نظام سياسى واقتصادى لا يتفق مطلقا مع سيادة الشعب التونسى ومصالحه الحيوية ، وأن هذا النظام استعمارى قضى على نفسه أمام العالم بالإخفاق بعد تجربة خمس وستين سنة . . . والشعب التونسى عقد العزم على استرجاع استقلاله التام وانضمامه لجماعة الدول العربية ولهيئة الأمم المتحدة » وكان رد فرنسا على هذا القرار أن ألقت بهم فى السجون وكان رد فرحات حشاد رئيس اتحاد العمال أن أعلن الإضراب العام فى جميع المرافق العامة ما عدا المستشفيات ، فقبضت فرنسا على فرحات حشاد مما زاد الحركة

(١) انظر هذه الرسالة فى « تونس العربية » ص ١٥٩ - ١٦٤

التهابا .

خطوات التسوية ورد الرئيس بورقيبة :

خرجت فرنسا من الحرب العالمية جريحة ، وعلى الرغم من أن الانتصار قد تحقق للحلفاء إلا أن الحرب ضعفت المنتصر والمنهزم على السواء ، وواجهت فرنسا في مستعمراتها حركات تحررية أدركت أنها لا تستطيع قتلها ، فإن الحرب العالمية الثانية غيرت ميزان القوى وأظهرت على بساط السياسة العالمية قوى جديدة ومنظمات حديثة تنصف الدول الصغيرة الى حد ما وتسمع صوت المظلوم ، فأرادت فرنسا أن تسوى أمورها مع مستعمراتها الثائرة ومنها تونس رغبة في الاستقرار .

وذهب بورقيبة بوصفه رئيسا للحزب الدستوري الجديد إلى فرنسا سنة ١٩٥٠ فأعلن على الرأي العام الفرنسي مطالبه ، وهى إرجاع السيادة التونسية ، وتشكيل حكومة تونسية من التونسيين فقط ، يكون رئيسها من أبناء تونس يعينه الباي ، وإلغاء بعض المناصب التى يحتلها الفرنسيون وقللى السلطان على الوزارات والشعب كمناصب المراقبين الفرنسيين والدرك الفرنسى ، وتشكيل مجلس وطنى ينتخب انتخابا عاما ، ثم وضع نظام يحدد العلاقات بين فرنسا وتونس^(١) .

ووافقت هذه المقترحات اتجاهات فرنسا الجديدة وألفت وزارة برياسة ابن شنيق فى أغسطس سنة ١٩٥٠ واشترك فيها صالح بن يوسف ، كما وافقت فرنسا على الاصلاحات الدستورية والديمقراطية التى أعلنها الباي فى فبراير سنة ١٩٥١ .

المستوطنون يناهضون الاستقلال :

هبت آنذاك حركة قام بها المستوطنون لمناهضة استقلال تونس ، وهى حركة شبيهة بحركة المستوطنين بالجزائر التى سبق أن تحدثنا عنهم و المستوطنون فى كل مكان طفيليات تعيش على حساب الشعب الأصلى ، تسرق قوته وتقتل حرياته ، وهم يدركون أن أية حرية ينالها الشعب المكافح سيكون معناها الحد

من جشعهم وستؤدى الى مساواتهم بأصحاب البلاد الأصليين و تلك غاية لا يرضى بها هؤلاء المستغلون ، إنهم يرون أنفسهم أحق بخيرات البلاد من أهل البلاد ، ويرون أن ثراهم الواسع لن يدوم إلا فى أرض يكبل سكانها بالحديد ، وتنعدم فيها الحريات وقد عرف العالم الاسلامى والعربى هذه الطفيليات وعانى منها ألوانا من الجشع والمرارة ، عرفتھا مصر العزیزة وعرفتھا اندونيسيا ودول الشمال الافريقى والدول العربية جميعا ، فإذا كان المستوطنون يهودا ازدادت الكارثة وكان الطوفان .

وقد رأى المستوطنون بتونس أن البلاد على وشك أن تنعم بالحرية ، فبدأت حركاتهم تعارض هذا الاتجاه ، وأرسل زعيم الجالية الفرنسية الى مسيو شومان وزير خارجية فرنسا احتجاجا على سياسة اللين التى تنتهجها فرنسا ويسير عليها المقيم العام ، وطالب بتغيير المقيم العام ، وإعادة الرقابة على الصحف ، والقبض على الزعماء الوطنيين ، كما هدد بأنه إن لم تستحب الحكومة الفرنسية إلى مطالبه فإنه سيعلن العصيان المدنى ويقاوم بالقوة هذه الاصلاحات الحديثة .

والعجيب أن فرنسا أصاغت لهذا النداء الأبله ، فعادت إلى سياسة العنف والطغيان ، وكان رد تونس أن أعلن فرحات حشاد الإضراب العام لأجل غير مسمى ، فاستدركات فرنسا تضرب المواطنين بالحديد والنار وزمجرت المدافع وسارت الدبابات تحصد الناس وتريق الدماء فى الشوارع ، فكانت مجزرة شنيعة ، وامتدت اليد الأثيمة الى البطل المجاهد فرحات حشاد فقتلته اغتيالا فى ٥ ديسمبر ١٩٥٢ ، وقتل كذلك الهادى شاكر من زعماء الحزب الدستورى الجديد ، وأقيلت وزارة ابن شنيق وألفت وزارة برياسة صلاح الدين بن باكوش أحد الإقطاعيين الزراعيين الذين ترتبط مصالحهم بالاستعمار ، وقد أنف جميع المثقفين من الاشتراك معه ، فألفها من الملاك الزراعيين (١) .

دور الدول العربية والأسبوية :

تحركت الدول العربية والأسبوية للدفاع عن الشقيقة تونس ، وهبت الصحافة العربية وفى مقدمتها صحافة مصر تنشر على العلم صور الطغيان الفرنسى و

(١) نقلا عن الحركة القومية فى المرقية : للدكتور عبد العزيز الرفاعى ص ١٥٠ - ١٥١

وانتهجت الكتلة الآسيوية والإفريقية إلى مجلس الأمن لينصف تونس ، ولكن مجلس الأمن رفض فى ١٤ أبريل سنة ١٩٥٢ هذه الشكوى بحجة أنها مسألة داخلية لفرنسا ، ولكن هذه الكتلة استطاعت إدراج المشكلة فى جدول أعمال الأمم المتحدة ، وطالبت بحضور الباي ليتكلم باسم بلده ولكن هيئة الأمم المتحدة خذلت أيضا هذه القضية واكتفت بأن أوصت بمفاوضات مباشرة بين فرنسا وتونس .

النضال الأخير :

أدرك المواطن التونسى أن الحرية تؤخذ ولا تعطى ، ورأى من الضرورى أن ينزل إلى ميدان الصراع ضد القتل والسفاكين الفرنسيين الذين أرقوا دماء الأبرياء ، وأزهقوا الأرواح الطاهرة ، فنشطت حركة الفدائيين كما سبق ، وانضم اليهم كثير من الجنود والضباط التونسيين الذين كانوا أعضاء فى الجيش الفرنسى خلال الحرب ، وهكذا استعمل التونسيين السلاح الذى يستعمله المحتلون وأنصارهم ، فهز هذا السلاح قوى المستعمر حتى وجد ألا مناص من العودة لمحاولة الحل السلمى وبخاصة أن الدول العربية كانت مستمرة فى مساعداتها لتونس وأن الكتلة الآسيوية والإفريقية تهدد بإعادة القضية لمجلس الأمن أو هيئة الأمم المتحدة وقد خرجت فرنسا من مشكلة الهند الصينية سنة ١٩٥٤ مرهقة كسيرة الجناح ، فأرادت أن تسوى مشكلاتها الأخرى بطريقة سلمية (١) .

(١) دكتور صلاح العقاد : المغرب العربى ص ٣٣٧ .

خطوات الاستقلال

تصريح يوليو سنة ١٩٥٤ :

لم تجد فرنسا فى ضغط هذه الظروف بدا من الرجوع لبعض الرشد ، فقدم رئيس وزرائها (منديس فرانس) إلى تونس لإجراء مباحثات مع بعض الزعماء ، وصدر تصريح رئيس الوزراء فى ٣١ يوليو سنة ١٩٥٤ وهو يقضى بمنح الحكم الذاتى لتونس على أن تبقى شئون الدفاع والأمن والشئون الخارجية فى يد فرنسا ، وجاءت وزارة إدجار فور الذى استدعى الحبيب بورقيبة وأصدر معه تصريحاً مشتركاً يؤيد تصريح منديس فرانس على أن يلقى الشوار التونسيون السلاح ، ونشط الجانبان لتنهى المعارك الحربية واستجاب الشوار لنداء بورقيبة فى تسليم السلاح وكان آخر موعد لذلك هو التاسع من ديسمبر سنة ١٩٥٤ .

اتفاقية بورقيبة سنة ١٩٥٥ :

وفى ضوء هذا صدرت اتفاقية ٣ يونيو سنة ١٩٥٥ وهى تتكون من عشر مواد وأربع ملاحق وأربع اتفاقيات وقد نظر لها الناس باتجاهين : رآها بعضهم خطوة الى الأمام فهد لما بعدها وتزعم بورقيبة هذا الاتجاه ورآها آخرون نكسة للحركة الوطنية وخيبة أمل فى ميدان الكفاح الوطنى ، وتزعم هذا الاتجاه صالح بن يوسف كما سنشرح ذلك فيما بعد .

ونرى أن كلا الاتجاهين صحيح ، فالأول صحيح وبخاصة فى ميدان التفاؤل ، وهو يعطى فرصة للإمساك بالخيوط ، والثانى صحيح إذا درست المعاهدة فى ذاتها لأنها أعطت قليلاً واحتفظت بالكثير ، وقد احتفظت - بالإضافة الى الدفاع والشئون الخارجية - بامتيازات ضخمة للرعايا الفرنسيين ، وباللغة الفرنسية لغة أصلية إذ نص على أنها لا تعتبر لغة أجنبية وعلى أن يكون وزير الدفاع التونسى فرنسياً ، ونصت الملاحق على أن تسيطر فرنسا على جميع أنواع المواصلات والمناجم والموانئ لصلتها بالدفاع عن البلاد وعلى إعفاء قواتها من الرسوم الجمركية وعلى أن يبقى رئيس الشرطة فرنسياً مدة عشر سنوات .

وضمنت الاتفاقية الأولى حقوقا ضخمة للمستوطنين جعلتهم دولة داخل الدولة وضمنت الاتفاقية الثانية حقوقا قضائية لفرنسا ولموظفيها بتونس ، وكانت الاتفاقية الثالثة ثقافية تحتم الاستمرار فى تعليم اللغة الفرنسية لتضمن بعض الحقوق للبعثة الفرنسية . أما الاتفاقية الرابعة فاقتصادية تعطى فرنسا حق الإشراف على إصدار أوراق النقد التونسى ، وتسيطر على نواحى الاقتصاد الوطنى بتونس .

بين بورقيبة وصالح بن يوسف :

اتسعت هوة الخلاف بين الزميلين و لم يرد أحدهما أن يقرب من الآخر ، فدعا الزعيم بورقيبة الحزب الى اجتماع فى أكتوبر سنة ١٩٥٥ ولكن صالح بن يوسف رفض حضور الاجتماع ، وكان صالح يعارض مسألة تسليم الشوار أسلحتهم ، كما عارض الاتفاقية السابقة ، والتف حوله بعض الشبان وبدا وكأنه سيؤلف قوة جديدة يناضل بها زملاءه السابقين ، وأخذ يطعن فى المفاوضات التونسى ، وظل على موقفه على الرغم من أن الحزب فى اجتماعه السابق أيد الحبيب بورقيبة ، وتطورت الأمور فرفع الزعيم بورقيبة دعوى ضد ما وجه اليه من قذف من صالح بن يوسف ، ولكن هذا لم يمثل أمام المحكمة ليدافع عن نفسه ، وفر خارج البلاد ، وفى الجلسة حكمت المحكمة عليه بالإعدام غيابيا .

الاستقلال التام :

انتهاز الزعيم بورقيبة فرصة هذه المعارضة الصلبة ، كما انتهاز فرصة الحرب الدائرة بالجزائر وطالب بتعديل اتفاقية ١٩٥٥ واستطاع فى ٢٠ مارس سنة ١٩٥٦ أن يحقق هذه الغاية فتوصل إلى اتفاقية مع فرنسا نصت على أن تونس دولة مستقلة ذات سيادة تتولى شئونها الخارجية وشئون دفاعها بنفسها وسيعاد النظر فى الامتيازات التى منحتها فرنسا سنة ١٩٥٥ ، وأعيد النظر فعلا بعد ذلك فى هذه الامتيازات فألغى بعضها ونظم بعضها الآخر بما لا يتنافى وسيادة البلاد .

تونس بعد الاستقلال :

كان طاهر بن عمار قد اختير رئيسا للوزارة الانتقالية ، وقد أجرت حكومته الانتخابات فى مارس سنة ١٩٥٦ ففاز فيها الحزب الدستورى الجديد وحلفاؤه من المستقلين والنقابيين بجميع مقاعد الجمعية التأسيسية البالغ عددها ثمانية وتسعين ، وبذلك آلت رئاسة الحكومة للزعيم الحبيب بورقيبة فألف أول حكومة له فى أبريل سنة ١٩٥٦ .

وفى ٢٥ يونيو سنة ١٩٥٧ أعلن بورقيبة إسقاط أسرة البايات ومدد بمساوئها ، وقد لاقى هذا القرار كثيرا من الترحاب من كل الدوائر التونسية .

ونظرا لأن القائمة التى تقدم بها الحبيب بورقيبة لانتخابات نخبحت كلها فقد أعلن سيادته تأليف الاتحاد الوطنى سنة ١٩٥٩ بدلا من الحزب الدستورى الجديد تبعا للأوضاع فى البلاد .

وصدر الدستور الجمهورى سنة ١٩٥٩ واختير الحبيب بورقيبة رئيسا لجمهورية تونس بالتزكية كما اختير مرشحوه جميعا لأول مجلس نيابى فى نفس الانتخابات .

ومنذ استقلت تونس بدأت تحمل مسئولية الاستقلال ، وقد كانت مسئولية ثقيلة ، ومن أهم ما بادرت به تونس أن طلبت الانضمام لجامعة الدول العربية ، وقد قبل طلبها فى الحال طبعا ، ولا يعنينا أن مندوب تونس صاح فى أول جلسة حضرها باحتجاج بلاده على سير الجامعة فى فلك مصر ، وقاطعت تونس اجتماعات الجامعة عقب ذلك ، لا يعنينا هذا فلا شك أن الأيام سرعان ما برهنت لتونس أن مصر تخدم الجامعة ودولها أكثر مما يمكن أن يدعى أن مصر تنتفع بهذه الجامعة ، وكان هذا البرهان عمليا بالنسبة لتونس ، كما سنرى فى مشكلة بنزرت وقد قلت إنه لا يعنينا هذا ، إذا وَضَعَ انضمام تونس لجامعة الدول العربية حدا لكل المحاولات التى كانت ترمى إلى التفريق بين دول المغرب العربى والمشرق العربى ، أما أن ترضى تونس على سياسة الجامعة أو لا ترضى . فهذا موضوع يمكن إصلاحه وإبانة الحق فيه .

وانجهدت تونس إلى تعريب التعليم ولا تزال تكافح لبلوغ هذه الغاية ، وإن كانت لم تتجه إلى الاستعانة بشقيقاتها الول العربية على نحو ما اتجه المغرب والجزائر .

وكما حدث فى الجزائر لم يستطيع كثير من المستوطنين أن يعيشوا فى بلاد الأحرار فهاجروا ، وتركوا أرضهم بدون زراعة ، وطال انتظار تونس لعودتهم واستغلال أرضهم ، ولكنهم لم يفعلوا ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد كان توزيع الأرض الزراعية غير عادل ، وكان للأجانب نصيب الأسد فى هذا التوزيع ، ولهذا أعلن الرئيس الحبيب بورقيبة سنة ١٩٦٠ استرجاع ١٠٠,٠٠٠ هكتار من المستوطنين أو الملاك غير الشرعيين ، وكانت هذه خطوة أولى ثم تلتها خطوات من هذا النوع أعادت أكثر الأرض إلى الفلاح التونسى .

القوات الفرنسية فى تونس ونهايتها :

عاجلت تونس هذه المشكلة بالقوة حيناً وبالسياسة حيناً ، ولم يكن المستعمر - كعادته دائماً - يتوقع أن يكون استقلال الشعوب الصغيرة كاملاً ، ولكن هذه الشعوب تصر أن يكون استقلالها تاماً لا تشويه شائبة ، ولم تضع معاهدة مارس سنة ١٩٥٦ حلاً حاسماً لجلاء المستعمر ، فكان ذلك من المواقف التى رأت تونس أن تؤجلها إلى حين ، وبقيت القوات الاستعمارية موزعة فى عدة معسكرات فى تونس ، واشتعلت الحرب الواسعة بين فرنسا والجزائر ، وأسهمت تونس فى عون الجزائر بطرق متعددة ، فأثار هذا قوات الاحتلال واعتدت على قرية تونسية هى ساقية سيدى يونس بحجة مطاردة العسكريين الجزائريين الذين يتخذون منها معسكراً لهم ، وتأزمت الأمور بين تونس وبين فرنسا إثر هذا الهجوم حتى قطعت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين ، وأصررت تونس على جلاء المستعمر عن أراضيها جلاء تاماً ، ولم يتحقق لتونس نجاح فى هذا المجال حتى جاء ديجول إلى الحكم فعقد مع تونس اتفاقية فى يونيو سنة ١٩٥٨ نصت على الجلاء عن القواعد العسكرية فى تونس إلا قاعدة بنزرت البحرية التى اتفق الطرفان على تأجيل النظر فيها بصفة مؤقتة .

وظلت البحرية الفرنسية تتخذ من ميناء بنزرت مرسى لها حيناً من الزمن ،

وذلك قصد جعل استقلال تونس غير تام ، وحاولت تونس التخلص من هذا القيد ليتم لها انطلاقتها التحررية، وقد أثار هذا الاحتلال للميناء التونسي عاصفة سقط سنة ١٩٦١ فحصل صدام قاس بين جنود الاحتلال وبين الشعب سقط فيه مئات من المناضلين التونسيين ، وعلى الرغم من الجفوة التي أشرنا لها من قبل والتي كانت موجودة آنذاك بين القاهرة وتونس ، إلا أن هذه الحالة أنست زعماء مصر هذه الجفوة ، فانطلق صوت الرئيس المصري يعلن أن مصر توازر تونس بكل طاقاتها المادية والأدبية في هذا الصراع ، وتضع كل إمكانياتها تحت تصرف تونس الشقيقة ، وقد قضت هذه الوقفة الكريمة على تلك الجفوة التي كانت قائمة ، ولم يكن عرض مصر كلاماً ، إنما أصبح عملاً فأمدت الحكومة التونسية بألوان من المساعدات قوت جانبها في هذا الصراع ، وانسحبت فرنسا إلى قواعدا الأولى بتاركة الأمكنة الجديدة التي كانت قد مدت نفوذها إليها في أثناء هذه المعركة .

وقد تم جلاء هذه القوات في أكتوبر سنة ١٩٦٣ ، وأعلن الحبيب بورقيبة رئيس جمهورية تونس أنه في منتصف أكتوبر سنة ١٩٦٣ تم جلاء آخر جندي فرنسي عن تونس بعد احتلال دام نحو ٨٢ عاماً وقد تم استلام قاعدة بنزرت من القوات الفرنسية .

وأقيم احتفال لرفع العلم التونسي على ميناء بنزرت في ١٣/١٢/١٩٦٣ وحضره الرئيس جمال عبد الناصر والرئيس أحمد بن بيل .

تأميم المزارع التي يملكها الفرنسيون :

وفي الحادى عشر من مايو سنة ١٩٦٤ وافق مجلس الزمة التونسي على قانون بتأميم جميع المزارع التي يملكها الزجانب ، وهذا القانون يطبق على حوالى ٦٧٠ ألف فدان يمتلكها الفرنسيون وحوالى ٧٥ ألف فدان يمتلكها إيطاليون ومالطيون ، وفي اليوم التالى ألغت فرنسا مساعدتها إلى تونس وهددت وصاحت ، ولكن تونس ظلت على موقفها غير آبهة بهذا التهديد (١) .

(١) جريدة العمل التونسية صادرة في ١٤ مايو سنة ١٩٦٤ .

من بورقيبة إلى زين العابدين بن علي :

تقدمت السن بالرئيس الحبيب بورقيبة ، ويقال إنه وصل إلى درجة التخليط وعدم الاتزان وحدثت أحداث في أسرته ، وكل هذا وصل الأمر إلى حال استدعت التغيير ، وكان زين العابدين بن علي وزيرا الداخلية ، فعينة بورقيبة رئيسا للوزراء ولم يكن ينال هذا المركز حتى جمع قيادات الدين والقيادات السياسية والعسكرية وقرر المجتمعون عزل بورقيبة وتعيين زين العابدين بن علي رئيسا للجمهورية ، وكان ذلك في ٧ / ١١ / ١٩٨٧ .

وللأسف الشديد يسجل الباحثون المسلمون المخلصون جانبا من عدم اهتمام قادة تونس في العهدين السابق والحالي بالدراسات الاسلامية و الفكر الإسلامي ، وباتجاه تونس إلى العلمانية .

وثققتنا أن الإسلام لا يُغلب إن شاء الله ، ولا بد لهذا الليل من آخر .

رابعاً

ليلاً

تقديم : -

١- عن تسمية ليبيا تقول دائرة المعارف الإيطالية : « اسم ليبيا قديم ينحدر من الجغرافيا القديمة ، وأول من أخرجته إلى الاستعمال العالم الجغرافى مينوتلى فى كتابه (جغرافية ليبيا) المطبوع فى تورينو سنة ١٩٠٣ ليدل به « على الولاية التركية التى تشمل طرابلس وبرقة ، ثم اتخذته إيطاليا اسما رسميا لولاية طرابلس بعد أن أعلنت سيادتها عليها ، ومن ذلك الحين شاع استعماله شاملا طرابلس وبرقة وفزان والواحات التابعة لها » (١) .

وعند إعلان استقلال ليبيا سنة ١٩٥١ روى أن يظل هذا الاسم علما على الدولة الجديدة ، ولم يؤخذ باقتراح أن تسمى « الدولة البرقاوية » تحاشيا لإغضاب طرابلس وفزان .

ولعل هناك صلة بين تسمية « ليبيا » وبين منطقة « لوبيا » الواقعة بين حدود مرسى مطروح الغربية وبين حدود برقة الشرقية ، وسكانها يسمون اللوبيين ، ويرجح أن يكون بعض سكان « لوبيا » قد ساروا غربا واتخذوا فى مقامهم الجديد نفس تسميتهم القديمة ، وهذه المنطقة تابعة لمصر الآن ، وكانت هى وبرقة تابعتين للاسكندرية فى أثناء حكم الروم قبل الاسلام (٢) .

٢ - عن أقسام ليبيا نقول إنها تتكون الآن من المنطقة الشرقية (برقة) والغربية (طرابلس) والجنوبية (فزان) وإن تكوين قطر واحد من هذه المناطق قد ظهر إبان حكم الأتراك العثمانيين تحت اسم « طرابلس الغرب » أما قبل ذلك فكان لهذه المناطق شأن آخر سنتحدث عنه فيما بعد ، على أن تكوين قطر واحد من هذه المناطق فى عهد العثمانيين لم يستقر تماما ، وإنما حدثت بعض حركات انفصالية من حين لآخر ،

وجاء الاحتلال الإيطالى فوحد هذه المناطق فى « ليبيا » وقبيل إعلان الاستقلال جرت محاولات هدفها الفصل بين أجزاء الوطن الواحد ، ولكنها فشلت ، وأعلن قيام « المملكة الليبية المتحدة » من الولايات الثلاث ، وبعد

(١) دائرة المعارف الإيطالية نقلا عن تاريخ الفتح العربى فى ليبيا للاستاذ الطاهر الزاوى ص ٣

(٢) الطاهر الزاوى : المرجع السابق ص ٢٠ .

انتهى عشرة سنة تمت الوحدة الشاملة بين هذه الولايات ، وذهبت الحدود بينها ،
فقد أعلن جلالة الملك محمد إدريس السنوسي فى ٢٧ أبريل سنة ١٩٦٣ انتهاء
الحكم الاتحادى فى ليبيا ، وبدء نظام الوحدة الشاملة ، وكان البرلمان الاتحادى
والمجالس التشريعية للولايات قد وافقت على هذه الوحدة فى الأسبوع السابق
لهذا الاعلان

ذلك مفتاح القول عن هذا القطر العربى ، وسنشرح ما ذكرناه آنفا ، فيما يلى
من سطور :

طرابلس قبل عهد الأتراك العثمانيين :

كانت طرابلس فى عهد الأتراك العثمانيين تكُون مع تونس ولاية «إفريقية»
كما سبق القول ، فكان أمراء تونس يعيّنون من قبلهم حكام طرابلس ، وقد دام
ذلك أغلب فترات هذه الحقبة ، وحدثت فترات استقلالية ، كما حدث أحيانا أن
انتقلت زعامة ولاية «إفريقية» إلى طرابلس .

برقة قبل عهد الأتراك العثمانيين :

برقة يفصلها عن طرابلس صحراء سرت ، وعندما فتح المسلمون برقة ألحقت
بمصر ، ثم تنازعتها السلطات القبلية وسلطة الأغلبية ولكنها كانت فى الغالب
تابعة لمصر ومرتبطة بها ، وظلت كذلك حتى اقتحمها بنو هلال وبنو سليم سنة
٤٤٤ كما سبق القول ، فأصبحت خاضعة للحكم القبلى حتى قبيل منتصف القرن
السادس الهجرى ، ثم زحف عليها الموحدون ، ومدوا إليها سلطانهم ، ولكن
سلطان الموحدين عليها لم يكن طويلا ، ففى سنة ٥٦٨ استعادها الأيوبيون بمصر
، وفى عهد المماليك تراخت قبضتهم عليها إثر الضعف الذى نزل بهم نتيجة
الاضطراب الاقتصادى الذى نتج عن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، وقد
تسبب عن تراخى قبضة المماليك أن تأرجع السلطان على برقة بين المماليك وبين
الحكم القبلى ^(١) .

ويقول الدكتور حسن سليمان ^(٢) إن قبائل بنى سليم تفرعت ببرقة إلى بطون

(١) See " Atlas of Islamic History " Passim

(٢) ليبيا بين الماضى والحاضر ص ١٢٢ .

وأفخاذ ، واستقل كل بطن بما تحت يده ، واتجه الولاء لشيخ القبيلة دون الاعتراف بأية سلطة أخرى ، واعتمدت كل قبيلة منها على القوة والتحالف مع غيرها فى سبيل الاحتفاظ بكيانها القبلى والدفاع عنه أمام أى طارئ يهددها ، وظلت الحال كذلك حتى ضمها العثمانيون لإمبراطوريتهم .

فزان قبل عهد الأتراك العثمانيين :

خضعت فزان فى أكثر فترات هذه الحقبة للحكم القبلى ، وفى عهد المرابطين خضعت فزان لسلطانهم ، وامتد لها ملك الموحيدين كذلك ، وتبعت بنى حفص إبان قوتهم ، ولكنها كانت دائما تنتهز الفرص للاستقلال الذى تقضى به طبيعة الحياة فى الصحارى ، وقد ظهر بفزان من بين القبائل أسرتان كان لهما السلطان فى فترات طويلة نوعا ما ، وهما أسرة بنى خطاب وأسرة بنى محمد ، وستكلم عنهما فى حينهما .

ليبيا من العهد العرقى :

قلنا آنفاً إن تكوين قطر واحد من طرابلس وبرقة وفزان إبان حكم العثمانيين لم يستقر تماما ، فإن العثمانيين لم يحكموا فزان حكما مباشرا ، بل أقروا أسرة بنى محمد التى كانت ذات سلطان على فزان عند زحف العثمانيين ، واعتبر العثمانيون على أى حال أصحاب السيادة العليا ، وكان بنو محمد يدينون لهم بالولاء ، فلما استقل آل قره مانلى بالأمر فى طرابلس وبرقة بقى بنو محمد بجوارهم أندادا لهم لا يدينون بالولاء إلا للخلافة العثمانية ، وتسبب عن ذلك خلاف بين الجانبين لم ينته إلا فى عهد يوسف باشا القره مانلى الذى قتل آخر أمراء بنى محمد سنة ١٨١١ ، أى بعد قرن من قيام أسرة القره مانلى ، وعادت ليبيا متحدة تحت سلطان القرمانليين . وكذلك فى أثناء الحكم العثمانى بعد سقوط آل قره مانلى .

وجاء الاحتلال الايطالى الذى شمل المناطق الثلاث باسم « ليبيا » وظل حتى جاء عهد النور والحرية .

ذلك موجز القول عن تاريخ ليبيا الإسلامية وسنشملة بدراسة مفصلة فيما بعد

، الا حيث يقوم الحكم القبلى ، فإننا نكتفى بهذا التعبير الذى يحمل فى ثناياه معالم هذا الحكم ، الذى يخضع لنظام القبيلة فى نظمها السياسية و الاقتصادية والاجتماعية ، الذى يختلف قليلا أو كثيرا باختلاف القبائل .

٣ - اتضح مما سبق أن تاريخ ليبيا يحوطه شيء من الغموض ، ولعل هذا هو الذى دعا كثيرين ممن كتبوا تاريخ الشمال الافريقى أن يقصروا كلامهم على المغرب والجزائر وتونس ، ومن هؤلاء :

الدكتور صلاح العقاد فى كتابه « المغرب العربى » .

الأستاذ سعيد العريان وآخران فى كتاب « شمال افريقية » .

وأما الدكتور حسن سليمان الذى أرخ لـ « ليبيا بين الماضى والحاضر » فقد أورد أكثر كلامه عن طرابلس تابعة لتونس أو مستقلة عنها . ولم يخصص لبرقة وفزان إلا مساحة ضئيلة ^(١) .

وقد كتب الدكتور صلاح العقاد السبب الذى من أجله لم يضمن كتابه سالف الذكر شيئا عن ليبيا ، ولم يقنعنى اعتذاره ، وفيما يلى كلماته :

وقد يتساءل القارئ : لماذا لم يشمل الكتاب ليبيا وقد جرى العرف على حسابها من بلاد المغرب ؟ والجواب على ذلك ينطوى على حقيقة مؤسفة ، هى أن الاستعمار ترك فى بعض البلاد العربية آثارا بعيدة ، بحيث أوجد رابطة خاصة من نوع جديد بين البلاد التى خضعت لاستعمار واحد ، ولم تشارك ليبيا جيرانها فى الخضوع للاستعمار الفرنسى ، وتتضح هذه الحقيقة من مؤتمر طنجة الذى انعقد سنة ١٩٥٨ لبحث وسائل التقريب بين أقطار المغرب ، مع أن ليبيا قد دُعيت إليه إلا أنها لم تلعب فيه دورا يذكر ^(٢) .

وعندى أن هذا الاعتذار قد تكون له قيمة لو أن المؤلف يكتب عن « المغرب العربى المصبوغ بالصبغة الفرنسية » لتخرج بذلك ليبيا إذ كانت - فى رأيه - لها صبغة إيطالية ، وعندى كذلك أن الصبغات الأجنبية بالعالم العربى لم تكن قط

(١) ص ١٧٢ وسطور قليلة فى صفحات أخرى . (م) ٢٢ - التاريخ الاسلامى

(٢) المغرب العربى ص ٥ .

بعيدة الغور، أما أن ليبيا لم تلعب دورا فى مؤتمر طنجة ، فهذا ليس سببا لاستبعادها من دول المغرب العربى .

وفى رأى الدكتور محمد فؤاد شكرى أن التعبير الذى يستعمل قديما وهو طرابلس الغرب يساوى التعبير الذى يستعمل حديثا وهو ليبيا ، وكلا التعبيرين يشمل المناطق الثلاث : طرابلس وبرقة وفزان ^(١) .

ويقول الأستاذ محمود الشنيطى ^(٢) : إن ليبيا كانت تسمى طرابلس الغرب أيام العثمانيين ، وهو رأى أقرب للصواب فيما نرى من رأى الدكتور فؤاد شكرى ، فقد حدده بالعهد العثمانى ، أما الدكتور شكرى فقد أطلقه .

والآن نبدأ حديثنا عن ليبيا مستقلة أو تابعة ، ومن الواضح أن الدول التى قامت بتونس كان لها السلطان على طرابلس فى أغلب فترات التاريخ كما سبق القول ، وسنعرض لهذه الدول هنا من ناحية صلتها بطرابلس فقط .

صلة ليبيا بتونس قبل الأغالية :

بعد أن استقر فتح إفريقية على يد موسى بن نصير ، أخذ أمراء القيروان يعينون الولاة على طرابلس ، ومن أشهر ولاية طرابلس فى هذه الحقبة بكر بن عيسى وقد ولاه عليها موسى بن نصير ، ومعاوية بن صفوان الذى عينه حنظلة بن صفوان أمير القيروان من قبل هشام ابن عبد الملك .

وكان أول أمير للعباسيين بالقيروان هو عبد الرحمن بن حبيب الذى عين أخاه إلياس بن حبيب عاملا على طرابلس ، ولكن هذا اصطدم بالإباضية فعزله أخوه وولى حميد بن عبد الله العكلى ثم يزيد بن صفوان المعافرى ، فعمرو بن سويد المرادى .

وأشهر أمراء العباسيين على « إفريقية » يزيد بن حاتم المهلبى ، وقد اصطدم بالإباضية الذين كان نفوذهم قد انتشر بالشمال الإفريقى بقيادة أبى حاتم الإباضى الذى كان قد اتخذ طرابلس مركزا له ، وقد هزمه يزيد هزيمة ساحقة

(١) ليبيا الحديثة ص ٧٤ .

(٢) قضية ليبيا ص ١٦ .

ودعم ملك العباسيين بطرابلس وولى عليها سعيد بن شداد . وجاء بعد يزيد أخوه زوح بن حاتم فابنه الفضل بن روح الذى ولى على طرابلس يحيى بن موسى ، و قَتَلَ الفضل - ثائراً ، عربى « اسمه عبد الله ابن الجارود » وأراد أن تصير له ولاية « افريقية » ولكن الرشيد رفض ذلك وولى هرثة بن أعين الذى ولى على طرابلس سفيان بن أبى المهاجر .

وفى أيام هرثة ثار البربر ثورة عارمة برز فى إخمادها ابراهيم بن الأغلب الذى آل له حكم « افريقية » بعدها على نحو ما ذكرنا من قبل .

طرابلس فى عهد الأغالبة :

امتد سلطان الأغالبة الى طرابلس كما ذكرنا من قبل ، وكانت طرابلس أهم مناطق سلطانهم ، لذلك كانوا يعيّنون عليها الولاة من أسرهم غالباً ، وقد بدأ ابراهيم بن الأغلب هذه السياسة فعين ابنه عبد الله والياً على طرابلس ، وقامت حروب طويلة بين الإباضية وبين عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب ، ولم يكن النصر حاسماً فى هذه الحروب لأحد الجانبين ، وحدث أن مات ابراهيم بن الأغلب سنة ١٩٦ والحرب دائرة ، وكان من الضرورى أن يرحل عبد الله إلى تونس ليتولى إمارة إفريقية بعد أبيه ، فصالح آل رستم على أن تكون مدينة طرابلس لبنى الأغلب ، وأن يكون لآل رستم باقى الاقليم حتى سُرّت ^(١) .

ومن الأغالبة الذين أسندت لهم ولاية طرابلس عبد الله بن محمد بن الأغلب ابن ابراهيم بن الأغلب ، وقد ولاه أخوه أحمد الذى آلت له إمارة « افريقية » سنة ٢٤٢ ومنهم كذلك أحمد بن عبد الله بن الأغلب وقد عينه أخوه زيادة الله الثالث ، وفى هذا العهد ظهر أبو عبد الله الشيعى ، ولم يستطع بنو الأغلب أن يخفّتوا صوته ، إذ كان سلطانهم بدأ يتدهور بسبب الشرف الذى شمل قصورهم والانحلال الذى عم سلطنتهم ، وهُزمت جيوش زيادة الله أمام جيوش أبى عبد الله الشيعى ، وفر زيادة الله إلى مصر ، وأرسل لأخيه أحمد حيث لحق به ، وانقضى بذلك عهد الأغالبة .

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٦ ص ٩٨ وانظر المنهل العذب ج ١ ص ٧٤ - ٧٥ .

ومن ولاية طرابلس المشهورين من غير أسرة بنى الأغلب سفيان ابن أبى المهاجر ، وقد أسندت له هذه الولاية ثلاث مرات ، كانت أولاها فى عهد هرثمة بن أعين قبل بدء حكم الأغالبة ، وقد أقره ابراهيم بن الأغلب عندما بدأت إمارته ، وقد ظل فى ولايته هذه حتى سنة ١٨٩ حيث ثار عليه أهل طرابلس وأخرجوه منها ، ولكن بنى الأغلب أعادوه لهذه الولاية بعد ذلك .

ومن ولاية طرابلس كذلك محمد بن قهرى وقد ولاه أبو الغرانيق محمد ابن أحمد بن الاغلب ^(١) وولاه معها برقة ^(٢) ، وفى أثناء ولايته قدم العباس بن أحمد بن طولون سنة ١٦٥ من مصر يريد اغتصاب إفريقية من بنى الاغلب وتكوين إمارة خاصة به إذ كان على خلاف مع والده ، وقد زحف العباس بجيش عظيم وعدة كبيرة ومال وفير وتمكن من الاستيلاء على برقة من ابن قهرى وزحف تجاه طرابلس حتى حاصرها ودخلها ، ولكن العباس وقع فى صراع عنيف من كل جهة ، فأبوه يلاحقه ، والأغالبة يزحفون اليه ، والإباضية بقيادة الياس بن أبى منصور زعيم جبل نفوسة يتاصبونه الجلاد ، وقد هزت هذه الأحداث جنده فهزم هزيمة ساحقة أمام الإباضية ، وقبض عليه جند أبيه وساقوه إليه مقيدا بالسلاسل ^(٣) .

طرابلس تحت سلطان الفاطميين :

وأقام الفاطميون دولتهم فى إفريقية كما سبق القول ، وأخذوا يعينون الولاية على طرابلس ، ومن ولايتهم عليها ماكنون بن ضبارة اللحيانى ، وقد ولاه عبيد الله المهدي ، وفى عهد خلفه محمد بن عبيد الله المهدي شبت بطرابلس ثورة ابن كيداد التى تحدثنا عنها فيما سبق ، ومن ولاية الفاطميين على طرابلس كذلك زياد بن قيس ، وقد ولاه المنصور ، وينسب لزياد إصلاح سورالمدينة والزيادة فيه

(١) المنهل العذب ج ١ ص ٨١ .

(٢) الطاهر الزاوى : الفتح العربى فى ليبيا ص ١٠٥٠ .

(٣) المنهل العذب ج ١ ص ٨٢ وما بعدها وتاريخ الفتح العربى بليبيا ص ١٥١ وما بعدها .

لهيما بين مصر وتونس :

- جاءت بعد الفاطميين دولة آل زيرى ، وقد بينا من قبل علاقتها بالفاطميين وذكرنا أن الخليفة المعز حينما ولى بلكين بن زيرى إفريقية لم يجعل له سلطانا على مدينة طرابلس كما استثنى مدينتى أجدايه وسرت ، وعين عليها عاملا من قبله هو عبد الله بن يخلف الكتامى ، فلما كان عهد العزيز بالله تقدم له بلكين بن زيرى يرغب فى ضم هذه البلاد إلى إمارته فأجابه لذلك ، وعقد له عليها ، ورحل عنها عبد الله بن يخلف الكتامى ^(١) . وولى بلكين عوصلة بن بكار .

- ظل عوصلة فى عمالته هذه خلال مدة بلكين بن زيرى وابنه المنصور وشطرا من أيام باديس بن منصور ، وفى خلال هذه المدة كان انشقاق آل زيرى عن الخلافة الفاطمية قد بدأ يظهر ، فرأى عوصلة أن يأخذ جانب الفاطميين ، فكتب إلى الخليفة الحاكم بأمر الله يبدى رغبته فى العيش فى حضرته ، ويعلن استعداداه لتسليم ولايته إلى من يعينه الخليفة ، فاستجاب الخليفة لذلك وعين يانس الصقلى واليا على هذه المنطقة ، وسافر يانس فتسلم أمورها من عوصلة سنة ٣٩٠ هـ وسافر عوصلة إلى مصر بأهله حيث أقام فى رحاب الحاكم بأمر الله

وقد اعتبر باديس بن منصور هذا التصرف مخالفا للعهد الذى ناله جده بلكين من المعز لدين الله ، ويقضى هذا العهد بضم هذه الولاية لإمارة تونس ، وهكذا وقع خلاف صريح بين القاهرة وبين آل زيرى ، وكانت زناتة تنافس صنهاجة ، فانتهزت هذه الفرصة لتدخل المعركة ضد آل زيرى ، ولم يؤيد خلفاء القاهرة زناته ، فاحتدم نزاع بين القوى الثلاثة امتد حوالى نصف قرن ، وفيما يلى مزيد من الشرح عن هذا الخلاف وعما أسفر عنه من نتائج :

آل خزرون الزناتيون بطرابلس ٣٩٠ - ٥٤٠ هـ :

قلنا إن الحاكم بأمر الله عين يانسا الصقلى حاكما لطرابلس بدل عوصلة بن بكار ، ولكن باديس بن منصور لم يقبل هذا الوضع وعين جعفر بن حبيب واليا على طرابلس ، وسار جعفر حيث حارب يانسا وانتصر عليه وقتله .

(١) المنهل العذب ج ١ ص ١٠٠ . ١٠٢ .

بيد أن فلفول بن سعيد الزناتى انتهز فرصة الخلاف بين الخلافة الفاطمية وآل زيرى فزحف فى جيش من قومه وقرى على آل زيرى على الرغم من أنه كان واليا لهم ، واستولى على طرابلس ، ولم يقو جعفر على مناوأة فترك طرابلس وسار إلى قابس حيث اعتصم بها .

وأرسل فلفول للخليفة الفاطمى يعلن ولائه ويرجو إقراره على ولاية طرابلس ، ولكن الخليفة الفاطمى لم يوافق على ذلك ، وعين يحيى بن على بن حمدون واليا على طرابلس ، ولما سار يحيى أدرك أنه - مع قلة المال والرجال - لا يستطيع التغلب على زناتة ، فتعاون مع فلفول فترة ثم رجع الى مصر ، ولما وجد فلفول أن مصر لا تريد الاعتراف به ، وكذلك كان آل زيرى يعتبرونه متمردا فإنه بعث إلى خلفاء قرطبة يعلن انضمامه لهم ، ولكن قرطبة كانت فى شغل عنه . وأهم أمراء زناتة على طرابلس هم ^(١) :

فلفول بن سعيد بن خزون الزناتى ٣٩٠

ورؤ بن سعيد بن خزون ٤٠٠ - ٤٠٣

خليفة بن ورو ٤١٤

سعيد بن خزون بن سعيد ٤٣٣

خزون بن خليفة ٤٤٦

المنتصر بن خزون ٤٥٠

خليفة بن خزون ٤٦٠

محمد بن خزون بن خليفة بن ورو ٤٨٨ - ٥٤٠

أما الفترة بين ٤٠٣ و ٤١٤ فقد عاد النفوذ خلالها لآل زيرى وقد ولوا على طرابلس فى هذه المدة محمد بن الحسن ثم عبد الله بن الحسن .

(١) لم يورد زامباور ولا Stanley Lane-pool شيئا عن هذه الأسرة وقد جمعنا أسماء الأمراء وتاريخ حكمهم من أشتات المراجع

- ومن الواضح أن إمارة الزناتيين على طرابلس لم تكن مستقرة ، وكانت تبحث لها عن تأييد من القاهرة أو تونس ، وقد استطاع خليفة بن ورو أن يسترضى الجانبين في وقت ما .

وأهم الأحداث التي تجلّى عنها هذا الصراع وأجمع عليها الزناتيون والصنهاجيون جميعا كان ترك المذهب الشيعي والعودة لمذهب مالك ، وقد أدى هذا إلى أن يدفع الخليفة الفاطمي (المستنصر) بيني هلال وبنى سليم إلى الشمال الأفريقي حيث اجتاحوا هذه البقاع كما سبق القول ^(١) .

- وأسلم هذا الخلاف وذلك الاضطراب إلى نتيجة مؤسفة هي طمع الفرنجة في الزحف على طرابلس .

برقة إبان عهد الزناتيين :

- وفي مطلع عهد آل خزون كانت برقة تابعة لمصر ، وكان الحاكم بأمر الله الفاطمي يعين عليها من قبله ، وقد ثار بها رجل ينسب إلى بنى أمية ، كنيته أبو ركوة ، وانتصر أبو ركوة في الجولة الأولى على إينال الطويل وإلى برقة من قبل الحاكم ، وأطعمه هذا النصر ، فظن أنه يستطيع أن يزحف على مصر ، وخدعه قواد الحاكم إذ كتبوا له يعلنون أنهم يؤيدونه ، فسار إلى مصر والتقى بجيش مصرى صاحب فتشنت شمله . وهرب أبو ركوة ولكنه طورد وقبض عليه وقتل وصلب سنة ٣٩٧ هـ .

الفرنجة في الشمال الأفريقي :

قلنا إن الاضطرابات شملت طرابلس وبرقة وفزان قبيل زحف بنى هلال وبنى سليم ، وكان ذلك بسبب الحروب بين الفاطميين والصنهاجيين والزناتيين وأبى

(١) هذه المعلومات تلخيص لقراءة كثيرة في مراجع لم توضع الموضوع وأهم هذه المراجع مايلي :

١ - ابن الأثير : الجزء السادس .

٢ - المنهل العذب : الجزء الأول .

٣ - ليبيا في الماضي والحاضر في عدة صفحات .

٤ - معجم الانساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي لزماور .

ركوة ، وقد زاد الاضطراب واستفحل بالزحف العربى الذى أسلم البلاد إلى الفوضى ، فلم يعد آل زيرى قادرين على سياسة البلاد ، ولا استطاع الزناتيون الاحتفاظ بسلطان هادى . وكانت الخلافة الفاطمية تمر بفترة من القلق والضعف ، فزادت أطماع الفرنجة فى احتلال أهم بلاد الشمال الأفريقى ، وكانت محاولاتهم الأولى لاحتلال طرابلس سنة ٥٣٧ فى عهد محمد بن خزرون بن خليفة ولكنه استطاع بمساعدة آل مطروح أن يرد الفرنجة على أعقابهم إلى صقلية . بيد أن طرابلس اجتاحتها مجاعة قاسية سنة ٥٤٠ فثار بنو مطروح ضد محمد بن خزرون واستولوا على السلطة واستقلوا بطرابلس عن آل زيرى وعن الزناتيين ، ولكن روجر زحف مرة ثانية من صقلية واستطاع هذه المرة أن يستولى على سفاقس ثم على طرابلس سنة ٥٤١ حيث أقر رافع بن مطروح واليا عليها من قبله ، واستولى روجر كذلك على المهديّة سنة ٥٤٣ من الحسن بن على الصنهاجى فقضى بذلك على إمارة الصنهاجيين وامتد ملك الفرنجة على الساحل من طرابلس إلى قرب تونس حتى استنقذها منهم الموحدون سنة ٥٥٥ (١) .

الموحدون ٥٥٤ - ٦٦٨ :

تحدثنا عن الموحدين عند حديثنا عن المغرب ، وذكرنا أنهم أقاموا دولتهم على أنقاض المرابطين فى المغرب . ثم اتجهوا نحو الشرق استجابة لنداء سكان طرابلس الذين طلبوا عونهم ضد الفرنجة الذين احتلوا المهديّة ومدوا سلطانهم من السوس إلى طرابلس ، ولم يستطع الفرنجة أن يصمدوا أمام زحف الموحدين فجّلوا عن الساحل الأفريقى ، وسار الموحدون إلى الشرق حتى تاختمت ممتلكاتهم حدود مصر ، وولى الموحدون أبا يحيى ابن مطروح إمارة طرابلس فظل أميرا حتى سنة ٥٦٨ (٢) .

الأيوبيون فى طرابلس :

لم توضح المراجع التاريخية التى بين أيدينا إيضاحا شافيا ظروف الحملة الأيوبية التى قادها قرة قوش وسار بها إلى إفريقية حتى استولى على طرابلس

(١) المنهل العذب ج ١ ص ١٣٤ - ١٣٦ وليبيا فى الماضى والحاضر ص ١٤٩ - ١٥١ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤٣ .

، وأقرب ما نستنتج من قراءة هذه المراجع أن الأيوبيين أرادوا استعادة النفوذ المصرى فى البلاد المتاخمة لحدودهم الغربية ، فأرسلوا قره قوش بجيش لهذه الغاية سنة ٥٦٨ ، ولكن قره قوش أثر بعد انتصاره أن يكون لنفسه سلطانا مستقلا عن سلطان الأيوبيين فخطب للخليفة العباسى ، ولكن الخليفة العباسى لم يوافق على ذلك حرصا على إرضاء الأيوبيين الذين أعادوا الخطبة له فى مصر بعد أن كانت للفاطميين حوالى القرنين ، ولما رفض الخليفة العباسى الاعتراف بقره قوش ضعف شأنه ، وتحرض لهجمات الموحدين وعلى بن غانية وهو من بقايا المرابطين ، وقبض ابن غانية على قره قوش وكبار رجاله وشنقهم ، وأصبح لابن غانية الأمر فى طرابلس ، ولكنه كان مستجيرا ظالما ، وساعده على الاستبداد أن زعيم الموحدين كان قد عبر المضيق إلى الأندلس فخلا الجو لابن غانية فزاد طغيانه وظلمه ، ولما عاد زعيم الموحدين قصد هذه البلاد وأوقع بابن غانية وأعاد طرابلس وما حولها لسلطانهم وظلت لهم يولون عليها من قبلهم حتى استبد بها بنو حفص^(١) ، أما برقة فقد بقيت تابعة لسلطان مصر كما سبق

ويروى الطاهر الزاوى^(٢) أن قره قوش خرج مغاضبا ، فقد كان سيده أعد الجيش للزحف على طرابلس ثم عدل عن رأيه ، فخالفة قره قوش وغالبية الجند والقواد وزحفوا الى طرابلس ، وفتحوها باسمه .

بنو حفص فى افريقية :

تكلمنا عن بنى حفص عند الكلام عن تونس ، وقد أسس هذه الدولة أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد الحفصى ، وكان فى الأصل واليا عليها من قبل الموحدين ، ولما ضعف شأن الموحدين استقل بها مكونا الدولة الحفصية التى دامت أكثر من ثلاثة قرون ، واتخذ بنو حفص تونس مركزا لسلطانهم وأرسلوا الأمراء على طرابلس^(٣) ، ومن أمرائهم على طرابلس أبو عبد الرحمن يعقوب الهرغى ، وعبد الله بن إبراهيم بن جامع ، ومحمد بن عيسى الهنتانى ، ويوسف بن طاهر اليربوعى ، وقد حاول الأول الاستقلال بطرابلس ولكنه لم ينجح وثار

(١) انظر المنهل العذب ج ١ ص ١٤١ - ١٥٦ وليبيا فى الماضى والحاضر ١٥٢ - ١٥٤ .

(٢) تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ص ٢١٣ .

(٣) لمزيد من القول عن بنى حفص يراجع العبر لابن خلدون ج ٦ ص ٢٧٥ وما بعدها .

أعيان طرابلس ضده وقبضوا عليه وقتلوه ، ولم تظهر حركات استقلالية فى عهد
الوالى الثانى ، أما الوالى الثالث فقد استقل بطرابلس عن أمراء بنى حفص فى
أثناء إمارة أبى عبد الله محمد (٦٤٧ - ٦٦٥) وظل مستقلا حتى عهد أبى
حفص عمرو (٦٨٣ - ٦٩٤) فعاد يعلن ولائه إليه وتبعيته لإمارته ، وجاء
يوسف بن طاهر اليربوعى فأعلن استقلاله التام عن الحفصيين واستبد بالأمر^(١) .

زعامة القرية تنتقل الى طرابلس :

ذكرنا عند الكلام عن بنى حفص أن الخلافات كانت كثيرة فى عهد هذه الدولة
، وأن الثورات كانت متصلة من أمير ضد أمير ، وكان ذلك مما سبب الضعف
والوهن للأسرة ، وفى مطلع القرن الثامن الهجرى كان الاضطراب قد بلغ أشده ،
وكان زكريا بن أحمد اللحيانى أحد أمراء بنى حفص قد عاد حديثا من الحج الى
طرابلس ، فاجتمع حوله الناس واختاروه أميرا لهم سنة ٧١١ ، ورأى اضطراب
الاحوال بتونس فعقد العزم على غزوها ، ويقول صاحب المنهل^(٢) :

فأغذ السير إلى تونس ، وصبحوها ثامن جمادى الآخرة من هذه السنة ،
وعقدت له البيعة العامة بظاهرها ثم دخل البلد واستولى عليها ... ثم انتقل من
تونس بعد أن استخلف ابنه محمد أبو ضربة عليها ، سار شرقا حتى انتهى إلى
برقة ثم رجع إلى طرابلس .

وظلت طرابلس عاصمة النشاط السياسى بإفريقية حوالى ست سنوات ، ثم
انهزمت هذه الحركة أمام الزحف الذى قاده يحيى أبو بكر سنة ٨١٨ الذى
استطاع أن ينقذ تونس ، ولكنه لم يستطع أن يقضى على استقلال طرابلس ، بل
ظل أمراء طرابلس بعد ذلك يهددون تونس من حين الى آخر .

(١) المنهل العذب ج ١ ص ١٥٥ - ١٦٩ .

(٢) المنهل العذب ص ١٧٤ وما بعدها .

طرابلس بين بنى ثابت وبنى مكى وبنى حفص :

بنو ثابت عرب وشاحيون من بنى سليم ^(١) آل لهم أمر طرابلس ابتداء من سنة ٧٢٤ هـ وظلوا يحكمونها - بدون استقرار وتسلسل على ما سيأتى - حتى قبيل غزو الأسبان لها ، ومن ولاية بنى ثابت :

ثابت بن محمد (الأول) ٧٢٤

محمد بن ثابت ٧٣٠

[غزا جزيرة جربة وضمها الى طرابلس واستعادها بنو حفص سنة ٧٤٨) .

ثابت بن محمد (الثانى) ٧٥٠

[استولى تجار جنوة على مدينة طرابلس سنة ٧٥٥ وفرَّ ثابت وقُتل واقتدى أبو العباس أحمد ابن مكى والى قابس مدينة طرابلس من تجار جنوة بخمسين ألف مثقال من الذهب ، وصار واليا عليها بعد تطهيرها من القرنجة حتى توفى سنة ٧٦٦ فخلفه ابنه عبد الرحمن] .

أبو بكر محمد بن ثابت ٧٧٢

[انتزع طرابلس من عبد الرحمن ، وحسَّن علاقته ببنى حفص واعترف لهم بالولاء] .

على بن عمران بن محمد بن ثابت ٧٧٢

يحيى بن أبى بكر بن ثابت ومنافسون آخرون ٨٠٠ - ٨٠٣

(١) الزراوى ص ٢٣٤

ل استبعاد بنو حفص سلطانهم على
طرابلس سنة ٨٠٣ ولكن بدون
استقرار مما هيا الفرصة للأسبان
ليحتلوها [(١)] .

الاستعمار الأسباني في طرابلس : ٩١٦ - ٩٣٦ = ١٥١٠ - ١٥٣٠ :

شهد القرن الخامس عشر الميلادي (التاسع الهجري) ميزان القوى بين
المسلمين والفرنجية وقد رجحت فيه كفة الفرنجية وشالت كفة المسلمين ، فقد تم
النصر للأسبان في الأندلس ، وأسقطوا آخر معقل للمسلمين بها ، وتملكهم الزهو
والأمل ، فوضعوا الخطط ليتعقبوا المسلمين المنهزمين إلى الشاطيء الإفريقي
انتقاما من الاسلام حيث يكون ، وانتقاما من الشاطيء الإفريقي الذي طالما جرد
الحملات ضد أسبانيا وساعد المسلمين هناك بالعتاد والرجال .

وفي نفس الوقت كان الشمال الإفريقي يمر بفترة هرم وشيخوخة ، وبنو حفص
في تونس لم يعد لهم حول ولا طول ، وقد سبق أن تكلمنا عنهم وعن اضمحلال
شأنهم ، والاضطرابات في طرابلس تتجدد كل يوم ، وكثير من مدن الساحل
الإفريقي أصبحت تحت سلطان الفرنجية كما ذكرنا من قبل .

ومع هذا الضعف السياسي كانت طرابلس تمر بفترة رخاء مادي ، وكانت
أسبانيا بعد نضالها الطويل تتطلع إلى مصادر ثروة تستغلها في بناء ما هدمته
يد الكفاح والصراع .

كل هذه العوامل هيأت السبيل لزحف الأسبان على طرابلس ، وقد أُلْعِق
الأسطول الأسباني سنة ٩١٦ هـ وكان يتكون من ١٢٠ سفينة بقيادة الكونت
نافار نائب الملك بصقلية ، ووصل الأسطول الى المدينة فأطلق عليها نيرانه ،
وأنزّل القائد جنده على الساحل دون مقاومة تذكر سنة ١٥١٠ ، وكرر المسيحيون
المأساة التي لا يغفلون عنها ، فقتلوا آلاف الناس بدون ذنب ، أسالوا الدماء
أنهارا ، وقبضوا على كل من عشروا عليه ، ويقدر المؤرخ الهولندي « مارجول »

(١) تاريخ الفتح العربى في ليبيا ص ٢٣٤ - ٢٤١

عدد القتلى بستة آلاف والأسرى بخمسة عشر ألفا (١) .

وماجت أوروبا فرحا وطربا باحتلال الأسبان لطرابلس ويقتل المسلمين ، أما المعسكر الإسلامى فقد بدأت تدب فيه روح اليقظة ، وكان الأسبان يعتقدون أن طرابلس ستكون مركزا ينشرون منه سلطانهم على الشمال الأفريقى كله ولكن اليقظة التى أبدأها الجانب الإسلامى أظهرت للأسبان أنهم كانوا واهمين ، وأن آمالهم كان مبالغا فيها ، فقد بقى المسيحيون داخل سور المدينة ولم يستطيعوا أن يتجاوزوها إلى أية بقعة أخرى داخل البلاد ، كما حاولوا أن يفتحوا بعض الجزر القريبة من طرابلس مثل جزيرة جربة ولكن محاولاتهم فشلت كلها ، وتحولت تجارة المسلمين عن طرابلس إلى غيرها من المدن وبهذا اختفى مصدر الثروة بطرابلس ، وأصبح واضحا أن طرابلس تكلف الأسبان مبلغا كبيرا من المال وجهدا واسعا دون فائدة تذكر ، وكان هذا من الأسباب التى جعلت الأسبان لا يجدون مانعا من منحها هبة لفرسان القديس يوحنا بالطة .

فرسان القديس يوحنا بطرابلس ٩٣٦ - ٩٥٨ = ١٥٣٠ - ١٥٥١ :

« فرسان القديس يوحنا » اسم منظمة مسيحية كانت تعيش فى القدس لمساعدة الحجاج المسيحيين الذين يفدون من مختلف الجهات ، وفى أثناء الحروب الصليبية كانت هذه المنظمة تعنى بمعالجة جرحى المسيحيين ، كما كانت تلعب دورا عسكريا تخفيه وراء مظهرها الدينى . ولما فتح صلاح الدين الأيوبي القدس لم يقض على هؤلاء ، واكتفى بإبعادهم عن بيت المقدس ، فلجأوا إلى عكا ، وقاموا بأعمال عسكرية ضد المسلمين ، ولما سقطت عكا انتقل أعضاء المنظمة إلى جزيرة رودس ويقوا بها حتى أوائل القرن السادس عشر حين استسلمت هذه الجزيرة للأسطول العثمانى فغادرتها منظمة القديس يوحنا إلى إيطاليا بدعوة من البابا كليمنت السابع .

ومن ايطاليا طلبوا من شارل الخامس امبراطور أسبانيا أن يمنحهم جزيرة مالطة لتكون مركزا لنشاطهم ضد البلاد الاسلامية ، فوافق الامبراطور على ذلك ، ثم أعطاهم طرابلس لتكون لهم إدارتها المباشرة باسم الامبراطورة . فانتهى

(١) نقلا عن راسم رشدى : طرابلس الغرب ص ٨٧ .

بذلك سلطان أسبانيا المباشر على طرابلس ، وبدأ سلطان الفرسان سنة ١٥٣٠
فأخذ هؤلاء يعينون حاكم المدينة من قبلهم^(١)

الأتراك العثمانيون فى الشمال الافريقى :

من الواضح أن المسيحيين مثلوا دور الطغاة الجبارين فى كل البلاد التى
احتلوها بشمال افريقية ، شأنهم فى كل البلاد الإسلامية التى استطاعوا أن
يطنوها بأقدامهم ، وقد علت شكوى المسلمين بالشمال الأفريقى مما عانوه من
ظلم المسيحيين وطغيانهم ، وكان الأتراك العثمانيون قد وصلوا القمة فى مجدهم
السياسى والحربى آنذاك ، إذ تم لهم فتح سوريا ومصر وأصبح سلطانهم يلقب
خليفة المسلمين ، ومن أجل هذا تطلع سكان شمالى إفريقيا إلى الخلاص على
أيدى الأتراك العثمانيين ، كما كان الشمال الإفريقى هو الخطوة التالية الطبيعية
للعثمانيين بعد أن أصبحت مصر تابعة لهم .

وقد سبق أن تحدثنا عن النشاط البحرى الذى قام به الأخوان عروج وخير
الدين ، وكيف استطاعا أن ينتقما للمسلمين من عدوان المسيحيين ، وأن يهيئا
سبل الخلاص لكثير من المسلمين النازحين من الأندلس ، كما تكلمنا عن انضمام
خير الدين - بعد موت أخيه - إلى قوة العثمانيين ومواصلة نشاطه البحرى
باسمهم بعد أن زودوه بمزيد من السفن والعتاد الحربى ، فاستطاع أن يستولى
على الجزائر سنة ١٥١٨ ثم استولى على تونس سنة ١٥٣٤ وكانت هذه هى
الجولة الأولى للعثمانيين بالشمال الافريقى .

وحدث فى تونس أن ساعد الامبراطور شارل الخامس امبراطور أسبانيا الملك
الحسن آخر ملوك بنى حفص الذى لجأ للأندلس عقب دخول العثمانيين تونس ،
وتمكن الامبراطور من إعادة خليفة إلى العرش سنة ١٥٣٥ وكان هذا الخليف
للأسف يعمل بما توحى به مصالح سيده الامبراطور الأسبانى . ثم جاء الطغيان
الذى عاناه سكان طرابلس من قرسان القديس يوحنا ، مما حدا بوفد من أهالى
البلاد أن يذهبوا للقسطنطينية يطلبون عون الخلافة ليستخلصوا من المستعمرين

(١) دكتور حسن سليمان : ليبيا فى الماضى والحاضر ص ١٨٢ .

الآثمين ، وقد مهد هذا للجولة العثمانية الثانية بالشمال الافريقي ، وكانت بقيادة سنان باشا يعاونه مراد أغا وطورغود بك ، واستطاعت الحملة أن تستولى على طرابلس سنة ١٥٥١ وأن تطرد فرسان القديس يوحنا شر طردة ، ثم استأنفت الحملة نشاطها فاستعادت تونس سنة ١٥٦٨ .

ومما يذكر أنه عندما كان سنان باشا يحاصر طرابلس استعدادا للهجوم عليها ، وجاء السفير الفرنسي « دارمون » وقابله فى « تاجورة » ورجاه أن يعدل عن احتلال طرابلس وأن يتركها للفرسان ، وتوسل لديه بما بين فرنسا والسلطان العثمانى من صداقة ، وبما يتمتع به الفرسان من رعاية دول أوروبا لهم ، ولم يجد سنان باشا فى هذه الوساطة ما يبررها ، فأجاب بأنه لا محيص من طرد الفرسان وأنه مأمور بذلك من السلطان ، ومن براعة سنان باشا أنه أصدر الأوامر بعدم مغادرة السفير تاجورة قبل إكمال العمليات الحربية خوفا من اتصاله بالأسنانة أو بفرسان القديس فى طرابلس مما يعرقل أعماله ^(١) .

ويسجل التاريخ مرة أخرى أن المسلمين لم ينتقموا من المسيحيين المهزومين ، لم يعملوا فيهم السيف ، وسمحوا لهم بمغادرة البلاد .

وأهم ما يذكر عن العهد العثمانى أنه فصل طرابلس عن تونس وجعلها ولاية مستقلة ، وحقق بذلك المحاولات الطويلة التى قام بها أهل طرابلس للاستقلال ، ولم تعد طرابلس بعد ذلك لأحضان تونس .

ومما يذكر عن العهد العثمانى أيضا أنه أبرز بوضوح وحدة ليبيا ، فقد وضع العثمانيون حدودا واضحة لهذه البلاد ، فأصبحت ولايه « طرابلس العرب » تشمل المناطق الثلاثة « طرابلس وبقرة وفزان » وكانت هذه تشور أحيانا أو تتمرد تلك ، ولكن الجهود كانت تبذل لإعادة الوحدة بين المناطق الثلاثة ، وإخضاعها جميعا للوطن الأم .

(١) انظر تاريخ الفتوح العربى فى ليبيا ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(م ٢٣ - التاريخ الاسلامى) .

برقة وفزان فى هذه الفترة :

وقبل أن نتكلم عن العهد العثمانى بليبيا نذكر كلمة عن برقة وفزان قبيل دخول الأتراك ليبيا وعقب دخولهم .

أما برقة فكانت قد عادت لأحضان مصر منذ عهد الأيوبيين وشملها سلطان المماليك ، ولكن تراخت قبضتهم عليها كما سبق القول بسبب الضائقة الاقتصادية التى اجتاحت مصر عقب تحول طريق التجارة الى رأس الرجاء الصالح ، ونتج عن تراخى قبضة المماليك على برقة أن قوى بها الحكم القبلى ، وجاء الأتراك فجعلوها ولاية من ليبيا .

وأما فزان فقد ذكرنا أن الحكم القبلى كان واسع الانتشار بها ، ولكن انبثق من بين القبائل أسرتان كونتا ما يمكن أن يُعدَّ من الأسر الحاكمة ، فقد دانت لهما القبائل الأخرى بالولاء ، وهاتان الأسرتان هما أسرة بنى خطاب وأسرة بنى محمد ، وكان بنو خطاب عمالا للمنتصر بن يلكين سنة ٣٨١ هـ ثم استقلوا عنه ، واتخذ بنو خطاب « زويلة » قاعدة لحكمهم ، ولذلك تسمى « زويلة بنى خطاب » ، وقد استمر ملكهم حتى دخل قراقوش فزان وقبض على محمد خطاب آخر ملوك بنى خطاب وانتهى حكم هذه الأسرة بزويلة بنى خطاب وفزان بعد حكم دام حوالى قرنين ^(١) . وبعد نهاية قراقوش عادت فزان للحكم القبلى .

أما أسرة بنى محمد فقد أسسها منتصر بن محمد أحد أشرف مراكش ، وجعل عاصمتها « مرزق » وامتد نفوذ هذه الأسرة شمالا حتى واحة سوكته ، وقد بدأت هذه الأسرة تباشر سلطاتها قبيل مجىء سنان باشا ، واستمرت فى عهد العثمانيين ، فقد أقرهم العثمانيون على هذا الاقليم (حوالى سنة ١٥٧٢) بعد أن أعلنوا ولائهم للسلطان العثمانى ، وظلوا يحكمون فزان حتى قتل يوسف باشا القرملى آخر حكام هذه الأسرة سنة ١٨١١ ^(٢) .

ومن أمراء هذه الأسرة المنتصر سالف الذكر ، وابنه الناصر ، والظاهر بن الناصر ،

(١) الطاهر الزاوى : تاريخ الفتح العربى فى ص ٧٤ و ٢١٣ و ٢٤١ .

(٢) دكتور حسن سليمان : ليبيا فى الماضى والحاضر ص ١٧٢ .

ومحمد بن جهيم ابن أخى الظاهر ، والنقيب بن محمد بن جهيم ، وقام بن جهيم ، ولم يكن لهؤلاء استقرار ، وكان المفروض أنهم عمال لأمرأ طرابلس ولكنهم انتهزوا فرصة الاضطراب فى طرابلس فثبتوا أقدامهم وتوارثوا السلطان ، وأعلنوا التمرد من حين الى آخر ، وكانوا لهذا عرضة للهجمات الحربية التى يشنها عليهم أمرأ طرابلس قبل العثمانيين وبعدهم ، ومن أجل هذا لم يتسلسل بانتظام الحكام من هذه الأسرة بل كانوا يختفون أحيانا ثم يعودون للظهور ، حتى اختفوا نهائيا فى أيام يوسف القرملى كما ذكرنا من قبل .

العثمانيون فى ليبيا :

· كَوْنُ العثمانيين ولاية ليبيا كما سبق القول من طرابلس وبرقة وفزان ، وينقسم العهد العثمانى بليبيا ثلاثة أقسام هى :

١ - عهد الولاية العثمانية قبل أسرة القرملى ١٥٥١ - ١٧١١

٢ - عهد أسرة القرملى وهو عهد استقلال

الى حد كبير ١٧١١ - ١٨٣٥

٣ - عهد الولاية العثمانية بعد أسرة القرملى ١٨٣٥ - ١٩١١

وستتحدث فيما يلى عن كل قسم من هذه الأقسام لنوضح أهم معالمه ، على أن نولى أهم اهتمامنا للقسم الثانى ، فهو أبرز أقسام هذه الحقبة .

١ - العهد العثمانى قبل أسرة القرملى

عين سنان مراد أغا واليا على طرابلس وتركه ومعه حامية عسكرية ، وسار هو ليواصل مسئولياته تجاه تونس ، وكانت طرابلس قد عمها الخراب من جراء الحرب وإهمال الفرسان لشأنها ، فشغل مراد أغا بتعميرها وظل واليا على طرابلس حوالى عام ونصف عام ، وكان تقدمه فى السن وما تستلزمه ولاية طرابلس من جهد ويقتطع مادعا الآستانة الى تولية طورغود على طرابلس خلفا لمراد أغا ، وقد امتثل مراد للأمر وسلم الولاية لطورغود دباشا الذى واصل الجهود لحماية الولاية وبعث روح التقدم فيها .

واشترك طورغود فى الحملة البحرية التى بعثت بها الأستانة لغزو مالطة ، وأبلى فيها بلاء حسنا ، ثم استشهد فى إحدى معاركها سنة ٩٧٣ وجرى بجثمانه لطرابلس حيث دفن بها ^(١) .

وولاية طرابلس لم تسر فى الطريق الذى سارت فيه ولاية الجزائر وتونس من ناحية استقلال الحرس الانكشارى باختيار والى الإمارة ، بل ظلت طرابلس - فيما عدا أسرة القرملى - متصلة بالقسطنطينية ، الى حد كبير فكانت القسطنطينية تعين الولاة لها بفرمان من السلطان ، ويعاون والى مجلس الديوان وحامية انكشارية على رأسها الباي ^(٢) .

ولكن الانكشارية على كل حال لم يبقوا بعيدا عن السلطة ، بل اندفعوا أحيانا إليها ، وعينوا من بينهم والى ، ولكن القسطنطينية ظلت تصدر الفرمان بتعيينه وتنتهز الفرصة من حين الى آخر لتعيين وال من غير الانكشارية كلما ظهرت الخلافات أو الهزائم بين طوائف الانكشارية .

وبهذا يمكن القول أن ليبيا وقفت فى هذا المجال فى منتصف الطريق بين مصر من جانب وتونس والجزائر من جانب آخر ، ففي مصر ظلت القسطنطينية تعين الولاة ، وفى تونس والجزائر استقل الحرس الانكشارى باختيار ولاية الإمارة ، ووقفت ليبيا بين بين ، وعانت صراعا بين رغبة القسطنطينية فى الإبقاء على السيادة الكاملة ، وبين تمرد الحرس الانكشارى الذى كان يريد أن يستبد بالسلطة ويتعين الولاة .

ومن أشهر الولاة الانكشارية جعفر باشا « ١٥٦٩ - ١٥٨١ » وقد استطاع أن يقضى على الثورة التى قامت فى طرابلس بقيادة يحيى السويدى ، كما قضى على التمرد الذى ثار فى فزان ضد الحاكم التركى ، ومن أشهرهم كذلك محمد الساقذلى (١٦٣١ - ١٦٤٩) وقد بذل جهدا كبيرا لنشر الأمن والقضاء على المتمردين وقطاع الطرق ، وقضى بوجه خاص على الثورة الاستقلالية التى قادها أحمد بن عبد الهادى ببرقة سنة ١٦٣٣ ، وقد استطاع بذلك أن يضم برقة

(١) تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ص ٢٦٧ وما بعدها .

(٢) محمود الشنيطى : قضية ليبيا ص ١٦ .

إلى طرابلس ، وكانت برقة كثيرة الثورات والتصرد عليها ، ولمحمد الساقذلى هذا عناية خاصة بالحركة العمرانية .

ويمكن القول إن الجهود التى بذلها محمد الساقذلى آتت ثمارها فى عهد خلفه عثمان الساقطى (١٦٤٩ - ١٦٧٢) فقد عرف عهده وبخاصة فى مطلعها باستقرار الأحوال فى الداخل ، ونشر العلم ، وبكثير من المشروعات العمرانية والاقتصادية ، كما عرف عهده باستقرار خارجى نتيجة للمعاهدات التى جرت بينه وبين الدول ذات الشأن فى المنطقة وبخاصة بريطانيا .

وكلمة أخيرة عن وال مهم من الولاية الانكشارية ذلك هو محمد إمام (١٦٨٧ - ١٧٠١) وهو المعروف بشائب العين ، وقد كان عهده حافلا بالإصلاحات الاقتصادية والعمرانية ، كما عرف عهده بالاهتمام بالعلم وإنشاء المدارس ، وله مسجد مشهور يحمل اسمه حتى الآن فى سوق الترك بطرابلس .

وشائب العين يمكن أن يعد المنعرج الذى نقل الحكم فى ليبيا إلى أسرة القرملى ، كما سنرى عند الحديث عن هذه الأسرة .

وقد بلغ عدد الولاية فى العهد الأول ثلاثة وأربعين واليا من أشهرهم محمد التركى الذى أخضع فزان ومن أشهرهم كذلك الولاية الانكشارية الذين سبق الحديث عنهم .

٢ - أسرة القرملى

حققت أسرة القرملى لليبيا استقلالاً يكاد يكون تاماً ، واستناع مؤسسها أحمد باشا القرملى أن يستصدر فرماناً من الأستانة بأن تكون ولاية ليبيا وراثية لبنيه من بعده ، ومن أجل هذا لزم أن نقف عندها وقفة تناسب هذا العهد الاستقلالى للقطر العربى الجيب .

تعريف بأسرة القرملى :

أسرة القرملى أسرة تركية من قرمان بآسية الصغرى ، ولذلك ينسب لها بـ « قرمانلى » أو تخفف فتصير « قرملى » وقد وجد الأسرة إلى طرابلس

الغرب واستقر بها ، وأول القرمانيين الذين توجد معلومات أكيدة عنهم هم محمود الذى كان ضابطا فى انكشارية عثمان باشا السافلى ، ومنهم يوسف الذى لا يعلم عنه شيء إلا أنه مات فى ريعان شبابه تاركا ابنه أحمد فى سن الطفولة ، ولقد تزوجت أرملة يوسف القرملى من الحاج يوسف الذى كان يحمل لقب « بك » فى عهد محمد باشا شائب العين ، الذى قام بتربية أحمد الصغير كما لو كان ابنه ، وكان أحمد القرملى أول حكام هذه الأسرة يكن أعظم احترام لزوج والدته كما يبدو من لقب « الأب المحترم » الذى كان يخلعه عليه فى الوثائق الرسمية ، كما يبدو أيضا أنه ترك له وظيفة الداي ، ولو اسما مع لقب شرف هو « دولتلو » أى صاحب الدولة ، واحتفظ الحاج يوسف بهذا اللقب الى يوم وفاته سنة ١٧٢٤ م ، ولقد كان أحمد القرملى يعز كل الإعزاز أخاه من أمه ورفيق صباه الحاج شعبان الذى أنجبته والدته من زوجها الحاج يوسف .

ظروف قيامها :

تولى خليل باشا ولاية طرابلس فى أكتوبر سنة ١٧٠٩ عقب وفاة والد زوجته محمد شائب العين ، وكان شديدا قاسيا ، كثير الجشع ، قدبرت مؤامرة للتخلص منه عقب توليته ولكن أمرها كشف ، فأعذم خليل باشا زعماء المؤامرة ومدبريها ، وأنزل الرعب بطوائف القولوجية (أى العسكريين أبناء الانكشارية) وبغيرهم من الطوائف ، وصادف أن وقعت هزيمة بحرية الباشا ثم ثارت بعض قبائل الجنوب عليه ، ولما ذهب لإخماد هذه الثورة هبت بطرابلس ثورة أطاحت بحكم خليل باشا وأبرزت بعض الزعماء الجدد ، ولكن أحد معاونيه واسمه محمود أبو موسى دبر حركة عكسية فقتل الداي الجديد ومهد لإعادة خليل باشا وتطلع الطرابلسيون إلى من ينقذهم من هذه الاضطرابات ، ويحول دون عودة خليل باشا الطاغية ، فالتجّهت الأنظار الى أحمد القرماني ، وأدرك أبو موسى ذلك ، فأراد أن يتخلص من القرماني الذى كان يتظاهر بالولاء والهدوء ، فأرسله الى غريان بقصد قتله بواسطة الجنود المقيمين فى تلك البلدة ، ولكن النبأ تسرب الى أعضاء الديوان والرؤساء العسكريين وأعيان المدينة ، فأرسلوا الى القرملى

(١) رودهفوميكاكى : طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرملى ص ١١ .

حتى يعود إلى طرابلس للاعتراف به زعيما ورئيسا ، فلما تلقى القرماني هذه الدعوة عاد فى ٢٨ يوليو سنة ١٧١١ ودخل السوق ، ونادى به سكان الساحل والمنشية الذين كانوا موجودين إذ ذلك وأعضاء الديوان أميرا على البلاد دون أية مقاومة (١) .

أما محمود أبو موسى فإنه شفق نفسه لما رأى إعراض الناس عنه خوفا من أن يقع فى يد أحمد القرماني .

القرماني يعبث سلطانه : -

كان أمام أحمد القرماني ألوان من المتاعب والعقبات التى يلزم أن يتخطاها حتى يكتمل له السلطان ، وقد وفق أحمد القرماني أيما توفيق فى القضاء على هذه العقبات واحدة بعد الأخرى :

وأهم هذه العقبات كان القضاء على خليل باشا الذى استعدى الآستانه عليه وعاد يقود جيشا يريد أن يقتحم به طرابلس ، ولكن أحمد القرماني استطاع أن ينتصر على الجيش بعد معركة طاحنة قُتل فيها خليل باشا نفسه .

ولكن قتل خليل باشا أثار الآستانه ، إذ كان تحديا لإرادتها ، فأرسلت الآستانه مندوبا للتحقيق فى مقتله . ولكن أحمد القرماني لعب دورا كبيرا فى استرضاء المندوب ، وقدم له من المعلومات ما يقرب الصلة بينه وبين سلاطين الأتراك ، وشفع ذلك بأن أرسل وفدا رسميا إلى القسطنطينية لتبرير مقتل خليل باشا الذى قال عنه إنه كان فريسة لكراهية سكان الإقليم له ، وأعلن من جهته الولاء الكامل للسلطان ، وكان ذلك مصحوبا بإرسال كمية من الهدايا الثمينة .

ومن المشكلات التى عاناها عدم اطمئنانه لولاء الحامية التركية له ، وقد عالج هذا بنوع من الغدر أقرته شريعة السياسة فى كثير من الحالات ، فقد أقام مأدبة كبيرة فى بيته الريفى ودعا إليها عددا كبيرا من الضباط الأتراك ، وانتهاز هذه الفرصة فذبح حوالى ثلاثمائة منهم وتخلص بهذا من شرهم ، وكان لا يزال يوجد حتى النصف الثانى من القرن الماضى تل صغير بالقرب من ضريح سيدى

(١) طرابلس الغرب تحت أسرة القرماني ص ٦ - ١٠ .

الهامي تبدو فيه أطلال هذا المنزل الذي تم فيه المجزرة ، ويعتبر مكانا مخيفا لا يجرؤ أحد من الناس على الاقتراب منه بعد أن يرعى الليل سدوله (١) .

واستطاع أحمد كذلك أن يخضع الثورات الداخلية التي هبت في وجهه من حين لآخر . كما استطاع أن يحصل على المال الذي احتاجه لسد حاجة الإصلاح بالبلاد وتقوية الجيش وإرضاء الباب العالي ، وكانت التجارة والغنائم البحرية مصادر ما احتاج له من مال .

أمراء أسرة القرماتلى :

أمراء أسرة القرماتلى هم :

١١٢٣ = ١٧١١

أحمد القرماتلى

١١٥٨ = ١٧٤٥

محمد بن أحمد

١١٦٧ = ١٧٥٤

على بن محمد

حتى سنة ١٢٠٧ = ١٧٩٣ حيث اختلف
أعضاء أسرة القرماتلى وكثر الشغب ،
واستولى على باشا برغل على الزمام بموافقة
الباب العالي

١٢٠٩ = ١٧٩٥

أحمد (الثانى) بن على :

[استولى على السلطة بمساعدة حمودة باشا باى تونس وفر على برغل]

نفس العام .

يوسف بن على (٢)

[استبد بالسلطان مع أخيه فى نفس العام وهرب أحمد الى صبراته]

١٢٥٠ = ١٨٣٤

على (الثانى) بن يوسف

(١) فيرو : حوليات طرابلس ٢١٣ - ٢١٤ .

(٢) لم يذكره زامباور فى كتابه عن الأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى انظر ص ١٣٢
والتصحيح من المنهل العذب ومن طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرماتلى :

¹ نافسه ابن عمه محمد بن أحمد ، وفى خلال هذا التفكك استطاع الأتراك أن يستردوا سلطانهم المباشر على ليبيا فى العام التالى ١٢٥١ = ١٨٣٥]

مآثر أسرة القرملى :

من أهم ما يؤثر عن أسرة القرمانيلى وبخاصة عن مؤسسها أحمد باشا أنه جعل اللغة العربية هى اللغة الرسمية للبلاد ، وكان ذلك دليلا على أنه عد نفسه وعد أسرته جزءا من الشعب العربى بطرابلس ، كذلك اهتم أحمد باشا بالجيش والأسطول واعتمد على العنصر الوطنى فى الجيش وإدارة البلاد ، وفتح باب الترقية أمام الليبيين .

وحصن الباشا سواحل البلاد ، وأعاد ترميم القلاع ، وأسّس (ترسانة) لصناعة السفن وبنى مسجده الشهير على أنقاض مسجد عمرو بن العاص و ألحق بهذا المسجد مدرسة لا تزال عامرة بالطلاب حتى الآن .

ونجح أحمد باشا فى إنشاء دولة مستقلة فعلا عن أى نفوذ أجنبى ، ونهض بالأحوال الاقتصادية فى ليبيا ، إذ شجع الأهالى على زراعة الأراضى ، كما شجعهم على التجارة ، كذلك شجع الأجانب على الإقامة فى طرابلس وعلى إدخال بعض الصناعات فيها .

واستبد بالحكم فلم يجعل للديوان الذى كان يتألف من الوزراء والقواد وكبار الموظفين أى سلطان ، وأصبح الديوان لا يدعى إلا إذا رأى الباشا لزوما لذلك ، وكان « البيك » فى المرتبة الأولى من رجال الدولة ، وهو رئيس كل القوات المسلحة ، ويقع على عاتقه أمر استتباب الأمن وتحصيل الضرائب ، وقد شغل أحمد هذا المنصب بمجرد استيلائه على السلطة . ثم منح هذا اللقب لأخيه لأمه ، ثم لابنه بعد أن أصبح باشا .

أما الشئون المالية فكان يشرف عليها الخازن دار أو أمين الخزانة ، وكانت مصصادر الدخل هى الضرائب على الواردات ، وضريبة الرأس على بعض الاشخاص كاليهود ، والجزية التى كانت تدفعها القبائل العربية بالداخل فى طرابلس وفزان ، والمبلغ السنوى الذى كانت تدفعه البندقية لاستغلال الملاحات

فى « بوكماش » وغزوات المغامرة البحرية .

وكان القاضى يفصل فيما يقع من خصومات بين القبائل ، وكان عليه إطاعة قوانين الباشا وأوامره ومعاقبة مخالفيها ، وكان يحلو للباشا أن يفصل بنفسه فى الخصومات بين رعاياه ، وكان يساعده آنذاك المفتى والقاضى (١) .

ويؤخذ على يوسف باشا القرملى أنه تعاون مع فرنسا عقب استيلائها على مصر سنة ١٧٩٨ وسمح للفرنسيين بأن يتخذوا ميناء درنة منفذا لتلقى الإمدادات الآتية لهم من فرنسا والتي يراد إدخالها لمصر عن طريق البر .

نهاية الأسرة القرمانية :

قبيل نهاية عهد يوسف باشا كانت فرنسا قد احتلت الجزائر سنة ١٨٣٠ ، وقد كانت هذه ضربة قوية لا للجزائر وحدها بل للشمال الأفرى كله ، فقد قوى بهذا الاحتلال الجانب الأوربى والنفوذ الأجنبى ، وبدأ النفوذ الوطنى يتضاءل ويضعف ، وتعاونت الدول الأوربية فلم يبق إلا الزمن فقط ليكمل احتلال الشمال الأفرى كله ، وكان من نتيجة هذا الاحتلال أن توقفت الدول الأوربية عن دفع الإتاوات التى كانت تدفعها لطرابلس ، وقلت التجارة المربحة التى كانت تتم مع طرابلس وتحولت تجارة أفرى مع أوروبا الى شواطئ المحيط الأطلسى ، مما سبب عسرا ماليا ثقيلا .

واستغل الفرنسيون فرصة ذلك العسر وطالبوا بسداد ديون رعاياهم ، وتبعهم البريطانيون ، فلجأ يوسف الى إرهاب رعاياه من سكان المنشية بالضرائب ، حتى ضج الناس وجأروا بالشكوى ، واشتعلت الثورة ضده ، وثارت العصبية المحلية بزعامة عبد الجليل سيف النصر وغومة المحمودى وعثمان الأرم وغيرهم ، وفى وسط هذه الأحداث كان يوسف قد تقدم فى السن فلم يعد يستطيع حمل هذه الأعباء الثقيلة ، فتنازل عن العرش لابنه على (الثانى) ، ولكن نافسه محمد بن أحمد وانقسمت البلاد بين الأميرين المتنازعين وأصبحت البلاد بالوان من التدهور واختلال الأمن ، فلجأ الطرابلسيون إلى الباب العالى أن يريحهم من

(١) طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرماني ص ٢٢٨ - ٢٣٣ بتصرف .

حكم القرمانيّة ، وكان هذا مايتوق له السلطان ، فأرسل الفريق نجيب باشا فى أسطول كبير إلى طرابلس ، وتظاهر نجيب باشا بأنه زائر للسواحل العثمانية . فاحتفى به على باشا وأكرمه ، وزار على باشا الأسطول فصدرت الأوامر بالقبض عليه ، وأعلن نجيب باشا ولايته وأظهر فرمانا بذلك من الباب العالى ^(١) وعادت ليبيا تحكمها الأستانة حكما مباشرا كما كانت قبل أسرة القرماني . وقد ظل حكم العثمانيين لليبيا حتى الاحتلال الإيطالى سنة ١٩١١ .

٣ - العهد العثمانى بعد أسرة القرملى

ولاية العهد الأخير بلغ عددهم ثلاثة وثلاثين واليا حكموا حوالى تسعة وسبعين عاما وليس من بينهم من يستحق الذكر إلا المشير على رضا باشا الذى عين سنة ١٢٨٣ واليا وقومندانا على الفرقة العسكرية بليبيا .

ويقول عنه النائب الأنصارى ما يلى ^(٢) : وكان حريصا على ترقية الولاية وتوسيع نطاق التجارة والصناعة والزراعة بها . ومن آثاره الحميدة تسوية الطرق والمعابر بداخل الثغر وخارجه وتنظيم البوستان ومد سلك التلغراف براً من نفس الولاية إلى أن شارف متصرفية لواء الخمس مصمما على إيصاله إلى الحدود المصرية ، ولما علم ما تقاسيه سكينة الثغر من قلة الماء وشدة احتياجهم إليه لعدم وجود الأنهر وندرة العيون الجارية تشبث بإخراجه من أعماق الأرض بواسطة القوانى والأدوات الجديدة الحديثة الاختراع وقتئذ ، فأخرج عيننا بخارج الثغر وجعل عليها سبيلا ، وربط الأودية وجعل لها ترعا وسواقى ، وسلط مياهها على المزارع ، وأباح للعموم البناء بخارج الثغر ، وأسس سوق العزيزية متصلا بحديقة عامة ، وأنشأ ساعة كبيرة ذات ناقوس جسيم يسمع صوته من بُعد أميال ، كما شيد مسجدا عظيما .

ومن ولاية هذه الفترة الذين يستحقون الذكر المشير رجب باشا الذى عين واليا سنة ١٩٠٤ وبقى فى الولاية ست سنوات كان خلالها من أشد الولاة وطأة على السياسة الإيطالية ، حتى طالبت إيطاليا بتنحيته ، إذ كان عقبة فى سبيل

(١) المنهل العذب : ج ١ ص ٣٥٦

(٢) المنهل العذب : ج ١ ص ٣٩٨ - ٣٩٩

مشروعاتها الاستعمارية ، وينسب له القيام ببعض الإصلاحات فى النظام القضائى وتحسين الحالة الاقتصادية ، والحد من امتيازات قناصل الدول الأجنبية التى حصلوا عليها فى العهد القرملى ^(١) .

أحوال ليبيا السياسية والاقتصادية والاجتماعية

خلال العهد العثمانى

لم تشترك ليبيا اشتراكا فعليا فى حكم نفسها خلال العهد العثمانى ، وكان الولاة وكبار الموظفين يختارون من غير الليبيين ، وربما اختبر بعض رؤساء القبائل فى الهيئات الاستشارية التى كان يكونها بعض الولاة ، ولكن هؤلاء لم يكن لهم فى الواقع أى نفوذ ، وذلك هو الطابع العثمانى الغالب فى كل الولايات العربية.

وضعف الاقتصاد الليبى ضعفا ملحوظا لأن عناية الولاة بأمور الزراعة كانت ضئيلة ، كما أن الثورات كانت متتابة مما لم يهئ للزراعة وسائل النمو والتقدم. ومن الواضح أن الزراعة فى ليبيا تعتمد على الأمطار أو على الآبار ، والوسيلتان لا تضمنان تطورا فى المجال الزراعى ، هذا بالإضافة إلى أن ملكية الأراضى لم تكن مستقرة ولا موثقة ، بل كانت ملكية حيازة ووضع يد ، وكانت القبيلة الأقوى تستطيع أن تزحزح القبيلة الأضعف وتسيطر على ما تحت يدها من أطيان ، وهذا لم يتيح الفرصة الكاملة لا استغلال الأراضى .

وفى السنوات التى انتشر فيها الأمن من جانب وغزارة الأمطار من جانب آخر ، كانت أرض ليبيا تجود بكثير من الحبوب التى كانت تكفى الاستهلاك المحلى وتصدر الفائض منها للخارج .

وتشتهر ليبيا كذلك بالتمور فى طرابلس وحول بنغازى ودرنة وفى واحات برقة وفزان .

(١) الطاهر الزاوى : جهاد الأبطال ص ٩ وما بعدها .

وتكثر أشجار الزيتون فى الجبل الغربى ومنطقة الجفارة .

وتعد الثروة الحيوانية مصدرا من المصادر الاقتصادية فى ليبيا حيث تكثر قطعان الأغنام والماعز والابل والبقر ، وكانت تصدر للخارج حبة كما كان الصوف والوبر والجلود من مصادر الثروة كذلك .

وكانت التجارة مصدرا مهما من مصادر الثروة الليبية ، وتعد ليبيا بابا مهما يصل العالم بقلب افريقية ، وقد وجدت من عهود قديمة علاقات تجارية بين ليبيا وبين قلب القارة ، وكانت ليبيا تلعب دور الوسيط فى هذه العلاقات التجارية ، كما كانت تبيع الفائض من حاصلاتها وتشترى ما يلزمها من منتجات هذه البلاد

ومن الناحية الاجتماعية عانت ليبيا أكثر من سواها من الدول العربية خلال العصر العثمانى ، صحيح أن كل الدول العربية اقتسمت التخلف الاجتماعى والثقافى فى ذلك العهد ، ولكن كان هناك بصيص من الضوء يندفع على مصر من الازهر ويندفع على تونس من جامعة الزيتونة ، ولم يكن لدى ليبيا ما ينافس هذه المعاهد الكبرى ، وإن كان من الحق أن نقرر أن أشعة الضوء التى كانت تنبعث من الأزهر أو من الزيتونة فتضىء الحياة الاجتماعية والثقافية ، هذه الأشعة كانت تمتد إلى ليبيا وتتسرب إلى كثير من أنحاءها .

الاحتلال الإيطالي لليبيا

قبيل الاحتلال :-

عادت ليبيا إلى حكم الأستانة ، وكانت الأستانة تتهاذى وتترنح أمام أثقال التاريخ ، ويصور الأستاذ طاهر الزاوى فى تقديمه لكتاب « المنهل العذب »^(١) حالة ليبيا تحت السلطان التركى بقوله : إن الصورة التى كانت عليها ليبيا فى العهد التركى ، صورة القوضى ، والاستبداد بالشعب الليبى ، وإهمال مصالحه ، تلك الصورة التى فهمتها أنا وفهمها غيرى من المنهل العذب ، كانت صورة مفزعة كئيبة ، تمثل ليبيا فى ذلك العهد تمثيلا صحيحا ، وأنا أعتقد أنها كانت تمثل كذلك دور الانحلال الذى طوح بالدولة العثمانية إلى الهاوية .

والذى يقرأ المنهل العذب ويقرأ كذلك طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلى وهما من أهم مراجع تاريخ ليبيا فى هذه الحقبة يدرك أن السكان كانوا يعيشون تحت ضغط قاس جعلهم أحيانا يتنازلون عن جنسيتهم ويتلمسون جنسيات أجنبية يحتمون فيها من العسف والطغيان ، ويقول صاحب المنهل العذب فى ذلك : كان بعض أشخاص مسلمين وموسويين من أهالى مركز الولاية قد راجعوا قناصل الدول الأجنبية الموجودين هنا ، وتمكنوا - كيفما كان - من قيد أنفسهم فى سجلات الحماية الأجنبية ، فأحرزوا رسميا صفة تبعية الدولة المدعى حمايتها ، وذلك بسبب ما كانوا يقاسونه إذ ذاك من التضيق والأذى^(٢) والعجيب أن يكون من بين من سلكوا هذا السبيل كاتب مسلم له فضل يذكر على المدارس القرآنية وهو من خيرة من أرخوا لليبيا ذلك هو اسماعيل كمالى ، وكان ممن تجنسوا بالجنسية الإيطالية^(٣) .

ويصور الدكتور نقولا زيادة^(٤) ما عانت به ليبيا من حكم العثمانيين بقوله : وإذا تذكرنا أنه فى مدة السبعين سنة التى خضعت فيها ليبيا للحكم العثمانى

(١) مقدمة الجزء الثانى من المنهل العذب ص ٩ وما بعدها .

(٢) المنهل العذب ص ٥ .

(٣) رودلفوميكاكى : طرابلس الغرب ص ٣ .

(٤) ليبيا من الاستعمار الايطالى الى الاستقلال ص ٥٨ .

المباشر فى القرن التاسع عشر كانت تتعرض للكثير من نهب أولى الشأن من
الوالى الى الشرطى ، لا نجد أى غرامة فيما آلت له الحال .

ويصور الأستاذ محمود الشنيطى ^(١) تدهور ليبيا فى العهد العثمانى بقوله :
وقد أخذت هذه الولاية العثمانية تنحدر مع الامبراطورية إلى خاقتها ، وتجمعت
لذلك عناصر أهمها فساد الحكم التركى فسادا ساعد عليه بُعد الولاية عن مركز
الدولة ، وصعوبة المواصلات ، وكثرة النزاع بين الولاة ورؤساء الجند ، وكثرة
الفتن الداخلية ، وسوء الأحوال الاقتصادية نتيجة القحط والإسراف والإهمال
.... و كانت موارد البلاد الطبيعية مهملة ، تستولى الدولة على كل ما
تستطيع منها ، فهى تحتكر الملح والإسفنج والتبغ ، وتفرض الضرائب الباهظة
على الاراضى والتجار ورعوس الماشية ، والعشر على الحبوب ، عدا ما يبتزّه
الموظفون والحكام وهناك وثيقة هامة قدمها محمود ناجى بك وصادق بك مبعوثا
طرابلس إلى رئاسة مجلس النواب العثمانى توضح مدى الإهمال الذى أنزلته
الحكومة التركية بليبيا ، وتشمل الوثيقة قسمين ، أو لهما عن الإهمال
العسكرى ، والثانى عن الإهمال السياسى والادارى ، أهم ما جاء بالقسم الأول
ضعف الحماية التركية ، وعدم السماح لأبناء ليبيا بالانتظام فى الجندية ، وقلة
الأسلحة ، وفي القسم الثانى ترك الولاية فترات كثيرة بدون والٍ ، وعدم الدقة
فى اختيار الولاة ، وعدم مراقبتهم ^(٢) .

وهكذا تدهورت أحوال ليبيا نتيجة للسلطان التركى الغاشم ، وأطمع هذا
التدهور قوى الغرب التى تتربص لتجد الفرصة التى تساعد على مد سلطانها
على الساحل الجنوبى للبحر الابيض المتوسط .

وكانت إيطاليا بعد وحدتها السياسية التى تمت سنة ١٨٧٠ قد نزلت ميدان
الاستعمار وتطلعت الى منافسة فرنسا فى مد نفوذها بإفريقية ، وكانت تونس
هى البلد التى تطمع إيطاليا فى احتلاله لقربه من الاراضى الإيطالية ، ولكن
بينما كانت هذه لا تزال تعمل - فى السنين التى تلت الوحدة - على حل

(١) قضية ليبيا ص ١٩ و ٢٦ .

(٢) محمود الشنيطى : قضية ليبيا ص ٤٦ .

مشكلاتها الداخلية قفزت فرنسا فاحتلت تونس سنة ١٨٨١ ، وكانت قد احتلت الجزائر قبل ذلك ، وتركز التنافس حول ليبيا ، بيد أن هذا التنافس قد سوى بين الدول الأوروبية فى المعاهدات السرية التى اقتسمت بها البلاد العربية ، فقد تم اتفاق سرى بين فرنسا وإيطاليا سنة ١٩٠٠ عزز باتفاق آخر سنة ١٩٠٢ أطلقت بمقتضاها يد إيطاليا فى ليبيا ويد فرنسا فيما عدا ذلك من المغرب العربى (١) .

وأخذت إيطاليا ترسم الطريق الذى تستطيع به أن تصل إلى هذه الغاية ، فكان من وسائلها أن أكثرت من فتح المدارس المجانية بطرابلس وبنى غازى لتجذب إليها شباب المستقبل وتصبغهم بالصبغة الثقافية والاجتماعية التى تريدها ، ودفعت إيطاليا بالمبشرين المسيحيين إلى ليبيا حيث كوّنوا الدعاية ، وأخذوا الدين وسيله لربط السكان الليبيين بالمسيحيين الأوروبيين ، وغصت ليبيا بوسائل النشر الإيطالية من كتب وصحف ومجلات ، وكان القائمون بها يبذلون أقصى الجهد للتأثير فى الجماهير ، « وكانت القنصلية الإيطالية فى كل من طرابلس وبنى غازى مركزا للنشاط السياسى والدعاية الإيطالية ، والتجسس على أهل البلاد ، وعلى مراكز الدفاع عنها ووسائله » (٢) .

وشيدت إيطاليا بليبيا كثيرا من المستشفيات ، وأخذت ترسل البعثات المختلفة عن طريق الجمعية الإيطالية للكشوف الجغرافية والتجارة بميلانو ، وكان آخرها بعثه اشترك فيها الكونت سفورزا للبحث عن الفوسفات ، وانضم إليها ضباط من المهندسين العسكريين الطليان ، فاستطاع أعضاؤها أن يضعوا المصورات والخرائط الحربية (٣) .

وبجىء بنك روما فى القمة من الوسائل التى إصطنعتها إيطاليا ، فقد افتتح البنك له فرعا بليبيا سنة ١٩٠٤ واتخذ وسيلتين هامتين للسيطرة على الاقتصاد الزراعى بالبلاد ، إحداهما شراء الأراضى الزراعية بأثمان مغرية ، والثانية الإقراض بشروط ميسرة للغاية خدعت الكثيرين من الناس للحصول على

(١) محمود الشنيطى : قضية ليبيا ص ٤٦ .

(٢) دكتور نقولا زيادة : ليبيا من الاستعمار الايطالى الى الاستقلال ص ٨٠ .

(٣) محمود الشنيطى : قضية ليبيا ص ٤٦ .

القروض نظير رهن أطيانهم للبنك ، ولم يطالب البنك عملاء بالسداد ، بل أغراهم ليحصلوا على مزيد من القروض ، ثم انقلب عليهم ينزع منهم ملكية هذه الارض الموهونة سدادا للديون ، وتبع ذلك أن دفعت إيطاليا بالأسر والأفراد الطليان ليهاجروا إلى ليبيا حيث منحتهم هذه الأرض وشجعتهم على الاستقرار ، ومهدت لهم طريق الثراء .

ومر الزمن وبدا أن سلطان إيطاليا يرسخ في ليبيا ويمتد ، وفي نفس الوقت كان سلطان الترك يتقلص ويضعف ، فلم يكن « الرجل المريض » بمستطيع أن يحمي نفسه أو يزود الردى عن حياضه ، أما أهل البلاد فلم ينعموا باستقرار ، وكانوا يعانون من هؤلاء وأولئك حتى مسهم الضر ولحق بهم الأذى .

عملية الاحتلال :

حدث في محيط الشمال الافريقى حادث دفع الطليان إلى الخطوة العملية نحو احتلال ليبيا ، فقد بدأت فرنسا وأسبانيا فى الزحف على مراكش واحتلال بعض مدنه ، فخطت إيطاليا أيضا نحو هذه الغاية بالنسبة إلى ليبيا ، وأرسلت للباب العالى إنذارا فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٩١١ جاء فيه « إنه نظراً لسوء الحالة فى طرابلس الغرب-وينغازى ، وحرصا على مصالح إيطاليا الحربية ، وتهديد طرابلس لها لقربها من سواحلها ، ونظرا لتجاهل الدولة العثمانية رغبات إيطاليا فى طرابلس وإهمالها مصالح إيطاليا الاقتصادية ، ونظرا لحرص إيطاليا على الرعايا الأوربيين بصفة عامة والايطاليين بصفة خاصة ، قررت إيطاليا احتلال ليبيا ، وعلى الخلافة العثمانية أن تسهل ذلك ، ومدة هذا الإنذار ٢٤ ساعة » .

وقد ردت الحكومة التركية ردا متخاذلا ضعيفا جاء فيه « إن وزر تأخر طرابلس راجع الى الحكم السابق ، وإنها لا تقوم بأية عرقلة فى سبيل رموس الأموال الإيطالية ودورها فى ترقية شئون الولاية ، إنها ترغب فى إعطاء امتيازات للحكومة الإيطالية ، وإنه ليس هناك أى اضطهاد للأوربيين ولا للإيطاليين ، وإنها مستعدة للتفاهم ما دامت إيطاليا لا تلجأ للاحتلال . وطلبت

من إيطاليا أن تقدم بياناً بإيطاليا (١) .

ولكن ذلك الرد لم يثنِ إيطاليا عن احتلال ليبيا ، بل لعله شجعها بضعفة واستسلامه ، فأعلنت إيطاليا الحرب على تركيا فى التاسع والعشرين من نفس الشهر وأرسلت أساطيلها وقواتها تزمجر وترعد ، فاحتلت طرابلس والخمس وبنى غازى ودرنه وطبرق فى مدى وجيز لأن استعداد الأتراك كان لا يبالغ فيه ، وكان الليبيون عزلاً أو شبه عزل ، ولم تكن المعارك التى خاضها الأتراك ضد الطليان ذات بال (٢) .

ومما يذكر أنه اشترك فيها أدهم باشا الحلبى ، وأنور بك ، ومصطفى كمال زعيم تركيا فيما بعد ، وعزيز على المصرى ، ولكن سرعان ما رأت تركيا أنها غير مستعدة لمواصلة القتال ضد الإيطاليين لا نعدام الوسائل التى تربط بين تركيا وبين ليبيا ، ولضعف الأسطول التركى إذا قورن بالأسطول الإيطالى ، ولأن الحرب فى البلقان بدأت تظهر ، ثم لأن إيطاليا بدأت تضرب الجزر الخاضعة لتركيا بالبحر الأبيض وتهدد موانئ البحر الأحمر التابعة للدولة العلية ، وأصبح واضحاً أن الحرب ستتسع ، وأن تركيا ذاتها فى حاجة للدفاع عن نفسها ، فعقدت صلحاً مع إيطاليا فى أكتوبر سنة ١٩١٢ هو صلح أوشى (لوزان) ويمقتضى هذا الصلح وقف القتال وسحب تركيا جنودها من ليبيا ، وصدر ملحقان لهذه المعاهدة ، الأول أصدره الجانب العثمانى وينص على أن تركيا تتخلى عن السيادة على طرابلس وبرقة وتمنع أهل البلاد استقلالاً ذاتياً وتحفظ بروابط تربطها بطرابلس تتمثل فى تعيين نائب للسلطان يرعى المصالح العثمانية ، وتعيين قاص للبلاد ، وتدفع الدولة راتبهما .

وأصدر ملك إيطاليا الملحق الثانى الذى يؤكد القانون الذى كان قد أصدره فى ٢٥ فبراير سنة ١٩١٢ بجعل طرابلس الغرب وبرقة خاضعتين خضوعاً مطلقاً للسيادة الملكية الإيطالية (٣) .

(١) طاهر الزاوى : جهاد الأبطال ص ٢٦ - ٢٧ وقضية ليبيا لمحمود الشنيطى ص ٤٨ - ٨٤ .

(٢) محمود الشنيطى : قضية ليبيا ص ١٧ .

(٣) اقرأ معاهدة أوشى وملاحقها فى جهاد الأبطال ص ٩٩ - ١٠٦ .

وتنفيذا لهذا الاتفاق انسجت القوات العثمانية من طرابلس ، ولكن جزءا ظل فى برقة بقيادة عزيز المصرى الذى صدرت له الأوامر فيما بعد بالانسحاب ، وقبل مغادرة القوات التركية برقة قام مندوب تركيا أنور بك بزيارة السيد أحمد الشريف زعيم السنوسية وأبلغه « إسناد أمر الأمة الليبية الى سيادته ، وأخبره بأن الخليفة منح الامة الطرابلسية (الليبية) استقلالها تاركا لها الحق فى أن تقرر مصيرها وتدافع عن نفسها » (١) .

وكان هذا الاعلان اعترافا بسلطان السنوسيين ، وسنفرد عنهم حديثا فيما بعد ، والمهم هنا أن هذا الموقف من تركيا ألقى على الليبيين عبء نضال مرير ، وخلق صراعا بين قوتين بعيد ما بينهما كل البعد فى ميزان التكافؤ العسكرى ، وقد ضحت ليبيا بآلاف الشهداء ، وأغرقت أرضها بدماء الأبرياء ، ولكنها فى كثير من الحالات ثارت لنفسها واستطاعت أن تغتصب السلاح من الايطاليين لتضربهم به ، ولتوقع بهم يعتادهم .

إيطاليا فى ليبيا : -

سلكت إيطاليا فى ليبيا نفس الطريق الذى سلكته فرنسا فى الجزائر ، فادّعت أن أرض ليبيا امتداد لشبة الجزيرة الإيطالية ، ولجأت إلى حرب الإبادة بالنسبة لأغلب السكان ، كما لجأت الى « طليانة » الباقين بحملهم على ترك اللغة العربية و تعلم اللغة الإيطالية ، ودفعت بهجمات الطليان للهجرة الى ليبيا ، وهيات لهم حياة طيبة على حساب أملاك ليبيا و ثرائها ، وأسأت معاملته الموظفين الليبيين ، وأغرتهم بالتجنس بالجنسية الإيطالية ليحصلوا على امتيازات خاصة ، وبذلت لإدارة الإيطالية جهدا كبيرا لتنصير الليبيين ، كما كانت تعد اقتناء الكتب عملا يخالف القانون ويستحق مرتكبه العقاب القاسى (٢)

واهتمت إيطاليا اهتماما كبيرا بعزل ليبيا بكاملها عن العالمين العربى والإسلامى ، وحتى طلاب الدراسات الإسلامية منعتهم من السفر لمصر للالتحاق

(١) دكتور نقولا زيادة : ليبيا من الاحتلال الإيطالى للاستقلال ص ٨٤ ودكتور حسن سليمان :

ليبيا فى الماضى والحاضر ص ٢٢٥ .

(٢) انظر ليبيا من الاستعمار الإيطالى للاستقلال للدكتور نقولا زيادة ص ١١٧

بالأزهر أو إلى تونس للالتحاق بجامعة الزيتونة (١) والتجهت إيطاليا إلى القضاء على الثقافة العربية والإسلامية ، ولم تسمح بحلقات العلم بالمساجد (٢)

وبين أيدينا كتاب هام نشرته هيئة تحرير ليبيا يصور « الفظائع السود الحمر » التي ارتكبتها إيطاليا في ليبيا خلال فترة الاستعمار المقوت ، ومن هذا الكتاب نقتبس بضع فقرات تشرح لنا ما أوجزناه في السطور السابقة عن حماقات الطليان وطغيانهم .

لقيت المنشية ، وهي إحدى ضواحي طرابلس ، أقصى معاملة تخطر ببال بشر عقب الغزو الإيطالي ، فقد أباحها الجنرال (كانيفا) قائد الحملة لرجاله ، فانهال الموت على السكان حتى انقرض أكثرهم ولم يبق بالحى كله إلا بضع مئات ، واستولت الحملة على المزارع والبساتين والدور وسلمتها للمهاجرين الطليان ، أما هتك الأعراض ، وحرق المنازل ، والتلوى باصطياد الأطفال بالرصاص ، فكان عملا عاديا على الرغم من جرمه وقضاوته (٣) .

وقد كتب المراسلون الأجانب الذين كانوا مرافقين للحملة عبارات استنكار لما شاهدوه ، وترك بعضهم الحملة وغادر ليبيا ، ومن هؤلاء فرانسز ماكولا الذى كتب للجنرال كانيفا يقول وهو يودع ليبيا : إننى أرفض البقاء مع جيش لا أعده جيشاً ، ولكن عصابة من قطاع الطرق والقتلة .

وكتب المراسل الألمانى فون جوتنبرج يقول : إنه لم يفعل جيش مع عدوه من أنواع الخدر والخيانة ما فعله الطليان فى طرابلس ، فقد كان الجنرال كانيفا يستهين بكل قانون حربى ، ويأمر بقتل جميع الأسرى سواء قبض عليهم فى الميدان أو فى بيوتهم (٤) .

وحتى الرهبان الذين يتظاهرون بخدمة الإنسانية أسهموا فى تعذيب المرضى ، وفى ذلك يقول هرمان ونول المراسل النمساوى : وأحرق الطليان فى ٢٦

(١) المرجع السابق ص ١١٣ .

(٢) انظر قضية ليبيا الاستاذ محمود الشنيطى ص ١٣٥ .

(٣) الفظائع السود الحمر ص ٢١ .

(٤) المرجع السابق ص ٣١ .

أكتوبر سنة ١٩١١ حيا بأكملة خلف بنك روما ، بعد أن ذهبوا أكثر سكانه وبينهم النساء والشيوخ والأطفال ، وشاهدت عريبا يحتضر فرجوت راهبا من خدمة الصليب الأحمر اسمه (بافيلاكرو) أن يعطيه بعض الماء ولكنه حول نظره وقال : « لا تزعج نفسك به ، دعه يموت » (١) .

وراح الطليان يخربون المساجد ويتخذونها إسطبيلات للدواب ، كما راحوا يدوسون القرآن الكريم كلما وجدوه ويهتفون : هاتوا نبيكم البدوى يحميكم أو يحمى كتابكم (٢) . ويروى لنا الأدب الإيطالى أنشودة كان الجنود الإيطاليون يحفظونها وهاك نصها : أنا ذاهب إلى ليبيا فرحا مسرورا لأبذل دمي سبيل سحق الأمة الملعونة ، ومحو القرآن ، وإذا مت يا أماء فلا تبكينى ، وإذا سألك أحد عن عدم حداذك فقولى : لقد مات وهو يحارب الاسلام (٣) .

ومن الفظائع التى ارتكبها الجنرال جرازيانى سنة ١٩٢٩ أنه كان يجمع العلماء وشيوخ القبائل ويضعهم فى الطائرات ، ثم يأمر بالقائهم واحدا بعد الآخر على مقربة من أهلهم الذين جمعهم ليشهدوا مصرع رؤسائهم ، وكلما سقط واحد من هؤلاء هتف الجنود الطليان وصفقوا (٤) .

ويصف شاهد عيان معركة الكفرة التى حدثت سنة ١٩٣١ فيقول :

ودخل الطليان الكفرة ولم يبق بها إلا الشيوخ والنساء والأطفال ، فانتشر الطليان فيها وفى قرية التاج مستبحين كل حرمة ، نهبوا الأموال ، وذهبوا الشيوخ والأطفال ذبح الخراف ، وبقروا بطون الحوامل ، وهتكوا الأعراض ، وحرقوا المساجد ، وداسوا المصاحف (٥) .

(١) المرجع السابق ص ٣٣ .

(٢) الفظائع السود ص ٤٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٥ .

(٤) المرجع السابق ص ٤٦ .

(٥) المرجع السابق ص ٨٥ - ٧٦ .

كفاح الليبيين للاستقلال

أجمع الباحثون العرب والأجانب على بطولة أبناء ليبيا رجالا ونساء ، فلقد وقفوا مدافعين عن بلادهم فى صلاية وإصرار وعنادٍ قلَّ أن يوجد لها مثيل فى التاريخ ، وواضح من سائر الأمور التاريخية أن المستعمر الإيطالى لم ير فى ليبيا لحظة هدوء ، ولم ينعم بصفو العيش طرفة عين ، وقد قدمت ليبيا حوالى نصف سكانها شهداء فى المعركة ولكنها استمرت قد المعركة بأزهى شبابها وشيوخها .

وللمرأة الليبية دور رائع يسجله لها التاريخ بفخر واعتزاز ، فقد اشتركت فى المعارك اشتراكا فعليا يشير الدهشة ، لم تكتف بالخدمة والتمريض بل حملت المرأة السلاح وألقت به بنجاح فى قلب غريمها الإيطالى المسعور ، ويحكى اللواء محمد صالح حرب وهو ممن اشتركوا فى هذه المعارك أنه فى بعض الحالات صدرت الأوامر بعدم اشتراك المرأة ، إذ كانت المعركة المرتقبة مريرة وقاسية ، وشكر القائد النساء وودعهن ، وفى غسق الليل سار الركب بحثاً الخطأ ، يصعد النجاد ويخترق الوديان ، ويعد أن وصلت القافلة المكان المرسوم بدأت معركة عنيفة طويلة ، وانجلت عن تحرير واحدة من واحات الجنود ووقوع كل الحامية الإيطالية بين الموت والأسر ، وفجأ انطلقت صيحة فرح (زغرودة) لفتت نظر الرجال ، وتساءلوا : أين هذه المرأة ! واكتشف الرجال أن معهم عدداً كبيراً من النساء استعملن الأذقان الصناعية ولباس الرجال ليشاركوا فى المعركة التى أريد لها أن تكون خاصة بالرجال .

ويمكن إجمالاً قسمة فترة الحرب بين ليبيا وإيطاليا إلى دورين رئيسيين يمتد أولهما من سنة ١٩١١ إلى سنة ١٩١٧ ويقع الثانى منهما بين عامى ١٩٢٣ و ١٩٣٢ أما الفترة الفاصلة بينهما أى من عام ١٩١٧ إلى ١٩٢٣ فقد كانت فترة هدنة واتفاقات ومعاهدات (١) ، وسنذكر فيما يلى الخطوط العريضة لهذين الدورين ، ولكننا نبادر فنوضح أن القيادة الوطنية بعد تخلى تركيا عن البلاد كانت فيها نزعة العودة إلى تجزئة ليبيا ، إذ لم يستطع العهد التركى أن يحقق

(١) دكتور نقولا زيادة : ليبيا من الاحتلال الإيطالى إلى الاستقلال ص ٨١ .

وحدة شاملة فى البلاد ، وعلى هذا كانت هناك قيادتان إحداهما فى برقة وفزان ويتولاها السنوسيون والأخرى فى طرابلس ويتولاها الشيخ سليمان البارونى ، على أن روح الوحدة كانت تطل من حين لآخر ، وكان التعاون واضحا نحو الهدف المشترك الذى أعلن فيما بعد كما سيأتى القول .

وقد خَلَقَ انسحاب تركيا اتجاهها استقلاليا بالبلاد ، وفى الوقت نفسه ألقى عبء حرب مريعة على الليبيين ، أما الاتجاه الاستقلالى فتمثل فى طرابلس من جانب وفى برقة وفزان من جانب آخر :

ففى طرابلس عقد الزعماء الوطنيون اجتماعا أعلنوا فيه وثيقة استقلال طرابلس التى جاء فيها : بناء على الفرمان العثمانى القاضى بمنح بلادنا الاستقلال قد اتفقنا على الرضا به وقبوله مع كمال السرور ، وكلفنا مبعوث الجبل سليمان بك البارونى بإعلان استقلالنا وتبليغه إلى من يلزم التبليغ اليه وتشكيل حكومة ... مع قيامها بكل ما يلزم اتخاذه من وسائل المدافعة كالمال والرجال والسلاح^(١) .

وَألف البارونى حكومته بطرابلس وقام بكثير من الإصلاحات فى المناطق التى كان النفوذ الإيطالى لم يصل إليها ، وأخذ يقوم بمقاومة الإيطاليين ، ومن أهم المعارك التى حدثت فى طرابلس فى هذا الدور معركة العصبية فى ديسمبر سنة ١٩١٢ وبنى الوليد فى فبراير سنة ١٩١٣ ، ولم يطل على العموم صمود البارونى أمام الضغط الإيطالى ، فسرعان ما غادر طرابلس إلى تونس ومنها إلى الأستانة فى أواخر عام ١٩١٣ .

وفى برقة اتسع نفوذ السنوسيين وأصبح لهم وحدهم الأمر ، وتولوا عبء مقاومة الطليان فى هذه المنطقة ، ومن المعارك التى حدثت بينهم وبين الإيطاليين معركة درنة سنة ١٩١٣ وقد انتصر فيها السنوسيون بمساعدة العثمانيين الذين كانوا لم يرحلوا بعد إلى الأستانة ، ومنها كذلك معركة مرسى سوسا والبوروات والزاوية البيضاء^(٢) .

(١) أمين سعد : الدولة العربية المتحدة ج ٢ ص ٥٠٠ .

(٢) محمود الشنيطى : قضية ليبيا ص ٥٩ .

وفى فزان تجمع المجاهدون الوطنيون بقيادة محمد بن عبد الله اليوسفى الذى خاض بهم ضد الايطاليين ثلاث معارك كبيرة هى سرير الشيب وشيدة ومحروقة ، وقد سقط فيها القائد العربى ، فتولى مكانه سالم بن عبد النبى الذى حقق نصرا كبيرا ضد العدو فى موقعة القاهرة « رهوة جبلية عالية » وأخذ العتاد والطعام من الجيش المنهزم ، وكان لنضال المجاهدين فى فزان أثر كبير فى انسحاب الطليان من فزان وإخلائهم مرزق سنة ١٩١٤ بعد أن احتلوها فترة من الزمن ^(١) ، على أن قيادة فزان سرعان ما اندمجت مع قيادة برقة تحت سلطات السنوسيين ، وكان معسكر السنوسيين أو حكومة السنوسيين أكثر دقة ونظاما وصمودا من أى معسكر آخر فى ليبيا .

الحرب العالمية الأولى :

وجاءت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) واشتركت فيها إيطاليا بجانب الحلفاء ، واشتركت فيها تركيا بجانب ألمانيا ، واضطرت إيطاليا لسحب بعض قواتها من ليبيا لتواجه التزاماتها فى الميادين الأخرى ، وفى الوقت نفسه عادت تركيا تجدد صلاتها بليبيا وترسل لها بعض العتاد وبعض الرجال ، ومن أهم المعارك الحربية الليبية التى تتصل بالحرب العالمية الأولى معركة القرصاينة والحملة السنوسية على مصر ، وستكلم عن كل منها كلمة موجزة :

معركة القرصاينة :

قلنا إن الطليان اضطروا لسحب بعض جيوشهم وإخلاء بعض المناطق على إثر قيام الحرب العالمية الأولى ، وقد انتهز السنوسيون هذه الفرصة واستعدوا لمهاجمة بعض الجهات من إقليم طرابلس ، وأعد المستعمر حملة لصد هذا الخطر قادها الكولونيل « ميامى » وحشد المستعمر فريق الشباب الليبي فى هذه الحملة لقتل رجاله فى ليبيا آنذاك ، والتقت هذه الحملة بقوات السنوسيين وأشباعهم عند بئر القرصاينة فى ٢٩ أبريل سنة ١٩١٥ وما لبثت القوات العربية التى جندها الطليان أن انقلبت عليهم بقيادة رمضان بك السويحلى زعيم مصراته ، فحوصر الطليان ومزقوا شر ممزق ، واستولى الليبيون على ذخيرتهم

(١) الطاهر الزاوى : جهاد الابطال فى طرابلس الغرب ص ١٢٠ - ١٣٢ .

وأسلحتهم وخزائنهم ، وقد دفع هذا الموقف الكريم رمضان السويحلى إلى صفوف الأبطال الوطنيين (١) .

الحملة السنوسية على مصر :

قلنا إن الأتراك جددوا علاقاتهم بليبيا بعد قيام الحرب العالمية ، وكانت خطة الأتراك والألمان أن يهاجموا بريطانيا فى مصر ، وكانت السويس هى النقطة التى حددت للهجوم ، وأوعز الأتراك والألمان للأمير السنوسى السيد أحمد الشريف أن يهاجم مصر من الغرب حتى يشغل الجيش البريطانى فى حرب لعلها تساعد على الغزو الذى دبره الألمان والأتراك ، واستجاب الأمير السنوسى لذلك وهاجم مصر فى نوفمبر سنة ١٩١٥ واحتل السلوم



البطل رمضان السويحلى

(١) انظر قضية ليبيا ص ٦٢ ، ٦٣ وليبيا بين الماضى والحاضر ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

ومرسى مطروح ، ولكن القوات البريطانية والمصرية استردت هذه الأماكن فى مارس سنة ١٩١٦ وقد سببت هذه الحملة تغييراً فى قيادة السنوسيين ، فإن السيد أحمد الشريف تنازل على أثرها عن القيادة السياسية والعسكرية للسيد إدريس السنوسى (ملك ليبيا سابقاً) واحتفظ لنفسه بالزعامة الدينية ، ثم غادر برقة سنة ١٩١٨ فأصبح السيد إدريس زعيم السنوسيين المطلق ^(١) .

ويرجع سبب هزيمة السنوسيين السريعة فى نضالهم ضد الانجليز بمصر إلى عوامل نفسية وعوامل حربية ، والعوامل النفسية تسببت عن الدعاية ضد السنوسيين الذين يهاجمون قطرا عربيا مسلما ، وبخاصة أن الجيش المصرى تصدى للدفاع عن مصر مع الجيش الانجليزى ، فكان لابد من التوقف فى هذا الميدان حتى لا يسقط عربى بسلاح أخيه العربى ، وأما العوامل الحربية فمرجعها أن المعارك دارت بالقرب من الساحل ، وكان ذلك موضع نقد من بعض العسكريين الذين أسهموا فى المعركة ، لأن الانجليز فى المنطقة الساحلية ينتفعون بالأسطول ، ولأن هذه المنطقة صلبة تسير فيها الدبابات والسيارات ، ولو كانت المعركة فى الجنوب حيث لا توجد هذه الميزات لكان الأمل فى النصر أقوى .

ولقد لجأ الأتراك بليبيا أحيانا إلى حرب العصابات ، ولكن طبيعة الارض الليبية لا تساعد على النجاح فى هذا النوع من الحروب ، بسبب السهول وعدم وجود الغابات التى يحتمى بها عادة من يقومون بهذا النوع من المعارك .

فكرة الهدنة والاتفاقات :

لم تكن المعارك التى دارت منذ الاحتلال حتى سنة ١٩١٧ حاسمة ، ولم يحصل هؤلاء ولا أولئك على نصر مؤزر ، وأرهقت الحرب العالمية إيطاليا ، ولما انتهت الحرب تركت دولاً جريحة سواء فى ذلك المنتصر والمهزوم ، ومن ثم لجأ الطليان والليبيون إلى المفاوضات لعلها تحل ما عجزت الميادين الحربية عن حله ، وفيما يلى معاهدات هذه الفترة ونبذة عن كل منها :

(١) دكتور نقولا زيادة ليبيا من الاحتلال الايطالى إلى الاستقلال ص ٨٦ - ٨٧ .

طرابلس : خرج العثمانيون نهائيا من طرابلس سنة ١٩١٨ و اجتمع زعماء العرب فى مسلاتة فى نوفمبر من نفس العام ، وأعلنوا قيام الجمهورية الطرابلسية واختير أربعة لإدارة شئون الجمهورية هم رمضان السويحلى وسليمان البارونى وأحمد المريض وعبد النبى بلخير ، كما قرروا تأليف مجلس استشارى للجمهورية مكون من أربعة وعشرين شخصا من أعيان البلاد ، وبدأ ممثلو الجمهورية يتصلون بالدول لتعترف بجمهوريةهم ، كما بدءوا يتصلون بإيطاليا للوصول إلى اتفاق معها ، وقد استطاع مندوبو الفريقين الوصول إلى عقد صلح فى ٢١ أبريل سنة ١٩١٩ عرف بصلح بنيادم وأهم ما جاء فيه ما يلى :

١ - إنشاء حكومة للقطر الطرابلسى يتكون مجلسها من ثمانية أعضاء وطنيين وعضوين إيطاليين ويرأسها حاكم عام يعينه ملك إيطاليا .

٢ - ينتخب الأهالى مجلس نواب لمدة أربع سنوات ويتولى سن القوانين وتنظيم الميزانية ومراقبة أعمال الحكومة .

٣ - التعليم الأهلى حر تحت إشراف الحكومة واللغة العربية رسمية كالإيطالية

٤ - المساواة بين الإيطاليين والطرابلسيين ، وإباحة الوظائف والمهن الحرة للطرابلسيين ذوى المؤهلات .

٥ - الحرية الدينية مكفولة والأوقاف تدار بمعرفة هيئة إسلامية .

برقة : جرت مفاوضات بين السنوسيين والإيطاليين ، وعلى الرغم من تعثرها فقد انتهت بالاتفاق الذى عقد فى عكرمة (قرب طبرق) سنة ١٩١٧ وأهم ما فيها ١ - يقف كل من الطرفين حيث وصل سلطانه فى أبريل سنة ١٩١٧ .

٢ - قبلت إيطاليا أن تفتح المدارس العلمية والمهنية ، وتعهدت بأن تكفل الحرية الدينية وأن يتولى القضاء للمسلمين علماء منهم يحكمون حسب الشريعة الإسلامية .

٣ - تعيد إيطاليا الزوايا السنوسية وأراضيها ، وتعفيها من الضرائب ، وتدفع مرتبات مشايخها .

٤ - يتعهد السنوسيون بحل معسكراتهم ، ويتم تجريد القبائل من السلاح .

اتفاق الرجمة :

كان الاتفاق السابق يقصد إيقاف القتال ، ولكنه لم يحل كثيرا من المسائل ، لذلك عقد الطرفان اتفاق الرجمة سنة ١٩٢٠ وأهم ما جاء فيه :

١ - اعتراف السلطات الإيطالية بإمارة السيد محمد إدريس السنوسي ، وجعل أجداية عاصمة له .

٢ - تبعية الأماكن الداخلية للأمير السنوسي والساحلية للسلطات الإيطالية ، مع حفظ الحق له في التجول في أنحاء البلاد وخدمة المصالح العربية .

اتفاق بومريم :

لم تحل في الموعد المحدد المعسكرات السنوسية التي تعهد السنوسيون بحلها في اتفاق عكرمة ، ولذلك رأى الطرفان تعديل هذا الاتفاق ، فتم اتفاق جديد في بومريم سنة ١٩٢٠ يؤجل حل هذه المعسكرات حتى يتوطد الأمن ، ويقرر إنشاء معسكرات مختلطة في أربعة أماكن هي : عكرمة وسلطنة والأبيار وتكنس ، وإقامة (دوار) إيطالي خاص في المخيلة ^(١) .

الوحدة الليبية ومؤتمر غريان :

لم تستطع هذه الاتفاقيات أن تصل بالبلاد إلى الاستقرار والهدوء ، إذ كان الحل الوحيد هو وحدة البلاد الليبية ، وقد أحس الجميع بذلك ، ولما كان للأمير السنوسي سلطان أكثر قوة وشعبية ، فقد اتجهت الأنظار لاختياره زعيما للبلاد كلها ، وعلى هذا - مؤتمر غريان سنة ١٩٢٢ وفيه زعماء الحركة الوطنية بطرابلس للتصديق على توحيد البلاد وقبول السيد إدريس السنوسي زعيما لها ، وقبِلَ الأمير هذه الرغبة وسارت البلاد نحو الوحدة الشاملة ^(٢) .

(١) أوجزنا هذه المعاهدات من ١ - دكتور حسن سليمان : ليبيا بين الماضي والحاضر ١٢٨ -

(٢) عن مؤتمر غريان أقرأ الشنيطي في المرجع السابق ص ٩٤ وما بعدها .

(التاريخ الإسلامي ج ٤ م ٢٧)

استئناف القتال :

شهد عام ١٩٢٢ حادثين كبيرين يتصلان بلبيبا ، أما الأول فهو الوحدة التي نادى بها جميع الليبيين والتي تتعارض مع الاتجاه الاستعماري الذي يرمى دائما للتفتيت وإثارة الفرقة بين الصفوف الداخلية . أما الحادث الثاني فاستيلاء الفاشيست على شئون إيطاليا في أكتوبر سنة ١٩٢٢ وقد جاء الفاشيست يحملون آراء استعمارية متطرفة ، ومن أجل هذين السببين أعلنت إيطاليا إلغاء كل الاتفاقات السابقة وأعدت العدة لحرب مدمرة وبدأ بذلك الدور الثاني في الصراع الإيطالي الليبي .

عمر المختار

وفي مطلع هذا الدور أحس الأمير إدريس السنوسي أن إيطاليا تنوى أن تنكل به ، فغادر ليبيا إلى مصر ، وعهد إلى السيد عمر المختار بالنيابة العامة عنه في قيادة الجهاد ببرقة ، وقد بعد السيد إدريس السنوسي عن المقاومة قبل أن تتم تنظيمات الوحدة التي أعلنها مؤتمر غريان ، لهذا سارت المقاومة في مطلع هذا الدور ذات شقين وكان من أعلام المقاومة في طرابلس فرحات الزاوي ومحمد سعدون السويحلي ، ولكن مقاومة طرابلس كانت قصيرة العمر إذ كان ضغط الفاشيست عنيفا قاسيا هناك ، ولذلك قضى الطليان على آخر محاولة للمقاومة في طرابلس في ديسمبر سنة ١٩٢٣ ، وأخرج الطرابلسيون الأحرار من بلادهم فلبجأوا إلى تونس ومصر ، وتدفق كثير من المجاهدين إلى برقة حيث تركز النضال بقيادة عمر المختار (١) .

وعمر المختار من أسرة فرحان من قبيلة المنقة ، ولد سنة ١٨٦٢ وتعلم في مدرسة زتور السنوسية ، ثم أتم تعليمه في الجغبوب ، واختاره السيد أحمد الشريف ليتولى مشيخة زاوية القصور ، واشترك في الجهاد ضد الفرنسيين في واداي ، وعمل على نشر الإسلام في تلك الربوع ، ثم آلت له القيادة العامة لمقاومة الإيطاليين سنة ١٩٢٣ وكان اختيارا موفقا لما كان يتحلى به من صدق العزيمة ، وقوة الشكيمة ، وكبر التضحية ، وعلو الخلق ، ورباطة الجاش ،

(١) محمود الشنيطي : قضية ليبيا ص ١٠٤ .

والإيمان بالله ، والاخلاص للوطن (١) .

وقد حشد الفاشست آلاف الجنود وأضخم المعدات لمقاومة عمر المختار ، وحشد لهم عمر المختار إيمانا ووطنية وحسن تصرف للأمر ، أما أسلحته الحربية فلم تكن بذات غناء ، وكان شعب برقة كله يؤيده ويقف صامدا فى هذه الحرب المريرة ، وقد اعترف بذلك قادة الطليان مثل جرازبانى وبيايواتش الذى أثر عنه قوله : كان جميع سكان برقة تحت نفوذ قادة الثورة ، وكان الجنود والأهالى يكوّنون وحدة شعبية سياسية مالية ، تقف فى صف واحد لتمكين القوة المقاومة من الصمود (٢) .

وقد عانت برقة الكثير من عسف الطليان فى هذه الفترة ، وكانت الحرب تدميرا وإفناء ، طائرات ترسل الموت ودهابات تسحق القرى ومدافع تحصد الناس ، سجون يلقى فيها الأبرياء . كما شملت مصادرة الأموال وهتك الاعراض ، وكان مما فعله جرازبانى أن أنشأ « المحكمة الطائرة » وهى محكمة عسكرية متنقلة تحكم بالشبهة وينفذ حكمها فى الحال برأى من الناس ، ومع هذا فقد ظل عمر المختار يقاوم بصلاية ، وطالما أوقع بأعدائه الهزائم وأنزل بهم الموت واستولى على أسلحتهم ، ولكنه فى النهاية وقع أسيرا فى سبتمبر سنة ١٩٣١ وكان جرازبانى فى إيطاليا فلما بلغه ذلك الخبر عاد مسرعا إلى ليبيا وأمر المحكمة الطائرة أن تطير إلى حيث قبض على البطل العربى بالقرب من سيدى رافع ، وجرت محاكمة صورية للبطل العظيم ، ثم صدر الحكم بإعدامه وحشد الآلاف من أهل برقة ليشاهدوا إعدام البطل فى ١٦ سبتمبر سنة ١٩١٣ ويموته فقدت الثورة حياتها وهدأت المعركة مؤقتا (٣) .

الدفاع عن ليبيا من خارج ليبيا :

منذ بدأ الغزو الإيطالى لليبيا وقف العالم العربى والإسلامى يؤيد القطر العربى ويمد بالعتاد والزاد ، كما سافر إلى ليبيا كثير من المتطوعين العرب ،

(١) نقولا زيادة فى المرجع السابق ص ١٠٣ .

(٢) نقولا زيادة ص ١٠٥ وانظر كتاب « عمر المختار » ضمن المكتبة الإسلامية لكل الأعمار للمؤلف

(٣) دكتور محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ص ٣١٨ - ٣٣٩ .



البطل عمر المختار

وحملت الصحافة العربية نصيبها فى الكفاح ، فأثارت سخط الرأى العام العالمى ضد الأعمال الوحشية الإيطالية ، كما شددت أزر المجاهدين بمقاتلتها وحملاتها .

فلما خر البطل عمر المختار وضعفت المقاومة الحربية فى الداخل ، بدأت مراكز الكفاح فى الخارج تنشط من أجل الدفاع عن ليبيا ، وكانت نواتها من الليبيين المهاجرين والمنفيين والفارين من وجه الظلم والطغيان ، وكان هناك مركزان قويان وأصلا الدفاع ، أحدهما فى القاهرة حيث يوجد السيد محمد ادريس السنوسى والآخر فى سوريا حيث يوجد السيد بشير السعداوى ، ويجدر بنا أن نسجل بمزيد الفخر أن السيد بشير السعداوى الذى كان يمثل طرابلس أظهر ألوانا من النشاط والتضحية والإيثار جديرة بالاعجاب والخلود ، وكذلك فعل السيد ادريس السنوسى ولكن يبدو أن الضغط السياسى من قبل المجترة التى كانت محتلة لمصر آنذاك قد فرض عليه أحيانا نوعا من الصمت ^(١) .

الحرب العالمية الثانية :

وقامت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ ودخلتها إيطاليا مع ألمانيا ، واتجه الحلفاء لتعضيد الحركات الوطنية المعارضة لإيطاليا ، ومنها حركة التحرير الليبية ، كما اتجه الليبيون لمساعدة الحلفاء فى حروبهم ضد إيطاليا العدو المشترك ، وقد انضم حوالى ١٤ ألف لىبى للجيش البريطانى الذى يحارب إيطاليا فى شمالى أفريقية ، وأظهر هؤلاء ألوانا من البطولة ، وانهزمت قوات المحور أمام قوات الحلفاء بعد معركة العلمين الشهيرة ، ولم يأت شهر يناير سنة ١٩٤٣ إلا وقد تم تطهير الأراضى الليبية تماما من قوات المحور ، واحتل الجيش الثامن مدينة طرابلس واحتلت فرنسا إقليم فزان ، وبدأ بذلك عهد جديد لليبيا سنتحدث عنه فيما بعد .

ويجدر بنا أن نسجل أنه فى مطلع الحرب العالمية الثانية اتجهت كل الأنظار إلى زعامة السيد محمد ادريس السنوسى ، ومن أبرز الأعمال التى أظهرت فى هذا الاتجاه اجتماع الطرابلسيين والبرقاويين فى «ار الأمير السنوسى بمصر فى

(١) سعد البهنيسى : خفايا القضية الليبية ص ٣١ .

أكتوبر سنة ١٩٣٩ حيث اتخذ قرار إجماعى وقعه ٥١ من مشايخ القبائل ينص على وحدة البلاد واختيار السيد السنوسى ممثلا لهم فى كل الأمور ^(١) .

الإدارة الإنجليزية الفرنسية

حكمت ليبيا حكما إداريا بعد تخلصها من إيطاليا ، وقد قسمها الاحتلال الجديد إلى ثلاث إدارات تولت بريطانيا السلطة فى اثنتين منها هى طرابلس وبرقة ، وتولت فرنسا إدارة فزان ، وقد واجهت السلطات الانجليزية والفرنسية حالة بؤس صارخة وجهل شامل ، فعملت على علاج الأحوال خطوة خطوة ففتحت بعض المدراس ونظمت الاقتصاد والزراعة بعض الشيء . ولكن الحريات بليبيا ظلت مكبوتة ، فالاجتماعات العامة كانت بإذن ويمكن قضاها دون إبداء الأسباب ، وللبوليس سلطة واسعة يدخل فيها القبض على الأشخاص والتفتيش دون أمر قضائى ، ولم تكن هناك إلا صحافة هزيلة يصدرها قلم الاستعلامات البريطانى ، أما فزان فلم تكن بها صحافة على الإطلاق .

وانتهت الحرب ولم يُبدِ الإنجليز والفرنسيون استعدادا للجلاء وإعلان استقلال البلاد ، وكان واضحا ان التقسيم الإدارى كان تفتيتا للبلاد وتمكيننا للنفوذ الأجنبى ، ومن أجل هذا بدأت الحركات الوطنية تظهر ، فظهرت الأندية ثم الجبهات الوطنية ثم الأحزاب ، وكانت الوحدة والاستقلال والانضمام للجامعة العربية هدف الجميع دون استثناء ، وكان الهدف الرابع اختيار الأمير السنوسى ملكا للبلاد وكانت الغالبية العظمى تنادى به ، وفى فبراير سنة ١٩٤٦ قامت مظاهرات صاخبة فى طرابلس تنادى بهذه الأهداف .

وفى سنة ١٩٤٧ اجتمع وكلاء وزراء خارجية الدول الأربع الكبرى (إنجلترا وفرنسا وأمريكا وروسيا) لبحث مصير المستعمرات الإيطالية ومن بينها ليبيا ولم يستطع هؤلاء الوكلاء الوصول إلى قرار ، فتقرر إحالة الموضوع إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة .

(١) نص القرار فى « ليبيا من الاحتلال الإيطالى حتى الاستقلال » ص ١١٩ .

وقد تمت في هذه الأثناء اجتماعات بين بينن وسفورزا ووزيرى خارجية بريطانيا وإيطاليا واتخذ قرار بإعطاء إيطاليا حق الوصاية على طرابلس ، وانجلترا حق الوصاية على برقة وفرنسا حق الوصاية على فزان ، ولكن الشعب الليبى سخر من هذا القرار وقاومه ، وذهب وفد ليبى إلى الأمم المتحدة ليشرح قضية الشعب الليبى لأعضاء المنظمة الدولية ، وكان من نتيجة ذلك أن رفضت الأمم المتحدة قرار بينن - سفورزا ، واتخذت في ٢١ فبراير سنة ١٩٤٨ قرارا ينص على « أن تصبح ليبيا المكونة من ولاية طرابلس الغرب وبرقة وفزان دولة مستقلة ذات سيادة على أن يصبح هذا الاستقلال نافذا في أقرب وقت بحيث لا يتأخر عن أول يناير سنة ١٩٥٢ » وعينت الأمم المتحدة مندوبا لها هو مستر بلت الهولندى يعاونه مجلس استشارى من مندوبين عن مصر والباكستان وإيطاليا وفرنسا وبريطانيا .

ودرس مندوب الأمم المتحدة المشكلة واتصل بالزعماء الليبيين والشعب الليبى ، فأتضح له أن جميع الليبيين على اختلاف طبقاتهم يريدون السيد محمد ادريس السنوسى ملكا على ليبيا كلها ، وأن النظام الاتحادى هو أنسب نظام لهذه البلاد

وتم عقب ذلك تأسيس جمعية وطنية تأسيسية من ٦٠ عضوا ، عن كل ولاية ، واجتمعت في طرابلس في ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٥٠ وفى جلستها الثانية التى عقدتها في ٢ ديسمبر سنة ١٩٥٠ أصدرت الجمعية قراراتها التى كان من أهمها اختيار سمو الأمير ادريس السنوسى ملكا ، وأن يطلب جلالته من انجلترا وفرنسا تمكينه من عمله بتسليمه زمام الامور ، وفى ٢٩ مارس اتخذت قرارا بتأليف حكومة اتحادية مؤقتة ، وفى ٧ أكتوبر أصدرت الجمعية دستور البلاد .

اعلان الاستقلال

وفى ديسمبر سنة ١٩٥١ أعلن جلالة الملك أن ليبيا أصبحت دولة مستقلة ذات سيادة ، وأن الدستور أصبح سارى المفعول ، وانضمت ليبيا لجامعة الدول العربية سنة ١٩٥٣ ، ولهيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٥٥ ، وأخذت تزاوّل نشاطها الكامل في المشكلات العالمية .

ويجدر بنا أن نقرر أن دولتى الحكم الثنائى لم تظهرها حسن النية مع ليبيا ، وأنهما وضعتا ألوانا من العراقيل فى سبيل استقلال ليبيا ولكن يقظة الشعب الليبى والعربى والأمم المتحدة تغلبت على هذه العراقيل

بعد الاستقلال

مصر وليبيا ويقاها النفوذ الأجنبى :

بين ولائى وحبى لبلادى ، وبين الحق والعدل ، وبين صلة العروية والدم والدين والجوار التى تربطنا بليبيا ، وبين هذا كله ، وبين التاريخ الذى ندونه نرجو به حسن التوجيه وزيادة القرب لا التنفير والبعد ولا إثارة المشكلات ، بين كل هذه العوامل أحس بحاجتى أن أدع الكلام لسواى فى مجال الحديث عن جهود مصر فى قضية ليبيا .

يقول الاستاذ عبد الرحمن عزام الليبى الأصل : أنا أعرف أن مصر قد أدت واجبها كاملا فى مدى أربعين سنة للدفاع عن حرية جارتها ليبيا ، وابتدأت ذلك عام ١٩١١ فكانت تبذل المال والنفوس حتى تحول دون سقوط بلد عربى شقيق للاستعمار الأوروبى ، وفى عام ١٩١١ تبرع الشعب المصرى للمجاهدين فى ليبيا بنحو ٦٠٠,٠٠٠ جنيه من الذهب ، أى ما يوازى عدة ملايين من الجنيهات الآن ولم تنقطع هذه الإعانة فى أى وقت ، بل إنها استمرت وبكيفية مكّنت الليبيين من مداومة كفاحهم فى سبيل الحرية .

ويقول الدكتور عزه النص^(١) عن ليبيا : مملكة جارة لمصر ، جارة عزيزة ،

(١) الوطن العربى ص ٧١ .

وبالإضافة إلى الأخوة العربية لم تمسك عنها مصر ما يفرضه الجوار وتقتضيه صلة القرى من عون وضيافة ومناصفة ، وفدتها بالمال حين كان المال لديها عزيزا ، ولم تقبض عنها مكرمة ، وعلمت أجيالا من بينها .

وعند اتخاذ إجراءات استقلال ليبيا أثار مندوب مصر فى الهيئة الدولية مسألة العجز المرتقب فى الميزانية الليبية بعد الاستقلال ، ووافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة أن ينظر مجلسها الاقتصادى والاجتماعى فى أمر ليبيا ابتداء من عام ١٩٢٥ إلا أن الحكومة الليبية طلبت تأجيل بحث الأمر ، وتقدمت مصر إلى الحكومة الليبية منذ عام ١٩٥٢ عارضة تسديد عجزها المالى المتوقع على شرط ألا تنفق المعونة المصرية فى دفع رواتب الموظفين البريطانيين ، قال محمود منتصر رئيس الحكومة الليبية ان العرض المصرى جاء متأخرا ، وقد وافقه اشتراط إعادة النظر فى تخطيط الحدود بين البلدين ^(١) وقد ردت مصر على هذا ، وبينت موقفها قاما وشرح المتحدث باسم مصر أن مصر لم تتأخر لحظة فى تقديم هذا العرض وقد سبقت به كل الهيئات ، وليس لمصر أطماع اقليمية تتعلق بالوطن الليبي ^(٢) .

والذى يعيننا من هذا كله أنه يلزم أن نصحح أخطاءنا أيا كان مصدر هذه الاخطاء ، ولا يهمنا أن نلقى التهم ، وإنما الذى يهمنا هو تحرير الوطن العربى من بقايا الاستعمار التى لا تزال عالقة به ، وإننا نقرر مع الأسف الشديد أن الوسيلة التى اتبعتها ليبيا لسد العجز المالى وسيلة انقصت استقلالها وفرضت عليها التزامات ما أوجها إلى التخلص منها ، فلقد عقدت ليبيا مع بريطانيا معاهدت فى سبتمبر سنة ١٩٥٣ ، وهى معاهدة « تكبل ليبيا بمواثيق استعمارية ثقيلة ، فتجعل مرافقها نهبا للبريطانيين ، وتلزمها بعهدود عسكرية خطيرة ، وتبيح للجيشوش البريطانية أن تقيم على أرضها ... وتضع الجيش الليبي الفتى بأيد بريطانية ... ومدة المعاهدة عشرين عاما .وعقدت ليبيا كذلك معاهدة مماثلة مع الولايات المتحدة فى سبتمبر سنة ١٩٥٤ تسمح نصوصها للولايات المتحدة أن تحتفظ على الارض الليبية بعدة قواعد وممارات عسكرية

(١) المرجع السابق ص ٧٦ .

(٢) اقرا الرد كاملا فى « خفايا القضية الليبية » للاستاذ سعد البهنيوى ص ٨٦ وما بعدها .

وخاصة مطار الملاحة « (١) » .

ومدة هذه المعاهدة أيضا عشرون عاما . وكل ذلك بثمن بخس ، لا يوازي ١ ٪ مما تدفعه بريطانيا أو أمريكا لاسرائيل دون احتلال ، ونحن لا نطالب بمزيد من المال ، ولكننا نطالب بالحرية الكاملة ، فالقيود لا يعدلها ثمن عند الأحرار .

ونرجو أن تكون ليبيا قد استردت أنفاسها بعد الجهاد الطويل ، وأن تبدأ دون توان فى تنقية استقلالها مما يشوبه من أكدار ، فالوطن العربى واحد من المحيط إلى الخليج ، والأحرار العرب لا يريدون به أجنبيا يستغل أو يتحكم .

وبعد مؤتمر القمة العربى الذى عقد فى ١٣ يناير سنة ١٩٦٤ اتجهت الآراء نحو تصفية كل القواعد الأجنبية بالوطن العربى ، وفى مقدمتها القواعد البريطانية والأمريكية بليبيا ، وفى الاحتفال بعيد الوحدة بالقاهرة (فى ٢٢ فبراير سنة ١٩٦٤) جاء فى خطاب الرئيس جمال عبد الناصر أن القواعد الغربية بليبيا تهدد استقلالنا ومنها اعتدى علينا سنة ١٩٥٦ ، وكان لهذا الخطاب صدها فأصدرت الحكومة الليبية بيانا فى اليوم التالى بأنها لن تجدد اتفاقية القواعد ، ولم يكتف البرلمان الليبى بهذا بل اتخذ بالإجماع قرارا فى ١٦ مارس بإلغاء هاتين المعاهدتين وتصفية القواعد دون إبطاء .

وفى فبراير سنة ١٩٦٦ تسلمت حكومة ليبيا من القوات البريطانية معسكر « ميامى » بطرابلس استعدادا لجلاء القوات البريطانية عن البلاد ، وتسلمت كذلك فى نفس الشهر مستشفى « كانيفا » العسكرى بطرابلس ، ثم جلت القوات البريطانية عن قاعدة طرابلس فى آخر مارس سنة ١٩٦٦ .

ومما يذكر أن البترول تدفق فى أرض ليبيا فغطى حاجاتها الاقتصادية ولم تعد فى حاجة إلى أى عون مادى .

الوحدة الكاملة فى ليبيا :

مرت اثنتا عشرة سنة على اعلان استقلال ليبيا وإقامة حكومة اتحادية من الولايات الثلاث ، وفى أثناء هذه السنوات ازداد التقارب بين سكان ليبيا وتم الامتزاج ، فخطت البلاد خطوة حاسمة إلى الأمام أشرنا إليها من قبل ، وهى إنهاء الحكم الاتحادى فى ليبيا ، وبدء نظام الوحدة الشاملة وقد أعلنت هذه الخطوة المباركة فى ٢٧ أبريل سنة ١٩٦٣ ، وأصبح يوم ٢٧ أبريل عيدا رسميا بالمملكة الليبية لذكرى هذه المناسبة السعيدة .

(١ :) دكتور عزه النص : الوطن العربى ٧٦ - ٧٧ .

نهاية الملكية وقيام ثورة الفاتح وإعلان الجمهورية

لم يطل العهد الملكي بليبيا ، وكان محمد إدريس السنوسي هو الملك الأول والأخير ، وقد تدفق كما ذكرنا آنفا النفط - بغزارة خلال عهده ، فانتقلت ليبيا من الفاقة إلى الثراء ومن التبعية الاقتصادية إلى مكان تستطيع فيه أن تقدم العون قرضا أو إعانة ولكنها لم تفعل .

وتغير وجه الحياة تبعا لذلك فانتشرت المدارس والمستشفيات وبدأت الجامعات تظهر ، وكثرت الأعمال لطالب الأعمال . ولكن الغنى الذي جلب هذا الجانب المضىء على البلاد جلب عليها جانبا آخر قائما سنوضحه فيما بعد فاضطر الجيش الليبي إلى القيام بثورة الفاتح من سبتمبر سنة ١٩٦٩ وقد ألغت هذه الثورة الملكية وأعلنت الجمهورية ، كما أعلنت أن مجلس قيادة الثورة سيحكم البلاد برئاسة العقيد معمر القذافي .

وأعلن قادة الثورة أن أسباب ثورتهم ترجع إلى الاستبداد ، وانتشار المحسوبية والرشوة ، وسيطرة النفوذ الأجنبي على مقدرات الشعب والمعاهدات غير المتكافئة التى عقدها حكام ذلك العهد مع الولايات المتحدة الأمريكية ومع بريطانيا والتي خولت لهاتين الدولتين أن تحتل قواتهما بعض القواعد الليبية .

كما أعلن القادة أهداف ثورتهم متخذين من ثورة ٢٣ يوليو نبراسا لهم ، ولهذا كان شعار ثورتهم : الحرية والاشتراكية والوحدة ، ومن أجل هذا سرعان ما بدأت هذه الثورة تدخل فى مفاوضات لإنهاء الوجود الأجنبي بليبيا ونجحت هذه المفاوضات وتم توقيع اتفاقيتين للجلاء إحداهما مع بريطانيا والثانية مع الولايات المتحدة الأمريكية وتم ذلك الجلاء فى النصف الأول من العام التالى لعام الثورة (أى فى سنة ١٩٧٠) وشهدت ليبيا يوما حافلا هو يوم إنزال العلم الأمريكى من قاعدة هوبس ورفع العلم الليبى على هذه القاعدة التى سميت منذ ذلك اليوم « قاعدة عقبة بن نافع » وقد حضرت الصحف المصرية هذا اليوم المشهود ونقتبس فيما يلى سطورا قليلة مما ذكرته صحيفة أخبار اليوم فى ١١ / ٦ / ١٩٧٠ .

فى دقائى ، ولكنها مشحونة بأروع الأحاسيس والانفعالات ، تسلمت السلطات الليبية قاعدة هويلس . ووقف القائد الأمريكى يقول :

« الآن أسلم قاعدة هويلس رسميا إلى حكومة الجمهورية العربية الليبية »
لحظات كان لا يمكن أن تصدق . فقد استمر اسم هويلس طيلة عشرين عاما يرمز للقلعة المحاطة بالأسوار ، والتي لا يدخلها أى انسان لىبى . وفى لحظات يختفى اسم هويلس ، ويأتى اسم عقبة بن نافع . فى لحظات ينزل العلم الأمريكى ويرتفع علم ليبيا الشائرة بألوانه الثلاثة . فى لحظات تتحول الأرض المحرمة إلى ناد كبير يعج بالآلاف من أبناء الشعب الليبى حلال عليهم دخولها ، بعد أن كان ما يجرى بداخلها كالأسطورة ! » .

واتجهت الثورة للوجود الفاشيستى الاستعمارى الايطالى المتمثل فى الجالية الإيطالية فأنهت وجود هذه الجالية فى ٧ أكتوبر سنة ١٩٧٠ .

ومنذ قيام الثورة اتجهت الجهود للإصلاحات الداخلية فظهرت الجامعة الليبية فى أبهى مظهر ، وكانت بعض كلياتها فى طرابلس وبعضها فى بنغازى وفى سنة ١٩٧٤ أصبحت هناك جامعة مستقلة فى كل من المدينتين وقد شاهدت الأبنية الشاهقة التى بنيت لجامعة طرابلس فوجدتها تضارع أرقى المباني الجامعية فى العالم ، أما عن المدارس والمستشفيات وأنواع العمران الأخرى فالبلاد تعج بها مما يدل على تطوير واسع فى كل اتجاه . ومن الناحية الدستورية أصدر مجلس قيادة الثورة « الاعلان الدستورى » فى ١١ ديسمبر سنة ١٩٦٩ واهتمت الثورة اهتماما كبيرا بالجيش الليبى ومعداته وتدريبه ، كما اهتمت برخاء الشعب وإسعاده .

ومن الناحية الاقتصادية أخذت الثورة خطوات مهمة للقضاء على سيطرة الشركات المستغلة للبترول ولضمان الحقوق الليبية ، ولتليبب المصارف .

وقد توفى الملك إدريس السنوسى فى القاهرة يوم ٢٥ مايو سنة ١٩٨٣ ودفن بالمدينة المنورة طبقا لوصيته .

ليبيا فى المجال العربى :

أعلنت الثورة منذ قيامها أنها تنتهج منهج الوحدة العربية ، وتؤيد كل الجهود التى تبذل فى هذا المجال ، وسيراً فى هذا الاتجاه تحققت النتائج التالية :

١- عقد مؤتمر بمدينة طرابلس فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٦٩ حضره رؤساء ليبيا ومصر والسودان وأسفر عن صدور « ميثاق طرابلس » للتنسيق الوجدوى بين الأقطار الثلاثة .

٢- تكون اتحاد الجمهورية العربية بين ليبيا ومصر وسوريا ، بعد مباحثات جرت فى بنغازى وصدر بذلك « اعلان بنغازى » واعتبر قيام هذا الاتحاد خطوة فى طريق الوحدة العربية الشاملة ، وقد أجرى استفتاء على قيام الاتحاد من هذه الأقطار الثلاثة فى الفاتح من سبتمبر سنة ١٩٧١ ، وقد وافقت عليه أغلبية ساحقة فى كل قطر .

٣- فى الفاتح من سبتمبر من العام الثانى (١٩٧٢) صدر بيان بإعلان الوحدة بين مصر وليبيا ، ونقتبس فيما يلى بعض فقراته :

إن ثورة الثالث والعشرين من يوليو وثورة الفاتح من سبتمبر تصدران عن نبع واحد ، وتسيران فى طريق واحد وتتجهان إلى هدف واحد ، هدف الحرية والاشتراكية والوحدة . . الذى تتمثل فيه تاريخيا وإنسانيا ونضاليا كل المعطيات التى تريدها الأمة العربية . . أساسا لمستقبل عزيز تتحقق به آمالها

والشعب المصرى والشعب الليبى تجمعهما عوامل وثيقة . . وصلات متعددة . . جغرافية وتاريخية واقتصادية وسياسية وبشرية وفكرية . . تلقى عليهما إزاء الأمة العربية مسئوليات والتزامات .

وهذه المسئوليات ليست دورا متميزا للشعبين . . ولكنها التزام محدد لخدمة الأهداف القومية العليا . . مهما تكن العوائق . . وهى تدعوها إلى بذل جهد مشترك . لتحقيق آمال الأمة العربية فى إقامة وحدتها .

وإن السير على هذا الطريق . . قد حدا بقيادتى الثورتين إلى ضرورة

التحمل بأمانة العمل القومى الوجودى لتقوم الثورتان باجتهداهما المشترك باختيار طليعى لأفاق العمل الوجودى فى ظروف تحقق لأول مرة مناخا ملائما لهذا الاتجاه .

وانطلاقا من الأهداف والمبادئ التى نص عليها إعلان بنى غازى عن قيام اتحاد الجمهوريات العربية .. وفى إطار احترام دستور دول الاتحاد ومسئوليات وصلاحيات السلطات التى حددها ذلك الدستور .. واستمرار هذه المباحثات

اجتمع السيد الرئيس محمد أنور السادات رئيس جمهورية مصر العربية والعقيد معمر القذافى رئيس مجلس قيادة الثورة فى الجمهورية العربية الليبية فى طبرق وبنى غازى فى الفترة من ٢١ إلى ٢٣ جمادى الثانية سنة ١٣٩٢ هجرية الموافق ٣١ يوليو إلى ٢ أغسطس سنة ١٩٧٢ ميلادية .

واشترك معهما فى المباحثات وفد من جمهورية مصر العربية ووفد من الجمهورية العربية الليبية .

وانتهت المباحثات إلى إصدار القرارات الآتية :

١ - إنشاء قيادة سياسية موحدة بين الجمهوريتين ويصدر بتشكيلها قرار من الرئيسين .

٢ - تضع القيادة السياسية الموحدة بأسرع وقت مستطاع الأسس لاقتراح الوحدة الكاملة بين الجمهوريتين ، وتشرف على تنفيذ الخطوات اللازمة لتحقيقها .

٣ - تنشئ القيادة السياسية الموحدة لجان مشتركة من الجمهوريتين لدراسة وضع الأنظمة التى على أسسها تقوم الوحدة بين الجمهوريتين فى المجالات الآتية :

(أ) الشئون الدستورية .

(ب) التنظيمات السياسية .

(ح) الدفاع والأمن القومى .

(د) النظم الاقتصادية .

(هـ) التشريع والقضاء .

(و) النظم الإدارية والمالية .

(ز) التعليم والعلوم والثقافة والإعلام .

٤ - تقدم هذه اللجان تقارير بما تصممه من أعمالها أولا بأول إلى القيادة السياسية الموحدة لتتخذ بشأنها ما تراه للتنفيذ .

عرض الوحدة فى استفتاء شعبى

خامسا - تقوم القيادة السياسية الموحدة بإقرار وإعلان الصيغة النهائية لمشروع الوحدة وذلك لعرضه على السلطات المختصة فى كل من الجمهوريتين وطرحه للاستفتاء الشعبى .

سادسا - تتم هذه الاجراءات فى موعد أقصاه القاتح من سبتمبر سنة ١٩٧٣

ولكن للأسف لم توضع فى الوقت المحدد الأسس اللازمة لضمان وحدة سليمة بين البلدين ، فأهل القاتح من سبتمبر سنة ١٩٧٣ دون أن تخطو الوحدة خطواتها المرجوة ، وانفتح الباب لشيء من الخلاف بل الجفاء ، شاهدتُ مظاهره فى ليبيا حينما كنت أستاذًا زائرا بجامعة طرابلس خلال شهر مايو سنة ١٩٧٤ وليس من الممكن أن تقوم وحدة فى جو من الجفاء الذى نراه فى الصحافة والإذاعة ، ومع عدم التعاون الصحيح العميق فى الشدة والرخاء .

وهنا أرفع القلم لأننا من دعاة الوحدة ولا أريد أن أخط ما شاهدت وما عرفت هنا وهناك مما يفتت ولا يؤلف ، ويفرق ولا يوحد ، راجيا أن نصصح أنفسنا لتخطو خطوات سليمة نحو وحدة تنبع من الشعوب لمصلحة الشعوب ، وحدة يسبقها إحساس متدفق بالحاجة إليها وليست وحدة تعمل لخلق هذا الإحساس .

محاولات ليبيا للوحدة مع تونس :

فى ١٢ يناير سنة ١٩٧٤ زار العقيد معمر القذافى تونس واجتمع بالرئيس الجبيب بورقيبة اجتماعا منفردا صدر على إثره بيان يعلن قيام الوحدة بين ليبيا وتونس ويحدد تواريخ متلاحقة لتنفيذ مراحل هذه الوحدة ومن أهمها الاستفتاء عليها ، وحلت هذه المواعيد دون أن تخطو هذه الوحدة أية خطوة للأمام .

وقد سئل الرئيس بورقيبة عن هذا الموضوع فأجاب فى حديث نشرته صحيفة الاهرام يوم ١٢ / ٧ / ١٩٧٤ بأنه سبق له عقب مؤتمر عدم الانحياز الذى عقد بالجزائر فى آخر سنة ١٩٧٣ أن عرض على رؤساء دول المغرب العربى الكبير فكرة « الكونفدرالية » ثم طلب العقيد القذافى الحضور إلى تونس فى ١٢ يناير سنة ١٩٧٤ وفى اجتماعى معه صدر هذا البيان ، ويقول الرئيس بورقيبة انه يبدو أن العقيد القذافى كان يقصد الوحدة الاندماجية وكنت أقصد الوحدة الكونفدرالية التى سبق أن تحدثت عنها فى الجزائر ، وأضاف الرئيس التونسى أن الوحدة الاندماجية خيال ، وأنه لا يمكن أن تتم قبل مراحل طويلة ، وأنه من المهم أولا تغيير الأدغة حتى يتم التلاقى بين الشعوب ، وذكر سيادته ، أنه قد تبين للجانب التونسى أنه لابد من أجل إجراء الاستفتاء من تعديل الدستور ، وأنه حدثت ملاسبات عدة ظهر من خلالها أن هناك عدم التقاء فى وجهات النظر ، فتجمد الموقف .

محاولات ليبيا الاتحاد مع دول أخرى :

وقد ذكرنا بشىء من التفصيل محاولة ليبيا الاتحاد مع تونس ، وقبلها ذكرنا بشىء من التفصيل كذلك حديثا عن « اتحاد الجمهوريات العربية : مصر وسوريا وليبيا » وقد ظل هذا الاتحاد كائنا ميتا حتى انسحبت مصر منه فى سبتمبر سنة ١٩٨٤ وقال رئيس جمهورية مصر عنه « إن الاتحاد ليس أكثر من ورقة لا قيمة لها ، ولا بد أن يكون ما هو ثابت فى الوثائق الرسمية انعكاسا صادقا للواقع » .

وفى سنة ١٩٨٠ أعلن اتحاد سوريا وليبيا .

وفى سنة ١٩٨٤ أعلن الاتحاد المغرب وليبيا ، وليس هناك أى شعاع من النور لهذه الاتحادات .

إن ليبيا فى الحقيقة هى التى تسعى لهذه الارتباطات ، وبالتالى كان عليها أن تعمل للمحافظة على هذا الغرس وتنميته ، وليتها تفعل .

ليبيا والغرب :

قامت ثورة ليبيا فى الفاتح من سبتمبر سنة ١٩٦٩ وأسرت مصر بتأييد هذه الثورة شأنها فى الابتهاج بأى أمل فى التطور تتجعة له أية دولة عربية أو اسلامية ، وكان جمال عبد الناصر شديد الرغبة فى الثورات لذاتها أى دون أن يتأكد من حسن تخطيطها ومسيرتها ، ولذلك سرعان ما أعلن تأييده لهذه الثورة ووقوفه معها ضد أية محاولة لمقاومتها وزاد على ذلك بأن أعلن أنه يرى فى العقيد القذافى شبابه وطموحه .

وقد ورث العقيد القذافى طموح عبد الناصر وأطماعه و اتجاهاته دون كثير من التفكير فيما أنتجة هذا الطموح من أضرار بمصر والمصريين ، ومن هنا يسجل التاريخ أن العقيد القذافى لم يعمل لتطوير بلاده والرقى بها ، وقد زرت ليبيا حديثا وأشهد أن البداوة لاتزال تعيش بها على الرغم من أنه مر على هذه الثورة ربع قرن تقريبا وبدل تطوير البلاد نثبت ما يلى :

- أسرعت هذه الثورة بإلغاء النظام الملكى كأن الملكية فى ذاتها دليل تأخر .

- أعلنت الثورة قيام الجمهورية ، ولم تقنع بأن تكون جمهورية كبقاى الجمهوريات فى العالم بل أسمت نفسها الجماهيرية العظمى ، وسخر الزعيم بنظام التعددية الحزبية ووصفة بأنه عودة للنظام القبلى ، والقذافى بذلك يسخر من نظام اتبعته عشرات الدول ولاقت فى ظله المساواة والعدالة ولم يستطع أن يخلق نظاما بديلا سوى كائن هزيل يسمى « المؤتمرات الشعبية » وهو كائن تديره أصبع واحدة من أصابع الزعماء .

- استطاعت الثورة أن تتخلص من القواعد الأجنبية البريطانية والأمريكية

(التاريخ الإسلامى ج ٤ م ٢٨)

واستكملت بذلك سيادتها وذلك شىء يحسب لها .

- منحت الطبيعة ليبيا ثراء هائلا عن طريق البترول المتدفق بجهود الشركات الغربية ، وقد أمنت ليبيا هذه الشركات أو أكثرها .

وكان يمكن أن تخطو ليبيا بذلك إلى درجات عالية من الحضارة بسبب الكسب السياسى والاقتصادى ، ولكن ليبيا اتجهت لأطماع كانت تفوق قدراتها بمراحل واسعة مما سبب خلافات حادة بين قادة الثورة بعضهم والبعض ، وسبب خلافات بين ليبيا والآخرين .

- وتطلع زعماء ليبيا إلى حكم بعض البلاد المجاورة ، وكانت مصر من بين هذه البلاد التى تطلع هؤلاء الزعماء لحكمها عن طريق وحدة رأوا أنها تحقق لهم هذا الهدف ، وجهل هؤلاء الزعماء أن ذلك أمل بعيد التحقيق يرفض كل مصرى مبدأ التفكير فيه ، ولذلك سرعان ما ماتت هذه الفكرة وهى فى مطلع بزوغها ، وقد تسبب عن ذلك خلاف أدى إلى اشتباك مسلح سنة ١٩٧٧ ، فاشبه العقيد القذافى إلى محاولات أخرى لوحدة اندماجية مع أقطار أخرى لعل ذلك يحقق له بعض الأطماع ، فأقام وحدة مع تونس ثم مع مالطة وتشاد والمغرب والسودان وكانت كلها بحركات قصيرة العمر ، وفى الوقت الذى كان دائم الحديث فيه عن الوحدة العربية فإنه لم يقدم دولارا واحدة للمساعدة على التنمية فى بلاد تحتاج للتنمية فى الوقت الذى كانت تقدم دول الخليج التى كان يصفها بالرجعية مساعدات كثيرة فى هذا المجال وهى فى الحق لاتفى بالغرض حقا .. ولكنها جهد يستحق الشكر والتقدير على أى حال.

ويذكر المرحوم الدكتور وحيد رأفت عن هذا الموضوع ما يلى :

واستقر فى ذهن الزعيم الليبى أنه لابد من أجل تحقيق هذه الوحدة بأية صورة ، من أن تصبح الجماهيرية الليبية من أقوى دول الشمال الافريقى إن لم تكن أقوى دول القارة الافريقية جميعا ، كما كان يتمناه جمال عبد الناصر فى أوج عظمتة ، لاسيما وأن فرص القذافى فى تحقيق هذا الحلم ربما كانت أكبر من فرص عبد الناصر ، بالنظر إلى الثروة البترولية الهائلة التى تملكها الجماهيرية الليبية والتى كان من الأفضل للشعب الليبى وللشعوب العربية الأخرى فى

المنطقة ، لو استخدمت هذه الثروة فى النواحي الاقتصادية للنهوض بمستوى هذه الشعوب حضاريا واجتماعيا وحياتيا ، بدلا من تهديد هذه الثروات فى شراء السلاح

علاقات مع الاتحاد السوفييتى تخلق القرب :

لقد أعلن فى يوليو ١٩٧٥ عن توقيع اتفاق بين الاتحاد السوفييتى وليبيا ، وافقت هذه الأخيرة بموجبه على السماح للاتحاد السوفييتى بإقامة قواعد سوفييتية برية وجوية وبحرية فى ليبيا وموانئها ، وذلك فى مقابل تزويد ليبيا بآلاف الدبابات والطائرات والصواريخ السوفييتية بما قيمته حوالى اربعة آلاف مليون جنيه استرليني ، أى حوالى ١٢ ألف مليون دولار أمريكى ، واشترط الاتحاد السوفييتى عند توقيع الاتفاق ان يبعث إلى ليبيا بخبرائه فى جميع النواحي العسكرية على جميع المستويات لتدريب القوات الليبية على استخدام هذه الأسلحة المتطورة .

وهكذا كرر الاتحاد السوفييتى مع ليبيا نفس الاستراتيجية التى بدأها مع جمال عبد الناصر منذ عام ١٩٥٥ ، ولقد اشارت جريدة الأهرام فى عدد ١٨ ابريل ١٩٧٩ إلى أن ترسانه العقيد معمر القذافى تضم اليوم أسلحة هائلة ليس فى مقدرة الانسان الليبي أن يستعملها

- وهذا التصرف جعل ليبيا تقف وجها لوجه أمام دول الغرب لأنها بهذه الأسلحة وبهذه الاتصالات مع الاتحاد السوفييتى أصبحت تهدد الأسطول الأمريكى بالبحر المتوسط وتهدد دول حلف شمال الأطلسى وأخرجت ليبيا الاستعمار الغربى وفتحت الباب لاستعمار سوفييتى ولم تقنع ليبيا بذلك بل هددت بالانضمام لحلف وارسو

وتحدى العقيد القذافى دول الغرب جميعا ، فقد قدم المساعدات لثورة نيكارجوا التى تحاربها أمريكا ، وقدم المساعدات للجيش الجمهورى الأيرلندى الذى يحارب بريطانيا ، وتدخل فى شئون تشاد وهى من مناطق النفوذ الفرنسية ، وطالب بتعويضات هائلة من إيطاليا ، واعتدى أتباعه

من الإرهابيين على بعض خصومه المهاجرين فى ألمانيا ، وكل هذا خلق
عداوات بينة وبين دول الغرب

أورة جوية امريكية على ليبيا :

- ولهذه الأسباب ولغيرها مما خلق عدااء سافرا بين ليبيا الدولة الصغيرة التى
هى فى عداد الدول النامية المتأخرة وبين الولايات المتحدة والغرب
سبح الاثنى ١٤ ابريل سنة ١٩٨٦ وشددت غاراتها على ثكنة باب العزيزية
وهى المقر الرئيسى للقيادة الليبية وأسقطت الطائرات الأمريكية وإبلا من
القذائف دمر وأحرق وصرع حوالى مائة شخص وأصاب الكثيرين بجروح
وإصابات مختلفة ، وبعض هؤلاء من الأطفال والنساء ، وكان من بين
القتلى بعض أفراد من أسرة القذافى ، أما هو فقد نجى بمعجزة إذ أعلمته
المخابرات السوفيتية بتوقع هذه الغارات .

- ونكتفى بأن ننقل هنا العناوين التى ذكرتها صحف القاهرة عن هذه
الغارات الأمريكية على طرابلس وبنى غازى .

الأهرام : الطائرات الأمريكية تقصف مواقع ليبية بقنابل زنة ٢٠٠٠ رطل
موجهه بأشعة الليزر

تدمير سفارات أجنبية وإصابة اثنين من أولاد القذافى

- ريجان يهدد بضرب ليبيا من جديد اذا اقتضى الأمر

٣٣ طائرة امريكية تقوم بغارات واسعة على ليبيا

-- الطائرات استخدمت القنابل التليفزيونية وقصفت مقر القذافى ومطارات
طرابلس وبنى غازى .

- مصرع وإصابة ١٠٠ شخص من بينهم بعض أفراد أسرة القذافى

- وكان رد فعل هذه الغارات ضئيلا فى العالم ، فمصر فقط هى التى
أعربت عن استيائها الشديد لهذه الغارات

- والفكر العربى والإسلامى يرى فى هذه الغارات أسلوب الغابة وعداوان الكبار من الدول على الدول الصغرى وهو عيب يستنكره الأحرار .

- وللأسف لم يثر أحد ضد هذه الغارات الأمريكية ، وحتى مصر اكتفت بالإعراب عن استيائها الشديد لما حدث ، وكان السبب فى عدم الاكتراث أن صلات ليبيا بالعالم العربى والإسلامى لم تكن قوية ، لأن ليبيا كانت تعدّ الجميع من الدول المتخلفة التى تسير فى نطاق الغرب ، ثم إن العرب والمسلمين لم يكن يرضيهم أن يسير القذافى فى الطريق الوعر الذى سلكه قبله عبد الناصر فجرّ على البلاد والعباد قيضاً من المتاعب .

- وكان من أسباب عدم اكتراث العالم أن بعض الطائرات الغربية سقطت بفعل إرهابى ومات مشات الأبرياء الذين كانوا فى هذه الطائرات ، واتهمت ليبيا بارتكاب هذه الجرائم وتُنكر ليبيا هذا الاتهام ، ولكنها لم تنكر مساعدتها لثوار إيرلندا بل قامت بتسليم بريطانيا أسماء قائمة من الذين تدربوا فى معسكراتها من الإيرلنديين ، واعترفت بأنها كانت الممول الرئيسى للثوار خلال عقد الثمانينات (صحف القاهرة فى ٢٢ / ٦ / ١٩٩٢)

حصار حول ليبيا :

- وطالب الغرب بتسليم اثنين من الليبيين اتهما بتفجير الطائرات ورفضت ليبيا تسليم هذين المواطنين فأتخذت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا موقفا صارما ضد ليبيا فى مجلس الأمن فصدر قرار يقضى بعزل ليبيا وحصارها جوا بحيث لا تنزل الطائرات بمطاراتها ولا تستقبل مطارات العالم الطائرات الليبية .

- وقد تسبب عن ذلك الحصار كثير من المتاعب لليبيا ، وأصبحت مصر هى البلدة الوحيدة تقريبا التى قد ليبيا بحاجاتها عن طريق البحر وحتى كتابة هذه السطور لم توافق ليبيا على تسليم الليبيين لاعتقادها أن هذين الشخصيين قد يقعان تحت أى تأثير فيذكران أشياء تمس الزعامات الليبية من حيث تدبير هذه الانفجارات التى دمرت الطائرات الغربية .

ومع كل الحب الذى يغمر قلوبنا إلى القطر العربى الذى يقع على حدودنا الغربية ويعيش فيه عدد من المصريين ، و تربطنا به روابط عديدة ، مع كل هذا الحب يتحتم على كباحث فى التاريخ أن أقول كلمة صدق بالنسبة للزعامة الليبية لعلها تستجيب فلا يزال هناك أمل فى إصلاح الأحوال ، ولذلك نسجل ما يلى :

انحرافات السياسة الليبية :

- اتخذت الزعامة الليبية من جمال عبد الناصر منهجا روحيا ، ونسيت أن المذكور دُمر بلاده وقتل الأبرياء وحكم عليهما بهزائم قاتلة سنة ١٩٥٦ وفى اليمن وسنة ١٩٦٧ ولو لا صلافة المعدن المصرى لانهارت البلاد تماما .

- فى صور هذه القدوة القاسدة أساءت الزعامة الليبية التصرف مع دول الغرب كما يلى :

- أ - الارتباط بالاتحاد السوفييتى وتهديد المنشآت الغربية بالبحر المتوسط .
- ب - إعطاء الاتحاد السوفييتى قواعد برية وبحرية وجوية وهو شئ أكثر مرارة من إعطاء الغرب مثل هذه القواعد ، وكلاهما شر .
- ج - انغمست الزعامة الليبية فى مواقف بالغة السوء عندما ساعدت ثوار إيرلندا وتدخلت فى تشاء ضد فرنسا كما ذكرنا .
- د - اعتدى أتباع الزعامة الليبية على بعض الخارجين على هذه الزعامات اللأجئيين إلى دول أخرى فتسبب عن هذا ثورة هذه الدول على ليبيا ، ومصر تحسب من هذه الدول .
- تهاجم ليبيا الرجعية العربية كما تسميها ولكنها لم تستطع أن تدخل فى سباق المساعدات التى تقدمها هذه الدول للدول العربية أو الإسلامية الفقيرة .
- نضب المعين المالى فى ليبيا لدرجة أن هوكبكت مرتبات المعارين لا تدفع بانتظام ، وقد اضطر بعض المعارين الذين طلبتهم ليبيا أن يعودوا بعد أن يشوامن نيل حقوقهم .
- لم تقم ليبيا خلال ربع قرن من ثورتها يرفع شأن الإنسان الليبى كما ينبغى

، واكتفت بتكديس أسلحه بمليارات الدولارات ليأكلها الصدا .
- اتهمت ليبيا بإسقاط طائرات غربية قتل فيها مئات الأبرياء وليت ليبيا
تستطيع أن تبرئ نفسها من هذا الجرم الكبير .
- وشهد شهر ذى الحجة سنة ١٤١٣ (مايو ١٩٩٣) مأساة جديدة قامت
بها الزعامة الليبية ، فقد وافقت على قيام حوالى مائتى شخص من الجماهيرية
العربية الاشتراكية العظمى كما يسمونها بزيارة اسرائيل لزيارة المسجد الأقصى
والإنسان يعجز عن فهم الدوافع التى أدت لهذا العمل الأخرق ، فالمصريون -
مع وجود معاهده بينهم وبين اسرائيل لم يفكر واحد منهم بالقيام بهذا العمل .
ثم ان جانب التحدى كان واضحا للإسلام والمسلمين ، فلماذا اختير شهر ذى
الحجة لهذه الزيارة الغربية هل يقصدون ضرب الحجاز أو المملكة العربية
السعودية ؟
ونأسف أن نقول إنهم ضربوا أنفسهم ، ولم تنل هذه الزيارة إلا السخط
والاشمئزاز ، ولم تحجن أية ثمة واضطر رئيس وفدها أن يعلن أن القدس عاصمة
فلسطين فأثار بذلك قيادة اسرائيل .
إنها نزعة كالنزعات الليبية التى تتبنى تراث عبد الناصر وهو تراث يخرّب
ولا يعمر لله الأمر من قبل ومن بعد .
وأخيرا نرجو أن تعود ليبيا إلى الرشد وتفتح باسمين « الجمهورية العربية
الليبية » وتحذف كلمة « العظمى » والعظمة لله وحده ، وقد حذفت بريطانيا
هذا الوصف وأقتنعت بأنها المملكة المتحدة ونرجو كذلك أن تسير ليبيا فى نطاق
ديمقراطى حقيقى وأن تحذف الاشتراكية فقد اتضح أن الاشتراكية تُفقر الأغنياء
وتجسيع الفقراء وقد أعلن الاتحاد السوفيتى فشلها الذريع .

السُّنُوسِيَّة

مقدمة :

لعبت السنوسية دورا كبيرا فى الحياة السياسية والروحية بأكثر أقطار إفريقية الاسلاميه وبخاصة ليبيا ، ومن أجل هذا لزم أن نعرض لها بالحديث لنبين بإيجاز مبادئها وتاريخها .

انحلت الدولة الاسلاميه ابتداء من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وتركت فى نفوس المسلمين آلاما وحسرة ، فقد ضعفت الدول الاسلاميه الصغيره أمام الحركات الهدامة فى الداخل والحركات المهاجمة من الخارج ، ومن أجل هذا رحب المسلمون بالقوة العثمانية التى ظهرت فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وباسم الإسلام وباسم الوحدة الإسلامية استطاع الأتراك العثمانيون أن يسيطروا على أغلب العالم الاسلامى ، وكثيرا ما كان قدومهم لقطر من الاقطار تلبية لهتاف أهله كما رأينا فى الدراسة السابقة .

غير أن الاتراك العثمانيين كانوا عسكريين فقط ، فلم يبذلوا جهدا يذكر فى ترقية الحياة الاجتماعية والثقافية عند المسلمين بالدول التى خضعت لهم ، وكانوا يقنعون من الوالى بأن يدفع الخزانة الاستانة ما التزم به من مال ، ولا يعينهم ما سوى ذلك ، وتسبب عن ذلك أن انتشر الجهل والتخلف الفكرى فى البلاد الخاضعة لتركيا ، ثم ان الانتصارات العسكرية التركية لم تستمر ، فقد انقلب ميزان القوى ، وتجمعت دول أوروبا المسيحية ضد تركيا ، وبدأت الهزائم الحربية تنتابها ابتداء من القرن السابع عشر ، وشاركتها الدول العربية فى هزائمها وإن كانت لم تشاركها فى أرياحها يوم كان لها النصر (١) .

وهكذا أحست البلاد العربية بأن تبعيتها لتركيا جرّت عليها الخسارة فى الميدانين السياسى والثقافى ، فبدأت فى هذه البلاد حركات بعث سياسى وثقافى ، فظهرت فى اليمن الحركة الزيدية ، وفى مصر حركة على بك الكبير ، وفى فلسطين حركة الزعيم البدوى ضاهر العمر ، وفى لبنان حركة الأمير فخر الدين وحركة الشهابيين ، وفى العراق حركة الباشوات المعاليك وفى قمتمهم

(١) الحديث عن تركيا أوردناه كاملا فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة

سليمان باشا أبو ليلى ، وفى ليبيا حركة القرمانيين .

ومع هذه الحركات السياسية ظهرت حركات فكرية ثقافية كالحركة الإصلاحية بنجد ، وكحركة جمال الدين الافغانى ومحمد عبده التى انتشرت فى عدة أقطار عربية ، وكالحركات الصوفية بشمال افريقية ، وكالحركة السنوسية التى نحن بصدد الكلام عنها .

ولكن الحركة السنوسية فى الحقيقة كانت ذات طابع خاص ، فهى تشترك مع الحركة الوهابية وحركة جمال الدين الافغانى فى البعث الثقافى ، ولكن لها وسائلها الخاصة وأهدافها الأكثر عمقا وفاعلية ، وسنوليها عناية فى الدراسة التالية .

مؤسس السنوسية :

مؤسس السنوسية هو محمد بن على السنوسى بن العربى وهو من سلالة الأدارسة الذين يتصل نسبهم يعلى بن أبى طالب وفاطمة الزهراء (١) .

وتنسب السنوسية إلى « السنوسى » جد مؤسس هذا التنظيم . ومؤسس السنوسية يعرف بالسنوسى الكبير ، وقد ولد فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٧٩٨ فى بلدة مستغانم بالجزائر ، وبها تلقى مبادئ الدراسة ، ثم رحل إلى فاس حيث التحق بجامعة القرويين ، ورحل كذلك إلى الأزهر فتعلم به وعلم ، ثم سافر إلى الحجاز حيث التقى بكبار المشايخ واستفاد منهم وأعجب بالكثيرين منهم وأعجبوا به ، وأدرك السنوسى حاجة الدعوة الإسلامية إلى الإصلاح فراح يعمل لذلك بحزم وإصرار .

مبادئ السنوسية وسياسة الزوايا :

وضع السنوسى خطة شاملة للإصلاح وأهم عمدها هذه الخطة ما يلى :

- ١- ليست هناك حدود تقسم العالم الإسلامى ، فالحركة الإصلاحية يلزم أن تكون شاملة لكل أقطاره أو أكثرها بقدر الامكان .

(١) انظر النسب كاملا فى « السنوسى الكبير » للطيب الاشهب ص ٧ .

٢- الحركات الإصلاحية يلزم أن تكون سياسية وفكرية فى نفس الوقت ، أما إصلاح جانب بدون الآخر فذلك نقص فى الحركة ، فالإسلام دين ودولة ، عبادة وعمل .

٣- العالم الإسلامى يواجه حركة التبشير المسيحية ، ولذلك يلزم أن تعنى الحركة الإصلاحية بنشر الإسلام وبخاصة بين اللادينيين قبل أن تسبقه المسيحية فى هذا الميدان .

٤- العودة إلى يسر الدين الإسلامى ، والاعتماد على الكتاب والسنة ، والانتفاع بالمذاهب المختلفة فيما يناسب المسلمين وييسر حياتهم ، وتنقيه الإسلام من البدع والضلالات .

٥- الزهد والخمول والاستجداء التى كانت طابع أغلب الطرق الصوفية ليست من الإسلام فى شئ .

وكانت وسيلة السنوسى الكبير لتنفيذ ذلك هى إنشاء الزوايا ، والزاوية مركز دينى وثقافى واجتماعى وعسكرى ، فكان السيد السنوسى يرسل أحد أتباعه إلى جهة ما ، أو يطلب سكان الجهة منه أن يرسل لهم أحد أتباعه لنفس الغرض ، ويتم إنشاء الزاوية فى الجهة ، وهى عبارة عن فناء واسع تحيط به مرافق هى مسكن الشيخ ، ومسجد ، ومكان للضيافة وحجرات لسكنى الطلاب والإخوان ، ومحل لإيواء اللاجئين إلى الزاوية ، وتدور هذه المرافق حول الفناء الذى كان محط القوافل ، وبه بئر للسقى ومخزن للأمتعة ، وتنشأ الزوايا غالبا فى مكان حصين على جبل أو نحوه لتكون أشبه بالقلعة إذا احتاج الأمر للدفاع عنها ، ويختار مكانها فى مفارق الطرق حتى تكون على صلة بالزوايا الأخرى ، ولتكون معها شبكة ضخمة . وكانت القبيلة تنزل للزاوية عن أرض حولها يزرعها الإخوان ، وعلى كل فرد من أفراد الجهة أن يساعد يوما أو أكثر عند الحاجة للعون فى مواسم الحرث والحصاد .

ويقوم على الزاوية « مقدّم » هو شيخها والقيم عليها ، وهو يتولى أمور القبيلة أو الناحية ، ويفصل فى الخصومات بين أهلها ، وله وكيل يتولى الدخل والخرج ، وينظر فى زراعة الاراضى وجميع الشئون الاقتصادية ، ولكل زاوية

شيخ يقيم الصلاة ويعلم الاولاد ويباشر عقود النكاح والصلاة على الجنائز وتشجع السنوسية الإخوان على الزراعة والتجارة ، وتدعو إلى إتقان الرماية والعلوم العسكرية لحماية الطريقة من العدوان (١) .

وهناك جماعة صغيرة يسمون « الخواص » وهم الذين بلغوا درجة عالية فى العلم والمعرفة وهم أشبه بمجلس يشرف على ادارة الزوايا كلها

من هذا الوصف الموجز يتضح أن السنوسية دين ودولة (٢) ، ويتضح النظام الذى وضعه السيد لزواياه ويبدو من تتبع الزوايا أن السيد مال للصحارى والواحات والقبائل أكثر من ميله للمدن ، إذ رأى أن صرخة الإصلاح تضيع فى ضجيج المدن وصخبها ، وأنشأ السيد الزاوية الاولى سنة ١٨٣٧ فى أبى قبيس بالقرب من مكة المكرمة ، ثم أتبعها بزوايا أخرى بالقرب من الطائف والمدينة ويدر وجدة وينبع .

ولكن السيد أحس أن الشمال الأفريقى أولى بحركته ، فغادر الحجاز إلى مصر ثم إلى طرابلس سنة ١٨٤٠ ، وفى سنة ١٨٤٣ أنشأ الزاوية البيضاء فى الجبل الأخضر ، فكانت مركز دعوة ، وفى سنة ١٨٥٦ نقل مركز الدعوة إلى واحة الجغبوب لأنها أكثر توسطاً وأسهل اتصالاً بأنحاء مختلفة من برقة وطرابلس والسودان الغربى كما كانت مركزاً للقوافل ، وأصبحت الجغبوب جنة بعد أن كانت واحة صغيرة ، وأنشأ فيها مدرسة دينية قوامها مكتبة بها ثمانية آلاف مجلد ، فيها كتب الفقه والتفسير والحديث والفلك والفلسفة والفنون ، وعمادها أولئك التلاميذ المخلصون الذين رافقوا السيد فى دراسته وأسفاره ، فصاروا بمن يعتمد عليهم فى التدريس ، وكان فى الجغبوب ٣٠٠ طالب يُعَدُّون الإعداد الصحيح ليكونوا دعاة هداية وحملات نور الاسلام ، وكان السيد يشرف على كل الأمور إشرافاً شخصياً مباشراً ليتأكد من أن كل رجل أعد على خير سبيل قبل أن يوكل إليه القيام بمهمته ، وقد كانت الجغبوب أكبر مركز علمى فى

(١) محمود الشنيطى : قضية ليبيا ص ٣٦ يتصرف .

(٢) انظر كتاب « السنوسية دين ودولة » للدكتور محمد فؤاد شكرى .

شمالي إفريقية بعد القاهرة (١).

وانتشرت الزوايا فى نواحي برقة وطرابلس وواداي ، وظهر أثرها واضحا حيث وجدت ، فالتعاون والأمن والخلق الطيب حلت محل القطيعة والحرب والمفاسد التى كانت منشرة بين القبائل ، وفى المجال الخارجى بدأ الإسلام يزحف بواسطة الزوايا نحو الجنوب حتى بحيرة تشاد ووسط افريقية ، ومن وسائل السنوسى الكبير التى اتبعها فى نشر الإسلام بقلب افريقية ، أنه اشترى مرة قافلة من العبيد ، كان المستعمرون قد خطفوهم ليعرضوهم فى سوق الرقيق ، ولكن السيد أعقبتهم جميعا وأكرمهم وعلمهم الإسلام ، وبث فيهم حبه وتقديره ، ثم تركهم ليعودوا إلى قبائلهم وذويهم دعاء يتحدثون عن طغيان المسيحيين وبر المسلمين ، فكانوا أساسا هاما لنشر دين الإسلام بين أهلهم وقبائلهم .

زعماء السنوسية :

وتوفى السنوسى الكبير سنة ١٨٥٩ فى الجغبوب وعند وفاته كانت السنوسية قد توطدت أركانها وقويت دعائهما ، وكان ابنة السيد المهدي حدثا آنذاك فأقيم مجلس وصاية عليه حتى اكتمل بعد ذلك بسنوات قليلة (ولد السيد المهدي سنة ١٨٤٤) وعاش السيد المهدي حتى سنة ١٩٠٢ وقد بلغت السنوسية فى عهده أسمى درجاتها ونقل السيد المهدي مركز الدعوة من الجغبوب إلى « الكفرة » سنة ١٨٩٥ التى أصبحت المركز التجارى الرئيسى الذى تلتقى فيه القوافل من جميع إفريقية الوسطى والشمالية وكان هؤلاء التجار وقوافلهم سبيلا لنشر الإسلام فى الجهات النائية ، ومركز الإدارة السنوسية كان فى قرية « التاج » ومنها وصلت الدعوة السنوسية حاملة الإسلام إلى بلاد كور وتبستي وبركو وأندى ودارفور وواداي وكانم وتشاد وأرقر ويغرى (٢) .

وعند وفاة السيد المهدي سنة ١٩٠٢ كان للسنوسية ١٣٦ زاوية موزعة كالآتى : برقة ٤٥ - مصر ٢١ - طرابلس ١٨ - الجزيرة العربية ١٧ - فزان

(١) دكتور نقولا زيادة . ليبيا من الاستعمار الإيطالى الى الاستقلال ص ٦٦ .

(٢) دكتور نقولا زيادة : ليبيا من الاستعمار الإيطالى الى الاستقلال ص ٦٨ .

١٥- السودان ١٤ - الكفرة ٦ .

وعند وفاة السيد المهدي كان ابنه السيد إدريس السنوسي (ملك ليبيا السابق) حدثا (ولد سنة ١٨٨٩) فتولى ابن عمه السيد أحمد الشريف بن السنوسي الكبير رئاسة السنوسية ، وفى عهده خاضت السنوسية غمار حرب ضد الفرنسيين فى سباق السيطرة على قلب افريقية ، وكان زعيما السنوسية الأولان يبتعدان بها عن الحرب وعن المشكلات الدولية ، ولكن الزعيم الجديد وجد ألا مناص من النزول إلى المعركة ولكن الأسلحة الحديثة التى كان يستعملها الفرنسيون كسبت لهم النصر ، وإن كانت قد زادت تدريب جيش السنوسية وأتباعها .

وفى عهد هذا الزعيم جاء الزحف الإيطالى على ليبيا ، وقد تصدر السيد أحمد الشريف للعدو الزاحف كما ذكرنا من قبل وألقت تركيا بمقاليده الأمور للسنوسية ، وأصبحت السنوسية قوة دولية معترفا بها .

وفى سنة ١٩١٨ اعتزل السيد أحمد الشريف زعامة السنوسية إثر الهجوم على مصر ، واتجه إلى تركيا ، وآلت زعامة السنوسية إلى السيد إدريس الذى تولى ملك ليبيا حتى عزلته ثورة الفاتح من سبتمبر سنة ١٩٦٩ .

قوة الباطل وصوت الحق

روينا فى هذا الكتاب ألوانا من جهود الفرنسيين والطلبيان للقضاء على الاسلام فى الشمال الافريقى ، ثم انتهى عهد الفرنسيين فى المغرب والجزائر وتونس ، وانتهى عهد الطليان فى ليبيا ، وهب الشعب العربى بعد هذه الكوارث صلب العود متمسكا بدينه وقوميته على أحسن وجه .

لقد كان الله معه فى صراعه ضد الباطل حتى انتهى الليل البهيم إلى غير رجعة ، وأسفر الصبح عن خير عميم ، فالحمد لله .

والى اللقاء فى الجزء الخامس

مراجع الكتاب

ملاحظتان :

١ - المصادر المذكورة هنا هي التي اعتمد عليها هذا الكتاب ووردت في ذيل صفحاته ، أما المراجع الأخرى التي أسهمت بطريق غير مباشر فلم تذكر في هذه القائمة .

٢ - رتبنا هذه المصادر حسب الترتيب الأبجدي لأسماء مؤلفيها ، مع اعتبار الاسم المشهور للمؤلف (فمثلا ابن خلدون وليس عبد الرحمن بن محمد) و مع عدم اعتبار الملحقات (ابن إل) .

١ - Encyclopædia of Islam في عدة مقالات .

٢ - وثائق ومعاهدات .

٣ - صحف ومجلات كثيرة .

٤ - مقالات شخصية لزعماء أسهموا في صنع التاريخ الحديث .

٥ - لقطات مما أذاعه الزعماء بالراديو أو التلفزيون .

٦ - أخبار مجموعة في فتح الأندلس (مجهول المؤلف) .

٧ - ابن أبي أصيبعة عيون الأنباء

٨ - ابن الأثير الكامل في التاريخ

٩ - أبو الفدا المختصر في أخبار البشر

١٠ - إحصان حقي تونس العربية

١١ - أحمد بن حنبل المسند

١٢ - دكتور أحمد شلبي موسوعة التاريخ الاسلامي (الأجزاء المختلفة)

١٣ - دكتور أحمد شلبي تاريخ التربية الاسلامية

١٤ - دكتور أحمد شلبي السياسة في الفكر الاسلامي

١٥ - دكتور أحمد شلبي الاقتصاد في الفكر الاسلامي

١٦ - دكتور أحمد شلبي مقارنة الأديان (الأجزاء الاربعة)

- ١٧ - دكتور أحمد شلبى
 ١٨ - دكتور أحمد ضيف
 ١٩ - أحمد الغائب الأنصارى
 ٢٠ - دكتور أحمد هيكل
 ٢١ - الأصفهانى (أبو الفرج)
 ٢٢ - أمين سعيد
 ٢٣ - أناتول فرانس
 ٢٤ - ألجل جونشالت
 ٢٥ - Baker
 ٢٦ - Barthold
 ٢٧ - البلاذرى
 ٢٨ - البيرونى
 ٢٩ - التنوخى
 ٣٠ - توفيق المذنى (أحمد)
 ٣١ - ابن جبير
 ٣٢ - دكتور جودة هلال وآخر
 ٣٣ - ابن الجوزى
 ٣٤ - جوزيف كالميث
 ٣٥ - حتى (فيليب)
 ٣٦ - دكتور حسن سليمان
 ٣٧ - ابن حوقل
 ٣٨ - الحميدى (محمد بن فتوح)
 ٣٩ - الحضرى
 ٤٠ - ابن الخطيب
 ٤١ - ابن الخطيب
- الفكر الإسلامى : مناقشة وآثاره (مترجم عن الإنجليزية)
 بلاغة العرب فى الأندلس
 المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب
 الأدب الأندلسى وموجز عن أسبانيا
 الأغانى
 الدولة العربية المتحدة
 الحياة مزدهرة
 تاريخ الفكر الأندلسى (ترجمة الدكتور حسين مؤنس)
 The Legacy of Islam
 Turkestan Down to the mongol Invasion
 فتوح البلدان
 الآثار الباقية عن القرون الخالية
 مشوار المحاضرة
 هذه هى الجوائز
 رحلة ابن جبير
 قرطبة فى التاريخ الإسلامى
 المنتظم
 تاريخ أسبانيا
 تاريخ العرب
 ليبيا فى الماضى والحاضر
 كتاب صورة الأرض
 جلوة المقتبس فى تاريخ الأندلس
 معاضرات فى تاريخ الدولة العباسية
 الإحاطة فى أخبار غرناطة
 الحلل الموشية

المقدمة	٤٢ - ابن خلدون
العبر وديوان المهتدا والخبر	٤٣ - ابن خلدون
وفيات الاعيان	٤٤ - ابن خلكان
الانتصار بواسطة عقد الأمصار	٤٥ - ابن دقماق
ترصيع الأخبار وتنويع الآثار	٤٦ - ابن الدلائى
عقيدة الشيعة	٤٧ - درأيت دونلدش
(Eng-Trans) Muslims in Spain	٤٨ - Dozy
A Handbook of Muhammadan Arts	٤٩ - Dimand
تاريخ الإسلام	٥٠ - الذهبي
طرابلس الغرب	٥١ - راسم وشدى
راحة الصدور	٥٢ - الراوندى
طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرملى	٥٣ - رودلفو ميكاكى
The Crisis of Morocco	٥٤ - Rum Landa
معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى	٥٥ - زامباور
طبقات الشافعية الكبرى	٥٦ - السبكى
The Arabs in Spain	٥٧ - Stanley Lane-Poole
Muh. Dynasties	٥٨ - Stanley Lane-Poole
خفايا القضية الليبية	٥٩ - سعد البهنيهي
شمال افريقية	٦٠ - سعيد العريان وآخرون
الاستقصاء لأخبار المغرب الاقصى	٦١ - السلاوى
تاريخ الخلفاء	٦٢ - السيوطى
تاريخ الاندلس	٦٣ - ابن الشباط
الملل والنحل	٦٤ - الشهر ستانى
المغرب العربى	٦٥ - دكتور صلاح العقاد
بقية الملتبس فى تاريخ الأندلس	٦٦ - الضبى

- ٦٧ - الطاهر أحمد الزاوي
٦٨ - الطاهر أحمد الزاوي
٦٩ - دكتور عبد الحميد البطريق
٧٠ - دكتور عبد الحميد البطريق
٧١ - عبد الحميد العبادي
٧٢ - ابن عبد ربه
٧٣ - دكتور عبد الرحمن زكي
٧٤ - دكتور عبد العزيز رفاعي
٧٥ - ابن عذاري
٧٦ - دكتور عزة النص
٧٧ - علاء الفاسي
٧٨ - غريستاف لويون
٧٩ - ابن الفرضي
٨٠ - فيرو
٨١ - الفيروزا بادي
٨٢ - ابن القوطية
٨٣ - كارك بروكلمان
٨٤ - الكندي
Kirk - ٨٥
٨٦ - دكتور لطفي عبد البديع
٨٧ - لويس معلوف
٨٨ - ليفي بروفنسال
٨٩ - عهد الخالق عامر
٩٠ - محمد اسماعيل
٩١ - محمد حبيب أحمد
- تاريخ الفتح العربي في ليبيا
جهاد الأبطال
إفريقية حلم الاستعمار البريطاني
الأمة العربية
المجمل في تاريخ الأندلس
العقد الفريد
إفريقية الإسلامية
الحركة القومية في إفريقية
البيان المغرب في أخبار المغرب
الوطن العربي
السياسة البربرية
حضارة العرب
تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس
حوليات طرابلس
القاموس المحيط
تاريخ فتح الأندلس
تاريخ الشعوب الإسلامية
كتاب الولاة والقضاة
A Short History of the Middle East
الإسلام في إسبانيا
المتجدد
الإسلام في المغرب والأندلس
أدب الأندلس وتاريخها
قضية موريتانيا
نهضة الشعوب الإسلامية

الإسلام والنصرانية مع العلم والمدينة	٩٢ - الإمام محمد عبده
دولة الاسلام فى الاندلس	٩٣ - محمد عبد الله عنان
لمحة الزائر في تاريخ الجزائر	٩٤ - محمد بن الأمير عبد القادر
الإسلام من خلال مبادئه التأسيسية	٩٥ - دكتور محمد غلاب
السنوسية دين ودولة	٩٦ - دكتور محمد فؤاد شكرى
ليبيا الحديثة	٩٧ - » » » »
دائرة معارف القرن العشرين	٩٨ - محمد فريد وجدى
المونس فى أخبار افريقية وتونس	٩٩ - محمد بن أبى القاسم
المغرب الاقصى	١٠٠ - محمود الشرقاوى
قضية ليبيا	١٠١ - محمود الشنيطى
المعجب في تلخيص أخبار المغرب	١٠٢ - المراكشى
مروج الذهب	١٠٣ - المسعودى
التنبيه والإشراف	١٠٤ - المسعودى
نفع الطيب	١٠٥ - المقرئ
المخطوط	١٠٦ - المقرئ
اتعاظ الخنفا	١٠٧ - المقرئ
The Roman Impire	Muir - ١٠٨
Skeches from eastern History	Neldeka - ١٠٩
A Literary History of the Arabs	Nichelson - ١١٠
ليبيا من الاستعمار الإيطالى إلى الاستقلال	١١١ - دكتور نقولا زياد
Atlas of Islmic History	١١٢ - Harry Hazard
الفظائع السود الحمر	١١٣ - هيئة تحرير ليبيا

فهرس الاعلام

ملحوظات : ١- تمحاشيا للإطالة لم أضمن هذه الفهارس أسماء المؤلفين اكتفاءً بمرودها في ذيل صفحات الكتاب ، كما لم أضمنها أسماء الملوك والسلطين التي حوتها قوائم الحكام والواردة بالكتاب لسهولة الحصول عليها من هذه القوائم

٢ - رتبته هذه الأسماء ترتيباً أبجدياً مع عدم اعيبار الملحقات (ابن - ال)
٣ - حرف (م) يوضع بعد الرقم للدلالة على أن الاسم ورد في الصفحة أكثر من مرة

٤ - هذه الفهارس وضعت للطبعة السابقة ، وقد تغيرت الصفحات في هذه الطبعة قليلاً ولم يكن هناك متسع من الوقت للتعديل فابحث عن الكلمة حول هذا الرقم .

(حرف الألف)	أبو ركوة : ٣٤٤ م
إبراهيم بن الأغلب : ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠	أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد الحفصى : ٣٤٧
إبراهيم بن يحيى : ٨٦	أبو السعود الفهرى : ٣٣ -
أبقراط : ١١٠	أبو العباس أحمد : ١٥٩
أبو الاسود بن يوسف : ٣٣ م	أبو عبد الله الداعي : ٢٠٦ -
أبو الأغلب إبراهيم بن عبد الله : ٢٨١	أبو عبد الرحمن يعقوب الهرغى : ٣٤٧
أبو بكر (أحد زعماء المرابطين) : ١٤٥	أبو عبد الله الشيمى : ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٣٣٩
أبو بكر بن عبد الخالق : ١٥٤	٣٤٠ ،
أبو حاتم الإباضى : ٣٣٨	أبو عبيد الله المهدي : ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٤١
أبو الحزم بن جهود : ٦٨	أبو عبيدة : ٥٧
أبو جعفر الطنجالى : ٨٧	أبو عزة : ٢١٠
أبو جعفر المنصور : ٤٢	أبو عمران الفاسى : ١٤٤
أبو حمز موسى : ٢١١	أبو على الأشبلى : ٨٩
أبو حيان القرناطى : ٨٩	أبو الغرائق محمد بن أحمد بن الأغلب : ٣٤٠
أبو الخطاب بن ديمة : ١٥٢	أبو العلاء : ٨٦

أدوارد بيكون : ١١٠
 إسحق التقيس : ٥٠
 إسحق بن محمد بن عبد الحميد : ١٤٢
 أسد بن الفرات : ٢٨١
 أسطا مراد : ٣٠٦
 إسماعيل بن جعفر الصادق : ٢٨٥ ، ٢٨٦
 إسماعيل بن عبيد الله : ١٣٠
 إسماعيل بن عبيد الانتصاري : ١٣٠
 إسماعيل كمالى : ٣٦٩
 أفرقش بن قيس بن صيفى : ١٢١ ، ١٢٣
 أناتول فرانس : ١١٢
 أم الحسن بنت القاضى : ٨٦
 ألفتوس السادس : ٧٢ ، ٧٣
 ألفتوسو العاشر : ١٠٦
 إلياس بن حبيب : ٣٣٩
 إلياس بن أبى منصور : ٣٤٠
 إلياس بن مضر : ١٢٣
 أنور بك : ٣٧٣ ، ٣٧٤
 إيزنهاور : ١٨٨
 (حرف الهاء)
 ابن باجة : ٨٥
 باديس بن منصور : ٣٤١ ، ٣٤٢
 بختضر : ١٢٨
 برفكتوس : ٥٠
 برك : ٢٢٨
 بسمارك : ٣١١

أبو محمد الهازردى : ٢٩٦
 أبو مروان بن عهد الملك ٨٦
 أبو مسلم الخرساني : ٢٩٠ ، ٣٤١
 أبو يحيى بن مطروح : ٣٥٦
 أبو يزيد مخلد بن كيداد : ٢٩١ ، ٢٩٢
 أحمد بن إلياس : ٨٦
 أحمد بلا فريج : ١٨١
 أحمد بن بيللا : ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤
 ٢٥٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤
 ٣٣١ ، ٢٧٤
 أحمد جلى : ٣٠٦
 أحمد بن حملون : ٦٤
 أحمد الشريف : ٣٧٤ ، ٣٨١ ، ٣٨٣
 ٣٨٧ ، ٤١٠ م
 أحمد بن عبد الهادى : ٣٥٧
 أحمد فرنسيس : ٢٤٩
 أحمد القرملى باشا : ٣٦٠ ، ٣٦١ م
 أحمد بن محمد الرسولى : ١٦٨ ، ١٧٣
 أحمد بن المهدي : ١٦٢
 أحمد المريض : ٣٨٤
 أحمد بن مصطفى : ٣٠٨
 الإخشيد : ٢٩٣
 إدجارفور : ٣٢٥
 إدريس بن عهد الله : ١٤٢
 إدلارد البائى : ١٠٧
 أدهم باشا الحلبي : ٣٧٣

جعفر الصحنى : ٦٣ ، ٦٤
 جمال الدين الافغانى : ٢٤٦
 جمال عبد الناصر : ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٣٣٠ ، ٣٣١
 جميلة بوماشا : ٢٦٢
 جميلة بو حريد : ٢٦٢ ، ٢٦٩ ، ٣٢٨
 ابن الجوارى : ٢٨١
 ابن جابر : ١٠٦
 جرارد الكرمونى : ١٠٦
 جريرث : ١٠٧
 ابن جمهور : ٦٨
 جوه الصقلى : ٢٩٠
 جيرو : ٣٢١
 جيوم : ١٧٣
 (حرف الحاء)
 ابن الحاج : ٨٩
 حباسة بن يوسف : ٢٩٢
 الحبيب بورقيبة : ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ م
 ٣٢٦ ، ٣٢٧ م ، ٣٢٨ م ، ٣٢٩ ، ٣٣١
 حريه ولد باهاتا : ١٩٠
 الحسن الثانى : ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٧
 الحسن الحصى : ١٢٠ ، ٢٩٩
 حسن بن خير الدين بروسا : ٢١٥
 الحسن الزيرى : ١٥١
 لحسن بن على : ١٥٨ ، ٢٨٥
 الحسن بن على الصنهاجى : ٢٤٢

البشير الإبراهيمى : ٢٤٩
 بشير السعداوى : ٣٩٠
 بطليموس : ١٠٦
 بكر بن سواده الجذامى : ١٣٠
 بكر بن عيسى القيسى : ٣٣٩
 بلقاسم : ٢٤٩
 بلكين بن زيري الصنهاجى : ١٨٦ م
 بوضياف : ٢٤٩
 بوليناك : ٢٢١
 بيجو : ٢٤٢
 بيزوك عبد الله : ١٩٠
 بيفين : ٣٩٢
 (حرف التاء)
 ابن تاكيت : ٥٣
 تامر : ٣٢٠
 تهاى الجلاوى : ١٢٥ ، ١٧٢
 توماس البرت العظيم : ١٠٩ ، ١١٠
 (حرف التيمم)
 جالينوس : ٨٦ ، ١١٠ م
 جرازياتى : ٣٧٧ ، ٣٨٩ م
 ابن جرير : ١٨٨
 جعفر بن ماهان بن عمير : ١٣٠
 جعفر بن أحمد بن حمدون : ٦٤
 جعفر بن حبيب : ٣٤٢ م
 جعفر الصادق : ٢٤٠
 جعفر بن الفرات : ٢٩٤

ديسقوريدس : ٨٦
 ديسان بن سعيد الخارجي : ١٨٥
 دي مانجوياديا : ١٦٤
 (حرف الراء)
 رافع بن مطروح : ٢٤٠
 رجب باشا : ٣٦٦
 ابن رشد : ٨٥ ، ١١٠ ، ١١٢
 الرشيد : ٢٧٨
 رمضان بك السويحلي : ٣٨١ ، ٣٨٤
 روجر الاول : ٣٤٥٠ م
 روجر الثاني : ١١٦
 روح بن حاتم : ٣٣٩
 رودس : ٣٥١
 روفيقو : ٢٢٩
 رينو : ١٢٣

(حرف الزاي)

الزرقالي : ١٠٧
 زكريا بن أحمد اللبحاني : ٢٤٧
 ابن زهر : ٨٦
 زهير بن غوث : ٢٨١
 زياد بن عبد الرحمن : ٤٤
 زيادة الله بن ابراهيم : ٢٨١ ، ٣٤٠
 زيان الصقلي : ٣٤١

الحسن بن علي الصنهاجي : ٢٤٠
 حسن بن المهدي : ١٧٤
 الحسن بن نافع : ٨٧ م ، ٨٨
 الحسين : ١٧٧
 الحسين آية أحمد : ٢٤٩
 حسين علي : ٢١٥
 الحسين بن علي التركي : ٢٨٥
 الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن : ١٤٢ ، ٢٥٨

الحكم بن هشام : ٣٦ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧
 حماد بن بلكين : ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٣٠٨
 حميد بن عبد الله العكي : ٣٣٨
 حنظلة بن صفوان : ٣٣٨
 ابن حوقل : ٦٠
 حيان بن أبي جبلة : ١٣٠

(حرف الحاء)

حاتم بن عبد القادر : ٢٤٧
 خليل باشا : ٣٥٩ م ، ٣٦٠ ، ٣٦١
 خماويه : ٣١١ ، ٣١٢
 خير الدين بروسا : ١١٩ م ، ٢١٣ م
 ٢١٤ م ، ٢١٥

(حرف الدال)

دانتى : ١٠٩
 ديچول : ٢٥٦ ، ٢٦٦ ، ٢٧١ ، ٣٣٠
 ديدوش مراد : ٢٥٠

(حرف السين)

- سالان : ٢٦٦
سالم بن عبد النبي : ٣٨٠
سانت ارنو : ٢٣١
سحنون بن سعيد بن حبيب : ١٣١
سوستل : ٢٣٩
ابن سعيد الزناتى : ٣٤٢
ابن سيده : ٨٨
سعيد بن شداد : ٣٣٨
سعيد بن مسعود التجينى : ١٣٠
سعيد بن الحسين الانصارى : ٣٧
سفورزا : ٣٧١ ، ٣٩٢
سيفان بن أبى المهاجر : ٣٣٩ ، ٣٤٠
سلفر ستر الثانى : ١٠٧
سلفستري : ٢٧٧
سليمان باشا أبو ليلى : ٤٠٥
سليمان البارونى : ٣٧٩ ، ٣٨٤
سليمان بن عبد الملك : ١٣٠
سليمان بن يقطان الاعرابى الكلبى : ٣٣
السمح بن مالك : ٤٤ ، ٩٩
سنان باشا : ١٢٠ ، ٣٥٣ ، ٣٥٥
سيدى سليمان : ٢٢٩
السيد المهدي : ٤٠٩

(حرف الشين)

- شائب العين : ٣٥٨
شارل الثانى : ١٩١
شارل الثالث : ٢١٦
شارل الخامس : ٣٥١ ، ٣٥٢
شارل العاشر : ٢٢٧
شارل مارتل : ٣٦ ، ١٢٠
شرلمان : ٣٣ ، ٣٤ م ، ٤١
الشرىف المراكشى : ١٦٥
شعبان أغا : ٢١٥
(الحاج) شعبان : ٣٠٦
شومان : ٣٢٤

(حرف الصاد)

- أبو الصباح اليعصبى : ٣٧
صادق بك : ٣٩٦
الصميل بن حاتم : ٣٧
صالح بن يوسف : ٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٣٢٦ ،
٣٢٧ م
صحيح : ٦٣ م
صلاح الدين بن باكوش : ٣٢٤

(حرف الضاد)

- ضاهر العمر : ٢٩٢

(حرف الطاء)

- طاهر بن عمار : ٣٢٧
ابن ظفيل : ٨٥ ، ١٠٠

عمر بن دحية : ١٥٢
عمر بن سويد المرادي : ٣٣٨
عمر عبد الجليل : ٢٨١
عمر بن عبد العزيز : ٤٣ ، ١٢٩ ، ١٣٠ م
١٣١ ،
عمر المختار : ٣٨٧ ، ٣٨٩
عوصلة بن بكار : ٣٤١ ، ٣٤٢ م
عيلان بن مضر : ١٣٢
(حرف الغين)
غالب بن عبد الرحمن : ٦٣ ، ٦٤ م
الغزالي : ١٠٩
غومة المحمودي : ٣٦٤
(حرف القاء)
القارو : ٤٥
فاطمة (بنت الرسول) : ٢٨٦
الأمير فخر الدين : ٤٠٥
قرايز فانون : ٢٣٦
فرانسييس ماكولا : ٣٧٦
قوانكو : ١٠٨ ، ٢٥٢
فرجات حشاد : ٣٢٢ م ، ٣٢٤
فرحات الزاوي : ٣٨٧
فردريك الثاني : ١١٢
فردناند : ٧٨
الفصل بن روح : ٣٣
فلورا : ٥٠ ، ٥١

عثمان بن عفان : ٤٣ ، ١٢٥
عروج : ١١٩ م ، ٢١٣
عزيز على المصري : ٣٧٣
العزير بن المعز : ٢٩٨
عقبة بن نافع الفهري : ١١٤
العلاء بن المغيث : ٣٣ م
ابن علا الحاج : ٢٧٤
علال الفاسي : ١٨٠
علي بن أبي طالب : ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٩
علي باش حمية : ٣١٥ ، ٣١٨
علي تبشني : ٢٢٨
أبو علي الثعالبي : ٦١
علي بن تاشقين : ١٤٩
علي بن خليفة : ٣١٥
علي خوجه : ٢١٥
علي رضا : (المشير) : ٣٦٥
علي زين العابدين : ٢٨٦
علي بن غانية : ٣٤٦ م
علي بن سعد أبو الحسن : ٧٨
علي بك العباس : ١٦٤
علي بك الكبير : ٤٠٥
عمروس بن يوسف : ٤٨ م
عمر بن حفصون : ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ،
٥٩
عمر بن الخطاب : ٤٣

(حرف القاف)

القاسم : ١٠٦

القادر : ٢٨٦

القاسم بن حمود : ٦٧

قسطنطين : ٢٧

قراقوش : ٣٥٤ ، ٣٥٥

ابن قهر : ٣٤٠

ابن قيس بن صيفى : ١٢١

قيس بن غيلان بن مضر : ١٢٣

(حرف الكاف)

كاترين : ١٩٠

كانيقا : ٣٧٦

كريستيان : ٢٣٠

الكندى : ١٠٨ ، ١٠٩

كليرمونت : ١١٩

(حرف اللام)

لابر تنبير : ٢٢١

لافيرى : ٢٢٩

لافال : ٢٢٣

لوتردو فيبانوشى : ١٠٧

لويس التاسع : ١٣٥

(حرف الميم)

الماطري : ٣٢٠

ماكنون بن ضبارة اللحياني : ٣٤١

مالك (الإمام) : ١٣١ م

ابن مالك الخولانى : ١٣٠

ابن ملزار : ٢٨٧ ، ٢٨٩

المتوكل : ١٦٢

محمد بن أحمد : ٣٦٤

محمد إدريس السنوسى : ٣٣٥ ، ١١٠

محمد بن أبي القاسم : ١٣١

محمد بن الاغلب : ١٣١

محمد بن تومرت : ١٤٩ م

محمد بن جهيم : ٣٥٥

محمد حسن الوزانى : ٢٠٠

محمد خيضر : ٢٤٩

محمد بن خزون بن خليفة : ٣٤٥ م

محمد طبق : ٣٠٦

محمد بن الخطاب : ٣٥٤

محمد التركي : ٣٥٨

محمد اللويري : ٢٠٠

محمد عبد الكريم الخطابي : ١٧٣ ، ١٧٤

١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨

محمد باشا السافزلى : ٢٥٢ ، ٣٢١

محمد بن سعد الزغل : ٧٨

محمد سعدون السويحلى : ٢٨٧

محمد شائب العين : ٣٥٩

محمد عهده : ٢٤٦ ، ٣١٥

محمد السامى : ٣٠٨

محمد الشريف : ٤١٠

محمد الصادق : ٣٠٨

محمد صالح حرب : ٣٧٨

مطروح بن سليمان بن يقظان : ٣٨
 معاوية بن أبي سفيان : ٤٣
 معاوية بن صفوان : ٣٣٨
 المعتضد : ٢٨٧ ، ٢٨٩
 المعتمد بن عباد : ٧٣ ، ٧٤
 المعز لدين الله : ٢٠٦ ، ٢٩٠
 المعز بن باديس : ٢٠٧
 المنتصر بن محمد : ٣٥٥
 منديس قرانيس : ٣٢٥ ، ٣٢٦
 المنصور (أبو جعفر) : ٣٣
 المنصور بن بلكين : ٦٠٢ ، ٢٠٨ م ، ٣٤١
 المنصور بن زيري : ٢٩٥
 مودلي بن نصير : ١١٤ ، ١٢٥ ، ١٢٩ ،
 ٢٣٨ ، ٢٧٧
 موسى بن ميمون : ١٠٩ م
 موهب بن حي العافري : ١٣٠
 ميامي (الكولوتيل) : ٣٨١
 ميمون القداح : ٢٨٧
 ميخوتلي : ٣٣٤
 (حرف النون)
 ناهليون : ٢٩١ ، ٢٩٢
 الناصر بن المنتصر : ٣٥٥
 الناصر بن علناس بن حماد : ٢٦٠
 النجيب بن محمد بن جهيم : ٣٥٥
 نافار (الكونت) : ٣٥٠
 نجيب باشا : ٣٦٥

محمد عب الرحمن : ٥٢
 محمد عبد الله اليوسفي : ٣٨٠
 محمد بن عبد الله بن أبي عامر القحطاني :
 ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦
 محمد بن عيسى الهلتاني : ٣٤٧
 محمد بن عرقه : ١٨٥
 محمد بن علي بن السنوسي بن العربي : ٤٠٥
 محمد فريد : ٣١٥
 محمد المقراني : ٢٤٣ ، ٢٤٤
 محمد المنصف : ٣٠٩
 محمد اليزيد : ٢٤٩
 محمد اليزيدي : ١٨٠
 محمد بن يوسف : ١٧١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ،
 ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٩٨
 محمود منتصر : ٣٩٤
 محمود ناجي بك : ٣٦٩
 محمود أبو موسى : ٣٥٩
 محيي الدين الحسيني : ٢٤٠
 محيي الدين بن العربي : ١٥٢
 مراد أغا : ١٣٥٦
 مختار ولد دادا : ١٩٠
 مصالي الحاج : ٢٥٠
 مصطفى بولسيد : ٢٤٩
 مصطفى كامل : ٣١٥
 مصطفى كمال : ٣٧٣
 مصطفى الرالي : ٢٢١ ، ٣٠٩

نواصير : ٢٨٩

(حرف الهاء)

الهادى : ١٤٢

الهادى شاكِر : ٣٢٤

ابن هانى : ٩١

هرثمة بن أعين : ٣٣٩ ، ٣٤٠

هشام بن الحكم : ٣٦ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨

هشام بن عبد الملك : ٣٨٨

هشام بن عبد الرحمن : ٣٦ م ، ٣٩ ، ٤٣ م

٤٤ ، ٤٥ ، ٤٨

هشام بن عزرة : ٣٨

هنرى الرابع : ٣٠٩

هنرى الثالث : ٣٠٩

هوارى بومدين : ٢٤٩ ، ٢٧٤ م

ابن هود : ٧٦

(حرف الواو)

ابن ورو : ٣٤٣

ولسن : ٢٤٥

الوليد بن عبد الملك : ٢٦

(حرف الهاء)

يانس الصقلى : ٣٤٣

يحيى بن ابراهيم : ١٤٤ ، ١٤٥

أ.و يحيى أبو بكر : ٣٤٨

يحيى بن قميم : ٢٩٧

يحيى بن على بن حمدون : ٣٤٢ م

يحيى بن عمر : ١٤٥

يحيى بن غانية : ٢٩٩

يحيى بن موسى : ٣٩٩

يحيى بن يحيى الليثى : ٤٤ ، ٤٥

يزيد بن أبى حاتم الالباضى : ٢٩٠

يزيد بن حاتم الملهبى : ١١٥ ، ٣٨٨ م

يزيد بن صفوان المعافرى : ٣٨٨

يعقوب بن عبد الخالق : ١٥٤ م

يعقوب بن كلث : ٢٤٩

يعقوب الهرغى : ٣٤٧

يغمراسن : ١٢٤ ، ٢٠٩ ، ٢١٠

القديس يوحنا : ١١٩ ، ١٢٠

يوسف (الداي) : ٣٠٦

يوسف بن تاشفين : ٧٣ ، ٧٤ ، ١٤٨ ،

١٤٩

يوسف بن خده : ٢٥٦

يوسف بن طاهر اليربوعى : ٣٤٧ م

يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب الفهرى : ٣١

يوسف باشا القرملى : ٣٣٧ ، ٣٥٥ ،

٣٥٩ ، ٣٦٣

بولوغويس : ٥٠ ، ٥١

فهرس الأمكنة

محاشياً للإطالة لم أضمن هذه الفهارس أسماء الأمكنة التي عقدت الدراسات حولها
لورود هذه الاسماء فى كل صفحة تقريباً من صفحات الكتاب ، وهى : أسبانيا أو
الاندلس ، المغرب ، الجزائر وتونس وليبيا (طرابلس - برقة - فزان) وفرنسا .

١٩٢ ، ٢٨١ ، ٣٠٨ ، ٣٣٣	(حرف الالف)
ايشيان : ٢٦٣ ، ٢٦٩	الأبيار : ٣٨٦
(حرف الهاء)	أبو قبيس : ٤٠٨
بارى : ٢٨٤	أجدابية : ٣٤١
باريس : ١٢٢ ، ١٢٩ ، ٢٤٥	الأستانة : ١١٩ ، ٣٤٠
باكستان : ٣٩٢	استراليا : ٣٢٧
بجاية : ١٣٨	إسرائيل : ٢٦٩
بلر : ٤٠٨	الإسكندرية : ٢٨٩ ، ٣٣٣
البرتغال : ١٩١ ، ١٩٢	إشبيلية : ٥١ ، ٥٢ ، ٦٨ م ، ٧١ ، ٨٩
بركر : ٢٩٥	١٠٥
بونديزى : ٢٨٤	أصيلا : ١٥٦
بروفانس : ٢٨٤	الأطلس الكبير : ١٨٠
بهشتر : ٥٩	أغادير : ١١٩ ، ١٧٤
بريطانيا : ١٦٧ ، ١٩١ ، ١٩٢ م ، ٢١٩ م ، ٢٢٢	أغرين : ١٧٦
البرانس : ١٤٢	أكسفورد : ١١٠
بغداد : ١٠١ ، ١١٤ ، ١١٥ م ، ١٣٩ ، ١٤٩ ، ٢٠٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨١	ألمانيا : ١٦٦ م ، ١٦٧ ، ٢٠٦
بلجيكا : ١٩٢	أمريكا : ٢٥٤
بلرم : ٢٨١ ، ٣٠٦	اندونيسيا : ١٢٢ ، ٢٢٧ ، ٣٢٣
بنزوت : ١٣٨ ، ٣١٢ ، ٣٣١	أنفى : ١٥٦
	ايبريا : ٢٤١
	إيطاليا : ٥١ ، ١١٢ ، ١٣٢ ، ١٦٦

جليقية : ٢٩ ، ٤٠
 جنوه : ٢٨٤
 (حرف الحاء)
 الحجاز : ١٣١
 حماء : ٢٨٩
 (حرف الخاء)
 خوارزم : ٣٢٧
 (حرف الدال)
 الدار البيضاء : ١٢٨ م
 دارفور : ٤٠٩
 درنة : ١٣٨
 دمشق : ١٣٨ ، ١٤٩ ، ٢٧٩
 الدفارك : ٢٣٠
 (حرف الزاى)
 الرباط : ١٣٨ ، ١٨٢
 الرياض : ٤٣ م
 الرجمة : ٣٨٥
 رقادة : ٢٣٤ ، ٢٤٣
 رنله : ٥٢ ، ٢٦٦
 روسيا : ٣٩٢
 رى انيون : ١٣٠
 الريف : ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٤٦ ، ٢٥٧
 ريه : ٤٨
 ريودورو : ٢٩٧
 (حرف الزاى)
 الزاوية البيضاء : ٣٣٣

بنفنتي : ٢٨٤
 بنى غازى : ١٣٨
 البورات : ٢٧٢
 بورسعيد : ١٧٤ ، ١٧٥
 بوجان : ٢٠٨
 بو مريم : ٣٣٨
 بيت المقدس : ٣٠١
 (حرف التاء)
 التاج : ٤٠٩
 تاجورا : ٣٥٢
 تارنتو : ٢٨٤
 تاهرت : ٢٠٥
 تبستي : ٤٠٩
 تركيا : ٣١١ ، ٣١٢
 تشاد : ٤٠٩
 تطوان : ٢٥٢
 تكنس : ٣٨٦
 تلمسان : ١١٦ ، ١١٩ ، ١٣٩ ، ١٥٣ ،
 ١٥٤ ، ١٥٦ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٣
 تيطرى : ٢١٦
 تيهرت : ٢٠٥
 (حرف الجيم)
 جاكارتا : ٢٢٧
 جربة : ١١٩
 جلة : ٤٠٨
 جغبوب : ٤٠٨

الزلافة : ٣٦

الزهراء : ٩٢ ، ١٠١ م

(حرف السين)

الساقية الحمراء : ١٥٠

سانتا كروز : ١٤٩

سبتة : ١١٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦

سجلماصة : ١٥٠

سرت : ٣٤١

سردينية : ٢٣٤ ، ٢٣٧

سرقوسة : ٢٨١

سرقسطة : ٧٤

سفاقس : ١٣٩ ، ٣١٦

سلمية : ٢٤٣ م

السلوم : ٣٣٥

السنغال : ١٢٤ ، ١٢٩ ، ١٣٨ ، ١٤٥ ، ١٩٠

السودان : ١٢٧ ، ١٢٩

سوراته : ١٣٨

سوريا : ١٣٥ ، ٢٤٣

السويس : ١٣١ ، ١٥٨ ، ١٥٩

سوكته : ٣١١

سيدى إدريس : ١٢٨

سيدى أفنى : ١٩٥ ، ١٩٦

سيدى رافع : ٣٤٢

سيدى سليمان : ١٤٢

سيدى فرح : ١٧٥

سيدى يونس : ٢٨٢

(حرف الشين)

الشام : ٤٠ ، ٤١ ، ٦٠ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩

(حرف الصاد)

صقلية : ٥١ ، ١١٣ ، ٢٨١ ، ٢٨٢

صنهاجة : ١١٦ م ، ١٢٣

الصين : ١٠٧

(حرف الطاء)

الطائف : ٤٠٨

طبرق : ٣٠٣

طليطلة : ٤٨ ، ٥٦ ، ٧٣ ، ٩٠ ، ٩٢

طنجة : ١١٤ ، ١١٩ ، ١٤٤ ، ١٤٥

١٥٦ ، ١٦٣ ، ١٨٤ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٣٠

(حرف العين)

عدن : ٢٣٩

العراق : ٤١ ، ٦٠ ، ٢٨٨

العرايش : ١٦٣ ، ١٦٦

عكرمة : ٣٨٦

(حرف الفين)

غبرناطة : ٩٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦

غريان : ٣٦٠ ، ٣٨٦ م

غينيا : ١٣٨

(حرف القاء)

فارس : ١٧٠ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨

(حرف اللام)

لشبيوة : ٥١ ، ٥٣

ليون : ٥٧ ، ٧٣

(حرف الميم)

ماردة : ٥٣

مازورا : ٢٣٥

مالقة : ٥٢ ، ٥٣ ، ١٠٥

مالطة : ١١٩ ، ١٣٨

مالى : ١٣٨

المخلية : ٣٨٦

مدريد : ١٦٦

مدغشقر : ١٧٨

المدينسة : ٢٠٩ ، ٢٢٠ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢ ،

٢٥٣ ، ٢٦٩ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

مرزق : ٣٨٠

مرسى سوسة : ٣٨٠

موسي مطروح : ٣٨٣

موسى وهران : ٢١٣

مصر : ٤١ ، ٦٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٢٧ ،

١٣١ ، ١٣٥ م ، ١٤٤ ، ١٦٧ ، ١٧٤ ،

١٧٨ ، ١٨٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩٩ ،

٣١٥ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٥ ، ٣٤٠ ،

٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

مغراوه : ٢٩٤

مكة : ٣٣

مكتاسة : ١٩٤

مليلة : ٢٩٦ ، ٢٩٧

فاس : ١٣٨ ، ١٤٥ ، ١٦٨ ، ١٧٤ ،

١٨٢

فلسطين : ٢٢٢ ، ٢٦٩ ، ٣١٧

(حرف القاف)

قابس : ٣٤٢

القاهرة : ١١٥ ، ١٣٨ ، ١٤٩ ، ٢٠٦ ،

٢٧٩ ، ٣٣٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣

قرطبة : ٤٠ ، ٥٨ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ،

٩٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ،

١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١٠ ، ١٤٩

قرطاجنة : ١٣٥

القرويين : ٤٠٥

القسنطينية : ٣٠ ، ٦٢ ، ١١٨ ، ١٢٠ ،

١٤٠ ، ٢١٧

قسنطينة : ١٣٨ ، ٢٢٤

قشتالة : ٧٣ ، ٧٤

القيروان : ٣٣ ، ١١٤ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،

١٣٨ ، ٢٧٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٣٣٨

(حرف الكاف)

كالبريا : ٢٨٤

كانم : ٤٠٩

كربلاء : ٢٨٧

الكونفغو : ١٦٨ م

الكفرة : ٤٠٩

كور : ٤٠٩

كورسيكا : ١٨٥ ، ٢٨١ ، ٢٨٤

الكويت : ٢٦٨

مختارة : ١٥٠	المهدية : ١٣٨ ، ١٦٢
الهند الصينية : ٢٥١ ، ٣٢٥	موريتانيا : ٢٩٠ م ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٧٢
هولندا : ١٩٢ م	ميلاتو ٣٧١
(حرف الواو)	(حرف التون)
واشنطن : ٢١٩	الناصرية : ٢٠٨
واداي : ٤٠٩	التجف : ٢٨٨
وليلي : ١٤٢	النسبا : ١٦٧
وهران : ١١٩ ، ١٢٨ ، ٢١٦ ، ٢٢٤	نواصير : ١٨٨
الولايات المتحدة : ١٦٧ ، ١٨٨ ، ٢٢٥	نورمادي : ٢٢٣
(حرف الهاء)	نيوزلنده : ٢٢٢
ينبع : ٤٠٨	(حرف الهاء)
اليونان : ١٠٧	الهافر : ٢٢٥

HISTORY and CIVILIZATION of ISLAM

A study, in Ten Volumes,
on History and Civilization of Islam
in All Muslim Age- and Lands



دكتور احمد شلبي

IV

MUSLIMS IN SPAIN MAGHRIB (MOROCCO), ALGERIA, TUNIS AND LIBYA

From the Rise of Islam up to the
Present Time.

SANUSI SECT:

Its Principles and History

By

AHMED SHALABY,

B A (Hon) Cairo University,

Ph D Cambridge University,

Professor and Head of the Department of
Islamic History and Civilization

Faculty of Dar El Ulum, Cairo University

Published by

THE RENAISSANCE BOOKSHOP

9 Adly Street, Cairo

— يدعى دراساته في الأهرى كلية دار العلوم
(جامعة القاهرة) في جامعة لندن وجامعة كمبودج .

— زار الولايات المتحدة الأمريكية كما زار أكثر دول أوروبا
وآسيا وأفريقيا ، وفي مصر في عدة مؤتمرات دولية

— درس مجموعته من اللغات الأجنبية وعلم الأعلي
والاندونيسية .

— ارتحل بالتدريس في جامعة القاهرة حتى وصل إلى درجة أستاذ
ورئيس قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، وقد
أسس — مستنداً ورائداً ومعارفاً — في جامعة الأهرى ،
ومن ثم في تونس ، والاندونيسيا ، والسودان ، وماليزيا ، والمملكة
العربية السعودية ، وليبيا ، وفي معهد الدراسات الإسلامية ،
معهد السحوت والدراسات العربية ، ومعهد الدراسات
للدبلوماسية

— مؤلفاته تزيد عن مئتين كتاباً وأهم هذه المؤلفات :

١ — موسوعة التاريخ الإسلامي في عشرة مجلدات

٢ — موسوعة الحضارة الإسلامية في عشرة أجزاء .

٣ — مقارنات الأديان ، أربعة أجزاء .

٤ — كيف نكتب بحثاً أو رسالة .

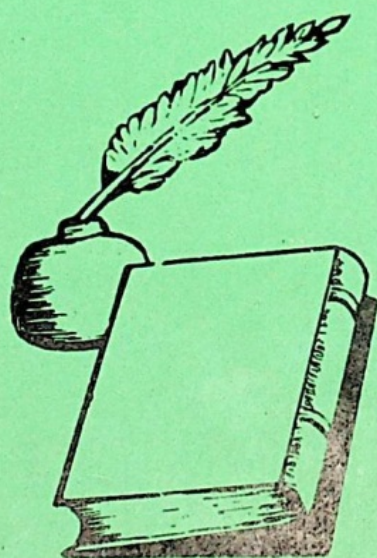
٥ — الكعبة المشرفة ، لكل الأعمار (١٠٠ جزء من
السنة والاربع وقصص القرآن للأولاد والشباب
والسيدات والرجال)

ISLAM BELIEF, LEGISLATION, MORALS

HISTORY OF MUSLIM EDUCATION

— بعض كتبه بالانجليزية والاندونيسية ، وترجم أكثر
مؤلفاته إلى العربية ، والسرقة ، والاندونيسية ، والماليزية
والهندية ، والمهاجرين .

موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية



تأليف
الدكتور أحمد شلبى
دكتوراه من جامعة كامبردج

استاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

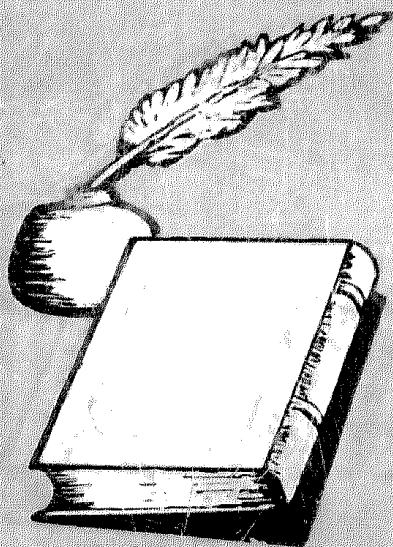
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى - القاهرة

مع إضافات واسعة وتحقيقات جديدة

موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية

٥

- تاريخ مصر وسوريا من مطلع الإسلام حتى الآن :
- (إنصاف تاريخ مصر — دورها الحضارى — أهم آثارها)
- الحروب الصليبية : دوافعها — أدوارها — نتائجها
- (الجهاد الإسلامى فى مواجهة العدوان الصليبي)
- الإمبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن
- (الإمبراطورية العثمانية : مآلها وما عليها)



تأليف
الدكتور أحمد شلبى
دكتوراه من جامعة كمبودج

أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى - القاهرة



الطبعة السابعة (١٩٨٦) مع إضافات واسعة وتحقيقات مهمة

مَوْشَرَّفَةٌ

التاريخ الإسلامى

واحضارة الاسلام

دراسة تحليلية شاملة في عشرة اجزاء لتاريخ العالم الاسلامى كله ، من مطلع الاسلام حتى للمهد الحاضر ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى تسهم بها المسلمون في ترقية المبران وتطوير الفكر البشرى

٥

- تاريخ مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى الآن .
- (انصاف تاريخ مصر — دورها الحضارى — اهم آثارها)
- الحروب الصليبية : دوافعها — ادوارها — نتائجها .
- (الجهاد الاسلامى في مواجهة العدوان الصليبي)
- الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن .
- (الامبراطورية العثمانية : ما لها وما عليها)

تأليف

الدكتور أحمد رشدي

دكتوراه من جامعة كمبردج (انجلترا)
استاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية
بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة
الطبعة السابعة (١٩٨٦)
مع زيادات واسعة وتحقيقات مهمة



ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
رئيسها حسن محمد وأولاده
١ شارع سيد باش بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

التاريخ

شجاع من الماضي ينير الحاضر والمستقبل

أحمد شلبي

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى — ١٩٦٧

الطبعة الثانية — ١٩٧٢

الطبعة الثالثة — ١٩٧٧

الطبعة الرابعة — ١٩٧٩

الطبعة الخامسة — ١٩٨٢

الطبعة السادسة — ١٩٨٤

الطبعة السابعة — ١٩٨٦

خطة البحث في هذه الموسوعة

ان خطة البحث التي اتبعتها في كتابة « التاريخ الاسلامى » خطة جديدة ومريحة ، ويسرنى ان ابرزها في التخطيط التالى ليصرف القارىء عنها ، وليسهل عليه متابعتها :

دراسة زمنية في هذه	ج ١	العرب قبل الاسلام — السيرة النبوية العطرة — عصر الخلفاء الراشدين
الأجزاء الثلاثة اذ	ج ٢	الدولة الاموية والحركات الفكرية والثورية خلالها
أن العالم الاسلامى	ج ٣	الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الأول ودور المسلمين خلاله فى خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية
وحدة واحدة .		

ثم دراسة مكانية (قطاعات جغرافية) فى الأجزاء الخمسة التالية لأن العالم الاسلامى انقسم الى دويلات كثيرة ، ويشمل كل جزء من هذه الأجزاء قطاعا من العالم الاسلامى ، بحيث يتناول تاريخه من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر مبتدئين من الغرب ومتجهين الى الشرق كالتخطيط التالى :

الجزء الثامن	الجزء السابع	الجزء السادس	الجزء الخامس	الجزء الرابع
التاريخ الاسلامى للدول الاسلامية غير العربية بآسيا : إيران — افغانستان — الباكستان — بنجلاديش — ملايزيا — اندونيسيا — الفلبين — اندونيسيا — اندونيسيا — اندونيسيا .	الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق من مطلع الاسلام حتى الآن . دول الجزيرة العربية : المملكة العربية السعودية — عمان اليمن — جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، دولة الامارات العربية — قطر — البحرين — الكويت — العراق	الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق من مطلع الاسلام حتى الآن . دول الجزيرة العربية : المملكة العربية السعودية — عمان اليمن — جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، دولة الامارات العربية — قطر — البحرين — الكويت — العراق	الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق من مطلع الاسلام حتى الآن . دول الجزيرة العربية : المملكة العربية السعودية — عمان اليمن — جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، دولة الامارات العربية — قطر — البحرين — الكويت — العراق	الاندلس الاسلامية وانتقال الحضارة الاسلامية منها الى أوروبا — المغرب — الجزائر — تونس — ليبيا ، من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر السوسية : مبادئها وتاريخها

وتختتم الموسوعة بدراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر :
الجزء التاسع : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد نجيب وعصر عبد الناصر
عصر المظالم والبهزائم
الجزء العاشر : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد انور السادات

كُتِبَ للمؤلف

أولا : موسوعة التاريخ الاسلامى

دراسة تحليلية شاملة في عشرة اجزاء لتاريخ العالم الاسلامى كله من مطلع الاسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى أسهم بها المسلمون في ترقية العمران ، وتطوير الفكر البشرى :

١ - الجزء الاول : (الطبعة الثانية عشرة)

- مقدمة الموسوعة : نطاق التاريخ الاسلامى - تفسير التاريخ - هل التاريخ علم ؟ .. فلسفة التاريخ - فائدة التاريخ - مراحل تدوين التاريخ - قضية الالتزام في كتابة التاريخ الاسلامى - علم التاريخ بين المسيحية والاسلام ...
- تاريخ العرب قبل الاسلام : البدو والحضر - حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

- السيرة النبوية العطرة : جوانب من السيرة تدون لأول مرة - الدعوة الاسلامية وفلسفتها - عصر الخلفاء الراشدين

٢ - الجزء الثانى : (الطبعة الثامنة)

الدولة الاموية والحركات الفكرية والثورية في عهدها .
انصاف تاريخ الامويين وابرار جهودهم السياسية والحضارية .

٣ - الجزء الثالث : (الطبعة الثامنة)

الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الاول ، ويدور المسلمون خلاله في خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية .

٤ - الجزء الرابع : (الطبعة الثامنة)

- الاندلس الاسلامية ، وانتقال الحضارة الاسلامية الى أوروبا عن طريقها .
- المغرب - الجزائر - تونس - ليبيا (من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر) .
- السنوسية : مبادئها وتاريخها .

٥ - الجزء الخامس : (الطبعة السابعة)

- مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر .
(تدوين جديد لتاريخ مصر - دورها الحضارى - أهم آثارها) .
- الحروب الصليبية : دوافعها - أدوارها - نتائجها .
- الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن .

كتب المؤلف

سادسا : تعليم اللغة العربية لغير العرب

وقواعد اللغة العربية

- برنامج شامل ميسر لتعليم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب .
- أول سلسلة من نوعها في المكتبة العربية تبلا هذا الفراغ .
- دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف .
- تضم هذه السلسلة الكتابين التاليين :

٤٧ — تعليم اللغة العربية لغير العرب : (الطبعة الرابعة)
يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى : مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة ،
فالتعبير ، فالإلقاء ، فالخط والنصوص ، ثم يقتز بالطالب الى مرحلة متقدمة
في القراءة والمحادثة والكتابة ، مستعملا في هذه المرحلة موضوعات جذابة من
الفكر الاسلامي والعربي اختيرت من امهات الكتب العربية ثم صيغت في أسلوب
مناسب ، مع أسئلة وتبرينات مفيدة .

٤٨ — قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها : (الطبعة الرابعة)
عرض لجميع أبواب النحو العربي بطريقة تربوية سهلة
ودراسة واضحة لأهم أبواب الصرف

هذا الكتاب ضروري للمثقف العربي وغير العربي

كتب نفدت ولن يعساا طبعها

- ٤٩ — في قصور الخلفاء العباسيين :
أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة .
- ٥٠ — مصر في حربين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) دراسة مقارنة :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٩ من هذه القائمة .
- ٥١ — الحكومة والدولة في الاسلام :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٣ من هذه القائمة .
- ٥٢ — الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحي .
- ٥٣ — النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور وأثر الفكر الاسلامي فيها .
وأكثر مادة هذين الكتابين تضمنها الكتاب رقم ١٤ من هذه القائمة .
- ٥٤ — الجهاد والنظم العسكرية في التفكير الاسلامي :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٩ من هذه القائمة .

٦ - الجزء السادس : (الطبعة الخامسة)

الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخلها الإسلام حتى الآن :

- دراسة من وسائل انتشار الإسلام :
- مراكز الشمال - هجرات عربية وغمر عربية - التجار - الطرق الصوفية - مراكز داخلية .
- الدول الإسلامية قبل الاستعمار الأوربي :
- غانة - مالي - صنفى - دول الهوسا - برنو - باجـرمى - واداي - الفونج - مقتشو - مملكة الزنج .
- الدول الإسلامية الحالية :
- موريتانيا - السنغال - جامبيا - غينيا - مالي - النيجر - نيجيريا - تشاد - السودان - الصومال - جيبوتي .

٧ - الجزء السابع : (الطبعة الرابعة)

الإسلام والدول الإسلامية بالجزيرة العربية والعراق :

- دول الجزيرة العربية من مطلع الإسلام حتى الآن :
- المملكة العربية السعودية - اليمن - جمهورية اليمن الجنوبية - عمان - دولة الامارات العربية - قطر - البحرين - الكويت .
- العراق من مطلع الإسلام حتى الآن .

٨ - الجزء الثامن : (الطبعة الثالثة)

الإسلام والدول الإسلامية غير العربية بآسيا من مطلع الإسلام حتى الآن :

- إيران - أفغانستان - الباكستان - بنجلاديش - ماليزيا - اندونيسيا
- الأقليات الإسلامية في الهند والصين وروسيا والفيليبين ..

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر

٩ - الجزء التاسع : (الطبعة الثالثة)

- ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد نجيب - عصر جمال عبد الناصر (عصر المظالم والهزائم) .

١٠ - الجزء العاشر :

- ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر أنور السادات .
- (ترجمت أكثر أجزاء هذه الموسوعة لعدة لغات)

كتب المؤلف

ثانيا : موسوعة الحضارة الإسلامية

دراسة تحليلية شاملة في عشرة أجزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية التي جاء بها الإسلام لهداية البشرية في شئون العقيدة ، والسياسة ، والاقتصاد ، وفي مجال الحياة الاجتماعية والتربوية والعسكرية ، والتشريعية والقضائية ، كما تبرز جهود المسلمين في الحضارة التجريبية ، وإجزاؤها هي :

١١ - الجزء الأول : تاريخ المناهج الإسلامية (الطبعة الرابعة)

مناهج التعليم في صدر الإسلام - انحرافات في عصور الظلام - وجوب تصحيحها^(١)

١٢ - الجزء الثاني : الفكر الإسلامي : منابعه وآثاره
مآثر المسلمين في مجال الدراسات العلمية والفلسفية (الطبعة السابعة)

١٣ - الجزء الثالث : السياسة (الطبعة السابعة)

في الفكر الإسلامي

مع المقارنة بالنظم السياسية المعاصرة^(٢)

١٤ - الجزء الرابع : الاقتصاد (الطبعة السابعة)

في الفكر الإسلامي

مع المتارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة ، ومع دراسة شاملة للنقاط التالية :

- ١ - الإسلام والمسلمون في مواجهة المشكلة الاقتصادية .
- ٢ - مبادئ الإسلام الاقتصادية .
- ٣ - الإسلام والقضايا الاقتصادية الحديثة (شهادات الاستثمار ...) .
- ٤ - من تاريخ الاقتصاد في الإسلام (بيت المال : موارده ونصارفه ...) .
- ٥ - النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور وأثر الفكر الإسلامي فيها .

(ز)

١٥ - الجزء الخامس : التربية الإسلامية (الطبعة الثامنة)

نظما - تاريخها - فلسفتها

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين ، وتطبيقات التعليم وأهميته ، وحالة المدرسين المالية والاجتماعية ، والإجازات العلمية ، والعقوبات ، والجوائز ، والمكافآت ، وملابس المدرسين ، ونقابة المعلمين ، وتكاثر الفروض بين التلاميذ ، وتوجيههم حسب مواهبهم ..

١٦ - الجزء السادس : المجتمع الإسلامي (الطبعة السابعة)

أسس تكوينه .. أسباب ضعفه .. وسائل نهضته

ابتداء من الطبعة السابعة : رؤية جديدة - تخطيط جديد - أداء جديد .

١٧ - الجزء السابع : الحياة الاجتماعية (الطبعة الخامسة)

في الفكر الإسلامي

- في نطاق الأسرة : كالختان وتحديد النسل وعمل المرأة ...

- وفي نطاق المجتمع : كالأفراح والمآتم والموسيقى والغناء ...

١٨ - الجزء الثامن : تاريخ التشريع الإسلامي (الطبعة الرابعة)

وتاريخ النظم القضائية في الإسلام

مع بحوث واسعة عن القرآن الكريم : المصدر الأول للتشريع

ومع دراسة شاملة لمصادر التشريع الأخرى

في الإسلام

١٩ - الجزء التاسع : والعلاقات الدولية (الطبعة الرابعة)

دراسات علمية توضح النهج الإسلامي في تنظيم العلاقات بين الدول الإسلامية والدول غير الإسلامية في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية .

٢٠ - الجزء العاشر : رحلة حياة (الطبعة الرابعة)

تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الإسلامية

كتب المؤلف

ثالثا : مقارنة الأديان

سلسلة من الكتب في مقارنة الأديان ، تعتمد على أدق المراجع
بمختلف اللغات ، وتمتاز دراستها بالحيدة والعمق ، وتشمل :

٢١ - الجزء الأول : اليهودية : (الطبعة التاسعة)

— دراسة لثنى المسائل اليهودية : اليهود في التاريخ من عهد
ابراهيم حتى الآن : الصهيونية ، أنبياء بنى اسرائيل ، عقيدة بنى اسرائيل ،
يهوه اله بنى اسرائيل ، التعدد والتوحيد في الفكر اليهودي ، الثابوت
والهيكل ، الكهنة والقرايين ...

— مصادر الفكر اليهودي : العهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء

صهيون .

— اليهود في الظلام : الماسونية ، والروتاري ، الاغتيال ، التجسس ،
البابية والبهاية .

— من صور التشريع في اليهودية .

٢٢ - الجزء الثاني : المسيحية : (الطبعة التاسعة)

— المسيح والمسيحية في نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة .
بولس واضع المسيحية الحالية ، التثليث ، صلب المسيح للتكفير عن
خطيئة البشر .

— شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، المجامع ،
طبيعة المسيح والآراء فيها ، الطوائف المسيحية ، الرهبنة والاديرة ،
خرافة ظهور المعراء في كنيسة الزيتون ، حركة الاصلاح الديني ونتائجها
ونقدتها .

٢٣ - الجزء الثالث : الاسلام : (الطبعة التاسعة)

— الله في التفكير الاسلامي ، النبوة في التفكير الاسلامي ، غير المسلمين
في المجتمع الاسلامي ، الدين المعاملة ، المرأة في الاسلام ، الرق وموقف
الاسلام منه ، السياسة والاقتصاد في الاسلام . آراء المفكرين
الغربيين في الاسلام ورسول الاسلام .

٢٤ - الجزء الرابع : اديان الهند الكبرى : (الطبعة التاسعة)

« الهندوسية — الجينية — البوذية »

— تقديم عن : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات في الهند ، الأديان
في الهند .

— دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا : مهابهارتا : يوجاواسستها «
كيتسا .

— أهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الانطلاق والفرمانا ، وحدة
الوجود .

— تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ واتسميها .

كتب للمؤلف

رابعاً : كتب في الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

- ٢٥ — كيف تكتب بحثاً أو رسالة (الطبعة الثامنة عشرة)
مع ثلاثة ملاحق مهمة
- دراسة منهجية لكتابة البحوث واعداد رسائل الماجستير والدكتوراه
- ٢٦ — الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الاسلام ، واستمرارها حتى الآن
عرض للهجمات الصليبية الغربية عسكرية وفكرية على العالم
الاسلامى عبر العصور .

كتابان باللغة الانجليزية هما :

- ٢٧ — ISLAM : Belief - Legislation - Morals
٢٨ — History of Muslim Education
مكتبة النهضة المصرية

وكتب باللغة الاندونيسية والماليزية :

- Negara dan Pemerintahan Dalam Islam — ٢٩
- Masjarakat Islam — ٣٠
- Hukum Islam — ٣١
- Sedjarah dan Kebudajaan Islam 1 — ٣٢
- Sedjarah dan Kebudajaan Islam 11 — ٣٣
- Sedjarah dan Kebudajaan Islam 111 — ٣٤
- Perbandingan Agama (Jahudi) — ٣٥
- Perbandingan Agama (Masihi) — ٣٦
- Perbandingan Agama (Islam) — ٣٧
- Perbandingan Agama (Agama2 yang Terbesar di India : Hindu-Jaina-Buddha) — ٣٨
- Sadjarah Pendidikan Islam — ٣٩
- Politik dan Ekonomi Dalam Islam — ٤٠
- Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam — ٤١
- Perkembangan Keagamaan Dalam Islam dan Maschi — ٤٢
- Perang Salib — ٤٣
- Kurikulum Islam Dalam Perkembangan Sedjarah — ٤٤
- Pengajian Al Quraan — ٤٥
- Sedjarah Kehakiman Dalam Islam — ٤٦
- Pustaka National (Singapore)

كتب للمؤلف

خامسا : المكتبة الاسلامية لكل الأعمار

١٠٠ جزء من سير عظماء الاسلام ، ومن التاريخ ، والحضارة ،
وقصص القرآن للأولاد والشباب والسيدات والرجال
ظهر منها الأجزاء التالية :

المجموعة الاولى : السيرة النبوية العطرة : (١٦ جزءا)

١	ج	محمد قبل البعثة	الطبعة الثانية مع زيادات واسعة وتحسينات شاملة
٢	ج	من غار حراء .. الى غار ثور . (قصة الاسلام في مكة)	
٣	ج	الاسراء والمعراج : دراسة تصحيح للقضاء على الشطحات .	
٤	ج	الهجرة للمدينة ووسائل الاستقرار بها	
٥	ج	الرسول الداعية ومربي الدعاة	
٦	ج	(١) الرسول في بيته : زوجات الرسول — اسباب تعذر الزوجات	
٧	ج	(ب) الرسول في بيته : مشكلات الزوجات وكيف عالجهما — الحجاب — اولاد الرسول — احفاده — خدمه	
٨	ج	الرسول بين اصحابه — الرسول يربي الفرد المسلم — الرسول يربي المجتمع الاسلامي .	
٩	ج	الرسول يربي القضاة ، ويربي القوة العسكرية ، ويربي الولاة والحكام	
١٠	ج	الرسول ونشيب — الرسول والعمل	
١١	ج	توجيهات طبية يقدمها الرسول — مكرامات للرسول — الرسول والمناقضون	
١٢	ج	الرسول والنصارى — الرسول واليهود	
١٣	ج	الاسلام والقتال ، وهل انتشر الاسلام بالقوة او بالدعوة — غزوة بدر ودراسات جديدة حولها — اهم أحداث غزوة بدر	
١٤	ج	غزوة احد والهزيمة التي اخافت المنتصر — غزوة الاحزاب وكلمة عن سلمان الفارسي	
١٥	ج	صلح الحديبية — كتب الرسول للملوك والرؤساء — غزوة مؤتة وبدء الصراع ضد الروم .	
١٦	ج	فتح مكة — غزوة حنين والدلائل — غزوة تبوك — الفترة الاخيرة في حياة الرسول	

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة : (٧ أجزاء)

- ج ١٧ (١) أبو بكر الصديق : حياته وعصره والمشكلات التي واجهها
ج ١٨ (٢) عمر بن الخطاب والتوسع في عهده — عمر باني الدولة
الاسلامية
ج ١٩ (٣) عثمان بن عفان : حياته واخلاقه والفتنة في عهده
ج ٢٠ (٤) علي بن ابي طالب : شخصيته وحياته والمشكلات التي
واجهها
ج ٢١ (٥) طلحة بن عبيد الله (٦) الزبير بن العوام
ج ٢٢ (٧) سعد بن ابي وقاص (٨) ابو عبيدة بن الجراح
ج ٢٣ (٩) عبد الرحمن بن عوف (١٠) سعيد بن زيد بن عمرو

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية : (٥ أجزاء)

- ج ٢٤ نظرة عامة للقرآن الكريم — طريقة الوحي — نزول القرآن
وتدوينه — أسماء السور وترتيبها — قراءات القرآن — فضائل
القرآن — القرآن والحلم — فضائل قراءة القرآن وحكم
التطريب في أدائه والتكسب به
ج ٢٥ خصائص القرآن والاصول التي جاء بها لخير الناس في الدنيا
والآخرة — اعجاز القرآن ومظاهر الاعجاز — معجزات
الرسول والمقارنة بينها .
ج ٢٦ غير العرب والاعجاز البلاغي للقرآن — وجوه الاعجاز في
القرآن — مواجهة واقعية بين العرب والقرآن — التكرار
في القرآن : أسرار وأعجازه .

ج ٣٤ و ٣٥ الأخلاق الاسلامية من القرآن الكريم

جمع الآيات القرآنية عن الأخلاق ، وتصنيفها ، وشرحها
شرحاً مبسراً .

(الترتيب مؤقت ، وفي الطبعة الثانية ان شاء الله سيأخذان
رقم ٢٧ و ٢٨ وتتسلسل الأرقام بعد ذلك) .

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم : (٧ أجزاء)

- ج ٢٧ دراسات عن القصص في القرآن قصة أصحاب الكهف .
ج ٢٨ قصة الرجلين والجنيتين — قصة ذي القرنين وياجوج
وماجوج .
ج ٢٩ قصة موسى والخضر — قصة أصحاب الجنة .
ج ٣٠ قصة عزيز — قصة أيوب عليه السلام
ج ٣١ قصة هارون — قصة أصحاب الأخدود .
ج ٣٢ قصة اسماعيل عليه السلام .
ج ٣٣ قصة يوسف عليه السلام .

المجموعة الخامسة : الدولة الأموية : تاريخ يحتاج الى انصاف :

(٥ أجزاء)

ج ٣٦ تاريخ الدولة الأموية : الانحراف في تدوينه ومحاولة انصافه
معاوية الخليفة الأموي الأول : عام الجماعة — الدهاء —
الاصلاحات الداخلية — التوسع .

ج ٣٧ عبد الملك بن مروان :
احد فتهاء المدينة الاربعة .
البطولة — السياسة — الاصلاحات الداخلية — التوسع

ج ٣٨ نموذجان فريدان متعاصران :
الوليد بن عبد الملك .
عمر بن عبد العزيز .

ج ٣٩ التوسع العظيم في العهد الأموي واهم ميادينه .
ج ٤٠ الشيعة ومدعو التشيع .
قصة استشهاد الامام الحسين .

المجموعة السادسة : صراع وشهداء وانتصارات (٦ أجزاء) كالاتي :

ج ٤١ جزء عن « من شهداء الاسلام » : حمزة بن عبد المطلب —
جعفر بن ابي طالب — عمار بن ياسر — عمر المختار
ومحاكمته .

ج ٤٢ و

ج ٤٣ و ٤٤ ثلاثة اجزاء في مجلد واحد عن :
الهجمات الصليبية : على العالم الاسلامي من مطلع الاسلام
حتى الآن .

ج ٤٥ و ٤٦ جزعان في مجلد واحد عن :
شهر رمضان وانتصارات المسلمين فيه .
انتصارات المسلمين في شهور رمضان على : قريش —
الروم — الفرس — القوط — الصليبيين — المغول —
الصهاينة .

المجموعة السابعة : الاسلام والمرأة (٤ اجزاء) :

ج ٤٧ حالة المرأة قبل الاسلام في الحضارات المختلفة .
ج ٤٨ ماذا قدم الاسلام للمرأة .
ج ٤٩ نماذج من السيدات المسلمات في مجال السياسة والعلوم .
ج ٥٠ زيجات شهيرة في التاريخ الاسلامي (بوران — قطر الندى) .

(الاجزاء التالية ستظهر تباعا ان شاء الله)
(لم تدخل اعداد المكتبة الاسلامية ضمن العدد الخاص بكتب المؤلف)

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة مهمة	١٧

مصر وسوريا

في عهد الولاة : من الفتح حتى سنة ٢٥٤ هـ = ٨٦٨ م

تقديم :

الفتح الاسلامي لمصر وسوريا ٢٧ — سيناء طريق
الرحف العربي ٢٨ — أهم آثار سيناء ٢٩ — العرب
في مصر وسوريا ٣٠ — نصوص من البردي تصف الفتح
الاسلامي لمصر ٣١ — ولاية مصر قبل الطولونيين ٣٢ —
تعريف بأشهر هؤلاء الولاة ٣٤ — الاسلام في بلاد
النوبة ٣٥ .
ولاية سوريا قبل الطولونيين وتعريف بأشهرهم ٤٠ .

اشهر الأحداث في عهد الولاة :

٤٢	مكتبة الاسكندرية وموضوع حرقها
٤٧	انتشار الاسلام في سوريا ومصر
٥١	من هم أحفاد الفراعنة ؟
٥٤	انتشار اللغة العربية
٥٧	نظم الحكم في عهد الولاة
٦٣	الحركات بمصر وسوريا حتى العهد الطولوني

حضارة مصر في عهد الولاة والمدرسة الاسلامية المبكرة :

العلوم الاسلامية ٧٠ — علوم اللغة والأخبار ٧١ —
التصوف ٧٢ — دراسات في العلوم ٧٣ — نشاط في المجال
الاقتصادي ٧٣ .

٧٤	حضارة سوريا في عهد الولاة
٧٧	عواصم مصر في عهد الولاة
٨٠	آثار عصر الولاة

الدولة الطولونية

٨٥	الحركات الاستقلالية بمصر
٨٧	تعريف بالدولة الطولونية
٨٨	تعريف بأمراء الطولونيين
٨٨	أحمد بن طولون وخطواته للسلطة وصعوبات في طريقه
٩٢	الأمراء الطولونيين بعد أحمد
	نشاط القرامطة بسوريا ٩٤ - علاقة الطولونيين
	بالخلافة العباسية ٩٥ .
٩٨	حضارة الطولونيين
١٠١	بين عهدي الطولونيين والاختشيديين
١٠١	عودة الاتجاه الاستقلالي
١٠٢	حالات الفاطميين على مصر
١٠٢	آثار مصر في العهد الطولوني

الدولة الاختشيدية

١٠٧	تعريف بالدولة الاختشيدية
١٠٨	تعريف بالحكام الاختشيديين
١٠٩	علاقة الاختشيد بالخلافة العباسية
١١١	بعد الاختشيد : كافور
١١٣	بعد كافور
١١٣	حضارة الاختشيديين
١١٥	المتنبى وصلته بكافور
١١٧	الحمدانيون في شمالي سوريا
١١٨	العلم والفكر في بلاط سيف الدولة

الدولة الفاطمية

١٢٣	نسب الفاطميين وقيام دولتهم
١٢٤	جوهر يمهّد لاستقبال المعز
١٢٦	جوهر والدعوة الشيعية
١٢٨	المعز لدين الله في مصر
١٢٩	المعز بالعلم

الموضوع	الصفحة
الحاكم بأمر الله ودراسة شاملة عن حياته ونهايته	١٣٢
نهاية أخيه ست الملك ١٤٣ — الدرزية ١٤٣ — التشابه بين العقيدة الدرزية والمسيحية ١٤٧ — بعض التشريعات الدرزية ١٤٧ .	
الظاهر بن الحاكم	١٤٩
المستنصر وبشكلات عصره	١٤٩
باقي خلفاء الفاطميين	١٥٤
عصر نفوذ الوزراء :	
بدر الجمالي ١٥٧ — الأفضل بن بدر ١٥٨ — المليون البطاحي ١٥٩ — أحمد بن الأفضل ١٦٠ — بهرام الأرمي ١٦٠ — رضوان بن البلخشي ١٦٠ — ابن السلار وابن مصلح ١٦١ — شاور وضرغام ١٦٢ .	
أسباب سقوط الخلافة الفاطمية	١٦٣
سوريا والحكم الفاطمي	١٦٤
الفاطميون ونشاط القرامطة بسوريا	١٦٥
مصر تقضي على القرامطة	١٦٦
انحسار ملك الفاطميين بسوريا	١٦٦
أفرداسيون بحلب	١٦٧
البوريون بدمشق	١٦٨
انابكة الموصل	١٦٩
الدور الثقافي لملكة نور الدين زنكي بالشام	١٧٠
الخصارة الفاطمية بمصر وسوريا :	
الأزهر الشريف ١٧٢ — مجالس القصر ومجالس الدعوة ١٧٢ — علماء في الفلك والصيلة والطب ١٧٢ — مؤرخون ١٧٣ — شعراء ١٧٤ — المعري : شاعر سوريا أنفيلسوف ١٧٤ — الهندسة والعمارة ١٧٥ — الزخرفة الإسلامية ١٧٥ — البحرية والترسانة ١٧٨ — صناعات مدنية ١٧٨ — صناعات معادن ١٧٩ — أهم آثار الفاطميين ١٧٩ .	

الدولة الأيوبية

١٨٥	أصل الأيوبيين
١٨٧	الأيوبيون في مصر
١٨٩	صلاح الدين يمكن لسلطانه
١٩٢	بين صلاح الدين ونور الدين
١٩٧	صلاح الدين يوسع مملكته
١٩٨	رجال صلاح الدين
٢٠٠	شخصية صلاح الدين
٢٠٢	خلفاء صلاح الدين
٢٠٩	كلمة ختامية عن الدولة الأيوبية
٢١٠	آثار مصر في العهد الأيوبي

المماليك

٢١٥	ملوك أو رفيعي ؟؟
٢١٩	مصريون ؟؟
٢٢٢	ديكتاتورية المماليك ؟
٢٢٢	المهام التي قام بها المماليك
٢٢٤	عيوب المماليك
٢٢٥	عصر المماليك في العالم
٢٢٥	جنسيات المماليك وطريقة تربيتهم
٢٢٦	مماليك مصر نوعان
٢٣١	السلطة من الأيوبيين للمماليك
٢٣١	شجرة الدر
٢٣٤	تولية السلطة وأساليبها عند المماليك
	تعريف بأشهر السلاطين :

الظاهر بيبرس ٢٣٥ — قلاوون ٢٣٧ — الناصر ٢٣٩ .

٢٤٤	الخلافة العباسية بمصر في عهد المماليك
٢٤٥	المماليك والانتشار
٢٤٨	عين جالوت
٢٥٢	المماليك والصليبيون
٢٥٣	المماليك وبلاد النوبة
٢٦٠	استيلاء المماليك على قبرص وتهديد رودس

الموضوع	الصفحة
كشف طريق راسي الأرجاء الصالح وأثره	٢٦١
نهاية حكم الماليك	٢٦٥

حضارة مصر في عهد الماليك :

التجارة والمال ٢٦٧ — الاقطاع ٢٦٨ — الصناعة ٢٧٠ —
الطبقات ٢٧٠ — الآثار والمنشآت ٢٧١ — العلوم
والمعارف ٢٧٤ — علماء من صفوف الماليك ٢٧٧ .

مصر وسوريا

من الفتح العثماني حتى العهد الحاضر

الخلاف بين الماليك والعثمانيين	٢٨١
نظام الحكم العثماني بمصر وسوريا	٢٨٤
تاريخ مصر وتاريخ لسوريا	٢٨٨

تاريخ مصر من الفتح العثماني

تقديم عن فترات هذه الحقبة :	٢٩١
١ — الفترة العثمانية	٢٩٤
اشهر الولاية في هذه الفترة ٢٩٧ — أشهر الممالك في هذه	
الفترة ٣٠٠ — اشهر الأحداث ٣٠٤ .	

٢ — الفترة المملوكية :

لساذا سميت مملوكية ٣٠٦ — على بك الكبير ٣٠٧ —
من ابي الذهب الى الحملة الفرنسية ٣١٠ .

الحملة الفرنسية :

سير الحملة وانتصاراتها الاولى ٣١٤ — محمد كريم ونضاله
ونهايته ٣١٤ — سياسة نابليون في مصر ٣١٧ .
مقاومة الحملة وجوانب المقاومة : ١ — الماليك وحسب
العصابات ٣١٨ — ٢ — موقعة ابي قير البحرية ٣١٩ —
٣ — ثورة القاهرة الاولى ٣٢٠ — (الخائن يعقوب غام
واللواء القبطي ٣٢٢) ٤ — تركيا والحملة الفرنسية
٣٢٤ — عودة نابليون ونهاية الحملة ٣٢٥ — الاقباط
المصريون يعانون من الاستعمار الغربي ٣٣٤ — مصر
بعد الحملة الفرنسية ٣٣٦ — بروز القوة المصرية ٣٣٧ .

٢٤١ مصر مركزا للدراسات الإسلامية في عصر الجبرتي

ملاح عصر الجبرتي ٢٤٣ — المراكز الثقافية بمصر في
عصر الجبرتي ٢٤٥ — الأزهر ٢٤٥ — المدارس ٢٤٦ —
المساجد ٢٤٨ — الزوايا ٢٥٠ — المنازل ٢٥٢ — أسس
تهتم بالعلم جيلا بعد جيل ٢٥٤ — العلماء الوافدون ٢٥٦ —
مواقف سياسية وعسكرية للتسيخ ٢٦٧ — المكانة
الاجتماعية للعلماء ٢٧٢ — علماء في الدراسات الإسلامية
برزوا في الآداب والعلوم والفنون ٣٧٤ — ملاح أخرى
عن علماء عصر الجبرتي ٣٧٩ .

٢ — الفترة الاستقلالية :

(من محمد على الى الاحتلال البريطاني) ٣٨٤ — محمد
على ٣٨٤ — الزيف في تدوين تاريخ هذه الحقبة ٣٨٥ —
كتابة تاريخ هذه الحقبة من جديد ٣٨٧ .
محمد على والطريق للرئاسة ٣٨٨ — مشكلات في طريق
الوالي الجديد ٣٨٩ — محمد على وبناء الدولة الحديثة
٣٩١ — الجيش والاسطول ٣٩١ — التعليم والنهضة
الفكرية ٣٩٣ — ملكية الأرض ٣٩٤ — الاقتصاد ٣٩٥ .

حروب محمد على :

منبحة المالك ٤٠٠ — الحرب مع السعوديين ٤٠١ —
حرب السودان ٤٠٢ — حرب اليونان ٤٠٥ — حروب
الشام والأناضول ٤٠٦ — معاهدة كوتاهية ٤٠٧ —
موقعة نصيبين واندحار جيش الترك ٤٠٧ — تدخل أوربا
ومعاهدة لندن ٤٠٨ .

٤٠٨	 نهاية محمد على
٤٠٨	 محمد على في الميزان
٤١٠	 إبراهيم وعباس
٤١١	 سيد
٤١٢	 الأخوي اسماعيل

عهد اسماعيل وقائمة منجزاته ٤١٣ — شخصية مصر
الدولية ٤١٦ — توسع وامتداد ٤١٨ — خيانة أمريكية
لمصر ٤٢٠ — تطور ثقافي واجتماعي واصلاحات داخلية

الموضوع	الصفحة
٤٢١ — إلغاء السخرة ٤٢١ — نصف الحكام مصريون	
٤٢٢ — المدارس والمعاهد والكليات ٤٢٢ — دار العلوم	
٤٢٣ ، اصلاحات اسماعيل القضائية ٤٢٩ — من سلطة الفرد الى سلطة الجماعة ٤٣١ .	
عيوب اسماعيل ٤٤١ — الديون وعزل اسماعيل ٤٤٣ — اسماعيل في الميزان ٤٤٥ — اسماعيل والتاريخ ٤٤٥ .	
جمال الدين الأفغانى	٤٤٧
ملاح شخصيته والمآخذ عليه ٥٠ — زعامات مصرية سبقت الأفغانى وعاصرائه ٥٥ — ضعف كتابته الأفغانى ٥٦ .	
الامام محمد عبده	٤٥٨
الأزهر ومشكلاته ٥٩ — مع الأفغانى وهل كان هذا استفاداً للامام ؟ ٦١ — محمد عبده المدرس والصحفى والسياسى والقاضى ٦٢ — مؤلفات الامام ٦٦ — منهجه الاصلاحى ٦٦ — مآخذ ومناقشتها ٦٧ .	
٤ — فترة تعدد السلطات :	
الخدويى توفيق ٧٠ — ثلاثى ردىء ٧٠ .	
الثورة العربية والاحتلال ٧١ — عراقى فى الميزان ٧٣ — فى أعقاب الاحتلال ٧٧ — تعدد السلطات ٧٧ — ثورة المهدي واخلاء السودان ٧٩ — نهلية توفيق ٨٣ .	
عباس حلمى (الثانى)	٤٨٣
مصطفى كامل ومأساة دنشواى ٨٤ — عزل الخديوى ٨٦ .	
أسرة محمد على وإنشاء جامعة القاهرة	٤٨٧
٥ — فترة الصراع	٤٩٠
الحرب العالمية الأولى واثرها على مصر ٩١ — سلاطين مصر وملوكها فى هذه الفترة ٩٣ .	
السلطان حسين كامل	٤٩٣
السلطان فؤاد والملك فاروق	٤٩٤
الحركة القومية وثورة ١٩١٩ : ٩٥ — تصريح ٢٨	

الصفحة

الموضوع

- فبراير ١٩٩٩ — الملك والدستور ٥٠٠ — الملك والشعب
 ٥٠١ — الغاء معاهدة ١٩٣٦ وحريق القاهرة ٥٠٥ .
 العلاقات بين بريطانيا ومصر ٥٠٧ — الحرب العالمية
 الثانية وأثرها على العلاقات ٥٠٨ — الجبهة الوطنية ٥١٠ .
 الأحزاب ودراسات عنها في عهد الملكية ٥١٣ .
 حادث ٤ فبراير وتحقيقه ٥١٦ .
 سعد زغلول وصراعه مع الملك والانجليز ٥٢٢
 الزعيم مصطفى النحاس وجهوده وموقف ثورة ٢٣ يوليو منه ٥٢٧
 حالة مصر الاجتماعية والاقتصادية في عهد الاستقلال ٥٣٢

٦ — فترة الاستقلال التسام :

- من ثورة ١٩٥٢ الى الآن ٥٣٥ .
 المؤرخ المعاصر وتدوين التاريخ ٥٣٨ .
 ثورة ٢٣ يوليو وأسبابها ٥٤٠ — عهد محمد نجيب ٥٤١ —
 القبض على الرئيس محمد نجيب وهو يؤدي عمله
 بعابدين ٥٤٢ .

عهد عبد الناصر : عهد المظالم والهزائم والضياع وأهم أحداثه :

- قانون الإصلاح الزراعى ومآسيه ٥٤٥ — قانون اجسارات
 المساكن ونتائجه ٥٤٦ — الوحدة مع سوريا وفشلها ٥٤٧ —
 الاشتراكية التى افقرت الأغنياء واجاعت الفقراء ٥٤٨ —
 حرب اليمن وضياع رصيد العملة ٥٤٨ — حرب ١٩٦٧ .
 وانهيار جيش عبد الناصر فى دقائق ٥٩ — أسيرة
 عبد الناصر وثراؤها ٥٥٠ — الانفلاق والانفتاح ٥٥٠ —
 التوقف بالاضافة الى المظالم والهزائم ٥٥١ — شىء
 كان يراد بالاسلام ٥٥٢ — احتلال اسرائيل لسيناء ٥٥٣ .
 مشكلة الملاحة بخليج العقبة ٥٥٤
 كلمة عن سيناء فى الماضى والحاضر ٥٥٩
 دير سانت كاترين والمسجد الفاطمى ٥٦٤ — قرية ياميت
 والعنت الاسرائيلى ٥٦٨ — طابا ٥٧١ .

عهد أنور السادات :

- السادات فى الطريق للسلطة ٥٧٣ — مرتبات ومخصصات

الصفحة

الموضوع

	لاسرة عبد الناصر بدون ضرائب ثم لاسرة السادات ٥٧٥ —
	مصر اقتصاديا في مطلع عهد السادات ٥٧٦ .
	حركة مايو وثورة التصحيح ٥٧٧ — معالم عصر السادات (من سنة ١٩٧١ الى سنة ١٩٨١) ٥٧٨ — الحيدة في كتابة التاريخ ٥٨١ .
٥٨٢	ثورة ٢٣ يوليو في الميزان (كما يراها المفكرون)
	من هرب الملايين ؟ ٥٩٠ — الضعفاء وشبيح عبد الناصر ٥٩٠ .
	نقاش حول القصور والحدائق ٥٩١ — ماذا عن محلس الثورة ؟ ٥٩٢ .
	عهد محمد حسنى مبارك :
	منجزات في عهد حسنى مبارك ٥٩٦ — آمال يتطلع الشعب لها ٥٩٧ — قرارات ضرورية مطلوبة ٥٩٩ .
	أحداث خطيرة في عهد حسنى مبارك :
٦٠٤	١ — سفينة وطائرة
٦٠٥	٢ — طائرة مصرية وفخ لبيب
٦١٤	٣ — أحداث الأمن المركزى
٦١٧	٤ — الأزمة الاقتصادية وتسديد الديون
	٥ — الأحزاب في عهدى السادات ومبارك :
	مقدمة ٦٢٢ — السادات والمنابر للأحزاب ٦٢٢ — السادات يعين رؤساء الأحزاب ٦٢٣ — مبارك والأحزاب ٦٢٤ .
٦٢٥	الرئيس مبارك بين اهتماماته وآمالنا فيه
٦٢٦	البلاد التى سبقنا فى الإنتاج وكانت خلفنا
	منشآت حديثة بمصر
٦٢٨	منشآت القرن التاسع عشر
٦٢٨	منشآت القرن العشرين
٦٢٩	منشآت عهد السادات
٦٢٩	منشآت عهد حسنى مبارك

مصر والحضارة الإسلامية

٦٣١	تراجع بغداد وتقدم مصر
٦٣٢	مصر عندما زحف الصليبيون على سوريا
٦٣٢	مصر عندما زحف التتار على الجناح الشرقي
٦٣٥	مصر عندما زحف الفرنجة على الجناح الغربي

وفود العلماء من كل الجهات الى مصر :

٦٣٦	علماء من الشرق (ايران والعراق)
٦٣٧	علماء من الغرب (الأندلس والمغرب)
٦٤٠	علماء من الشام
٦٤٢	جهود مصر في العصر الحديث

تاريخ سوريا من الفتح العثماني

٦٤٥	تقديم عن فترات هذه التاريخ
٦٤٦	١ - الفترة العثمانية (١٥١٦ - ١٩١٨ م)
	الولاية ٦٤٦ - تقسيم سوريا ومشكلة لبنان ٦٤٧ -
	التقسيم بسوريا بعيد الجذور ٦٤٧ - لبنان وجماعات
	الجبل ٦٤٨ - حمايات غربية للطوائف في لبنان ٦٤٩ -
	صراع الموارنة والدروز ٦٥٠ - تقسيم لبنان ٦٥١ -
	الحكم الذاتي في لبنان ٦٥٣ .
٦٥٣	لبنان تنتزع من سوريا وتصبح دولة مستقلة
٦٥٤	وفلسطين تنتزع من سوريا أيضا
٦٥٤	وقصة المملكة الأردنية
٦٥٥	اسرائيل أيضا جزء من فلسطين
٦٥٦	محاولات أخرى لتقسيم باقى سوريا

اشهر الأمراء والولاة :

٦٥٧	جان بردى غزالى - فخر الدين المعنى الأول ٦٥٨ -
٦٥٨	فخر الدين المعنى الثانى - أمراء من أسرة العظم
٦٦١	بشر الشهابى ٦٦١ - ظاهر العمر ٦٦٣ -
٦٦٤	احمد الجزار ٦٦٤ .

الصفحة	الموضوع
٦٦٥	حضارة سوريا في العهد العثماني وأثرها في الحياة العربية
٦٦٧	٢ — فترة الاحتلال الأوربي (١٩١٨ — ١٩٤٦ م) القوى التي تنازعت السلطان في سوريا : فرنسا —
٦٦٧	انجلترا — النفوذ الصهيوني — الأشراف
٦٦٨	الامبراطورية العثمانية وعلاقتها بالدول العربية
	٣ — فترة الاستقلال (١٩٤٦ حتى الآن) :
	سوريا ٦٧٩ — الوحدة مع مصر ثم الانفصال والانتقالات
	٦٨٠ — لبنان ورؤساؤه من أول الاستقلال حتى الآن
	٦٨٣ — الأديان والطوائف في لبنان ٦٨٤ — الحرية
	الثقافية بلبنان وأخطارها ٦٨٥ .
٦٨٦	الحرب الأهلية في لبنان : بدؤها وتطورها
٦٨٨	سوريا تدخل لبنان ، واسرائيل ، وأمريكا
٦٩٠	اسرائيل ومجزرة صبرا وشاتيلا وعين الحلوة
٦٩٣	عملية فدائية ضد الولايات المتحدة
٦٩٤	مواكب الشهداء ضد اسرائيل
٦٩٦	المملكة الأردنية الهاشمية في هذه الفترة
٦٩٧	فلسطين في هذه الفترة
	تركيب المجتمع السوري :
	من ناحية الأجناس واللغات والأديان والمذاهب ٧٠٧ —
	الجعفرية ، من هم ؟ ٧١٠ — العلويون أو النصرية ٧١١ .
	الحروب الصليبية
	دوافعها — ادوارها — نتائجها
	اسباب الحروب الصليبية :
٧١٥	١ — الأسباب التاريخية
٧١٦	٢ — أسباب ترتبط بالديانة المسيحية
٧١٨	٣ — الأسباب التجارية
٧١٩	٤ — أسباب تدخل بالنظام الإقطاعي بأوروبا
٧٢٠	٥ — أسباب تتصل بالجبهة الإسلامية

الصفحة	الموضوع
٧٢٤	٦ — موقعة ملاذكرد
٧٢٥	دعوة البابوية للحروب الصليبية
٧٢٨	الجهاد الإسلامى يواجه الحروب الصليبية
٧٣٠	مطلع الزحف الصليبي

الحرب الصليبية الأولى بإشراف البابا :

سير الحملة ٧٣٣ — الأرمن والموارنة يساعدون
الصليبيين ٧٣٣ — القدس تقاوم وتسقط ٧٣٥ — المجازر
والتنكيل ٧٣٥ — أمارات الصليبيين فى الشام ٧٣٧ —
عوامل ضعف صليبي عقب انتصار الصليبيين ٧٤٠ .

الجهاد بين الحرب الصليبية الأولى والثانية :

جهاد عماد الدين زنكى ونتائجه ٧٤١ — جهود علماء
المسلمين ٧٤٢ — استعادة الرملة والرها ٧٤٣ —
غارات مصرية متصلة على الصليبيين ٧٤٣ .

الحرب الصليبية الثانية :

بقيادة ملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا ٧٤٥ — فشل
الحملة ٧٤٥ .

الجهاد بين الحرب الصليبية الثانية والثالثة :

٧٤٦ جهود نور الدين زنكى

صلاح الدين الأيوبي وعصره :

جهود صلاح الدين قبل موقعة حطين ٧٤٩ — موقعة
حطين ووصفها ٧٥١ — بعد موقعة حطين ٧٥٥ — تحرير
بيت المقدس ٧٥٦ .

الحرب الصليبية الثالثة : حرب الملوك الكبار :

مقارنة بين الحرب الصليبية الأولى والثالثة ٧٦٠ — ضرائب
باسم الحروب الصليبية ٧٦٠ — صراع حول عكا وسقوطها
٧٦٢ — صلح الرملة ٧٦٣ — نهاية صلاح الدين ٧٦٣ .

٧٦٤ بين الحرب الصليبية الثالثة والرابعة

٧٦٥ الملك العادل يقود معسكر المسلمين

الصفحة

الموضوع

الحرب الصليبية الرابعة :

- ٧٦٦ .. اتجاه الصليبيين ضد القسطنطينية والاستيلاء عليها ..
٧٦٨ بين الحرب الصليبية الرابعة والخامسة (زحف الأطفال ونهائهم)
الحرب الصليبية الخامسة :

- ٧٦٩ .. اتجاه الحروب الصليبية ضد مصر ..

الحرب الصليبية السادسة :

- ٧٧٢ .. انتفاضة يافا والتنازل عن بيت المقدس ..

بين الحرب الصليبية السادسة والسابعة :

- ٧٧٤ .. صراعات داخلية ..
٧٧٦ .. الصالح اسماعيل يستولى على بيت المقدس ..
٧٧٦ .. الصالح اسماعيل يعيد بيت المقدس للصليبيين ..
٧٧٧ .. الخوارزمية يستعيدون بيت المقدس نهائيا ..
٧٧٧ .. حطين الثانية وتدمير الصليبيين والخوارزمية ..

الحرب الصليبية السابعة (لويس التاسع) :

- لويس التاسع في دمياط ٧٧٩ — وفي ضواحي المنصورة
٧٨٠ — معركة عنيفة بالمنصورة ٧٨٠ — توران شاه يقود
المعركة ٧٨١ — الاستسلام واسر الملك وصحبه ٧٨٢ .

الحروب الصليبية تقرب من نهايتها :

- الظاهر بيبرس وجهوده ٧٨٥ — قلاوون ٧٨٩ — الأشرف
خليل ونهاية الصليبيين ٧٩٠ — ملاحقة الصليبيين خارج
الحدود ٧٩١ .

أسباب فشل الحروب الصليبية :

- الكنيسة ٧٩٣ — أمراء الاقطاع ٧٩٣ — الاكتفاء بزحف
التتار ٧٩٤ — تجمع المسلمين وقت الشدة ٧٩٥ .

نتائج الحروب الصليبية :

- اقتباس الثقافة الاسلامية ٧٩٦ — سك النقود ٧٩٨ —

الصفحة

الموضوع

- مقارنة عن مدى التبادل الثقافي ٧٩٩ — نواة الاستشراق
٨٠١ — تحرير رقيق أوروبا ٨٠٢ .
اضرار لحقت بالمسلمين : تدمير مدن اسلامية ٨٠٤ —
الاستعمار ٨٠٥ — عدم التسامح ٨٠٥ .
٨٠٦ نماذج لبطولات اسلامية

الامبراطورية العثمانية

- ٨١٤ الأتراك العثمانيون : نشأتهم وتطورهم
٨١٥ التوسع العثماني في آسيا الصغرى
٨١٥ النبوة العثمانية تقفز الى اوروبا
٨١٦ حروب صليبية ضد العثمانيين
٨١٧ الخطر المفوץ يعترض الزحف العثماني
٨١٨ صراع بين امراء العثمانيين

عصر القوة :

- فتح القسطنطينية ولحلت من تاريخها ٨٢٠ — فتح سوريا
ومصر ٨٢٦ — نشاط سليمان في اوروبا وآسيا ٨٢٧ —
حصار فيينا ٨٢٨ — فتح العراق والصنّام مع الفرس
٨٢٨ — الشمال الافريقى ٨٢٩ .
٨٣٢ دور الضعف ومظاهره

خسارة العثمانيين :

- مصادرها ٨٣٧ — الحكم المطلق ٨٣٨ — القاب السلطان
٨٣٩ — ولاية العهد وآثارها القاتمة ٨٤٢ — اعوان
السلطان ٨٤٥ — الاقطاع ٨٤٧ — الالتزام ٨٤٨ — تكوين
الجيش ونشأة الانتكشارية ٨٤٩ — البحرية العثمانية
٨٥٣ — الآثار المعمارية ٨٥٤ — اهمال المؤسسات
الزراعية والصناعية ٨٥٥ — المؤسسات الدينية
ودوائعها ٨٥٦ .

الخلافة العثمانية في الميزان

حسنات العثمانيين :

- ١ — توسعات عسكرية فتحت مجالا للاسلام ٨٦١

الموضوع	الصفحة
٢ — الدفاع عن الأرض الإسلامية ضد الزحف الأوربي	٨٦٢
٣ — مواجهة الصهيونية	٨٦٣
٤ — حماية سيناء من اليهود	٨٦٤
٥ — محاربة التشيع	٨٦٤
مأخذ على العثمانيين :	

الحكم المطلق ٨٦٦ — غيبة التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية ٨٦٦ — الصراع مع الصقليين ٨٦٨ — اهمال العرب والدول العربية ٨٦٨ .

ضعف الامبراطورية العثمانية واسبابه :

اتساع الرقعة مع سوء الادارة ٨٧٠ — ضعف السلاطين المتأخرين ٨٧٠ — تعدد الاجناس والاديان ٨٧١ — الزواج من الأوربيات ٨٧١ — انحذار الانتكشارية ٨٧٢ — الرشوة ٨٧٢ — احتلال القصور ٨٧٣ — الحروب الطويلة ٨٧٣ — القروض ٨٧٤ — اهمال مصالح الشعب ٨٧٥ — المسالة الشرقية ٨٧٧ .

٨٨١	انهيار الامبراطورية العثمانية ومراحله
٨٨٢	معارك ومعاهدات مدمرة
٨٨٧	العثمانيون يخسرون أكثر اموالهم بأوروبا
٨٨٩	مواجهات وخسائر في آسيا وأفريقية
٨٩٤	ظهور مصطفى كمال وانحراف المسيرة
٨٩٦	مراحل القضاء الخلافة
٨٩٧	ثورات ضد أتاتورك وقمعها
٧٩٨	السلطان عبد الحميد الثاني : سيرته وموقفه من الدستور
	تركيا الفتاة ٩٠٥ — الجامعة الإسلامية ٩٠٦ — اصلاحاته والراى فيه ٩٠٨ .
٩٠٩	مدحت باشا : سيرته ونهايته
٩١٢	جماعة الاتحاد والترقى وديكتاتوريتهم
٩١٣	الصهيونية والاتحاديون

مصطفى كمال :

مهادنته لأوريا وصداقته للصهيونية ٩١٥ — جذوره
اليهودية ٩١٧ — صلتة بالماسونية ٩١٧ — سوء صلتة
بأسرته وأتباعه ٩١٨ — محاولاته لأرضاء الغرب ٩١٨ —
خيانة وطنية ٩٢٠ — مخالفاته للإسلام ٩٢٠ — علمانية
التولية ٩٢١ — يناهض الإسلام ٩٢٣ .

٩٢٤ خلفاء مصطفى كمال والانقلابات ضدهم

تركيا في العهد الحاضر :

نشاط إسلامي بعد أتاتورك ٩٢٦ — مشكلة الموصل
والاسكندرونة ٩٢٩ — تركيا والمشكلة القبرصية ٩٣٢ —
نظرة الدول الإسلامية للإمبراطورية العثمانية ٩٣٥ .

٩٣٩ مراجع البحث

..... فهرس الاعلام والأماكن

فهرست الخرائط والصور

٣٦	مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط
٧٩	عوالم مصر الاسلامية
٩٩	مسجد احمد بن طولون
١٢٥	القاهرة الفاطمية
١٢٧	الجامع الازهر ومنطقته
١٣٠	الدولة الفاطمية في أقصى اتساعها
١٣١	منارة مسجد الحكم
١٧٦	باب زويلة وجزء من سور القاهرة القديم
١٧٦	آثار زخرفية
١٧٧	آثار زخرفية بالازهر
١٧٧	آثار زخرفية بالازهر
١٨٢	آثار زخرفية بالازهر
١٩٨	اتساع دولة صلاح الدين
٢١١	قلعة صلاح الدين الأيوبي
٢٣٨	مسجد قلاوون
٢٤١	مسجد الرفاعي والسلطان حسن
٢٤٢	منارة مسجد برقوق
٢٤٢	منارة مسجد قايتباي
٢٤٣	قلعة قايتباي بالاسكندرية
٢٤٣	أبريق من الفضة مطعم بالنحاس (العهد المملوكي)
٢٤٩	أغارات المغول وموقعة عين جالوت
٢٦٢	كشف طريق رأس الرجاء الصالح
٣٩٨	مسجد محمد على بالقلعة : تحفة فنية رائعة
٣٩٩	مئذنة مسجد محمد على بالقلعة
٤٠٤	اتساع سلطة محمد على (خريطة)
٥٤٣	الرئيس محمد نجيب : ساعة القبض عليه وهو يؤدي عمله

٥٥٥	مضيق تيران : مياه عربية إقليمية
٥٦٥	المسجد الفاطمي داخل سانت كاترين
٥٦٨	تجمعات مصرية على حدود غزة : تنظر للأرض العربية ولا تدخلها ..
٥٧٠	اطلال قرية ياميت تنطق بالسخط والاشمئزاز
٥٧٠	وقف حزين بجوار اطلال قرية ياميت
٥٧١	اطلال قرية ياميت تذكرنا بقسوة اسرائيل
٥٨٣	عبد الناصر صانع الهزائم وهو يحاول الهرب من الذكريات
٦١٣	الطائرة المنكوبة : الكابتن هاني جلال
٦١٣	الطائرة المنكوبة : شادية سلامة المضيفة الشهيدة
٦٣٣	القاهرة : مدينة الالف مئذنة
٦٣٤	من معالم القاهرة : خان الخليلي والصناعات اليدوية الحقيقية
٦٦٥	في موكب الشهداء ضد اسرائيل : سناء مهيطة
٧٣٩	الزحف المظلي وتكوين الامارات اللاتينية
٧٥٧	تقلص ملك الصليبيين في عهد صلاح الدين
٨٣٠	الامبراطورية العثمانية في اقصى اتساعها

مقدمة مهمة

باسم الله العلي العظيم أقدم هذا الجزء للقارئ العزيز ، ويعتبر هذا الجزء من الكتب التي فرحت بإخراجها فرحاً شديداً ، إنه حديث عن مصر التي ربّيت على أرضها ونشأت بين ناسها ، وتعلمت بما أنفقت من مالها ، ولعلّ أدّيت لها بعض الدّين إذ دونت تاريخها بأمانة وصدق ، مغنّباً بما تحقّق من أمجاد ، وكاسف البال كلما كبّت أو استبدّ بها الطامعون .

ويشمل هذا الجزء تاريخ مصر منذ دخلها الاسلام في مطلع الاسلام حتى الآن ، وهو تاريخ حافل لعبت فيه مصر دوراً واسعاً في خدمة الاسلام وأصبحت خلال فترة طويلة جداً مركز الفكر الاسلامي من جانب والقوة الاسلامية من جانب آخر ، ومن طول معاشتي لتاريخ مصر ودورها الحضاري باحثاً وكاتباً ومعلّماً ، انتصحت لي حقيقة مهمة هي :

أن تاريخ مصر يجب أن يكتب من جديد لإيضاح قضايا مهمة أو شكت الحقيقة حولها أن تختفى بسبب أو لآخر مثل :

— الحركات الاستقلالية المبكرة بمصر ولوائفها ونتائجها .

— مصر تقود النشاط الحضاري الإسلامي .

— رد الخطأ الذي يرى أن الطولونيين والافشيديين والفاطمين والماليك وأسرة محمد علي ليسوا مصريين .

— الممالك المصريون لم يكونوا رقيقاً ، وصفقات بيعهم باطلة .

— رد الزعم الذي يرى أن الحملة الفرنسية أيقظت مصر وكانت لها نتائج حضارية .

- كتابة تاريخ أسرة محمد علي بعيداً عن الزيف والتعصب .
 - هل صحيح أن الامام محمد عبده كان تلميذاً للأفغانى ؟
 - سيناء : معالمها ومكانها من تاريخ مصر .
 - حقيقة ثورة ٢٣ يوليو التى دمرت مصر والمصريين .
 - وقضايا أخرى كثيرة ومهمة كان لابدّ من عرضها ودراستها ، ويسرنى أننى قمت بذلك كله فى هذه الطبعة الجديدة (الطبعة السادسة) .
 - ولاقى عصر الجبرتى عناية هامة فى هذا الجزء استقيتها من التاريخ الحافل الذى كتبه عن مصر هذا المؤلف الكبير .
 - ومن مميزات هذا الكتاب أنه يشمل تاريخ مصر ودورها الحضارى من مطلع الاسلام حتى الآن ، وهو — مع التحقيقات والتصحيحات السابقة — ما لم يجمعه سفيرٌ من قبل .
 - وقد امتد الحديث فيه حتى شمل عدة سنوات من حكم محمد حسنى مبارك حتى سنة ١٩٨٦ .
 - ومن مميزات هذه الطبعة أن أوردت بها دراسة عن آثار مصر مرتبطة بفترات تاريخها ، ولم يكن المؤرخون من قبل يهتمون بالآثار اهتماماً كافياً .
 - وفى هذا الجزء حديث عن سوريا الحبيبة (١) ، وهى شقيقة لبلادى على مر التاريخ ، وقلب الوطن العربى الخفاق ، فألى دمشق الشامخة ،
-
- (١) سوريا التى نعنيها هنا هى التى انفردت عقدها فأصبحت سوريا — لبنان — المملكة الاردنية الهاشمية — فلسطين (بما فى ذلك المنطقة التى استولى عليها الضهاينة) . .

والغوة الفيحاء أقدم هذا التاريخ الذي دُوِّن بإحساس طيب ولكن بصدق بالغ ، وقد أضفت لتاريخ سوريا كثيرا من المعلومات الجديدة على نحو ما فعلت مع مصر •

وسيمتد حديثنا عن سوريا حتى العصر الحاضر لنرى إسرائيل تعربد ضد لبنان وفلسطين ، وترتكب جرائم وصل من عنفها أن أدانها الإسرائيليون أنفسهم ، وسنرى كذلك دراسات عن الدروز والنصيرية •

وفي هذا الجزء حديث عن الحروب الصليبية ، وعن صراع الوطن العربي والوطن الاسلامي ضد الصليبيين الظالمين ، الذين يتسبون أنفسهم ظلما إلى دين السيد المسيح وهو منهم براء ، وإذا كنت لم أحضر بنفسى هذه المعارك ، فقد حضرتها بفكرى ، واستوعبتها ، ودونتها بدقة وإيجاز متخذا من الماضى عبرة للحاضر والمستقبل ، ورأسا للجيل الحاضر الطريق الذى سلكه أجدادهم ، فأبعدوا عن أرضنا الطيبة أقدام الفاتحين •

وفي هذا الجزء كذلك حديث عن الامبراطورية العثمانية ، وكانت مدى عدة قرون تمثل الاسلام والمسلمين ، ولها من الحسنات والمساوىء ما يدفعنا الى التعرف عليها وعلى تاريخها الذى ارتبط بتاريخ العرب حوالى أربعة قرون •

ونحن بهذا الجزء نحقق خطوة جديدة ومهمة فى خططنا التى رسمناها ، فنستكمل دراسة قطاع جغرافى أو منطقة من أبرز مناطق العالم الاسلامى ، وهى مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى الآن ، والامبراطورية العثمانية منذ نشأتها حتى العهد الحاضر ، مع الحديث عن الحضارات التى قامت بهذه الأقطار على مر القرون ، وقد أفردنا الحروب الصليبية بحديث لأنها كانت طعنة موجهة الى العالم الاسلامى بأسره ، ثم إن أفرادها بحديث كان تنفيذنا لخططنا التى قررناها فى مقدمة الجزء الأول من هذه الموسوعة ،

بأن نخصّ الموضوعات ذات الشأن في التاريخ الاسلامى بعناية خاصة ،
وأن ندرسها مجتمعة ، ليكون ذلك أقرب الى تناولها وفهمها •

وتشمل هذه الطبعة تصوير الأحداث في فلسطين ، واقتحام اسرائيل
أرض لبنان ، والصراع المرير في هذه المنطقة الحبيبة •

وبعد الجزء الخامس صدر الجزء السادس ، وهو خاص بالإسلام
والدول الإسلامية جنوب صحراء إفريقيا منذ دخلها الإسلام حتى الآن ،
وهو مجلد كبير الحجم ، دقيق التخطيط ، كثير المراجع ، أزال الغموض
والحدس عن تاريخ هذه المنطقة وغمره بالضوء •

وصدر كذلك الجزء السابع ، وهو يشمل التاريخ الاسلامى لدول
الجزيرة العربية والعراق •

ثم ظهر الجزء الثامن : ويشمل التاريخ الاسلامى للدول الاسلامية
غير العربية بآسيا •

إيران — أفغانستان — الباكستان — بنجالادش — ماليزيا —
إندونيسيا ، كما يشمل تاريخ الأقليات الاسلامية بالهند والصين والاتحاد
السوفييتى والقبليين •

كما ظهر الجزء التاسع الذى يشمل تاريخ فترة كالحة في حياة مصر
هى فترة الحكم العسكرى الظالم إبان عهد عبد الناصر •

وأوشك أن يظهر الجزء العاشر الذى يشمل تاريخ عهد أنور السادات
بما به من نجاح وفشل •

وادع الله معى أيها القارىء الكريم أن يمدّنا بعونه وتوفيقه
لنصل إلى الغاية التى رسمناها ، أما أنا فأعدّ أن أبذل أقصى الجهد

للوصول الى هذه الغاية ، مضحيا بكل ما يستلزمه هذا العمل الكبير من جهد مادي وأدبي .

* * *

ومن الواضح أن هذا الجزء جولة طويلة في أخطر منطقة في العالم الاسلامي ، تدارسنا خلالها عددا من الدول ، وطوينا عددا من القرون ، وقد استدعى ذلك مراجع جمة متسلسلة ، واستدعى متابعة الأحداث في العصر الحديث والرجوع الى الوثائق والمصحف بعناية ومثابرة .

وهناك شيء عانيناه بصعوبة في هذا الجزء بوجه خاص ، ذلك هو اختصار الأحداث الضخمة في هذا الحيز المحدود من الورق ، وكانت أمامنا موضوعات واسعة ذات مراجع متعددة يمكن أن تكتب في مجلدات كثيرة ، ولكن كان أمامنا التخطيط الذي رسمناه منذ بدأنا هذه الموسوعة ، والذي يقضى بإيجاز القول دون إخلال ، لنضمن بذلك كتابة التاريخ الاسلامي كله في هذه الأجزاء العشرة ، ولكن بدون أن نغفل أى حدث ذى بال ، وقد كنت أترك الإيجاز كلما طرقت باب موضوع مهم ، فكتبت أصوره تصويرا دقيقا ، وأعلق عليه بإفاضة .

* * *

وهناك صعوبة دقيقة للغاية في التأريخ للحياة المعاصرة ، جعلت أكثر المؤرخين يتحاشون التأريخ لهذه الفترة ، حتى لا يقع الواحد منهم تحت تأثير رغبة أو رهبة ، ثم لأن الصورة لا تكتمل عن الحاكم أو المسئول وهو لا يزال في معركة الحياة ، فقد يزل بعد رشد ، أو يرشد بعد الزل ،

ومن أجل هذا نوجز القول عن تاريخ الأحياء عندما نصل للحديث عنهم ، فإذا أخلوا مناصبهم بالوفاء أو غيرها درسناهم دراسة كاملة ، وكانت الموضوعية هي المسيطرة على منهج الدراسة ، فليس هناك مدح أو هجوم ، وإنما سرد الأحداث بدقة والتعليق عليها بإنصاف .

وتحقيقا لهذه الخطة فقد أوجزت هنا القول عن عصر عبد الناصر وعصر الساداتى ، أما الدراسة الشاملة عن هذين العهدين فقد سبق أن ذكرت أفنى خصصت لها جزأين من هذه الموسوعة هما :

١ — الجزء التاسع عن عصر عبد الناصر : عصر المظالم والهزائم

٢ — الجزء العاشر عن عصر الساداتى : عصر الرجل الذى نجح ثم تألّكه ، فخسر بالنجاح كما خسر سواء بالفشل •

* * *

وبعد ، لقد حوى هذا الجزء — فيما حوى — تاريخ بلادي الخبيثة ، وهو تاريخ كتبته بكل الود ولكن مع كل الدقة ، بكل الحب ولكن مع الانصاف والحق •

فاللهم أدعوك أن تنفع بهذا الكتاب قارئه وكاتبه ، وأن تجعله خالصا لوجهك الكريم •

دكتور أحمد شلبي

المعادي في أبريل سنة ١٩٤٨ •

مِصْرُ وَسُورِيَا

عهد الولاية

« من الفتح إلى قيام الدولة الطولونية »

من الفتح (١٢ إلى ٥٢١ هـ) حتى سنة ٢٥٤ هـ

(٦٤١ — ٨٦٨ م)

لتقديم :

فتحت سوريا ومصر في عهد عمر بن الخطاب ، وأصبحتا منذ ذلك الحين تمثلان مركزين من أهم المراكز السياسية والفكرية في العالم الإسلامي ، وقد ارتبط تاريخهما ارتباطا وثيقا في أكثر الفترات بعد هذا التاريخ ، وقد جمعهما Stanley Lane - Poole (١) في بحث واحد ووضح فيه أنه في فترات الاستقلال كانت مصر وسوريا تكونان دولة واحدة ، فقد تمت هذه الوحدة إبان العهد البطلموني والإخشيدي والفاطمي والأيوبي وعهد المماليك ، وحققها إبراهيم باشا بن محمد علي ، حتى تدخلت أوروبا وأرغمته على أن يتخلى عن سوريا ، أما عهد التبعية فكان عهد انفصال ، كما حدث في زمن الحكم العثماني أو الزحف الأوربي ، وواضح من هذا أن الانفصال يخدم الراغبين في إضعاف الجبهة التي تجعلها الوحدة هبة الجباب عظمة السلطان .

وتاريخ مصر وسوريا يستحق اهتماما كبيرا لمكانتهما في المنطقة ، وفي العالم العربي والإسلامي ، وفي المحيط الدولي ، ولذلك سنعنى بدراسة هذا التاريخ وسنهتم بالأحداث الكبرى المتصلة بهذه المنطقة كالحروب الصليبية ، والنشاط الحضاري الذي رعته هذه المنطقة وغذته .

الفتح الإسلامي لمصر وسوريا :

وقد تحدثنا في الجزء الأول من هذه الموسوعة (٢) عن العوامل التي ساعدت على فتح سوريا ومصر ، وفيما يلي خلاصة هذه العوامل :

١ — كانت سوريا ومصر أرضا محتلة بالرومان ، وكان في هؤلاء غطوسة عالية ، فوضعوا أنفسهم موضع السادة بالنسبة لأهل البلاد ، وفي

(١) Mnhammadan Dynustis pp. 67 ff

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي ج ١ ص ٥٧٢ وما بعدها من الطبعة الثانية عشرة .

نفس الوقت كان السكان في سوريا ومصر يسمعون عن عدالة العرب وحسن سيرتهم •

٢ — لم يكن الجنود الرومان مخلصين في الحروب ، لأن الجند كانوا يحاربون عن نظام يدركون أنه لابق لهم فيه ، يدافعون عن وطن يملكه السادة ••• حتى اضطر القوادح إلى أن يقيّدوا الجنود بالسلاسل حتى لا يفرّشوا •

٣ — كانت مصر تعرف بمزرعة القمح ••••

٤ — أغار القوط على أسبانيا وأخذوها من الرومان فبدات الامبراطورية في التصدع •

٥ — خلو الكنيسة من الحب والإخاء الروحي ، واختلاف الكنيسة القبطية عن الكنيسة الرومانية في موضوع « طبيعة المسيح » •

٦ — قدّم بعض المصريين وبعض السوريين مساعدات للجيش الزاحف كانت من أسباب تيسير الفتح •

سيناء طريق الزحف العربي :

وقد وصل العرب مصر عن طريق سيناء وسيناء طريق عبّره أكثر الذين زحفوا على مصر من الشرق ، أو زحفوا من مصر الى الشام ، فعن طريق سيناء جاء الهكسوس الى مصر ، وجاء الفرس والرومان والمسلمون العرب والأتراك ، وعن طريق سيناء تحرك القراعنة الى الشام كما تحرك الطولونيون والأخشيديون والفاطميون والأيوبيون والمماليك ومحمد علي باشا ، ولهذا كانت سيناء منطقة مهمة بالنسبة لتاريخ مصر ، وتجب العناية بها أعظم عناية ليكون سكانها عمالا وزراعا •••• من جانب وجنودا من جانب آخر •

أهم آثار سيناء :

وتحوى سيناء معالم وآثارا قديمة وحديثة أهمها :

— دير سانت كاترين : وقد أنشئ سنة ٢٦٠م باسم دير السيدة العذراء ، وقد زارته القديسة هيلانة في مطلع القرن الرابع وبنى له جوستينيان سورا في القرن الخامس ، وسبى باسم كاترين في القرن التاسع اذ قيل ان رفات قديسة من الاسكندرية أعدمها الرومان سنة ٣١٧ أنتقل الى هذا الدير ، وأن أحد الرهبان رأى في المنام ان جثمانها على قمة جبل قريب من الدير ، فنقل جثمانها للدير .

وبالدير مكتبة نفيسة ، وتابوتان من الفضة ، رسم على غطاءهما صورة كاترين بالذهب ، وصندوقان من الفضة في أحدهما رأس القديسة وعليه تاج ذهبي مرصع بالجوهر ، وفي الثانى ذراعها مع خواتم مرصعة أيضا .
— وداخل الدير يوجد مسجد بناه الخليفة الفاطمى الأمر بن المستعلى (ت ٥٢٤ هـ ت ١١٣٠م) .

— ومن الأماكن الأثرية بسيناء جبل الطور وجبال التيه وعيون موسى
— ومن الأشياء الحديثة المهمة التى تربط مصر بسيناء نفق أحمد حمدي .

ولنأخذ حديث فيما بعد عن سيناء .

بعد الفتح :

وبعد فتح الشام ومصر أصبحت مصر والشام ولايتين طيلة ما تبقى من عهد الخلفاء الراشدين ، ولما جاء العهد الأموى أصبحت دمشق عاصمة الخلافة وظلت مصر ولاية تابعة للخلافة ، ولهذه الفترة خصص الجزء الثانى من هذه الموسوعة ، وجاء العهد العباسى فانتقلت الخلافة إلى بغداد ، وأصبحت سوريا ومصر ولايتين تابعتين لخلفاء العاصمة المدورة ،

وفي الجزء الثالث من هذه الموسوعة حديث مستفيض عن سوريا بعد أن انتقلت عنها الخلافة ، وبخاصة تصوير المقاومة التي أبدتها بقايا الأمويين ومن والاهم ، والصراع بين الدولة الناشئة والدولة الذاخبة (١) ، ولمصر في هذا العصر حركات ثورية شملها الجزء الثالث أيضا وسنعود لها هنا بمزيد من البيان ، وبعد اثنين وعشرين عاما من مطلع العصر العباسي الثاني بدأت حياة الاستقلال لمصر وسوريا ، وكان أحمد بن طولون أول من حقق ذلك الاستقلال .

ذلك قول موجز ، نتبعه بشيء من التفصيل ، مبتدئين بعصر الولاية ، سائرين الى عصور الاستقلال .

العرب في مصر وسوريا :

كان السوريون والمصريون يعتبرون العرب الفاتحين قوما من بنى جنسهم ، فقد هاجر العرب من الجزيرة العربية الى سوريا ومصر قبل الاسلام بالآلاف السنين ، ويقرر أكثر المؤرخين أن أجداد « مينا » مؤسس أول أسرة من الأسر الفرعونية هم من الأجناس السامية بدليل أن ما وصل إلينا من لغة انفرعنة تشاهد فيه العنصر الإفريقي والعنصر السامي وأن الأخير غالب على الأول (٢) ، وعلى هذا فعندما دخل العرب المسلمون مصر وسوريا لم يعد هم السكان الأصليين من الأجانب الغاصبين ، ولذلك يمكن القول ان الفتوحات الإسلامية هي عند التحقيق انقلاب اجتماعي سياسي استرد به الشرق الأدنى مجده السامي الغابر ، فقد جاء الاسلام مهييا بالشرق الى النهوض من كبوته بعد ألف سنة اجتاحتها فيها سطوة الغريب ، فاستطاع الشرق بالاسلام أن يسترجع ماضيه المجيد لا في

(١) ص ٢٠ - ٤٣ ، ١٥٠ ، ١٥٣ .

(٢) عمر الاسكندري وميجراج سفدج : تاريخ مصر الى الفتح العثماني

ص ٦ وانظر دراسة واسعة عن هذا الموضوع في الجزء السادس من هذه الموسوعة ص ٦٢ وما بعدها .

ميدان السياسة فحسب بل في ميدان الثقافة أيضا حيث تسنى له أن يعيد سيادته الفكرية (١) .

ويمكن القول إن الفرس والمصريين والسوريين رأوا في الاسلام متنفسا وسماحة أنقذتهم من الطغيان والإكراه والاستغلال التي عاشوا تحت ضغطها مدة طويلة ، فلقد ضمن الاسلام لهم حرية الأديان ، وأعفاهم من الأعمال العسكرية نظير دفع جزية ضئيلة الا من شاء أن يدخل صفوف المدافعين عن البلاد فله أن يدخل ويعفى من الجزية مع بقاءه على دينه ، وترك المسلمون الأرض لأصحابها على أن يدفعوا خراجها وهو أقل بكثير مما كان يأخذه الأكاسرة والقيصرة الذين كانوا يعتبرون أنفسهم ملاكا للأرض ولرقيق الأرض ، وأمن المسلمون الأهلين على أموالهم ونسائهم وأولادهم ، ورأى الأهلون في المسلمين المساواة التي كانوا لا يحلمون بها (٢) ، وقد كان لرابطة الدم ورابطة التعاون والمساواة أكبر الأثر في خلق جو من القربى بين العرب وبين المصريين والسوريين في أغلب فترات التاريخ الاسلامي بهذه البلاد .

نصوص من البردى تصف الفتح الاسلامي لمصر :

ونصوص البردى المعاصرة لعهد الفتح تظهر لنا أن الغزاة المسلمين لم يكونوا مجرد غزاة مغامرين ، وانما كانوا يحملون حضارة ، كما كانوا محاربين منظمين أقوياء يحملون أسلحة من الحديد والرصاص ، ويقاثلون ببسالة في سبيل عقيدة اعتنقوها باخلاص ، وقد تحررت مصر بهم من الضغط البيزنطي ورحبت بأبناء الصحراء الذين نادوا فيها بحرية العقيدة كما تشهد بذلك وثائق من البردى احداها مؤرخة في ٦٤٢م -

Hitti : History of the Arabs vol. 1 pp. 194.198

(١)

Kirk : A Short History of the Middle East p 29

(٢)

وانظر التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية للمؤلف ج١ ص ٥٩٣
من الطبعة الثانية عشرة .

الثلاثاء آخر المحرم سنة ٢٢ وتشهد نصوص أخرى من عصر الفتح بأن المسلمين الفاتحين حموا دماء المصريين وأملاكهم واحترموا شخصية البلد العريقة النابعة من حضارة قديمة * وفي كتابة الأسقف يوحنا ، المعاصر لتاريخ الفتح ، اعتراف بأن عمرو بن العاص لم ينزع شيئا قط من أملاك الكنيسة *

ولاية مصر قبل الطولونيين :

تولى إمارة مصر منذ الفتح الاسلامى حتى استقل الطولونيين بها ستة وستون واليا ، وقد تولى بعضهم مرتين ، وبعضهم تولى ثلاث مرات ، فبلغ عدد العهود التى صدرت للولاية بمصر مائة عهد ؛ وفيما يلى أشهر هؤلاء الولاة :

عصر الخلفاء الراشدين :

- عمرو بن العاص سنة ٢١ .
- عبد الله بن سعد بن أبى سرح » ٢٥
- قيس بن سعد بن عبادة » ٣٥
- محمد بن أبى بكر » ٣٦

العصر الأموى :

- عتبة بن أبى سفيان » ٤٣
- مسلمة بن مخلد » ٤٧
- عبد العزيز بن مروان » ٦٥
- عبد الله بن عبد الملك بن مروان » ٨٤
- قرعة بن شريك » ٩٠

- ١٠٥ » — محمد بن عبد الملك بن مروان
- ١٠٨ » — حفص بن الوليد
- ١١١ » — الحكم بن قيس
- ١٣٢ » — عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير
- العصر العباسي :
- سنة ١٣٣ — صالح بن علي
- ١٣٣ » — عبد الملك بن زيد الخراساني
- ١٤٤ » — يزيد بن حاتم بن قبيصة
- ١٤٥ » — عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن العباس
- ١٥٩ » — مطر مولى المنصور
- ١٦٢ » — واضح مولى المهدي
- ١٦٥ » — ابراهيم بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس
- ١٦٩ » — الفضل بن صالح
- ١٦٩ » — علي بن سليمان بن علي
- ١٧١ » — موسى بن عيسى بن موسى
- ١٧٦ » — جعفر البرمكي « حاكم فخرى أناب عنه عمرو بن مهران »
- ١٧٨ » — هرثمة بن أعين
- ١٧٨ » — عبد الملك بن صالح
- ١٨١ » — اسماعيل بن صالح
- ٢٠٠ » — السري بن الحكم

- ابنا السرى (محمد فعبد الله) » ٢٠٥
- عبد الله بن طاهر بن الحسين » ٢١١
- إيتاخ التركى » ٢٣٥
- عنيسة بن إسحق » ٢٣٨
- الفتح بن خاقان » ٢٤٢
- مزاحم بن خاقان سنة ٢٥٣
- باكبك التركى » ٢٥٤
- يارجوخ التركى » ٢٥٦ (١)

وستنكم كلمة موجزة عن الولاة الذين ارتبطت باسمهم أحداث ذات بال (٢) ، وكان للولاة على العموم مطلق التصرف فيما يوافق سنن الاسلام وتقتضيه العدالة ، ولكن كان لوجوه الناس وأهل الرأى وأكابر العلماء والفقهاء عند الوالى قول مسموع ورأى متبع (٣) *

عمرو بن العاص :

وأبرز الولاة عمرو بن العاص وهو أول من ولى مصر بعد أن قاد بنجاح جيش الفتح ، وقد ظل واليا عليها طيلة عهد عمر ، وعزله عثمان ، ولكنه عاد لولاية مصر من قبل معاوية مكافأة له على وقوفه بجانبه فى صراعه ضد على بن أبى طالب * ولعمرو بن العاص منشآت مشهورة بمصر ، وله كذلك مواقف اجتماعية طيبة ، فهو الذى أسس مدينة القسطنطية ، وبنى

(١) زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ج١ ص ٣٨ — ٤٢ .

(٢) مرجعنا الرئيسى للحديث عن هؤلاء الولاة هو كتاب الولاة والقضاة للكندى .

(٣) عمر الاسكندرى : تاريخ مصر الى الفتح العثمانى ص ١٧٢ .

جامعه الشهير ، وأعاد حفر القناة التي تصل النيل بالبحر الأحمر وأطلق عليها « خليج أمير المؤمنين » ، وأنشأ مقاييس النيل في مواضع مختلفة .

ومن مواقفه الاجتماعية حسن سياسته مع المصريين غير المسلمين ، فقد أعطى البطريك بنيامين كتاباً ، وأعاده إلى كرسيه بعد أن أقصاه عنه الرومان حوالي ثلاث عشرة سنة ، وترك له إدارة شئون الكنيسة الدينية والإدارية ، وحثَّ عمرو الجند العرب على الاختلاط بالسكان الأصليين والتحبب إليهم ، ونظم عمرو جباية الخراج بدون ظلم ، وانقص المقدار الذي كان يرسله منه للمدينة ليستطيع إتمام المنشآت التي كان يشيدها بمصر ، وعرف عنه تأجيله لجمع الخراج عند ما اقتضى الصالح العام ذلك ، كما أنه جعل تحديد الخراج مشروطاً بزيادة النيل ، وقرر في العهد الذي كتبه للمصريين أنه « إن نقص نهرهم عن غايته رفع عنهم بقدر ذلك » (١) .

ومن ولاية مصر المشاهير في عهد الخلفاء الراشدين عبد الله بن سعد ابن أبي السرح وقيس بن عباد الأنصاري ومحمد بن أبي بكر وقد مر ذكرهم في الجزء الأول من هذه الموسوعة .

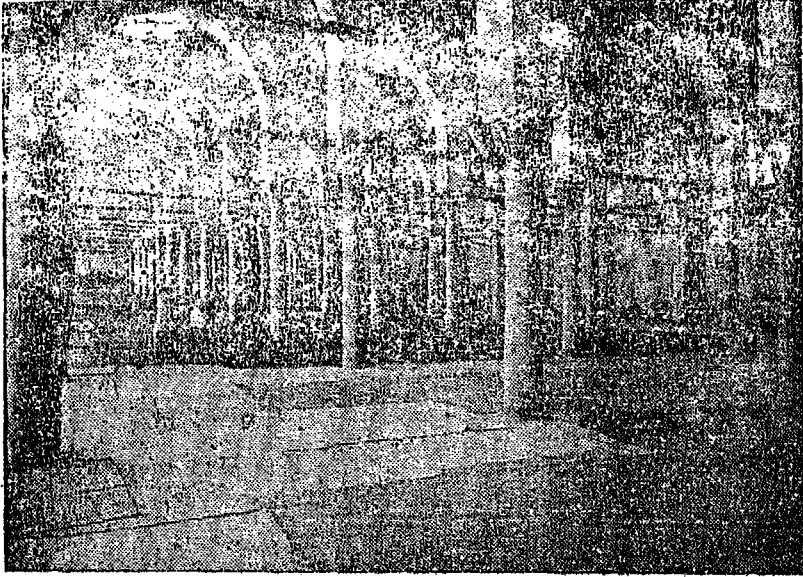
الاسلام في بلاد النوبة :

وعلى يد عمرو بن العاص وخلفه عبد الله بن سعد بن أبي السرح دخل الإسلام بلاد النوبة ، فقد قاد الثاني جيش الأول وغزا بلاد النوبة سنة ٢١هـ وحقق بعض النصر ، ثم عاد إبان ولايته فغزا بلاد النوبة غزوة موفقة سنة ٣١هـ ، ووصل في هذه الغزوة إلى دنقلة ووقع مع حكام النوبة معاهدة « البقظ » وقد ظلت معمولاً بها حتى عهد المماليك (٢) ، وسنعود

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٨٨ ، ١٠١ والقلقشندي : صبح الأعشى

ج ١٣ ص ٣٢٤ .

(٢) انظر تاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بركلمان ج ٤ ص ١٣١ .



مسجد عمرو بن العاص بالقسطنطينية

من الداخل

لهذا الموضوع بمزيد من التفصيل فيما بعد (١) .

مسلمة بن مخلد :

ومن الولاة المشاهير في العهد الأموي مسلمة بن مخلد الأنصاري (٤١٠ — ٤٦٠ هـ) وهو الذي أعاد بناء جامع عمرو بعد أن تشققت بعض جدرانها ، وبنى مساجد أخرى كثيرة ، وجعل لها كلها منارات عالية ، وسمح للقبط ببناء كنيسة في الفسطاط .

عبد العزيز بن مروان :

ومن أشهر الولاة إبان العهد الأموي عبد العزيز بن مروان الذي أمضى أطول مدة قضاها وال بمصر (٦٥ — ٨٤ هـ) وكان شقيق الخليفة عبد الملك بن مروان وولى عهده ، ولكن الخليفة أغراه بالتنازل عن ولاية العهد ليجعلها في أبنائه ، فقبل ، وأعطاه الخليفة مصر نظير ذلك لتكون طعنة له ، فلم يكن يبعث إلى دمشق بشيء من الخراج ، وقد تربى بمصر أبنته طيب الذكر عمر بن عبد العزيز ، وقد اتخذ عبد العزيز بن مروان مدينة حلوان عاصمة للبلاد ، فغرس فيها الأشجار والنخل وبنى المساجد والأبنية الضخمة التي تكلفت حوالي مليون من الدنانير (٢) .

عبد الله بن عبد الملك وتعريب الدواوين :

عبد الله بن عبد الملك من أشهر ولاة مصر ، ففي عهده ترجمت الدواوين بمصر إلى العربية بدل القبطية . وفي عهده بدأ كثيرون من أهل الذمة يهجرون قراهم ليتهربوا من دفع الجزية .

(١) عند الكلام عن « الممالك » عقدنا فصلا بعنوان « الممالك وبلاد

التيوبة » تتبعنا فيه علاقة شمال الوادي بجنوبة .

Stanley Lane-- poole : Egypt in the Middle Ages p. 29

(٢)

قرة بن شريك :

ومن ولاية مصر المشاهير قرة بن شريك ، وقد انتشرت الأساطير عنه بأنه كان واليا ظالما ، والحقيقة أنه كان سمحا عادلا ، وكل ما في الموضوع أن مسألة الهرب من دفع الجزية والضرائب التي بدأت في عهد سلفه عبد الله بن عبد الملك زادت في عهده ، واندفع الزراع من أهل الذمة ينتقلون من مكان الى مكان حتى لا يلتزموا بدفع ما وجب عليهم ، وتتبعهم قرة ليعيدهم الى مقارهم ، ليس فقط ليأخذ منهم الجزية بل ليتابعوا الزراعة التي أوشكت أن تتوقف وتهدد ثروة مصر ، وبمع إلزام أهل الذمة بالأقامة فإنه اهتم بأن تكون العدالة أبرز أخلاق حكام الأقاليم ، وكان يعاقب ولاته على الأجحاف والقسوة مع الأهالي ، وكان يتجاوز عما يتعذر على دافعي الضرائب أن يدفعوه ، ويبدو أن أهل الذمة هم الذين روجوا الإشاعة التي تتهمه ظلما بأنه ظالم .

صالح بن علي العباسي :

ومن أشهر ولاية العصر العباسي صالح بن علي عم الخليفة العباسي الأول ، وهو الذي تبع مروان بن محمد على إثر فراره من موقعة الزاب . وظل يلاحقه حتى قتل بمصر سنة ١٣٢ (١) . وظل صالح واليا على مصر بعد أن أصبحت تابعة لبني العباس ، ومن أهم المنشآت التي تنسب إليه تشييده عاصمة جديدة للجند هي « العسكر » التي أصبحت ثاني عاصمة إسلامية بمصر ، وقد بنى بها دارا للامارة ومسجدا كبيرا يعد ثاني المساجد الجامعة بعد المسجد العتيق (مسجد عمرو) .

موسى بن عيسى بن موسى :

ومن الولاة العباسيين المشاهير موسى بن عيسى بن موسى وهو

(١) انظر الجزء الثالث من هذه الموسوعة ص ٥٢ — ٥٣ من الطبعة السابعة .

أيضا من بيت الخلافة العباسية وكان أبوه وليا للعهد ، ولكنه أرغم على التنازل ، وقد عرف موسى بالعدل مع المصريين ، وكان حسن المعاملة للقبط .

السرى بن الحكم وبدء الحركة الاستقلالية :

ومنهم كذلك السرى بن الحكم (٢٠٠ — ٢٠٥ هـ) وقد اتخذ مقره في مدينة تنيس قرب بحيرة المنزلة ، وجعل ولاية مصر إراثا في أسرته ، ونجح في ذلك فتولى بعده إبناه محمد فعبد الله ، وكان السرى بذلك أول من طمع في الاستقلال بشئون مصر الداخلية .

وفي عهد السرى بن الحكم بدأت الحركة الاستقلالية بمصر تلك الحركة التي تقرر اعتناق الاسلام والاستقلال السياسى ، وقد تكتمت هذه الحركة في عهد الطولونيين والاختشيديين ، وكملت في العهد الفاطمى كما سنرى فيما بعد .

عنبسة بن إسحق آخر الولاة العرب :

ومنهم كذلك عنبسة بن إسحق الذى ولى مصر أربع سنوات (٢٣٨ — ٢٤٢) وعرف بالعدل والورع والكفاءة العالية ، وفي عهده حاول « على بابا » ملك النوبة أن يتمرد على المعاهدة التى كانت بين بلاده وبين مصر ، بل زحف تجاه مصر غازيا ، ولكن عنبسة هزمه ، وردده على عقبه ، وحمله على الاستمرار في الأخذ بالمعاهدة . وقد اتهم عنبسة بمشايعة الخوارج ، فكانت هذه التهمة سببا في ابعاده عن ولاية مصر .

وكان عنبسة آخر من ولى مصر من العرب ، فإن الأتراك الذين جلبهم المعتصم أصبح لهم السلطان ابتداء من عهد المتوكل ، وتبعاً لذلك أصبحت المناصب الكبيرة والولايات العظيمة خاصة للأتراك ، وأسقط العرب والفرس من الديوان ، وكانت مصر من هذه الولايات التى أسندت للأتراك ، ولم تمض فترة طويلة حتى آلت ولاية مصر لأحد هؤلاء الأتراك ، ولكن هذا

الوالى (هو أحمد بن طولون) استقل بمصر ثم زحف الى سوريا فشمها
الاستقلال أيضا تحت سلطانه ، وبذلك انتقل بتاريخ البلدين من عهد
إلى عهد •

ولاية سوريا قبل الطولونيين :

أما سوريا فقد سبق أن ذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب أن
أبا عبيدة بن عامر الجراح تسلم قيادة الجيش من خالد بن الوليد وبعد
موقعة اليرموك اتجه أبو عبيدة ببعض الجيش الى الشمال ، وتم له فتح
المنطقة الشمالية الى حلب ، وقد مات أبو عبيدة في عهد عمر •

وكان يزيد بن أبي سفيان قائدا لأحد الجيوش الأربعة التي
وجهها أبو بكر لفتح الشام ، وكانت وجهته دمشق ، ولما أراد
أبو بكر أن يرسل مددا لهذه الجيوش كان معاوية على رأس المدد الذي
أرسل ليزيد ، وحارب معاوية تحت إمرة أخيه ، وتولى قيادة الفيلق الذي
فتح صيدا وبيروت وغيرها من سواحل الشام ، ولما تم النصر للمسلمين
في عهد عمر ولى عمر يزيد ولاية دمشق ، كما جعل معاوية واليا على
الأردن ، فلما توفي يزيد ضم عمر الى معاوية ولاية دمشق ، وفي عهد عثمان
جمعت لمعاوية ولاية الشام كله ، وظل أميرا للشام عشرين عاما حتى آلت
إليه الخلافة عقب عصر الخلفاء الراشدين (١) •

وأصبحت الشام مركز الخلافة الأموية فلم يعد بها ولاية بطبيعة
الحال ، ولما سقطت خلافة الأمويين وقامت دولة بنى العباس ، حرص
الخلفاء الجدد على أن تكون الشام لأفراد منهم أو لأقوى أنصارهم حتى
يمكنهم إخضاع من تراوده نفسه بالثورة ضد الحكم الجديد سواء من
الأمويين أنفسهم أو من أتباعهم والمتعصبين لهم ، ومن ولاية الشام المشاهير
في العصر العباسي نذكر :

(١) انظر الجزء الثانى من هذه الموسوعة .

سنة ١٣٢	— عبد الله بن علي
» ١٣٦	— صالح بن علي
» ١٣٦	— عبد الوهاب بن ابراهيم الإمام
» ١٧٥	— ابراهيم بن صالح بن علي
» ١٧٦	— موسى بن يحيى بن خالد البرمكى
» ١٧٧	— عبد الملك بن صالح
» ١٨٠	— جعفر البرمكى
سنة ١٩٨	— طاهر بن الحسين
» ٢٠٥	— عبد الله بن طاهر
» ٢١٣	— المعتصم
» ٢١٤	— العباس بن المأمون
.	
» ٢٦٤	— علي بن أماجور

[هزمه أحمد بن طولون واستولى على دمشق (١)]

وهؤلاء الولاة — فيما عدا الوالى الأخير — مرّ ذكرهم فيما سبق من أحاديث فى الأجزاء السابقة ، إنهم صفوة أعلام ، وهم من بيت الخلافة العباسية أو من المقرّبين لبنى العباس ، ولهذا لسنّا فى حاجة لنعيد القول عنهم ، أما الوالى الأخير فليس فى تاريخه ما يستحقّ الذكر .

(١) زامجور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى
ج١ ص ٤٣ .

أشهر الأحداث في عهد الولاة

... هناك أحداث كبرى جرت بمصر وسوريا خلال عهد الولاة ، واهتم بها الباحثون والمؤرخون اهتماما كبيرا ، وسنذكر هنا أبرز هذه الأحداث .

مكتبة الإسكندرية وموضوع حرقها

لعل من الأوفق أن نبدأ استعراض هذه الأحداث بالكلام عن مكتبة الإسكندرية ، فإن التاريخ الذى يذكره أولئك الذين ينسبون حرقها للعرب تاريخ يرجع الى عهد مبكر وإلى مطلع حياة العرب بمصر ، ومن هنا لزم أن نبدأ بالحديث عن هذا الاتهام ومداه .

والإسكندرية — كما هو معروف — كانت عاصمة مصر قبل الفتح الإسلامى ، وكانت مركزا مهما من مراكز الثقافة فى العالم ، وقد استدعى ذلك أن وجدت بها مكتبة عظيمة حوت مجموعة كبيرة من الكتب فى مختلف العلوم والفنون ، وهناك قصة تقول إن عمرو بن العاص أحرق هذه المكتبة بإشارة من الخليفة عمر بن الخطاب ، وهذه القصة ينكرها البحث العلمى ، فمن الثابت أن يوليوس قيصر هو الذى أحرق مكتبة البطالسة العظمى حين غزا البلاد المصرية سنة ٤٨ ق م ، أما المكتبة الصغرى التى نشأت بعد ذلك فقد أُلغيت بأمر الامبراطور تيودورز حوالى سنة ٣٨٩ م ، واندثرت مكبات الإسكندرية بعد ذلك ، فلم يكن فى الإسكندرية حين الفتح مكتبة ذات شأن (١) .

وبالإضافة إلى ذلك فإن أحدا من الكتاب المعاصرين للفتح لم يتكلم بالخليفة أو عامله بإحراق هذه المكتبة ، ولم يذكرها ثقات المؤرخين السابقين أمثال اليعقوبى والبلاذرى وابن عبد الحكم والطبرى والكنسدرى ، ومن أخذ عنهم كابن الأثير وابن تغرى بردى والسيوطى مع أن ما كتبه هؤلاء عن تاريخ مصر يستعد من أوثق المصادر وأدقها .

وأول من تحدث عن حادثة إحراق عمر للمكتبة هو عبد اللطيف البغدادي المتوفى سنة ٦٢٦هـ ولم يذكر لكلامه مرجعا ، وكان حديثه عابرا ، فقد كان يصف عمود السواري والمساحة المحيطة به ، ثم قال عن هذه المساحة انه كان بها الرواق الذي جلس به أرسطو وشيخته للتعلم ، وبه دار العلم التي بناها الإسكندر ، وفيها كانت خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن العاص بأمر من عمر رضى الله عنه (١) ، وقد التقط هذا الخبر منه مؤرخ مسيحي هو أبو الفرج بن العبري فتمثاه وأذاعه (٢) وجعله أسطورة منمقة مفصلة دون أن يكون له أساس . وقد عرف عن العرب حرصهم على كتب العلوم والفنون ، فهم الذين أخرجوا كتب اليونان من مخابئها ، وكانت هذه الكتب عند المسيحيين هرطقة وضلالا (٣) .

ويمكن أن نزيد اتجاهنا تأكيدا بمسألة مهمة ، فقد ذكرت الروايات التي تنسب للعرب حرق المكتبة « أن يوحنا النحوى قابل عمرو بن العاص بشأن هذه المكتبة » ولكن يوحنا هذا مات قبل استيلاء العرب على الاسكندرية بثلاثين أو أربعين عاما ، وهذا ينقض الرواية من أساسها (٤) .

ويسخر الباحثون المسلمون من رواية ابن العبري وبخاصة أن بها عناصر القضاء عليها ، فهو يقول « فشرع عمرو في تفريقها على حمامات الاسكندرية واحرقها في مواقدها فاستنفدت في مدة ستة أشهر ، فاسمع ما جرى واعجب » ويرى هؤلاء الباحثون أن الخليفة لو طلب من عمرو احراق هذه الكتب لما كان له أن يفرقها على الأفران لأن أصحاب الأفران كانوا يستطيعون بيعها أو الاحتفاظ بها ، ثم انها كانت مكتوبة على الكاغد « وهى مادة لا تصلح للاحتراق ، وكيف يتصور أن تبقى ستة

(١) الافادة والاعتبار ص ٢٨ .

(٢) تاريخ مختصر الدول ص ١٧٥ — ١٧٦ .

(٣) Hitti : History the Arabs vol. I p. 222

(٤) Butler : The Arab Conquest of Egypt pp. 401 ff

— 44 —

وقد اتجه جورحى زيدان فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » الى الدفاع عن المسلمين وتبرئتهم من هذا العمل البربرى ولكنه فى كتابه « تاريخ التمدن الاسلامى » عدل عن هذا الرأى ومال الى اتهام المسلمين بحرق هذه المكتبة لأسباب ينقصها الدق ، أهمها أن المسلمين كانوا يرون ان القرآن الكريم صفوة العلوم والمعارف ، ولم يجدوا حاجة لسواه (٢) ، وهو استنتاج ناقص متأثر بالاتجاه المسيحى فى هذا الكاتب ، فالمسيحية هى التى رأت أن الكتاب المقدس (التوراه والإنجيل) هو كل شئ ولا حاجة لغيره سواء .

أما المؤرخون الأجانب فقد ناقشوا هذا الاتهام وانتهوا الى رفضه ،
وأن عبد اللطيف البغدادى ، ذكر ذلك عرضا عند كلامه عن عمود السوارى ،
ولعله سمع كلاما كهذا من العوام أو من الحانقين على العرب ، ومن هؤلاء
المؤرخين جيون وبتلر وسسديو ، وفى ذلك يقول سديو انه لم يقع فى
الاسكندرية انتهاب قط ، ويتعذر علينا أن نعتقد صدور أمر بدم بارد
بمثل هذا العمل التهمجى ، ولا تجد مؤرخا معاصرا لفتح الاسكندرية يروى
هذا الخبر ، ويقرر التاريخ أن مكتبة الاسكندرية دمرت فى عهد يوليوس
قيصر وفى عهد تيوذور (١) .

ومما يؤكد هذا الاتجاه قول أورا زيوس انه وجد رفوف المكتبة خالية من الكتب عند زيارته مدينة الاسكندرية في أوائل القرن الخامس الميلادي (٤) •

(۱۱) دکتور حسن ابراهيم . عمرو بن العاص ۱۱۴ - ۱۱۵ .

(٢) تاريخ القدمن الاسلامي ج٣ ص ٤٠ - ٤٦ .

History Dèuèral des Arabes p. 150 (۳)

(۶) نقلاً عن : تاریخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ج ۱ ص ۳۶۳ .

وعلى هذا فاتهم المسلمين بحرق المكتبة اتهام ظالم لا يقوم على أى أساس سليم .

وقد نقل الباحث العلامة الأستاذ محمد كرد على بعض أقوال المستشرقين التى تنفى عن المسلمين هذه التهمة نفيا قاطعا ، ونقتبس بعض العبارات منه (١) .

— إن أفتيكوس بطريك الاسكندرية ، مع توسعه فى الكلام على استيلاء المسلمين على ثغر مصر لم يذكر كلمة واحدة عن حريق عمرو ابن العاص لهذه الخزانة .

— ذكر إرفنج وكريستون وفلين وغيرهم أن ما أشيع حول حرق الخزانة ، ونسبة ذلك للمسلمين لم يكن له ذكر لدى الباحثين فى أوروبا قبل نقل كتاب مختصر الدول الى اللاتينية ، ومنذ ذاك الحين تمسك بعض الباحثين بهذه الفكرة ، وبدأوا يهاجمون المسلمين .

— قال فوت و اهلويلر فى كتابهما (جنيات الأوربيين) : إن الأسقف تيوفيل هو الذى أحرق خزانة الاسكندرية لا المسلمين ، فالدين الاسلامى لا يبيح إحراق الكتب .

— وقال بونة مورى : يجب أن نصصح خطأ شاع طوال القرون الوسطى ، وهو أن العرب أحرقوا خزانة الاسكندرية بأمر الخليفة عمر ، والحال أن العرب فى ذلك العصر كانوا أشد إعجابا بعلوم اليونان وفنونهم فما كان لهم مع ذلك أن يقدموا على عمل كهذا ، وقد أحرق هذه الخزانة قبل ذلك بزمان طويل

— ويعلق الأستاذ محمد كرد على على حماسة المستشرقين الذين قبلوا هذا الاتهام دون بحث واستقصاء بقوله : إن هؤلاء المستشرقين

(١) الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٦٤ وما بعدها .

يتمسكون بتهمة لا أساس لها ، ومن ناحية أخرى تعرض أمامهم حقائق
عن حرق الكاردينال كسيمنس كتب المسلمين في ساحات غرناطة ، فيمرون
على ذلك مرورا عابرا أو يحاولون تبرئة هذا الكاردينال من هذه الوصمة
كما أن علماء الغرب لم يكتبوا قليلا أو كثيرا عما فعله الصليبيون بمكتبة
طرابلس حين أمر سنجيل بإحراق كتب دار العلم وكان عددها أكثر من
مائة ألف مجلد •

انتشار الإسلام في سوريا ومصر

إن انتشار الإسلام في سوريا ومصر يرتبط بما كان البلدان يعانيانه في ظل الاحتلال البيزنطى قبل الإسلام ، وقد اتضح لنا من دراسة ظروف الفتح (١) أن السكان بمصر وسوريا تعاونوا في حالات كثيرة مع العرب الزاحفين للقضاء على الحكم البيزنطى ، وما إن تم الفتح حتى بدأ دخول المصريين والسوريين دين الإسلام ، بك تشير المصادر التى عاصرت الفتح الى أن عددا من المصريين من بينهم أحد رهبان دير بسينا قد أسلم قبل أن يتم فتح مصر بصفة نهائية ، وكان هؤلاء أكبر عون للعرب في تقدمهم (٢) .

وما إن تم فتح مصر حتى وقعت حادثة كانت شديدة الأثر في نشر الإسلام في مصر ، فقد حدث أن ثارت قرية من قرى البحيرة ضد المسلمين ، ووقعت معركة بين المسلمين وهؤلاء ، وانتصر المسلمون في المعركة ، وأسروا بعض الأهالى ، وأرسلوا الأسرى الى المدينة المنورة ، ولكن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه كان حريصا على أن تكون المغارك ضد الزوم لا ضد المصريين ، فكرم الأسرى وأعادهم الى مصر احرارا ، وأمر أن يترك لهم الأمر ليدخلوا الإسلام ويكون لهم مالمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، أو أن يبقوا على دينهم ويدفعوا الجزية .

وقد كان هذا الموقف شديد الأثر على هذه الأسرى وعلى كل من سمع عن هذه المعاملة ، فدخل عدد كبير الإسلام (٣) .

وكان المصريون والسوريون قد أنهكتهم الأعباء المالية التى فرضها عليهم الرومان ، وكان هناك ضغط عدائى سياسى واجتماعى لا يقل عن

(١) في الجزء الاول من هذا الموسوعة .

(٢) حنا النقيوسى : تاريخ حنا النقيوسى ص ٥٨٥ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ١٢٢ — ١٢٣ .

الضغط الاقتصادي ، وعندما استقر العرب بسوريا ومصر ظهر الفرق واضحا بينهم وبين البيزنطيين ، فلم يكسَعُ العرب أنفسهم موضع السادة ، ولم يعاملوا السوريين والمصريين معاملة المهزم ، بل أحس السوريون والمصريون بفيض من الحرية الدينية والاجتماعية ، وبتنظيم اقتصادي بعيد عن العسف والطغيان فجذبهم ذلك إلى الإسلام .

وكان هناك اختلاط يتم بطبيعة الحال بين المسلمين والأقباط لسبب أو لآخر ، وقد نتج عن هذا الاختلاط أن تعرف الأقباط على دين الاسلام ، فأخذت وفودهم تدخل هذا الدين من حين لآخر ، ومن هؤلاء جماعة من المصريين تعاونوا مع المسلمين في حراسة الأقاليم الشرقية لمصر ، وأدى ذلك إلى أن اختلط هؤلاء بالحراس المسلمين ، ويوما بعد يوم أبدى المصريون إعجابهم بالاسلام والمسلمين ، وأعلنوا دخولهم دين الله (١) .

ومثل هذا الاختلاط حدث في المدن ، فقد سكن بعض المسلمين في الدور التي أخلاها الرومان بين دور المصريين وبخاصة في دمياط ورشيد ، وأتاح الاختلاط فرصة للدعوة للإسلام فاعتنقه الكثيرون من الجيران (٢) .

وكان الجيش العربي يشمل كثيرا من الفقهاء والعلماء وطلاب العلم والدارسين ، ولما تم النصر للعرب أخلى السيف المجال لتفكر ، فبدأت الدعوة الإسلامية تنساب وتتسع ، وتوالى دخول الناس في الدين الجديد .

وهناك ظروف ساعدت على انتشار الاسلام ؛ منها أن المسيحية لم تكن عميقة في نفوس السكان ، فأكثرهم دخلها بعد أن أعترف بها قسطنطين ، فأصبحت دين المستعمر ، وكان السكان لذلك لا يقبلون عليها إقبالا كاملا . ومنها ما يذكره L.R. Hall من أن السكان غيروا ديانتهم مرة فسهل ذلك عليهم تغييرها مرة أخرى ، فالدين الأقوى في الحالين جرف الدين

(١) الكندي : الولاة والقضاة ص ٣٩٧ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب في أماكن مختلفة .

الأنصاف الذي تدعى له (١) ثم إن المسيحية كانت حافلة بالارتباك والانقسامات والخيرى فتنزع الاعتقاد بها في نفوس كشي من السكان ، ورحبوا بالاسلام عندما تعرفوا عليه واستسهاوا مبائنه .

ثم جاءت موجبة الزحف العربى الى مصر أرض النيل القديم ، والمياه كانت أمل العرب ، وكان تاريخ مصر وأمجاد مصر معزوفة وشائعة في المنطقة ، ومن هنا انتهالت القبائل الى مصر ، وفي بعض الحالات حدثت خلاشات بين هذه القبائل وبين مركز الخلافة ، فلم تجد هذه القبائل بدءاً من الاشتغال بالزراعة وغيرها والاندماج بالمصريين ، وهذا أتاح الفرصة للمصريين ليتعرفوا على الاسلام ويعتقوه . وقد بدأ ذلك عندما قُتل الخليفة الثالث عثمان رضى الله عنه ، فثارت بعض قبائل لخم وجذام على ذلك ، ورفضوا البيعة لأمير المؤمنين الجديد على بن أبى طالب حتى يتم القصاص من القتلة (٢) . وسنرى نماذج أخرى لذلك بعد قليل .

ثم جاءت الى مصر هجرة عربية كبرى أيام ولاية عبيد الله بن الحبحاب في خلافة هشام بن عبد الملك ، فقد استقدم عبيد الله جماعات كثيرة من قيس وبنى نصر وبنى عامر وهوازن وسليم ، وأسكنهم بلبيس والحواف الشرقى ، وسرعان ما انتشر هؤلاء في المناطق الشرقية للنيل واختلطوا بالناس فاننتشر بهم الاسلام انتشارا واسعا (٣) .

وكانت هناك وظائف جذابة لا يتولاها إلا المسلمون ، ولا شك أن بعض الطامعين الموهوبين دخلوا الاسلام حتى لا يحال بينهم وبين هذه الوظائف ، وتجلت هذه الظاهرة بوضوح في خلافة عمر بن عبد العزيز الذى أمر بالآ تسند المناصب الادارية بمصر لغير المسلمين (٤) ، مما حمل

(١) History of the World vol. II p. 304

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ١٩٥ .

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٧٧ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢١٠ و ٢٦٨ .

كثيرا من أهل الذمة على الدخول في الاسلام وتعلم اللغة العربية حتى يتيسر لهم الاشتغال بالوظائف المدنية ، وأخذ المسلمون منذ ذلك الوقت في الازدياد حتى أصبحت مصر في القرن الثالث الهجرى دولة إسلامية (١) .

ويتجه Butler الى إبراز أن ضريبة الجزية كانت من أهم العوامل التي دعت المصريين لدخول الاسلام (٢) ، والحق إن هذا رأى لم يصدر عن دقة وإنصاف ، فالجزية مقدار ضئيل ، ولو فر منها الانسان ودخل الاسلام ليتخلص من دفعها لكان عليه أن يدفع الزكاة ، والزكاة أكبر بكثير ، فليس هذا القول إلا من الأقوال العابرة التي تنال دون تحقيق علمي عميق (٣) .

وتذكر بعض المراجع أن من المحتمل أن بعض السكان الأصليين أسلموا خوفا من الأوامر التي أصدرها بعض خلفاء المسلمين بالزام غير المسلمين بلباس معين ومظاهر خاصة ، ونحن نتساءل : إذا كان حمل الصليب مثالا من هذه المظاهر فلماذا يتهرب منه المسيحيون ؟ مع أننا نراهم اليوم يحتفون بالصليبان ويجعلون منها حليةهم ، وعلى كل حال فإن رواية هذه الأمور هم من المؤرخين المسيحيين (٤) ، ومن الطبيعي أن تبدو في كتاباتهم آثار لتعصبهم لدينهم ، ومن الثابت أن خلفاء المسلمين أو أكثرهم على الأقل عاملوا أهل الكتاب في كل مكان معاملة طيبة كانت في كثير من الأحوال من أسباب دخول هؤلاء دين الاسلام (٥) .

(١) Stanley Lane - pool : A History of Egypt in the Middle Ages

p. 38

The Arab Conquest to Egypt pp. 340 341 (٢)

(٣) اقرأ الاقتصاد في الفكر الاسلامي للمؤلف (باب الجزية والخراج) .

(٤) انظر سير الأباء البطارقة لساويرس ابن المقفع في امثلة متعددة

وفيليب حتى في كتابه تاريخ سوريا وسنورد بعد قليل اقتباسا منه فيه هذا الاتجاه .

(٥) انظر المجتمع الاسلامي للمؤلف .

ومن أسباب انتشار الاسلام في سوريا ومصر اندماج العرب في السكان الأصليين هنا وهناك ، وكان سقوط الدولة الأموية معناه ذوبان أتباعهم وجيوشهم بمصر وسوريا في السكان الأصليين ، إذ توقفت وظائف هؤلاء وانقطعت رواتبهم ، وكان عليهم أن يعملوا ليعيشوا ، وحدث مثل ذلك في عهد المعتصم العباسي عندما أسقط العرب من ديوان العطاء ، فدخل العرب في غمار الناس واختلطوا بهم ، وعن طريق هذا الاختلاط انتشر الاسلام وانتشرت اللغة العربية انتشارا ظل يتزايد من يوم إلى يوم .

ومما ساعد على انتشار الاسلام بسوريا أن خمسة آلاف من نصاري بنى تتوخ كانوا يعيشون في جوار حلب وعلى ساحل لبنان عملوا بإشارة المهدي العباسي واعتنقوا الاسلام ، ويبدو أن العباسيين أعدقوا عليهم من المكرمات ووثقوا صلته بهم حتى حببوا لهم الاسلام ، واستغل العباسيون ذلك فيهم فأقاموهم حاجزا في وجه الروم إن جاءوا من البحر (١) . ويضيف Philip Hitti (٢) الى الدوافع التي حبيت للمسيحيين دخول الاسلام بسوريا ، حرصهم على الظفر بالكرامة الاجتماعية والنفوذ السياسي .

من هم أحفاد الفراعنة :

وفي ضوء هذه الدراسة الموثقة يتحتم علينا أن نعرض بإيجاز لموضوع آثاره الأستاذ زكي شنودة الخامي مرتبطا بالجزأين الثالث والرابع من كتابه « تاريخ الأقباط » ، فقد خصص المؤلف هذين الجزأين للحديث عن تاريخ الفراعنة وحضارتهم ، بادعاء أنهم أجداد الأقباط ، وأن الأقباط وحدهم ، أحفاد الفراعنة .

وهو يقول في الجزء الثالث (٣) « فتاريخ الأقباط هو تاريخ المصريين »

(١) ابن العبري ج٢ ص ١٣٣ .

(٢) History of Syria vol. II. p. 170

(٣) تاريخ الأقباط ج٣ ص ٢ .

ويقول الدكتور باهور لبيب في تقديمه لهذا الجزء « ولا شك أن الأقباط هم السلالة المباشرة لأقدماء المصريين ، وأن تراثهم ما هو إلا امتداد لتراث أولئك الأجداد » .

وهذه الفكرة بعيدة — فيما نرى — كل البعد عن الحقائق العلمية ، ومن الواضح أنها خطرت للمؤلف متأخرة ، فقد سار في الجزء الأول سيرا طبيعيا حين تحدث عن المسيحية في مصر ، وأشهر الانسطهادات وأشهر الشهداء والبدع والهرطقات والرهينة . . . ، وسار الجزء الثاني في هذا الطريق أيضا حين تكلم عن عقيدة الأقباط ، ثم خطرت له فكرة ربط الأقباط بالمصريين فخصص الجزء الثالث والرابع لهذا الغرض ، ولو كانت هذه الفكرة أصيلة عنده لكان الجزء الأول هو مكانها الطبيعي ، فذلك الترتيب هو من دواعي التسلسل التاريخي الذي يعرفه كل من تعرض لكتابة التاريخ .

ويبدو أنه خطر ببال الأستاذ زكى شنودة أن المصريين جميعا تحولوا من أفكارهم الدينية التي كانوا عليها قبل المسيحية إلى المسيحية ، وهو خاطر لا تؤيده الشواهد التاريخية ، فإن المسيحية كانت تعاني اضطهادا عنيفا في القرون الثلاثة الأولى ، وكان انتشارها في فلسطين ضعيفا جدا ، حتى أنكروا بعض الحواريين (١) ولم يعترف بها الرومان إلا في القرن الرابع ، وبدأت تخطو في أمن من السلطة ابتداء من القرن الخامس .

ومعنى هذا أن المسيحية مرء عليها حوالى قرنين قبل أن يجىء الاسلام مصر ، ولا يمكن أن تكون المسيحية قد غمرت المصريين أو نصفهم في هذين القرنين ، بدليل بطء تحولهم إلى الاسلام ، وأنه لا تزال نسبة منهم تعتنق المسيحية بعد أن دخل الاسلام مصر بأكثر من أربعة عشر قرنا .

والحق أن ربط الدين بالجنس ببلادنا الحبيبة عمل لا يمكن القاطع به ولا ترجيحه ، فبعض المسيحيين الموجودين في مصر وفقدوا لها فرارا من

(١) Religions of the World : Berry . ويقول Wells : بعد عيسى انهارت

دعوته وتخلى عن فكرته أتباعه جميعا ، ولما اتهم بطرس بأنه واحد منهم قال : لا اعرف هذا الرجل (Outline of History 3 : 698) .

الاضطهادات التي عاناها المسيحيون من الرومان ، على نحو ما فعل السيد المسيح نفسه وأمه العذراء كما ورد في إنجيل متى (١) ، وعلى نحو ما فعل كثير من خلفاء السيد المسيح مثل القديس مرقس وسواه من القديسين والعلمين .

أما المسلمون في مصر فأكثرتهم أحفاد القراعة استجابوا للإسلام كما استجاب أجدادهم من قبل للمسيحية ، ولو جاز لنا أن نقول قولة الأستاذ زكي شنودة بأن المسلمين وافدون من الخارج لجاز بالتأكيد أن نقول إن المسيحيين وافدون من الخارج قبلهم ، وهذا يعني اتهام المصريين بالتشبه بفكرهم الديني القديم وعدم الاستجابة للدعوات الدينية الواردة من الخارج وهذا خطأ كبير يصور العقالية المصرية بالجمود .

والذي لا شك فيه أن بعض المصريين مزيج من الدم الفرعوني والدم العربي الذي هاجر الى مصر والذي كان شديد الرغبة في الاختلاط ، وبخاصة إذا لاحظنا أن المرأة العربية قلما غادرت الجزيرة العربية ، وأن الرجل العربي هو الذي هاجر جنديا ومعلما ، وتزوج حيث أقام ، ومن هذا المزيج يوجد عدد كبير من أبناء مصر .

أما الكتلة الغالبة من مسلمي مصر فهي تمثل أسرا مصرية كانت قبطية ثم دخلت الإسلام ، وأحيانا كانت الأسر القبطية تنتسب فيدخل الإسلام جماعة وتبقى على المسيحية جماعة أخرى منها ، وذلك ما يحدث حتى الآن . وكان بعضهم يتجه الى علوم القرآن ويبرع فيها ، ومن هؤلاء عثمان بن سعيد (ورش) الذي تقرر المراجع أنه ينحدر من أصل قبطي ومع هذا برع في علم القراءات وانتهت إليه رئاسة القراء في مصر كما سيأتي . وانتشار الإسلام بين الأقباط هو ما يحدث نظيره في العالم كله ، فقد انتشر الإسلام بين الهنود وبين الفرس وبين الصينيين ، وليست مصر بدعسا عن غيرها .

وما أجدرنا ألا نستعمل العلم سلاحا للرغبات الخاصة .

(١) إنجيل متى : الاصحاح الثاني ، الفقرات ١٣ - ١٥ .

انتشار اللغة العربية

في مجال نشر اللغة العربية نجد العرب يملكون بخطوتين هامتين ؛ ففي الخطوة الأولى عملوا على إحياء اللغات المحلية ؛ الآرامية بسوريا ، والقبطية بمصر ، وذلك ليتم لهم القضاء على اليونانية التي تخلفت عن البطالسة واللاتينية لغة الرومان ، وسرعان ما تم لهم ذلك إذ رحب به السوريون والمصريون . وتجيء الخطوة الثانية وهي نشر اللغة العربية بعد ذلك ، ولا نزاع أن الإسلام وهو ينتشر أخذ معه اللغة العربية ، فإذا جاز نشر المسيحية بدون لغة أو نشر اليهودية والبوذية كذلك ، فإن نشر الإسلام ينشر اللغة العربية كذلك لضرورة الصلاة وقراءة آيات من القرآن الكريم ، ولذلك نجد أنه بعد حوالي سبعين عاما من الفتح أصبحت اللغة العربية هي اللغة العامة في الأقطار المفتوحة .

ثم تأتي نقطة أخرى نشرت اللغة العربية ودعمت جانبها حتى مع غير المسلمين ، تلك هي تعريب الدواوين في عهد الوليد بن عبد الملك ، فقد أصبح لزاما أن تتم الحسابات والمكاتبات باللغة العربية ، وكان على طلاب الوظائف في الدواوين أن يجيدوا هذه اللغة ، وقد فتح العرب باب الخدمة في الدولة لكل السكان على اختلاف أديانهم ونحلهم ، غير أن اللغة العربية كانت وسيلتهم لهذه الخدمة ، ولذلك فإننا نجد أنه بمرور الزمن وجدت طوائف غير مسلمة لا تعرف إلا اللغة العربية مما أدى إلى ضرورة ترجمة الإنجيل وبعض الكتب المسيحية الأخرى لهؤلاء .

ومما ساعد على انتشار اللغة العربية سعة هذا اللسان وسلامته ، فإن هذه اللغة لم تقف ولم تجمد ؛ هضمت ألفاظا من الفارسية والرومية والسريانية والعبرانية والقبطية والهندية وتركت ألفاظا عربية كانت مألوفة في عصر الجاهلية ، واتجهت ببعض الكلمات العربية لأداء معان أخرى غير تلك التي كانت تؤديها قبل الإسلام ، وسعى العرب بحماسة ليجعلوا لغتهم لغة عام ، كما كانت لغة دين وأدب وسياسة ، ويقرر رينان أن هذه

اللغة ظهرت فجأة في غاية الكمال والسياسة والغنى بحيث يمكن القول إنها ليس لها عهد بالطفولة (١) •

ومما ساعد على انتشار اللغة العربية بمصر وفود القبائل العربية التي هاجرت إليها وامتزجت بسكانها ، فقد استقبلت مصر في مطلع عهدها بالاسلام كثيرا من عرب الجنوب ، ثم استقبلت إبان خلافة هشام ابن عبد الملك وفودا كثيرة من قبيلة قيس ، وقد نزل هؤلاء في منطقة بلييس وما حولها بمحاظلة الشرقية ، وفي القرن الثالث هاجرت الى مصر وفود من ربيعة واستقرت بالصعيد •

وتم امتزاج العرب بالمصريين على نطاق واسع عقب سقوط الأمويين وفي خلال عهد المعتصم كما ذكرنا آنفا ، ونزل العرب ميدان الزراعة والصناعة والتجارة ، وعن هذا الطريق وكذلك عن طريق التزاوج اندمج هؤلاء بأولئك وأصبح عسيرا بعد فترة. أن نفرق بين السكان الأصليين وبين الوافدين على مصر وسوريا من العرب •

وكمل النصر للغة العربية عندما نزع كثير من العرب الرحل من البادية وانخرطوا في غمار حياة الاستقرار بالحد الغنية المفتوحة ، وبشيوع اللغة العربية بين السكان الأصليين اضطر رجال الكنيسة في القرن العاشر أن يضعوا كتاباتهم باللغة العربية حتى يفهمها أتباعهم (٢) •

ويبدو على العموم أن انتصار العربية الفصحى ، تم قبل انتصار العامية ، وبالتالي انتشر التأليف باللغة العربية وكذلك انتشر الحديث بها في المجالات العلمية والأدبية ، قبل انتشار العامية ولغة الشارع ، ففي مصر كتب ابن الدابة سنة ٨٣٣٩ سيرة أحمد بن طولون ، وحوالي هذا الوقت كتب ابن البطريق كتابه في التاريخ ، ثم كتب ساويرس أسقف الأسمونين

(١) نقلا عن محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ١٨٠ .

(٢) Kilik : A Short History of the Middle East p 37

سريع الإبطال البطارقة ، وازدهرت اللغة العربية في بلاط الإخشيد ، حيث ظهر الأدباء والشعراء ، وكذلك في البلاط الفاطمي خلال القرن الرابع ، وفي سوريا بدأت الكتابة باللغة العربية مبكرة أيضا ، وأقدم ما وصل إلينا مخطوطة ألفها أبو قرة في مطلع القرن الثالث الهجري (سنة ٢٠٥) ، وكتب عبد الله ابن محمد البلوي من مؤرخي دمشق سيرة أحمد بن طولون في الثلث الثاني من القرن الرابع . ومما ساعد على انتشار اللغة العربية ، أن التحول من لغة سامية الى لغة سامية أخرى ليس به مشكلات لغوية مستعصية .

أما اللغة العامية فقد تأخر انتشارها بين الجماهير ، فالمقريزي (١) يقرر أن المأمون (١٩٨ — ٢١٨) عندما زار مصر كان يمشي والتراجمة بين يديه ، ومن الواضح أن انتشار العربية الفصحى سبق ذلك بكثير ، وبدأت الدواوين تستعمل هذه اللغة منذ آخر عهد عبد الملك (٦٥ — ٨٦) ، ثم انتشرت بعد ذلك فكتبت بها الرسائل ، ثم أصبحت لغة التأليف والتصنيف والأدب ، وعلى العموم فإن من الطبيعي أن سير الفصحى كان سريعا ، أما العامية فكان سيرها بطيئا ، وكانت مصر أسبق من سوريا في القضاء على لغتها المحلية ، أما سوريا فقد عاشت اللغات المحلية بها عهودا أطول ، فيذكر فيليب حتى أن انتصار اللغة العربية على اللغات المحلية بها لم يكتمل إلا في القرن الثالث عشر ، ومع هذا فقد بقيت هناك « جزر لغوية » لأقوام غير مسلمين كاليعاقبة والنساطرة والموارنة ، وفي عهد الصليبيين كان هناك كثير من هذه « الجزر اللغوية » وفي لبنان الماروني دافعت اللغة السورانية المحلية عن نفسها دفاعا مريرا وطويلا حتى القرن السابع عشر ، ولا تزال السورانية لغة الحديث في ثلاث قرى في لبنان الشرقي هي معلولا وبخعة وجيعادين ، وهي لا تزال لغة الطقس الكنسي لدى الموارنة ، وفي بعض الكنائس السورانية الأخرى ، أما السوريان الناطقون باليونانية فلم يظهر منهم مثل هذا التعلق بلغتهم الأم (١) .

(١) الخطط : ج ١ ص ٨١ .

(٢) History of Syria pp 171 - 172

نظم الحكم في عهد الولاية

يمكن القول إن المسلمين استفادوا بالنظم والتقسيمات الادارية التى كانت موجودة فى سوريا ومصر قبل الاسلام ، ولكن شيئاً رئيسياً حدث هو إدخال الطابع الاسلامى على نظام الحكم ، وقد شمل هذا الطابع الاسلامى الاتجاهات السياسية والادارية والمالية ، فأصبح أهم عمل يؤديه الوالى هو إمامة الصلاة ، وأصبحت الضرائب تتبع التعاليم الاسلامية ، وهكذا ، وسنتكم هنا كلمة عن أبرز الوظائف التى كانت تدير جهاز الحكم فى عهد الولاية :

الجهاز السياسى :

كانت البلاد مقسمة الى مناطق ، وكل منطقة كانت مقسمة الى قرى وكور ، وفى قمة الجهاز السياسى كان يجلس الوالى الذى وضعت بيده مقاليد الأمور كلها ، فكان ينوب عن الخليفة فى شئون الدين وإمامة الصلاة ، وكانت له قيادة الجيش التابع له ، والإشراف على الشرطة والأمن ، وتنفيذ أحكام القضاء .

وفى الأقاليم والقرى التابعة للوالى كان هناك تقريباً جهاز مصغر الصورة لجهاز الذى يرأسه الوالى بالعاصمة ، فرئيس الإقليم أو القرية كان له فى دائرته سلطة الوالى فى ولايته ، أى كان يؤم الناس فى الصلاة ويشرف على استتباب الأمن وتنفيذ أحكام القضاء ، وبهذا كان فى نظام الحكم نوع من اللامركزية .

وكان الوالى يعين صاحب البريد الذى كان يقسوم بدور مهم فى الإشراف على الكور والقرى والمناطق المختلفة ، إذ كان يحمل للوالى أخبار هذه المناطق وأخبار القائمين باسم الوالى على الأمر بها ، فكان بذلك يمثل عين الوالى التى تبصر له الأحداث فى جميع أركان الولاية ، وهذا يوضح مدى أهمية هذه الوظيفة للوالى ، وبجانب ذلك كان صاحب

البريد يحمل الأوامر من الوالى الى الأقاليم ، وكان الوالى يعين عددا من الموظفين الذين يتولون عمليات التدوين والرسائل .

وهناك وظيفتان كبيرتان حرصت عاصمة الخلافة في أكثر الأحوال على إبقائهما في يدها وهما : وظيفة جابى الخراج ، والقاضى ، وكان ولاية الأقاليم يحرصون من جهة أخرى أن يترك لهم الأمر في هاتين الوظيفتين أيضا ، وكان الوالى اذا أشرف على شئون المال يقوى سلطانه ، وقد يهدد بسبب ذلك بالاستقلال عن عاصمة الخلافة ، ولذلك كان الخلفاء يحرصون على أن يستبقوا سلطة المال في أيديهم ، وأن يعينوا لهذه المهمة موظفا يكون تابعا لهم مباشرة ، وسرى أن أحمد بن طولون وجد من الضرورى أن يتخلص من ابن المدبّر عامل الخراج ، إذ رأى أن سلطانه لا يتم مع وجود هذا الموظف بجانبه .

وفيما عدا هذه الوظائف الرئيسية نجد المسلمين يفسحون الطريق للمصريين والسوريين ليشغلوا عدة وظائف ، وقد استعان المسلمون في أول الأمر بمن كانوا يشغلون الوظائف المتصلة بالمال والضرائب من بيزنطيين ومصريين ، ولكنهم أتاحوا الفرصة ليحل المصريون والسوريون محل البيزنطيين من حين الى حين ، فلم تمض فترة طويلة حتى أصبحت هذه الوظائف في أيدي السوريين والمصريين ، ولكن لما تعام العرب فننون الإدارة ، وكتبت الدواوين بالعربية في عهد الدولة الأموية أخذ العرب من المصريين هذه الوظائف ، فثار المصريون عليهم ، وحدث صدام كانت الوظائف من أهم أسبابه وكان النصر فيه للعرب ، فلجأ المصريون الى تعلم اللغة العربية واعتناق الاسلام لتتم مساواتهم بالعرب ، وبالتالي لينالوا حقوقهم في هذه الوظائف (١) .

وقد تحدثنا حديثا مفصلا عن الولاية وأنواعها ، والأمور التى يكل

(١) عمر الاسكندري : تاريخ مصر حتى الفتح العثمانى ص ١٧٢ .

الخليفة النظر فيها الى ولايته في كتابنا « السياسة في الفكر الاسلامي » (١) .

النظام المالي :

قلنا فيما سبق إن كثيرين من المصريين والسوريين أسرعوا في اعتناق الإسلام ، وقد وجب على هؤلاء ما يجب على المسلمين من دفع الزكاة وغيرها مما يحتمه الفكر الاسلامي ، أما أولئك الذين لم يدخلوا الاسلام فقد التزموا بالجزية على الرعوس والتزموا بالخراج على الأرض ، ويتضح لنا مما يذكره المؤرخون أن العرب ساروا في مصر وفق نصوص الصلح التي عقدها مع المقوقس عند حصار حصن بابليون ، فلم يثقلوا أهلها بالضرائب ولم يفرضوا على المصريين والسوريين نظاما ماليا قاسيا ، ويذكر ابن عبد الحكم أن مصر فتحت صلحا بفريضة دينارين على كل رجل ، وأن الاسكندرية فتحت عنوة ، ولكن عمرو بن العاص كتب الى عمر بن الخطاب يسأل عن طريقة معاملة أهل الاسكندرية ، فأجابته عمر بأن يضرب عليهم الخراج والجزية دون أن يستعبد أحدا ، أو أن يجعل أموالهم فينا (٢) .

وهكذا ألحق عمر الاسكندرية بسواها في المعاملة ، وحدث مثل ذلك أيضا في الشام ، فان عمر لم يقبل أن تقسم الأرض والسكان على الفاتحين وإنما أشار بأن يكتفى بالخراج على الأرض وبالجزية على الرعوس (٣) . وفي كتابنا « الاقتصاد في الفكر الاسلامي » دراسة حافلة عن الخراج والجزية ومقدار كل . . . فليرجع اليه من يشاء (٤) ، وقد وضعنا بشكل خاص أن الخراج على مصر كان يتفاوت بتفاوت فيضان النيل (٥) .

(١) السياسة في الفكر الاسلامي للمؤلف ص ١٨٩ وما بعدها من الطبعة السادسة .

(٢) ابن الحكم : فتوح مصر ص ٥٥ - ٥٦ .

(٣) البلاذري فتوح البلدان ص ٢٢١ والخراج ليحيى بن آدم ص ٤٥ .

(٤) الاقتصاد في الفكر الاسلامي للمؤلف ص ٢٢٨ وما بعدها من

الطبعة السادسة .

(٥) انظر الطبري ج ٤ ص ٢٢٩ ، والتلغشندي : صبيح الاعشى

وهناك ضرائب أخرى التزم بها المصريون في وثيقة الصلح وهي حق الضيافة مدة ثلاثة أيام للعرب الوافدين لأهوار رسمية الذين ينزلون على أهل هذه البلاد .

والنظرة السريعة للنظم المالية في العهد الإسلامي بمصر والشام تقرر أن الضرائب كانت ميسرة ، وكانت أقل كثيرا مما التزم به المصريون والسوريون للرومان قبل الفتح الإسلامي ، ومن مقارنة ما ذكره Lane Poole والنسبوطي يتضح لنا أن ما كان يحصله المسلمون من ضرائب كل عام كان حوالي نصف ما كان يجمعه المقوقس قبل الفتح الإسلامي (١) . ولكن بتلر ينتقل عن هنا النقيوسي ما يفيد أن العرب كانوا قساة في معاملة المصريين وتحصيل الضرائب منهم . وليس عسيرا على أي باحث أن يدرك أن هنا النقيوسي كان متعصبا ، وأن حكمه يحمل بذور رفضه ، فعباراته تنم عن السخط والكراهية وشدة التذمثر والانفعال ، مما يجعل كلامه لا يقبل بحال في ميزان التاريخ ، وليسمح لنا القارئ أن ننقل هنا سطرا واحدا من كلامه ليرى إلى أي مدى كان هذا الكاتب حائقا ، فهو يقول عند وصف الأيام الأخيرة من حياة المقوقس « إن عمرا لم تكن في قلبه رحمة بالمصريين ولم يرع العهد الذي عقده معهم ، إذ كان رجلا من الهمج » ومن الواضح أن مثل هذا التحامل يسقط قيمة البحث ، وبالتالي لا يجعله مصدرا جديرا بالاعتبار ، واعتماد « بتلر » عليه يجعلنا نحكم عليه حكمنا على المصدر الذي استمد منه معلوماته (٢) .

وإذا كانت هناك دوافع تعصب ديني جعلت هنا النقيوسي وبتلر يحملان على العرب والحكم العربي ، فإننا كنا نود أن نتحاشى الأتلام العربية المسلمة هذا الاتجاه وبخاصة إذا لم تكن هناك مصادر علمية موثوق بها ويمكن الاعتماد عليها اعتمادا تاما ، أقول هذا وأمامي مؤلفان عن

(١) انظر حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٤ .

(٢) انظر فتح العرب لمصر لبتلر ص ٢٦٧ وما بعدها .

هذه الحقبة بقلم واحد ، وأشهد أن روح التحامل واضحة فيهما ، وتنساب بين سطورهما دون أساس علمي على الإطلاق ، وبدون مراجع حيث نتحتم المراجع ، ولأكتف بهذه الإشارة دون تعريف بالكتابين فليست أحب أن أتتبع سقطات الناس ، وأرجو أن يعود كل كاتب إلى رشده ، فقد نلنا بالاسلام مكانة مادية وأدبية كان يستحيل علينا أن ننالها بدونه .

النظام القضائي :

منصب القاضي — كما أشرنا من قبل — كان يتبع الخليفة غالبا ، وكان الخليفة أحيانا يترك للوالي سلطة تعيين قاضي ولايته ، وعندما ظهر منصب قاضي القضاة بالعاصمة كان يقوم باسم الخليفة بتعيين قضاة الأقاليم (١) . وكان الخليفة يتدخل أحيانا فيلغى حكما أصدره قضاة إذا رأى الخليفة أن الحكم لم يكن منصفًا لسبب من الأسباب ، بل كان الخليفة يعزل القاضي إذا رأى في أحكامه بعدا عن العدالة ، ويروى لنا الكندي نماذج من هذه التصرفات (٢) .

إذا أشكل أمر على القاضي بعث لقاضي القضاة أو إلى الخليفة يسأل رايه ، وكان الخليفة يجيبه عنه من عنده أو يعقد مجلسا للعلماء لإصدار رأي فيه ، وكانت المساجد هي دور القضاء يتجمع فيها المتناضون ، وكان جامع عمرو بن العاص مكانا مختارا في القاهرة لمجلس القضاء .

وطبيعي أن القضاء في الاسلام كان يستمد أحكامه من المصادر الاسلامية الرئيسية ، فكان بذلك أبعد النظم عن نظيره البيزنطي ، وكان القاضي يعتمد على القرآن والحديث والإجماع . . . وكان أحيانا يجتهد

(١) انظر تاريخ التشريع والقضاء في الاسلام للمؤلف ص ٢٦٢ وما

بعدها .

(٢) الولاة والقضاة ص ٣٤١ و ٤١٣ .

إذا لم يجد في المصادر المذكورة ما يشفي غلته ، وبعد أن انتشرت المذاهب الأربعة كان للقاضي أن يصدر فتواه تبعا للمذهب الذي يرتضيه •

أما غير المسلمين فكانوا يتبعون قضاة منهم في قضايا الأحوال الشخصية والخاصة ، وكانت أحكام هؤلاء تصدر وفق أديانهم •

وكان قاضي الولاية يقوم بالاشراف على أموال اليتامى وعلى الأوقاف الخيرية ، ويتزعم الاحتفالات الدينية •

ومن أعظم من اشتهر من القضاة بالفضل والاستقامة والعدل القاضي غوث بن سليمان المتوفى سنة ١٦٨ ، وكان لا يمنع عن الوصول إليه متظلماً قط ، ومنهم كذلك خلفه الفضل ، وهو أول من أمر بتدوين الأسباب الكاملة التي بنى عليها الحكم (١) •

وبجانب القاضي كان يوجد المحتسب ، ومهمة المحتسب معاقبة المذنب الذي لم تتجه خطيئته ضد فرد معين ، وإنما اتجهت ضد النظام العام والآداب العامة ، وعلى هذا كان المحتسب يعاقب من يسبب الازدحام في الطرقات ، كما كان يحارب الغش ويراقب الموازين (٢) •

(١) انظر تفاصيل واسعة عن التشريع والقضاء في الجزء الثامن من موسوعة النظم والحضارة الاسلامية وهو المخصص لتاريخ التشريع والقضاء في الاسلام •

(٢) انظر الحديث عن الحسبة في كتابنا « السياسة في الفكر الاسلامي » ص ٢٣٥ •

الحركات بمصر وسوريا

حتى العهد الطولوني

أخذت مصر نصيبا كبيرا في الحركات السياسية والدينية التي كانت تضطرب في انعالم الاسلامى إبان فترة الولاية ، ونقصد بمصر سكانها الذين اتخذوها وطنًا لهم سواء أكانوا منحدرين من أرومة مصرية أو كانوا من قبائل العرب التي هاجرت الى مصر ، أو من الجنود والموظفين الذين ارتبطوا بمصر وامترجت بأهلها عروقهم * وسنلم هنا المامة سريعة بالدور الذى قامت به مصر في هذه الحركات .

الفتنة في عهد عثمان :

تحدثنا في الجزء الأول من هذه الموسوعة عن الفتنة التي هبت في عهد عثمان ، وعن أسبابها وركائزها السياسية والاقتصادية ، ودور عبد الله ابن سبأ اليهودى الذى ادعى الاسلام فيها (١) ، ولعبت مصر دورا خطيرا في هذه الفتنة ، فقد كان الوالى حينذاك عبد الله بن أبى سرح ، رقى أثناء الفتنة وقبلها كان مشغولا بحروب خارجية ، فقد غزا إفريقية سنة ٥٢٧ واشتبك في حرب مع بلاد النوبة وعقد مع ملكها معاهدة سنة ٥٣١ وحارب الروم في موقعة ذات السوارى سنة ٥٣٤ ، وقد وجد ابن سبأ في غياب عبد الله بن سعد بن أبى سرح عن مصر فرصة له ليتشر آراءه ويضم حوله الصفوف *

ولما علم عبد الله بن سعد بتفاقم هذه الفتنة أسرع عائدا الى مصر ، ولكن يبدو أن الأمر كان على وشك أن يقلت زمامه أو أفلت فعلا ،

(١) موسوعة التاريخ الاسلامى ج١ ص ٥٩٨ وما بعدها من الطبعة الثانية عشرة .

ولذلك رحل عبد الله بن سعد إلى المدينة ليشرح خطورة الأمر للخليفة ،
وليتفق معه على خطة للقضاء على هذه الفتنة ، وأناب عنه من يتولى أمر
البلاد في أثناء غيابه .

وقد وجدت الفتنة في هذا التصرف فرصة لها فتفاقمت وترغمها مديد
ابن أبي حذيفة الذي استطاع أن يطرئ نائب عبد الله بن سعد ، وأن يمنع
عبد الله نفسه من دخول مصر عندما حاول أن يرجع إليها ، ثم خرج من
مصر جماعة الشوار الذين اشتركوا اشتراكا فعليا في قتل الخليفة
عثمان كما وضحنا هذا الأمر في الجزء الأول .

الصراع بين علي ومعاوية :

بعد مقتل عثمان قسام صراع عنيف بين علي الخليفة الرابع وبين
معاوية الذي ادعى أنه يطلب بدم عثمان ، واتبع هذا الخلاف وتشعب ،
وظهر الخوارج فأضعفوا جبهة علي ، وقد تحدثنا عن هذا النزاع ونتائجه
في الجزء الأول من هذه الموسوعة (١) ، ونريد هنا أن نبرز دور مصر في
هذا الصراع .

أعلن محمد بن أبي حذيفة البيعة لعلي ، ولكن أنصار عثمان التفتوا
حول معاوية بن خديج ، وحصلت مناوشات بين الجماعتين لم تسفر عن
حل حاسم ، وجاء معاوية بن أبي سفيان إلى مصر سنة ٤٣٦ هـ ، وأجرى
مفاوضة مع محمد بن أبي حذيفة لتظل مصر على الحياد ولم يقبل علي
ابن أبي طالب هذه النتيجة ، وولى علي مصر قيس بن سعد بن عبادة ،
وهو رجل مشهود له بالكفاءة والحنكة ، فلم يطمع معاوية أن يتغلب عليه
في ميدان السياسة ولا في الميدان العسكري ، وبخاصة أنه لم يكن ينوى
الدخول في حرب ضد مصر في هذه الأثناء لانشغاله في الاستعداد لمواجهة
علي ، فاجأ إلى وسيلة أخرى ليتخلص من قيس ، تلك هي أن أطلق

(١) ج ١ ص ٦١٢ وما بعدهما ، الطبعة الثانية عشرة .

الشائعات عن صلته به وتعاونيه معه ، وصدق على هذه الفرية فعزل قيس بن سعد ، وخسر بذلك كفاءة ممتازة وإخلاصا جما ، وولى مكانه محمد بن أبى بكر الذى كان أقل منه كفاءة ومهوبة ، وبعد نهاية موقعة صفين وانشغال على بالخوارج أرسل معاوية لمصر جيشا بقيادة عمرو بن العاص فاستطاع أن يكسب النصر دون كبير عناء وقتل محمد بن أبى بكر ، وعقب ذلك أعلنت خلافة معاوية وأصبحت مصر ولاية أموية .

دعوة ابن الزبير :

تحدثنا عن أطماع ابن الزبير فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة (١) ، وعن مدى نجاحه وامتداد سلطانه عقب وفاة يزيد بن معاوية ، حتى اقتحم أتباعه الشام على الأمويين ، وفريد هنا أن نقول إن مصر كانت ضمن الولايات التى بايعت ابن الزبير ، وقد أرسل هذا عبد الرحمن بن جندب واليا له عليها ، فاعتزل سعيد بن يزيد والى الأمويين وبدأ أن الأمر تم لابن الزبير بمصر .

وظهر مروان بن الحكم وبدأ الأمويون يستعيدون مكانتهم تحت قيادته ، وكانت مصر من أهم البلاد التى وجه لها عنايته بعد أن استتب له الأمر بالشام ، فأرسل لها ابنه عبد العزيز على رأس جيش كبير ، ثم جاءها مروان نفسه ، وقد دارت معارك متعددة بين عبد الرحمن ومروان من أشهرها معركة حول الفسطاط تعرف بموقعة الخندق (٢) وانتهت بفوز مروان ، وقد أقام مروان بعد ذلك شهرين بمصر وطد فيها سلطانه وقضى على أعداء الحكم الأموى .

مصر والحركات الأموية والهاشمية :

ذكرنا من قبل أن مصر كانت تؤيد على بن أبى طالب ، ولكن سياسة معاوية ودهاء عمرو بن العاص أصبحت مصر تابعة لبني أمية ، بيد أن

(١) ج ٢ ص ٢٢٢ وما بعدها من الطبعة السابعة .

(٢) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٣٣٧ .

شيعة آل البيت ظلوا ينتظرون الفرص للثورة من جديد ، وفي أثناء النشاط الشيعي بخراسان بدأ صدها يظهر بمصر ، وعندما تفاقمت الأمور ضد الأمويين بقيادة أبي مسلم الخراساني بدأ الجند في مصر يخرجون عن طاعة القادة الأمويين ويعضون أوامر الخليفة مروان بن محمد ، وعندما فر هذا الى مصر لم يجد من يحسن استقباله ويقاوم بجرارة معه فواصل تهقره حتى قتل .

وعلى إثر نهاية الأمويين وقيام العباسيين أحس أتباع أهل البيت بخيبة أمل ، فقد كانوا يظنون أن سقوط الأمويين سيعقبه قيام دولة علوية ، ولذلك نجد مصر تشهد خلال العهد العباسي حركات تدعو للعلويين أو تؤيد اللثائرين العلويين ، كما هبت بمصر حركات أموية قام بها بقايا الأمويين أو أتباعهم .

ومن الحركات الأموية تلك التي قام بها دحية بن مصعب بن الأصبع بن عبد العزيز بن مروان ، وقد خرج في الصعيد إبان ولاية إبراهيم بن صالح (١٦٥ - ١٦٧ هـ) وقد نجحت دعوته الى حد كبير ولم يستطع إبراهيم إيقافها ، فأرسل الخليفة العباسي المهدي واليا آخر هو الفضل بن صالح بن علي الذي استطاع بعد نضال طويل أن يقضى على حركة دحية (١) .

أما أتباع العلويين فقد أخذوا يظهر من حين الى آخر وكان من أبرز حركاتهم تأييدهم لمحمد بن عبد الله « النفس الزكية » ولأخيه إبراهيم ، وقد حضر الى مصر في خلال هذه المعركة على بن محمد واستطاع أن يضم الكثيرين الى دعوة أبيه ، وحاول أن يرسل الميرة للثائرين بالمدينة عن طريق خابج أمير المؤمنين مما حدا بالمنصور أن يردهم هذا الخليج ، ولم يستطع والى مصر حميد بن تحطبة أن يقضى على هذه الحركة ، ولكن

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٢ ص ٥٧ - ٦٠ - ٦١ .

سرعان ما جاءت الأخبار بمقتل النفس الزكية وأخيه إبراهيم ، فخبا بذلك نشاط الحركة بمصر

وفي أثناء الاضطهاد القاسى الذى صبه العباسيون على العلويين هاجر كثير من العلويين الى مصر والشمال الاфриقى ، ومن هاجر الى مصر السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن على ، فقد جاءت مع زوجها إسحق بن جعفر الصادق ، ويبدو أن المصريين رحبوا بالعلويين والتفوا حولهم ، ولذلك نجد الخليفة المتوكل على الله يأمر والى مصر أن يخرج آل على بن أبى طالب من مصر فأخرجوا الى العراق والمدينة ، ومن هربوا أيضا من وجه العباسيين إدريس بن عبد الله الذى كونه دولة الأدارسة ببلاد المغرب ، وعلى كل حال فإن ثورات العلويين لقيت في مصر والشمال الاфриقى أخصب الأمكنة للازدهار ، وفي هذه المنطقة الأخيرة قامت دولة الأدارسة والدولة الفاطمية .

مصر في النزاع بين الأميين والمأمون :

وفي خلال النزاع بين الأميين والمأمون اعتمد على قوة أخواله الفرس ، واصطبغت حركته في مطلعها بصبغة فارسية ، وعُدَّ مغلوبا على أمره تسيّره قوى العناصر الفارسية ، ومن هنا انتصرت للأميين أكثر العناصر العربية فأصبح النزاع بين الأميين والمأمون الى حد كبير نزاعا بين الفرس الطامعين والعرب المدافعين عن كيانهم ، وقد ظهر بمصر الاتجاهان جميعا ، فكانت هناك قوة تناصر الأميين وقوة أخرى تناصر المأمون ، ولكن مركز الأميين بدأ يضعف بسبب ما عرف عنه من خلاعه وحنث بالمهود ، ثم بسبب عودة المأمون من خراسان وقضائه على طينيان الفضل بن سهل عليه ، وقد ظهر في أثناء هذه الفتنة عدد من القواد منهم عبد العزيز الجارود الذى استولى على شرقى الدلتا ، والسرى بن الحكم الذى استولى على الوجه القبلى ، وقبيلتا لخم وجذام اللتان أصبح لهما السيطرة على الاسكندرية والبحيرة ، وظل هؤلاء المتعلبون يباشرون نفوذهم حتى استقر

الأمر للخليفة المأمون ، فاضطر الخليفة أن يرسل الى مصر خيرة قواده : عبد الله بن طاهر بن الحسين ، وكان واليا على الشام ، وقد استطاع عبد الله أن يعيد الأمن والنظام ، وقام بعدة اصلاحات نافعة ولكنه عندما غادر مصر عادت الفتنة من جديد ولم تهدأ هذه المرة إلا بحضور المأمون نفسه (١) :



تلك هي أبرز الحركات التي هبت بمصر في عهد الولاية وظروف سوريا تختلف عن ظروف مصر إبان هذه الفترة ، فقد كانت سوريا تحت إمرة معاوية أميراً فخليفة ، ثم ظلت عاصمة العالم الإسلامي حتى سقوط الأمويين ، حيث أصبحت ولاية عباسية ، وفي أثناء هذه الولاية قامت بها حركات ثائرة ؛ فقد اتخذ السوريون في العصر العباسي دستورهم من الكلمات التي صاح بها قائد من بنى كلب في قومه يخثهم على مقاومة بنى العباس ، مهما كانت ضحايا هذه المقاومة ، وهذه الكلمات هي : يا معشر كلب ... إنها الراية السوداء ... اقتتلوا البشر قبل أن يعظم ... الموت الفلسطيني خير من العيش الجزري (٢) .

وقد استجاب بنو كلب لهذا الهتاف ، فتوالت ثورات الأمويين وثورات أتباعهم بسوريا ، كما أوضحنا ذلك في الجزء الثالث من هذه الموسوعة ، بل إن بعض العباسيين المتمردين على الخلافة العباسية استغلوا سخط سوريا على الخلافة الجديدة فاتخذوا من سوريا مركزاً لتمردهم ،

(١) في كتاب الولاية والقضاة للكندى دراسة واسعة لهذه الحركة وقد وضحناها في الجزء الثالث من هذه الموسوعة .

(٢) الطبري : ج ٣ ص ٨٤٤ .

كما حدث بالنسبة لعبد الله بن علي ، وقد فصلنا الكلام عنه في الجزء الثالث أيضا .

ومن الثورات التي تسببت للأمويين ، ثورة الثائر المقتنع ، وهو رجل مجهول النسب ، وإن ادعى بعض أتباعه أنه سفياني وكان هذا الثائر لا يظهر للناس إلا مقتنعا فعرف بالثائر المقتنع أو البرقع ، وقد انتسح نفوذه فتبعه حوالي مائة ألف رجل أكثرهم من الفلاحين ، مما يدل على أن بذورا اقتصادية كانت تغذي هذه الثورة ، وقد حقق كثيرا من الانتصارات حتى أوقع به الخليفة المعتصم (١) .

(١) ابن عساکر : الجزء الخامس ص ٣١١ .

حضارة مصر في عهد الولاة والمدرسة الإسلامية المبكرة

كانت مصر تعاني أزمة ثقافية قبيل الفتح الإسلامي ، فالأديرة التي كانت تمثل مراكز للثقافة أصبحت قبيل الفتح تقف موقف العداء من الفكر الإغريقي بسبب الاختلاف حول طبيعة المسيح ، وقد أدى ذلك إلى أن وصلت الحضارة الإغريقية إلى درجة الاحتضار والذبول في القرون السادس ، وكما انصرف الرهبان عن الثقافة الإغريقية انصرفوا كذلك عن اللغة اليونانية واتجهوا إلى إحياء اللغة القبطية (١) ، التي أولاهها العرب كثيرا من عنايتهم بعد الفتح كما سبق القول .

وجاء الاسلام بأفانين من الفكر ، وللإسلام ثقافته وحضارته ، ولحق تاريخها المجيد فلا عجب أن وجد الإسلام في مصر أرضا خصبة يزرع بها مبادئ فكره وثقافته ، وسنلم هنا بحضارة مصر في هذا العصر :

العلوم الإسلامية :

جذبت مصر إلى ربابها مجموعة من المحدثين والفقهاء والأفذاذ ، وأنتجت مصر مجموعة لا تقبل عن الوافدين موهبة وكفاءة ، ومن هؤلاء وأولئك تكونت بمصر مدرسة للدراسات الإسلامية ضارعت المدارس الأخرى في مختلف العواصم الإسلامية ، وكان على رأس هذه المدرسة عبد الله بن عمرو بن العاص الذي يقال إنه أسلم قبل أبيه ، وكان محدثا وفقها ممتازا ، ويجيء بعده فقيه مصر وشيخها يزيد بن أبي حبيب الذي وكل له عمر بن عبد العزيز أمور الفتيا وقبـد مات سنة ١٢٨ هـ ، وعبد الله بن لهيعة الذي تولى القضاء بمصر حوالي عشر سنوات من سنة ١٥٥ حتى وفاته سنة ١٦٤ هـ (٢) ، ثم الليث بن سعد البـذي وصل

(١) يل : مصر من الاسكندر حتى الفتح العربي ص ٢٤٨ وما بعدها .

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٠ .

القمة بين الفقهاء والمفكرين وكان سريا نبيلًا سخيًا فقيهاً يجيد الحديث والشعر ، وقد عرض عليه المنصور ولاية مصر فامتنع ، ولكنه كان أعلى مقاماً من الوالي والقاضي ، وكان إذا رابه من أحد المسؤولين شيء كاتب فيه الخليفة فيعزل ، وتوفي سنة ١٧٥ هـ .

ومن علماء مصر سعيد بن عبد الله بن أسعد المغافري (١٧٣) وعبد الرحمن بن القاسم بن جنادة (١٩١) وعبد الله بن وهب (١٩٧) وعبد الله بن عبد الحكم (٢١٥) وأبناؤه عبد الحكم (٢٣٧) وعبد الرحمن (٣٦٨) الذي خلف لنا كتابه القيم « فتوح مصر » .

ويعتبر الإمام الشافعي مصرياً في الفترة الأخيرة من عمره ، فقد قدم إلى مصر سنة ١٩٨ وجلس فيما يصنف ويعلم حتى مات بها سنة ٢٠٤ ، ومن أشهر مؤلفاته بمصر كتاب الأم والأمالى الكبرى والرسالة والسنن ، وقد اتبع المصريون مذهب الشافعي وأحشوه محل مذهب مالك الذي كان واسع الانتشار بمصر قبل ذلك ، وترك الشافعي بمصر تلاميذ أجلاء واصلوا ما بدأه من دراسات وأبحاث ، منهم أبو يعقوب يوسف البويطي وعبد العزيز ابن عمران الخزاعي والربيع بن سليمان الأزدي .

وبرزت مصر بوجه خاص في علم القراءات ، ومن علماء مصر المشهورين في هذا المجال عثمان بن سعيد (ورش) الذي ينحدر من أصل قبضي ، والذي انتهت إليه رئاسة القراء بمصر ، وقد توفي سنة ١٩٧ ، ومنهم كذلك أبو يعقوب يوسف بن عمرو المصري الذي خالف ورشاً في علم القراءات وقد توفي سنة ٢٤٠ هـ .

علوم اللغة والأخبار :

نهضت مدرسة اللغة والأدب والأخبار بمصر على نحو ما نهضت مدرسة الدراسات الإسلامية ، ومن زعماء هذه المدرسة ابن ناظر المغافري المصري (١٢٨) ، وأحمد بن يحيى التجيبي المصري (٢٠٥) ،

وعبد الملك بن هشام مؤلف سيرة ابن هشام الشهيرة (٢١٨) وهو عراقي الأصل ، ولد بالبصرة ، ثم هاجر الى مصر عندما سمع عن مدرستها العلمية المبكرة ، وظل بها حتى مات ، وسرح الغول الذي كان إماما في العربية وعلوم الدين ، وكان معاصرا للشافعي ، وكان الشافعي يعجب به وبفصاحته (١) .

وقد تخطت الحركة الثقافية بمصر حدود مصر فأثرت على الشرق والغرب جميعا ، وذلك عن طريق الذين وفدوا الى مصر واغترفوا من معين المعرفة بها وعادوا بمعارفهم الى الأندلس أو إلى الشرق .

التصوف :

يزدان هذا العصر بظهور ثوبان بن ابراهيم المصري المشهور بذى النون المصري ، وقد تلقى العلم عن مالك والليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة ثم صار وحيد زمانه في العلم والورع والزهد ، واتجه ذو النون إلى التصوف فجاء في فيه ، ولكن أهل مصر أنكروا عليه اتجاهه وشكوه للخليفة المتوكل ، فطلب الخليفة أن يرسل له ذو النون مقيدا ، ولكن ذا النون لم يأبه وأم يخف ، وراح وهو في القيد يقول : هذا من هبات الله تعالى وعطاياه ، وكل فعاله عذب حسن طيب ، وأخذ ينشد :

لك من قلبي المكان المصون كل يوم على فيك يهون
ولما أدخل على المتوكل وعظه حتى أبكاه ، فأطلق الخليفة وشاقه وأعادته مكرها (٢) .

ويعتبر ذو النون من مؤسسي مذهب الفيض والعقيدة الصوفية .

(١) السميوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة من ٢٥٢ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٠١ .

دراسات في العلوم :

وبجانب الدراسات الإسلامية والأدبية كانت بمصر دراسة علمية شملت الطب والكيمياء ، ومن تذكر أسماؤهم في هذا المجال أبحر الطبيب الذي كان بارعا في الطب إبان خلافة عمر بن عبد العزيز وذو النون المصري الذي يروى أنه اشتغل بالفلسفة والكيمياء بجانب التصوف .

نشاط في المجال الاقتصادي :

واهتم ولاية مصر اهتماما كبيرا بالزراعة إذ أن مصر خصبة الأرض ، ونيلها دائم الجريان ، ويقرر المؤرخون المصريون أن الولاية العرب اهتموا اهتماما واضحا بحفر الترعة وإقامة الجسور وبناء القناطر ، وبنى العرب مقاييس للنيل لمعرفة مقدار الزيادة والنقصان في مياهه ، ليكون ذلك مقياسا واضحا للزراعة وللضرائب التي تجبى من الزراعين (١) .

وازدهرت في مصر أنواع من الصناعة ، ومن أهمها صناعة البناء ، وللمصريين تاريخ مجيد في العمران عثروا به منذ عهد الفراعنة ، فنبلا غرو أن ظهر هذا الفن في طابع إسلامي ، ومن أجل ذلك كانت المساجد والعواصم التي بنيت في عهد الولاية تعتبر آية في الفخامة والإبداع ، ومن الصناعات التي ازدهرت كذلك في مصر في عهد الولاية صناعة الزجاج والنسيج والجلود والحلى والعمود والفخار .

ونشطت التجارة أيضا في عهد الولاية ، وكان موقع مصر داعيا إلى هذا النشاط ، يصف النويري هذا الموقع كما يصف حاصلات مصر ، وصلاتها التجارية في عبارة تدل على إحاطة بالخطوط التجارية التي ترتبط مصر بها وتتبادل عن طريقها حاصلاتها فيقول : إنها فرضة الدنيا يحمل من خيرها إلى سواحلها ، وذلك أن من ساحلها بالقلم (السويس) ينقل

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٥١ والخطط للمقريزي ج ١

إلى الحرمين وإلى جدة وإلى عمان وإلى الهند وإلى الصين وصنعاء وعدن والسند وجزائر البحر ، ومن جهة تنيس ودمياط والفرما ينتقل إلى فرضة بلد الروم وأقاصى الإفرنجة وقبرص ، وسائر سواحل الشام والفتور إلى حدود العراق ، ومن جهة الإسكندرية يحتمل إلى فرضة إقريطش وصقلية والمغرب كله حتى طنجة ومغرب الشمس ، ومن جهة الصعيد فرضة بلد النوبة والبعة والحبشة والحجاز واليمن (١) .

وفي مجال التجارة كذلك كانت مصر تقوم بدور الوسيط التجارى ؛ أى تشتري وتبيع مستغلة موقعها الممتاز ، كما كانت تصدر منتجاتها من الخبواب والمنسوجات وتشترى لوازمها من الأخشاب والمعادن .

✕ حضارة سوريا في ذلك العهد

كانت سوريا في مكان خطير حيث لها أن تصبح مركزاً لحدّ المسلمين بأنواع من الفكر في علوم شتى ، فقد كان العلماء السريان يجيدون اللغة اليونانية وعلى صلة وطيدة وقديمة باليونان ، فعملوا على ترجمة علوم اليونان إلى السورانية ، ونشطت بذلك مدارسهم الشهيرة في الرها وحران وأنطاكية قبل الاسلام ، وفي ظل الاسلام وبخاصة في العصر العباسى الأول وجد السريان تشجيعاً عظيماً من الخلفاء فراحوا يترجمون إلى العربية خير ما حفلت به السورانية واليونانية ، وشملت إضافات وتعليقات فيها طابع الخلق والابتكار .

وفي الدراسات الإسلامية يبرز في سوريا في هذا الامام الأوزاعى (عبد الرحمن بن عمرو) ، وقد ولد في بعلبك سنة ٥٩٣ ثم انتقل إلى بيروت ، وفي مطلع العصر العباسى الأول كان يعتبر من خيرة الأعلام المشاهير ، ويروى ابن خلكان (٢) أن سفيان الثورى بلغه مقدّم الأوزاعى

(١) النويرى : نهاية الأرب ١ ص ٣٤١ .

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٧٥ .

فخرج حتى لقيه وسار في مقدم ركبته ، وكان كلما مرّ بزحام صاح في الناس : الطريق للشيخ ، وقد اشتهر الأوزاعي بالعلم والزهد وتميز بالجزأة الأدبية ، وكان إمام أهل الشام ولم يكن بالشام أعلم منه ، وعندما قدم المنصور سوريا سمع الأوزاعي يعظ فأعجب به إعجابا شديدا ، وكان له مذهب شائع في الشام ، وقد بقي بعده حوالى القرنين ثم حل محله المذهب الحنفى ، وسار مذهبه إلى الأندلس ثم حل محله المذهب المالكي .

ومن الشعراء المشاهير الذين ظهروا في سوريا في ذلك الوقت أبو تمام والبحتري ، وقد زار أبو تمام يقاعا كثيرة بالعالم الاسلامي ، غزا مصر حيث اشتغل بشاقية الماء ، ثم زار الحجاز وأرمينية وفارس والعراق ، ثم استقر أخيرا ببغداد واتصل ببلاط المعتصم وأصبح من شعرائه ، وقد رافقه في حملته على عمورية ، ووصف انتصاراته أروع وصف ، فسجلت قصائده الخاود لوقعة عمورية ، وقد تحدثنا عن ذلك في الجزء الثالث من هذه الموسوعة ، ويقول ابن خلكان عنه انه كان وحيد عصره في ديباجة لفظه ورصانة شعره وحسن أسلوبه ، وله كتاب الحماسة الذي يدل على غزارة فضاه ، وإتقان معرفته بالشعر (١) .

أما البحتري فأحد فحول الشعراء ، يضعه النقاد بين أبي تمام والمتنبي ، ويروى ابن خلكان (٢) عن أبي بكر الصولي أن البحتري كان يقول : أول أمرى في الشعر ونباهتى فيه أنى صرت إلى أبى تمام وهو بحمص فعرضت عليه شعري ، وكان يجلس ولا يبقى شاعر إلا قصده وعرض عليه شعره ، فلما سمع شعري أقبل على وترك سائر الناس ، فلما تفرقوا قال لى : أنت أشعر من أنشدنى ، فكيف حالك ؟ فشكوت خلة ، فكتب إلى أهل معرة النعمان وشهد لى بالحدق وشفع لى إليهم ، وقال لى امتدحهم . فصرت إليهم فأكرموني بكتابه ، ووظفوا لى أربعة آلاف

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢١ - ١٢٣ .

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ١٧٥ .

درهم ، فكانت أول مال أصبته ، ولما ظهر نبيوغ البحتري اتخذ طريقه إلى بغداد حيث أصبح شاعرا مشهورا في بلاط المتوكل ومن جاء بعده من الخلفاء ، ويرع البحتري في وصف القصور والبرك وحيوان الفلاة وهو مما يندر وجوده في الشعر الغربي (١) .

وفي مجال الصناعة والتجارة كانت سوريا تلعب دورها الهام بسبب مكانها الاستراتيجي الممتاز بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب ، وقد لعبت هذا الدور على مر التاريخ كما تحدثنا في عدة مناسبات ، وعلى سناحل سوريا كان يعيش الفينيقيون ولهم في ميدان التجارة والمال باع طويل ، وكانت أسواق حلب ودمشق وبيروت عامرة بأصناف العطور والتوابل والنسيج المصبوغ والخزف المطلق بالمينا وغيرها .

(١) فيليب حتى : تاريخ سورية ج٢ ص ١٨٢ .

عواصم مصر في عهد الولاة

الاسكندرية :

كانت الاسكندرية عاصمة مصر قبل الفتح الاسلامي ، وقد فكر عمرو ابن العاص أن يتخذها عاصمة له عقب الفتح ، وبخاصة أن الروم حاولوا مهاجمتها من البحر ، فأراد عمرو أن يستقر بها ليكون أقرب إلى حمايتها والدفاع عنها ، وكتب عمرو بذلك إلى عمر بن الخطاب ، فكتب إليه عمر يسأله : هل يحول بيني وبين المسلمين ماء ؟ فلما أجاب عمرو بالإيجاب نهاء عمر عن ذلك ، وكان مما قاله بناء على رواية السيوطي : إني لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بيني وبينهم في صيف أو شتاء (١) . فتحوّل عمرو إلى مكان الفسطاط حيث بنى العاصمة التي ظلت عاصمة الديار المصرية أكثر عهد الولاة .

الفسطاط :

وتنسب الفسطاط - في أوضح الاتجاهات - إلى فسطاط عمرو ابن العاص الذي كان قد أقامه بالقرب من حصن بابليون إبان حصار هذا الحصن .

ويروي السيوطي (٢) أنه عقب الصلح أراد عمرو أن يجمع فسطاطه ليرحل إلى الاسكندرية ، ولكنه وجد يمامة قد اتخذت لها عشًا فسوق الفسطاط وأفرخت به ، فقال عمرو ، قد تحرمت اليمامة بنا ، وأمر أن يبقى الفسطاط حتى تطير فراخها ، وسافر إلى الاسكندرية ، فلما رفض الخليفة أن تتخذ الاسكندرية عاصمة عاد عمرو إلى مكان الفسطاط وقرر أن يقيم به عاصمته .

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٧ .

(٢) المرجع السابق .

ويروى بعض المؤرخين أن كلمة الفسطاط غير عربية بل يونانية ومعناها المدينة العسكرية ، وقد اقتبسها العرب لمدينتهم التي أقاموها في مواجهة حصن بابليون •

وتقع الفسطاط بين النيل وجبل المقطم ، فتجتمع بذلك بين القرب من الماء وللعرب حرص عليه ، والقرب من الصحراء ولهم بالصحراء شغف ، ومن مميزات هذا الموقع سهولة اتصاله بالمدينة عاصمة الخلافة بواسطة قناة تربط بين النيل عند القاهرة وبين البحر الأحمر عند السويس (القازم) ويرجع تاريخ هذه القناة للفراغة ، وقد اهتم بها الرومان فأعادوا حفرها وسميت قناة تراخان ، ولا ردت أعاد عمرو بن العاص حفرها وسمها قناة أمير المؤمنين ، وقد ظلت ممرا مهما حتى ردمها أبو جعفر المنصور حتى لا ترسل الميرة عن طريقها إلى محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن (النفس الزكية) الذي قاد الشيعة في أخذ ثورتهم ضد العباسيين كما سبق •

وقد بنى عمرو الجامع المنسوب إليه في مركز الدائرة على مساحة طولها ٢٩ مترا وعرضها ١٧ مترا ، ثم اتخذت كل قبيلة من قبائل الجيش العربي خطة (قسما) أقامت فيها مساكنها ، ومن هذه الخطط ، خطة بنى تميم وبنى وائل وبنى عقبة وهكذا ، وسرعان ما اتسعت الأبنية في الفسطاط وامتدت ، وأعد العرب غير بعيد من الفسطاط مكانا ليدفن به موتاهم ، وقد دفن به عمرو بن العاص وبعض الصحابة (١) •

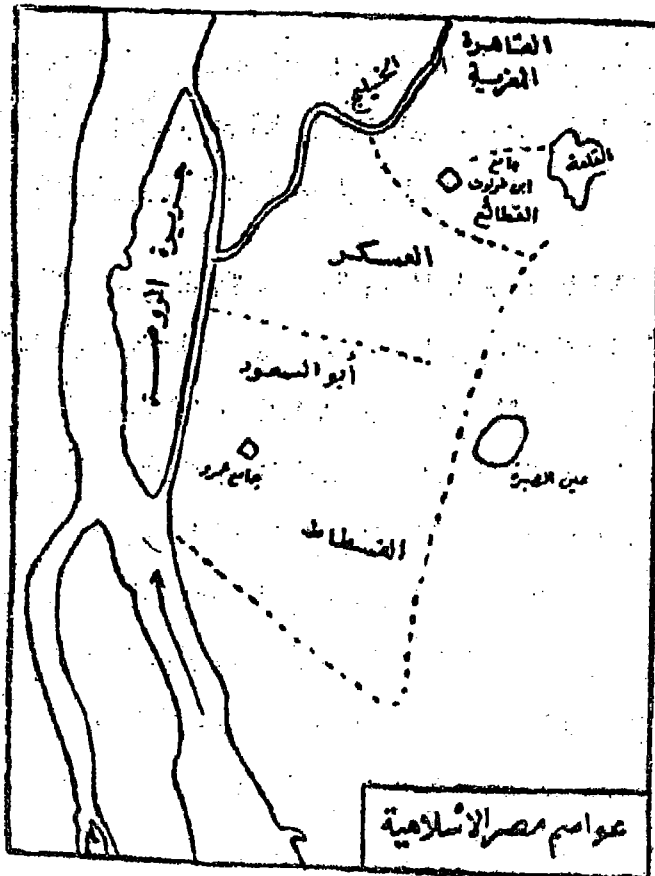
هــوان :

وظلت الفسطاط تمثل العاصمة الرئيسية إبان هذه الحقبة ، وتشد تحول عبد العزيز بن مروان عنها لأسباب صحية ، يقول ياقوت أنه وقع بمصر طاعون سنة ٧٤٥ هـ وواليتها عبد العزيز ، فخرج هذا يحدث عن موقع

جديد يقيم به ، فلما وصل حلوان استحسن موقعها ، فبنى بها دورا وقصورا ، واستوطنها وزرع بها بساتين وغرس كروما ونخلا (١) ، ويعتبر هذا انتقالا مؤقتا لهذا السبب الطارئ ، ومعنى هذا أن الفسطاط ظلت العاصمة الحقيقية طيلة حكم بني أمية حتى مع انتقال بعض الولاة عنها .

العسكر :

وعند سقوط الدولة الأموية وقيام دولة العباسيين ، بنى ولاية مصر من قبل العباسيين مدينة جديدة الى الشرق من الفسطاط ، سموها « العسكر » .



القطائع :

وصارت العسكر مقر ولاية مصر الى سنة ٨٢٥٤ حيث بنى ابن طولون مدينة القطائع واتخذها عاصمة له كما سئرى ، ويمكن فى الحقيقة أن تعد العسكر ضاحية من ضواحي القسطنطين أو امتدادا لها ، وموقعها الآن البغالة وزين العابدين •



آثار عصر الولاية :

من أهم الآثار المصرية التى شاهدها المسلمون الزاحفون « حصن بابلون » وكان الرومان قد أقاموا هذا الحصن جنوب القاهرة الحالية ، وقد حاصره المسلمون ستة أشهر ، ولا تزال بقاياها فى قصر الشمع •

ومن آثار عصر الولاية مجموعة من المساجد أشرنا لها عند الكلام عن منشئها • وفى قمعتها مسجد عمرو بن العاص ، وقد اشترك فى تأسيسه مجموعة من الصحابة الذين كانوا ضمن الجيش الإسلامى ، وهو أول مسجد بافريقية ، وقد كان هذا المسجد موضع اهتمام الحكام على مر العصور ، وبجرت فيه زيادات كثيرة وبخاصة أيام عبد العزيز بن مروان ، وفى العهد الفاطمى لم يفقد جامع عمرو مكانته بل ظل موضع اهتمام الخلفاء الفاطميين والعلماء ، وقد أهداه الخليفة الحاكم نجفة كبيرة ، وكان الخلفاء الفاطميون المتأخرون يصلون به الجمعة اليتيمة ، وكان التدريس بهذا المسجد حسبة ، وكان به ثمانى زوايا يجلس فيها خيرة العلماء ومن أهمها زاوية الامام الشافعى ، ولم يبق الآن من المسجد الذى بناه عمرو إلا أرضه وبعض أجزاء فى جداره الشبى •

المقطم :

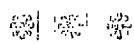
والفسطاط ، أول عاصمة اسلامية بمصر ، وجامع عمرو ، يقعان بوجه عام في سفح جبل المقطم ، ومن هنا لزم أن نتكلم كلمة عن آثار هذا الجبل التي منها القديم ومنها ما يرتبط بعدة عصور اسلامية ، وأول ما نذكره عنه أن هناك رواية تقول إنه يدفن فيه غراس الجنة ، ومن هنا وجدت بجوانب منه مقابر للصالحين ومن التمس بركتهم •

ومن الآثار القديمة بالمقطم « تنثور فرعون » وقد أقيم مكانه مسجد التنور •

وبالمقطم وادى دجلة وكهف السودان ، وبه كذلك دير القمير • وقد تكلمنا عنه في كتابنا « المسيحية » ضمن حديثنا عن الأديرة وما كان بها من أئمة وعبيث •

ومن أهم الآثار الاسلامية بالمقطم مسجد « دكة القضاة » حيث كان استطلاع الهلال يتم فوقها ، ومنها كذلك مسجد الجيوشى (نسبة لأمين الجيوشى بدر الجمالى) وكان عمرو بن الفارض (العصر الأيوبي) يخلو للعبادة بالتحام فيما سعى « سياحة التفرغ لله » •

وفي الجانب الغربى من المقطم توجد قلعة صلاح الدين ومسجد السلطان ، ومسجد سارية الليل ، ومسجد محمد على •



ويعد هذا الدراسة التاريخية من عصر الزلا ، غير خادوة أخرى انتشرت من أول فترة استقلال في تاريخ مصر وسوريا في عهد الاسلام •

الدولة الطولونية

(٢٥٤ - ٢٩٢ هـ - ٨٦٨ - ٩٠٥ م)

الحركات الاستقلالية بمصر

مع نهاية العصر العباسي الأول (سنة ٢٣٢ هـ) بدأ مركز الخلافة يضعف ، وبدأت بعض المناطق التابعة للخلافة الاسلامية تتطلع الى الاستقلال ، وبخاصة تلك المناطق التي كان لها أمجاد وتاريخ ناصع قبل الاسلام ، فلقد اعتنقت هذه المناطق الدين الجديد وتبنت ثقافته وحضارته ، ولكن ذلك لم يلزمها بالتبعية السياسية ، وبخاصة إذ كان مركز الخلافة قد تسلط عليه من لا يهتمون الاسلام ثقافة وحضارة ، وكانت مصر من أبرز الدول التي اتجهت هذا الاتجاه ، فمصر لها تاريخها الفرعوني الطويل الذي يعود الى الورا عدة آلاف من السنين ، والذي سجل ألوانا من التقدم في مختلف الاتجاهات .

وعندما جاء الاسلام أحسنت مصر استقباله ، واحتضنت فكره ، فكان إضافة مهمة لحضارة المصريين ، وفي نفس الوقت كانت المراكز الاسلامية الأولى « الحجاز ودمشق وبغداد » قد بدأت تعاني من المشكلات الداخلية ، وأصبح واضحا أنها ليست أقدر من القاهرة على حمل مسؤولية الفكر الاسلامي ونشره ، وهكذا بدأ تراجع في هذه المناطق وتقدم في مصر ، وصادف أن جاء أحمد بن طولون الى مصر في ذلك الوقت فقابل استعدادا كبيرا لحركة استقلالية ترمى الى أن تستعيد مصر استقلالها السياسي من جانب ، وتحمل مسؤولية احتضان الاسلام ونشره من جانب آخر ، فكانت الدولة الطولونية أول هذه الحركات الاستقلالية ، وقد استمرت هذه الحركات الاستقلالية في عهد الطولونيين ، ثم في عهد الإخشيديين ، وأخيرا حققت نجاحها الكامل في عهد الفاطميين .

ولما جاء العهد الأيوبي بعد العهد الفاطمي اعترف الأيوبيون بالخلافة العباسية اعترافا شكليا ، ولكن قيادة المسلمين ضد الصليبيين اتخذت مصر مقرا لها ، ولما جاء المماليك انتقلت الخلافة العباسية لمصر بعد أن قضى المغول على الخلافة ببغداد .

والمهم أن مصر بدأت بها الحركات الاستقلالية مبكرة ، منذ عهد السرى بن الحكم الذى تولى إبنائه أمانة مصر بعده ، ولكن الحركة تمت فى العهد الطولونى وسرعان ما أصبحت مصر مركز القوة والطم للعالم الاسلامى كله .

ونضيف هنا أن المصريين حرصوا على هذه الحركة الاستقلالية منذ قيامها ، فلما سقطت الدولة الطولونية سنة ٩٦٣ هـ وعادت مصر لتكون ولاية تابعة للخلافة فى بغداد ثار أحد المصريين وهو محمد بن على الخلعجى وكان ضابطا بالجيش الطولونى ، وقاد ثورة ضد والى العباسى (عيسى النوشرى) وانضم آلاف المصريين للنائر ، واستطاع الثوار أن يهزموا والى العباسى ويستقلوا بمصر حوالى ثمانية شهور (١) .

ويصف مؤرخ معاصر (٢) هذه الثورة بأنها كانت « تنفيسا عن رغبة المصريين فى الاستقلال » .

وقد اتخذ الاتجاه الاستقلالى مظاهر مهمة خلاصتها :

- ١ - أصبح والى يخطب له ويذكر اسمه بعد اسم الخليفة .
- ٢ - وضع والى اسمه على السكة مع اسم الخليفة .
- ٣ - تكوّن لصر جيش خاص ، وأحيانا وجهه والى لحرب ممثلى الخلافة كما حدث ضد الموفق وضد ابن رائق كما سنرى .
- ٤ - أصبح لصر أسطول خاص قوى .
- ٥ - أصبح والى مصر يعين القضاة بنفسه ويعين كل موظفى الدولة .
- ٦ - وأصبح الحكم وراثيا ، فعاصمة الخلافة لا ترسل واليا جديدا للبلاد عقب وفاة واليها .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٥٢ .

(٢) دكتور حسن محمود : مصر فى عهد الطولونيين والاختليديين ص ٨٦ .

وبعد هذا الايجاز عن الحركات الاستقلالية بمصر ، نتجه الى تفصيل القول في هذه الحركات :

وقد اشتركت ستوريا مع مصر في هذه الحركات الاستقلالية في جميع مراحلها .

تعريف بالدولة الطولونية

تنسب هذه الدولة إلى طولون ، وهو ينحدر من أسرة كانت تقيم في بخارى ببلاد تركستان ، وجاء طولون الى بغداد سنة ٨٢٠٠ م إبان خلافة المأمون ضمن مجموعة من الأسرى أرسلهم نوح بن أسد الساماني إلى الخليفة ، وقد وجد المأمون في طولون بسطة في الفكر والجسم فجعله رئيساً لحرسه الخاص ، وخط بذلك طولون نحو الجاه ومهد الطريق لابنه أحمد وأحفاده نحو المجد والسيادة .

وأمرء الطولونيين هم :

١ — أحمد

٢٥٤ — ٢٧٠

٥ — شيبان

٢٩٢

٢ — خمازويه

٢٧٠ — ٣٨٢

المعاس

٤ — أبو موسى هارون

٢٨٣ — ٢٩٢

٣ — أبو العساكر جيش

٢٨٣ — ٢٨٢

تعريف بالأمراء الطولونيين

أحمد بن طولون :

ولد أحمد بن طولون سنة ٥٢٢٠ هـ وعنى أبوه بتربيته عناية كبيرة ، فرباه كما يربى أولاد الأمراء الأتراك في ذلك الوقت ، درّبه على الشجاعة وعلمه العلوم العسكرية في سامرا ، وأضاف إلى ذلك تعليمه علوم اللغة والدين ، وتلقى أحمد الفقه على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ، ثم تردد على علماء طرسوس وأخذ من معارفهم وروى عنهم الأحاديث ولما مات أبوه سنة ٥٤٠ هـ عهد له المتوكل بالقيام ببعض الأعمال التي كان أبوه يقوم بها ، ثم ولي إمرة الثغور وإمرة دمشق (١) .

وقفز المعتز إلى الخلافة بعد عزل المستعين (٥٢٥٢) وسجن المعتز المستعين في دار بواسط وجعل أحمد بن طولون حارسا عليه ، ولكن السجن احترم في السجن مكانته ، فلم يشدد الرقابة عليه ، واكتفى منه ألا يزال نشاطا ضد الخليفة القائم بالأمر ، ولكن قبيحة أم المعتز لم تكف بسجن المستعين وقررت قتله حتى لا يثب على ابنها ، وأرسل رجال القصر بذاك إلى أحمد بن طولون ، ولكن هذا رفض أن يقتله وتكتب بذلك إلى رجال القصر (٢) ، وأثر أن يتخلى عن هذا المكان إلى من يستطيع تنفيذ أوامر القتل ، وعظم أحمد بن طولون بذلك في أعين الفضلاء ، وغادر ابن طولون واسط إلى سحر من رأى .

وكان خافاء بثنى العباس منذ عهد المعتصم يمينون الأتراك ولاية على أهم الولايات ، ولكن الأتراك كانوا يحرصون على أن يبقوا بعاصمة الخلافة لينعموا فيها بحياة الترف وليكونوا على صلة بمنطقة النفوذ والسيادة ، ومن أجل هذا كان هؤلاء الولاة يمينون نوابا عنهم ليحكموا الأقاليم باسمهم ويبقون هم بعاصمة الخلافة (٣) .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٣ ص ٤ .

(٢) ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ٥ — ٧ والبلوى ص ٤٠ .

(٣) لعل هارون الرشيد هو الذى ابتدع هذه البدعة منذ جعل ولاية مصر لجعفر البرمكى ، ولكنه في الوقت نفسه استبقاه بجانبه ، فأناب جعفر عنه نائباً لحكم مصر هو عمرو بن مهران .

خطوات ابن طولون للسلطة :

وجاء أحمد بن طولون الى مصر نائبا عن واليها التركي باكبك أو « بقبق » الذي كان قد تزوج أمه بعد وفاة أبيه ، وخص ابن طولون بالعاصمة ، ولم يدخل باكبك الاسكندرية في دائرته ، ولما مات باكبك حرص يارجوخ حمو ابن طولون على أن تكون له ولاية مصر ، وما إن تم له ذلك حتى كتب الى أحمد بن طولون زوج ابنته يقول له : تسلم من نفسك لنفسك ، وضم له الاسكندرية وكان ذلك سنة ٥٢٥٦ هـ (١) ، وعرف ابن طولون بالقوة والميل الى الإصلاح ، ثم انه جاء بعد مجموعة من الولاة عرفوا بالأنانية والتزق فكان ذلك مما حيب الناس فيه ، وربطهم به ، وكان ابن طولون حسن الصلة بالخليفة العباسي يرسل له طرफ مصر ومنتجاتها ، ولذلك ما ان مات يارجوخ حتى أقره الخليفة واليا لمصر حيث واصل إصلاحاته وهيا لنفسه جوا يضمن له الاستقلال (٢) .

اتساع ملك ابن طولون :

وفي هذه الأثناء كان بالشام عدة ولاة يتبعون الخلافة العباسية ، وكان من بين هؤلاء عبد الله بن رشيد عامل الثغور ، وقد هزم هذا في إحدى المارك ضد البيزنطيين وأسره الروم ، فطلب الخليفة المعتمد سنة ٢٦٤ من أحمد بن طولون أن يسير لمحاربة البيزنطيين ، فلبى ابن طولون طلبه وسار بجحفه من مصر ، وقد ضمنت هبة ابن طولون له أن يمد نفوذه حتى طرسوس ونهر الفرات ، وأن يستولى على دمشق من على ابن أماجور وبهذا أصبح ملك الطولونيين يشمل مصر والشام والجزيرة ومناطق الثغور وأقره الخليفة العباسي على ذلك .

وسنفضل القول فيما بعد عن علاقة الطولونيين بالخلافة العباسية ، ونسرع هنا بأن نقرر أن ابن طولون صارع الموفق أبا الخليفة والقائم

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٧ .

(٢) الطبري : ج ٣ ص ١٦٧٠ .

بأمر الخلافة وانتصر عليه ، وقرر لعنه في الخطبة وهكذا فعل خمارويه ، ووضع كهذا معناه استقلال تام عن بغداد ، وعندما تم صلح بين الموفق وخمارويه كان به نص أن ولاية مصر وسوريا حتى طرسوس حق لخمارويه ولولاده مدة ثلاثين عاما .

صعوبات في طريق ابن ثنون

شئون الخراج والبريد :

وقد واجه ابن طولون كثيراً من الصعوبات وهو يبنى ملكه ، ومن هذه الصعوبات أن شئون الخراج بمصر كانت في أول عهده في يد أحمد ابن محمد بن المدير الذي كان واسع الثراء والنقود ، ثم كان عامل البريد الذي يكتب للعاصمة بأخبار أحمد بن طولون يسمى « شقير » وهو من أصفياء ابن المدير ، وإذا اجتمع عامل الخراج وعامل البريد ضد الوالى شالت كفته ، ولكن أحمد بن طولون صبر وفكر حتى تخلص من الاثنين ، ويروى أنه عقب استناد ولاية مصر لابن طولون أرسل له ابن المدير مبلغا كبيرا من المال ، ولكن ابن طولون رفض تسلمه ، فأحس ابن المدير أنه أمام وال صعب القيادة ، فبدأ يدس عليه ، وكان لابن المدير مجموعة كبيرة من الحرس تحيطه بالهيبة ، فأرسل له ابن طولون يذكر أن الدفاع عن الدولة يحتاج لهؤلاء الجنود ، فدفعهم إليه ابن المدير كارها ، وازداد الشد والجذب .

وحدث أن طلب الخليفة المعتمد من ابن طولون مزيدا من الأموال ، فأجاب ابن طولون قائلا : كيف أطيق ذلك والخراج في يد غيري ؟ فنحنى للخليفة ابن المدير ، ونقله الى خراج سوريا ، ووافق ابن المدير على هذا لكثرة ما عانى من ابن طولون ، وضعف بذلك جانب شقير فاستطاع ابن طولون أن يقضى عليه ، ولما امتد سلطان ابن طولون الى سوريا التقى بابن المدير مرة أخرى وسرعان ما كان الغلب لابن طولون أيضا فاستسلم ابن المدير ورضى أن يفارق سوريا ببعض ماله (١) .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٤٠ .

ثورة شيعية :

ومن الصعوبات التي هبت في وجه ابن طولون ثورة شيعية في الوجه القبلي يتزعمها شخص اسمه إبراهيم بن محمد وهو من نسل الإمام علي ابن أبي طالب ، ويعرف بابن الصوفي ، وقد قضى ابن طولون على هذه الثورة بعد صراع طويل ، ونار بمنطقة أسوان ثائر آخر يعرف بالعمري نسبة الى عمر بن الخطاب ، ولم يهرقه ابن طولون الا بأن دس عليه أحد خدمه فقتله غدرا وقدم رأسه الى ابن طولون .

ثورة العباس :

بيد أن أعظم الثورات التي عايناها أحمد بن طولون هي ثورة ابنه العباس ، وهذه الثورة - بجانب ما سببته من صعوبات عسكرية واقتصادية - كان لها جانب عاطفي لا يقل صعوبة عن جوانبها الأخرى ، فالثائر هو الابن الأكبر لأحمد بن طولون وهو قرة عينه ، وقد استخلفه أبوه على مصر عندما سار الى الشام وأنطاكية .

ويتحدث المؤرخون كثيرا عن أسباب هذه الثورة :

هل هي غيرة العباس من أحمد بن محمد الواسطي كاتب أبيه وصاحب الحظوة عنده ؟

هل هي أطماع الابن أن يكون لنفسه مملكة تماثل أو تفوق مملكة أبيه ؟

هل هي بدفع من أعداء أحمد بن طولون ؟

علي أي حال لقد خرج ذلك الابن العاق وأخذ معه ما كان بخزانة الدولة من أموال ، كما أخذ قروضا من بعض التجار واتجه الى برقة والشمال الاثريقي وأخذ معه الواسطي مكبلا بالسلاسل ، ولكن سرعان ما وجد ذلك الابن العاق نفسه مطوقا بقوى تفوق قواه ، فالأغلبية بتونس ، وإلياس بن منصور زعيم البربر بجبل نفوسة ، قاما في وجهه ، ومطاردة

أبيه لحقته بعد أن عجز الترغيب والترهيب عن إعادة الابن العاق الى
رشدته ، ثم هرب الواسطي وعاد الى مصر ، وانفض كثير من أتباع
العباس عنه ، وأخيرا أحاطت به جيوش ابن طولون وقبضت عليه وعلى
كبار أتباعه ، وأرغم العباس أن يقتل بيده كثيرين من معاونيه ، أما العباس
فقد زج به في السجن حيث بقى فيه حتى اعتلى أخوه خمارويه العرش
فقتله الحراس ، لأن العباس امتنع عن مبايعة خمارويه (١) .

من صفات ابن طولون :

كان ابن طولون سمحا كثير الصدقات ، فياض الكرم ، يمد سماطه
كل يوم لآلاف الطاعمين ، وكان يميل للجد ولا تجذبه أنواع اللهو ، وهكذا
يكون مؤسسو الدول ، وكان ابن طولون ذكيا فطنا ، أدرك أن أخباره
تنتقل الى دار الخلافة ببغداد ، فوضع له عيوننا هناك تحضره وتنقل له ما
يدور بعاصمة الخلافة من أحداث واتجاهات ، وكان ابن طولون مع ذلك
طائش السيف يقتل بالظنة ، ويعتمد على الجواسيس في كثير من الأحوال .

الأمراء الطولونيون بعد أحمد :

يمكن القول إن دولة الطولونيين كانت دولة أحمد بن طولون فقط ،
وأن بقاء سلطان الطولونيين بعد وفاته لم يكن الا بقوة الدفع التي بعثها
منشئ الدولة ، إذ لا يكاد الباحث يجد بين الأمراء الطولونيين بعد أحمد
مَن يستحق الذكر أو تحمد له مآثرة ، وإذا كان ابنه العباس عق وثار ،
فإن أبنائه وأحفاده الآخرين كان فيهم عقوق من نوع آخر ، ذلك هو عدم

(١) عن هذا الموضوع اقرا : البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ٢٦٠ وما بعدها .

ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ٥٩ — ٦٠

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٤٩

وعن كتب ابن طولون لابنه العباس اقرا : التلقشندى : صبح الأعشى

ج ٧ ص ٥ — ١٠ .

احتفاظهم بترائيه ، وعدم سيئرتهم سيرته ، وعدم حرصهم على أن يكونوا امتدادا صالحا للرجل المكافح .

وأول من نصادف من هؤلاء الأمراء هو خمارويه الذي تولى السلطان بعد أبيه باجماع الجند ورجال الدولة ، وكان في هذا المطلع الهاديء المستقر ما يمكن أن يساعد الأمير على حياة صالحة ناجحة ، ولكن الأمير — على الرغم مما حقق من شجاعة وانتصارات سنتحدث عنها فيما بعد — كانت حياته سرفا ونزقا تصل الى أبعد الحدود ، ويقص التاريخ هنا يضعب تصديقه من عطاءات سخية للشعراء والمغنين ، ومن أنه كان لا يلبس الرداء إلا مرة واحدة ، وإذا ركب الحصان مرة فانه لا يعود الى ركوبه مرة أخرى ، وحتى القصور كان يسكن كل قصر عالما واحدا ثم يستبدل به سواه ، وبهذا سخر آلاف الناس ليخيطوا ثيابه ويدربوا خيوله ويبنو قصوره ، ومن نزقه ما تحدثنا عنه في الجزء الثالث من هذه الموسوعة بخصوص زواج ابنته أسماء (قطر الندى) من الخليفة المعتضد العباسي ، وما بذله خمارويه من سرف في هذا الزواج حتى صار هذا الزواج سببا من أسباب التدهور الاقتصادي للبلاد (١) .

وكانت أخلاقه الشخصية منحلة الى أبعد حدود الانحلال ، ويقال إن نهايته كانت نتيجة لهذا الانحلال الفاحش ، فقتله خدمه وهو منعفس في ممارسة هذا الباطل (٢) .

وبعد خمارويه تولى ابنه أبو العساكر جيش ، وهو صبي في الرابعة عشرة من عمره ، وكان كاليه في نزقه والبحث عن مسراته وسرعان ما أبعد رجال السياسة والأدب وقرع الجبهة والمصارعين ، وأوقع بمن شك في ولائه التتكيل والدمار ، وأساء الى أبناء الأسرة الطولونية ، بل قتل بعض

(١) موسوعة التاريخ الاسلامي ج٣ ص ٤١١ — ٤١٣ .

(٢) ابن عساكر : تاريخ دمشق ج٥ ص ١٧٨ .

كبار هذه الأسرة ، وكل هذا أثار عليه الناس ، فهاجم الشائرون قصره وقتلوه ونهبوا القصر واعتدوا على ما سواه من الأملاك ، وكان ذلك بعد عام واحد من توليته الحكم .

واختار الثائرون أبا موسى هارون ، وكان أيضا في الرابعة عشرة وجعلوا عليه وصيا ، ولم يكن هناك من سبيل لإصلاح الحال ، فقد انهارت الأسرة ، وكثرت الطوائف بين رجالها ، وعمّ الدس والفتك ، وآذنت الأمور بنهاية الدولة .

نشاط القرامطة بسوريا :

القرامطة من الشيعة المتطرفة ، لهم صلة نسب بالاسماعيلية والفاطميين الذي سيظهرون فيما بعد ، ويقال إنهم ينسبون إلى حمدان قرمط (١) ويرجح الباحثون أن لفظ قرمط لفظ سورياني معناه « المعلم الشرى » (٢) ، ولم يكن يقبل أحد في جماعتهم إلا بعد اختبارات طويلة ومراسم خاصة ، وقد بدأ نشاط القرامطة حوالي سنة ٢٢٧ هـ بالقرب من الكوفة ، وبعد حوالي تسع سنوات أصبح للقرامطة دولة مستقلة على الضفة الغربية للخليج العربي ، ومن هذين المركزين نشر القرامطة الخراب في كل مكان ، ويبدو أن سوريا تناسبت اتجاهها السني ورحبت بالاتجاهات المتطرفة بسبب ما عانتها من اضطهاد العباسيين ، وبالإضافة إلى هذا فقد وجد القرامطة الفرصة سانحة لهم ليسيظروا على سوريا بعد أن ضعف الأمراء الطولونيون ، وكانت فيالق القرامطة يقودها ابن ذكرويه ، وقد حاصر دمشق واحتل حمص وحماة ومعرة النعمان وبعلبك وسلمية حيث أصبحت الأخيرة مركزا للخشاشين من الاسماعيلية ، ودعى لابن ذكرويه على كثير من منابر سوريا ، وفي أثناء زحف القرامطة على سوريا قتل هارون بن خمارويه ،

Bernard Lewis The Origins of Iama'ilism pp 122

(١)

(٢) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج٢ ص ١٨٩ بالهامش .

وإزدادت الحال سوءاً ، ولكن الزحف العباسي قضى على القرامطة
وانتهى عهد الطولونيين (١) .

نهاية الطولونيين :

كانت الدولة الطولونية تتهاور بسرعة بعد أحمد بن طولون كما ذكرنا .
ويبدو أن صلة النسب بين المعتضد الخليفة العباسي وبنى طولون قد
أطالت عمر هذه الدولة بعض الشيء ، ولذلك نتجد أنه بعد وفاة المعتضد
يسرع الخليفة المكتفي بإرسال جيش للقضاء على الطولونيين وبخاصة
ليوقف زحف القرامطة ، وكان هذا الجيش بقيادة محمد بن سليمان الكاتب ،
تؤيده قوة بحرية سارت في النيل حتى واجهت الفسطاط ، وفي أثناء هذا
الزحف العباسي ، قتل أبو موسى هارون على يد رجاله وتولى شيبان بن
أحمد بن طولون عرش مصر ، وقد حاول هذا أن يجمع حوله الجيوش
لصد الزحف العباسي ، ولكن الذين استجابوا له كانوا قليلين ، وانضمت
الكثرة الغالبة إلى محمد بن سليمان ، ولم يجد شيبان بداً من التسليم
للزحف الجارف .

وقد قبض محمد بن سليمان على أفراد الأسرة الطولونية وبعث بهم
مكبلين إلى بغداد ، كما صادر أموالهم وأموال قادتهم والأغنياء بدولتهم ،
ويبدو أن الخليفة المكتفي اتهم قائده (محمد بن سليمان) باختلاس بعض
هذه الأموال ، فأمر به فقبض عليه وصودرت أمواله .
وبذلك انتهت الدولة الطولونية سنة ٥٢٩٢ هـ وعادت مصر ولاية
عباسية .

علاقة الطولونيين بالخلافة العباسية

كان الخليفة العباسي إبان عهد أحمد بن طولون هو المعتضد ، وكان
ابنه « المفوض » ولي عهده ، وكان السلطان الحقيقي في مطلع عهد المعتضد
وقبله منذ عهد المتوكل في يد المماليك ، وقد تسبب عن قبض هؤلاء على

(١) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ١٨٩ .

السلطة أن اضطربت الأحوال في الدولة الإسلامية وتفككت عراها ، ورأى المماليك أن السبيل الوحيد لاعادة الوحدة الإسلامية والقوة للدولة أن يترك السلطان الحقيقي لبنى العباس ، فاختار المعتمد أخاه الموفق ليكون المسيطر على الأمر والقائد العام للجيش ، وقد استبد الموفق بالسلطة ، فلم يكن للمماليك معه سلطان ، ولم يكن للخليفة معه سلطان كذلك ، حتى ليرى أن الخليفة قال شعرا يصف فيه أحواله ويؤسسه في حين استبد أخوه بالسلطان والثراء ، وفيما يلي هذه المقطوعة الشعرية :

اليس من المعجائب أن مثلى يرى ما قلّ ممتنّاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديه

وبعد وفاة الموفق تولى ابنه المعتضد الذي كان أكثر أطماعاً من أبيه ، فخلع الموفق بن المعتمد من ولاية العهد ، وأخذ ولاية العهد لنفسه ، فلما مات المعتمد انتقلت اليه الخلافة .

وبينما أن نقرر أن ولاية أحمد بن طولون بالخليفة المعتمد كانت طيبة حتى يقال إنه حاول أن يهرب إلى مصر ليحيا في نعيم ابن طولون ، وقد رعب ابن طولون بالفكرة وشجع أمير المؤمنين على ذلك ليقرى به ، فمضى الموفق الذي كان سيبره الصلة به فلما مضى فيها بعد ، وبدأ المعتضد يخطط له إلى مصر ثانية ، ولكن الموفق لم يسمع بذلك ، فكتب إلى ابن طولون يستأجره عامل الموحدين والجزيرة ، فلحق بالخليفة عند الرقة وأعادته إلى مصر .

أما الفترة التي كانت بين الموفق وأحمد بن طولون ، فيرجع سببها إلى أن الموفق أحس باتجاه ابن طولون إلى الاستقلال ، ثم أن الموفق كان مشغولاً بحرب الزنج واحتاج من أجل ذلك إلى أموال كثيرة فكتب إلى ابن طولون بذلك ، بيد أن ابن طولون لم يرسل ما كان الموفق يطمح فيه ، وإنما أرسل أقل منه بكثير ، ولما بعث له الموفق يؤنبه ويحاسبه ردّ عليه ابن طولون رداً شديداً جاء فيه : « وإن الضل الذي أنا بسبيله ليس له ، والمكاتبة في

أمره ليست إليه ، وتقليدي ليس من قبله ، ولا أنا من ولاته (١) « وكان ذلك تمردا من أحمد بن طولون على مكانة الموفق ، فأذن ذلك بحرب طويلة قادما إسحق ابن كنداج سالف الذكر ، ولم تسفر الحرب عن نتيجة ، وبخاصة لأن الموفق كان مشغولا بثورة صاحب الزنج (٢) .

ومن الواضح أن خطاب أحمد بن طولون للموفق ، وهو له يعتبران أدلة واضحة على الاتجاهات الاستقلالية لمصر وسوريا .

ومات ابن طولون وورث خمارويه عداء أبيه مع الموفق ، وقد أراد الموفق أن يقضى على خمارويه وعلى سلطان الطولونيين ، وكتب إليه بعض النصر في مطلع الأمر ، ولكن خمارويه أظهر شجاعة نادرة ، وهزم جيوش الموفق وجيوش أمير الموصل والأنبار اللذين أيداه ، ثم عقد صلحا مع الموفق على أن يكون حكم مصر والشام والثغور لخمارويه وأولاده مدة ثلاثين عاما ، وحددت المبالغ التي تدفعها مصر سنويا لعاصمة الخلافة (٣) وأصبح سلطان الطولونيين ممثدا من برقة إلى الفرات بل إلى أبعد من ذلك (٤) .

وعندما آلت الخلافة إلى المعتضد أراد خمارويه أن يدعم صلته به فعرض عليه أن يتزوج ابنته على (الخليفة المكتفى فيما بعد) من ابنته قطر الندى ، ولكن الخليفة وافق على المصاهرة على أن تزف الفتاة إليه هو ، وقد سبغت هذه الزيجة — التي تحدثنا عنها في الجزء الثالث من هذه الموسوعة — مزيدا من القرب بين القاهرة وبغداد .

ونسرع هنا بأن نذكر أنه كما حارب الطولونيون الموفق صاحب النفوذ في الخلافة العباسية ، فقد حارب الإخشيديون محمدا بن رائق الذي كان له النفوذ في بغداد آنذاك ، والموقفان من أكبر الأدلة على حرص مصر على الحركة الاستقلالية التي وضحناها من قبل .

(١) ابن الدابة : سيرة أحمد بن طولون ص ٢٠ — ٣٤ .

(٢) Lane-poole : History of Egypt in the Middle Ages p. 69

(٣) IBiD P. 73

(٤) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ١٨٨ .

(م ٧ — موسوعة التاريخ ج ٥)

حضارة الطولونيين

النظم : السكة والحسبة والشرطة ٠٠٠ :

كان الطولونيون كما سبق القول أول حكام مستقلين بمصر ، فليس عجيبا أن يهتموا بدعم سلطانهم ، وأن يضعوا الخطط لتنظيم سياسى واستقرار اقتصادى ، ومن أهم المظاهر السياسية انى ابتدعها أحمد بن طولون ليدعم سلطانه أن وضع اسمه فى الخطبة بعد اسم الخليفة ووضع اسمه على السكة ، واتخذ الحجاب والكتاب والموائد والمواكب ، ونظم ابن طولون الشرطة ليعتمد عليها فى حفظ النظام واستتباب الأمن ، كما نظم القضاء والحسبة ، وكان يولى القضاة بنفسه ، لأن ذلك مظهر مهم من مظاهر الاستقلال ، ومن أشهر القضاة بكر بن قتيبة الذى رفض الموافقة على لعن الموفق على المنابر عندما طلب ابن طولون منه ذلك ، مما جعل ابن طولون يزج به فى السجن .

الجيش والاسطول :

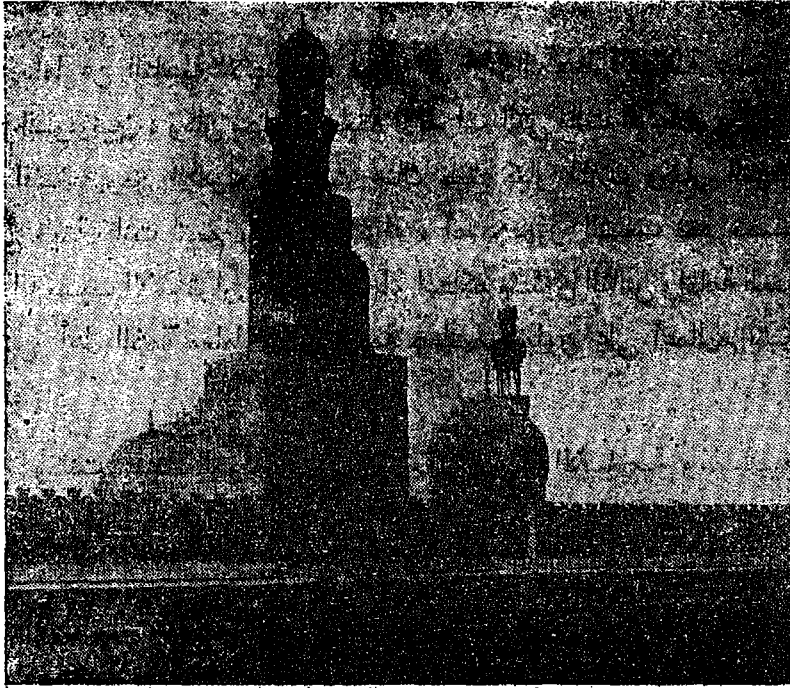
ومن مظاهر الاستقلال تكوين الجيش ، وقد عنى ابن طولون بذلك عناية كبيرة ، فبلغ تعداد جنوده مائة ألف من السودان والترك والعرب والمصريين ، وقد زاد عدد الجيش فى عهد خمارويه زيادة كبيرة ، وكان الجيش الطولونى مزودا بأحدث الأسلحة التى كانت معروفة فى هذا العصر .

واقترنت السراجل الطويلة التى كانت تابعة للطولونيين أن يكون لهم أسطول عظيم ، وقد عنى أحمد بن طولون من أجل ذلك بدار الصناعة بجزيرة الروضة ، وبنى بها عددا كبيرا من السفن ، كما عنى خمارويه بالأسطول عناية كبيرة . وحصن ابن طولون مدينة عكا ، وأنشأ بها قاعدة بحرية ، وكان البرج الذى يطو سورها المزدوج من القوة بحيث صمد بعد ذلك بثلاثة قرون فى وجه ملوك الصليبيين مدة سنتين ، كما صمد سنة ١٧٩٩ لأسفحة نابليون البنية (١) .

(١) غليلب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ١٨٧ .

عاصمة جديدة :

وبن مظاهر الاستقلال أن أقام أحمد بن طولون عاصمة خاصة به هي القطائع شمال القسطنطينية ، وقد بناها على نظام مدينة سامراء عاصمة العباسيين آنذاك ، وبنى بها مستشفى عظيما ، ومسجدا فخما ، وكثيرا من المباني الرائعة ، وقد بقيت القطائع مزدهرة حتى قدم الجيش العباسي بقيادة محمد بن سليمان فخر بها وأحرق دورها .



مسجد أحمد بن طولون

النواحي الاقتصادية والاجتماعية :

أما الناحية الاقتصادية فكانت موضع عناية الطولونيين ليضمنوا للبلاد الرخاء والاستقلال ، ولهذا شجعوا الصناعة ، وكانت صناعة النسيج أهم الصناعات في هذا العهد ، كما أسسوا مصانع للأسلحة ، وتقدمت في عهدهم صناعة ورق البردي ، وصناعة الصابون والسكر والخزف .
وفي مجال التجارة ظلت مصر وسوريا تزاويان نشاطهما التجاري مستغلين موقعهما في ذلك الشأن ، فأصبحتا حلقة اتصال بين تجارة الشرق

والغرب ، وكانت تتقاضيان ضرائب جبركية على البضائع التي تمر بهما ، وكانت هذه الضرائب تصل أحيانا الى مبالغ كبيرة .

واهتم الطولونيون بالزراعة وقد استلزم ذلك أن يعنوا بتطهير نهر النيل وإقامة الجسور وشق الترع ، وشجع أحمد بن طولون الفلاحين على امتلاك الأرض ، وقال من الضرائب وكل ذلك إلى تنشيط الزراعة وبلوغها مبلغا عظيما .

أما عن الناحية الاجتماعية فيبدو أن الأتراك حظوا بمكانة عظيمة في عهد الطولونيين ، وكان بجانبهم طبقة الأشراف التي نالت الإجلال والتعظيم من الشعب ومن الأمراء ، وكانت هناك طبقة كبار الملاك وكبار التجار ، وهي طبقة كانت تتعم بالغنى والثراء ، أما جمهور الشعب فقد تحسنت أحواله بسبب الاستقرار وبسبب اهتمام الحاكم بشئون الناس وإقامة العدل ، ولقي أهل الذمة معاملة طيبة كريمة جعلتهم يقبلون على أعمالهم بشغف واطمئنان .

وكانت عناية الدولة كبيرة بإحياء الأعياد الإسلامية والمسيحية والوطنية كعيد الفطر وعيد الأضحى ، وعيد الميلاد وعيد الغطاس ، ووفاء النيل ، وكان من أهم المظاهر في هذه الأعياد ، ألعاب الفروسية التي اهتم بها الطولونيون اهتماما كبيرا ، كما اهتم الطولونيون بالعمارة والآداب والعلوم ، ولا يزال الجامع الطولوني شاهداً صدق على اهتمامهم بالعمارة والأمر الهندسية ، ويجدير بالذكر أن مؤذنة هذا المسجد هي أقدم المؤذنة التي لا تزال قائمة في مصر ، وهذا المسجد هو المسجد الوحيد بمصر الذي غلب عليه الطراز العراقي ، أما المساجد الأخرى فقد غلب عليها الطراز الذي تأثر إلى حد ما بالفن اليوناني المعماري (١) ، وكان هذا الجامع مدرسة تعقد بها حلقات العلم ويجلس فيه كبار الفقهاء والمعماريين للتعليم والافتاء ، كما كان البلاط الطولوني مركزا يجتذب اليه الشعراء والأدباء ويشجع بالعلوم والمعارف .

(١) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ١٨٧ .

بين عهدي الطولونيين والإخشيديين

عادت مصر وسوزيا ولايتين تابعتين إلى العباسيين بعد سقوط الدولة الطولونية ، وظلتا كذلك إحدى وثلاثين سنة حتى قامت دولة الإخشيديين فاستقلت بهما من جديد ، وقد انفصلت مصر عن سوريا في أغلب سني عهد الولاية ، ووقعت معظم بقاع سوريا خلال أطول فترة منها في يد مختصم مغامر هو ابن رائق ، وقد تولى الحكم في مصر عدة ولاية جمع بعضهم بين ولاية مصر وسوزيا كلها أو أجزاء منها ، وأول وال في هذه الحقبة هو محمد بن سليمان الكاتب الذي قضى على الطولونيين ولكن سرعان ما استدعاه الخليفة المكتفي وقبض عليه وعين بدله عيسى بن محمد النوشري ، وظلت ولايته حوالي خمس سنوات ، ومن الولاية كذلك تكين التركي ، وقد حكم مصر أربع مرات ، ومنهم أيضا زكا الرومي وهلال بن بدر وأحمد بن كيغلغ ومحمد بن طفج .

هودة الاتجاه الاستقلالي :

وفي عهد عيسى النوشري قامت محاولة لاستعادة السلطة للطولونيين ، وقد ترعّم هذه المحاولة محمد بن علي الخالنجي ، وكان أحد قواد الطولونيين ثم انضم إلى محمد بن سليمان الكاتب وخرج معه من مصر إلى حلب ولكنه هناك قارقه وعاد إلى مصر وقاد جماعة من المصريين ودعا لإبراهيم بن خمارويه ، ودعا لنفسه نائبا عنه في ظل الخلافة العباسية ، وقد لقيت دعوته كثيرا من النجاح واستطاع أن يستولي على العاصمة ، وفر من وجهه عيسى النوشري ، ولكن الخليفة العباسي أرسل له من العراق جيشا إثر جيش حتى استطاع أن يقضي على حركته ويقبض عليه ، وبلغت المدة التي سيطر فيها الخالنجي حوالي ثمانية أشهر (١) .

(١) النجوم الزاهرة ج٣ ص ١٥٢ .

حملات الفاطميين على مصر :

وكانت الخلافة الفاطمية قد أعلنت بتونس سنة ٢٩٧ هـ أي بعد سنوات قليلة من سقوط الطولونيين ، وتطلع الفاطميون إلى مصر ، وسرعان ما أرسلوا جيوشهم لاحتلالها ، وفي الفترة بين سقوط الطولونيين وقيام الإخشيديين بلغت الحملات الفاطمية على مصر ثلاثة (٣٠١ ، ٣٠٧ ، ٣٢١) وقد فصلنا القول عن هذه الحملات من الجزء الرابع من هذه الموسوعة (١) ، وقد تسبب عن هذه الحملات وعن حياة الضعف التي كانت تمر بها الخلافة العباسية ببغداد ، أن اضطرب الأمن بمصر وسوريا ، وعجز الولاة عن السيطرة على الأمور ، وبخاصة أن الخلافة العباسية حرمت ألا تدع الخراج في يد الولاة مضافة أن تتكرر حركة الاستقلال الطولونية ، وقد سبب ذلك مزيدا من الضعف للولاة .

ولم يبق من شيء يفكر عن هذه الفترة إلا إشارة للأسرة الماذرائية التي تولت أعمال الخراج ، وكان لها دفع مرتبات الجنود فنافست بذلك الولاة في أكثر سنوات هذه الحقبة ، ومن أشهر أفراد هذه الأسرة الصبحي بن أحمد الماذرائي (٢) .

آثار مصر في العهد الطولوني :

من أهم أعمال أحمد بن طولون أنه بنى مدينة القطائع التي ذكرناها عندما تكلمنا عن عواصم مصر الإسلامية ، ولم تكن القطائع على نسق المدن الإسلامية ، أي لم تكن دوائر يقع المسجد وبيت الإمارة في مركزها ، وإنما كانت مقسمة إلى « قطائع » أي حارات تبعا للسكان .

وكان بالقطائع قصر عظيم لابن طولون ، ولكن شاعت معالاه ، فقد هدمت الخلافة العباسية آثار الطولونيين ، إذ اعتبرتهم متمردين ،

(١) انظر ص ٢٩٢ — ٢٩٥ من الطبعة الثامنة .

Lane poole : History of Egypt in the Middle Ages p. 77

(٢)

فأرادت الخلافة أن تضربهم حتى لا يسير الآخرون سيرتهم ، ولم يبق
من آثار الطولونيين إلا المسجد الذي لم تستطع أيدي الغضب أن تمتد إليه •

والمسجد الطولوني طراز عراقي لتأثر أحمد بن طولون بحياته في سُرّ
مَنْ رأى ، وتعتبر مئذنته أقدم مئذنة بالقاهرة •

وإنها لخسارة عظيمة في نطاق الآثار أن تضيع معالم ما شيده
الطولونيون ، فإن الوصف الذي وصل إلينا عن القصر الشاهق الذي بناه
أحمد بن طولون ووسّعه ابنه خمارويه يدل دلالة عظيمة على مدى التقدم
التي وصلت له مصر آنذاك ، وعلى رقى العمارة وفخامة الزخرفة وإبداع
الحداثى •

الدولة الاخشيديّة

(٢٢٣ - ٣٥٨ هـ = ٩٤٥ - ٩٦٩ م)

تعريف بالدولة الإخشيدية

لقب الإخشيد لقباً كان يصطلح ملوك فراعنة في بلاد ما وراء النهر (١) ، وقد استطاع محمد بن طنج بن جف أن يحصل على هذا اللقب من الخليفة الراضى تقديراً لخدماته وتكريماً له ، إذ كان ينحدر من الأسرة المالكة بـ هذه البقاع ، فعرفت الدولة التى أقامها بمصر وسوريا بالدولة بالإخشيدية .

وقد اتصل « جف » جد الإخشيد بخلفاء العباسيين : المعتصم فالوائق فالمتوكل ، أما طنج أبو الإخشيد فقد اتصل بخدمة الطولونيين في عهد خمارويه ، ولح في بلاطهم ، وحقق انتصارات عظيمة ضد الروم ، فكفاه خمارويه بأن جعله والياً لدمشق وقد استطاع أن يرد القرامطة عنها ، ولكن طنج أظهر الخيلاء والكبر فساخت علاقته بخمارويه مما أدى إلى دفعه إلى السجن بدمشق ومعه محمد ابنه ، ومات طنج في السجن ، وأطلق سراح محمد فبدأ يغفل عن جديد لحاقه بغداد ليستعيد مكانته ، وقد رضى عنه الخليفة المقتدر فولاه دمشق بعد سقوط الطولونيين ، ثم أضاف له الخليفة القاهر ولاية مصر بشكل مؤقت ، ولكن سوء الأحوال في دمشق لم يسمح له بمناصبها فأناصب عنه من يحكم مصر باسمه وفى هذه الأثناء كانت الأحوال في مصر تسير من سيئ إلى أسوأ ، وكان الفاطميون يندفعون نحوها ، فلم يجد الخليفة الراضى الذى جاء بعد القاهر بدأ من اللجوء إلى محمد بن طنج ليلبى أمورها ولاية أصيلة حتى يوقف أطماع الفاطميين ويعيد لمصر حياة الاستقرار ، فجاء محمد سنة ٣٢٣ وبها يؤسس دولته ثم ضمت الحجاز لدولة الإخشيديين ، وظلت الحجاز مرتبطة بمصر عدة قرون بعد

(١) من الألقاب التى اقتبسها الخلفاء العباسيون ومنحوها لبعض أبائهم للتكريم على نسط الإخشيد لقب خاقان وهو لقب ملوك الترك ، والإخشيد وهو لقب ملوك أيروسنة ، وذلك نسبة لقب التيمر ملك الروم وكسرى ملك الفرس والتجاشى ملك الحبشة وفرعون ملك مصر .

ذلك ، وفي سنة ٣٣٣ حصل الإخشيد على حقوق وراثية لأسرته في البلاد التي كانت تحت يده ، ودخل بذلك في عداد الدول المستقلة .

وفيما يلي تخطيط بأمراء الإخشيديين :

١ — محمد بن طنج ٣٢٣ — ٣٣٥ هـ

٢ — أبو القاسم أنوجور ٣٣٥ — ٣٤٩ هـ ٣ — أبو الحسن علي ٣٤٩ — ٣٥٤ هـ

بوصاية كافور للاتنين

٤ — كافور ذاتيا ٣٥٤ — ٣٥٦ هـ ٥ — أبو الفوارس أحمد بن علي ٣٥٦ — ٣٥٨ هـ

وكان كافور العبد الحيثي ومعلم ولدى الإخشيد وصيا على كل منهما ، مستبداً بالأمر دونهما ، فلما مات أبو الحسن على عث كافور واليا على مصر والشام ، وانتسب لساتته فأصبح يعرف بكافور الإخشيدى ، ولما مات بعد سنتين تولى أبو الفوارس أحمد بن علي ، ولكن الأحداث كانت أكبر منه ، فأخلى الطريق بعد عام أو نحو العام إلى جحافل الفاطميين .

تعريف بحكام الإخشيديين

محمد بن طنج الإخشيدى :

جاء الإخشيد إلى مصر سنة ٣٣٣ هـ واليا عليها وعلى الشام ، وكانت قد اضطربت أحوال هذه الولاية من الداخل وهددها الغزاة من الخارج ، وكان عليه أن يبذل جهدا كبيرا ليعيد الاستقرار والسلام لهذه الولاية الكبيرة ، ومن المشكلات التي صادفها في الداخل مقاومة عامل الخراج محمد ابن علي الماذرائي الذي ينحدر من أسرة الماذرائي التي تحدثنا عنها من قبل ، والتي كان لها نفوذ وأطماع ، وهو من هذه الوجهة قريب الشبه بابن طولون عندما قابل نفوذ ابن المدبر ، ومن المشكلات كذلك مقاومة أنصار الوالى السابق أحمد بن كبرعل ، وقد استطاع أن يقضي على المقاومة قضاء تاما ويقضى على عناصر الشعب بالداخل .

وتطلع الإخشيد بعد ذلك الى ردة العدوان الخارجى ، فاستطاع أن يرد الفاطميين عن مصر وأن يوقف زحفهم عايبا (١) ، وانتشلت الخلافة الفاطمية عن مصر بثورة ابن كيداد ، وقد حاول الفاطميون أن يجذبوا لوم الإخشيد وأن يحثوه على نشر دعوتهم بولايتهم ، لكن الإخشيد حرص على أن تبقى علاقته طيبة مع العباسيين وأن يظل فى نطاق المذهب السنى .

علاقة الإخشيد بالخلافة العباسية :

أما علاقة الإخشيد بالخلافة العباسية فكانت قريبة الشبه بعلاقة أحمد بن طولون بها ، فكما كان الموفق متغلبا على الخليفة العباسى وعدوا لابن طولون فاننا نجد هنا شخصا آخر يشغل نفس المكانة ، وذلك الشخص هو محمد بن رائق أمير الأمراء الذى كانت له الغلبة على الخليفة « المتقى » آنذاك والذى حاول أن يستولى على الشام بل أن يمد سلطانه الى مصر ، أما الخليفة فقد يقف موقفا سلبيا ، ويبدو أن هواه كان مع الإخشيد ، حتى أن الإخشيد أغراه بالقدوم إلى مصر والإقامة بها ، ولكن الخليفة لم يستطع ذلك ، ودارت معارك بين ابن رائق والإخشيد لم يكن النصر فيها حاسما لأى من الطرفين ، وعقد صلح بينهما بأن يكون شمالى الشام لابن رائق وجنوبيه مع مصر تابعا للإخشيد ، ثم أن الإخشيد استرد شمالى الشام عقب وفاة ابن رائق (١) .

وهذا الموقف أيضا هو امتداد للحركة الاستقلالية التى تكلمنا عنها من قبل على أن الإخشيد لم ينعم بذلك النصر الذى حققه ، فقد هاجمه الحمدانيون الذين أصبح لهم النفوذ فى بغداد ، وتكونت لهم دولة فى الموصل سنة ٣١٧ ثم استولت على حلب سنة ٣٣٣ ، وسرعان ما أرسل الإخشيد جيشا كبيرا بقيادة غلامية فاتك وكافور ، ثم سار بنفسه الى ميدان المعركة سنة ٣٣٣ ، واستطاع أن يحقق نصرا كبيرا وأن يوقع بجيش سيف الدولة ،

(١) ابن خلدون : المعبر ج٤ ص ٣٩ .

(٢) الكنى : تاريخ مصر وولاتها ص ٢٨٨ — ٢٩١ وابن الأثير : الكامل

فى التاريخ ج٨ ص ٢٩٢ .

ويقول الدكتور فيليب حتي (١) إن سيف الدولة قام بمحاولات عديدة للاستيلاء على سائر سوريا ، ولكن حاكم مصر الداهية أفسد خطته ، وهزم جيوشه في اشتباكين كبيرين ولم يبق له غير منطقة حلب ، وأجبره على الخضوع فيها لسيادة مصر .

وينبغي ألا ننسى شيئا من الأحداث هنا والأحداث التي مر ذكرها عن علاقة الطولونيين ببغداد ، ذلك الشيء هو أن مصاهرة تمت بين الأخشيديين من جانب وبين ابن رائق من جانب آخر ، ثم بين الأخشيديين من جانب وبين الحمدانيين من جانب آخر ، وهذا يدل على أن المصاهرة كانت تلعب دورا كبيرا في عالم السياسة .

وكما قلنا من قبل كان الخليفة المتقي على صلة طيبة بالأخشيديين ، وقد خطر له أن يقبل دعوة الأخشيديين للانتقال إلى مصر والتخلص من سلطة الأتراك ولكن ظروفًا متعددة حالت دون ذلك ، ومع هذا فقد حرص الخليفة أن يقر أي جانب الأخشيديين ماديا وأدبيا ليلجا له عند الحاجة ، فمد سلطانه بأن ولاء مكة والمدينة بالإضافة إلى مصر والشام ، كما جعل هذه الولاية له ولأولاده مدة ثلاثين عاما ، وبمضت بعد ذلك قرون عديدة ومقدرات الحجاز رهن بمقدرات مصر (٢) .

وينبغي أن نختم كلامنا عن الأخشيديين بعبارة نقتبسها من أبي المحاسن ابن تغري بردي قال : وكان الأخشيدي ملكا شجاعا مقداما جازما متيقظا ، حسن التنبؤ ، عارفا بالحروب ، مكرما للجند ، شديد البطش ، ذا قوة مفرطة لا يكاد أحد يجترؤ عليه ، وله هيئة عظيمة في قلوب الرعية ، وكان متجملا في مركبه وملبسه ، وكان موكبهم يضاهي موكب الخلافة ، وبلغ عدد مماليكه ثمانية آلاف مملوك ، وكان قوي التحرز على نفسه ، وكان

(١) تاريخ سوريا ومصر وفلسطين ج ٢ ص ١٩١ .

(٢) فيليب حتي : تاريخ سوريا ص ١٩١ .

مما ليكه يحرسونه بالنزيرة عندما ينام ، ويوكل الخدم بجرائب خيمته ، ثم لا يثق بأحد حتى يمضى الى خيمة الفرائشين فينام فيها (١) .

وتوفي الاخشيدي بدمشق سنة ٥٣٣٥ هـ ودُفِنَ بببيت المقدس .

بعد الإخشيد :

يمكن القول إن دولة الاخشيدين بمصر كانت تتكون من شخصين اثنين ، أحدهما منشىء هذه الدولة محمد بن طنج الذى تحدثنا عنه آنفا ، والثانى خلّقه كافور ، ويجانب كافور كسان هناك اثنان من الدشمى لا يحسب لهما حساب في تاريخ الدول ، هما أبو القاسم أنوجور وأبو الحسن على ابنا الاخشيدي ، وكان الاخشيدي قد أخذ البيعة قبل وفاته للأول على القواد والجند والأعيان ، فلما مات الاخشيدي صارت الولاية إلى أنوش جنور ، وكان في الرابعة عشرة من عمره وتولى كافور الوصاية عليه ، واستمرت مدة ولايته أربع عشرة سنة ، أى أنه في خلالها تجاوز عهد الصبا الى الشباب والرجولة ، ولكنه مع ذلك لم ينل من السلطان طائلا ، وظل كافور ممسكا بزمام الأمور بيد من حديد ، وأطلق للشباب المال لينعم به وبما يحققه من متع رخيصة ، ويقال إن أنوجور فكّر مرة في السيطرة الحقيقية على الأمور ، وبدرت منه بوادر ثورة على كافور ، واستعد للخروج الى الشام ليطلب من حاميتها أن تساعد ضد كافور ، ولكن أمه خافت عليه ، فأخبرت كافورا بذلك وسعت للصلح بين الإثنين : ومات أنوجور هتق ذلك مما دعا الى الظن بأن كافورا دس له سمّا في الطعام .

وبعد أنوجور تولى أخوه أبو الحسن على ، ومع أنه كان في الحادية والعشرين من العمر ، إلا أن كافورا نصب نفسه وصيا عليه واستبد بالأمر دولته ، ولما تحركت نفسه لإبعاد هذا الوصى المتسلط ، اشتد كافور عليه وحال بينه وبين الناس ، فأصبح سجيناً في قصره ، ثم قيل إنه مات

(١) النجوم الزاهرة : ج ٣ ص ٢٣٠ .

وأنطلق الظن أيضا بأن كافورا قضى عليه كما انطلق عتب وغاة أنوجور ،
وكانت مدة ولايته خمس سنين وشهرين •

وظل كافور بعد موت أبى الحسن يدير الولاية مدة سنتين كما كان
يديرها من قبل بمعاونة الوزير جعفر بن الفضل بن الشرات ، وبعد فترة أظهر
كافور كتاب بيعة من الخليفة العباسى له ، فأصبح حاكما مباشرا على مصر
وسوريا وبلاد الحجاز ، وهكذا أصبحت مقاليد الأمور فى هذه المنطقة الحساسة
فى يد عبد أسود اشتراه الاخشيد بثمانية عشر دينارا ، ويصفه ابن خلكان
بأنه كان شديد السواد ، بصائفا ، مثقوب الشفة العليا ، بطينا قبيح
المنظر ، مشقوق القدمين ، ثقيل البدن (١) ، ولكنه الاسلام الذى فرض
المساواة بين أتباعه : فرفع بذلك الى أوج الشهرة أناسا من أوضاع
الأصول (٢) .

وكان عهد كافور قاتما مثله ، فقد كثرت فيه الزلازل ، وشبت النيران ،
وتعرضت بلاد الشام لغزوات القرامطة مرة أخرى ، وتعرضت مصر لغارات
ملك النوبة ، وانخفض ماء النيل ، واشتد الغلاء (٣) .

وإذا كنا قد اقتبسنا من ابن خلكان الأوصاف الخلقية المزرية
لكافور ، فمن الحق أن نقبس من ابن تغرى بردى حديثا عن مواهب كافور
وأوصافه الخلقية ، قال : أبو الحسن : كان كافور يدينى الشعراء
ويجيزهم ، وكانت تقرا عنده فى كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية
والعباسية ، وكان عظيم الحرمة ، له من الظمان الروم والسير ما يتجاوز
الوصف ، زاد ملكه على ملك مولاة الاخشيد ، وكان كثير الخلع والهبات ،
خبيرا بالسياسة ، فطنا ذكيا ، جيد العقل ، داهية ، كان يهادى المعز صاحب

(١) وفيات الأعيان : ج ١ ص ٤٣١ .

(٢) نيايب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ١٩٢ .

(٣) القرىزى : الخطط ج ٢ ص ٢٣١ .

المغرب ويظهر ميله اليه ، ويذعن بالطاعة لبني العباس ، ويدارى ويخادع هؤلاء وهؤلاء ، ويتم له الأمر (١) .

بعد كافور :

توفى كافور بعد سنتين من ولايته فأُسندت الأمور الى أبى نصرار بن أحمد بن على بن الأخشيد ، وكان صبيا في الحادية عشرة ، فتولى الحسن ابن عبيد الله بن طنج الوصاية عليه ، واستبد هذا بالأمر وقبض على جعفر ابن الفرات ، ولكنه ضعف عن تسيير الأمور وبخاصة وسط المجاعة القاسية التي أصابت البلاد ، فثار عليه الناس ، ففر من مصر الى الشام ، وكسان هذا التدهور في مصر ، وما صحبه من تدهور في الخلافة العباسية من الأسباب التي يسرت على الفاطميين الزحف إلى مصر ، ذلك الزحف الذي شرهناه في الجزء الرابع من هذه الموسوعة .

حضارة الإخشيديين

يمكن القول إجمالاً إن اتجاهات الحضارة في العهد الإخشيدى ليست بعيدة عن اتجاهاتها في العهد الطولوني ، لقرب الصلة الزمنية بين العهدين ولكثرة وجوه التشابه ، ولكن يلاحظ أن الصلة بين الإخشيديين والخلافة العباسية كانت أقرى من الصلة بين الطولونيين وهذه الخلافة ، ولعل من مظاهر ذلك أن الإخشيد لم ينشئ عاصمة خاصة ينافس بها عاصمة الخلافة ، وإنما اكتفى بزيادة العمران بالفسطاط ومد ضواحيها ، ومن منشآته بها القصر الجميل الذي بناه في الروضة وسماه المختار ، والبستان الذي أطلق عليه فيما بعد البستان الكافورى ، وبجوار هذا البستان أنشأ الإخشيد ميدانا فسيحا سُمى ميدان الإخشيد ، ومن المظاهر الاستقلالية التي برزت في العهد الإخشيدى ضرب السكة وعليها أسماء الإخشيديين بجانب اسم الخليفة ، وظهور منصب الوزارة في مصر لأول مرة منذ الفتح الإسلامى ، وقد تولاه أبو الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات ، ولما مات سنة ٣٣٧ عيّن

(٤) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦ .

ابنه جعفر مكانه ، وظل يشغل هذا المنصب حتى نهاية الدولة الاخشيدية ،
ويُعرف عنه أنه صادر بعض أموال البارزين ، ومنهم يعقوب بن كليس
مما حدا بيعقوب الى الهرب الى الشمال الافريقي وحث الفاطميين على
الزحف إلى مصر .

منصب الحاجب :

ومن المناصب التي ظهرت في البلاط الاخشيدى منصب الحاجب
أيضا ، ومن أهم الذين شغلوا هذا المنصب فئاتك الرومى .

القضاء في العهد الاخشيدى :

وقد عنى الاخشيديون بالقضاء ، واختاروا لهذا المنصب أعظم
العلماء ، ومن أشهر قضاة الاخشيد محمد بن بدر الصيرفى ، والحسين بن
أبى زرعة الدمشقى ، ومن أشهر قضاة كافور عمرو بن الحسن الهاشمى ،
وأبو الطاهر الزهلى ، الذى ظل على قضاء مصر حتى دخلها الفاطميون ، وكان
الاخشيد يجلس للنظر فى المظالم كل يوم أربعاء ، وحذا حذوه كافور فى
ذلك .

جيش الاخشيديين :

وكان جيش الاخشيديين كبيرا بلغ أربعمائة ألف جندى فيما عدا
حرس الاخشيد الخاص ، وكان الاستقرار والقوة طابع هذا الجيش .

الناحية المالية :

وقد نعمت البلاد بالرخاء والثراء خلال أكثر عهد الاخشيديين ، ولكن
يؤخذ على الإخشيد أنه كثيرا ما كان يلجأ لمصادرة الأموال ، وربما يُعتدَر
عنه بأنه كان ينفق هذه الأموال فى الأعمال النافعة التى تحتاج لها الدولة ،
كما أن أكثر من صادر أموالهم كننت تحوم الشبه حول ثرواتهم ، ومما
أثر عنه حول المصادرة قوله : المصاعرة هسؤمة وأنا مضطر إليها ، وما
أنفقتها قط إلا فى سفر إلى عدو* (١) ، وإذا كان الاخشيد قد صادر أموال

(١) ابن سعيد : كتاب المغرب ص ٣٦ .

بعض الأغنياء فإنه كان — مع ما عُرِف عنه من الحرص — يُعنى بالفقراء ويقدم لهم العون المالى من حين لآخر ، وقد سار كافور فى مضمار السخاء على الفقراء شوطا طويلا ، فيروى أنه كان فى عيد الأضحى يُفَرِّج حمل بغل من الذهب وكشوفاً بأسماء المحتاجين ، ويُنْتِيب عنه من يمرُّ على هؤلاء ويبدى أبوابهم ، ويسلم كلاً منهم نصيبه من هذه المنحة قائلاً : الأستاذ أبو المسك كافور الإخشيدي يهنئك بالعيد ويقول له اصرف هذا فى منفعتك (١) .

العلم فى البلاط الإخشيدي :

وكان للعلم والأدب دولة ذات بال فى البلاط الإخشيدي ، وقد نبغ من العلماء عدد كبير فى هذه الحقبة منهم أبو إسحق المزوى (٣٤٠هـ) وكان من أئمة الدين واسع المعرفة كثير التأليف ، ومنهم على بن عبد الله المعافى قاضى الاسكندرية (٣٣٩) ومن المحدثين الحسن بن رشيق المصرى الذى ولد سنة ٢٨٣ وتوفى سنة ٣٧٠ هـ . ومن النحاة أحمد بن الوليد التميمى المصرى ، ومن المؤرخين أبو عمرو الكندى ، ومن الشعراء كشاجم ، وكثيرون سواهم من أهل العلم والأدب .

كافور والمتنبى :

وقد عاش الشاعر النابه أبو الطيب المتنبى أربع سنوات فى بلاط كافور ، ومدحه بأخلد القصائد ، وكان أبو الطيب يطمع أن يسند له كافور ولاية أو عملاً كبيراً ، وقد أغدق عليه كافور العطايا ، ولكنه لم يكل له ما كان يطمع فيه من أعمال ، ولا سئل كافور عن ذلك أجاب : إن من ادعى النبوة يستطيع أن يدعى الملك والسيادة ، فغضب عليه المتنبى وهجر مصر وهجا كافور بأقذع أنواع الهجاء .

(١) دكتور على ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ٤٥٧ .

من مدائح لكافور :

ومن مدائح المتنبى لكافور في فترة اقباله وآماله قصيدته البيائية ذات الشهرة الواسعة والمعاني الرائعة ، ومنها :

قواصد كافور تبارك غيره	ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاعت بنا إنسان عين زمانه	وخلعت بياضا خلفها ومآقيا
أبا كل طيب لا أبا المسك وحده	وكل سحاب لا أخص الغواديا
إذا كسب الناس المعالي بالندى	فإنك تعطي في ندادك المعالي
وغير كثير أن يزورك راجل	فيرجع مأكا للعراقيين واليها

المتنبى يتعجل تحقيق أماله :

فلما طال انتظار المتنبى للولاية التي طمع فيها كتب لكافور يتعجله :

وفي النفس حاجات وفيك فطانة	سكوتي بيان عندها وخطاب
وما أنا بالباغي على الحب رشوة	ضعيف هوى ، يثرحى إليه ثواب
وما شئت إلا أن أدل عواذلي	على أن رأيي في هواك صواب
وأعلم قوما خالفوني شراً	وغربت ، أنى قد ظفرت وخابوا
وما كنت لولا أنت إلا مهاجراً	له كل يوم بلدة وصحاب

هرب وهجاء :

ثم يئس من أن ينال ما تمناه فغادر مصر وكان من هجائه لكافور قوله :

إنى نزلت بكذابين ، ضعيفهم	عن القرى وعن الترحال مردود
جود الرجال من الأيدي وجودهم	من اللسان فلا كانوا ولا الجود
أكلما اغتال عبد سوء سيده	أو خائنه فله من مصر تمجيد
صار الخصى أمام الأبقين بها	فالحصر مستبعد والعبد معبود
لا تشتر العبد إلا والعصا معه	إن العبيد لأنجاس منا كيد

من علم الأسود المخفى مكرمة أقومته البيض أم آباؤه الصيد ؟
أم أذنه في يد النفاس دامية أم قدره وهو بالفلسين مردود
وذاك أن الفحول البيض عاجزة عن الجميل فكيف الخصية السود

آثار الإخشيديين بمصر :

ليس للإخشيديين بمصر آثار باقية سوى مشهد آل طباطبا .

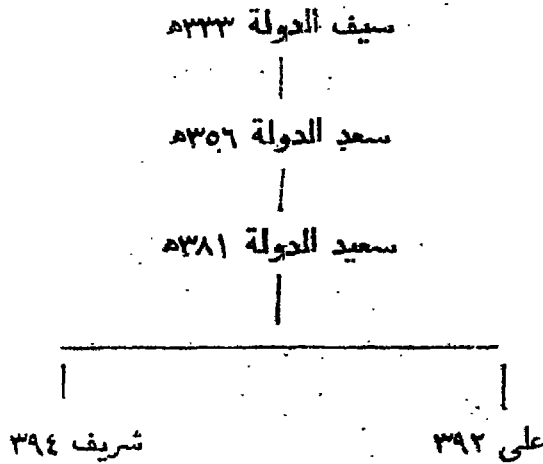
الحمدانيون في شمالي سوريا

أشرنا عند الكلام عن محمد بن طنج إلى الحمدانيين ونشاطهم بين الموصل وحلب ، ونريد هنا أن نذكر مزيدا من التفصيل عن هذه الأسرة التي حكمت جزءا من سوريا فترة من الزمن .

تنسب هذه الأسرة إلى حمدان بن حمدون من قبيلة تغلب التي كانت مسيحية الديانة ، ومنها الشاعر الأموي الأخطل : وقد استطاع حمدان إبان فترة اضمحلال الخلفاء العباسيين أن يستقل بقبيلته في منطقة قريبة من الموصل حوالي سنة ٢٦٠ هـ . وفي سنة ٢٩٢ هـ عيّن أبو الهيجاء عبد الله ابن حمدان حاكما للموصل وما حولها ، وقد أتاح هذا الوضع الفرصة للحمدانيين ليقوى جاههم وتبرز قوتهم ، وفي سنة ٣٠٧ هـ عيّن إبراهيم ابن حمدان حاكما لديرار ربيعة ، وخلفه أخوه داود سنة ٣٠٩ هـ . وفي سنة ٣١٢ هـ أصبح سعيد بن حمدان حاكما لمنطقة نهاوند كما عيّن آخرون من الأسرة في مناصب متعددة ، وخلف حسن أباه عبد الله على ولاية الموصل ، ثم أضيفت له ديار بكر وديرار ربيعة ، وفي سنة ٣٣٠ هـ أنعم عليه الخليفة العباسي بلقب ناصر الدولة ، كما أنعم على أخيه على باقرب سيف الدولة ، وجعله حاكما لواسط ، ولكن هذا استطاع أن يأخذ حلب من الإخشيديين سنة ٣٣٣ هـ كما ذكرنا من قبل ، وبهذا أصبح مواجهها لقوى البيزنطيين ، ودار صراع طويل بين سيف الدولة وبين البيزنطيين كانت به

انتصارات ومزائم للحمدانيين (١) ، ولكن المتنبى شاعر سيف الدولة استطاع بشعره أن يجعل الهزيمة نصرا ، وأن يسجل مواقف للبطولة لمدوحه : وكان سيف الدولة شيعيا غير متطرف ولذلك استطاع بعد سقوط الاخشيديين ودخول الفاطميين مصر والشام أن يكون على علاقة طيبة بالخلافة العباسية والخلافة الفاطمية ، وبعد سيف الدولة بدأت دولة الحمدانيين في الانحلال ، ثم امتد ملك الفاطميين فشمّل منطقة حلب معيدا بذلك وحدة مصر وجميع مناطق سوريا •

وأمرء الحمدانيين بحلب هم :



العلم والفكر في بلاط سيف الدولة :

وقد ازدان بلاط سيف الدولة بنخبة ممتازة من رجال الادب والفن تكاد لا تباريها إلا حلقات خلفاء بغداد في أيام عزهم ، فقد ضمت الفيلسوف الشهير والموسيقي البارع أبا نصر الفارابي ، ومؤرخ الادب العربي اللامع أبا القرج الأصفهاني ، والواعظ البليغ ابن نباته ، والعالم اللغوي ابن خالويه ، والنحوي الشاعر ابن جني ، والشاعر الفارسي أبا فراس ،

وفوق هؤلاء جميعا الشاعر الأشهر أبا الطيب المتنبي (١) ، وكان سيف
الدولة بين هؤلاء — كما يقول الثعالبي — واسطة قلادتهم وعزة الزمان
ودعامة الاسلام ، وكان به سيد آد الثغور وسداد الأمور (٢) .

ولنسر الآن الى عهد جديد حافل بالازدهار في مظهره ، وملء
بالصراع في خاتمته ، ذلك هو العهد الفاطمي بمصر وسوريا .

(١) فيليب حتى : تاريخ سوريا ص ١٩٧ .

(٢) بتيمة الدهر : ج ١ ، ص ٨ — ٩ .

الدولة الفاطمية

(٣٥٨ - ٥٦٧ هـ = ٩٦٩ - ١١٧١ م)

نسب الفاطميين وقيام دولتهم

في الجزء الرابع من هذه الموسوعة (١) تحدثنا بإفاضة عن نسب الفاطميين ، وأثبتنا أنهم من نسل السيدة فاطمة الزهراء ، ورددنا الادعاء السذى يقول بغير ذلك .

وتحدثنا هناك أيضا عن قيام دولتهم بالشمال الافريقى ، وكان الشمال الافريقى أو اليمن هو المكان المختار لقيام الدولة الفاطمية على أمل أن يكون بعدهم عن مركز الخلافة العباسية ضمانا للسلامة والنجاح في اقامة الدولة الجديدة .

وكان الشمال الافريقى أهم لدى الفاطميين من اليمن ، لأن وجودهم في الشمال الافريقى سيفتح لهم المجال للتحرك الى مصر ليحققوا طموحهم الأكبر في تكوين دولة اسلامية كبرى تتخذ مصر مركزا لها .

وفي الجزء الرابع كذلك حديث عن المحاولات الفاشلة التى قام بها الفاطميون لضم مصر إلى سلطانهم ، ثم عن المحاولة التى حقق بها جوهر الصقلى هذا الهدف، وتحدثنا كذلك عن انتقال المعز لدين الله اليها ليجعلها مركز سلطانه وقاعدة تتسع منها دولته لتصل الى أقصى الشرق كما وصلت في افريقية الى أقصى الغرب ، وهناك فى ذلك الجزء واصلنا كلامنا عن افريقية بعد انتقال المعز لمصر ، وهنا سنتكلم عن سلطان الفاطميين بمصر بعد انتقالهم إليها ، وعندهم يُعدّ قمة الاتجاهات الاستقلالية التى ظهرت مبكرة ثم برزت مع قيام الدولة الطولونية والاخشيديّة ، وفي العهد الفاطمى اتجه الاهتمام للحضارة الاسلامية فأضافت الى الاتجاه الاستقلالى اتجاها حضاريابقى زمامه فى مصر على مر التاريخ عقب ذلك .

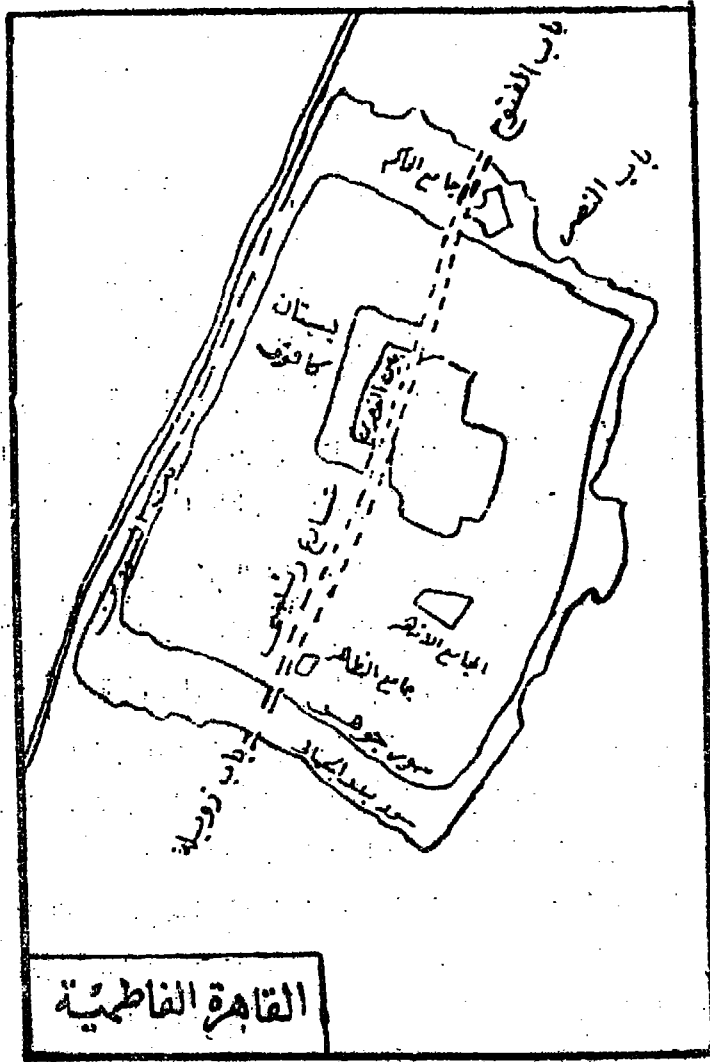
(١) ص : ٢٨٥ وما بعدها من الطبعة السادسة .

جواهر يمهّد لاستقبال المعز :

حكم جواهر مصر باسم الخلافة الفاطمية منذ فتحها حتى قدوم المعز ، وهي مدة أربع سنوات (٣٥٨ - ٣٦٢) وقد تغلب جواهر خلال هذه المدة على العقبات ، وقضى على المتاعب ، وأعد العدة لاستقبال الخليفة الفاطمي بما يليق به من جلال وعظمة ؛ ففقد خط جواهر في أول أمسية له بالعاصمة مدينة جديدة إلى الشمال من القطائع سماها المنصورية وقسمها خططا ، ولما دخل المعز لدين الله البلاد خلع عليها اسم القاهرة المعزية ، أي مدينة المعز التي تقهر كل المدن (١) .

وفي نفس الأمسية وضع جواهر أساس قصر فخم لينزل به الخليفة عند قدومه (٢) ، وبنى جواهر الجامع الأزهر : (وأقيمت الصلاة فيه لأول مرة في السابع من رمضان سنة ٣٦١) ، وجعل على رأس كل مصلحة من المصالح الحكومية اثنين من الموظفين أحدهما مصري ليرعى شئون المصريين والثاني مغربي ليرعى مصالح المغاربة الذين استقدمهم جواهر معه .

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج٢ ص ١٠٣ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج١ ص ١٢٠ ، المقرئ : انعاظ الحنفا ص ٧٢ .



جوهـر والدعوة الشيعة :

ومن ناحية الدعوة الشيعة عمل جوهـر بتؤدة على نشرها وتقويتها بمصر ، ففى أول الأمر نجد جوهـرا ينشر وثيقة (١) يشترط فيها على نفسه العدل واسقاط الرسوم الجائرة ، وتترك الناس على مذهبهم الذى يريدونه ، فلما استقر له الأمر منع جوهـر لبس السواد وهو شعار العباسيين وحاول نشر الخصرة وهى لبس آل البيت ، وأمر جوهـر أن يزداد فى الأذان العبارة « حى على خير العمل » ، وأن يزداد فى خطبة الجمعة الصلوات والتسليم على الإمام على المرتضى ، وفاطمة البتول ، والحسن والحسين سبطى الرسول ، والأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين ، وقصر جوهـر المقاصب المهمة على الشيعة من مصريين أو مغاربة ، فتدفق الطامعون على اعلان قبولهم لهذا المذهب ، بل أظهر بعضهم التعصب له (٢) .

وينبغى أن يتضح أن الفاطميين فى مصر أحسوا أنهم يعاملون شعباً له ثقافة وفكر ، فقللوا من تعصبهم للتشيع ليضمنوا لأنفسهم الاستقرار والهدوء وبخاصة فى أول عهدهم بدخول مصر .

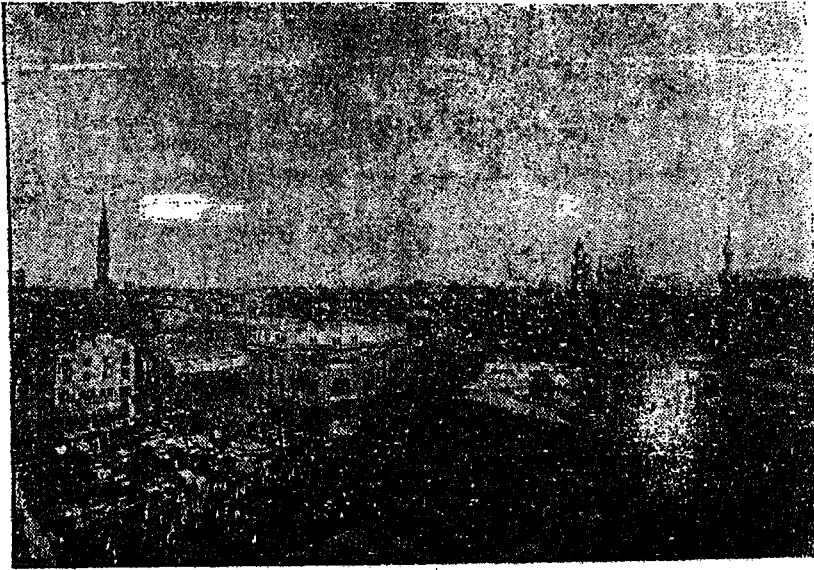
وفىما يتعلق بالاضطرابات الداخلية قضى جوهـر على كل المناوئين للسلطة الجديدة ، فقاوم جماعة القرامطة التى كانت تتقاضى إتاوة من حكام دمشق ، ثم قُطِعَت الإتاوة بامتداد ملك الفاطميين الى الشام ، فأتار هذا التصرف زعماء القرامطة ، وقاموا بحملة عنيفة استولوا بها على دمشق وحاولوا مهاجمة مصر ، ولكن جوهـرا تصدى لهم بجيش كبير ، فشقت شملهم واستعاد دمشق منهم ، وقد جدد القرامطة نشاطهم ضد الفاطميين بعد حضور المعز لمصر ، ولكن المعز استمال بعض قادتهم بالمال ، الذى كان أكثره مزيفاً ، وانقصر بالسلاح على الباقيين (٣) . وسنزيد هذا الموضوع شرحاً فيما بعد .

(١) اقراها فى اتعاط الحنفا للمقريزى ص ١٤٨ — ١٥٣ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢٠ .

(٣) انظر تاريخ مصر الى الفتح العثمانى تأليف عمر الاسكندرى والميجر

سندج ص ١٩٤ .



الجوامع الأزهر ومنطقته

وسار جوهر شوطا واسعا في الفتوحات والتوسع ، فضم بلاد النوبة ،
واعترفت مكة والمدينة بسلطان الفاطميين ، واعترف له الأمير الحمداوى
وأنى طلب بالسيادة •

ورأى جوهر بعد هذا أنه آن الأوان لحضور المعز الى مصر ، فكتب
اليه بذلك فخرج المعز من المنصورية في شوال سنة ٣٦١ ووصل القاهرة
في رمضان سنة ٣٦٢ وتسلم زمام الأمور من جوهر ، وخلع على هذا
القائد خلعة مذهبية وقلده سيفاً ، وقدم اليه عشرين فرسا مسرجة ، وخمسين
ألف دينار تقديرا لما حققه من نجاح وما قدمه للدولة من خدمات ،
ولكن السيفان لا يجتمعان في جراب واحد كما يقولون ، فلم يكن هناك
بعد من أن يتوارى جوهر عن الأنظار ليكمل تألق الخليفة • وليتجه كل
الاجلال اليه ، واذلك صرف جوهر عن دواوين مصر وجباة أموالها والنظر

في أحوالها (١) ، وبدأ نهمه يختفى ، ثم توارى بعد قليل عن مسرح السياسة المصرية (٢) . ولكن نفوذه العسكرى استمر بعد ذلك فقد قاد جيوش الفاطميين للقضاء على افتكين والحسن زعيم القرامطة بالشام سنة ٩٧٦ ووطد سلطان الفاطميين فيها ، ثم عاد الى مصر سنة ٩٧٩ حيث توفى بالقاهرة في نفس العام .

المعز لدين الله في مصر (٣٦٢ — ٣٦٥ = ٩٧٢ — ٩٧٥) :

حمل المعز معه الى مصر أهله وذويه وحمل كذلك جثث آبائه ، وهذا يدل على أنه كان ينوى أن يتخذ من مصر عاصمة له يحكم منها امبراطورية كبيرة كان يحلم بها ، فلم تكن مصر بالنسبة له أرضا ضمها لسلطانه ، وانما كانت مركزا يتبعها ما خضع له من بلدان .

وعهد المعز بمصر عهد قصير ، فقد توفى بعد ثلاث سنوات من وصوله ، ولكن هذه الفترة كانت حافلة بالاصلاحات وبوضع النظم الطيبة السمحة ، فقد أطلق سراح المسجونين من الاخشيديين وأتباع كافور ، ونشر العدل وحسّن الادارة ، وكبح جماح جنده ، ومنعهم من البقاء خارج ثكناتهم بعد الغروب ، وألغى نظام الالتزام وجعل الصلة مباشرة بين الدولة ودافعي الضرائب ، وكان شديد التسامح مع المسيحيين ، واستعمل كثيرين منهم في المناصب المهمة ، وعمل كسوة للكعبة في غاية الفخامة والعظمة ، وأمر بعمل خريطة للعالم من الحرير الأزرق وضّح عليها كافة أقطار العالم (٣) .

وفي ضوء هذه الاصلاحات أصبح عهد المعز عهدا نهضت فيه ثروة البلاد نموا محسوسا ، واستقرت الأمور ، وعم الأمن ، وأصبحت القاهرة مركزا للعلم والضوء في عالم تلك الأيام .

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص ١١٨ .

(٢) دكتور على ابراهيم حسن : جوهر الصقلى ص ١٠٨ — ١١٠ .

(٣) دكتور زكى حسن : كنوز الفاطميين ص ٥٣ .

المعز ووسائل الدعوة للتشيع :

وبذل المعز نشاطا ملحوظا لخدمة الدعوة الشيعية ونشرها ، واستعمل لذلك العلماء والشعراء ، فجلس العلماء يحاضرون الخاصة ، وراح الشعراء يتحدثون للخاصة والعامة عن المبادئ الشيعية ووجوب اتباعها ، فقد كان الشعر صحافة تلك الأيام ، كما اقترح الفاطميون مناسبات متعددة يحتفلون بها ، حيث تُجرى في هذه الاحتفالات رسومٌ ونظم تجسد الدعوة وتقربها الى القلوب ، فكانوا يحتفلون بستة موالد : مولد النبي ، ومولد علي ، ومولد فاطمة ومولد الحسن ، ومولد الحسين ، ومولد الخليفة الحاضر ، وكانوا يحتفلون كذلك بعاشوراء وعيد الغدير وغيرها من المناسبات (١) .

وتوفي المعز لدين الله سنة ٣٦٥ فخلفه ابنه العزيز .

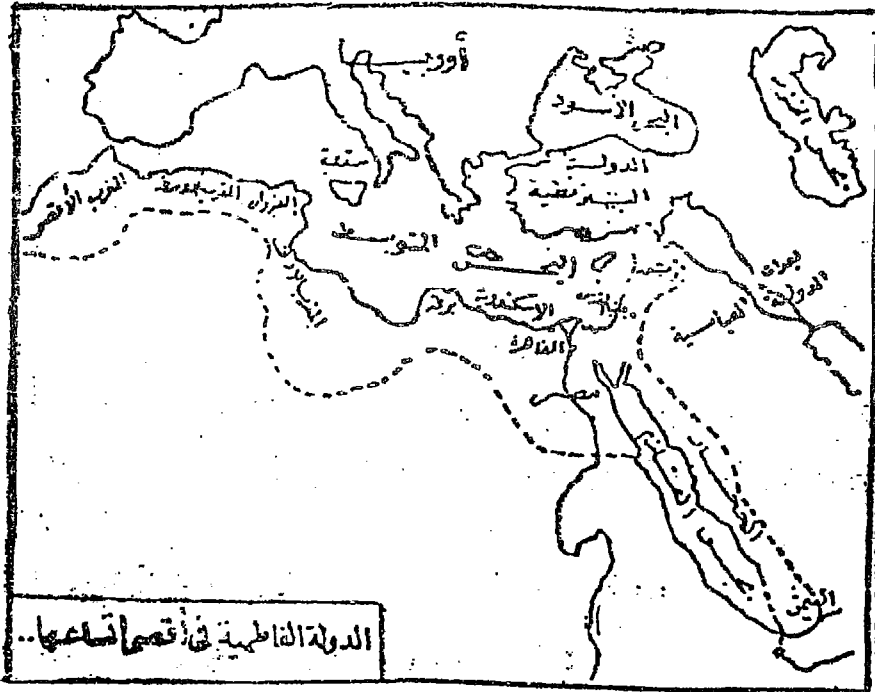
العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦ = ٩٧٥ - ٩٩٦) :

تولى العزيز بعد أبيه وكانت سنه عشرين سنة ، ومع أنه كان في مطلع الشباب يميل للصيد ويولع به فقد كان شهما نبيلًا جريئًا ، ساس البلاد بحكمة وتسامح ، وقاد الجيوش ببطولة وشجاعة . ويعتبر عصر العزيز أزهى عصور الدولة الفاطمية بمصر .

وقد اتسع ملك الفاطميين في عهده اتساعا عظيما ، فقد خطب له في جميع الاقطار الواقعة ما بين المحيط الاطلسي والبحر الاحمر ، بالإضافة لليمن والحجاز ودمشق ، حتى الموصل أحيانا ، ولم تكن خلافة مصر في عهده منافسة لخلافة بغداد فحسب ، بل إنها فاقت هذه الأخيرة وأخملت ذكرها ، واكتسبت لنفسها قوة بحرية بحيث أصبحت الدولة الاسلامية الكبرى الوحيدة في شرقي البحر المتوسط (٢) .

(١) انظر ما كتبه المؤلف بافاضة عن المذهب الاسماعيلي في مصر وجهود الفاطميين لنشره في كتابه : تاريخ التربية الاسلامية ص ٣٧٨ - ٤٢٠ من الطبعة الثانية .

(٢) Hitti : History of the Arabs pp. 734 - 735.



ولعل هذا التوسع هو الذي دفع بالخليفة ليرتكب الخطيئة التي ارتكبها من قبله خلفاء بني العباس وعانوا من شرها كثيرا ، وتلك الخطيئة هي أنه بدأ يجلب الترك والزنج ويعتمد عليهم في الأمور العسكرية بجانب البربر الذين قدموا مع جوهر ثم مع أبيه ، وعلى هذا وجد في مصر أصناف من الرجال العسكريين أصبحوا فيما بعد سبب اضطراب الدولة وانحلالها عندما جاء خلفاء لم يستطيعوا أن يتحكموا عليهم النفوذ والسلاطان .

اصلاحات العزيز :

والعزيز اصلاحات اجتماعية وثقافية مهمة ، فهو الذي بدأ ببناء الجامع الذي أتمه من بعده ابنه الحاكم وعرف باسمه ، وأنشأ بالقصر مكتبة عظيمة بلغ عدد ما بها من مجلدات مئات الآلاف ، ويقول أبو شامة (١) إنه كان بها مليون كتاب في مختلف العلوم والفنون ، كالفقه

(١) الروضتين ج ١ ص ١٠٠ .

واللغة العربية والحديث والتاريخ والسير والفلك والدين والكيمياء ،
وهو الذى حول الجامع الأزهر الى جامعة تلقى بها الدروس والمحاضرات .



منارة مسجد الحاكم

وينسب للعزیز أنه تشدد فى نشر المذهب الشيعى ، وألزم المصريين
أن يعتنقوه كما حتم على القضاة أن يصدرُوا أحكامهم وفق قوانينه .

وعرف عن العزیز تسامحه الواسع مع أهل الذمة ، ولعل ذلك راجع
الى زواجه من سيدتين مسيحيّتين ، أو الى أنه كان يخاف أهل السنة على
دعوته الشيعية أكثر من خوفه عليها من أهل الكتاب ، وكان من بين وزرائه

يعقوب بن كلثوم وهو يهودى أسلم وأجاد مذهب آل البيت وكتب فيه ، وجلس يعلمه في الأزهر ، وهو الذى نصح للعزیز بتحويل الجامع الأزهر الى جامعة دينية (١) ، ومن بين وزراء العزیز وزير مسيحي هو عيسى بن نسطورس وقد ظل على مسيحيته على الرغم من شغله هذا المنصب الكبير ، وكان متعصبا لبنى دينه مما أثار عليه جماعة المسلمين ، وتولى وزارة العزیز كذلك منشأ لليهودى ، وكان طبيب العزیز بالله وطبيب ولده الحاكم من بعده نصرانيا يدعى أبو الفتح منصور بن معشر المصرى وكانت له مكانة سامية في الدولة (٢) .

وقد أحس العزیز خطر هذه السياسة فتخلى عن أهل الذمة وغرهم أموالا كثيرة ثم عاد فصفح عنهم بشقاعة ابنته ست الملك وتأثير زوجته النصرانية (٣) .

وتوفى العزیز في رجب سنة ٣٨٦ هـ في مدينة بلبيس وهو في الطريق الى الشام قاصدا غزو الروم .

الحاكم بأمر الله (٣٨٧ — ٤١١ = ٩٩٦ — ١٠٢٠) :

نحن الآن أمام شخصية غامضة هي شخصية الحاكم بأمر الله ، شخصية كثرت عنها الأبحاث كثرة بالغة اشترك فيها المستشرقون والشرقيون ، ولا يزال الباحثون حتى اليوم يكتبون عنه دراسات مقتضبة أو مستفيضة ، ومع هذا فلا يزال الحاكم بأمر الله غامضا حتى ليبدو أنه انطوى ومعه كثير من الأسرار والأخبار .

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان : ج٢ ص ٣٣٤ — ٣٣٥ .

(٢) ابن العبري : مختصر تاريخ الدول ص ٣١٦ . ويقول الدكتور عبد المنعم ماجد (نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ص ٤٨) انه في عهد العزیز والحاكم لم يحمل لقب الوزير الا ابن كلثوم .

(٣) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٨١ .

ويوشك هؤلاء الباحثون أن يتحققوا على شذوذ في الحاكم بل اضطراب في عقله وانحراف في تفكيره ، واعتقادي أن مصدر ذلك الاتفاق بين الباحثين أن الواحد منهم يأخذ قضية من الآخر فيسلم بها ويحاول أن يجد مزيدا من الأدلة لتأكيدهما ، ومع أن طبيعة هذا الكتاب الاختصار والايجاز فأننى أريد أن أسلك في بحثى عن الحاكم طريقا جديدا بالآلة أدرسه تحت تأثير بكتاب أو باحث ، وبالا أجعل قضية من القضايا عنوانا لدراساتى ثم أحاول أن أدلل عليها بما يؤيدها ، أننى أريد أن أسلك طريقا آخر ، أريد أن أجمع المعلومات من هنا ومن هناك حتى تقود هذه المعلومات الى نتيجة من النتائج نعتنقها أو نؤيدها :

سبب الحاكم بين الأهواء والاضطراب :

وبادئ ذي بدء نذكر أن الحاكم تولى الخلافة وعمره إحدى عشرة سنة ، وفتح عينيه فوجد نفسه خليفة على ملك فسيح مهتده له أبوه وجدته ، وعيّن عليه برّجوان التركى وصيا ، وكانت السلطة بينه وبين ست الملك أخت الحاكم لأبيه وقضى هذا الوصى كما قضت ظروف القصر والحياة الشيعية أن يثقلن الحاكم علوما خاصة ، في قمته التشيع والمبالغة فيه ، ومنها كذلك علوم الفلسفة وعلوم الفلك ، وطبيعى أن الحاكم اطلع بوسيلة أو بأخرى على علوم غير علوم الشيعة ، فأثرت هذه فيه ، وأوقفه ذلك أمام طريق مزدوج ، ولعل الحاكم رغب في مزيد من العلوم المعتدلة ومن الدراسات الهادئة ، ولكن رجال القصر والمشرفين على تعليمه وثقيفه ، ما كان لهم أن يتجهوا به هذه الوجهة فحرموه ما شاء ، ومنحوه ما شاءوا ، فقد كان اتجاهه يحمل في طياته انهيار النظام الفاطمى وبالتالي انهيار سلطان أصحاب الجاه في مصر ، واندماج مصر من جديد في إطار النظام السنّى

زحام العناصر في القصر والمجتمع :

ونما الحاكم فتفتحت عيناه على قصر يعج بعناصر متعددة من الناس : بربر وعرب ومصريين وأتراك وزنج ، ولكل من هؤلاء أهداف واتجاهات ، وفي القصر كذلك أديان متعددة ، فألم الحاكم مسيحية وزوجة أبيه أم أخته

ست الملك مسيحية كذلك ، وبه أيضا عناصر يهودية وشيعية وسنية ولا دينية محايدة ولا دينية هدامة متطرفة ، والقصر صورة مما في المجتمع الفاطمي من اتجاهات وأديان ومذاهب ، وكان المجتمع الاسلامي في عهده — وليس فقط المجتمع الفاطمي — يمر بأقسى فتراته ، ففي أسبانيا ضعف وانحلال بعد عصر المنصور بن أبي عامر وأولاده ، وفي العراق تفكك البويهيين ونشيعهم وعدوانهم في خلفاء بني العباس ، وعدم قبولهم في الوقت نفسه الالتحاق بالفاطميين الشيعة •

جوانب مضيئة في حياة الحاكم

جهود اجتماعية للحاكم :

وتؤكد كل المراجع التي بين أيدينا أن الحاكم كان في السنوات الأولى من حكمه شديد العناية بأداء واجباته كرئيس للدولة ، متفانيا في خدمة البلاد والعمل على إسعادها وإزدهارها ، فكان يختلط بالناس في الشوارع والأسواق ، يتعرف على مشكلاتهم ، ويحاول حلها ، ولم يثعن بما عثر عن الخلفاء السابقين من ترف في اللباس والمراكب والحرس ، وأصبح الناس في عهده يعيشون في أمان ، وينامون في بيوتهم وأبوابهم مفتوحة •

يقول المقرئ في حرارت إحدى وتسعين وثلاثمائة : ان الحاكم وأصل الركوب في الليل في كل ليلة وكان يسير من موضع الى موضع ومن شارع الى شارع ومن زقاق الى زقاق ، وأمر الناس بإضاءة الشوارع والأزقة • • • ومنع حرسه من أن يحولوا بينه وبين الناس ، وقال : لا تمنعوا أحدا ، فأحرق الناس به وأكثروا من الدعاء له (١) •

وفي سنة ٣٩٢ هـ أصدر الحاكم قرارا بمنع كل المنكرات وإبطالها ، وبذلك قضى على المسكرات وأراقها ، كما قضى على القمار بكل أنواعه (٢) •

(١) انظر انبيا ج ٢ ص ٣٨ •

(٢) المرجع السابق ص ٤٤ •

وفي سنة ٣٩٥ أصدر الحاكم أوامر مشددة للنظافة ، فأمر بكس الشوارع والأرقة ، كما أمر بقتل الكلاب الضالة (١) .

وفي سنة ٣٩٩ أمر ألا يدخل أحد الحمامات العامة بدون منتر ، وكتبست الحمامات بعد ذلك وقبض على من خالف هذا الأمر وشهر بهم (٢) .

جهود اقتصادية للحاكم :

واهتم الحاكم اهتماما كبيرا بالتجارة ، وحرص على سلامة الطرق ، وقضى على اللصوص والاحتالين ، كما حرص على سلامة المكايل والموازين ، وأخذت الحسبة في عهده مكانا مرموقا .

واتجه الحاكم للزراعة التي ازدهرت مع الاهتمام بالنيل وفروعه وبيعض الأنواع الزراعية الجديدة التي استقدمها ، ووصل من عنايته بالزراعة أن استقدم من البصرة الحسن بن الهيثم العالم الطبيعي والرياضي الشهير ، الذي نقض في كتابه الرئيسي « كتاب المناظر » نظرية أقليدس القديمة القائلة بأن الإبصار يكون بخروج شعاع من البصر الى المبصرات ، وقرر عكس ذلك ، وهو الأمر الذي انتهى اليه الفكر الحديث ، والحق أن الحسن تعهد للحاكم بأن يعدل فيضان النيل الذي كان أساس خصوبة التربة المصرية (٣) .

ويرى بعض الباحثين أن مشروع الحسن بن الهيثم كان نواة التفكير في العمل الذي تم في عصرنا الحديث وهو السد العالي .

وربما نسأل عن الأسباب التي جعلت ابن الهيثم لا يعمل على تنفيذ هذه الفكرة ؟

(١) المرجع السابق ص ٥٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٦ .

(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج٢ ص ١٩٤ .

والذى تشير له المصادر أن ابن الهيثم عندما رأى الآثار المصرية العظيمة خطر له أن ذلك المشروع لو كان ممكنا لما غفل عنه المصريون القدماء مع براعتهم فى ألوان من النحت والفنون والعلوم .

وبجوار الحسن بن الهيثم ازدان بلاط الحاكم بمجموعة من العلماء سنتحدث عنهم عند حديثنا عن الحضارة الاسلامية فى العهد الفاطمى

اهتمام" بالعدالة فى القضاء :

ويقرر الكندى أن الخليفة الحاكم أراد أن يحول بين القضاة وبين أخذ الأموال بغير حق ، فأمر بأن يضاعف للحسين بن على بن النعمان رزقه وصلاته واقطاعياته ، وشرط عليه ألا يتعرض من أموال الرعية لدرهم فما فوقه (١) وفى ملحق الكندى (٢) أن الحاكم مرةً أجاز بعض الرجال للشهادة بأن أقر عدالتهم ، ولكن قاضى القضاة أعلمه أن بعض هؤلاء لا يستحقون التقدير ولا يوثق بهم فى شهادة ، فأذن له بتصفحهم ، وإقرار من يرى اقراره منهم ، ولم يتمسك برأيه فيهم .

وهذه النصوص واضحة الدلالة على أن هذا الحاكم كان مخلصا لدولته كفتا لحمل أعبائها ، عالما بكرم العلماء .

دار الحكمة :

وهو موضوع آخر يئسب للحاكم فيضعه فى القمة من المفكرين المثقفين هو إنشاء دار الحكمة سنة ١٠٣٩ هـ أى وهو فى العشرين من عمره ، وكانت دار الحكمة التى أنشأها هذا الخليفة مركزا علميا على المستوى ، جمع له الخليفة خيرة العلماء فى جميع الفنون والعلوم ، وأجرى عليهم المرتبات الكبيرة ، وهى لهم الوسائل ليتفرغوا للبحث والدراسة والتأليف ، فألحق

(١) الدلالة والقضاة ص ٢٩٧ .

(٢) ملحق الكندى ص ٨٢ .

بدار الحكمة مكتبة عظيمة حوت ما لم يجتمع مثله في مكتبة أخرى في ذلك العهد ، وهياً للملتحقين بدار الحكمة من طلاب ومطالعين أرزاقاً كافية ، ووضع تحت تصرفهم الأوراق والمصادر (١) ، فورثت بذلك ما كان لبيت الحكمة في بغداد من نشاط علمي زاهر وزادت عليه ، ويمكن القول إنه لما يؤس من اصلاح الدراسة في الأزهر آنذاك تركه في دراسته المذهبية المتعسبة وأنشأ دار الحكمة تخدم العلم للعلم بدون تأثير مذهبي أو سياسي .

الحاكم والمرأة :

وفي سنة ٣٩٤هـ حظر الحاكم على النساء كشف وجوههن وراء الجنائز والبكاء والعويل وخروج النائحات خلف الجنازة (٢) .

ثم اتجه الحاكم الى مزيد من الدقة ومزيد من الغيرة على النساء ، فقرر أن تقر النساء في بيوتهن ، وألا يخرجن منها لغير ضرورة ، وتنفيذاً لذلك منع صانعي الأحذية من صنع أحذية لهن ، بل قتل بعض من خالفن تعليماته (٣) .

يقول المقرئ في ذلك : لما أفرطت النساء في الخروج بالليل أمر الحاكم ألا تخرج امرأة بعد العشاء ، فان ظهرت تشكك بها ، كما أعان ألا تكشف امرأة وجهها في طريق ولا خلف جنازة ، ولا تتبرج ، ومنع النساء كذلك من الإقامة في المقابر وإطالة الزيارة (٤) .

(١) المقرئ : اتعاط الحنفا ج ٢ ص ٥٦ .

(٢) يحيى بن سعيد الورقة ١١٥ ب .

(٣) المرجع السابق ١٢٤ والخطط للمقرئ ج ٢ ص ٢٨٩ ووفيات

الأميان لابن خلكان ج ٢ ص ١٠٢٧ واتعاط الحنفا للمقرئ ج ٣ ص ١٢٠ .

(٤) اتعاط الحنفا ج ٢ ص ٣٨ ، ٥٣ ، ٧٣ .

إيقاف سب السلف :

وأمر الحاكم أن يكف الناس عن سب السلف ، وعاقب من ارتكب هذا الانحراف ، بل وصل الأمر إلى قتل واحد لأنه تمادى في ضلاله فسب السيدة عائشة ، وأصدر أمره للشرطة بأن يقبضوا على من يقوم بسب السلف فكف الناس عن هذا العمل ، وفي سنة ٣٩٧ هـ أمر بمحو ما هو مكتوب على المساجد والأبواب وغيرها من سب السلف فمحي ذلك كله ، وطالب متولى الشرطة حتى أزال سائر ما كان منه (١) .

الحاكم الخليفة الزاهد :

وفي سنة ٤٠٠ هـ أعلن الحاكم منهاجا جديدا لم تعرفه سيرة أكثر الخلفاء ، فقد قرر أن يعيش على طريقة الزهاد الأولين من المسلمين ، وأن يطرح الدنيا وشؤونها بعيدا ، فاقصر في مطعمه ومشربه على ما تدعوه إليه الحاجة لتفاسك الجسم دون زيادة أو مغالة ، وأغلق مطبخ دار الخلافة ، ومنع الناس من تقبيل الأرض بين يديه ، ومن السجود له ، ومن مخاطبته بمولانا ، وترك ركوب الخيل ، وصار يركب الحمار ويختلط بالناس بلا مظلة وبلا طراد (٢) بين يديه ، وأسقط الألقاب وجميع الرسوم والكنوس المستحدثة ، وأعاد للناس كل ما كان قد أخذ من أملاكهم وعقارهم في عهده أو عهد أسلافه بمصادرة أو بغير حق ، واعتق سائر مماليكه من الإناث والذكور ، وحررهم جميعا أوجه الله تعالى (٣) ومنع الحاكم زراعة العنب ، واتهم المزارعين أنهم يزرعون الكروم لعمل الخمر .

(١) المرجع السابق ص ٦٧ ، ٦٩ .

(٢) الطراد هم الذين يفسحون الطريق أمام الملوك .

(٣) يحيى بن سعيد الأتطلكي : مخطوط بباريس رقم ٢٩١ ورقة

١٢٢ — ١٢٩ نقل عن الحضارة الإسلامية لأدم متر ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧

والمقريزي : انماط الحنفيا ج ٢ ص ١٢٦

جوانب قاتمة تنسب للحاكم

ونناقشتها

ذكرنا فيما سبق الجوانب المضيئة في حياة الحاكم ، ولكن هناك جانباً آخر أميل الى الظلام نذكره فيما يلي ونناقشه :

سفك الدماء :

يُذكر عن الحاكم أنه كان مولعاً بسفك الدم ، قتل الوصى برجوان ودبر اغتيال الوزراء الستة الذين جاءوا بعد هذا الوصى ، أو على الأقل دبر اغتيال أكثرهم ، وقتل قائد قواته الحسين بن جوهر ، والقاضي حسين ابن النعمان ، والفضل بن صالح من أعظم قواد الجيش ، وهو الذي قضى على ثورة أبي ركوه ، وقتل رجاء بن أبي الحسين ، وقتل غلاب بن مالك قائد الشرطة ، وقاضى القضاة مالك بن سعيد •

والحاكم قد فعل ذلك كله ، ولكن المقرئ يذكر أسباب هذه التصرفات مما يتيح فرصة واسعة للحاكم للدفاع عن نفسه ، فمثلاً يذكر أن برجوان استقل بلذاته وأقبل على سماع الغناء ، وكان شديد الطرب يجتمع المغنيين من الرجال والنساء ، ويكون معهم كأحدهم ، ولا يخرج من داره حتى يمضى صدر من النهار ، وإذا عرضت عليه الأمور أمضى منها ما يختار من غير مشاورة ، وكان كثير الدالة على الحاكم ، ويقول الحاكم أنه كان سيء الأدب جداً ، وأنه في بعض الحالات كان يجعل خفيته مقابلاً لوجه الحاكم وغير ذلك من الأمور التي كانت تحتم القضاء عليه (١) •

ويروى المقرئ قصة مؤامرة قام بها بعض رجال الحاكم ضده وقد نُقِلَت أخبارها الى الحاكم ، فلقى المتآمرون جزاء خيانتهم (٢) •

(١) أتعاط الحنفا ج ٢ ص ٢٦ •

(٢) المرجع السابق ص ٤٧ •

وقُتِلَ القاضى حسين بن النعمان لأنه استولى على أموال اليتامى
وكان قدرها عشرين ألف دينار (١) •

وقُتِلَ مالك بن سعيد لأنه أخذ جانب ست الملك التى كانت شديدة
العداء للخليفة الحاكم وقد خافه الحاكم على نفسه (٢) •

— وينسب له أنه أصدر أوامر مضحكة لأسباب تافهة ، فقد حرّم
الملوخية لأن معاوية كان يحبها ، وحرّم الجرجير لأن عائشة كانت تستطيه ،
كما ينسب اليه أنه أصدر أوامر متناقضة ، فقد أوصى بمزاولة النشاط
بالليل ، والنوم بالنهار ، ثم عدل عن رأيه •

وليس هناك أبدا ما يسدل على صحة هذه الادعاءات وأغلب الظن
أن أعداءه نسبوها اليه لمهاجمته أو اخترعوها بعد وفاته •

وينسب للحاكم أنه اصطنع نظام التجسس فجعل له عيوناً من
النساء يدخلن البيوت وينقلن اليه أخبارها ، وكان يلقى بهذه الأخبار أمام
ذويها على أنها من معارفه هو ومن صور مقدرته التى تمكنه من معرفة
الغيب (٣) •



تلك خلاصة موجزة لما أورده المؤرخون عن أعمال الحاكم خيرها
وشرها ويجب أن ننظر لها نظرة علمية محايدة محالين وباحثين لتقودنا هذه
الأعمال الى نتيجة أقرب ما تكون الى الحقيقة •

وبادىء ذى بدء نستطيع أن نقول بيقين لا يحتمل شكاً مما اقتبسناه
أنفاً من المقرئى والكندى ويحيى بن سعيد وكارل بروكلمان ومن انشاء

(١) و (٢) اتعاط الحنفا ج ٢ ص ٥٩ •

(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١٠٦ •

الحاكم اذار الحكمة وهو في سن العشرين أن الرجل كان ذكيا وطموحا ، وكان لا يسيى على النسق الذي أريد له أو سارت الدولة عليه ، فالوصى تركى الجنس وأمه مسيحية وهما يوجهانه وجهة لا يرتضيها ، والأزهر يسيى في دائرة شيعية لا تقنعه ، وفي نفسه رغبة الى الاصلاح عبس عنها في عدة صور كدأ رأينا ، ولكن التقاليد تسيطر على القصر ، ورجال البلاط يرون في اتجاهاته قضاء على نفوذهم وعلى كيانتهم ، وتعارضت اتجاهات الحاكم مع نفوذ أخته ست الملك تلك التي ستراما تدبّر جريمة قتله ، وقد ذكرنا أن الحاكم قد اكتشف مؤامرة أو مؤامرات ضده للقضاء عليه من هذا النوع ، وأنه أنزل سخطه وعقابه على من اشترك فيها من القادة والوزراء مما يفسر لنا قتل الوصى برجوان وغيره من القادة والزعماء ، وعندما تلوثت يد الحاكم بالدم لحقته الشكوك ، ولم تعد الثقة متوفرة بينه وبين رجال قصره .

ويبدو أن المرأة جانبها الصواب في عهده حتى أنه اتهم أخته ست الملك بما يشينها ، فراح الحاكم يضع القيود التي يحمى بها المرأة أو يكبح جماحها فعند ذلك نزقا منه ، وليس بنزق اذا قيس بمقياس عصره وبمقياس الخلل الذي دب في القصور في تلك الأثناء .

أما نظام التجسس فهو وسيلة اتبعت ولا تزال تتبع في أرقى الممالك ، ولا شك أنها كانت نتيجة للشكوك التي عاشها الحاكم في أخريات أيامه ، فالحاكم في رأينا كان في أول حياته طارازا ممتازا ولكن اتجاهاته اصطدمت بالآراء التي كانت سائدة في قصره ولدى كبار رجالاته ، وأحدث ذلك صراعا في نفس الحاكم وفي المجتمع ، وكانت وفاة الحاكم غامضة كحياته ، والأرجح إن أخته ست الملك دبرت قتله بعد أن اتهمها بما يشينها وخافت من سخطه ، وقد خرج مرة ليلا راكبا حمارا الى مرصد كان يخلو فيه

لنفسه بجبل المقطم ، ولم يعد الحاكم من هذه الرحلة ، وعثر الناس على حماره وملابسه ملوثة بالدماء فعرفوا أنه قتل (١) .

نهاية الحاكم :

يصف لنا المقرئ أحداث الأيام التي تلت غيبة الحاكم وصفا يؤكد مسئولية أخته عن قتله وتدبيرها لنهايته ، كما يفيد هذا الوصف أن هذه الجريمة نزل قصاصها بالأخت بعد فترة قصيرة ، يقول المقرئ (٢) :

وليلتين بقيتا من شوال سنة ٤١١ هـ فقَدَ الحاكم ، وسبب فقده أن أخته ست الملك كانت امرأة حازمة ، وكانت أسن منه ، وكان الأمر بيدها طيلة طفولة الحاكم ، فلما بلغ الحاكم الرشد ، وتخلص من برجوان ، وأراد أن يأخذ كل السلطة من أخته قام صراع بينهما ، واستمر هذا الصراع طويلا حتى بلغت العلاقة بينهما نهاية السوء ، وفي بعض المناقشات سنة ٤١٠ دار كلام بينهما فرماها بالفجور ، وقال لها أنت حامل ، ووصلت العلاقة بذلك إلى قمة الجفاء ، فأرسلت ست الملك سيف الدين حسن بن علي بن دواس من مقدمي كتامة ، وكان قد تخوف من الحاكم ، وتوعدا على قتل الحاكم وتحالفا عليه ، وأحضرت ست الملك عبيدين وحلفتهم على كتمان الأمر ، ودفعت إليهما ألف دينار ليقتلاه .

ولما أراد الحاكم الصعود للجبل كعادته حاولت أمه منعه لتخوفها عليه ، ولكنه أصر على ما أراد وركب حماره ، ودخل الشعب الذي كان يدخله ، وكان العبدان يختفيان فيه ، فخرجا عليه وضرباه حتى مات ، وقتلا تابعه وحماره ، وحملتا جثته إلى أخته فدفنته ، وقتلت أعوانه الذين خافت أن يثوروا لعيبته .

واضطرب الناس لغيبة الحاكم ، فأرسلت إليهم : انه أخبرني أنه

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٢ ص ١٢٧ — ١٢٨ .

(٢) انعاظ الحنفا ج٢ ص ١١٥ — ١١٧ .

سينغيب سبعة أيام وأنه يواصلنى بأوامره ، ورتبت رسلا يتظاهرون بالمضى للحاكم والعودة بأوامره ، وفى أثناء ذلك اشتدت شوكتها وكفى الناس عن الاستقصاء فى المسألة ، فأحضرت ابن دواس وانتقلت معه على البيرة للظاهر بن الحاكم ، وأظهرته للجماهير ، وعلى رأسه تاج جدّه العزيز ، غنغذ ابن دواس ذلك ، وبائع الناس الا غلاما تركيا فانه قال : لا أبايع حتى أعرف خبر مولائى الحاكم ، فقتل هذا الحسام .

نهاية ست الملك :

اتجهت ست الملك للقضاء على ابن دواس فقتلته ، وقتلت جميع من عرف من نهاية الحاكم ، ولكن أيامها لم تطل بعد ذلك فماتت بعد فترة قصيرة .

وكتب تاريخ الحاكم إثر وفاته ، وقد عادت السلطة الى من اضطهدهم ، أولئك الذين كان يهمهم أن يبرزوه معتوها أو مجنونا أو مدعيا للذووية ، ليصرفوا الناس عن البحث عن القتلة ، أو الكشف عما فى القضية من أسرار ، وقد فطن الدكتور فيليب حتى لوقف التاريخ من الحاكم فقال : اتهمه عدونوا الأخبار من خصمه بغرابة الأطوار (١) .

الدرزية

كانت بايران طوائف تدبر المكائد ضد الاسلام والمسلمين ، وهؤلاء ظهوروا منذ قهر الاسلام بلاد ايران ، وحوّل جماهير شعبيها من عبادة النار والملوك الى عبادة الله الواحد الأحد .

فقد كان بايران آنذاك بقايا يهود « سجن بابل » وقد تحالف هؤلاء مع الذين أفلتوا من رجال القصور ، وتظاهر هذا الحلف بالاسلام وكونوا ما أسميناه فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة « مدعى التشيع »

(٢) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج٢ ص ٢٢٢ .

وأخذ هؤلاء يعملون بجد^١ لإفساد العقيدة الإسلامية كما أفسد اليهود من قبل العقيدة المسيحية عن طريق بولس وحولوها إلى التثليث ، وحولوا عيسى إلى إله

والمهم هنا أن هذه الطائفة عندما سمعت عن اضطراب الحاكم ، لم تتضع^٢ وقتا ، وأوفدت أحد أشرارها ليزيد النار اشتعالا ، فحضر إلى مصر سنة ٤٠٨ هـ داعية^٣ أعجمي^٤ ، أو كما يقول الأنطاكي غشاهض النشأة^(١) وكان الهدف من حضوره أن يعيد للحياة نشاط القرامطة المنحرف الذي كان قد خبا وتوقف^(٢) .

وهذا الداعية اسمه محمد بن اسماعيل الدرزي ، ويلقب « أنريشكين » ، واتصل هذا بالحاكم ، وكان الحاكم آنذاك في حاجة إلى من يساعده في الصراع الذي كان يواجهه ، ومعنى هذا أنه اتصل به في فترة ضعف بشرى .

الدرزية تؤاخذ الحاكم :

وبدا الدرزي يعظن تعظيم الحاكم ، وانتقل من التعظيم إلى رفعه عن مستوى البشرية ، ثم اندفع ليعظن الوهية الحاكم ، على نحو الادعاء بالوهية عيسى أو الوهية الإمام علي ، فالنمط هو هو يهودي^٥ النشأة والأسلوب ، ومما قاله الدرزي في هذا المجال « الحذر الحذر أن يقول واحد منكم بأن مولانا جل ذكره هو ابن العزيز أو أبو علي ، لأن مولانا سبحانه هو هو في كل عصر وزمان ، يظهر بطريقة بشرية عندما يشاء » وقد أنكر عليه الناس ذلك ، وقامت فتنة ضده قتل فيها هو وبعض من معه ، ونهبت^٦ داره^(٣) .

وانتساب هذا إلى العجم يربط بينه وبين الانحرافات التي ظهرت في فارس ، والتي تولى كبرها من^٧ أسميناهم آنفا « مدعى التشيع »

(١) تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي ص ٢٢٠ .

(٢) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٣١٥ .

(٣) المقرئ : اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ١١٣ .

فهؤلاء المتحرفون لم يقتنعوا بما فعلوا في مناطق ايران ، بل خرج منهم هذا الداعية لينفث السم في مصر ، وليجعل من بَشَرِ إلهاً ، ولكن طبيعة مصر لم تقنع بهذا الانحراف الذي وجد له أرضاً خصبة في ايران ، فثار المصريون على هذا الداعية وقتلوه .

وظهر بعد ذلك داعية آخر اسمه حمزة بن أحمد وتلقب بالهادي ودعا الى مقالة الدرزي ، ولم ينجح مذهبه في مصر أيضاً ، فغبرها الى جبال لبنان حيث البداوة والبساطة التي مهدت له سبل النجاح ، فظهر مذهب الدرزية ببلاذ صيدا وبيروت وساحل الشام (١) وفي حوران وجبل لبنان الغربي والجبل الأعلى من أعمال حلب (٢) .

واذا كان المقرزي يجعل محمد بن اسماعيل سابقاً لخمزة بن أحمد ، فان بعض المراجع الأخرى تقول بالعكس ، وهناك مراجع تذكر أنهما متعاصران وأنهما اختلفا لأن الدرزي تعجل في الكشف عن المذهب الجديد بمصر قبل الوقت المناسب .

وهناك طبقة ثانية من دعاة الدروز يذكر المؤرخون منها بهاء الدين السموتى ، وأبا ابراهيم التميمي ، وأبا عبد الله بن وهب .

وتتجه العقيدة الدرزية الى أن الله تجسّد في صورة الحاكم ، وفكرة تجسّد الله في صورة انسان فكرة وُجدت قبل ذلك بأمدٍ طويل منحدره من الفكر الهندي ، أو من التعاليم المسيحية ، ووُجدت لدى الباطنية والقرامطة والاسماعيلية مجالا بصورة أو بأخرى وقد انتهز الدرزي فرصة الاضطراب في عهد الحاكم الذي أشرنا اليه من قبل وفرصة تأييده ومعارضته ، فراح يتظاهر بتأييده تظاهراً قريب الشبه بما ادعاه

(١) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٢) محمد فريد وجدي : دائرة معارف القرن العشرين ج٤ ص ٢٦ .

« مدعو التشيع » مع علي بن أبي طالب كرم الله وجهه اذ عدوه لها أو صورة للاله (١) .

وقد وقف على كرم الله وجهه موقفا حاسما من هؤلاء الكفرة ، أما عن الموقف من الدرزي فقد اتضح لنا أن المصريين ثاروا عليه وأنه لم يجد في مصر تربة مناسبة لأفكاره فرحل من لم يقتل الى بعض مناطق الشام كما ذكرنا ، أما موقف الحاكم نفسه من الدرزي وفكره فلم توضحه المراجع توضيحا كافيا ، ويبدو أن الحاكم لم يؤيد هذا القول بدليل أنه لم يجد له تابعين في القصر ، وربما جاز لنا أن نظن أن الحاكم لم يعارضه معارضة صريحة لحاجته إلى الأعوان آنذاك .

الخلافة الفاطمية تتبرا من الانحراف :

وعقب نهاية الحاكم اتجهت الخلافة الفاطمية الى سحق بقايا هذا المذهب وطهرت مصر من دعائه ، وأعلن الظاهر بن الحكام تبرئته وتبرئة ذويه من هذا الانحراف ، وأعلن « أنه هو وأسلافه الماضين وأخلافه الباقين مخلوقون لله العلي العظيم ، ولا يملكون لأنفسهم موتا ولا حياة ، وأن من خرج منهم على حد العبودية فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » (٢) .

لماذا لبنان ؟

والذي ساعد على أن يجد هذا المذهب له أتباعا في جبال لبنان ، أنه كان يعيش في هذه المناطق رجال كانت الآراء الشيعية المتطرفة قد غزتهم من قبل ، وقد مهدت هذه الآراء الشيعية الطريق للدرزية لتتجح في هذه الجبال .

(١) انظر الجزء الثاني من موسوعة التاريخ الاسلامي للمؤلف عند الحديث عن « مدعى التشيع » .

(٢) يحيى الأنطاكي : ص ٢٣٦

ويعيش الدروز حياة شبه قبلية في سوريا ولبنان ومن أشهرهم بنو الأطرش وآل جنبلاط ، وبنو أرسلان •

التشابه بين العقيدة الدرزية والمسيحية :

وعقيدة الدروز في أصلها ترى أن الحاكم بأمر الله لاهوتا وناسوتا (كالمسيح) وهو وان كان بشرا في الظاهر فهو في الحقيقة الاله المعبود وقد اتخذ لنفسه صورة انسية كما ذكرنا •

وعندما اغتيل الحاكم أشاع قادة الدروز أنه تحول الى « غيبة » مؤقتة تعقبها « رجعة » ف « طفرة » وذلك هو نفس التخطيط الشيعي الذي قال به مدعو التشيع في عدة مناسبات ، ومع عدة أشخاص •

ويقول الاستاذ محمد فريد وجدى : (١) ان معتقدات الدروز ظلت في طي الكتمان حتى استولى ابراهيم باشا على معايدهم عندما فتح الشام فوجد في كتبهم كنه مذهبهم تفصيلا ، وكلمة الشهادة عندهم توحى بهذا المذهب المنحرف لأنها تتضمن الإيمان بأن الحاكم إله جاء في صورة بشر •

بعض التشريعات الدرزية :

ومما وجد في وثائقهم فيما يتعلق بالشريعة عدم الموافقة على تعدد الزوجات ، وعلى اباحة الطلاق بكثير من اليسر ، ولا شرعة المطلقة لمن طلقها ولو تزوجت شخصا آخر ، وهم يحرصون على حجاب المرأة حجابا كاملا ، ولا يتبع الدروز نظام المواريث في الاسلام (٢) •

وقد أسقط الدروز عنهم بعض العقائد الاسلامية كالصلاة والصوم والحج ، والتزموا بخصال بديلة تسمى الخصال التوحيدية أهمها صدق اللسان ، وحفظ الاخوان ، والبراءة من الطغيان ، والتوحيد لله والخضوع

(١) دائرة معارف القرن العشرين (مادة درزية) •

(٢) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٣١٨ — ٣١٩ •

التمام للإرادة الالهية ، وقد أصبحت هذه القاعدة الاخيرة المشتعلة على عقيدة القضاء والقدر عاملا فعالا في التعليم الدرزي .

وللدروز كتب مقدسة تتكلم بالبدائية ، وتردد هذه الشعارات ، وهم يرون أن الحاكم تجلّى لهم وقرر لهم هذه التعاليم .

أجاويد وأتباع :

وينقسم المجتمع الدرزي من حيث العقيدة قسمين ، قسم الأجاويد وهم الذين يعرفون أسرار الدعوة ، وقسم الأتباع وهم الذين يتبعونها دون معرفة الأسرار ، ومن الممكن أن يتطور التابع ويتعلم ليصبح من الأجاويد .

الأمير شكيب أرسلان :

وهناك عالم شهير من علماء العصر الحديث ينسب للدروز وهو شكيب أرسلان مؤلف كتاب « حاضر العالم الاسلامي » وهذا العالم لم تستوعبه الأفكار الضالة التي تنسب للدزية بل هو معتدل كل الاعتدال في فكره ، وهو يصفهم وصفا يوحى بالاعتدال فيهم ، يقول في ذلك : الدروز فرقة من الفرق الاسلامية أصلهم من الشيعة الاسماعيلية الفاطمية ، وإذا قيل أن الدروز من الفرق الباطنية التي لا يحكم لها بالاسلام ، فالجواب أن الدروز يعلنون أنهم مسلمون ، وأنهم يقيمون جميع شعائر الاسلام ، ويعلنون أن من خرج على ذلك فهو ليس بمسلم .

والاتجاه المعتدل للدروز يرى أن الحاكم ليس بمعبود ، وإنما هو ولي الله وخليفته ، وأنه أمير المؤمنين ، ولدى الدروز طبقة تعرف بالمنزهين ، وهم أهل ورع وزهد ، وبعضهم لا يتزوج ، ومنهم من يصوم الدهر كله ، ومنهم من لا يذوق اللحم ولا يشرب الخمر .

والمعتقد أن الفكر الذي عبّر عنه شكيب أرسلان يمثل جمهورا كبيرا

بين الدرزية الآن ، فالفكر الاسلامى الصحيح عرف طريقه لهذه المناطق
فى فترات متعددة على مرّ التاريخ واستطاع أن يعيد إلى الرشد كثيرا
من الدروز .

الظاهر (٤١١ — ٤٢٧ = ١٠٢١ — ١٠٣٦) :

تولى الظاهر بعد أبيه وكان فى السادسة عشرة من العمر ، فقامت
عمته ست الملك بإدارة شئون الخلافة ، ولما ماتت أمسك
الظاهر بمقاليد الأمور بمساعدة الوزراء الذين بدأ نفوذهم فى الظهور ،
وقد عاد الظاهر إلى السياسة التقليدية التى تمرّد عليها أبوه ، فتساهل
مع أهل الذمة وأطلق للمرأة العنان ، وعثى بأموال الزراعة (١) ، ولكن مجاعة
اجتاحت البلاد بسبب انخفاض ماء النيل فعزّلت الاتجاه الإصلاحى فى
الزراعة ، وفى عهد الظاهر قامت فتن فى الشام ضد الحكم الفاطمى ولكنها
أخمدت ، بل أضاف ولاية الفاطميين بالشام مزيدا من المناطق إلى سلطان
الظاهر .

وتوفى الظاهر سنة ٤٢٧ .

المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ = ١٠٣٥ — ١٠٩٤) :

كان المستنصر فى السابعة من عمره عندما مات أبوه الظاهر ، وكان
الجرجرائى الوزير صاحب النفوذ عند موت هذا الخليفة ، فأعان البيعة
للمستنصر ، وقد ظل المستنصر فى الحكم ستين سنة ، وهى مدة لم يعمرها
فى الحكم خليفة مسلم ، ثم هى مدة حافلة بالحركات والاضطرابات
والتغييرات ، وفى أثناءها نقلت السلطة الفاطمية نهائيا من أيدي الخلفاء
إلى أيدي الوزراء ، وجاء ما يعرف فى التاريخ الفاطمى بعهد نفوذ الوزراء .

ويمكن القول ان المستنصر لم تتطّل حياته مع الترف خلال هذا الحكم

(١) تاريخ يحيى بن سعيد ص ٢٢٥ .

المديد ، ففى عهد طفولته استبد به الوزراء ، ولما نما قابته اضطرابات الجيش بسبب قاداته وفرقه المعتددة الأجناس والمشارب ، وفى العهد المعروف بعهد الشدة المستنصرية أخذ المستنصر نصيبه كاملا كآى فرد من الشعب فى المجاعة والحاجة ، وعندما زالت هذه الشدة وعاد شعاع الرخاء كان السلطان قد تحول الى الوزراء نهائيا ، وعاش المستنصر بقية عمره قائما بما يمنحه له الوزراء .

الجيش الفاطمى وعناصره :

كان الجيش الفاطمى مبعث قلق وفوضى خلال عهد المستنصر ، ومن ثمَّ يجمل بنا أن نتحدث عن عناصر هذا الجيش وعن حركاته المدمرة :

كان البربر هم عماد الجيش الفاطمى الأول ، قلى أكتافهم قمام سلطان الفاطميين بالشمال الافريقى ، وبسيوفهم فتحت مصر ، فكوّنوا بذلك العنصر الرئيسى للجيش الفاطمى الأول .

ولما جاء العزيز استعان بالأتراك كما سبق القول ، وسرعان ما أصبح هؤلاء عنصرا مهما من عناصر الجيش الفاطمى .

وكان بنو حمدان على رأس قوة عربية ضاربة يكوّنون عنصرا ثالثا فى هذا الجيش .

وجاء عنصر جديد للجيش إبان عهد المستنصر ؛ فقد كانت أمه سودانية ، فأكثر من جلب السودان ومنحتهم الساطة والتفوذ فأصبحوا قوة رابعة يحسب حسابها .

وبين هذه العناصر ووجد فريق عسكرى مصرى الجنسية بدأ يأخذ مكانه بين تلك العناصر .

وكان الوزراء فى العهد الأول يقلّون من سلطة قادة هذه الفياق ، فقد كان للوزراء الكلمة الأولى ، ولكن السلطة المدنية انهارت بعد الوزير الحسن البيازورى (٤٤٢) فوضح الخلاف بين عناصر الجيش ، وقامت

المعارك الحربية بين هؤلاء وأولئك ، ومن أهم المعارك التى حدثت فى هذا المضمار معركة كوم الريش سنة ٤٥٤ بين الأتراك والبربر والغرب فى جانب بقيادة ناصر الدولة الحمدانى وبين السودان فى جانب آخر ، وهزم السودان فى المعركة ولكن هزيمتهم لم تكن حاسمة ، فقد انسحبوا الى الصعيد ، واكتفى المنتصرون بذلك فلم يلحقوا بهم لإبادتهم . وترك الصعيد تحت رحمة السودان يعيثون به وينشرون الفوضى . أما المنتصرون فقد عادوا يعيشون بالقصور ويغيرون الوزراء ، على أن الحلف بين ناصر الدولة والأتراك لم يطل عهده ، فقد ثار الأتراك عليه لاستهانتهم بهم ، وطلب الأتراك من الخليفة عزله ففعل ، ولكن ناصرا رفض الرضوخ لقرار الخليفة ووقعت معارك حربية بين الخليفة والترك من جانب وناصر الدولة وأتباعه من العرب والبربر من جانب ، وقد هزم ناصر الدولة أولا ولكنه عاد وانتصر ، بيد أن الأيدى الخفية استطاعت أن تقتك به وبأهله فى الظلام ، وكان من نتائج هذه المعارك وتاك الفوضى المترتبة عليها أن توقفت الزراعة وأصبحت السرقة وقطع الطريق من معالم العصر ، ولم ينقذ البلاد الا بدر الجمالى الذى استدعاه الخليفة وأسلمه زمام الأمر .

ويمتاز عهد المستنصر ببعض المتناقضات والمفارقات : تسامح دينى وتعصب ، رخاء وجمع ، توسع وانكماش ، ويجدر بنا أن نوضح هذه المفارقات ، ففى توضيحها اظهر لمعالم هذا العصر .

التسامح الدينى والتعصب :

فى مطلع عهد المستنصر كانت العلاقات طيبة مع المسيحيين فى الداخل ومع بيزنطة المسيحية ، فترك للمسيحيين حرية العبادة ، وواصل المستنصر سياسة أبيه فى رفع القيود عن المسيحيين وحسن معاملاتهم ، أما مع بيزنطة فقد كانت هناك معاهدة سلم ، كانت بيزنطة بمقتضاها تورد القمح لاصر إبان أزمتهما .

غير أن بيزنطة توقفت عن تنفيذ هذه المعاهدة ، ومالت الى مصادقة

العباسيين الأقوياء وإهمال الفاطميين الذين لم تعد بيزنطة في حاجة لانتقاء شرهم لضعفهم ، وكان من نتيجة ذلك أن وقف المستنصر موقف عداء من بيزنطة ومن المسيحيين بالداخل لاتهمهم بالإيعاز لحكام القسطنطينية باتباع هذه السياسة الجديدة . ففرضت عليهم الضرائب ، وأقفلت بعض الكنائس وألقى القبض على بعض القسّس .

الرخاء والجوع :

نعم الخليفة والشعب برخاء واسع في مطلع عهد المستنصر ، وقد وصف ناصرو خسرو هذا الرخاء وصفا مفصلا ، وكان قد زار مصر سنة ٤٣٩ فرأى حوائيت الصاغة مكتظة بما فيها من جواهر ثمينة ، ورأى محلات تغيير العملة وبها كميات كبيرة من العملات المتعددة ، وهذه المحلات وتلك كثيرا ما كانت تتترك مفتوحة ويدعها أصحابها ويذهبون للصلاة أو الأمر من الأمور فقد كان الأمن منتشرا ، والرخاء شاملا ، فلم يكن بالناس حاجة إلى السرقة أو الخطف .

ويتحدث ناصرو خسرو عن ثراء الخليفة فيروي أنه بالإضافة إلى القصور والدور والأرض كان يملك صندوقا به عشرة أرتال من أندر الجواهر ، ٢٥٠ رطلا من الأحجار الكريمة ، وثلاثين ألف قطعة من البللور الفاخر ، وآلاف الأثواب الحريرية الغالية وسيوف من الذهب ، وسيف الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وسيف الحسين بن علي ، وسيف جعفر الصادق ، ومسبحة من الأحجار الكريمة قيمتها ثمانون ألف دينار ، وسروجا لا تحصى وأسلحة ورمحا وأكوابا وصحافا كلها من الذهب الخالص أو مطعمة بأندر الجواهر ، وكانت له حصيرة من الذهب زنتها ثمانية عشر رطلا ، وفي خزانته ثلاثون مليون دينار من الذهب (١)

(١) اقرأ خطط المقرئى ج١ ص ٤١٤ وكنوز الفاطميين للدكتور زكى

ويقول ابن اليسر ان قوائم هذه الممتلكات شغلت كتابا كبيرا رآه بنفسه (١) ، ومما زاد في ثراء المستنصر أنه ورث عمته الأميرتين ابنتي المعز ، وكانت ثروتهما تقدر بحوالى خمسة ملايين من الدينار .

وضاع هذا الثراء كله من الخليفة ومن الشعب بسبب اضطراب الجند وتوقف الزراعة وماتلا ذلك من نهب وسلب وتدمير ، وقد أرغم الجنود الخليفة أن يبيع ممتلكاته ليدفع لهم أجورهم ، فكان يبيعها لهم حسبما يقدرون ، ونذر الخبز وانتشرت المجاعات ، فأصبح رغيف الخبز يباع بخمسة عشر دينارا ، وشارك الخليفة شعبه في الجوع ، فالتصر خلا من أثنائه اللهم الا من حصيرة قديمة ، أما طعامه فكان رغيفين كل يوم ، تبعث له بهما بنت أحد العلماء ، أما أسرة الخليفة وأمه فقد هاجرتا من مصر لانتقاء الجوع وعصيان الجند ، وفي وسط هذه الأزمات أكل الناس الكلاب والقطط ، ودمر الجند المكتبة التليدة ، واستعملوا جلودها أحذية لهم (٢) .

التوسع والانكماش :

امتد سلطان المستنصر الى اليمن وحضر موت وقوى سلطانه في الحجاز بالاضافة الى مصر وسوريا والشمال الافريقى ، ووصل امتداد سلطانه الى غايته عندما تغلب البساسيرى على بغداد وخطب للخليفة المستنصر (٣) .

ولكن هذا التوسع بدأ يتوقف ويحل محله انكماش وانحسار ، فالمعز بن باديس أعلن استقلاله بالشمال الافريقى ، بل أعلن تبعية بلاده للمذهب السنى ، والبساسيرى آلت حركته للفشل وعادت بغداد لخلفاء

(١) تاريخ مصر ص ١٤ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج٢ ص ١٠٣ .

(٣) انظر الجزء الرابع من موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية للمؤلف .

العباسيين ، وحركات آل مدراس بدأت تحكم سوريا حكما استقلاليا لا يربطه بالمستنصر الا خيط ضئيل ، ونشط السلاجقة فاقطعوا الحجاز من الفاطميين ، وضاعت صقلية واستولى عليها النورمانديون سنة ٤٦٣ وحتى في مصر حاول الحمدانيون إيمان إنتصاراتهم أن يخطبوا لخلفاء العباسيين ، ولكن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح .

وفي وسط هذا الاضطراب قرر المستنصر أن يستدعي بدرأ الجمالي حاكم عكا الأرمني وأن يسلمه زمام الأمر لعل في يده يكون الدواء ، فكتب اليه بذلك سرا ، واشترط بدر أن يحضر بجنوده فوافق الخليفة ، وجاء بدر الى مصر سنة ٤٦٥ في ثوب زائر ، وسرعان ما تسلم السلطة بنجاح ، وانتقل بذلك السلطان من أيدي الخلفاء الفاطميين الى أيدي الوزراء ، وسنخص هذا العهد بدراسة خاصة فيما بعد .

باقى خلفاء الفاطميين

إبان العهد الفاطمي الثاني ، أو عهد نفوذ الوزراء ، تولى الخلافة ستة من الفاطميين ، نكتفى هنا بأن نورد أسماءهم ، أما حديثنا فيتجه الى الوزراء الذين أصبحوا في الغالب رؤساء الدولة ، وفي يدهم كل السلطان ، واتجهت لهم كل الأضواء ، حتى أنهم كانوا يعزلون خليفة ويعينون آخر ، فهم بذلك أجدر بأن تكون أسماءهم عناوين البحث مكان أسماء الخلفاء التي انزلت الى الظل في أكثر الأحوال .

ونحن نميل الى هذا الاتجاه مخالفين الاتجاه العام للمؤرخين الذين ظلوا يديرون الحديث تحت عنوان الخلفاء ، وما كان الخلفاء آنذاك رؤساء للدولة بالمعنى الحقيقي ولا مدبرين لأمرها ، وبخاصة أن أكثرهم تولوا الخلافة وهم دون سن الرشد ، فالأمر كان في الخامسة والظافر في السابعة عشرة ، الفائز في الخامسة والعاضد في التاسعة .

وخلفاء هذا العهد هم — مع أرقامهم — في سلسلة خلفاء الفاطميين
بعد المهدي والقائم والمنصور والمعز والعزیز والحاكم والظاهر والمستنصر :

٩ — المستعلى بن المستنصر (٤٨٧ — ٤٩٥ = ١٠٩٤ — ١١٠١) ووزر
له : الأفضل بن بدر الجمالي (كان وزير المستنصر بعيد
موت بدر واستمر في الوزارة بعد موت المستنصر) .

١٠ — الأمر بن المستعلى (٤٩٥ — ٥٢٤ = ١١٠١ — ١١٣٠) ووزر له
الأفضل (بقي بعد موت المستعلى حتى سنة ٥١٥ فاعتقل)
ثم وُزِّرَ له المأمون البطائحي من ٥١٥ إلى ٥١٩ (صلب)
١١ — الحافظ بن محمد بن المستنصر (٥٢٤ — ٥٤٤ — ١١٣٠ — ١١٤٩)
وحالة الوزارة في عهده كانت كالآتي :

بدون وزراء من سنة ٥٢٤ — ٥٢٥ .
• أبو علي أحمد بن الأفضل من ٥٢٥ إلى ٥٢٦ (اغتيل)
• يانيس (مملوك أرمني) ٥٢٦ (سُمِّ في نفس العام)
الحسن بن الحافظ من ٥٢٦ إلى ٥٢٨ .
سليمان بن الحافظ ٥٢٨ (مات بعد شهرين)
أبو المظفر بهرام من ٥٢٩ إلى ٥٣١ (مسيحي أرمني انتخبه
الجنود)
• رضوان بن الولخشى ٥٣١ (فر في نفس العام)
• بدون وزراء من ٥٣١ إلى ٥٤٤ .

١٢ — الظاهر بن الحافظ (٥٤٤ — ٥٤٩ = ١١٤٩ — ١١٥٤) ووزر له :
سليمان بن محمد بن مصال ٥٤٤ — ٥٤٨ تنافس
على بن السلا ٥٤٤ — ٥٤٨ وعدم استقرار
العباس بن أبي الفتوح ٥٤٨ — ٥٤٩

١٣ — الفائز بن الظافر (٥٤٩ — ٥٥٥ = ١١٥٤ — ١١٦٠) ووزر له :
طلائع بن رزيك (طيلة عهد الفائز)

١٤ — العاضد بن يوسف بن الحافظ (٥٥٥ — ٥٦٧ = ١١٦٠ — ١١٧١)
وزر له : رزيك بن طلائع ٥٥٥ — ٥٥٨
شاور بن مجير بن نزار ٥٥٨

ضرغام بن عامر اللخمي ٥٥٨ (قتل سنة ٥٥٩)

شاور (مرة أخرى بعد قتل ضرغام) (٥٥٩ — ٥٦٤)

شيركوه ثم صلاح الدين ابتداء من سنة ٥٦٤ (١)

وقبل أن نتحدث عن وزراء هذا العهد نذكر الملاحظات الآتية :

١ — خلال هذا العهد قام بعض الخلفاء بمحاولات لاستعادة السلطة ،
وتبدو هذه المحاولات مما نلاحظه في القوائم السابقة حيث خلت بعض
العهود من الوزراء أو جعل الخلفاء وزراءهم من بينهم ، وقد دبر الأمر
مؤامرة قتل فيها الأفضل ، ولكن هذه المحاولات كانت تنتهي بالفشل
وتعود السلطة للوزراء مرة أخرى .

٢ — بعض وزراء هذا العهد — حتى قبل شيركوه وصلاح الدين —
عارضوا الفكر الشيعي وأظهروا ميلهم للمذهب السني ، ومع هذا أبقوا
على الخلفاء الفاطميين ليظل السلطان في أيدي هؤلاء الوزراء ، فقد خافوا
أن يكون التحاقهم بخلفاء بغداد معناه نهاية سلطانهم ، ومن هؤلاء الأفضل
ابن بدر الجمالي وأحمد بن الأفضل ، وقررت على هذا توقف تسلسل
الخلفاء فانه بناء على الفكر الشيعي تكون ولاية العهد لابن الخليفة الأكبر ،
فلما توقف الفكر الشيعي أهملت هذه الفكرة ، وحال الأفضل دون تولية
نزار أكبر أبناء المستنصر وولى بدله المستنصر .

(١) هذه القوائم من معجم الانساب والاسرات الحاكمة لزامباو ج١
ص ١٤٨ - ١٥٠ .

٣ — قلنا ان هذا العصر هو عصر نفوذ الوزراء ، ولكن مع هذا كان هناك وزراء لم يلعبوا دورا ذا بال في الحياة العامة ، فجرفهم التيار ليخلوا الطريق الى سواهم .

٤ — في هذا العصر بدأت الحروب الصليبية التي كانت سببا في تناط وزراء وقيام آخرين ، بل في إسقاط أسر حاكمة وقيام أخرى محلها ، ولن نتحدث عن هذه الحروب هنا بل سنتحدث عنها حديثا مستقلا عقب الانتهاء من الحديث عن تاريخ مصر وسوريا .

عصر نفوذ الوزراء

بدر الجمالي :

بدأ عصر نفوذ الوزراء بسلطة بدر الجمالي ، وقد حضر في ثوب زائر كما قلنا آنفا ، ومعه جنده ، وكان حضوره عن طريق البحر ، وخدع الأتراك وقادة جيش المستنصر فاستأذنهم في زيارة الساحل ، فاذنوا له وأحسنوا استقباله ، وبعد قليل أقام حفلا كبيرا لهؤلاء القادة وعيّن لكل منهم رجلا من رجاله ليأتي له برأس هذا القائد ، ونجحت المؤامرة ، ووقف رجال بدر في اليوم التالي أمامه وكل منهم يحمل رأس القائد الذي كلف بقتله ، وأعلن بدر حينئذ عن مهمته التي جاء من أجلها وتسلم قيادة الجيش كما تسلم إدارة البلاد ، ولذلك سمي رب السيف والقلم ، وسرعان ما قضى على عناصر أخرى من المشاغبيين والمنافسين ، فلما دانت له العاصمة والوجه البحري صعد إلى مصر العليا ففرض على نفوذ السودانيين ، وعادت البلاد إلى السكون والسلام ، واستطاع أن يستعيد كثيرا من أمتعة الخلفاء التي كان الجند نهبوها أو أخذوها نظير مرتباتهم ، ويقال أن قارئ قرآن تلا في حضرة الخليفة المستنصر قوله تعالى « ولقد نصركم الله ببدر » ولم يكمل الآية فأحسن له الخليفة والوزير (١) .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٢٢

وبدأت الحياة من جديد تسير في طريقها الطبيعي ، فعاد الزراع الى أرضهم وبأشتر التجار تجارتهم ، وأعفاهم بدر من الضرائب ريثما يستعيدون نشاطهم ويجددون ثراءهم ، فلما أعيد فرض الضرائب بعد ذلك كان الدخل أوسع مما كان عليه قبل الشدة .

ولم يستطع بدر أن يستعيد بلاد الشام لانشغاله بالأمر الداخلية ولظهور قوة السلاجقة التي امتدت الى هذه المناطق .

ومن أعمال بدر الجمالي ذلك السور الفخم الذي أحاط به القاهرة ، وتجديد أبواب زويلة والفتوح والتحصين ، وبناء جامع الجيوشي على ظهر المقطم ، وقد نسب له هذا الجامع إذ كان يدعى أمير الجيوش .

ومات بدر الجمالي سنة ٤٨٧ ومات بعده في نفس العام الخليفة المستنصر .

الأفضل بن بدر الجمالي :

عين بدر الجمالي ابنه الأفضل وليا للعهد ، وهي ظاهرة هامة في هذا العصر أن تكون تولية الوزارة بعهد من الوزير السابق ، وهذا يدل على مدى ما وصل له هؤلاء الوزراء من نفوذ ، ولم يكتف الأفضل بأن يزاوئ نفوذ أبيه وسلطاته الواسعة مع الابقاء على الدواوين كما كانت في عهد أبيه ومع ترك بعض المظاهر للخليفة ، بل خطا خطوة جديدة ، فنقل دواوين الحكومة الى داره ، واستبد باقامة الولايم في الأعياد ، واتخذ مجالس للعطاء (١) .

ومات المستنصر — كما قلنا — والأفضل وزير الدولة فحرص الأفضل على أن تكتمل السلطة له ، ولذلك لم يضع في كرسى الخلافة « نزارا » الابن الأكبر للخليفة السابق بل تجاوزه ارشده وعين المستنصر ، وكان

(١) دكتور حسن ابراهيم : الفاطميون في مصر ص ٢٣٠ .

ضعيفا في العشرين من عمره ، وثار نزار لهذا التصرف وساعده فريق من الإسماعيلية هم « الباطنية » ولكن كان النصر للأفضل ودفن نزار رأسه ثمن هذه الثورة •

وفي عهد الأفضل مات المستعلى سنة ٤٩٥ فولى مكانه ابنه الأمر وعمره خمس سنوات ، فكان الأمر كله للأفضل ، ولما شب الأمر وجد نفسه مسلوب السلطة ، فحاول أن يستعيد بعض الساطن ولكنه صادف تحديا سافرا من الأفضل ، وذهب الأفضل في تحدييه الى حد التخلي عن مذهب الشيعة وإبطال الاحتفالات بالأعياد الشيعية بما فيها عيد ميلاد الخليفة وإغلاق دار العلم ، وكانت وسيلة الأمر الوحيدة لاستعادة السلطان هي أن يدبر مؤامرة للتخلص من الأفضل ، وتم له ذلك بمساعدة المأمون بن البطائحي وبعض الباطنية سنة ٥١٥ ، وتظاهر الأمر بالسخط على اغتيال وزيره وقتل قاتليه من الباطنية (١) •

ومن منشآت الأمر جامع الأتوم ، ومسجد آخر داخل كاتدرائية سانت كاترين بمسينا •

ويقول ابن خلكان ان الأفضل خلف من الأموال والجواهر والخيول والرقيق مالم يسمع بمثله ، ويعدد ابن خلكان بعضها وهي تدل على عودة الثراء للقصور بعد ما أصاب مصر من أزمات اقتصادية في عهد المستنصر (٢) •

المأمون بن البطائحي :

أخذ المأمون بن البطائحي مكان الأفضل بعد مصرعه ، وفي عهده استعاد الأمر شيئا من نفوذه ، ولكن البطائحي لم يهنأ طويلا بالسلطان ، فقد عاش بين أطماع الخليفة من جهة وظهور أحمد بن الأفضل من جهة أخرى ، وقد استطاع أحمد أن يثار لأبيه فقتل المأمون بموافقة الأمر ،

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٢٢ •

(٢) وفيات الاعيان : ج ١ ص ٢٢٢ •

ولكن الأمر حرص على أن يظل السلطان في يده ، فلم يمنح الوزارة لأحمد ، بيد أن هذا أصبح له نقوذ وأضح في الحياة العامة ، حتى نال الوزارة بعد الأمر •

أحمد بن الأفضل :

استطاع أحمد أن يستعيد السلطان لبيت بدر الجمالي عقب وفاة « الأمر » ، وكان الخليفة في عهده هو « الحافظ » ، ويبدو أن أحمد كان يدرك أن المؤامرة التي سقط فيها أبوه دبرت بمعرفة القصر الفاطمي ، ولذلك اشتد أحمد في الاستهانة بالخلفاء ، وحرّمهم السلطة نهائيا ، ومنع الناس من زيارة الخليفة إلا بإذن منه ، واستولى على ما في القصور من تحف ، ومنع ذكر اسم الخليفة في الخطبة ووضع اسمه بدل اسم الخليفة ، وقلل من الاهتمام بالمذهب الشيعي وجعل بعض القضاة من رجال السنة •

ومرة أخرى دبر الحافظ مؤامرة للتخلص من أحمد بن الأفضل وتم له ذلك ، ولكن السلطان لم يجد طريقة للخليفة بل رسا على الوزير الأرمني بهرام •

أبو المظفر بهرام الأرمني :

انتخبه الجند بعد أحمد ، ولذلك سرعان ما أكثر من عدد الجنود الأرمن ، وفي عهده عبث هؤلاء بالأمور واعتدوا على الأهالي وأموال الناس ، وكان الوزير مسيحيا فجار على المسلمين ، فاستتجد المسلمون بوالى الغربية رضوان بن الولختي ، فاستجاب لهم هذا ، وحدث صراع بين الاثنين وهزم بهرام في هذا الصراع وآل السلطان لرضوان ، وهرب بهرام إلى أسوان •

رضوان بن الولختي :

لقب رضوان نفسه بلقب الملك ، وهو أول وزير يحمل هذا اللقب في

المعهد الفاطمي (١) ، ومن أهم أعماله القضاء على سلطان الأرمن ومصادرة أموالهم ، وتجريد الخليفة من السلطة ، وثار عليه الخليفة لذلك ، واستعان الخليفة ببهرام ، فهزم رضوان وقتل : وظل بهزام في القصر مستشارا للخليفة دون أن يُعيده للوزارة .

ابن السلار وابن مصال :

اثنان يتنافسان على الوزارة مع مطلع عهد الظاهر بن الحافظ ، واتخذ هذا التنافس دورا جديدا ، فقد بدأت الاستعانة بالسلطات الأجنبية ، وكانت تتمثل آنذاك في سلطة نور الدين صاحب حلب ودمشق ، وفي الصليبيين بإمارات الشام ، وكانت الاستعانة بالأجانب في هذا الدور مقصورة على الاستعانة بنور الدين ، ولكن الصليبيين حرصوا على ألا يتيحوا لنور الدين أن يسيطر على مصر ، ففي ذلك ، تطويق لهم وهزيمة لاماراتهم ، ومن ثم دخل الصليبيون حلبة السباق لتكون لهم مصر كما سنشرح هذا عند الكلام عن الحروب الصليبية .

وفي النزاع المسلح بين ابن السلار وابن مصال أخذ الخليفة جانب الأخير حتى قتل ابن السلار ، ولكن ابن مصال قتل بعده بقليل ، ثم قتل الخليفة بيد نصر بن عباس وراح عباس هذا يقتل ابني الخليفة وأقاربه (٢) . فثار لذلك أهل القاهرة فهرب عباس وابنه نصر ، وقتل عباس وقبض على ابنه الذي مثل به وصلب .

طلّاح بن رزيك وابنه :

طلّاح بن رزيك أصله من الشيعة الإمامية بالعراق ، وقد وفد لمصر وتقرّب للفاطميين ، فولاه الخليفة الفاطمي منية بني خصيب بالصعيد ،

(١) المقريزي : الخطط ج١ ص ٤٤٠ وأبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر

ج٣ ص ٤٦٨ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص ٧٨ .

فلما زادت الفوضى عقب مقتل الخليفة الظافر استتجد نساء القصر بطلائع بن رزيك ، فحضر طلائع وتسلم الوزارة وتلقب بالملك الصالح ، وعين الفائز ابن الظافر خليفة ، وكان في الخامسة من عمره واستبد بالأمر وقضى على الفوضى ، وأعاد الأمن إلى نصابه ، وتوفي الفائز بعد ست سنين فعيّن طلائع العاضد خليفة سنة ٥٥٥ ، وتزوج العاضد بنت طلائع ، ثم نجح العاضد في تدبير مؤامرة قتل فيها طلائع ليتخلص من تسلطه ولكن العادل بن طلائع تسلم مكانة أبيه ، فثار عليه شاور أمير الصعيد وقتله بعد سنتين من وزارته وتولى مكانه (١) .

شاور وضرغام ونهاية الخلافة الفاطمية :

يمثل شاور وضرغام آخر حلقة في فوضى الوزارة الفاطمية ، وشاور كان ذا نفوذ في الصعيد ، فخلفه العادل بن طلائع فعزله ، ولكنه جمع جموعه وهاجم القاهرة ، واحتل قصر العادل وقتله ، وجعل نفسه وزيرا مكانه ، وطفى وهو وأولاده ، أما ضرغام فمن المغاربة ، وقد رأى كبرياء شاور وطفيان أولاده ، فثار عليه ونخلعه وأرغمه على الهرب ، ولكن شاور ذهب يستجد بنور الدين ، ويحثه على فتح مصر ، فاستجد ضرغام بالصليبيين ، واستجاب نور الدين والصليبيون ، وأصبحت مصر هدف عدوان من الخارج ، وبلغت حملات نور الدين ثلاثا ، وكانت بقيادة شركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين ، وفي الحملة الأولى قتل ضرغام ، وفي الثالثة قتل شاور كما سنشرح ذلك عند الكلام عن الأسرة الأيوبية ، وتقلد أسد الدين شركوه وزارة العاضد ، ولكنه مات سريعا فتولى صلاح الدين هذه الوزارة ، وقضى على ثورات الجند السودانيين وقتل زعماءهم ، وأعاد البلاد إلى الأمن والهدوء ، ثم قطع اسم الخليفة من الخطبة ودعا للخليفة العباسي « المستضيء » ، وكان العاضد مريضا ، فسرعان ما مات ، واستقل صلاح الدين بمصر باسم نور الدين زنكي

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص ٢٢٠ و ٢٣٩ .

أسباب سقوط الخلافة الفاطمية

١ - الحروب الصليبية :

تعتبر الحروب الصليبية العامل الأساسي لسقوط الدولة الفاطمية ، فقد اتجهت كل القوى لتخليص البلاد الإسلامية من طغيان الصليبيين ، وأصبح انتقال السلطة من أسرة مسلمة الى أسرة مسلمة أخرى أمراً هيناً مادام في ذلك النجاة من الفرنجة ، وما يدل على ذلك أن بعض الحكام أسلموا بلادهم للسلطان نور الدين طواعية ليحميها من غزو الصليبيين ، ومن أجل موقع مصر و ثرائها اتجه الصليبيون اليها وعرفوا أن بقاءهم بإمارات الشام رهن بتسلطهم على مصر ، وبالتالي اتجه المصريون الى الترحيب بأية قوة إسلامية تدفع هذا الخطر ، وكان نبوغ الدين هو هذه القوة المأمولة فلم يقاوموا الانضمام اليه بل أيده

٢ - المغالة في التشيع :

ومن الأسباب كذلك مغالة الفاطميين في التعصب للتشيع التي عادت للظهور مما جعل المصريين يؤيدون أية حركة تعيدهم للفكر السني .

٣ - ضياع الشمال الأفريقي :

وقد اتجه الفاطميون في توسعهم الى الشرق وأهملوا الى حد ما الشمال الأفريقي حيث أتباعهم الأولون ، فكان ذلك من أسباب ضياع هذه المنطقة ، أو قل ضياع جناح مهم من جناحي القوة الفاطمية .

٤ - أزمات داخلية :

وكانت سلطة الوزراء ، وعناصر الجيش ، والأزمات الاقتصادية ، وتولية كثير من الخلفاء وهم أطفال ، من دواعي انحلال الدولة وسرعة زوالها .

سوريا والحكم الفاطمي

تحدثنا فيما سبق عن ضم سوريا لمصر في مطلع العهد الفاطمي ، ونريد هنا ونحن نؤرخ لمصر وسوريا أن نذكر الخطوط التاريخية لسوريا خلال الخلافة الفاطمية .

كان الفاطميون يعدون سوريا جسرا يصلهم لتحقيق أغراضهم في تكوين امبراطورية لهم في بلاد المشرق الاسلامي ، وكانت سوريا قبيلهم تابعة للاخشيديين ، فرأوا أن من حقهم وقد ورثوا الاخشيديين في مصر أن يرثوهم في الشام أيضا .

ومن عوامل الرغبة في فتح الشام كذلك أن الفاطميين اعتبروا سوريا خط الدفاع عن مصر ضد أي هجوم عباسي ، كذلك رأى الفاطميون أن سوريا هي المركز الذي يمكن منه القضاء على القرامطة الذين بدعوا بتمردهم على الفاطميين وكانوا من أعوانهم من قبل ، ومن علامات هذا التمرد مهادنة القرامطة للاخشيديين نظير ضريبة اتفقوا مع والي الاخشيدي على دفعها لهم (١) .

هذا من جهة الفاطميين ، ولكن عقبات كثيرة وقفت في وجههم ، واستلزمت منهم جهودا كبيرة لينالوا هذا الأمل ، بل أثارت سوريا عليهم كلاما بدا لهم أنهم سيطروا عليها ، وهذه العقبات هي الخلاف المذهبي ، وقوة القرامطة ، وقلة الحنكة السياسية في القائد الفاطمي جعفر بن قلاج الذي عهد له بالزحف إلى سوريا ، ثم بروز السلاجقة الذين كانوا في قمة قوتهم في حين كان العهد الفاطمي يستوفز بالانهيار ، وأخيرا ظهور الصليبيين في هذه المنطقة في آخريات هذا العهد .

(١) الدكتور حسن إبراهيم ، ودكتور طه شريف : المعز الدين الله ص ٦٢ .

وبين الشد والجذب من هنا وهناك ، وقفت سوريا * وفيما يلي أبرز الحركات التاريخية المرتبطة بسوريا خلال هذا العهد :

الفاطميون ونشاط القرامطة بسوريا :

عندما استقر جوهر بمصر أرسل القائد جعفر بن فلاح ليأخذ بسوريا من الولاة الاخشيديين ، وكان هؤلاء الولاة من أسرة الاخشيد ، فالحسن الاخشيدى كان واليا على الرملة ، وشمول الاخشيدى كان والى دمشق ، وفاتك الاخشيدى كان واليا على طبرية ، وقد تحقق النصر لجعفر ، بيد أنه لم يحسن معاملة الأهلى ، ولم يطمئنهم الى حرية الاعتقاد ، فهبوا ثائرين ضده واستجدوا بالقرامطة الذين ساء لهم أن تقطع عنهم الاتاوة التى كانوا يأخذونها من حاكم دمشق نظير عدم هجومهم عليها ، وقدّر هذه الجزية ٣٠٠٠٠ دينار ، وقامت معركة بين جعفر بن فلاح والحسن بن أحمد القرمطى انتصر فيها الأخير وقتل جعفر واستولى القرامطة على دمشق (١) .

ولم يكن القرامطة ينوون الاستمرار فى احتلال دمشق لبعدها عن مقرهم بالأحساء ، ولذلك أخلوها بعد أن نالوا ما استطاعوا حمله من المال ، ووقعت دمشق فريسة فى أيدي الرزم المسيحيين ثم فى أيدي أفنكين التركى اشرايى غلام معز الدولة بن بويه ، وكان من أكابر الحند فى بلاط بغداد ، واستطاع بمؤازرة بعض العناصر الناقمة فى دمشق أن يستولى على المدينة ، ودعا أفنكين للخليفة العباسى ، وتحالف مع القرامطة الذين تناسوا اتجاہهم العقائدى فى سبيل المال والثراء (٢) .

وظهر القرامطة مرة أخرى يهاجمون يافا وصيدا وعكا ، وكانوا هم وأفنكين مصدر قلق طوال عهد المعز ، فلما جاء العزيز حاول جوهر أن

(١) أبو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ج٢ ص ٣٤٨ - ٣٥٠ .

(٢) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٧٩ (انظر الهامش) .

يتغلب عليهما ولكنه لم يفلح لأن التحالف بينهما ومؤازرة سكان الشام لهما جعل هذا الجانب يرجح الجانب الفاطمي ؛ ومن أجل هذا سار العزيز بنفسه ونازلها سنة ٣٦٨ وحقق عليهما نصرا مؤزرا فقتل من جيشهما حوالي ٢٠٠٠٠ جندي وأسیر أفتكين وهرب الحسن القرمطي بعد الهزيمة ، ثم استولى الفاطميون على حلب من الحمدانيين ، وأصبحت سوريا بذلك ضمن ملك الفاطميين (١) .

مصر تقضى على القرامطة :

وفي الجزء السابع من هذه الموسوعة تفاصيل الحروب بين المصريين والقرامطة ، وتصوير الانتصارات الهائلة التي حققها المصريون ضد القرامطة والتي وضعت نهاية لدولة القرامطة ، فليرجع لذلك من يشاء (٢) .

انحسار ملك الصليبيين بسوريا :

وابتداء من عهد المستنصر بدأت الدولة الفاطمية تتقلص شيئا فشيئا ، وتعرضت أملاكها في سوريا الى زحف من المرداسيين والسلاجقة الذين بدأت دولتهم في النمو والتطلع الى الشام ، كما تعرضت الى زحف الصليبيين ، فاستولى المرداسيون على حلب سنة ٥٤١٤ (١٠٢٣) ، واستولى السلاجقة على بقاع شتى من سوريا ابتداء من منتصف القرن الخامس الهجري ، وآلت أملاك السلاجقة في سوريا — عقب انحلال هؤلاء — الى الدولة البورية والى آل زنكي ، واستولى الصليبيون على بيت المقدس من الفاطميين كما استولوا على مدن أخرى بالساحل كما سنشرح ذلك فيما بعد . وتقلص بذلك سلطان الفاطميين فلم يعد يشمل مع مصر الا شريطا ضيقا جنوبي فلسطين .

وسنتكلم فيما يلي كلمة عن كل من المرداسيين والبوريين وآل زنكي :

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧ — ١٩ .

(٢) موسوعة التاريخ الاسلامي ج ٧ ص ٤٠٩ وما بعدها .

المرداسيون

(حلب)

٤١٤ - ٤٧٢ = ١٠٣٣ - ١٠٧٩

ينسب المرداسيون إلى أسد الدولة صالح بن مرداس من قبيلة بنى كلاب العربية ، وقد هاجم هذا بأتباعه من البدو بلدة حلب حوالي سنة ١٠١١ ، ثم انسحب منها ، وفي سنة ١٠٢٣ قام سكان الشام بثورة ضد الفاطميين كما سبق القول ، فتنظم أهل حلب المدينة إلى صالح ، وظل صالح يدافع عن المدينة حتى قتل سنة ١٠٢٩ في معاركه مع المصريين ، فقام ابنه شبل الدولة مقامه ، ولكن جيوش الفاطميين قتلتة أيضا سنة ١٠٣٧ ، بيد أن ابنا آخر لصالح هو معز الدولة استطاع أن يسيطر مؤقتا على المدينة ، ولكن الفاطميين عادوا فأخذوها منه ، ولكن ملك الفاطميين تقلص عنها نهائيا سنة ٤٥٢ (١٠٦٠) فاستعادها رشيد الدولة بن شبل الدولة .

ولم تعرف حلب الاستقرار بعد ذلك ، فقد كانت تعيش بين أطماع البيزنطيين والمرداسيين والعقيليين . وسقطت أخيرا في أيدي العقيليين سنة ٤٧٢ (١٠٧٩) (١) ولكن سرعان ما اختواها ملك السلاجقة وانحدرت منهم إلى الأتابك ، فكانت دمشق من نصيب البوريين ، وحلب من نصيب آل زنكي ثم امتد سلطان آل زنكي إلى دمشق أيضا .

البوريون

(دمشق)

٤٩٧ — ٥٤٩ = ١١٠٣ — ١١٥٤

كان طوغتكين أحد القادة في جيش السلاجقة التابع لاسلطان تنش ،
وفي سنة ٤٨٨ (١٠٩٥) عين أتابك للأمن دقاق بن تنش أمير دمشق ، وسرعان
ما سلب السلطة منه ، وطوغتكين جد أسرة البوريين التي تنسب إلى ابنه
وخليفته (بوري) وأمرؤها هم :

٤٩٧ = ١١٠٣	سيف الاسلام ظاهر الدين طوغتكين
٥٢٢ = ١١٢٨	تاج الملوك بوري
٥٢٦ = ١١٣١	شمس الملوك اسماعيل
٥٢٩ = ١١٣٤	شهاب الدين محمود
٥٣٣ = ١١٣٨	جمال الدين محمود
٥٣٤ = ١١٣٩ (١)	مجير الدين أبقى

واستولى عليها نور الدين زنكي سنة ٥٤٩ (١١٥٤)

آل زنكي

(الموصل — الجزيرة — سوريا — مصر)

كان عماد الدين زنكي أتابك إلى تنش السلجوقي أمير حلب ، وبعد
تنش عين عماد الدين حاكما للموصل والجزيرة وهران وحلب سنة ٥٢١ —
٥٢٢ وكانت الحروب الصليبية على أشدها ، وكانت كفة الصليبيين راجحة

(١) المرجع السابق ١٦٦ .

فترعم عماد الدين جماعة المسلمين المكافحين، وحقق نصرا عظيما ضد الفرنجة — كما سنرى عند الكلام عن الحروب الصليبية — وبعد عماد الدين انقسمت مملكته بين ولديه نور الدين محمود الذى آل له شمال سوريا والذى حل محل أبيه فى زعامة الجبهة الاسلامية ضد المسيحيين الصليبيين ، وسيف الدين غازى الذى حكم الموصل ومناطق أخرى من العراق (١) ، وقد اتسعت مملكة نور الدين فشملت دمشق ثم امتدت الى مصر ، وبعد موته آل السلطان لابنه اسماعيل وهو فى الحادية عشرة ، ولكن صلاح الدين الأيوبي كان قد استقر بمصر حتى قبل موت نور الدين ، ومد سلطانه بعد موته فشمّل سوريا واليمن والحجاز وصدر قرار الخليفة العباسى بتوليته هذه البقاع .

وفيما يلى قوائم الأمراء من آل زنكى كما أوردها ستانلى لين بول (٢)

اتابكة الموصل

١١٢٧ = ٥٢١	عماد الدين زنكى
١١٤٦ = ٥٤١	سيف الدين غازى (الأول)
١١٤٩ = ٥٤٤	قطب الدين محمود
١١٦٩ = ٥٦٥	سيف الدين غازى (الثانى)
١١٨٠ = ٥٧٦	عز الدين مسعود (الأول)
١١٩٣ = ٥٨٩	نور الدين أرسلان شاه (الأول)
١٢١٠ = ٦٠٧	عز الدين مسعود (الثانى)
١٢١٨ = ٦١٥	نور الدين أرسلان شاه (الثانى)
١٢٢٩ = ٦١٦	نصير الدين محمود

بدر الدين لؤلؤ (وزير متغلب) ٦٣١ = ١٢٣٣
 اسماعيل بن لؤلؤ ٦٥٧ = ١٢٥٩
 التي ٦٦٠ = ١٢٦٢

استولى عليها المغول

أتابكية الجزيرة

معز الدين سنجر شاه ٥٧٦ = ١١٨٠
 معز الدين محمود ٦٠٥ = ١٢٠٨
 مسعود

ضمها الأيوبيون

أتابكية سوريا

نور الدين محمود بن زنكي ٥٤١ = ١١٤٦
 الصالح اسماعيل ٥٦٩ = ١١٧٣ الى ٥٧٧ = ١١٨١

ضمها الأيوبيون

الدور الثقافي لملكة نور الدين زنكي

أشرنا آنفا الى الدور السياسي الضخم الذي قام به نور الدين لخدمة العالم الاسلامي ولتجميع كلمته أمام الزحف الصليبي ، وسيأتي لنا مزيد من هذا الحديث عند الكلام عن الحروب الصليبية وعن الدولة الأيوبية ، ولكن دور نور الدين لم يكن عسكريا فقط ، بل أنه لعب دورا ثقافيا مهما للغاية ينبغي أن نشير إليه هنا .

في آخر القرن الثالث الهجري بدأ الفاطميون يكوّنون دولة في الشمال الافريقي ثم زحفوا الى مصر سنة ٣٥٩ ، وهنا وهناك يدعوا ينشرون مذهب

الشيعية ويقاومون مذهب أهل السنة ، وفي نفس الفترة كان البويهيون قد حققوا انتصارا على بقايا الأتراك المماليك وبدعوا سلطاتهم على الخلافة العباسية سنة (٣٣٤) وبالتالي عملوا على نشر التشيع ومقاومة المذهب السني ، وهكذا حقق الشيعة نجاحا في الشرق والغرب وتقهقر أمام سلاطنتهم النفوذ السني .

وجاء السلاجقة للحكم (٤٤٧) فبدعوا يعيدون الأمور إلى نصابها ، وقام الوزير السلجوقي الشهير نظام الملك بدور كبير في إحياء الدراسات السنية والقضاء على بقايا التشيع ، وتنسب إلى هذا الوزير « المدارس النظامية » التي جلس الغزالي يعلم في إحداها والتي كان لها نصيب كبير في تنشيط المذهب السني ومقاومة التشيع ، واقتبس نور الدين زنكي هذا الاتجاه من نظام الملك ، فنشر في مملكته حلب ودمشق مدارس كذلك التي أنشأها نظام الملك ، فكان بذلك امتدادا له ، كما كان امتدادا لأبيه « عماد الدين » في الانتصارات العسكرية ، وجاء صلاح الدين الأيوبي فبورت مملكة نور الدين في الأمرين جميعا ، أي حلّ محله في مقاومة الصليبيين ، كما نقل اتجاهاته الثقافية إلى مصر فأنشأ بها مدارس لخدمة المذهب السني امتدادا لمدارس نظام الملك في العراق ومدارس نور الدين في الشام ، وعلى هذا نجد نور الدين زنكي فصلاح الدين الأيوبي يمثلان الحلقة الثانية والثالثة في الصراع العسكري ضد الصليبيين وفي إحياء الدراسات السنية ، أما الحلقة الأولى فيمثلها عماد الدين زنكي في الصراع العسكري ويمثلها نظام الملك في إحياء الدراسات السنية (١) .

(١) اقرأ تفاصيل هذا النشاط الثقافي بكتابتنا « تاريخ التربية الإسلامية » .

الحضارة الفاطمية بمصر وسوريا

الأزهر الشريف :

اهتم الفاطميون اهتماما كبيرا بالحركة العلمية في اتجاهاتها المختلفة ، وأبرز هذه الاتجاهات كان تنظيم الفكر الشيعي ونشره على أوسع نطاق ، كما سبق القول ، ويمكن اعتبار يعقوب بن كلس مثالا لهذا النشاط المذهبي ، فعلى الرغم من انشغاله بشئون الوزارة نجده يخصص وقتا ليؤلف الكتب والرسائل في عقيدة المذهب وفقهه ، ويطلب من العزيز تحويل مسجد الأزهر إلى جامعة شيعية تدرس فيها مبادئ التشيع ، بل يجلس هو في الأزهر لتدريس هذه المبادئ ، وبعد فترة اتسع الأزهر لألوان من الفكر بجانب تدريس التشيع .

مجالس القصر ومجالس الدعوة :

اتخذ الخليفة من داره أحيانا ندوة يجتمع فيها عليه القوم ويسادتهم لدراسة أصول المذهب وطرق نشره . ومن الوظائف المهمة التي استحدثها الفاطميون وظيفة داعي الدعوة ، وهي تشبه وزارة الدعاية والاعلام في الدول الحديثة ، وكانت يختار لها الضالعون في الفكر الشيعي والعارفون بأسرار الدعوة ، وكان داعي الدعوة يشرف على الدعاية للمذهب ونشره في العاصمة والأقاليم عن طريق المجالس والندوات والمحاضرات والمؤلفات ، وكثيرا ما كان داعي الدعوة هو قاضي القضاء .

وشجع الفاطميون شعراء المذهب لينشروا قصائدهم بين الجماهير . . . وكان الشعر آنذاك يمثل صحافة العصر ، فاذا كانت الندوات والمجالس العلمية اتجهت للمثقفين فإن الشعر كان وسيلة الدعاية للمذهب بين العامة .

علماء في الفلك والصيدلة والطب . . . :

وبجانب المذهب الشيعي اهتم الفاطميون بخدمة فروع أخرى من العلم والمعرفة ، وقد سبق أن تحدثنا عن دار العلم التي أنشأها الحاكم

وكيف كانت مركزا للثقافة والفكر ، وبجانب ذلك عنى الحاكم بدراسات أخرى ، فلقد ازدان بلاطه بعلى بن يونس ألمع من أنجبته مصر من الفلكيين . وبالحسن ابن الهيثم كبير علماء الطبيعيات المسلمين والاختصاصى فى علم البصريات والذى لا تقل المصنفات المنسوبة اليه فى الرياضيات والفلك والفلسفة والطب عن المائة (١) ، وأهم الكتب التى اشتهر بها كتاب المناظر الذى ترجم الى اللاتينية وطبع سنة ١٥٧٢ ، وكان له أثر كبير فى نشر علم البصريات فى العصور الوسطى ، وأغلب كتاب العصور الوسطى الذين عالجوا هذا الموضوع يبنون مؤلفاتهم على كتاب ابن الهيثم المذكور ، وفى مؤلفات روجر بىكون وليونارد دى فنشى ويوهان كبلر آثار لهذا الكتاب ، ولقد ناقض ابن الهيثم نظرية إقليدس وبطليموس القائلة بأن العين ترسل شعاعا بصريا الى الشيء المرئى ، وقال إن شعاعا ينبعث من الشيء للعين ، وقارب فى بعض تجاربه حد اكتشاف العدسات المكبرة نظريا (٢) .

ومن العلماء الذين ظهوروا فى هذا العصر أيضا عمار بن الموصلى وله كتاب فى أمراض العيون عنوانه « المختف فى علاج العين » وهو مخطوط يوجد قسم منه بمكتبة الاسكوريال (٣) .

كما اشتهر عدد من الأطباء والفلاسفة من أعظمهم على بن رضوان الذى تولى منصب رئيس الأطباء فى بلاط الخليفة العزيز ، وألف كثيرا من الكتب فى الفلسفة والمنطق .

هذه هي

واشتهر كذلك فى العصر الفاطمى بعض المؤرخين ، منهم ابن زولان

(١) أبى أصيبعة ج٢ ص ٦١ وما بعدها ، والقنطى ص ١٦٧ - ١٦٨ .

والبن حلكان ج٢ ص ١٢٧ .

(٢) Hitti : History of the Arabs pp 744 - 745 (٢)

(٣) نقس المرجع -

الذى ألف كثيرا من الكتب في تاريخ مصر زمن الاخشيديين والفاطميين ،
ومنهم أيضا ابن منجب الصيرفي الذى تولى ديوان الانشاء أواخر العصر
الفاطمى ، ويعتبر كتابه « الإشارة الى من نال الوزارة » حجة في تاريخ
هذا العصر .

شعراء :

وفي هذا العصر ظهر كذلك عدد من الشعراء في مقدمتهم ابن هانيء
الأندلسى الذى نظم ديوانا في مدح الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ،
ومنهم كذلك عمارة اليمنى صاحب الديوان المشهور باسمه الذى مدح فيه
الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، وعمارة هذا هو الذى دبّر ثورة
نجد الحكم الأيوبي لقوة تعصبه للفاطميين (١) .

شاعر سوريا الفيلسوف :

ومن أبرز شعراء سوريا في هذا العصر أبو العلاء المعري (٣٦٣ =
٩٧٣ - ٤٤٩ - ١٠٥٧) الشاعر الفيلسوف رهين المحبسين (البيت
والعلم) ، وكان قد رحل الى بغداد في طلب العلم ، ويبدو أنه اتصل فيها
ببعض الشيوخ الذين يتجهون اتجاه المعتزلة وبيعض الفلاسفة المتأثرين
بالمذاهب اليونانية وبفلاسفة الهند ، وكان لهؤلاء أثر في حياته وشعره ،
ولم يكن المعري مداما للعظمة والخلفاء ، بل كان زاهدا ، ويروى أنه
عندما احتل جيش المستنصر الفاطمى بلدة المعرة قدم قائده الجيش الى
المعري ما في خزانة المدينة من مال ، ولكن المعري رفضه (٢) ، وكانت له
هبة عظيمة عند الحكام ، فيروى أنه ذهب مرة ليتوسط لدى صلاح بن
مراد بن ليطلق سراح سجين من وجهاء المدينة كان صلاح يهدد باعتقالهم ،
فاستجاب له صلاح في الحال وأطلق سراحهم (٣) .

(١) المرجع السابق ص ٧٤٥ .

(٢) ياقوت : معجم الادباء ج ٢ ص ٥٩ .

(٣) فيليب حتى تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ٢٦٥ .

والمعري هو مؤلف رسالة الغفران التي يُعْتَقَد أن دانتي ألف الكوميديا الإلهية على غرارها : وقد التزم المعري في أكثر شعره الاتجاه الفلسفى ، وله معان سبق بها عمر الخيام ، ومن ناحية القافية التزم المعري في أكثر شعره ما لا يلزم ، أى جعل قافيته مكونة من حرفين ، ولذلك سُمى ديوانه « اللزوميات » ، ! يوم لا يلزم « ومن شعره على هذا النسق قوله :

ضحكتنا ، وكان الضحك منا سفاهة وحق لأبناء البسيطة أن يبكوا
يحطمننا ريب الزمان كأننا زجاج ، ولكن لا يعاد له سبب

الهندسة والغفران :

وفي الفن وهندسة البناء ترك الفاطميون آثارا خالدة في قمتها مدينة القاهرة والأزهر والمساجد الكثيرة التي تحمل أسماء خلفائهم ووزرائهم ، ولا يزال باب زويلة ، وباب النصر ، وباب الفتوح شاهد صدق على ما وصلت له عظمة البناء في هذا العصر ، وقد بلغت القاهرة في عهد الفاطميين شأوا بعيدا من الرقى والتقدم ، فكانت بها الأسواق العامرة والبساتين الغناء ، والعمائر الشامخة وغيرها مما أفاد المقيزي في وصفها في خطته .

الزخرفة الإسلامية :

أخذت الزخرفة الإسلامية عناصرها من ثلاثة أشياء :

١ — آيات من القرآن الكريم تكتب بالخطوط الجميلة .

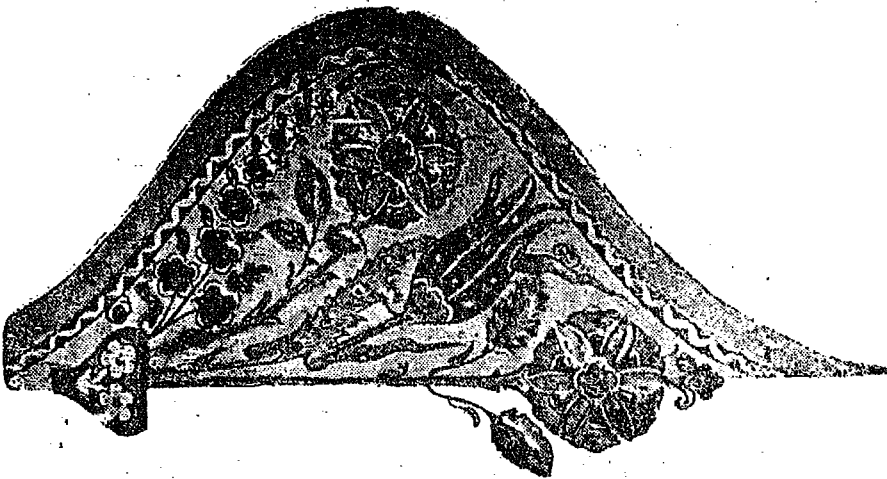
٢ — الأشكال الهندسية .

٣ — أوراق الشجر .

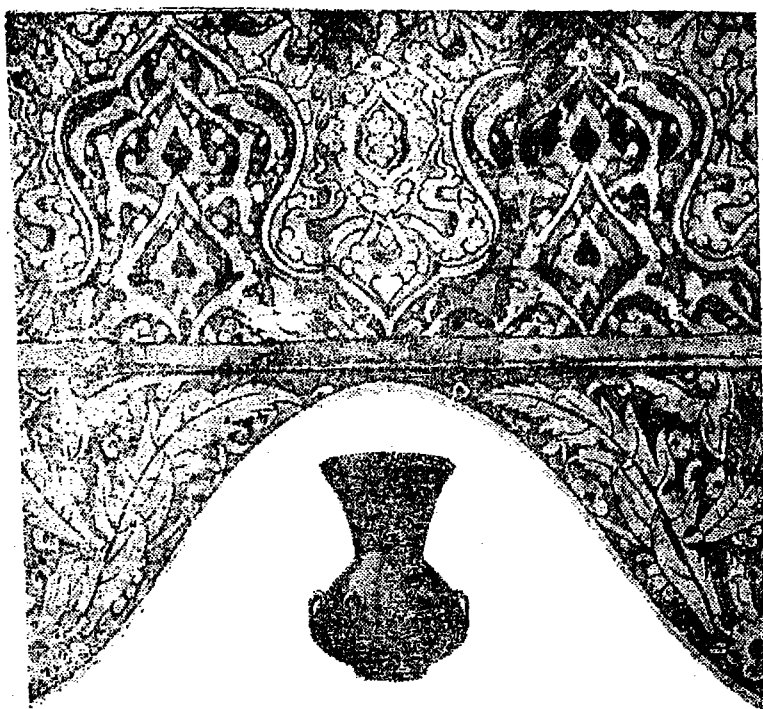
ومع هذا بعض نماذج الزخرفة التي ظهرت في الجامع الأزهر وفي غيره من الآثار الإسلامية بالقاهرة .



باب زويلة وجزء من سور القاهرة القديم



آثار زخرفية بمصر



آثار زخرفية بالأزهر

(م ١٢ - موسومة التاريخ ج ٥)

البحرية والترسانة :

وقد ورث الفاطميون بحرية الأغالبة ، كما قلنا في الجزء الرابع من هذه الموسوعة ، ولما جاءوا الى مصر أدركوا ضرورة تقوية بحريتهم ، إذ هددتهم بحرية الروم دائما ، ولهذا أنشأ المعز لدين الله ومن جاء بعده ترسانة لإنشاء المراكب الحربية في الروضة وفي الاسكندرية ودمياط ، وكانت بعض وحداتها تسير للمرابطة في الموانئ الشامية مثل عكا وصور وعسقلان ، وكذلك في عيذاب على البحر الأحمر : وأنشأ المعز أيضا داراً لصناعة السفن بالمقس بنى بها ستمائة سفينة ، وكان على رأس الأسطول الفاطمي عشرة قواد ، عليهم رئيس يدعى أمير الأسطول ، وأفرد للأسطول ميزانية ضخمة (١) .

وعنى الفاطميون عناية كبيرة بالصناعات المتعلقة بتجهيز الجيوش واعداد العدة الحربية التي كانت عمادهم في المحافظة على دولتهم وفي محاولة توسيعها .

صناعات مدنية :

ومن الصناعات المدنية التي اشتهرت في العصر الفاطمي صناعة المنسوجات ، وقد بلغت الذروة في الجودة والجمال ، واشتهرت بها مدينة دمياط ، وكانت منسوجات مصر تصدر الى العراق وغيره من البلدان : ولعل من أسباب الاهتمام بالمنسوجات أن عادة الفاطميين كانت تجرى بتقديم الأكسية لجميع موظفي الدولة في الشتاء والصيف ، ومن أجل هذا أنشأ المعز لدين الله داراً عرفت بدار الكسوة ، وكانت منسوجاتها تتناسب مع مراكز الذين يستمنح لهم هذه الملابس ، ومنهم الوزراء والقضاة ، وكان للفاطميين بجانب دار الكسوة دار تعرف بدار الديباج لصناعة الحرير ، وقد بلغت مخصصات دار الكسوة لعمل الملابس سنة

(١) دكتور على ابراهيم مصر في العصور الوسطى ص ٣٢٢ — ٣٢٣ .

٥١٦٠ م مبلغ ٦٠٠٠٠٠ دينار ، وكانت الحال تتقدم للأمراء والوزراء والأشراف في عيد الفطر ، ولذلك سمي هذا العيد بعيد الحال (١) ، وكان الخلفاء يتنافسون في الإنعام على كبار الدولة ؛ وقد روى عن العزيز قوله : أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة ، وأرى عليهم الذهب والفضة والجواهر ، إليهم الخيل واللباس والضياع والعقار (٢) .

وعنى الخلفاء بزركشة الملابس وتطريزها بخيوط من الذهب ومن الفضة أحيانا ، وكانت كسوة الكعبة وملابس كبار الرجال تردان بالطراز الفاخر ، وامتدت الزركشة الى الفرش والبسط والخيام وشراعات السفن ، وكان من أمتعة قصر الخليفة المستنصر الذي نهبه الثوار في أثناء الشدة فسطاط الخليفة الظاهر ، وكان منسوجا من خيوط الذهب ومقاما على أعمدة من الفضة ، وبلغت قيمته أربعة عشر ألف دينار (٣) .

صناعات معادن :

وعنى المصريون في هذا العصر عناية كبيرة بصناعة المعادن وبخاصة من الذهب والفضة ، كما عنوا بالنقش على الخشب وحفره وتطعيمه بمختلف الأحجار ، وكانت لهم عناية بالغة بصناعة الزجاج والخزف وبالرسم الرائع على هذه الصناعات المهمة ، وقد خلف العهد الفاطمي ألوانا من الصحاف ومجموعة رائعة من أواني الذهب ذات النقوش البديعة والأواني الخزفية ذات الرسوم العجيبة مما يشهد لهذا العصر بالنبوغ والمجد .

أهم آثار الفاطميين :

يعتبر عصر الفاطميين أغنى فترة مصرية بالآثار ، وهو عهد طويل وعريض بإنجازاته وآثاره ، وأهم آثار الفاطميين مدينة القاهرة التي

(١) دكتور على إبراهيم : مصر في العصور الوسطى ص ٣٧٤ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٤١٨ .

(٣) دكتور زكى حسن : كنوز الفاطميين ص ٦٣ .

كانت تسمى قبل وصول المعز « مدينة المنصورية » ثم أطلق المعز لدين الله عليها « القاهرة المعزية » .

الأزهر : التاريخ والفكر :

على أن أهم آثار الدولة الفاطمية هو « الأزهر » الذى لعب دورا كبيرا فى خدمة الاسلام والمسلمين ، وتجاوز عمره ألف سنة ، وقد وضع أساسه سنة ٨٣٥٩م وافتتح للصلاة سنة ٨٣٦١م ، وجلس به على بن النعمان مدرسا سنة ٣٦٥ ثم أعلن يعقوب بن كلس نقله الى جامعة سنة ٣٧٨ وعين له هيئة تدريس .

وكان يجلس به قاضى القضاة والمحتسب .

وكان الأزهر فى أكثر تاريخه يهيىء لطلاب العلم كل وسائل الراحة ، فما ان يصل الطالب الى الأزهر حتى يجد أن مشكلاته قد حُلَّت ، فالرواق يضمن له السكنى ، والجراية تضمن له الطعام ، والحلقات مفتوحة ليختار منها ما يناسبه .

وكان يدرس بالأزهر الفقه الشيعى ويقوم بتدريسه آل النعمان : ويدرس به التاريخ الاسلامى ويقوم بتدريسه السبى المصرى ، ويدرس به الحديث ويقوم بتدريسه القضاة ، وكان هذا يدرس به أيضا أنباء الأنبياء ، وهو العلم الذى يسمى الآن « مقارنة الأديان » بعد نوع من التعديل فى طرق تدريس هذه الأنبياء .

وكان يُدرّس به النحو ، ومن مشاهير من جلسوا لتعليمه ابن بابشاذ والشاطبى .

وكان يُدرّس به الطب ومن علم به هذه السادة الحسن بن الخطيب ، والشافى البغدادى .

وعاين ر التاريخ لى الأزهر ضاية الخلفاء والسلطين المصريين وبخاصة خلفاء الفاطميين وسلطين المماليك ، فعطى الأزهر بمزيد من

الأوقاف وأضافوا له أروقة إلى أروقته وزينوا محاريبه ، كما وهبوا له المنابر والقناديل الثمينة ، وانتشرت به زخارف غاية في الروعة والجمال ، ولكنه عانى بعض الإهمال في العهد الأيوبي وفي العهد العثماني .

وبالأزهر ٢٩ رواقا للصعيدة والشراقوة والبحاروة . . . ثم للجرمين وجاوة والسليمانية والمغاربة والأتراك والسنارية والجبرتية والأكراد والهنود والشوام

وبه ١٣ محرابا و ٦ مآذن و ٧ مزاوِل لمعرفة الوقت و ٩ أبواب أهمها باب الزينين والمغاربة والعباسي والجوهرية .

ومن أهم مساجد العصر الفاطمي مسجد الحاكم ، وقد أسسه العزيز وأتمه وخطب به وصلى فيه ، ولكن الحاكم أتم ملحقاته وزينه وفرشه فنسب له ، وكان هذا المسجد يقع خارج سور القاهرة ، فلما بنى بدر الجمالى سوره أدخل هذا المسجد داخل السور مما يلى باب الفتوح .

وكان للحاكم مدفن بناه بإشرافه ليدفن به ، ولكنه قُتِلَ وأُخفيت حثته فلم يدفن فيه ، ومسجد الحاكم يسمى أيضا الجامع الأنور .

ومن مساجد العهد الفاطمي جامع الصالح طلائع بن رزيك ومشهد الجيوشى وكثير من المشاهد .

ومن الآثار الفاطمية أسوار القاهرة المنيعه ، وأبواب القاهرة : بباب الفتوح وباب النصر وباب زويلة .

ملك الفاطميين :

امتد ملك الفاطميين في فترات ازدهارهم من نهر العاصى بالشام حتى حدود مراکش ، ومن منطقة الخرطوم بالسودان الى آسيا الصغرى ، مما جعل سلطانهم يفوق كثيرا من ممالك ذلك العصر .



آثار زخرفية بالأزهر

الدَّوْلَةُ الْيُونَنِيَّةُ

(٥٦٤ - ٥٦٤٨ = ١١٦٩ - ١٢٥٠ م)

أصل الأيوبيين :

يُعدُّ وفیات الأعیان لابن خلکان من أهم المراجع التي عنيت عناية كبيرة بالأيوبيين ، وبخاصة صلاح الدين ، فقد ترجم ابن خلکان لأكثر أمراء هذه الأسرة وقادتها ، وذكر كل ما يتصل بها في هذه التراجم ، وخص صلاح الدين بأطول ترجمة وردت في هذا المؤلف (۱) : حتى يمكن أن تصبح كتاباً قائماً بذاته ، وتمتاز بأنها جمعت من المعلومات ما لم يورده مرجع آخر حتى ابن شداد في كتابه عن صلاح الدين « المحاسن اليوسفية » ، وبجانب ابن خلکان هناك كتب كثيرة اهتمت بالأيوبيين إذ كان هؤلاء قادة الدفاع عن الاسلام في الحروب الصليبية ، فوجدوا من المؤرخين المسلمين وغير المسلمين عناية كبيرة ، ومن الكتب الكثيرة عن الأيوبيين نقتبس خلاصة وافية نُورخ بها لهذا العصر :

تنحدر الأسرة الأيوبية من أصل كردي ، وكان شادی جد صلاح الدين وأقدم من نعرف معرفة واضحة في الأسرة (۱) ، يعيش في بلدة « دوين » من بلاد أذربيجان قريبا من الكرخ ، وكان شادی من خيرة الرجال وذوى الهمة ، وكان له صديق اسمه بهروز ينزل منه منزلة الأخ ، وحدث أن بهروز وقع منه خطأ عوقب عليه ، فلم يستطع بعد ذلك البقاء في دوين ، فهجرها الى العراق حيث عمل في خدمة السلطان مسعود بن غياث الدين السلجوقي ، وفي هذا البلاط لمع بهروز ، فأُسند له السلطان ولاية بغداد وأقطعته مدينة تكريت : وفي هذا المجد لم ينس بهروز رفيقا صباه شادی ، فاستدعاه هو وأهله وجعله حاكم تكريت بالنيابة عنه ، وكان مع شادی ولدها نجم الدين أيوب (والد صلاح الدين) وشريكه ، وتنسب الأسرة الأيوبية الى نجم الدين أيوب سالف الذكر ، ومات شادی بعد فترة فتولى مكانه ابنه الأكبر نجم الدين ، ولكن حدث خلاف بين

(۱) ابن خلکان : وفیات الأعیان ج ۲ ص ۳۷۶ وقد اورد ابن خلکان له

نسبا وصله الى آدم ، ولكنه غير موثوق به .

شيركوه وبين أحد بطانة بهروز المقيمين بتكريت ، فقتله شيركوه : وغضب بهروز لذلك ، وأرسل حاكما جديدا الى تكريت وطلب من نجم الدين أن يسلمه السلطان وأن يهاجر من تكريت هو وأهله ، وفي تكريت ولد صلاح الدين ويقال انه ولد في نفس الليلة التي بدأت فيها رحلة أهله وذويه منها (١) . ولعل موقف بهروز لم يكن فقط بسبب اعتداء شيركوه على أحد بطانته ، بل لإحساسه بنمو نفوذ نجم الدين وأهله ، وخوفه من عاقبة صلات الود التي كانت تتطور بين هؤلاء وبين سكان المدينة .

الخبر لا يضيع :

وقبل أن ندع تكريت نذكر حادثا وقع بها ، وكان ذا أثر فيما جاء بعد ذلك من أحداث :

كان عماد الدين زنكي أتابك الموصل قد سار بجيشه لمساعدة السلطان مسعود ضد الخليفة العباسي المسترشد ، ولكن عماد الدين زنكي هُزم في المعركة ، وعاد ومعه فلول جيشه يحمل أعباء الهزيمة وخوف المستقبل ، وفي الطريق الى الموصل مر بتكريت في حالة من الألم واليأس ، فألقى بعصاه بها : وأسلم أمره الى حاكمها نجم الدين بن شادي ، فأكرم نجم الدين وفادته وأحسن استقباله وساعده على اجتياز دجلة ، وقدم له الزاد والعون ، وأنهى بذلك حيرته ويأسه ، وكان ذلك أيضا ممما أغضب بهروز ، فقد كان بهروز في صف الخليفة ضد عماد الدين زنكي (٢) .

ولهذا نجد نجم الدين عقب خروجه من تكريت سنة ٥٥٣٣ يتجه الى الموصل ليستعين على مشكلات الحياة بالرجل المدين له بالعون والمساعدة ، بعماد الدين زنكي (٣) .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٨٤ — ٨٥ .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٧٧ .

(٣) قدرى قلعجي : صلاح الدين الأيوبي ص ٢٨ — ٢٩ .

وفي رحاب عماد الدين تاروت الأسرة الأيوبية ، فقد أصبح نجم الدين وأخوه شيركوه من خيرة القواد ، وقتل عماد الدين بعد ذلك واختلعه أولاد من بعده ، وإن لم تكن نور الدين تطلب على رأسه إلا وقتها ، وأصبح صلاح الدين الملوك ، وإن ذلك بمساعدة الأيوبيين ، ولم تفلح هذه المحاولة أن يتهم دمشق لأنه وإن دمعه ، فما صلاح الدين بطاني ظهوره بالسياسة والإسلامية ، حتى صار له لفته العربية خلية في المساعدة والبيان ، كما حفظ القرآن الكريم وتلقى علوم الشريعة ، بالإلمانة التي مناسبتة للفروسية والعديد والرعي بالسوم وغيرها من ضرورات الخطوة .

الأيوبيون في مصر :

سيطر نور الدين على حلب ثم على دمشق كما سبق القول ، ورأى أن سيطرته على مصر ضرورية ليكمل التفتاه ، بسول الصليبيين حتى يستطيع أن يقضى عليهم ، وليستعين بقاء مصر في مشروعاته ، ثم لينشر المذهب السني بها بدل مذهب الفاطميين .

وقد أتاحت فوضى الوزارة في مصر إبان عهد العاضد الفرصة لنور الدين ليتدخل في شئونها ، وبلغت حملات نور الدين على مصر ثلاثا كانت كلها بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين ، وكانت الحملة الأولى سنة ٥٥٩ هـ استجابة لطلب شاور الذي هرب إلى الشام من وجه ضرغام واستنجد بنور الدين ، وحضرت هذه الحملة إلى مصر مع شاور وقضت على ضرغام ، ولكن شاور لم يوف بوعده لنور الدين ، وسرعان ما أنقلب ضد الذين أعادوه إلى السلطة ، وبلغ من خيانتة أن استعان بالصليبيين لينقذوا البلاد من جيش نور الدين ، فحضر له الجيش الصليبي الذي كان قد أعد لمساعدة ضرغام ضد شاور ، وطوق الصليبيون

جيش أسد الدين شيركوه في بلبيس ، ولكن نور الدين أعد العدة لمهاجمة الصليبيين في الشام فخاف هؤلاء ، وأخيرا اتفق الطرفان على إخلاء مصر ، ونفذ الاتفاق .

أما الحملة الثانية فكانت سنة ٥٦٢ هـ ، وقد حضرت لمقاومة الصليبيين الذين عادوا الى مصر بناء على طلب شاور ليثبتوا عرشه الذي كان يهتز تحتته ، وحدثت بين الجيشين معركة كبرى هي معركة « البابين » بالقرب من المنيا ، وقد انتصرت جيوش نور الدين انتصارا كبيرا ، وعقب ذلك انسحبت جيوش الصليبيين تجاه الشمال كأنها تريد العودة إلى فلسطين ، وبقي شيركوه ببعض الجيش في المنيا أما باقى الجيش فقد قاده صلاح الدين إلى الاسكندرية لرد هجوم صليبي آخر وافتد من صقلية ، وانتهاز الجيش الصليبي المنهزم هذه الفرصة فأسرع خلف صلاح الدين ، وبذلك حوصر جيش صلاح الدين بالاسكندرية ، ومرت فترات قاسية بصلاح الدين أظهر خلالها ضرورها من البسالة وظهرت فيها شخصيته وحسن ادارته ، وتحطم الحصار لاصراره من جهة ، ولإسراع عمه لمساعدته من جهة أخرى ثم لهجوم نور الدين على القدس من جهة ثالثة ، وتم الاتفاق بين جيش نور الدين وبين الصليبيين على إخلاء مصر مرة أخرى : ونفذ الاتفاق .

أما الحملة الثالثة فكانت سنة ٥٦٤ هـ ، وكان سببها أن خلافا وقع بين شاور والفرنجة لأنه لم يوف لهم بما تعهد به اليهم من أموال ، فهاجم الفرنجة مصر واحتلوا بلبيس ، وأعملوا في سكانها القتل والسلب ، وحينئذ اتصل الخليفة العاضد سرا بنور الدين زنكى وطلب عونه ضد الصليبيين وضد شاور ، فحضر شيركوه لثالث مرة ، وتردد صلاح الدين هذه المرة في مصاحبته لما عاناه إبان الحصار في الاسكندرية ، ولكنه عاد وقبِلَ

الحضور ، وقد تظاهر شاور بالترحيب بهذه الحملة وذهب لاستقبال شيركوه ، ولكن صلاح الدين قبض عليه وصدرت أوامر الخليفة بالقضاء عليه فقتل ، وأسندت الوزارة الى شيركوه ، ولكن هذا مات بعد شهرين فآلت الوزارة الى صلاح الدين ، وتوالى الأحداث على ما ذكرنا في نهاية الدولة الفاطمية ، فقد قطع صلاح الدين الخطبة للفاطميين ، وخطب باسم الخليفة العباسي واسم نور الدين ومات الخليفة العاضد عقب ذلك ، وعادت مصر الى أحضان المذهب السنّي .

صلاح الدين يمكن لسلطانه :

بدأت سلطة صلاح الدين بمصر سنة ٥٦٤ هـ ولكنه لم يُسقط الخلافة الفاطمية إلا سنة ٥٦٧ هـ ، ومعنى هذا أنه مرت ثلاث سنوات كان السلطان على مصر من الناحية العملية في يد صلاح الدين ، ولكنه كان يعترف بالخليفة الفاطمي ، وكان في نفس الوقت تابعا لنور الدين زنكي وقائدا من قواده ، وكان صلاح الدين لهذا يدعو للاثنتين في الخطبة ، كما كان يضع الخطط للتخلص من الاثنتين جميعا ، ولكن كان عليه قبل كل شيء أن يمكن لسلطانه في البلاد ليكون ذلك عوناً له فيما سيقابله من مشكلات .

بدأ صلاح الدين ذلك بأن أظهر العدل بين الناس وعاملهم بكريم السجايا ونبيل الصفات ، وأظهر التسامح مع أتباع المذهب الشيعي الذي كان منتشرا بالبلاد ، كما سعى في معاملته بين أتباع الديانات المختلفة فأبرز صفة أصيلة في نفسه هي التسامح الديني ، وأتاح للأقباط حرية التدين الى أقصى حد ، وكان من نتائج ذلك أن أحبه الأقباط محبة شديدة حتى ليذهب أحمد زكي (باشا) الى أنهم وضعوا صورته في كنائسهم ، ويستشهد على ذلك بأدلة كثيرة منها أن الشاعر عبد المنعم الأندلسي زار

مصر في ذلك الحين فدهش لما رآه من حب القبط لصالح الدين ، فنظم قصيدة طويلة في هذا المعنى جاء فيها :

فَحَطَّوْا بِأَرْجَاءِ الْهَيْكَلِ صُورَةَ لَكَ اعْتَقَدُوْهَا كَاعْتِقَادِ الْأَقَانِمِ (١)

واتجه كذلك بجهوده نحو المصريين جميعا فرفع عنهم المظالم ، وخفف الضرائب والمكوس التي كانت ترهقهم ، وأصدر أوامره بأن تكون جباية الضرائب بمصر ببسر وسهولة ، واستمال بذلك قلوب الناس ، كما بذل الأموال مما كان أسد الدين شيركوه قد جمعه ، وطلب من العاضد شيئا يخرج به للناس فاستجاب له العاضد راضيا أو كارها ، وفي هذه الأثناء كان صلاح الدين يقف من الصليبيين موقفا حازما ، فقد رد بعنف عدوانهم على دمياط ولم يقف طويلا موقف المدافع ، وإنما راح يهاجم الصليبيين في معقلهم ، فابتدأ بذلك طور جديد في تاريخ الحروب الصليبية ، وأصبح الفرنجة مدافعين وكانوا من قبل مهاجمين ، وطالما غنم منهم الغنائم في هجماته وأمن منهم تجار المسلمين وأرضهم ، وبهذا أقبل المصريون على صلاح الدين وأحبوه واتخذوه لهم زعيما وقائدا ، ناصروه والتفوا حول رايته وتهدأ له بذلك أن يخطو في أمن نحو أهدافه .

عزل العاضد :

أصبح العاضد مسلوب السلطة ، ولم يبق له إلا اسم هزيل يذكر في الخطبة ، وبجواره اسم نور الدين السني الذي يخطب في بلاده لخلفاء بني العباس ، وأصبح أمر مصر بيد صلاح الدين السني كذلك ، فكان ذلك أمرا عجبا ، ولهذا ما أن أحس صلاح الدين باستقرار الأمر له حتى فكر في القضاء على هذا الخيط الضئيل الباقي من الفاطميين ، وبخاصة أن نور الدين زنكي كان يحث صلاح الدين من حين إلى حين

(١) نقلا عن صلاح الدين الايوبي لقدري تلجى ص ٤٣ .

أن يخطو هذه الخطوة . وكان العاضد آنذاك مريضا منزويا في بيته ، ويروى أن صلاح الدين أحس بشيء من التردد في إعلان عزل العاضد وإسقاط الخلافة الفاطمية ، فأوعز إلى أحد أتباعه أن يفعل ذلك في أحد المساجد ليرى رد الفعل عند الجماهير ، ولكن أحدا لم يحرك ساكنا ، مما دعا صلاح الدين أن يأمر جميع خطباء المساجد أن يفعلوا ذلك في الجمعة التالية ، وكان ذلك سنة ٥٦٧ هـ (١) .

وكان العاضد آنذاك قد اشتد مرضه فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك ، وقالوا إن سلم فهو يعلم وإن توفي فلا ينبغي أن ننقص عليه هذه الأيام التي بقيت من أجله ، فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم ، ولما توفي جلس صلاح الدين للجزاء ثلاثة أيام واستولى على قصره فوزع بعض ما بالقصور على قومه وأتباعه ، وأعتق بعض الجوارى ، ونقل أهل العاضد إلى مكان خاص ووكل بهم من يحفظهم وأغدق عليهم الخيرات ، أما مكتبة القصر فقد وكلها صلاح الدين إلى القاضي الفاضل فأبقى منها ما أبقى ، وأحرق ما يباليغ في التشيع ، وباع بعض محتوياتها وأدخل ثمنه في بيت المال (٢) ولم ينتقل صلاح الدين إلى دار الخلافة وإنما بقي بدار الوزارة حيث كان .

وسار صلاح الدين في استكمال الخطوات التي تتبع إسقاط الفاطميين والحاق مصر بالخلافة العباسية ، فخطب للخليفة المستنصر بالله العباسي ، وعزل القضاة الشيعة وأقام قاضيا شافعيًا في القاهرة ، فاستتاب هذا عنه القضاة الشافعية في جميع البلدان (٣) ، ويقول المقرئ إن صلاح الدين هو من قضى القضاء لصدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعي ، فلم يستتب هذا عنه في إقليم مصر إلا من كان شافعي المذهب ، فاختفى

(١) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٢٩٤ .

(٢) ابن خلكان : المرجع السابق ص ٣٨٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٥٦٧ هـ .

مذهب الشيعة حتى فقِدَ من مصر كلها ، ومن منشآت صلاح الدين المرتبطة بذلك مدارسه الشافعية التي أقامها في مصر ، ومنها المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق والقمحية والسيوفية والناصرية بالقرافة ، والصلاحية ببیت المقدس ، والصلاحية بدمشق (١) .

ذبول الفاطميين :

على الرغم من أن مصر قد استجابت لصلاح الدين وأسدلت الستار على التشيع ، إلا أن فئات خاصة أحست بخسارة تصيها بسبب زوال الفاطميين ، فلا غرو أن يبدأ هؤلاء بإثارة المتاعب في وجه صلاح الدين لعله يكون من الممكن أن يعودوا بعقارب الساعة إلى الورا ، وأهم هذه المؤامرات تلك التي قام بها نجاح الخصى الأسود الملقب « مؤتمن الخلافة » الذي كان زعيما للسودانيين في مصر ، فيروى أنه كتب للفرجة يطلب منهم الزحف على مصر ، ووعدهم بأن يضرب صلاح الدين من الخلف عندما يتجه هذا لمقابلتهم ، بيد أن رسالة مؤتمن الخلافة وقعت في يد رجال صلاح الدين ، فأدرك صلاح الدين ما يراد به ، وعرف ما يكتب له مؤتمن الخلافة من خيانة وغدر ، فأوعز إلى بعض رجاله بالقضاء عليه ، وتم له ما أراد .

ولكن القضاء على مؤتمن الخلافة أثار الجند السودان ، وكانوا أكثر من خمسين ألفا ، وكانوا إذا قاموا على وزير أذلثوه واستباحوه وربما قتلوه (٢) ولكن صلاح الدين لم يكن من طراز هؤلاء الوزراء الضعفاء ، بل هب يكسر صولة هؤلاء النافرين وأوعز إلى بعض اخوته لماتجهوا إلى المحلة التي يعيش بها السودان وأشعلوا فيها النار ، وهرع

(١) الخطط ج٢ ص ٣٦٣ — ٣٦٥ والنعمي ٣ : ١٠ والانس الجليل ٢ : ٣٩٣ واقرا كذلك تاريخ التربية الاسلامية للمؤلف ص ١٠٤ — ١٠٥ .
(٢) عماد الدين بن شداد : المحاسن اليوسفية ص ٤٧ .

السودان لينقذوا نساءهم وأطفالهم ، وطاردتهم صلاح الدين في تقهرهم فقضى على الكثيرين منهم وقبض على بعضهم ، ولكن سطوة السودان لم تنته بهذه المعركة فان كثيرين منهم فروا الى الوجه القبلى ، وبذلك ظل الصعيد مثار شغب واضطراب على صلاح الدين حوالى ست سنوات ، وكان يتوهم السودانيون في هذه الحركات رجل يسمى كثر الدولة ، وهو من أبناء الصعيد ، ولم تنته هذه الفتنة بالصعيد إلا سنة ٥٧٠ هـ وكان الملك العادل أخو صلاح الدين قائدا لجيوش أخيه في هذه المعارك .

ومن الحركات التى أثارت المتاعب في وجه صلاح الدين تلك الحركة التى قام بها الشاعر عمارة اليمنى ، فقد استطاع عمارة أن يضم إليه كثيرين من الثائرين على الدولة وبعض السودانين والتركمان وبعض الأكراد الذين دب في نفوسهم الحسد ضد صلاح الدين ، وأن يضم كذلك بعض الذين كانوا كبار موظفى الدولة الفاطمية : أمثال عبد الجبار بن إسماعيل داعى الدعاة ، وابن كامل قاضى القضاة وغيرهما ، ثم اتصل عمارة اليمنى بقوى الأعداء بالخارج يستجدى تعاونهم معه ، فاتصل بملك الفرنجة ببيت المقدس ، وبملك صقلية النورماندى ، وبرايشدالدين سنان رئيس الاسماعيلية الحشاشين ، ويمكن القول إن هذه كانت أعنف الحركات التى تعرض لها صلاح الدين ، وبخاصة هجوم أسطول صقلية الذى هاصر الاسكندرية وقبسا في ضربها بالمجانيق والدبابات مدة ثلاثة أيام ، ولكن صلاح الدين استطاع أن يتغلب على هذه الفتنة ، وساعدته الظروف إذ اضطرب توقيت الحملات الخارجية ، وقضى صلاح الدين على الهجوم الصقلى قبل أن يبدأ زحف الفرنجة ، ثم قبض على المتآمرين وأنزل بهم صورا من العقاب ، وقتل عمارة اليمنى سنة ٥٦٩ هـ .

بين صلاح الدين ونور الدين :

عندما تخلص صلاح الدين من الفاطميين ، كان عليه — ليكمل سلطانه — أن يتخلص من سيادة نور الدين زنكى ، وكان نور الدين زنكى

يخص بأن صلاح الدين بدأ يعمل لحساب نفسه أكثر مما يعمل لحساب السلطة التي أرسلته إلى مصر ، وقد ظل صلاح الدين يعمل في جبهتين في وقت واحد ، فهو من جهة يدعم ساطانه ويقوى نفسه ، وهو من جهة أخرى لا يقطع حبل الود مع نور الدين بل يذكر اسمه في الخطبة ، وينقشه على السكة ، ويسـتـرضيه بالهدايا والتحف النفيسة (١) ، ولعل أولى الخطوات التي أثارت الشكوك في نفس نور الدين كانت ذلك الطلب الذي تقدم به صلاح الدين إلى نور الدين بطلب إيفاد والده إليه ، وتبع ذلك مطالب مماثلة كطلب إيفاد أخوته وذويه ، وقد أحس نور الدين من ذلك أن صلاح الدين يريد تثبيت نفسه ودعم سلطانه واستقراره بمصر ، ولكن نور الدين لم يمانع في إرسال أسرة صلاح الدين حتى لا يعلن تخوفه من قائده (٢) .

وأخذ صلاح الدين بعد ذلك يعد نفسه لمواجهة مستقبل علاقاته بنور الدين ، مع احتمال الدخول في مشكلات حربية ضده إذا عجزت أساليب السياسة عن التوفيق ، ولذلك أخذ ينشئ قلعة عظيمة على إحدى قمم المقطم لينقل لها مسكنه ودواوينه وليتحصن بها إذا دهمه خطر ، كما أخذ يبنى سوراً حول العواصم الإسلامية الكبرى بمنطقة القاهرة ، وهي القسطنطينية والقاهرة .

وراح صلاح الدين يضع المناصب الكبيرة في الجيش والإدارة في أيدي أهله وذويه وصفوة أتباعه ليجعل منهم ستاراً بشرياً يحميه بالإضافة إلى الحصون والأسوار .

ويلاحظ في هذه الفترة أن نور الدين كان يضع الخطط ليلتقى بصلاح الدين في فلسطين ، وأن صلاح الدين كان يتهرب من هذا اللقاء مخافة أن

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ص ٥٠ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٨١ .

يعزله نور الدين أو يقبض عليه وهو بعيد عن مصر حصنه الحصين ، وقد تكررت محاولة نور الدين وتكرر معها تهرب صلاح الدين ؛ ومن ذلك أن صلاح الدين خرج مرة ليهاجم الفرنجة في مدينة الشوبك بفلسطين رجاء أن يستعيدها منهم حتى يعيد الطريق التجارى بين مصر والشام ، وقد نجح صلاح الدين في حملته ، ولكنه علم أن نور الدين قادم لمساعدته فأسرع بالعودة الى مصر ، وقد كان في هذا دليل على اتجاه صلاح الدين مما أحفظ نور الدين عليه .

على أن نور الدين أراد أن يتثبت من الأمر فأرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها الى منازل الفرنجة عند مدينة الكرك وذكر أنه هو سيقدم ليساعد صلاح الدين في هذه المعركة من ناحية الشمال ، وقد قبل صلاح الدين في بادئ الأمر ، ثم عاد ونكص مدعيا أن خروجه سيتيح الفرصة لشيعه العلويين ليقوموا بحركة مضادة له ، ولكن هذا العذر لم يكن مقبولا لدى نور الدين وتأزمت الأمور ، وأشيع أن نور الدين سيقدم على مصر ليستردها من قائده المتمرّد ، فجمع صلاح الدين أهله وذويه ليستشيرهم في الأمر ، فقال تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين : إذا جاء نور الدين قاتلناه ومنعناه من دخول البلاد ، ووافقته غيره من أهله ، ولكن نجم الدين أيوب (والد صلاح الدين) صاح فيهم منكرا ذلك ، واستعظم هذا القول ، وقال : لو حضر نور الدين لترجلنا له وقبلنا الأرض بين يديه ، ولو أمرنى أن أضرب عنق ابنى لفعلت ، وهذه البلاد لنور الدين ، ولو أراد عزل صلاح الدين لسمعنا له ولأطعنا ، ونصح نجم الدين ابنه أن يرسل لنور الدين يقول له : بلغنى أنك تريد التحرك لتسترد مصر منى فأى حاجة الى هذا ؟ يرسل المولى مندوبا يضع في رقبتى منديلا ويأخذنى إليك ، فما هنا من يمتنع عليك .

وكتب صلاح الدين بذلك ، وكتب عيون نور الدين اليه ما سمعوه

من تجمع الدين ، فهذأت الأحوال وتحسنت العلاقات (١) . على أن
انتظار صلاح الدين لم يطل فإن نور الدين مات سنة ٥٦٩ وخلا الجو
لصلاح الدين من هذا الخصم الخطير .

بعد نور الدين :

لقد تركت وفاة نور الدين فراغا كبيرا في هذه المنطقة الخطيرة والفترة
المرجعة ، فقد كان رجلا عظيما أرهق الفرنجة ، وأنزل بهم كثيرا من
الهزائم ، ولم يكن هناك من يملأ هذا الفراغ بسهولة ، فابنه إسماعيل
الذي نودى له بالسلطان بعده كان في الحادية عشرة من العمر ، وكانت
حمايته والإشراف عليه موضع نزاع بين كمشتكين الأتابك وشمس الدين
محمد عبد الله بن المقدم ، وكان سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود
بن عماد الدين زنكي (ابن عم إسماعيل) مستقدا بالموصل وشمس الدين
على بن الداية على قلعة حلب : ولم يكن صلاح الدين حتى ذلك الوقت
أعظم شهرة من هؤلاء ولا أثبت قدما ، بل كان واحدا من الطامعين ، ولكن
حركة التنازع بالشام كانت خطيرة ، إذ كان الفرنجة واقفين بالمرصاد ،
يتحينون الفرص للكسب والتدخل ، وكان المتنازعون للأسف يلجأون
للفرنجة طالبين العون والنجدة ضد بعضهم البعض ، وقد وصف صلاح
الدين هذه الحال للخليفة العباسي أبلغ وصف بقوله : وتوافت إلينا
الأخبار بما المملكة النورية عليه من تشعب الآراء وتوزعها ، وتشقت
الأمور وتقطعها ، وإن كل قلعة حصل فيها صاحب ، وكل جانب قد طمع
إليه طالب ، والإفرنج قد بنوا قلاعاً يتخطفون بها الأطراف الإسلامية ،
ويضايقون بها البلاد السامية ، وأمراء الدولة النورية قد سجن كبارهم
وعوقبوا وصودروا ... (٢) .

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٨٥ .

(٢) عماد الدين بن شداد : المحاسن اليوسفية ص ٦٧ .

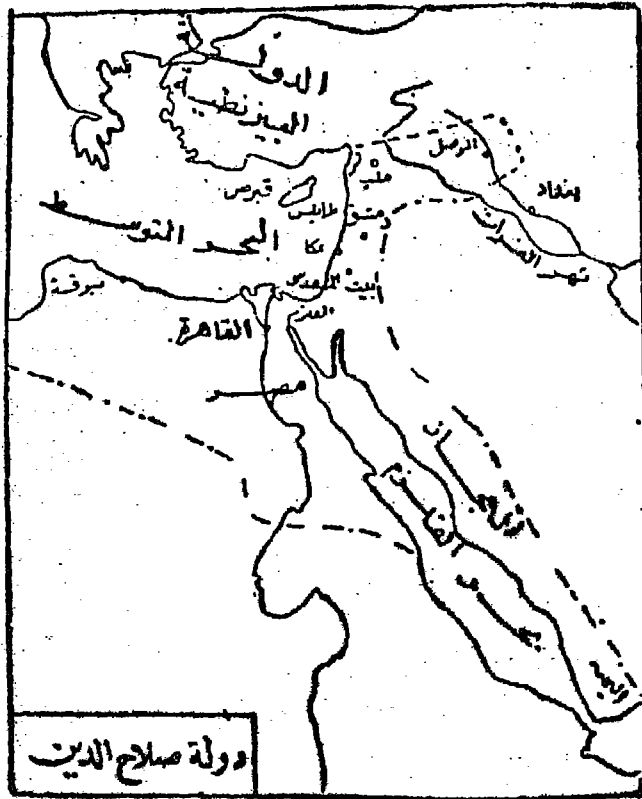
وفي وسط النزاع بين قواد نور الدين رأى ابن المقدم بدمشق أن
كفة كمشتكين رجحت فاستطاع أن يسجن ابن الداية ويستولى على حلب ،
ثم خاف ابن المقدم عاقبة ذلك على نفسه وأتباعه فأرسل الى سيف الدين
غازي يطلب منه أن يحضر الى دمشق ليحكمها وينجيها من كمشتكين ،
ولكن سيف الدين لم يستجب له ، فأرسل هذا يدعو صلاح الدين لذلك ،
وكانت مصر آنذاك تنعم في ظله بالاستقرار ، مما رجح كفته إذا قيس
بالاضطراب الذي غمر بلاد الشام ، وأيد الخليفة العباسي هذه الدعوة
فرحف صلاح الدين للشام سنة ٥٧٠ هـ بعد أن هادن الفرنجة ، وخاض
في الشام بعض المعارك كتب له في نهايتها النصر المؤزر ، ودانت له بلاد
الشام فيما بين ٥٧٠ و ٥٧٢ وامتد نفوذه إلى الموصل ، ثم استولى على
حلب سنة ٥٧٨ بعد وفاة اسماعيل ابن نور الدين (٥٧٧) : وبذلك امتد
سلطانه من النيل الى الفرات فيما عدا معقل الفرنجة ، وقد أحسن صلاح
الدين الى الأمراء المهزومين وتصلح مع بعضهم ومنحهم المال والإقطاع ،
وكتب له الخليفة العباسي بالولاية على مصر والشام .

صلاح الدين يوسّع مملكته :

تكلما آنفاً عن تأسيس مملكة صلاح الدين على أنقباض مملكة
نور الدين زنكي ، ولكن صلاح الدين كان أبعد طموحاً ، فقد أراد أن
يضم الى المملكة التي ورثها عن نور الدين ممالك أخرى وبقاعاً لم يسبق
لنور الدين أن حكمها ، وقد استطاع صلاح الدين أن يحقق هذا الحلم
خلال سلطانه بمصر ، وكان أبرز هذه البقاع ما استعاده صلاح الدين من
الفرنجة بالشام وما أنزله بهم من خسائر سارت بذكرها الركبان وقوضت
صرح حياتهم ، وفتحت الطرق لمن جاء بعده ليكمل رسالته وليزيل هذا
الكاينوس من أرضنا المقدسة : وسنتكلم عن هذه الانتصارات في بحثنا
عن « الحروب الصليبية » .

وبجانب الأرض المقدسة التي استعادها صلاح الدين من الفرنجة

مد صلاح الدين مملكته الى يقاع أخرى خلال حكمه بمصر ، فقد أرسل أخاه طوران شاه الى شواطئ شمالي إفريقية فاستولى على سواحل طرابلس وتونس حتى مدينة قابس من النورماندين سنة ٥٦٨ ، ثم أرسله الى بلاد النوبة والسودان فاستولى عليها ، ثم بعث به إلى اليمن فاحتلها وضمها إلى سلطانه سنة ٥٦٩ ودانت له كذلك انجيز التي كانت تابعة لمن يستولى على النساطه بمصر منذ العهد الإخشيدي كما سبق القول •



رجال صلاح الدين :

أنتجت أسرة صلاح الدين الأيوبي مجموعة من الأبطال في السياسة والحرب ، كانوا خير عون لصلاح الدين في المهام التي حملها ، ويعتبر

والده نجم الدين أيوب رجل حكمة من الطراز الأول ، وقد لعب دورا كبيرا في تهدئة الأحوال بل توثيق العلاقات بين ابنه وبين نور الدين على ما رأينا ، وقاد إخوة صلاح الدين جيوشه وحققوا له ألوانا من النصر في معارك عهده ضد الصليبيين وفي اليمن وشمالى إفريقيا : ويعتبر العادل سيف الدين وطوران شاه أخوا صلاح الدين في القمة بين رجاله .

ومن رجال صلاح الدين كذلك وزيره بهاء الدين قراقوش ، وكان بطلا عظيما ، خاض المارك مع صلاح الدين ، وبنى سور القاهرة وقلعة الجبل (قلعة صلاح الدين) وقناطر الجيزة ، وكان واليا على عكا عندما اقتحمها جيوش الصليبيين ، فوقع في الأسر وافتداه صلاح الدين بعشرة آلاف دينار ، وقد جرت الأساطير بتعسفه وظلمه ، ولكنه في الحقيقة ليس كذلك ، ولا يوجد دليل على صحة هذا الادعاء ، ومن رجال صلاح الدين الكاتب الشهير ابن العماد الأصفهاني الذي خدم من قبل نور الدين ، ثم رافق صلاح الدين في حملاته جميعا ، وقد كتب مؤلفا أرخ به لفتح القدس يسمى « الفتح » أو « الفتح القسسى في الفتح القدسى » ، ومع عنايته بالمحسنات اللفظية فيه ، يثعد من أوثق ما يصور هذا الفتح العظيم ، وله ديوان شعر كبير ، وأعظم شعره ما صوّر به الصروب الصايبية ، وترجم عن الفارسية كتاب « فتور زمان الصدور وصدور زمان الفتور » لأنوشروان بن خالد في تاريخ السلاجقة .

ومن رجال صلاح الدين كذلك بهاء الدين بن شداد الذى كتب بسيرة صلاح الدين ، والقاضى الفاضل وكان أيضا من رجال الفاطميين ، ثم عنى بالإدارة في عهد صلاح الدين ، ومنهم الفارس أسامة ابن منقذ ، مؤلف كتاب الاعتبار ، وقد كان من رجال نور الدين ثم انضم تحت لواء صلاح الدين ، وهو يصور في كتابه هذا مغامراته في الحرب والسلم ، وفي الطرد بصورة خاصة .

إن رجال صلاح الدين كانوا صفوة ممتازة ساعدت الرجل العظيم على تحقيق آماله .

شخصية صلاح الدين

يُبْرَزُ الفرييون عند حديثهم عن صلاح الدين أنه كان كروياً ، ويريدون بذلك خلق عملية انعزال بينه وبين العرب ، وهذه مقالة ينبغي إبراز زينها ، ففي المجتمع الاسلامي التقت جنسيات عدة ، وأغلبها انما في هذا المجتمع وأصبح جزءاً منه . حتى هؤلاء الذين تماسكوا حيناً كالماليك والبيهيين والسلاجقة آل أمرهم إلى الذوبان في هذا الخضم الزاخر ، ولقى حنقه منهم من حاول أن يستمر على انعزاله وهو في وسط البحر الصاخب .

على أن صلاح الدين الأيوبي ولد في أرض عربية ، ودرج في القلوات العربية ، وتربى على التقاليد الاسلامية ، وتطورت حياته على النمط العربي الاسلامي ، وكانت الآداب العربية متعته ، أفسح لها فازدهرت في قصره وعهده أيما ازدهار ، وكان أكثر جنده من العرب ، وبعضهم من قوميات مختلفة ، ولكن اللغة العربية كانت لغة الجميع ، والثقافة الاسلامية كانت البوتقة التي انصهرت فيها كل هذه الجموع ، فغدوا يُعرَفون بها وفي ظلها يجاهدون (١) .

وتأثر صلاح الدين بالجماعة التي عاش بينها وأصبح في النهاية قائداً لها ، وتأثر في هذه الجماعة كذلك ، وإن الباحث إذا عدَّ صفات صلاح الدين وأخلاقه ، يجدها مزيجاً من شهامة العرب وسماحة الاسلام ، ومن مواهب صلاح الدين الشخصية ، القيادة الماهرة ، والسياسة البارة ، وحب العفو ، والوفاء للصديق ، والنبيل مع العدو مع الكرم السابغ والعلم الزاخر ، ومع تشجيع العلم ورعاية العلماء ، وهذه كلها صفات نجدها في كثير من القادة المسلمين متقاربة أو متفاوتة بتفاوت شخصياتهم ، وقد احتفى كتاب الغرب وملوك الغرب بصلاح الدين وسيرته على نحو ما

(١) قدرى قلجى : صلاح الدين الأيوبي ص ٥٥ .

احتقى به المسلمون ، فقد كان الجانب الإنساني بصلاح الدين موضع دهشة الغربيين في فترة لم يكن للجانب الإنساني فيها مجال •

أما بطولة صلاح الدين ، واحتماله الشدائد ، وتخطيطه للنجاح ، فقد فاقت كل وصف ، لقد أحدث صدعا ضخما بجبهة الفرنجة ، ولم يلتئم هذا الصدع بعده ، بل ظل يتسع في عهد من جاءوا بعده وساروا سيرته ، حتى هوى ذلك الصرح الذي بناه الفرنجة في أرضنا الطيبة •

وليس من شك في أن قلة ضئيلة من أمراء المسلمين يمكن أن تضارعه من حيث تجرده عن أية نزعة إلى الكسب الشخصي ، ومن حيث انصرافه إلى خدمة الدولة ورعاياها ليس غير ، ولم يستطع أعداؤه أنفسهم إلا الإقرار له بالشهامة والنبيل في معاملة الخصم المظلوم (١) •

ومما يدل على زهد صلاح الدين ، وبعده عن الكسب الشخصي أنه وزّع على أتباعه وعلى المسلمين جميع الكنوز التي وقعت في يده من قصور الفاطميين ، عقب نهاية الخلافة الفاطمية ولم يترك لنفسه شيئا منها (٢) ، وعندما مات إسماعيل ابن نور الدين واستولى صلاح الدين على ملكه ، عفا عن كل ثروته وتركها لأهل الملك الراحل ، وهكذا لم يخلف هذا السلطان العملاق إلا سبعة وأربعين درهما وقطعة واحدة من الذهب (٣) ، كما لم يخلف دارا ولا عقارا ، وكان يفوز . إن بقيت الديار لنا فلنا كل ما فيها ، وإن ضاعت منا ضاع ما يملكه كل فرد واستولى عليه العدو (٤) ، ولكن الذكرى التي خلفها صلاح الدين لا تزال كنزا يفوق كل تقدير في الشرق والغرب على السواء •

وتوفي صلاح الدين سنة ٥٨٩ هـ ، وله من العمر خمس وخمسون سنة تاركا ذكرا معطرا وسيرة زاهية ستبقى على مر الزمن •

-
- (١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج٢ ص ٢٣٢ .
 - (٢) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج٢ ص ٢٤١ .
 - (٣) أبو الفدا : المختصر في تاريخ البشر ج٨ ص ٩ .
 - (٤) شاهنشاه بن أيوب : ذيل النوادر ص ٢١٩ .

خلفاء صلاح الدين

يمكن القول إن بذور انهيار دولة صلاح الدين قد بدأت مع وفاته ؛ فإن ملكه الفسيح سرعان ما تقطعت أوصاله ، إذ قسّم المملكة بين أولاده وإخوته وغيرهم من فروع الأسرة ، فجعل السلطنة العامة لابنه الأفضل أكبر أولاده وجعل له دمشق وجنوبى سوريا ، وجعل مصر لابنه العزيز ، وجلب لابنه الظاهر ، وكانت العراق وديار بكر لأخيه العادل ، وتولى أفراد من أسرته جماء وحمص وبلبك واليمن ، ولكن سرعان ما دب الشقاق بين هؤلاء بعضهم البعض مما أضعف الدولة وقلل نشاطها .

ولقد كانت الدولة مقسمة على هذا النحو في عهد صلاح الدين ، بمعنى أنه وليّ إخوته وأفراد أسرته أجل الولايات وأعظم الأعمال كما قلنا من قبل ، ولكنّ كلا من هؤلاء كان تابعاً له يعلن تبعيته ، ولا يقوى أن يبدى أى اتجاه استقلالى ، ولعل صلاح الدين كان يعتقد أن ولاء هؤلاء سيظل للسلطان الأفضل ، وسيبقون جميعاً حوله خاضعين له مكونين معه كتلة إسلامية قوية ، ولكن هذا الأمل لم يتحقق ، وحلّ محلّ الوثام خصام ، إذ لم يكن الأفضل يشبه صلاح الدين في مواهبه العسكرية والادارية أو يقرب منه .

وعلى العموم فقد رجحت كفة الملك العادل على منافسيه ، فضمّ تحت سلطانه أكثر بقاع مملكة صلاح الدين ، فقد ضم دمشق سنة ٥٥٩٢ من الملك الأفضل ، كما استطاع أن يستولى على مصر سنة ٥٥٩٦ من المنصور بن العزيز ، ولم تبق من بلاد الشام إلّا حلب التى ظلت خاضعة لاذرية صلاح الدين حتى سنة ٦٥٨ هـ ، وحوالى سنة ٥٩٧ هـ استولى على شمال العراق وعيّن من أولاده من حكمها باسمه ، ومات العادل سنة ٦١٥ هـ ، وتولى أبناؤه السلطان في مملكته في فروع متعددة على نحو ما تم بعد موت صلاح الدين ، غير أن السلطان ظل في أبناء العادل بهذه

البقاء حتى سقوط الدولة الأيوبية ، ولم يتحول عنهم كما تحول عن أبناء صلاح الدين ، مع ملاحظة أن الناصر يوسف من سلالة صلاح الدين وهو ملك حلب ضم إليه دمشق سنة ٦٤٨ هـ عند سقوط الأيوبيين وقيام دولة المماليك بمصر ، وقد استردها المماليك فيما بعد ؛ أما حماه وحمص واليمن ، فقد كانت تابعة لأمراء من الأسرة الأيوبية ينحدرون من أبناء عمومة صلاح الدين .

وبسقوط الأفضل سنة ٥٩٢ هـ عادت مصر لتكون المركز الرئيسى لسلطان الأيوبيين بزعامة أولاد الملك العادل الذين استطاع أكثرهم أن يمدوا نفوذهم الى سوريا ، وقد عاشت سلطة الأيوبيين بمصر حتى سنة ٦٤٨ هـ ثم أفسحت الطريق للمماليك الذين كان اشتراهم الملك الصالح نجم الدين أيوب وجعلهم خاصته وبطانته ، وقضى على غالبية أمرائه وعين المماليك محلهم ، وكان هؤلاء يظهرون غاية الاخلاص لسيدهم ، ولكنهم بعد موته لم يستطيعوا أن يظلوا على ولائهم لابنه توران شاه ، واتخذوا جانب شجرة الدر زوجة أبيه والتي تنحدر من المعين الذى انحدروا منه وتآمروا معها على توران شاه وقتلوه ، وبدأ بذلك سلطانهم سنة ٦٤٨ هـ .

ولما استبد المماليك بمصر بقيت دمشق حاباً مدة عشر سنوات حتى اكتسحها المغول سنة ٦٥٨ فى زحفهم المدمر ، وبعد معركة عين جالوت عاد سلطان المماليك الى دمشق وحلب ، ومن سلاطين « حماة » الأيوبيين ينبغى أن نذكر المؤرخ الكبير « أبو الفدا » الذى حكم من سنة ٧١٠ هـ الى سنة ٧٣٣ هـ ، أما سلطان الأيوبيين بالحجاز فقد انتقل سنة ٦٢٥ هـ إلى الدولة الرسولية باليمن .

وكانت الحروب الصليبية أهم الأحداث التى شغلت العهد الأيوبي ، ولذلك نكتفى الآن بهذا القدر من الكلام عن صلاح الدين وخلفائه ، وسيمتد لهم الحديث مرة أخرى عند الكلام عن الحروب الصليبية .

والقوائم الآتية تبين أهم ملوك الأيوبيين في البقاع المختلفة :
صلاح الدين ٥٦٤ - ٥٨٩
وأولاد صلاح الدين

الأفضل بدمشق ٥٨٢ - ٥٩٢ كانت معه في حياة أبيه ، ثم عزله العادل واستولى على دمشق سنة ٥٩٢ (توفي الأفضل سنة ٦٢٢)	العزیز بمصر ٥٨٩ - ٥٩٥ منصور ٥٩٥ - ٥٩٦ عزله العادل واستولى على مصر سنة ٥٩٦	الظاهر ب حلب ٥٨٢ - ٦١٣ (كانت معه في حياة أبيه وبعده) العزیز بن الظاهر ٦١٣ - ٦٣٤ الناصر يوسف (*) ٦٣٤ - ٦٥٨
---	--	--

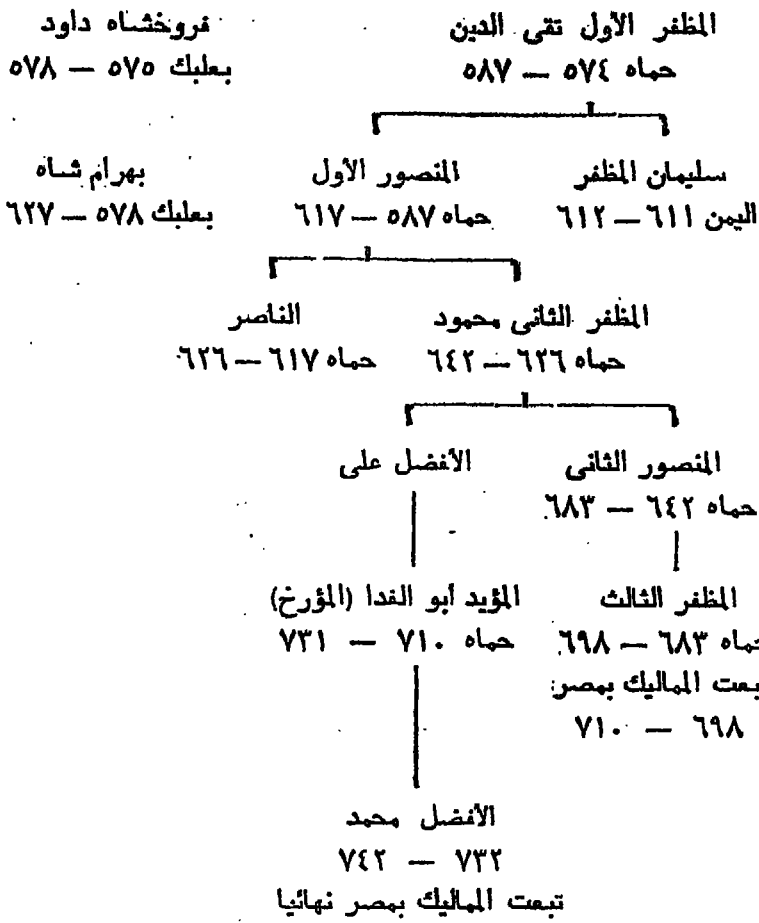
(*) استولى أيضا على دمشق سنة ٦٤٨ عقب قيام دولة المماليك بمصر
كما سبق القول .

العادل : الموصل ٥٨٩ - دمشق ٥٩٢ - مصر ٥٩٦ - توفي سنة ٦١٥
أهم أولاد العادل

الأشرف موسى - الموصل ٦٠٧ (قبل وفاة العادل) ثم بعد وفاته - ضم حمص سنة ٦١٧ الناصر داود - ضم دمشق سنة ٦٢٦ دمشق ٦٢٤-٦٢٦ (توفي سنة ٦٣٥) عزله الأشرف موسى وضم دمشق	المعظم عيسى دمشق ٦١٥ حتى وفاته سنة ٦٢٤	الصالح اسماعيل دمشق ٦٣٧-٦٤٣ مصر ٦١٥-٦٣٥ دمشق ٦٣٥
--	---	--

الصالح نجم الدين أيوب - مصر ٦٣٧ - دمشق ٦٤٣ حتى وفاته سنة ٦٤٧ المعظم توران شاه مصر ودمشق ٦٤٧ - ٦٤٨ الملك الأشرف مظفر الدين موسى مصر ودمشق ٦٤٨ (عزله أيوب)	المسعود يوسف اليمن ٦١٢ - ٦٢٥ (أخذها منه الصالح اسماعيل بن العادل)	العادل الثاني مصر ودمشق ٦٣٧ - ٦٣٥
--	---	--------------------------------------

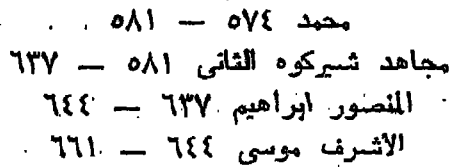
(اولاد شاهنشاه اخي صلاح الدين)



سيف الاسلام (اخو صلاح الدين) اليمن ٥٧٧ - ٥٩٣



اولاد اسد الدين شيركوه (عم صلاح الدين) في حمص



الاقطار التي حكمها الأيوبيون

٥٦٤	مصر : صلاح الدين
٥٨٩	العزیز عثمان
٥٩٥	المنصور محمد
٥٩٦	العاذل سيف الدين
٦١٥	الکامل محمد
٦٣٥	العاذل الثاني
٦٣٧	الصالح نجم الدين أيوب
٦٤٦ — ٦٤٨	المعظم توران شاه

وقد حكم السلاطين الخمس الأخيرون سوريا أيضا — وانتقل السلطان
بغداد توران شاه اسميا إلى الملك الأشرف مظهر الدين موسى وعمليا إلى
شجرة الدر ، ثم عزل إبيك الملك الأشرف وتزوج من شجرة الدر ،
وانتقل السلطان إلى المماليك .

٥٨٢	دمشق : الملك الأفضل
٥٩٢ (ثم أخذ مصر سنة ٥٩٦)	العاذل سيف الدين
٥١٦	المعظم شرف الدين عيسى
٦٢٤	الناصر صلاح الدين داود
٦٢٦ (كان حاكما للعراق سنة ٦٠٧)	الأشرف موسى
٦٣٥	الصالح إسماعيل
٦٣٥ (سلطان مصر)	الکامل
٦٣٥ (سلطان مصر)	العاذل الثاني
٦٣٧ (سلطان مصر)	الصالح نجم الدين أيوب
٦٣٧ (استعاد السلطة)	الصالح إسماعيل

الصالح نجم الدين أيوب ٦٤٣ (سلطان مصر مرة أخرى)
توران ثساہ ٦٤٧ (سلطان مصر)
الناصر صلاح الدين يوسف ٦٤٨ (سلطان حلب)
إلى ٦٥٨

(اكتسحها المغول ثم استعادها المماليك)

حلب : الظاهر غياث الدين ٥٨٢
العزیز غياث الدين ٦١٣
الناصر صلاح الدين يوسف ٦٣٤
(ضم دمشق سنة ٦٤٨ كما سبق)
إلى ٦٥٨

(اكتسحها المغول ثم استعادها المماليك)

الموصل : الأوحى نجم الدين أيوب ٥٩٧
الأشرف موسى ٦٠٧ (ضم دمشق)
المظفر غازي ٦٢٨
إلى ٦٤٣
(اكتسحها المغول)

حماء : المظفر الأول تقي الدين عمر ٥٧٤
المصور الأول ٥٨٧
الناصر كلج أرسلان ٦١٧
المظفر الثاني ٦٢٦
المصور الثاني ٦٤٢
المظفر الثالث ٦٨٣
(سلاطين المماليك) ٦٩٨

المؤيد أبو الفدا ٧١٠ (المؤرخ الشهير ، استقل بحماه عن المماليك)
الأفضل ٧٣٢ — ٧٤٢

(عادت السلطة للمماليك)

٥٧٤	حنص : محمد بن شيركوه
٥٨١	مجاهد شيركوه
٦٣٧	المنصور ابراهيم
٦٤٤	الأشرف موسى
٦٦١	إلى

(آلت السلطة للماليك)

٥٦٩	الحجاز : المعظم توران شاه بن أيوب
٥٧٧	سيف الاسلام بن أيوب
٥٩٣	معز الدين إسماعيل
٥٩٨	الناصر أيوب
٦١١	المظفر سليمان
٦١٢ إلى ٦٢٥	مسعود صلاح الدين يوسف

(آلت السلطة لبنى رسول باليمن الذين بدعوا سلطانهم نوابا عن الأيوبيين)

كلمة ختامية

عن الدولة الأيوبية

في هذه الكلمة نجيب عن سؤالين مهمين :

١ - هل اقتصر نشاط الأيوبيين على الناحية العسكرية أو كان لهم مجال في الناحية الحضارية ؟

٢ - هل كان صلاح الدين في نضاله يسعى لتكوين مجد شخصي له ؟
في الإجابة عن السؤال الأول نقرر أن الناحية العسكرية لم تشغل الأيوبيين عن النشاط الحضاري ، وقد أشرنا من قبل إلى أنهم ساروا بمصر ودمشق سيرة نور الدين في فتح المدارس وذلك ليوصلوا عقول الناس إلى التفكير السني بعد أن عاشت مصر ودمشق زهاء قرنين في إطار التفكير الشيعي ، وكانت مدارس الأيوبيين كثيرة العدد بحيث تمكنت من تحقيق أهدافها في وقت قصير ، ويمتاز هذا العهد بأن الأمراء والأميرات والتجار وغيرهم من الأهلين حتى الخدم أسهموا في إنشاء المدارس ورعاية العلم (١) .

وبالإضافة إلى المدارس حدث تطور حضاري في مصر وسوريا نتيجة التفاعل بين المسلمين والصليبيين ، وسندرس هذا التفاعل بشيء من التفصيل عقب الحديث عن الحروب الصليبية .

وبخدم صلاح الدين فن العمارة خدمات عظيمة في القدس والقاهرة ، فأما في القدس فقد كان له فضل تجديد المسجد الأقصى الذي اتفذه الصليبيون قصرا لهم ، وتربيته بالفسيفساء والرخام ، ليس هذا فقط بل لقد أقام فيه منبرا نفيسا لا يزال باقيا حتى اليوم .

أما في القاهرة فقد شيد القلعة الشاهقة المعروفة باسمه ، وبدأ في إنشاء السور الذي يصون القاهرة من كل هجوم قد تتعرض إليه .

(١) انظر تاريخ التربية الإسلامية للمؤلف ص ١٢١ من الطبعة الثامنة .

وللإجابة عن السؤال الثانى نقرر أننا لا نستبعد على أى قائد أو زعيم أن يكون له طموحه الشخصى أو آماله الخاصة ، ولكن براعة الزعيم تبدو لو استطاع أن يوفق بين هذا الطموح وبين آمال الشعب الذى يترعنه . وقد كان صلاح الدين يسير فى هذا الاتجاه ؛ فقد كان العالم العربى يميل الى الوحدة ، إذ أن التشكك سبب الكارثة والاحتلال الصليبي ، وكان العالم الاسلامى يميل الى التكتل ليقف فى وجه التكتل الصليبي ، وليستعيد الأرض السليبية ، وقد وجد العالم العربى والاسلامى فى صلاح الدين خير معبر عن هذه الآمال .

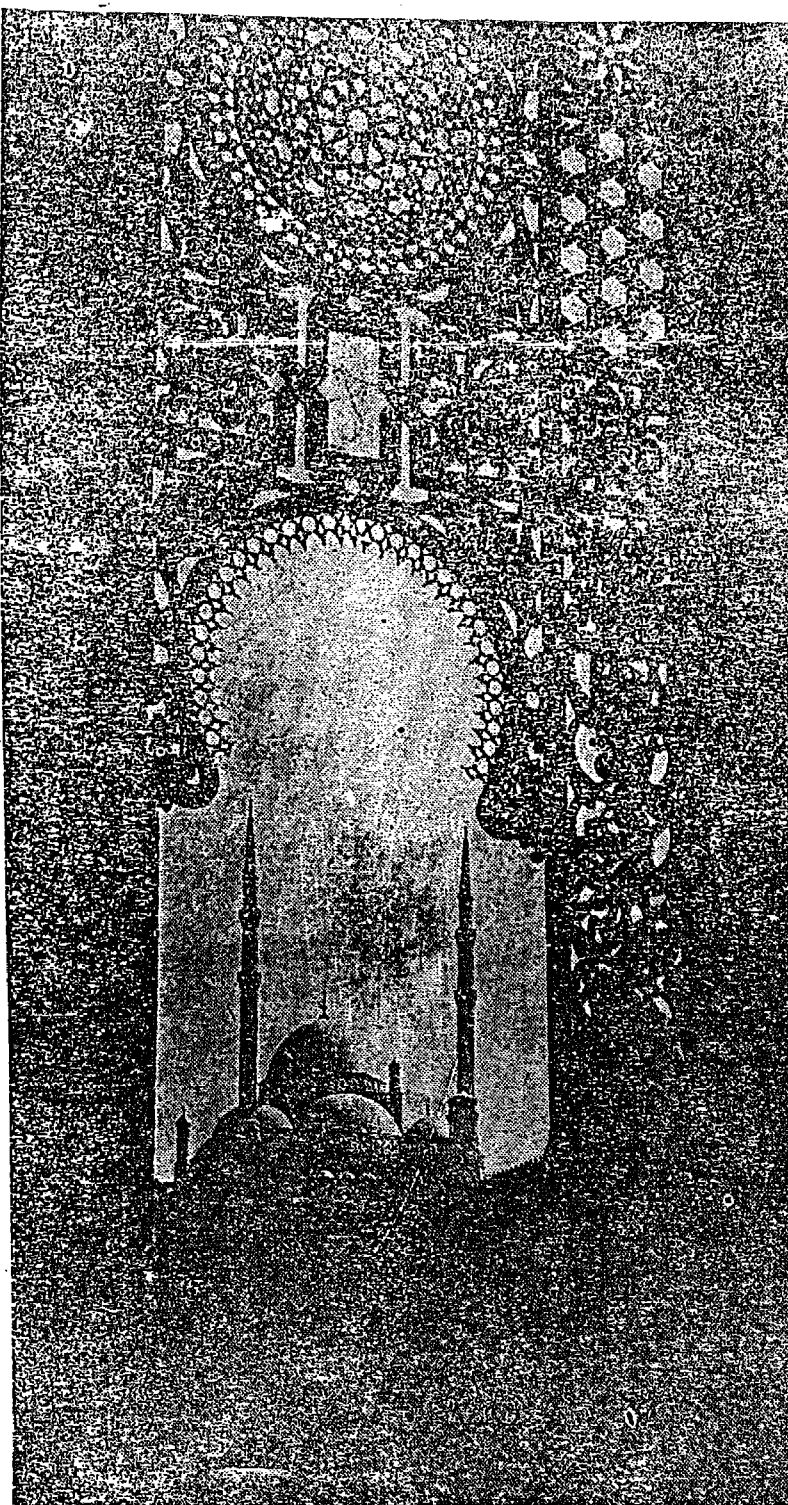


آثار مصر من العهد الأيوبي :

قلعت * آثار الدولة الأيوبية لانشغالها بالحروب الصليبية من جانب ، ولاهتمامها بنقل البلاد الى المذهب السنى من جانب آخر ، وأهم آثار مصر فى هذا العهد قلعة صلاح الدين الأيوبي ، وهى آية فى الدقة والاتقان ، وقد دخل عليها كثير من التغيير .

ومن آثارها كذلك مشهد الإمام الشافعى الذى مات بمصر سنة ٥٠٤هـ ثم بنى مشهده فى عهد الدولة الأيوبية ، ولعل ذلك كان جزءا من نشر المذهب السنى والحفاوة بالعلماء السنيين . وقد بنى الأيوبيون مجموعة كبيرة من المدارس التى كانت امتدادا لمدارس نور الدين زنكى بالشام ، تلك التى كانت بالتالى امتدادا لمدارس نظام الملك الوزير السلجوقى بالعراق وإيران ولا تزال بمصر آثار وامتدادات لهذه المدارس الأيوبية .

أما الآثار المعنوية لصلاح الدين فهى تلك التى ترتبط بزهده فى المال العام ، وبطولاته التى دمّرت الصليبيين ، وتلك آثار لن تنساها الأجيال الإسلامية ، وسيظل الباحثون المسلمون يتمنون أن يحاكموها القادة والرؤساء على مر الأجيال إن أرادوا أن يحطوا سريتهم ، وأن يضمنوا رضا الله ورضا الأجيال منهم . إنها آثار شامخة تتضاءل أمامها كل الآثار .



قلعة صلاح الدين الأيوبي

المماليك

(٦٤٨ - ٩٢٣ هـ = ١٢٥٠ - ١٥١٧ م)

المالِك

نحن الآن أمام عصر لا يزال يكتنفه الغموض ، وبالتالي يحتاج إلى دراسات جديدة تبعث فيه الضوء ، وسنشير فيما يلي نقاطا مهمة ترتبط بالماليك ونحاراً، تجلية غموضها :

مملوك أو رقيق ؟ ؟

ممالك جمع مملوك وهو شخص اشترى بالمال ، وحقيقة اشترى بعض الخلفاء والسلاطين أناسا بالمال ، ولكن السؤال المهم هو : هل هؤلاء كانوا حقيقة ممالك وأرقاء يبيع التشرع بيعهم وشراءهم ؟

ويذكرون ان العز بن عبد السلام امتنع عن المبيعة للظاهر بيبرس لأن بيبرس رقيق مملوك للامير علاء الدين البندقدار ، ومن ثم لا تجوز ولايته ، ولم يبيع له العز بن عبد السلام حتى ثبت له أن البندقدار باع بيبرس الى الملك الصالح نجم الدين الذي اعتقه بعد ذلك .

والذي نحب ان نقرره أن هؤلاء ليسوا ممالك ولا أرقاء ، وأنهم أحرار تماما ، وأن بيعهم باطل ، لقد كانوا جميعا صفقات غير مشروعة ، كان الأب يبيع ابنه ليندفعه الى المجد في القصور وهو ما يسمى « الرق الصناعي » وكان الأقوياء والنخاسون يخطمون الأطفال ويستولون عليهم عنوة ، ثم يعرضونهم للبيع ، والاسلام يرفض هاتين الوسيلتين ولا يقبل أيا منهما لتكون مصدرا للرق .

فالرق في الإسلام يجيء عن طريق الحرب الدينية التي يقصد بها الجهاد في سبيل الله لرد اعتداء يقوم به غير المسلمين على المسلمين ، بشرط ألا يكون الأسير وقت أسره مسلما ولو كان في جيش الأعداء ، وبشرط أن يضرب الإمام عليه الرق (١) .

(١) انظر موضوع « الرق وموقف الاسلام منه » بكتاب الاسلام للمؤلف

ذلك وحده هو مصدر الرق في الإسلام ، مع ملاحظة أن الرسول لم يسترق حرًّا قط (١) ومع ملاحظة الآية الكريمة التي توضح أنه بعد الحرب والأسر يكون المن على الأسرى أو إطلاقهم نظير فدية ، قال تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فعذبوا فعذبوا الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منكم بعد وإما فداء » (٢) .

فإذا جئنا لتطبيق هذه المبادئ الإسلامية يتضح لنا بشكل لا يوجد معه الشك أن هؤلاء ليسوا أرقاء ولا ممالك ، ونسوق فيما يلي بعض الاقتباسات التاريخية التي توضح حقيقة الأمر .

يذكر المقرئ (٣) أن الأطفال الذين كانوا يُعَرَّضُونَ للبيع كانوا ينتمون إلى قبائل بدائية بسيطة جاهلة ، تعيش في فقر وشغل من العيش ، حتى كان الآباء يضطرون لبيع أبنائهم للتخلص من تحمل تبعاتهم ، ولكي يضمنوا لهم مستقبلًا أفضل مما ينتظرهم في بلادهم .

وهكذا كانت تتم هذه الصفقة تخلصًا من نفقات الأولاد وعجزًا عن أداء الالتزامات نحوهم ، أو كانت وسيلة لدى الآباء ، ليدفعوا أبناءهم إلى القصور والمجد وهو في الحالتين « رق صناعي » كما أسميناه في مكان آخر (٤) ، وليس رقا يعترف به الإسلام ، ولا يمكن في مجال إسلامي أن ينتقل الإنسان من الحرية للرق عن هذا الطريق .

وهناك أطفال اختطفوا من ديارهم وأسرهم ، يذكر ابن تغري بردي (٥) أن حكام بعض الولايات وبخاصة السامانيون غيمسا وراء

(١) ابن القيم : زاد المعاد ج ٣ ص ٢٩٠ .

(٢) محمد الآية الرابعة .

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ٢ ص ٥٢٥ تحقيق الدكتور زياده .

(٤) انظر بحثنا عن « الرق الصناعي » في كتاب « الإسلام » للمؤلف .

(٥) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١ ، ٣ .

النهر دأبوا على إرسال بعض الممالك هدايا للخلفاء ، أو جزءا من الخراج المفروض على هذه المناطق التي لم تكن دخلت الاسلام بعد . ولا يعرف الاسلام خراجا يشمل « الانسان » ، فالخراج والجزية مقادير مالية تدفع تبعا لقوانين دقيقة (١) .

وفي اسبانيا كان يباع للأمراء صبيان خطفوا أيضا بهذا يسمى « السبى » فقد دأب الجرمان على سبى الصبيان والنساء من بلغاريا وألبانيا ويوغوسلافيا ... وكانوا يبيعونهم للمسلمين بالأندلس ، وقد أطلق المسلمون عليهم اسم « الصقالبة » (٢) .

ويقص لنا التاريخ الافريقى (٣) أن بعض الزعماء الأفارقة وبعض النخاسين كانوا يحترفون اختطاف الأطفال ، أو يأخذونهم فدية لبعض الأمور ، أو يرغمون الآباء على تسليم بعض أطفالهم ليترك لهم باقى الأطفال على نحو ما كان يتبع فى السخرة ثم يباع هؤلاء فى سوق النخاسة للملوك والسلاطين والقادرين على العموم ، ومن الأطفال الأفارقة الذين اختطفوا عنوة تكوّن الملايين من زنوج الولايات المتحدة فيما بعد ، ومنهم كانت تتكون بعض فرق الجيش بالبلاد الاسلامية .

وإذا كانت بلاد تركستان وبلاد ما وراء النهر والديلم والخزر والسودان والنوبة ... هى المراكز الرئيسية لجلب الرقيق . فى القرن الثالث الهجرى والقرون التالية ، فإن من المؤكد أن هذه البلاد لم تكن فيها حروب شرعية تبيح الاسترقاق .

ثم — وهذا شئ مؤكد أيضا — أن الممالك كانوا يجلبون الى مصر والى غيرها وهم فى أعمار الزهور ، فيذكر المقرئى (٤) أن الرسم كان

(١) انظر الاقتصاد فى الفكر الاسلامى للمؤلف .

(٢) دكتور احمد الصاوى : الصقالبة فى اسبانيا ص ١٢ — ١٣ .

(٣) انظر الجزء السادس من هذه الموسوعة .

(٤) الخطط ج ٢ ص ٢١٣ .

ألا يجلب التجار الا الممالك الصغار ، ويذكر ابن إياس (١) أن الأشرف برسبای جلبه بعض التجار الى البلاد الشامية فاشتراه الأمير دقماق مع جملة ممالك صغار ، •

ونتيجة هذه الدراسة فان من نسميهم ممالك هم في الحقيقة أحرار ولا يقبل الاسلام أن تزج بهم في مجال الرق ، ولنتذكر قوله عمر بن الخطاب : كيف استبعدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، ولنتذكر تصرف عمر عندما اقتحم الجيش الاسلامي بلاد فارس وبلاد الشام ومصر ، فقد رفض الخليفة أن يَعدَّ المغلوبين أرقباء ، وتركهم أحرارا على أن يدفعوا الجزية الا اذا دخلوا الاسلام فيكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين •

إن الاسلام يسمى الى الحرية ، وحرام أن يتجه المسلمون للرق والاسترقاق ، وقد عاث هذا التصرف المقيت في العالم الاسلامي اندفاعا الى ما كان معمولاً به في البلاد غير الاسلامية ، ومعنى هذا أن المسلمين اتجهوا في هذا الطريق وجهة غير المسلمين ، وهذا مالا يقره الاسلام •

وكان الدافع على رواج هذه التجارة أنها — كما يقول ابن حوقل (٢) كانت مصدر اليسر والغنى للنخاسين الذين كانوا يتخذون من خوارزم وسمرقند وغيرها مراكز لهذه التجارة ، ومن الدوافع أيضا أن الملوك والسلاطين والأغنياء ، وجدوا بغيتهم في هؤلاء الأرقاء ، فراعب الخدمة وجدها في صبيانهم ، وراعب الحراسة وجدها فيهم عندما يتقدمون للشباب ، والمتجه للعاطفة رأى في الفتيات الرقيقسات تحقيق أمنيته ، والاسترقاق كله بهذه الطرق حرام وليس من الاسلام في شيء •

(١) بدائع الزهور ج ٢ ص ١٥ ..

(٢) صورة الأرض ص ٤٨١ — ٤٨٢ ،

فلنقلها الآن كلمة قوية ؛ أن الممالك الذين سنتكلم عنهم هنا لم
يكونوا من وجهة نظر الشرع الاسلامى أرقاء ، حتى اذا جهلوا ذلك أو
فقل عنه علماء ذلك الزمان •

مصريون ؟ ؟

موضوع آخر نظرحه هنا هو جنسية هؤلاء الممالك ، فهم قد جىء
بهم من أمكنة مختلفة كما رأينا ، وبذلك كانوا ينتمون الى جنسيات متعددة ،
ولكن يجب أن يلاحظ ما يلى :

أولا - ينتمى هؤلاء الى مناطق اسلامية غالبا ، والعالم الاسلامى عالم
واحد ، والمسلمون أمة واحدة قال تعالى « ان هذه امتكم أمة واحدة »
وكان العالم الاسلامى فى القرون الأولى لا تفصل حدود بين أجزائه ،
وكان العالم ينتقل بين ربوعه من حلقة علمية بقطر الى حلقة أخرى بقطر
آخر ، وكذلك كان الطالب والتاجر والعامل ينتقل دون حواجز ، ولم يكن
انتقال المسلم من بلاد فارس أو ما وراء النهر الى مصر الا كالانتقال من
أسيوط للقاهرة أو من حلب الى دمشق أو نحو ذلك ولذلك فإن المؤرخين
يسمون ممالك مصر « الأمراء المصريون » (١) •

وكانوا هم أيضا يسمون أنفسهم « مصريين » يذكر ابن حجر (٢)
أن الأمير تنكز نائب الشام قال ذات يوم لأحد موظفى ديوان الانشاء
بدمشق : « ما فى دمشق مصرى الا أنا وأنت » وكانوا كذلك يفتخرون
بالانتساب لمصر ، ففى مراسلات التهديد بين تيمورلنك وبرقوق قال برقوق
نحن سهامنا عربية ، وسيوفنا يمنية ، وقلوبنا مصرية (٣) •

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج١٦ ص ٢٠٧ السخاوى :
الضوء اللامع ج٣ ص ٤٤ الجبرتى حوادث سنة ١٢٣٠ •
(٢) الدرر الكامنة ج١ ص ٥٠٤ •
(٣) النجوم الزاهرة ج١٢ ص ٥١ •

ثانيا — لم يأت هؤلاء الى مصر غزاة محتلين كالفرس والروم والانجليز ، وانما جاءوا أفرادا ، وكانوا في الغالب في سن الصبا ونشأوا لا يعرفون لهم وطنا الا مصر ، وكانوا — عندما آل لهم السلطان — يحكمون مصر من الداخل أى لا يخضعون لتعليمات من الخارج ، كما كانوا يحكمونها لصالحها ، فلا يربحون ثراها لموطن آخر •

ثالثا — ارتبط هؤلاء بمصر ارتباطا وثيقا لدرجة أن بعضهم وقع في أسر تيمورلنك عندما هاجم الشام وبقي هؤلاء مدة مع تيمورلنك الذى عنى بهم ووكّل لهم وظائف ممتازة ، ومع هذا فقد تسللوا عندما استطاعوا ، وعادوا الى مصر (١) •

رابعا — وصل المماليك الى درجة عالية من القوة والنفوذ ، ولكن لم يحاول أى منهم أن يعود الى بلده على الرغم من معرفته لمصدر أسرته ، بل إن الكثيرين منهم أرسلوا يطلبون آباءهم وأهليهم للاستقرار بمصر (٢) •

خامسا — اتجه الباحثون المصريون الى اعتبار المماليك شخصيات عربية إسلامية فشملت سلسلة أعلام العرب عددا منهم مثل العدد ٢٨ عن التناصر محمد بن قلاوون والعدد ٥٢ عن الأشرف قنصوه الغورى •

سادسا — تمت زيجات كثيرة بين المماليك وبنات العلماء والمفكرين مما يدل على اندماجهم بالمصريين في حالات كثيرة (٣) ، وكان الذين يزول سلطانهم السياسى من المماليك ينضوون في طيات الشعب تماما •

(١) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٥ ص ٥٢٦ — ٥٢٧ •

(٢) المرجع السابق ج ١١ ص ١٨٣ والسخاوى : الضوء اللامع ج ٣ ص ٢٨٤

(٣) انظر نماذج في « المماليك المصريون الذين لمعوا في ميدان الفكر »

ص ١٠٠ رسالة دكتوراه للمرحوم الدكتور محمد عامر باشرافى •

سابعاً — عائلات كثيرة وقبائل متعددة وفدت الى مصر على مر التاريخ من بلاد شتى ، ثم ذاب هؤلاء وأولئك في الشعب المصرى ، وأصبحوا جزءاً منه تماماً ، ولم يبق مما يربطهم بجذورهم البعيدة الا ألقاب تنم عن هذه الجذور وعن الأقطار التي وفدوا منها ، ولا يلتفت الناس عادة الى هذه الألقاب الا عند التعمق والتخصص ، ومن هذه الألقاب الجبرتنى والعلبى واليمنى والحجازى والنجدى والشامى والتلمسانى والمغربى ، وكثير من المصريين لهم جذور تركية أو عربية أو سودانية وان لم يظهر فى اسمائهم لقب ينم عن ذلك ، وقد حدث العكس أيضاً فبعض المصريين رحلوا الى أقطار أخرى واستقروا بها ومعهم لقب « المصرى » الذى تراه بوضوح فى السودان والعراق .

وعلى هذا فالطولونيون والاختسيديون والفاطيون والأيوبيون
ومن نسبيهم المماليك وأسرة محمد على مصريون مائة فى المائة ، وقد نقل الفاطميون معهم جثث آبائهم وأجدادهم عندما جاءوا من تونس الى مصر ، وكتب الملك السابق فاروق وصيته أن يدفن بقراب مصر بعد أن نفى من البلاد .

وقد يكون بعض هؤلاء ضعيفاً أو حتى خائناً ، ولكن هذا شيء آخر ، فالخيانة تحدث أحياناً فى كل البلاد من المواطن الأصلى أو الوافد ، وهى نقص فى التربية والخلق ، وعندما تكتمل التربية والخلق فالإنسان لا يخون وطنه ولا أوطان الآخرين ، ولا يرتكب هذا الانحراف .

وقد اندفع أنور السادات فى يوم من الأيام فقال ان عبد الناصر كان أول حاكم مصرى لمصر منذ حوالى ألفى عام ، وذلك ادعاء باطل ، كان نوعاً من الملق من جانب ، وكان من جانب آخر ليثبت أنه هو نفسه ثانى حاكم لمصر من المصريين ، وذلك قول لا يتفق مع العلم ولا مع التاريخ وبخاصة إذا لاحظنا أن بعض الأسر المالكة فى أوروبا وافدة من أقطار أخرى .

ديكتاتورية المماليك :

في إحدى المحاضرات العامة التي ألقاها استاذ تاريخ قسّال : إن المماليك كانوا يحكمون مصر حكما دكتاتوريا ، وعلى الرغم من نفوذ العلماء الذي كان واضحا طيلة عصر المماليك ، فأننى سألت المحاضر سؤالاً هادئاً هو : كيف كانت نظم الحكم في الأقطار الأخرى خلال عصر المماليك ؟ وهل كانت الديمقراطية سائدة في تلك الأقطار ؟ وذكرت المحاضر بأسماء بعض ملوك الانجليز في القرن الثالث عشر مثل الملك هنرى الثانى وابنه الملك جون حيث خلع الابن أباه بمؤامرة خائنة ، وتسلسل على الأمراء ورجال الكنيسة .. ومثل هذا حدث في فرنسا وألمانيا .

ما أشد الخطأ عندما نحكم على عصر سابق بقيم عصر حاضر ، لقد خلّق الاسلام الشورى وجعلها مبدأ من مبادئ الحكم ، ولكن المسلمين تخلّوا كثيراً من المبادئ الاسلامية في عصور الظلام ، وطغت عليهم موجة العصر الذي عاشوه ، لقد كانت الديكتاتورية هي سياسة ذلك العصر للأسف في كل البلاد والأوطان ، أو على الأقل في أكثرها .

المهام التي قام بها المماليك :

في مطلع الإسلام كان العرب مسيطرين على أمور الشرطة والحرب ، ولم يكونوا يسمحون للموالى بشيء من ذلك ، فلما بدأ الرقيق يظهر كان عملهم يتجه للخدمة ، وقد ظل هذا حتى سقوط الدولة الأموية ، وفي مطلع الخلافة العباسية ظهر موالى الترك والروم والبربر ، وكانوا — وبخاصة في عهد المهدي والرشيد — بطانة للخلفاء ، فملئوا بهم المواكب في الأعياد وأصبحوا زينة في أيام السلم ، واكتافا العصبيّة الخليفة (١) ثم أسندت لهم حراسة الخليفة وضمان سلامته .

(١) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٣٧٠ .

فلما جاء المعتصم تغير الأمر ، فلقد واجه الخليفة حروباً كثيرة في الداخل والخارج واجه الزط ، وبابك الخرمي ، والروم ، فاحتاج إلى تقوية جيشه ، ولم يكن يثق بالعرب مخافة أن يكون اتجاههم علوياً ، ولم يكن يثق بالفرس لأنهم حاولوا الاستيلاء على السلطة من المأمون قبل أن يعود إلى بغداد من مرو ، وكان الذي تولى ذلك الفضل بن سهل وأخوه الحسن ، ولهذا رأى ضرورة تقوية جيشه بعناصر عرفت بالشجاعة والبطولة من غير العرب والفرس ، فلجأ إلى الأتراك وكون منهم جيشه .

وبدأ بذلك تدفق الأتراك ونظائريهم ليكونوا عناصر الجيوش في كثير من البلدان ، وبدأ ظهورهم في مصر في عهد الطولونيين وفي عهد الاخشيديين والفاطميين والأيوبيين ، وكانت جنسياتهم متعددة .

وهنا نعود إلى مصر لنسأل سؤالاً مهماً هو : لماذا لم يتكون جيش من الشباب المصري عندما بدأت الحركة الاستقلالية بمصر ؟

والاجابة أن التاريخ القديم والحديث يذكر أنه كانت هناك جماعات تستأجر للدفاع والحرب ، سُمّيت في الماضي « أحابيش » أو تجمعات عسكرية ، وسُمّيت في الحاضر « مرتزقة » ولم يكن هناك في العصور الوسطى من ضرر في الاعتماد على هؤلاء في شؤون الحرب لتخصصهم وبطولاتهم ، فكما تشترى الدول الآن الآلات الحربية ، كانت الدول تستأجر الرجال .

أما أهل البلاد فكانوا يعملون في التنمية الاقتصادية والثقافية ، فكانت شؤون الزراعة والتجارة والصناعة تشغلهم ، كما كانوا يعملون في ميدان الفكر والبحوث والعلم .

ومع هذا فإننا نجد أن خمارويه عندما وجد من بين المصريين من لا يشغله العمل الاقتصادي أو الثقافي ، تقدم وجمع هؤلاء وكون منهم

فرقة مهمة من فرق الجيش سماها « المختارة » وكان أعضاؤها معروفين بالشجاعة وشدة البأس وعظم الأجسام (١) ومثل هذا حدث في مختلف العصور ، وخاصة في جيوش صلاح الدين وقطز وبيرس ومحمد علي ، فكان المصريون يمثلون نسبة كبيرة في هذه الجيوش وأحيانا النسبة العظمى .

عيوب :

إن حديثنا السابق عن الممالك لا يعنى الانحياز لهم أو خلوهم من العيوب ، فقد كانت فيهم عيوب واضحة مصدرها أنهم جاءوا من مناطق مختلفة ، وبذلك كونوا جماعات كثيرا ما ظهر التنافر فيها ، وطالما نشأت عن التنافر حروب وصراعات .

ومن عيوبهم أنهم كانوا يشعر كون عن الشعب ، عند استقدامهم ويعيشون في معسكرات خاصة ، مما جعلهم يهسون بالانزالية من جانب ، وتباعدت عن جانب آخر لارتباطهم بسلطان البلاد ارتباطا وثيقا .

وقد ذكرنا من قبل أن بينهم كان صفقة باطلة من وجهة النظر الإسلامية ، ولكن هذا التفكير لم يصل إلى عقولهم ، وربما لم يتعرف آنذاك ، ومن هنا فكان إحساسهم أنهم رقيق اشتروا بالمال ، وقد تكون عند الكثيرين منهم عقدة نقص لهذا السبب ، وكان لها رد فعل عنيف في تطلعاتهم للسيادة .

ومن عيوبهم أن القوة كانت المسيطرة على مجتمعهم ، ولا سيطرة للحكمة أو للمهوبة غالبا ؛ وعلى هذا فهم كانوا مستعدين للخضوع للقوة كما فعلوا مع المعتصم والموفق والمعتضد ، وابن طولون ، كما كانوا مستعدين أن يخضعوا الآخرين لقوتهم إذا شاهدوا في الآخرين جوانب ضعف أو تخاذل ، ومن هنا كان القلق طابع الحياة في العصر المملوكي ،

(١) ابن تيمزي بردى : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥٩ .

فإذا لم يكن السلطان قويا مهيب الجانب فإنه يكون عرضة للشورات
وضياع النفوذ .

عصر الممالك في العالم :

لقد تحدثنا عن الممالك في مصر ، ونحب أن نقول ان عصرا طويلا
كان الممالك فيه هم نواة الجيوش في بقاع مختلفة وأقطار متعددة ، ولعل
بدء ظهورهم مع العباسيين في عهد المعتصم كما ذكرنا من قبل ، ثم هذا
حذوهم السامانيون ، وسبكتكين في الدولة الغزنوية وأمراء الأندلس
وبخلافها ، كما كان العبيد والممالك يكوّنون الجيوش في العهد الاقطاعي
بأوربا .

جنسيات الممالك :

والممالك الذين نتحدث عنهم الآن لا يسمون أتراكا لأنهم ليسوا
من بلاد تركستان فحسب ، وانما هم من شبة جزيرة القرم وبلاد القوقاز
والقفجاق وآسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ماوراء النهر ، ففيهم
عنصر الأتراك وفيهم الشراكسة والروم والأكراد ، وبعضهم من البلاد
الأوربية أيضا .

طريقة تربيتهم :

وكانت تربية هؤلاء الممالك وتدريبهم تمر بمراحل متعددة ، فسان
تجار الرقيق يجلبون أعدادا منهم ويعرضونهم على السلاطين ، وكان
السلاطين يختارون منهم أحسنهمقامة وصحة ، ومن يبدو عليه الذكاء
والنجابة ، فإذا تمت عملية الشراء وضعهم السلاطين في أبراج خاصة
بهم ، ورتبوا لهم من الفقهاء والعلماء من يلقنونهم الدين والعلوم
ويأخذونهم بملازمة الفرائض ، فإذا تم ذلك وتقدمت بالممالك السن
تجاه الشباب ، وكلوا الى مدربين عسكريين لتلقينهم النظم العسكرية
وفنون الحرب ، فإذا تتم للملوك ذلك انتقل لخدمة سيده ليلحق بحرسه

الخاص أو بديوانه أو بجيشه ، وسواء كان عمله هنا أو هناك فان مواهبه قد تدفعه الى الصدارة •

ممالك مصر نوعان :

ولنعد للحديث عن الممالك الذين حكموا مصر وسوريا بعد الدولة الأيوبية ، وقد اتفق المؤرخون على تقسيم هؤلاء الممالك قسمين ، القسم الأول يعرف بالممالك البحرية ، وهؤلاء جلبهم الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي جمع من الممالك ما لم يجمع غيره من أهل بيته ، حتى كان أكثر أمراء العسكر من ممالكه (١) ، وبنى لهم قلعة بجزيرة الروضة وحشدتهم بها ، ومعظم هؤلاء الممالك من الأتراك ، واختار منهم الصالح فرقة للأسطول سميت الفرقة البحرية أو الفرقة الصالحة ، ولذلك يسمى هؤلاء الممالك : الممالك البحرية ، أو الممالك الأتراك ، والتسمية الأولى أشهر • ويرى فيليب حنّى أنهم سموا البحرية لأنهم كانوا يقيمون بجزيرة الروضة التي يحيط بها النيل ، وكان النيل يدعى عندهم بالبحر (٢) • وقد حكم هؤلاء الممالك من سنة ١٢٥٠ الى سنة ١٣٨٢ ، ومن الواضح أن هؤلاء الممالك انحدروا من أصول مختلفة ، ولا يربطهم دم ولا عنصر ، وإنما يربطهم شيء واحد هو أنهم ممالك اشتروا بالمال ، وان كان أكثرهم أتراكا كما ذكرنا •

أما القسم الثاني فمجموعة أخرى من الممالك ليست مما جلبه الأيوبيون ، وليسوا أشتاتا ينتسبون الى عناصر مختلفة ، وإنما هم شراكسة اشتراهم السلطان قلاوون أحد الممالك البحرية الذين تحدّثنا عنهم آنفا ، وقد كان يطمح في إقرار السيادة في ذريته وتم له ما أراد ، فقد حكم هو وأولاده وأحفاده أكثر من قرن (من سنة ١٢٧٩ الى سنة

(١) العيني : عقد الجهان حوادث سنة ٦٤٧ •

(٢) تاريخ سوريا : ص ٢٦٨ •

١٣٨٢) ثم استولى أحفاد مماليكه البرجية على الحكم سنة ١٣٨٢ وظلوا يحكمون مصر حتى سنة ١٥١٧ •

وسمى هؤلاء شركسة نسبة الى بلادهم ، وهى بعض بلاد الكرج « جورجيا » بين بحر قزوين والبحر الأسود ، وهى جزء من أقاليم الاتحاد السوفيتى فى العصر الحاضر ، وتوجد منطقة تعرف باسم شركس (Circassia) تمتد على الشاطئ الشرقى للبحر الأسود ، سكانها يعرفون بالشركسة ، وهم مشهورون بالشجاعة والفروسية والجمال ، وكانت تجارة الرقيق بينهم رائجة حتى أنهم كانوا يبيعون أبناءهم وبناتهم •

ويسمى هؤلاء المماليك أيضا « المماليك البرجية » وقد أطلق عليهم هذه التسمية السلطان الأشرف خليل بن قلاوون عندما قسم المماليك السلطانية الى طوائف ، وأسكن طائفة الشركس فى أبراج القلعة ، وكان عددهم آنذاك ٣٧٠٠ مملوك (١) وسلاطين المماليك الشركسة كلهم من أصل شركسى ، ماعدا اثنين هما خشقدم وتمريغا ، فقد كانا من أصل يوتانى •

وسلاطين المماليك البحرية هم :

أولا : السلاطين قبل قلاوون

- | | |
|------------------|--------------|
| ١ — أيبك | ٥٦٤٨ = ١٢٥٠م |
| ٢ — على بن أيبك | ٥٦٥٥ = ١٢٥٧م |
| ٣ — قطبز | ٥٦٥٧ = ١٢٥٩م |
| ٤ — الظاهر بيبرس | ٥٦٥٨ = ١٢٦٠م |

(١) الدكتور ابراهيم طرخان : مصر فى مصر دولة المماليك الجراكسة

- ٥ — بركة خان بن بيبرس ٥٦٧٦ = ١٢٧٧ م
٦ — سلامش بن بيبرس ٥٦٧٨ = ١٢٧٩ م

ثانيا : عهد قلاوون وابنيه خليل والناصر

- ٧ — قلاوون ٥٦٧٩ = ١٢٧٩ م
٨ — الأشرف خليل بن قلاوون ٥٦٨٩ = ١٢٩٠ م
٩ — الناصر محمد بن قلاوون [سلطته الأولى] ٥٦٩٣ = ١٢٩٣ م
١٠ — كتبغا ٥٦٩٤ = ١٢٩٤ م
١١ — لاجين ٥٦٩٦ = ١٢٩٦ م
الناصر محمد قلاوون [سلطته الثانية] ٥٦٩٨ = ١٢٩٨ م
١٢ — بيبرس الجاشنكير ٥٧٠٨ = ١٣٠٨ م
الناصر محمد بن قلاوون [سلطته الثالثة] ٥٧٠٩ = ١٣٠٩ م

ثالثا : اولاد الناصر

- ١٣ — أبو بكر بن الناصر محمد ٥٧٤١ = ١٣٤٠ م
١٤ — كجك بن » ٥٧٤٢ = ١٣٤١ م
١٥ — أحمد بن » ٥٧٤٢ = ١٣٤٢ م
١٦ — إسماعيل بن » ٥٧٤٣ = ١٣٤٢ م
١٧ — شعبان بن الناصر محمد ٥٧٤٦ = ١٣٤٥ م
١٨ — حاجي بن » ٥٧٤٧ = ١٣٤٦ م
١٩ — حسن بن » ٥٧٤٨ = ١٣٤٧ م
٢٠ — صالح بن » ٥٧٥٢ = ١٣٥١ م
حسن بن الناصر محمد [سلطته الثانية] ٥٧٥٥ = ١٣٥٤ م

رابعاً : أحفاد الناصر

- ٢١ — صلاح الدين بن حاجي ٥٧٦٢ = ١٣٦١م
- ٢٢ — شعبان بن حسن ٥٧٦٤ = ١٣٦٣م
- ٢٣ — علي بن شعبان ٥٧٧٨ = ١٣٧٦م
- ٢٤ — حاجي بن شعبان ٧٨٣ — ٥٧٨٤ = ١٣٨١ — ١٣٨٢م
وسلاطين المماليك البرجية هم :
- ١ — برقوق ٧٨٤ — ٥٨٠١ = ١٣٨٢ — ١٣٩٨م
في خلال سلطنة برقوق استطاع يلبغا أن يتغلب عليه
ويعيد للسلطة حاجي المملوك البحري لمدة عام واحد (٧٩١ —
٥٧٩٢) ثم استطاع برقوق أن يستعيد مكانته .
- ٢ — فرج بن برقوق ٥٨٠١ = ١٣٩٨م
- ٣ — عبد العزيز بن برقوق ٥٨٠٨ = ١٤٠٥م
- فرج للمرة الثانية ٥٨٠٩ = ١٤٠٦م
- ٤ — العادل المستعين بالله (الخليفة العباسي) ٥٨١٠ = ١٤١٢م
[أصبح سلطاناً مع الخلافة] .
- ٥ — المؤيد شيخ ٥٨١٥ = ١٤١٢م
- ٦ — أحمد بن المؤيد [لم يكمل العام في الحكم] ٥٨٢٤ = ١٤٢١م
- ٧ — سيف الدين ططر ٥٨٢٤ = ١٤٢١م
- ٨ — محمد بن ططر [لم يكمل العام في الحكم] ٥٨٢٤ = ١٤٢١م
- ٩ — الأشرف بارسبای ٥٨٢٥ = ١٤٢٢م
- ١٠ — يوسف بن بارسبای [حكم ٩٤ يوماً] ٥٨٤٢ = ١٤٣٨م
- ١١ — حقمق [تشققت] ٥٨٤٢ = ١٤٣٨م

- ١٢ — عثمان بن جقمق [لم يكمل العام في الحكم] ٨٥٧ = ١٤٥٣ م
- ١٣ — سيف الدين إينال ٨٥٧ = ١٤٥٣ م
- ١٤ — أحمد بن إينال [حكم أربعة أشهر] ٨٦٥ = ١٤٦٠ م
- ١٥ — خُشَقْدَم ٨٦٥ = ١٤٦١ م
- ١٦ — بلباي ٨٧٢ = ١٤٦٧ م
- ١٧ — تيمشور بَغَا (*) ٨٧٢ = ١٤٦٨ م
- ١٨ — قايتباي ٨٧٣ = ١٤٦٨ م
- ١٩ — محمد بن قايتباي (**) ٨٩٠ = ١٤٩٥ م
- ٢٠ — الظاهر قانصوه الأشرفي ٨٩٠ = ١٤٩٨ م
- ٢١ — أشرف جانبلاط ٨٩٥ = ١٤٩٩ م
- (حاول مملوك اسمه طومان باي الاستيلاء على السلطة ولكن الأمر لم يستقر له)
- ٢٢ — الأشرف قانصوه الغوري ٨٩٦ = ١٥٠٠ م
- ٢٣ — طومان باي [الثاني إذا اعتبرنا سلطة الأول] ٨٩٢ = ١٥١٦ م
- إلى ١٥١٢ (١)

(*) عزله خير بك وتسلطن ليلة واحدة ثم زحف قايتباي .

(**) عزله قانصوه خمسمائة وتولى بدله مدة ثلاثة أيام .

(١) هذه القوائم من زامباورو Stanley Lane-Poole

وفيما يلي دراسة عن أهم الأحداث في العصر المملوكي :

من الأيوبيين إلى المماليك

استطاعت الحملة الصليبية التي قادها لويس التاسع أن تحتل دمياط واتجهت الى القاهرة ، وسار الملك الصالح لمقابلة الحملة ، ورابط في المنصورة ، ولكنه مرض هناك مرض الموت ، بيد أن السيدة أم خليل شجرة الدر سريّة الملك الصالح أرسلت تستدعى توران شاه بن الملك الصالح ، ودارت المعارك بين الجيش المصري وبين الصليبيين ، ومات الملك الصالح والمعارك تدور ، فأخفت شجرة الدر وفاته : وظلت تصدر الأوامر باسمه ، وأبدى الجيش المصري بقيادة المماليك براعة فبائقة ودارت المعركة في أزقة المنصورة وشوارعها ، فسقط من جيش الفرنجة ألف وخمسمائة قتيل ، وأسر عدد كبير كان من بينهم لويس التاسع نفسه ، وقد سيق مكبلا بالأغلال الى دار فخر الدين ابراهيم بن لقمان حيث سجن (١) ، وحضر توران شاه عقب الواقعة فأسلمته شجرة الدر السلطة وأعلنت وفاة الملك الصالح .

شجرة الدر :

وكانت شجرة الدر ذكية حازمة مخلصه خلال هذا الموقف الدقيق كما رأينا ، وكانت تتطلع الى اعتراف بالجميل من توران شاه ، ولكنه بدلا من ذلك ظهرت عليه علامات الرنية فأخذ يتشكك في أمانتها تجاه ثروة أبيه ، كما أنه لاحظ بؤادر غرور من المماليك فأظهر النية لكبح جماحهم ، وتهدهدهم . ويروى أنه كان يشرب الخمر ويصّفق منجموعة من الشموع أمامه وهو سكران ، ثم يمسك بسيفه ويضربها واحدة واحدة وهو يردد : « هكذا أفعل بالبحرية » ، وكان كلما ضرب شمعة ذكر اسم واحد

(١) المتريزي : السلوك ج١ ص ٣٥٦ وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٦٧ .

من الزعماء (١) . وكان أن تأمرت عليه شجرة الدر والمماليك فقتلوه بعد سبعين يوما من توليته الملك .

واتفقت كلمة المماليك على أن تتولى شجرة الدر سلطان البلاد ، وتولته فعلا حوالى ثلاثة أشهر (٢) ، ولكن الخلافة العباسية استفكرت أن تكلّي الأمر امرأة ، ويقول المقرئى أن الخليفة أرسل للمماليك يقول :

إن كان الرجال قد عُدِموا عندكم فأعلمونا لنرسل إليكم رجلا (٣) . ونتيجة لذلك فكرت شجرة الدر في التخلي عن عرش مصر ، فقررت عز الدين أيبك وتنازلت له عن العرش ، ولم يكن أيبك ذا شخصية قوية ، مما يفيد أن شجرة الدر اختارته ستارا لتحكم من ورائه ، ولكن أيبك أراد أن يستبد بالسلطان دونها ، فحصل بينهما صراع انتهى بأن دبرت شجرة الدر قتله ، ثم قتلها فيه ابنه .

بقى اسم صغير ينبغي أن نذكره قبل أن يتم الأمر للمماليك ، ذلك هو الصبى الأيوبي الأشرف موسى وهو ابن توران شاه الذى وضعه المماليك مع أيبك كسلطان شرعى على أن يكون أيبك وصيا عليه ، ولكن أيبك سرعان ما عزله واستبد بالأمر ، وبغزل الأشرف واستبداد أيبك بالأمر دون شجرة الدر ، انتهى ملك الأيوبيين وأصبح الأمر في مصر للمماليك .

وفي هذه الأثناء زحف الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب وضم إليه دمشق ، بل انه زحف على الديار المصرية للقضاء على ما اعتقده تمردا من المماليك على أسرته « سبتمبر ١٢٥٠ » ، وقد دار نضال بين الأيوبيين والمماليك انتصر المماليك في نهايته « فبراير ١٢٥١ » ، بيد أن الخلافة

(١) السلوك للمقرئى . ج ١ ص ٣٥٩ .

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ١٩ ص ١٩٠٣ وخطط المقرئى ج ٢ ص ٣٢٧ .

(٣) كتاب السلوك ج ١ ص ٣٦٨ وحسن المحاضرة للسيوطى ج ٢ ص ٢٩٠ .

العباسية أخطت بالخطر الذي يهدد العالم الاسلامى بسبب زحف التتار تجاه العراق ، فتدخلت بين المماليك والأيوبيين ، وتم اتفاق في أبريل ١٢٥٣ على أن تكون مصر وفلسطين حتى نهر الأردن بما في ذلك غزة والقدس والساحل للمماليك وتكون بقية الشام للأيوبيين (١) .

ولكن التتار تقدموا وقضوا على الخلافة العباسية وزحفوا تجاه الشام ، فأمرع الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب الى اعلان خضوعه للتتار ، وأرسل ابنه بذلك الى هولاكو ومعه مجموعة من التحف والهدايا ، ولكن هولاكو تغلب عليه حرصه على سفك الدم والتدمير فادعى أن عدم حضور الناصر بنفسه يعد إهانة شخصية له وزحف على حلب فدمرها ، واتجه الى دمشق فأنزل بها مثل ما فعل بحلب ، ولم يوقف زحفهم إلا المصريون في موقعة عين جالوت التي سنتكلم عنها فيما بعد ، والمهم هنا أنه بهزيمة التتار على يد المماليك التفت الشام ومصر مرة أخرى تحت حكم واحد ، وأعيد الحصار حول الصليبيين .

وظلت السلطة في أيدي المماليك البحرية مدة ١٣٢ عاما كما رأينا في القوائم السابقة ، وكان المماليك البرجية منذ اشتراهم قلاوون وأسكنهم برج القاعة بعيدين عن معركة السلطان ، ولكن عندما اضطربت الأحوال إبان عهد أحفاد الناصر ، بسبب تولية الأطفال وثورات العربان وتمرد الحكام في الشام ، بدأ المماليك البرجية يزجون بأنفسهم في المعركة ، فتولى برقوق الوصاية على حاجي حفيد الناصر وكان طفلا في التاسعة من عمره ، وقد استطاع برقوق أن يحث الخليفة العباسي والقضاة والأمراء على عزل هذا السلطان الصبي وإسناد الأمر له رجاء أن يعيد الاستقرار والأمن للبلاد ، وقد انتقلت بذلك السلطة من المماليك البحرية الى المماليك البرجية .

تولية السلطة وأساليبها

بملاحظة الحديث عن سلاطين دولتي الممالك نقرر أن الممالك البحرية حاولوا تقليد سادتهم الأيوبيين في نظام الوراثة ، وقد بدأ الظاهر بيبرس بخلق نظام ولاية العهد فجعلها لأولاده من بعده ، وإذا كان الظاهر لم ينجح في تثبيت ولاية العهد في أسرته ، فإن قلاوون نجح في ذلك فبقى الملك في بيته حوالي مائة عام حتى سقطت الممالك البحرية كما ذكرنا من قبل .

ويبدو أن نظام التوارث فشل ، ولذلك لم يأخذ به الممالك البرجية أخذا حقيقيا ، مع أن أكثر السلاطين حاولوا تعيين أولادهم ليلوا الأمر بعدهم ، وكان الممالك الآخرون يتظاهرون بالموافقة ويقدمون البيعة ويقسمون عليها الأيمان ، بل ينفذونها فعلا عقب وفاة السلطان ، ولكنهم سرعان ما يضيقون بالسلطان الصبي ويعزلونه ليتولى الأمر متغلبين منهم وهو ما نشاهده بملاحظة قائمة الممالك البرجية ، ويقول Lane - Poole في ذلك بعد أن أورد قائمة الممالك البرجية إنه لا يوجد أكثر من ملكين من أسرة واحدة ولذلك فليس هناك ما يدعو إلى رسم شجرة للسلاطين .

وقد تسبب عن هذا الموقف من السلاطين البرجية أن كثر الخلاف بينهم ، وأصبحت ولاية السلطة معركة لا تنقطع ، ويزيد أوارها إذ خلا العرش أو تولاه طفل من أبناء السلاطين ، وقد دعا ذلك بعض المعتلاء إلى ازدياد هذا المنصب والحرص على عدم نياله ، لما يحوطه من قاي وضرب ، ومن الذين زهدوا فيه الأمير أزبك الذي أريد لهذا المنصب ، فاقسم بالطلاق إلا يقبله ، كما رفض السلطان قايتباي أن يعهد لابنه محمد بولاية العهد خلال مرضه لإدراكه أنه يضعه - لو فعل - في أتون دائم اللهب .

وليس العدول عن إخضاع هذا المنصب للتوارث ناشئا عن ديمقراطية ، بل كان ناشئا عن أطماع غمرت الجميع وجعلت كل واحد

من الممالك يحس أنه جدير بشغل هذا المنصب ، وعلى هذا كان ذلك العهد عهد مؤامرات وعمل في الظلام ، وخيانات دنيئة ، وهذا النظام على العموم كان سائدا خلال العصور الوسطى في المجتمعات الاقطاعية ، فالسلطان وملكية الاقطاع يجتمعان لمن يستطيع أن ينالهما بمؤامراته وسيوفه ، وكما ينالهما الاقطاعي يفقدهما بنفس الوسيلة .

تعريف بأشهر السلاطين

من مراجعة القوائم السابقة عن سلاطين الممالك ، نلاحظ أن بعض السلاطين لم يظهر لهم دور يستحق الذكر ، وكان عدد كبير منهم في سن الطفولة والصبا ، فلم يكن غير ستار تحكم من خلفه قوى متصاربة ، ومن أجل هذا سنقتصر هنا كلامنا على السلاطين الذين لعبوا دورا مهما في التاريخ .

الظاهر بيبرس :

إذا كان قُطْرٌ قد انتصر على التتار في موقعة عين جالوت ، فقد شاركه في تحقيق هذا النصر قائد جيشه الظاهر بيبرس ، ولذلك فنحن نتخطى قُطْرٌ لنقف وقفة عند بيبرس الذي يتعدى في القمة من سلاطين الممالك ، وسنرى اسمه بارزا في النضال ضد التتار ، وفي النضال ضد الصليبيين ، وسنراه كذلك مؤسسا للخلافة العباسية في القاهرة ، وطموحا في استعادة بغداد من التتار ، ونذكر هذا إلى حينه لنتكلم عن نواح غيرها في هذا السلطان العظيم .

كان بيبرس إداريا حازما ، دأب العمل لترقية شؤون بلاده وتنمية مواردها ، حَقَرَ الترع وأصلح الحصون ، وأسس المعاهد وبنى المساجد ، وكان له مقام كبير بين أمراء مصر حتى هابوه وخشوا بأسه ، ولم يكن أحد منهم يجرؤ على الدخول عليه إلا بإذنه ، وكان شجاعا ضربت الأمثال ببطولته وشهامته ، وكان مثالا للحاكم العادل ، يجلس للنظر في

المظالم بنفسه ، ويعطف على الفقراء والمعوزين ، وكانت حكومته استبدادية ولكنها كانت مستتيرة ، وقد وضع بييرس أسس دولة المماليك ، وابتدع طرقا لحكمها ، واستحدث كثيرا من الوظائف الهامة ، ووجه عنايته للجيش ، ورفع شأن الأسطول المصرى بعد أن اضمحل في أواخر عهد الدولة الأيوبية ، وأصلح نظام القضاء بأن عين قضاة من المذاهب الأربعة للفصل في الخصومات ، وأصدر عدة قوانين لرفع المستوى الخلقى في مصر ، ومنها أن أمر بمنع بيع الخمر وأقفل الحانات ونفى كثيرين من المفسدين (١) .

ومن أعماله الجيدة القضاء على فرقة الحشائين بسوريا ، تلك الفرقة التي عبثت بالقيم والمبادئ ، وامتد نشاطها في الدس والاغتيال حتى أصبحت خطرا جسيما ، وقد تم لبييرس سحق هذه الفرقة في سوريا إلى الأبد (٢) .

وفي سنة ٦٧٤هـ استدار بييرس الى بلاد النوبة التي بدأ بها لون من التمرد على المعاهدة التي تربطهم بمصر والتي تحدثنا عنها من قبل وقد استطاع بييرس أن يقضى على هذا التمرد ، ويرغم الثائرين على الخضوع لنصوص المعاهدة ، وسنرى تفصيل ذلك فيما بعد .

وقد امتد ملك مصر في عهد بييرس من الفرات الى الحجاز وجنوب الجزيرة العربية وشمل كذلك بلاد الشام وبيت المقدس وسواكن وغيرها على البحر الأحمر ، وخضع له عرب الصحراء وكثير من سلاطين المغول ، وتبادل السفراء مع امبراطور الروم وشيد مسجدا في الأستانة ، وأرسل له خان المغول ابنته ليتزوجها .

(١) دكتور على ابراهيم : مصر في العصور الوسطى ص ١٦٥ يتصرف :

(٢) انظر ما كتبناه عن هذه الفرقة في الجزء الثامن ص ١١٨ — ١٢٢

وانظر تاريخ سوريا لفيليب حتى ج ٢ ص ٢٤٧ .

وقد عثيَ ببيرس عناية كبيرة بالعلوم والمعارف ، وإصلاح الري والزراعة ، ولم يغال في فرض الضرائب مع كثرة حروبه ، بل خفّضها إلى أصغر حد كاف للقيام بمشروعاته العظيمة (١) .

ومن آثاره مسجده بالحسينية المعروف بجامعة الظاهر ، والمستشفى المعروف بمستشفى قلاوون بالنحاسين .

أما ما عثِرَ عنه أحيانا من القسوة والميل إلى الغدر فيمكن أن يُعدَّ نتيجة طبيعة الظروف المحيطة به ، وللغرض التي كانت طابع الممالك .

وهناك عكَمٌ شهير عاصر الظاهر ببيرس ، ويقال إنه اتصل به ، وهو السيد أحمد البدوي ، وينسب الرواة لهذا الولي ألوانا من المكرمات يتصل بعضها بالحرب وأسرى الحروب التي ملأت تاريخ هذه الحقبة ، ولسنا هنا نتحدث عن كرامات الأولياء فلهذه حديث مفصل في مكان آخر (٢) ؛ ولكننا هنا نقرر أن التاريخ الصحيح لم يَرَوْا شيئا عن صلات السيد البدوي بهذه الحروب ولا بنتائجها ، ويروى بعض الباحثين (٣) أن السيد البدوي مفترى عليه ، وأن رواية الأخبار وخدَمَ الصريح على مر الزمان اختلقوا كثيرا مما نسب إليه لتنهال عليهم النذور .

قلاوون :

بعد ثلاثين عاما من قيام دولة المماليك البحرية تولى قلاوون الحكم ، وبقي الساطان في بيته حتى نهاية هذه الدولة ، وسنرى صراع قلاوون

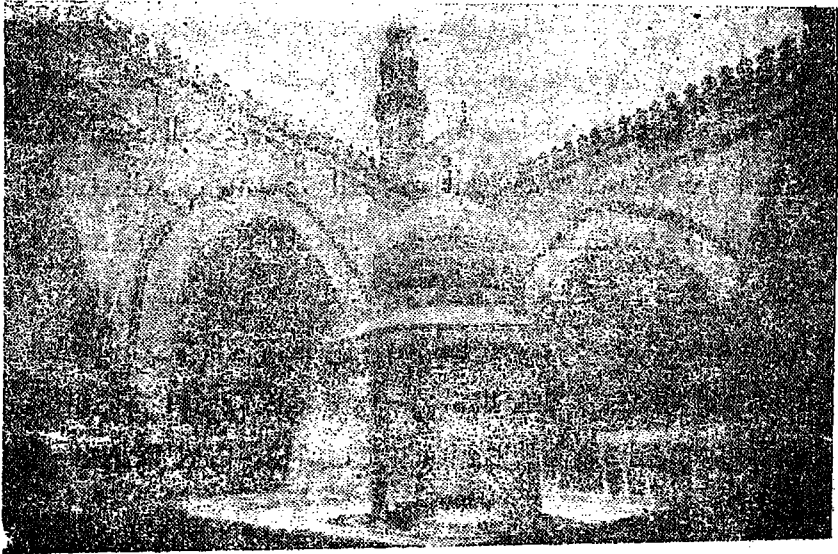
(١) عمر الاسكندري وسيفدج : تاريخ مصر الى الفتح العثماني ص ٢٣٤ .

(٢) الحياة الاجتماعية في التفكير الاسلامي للمؤلف .

(٣) انظر « السيد احمد البدوي : شيخ وطريقة » للدكتور سعيد

عاشور ص ١٤٥ .

ضد الصليبيين وضد التتار ، ولكننا هنا نتحدث عن مظاهر أخرى ترتبط به ، فقد سار قلاوون سيرة بييرس في العدالة وإدارة شئون البلاد والتقرب إلى الشعب ، وهو الذي جلب الممالك الشراكسة كما ذكرنا من قبل ، ويبدو أنه عاش في حراستهم في أمن فلم يلجأ كثيرا إلى سفك الدماء ، وتنسب له كثير من المنشآت العظيمة ، ومن أهمها المسجد والضريح والمستشفى التي أقامها على رقعة من أرض القصر الفاطمي الصغير الغربي بشارع المعز لدين الله بالنفاسين ، ومكان المستشفى الآن مصحة لأمراض العيون أقامتها وزارة الأوقاف سنة ١٩١٥ •



مسجد قلاوون

وكان لقالوون ثلاثة أبناء هم : علاء الدين و خليل والناصر ، وكان علاء الدين ممتازا ، وكان موضع حب الجميع حتى أن أباه فكر في توليته السلطة بذكره وهو حي ، ويقال إن أخاه خليلًا نفس عليه هذه المكانة قدس له السم فمات • ولم يعين قالوون خليلًا وليا لعهد لهذا السبب ، وقال عندما عرض عليه هذا الأمر : أنا ما أولي خليلًا على المسلمين (١) • كما أن قالوون لم يول ابنه الثالث لصغر سنه ، وترك الأمر لقادة المسلمين ، وهو موقف طيب يحسب لقالوون في الميزان ، ولكن السلطة بعد قالوون آلت على كل حال لابنه خليل (الأشرف خليل) الذي كان له دور عظيم في القضاء على الصليبيين وسنذكره فيما بعد •

الناصر محمد بن قالوون :

هو الابن الثالث لقالوون ، تولى بعد أخيه الأشرف خليل ، وقد تولى الناصر الحكم ثلاث مرات ، وكان عندما تولى في المرة الأولى في التاسعة من عمره ، وقد استمرت ولايته هذه المرة عاما واحدا ، ثم اغتصب كتنبا فالمنصور لاجين الملك منه مدة أربع سنوات ، وكان عهدهما مليئا بالفتن والاضطراب ، وأعيد الناصر للسلطة للمرة الثانية ، ولكنه كان لا يزال دون سن الرشد (في الرابعة عشرة) ، فاستخف به الأمراء ، وعلى الرغم من أن سلطانه امتد هذه المرة عشر سنوات إلا أنه لم يستطع أن يوقف الاستهانة التي بدأ الأمراء يعاملونه بها منذ مطلع هذه السلطنة ، فاضطر إلى الرحيل إلى الكرك تاركا حياة المؤامرات والدسائس والاستخفاف ، واغتصب بيبرس الجاشنكير « بيبرس الثاني » ، السلطان لنفسه مدة عام ، ولكن الناس كانوا يدركون أن الناصر أكثر اخلاصا منه وكفاءة ، فكتبوا له يطلبون عودته ، وعاد الناصر ليتولى السلطة للمرة الثالثة وابتدأ هذه السلطة وقد اكتمل نضجه وازدهر شبابه إذ أصبح في منتصف العقد الثالث ، وقد دامت ولايته هذه ثمانية وثلاثين عاما ، وكانت -

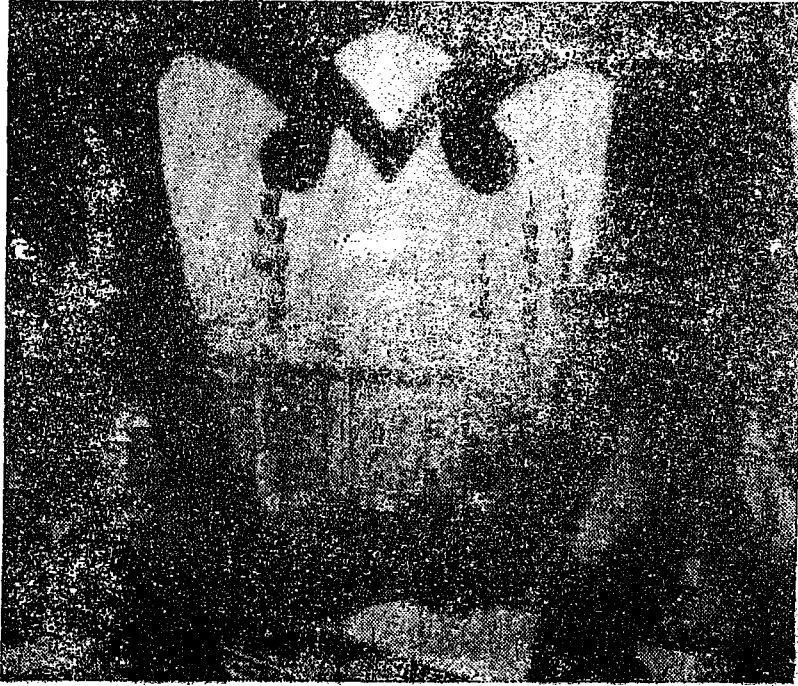
(١) المقرئى : السلوك ج٤ ص ٧٤٥ •

بالإضافة الى طولها الزمنى - حافلة بجلائل الأعمال ، وسندع الآن موقفه الجبار ضد التتار والصليبيين لنتحدث عن بعض اصلاحته واتجاهاته ، ويقول المؤرخون إن القاهرة فى عهد الناصر كانت حاضرة لإمبراطورية شاسعة متحدة ، وبسطت نفوذها على اليمن والحجاز بالإضافة الى مصر والشام ، وخطب ودها ملوك من أوروبا وآسيا •

ولم يكن نشاط الناصر مقصورا على الحروب والغزوات ، بل امتد الى الناحية الاجتماعية والعمرانية ، فَعَنَى بالشئون الداخلية للبلاد ، ومما يذكره له التاريخ أنه حَدَدَ الأثمان حتى لا تصعب على الفقراء ، وألغى كثيرا من الضرائب التى كان يلتزم بها جماهير الشعب ، واستعاض عنها بضرائب على كبار الموسرين ، وتشدد فى منع شرب الخمر وفى حفظ الآداب ، ونشط فى نشر العلوم والمعارف ، واهتم بفن المبانى وبالنقوش العربية اهتماما كبيرا ، وهو المنشئ لقناطر المياه الموصلة بين القلعة والنيل ، وإن كانت قد نسبت خطأ الى صلاح الدين ، ووصل بين النيل والاسكندرية بترعة ، وأنشأ طريقا عظيما بجانب النيل ، كان بالإضافة الى فائدته كطريق ، يَرُدُّ المياه وقت الفيضان (١) •

وليس بعد الناصر سلاطين يستحقون الذكر إلا كلمة صغيرة عن السلطان حسن بن الناصر الذى بنى المدرسة العظيمة المعروفة الآن بجامع السلطان حسن بجانب القلعة •

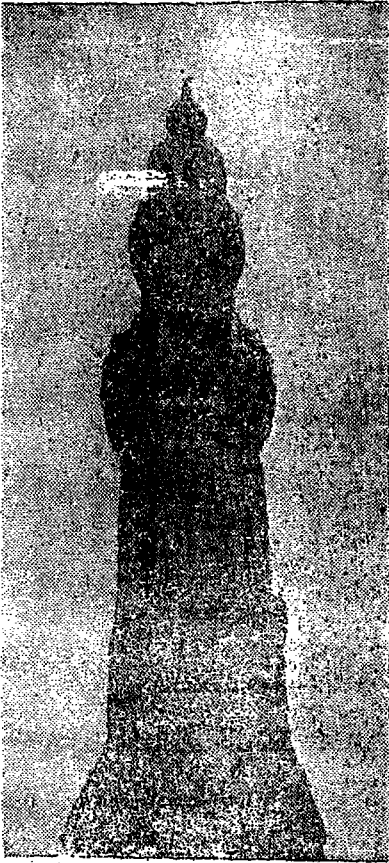
(١) عمر الاسكندري وسيفدج : تاريخ مصر حتى الفتح العثمانى ص ٢٣٦ •



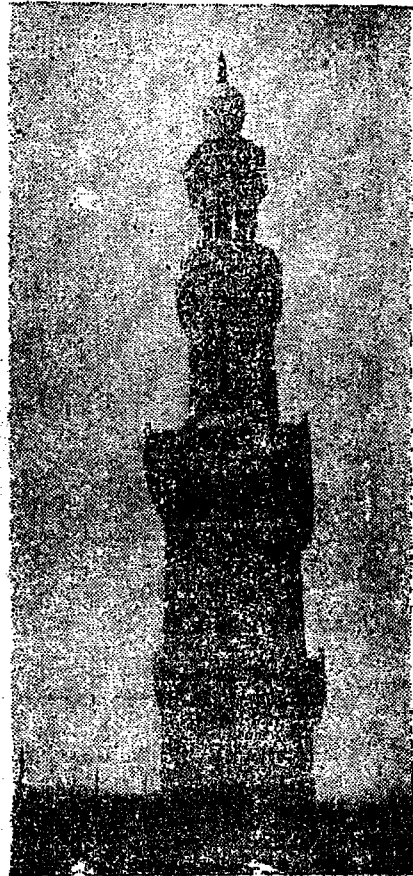
مسجد الرفاعي والسلطان حسن

أما المماليك البرجية فأيس بينهم من يستحق أن نقف عنده ، وكان عهدهم عهد اضطراب وقلق ، كثر تغير السلاطين حتى كان منهم من حكم ليلة واحدة أو بضعة أيام أو بضعة شهور ، ومن بين سلاطين الجراكسة يمكن أن نذكر برسباي ، ولعله أقوى من ولي السلطنة منهم ، وإن لم يكن أفضلهم ، ونذكر كذلك برقوق وجقمق ، وقليتباي وهم أطول السلاطين عهداً ولهم آثار ذات شأن من أهمها مسجد برقوق ومسجد قايتباي ، وقلعة قايتباي بالاسكندرية .

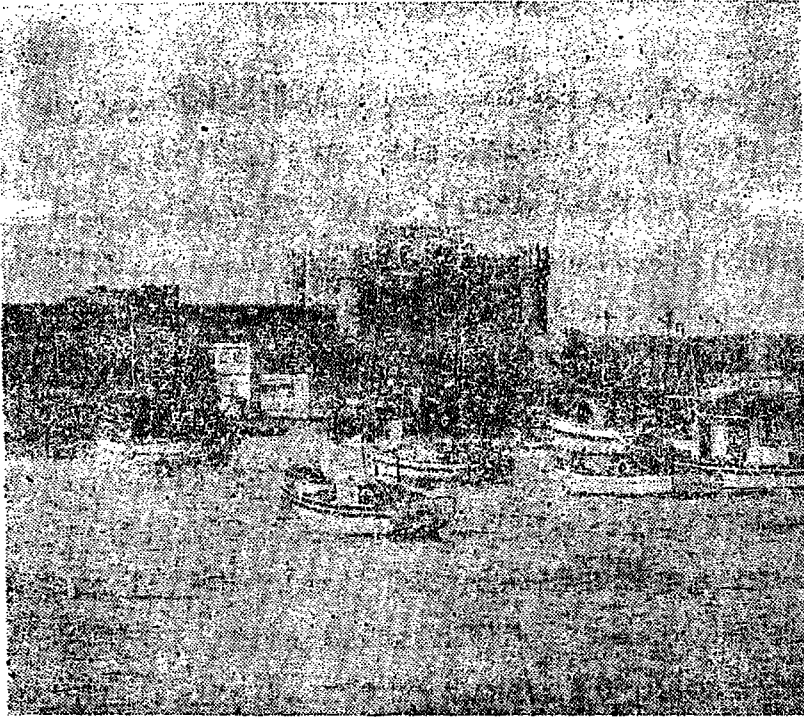
وكان من أسباب عدم الاستقرار في هذا العهد — بالإضافة الى الاضطراب الداخلي — غارات البدو التي تكررت على مصر في عهدهم ، وغارات قراصنة الفرنجة في البحر المتوسط والبحر الأحمر ، وكشف طريق رأس الرجاء الصالح ، ومنافسة العثمانيين للمماليك ، تلك المنافسة التي انتهت بزوال دولته المماليك ودخول مصر وسوريا ضمن الإمبراطورية العثمانية كما سنرى فيما بعد .



منارة مسجد قايتباي



منارة مسجد برقوق



قلعة قايتباي بالاسكندرية



إبريق من الفضة مطعم بالنحاس - العهد المملوكي

الخلافة العباسية في مصر

كان إحياء الخلافة العباسية بمصر حدثا مهما من الأحداث الكبرى التي جرت في عهد المماليك ، فقد سقطت بغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) في أيدي التتار على يد هولاكو وجنوده ، وقتل الخليفة العباسي وانتهت الخلافة العباسية ببغداد ، وبعد سنتين من ذلك بدأت سلطنة الظاهر بيبرس ، وسرعان ما فكر في إعادة الخلافة العباسية ، فاستدعى سنة ٦٥٩هـ (١٢٦١م) أحد أبناء العباسيين الذين فروا من وجه الزحف المغولي واسمه أبو القاسم ، وعقد مجلسا حافلا حضره القضاة ورجال الدين والأمرء والعظماء ، وثبتت في هذا الاجتماع نسب هذا الوافد ، وبايعه الحاضرون بالخلافة ليكون خليفة الاسلام والمسلمين ، ولقب « المستنصر بالله » ، ثم أخذت له البيعة على الناس على اختلاف طبقاتهم ، وبعد أن تمت هذه المراسم والتقاليد قلد الخليفة الظاهر بيبرس حكم البلاد جميعها باسمه ، وحكم ما سيفتحه الله عليه بالدعوة أو بالسيف ، ونقشت المسكة باسم الخليفة والسلطان ، ودعا لهما الخطباء في المساجد في صلاة الجمعة (١) .

وبهذا التصرف أحاط بيبرس عرش المماليك بالقداية والإجلال وأصبحت سلطتهم شرعية .

وقد زادت أطماع بيبرس ، فأراد أن يسترجع بغداد من المغول وبخاصة أنه كان قد أوقع بهم حديثا (سنة ١٢٦٠م) هزيمة ساحقة في عين جالوت فأعد جيشا كبيرا جعل الخليفة العباسي قبائده ، وسيّره ليسترجع عاصمة آباءه وأجداده ، ولكن المغول تصدوا له وقضوا عليه ، ولما علم بيبرس بمقتل الخليفة حزن عليه واستدعى عباسيا آخر هو أبو العباس أحمد ، وبعد أن ثبت نسبه تمت بيعته على النحو السابق ،

(١) المقرئى : كتاب السلوك ج١ ص ٤٥٠ ، وابن اياس ج١ ص ١٠١ .

وبالتالى أعاد الخليفة تقليد بييرس الولاية على البلاد الاسلامية ، ثم أدرك بييرس أن من الخير له أن يستبقى الخليفة فى القاهرة ، ليكون الخليفة منفذا لمرغباته ، فذلك أحسن من انتقال الخليفة الى بغداد على فرض الانتصار على المغول ، لأن الخليفة فى بغداد سيتصرف على نحو مغاير لتصرفه وهو فى القاهرة ، أو سيتحكم فيه قوى أخرى كذلك التى تحكم فى الخلفاء العباسيين ابتداء من العصر العباسى الثانى .

وهكذا أعيدت الخلافة العباسية فى القاهرة ، وعاشت بها طيلة حكم المماليك البحرية والبرجية ، ولكنها لم يكن لها حول ولا طول ولا رأى فى سياسة الأمور ، وإنما كان عملها أن تبارك سلطة من حصل على السلطة بسيفه ، وقد ظلت هذه الخلافة العباسية بمصر حتى الفتح العثمانى .

المماليك والتتار

إذا كان الأيوبيون قد مهدوا الطريق للمماليك لينتصروا فى الانضال ضد الصليبيين ، فإن أحدا لم يمهّد الطريق للمماليك ليوقعوا بالمغول ، وعلى العكس خرت قوى كثيرة فى آسيا وأوربا أمام زحف المغول المدمر ، ولذلك عُدَّ انتصار المماليك عليهم حماية للحضارة العالمية التى كانت — لولا مصر والمماليك — على وشك أن تنهار وأن تدوسها أقدام المغول المخرّبة التى أتت على كل مدينة فى كل وطن حلت فيه ، ولنعدّ للمسألة من أولها :

كان المغول قبائل همجية وحشية تنتقل فى الهضبة الآسيوية الشاسعة التى تمتد من أطراف الصين الى أواسط آسيا ، باحثين عن الرزق والمراعى ويبدو أن المراعى الحرة التى لا يملكها أحد لم تف بحاجتهم ، فعمدوا الى الاستيلاء على المراعى والمزارع المملوكة للآخرين ، وأم يكن استيلاؤهم عليها استيلاء من يرغب فى الاستقرار والاستثمار ، وإنما كان استيلاء الباحث عن الفائدة السريعة دون عناء أو جهد .

هذا مظهر من مظاهر حياة المغول في حركاتهم الأولى ، ومظهر آخر أنهم كانوا مدمرين يأتون على كل ما يقابلهم من مظاهر الحضارة ؛ فقد كانوا يرون الحضارة وسيلة للقضاء عليهم ، فأخذوا يهدمون المباني ، ويحرقون الكتب ، ويقتلون المفكرين والعلماء •

وفي أوائل القرن الثالث عشر الميلادي ، استطاع جنكيز خان أحد زعماء هذه القبائل أن يكوّن منها وحدة ، أصبحت آنذاك خطرا على الحضارة الانسانية ، وقدر له التجاح فبسط سلطانه على معظم الصين وبلاد التركستان حتى حدود إيران •

وقف خلفاء جنكيز خان على أبواب العالم الاسلامي ، وآلت قيادتهم الى هولاء حفيد جنكيز خان الذي زحف بجيوشه الجريئة على العالم الاسلامي حتى وصل بها بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، وقبض على الخليفة وأباح العاصمة لرجالته مدة أربعة أيام ، ثم قتل الخليفة نفسه وكثيرا من أفراد أسرته ، وزالت بذلك الخلافة العباسية من بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) •

ومن بغداد زحف هولاء الى الشام ، فاحتل حلب وأعمل النسيب في خمسين ألفا من سكانها ، ثم احتل حماه ودمشق وعقد معاهدة مع أنطاكية اللاتينية للتعاون ضد المسلمين ، ولاقى المسلمون في دمشق وغيرها من مدن الشام ألوانا من الذلة ، وأظهر المسيحيون الشرقيون النشفي فيهم والانتقام منهم ، فسارت مواكبهم تحمل الصلبان ، وألزموا المسلمين القيام لهذه المواكب واحترام هذه الصلبان ، ومما ساعدهم ذلك أن « كيتوبوقا » نائب هولاء كان مسيحيا متعصبا ، ومغوليا شديد القسوة على المسلمين (١) •

وعقب احتلال دمشق تقدم المغول بسرعة فاحتلوا نابلس وقتلوا

(١) الذهبي : دول الاسلام ج٢ ص ١٢٥ . وانظر الجزء السابع من هذه الموسوعة للمؤلف .

حاميتها ، ثم تقدموا الى غزة دون أن يلقوا مقاومة ، وأصبحوا بذلك بالقرب من حدود مصر ، ويتجه ابن العبري الى أن المسيحيين الشرقيين ألحوا على هولاكو ليندفع بجنوده الى مصر ، ولم يكن هولاكو يريد ذلك ، وتحت ضغط المسيحيين وافق هولاكو على أن يتجه قائده وخليفته لتحقيق هذه الأطماع (١) وعاد هولاكو الى إيران ليسهم في تدبير أمر العاصمة بعد وفاة أخيه الأكبر منكوقا آن سنة ٦٥٥هـ وقيام خلاف بين أخويه قوبلاي وأريق يوكا ، وكان هولاكو يؤيد تولية الأول عرش السلطة ، وقبل أن يبرح هولاكو الشام أرسل الى قطز سلطان مصر رسالة قاسية يهدد فيها ويتوعد ، ومما جاءه فيها قوله : قد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهروب ، وعلينا الطلب ، ولكن أى أرض تؤويكم وأى بلاد تحميكم ، خيولنا سوابق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال وعدنا كالرمال (٢) .

وتلقت مصر هذه الرسالة ، ودار حولها نقاش ، وكان معنى الاستسلام أن يضيع العالم الاسلامي ، إذ لم يكن قد بقى إلا مصر بعد سقوط العديد من دول الاسلام تحت سلطان المغول ، وأحست مصر بمسئوليتها تجاه الاسلام والمسلمين مع ما فى ذلك من مخاطرة ، ولم يكن من الممكن الاتفاق مع المغول فقد عرف هؤلاء بنقض العهود ، والقضاء على المسلمين ، ولم تبق إلا المواجهة ، وعلى هذا اتفق السلطان قطز وأمير الأمراء قائد الجيوش بيبرس ، وكل القادة المصريين ، وتنفيذا لذلك صدرت الأوامر بقتل سفراء المغول الذين حملوا التهديد ، وكان ذلك إيذانا بقيام الحرب .

ولم يقنع الجيش المصرى بموقف الدفاع من داخل الحصون ، ذلك النظام الذى كان يلجأ له الأمراء فى البلاد المختلفة التى هاجمها المغول ، فقد كان ذلك يتيح للمغول أن يسحقوا الحصون ويدفنوا أعداءهم فى

(١) تاريخ مختصر الدول ص ٢٨٠ .

(٢) الرسالة فى السلوك لأقريزى ج١ ق٢ ص ٢٧٧ . ٠٠٤٢٦٠

حصونهم ، وتحاشيا لذاك لجأ المصريون للهجوم ، فزحف ببيرس ، واقتحم غزة وقضى على حاميتها ثم زحف قطز الى عكا ، وسمح له الفرنجة باجتياز طرقهم إذ كانوا يثقون في المسلمين أكثر مما يثقون في المغول .

عين جالوت :

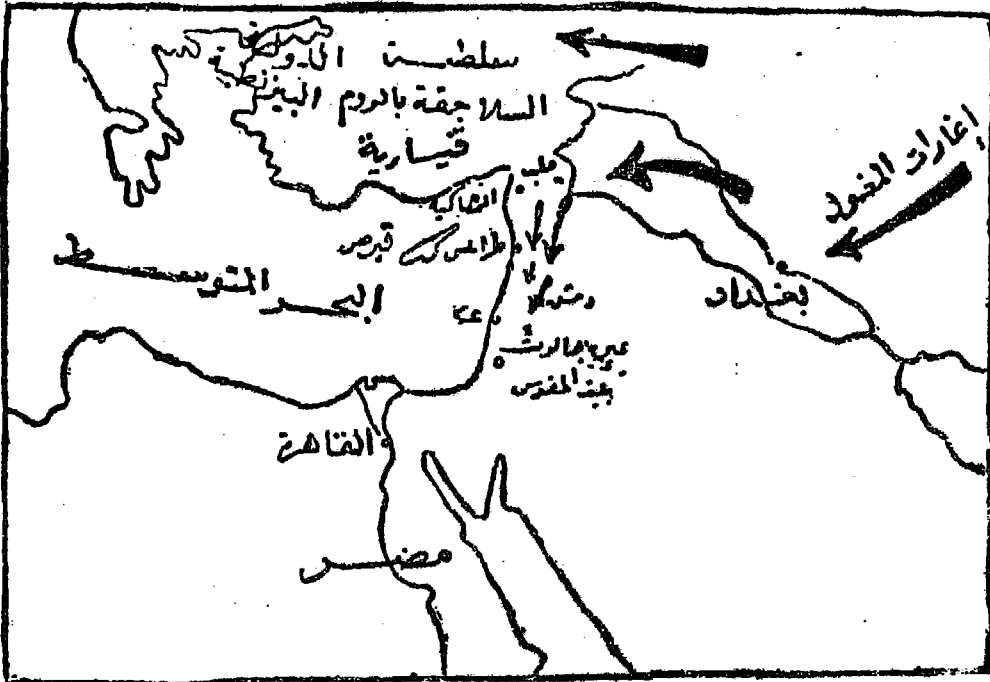
شهدت عين جالوت التي تقع بين بيسان ونابلس معركة من أخطر معارك التاريخ ، فقد اتجه لها كيتوبوقا مزجرا عندما وصلتته أنبساء اندجار جيشه في غزة واتجه لها كذاك جيش مصر اللجب ، وكان اللقاء في يوم ١٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ (١) ، وقد أعد قطز خطته للمعركة اعدادا عبقريا ، فقدم بعض جيشه بقيادة ببيرس ، واختفى مع بقية الجيش خلف بعض التلال القريبة ، ونزل كيتوبوقا المعركة بكل جيشه ، وعندما حميت المعركة تقدم قطز من مكمنه فأحاط بجيش المغول وكانت معركة

(١) بمناسبة هذه الموقعة الخطيرة التي حدثت في رمضان نذكر ان هذا الشهر المبارك شهر عدة مواقع فاصلة خاضها المسلمون بنجاح عظيم ، ومن هذه المواقع :

- غزوة بدر الكبرى في سنة ٢ للهجرة .
- فتح مكة سنة ٨ للهجرة .
- غزوة تبوك سنة ٩ للهجرة .
- فتح المسلمين لجزيرة رودس سنة ٥٣ هـ .
- نزول المسلمين شواطئ اسبانيا وغزو بعض الثغور الجنوبية سنة ٩١ هـ .
- انتصار طارق بن زياد على الالك رودريك في ٢٨ رمضان سنة ٩٢ هـ .
- ونصل الى قمة النجاح في العصر الحديث في العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ هـ حيث الانتصار العظيم على اليهود وعبر القناة وتدمير خط برليف ..

واعتقادي ان حدوث هذه المعارك في شهر رمضان لم يكن مصادفة ، بل كان منحة من الله الكريم لهذا الشهر المبارك ، واعتقادي كذلك ان النجاح في هذه المعارك كان بعون الله مثلته الآية الكريمة التي نزلت في غزوة بدر وهي قوله تعالى « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم » وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى « ولو حدثت هذه المعارك في عهد نزول القرآن لكان من الممكن تكرار هذا المعنى .

هائلة بدأت من الفجر وظلت حتى منتصف النهار ، ويقال أن قطز
أحس باضطراب في جيشه والمركة تدور فخلع خوذته وألقاها على
الأرض وصرخ : وا إسلاماه واندفع يضرب في استماتة وقوة حتى
هزّم المغول هزيمة كاملة ، وسقط الجيش المغولي بين قتيل وأسير
وجريح ، ولما اتضح النصر للمصريين عرض بعض المغول على قائدهم
أن يهرب بحياته ولكنه رفض ، وظل يصارع وحده حتى سقط جواده
وأخذ أسيرا ، وعندما وقف بين يدي قطز أطلق لسانه بكلمات قذف
وسباب فصدر الأمر بالقضاء عليه (١) .



ولم يثمل ببيرس - وقد آل له سلطان مصر - بالنصر الذي أحرزه
مع قطز في عين جالوت ، بل انه لاحق المغول تجاه الشمال حتى أوقع

(١) ابن تغرى بردى : الفجوم الزائرة ج ٧ ص ٧٩ .

بهم هزيمة أخرى في قيسارية (قيصرية) بآسيا الصغرى واسترد بذلك مملكة الروم السلجوقيين التي كان المغول قد استولوا عليها (١) .

نتائج انتصارات عين جالوت :

يمكننا أن نوجز نتائج عين جالوت في النقاط التالية :

- ١ — عودة الوحدة بين مصر وسوريا ، فقد كانت بعض ولايات سوريا تأبغت على سلاطين مصر إثر قيام دولة المماليك كما قلنا من قبل .
- ٢ — يعتبر انتصار المماليك في عين جالوت انتصاراً للحضارة وإنقاذاً للبشرية من هؤلاء الهمج الذين لو لم تدر عليهم الدائرة لامتد ضررهم ، ولما كان من السهل درء خطرهم عن العالم والإنسانية .
- ٣ — القضاء على الفكرة التي كانت سائدة عند الدول المسيحية بأن الجيش المغولي جيش لا يقهر .
- ٤ — عجلت عين جالوت بزوال الصليبيين من الشام .
- ٥ — سلمت مصر وآثارها من الخراب الذي كان طبيعة النصر المغولي .
- ٦ — ارتفعت سمعة مصر بسبب ما حققته من انتصار على المغول وعلى الصليبيين .
- ٧ — أعادت الهزيمة بعض الرشد الى المغول ففكروا في الاسلام ، ودخل الكثيرون منهم فيه .

(١) عمر الاسكندري والميجر سيفدج : تاريخ مصر الى الفتح العثماني

بعد عين جالوت :

لم يكن النصر في عين جالوت وما بعدها مصادفة ، إذ تكرر هذا النصر عدة مرات ، فقد أعد المغول عدتهم من جديد للزحف على مصر والشام ولكن شعبنا العظيم كان يصدهم ، وينزل بهم هزيمة إثر هزيمة ، ففي عهد السلطان قلاوون هاجم المغول حمص فزحف عليهم قلاوون وأوقع بهم هزيمة كبيرة ، وأوقفت هجومهم عدة سنوات ، وفي عهد الناصر أغار المغول على دمشق واحتلوها ، ولكن الناصر أعد لهم جيشا ضخما والتقى بهم بالقرب من دمشق في موقعة « عين الصفير » فأوقع بهم هزيمة كبرى وأسر منهم عشرة آلاف جندي واستعاد دمشق ، وأدرك المغول صعوبة انتصارهم على شعب مصر فعقدوا مع سلاطين مصر صلحا سنة ٥٧٢٢هـ (١٣٢٢م) وعاشت مصر حتى نهاية هذا القرن في مأمن من غارات المغول .

المغول في عهد تيمورلنك :

في مطلع القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ظهر تيمورلنك في أواسط آسيا ، وقاد جحافل المغول مرة أخرى ، واحتل بغداد وصار الى حلب فاحتلها ، ولكن بعد أن ضحى بعدد ضخم من رجاله ملأت جثثهم الخندق المحيط بالمدينة ، وكان ذلك في عهد السلطان فرج بن برقوق ، ومن حلب زحف تيمورلنك الى حمص وبعلبك ودمشق فاحتلها بعد صراع طويل ، ودمر منشآتها ومظاهر الحضارة بها ، ثم اتجه الى العثمانيين بآسيا الصغرى فسحق جيشهم عند أنقره واجتاح بروسيا وأزمير وأسر بايزيد الأول (١) ، ومن حسن حظ المماليك والعثمانيين أن تيمورلنك لاقى حتفه سنة ٤٠٤هـ ، وشب نزاع بين خلفائه انتهى الى فتنة داخلية استنفدت قواهم جميعا ، وأتاحت للمماليك استعادة شمال الشام .

* * *

(١) ابن عريشاه : عجائب المقدور في اخبار تيمور ص ٦ ، وابن اياس

مواكب النصر :

وقد عنيت المراجع العربية بوصف مواكب النصر المملوكية العائدة من حرب المغول ، وفيما يلي وصف لموكب من هذه المواكب ، ذلك هو موكب السلطان الناصر بن قلاوون في عودته المظاهرة من المعارك التي أشرفنا إليها آنفا ، يقول أبو المحاسن (ابن تغرى بردى) إن القاهرة تزينت من باب النصر الى باب السلسلة بالقلعة ، وتفاخر الناس في الزينة ونصب الأقواس والقلاع ، واتصلت الزينات في منظر بهيج ، وحضر أهل الريف الى القاهرة للفرجة ، على الزينة وعلى موكب السلطان ، وحضر العرب بخيولهم وخرجت جماهير الشعب مزينة بالحلى والجواهر واللآلئ والحريز ، واحتشد الناس في الطرقات وعلى أسطح المنازل .

ولما وصل السلطان الناصر باب النصر ترجل سائر الأهراء ، وكان أصحاب الزينات يقدمون لعسكر السلطان شراب الليمون من أحواض أعدوها لهذا الغرض (١) .

ويضيف المقرئى وصفه للأسرى ورعوس القتلى فيقرر أن الأسرى كانوا آلافا وكانوا مقيدين بالسلاسل ، وكانت رعوس القتلى معلقة في رقابهم وكانت طبولهم تسير أمامهم تعلن عن هزيمتهم وانتصارات السلطان المظفرة (٢) .

المماليك والصليبيون

سنحدث فيما بعد حديثا منفصلا عن الحروب الصليبية ، نفصل فيه القول عن الدور الذى قام به المماليك في هذه الحروب العنيفة ، وفي كامة موجزة هنا نقرر أن المماليك عندما انتصروا في عين جالوت أعادوا وحدة

(١) التاجيم الزاهرة : ج ٨ ص ١١٦ .

(٢) السلوك ج ١ قسم ٣ ص ٩٣٨ — ٩٤٠ .

مصر والشام ، أو قل أعادوا احكام الحصار حول الصليبيين ، فكان ذلك وسيلة لإكمال الانتصارات الضخمة التى بدأها صلاح الدين الأيوبي ، والمماليك هم الذين أسقطوا امارة انطاكية و امارة طرابلس والجزء الذى كان باقيا من مملكة بيت المقدس ، وأهم أبطال المماليك الذين لعبوا دورا فى هذه الحروب هم الظاهر بيبرس و قلاوون والأشرف خليل الذى على يده سقطت عكا ودمرت آخر الحصون الصليبية واستسلمت كل البلاد التى كانت باقية لهم ، وانتهى عهد الصليبيين فى الشرق •

المماليك وبلاد النوبة

نقرر أولا أن بلاد النوبة فى التاريخ الوسيط تشمل ما يعرف الآن بشمال السودان تقريبا ، فهى تمتد من أسوان حتى مكان التقاء النيل الأبيض بالنيل الأزرق « الخرطوم حاليا » ثم تمتد مشتملة مناطق من حوض النيل الأزرق ضاربة الى الشرق حتى أطراف الحبشة ، وضاربة الى الغرب مشتملة أجزاء واسعة من كردفان ودارفور •

وكان المصريون القدماء يطلقون على هذه البقاع اسم « خنت » ، ومعناها الأراضي الجنوبية ، إذ كان وادى النيل شماله وجنوبه يكون مملكة الراحنة (١) ، ثم ظهرت كلمة « نوبة » ابتداء من عصر البطانية حوالى سنة ٣٠٠ ق.م ، وقد ظهرت هذه الكلمة فيما يبدو متصلة باسم شعب كان يعيش بها آنذاك ، وعلى مر التاريخ ظلت هذه البلاد متفاعلة تماما مع الأجزاء الشمالية من الوادى ، أو متحدة معها ، وكانت الوحدة هى الغالبة ، زاحفة من الشمال أو منبعثة من الجنوب ، وكان الانقسام يوجد أحيانا إذا خضع الوادى لسلطان أجنبى ، وفى هذه الحالة كانت حركات الاستقلال والوحدة تسير جنبا الى جنب ، وأوضح مثال لذلك ما قامت به دولة كوش فى الجنوب ، فانه على إثر تولية الملك شاشنق الأول لليبي

Budge E, A : History of Ethiopia, Nubia, and Abyssinia (١)

Vol, I p, I.

حكم مصر هجر طيبة مجموعة من سلالة الكهنة الى الجنوب ، وأنشئوا دولة كوش واتخذوا « ناباتا » عاصمة لها ، ثم أخذوا يعملون لتحرير الشمال ووحدته مع الجنوب ، ونجحوا في هذه المحاولة ، وعاد ملوك كوش الى العاصمة الموحدة طيبة وأسسوا الأسرة الخامسة والعشرين ، ولما زحف الآشوريون على مصر انكش الكوشيون وعادوا الى الجنوب والى عاصمتهم القديمة (١) .

ولم يكن الانفصال يستطيع أن يمس الصلات الثقافية والاجتماعية التى تربط بين الشمال والجنوب برباط وثيق ، ويمكننا أن نرى ذلك فى كثير من العادات المشتركة واللهجات .

ودخلت المسيحية مصر منذ مطلع العهد بالمسيحية ، وقد وجد الهاربون من غنت اليهود وطغيان الرومان فى مصر مأوى أسوة بالسيد المسيح وأمه اللذين لجأ الى مصر والمسيح طفل هربا من هؤلاء وأولئك واضطهد الرومان المسيحيين فى مصر كما اضطهدوهم فى كل البلاد التى حكموها ، فلجأ الى الجنوب جمع من القسس هاربين من الاضطهاد ، وبدأت المسيحية بذلك تدخل جنوب الوادى ، واتخذ سكان الوادى شماله وجنوبه الدين وسيلة لمقاومة الرومان واظهار سخطهم على حكمهم ، وفى القرن السادس الميلادى كانت المسيحية قد استطاعت أن تعم أكثر شعب النوبة وتكوّن مملكتين ، احدهما مملكة مقرة فى الشمال وعاصمتها دنقلة ، والثانية مملكة علوة فى الجنوب وعاصمتها سوبا ، وفى سنة ٥٨٠م أصبحت المسيحية الدين الرسمى لهاتين المملكتين ، أما شرقى السودان (البجة) وغربه وجنوبه فقد ظلت على وثنيتهما فترة طويلة ، وانتقلت غالبا من الوثنية الى الاسلام فيما بعد (٢) .

(١) دكتور مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة ص ٢٣ — ٢٤ .

(٢) محبوب زيادة : الاسلام فى السودان ص ١٦ .

ودخل الاسلام مصر في عهده المبكر ، وسرعان ما أدرك قتاده المسلمين أن الزحف لابد أن يسير من الشمال الى الجنوب ، فأرسل عمرو بن العاص قائده عقبة بن نافع لبلاد النوبة ، ولكن هذه الحملة لم تحقق نجاحا يذكر ، وإن كانت قد أبرزت ضرورة الارتباط بين الشمال والجنوب ، وعاد المسلمون لدخول بلاد النوبة مرة أخرى بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وانتصرت هذه الحملة ودخلت دنقلة سنة ٦٥٢ م ، ثم عقدت مع مملكة مقرة اتفاقية « البقط » وتعتبر معاهدة تبادل اقتصادي بين مصر ومقره ولا تحقق هذه المعاهدة فوائد ذات بال لمصر ، ولكن كانت رباطا بين الجارتين ، ولذلك حرصت مصر على أن يظل العمل بها قائما كرمز للعلاقات بين شطري الوادي ، وقد كان إيقاف العمل بها مدعاة لحملات حربية تقوم بها مصر على النوبة ، كذلك التي قام بها صلاح الدين الأيوبي بقيادة أخيه توران شاه ، وإن كانت هناك أسباب أخرى لهذه الحملة ، وقد ظلت هذه المعاهدة معمولا بها حوالي ستة قرون .

وجاء عهد المماليك والارتباط بين الشمال والجنوب يتخذ معاهدة البقط أساسا له ، وكان الاسلام قد انتشر في بلاد النوبة بين الأفراد ، وكانت مجموعات عربية قد هاجرت من الشمال الى الجنوب تحت ضغوط مختلفة (١) ومع هذا فالممالك التي كانت قائمة حتى مطلع عهد المماليك ظلت على المسيحية ، وقد أخذ المماليك أنفسهم بالقضاء على الصليبيين

(١) عند سقوط الدولة الأموية هرب كثير من بنى أمية وانصارهم ، واتخذ بعضهم طريقه الى بلاد النوبة عبر مصر أو عبر البحر الأحمر ، وهاجر من مصر الى النوبة عدد كبير من العرب عندما بدأت دولة أحمد بن طولون بمصر ، وكان أحد شيوخ ربيعة واسمه أبو المكارم هبة الله حظيا عند الحاكم بأمر الله الفاطمي لأنه قضى على الثائر (أبي ركة) ، وقد منح الحاكم هبة الله لقب كنز الدولة ، وأصبحت ربيعة تعترف ببني كنز ، ونعم أولاد كنز الدولة بمكانة عظيمة في جنوب مصر حول أسوان ، ولكن العادل سيف الدين الأيوبي هاجمهم فهاجروا الى بلاد النوبة .

في مصر ، فالقضاء على الصليبيين وعلى التتار كان هو النسب البذي يتقدم به الممالك لينالوا السلطة على مصر وما يتبعها من أقطار ، وفي هذا الصراع بين الممالك والصايبيين ظهر بشكل أو بآخر تأييد الممالك المسيحية بالنوبة للصليبيين ، وبخاصة عندما اقتحم الظاهر بيبرس ميناء سواكن واستولى عليها إثر اعتداء حاكمها على بعض التجار المصريين ، وكانت هذه الميناء هي التي يبحر منها مسيحيو النوبة في طريقهم الى الأمكنة المقدسة بفلسطين ، وبدأ على إثر ذلك التوتر بين الشمال والجنوب ، وزاد التوتر حدة عندما قام الملك داود ملك مقرة بهجوم على أسوان أسر فيه جمعا كبيرا من المسلمين سنة ١٢٧٢ م ونهب ثروات الناس ، كما اعتدى على ميناء عيذاب ، وكانت من موانئ مصر الكبرى على البحر الأحمر في ذلك العصر (١) ، وكان الظاهر بيبرس مشغولا في معارك كبرى عند حدوث هذه الغارة ، فاكتمل بإرسال حملة تأديبية ردت المعتدين وهرست الحدود وعادت بالأسرى النوبيين ، ثم جاء دور الحملات المنظمة التي تمت في عهد بيبرس وقلاوون والأشرف خليل والملك الناصر ، وقد تطورت نتائج هذه الحملات بالعلاقة بين النوبة ومصر تطورا انتهى بسقوط الممالك المسيحية وقيام مملكة اسلامية في النوبة ، وفيما يلي حديث به شيء من التفصيل عن هذه الحملات :

وبينا حديثنا التفصيلي بالكلام عن الظاهر بيبرس وجهوده في هذا المجال ، ويعتبر الظاهر بيبرس قمة سلاطين الممالك ، وقد قلنا من قبل إن نسب الممالك كان بما يحققونه للإسلام من انتصارات ، وقد وقعت تيمة هذا الهدف في أول أمرها على الظاهر بيبرس ، وقد حقق الظاهر أهدافا ضخمة ضد التتار والصايبيين ، فلا غرو أن يئنثى تجاه الجنوب وبخاصة ليتأثر من داود الذي كانت عواطفه مع الصليبيين ، وقد أتيحت للظاهر بيبرس الفرصة عندما استنجد رجل اسمه « شكدة » يطالب

(١) النوبى : نهاية الارب ج ٢٨ ص ١٠٦ .

بمرش « مقرة » سالفه الذكر ، وكان ابن أخيه « داود » قد انتزعه منه ، فانتهز الظاهر بيبرس هذه الفرصة ليقضى على داود ، فأعد جيشا ضخما زحف على بلاد النوبة سنة ١٢٧٦ ، والتقى هذا الجيش بجيش داود فهزمه وفر داود ، وتم تتويج « شكندة » في دنقلة في نفس العام ، وعقدت معاهدة معه تعيد الرباط الوثيق بين النوبة ومصر ، وتجعل سلطان مصر هو في الحقيقة سلطانا على كل الوادى ، وأهم شروط هذه المعاهدة ما يلي :

١ — يصبح الملك شكندة تابعا لسلطان مصر ونائبا عنه في حكم بلاد النوبة .

٢ — على سكان بلاد النوبة بعد أن طلبوا الأمان أن يدخلوا الاسلام أو يدفعوا الجزية .

٣ — أن تكون بلاد العلا وبلاد الجبل ملكا خاصا لمصر .

وهناك شروط أخرى يمكن أن تدخل ضمن الشرط الأول ، ولكن المهم أن « مقرة » أضحت جزءا من السلطة المصرية وأن سلطان مصر أصبح بيده عزل ملوك النوبة وتعيينهم ، وأن مصر استعادت استعادة تامة بلاد العلا وبلاد الجبل ، وهى حوالى ربع بلاد النوبة ، وكانت جزءا من مصر ضاع منها عقب انسحاب القوات الرومانية في عهد دقلديانوس (١) ، ثم إن النوبيين بهذه المعاهدة أصبحوا أهل ذمة ، ولهذا أنشأ السلطان بيبرس ديوانا سماه ديوان النوبة لمراقبة جمع الجزية والخراج وتعيين العمال (٢) .

(١) دكتور مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة ص ١٤٩ — ١٥٠ وانظر الباش .

(٢) المقرئى : السلوك ج١ القسم الثانى ص ٦٢٣ .

ويقتل شكندة في العام الذي توفي فيه ببيرس ، فقفز على عرش النوبة أمير يدعى « برك » متجاهلا أن تعيين الملوك بالنوبة لابد أن يتم بموافقة القاهرة ، وكان السلطان في مصر قد آل الى قلاوون فأرسل هذا جيشا قبض على برك وقتله وولى مكانه أميرا يدعى سيمامون . وهذا الوضع أقنع ملوك علوة بالنوبة العليا بقوة سلطنة مصر واصرار ملوكها على مكانتهم بالنسبة لبلاد النوبة ، فتقرب ملوك علوة أيضا من سلاطين مصر وأعلنوا لهم الولاء ، وتمت بذلك تبعة مملكتي النوبة لمصر ، ولكن سيمامون كان كثير الحنث والغدر فاستهدفت بلاده لعدة حملات كان يفر منها ويختفى ثم يعود للظهور عقب عودة الحملة ، فتعود الحملة لجزره وهكذا ، وانتهى الأمر بأن أقر قلاوون سيمامون على الملك بعد أن أقسم على الولاء والطاعة والامتنال ودفع الجزية .

وفي أثناء عهد قلاوون كان الاسلام قد زاد انتشاره في الجهة الغربية وظهرت دول اسلامية مثل الكانم وبرنو ، وكانت تربطها بمصر علاقات وتقامم مما جعل المملكة المسيحية شبه محصورة وسط نطاق من الدول الاسلامية المتقاهمة (١) .

وعقب وفاة قلاوون انتهز سيمامون الفرصة فتمرد على سلطة مصر من جديد ولم يرسل ما تعهد به من جزية وضرائب ، فأرسل له الأشرف حملة كبيرة ، ففر هذا كعادته منها ، وسارت الحملة حتى وصلت أرض القبيلة والقردة والخنازير والزرافات والنعام ، مما يشير الى أن سلطة مصر وصلت الى جنوب السودان ، واختفى سيمامون فلم يظهر له أثر بعد ذلك ، ووات سلطات مصر ملكا جديدا هو Boudemma وكان من الأمراء المسجونين بمصر قبل ذلك .

وجاء دور الناصر محمد ، وفي عهده كان ملك النوبة المسيحي اسمه كيرنيس وهو آخر الملوك المسيحيين ، وقد ظهر منه تنكر لسيادة مصر

(١) دكتور سعيد عاشور : العصر المالكي في مصر والشام ص ٨٢ .

سنة ١٣١٦ فامتنع عن تنفيذ معاهدة البقط ، وقد رأى السلطان الناصر أن الوقت قد حان لتعيين ملك مسلم على بلاد النوبة ، إذ كانت جموع المسلمين قد كثرت ، وافتتخ الملك الناصر فرصة تمرد كيرنجيس فأرسل حملة بقيادة الأمير عز الدين أيبك واصططبت الحملة معها أحد النوبيين المسلمين واسمه عبيد الله برشنبو ، وكان قد تربى في مصر واعتنق بها الاسلام ، ورأى الملك الناصر أن تعيينه سيضع العلاقات بين مصر والنوبة وضعا جديدا ، وعندما أحس الملك كيرنجيس بهذه الرغبة من السلطان الناصر ، أرسل ابن أخته كنز الدولة بن شجاع الدين إلى السلطان الناصر ومعه رسالة جاء فيها : إذا كان يقصد مولانا السلطان بأن يولى البلاد لمسلم فهذا مسلم وهو ابن أختي ، والملك ينتقل إليه من بعدى (١) ، ولم يسمع الملك الناصر لهذه الرغبة وعين برشنبو ملكا ، ودارت عدة مناورات انتهت بأن استقر الملك لكنز الدولة الذي نشر الاسلام وتوطدت أقدام العرب في عهده بصورة واضحة ، فكنز الدولة — كما سبق أن ذكرنا — ينحدر من أرومة عربية أصيلة وهو مسلم وأمه من أسرة ملوك النوبة : وسرعان ما بنى المسلمون مسجدا كبيرا على أنقاض الكنيسة المسيحية بدنقلة ، وكان ذلك في شهر يونيو سنة ١٤١٨ ، وبذلك انتهت المسيحية من مملكة مقرة ، وبإسلام هذه البلاد انتقلت العلاقات بينها وبين مصر إلى طابع جديد ، هو طابع التعاون والود والتبادل الثقافي والتجاري ، وتوقفت الجزية بطبيعة الحال ، وفي الجزء السادس واصلنا دراستنا فشرحنا نهاية دولة علوة أيضا وقيام مملكة إسلامية تحل محل الدولتين المسيحتين (٢) .

(١) النويري : نهاية الارب ج ٣٠ ص ٩٥ — ٩٦ .

(٢) ج ٦ ص ٣٠٥ وما بعدها .

استيلاء المماليك على قبرص وتهديد رودس

استولى المماليك في عهد السلطان بارسباى على جزيرة قبرص وهددوا جزيرة رودس ، وكانت جزيرة قبرص قد خضعت لسلطة ريتشارد قلب الأسد منذ عهد الحروب الصليبية ، وأصبحت قاعدة لإمداد الصليبيين بالمعونة العسكرية ، وبعد طرد الصليبيين من الشام أصبحت هذه الجزيرة ملجأ للشرازم الأخيرة من الصليبيين الذين طردوا من الأرض الإسلامية ، وبخاصة الاستبارية (فرسان القديس يوحنا) ، كما أصبحت الجزيرة ملجأ للقراصنة ولأعداء العرب والمسلمين ، ومن هنا بدأ التوتر يظهر بين قبرص ودولة المماليك ، وهاجم القبرصيون سواحل مصر والشام عدة مرات في مطلع القرن الخامس عشر الميلادى ، وقد اضطر بارسباى أن يفكر فى احتلال قبرص ، فأرسل لها بضعة سفن لجس نبض القوة بالجزيرة ، فعادت هذه السفن بالغنائم والأسرى ، مما شجع بارسباى الى الزحف للاستيلاء عليها ، وقد تم ذلك سنة (٨٨٣٠ = ١٤٢٦ م) وخرعت الجزيرة أمام قوى مصر وأسر ملكها وجيء به الى القاهرة ، وظل بها حتى اقتدى نفسه بغدية كبيرة ، وبقيت الجزيرة تحت سيطرة مصر ، وظلت تدفع جزية سنوية حتى دخل العثمانيون مصر (١) .

أما رودس — وكان الاستبارية قد انتقلوا اليها — فقد حاولت مناصرة جزيرة قبرص ، ولكن قوى المماليك تصدت لها فى عهد السلطان جقمق وغزتها ثلاث مرات حتى أسكتت حسها (٢) ، ثم خضعت رودس أخيراً للسيادة العثمانية سنة ١٥٢٢ ، ومنذ ذلك التاريخ انتقل مركز الاستبارية الى جزيرة مالطة ، حيث ظلوا الى أيام نابليون بونابرت الذى

(١) دكتور سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ١٠٤

ومابعدما .

(٢) السيوطى : غزوات قبرص ورودس ص ١٤ — ١٥ .

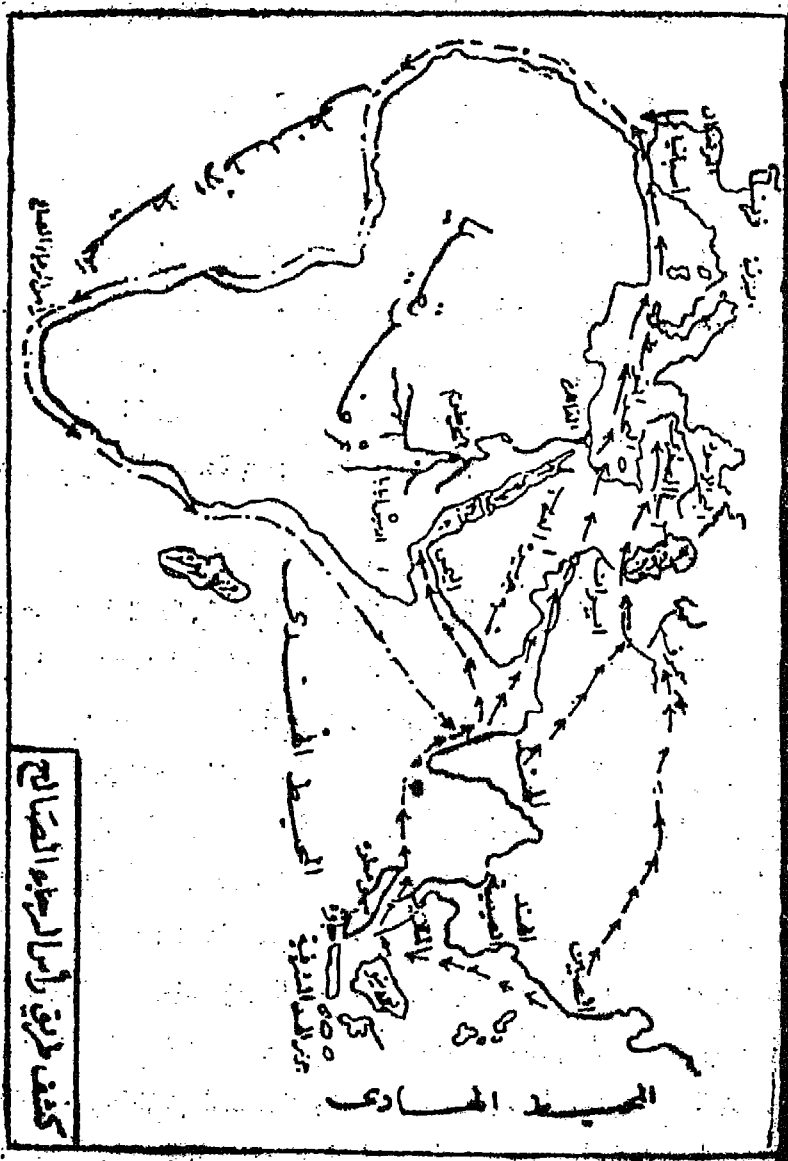
قضى عليهم متخذاً من ذلك وسيلة للدعاية لدى المسلمين (١) .

كشف طريق رأس الرجاء الصالح وأثره

في أواخر القرن الخامس عشر استطاع البحارة البرتغاليون أن يجدوا طريقاً إلى الهند والشرق الأقصى بالدوران حول إفريقيا ، وبدون المرور في البحر المتوسط والبحر الأحمر ، ويعرف الطريق الجديد بطريق رأس الرجاء الصالح ، وقد اشترك عدد من البحارة البرتغاليين في المحاولة التي أدت لهذا الكشف ، وكان النجاح النهائي على يد « فاسكودى جاما » الذي بدأ رحلته سنة ١٤٩٦ .

وقد سبب هذا الكشف لمصر وسوريا خسارة مالية فادحة ، فقد كانت التجارة عبر دولة المماليك رائجة رواجاً كبيراً ، لأن مصر والشام حائلاً محل المراكز التجارية الصليبية التي كانت موجودة قبل سقوط الصليبيين ، ثم لأن الطرق البرية بين أوروبا وآسيا (عبر الأناضول) قد دمرتها تحركات المغول فأصبحت التجارة بين آسيا وأوروبا بحرية ، ومعنى ذلك أن أصبحت مصر والشام تلعبان دوراً هاماً فيها بواسطة البحر الأحمر والبحر المتوسط ، وهكذا كانت سواحل مصر الشمالية أسواقاً يرد لها الأوروبيون من حين إلى آخر ليبيعوا من حاصلاتهم ، وليبتاعوا من حاصلات الهند والصين والهند الصينية وإندونيسيا ، هذه البضائع التي كانت تقود إلى الاسكندرية وإلى الموانئ العربية الأخرى ، ولكن البرتغاليين استطاعوا أن يكشفوا الطريق إلى الهند والشرق الأقصى بواسطة الدوران حول إفريقيا ، ودون حاجة إلى الموانئ المصرية ، وقد خسر المماليك بذلك خسارة فادحة ، إذ كان جل اعتمادهم على الضرائب التي يجلبونها من هذه التجارة العظيمة .

(١) دكتور ابراهيم طرخان : مصر في عهد المماليك الشراكسة ص ١١٤ .



كثف طريق رأس الرجاء الصالح

ولم تكن الخسارة بإهمال البحر المتوسط وتحول التجارة العالمية عنه واقعة على دولة المماليك فحسب ، وإنما أصيبت بها كذلك المراكز التجارية بجنوب أوروبا وبخاصة البندقية ، ولذلك إتفق السلطان الغورى مع البنادقة على حرب البرتغال في محاولة لاستعادة مكانة البحر المتوسط ، وأنشأ السلطان الغورى لذلك أسطولاً كبيراً ، أسهم فيه البنادقة بالأخشاب اللازمة ، وسرعان ما ظهر هذا الأسطول في المحيط الهندي وتصدى للأسطول البرتغالي ، ووقعت معه موقعة بحرية بالقرب من شواطئ بمباى ، انتصر فيها المصريون انتصاراً كبيراً ، ولكن البرتغاليين سرعان ما أعدوا أسطولاً آخر لمواجهة المصريين ، وحدثت موقعة أخرى أمام بمباى سنة ١٥٠٩ م انتصر فيها البرتغاليون انتصاراً ثبتت مركزهم الحربى وكسب النصر للطريق الجديد ، وكان من عوامل هذا الانتصار أن دولة المماليك كانت تمر في هذه الأثناء بفترة الصراع التى سبقت الصدام بينها وبين العثمانيين .

وقد أدرك السلطان سليم — بعد فتح مصر — خطورة هذه الخسارة وبخاصة أن البرتغال أغرت المراكز التجارية بشمال البحر المتوسط بالتحول للخط الجديد ، فحاول أن يستعيد للبحر المتوسط مكانه التجارى ، لا عن طريق الحرب مع البرتغاليين ، وإنما عن طريق إغراء المراكز التجارية بجنوب أوروبا باستمرار استعمال الطريق القديم وعدم التعامل مع الطريق الجديد ، فعقد مع البنادقة معاهدة تجارية سنة ١٥١٧ كانت روح التساهل فيها واضحة رجاء جذبهم مرة أخرى ، وكان مما ضمته لهم هذه المعاهدة أن منحه قناصلهم فى الاسكندرية والموانئ الأخرى حق الفصل فى قضايا رعاياهم ، كما ضمن تيسير وصول سفنهم للموانئ المصرية ، وتيسير التعامل مع ممثليهم على العموم ، وفى سنة ١٥٢١ م

عقد السلطان سليمان معاهدة أخرى مع البندقين في ثلاثين فصلا ،
ثبتت فيها الامتيازات السابقة وزاد عليها ، وحصل الفرنسيون على
امتيازتهم الأولى سنة ١٥٣٥ والإنجليز سنة ١٥٨٠ م ، والعجيب أن
هذه الامتيازات لم تأت بظائل فيما يخص إحياء الخط التجاري عبر
البحر المتوسط ، وعلى العكس أصبحت أساسا للامتيازات التي منحت
فيما بعد شيئا عذلا للترك والبلاد التابعة لهم ، ولم تتخلص منها هذه
البلاد إلا بعد صراع طويل .

نهاية حكم المماليك

إن نهاية المغول في العراق وغربي آسيا ، أوقفت قوتين كبيرتين وجها لوجه ، هما قوة العثمانيين وقوة الدولة الصفوية ببلاد فارس ، ومع أن كلا منهما قوة إسلامية ، إلا أن الصفويين كانوا من غلاة الشيعة ، وكان الأتراك سنيين ، وهذا فرق بينهما إلى حد كبير ، وكانت دولة المماليك بحكم موقعها تتوسط هاتين القوتين ، وقد شب نزاع طويل بين العثمانيين والصفويين انتصر فيه العثمانيون في النهاية ، ودخل سليم الأول العراق سنة ١٥١٢ م وكان سلطان المماليك آنذاك هو قانصوه الغوري (١٥٠٠ — ١٥١٦) وقد اتهمه سليم بممالأة الصفويين ، وبأنه آوى بعض اللاجئين السياسيين من الأمراء العثمانيين الخارجين عليه ، وأخذ لذلك يعد العدة للهجوم على مصر ، وقد استطاع سليم الأول أن يرشحو بعض أتباع الغوري مثل خير بك نائب حلب وجان برّدى الغزالي نائب حماة ، كما كان الجيش الانكشاري يستعمل الأسلحة النارية ذات الرمي البعيد في وقت كان المماليك لا يزالون يعتمدون على البطولة الشخصية ، ولما دارت المعركة في مرج دابق سنة ١٥١٦ أظهر قانصوه الغوري ورجاله بطولة خارقة ، ولكن خير بك الفائز قائد الجناح الأيسر انهزم برجاله في ساعة حاسمة ، فدارت الدائرة على المماليك وسقط قانصوه ميتا ، واستولى الجيش العثماني على رجاله وأمواله (١) .

وتولى طومان باي السلطنة بعد قانصوه ، والتقى بجيش العثمانيين عند الريدانية (العباسية) سنة ١٥١٧ . وخانه أيضا بعض أتباعه فحاققت عليه الهزيمة ، ولجأ طومان باي إلى حسن بن مرعي وأخيه شكري من زعماء العربان وكانت له عليهم يد ، وعلى الرغم من أنهم أقسموا ألا يخونوه ، فإنهم سرعان ما أسلموه للسلطان سليم الفاتح الذي شنقه على

(١) ابن أبياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٣ ص ٤٤ وما بعدها .

باب زويلة في إبريل من نفس العام ، وانتهت بذلك دولة المماليك ، وبدأ حكم العثمانيين بمصر ، والمؤرخ المصرى فى العصر الحديث يضع تطبيقاً قصيراً على هذا الانتقال هو أن مصر تحولت من الاستقلال إلى التبعية .

ماقبة الغدر :

بقيت كلمة خاضة بالغدر الذى قام به حسن بن مرعى وأخوه بالسلطان الذى لجأ لهما ، فلن يد القدر عاقبت الغادر وثأرت منه ، فقد انتهت حياة حسن بن مرعى وأخيه شكرى على نحو ما انتهت عليه حياة طومان باى بل بمزيد من التشفى والسخرية ، فقد أصدر خير بك أمره بإعدامهما لثمود ظهر منهما وخيانة بدت فى تصرفاتهما ، فأعدمهما الشراكسة وشرب بعضهم من دمهما ، وقطعت أجسامهما بالسيف قطعاً وعلقت رأساهما فى عنق قرمن طومان باى ، الذى كان يركبه يوم لجأ إليهما ، وطيف بهما فى القاهرة بين فرح الناس وسرورهم ، ويقول ابن إياس إن عيال السلطان طومان باى لسا رأوا رأس حسن بن مرعى معلقة فرحوا وأطلقوا الزغاريد وتخلقوا بالزعفران (١) .

وينبغى أن نوضح حقيقة كبيرة الأهمية هى أن الاسلام كان عاملاً مهماً من بين العوامل التى كسبت للعثمانيين النصر ، وقد وقعت مصر وسوريا بنجاح أمام الصليبيين وأمام المغول ، وباسم الاسلام انتصرت فى نضالها مع هؤلاء وأولئك ، ولكن الزاحف هذه المرة كان مسلماً ويشيد بإجتماع كلمة المسلمين وانتصار السنة ، ولا شك أن هذا كان له ثقل يذكر فى ميزان القوى المناضلة .

(١) تاريخ ابن إياس ج ١ ص ٥٩

حضارة مصر في عهد المماليك

التجارة والمال في عهد المماليك :

تحدثنا من قبل عن التجارة وكيف أن دولة المماليك كانت تستغل موقعها أروع استغلال بعد سقوط الإمارات الصليبية وبعد تدمير المغول للطرق البرية ، ونضيف هنا أن تجار مصر وسوريا أصبحوا وسطاء في هذه التجارة الرائجة ، واستخدموا في ذلك رعوس أموال كبيرة ، واتخذوا لهم وكلاء في عدن والخليج الفارسي والهند والشرق الأقصى ، ورحل بعضهم ليعيش في هذه المراكز ، ليباشر النشاط التجاري الهائل البعيد كانت دولة مصر تحميه وتربح عن طريقه ثروة كبيرة ، وقد توقف جل هذا النشاط — كما قلنا من قبل — بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، إذ باشرت أوروبا التجارة مع الهند بواسطة هذا الطريق الجديد وحات لشبونة محل الاسكندرية والسواحل العربية وانقطع بذلك مصدر كبير من مصادر الثروة الى حكومة مصر والشعب العربي ، وخاصة أن التجارة بين أوروبا وبين الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح كانت — مع بعد المسافة — أيسر من التجارة عبر مصر ، فهنا كان يلزم أن تنقل البضاعة من السنن بالبحر الأبيض الى السفن بالبحر الأحمر بواسطة القوافل البرية ، وأما عن طريق رأس الرجاء الصالح فإن السفن تنقل البضاعة مباشرة الى هدفها دون حاجة الى تحكم المماليك وتكاليف الوسطاء والعمال ولذلك نجد أن التجارة تحولت كلها أو أكثرها الى هذا الطريق الجديد (١) .

(١) يلاحظ أن فتح قناة السويس أعاد لهذا الخط التجاري قيمته ، فقد أصبحت المسافة من أوروبا الى الهند متصلة اتصالاً مائياً وأقرب بكثير من طريق رأس الرجاء الصالح ، بيد أن الفائدة هنا هي فقط في دفع ضرائب العبور في القناة ، وليس فيها من حاجة لأيدٍ مصرية كثيرة كما كانت الحال أبان عهد المماليك .

الزراعة :

وتحدثنا من قبل عن الزراعة ، وأشرنا الى ما بذله أكثر سلاطين المماليك من العناية بالترع والجسور ، ونهضت الزراعة نهضة واسعة في ظل الأمن ، ولكن الاضطرابات التي حدثت في بعض العهود قللت من النشاط الزراعي ، على أن الفلاح على العموم كان مظلوما ، فإذا اهتم المماليك بالزراعة فإن مصدر ذلك رغبتهم في الحصول على ثروات أكبر ، أما الفلاح الكادح فلم يكن ينال مما تخرجه الأرض إلا الكفاف ، وعاش في دولة المماليك تابعا وكل أمره كان في يد مالك الإقطاع .

الإقطاع :

والحديث عن الإقطاع الذي أشرنا إليه آنفا يحتاج الى تفصيل وإبانة ، ومن العجيب أن الإقطاع في العصر المملوكي لم يكن مقصورا على الأرض ، وإنما تعداها الى موارد الدولة الأخرى ، فكما تقطع مساحة من الأرض الى أمير من الأمراء ، تقطع جزية مجموعة من أهل الذمة أو ضرائب المكوس الى أمير آخر ، ولم يقبل الناصر محمد بن قلاوون هذه السياسة ، فقصّر الإقطاع على الأرض ، ولكن هذا لم يستمر بعده فعمادت جميع الموارد تقطع حتى نهاية عهد المماليك (١) .

وكان الإقطاع يتبع سياسة القراريط على اعتباره أن الدخل كله أربعة وعشرون قيراطا ، للسلطان أربعة قراريط وللأمراء والمنح عشرة ، وللأجناد عشرة ، هذا من ناحية الكم ، أما ناحية الكيف فتتبع هذا الترتيب التنازلي بمعنى أن السلطان يخص نفسه بأجود الأراضي وأيسر الإيرادات تحصيليا ويليه الأمراء ثم الأجناد .

وكانت هناك مساحة محدودة للأوقاف ، ولكن هذه كثيرا ما كانت تمتد لها يد الإقطاع ، بأن يحلها السلطان ثم يقطعها .

(١) صبح الاعشى : ج ٦ ص ٢٥٠ .

وطبيعى أن الاضطراب الذى شمل عصر المماليك ، مسَّ التنظيم الإقطاعى بمعنى أن أحدا لم يكن يضمن استمرار الإقطاع له أية فترة من الفترات ، فكل انقلاب يعقبه إعادة التوزيع بقصد حرمان أتباع السلطان السابق ومنح أتباع السلطان الجديد ، وكان هناك إعادة توزيع أحيانا فى عهد السلطان نفسه ، ويكون ذلك جزئيا أو كليا حتى يتمكن السلطان من مكافأة المجددين وتقليل الإقطاع الممنوح لمن نُسب لهم الإهمال أو ضعفوا عن القيام بتبعاتهم ، وكان الإقطاع أحيانا يؤخذ كله من هؤلاء ، وقد تكون إعادة التوزيع ناتجة عن حاجة السلطان لإقطاعات جديدة يمنحها لبعض أنصاره أو لبعض الطامعين المطالبين بمزيد من الدخل ، وفى هذه الحالة يستولى السلطان على بعض إقطاعات من أصحابها ، ومن عوملوا كذلك ابن إياس المؤرخ الشهير فقد استرد السلطان بعض إقطاعاته ليمنحها الى بعض عبيده الذين ما فقتوا يطلبون مزيدا من العطاء (١) .

والإقطاعات التى أشرنا إليها آنفا كانت كما رأينا مرتبطة بالوظائف ، ومن هنا كان ينتقل الإقطاع من شخص الى آخر تبعا لوظيفته ، وهو بذلك إقطاع استغلال لا إقطاع تمليك ، ومن هنا كذلك حرص كثير من الناس على أن يكون لهم مال ثابت يورثونه ذويهم خوفا على الإقطاع الذى يمتنع ويمنع ، وكان طريقهم للحصول على ذلك المال الثابت أن يشتروا من بيت المال قطعة من الأرض بمدخراتهم الخاصة ، وإن كان هذا المال أيضا عرضة للمصادرة ، إذا شاء السلطان ذلك .

وكانت وفاة شخص من المقطع اليهم فرصة للطامعين لينالوا ما كان بيده ، ومن هنا تعجل بعض الناس وفاة المرضى أو كبار السن ، بل ربما قتلوا ذلك الشخص بطريق أو بآخر كما حدث فى عهد السلطان الغورى

الذى ثبت له ذلك فحرم القتل من الإقطاع الذين ارتكبوا ذلك الجرم الأثيم من أجله (١) .

حياة الإقطاعيين :

وكان الأمير المملوكى فى إقطاعه يبدو كأنه سلطان فى مملكة صغيرة ، تكاد تكون مستقلة ، فهو يقيم فى قصر ضخم ، حوله الحشم والأتباع ، وله حرسه الخاص وله كذلك مماليكه ، الذين يشتريهم بماله ويربهم ليكونوا حرسه وأتباعه ، وهو يدبّر شؤون إقطاعه ، فهو حاكم مطلق بين فلاحيه وموظفيه ، يقضى بينهم أو يعين لهم القضاة ، ويفرض عليهم الضرائب ، وليس من حقهم مغادرة الإقطاع ، فان غادروه أعيدوا له قسرا وربما عوقبوا على هذا التصرف .

الصناعة :

ومن جهة الصناعة فقد نشطت بعض الصناعات فى هذا العصر ، كصناعة النسيج والأوانى المعدنية والزجاج والجلود وأصبحت لمصر شهرة واسعة فيها ، وكصناعة الأسلحة والسفن ، واشتهرت فى هذا العهد الصناعات الدقيقة وفن الخزفة ، وقد تحدثنا فيما مضى عن هذا العهد نماذج رائعة من المصنوعات الفنية الحديدية ، والأدوات النحاسية والأوانى الزجاجية والمحفوظات الخشبية ، ومما يستحق إشارة خاصة هنا الأدوات النحاسية ، والزهريات ، والأباريق والأطباق والشبامعد والمباخر وغلافات القسرآن ، وجميعها زاهرة بضروب الزركشة والترويق (٢) .

الطبقات فى العصر المملوكى :

وقد أشرنا فى أحاديثنا السابقة إلى الطبقات فى المجتمع المملوكى ،

(١) دكتور ابراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الشراكسة

ص ٢٥٧ .

(٢) فيليب حتى : تاريخ سوريا ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

وقد كان الفلاح في القاع بين هذه الطبقات ، وكان التجار والصانع في منزلة أعلى من الفلاح ، إذ أن التجار والصانع كانوا يعيشون غالبا في المدن بعيدين عن الإقطاع وما فيه من إذلال وقد يكون لبعضهم ثراء جدير بالذكر ، أما أمراء الممالك فكانوا في القمة في هذا المجتمع ، ويغلب أن يكون أعضاء الجيش من الممالك المستوردين ، أما أبناء الممالك فلم يكن لهم أن يلتحقوا بالجيش وإنما كانوا يباشرون العمليات الإدارية والكتابية ، أما النابيهون من السكان الأصليين ، فكان يمكن أن توكل لهم الوظائف الحسابية والقضائية والتعليمية .

وهناك طبقة أخرى ظهرت في المجتمع المصري في مطلع عهد الممالك وهي طبقة طوائف التتار التي فرّت من حكم قاداتهم ولجأت إلى مصر ، وقد اعتنقت هذه الطوائف الدين الاسلامي وأخذت على أخلاقه ، وقد رحب بهم سلاطين الممالك وبخاصة بيبرس رجا أن يتخذهم أعوانا له وينتفع بما عثرف عنهم من قوة وشجاعة ضد منافسيه في الداخل وأعدائه في الخارج ، وقد أسكنهم حتى (الحسينية) وكان فيهم جمال رائع مما جعل هذا الحي يشتهر بالجمال .

وطبيعى أن الممالك وهم يعيشون في جو عسكرى اهتموا بالالعاب الفروسية وسباق الخيل ولعب الكرة بالصولجان ، كما اهتموا بإحياء الحفلات في الأعياد الاسلامية والمسيحية والوطنية .

الآثار والمنشآت :

وقد نهض فن العمارة إبان عهد الممالك نهضة واسعة ، وآية ذلك تلك المؤسسات العظيمة من مدارس ومساجد ومستشفيات التي تزدان بها القاهرة والاسكندرية وغيرها حتى الآن ، وهي بما تحويه من هندسة وزخرفة تدل على مدى الرقى الذي وصل اليه فن العمارة في هذا العهد .

وقد ذكرنا أهم منشآت الممالك البحرية عند الكلام عن أشهر

سلاطينهم أما مؤسسات الممالك البرجية وآثارهم فأهمها قبة يشبك الدوادار التى أنشأها خلال سلطنة قايتباى ، والمعروف مكانها اليوم بالقبة الفداوية ، وكثيرا ما استضاف الأمير بشبك السلطان قايتباى بها ، وكانت هذه القبة مكانا ينزله السلاطين للاستراحة والاستجمام عند خروجهم من القاهرة أو عودتهم إليها •

وكان للأمير أربك قصر ضخم فى المنطقة التى عرفت باسمه وهى الأربكية •

واهتم هؤلاء الممالك ببناء المساجد وبخاصة السلطان قايتباى الذى بنى عدة مساجد منها مسجد باب الخرق (الخلق) ومسجد وحوض سبيل بالعباسية ومسجد بالصحراء ، ومدرسة وضريح بالقرافة الشرقية •

ومن المساجد الشهيرة جامع المؤيد بجوار باب زويلة وكانت به مكتبة كبيرة ، ومسجد الغورى بالقرب من الأزهر ، وله مسجد آخر خلف ميدان القلعة وهو الذى بنى مئذنة الأزهر ذات الرأسين (١) •

ووجه الممالك عنايتهم للمدارس فبنى بمرقوق مدرسته بين القصرين : وبنى الأمير جمال الدين الأستاذ فى عهد السلطان فرج مدرسته التى نسبت إليه فعرفت بالجمالية ، وبنى الأشرف بارسباى ثلاث مدارس إحداها بسرياقوس والثانية بالقاهرة وهى المعروفة بالأشرفية والثالثة بالصحراء وقد دُفِن بها •

(١) مجالس السلطان الغورى : نشره الدكتور عبد الوهاب عزام ص ٢٣ وما بعدها وانظر تاريخ المساجد الاثرية للأستاذ محسن عبد الوهاب : ج ١ ص ١٢١ — ١٢٢ •

ومن أهم آثار برقوق وابنه فرج الضريح والخانقاه بمقابر المماليك . والعجيب أن المماليك كانوا كثيرا ما يستعملون في مدارسهم ومساجدهم مواد للبناء يأخذونها قسرا من أصحابها أو ينهبونها من مؤسسات أخرى ، وكانوا كثيرا ما يلجئون الى السخرة فيرغمون العمال على العمل دون أجر في هذه المنشآت التي كان المفروض أنها خيرية .

ومن منشآت هؤلاء المماليك مجموعة من الأبراج والقلاع الحربية ، ومجموعة من القناطر والجسور والخلجان .

وكان لكل أمير أو سلطان شارة تسمى « رنك » ينقشها على سلاحه وأدوات منزله ومبانيه ، فكان منهم من اتخذ الأسد شارة له ، أو الصقر وهكذا .

مزيد من الكلام عن آثار مصر في عهد المماليك :

يعتبر عهد المماليك عهداً غنيا بالآثار ، وقد امتدت هذه الآثار من مطلع عهد المماليك حتى نهايته كما ذكرنا آنفاً ، فمن مطلع عهد المماليك يبرز مسجد قاهر التتار (قطز) في القصير إحدى قرى غاقوس ، ومن نهاية عهد المماليك تبرز آثار السلطان الغوري وبخاصة مئذنته ومدرسته بالغورية وبين هذين توجد مجموعة ضخمة من المساجد من أهمها :

— مسجد الظاهر بيبرس بحي الظاهر .

— مسجد وقبة قلاوون بالنحاسين .

— مسجد السلطان حسن بالقلعة .

— مسجد برقوق .

— مسجد قلايتباي .

ويكثر في العهد المملوكى تشييد الخوانق والتكايا والسبل ،
والخانقاه تعتبر أهم هذه المنشآت ، ومعنى الخانقاه : دار موقوفة لسكنى
الزهاد والصوفية ، وينفق عليهم من أوقاف يحددها أهل الخير ،
ولعل أقدم خانقاه بالقاهرة هى خانقاه سعيد السعداء التى أوقفها صلاح
الدين الأيوبي على فقراء الصوفية الوافدين على مصر ، ورتب لهم
جميع حاجاتهم من طعام وأكسية •

ومن خوانق مصر خانقاه بيبرس الجاشنكير وهو السلطان رقم (١٢)
في قائمة سلاطين المماليك البحرية ، وخانقاه الناصر محمد بن قلاوون
ولا تزال موجوده حتى الآن وتعرف « بالخانكة » •

أما التكايا فمؤسسات عرفت في العصر المملوكى أيضا ، وكسفت
أمكنة تضم العاطلين حيث يجدون بها حاجاتهم فلا يقدمون على مغامرات
وحركات اضطرابات ضد السلطة •

أما السبل فأمكنة تقدم الشراب للمارين مرورا سريعا حيث يجدون
مكانا يستظلون به وقتا قصيرا ويشربون أو يأخذون حاجتهم من الماء
ثم يواصلون رحلتهم ومسيرتهم •

ولا تزال آثار التكايا والسبل موجودة في حى الدراسة والعباسية •

العلوم والمعارف :

يزدان عصر المماليك في مصر وسوريا بنخبة ممتازة من الفحول والعلماء في
مختلف الميادين ، بحيث يصعب أن يناافسه عصر آخر ، وإن اسم كل
واحد من هؤلاء العلماء يحمل معانى كثيرة ، ويشير الى تفوق ونضج في
ميدان الثقافة والفكر ، وسنذكر بعض هؤلاء فيما يلى مرتبين حسب تواريخ
وفاتهم :

• وأول من تقابل الطبيب العظيم « ابن أبي أصيبعة » (١٢٦٩ م)
وقد تعلم الطب على أبيه في دمشق ثم استكمل دراساته الطبية في
البيمارستان الناصري في القاهرة ، وقد وضع تراجم للأطباء في كتابه
« عيون الأنباء في طبقات الأطباء » ويحوى ٤٠٠ ترجمة •

ويجىء في تاريخ الوفاة بعده ابن خلكان (١٢٨٢ م) وهو أبرز
مؤلفي السير في الاسلام ، وقد جمع في كتابه العظيم « وفيات الأعيان »
ترجمة حياة ٨٦٥ من الأعيان والعظماء ، ويعدّ كتابه مرجعا هاما
للباحثين والدارسين •

وعمل ابن خلكان أوحى لمؤلفين متعاصرين أن يسيرا على نهجه ،
أحدهما الكتبي الحلبي (١٣٦٣ م) الذي أكمل عمل ابن خلكان بكتابه
« فوات الوفيات » وهو يضم ٥٠٦ تراجم ، أما الكاتب الآخر فهو الصفدي
(١٣٦٣ م) وقد كتب كتابا بعنوان « الوافي بالوفيات » وبه ١٤٠٠٠ سيرة •

ثم يجىء على بن النفيس (١٢٨٨) وكان رئيسا للأطباء في مستشفى
قلاوون •

وبعد ذلك يجىء الدمشقي (١٣٢٦) وقد ألف « نخبة الدهر في
عجائب البر والبحر » •

ومن علماء هذا العصر المشهورين ابن تيمية (١٣٢٨) وهو يقف
في القمة بين الشيوخ والفقهاء ، وقد رفع صوته ضد تقديس الأولياء
وتقديم النذور لهم ، وهو المذهب الذي اعتنقه الإصلاحيون في نجد
فيما بعد •

ومن مؤرخي هذا العصر « أبو الفدا » (١٣٣٢) صاحب التاريخ
والسير ، ومؤلفاته تدعو للإعجاب والتقدير ، والحديث عن أبي الفدا

يُشدُّنا لأحدث عن صديقه ابن نباته المصري (١٣٦٦) الذي كان من الشعراء الممتازين .

ومن علماء هذا العصر ابن فضل الله العمري (١٣٤٩) الذي شغل منصب صاحب الخاتم في بلاط المماليك بالقاهرة ، وهو مؤلف « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » .

ومن فقهاء العصر السبكي (١٣٥٥) وقد ولد في بيت بالمنوفية ، وكان رئيس الشافعية في عصره ، ومن مؤلفاته طبقات الشافعية وشفاء السقام في زيارة خير الأنام الذي يرد به على ابن تيمية .

وقد عاش في هذا العصر ابن خلدون (١٤٠٥) المؤرخ والباحث الاجتماعي العظيم ، وهو الذي قرَّرَ لأول مرة أن الأحداث التاريخية تقوم على أسس اقتصادية وجغرافية واعتبارات محددة ، وألزم دراسة ذلك عند دراسة التاريخ .

ومن مفكرى هذا العصر محمد بن عيسى الدميرى (١٤٠٥) مؤلف كتاب : حياة الحيوان .

ومن مفكرى هذا العصر كذلك ابن دقماق المصري (١٤٠٦) وهو مؤلف : الانتصار لواسطة عقد الأمصار .

ونصل الى القلقشندي (١٤١٨) صاحب الموسوعة العظيمة المسماة : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء .

ثم المؤرخ المصري العظيم المقرئى (١٤٤٢) وهو مؤلف الخطط والسلوك والتعاط الحنفا ورسالة عن النقود . . .

ويجىء بعد ذلك إمام العصر ابن حجر العسقلانى المولود المصري

حياة (١٤٤٩) وهو مؤلف : الدرر الكامنة في علماء المائة الثامنة ، والاصابة في تاريخ الصحابة وفتح الباري في شرح أحاديث البخارى •

ثم يجىء العيني (١٤٥١) وقد ولد في حلب وولى التدريس والقضاء في القاهرة ، وكان يجيد التركية والعربية وساعده ذلك على تأليف موسوعته العظيمة « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان » •

ونصل الى مؤرخ شهير وهو من عنصر المماليك وهو ابن تفرى بردى (١٤٦٩) وكتابه : النجوم الزاهرة من أشهر الكتب في تاريخ مصر والقاهرة •

ومن علماء العصر الإمام السخاوى (١٤٩٦) مؤلف عدة كتب من أهمها النضوء اللامع في علماء القرن التاسع (الهجرى) •

ويجىء بعد السخاوى تلميذه وندته الإمام السيوطى (١٥٠٥) وهو صاحب الموسوعات الكثيرة وبخاصة في الدراسات القرآنية •

وتختتم هذه الدراسة بنموذج مملوكى شهير هو ابن اياس (١٥٢٣) مؤلف كتاب « بدائع الزهور » في تاريخ مصر •

علماء من صفوف المماليك :

أشرنا فيما سبق الى بعض المؤرخين الذين برزوا من صفوف المماليك واشتغلوا بتدوين التاريخ ، ولم يكن التاريخ وحده هو الذى جذب بعض المماليك ليقترکوا السيادة والسلطة ولينخرطوا في صفوف العلماء ، فاق كثيرين من المماليك اتجهوا للعلوم الشرعية كالأمر عام الدين سنجر ، وتمر بن عبد الله الشهاب ، واتجه آخرون الى الأدب مثل شهاب الدين بن بلبك والسلطان قنصوه الغورى ، بل اتجهوا كذلك للرياضة والفلك والطب والكيمياء ، وقد خصصت دراسة علمية لذلك

تفاقت رحت موضوعها وأشرفت عليها حتى اكتملت وحصل المرحوم محمد محمد عامر على درجة الدكتوراه من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة وعنوانها « المماليك المصريون الذين لمعوا في ميدان الفكر » فليرجع إليها من أراد المزيد من المعرفة عن نشاط المماليك في هذا المجال .

وهناك مجموعة من الأبطال برعوا في كتابة المؤلفات في التسئون الحربية ومن هؤلاء :

— عماد الدين موسى اليوسفى ١٣٥٧ وهو مؤلف كتاب « كشف الكروب في معرفة الحروب » *

— محمد بن منكلى (١٣٧٧) مؤلف « التدبيرات السلطانية في سياسة الصنائع الحربية » *

— سيف الدين الماردىنى (١٣٧٨) مؤلف « بقية القاصدين في العمل بالميادين » *

مِصْرُ وَسُورِهَا

من الفتح العثماني حتى العهد الحاضر

الخلاف بين المماليك والعثمانيين

سننتحدث في هذا الجزء فيما بعد عن نشأة العثمانيين ، وتطورهم من إمارة صغيرة الى امبراطورية شاسعة ، فلندع ذلك الآن لنتحدث عن الأحداث التي سبقت وعاصرت قضاءهم على دولة المماليك ودخولهم سوريا ومصر .

ولا ننسى أننا أوردنا عند الكلام عن نهاية المماليك تصويرا لعلاقاتهم مع العثمانيين التي انتهت بالحرب وهزيمة المماليك ، ولن نكرر هنا ما سبق أن أوردناه ، وإنما سنضيف بضع نقاط كانت ذات أثر كبير في مجريات الأمور آنذاك .

لقد رحّب المماليك ترحيبا واضحا بالانتصارات التي حققها العثمانيون ضد بيزنطة ، وعندما سقطت القسطنطينية شاركت مصر وسوريا العثمانيين في أفراحهم وفي مواكب النصر التي ازدهرت هنا وهناك بمناسبة هذا الحدث البهيج ، ولكن إسقاط القسطنطينية زاد أطماع العثمانيين ، ولذلك حرصوا — وقد ورثوا الامبراطورية البيزنطية — أن يثروا الامبراطورية الاسلامية ، وبخاصة أنهم من حماة الاسلام ، ومن العاملين على انتشاره وانتصاره ، وتحقيقا لهذا الهدف احتلوا بغداد التي كانت عاصمة الاسلام فترة طويلة من الزمن ، ثم اتجهوا الى مصر قلب العالم الاسلامي آنذاك ، حيث تتخذ الخلافة العباسية مركزها الجديد .

أما الأحداث التي سبقت الحروب ومهدت لها فهي اتهام مصر بممالأة الصفويين ، ومحمية اللاجئين الأتراك أعداء السلطان سليم ، وهناك إمارة صغيرة ساعدت على حدة الخلاف بين المماليك والعثمانيين ، تلك هي الإمارة الغادرية إحدى الامارات التي قامت على أنقاض دول القطار في أرمينيا وديار بكر ، وكان أميرها من أبناء ذى القادر ، وكان

لمصر نفوذ في هذه الولاية ، والمماليك لحق بعينهم لأمرائها ، وحدث أن أحد الأمراء من أسرة ذي القادر المتأثرين للأمير الذي عينه المماليك ، لجأ إلى العثمانيين وطلب عونهم لتصبح الإمارة له ، فاستجاب له العثمانيون وأمدوه بالعتاد والرجال ، حتى قضى على منافسه التابع للمماليك وأخذ الولاية لنفسه ، واعترف بنفوذ العثمانيين على ولايته ، ولم يحتج السلطان الغوري على ذلك ، كان رد السلطان سليم على هذا الاحتجاج أن أرسل له رأس الوالي الذي كان تابعا له ، وكان معنى ذلك إعلان الحرب •

ونقطة أخرى يجدر بنا أن نوضحها ، هي أن جيش العثمانيين كان — بالإضافة إلى العمد الحديثة التي تكلمنا عنها من قبل — كثير العدد وافر الحماس ومتمدد الكلمة والغاية ، ولكن جيش المماليك آنذاك كان قليلا ، وكانت عناصر الفرق واضحة به ، فعنفى الغوري ومماليكه كانوا في جانب ، وكان المماليك الآخرون في جانب آخر ، ثم إن دولة المماليك كانت تعاني اضطرابا اقتصاديا قاسيا بسبب تحول التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح كما ذكرنا •

ومع كل هذا فقد استطاع الغوري أن يصمد وأن يكسب النصر في عدة جولات في مرج دابق سنة ١٥١٦ ، لولا انسحاب الخونة في المسافات الحرجة ، وبهزيمة مرج دابق أصبحت سوريا خاضعة للعثمانيين •

وسقط الغوري قتيلا ولم يتعرف أحد على جثته ، ويقال ان بعض رجاله قطع رأسه حتى تسلم جثته من التشويه •

وقد حاول السلطان سليم بعد انتصاره في مرج دابق أن يسترضي طومان باي الذي خلف الغوري ، فراسله ليحكم مصر باسمه ، ولكن طومان باي رفض ذلك ، وأعد نفسه لمعارك أخرى ، ومع أنه هُزم في موقعة الريدانية (العباسية) فقد واصل الصراع في أمكنة أخرى بأحياء القاهرة ، وظلت المعارك تدور في شوارع القاهرة عدة أيام ، وشهدت

أحياء الصليبية والسيدة زينب وبولاق وواردان مواقف جديرة بالتقدير ، ولكن العثمانيين انتصروا في النهاية ، وعندما لم يجد طومان باي وسيلة للكفاح لجأ الى أحد رؤساء الأعراب بالبحيرة واسمه حسن بن مرعى واختفى عنده واستحلفه ألا يخونه ، ولكن ذلك البدوي خان أميره وبعث للسلطان العثماني بأمره كما ذكرنا من قبل ، فأرسل السلطان جنده فقبضوا عليه ، وجاءوا به الى السلطان ، وقد استبقاه السلطان عدة أيام ، وكان يحسن استقباله ويسأله عن شئون مصر وإدارتها وجباية خراجها ، حتى إذا عرف منه ما أراد أسلمه الى جبل المشقة في ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧) ، وانتهت بذلك دولة المماليك وأصبحت مصر وسوريا خاضعتين للحكم العثماني .

وقد بقى السلطان سليم بمصر ثمانية أشهر ، سن خلالها بعض الأنظمة الادارية ، ونقل الى القسطنطينية أكثر ما في القلفة ومنازل الأمراء والولاة والمساجد والزوايا والأربطة من النفائس والذخائر والكتب حتى أعمدة الرخام ومراكبته .

ونفى من مصر الى القسطنطينية الخليفة العباسي وأكثر العلماء والقضاة وكل من له نفوذ وإمارة بمصر .

ثم أمر بجمع رؤساء الصناعات المشهورين بإجادة العمل فيها من كل الطوائف ، فجمع له منهم نحو ألف صانع فنقلهم الى الاسطانة لينشروا الصناعات الدقيقة فيها ، وقد رجع بعضهم الى مصر بعد عهده وبقي آخرون هناك ، ويقال إنه قضى في مصر بذلك على نحو خمسين صناعة ، فكان كل ذلك سببا في تأخر مصر في مجال الصناعات .

أما ولاية مصر فاختار لها السلطان سليم في أثناء إقامته أكبر وزرائه (يونس باشا) واليا عليها ، ثم رجع عن ذلك قبل سفره من مصر وولى

عليها الخائن « خير بك » وولى « على الشام الخائن الآخر » جان بردى
الغزالي .

نظام الحكم العثماني بمصر وسوريا :

إن فلسفة الحكم عند العثمانيين كانت تقوم — كما يقول فيليب
حتى — على أن الشعوب المغلوبة رعيّة يتعهدهم الراعى لمصلحته ، فهم
يمثّابة المواشي الإنسانية (يَحْلَبُونَ) أو (يَجْرَثُونَ) حسبما يشاء
الراعى ، ولهم أن يعيشوا ماداموا أولا لا يسببون المتاعب وثانيا
يستغاثون ، وفي مصر وسوريا كان هناك شعب أكثره من الفلاحين
والصناع والتجار لا يطمحون الى الانخراط في سلك الجندية ، ولا يسعون
لتولى المناصب الكبرى ، فليعيشوا ليكدحوا ولينالوا خُسْنِ الطعام
والثياب ليؤخذ منهم ما تبقى بعد ذلك للنسيد الراعى ، ولكن (القطيع)
لا بد له من (كلاب حراسة) غير أن الكلاب هناك لا تتولى فقط الحراسة
كالشأن في الكلاب مع الغنم ، بل تتولى كذلك جمع المال لنفسها وللراعى ،
وردع من يتوق الحرية أو يفكر فيها (١) .

تلك هى خلاصة فلسفة الحكم عند العثمانيين في جميع البلاد التى
فتحوها ، فلا يعنيههم أمر البلاد في قليل أو كثير ، وانما يعنيههم أن يتخذوا
الوسائل لدوام خضوعها اليهم ، والعجيب أنهم عادوا الممالك وحاربوهم ،
ولكنهم سرعان ما اتخذوهم سلاحا أو جلادين يطعنون به الشعب المصرى
والسورى ، حتى ليرى أن السلطان سليم حاول أن يستبقى طومان باى
لولا أن الممالك الذين كانوا حوله خافوا من ذلك على أنفسهم وأخافوا
السلطان سليم منه فأعدمه ، وكان إعدامه حدثا فرديا ، أما موقف
السلطان سليم بوجه عام من الممالك فيوضحه وصيته بهم ألا ينالهم

(١) انظر تاريخ سوريا للدكتور فيليب حتى ج ٢ ص ٣١٢ .

أذى ، ويوضحه تركه السلطة في أيديهم وعدم المساس باقطاعاتهم وبتقاليدهم بعد أن أطمأن اليهم ، ونتيجة لذلك كان ترف المماليك في العهد العثماني يفوق ترفهم قبل ذلك ، فقد تخلص المماليك في العهد العثماني من المسؤولية ، فإذا كانوا إبان سيطرتهم الكاملة مسئولين عن البلاد فانهم في هذا العهد غير مسئولين ، إذ أنهم في الظاهر يعملون لحساب سواهم وبناء على توجيهاته ، ولذلك انغمسوا في الترف في المسكن والملبس بعد أن كان في حياتهم الأولى كثير من الخشونة وشظف العيش شأن الجندي المكافح .

ولما جاء السلطان سليمان بعد أبيه السلطان سليم زاد تقريبيه للمماليك ، إذ استعان بهم في حروبه بجزر البصرة الأبيض ، فأبدوا في الحروب ضروبا من الشجاعة والاستبسال فكافأهم السلطان سليمان بأن أذن لمن شاء منهم أن يعود الى مصر ليعيش في ظل السيادة العثمانية ويدين بالطاعة للباشا الوالى ممثل هذه السيادة ، فأسرع أكثرهم الى العودة لمصر (١) .

وعلى هذا غنحنا أمام اتفاقية غير مكتوبة ، وقد أغفل المؤرخون أو أكثرهم إبرازها ، وخلاصتها إضعاف الشعب العربى لتدوم تبعيته للعثمانيين ، واقتسام خيرات البلاد بين المماليك والعثمانيين .

وفي ضوء هذه الفلسفة رسم السلطان سليم سياسته بمصر وسوريا ، فبعد أن تم له فتح مصر ، أمضى بها ثمانية أشهر للتعرف على أحوالها كما سبق القول ، ووضع قواعد الحكم الجديد بها ، وتنظيم العلاقة الاقتصادية بينها وبين العاصمة العثمانية ، وفي طريق عودته من مصر

(١) الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار « التمهيد للكتاب » .

الى بلاده توقف طويلا بسوريا لنفس الأغراض ، ونتيجة لهذه الدراسة أعلن نظام الحكم الجديد الذى يقضى بأن تكون هناك سلطات ثلاث بيدها مقاليد الحكم ، وهذه السلطات هى :

أولا — الـوالى :

ويلقب الـوالى بالباشا وهو نائب السلطان ، ووظيفته إبلاغ أوامر السلطان الى عمـال الحكومة ، والإشراف على تنفيذها ، وعليه جمع الضرائب ، وإرسال المقررات المفروضة على الولاية الى الخزانة العامة بالقسطنطينية ، ومن واجباته أيضا إرسال المؤن والكسوة الى الحرمين الشريفين ، وكذلك الإشراف على دار سك النقود التى بالقلعة ، وتقديم حسابها ، وتدريب أرزاق جنود الإنكشارية بمصر وأرزاق رجال الشرطة ، ويتولى تعيين شيوخ البلد والصناجق من المماليك بعد موافقة السلطان ، وهو المسئول عن حفظ الأمن ونشر العدالة .

ثانيا — الديوان :

ترك السلطان سليم بمصر حامية تتألف من نحو اثنى عشر ألف جندى ، يتكون منها ست فرق « وجاقات » ورؤساء كل فرقة يسمى « الوجاقية » ورئيس الوجاقية يسمى « الأغا » ونائبه أو وكيله يطلق عليه الكخيا أو « الكتخدا » ويتكون من الوجاقية مجلس شورى الباشا المعروف بالديوان ، ويجتمع الديوان أربع مرات فى الأسبوع ، ومهمته النظر فى الشؤون الاقتصادية والإدارية ، ولا يجوز للوالى أن يتخذ قرارا فى أمر من الأمور إلا بعد الحصول على موافقة الديوان .

ثالثا — السناجق :

السناجق هم حكام الأقاليم ، ولكل منهم فى إقليمه سلطة كاملة ، وهو يباشر رئاسة جميع الشؤون الإدارية والاقتصادية ، ويكون السناجق

من الممالك ، ورئيسهم في مصر هو سنجق القاهرة ، وفي الشام سنجق دمشق ، ويلقب « شيخ البلد » وهو يلي الوالى فى الأهمية ، ويشغل مكانه لو خلا لسبب من الأسباب حتى يجىء الوالى الجديد ، ولذلك كان يطلق عليه « كخيا الوالى » أى نائبه ، كما كان للأغا كخيا فى تنظيمات الوجاتية ، وبالإضافة الى السنجة كان للممالك يشغلون عدة مناصب كبرى فى مصر منذ مطلع العهد العثمانى ، منها وظيفة « الدفتردار » ويشبه وزير المالية فى العهد الحاضر ، و « الخازندار » ووظيفته تسليم الخراج سنويا الى الحكومة العثمانية ، وأمير الحج ووظيفته مصادبة الكسوة وقيادة الحجاج الى بيت الله الحرام وتوزيع الصدقات بالأماكن المقدسة ، وأمراء البحر الثلاثة وهم قباطين ثغور دمياط والسويس والاسكندرية التى تمثل أبواب مصر البحرية .

وتبعا لهذا التقسيم عين خير بك واليا لمصر مكافأة له على خيانتة ، أما سوريا فقد قسمت الى ثلاث ولايات هى : ولاية حلب وولاية دمشق وولاية طرابلس ، وتضم كل منها عدة سناجق ، وقد جعلت ولاية دمشق وهى أهم ولايات الشام مكافأة للخائن الثانى جان بردى غزالى ، وجعل له الاشراف على الولايتين الأخيرتين بحيث أصبح النائب عن السلطان فى سوريا كلها .

التنظيم الاقتصادى :

ذلك مجمل القول عن التنظيم السياسى ، أما التنظيم الاقتصادى وهو الهدف الأسمى للعثمانيين فقد سار على النحو الذى كان متبعا إبان عهد الممالك ، وقد كان من أهم ما عنى به السلطان سليم القيام بمسح الأراضى فى مصر وسوريا وتخصيص مقدار منها للأجناد ومقدار لنفقات الوالى ، ومقدار للسناجق ، وما عدا ذلك سمي بالأراضى الديوانية أى التابعة للديوان الأعظم بالآستانة ، وسار العثمانيون سيرة سلاطين الممالك فى استغلال هذه الأراضى بطريق الالتزام بالمزايدة ، بحيث يتعبد

الملتزم بدفع مقدار محدد من المال كل عام عن مساحة محددة من الأرض ،
يَجْبَى من فلاحى هذه الأرض ما يستطيع من أموال ، وكان يشترك في
المزايدة أغنياء الممالك وكبار التجار وبعض الموظفين (١) .

ومن الواضح أن هذا التنظيم الاقتصادي كان قاسيا جدا على
الفلاح ، وركز الثراء كله في أيدي الملتزمين وأيدي السناجق ، فكان هؤلاء
وأولئك سادة يحيون في بذخ وترف ، أما الفلاح فكان عبدا يعمل بعنف
ولا يكاد يجد الكفاف .

تاريخ مصر وتاريخ لسوريا :

في ظل هذا النظام أو في إطار هذا التخطيط انفصلت سوريا عن مصر ،
بعد أن ظلت مرتبطة بها طيلة العهود الاستقلالية منذ حكم الطولونيين ،
وأصبح لكل من مصر وسوريا قدرٌ وتاريخ ، صحيح أن التنظيم كان
واحدا ، ولكن الولاة كانوا مختلفين ، وحدثت أحداث هنا وأحداث هناك
وسبغت الهوية بين الشقيقتين ، وقد ذكرنا في مطلع هذا الكتاب أن الاستعمار
كان يفرق بين مصر وسوريا ، ونحن الآن في فترة استعمار مرير فرق
بين الشقيقتين ، ومن هنا كان لزاما علينا أن ندرس تاريخ كل منهما على
حدة في هذه الفترة حتى نعود فنلتقى في ظل وحدة ستضم الشقيقتين
مرة أخرى .

(١) انظر رأى الاسلام في الالتزام بكتابنا « الاقتصاد في الفكر الاسلامي » .

تاريخ مصر من الفتح العثماني

تقديم :

دخل العثمانيون مصر سنة ١٥١٧ وفي سنة ١٩١٤ أُعلنت الحماية الانجليزية على مصر وقُطع آخر خيط كان يربط مصر بالإمبراطورية العثمانية ، قرون أربعة طويلة ومريرة ارتبطت خلالها مصر بهؤلاء الغزاة الذين لم يكن لهم همٌ إلا خدمة مصالحهم ، وهناك في الاستانة قام رجل ادعى الخلافة الاسلامية ، رجل يعيش في كثير من الأحوال لنفسه ولنزواته وخليلاته ، يزعم أنه يجلس في المكان الذي جالس فيه يوما أبو بكر وعمر بن الخطاب ، وباسم هذا اللقب طال عمر حامل هذا اللقب بالاستانة ، وكانت رائحة الفصائح تفوح أحيانا فتركم الأنوف ، ولكن المسلمين يرونها خطيئة فردية ويتمنون لو جاء لهذا خلف جدير بهذا اللقب ويحمل مسئولياته ، ويحيى سلطان على هذا النمط ، ولكن المسلمين أيضا يظنون على أملهم رغبة في الحرص على بقاء الوحدة الاسلامية ، وربما هبت ثورات في وجه هؤلاء الخلفاء ، ولكننا كنا نشاهد مقاومة لهذه الثورات نابعة أحيانا من الأرض التي نبتت فيها الثورة ، حفاظا على الوحدة الاسلامية أن تتحل .

شيء مهم نريده أن يثبت في نفوس القراء والمثقلين ، هو أن الانصواء تحت الخلافة العثمانية لم يكن يُنتظر اليه على أنه تبعية أو احتلال ، وأكبر دليل على هذا أن وفود الجزائر سارت من تلقاء نفسها تطلب الانصواء أيضا تحت الخلافة العثمانية ، وكانت هناك في الشرق الأقصى مملكة إسلامية في جزيرة سومطرة في حرب مع هولندا فطلب أن تحتويها الخلافة العثمانية ، وهكذا استطاعت هذه السلطة العثمانية أن تستغل هذا اللقب الكريم ، وأن تستغل دين الاسلام لتحقيق مآربها الذاتية ، بوسيلة واحدة هي خداع هذه الشعوب .

ولنعد الى مصر لنقرر أن هذه القرون الأربعة لم تتسّر على نمط

واحد ، وانما تغيرت الملامح فيها من حين الى حين ، ويمكننا بوجه التقريب أن نقسم هذه المدة الى أربع فترات ، لكل منها طابع يكاد يكون خاصا بها ، وهذه الفترات هي :

١ — من الفتح العثماني الى على بك الكبير (١٧٦٣ م) ، وأبرز طابع لهذه الفترة (أنها فترة عثمانية) بكل ما في الحكم العثماني من خصائص وخلل ، وقد طالت هذه الفترة بسبب تنافس المماليك كما سنرى بعد قليل .

٢ — من على بك الكبير الى محمد على (١٨٠٥ م) وأبرز خصائص هذه الفترة (أنها فترة مملوكية) رجحت فيها سلطة المماليك على سلطة العثمانيين ، ومن أهم أحداث هذه الفترة سياسيا الحملة الفرنسية ، ومن أهم أحداثها الفكرية الدراسة الرائعة التي قدمها عنها الجبرتي المؤرخ العظيم ، وقد عنيينا عناية تامة بهذين الموضوعين .

٣ — من محمد على الى الاحتلال (١٨٨٢ م) ويمكن أن نسمى هذه الفترة (فترة الاستقلال) فان العلاقات بين مصر وتركيا كانت قد ضعفت الى درجة جعلت محمد على يهاجم الأرض التركية ، ويحقق نصرا عليها .

٤ — من الاحتلال الى مطلع الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ م) ويمكن أن نسمى هذه الفترة (فترة تعدد السلطات) ، فالاحتلال الانجليزي كان يمثل أقوى حلقات النفوذ ، ولكن العثمانيين لا يزال لهم حقوق شرعية في البلاد ، وبجانب هذين هناك الحكام من أسرة محمد على ، ولهم على كل حال لقب السلطان ، ثم هناك سلطة الشعب التي بدأت تبرز في هذه الفترة في صورة حركات شعبية لها تخطيط وُغاية ، من أهمها نضال الحزب الوطني .

تلك هي أهم الأقسام التي يمكن أن نقسم لها فترة الحكم العثماني . ولكن تبقى فترتان متميزتان صارعتا الاستعمار الانجليزي الذي خلف

الحكم العثماني ، وينبغي أن نتحدث عنهما لنصل بحديثنا عن مصر الى العهد الحاضر وهاتان الفترتان هما :

— من الحرب العالمية الأولى حتى ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ وأهم طابع لهذه الفترة أنها كانت فترة (صراع) وقد ختم هذا الصراع بالثورة المذكورة .

— فترة الاستقلال من سنة ١٩٥٢ حتى الآن ، ومن الواضح أن الاحتلال البريطاني لم ينته سنة ١٩٥٢ ، ولكنه في الحقيقة انتهى حكماً ، من سنة ١٩٥٢ حتى تم الاتفاق على تصفيته على ما سنوضحه في حينه ، ويدخل في هذه الفترة تلك السنوات المريعة التي احتل فيها العدو الصهيوني جزءاً من أرضنا (سيناء) عقب حرب يونيو سنة ١٩٦٧ . وقد ظل جائماً حتى زعزعت حرب ١٩٧٣ حياته وكيانه ، وقد استطاع جيش مصر أن يعبر القناة ويقيم له مراكز في سيناء ، ثم تدخلت الولايات المتحدة فأوقفت زحف مصر ، ولكن المفاوضات أكملت جانب النصر ، فجلت إسرائيل عن سيناء وعادت لنا أرضنا الطيبة تماماً في ابريل سنة ١٩٨٢ .

وستحدث عن هذه الفترات كل على حدة فيما يلي :

١ — الفترة العثمانية ١٥١٧ — ١٧٦٣

يبدو لأول وهلة أن هذه الفترة طالت ، ولم يقفز المماليك قفزة واضحة لاسترداد السلطة من العثمانيين خلالها ، ولكن الواقع أن العثمانيين إبان هذه الفترة ضعف سلطانهم ، ولكن القوى الأخرى حرصت على الإبقاء عليهم ستارا تحكم من وراءه ، وكانت المنافسة بين العناصر المطامعة في الحكم هي التي أطالت هذه الفترة إلى هذه الحد ، وقد زار مصر في سنة ١٧٦١ — أي قبيل الحركة الاستقلالية التي قام بها على بك الكبير الذي كان شيخا للبلاد — رحالة دانمركي اسمه « كارستن نيبور Neibuhr » ، ووصف حالة مصر إذ ذاك قائلا : « إن القاهرة كانت مسرحا للشغب والقتال ، والأحزاب في حروب داخلية مستمرة ، وكانت تلك الأحزاب تضم فيما بينها أنصارا من رجال الحامية يقتتلون في بعض الأحيان في الشوارع والطرق ، وكانت منافسات أولئك الزعماء هي السبيل الوحيد الذي حفظ للدولة العثمانية ظلا من السلطة والسيادة ، إذ كان كل زعيم يخشى على نفوذه من وصول زعيم آخر إلى حكم مصر ، ويفضل وجود الباشا العثماني الذي فقد سيطرته وضعف نفوذه على مجيء زميل يتحكم في مصير البلاد ، ويكون له من القوة ما يقضى به على منافسيه ، وظل الباشا ألعية في يد هؤلاء الزعماء من المماليك والقواد حتى أن نيبور يقول أنه في خلال إقامته القصيرة في مصر خلع ثلاثة باشوات من الولاية على أثر ثورات قام بها الزعماء يعصدهم أنصارهم » (١) .

ويوضح الجبرتي التنافس بين زعماء المماليك بقوله : إن المماليك استقفل سلطانهم في القرن الأول للحكم العثماني ، ولكنهم كانوا فريقين ، فريق « الفقارية » نسبة إلى زعيم اسمه ذو الفقار ، وفريق « القاسمية »

(١) نقلا عن الأمة العربية للدكتور عبد الحيد البطريق ص ١٧ — ٨١ .

نسبة الى زعيم اسمه قاسم ، وكان التنافس شديدا بين الفقارية والقاسمية ، وقامت بين الفريقين حروب طويلة (١) .

وينبغي أن نحاول تتبع خطوات الضعف الذى انتاب العثمانيين بمصر ، ونتعرف على أسبابه ، ويبدو لنا أن البذور الأساسية لهذا الضعف تكمن فى الخلاف الذى نشب منذ عهد مبكر بين الوجيه والوالى ، فقد كان طابع الجنود العثمانيين التمرد ، ولذلك لم يستكينوا لسلطان الوالى ، وظلوا يناوئونه من حين الى حين ، حتى فكر « أويس باشا » الذى أصبح واليا سنة ١٥٨٧ م أن يسمح للمصريين وللعرب بالانخراط فى سلك الجيش ، وكان يقصد بذلك أن يرى جيلا لا يميل الى التمرد ، وأن يتخذ من هؤلاء قوة ضد الجنود العثمانيين ، ولكن الجنود العثمانيين لم يسمحوا بذلك ، وقسأموا باضطراب وقتن واسعة أرغمت أويس على التراجع عما قصد .

وفى هذا النضال بين الوالى وبين الجنود العثمانيين رجحت كفة الجنود ، حتى أصبح الوالى لعبة فى أيديهم يعزلونه أو يبقونه ، ويردون الولاية الجدد إذا لم يرضوا عنهم .

وقد وقف الممالك موقف المشاهد للأحداث السعيد بها ، وكان الخلاف بين القوتين العثمانيين يزيد فى قوة الممالك ونفوذهم ، بيد أن الخلافات الداخلية بين الممالك ، تلك التى أشرنا لها فيما سبق أرجأت استعادتهم للسلطة ، كما أرجأها كذلك ترقب الأحداث ليتمكنهم استعادة السلطان دون صراع طويل ، وحدث أن حروب العثمانيين فى أوروبا استلزمت سحب أكثر الجنود العثمانيين من مصر للاشتراك فى هذه الحروب ، وقد تسبب عن ذلك أن وقف الممالك وجها لوجه أمام الوالى ، ولكن هذا كان سلطانه قد أصبح ضئيلا متهاويا من شدة ما عانى من تمرد الجنود

(١) الجبرى : تهيد المؤلف لكتابه عجائب الآثار .

العثمانيين ، وقد أتاح ذلك للمماليك أن يستكملوا نفوذهم ، وبخاصة أن على بك الكبير كان قد ظهر على مسرح الأحداث كما سنرى ، وكان شخصية جديرة بهذا الانتقال الذى سنشرحه فى الفترة التالية من فترات الحكم العثمانى وهى الفترة المملوكية .

والآن نواصل كلامنا عن أهم مظاهر الفترة العثمانية :

الباشا :

سبق أن تكلمنا عن الباشا الوالى ومهامه ، ونريد هنا أن نقتبس من الجبرتى مزيدا من الحديث عن ممثل الحكومة العثمانية بمصر ، يقول الجبرتى : كان إذا عين أحد رجال الدولة العثمانية واليا على مصر ، ينتقل إليها بأهله وحشمه ، فإذا بلغ القاهرة أعدوا له دارا ينزلها ليقضى بها ليلته الأولى ، ثم يخرج لاستقباله رؤساء الحجاب يمسكون بأيديهم عصيا طويلة ، ولذلك سموا « أرباب المكايز » ويتأولهم فى الموكب رؤساء الجنود الإنكشارية وترجمان الوالى وأمرأء المماليك ، ويذهب هذا الموكب الى الدار التى نزل بها الوالى ليلته الأولى فيصطحبه ليدخل به القاهرة من باب النصر ويسير به وسط جموع الرجال والنساء الذين يقفون فى الطرقات والشرفات لتحية الوالى الجديد ، فإذا وصل الركب الى القلعة ، المقر الرئيسى للوالى أطلقت المدافع تحية للوالى ، وبعد أن يستريح ثلاثة أيام يعقد الديوان ، ويجتمع أصحاب الشأن كالأمراء والعلماء وشيخ الأزهر ونقيب الأشراف وشيخ السادة البكرية وكبار التجار ، ويشتلى فرمان التولية عليهم جميعا ، ويخلع الباشا عليهم خلعاً ، تتناسب مع مقام كل منهم ، ويضيف الجبرتى قوله : إن ولاية مصر كانوا لا يقيمون فى مناصبهم غالبا إلا سنة أو بعض سنة ، إذ كانت الاستانة تخشى أن يستبدوا بالسلطة ، ويستقلوا عن الخلافة ، وكان إذا زاد حكم الوالى عن السنة الواحدة صدر له فرمان جديد بتثبيتته فى عمله سنة أخرى ، وإذا عُرِّلَ تقدم إليه أرباب المكايز يبلغونه أمر العزل ، ويمشون أمامه

في نزوله من القلعة ، ويستولون منه على مهام دار سك النقود ، ولا يجوز له أن ييأرح القاهرة حتى يحاسب على أموال الدولة الموكولة إليه ، ويبادر الأمراء بتعيين نائب الوالى من بينهم حتى يحضر الوالى الجديد (١) .

الالتزام :

فيما يتعلق بسياسة العثمانيين نحو الأرض الزراعية بمصر ، ألغى السلطان سليم النظام الإقطاعى الذى كان سائدا في عهد المماليك ، وأحل محله نظام الالتزام ، ومعنى الالتزام أن الحكومة كانت تملك كل أرض مصر ، وتعطى بعضها للحاكم والبعض لنفسه وللجنود وللسناجق ، وتطرح الباقى للمزايدة مقسمة الى أجزاء بين الراغبين فيها مقابل مبلغ محدد يدفعه فوزا أو منجما من قرض عليه المزايدة ، وفي مقابل ذلك كان الملتزم يحل محل الحكومة في السيادة والإمارة على الأرض التى رست عليه ، فيجبى من الزراعيين ما يشاء ، وكان نصيب أمراء المماليك من الالتزام عظيما ، وكان لبعضهم حق الالتزام على أرض قرية أو عدة قرى ، وكثيرا ما أصبح الالتزام حقا يتجدد للملتزم أو يرثه أبناؤه من بعده ، ومن الواضح أن حال الفلاح في ظل الالتزام كان بؤسا وألما وشقاء (٢) .

أشهر الولاية في هذه الفترة

يمكن القول عموما إن الولاية لم يكونوا في مناصب يحسدون عليها ، فقد وُضعوا منذ أول العهد بين شقى الرعى ، فقد كانت الاستانة تخشى استقلالهم ولا تثق بهم ثقة كاملة ، ومن هنا قيدت سلطاتهم ، وحددت فترة ولايتهم ، وكان هناك الجنود ينتقصون ساطة الوالى من حين الى حين ، وهناك كذلك المماليك الذين كانت لهم سيطرة كاملة

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ص ١٦ وما بعدها .

(٢) نفس المرجع ص ٢١ وما بعدها .

على الأقاليم ، ومن هنا لم يسجل التاريخ لأى من الولاة مكانة ممتازة ، ولم يكن همُّ أكثرهم — وقد دفعوا إتاوة كبيرة لتعيينهم — إلا أن يغنموا أكبر مغنم. قبل أن تنسحب السلطة منهم ، وكان كثير منهم يذهبون ويفتلسون ، حتى إذا أحسوا بالعزل أو الإبعاد بنوا المساجد والأربطة ليتظاهروا بالخير ولينالوا عطف الناس وربما غفران الله على ما ارتكبوا من آثام .

وعلى العموم فاستكمالا للدراسة التى نقوم بها ينبغى أن نذكر عددا من أشهر الولاة فى هذه الفترة .

خير بك :

هو أول الولاة العثمانيين ، وقد أشرنا إليه من قبل وذكرنا أنه تولى الولاية مكافأة على خيائته ، وقد انصرف عنه الناس إيان ولايته ، وظهر ازدراؤهم له واحتقارهم للإثم الذى ارتكبه ، وقد اضطرت نكايه فى المسلمين الذين انصرفوا عنه أن يقرب إليه اليهود والنصارى ، ولكن ذلك زاد من كراهية الناس له ، فرأى يحاول أن يسترضى الناس بإطلاق المسجونين وتوزيع الأموال على المساكين وتشجيع المعاهد الدينية ، ولكن ذلك لم يغن عنه شيئا ، وقد ظل فى كمده حتى مات بعد خمس سنوات من ولايته ودفن فى مسجده بالتبانة بالقرب من باب الوزير بجهة الخيريكية المسماة باسمه ، ومن الملاحظ أن مدته كانت طويلة لتناسب الجهد الذى قدمه للزحف العثمانى ، ولم يلقب بالباشا وإنما ترك له اللقب الذى كان مستعملا مع المماليك وهو لقب « بك » ، وبدأ لقب الباشا مع الولاة الذين أوفدتهم القسطنطينية بعده .

وخير بك اشتراه قايتباى وانتقل فى الوظائف من سلطان الى سلطان حتى أصبح صاحبا للسلطان الغورى فنائبا لمدينة حلب ، حيث بدأ يحوك مؤامرة ضد سيده .

مصطفى باشا :

هو أول الولاة الذين أوفدتهم القسطنطينية ، وكان زوج أخت السلطان سليمان القانوني ، وكانت تتمثل فيه العنجهية التركية بأدق مظاهرها ، فكان لا يعرف اللغة العربية ولم يحاول تعلُّسها ، بل كان يظهر احتقاره للمتكلمين بها ، وكان يتعاضم على المصريين ويترفع عن التعرف عليهم .

أحمد باشا :

أهم ما ينسب إلى أحمد باشا الوالي الثالث أنه حاول الاستقلال بمصر ، فأمر بضرب السكة باسمه والدعاء له في الخطبة وقد دفع رأسه ثمنا لذلك .

سليمان باشا :

تولى سليمان باشا سنة ١٥٢٥ م ، وله اصلاحات اقتصادية وإدارية ذات بال ، فهو الذي مسح الأراضي ورتب الضرائب ، وشيد كثيرا من المباني النافعة ، وقد اشتبك في حرب مع البرتغال لتنفيذا لأمر القسطنطينية لأن سفن البرتغال اعتدت على بعض موانئ البحر الأحمر ، وفي أثناء الحرب ناب عنه خسرو باشا في ولاية مصر ، ثم عادت الولاية لسليمان باشا بعد انتهاء الحملة وظل بها حتى استدعى للاستانة ليصبح المصدر الأعظم بها .

سنان باشا :

تولى ولاية مصر مدة عامين فتح في خلالها بلاد اليمن سنة ١٥٦٨ م ، ومن منشآته مسجده ببولاق وهو من أعظم مساجد العصر العثماني بمصر ، وقد بنى على النمط البيزنطي ، وكان محبوبا من الأهالي كثير الإصلاحات والمبرات .

مسيح باشا :

تولى سنة ١٥٧٤ م ، واستمرت مدة ولايته ست سنوات ، وكان من أكثر الولاة عفة واستقامة ، وكان شديد الحرص على نشر الأمن وإقامة العدل .

أويس باشا :

إن أعظم حادث ينسب لأويس باشا — هو كما ذكرنا من قبل — محاولته تجنيد المصريين وثورة الجنود العثمانيين عليه لهذا ، وفى عهده حدث زلزال ضخم انقلب بسببه جبل المقطم .

قرة مصطفى باشا :

ولى مصر سنة ١٦٢٢ م ، وبدأ عهده بشدة أعادت الأمن الى نصابه ، وأخافت الجنود العثمانيين الذين دأبوا على الفتن منذ عهد أويس باشا ، ولكنه أخذ يرتكب مع الأهالى ما كان يرتكبه معهم الجنود الناثرون من سلب ونهب حتى أنه عدّ نفسه وارثا لكل الموتى أو لأكثرهم ، مما جعل الناس يضجون بالشكوى منه ، وفى عهده ظهر وباء شديد وتلته أوبئة متعددة فى العهود التى جاءت بعده ، فقضت على كثير من القرى بالخراب والدمار ، وأتاحت الفرصة مرة أخرى للجنود العثمانيين ليستأنفوا الفوضى التى كانت ديدنهم كلما أتاحت الفرصة وخفّ ضغط الولاة .

أشهر الممالك فى هذه الفترة

من الطبيعى أن أسماء الممالك اختلفت فى القرن الأول للفتح ، واتجه التاريخ الى تسجيل المظاهر العثمانية لهذا العهد ، وكان الممالك يعيشون خلف الستار ، ينظمون أنفسهم ويعدون قوتهم للبروز من جديد ، وقبيل نهاية القرن السابع عشر ، أخذوا يبرزون للحياة العامة ويلعبون دورا

فيها ، ذلك الدور الذي أكمله على بك الكبير كما سنرى عند دراسة الفترة التالية •

والآن نعطي صورة سريعة لأمرء المماليك الذين برزوا في هذه الفترة العثمانية التي نحكي الآن قصتها •

الأمير إيواز بك :

اسمه العربي كما يقول الجبرتي « عوض » وحرفته اللغة التركية التي ليس بها حرفا العين والضاد إلى إيواز ، وقد تولى منصب شيخ البلد سنة ١٦٩٥ م ، وقد ظهرت شهرته على إثر انتصاره في مكافحة الفوضى التي أثارها بعض الأعراب بالوجه القبلي ، ثم انتدبته الآستانة لمحاربة والي الحجاز وهو أحد الأشراف الثائرين على سلطان القسطنطينية ، فقاتلهم وانتصر عليهم ، ولما عاد كبر شأنه وعلا صيته فنفس عليه بقية المماليك هذه المكانة ، فاحتالوا عليه حتى قتلوه ، ومن مماليكه الأمير محمد بك جركس الذي سنتكلم عنه فيما يلي :

محمد بك جركس :

ظهرت كفاءته قبيل موت سيده الأمير إيواز ، وفي سنة ١٧١٦م قاد فيلقا من الجنود لمساعدة الدولة العثمانية في حروبها بأوربا ، ولما عاد بعد سنتين كان سيده قتل ، ولم يقنع الأمير جركس بابن سيده إسماعيل بك وثار عليه ، ولكن هذا انتصر على جركس وقبض عليه ونفاه من مصر ، بيد أن جركس استطاع أن يدخل البلاد منتكرا ، كما استطاع بمعاونة أصدقائه أن يغتالوا إسماعيل بك ، وبذلك خلا الجو لجركس •

ويقول الجبرتي عنه إنه كان عسوقا جبارا سار في الناس أسوأ سيرة ، وكان له أتباع على شاكلته ، يأخذون ما يحبون من الباعة بغير

ثمن ومَنّ امتنع منهم قتلوه ، ويضطفون النساء والأبنساء ، ويدخلون
حوانيت التجار ثم لا ينصرفون حتى ينالوا ما يريدون •

واشتد الخلاف بين الوالى وبين الأمير جركس ، وحاول كل منهما
أن يضم الى جانبه العلماء ، قادة الشعب بالإغراء أو التهديد ، وظهر
من بين الأمراء الفقارية أمير اسمه عثمان بك ذو الفقار ، فقاتل جركس
قتالا طويلا واستطاع فى النهاية أن يحيط به من كل جانب فسقط جركس
فى النيل ومات ، واسترسل الفقاريون فى التتكيل بالقاسمين الذين كان جركس
ينتسب لهم فقتلوا منهم الألوف وكان ذلك سنة ١٧٣٩ م •

عثمان بك ذو الفقار :

لقد ظهر فى أفق القاهرة خلال حكم الإرهاب الذى نشره جركس
بك القاسمى طائفة من الأمراء الفقارية ، وكان سيد الموقف فيهم عثمان بك
ذو الفقار الذى تولى الإمارة سنة ١٧٣٥ •

وكان عثمان بك طاهر اليد واللسان ، كريما عادلا ، أنصف المظلومين
وجعل للفصل فى خصومات النساء ديوانا خاصا ، وكانت أحكامه وفقا
للشريعة الإسلامية ، وكان يباشر الحسبة بنفسه ، واختفت الرشوة فى
عهده أو قلت بعد أن كانت عملا شائعا قبله ، ولم يصادر أحدا فى ماله ،
ولا أخذ إتاوة على ميراث كما كان يفعل غيره من أمراء المماليك والعثمانيين •

وحولت السلطة بالآستانة لحسابه إيراد بعض الأوقاف التى كانت
وفقا على الفقراء ، ولكن عثمان بك نفر من هذا وقال عن هذه الموارد إنها
دموع الفقراء ، ولا تقبلها نفسى ، واتخذ عثمان بك من أهل العلم والفضل
جلساء ومعاونيه ، ويقول الجبرتى انه أول من دعا الباشا الوالى الى
وليمة بقصره الخاص ، وكان الأمراء قبله يمدعون الوالى الى ولائهم
بقصور الحكومة •

ومع هذه الفضائل حسده الممالك وتجمعوا ضده ، فأثر أن يدع مصر الى الآستانة ليقتضى بها بقية عمره ، وفي سنة ١٧٤٤ غادر مصر الى القسطنطينية وقد امتد به العمر هناك فمات بعد ثلاثين عاما ، ويقول الجبرتي ان خروجه من البلاد أصبح تاريخا لمعاصريه ، يؤرخون به أحداثهم وأخبارهم (١) .

رضوان بك كتخذا :

كان رضوان بك صنوا للأمير عثمان ورفيقا له في صباه ، وقد أعانه عثمان بك بجاهه حتى جعله كتخدا الوالى ، وعرف رضوان بك ذلك الجميل لعثمان بك فترك له رتبة الرياسة وقنع بالقصور والترف ووظيفته الجديدة . وكان من أجمل قصوره قصره الذى كان يشرف على بركة الأتريكية ، وقد أباح للناس دخول حدائقه ، والاستمتاع بمفاتنها ، وكان هذا الأمير كريما سخيا سمحا ، مدحه شعراء مصر فكان منهم ندماءه وجلساءه .

عبد الرحمن كتخدا :

يُعتبر عبد الرحمن كتخدا صنيعه من سنائع عثمان بك ذو الشفار ، فمع أن عبد الرحمن كان ينحدر من معدن عريق ، إذ كان أبوه سيدا للامراء المعاصرين له ، لكن ثراء الأب وجاهه استولى عليهما أحد عتقائه واسمه سليمان بك ، وعاش عبد الرحمن في ضيق من العيش حتى سنة ١٧٣٩م ، حيث استطاع عثمان بك ذو الفقار أن يرد له ما سلب من أموال أبيه منتهزا فرصة موت سليمان بك ، وبسبب هذه المساعدة أصبح عبد الرحمن أحد أعوان عثمان بك ذو الفقار .

ولعبد الرحمن كتخدا مآثر عظيمة إذ ينسب له إنشاء عدد كبير من

(١) الجبرتي : عجائب الآثار ص ٢٩ — ٣٠ .

المساجد وتجديد عدد آخر ، كما ينسب له إنشاء كثير من الملاجىء ومكاتب التعليم والزوايا • وهو الذى بنى المشهد الحسينى ومسجده والمشهد الزينبى ومشهد السيدة نفيسة ، وأضاف الى بناء الجامع الأزهر زيادة كبيرة من ممتلكاته •

صالح بك القاسمى :

أحد الأمراء القاسمية كان عظيما سيدا سليم الصدر لا يجب الأذى ، وقد عاش فى عصر واحد مع على بك الكبير ، ولذلك جرت بينهما أحداث ستكون موضع حديثنا فى الفترة التالية وهى فترة الاستقلال •

أشهر الأحداث فى هذه الفترة

لقد رأينا فيما سبق بعض صور الاضطراب والفوضى بين جماعتى المماليك ، القاسمية والفقارية ، ويبرز لنا الجبرتى مصدرا آخر من مصادر النفوذ فى هذا العهد الذى تعددت مصادر النفوذ فيه وشيبت الاضطراب والفوضى ، وذلك المصدر الجديد هو بعض القبائل العربية التى كانت موجودة فى مصر ، وبخاصة عرب الهوارة بالوجه القبلى وبنو حبيب بالوجه البحرى ، وكان زعيم الهوارة هو همام بن يوسف ، وقد اتخذ عاصمته قرية فرشوط إحدى قرى مركز نجع حمادى ، وامتد نفوذه على باقى القبائل التى كانت تعيش فى مصر من أسوان الى بنى سويف ، وقد تحالف هذا الزعيم مع الأمراء القاسمية الذين يتربصهم صالح بك القاسمى ، وقد سلك همام بن يوسف ميساك زعماء المماليك فى شرائه ممالك لحسابه وتدريبهم وتجنيدهم لحمايته ، حتى أصبح واسع البأس مرهوب الجانب ، فنافس بذلك المماليك ، ولكن سماحة العرب وجودهم كانا بارزين فى خاقه •

أما زعيم بنى حبيب فهو البشير سويلم بن حبيب ، وقد اتخذ بلدة

دجوة بمديرية القليوبية مركزا له ، وكان له السلطان على كثير من مناطق الوجه البحرى وبخاصة على مديرتى القليوبية والشرقية ، وكانت لسه سيطرة على فرعى النيل من بولاق الى رشيد ودمياط ، وكان له بالنيل مراكب تسمى الخراجات عليها رجال علاظ شداد يجبون باسمه من السفن الصاعدة والهابطة ما يفرضون من ضرائب وإتاوات •

٣ — الفترة المملوكية (١٧٦٣ — ١٨٠٥)

لماذا سُميت مملوكية ؟

أطلقنا على هذه الفترة « الفترة المملوكية » إذ بدأنا نرى فيها أمراء المماليك يفوق سلطانهم سائر الولاة ، وقد بدأ هذه السياسة على بك الكبير الذى لم يكتف بالتمرد على سلطان العثمانيين ، بل راح يرسل قواده للتعلم فى بلاد الدولة العثمانية ، ومنذ ذلك العهد أصبح الولاة يخافون المماليك ويخضعون لسلطانهم ، فمراد بك كان يصعد الى القلعة ليتملى على الوالى ما يشاء بل كانوا يعزلون الوالى أحيانا ، وطالما كانت القسطنطينية توافقهم على ذلك وترسل لهم واليا جديدا ، ولا شك أن مثل هذا الوالى الجديد كان لابد أن يسير فى الطريق الذى يرسمه المماليك وإلا كان نصيبه العزل كسلفه .

وشهد هذا العصر مظهراً آخر من سلطان المماليك ، ذاك هو منعهم الجزية السنوية التى كانت تُحمّل إلى القسطنطينية ، ثم إنهم كثيرا ما صرحوا بأن البلاد بلادهم وأن العثمانيين دخلاء عليهم .

وجاءت الحملة الفرنسية فى أخريات هذه الفترة ، وكان من أهدافها القضاء على المماليك ، ولكن الحملة فشلت ، وعاد السلطان مرة أخرى الى المماليك .

وقد اضطر العثمانيون الى إعادة غزو مصر لاسترداد سلطانهم ، وخاصة عندما توقف إرسال الجزية السنوية . وقد قابلهم المماليك يدفعونهم بالقوة ، صحيح أنهم انهزموا ولكن مواجعتهم القوة بالقوة تضعهم ، لا فى موقف التابع كما كانوا من قبل ، بل فى موقف المنافس وصاحب الحق ، ولما خرج الجيش العثمانى بعد هذه الجولة ليشترك فى الحرب ضد روسيا عاد المماليك يستأنفون سلطانهم مرة أخرى .

من أجل ذلك أطلقنا على هذه الفترة « الفترة المملوكية » وتبدأ هذه الفترة بعلى بك الكبير الذى أن لنا أن نتحدث عنه .

على بك الكبير :

قبل الحديث عن على بك الكبير يجدر بنا أن نذكر لمحة عن الحقبة التي سبقتة والتي مهدت الطريق اليه ليصل الى السلطة ، ففي سنة ١٧٤٥م كان على رأس المماليك ابراهيم بك ورضوان بك وينتميان الى المماليك الفقارية ، وكان النفوذ في مصر قد أصبح في أيدي المماليك ، فهدرت الأستانة مؤامرة يمكن أن تسمى بالسهم الأخير في جمعتهما ، تلك هي إرسال والٍ عثرف بالشجاعة والكياسة للقضاء على المماليك بطريق التآمر ، وقد اختير لهذا العمل محمد راغب باشا ، الذي شغل منصب الصدارة العظمى في بلاده فترة من الزمن ، واستطاع راغب باشا فعلا أن يقضى على عدد كبير من المماليك ، ولكن ابراهيم بك ورضوان بك أدركا ما يراد بهما وبذويهما ، فثاروا على الوالى وحاصروه وعزلوه ، وأمسك المماليك بالسلطة علانية ولم يعد للوالى بعد ذلك أى نفوذ ، و ابراهيم بك هو أستاذ على بك الكبير ومربيه ، فلما مات ابراهيم سنة ١٧٥٥ م وتلاه نده رضوان بك في نفس العام بدأ على بك يظهر مع طبقتة من الأمراء الذين جاعوا بعد هذين الزعيمين .

وعندما أصبح على بك الكبير في الطبقة الأولى بين ممالك مصر ، كانت الأحوال بالبلاد قد ساءت الى أبعد حد ، فالخصومة بين زعماء المماليك شديدة ، وزعماء القبائل العربية يكوّنون بمصر دولا داخل الدولة ، وقطاع الطريق منتشرون هنا وهناك ، والرثسوة سائدة بين الموظفين ورجال الحسبة ، وإلعل هذه الأحداث هي التي صبغت على بك بالصبغة القاسية التي سنراها واضحة فيه .

وكان على بك كما يقول الجبرتي شديد المراس قوى الشكيمة ، عظيم الهممة ، لا يحب اللهو ولا المزاح ، ولا يعرف إلا الجد ، ويترّوى أنه جرت مشاورة إعتليده مشيخة البلد ، فزكاه بعض المماليك وعارض آخرون ، ولما بلغه الأمر صاح قائلا : إني لا أعتلذ بالإمارة إلا بسيفي ،

ولا أرضى العون من غيرى ، وظل يعمل مع عبد الرحمن كتحذا وتظاهر بحبه والاخلاص له ، فاعتز به عبد الرحمن وركن اليه وجمع عليه قلوب الأمراء ، فخلع عليه الباشا الوالى خلعة الرياسة ومشیخة البلد ، وكان ذلك سنة ١١٧٧ هـ = ١٧٦١ م ، وكان على بك عظیم الهیة متوقد الذكاء ، اذق الفرانسة كثير القراءة لكتب التاريخ وسیر الملوك ، وكن یرى فی العثمانیین مغتصبین ، وأن السلطنة ینبغى أن تعود لأصحابها الشرعیین « الممالیک فی رأیه » .

وقد بدأ على بك نضاله فأوقع بقطاع الطريق والمفسدين ، وقطع دابرهم ، وعرج على الموظفين الذين يقبلون الرشاوى ، فأنزل بهم أقسى العقاب ، وراح للعابثین بالأمن والمستهترین یضربهم بید لا ترحم .

وكان فی أثناء ذلك یكثر شراء الممالیک وتربیتهم ، حتى أصبح لسه بهم جاه عظیم ، وكان فی قمتهم مملوكه الكبير محمد أبو الذهب ، فانبرى بسلطانه وبأتباعه یضرب بقسوة كل من یقف فی طریقہ ، ویصادر ما احتاج له من مال ليقوئ نفسه ، ویعد جنده ، ولما وصل الى غاية عظمی فی القوة والبأس ، انبرى الى أعدائه الكبار من زعماء الممالیک وأخذ یضربهم الواحد بعد الآخر ، یستصفى أموالهم ویقتلهم أو ینفیهم ويرد على رجاله ما كان بأيدي هؤلاء من الأموال ، بل وصل به أن أوقع بسیده عبد الرحمن كتحذا فنفاه الى الحجاز ، وقد بقى هذا فی منفاه اثنى عشر عاما ولم يرجع الا وهو حطام لم یلبث أن مات ، وكان كبير الممالیک القاسمية يدعى صالح بك القاسمی ، وكان على بك یضمر له السوء ، فلما نكفى عبد الرحمن كتحذا أمر القاسمی أن یشیعه الى منفاه ، فلما خرج صالح بك یشیع عبد الرحمن كتحذا أرسل على بك فی أعقابہ أمرا ثانيا بنفى صالح بك الى غزة ، ولكن صالح بك استطاع أن یفر والتف حوله أبناء شیعته ، وفى الوقت نفسه تخلى أتباع على بك عنه وحاولوا القضاء علیه ، ولكن على بك فر منهم ولجأ الى عدوه السابق صالح بك وطلب حمايته ، وأعطاه الموائيق على الود والاخلاص ، فصیدقه صالح بك القاسمی ،

وساعده حتى استعاد مكانته ، وحينئذ أخذ يقتل أولئك الذين تخلوا عنه ، وأسرف فيهم قتلا وخنقا بلا رحمة ولا شفقة ، ووصل الى قمة جحوده إذ أسرع وتآمر ضد صالح بك الذى حماه وخرّ صالح قتيلا بسيوف أتباع على بك (١) .

ولم يسلم شيوخ العرب من فتك على بك الكبير ، فقد قتل شيخ الحبايية ونهب أمواله وخرّب دياره ، وقتل شيخ الهوارة وخرّب عاصمته وبدّد أعوانه .

وبهذا دانّت له البلاد من أسوان الى الاسكندرية ، ولم يعد فى مصر من يناقسه ، ودفعه ذلك الى أن يتجه صوب سوريا عقابا لواليتها عثمان بك العظم الذى أفسح صدره للمماليك الفارين من على بك وقسوته ، وقد سار فى غزوّه حتى وصل حلب ، بل أمر قواده أن يتقدموا الى الأرض العثمانية فاتحين ، وبسبب هذه الانتصارات منح لقب الكبير فأصبح يسمى على بك الكبير .

ويبدو أن أكثر قواده ملّثوا القتال وسفك الدماء ، فاتفقوا على مخالفة سيدهم ، وفى تسبهم ربيبه وزوج ابنته محمد أبو الذهب ، وأيدت القسطنطينية هؤلاء الخارجين ، وأمدتهم بالمال والسلاح ، فانصرفوا على على بك وألقوا القبض عليه على الرغم من مساعدة ظاهر العمر حاكم الشام وحليف على بك الكبير ، وعلى الرغم من مساعدة الروس الذين كانوا يؤيدون الثوار ضد الحكم العثمانى ، وكانت معركة الصالحية هى المعركة الفاصلة بين على بك والثائرين عليه ، وفيها سقط على بك جريحا ، وحمل الى منزله حيث مات بعد عدة أيام سنة ١١٨٧م = ١٧٧٢م ، وخلا

(١) أنف أحد أتباع على بك من أن يشترك فى هذه الخيانة وهرب الى الشام خوفا من سيده وسنراه فيما بعد واليا لعكا ومدافعا عنها ضد هجمات نابليون ، وهى أحمد باشا الجزائر .

الجو لمحمد بك أبو الذهب وقد استطاع هذا أن يستصدر أمرا من الأستانة بمحاربة ظاهر العمر عقابا له على تأييده لعلى بك ، ولما صدر له هذا الأمر فتحت له بلاد الشام البلدة تلو البادية دون غناء كبير ، ولكن أيام أبى الذهب كانت قصيرة فقد مات سنة ١٧٧٥ وأسلم موته البلاد الى خلاف مرير •

من أبى الذهب الى الحملة الفرنسية :

بعد موت محمد بك أبو الذهب برز في مصر ثالوث من المماليك هو : إسماعيل بك ، وإبراهيم بك ، ومراد بك ، وقد طمع اسماعيل بك في أن تكون السيادة في يده لأنه أقدم الثلاثة ، وأقواهم علاقة بعلى بك الكبير ومحمد بك بو الذهب ، ولكن اتحاد إبراهيم بك ومراد بك أبعدته عن السيادة وضمنها لهما ، واعتكف اسماعيل كأنه يعتزل السياسة ، ولكن كثيرا من المماليك الساخطين القفوا حوله ، وأدرك مراد بك ذلك فدبر مؤامرة للقضاء عليه ولكن اسماعيل فر من المؤامرة ، ثم عاد يقود جيشا كبيرا اقتحم به القاهرة واستولى على السلطان ، ولكن أحد أتباعه واسمه حسن الجداوى خانة وهر في أوج انتصاره وانضم الى خصومه ، فهرب اسماعيل الى الشام وآل السلطان الى إبراهيم ومراد بك مرة أخرى ، وعاشت مصر فترة مليئة بالنكبات والآلام فقد كان مراد بك غسوبا ظالما محبا للمال مبغضا للعدالة ، يقتل ويصادر وينهب ويعذب من لحظة الى لحظة ، وقست الطبيعة على الشعب كما قسا عليه الأشرار فاجتاحت الأوبئة البلاد وهبط منسوب النيل واشتدت المجاعة •

ولم يجد الناس ملجأ من هذا العسف الا العلماء ، دقوا أبوابهم واستعانوا بهم لرد الظلم عنهم ، ومن أبرز علماء هذا العصر الشيخ عبد الله الشرقاوي ، والشيخ أحمد العروسي شيخ الأزهر والبكري

تقييد الأشراف ، والشيخ أحمد الدرديري من كبار العلماء ، وكان هؤلاء يحاولون — دون جدوى — إيقاف تيار الظلم والطغيان .

وتعالت صيحات الشعب واتجه بهتافه نحو الاستانة ، ولكن هذه كانت في شغل عنهم ، بيد أن الجزية المقررة لم تصل إلى الاستانة منتظمة ، وهنا فقط تحركت وأرسلت بعض الكتائب البحرية بقيادة القبطان حسن باشا إلى الاسكندرية وفرح الناس ظانين أنها حملة انقاذ وسلامة ، وتظاهرت الحملة بذلك في بادئ الأمر ، فأصدر حسن باشا منشورات قبال فيها .

— لا تخشوا شيئاً فإن أول ما أوصاني مولاي السلطان أوصاني بالرعية .

— كيف ترضون أن يملككم مملوكان كافران وتقبلونهما حكاما عليكم يسومونكم العذاب والظلم .

وأحسن الناس استقبال الحملة ؛ ولكن الحملة التي جاءت لرفع الظلم أنزلت مزيدا من الظلم بالناس ، فقد انتشر الجنود ينتهبون ويسلبون ، وصادر حسن باشا أموال الممالك ونساءهم وذويهم وراح يبيعهم في الأسواق ، ولم يكتف حسن باشا بما صادر من أموال الممالك ، بل راح يفرض الضرائب الباهظة ويجبى الأموال بكثرة ، فضج الناس منه وعلا صراخهم ، ولم تطل إقامته في مصر على أي حال ، فقد اشتبك العثمانيون في حرب مع روسيا ، فاستدعى حسن باشا وفيلقه للاستتراك في هذه المعركة الكبرى ، فغادر مصر بعد أن عين اسماعيل بك شيخا للبلد والجدوى أميرا للحج ، وعاد الصراع غير المباشر بين اسماعيل من جهة وبين ابراهيم ومراد من جهة أخرى ، ولكن النطاعون الكبير الذي اجتاحت البلاد سنة ١٧٩١ التهم اسماعيل بك فيمن التهم ، وكان ابراهيم

بك ومراد بك يتربصان في الصعيد ، وظن علماء مصر ومهمهم السيد عمر
مكرم أن المملوكين قد تهذبت أخلاقهما ، فأوفدوا السيد عمر مكرم
لإستدعائهما إلى القاهرة ، ولكن هذين جاءوا إلى القاهرة ليستأنفا حياة
القوة وابتزاز الأموال من جديد ، وكان الشعب يثور ولكن الثورة كانت
تخدم بالقوة ؛ أو بالسياسة وظلت هذه الفترة على أى حال « فترة
مملوكية » ، وبقيت مصر في هذا العناء ، ثم جاءت الحملة الفرنسية
التي تستحق عملا يكاد يكون مستقلا وسنقوم به فيما يلي :

الحملة الفرنسية

مقدمة :

يعتقد بعض الباحثين أن الحملة الفرنسية استمرار للحروب الصليبية التي سيأتى ذكرها والتي تعد مشروعا فرنسيا ، وكان طابع الانتصارات فيها طابعا فرنسيا ، ومنذ فشلت الحروب الصليبية ظل الفرنسيون يتطلعون الى مصر لموقعها الاستراتيجى من جانب ، ولثرائها من جانب آخر ، ثم ليوضع فى يمد فرنسا مصير الدول الأوربية التى كسوت امبراطوريات شرق السويس كبريطانيا فى الهند وهولندا والبرتغال فى الشرق الأقصى ، وهناك سبب رابع ينبغى أن نذكره هنا ، وهو اضطراب السلطة فى مصر وضعف جيشها ، مما أوحى للفرنسيين أن فتح مصر لن يأخذ منهم جهدا كبيرا ، وتنفيذا لهذه الأسباب فكر لويس الرابع عشر سنة ١٦٧٢ م فى غزو مصر ولكنه عدل عن هذه الفكرة إبقاء على علاقاته بتركيا ، وفى عهد لويس السادس عشر كتب سفير فرنسا بالأستانة سنة ١٨٧١ يحث حكومته على فتح مصر ، وكان مما جاء فى رسالته قوله : « إن جيش مصر ضئيل ، والجنود لسم يقفوا فى ميدان حرب منظمة ، وليس لديهم مدفع واحد » .

وهكذا كان هناك تدبير قديم لترخف فرنسا لاحتلال مصر ، وقد رأى نابليون أن يحقق أمل فرنسا فى هذا المضمار ، فأعدّ العدة لهذا الزحف الذى كان يقصد استعمار مصر أولا ، ويقصد ثانيا السيطرة على الطريق الذى يصل بين دول أوروبا ومستعمراتها فى الشرق الأقصى ، حتى تكون هذه الدول تحت رحمته .

إعداد الحملة :

تولى قيادة الحملة نابليون بونابرت أنبغ قواد العصر الحديث ، وكانت تتألف من ٣٦ ألف جندي ، ومن عدة سفن حربية ، وصحب نابليون

معه عددا من الضباط الأكفاء ، وطائفة من العلماء المتخصصين في مختلف العلوم والفنون ؛ من تاريخ واثار ومن هندسة وطب وكيمياء وغيرها •

سير الحملة وانتصاراتها الأولى :

وأبحرت الحملة من ميناء طولون الفرنسية في ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ ووصلت الى ميناء الاسكندرية في أول يوليو من العام نفسه بعد أن استولت على جزيرة مالطة في الطريق ، ولما أحس السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية بالخطر أرسل يخبر ابراهيم بك ومراد بك ويطلب مساعدات حربية ، وتقدمت الحملة تجاه الاسكندرية فاحتلتها على الرغم من المقاومة العنيفة التي أبرزها السكان بقيادة حاكمها البطل ، وستحدث عن محمد كريم بعد قليل •

وعقب احتلال الاسكندرية تقدمت الحملة تجاه القاهرة ، ولما وصلت « دمنهور » واجهت استعدادا سلبيا وإيجابيا من السكان سنشير اليه عند حديثنا عن محمد كريم بعد قليل ، وقد اضطرت الحملة لذلك أن تعود الى الاسكندرية لمزيد من الاستعداد •

وتقدم نابليون للقاهرة بعد ذلك فوقعت أولى المعارك عند شبراخيت بين الفرنسيين والمماليك بقيادة مراد بك ، ولكن المماليك لم يستطيعوا الثبات أمام المدفعية الفرنسية ، فانسحبوا تجاه القاهرة •

وعند امبابية وقعت الموقعة الثانية ، وفيها أبدى المماليك والمصريون الذين كانوا معهم بسالة وشجاعة أدهشت الفرنسيين ، ولكن ذلك لم ينعن شيئا أمام الأسلحة الفتاكة الحديثة •

محمد كريم ونضاله ونهايته :

أشرنا آنفا الى مقاومة محمد كريم حاكم الاسكندرية للحملة الفرنسية ، ومن حق هذا الرجل علينا أن نبرز جهوده في هذا المجال ، فهو أسوة طيبة للمكافحين المخلصين •

ويقرر التاريخ أن محمد كريم عندما أحسّ باتجاه الاسطول الفرنسى الى الاسكندرية ، قام بتحسين المدينة بقدر ما وسعته الحيلة ، ولما قرب الاسطول من المدينة دافع عنها دفاعا مستميتا من قلعة قايتباى ، وعندما دخلت الحملة الاسكندرية جمع محمد كريم القوى الوطنية حوله ، حتى أدخل القلق فى حياة المعتدين بسبب الهجمات المتتالية التى تعرضوا لها منه ومن رجاله ، ورفض تسليم المدينة ، وقاوم المعتدين حتى آخر سهم فى كنانته .

وقد قبض عليه نابليون ، ولكنه سرعان ما أطلقه ليخذه بذلك ، وليجذبه ويجذب المصريين للترحيب بالحملة والتعاون معها ، ولكن محمد كريم انطلق يحرض أهل البلاد على المقاومة ، ويحثهم على عدم التعاون مع الفرنسيين ، ومنع الماء والدواب عنهم ، ومواجهتهم بالحرب والمقاومة فى كل مكان ، ومضى يكتل الشباب سرا ويدفعه الى حمل السلاح والتصدى للفرنسيين فى كمين وكمين للإدالة بهم ، ولم يدخر فى سبيل ذلك وسعا ، ووضع ماله كله فى سبيل هذه الغاية ، ولم يعرف الراحة ، وظل يعمل جاهدا على إقلاق هؤلاء المحتلين وتنغيص اقامتهم ، وتمزيق كل جبهة يحاولون إقامتها .

ولم يقف الأمر عند هذا ، بل ترعم حركة واسعة فى سبيل المقاومة السليبية عندما عول نابليون على احتلال « دمنهور » إذ سرعان ما اختفت دواب الحمل وقرب الماء ولم يجد الفرنسيون رجالا واحدا يعاونهم ، أو يقدم لهم شيئا ، وقد أشرنا لذلك من قبل .

وكان من نصيب هذه الحملة الهزيمة المحققة والعودة من منتصف الطريق ، وقد وصف الجزال « ديموى » ما لقيه هو وكتيبته من المشقة ، ووصف الخسائر التى لحقتها وكيف نال ذلك من هيئة الجيش الفرنسى فى الاسكندرية .

نال ديموى : لقد منعوا تزويد الكتائب بالماء ، وهرّبوا الجمال

لكيلا يستعين بها الفرنسيون ، ولقيت القافلة عنتا ومشقة بعملهم هذا .

ولم يجد نابليون بدا من اعادة اعتقال البطل محمد كريم ، فقبض عليه في ٢٠ يوليو وحكم عليه بالاعدام ، إلا أن يفتدى نفسه بفدية مالية ، ولكنه رفض أن يدفع الفدية مع امكان ذلك ، ورفض أن يجمعها الشعب له ، وقال : إن دمه سيكون معولا يقوِّض قوة المحتل الأثيم .

وعندما سيق الى المقصلة كان يهتف بالشعب قائلا : قاوموا : اليوم بى ، وغدا بكم ، ونفخ فيه حكم الاعدام فى السادس من سبتمبر سنة ١٧٩٨ (١) .

بيان نابليون :

دخل نابليون القاهرة عقب انتصاره فى موقعة إمامية ، واتجه بعد ذلك لتثبيت سلطانه ، فأصدر بيانه الذى أراد به خداع المصريين وتهديتهم ، وفيه أبرز أن اتجاهه الحقيقى هو القضاء على المماليك الذين كان يعتقد أنهم غرباء عن مصر وأن المصريين يسعدون بطردهم .

وقد أورد الجبرتنى نص البيان كاملا ، وأهم النقاط التى وردت فيه هى :

- ١ — إدعاؤه الايمان بالله وبقرآنه وبنبيّه .
- ٢ — إدعاؤه الوفاق مع السلاطين العثمانيين والتقدير لهم حتى لا يستجلب سخطهم .
- ٣ — إغراؤه المصريين بالالتفاف حوله لينالوا المراكز السامية والراتب الرفيعة .
- ٤ — إنذار من تسول له نفسه معارضة الفرنسيين .

(١) انظر ما كتبه عنه الأستاذ أنور الجندى فى كتابه « من اعلام الحرية فى العصر الحديث » .

- ٥ — يبرز البيان أن الممالك درجوا على اضطهاد الرعايا الفرنسيين والتكثيل بهم ، وتعويق تجارتهم •
- ٦ — ويبرز البيان كذلك فساد الممالك وانحرافاتهم وأن الحملة جاءت لإنقاذ البلاد منهم •
- ٧ — وبالبيان نقطة دقيقة يجدر بنا أن نوردها في نصها ، يقول البيان :
خبروني بالله عن الميزة التي تفرد بها الممالك عن بقية الناس حتى اختصوا بملك مصر وحدهم ، ونعموا دون سائر الخلق بمحاسنها من الجوارى الغانيات والخيول المسومة والقصور العالية •
- وكان نابليون يريد بذلك منافسة الممالك أو أن يحل محلهم لينعم بما في مصر من محاسن •

سياسة نابليون في مصر وإنشاء الديوان والمجمع :

ظن نابليون أن انتصاره في موقعة إمبابة وضع حداً لمقاومة الممالك والمصريين ، فأخذ يتجه لبعض الأعمال التي توحى بالاستقرار ، فاتجه لاسترضاء الباب العالي والاتصال به مع ابداء الود والاحترام ، ثم اتجه إلى المصريين يسترضيهم ويجذبهم نحوه ، فأنشأ الديوان ، وكان الديوان يمثل حكومة أهلية في مصر وأعضاؤه تسعة يختارون بالانتخاب ، وقد اختير له المشايخ : الأشرقاوى والبكرى والصاوى والفيومي والعريشى والسرسى والسادات ومحمد الأمير والسيد عمر مكرم •

وأعلن نابليون أن من سلطات هذا الديوان تعيين رؤساء البوليس والاشراف على الأسواق وبعض التنظيمات الاجتماعية •

وأنشأ نابليون بجانب الديوان المجتمع العلمي ليقوم بالأبحاث الصناعية والطبيعية والتاريخية التي ترتبط بمصر ، وجعل له أربع لجان للرياضة ، والاقتصاد السياسى ، والآداب ، والفنون •

وأمر برسم خرائط لمصر والنيل وفروعه ، وأنشأ مطبعة عربية وفرنسية ، وأصدر صحيفة فرنسية ، واهتم المجتمع بإنشاء المحاجر الصحية ، ومنع دفن الموتى فى المنازل والمساجد ...

والذى يتابع هذه الأعمال من نابليون فى ذلك الوقت المبكر يدرك أنه كان متفائلاً ، وأنه ظن أن الأمور قد استقرت له ولكن ذلك كان شيئاً بعيد النال ، فإن المصريين لم يكونوا يقبلون أن تحتل بلادهم جماعة من « الكفار » ولذلك وقفوا موقف المتربص .

أحداث القلوة وجوانبها

ونتوقف الآن لتتابع التحركات التى أحاطت بالحملة الفرنسية ولنشرح نتائجها :

أولاً — الممالك وهرب العصابات ضد الحملة :

اتضح للممالك أن الجيش الفرنسى يملك من الأسلحة ما لا يملكون وأن مواجهته المباشرة ستكون شديدة الضرر بهم وبأتباعهم ، لأن الفرنسيين يستطيعون ضرب التجمع المصرى بما فى أيديهم من أسلحة جديدة ، ومن هنا فقد اتجه الممالك الى خطة جديدة كان واضحاً أنهم يستطيعون بها أن يتغلبوا على القوة الفرنسية وهذه الخطة هى الاعتماد على حرب العصابات التى لا يمكن أن ينتصر فيها الفرنسيون لأنهم لا يستطيعون تجزئة حملتهم الى فرق كثيرة تتابع العصابات المصرية الملوكية .

ونفذ الممالك هذه الفكرة ، وقسموا أنفسهم الى عصابات كثيرة غمرت القطر كله تقريباً ، وانضم لهم عدد هائل من المصريين لكافة « الكفار » الذين اقتحموا البلاد ، وقد أنزلت هذه العصابات بالفرنسيين هزائم متعددة ، وهذا المعنى هو ما قصده الأستاذ اسماعيل عبد الله فى بحثه عن « الجوانب العسكرية للحملة الفرنسية » ، وهو فى ذلك يقول :

إن مهارة المماليك وقدراتهم القيادية ، وثقافتهم العسكرية مكنتهم من التغلب على نقص التسليح كما ونوعاً وكمية عدده بالقياس الى عدوهم ، فاستخدموا حرب العصابات في المدن لتفتيت قوة نابليون الذي كان يعتمد على الضربة المكثفة التي تثير الذعر وتدعو للاستسلام ، وهي التي اتبعتها في معركة إمبابية ، وقد استطاع المماليك أن يكشفوا أسلوبه ، ولم يمكنوه من تكرار هذه الضربة بعد ذلك ، كما كانوا على درجة عالية من التنظيم في معاركهم ، وأكبر دليل على ذلك اخلاء كثير من المدن أمام الغازي .

ويقرر الأستاذ اسماعيل عبد الله أن ما أشيع من طعون في المماليك لم يكن الا من اختلاق الحملة لاضعاف المقاومة المصرية ، واحداث خلافات بين أبطالها أو إحداث نوع من عدم الثقة بين المصريين والمماليك .

وقد استمرت حرب العصابات حتى انتهت الحملة ، وخلال هذه الحملة أدرك المصريون براعة الدور الذي قام به أكثر المماليك ، ولذلك اتجهوا لإعادتهم للقاهرة عقب جلاء الفرنسيين كما سنرى فيما بعد .

ثانياً — موقعة أبى قير البحرية (أغسطس سنة ١٧٩٨) :

قلنا آنفاً إن الحملة الفرنسية وصلت الاسكندرية في يوليو سنة ١٧٩٨ وقد كان الأسطول الانجليزى يتابع من بُعد تحركات الأسطول الفرنسى منذ أبحر من ميناء طولون ، وكان نلسن يقود الأسطول الانجليزى في البحر المتوسط ، فلما أدرك هدف الأسطول الفرنسى تركه فترة من الزمن حتى تعمق نابليون في مصر بجنوده وأحس بحارة الأسطول بالأمن على الساحل ، وحينئذ تقدم نلسن البحار ذو المواهب الفذة وحاصر الأسطول الفرنسى في خليج أبى قير ، ودارت بين الأسطولين معركة أجالت البحر الى جحيم متقد ، وقد بدأت المعركة في الساعة الثالثة بعد الظهر من أول أغسطس ، وفي الساعة الثامنة أصيب بروديس قائد الأسطول الفرنسى بقبيلة قضت عليه ، وفي منتصف الليل كان الأسطول الفرنسى

حطاما ، ولم ينج منه إلا ما أسره الانجليز أو سفن قليلة فرّت الى مألطة .

وكانت نتائج موقعة أبى قير البحرية عميقة، فقد وضعت الأساس لانهيار آمال الفرنسيين فى اقامة امبراطورية فى الشرق ، وعزلت جنودهم بمصر عن بلادهم ، وقضت بالتفوق المطلق للأسطول الانجليزى على سواء ، ولولا شخصية نابليون القوية لما كان للفرنسيين أى بقاء فى مصر بعد هذه الموقعة .

ثالثا — ثورة القاهرة الأولى (أكتوبر ١٧٩٨) :

ترك المصريون زمام الأمر فى فترة من الفترات للعثمانيين باسم الاسلام ، وتركوا زمام الدفاع عن البلاد للمماليك باعتبارهم متخصصين فى الشؤون العسكرية ، ومتحملين مسؤولية السياسة ، ولكن المصريين فوجئوا باحتلال البلاد بجيش من الكفار « كما أطلق عليهم المصريون » ينحدر من أحفاد الصليبيين ، وفى الفترة الأولى من هذا الاحتلال لم يظهر للأتراك العثمانيين نشاط فى مواجهة الفرنسيين ، بل أدعى نابليون فى بيانه إنه على وفاق معهم ، مما قلل الأمل فى الاعتماد عليهم .

وانحل جيش المماليك بعد معركة امبابة ، وهذا وذاك جعل مسئولية الدفاع عن البلاد تقع على عاتق المصريين ، وكان علماء الأزهر هم قادة العهد الجديد ، وقد تعاون هؤلاء العلماء مع الحملة فى مطلع عهدها بمصر ظانين أنها جاءت لغير الاستقرار ، ولكن سرعان ما اتضح لهم أن نابليون يريد الاستقرار بمصر ، وهذا دفعهم لتحمل المسئولية فى الدفاع عن البلاد ، وشجعهم على ذلك هزيمة الفرنسيين فى موقعة أبى قير البحرية ، كما شجعهم على ذلك أيضا تشدد الفرنسيين فى جمع الضرائب واستيلائهم على أموال الأوقاف ، وهدم كثير من المباني الأثرية بحجة التنظيم ، وهدم أبواب الحارات والدروب ، وميل الجنود الفرنسيين للخلاعة والفجور ، وإعدام حاكم الاسكندرية السيد محمد كريم .

الأزهر مركز القيادة لثورة القاهرة :

وقد اتخذت الثورة مركزها في الأزهر الشريف حيث تجمعت الجموع الكثيرة يحملون أسلحتهم ، ويحضون الناس على مقاومة العدو المستعمر ، وكانت هذه الثورة مفاجئة للفرنسيين لأنهم ظنوا أنهم استمالوا المصريين وخدعوه بما قاموا به من دعاية ، وفي ضوء هذا الظن خرج الجنرال (ديبوى) حاكم القاهرة العسكرية ومعه بعض رفاقه يقتحم جموع المتظاهرين ، وكان يظن أنهم سينفضون ، ولكن الجموع تكاثفت عليه ، وطمعته الثائرون طعنه أردته قتيلًا ، وكان ذلك شرارة أثارت العاصفة ، فقد صدرت الأوامر للجيش الفرنسي أن يدمر الأزهر ، وأن يقتل الجماهير دون رحمة . ويصف الجبرتي ما فعله الجيش الفرنسي بقوله : تتابع الرمي من القلعة والكيهان حتى ترعزت الأركان ، وهدمت حيطان الدور وسقطت بعض القصور (١) ، ولما انتهى الضرب زحف الفرنسيون إلى الجامع الأزهر فدخلوه بخيولهم وعاثوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل وهشموا خزائن الطلبة ، وصدرت تعليمات نابليون بقتل كل من تسبب له الاشتراك الفعلي في المعركة ، ويقول نابليون في مذكراته : فقد الثائرون ألفى قتيل وفي كل ليلة كانت تقطع رؤوس حوالى ثلاثين من الرجال وكثير من زعماء الأهالى ، وأظن أن هذا سيكون درسًا قاسيًا لهم ، وفقدت مصر في الثورة وذيولها حوالى أربعة آلاف قتيل ، وقضت هذه الثورة على خيوط الثقة الضئيلة التى ظن أنها وجدت بين المصريين والفرنسيين ، وأصبح واضحًا أن استقرار الفرنسيين بمصر مستحيل ، وأن المسألة لا تتعدى إجراءات تنظيمية يعقبها الجلاء .

وباندلاع ثورة القاهرة أصبح واضحًا أن هناك قوتين مصريتين تتناضلان الحملة ، وهاتان القوتان هما :

- ١ - المماليك في حرب العصابات الشاملة .
- ٢ - الأزهر بعلمائه وطلابه وأتباعهم من الأهالى .

(١) الجبرتي : عجائب الآثار . أحداث شهر صفر سنة ١٢١٣ هـ .

(م ٢١ - موسوعة التاريخ ج ٥)

من نتائج ثورة القاهرة الأولى :

قُضت ثورة القاهرة الأولى على خيوط الثقة الضئيلة التي كانت بين المصريين والفرنسيين ، فأخذ نابليون يعلن ما كان خافيا ، واتخذ إجراءات عنيفة ضد المصريين كانت شديدة الأثر في دعم سوء الظن بالحملة وأهدافها ، ومن هذه الإجراءات ما يلي :

١ — ألغى نابليون الديوان الذى كان قد شكله من قبل ، وأعلن تشكيكه من جديد على وجه لا يتفق مع رغبات المصريين ، فقد ضم له ممثلين من جميع الطوائف والجماليات التي كانت تعيش في مصر ، وكان بعضها غير حريص على الأهداف الوطنية •

٢ — هدم الفرنسيون الكثير من المباني والمساجد التي تقف في طريق الحملة الى الأزهر ، ليسهل على الجنود اقتحام الأزهر الذى أصبح يمثل مركز المقاومة •

٣ — تكوين فرق عسكرية من مقطوعى الأروام وبعض العناصر المسيحية التي تعاونت مع العدو ، وكان يعقوب فام من أبرز من مثلوا الخيانة الوطنية آنذاك وسنتكلم عنه بعد قليل •

٤ — زالت الفكرة التي كانت عند الفرنسيين والتي ترى أن المصريين ميالون للمسالمة ، واتضح للعدو أن مسالة المصريين للعثمانيين كانت باسم الاسلام ، وتعاونهم مع المماليك كان باعتبار المماليك جزءا من المصريين •

٥ — على أن أخطر نتائج ثورة القاهرة هي أن ثورات كثيرة قامت على أثرها بكل المدن والقرى من أسوان الى الاسكندرية ورشيد ، واشتركت فيها طبقات الشعب جميعا ، وكانت تقمع ثورة لتبثق أخرى دون مبالاة بالضحايا والخسائر •

يعقوب فام الخائن واللواء القبطي :

في وسط الصراع الذي قام به المصريون جميعا ضد الحملة الفرنسية كان هناك للأسف انحراف عن المسيرة تمثّل في المعلم القبطي يعقوب فام الذي تعاون مع الفرنسيين وكان يصحبهم في حملاتهم داخل القطر ، ويسهّل لهم مهامهم ، ويدلهم على عورات البلاد ، ويقول الجبرتي عنه : سافر عدة كبيرة من عسكر فرنساوية الى جهة الصعيد ، وصحبتهم يعقوت القبطي ليعرفهم الأمور ويطلعهم على المخبآت (١) .

إنها خيانة لا يغفرها له التاريخ .

ومما يذكر أن رجال الدين المسيحي لم يكونوا راضين عن الجنرال يعقوب ، وكان بينه وبينهم مشاحنات كثيرة (٢) .

ويقول الأستاذ الصحفي محمد حسنين هيكل في كتابه « خريف الغضب » (٣) إن يعقوب شكّل ما عرف باسم « اللواء القبطي » الذي عمل في خدمة الفرنسيين ، ومنح يعقوب لقب « جنرال » وأصبح فيما بعد قائدا مساعدا للجنرال « دوسيه » على رأس القوة التي اتجهت للصعيد لتقاوم بعض صور النشاط العسكري في الصعيد .

ويذكر محمد حسنين هيكل أن البطريك عارض الدور العسكري الذي قام به يعقوب ورفاقه .

وكانت نتيجة الخيانة الطبيعية ، فإن الفرنسيين الذين استعانوا بالخائن كانوا في داخلهم يحتقرونه ، وقد كان الخائن يظن أنهم سيكافئونه

(١) تاريخ الجبرتي : أحداث شهر ربيع الأول سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨) .

(٢) انظر وثائق للتاريخ بقلم الانبا غرغوريوس ص ١٧ وما بعدها .

(٣) لم نحدد صفحات الكتاب لأنى قرأت صغورا لصفحات جريدة

« الوطن » التي نشرت الكتاب وهذا الموضوع نشر يوم الجمعة ٦ مايو سنة ١٩٨٣ .

على خيانتة فانسحب معهم عندما انسحبوا من مصر سنة ١٨٠١. ومعه بعض رفاقه من الخونة ، وتذكر الرواية أنه مات على الباخرة التي كانت تقله الى فرنسا ، وأغلب الظن أن الفرنسيين دبوا نهايته .

أما باقي الخونة الذي بقوا في مصر ، فقد انما عوا في الشعب وأخفوا خيانتهم حتى تتوسيت هذه الخيانة المريرة بسبب تسامح الشعب وطيبته .

رابعا - تركيا والحملة الفرنسية :

كان تدمير الأسطول الفرنسى وثورة القاهرة الأولى من أهم الدوافع التي دفعت تركيا لأخذ نصيب في مقاومة الحملة الفرنسية ، وقد وجدت تركيا ألا مناص لها من دخول المعركة لترد على ادعاءات نابليون التي قال فيها إنه على وفاق مع السلطان العثماني ، ثم لتستعيد مكانتها في مصر بعد أن أوشك الزمام أن يصبح في أيدي المصريين .

وتنفيذا لهذا الاتجاه أعلنت تركيا الحرب على فرنسا في أواخر سنة ١٧٩٨م وتحالفت مع إنجلترا لهذا الغرض ، وأعد السلطان جيشا للزحف على مصر .

ووجد نابليون أن سياسة الهجوم أنسب من سياسة الدفاع فزحف على الشام ليهاجم القوى العثمانية التي تحاول أن تندفع الى مصر ، وليواجه الأتراك الذين أرادوا الهجوم عليه ، وقد بدأت حملة نابليون على الشام في فبراير سنة ١٧٩٩ ، فاستولى في طريقه على العريش ثم غزة ويافا واستسلمت له الحامية التي كانت بتلك المناطق إذ لم تكن قادرة على المقاومة ، واسم يتم الاستسلام الا بعد أن أمنها نابليون ، وتعهده بسلامتها ، ولكن نابليون كان هذا السهد وأعمل السيف في هؤلاء المستسلمين ، فحمل بذلك مسؤولية هذا العمل الاجرامى أمام الله والتاريخ .

وبعد ذلك تقدم نابليون الى عكا ، وقد صمدت هذه لقوات نابليون

صمودا رائعا ولم يستطع فتحها ، كما لم يستطع التفاهم مع قواتها
لنستسلم إذ أن خلق الغدر حال دون هذه المفاوضة ، وكان لجهود أحمد
باشا الجزار أثر كبير في صمود عكا •

واتجه نابليون الى حصون عكا ودورها فسلط عليها مدافعه فدمرت
الكثير من مبانيها ولكنه عجز عن اقتحامها فاكتمى بهذا منظارا بالنصر :
ويقرر العودة الى القاهرة ولكن قواته تعرضت لصراع الطبيعة فأصابها
الطاعون في طريق العودة ففقد على الكثير منها ، كما أرهقت هذه القوات
بالحرارة عندما دخل موسم الصيف فنال ذلك من نابليون ومن وقواته •

موقعة أبي قير البرية :

اتجهت تركيا لضرب الحملة في مصر فأرسلت جيشا كبيرا بقيادة
مصطفى باشا وقد استطاعت هذه القوة أن تحتل قلعة أبي قير ولما علم
نابليون بذلك سار الى القلعة وجرت معركة برية هائلة انتصر فيها الجيش
الفرنسي وأسر القائد العثماني •

وبعد أن ذكرنا التحركات التي أحاطت بالحملة الفرنسية ، ووضعت
الأساس لفشلها ، نتيجة لصد الأحداث التي وضعت نهاية لهذه الحملة
المسعورة •

عودة نابليون الى فرنسا :

أدرك نابليون أن آماله في مصر قد انهارت وأنه لا يستطيع أن يحقق
أحلامه بين ثورات الشعب ومهاجمة تركيا وحصار بريطانيا ، ويبدو أنه
لم يستطع أن يتحمل آثار الهزيمة فآثر الفرار والعودة الى فرنسا متكررا
بعد أن أناب عنه كليبر ليصبح قائدا للحملة وذلك في أغسطس سنة ١٧٩٩ •

الحملة البحرية التركية (نوفمبر ١٧٩٩) :

اتجهت تركيا الى الصراع البحري بعد أن فشلت حملتها البرية

فأرسلت أسطولا في نوفمبر سنة ١٧٩٩ بقيادة السيد على بك ومساعدة السير سيدنى سميث الأدميرال الانجليزى ، وقد هزمها الفرنسيون عند عزبة البرج •

المفاوضات واتفاقية العريش « يناير ١٨٠٠ » :

كانت أكبر المهام التى عثى بها كليبر هى حراسة الجنود الفرنسيين ريثما يفاوض الانسحاب ، وقد جرت مفاوضات بين فرنسا وتركيا وانتهت هذه المفاوضات بمعاهدة العريش فى يناير ١٨٠٠ وهى تنقضى بجلاء الفرنسيين عن مصر بأسلحتهم وأمتعتهم فى مدى ثلاثة أشهر على سفن فرنسية وتركية ، ولكن انجلترا رفضت هذه الشروط وأصررت على أن يعامل الفرنسيون معاملة أسرى الحرب فيما يتعلق بالأسلحة والعتاد ، فلا بد من تسليم هذه الأسلحة لضمان خروجهم سالين بأنفسهم : وقد كانت انجلترا تتجه هذا الاتجاه لما كانت تدركه من حرج موقف الحملة الفرنسية ، ذلك الحرج الذى عبر عنه تقرير كليبر الى حكومة فرنسا عقب هرب نابليون وكانت انجلترا قد استطلعت أن تعرف مضمون هذا التقرير •

وهكذا عادت الأمور الى جو الصراع بعد أن توقف تنفيذ اتفاقية العريش •

معركة عين شمس (مارس ١٨٠٠) :

عاد العثمانيون الى القتال البرى فأرسلوا حملة لمحاربة الفرنسيين وقد أسرع كليبر لمواجهةهم عند عين شمس ، وقد انتصر الفرنسيون فى هذه المعركة وأرغموا الأتراك على الانسحاب للحدود الشرقية •

ولكن هذه المعركة كانت لها نتائج خطيرة اذ أنها أشعلت ثورة القاهرة الثانية التى ستنحدث عنها فيما يلى :

ثورة القاهرة الثانية (مارس وأبريل ١٨٤٠) :

انتهر المصريون — كما قلنا انفاً — خروج كليبر وأكثر جيشه من القاهرة وقاموا بما يسمى ثورة القاهرة الثانية ، وقد حاصر الثائرون ما تبقى للفرنسيين من جيش داخل المدينة ، وسرعان ما انضم للثائرين أعداد كبيرة من المماليك والأتراك العثمانيين ، وكانت هذه الثورة أطول وأقسى من ثورة القاهرة الأولى ، فقد أقام الثائرون المتاريس وحفروا الخنادق وأنشأوا معامل للبارود في الخرنفش وأسهم الأغنياء بالأموال الواسعة ، واشترك كل الأهالي من المسلمين والأقباط في هذه الثورة الهائلة ، ومن أبرز الشخصيات التي ينبغي أن تذكر هنا السيد المخروقي كبير التجار ، والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف وجرجس الجوهري من زعماء الأقباط .

وقد احتاج كليبر الى جهد واسع لإخماد هذه الثورة ، وبذل تضحيات واسعة ليستعيد القاهرة من القوات المصرية الهائلة التي سيطرت عليها حوالي شهرين ونصف شهر .

نهاية كليبر :

ولما تم النصر للقوات الفرنسية لم يقف تنكير من المصريين ذلك الموقف القاسي الذي وقفه نابليون عقب إخماد ثورة القاهرة الأولى ، بل اتجه كليبر الى التظاهر ببعض الإصلاحات كتتظيم الجمع العلمي ، وإنشاء بعض المصانع ، ولكن الزمن لم يسعفه فقد سقط بطعنة من سليمان الحلبي في ١٤ يونيو سنة ١٨٠٠ وأذن ذلك بمزيد من ضعف الحملة وعسر حياتها .

كلمة عن سليمان الحلبي :

وينبغي أن نورد كلمة عن سليمان الحلبي ، فهو من مواليد حلب بسوريا سنة ١٧٧٧ ، وقد رحل الى القاهرة والتحق بالأزهر الشريف ،

وكان ذلك إبان وجود الحملة الفرنسية بمصر ، وقد أخذ على عاتقه أن يغتال كبير دفاعا عن مصر وعن الاسلام ، وشجعه بعض العلماء على ذلك ، وقد استطاع أن ينفذ خطته وقبض عليه عقب ذلك وبحكم بإعدامه ونفذ الحكم فيه ، وأحرقت يده اليمنى ، وترك بعد موته طعاما للطيور الجارحة كما حكم بالإعدام على ثلاثة من رجال الأزهر تعاونوا معه هم : عبد الله الغزى ومحمد الغزى ، وأحمد الوالى ، وقد ذهب هؤلاء ولكنهم تركوا ذكرا طيبا في مجال الوطنية والدفاع عن الاسلام .

عهد الجنرال مينو :

عقب قتل كبير تولى مينو قيادة الحملة ، ولم يكن في كفاءة سلفه ، وكانت الأمور حول الحملة تسير في انحدار ، وقد واجه مينو تصميمين من انجلترا وتركيا للقضاء على قواته ، وقد نزلت حملة انجليزية عند أبى قير في مارس ١٨٠١ واتجه مينو لمواجهة ، ولكنه هزم وارتد الى الاسكندرية وتحصن بداخلها ، أما الانجليز المنتصرون فقد اتجهوا للقاهرة ، والتقوا في الطريق بالقوات العثمانية ، وقطعت القوات الانجليزية والعثمانية الطريق بين مينو في الاسكندرية وباقي قواته بالقاهرة .

واتجهت القوات الفرنسية في هذا المأزق الى طلب الصلح ، ووافقت عليه انجلترا وتركيا حقتا للدماء ، وإدراكا أن الفرنسيين في هذا المأزق قد يتصرفون تصرف اليائس فتكثر الضحايا ، وقد وافق قائد الحامية الفرنسية بالقاهرة (بليار) ثم وافق مينو في الاسكندرية على الخروج تبعا لشروط اتفاقية العريش .

ومما دفع فرنسا الى الاتفاق موت الأمير الخائن مراد بك الذى كان قد تحالف مع الفرنسيين ، وكان موته في مايو سنة ١٨٠١ .

وقد جلاء الفرنسيين عن مصر في أغسطس سنة ١٨٠١ .

الخداع والزيف

حول نتائج الحملة الفرنسية

توشك المراجع المصرية والعالمية أن تتجمع على أن الحملة الفرنسية كانت لها نتائج حضارية باهرة ، والذي لا شك فيه أن خديعة فرنسية وأوروبية كانت خلف هذا الاعتقاد الخاطيء ، لقد كانت أوروبا تتطلع الى الزحف الى الشرق ، وكانت تحاول أن تصبغ حملاتها بخديعة حضارية ، كأنما خطط الأوروبيون للتقدم الى بلاد الشرق الاسلامى والى افريقية يحملون مشاعل النور .

والحق إن فرنسا وسواها من دول الاستعمار الأوربي أو الأمريكى لم تأتى الى الشرق الا لمحاربة الاسلام من جانب ، ولسلب ثروات الشرق من جانب آخر ، ومن العبث أن يفكر انسان أن هؤلاء كانوا حملة إصلاح أو دعاة حضارة لبلاد الشرق .

وعلى الرغم من أن إنجلترا اشتركت بتصيب كبير فى تدمير الحملة الفرنسية ، فانها اشتركت بتصيب كبير أيضا فى نشر هذا الوهم وهذه الخديعة بأن الحملة حققت لمصر تقدما حضاريا ، فمثل هذا الوهم يعين الزحف الأوربي الذى كان يتأهب للانتسياب نحو الشرق .

وأذاعت أوروبا هذه الخديعة ، واهتمت فرنسا بوجه خاص بنشر هذه الفرية ، وللأسف وقع بعض المصريين والشرقيين فى الفخ ، وصدقوا تلك الأكذوبة فراحوا يروجونها ويكتبون عنها ودخلت المدارس والجامعات ، وتلقاها التلاميذ والطلاب الأبرياء واعتقدها الكثيرون منهم ، ونحن هنا نحاول أن نحقق الحق وأن نبرز بطلان هذا الادعاء بالحقائق التساللية :

١ — قالوا ان الحملة كتبت كتابا مهما عن مصر عنوانه « وصف مصر » وهذا صحيح ، ولكن هذا الكتاب لم يترجم حتى الآن للغة العربية ، وكل ما تترجم منه هو أجزاء قليلة ترجمها الأستاذ المرحوم زهير الشايب في السبعينات من القرن العشرين أى بعد حوالى قرنين من انتهاء الحملة ، وبعد أن تغيرت معالم مصر بدرجة كبيرة ، ثم بعد أن كتب المصريون ما يعنى عنه .

٢ — ويقولون إن مصر تطلعت بسبب الحملة الى التغير الهائل الذى يحدث في أوروبا ، وبدأت مصر تقتبس من المدنية الغربية بعد ذلك .

ولكن الباحث في تاريخ مصر بعد الحملة يجد أن مصر عادت لحياتها الحافلة بالقوضى بسبب صراع السلطات ، ولم تتجه لاقتباس أية مدنية ، وكانت السنوات التى تلت الحملة حتى عهد محمد على سنوات حالكة ، وأن التغير الذى طرأ على حياة مصر بدأ مع محمد على الكبير ، فهو وحده صاحب العقلية الجديدة التى قضت على القديم وفتحت أبواب الجديد ، فانفتحت مصر به على العالم .

٣ — تحدثوا عن « الديوان » وهو أسلوب الدعاية لجذب بعض المصريين لفهمهم عن طريق الوظائف اللامعة ، ولم يظهر لهذا الديوان أى أثر ، وقد وضعنا أن نابليون ألغاه بعد ثورة القاهرة الأولى وأعاد تشكيله على نمط لا يرعى مصالح البلاد .

٤ — تحدثوا عن تخطيط لمصانع وقناطر وجسور ، وإذا صح ذلك فهو تخطيط لم يدخل أبداً إلى حيز التنفيذ .

٥ — يتحدثون عن حجر رشيد ، مع أن العثور عليه كان مجرد مصادفة ، ولم تنفع رموزه الا بعد نهاية الحملة بحوالى ثلاثين عاما .

٦ — وهناك أشياء كالشورى والنوعى الصحى والشورى في

الحقيقة كانت خداعا والوعى الصحى كان إحياء للوعى الإسلامى المصرى ،
وليس فيه أى جانب للإبتكار ، يؤكد الأستاذ محمد حسنين هيكل ذلك بقوله :
إن كثيرا من أفكار الحملة الفرنسية كانت أقرب الى روح الاسلام (١) .
ويتحتم على الباحث المنصف أن يتذكر ما يلى وهو يدرس هذا
الموضوع .

أولا : دخل الفرنسيون مصر فى يوليو سنة ١٧٩٨ ، وفى أوائل
أغسطس أى بعد حوالى شهر واحد كان الأسطول الفرنسى قد قُضى
عليه ، وبذلك انتهت آمال الفرنسيين فى مصر وأصبحوا سجناء لا هم
لهم إلا الوصول إلى وسيلة للعودة الى بلادهم ، وأسرع نابليون بالهرب
متكررا ، وكل هذا يوضح أنه لم يكن هناك وقت للإصلاح ، ولا جهد
للأعمال الحضارية إن كانت خطرت بالبال ، ويتدمير الأسطول الفرنسى
توقفت الصلات بين الحملة وبين فرنسا تقريبا ، وأصبح على قادة الحملة
أن يعتمدوا على السلب والنهب والضرائب لتغطية نفقات الجيش ، وهذا
زاد الأمور حدة وتأزما .

ثانيا : ادعى نابليون الاسلام وكذلك ادعى مينو وهو من أكبر قواده ،
وهذا يوضح سهولة الادعاء بأنهم جاءوا لرعاية الحضارة أو أنهم أسهموا
فعلا فى خدمة الحضارة وكلها دعاوى باطلة .

ثالثا : لقد كانت سنوات الحملة الفرنسية بمصر ثلاثا وهى مدة
قصيرة جدا ، ثم إن الحروب كانت خلالها مشتتة ، اشترك فيها المصريون
بكافة طبقاتهم وبلادهم ، واشتركت فيها بريطانيا وتركيا ، وكل هذا يجعل
من العبث الاعتقاد بأن اتجاها حضاريا قد بدأ لهذه الحملة .

رابعا : ذكرنا من قبل أن صراعا مريرا دار بين هذه الحملة وبين

(١) خريف الغضب المنشور بصحيفة « الوطن » يوم الجمعة ٦ مايو
سنة ١٩٨٣ .

المصريين ، وأن آلاف المصريين قتلوا ، ولا يمكن في مثل هذا الجو أن تقوم أى اتجاهات حضارية ، فطبيعة الحضارة تحتاج الى استقرار وثقة .

خامسا : لم يكن هدم البوابات نوعا من الترقى ، وإنما كان لتمكين السيطرة على الشوارع والأزقة التى كانت دائما مصدر خطر على المستعمر .

سادسا : لقد أحضر نابليون معه مطبعة ولعل استعمالها كان مقصورا على بيانات التخدير والتحذير للشعب المصرى ، وقد أخذتها الحملة معها عند انسحابها ، مما يدل على أن المظاهر الحضارية كانت لخدمة الحملة لا لخدمة مصر .

سابعاً : وهو شئ مهم جدا ؛ لقد استعمرت فرنسا عدة أقطار فى آسيا وأفريقية ، وامتد هذا الاستعمار أحيانا عدة قرون ، ولم تشهد هذه الأقطار تقدما حضاريا تركه المستعمر ، بل ترك دائما الخراب والدمار .

ثامنا : وضحنا من قبل أن الأوامر صدرت للجيش الفرنسى بتدمير الأزهر الذى اتخذ منه المجاهدون مركزا لجهودهم وأن الجنود الفرنسيين ضربوه بالقنابل والمفرقات حتى زلزلت أركانه ، ثم دخلوه بخيولهم ... وواضح جدا أن هذه الأفعال قمة الخوغائية ، فان الفرنسيين بذلك حاربوا حضارة الاسلام وحضارة مصر متمثلة فى الأزهر الشريف الذى كان ولا يزال منارة فكر للعالم الاسلامى كله ، وبهذا نقرر أن الفرنسيين كانوا ضد الحضارة وليسوا بناة حضارة .

تاسعا : وأبو الهول الذى يقف شامخا منذ آلاف السنين لم يسلم من عدوان الخوغائية والفوضى ، فقد وجّه له هؤلاء الأوغاد ضرباتهم ، حتى كسروا أنفه ، وهذا يدل على سوء تقديرهم للحضارات ، وأنهم لم يحضروا لمصر لخدمة حضارة أو بناء مدنية .

الاستعمار الانجليزى نتيجة من نتائج الحملة الفرنسية :

العاشر : إن الباحث النصف يجد الحملة الفرنسية فتحت على مصر باب المتاعب والاستعمار ، فقد لفتت أنظار الانجليز الى أهمية مصر كطريق للهند ، فأدركت انجلترا خطر قيام دولة كبيرة كفرنسا في مصر ، فاشتريت في تدمير الحملة لهذا الغرض ، بل اتجهت الى ضرورة السيطرة على مصر بطريق أو بآخر منذ ذلك الحين ، وقد بدأ ذلك في وقت مبكر ، فقد انتهزت انجلترا وجود قوات فرنسا بمصر ودخلت البلاد عند أبى قير في مارس سنة ١٨٠١ ، وسارت هذه القوات تجاه القاهرة ودعت بعض زعماء المماليك للانضمام لها ضد الفرنسيين ، وقد حدث ذلك فعلا ، فوصلت قوات انجلترا الى القاهرة في يونيو ١٨٠١ ، وخرج الفرنسيون عقب ذلك في أغسطس من العام نفسه ، ولكن الانجليز توانوا في الجلاء عن البلاد ، ولم يخرجوا الا في سنة ١٨٠٣ بعد مفاوضات ضعبة . وعاود الانجليز محاولاتهم ، فأرسلوا حملة فريزر التى سنتحدث عنها بعد قليل ، ولكنها أيضا منيت بالفشل .

والحركة التبشيرية أيضا :

ولم تقنع انجلترا بالمحاولات العسكرية ، فسرعان ما اتجهت لنوع جديد يكسبها النفوذ في مصر ، وكان هذا النوع مرتبطا بالحركة التبشيرية التى كانت لها أهداف سياسية ودينية ، وقد وصلت الى مصر أول ارسالية بريطانية تبشيرية سنة ١٨١٥ ، وتبعتها إرساليات متعددة الأجناس ، وكان الغرض من هذه الحركات التبشيرية كسب النفوذ من جانب ، وإحداث فجوة بين المسلمين والأقباط من جانب آخر .

ما أشق ما حملت الحملة الفرنسية الى مصر وإلى الشرق من نتائج . وقد كان الاحتلال الانجليزى لمصر سنة ١٨٨٢ هو أحد النتائج المشؤمة للحملة الفرنسية .

الأقباط المصريون يعانون من الاستعمار الغربى ، لماذا ؟

وبمناسبة محاولة إيقاع خلافات بين المسلمين بمصر وبين الأقباط نقرر أن أقباط مصر كانوا فى الغالب يبرهنون على وطنية عالية ، ويتفقون مع المسلمين فى التصدى للمحاولات الاستعمارية الغربية ، وبخاصة أن تجربة المسيحيين المصريين مع المسيحيين الغربيين كانت مريرة وشاقة ، فلم يحدث أن حمل الرومان أو الاغريق أو الصليبيون أى نوع من الحرية أو الخير للمسيحيين فى مصر ، فقد كان مسيحيو الشمال يدينون بالمذهب الكاثوليكي ، وكان المسيحيون المصريون يتبعون المذهب الأورثوذكسى ، ومن هنا فإن المسيحيين الغربيين كانوا يعدّثون المسيحيين المصريين هراطقة يجب القضاء عليهم ، وقد منعهم الصليبيون عندما كانت لهم السلطة على القدس من زيارة المدينة المقدسة ، كما منعوا المسلمين سواء بسواء ، وعندما حقق الصليبيون بعض الانتصارات فى دمياط فى الحملات الصليبية المتأخرة ، خطفوا أولاد الأقباط وباعوهم الى أسقف عكا لتعميدهم تبعا للعقائد الكاثوليكية ، وعندما استطاع الملك بطرس ملك قبرص قبيل نهاية الحروب الصليبية من احتلال الاسكندرية بعض الوقت أسرع جنوده بالقيام بحركة نهب وسلب لكل الأموال دون تفرقة بين مسلم وقبطى ، كما راح هؤلاء يقتلون دون وازع كل من عارضهم ، وكثيرا ما كان الأقباط من ضحاياهم كما كان المسلمون ، دون تفریق .

وقد أدرك المسيحيون الغربيون هذه النتيجة ، فعدّلوا من سلوكهم ومن كراهيتهم للمذهب الأورثوذكسى ليكسبوا لهم أنصارا من الأقباط ، وكان ذلك تضحية بالعقيدة من أجل السياسة ، ولكن نتائج هذا الاتجاه ليست موضع الحديث الآن .

إن زحف الغرب على الشرق سَمَّى « استعمارا » وهى كلمة مدلولها اللغوى متصل بالعمران ، ولكن هذا المدلول قد قد تماما ، وأصبح مدلولها هو الخراب والحرمان والضغط والظلم .

ويبدو أن فرنسا أرادت كلمة خداعة جديدة ، فتحدثت عن التطور الحضارى الذى قدمته لمصر ، وتلك أكنوية تشبه كلمة « استعمال » •

حجر رشيد :

وبمناسبة الحديث عن حجر رشيد نذكر أنه حجر من البازلت يحمل نصبا مكتوبا بثلاث لغات هى الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية ، والنص عبارة عن شكر الكهنة للملك بطليموس الخامس على مساعداته التى تقدمها للمعابد •

وقد عثر جنود الحملة الفرنسية على هذا الحجر سنة ١٧٩٩ على مقربة من قلعة سان جوليان قرب رشيد ، وأهمية هذا الحجر ترجع الى أن اللغة اليونانية كانت معروفة آنذاك ، وبمقارنة اللغة الهيروغليفية بها أمكن فك رموز الهيروغليفية ، وبالتالي أمكن التعرف على كثير من الأفكار والعلوم المصرية القديمة التى كانت مكتوبة بالهيروغليفية ولم تكن فى متناول المعرفة حتى ذلك التاريخ •

ومنذ عثر على حجر رشيد حاول الباحثون اجراء هذه المقارنة وحل الرموز الهيروغليفية ، ولكن قُدِّرَ أن يتم ذلك على يد العالم « شمبليون » الذى كان بمصر سنة ١٨٢٨ — ١٨٢٩ وبواسطته اتضحت اللغة الهيروغليفية لغة مصر القديمة ، واستطاع هذا أن يترجم كثيرا من نصوصها وأن يضع لها أول أجرومية لقواعدها •

مصر بعد الحملة الفرنسية

خلفت الحملة الفرنسية بمصر قوة إنجليزية تحتل الاسكندرية وبعض مناطق بالقاهرة ، وخلفت الأتراك الذين طمعوا في استعادة سلطانهم ، وخلفت المماليك بقيادة زعيمين كبيرين هما عثمان بك البرديسى ومحمد بك الألفى (١) ، وخلفت قبل كل شيء وبعد كل شيء شعبا يتوق الى الحرية ، ويريد أن ينالها بنضاله وكفاحه .

مؤامرات للتخلص من المماليك :

فأما الانجليز فقد أخذوا البلاد بعد أن ثبتوا حكم الأتراك ، وأما الأتراك والمماليك فقد وقعوا في خلاف مستمر ، قصد العثمانيون التخلص من المماليك وأراد المماليك التخلص من العثمانيين ، ومن الوسائل التى استعملها العثمانيون ضد المماليك تلك المؤامرة التى دبرها القبطان حسين باشا إذ دعا زعماءهم للاجتماع به على إحدى سفن الأسطول للتشاور فى شئون البلاد ثم أطلق القذائف على زورقهم : وقد قتل فى هذه المؤامرة عدد منهم وجرح آخرون ، وفى القاهرة جرت مؤامرة أخرى ضدهم قبل جلاء الانجليز ، ولكن الخامية الانجليزية حمت كثيرين منهم ممن لجئوا إليها ، وعلى كل حال فقد أكلت الحملة الفرنسية بعض المماليك ، وقضى العثمانيون على بعض ما تبقى منهم ، ولم يبق من المماليك بعد ذلك إلا قلة ضئيلة يتزعمها محمد بك الألفى وعثمان بك البرديسى ، وكان أولهما مؤيكا من الانجليز وأكثر حنكة وذكاء ، ولكن دولة المماليك على أى حال كانت على وشك الأفول فلم يستطيعوا مقاومة الأحداث ، وقد قضت عليهم نهائيا المؤامرة التى دبرها ونفذها محمد على بالقلعة ، والذين نجوا من المماليك بعد ذلك اندمجوا فى غمار الشعب ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة .

(١) مات مراد بك كما سبق ، وكان ابراهيم بك قد وصل الى الشيوخوخة فلم يعد له ذكر .

ضعف النفوذ العثماني :

وأما العثمانيون فقد مثلهم بعد جلاء الفرنسيين خسرو باشا الذي عيّن واليا سنة ١٨٠١ ، ولكن سرعان ما دبّ الخلاف بينه وبين الجنود العثمانيين بسبب تأخر مرتباتهم ، وتحوّل الخلاف الى مشادة وعنف ، فحاول طاهر باشا أركان حرب خسرو باشا أن يتوسط لحل المشكلة ، ولكن خسرو اتهمه أنه يمالئ المتمردين ، فانضم طاهر باشا فعلا الى المتمردين ، واضطر خسرو باشا أن يهرب بأسرته الى دمياط ، وعيّن طاهر باشا قائم مقام الوالى حتى ترد تعليمات الأستانة بشأن الوالى الجديد ، غير أن طاهر باشا سرعان ما لقي نفس المصير الذى لقيه خسرو باشا ، إذ ثار عليه الجند أيضا لنفس الأسباب وقتلوه ، وعين الباب العالى بعده على باشا ، ولكنه لم يتمكن من الوصول الى القاهرة وبقي محاصرا في الاسكندرية حتى قتل سنة ١٨٠٤ ، وعيّن بعده أحمد خورشيد باشا ولكنه لم يستطع أن يكبح جماح الجند ولم يرضى الشعب المصرى كما سنرى .

بروز القوة المصرية :

ونجىء الآن الى القوة التى كانت تتربص بالأحداث ، وهى قوة الشعب المصرى التى استردت كيائها وتصدت لمقاومة الفرنسيين ، وأصبحت تحس أن من حقها أن تجنى ثمار هذا الانتصار ، فرفضت هذه القوة أن تعود الأمور الى ماكانت عليه قبل الحملة وإلى هذه القوة مال ضابط كان يقود قبيلقا من القبائل العثمانية بمصر ذلك هو محمد على ، وقد حصل على ثقة الشعب فى النضال الذى كانت البلاد تخوضه ، وعندما هوت قوى المماليك واضطرب أمر الدولة العلية فى مصر اندفع الشعب يفرض إرادته فخلع خورشيد وعين محمد على ، وبدأت بذلك فترة جديدة أسميناها « الفترة الاستقلالية » وسنعرض لها بالحديث بعد قليل .

وقبل أن ندع العثمانيين (١) يجدر بنا أن نقتبس بعض تعليقات المؤلفين عن هذه الحقبة القاتمة .

تركيّا تتحدّر للنّهاية :

يقول محمد صبرى : إن تركيا ما كان يعنيتها أن تسود الوحدة والنظام في مصر أو في أية ولاية من ولاياتها ، وإنما كل ما كان يعنيتها هو الخراج الذي تجبيه من هنا وهناك ، ولما ضعفت تركيا جرّاء ضعفها الأطماع من الداخل والخارج ، وأكثر ذلك على الولايات الخاضعة لها ، وكانت كثرة التعديرات في عاصمة الخلافة ، من العوامل التي حفعت الجيش بمصر في القرن السابع عشر إلى العبث بالنظام وقتل الولاة ، ففي سنة ١٦٠٤ قتل الجيش التركي إبراهيم باشا الوالى ، وعلمت رأسه على باب زويلة ، ففقد الولاة هيبتهم في أعين المصريين ، وأتاح ذلك الفرصة لنشاط قوة المماليك (٢) .

والمماليك ينحدرون كذلك :

ولما عاد النفوذ للمماليك كان هؤلاء في هذه الفترة غيرهم في الفترات السابقة للفتح العثماني ، ويصف « فولنى » المستشرق الفرنسى حياة الفرد منهم بأنها أصبحت سلسلة من جرائم القتل والفدر والمؤامرات والدسائس ، وقد انقطعت بينهم وبين الناس وبين بعضهم البعض الآخر ، أسباب المحبة والعطف وصلات القرابة والرحم ، ومن هنا انتشر انحدار بين الرجل ووليه ، وبين العتيق ومعتقه ، وفقد المماليك النظام والطاعة ، وبذلك لم يبق لهم شيء من الروح الجرمية التي هي أهم ما يحتاج لها الجندى : وأصبحت بيوت البكوات من المماليك مواخير تغمرها القذارة وترخر بالدعارة ، بعد أن كانت في الماضى مثالا للطهارة والاستقامة ،

(١) تصور هنا أن العهد العثماني قد انتهى ، لأنه في الحقيقة لم يعد له نفوذ يذكر .

(٢) تاريخ العصر الحديث ص ٢٢ .

وتورط المالك في الرذيلة ، ومعاقرة الخمر والفسق ، والسلب والنهب ،
والترف ، وكانوا من قبل أكثر ميلا للنزاهة والبساطة والترهد .

بؤس الشعب المصرى وضرورة التغيير :

أه! الشعب فقد كان في أتعس حال بهاء وشقاء ، انصرف الى العراقة
والتنجيم والسحر والخرافات والبطالة ، وانقطع ما بينه وبين العالم
الخارجي من صلات ، كما انقطع ما بينه وبين ماضيه من صلات ، ولم
يكن أحد يأمن على أملاكه إلا بصعوبة وشدة ، وكانت العقوبة تحل
بالواحد منهم دون محاكمة ، ولو كانت عقوبة الإعدام ، وكسان الغنى
يُعد جريمة حتى أن الأغنياء لم يروا وسيلة للاحتفاظ بما لديهم من المال ،
إلا بالتظاهر بالفاقة والمتربة (١) .

مقارنة بين العثمانيين والمغول :

ويقول غوستاف لوبون (٢) : وعلى ما بين الترك والمغول من شبه في
الهمجية كان المغول أكثر استعدادا للثقافة ، فالمغول ، وإن لم يكونوا أهلا
لإبداع حضارة جديدة كما أبدع العرب ، استطاعوا أن ينتفعوا بحضارة
العرب الذين ، وإن زال ملكهم في الشرق ، ظلت حضارتهم تهيمن عليه .
ولكن الترك كانوا أهل حرب وقتال ، ولم يكونوا أهلا ليصمدوا في سلم
الحضارة ، ولم يقدرُوا على الانتفاع بتراث العرب فضلا عن إيمانهم ،
ويروى غوستاف لوبون قول العرب « لا ينبت العشب على أرض يطؤها
الترك » ويعلق عليه بقوله : والحق أنه لم ينبت .

(١) نقلا عن محمد صبرى ص ٢١ — ٢٢ .

(٢) حضارة العرب ص ١٤٦ و ١٤٧ .

ونتيجة لهذه الأحوال المضطربة حل الجذب في البلاد ، فأصبحت
أخصب البقاع فلولات جرداء ، وشلت حركة التجارة والزراعة والصناعة
وهي حال يتول إليها كل بلد زراعى لا توجد فيه حكومة تسهر على مصالحه ،
وتكفل الأمن وتنشئ الطرق والجسور والقناطر وتتعهدها ، وقد عبّر
نابليون عن ذلك أدق تعبير حين قال : إن الإدارة الحسنة في مصر تكفل
للنيل الغلبة على الصحراء ، والإدارة المعتلة تكفل للصحراء الغلبة
على النيل .

مصر مركزا للدراسات الإسلامية في عصر الجبرتي

مقدمة :

في ابريل سنة ١٩٧٤ أقيمت الجمعية التاريخية المصرية مهرجانا حافلا عن :

« عبد الرحمن الجبرتي وعصره »

بمناسبة مرور ١٥٠ عاما على وفاة المؤرخ العظيم .

وقد اشترك في هذا المهرجان عدد كبير من المؤرخين والباحثين من مصر ومن أقطار العالم ، وأسندت لى الجمعية التاريخية الكتابة في هذا الموضوع : « مصر مركزا للدراسات الإسلامية في عصر الجبرتي » كجانب مهم من جوانب عصر الجبرتي ، وقد قمت بذلك ، واختير هذا البحث ضمن البحوث التى أقيمت ونوقشت في المهرجان ، ويمكن القول إنه لاقى كثيرا من التقدير ، ويسرنى أن أثبت هذه الدراسة هنا ، فهذا هو مكانها الطبيعي في سير التاريخ بالنسبة لمصر .

وقد كان الشيخ عبد الرحمن الجبرتي المركز الرئيسى الذى أشع نور المعرفة حول هذه الفترة ، ولهذا كان كتابه « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » أهم مرجع قدم المادة العلمية لهذا البحث وأمثاله من البحوث التى تدور حول هذه الفترة ، وبدون كتاب الجبرتي كانت معارفنا عن هذه الحقبة ستظل ناقصة .

وفي تقديري يمتد عصر الجبرتي حوالى قرن من الزمان ليشمل شيوخه ومعاصريه وبعض تلاميذه ، وذلك من حوالى منتصف القرن الثانى عشر الهجرى إلى منتصف القرن الثالث عشر تقريبا (١٧٣٧ — ١٨٣٤م) ، وتلك هى الحقبة التى ستدور حولها دراستنا في هذا البحث .

المدرسة المصرية المبكرة للدراسات الإسلامية :

وفي التقديم لدراستنا عن عصر الجبرتي ، وكيف كانت مصر مركزا للدراسات الإسلامية خلاله ، ينبغي أن نعود الى الوراء هنيهة لنرى المدرسة المصرية وهي تنشأ وتتطور في خدمة العلوم الإسلامية بوجه خاص ، والعلوم العامة بوجه عام :

لقد جذبت مصر إلى ربابها منذ مطلع الإسلام مجموعة من المحدثين والفقهاء الأفاضل ، وأنتجت مصر مجموعة لا تقبل عن الواقدين موهبة وكفاءة ، ومن هؤلاء وأولئك تكونت بمصر مدرسة للدراسات الإسلامية ضارعت المدارس الأخرى في مختلف العواصم الإسلامية ، وقد تحدثنا عن هذه المدرسة بشيء من التفصيل فيما سبق (١) .

ثم حملت مصر أكثر العبء في خدمة الفكر عندما اضطربت الأمور في بغداد بعد العصر العباسي الأول ، ثم استقلت مصر تقريبا بخدمة العلم وأصبحت ملجأ العلماء عندما اجتاحت الصليبيون قلب العالم الإسلامي في سوريا ، وزحف انتشار على الجناح الشرقي ، وزحف الأسبان والبرتغاليون على الجناح الغربي (٢) .

وأصبحت مصر بذلك أزهى مركز فكري في العالم الإسلامي كله ، وشاع ذلك المثل الذي يتردد في كثير من الأقطار الإسلامية والذي يقول : من لم ير مصر لم ير عز الإسلام .

وحملت مصر مسئوليتها الإسلامية بكفاءة وجدارة ، على الرغم من أن الممالك آلت لهم السلطة بعد الدولة الأيوبية ، وكان أكثر هؤلاء

(١) انظر ص ٦٧ — ٧١ من هذا الكتاب .

(٢) سنذكر تفاصيل ذلك عند حديثنا عن « مصر والحضارة الإسلامية » .

لا يستمتعون بعقلية علمية غالباً ، أو عبقرية تشييد وتعمير ، ولكن العلماء أقاموا سلطانهم غير مباليين بالحاكم .

وجاءت الدولة العثمانية بعد المماليك ، وكان عهدها عهداً خافسلاً بالصراع الداخلى والصراع الخارجى ، ولم تكن عقلية القادة العثمانيين بناءة أو خلاقة ، فمثلوا فى المجال الثقافى الدور الذى مثله المماليك قبلهم ، أو قل بتعبير أدق إن المماليك والعثمانيين امتزجوا معا وكانوا فى مستوى متقارب من حيث الثقافة والفكر ، ولكن الشعب المصرى حمل مسئوليته الفكرية بنجاح على الرغم من انحراف القادة ، وقد عاصر الجبرتى هذه الفترة التى سنحاول أن نعرض أشعة الفكر الإسلامى خلالها ، لنراها توهى تثبت جذورها وتنمو فروعها على الرغم من الاضطراب السياسى الذى كان سائدا آنذاك .

ملامح عصر الجبرتى

لقد عاصر الجبرتى فترة من أخطر الفترات فى تاريخ مصر ، عاصر الصراع بين المماليك والعثمانيين على الحكم ، وعاصر الحملة الفرنسية توهى تقتحم البلاد ، وتتخذ صورا مختلفة لتخدع المواطنين ولتنسيتهم دون جدوى مرارة الاستعمار ، وعاصر الفترة الكالحة التى تلت خروج الحملة الفرنسية من مصر حيث بدأ صراع جديد ضد أرض الكنانة كان المماليك والعثمانيون والانجليز أبرز أطرافه ، ولكن الجبرتى عاصر شيئا أهم من ذلك كله ، ذلك هو بروز الشخصية المصرية واستقلالها استقلالاً كان شديد الدوى فى التاريخ ، فإن مصر ارتبطت بتركيا باسم الإسلام ، ولذلك لم تعمل مصر بحماسة للتخلص من العثمانيين على الرغم مما عانت منه .

أما صلة مصر بالمماليك فكانت صلة تتبعث من الاعتقاد السائد بأن المماليك ليسوا أغرابا عن البلاد ، وهم فى مصر لا وطن لهم سواها ، ولا يستغلون البلاد لصالح أى بلد آخر ، كما ذكرنا من قبل ومن هنا يسميهم

الجبرتي « الأمراء المصريين » ومن هنا كذلك كان لفيف من العلماء يعمل على تصفية الخلافات التي تنشأ بين بعضهم والبعض الآخر .

وجاء الفرنسيون وقد أساءوا فهم هذا التصرف المصرى الذى أشرنا إليه ، فاعتقدوا أن المصريين ميالون للسلم ، وأنهم سوف يرحبون بأية سلطة تحل محل العثمانيين والمماليك وبخاصة إذا كانت أحسن من هؤلاء وأولئك ، وكانت هذه غلطة كبرى دفع الفرنسيون ثمنها غاليا ، لأنهم لم يدركوا الأسباب الحقيقية لمسألة المصريين للعثمانيين والمماليك .

ولكن الاحتلال الفرنسى فتح عيون المصريين على شيء مهم فيما يتعلق بعلاقتهم بالعثمانيين ، فإن هؤلاء تركوا مصر وحدها في الصراع ضد المستعمر الفرنسى ، وحمل المصريون وحدهم كل العبء في هذا الصراع ، ولم يكن معهم سلاح يؤبه به ، ولكن كانت معهم العقيدة الراسخة والدماء التى ترلزل قسوى المستعمرين ، والأمل الذى لا يعرف الحدود ، واشتركت كل مدن مصر وقراها في هذه الثورات ضد الفرنسيين من أسوان الى الاسكندرية ورشيد ، واشتركت فيها كل طبقات الشعب ، وكانت تقمع ثورة لتفوق أخرى غير مبالية بالدماء والضحايا كما ذكرنا من قبل ، وعندما حقق المصريون آمالهم ، وحمل الاستعمار الفرنسى عصاه وأخلى البلاد لم تهدأ ثورات المصريين بعد ذلك ضد أولئك الذين خدعوه من قبل فظلت صرخة المصريين تدوى ضد العثمانيين من جانب ، ومن جانب آخر ضد المماليك الذين كانت أخلاق الكثيرين منهم قد ساءت كما ذكرنا من قبل ، وتم التخلص عمليا من السلطتين ، وأصبح أمر مصر بيد المصريين وأصبحت الشخصية المصرية محددة المعالم ، وكان العلماء المسلمون قادة هذا التحول الكبير ، وقد آن لنا أن نعيش مع هؤلاء العلماء ونرى مصر وهى مركز مهم للدراسات الاسلامية خلال هذا العصر .

المراكز الثقافية بمصر في عصر الجبرتي

والمرجع المتى بين أيدينا تصور لنا مدى النشاط الفكرى الذى كان موجودا بمصر فى تلك الفترة ، فنتحدث عن مراكز ثقافية تقف معالم شامخة لخدمة الدراسات الاسلامية هنا وهناك ، كما نتحدث عن الباحثين والطلاب ، وتصورهم نحلا يسعى ليجتنى الرحيق من الأزهار •

الأزهر :

وقد تنوعت المراكز الثقافية فى هذا العصر ؛ فمنها المدارس ، ومنها المساجد والزوايا ، ومنها بيوت العلماء التى نافست هذه وتلك فى اشاعاتها ، ويعدّ الأزهر قمة المراكز الثقافية بمصر ، فمن الواضح أن الأزهر واصل رسالته العظمى خلال هذا العصر كما واصلها عبر العصور المختلفة ، ووقف جامعة شاهقة ترعى كل العلوم الاسلامية ، وتحرس الاسلام والوطن الاسلامى ولن نطيل هنا حديثنا عن الأزهر ، فالأزهر جامعة الشرق الأولى منذ أسس حتى اليوم ، ولنترك الأزهر لشهرته لنعيش بعض المراكز الثقافية الأخرى •

ولكننا نذكر عن الأزهر شيئا ليس شائعا هو ذكرته صحيفة الوطن القبطية فى ٥ مايو سنة ١٩١٦ من أنه كان للأقباط قديما رواق بالأزهر يتلقون فيه العلوم المنطقية والشرعية ، وأن ممن درسوا بالأزهر قديما أولاد العسال وهم من كبار مثقفى القبط ، ولهم مؤلفات مهمة ، وممن تعلم بالأزهر حديثا من الأقباط ميخائيل عبد السيد صاحب صحيفة الوطن ، وقد أنتقل الى دار العلوم عندما أنشئت ، ومنهم وهبى تادرس الشاعر الذى كان يحفظ القرآن ويكثر الاقتباس منه ، وفرنسيس العتر الذى كان يحضر دروس الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٢ (١) •

(١) انظر هذه الصحيفة وكتاب « المسلمون والأقباط » للأستاذ طارق

المدارس :

بعد الأزهر تقف مدرسة أبى الذهب عملاقة بين مدارس هذا العصر ، ويذكر الجبرتي (١) أن أبا الذهب (١٧٧٥ - ١٨٨٩) بناها تجاه الجامع الأزهر ، وكان محلها خرائب اشترأها أبو الذهب من أربابها ، وأمر ببناء مدرسته فيها ، ورتب لنقل الأتربة وتحمل الجير والرماد والطين عددا كبيرا من قطارات البغال والجمال ، واستعمل في بنائها الأحجار العظيمة ، فكان الجمل لا يستطيع أن يحمل إلا حجرا واحدا ، وتم بناؤها سنة تسع وثمانين ومائة وألف ، وقد نقشت هذه المدرسة بأجمل الألوان والأصباغ ، وأعدت لها نوافذ عظيمة كلها من الخحاس الأصفر الجيد الصنع ، وكان للمدرسة فناء فسيح مفروش بالرخام والمرمر ، في وسطه نافورة بديعة ، وحول الفناء مساكن للمثصوفة والطلاب ، وأعدت فيها أمكنة للمفتين الكبار ليجلسوا بها حصة من النهار لإفادة الناس بعد إملاء الدروس ، وفرشت المدرسة بالحصر ، ومن فوقها الأبسطة الرومية في الداخل والخارج حتى فتحات النوافذ ودرجات السلم ، وعملت بها ذواوين للدراسة كانت غاية في الروعة والابداع ، كما بنى معها مسجد عظيم أسس تأسيسا عظيما ، وقرر أبو الذهب في مدرسته الشيخ أحمد الدردبى مفتى المالكية ، والشيخ عبد الرحمن العريشى مفتى الحنفية والشيخ حسن الكفرافى مفتى الشافعية ، وكان هؤلاء يقومون بالتدريس إلى جانب الإفتاء ، وعين معهم مجموعة كبيرة من المدرسين الذين كانوا يعملون بالأزهر مثل الشيخ على الصعيدى والشيخ محمد الأمير ، والشيخ حمد يونس ، والشيخ أحمد السمنودى ، والشيخ على الشنويهمى والشيخ محمد الحفناوى ، والشيخ محمد الطحلاوى والشيخ حسن الجداوى ، والشيخ أبو الحسن القلمى ، والشيخ البيلى ، والشيخ محمد الحريرى ، والشيخ منصور المنصورى ، والشيخ أحمد جاد الله ، والشيخ محمد المصلى وعين في وظيفة التوقيف الشيخ محمد الصبان ، وجعل بها خزانة عظيمة للكتب وعيّن محمد أفندى حافظ خازنا لها ، وعين الشيخ محمد

(١) تاريخ الجبرتي : ج١ ص ٤١٨ وما بعدها .

« الشافعى نائبا له » ، ورتب للمدرسين الرواتب المنخية التى تتفاوت بحسب أقدارهم ، كما رتب للطلبة رواتب طيبة ، وقد افتتحت المدرسة بصلاة الجمعة فى مسجدھا ، وعقب انقضاء الصلاة ألقى الشيخ الصعیدى درساً ، ولما انقضى منه ، قدم الأمير لكبار الشيوخ الخلع الثمينة ، كما أنعم على الخدم والمؤذنين بقطع الذهب والمساعدات الكبيرة •

ومن المدارس الشهيرة بهذا العصر المدرسة الصلاحية التى بناھا الملك الصالح نجم الدين أيوب ونسبت له ، وكانت المدارس الصلاحية منتشرة فى أنحاء شتى بالبلاد ، ومنها المدرسة الصلاحية المجاورة لضريح الإمام الشافعى ، وكان يتولى التدريس بها الشيخ الصاوى ، الذى رشح لمشيخة الجامع الأزھر عقب وفاة الشيخ أحمد العروسى وكان ينافسه فى هذا الترشيح الشيخ عبد الله الشرقاوى ، واستقرت الوظيفة للأخير وبقي الصاوى مدرسا بالمدرسة الصلاحية مما يدل على مكانة هذه المدرسة ، ويقول الجبرتى (١) إن شيخ الأزھر لا تتم له مكانته إلا إذا كان مدرسا بالصلاحية ، وقد لعبت الصلاحية دورا كبيرا فى خدمة الفكر الإسلامى وخرج منها كثير من الشيوخ والقادة والمفكرين •

ومن مدارس ذلك العصر مدرسة الأشرفية التى كان يعلم بها الإمام محمد ابن أحمد الخالدى الشهير بابن الجوهري (١١٨٢ = ١٢٦٨) ، ويذكر الجبرتى (٢) أنه كان يميل الى التعفف والانتجاع عن خلطة الناس والتزهد عما بأيديهم فأحبه الناس لذلك وصار له أتباع ومريدون كانت المدرسة تمتلئ بهم ، وكان منهم مجموعة كبيرة من علماء العصر الذين نهلوا من فيض علمه ، ثم راحوا يعملون هنا وهناك ، خالقين امتدادا فكريا لشيخهم فى عدد من الأماكن والمعاهد •

ولا يزال للشيخ الجوهري صيت ذائع فى مضر والعالم العربى

(١) الجبرتى : ج٤ ص ١٦٠ - ١٦١ •

(٢) الجبرتى ج٣ ص ١٦٤ •

والإسلامى لعلمه وفضله ، وجهده فى خدمة الثقافة الإسلامية ، وقد اعترفت الدولة حديثا بمنزله مكانا من الآثار الجديرة بالرعاية •

وهناك مدارس كثيرة على هذا النمط تحدث الجبرتى عن نماذج كثيرة منها ، فلندعها الآن لتتحدث عن طائفة أخرى من المراكز الثقافية وهى المساجد والزوايا •

المساجد :

وعن المساجد نذكر حقيقة كثيرة التردد هى أن القاهرة كانت تعرف بأنها مدينة الألف مؤذنة ، ومعنى ذلك أن المساجد كانت بمصر فى عصر الجبرتى كثيرة كثرة بالغة ، كما لا تزال حتى اليوم ، وكان أكثرها يتبع الفكر الإسلامى الأصيل عن المساجد ، وهى أنها ليست دور عبادة فقط وإنما يمكن أن تسمى مجتمعات فكرية ودينية ، فكان يتم فيها التفاضل والتعليم ، وفى بعض زواياها مكاتب لتعليم الأطفال ، كما كان يوجد بها منازل للطلاب الغرباء ، والمدارس لعصر الجبرتى يجد صعوبة كبيرة لاختيار نماذج لهذه المساجد ، فإنها كانت كلها مصادر فكر وإشعاع ، جلس بها العلماء ، وتحلق حولهم الطلاب ، وكان التعليم يدور بها كل يوم من وقت مبكر يبدأ بعد صلاة الفجر وأحيانا قبل الصلاة ، ويستمر طيلة اليوم تقريبا ، وفى بعض المساجد كانت هناك حلقات متعددة مختلفة المناهج والمعارف ، ولذلك كان يطلق على كل شيخ من شيوخ هذه المساجد لقب « شيخ عمود » فبجوار الأعمدة المتعددة كان يجلس عدد من العلماء •

على أن هناك مساجد كان لها صيت أوسع فى مجال التعليم ، وكانت تمثل جامعات علمية بجوار مكائنها كمساجد ، ومن هذه جامع عمرو وجامع شيوخون ، ومسجد الامام الشافعى ، وجامع المحمودية ، ونعطى فيما يلى نموذجا لواحد من هذه المساجد هو جامع المشهد الحسينى ، ففى هذا المسجد تصدى للإقراء والتدريس مجموعة عظيمة من شيوخ العصر ، وفطاحل المفكرين ومن هؤلاء الشيخ سليمان بن عمر العجيلى المعروف بالجمال (١)

(١) الجبرتى : ج ٢ ص ١٨٣ •

(١٨٠٤ — ١٧٨٩) وينسب العجيلي الى مَنِيَّة عجيل إحدى قرى محافظة الغربية حيث تلقى مبادئ العلوم الإسلامية ، وقد جاء الى القاهرة لمزيد من التعمق في الدراسات الإسلامية فلازم الشيخ الحنفى فشملته برُكته ، وأخذ عنه فكره واتجاهاته الصوفية ، كما تفقه على غيره من فقهاء العصر ، حتى برع وعظم شأنه ، فنوه به الشيخ الحنفى وجعله أماما وخطيبا بالمسجد الملاصق لمنزله على الخليج ، ثم علت به همته فجلس للتدريس بالمشهد الحسينى ، وكان يعلم الفقه والتفسير والحديث ، وأكثر عليه الطلبة يدونون من إملائه وتقريراته ، وقرأ المواهب والشمائل ، وصحيح البخارى وتفسير الجلالين بهذا المشهد بين المغرب والعشاء وكان يحضر دروسه أكابر الطلبة وتوفى سنة ١٢٠٤هـ = ١٧٨٩م وبعد الشيخ سليمان جلس أخوه الشيخ عبد الرحمن مجلسه يعلم أيضا على نمط ما كان أخوه يفعل وقد جذبت حلقته كثيرين من مجاورى الأزهر والعامّة وكان خير خلف لخير سلف (١) ومن هؤلاء أيضا الشيخ عبد الوهاب الشبراوى (١٢١٣ — ١٧٩٨) الذى تفقه على علماء العصر ، وحضر دروس الشيخ عبد الله الشبراوى والحنفى وللبراوى والأجهورى وغيرهم ، ثم تصدر للإقراء والتدريس والإفادة بالمشهد الحسينى ، وكان يحضر دروسه جمع غفير من الناس ، وكان شديد الميل لتدريس كتب الحديث كالبخارى ومسلم وكان — كما يقول الجبرتى (٢) — حسن الإلقاء ، سلس التقرير ، جيد الحافظة ، جميل السيرة ، مقبلا على شأنه ، ويذكر الجبرتى كذلك أن الرجل لم يعط جهده كله للعلم وإنما اتجه كذلك لخدمة الوطن عن طريق السياسة فحرك المظاهرات ضد الفرنسيين إبان احتلالهم للبلاد حتى أصبحت مجالسه منابع للثورات ومصادر قلق للمستعمر ، ولم يجسد الفرنسيون بد^٣ا من القبض عليه وقتله ، كما أخفوا قبره حتى لا يكون ذلك القبر مصدر ازعاج لهم كما كان صاحبه فى حياته ، ولكن روح الشيخ

(١) الجبرتى : ج٤ ص ٢١٦ .

(٢) الجبرتى ج٥ ص ٦١ .

ظلت تدفع تلاميذه ومريديه ليقاوموا المستعمر الأثيم حتى كتب للمصريين
النصر .

ومن المساجد الشهيرة كذلك مسجد كتخدا بالأزبكية ، وقد جلس فيه
مجموعة كبيرة من العلماء والمفكرين يعلمون العلم وينشرون المعرفة ، ولعل
في قمة هؤلاء الشيخ محمد عبد المعطى الحريرى (١٢٢٠ = ١٨٠٥) ،
ويذكر الجبرتى (١) : أنه اشتهر في مطلع حياته بجودة الخط ، فكان ينسخ
بعض الكتب لكبار الشخصيات ، ويأخذ على ذلك أجراً عالياً ، وكان شافعى
المذهب ثم تحنف وحضر على أشياخ المذهب مثل الدلجى والعدوى ولازم
الشيخ حسن المقدسى ملازمة كلية ، وانتسب له وعرف به ، وتلقى عنه
الكتب المشهورة في المذهب ، كما تلقى باقى العلوم على المولى والحفنى
والشيخ على العدوى ، وكان يكتب الأجوبة عن الفتاوى على لسانه ، ولما
توفي الشيخ العدوى أخذ مكانه بجامع كتخدا بالأزبكية وسكن بالدار
المخصصة للمدرس ، وكانت في رحاب الجامع المذكور ، وكان شديد التأثير
في دروسه حتى كان وعظه شديد الوقع على الناس لخلوّه من التصنع ،
وقد قصده الناس للفتوى والإفادة من كل مكان وأقبلت عليه الدنيا ، وكان
مرتباً عالياً من وقف عثمان كتخدا ، وانحصرت فيه وظائف الحنفية
كالتدريس في مدرسة الحمودية والحمدية وغيرها فكان يجلس في بعضها
بنفسه وينيب عنه من يعلم في المدارس الأخرى ، وكان مسموع الكلمة
لدى الأمراء ، عظيم الهيبة بينهم ، ولذلك ترى عتقاء أحمد أغا يتفقون على
اختياره ليكون حكماً بينهم عندما دبت المنازعات بينهم بعد موت سيدهم .

الزوايا :

ومن المراكز الثقافية في هذا العصر الزوايا وهى مكان كان ينشأ بجوار
المساجد غالباً ، وكانت الدراسة في الزوايا تميل للاتجاهات الصوفية
بالإضافة الى الدراسات الإسلامية العامة ، وقد حفلت مصر في عصر
الجبرتى بمجموعة كبيرة من الزوايا من أهمها زاوية الخضرى التى جلس

فيها الشيخ أحمد الحماس الشافعي (١١٨٦ = ١٧٧٢) الذي تتلمذ على الشيخ البراوي حتى مهر وتفقه ، ثم التحق بحلقة الشيخ الشمسي الحنفي والشيخ علي الصعيدي وغيرهما ، ثم تصدى للتدريس والافتاء في حياة شيوخه ، متخذاً من زاوية الخضري مركزاً علمياً توافد عليه فيه طلابه ومريدوه (١) ومنها كذلك الزاوية التي كانت قريبة من المشهد الحسيني وكان يجلس فيها كثير من العلماء من أهمهم الشيخ أحمد بن شاهين الراشدي (١١٨٨ = ١٧٧٤) الذي ينسب إلى بلدة راشدية بالغربية ، وكان بارعاً في الحساب والفرائض وهو من تلاميذ الشيخ حسن الجبرتي ، وكان حسن التلاوة للقرآن الكريم ، حلو الأداء ، مع معرفته بأصول الموسيقى ولذلك ارتبط به كثير من الأمراء ، ويقول عنه الجبرتي (٢) إن قراءته كانت مثل سلاسل الذهب في حسن السبك ، وقد انتفع به كثير من الأعلام وكان يمتاز بكمال العفة والوقار ، وكان الناس يتمنون أن يسمعوا تلاوته ، وقل من كان يحصل على مكان حوله بسبب الزحام الذي كان يحيط به .

ومن الزوايا الشهيرة الزاوية الملحقة بالجامع الكبير بالمنصورة ، وقد أنشأها الشيخ الوافي الشافعي السندوي (١١٩٩ = ١٧٨٤ م) وجلس بها حيث تجمع حوله عدد كبير من المريدين ، وعقب وفاته جلس ابن أخيه عبد الله بن إبراهيم مكانه ، وقد تلقى هذا مختلف الحارث عن عمه ، وعن الشيخ أحمد الجالي ، وكان يميل للابتعاد عن الناس ، فلا يقوم لأحد ولا يدخل دار أحد ، ويذكر الجبرتي (٣) أنه نزل ضيفاً على الشيخ وهو في طريقه إلى دمياط سنة (١١٨٩ = ١٧٧٥) ويقول الجبرتي أنه دخل على الشيخ في حجرته فوجده نيراً بشوشاً ، رحب بضيوفه من العلماء ، وقدم لهم ألواناً من الحلوى والشراب ، ويختتم الجبرتي كلامه عنه ، أنه مات ولم يخلف بعده مثله .

(١) تاريخ الجبرتي : ج ١ ص ٣٧٥ .

(٢) تاريخ الجبرتي : ج ١ ص ٤٠٩ .

(٣) تاريخ الجبرتي : ج ٢ ص ٩٩ .

ولعل من أبرز الزوايا بالقاهرة زاوية الشيخ الدرديري (١٢٠١ هـ = ١٧٨٦م) الذي كان أوجد وقته في الفنون العقلية والنقلية كما يقول الجبرتي^(١) وكان شيخ الاسلام وبركة الأنام ، وقد أسس زاوية بخط الكعكين وسبب انشائه لهذه الزاوية أن مولاي محمد سلطان المغرب كانت له صلات وهبات يرسلها لعلماء الأزهر وأهل الحرمين من حين إلى حين وفي سنة ١١٩٨ = ١٧٨٣ أرسل هبة من هذه الهبات للشيخ الدرديري وتصادف عندما تلقاها الشيخ الدرديري أن كان بمصر ابن لمولاي محمد سلطان المغرب وكان هذا عائدا من الحج ونفذ ما معه من النفقة والأموال ، ولما عرف الشيخ الدرديري ذلك أسرع الى ابن السلطان وقدم له العطية التي أرسلها أبوه وقال : كيف لنا أن نتفكه في مال الرجل وابنه يعاني من الحاجة ، ولما عرف السلطان ذلك أرسل للشيخ عشرة أمثال الهبة مجازاة للحسنة بعشرة أمثالها فبنى الشيخ الدرديري بها هذه الزاوية .

المنازل :

وهناك مركز ثقافي كان واسع الانتشار كبير الفائدة ، وهذا المركز هو بيوت العلماء والأمرء ، فعلى الرغم من أن المسلمين لم يعدوا المنازل مكانا صالحا للتعليم العام ، لأن السكان والطلاب جميعا لا يجدون الراحة واليسر في التوفيق بين هدوء المنزل وجلاله وبين حلقة الدرس وما تستدعيه من حركة ونشاط^(٢) ، على الرغم من ذلك اقتضت الضرورة أحيانا أن تقام الحلقات العلمية بالمنازل ، لأن ذلك كان مفخرة لأصحاب البيوت من العظماء الذين لم يستطيعوا أن يجمعوا المريدين حولهم ، لقلة بضاعتهم من العلم فجمعوهم في بيوتهم حول شيوخ العصر ، وهناك كذلك بعض العلماء منعته ظروف الصحة أو غيرها من الظروف من الانتقال الى المراكز الثقافية الأخرى بالمدارس والمساجد والزوايا : فاندفع طلابهم نحوهم ، يأخذون عنهم في بيوتهم ، وكانت متعة العلماء بالتعليم واسعة فرحبوا

(١) تاريخ الجبرتي : ج٢ ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٢) تاريخ التربية الإسلامية للمؤلف ص ٦٧ .

بمريديهم في بيوتهم ، وبذلك لعبت المنازل دورا كبيرا في مختلف العصور والبلدان ، وسنعطى فيما يلي نموذجين أحدهما من بيوت العظماء والآخر من بيوت العلماء :

ويتحدث الجبرتي (١) عن منزل الحاج أحمد بن محمد الشرابي (١١٧١ = ١٧٥٧) وكان من أعيان التجار ومشاهيرهم ، وهو ينحدر من بيت مجد وعز ، وكانت أسرته في غاية الغنى والرفاهية ومكارم الأخلاق ، وكان يتردد على منازلهم العلماء ، وكانت هذه المنازل مشحونة بكتب العلم النفيسة للإعارة وانتفاع الطلبة ، وكان آل الشرابي لا يكتبون على هذه الكتب ما يفيد أنها وقفية ، ولا يدخلونها في مواريتهم مع أنهم كانوا يشترونها بأعلى الأثمان ، وكان من عادتهم أن يضعوها على الرفوف المفتوحة ولكل من دخل إلى بيتهم من أهل العلم أن يأخذ ما يشاء من الكتب بالإعارة ، ولو لم يكن معروفا لديهم ، وكان يترك للمستعير أمر رد الكتاب ، فان رده أعاده إلى مكانه ، وإن استبقاه أو بساعه لا يسأل عنه ، وفي بعض الأحيان كان يبيع الكتاب لهم مرة أخرى ، بل عدة مرات دون أى تأمف ، وكانوا يقدمون طعاما في غاية الجودة لزواد مجالسهم العلمية ، وكان الأمراء بمصر يترددون على منازلهم دون دعوة ، ودون تحديد وقت ، وعلى هذا خدمت هذه البيوت ألفكر ، وكانت منارات عالية الشأن كثيرة المآثر •

أما بيوت العلماء فكثيرة وشهيرة ، ولعل بيت الشيخ حسن الجبرتي يمكن أن يعد نموذجا لهذه البيوت ، فقد كان بيته فسيحا مفتوحا للشيخ والعلماء ، وكانت حلقات الفكر فيه لا تكاد تتوقف وهناك طائفة من الشيخ كانوا لا يكادون يبرحون منزل الشيخ ، منهم الشيخ محمود الكردي والشيخ عبد الرحمن البشبيشي ، والشيخ محمد الفرماوى والشيخ العزى ، والهاباوى ، وهناك جماعات من غير الشيخ كانوا كذلك يرتادون

(١) ج ١ ص ١٠٤ •

بيت الشيخ حسن بانتظام ، ومنهم محمود النيشي والتونسي وهناك عدد من المهاجرين كان يرى في بيت الشيخ حسن مثابة علمية يتحتم عليهم أن يرتادوها ، ومن هؤلاء ابن السويدي البغدادي ، وابراهيم الصوري ، كما كان هناك عدد وفير من المريدين تجذبهم خزانة الكتب التي يملكها الشيخ للاطلاع أو النسخ ، والى جانب هؤلاء جميعا كان يفد لزيارة الشيخ عدد جم من الأمراء والأعيان والتجار ، اما للتبرك وأما للاستئناس ، وبيت الشيخ مفتوحة رحابه للجميع ، مبذول خيره لهم على السواء (١) .

وهناك منزل آخر ينبغي أن نشير اليه بإيجاز هو منزل الشيخ مصطفى الرئيس البولاقى (١١٩٤ = ١٧٨٠) وهو مريد للشيخ حسن الجبرتي ، وكان ملازما له ، وكان الشيخ حسن يحبه لتجاوبته ، وعينه مدرسا بجامع السنانية وجامع الواسطي ، والمهم هنا أن بيته أصبح مثل بيت أستاذه ، ويصفه الجبرتي (٢) بقوله : وصار بيته مثل المحكمة في القضايا والدعاوى والخصومات ، وكان فيه شهامة وقوة جنان وصلابة .

أسر تهتم بالعلم جيلا بعد جيل

وننتقل من بحثنا عن المراكز الثقافية الى موضع آخر هو أن كثيرين من العلماء وجدوا في العلم خير الدنيا والآخرة غنشأوا أو وادهم في نفس الطريق الذي سلكوه ، وتكونت بذاك بيوت علم بمصر كانت تتوارث الدراسات الاسلامية كابرا عن كابر ، ومن الأسر العلمية التي ازدهرت في عصر الجبرتي نذكر بعض النماذج :

ولعل في مقدمة ما نذكر من بيوت العلماء بيت إمام السنة عبد الخالق ابن أبي بكر الأشعري الزبيدي (١١٨١ = ١٧٦٧) ، ويقول الجبرتي (٣)

(١) خليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتي ص ٢١ .

(٢) الجبرتي : ج ٢ ص ٦٠ .

(٣) الجبرتي : ج ١ ص ٢٨٧ .

عنه إنه من بيت عام وتصوف ، جدّه الأعلى محمد بن محمد بن أبي القاسم وحفيده عبد الرحمن بن محمد ، وكان الشيخ عبد الخاق تلميذاً لشيوخ عصره بمصر وبالحرمين حيث وفد الى مكة حاجاً وطالبا وزار المدينة كذلك حيث تلقى عن الشيخ محمد الكردي ، ولما عاد الى مصر التفت حوله طلابه فأخذوا عنه كثيراً من الفكر في : كتاب العلوم الإسلامية •

ومن هؤلاء الشيخ عيسى بن أحمد الزبيرى (١١٨٢ = ١٧٦٨) وقد برع في الدراسات الفقهية براعة فائقة حتى سمي بالشافعى الصغير ، وله مؤلفات كثيرة وشروح واسعة على متون العصر ، وكان يملئ ويفيد ويدرس ويعيد حتى توفي فاستقر ابنه العلامة الشيخ أحمد مكانه في التدبير والتدريس وتحاق حوله تلاميذ أبيه ، فواصل رسالته على أحسن وجه •

ومن هؤلاء الشيخ مصطفى بن محمد الطائى (١١٩٢ = ١٧٧٨) الذى تفقه على والده وتخرج على يديه ، وبعد وفاة والده تصدر في مجالسه ودرس وأفتى ، وكان أماما ثبتا متقنا مستحضرا مشاركا في العلوم والرياضيات وله مؤلفات كثيرة في فنون شتى (١) •

ومن هؤلاء عبد الرحمن الحسينى العيدروسى القريمى ، نزيل مصر وهو من أسرة عريقة في العلم والمعرفة ، يعدّ الجبرتى منها عددا ، ويصفهم جميعا بعمق الفكر واتساع المعرفة ، ولا غرو فوذا الامام ينحدر من جعفر الصادق فأسرته عريقة الجذور طيبة الفروع ، ويقول الجبرتى (٢) عنه انه طوّف البلاد ثم جاء مصر بعياله ، فألقى بها عصاه واستقر به النوى وهرع اليه الفضلاء للتلقي ، وخضع له أكابر الأمراء على اختلاف طبقاتهم ، واصل مقبول الشفاعة عندهم لا ترد رسائله ، ولا يحرم سائله ، وطار صيته في المشرق والمغرب وتعددت رحلاته الى مختلف بلاد

(١) الجبرتى : ج ٢ ص ٣٤ •

(٢) الجبرتى : ج ٢ ص ٣٥ •

القطر ، ثم خرج من مصر حيث زار كثيرا من بلاد العالم الاسلامى ، وأخيرا عاد الى مصر حيث توفي بها سنة (١١٩٢ = ١٧٧٨) .

ومن هؤلاء الامام العلامة الشيخ أحمد بن عيسى تلميذ والده عيسى بن أحمد الزبيرى ، وتلميذ رفاق هذا الوالد ، ويقول الجبرتى عنه : إنه لما توفي أبوه جلس مكانه فى الجامع الأزهر واجتمع عليه طلبة أبيه واستمرت حلقة درس والده على ما كانت عليه من العظم والجلالة والرونق حتى توفي سنة (١١٩٢ = ١٧٧٨) .

وهناك بيوت علم كثيرة تُصادف الباحث فى هذا العصر الملىء بالمكرمات والحافل بالدراسات كبيت الحريرى والحفناوى والطهطاوى والزبيرى والسجاعى ، والجناحى وغيرهم كثيرون .

العلماء الوافدون

فى مطلع هذه الدراسة ذكرنا أن مصر استقبلت الوافدين والمهاجرين من الشرق ومن الغرب فخطوا بها عصا التسيار ، واتخذوها وطنا لهم ، ومنذ ذلك الحين أصبحت مصر وطنا للدراسات الاسلامية لا يستغنى باحث فى هذه الدراسات عن ارتياده والارتباط به ، والذي يدرس عصر الجبرتى يجد أن مصر استقبلت خلال هذا العصر كثيرا من الباحثين الذين جاءوا يستزيدون من الدراسات الاسلامية ، وكثيرا من العلماء الذين أرادوا أن ينشروا العلم ولم يجدوا كمصر مكانا يحقق لهم هذا الأمل ، ولا يكاد يوجد قطر من أقطار العالم الاسلامى لم يفد طلابه وعلمائه الى مصر فى هذا العصر ، ومن مدارس تاريخ الجبرتى يرى الباحث أن وفودا من العلماء جاءوا من بغداد ومن دمشق والحجاز وبلاد الروم والحبشة وغزة وخان يونس والقدس واليمن ، كما جاءوا من فارس والمغرب والجزائر وتونس ، وأن كثيرين من هؤلاء ذاع صيتهم فى مصر واستوطنوها وعاملتهم مصر كما تعامل أبناءها ، ومنهم من أسندت لهم أرقى المناصب ،

ومنهم من لقي الغنى والجاه في مصر ، وسنتحدث فيما يلي عن بعض نماذج من مشاهير العلماء الذين وفدوا الى مصر واستقروا بها وذاع منها صيتهم ، وتعمقت فيها جذورهم ، ولعل في قمة هؤلاء أسرة الجبرتي التي يتحدث عنها الشيخ عبد الرحمن الجبرتي (١) فيقرر أن جده السابع عبد الرحمن الذي اليه ينتهي علم الجبرتي بالأجداد ، هو الذي ارتحل من بلاد جبرت في الحبشة ، فذهب الى « جُدَّة » ثم الى مكة حيث جاور بها فترة من الزمن ، ثم انتقل الى المدينة المنورة فجاور بها سنتين ولقى بالحرمين عددا من الأسياف ، ثم عاد الى جدة ومنها جاء الى مصر عن طريق بحر القلزم ، فدخل الى الجامع الأزهر وجاور برواق الأحباش ، ولازم حضور الأسياف ، واجتهد في التحصيل ، وتولى شيئا على الرواق ثم تزوج بمصر واستوطنها ، ويتسلسل الجبرتي متحدثا عن أجداده حتى ينتهي الى والده الشيخ حسن الجبرتي (١١٧٩ = ١٧٦٥) فيطنب في الحديث عنه ، وفي ذكر أوصافه وكراماته ودراساته (٢) ، وقد اتسعت الحياة للشيخ حسن الجبرتي وأفسحت له الدنيا بمصر ، فعاش بها في نعيم وغنى ، ويذكر المؤرخون (٣) أنه كانت له ثلاثة منازل أحدها على شاطئ النيل والثاني ببولاق تجاه جامع ميرزه جورجي والثالث في خطة الصناديقية شمال الجامع الأزهر ، وله في كل واحد من هذه المنازل زوجة وسراري وخدم ومماليك وعبيد ، وكان يتنقل بين منازلهم يحف به أصحابه وتلاميذه ومريدوه ، فيعقد لهم حلقات التدريس ، ويملي عليهم ما شاء من العلوم الدينية والوصفية والعقلية والنقلية حتى اذا فرغ من أملائه انفضَّ البعض عنه ، وانتشر البعض الآخر في الحجرات أو خزائن الكتب ، وقد يبقى منهم من يحضر الطعام معه أو يبيت عنده .

ومن العلماء الوافدين على مصر الشريف علي بن موسى (١١٨٦ =

(١) ج ١ ص ٣٨٨ .

(٢) ج ١ ص ٣٨٥ .

(٣) الأستاذ خليل شبيب . عبد الرحمن الجبرتي ص ٥ وما بعدها .

(١٧٧٢) ويتصل نسبه بالامام زيد الشهيد بن الامام على زين العابدين بن الامام الحسين ، وقد ولد ببیت المقدس ونشأ بها ، وقرأ القرآن الكريم على شيخ مصرى هو الشيخ مصطفى الأعرج المصرى ، فغرس فى نفسه حب مصر ، ولذلك طاف الشريف عدة بلاد واكنه اتجه الى مصر فى النهاية ، فجلس للتدريس بالمشهد الحسينى وعلا ذكره وانتشر صيته ، وكانت له فى النشر طريقة رائعة فكان لا يتكلف الاسجاع ، ويصف الجبرتى (١) أسلوبه بأنه أحسن من الروض جاد به الغمام ، وأنه فى الترسل يسير على سجية بادرة ، وفكرة قنطرة ، كما يصفه بأنه كان ذا جود وسخاء ، وكرم ومروءة ووفاء لا يدخل فى يده شئ من متاع الدنيا إلا بذله لسائليه ، وأغدق به على طالبيه ، وكان منزله بقرب المشهد الحسينى مورداً للأملين ، ومحطاً لأرحال الواقدين ، وكان يحب الخيل المنسوبة ، وكان اصطبله دائماً لا يخلو من اثنين أو ثلاثة ، كما كان يجيد الفروسية وركوب الخيل واللعب بالرماح .

ومما ينسب لهذا الشريف أنه كان يبرز انحراف اليهود وتضليلهم ، ويعددهم من شريعة موسى ، ولذلك يقال إن وفاته جاءت على يد رجل يهودى تقرب منه ، وأظهر الولاء له ، فلما مرض الشريف فصدده اليهودى بسلاح مسموم غمات فى أثر ذلك .

ومن العلماء الواقدين ذوى الشهرة الواسعة محمد بن محمد السنباوى الأزهرى الشهير بالأمير (٢) (١٢٣٣ = ١٨١٦ م) وهو رجل مغربى الأصل ، نزلت أسرته بمصر ، وقبـد عنى الشيخ الأمير بتلقى الدراسات الإسلامية على شيوخ العصر ، فدرس عقائد النسخى والأربعين النووية وموطأ مالك ، كما درس الهيئة والهندسة والفلكيات والحكمة ، ولما علا شأنه تصدر لإلقاء الدروس ، وشاع ذكره فى الآفاق وبخاصة

(١) ج ١ ص ٢٧٣ .

(٢) ج ٤ : ٢٨٤ .

ببلاد المغرب التى كانت تفخر به ، وكان سلطان المغرب يواليه بالصلات والتهنئات كل عام .

وقد وصل من علو ذكره أنه كان يلقى بعض محاضراته بدار السلطنة يصنف الشيخ الأمير عدة مؤلفات اشتهرت بنظية الدقة ، منها كتابه فى الفقه المسمى « المجموع » وعدد كبير من الحواشى على الشذور ، والأزهرية والرحبية فى الفرائض ، وله مؤلف اسمه مطلع النيرين فيما يتعلق بالقدرتين .

ومن الشيوخ الوافدين على مصر ذوى الشهرة الواسعة السيد محمد مرتضى الزبيدي (١) وهو وافد من اليمن هبط الى مصر سنة (١١٦٧ = ١٧٥٣م) وسكن بخان الصاغة ثم راح يحضر دروس شيوخ وقته كالشهابيين الملوى والجوهري ، والشمس الحنفى وغيرهم كالبيدي والصعيدى والمدابغى وأخذ عنهم جميعا وأجازوه وسافر ثلاث مرات الى الصعيد ووضع رسالة عن رحلاته تلك ، ثم تزوج واتخذ مسكنا آخر له بعطفة العسال وانصرف الى التدريس والتأليف ، وكان التأليف فى تلك الأيام لا يعدو حاشية على متن ، أو تعليقا على حاشية تدور موضوعاتها على بعض المسائل الفقهية المتعارفة ، ولكن مرتضى الزبيدي سلك طريقا آخر غير هذه الطريق فوضع معجمه الشهير المعروف بتاج العروس فى أربعة عشر جزءا ، وساخ فى وضعه عدة سنين ، ولم يشأ أن يخرج للناس كما تخرج المؤلفات العادية ، بل أقام مأدبة عظيمة يوم إخراجها دعا إليها المشايخ والطلاب وأبرز لهم تلك العروس وطلب منهم أن يذكروا محاسنها ومباهجها فتهافتوا عليها جميعا يقرظونها نثرا وشعرا فكانت هذه الدعوة سببا فى إذاعة خبر هذا الكتاب والتعريف به ، حتى أن محمدا أبا الذهب لما فرغ من بناء مسجده المعروف باسمه أمام الأزهر وأضاف اليه

خزانة كتب كبيرة أفهموه أنها لا تستكمل نفاستها إلا إذا ازدانت بهذا المعجم فاشتره بمائة ألف درهم (١) .

وقبل أن نطوى الحديث عن الشيوخ الوافدين نبرز ما سبق أن أشرنا إليه من قبل ، وهو أن هؤلاء الوافدين كانوا يجدون في مصر كل إجلال وتقدير ، ولم يخطر بالبال قط أنهم غير مصريين ، وقد وصل بعضهم الى أسمى المناصب في مصر ، فالشيخ حسن العطار (١٢٥١ = ١٨٣٥) وهو مغربي الأصل ، فقد أصبح شيخا للأزهر ، والشيخ أحمد اليونسى (١٢١٨ = ١٨٠٣) الذى جاء الى مصر من خان يونس ثم أصبح كبير القضاة بالمحكمة العليا ، وكان عضوا في الديوان الذى عينه الفرنسيون أبان وجودهم بمصر ، كما حظوا جميعا برخاء العيش وبألوان من الثراء اتضحت فيما أوردناه عنهم من أحاديث .

المصريون بالخارج :

وقبل أن ننتهى من الحديث عن العلماء الذين وفدوا الى مصر واستوطنوها يجدر بنا أن نقرر أن العكس حصل أيضا ، أى أن كثيرين من المصريين خرجوا من مصر لينشروا العلم خارجها فحملوا تلك الرسالة الفكرية الى أماكن شتى في العالم الاسلامى ، واستهانوا بالغربة ليحملوا للمسلمين أفانين الفكر الاسلامى ، واذا كنا الآن نرى المصريين يعارون الى مختلف الجامعات والمدارس بأقطار متعددة يحملون اليها رسالة الفكر من القاهرة ، فإن ذلك امتداد للعصور الماضية حيث كان العلماء المصريون يندفعون للخارج هنا وهناك ناقلين الى الأقطار الاسلامية إشعاعات من الدراسات الاسلامية التى تربت في القاهرة ، وسنعطى هنا نماذج قليلة لهذا اللون من العلماء الذين كانوا من الكثرة بحيث لا يمكن حصرهم .

(١) ج ٢ ص ١٩٦ وما بعدها ، وانظر خليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتي ص ٣٩ — ٤٠ .

وأول من نذكر من هؤلاء الإمام الثبت الشيخ عمر الطحلاوى المالكى (١١٨١ = ١٧٦٧) الذى تلقى معارفه على سلسلة طويلة من شيوخ العصر ، وتمهر فى الفنون والعلوم ، وجلس يعلم بالجامع الأزهر وبالمشهد الحسينى ، واشتهر أمره وطار صيته ، فانتسعت حلقاته اتساعا كبيرا وكان مشهورا بعذوبة البيان وجودة الالتقاء ، وكانت له هبة عالية ووقار وجلال ، وكان لكلامه وقع فى القلوب ، ومن أجل هذا اختاره الأمراء المماليك ليكون رسولهم الى الآستانة كوسيط بينهم وبين الخلافة العثمانية ، وقد استقبل هناك أحسن استقبال ونجحت وساطته ، ولكن المهم هنا أن الطلاب هناك والشيوخ انتهزوا فرصة وجود الشيخ بينهم فأحاطوا به ، وطلبوا اليه أن يجلس منهم مجلس المعلم ، وأن يفيض عليهم من معارفه ، فجلس فى مسجد أيا صوفيا وألقى هناك دروسا فى الحديث ، وتلقى عنه أكابر العلماء ، ووفد الى حلقاته طلاب العلم من مختلف بلاد الروم كما يسميها الجبرتى (١) .

وطالت مدته هناك ، ولولا أنه كان من الضروري أن يعود الى مصر لينقل للأمراء نتائج وساطته لكان من الممكن أن تدوم اقامته هناك أو أن تطول أكثر مما طالت .

وإذا انتقلنا الى نموذج آخر والتقينا بالمحدث الفقيه الشيخ على بن عمر القناوى ، فإننا نلتقى بما يمكن أن نسميه جامعة متنقلة فلقد كان الشيخ واسع المعرفة فى المعقول والمنقول وكأنما أحس بالتزامه أن ينشر ما عنده من فكر فى نطاق واسع فنظر الى العالم الاسلامى كله كأنه قطر واحد ، ووضع خطته بأن يتخطى المسافات والبلدان ليجلس هنا وهناك معلما وأستاذا ، وعندما ينظر الانسان الى الأقطار التى زارها ، ويتذكر أن وسائل المواصلات كانت آنذاك بسيطة هتوانية ، تعثره الدهشة مما حققه الشيخ من أسفار وأفضال ، حيث شملت رحلاته الحرمين . وجدة والبصرة ، وبغداد ، وخراسان ، وكابول ، وقندهار ، وبنارس ، وبلاد

جاوة ، وصنعاء وزبيد ، وغيرها من البلاد الإسلامية وكان في كل منها يجلس معلما ، ويفيخ من معارفه على الطلاب والمفكرين ، وقد استقبله الملوك والأمراء بكثير من هذه البلاد ورحبوا به وأكرموه ، كما احتفت به الشعوب الإسلامية حينما نزل ، ويذكر الجبرتي (١) أنه لم يكن بالمال ركان يمكن أن يجمع منه الكثير في أسفاره تلك ، ولكن ذلك لم يكن هدفا له ، وقد مات بمصر سنة (١١٩٨ = ١٧٨٣) وليس له ميراث يذكر .

ومن العلماء الذين حملوا العلم والمعرفة من القاهرة الى سواها من البلاد الإسلامية الشيخ محمد الحسيني (١٢٠٠ = ١٧٨٥) الذي تعمق في الدراسات الإسلامية فبرع براءة فائقة ، ويذكر الجبرتي (٢) أنه ورد الى اليمن ، وجلس بها وعلم فيها ، واتخذ من زبيد مركزا له حيث تجمعت حوله أعداد كبيرة من الطلاب الراغبين في العلم ، وانتقل الى بيت المقدس وهناك جلس معلما كما جلس في الخليل ونابلس ، ومن فلسطين عاد الى مصر فجال في بلادها وبخاصة مدن الصعيد وقراه ثم سافر الى الخارج مرة أخرى فزار نابلس ثم دمشق وهناك تجمع حوله علماءها ، واعترفوا بفضله ونالوا من علمه وفكره ، ومن دمشق عاد مرة أخرى الى نابلس ومرض هناك ، ولما حاولوا نقله الى مصر ليلفظ بها أنفاسه الأخيرة قال لهم أن بلاد الاسلام كلها وطن له لا يفرق بين دار ودار . وهكذا لقى ربه هنالك .

العلماء بين الترف والزهد

كثير من علماء عصر الجبرتي جمعوا مع العلم ترف العيش وحياة الرخاء ، فكانت لهم قصور شاهقة وأرض زراعية شاسعة ، وخدم وحشم ، وغناية كبيرة بالمظهر واللباس ، وكانوا بذلك يمثلون الفكر الاسلامي الذي

(١) ج ٢ ص ٨١ - ٩٠ .

(٢) ج ٢ ص ١٢٦ - ١٢٧ .

يرى أن لا رهبانية في الاسلام ، والذي يحث على أن الاسلام لا يقتنافي مع المتع الحلال تبعاً لقوله تعالى : « قل مَنْ حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات. من الرزق (١) » .

ومن أجل هذا الاتجاه وجد من العلماء من اشتهر بالأناقاة وحسن المنظر وجمال السمات ووجاهة الطلعة وجمال الهيئة ، كالشيخ على العزيزي (٢) (١١٩٩ = ١٨٨٤) والشيخ محمد المهدي الحفني (١٢٣٠ = ١٨١٤) (٣) ومن جذبت حاقته كثيراً من النساء بسبب ما امتازت به هذه الحلقة من ترف مع تعفف وبراعة في الفكر ويسر في التأني (٤) .

وسيفيش فترة مع أغنياء العلماء ، وقد اتجهوا جميعاً الى استعمال غناهم في خدمة العلم والاتفاق على الطلاب ، ورفع قيمة العلم والعلماء وبخاصة عند أولئك الذين يهتمون بالغنى ويجاثون الثراء .

فأول من نذكر من هؤلاء الامام الزبيدي الذي تحدثنا عن كتابه فيما سبق ، ويطلق الجبرتي حديثه عن الزبيدي (٥) فيذكر فيما يذكر عنه أنه بب. أن ترك مسقط رأسه زبيد ارتحل الى مكة ومنها سار الى الطائف ، وتعمق هنا وهناك في الدراسات الاسلامية والعربية ، ويروي الجبرتي عن الزبيدي قوله أن أحد شيوخه شوقه الى دخول مصر بما وصفه له من عامائها وأمرائها وأدبائها ، وما فيها من المشاهد الكريمة ، فاشتاق نفسه لمصر ، ثم جاءها سنة ١١٦٧ = ١٧٦٠م ، وسكن بخان الصاغة ، وسرعان ما علا فضله وانتشر صيته واتسع ثراؤه ، فراج أمره ، وترونق حاله ولبس

(١) سورة الاعراف : الآية ٣١ .

(٢) الجبرتي : ج ٢ ص ٩٥ .

(٣) الجبرتي : ج ٤ ص ٣٣٣ .

(٤) الجبرتي : ج ٢ ص ٥٣ و ٢٠٠ .

(٥) الجبرتي : ج ٢ ص ١٩٦ وما بعدها .

الفاخر وركب الخيول المسوومة ، ثم أخذ يطوف بلاد مصر ، وكان الناس يتلقونه بالترحاب والإجلال ، ولما عاد من رحلته انتقل الى منزل جديد بسويقة اللالا بالقرب من جامع محرم أفندي القريب من مسجد شمس الدين الحنفى وكانت تلك الخطة آنذاك عامرة بالأكابر والأعيان ، فأحدثوا به واستأنسوا ، والتف حوله التلاميذ وكانوا يجدون فى قصره الكبير نزهة وممتعة بالاضافة الى ما يحصلون عليه من علم ومعرفة ، واستمر صيته فى ذبوع حتى عرفه ملوك الاسلام فى مختلف البلدان ، وترادفت عليه منهم الهدايا والصلوات كما بعثوا اليه طيور البيغاء وطرائف الهند ، وأنواع العود والعنبر والعطر ، حتى أصبح بيته يضاهاى بيوت الأمراء أو يزيد عليها ، واتسعت حلقتة ، وعمل المآدب للضيوف وأكرم الوافدين اليه من الآفاق البعيدة والقريبة ، وتعهد كثيرا من الطلاب ، وكان يجيد التركية والفارسية الى جانب العربية ، ولذلك دعاه خلفاء العثمانيين لزيارة بلادهم والقاء الدروس بها .

ومن هؤلاء الشيخ ابراهيم محمد الشرابى (١١٧١ = ١٧٥٧) الذى يصفه الجبرتى بأنه أعز الأخوان وأخلص الأصدقاء والخلان ، وأنه من أهل بيت عرف بالثروة والمجد والعز والكرم ، ويوضح أن من أبرز صفاته حرصه على فعل الخير ومكارم الأخلاق ، وتقديمه الزاد ليوم المعاد ، والصدقات الخفية التى كان يتفقد بها طلبة العلم المنقطعين للدراسة ، كما كان يشتري المصاحف والألواح ويوزعها على الأطفال المسلمين ، وكان يتفقه على العلامة عبد العظيم الفيومى فكان ينفق عليه وعلى عياله بسخاء وكرم ، وهكذا تجدنا مع عالم فاضل تعهد شيوخه كما تعهد تلاميذه ، واتخذ ماله وسيلة لخدمة العلم والمعرفة (١) .

ومن العلماء الذين كثر غناهم وامتد ثراؤهم الشيخ أحمد بن الحسن الشهير بالجوهري ، وقد جاءت له هذه التسمية لأن والده كان يبيع الجواهر

فعرف به ، وقد اشتغل الشيخ الجوهري بالعلم ، وجدد في تحصيله حتى أصبح من أئمة العصر ، ويورد الجبرتي عددا هائلا من شيوخ الجوهري الذين علموه وأجازوه ، كما يتحدث عن حلقاته العلمية التي تجمع بها عدد كبير من الطلاب كانوا ينالون من علم الشيخ ومن ماله ، وظل كذلك حتى توفي سنة (١١٨٢ = ١٧٦٩) •

وهكذا حفل هذا العصر بنخبة من الشيوخ كان لهم ثراء عريض ضمن لهم رفاهية العيش ، كما ضمن لتلاميذهم يسر الحياة وطلب العلم •

ومع هذا الغنى الذي نعم به بعض علماء هذا العصر ، نجد طائفة أخرى من العلماء اتجهوا للزهد وأعرضوا عن المال ، وكأنما رأوا في المال مشغلة لهم فآثروا التفرغ للعلم وخدمته قانعين من الحياة بأبسط طعام وأخشن لباس ، وسنعطى فيما يلي بعض نماذج لهذا النوع من علماء العصر ومفكره •

أول من نذكر من هؤلاء الشيخ الناسك أستاذ الجبرتي محمود الكردي الخلوتي (١) (١١٩٥ = ١٧٨٠) وكان أبوه واسع الثراء ، ولكن الشيخ كان متعففا عن المال يميل الى التجرد والمجاهدة والزهد ، وكان أخوه كثير اللوم له على ما يفعله من مجاهداته وتقشقاته ، ولكنه لم يكن يصيخ لأخيه ، وظل في اتجاه الزهد والحرمان دون اكتشاف بلوم أو توجيه ، ولما مات والده ترك ما يخصه من إرث لإخوته ، وواصل زهده وتفرغه لنيل العلم وتقديمه للطلاب •

ومن هؤلاء العلماء الزهاد كذلك الشيخ محمد الشنواني (١٢٣٣ = ١٨١٧) الذي تلقى العلم عن جلة الشيوخ في عصره كالشيخ فارس والدردير والفرماوى ، وتفق على الشيخ عيسى الداوى ، وأجازوه هؤلاء الشيوخ فأقام حلقاته بالجامع المعروف بالفكهاني بالقرب من مبيكة ، وكان الشيخ

مذهب النفس كثير التواضع ، معرضا عن الدنيا اعراضا تاما ، خشن الثياب ، يخدم نفسه ، ويعنى بنظافة الجامع حتى أنه كان يكتسه بنفسه ويسرج قناديله بيده ، ولما توفي الشيخ عبد الله الشرقاوى اختاروه لشيخة الأزهر ، ولكنه امتنع وهرب الى مصر العتيقة زهدا فى المظاهر والأضواء ، ولكن علمه كان يرشحه لهذا المنصب فلاحقه أولو الأمر حتى أحضروه قبرا عنه ، وعينوه شيخا للأزهر ، ولكنه ظل ملازما للتواضع والزهد ، ولم يقطع حلقة بجوامع الفكاهى (١) .

ومن العلماء الزهاد كذلك الشيخ محمد بن شاهين الراشدى الذى برع فى الحساب والفرائض وعلوم الشريعة ، وكان كثير الشيوخ ، ومن أخص شيوخه الشيخ حسن الجبرتى ، وفى ذلك يقول الجبرتى : إن الراشدى رافق الشيخ الوالد وعاشه مدة طويلة ، وتلقى عنه وهو أحد أصحابه من الطبقة الأولى وظل محافظا على وده ومؤانسته ، ولما جلس ليعلم تحلق حوله عدد كبير من الطلاب ، مأخوذين بسعة اطلاعه منتفعين بحسن عرضه للموضوعات حتى طبقت شهرته الآفاق ، ولكنه مع هذا كان حريصا على الزهد ، وصيام الدهر ، وقيام الليل بين عابد ومعلم ، ولما بنى أبو الذهب مدرسته أراد أن يكون خطيبا بها ، فامتنع ، فألح عليه وأرسل له صرة عيها دنانير ، فأبى أن يقبل ذلك ، ورد هذا المال الوفير ، فلم يكن للمال فى دنياه حساب ، ولكن أبا الذهب داوم إلحاحه حتى ألزمه بأن يخطب فيها أول جمعة بها ، وألبسه فروة سمور وأعطاه صرة دنانير ، ولكن الرجل كان بعيدا عن هذا الاتجاه زاهدا فى الأضواء والأموال ومن أجل هذا دعا الله ألا يخطب بعد ذلك ، فنزل به مرض أقعده عن الذهاب ، ففترغ لتلاميذه من جديد حتى توفي سنة (١١٨٨ = ١٧٧٤ م) (٢) .

(١) ج ٤ ص ٢٩٤ .

(٢) ج ١ ص ٤٠٨ .

وهناك عدد وفير من هذا اللون من الشيوخ كان الواحد منهم يقتنع بأن يكسب رزقه عن طريق تجارة صغيرة يزاولها أو كتب ينسخها أو صناعة يدوية يقوم بها غير مكترث بمال ولا ساعيا لجاه ، ولعلنا نذكر من هؤلاء الشيخ أحمد السنبلوى (١١٨٠ = ١٧٦٦) (١) ، والشيخ محمد زين (١١٨٦ = ١٧٧٢) (٢) والشيخ على حجازى (١١٨٢ = ١٧٦٨) (٣) ، وسواهم كثيرون .

مواقف سياسية وعسكرية للشيوخ

كان التمزق السياسى يغمر مصر فى عصر الجبرتى ، فالامبراطورية العثمانية كانت تعاني ألوانا من الاضطراب فى مختلف الانحاء ، فلم تكن يدها قوية بمصر ، وتطلعات الدول الأوروبية كانت واضحة تجاه مصر ، وكانت هذه الدول ترى فى مصر درة الشرق ، ومفتاح أفريقية ، وهمة الوصول الى قارة آسيا ، وكان المماليك يتقدمون وينكصون ، يتقدمون ويتأخرون ، وكان الصراع يدور بينهم وبين العثمانيين ، ويدور صراع بين بعضهم والبعض الآخر ، وكانت مواقفهم فى مواجهة قوى الغرب مواقف غير قوية ولا بأسلة .

وكل ذلك ترك فراغا كبيرا فى قيادة الشعب ، فتقدم العلماء لملء هذا الفراغ ، وأصبح العلماء ملجأ الناس فى الشدائد وممثلهم الذين ينطقون باسمهم ، وقادتهم فى الصراع ضد القوى التى تناهض البلاد ، وأصبح الأزهر لا يمثل مركزا علميا فقط ، بل يمثل كذلك دارا للشورى ومحرابا للسياسة ، كما أصبح ثكنة عسكرية تتربى الأبطال المغاوير ، وهكذا نجد العلماء هم الذين يهددون المماليك اذا انحرفوا أو جاروا ويلزمونهم بالعودة للصواب ، كما نجدهم يتصدون للحملة الفرنسية ولحملة فريزر ويقودون

(١) ج ١ ص ٢٨٥ .

(٢) ج ٢ ص ٧٢ .

(٣) ج ١ ص ٣٣٧ .

الشعب ، ويقدمون الضحايا لرد الأعداء ، ويعزلون الولاة الجائرين ويعينون من يشاءون لحكم البلاد ، والحديث عن دور العلماء في هذا المجال طويل وممتع ، ونكتفى بأن نعود الى الجبرتي لنقتبس سطورا قليلة في هذا الشأن •

ذكر الجبرتي (١) أن الحاكم حسين بك المعروف بـ « شفت » بمعنى يهودى كان رجلا طاغيا جبارا يصادر أموال الرعية ، ويتهجم على البيوت ، وأنه ذهب بجنوده الى بيت أحمد سالم الجزار شيخ درايش البيومى فنهب ما فيه حتى الفراش وحلى النساء ، فحضر أهل الحسينية الى الجامع الأزهر ومعهم الطبول والتفت حولهم العامة وبأيديهم العصى وتفرقتوا في أنحاء الأزهر وأغلقت أبوابه وصعد بعضهم الى مآذنه يصيحون ويضربون الطبول وانتشر فسريق منهم في الأسواق القريبة من الأزهر ثم قابلا الشيخ الدردير فذكروا له ما حدث ، فغضب لحرمان الله وقال لهم في غد نجمع أهل الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة وأركب معكم ونهبط بيوت المماليك كما ينهبون بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم ، فارتاع المماليك وأوفدوا رسلهم الى الشيخ الدردير نادمين طالين اليه أن يرسل قائمة بما نهبه حسين بك وجنوده ليردوه اليه ، ففعلوا ردوا اليه جميع ما اغتصبه •

وكثيرا ما كانوا يلفتون نظر الحكام الى أن طاعة الحاكم واجبة اذا لم يخالف الشرع ، وأن قاعدة الحكومة الاسلامية هي أنه « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » وفي أحد المواقف صب الشيخ على الصعيدي غضبه على الأمير يوسف بك الكبير في وجهه ، ولعن من جاعه ، ومن اشتراه ، ومن جعله أمير ، فاسترضاه الأمير ونزل على مشورته وأخذ بآرائه (٢) •

وكان الشيخ الدردير شجاعا مقداما لا يخشى في الحق لومة لائم ،

(١) ج ٢ ص ١٠٣ •

(٢) ج ١ : ٤١٦ •

وقد حدث يوما والشيخ في مولد السيد البدوي أن صادر أحد الحكام أموال بعض الرعية فطلب من بعض أتباعه أن يذهب الى هذا الحاكم ليطلبوا اليه رد الأموال المغصوبة ، ولكنهم خشوا أن يذهبوا اليه ، فركب الشيخ بنفسه وتبعه كثير من العامة حتى دخل مقر هذا الحاكم وهو راكب دابته ، وأغلظ له القول فاضطر الى ارضائه وارجاع ما اغتصبه من أموال .

وفي سنة ١٢٠٩ = ١٧٩٥ ، حدث عدوان من أحد زعماء المماليك على بعض فلاحي مدينة بلبيس ، فحضر وفد منهم الى الشيخ عبد الله الشرقاوي ، فغضب وتوجه الى الأزهر فجمع شيوخه وأغلقوا أبوابه وأمرؤا الناس بترك الأسواق والمتاجر ، وركب الشيخ في اليوم التالي وتبعهم كثير من الناس الى بيت الشيخ محمد السادات ، واحتشدت جموع عديدة من الشعب فأرسل اليهم الأمراء أحدهم وهو أيوب بك الدفتردار فسألهم عن أمرهم فقالوا : نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكرات « أي الضرائب » وخشى إبراهيم بك زعيم الأمراء مغبة الثورة فأرسل إلى العلماء وكانوا يقضون ليلتهم داخل الأزهر قائلا لهم : إنه يؤيدهم في غضبهم ويبريء نفسه من تبعة الظلم ويلقيها على كاهل شريكه مراد بك ، وأرسل في الوقت نفسه إلى مراد بك فرد ما اغتصبه من أموال ، وأرضى نفوس المظلومين .

واستطاع الشعب تحت قيادة علمائه أن يرغم الخليفة العثماني على عزل واليه المستبد بمصر خورشيد باشا ، فقد قاد السيد عمر مكرم ومعه طائفة من العلماء جموع الشعب وحاصر هذا الوالي بالقلعة ، وأعلن عزله ، فأرسل اليه خورشيد باشا رسولا يقول له : كيف تغزلون من ولاء السلطان عليكم ؟ وقد قال الله تعالى « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » فأجابه عمر مكرم بقوله : « أولو الأمر هم العلماء وحملة الشريعة ، والسلطان العادل ، وأنت رجل ظالم ، وللناس أن يعزلوا

الحاكم الظالم ، وأن يخلعوه حتى الخليفة نفسه ، فالسلطان إذا سار في الناس بالجور كان من حق الرعية أن يعزلوه ويخلعوه » •

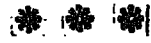
ولم يلبث السلطان العثماني أن نزل على حكم العلماء فعزل هذا الوالي الجبار ، وهنا تتجلى سماحة السيد عمر مكرم حيث أرسل حائتين من الإبل حملت متاع الوالي والمحاصرين معه ، وأنزلهم في ضيافته بضعة أيام ليحميمهم من غضب الشعب وييسر لهم سبيل النجاة •

وعندما غزا الفرنسيون مصر بقيادة نابليون قاومهم الشعب مقاومة عنيفة تحت قيادة علماء الأزهر حتى اضطّر نابليون الى أن يعود الى فرنسا في أواخر أغسطس سنة ١٧٩٩ تاركا خليفته كليبر قائدا للحملة الفرنسية بمصر فاغتاله طالب أزهرى هو سليمان الحلبي في يونية سنة ١٨٠٠ ، وقد أعدم هو وأربعة آخرون من شيوخ الأزهر وطلابه ، وكان نابليون قد أعدم من قبل ثلاثة عشر عالما من علماء الأزهر سنة ١٧٩٨ ، وبعد كفاح مرير خرجت الحملة الفرنسية من مصر سنة ١٨٠١ وفتحت أبواب الأزهر بعد أن ظل مغلقا زهاء عام •

ولما جردت انجلترا حملتها على مصر تحت قيادة الجنرال فريزر سنة ١٨٠٧ ثار الشعب تحت قيادة علماء الأزهر ، وقام السيد عمر مكرم بحشد المقاومة وإقامة الاستحكامات الدفاعية ، وحفر الخنادق حول القاهرة ، وكان يذهب صباح كل يوم مع الجماهير المحتشدة حيث يقوم العمال بعمل الاستحكامات الحربية ويظل سحابة نهاره بينهم ، وكان أحيانا يشاركونهم إقامة هذه الاستحكامات ، فيثير فيهم طاقات من الحماسة والوطنية ، وحب الاستشهاد وباعت هذه الحملة بالفشل والخسران (١) •

ولقد استطاع علماء الأزهر أن يفرضوا على الخليفة العثماني الوالي

الذى ارتضوه وهو محمد على باشا بعد أن أخذوا عليه العهود والمواثيق وأغلظ الأيمان .



وبعد هذا الموجز السريع عن نشاط العلماء في المجال السياسى والعسكرى ، نقتبس من الجبرتى لقطات سريعة من طائفة أخرى من العلماء ارتبطت بهم مواقف رائعة ، فالعالمان الكبيران الشيخ أحمد الشرقاوى (١٢١٣ = ١٧٩٨) والشيخ يوسف المصلى (١٢١٣ = ١٧٩٨) قتلتهما الفرنسيون لترععهما المقاومة (١) . وكان الشيخ محمد بن عبد الكريم (١٢١٥ = ١٨٠٠) مهيب الجانب بحيث كانت شفاعته لا ترد (٢) ، وكان محمد بك الألفى يستغيث بالفقهاء (٣) وكان محمد على يطلب من عمر مكرم أن يجمع مالا للجند كلما حزبه أمر (٤) ، وقصدى العلماء لمحمد على باشا يعارضون بعض آرائه ، ويطلبون رفع المظالم (٥) ، وكان العلماء يزورون البلاد ويتعرفون على مشاكل كل الناس ، كما كانوا إذا اشتد الغلاء يعملون تسعيرة للمواد الغذائية ويفرضونها على الحكومة والتجار (٦) .

الجبرتى ينتقد الحاكم بمراحة :

أما الشيخ عبد الرحمن الجبرتى نفسه ، فيبرز لنا جلال العلماء وغيبتهم فيما كتبه عن حكام العصر غير هيب ولا خائف ، فهو ينتقد الديوان الذى أقامه محمد على باشا نقداً مرّاً ، ويلوم سياسة الباشا الذى أبقى دار الضرب على نمته ، وجعل خاله ناظراً عليها ، كما يلومه لأن نفسه طمحت إلى مصادرة بعض الأموال حسداً منه لبعض الناس الذين رأهم يتجملون في ملابسهم ومراكبهم ويقول عنه بالحرف الواحد : لأنهم

(١) ج ٣ ص ٦١ .

(٢) ج ٢ ص ١٦٤ .

(٣) ج ٤ ص ٣ .

(٤) ج ٤ ص ٥١ .

(٥) ج ٤ ص ٨ و ٩ .

(٦) ج ٢ ص ١٣٦ .

من طبعه داء الحسد والشبه والطمع والتطلع لما في أيدي الناس وأرزاقهم (١) ويثور الجبرتي مدافعا عن الفلاح الذي تؤخذ منه الغلال بأسعار رخيصة وتباع لحساب الحكومة بأسعار مرتفعة (٢) كما يعارض استمرار غلاء الأسعار وبخاصة في الأوقات التي لا يستغنى عنها الفقير ولا الغنى ، ويورد نماذج لهذه الزيادات (٣) ، كما يشهر بالباشا لأنه وضع يده على بعض الأراضي المملوكة للناس ليزرعها لحسابه (٤) ، ويعيب على الباشا ظلمه في تحصيل بعض الجمارك المرتفعة التي يتسبب عنها ارتفاع الأسعار على المستهلكين (٥) .

المكانة الاجتماعية للعلماء

كان للعلماء في عصر الجبرتي مكانة اجتماعية عالية تفوق مكانة الساسة والحكام ، ويذكر الجبرتي عن الشيخ علي أحمد بن مكرم الله العدوي (١١٨٩ = ١٧٧٥) أنه كان يستقبل كل من تعسر عليه قضاء حاجة ، ويكتبها فإذا تجمع لديه قائمة طويلة بمطالب الناس ذهب الى الأمير وأخرج القائمة من جيبه ، وأخذ يقص ما فيها واحدة بعد واحدة ويأمر الأمير بقضاء حاجات الناس ، والأمير لا يخالفه ، ولا ينتنى عنه ، ويضيف الجبرتي عن هذا الشيخ أنه كان لا يثرب الدخان في مجلسه تعظيما للعلم ولاأله ، وإذا دخل منزلا من منازل الأمراء توقف هؤلاء عن شرب الدخان ، فان رأى آلة من آله كسرهما ولو كانت في يد كبير الأمراء (٥) .

وحدث مرة أن كان الشيخ حسن الجبرتي راكبا دابته وعائدا الى بيته فالتقى بموكب الأمير أحمد البارودي ، وحاول الشيخ أن يفسح لموكب

(١) ج ٤ ص ١٣٨ .

(٢) ج ٤ ص ١٤٠ .

(٣) ج ٤ ص ١٤٢ .

(٤) ج ٤ ص ١٥٦ .

(٥) ج ٤ ص ١٥٧ .

الأمير وينحرف في جانب من الشارع ولكن الأمير عندما رآه نزل عن فرسه وخف إلى الشيخ يقبل يده ويلطفه (١) .

من الإمارة إلى العلم :

ولعل هذه المكانة التي كان يحظى بها علماء المسلمين هي التي دفعت بعض الأجناد والأمراء ليتخلوا عن الجندية والإمارة ، وينضموا في سلك الطلاب والفقهاء ، ومن هؤلاء الشيخ حسن المعروف بابن الكاشف (١٣٢٩ = ١٨١٣) الذي انخلع عن طبقة الأمراء ، وأخذ يحفظ القرآن ويجود به والمتون ويتدارسها ، وتزيها بزى الفقهاء ، والتحق بحلقات شيوخ عصره حتى أصبح من خيرة العلماء المصريين ، وكان يقول إن ما حصل عليه من العلم وجاهه أرفع بكثير مما تركه من وجاهة الإمارة ، ومكانة الأجناد (٢) .

من المسيحية للإسلام :

وفي هذا النطاق كذلك نذكر إن بعض الطموحين من غير المسلمين دخلوا الاسلام ، وتعمقوا في الدراسات الإسلامية ، ولعبوا دورا كبيرا في حياة مصر في هذا العصر ، ومن هؤلاء الشيخ محمد المهدي الحفنى (١٢٣٠ = ١٨١٤) (٣) ووالده كان من الأقباط ، واسلم هو على يد الشيخ الحفنى ، واهتم هذا به حتى منحه اسمه ، ولازم دروس أشياخ العصر ، كالشيخ العدوي والأجهوري والدرديري والبيلى والأجل والشرقاوى واجتهد في التحصيل ليلا ونهارا ، حتى مهر وأنجب ، وتصدر للتدريس بالأزهر ، فكانت له حلقة واسعة وىروى عنه أنه لما حضر الفرنسيون إلى مصر قام بدور إيجابى في حماية الناس من عسفهم ، فكسان يبعث الأمان للفارين من الهاربين ، ويطلب منهم العودة للبلاد ، كما يقدم الضمانات للمختفين من الأجناد والناس ليظهروا ويباشروا أعمالهم في أمن ، وكان يحمى دورهم وحریمهم ويدافع عنهم في غيابهم ، ويقول الجبرتي منه أنه

(١). خليل شبيب : عبد الرحمن الجبرتي ص ٢١ .

(٢) ج ٤ ص ٢١٥ - ٢١٦ .

(٣) ج ٤ ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

سد بعقله ثقبوا واسعة ، وداوى برأيه جروحها وفتوها عميقة ، فكان بذلك
حصنا للناس وحمى للخير .

وهكذا كان للعلماء في عصر الجبرتي مكانة سامية دونها كل مكانة
وكل رئاسة .

علماء في الدراسات الإسلامية

برزوا كذلك في الآداب والعلوم والفنون

كانت الدراسات الإسلامية طيلة عصر الجبرتي أساسا لكل الدراسات
الأدبية والمدنية ، فكان الطبيب والرياضي والفلكي والأديب يعرفون
الدراسات الإسلامية ويجيدونها قبل أن يصلوا الى الدراسات الأدبية
أو المدنية ، وقد ظل الحال على ذلك حتى عصر محمد على الذي اختار من
بين الأزهرين من يرسلهم للتخصص في الدراسات العلمية في أوروبا ،
وسنعيش فيما يلي مع بعض علماء المسلمين الذين برعوا في الدراسات
الإسلامية ولكنهم أجادوا معها ألوانا من الآداب والعلوم والفنون :

وأول من نذكر من هؤلاء العالم الأديب محمد بن رضوان السيوطي
الشهير بابن الصلاحى (١) (١١٧٨ = ١٧٦٤) ، وقد تلقى ابن الصلاحى
العلوم الإسلامية عن الشيخ محمد الحنفى وغيره من علماء العصر حتى
حقق في الدراسات الإسلامية مكانة عالية ! ولكن أكثر شهرته انتضحت
في الدراسات الأدبية فكان له شعر رائع مختلف الاتجاهات والصور وقد
روى الجبرتي منه ما يزيد عن عشرين صفحة يمكن أن تكون ديوانا مهما ،
ويذكر الجبرتي : أن له مقامة بديعة في مدح سيدنا رسول الله ، وغررأ من
الشعر في أغراض متباينة ونقتبس من شعره ما يلي :

هات لى قهوة الشففا من شفاهك واسقنيها على فخامة جاهك

(١) ج ١ ص ٢٦٥ وما بعدها .

عاطنيها يا أوحى العصر لطفاً ويديع المثال في أثباتك
يا غزالاً لو صوّر البدر شخصاً ليضاهيك في البها لم يضاهك

وكتب الى بعض الاخوان وقد أهدى اليه منديلاً :

يا كمالاً أحببت مكسارمه الندى ففدنا بأمراض القلوب طبيباً
وردت هديتك التي كانت لنا كقميص يوسف إذ أتى يعقوباً
منديل شرك حين جاء مبشراً بالسود سر خواطراً وقلوباً

ومن هؤلاء العلامة أبو العرفان الشيخ محمد بن علي الصبان (١٢٥٦ = ١٧٩١) الذي حفظ القرآن والمتون واجتهد في طلب العلم وحضر أشياخ عصره ، وجهاً بوجه مصره ، وقرأ عليهم علوم العصر ، وبرع فيها براعة فائقة ، ثم مال مع ذلك الى الأدب والعروض ، فألف في العروض رسالة مهمة ، واهتم بالمناظرات الأدبية ، وكان له في النثر كعب على :
وفي الشعر كأس ملي كما يقول الجبرتي (١) ، ومن شعره نقتبس المقطوعة التالية :

أثيم جنى ذنباً ورحب الحمى حلاً فهل من رضا عنه تجود به فضلاً
إليك أبا الأنوار قد أبت مخلصاً ومن ذا الذي يا سيدي قط مازلاً
أعيذك أن يسمي لبابك عائد وتكسوه من أجل ذنب له ذلاً
إذا أنت بالغفران والصفح لم تجد فمن منه نرجو العفو والصفو والبذلاً

ومن العلماء الأدباء قاسم بن عطاء الله المصري (١٢٥٤ = ١٧٨٦) الذي قرأ العلوم الإسلامية وتضلّع في الأدب والتواشيح والزجل ، وكان سريع الارتجال في الشعر ، وكان شعره في غاية الجودة وقد برع كذلك في فن التاريخ وكان فيه معروفاً بالدقة والوضوح والسلامة .

(١) ج ٢ ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٢) ج ٢ : ١٨٤ .

ومن فقهاء العصر الذين برعوا في الأدب والشعر الشيخ محمد السنجاوي (١) الأزهرى (١٢٢٢ = ١٨١٦) الذى انتهت له الرياسة في العلوم في الديار المصرية وشاع ذكره في الآفاق ، ووفد له الطلاب من كل صوب ، وكان له مع ذلك شعر جميل نقتطف منه ما يلي في الغزل :

أيها السيد المدلل ضاعت في الهوى هيبتي وأنسيت نسكي
يا لك الله لا تمل لسسوائى وتحكم ولو بما فيه فتكى

وإذا اكتفينا بهذا القدر من العلماء الأدباء واتجهنا شطر العلماء الذين برزوا في الدراسات العلمية والفنية نجد عددا وافرا حقق كبيرا من التقدم في هذه الدراسات ، وأول من نذكر في هذا المجال الشيخ أحمد بن عبد المنعم الدمهورى (١١٩٢ = ١٧٧٨) الذى تولى مشيخة الأزهر سنة ١١٨٣ = ١٧٦٧ ، وهو يذكر سندا طويلا ، ودراسات واسعة نقتبس منها ما يلي : أخذت عن أستاذنا الشيخ محمد الريحانى مقن اكنز والأشباه والنظائر وشيئا من المواقف في بحث الأمور العامة ، وأخذت عن الزعترى الميقات والحساب والمقنطرات ، كما درست معه منظومة الياسمين في الجبر والمقابلة ، والمنحرفات السبط المردينى في وضع المزاوول ، وأخذت عن سيدى أحمد القرافى الحكيم كتاب الموجز واللمحة الحقيقية في أسباب الأمراض وعلاقتها ، وبعضها من قانون ابن سينا ، وقرأت على أستاذنا الشيخ سلامة الفيومى أشكال التأسيس في الهندسة ، وكذلك علم الهيئة والمساحة ، وقرأت على الشيخ محمد الشحيمى منظومة علم الأعمال الرصيدية وروضة العلوم ، وبهجة المنطوق والمفهوم لمحمد بن ساعد الأنصارى وهو كتاب يشتمل على سبعة وسبعين علما ، كما قرأت عليه رسالة في علم المواليد تشمل دراسة الحيوانات والنباتات (٢) .

(١) ج ٤ ص ٢٨٤ .

(٢) الجبرتي ج ٢ ص ٢٥ - ٢٧ .

وفي الفلك والمهيئة نقابل الشيخ رضوان الفلكي (١) (١١٣٢ = ١٧١١) ، وهو صاحب الزيج الرضواني الذي حرره على أصول الرصد الدقيق ، وهو مؤلف كتاب أسنى المواهب ، وكتب أخرى كثيرة في الحسابات والتحقيقات ولله جداول حسابية بارعة ، وقد استطاع أن يرسم الأرض على شكل كرة من النحاس الأصفر ، ونقش حولها الكواكب المرصودة ومن تأليفه النتيجة الكبرى ، والنتيجة الصغرى ، وكانتا في عهده مشهورتين متداولتين بأيدي الطلبة بأفاق الأرض ، وله كتاب عن طراز الدرر في رؤية الأهلة والعمل بالقمر .

ومن العلماء الذين اشتهروا بالبراعة في الفلك كذلك الشيخ عبد الله ابن خزام الفيومي (٢) (١١٩٥ — ١٧٨٠) الذي تولى الافتاء فصار فيها بالدقة والتحرى ، وكان له معرفة تامة بالفلك والمهيئة والميقات وعنده لذلك آلات كثيرة دقيقة .

وقد برع في الموسيقى الشيخ حسن ضيائي (٣) (١١٨١ = ١٧٦٧) أحد أعيان عصره في الدراسات الإسلامية ، وكان مع ذلك له براعة في الخط العربي ، واجادة له ، كما كان له معرفة واسعة بعلم الموسيقى وأوزانها ، ويجيد استعمال كثير من آلاتها .

ومن العلماء الذين برعوا في علم الحساب والرياضيات الشيخ محمد بن اسماعيل (٤) (١١٨٥ = ١٧٧١) ، وكان له باع واسع في الدراسات الإسلامية مستحضرا للمسائل الفقهية والعقلية ، ويقول عنه الجبرتي (٥) أنه لما بلغ المنتهى في العلوم المشهورة تباقت نفسه للعلوم الحكيمة

(١) ج ١ ص ١٧٤ .

(٢) ج ٢ ص ٧١ .

(٣) ج ١ ص ٢٨٥ .

(٤) ج ١ ص ٣٦٧ — ٣٦٨ .

(٥) ج ١ ص ٣٦٧ — ٣٦٨ .

والرياضية فلتجته لتعلمها ، فبرع فيها براعة عظيمة ، وأصبح في الرياضة والصلب والهندسة لا يشق له غبار .

وقد برع في الحساب والرياضيات كذلك الإمام العلامة محمد بن يونس الطائى^(١) (١١٩٢ = ١٧٧٨) كما برع فيها كذلك الشيخ محمد بن موسى الجناحى^(٢) (١٢٠٠ = ١٧٨٥) الذى دفعته الرغبة في التعرف على قسمة المواريث الى إجادة الحساب ، ثم أحب الرياضيات ، فأجاد الجبر والمقابلة وألف في الرياضيات رسائل مهمة ، وكان له في تحويل النقود بعضها إلى بعض رسالة نفيسة تدل على براعته وغوصه في علم الحساب كما كان بارعا في حساب الكسور والقسمة والجذور ، مما انفرد به بين علماء عصره .

وممن برع في الطب من العلماء الشريف العقيف الشيخ محمد بن زين^(٣) التاريمى الأصل (١١٩٦ = ١٧٨١) نزيل مصر ، وكان واسع المعرفة بالمقول والمنقول وله معرفة دقيقة بدقائق علم الطب ، وكانت وصفاته الطبية تهب الشفاء للمرضى ، وتزيل عنهم وصب الآلام .

ومن الشيوخ الأفاضل الذين كان لهم معرفة بالطب الشيخ حسن الجبرتى^(٤) الذى كان يحتفظ في بيته باللوان من الدهون يعالج بها كثيرا من الأمراض والجراح ، كما كان له معرفة بكثير من الآلام وعلاجها .

وهكذا حمل رجال الدراسات الإسلامية عبء الفكر في اتجاهاته المختلفة ولم يتركوا مجالا علميا إلا طرقوه بمقدار ما أتيح لهم من جهد وطلاقة .

(١) ج ٢ ص ٢٧ .

(٢) ج ٢ ص ١٢٥ .

(٣) ج ٢ ص ٧٢ .

(٤) ج ٢ ص ٤ .

ملاح أخرى عن علماء عصر الجبرتي

لغات أجنبية :

لا يزال عندنا أفانين من الفكر أجادها علماء الدراسات الإسلامية في هذا العصر فقد كان منهم من أجاد اللغات الأجنبية ، وكان خطه فيها غاية في الجودة ، ومن أجل هذا كان هؤلاء سفراء مصر الى الخارج اذا حُزب أمر ، ومن هؤلاء الشيخ على بن محمد الجزائري الأصل والمصري الثقافة والفكر (١١٨٥ = ١٧٧١) ويقول عنه الجبرتي (١) إنه زاحم العلماء بمناكب في تحصيل أنواع العلوم وأجازه كثير من شيوخ العصر ، وكان يعرف اللسان التركي ، وقد جعله هذا على صلة وثيقة ببعض أمراء الأتراك وبخاصة الأمير أحمد آغا .

ومن هؤلاء محمد بن اسماعيل السكندري (١١٨٣ = ١٧٦٩) الذي كان يعرف الألسنة الثلاثة ، العربية والفارسية والتركية ، مع ميل الى المخاورات واللطائف الأدبية ، ويقول عنه الجبرتي (٢) ان رسائله في الألسن الثلاثة كانت غاية في الفصاحة مع حسن خط ووفور حظ ، ومهابة عند الأمراء وكان والده اسرائيليا ، فأسلم وحسن اسلامه ، وكان يزور الشيخ حسن الجبرتي في أخريات حياته ، ويقول الشيخ عبد الرحمن الجبرتي انه رأى كتاب بهارستان لمولانا جامي مكتوبا بخط يد السكندري ، وقد أحسن في كتابته وأتقن في سياقه ، كما رأى للسكندري كتابا آخر فيه بعض التوارد ومجموعة من الشعر بالألسن الثلاثة ، ويطنب الجبرتي في مدحه والثناء عليه إطنابا طويلا ، ويقتبس من كلامه ما يدل على إبداع وعمق وروعة .

ومن هؤلاء كذلك حسن الدرويش (١٢٣١ = ١٨١٥) الذي كانت له مشاركة في كل فن من الرياضيات والأدبيات ، والمعقول والمنقول كما

(١) ج ١ ص ٣٦٩ .

(٢) ج ١ ص ٣٣٩ .

كانت له معرفة بلغات كثيرة حتى كأنه خالط أهلها وعاش في ديارها وكان يعلم هذه اللغات لمن أراد أن يتعرف عليها ، ويعلم اللغة العربية للأعاجم الذين يفدون إلى مصر (١) .

ولا يمكن أن نطوى صفحة الحديث عن العلماء الذين أجادوا اللغات الأجنبية دون أن نتحدث عن الشيخ حسن الجبرتي الذي كان يعترف اللغة الأمهرية ويجيد اللغة التركية ويخاطب بها الأمراء حتى كأنه منهم ، بل يخيف مترجم حياته أن جماعات من الأفرنج تصدوا بيته ، وأخذوا عنه علم الهندسة وذهبوا إلى بلادهم ونشروا بها ذلك العلم ، وأخرجوه من القوة إلى الفعل ، واستخرجوا به الصنائع البديعة مثل طواحين الهواء وجر الأثقال واستنباط المياه (٢) .

وظيفة المعيد :

وقد عرفت المدارس المصرية في ذلك العصر وظيفة المعيد ، وكان المعيد يجلس في حلقة أستاذه أقرب ما يكون إلى الأستاذ ، ويتلقى الدرس مع الطلاب ، فإذا انتهى الشيخ من القاء درسه وغادر المكان بدأ المعيد يشرح ما غمض من ذلك الدرس على الطلاب ، ويجيب على أسئلتهم ، ومن الممكن أن يعود إلى أستاذه إذا سئل سؤالاً لم يعرف الجواب عنه ، وهكذا عرفت حلقات التدريس بمصر في عصر الجبرتي تلك الوظيفة التي تهتم بها الجامعات في العهد الحاضر ، لتكون أستاذة المستقبل ومن المعيد الذين تحدث عنهم الجبرتي الشيخ عبد القادر بن خليل (١١٨٧ = ١٧٧٣) الذي لازم الشيخ ابن الطيب ملازمة كلية حتى صار معيدا لدروسه : وهو رومي الأصل ، وقد جاء إلى مصر ، ثم خرج منها طوعاً أم مكرماً ، وعاد لها — كما يقول الجبرتي (٣) بالفوائد الغزار وبما حمل في طول غيبته من النوادر والأسرار .

(١) ج ٤ ص ٢٦١ — ٢٦٢ .

(٢) ج ١ : ٣٩٧ .

(٣) ج ١ ص ٣٧٨ — ٣٧٩ .

ومن هؤلاء الشيخ محمد بن موسى الجناحي (١) (١٢٠٠ = ١٧٨٥) الذي كان معيدا للشيخ الصعدي ، ومنهم كذلك الشيخ الجداوي وسليمان العجيلي والسمنودي والأجهوري والعدوي والصاوي والدسوقي .

ومن الواضح أن كلا من هؤلاء تخطى بعد حين وظيفة المعيد ، وأصبح قمة من قمم الفكر وعالما عظيما من علماء العصر ، وقد تحدثنا عن أكثرهم فيما سبق من دراسات .

علماء معمرين :

ومن الناس من يعتقد أن الانكباب على العلم ، والسهو لنيله ، والجلوس لتعليمه تضر بالصحة وتضعف الجهد ، لما تسببه من إرهاق ، ولكن الباحث في عصر الجبرتي يشاهد كثيرين من العلماء المعمّرين الذين طعنوا في السن على الرغم من جهودهم الكبيرة في خدمة العلم والمعرفة ، فالإمام العالم الشيخ علي بن محمد الشناوي (٢) (١١٨٦ = ١٧٢٢) الذي انتهت إليه الرياسة في زمنه عاش حتى جاوز المائة ، وكان طيلة عمره ممتعا بالحواس ، ثاقب الفكر ، وممن جاوزوا المائة كذلك الشيخ سليمان بن محمد البحري (٣) (١٢٢١ = ١٨٠٦) الذي ظل يملأ على تلاميذه حتى ليلة وفاته ، ومن الشيوخ المعمّرين كذلك الشيخ خالد بن يوسف الديار بكري (٤) (١١٩٣ = ١٧٧٩) وأصله من ديار بكر ، وقد إلى مصر ولازم حضور الأشياخ بها ، وزامل الشيخ عبد الرحمن الجبرتي في حلقة السيد محمد مرتضى بجامع شيخون حيث تلقيا دروس الصحيح ، وزامله كذلك في جامع أبي محمود الحنفى حيث تلقيا « الأمانى والشمائل » ثم اتجه الشيخ خالد للوعظ والتدريس ، وطال عمره حتى أصبح من المعمّرين ذوي اشتهار في ذلك العصر .

(١) ج ٢ ص ١٢٥ .

(٢) ج ٤ ص ٢٤ .

(٣) ج ٤ ص ٥٧ .

(٤) ج ١ ص ٤١١ .

ومن الشيوخ المعمرين كذلك الشيخ أحمد بن عبد السلام (١١٨٨ = ١٧٧٤) (١) والشيخ زين الدين القاسم العبادي (٢) (١١٨٨ = ١٧٧٤) والشيخ محمد أبو السعود المكنى (٣) (١٢٠٢ = ١٧٨٧) وقد تجاوز التسعين ، والشيخ أحمد البرماوى (٤) (١١٣٨ = ١٧٢٥) .

وهكذا نجد في عصر الجبرتي شيوخا تخرج على أيديهم عدة أجيال وظالت أيامهم في خدمة الفكر والاسلام ، وكان عمرهم الطويل مصدر يمن وبركة على الدراسات الاسلامية .

وفرة المؤلفات :

وقد دون علماء هذا العصر مجموعة من الكتب والمؤلفات في مختلف العلوم والفنون ولو قدر لهذه المجموعة أن تبقى مخطوطة أو مطبوعة لكانت ثروة هائلة ، ومكتبة رائعة ، ولكن ما بقى منها — على كل حال — يصور مدى الجهد الذي بذله رجال هذا العصر في خدمة العلم والمعرفة ، وقد أورد الجبرتي صفحات طويلة عدد فيها مؤلفات علماء عصره وكنموذج من هذا الجهد نقتبس ما كتبه عن مؤلفات الشيخ الدمنهوري (١١٩٢ = ١٧٧٨) فمنها حلية اللب المصون بشرح الجوهر المكنون ، ومنتهى الإرادات في تحقيق الاشعارات ، وإيضاح البهيم في معانى السلم ، وإيضاح المشكلات في متن الاستعارات ، ونهاية التعريف بأقسام الحديث الضعيف ، والحذاقة بأنواع العلاقة ، وكشف اللثام عن مخدرات الأفهام على البسمة ، وحسن التعبير في القراءات العشر ، وتنوير المقلتين بضياء أوجه الوجهين بين السورتين ، والفتح الربانى بمفردات ابن حنبل الشيبانى ، وطريق الامتداء بأحكام الإمامة والامتداء على مذهب أبى حنيفة ، وإحياء

(١) ج ١ ص ٤١١ .

(٢) ج ٤ ص ١٦٥ .

(٣) ج ٤ ص ٧٦ .

(٤) ج ٢ ص ٢٦ — ٢٧ .

الفؤاد بمعرفة خواص الأعداد ، والدقائق الألفية على الرسالة الوضعية ، ومنع الأثيم الحائر على التمداد في فعل الكبائر ، وعين الحياة في استنباط المياه ، والأنوار الساطعات على أشرف المربعات ، وخلاصة الكلام على وقف حمزة وهشام ، والقول الصريح في عالم التشريح ، وإقامة الحجة الباهرة على هدم كنائس مصر والقاهرة ، وفيض المنان بالضرورة من مذهب التعمان ، وشفاء الظمان بسر قراءة القرآن ، وإرشاد الماهر إلى كنز الجواهر ، وتحفة الملوك في علم التوحيد والسلوك ، والزهر الباسم في علم الطلاسم ، ومنهج السلوك إلى نصيحة الملوك ، والمنح الوفية في شرح الرياض الخفية في علم الكلام ، والكلام السديد في علم التوحيد ، وبلوغ الأرب في اسم سلاطين العرب •

ويختتم الجبرتي حديثه عنها بقوله إنه اطلع على أكثرها وانتفع بما ورد فيها •

وبعد ، لقد كان عصر الجبرتي عصرا حسانا يبدو فيه اضطراب السياسة ونشاط العلماء ، وقد استطاع الجبرتي أن يصور لنا هذا العصر أدق تصوير ، فجعل القارئ يحس — وهو يقرأ ما كتبه الجبرتي — كأنه يعيش هذا العصر من جديد ، ينقل بالأحداث فيه ، وتبهره مواقف العلماء وما بذلوه من جهد لخدمة مصر بوجه عام ، وخدمة الدراسات الإسلامية بوجه خاص ، وقد استطاع العلماء أن يدفعوا عن مصر كثيرا من الضر ، وأن يجعلوا مصر في هذا العصر مركزا للدراسات الإسلامية ، فكان عصرهم بذلك امتدادا للنشاط العلمي الذي مارسه هذه البلاد عدة أجيال من قبل ، وكان عصرهم أيضا مهينا لنهضة عظمى بدأت بعد حين ، ولا تزال تخطو وتحاول أن تحقق لمصر والعالم العربي والاسلامي المكان اللائق في دنيا الفكر والعلوم •

٣ — الفترة الاستقلالية

من « محمد على » الى الاحتلال البريطانى

طال بنا الحديث عن الفترة السابقة التى أسميناها « الفترة المملوكية » لأنها حوت الحملة الفرنسية بما قدمناه عنها من دراسات مهمة فيها الكثير من الجديد ، ولأنها شملت كذلك دراسات رائعة اقتبسناها من الجبرتى عن هذه الفترة •

وننتقل الآن للحديث عن « الفترة الاستقلالية » ونطلق عليها الفترة الاستقلالية « لأن نفوذ تركيا فى الواقع قد تقلص فى مصر ، حتى لم يعد يحسب له حساب ، ثم إن المماليك الذين كانوا يأتون من الخارج فوجا بعد فوج ضعف شأنهم أو زال ، والجيش المصرى تطور ليكون مصريا حقيقة ، وتغلب كبار ضباطه بمرور الزمن على العقبات التى كانت فى طريقهم أو على أكثرها ، وبدأت العناصر المصرية فى الميادين المختلفة تظهر وتقرض نفسها ، فسلسلة الأبطال المصريين لم تنتقطع طيلة هذه الفترة التى نتحدث عنها ، من عمر مكرم الى عرابى • ومحمد على وأولاده وافدون على مصر ، ولكنهم بعد قليل لم يجدوا سواها وطننا ، وقبذ نحتهم مصر ألوانا من الجاه فحرص بعضهم عليها ليستمر له هذا الجاه والنفوذ ، وخانها بعضهم ليستمر له الجاه أيضا ، ولكن مصر فى الموقفين لم يكن يدفعها نفوذ يذكر من الخارج ، الى أن جاء الاحتلال أو ظهرت معالها ، ومن أجل هذا كان جديرا بنا أن نسمى هذه الفترة « الفترة الاستقلالية » •

محمد على وأولاده

الزيف فى تدوين التاريخ :

إن الحديث عن محمد على وأسرته فى عصرنا حديث ليس سهلا ، فقد اتجهت الجهود منذ قيام عصاة ٢٣ يوليو إلى التقليل من قيمة الأسرة العلوية،

بل إلى الطعن فيها والنيل منها ، وأصبح هذا التاريخ الظالم هو المادة التى تقدّم للتلاميذ فى المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية وهو المادة التى تتكلم بها وتنطلق بها ألسنة وسائل الاعلام الأخرى (١) ولسم تكن هذه الأسرة وحدها هى التى ظلمها كتّاب عصر الثورة ، بل إن أكثر عظماء التاريخ المصرى الحديث أسدل ستار من الضباب فوق تاريخهم ، وحجبت جهودهم وأعمالهم عن الجيل الحاضر ، فلا تكاد تسمع كلمة حق عن مصطفى النحاس الذى كان زعيم الشعب والناطق بلسانه حوالى ربع قرن ، ولا تكاد تسمع كلمة عن الدكتور محمد حسين هيكل ، وهو مفكر وسياسى مصرى عظيم ، ولا تسمع عن الرائد الدينى الكبير حسن البنا الا ما يمسّه ويشين دعوته، ولم ينج من كتّاب عصر الثورة الا قلة من النادة الأوائل كمصطفى كامل ومحمد فريد ، أما القمم السياسية ، والفكرية التى لها جماهير شعبية غفيرة ، فقد اتجهت كل المحاولات لطمس تاريخها والهجوم على كل تصرفاتها ، وسأقتبس فيما يلى لقطات سريعة مما يتقدّم لأبنائنا فى مدارس الحكومة :

الزيف مقرر على التلاميذ

من كتاب التاريخ المقرر على الفرقة السادسة الابتدائية :

— كان فى الحامية العثمانية الموجودة بمصر ضابط ألبانى يدعى « محمد على » (رأيت هذا التعبير الذى ينمُّ عن جهل وخشونة) .

— رفض محمد على أن يشاركه زعماء الشعب فى حكم البلاد ، وانفرد بشئون الحكم دون أن يشاركه الشعب فى ذلك ، وبدأ فى فرض الضرائب على المصريين ، ونقض بذلك عهده للمصريين ٠٠٠٠ وأصبح حاكما مستبدا بشئون مصر . (كتب هذا لإرضاء عبد الناصر ، كأنَّ عبد الناصر هو الذى أشرك الناس معه فى حكم البلاد !!) .

(١) بهذه المناسبة نستذكر الاسفاف الذى يظهر فى التمثيليات التليفزيونية مثل التمثيلية الغنائية « اوبريت الليلة العظيمة » التى تصور الخديوى اسماعيل فى صورة لا يرسمها الا جاهل بالتاريخ أو منافق .

— بسط محمد على النفوذ العثماني على أنحاء الجزيرة العربية وعلى السودان (للأسف نسي المؤلف بعد لحظة هذا الكلام حينما تحدث عن حرب محمد على للعثمانيين) •

— لم يكن محمد على يهدف الى تحقيق الوحدة العربية ، بل كان همه أن يكون لنفسه ملكا عريضا له ولأسرته ، ولذلك لم يعمل محمد على ما فيه الخير للبلاد ، بل كان همه استغلال ثروات البلاد العربية لمصلحته الخاصة فسئم الناس حكمه وتمنوا القضاء عليه • (ما رأى المؤلف في ثراء أشرف مروان وأسرة عبد الناصر وعصمت السادات ؟) •

— كان اسماعيل مسرفا بطبيعته فتوسع في القروض الأجنبية لإقامة قصوره ورحلاته واستراحاته وحروبه ، ولتقديم الرشاوى إلى السلطان العثماني بين الحين والآخر ، وكانت هذه القروض من أهم الأسباب التي نتج عنها الاحتلال البريطاني •

(نسي المؤلف قروض مصر في عهد الثورة ، كما نسي أن أوروبا احتلت كل أفريقية وآسيا في هذه الفترة الحالكة من التاريخ ، وكان الاحتلال يتم لسبب أو لآخر أو بدون سبب) •

— كانت الأحزاب فاسدة ومتنافسة على الحكم ، وتخضع لرغبات الملك والإنجليز •

— حديث طويل ورائع عن مصطفى كامل يثني عليه ويذكر أن أسرته مصرية كريمة ، وجهوده ميمونة في الداخل والخارج ، ومثل ذلك فيما يتعلق بمحمد فريد ، فاذا وصل الأمر إلى ثورة ١٩١٩ لا نجد كلمة ثناء على سعد زغلول ، ولا على دستور ١٩٢٣ الذي انبثق في عهد مبكر ، والذي قيل عنه إن البلاد لم تحظ بدستور مثله حتى الآن ، وإذا جئنا إلى معاهدة ١٩٣٦ نجد أن المؤلف لم يستطع ذكر اسم النحاس الذي عقدها ، وقال « وتفاوضت مصر مع إنجلترا ٠٠٠ » ونجده يبرز ما أسماه عيوب هذه المعاهدة

ويختتم كلامه بقوله : ٠٠٠ حتى قامت ثورة ٢٣ يوليو بقيادة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر فأنقذت الموقف وحققت الجلاء والاستقلال .
(يلاحظ أنه كتب هذا بعد وفاة جمال عبد الناصر ، وإسرائيل تحتل سيناء وقد دمرت مدن القناة وللروس في مصر قواعد خطيرة ، ومع هذا يتحدث المؤلف عن الجلاء والاستقلال) .

ذلك هو الزيف التاريخي عن أسرة محمد علي ، كما نراه في مقرر الفرقة السادسة الابتدائية وهذا الزيف ينمو مع نمو التلميذ المصري ، فنجد مضاعفا في المرحلة الإعدادية ، والمرحلة الثانوية ، ونجد صورا منه في التليفزيون والاذاعة .

كتابة تاريخ هذه الحقبة من جديد :

ومن أجل هذا الزيف علت الأصوات بأن تاريخ هذه الحقبة ينبغي أن يكتب من جديد ، وقد حاولت بإصرار أن أكون أمينا كل الأمانة قيما أكتب ، إذا أن إحساسي عميق كل العمق بمسئولية المؤرخ أمام الله وأمام الناس ، ولذلك أعيد أن أكون منصفاً كل الإنصاف ، فأثنى على من يستحق الثناء ، وأهاجم من خان البلاد أو سبب لها كارثة من الكوارث وسنرى في محمد علي وأسرته مواقف تستحق التقدير والثناء ، وتلك سنبرزها ونثنى عليها ، وسنرى من بعض السلاطين والملوك انحرافا بل خيانة ، وتلك سنبرزها أيضا ونهاجمها ، ومثل هذا ما سنفعله في عصر ما بعد أسرة محمد علي ، فالعرض التاريخي سيتخذ الأمانة الدقيقة دستوراً ، والخوف من الله نهجه مع كل الناس وبخاصة مع أولئك الملوك والرؤساء الذين عاصرنا عهدهم وعشنا الحياة معهم ، ورأيت بنفسى تصرفاتهم ، تلك التصرفات التي ألقى على كاهلي مع قلة من المؤرخين مسؤولية تدوينها لهذا الجيل ولما يأتي من أجيال .

ذلك عهدى أخطو في ظله نحو تدوين تاريخ هذه الفترة ومن الله ألتمس العون والسداد .

محمد على والطريق للرئاسة

ولد محمد على في قوكله ، على السواحل المقدونى ببلاد اليونان سنة ١٧٦٩ ، وكان عمه يشغل منصب « نائب الوالى » وهو منصب عظيم آنذاك ولم يحظ محمد على بتربية مدرسية يعتد بها ، ولذلك أثر الاستغال بالتجارة ، فعمل في تجارة التبغ ، وكان التبغ من أهم السلع في تلك المنطقة .

وخلال الحملة الفرنسية أرسل السلطان سليم الثالث حملة بحرية الى مصر سنة ١٧٩٩ ، وكلف عم محمد على أن يرسل كتيبة مؤلفة من ثلاثمائة شخص الى مصر ، فأرسلها بقيادة ابنه الصغير يساعد ابن عمه محمد على ، وسرعان ما تولى محمد على القيادة الفعلية ، واشترك في بعض المعارك ضد الفرنسيين ، وسار في سلم الترقية حتى أصبح الشخص الثالث بين قادة العثمانيين بمصر ، فلما تمرد الجند على خسروباشا وقتلوا طاهر باشا بدأ نجم محمد على يتألق ، وعينت الأستاذة خورشيد واليا على مصر ولكن محمد على استطاع بحيلته أن يرتبط بالمماليك ، واتخذ البرديسى بوجه خاص تكأة له ، وكان البرديسى طموحا في قسوة وجهل ، فوجده محمد على مركبا سهلا ، وطالب الجند بمرتباتهم فحاضى محمد على بينهم وبين البرديسى ، وراح هذا الأحق يفرض الضرائب بعنت ويجمعها بقسوة ، مما أثار عليه الشعب والجند ، واضطر أخيرا أن يهرب الى الشام .

ولم يبق أمام محمد على إلا خورشيد الوالى الجديد ، وقد جاء هذا الى البلاد بعنجهية الأتراك وشغبهم ، وكان محمد على في الوقت نفسه حريصا على التقرب من زعماء المصريين وشيوخهم ، وارتكب جند الوالى الجديد بعض المفاصد مما زاد في ثورة الشعب ، ونتيجة للسياسة المملوكية والعثمانية ، اجتمع زعماء الشعب ، وأعلنوا عزل الوالى خورشيد باشا واختيار محمد على واليا عليهم في مايو سنة ١٨٠٥ ، وألبسه السيد

عمر مكرم والشيخ الشرقاوى خلع الولاية ، ولم يخضع خورشيد لقرار العزل الصادر من « الفلاحين » (على حدّ قوله) وتحصن بالقلعة ، ولكن الحكومة العثمانية وجدت من الحكمة أن توافق على ما ارتآه الشعب المصرى ، وصدر بذلك فرمان فى يوليو سنة ١٨٠٥ •

ولم تكن تركيا مخلصه فى هذا التصرف ، وانما أرادت به تهدئة الأحوال مؤقتا ، بدليل أنها بعد عام واحد أرسلت لمصر واليا جديدا اسمه موسى باشا بدلا من محمد على الذى قررت نقله الى سلانيك ، ولكن الشعب المصرى أجهض هذه المحاولة فثبت ضعف تركيا أمام العزيمة المصرية •

مشكلات فى طريق الوالى الجديد :

لم تضع هذه العوامل حداً لمتاعب محمد على ، فالممالك لا يزالون يهددون مركزه ، وبخاصة أنه لم يعد ممثلا لتركيا فقط ، وانما لأنه أصبح أيضا ممثلا للشعب المصرى الذى اختاره ، وتركيا لم تكن راضية عن محمد على ، وانما أرغمت على تعيينه ، ولذلك كانت تتحين الفرص للتخلص منه ، والانجليز كانوا يحتضنون محمد الألفى زعيم الممالك ، وقد وضعوا معه مخططا إبان زيارته لانجلترا ، ليعملوا على وضعه فى مكان القيادة ، وليضمن لهم تيسيرات اقتصادية وسياسية فى البلاد ، والشعب المصرى ممثلا فى شيوخه كان أيضا عقبة فى طريق الوالى الجديد الذى يرى فيهم منافسين له فكان ينوى التخلص من سيطرتهم حتى يخلو له الأمر •

وأساعدت الظروف محمد على فتخلص من هذه المشكلات واحدة واحدة ، فمن جهة تركيا استقطاع أن يصل إلى اتفاق معها ، على أن يدفع جزية سنوية قدرها عشرون ألف جنيه ، وقد رضيت تركيا بذلك إذ أيد مستشاروها إبقاءه فى منصبه ، وأما الممالك فقد ساعده الحظ إذ مات البرديسى سنة ١٨٠٦ والألفى سنة ١٨٠٧ وأعمل محمد على الحيلة أو

الرشوة بالمال أو المناصب مع باقى الممالك حتى سنة ١٨١١ ، فقام بمذبحة القلعة التى أشرنا لها من قبل وسنتحدث عنها بعد قليل ، والتى قضى بها محمد على على ذلك العنصر قضاء مبرما .

حملة فريزر :

أما الانجليز فقد هالهم ميل محمد على تجاه فرنسا ، وكانوا قد أعدوا حملة بقيادة الجنرال فريزر لمؤازرة حليفهم محمد بك الألفى ، ولكن هذا مات قبل وصول الحملة بيد أن الحملة لم تتوقف وسارت تجاه مصر وفى مارس سنة ١٨٠٧ احتلت الاسكندرية بدون مقاومة ، إذ آثر حاكمها التركى « أمين أغا » أن يبيع المدينة برشوة حصل عليها من الانجليز ، واتجهت الحامية الى رشيد فحاصرتها ، ولكن الشعب هب يناضل فى حماس وقوة ، فانتهصر على المعتدين وردهم على أعقابهم ، وطلب الانجليز مفاوضة محمد على للجلاء ، وتم جلاؤهم سنة ١٨٠٧ ، وينبغى أن نوضح أن فريزر لقي الهزيمة على يد أبناء الشعب فى رشيد والحماد ، قبل أن يصل محمد على من الصعيد ، ولما وصل محمد على الى الميدان قابله طلب الانجليز بالتفاوض للجلاء ، فأتمه وجنى بذلك نتائج جهود الشعب المكافح .

وانتف الشعب المصرى حول محمد على ، ولما اختلف هذا مع عمر مكرم أبعده الى دمياط ، وتلك عقوبة بسيطة جدا اذا قورنت بما انزله عبيد الناصر بمخالفيه حتى من رفاقه الذين قاموا معه بما يسمى « الثورة » (١) .

والحكام من أسرة محمد على هم :

١ — محمد على سنة ١٨٠٥م : تولى عن الحكم ١٨٤٨ وتوفى سنة ١٨٤٩ .

٢ — ابراهيم بن محمد على سنة ١٨٤٨ م ، توفى فى نفس العام .

٣ — عباس الأول (ابن طوسون بن محمد على) سنة ١٨٤٨ م .

(١) اقرا عن الصراع بين عبد الناصر وزملائه فى الجزء التاسع من هذه الموسوعة .

- ٤ - سعيد بن محمد على سنة ١٨٥٤ م .
 - ٥ - اسماعيل (ابن ابراهيم بن محمد على) ١٨٦٣ م (اتخذ لقب خديوى - ثم عزل سنة ١٨٧٩) .
 - ٦ - توفيق بن اسماعيل سنة ١٨٧٩ م .
 - ٧ - عباس (الثانى) امين (ابن توفيق) سنة ١٨٩٢ م (عزلته انجلترا سنة ١٩١٤ م) .
 - ٨ - حسين كامل بن اسماعيل سنة ١٩١٤ م (اتخذ لقب سلطان سنة توليته) .
 - ٩ - أحمد فؤاد الأول بن اسماعيل سنة ١٩١٧ (اتخذ لقب ملك سنة ١٩٢٢) .
 - ١٠ - فاروق بن فؤاد سنة ١٩٣٦ (عزلته الثورة فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢) .
 - ١١ - أحمد فؤاد الثانى (طفل ، ابن فاروق عزلته ثورة يوليو وأنهت حكم أسرة محمد على وأعلنت النظام الجمهورى فى ١٨ يوليو سنة ١٩٥٣) .
- وسنورد اهم الأحداث التى جرت فى عهد كل من هؤلاء عند حديثنا عن الفترة التى وجد فيها ، وسنعمد أكثر الاعتماد على المراجع المحايدة فى هذه الدراسة .

محمد على وبناء الدولة الحديثة

اهتم محمد على اهتماما كبيرا بأن يجعل من مصر دولة حديثة تلحق بركب التقدم الأوروبى الذى كان محمد على على صلة بنهضته ، وفيما يلى أهم معالم هذا الاتجاه مع بيان أبرز ما شاب ذلك من عيوب :

أولاً - الجيش والاسطول

من الواضح أن الحياة فى مصر منذ مطلع عهد محمد على ، كانت تحتاج إلى جيش ، لضمان الاستقلال فى الداخل ، ثم لتحقيق الأطماع التى بدأت فى تصرفات محمد على من يوم الى يوم .

وقد حاول محمد على أن يَحْدِثَ من سلطة الجنود الآرناود « الألبانيين » ولكن هؤلاء حاولوا الفتك به ، ولذلك عمل على تشتيتهم ، ثم وكل للكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) أن ينظم الجيش المصرى تنظيما حديثا .

وسليمان باشا الفرنساوى (١٧٨٨ — ١٨٦٠) أحد الضباط الفرنسيين الذين كانوا ضمن جيش نابليون الذى زحف الى مصر ، وقد بقى بمصر عقب انسحاب الجيش الفرنسى ، وتمصر واعتنق الاسلام ، فألحقه محمد على بالجيش المصرى سنة ١٨١٩ ، وعينه مدريا للمشاة بأسوان ، ثم تدرج فى مناصب الجيش حتى أصبح رئيسا للأركان ، ووكل له محمد على مهمة تكوين جيش مصرى يضارع الجيوش الحديثة وقد اشترك فى أغلب الحملات العسكرية التى شنها محمد على ، وتوفى بالقاهرة ودفن بمصر القديمة .

وكان جيش محمد على فى أبل الأمر من مماليكه ، ومن ممالك آخرين قدمهم أعيان القطر ، ولكن هؤلاء لم يألوا النظام وحاولوا الاعتداء على قائد الجيش ولذلك تخلص منهم فى الحروب السودانية ، وجند بدلا منهم جنودا من السودان ، من أهالى كردفان وسنار ، ولكن هؤلاء لم يحققوا آمال محمد على ، ولم تخلصهم الأجواء خارج السودان ، فبدأ محمد يتخذ جنوده من المصريين ، وأثبت هؤلاء كفاءة ممتازة ، فى حمل المسئليات التى نيطة بهم ، وعنهم يقول « كلوت بك » فى تقرير له : إنه حدث فى معركة قونية أن ترك جميع المرضى الذين كانوا يستطيعون حمل السلاح أسيرتهم فى المستشفى قاصدين الى ميدان القتال ليشاركوا اخوانهم شرف الانتصار أو شرف الموت ، وان فتوح الشام وانتصارات حمص وقونية ، أثبتت للأتراك ، سمو المصريين الذاتى عليهم باعتبارهم أفرادا ، كما أثبتت شوكتهم باعتبارهم جموعا تسوقها قواعد خطط القتال وتدبيره .

ومع هذه الكفاءة الممتازة فقد ظل الجنود المصريون يخضعون للقيادات الأجنبية من الأتراك وكان ذلك إجحافاً بهم ، كما كان من الأسباب التي أحدثت الثورة العربية •

وبنى محمد على لهذا الجيش القلاع والحصون كما أدرك أن قوة الجيش المصرى لأبد أن يدعمها أسطول يحمى الشواطئ الطويلة التي تطل عليها مصر ، ومن أجل هذا اتجه الى انشاء أسطول كبير اشترى بعض سفنه من الخارج ، وبني سفناً أخرى بالداخل ، وقد استلزم ذلك أن ينشئ « دار صناعة » عند بولاق لصناعة الأجزاء التي تتكون منها السفن ، وكانت هذه الأجزاء تنقل بطريق البر إلى السويس ثم تجمّع هناك وتنزل إلى البحر الأحمر ، كما أنشأ « داراً للصناعة البحرية » بالإسكندرية ، وكان رئيس الصنّاع اسمه « الحاج عمر » وقد أصبحت دار الصناعة المصرية ترسانة تضارع دور الصناعة الكبرى آنذاك وألحق بها مدرسة لتفريخ الضباط البحريين ، ورغبة في مزيد من التقدم أرسل بعثات إلى أوروبا لدراسة أحدث العلوم البحرية ، ومن أجل هذا سرعان ما أصبح لبحر أسطول حربي كبير يشمل ثلاثين قطعة ، ويعمل عليه الآلاف من البحارة والضباط والجنود •

وقد استلزم الجيش والأسطول ألواناً من الصناعات ألحقت بالترسانة ومنها أتسام لعمل البوصلات والنظارات وسبك الحديد ، ومادة الطلاء ومخازن الذخيرة والمهمات •

ثانياً — التعليم والنهضة الفكرية

فتحت الحملة الفرنسية العيون تجاه العلم ، واحتاج الجيش الذي أنشأه محمد على إلى ألوان من الثقافات العسكرية والمدنيّة ، ومن هنا اتجه محمد على إلى انشاء المدارس والجامعات لتفريخ المئات من المثقفين لشؤون الحكومة والدواوين وحاجات الجيش ، وبخاصة أن توظيف المتخصصين الأجانب كان يكلف الدولة نفقات ضخمة •

وقد أرسل محمد على سنة ١٨٢٦ أول بعثة مصرية الى فرنسا ، وكانت تتكون من أربعين شابا زيد عددهم فيما بعد ، وكان مسيو « جومار » مديرا لهذه البعثة •

ولما عاد أعضاء البعثات اعتمد عليهم محمد على ، وأحلهم محل الأجانب الذين كانوا يشغلون مناصب كبرى في الدولة ، وقد نجح أعضاء البعثات المصريون في مهمتهم أكبر نجاح ، ولا تزال أسماؤهم تتردد كرواد للفكر والحضارة في البلاد ، ومن أهمهم : رفاعة رافع الطهطاوى وعلى مبارك •

وأنشأ محمد على بمصر مجموعة من المدارس العليا مثل مدرسة الطب التى أنشأها كلوت بك ، ومدرسة الهندسة ، ومدرسة الصيدلة ، ومدرسة الزراعة ، ومدرسة الآلسن ، والمدارس الحربية المختلفة ، كما أنشأ عددا من المدارس الابتدائية والثانوية ، وقد وجه محمد على عنايته كذلك إلى الأزهر ، فقد وجد فيه معينا يستمد منه حاجاته من الطلاب لتغذية المدارس العالية وليكونوا أعضاء للبعثات •

ومن منشآت محمد على الثقافية المطبعة الأميرية في بولاق ، كما أنه أصدر أول صحيفة رسمية « الوقائع المصرية » باللغة العربية ، واللغة الفرنسية سنة ١٨٢٨ •

ثالثا — ملكية الأرض

كان الاقطاع سائدا في عهد المماليك ، وأحل السلطان سليم محله بنظام الالتزام ، فلما انهار نفوذ العثمانيين وعاد النفوذ للمماليك عاد سلطان المماليك على أكثر الأرض الزراعية ، وبجانب ذلك كان شطر من الأراضي موقوفا على المساجد ومعاهد العلم والتكايا ، وكان المشايخ والعلماء يديرون هذه الأوقات ، وبقي جزء ضئيل من الأرض يسير على نظام الالتزام الذى فرضه العثمانيون في أول عهدهم ، وكانت هذه هي

الحال في أول عهد محمد على ، فلما قضى على المماليك حل محلهم في السيطرة على الأرض التي كانت خاضعة لهم ، ثم ألغى الأوقاف وملتزمى الأرض ، وعلى هذا أصبحت كل الأرض الزراعية مملوكة للدولة يستغلها محمد على لحساب الدولة . وأصبحت العلاقة مباشرة بين الحكومة والفلاحين .

واستثناء من هذا النظام حقق محمد على الملكيات الآتية :

— الوسايا : والوسية قطعة أرض كانت تمنح للملتزم نظير قيامه بأعباء الالتزام عندما كان الالتزام موجودا في أول عهد محمد على ، وهذه الأرض غير أرض الالتزام وكانت معفاة من الضرائب ، وقد أبقاها محمد على هبة للذين كانوا ملتزمين .

— الأبعاديات : سميت الأبعاديات بهذا الاسم لأنها استبعدت من مجموع الأراضي المسوغة ، وقد وهب محمد على كثيرا من الأبعاديات لكبار الموظفين ورجال الجيش ، وكانت كذلك معفاة من الضرائب .

— الجفالك والشفالك : وهى الاقطاعات الواسعة التى منحها محمد على لأفراد أسرته وكبار حاشيته ، وكانت أيضا معفاة من الضرائب .

وكانت ضرائب الأرض تتبع خصوبتها ، وكانت الضريبة تتراوح بين أربعة قروش ونصف وتسعة وأربعين قرشا للفدان .

رابعا — الاقتصاد

اصلاحات زراعية مهمة :

في عهد محمد على حدثت مجموعة كبيرة من الإصلاحات الزراعية التى قصد بها تنمية الزراعة ، ومن أهم الإصلاحات التى أتمها محمد على بناء القناطر الخيرية على رأس الدلتا ، وقد أفادت في تنظيم توزيع المياه على فرعى النيل ، وكان من أغراضها أن تعود بالفائدة على أرض الصعيد .

ومن اصلاحاته كذلك انشاء ترعة « المحمودية » بالبحيرة وقد نسبت الى السلطان محمود ، وترعة المنصورية بالدقهلية كما أنشأ مجموعة أخرى من الترع والجسور والقناطر ، واستلزم انشاء بعض الجسور اقامة مدن ، أصبحت فيما بعد مدنا كبيرة ، ومن هذه مدينة الزقازيق التي أنشئت بمناسبة إنشاء قناطر بحر مريس ، وقد زادت رقعة الأرض المسالحة للزراعة زيادة كبيرة بسبب هذه المنشآت .

ومن الاصلاحات الزراعية التي تنسب الى محمد على أنه أدخل للبلاد حاصلات جديدة كالقطن والدخان وأشجار الزيتون وغيرها .

ولكن الفلاح المصرى لم ينعم بهذه النتائج كما ينبغي وذلك لانتشار الاحتكار الذى يقول عنه المؤرخ عبد الرحمن الرافعى : إن احتكار الحكومة للحاصلات الزراعية عمل ينطوى على الظلم والإرهاق ، وفيه مصادرة لحق الملكية ، وحرمان للمالك من الاستمتاع بحقه ، ومن الانتفاع بتراحم التجار على الشراء ، ذلك التراحم الذى ينجم عنه مضاعفة الثمرة للبائع (١) . وتلك للأسف سياسة اتبعت مضاعفة في عهد الثورة الناصرية .

الصناعة :

وفى مجال الصناعة أدخل محمد على للبلاد مجموعة الصناعات المهمة بالاضافة الى مصانع الأسلحة وذلك مثل مصانع الغزل والنسيج ومصانع سبك الحديد ، ومصانع السكر والورق والصابون والزجاج .

وقد سرى مبدأ الاحتكار من الزراعة الى الصناعة لما كان يدره الاحتكار من الأرباح الطائلة ، وقد شمل الاحتكار كل شئ ، يقول الجبرتى : شمل الاحتكار كل ما يصنع بالكوك وينسج على نول ، من

(١) تاريخ الحركة القومية ج٣ .

جميع الأصناف ، من ابريسم وحرير وكثان إلى الخيش والحصير ، في سائر الإقليم المصرى طولا وعرضا من الاسكندرية ودمياط إلى أقصى بلاد الصعيد (١)

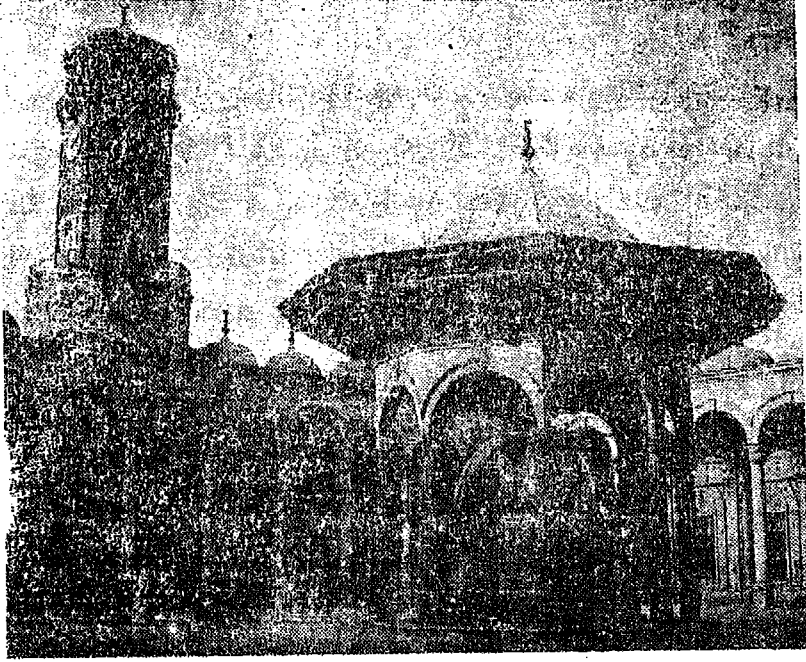
(وقد مرّ الزمن وانتهت أسرة محمد على ، وأوشكت أن تلوى القرن العشرين ، ومع هذا فالاحتكار الزراعى الذى شكاه منه عبد الرحمن الرافعى يوجد بمصر الآن منذ فرضه جمال عبد الناصر ، والاحتكار الصناعى قائم كذلك فيما يسمى القطاع العام الذى خلقه جمال عبد الناصر ، وجعله يملك أكثر الصناعات أو كلها) •

التجارة :

أما فى مجال التجارة فقد حقق عهد محمد على انتعاشا واسعا لها وذلك بسبب التطور الذى شهدته الزراعة والصناعة ، وما تحقق من تغطية لمطالب الشعب ، ثم ما تحقق من فائض للتصدير ، وقد ساعدت الطرق البرية التى مهدها محمد على من انتعاش التجارة الداخلية ، كما ساعد الأسطول التجارى وإصلاح ميناء الإسكندرية على انتعاش التجارة الخارجية :

المنشآت المعمارية :

ومن أهم منشآت محمد على جامعته فى القلعة ، وهو تحفة فنية رائعة • وسنعرض فيما يلى بعض صور حديثة لأجزاء منه ، وهى تدل على قدر عظيم من التطور فى مجال هذه المنشآت •



مسجد محمد علي بالقلعة تحفة فنية رائعة



مئذنة مسجد محمد علي بالقاهرة

حروب محمد على

خاض محمد على مجموعة من الحروب قام بها أحيانا ليظهر ولاءه للباب العالي ، وقام بها أحيانا أخرى ضد الباب العالي ، إذ كان ينوى أن يحقق بها طموحا واسعا ، ولكن الظروف كانت أقوى منه ، فحالت دون تحقيق أحلامه كاملة ، وفيما يلي كلمة قصيرة عن أهم هذه الحروب :

مذبحة المماليك سنة ١٨١١ :

ترتبط مذبحة المماليك بحروب نجد التي سنتحدث عنها عقب هذا ، فان محمد على أحس أن من الخطر أن يبعث بجيشه إلى الخارج ، ويترك المماليك يكوّنون سلطة كبيرة بالداخل ، فقد خاف أن ينتهزوا هذه الفرصة ويثوروا عليه ، وكانت شوكة المماليك — كما ذكرنا من قبل — ضعيفة بسبب ما نالهم أيام نابليون وبعده ، ولذلك استقر رأى محمد على أن يقضى عليهم حتى تتحرك جيوشه بالخارج وهو في مأمن من الأحداث والانقلابات ، وقد انتهاز فرصة إعداد الجيش للسفر إلى الجزيرة العربية ، فدعا الأعيان والكبراء ومن بينهم المماليك لتوديع هذا الجيش ، واحتشد الناس في القلعة ورحب بهم محمد على ، ثم بدأت الجموع تتحرك حتى وصل موكب المماليك إلى مضيق تصعب الحركة فيه ، وهنا استدار من سبقوهم واستعد من لحقوهم ومن كانوا كامنين في الجانبين ، وهطل الرصاص من كل جانب ، وعملت السيوف عملها ، ولم ينج منهم أحد تقريبا ، ثم صدرت التعليمات بالقضاء على من تبقى ممن لم يحضر الاحتفال ، وكان ذلك نهاية العهد بالمماليك ، فقد قُتِلَ أكثرهم ونجت قلة ضئيلة انماعت في الشعب فلم يعد لها أثر .

ومثل هذا التصرف حدث كثيرا في التاريخ كتكبة البرامكة في عهد هرون الرشيد . وكحادثة الخندق أو الحفرة في عهد الحكم بن هشام

بالأندلس ويرى مرتكبوها أنهم بها ينفذون الشعب من الصراع
ويتحاشون ثورات خطيرة النتائج .

الحرب مع السعوديين سنة ١٨١١ — ١٨١٨ :

ظهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية بفكر اصلاحى
رائع (١٦٩٦) وخلاصة مذهبه القضاء على التوسل بالأنبياء والأولياء ،
وهدم مزاراتهم وقبابهم ، ومحاربة التدخين والموسيقى ، وقد تحدثنا عن
حركة التوحيد التى يسميها البعض الحركة الوهابية بكثير من التفصيل
في الجزء السابع من هذه الموسوعة عند الكلام عن تاريخ الجزيرة العربية ،
والذى نريد أن نقوله هنا ، أن هذا الفكر عظم في مطلع القرن التاسع
عشر بمعرفة محمد بن سعود أمير نجد ، فاحتل هذا مكة والمدينة سنة
١٨٠٣ ومنع حجاج مصر والأتراك من الحج لوجود قباب في بلادهم ،
وصار بذلك خطرا على نفوذ الدولة العلية ، فطلب العثمانيون من محمد
على القضاء عليهم ، وانتهر محمد على هذه الفرصة ليعيد صلة مصر بالحجاز ،
ثم ليتخلص من الجنود الألبانيين الذين كانوا يثيرون المتاعب ضده ويتمردون
من حين إلى آخر ، فأعد حملة كبيرة ووضع على رأسها ابنه طوسون ، ولما تمثر
هذا في الانتصار ، خرج محمد على بنفسه فلحق به ، وحقق بعض النصر ثم
عاد ، وعقد طوسون صلحا مع السعوديين ، ثم مات عقب عودته الى
مصر ونقض السعوديون الصلح ، فأرسل محمد على ابنه ابراهيم الذى
استطاع أن يدمر « الدرعية » عاصمة السعوديين سنة ١٨١٨ وجاء اليه
أميرهم عبد الله وسلم نفسه ، فأرسله ابراهيم الى الآستانة حيث أعدم ،
وكانت المروءة تقضى ألا يفعل ذلك (١) .

(١) اقرأ احاديث منفصلة عن هذه الأحداث في الجزء السابع من هذه
الموسوعة .

وعلى كل فقد عادت أفكار محمد بن عبد الوهاب الى الانتعاش ، ولا تزال سائدة في المملكة العربية السعودية حتى اليوم ، ومنها تنتشر الى كثير من البقاع .

ومما يذكر أن المذنبين العرب والأجانب كانوا يعتمدون على الجبرتي في تصوير هذه الحروب وفي ذكر أسبابها ونتائجها ، وكانوا يدينون محمد على تبعا لرأى الجبرتي ، ولكني عثرت على كتب كتبها مؤرخون سعوديون هم عثمان بن بشر (١) ومحمد بن عبد الله الأنصاري (٢) والشيخ ابراهيم بن صالح (٣) وهي تذكر أن السعوديين هم الذين نقضوا العهد وهاجموا المصريين وحلفاءهم ، وهم يلقون تبعة هذه الحروب على الجانب السعودي .

وفي عهد الملك العظيم عبد العزيز آل سعود قرر الملك فتح بلاد الحجاز للحجاج وإن وجدت القباب في بلادهم ، ورأى أن تسير دعوة الإصلاح سلمية ، أحسن الله جزاءه (٤) .

حرب السودان سنة ١٨٢٠ :

ربط النيل بين مصر والسودان برباط مقدس ، وعلى مر التاريخ حرص حكام مصر من وطنيين أو فاتحين على أن يسيروا مع النيل جنوبا لاعتقادهم أن حوض النهر يكون وحدة واحدة ذات عناصر مشتركة اقتصاديا وجغرافيا ، وهناك كذلك عناصر تاريخية بين سكان الوادي شماله وجنوبه ، جاءت نتيجة للروابط التي نمت بين هؤلاء السكان في عهد الفراعنة والفرس والرومان والبطالسة والعرب وبخاصة العرب المسلمون ،

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد ص ١٨٢ — ١٨٣ .

(٢) تحفة المستفيد ص ١٤١ .

(٣) تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ص ١٤١ .

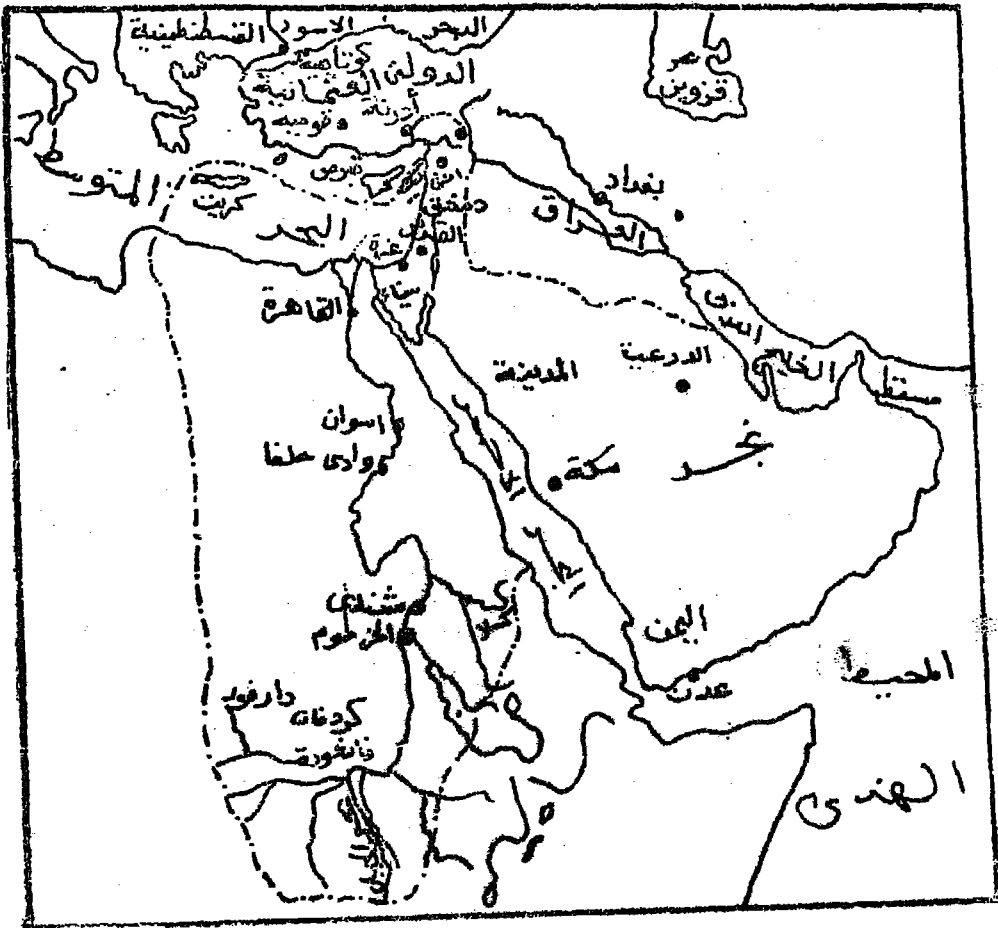
(٤) اقرا تفاصيل ذلك في الجزء السابع من هذه الموسوعة ص

ولعل هذا كان السبب في زحف محمد على الى السودان ، هذا بالإضافة الى رغبته في القضاء على المماليك الذين فروا الى بلاد النوبة ، ورغبته في القضاء على من بقى بجيشه من الجنود الألبانيين كثيرى الشغب وإحلال السودانين في الجيش محلهم ، ومن أطماعه في السودان كذلك البحث عن الذهب لينفذ مشروعاته الواسعة .

وعرض محمد على رأيه على مستشاره العسكرى محمد بك لاطوغلى ، وأعدت الحملة برا وبحرا بقيادة اسماعيل بن محمد على وتقدمت الى الجنوب ، وكان مع الحملة مجموعة من علماء الشريعة الإسلامية ليدعوا المسلمين بالسودان الى الوحدة والمواخاة وليدعوا غير المسلمين الى الدخول في دين الله ، وحقق اسماعيل مجموعة من الانتصارات ، ففتح بربر وشندى وسنار ، ثم أرسل محمد على جيشا ثانيا بقيادة ابنه ابراهيم فسار محاذيا للنيل الأبيض ، وسار اسماعيل محاذيا النيل الأزرق ، ثم عاد ابراهيم لمرض أصابه ، وقفل اسماعيل بعده عائدا ، فلما بلغ شندى حصل خلاف بينه وبين نمر ملك شندى فدبر هذا مكيدة أحرق فيها اسماعيل وبعض خاصته في أثناء وليمة أقامها لهم .

واتجه محمد بك الدفتر دار صهر محمد على الى شندى للانتقام من الملك نمر ، وقد استطاع هذا أن يدمر شندى ، ولكن الملك نمر فر منه تجاه الحبشة وأسس الدفتردار مدينة الخرطوم سنة ١٨٢٢ عند ملتقى النيل الأزرق بالنيل الأبيض .

ومن الواضح أن حملة السودان لم تحقق الكثير من أغراضها ، ولكنها وصلت بين القطرين الشقيقين بهذه الصلة السياسية ، ولم يمعن محمد على في حرب السودان بل توقف عند الخرطوم اذ استدعاه الباب العالي لإخماد ثورة اليونان ، وقد تحدثنا حديثا مستقيضا عن التوسع المصرى في السودان وفي افريقية بالجزء السادس من هذه الموسوعة .



اتساع سلطة محمد علي

حرب اليونان سنة ١٨٢٣ :

كانت تركيا في مطلع القرن التاسع عشر في متهى الضعف ، وقد تركها موقف السلطان محمود الثانى من القضاء على الإنكشارية بدون جيش تقريبا ، وفي هذا الوقت ثارت اليونان متأثرة بالثورة الفرنسية التى نادى بمبادئ الحرية والمساواة ، ولم يجد الباب العالى وسيلة لإخماد هذه الثورة إلا محمد على .

وفرّح محمد على بهذا الموقف الذى يجعله منقذاً وندياً للباب العالى بعد أن كان تابعا ، وعيّن الباب العالى محمد على واليا على جزيرة إقريطش سنة ١٨٢٣ وأمره بإخماد الثورة هناك ، فسار لها إبراهيم باشا وهزم الثوار ، ثم عينه الباب العالى واليا على بلاد المورة وأمره بإخضاعها ، فسار إليها إبراهيم باشا وأخضعها بعد جهد كبير ، وبعد توضّحات واسعة ولكن روسيا وانجلترا وفرنسا تحركت لمساعدة اليونان وقبرت إرسال عمارة بحرية تحت قيادة القائد الانجليزى « كندر نجتون » وبخلت هذه العمارة خليج « نوارين » حيث كانت ترسو البحرية المصرية التركية ، وحدث بعد ذلك احتكاك بين بعض الزوارق والبعض الآخر فهبت المعركة (أكتوبر سنة ١٨٢٧) وكان القائد الانجليزى يتحين الفرص للقضاء على البحرية المصرية التى بدأت تتخذ مكانها فى البحر المتوسط ، واستمرت المعركة ثلاث ساعات دمرت فيها البحرية المصرية والتركية تماما وقتل عدة آلاف من البحارة المصريين والأتراك . وكانت خسارة الطرف الآخر قليلة .

ولم يعد لمصر بقاء فى اليونان بعد تدمير الأسطول ، وقد هدد كدرنجتون بتدمير الإسكندرية اذا لم ينسحب إبراهيم من اليونان ويتعهد ببرد الأسرى .

وانسحبت مصر من اليونان ووافقت تركيا على استقلال اليونان فى معاهدة أدونة فى سبتمبر سنة ١٨٢٩ ، وخسرت مصر فى حرب اليونان

حوالى ثلاثين ألفا من الجنود ، ونفقات باهظة ، وعمارتها البحرية الكبيرة ، ويمكن القول إن مصر لم تربح شيئا .

حروب الشام والأناضول من سنة ١٨٣١ :

كانت خسارة مصر في حرب اليونان فادحة كما رأينا ، وطمع محمد على في تعويض من الباب العالي ، واتجهت أطماعه للشام فطلبها من الباب العالي نظير جزية كبيرة ، ولكن الباب العالي كان يعمل لهدم محمد على وانتقاص سلطانه ، لا لبنائه ومدد ملكه ، فرفض ملتمسه .

وراح محمد على يدبر الأمر لينال ما يريد معتمدا على القوة ، واتخذ لذلك عدة أسباب :

— أن حدود مصر الطبيعية من ناحية الشمال هي جبال طوروس الفاصلة بين الأناضول وسوريا .

— أن الاستيلاء على سوريا سيمد النشاط المصرى بطاقة بشرية ، وطاقة اقتصادية تتمثل في الأخشاب والفحم والنحاس والحديد :

— سوريا كانت كثيرة القلق تحت نير العثمانيين .

— فتح والى عكا بلاده للمهاجرين من مصر ، ولم يستجب لنداء محمد على بردهم .

وبدأت الحملة من البر ومن البحر في أكتوبر سنة ١٨٣١ فاحتلت غزة ، يافا وحيفا دون مقاومة تفكر ، ثم حاصرت عكا وأسقطتها وسلم قائدها « عبد الله باشا الجزار » نفسه في مايو سنة ١٨٣٢ ، ودخل الجيش المصرى دمشق في يونيو سنة ١ٸ٣٢ وانتصر المصريون انتصارات حاسمة على الأتراك في موقعة حمص (٩ يوليى) ودخلوا حلب (٢٦ يوليى) ، وانتصروا في بيلان (٣٠ يوليى) وتم بذلك فتح الشام ، وسقط آلاف الأتراك قتل ، وجرح ، وأسرى ، وفقد الأتراك ذخائر هائلة .

وتخطى جيش مصر حدود الشام الى آسيا الصغرى فحذر جيشا كبيرا يقوده الصدر الأعظم رشيد باشا في موقعة قونية (ديسمبر ١٨٣٢) ووقع الصدر الأعظم أسيرا ، وتوغل الجيش متطلعا الى آسيا الصغرى والعراق وتركيا الآسيوية .

معاهدة كوتاهية :

وهرعت تركيا تطلب مساعدة روسيا ودول أوروبا فاستجابت هذه للدعاء ، ففي هذه الاستجابة تدمير لتركيا ولحمد على جميعا ، وهو هدف أوروبا ، وانتهى هذا التدخل بمعاهدة كوتاهية (مايو ١٨٣٣) التي قضت بضم سوريا وولاية أدنة الى محمد على وبأن يثبت على كريت والحجاز بالإضافة الى مصر ، على أن يجلو عن الأناضول ، وكان هذا انتصارا لمصر .

بيد أن تركيا بدأت تفريق من كبوتها ، وعقدت معاهدات مع دول أوروبا وبخاصة روسيا وانجلترا ، وكانت الأخيرة حريصة على إضعاف قوة محمد على لأنه في طريقها الى الهند ، ثم إن ثورات داخلية بدأت تهب ضد ابراهيم في سوريا بتأييد تركيا وبزعامة رجال الاقطاع الذين أخذت اقطاعاتهم أو زيدت عليهم الضرائب ، وقد قضى ابراهيم على أكثر هذه الثورات بتأييد حليفه بشير الشهابي ، ولا أحس محمد على بأصبع تركيا في دفع هذه الثورات بدأ يفكر في اعلان استقلاله عنها ، بل أعلن ذلك في مايو سنة ١٨٣٨ ، وبدأت الحرب من جديد .

موقعة نصيبين وانهيار جيش الترك :

وفي موقعة نصيبين (يونيو سنة ١٨٣٩) اندحر جيش الترك ووقع أكثره بين قتيل وأسير ، ومات بعدها السلطان محمود وتولى بعده السلطان عبد المجيد وعين خسرو باشا صدرا أعظم ، فدفع ذلك التغيير فوزي باشا قائد الأسطول التركي والعدو للدود لخسرو أن يلجأ بالأسطول الى مصر ويطلبه لحمد على .

تدخل أوروبا ومعاهدة لندن :

وتدخلت أوروبا من جديد واتفقت دول أوروبا في معاهدة لندن (يوليو ١٨٤٠) ، على شروط أهمها أن يردَّ محمد على لتركيا كريت والامكنة المقدسة وأدنة والشام وتبقى مصر ونيّة وراثية له ولأسرته ، وأن تكون له عكا والجزء الجنوبي من الشام مدى حياته على أن يدفع جزية للباب العالي ويظل تابعا له ، على أنه إذا لم يقبل ذلك في مدى عشرة أيام ، فقد ولاية الشام وأجبرته دول أوروبا على الانسحاب والقبول .

ورفض محمد على في بادئ الأمر هذه الشروط القاسية فتقدمت إنجلترا لارغامه بالحيلة وبالقوة وقدمت المساعدات للتأثرين ضده ، واحتلت أهم المواقع بالشام وهددت الاسكندرية ، فأكره محمد على على الاستجابة وانسحب من الشام كله ومن جزيرة العرب ، ولم يبق له الا مصر وراثية بضمان الدول ، وفقد الجيش المصرى آلاف الرجال وهو ينسحب من الشام كما فقد كثيرا من المعدات .

نهاية محمد على

كانت السنوات الباقية من عمر محمد على مريرة ، فآثار الحرب وآثار الجهد ، وهبوط النيل ، كل ذلك خيم على الشعب ، بل أثّر في أعصاب محمد على فاضطربت صحته واعتزل في أبريل سنة ١٨٤٨ ثم مات في أغسطس سنة ١٨٤٩ .

محمد على في الميزان

لا شك أن محمد على أنقذ مصر مما كانت تعانيه من أمراض فتاكة قبل عهده ، فقد خلصها من فوضى المماليك ومن ظلام العثمانيين ، ووضع بذلك نهاية لقرون مريرة مرت بها مصر خلال هذين المهدين الكالحين .

ودفع محمد على الضوء الى مصر عن طريق البعثات العلمية التي أرسلها الى أوروبا وعن طريق المدارس والمعاهد العليا التي أنشأها بمصر ، وكوّن محمد على لمصر قوة عسكرية هائلة جعلت العدم والصدى يحسب حسابها ، واهتم محمد على بالزراعة اهتمام عارف خبير ، ولا تزال القناطر انتى أنشأها على النيل خير دليل على جهده .

ويمكننا أن نعرف قَدْرَ محمد على وقدر بعض خلفائه من بعده لو قارنا حالة مصر بعد الحرب العالمية الثانية بحالة سواها من الدول العربية التي ظلت تحت سلطان العثمانيين حتى الحرب العالمية الأولى ، ثم تسلمها الاستعمار الأوربي من العثمانيين حتى تحقق لها الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية ، ويقول المطلعون أن من أسباب السبق الذي أحرزته مصر هو استقلال محمد على بها عن العثمانيين في عهد مبكر ، وما حققه من انجازات لم يكن لها مقابل في البلاد العربية الأخرى .

ويقول أحد الباحثين : ان محمد على هو مؤسس مصر الحديثة الذي بنى جيشها الوطنى ، وحرر أراقتها من التبعية التركية ، وأنشأ صناعتها ، وشيّد معاهد العلم والتكنولوجيا فيها ، ونظم زراعتها ورقّاها ، وجعل منها أقوى دولة في الشرق الأوسط ، وبنى كثيرا من جسورها الحضارية مع أوروبا (١) .

ذلك هو الجانب المضيء عن محمد على وما أكثر الجوانب المضيئة في حياته ، ولكن هناك جانبا آخر ليس مضيئا فان محمد على بنشاطه وطموحه ازعج الدنيا حوله ، فتركيا لم تكن ترضى أن يكون لها تابع في مثل قوتها أو أكثر منها قوة ، ودول أوروبا لا ترضى أن تستبدل « بالرجل الريض » على ساحل الشام وعلى ضفاف النيل دولة ناهضة فتية ، وكان محمد على يزج بأتباعه الألبانيين في حروب الوهابيين والسودان ليخلص منهم ،

والعجيب أنه لم يفتن الى أن الدولة العلية تعامله بنفس السلاح فتزج به في حرب إثر حرب لتضعف قوته وتدمر نشاطه ، وساعدتها دول أوروبا لتحقيق نفس الهدف ليس فقط في اليونان الأوربية المسيحية ، بل أيضا في الشمام الآسيوية المسلمة ، ولعل محمد على جهل هذه الحيلة عبر السفين الطويلة ، ونتيجة لذلك لاقى محمد على ولاقت مصر كثيرا من غت الأعداء .

ونقطة أخرى نثبتها هنا هي أن جيلنا لا يرضى عن موقف محمد على من الحجاز ، وإلا عما أنزله بالدرعية من دمار ، ولعل الإحساس العربى آنذاك لم يكن قويا ، يحول دون هذا العدوان الذى نستكره الآن ونستهجنه وللأسف نواجه حتى اليوم صراعا يدور بين عربى وعربى أو بين مسلم ومسلم .

إبراهيم وعباس

كان إبراهيم جزءا من حياة أبيه ، وقد رأيناه يقود أكثر جيوشه وينفذ خططه ويجنى ثمار انتصاراته وأعباء هزائمه ، ولهذا ليس هناك ما نضيفه عند الحديث عنه ، على أن فترة حكمه كانت قصيرة للغاية وكانت كلها في حياة أبيه ، فقد تولى في أبريل سنة ١٨٤٨ وتوفى في نوفمبر من العام نفسه .

وجاء بعده عباس بن طوسون بن محمد على ، (١٨٤٨ — ١٨٥٤) وتتلخص أعماله في أنه كان يرى أن تقدم الشعب ليس من مصلحة الوالى ، فراح يعمل على العودة بهذا الشعب الى الوراء ، فأقفل المدارس والمصانع وقضى على كل معالم النهضة ، وراح يساعد تركيا في حروبها رجاء أن تغير نظام العرش ليصبح لأكبر أولاد الحاكم بدلا من أكبر أفراد الأسرة ، ولم ينجح في ذلك ، وقد قتل سنة ١٨٥٤ في قصره ، ويقال ان مسألة ولاية العهد كانت السبب في هذا المصير . وبسميت « العباسية » باسمه وكانت من قبل تسمى « الريدانية » .

(سعيد ١٨٥٤ — ١٨٦٤)

هناك اصلاحات جديدة بالذکر تنسب الى سعيد ، فقد أصدر قانون الاراضى المعروف باللائحة السعيدية فى أغسطس سنة ١٨٥٨ وهى تبيح ملكية الأرض ، وقد أقبل المصريون على شراء الاراضى اقبالا عظيما حتى أصبح بعض المصريين من كبار الملاك ، وأصدر سعيد كذلك قرارا بقبول المصريين فى الوظائف الكبرى ، فأصبح ثلث مآمر المراكز منهم ، وكذلك ثلث المعاوين ، ومن أبرز الحكام المصريين الشريعى بك مدير الجيزة وسultan بك مدير بنى سويف ، وألقى سعيد الاحتكار الزراعى ، وأتم الخط الحديدى بين الاسكندرية والقاهرة الذى بدأه عباس ، وفى نظام الجيش جند أبناء المشايخ والعمد بعد أن كان التجنيد مقصورا على أبناء الفلاحين (١) .

ومن أغلاط سعيد أنه أرسل حملة لمساعدة فرنسا فى حربها بالمكسيك لا لشيء الا لصداقة شخصية بينه وبين نابليون الثالث وأكثر من منح الامتيازات للأجانب ، تلك الامتيازات التى بدأت فى عهد المماليك ومطلع عهد العثمانيين ، وبدأ سعيد فى الاستدانة ، وهو الذى منح امتياز شق قناة السويس بشروط مجحفة لمصر ، وقنساء السويس سلاح — كما يقولون — ذو حدين ، فإذا استطاعت مصر حمايتها واستغلالها كانت لمصر خيرا وبركة ، أما اذا كانت بابا نفتح للأجانب ونجلب بسببه استعمار مصر والسيطرة عليها لصالح الدول القوية التى تستعمل القناة ، فلا كانت القناة .

وقد أعطت مصر للقناة كل شيء : الأرض ، والمال ، والرجال ، نظير ١٥ ٪ من الأرباح ، ولكن سرعان ما فقدت مصر هذه الأرباح بسبب الديون التى تراكمت عليها ، وهكذا أصبحت القناة عبئا على البلاد ما كانت تستطيع حمله ، وكانت تكاليفها ١٨ مليوناً من الجنيهات دفعت مصر منها حوالى

(١) مذكرات عرابى ص ١١ .

١٧ مليوناً ، وكان امتيازها لمدة ٩٩ سنة تنتهى سنة ١٩٦٨ ، ولكن مصر أممتها في يوليو سنة ١٩٥٦ ، وقد تسبب عن هذا حرب وصراع (١) .

ومات سعيد في يناير سنة ١٨٦٣ .

الخديوى اسماعيل

(١٨٦٣ — ١٨٧٩)

يعتبر الخديوى اسماعيل مشكلة أمام المؤرخ النصف ، فلرجل أعمال مجيدة حقاً سئراها مجددة وزاهية فيما بعد ، وله كذلك أخطاء صنعها بنفسه ، أو نسبت له وفرضت عليه قرضاً بسبب الزحف الاستعماري الذي كان عنيفاً آنذاك ، والذي اتخذ افريقية هدفاً له في وقت كان الخديوى اسماعيل يمدد نفوذه وسلطانه بإفريقية بتجّاح عظيم ، فوجد الاستعمار أن القضاء على اسماعيل خطوة ضرورية لتحقيق النصر للقوى الأوروبية الزاحفة ، فربم الاستعمار الخطط ليشوه سمعة الرجل واصطنع قصة الديون ليزعزع أركانه .

وكان السلطان العثماني يخاف أن يتمرد اسماعيل عليه كما تمرد من قبل جدّه محمد علي ، فلما ضيق الاستعمار الأوروبي الخناق على اسماعيل اتجه الخديوى الى السلطان العثماني ليقوى به ضد المستعمر المسيحي ، فانتهاز السلطان فرصة ضعف اسماعيل ، وبدل أن يقف معه وقف مع أعدائه وكتب وثيقة عزله التي كان يعمل لها الأوروبيون .

وبعد عهد اسماعيل أشرف أعداؤه على كتابة تاريخه فتنوسيت أعماله المجيدة وأبرزت أخطاؤه ، ولكن الحق أن يموت وسنحاول كتابة تاريخ اسماعيل بكل الدقة والانصاف ما استطعنا لذلك سبيلاً :

(١) عن تأميم قناة السويس ونتائجه اقرا الجزء التاسع مع هذه الموسوعة .

شهادة باحث انجليزى :

فى سنة ١٨٦٩ أى فى عهد اسماعيل زار مصر وليام راسيل وكتب يصف القاهرة بقوله : أنها أكثر تحضرا من القسطنطينية ، وهى غنية بالمناظر الشرقية والتقاليد الاسلامية ، وكان قد تمّ تجفيف مستنقعات الازبكية فى عهد محمد على ، ولكن اسماعيل كانت فى جعبته خطط أكبر ، فقد أصبحت الازبكية فى عهده حديقة رسمية فينانة مليئة بالنوافير والأشجار والمقاهى ، وأقيم فيها ناد للمبارزة يديره فرنسى ، وقامت الفنادق حول مربع الازبكية مثل شبرد والفندق الشرقى الكبير وغيرها من الفنادق الحديثة ، وفتح اليونانيون والاوربيون محلاتهم فى الشوارع المجاورة وملأوها بالمأكولات الاوربية وكافة وسائل الراحة التى يبحث عنها السياح قبل صعودهم فى النيل ، وأقيمت دار للأوبرا كتب « فيردى » خصيصا لافتتاحها أوبرا عايدة ، وهكذا أصبح فى مقدور زوار الشتاء أن يتمتعوا أنفسهم فى القاهرة كما لو كانوا فى الريفيرا •

عهد إسماعيل وقائمة منجزاته

إذا استعرضنا عهد اسماعيل فاننا نواجه قائمة حافلة بجلائل الأعمال ، ويمكننا أن نقسم هذه الأعمال ثلاث مجموعات :

- ١ — توسع وامتداد •
- ٢ — تطور ثقافى واجتماعى •
- ٣ — تطور سياسى وانتقال من سلطة الفرد الى سلطة الجماعة •

وسنذكر فيما يلى القائمة الخاصة بكل مجموعة ثم ننتج ذلك ببعض الدراسات والتفاصيل عن هذا العهد :

١ — توسع وامتداد

- ١٨٦٦ ضم سواكن ومصوع لولاية مصر •
- ١٨٧١ رفع العلم المصرى على غندوكرو عاصمة مديريةية خط الاستواء •
- ١٨٧٢ اعلان نفول مملكة أوننيورو بالسودان فى أملاك مصر •
- ١٨٧٤ بسط الحماية المصرية على مملكة أوغندا •
- ١٨٧٤ فتح سلطنة دارفور •
- ١٨٧٥ فرمان بضم زيلع وبربرة لولاية مصر •
- ١٨٧٥ فتح هرر •
- ١٨٧٥ حملة مكيلوب باشا للصومال •

٢ — تطور ثقافى واجتماعى

- ١٨٦٣ تشكيل ديوان المدارس وانشاء المدارس التجهيزية والابتدائية بالقاهرة والاسكندرية ، واصدار أول لائحة للتعليم فى مصر •
- ١٨٦٣ انشاء خمس مدارس بالسودان •
- ١٨٦٣ افتتاح دار الآثار المصرية •
- ١٨٦٥ انشاء مدرسة أركان حرب •
- ١٨٦٥ احياء جريدة الوقائع المصرية وظهور الجريدة العسكرية المصرية •
- ١٨٦٥ انشاء مدرسة المهندسخانة •
- ١٨٦٥ ضم نظام البريد الى الحكومة •
- ١٨٦٦ انشاء مدرسة الطب البيطرى •
- ١٨٦٧ نظام الاصلاح القضائى •
- ١٨٦٧ انشاء مدرسة الادارة والقانون (الحقوق) •
- ١٨٦٧ وقف جفلق الوادى لنشر التعليم •

- ١٨٦٨ • افتتاح مدرسة العمليات ببولاق والمدرسة البحرية بالاسكندرية •
- ١٨٦٨ • انشاء مدرسة المساحة والمحاسبة •
- ١٨٦٩ تكليف صموئيل بيكر بمقاومة النخاسة في السودان وابرام معاهدة
مع انجلترا في هذا الشأن بعد ذلك •
- ١٨٦٩ • انشاء المدرسة المصرية ببائيس •
- ١٨٦٩ » دار الأوبرا المصرية •
- ١٨٦٩ » مدرسة اللسان القديم « اللغة الهيروغليفية » •
- ١٨٦٩ » دار الآثار العربية •
- ١٨٧٠ » دار الكتب •
- ١٨٧٠ الأمر بجعل اللغة العربية اللغة الرسمية بالدواوين •
- ١٨٧١ • انشاء مدرج المحاضرات العامة بدرب الجماميز •
- ١٨٧٢ » مدرسة دار العلوم •
- ١٨٧٣ • انشاء مدرسة السيوفية ثم مدرسة القربية للبنات •
- ١٨٧٤ • قانون داخلية المدارس المصرية ولائحة دار المعلمين •
- ١٨٧٥ • افتتاح مدرسة العميان والخرس •
- ١٨٧٥ • تأسيس الجمعية الجغرافية •
- ١٨٧٨ • انشاء مدرسة الألسن •

٣ — تطور سياسى وانتقال من سلطة الفرد الى سلطة الجماعة

- ١٨٦٦ • انشاء مجلس شورى النواب وصُدور لائحته وافتتاحه •
- ١٨٧٨ • انشاء مجلس النظار •
- ١٨٧٩ • توسيع اختصاصات مجلس شورى النواب •
- ظهور الصحافة وتطورها ، وظهور الرأى العام وتهيبة •

والآن نتجه الى دراسة فيها شئ من التفصيل عما حققه عهد اسماعيل لمصر ، وبعد ذلك نتدارس عيوب اسماعيل وما ارتبط بها من غفلة واهمال لنستطيع أن يكون حكمنا منصفاً أو أقرب الى الانصاف :

شخصية مصر الدولية :

كان عهد الولاة العثمانيين عهد تخلف واضطراب وظلم ، وكان الوالى — كما وصفناه من قبل — لا يهتم الا بالاستيلاء على ما تصل اليه يده من الأموال ليستعيد ما دفعه من رشاوى وليجعل حظه من الثراء عظيماً قبل أن يُبْعَد عن الحكم وعن البلاد ، وابتداء من عهد محمد على تخلصت مصر من هذا البلاء ، فلم يعد ولاية مصر يجلبون لها من الخارج ، ويدفعون الرشا لينالوا الولاية ، بل استقر الحكم لحمد على وأولاده ، صحيح أن محمد على ينحدر من أرض غير مصرية ، ولكنه لم يعد له وطن غير مصر ، وارتبط مجده بأمجاد مصر ، حتى أن مَنْ كان من هذه الأسرة يموت خارج البلاد كانت وصيته تحوى في أهم بنودها أن يوارى جثمانه في تراب مصر ، وصحيح أن آخر ملوكهم هُزِبَ الى بنوك أوربا كثيراً من الأموال ، ولكن كثيرين من الذين تولوا السلطة بعد هذه الأسرة ارتكبوا نفس الخيانة .

وعلى كل حال فقد ضمنت العهود والمواثيق التى أشرنا لها عند الحديث عن محمد على أن تكون مصر له ولأولاده من بعده ، ولم ينل محمد على هذه الخطوة الا بحد السيف بعد أن أوقع الهزائم المتكررة بجيوش العثمانيين ، وبعد أن استولى على أسطولهم ووقف على أبواب عاصمتهم ، وكان معنى هذا أنه يقف منهم موقف الند للند ، وليس تابعا كما كان غيره من الولاة .

وبناء على ذلك ظهرت شخصية مصر وأصبح لها كيان يكاد يكون مستقلاً . ولم تعد تربطها بالعثمانيين الا روابط هزيلة لا تهز الاستقلال ولا تتأل منه .

وفي عهد اسماعيل حصلت مصر على مزيد من النفوذ الذي قوى مركزها الدولي وأثبت لها كيانا أقرب الى الاستقلال عن العثمانيين ، فقد حصل على فرمان سنة ١٨٦٦ يجعل وراثة العرش لأكبر أبنائه من بعده ثم لأكبر أبناء هذا الابن وهكذا بدلا من أكبر أبناء أسرة محمد على كما كان ينص فرمان سنة ١٨٤١ وقد ضمن هذا مزيدا من الاستقرار من جانب كما حدد من يتول له السلطان من جانب آخر دون تدخل السلطان العثماني .

وفي سنة ١٨٦٧ حصل اسماعيل على فرمان يخوله هو وخلفاؤه لقب خديوى بدلا من الوالى أو الباشا مع رفعه الى مرتبة الصدر الأعظم العثماني ، وبموجب هذا فرمان أصبح للخديوى الاستقلال فى الادارة والتشريع والشئون المالية ، ومنح الحق فى عقد الاتفاقات الخاصة بالبريد والجمارك ومرور البضائع والركاب فى داخل البلاد وشئون الضبط للجاليات الأجنبية .

وفي سنة ١٨٧٣ استصدر الخديوى « فرمان الكبير » الذى جمع المزايا التى حصلت عليها مصر فى فرمانات السابقة منذ عهد محمد على ، وقد نص فى هذا فرمان على حق مصر فى عقد المعاهدات التجارية ، وحققها فى زيادة الجيش الى أى عدد ، وبناء السفن الحربية (١) .

وهكذا نجد أن اسماعيل عمل على تحقيق غرضين كبيرين .

أولهما : تحرير مصر من الأغلال التى كان ينوء بها استقلال البلاد ، ولم يكتف اسماعيل بما حققه فى مجال الاستقلال عن تركيا ، بل أعاد النظر فى الامتيازات التى كان سعيد قد منحها لشركة قناة السويس ، كما خلص مصر من مساوىء التشريع القنصرلى ، وفاوضت مصر دول العالم مباشرة دون وساطة تركيا .

(١) من بحث الدكتور محمد حامد فهمى نشر فى كتاب عن « اسماعيل » .

ثانيهما : رفع اسم مصر بين الدول ، باشتراكها في كثير من وجوه النشاط الدولي ، كالاتشارك في حركة تحرير الرقيق ، واقامة قسم خاص بمصر في معرض عالمي عقد بباريس سنة ١٨٦٧ ، واشتراك مصر سنة ١٨٧٤ مع الدول المؤسسة لمؤتمر البريد الدولي وعددها ٢٢ دولة (١) .

توسع وامتداد :

يقولون عن اسماعيل انه أراد أن يجعل مصر قطعة من أوروبا وهذا صحيح ، ولكن اسماعيل لم ينس قط أن مصر جزء من إفريقية ، ومن هنا اتجه اسماعيل في فتوحاته الى افريقية وامتد في هذا المجال امتدادا واسعا فحقق الحلم الذي كان يراود جده « محمد علي » وتقديم بفتوحاته بوادي النيل حتى ضم منابعه العليا وارتفعت رايات مصر على كل بقعة في شاطئيه .

ومما يروى عن اسماعيل أنه وضع أخشاب السفن بعد اعدادها على ظهور الإبل ، وسارت الإبل بها حتى تخطت منطقة الشلالات ثم تم تركيب السفن لتسير في النيل سنة ١٨٦٩ وبذلك فتح غندوكرو سنة ١٨٧١ وسعت الإسماعيلية ورقعت عليها الراية المصرية .

وتقدم الجيش المصرى الى « ما سندی » فعاهده ملكها « كابريقة » على اطاعة أمير مصر ، ثم نقض عهده وحارب الحامية المصرية فهزمته وأقامت على عرشه منافسه « ريونجا » فبقى هذا على عهد الطاعة بقية حياته .

وبلغت أنباء الفتح ملك أوغنده فأرسل الوفود بالهدايا الى قائد جيش مصر ، معلنا ولاءه لصاحب الأريكة المصرية ، معترفا بسلطانه من مجرى النيل الى الشاطئ الشرقى من إفريقية .

(١) من بحث للاستاذ محمد رفعت عن مكانة مصر الدولية بالكتاب السابق .

وفي أثناء ذلك كانت الحملات المصرية تتقدم في إقليم البحيرات فأطلقت على إحداها اسم « بحيرة إبراهيم » ونزلت بسفينة بخارية في بحيرة « ألبرت » رُكّبت هناك بعد أن حُملت أجزاؤها من الخرطوم فكانت أول سفينة شهدها الناس في أواسط القارة الإفريقية ، وكان للعلم المصري المضاء على سارياتها شأن عظيم مقترن في نفوس الأهليين بشأن البلاد التي تصنع هذه الأعاجيب .

وقد أبلغت وزارة الحربية المصرية دول أوروبا ضم إقليم البحيرات إلى مصر ، ونشرت النبا في الوقائع المصرية سنة ١٨٧٦ .

وكانت سلطنة دارفور من البلاد التي تُذكر في فرمانات التولية التي تصدر من سلطان الدولة العثمانية إلى ولاية الديار المصرية ، ولكنها كانت في الواقع بمعزل عن مصر وعن تركيا معا في الإدارة والشئون العسكرية ، ففتحها اسماعيل باشا أيوب بمعاونة الزبير باشا أواخر سنة ١٨٧٤ .

وفي الوقت الذي كانت حملات اسماعيل توالى الكشف والارتياح بإقليم البحيرات كانت عينه لا تغفل عن التخوم الشرقية بين مجرى النيل والبحر الأحمر ، فاستأجر سواكن ومصوع وزيلع وبربرة من الدولة العثمانية ثم تملك هذه البقاع ، وأرسل إلى هر سنة ١٨٧٥ حملة بقيادة محمد رءوف باشا تمكنت من فتحها بغير كبير عناء .

وسبب في تلك المسنة حملة بحرية قوية لإتمام فتح الصومال فتقدمت فيه تقدما سريعا ، ثم عاقتها عن المضي في فتحه إلى النهاية قيام مشكلة سياسية بين الخديوي وبريطانيا حول مناطق النفوذ على المحيط الهندي ، فاكتمل بما وصل إليه ، وتفاهم الفريقان على الاعتراف بنفوذ مصر في شمالي الصومال .

(١) سطور من مقال للاستاذ عباس محمود العقاد بالكتاب السابق .

وقد تفرد عصر اسماعيل في التاريخ القديم والحديث بمزية لا يضارعه فيها عهد من العهود منذ قيام الدولة المصرية على أيدي الفراعنة الى اليوم ، فقد مضت على قيام هذه الدول المصرية آلاف السنين ، فلم يتوحد مجرى النيل قط خلال تلك الاحقاب الطوال في ظل راية واحدة الا في عهد واحد هو عهد اسماعيل ، وكفى بذلك تنبيها باهرا يذكر لصاحبه المجيد في صحائف الفتوح (١) .

وقد ادخلت مصر في هذه البقاع ألوانا من العمران والمدنية ، حتى كان الزحف المصرى يوصف بأنه زحف النور والحضارة على تلك البقاع ، فقد فتحت مصر المدارس والمستشفيات ، ومهدت الطرق ونظمت التجارة ونشرت الأمن والقوانين وقضت على تجارة الرقيق ، وانطلق علماء الأزهر الذين كانوا يرافقين الحملات يدعون للإسلام وينشرون مبادئه وأخلاقه ، حتى كان اقبال الناس على التبعية لمصر شرفا وكسرا لحائط الجمود بين المدنية والتخلف .

وسنرى فيما بعد أثر هذه الانتصارات في اثاره أوروبا ضد اسماعيل وضد مصر .

خيانة أمريكية لمصر :

وقد نزلت بمصر هزيمة وحيدة في افريقية ، ولم تكن هذه الهزيمة بسبب ضعف وانما بسبب خيانة ، ففي أثناء الحرب بين الأحباش ومصر سنة ١٨٧٥ — ١٨٧٦ ارتكب أركان الحرب الأمريكيون الذين كانوا موظفين في الجيش المصرى خيانة عظيمة وبخاسة الجنرال (لورنج) ، الذى وضع اسماعيل ثقته فيه ، ولكنه كان ينقل أسرار الجيش المصرى الى الأحباش بواسطة أحد المبشرين الفرنسيين ، وعندما بدأت المعركة ، أعلن خيائنته هو ومن معه من الضباط الأجانب ، فأخلوا الطريق للعدو ، ومنعوا الجنود

(١) من مقال للاستاذ الدكتور عبد الرزاق الستهورى في الكتاب السابق .

المصريين من أداء واجبهم ، وتقهر هؤلاء والمعركة تدور ، وكان الخونة يلبسون شارة اتفق عليها حتى لا يمسهم الأقباش بسوء ، وقد ذكر الزعيم أحمد عرابي ألوانا من المخازى والخيانات عن هذا الموضوع بكثير من التفصيل (١) .

تطور ثقافى واجتماعى واصلاحات داخلية :

شهدت مصر فى عهد اسماعيل تطورا عظيما فى مختلف الشئون بالداخل واتجهت يد الاصلاحات الى شتى المرافق ، وقد أوجز القنصل الأمريكى فارمن فى تقريره الرسمى المؤرخ فى ٢٧ يونيو ١٨٧٨ أعمال اسماعيل ونتائجها بقوله : « ومهما يكثُر القول ضد اسماعيل يبق شىء واحد لا جدال فيه هو أن مصر تقدمت فى أعوام حكمه الستة عشرة فى جميع نواحي المدنية الحديثة أكثر مما تقدمت فى مئات السنين التى سبقت حكمه ، ومصر مدينة بهذا التقدم كله تقريبا لاسماعيل » .

وستنورد فيما يلى موجزا سريعا لما تحقق لمصر فى ذلك العهد من منجزات ثقافية واجتماعية معتمدين على الحقائق الملموسة وعلى الأرقام ، حتى نظل فى نطاق الإنصاف والدقة .

إلغاء السخرة :

وأول ما نذكره أن اسماعيل عنى عناية كبيرة بالمصريين ، فقرر إلغاء السخرة التى كان سعيد قد التزم بها ، إذ كان هذا قد التزم فى عقده مع شركة قناة السويس بتقديم أعداد وفيرة من المصريين ليعملوا بطريق السخرة فى أعمال الحفر ، ولكن اسماعيل توقف عن تنفيذ هذا المنكر ، وشب خلاف بين اسماعيل وبين الشركة من أجل هذا الموضوع ، وانتهى هذا الاختلاف بالاحتكام الى نابليون الثالث امبراطور فرنسا

(١) مذكرات عرابي : ص ٢٥ — ٢٨ .

الذى حكم بأن تدفع مصر لشركة القناة ثلاثة ملايين ومائة وستين ألفاً من الجنيهات ليعفى المصريون من هذه السخرة ، ودفعها اسماعيل •

نصف الحكام من المصريين :

ومن عناية اسماعيل بالمصريين أنه جعل نصف الحكام منهم ، بعد أن كان المصريون لا يشغلون إلا ثلث المناصب في عهد سعيد كما ذكرنا من قبل ، وعندما ظهر مجلس النظار في عهد اسماعيل كان أكثر النظار من المصريين •

المدارس والمعاهد والكليات :

فإذا جئنا الى التعليم وجدنا أن اسماعيل أعطى التعليم جهداً واسماً ، وأنفق عليه بسخاء ، وقد عنيّ عناية كبيرة بالتعليم في مختلف مراحله ، ونالت البنت عناية واسعة من اسماعيل ، فأنشأ لها مدرسة السيوفية ومدرسة القربية اللتين اندمجتا فيما بعد في المدرسة السنية •

ومما ينسب الى اسماعيل أنه أعاد ديوان المدارس الذى يعتبر نواة لوزارة التربية والتعليم ، وأصدر لائحة التعليم الابتدائى في المدن والقرى فقد أنشئ في عهد اسماعيل ٤٨١٧ مدرسة وكان عدد المدارس قبله ١٨٥ فقط وربط بين الكتاتيب وبين المدارس الابتدائية وأكثر من المدارس التجهيزية والفنية والعالية ، فأقام بذلك نظاماً قومياً للتعليم المصرى •

وكان نشاط اسماعيل في التعليم الفنى والعالى نشاطاً مزدوجاً ، أعاد من جانب المدارس العالية والفنية التى كان محمد على قد أنشأها ثم أهملت من بعده مثل : مدرسة الطب ، ومدرسة الهند سخانة ، ومدرسة العمليات ، وأنشأ من جانب آخر طائفة جديدة من المدارس العالية

كمدرسة الإدارة التي أصبحت فيما بعد مدرسة الحقوق ، ومدرسة
الأسن التي تحولت الى مدرسة المعلمين العليا ، ودار العلوم وسنتكلم
عنها فيما بعد ، هذا بالإضافة الى مدارس حربية وبحرية كثيرة •

وعنى اسماعيل بالبعوث ، فاختار مجموعة من الشبان أوفدهم الى
فرنسا وانجلترا وإيطاليا وغيرها لدراسة الطب والهندسة والقانون والفنون
الجميلة ، وبلغ عدد أعضاء البعث في عهده مائتي شخص • كما نال
الأزهر عناية اسماعيل واهتمامه •

المخطوطات والفنون :

وعنى اسماعيل بجمع المخطوطات النفيسة من منازل العلماء ، ومن
المساجد والأضرحة ، وأنشأ لذلك دار الكتب التي أودعها هذه المخطوطات
كما أودعها عشرات الآلاف من الكتب في الفنون والعلوم المختلفة •

وعنى اسماعيل بالآثار المصرية ، وأنشأ لذلك : دار الآثار وأمر
بتشييد دار الأوبرا ، واستخدم في تجميلها عدداً كبيراً من المصورين
والفنانين والرسمين (١) •

وقبل أن نترك نشاط اسماعيل في مجال التعليم الى سواه من
المجالات الأخرى ينبغي أن نتكلم كلمة عن إحدى منشآت اسماعيل
العملاقة ، عن « دار العلوم » •

دار المعلمين :

أنشأ الحاكم بأمر الله دار الحكمة سنة ٣٩٥ هـ بمصر بعد أن قضى
الصراع ببغداد على بيت الحكمة الذي أنشأه هرون الرشيد أو ابنه
المأمون ، وجمع الحاكم في دار الحكمة خيرة العلماء من جميع المجالات
للبحث والدراسة والتأليف ، وكان إنشاؤها بجانب الأزهر الذي كان آنذاك

(١) من مقال للأستاذ الدكتور عبد الرازق السنهوري في الكتاب السابق .

منهمكا في الدراسة المذهبية الشيعية لتكون دار الحكمة منطلقة من قيود الاتجاهات المذهبية .

ويبدو لى أن التاريخ أعاد نفسه بصورة أخرى ، ففي عهد اسماعيل كان الأزهر مثقلا بالقديم متمسكا بالحواشي والألفاظ على ما شرحنا في مكان آخر (١) ، فأنشأ على مبارك « دار العلوم » لتتدرس بها الدراسات المختلفة منطلقة من كل قيد ، وأستعار لها كلمة « دار » من « دار الحكمة » تجديداً لماضى هذه الدار التي كانت جزءا من نهضة مصر الثقافية .

وكانت مصر تابعة — ولو من الناحية الاسمية — لتركيا خلال عهد الخديوى اسماعيل ، وكانت جامعة الأستانة تسمى « دار الفنون » ومن ثم سميت كثير من المنشآت العلمية والفنية في عهد اسماعيل بدار فظهرت دار العلوم ودار الكتب ودار الآثار العربية ودار الأوبرا وكان المضاف اليه يحدد طبيعة المؤسسة ؛ فدار الكتب مخصصة للكتب ، ودار الآثار مخصصة للآثار وهكذا ، وكانت دار العلوم مخصصة للدراسات العلمية والشرعية والعربية ، فقد كان يدرس بها الحساب والهندسة والكيمياء والطبيعة والعلوم الإسلامية من فقه وتاريخ وحضارة وفلسفة ، والعلوم العربية من نحو وصرف وأدب ، فلا عجب أن سميت « دار العلوم » .

هل كانت هذه التسمية استمرار لدار الحكمة ؟ أو تقليداً واقتباساً من « دار الفنون » بالأستانة ؟ أو كانت جمعاً بين الاثنين ؟ قد يكون هذا أو ذاك .

وارتبطت « دار العلوم » في أول مراحلها بدار الكتب التي أشرنا إليها من قبل ، ففي نفس البناء بجوار الكتب والمخطوطات خصصت قاعة

(١) انظر نصل « دراستى في الأزهر » بكتابى « المجتمع الإسلامى » .

للمحاضرات في الأدب واللغة والهندسة وغيرها ، وكان يقوم بإلقاء هذه المحاضرات كبار الأساتذة المصريين والأجانب في العلوم الإسلامية والعربية وفي الهندسة وعلوم الطبيعة والكيمياء ، ومن هؤلاء الشيخ حسين المرصفي للأدب ، والشيخ عبد الرحمن البجراوى للفقہ ، واسماعيل الفلكي للفلك ، ومن الأساتذة الأجانب هنري بروكاش للتاريخ العام ، وفرانس باشا للهندسة ، ومسيو بكتيت للطبيعة ، وكانت هذه المحاضرات تلقى لكبار رجال وزارة المعارف ، وكبار الموظفين في السكك الحديدية والمساحة وبعض المتفوقين من طلاب الأزهر والمدارس العليا (١) .

وقد أثبتت هذه المحاولة نجاحا ملحوظا ، وهذا شجع على مبارك باشا أن يجعل هذه الدراسة مستقلة عن دار الكتب ، فاستصدر مرسوما في يونيو سنة ١٨٧١ بإنشاء مدرسة « دار العلوم » واختير للتدريس بها كبار الأساتذة في الدراسات الإسلامية والعربية وعلوم الطبيعة والكيمياء والهندسة والحساب ، وأصبح المتخرجون منها يعلمون هذه المواد في مدارس الدولة .

دار العلوم والاحتلال البريطاني :

هناك وثيقة خطيرة يتحتم علينا أن نشير إليها هنا ، وهي تبين رأى الاحتلال في هذه الدار ، ولهذه الوثيقة قصة نبدأها من أولها :

عقب الاحتلال البريطاني كان هناك مستشار انجليزي بكل وزارة من الوزارات ، وكانت السلطة الحقيقية مركزة في يد هؤلاء المستشارين ، وكان على كل مستشار أن يقدم للمعتمد البريطاني تقريرا موجزا عن الأمور المهمة في الوزارة التي يعمل بها ، وكان هؤلاء المستشارون يتبادلون هذه التقارير لتوحيد سياسة الاستعمار في كل الوزارات ، وكانت هذه

(١) انظر تقويم دار العلوم الذي وضعه المرحوم الأستاذ محمد عبد الجواد .

التقارير سرية للغاية ، لأن هدفها خدمة الاستعمار مهما كان أثر ذلك على البلاد والسكان •

ولننتقل الآن الى نقطة أخرى في طريقنا لهذه الوثيقة فقد كان مدير مكتبة وزارة المالية صهرا للأستاذ الدكتور مهدي علام ، وحدث أن زار الدكتور مهدي علام صهره بالمكتبة ، ومن الطبيعي أن حب الاستطلاع دفع الدكتور مهدي للتعرف على بعض ما في المكتبة من كتب ووثائق ، فراح يطلع هنا ويقرأ هناك •

ويبدو أن مستشار وزارة المالية أخلى منصبه فجأة ، فنسى — وهو يجمع أوراقه — تقرير دنلوب المستشار الانجليزى لوزارة التربية والتعليم الى كرومر ممثل بريطانيا أو المعتمد البريطانى وكان تقرير دنلوب عن التعليم في مصر ، ووقع هذا التقرير في يد الدكتور مهدي علام فرأى فيه حديثاً عن دار العلوم ، فأغراه هذا أن يقرأه بدقة ، لأن الدكتور مهدي ابن بار من أبناء دار العلوم ويهمه أن يعرف رأى الانجليز السرى في هذه الدار •

وخلاصة هذا التقرير التى وعاما ذهن الأستاذ الدكتور مهدي علام وحفظها من طول ما رواها هى :

إن من أخطر الامكنة على الاحتلال البريطانى في مصر مدرسة « دار العلوم » لأن طلبتها يقومون بتدريس جميع المواد في مدارس الدولة ما عدا اللغة الانجليزية ، وهم يتصلون بشباب الأمة ، ولهم عليهم تأثير واسع عن طريق الثقافة الدينية والمدنية ، فهم بهذا أشبه ببؤرة نار متقدة ضد الاحتلال ، وينبغى التخلص من هذه الدار بأى طريق من الطرق •

ويربط الأستاذ الدكتور مهدي علام ومعاصروه بين هذه الوثيقة وبين ألوان العناء التى شهدوها في هذه الدار وهم طلاب بها •

فيبدو أن قفل الدار لم يكن عملاً سهلاً ، وأن الاحتلال كان يتحاشى المواجهة الصريحة ، ومن أجل هذا اتجه الاحتلال الى محاربة هذه الدار بطرق أخرى حتى يقضى على نفوذها أو يجعله قليلاً للغاية ، وكان من آثار هذا الاتجاه ما يلي :

١ — لم يكن يجوز للطلاب أن يرسم في دار العلوم ، فاذا رسم فُصل ، ويجوز له أن يتقدم من الخارج مرة واحدة ، وطبعاً أن هذا أخاف الطلاب فتحاشى الكثيرون الالتحاق بها .

٣ — كانت الدراسة تبدأ في يناير وتنتهى في ديسمبر ، وكان يُقصد بهذا إبعاد طلاب هذه الدار عن الجماهير ، ويقصد به كذلك مضايقتهم حتى لا يقبل الآخرون على الالتحاق بها .

٣ — كان مرتب المتخرج في دار العلوم ثمانية جنيهات ، ومرتب المتخرجين في المدارس المناظرة لها اثني عشر جنيهاً .



ويتضح من هذه الوثيقة مقدار العناء الذى احتملته هذه الدار في عهد الاحتلال .

وعانت دار العلوم ألواناً أخرى من الصراع بينها وبين الأزهر وبينها وبين أقسام اللغة العربية بكلية الآداب ، ولكنها خرجت من هذه المعارك سالمة وهى تحمل الرسام الذى أضفاه عليها الإمام محمد عبده عندما قال قولته الشهيرة :

« تموت اللغة العربية في كل مكان وتحيا في دار العلوم » .

ودار العلوم منذ سنة ١٩٤٦ كلية من كليات جامعة القاهرة وبتزايد طلابها وطلبتها بشكل ملحوظ ، والإقبال عليها واضح من كل الدول العربية والإسلامية فيأتى بها عدد كبير من هذه الدول ، ويتوهم المتخرجون

فيها والمتخرجات بتدريس اللغة العربية والدراسات الإسلامية في كل مكان بالعالم العربى والإسلامى والغربى ، ولأساتذتها دور كبير في خدمة الدراسات العربية والإسلامية ، بما نشره من كتب في كل مجال ، ومحاضراتهم العامة والخاصة بمصر وبربوع العالم وجامعاته ، وبمقالاتهم التى تنمى مجالات العالم وصحافته في مختلف الدراسات الإسلامية والعربية ، وبما يذيعونه على الناس في أجهزة الراديو والتليفزيون .

وهناك كلمة أخيرة حول تسمية هذه الكلية ، فإنها حين انضمت للجامعة اتجهت بعض الأنظار للتخلص من الاسم القديم حتى لا تتعدد الإضافات ، وحتى تكون تسميتها الجديدة مطابقة لما يدرس بها من مواد ، فاقترح لها اسم « كلية الدراسات الإسلامية والعربية » أو نحو ذلك ، ولكن أكثر المفكرين تمسكوا باسمها القديم ، فقد رأوا فيه تراثاً ينبغى الحفاظ عليه ، وقد أصبح له مدلول في العالم كله هو رعاية الدراسات الإسلامية والعربية تراثاً وتطويراً ، وقد أطلق اسم « دار العلوم » على ١٤ معهداً من معاهد العالم تقوم بهذه المهمة في نيجيريا والهند وماليزيا وغيرها من الدول ، واستلزم ذلك أن تحافظ « دار العلوم » على اسمها ، وأن تسبق هذه التسمية بكلمة « كلية » التى تسبق أسماء كل كليات الجامعة .

خريجو دار العلوم في مختلف المناصب :

بقى أن نقول إن الإحصائية الرسمية التى صدرت سنة ١٩١١ فى كتاب « التعليم فى مصر » توضح أن المتخرجين فى دار العلوم منذ عهدها المبكر كانوا يشغلون مناصب متعددة فى « نظارة المعارف » كما كانوا قضاة ومستشارين ورؤساء محاكم فى « نظارة الحقانية » واشتغل بعضهم بنظارة الخارجية ونظارة الداخلية والخاصة الخديوية ، وبعضهم اشتغل معلماً بجامعة كمبردج واكسفورد بانجلترا واشتغل بعضهم بالمحاماة والأعمال الحرة ولا يزال المتخرجون فى دار العلوم يعملون فى مختلف

الأعمال وبخاصة في الاذاعة والتليفزيون والصحافة بجانب مناصب وزارة التربية والتعليم •

وبالباخرة تسير باسم الله مجراها ومرساها •



اصلاحات اسماعيل القضائية :

وينسب الى اسماعيل حركة الإصلاح القضائي التي أزلت المحاكم القنصلية وقللت من مثالب الامتيازات الأجنبية ، وكان هذا الإصلاح خطوة في سبيل انشاء المحاكم الأهلية ، والقضاء على الامتيازات نهائياً •

أعماله الهندسية والزراعية :

أما الأعمال الهندسية التي تنسب الى اسماعيل ، فهي جديرة بالتقدير والإعجاب ، فقد حفر اسماعيل شبكة من الترع عددها ١١٢ ترعة ، وبلغ طول هذه الترع ١٣٠٠٠ ك ٠ م ، وأعظم الترع ترعة الابراهيمية وهي من أعظم الترع في العالم كله ، ويبلغ طولها ٢٦٨ كيلو متراً ، ومتوسط عرضها ١١٤ متراً وهي تبدأ من أسيوط وتنتهي عند أشمنت بمديرية بنى سويف ، فهي تغذى المحافظات الثلاث أسيوط والمنيا وبنى سويف وبفضلها تحول نظام الري في هذه المحافظات من ري الحياض الى الري الصيفي ، وتبلغ مساحة الأرض التي انتفعت بهذه التربة ٨٥٠٠٠٠ فدان وهناك ترعة ثانية استمدت اسمها من اسمه هي ترعة الاسماعيليه التي تتلقى الماء من النيل عند شسبرا ، وتنتهي الى الاسماعيليه ، ثم تتفرع فرعين أحدهما ينحدر الى السويس والآخر يصعد الى بورسعيد ، وقد أخذ منها فرع عبّر الى سيناء ، وقد حملت هذه التربة عناصر الحياة الى محافظتى القليوبية والشرقية ومنطقة القناة ، وبجانب هاتين الترعتين الكبيرتين أنشأ اسماعيل عدداً من الترع

التي تختلف أطوالها وأعماقتها — كما اتجه الى الترع والرياحات القديمة فعمقها وأعاد حفر ما انحطس منها ، وقد ضم اسماعيل بذلك ما يقرب من مليونى فدان للأراضى المنزرعة •

وأنشأ اسماعيل مجموعة من القناطر والجسور ، ومن أشهر الجسور التي أنشأها كوبرى قصى النيل ، والكوبرى المعروف بكوبرى البحر الأحمر ، وقد ربط بهذين الكوبريين بين القاهرة والجيزة ، ووسع اسماعيل ميناء السويس والاسكندرية وأحصد بهما المنارات اللازمة لإرشاد السفن ، ومهد اسماعيل آلاف الأميال من الطرق ، ومن هذه الطرق طريق الأهرام ، وأنشأ اسماعيل شبكة واسعة من السكك الحديدية ربطت بين المدن والقرى بالداخل كما ربطت بين مصر ووادى حلفا وشندى ومصوع ، ومهد اسماعيل فى مصر والسودان شبكة من الخطوط التلفرافية ، وأنشأ عدة مكاتب للتراف ، وكان البريد فى مصر يتبع الجاليات الأوروبية ، ولكن اسماعيل اشترى ادارات البريد ، وأنشأ مصلحة مصرية للبريد سنة ١٨٦٥ ، وأنشأ مكاتب لها بلغ تعدادها ٢١٠ مكتباً •

واهتم اسماعيل اهتماماً كبيراً بردم البرك والمستنقعات ، ومد أنابيب المياه العذبة ، واهتم بالمدن اهتماماً كبيراً فخط بها الشوارع ، وأنشأ الميادين والجسور ، وأقام المتاحف والمسارح ، وشيد المساجد والمدارس ، وأثار طرقاتها بغاز الاستصباح ، وفى القاهرة والاسكندرية مجموعة كبيرة من الشوارع والقصور ارتبطت بحركة الإصلاح التي قام بها اسماعيل •
ويسبب جزود اسماعيل فى القاهرة والاسكندرية لم يحتج الأجانب أن يقيموا لهم أحياء خاصة بهم كما فعلوا فى أكثر عواصم آسيا وإفريقية (١) •

وعنى اسماعيل بأن يحدو بالصناعات خطوات ثابتة للأمام فطوّر

(١) من مقال للمهندس حسين سرى فى الكتاب السابق .

ما كان موجودا بمصر وأدخل للبلاد صناعات جديدة ، فطور الطباعة ،
وأنشأ صناعة الطوب والبلاط والورق والنسيج والسكر •

من سلطة الفرد الى سلطة الجماعة

من الحق أن نقرر أن العهد كان غالباً عهد سلطة الفرد في العالم ، وأن
الحكم الاستبدادي كان طابع الحياة في الامبراطورية العثمانية التي كانت
مصر تمثل جزءاً منها ، ومن الحق أن نقرر كذلك أن قليلين جداً من الحكام
في التاريخ من تنازلوا عن سلطاتهم الاستبدادية ، ولجأوا الى الشورى •
وقد شهدت مصر في عهد محمد علي وعهد اسماعيل خطوة في الطريق
الى الشورى ، وهى خطوة قصيرة المدى ولكنها فتحت الطريق للسير
الى الأمام •

وقد جاء محمد علي باختيار الشعب ، وقد حاول الانفراد بالحكم
عنهم ولكنه على كل حال لم يكن كباقي الولاة العثمانيين ، لأنه أحس أن
مصر بلاده ، وأن شعبها هو الذى اختاره ، وأن سلطات العثمانيين لعزله
لم يعد لها وجود ، ومن هنا أراد أن يوثق صلته بالمصريين الذين أصبحوا
عدته وعونه ، فأنشأ المجلس المخصوص ومجلس شورى القوانين ، ولكن
لم يكن لهذه سلطان ذو بال ، وسرعان ما ذوت ، بيد أن هذا الاتجاه
ظل ينتظر من يعيد له نبض الحياة ، حتى جاء اسماعيل فخطا خطوات
الى الأمام في هذا السبيل وسلم فيما يلي إلمامة سريعة بالاتجاهات التى
نقلت الكثير من سلطة الفرد الى سلطة الجماعة •

أولا : مجلس الشورى :

كان محمد علي — كما ذكرنا من قبل — قد أنشأ مجلساً يضم أولى
الأمر في البلاد وذوى رأى فيها ، وسماه مجلس الأعيان ، وكان مجلس
الأعيان ينعقد بالقلعة ويستشير محمد علي في الشؤون العامة ، وتعطل هذا
المجلس في أيام عباس وسعيد ، فلما جاء اسماعيل تقدم في هذا المجال

خطوة مهمة ، إذ أصدر في أكتوبر سنة ١٨٦٦ أمراً بتأسيس مجلس شورى النواب ، وانعقد المجلس في أول مرة في ٢٥ نوفمبر ١٨٦٦ وافتتحه اسماعيل بكلمة جاء فيها :

« كثيراً ما كان يخطر ببالي إيجاد مجلس شورى النواب ، لأن من القضايا المسلمة التي لا يمتنع نفعها أن يكون الأمر شورى بين الراعى والرعية ، ويكفينا كون الشارع حث عليه بقوله تعالى « وشاورهم في الأمر » وبقوله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » ولهذا استتسبت افتتاح ذلك المجلس بمصر تتذكر فيه المنافع المفيدة ، وتبدي به الآراء السديدة » .

وكان أعضاء مجلس شورى النواب ينتخبون من الشعب ، ويقرر التاريخ أنهم لعبوا دوراً كبيراً في تطوير الحياة النيابية بمصر ، وأنهم حرصوا على أن يكون المجلس أداة فعالة في الإصلاح ، وطالبوا بحرية النشر ، وفرض الضرائب على الأجانب أسوة بالمصريين ، وقد ظهرت في هذا المجلس زعامات مصرية قوية ، من أبرزها عبد السلام المويلحي رئيس المجلس الذي استطاع بمعاونة النواب أن يخطو بمجلس الشورى خطوات واسعة كانت الأساس لقيام الحياة النيابية بمصر ، بل في الشرق كله .

ولا بد هنا أن نذكر أن ممثلي الأمة تمسكوا بالنظام الشورى حتى عندما انحرف عنه رياض باشا ناظر الوزراء وأراد تعويقه ، فقد ذهب هذا الى مجلس الشورى ليبلغ الأعضاء قرار الخديوى اسماعيل بحل المجلس فصرخ فيه عبد السلام المويلحي قائلاً : إننا هنا بسلطة الأمة ولن نخرج إلا على أسنة الحراب ، وأضاف المويلحي :

أن جميع الدول الراقية في أوروبا .. وفي أمريكا لها مجالس نيابية .

فقال رياض باشا : هل تريد بهذه العمائم .. وبهذه البلغ
(الأخذية الريفية) أن تقلد أوروبا ؟

فرد المويلحي : أن العبرة بالرؤوس .. لا بالزى !

فصاح رياض باشا : أنتم عصاة ! أنتم همج !

فنادى المويلحي مصطفى وهبى باشا السكرتير العام لمجلس شورى
النواب وطلب أن يقيد فى المضبطة خرفيا كل ما دار من حديث بين النواب
وفناظر الوزراء .. وقال : « حتى اذا ما نشر هذا فى الجرائد ، واطلع
عليه القراء علموا من هم الهمج : النواب أم النظارة ؟ » .

وحاول رياض أن يمنع الصحف من نشر هذه الكلمات ولكن أحدا
لم يستجب له ، ونشرت الصحف جميع ما دار فى هذه الجلسة . واضطر
الخدوي للتراجع حتى لا يقابل ثورة الجماهير ، وعزل رياض سنة ١٨٧٩
واستدعى شريف باشا لتأليف الوزارة .

وقبل أن نترك رياض باشا نذكر أن من مساوئه أنه عطل صحيفتى
« مصر » و « التجارة » لما كان ينشر فيهما من المقالات الوطنية القوية
وأنه كان وثيق الصلة بالأجانب ، ولكن من محاسنه ما يذكره عنه الأستاذ
أحمد أمين أنه كان ذا رغبة إصلاحية فى تنظيم الشؤون المالية وتهذيب
العقول ، وتشجيع الآداب ، وأنه أبطل السخرة والضرب بالكرج (١)
ولكنه على العموم لم يكن زعيما محبوبا لدى الجماهير .

ثانيا - مجلس الوزراء :

كان محمد على قد أنشأ مجموعة من الإدارات تشرف كل منها على
جانب من جوانب إدارة البلاد ، وسميت هذه الإدارات بالدواوين وقد

(١) زعماء الإصلاح ص ٣٠٠ و ٣٠٢ .

(م ٢٨ - موسوعة التاريخ ج ٥)

تأسست هذه الدواوين تبعاً للاحتياجات الادارية ديواناً بعد ديوان ، وأنشئ آخرها سنة ١٨٣٧ ، وحينئذ صدر القانون المسمى « السياسة » أى التنظيم السياسى ، وقد شمل هذا التنظيم سبعة دواوين هى :

الديوان الخديوى (الداخلية)

ديوان كافة الايرادات (المالية)

ديوان الجهادية (الدفاع)

ديوان البحر (البحرية)

ديوان المدارس (التربية والتعليم)

ديوان الامرنجية والتجارة المصرية (الخارجية)

ديوان الفاوريقات (الصناعة)

ومن رؤساء هذه الدواوين يتكون المجلس المخصوص الذى كان يعاون محمد على فى إدارة شئون البلاد ، وهو شديد الشبه بما يسمى مجلس الوزراء الآن ، وكان هذا المجلس أشبه بالمجلس التنفيذى لأن السلطان الحقيقى كان فى يد محمد على .

ثم قضى عباس على هذا المجلس كما قضى على غيره من صور النشاط .

وفى عهد اسماعيل عندما بدأ التدخل الأجنبى فى الشئون المصرية تكونت لجنة التحقيق العليا الأوربية ، وفى ابريل سنة ١٨٧٨ ذكرت هذه اللجنة فى تقريرها أن كل المفاصد وقوضى الأوضاع المالية فى مصر ناتج أساساً عن السلطة المطلقة التى يمارسها الخديوى فى البلاد .

وتبعاً لذلك أوصت هذه اللجنة أن يشترك مع الخديوى مجلس وزراء وادعت أن ذلك يخلى الخديوى من المسئولية ، ورغبة من هذه اللجنة الأوربية فى أن يتحقق لها ما تشاء تدخلت فى تحديد من يرأس هذه الوزارة ،

بل أصرت على أن يكون بها وزير انجليزى وآخر فرنسى ذاكرا أنهما بهذا التكوين تكون أعلى كفاءة وتستطيع أن تقف في وجه الخديوى ، وبعد حيل كثيرة أصدر الخديوى اسماعيل في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ أمراً بتشكيل أول نظارة مسئولة بمصر ، وكانت برئاسة نوبار باشا .

وولدت بذلك أول وزارة بمصر ، وكانت آنذاك تسمى « النظارة » إشارة الى تبعية مصر للإمبراطورية العثمانية ، فلما انقطعت هذه التبعية سنة ١٩١٤ بإعلان الحماية على مصر ، أصبحت النظارة وزارة ، ويمولد النظارة المصرية تغير نظام الادارة الذى كان متبعاً من قبل ، وانتقل لها جزء من سلطة الخديوى ، وكان خطاب الخديوى الى رئيس النظار يفيد هذا الاتجاه وقد جاء فيه : « أردت أن أؤكد لكم ما توجه قصدى اليه وثبت عزمى عليه من اصلاح الادارة وتنظيمها على قواعد مماثلة للقواعد المرعية في ادارات ممالك أوروبا ، كما أنى أريد — عوضاً عن الانفراد بالأمر — قوة من مجلس النظار بمعنى أنى أروم القيام بالأمر من الآن فصاعداً بالاستعانة بمجلس النظار والمشاركة معه . »

ولنعد الى أول رئيس للنظار بمصر وهو نوبار باشا لنقرر أنه رجل أرمنى الأصل مسيحي الدين ، كانت عواطفه وميوله في جانب بريطانيا (١) ، وقد وصفه جورديون في مذكراته بأنه أرمنى وضع ، وكان من بين أعضاء هذه الوزارة وزير انجليزى ووزير فرنسى ومن أجل هذا سميت الوزارة المختلطة ، ولم يطل عمر هذه الوزارة بسبب هذا العنصر الأجنبى فيها ، ولأنها اتجهت فيما اتجهت اليه من مظاهر الاقتصاد الى تعطيل المرافق العامة ، وأحالت ٢٥٠٠ من رجال الجيش الى الاستيداع ، مما هيج رأى العام والجيش فاضطرت الوزارة الى الاستقالة .

واتجهت الأنظار بعد ذلك الى تعيين الأمير توفيق رئيساً للوزارة ،

(١) سافر نوبار الى لندن سنة ١٨٧٧ لتهديد الطريق لفرض حماية بريطانيا على مصر (مصر المعاصرة للدكتور مصطفى صفوت ص ٥٦) .

ولكن وزارته لم تكن أحسن من سابقتها فأخلت الطريق الى أول وزارة وطنية برياسة شريف باشا ، وقد أبعد شريف العنصر الأجنبي من وزارته ، ولكن الأوربيين تألبوا عليه ، بيد أن الشعب أيده وأيده كذلك الخديوى اسماعيل ، فكان أن عملت الدول الأوربية على خلع اسماعيل ، وتولى توفيق العرش بعد أبيه فقدم شريف استقالته للخديوى الجديد ، ولكن الخديوى توفيق طلب منه إعادة تشكيل الوزارة تهدئة للأحوال ، بيد أن توفيق سرعان ما لاحظ اهتمام شريف بالحياة الدستورية الحقبة التي لا تتناسب ميوله ولا اتجاهات الدول التي جاءت به الى الحكم ، فعارض ميول شريف مما دفع هذا الى الاستقالة في أغسطس سنة ١٨٧٨ •

وأراد توفيق أن يعود بالبلاد الى الوراء ، فألف وزارة يرأسها هو ، ولكن ذلك قوبل باستياء عام اذ كان معناه العودة للحكم المطلق ، فاستدعى توفيق رياض باشا من أوروبا وطلب منه تشكيل الوزارة فشكها في ٢١ سبتمبر سنة ١٨٧٩ ، ولم يكن رياض مرضيا عنه ، وكانت ميوله استبدادية ، وكان ينفذ آراء ساداته الانجليز الذين آثروا — كما يقول اللورد كرومر — جر الخيوط من وراء ستار ، وعدم الظهور على المسرح إلا قليلا (١) ، واكتفى رياض بالغاء أنواع من الضرائب الجائرة منها الضريبة الشخصية والجمارك الداخلية ، ولكن ذلك كان أقل كثيرا من أمانى البسلاد •

وإذا سرنا بعد ذلك مع الوزارة المصرية نجد أن وزارة رياض قابلت عاصفة الحركة العربية ، ولم يستطع رياض أن يوفق بين ميوله الاستبدادية وولائه للانجليز وللخديوى وبين الفكر الذى كانت الحركة العربية تتبناه ، فأقيلت وزارة رياض برغبة العرايين وتولى شريف باشا في سبتمبر سنة ١٨٨١ ولكن هذا رأى أن يخلى الطريق للزحف العربى فاستقال وتألقت وزارة عربية برياسة البارودى في فبراير سنة ١٨٨٢ وبعد بضعة شهور تم الاحتلال البريطانى (يوليو ١٨٨٢) كما سنرى فيما بعد •

(١) من مذكرات اللورد كرومر •

ومع الاحتلال البريطاني واجهت الوزارة المصرية مشكلات خطيرة أهمها :

١ — تعيين اللورد كرومر في وظيفة الوكيل البريطاني والقنصل العام بمصر عقب الاحتلال ، وقد ظل يشغل هذا المنصب حتى سنة ١٩٠٧ وكان خلال هذه المدة يعتبر مصدر السلطات بمصر ، فموافقته كانت ضرورية لاختيار رئيس الوزراء ، وكان مسموع الكلمة في اختيار الوزراء ، وعندما تخطى الخديوى عباس الثانى هذا التقليد الاستعماري وعين فخري باشا رئيسا للوزراء في يناير سنة ١٨٩٣ دون موافقة كرومر ، هدهد كرومر بالخلع من منصب الخديوى ، فراجع الخديوى عباس ، واستقالت وزارة فخري باشا بعد ثلاثة أيام من تشكيلها ، ودعموا لنقوذ كرومر عين هذا مستشارين من الانجليز للوزارات المصرية المختلفة يتكون منهم برياسته ما يمكن أن يعتبر مجلس الوزراء الحقيقي ، كما عين مفتشين من الانجليز بالمديريات كانوا بمثابة عيون له في تلك المديريات .

٢ — ولكن التاريخ يسجل كثيرا من المقاومة التي أبداه رؤساء الوزارات والوزراء للسلطة الانجليزية ، فقد رفض شريف باشا سنة ١٨٨٤ أوامر الانجليز لاخلاء السودان ، وفضل أن يستقيل على ارتكاب هذا المنكر ، وجاء بعده نوبار فوافق على مطالب الانجليز ، ووقف سعد زغلول موقف شريف من السودان سنة ١٩٢٤ عقب مقتل السردار ، وجاء بعده زيور ليستجيب لمطالب الانجليز ، على أن هناك صراعا مشهورا يرتبط باسم سعد زغلول أيضا حينما كان وزيرا للتربية والتعليم (١٩٠٦ — ١٩١٠) فقد قاوم تعليمات دنلوب دون هوادة .

ويرتبط بالمقاومة كذلك ما يذكره التاريخ عن احجام رجال السياسة عن تأليف وزارات أحيانا حتى لا ينزلوا عن جماهير الشعب ، وقد ظلت البلاد بدون وزارة سنة ١٩١٩ مدة أربعين يوما حتى أعاد حسين رشدي باشا تشكيل وزارته في ٩ إبريل .

٣ — وتعرضت الوزارات المصرية للألوان من الهجوم مصدره القوى الوطنية التي كانت تتربص بالوزراء الذين يخضعون للمحتل الغاصب ، وقد بلغت هذه المقاومة مداها عندما دفع الحماس الوطنى أحد المواطنين ليقتل بطرس غالى رئيس الوزراء لاتجاهه للموافقة على مد امتياز شركة قناة السويس •

٤ — وحدث بعد تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ تغيير واضح في تقييم الشخصيات ليتم اختيارهم لمنصب الوزارة ، فقد أصبح ماضيهم السياسى ومكانتهم الحزبية تعادل أو تزيد عن مكانتهم الادارية أو الفنية التي كانت موضع التقدير من قبل •

ولكن الذى يتتبع اتجاهات حزب الوفد يرى أنه كان يحرص على اختيار شخصيات لها كفاءة ممتازة ليضمها للوزارة وإن لم يكن مكانها واضحا بين شخصيات الحزب ، ومن هؤلاء الدكتور صلاح الدين والدكتور طه حسين •

٥ — اختفت وزارة الخارجية من بين الوزارات المصرية فترة خلال سعار الاستعمار اذ اعتبر الوكيل البريطانى هو المسئول باسم حكومته عن صلات مصر بالدول الأخرى •

٦ — بعد قيام الحكومات الدستورية بمصر بدأ صراع مرير بين فؤاد وفاروق من جانب وبين الوزارات الوفدية من جانب آخر كما سنرى تفاصيل ذلك انحصائيا بعد قليل ، وقد ظل الصراع محتدما بين القصر وحكومات القصر من جانب وبين الحكومات الوطنية من جانب آخر حتى نهاية عهد الملكية بمصر •

ثالثا — الصحافة :

بدأت الصحافة المصرية في عهد اسماعيل ، وقد شجعها اسماعيل في أول الأمر ليستعين بها على الانجليز ، بيد أن هذه الصحافة أصبحت في الغالب تمثل رأى العام ، وتقاوم ما وسعتها الحيلة تتدخل الانجليز أو

محاولة الخديوى العودة للاستبداد ، وكانت جريدة « أبو نظارة » التى أنشأها يعقوب صنوع سنة ١٨٧٧ من أولى الصحف المصرية ، وكانت واسعة الانتشار بين الشعب وشديدة التأثير فيه ، وكانت كثيرة الانتقاد لأعمال إسماعيل .

ومع « أبو نظارة » ظهرت جريدة « مصر » سنة ١٨٧٧ وكان من بين محرريها سليم نقاش وجمال الدين الأفغانى ، وأسس سليم تقلا وبشارة تقلا جريدة « الأهرام » فى نفس الفترة أيضا ، وأصدر ابراهيم اللقانى جريدة « مرآة الشرق » سنة ١٨٧٨ ، كما أنشأ ميخائيل عبد السيد جريدة « الوطن » ، وتوالى ظهور الصحافة بعد ذلك .

وعلى الرغم من انحراف بعض الصحف وتأييدها التدخل الأجنبى أحيانا ، فإن أكثر الصحف سارت فى الخط الوطنى وكان الشعب فى منتهى الذكاء ، فقد انفضّ عن الصحافة المنحرفة فقضى عليها ، ولم يجدها نفعا تأييد الانجليز أو القصر ، اذ لم يعد لها قراء فلم يبق له أى تأثير أما الصحافة الوطنية فقد سارت تؤيد الإصلاح ، وتعمل على حراسة حقوق الشعب ، ورد المعتدين على هذه الحقوق .

رابعا — الجيش :

كان عملا أهوج ذلك الذى أشرنا اليه من قبل وهو احالة ٢٥٠٠ من رجال الجيش الى الاستبداد فى عهد نوبار وقد ثار الجيش لذلك ، وتراجع نوبار واستقال ، وعاد رجال الجيش اليه ، ومنذ ذلك الحين ظهر الجيش قوة من قوى المعارضة الوطنية ، وأصبح وقوفه فى وجه الاستبداد والانتقادية عملا عاديا ، وظلت هذه القوة تنمو حتى تسلم عرابى قمة المعارضة الوطنية كما سنرى فيما بعد .

خامساً — الرأي العام :

من الحق أن تقرر أن الرأي العام في مصر كان دائماً موجوداً ، ولكن صوته كان يكبت حيناً ، وكان حيناً آخر يتغلب على الصعاب فيرتفع ويزمجر ، وقد رأيناه مدوياً في عهد الحملة الفرنسية ، ورأيناه بارزاً حين عزّل الوالي العثماني وعين محمد علي والياً على مصر ، ورأيناه صاحباً وهو يناضل فريزر قبل أن يصل محمد علي من الصعيد بجنوده وعتاده .

وفي آخر عهد اسماعيل ظهرت زعامات قوية من أبرزها شريف باشا الذي أصبح بفضل مواقفه القوية بطل الوطنية المصرية في عهده ، وانضم إلى شريف ، عمر لطفي وشاهين باشا وراغب باشا وسليمان باشا مكونين « الحزب الوطني » وأرسلوا أديب اسحق إلى باريس ليصدر جريدة « مصر القاهرة » على نفقتهم ، وكانت توزع سرا في مصر ، ثم انضم إلى هؤلاء عرابي وعبد العال وعلى فهمي والبارودي وسليمان أباطة وحسن الشريعي ومحمود فهمي .

وكان لهؤلاء الزعماء مكانتهم بين الجماهير ، فكانت حركاتهم مؤيدة من الرأي العام ، وكان صوتهم عميق الصدى بين الجماهير ومعبراً عن مشاعر المواطنين .

وفي هذه الفترة الحساسة ظهر بمصر زعيمان من نوع جديد آنذاك ، زعيمان لم تكن السياسة هي كل ما يشغلها بل أضافا إلى ذلك عمقا في الاتجاه الإسلامي ، ودعوة للتجديد والاجتهاد والانطلاق ، وهذان الزعيمان هما :

١ — العلامة جمال الدين الأفغاني .

٢ — الامام محمد عبده .

وكل منهما جدير بحديث خاص نقوم به عقب الانتهاء من سيرة اسماعيل .

عيوب اسماعيل

لعلنا فيما سبق حاولنا أن نلّم بمآثر اسماعيل ، وألا نغفل شيئا مما قدمه لصر من أياد وأفضال ، وقد آن الأوان لنتحدث عن عيوبه ونضع في الكفة الأخرى مثالبه ، لنستطيع بعد ذلك أن نرى أى الكفتين ترجح وأيهما تشيل •

قضية الديون :

ولا شك أن قضية الديون هي أبرز العيوب التي لصقت باسماعيل ، ولا شك أنه كان هناك إهمال وغفلة في موضوع الاستدانة ، وقد تسبب عن الإهمال والغفلة صور من العناء لبلادنا الحبيبة •

والحديث عن الديون له عناصر :

أولها : ما مقدار هذه الديون ؟ وماذا حصل في أرقامها من عبث ؟

وثانيها : فيم أنفقت هذه الأموال التي استدانها اسماعيل ؟

وثالثها : هل كانت هذه الديون هي السبب الحقيقي لعزل اسماعيل ؟

وستتكم عن هذه العناصر واحدا بعد الآخر •

١ — مقدار الديون والألاعب حولها :

تدل الوثائق على أن القروض التي اقترضتها مصر في المدة من ١٨٦٣ الى ١٨٧٣ كانت ١٨٧٣٠٠٠ ر ٩٧٠٠٠ جنيه ، ولكن المبالغ الحقيقية التي تسلمتها الخزانة المصرية هي ٣٧٨٧٠٠٠ ر ٤٣٧٨٧٠٠٠ جنيه ، ومن الواضح أن العملات والسمرة قد أخذت جزءا كبيرا من هذا الدين يزيد عن الثلث ، ومن الواضح كذلك أن جزءا من هذا الدين عَقِدَ في عهد سعيد باشا ، وكانت فوائد هذه الديون تقرب من أربعة ملايين جنيه سنويا ، مما جعل من الصعب تسديد الفوائد وأقساط الديون في وقت واحد ، وفكر اسماعيل

في توحيد أكثر الديون ، فعقد قرضا بمبلغ ٣٣ مليونا من الجنيهات ، ولكن الذي وصل فعلا للخزانة المصرية من هذا المبلغ هو ٢٢/٤٠٠/٠٠٠ بمعنى أن عمولات السماسرة والأتعاب المنوعة استغرقت حوالى عشرة ملايين •

ومن الممكن أن نقرر أن هناك غفلة وتهاونا لا يمكن غفرانها وتشمل الغفلة مبدأ الاستدانة لغير ضرورة قاهرة ، كما تشمل أضاعة جزء كبير من الدين للوسطاء والعمولات •

٢ — فيم أنفقت هذه الديون :

إن الوثائق تقرر أن ٤٦ مليونا أنفقت في التزامات مصر تجاه حفر قناة السويس ، والتحلل من الالتزامات التي كان قد ارتبط بها سعيد باشا ، كما أنفق جزء كبير منها في إنشاء الترعة النيلية التي أشرنا لها من قبل ، وإنشاء الجسور (الكبارى والقناطر) وإنشاء مصانع السكر ، وميناء الاسكندرية ، وأحواض السويس ، والسكك الحديدية ، والتلغراف والمناير ، ويذكر بعض الباحثين المحدثين هذه الحقيقة فيقرر أن الخديوى أنفق أكثر هذه الأموال في حفر قناة السويس وفي حفر الترعة وتوسيع الرقعة الزراعية بمساحة مليون فدان وفي ربط مصر بالسكك الحديدية والتلغراف وفي بناء جيش وطنى قوامه نحو مائة ألف مقاتل ، بعد أن كان ١٨٠٠٠ مقاتل وقد بنى به أمبراطورية إفريقية نيلية تضارع أمبراطورية محمد على العربية ، فرفع العلم المصرى على أوغندا وألقى تجارة الرقيق حيثما سارت جنود مصر • كذلك نعرف أنه تسلم البلاد وليس فيها إلا نحو ١١٥ مدرسة وتركها بعد ١٦ سنة فيها ٤٥٠٠ مدرسة بعضها للبنات ، ولم تكن فيها صحيفة واحدة فعرف عهده قرابة ٣٠ صحيفة ومجلة ، ولم يكن فيها نظام قانونى واضح فادخل فيها أحدث قانونى مدنى وجنائى وإدارى كان معروفا في عصره (قانون نابليون) ولم تكن في مصر هيئة تشريعية فأنشأ اسماعيل فيها أول برلمان مصرى ، بدأ استشاريا سوريا في ١٨٦٦ ثم نصح واستأسد عبر ١٢ سنة حتى شارك اسماعيل في ١٨٧٩

في قيادة الحركة الوطنية ضد النفوذ الأوربي ، ثم ظاهر الثورة العراقية الشعبية في سنة ١٨٨٢ (١) .

على أنه كانت هناك وجوه انفاق فيها صور من البذخ ، وكان من الممكن تأجيلها أو تقليلها ، ومن هذه اقامة القصور الشامخة وتأثيثها بأفخر الأثاث ومنها الاحتفال الباهر بافتتاح قناة السويس وقد تكلف حوالي المليون من الجنيهات مع ملاحظة أن بعض المبالغات تصوّر هذا الحفل وكأنه كان وحده سبب الديون ، ومنها الحملات العسكرية الكبيرة التي دفع بها اسماعيل للخارج لمساعدة تركيا أو غيرها ، وقد تكلفت تكاليف باهظة ، وهذه الأشياء نعييها وننتقدها بشدة .

٣ — الديون وعزل اسماعيل :

في الفترة التي كانت مصر تتجه الى افريقية في عهد محمد علي ثم في عهد اسماعيل كانت قوى أوربا المنسحبة من أمريكا قبيل حرب الاستقلال (١٧٧٨) وبعده ترى في افريقية أملاها بعد أن فقدت الأمل في أمريكا ، ومن هنا حدث صراع بين أوربا ومصر .

على أن أوربا كانت قلقّة منذ عهد محمد علي وكانت تخشى أن تصبح مصر دولة عظيمة بافريقية ، وقد عبر مترنيخ عن موقف أوربا بقوله سنة ١٨٢٧ أن نشوء دولة افريقية جديدة ، عظيمة بمواردها ومركزها الجغرافي يّعدّ من أكبر الأخطار التي تتهدد أوربا .

وقد كان خطر اسماعيل في افريقية أوسع من خطر جده لاتساع ملكه وعظم تأثيره ، ومن هنا تكفل الأوربيون ضد اسماعيل ، وقرروا ضرورة إبعاده عن الطريق ، واتخذوا الوسائل للكيد له ، وكانت الديون وسيلتهم لذلك ، فادعوا أنه مسرف مبذر ، يستدين لينفق على ملذاته ولهوه فأساعوا بذلك

(١) من بحث بحريّة الأفرام يوم ١٥/٨/١٩٧٥ .

سمعته ، ثم أرادوا تنفير الناس منه وإيقاف موجة الإصلاحات التى كان يقوم بها ، فالزموه بانشاء صندوق الدين ، وعيّن فيه مندوب لكل دولة دائنة ، كما ألزموه بتعيين مراقبين أجنيين لحساب الحكومة ، أحدهما للإيرادات والثانى للمصروفات ، واتجه كل هذا النفوذ الأجنبى لسداد الديون بدون نظام ، مما سبب توقف كل الإصلاحات وفصل بعض الموظفين ، ومما أثار الارتباك والفوضى ، فأصبح وجود اسماعيل يمثل عائقا فى تيار الحياة ، وانتهت الأزمة بخلع الخديوى اسماعيل فى يونيو سنة ١٨٧٩ وتولية ابنه توفيق ، ورحل اسماعيل الى أوربا ، وظل يعيش بها حتى سنة ١٨٨٨ ، ثم انتقل الى الأستانة فعاش بها حتى مات سنة ١٨٩٥ ، ونقل جثمانه الى القاهرة .

وقد وضّح (فارمان) قنصل أمريكا فى مصر آنذاك مأساة عزل اسماعيل فى تقرير بعث به الى حكومته فى ٨ يوليو ١٨٧٩ ، وقد اقتبسنا فقرات من هذا التقرير فى الجزء السادس من هذه الموسوعة (صفحة ٣٣٧ - ٣٣٨) وضّح فيها أن حكومة الخديوى اسماعيل كانت أفضل حكومات الشرق ، بل كانت هى الحكومة الشرقية الوحيدة التى انفردت بمحاولة التقدم والرقى فى كل ما يتصل بأسباب الحضارة الحديثة ، وأن من يستعرض ما تمّ فى عهده من التقدم يجد أنه كان عظيما جدا ، ويقرر « فارمان » أن المسألة المالية لم تكن الا مجرد أعذار لتجمل من الممكن تنفيذ خطط سياسية معينة ، ولهم يسبق أن اعتبر عجز الدولة عن دفع ديونها سببا يخلو الدليل الأجنبية الحق فى أن تخلع حاكمها أو أن تغير حكومتها .



وقد مر قرن على عصر اسماعيل فماذا على مصر من ديون بعد هذا القرن ؟ وفى أى النواحي أنفقت هذه الديون ؟ إن الاجابة عن هذا السؤال تحتويها دراساتنا التفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر فى الجزء التاسع من

هذه الموسوعة ، وهى على العموم توضح السرقات كما توضح أن طرق الانفاق فى القرن الحالى كانت مأسى تدمى لها القلوب ، وليس بها أى جانب ذى بال من جوانب الاصلاح .

اسماعيل فى الميزان :

ليس من العسير بعد هذا الشرح أن نقرر أن اسماعيل كان حاكما عملاقا ، وكان عهده منعطفًا هائلا فى تاريخ مصر السياسى والحضارى ، ولا شك أن حسنات اسماعيل ترجح ما ارتكبه من سيئات رجحانا عظيما ، ونضعه فى القمة مع القادة والمشاهير ، ومرة أخرى نقرر أن له إخطاء ، وأن بعضها جسيم ، وقد ذكرنا هذه الأخطاء وانتقدناها ، ولكن حسناته فى الكفة الأخرى كانت أعظم وأكبر .

اسماعيل والتاريخ :

اصطنعت أوروبا الوسائل لعزل اسماعيل كما رأينا وأخفت الأسباب الحقيقية التى دفعتها لعزله وهى التخلص منه ليخلو لها الجو بافريقية ، وبعد أن تم لها ما أرادت اتجهت لتزييف التاريخ ؛ فراحت تصور الديون كأنها شبح مزعج ، وتدعى أنه أنفقها فى السرف والترف ، غير ذاكرة نواحى العمران التى اهتم بها ، والمؤسسات العلمية والاجتماعية التى أسسها ، فدونت عن الرجل تاريخا غير صادق ، وانتقل هذا التاريخ من جيل الى جيل دون تمحيص ، وساعد على ذلك أن معلمى الأجيال التى تلت اسماعيل تلقى ثقافتها فى انجلترا الدولة المحتلة فتأثر هؤلاء بما قرءوا وما سمعوا عن اسماعيل ، وظل الرجل مظلوما عند الكثيرين حتى راح جيلنا يحقق ويدقق ليكتب كلمة الانصاف لوجه الحق ، ونرجو أن يكون التوفيق قد حالفنا فى رفع هذا الحيف عن وجه مشرق من وجوه قادة هذه البلاد ، ولا شك أنه كانت فيه غفلة ارتبطت بهذه الديون وبالوسطاء فيها ، ولكن الديون لم تكن قط سببا فى عزل حاكم البلاد .

بعد اسماعيل :

لقد طاب لنا أن ننصف محمد على وحفيده اسماعيل ، فذلك هو حق
الأفغان من الناس ، ولكن الحال تغير بعدهما وشهدت مصر مجموعة من
أحفاد محمد على كانوا الى الخرق والانحراف أقرب ، وسندرس تاريخ
هؤلاء فيما يلي « وسنرى فيهم من خان البلاد مثل تزيق ، ومن خان
الدستور يوم أصبح مصر دستور مثل فؤاد وفاروق ، فقد عاش هؤلاء أعداء
للشعب ووضعوا بمواقفهم الأثيمة خيوط النهاية لهذه الأسرة .

وقبل أن نخطو لهذه المرحلة نقدم ترجمة موجزة لكل من جمال الدين
الأفغانى والامام محمد عبده ، فالتاريخ الذى ندوّنهُ يعنى بالاحداث ،
ويعنى كذلك بالمفكرين ، وبالقيم الحضارية التى يرفع هؤلاء المفكرون لواءها :

جمال الدين الأفغانى

أجمل الإمام محمد عبده سيرة جمال الدين الأفغانى أجمالا دقيقا ، فذكر أن الناس اختلفوا في أمره فكأنه حقيقة تجلّت في ذهن كلِّ بما يلائمه ، ومن أجل هذا عمد الإمام الى ايضاح حقيقته التى يعرفها من طول العشرة ، وعن محمد عبده وسواه من الباحثين نقل الأستاذ محمود أبو رية نقولا كثيرة لم يؤلف بينها (١) ، ولكنها على كل حال مادة يمكننا أن نقتبس منها ومن سواها صورة واضحة لجمال الدين :

— ينتمى جمال الدين الأفغانى الى أسرة حسينية النسب ، كان لها قدر كبير من السيادة في بعض مناطق أفغانستان بالقرب من كابول ، وقد ولد سنة ١٢٥٤ هـ (١٨٣٨ م) وتعلم اللغة العربية والعلوم الاسلامية والعقلية بها ، ثم انتقل الى الهند فاسترد من العلوم وحج سنة ١٢٧٣ هـ (١٨٥٧ م) وبدأت بعد ذلك حياته الحافلة على ما يلي :

— في بلاده اشترك في بعض الحملات الحربية مؤيدا أحد الأمراء واسمه محمد أعظم ضد اخوته ، وتم لهذا الأمير النصر ، فزاد اقباله على جمال الدين ، ولكن رضا الملوك لا يدوم ، والانتصار تعقبه هزائم ، وهذا ما حصل بالنسبة لجمال الدين مما اضطره للرحيل عن أفغانستان الى الهند ومن الهند وفد الى مصر فبقى بها مدة قصيرة ثم سافر الى الأستانة مركز الخلافة في عهد السلطان عبد العزيز .

— في الأستانة لقي ترحيبا واسعا ، ولكن سرعان ما دب صراع محتدم بينه وبين بعض رجال الدين والسياسة ، واشتدت الخلافات بينه وبينهم ، وكان جمال الدين حاد الطبع فأخذت منه الحدة مبلغها ولجّ في طلب المخاصمة ، مما سبب صدور الأمر بجلائه عن الأستانة سنة ١٨٧١ .

(١) جمال الدين الأفغانى : تاريخه ورسالته بمبادئه .

— حضر من الاستانة الى مصر ، وكان رياض باشا ذا نفوذ في الادارة المصرية آنذاك فرحب به رياض وعين له مرتبا مناسباً ، وجلس في بيته يعلم ويقرأ لمن وفدوا عليه ، وكان الخديوي اسماعيل يشجع كل الكفاءات العلمية فوجد جمال الدين في رحابه آمناً واطمئناناً طيلة ثمانى سنوات .

— ولما تولى توفيق الأمر بعد أبيه ساعت ظنونه بالأفغانى ، وبخاصة أن بعض العلماء ثار عليه لانتقاده المذاهب والأفكار المسلم بها ، ولقراءته كتب الفلسفة ، والكتب المنحرفة ، وكان رد الأفغانى أن الثابتين في ايمانهم لهم النظر في كل العلوم سواء وافقت مذهبهم أو خالفته ، وعلى كل حال لم تعد مصر أرضاً مناسبة له ، فنفى منها سنة ١٨٧٩ ، ومنها سافر الى الهند فأوربا ، وقد أسهم البارودى في اتخاذ قرار نفي الأفغانى من مصر (١) .

— في أوربا ذهب الى لندن ثم باريس ، ومنها استدعى الإمام محمد عبده وكان هذا منفياً أيضاً بسورية عقب الثورة العراقية ، وأصدرا معاً صحيفة « العروة الوثقى » وقد صدر منها ١٨ عدداً في المدة من مارس الى أكتوبر سنة ١٨٨٤ ، ثم ترقفت لأنها كانت مثيرة فمنعتها انجلترا من دخول الهند وغيرها من البلاد الواقعة تحت سيطرتها .

— عاد الى ايران سنة ١٨٨٦ بدعوة من الشاه ناصر الدين ، وأدناه الشاه منه ، ولكن العلاقة سرعان ما ساءت بينهما فغادرها الى روسيا ، ولكن الشاه طلبه بعد ذلك وألح في طلبه ، ولكن العلاقات ساءت من جديد فنفى الى خارج الحدود (الى البصرة) .

— ومن البصرة سافر مرة أخرى الى لندن واشتد في محاربة الشاه بقلمه ولسانه .

— استدعاء السلطان عبد الحميد الى الأستانة ولّح في طلبه فسافر اليها سنة ١٨٩٢ وطلب منه السلطان أن يكف عن الهجوم على الشاه فأجاب الأفغاني قائلا : ما كنت أنوى ترك الشاه حتى أنزله قبره ولكني لأجلك قد عفوت عنه ، ويعلق الأستاذ أحمد أمين على هذا بقوله : وقد ارتاع السلطان لمثل هذا القول (١) .

على أن الشاه قتل بعد ذلك بقليل بيد رجل أطلق عليه الرصاص وهو يصيح : خذها من يد جمال الدين ، وقد اتهم جمال الدين بتدبير هذه الجريمة ، ولكنه نفى ذلك بشدة ، وحسبى أنفى أؤيد براءته ، ولكن الشبهة كان لها أثرها في بلاط الخليفة بالأستانة (٢) .

— وقد ظل جمال الدين بالأستانة حتى توفي سنة ١٨٩٧ ، ويقول الأستاذ أبو ريه أنه مات مسموما ، بل يتجه أنه دعى للأستانة ليتخلص الخليفة منه ، ولا يمكن قبول هذا الرأي لأنه عاش في الأستانة بعد وصوله اليها خمس سنوات ولو كان القضاء عليه هدفا للسلطان ما انتظر عليه هذه المدة .

أخلاق الأفغاني واتجاهاته الإصلاحية :

يتحدث الإمام محمد عبده عن أخلاق الأفغاني فيذكر « أنه كان فيه حلم عظيم ، ولكنه إن دنا منه أحد ليمس شرفه أو دينه انقلب الحلم الى غضب تنقش منه الشهب فاضحى أبدا وثابا ، وكان عصبيا حديد المزاج ، وكثيرا ما هدمت الجدة ما رفعته الفطنة » وقد كتب له الامام محمد عبده مرة خطابا وأرسله اليه دون توقيع على الأستانة يلمح فيه لبعض الأشخاص والقضايا حتى يأخذ الأفغاني حذره ، فهاج الأفغاني وأرغى وأزبد ، وكتب

(١) زعماء الإصلاح ص ١٠٠ .

(٢) أبو رية ص ١٣٨ .

للإمام كتابا قاسيا ، ويعلق الأستاذ أحمد أمين على هذا الخطاب بقوله :
لقد كتب جوابه هذا وقد ملكته الحدة ، وكلم ملكته (١) ، وكان طموحا الى
مقاصده السياسية يتعجل الوصول اليها اذا لاحت له بارقة ، وكثيرا ما كان
التعجل سبب الحرمان ، وكان شديد الزهو بنسبه الشريف ، شديد الوطأة
على الحكام يعاملهم بالمعجب والخيلاء ، عصبيا دمويا في مزاجه (٢) .

أما عن اتجاهات الأفغانى الإصلاحية فيقرر الامام محمد عبده
أن الأفغانى كان واسع المعرفة ، دقيق التعبير ، مسترسل الأسلوب ، ومن
أعرف الناس بالاسلام ، وكان قادرا على النفع بالافادة والتعليم ، ولكنه
وجه كل عنايته الى السياسة فضاع استعداده هذا ، ويقول محمد عبده
اننى أعجب لجعل نبهاء المسلمين وجرائدهم ، كل همهم فى السياسة وإهمالهم
أمر التربية الذى هو كل شئ وعليه يبنى كل شئ ، ولو أن جمال الدين
صرف قدراته للتعليم والتربية لأفاد الاسلام أكبر فائدة ، وقد عرضت
عليه سلوك سبيل التربية ، وأكدت له أن ذلك سيكون الطريق الأمثل لنشر
الإصلاح المطلوب فقال لى : إنما أنت مشبب (٣) .

ذلك مجمل سيرته ، وتعريف باتجاهاته وأخلاقه ، وننتقل بعد ذلك
الى ابراز نقاط مهمة تتصل بالأفغانى وتساعد على رسم صورة دقيقة
لاتجاهاته حتى يتضح دوره الحقيقى فيما ينسب اليه من بعث الحركة
الفكرية بمصر ، فقد لاحظت مبالغة هائلة من بعض الكتاب فى ذلك ، وتلك
المبالغة تجافى الانصاف ، وتخفى جهود المصريين فى بعث هذه الحركة :

١ — كان الأفغانى يقول بالجامعة الاسلامية ، وكان بادىء ذى بدء
يزمى الى ايجاد حكومة اسلامية واحدة ، ثم ظهر له استحالة هذا الهدف

(١) زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ص ١٠٨ .

(٢) أبو ريه ص ٣٧ .

(٣) انظر الأستاذ محمود أبو ريه ص ٥٠ وأحمد أمين ص ٨٠ .

فاتجه إلى الدعوة للتعاون بين ممالك المسلمين على أن يحكم كل ملك مملكته تبعاً للتعاليم الإسلامية ، وعندما نادى بحكومة إسلامية واحدة كان مفهومها أنه يقصد اندماج المسلمين تحت سلطان الخليفة المستبد الجائر ، السلطان عبد الحميد ، ويطلق الأستاذ أحمد أمين على موقف الأفغانى فى الأستانة بقوله انه كان فى عاصمة العثمانيين يعيش فى قفص من ذهب أحكم بابه (١) .

٢ — ومثل دعوته للجامعة الإسلامية إتجاهه الذى عاش فيه فترة من الزمن ليقوم اتحاداً بين الأديان ، وهو يقول انه أخذ يفسح لنظريته خطاً ، ويخط أسطراً ، ويحرر رسائل وأخيراً عاد عن نظريته والاختفاق ملء إهابه (٢) .

٣ — انتسب الأفغانى للماسونية وانضم إلى المحفل الماسونى الاسكتلندى بمصر ، ولما وجد أعضاءه لا يتدخلون فى السياسة ، والأفغانى عمله كله متصل بالسياسة استقال منه ، وأنشأ محفلاً ماسونياً آخر (٣) .

ومن عجب أن الرجل لم يجد طريقاً آخر يخدم أغراضه غير الماسونية التى كانت وما تزال مرنج الريية والشك ، والتى يعتقد أنها مؤسسة يهودية الجذور .

٤ — ويقول عنه الأستاذ أبو ريه انه كان ينقد المذاهب المسلم بها حتى مذهب أبى حنيفة (٤) ويتوسع فى اتیان بعض المباحث (٥) .

٥ — عاش الأفغانى فترة طويلة فى ظل رياض باشا ، وقد رأينا فيما

(١) زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ص ٨٣ ي ٩٩ .

(٢) الأستاذ محمود أبو رية ص ١٧٦ .

(٣) أبو ريه ص ٩٢ .

(٤) أبو ريه ص ٩١ .

(٥) أبو ريه ص ٤١ .

سبق أن رياض قاوم النظام الدستوري ، كما قاوم حركة الإصلاح التي نادى بها عربى وزملاؤه ، وأن وزارته أقيمت برغبة العربيين سنة ١٨٨١ •

وعاش كذلك فترة في ظل توبار الأرمنى المسيحي الذي تحدثنا عنه من قبل ، ثم إن قرار نفيه تدبّر من البارودى باشا الذي كان يلاحظ الأوقاف آنذاك ، ومن الواضح أن البارودى كان قوة هائلة في الحركة العرابية ، ومن هنا فتحن ندهش من الذين يقولون إن جمال الدين كان من مؤيدى الحركة العرابية ، فقد نفى من مصر قبل أن تبدأ ، وكان نفيه على يد زعيم من زعمائها هو البارودى كما سبق •

٦ — وأبرز شيء في حياة الأفغانى أن السخط والقلق والثورة كانت دائما في ركابه أثنى حل ، وقد رأيناه كذلك في أفغانستان والهند ومصر والأستانة وإيران وكان من الطبيعى للمصلح أن يجيد التأتى ، وأن تكون دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة كما علمنا القرآن الكريم ، وأن يقيم علاقات طيبة يتخذها وسيلة لتحقيق اصلاحاته ، ولكن الأفغانى غفل تماما عن هذا السلوك •

٧ — كثيرون من الناس يبالغون في القول ، ويضعون نتائج لا تتفق مع المقدمات التي يوردونها ، وهم لذلك يجعلون جمال الدين الأفغانى موقظ الهمم في مصر ، ويأعت التهتة بها (١) ونقول لهؤلاء إن جمال الدين عاش في أفغانستان وفي الأستانة وفي الهند وفي روسيا وفي إيران مستعين طويلا ولم تثمر جهوده أية ثمرة ، ولو كان الفضل راجعا اليه لنشر فكره حيث كان ، وقد لاحظ الأستاذ أحمد أمين ذلك فكتب عنه يقول : لقد جرب السيد أن يثير بذورا في فارس والأستانة فلم تنبت ، ثم جربها في مصر فانبثقت (٢) •

(١) انظر ما كتبه عنه الأستاذ الشيخ الباقورى في تقديمه لكتساب « أبو ريه » .

(٢) زعماء الإصلاح ص ٦١ •

من هنا فاننا نذكر الكتاب بفضل مصر وبالفكر المصرى الذى لم يغيب عن الوجود والجهود مهما كانت الأحوال • والأستاذ أحمد أمين ينبه الى أن مصر كانت ثائرة ضد المراقبة الثنائية ، وأن الخديوى اسماعيل كسان يشجع أى نقد ضد التدخل الأجنبى ، ويؤيد الصحافة الوطنية مثل « الوقائع المصرىة » و « مصر » و « التجارة » ، حتى أصبحت البلاد أشبه بمستودع بنزين ، وجاء جمال الدين فكان أشبه بعود ثقاب ، ولولا هذه الظروف لخابت دعوته فى مصر كما خابت فى الأستانة (١) •

٨ — ومما يؤيد هذا الاتجاه أن الدروس المنتظمة التى كان يعلمها جمال الدين فى بيته بخان الخليلى كانت فى المنطق والفلسفة والتصوف وهى علوم كان الشيخ حسن الطويل يقوم بتدريسها فى نفس الوقت ، وكل ما كان من فضل لجمال الدين هو بعض الشروح والتعليقات التى كان يمكن أن تموت لولا الجو الثائر الذى صادفه جمال الدين الأفغانى بمصر •

٩ — عندما أبعد الأفغانى عن ايران وذهب الى انجلترا انتجه هناك لكتابة المقالات العنيفة ضد الشاه وحكومته وكان يستخدم فى ذلك أقسى الإلفاظ •

ويعلق الأستاذ أحمد أمين على ذلك بقوله « وهذه زلة كبيرة من جمال الدين دعاه اليها حذته ، وحبسه للانتقام ، اذ كيف أجاز لنفسه التشهير بحكومة شرقية اسلامية فى بلاد أجنبية تتخذ من أقواله حجة للتدخل فى شئوننا الداخلية ، وكيف استباح أن يفضح هذه العيوب ، ويغسل هذه الأثواب القذرة على مشهد من كل الناس » •

« لقد كان محدث باشا فى موقف كهذا أتبل من السيد وأكرم ، اذ نفاه « عبد الحميد » وأخذ رجاله من دست الوزارة الى السفينة ، لآمال ولا ثياب ولا أهل • ومع هذا فما إن وضع قدمه فى أوروبا حتى أخذ يسعى فى دفع الشر

(١) المرجع السابق ص ٦٩ •

عن أمته ، ويتكلم الكلام الكثير في فضل الأتراك على أوروبا ، ولا ينطق بكلمة في ذم عبد الحميد ، في الحق إنها كانت غلطة من غلطات « السيد » دعا إليها حدة مزاجه (١) .

١٠ — وأخيرا فالباحث في التاريخ يجد أن شباب الجيل الذي عاش فيه جمال الدين ، لم يرفع جمال الدين إلى الدرجة التي وضعه فيها الجيل اللاحق ، وكان الشباب في عهد جمال الدين يعرضون عنه في أخرج الأوقات ولا يرتضون رأيه ، وأمامنا على ذلك دليل قاطع ، فإن الفيلسوف « رينان » ألقى في السربون محاضرة أبرز فيها ثلاث نقاط هي :

١ — خطأ المؤرخين في قولهم علوم العرب وفنون العرب وتقدم العرب . .

٢ — الاسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر .

٣ — التعصب العربي بطبيعته أبعد العقول عن الفلسفة والنظر فيها .

ولما نشرت هذه المحاضرة تصدى للرد عليها الأستاذ الفرنسي « مسمر » فألقى محاضرة أنصف فيها العرب والاسلام .

وتخصص الشبان المسلمون في باريس بتعريب هذه المحاضرة ونشرها ، وبعد بضعة أسابيع كتب جمال الدين في نفس المجلة (الديبا) ردا على رينان ولكنه كان ردا هادئا مدح فيه رينان وأعلن بأنه استفاد من آرائه ولذلك لم يقبله الشبان المسلمون بباريس ، فلم يهتموا بترجمته أو نشره .



وقد اتهم العلامة الأفغانى بالإلحاد ، ولسنا نرى ذلك فيه بأى حال من الأحوال ، ولكن تهمة الإلحاد كانت سهلة عند بعض الناس يرمون بها من دخن السجائر أو جلس في المقهى ، ولعل مرجع هذا الاتهام

(١) زغيباء الاصلاح ص ٩٨ - ٩٩ .

الى ما يقوله الأستاذ أحمد أمين (١) إن الأفغانى كان يدين بمقيدة المتصوفة
وهى مبهمه غامضة تنتهى بوحدة الوجود ... وعلى كل حال فجهود جمال
الدين لخدمة الاسلام والمسلمين أقوى من أن تدع حياة لهذا الاتهام الباطل .

والآن نستطيع أن نقرر وبخاصة فيما يتعلق بدوره بمصر أن جمال
الدين الأفغانى قام بدوره فى تحريك الهمم بمصر وبالعالم الاسلامى ،
وفى إثارة الشعوب الاسلامية ضد الظلم والاستبداد الذى ينبع من الداخل
أو يرد من الخارج ، ولكننا نؤكد أنه كافح مع المكافحين ، وأن الوعي بمصر
كان شديدا قبل مجئ الأفغانى بعشرات السنين ، وقد رأينا مظاهر هذا
الوعي فى مواقف مختلفة وبخاصة مع مطلع القرن التاسع عشر .

كما نقرر أنه كان فى جمال الدين حدة فى الطبع ، واتجاهات فكرية
غير موفقة ذكرناها فيما سبق ، وقد حال هذا وذاك دون نجاحه فيما كان
يمكن أن ينجح فيه ، وهذه الأشياء توضع فى الحساب وتذكر عند تقويم
الرجال .

زعامة مصرية مبهمة الأفغانى وعاصمته :

وكلمة حق نقررها هى أن زعامات فى الوطنية والدين والاسترسال
للشورى كانت موجودة قبل الأفغانى فلما جاء الأفغانى اشترك فى تنمية
هذه الحركات ، فظهر جيل تلقى عنه وعن سواه من الرواد ثم خرج هذا
الجيل يحمل الأعباء فى كل اتجاه ، وإذا كنا نعرف الرواد فى مجال السياسة
والدين فإن محمد عبده يذكر بين رواد الاسترسال اللغوى عبد الله باشا
فكرى وخيرى باشا ومصطفى باشا فهمى .

وأخيرا فنحن لا نتجه أبدا لنغصص حق الرجل ، ولكننا نضع المقدمات
ونستنتج منها النتائج ، ويدهشنا أن بعض الناس يضعون نفس المقدمات
ولكنهم يقتبسون نتائج شاعت وإن كانت لا تناسب المقدمات كما قلنا من

(١) زعماء الإصلاح ص ١١٢

قبل ، وفي كلمة موجزة نقرر أن مصر عرفت النهضة في عدة مجالات قبل أن يضع الأفغانى قدمه على تربة هذه البلاد ، ومن الرواد الذين سبقوا الأفغانى أو كانوا في أوج مجدهم عند مقدمه نذكر الجبرتى (١٨٢٥) وحسن العطار (١٨٣٣) ورفاعة الطهطاوى (١٨٨٣) ومحمد شريف وعبد الله النديم (١٨٩٦) وعبد الله فكرى (١٨٩٠) وعلى مبارك (١٨٩٣) ثم جاءت الحلقة التى ضمت الأفغانى وقد نشأ عن هذه الحلقة جيل ممتاز من أمثال محمد عبده وأحمد عرابى ثم سعد زغلول وعبد الكريم سليمان . . . ولعب هؤلاء ، أدوارا عظيمة في مختلف المجالات بمصر .

ضعف كتابة الأفغانى :

بقى أن نتكلم كلمة عن الآثار المكتوبة لجمال الدين الأفغانى فنذكر أن أهمها رسالته في « الرد على الدهريين » و « تنقمة البيان في تاريخ الأفغان » ثم مقالات عدة في الصحف والمجلات .

وكتابه في الرد على الدهريين عنوانه الكامل « رسالة في إبطال مذهب الدهريين وبيان مفاسدهم ، وإثبات أن الدين أساس المدنية وأن الكفر يفسد العمران » وقد ردء فيه على نظرية داروين في النشوء والارتقاء ، وعلى المادية التى تقول إن المادة أساس كل شيء ، وليس هناك سوى المادة ، واستطرد ليذكر أهمية الاسلام للإنسان ، ومزايا هذا الدين للفرد والمجتمع ، وأن الاسلام يحترم العقل واحتكم اليه ، وساوى بين الناس دون تفرقة بسبب الجنس أو اللون أو اللغة . وقد كتب الأفغانى هذا الكتاب باللغة الفارسية ، وترجمه الشيخ محمد عبده الى العربية بمساعدة بعض من يجيد الفارسية .

أما كتابه عن تاريخ أفغانستان فهو كتاب قليل الصفحات قليل الفائدة ، يتحدث بسجع لا تقبله الأذن وأسلوب لا يستساغ ، وهو يفتقر القول في فترة قصيرة جدا ، ولذلك فمن الخطأ أن يسمى تاريخ أفغانستان لأنه تاريخ

فرد واحد تقريبا من ملوك أفغانستان ، وقد قرأته وأنا أدوّن الجزء الثامن من هذه الموسوعة ، ولكنى لم أجد فيه فكرة واحدة تستحق الاقتباس .

وفي مقالات الأفغانى كانت تبدو رغبته في توحيد المذاهب والقضاء على وسائل الخلافات بين المسلمين ، وضرورة الأخذ بنظام الشورى ، والقضاء على الاستبداد وعلى البدع والخرافات .

وعلى العموم فإن جهود الأفغانى في مجال الكلمة المكتوبة كانت قليلة ، حتى أنه لم تكن له بحوث بقلمه في مجلة العروة الوثقى كما سنرى فيما بعد ، ويبدو أن الكلمة المكتوبة لم تكن تستطيع أن تحمل الثورة التى كان يفيض بها دائما في أحاديثه .

رحمه الله وأجزل ثوابه .

الإمام محمد عبده

الحديث عن الإمام محمد عبده محبب الى النفس ، فقد اتسع فكر الإمام لكل ميدان من ميادين الاصلاح ، كتب في العقيدة ، ومقارنة الأديان ، والتفسير ، واشتغل بالتربية ، والقضاء ، الصحافة ، وقرأ الانسان اليوم ما كتبه الامام في القرن الماضي وفي مطلع هذا القرن فيحس أنه سبق جيله بعدة أجيال ، ولنعش مع الامام ، فترة لنرى هذا النموذج الرائع الذي ينبغي أن يحتذى الأفاضل نهجه .

وأول ما نبدأ به تعريف سريع بالإمام لنرى خطوات حياته :

ولد الإمام محمد عبده سنة ١٨٤٥ بمحلة نصر بمحافظة البحيرة ، وفيها حفظ القرآن ثم التحق بالجامع الأحمدي بطنطا ، ولم يرقه التعليم بالأزهر ومعهده ، فعاد الى قريته ليشتغل بالزراعة ثم عاد مرة أخرى للجامع الأحمدي ، وبعد أربع سنوات اتجه الى القاهرة والتحق بالأزهر سنة ١٨٦٦ واتصل بجمال الأفغانى سنة ١٨٧٢ عندما كان هذا بمصر سنة (١٨٧٢ - ١٨٧٩) .

وفي سنة ١٨٧٧ حصل الإمام على شهادة العالمية الأزهرية ، ثم اشتغل بالتدريس في دار العلوم والأزهر ومدرسة الألسن .

وفي سنة ١٨٧٩ عُرِّل عن التدريس بهذه المعاهد وأُمِر بالاقامة في قريته لا يبرحها ، وذلك في نفس الوقت الذي نفى فيه جمال الدين من مصر وذهب الى أوروبا .

وفي سنة ١٨٨٠ اكتفى بإيعاده عن الطلاب واستدعى ليكون محررا بالوقائع المصرية ، وفي آخر العام أصبح رئيس تحريرها .

وجاءت الثورة العربية فاشتراك فيها وأيدها ، ولا أخمدت حوكم

مع زعمائها وحكم عليه بالنفي من البلاد ثلاث سنوات وثلاثة أشهر ،
فسافر الى بيروت ، وبقي بها ضِعف هذه المدة لسخط الخديوى عليه .

واستدعاه جمال الدين الأفغانى الى أوروبا حيث اشتركا فى اخراج
مجلة « العروة الوثقى » حتى توقفت كما ذكرنا عند الكلام عن جمال الدين .

وفى سنة ١٨٨٩ أذن له بالعودة الى مصر وعين قاضيا بمحكمة بنها
الأهلية ومنها انتقل الى محكمة الزقازيق فمحكمة عابدين ، وفى العام التالى
عين مستشارا بمحكمة الاستئناف الأهلية ثم مفتيا للديار المصرية سنة ١٨٩٩
وعضوا فى مجلس شورى القوانين .

وفى سنة ١٨٩٤ عين عضوا فى مجلس إدارة الأزهر .

وتوفى الأستاذ الامام سنة ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٥ م .

وأبرز مؤلفات محمد عبده كتابه « الاسلام والنصرانية مع العلم
والمدنية » و « رسالة التوحيد » « وتفسير سورة عم » ، وبعض سور
أخرى من القرآن الكريم .

تلك هى مراحل حياة الامام ومؤلفاته ، ولنا وقفات تحليلية قصيرة
مع هذه المراحل والمؤلفات :

محتده ونشاته الأولى :

كتب محمد عبده عن أبيه بأنه كان واسع النفوذ فى البلدة ، يقصده
الناس والحكام ، وأن أمه كانت كثيرة العطف على الفقراء والمحتاجين ،
وقد تعلم فى صباه الرماية والسباحة ، وحفظ القرآن فى القرية ، وجووده
بالجامع الأحمدي ، وكان خطة واضحا وأقرب الى الجمال .

الأزهر ومشكلاته :

التحق الإمام بالجامع الأحمدي وهو أحد معاهد العلم الأزهرية ،

وقد رأى الإمام في هذا الجامع كثيرا من البدع والخرافات التي أرفقته ،
وهي ترتبط بالندور وطلب كل شيء من السيد البدوي الذي كان يهرع اليه
الناس من كل حدب ، وبالإضافة الى هذه البدع التي كانت تتركب باسم الدين ،
رأى محمد عبده طريقة التعليم العقيمة بالأزهر من ناحية موضوعاتها وكتبها
وأدائها ، فأفرغته ، وهو يصفها ويصف حاله معها بقوله « قضيت سنة
ونصفا لا أفهم شيئا لرداءة التعليم ، فأدركني اليأس من النجاح ،
وهربت من الدرس ، واختفيت عند أخوالي هربا من أبي ، ثم عثرت على
أخي وأخذني الى المسجد الأحمدي وأراد إكراهي على طلب العلم فأبيت ،
وقلت له : قد أيقنت ألا نجاح لي في طلب العلم ، ولم يبق علي إلا أن
أعود الى بلدي واشتغل بالزراعة » وتعلبت عليه وعدت للبلدة
وتزوجت على هذا الأساس سنة ١٨٦٥ » .

ويكمل الأستاذ كلامه من الأزهر بقوله « وهذا الأثر هو الذي يجده
٩٠٪ من الأزهريين ، ولكن أغلبهم تفقشهم أنفسهم فيظنون أنهم فهموا
شيئا ، فيستمرون على الطلب الى أن ييلغوا سن الرجال وهم في أحلام
الاطفال ، ثم يبتلى بهم الناس ، وتصاب بهم العامة ، فتعظم بهم الرزية ،
لأنهم يزيدون الجاهل جهالة ، ويضللون من توجد عنده رغبة في الاسترشاد
ويؤذون من يكون على شيء من العلم ، ويحولون بينه وبين نفع الناس
بعلمه » .

والنتقى بعد ذلك بخال أبيه واسمه الشيخ درويش ، وهو شخصية
مستتيرة فيها جانب من التصوف ممتزج بقراليم السنوسية والوهابية وكان
هذا اللقاء ذا أثر كبير في محمد عبده ، ومنبع هذا الأثر هو شخصية الشيخ
درويش ، وما كان يحظى به في مجتمعه من اجلال وتكريم ، بسبب علمه
ومعارفه ، مما جعل محمد عبده يتمنى أن يكون مماثلا له ، ومن جهة
أخرى فقد اتجه الشيخ درويش لتطويع محمد عبده ، ولتوجيه اتجاهات
مختلفة ، فمرة يعطيه كتابا سهلا في الآداب والأخلاق فيستسيغه محمد عبده

ويقبل عليه ، ومرة أخرى يثبت في روعه أنه سيقابل في مستقبله علوما كثيرة جديدة بالتقدير وأن العلوم التي أفزعتها ليست كل شيء ، وتأثر محمد عبده على كل حال ، وعاد الى الأزهر من جديد ، ولم يقنع بعلوم الأزهر بل أضاف لثقافته ألوانا من الفكر يوما بعد يوم .

وتخرج من الأزهر ، وعلم فيه ، ولكنه لم يقنع بالنظم التي كانت سائدة ، بل اتجه لتربية العقل ، وتهذيب الأخلاق ، والتعرف على الحركات العالمية ، ومن هنا فقد كان يقرأ لبعض طلابه تهذيب الأخلاق لمسكويه ، كما كان يدرس التوحيد وتاريخ المدنية في أوروبا ، وعلم الاجتماع والعمران ، ووثق صلتة بالحياة العامة مما جعل شخصيته تتجه اتجاها فريدا في حينه .

واتجه محمد عبده لإصلاح الأزهر وبخاصة بعد أن أصبح عضوا في مجلس ادارته ، وبعد أن اختط نهجا جديدا في التأليف وفي دراسة العلوم الإسلامية .

ولكن كانت هناك جماعة ترى الإصلاح ضلالا ، فوقفت في سبيله ، ولم تمكنه من تنفيذ اصلاحاته بالأزهر ، وهاجمته ، ومات هؤلاء وبقي فكر محمد عبده ومنهجه يصارع الأحداث وسيظل يصارع حتى يتم له النصر .

مع جمال الدين الأفغانى :

حضر جمال الدين الأفغانى الى مصر سنة ١٨٧١ وسمع المثقفون عنه فزاروه وجلسوا اليه ، وجرت في مجلسه محادثات وبحوث اشترك فيها أكثر الحاضرين ، وأبرز محمد عبده اتجاهاته وشرح خواطره ، ويتجه بعض الناس الى جعل محمد عبده تلميذا للأفغانى ، وعندي أن هذا الاتجاه لا يستقيم ، فمحمد عبده كانت له شخصيته ، وكان يختلف مع الأفغانى في نقاط هامة هي :

١ — الأفغانى كان يبذل جهده كله في السياسة ، وقد انتقد محمد

عبدہ فیہ هذا الاتجاه ، وعابه على نبیاء المسلمين ودعاهم الى العناية بالتربية كما ذكرنا من قبل .

٢ — الأفغانی كان یمیل للثورة ، اذ كان حاد الطبع كما وصفه الإمام ، أما محمد عبدہ فیمیل للشرح والعرض والتبيين .

٣ — اصلاحات محمد عبدہ كانت نابعة من تجربته التي لم يمر بها الأفغانی وتجربة محمد عبدہ هي ملاحظاته وحياته بالجامع الأحمدي وبالأزهر .

ومن هنا فمحمد عبدہ لم يكن تلميذا للأفغانی وانما كان مفكرا عاصره وعمل معه ، انتفع به حيثما أراد ، ولا نقول أنه نفعه ، فالأفغانی كان عازفا عن التلقی وتغيير برنامجه ، وقد رأيناه عندما دعاه محمد عبدہ للعناية بالتربية والتقليل من الحماسة في السياسة يقول له : أنت مثبط .

والذي أكد لنا أن محمد عبدہ لم يكن تلميذا للأفغانی أن منهاج محمد عبدہ الاصلاحی معروف وسنورده فيما بعد ، وعندما نقارن هذا المنهاج بجهود الأفغانی لا نجد صلة بينهما ، وهذا يؤكد أن منهاج محمد عبدہ نابع من تجربته ومن ذاته ، صحيح أن محمد عبدہ ذكر أنه تعلم من الأفغانی ، ولكن يبدو لي أن ذلك من باب المجاملة من جانب وأنه من جانب آخر كان في المجال العام ، ولكن لا ريب عندي في أن لمحمد عبدہ خطا خاصا منبثقا من داخله .

محمد عبدہ المدرس :

عنى محمد عبدہ عناية كبيرة بالتدريس ، فوقف مدرسا بالأزهر وبدار العلوم ومدرسة الألسن ، وكان التدريس عنده وسيلة لتربية النفس واث روح الوطنية والدين به ، وتعليم الشباب حقوقهم لدى الحاكم وواجباتهم نحوه ، ومحمد عبدہ بذلك يفسح النموذج للمعلمين ألا يقفوا أمام المنهاج

سعدته ، بل أن يجولوا ويصولوا في الموضوعات التي تشغل بال الطالب وتجذب نفسه ، وكان محمد عبده بذلك رائدا عظيما ومربيا كبيرا ، وقد أدرك أنه يستطيع أن يقيم له مدرسة فكرية بجوار المعاهد التي يعلم بها ، فجلس بمنزله بذرب سعادة ليؤمه كل طالب معرفة دون ملاحظة سن أو حرص على نيل درجة علمية ، واتجه كذلك لتأليف الكتب في الموضوعات التي كانت تشغل الأذهان فملا فراغا واسعا بين المثقفين ، وأصبح بذلك مدرسة متعددة الجوانب ، وقد أدرك الخديوى توفيق خطره فأبعده عن موقف المعلم . وعندما عفا عنه اتجه لتوجيهه للصحافة أو القضاء وليس لمعاهد العلم .

محمد عبده الصحفي :

اتجه محمد عبده للصحافة منذ مطلعها في مصر ، فقد كان أحد كتاب جريدة الأهرام من العام التالى لانشائها أى من سنة ١٨٧٦ وكانت آنذاك أسبوعية ، واتخذ في الأهرام طريق المقال الذي يعالج قضية من القضايا الدينية أو الاجتماعية .

وعندما اتجه الخديوى توفيق للعفو عن محمد عبده أصر على أن يبعده — كما قلنا آنفا — عن التعليم فعينه محررا في الجريدة الرسمية (الوقائع المصرية) ثم جعله في آخر العام رئيس تحريرها ، وكان هذا التصرف وهما من الخديوى ، فقد كانت الوقائع الرسمية مقصورة على نشر البيانات الرسمية والقرارات الحكومية ، وحسب الخديوى أن محمد عبده سيسير بها في هذا النطاق ، ولكن هذا انتقل بها مسافات واسعة للأمام فقد جعل منها منبرا ينبعث منه صوت الفكر ، ومدرسة واسعة النطاق تحرك كلماتها النفوس وتهيج العواطف ، وذلك بأن عقد بها دراسات عن الإصلاح المنشود ووجوه ووسائله ، ودعا الى التعاون على الخير ، وحيد فكرة الحرية ورفع المظالم عن الشعب ، وعاب على الشعب كسله وتواكله ، ونادى بإصلاح التعليم وجمل على الرشوة ، وبين أن الحق

للقانون لا للقوة ، وعالج اصلاح المجتمع والأسرة ، وانتقد الذين يريدون الرقى طفرة ووثوبا ، ودعاهم الى أخذ سبيل الاصلاح بالتدريج .

وتحدث عن تطهير الاسلام من البدع ، وضرورة العودة للاسلام الصحيح ، مباشرة الاجتهاد في الأمور التي جدت بعد عصر الاجتهاد .

وحارب السفرة ، ودعا الى السلام والاخاء بين الناس .

وهكذا قدم محمد عبده للصحافة طريقا لم يكن معروفا من قبل ، وخلق على الصحافة من عقله وفكره فذاع صيته وعلا شأنه .

وعند ما نفى من مصر وسافر الى بيروت استدعاه الأفغانى ليصدرا معا « العروة الوثقى » وقد تكلمنا عنها من قبل ، ويقول محمد عبده : كان الفكر للأفغانى والعبارة لى ، وكان الغرض منها السعى لجمع كلمة المسلمين وابقاظهم من رقادهم .

ومن المجلات التي حظيت بعناية الإمام « المنار » التي كان يصدرها رشيد رضا وكان لعلم الإمام فيها جولات عظيمة .

وهكذا كانت الصحافة مدرسة وجد فيها محمد عبده بديلا لما فقدته من وقفات في معاهد التعليم .

محمد عبده والثورة العربية :

قلنا من قبل إن طريق محمد عبده للاصلاح كان الكلمة والدعوة بالحكمة ، ولم يكن يرى أن تكون الثورة في يد العسكريين (١) ولكنه مع هذا كان يدخر في داخله فكرا وطنيا متأججا ضد الظلم والغشم الذي كان يمثلته الخديوى توفيق والاستعمار ، ولذلك ما إن هبت الثورة العربية حتى تناسى خطته الهادئة واندمج في الثورة ، وزاد من اشتعالها ، وألقى فيها

من عقله ووطنيته مازادها قوة ولهيبها ، ولذلك حوكم مع من حكموا بعد فشلها وكانت عقوبته النفي ثلاث سنوات وثلاثة أشهر بعيدا عن البلاد فرحل الى بيروت •

ولكن وطن الإمام كان فسيحا : نراح ينشر فكره حيث حل : وعمل لتحقيق أهدافه في كل مكان نزل به ، وكان له في بيروت منتدى يؤمه كثير من المريدين والمتقنين •

محمد عبده والقضاء :

وعندما عاد محمد عبده من المنفى أبعد الخديوى عن المعاهد والصحافة جميعا وعينه في القضاء والافتاء ظنا منه أن ذلك ينأى به عن تربية الأجيال ولكن محمد عبده خطا في هذا المجال خطوات طيبة ، وكان من أهم الأعمال التى قام بها في هذا المجال التقرير الذى قدمه سنة ١٨٩٩ عن الحالة التى آل لها القضاء الشرعيون (١) واقترح في نهايته إنشاء مدرسة لتخريج القضاة الشرعيين ، وتغلب هذا الاقتراح على تعويق اللورد كرومر الذى كان لا يريد للمحاكم الشرعية قوة أو وجودا ، وتكونت لجنة بزياسة محمد عبده وقدمت تقريرا بضرورة إنشاء مدرسة للقضاء الشرعى وأنشئت هذه المدرسة وكان لها مكان محمود في عالم الفكر والقضاء •

ومما عمله الإمام وهو في مناصب القضاء أن أدرك ضرورة اجادته للغة الفرنسية التى كانت تستمد منها أكثر القوانين آنذاك ، حتى يأخذ مكانته بين القضاة والمستشارين الذين يفخرون بإجادة هذه اللغة ، وقد استطاع أن ينجح في هذا المجال فأجاد اللغة الفرنسية قراءة وكتابة وحديثا وكان يقول : من لم يعرف لغة من لغات العلم الأوروبية فلا يعد عالما في هذا العصر •

(١) انظره في كتاب « تاريخ التشريع والقضاء في الإسلام » للمؤلف ص ٣٠٥ — ٣٠٦ •

مؤلفات الإمام :

يعد الإمام محمد عبده من رواد العصر الحديث الذين اتجهوا نوعاً ما إلى إحياء علم « مقارنة الأديان » بكتابه « الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » الذي وضح فيه موقف الإسلام والنصرانية من المعرفة والحضارة ، ومن مؤلفاته تفسير « جزء عم » وهو مطبوع متداول وتفسير سور أخرى من القرآن الكريم نشرت له في مجلة « المنار » وقد نحا نحواً جديداً في منهاجه في التفسير فاهتم بفهم الدلالة اللغوية للآيات الكريمة ، وطرح البدع والخرافات والاسرائيليات ، واستخدم العقل فيما انتهى له التقدم العلمي مما له صلة بالقرآن الكريم ، ومن مؤلفاته « رسالة التوحيد » وقد صور في هذه الرسالة العقيدة الإسلامية تصويراً سليماً .

منهاج الإسلام الاصلاحي :

كتب الشيخ محمد عبده بقلمه في ترجمته لنفسه ، ملخصاً لمنهاجه الاصلاحي قال فيه : « أرفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين : الأول تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعه الأولى ، واعتبار الدين من موازين العقل البشري التي وضعها الله لتردد من شططه ، وتقلل من خلطه وخطئه ، لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني ، والعين على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم باعثاً على البحث في أسرار الكون ، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة .

« وأما الأمر الثاني : فهو إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير ، سواء كان ذلك في المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومجالسها أو فيما يكتبه الأفراد في الصحف أو المراسلات ، أو كان في

الترجمات من لغات أخرى ، وكانت أساليب اللغة العربية متمثلة بين أشكال وأنماط غريبة ، وبين سجع وجناس ردى .

« وهناك أمر آخر كنت من دعاة والناس جميعاً فى عمى عنه ، زبُذُدر عن عقله ، ولكنه هو الركن الذى تقوم عليه حياتهم الاجتماعية ، وما أصابهم الوهن والضعف والذل إلا بخلو مجتمعهم منه ، وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة .. نعم كنت ممن دعا الأمة المصرية الى معرفة حقها على حاكمها .

« دعوناها الى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته ، هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، وأنه لا يرده عن خطئه ولا يوقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول أو الفعل .

« جهرنا بهذا القول ، والاستبداد فى عنفوانه ، والظلم قابض على صولجائه ، ويد الظالم من حديد ، والناس عبيد له وأى عبيد .

« نعم إننى فى كل ذلك لم أكن الإمام المتبع ، ولا الرئيس المطاع ، غير أنى كنت روح الدعوة ، وهى لا تزال فى كثير مما ذكرت قائمة .

« ولا أبرح أدعو الى عقيدتى فى الدين ، وأطالب بإتمام الإصلاح فى اللغة ، أما أمر الحكومة فقد تركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبيره ، لأننى قد عرفت أنه ثمرة تجنيها الأمم من غراس تغرسه ، وتقوم على ترميمه السنين الطوال ، فهذا الغراس هو الذى ينبغى أن يعنى به الآن . والله المستعان » .

مأخذ ومناقشتها :

عاد محمد عبده من المنفى بعد أن قضى به ست سنوات أى ضعف

المدة التي حكم عليه بها تقريبا ، وكان ذلك بسبب سخط الخديوى
توفيق عليه ، وفي مصر واجه محمد عبده الانجليز وتوفيق فمأذا كان
رأيه فيهما ؟ •

إن محمد عبده وضّح رأيه فيهما إيضاحاً دقيقاً ، فقد سأله وزير
الحربية الانجليزى السؤال التالى : ألا يرضى المصريون أن يكونوا فى أمن
وراحة تحت سلطة الانجليز ؟ ؟ فأجاب محمد عبده بقوة قائلاً :
إن المصريين يحبون أوطانهم حب الشعب الانجليزى لبلاده ، والنفرة من
ولاية الأجنبى من طبيعة البشر ، هذا بالإضافة الى التعاليم الإسلامية
فى هذا الشأن •

وعن الخديوى توفيق يقول محمد عبده : إن توفيق باشا أساء إلينا
أكبر إساءة ، لأنه مهد لدخول الانجليز بلادنا • ورجل مثله انضم الى
أعدائنا أيام الحرب ، لا يمكن أن نشعر نحوه بأدنى احترام ، إننا لا نريد
خونة وجوههم مصرية وقلوبهم انجليزية •

ومع هذا فعندما عاد محمد عبده من منفاه ، وجد أن السلطة
الكاملة فى يد الإنجليز ، وأن نفوذهم قد امتد الى جميع المواقع ، وأن
وسيلة الإصلاح الذى ينشده لابد أن تكون عن طريقهم ، ومن هنا قدم
تقريره عن اصلاح التعليم الى اللورد كرومر ، وطلب صورا مختلفة من
الإصلاحات عن طريقه ، وقد أثار عليه هذا الاتجاه كثيرين من الناس ،
فالخديوى اتخذها وسيلة ليثار لنفسه منه ، والحزب الوطنى عارض فيه
هذا الاتجاه ، وقادة الأزهر كانوا ينافسون محمد عبده ويضيقون
بإنبائاته الإصلاحية التى تهاجم فكرهم وتراثهم فانضموا الى معارضيه ،
وفي هذا الجو عانى محمد عبده فترات مريرة وشهّرت به الصحف
والمجلات ، وكان مقاوم ، بل من بجلى حساب أعضائه وصحته • ومات

رحمه الله ، واحتقلت الحكومة بتشجيع جنازته ، ولكن الخديوى أنجب من
اشترك فى تشييع جنازته من رجال الهاشمية وأعوان القصر ..

وإذا كان محمد عبده قد مات فإن أفكاره لم تمت ، وكيف تموت
أفكار حافلة بالأصالة والعمق ؟ لقد أصبح محمد عبده الآن موضح الرضا
والتقدير بين أكثر طبقات الأمة •

رحم الله محمد عبده ، فقد كان من خيرة من عرفتهم البلاد فى
الوطنية والعبقرية والعمل الدائب لخير الإسلام والمسلمين •

٤ — فترة تعدد السلطات

من الاحتلال البريطاني الى الحرب العالمية الأولى

١٨٨٢ — ١٩١٤

الخدوي توفيق (١٨٧٩ — ١٨٩٢) :

عزل اسماعيل وتولى توفيق كما رأينا من قبل وكان توفيق ضعيفاً ، يحس من أول يوم أنه مدين بعرشه الى القوة الأوروبية التي جاءت به الى هذا العرش ، وكان الوعي العام يقوى ، وثورة الشعب على السلاطين الذين جلبوا له الدئس والنفوذ الأجنبي تشتد ، وكل هذا دفع « توفيق » الى أن يلقي بنفسه في أحضان الغرب لينتقى بهم صولة المصريين .

توفيق ورياض ورفقى : ثلاثى ردىء :

وكان شريف قد استقال وجاء بعده رياض ، ولهذا حظوة لدى الأوروبيين حتى كان يعدّه ممثلاً لهم ، ومحققاً لرغباتهم ، فنافس بهذه المكانة الخديوى الذى كان لا يريد أن يشاركه أحد في القرب من أولياء نعمته ، ثم كان وزير الحربية في هذه الوزارة هو عثمان رفقى ، وهو شركسى متعصب ، تخطى المصريين في الترقية وقصرها على بنى جنسه ، فقدم زعماء الجيش المصريون (عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى) شكوى ضده وطلبوا بعزله ، وكان نتيجة ذلك أن استدعاهم عثمان رفقى الى ثكنة قصر النيل وهناك قبض عليهم وزج بهم في المعتقل ، ولا تأخرت عودة هؤلاء الزعماء زحفت قوة من الجند وأخرجتهم بالقوة من المعتقل ، وسار هؤلاء جميعاً الى « عابدين » فيما يعرف بمظاهرة عابدين الأولى مطالبين بالإنصاف والعدل وبسرعة عزل رفقى من الوزارة وتم لهم ذلك في فبراير سنة ١٨٨١ .

ومن هذا بدأت الأحداث تتوالى حول عرابى الذى سرعان ما انتقل

من ممثل للجيش الى ممثل للأمة ، إذ تلقى توقعيات الأمة بتفويضه للحديث باسمها ، وانتقل من قائد يناهض الاضطهاد الواقع على الضباط والجنود الى زعيم يرد الاعتداءات عن المصريين ويناهض أعداءهم ، وبهذا أصبحت ثورة عرابى حركة قومية يتمثل فيها الدم العربى والفكر الإسلامى ، واتجهت هذه الحركة الشعبية لتواجه القوى المختلفة التى تألفت ضد مصالح الشعب ، فلنبداً حديثنا بإيجاز عن عرابى وعن الثورة العرابية ونتائجها :

الثورة العرابية والاحتلال

نضع فيما يلى الخطوط العريضة لجريبات الأحداث فى هذه الفترة الدقيقة :

— عزّل رفقى باشا وعين محمود سامى البارودى بدلا منه وزيراً للحربية ، فى فبراير سنة ١٨٨١ وعُدّ هذا انتصاراً لعرابى وزملائه .

— بدأ عرابى يوسع فى سلطانه ، فلم يكف بأن يكون متحدثاً باسم الجيش ، وإنما أخذ يجمع التوقعيات من الأهالى والأعيان ليتحدث باسمهم ويطالب بتحقيق آمالهم الوطنية كما ذكرنا آنفاً .

— عُدّ البارودى مسئولاً عن ذلك وعن جرأة رجال الجيش ، فعزله رياض فى أغسطس سنة ١٨٨١ وعين بدلا منه داود يكن وزيراً للحربية وهذا ابن أخى الخديوى فأثار ذلك رجال الجيش .

— قام عرابى بعد ذلك بمظاهرة عسكرية فى ميدان عابدين (سبتمبر سنة ١٨٨١ وهى مظاهرة عابدين الثانية ، قدم فيها مطالب الأمة الى الخديوى ، وهذه المطالب هى إقالة وزارة رياض ، وتشكيل مجلس نواب ، وزيادة عدد الجيش ، وإنصاف الضباط المصريين .

— واستجاب الخديوى مكرها لهذه المطالب فعين شريف رئيساً

للوزارة ، وتم تكوين مجلس شورى النواب الذى أصر على فحص الميزانية فأثار بذلك مخاوف انجلترا وفرنسا ، وقررتا ضرورة التدخل الحازم فى شئون مصر ، وأعلننا مسئوليتهما لحماية عرش الخديوى ، وعد ذلك تدخلا صريحا فى شئون مصر ، ولكن الخديوى رحب به .

— واستقالت وزارة شريف لعدم استطاعتها التوفيق بين الاتجاهات المختلفة ، وتألقت وزارة البارودى فى فبراير سنة ١٨٨٢ وعين عرابى وزيرا للحربية بها ، وكمل بذلك نفوذ العراقيين ، وزاد قلق الدول الاستعمارية .

— وحدثت مؤامرة جركسية للقضاء على عرابى ، ولكن أحد المتآمرين افشى سرها فقبض عرابى على المتآمرين وفيهم رفقى باشا ، ووقعت عليهم عقوبات تشمل النفى والتجريد من الرتب والأوسمة ، ويبدو أنه كان للخديوى يد فى هذه المؤامرة ، ولذلك حاول التخفيف من الأحكام التى صدرت ضد الذين قاموا بها ، ولكن الحكومة رفضت ذلك ، وظهرت إشاعات باتهام الخديوى ، وبالتفكير فى إخلاءه ، فالتقى هذا بنفسه بين أحضان انجلترا وفرنسا .

— أرسلت انجلترا وفرنسا أسطولا مشتركا الى مياه الاسكندرية لحماية الخديوى ولحمية الجاليات الأوروبية ، وسافر الخديوى من القاهرة الى الاسكندرية ليكون على مقربة من هذا الأسطول ، ثم انسحب الأسطول الفرنسى وانفرد الأسطول الانجليزى بالبقاء .

— خشى عرابى من تدخل الأسطول فأخذ يحصن المدينة ويرمم قلاعها .

— حدث شجار بسيط بين رجل مالطى وبين رجل مصرى ، وتطور هذا الشجار الى خلاف بين المصريين والأجانب ، وساد الهرج والاضطراب .

— طلب قائد الأسطول التوقف عن أعمال الترميم والتحصين ،
ولما لم يستجب له عرابي ضرب المدينة في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ ثم احتل
الجنود الانجليز المدينة في الثالث عشر من نفس الشهر ، وسارع عرابي
لقاومتهم وأنزل المصريون بهم كثيراً من الخسائر ، ولكن الانجليز استداروا
ليدخلوا مصر من الجهة الشرقية عند قناة السويس ، ولم يكن ذلك قد
غاب عن عرابي ، فقد حاول ردم القناة ولكن ديليسبس طمأنه بأن حيدة
القناة لا تسمح للسفن الانجليزية الحربية بالعبور بها ، وخدع عرابي
بهذا الوعد وركز نشاطه في الشمال ، ولكن الانجليز استداروا ودخلوا
من القناة ، وأسرع عرابي لمقابلتهم عند النيل الكبير ولكنه هزم في المعركة
هناك ووقع أسيراً .

— عقب الخديوي الانجليز ودافع عنهم من أول زحفهم ووصف
هذا الزحف بأنه مشروع ، وعزل عرابي وعده خائناً ، وكل هذا كان
من أسباب هزيمة العرابيين واحتلال مصر ، وفي أثناء الصراع انضمت الدولة
العلية الى الخديوي والى الانجليز في هذا العدوان ضد عرابي وضد
الشعب المصري .

— وهوكم عرابي وزملائه فصدر الحكم عليهم بالإعدام . ثم
خفف الى النفي والتجريد من الرتب العسكرية ومصادرة أملاكهم ، ولم
ينفذ حكم الإعدام إلا في سليمان داود الذي أمر بحرق الاسكندرية
حتى لا تقع في أيدي الانجليز ، ونفى زعماء الثورة الى سيلان ، ومات
منهم في المنفى عبد المال حلمي ومحمود فهمي ويعقوب سامي ، وعاد طلبه
عصمت والبارودي وعرابي وعلى فهمي فقصوا آخر أيامهم في الوطن
وماتوا به .

عرابي في الميزان :

قبل أن ندع عرابي يجدر بنا أن نقرر ان الحماسة الوطنية عنده
كانت أعمق من الحرص والاستعداد ، لقد كانت كل القوى تقف في وجهه

عرايى ، كان الباب العالى يقف ضده ، وكان الخديوى يعارضه لأنه عرف أن النهضة الوطنية سيكون فيها قضاء عليه ، وكان الانجليز والفرنسيون ودول أوروبا بوجه عام ترمجر وتتطلع لالتهام إفريقيا ، ولكن ذلك فيما يبدو غاب عن ذهن عرايى ، كان الشراكسة والعناصر الأجنبية بالجيش والحكومة يناهضونه ، والرتوة اللعينة كانت تنساب فى الظلام فتقتل بسمومها بعض الضباط أمثال الخائن على يوسف الذى أخلى الطريق للانجليز عند التل الكبير ، وكان بعض ذوى المصالح يطمعون فى إقطاعات الخديوى ومكافأة الانجليز ، فأزروا القوى المعتدية ، ومن هؤلاء عرب الهنادى وعبد الشهيد بطرس وآخرون • ولم يعد عرايى لهذه القوى العدة اللازمة ، وراح بجيش قليل العتاد والذخائر يواجه كل هذه القوى •

وخدع عرايى أيضاً بكلمة قالها له ديلينسبس بأنه لن يسمح لأية قوى باختراق حياد القناة ، ونسى عرايى أن ديلينسبس أكثر حبا لبلاطه وللخديوى الذى يمثل مصالح الغرب من حبه لمصر ولشعب مصر •

لقد كان عرايى رجلا عسكرياً حسن النية ، ولكنه لم يكن سياسياً ، وقد كان من الممكن أن يقنع عرايى ببعض ما حصل عليه من مطالب للأمة دون أن يبالي فيطالب أسمى الأهداف من غير وسائل كافية لتحقيق مطالبه ، فسلك المجد يحسن أن يرقاها الإنسان درجة درجة ، ولكن عرايى أراد الطفرة ، ولم يكن الوقت قد آن لذلك ولا كانت معه مؤهلاتها فسقطت معه البلاد تحت الاحتلال •

قضايا حول عرايى :

بقيت نواح مهمة تتصل بعرايى وبالثورة العرابية نشير لها فيما يأتى :

أولاً — لقد ذكرنا آنفاً أن الخديوى توفيق كان خائناً كالحج الوجه ، وكان الشعب كله يقف منه موقف العداء ، لأنه ألتى بنفسه فى أخضار

عدو البلاد ، ولكننا يجب أن نذكر أن هذه الخيانة لم تكن طابع الأسرة المالكة كلها ، فقد كان منها عدد كبير في قمة الشرف والأمانة والوطنية ، فعندما احتاجت الثورة للمال تقدم الشعب بسخاء ليساعد الثوار ، وتقدم مع الشعب عدد كبير من الأسرة المالكة في قماتهم الأميرة « خوشييار » أم الخديوى اسماعيل التى تبرعت بالكثير مما تحتاجه الحركة العرابية وأقتدى بها كثيرات من الأميرات •

واستمر تأييد المخلصين من الأمراء والأميرات لعرابى بعد هزيمته ، فقدمن له الهدايا وهو في طريقه الى المنفى ، وكن يصرحن بأن الحركة كانت لخير مصر والمصريين ، ولذلك كان تأييدها واجبا على كل مصرى ومصرية •

إننا نحى هؤلاء المخلصين الأوفياء بنفس القوة التى نلعن بها الخونة والانتهازيين •

ثانيا — من النقاط غير الواضحة في التاريخ أن عرابى عقب هزيمته أسرع للقاهرة وسلم نفسه لسلطات الاحتلال البريطاني والانسان يتساءل : هل فعل عرابى ذلك لثقتة في عدالة هذه السلطات وثقتة كذلك في أن حق الخديوى لن يرحمه وسيدفع به للمقصلة ، فاحتفى عرابى بأخف الضررين ؟

وقد كان من نتائج هذا التصرف من عرابى أن اتهمه بعض المفكرين بأن الثورة كانت صناعية ، وأن اتفاقا سابقا حدث بين عرابى والانجليز ليقوم بثورة يفتح بها الباب لدخول الانجليز ، وساعد على ذلك أن الانجليز عملوا بكل الجهد حتى لا يحكم على عرابى بالاعدام •

والذى يعرف خلق الأوربيين يدرك أن نجاح الاحتلال يضع نهاية للحق ، ويدفع هؤلاء لإظهار نوع من التسامح لجذب القلوب نحوهم ، وتهذئة الشعور تجاههم ؛ ومن أجل هذا نجد أن الشعب الانجليزى

يسهم في توكيل محام انجليزى ليدافع عن عرابى ، وعلى الرغم من الصراع بين عرابى والانجليز ، فان شعور الكثير من الانجليز كان يتجه لاحترام المواطن المخلص لبلاده ، ولذلك لا نستبعد أن ينال عرابى احترام الانجليز •

ثالثا — من سياسة الانجليز بعد احتلال مصر أن عملوا على تحقيق بعض آمال المصريين التى كان المصريون شديدي الحرص على نيلها ، لقد حاربوا السفرة والظلم ووضعوا حدا للتفوق الشركسى في المجتمع وفي الجيش ، وكانوا بذلك يطمعون في التقرب من المصريين ، وخلق طبقة من المصريين تدين للانجليز بمكانتها الاجتماعية والاقتصادية •

وهذا الموقف يساعدنا كذلك على فهم النقطة السابقة وهى موقف سلطات الاحتلال من عرابى ورفاقه لنفس الغرض الذى ذكرناه وهو خديعة المصريين والتقرب اليهم •

ويرى المؤرخ أن الطبقة الجديدة من المصريين التى تكوَّنت على هذا النحو هى التى ساعدت على قيام ثورة ١٩١٩ وهى التى قادت الثورة ، بعد أن خلا الميدان من الأتراك والشراكسة ، وظهرت طبقة مصرية تماما تعبر عن احساس المصريين •

رابعا — وبالتالي فإن نجاح ثورة ١٩١٩ ووضع الدستور وقيام البرلمان والوزارات المصرية وما تلا ذلك من تمصير واسع للنظام الاقتصادى وجعل الوظائف المصرية للمصريين ، والامتساع في امتلاك الأراضى والقرى وإنشاء الجامعات وما تلا ذلك من بروز طبقة عالية الثقافة بمصر ... كل ذلك مهد لحركة الجيش سنة ١٩٥٢ التى قضت على الحكم الملكى الذى وضع توفيق "بذور" فساد ، ولم يتوقف فيه هذا الفساد حتى اختفى •

وعلى العموم فإن فشل عرابى استتبع الاحتلال المريع ، الذى قاومته

مصر أكثر من سبعين عاماً ، قدمت خلالها أعلى الدماء لقتراح أقدام العدو اللعين عن الوطن المقدس .

في أعقاب الاحتلال :

كان من الخدع التي قامت بها بريطانيا بعد الاحتلال أن أذاعت أن احتلالها للبلاد احتلال مؤقت ريثما تستقر سلطة الخديوى ويتم الاطمئنان على سلامة الرعايا الأجانب ومصالحهم ، ولكن أعمالها كانت تتم عن إصرار على تطويل الاحتلال ، فقد اتجهت لفحص شامل لحالة مصر ، وعهدت بذلك الى اللورد « دوفرين » فاقترح إنشاء جيش صغير جديد يرأسه ضباط من الانجليز وتكون المواد والأسلحة اللازمة له من إنجلترا ، ولذا أغلقت المصانع التي كانت موجودة بمصر ، كما أزيلت البحرية المصرية وعطلت ترسانة الاسكندرية ، وأصبحت مهمة الجيش المحافظة على الأمن الداخلى ، واقترح دوفرين كذلك إلغاء الحكم النيابى كما اقترح بعض الإصلاحات مثل تنظيم الرى وتخفيف الضرائب عن الفلاحين واصلاح الشرطة ، وقنع بعض الناس بهذه الإصلاحات ، وبالهدوء الذى أعقب العاصفة ، وراح آخرون لا يشغلهم شيء عن تحرير بلادهم من العدو أو من الأعداء الذين تألبوا عليها ، ولئن فشلت ثورة عرابى فينبغى أن نتذكر أنها كانت تمثل حلقة فى سلسلة الثورات التى هبت لتحرير مصر من العثمانيين والمماليك الطغاة ومن الخونة من أسرة محمد على ، واذا قُضى بالفشل على حلقة من سلسلة الثورات فلم يكن ذلك فى الواقع إلا نقلا لقوتها الى الحلقة التالية ، وهذه هى طبيعة الثورات فى كل الأزمنة وكل الأرجاء .

تعدد السلطات :

ترك فشل ثورة عرابى البلاد خاضعة لعدد من السلطات ، كان فى قممتها الانجليز ، وكان منها العثمانيون الذين كان لهم السلطان الشرعى ، ومنها الخديوى الذى كان الحاكم المباشر ، ومنها الشعب الذى سرعان

مما بدأ ينفذ عن نفسه غبار الهزيمة ويهب من كبوته ، ومن أجل هذا سمينا هذه الفترة بفترة تعدد السلطات .

على أن سلطة الانجليز أصبحت فوق كل السلطات ، وكان اللورد كرومر — الذى يمثل انجلترا — هو الحاكم الفعلى لمصر ، وقد دامت سطوته ٢٤ عاما بدأت بالاحتلال وانتهت عقب مأساة دنشواى ، ومن الناحية المالية صدر مرسوم بإلغاء الرقابة الثنائية ، وأصبح المستشار المالى الانجليزى هو صاحب الأمر والنهى فى الشؤون المالية .

تثبيت الاحتلال :

أما العلاقة بين انجلترا والباب العالى فقد بدا واضحا فى أول الأمر أنه لا بد من تسويتها بطريق أو بآخر ، فقد استغلت انجلترا الباب العالى فى احتلالها لمصر ، ولو بدأ الاحتلال بدون تأييد الباب العالى وبدون تأييد الخديوى لصادفت انجلترا ألوأنا من المتاعب ، ومن أجل هذا أرادت انجلترا من حين الى آخر أن تظهر للباب العالى حُسْن نواياها واستعدادها للجلاء ، ولكن ذلك كان مغلفاً فى نطاق السياسة البريطانية لاطالة ، وفى وسط هذه الاتجاهات عقد اتفاق مبدئى بين انجلترا والباب العالى فى أكتوبر سنة ١٨٨٥ ، وقد نص فيه على أنه اذا تمَّ للدولتين اقرار الأمور فى مصر ، يقدم مندوبا الدولتين فيها تقريراً الى حكومتها ، وحينئذ تنظر الدولتان فى عقد اتفاقية تنسحب بها الجيوش البريطانية فى فترة مناسبة وفى ١٥ يناير سنة ١٨٨٦ أعلن لورد سولسبرى فى رسالة الى مندوبه فى تركيا : إن حكومة جلالة الملكة عندها كل رغبة فى إرضاء الباب العالى من ناحية الجلاء وان كانت لا تستطيع لظروفها الخارجية تعيين موعد قريب لهذا الجلاء قبل أن تطمئن الى سلام مصر الداخلى والخارجى ، وأن هدف انجلترا هو حيدة مصر ، ولكن انجلترا لا بد عاملة على المحافظة على النظم التى أقامتها فى وادى النيل ، حتى لا تضيق سدى هذه التضحيات التى قدمتها ، وطالما حافظت الحكومة المصرية على مركزها ولم يقع أى اضطراب فإن المرغوب فيه ألا يبقى بأرض مصر جندى أجنبى واحد .

وبعد مباحثات طويلة ظهر أن إنجلترا تحرص على أن تطول إقامتها بمصر ، وأنها تستعمل جانب التسوية ، والأرضاء بالألفاظ ، وأخذت تتكلم عن حماية الأجانب ، واستخدام ضباط إنجليز في الجيش المصري ، بل تريد تصريحاً بحقها في العودة إذا جدد ما يستلزمها ، واشترطت إنجلترا موافقة الدول ذات الشأن على هذا الاتفاق .

وعلى الرغم من أن السلطان وافق على مشروع هذه الاتفاقية فإن الدول رفضتها إذ رأت فيها اعترافاً من السلطان بحق إنجلترا في السيطرة على جيش مصر وفي إعادة احتلالها في مناسبات كثيرة ، ووضعت روسيا وفرنسا أن هذه الاتفاقية تقضى على حييدة الدولة العثمانية ، وأضافت فرنسا أنها تقضى على التوازن الدولي في البحر المتوسط ، وصرحت الدولتان بأنه إذا نشأت هذه الاتفاقية كانتا في حيل من احتلال أي جزء من أجزاء الدولة .

ومرّ الزمن وزاد تمسك إنجلترا بمصر وأو اتضح بعد غموض ، وأرضت إنجلترا الدول الأوروبية في المعاهدة السرية التي عقدت سنة ١٩٠٤ بين إنجلترا وفرنسا والتي أطلقت يد إنجلترا في مصر نظير إطلاق يد فرنسا في سوريا ولبنان وفي الشمال الإفريقي كما أرضت روسيا في معاهدة ١٩٠٧ حيث وافقت لها على بعض مناطق النفوذ ، ووافقت ألمانيا وإيطاليا على هذه التسويات نظير أطماع أقرت إنجلترا بالموافقة عليها . وعندما أعلنت الحرب العالمية الأولى وانضمت تركيا إلى جانب ألمانيا ، أعلنت إنجلترا قطع العلاقة بين تركيا ومصر ، كما أعلنت فرض حمايتها على مصر .

ثورة المهدي وإخلاء السودان

كانت الثورة العربية وما اتصل بها من الاحتلال المشؤم أهم حادث في تاريخ مصر في عهد توفيق ، وكان الحادث المهم الثاني في هذا العهد هو ثورة المهدي وإخلاء السودان ، وقد تحدثنا عن « السودان » حديثاً مستقيضاً

خاصا في الجزء السادس من هذه الموسوعة ، وذكرنا عند الكلام عن محمد علي زحفه على السودان ، وأهدافه من هذا الزحف وما تحقق له من هذه الأهداف .

وقد أقامت مصر في عهد أسرة محمد علي بعض الإصلاحات في السودان كانشاء مدينة الخرطوم ومدينة كسلا ، وتوطيد الأمن ، وادخال بعض المزروعات ، ولكن السودان حملت مع مصر نتائج حروب محمد علي الفاشلة ، وعانت مصر والسودان معا نزق عباس وديون اسماعيل ، وبالإضافة الى هذه المتاعب المشتركة كان بعض الباشوات ولاة السودان يسيئون معاملة الأهالي ويقسون في تحصيل الضرائب أحيانا مما جعل بعض السودانيين يحسون أنهم يعاملون ، لا كجزء من الوطن الواحد ، بل كمستعمرة ترزح تحت ثقل المحتل ، والحق أن المصريين في مصر كانوا يعاملون نفس المعاملة ويعيشون تحت وطأة هذا العبء نفسه ، ولكن السودانيين كانوا بعيدين عن مركز السلطة بالقاهرة ، فثاروا على أسرة محمد علي كما ثارت عليها مصر من حين الى حين .

وشيء آخر حدد الوقت المناسب لثورة السودان ، ذلك هو التدخل الأجنبي في شئون مصر بـ بب الديون ، وامتداد هذا التدخل الى السودان ، ثم الاحتلال البريطاني لمصر ، والخوف أن يمتد هذا الاحتلال الأثيم الى السودان إن لم يخلص السودان من سلطان مصر تخلصا نهائيا .

كل هذا جعل السودانيين يلتفون حول المجاهد السوداني محمد أحمد الملقب بالمهدى الذى ولد في دنقلة سنة ١٨٤٣ ودرس في شبابه الدراسات الاسلامية والتعاليم الصوفية ، واشتهر بالبلاقة والذكاء ، ثم كاتب علماء السودان ورؤساء القبائل يدعوهم للالتفاف حوله والجهاد في سبيل الله والوطن ، واستجاب له أكثر السودانيين ، وكانت مصر مشغولة بالثورة العرابية فنظم أمره ، ولم تتسأ انجلترا أن تدخل في حرب مع السودان ، ولذلك نصحت باخلاء السودان وبخاصة بعد هزيمة الحملة التي قادها

« هكس باشا » وإيادتها وقتل قائدها (نوفمبر ١٨٨٣) ، وقد سبقت هذه الحملة حملات أو محاولات قام بها الولاة بالسودان ولكن المهدي انتصر عليها جميعا وكانت انجلترا تقصد أن تهزل السودان عن مصر ، ثم تعود فتفتحه ليكون لقمة سائغة لها ، وهذا ما حدث وقد وضعنا ذلك في الجزء السادس ، ولم يوافق شريف رئيس الوزراء على اخلاء السودان - قال قولته المشهورة « إذا تركنا السودان فالسودان لا يتركنا » ولكن الانجليز كانوا أصحاب الكلمة العليا ، فاستقال شريف ليخلى الطريق الى نوبار الذى قبل الوزارة على أساس اخلاء السودان ، وانتدب الجنرال « جوردون » الذى حكم السودان عدة سنوات فى عهد اسماعيل باشا لينفذ اخلاء السودان وليسحب القوات المصرية منه ، ولكن قوات المهدي حاصرت بالخرطوم وقضت عليه .

وينبغى هنا أن نتوقف قليلا عن السير فى مجريات الأحداث لنذكر أن كتابا صدر حديثا (١٩٦٦) يصوّر حياة جوردون ونهايته ، ومؤلف الكتاب هو انتونى ناتنج الوزير البريطانى المحافظ الذى استقال من وزارة إيدن استنكارا لعدوانه على مصر ، وعنوان الكتاب هو « جوردون شهيد فى غير محله » ويبرز ناتنج أن جوردون لم يكن كما أشيع قديما وإن تظاهر بذلك ، فليس قديما من كان يستأجر لضرب حركات الشعوب فى الصين وفى افريقية ، والحق أنه كانت تؤثر فيه عوامل من الشذوذ ، فتظاهر بالتدين أحيانا ، واندفع أحيانا أخرى يطلب الموت ، فالموت وحده يرحمه مما يحس به من رغبات شائنة ، ومن رسائله التى نشرت بعد موته واستدل بها على جانب الشذوذ فيه قوله : أعجبتنى السيدة « فلانة » انها جميلة وبريقة ، ولكنى لا أطمع فى الزواج منها لأنى ميت والموتى لا يتزوجون . . . وقد كان الميت فيه هو الرجل ، والذى ليس رجلا لا يتزوج امرأة .

من أجل هذا كان جوردون يريد الموت ، لأن الموت يشبه النار التى يشعلها اللصوص بعد عمليات السطو ، فالنار تمسح بصمات أصابعهم وتخفى معالمهم وتضلل العدالة ، ومن أجل رغبته فى الموت ألقى بنفسه فى عدة

مشارك طاحنة ، ولكن الموت كان يتخطاه ، ربما ليطيّل تعذيبه ، وقد بلغ به اليأس مبلغه إبان حركة السودان ، فلم يدافع عن نفسه بل أبعد جنوده ، وألقى بنفسه على السرير يفتظر الموت الذي كان فيه نجاته .

ولنعد بعد ذلك إلى أحداث السودان لنقرر أن الإنجليز أحسوا قبيل نهاية جوردون بسوء الحالة بالسودان وبأن أتباع المهدي طرّقوا باب الخرطوم ، فأرسلت الحكومة الانجليزية « اللورد ولسلي » لانتقاذ جوردون واسترداد الخرطوم ولكن جوردون قُتل قبل أن يصل « اللورد ولسلي » فآثر الإنجليز التوقف عن السير في العمليات الحربية بالسودان وصدرت الأوامر باستدعاء ولسلي وانسحاب القوات المصرية من الجنوب في يونيو سنة ١٨٨٥ .

تصفية ممتلكات مصر :

وأغلب الظن أن هذه كانت سياسة تنوى بها إنجلترا تنفيذ خطتها الاستعمارية لصالحها وصالح أوروبا ، فانه بعد سقوط السودان سوّعت إنجلترا مع إيطاليا وفرنسا ومع بلجيكا وألمانيا أمر الممتلكات المصرية على البحر الأحمر وفي حوض النيل الأعلى ، ولم يبق لمصر إلا بعض الموانئ القليلة التي ظلت حتى سلمها زيور إلى إنجلترا عقب مقتل السردار لي ستاك سنة ١٩٢٤ (١) .

وفي هذا العهد (عهد نجاح الحركة المهدية) لم يستطع السودان المحافظة على أطرافه وممتلكاته أمام الاستعمار الأوربي الذي كان يرمي إلى تقسيم القارة ، فأخذت إنجلترا بربرة وبعض مديرية خط الاستواء ، وأخذت الحبشة هرر ، واستولت إيطاليا على مصوع .

(١) انظر تاريخ المفوضات المصرية البريطانية ص ٢٣ للأستاذ شفيق غريمال .

انجلترا وأطماعها في السودان :

ولم ينج السودان نفسه من الاستعمار الأوربي ، فان الجلاء عن السودان لم يكن في الحق لضعف قوة إنجلترا أمام جيش المهدي ، ولكن الإخلاء كان وسيلة لعزل السودان عن مصر ليكون ذلك خطوة في طريق استيلاء إنجلترا عليه استيلاء مباشرا وكاملا ، وقد حققت إنجلترا ذلك على مرحلتين ، ففي المرحلة الأولى استعادت السودان باسم مصر ولكنها سرعان ما رفعت العلم الإنجليزي مع العلم المصري دليل اشتراك في السلطة ، ثم استولت على السلطة الحقيقية ، ولم تدع لمصر مكانة ذات بال ، وذلك بمقتضى معاهدتي ١٨٩٩ ، وكان السدي وقعهما باسم مصر بطرس غالي الرجل المشكوك في إخلاصه للوطن .

أما المرحلة الثانية فكانت استكمال السلطات لها ، وإخراج الجيش المصري من السودان سنة ١٩٢٤ وكذلك إخراج الموظفين المصريين كما ذكرنا عند الحديث عن السودان في الجزء السادس من هذه الموسوعة .

نهاية توفيق :

وجاءت بعد ذلك نهاية توفيق ؛ أو قتل نهاية ذلك العهد الحالك الذي خسرت فيه مصر اتساعها وخسرت استقلالها ، ومات الرجل سنة ١٨٩٢م تاركا أمراء الذكريات .

عباس حلمي (١٨٩٢ — ١٩١٤)

كان عباس غائبا عن مصر عندما مات أبوه ، اذ كان ملتحقا بجامعة فيينا ، وبعد وفاة توفيق صدر فرمان عثمانى أن يخلف عباس أباه ، على أن تستند أمور البلاد الى رئيس النظار مصطفى فهمي باشا حتى يعود الخديوي الجديد .

وعاد الخديوى من الخارج ، شابا متفتحا كبير الآمال ، وأحسن الشعب استقباله والاحتفاء بمقدمه ، وكانت سنة لم تتجاوز الثامنة عشرة ، فظهر منه اقبال على الشعب ، ورغبة فى تحقيق آماله ، وأحس كرومر باتجاه الشاب الجديد ، فحاول أن يوقفه عند حده وأن يضغط عليه ، ولم يستجب الشاب لهذا الضغط ، بل انحاز الى العناصر انرطونية التى بدأت تظهر بزعامة مصطفى كامل ، واتضح بعد فترة أن هوة واسعة أصبحت واضحة بين كرومر ومعاونيه فى جانب ، وبين الخديوى والشعب فى جانب آخر ، وكانت انجلترا تتمسك بأن يكون لها الرأى فى الشؤون الكبرى وبخاصة فى تعيين رؤساء الوزارات ، ومن هنا ظهرت مجموعة من رؤساء الوزارات كان اخلاصهم الوطنى مشكوكا فيه ، وكانت سياستهم صدى للرغبات الانجليزية أكثر من أن تكون صدى للأمانى الوطنية ، ومن هؤلاء مصطفى فهمى سالف الذكر ، ورياض باشا ، ونوبار باشا ، ومطرس غالى باشا ، أما الجبهة الوطنية فقد شهدت فى مصطفى كامل روحا وثابة ونهضة عظيمة ، وأدركت تركيا أن الانجليز لا ينوون الجلاء عن مصر فانضمت لهذه الجبهة ، وأيدت الخديوى وأنعمت على مصطفى كامل بلقب الباشوية .

مصطفى كامل ومأساة دنشواى :

وراح مصطفى كامل يزور بلاد القطر ويدعو الأعيان والكبراء لمؤازرة الحركة الوطنية ، فانضم له الوجهاء والمثقفون ، ودوى صوته فى كل مكان بمصر وبالخارج يهاجم الانجليز ويدعوهم للجلاء عن البلاد ، وصدرت صحيفة اللواء ، وكان بدء صدورها فى يناير سنة ١٩٠٠ وكتب فيها مصطفى كامل ومحمد فريد وشوقي الشاعر واسماعيل صبرى وغيرهم ، وأصبحت اللواء مدرسة لبث الروح الوطنية ، واهتم مصطفى كامل وأعوانه بتقوية الصلات التاريخية والوطنية التى تربط بين المسلمين والأقباط ، فأضعف النعرة الدينية التى كانت انجلترا تعمل على تقويتها ، ثم حدثت

ماساة دنشواى (١٩٠٦) وتبدى فيها استبداد المستعمر وفقدان الجانب الانسانى فيه ، فقد راح ينتقم من فلاحى هذه القرية (بمديرية المنوفية) بقسوة لا يعرفها ضمير الحق ، لأنهم اتهموا بقتل أحد الجنود الانجليز ، وحوكم المتهمون محاكمة صورية ، وصدرت الأحكام باعدام أربعة منهم وجكده ثمانية ، وبالأشغال الشاقة على اثنى عشر ، ونصبت المشاقق بالقرية ، ونفذ حكم الاعدام علنا ، كما نفذ كذلك حكم الجلد .

وكانت المحكمة برئاسة بطرس غالى ، وتولى الهلباوى الدفاع عن وجهة النظر الانجليزية ضد المصريين ، وهكذا وقف الاتان ضد مصر . ولم تغفر لهما مصر هذه الخيانة ، أما الأول فسقط بيد فدائى مصرى سنة ١٩١٠ لهذا الموقف ، ولأنه اتجه الى الموافقة على مد امتياز شركة قناة السويس كما سيأتى ، وأما الثانى فكانت عقوبته مريعة طويلة ، كانت الازدراء والاحتقار ، وامتد به العمر ليرى عيون الناس تقذفه بالشر ، وقلوبهم تلعنه ، وضاع ماله حتى عرق الفقر وانفض من حوله نوبوه ، حتى مات ذليلا كسيرا ، ولا تزال اللعنات تنزل على الاثنين وعلى كل خائن لوطنه وبنى جنسه .

لقد كانت هذه الحادثة وبالا على الاستعمار ، فقد أمسك بها مصطفى كامل وراح يبرز خلالها بالداخل والخارج طفيان كرومر ودولة كرومر ، واضطر الانجليز أن يتقهقروا ويسحبوا هذا الطاغية من البلاد بعد أن باشر سلطات لحدود لها خوالى ربع قرن .

ومات مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ فأخذ محمد فريد مكانه ، وفى إيمان زعامته أرادت شركة قنال السويس سنة ١٩١٠ أن تمد امتيازها ، وكان بطرس غالى رئيس الوزراء آنذاك يميل الى الموافقة ، ودار نقاش عنيف بين الحكومة وبين أعضاء الجمعية العمومية ، وقاد محمد فريد الجماهير معارضا اتجاه الحكومة والشركة ، وأتهم بطرس غالى بالخيانة لكثرة ما نسب له من أشياء تتنافى مع الوطنية ، فأطلق عليه ابراهيم الوردانى أحد

الشبان الفدائيين الرصاص ففقى عليه (١٩١٠) وسلم نفسه فحكم عليه بالاعدام ، وبسبب هذا الوعى القومى خمد مشروع الشركة .

سياسة الوفاق وعزل الخديوى :

ومع أحداث الوعى بمصر كان الوعى بتركيا ينمو ويشتد ، فنجحت سنة ١٩٠٨ الحركة الدستورية وأعلن الدستور ، وكان لهذا أثره فى الحماسة المصرية ، وساعد على ذلك أن ممثل بريطانيا بعد كرومر ، وهو « السير إلدن غورست » سار على سياسة تغاير سياسة خلفه ، أطلق عليها « سياسة الوفاق » فاشتدت الحركة الوطنية ، ولكن سياسة الوفاق كانت ترمى قبل كل شئ الى وفاق مع الخديوى بأرضائه وتوسيع سلطانه ، وقد جذبت هذه السياسة ذلك الخديوى من جانب الشعب الى جانب المستعمر ، فأصبح هذا يخشى إن انتصر الشعب أن يسلب منه السلطان الذى وضعه الانجليز بين يديه ، فانحاز للانجليز وابتعد عن معاضدة الحركة الوطنية .

وتوفى إلدن غورست سنة ١٩١١ وخلفه كتشنر ، فتوقفت « سياسة الوفاق » بين الانجليز والخديوى ، وآثر اللورد كتشنر أن يتقرب الى الشعب ، فأقام الجمعية التشريعية سنة ١٩١٣ التى جاءت محل الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين ، كما عمل على حماية الفلاح ، وحول ديوان الأوقاف الى وزارة حتى لا يكون للخديوى الاشراف على هذه الأوقاف ، وكانت الحرب العالمية الأولى تطل على العالم ، وكانت تركيا تقف ضد انجلترا ، فانحاز الخديوى للأتراك ، ولذلك ما إن أعلنت الحرب حتى عرّك الانجليز الخديوى وأعلنت بريطانيا الحماية على مصر ، وأنهت السيادة العثمانية بذلك الى الأبد ، وانتقلت مصر بهذا من عصر الى عصر .

أسرة محمد على وإنشاء جامعة القاهرة

تحدثنا من قبل عن المؤسسات العلمية التي أنشأها محمد على والخديوى اسماعيل ، فكان لهما الفضل فيما أحرزته مصر من سبق علمى فى المنطقة ، وقد حدث شئ رائع فى هذا المجال فى عهد الخديوى عباس حلمى ، هو قيام جامعة القاهرة أو الجامعة الأم كما نسميها ، وقيامها بهبة مالية ضخمة قدمتها الأميرة فاطمة الزهراء ابنة الخديوى اسماعيل ، ونثبت فيما يلى خلاصة كلمة تاريخية عن نشأة هذه الجامعة كتبها الدكتور عبد الحميد سلطان ، قال :

فى ٣٠/٩/١٩٠٦ نشر الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد خطابا من مصطفى كامل الغمراوى وهو من أعيان بنى سويف يطالب فيه بإنشاء « الجامعة المصرية » قائلا أن ارتقاء المعارف فى مصر لن يتم إلا بإنشاء مثل هذه الجامعة ويعلن تبرعه بمبلغ ٥٠٠ جنيه لهذا الغرض النبيل ، فحاز سبق الشرف وكان أول المتبرعين ، وفى خلال أيام معدودة أرسل سعد زغلول وقاسم أمين رسالتين الى الصحف يعلنان استعدادهما للاكتتاب فى هذا المشروع بل إن سعد زغلول خطا خطوة مهمة لتنفيذ هذه الفكرة فقد تولى الدعوة لعقد اجتماع لهذا الغرض ، وفى هذا الاجتماع تشكلت اللجنة التأسيسية لمشروع الجامعة المصرية برئاسته ، وتم الاجتماع الأول لها فى بيته يوم ١٢/١٠/١٩٠٦ وحضر الاجتماع ٢٧ عضوا مؤسسا كان من بينهم مصطفى كامل الغمراوى وقاسم أمين ومحمد فريد وعبد العزيز فهمى وعبد العزيز جاويش وويصا واصف وحفنى ناصف وعبد الله أباطة ، وقد بلغت تبرعات الجميع فى ذلك اليوم حوالى خمسة آلاف جنيه .

وفى ٢٨/١٠/١٩٠٦ استقال سعد زغلول من رئاسة اللجنة لأنه أصبح وزيرا للمعارف وتولى رئاستها قاسم أمين لمدة شهرين فقط ثم تنحى عن الرئاسة للأمير أحمد فؤاد الذى صار فيما بعد سلطانا على مصر ثم ملكا عليها .

ومن أهم التبرعات التى حصلت عليها الجامعة فى عصرها المبكر مبلغ ٢٦ ألف جنيه بالإضافة الى ٣٠٠ فدان أوقفها لصالحها كل من الأمير يوسف كمال وحسن شريف باشا وحسن بك زايد بالتساوى .

وفى ٢١/١٢/١٩٠٨ تم افتتاح الجامعة المصرية رسميا فى احتفال حضره الخديو عباس حلمى فى مقرها المؤقت بفصر جنالكس حيث بدأت الدراسة فى نفس اليوم ، وهذا القصر هو الذى كان يشغل مكان الجامعة الأمريكية فى ميدان التحرير وقد تم استئجاره بمبلغ ٤٠٠ جنيه سنويا وكان ذلك يمثل عبئا كبيرا على موارد الجامعة الوليدة التى بدأت تتعثر مالياً ، وهكذا ورغم كل العقبات فقد تم ميلاد الجامعة وتحول الحلم الى حقيقة ولكنها كانت تحتاج الى دعم مالى كبير فإن إنشاء الجامعة المصرية ثم استمرارها كاد يصبح من الأمور التى يصعب تحقيقها لولا أنه فى عام ١٩٠٩ تقدمت الأميرة فاطمة الزهراء ابنة الخديو اسماعيل وشقيقة الأمير أحمد فؤاد وأنقذت الجامعة من عثرتها بتبرعاتها التى فاقت كل الخيال فقد أوقفت عليها أربعة آلاف فدان كانت تملكها فى الدقهلية ، كما وهبتها مجموعة كبيرة من الحلى والمجوهرات ، وأهدت اليها الأرض التى أقيمت عليها ادارة الجامعة وكلياتها فى الجيزة ، أى أنها قد تبرعت من مالها الخاص بما يساوى ١٠٠ مليون جنيه بعملة تلك الأيام لمشروع بناء الجامعة وقد تم الاحتفال بوضع حجر الأساس لها فى الأرض التى تبرعت بها الأميرة وذلك فى يوم ٣٠ مارس ١٩١٤ .

ومن الغريب والمثير للفضول انه فى احتفالات العيد الماسى لجامعة القاهرة تبارى الجميع فى ذكر كل من تبرع للجامعة من الرواد الأوائل ولكنهم كادوا ينسون اسم الأميرة فاطمة اسماعيل الى أن ذكره أحدهم على استحياء وهذا طبعا لأنها أخت الملك فؤاد وعمة الملك فاروق مع انه لولاها لما لت الجامعة بعد مولدها بقليل .

وهكذا نرى الأمير يوسف كمال يقدم للجامعة مائة فدان ،

أما الأميرة فاطمة الزهراء فقد قدمت كل ما كانت تملكه فأنتقدت الجامعة من نهاية كان يمكن أن تكون مريرة .

وإننا نتساءل مَنْ مِنْ ورثة عبد الناصر والسادات وأصهارهما يستطيع أن يقدم مما ربح ما يعادل أو ما يقرب مما قد قدمته الأميرة العظيمة ؟ وبعض هؤلاء قد امتد ثراؤه وشغل الناس بأمواله التي تفوق أحياناً أموال دولة بأكملها ، ولنتذكر في هذا المجال أشرف مروان زوج بنت الرئيس وصاحب البلايين ولنتذكر كذلك عثمان أحمد عثمان الذى يقرض الدول أحياناً بعض ملايينه ، ويأتى بعد هذين كثيرون مثل عصمت السادات وآخرون ، إنها صيحة لعلها تفتح القلوب .

٥ — فترة الصراع

من الحرب العالمية الأولى الى ثورة ١٩٥٢

كسب الإسلام — كما قلنا — الزحف العثماني على مصر هبة خدعت الكثيرين من المصريين فترة طويلة ، وطال — باسم الإسلام — ارتباط العثمانيين بالعرب ، واحتملت الشعوب الإسلامية قسوة الأتراك العثمانيين حفاظاً على وحدة كلمة المسلمين ، وأملًا في مجيء خليفة صالح ، فلما وضع الانجليز حداً للسيادة العثمانية وأعلنوا الحماية على مصر ، لم يعد هناك ما يخضع المصريين ، وبدأت مصر تعبر عن نفسها وتقتسم زمام أمرها بعد زوال عهد العثمانيين . وإذا كانت قسوة الحرب وضجيج المدافع ووعود المستعمر قد أرجأت ثورات المصريين ، فإن انتهاء الحرب كان بدءاً لصراع مرير وثورات متلاحقة ضد الانجليز ، بسبب احتلالهم للبلاد من جانب ، وبسبب استبدادهم بالشعب وسلب أمواله إبان الحرب من جانب آخر ، ولهذا سمينا هذه الفترة « فترة الصراع » وقد مهد هذا الصراع للثورة التي ألغت الملكية ، ولم يبق بعد ذلك للمستعمر كيان ، فقد كان عصر الاستعمار قد ولى وجاء للعالم عصر الحرية والاستقلال ، ولم يكن الوقت الذي أمضاه المستعمر بعدها بمصر إلا فترة نزع لانزاع ، وكان الاستعمار يبحث عن الوسيلة للنجاة بعد أن ضاعت كل آماله في البقاء .

وهناك لئون آخر من الصراع في هذه الفترة ، ذلك هو الصراع الذي كان الملك والأحزاب أطرافاً فيه ، وهذا الصراع كان صراعاً على السلطة ، فقد رأت بريطانيا أن الجبهة الوطنية متصددة ضدها بعد قطع علاقة مصر بتركيا ، فحاولت النشاط المعارض لها الى نشاط داخلي بين الملك والشعب ، فالملك (١) يريد أن يكون مستبدًا ، فراح يلتمس

(١) فؤاد غفاروق ، فقد شغلا كل هذه الفترة فيها عدا ثلاث سنوات للسلطان حسين كامل قضاها والحرب مشتعلة فلم يكن في يده سلطة .

المؤسسات ليتَّسم الاستبداد بطابع قانونى ، وهذاه تفكيره أو مستشاروه الى أن يتخذ بعض الأحزاب أدوات فى يده يضرب بها ممثلى الشعب ، وعاشت البلاد فى هذا الصراع ذلك الأمد .

ولنعد بهذه الفترة بشيء من التفصيل :

الحرب العالمية الاولى وأثرها على مصر :

هذه هى أول حرب تشترك فيها كل دول العالم تقريباً ، ومن ثم سميت العالمية ، وقد اشتركت فيها الدولة العثمانية اشتراكاً مباشراً ، ولهذا كانت هذه الحرب شديدة الخطر على العالم العربى الذى كان تابعاً قبل الحرب للعثمانيين .

وكانت الشرارة التى أشعلت النار تتمثل فى قتل ولى عهد النمسا وزوجته بيد طالب من الصرب (يوغسلافيا) ، واحتجت النمسا احتجاجاً قاسياً وأملت شروطها بنظر ذلك ، ورفضت الصرب بعض هذه الشروط ، فاجتاحتها جيوش النمسا ، وكانت روسيا تعد نفسها حامية لدول البلقان فتدخلت ضد النمسا ، فانضمت ألمانيا الى النمسا ، وانضمت فرنسا الى روسيا ، فالعداوة بين فرنسا وألمانيا شىء تقليدى وبخاصة بعد انتصار الألمان فى حرب السبعين (١٨٧٠) ، واجتاحت الجيوش الألمانية بلجيكا فى طريقها الى فرنسا منتهكة بذلك حياد بلجيكا ، فتدخلت بريطانيا لحماية حياد بلجيكا ، ثم انضمت تركيا وبلغاريا الى ألمانيا ، وانضمت إيطاليا واليابان والصين وأمريكا والبرتغال الى فرنسا وروسيا وبريطانيا فتكوّن من هؤلاء ما يعرف بالحلفاء .

وقامى العالم كله أهوال هذه الحرب ، وبلغ ما دمرته من البشر حوالى ١٥ مليوناً بين قتل وجريح ومشوه ، ولم يكن لمصر ناقة فيها ولا جمل ، ولم يكن مأمولاً قط أن تنال أية نتيجة لو انتصر هذا الجانب أو ذاك ، ولكن كان من المؤكد أن يقع عليها الضرر على أى حال ، وهو

ما حدث ، ولم يستطع المؤرخون الغربيون أن يغفلوا ما حملته مصر من متاعب ، فقد قرر بروكلمان أن حشوداً كبيرة من الفلاحين المصريين جُنِّدَت للعمل قسراً داخل البلاد وخارجها ، وأن مصر احتملت ألواناً من الآلام في حرب لم تكن يوماً في مصلحتها ، وأن الفلاحين اقتتلوا من بيوتهم وانتزعت منهم ماشيتهم وأنعامهم ، وأن المجاعة ثقلت وطأتها على الطبقات الفقيرة (١) .

وإذا ذهبنا الى مراجع إنجليزية أخرى مثل تقرير لجنة ملنر (وستحدث عنها فيما بعد) ومثل الكتاب الذي نشره الكولونيل ألبود عن « مصر والجيش » نجد تفاصيل مريرة لما أصاب الشعب المصرى في أرزاقه وأمواله ، من استيلاء على المحصولات والدواب ، وتسخير العمال في الأشغال والحركات العسكرية ، واستخدام المرافق العامة كالسكك الحديدية ، واستعمالها حتى تلفت من كثرة الاستعمال ، وتحويل مبانى المدارس الى مستشفيات ، وكالضسارة الفادحة التى نزلت بالمزارعين بسبب التحكم في أسعار أقطانهم ، ومزاحمة الأهلى في غذائهم ، وجمع الأموال منهم في مناسبات مختلفة

ويعلق الأستاذ شفيق غربال على هذه النكبات بقوله : كل هذا لا يعدل الجراح التى أصابت المصريين في عزتهم وكرامتهم وأمنهم ، فقد رأى المصرى نفسه غريباً في بلاده ، ورأى هذه البلاد تتحول الى معسكر هائل تحشد فيه أخلاط الناس من أحمر وأصفر وأبيض ، ورأى نفسه وما يملك مسخراً لخدمة هذا المعسكر ، ورأى أن بلاده قد أصبحت قاعدة للغزو والتسلط ، تحركت منها حملة لاقتحام مضيق الدردنيل والاستيلاء على القاعدة الإسلامية الكبرى « القسطنطينية » ، وتحركت منها حملات أقلام الفبابرات والدعاة الغربيين

للتأثير على العرب ، كما تحركت فيما بعد الحملات نحو فلسطين
والشام شرقاً ، ونحو ليبيا غرباً (١) .

وفي خلال هذه الحرب بدأ الغرب ينفذ سياسته بعيدة العمق
والمدى ، فاحتل فلسطين وأسند الانتداب عليها الى بريطانيا التي سرعان
ما عملت على تنفيذ وعد بلفور المشؤوم الذي من فلسطين ومصر والبلاد
العربية بلطاه .

سلطان مصر وملوكها في هذه الفترة :

سلطان مصر وملوكها في هذه الفترة ثلاثة هم : السلطان حسين
كامل والسلطان فؤاد (الملك فؤاد فيما بعد) والملك فاروق ، وسنتكلم
كلمة عن كل واحد من هؤلاء وعن أشهر أحداث عصره :

السلطان حسين كامل

مع مطلع الحرب العالمية ، ومع إعلان الحماسة على مصر عزلت
انجلترا الخديوى عباس حلمي لأنه أيد تركيا في موقفها من الحرب ضد
الحلفاء ، واتجه الانجليز الى الاستبداد بالسلطة في البلاد ، وخطر لهم
ألا داعى لسلطان يحل محل الخديوى المخلوع ، ثم عدلوا عن هذه
الفكرة سيراً مع سياسة الخديعة التي كانت الحرب تدعوهم الى
اصطناعها ، فاختراروا للسلطنة رجلاً يرضى بالاسم ولا يحفل بمقتضياته
ومستلزماته ، ذلك هو حسين كامل وهو عم الخديوى المخلوع وأكبر
أفراد الأسرة العلوية سناً ، وقد استهجن المصريون موقفه وعدوه خائناً
لأنه وقف مع أعدائهم الانجليز ، وقد وصلت الحماسة ببعض الشبان
المصريين الى تدبير القضاء عليه ، فألقى عليه أحدهم قنبلة فتأذى

(١) تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية : ص ٤٦ .

ولكنه نجى منها ، ولعل هذه الوصمة التي لحقت حسين كامل هي التي دفعت ابنه الى أن يرفض منصب السلطنة بعد وفاة أبيه ، وأن يتخلى تخلياً صريحاً عن حقه في العرش ، وفتح السلطان حسين كامل بالمنصب دون أن يشترط أى شرط لمصالح البلاد التي سيصبح سلطاناً عليها ، ويأوئ الأسناذ شفيق غريال هذا السلطان ووزيره رشدى لأنهما لم ينتهزا فرصة حاجة إنجلترا الى معونة مصر زمن الحرب ليطلباً منها عهداً بالجللاء بعد الحرب أو بإعادة حقوق مصر لبنيتها (١) .

ولم يطل عهد السلطان حسين إذ توفي سنة ١٩١٧ ، وليس هناك من عمل يمكن أن يسند اليه ، فقد كانت السلطة كلها في يد الحاكم الانجليزى (المندوب السامى) وبخاصة إذ كانت الحرب المسعورة تدور بقسوة وشراسة .

السلطان فؤاد والملك فاروق

أورد كارل بروكلمان سطورا قليلة تسمى حسين كامل والسلطان فؤاد وموقف الانجليز تجاه هذا وذاك ، قال : خسرت بريطانيا ب وفاة حسين كامل سندها الرئيسى في البلاد ، وبدأ لها أن تضم مصر الى إمبراطوريتها ، ولكن البريطانيين آثروا آخر الأمر أن يفتاروا سبيلا أكثر حصافة ، فدأروا عواطف المصريين وأسندوا الأمر الى الأمير أحمد فؤاد أخى السلطان على الرغم من أنه كان يحيا في الغالب في ايطاليا ، وكان قد أصبح غريبا عن البلاد أو يكاد (٢) .

وقد ظل فؤاد سلطانا على مصر حتى صدر ما يعرف بتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ فاتخذ فؤاد لقب « ملك » .

(١) تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية .

(٢) تاريخ الشعوب الاسلاميه ص ٤٦ — ٤٧ .

وأبرز الأحداث في عهد فؤاد هي الحركة القومية التي أريد بها استعادة الحقوق الوطنية من الانجليز الغاصبين ، وقد تدخل الملك فؤاد فالملك فاروق فيها تدخلا أرجأ نتائجها ، فكل منهما لم يكن يريد أن تتحقق آمال البلاد على يد حزب الوفد الذي كان يضم الممثلين الحقيقيين للشعب خوفاً على سلطانه من هؤلاء الممثلين ، ونهذا خلق أحزاباً يسميها الباحثون أحزاب القصر ليضرب بها ممثلي الشعب ، وقد انتفع الملك بهذا الصراع الذي دار بين الجبهتين ، أما ممثلو الشعب الحقيقيون فإنهم في آخر وزارة لهم هدعوا من حماستهم بعض الشيء ضد القصر ولكنهم مع هذا لم ينالوا رضا القصر ، لأن القصر كان يدرك خطر الشعب وممثليه عليه .

ويدافع زعماء الوفد عن أنفسهم بأن ذلك التساهل لم يكن قط تساهلاً في حقوق البلاد ، وإنما كان نوعاً من التساهل الشخصي ، ليكون ذلك وسيلة للبقاء في الحكم رغبة التمكن من خدمة الشعب وآماله في الداخل ، وحل قضيته مع المستعمر ، ولقد لجأ ممثلو الشعب لهذه السياسة بعد أن أبعثوا فقرات طويلة من الحكم ، ففسد الحكم بالداخل وهدأت الحماسة لمقاومة الاستعمار . وهو دفاع تأخذ به الأغلبية الساحقة من الوفديين لأنه الوسيلة لتحقيق آمال الشعب في الداخل والخارج ، والوسيلة لقطع الطريق على أحزاب القصر الذين كانوا يرضون بالفتات على حساب الصالح العام .

ومات فؤاد سنة ١٩٣٦ فخلفه ابنه فاروق وهو صبي دون سن البلوغ ، فحكمت مصر بمجلس وصاية ريثما بلغ الملك هذه السن ، وكان فاروق صورة من أبيه ، وكل ما بينهما من فرق هو رعونة الصبا وطيش الشباب في الابن ، ولنعد إلى هذه القضية بشيء من التفصيل :

الحركة القومية وثورة ١٩١٩ :

قلنا فيما سبق إن الشعب المصري احتل ألواناً من الظلم خلال

الحرب ، وكانت وعود بريطانيا وسيلة من وسائل التخدير ، فلما انجابت الحرب هب الشعب يطالب باستقلاله ويدعو المحتل أن يرحل عنه .

وقلنا كذلك إن الإسلام كان العامل الذي أطل سلطان العثمانيين على مصر وعلى سواها من الدول العربية ، أما أن تخضع مصر لبريطانيا فشيء لا يرضاه الوطنية ولا يرضاه الإسلام ، وعلى هذا هبت ثورة ١٩١٩ .

وشيء آخر نريد أن نضيفه هو أن حركات المقاومة المصرية كانت كثيرة ومتتابعة ، وكانت تتجه ضد كل الذين اعتدوا على حقوق البلاد ، وقد رأينا منها ثورة على بك الكبير ، وثورة مصر كلها ضد الحملة الفرنسية ، وثورة مصر ضد تركيا لصالح محمد علي ، كما رأينا الثورة العربية التي واجهت عدة قوى ، وبعدها جاءت الحركة الوطنية التي عبر عنها مصطفى كامل ومحمد فريد ، وعلى هذا فتورة سنة ١٩١٩ حلقة مهمة في النضال الوطني المتصل .

وكانت هذه الثورة التقاطاً من المصريين لحقهم في تقرير مصيرهم ، فقد التقط المصريون هذا الحق وباشروا ، لتسوية ما بينهم وبين إنجلترا من مشكلات ، ولم يخطر ببال إنجلترا — كما يقول الأستاذ شفيق غربال — أن التسوية الحقيقية بينها وبين مصر ستكون مع الأمة المصرية نفسها (١) :

وقائد الحركة القومية هذه المرة هو سعد زغلول ، وقد سبق له أن شغل عدة مناصب ، تشكداً من أرقى المناصب في الدولة ، ففي سنة ١٩٠٦ شغل منصب وزير المعارف فجعل اللغة العربية هي لغة التعليم بدلاً من الإنجليزية ، وأسهم في إنشاء الجامعة المصرية وفي سنة ١٩١٠ شغل منصب وزير الحفائية (العدل) وفي سنة ١٩١٣ انتخب وكيلاً

للجمعية التشريعية ، وقد اكتسب في هذه المناصب مكانة مرموقة ، وفي خلال الحرب لم يكن هناك سبيل للمنطق والحرية ، وإنما كان لسان القوة هو الناطق المسيطر ، فلما وضعت الحرب أوزارها وأعلنت مبادئ الرئيس ولسن الخاصة بحق تقرير المصير هب سعد زغول من مكمنه وجمع حوله لفيفا من المناضلين وأعلن تكوين الوفد المصرى فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، وراح يطالب من المندوب السامى السير ريجينالد وينجت Reginald Wingate أن يأذن له ولرفاقه فى السفر الى انجلترا ليطالبوا بإعلان استقلال البلاد ، فرفض المندوب السامى ذلك ، فاتجه سعد وزملاؤه وجهة أخرى هى استعدادهم للسفر الى باريس ليدافعوا عن قضية البلاد أمام مؤتمر الصلح ، وعدت بريطانيا هذا تمرداً منهم ، كما رأت تغلغل الحركة الوطنية فى نفوس المواطنين ، فأرادت أن تقضى عليها ، فألقت القبض على زعماء البلاد : سعد زغول واسماعيل صدقى ومحمد محمود وحمد الباسل ونفقتهم الى جزيرة مالطة ، وأشعلت بذلك لهيب ثورة جارفة يصفها بروكلمان بقوله : أصبحت البلاد كلها فى حالة تفرد وثورة ، وقُطِع كل اتصال مع القاهرة ، وحصرت الثوار الحاميات الانجليزية الصغيرة فى مصر العليا ، واستعملت الطائرات لنقل الجنود الحاضرين ، ووقعت سلسلة من الاعتداءات على الجنود البريطانيين (١) ، وبقيت البلاد بدون وزارة فترة طويلة .

وأسهمت المرأة المصرية بنصيب كبير فى هذه الثورة ، فخرجت السيدات مطالبات بالحرية لمصر ، وأبدن ضروبا من البسالة والقوة ، واشترك الفلاحون والعمال بكل شجاعة فى هذه المظاهرات ، واتجه بعضهم لقطع السكك الحديدية حتى يصيب الشلل خطوط الانجليز داخل البلاد .

وأنجبت هذه الثورة نتيجتين مهمتين ، إحداهما تغيير المندوب

(١) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٥ ص ٥٠ - ٥١ .

(م ٣٢ - موسوعة التاريخ ج ٥)

السامي وإسناد هذا المنصب الى اللورد ادموند أللنبى Edmund Allenby الذي كان قائد حملة فلسطين ، والنتيجة الثانية لجنة ملنر Milner لدراسة أسباب الثورة .

وأطلق أللنبى سراح المعتقلين وذهبوا الى باريس من مالطة ، ولكن بعد أن دفع النفوذ البريطاني رأسن الى أن يعلن أن تقرير الصير لا ينطبق على الدول المستعمرة ومنها مصر ، ودفع هذا النفوذ أيضا مؤتمر الصلح أن يرفض الاستماع لمطالب مصر ، وهذا مما زاد الثورة اشتعالا ، وجعل المصريين يقاطعون لجنة ملنر التي كانت تبأشر عملها في مصر وسعد ورفاقه في باريس ، فعادت لجنة ملنر الى انجلترا واستدعى سعد ورفاقه للتفاوض مع ملنر في انجلترا ، فاستجابوا بعد أن توسط لذلك عدلى يكن ، وظلت المفاوضات حوالى ثلاثة أشهر ولكنها لم تسفر عن أية نتيجة ، واقترحت لجنة ملنر اثر ذلك أن تعترف بريطانيا باستقلال مصر بشرط أن توافق مصر على بقاء قوة عسكرية في الأراضى المصرية ، كما اقترحت تعيين مستشار بريطانى في وزارة الحفانية وآخر في المالية ، وألا تعقد مصر معاهدة سياسية مع أية دولة بغير موافقة انجلترا ، وأن تمنح بريطانيا حق حماية الأجانب من تطبيق القوانين المصرية عليهم . وقد رفض الشعب المصرى ذلك .

تلك هى أول مفاوضة ، وللحديث عن المفاوضات وعصرها دراسات دقيقة دونها المرحومان الأستاذ شفيق غربال والدكتور محمد حسين هيكل ، ومنهما نقتبس لقطات قصيرة تناسب الاطار الذى حددته لنا هذه الدراسة :

— فى فبراير سنة ١٩٣١ سافر عدلى رئيس الوزارة آنذاك للمفاوضة مع كميزون ، ولكن سعدا أعلن أنه — باسم الشعب — لا يؤيد عدلى فى مفاوضاته ولا يلتزم بالشعب بنتائجها » لأن رئيس الوزارة عيفه

المندوب السامى ، وهو بذلك ليس إلا موظفا من موظفى الحكومة الانجليزية يسقط ويرتفع بإشارة من المندوب السامى « وكان من جراء ذلك أن كثرت الاضطرابات ، وفشلت المفاوضات ، فألقت السلطات الانجليزية القبض على سعد وخمسة من زملائه ، هم فتح الله بركات وعاطف بركات وسينوت حنا ، ومصطفى النحاس ، ومكرم عبيد ، ونفثهم الى سيلان ، ومن هناك الى سيشل فى ديسمبر سنة ١٩٢١ ، ثم حوّل سعد الى جبل طارق .

تصريح ٢٨ فبراير :

اتجه الجانب الانجليزى بتوصية اللبى إلى العمل الفردى دون أن يلزم مصر بالتحفظات التى وردت فى مشروع ملتر ، فصدر تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ وفيه أعلنت انجلترا انتهاء الحماية على مصر ، وأن مصر مستقلة ذات سيادة ، وأن انجلترا تتمسك بنقاط أربعة لتسوى فيما بعد فى مفاوضات ودية ، وهذه النقاط هى :

- ١ — تأمين مواصلات الامبراطورية البريطانية فى مصر .
- ٢ — الدفاع عن مصر ضد أى تدخل أجنبى .
- ٣ — حماية الأقليات ومصالح الأجانب .
- ٤ — السودان .

وأعلن فؤاد (!!) عقب ذلك وثيقة استقلال مصر واتخذ لقب « ملك » .

— ألف عبد الخالق ثروت الوزارة اثر ذلك ، وشكلت لجنة وضعت الدستور الذى يعرف بدستور سنة ١٩٢٣ ، وأفرج عن سعد ورفاقه ، وجرت الانتخابات فحصل الوفد على أغلبية ساحقة ، وافتتح البرلمان فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ وألف سعد زغلول أول وزارة برلمانية .

الملك والدستور :

وقف الملك فؤاد موقف الحياد خلال الصراع بين الشعب والشائز المطالب بحريته وبين المستعمر الانجليزى ، فلما بدت انتصارات الشعب وحقق بعض النتائج التى سعى لها وضحى من أجلها ، تقدم هذا الملك ليبنى ثمار كفاح الشعب ، وليأخذ لنفسه السيادة التى انتزعها الشعب من فم المستعمر •

ويبدو أن نتيجة جهود سعد ورفاقه أذهلت الملك فؤاد ، فهو يخاف التجمع الشعبى الذى لا بد سيعمل على الحد من نفوذه طبقا للدستور ، ولذلك كان هذا الرجل حربا على الدستور وحربا على حزب الأغلبية ، وكان موقفه ذلك يمثل السبب الرئيسى فى تأخير حصول مصر على استقلالها التام ، وقد وجد الانجليز فى اتجاهه ضالته ، فأيدوه فى حربته ضد ممثلى الشعب وقادته ، وأيدوه فى تزييفه ارادة الشعب ، وإذا كان المصريون قد زعزعوا قوى بريطانيا سنة ١٩١٩ فى ثورتهم العارمة ، فانهم الآن اتجهوا ليضرب بعضهم بعضا بتكريض الملك ، وتفرغ الانجليز للفرجة ، وأكبر دليل على ذلك أنه عندما مرض الملك باعث الشقاق وحاميه ، ونصير الاستعمار وراعيه أشار الانجليز باجتماع الأحزاب تحت رئاسة النحاس زعيم الأغلبية ، وسلموا بالمعاهدة التى حققت بعض ما كان يطمح فيه المصريون ، ومرة أخرى نقرر أن مرض الملك فؤاد ، وطفولة ولي العهد ، جعلوا الانجليز يحسون بفراغ كبير ، وسلموا ببعض ما كانت الأمة تطالب به •

ولنعد الى تصوير سريع للحرب التى شنها الملك على الدستور ، ولنأخذ الأرقام رائدا لنا فى هذا المجال :

— كان يوم ١٥ مارس (سنة ١٩٢٤) عيدا للدستور •

— أوقف الملك هذا الدستور سنة ١٩٢٥ •

— أعيد الدستور سنة ١٩٢٦ •

— أوقفه مرة ثانية سنة ١٩٢٨ •

— أعيد سنة ١٩٢٩ •

— ألغى سنة ١٩٣٠ واستبدل به دستور صدقى العجيب الذى كان ذا طابع رجعى ، إذ جعل الدستور منحة من الملك ، وجعل للهيئة التنفيذية حق التشريع ، وجعل للملك حق إهمال أى قانون يقره البرلمان •

— ألغى دستور صدقى سنة ١٩٣٤ وبقيت البلاد بلا دستور حتى أعيد دستور ١٩٢٣ فى ديسمبر سنة ١٩٣٥ •

— ثم استقر رأى الملك على أن يبقى هذا الدستور لكن على أن يكون حبرا على ورق فقط ، لا حياة فيه ولا مدلول له ، وسيوضح ذلك من ملاحظة الفترات القصيرة التى أمضاها حزب الأغلبية فى الحكم ، فقد كانت أحزاب القصر مضطرة حتى سنة ١٩٣٥ أن توقف الدستور أو تلغيه لتحكم ، ورؤى بعد ذلك أن تحكم بأية صورة من صور التحريف والتزوير ، دون اعتبار لهذا الشيء المنسطور ، وذلك مزيد من الانحدار والاستعمار •

والعجيب أن رجلا اسمه أحمد زيور لا يمثل إلا نفسه بل لا يمثل نفسه ، تولى رئاسة الوزارة سنة ١٩٢٤ وأجرى انتخابات ، فلما فاز حزب الوفد واختير سعد زغلول رئيسا لمجلس النواب قرر زيور الأئيم ، بإيعاز الملك طبعاً ، حل مجلس النواب بعد بدء انعقاده بيوم واحد •

الملك والشعب :

وبعد أن أوضحنا كيف كان فؤاد حربا على الدستور ، نلتفت الآن لنبين كيف كان فؤاد وابنه من بعده حربا على الشعب ممثلا فى حزب الأغلبية (حزب الوفد) ، ووسيلتنا الدقيقة لاثبات ذلك أن نورد قائمة

بالوزارات منذ ثورة ١٩١٩ إلى ثورة ١٩٥٢ ليظهر لنا أن المدة التي قضاها حزب الأغلبية في الحكم كانت ضئيلة جدا :

رشدى باشا سنة ١٩١٩ رأس لجنة وضع الدستور فيما بعد
فترة بدون وزارة إبان ثورة ١٩١٩ *

محمد سعيد سنة ١٩١٩

يوسف وهبة » ١٩١٩

عدلى يكن » ١٩١٩

عبد الخالق ثروت » ١٩٢٢ أسقطه الملك لقمصكه بمواد في الدستور

توفيق نسيم » ١٩٢٢

يحيى ابراهيم » ١٩٢٣ صدر الدستور في عهده

سعد زغلول » ١٩٢٤ أول وزارة انتخابية

أحمد زيور .. سنة ١٩٢٤ أرضى الاستعمار والملك ، وكان ستارا

لحكم القصر ، وحل البرلمان يوم بدء انعقاده

عدلى يكن } سنة ١٩٢٦ وزارتات ائتلاف — سعد زغلول رئيس
عبد الخالق ثروت } » ١٩٢٧ مجلس النواب

مصطفى النحاس » ١٩٢٨ وزارة وفدية بعد تصدع الائتلاف —
أقيمت في نفس العام

محمد محمود » ١٩٢٨ حكم ديكتاتورى — تعطيل الدستور

عدلى يكن » ١٩٢٩ وزارة انتقالية لأجراء انتخابات —
فوز الوفد

مصطفى النحاس » ١٩٣٠ وزارة وفدية

اسماعيل صدقى » ١٩٣٠ استبداد وتغيير الدستور

- عبد الفتاح يحيى » ١٩٣٣
توفيق نسيم » ١٩٣٤ ألغى دستور صدقى
[ثورة شباب الجامعات — الجبهة الوطنية]
علي ماهر سنة ١٩٣٦ وزارة انتقالية لأجراء انتخابات —
فوز الوفد
مصطفى النحاس » ١٩٣٦
محمد محمود (آخر ديسمبر) » ١٩٣٧ في عهده تألفت الهيئة السعدية
علي ماهر » ١٩٣٩
حسن صبرى » ١٩٤٠ في عهده ألغى صندوق الدين
حسين سرى » ١٩٤٠
مصطفى النحاس » ١٩٤٢
أحمد ماهر سنة ١٩٤٤
محمود فهمى النقراشى » ١٩٤٥
إسماعيل صدقى » ١٩٤٦
النقراشى » ١٩٤٦
إبراهيم عبد الهادى » ١٩٤٨
حسين سرى » ١٩٤٩ في وزارتين : ائتلافية يوليو — نوفمبر
ومحايدة نوفمبر — يناير
مصطفى النحاس » ١٩٥٠
علي ماهر » ١٩٥٢
نجيب الهلالى » ١٩٥٢
حسين سرى » ١٩٥٢
نجيب الهلالى » ١٩٥٢

ولنا تعليقات على هذه القائمة :

١ — كانت المدة قصيرة جدا في كل مرة من المرات التي تولى رئاسة الوزارة فيها سعد أو النحاس ، فكانت أحيانا شهورا قليلة ولم تتخط السنة إلا في حالات استثنائية ، ففي مرة كان فاروق قاصرا ، ولم يستطع مجلس الوصاية أن يقوم بهذه الحماقة ، فما ان وصل الصبي الى ما سُمى بالرشد حتى أقال وزارة النحاس بعد بضعة شهور ، ومرة أخرى كانت ابان الحرب العالمية الثانية ، وقد فرض الاستعمار الانجليزى النحاس فرضا على الملك ، فقد زحف مايلز لامبسون السفير البريطانى بالدبابات وأرغم الملك أن يأتى بحزب الوفد الى الحكم تقريبا الى الشعب فى أزمة الحرب وظل النحاس أكثر من سنتين على الرغم من الملك ، فلما بدأت انتصارات الحلفاء ، تخلى الانجليز عن الشعب وزعيم الشعب فأقاله فاروق ، وفى مرة ثالثة جاء النحاس لينقذ سمعة القصر وسمعة مصر عقب هزيمة فلسطين ، وصفقات الأسلحة الفاسدة ، وسنشردها بإقامة بعد قليل .

٢ — كان اخراج النحاس ينتهى بإقالته دائما ، ولم تعرف الإقالة لأى رئيس من الرؤساء الآخرين .

٣ — فى بعض الحالات رأى القصر وأعوانه والانجليز أن تدمير مصر أيسر من بقاء حزب الأغلبية فى الحكم ، وأول حادثة تؤيد هذه القضية مقتل السردار لى ستاك Lee Stack سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام سنة ١٩٢٤ ، وقد جرى اغتياله فى أحد شوارع القاهرة . واصبح العدالة تشيئ الى أن قتله مدبر للنكايه بمصر وبحزب الأغلبية الحاكم ، ويتضح هذا من الاثذار الذى قدمه للورد اللنبى الى سعد زغلول ، وفيه يطلب مطالب لا علاقة لها بالبتة بمصرع هذا السردار ، فهى — بالاضافة الى الاعتذار ودفع دية ثقيلة (نصف مليون جنيه) وتكسب المجرى والاثار منهم — تحتم ارجاع الجيش المصرى من

السودان ، وتقرر ضرورة الموافقة على أن تزرع السودان أرضا لا حدود لها في الجزيرة بعد أن كانت المعاهدات تقضى بأن الأرض المنزرعة لا تتجاوز ٣٠٠٠٠٠ فدان ، والموافقة التامة على أن تقوم بريطانيا بحماية المصالح الأجنبية في مصر ، ورفض سعد بطبيعة الحال هذا الإنذار ، واحتلت بريطانيا جمرك الاسكندرية ، وجاء القصر بزيور الأثيم ليوافق على كل شيء ، فكل شيء أجون من سعد في رأى القصر ورجال القصر .

إلغاء معاهدة ١٩٣٦ وحريق القاهرة :

وحادث آخر شهدناه ليس أقل خطرا من مصرع السردار الانجليزى ، ذلك هو حريق القاهرة الحبيبة في ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ، فقد جرى بالنحاس الى الحكم عقب كارثة فلسطين كما أشرنا من قبل ، وكانت الكارثة عملا أسهم فيه فاروق بنصيب كبير عن طريق الأسلحة الفاسدة التى كسب فيها القصر وأعوانه عدة ملايين من الجنيهات ، وخسرت مصر كل شيء ، ثم عن طريق نزوات الملك ولذائذه ، وهذا السبب مكن للنحاس هذه المرة ، وممكن له كذلك موقفه الجريء من معاهدة ١٩٣٦ فقد صاح فى البرلمان : باسم الشعب وقعت هذه المعاهدة وباسم الشعب أعلن إلغائها ، وترتب على هذا الإلغاء أن توقفت المصريون الذين كانوا يعملون فى القاعدة البريطانية عن العمل فأصبحت القاعدة بالشلل ، وتوقف التجار عن امداد القوة الانجليزية بالطعام والمطالب الأخرى ، فأخذت جرعة الماء تكلف الانجليز ثمنا باهظا ، ونشط الفدائيون من الطلاب والشباب نشاطا كبيرا ، فأخذوا يتخطفون الجنود الانجليز ويقتضون عليهم ، وأوجد حزب الأغلبية عملا لكل من توقف عن العمل

وشجع الفدائيين ، والمهم أن هذا وسواه مكن لحزب الأغلبية في النفوس ، فلم يكن في مقدور فاروق أن يثقل الوزارة في هذا الجو من النجاح ، فلعبت أصبعه القذرة متضامنة مع الانجليز والخونة ، فأشعلت النار في عاصمتنا الحبيبة ، ورأى كاتب هذه السطور القاهرة وهي تحترق ، واشترك مع جمع من الشبان المخلصين في اطفاء النيران وإيقاف الشغب ، ويشهد الله أن دموعنا كانت تهطل بغزارة ونحن نعمل في اطفاء اللهب ، وقد هدأت صرخاتنا من حماسة الغوغاء المخدوعين ، وكانت القاهرة تحترق والملك (يعتقل) كبار رجال الجيش في مأدبة أقامها لهم بالقصر حتى لا ينقذوا العاصمة من الدمار ، وعلى حطام القاهرة أقام فاروق زعيم الأغلبية .

العلاقات بين بريطانيا ومصر

نعود لاستكمال الكلام عن العلاقات بين بريطانيا ومصر ، وقد شرحنا الجولة الأولى من هذه العلاقات ، تلك الجولة التي انتهت بتصريح ٢٨ فبراير الذي حقق نوعا من الاستقلال وشيئا باهتا من الديمقراطية سبق أن شرحناه .

وجاءت الجولة الثانية التي أريد بها تصفية التحفظات الأربعة التي ذكرها تصريح ٢٨ فبراير ، وبدأت هذه الجولة سنة ١٩٢٤ وانتهت بمعاهدة ١٩٣٦ ، وقد اشترك فيها عدد كبير من الزعماء كما يلي :

سعد هاكند ونالد : ١٩٢٤ :

طالب سعد بسحب جميع القوات البريطانية ، وسحب المستشار البريطاني القضائي ، والعدول عن دعوى حماية الأجانب والأقليات بمصر ، وعن دعوى الاشتراك في حماية قناة السويس ، ورغبت بريطانيا هذه المطالب ، وخافت من أن يشغل سعد ثورات ضدها كذلك التي هبت سنة ١٩١٩ ، فقامت بالإيعاز بطريق أو بآخر بقتل السردار ، للتخلص من سعد ، ولإزيد من تضيق قبضتها على مصر كما سبق القول .

ثروت — تشمبرلان : ١٩٢٧ :

(في وزارة الائتلاف الوفدى الدستورى)

اتفقت في هذه المفاوضات وجهات النظر على أكثر النقاط السابقة ، ولم يكن هناك خلاف إلا في نقطتين :

- ١ — تمسكت بريطانيا بضرورة بقاء بعض الضباط والعاملين من أبنائها بالجيش المصرى ، على أن يكونوا بعثة عسكرية .
- ٢ — تمسكت بريطانيا بإبقاء عدد من موظفيها في إدارة البوليس

والأمن لصالح الأجانب ، ريثما يستقر الأمر في مسألة الامتيازات ، وفي هذه الأثناء تصدّع الائتلاف ، وأسندت الوزارة لزعيم الوفد سنة ١٩٢٨ الذى أعلن عدم موافقته على هذا المشروع •

فعاد ثروته دون نتيجة ، وسرعان ما أقيمت حكومة الرفد •

محمد محمود — هندرسون ١٩٢٨ :

أوشك الاتفاق أن يتم على النحو السابق ، ولكن بريطانيا تمسكت بأن يصدق برلمان منتخب انتخاباً حراً على هذه المعاهدة فعاد محمد محمود لأنه كان يعرف أن أى انتخاب حر سيقصيه عن الحكم •

النحاس — هندرسون ١٩٣٠ :

كانت المفاوضات السابقة ترجىء الكلام عن السودان ، فلما جاء دور النحاس أثار مشكلة السودان ، وأصر على أن تكون هجرة المصريين اليه غير محدودة إلا بشرط الأمن والصحة ، وأن يعود الحكم الثنائى على أن تكون مدته عاماً واحداً ، ثم تتم الوحدة بين مصر والسودان • وفشلت المفاوضات على صخرة السودان •

الحرب العالمية الثانية وأثرها على العلاقات

إن الحديث عن الحرب العالمية الثانية يستتبع عودة للوراء لتذكّر نتائج الحرب العالمية الأولى ، فقد خرجت ألمانيا من هذه الحرب جريحة مهزومة ، واستبد بها المنتصرون ، ومن أجل هذا كانت تسمى بجذ للنعصر ، وتبحث عن الزعيم الذى يثار لها ، وفي هذا الجو ظهر هتلر ، والتفت ألمانيا حوله باعتباره القائد والرائد الذى يسترد للبلاد مكانتها ، وفي سنة ١٩٣٣ وصل هتلر الى الحكم فأصبح رئيس الوزارة ، وفي سنة ١٩٣٤ أصبح رئيس الدولة بالإضافة الى رئاسة الوزارة •

وبينما كانت ألمانيا تتجه نحو القوة كان العالم يعاني من الأزمة المالية الطاحنة التي حلت به ابتداء من سنة ١٩٢٩ ، وقد أعاد هتلر سبب هذه الأزمة إلى جشع اليهود واستبدادهم الاقتصادي ، فاتخذ اليهود مختلف الحيل للايقاع به ، وواجه هتلر بجسارة خيانات اليهود ، كما واجه سطوة الحلفاء التي نكلت بألمانيا عقب هزيمتها في الحرب العالمية الأولى ، فالتجته سياسته إلى التخلص من معاهدة فرساي وبالتالي إلى إضعاف فرنسا وأغضت بريطانيا الطرف عن تصرفاته الأولى ، ولكنها سرعان ما أحست بالتزامها بمواجهته ، فالتجته إلى تسوية أمورها مع مصر حتى تتفرغ إلى هذا الصراع الذي بدأ يهدد العالم في الثلاثينات .

وقبل أن نواصل حديثنا عن أثر التهديد بالحرب العالمية الثانية في العلاقات بين مصر وبريطانيا نستكمل حديثنا عن أهم الخطوات التي قادت لهذه الحرب وعن أهم معالمها :

— في سنة ١٩٣٥ أعاد هتلر التجنيد الإجباري ، واستعاد اقليم السار .

— في سنة ١٩٣٦ أعاد تحصين منطقة الراين ، وبدأ يطالب باسترجاع المستعمرات الألمانية .

— في سنة ١٩٣٨ نجح هتلر في ضم النمسا ، واستعد لمهاجمة تشيكوسلوفاكيا حتى اضطرت إلى أن تتنازل لألمانيا عن الأقاليم التي طالب بها هتلر .

— وفي سنة ١٩٣٩ ضمت ألمانيا ما تبقى من تشيكوسلوفاكيا .

— وفي سنة ١٩٣٩ عقد هتلر ميثاق عدم اعتداء مع روسيا في ٢٣ أغسطس ثم اندفع يغزو بولندا ، وكان ذلك مطلع الحرب ، إذ أعلنت إنجلترا وفرنسا الحرب عليه .

وكانت البلاد العربية وبخاصة مصر وليبيا مسرحا من مسارح الحرب العالمية الثانية ، فقد كانت ليبيا خاضعة لاطاليا وكانت ايطاليا تخوض الحرب بجانب ألمانيا ، وكانت مصر خاضعة لانجلترا وقد زحفت الجيوش الايطالية الألمانية بقيادة روميل من ليبيا فاحتلت بعض المواقع المصرية ، وحققّت هذه القوات ألوانا من الانتصارات في سنى الحرب الأولى سواء في الميدان الأوروبى أو في الشمال الأفريقى ، وفى سنة ١٩٤١ بدأت الحرب تأخذ منحى جديدا ، ففى هذا العام هاجم هتلر روسيا ، وحقق أشواطا من النصر في الفترة الأولى ، ولكن الميدان الروسى شغله عن استمرار الانتصار في الشمال الأفريقى ، ويعتبر شهر نوفمبر ١٩٤٢ بدء تحول بالنسبة للحرب في المنطقة العربية ، ففى هذا الشهر بدأ روميل في التقهقر غربا أمام زحف مونتجمرى ، واستمر مونتجمرى في الزحف حتى استعادت قوات الحلفاء بقيادته مرسى مطروح واتجهت تحتل طبرق فبنى غازى ، فمصراته ، فطرابلس ، واستمر تقهقر القوات الألمانية الايطالية الى تونس ، ومنها أبحرت هذه القوات المهزومة الى أوروبا .

وفي نفس الوقت كانت قوات ألمانيا تواجه هزائم متتالية في الميدان الروسى والميدان الأوروبى ، وفى سنة ١٩٤٥ أطبقت قوات الحلفاء على ألمانيا ودمرتها ، وقضت على جيوش النازى وانقهر هتلر .

ولنعد الآن لنبين أثر التهديد بهذه الحرب على العلاقات بين مصر وبريطانيا :

الجبهة الوطنية - مايلز لامبسون ١٩٣٦ :

(تكونت الجبهة من ٨ وفدين و٦ من الأحزاب الأخرى
برئاسة مصطفى النحاس)

تكونت هذه الجبهة سنة ١٩٣٥ نتيجة للثورة الوطنية التى قام بها الشباب واستجاب لهم الزعماء ، وفى الوقت نفسه كانت بريطانيا فى

حاجة لاتمام معاهدة مع مصر لتضمن نوعا من الاستقرار في هذه البلاد ، فقد كانت نذر الحرب العالمية الثانية تظهر ، وكانت ايطاليا في الحبشة تزار ، وكان فؤاد يئن من المرض وليس له وريث رشيد يقف عوناً للاستعمار بعد وفاته ، وفي هذا الجو تمت معاهدة ١٩٣٦ وأهم نصوصها :

— المادة الأولى : ينتهى احتلال مصر عسكريا .

— المادة السابعة : تقدم مصر لبريطانيا جميع المساعدات اللازمة داخل حدودها في حالة الحرب أو خطر الحرب أو قيام حالة دولية مفاجئة .

— المادة الثامنة : موافقة مصر على احتفاظ بريطانيا بقوات عسكرية في منطقة القناة لا يتجاوز عددها عشرة آلاف جندي و ٤٠٠ طائرة حتى يتفق الطرفان على استطاعة الجيش المصرى حراسة القناة دون عون .

— المادة الحادية عشرة : الحكم الثنائى يعود للسودان وتكون هجرة المصريين اليه دون قيد .

— المادة الثانية عشرة : المسئولية عن أرواح الأجانب وأموالهم من اختصاص حكومة مصر .

— المادة الثالثة عشرة : نظام الامتيازات لا يلائم روح العصر وينبغى إلغاؤه .

— المادة السادسة عشرة : مدة المعاهدة عشرون عاما ، ويمكن اعادة النظر فيها اذا طلب أحد الطرفين ذلك بعد هذه المدة ، كما يمكن اعادة النظر فيها بعد عشر سنوات اذا اتفق الطرفان على ذلك .

وكانت هذه المعاهدة خطوة على الطريق ، ومن مميزاتها البارزة إلغاء

الامتيازات الذي تم في مونترية في العام التالي بناء على هذه المعاهدة ، وتخفيف قسوة الاحتلال ، وإن ظل جاثما ، وفي مسألة السودان تقرر العودة لاتفاقيتي يناير ويوليو سنة ١٨٩٩ •

بعد الحرب العالمية الثانية :

جاءت الجولة الثالثة للمفاوضات بعد الحرب العالمية الثانية بسبب التغيير العميق في الحياة العالمية الذي أحدثته هذه الحرب ، فطلبت مصر بالجلء التام عن مصر والسودان ، واتخذت مصر في هذا الشأن الخطوات التالية :

— مذكرة قدمها النقراشي في ٢٠/١٢/١٩٤٥ الى الحكومة البريطانية ، ولكن هذه تمسكت بمعاهدة ١٩٣٦ •

• — مفاوضة بين صدقي الذي تولى الوزارة بعد النقراشي وبين بيفن ، انتهت الى المشروع الذي يُعرف بالدفاع المشترك ، ولكن الشعب ثار على هذا الارتباط وأسقط الوزارة والمشروع •

— قررت الحكومة السعودية التي جاءت بعد صدقي عرض القضية على مجلس الأمن ، وراح النقراشي الى المجلس حيث صرخ في وجهه الانجليز قائلا إنهم قراصنة ، ولكن مجلس الأمن لم ينصف مصر لوقوعه تحت سيطرة الانجليز والأمريكان وأوصى بمفاوضة مباشرة بين الطرفين ، ولعل مما أضعف جانب النقراشي أن حزب الوفد أبرق للمجلس بعدم شرعية المتحدث باسم مصر •

— وجاءت حكومة الوفد للحكم بالانتخابات الحرة التي أجراها حسين سري ، فبدأت المفاوضات من جديد بين صلاح الدين وبين بيفن ، وطال أمدها دون نتيجة ، فاضطرت الوزارة الوفدية الى اتخاذ موقف فردى ، فأعلنت سنة ١٩٥١ قطع المحادثات وانهاء العمل بأحكام معاهدة ١٩٣٦ وباتفاقيتي ١٩ يناير و ١٠ يوليو ١٨٩٩ الخاصيتين بالسودان ،

وتعديل مواد الدستور بما يتفق ووجهة النظر المصرية ، وبناء على هذا ألغيت جميع الإعفاءات المالية التي كانت ممنوحة للسلطات العسكرية البريطانية ، وامتنعت الجمارك عن بذل التسهيلات الجمركية ، كما توقفت السكك الحديدية عن نقل مهمات الجيش البريطاني ، ومنع هبوط البعثات العسكرية البريطانية بالمطارات المصرية ... وقد كان من الممكن أن تتجح هذه الخطوة ، ولكن مما يؤسف له أن الأحزاب الأخرى لم تقف موقفًا وطنيًا في هذه الأزمة التي وقفت فيها مصر وجهًا لوجه أمام المستعمر الغاصب ، وعلى اثر الأحداث التي تلت إلغاء المعاهدة تأزمت الأمور كما شرحنا من قبل بين الانجليز والمصريين وأقيمت الوزارة بعد حريق القاهرة ، وجاءت وزارات القصر مرة أخرى ، فلم يكن لها من فضل إلا أن قُضيت الثورة التي حملت عبء المرحلة الأخيرة في العلاقات بين مصر وبين بريطانيا ، وسنشرح هذا الجزء في حينه .

الأحزاب :

هل كانت في مصر أحزاب ؟

في الحق أن الانتخابات المتعددة التي جرت بمصر في جو من الحرية أثبتت أن جماهير الشعب تقف حول حزب واحد هو حزب الوفد ، وقد اتضح ذلك من أول انتخابات جرت عقب صدور دستور سنة ١٩٢٤ وتكرر ذلك كلما أجريت انتخابات حرة سواء تلك التي أجراها عدلي يكن أو على ماهر أو حسين سرى .

وقد بلغ من ارتباط الشعب بحزب الوفد أن مرشحيه كانوا ينجحون ضد رؤساء الوزارات في الدوائر المختلطة ، بل حدث في دائرة المراغة شيء جدير بالذكر هو أن هذه الدائرة كان بها بعض الشيوخ والعلماء الأجلاء من غير الوفديين ، وكانوا يظنون أن تكون الدائرة مؤيدة لهم ، فرشح سعد زغلول ضدهم شابًا مسيحيًا هو « بطرس حكيم » وكان ذلك قمة

التحدى ، ونجح مرشح سعد وسقط منافسه ، فقد قال سعد : ان
المسيحيين لا بد أن يكون لهم ممثلون في البرلمان ، وقد أخفرت هذه
الدائرة ليمثلها أحد المسيحيين ، وأيد الشعب اتجاه زعيمه (١) .

وبجوار حزب الوفد كانت هناك جماعات أسمت نفسها أحزابا
وليست في الحق إلا تكتلات، خلقها القصر وأمدّها بعونه ، ليسارع بها حزب
الجماهير ، وهى عبارة عن أسر وأفراد يجمع بينها كرهها لحزب الأغلبية
واتجاهاته وقياداته ، ويجمع بينها خضوعها للقصر واستمداد السلطان
منه ، وليس لها حول سوى ذلك ، وكان بعضها أداة في يد القصر للتكيد
بالشعب ، وكانت هذه الأحزاب تدرك بوضوح أن وسيلتها الى الحكم
هى ارضاء السيد الرابض في « عابدين » ، فاصطنعت الوسائل لارضائه
والخضوع اليه ، وكان هذا السيد يدرك أن وسيلته للتكيد بالشعب
هو اصطناع هذه الأحزاب الزائفة ، ولكن ذلك لم يحتج منه الى جهد ،
فهذه الأحزاب كانت تقعية تهرع اليه لقتال من قتاته كلما دعاها .

ونقرر بدقة وعمق من تتبع الأحداث أن أحزاب القصر هذه لم
ينجح في الانتخابات فيها فرد واحد بحكم انتمائه اليها ، أما القلة القليلة
التي كانت تنجح فان نجاحها كان بسبب مكانة شخصية أو نفوذ خاص ،
وكان الوفد يرشح أحيانا بعض شبابه في دوائر باشوات أحزاب القصر ،
وكان الباشوات يبذلون أقصى الجهد وأعلى المال لكي ينتصروا على
هؤلاء الشبان الذين لم تكن لهم بضاعة إلا الانتماء لحزب الوفد .

وشئ آخر عمد اليه الملك لينال من حزب الأغلبية ، ذلك هو اغراءه
بوسائله المتعددة لإحداث فرقة فيه وخلق عمليات انفصال به ، وربما كان
نجاح فاروق في هذا الميدان أقوى من نجاح أبيه ، ففي عهده انسلخت

(١) رواية الأستاذ إبراهيم فرج الوزير الوفدى سابقا .

قوى كبيرة من الوفد ممثلة في الهيئة السعدية ، وفي الكتلة الوفدية ، وفي نجيب الهلالي ومن التف حوله ، وأغرى فاروق مكرم عبيد الذى طالبت صحبته للنحاس باشا ، فأخرج « الكتاب الأسود » يسئ بشبه حربا على من كان بالأمس زعيمه ورئيسه ، ولكن هذه الحرب كانت فاشلة وانفض عنه الناس .

ويته خصوم الوفد الى نقده ذاكرين أنه ضم الى جموعه رجال الإقطاع وأنه من الصعب التوفيق بين أمانى الشعب ومصالح الإقطاع ، ويقولون إن أمجاد الوفد كانت قائمة على موقفه الأبى من القصر ، ولكنه في السنين الأخيرة عمد — كما قلنا من قبل — الى سياسة الملاينة رجاء أن يرضى الملك ، ولكن الملك ما كان ليرضى عن قوى تدعفها الشعوب ، وأخيرا فأحزاب الأقلية تهاجم استجابة الوفد للدعوة لتولى الحكم في ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ اثر الانذار الانجليزى الذى بعث به مايلز لامبسون للملك ونصه : « إذا لم أسمع قبل الساعة السادسة مساء أن النحاس باشا قد دعى لتأليف وزارة ، فان جلالة الملك فاروق يجب أن يتحمل ما يترتب على ذلك من نتائج » . ويتساءلون : لماذا جاء الوفد الى الحكم في هذه الظروف ؟

وقد انتهز خصوم الوفد هذه المواقف ليشهروا به ، ولكن رجال الوفد يردون هذه الاتهامات ويؤكدون أن الأثرياء لم يكونوا قط عقبه في طريق أى اصلاح ، وأن الزعامة الوفدية لم تخضع قط للقصر ، وسنرى فيما بعد أن مصطفى النحاس ظل حتى آخر دقيقة قبل الثورة وهو يقف موقف المناضل من القصر وأعوانه ، كما يذكرون أن أحزاب الأقلية تولت الحكم عدة مرات دون تأييد إلا من الانجليز وأذناب الانجليز ، فكيف ساع لهم أن يتكلموا عن هذا الموضوع ؟ ثم إذا طلب ممثل الأمة ليتولى حق الأمة هل كان له أن يتنحى عن واجبه ؟

حادث ٤ فبراير :

وهذا الحادث جدير بكلمة تفصيلية ، فان أعداء الوفد لا يزالون يثيرونه ، معتقدين أنهم بذلك قد أمسكوا بسلاح يطعنون به الحزب الحقيقي الوحيد الذى عرفه تاريخ مصر المعاصر . وأحدث ما نعرفه من ذلك صحيفة « جريدة مصر » فى يناير ١٩٧٨ وكانت هذه الجريدة تمثل حزبا قصير العمر هو حزب مصر العربى الاشتراكى ، وكان هذه الصحيفة كانت لعنة ضد الحزب صاحب الجريدة ، فلم تمض الا شهور قلائل حتى هرب أعضاء الحزب جميعا لينضموا الى الحزب الوطنى الديمقراطى الذى كونه الرئيس أنور السادات فى نفس العام ، ونظر رئيس حزب مصر « ممدوح سالم » حوله فلم يجد أحدا من نوابه وأتباعه وشعبيته التى ادعاهما فترة من الزمن ، فاستقال من رئاسة الحزب ، والتفت حزبه فى طيات النسيان والظلام ، واختفت « جريدة مصر » الى غير رجعة ، وعلى كل حال فسنستكمل عن أحزاب عهد السادات فى الجزء العاشر من هذه الموسوعة .

ماذا قالت جريدة مصر ؟

عندما أعلن قيام حزب الوفد الجديد فى يناير سنة ١٩٧٨ كتبت جريدة مصر مقالا الافتتاحى بعنوان : عودة حزب ٤ فبراير .

واحتوى هذا المقال نفس العبارات القديمة التى قيلت سنة ١٩٤٢ مثل : عاد الوفد على أسنة الرماح البريطانية وغيرها من العبارات الجوفاء .

ومن الواضح أن القصر كان قد تردى فى القاع ، وساعت سمعته كثيرا ، وكان يدير الأمر به عصابة من الدمى تستجيب لها وزارات الأقليات وكان الانجليز فى فترة الاحتلال لمصر ضالعين مع القصر ، فالانجليز ، والملك كانوا أعداء للشعب ويخافون القوى الشعبية ، ولذلك كان الملك بموافقة الانجليز يلجأ للأحزاب الصناعية ، أحزاب الأقليات ليكون منها

الوزارات ، وكانت هذه الوزارات بالتالى تعمل بجهد لارضاء القصر والانجليز والضغط على كل الاتجاهات الشعبية .

ولكن الإنجليز فى ظروف الحرب أو التهديد بها ، كانوا يحتاجون لتهدئة الشعوب ، ويخافون ثوراتها ، ومن هنا كانوا يختلفون مع الملك فى هذه الظروف ويحرصون على وزارة ممثلة للشعب تمثيلا حقيقيا لإرضاء الشعوب .

وفى يونيو سنة ١٩٤٠ كان على ماهر رئيسا لوزارة مصر ، وكانت ايطاليا قد دخلت الحرب العالمية حديثا ، وكان الانجليز يشكون فى ولاء على ماهر وبخاصة فى تلك الظروف الحرجة ، فتقدم الانجليز يطالبون الملك بمطالبتين : أولهما تنحية رئيس وزرائه على ماهر عن الحكم لشكهم فى ميوله مع ألمانيا وايطاليا وثانيهما تشكيل حكومة صديقة لبريطانيا تتولى تنفيذ المعاهدة نصا وروحا ، واستجاب فاروق للإنذار البريطانى فقدم على ماهر استقالة حكومته وبادر الملك بتكليف أحد كبار المستقلين من أصدقاء الانجليز وهو حسن صبرى بتشكيل حكومة جديدة فى ٢٧ يونيو عام ٤٠ كانت تضم ستة من الوزراء المستقلين وعشرة وزراء تمثل أحزاب الأقلية : ٤ من السعديين و ٤ من الدستوريين وممثل واحد لكل من الحزب الوطنى وحزب الاتحاد .

وهذا الموقف هو الذى تكرر تماما فى فبراير سنة ١٩٤٢ ، فقد ضعفت اوزارة حسين سرى — التى جاءت للحكم سنة ١٩٤٠ عقب وفاة حسن صبرى — ولم تستطع مواجهة الأحداث وبخاصة عندما زحف روميل تجاه حدود مصر ، وهتف بعض الشبان المصريين : « تقدم يا روميل » فحينئذ تقدم الانجليز بطلب الى الملك أن يستدعى النحاس باشا لتأليف وزارة شعبية ليستطيع أن يضمن تأييد الشعب وعدم ثورتهم على النظام القائم .

ولكن الملك رفض ذلك لكرهه شخصية للنحاس باشا ، ولم يقف

الموقف الذى وقفه قبل ذلك بعامين ، وكان من نتيجة ذلك أن ساق الانجليز الدبابات والعربات المدرعة البريطانية لتضرب الحصار حول قصر عابدين فى الساعة التاسعة مساء يوم ٤ فبراير ٤٢ ، وبعد أن ألقى السفير على فاروق بياناً حملته فيه مسئولية انتهاك المادة الخامسة من المعاهدة قدم اليه وثيقة تنازله عن العرش كى يوقعها وعندئذ انهار فاروق وطلب من السفير فى ذلة واستجداء أن يمنحه رخصة أخرى وطلب الاجتماع بزمعلاء الأحزاب ، فاجتمعوا فى القصر ، ووضع الملك الأمر بين أيديهم وتركهم ، وطلب زعماء الأحزاب من النحاس أن يؤلف وزارة قومية تمثل فيها كل الأحزاب فرفض النحاس ليقينه أن مثل هذه الوزارات لا تتجح ، وكان عجيباً أن يكون تأليف النحاس باشا لوزارة قومية مقبولا لدى الأحزاب ، أما تأليفه وزارة وفدية فيعد مجيئاً للحكم على أسنة رماح الانجليز !!

لقد كان عزل الانجليز للملك فرصة لادى الوفد للقضاء على الملك الضال الذى حاول النحاس باشا خلع له سنة ١٩٣٧ ولكن الانجليز حموا الملك الى أن عزلته ثورة ٢٣ يوليو بعد ذلك ، وتعتت بأقذع النعوت ، ولكن الوفد لم يستغل رغبة الانجليز سنة ١٩٤٢ لعزل الملك لسببين مهمين : أولهما — أن خلع الملك فى تلك الظروف على يد الانجليز والحرب العالمية فى أوج لهيبها كان سيضع مصر فى موقف يخشى منه .

ثانيهما — إن فاروق تضرع للنحاس باشا أن ينقذ الموقف المصرى ويؤلف الوزارة ، وقال له : إنك الوطنى الوحيد ، وإن قبولك الحكم تضحية منك تضيقها الى تضحياتك السابقة التى يعرفها الجميع . وقد أثبت النحاس باشا هذه العبارات فى كتاب تأليف الوزارة ، ونصها :

... وقد أعربتكم جلالتم مرة بعد المرة والكرة بعد الكرة عن ثقتم فى شخصى وأثبتتم عنى انكار الذات ، وذكرتتم أن هاتين الصفتين الكريمتين يقضيان على أن أتقدم لإنقاذ الموقف وأتحمل مسئولية تطورات لم يكن لى يد فيها .

فلما انكشفت الغمة عن الانجليز وتراجع الألمان ، وانحسر الضغط الانجليزى عاد الملك من جديد الى أحزاب الأقلية التى كانت دائما تتجاهل الشعب وتعيش فى رحاب القصر والانجليز ، فألقت هذه الأحزاب الوزارات ، وراح زعماءها يرمون الأبرياء بما فيهم من عيوب ومثالب .

عود الى الحديث عن الأحزاب :

تحدثنا آنفا عن الأحزاب فى عهد الدستور لنبرز أنها كانت تتمثل فى اتجاهين : اتجاه الأمة ويمثله حزب الوفد ، واتجاه القصر وتمثله أحزاب متعددة لم يكن لها هم إلا الخضوع للقصر الذى كان بالتالى خاضعا للانجليز .

واذا عدنا الى ما قبل الدستور وجدنا مصر عرفت الأحزاب أيضا ، ومن أشهر الأحزاب آنذاك حزب الأمة الذى أنشئ سنة ١٩٠٧ برئاسة حسن عبد الرازق باشا ، والذى كان يهادن دولة الاحتلال ويدعو للاستقلال الذاتى ، وكان لهذا الحزب صحيفة تسمى « الجريدة » شغل لطفى السيد رئاسة تحريرها .

ومن أحزاب ذلك العهد كذلك حزب الإصلاح الذى أسسه سنة ١٩٠٧ الشيخ على يوسف ، وكانت صحيفة « المؤيد » لسان حاله ، وكان ينجاز للخدوى .

وبعد هذين الحزبين نورد تعريفاً بأهم الأحزاب الأخرى وهى :

— الحزب الوطنى : أسسه مصطفى كامل سنة ١٩٠٧ .

ولمصطفى كامل تاريخ وطنى حافل أشرنا اليه آنفا ، ونضيف هنا أنه كان شابا ثائرا ، ظهر نشاطه السياسى وهو طالب بالجامعة ، وقد خدمته الظروف فدفعته الى الزعامة وهو فى مطلع الشباب ، فإن العثمانيين كانوا يتطلعون الى عودة نفوذهم بمصر ، ويبحثون عن قيادة بمصر

تأييدهم ويؤيدونها ، وهنا التقى بهم مصطفى كامل فأثروا عليه برتبة الباشوية ودفعوه الى الزعامة ، وبالتالي كان مصطفى كامل يدعو للتعاون مع الامبراطورية العثمانية ، وفي نفس الوقت كان سلطان مصر (عباس حلمي) شابا يناهض الانجليز ويصارع بقاءهم في البلاد ، فأيد مصطفى كامل كذلك ، وسقط الاستعمار الانجليزي سقطته الكبرى في حادثة دنشواي الأثيمة ، فانتهازها مصطفى كامل فرصة وراح بالكلمة المقولة والكلمة المكتوبة يهاجم الاستعمار الانجليزي بمصر ، ومات مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ وهو في مطلع الشباب أى في الرابعة والثلاثين من العمر وآلت رئاسة الحزب الى محمد فريد الذي جاهد جهادا صادقا ضد الاستعمار حتى مات غريبا سنة ١٩١٩ ، وبوفاته أو قبل ذلك بفترة انتهى العصر الذهبي للحزب وإن ظل قائما من الناحية الاسمية ، وقد تعاون زعماء الحزب الوطني بعد ذلك مع أحزاب الأقلية وقنعوا بالفتات ورحبوا بكراسي الحكم •

بقى عن مصطفى كامل وعن الحزب الوطني نقطتان مهمتان توضحان بعض زوايا التاريخ •

أولاهما : لولا الظروف التي ساعدت مصطفى كامل ، والتي ذكرناها من قبل ما استطاع أن يصل لما وصل اليه من صيت في هذه السن المبكرة ، وبخاصة أنه لم توجد نتائج ذات بال لجهوده ، ثم إن عبد الناصر بعد ثورة ١٩٥٢ عمد الى إغفال دور حزب الوفد وزعمائه ، وجماعة الإخوان المسلمين وزعمائهم ، وراح ينفخ في دور مصطفى كامل والحزب الوطني ، وكان ذلك تنفيذاً لسياسته التي حاول بها القضاء على كل القوى الحقيقية بالبلاد •

ثانيهما : آلت زعامة الحزب الوطني الى حافظ رمضان منذ سنة ١٩٢٣ •

ولن نتحدث عن حياة هذا الرجل الشخصية ، مع أن بها ما يمس

حياة مصر ، ولكننا نروى حادثة واجدة توضح كيف كان الرجل خالى الوفاض فى مجال الثقافة الإسلامية ، فقد روى لى الأستاذ نجيب المطيعى حفيد الشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية سابقا أنه سمع حافظ رمضان يقرأ آية من القرآن الكريم كانت ضمن خطاب سيلقية ، وحرّف حافظ رمضان الآية وهو يقرأها ، فاندفع الأستاذ نجيب يصيح له خطأه ، فضحك حافظ رمضان ضحكة عالية طويلة ، ولما سأله الأستاذ نجيب عما يضحكه قال له : إنك تردنى فى حماسة وغضب كأننى أخطأت فى البخارى !!

يا الله !! كيف صلّح مثل هذا الرجل لمثل هذه الزعامة فى مصر ؟

— حزب الوفد : تأسس فى ١٣/١١/١٩١٨ مع صحوّة الشعب فى ثورته الكبرى بزعامة سعد زغلول فمصطفى النحاس ، وظل يمثل الأغلبية حتى حلت الأحزاب ، وستحدث بعد قليل عن شخصية سعد زغلول وشخصية مصطفى النحاس .

— حزب الأحرار الدستوريين : أوجده على فى أكتوبر سنة ١٩٢٢ ويقول عنه أحد الكتاب « كان أعضاؤه فى أكثر موافقهم يعملون للوصول الى الحكم بأى ثمن ، وعلى حساب مصلحة البلاد العليا ، وهو الحزب الذى انتهك حرمة الدستور واستباح مقدساته ، وقال أحد رؤسائه « عبد العزيز فهمى » عن الدستور إنه ثوب فضفاض ، وجاء للحزب رئيس آخر هو محمد محمود الذى مثّل على مسرح السياسة المصرية الدكتاتورية الحمقاء ، فأطلق على نفسه « ذا القبضة الحديدية » وأوقف العمل بالدستور » (١) .

وقد تحدث عبد الرحمن الرافعى أحاديث طويلة عن الوفد وعن

(١) محمد مصطفى عطا : مصر بين ثورتين ص ٦٨ — ٦٩ .

الأحرار الدستوريين ، وكان — كما يقول الأستاذ شفيق غريال — يعامل الوفديين أحياناً بالعتب وأحياناً بالإنكار وأحياناً بالرضا ، ولكنه لم يغير رأيه في الدستوريين أبداً ، فكانوا في نظره دائماً وصوليين ونفعيين ورجعيين (١) .

— حزب الاتحاد : وقد أنشأه القصر سنة ١٩٢٥ برئاسة حسن نشأت كبير الأمناء بالقصر ، وكان من أعضائه على ماهر .

— حزب الشعب : وقد أنشأه صدقي سنة ١٩٣٠ ، وكان عدواً للشعب على الرغم من هذه التسمية .

— الحزب السعدى : ألفه أحمد ماهر والنقراشي بعد انشقاقهما على الوفد سنة ١٩٣٨ .

— حزب الكتلة الوفدية : ألفه مكرم عبيد بعد انشقاقه على الوفد سنة ١٩٤٣ .

وهناك قوى ادعت أنها مستقلة ، وكان معنى الاستقلال عدم الانتماء الى الأحزاب رسمياً ، وإن كانت تميل الى كراهية الوفد والتعاون مع سواء على تفاوت بين الأشخاص ، وأبرز هذه القوى على ماهر بعد استقالته من حزب الاتحاد وحسين سرى وحسن صبرى .

(١) عبد الرحمن الرافعى : في أعقاب الثورة في عدة امكنة ، وشفيق غريال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ص ١٥ .

سعد زغلول ومصطفى النحاس

في حديثنا عن الحركة القومية ونتائجها ، وعن المنجزات التي حققتها هذه الحركة في الداخل والخارج ، وفي حديثنا عن الأحزاب وعلاقتها بالشعب وبالقصر يقفز لهذه الدراسة شخصان من العمالقة ، مناح مصر كل الجهد وكل العرق ، ونالا من مصر كل الود وكل الولاء ، هذان هما سعد زغلول ومصطفى النحاس ، ومن عجب أن هذا وذلك لم ينبيا أطفالا وكانهما استعاضا بالأولاد جماهير الشعب التي أخلصت لهما أكثر من الأولاد والأحفاد ، ومن عجب كذلك أن يموتا في تاريخ واحد هو الثالث والعشرون من أغسطس (سنة ١٩٢٧ للأول وسنة ١٩٦٥ للثاني) وكانهما قنعا بذكرى واحدة لهما تظل تجمع بين اسميهما وهما في عالم الخلود كما جمعت الدنيا بينهما في ميدان كفاح واحد ؛ ويلتقي الاثنان كذلك في ظاهرة قل من قنع بها من القادة والزعماء ، وهي الرضا بالكفاف في حياتهما حتى اذا ماتا لم يتركا شيئا من المال ظاهرا أو مستترا ، بل أن الزعيم مصطفى النحاس استبدل بجانب من معاشه مالا كان في مسيس الحاجة اليه كما قال مريده عبد الفتاح حسن (١) .

وكان يقال عن سعد إنه من يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ حتى وفاته سنة ١٩٢٧ كان تاريخه الشخصي تاريخ مصر (٢) ، وذلك اسمى ما يوصف به زعيم يعترف له الشعب بالتقدير والحب والولاء ، ويمكننا أن نقول عن خليفته الزعيم البطل مصطفى النحاس إنه حمل اللقب بكفاءة نادرة مع سعد ، واستقل بالعبء بعد سعد بنفس النضج والإخلاص والمواهب الممتازة ، وارتبط به تاريخ مصر منذ وفاة سعد سنة ١٩٢٧ حتى قيام الثورة سنة ١٩٥٢ ، وقد بقى هذه المدة الطويلة عملاقا هائلا لم تضعفه الأحداث ولم تنل منه مؤامرات الاعداء ، وظل كالطود الشامخ ، يلتف حوله الشعب كله ، ويعيش هو للشعب كله ؛ ويصفه الباحثون (٣) أنه

(١) الأخبار في ٢٤/٨/١٩٧٥ .

(٢) انظر ترجمة سعد زغلول في الموسوعة العربية الميسرة .

(٣) مقال المصور في ١٢/٩/١٩٧٥ .

كان خلال هذه المدة قائد مصر وضميرها ، وأنه بلغ الذروة في الشجاعة والإقدام والتضحية بكل شيء من أجل مصر وأبناء مصر .

ومن أوجه التشابه بين الزعيمين أنهما عملا بإخلاص لتقوية الروح الوطنية بين أفراد الشعب ، لا فرق بين مسلم ومسيحي ، وبذلك لم يتيحا فرصة للمستعمر ليتخذ من الدين وسيلة للتفريق بين الأمة ، وإذا استعرضنا مريدى سعد ومصطفى النحاس وجدنا نخبة طيبة من المسيحيين كانت تحتل الصفوف الأولى بالحزب مثل سينوت حنا ومكرم عبيد وإبراهيم حرج ...

وعندما قامت الثورة واعتزل النحاس الحياة السياسية أو أرغم على ذلك ، بقيت الروابط المتينة بينه وبين مريدى ومؤيديه ، وكانت أحاسيس الولاء تنتظر الفرصة لتعلن عن نفسها ، وللأسف جاءت الفرصة ولكنها كانت مريرة ، كانت وفاة البطل سنة ١٩٦٥ بعد اختفاء زاد عن ثلاث عشرة سنة ، ولكن هذه السنين الطوال ، لم تقو على أن تزرع النسيان في نفوس الناس على الرغم من أن الأوامر طيلة هذه المدة كانت تمنع ذكر اسمه بالصحف ، وعلى الرغم من المحاولات التي أرادت تشويه اسمه أو النيل من سمعته ، وما إن أتبع خبر الوفاة حتى انطلق الشعب غير مكثوث بالوعيد ويقوى الشر التي كانت تحكم البلاد آنذاك ، وراح يحمل الجثمان الطاهر ، ويهتف بالشكوى إلى الله مما يعاني بعد أن أبعد الزعيم الحقيقي عن الشعب الذى عاش معه واليه ، وكان مريدى النحاس يفعلون ذلك وهم يتوقعون الضر من قوى الشر ، وقد وقع الضر فعلا فقبض على مئات منهم وظل بعضهم في السجن لهذا السبب عدة سنوات حتى مات (١) .

وبعد وفاة سعد وجد الشعب الفرصة ليعلن لهذا الزعيم عن العرفان بالجميل ، فإن حزب الوفد حمل باسم الشعب هذه المسئولية ، فأقيم

(١) انظر نماذج من هؤلاء في كتاب « مصر في حربين » للمؤلف ص ٦٦ .

للزعيم ضريح عظيم ، وحُوِّل منزله الى متحف ، وأقيمت له التماثيل الشاهقة في أعظم الأمكنة بالقاهرة والاسكندرية .

ولكن مصطفى النحاس اختفى عن ميدان السياسة في عهد عبد الناصر حيث كانت شريعة الغاب هي شريعة مصر ، وحيث غاب القانون وطالت غيبته ، وحيث كان من مظاهر العصر أن يُعْتَدَى على كل الكفاءات ، وأن يسدل الستار على الماضي ، وأن تظهر مصر وكأنها ولدت من جديد بدون تاريخ سابق أو جهود قامت بها الأجيال الماضية . وعلى هذا لم ينل مصطفى النحاس حقه ولا جزءا منه ، بل برزت محاولات أشرنا لها من قبل لتعمز الرجل ولتقتل منه ، وعلى هذا فحق مصطفى النحاس علينا حق مزدوج أن ننصفه من الظلم ، وأن نحيطه بما يستحق من أضواء واعتراف بالجميل .

وبالإضافة الى أوجه التشابه التي أوردناها بين الزعيمين ، هناك تشابه في السلوك ، وهذا التشابه يرويه لنا الأستاذ محمد كامل البنا سكرتير مجلس الوزراء في عهد مصطفى النحاس ، فهو يقول : سألت النحاس باشا كيف تقابلون الملك وكيف تسلمون عليه ؟ فقال : إن جميع رؤساء الوزارات والوزراء ما عدا المرحوم سعد زغلول وأنا يسلمون عليه ويقبلون يده ، أما سعد وأنا فتعودنا مع الملك فؤاد والملك فاروق أن ننحنى انحناؤه بسيطة ونسلم عليه دون تقبيل يده وكذلك تعودنا في كتاب الرد على التكليف بتشكيل الوزارة أن نكتب له (يا صاحب الجلالة) بينما يكتب جميع الرؤساء سوانا (مولاي صاحب الجلالة) .

وكان سعد زغلول شديد الاعتزاز بالشعب وبمكانه منه قائداً وزعيماً ، كما كان شديد التمسك بالحقوق التي كفلها الدستور ، فعقب الانتخابات البرلمانية الأولى في يناير سنة ١٩٢٤ التي أجراها يحيى ابراهيم رئيس وزراء تلك الفترة ورسب فيها نفسه أمام أحد مرشحي الوفد ، وحصل الوفد على أغلبية ساحقة ، عقب ذلك أصدر الملك فؤاد في ١٧ يناير أمراً لزعيم الوفد سعد زغلول بأن يؤلف الوزارة الجديدة ،

ولكن الملك لم ينس أن يضجع في أمر التكليف غمزة لا تناسب حقوق الأغلبية ، فذكر أن اختيار سعد لتأليف الوزارة جاء عن صدق ولاء سعد وعظيم خبرته وحكمته ومسداده رأيه في تصريف الأمور ولكن سعد فطن للأمر ، ولم تخدعه أساليب المدح في شخصه ، فكتب في خطابه للملك الذي ألق به الوزارة أن الانتخابات العامة أظهرت بكل جلاء إجماع الأمة على التفافها حول الحزب الذي يرأسه وأن تأليفه للوزارة التي عهد له بها قد نبع من إرادة الأمة .

ولما جاء موضوع الشيوخ الذين يعينون نشأ نزاع جديد تمسك فيه سعد كما تمسك فيه النحاس من بعده فقد رأيا أن حق تعيين الشيوخ ليس للملك وحده ، بل له من خلال الوزارة .

وابتداء من وزارة سعد التي أشرنا إليها آنفاً طرأ تقليد جديد على العلاقات بين بريطانيا ومصر ، فقد كان من المتبع قبل ذلك أن يبادر رئيس الوزراء الجديد بزيارة المندوب السامي ، ولكن المندوب السامي بادر بزيارة سعد في مكتبه عقب تأليف الوزارة .

وفيما يتعلق بالسودان نجد لسعد موقفاً رائعاً ، ففي ١٧ مايو سنة ١٩٢٤ ألقى سعد تصريحاً في مجلس النواب اعترض فيه على وجود السردار بالسودان بل وعلى منصب السردار نفسه قال فيه « لا يتفق مع كرامة الدولة المصرية أن يكون الرئيس الأعلى لقواتها أجنبياً بل ولا الرئيس الأدنى أيضاً ، ولكن هذا كان من قبل ويجب علينا أن نمحوه كما أن إقامة السردار بالسودان لا تتفق مع مصلحة العمل وهذا واقع من قبل ويجب أن نتخذ الوسائل لإزالة ذلك » . وفي الأسبوع التالي قال سعد في المجلس « من المحال ترك السودان غنيمة باردة للإنجليز » . وفي نوفمبر أبرق اللورد اللنبي إلى حكومته بأنه ينتظر الفرصة المناسبة لتحدي الحكومة المصرية ، وجاءت هذه الفرصة بحادثة اغتيال السردار في ١٩ نوفمبر التي عبر عنها الجنرال ويفل قائلاً « إن الأقدار قد أرسلت جثة السردار حلاً لموقف لم يعد محتملاً ، فقد تقدم المندوب السامي

البريطاني في مظاهرة عسكرية بإنذار الى رئيس الوزارة حمل كل المهانة للحكومة المصرية مما كان لا يمكن أن تقبله حكومة ذات كرامة أو حكومة حريصة على الاستقلال الوطنى ناهيك بحكومة يرأسها سعد .

ولم يكن أمام الوزارة الشعبية في مواجهة أعمال القوة التى شرع البريطانيون في القيام بها لتنفيذ الإنذار إلا التقدم باستقالتها الى الملك في ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٤ وقبل الملك الاستعفاء في اليوم التالى وطويت بذلك صفحة من أهم صفحات تاريخ الوزارات المصرية (١) .

وجاء زيور ليستجيب لكل مطالب الانجليز كما ذكرنا من قبل .

مصطفى النحاس :

تحدثنا فيما سبق عن سعد زغلول ومصطفى النحاس معاً ، فقد كان الثانى امتداداً حقيقياً للاول ، ولكنا هنا نضيف للنحاس سطوراً أخرى ، فقد كان العناية الذى قابله النحاس أكثر مرارة من ذلك الذى قابله سعد لطول المدة من جانب ، وللسعار الذى اندفع فيه الملك فؤاد وفاروق من جانب آخر ، ثم لوجود أحزاب القصر أدوات للتكيد بالشعب ، وقد ظهرت هذه الأحزاب الوهمية في عهد النحاس أكثر من ظهورها في عهد سعد ، ولكن مصطفى النحاس كان جديراً بحمل العبء ، ومقاومة كل هذه القوى الجائرة ، وتذكر الوثائق مواقف كثيرة من التحدى قام بها مصطفى النحاس ، وهى تدل على رسوخ قدم ، وعمق إيمان واتجاه أكيد للحرص على مصلحة الشعب دون سواه .

وأول ما نذكره أن مصطفى النحاس كان من الرعيل الأول الذى حمل المسئوليات مع سعد ، فقد صرخ معه ضد الانجليز عقب الحرب العالمية الأولى ، ونفى مع سعد الى سيشل سنة ١٩٢١ .

(١) رحلة وسط الوثائق البريطانية (الأهرام في ١٥/٨/١٩٧٥) .

وعندما أُلِّف سعد وزارته الأولى سنة ١٩٢٤ كان النحاس وزيرا للمواصلات بها ، كما كان وزيرا في الوزارة الائتلافية التي رأسها عدلي يكن سنة ١٩٢٦ وكان سعد زغلول رئيس مجلس النواب ، وبعد وفاة سعد اختير مصطفى النحاس بالإجماع خلفا لسعد في رئاسة الوفد ورئاسة مجلس النواب .

النحاس والملك :

وعاش مصطفى النحاس صلبا في مواجهة استبداد الملوك ، ويروى أنه طلب مرة من الملك الإنعام على أحد الوزراء برتبة الباشوية ، ولكن الملك رفض ، فصاح النحاس في الملك : أنا لسانك . وتم للنحاس ما أراد ، ويعتبر هذا التعبير « أنا لسانك » أرقى ما تصل له الديمقراطية في معاملة الملوك .

وفي مرة أخرى حاول الملك أن يتدخل في الشؤون الحزبية الخاصة بالوفد عندما عَقِب على قرار الحزب بفصل أحد أعضائه ، ولكن مصطفى النحاس لم يحتفل هذا التدخل وضرب المائدة ضربة احتجاج اهتزت لها كل الأدوات التي كانت على المائدة (١) .

وهذه المواقف وسواها حدثت في الوزارة الوعديّة الأخيرة مما يدل على أن النحاس باشا ظل صامدا على مر السنين حتى آخر لحظة ولم يضعف أبدا أمام طغيان الملك الذي اتخذ عدة وسائل لاضعاف حزب الوفد ، وقد رأى الملك أن الأحزاب لم تغنه شيئا فلجأ للأزهر ، وعن طريق بعض الزعامات فيه اتجه كثير من الأزهريين لمعارضة الوفد ، وراح كثير من هؤلاء يناصرون الأحرار الدستوريين في الانتخابات ، وصُرف لهم بعض المكافآت المالية لهذا الغرض فأخذوا يخطبون في الجماهير ويطوفون بالقرى ولكن دون جدوى .

(١) من كلمة نشرها المرحوم الأستاذ عبد الفتاح حسن في صحيفة الاخبار بتاريخ ١٩٧٥/٨/٢٤ .

بقيت نقطة أثارها أحد أعداء مصطفى النحاس ، وقد وجد فيها بعض الحاقدين وسيلة للنيل من الرجل العظيم ، وهذه النقطة هي الادعاء بأن النحاس قبّل يد الملك فاروق ، وراوى هذه الحادثة هو حسين سرى ، وقد أخذها موسى صبرى مطعنا في الرجل العظيم ، ولكن قوى الحق اتجهت لقتل هذه الشبهة الحقيرة ، وفي الحق أن هذه الشبهة وُلدت ميتة ، ويكفى أن مصدرها حسين سرى الذى كان منافسا شديدا لعداوة مصطفى النحاس ، وكذّب به في هذا الادعاء ظاهر ، وقد رد عليه عبد الفتاح حسن رداً مُفصّلاً أثبتته بمحاضر جلسات محكمة الثورة فقال إن طرفي الواقعة اثنان : الملك والنحاس ، والملك لم يقل هذا أبداً قبل رحيله أو بعد الرحيل ، والنحاس باشا أنكر ذلك وما كان يمكن أن يقبل ذلك ، وقد ادعى حسين سرى أنه كان وراء ستار وخلف حجاب يتصنت لما يجرى من حديث بين الملك والنحاس ، وموقف التجسس هذا ينحط بالرجل فلا يجعل كلامه موضع اعتبار ، ويؤيد كلامنا ضد حسين سرى كتاب الاستقالة الذى قدمه مصطفى مرعى من الوزارة التى كان يرأسها هذا الرجل ، وقد جاء في كتاب الاستقالة أنه (مصطفى مرعى) لا يقبل أن يبقى في وزارة يرأسها رجل مثله •

ولا يزال موسى صبرى وأمثاله يتشددون بهذه القصة على أنها نقيصة ارتكبها النحاس ، ونحب أن نصرح أن زعماً كهذا طالت زعامته ، وكثر أعداؤه ، ثم لا يجد هؤلاء فيه مطعنا إلا هذه المسألة لجدير بكل تقدير ، لقد عجز أعداؤه وما أكثرهم عن أن يجدوا في الرجل ثلثة تمس وطنيته وجهاده وتضحيته وأمانته ، فراحوا يتعنون بهذه الحادثة الكاذبة ظانين أنها تساعد على النيل منه ، ولكن هذا الموقف ينال منهم ويرفع من قدر الرجل الذى لم تعلق به شبهة ، مع وجوده في تيار السلطة والصراع من سنة ١٩١٨ الى سنة ١٩٥٢ •

الزعيم الفقير :

بقيت عن مصطفى النحاس نقطتان سمعتهما حديثا من مريده الأستاذ
ابراهيم فرج وزير الشؤون البلدية في وزارة الوفد الأخيرة .

أما النقطة الأولى فيرجع العهد بها الى مطلع الثلاثينات ، ففي سنة ١٩٣٣
كان صدقي رئيسا للوزارة وتجد خلق له حزبا وحكومة من هواة الجاه ولو
على أشلاء الناس والبلاد ، واتجه صدقي بكل قواه للنيل من زعيم البلاد ،
ووصل في تعسفه إلى حدّ محاولة أن يتجّيعه (وليسمح لى القارىء أن
أضع هنا بين قوسين حادثة مشابهة هي أن عبد الناصر حاول بإصرار أن
يجيع كثيرين من الناس في عهده ، وكان كاتب هذه السطور واحدا منهم ،
فيبدو أنه كان تلميذاً مخلصاً لإسماعيل صدقي : انظر تفاصيل ذلك في
الجزء التاسع من هذه الموسوعة) فأصدر صدقي قرارا يقضى بأن مدة
نفي النحاس باشا في سيشل لا تحسب في معاشه ، وبذلك انخفض
المعاش من ١٢٠ جنيها إلى ٧٠ جنيها ، ويقول الأستاذ ابراهيم فرج
إنه فوجيء بهذا الوضع الذي كان لا بدّ أن يحدّث أزمة اقتصادية في
حياة النحاس لأن ابراهيم فرج كان وكيله ، وكان يقبض معاشه كل
شهر فيرسل لأخت الزعيم في سفنود ١٥ جنيها ويرسل لأخيه بخلوان
٢٥ جنيها ويسلم مدير بيت الرئيس ٦٠ جنيها لحاجات المنزل ، ويعطى
القدر الباقي (٢٠) جنيها للنحاس باشا للمصاريف الخاصة الشخصية ،
وكان معنى تخفيض المعاش الى ٧٠ جنيها أن يحدث ارتباك واضح في
اقتصاد الزعيم الذي عاش فقيرا ومات فقيرا ، وقد قام ابراهيم فرج
برفع دعوى ضد هذا القرار الظالم ووافقه طلعت حرب أن يقدم للزعيم
سلفة ريثما يبتّ القضاء في الدعوى ، وقد حكمت المحكمة بالغاء هذا
القرار وإعادة المعاش إلى ما كان عليه .

ونحن هنا نحى الزعيم الذي لم يكثر بالمال وآثر الخلود ونشفق
على أولئك الذين تطلعوا للمال لأنفسهم وذويهم فنالوه ، وفقدوا
الخلود إلى الأبد .

مدفن الزعيم :

أما النقطة الثانية فنتصل بخاتمة حياة هذا الزعيم فقد اتجه تلاميذه ومريدوه أن يطلبوا ممن كانت بيدهم السلطة عند وفاة النحاس باشا أن يسمحوا بأن يدفن زعيم مصر مع سلفه سعد زغلول في نفس الضريح ، ولكن هؤلاء كانوا — فيما يبدو — يرتجفون من أى لقاء يتم بين الزعيمين ولو كان ذلك بعد صعود روحيهما إلى الباريء الأعظم ، ورفض هؤلاء ذلك الطلب العادل وأبعد جثمان الرجل إلى مكان بعيد في مقابر الجماهير بالبساتين ، وأغلب الظن أن الأجيال القادمة ستحقق للزعيمين اللقاء وستنجح فيما لم ينجح فيه الذين حاولوا هذه المحاولة يوم وفاة الزعيم الخالد .

وبعد ، تلك كلمة قصيرة قصدت بها وجه الله ، وقصدت بها إبراز الوفاء والعرفان بالجميل لمن يستحق الوفاء والعرفان بالجميل ، جزى الله مصطفى النحاس خير جزاء على ما قدم للوطن والمواطنين من جهود وأعمال ، وليت خلفاءه في حزب الوفد يقرعون سيرته بإيمان وينهجون نهجه ، فذلك هو الطريق الأمثل لنجاحهم إن أرادوا النجاح ، وليعلموا أن الشعب مفتوح العينين قوى البصيرة ، وهو لا يؤيد إلا من يستحق التأييد .

حالة مصر الاجتماعية والاقتصادية في عهد الاستقلال

يمكن القول إن أساس تاريخ مصر الحديث وضع في هذه الفترة ، فقد انقضى الاستعمار العثماني بكله وقسوته ، وأما الاحتلال الانجليزي فقد وجدَ صورا من المقاومة فبدأ يتقهقر ويضمحل نفوذه ، ومع تقهقره وضمحلل نفوذه أخذ يظهر النفوذ المصري ، وفي هذا العهد ظهرت الوزارات المصرية الصميمة ومجالس النواب ، وفي ظل هذا وضع أساس نهضتنا الحديثة .

صحيح أن اختلاف الزعماء عاق البلاد عن مزيد من التقدم ، ولكن أسس التقدم وضعت فيه على أي حال .

وسنذكر فيما يلي لمحة سريعة عن صور التطور التي نعمت بها البلاد خلال هذه الفترة :

في مجال التعليم :

في مجال التعليم نهضت البلاد نهضة واسعة ، فكثر بها المدارس كثرة هائلة ابتداء من رياض الأطفال حتى التعليم الجامعي ، ومن مفاخر هذه الفترة أنها قضت على الازدواج في التعليم فلم تعد هناك مدارس أولية ومدارس ابتدائية بل أصبحت جميع مدارس المرحلة الأولى ابتدائية تصب في المدارس الاعدادية بواسطة امتحان منتظم ، صحيح إن تنظيم هذه الخطة تم بعد الثورة ولكن بذورها ترجع إلى السنين التي سبقت الثورة ، ومن مفاخر هذه الفترة أن أنشئت بها جامعات مصر التي لها مكانة عظمى في العالم ، ومن الحق أن الجامعة المصرية القديمة أنشئت في العقد الأول من هذا القرن ، ولكنها أصبحت جامعة رسمية حكومية بها كل نظم الجامعات ودرجاتها منذ سنة ١٩٢٥ ، وجاء بعدها جامعة

الإسكندرية فجامعة عين شمس فجامعة أسيوط ، وقد نال الأزهر عناية كبرى فى هذه الفترة فصدرت قوانين إصلاحه ، وأنشئت به الكليات وكثرت المعاهد وانتشرت فى عدة بلدان .

فى مجال الزراعة :

وفى هذه الفترة نظم الري والصرف وتم بناء قنوات نجع عمادى ووجهت عناية كبرى للزراعة وأنشئ المتحف الزراعى وكثر استصلاح الأراضى .

فى مجال المواصلات :

ونالت المواصلات اهتمام الحكومات ، فكثرت الخطوط الحديدية وخطوط البرق والتليفونات وعمت الطرق المرصوفة أرجاء البلاد .

فى المجال الاقتصادى :

واستمرارا لذكر الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية فى هذا العهد نقتبس بضعة سطور من كتاب « مصر بين ثورتين » ، يقول المؤلف (١) :

ومن نتائج ثورة ١٩١٩ اليقظة الاقتصادية : فإن المصريين رأوا أن مدافعة الاحتلال من شعب أعزل لن تجدى إلا إذا حارب المحتل حربا اقتصادية ، وعمدت البلاد إلى الاعتماد على نفسها ، والأخذ بنظام الاكتفاء الذاتى ، وكان أن نجحت فكرة الدعوة إلى إنشاء « بنك مصر وشركاته » على يد طلعت حرب ورفاقه بعد أن أخفقت هذه الفكرة قبل ذلك بسنوات ، فتم تأسيس هذا المصرف سنة ١٩٢٠ .

المرأة : ومن نتائج هذه الفترة الواضحة اشتراك المرأة اشتراكا فعليا

(١) محمد مصطفى عطا : مصر بين ثورتين : ص ٦٣ . (سلسلة اخترنا لك) .

٦ — فترة الاستقلال التام

من ثورة ١٩٥٣ حتى الآن

هذه الفترة تُعدُّ من التاريخ المعاصر بالنسبة لى ، فقد بدأتُ عملى مدرساً للتاريخ بجامعة القاهرة من ١٥ مايو سنة ١٩٥١ ومنذ ذلك الحين عنيت بتدوين تاريخ مصر المعاصر ، وأحمد الله أن هذه العناية أثمرت كتابين عن هذه الفترة ، هما :

١ — ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم (عهد محمد نجيب وعهد جمال عبد الناصر) : عهد المظالم والهزائم وهو يمثل الجزء التاسع من موسوعة التاريخ الإسلامى •

٢ — ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم (عهد أنور السادات) وهو يمثل الجزء العاشر •

وقد أصدرتُ قبل ذلك كتاب « مصر فى حربين » وهو يتحدث عن بعض ملامح العصرين جميعاً ، ففيه دراسة موثقة عن أسباب الهزائم التى منيت بها مصر فى عهد جمال عبد الناصر ، وأسباب الانتصار الذى حققته مصر فى حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ التى دبر لها وأدارها أنور السادات ، وقد أخرجت هذا الكتاب على وجه السرعة ريثما يتم إخراج الجزء التاسع والعاشر من هذه الموسوعة •

وقد صدر الجزء التاسع الخاص بعصر جمال عبد الناصر ، وصوِّر العصر أدق تصوير ، أما الجزء العاشر الخاص بأنور السادات فهو على وشك الظهور إن شاء الله •

وعلى هذا فإن عملى فى هذا الجزء من الموسوعة (الجزء الخامس) يتجه أساساً لتصوير تاريخ مصر الإسلامى كله ، من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر ، وإبراز دور مصر فى خدمة العالم الإسلامى ورعاية الثقافة الإسلامية ، ويتجه بعد ذلك لتحديث موجز عن عهدى عبد الناصر والساداتى

تاركا التفاصيل للجزأين التاسع والعاشر المذكورين ، ومن هنا فإننا في هذا المكان نبرز الحلقة الأخيرة من حلقات العلاقة بين مصر وبريطانيا •

المفاوضات مع الانجليز في عهد الثورة :

انقسمت المفاوضات مع الانجليز في عهد الثورة بسمة لم تتوافر لها من قبل ، وأصبح المفاوض المصري يملك زمام الأمر كله ، فليس هناك ملك يَخُشِّي أو أحزابٌ قَصِرَ تَكْأُورٌ ، وكانت المفاوضات معناها الاتفاق على الجلاء وعلى تحديد المدة اللازمة لذلك •

ووصل الطرفان إلى حل سريع في مسألة السودان ، فقد عقدت اتفاقية في ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣ كان طابعها الصراحة في مواجهة الحقائق ، فأعطت الشعب السوداني الحق في تقرير مصيره بعد انسحاب القوات العسكرية البريطانية والمصرية ، وبعد انتهاء فترة انتقال حدد لها ثلاث سنوات ، وبذلك انتهت أصعب مشكلة في المفاوضات ، وقد تحدثنا في الجزء السادس عن تنفيذ هذه الاتفاقية ، وما حدث من تغيير في الخطة عند التنفيذ •

أما عن المفاوضات في المسائل الأخرى فقد اتخذت بريطانيا طريقا ملتويا في أول الأمر ، فتوقفت المفاوضات بسبب ذلك ، وبدأ كفاح الفدائيين ، ذلك الكفاح المنظم الذي وضع حدا للمساومة ، لأنه أقلق المستعمر وأزعجه ، وجعله يدرك أنه في حاجة إلى من يحميه في البلاد التي جاء لحمايتها وبدأت المفاوضات في هذا الجو مرة أخرى ، وفي سرعة هائلة وقعت اتفاقية الجلاء في ١٩ أكتوبر سنة ١٩٥٤ ، وقد وقعها جمال عبد الناصر عن الجانب المصري وسير رالف ستيفنسون السفير البريطاني عن الجانب البريطاني ، وخلاصة هذه الاتفاقية جلاء قوات الاحتلال في مدى عشرين شهرا تبدأ من تاريخ توقيع الاتفاقية ، وعندما يتم الجلاء يحتل الجيش المصري قاعدة القنال ، ويدير المنشآت والورش في هذه القاعدة مدنيون

مصريون ، وبريطانيون لا يتجاوزون الألف ، ومدة هذه الاتفاقية سبع سنوات من تاريخ توقيعها ، تظل خلالها قاعدة القنال على أهبة الاستعداد والعمل ، وللجيش البريطانى الحق فى العودة لها إذا هوجمت تركيا أو إحدى الدول العربية خلال هذه المدة ، وتمّ الجلاء فى ١٨ يونيو سنة ١٩٥٦ .

ويعد ذلك بقليل أسفرت بريطانيا عن نواياها الحقيقية ، وعن أن ما نسميه معاهدات الصداقة ليس فى الحقيقة إلا زيفا ، فما كادت مصر تستعمل حقها فى تأميم قناة السويس فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ حتى زمجرت بريطانيا وراحت تتحالف مع فرنسا ، ومع إسرائيل أشد الدول عداء لمصر ، وبدأ العدوان الثلاثى فى ٢٩ أكتوبر ، وأغارت القوات الجوية البريطانية والفرنسية على مصر بينما كانت إسرائيل تدخل سيناء ، وسرعان ما قطعت مصر علاقاتها مع إنجلترا وفرنسا فى ٣١ أكتوبر ، ثم نزلت ميدان الجهاد ، وبمساعدة الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى انسحبت القوات التى كانت قد نزلت أرضنا الطاهرة ، فى نفس العام ومطلع العام التالى ، والمهم هنا أن الحكومة المصرية أعلنت فى أول يناير سنة ١٩٥٧ إلغاء اتفاقية الجلاء مع بريطانيا ، واعتبار هذه الاتفاقية منتهية من الساعة السادسة مساء ٣٠ أكتوبر وهى ساعة بدء العدوان البريطانى ، وفى يوم ١٢ فبراير سنة ١٩٥٧ رضخت بريطانيا لهذا الإجراء واعتبرت معاهدة ١٩٥٤ منتهية .

وأسدل الستار على هذه العلاقة المريبة بين بريطانيا ومصر .

نقد هذه المعاهدة :

وهناك كلمة عن هذه المعاهدة التى وقّعها عبد الناصر ، وتلك الكلمة هى أن المعاهدة أضاعت السودان ، ولو وافق النحاس أو غيره من الزعماء على ما وافق عليه عبد الناصر لامت مثل هذه المعاهدة من وقت طويل .

وكان استقلال السودان خطرا على السودان وعلى مصر ، فقد قسم
القطر الواحد قطرين ، وأحس القطران بذلك الخطر فسراجت مصر
والسودان تعالجهما بما يسمى التكامل ، ولكنه علاج قليل الجدوى .

إن بعد السودان عن مصر ، وبعد مصر عن السودان خطر سياسى
واقتصادى ضد البلدين ، وقد أدرك الجيل الذى نشأ ذلك ، وتمسك بالوحدة ،
ولكن عبد الناصر كان أبعد ما يكون عن فهم حقائق التاريخ .

والسماح لآلاف من البريطانيين بالبقاء فى القناة ، والسماح لـانجلترا ؛
بالعودة للقاعدة إذا هوجمت تركيا أو إحدى الدول العربية ، كل هذا
يجعل هذه المعاهدة عملا أخرق ، كأن عبد الناصر كان يريد معاهدة بأى شكل
من الأشكال .

وقد جهل عبد الناصر أن الظروف بمصر وبالعالم قد تغيرت ، ولولا
هذا الجهل لانتفع المفاوض المصرى بنهاية فاروق الذى كان يحى
الاستعمار ويحميه الاستعمار ، ولانتفع كذلك ببروز قوة أمريكا والاتحاد
السوفييتى وباتجاه بريطانيا للأفول ، ولكن أنى لعبد الناصر أن يفهم
هذه التغيرات ؟ وقد انتفعت أقطار كثيرة بهذه التغيرات العالمة فحصلت على
معاهدات اشرف من المعاهدة المصرية كالهند واندونيسيا مع أن هاتين
معاهدات اشرف من المعاهدة المصرية كالهند واندونيسيا مع أن هاتين

المؤرخ المعاصر وتدوين التاريخ

بقيت كلمة قلتها فى الطبعة السابقة من هذا الكتاب ، ثم تغيرت
الأحوال كثيرا ولكنى أبقيتها فى هذه الطبعة كما كانت ، فذلك حق التاريخ ،
وهذه الكلمة ترتبط بتدوين التاريخ المعاصر وموقف المؤرخ منه ، وهذا
نصها :

المفروض أن المؤرخ المعاصر إذا كان مخلصا فطنا من جانب ، وكامل

تاريخ يرتبط بالدين الإسلامى وقواعده وآدابه وسلوكه ، والكذب فيه من أبشع الفجور كما قال رسول الإسلام •

ولكن أمامى عقبة صعبة هى قلة الوثائق التى تنير لى السبيل ، فهناك أحداث لم تنشر وثائق عنها حتى الآن ، ومن هذه الأحداث سقطة المحاكمات الجائرة التى قام بها عبد الناصر ورفاقه ، وحرب اليمن ، والهزيمة فى الحرب ضد إسرائيل سنة ١٩٦٧ والمحاكمات التى جرت بعد حركة مايو سنة ١٩٧١ ، إذ جرت هذه المحاكمات وتلك بطريقة سرية فلم تذع الحقائق التى ترقبت عليها الأحكام القضائية ، واختفاء مجوهرات أسرة محمد على وقلة الوثائق فى هذه الأحداث ونظائرها لا يلقى الضوء على المشكلات ، فلا يتيح الفرصة لدراستها وإبداء الرأى فيها بدقسة •

ومع هذا فسأحاول جاهدا أن أجعل ما سأكتبه أقرب للحق والواقع •



ثورة ٢٣ يوليو وأسبابها :

- الأسباب التى مهدت للثورة ودفعت الشعب لحسن استقبالها هى :
- عبث الملوك بالدستور وبحقوق الأمة ، وعداؤهم للسافر لحزب الأغلبية الذى كان يمثل الأمة أقوى تمثيل •
- حرب فلسطين وما كشفت عنه من تهاون وخيانات •
- الاستعمار الطاغى الذى اتخذ من القصر ورجاله ومن سادة الإقطاع عونته ودعاماته •

— حريق القاهرة الذى اتخذ أساسا لإقالة حكومة الوفد (حكومة الأغلبية) ولم تستطع الوزارات أن تستقر بعد هذه الإقالة ، فخلا المكان ولم يوجد من يشغله بنجاح •

برنامج الثورة :

طلع فجر الثالث والعشرين من يوليو على صوت يعلن الثورة على هذه الأوضاع ، ويعلن برنامج المستقبل كالآتى :

- القضاء على الاستعمار وأعوانه .
- القضاء على الإقطاع .
- القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم .
- إقامة عدالة اجتماعية .
- إقامة جيش وطنى قوى .
- إقامة حياة ديمقراطية سليمة .

وهى مبادئ لم تعرف الطريق لتصبح واقعا ، فقد كان قادة الثورة جماعة لا يربطهم ودة ولا هدف ، ولم تكن لهم ثقافة أو خطة ، فلم تحقق هذه الثورة لمصر أى كسب ، وجنت على البلاد والعباد ، وسنرى ذلك مفصلا فى الجزء التاسع والعاشر . من هذه الموسوعة .

عهد محمد نجيب

ظهر محمد نجيب قائدا للثورة صباح الثالث والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢ ، وكان محمد نجيب واسع الشهرة بين المثقفين وممروفا لدى الجماهير ، وكان يحمل رتبة « اللواء » وهى أعلى رتبة يحملها فرد من أفراد « الثوار » وقبل قيام الثورة كان هناك انتخاب لنادى القسوات المسلحة ، وكان محمد نجيب مرشح أغلبية الضباط ، واعترض الملك فاروق عليه وأراد أن يكون رئيس النادى من أعوانه ، ولكن محمد نجيب نجح على الرغم من تدخل الملك ، وكانت هذه الأسباب هى التى جعلت الرجل موضع تقدير الجميع وحبهم ، فلما ظهر قائدا لثورة الجيش رحب

الشعب بهذه الثورة وأيكنها ، والتف الناس جميعا حوله ، فأصبحت ثورة الجيش هي ثورة الشعب .

ومحمد نجيب من مواليد سنة ١٩٠١ بالخرطوم ، تلقى علومه بالسودان ، والتحق بالمدرسة الحربية ، وتدرج في المناصب العسكرية حتى نال رتبة « اللواء » سنة ١٩٥٠ وخلال خدمته العسكرية درس القانون ونال ليسانس الحقوق واجازة كلية الأركان ، وفي ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٢ أُلِّف الوزارة ، ثم عُيِّن رئيسا للجمهورية عند إلغاء النظام الملكي بمصر في ١٨ يونيو سنة ١٩٥٣ فكان أول رئيس لجمهورية مصر .

على أن الأمور سرعان ما تغيرت كما وضَّحنا ذلك بالتفصيل في الجزء التاسع من هذه الموسوعة ، فلم تكد الثورة تطمئن على تأييد الشعب للتغيير بسبب الكراهية التي كانت تغمر نفوس الشعب لفاروق ونزقة ورجاله ، أقول أن الثورة لم تكد تطمئن لهذا التأييد حتى برز شخص لم تكد الجماهير تعرفه ، ذلك هو البكباشي جمال عبد الناصر ، وكانت له خطط شريفة وأعوان من الصف الثاني في كل مكان ، فقبض على محمد نجيب ، وأصبح رئيسا للثورة ورئيسا للوزارة ثم رئيسا للجمهورية ، وللأسف تم القبض على محمد نجيب وهو يزال عمله بمكتبه بقصر عابدين .

القبض على الرئيس محمد نجيب :

من المعروف أن الاعتداء على أى موظف أو أى شرطى وهو يؤدي عمله يعتبر عملا فظيما يحاكم عليه القانون بقسوة ، فما بالك بالاعتداء على رئيس الجمهورية ، وهو بملابسه الرسمية وجالس في مكتبه بقصر الرئاسة ؟

إننا نقدم للقارئ صورة شنيعة توضح رئيس الجمهورية وقد أمسك به جنديان من رجال عبد الناصر ، واقتاداه الى الاعتقال :



الرئيس محمد نجيب ساعة التفض عليه في أثناء تادية عمله

والصورة تبرز الذعر والدهشة على وجه رئيس الجمهورية ، وهى بالتالى تتكلم عما نال المواطن العادى من عنت فى ذلك العصر المظلم ، فاذا كان رئيس الجمهورية يقبض عليه على هذا النحو ، ويقتاد للاعتقال دون مساءلة ، فكيف كان الحال مع الآلاف من المصريين العاديين ؟

لابد يوما أن يحاكم هؤلاء الأثمون •

وقد ظل محمد نجيب فى الاعتقال عشرين عاما ، وجرى له أحداث فظيعة روينها عند حديثنا عن عبد الناصر الطاغية فى الجزء التاسع من هذه الموسوعة ، ومات أبناه وهو فى الاعتقال ، فلم يسمح له بالخروج للجنائز ، ولا بذكر اسمه فى النعى • يا لها من قسوة بشعة لا تحترم الحياة ولا الموت •

وقد مات محمد نجيب فى ٢٨ أغسطس سنة ١٩٨٤ رحمه الله رحمة واسعة •

عهد عبد الناصر : عهد المظالم والهزائم والضياع

لم يستطع عبد الناصر أن يحقق شيئاً من برنامج الثورة ، فقد كانت تطلعاته كلها لأمجاده الشخصية ولإسعاد أسرته ، وقد ناقشنا ذلك بالتفصيل في الجزء التاسع من هذه الموسوعة ، وفي عهده توالى الهزائم على مصر في حرب سنة ١٩٥٦ وفي حرب اليمن (١٩٦٢ - ١٩٦٧) وفي حرب ١٩٦٧ ، حتى أصبح الناس يتندرون بأن طائرات الورق يمكن أن تغلب طائرات عبد الناصر ، إذ لم تعرف مصر الانتصار في عهده في أى موقع أو موقعة ، وقد عاش شعب مصر أسوأ فترات التاريخ طيلة هذا العهد المرير ، فعانى الظلم والقلق والسجون والاعتقالات والمصادرات والسرقات ، وقد سئل عبد الناصر من أحد رفاقه هذا السؤال : لماذا هذه المبالغات في القسوة ؟

فأجاب : إنها لحمايتكم ، وبدونها ستكونون فريسة للغاصبين من الشعب .

وهذا اعتراف صريح ودقيق .

أبرز أحداث هذا العهد

فيما يلي نسجل أبرز أحداث هذا العصر :

— إقصاء الملك فاروق في ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ ، ثم إلغاء الملكية وإعلان الجمهورية في ١٨ يونيو سنة ١٩٥٣ وبذلك استبعد ملك ولكن جلس على عرش مصر ملوك وملوك كانوا أكثر طغيانا من فاروق .

قانون الإصلاح الزراعى ومآسيه :

— إصدار قانون الإصلاح الزراعى في ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٢ ، وقد اتضح منه أنه كان يرمى لإذلال الأغنياء وافقارهم ، وقد دمر هذا القانون الثروة الزراعية بمصر بسبب تفتيت الملكية ، وقد قال الساداتى يصف اشتراكية عبد الناصر : إنها اشتراكية الفقر .

وكان ضمن هذا القانون أن يكون إيجار الفدان من الأرض الزراعية سبعة أمثال الضريبة أى حوالى عشرين أو ثلاثين جنيها : وأن المالك ليس من حقه أن يسترد الأرض الزراعية من زراعتها ، حتى لو كان هو نفسه يريد أن يزرعها •

ونفسى الثوار الجبهة هذا القانون الذى أُعدوه ، فقد تغيرت الأمور المالية تغيرا هائلا بعد حزب ١٩٧٣ وحدث تضخم عظيم ، وغلت الأسعار فتجاوزت عشرين ضعفا أحيانا ، والقانون هو هو ، بمعنى أن الزارع يدفع للمالك ثلاثين جنيها لفدان قصب إيراده عدة آلاف من الجنيهات أو لفدان قطن محصوله يزيد بسهولة عن ألف جنيه •

وشبَّ أطفال كان أبوهم أو أمهم أجرت أرضها الزراعية للغير وعجز الأطفال عن استرداد أرضهم ليزرعوها •

إنها مجموعة من المأسى والمظالم قننتها الجبال ونسوها ونسيها من جاء بعدهم حتى كتابة هذه السطور سنة ١٩٨٦ •

قانون إيجارات المساكن :

ومثل ذلك يقال عن إيجار الشقق والفيلات حيث توجد شقق ضخمة فى الزمالك والمعادى وجارن سيتى إيجار الواحدة منها حوالى ثمانية أو عشرة جنيهات ، فى حين نجد حجرة فى البدروم بها سرير وكرمى يصل إيجارها إلى مائة جنيه لأنها تسمى مفروشة •

إنها النتيجة الطبيعية عندما يتولى الأمر جهال : لا يخافون الله •

وكانت نتيجة ذلك أن توقف القطاع الخاص تماما عن البناء للاستغلال ، وقامت أزمة الاسكان ، التى ترداد من يوم إلى يوم ، واندفع الناس إلى المقابر يعيشون بها ، ومن كثرة الذين يعيشون فى

المقابر أقامت وزارة القربية مدارس من أحواش الموتى ، ولا أحد يعالج المشكلة ، لأن هذه هي الحياة التي لابد أن تنتج عن حكم الجهاد .

— في فبراير سنة ١٩٥٣ تم الاتفاق المصري البريطاني بشأن السودان الذي اتخذ أساسه حرية تقرير المصير ، وبرقصات صلاح سالم في الجنوب ، وأموال مصر التي نفرت هنا وهناك انتصح للسودانيين أن ارتباطهم بمصر سيكون حافلا بالضرر فاقتاروا الانفصال عن مصر ، وكان ذلك مثار ضرر لمصر والسودان جميعا .

— بعد مسألة السودان كان الطريق ممهدا لمعاهدة بين مصر وبريطانيا فبدأت مفاوضات انتهت باتفاقية الجلاء في ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ تلك الاتفاقية التي ألغاه الجانب المصري اعتبارا من ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٥٦ ووافق الجانب الإنجليزي على هذا الإلغاء في ١٢ فبراير سنة ١٩٥٧ كما سبق القول .

— تم الجلاء في ١٨ يونيو سنة ١٩٥٦ واعتبر ذلك اليوم عيداً قومياً ، ومما يذكر أن جيوش بريطانيا وفرنسا وغيرهما من الدول الاستعمارية قد جلت عن المستعمرات في العالم كله ، فلم يعد العصر عصر استعمار بجيوش .

تأميم قناة السويس ونتائجه :

— في ٢٦ يوليو ١٩٥٦ أعلنت مصر تأميم قناة السويس ، وتلا ذلك أحداث انتهت بالعدوان الثلاثي ثم انسحاب المعتدين كما سبق القول ، وفي الجزء التاسع حديث مفصل عن أهداف التأميم ونتائجه الخطيرة .

الوحدة مع سوريا وفشلها :

— في ٢٢ فبراير سنة ١٩٥٨ تمت الوحدة بين مصر وسوريا في « الجمهورية العربية المتحدة » برئاسة جمال عبد الناصر بناء على اقتراح

سوريا ، وبعد استفتاء شعبي في البلدين ، وفي ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٦١ تم الانفصال ، ولم تقاوم مصر اتجاها سوريا للانفصال وظلت مصر تحتفظ باسم « الجمهورية العربية المتحدة » حتى جاء عهد أنور السادات كما سنرى فيها بعد ، وقد كانت الوحدة مطلبا شعبيا ، ولكن سوء إدارة جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر قضى على هذه الوحدة ، بل خلق جوا من الحقد بين السلطتين في سوريا ومصر ، وعندما هجز عبد الناصر عن مقاومة المنشقين بسوريا اتجه بغيطه وحقده الى المصريين فانزل بهم صنوفا من التعذيب عقب الانفصال .

الاشتراكية التي أفقرت الأغنياء وأجاعت الفقراء :

— صدرت القوانين التي عثرت بالقوانين الاشتراكية ، وقد وضعت في الجزء التاسع من هذه الموسوعة أن اشتراكية عبد الناصر أفقرت الأغنياء وأجاعت الفقراء ، وقد وصفها الرئيس أنور السادات في خطابه في ٢٦ يوليو سنة ١٩٧٦ بقوله : أنها كانت صنما بتني ليميد ، ولم يكن يباح لأحد أن يناقشها أو يتدارسها ، وأنها كانت « اشتراكية مزاجية » أي لا يحكمها قانون ولا مبادئ .

حرب اليمن وضياع رهيد السنة :

— حرب اليمن من سنة ١٩٦٢ إلى سنة ١٩٦٧ ، وهي مأساة مريعة تحدثنا عنها بإفاسة في الجزء التاسع من هذه الموسوعة .

ويرى بعض الفلاس أن حرب اليمن من إيجابيات عبد الناصر ، لأنه بها نقل اليمن من ظلام العصور الوسطى إلى النور ، ونقول لهؤلاء أن مهمة الرئيس أولا أن يهتم بشعبه ، ولا ينفق ثراء بلاده خارجها إلا إذا اكتفى شعبه ، فالمال مال الشعب قبل كل شيء .

ونقول ثانيا إن ظلام العصور الوسطى كان في طريقه للانكماش في

العالم كله ، سواء دخل عبد الناصر اليمن أو لم يدخلها • لقد تَرَكَنا عبد الناصر جياعا ، وراح لليمن ييذل الذهب ذون حساب فأفنى رصيده العملة ودمَّر الجنيه المصرى •

ونقول ثالثا لهؤلاء ، إن عبد الناصر قتل من اليمنيين الكثير ، ودمَّر الكثير ، ولذلك غرس الحقد في نفوس اليمنيين ، وقد كانت اليمن من أول الدول التى استجابت لقطع جميع العلاقات مع مصر فى مؤتمر بغداد ، ولا تزال على موقفها حتى كتابة هذه السطور سنة ١٩٨٦ على الرغم من أن بعض الدول العربية أعادت العلاقات مع مصر •

ونقول رابعا لهؤلاء الذين يعدون حرب اليمن من منجزات عبد الناصر ، ألا تتفقون أيها الكتاب أموالكم على المحتاجين هنا وهناك وتتركون أولادكم جائعين ؟ إنكم أن فعلتم ذلك — ولستم بفاعليه — تستطيعون أن تمدحوا عبد الناصر لأنه أجاع شعبه وأضاع ثراء بلاده من أجل اليمن والكونغو وغيرها من البلاد •

حرب ١٩٦٧ وانهيار جيش عبد الناصر فى دقائق :

— الحرب مع إسرائيل سنة ١٩٦٧ ، وهذه الحرب كانت الموضوع الرئيسى لكتابنا :

« مصر فى حربين ١٩٦٧ و ١٩٧٣ : دراسة مقارنة »

ولم تكن حربا بالمعنى الصحيح ، وإنما كانت نزقا من القيادة ، ومن يوم إلى يوم تتكشف مواقف مخزية من الذين أعلنوها ، أو كان فى يدهم سلطات إدارتها ، ويكفى أن نذكر أن المنافسة بين الرئيس ومشيريه كانت من أهم أسباب الهزائم ودوافعها ، وفى الجزء التاسع من هذه الموسوعة تفاصيل واسعة عن هذا الموضوع •

وينبغى أن نذكر أن خليج العقبة والملاحة فيه تُعد من المسائل

الحساسة التي سببت الصراع بين مصر وإسرائيل : ولهذا فإننا سنشرح بعد قليل قضية خليج العقبة والملاحه فيه .

وتبقى كلمة نطوي بها عهد عبد الناصر هي أنه مات في ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠ ويقول الباحثون إن عبد الناصر مات بالهزيمة المدمرة سنة ١٩٦٧ مع الآلاف الذين دفعهم إلى الموت ، ومع الملايين العرب الذين دفعهم بهذه الهزيمة إلى الخزي والعار .

أسرة عبد الناصر وثراؤها :

ومن مخازى عصر عبد الناصر بالإضافة إلى الهزائم المتكررة وإلى الظلم والتكيد بالأبرياء والاعتقالات التي ابتدأت برئيس الجمهورية « محمد نجيب » ثم امتدت للشعب كله ، بالإضافة إلى هذا ، هناك مشكلة السرقات التي شملت مجوهرات أسرة محمد علي كما شملت قوت الشعب وثراءه ، وقد ظهر هذا الثراء في أيدي أولاد عبد الناصر وأصحابه ، فقد ذكرت صحيفة الأخبار في ٢٤ أغسطس سنة ١٩٨٤ أن المهندسين من أولاد عبد الناصر قد وصل حجم أعمالهم العادية بمصر مائتي مليون جنيه ، وأن أشرف مروان زوج ابنة عبد الناصر قد اشترى مجموعة أسهم في دار نشر كبرى بانجلترا بمبلغ ١١ مليون جنيه استرليني .

يا تشرى كم مائة مليون يملك هذا الحساب ؟ وكم مائة مليون يملك أبناء عبد الناصر الآخرون وأحفاده وكم مائة مليون يملك الآخرون ممن اشتركوا مع عبد الناصر في الحكم ؟

الانطلاق والانفتاح :

كان عهد عبد الناصر عهد انغلاق اقتصادي ، فلا نستورد شيئاً من الخارج حتى ولا الدواء ، وكان الفقر هو المظهر العام للشعب ، ومع

الفقر الحرمانُ وشظف العيش . وفي نفس الوقت كان عبد الناصر وأعوانه يجمعون المال ويخزنونه •

وجاء الانفتاح في عهد السادات ، وكان انفتاحا أهوج ، فأخرج أتباع عبد الناصر مدخراتهم وما اخترنوه من أموال باهظة ، وظهروا في أفق الحياة المصرية اصطلاح جديد ينمى المال بسرعة هو « التصدير والاستيراد » فظهر أصحاب الملايين وأصحاب المليارات •

التوقف بالإضافة إلى المظالم والهزائم :

تعودنا أن نصف عهد عبد الناصر (١٩٥٢ — ١٩٧٠) ومن كانوا معه من رجال عصابته بأنه عهد المظالم والهزائم ، أى عهد هتك الأعراض ، والإذلال ، والابجاعة ، والمصادرات ، والاعتقالات ، وزوار الليل ، والتعذيب والكلاب البوليسية التى تنهش الأجسام ، والفصل من الوظائف ، والقلق وقوانين الإسكان الغبية وكل ما يستطيع الانسان جمعه فيما يتعلق بالظلم والعريضة والقسوة على الأفراد والجماعات •

ثم الهزائم المتكررة الفتاكة سنة ١٩٥٦ وفي اليمن (١٩٦٢ — ١٩٦٧) ومعركة اليمن أكلت كل شيء الرجال والسلاح - الرصيد ، ثم معركة أو خيبة ١٩٦٧ التى مسحت ما تبقى ومسحت الطاغية نفسه •

ولكن ليس هذا كل شيء فيما يتعلق بعصر عبد الناصر ، وليست السرقات التى أشرنا اليها آنفا هى كل شيء ، بل ان هناك الداء الذى استشرى وسبب لمصر خسائر جسيمة ، انه الذى نسميه « التوقف » ومعنى التوقف أن كل حركات الإصلاح التى تلزم لكل دولة قد توقفت تماما ، لأن الرجل أسرع فى مطلع عهده يرسل أنور السادات وأمين شاذي إلى الشرق الأقصى ، إلى اندونيسيا ليهد نفوذه الى هذا المدى البعيد ، وهناك قدم المعونات والآمال • وأسرع فأرسل صلاح سالم صغير السن

وقليل الثقافة إلى الناب الزرقاء بالعراق إلى نوري السعيد ، وأرسل أسلحته وجهيشه إلى الكونغو وغيرها ٥٥٥٥٥٥ وكل هذا صرفه تماما عن المرافق بمصر ، ويوما بعد يوم وعاما بعد عام ، توقفت المرافق بل قتل^٥ أو شكت أن تتوقف الحياة ، فالتليفونات خرس تماما ، وكانت مثل قطعة من الحديد ، والمجاري طفت في كل شارع ، حتى في جاردن سيتي والزمالك والمعادي ، والكهرباء بدأت تنقطع ، والمواصلات تعثرت ، والطرق تكسرت ، والمدارس والمعاهد نالها التدمير ، وقل مثل هذا عن المستشفيات والاسكان وجميع أنواع المرافق .

وبينما كان التوقف يصيب بالشكل كل هذه المرافق كان تعداد السكان يزيد ويزيد ، مما كان يستدعي ليس فقط تحسين المرافق بل تطويرها وإصلاحات واسعة لها .

ولكن الرجل وصحبه كانوا مشغولين عن ذلك أو جاهلين بما يلزم أن يكون ، فلما انقضى عهد ، كانت الأمية قد انتشرت ، والحياة قد توقفت ، ولم يبق في مصر إلا صوت الدعاية الجوفاء التي خلغها الرجل ، وأنفق عليها ما تبقى بالقرانة بعد السرقات والتنفقات الخارجية ، وظلت هذه الدعاية ترعى فترة حتى خفت صوتها ، إذ توقف المد الذي كانت تنتهبه من أمواله .

إننا نكتب هذه الأشياء ليس فقط لنندد بالماضي ولكن لنحذر زعماء الحاضر والمستقبل من الوقوع في مثل هذا الباطل ، فتلاحقهم اللعنات إلى الأبد كذلك التي تلاحق روح هذه العصابة ، منبعثة هذه اللعنات من الذين مسح الضيم أو الذين يسكنون في المقابر وهم أحياء .

شيء كان يراد بالإسلام :

هذا العنوان وضعت في الجزء التاسع من هذه الموسوعة وهو الجزء الخاص بتاريخ عبد الناصر ، وفصلت تحته عدة نقاط ، نوجزها فيما يلي :

١ — حلّ هيئة كبار العلماء •

٢ — كان شديد القسوة على جماعة الاخوان المسلمين ؛ ألقام جميعا في السجون ، وعرضهم للتعذيب البشع ؛ وأجاع ذويهم ، رغبة أن يدفعهم للرذيلة •

٣ — قتل شنقا صفوة من علماء المسلمين في قمتهم الشهيد سيد قطب •

٤ — أجرى ما أسماه « تطوير الأزهر » الذي اقتبسنا ما يقوله عنه الأزهريون وسواهم بأنه تدمير لا تطوير •

— الثورة والاحتلال :

قلنا عن هذه الفترة إنها « فترة الاستقلال التام » ونعنى بذلك أننا تخلفنا من الاحتلال البريطاني ؛ ولكننا لا ننسى أن عبد الناصر جلب بهزائمه احتلالا أخطر على مصر ، ذلك هو احتلال الصهاينة لسيناء ؛ وهو احتلال كان يدعى ملكية الأرض ، ولا يَعدُّ بالجلاء ، ثم هو احتلال لأقذر وأقسى طائفة عرفها التاريخ ، ولم تتحرر هذه الأرض إلا بعد عبد الناصر ، بل لا تزال هناك ذيول ، منها منعنا من تسليح سيناء كما نشاء ، ومنها « طابا » التي لا تزال تحت سلطان العدو ، فليربط القاريء بين عبد الناصر واحتلال جزء من البلاد •

وبعد قليل أى بعد حديث قصير عن « السيلداتى » سنتكلم عن « ثورة ٢٣ يوليو في الميزان » حيث يؤمل أن نضيف مجموعة أخرى من حماقات أو جهالات هذه العصابة التي حكمت مصر ربحاً من الزمن •

مشكلة الملاحة بخليج العقبة

تاريخ المشكلة وتطورها :

— لم يكن لإسرائيل وجود على خليج العقبة عند توقيع اتفاقية الهدنة المصرية الإسرائيلية في ٢٤ فبراير ١٩٤٩ ، إلى أن أخلت القوات الأردنية — بدون أى مبرر — منطقة بير قطار وبلدة أم رشرش (إيلات) يوم ٩ مارس ١٩٤٩ واحتلتها القوات الإسرائيلية في اليوم التالي وأنشأت ميناء إيلات ، وتقدمت مصر وقتها باحتجاج إلى لجنة الهدنة .

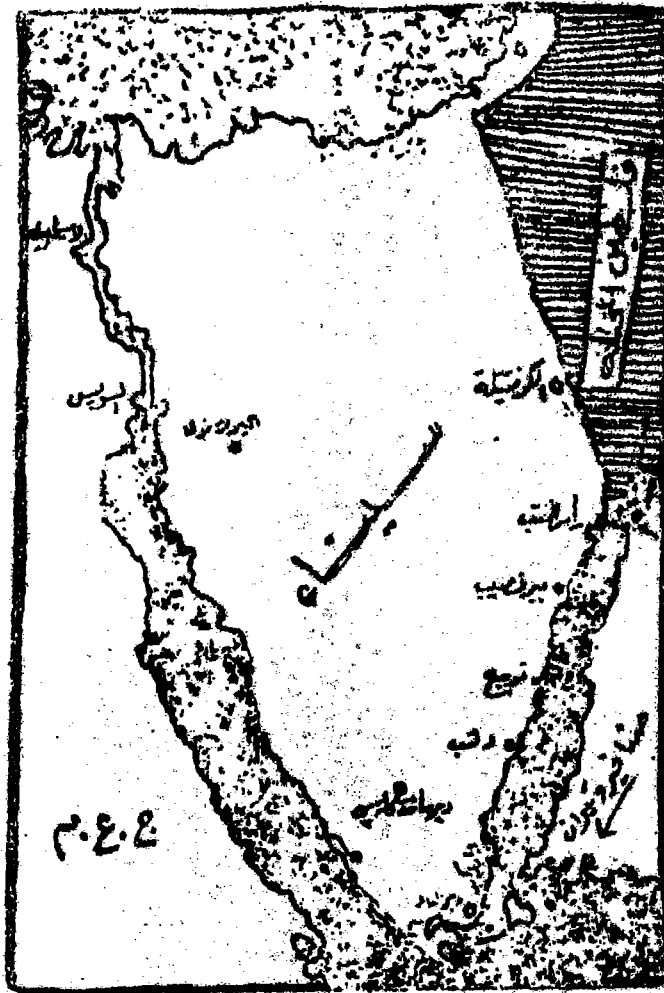
— في ٣ أبريل ١٩٤٩ تم توقيع اتفاقية الهدنة الأردنية الإسرائيلية دون أن تثير الأردن مسألة احتلال إسرائيل للمنطقة .

— اتفقت الحكومة المصرية مع المملكة العربية السعودية ، على أن تقوم القوات المصرية باحتلال جزيرتي « صنافير » و « وتيران » وهما الجزيرتان اللتان تتحكمان من الناحية الشرقية في مدخل خليج العقبة .

— قامت القوات المصرية بتركيب مدفعية سواحل في منطقة « رأس نصراني » وفي « شرم الشيخ » سيطرت تماما على الملاحة في الخليج ، وشرم الشيخ تقابل تيران من الجهة الغربية لخليج العقبة .

وأصبح المرور بهذا المضيق خاضعا لإشراف مصر ، ولا يجوز لإسرائيل أن تستعمل هذا المضيق على الإطلاق ، وأخذت مصر منذ ذلك التاريخ تبأشر حقها في تفتيش كل السفن التي تريد عبور مضيق تيران .

— وقد حدث في شهر يوليو ١٩٥١ خلال حكم وزارة النحاس باشا أن خالفت السفينة الإنجليزية « امباير روتش » (Empire Roach) التعليمات الخاصة بالمرور ، فأوقفتها السلطات البحرية وحجزتها ٢٤ ساعة ، ووضعت حرسا عسكريا على ظهرها ، وقد احتجت السفارة البريطانية على هذا الإجراء في ١١ يوليو ١٩٥١ دون جدوى ، وكذلك قدم السفير البريطاني بالقاهرة في ٢٩



(مضیق تیران مياه عربيه اقلية)

يوليو ١٩٥١ ، مذكرة إلى وزير الخارجية المصرية موضحا فيها استعداد حكومة المملكة المتحدة بقيام السلطات الجمركية المصرية في السويس بإجراء التفتيش على السفن غير الحربية التي تبحر إلى ميناء العقبة ، على أن تقوم السلطات الجمركية بها بإخطار السلطات البحرية في جزيرة « تيران » حتى لا تقوم بزيارة هذه السفن وتفتيشها مرة أخرى ، وقد وافقت وزارة الخارجية المصرية على هذا الإجراء في نفس اليوم ، وجاء في كتاب وزير الخارجية أن هذه التدابير والإجراءات « مطابقة لحقوق مصر في موانئها ومياهها الإقليمية » ، وبذلك تكون المملكة المتحدة قد اعتبرت الإجراءات التي اتخذتها السلطات المصرية بخصوص الملاحة في خليج العقبة إجراءات مطابقة لأحكام القانون الدولي .

— حاولت إسرائيل سنة ١٩٥٤ أن تحصل من مجلس الأمن على قرار بأحقيتها في المرور بفتحة السويس وخليج العقبة ولكن مجلس الأمن لم يتخذ قرارا في صالحها .

— وجاء الاعتداء الثلاثي سنة ١٩٥٦ فانسحبت القوات المصرية من سيناء ، وسارعت القوات الإسرائيلية فاحتلت شبه جزيرة سيناء ومنطقة شرم الشيخ بوجه خاص ، وعندما بدأ انسحاب القوى المعتدية رفضت إسرائيل الانسحاب إلا بشروط أعمها :

(أ) مرابطة القوات الدولية في منطقة شرم الشيخ عقب انسحاب القوات الإسرائيلية في خليج العقبة .

(ب) أن تكفل القوات الدولية في منطقة شرم الشيخ حرية الملاحة الإسرائيلية في خليج العقبة .

ورفض السكرتير العام هذه الشروط وذكر أن القوات الدولية لن تستعمل لحل أية مسألة سياسية أو قانونية ، ولن تتعدى وظيفتها محاولة منع وقوع الأعمال الحربية .

— وبعد مفاوضات طويلة أعلنت جولد ماير وزيرة خارجية إسرائيل في اجتماع الجمعية العامة في أول مارس ١٩٥٧ أنها قد تلقت مذكرة من وزير خارجية الولايات المتحدة بتاريخ ١١ فبراير ١٩٥٧ ، يؤكد فيها أن الولايات المتحدة تعتبر خليج العقبة ومضيق تيران من المياه الدولية ، وهي لذلك ، تعلن عن عزم إسرائيل ، على الانسحاب من شرم الشيخ ومن قطاع غزة .

— ولكن الدكتور محمود مسوزي وزير الخارجية أعلن في نهاية النقاش الذي دار في الجمعية العامة أن التصريحات التي أدلى بها مندوب إسرائيل وبعض مندوبي الدول الأخرى بشأن انسحاب القوات الإسرائيلية المتعدية لا يمكن أن يكون لها أي أثر على حقوق مصر أو على مشروعية هذه الحقوق ، من غير قيد أو شرط .

وأخفت القوات الدولية — بموافقة مصر — أماكنها على الحدود بين إسرائيل ومصر ، كما تسلمت منطقة شرم الشيخ المطلة على المضيق من جنود إسرائيل ، وفي سائر من القوات الدولية وبموافقة غير مكتوبة من عبد الناصر بدأت إسرائيل تستعمل خليج العقبة دون أي سند قانوني فكان ذلك من أهم الأسباب لنشوب حرب ١٩٦٧ التي تحدثنا عنها في كتاب خاص . ولعل مما يلقي ضوءا على موضوع الملاحة أن نذكر هنا بعض نصوص اتفاقية جنيف للمضايق ، وبخاصة النصوص التي كان لها صلة أو صدرت خصيصا من أجل مشكلة تيران ، ووجهة النظر المصرية العادلة بهذا الخصوص .

نقتصر الفقرة الرابعة من المادة ١٦ من اتفاقية جنيف المنعقدة في ٢٩ إبريل ١٩٥٨ على ما يلي :

« لن يكون منسلك أي وقف للمرور البريء للسفن الأجنبية عبر المضائق التي تستخدم في الملاحة الدولية بين جزء من البحار العليا وجزء آخر من البحار العليا ، أو مياه البحر الإقليمية لدولة أجنبية » .

وتكاد تكون هذه الجملة الأخيرة قد وضعت خصيصا كى تنطبق على حالة مضيق تيران الذى يصل بين مياه خليج العقبة ومياه البحر العالى .

— وقد خالف هذا النص الذى يسوده التحيز لإسرائيل ، الحكم الذى أصدرته محكمة العدل الدولية فى قضية مضيق كورفو عام ١٩٥١ ففى ذلك الحكم أوضحت المحكمة المعيار الذى يميز المضائق الدولية التى لا يجوز تقييد الملاحة فيها وحددت لذلك أساسين :

(أ) أن كون المضيق موصلا بين بحرين من البحار العالية ، وهذا الشرط لا يتوفر فى مضيق تيران ، لأنه يربط بين بحر عال ومياه إقليمية .

(ب) أن يكون العرف الدولى قد تواتر على استعمال المضيق فى الملاحة البحرية الدولية . ومضيق تيران لم يسبق له أن استعمل لهذا الغرض ، ولا يجوز الاحتجاج بما حدث فى أثناء وجود قوة الطوارئ الدولية فى شرم الشيخ .

— بالإضافة الى ذلك فإن تطبيق الفقرة الرابعة من المادة ١٦ من اتفاقية جنيف لا يؤدى إلى إيجاد مبرر لمرور السفن الإسرائيلية فى مضيق تيران لأن شروط هذه الفقرة لا تنطبق على المضيق لما يأتى :

(أ) حكم الفقرة خاص بالمضيق الذى يصل ما بين أجزاء البحار العالية ، أو ما بين البحر العالى والبحر الإقليمى ولا ينطبق هذا على هذه الحالة ، إذ أنه يفصل بين البحرين حوالى ٩٧ ميلا من المياه المغلقة التابعة للسيادة المشتركة لكل من السعودية والأردن ومصر .

(ب) إن مرور السفن الإسرائيلية بمضيق تيران لا يمكن أن يوصف بالمرور البرئ الذى تشترطه الفقرة الرابعة ، إذ أن مرور هذه يعد ضارا بالسلم وحسن النظام وأمن الدولة الشاطئية وهى مصر .

(ج) إن أحكام اتفاقية جنيف لا تسرى إلا فى حالة السلم وبذلك لا تسرى على الأوضاع القائمة الآن بين مصر وإسرائيل نظرا لحالة الحرب القائمة بينهما .

كلمة عن سيناء : في الماضي والحاضر

في دراستي عن « اليهودية » ضمن سلسلة « مقارنة الأديان حديث طويل عن سيناء يرتبط بالفترة التي أقصّل خلالها العبرانيون بالمنطقة من عهد يعقوب (إسرائيل) إلى عهد خروج بني إسرائيل من مصر وفترة التيه .

ولعل من الأفضل أن نقدم كلمة شاملة وموجزة عن تاريخ سيناء ، ويمكن الاعتماد على الكتاب السابق وعلى الكتب التالية :

١ — تاريخ سيناء تأليف نعوم شقير .

٢ — سيناء : الطبيعة والتاريخ والانسان والأهل الذي أصدرته دار الهلال : يونيو ١٩٧١ وكنت واحدا من كتّابه .

٣ — دير طور سيناء تأليف افانجلوس بابا يوانو وترجمة صليب خوري وفيليب دحابره .

٤ — سيناء أرض الممارك والقداسة تأليف Burton Bernstein الذي لخصه الأستاذ محمد أنعزب موسى .

وفيما يلي هذه الكلمة الموجزة عن أرض سيناء الحبيبة :

سيناء أرض مصرية :

سيناء أرض مصرية منذ قديم الأزل ، وأحداثها لا تتفصل عن أحداث مصر ، وتاريخها جزء لا يتجزأ من تاريخ مصر .

وقد كانت سيناء دائما هي العقبة العصية التي ينبغى على أي جيش أن يتغلب عليها ويغزوها من أجل الحصول على جائزة أكبر ، سواء كانت هذه الجائزة في الغرب (مصر) أو في الشرق (سوريا وفلسطين) .

وشهدت سيناء ما لا يقل عن ٥٠ حربا كبرى في تاريخها الطويل ،
قديمًا ووسطيًا وحديثًا ، كما شهدت مرور عشرات الجيوش شرقًا وغربًا :
مما كان يقطع سلامها الهادئ ، الصامت المستتب .

أهداف الفراعنة في سيناء :

وقد سيطر الفراعنة على سيناء ، منذ أقدم العصور وجعلوها جزءًا من
الوطن المصرى المقدس ، وبالإضافة إلى ذلك كان هدفهم ذا ثلاث شعب :

- ١ — حماية الوادى من الغزاة .
- ٢ — والسيطرة على طرق الحرب والتجارة .
- ٣ — واستغلال مناجم النحاس والفيروز في منطقة سيرابيت الخادم .

وعلى جبال المنطقة نَقَّسَ المصريون انتصاراتهم على السكان
المحليين الساميين . وخلال الأسرات الأولى توسع المصريون في عملية
استغلال مناجم المنطقة ، وفي البداية تأثروا فكريًا بالساميين الذين
أخضعوهم ، فانهم قبلوا عبادة القمر المستقرة في المنطقة ، ولكن بدلًا
من « سين » أصبحت المراسم تقدم إلى الإله المصرى « تحوت » وهو
أيضًا إله « القمر » فى البانتيون المصرى الذى نراه ممثلًا على جدران
مناجم سيناء فى شكل القرد (البابونى) أو فى شكل الطائر (ايبيس) .
وعلى هذه الجدران أيضًا نجد صورة الفراعنة الأوائل الذين « سحقوا
البرابرة » وحكموا كل مصر من أمثال سنفرو وخوفو اللذين استغلا
مناجم الفيروز ، وأقسما أن يحميا قداسة سيناء .

صراع بين المصريين والهكسوس :

وغزا الهكسوس مصر عبر سيناء وحكموا البلاد فى ١٧٠٠
١٥٨٠ ق.م . وفى عصرهم تدهورت صناعة التعدين فى سيناء ، وهجرت

المناجم ، فقد ركز الهكسوس على اقرار السلام في الوادي ، أى اخضاع المصريين وتركوا تطوير الحضارة وهى مهنة المصريين ! ولكن فى الأسرة الثامنة عشرة طردهم المصريون من البلاد ، واستأنفوا بعثاتهم الى سيناء ، وفى سيرابيت الخادم أنشأ معبدا رائعا تكريما لحتحور ، ربة الفيروز ، والحب ، والمرح ، والفرح ، فى شكل بقرة ، وأرسلت هدايا ثمينة من الفراعنة الى معبد « الأم حتحور إلهة الفيروز » بسيناء . وفى المقابل نقل الفيروز السينائى الى معابد وادى النيل ، وحول معبد حتحور المقدس فى سيرابيت الخادم نشأت مجموعة ضخمة من المؤسسات لا تزال آثارها وأطلالها قائمة .. أفنية وصروح وحجرات وحمامات وأروقة ونصب وعمد ومنصة احراق للاضاحى بالإضافة الى ثكنات كبيرة للجنود المصريين الذين وكلت اليهم مهمة إقرار الأمن وحماية المناجم من الطامعين .

سيناء والحروف الأبجدية :

وخلال هذه الفترة تقريبا وقع حدث ثقافى ذو أهمية بالغة فى سيرابيت الخادم . فقد ظهر على جدران المنجم بعض النقوش ذات الشبه بالرموز الكنعانية ، كانت تحويرا ضخما للهيوغليفيه المصرية ، فبدلا من الصور التى تعبر عن كلمات كانت هناك رموز تعبر عن أصوات أساسية يمكن عن طريق اعادة تركيبها أداء كلمات جديدة لا حصر لها . وكانت هذه بداية الابجدية السينائية ، وهى حلقة الوصل بين الهيوغليفيه المصرية والابجدية الفينيقية . وأصبحت الابجدية السينائية أم الابجديات التالية كلها .. بما فيها الابجديات الأوربية القديمة والمعاصرة .

سيناء معبر للجيش المصرية والغازية :

وخلال الألف سنة التالية لذلك ، وحتى أسرة البطالمة قبل المسيح بعدة مئات من السنين ، شهدت سيناء سلسلة طويلة من الغزوات والانتصابات ، فقد احتلت مصر الشرق ، ثم احتلت هي بدورها ، فقد غزتها جيوش الآشوريين والحيثيين والبابليين والفرس والاعريق ، وهزت هذه الغزوات المتلاحقة سلطة الفراعنة المهيبة وسيطرت على طرق التجارة بين الشرق والغرب . والعبرانيون الذين كانوا عبيد المصريين ثاروا عليهم وفروا شرقا من مصر الى سيناء وطبقا للتراث تاهوا في سيناء أربعين عاما بعد الخروج خلال حكم رمسيس الثاني على الأرجح (١٣٠٠ ق.م) قبل أن يدخلوا الى أرض الميعاد حاملين رسالة التوحيد وتاركيين خلفهم سيناء كإقليم مصري مهجور سرعان ما عاد الى حياته البدائية .

البطالمة والرومان :

وابتداء من القرن الرابع ق.م . أبدى البطالمة اهتماما متجددا بشبه الجزيرة ، فأرسلوا البعثات اليها ، وبنوا بعض الموانئ على طول ساحلها المائل على البحر المتوسط ، وهناك واجهوا قوة النبطيين الصاعدة ، وهم شعب سام من شرق نهر الاردن ، كان مقره البتراء ، واحتل النبطيون العقبة ، وفتحوا طريقا من العقبة الى غزة ، وسيطروا على طرق المواصلات في سيناء ، وعبر طرق تجارتهم تركوا على جدران سيناء نقوشهم الآرامية ، واستطاعوا أن يصمدوا في مواجهة البطالمة ولكنهم في النهاية انهزموا أمام الرومان عام ١٠٦ ق.م .

وأصبحت مصر محمية رومانية ثم بيزنطية من عام ٣٠ ق.م . الى عام ٦٤٠ م وخلال هذه القرون السبعة زادت أهمية سيناء العسكرية والتجارية والاجتماعية ، فقد أنشأ الرومان سلسلة من المراكز العسكرية الحصينة

على طول الساحل السينائي للبحر المتوسط تفصل بين الواحد والآخر مسافة ١٤ ميلا (طول مسيرة يوم للفرقة الرومانية) وبعض آثار هذه المراكز لا تزال قائمة الى اليوم .

سيناء في العهد المسيحي :

وتدهورت الامبراطورية الرومانية الغربية ليصعد في أثرها نجم الامبراطورية البيزنطية الشرقية ، وفي العصر البيزنطي بلغت سيناء قمة جديدة من حيويتها ، وأهميتها ، والسبب في كلمة واحدة هو : المسيحية ، ففي القرن الرابع الميلادي اعتنق الامبراطور قسطنطين وأمه الامبراطورة هيلانة الديانة المسيحية وقرروا لأسباب تكتيكية ودينية أن يطورا الأراضى المقدسة وسيناء وهبت رياح النفوذ البيزنطي والثقافة البيزنطية تكتسح شبه الجزيرة ، ففي رينوكولوروم (العريش) مثلا أقيمت كاتدرائية ودير وصوامع للرهبان ، واتسعت المدينة لتغطي ثمانية أميال مربعة ، وظهرت الكاتدرائيات تباعا في المدن السينائية الأخرى . وكانت سيناء حتى قبل انتصار المسيحية النهائي قد أصبحت ملاذا للهاربين بالعقيدة الجديدة من وجه الكفرة والطغاة ، فمنذ القرن الثاني الميلادي لجأ الكثيرون من المسيحيين الفارين من فلسطين ومصر الى وادي فيران وهو واد خصب نسبيا ذو ماء وخضرة في الجنوب الغربي من شسبه الجزيرة ، وهؤلاء قدسوا جبل سريل باعتباره طور سيناء الذي عليه تجلى الله لموسى ، وازدهرت المنطقة وأصبحت مقرا لابرشية صغيرة . وفي عام ٣٢٧م زارت الامبراطورة العجوز هيلانة الأراضى المقدسة ووصلت الى جبل موسى حيث أعجبت بتلك المستوطنة في وادي فيران وامرت ببناء كنيسة صغيرة فيها للعدراء المقدسة ، وقام الامبراطور جوستنيان في عام ٥٣٠ م بتوسيع هذه الابرشية الصغيرة كي تعتبر كنيسة منيعة وقلعة وديرا .

دير سانت كاترين :

وفي القرن التاسع الميلادي سمي هذا الدير بدير سانت كاترين ،
وذلك عندما بدأت شهرة هذه القديسة السكندرية تزداد وتأخذ الطابع
العالمي .

وقصة هذه القديسة تبدأ من مطلع القرن الرابع ، فقد دخلت هذه
الفئة المسيحية وهي في عمر الزهور ، وتقول الرواية إنها رأت السيد
المسيح في المنام يخطبها ويضع خاتماً في أصبعها ، وفي الصباح وجدت
الخاتم فعلاً ، وقد ذهبت إلى والي الروماني تدعوه للمسيحية ، وقد
أعجب بها والي ولكنه أراد أن تعود للوثنية ليتزوجها ، ولما امتنع
أحضر لها خمسين فيلسوفاً لاقناعها فاستطاعت أن تؤثر فيهم وتحولهم
للمسيحية .

وحينئذ أصدر والي قراره بإعدامها .

وتستمر الرواية لتقول أن الملائكة حملوا جسم القديسة إلى قمة
جبل قريب من الدير السابق ، ورأى أحد الرهبان في النوم أن جسم
القديسة قريب من الدير ، فلما استيقظ ذهب إلى قمة الجبل فوجد الجسم
فصله ودفنه في الدير ، ومنذ ذلك الحين أطلق على الدير « دير سانت
كاترين » .

مسجد وسط الكاترانية :

وقد بنى الخليفة الفاطمي « الأمر » (٤٩٥ - ٥٥٢ = ١١٠١ -
١١٣٠ م) مسجداً داخل دير سانت كاترين ، وكان بناء هذا المسجد
رادعاً للأعراب الذين كسانوا أحياناً يهاجمون الدير بعاطفة دينية
منحرفة ، ولذلك يقولون أن هذا المسجد حمى الدير كما أن الدير حمى
المسجد .



المسجد الذي بناه الخليفة الفاطمي الأمر بن المستعلى داخل
كاتدرائية سانت كاترين (يحمى الكنيسة وتحويه الكنيسة)

سيناء في العهد الاسلامي :

ولتعد الى مطلع الاسلام في مصر لتقرر أن سيناء شهدت دخول قوات
الاسلام في طريقها غربا لفتح مصر وشمال أفريقيا • وقد سارع مواطنو
سيناء الى التخلي عن عقائدهم الوثنية واعتناق ديانة أبناء عمومتهم من
البدو القادمين عبر خليج العقبة • وقد كوفتوا على ذلك بأن كلّفوا بمسؤولية
حماية طرق الحج عبر شبه الجزيرة الى مكة •

وقد ظل بدو سيناء يقومون بهذه المهمة عدة قرون •

سيناء والحروب الصليبية :

وامتدمت الفتوحات الاسلامية بالمصالح المسيحية وكانت النتيجة
اندلاع الحروب الصليبية التي كلفت سناء مائة سنة أخرى من الغزو

والاحتلال والأذى • كان الهدف الأول للصليبيين الاستيلاء على القدس لتكون مقرا لمملكة مسيحية في الأراضى المقدسة ، وتحقيق هذا الهدف بعد أن سفكت دماء كثيرة في عام ١١٠٠ م ونتيجة لذلك اقتطعت شريحة من سيناء تمتد من رفح الى العقبة وضمت الى مملكة الفرنج • كما استولى الصليبيون على مدينة أوستراسين الرومانية القديمة وأبقوها تحت سيطرتهم عدة سنين ، وعبر سيناء قدم الصليبيون الى مصر في أربع حملات كان آخرها في عام ١١٦٠ ، ووجد المسلمون في مصر وسوريا قواهم ضد الخطر الداهم وهزموا بقيادة صلاح الدين قوات الصليبيين على مشارف القاهرة وتعقبوهم في انسحابهم عبر سيناء حتى غزة •

وقرر الصليبيون اغاظة المسلمين بقطع طريق الحج الى مكة ، وأقاموا لهذا الغرض قلعتين صليبيتين على رأس خليج العقبة أكبرهما في جزيرة فرعون (وتعرف أيضا بجزيرة كورال) وتمكنوا بذلك ، ولفترة من الزمن ، من قطع الحج الى مكة بما في ذلك الطرق البرية والبحرية • وأقام المسلمون من جانبهم قلعة عسكرية لهم فوق جبل سيناء لحماية الطريق الجنوبي الى مصر في مواجهة الصليبيين • وفي عام ١١٧٠ استولى صلاح الدين على منطقة العقبة ، وما أن حل عام ١١٨٢ حتى كان يقود قواته الصغيرة عبر وسط سيناء في الحملة الأخيرة والكبرى ضد الصليبيين والتي انتهت بتحرير القدس •

سيناء في العصر الحديث :

كان عهد ثورة ٢٣ يوليو عهدا مشئوما بالنسبة لمصر بوجه عام ، ولسيناء بوجه خاص ، فقد أبقت الثورة على القيود التي كان الانجليز قد وضعوها على

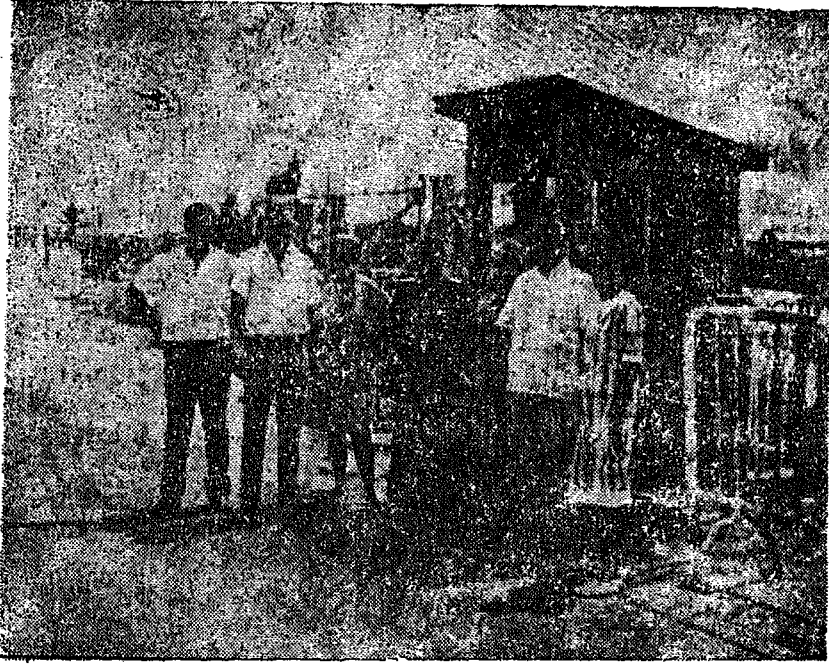
المصريين بحيث لا يكون من السهل دخولهم سيناء ، فعاشت سيناء وكأنها ليست جزءا من الوطن .

ولم تنل سيناء حظا يذكر من الرعاية والتنمية خلال عهد عبد الناصر ، وعلى العكس واجهت وسائل التخريب للأرض وللذمم ، فقد اقتحمتها جيوش اسرائيل سنة ١٩٥٦ بمساعدة بريطانيا وفرنسا ، ولم تخرج منها اسرائيل الا بأوامر مشددة من الولايات المتحدة التي لم يؤخذ رأيها في هذا الاحتلال ، وقد تركت اسرائيل ذبولها في سيناء ، وكانت هذه تتمثل في قوات طوارئ دولية كانت تعسكر في شرم الشيخ لتضمن السماح لاسرائيل بالملاحسة في خليج العقبة .

وفي مايو سنة ١٩٦٧ طلب عبد الناصر من السكرتير العام للأمم المتحدة سحب هذه القوات ، وأغلق الملاحسة أمام السفن الاسرائيلية فقامت على أثر ذلك كارثة يونيو التي دمرت المعدات وجنود عبد الناصر الذين سيقوا دون نظام الى الكارثة ، واحتلت اسرائيل سيناء من جديد ، وطال احتلالها هذه المرة ، فلم تخرج منها الا في ابريل سنة ١٩٨٢ بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ وبعد جهد ومفاوضات وتوضيحات واسعة .

وكان لحرب ١٩٦٧ نتائج أخرى خطيرة ، فقد احتلت اسرائيل خلالها الهضبة السورية (الجولان) وغزة والضفة الغربية .

وقد زرت سيناء في سبتمبر سنة ١٩٨٥ ، وعند الحدود التي تفصل سيناء عن غزة التلكتيت بوفود مصرية كانت تزور المنطقة أيضا ، وتطلعنا الى الأرض العربية بغزة ، ولكننا كنا نمدد لها الطرف ولا نستطيع أن نمدد لها الخطا ، وتذكرنا هذه الحرب الخاطفة التي خسرنا فيها كل شيء بسبب ضعف القيادة وجهلها . حسابهم على الله .



تجمعات مصرية على حدود غزة
تتظر للأرض العربية ولا ندخلها

قرية ياميت في سيناء :

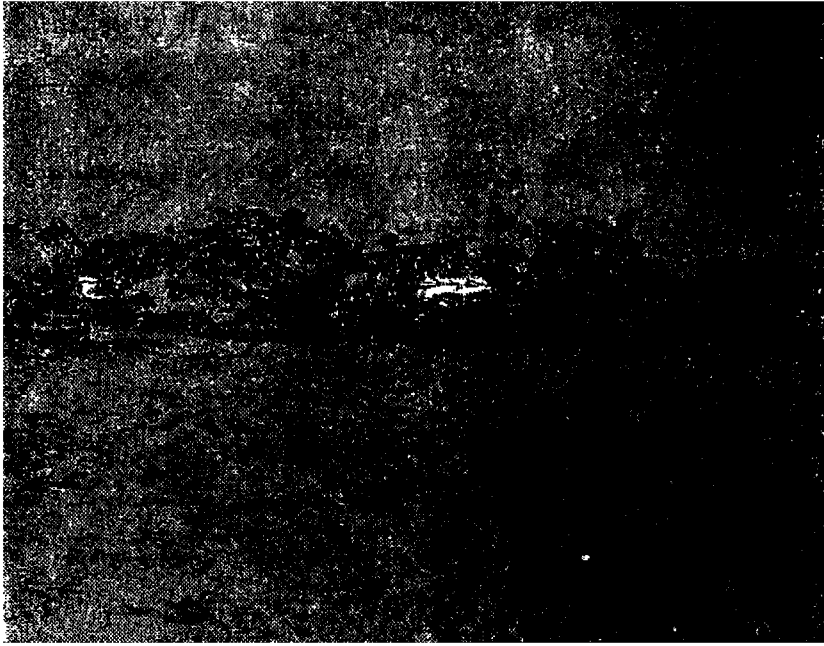
وقبل أن نترك سيناء نذكر أن الاتفاق كان قد تم في عهد الرئيس السادات بين مصر وإسرائيل لتجلو إسرائيل عن سيناء ، وقد تنازلت مصر عن كثير من اتجاهاتها لتحصل على هذا الجلاء ، فمثلا اعترفت بإسرائيل ، وقررت تبادل التمثيل الدبلوماسي معها ، وخاصمتها العرب من أجل ذلك ، وقبلت مصر شروطا مجحفة فيما يتعلق بإعادة تسليح سيناء ، ٠٠٠٠ ومع هذا لم تكن إسرائيل مخلصه في هذه المعاهدة ، وانما وافقت عليها لمتنزع اعتراف مصر بها ، ولتعزل مصر عن العرب ، ثم تبدأ بضرب العرب وهم بدون مصر ، فأسرفت في عدوانها على لبنا نوعلى الفلسطينيين ، وضربت

المفاعل الذرى فى العراق وضربت بعض قرى تونس وهددت كل الدول العربية .

وفىما يتعلق بعلاقتها بمصر لم تسر اسرائيل سيرا محمودا بل كانت علاقتها بمصر حافلة بالخديعة والكران والعدوان ، فلم تسلم « طابا » لمصر وهى جزء لا يتفصل عن سيناء ، ووقفت من ياميت موقفا بعيدا عن روح المعاهدة ، وياميت قرية هائلة بنتها اسرائيل فى المسافة بين العريش ورفح ، وجرت مفاوضات لتتركها اسرائيل عند الجلاء أو لتبيع المباني لمصر ، ولكن هذه المفاوضات غشلت ، فقد رفضت اسرائيل كل العروض ، وطمعت أن يبقى بها سكان صهيانية تحت سلطة مصر ، وطبيعى أن هذا الطالب رفض رفضا قاطعا ، وكانت النتيجة أن دمرتها اسرائيل تدميرا تاما عقب اخلائها .

وقد زرتها فى أغسطس سنة ١٩٨٥ ، وشاهدت بقايا خراسانة نادرة المثال قوة وصلابة ، وقد تفككت وتساقطت سقوفها بفعل التفجير العنيف ، ولا بد أن قدرا كبيرا من أدوات التدمير قد استعمل فيها بحيث لم يترك حجرة واحدة فى هذه القرية الكبيرة ، ولم يبق بها الا المبد الذى لم يرد الصهيانة هدمه .

ومع هذا بعض الصور التى التقطناها لأنقاض القرية ، وهى تدل على هذه الجريمة ضد العمران وضد العلاقات الودية والانسانية .



أطلال قرية « ياميت » تنطق بالسخط والاشمئزاز



وقفة حزينة بجوار الأطلال



حديث : يستظل هذه الأطلال تذكركنا بقسوة اسرائيل وبعدها عن
الصفاء والانسانية •

طابا :

بقى من سيناء جزء لا يزال موضع خلاف بيننا وبين اسرائيل ، ذلك
هو « طابا » وهي منطقة تمثل جزءا لا يتجزأ من أرضنا ، ولكن اليهود
يمدون جشعهم لهذا الجزء ، وللتعريف بالمشكلة نورد دراسة موجزة
وواضحة عن هذه المشكلة :

— طابا هي نقطة على الساحل الغربى لخليج العقبة — تقع داخل
الحدود المصرية بثلاثة أو أربعة أميال • وهي على بعد ستة أميال من
جنوب ايلات • وترجع أهميتها الى قرب أبار البترول منها — بالإضافة
الى تحكمها فى الممرات التى توصل الى سيناء من رأس الخليج فضلا عن
تحكمها فى طريق غزة •

— نصت المعاهدة المصرية الاسرائيلية على أن تتسحب اسرائيل من سيناء كلها لتمارس مصر سيادتها الكاملة على المنطقة التي تمتد الى الحدود المعترف بها دوليا بين مصر وفلسطين في فترة الانتداب ، وكانت « طابا » بالتاكيد داخلة ضمن الحدود المصرية .

— وعند تنفيذ هذه المعاهدة ادعت اسرائيل أن منطقة « طابا » لا تدخل ضمن الحدود المصرية ، وتمسكت مصر بموقفها وبحقها الثابت ، فتم الاتفاق في ٢٥ ابريل ١٩٨٢ (أى عند اتمام انسحاب اسرائيل من سيناء) على أن يتم انسحاب اسرائيل من هذه المنطقة وألا تدخلها السلطات المصرية وتوجد بها القوة متعددة الجنسيات الى أن يتم الاتفاق بشكل نهائي .

— ومع ذلك قامت اسرائيل ببناء فندق سياحي في وادي « طابا » توسيعا للأقاليم التي تحيط بميناء ايلات ، وقد تم ذلك دون إبلاغ الحكومة المصرية ، أو تم في غفلة الحكومة المصرية أو بتساهلها .

— ولا يزال الصراع قائما لانتفاء من هذه المسألة بالملفوضة أو بالتحكيم .

مهتد أنور السادات

مقدمة :

حديثنا عن السادات هنا حديث قصير ، فللسادات جزء خاص من موسوعة التاريخ الاسلامي هو الجزء العاشر يصف السادات وعهده وصفا دقيقا وأرجو أن يوفقني الله لإصداره قريبا إن شاء الله .

اسم السادات :

إن الاسم الحقيقي الثابت في شهادة ميلاد أنور السادات وفي ملف خدمته هو :

مهتد أنور الساداتي (١)

وإنك ستستعمل هذا الاسم الحقيقي من حين إلى حين ، تذكرا للحق وارتباطا بالأمور الرسمية .

وبناء على التاريخ وقواعد اللغة العربية هناك « الشيخ السادات » الذي كان له جاه عظيم في عهده ، وكان مع عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوي واليكري ... أعضاء الديوان الذي أنشأه نابليون .

أما « الساداتي » فاسم ينسب إلى « السادات » فهو ليس من أسرته ولا يحمل اسمه ولكنه قد ينسب له بسبب من الأسباب .

السادات والسلطة :

كان السادات أحد زعماء ثورة أو حركة يوليو ، ولعله كان من أذكى زعماء هذه الحركة ، وكان بالتأكيد من أكثرهم ثقافة ، وبيدوانه لاحظ جبروت عبد الناصر وسطوته فتعاشاه ، فمرة يعمل لإرضائه بأن يؤلف

(١) في كتاب الأستاذ عبد الله امام « قضية عصمت السادات » أورد المؤلف هذه القضية التي ذكرناها هنا ، واستند إلى صورة زئفروغرافية لتقرير سرى سنوى صادر من وزارة الحربية والبحرية المصرية سنة ١٩٥١ .

كتابا يمدحه فيه ويرفعه الى السماء كما يقولون وعنوان الكتاب هو :
« يا وادى هذا عمك جمال » .

ومرة كان يفتح له بيته ليكون المكان الوحيد الذى يرتاده ويمضى
به سهراته ، وكانت طلائع السادات وثقافته تهيبه الابتسامة للزعيم .

ومرة كان يجلس مجلس القاضى فى محكمة الثورة أو محكمة الشعب
ايصدر الأحكام التى ترضى عبد الناصر ضد من يكرههم ويحقد عليهم .

على أننى أتصور أن ذكاء السادات ساعده ليتخلص من هذا الجو ،
فاتجه أو وجهه حسن حظه ليكون الأمين العام للمؤتمر الاسلامى أو أن
يكون رئيسا لمجلس الأمة ، وهذا قلل ارتباطه بالسلطة الطاغية .

على أن عبد الناصر قضى على زملائه تماما الواحد بعد الآخر ، عزل
بعضهم ، وسجن آخرين ، وقتل من لم يقو على عزله أو سجنه ، ومن
هنا خلا الجو للسادات ، فاستدعاه عبد الناصر وعينه نائبا لرئيس
الجمهورية سنة ١٩٦٩ عندما كان جمال عبد الناصر على وشك أن يسافر
الى الاتحاد السوفييتى .

ولما مات عبد الناصر أصبح أنور السادات رئيسا مؤقتا للجمهورية
تبعاً لدستور ذلك العهد ، وواجه السادات بذلك عقارب السلطة ومراكز
النفوذ ، وساعده ذكاؤه مرة أخرى فتظاهر بأن أحسن رأسه لهم وتملقهم ،
وبدا كأنه سيكون طوع أيديهم ، وفى ١٥ أكتوبر سنة ١٩٧٠ أجرى
استفتاء لرياسة الجمهورية ، وقد قضى هذا الاستفتاء باختياره رئيسا
للمهورية .

وتمكننا للملك والانحناء للعاصفة دخل السادات مجلس الشعب عقب
اختياره رئيسا للجمهورية ، واتجه لصورة عبد الناصر ، وانحنى أمامها
انحناء طويلة جلبت عليه سخط الكثيرين ، ولم تشف غليل الحاسدين
والأعداء ، فالانحناء والركوع لا يكون الا للخالق الأعظم .

مرتبات ومخصصات بدون ضرائب :

ومن وسائل الملوك الذى أبداه السادات ليصل الى غايته أن أسرع في فترة الهلع الذى كان يعم البلاد عقب وفاة عبد الناصر ، أن أرمى أسرة الزعيم وأرمى مراكز القوى ، فاتخذ مجلس الوزراء أول قرار له ، وكان خاصا بمنح زوجة عبد الناصر وأولاده جميع مرتباته ومخصصاته بدون ضرائب ، وأن تظل تعيش في قصر الدولة الشاسع الفاخر طيلة حياتها ، ويظل لها كذلك قصر الاسكندرية •

لقد كان هذا تصرفا لا يرتضيه عقل ولا ضمير ، وهو تصرف لا تعرفه أية دولة من الدول ، وقد تكلمت الصحف عن زوجة تشرشل الذى قاد بريطانيا في أخطر معارك التاريخ ، ثم — بعد موته — أخذت تبيع ما عندها من تحف لتستكمل حاجاتها في الحياة ، ومثل هذا قيل عن الزعيم العظيم شارل ديغول الذى قاد فرنسا واستعاد لها استقلالها بعد أن اكتسحتها جيوش النازي ، وبعد وفاته عاشت زوجته بما عندها من مال وما استحققت من معاش ، وللمات رئيس جمهورية الولايات المتحدة « هارينج » كان على زوجته أن تغادر البيت الأبيض قورا ، ولكنها لم يكن لها مسكن خاص فبقيت بضعة أيام ريثما وجبوا لها حجرة في فندق •

أما مصر فيجري عليها ما جرى ، ولا تزال مصر حتى كتابة هذه السطور سنة ١٩٨٦ تدفع هذه المبالغ الباهظة على الرغم من الضيق الاقتصادى الذى تعانیه ، وعلى الرغم من الثراء الفاحش الذى ظهر في أيدي أولاد عبد الناصر والذى تجاوز الملايين أو المليارات ، وليسنا نعرف الى متى ستظل مصر تدفع مئات الآلاف لسيدة تعيش وحدها بعد زواج أولادها في هذا القصر المنيف أو تقفله لتعيش متنقلة في عواصم العالم •

ويبدو أن السادات هيا ذلك لزوجة عبد الناصر وأولاده حتى يتيح فرصة التكرار ذلك مع أسرته بعد وفاته ، فقد تقرر مثل ذلك للسيدة جيهان السادات وأولادها منه (ولين أولاده الأخريات من زوجته الأولى

السيدة اقبال) ولذلك فمصر تدفع الآن (١٩٨٦) مرتبات ومخصصات بدون ضرائب لثلاثة رؤساء وهي البلدة الوحيدة التي تفعل ذلك .

ويلاحظ أن كلمة مخصصات كلمة رهيبة ، فالمخصصات تغطى التزامات الرئيس التي يستلزمها منصبه ، والرئيس قد مات ، ولم يعد يشغل هذا المنصب ، فكيف بالله تدفع هذه المخصصات لزوجة لم تعد تواجه هذه الالتزامات والمسئوليات .

وإذا كانت زوجة عبد الناصر تعيش غالبا في لندن ، فان زوجة السادات تعيش غالبا في الولايات المتحدة ، وقد ذكرت الأنباء أنها أرسلت من هناك أطباء متخصصين لعلاج « نستاس » لها بالقاهرة ، وحق لها أن تفعل ذلك فعلى الشعب الفقير يدفع لحسابها بسخاء .

وكلمة أخيرة عن هذا الموضوع هي : هل سنظل نفعل ذلك ؟
ومعنى هذا أننا في يوم من الأيام سندفع مرتبات ومخصصات لأعداد كبيرة من الرؤساء ، وهي نكبة ونزيف لأبد من إيقافه .

مصر اقتصاديا في مطلع عهد السادات :

عندما تولى أنور السادات السلطة كانت مصر تعاني أشد البلاء من الهزائم التي نزلت بها في عهد جمال عبد الناصر ، ومن الاضطراب الاقتصادي الذي كان قد أكل كل ثراء مصر ، وتركها على النحو الذي رسمه أنور السادات إذ قال : ان مصر كانت كشخص تزف كل دمه ، وخلت سرايته من الدم .

وكانت مصر بالإضافة الى ذلك تعاني من سخرية العالم بعد هزيمة ١٩٦٧ وتعانى القطيعة من كثير من الدول ، وأخذ أنور السادات يتحسس طريقه برفق في الميدان السياسى والعسكرى والاقتصادى حتى انفجرت مشكلة ماين التي نتحدث عنها فيما يلى :

حركة مايو :

شهور قليلة مرت بين بدء رئاسة السادات للجمهورية في ١٥ أكتوبر ١٩٧٠ وبين حركة ١٥ مايو من العام التالي ، وهذه الشهور كانت حافلة بالتربص والاعتبار ، فقد سبق أن أشرنا الى أن السادات لم يكن على وفاق مع المحيطين بعبد الناصر ، وكان يُعتَبر دخيلاً عليهم ، فكانت الكراهية متبادلة بين الطرفين ، ولكن ذكاء السادات جعله يحضى الرأس خلال الفترة الأولى ليظفر بالرياسة ، فلما تم له ما أراد ، بدأ يدبر المكائد لينتفض على هؤلاء .

وفي نفس الوقت كان هؤلاء يدبرون الخطط للتخلص منه ، وكان الأسبق سينال الفوز ، فالضربة الأولى كثيرا ما تكسب النصر لصاحبها ، واستقر رأى السادات على أن يضرب بسرعة قبل أن يتعرض لهجوم أعدائه ، واعتمد في ذلك على شخصين مهمين أحدهما لقيادة الجيش وهو الفريق محمد صادق ، والآخر لقيادة الشرطة وهو ممدوح سالم ، واتفق معهما سرا على أن يكون الأول وزيرا للدفاع ، والثاني وزيرا للداخلية وفي لحظة خاطفة استولى كل منهما على السلطة التي أصدرت السادات قرارا بتعيينه فيها ، وتم القبض على القيادات العسكرية والسياسية المقاومة للسادات ، وفي قمتهم على صبرى وشعراوي جمعة وسامى شرف ومحمد فوزى ولم يكن لأحد من هؤلاء مكان في نفوس الشعب ، فبارك الشعب نهاية هذه الشرذمة التي طالما نكلت به وامتصت دماءه وأعانت عبد الناصر عليه وقد جرت محاكمة هؤلاء ، فأدينوا وصدرت ضدهم أحكام مختلفة ، وعلى الباغي تدور الدوائر .

ويلاحظ المطلعون أن السادات قبض على أعدائه الذين كانوا ينافسونه ، ليتمكن لسلطانه ، ولم يقبض على باقى أعداء الشعب ، فاللصوص ، وتجار المخدرات ، والذين أثروا بالباطل لم يُصيَبْ منهم سوء .

١- ثورة التصحيح :

بقيت كلمة تدعو للسخرية هي استعمال كلمة « ثورة » فلقد قام
بش بحركته التي دمرت البلاد والعباد وأسموها « ثورة » وهي في
الطلاح الحقيقي ليست الا انقلابا ، ثم قبض السادات على أعدائه ،
وأخرى استعمال كلمة ثورة فقد طابت له هذه الكلمة فأسمى حركة
الرجوع من أعدائه « ثورة » أو « ثورة التصحيح » .

وبعقب ثورة التصحيح أعيد تكوين مجلس الوزراء والاتحاد
الوزاري ومجلس الشعب ومجالس الادارات ، كما أعيد انتخاب مجالس
البلديات والأندية وأصبح للحكم وجه ساداتي جديد .

ويعتبر عهد أنور السادات عهدا يختلف في قيمه واتجاهاته اختلافا
كبيرا عن عهد سلفه ، وقد ظهرت به معالم من النور ، ووجدت به
بعض ملامح من التقدم ، وان ظهرت بجانب ذلك بعض البقع السوداء ،
فإن أهم هذا العهد هي :

١- عودة اسم مصر ، ففي أول سبتمبر ١٩٧١ صدر اعلان دستوري
بأن اسم مصر لاسم « جمهورية مصر العربية » .

٢- اطلاق الحريات الى حد كبير ، وسيادة القانون فيما لا يناقض
رغبات الرئيس ، واعلان الدستور الدائم وهو أيضا دستور غير شعبي
ومستعجل عيونه عند الحديث عن عصر حسنى مبارك .

٣- أنهى عقود الخبراء السوفيت ، واستعاد القاعدة الحربية
التي كانت قد منحت لهم ، فأخذ مصر من الشيوعية الملهدة .

٤- العيور وهزيمة اسرائيل ، وقد سقط من اسرائيل عدد ضخم

من الجنود والضباط قتلوا وجرحوا وأسرى ، واستعادت مصر قنصاة السويس ، واهترت إسرائيل اهترازا عنيفا في كل مجال وتأزمت الأمور عند الأعداء حتى صح أن يقال اننا صدّرنا الى إسرائيل حالات التمزق التي كان يعيش فيها العرب عقب هزيمة ١٩٦٧ •

٥ — أعيد فتح قناة السويس للملاحة الدولية في ٥ يونيو ١٩٧٥ • واختيار ٥ يونيو لذلك كان ذكاء من السادات ليدأوى جراح هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ •

٦ — اعلان فك الارتباط الثانی في أواخر أغسطس سنة ١٩٧٥ وبمقتضاه تقرر انسحاب إسرائيل الى ما خلف الممرات في سيناء ، كما تقرر أن تعود منابع بترول أبو روديس والبلاعيم الى مصر ، وهكذا حاربنا وابتصرنا فاستطعنا أن نستعيد القناة ، وجزءا من سيناء مجاورا لها ، ثم تفاوضنا واستعدنا باقى سيناء ولكن بشروط فيها نوع من انتقاص السيادة ، وعلى كل حال فالحديث عن معاهدتى كامب ديفيد سيأتى بالتفصيل في الجزء العاشر •

٧ — من أبرز معالم هذا العهد أن عادت الابتسامة لشفاة المصريين ، وأمن الناس على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ، وذلك ما لم يتحقق لهم طيلة العهد القاتم السابق •

٨ — ومن الاصلاحات الداخلية التي برزت في عصر السادات انشاء المدن الجديدة : العاشر من رمضان ، والسادات ، ومايو ، والسلام ، وانشاء نفق أحمد حمدي والطرق الكثيرة والكبارى العلوية ، واصلاح التليفونات

٩ — حاول أنور السادات أن يخلق في البلاد جوا من الديمقراطية ، ولكنه حرص على أن تكون ديمقراطية مستأنسة أو خاضعة له ، وهذه في الحقيقة لا يمكن أن تكون ديمقراطية حقيقية ، وعلى كل حال فقد اتجه للاتحاد الاشتراكي ليخلق فيه ما أسماه « منابر » لليمن واليسار والوسط ، ثم اتجه لخلق الأحزاب فكلف « ممدوح سالم » أن يؤلف حزب

مصر ، وكلف ابراهيم شكري أن يؤلف حزب العمل ، وظهر حزب الوفد الجديد ، وكانت هذه ديمقراطية عرجاء ، ولنا حديث طويل عن الأحزاب والديمقراطية والدستور بعد عبد الناصر ، ويستندم هذا الحديث ضمن أحاديثنا عن عهد حسنى مبارك بعد قليل •

١٠ — كانت زوجة أنور السادات تسمى نفسها « سيدة مصر الأولى » ومن الواضح أنها تتحذر من دم ليس عريقا فى المصرية ، ولذلك كان هذا اللقب يؤذى شعور المصريين دون استثناء ، وكنا نهتف دائما بأننا جميعا خدم مصر وليس أحد سيذا لها ، ولكن هذه السيدة عشقت هذا اللقب اللعين الذى جرّ عليها كثيرا من السخط واللعنات ، والذى لم تستغله زوجة عبد الناصر ولا زوجة حسنى مبارك •

١١ — بالإضافة الى ما حققه أنور السادات من انتصارات فى المعركة ، نجده قد حقق نصرا فى المفاوضات مما أتاح الفرصة لاستعادة سيناء وإعادة فتح قناة السويس واستعادة بترول المنطقة ، ولكن الساداتى عقب ذلك تآله وتكبر وتجبر ، وكان عليه أن يشكر الله وينحني اليه •

١٢ — وفى عهد السادات — للأسف — ظهر كثير من الانحراف والاهمال والاثراء على حساب الشعب وكان ذلك نتيجة لما سمي « الانفتاح » فقد ظهرت طائفة مسعورة لكسب المال بأى وسيلة من الوسائل ، عن طريق ما سمي التصدير والاستيراد أو عن طريق تغيير العملة وظهر كثير ممن يملكون الملايين أو المليارات بدون وجه حق •

١٣ — وفى الخامس من سبتمبر سنة ١٩٨١ أى قبل نهاية الساداتى بشهر أصدر هذا أوامره باعتقال حوالى خمسة آلاف شخص من المصريين وزج بهم فى المعتقلات ، وكان فيهم الشيخ الكبير والشاب والرجال والنساء والمسلمون والأقباط والشيوعيون والإخوان المسلمون ، فكان التشفّى ظاهرا فى هذا العمل المزرى •

وفي السادس من أكتوبر ١٩٨١ سقط السادات في حادث المنصة ،
وسبحان الباقي وسيشمل الجزء العاشر من هذه الموسوعة ان شاء الله
تفاصيل ما أوجزنا هنا من أحداث .

الحيدة الكاملة في تكوين التاريخ :

وفي ختام حديثنا الموجز عن أنور السادات نبرز نهجنا في الدراسة ،
ذلك النهج الذي يقوم على الحيدة المطلقة ، فقد مدحنا أنور السادات في
حركة مايو حين خلصنا من بعض أعداء الشعب ، ومدحناه بعمق في
إعداده لمعركة رمضان ، وإدارته لها ، واستعادة سيناء ، وإعادة فتح
قناة السويس ، واستعادة مصادر البترول المصري ، وهذه مواقف جديرة
بالتقدير ، وانتقدناه في قضايا أخرى كما مر .

ونريد هنا أن نثنى على صحيفة « الوفد » : فإنها — على الرغم
مما عانى حزب الوفد وزعيمه من تصرفات السادات — كتبت في عدد
١٩٨٦/٥/٢٢ الكلمة التالية وبجوارها صورة السادات :

يوعان خالدان في تاريخ مصر :

يومان عزيزان على المصريين جميعا ، خالدان في تاريخ مصر وشعبها
العريق ، اجتمعا معا في أسبوع واحد ، واحتفل بهما كل بيت وكل قلب
يخفق بحب هذا الوطن . اليوم الأول هو الخامس عشر من مايو ،
الذي تحطمت فيه قيود المصريين ، وانهارت دولة الظلم والظلام
والارهاب . واليوم الثاني هو العاشر من رمضان ، يوم حرب التحرير
الخالدة ، وذكرى استرداد الأرض والكرامة : وصفحة التاريخ المشرقة ،
التي سطرها أبناء مصر وأبطالها بدمائهم الطاهرة ، إننا في هذه الذكرى ،
نتوجه بالتحية الى أبطالنا ، ونترحم على شهدائنا ، ونذكر الرجل الشجاع
الذي كان صانع القرار الجسور في اليومين . . الرئيس الراحل
أنور السادات .

ثورة ٢٣ يوليو في الميزان

هذه « القفزة » التي تُسمَّى نفسها ثورة ، والتي يسمِّيها بعض الناس « عصابة » أو انقلابا ، قامت سنة ١٩٥٢ ، واستغرقت حماستها ونارها عهدى عبد الناصر والسادات مع خلاف كبير بين العهدين ، وبخاصة بالنسبة للإصلاحات والاضطهادات ، .. أقول أن هذه الثورة انقضت بانقضاء عهد السادات ، ولم يبق لها إلا ملامح قليلة في عهد محمد حسنى مبارك ، ملامح من بقايا هيئة التحرير التي تحركت الى الاتحاد القومى ، فالاتحاد الاشتراكى ، فحزب مصر ، فالحزب الوطنى الحاكم عند كتابة هذه السطور سنة ١٩٨٦ .

ومعنى هذا أن الثورة لم تختف بعد ، فلا يزال دستورها هو الدستور المعمول به ، ولا تزال مؤسساتها قائمة ، ولا تزال كثير من القوانين الفاسدة التي أصدرتها معمولا بها ، وعلى كل حال فالأمل أكثر الآن فى أن نطوى صفحات هذه الثورة ، وأن نبدأ من جديد حياة جديدة ، سائلين الله أن يعوضنا عن عثرات السنين التي أضاعها الجهل وسوء التدبير ، وأن يساعدنا لتعيد العمران لبلادنا التي دمرتها هزائم عبد الناصر الساحقة (انظر صورته بعد هزيمة ١٩٦٧) على الصفحة التالية .

وقد كتبتُ عن هذه المصيبة كثيرا حتى ظن بعض المتسرعين أننى متحامل ، أو متشدد ، والجق أننى أدوّن التاريخ بكل إنصاف ، وأحسُّ وأنا أدوّنهُ بالمسئولية الكبرى أمام الله وأمام الناس ، ولأجل أن أزيد الموضوع ايضا أنقل فيما يلى آراء صفوة من المفكرين المصريين فى هذه الثورة وبخاصة فى الديكتاتور الظالم عبد الناصر .



منظر لصانع الهزائم

وهو يحاول الهرب من هزيمة ١٩٦٧ فيلاعب نفسه « الشطرنج » ولكن
تلاحقه أصداء الهزيمة الساحقة ، وتدق رأسه أرواح الآلاف الذين
دفع بهم للموت ، وتتركت جثثهم للوحوش والهوام في سيناء .

محمود أبو الفتح والثورة :

يقول الأستاذ محمود أبو الفتح في إحدى مقالاته يصور ما حدث
لمصر خلال هذه الثورة :

« في مطلع عهد الثورة فقدت مصر أهم العناصر التي تحمي الإرادة
المستقلة وهي الحرية ، والاكتفاء الغذائي ، والتقدم الانتاجي ، ثم
سار الحاكم في أسلوب حكمه كالاتي :

**** ضرب الحاكم كل الحريات واستباح القتل والشنق والتعذيب
الوحشي والاعتداء على شرف السيدات .**

**** اباح الحاكم للانصار كل ما يمكن تصوره من جرائم الاثراء
الحرام .**

**** انقضت الشهوات الجامحة على الثروات كانتقاص الوحوش
الجامعة ، وسرعان ما اختفت الثروات وتم احتلال القصور وخطف
المناسب .**

**** انقضاء رهيب وصل الى القمة للبحث عن الرفاهية في صورة
مصايف في جزيرة الشاي بحديقة قصر المنتزة يمتنع على أى مصرى أن
يقربها أو يتدخل أرضها ..**

**** المتاحف والقصور حانظت عليها الثورات الهمجية في فرنسا
وفي روسيا .. أما في مصر فقد نهبت واختفت المجوهرات والمتحف التي
كانت في قصور أسرة محمد على ، وحتى رخام مقبرة أسرة محمد على
قد نهب وسرق .. تصوروا بيتا بينى برخام مسروق من مقبرة !!**

**** وكل ذلك يتم والويل كل الويل لمن ينقد أو حتى ينتهم
زيفا بأنه ينقد .. فقد أصبح القانون وأجهزة « الأمن » لحماية الجريمة !!**

ودفن الحاكم المصرى عزة مصر :

**** ولأول مرة في تاريخ مصر منذ العهد الفرعونى يمسد الحاكم**

يده يطلب المعونات • • يطلب الاكل • • ويمدها بن • • لأمريكا • •
التي يباهى بأنه يعاديتها ويحارب امبرياليته • •

• • ويستطيع كل انسان أن يدرك مدى سعادة حكام أمريكا إذ
يرون حاكم مصر يطلب الغذاء منهم •

• • افتقرت مصر وضاعت ثرواتها وبدأ حاكم مصر يقترض ويطلب
المزيد من المساعدات من الاتحاد السوفيتي والكتلة الشرقية •

• • وتم دفن استقلال الإرادة الوطنية المستقلة ، فالجائع الذي
يلتمس المعونات والقروض ليس له إرادة وليس له استقلال •

خبراء وقواعد عسكرية وانكشارية :

• • ١٧ ألف خبير روسي يسيطرون على كل أمور مصر وخصوصا
جيش مصر •

• • قاعدة بحرية على أرض مصر لاساطيل الاتحاد السوفيتي •

• • الجيش المصري يتم قتل شبابه بحجة الدفاع عن لومومبا
في الكونغو وفي سبيل تحرير اليمن •

• • ولا يمكن الجيش من الدفاع عن أرض الوطن ، بل يقتذف به
قذفا في نزق وطيش لم يُعرَف تاريخ « نيرون » بمثله ليموت الآلاف
وتتدمر أسلحة بالآلاف الملايين ويستولى العدو على بترول مصر ويجلس
جنود العدو وقد أدلوا أحذيتهم في مياه قناة السويس التي كان الحاكم
الفائل يباهى بتأميمها •

انتصارات • • وانتصافات :

• • قضى الله امره وتغير الحاكم وحقق الحاكم الجديد بسرعة
مذهلة عدة انتصارات ، إذ أنهى تغفل الخبراء الأجانب ، والقاعدة الحربية
الأجنبية ، وخفف القيود على الحريات الشخصية للمصريين ، ثم توج
الانتصارات إذ أناح لجيش مصر الباسل فرصة الانتقام من العدو •

** كان من الممكن أن يقفز بمصر ، ولكن مرة أخرى انقضت الشهوات التي لا تشبع على الثروات ، وكان الوليمة قد أعيد نصبها للكواسر الجائعة .

** وعم الفساد وانتشر وارتفعت أرقام الديون ارتفاعا رهيبا .. وتضخمت امتيازات « الثوار » والمحاسب .

وأصبحت مصر :

** وهكذا أصبحت مصر من دولة تملك إرادتها المستقلة بتأييد شعبها ورخاء اقتصادها الى دولة فقدت إرادتها لأنها في حاجة الى ٧٠٪ من قوت الشعب .

** تحولت مصر من دولة دائنة الى مدينة . من دولة سلمية المرافق الى دولة مدمرة المرافق ومن دولة ينعم شعبها بالقناعة والرضاء الى دولة تعج بالرشوة والفساد وضياح مئات الملايين ...

** وأخيرا وليس آخرا تحولنا من دولة كانت لها أحزابها التي تتكون بارادة شعبها وكانت لها صحافتها الحرة وقانون انتخاب مثالي .. الى ما نحن فيه ..

ومع ذلك يحتفلون :

** رغم كل هذه الحقائق لا تزال الحكومة تحتفل بعيد تلك « الثورة » وتسميه العيد القومي .. ولكن ليس في الأمر غرابة فالحزب الذي يحكمنا هو الذي أيد كل ذلك والذي انتزع من كل ذلك .. ولا يغير الله ما يقوم به حتى يغيروا ما بأنفسهم .

جلال الدين الحمامي والثورة :

ولنترك الأستاذ محمود أبو الفتح الى كاتب حر آخر ، هو الأستاذ جلال الدين الحمامي ، وله عن الثورة وعهدا كتب وبحوث ضافية ،

ولكننا نقتبس منه كلمة قالها في الأخبار يوم ١٩/٢/١٩٨٦ عن زعماء الثورة الذين ينشرون مذكراتهم بالصحافة العربية ، قال سيادته :

يعرض أقطاب عهد ما بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ « في هذه الأيام » أوراقهم السياسية على شعوب العالم العربى ، إذ لا تخلو جريدة أو مجلة عربية من « حلقات مسلسل » يكتبها هذا أو ذاك من الشخصيات التى حكمت مصر ، وأمسكت بخيوط سياستها الخارجية والداخلية • ومن مضمونها يمكن أن تحكم على نوعية العقول التى حكمت مصر وقادتها الى هذه التركة الثقيلة التى دوخت الشعب وجعلته يفقد اتزانه ويفرق فى بيون خارجية ومشكلات داخلية متراكمة •

ومع هذا ورغم كل ما فعلوا فانهم يطفون الآن على السطح بلا خجل أو حياء ويتكلمون ، ولا يعتذرون بل وتسمح لهم الحريات — التى خاصموها وعطلوا ممارستها لسنوات فوق سنوات — بعودتهم كي يكونوا جزءا يتفاعل مع مجتمعات يحاول ازالة آثار عدوانهم على كل شيء •
مصطفى أمين والثورة :

أما الكاتب العملاق الأستاذ مصطفى أمين ، فهو يمثل الآن قلب الحرية الخفاق ، وهو يكتب كل يوم ما يجيش بنفوس المصريين ويصير عن مشاعرهم ، ولا يتوقف قلمه عن عرض مساوىء هذا العهد الأسود ، ولذلك لا نستطيع أن نقتبس منه شيئا ، فكل ما يكتبه يمكن أن يكون قبسا من النور يبرز أوكار الخفافيش ، ومخايب الطغاة الذين حكموا مصر فى هذا العهد القاتم ، ونحيل القارئ الى « فكرة » ففها فى أكثر الايام تنديد بالطغمة الفاسدة التى أخذت يوما مكان الزعامة ، وكان جديرا أن تختفى فى ركن مظلم مع السفاكين واللصوص •

وفى « فكرة » بتاريخ ١٩٨٦/٣/٢٢ يصف أسباب ما نعانیه اقتصاديا بقوله :

قد بدأت المصيبة عندما بعنا احتياطي الذهب لنصرف على حرب اليمن ، وعندما اشترينا مصانع قديمة نصف عمر على أنها مصانع جديدة ، وعندما خسرنا أسلحتنا في الحروب التي خسرناها •

وعندما أرسلنا قواتنا الى الكونغو لتسند نومومبا ، وأرسلنا قواتنا الى العراق لتحمي عبد السلام عارف ، وعندما أرسلنا طيراننا الى نيجيريا ليضرب سكان بيافرا بالقنابل ، وعندما أرسلنا جيوئثنا لتحمي السلال في اليمن ، كل هذا وغيره من المغامرات هو الذي أرق الجنيه المصري الذي كان في يوم من الأيام يساوي خمسة دولارات وكان أعلى من الجنيه الاسترليني بقرشين ونصف قرش ، كنا تصدر القمح وأصبحنا نستورده ، ونصدر الأحذية وأصبحنا نستوردها ، ونصدر مختلف أنواع القطن والحرير وأصبحنا نستوردها !

دكتور نعمان جمعة والثورة :

ويذكر الأستاذ الدكتور نعمان جمعة بعض ما تبقى في عهد حسنى مبارك من أسباب الاضطراب الاقتصادي ويقرر ضرورة الاسراع في إلغائها والتصرف بشأنها وهى :

مجلس الشورى ، والمجالس القومية المتخصصة ، واكاديمية البحث العلمى ، (اكتفاء بالمركز القومى للبحوث) وهيئة الكتاب الجامعى ، وجهاز المدعى الاثلىتراكى ، ومحاكم القيم ، وعديد من السفارات والقنصليات ، وبعض الوزارات ، ومخصصات عائلتى رئيسى الجمهورية السابقين ، وبيع أراضي المعصورة المحيطة بقصريهما ، والمبادرة الى مراقبة الميزانيات السرية التى ينفق من خلالها على شراء معدات الجيش ونفقات الرئاسة ، ومنع سفر أى موظف رسمى الى الخارج وأداء أى عمل مطلوب بواسطة سفاراتنا ، وتأجير قصور أسرة محمد على فى أنحاء مصر كفنادق عالمية لادامة أثرياء العالم ، وعلى رأس هذه القصور « المنتزه ، ورأس الحكمة ، وكنج ، ريوط » •

دكتور ابراهيم عبده والثورة :

وننتقل الى كاتب خامس هو الأستاذ الدكتور ابراهيم عبده الذى كتب فى ١٣/٢/١٩٨٦ يقول :

وأحب أن أبصّر أبناءنا الذين أسعدهم الحظ فلم يعيشوا مثلنا أيام عبد الناصر ، فقد سجن عشرات الألوف من المواطنين ، وليت الأمر قد اقتصر على السجون ، فقد صلب السجن تعذيب هؤلاء المواطنين بكى مواضع حساسة من أجسامهم ، وتعليقهم كالذبائح ، وضربهم بالسياط ، ليعترفوا بجرائم لم يرتكبوها ، ومن المضحكات المبكيات أن بعض إخواننا الأقباط قبض عليهم وسجنوا وعذبوا على أنهم من خلايا الإخوان المسلمين ؟ !! ولم يقف الأمر عند هذا التعذيب الوحشى ، بل تعداه الى كفر لا ترضى عنه شرائع الأرض والسماء ، فكان زبانيته يأتون بزوجات وبنات المسجونين ، وكم فسقوا وهتكوا من أعراض ، وكم من ضحاياهم ماتوا نتيجة التعذيب ؟ فضلا عن مصادرة أملاكهم وطردهم من بيوتهم والاستيلاء على مقتنياتهم .. وهذا الذى أحكيه لكم يا شباب أسجله نقلا عن أحكام المحاكم التى أدانت عهده ، ووصفته بأحط الأوصاف ، وفى حكم منها صورت المحكمة لنا كيف أمر بتدريب الكلاب مواطاة الرجال وهو ما لم يفعله الفاشيون والنازيون ، ولا مر على سجن الباستيل ؟ !

ثم ماذا يا شباب ؟ أحدثكم عن آخر مآسى عبد الناصر فى سياسته الداخلية ، فقد كان له صديق حميم يدعى عبد الحكيم عامر الذى رقاہ من رتبة الرائد فى الجيش الى رتبة اللواء متخطيا فى ذلك جميع زملائه أربع درجات ونصبه قائدا عاما على الجيش ! ثم رقاہ الى رتبة المشير وهى ذروة الترقيات ، ثم اختلف معه عقب هزيمة ١٩٦٧ فاعتقله ثم دس له السم وقتله ، ودعنا من حياته الخاصة حين كان فى الجيش فى رتبة الرائد أو فى رتبة المشير .. فقد ذكرت الصحف منذ عدة أيام أن بناته

سُرِقَ قصرُهم ، وأن التحقيق في أمر السرقة كشف لنا أن خدم البنات قد بلغ عددهم سبعة عشر خادما وخادمة !! وأن المسروقات مجموعة من الجواهر النادرة !! ونجو ألفي جنيه كانت موجودة في البيت ، للمصاريف العاجلة ، فمن أين لهم كل ذلك الثراء !!

مَنْ هَرَبَ الملايين ؟

ويستمر الدكتور ابراهيم عبده فيروى ما يلي :

يقول كاهن الناصرية الأكبر (يقصد محمد حسنين هيكل) أن خمسة وأربعين بليوناً (بلياراً) من الدولارات ، خرجت من مصر الى حسابات بعض المصريين في بنوك الخارج ! ومما لا شك فيه أنه يعنى بذلك عبد الناصر وحاشيته وأولاده وأصهاره .

والفساد كله بدأه عبد الناصر فهو الأستاذ في هذه المجالات : الديكتاتورية ، التعذيب ، سرقة الأموال ، الجهل بالسياسة ثم سار تلاميذه في طريقه ولا يزالون يسرون ، وقد ذكرت صحف القاهرة في فبراير ١٩٨٦ أن ٧٠٠ قضية اختلاس قد حرّكتها النيابة ، وأن عضابة يتزعمها وكيل أول وزارة الصناعة قد قبض عليها متلبسة برشوة قدرها خمسة ملايين من الجنيهات لتجيز إقامة مصنع ألماني للورق في الصعيد .

إنها آثار الزعيم الذي لا يزال بعض الجهال يصفقون له .

الضعفاء وشبح عبد الناصر :

ومات عبد الناصر ، ووسد التراب ، ولكن خياله كان يلاحق الضعفاء ، وسطوته كانت لها سيطرة ، ولهذا انحنى السادات أمام صورته بمجلس الشعب ، وهو تصرف وثنى ما كان يليق ، ثم انطلق مجلس الشعب يقرر منح أسرة عبد الناصر مرتباته ومخصصاته بدون ضرائب ،

ويمنحها قصرين شاسعين بالقاهرة والاسكندرية وما حولهما من الحدائق والمنترحات ، مع السيارات والتليفونات * * * * *

ووافق أنور السادات على ذلك كأنه كان يمهّد لتصرف مماثل لأولاده من بعده ، وقد نال ذلك أيضا من مجلس الشعب الذي لم يكن في عهد عبد الناصر أو السادات يمثل رأى الشعب على الإطلاق •

نقاش حول القصور والحدائق :

وجاءت الأزمة الاقتصادية التي تركزت أسسها في عهد عبد الناصر للأسباب التي ذكرناها ، واتجه الناس جميعا للمساهمة في تسديد ديون مصر ، وفي محاولة الحصول على موارد تساعد على تخفيف هذه الأزمة ، وكان من ذلك ما كتبه الكاتب لفتتنازل أسرنا الزعيمين عن مئات الأفدنة بين القصرين الكبيرين بالمعمورة ، وهنا شحذ خالد عبد الناصر قلمه ليدافع عن هذه الأرض ، وذكر أنها تراث الزعيم ، ومنها صدرت القرارات التي غيرت وجه الحياة في مصر والعالم العربي * * * * * ويشبّهه — للأسف بالأهرام والقلعة • يالله •

وعلق الأستاذ وجيه أبو ذكرى في « الأخبار » يوم ١٥/٤/١٩٨٦ على هذا الرد ساخرا بقوله : بودى أن أرى البيت الذي أصدر الزعيم فيه قرار دخول قواتنا الى اليمن ، وقرار حرب يونيو ١٩٦٧ بدون استعداد ، وقرار الانسحاب من سيناء الذي ترك الأرض والرجال والآلات لإسرائيل •

والذي صدرت به قرارات التعذيب والاضطهادات وزوار الليل ؟

وانبرى أحد كتّاب صحيفة « الوفد » وهو المهندس محمد منير يسأل :

— اذا كان قصر المعمورة وملحقاته مثل الأهرام والقلعة ، فاخرجوا منه فهو ملك للشعب كالأهرام والقلعة •

— وإذا كان قد صدرت منه قرارات لصالح الأمة العربية ، فلتسهم الأمة العربية في شرائه ووقفه للتاريخ .

— ثم انبرى هذا الكاتب يخاطب ابن عبد الناصر فقال له :

وإذا كنتم عريصين على التراث والتاريخ لماذا لم تقوموا بشراء شقة شارع الجلالى حيث تزوج أبوك وأنجب ولماذا لم تحتفظ بالسرير الحديد الأسود كتراث وذكرى للوالد العظيم ؟ لماذا التشف والرياش فقط لا غير .. وإذا كنت عاشقا للذكرى فأمامك حارة اليهود .. لماذا لا تعودون الى حارة خميس عدس رقم ٣ بحارة اليهود حيث عاش عبد الناصر شبابه .. عودوا الى حارة اليهود فهى الأصل والتاريخ الأول الواجب الحفاظ عليه .. وليس قصر المعمورة الذى بنى من مال الشعب المظلوم ، لماذا لا تدعو الأسرة والأحباب لجمع خمسين مليون جنيهه مثلا — وأنتم القادرون على دفع المليارات — لشراء قصر أو أهرام المعمورة من الشعب المطحون ؟

وتراجعت الأسرتان أمام هذا الضغط الشعبى وتنازلا عن قصرى المعمورة ، ولكنهما للأسف لم تتنازلا عن قصور القاهرة وعن المرتبات والمخصصات ، ليستمر لهما سيل الترف بينما مصر تتن من الديون التى جلبتها الثورة فأحنت ظهر البلاد .

ماذا عن محاسن الثورة ؟

وإذا كانت مساوىء الثورة قد شملت كل شيء ، فاننا نسأل سؤالا مهما هو : أليس لهذه الثورة من محاسن ؟

ان المتسرعين يذكرون أن من محاسنها جلاء المستعمر الانجليزى ، والسد العالى وقانون الاصلاح الزراعى ، وانهاء الملكية الفاسدة ، ومساعدة اليمن والكنغو . . .

أما الاستعمار فقد انكشش من العالم كله واختفى ، ولم يكن محتاجا الى ثورة ليجلو ، وأما السد العالى فمشكلة شديدة التعقيد ، وبعض المهندسين الكبار عارضوه ، ولا يزالون يعارضونه ، وقد عرف النيل أنواعا من السدود على مر التاريخ ، وفي الجزء التاسع أوردنا دراسات مفصلة عنه ، واقتبسنا آراء كبار المهندسين ، وأما الملكية فكانت في عهدها الأخير فاسدة فعلا ، ولكننا قضينا على ملك ووضعنا في السلطة ملوكا كثيرين لا نزال نعانى من سلطاتهم ، وأما مساعدة اليمن والكونغو بما يحتاجانه فسخرية وجهل ، كأن تطعم محتاجا في الطريق وتترك أهلك وولدك يتضورون من الجوع ، وقد أقفلت روسيا أبوابها وكانت تعيش خلف ما يسمى « الستار الحديدي » حتى بنت نفسها ، ولكن عبد الناصر كان متعجلا يريد أن يحكم العالم بسرعة ، فخر في الطريق وخرت معه مصر . وأما قانون الإصلاح الزراعى فقد فتكت الملكية ، ولم يكن قط لهدف الإصلاح ، وإنما كان لضرب بعض الناس الذين اعتقدت الثورة أنهم لا يؤيدونها •

وعلى كل حال فاننا نقرر أنه لا توجد محاسن لدولة حرمت الانسان من حقوقه ، ونكلت به ، فالانسان قمة ما خلق الله ، واضطهاده هو اضطهاد لكل القيم ، وقد نكل عبد الناصر بالجميع بما في ذلك من كانوا أقرب الناس اليه كمحمد نجيب وعبد الحكيم عامر وكمال الدين حسين ، فما بالك بالآخرين •

محاسن الثورة في رأى رجالها :

في ٢٩ / ٥ / ١٩٨٦ طالعنا صحيفة الأخبار بمقال للأستاذ موسى صبرى ، وهو ضليح في ولائه للثورة ، وفي هذا المقال يوجز الكاتب محاسن الثورة ومساوئها ، ونحن ننقل كلماته عن ذلك فيما يلي :

عبد الناصر غير وجه التاريخ ، من ملكية فاسدة يحميها الاستعمار البريطاني ، الى جمهورية تحكم باسم الشعب • قضى على الاقطاع •

ملك المعدمين • انتصف لحقوق العمال • أعاد قناة السويس الى المصريين •
ألهب بثورة مصر حركات التحرير وثورات الاستقلال في العالم الثالث •
هذه الأمجاد تقابلها أخطاء وخطايا أهدرت الحريات في ظل نظام حكمه •
هذا هو عبد الناصر في رأى أحد كتّابه فلنناقش هذا الرأى مناقشة سريعة :

غير وجه التاريخ : كلام عام يقول به من لا يجد حقائق يرويها ،
ويمكن أن يفهم أنه جعل وجه التاريخ قائما •

— الملكية : كانت فعلا فاسدة ولكن الملوك والأباطرة الذين جاءوا
بعد فاروق كانوا طغاة فاقوا فاروق في كل شيء ، وما كان فاروق بجوارهم
شيئا •

والأبى يتقى موسى صبرى ربّه عندما يقول : إن عبد الناصر حوّل
السلطة الى جمهورية تحكم باسم الشعب ؟؟ وكيف سمّي الديكتاتورية
الفاسدة حكما باسم الشعب ؟ حسابه على الله •

— تقضى على الإقطاع : لم يكن عندنا إقطاع ولكن ملكيات كبيرة ،
والفرق عظيم بين الإقطاع والملكيات الكبيرة وبالقضاء على الملكيات الكبيرة
أصبحنا نشترى رغيف الخبز من أعدائنا ، واختفت أرضنا الزراعية التي
ورثناها من عهد الفراعنة •

— ملك المعدمين : المعدمون في زيادة فقرا وعددا •

— الأعمال : صرخة تدوى بمصر الآن لتحسين الانتاج والجد في
العمل •

— إعادة قناة السويس : في الحق أنه بهزائمه أضاع قناة السويس
فقفلت من سنة ١٩٦٧ الى سنة ١٩٧٥ •

— حركات التحرير في العالم الثالث : تقابلها حركات الاستعباد في
مصر ، وكيف يهتم بالعالم الثالث ويهمل بلاده ؟

— أما جملة موسى صبرى الأخيرة « أخطاء وخطايا أهدرت الحريات
في ظل نظام حكمه » هذه الجملة صادقة ، وهى تمنح كل محاسن إن كانت
هناك محاسن •

عهد محمد حسنى مبارك

(من ١٣ أكتوبر ١٩٨١)

خصصنا جزءاً من موسوعة التاريخ للحديث عن عصر عبد الناصر هو الجزء التاسع ، وخصصنا الجزء العاشر للحديث عن عصر أنور الساداتى ، فقد كان كل منهما من صناع ثورة ٢٣ يوليو ، وبانتهاء عصر أنور الساداتى نحسب بأن مصر عادت رويدا رويدا الى الحياة الطبيعية ، وأن ظلام هذه الثورة قد زال ، وان كانت آثار هذا الظلام لا تزال باقية كما ذكرنا من قبل ، وكما سنذكر فيما بعد .

ومن أجل هذا لا نخصص جزءاً من الموسوعة للحديث عن حسنى مبارك أو من يخلفه ، بل نعود لنرصد تاريخ مصر ، بعد أن زال هؤلاء الذين كانوا لا يمثلون مصر تمثيلاً حقيقياً ، وبخاصة عبد الناصر الذى كان بحق عدواً ظاهر العداوة لمصر وتراث مصر .

وقد كان أنور الساداتى قد تخلص نهائياً من بقايا أعضاء مجلس قيادة الثورة ، عقب حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، وكان حسين الشافعى عند هذه الحرب لا يزال نائباً لرئيس الجمهورية ، وكان سيادته قانعا باللقب وامتيازاته الأدبية والمادية فى حدود مكتبه الفاخر وسيارته الأنيقة ، ولم يكن له أى نفوذ فى الداخل أو الخارج .

وبعد حرب أكتوبر أنهى أنور الساداتى مهمة حسين الشافعى وعين محمد حسنى مبارك نائباً لرئيس الجمهورية ، وقال إن هذا الرجل يمثل جيل أكتوبر .

ولم يكن لنائب الرئيس نفوذ يذكر طيلة عهد الساداتى اللهم الا رسائل وافكارا يحملها من وإلى الساداتى .

وكان حسنى مبارك يجلس بجوار الساداتى على المنصة ، وشاهد حسنى مبارك عن قرب مصرع السادات وهو وسط جيشه وفى كامل أبهته ، واعتقادى أن هذا المشهد لن ينساه حسنى مبارك لأنه هزء كل من شاهده هزءاً عنيفاً ، فلم يكن الفرق بين الموت والحياة الا شعره بسيطة •

وعلى كل حال فقد حفظ الله حسنى مبارك ، وبعد أسبوع جرى استفتاء اختير بمقتضاه حسنى مبارك رئيساً للجمهورية •

منجزات فى عهد حسنى مبارك :

لقد مضى على عهد حسنى مبارك حوالى خمس سنوات حتى الآن ، وأبرز أحداث هذه الفترة هى :

— اكتمل فى عهده الانسحاب الاسرائيلى من سيناء فى ابريل سنة ١٩٨٢ •

— ألغى قرار الاعتقال الذى كان الساداتى قد أصدره ضد رجالات من زعماء مصر ، وخرج الزعماء من المعتقلات اليه حيث استقبلهم وحادثهم واستمع منهم •

— عادت مصر تواصل نشاطها فى المؤتمر الاسلامى ، وكانت عضويتها به مجمدة ، ومما يذكر ان الرئيس الراحل المرحوم سيكوتورى رئيس جمهورية غينيا والرئيس الباكستانى محمد ضياء الحق كان لهما دور كبير فى استعادة مصر لمكانتها •

ومن الحق أن نقرر أن مواقف متعددة وقفها حسنى مبارك من قضايا افريقية والعرب والعالم رجحت كفته ولفقت الأنظار اليه ، وقربت بينه وبين من كانوا يقفون من مصر ومن الساداتى مواقف العداء •

— حدث فى عهد حسنى مبارك تقارب ملموس بين مصر والعرب ،

وقد كان السادات يساعد العراق في حربها ضد ايران ، وواصل حسنى مبارك ذلك بكثير من الاهتمام ، كما كانت له مواقف قوية ضد اتجاهات اسرائيل العدوانية على الفلسطينيين وعلى لبنان ، وكل هذا قارب بين مصر والعرب •

— وقف حسنى مبارك وقفة طيبة للسماح للأحزاب المعارضة بالظهور ، فسمح لحزب الوفد باستئناف نشاطه ، وأيد الغاء القرار الذى كان يقضى بحرمان رئيسه محمد فؤاد سراج الدين من الحقوق السياسية •

— ظهر فى عهده مزيد من الحريات الصحفية للمعارضة •

— بدأت بعض الاصلاحات الداخلية تظهر للناس مما أحيأ الأمل فى حياة أفضل •

آمال يتطلع الشعب لها :

ولكننا نريد أن نقول كلمة للحق والتاريخ ، لقد كانت سياسة عبد الناصر سياسة جور وانغلاق وسرقات أتاحت الفرصة لكثير من الاتباع أن يحصلوا على الثراء بوجه غير مشروع ، ولكنهم أخفوه وتظاهروا بالفقر •

وجاء أنور السادات كما قلنا من قبل فابتكر سياسة الانفتاح ، وكانت هذه فرصة للصوص الماضى أن يظهرأ ثراءهم ويعملوا على تنميته بصور خارقة جعلت الغنى مركّزاً فى أيد قليلة ، وأضيف لهؤلاء لصوص العهد الجديد •

ماذا فعل حسنى مبارك إزاء ذلك ؟ وما هى سياسته فى هذا المجال ؟

لم يتضح موقفه بعد من هؤلاء اللصوص الذين لم يسألوا قط : من أين لك هذا ؟

والمستور السادات لا يزال معمولاً به ، وهو الذى يتيح لرئيس الجمهورية أن تتجدد سياسته عدداً غير محدود أى أن يبقى مدى الحياة ، فهو نظام ملكى مقنع ، أو هو فى نظر التاريخ أسوأ من النظام الملكى لأن الأسر المالكة العريقة تحرص على مكانتها من الشعب وتعمل لخيرها ، وتقف أمام أى عضو منها ينحرف عن الغاية أما النظام الجمهورى بهذا الوضع فقد جمع أسوأ ما فى النظم السياسية .

واختفاء" للأيدى العاملة فى جميع الحرف والصناعات تماماً ، مع زحام فى الإدارات وأمام مكاتب القوى العاملة .

ودفع" للمواهب للعمل بالخارج استمراراً لهيمنة الدولار مع توقف النشاط بالداخل فى مجالات متعددة .

وترك" لقرارات طائشة أصدرها عبد الناصر ولم يفكر خلفاؤه فى مراجعتها ، وقد أشرنا لها من قبل كإيجارات الأرض الزراعية وإيجارات المساكن حتى أصبح إيجار الفدان أقل من ثمن أردب من القمح مع أنه ينتج فى العام الواحد عشرة أردب من القمح وعشرة من الذرة ، وعدم إمكان أخذ الأرض من زارعها حتى إذا كان المالك فلاحاً يريد أن يزرعها بنفسه .

وأما إيجار المساكن فقضية لا نظير لها فى العالم ، ففى الزمالة وجاردن سبى والمعادى شقق فخمة إيجارها بعد التخفيضات الناصرية ستة جنيهات أى ثمن بطيخة كثيراً ما تكون رديئة ، ويسكن بهذه الشقق أصحاب الملايين ، فكان النظام يرمى الأغنياء على حساب الفقراء ، وكان هذا سبباً مهماً من أسباب أزمة الإسكان فمستأجر هذه الشقة لا يتركها وإن ملك العمارات والفيلات ، ويدفع إيجارها الزهيد ويبقيها مقفلة للظروف أو للترف ، وقد تحدثت عن هذا الموضوع فيما سبق ، ولكنى آثرت التكرار لعل هناك من يستفيد بالتكرار ، حتى نرفع ظلاماً طال السكوت عليه ، وأنا فى ذلك أتبع المنهج القرآنى ، ففى القرآن الكريم تكرر لبعض

الآيات أو بعض الأفكار ، ونقول في تفسير ذلك أن الله سبحانه وتعالى يكرر لعل من فاته الانتفاع بآية أن تقابله مرة أخرى فينتفع بها (١) .

وأشياء أخرى كثيرة ينبغي أن تمتد لها يد حسنى مبارك والا شارك في المسؤولية الخطيرة التى تهز البلاد والعباد .

قرارات ضرورية مرجوة :

ومن نبض الجماهير ، ومما تذيعه الصحافة الحرة يتضح أن هناك قرارات لا تحتمل التأخير ، وينبغي إصدارها سريعا ، وفي قمتها :

١ — تعديل الدستور ، ولن أخوض هنا في عرض هذا الدستور ، وعرض ما ينبغي تعديله أو حذفه منه ، وأكتفى بالاشارة بضرورة تعديل المادة (٧٨) والمادة (١٣٩) بحيث يكون انتخاب رئيس الجمهورية ونائبه بالترشيح المطلق والانتخاب الشعبى المباشر ، وأن يكون ذلك لمدة لا تتجاوز أربع سنوات يمكن تكرارها مرة واحدة فالرئيس عندما يطول بقاءه في الحكم ينسى الشعب تماما وينسى مشاكله أراد أو لم يرد .

والمادة (٣٢) بحظر انشاء الرتب ، نريدها واقعا لا خيالا ، فلقب الباشا لم يتوقف أبدا عن الذين وضعوا هذا النص ، ولو خاطبهم أى واحد بدون اللقب كان عليه أن يتحمل نتيجة سوء أدبه ، وتقسيم المجتمع المصرى الى عمال وفلاحين وفئات أسطورة يجب القضاء عليها (المادة ٢٦) .

والمادة (٨١) التى تمنع رئيس الدولة من الكسب عن طريق الشبهات والبيع والشراء والايجار مع الدولة يجب أن تشمل أسرته أيضا حتى الدرجة الرابعة مثلا .

(١) انظر « المكتبة الإسلامية لكل الأعمار » للمؤلف ص ٢٥ .

٢ — الغاء مخصصات أسرتى عبد الناصر والسادات والتنبيه التى
عدم تكرار هذه المهزلة •

٣ — استرداد مجوهرات أسرة محمد على وقصور هذه الأسرة
والانتفاع بها لصالح الشعب •

٤ — تصحيح كثير من القرارات الطائشة التى أصدرها الديكتاتور
وبخاصة ما يرتبط منها بالعلاقة بين المالك والمستأجر الذى تكلمنا عنه آنفا .
احتراما لحق الملكية الذى كفلته الأديان وكفله الدستور •

٥ — تعويض أدبى على الأتفل للذين وقع عليهم الضيم فى عهد
عبد الناصر بدون أسباب حقيقية •

٦ — الحرية الحقيقية لقيام الأحزاب وللانتخابات ، والغاء
الانتخابات بالقائمة •

٧ — مشكلة التعليم فى مصر :

مشكلة التعليم فى مصر مشكلة خطيرة ، ومن الخجل أن توجد هذه
المشكلة فى مصر التى تحاول أن ترعى التعليم فى بلاد المنطقة كلها ، فهى
كالمبصر الذى يدل الناس على الطريق ، ولكنه يسير فيه مسيرة العميان •

انها مشكلة من بقايا عبد الناصر ، ويبدو أن المسئولين ينظرون الى
قرارات عبد الناصر على أنها مقدسة لا يجوز تعديلها أو الغائها ، وقد
حكمتنا الرجل بأقصى ما يعرف من جهل وجور ، وعندما اختفى ترك
قوانينه حية توقع بنا ما أوقعه فى حياته •

تعال بنا ندرس معا مشكلة التعليم وما بها من متناقضات ومفارقات :

— يقولون ان التعليم بالمجان ، وهناك اجماع على أن هذه

المقولة أكذوبة أو أسطورة ، فقد أوشك التعليم أن يختفى من المدارس ، وحلّت الدروس الخصوصية بالبيوت محل التعليم بالمدارس ، وهذه الدروس تكلف أضعاف ما كان يتكلفه أولياء الأمور عندما كان التعليم بمصروفات ! !

— يدفع الكثيرون من الأسر آلاف الجنيهات لأطفالهم ليلتحقوا بمدارس الحضنة ، أما الطالب بكلية الطب والهندسة فلا يدفع شيئاً !!

— بعض الحاصلين على الثانوية العامة لا يحصلون على درجات تؤهلهم للالتحاق بالجامعات بمصر ، أو لا يحصلون على درجات تؤهلهم للالتحاق بالكليات التي يريدونها ، وهنا يلعب المال دوره ، فيلتحق بعضهم بجامعة القاهرة فرع الخرطوم ، أو جامعة الاسكندرية فرع بيروت ، أو جامعة في بلغاريا أو العراق أو الباكستان ، ويتكلف هذا الوضع آلاف الجنيهات وصورا من العناء ، والانتحراف ، فاذا قلنا : افتتحوا في مصر جامعة أهلية بمصروفات ، مئع ذلك ، وهو منطق غير مفهوم ، أن تفتتح مصر جامعة بمصروفات خلف الحدود ولا تفتحها داخل البلاد .

— والتعليم مجانا كما ذكرنا ، وهناك مئات الطلاب يذهبون للجامعة بسيارات فخمة ، ويعيشون في بذخ ظاهر ، ولا أحد يدرك لماذا نعطي من لا يستحق أخذ العطاء .

— وقد فتحت الجامعات بسعة ، فوفد لها كثيرون جدا ممن لا تؤهلهم مواهبهم للحياة الجامعية ، ونقابل طلابا في الجامعة كان أجدر بهم أن يتجهوا للصناعة أو الزراعة فذلك أجدى لهم وللوطن . ويتخرج من الجامعات كل عام أفواج وأفواج ، ولا يجدون عملا عدة سنوات ، حتى تمن عليهم القوى العاملة بوظيفة يأخذون عن طريقها مرتبا دون أن

يؤدوا عملا ، وينتقل هؤلاء من طابور العاطلين تماما الى طابور الموظفين
اسما ، العاطلين حقيقة •

ومرتب خريج الجامعة اربعون جنيها ، ومرتب خادمة من الفيلبين
مائتا دولار !!

— واذا كان هناك عاطلون من هذا النوع ، وكذلك من خريجي
المدارس المتوسطة ، فهناك نقص كبير جدا في الأيدي العاملة في الزراعة
أو الصناعة أو الحرف وهي معادلة عجيبة لا توجد في غير مصر ،
وقد أوشكت المزارع ألا تجد من يعمل بها ، وأصبحت الأعمال الحرة بنقص
كبير في كثير من مستويات العمل بها ، لأن كل انسان ينتظر الوظيفة ولا
يفكر في العمل ، وذلك هو جيل الثورة اللعينة ، فطالما كان عبد الناصر
يقول : ان الحرية أن نهىء لكم رغيف الخبز ، وأن نعيّن أبناءكم في
الوظائف •

— في مصر اثنتا عشرة جامعة ، وكليات تنتشر في أكثر المدن ،
بالإضافة الى جامعة الأزهر وكلياته ومعاهده ، وبالإضافة الى عدد هائل
من المدارس بمختلف درجاتها وتخصصاتها ومع هذا فالأمية
تزيد من عام الى عام ، حتى أصبحت مصر في القاع بالنسبة لارتفاع
الأمية ، وهو شيء يدعو للخجل والحسرة •

اقتراحات :

ان نظم التعليم واضحة وموجودة في أرقى دول العالم ، ويتحتم
أن نعيد النظر في أسلوب التعليم في مصر ، وفيما سمي مجانية التعليم ،
وذلك حرصا على التعليم وعلى مستقبل البلاد بوجه عام ، وخلاصة هذه
النظم هي :

— التعليم الابتدائي يكون بالمجان ويكون شاملا لكل الأطفال حتى

تقضى على أُمّية الجيل القادم اذا كنا عجزنا عن القضاء على أُمّية جيل
الشُّبُورَة •

— بعد الابتدائي تتجه غالبية الأولاد الى الأعمال والحرف في كل
المجالات ويتاح للأولاد المتفوقين أن يدخلوا المرحلة التعليمية التالية التي
تكون بمصروفات الا للناهبين الفقراء •

— الفقراء النابهون يتعلمون بالمجان في كل مراحل التعليم ، وينبغي
أن تصرف لهم بالإضافة للمجانية معونات كافية تساعدهم على مواصلة
التعليم •

— يُختار لكليات الجامعات اعداد من الطلاب تتناسب مع حاجة
الدولة مع زيادة قليلة لاحتمال طلبات اعارة للخارج ، لنستطيع بذلك أن
نقضى على طابور الحاصلين على شهادات جامعية ، ويقفون تحت رحمة
القوى العاملة •

— وأخيرا فلا بد من تحسين حالة المعلم حتى لا يلجأ للدروس
الخصوصية التي خرّبت الذمم في كثير من الحالات •

— وتوجد مدارس ثانوية حرة (أهلية) وجامعة أهلية لمن أرادوا
أن يتعلموا ممن لم تسمح لهم مواهبهم بالالتحاق بالمدارس والجامعات ،
وتكون هذه بمصروفات تغطّي كل التكاليف دون استثناء •

والعجيب أن الذين يدافعون عن مجانية التعليم يستقنون إلى ورود
ذلك في الدستور ، كأن الدستور كائن مقدس ، وكم بالدستور من أخطاء
وانحرافات •

أحداث خطيرة في عهد

حسنى مبارك

تحدثنا آنفا بإجمال عن عهد حسنى مبارك ، ولكن هناك بعض القضايا التى رصدها التاريخ خلال هذا العهد تحتاج الى مزيد من التفاصيل ، وهذه القضايا هى :

- ١ - سفينة وطائرة •
- ٢ - طائرة مصرية وغرق لىبى •
- ٣ - أحداث الأمن المركزى •
- ٤ - الأزمة الاقتصادية •
- ٥ - الأحزاب السياسية بعد عبد الناصر •

وستدارس هذه الأحداث فيما يلى :

١ - سفينة وطائرة :

هناك حادثان متشابهان حدثا فى نهاية سنة ١٩٨٥ ، ووجه التشابه أن كلا منهما يتصل بطائرة مدنية من طائرات « مصر للطيران » •

طائرة مصرية وقرصنة أمريكية :

والحادث الأول ارتبط بسفينة ايطالية - اسمها « اكيلى لاورو » وكانت تحمل مئات الأنفس سيطر عليها وهى فى عرض البحر الأبيض بعض « الارهابيين » ووجهوها الى سوريا ولكن سوريا رفضت قبولها ، ودفعت الشفاهة مصر الى التدخل ، وحدث اتصال بين مصر وبين المختطفين ، فطلب هؤلاء زعيما اسمه « أبو العباس » فقد كانوا يعملون بارشاده ، وجاء أبو العباس واستسلم المختطفون ، ونجت السفينة ،

ثم ظهر أن امريكا عجزا كان بها وأنه قد قتل ، واتهم المختطفون بقتله ،
اذ اعتقد أنه لم يكن هناك من يتقدم على هذا العمل غيرهم .

ورأت مصر أن تقدم هؤلاء المختطفين الى منظمة التحرير بتونس
لمحاكمتهم ومعهم زعيمهم أبو العباس ، ووضعتهم في طائرة مصرية طارت
بهم تجاه تونس ، ولكن تونس التي كانت قبل ذلك بأيام تعرضت لعدوان
اسرائيلي سافر ، رفضت استقبال الطائرة بعد أن كانت قد وافقت على
ذلك من قبل .

وأخذت الطائرة طريق عودتها للقاهرة ، ولكن مجموعة من الطائرات
الحربية الأمريكية اعترضت طريق الطائرة المصرية وأمرتها بالهبوط في
قاعدة عسكرية بصلقية ، وكان الاعتراض خشنا ومثيرا مما أغضب المصريين
جميعا ، وتعرضت العلاقة بين مصر وأمريكا الى أزمة قاسية .

والعجيب أن الزعيم « أبو العباس » أفضى بعد ذلك بحديث قال
فيه انه نجح في تحقيق الهدف الذي أراده ، وهو إساءة العلاقات بين
مصر وأمريكا ، وكأنه كان يرى أنه خدعنا بهذا التصرف .

٢ - طائرة مصرية وفخ ليبي :

ومرت أيام ليست كثيرة وجاء الحادث الثاني ، وللتقديم للحديث
عن الحادث الثاني نذكر أن بعض الليبيين المعادين للنظام الليبي يعيشون
في مصر ، وهم للأسف يزاولون بعض الأنشطة ضد هذا النظام ، وقد
أوفد الى مصر بعض عملاء النظام الليبي ليشتكوا بهؤلاء المنشقين في
أثناء اجتماع كانوا قد دبروا له في الاسكندرية .

وقد أفشى واحد من هؤلاء سر هؤلاء العملاء ، فأتاح الفرصة لرجال
المخابرات المصريين ليتتبعوا هؤلاء العملاء ويقبضوا عليهم .

وثار النظام الليبي وبدأ يدبر أمرا ضد مصر ، ويبدو أنه رصد

لذلك مبالغ ضخمة ، وفي اعتقادي أن مصر ثملت بالقبض على هؤلاء العملاء ، ونسى المسؤولون أن يأخذوا الاحتياطات اللازمة التي تحميهم من ثأر الزعماء الليبيين ، فكان ذلك أساسا لنكبة الطائرة المصرية الثانية تلك النكبة التي حدثت في الأيام الأخيرة من شهر نوفمبر .

الثأر الليبي يفتك بالأبرياء :

كانت طائرة ركاب مصرية (للأسف هي نفسها الطائرة السابقة المشنومة) قادمة من أثينا للقاهرة ، وبعد دقائق من طيرانها ظهر بها خمسة من الارهابيين أعلنوا سيطرتهم على الطائرة ، وبلغه أخرى اختطفوها ، وأرغموا قائدها على الهبوط بها في مطار « لوقا » بمالطة وارتبط الشك بليبيا ، لأن المختطفين طلبوا مقابلة السفير الليبي بمالطة ، وحضر لهم السفير ، ولكنه سرعان ما انسحب وغادر البلاد فوراً الى طرابلس .

وتتابعت عقب ذلك الأحداث الأليمة ، فالتائرة كان بها حوالى تسعين راكبا من جنسيات مختلفة ، وكان بها أربعة حراس مصريين ، ولما ظهر المختطفون أطلق الحارس نيرانه على واحد منهم فأرداه قتيلا ، وتعرض عقب ذلك لنيران المختطفين الآخرين الذين جعلوه هدفا للتعذيب ، فكانوا يطلقون نيرانهم على أماكن من جسمه غير قاتلة ليزيد من تعذيبه ، وقالت وسائل الاعلام المصرية انهم أخذوا يهددون بقتل راكب كل ساعة ، بل بدعوا يقتلون فعلا ، بل اتجهوا لجعل المدة ربع ساعة .

لم تكن للمختطفين مطالب الا أن يتركوا بالوقود ليواصلوا رحلتهم ، ولكن الطائرة كان قد حدث بها عطب نتيجة النيران ، ثم انه لم تكن هناك وجهة معينة لهم اذ رفضتهم كل الدول التي ذكروا انهم سيسيرونها اليها .

وتأزمت الأمور ، فرأت مصر أن تهاجم الطائرة بواسطة رجال الصاعقة ، وتم ذلك فعلا ، ولكن النتيجة كانت مريعة جدا ، فما ان دخل رجال الصاعقة من باب البضاعة أسفل الطائرة ووجهوا نيرانهم للمختطفين

حتى ألقى المختطفون بقنابل حارقة (فسفورية) في مقدمة الطائرة ومؤخريتها ، وأصبح الموت جماعيا بالنار والدخان والرصاص ، فمات ستون راكبا وقُتِلَ الارهابيون الا واحدا منهم ، وربما جاز القول انه لم ينج أحد من هذا النجميم ، أما ما يقال عن نجاة ثلاثين أو أربعين من الركاب : فأغلبهم من الذين أطلق المختطفون سراحهم أول الأمر من النساء ، يضاف لهم بعض الجرحى والذين عثر عليهم بين الموت والحياة ، فضممتهم المستشفيات .

وتعليقنا على هذا الحادث من عدة وجوه :

أولا : كان على مصر — بعد أن ازدادت حدة الخلاف بينها وبين ليبيا — أن تبذل جهدا كبيرا في حراسة طائراتها ، وقد يكون من ذلك أن يوجد بمداخل هذه الطائرات احتياطات كتلك التي تستعمل في المطارات للتأكد من عدم وجود أسلحة مع الركاب ، وألا تكفى بالاحتياطات في المطارات المختلفة .

وأذكر بهذه المناسبة أنني كنت مدعوا لحضور حفل افتتاح مؤتمر السيرة والسنة بقاعة الامام محمد عبده قبل هذا الحادث بحوالى أسبوعين وعند مداخل القاعة تعرضت أنا وسواى لأجهزة التعرف على الأسلحة ، وتعرفت هذه الأجهزة على مفاتيح السيارات التي كان يحملها المدعوون .

ليت المسئولين اهتموا بالطائرات على هذا النحو .

ثانيا : إن مطار أثينا بالذات ترتبط به بعض الشبهات ، فمنذ فترة ليست طويلة خطفت طائرة أمريكية بواسطة ركاب صعدوا لها من مطار أثينا ، وعلى هذا فقد كان على المسئولين المصريين أن يوجهوا عناية أكبر لهذا المطار .

والذى نحس به أن خيانة حدثت ، فلا يمكن أن تقترب للطائرة كل هذه الأسلحة دون أن تتعرف عليها الأجهزة المستعملة بالمطارات ، ويغال

ان الملايين قد قُدِّمَت رشوة لتيسير دخول الارهابيين وأسلحتهم ، وأنهم دخلوا بطريق غير عادى •

ثالثا : كان رئيس وزراء مالطة فى مستوى المسئولية ، فقد انتقل للمطار وبات به مع بعض الوزراء المختصين ، وكان ذلك مع شدة البرد ، وهذا يدفعنا للعجب أن نذكر أنه فى نفس هذا الوقت حيث الشدة قد بلغت قممها ، كان الرئيس حسنى مبارك يزور بعض القرى بالقليوبية ، وأعدت له استقبالات حافلة ، ارتفعت فيها الزغاريد وكثرت التهافتات ، ورقصت الخيول التى كان يركبها رجال الحزب الوطنى ، ووضعوا على صدورهم شارات الحزب •

ولم ينس التلفزيون المصرى أن يذيع هذه الاستقبالات مما جعلنا نرى فى وقت واحد طائرة مخطوفة ، رابضة فى أنين وقلق ، عليها ركاب مصريون أو ضيوف على مصر ، يعانون القتل والتعذيب والتهديد ، ورئيس وزراء مالطة يشارك فى الأسى بنفسه وجهده •

وبجانب ذلك أذاع التلفزيون المصرى أخبار زيارة الرئيس للقرى وما أُعدَّ لهذه الزيارة من هتافات وتصفيق وخيول راقصة ، وتجمعات يملأ المرح قلوب أصحابها •

وكأنما أحس المسئولون بعد فوات الأوان استنكار الناس لهذا الوضع فأوعزوا لاحدى الصحفيات أن تسأل الرئيس فى المؤتمر الصحفى الذى عقده يوم الثلاثاء ٢٧/١١/١٩٨٦ سؤالا نوره هو واجابته فيما يلى :

يسأل رأى العام عن قيام سيادتكم بجولة الى قرى الدقهلية فى وقت اختطاف الطائرة فما هو تعليقكم على ذلك ؟

قال الرئيس •• من غير المعقول انه من أجل طائرة مختطفة تقف البلد بأكملها ، هذه دولة لها مؤسسات تعمل وتخطط وكان كل شئ تحت

السيطرة ، وفي كل خطوة أخطوها كان يبنى وبين المسئولين اتصال لمعرفة آخر التطورات وكنت أعطى التعليمات من آن لآخر .

وليس هناك من يقول إن البلدة يجب أن تقف بأكملها ، أى ليس هناك من يرى أن تقفل المستشفيات والمدارس والمتاجر ولكن تأجيل الزيارة لهذا الحادث كان ممكنا ، وذلك لا يوقف مسيرة البلاد .

وفي اعتقادى أن رأى العام قد يسمح بالزيارة تنفيذا لتخطيط واستعداد سابق ، ولكن فى صمت يناسب حالة الحداد والجد التى كان ينبغى أن تسود البلاد .

وفي صحيفة الأخبار الصادرة يوم الاثنين ١١/٢٥ رأى القارىء صورتين متجاورتين ؛ احدهما للطائرة المنكوبة والدخان ينبعث منها ، والثانية للجماهير التى حشدت لتعزى وترقص وتهتف .

وعن هذه المفارقة المريبة كتب الأستاذ أحمد أبو الفتح فى صحف ٢٨ / ١١ / ٨٥ يقول :

*** وسط الهم والقلق على حياة الركاب والحزن على من قتلوا سمعت الزغاريد ففزعت وصرخت وتصورت أن أصواتها آتية من بعض النيران

*** وكانت الفجيرة الكبرى عندما اكتشفت أن الزغاريد آتية من التلفزيون ...

*** الزغاريد يذيعها التلفزيون فى الوقت الذى أعلنت فيه صحف

الصباح الحكومية أن الخاطفين للطائرة قد قتلوا سبعة من الركاب !
وهددوا الباقين •

*** هل انعدم الاحساس الى هذه الدرجة ؟

ونواصل تطبيقاتنا على هذا الحادث فنقول :

رابعا : هل كان إنهاء هذه الحالة بواسطة رجال الصاعقة هو الحل
الوحيد لمواجهة الأزمة ؟

وهل طريقة الاقتحام التي حدثت كانت الطريقة الوحيدة ؟ ومن
المعروف أن الكوماندوز المصريين الذين اقتحموا الطائرة في مالطة ينتمون
الى فصيلة لمكافحة الارهاب تلقت تدريبات مكثفة في الولايات المتحدة وألمانيا
الغربية وأن قنابل الشك والغاز المسيل للدموع والعصى الكهربائية والأسلحة
الأوتوماتيكية الخفيفة هي الأسلحة النموذجية لهذه القوة الخاصة .

ألم يكن من الممكن استخدام هذه الأسلحة النموذجية حتى يحالفنا
الحظ في انقاذ الركاب •

وهل غفل رجال الصاعقة والمسئولون عن احتمال وجود قنابل
فسفورية مع الارهابيين ؟

وقد أكد تقرير الطبيب الشرعى فى مالطة عقب تشريح أكثر من نصف
جثث ضحايا حادث طائرة الركاب المصرية أن جميع الضحايا تقريباً قد لقوا
مصرعهم بسبب الاختناق والحرق نتيجة النيران التى اشتعلت فى الطائرة
بعد أن فجر الارهابيون ثلاث قنابل داخلها لحظة اقتحامها بواسطة قوات
الصاعقة المصرية •

وأكدت المصادر الطبية التي اشتركت في عملية تشريح جثث الضحايا ان ثلاثة أشخاص قد ثبت أنهم قتلوا بالرصاص .

والمأمول أن عملية الاقتحام قد تخيف في المستقبل من يحاول أن يقدم على مثل هذه الجريمة لأنه سىرى فيها حتفه .

والذى يتابع أقوال قائد الطائرة البطل يدرك أنه فتح المجال عدة مرات لاقتحام الطائرة بطريقة أيسر ، ولكن أحدا لم يستفد بمحاولاته ، فقد فتّح باب الطائرة للطعام وللمضيقة الشهيدة التى خرجت وعادت ، وكان يرجو أن يدخل رجال الصاعقة في ثوب عمال طعام أو ممرضين .

خامسا : ان الذى يكتب عن هذا الموضوع لا يمكن أن ينسى بطلين عظيمين من أبطال مصر ، هما قائد الطائرة الكابتن هانى جلال وكبيرة المضيفات الشهيدة شادية سلامة ، فبين الدماء والدموع التى كانت تغمر الطائرة أراد الارهابيون أن يرسلوا رسالة الى المسؤولين في المطار ، وطلبوا من قائد الطائرة أن يختار لهم من يحمل هذه الرسالة ، ووقع الاختيار على كبيرة المضيفات « شادية سلامة » ، ويقول رئيس ثلركة مصر للطيران :

بمجرد هبوط الطائرة على أرض المطار في مالطة . . طلب الارهابيون تكليف احدى المضيفات لابلاغ رسالة للمسؤولين بالمطار . . فاختار الكابتن هانى جلال رئيسة المضيفات للقيام بهذه المهمة . وعندما حذرها المختطفون من عدم العودة الى الطائرة وأبلغوها أنهم سيقومون بنسف الطائرة بركابها وكل من فيها اذا هى رفضت العودة مرة أخرى . أعطاهما قائد الطائرة اشارة فهمت منها انه يطلب منها عدم العودة والنجاة بنفسها . . ورغم تكرار نفس الطلب بعدم العودة للطائرة من المسؤولين بالمطار لرئيسة

المضيفات •• فانها أصرت على العودة مرة أخرى للطائرة بعد إبلاغ الرسالة •
وانتهزت هذه الفرصة لإعطاء صورة مفصلة لكل ما يجري على الطائرة
وعدد المختطفين والقتلى وأماكن تركز الإرهابيين في مقدمة ومؤخرة ووسط
الطائرة •• وقد استشهدت شادية أثناء عملية الاقتحام واختنقت من
الدخان ••• !!

واحتاج الإرهابيون الى ارسال رسالة أخرى ، واختاروا هذه المرة
قائد الطائرة لحملها ، وذلك بعد أن أطمأنوا الى شخصيات طاقم الطائرة
الذين لا يعرفون الأنانية ، وانما يعملون لأداء الواجب على أعلى مستوى ،
وخرج قائد الطائرة وبلغ الرسالة وعاد يحمل روحه على كفه •

تحية اجلال لهانى ، ودعاء للشهيدة شادية •



الكابتن هانى جلال



شادية سلامة الموسيقية الشهيدة

٣ - أحداث الأمن المركزي :

الأمن المركزي أو شبح الذعر والتدمير والعُدوان ؟

كان الأمن المركزي حاميا للسلطة ولكنه انقلب عليها ، وأصبح نارا تكتوى به هذه السلطة .

كنا نراه حول الجامعة وفي الأزقة والمنهضات كأن الدولة تخفيه عن الأنظار لإحساسها أنه ممقوت من المثقفين والجماهير على السواء .

وفي ليلة ظلماء هب هذا الأمن المركزي يضرب مصر ، مما يدل على أنه غير جدير بالثقة التي حملها ، وقد أعلن رئيس الجمهورية بياناً بذلك جاء فيه :

« في ساعة مبكرة من مساء أمس الثلاثاء ٢٥ فبراير سنة ١٩٨٦ سرت شائعات مغرضة لا أساس لها من الصحة في أوساط المجندين بمعسكر قوات أمن الجيزة بأول طريق مصر اسكندرية الصحراوى مفادها انه تقرر مسد فترة التجنيد للأفراد الملتحقين بقوات الشرطة لمدة عام .. وقد استغلت بعض العناصر المخربة تلك الشائعات الكاذبة لتحييض زملائها الجنود في المعسكر وأثارة مشاعرهم مما أدى الى خروج مجموعات كبيرة منهم الى الطريق العام تورطت في ارتكاب كثير من أعمال العنف والتدمير اسفرت عن اتلاف عدد كبير من السيارات وأشعلت النار في الفنادق والمنشآت السياحية الواقعة بالقرب من المعسكر المذكور .

« وقد أدى هذا التصاعد والشائعات التي صاحبتة الى امتداد الشغب الى بعض معسكرات الأمن في المواقع المجاورة فانطلقت مجموعات منها مسلحة بالاسلحة النارية والعصى التي كانت في حوزتها أثناء عودتها من مواقع خدمتها وانغمست في عمليات التخريب والاتلاف ضد المحال العامة

والمنشآت السياحية ووسائل النقل وقتلت واصابت بعض حراس الأمن
في هذه المؤسسات .

« وفي الساعات الأولى من صباح اليوم شهدت بعض معسكرات الأمن
بمحافظة القاهرة والجيزة والقليوبية وأسيوط وسوهاج والإسماعيلية
أحداثا تخريبية مماثلة نجمت عنها اضرار بالغة شملت ثلاثة فنادق
سياحية كبرى وتحطيم عدد كبير من سيارات المواطنين وسيارات الأتوبيس
وعربات النقل ووحدات المترو .

« كما امتد التخريب الى مستودع لتعبئة الأرز في أسيوط ومستودع
آخر في سوهاج ، واقتحام سجن طره ، وإطلاق سراح بعض المسجونين
فيه » .

وفي ضوء هذا الوضوح أعلن محافظ الجيزة أن الخسائر بمحافظته
هي :

✱ تم احتراق ١٠٨ سيارات بشارع الهرم ويمكن انتظار الفنادق ،
منها ٩٦ سيارة خاصة برواد الفنادق والعاملين فيها و ١٢ سيارة ميكروباس
ونقل عام .

✱ احترقت أيضا أربع فنادق هي الجولي فيل وهوليداي إن سبنكس
وهوليداي إن بيرامدز والفاندوم ومدخل فندق مينا هاوس . وكذلك ٢٨
مطعما وكازينو ومحلا عاما .

✱ تم احتراق واجهتي قسم شرطة الهرم وقسم شرطة السياحة
ومكتب بريد الهرم وكشك تصوير بميدان الجيزة ونقطة شرطة المنيرة
بامبابية .

وبالإضافة الى هذا هناك تدمير حدث في منطقة المعادى وفي بعض
جهات أخرى من القطر ، وقد قدم النائب العام حصرا للمنشآت التي

أخربها المتهمون وهي ٢٥٦ منشأة منها ٩ فنادق و ٤٢ منشأة سياحية و ٦٥ منشأة قطاع عام أو حكومة و ٢٠ منشأة شرطة و ١٢٠ منشأة خاصة .

أما السيارات التي خربت واحترقت فقد بلغ عددها ٢٠٠٦ سيارات منها ٢١٩ سيارات حكومية و ٤٦٢ سيارة شرطة ، وسيارات خاصة بالموالين عددها ١٣٣٥ سيارة .

وذكر أن عدد القتلى ٥٤ عسكريا و ١٦ مدنيا والمصابون ١٥٨ عسكريا و ٤٨ مدنيا .

وأعلن النائب العام أن تحقيقات النيابة العامة أكدت أنه لا تأمر ولا تحريض على القيام بهذه الأحداث من الداخل أو الخارج ، وليس للمتهمين انتماء سياسى ، وأضاف أنه بالإضافة الى اشاعة المدعى سنة كانت هناك أسباب مساعدة لإحداث هذه الفتنة هي :

- * وسائل الاعاشة لهؤلاء الجنود سيئة .
- * أماكن الإيواء حالتها لا تسمح بإقامة مناسبة .
- * عدم منحهم إجازات ، وزيادة فترات تشغيلهم .
- * سوء معاملة بعض الضباط لهم الى حد التعذيب .
- * عدم وجود رعاية صحية مناسبة .
- * أماكن المعسكرات غير مناسبة في مواجهة منشآت سياسية على جانب كبير من الترف .

وأعلن النائب العام أن نتائج التحقيقات تؤكد ان قوات الأمن على مستوى الجمهورية عددها ٣٠.٠٠٠ لم يتحرك منها الا نفر قليل .

وقد استنكر الشعب المصرى بجميع طبقاته وأحزابه وهيئاته هذا

الشعب وبخاصة من فئة يفترض فيها أن تكون حارسة للأمن لا مثيرة للفرع ، وكان موقف الشعب من الفتنة موقفا محدودا جعل من اليسير القضاء عليها .

واستقال فقط وزير الداخلية « أحمد رشدي » بعد هذه الأحداث ، ويقول المطلعون أن الخسائر هنا كانت أضخاف خسائر حريق القاهرة سنة ١٩٥٢ الذي أثقلت وزارة الوفد بسببه .

٤ — الأزمة الاقتصادية الطاحنة وتسديد الديون :

ورث العصر الحاضر أعباء اقتصادية ثقيلة خلفتها العهد السابق ، فالحروب الكثيرة الخاسرة ، والبرقات المتتالية ، والبذخ والإسراف ، ومحاولة شراء الذمم ، والصحافة التي كان يصدرها عبد الناصر في بيروت لتسبح بحمده ، واللاجئون الذين استقدمهم عبد الناصر ١٠٠٠٠ .

ثم القضاء على النشاط الزراعي بحجة تصنيع البلاد ، وضعف ذلك التصنيع الذي كان يسير بصورة ارتجالية ، والوظائف التي استحدثت في الداخل والخارج ، كل ذلك وسواء مما نعرف وما لا نعرف قضى تماما على ثرائمصر ، وأصبحت دولة مهيضة الجناح .

وأهل عبد الناصر المرافق تماما ، فلما انقضى عهده أو قبيل ذلك كانت التليفونات صامتة لا تتكلم ، والمجاري مندفعة لا تتوقف ، والطرق منهارة أخرجت ما في جوفها ، والاسكان لا نشاط له مما دفع الأحياء للسكنى مع الأموات في القبور ، وحاول السادات أن يرفع الأمر فلجأ للقروض ، وجاء أوان التسديد فأصبحت أقساط الديون وفوائدها عبئا تنوء به الميزانية المصرية .

وبينما مصر تترجح تحت هذه الأثقال إذا طرأت أحداث اقتصادية ضاعفت المشكلة ووصلت بها الى خافة الخطر ، وهذه الأحداث هي :

— هبوط أسعار البترول هبوطا شديدا وصل الى ثمانى دولارات للبرميل أى ما يقرب من تكاليف إنتاجه •

— تأثرت بذلك قناة السويس تأثرا شديدا فانخفض عائدها الى درجة كبيرة •

— بدأت دول البترول العربية تستغنى عن بعض العاملين بها من المصريين تمشيا مع قلة دخلها فقل ما كان يرسله المصريون من عملة حرة •

— نقصان السياحة نقصانا ظاهرا بسبب حركة الأمن المركزى التى حرقت الفنادق وهددت السياح •

واستحكمت الأزمة استحكما قياسيا ، وأخذت تهدد سمعة مصر •
وأبناء مصر عثروا على مر التاريخ بحب بلادهم والتفانى فى الدفاع عن سمعتها ، ولذلك قامت دعوة شعبية بالمساهمة فى تسديد الديون المصرية ، وانتفض الجميع يتحدثون عنها ويستجيبون لها ، فكتب الأستاذ جلال الدين الخيامى عدة مقالات فى هذا الشأن ، وقاد حركة ضخمة لتحقيق هذا الأمل ، وكان لحيثته أصداء هائلة عند الكثيرين من الكتاب والباحثين ، واستجاب الشعب بكل طبقاته تقريبا لهذه الدعوة •

ولكن الأوضاع الرسمية قاومت بتصرفاتها وأعمالها هذا المشروع العظيم ، فبينما يدفع الشعب ليعين الدولة فى حمل أعبائها ، اتجهت وزارات مختلفة الى نفقات لا توصف فقط بأنها اسراف ، بل يمكن أن توصف بأنها خرق وبعد عن العقل والمنطق ، وعدم ادراك لحالة البلاد التى كانت تستدعى الاتجاه للتوفير فى كل مجال •

فما رأيك فى احتفال بعيد فضى للتليفزيون تنفق فيه مئات الآلاف على مظاهر كاذبة •

وماذا قدم التليفزيون أكثر مما يلزم أن يقوم به •

وما بالك في مباريات كرة تنقل بواسطة الأقمار الصناعية مما يجعلها
تتكلف الآلاف والملايين لتسجيل مشاهدتها بدلا من انتظار عرضها عن
طريق شريط سيصل للقاهرة بعد يوم أو يومين .

وما بالك بدعوة وزراء الإعلام الأفارقة لاجتماع غير عادي بالقاهرة
مع ما يتكلفه هذا الاجتماع والضيافة والحراسة من نفقات باهظة .

وقبل أن يعود هؤلاء الى بلادهم يدعى وزراء الداخلية الأفارقة
للاجتماع في القاهرة

ثم يدعى رجال الصحافة الأفارقة ، وعددهم مئات ينتسبون لعشرين
دولة .

ثم تقوم وزارة الثقافة بعمل مهرجانات حافلة لرجال الفن وتسخر
في توزيع الأوسمة عليهم ، وتدعو رجال الصحافة لحضور هذه المهرجانات
بما يستلزمه ذلك من تذاكر للسفر وفنادق للإقامة وغيرها ، وقد أحسن
مندوب صحيفة الوفد بما في ذلك من إسراف في هذا الوقت فأعاد للوزارة
تذاكر السفر واعتذر ، وكتبت صحيفة الوفد في ٢٨/١١/١٩٨٥ تقول :

✽ مصطفى شردي رئيس تحرير « الوفد » وسعيد عبد الخالق نائب
رئيس التحرير تلقيا « شنطتين » فاحرتين من وزير الثقافة
واكتشفت « العصفورة » أن كل شنطة بها دعوة من الوزير لحضور
مهرجان احتفالات معابد فيلة بالأقصر ، وتذكرة ذهاب وإياب للأقصر ،
وميدالية فاخرة وشريط كاسيت ، وأصيبت « العصفورة » بذهول ، بعد
حسبة بسيطة ، اكتشفت خلالها ، أن كل شنطة بمحتوياتها بالإضافة الى
الإقامة في فندق ٥ نجوم طوال أيام المهرجان تبلغ حوالى ١٠٠٠ جنيه ،
واقترحت « العصفورة » على رئيس التحرير ونائبه ، التبرع بالشنطتين
الى صندوق سداد ديون مصر ، ووافقا بسرعة ، وأكدا رفضهما لهذه

الدعوة • والتبذير السافر ، في وقت اضطرت فيه الدولة الى جمع تبرعات من المواطنين لسداد ديون مصر ، كما أن بلادنا تعيش « محزنة » بسبب حادث اختطاف الطائرة المصرية •

وأعضاء البرلمان يرسلون وفدا منهم الى الولايات المتحدة ليسمعوا لخطاب الرئيس حسنى مبارك هناك ، وربما ليصفقوا لبعض مقاطعه •
ولصوص هنا وهناك من كبار المسئولين يحكم عليهم بالسجن وهكذا وجد المصريون أنفسهم أمام ما يمكن أن يسمى « القرية المقطوعة » فالتشعب يحاول أن يساعد ولكن المسئولين مفرغون بالبعثرة عن اليمين واليسار •

• فتوقف مشروع تسديد الديون

وأخذت الحكومة تبذل الجهد لتحصل على بعض الأموال من المواطنين ؛ فضاعفت الرسوم على رخص السيارات ورسوم استخراج جوازات السفر ، وألزمت الذين يسافرون للخارج أن يدفعوا رسوما لذلك ولكن هذه الأشياء التى أرهقت الكثيرين لم تأت بأية نتيجة ذات بال •
وبينما كان المواطنون يبحثون عما أصابهم من ضرائب جديدة ، نشرت صحف المعارضة قائمة خطيرة عن أولاد السادة الذين حصلوا على شقق من الدولة ، وفي هذه القائمة ظهرت أسماء كثيرين جدا من علية القوم ، ولم ينل أحد من أبناء الشعب العاديين أى حظ في هذه الشقق •
ولا تزال البلاد ترزح تحت وطأة هذه الأزمة الاقتصادية ، والله المسئول أن يحمى بلادنا من نتائجها •

ومن العجيب أنه في وسط صيحات الألم من هذه الأزمة ، وفي وسط محاولات التخفيف منها بالوسائل التي ذكرناها لم يحاول أولو الأمر أن يوقفوا بسيل المال الذي تدفعه خزانة الدولة لأصحاب الملايين من أولاد عبد الناصر أو أولاد السادات ، مما جعل الكثيرين يضيقون بفكرة المساهمة في تسديد الديون ، وإن كنا نصيح بأن تخفيف الآثام وطننا واجب بصرف النظر عن عقوق بعض أبنائه أو سوء تصرفهم ، كما يتقدم الابن البار لمساعدة أبيه أو مساعدة أمه ولو كان هذا أو ذاك قد أضاع ثراه بالإسراف وسوء التصرف .

واتخذت صحف المعارضة قضية الديون وتسديدها مادة لتقترح لها الحلول المناسبة ، وفي مقال طويل نشره الدكتور ابراهيم عبده بصحيفة الوفد ، يقترح سيادته وسائل حاسمة لتسليمهم في تسديد الديون ، ومن الوسائل التي اقترحها ما يلي ، وقد ذكرنا أكثرها فيما سبق :

- ١ — إيقاف دفع المخصصات للرئيسين السابقين
- ٢ — التقليل من عدد الوزراء ووكلاء الوزارات ومن في مرتبتهم فقد بلغ هؤلاء عدة آلاف .
- ٣ — عدم استعمال القمر الصناعي في عرض المباريات والخطب .
- ٤ — استعادة مجوهرات أسرة محمد على وهي كافية لتسديد الديون مهما بلغت قدرها .
- ٥ — وزير الدولة للشئون الخارجية يمضى عمره مسافرا ومعه وفد . لماذا ؟
- ٦ — إعادة النظر في ميزانية مجلس الشعب ، وفي مدى الحاجة لمجلس الشورى .
- ٧ — الحد من الدعوات والاستضافات إلا للضرورة القصوى .

٥ - الأحزاب في عهدى السادات ومبارك :

ذكرنا في الجزء التاسع من هذه الموسوعة أن الانتفاضة العسكرية التي سمت نفسها ثورة ، ألغت الأحزاب بمصر وصادرت أموالها في يناير سنة ١٩٥٣ ، وأعلنت محلها كائناً مقيناً كريهاً للناس هو ما سمي « هيئة التحرير » وقد صدر أول بيان عنها في ١٥ يناير سنة ١٩٥٣ .

وسرعان ما أحس عبد الناصر بائتمام الناس عن هذه الهيئة واحساسهم إنها جسم مصطنع فحولها الى ما أسماه « الاتحاد القومي » سنة ١٩٥٦ ووضع دستوراً على هواه .

ووقف المصريون من هذه المؤسسة موقفهم من الهيئة التي سبقته فحولها عبد الناصر الى ما أسماه « الاتحاد الاشتراكي » عقب قوانين المصادرات التي أسماها « التحول الاشتراكي » وكان ذلك سنة ١٩٦١ .

وعجزت هذه المحاولات أن توجد علاقة بين الحاكم الطاغية ومعه المنتفعون ومراكز القوى الخطرة وبين الشعب ، وظلت هذه المؤسسات نبولا للحاكم وبعبدة عن آمال الشعب وتأييده .

السادات والمنابر فالأحزاب :

وجاء عصر السادات وأدرك بذكائه بعيد الجماهير عن السلطة ، وأراد أن يحقق نوعاً من القرب الديمقراطي ، ولكن محاولته كان يشوبها الحذر والقلق ، وكانت محاولة عرجاء ، وقد ابتدأ محاولته بأن ابتكر موضوع « المنابر » في ظل الاتحاد الاشتراكي ، وكان هذا ابتكاراً مستقيماً لأن الناس كان يكرهون أو يحتقرون الاتحاد الاشتراكي وكل ما يتصل به ، وكان السادات قد عبر عن اتجاه الشعب حين قال إن

البند الخاص بالديمقراطية الذي ورد في البيان الأول للثوار لم يعرف طريقه للنور •

وقد زاد ابتكار المنابر بعدا عن الناس عندما أوعز السادات لرجل تربطه به رابطة مصاهرة هو « المرحوم محمود أبو رية » بأن يؤلف منبرا ، وكان السادات يرمى الى أن يجعل في الاتحاد الاشتراكي منبرا يميل اليمين ومنبرا يميل اليسار ومنبرا وسطا •

السادات يعيّن رؤساء الأحزاب :

ووقف الشعب موقف الساخر من هذه المحاولة ما دامت امتدادا للاتحاد الاشتراكي ، ولذلك كانت هذه المحاولة قصيرة العمر ، وأذن السادات بقيام الأحزاب بدل المنابر ، ومن الغريب حقاً أن يكون قيام الأحزاب بإذن ، فالعروف أن الأحزاب اتجاهات شعبية يقيمها الشعب ، وتتخذ من نبضه قوتها ، وخلق أنور السادات حزبا أسماه حزب مصر ، ووضع على قمته ممدوح سالم رئيس الوزراء وفي غيبة من التعقل والخطط السليمة أصبح ممدوح سالم زعيما ، وكان هذا عملا أخرق ، فالزعماء تخلقهم الشعوب ، ولا يمكن أن يخلقها الرؤساء ، ويجوار حزب مصر أوعز أنور السادات الى أحد وزرائه وهو « إبراهيم شكرى » أن يؤلف حزبا أسماه حزب العمل ، وألف مصطفى كامل مراد حزب الاتحاد ، وألف خالد محيي الدين حزب التجمع • وبدأت الأحزاب تدب في حياة مصر ، ولكنها كانت أحزابا من الورق •

وكان قانون الأحزاب يخاف من كلمة « الوفد » ، حتى لا يثبعت من جديد ذلك العملاق الذي حاربته الثورة دون هوادة حوالى ربع قرن ، ولذلك كان في قانون الأحزاب بند « ألا تعود الأسماء القديمة للأحزاب للظهور ، وكان هذا عنقا فهم الناس دوافعه •

وجرت حركة عجيبة فإن أنور السادات تطلع للزعامة الشعبية فخلق

حزبا جديدا أسماه الحزب الوطنى الديمقراطى وأضاف كلمة الديمقراطى حتى يبيح لنفسه قيام حزب يحمل اسم « الحزب الوطنى » وهذا الاتجاه جعل حزب الوفد يعود مرة أخرى للوجود باسم « حزب الوفد الجديد » .

وفيمما يتعلق بالحزب الوطنى الديمقراطى نذكر أنه هو حزب مصر وكل ما حدث فيه هو تغيير الرئيس ، وكان أشرف لأنور السادات أن يتزعم حزب مصر ويجعل « ممدوح سالم » نائبا للحزب مثالا ، ولكن السادات أعلن قيام حزب جديد ، وهول السادات الذين كانوا أعضاء هيئة التحرير فالاتحاد القومى فالاتحاد الاشتراكى فأعضاء حزب مصر ، هزلوا الى الحزب الجديد الذى يرأسه رئيس الجمهورية وتركوا « ممدوح سالم » وهذه فى حزبه قصير العمر ، وتوقفت صحيفته « مصر » التى كانت حديثة عمر معه .

أما حزب الوفد فهم تطل أيامه بالحياة العسكرية لا تسمح بالديمقراطية الحقيقية ، وكان عمره مائة يوم ثم جمعد نشاطه بسبب التحديات التى واجهها ، وبسبب صدور قرار بحرمان رئيسه « محمد فؤاد سراج الدين » من حقوقه السياسية .

وانتهى عهد السادات على هذا الوضع .

مباركة والأحزاب :

وجاء عهد مبارك فسمح فمسلأ بصدور الأحزاب ، ونال محمد فؤاد سراج الدين حكما ببطلان حرمانه من الحقوق السياسية ، كما صدر حكم آخر بأن حزب الوفد الجديد لم يحل نفسه بعد المائة يوم وإنما جمعد نشاطه ، ومن حقه أن يظهر وقتما يرى الوقت مناسبا .

وظهر حزب الوفد ، وكان معبرا دقيقا وحقيقيا عن اتجاهات شعبية ،

فلما يأخذ مقرا له من دور الحكومة ، وأصدر صحيفة « الوفد » دون أن يطلب معونة من الحكومة ، وسرعان ما أصبح له مقار في كل عواصم المحافظات وفي غيرها من المدن ، ونجحت صحيفة « الوفد » نجاحا هائلا .

وعند كتابة هذه السطور في منتصف عام ١٩٨٦ كان بمصر الأحزاب الآتية :

١ — حزب الوفد الجديد ، ومما يذكر أن كلمة « الجديد » توضع صغيرة الحجم تنفيذا للقانون الذي يمنع أسماء الأحزاب القديمة ويتضح من تصغيرها رغبة الحزب في استئناف اسمه ونشاطه ، وحذف أكثر من ثلاثين عاما عانت مصر خلالها شر عناء من الثورة ورجالها .

٢ — الحزب الوطنى الديمقراطى .

٣ — حزب العمل الاشتراكى .

٤ — حزب التجمع .

٥ — حزب الاتحاد .

٦ — حزب الأمة .

ويتطلع المخلصون للوطن الى انتخابات حرة تماما ليعرف كل حزب ثقله ومكانته في الدولة ، ونرجو ألا يطول انتظارنا لهذا اليوم .

تلك هى أهم أحداث عصر محمد حسنى مبارك حتى منتصف شهر يونيو سنة ١٩٨٦ سجلتها من يوم الى يوم بكل الإنصاف والدقة .

الرئيس مبارك بين اهتماماته وآمالنا فيه :

نحن نلاحظ بوضوح اهتمامات الرئيس مبارك بافتتاح كوبرى أو

بمشاهدة معارض « الأسر المنتجة » ... ولا بأس في ذلك ، ولكن المطلوب من رئيس الدولة أهم وأعظم ، وقد تحدثنا من قبل عن تعديل الدستور لتأخذ بلادنا جيو الاستقرار الحقيقي بأن يكون اختيار رئيس الجمهورية ونائبه بالانتخاب المطلق ، وأن تختفى إلى الأبد بدعة الانتخاب بالقائمة ، فقد أفرزت هذه الانتخابات هياكل لا صلة لنا بالناخبين ... وطلبنا رئيس الجمهورية أن يوقف النزيف الذي تدفعه مصر المدينة المرهقة للعائلات المترفة الثرية ، عائلات عبد الناصر والسادات .

ونطالب رئيس الجمهورية باسترداد أموال مصر التي هربها أصحاب النفوذ للخارج ، وكان الأستاذ محمد حسنين هيكل قد قدر هذه الأموال بعدد من المليارات ، وفي عدد الأخبار الصادر في ١٩٨٦/٤/٣٠ نقلت الأستاذة مها عبد الفتاح سطورا من تقرير « مؤسسة مورجان الأمريكية » جاء فيها أن مصر من بين الدول الفقيرة التي خرجت منها مليارات الدولارات بطريق التهريب أو التحويل للخارج . نحن نطالب بمحاولة جادة لاستعادة هذه الأموال ومعرفة الذين خانوا البلاد ، ونقلوا ثرائها ، وتركوها تعاني الأزمات .

وموضوع آخر مهم يتحتم أن ينال عناية الرئيس وحكومته ، ذلك هو موضوع النقص الغذائي الذي نعانيه ، والذي يجعل لقمة العيش في أيدي أعدائنا .

وننبه إلى السبق الذي أحرزته دول كثيرة كانت مثلنا تعاني ، وتستورد ، ولكنها بسرعة حققت الكفاية ، بل اتجهت لتصدير فائض كبير ، أما نحن في عهد الثورة القاحلة فأننا نتراجع من يوم إلى يوم .

تقول التقارير إن الصين استطاعت — بعد أن حققت حاجة الالف مليون نسمة من سكانها — أن تصدر القمح والقطن وغيرهما من الحاصلات .

وكانت بنجالادش تثير اشفاق العالم لنقص مواردها في الغذاء ،
ولكنها قفزت الى تحقيق الكفاية ومحاولة التصدير .

أما الهند التي كانت بلاد مجاعات فقد أصبحت تصدر كثيرا
حاصلاتها بعد أن حققت الكفاية وما فوق الكفاية .

ومثل هذا يقال عن اندونيسيا وتايوان والفيلبين ، وتحاول تركيا
إصلاح ثمانية ملايين من الهكتارات للزراعة .

ثم نطالب الرئيس مبارك بإزالة آثار الماضي ، تلك الآثار الكئيبة
التي سمح لها الرئيس مبارك بالحياة حتى الآن ، وهي لا تستحق الحياة
لحظة واحدة ، ومنها محاكم أمن الدولة ، ومحكمة القيم ، وقانون حماية
الجبهة الداخلية ، وقانون حماية الوحدة الوطنية ... فليست هذه
القوانين إلا قيودا للشعب لصالح الحاكم .

ماذا فعلت هذه القفزة التي تسمى نفسها ثورة ؟ إنها بتخليها
يمكن أن تسمى ثورة على الخير والإصلاح ، ولكنها انتهت على كل حال ،
والعصر الحاضر لا يمكن أن يستمر دون حراك ، إن العبء ثقيل ، ولكن
النهوض به لا يحتتمل أى تأخير ، حتى فلق بركب العالم الذي يسرع
الخطا ، ومن عجب أن تسبقنا دول كانت أكثر منا تخلفا ، ولكنها النتيجة
الطبيعية عندما تحكم البلاد بالأنانيين الجهلاء .

منشآت حديثة بمصر

شهدت مصر في القرنين التاسع عشر والعشرين نهضة عمرانية عظيمة في مجال المنشآت العمرانية ، التي أصبح بعضها في عداد الآثار المهمة ، وبعضها من علامات النهضة الحديثة •

ومن منشآت القرن التاسع عشر نذكر :

— مسجد محمد علي بالقلعة ، وهو تحفة نادرة ، أكمل به محمد علي بهجة القلعة وجلالها •

— مسجد وضريح أبي الحجاج الأقصرى الذى توفى سنة ٦٤٢ هـ وسنتكلم عنه بعد قليل ، وقد بنى ضريحه بالأقصر في القرن التاسع عشر •

ومنشآت القرن العشرين :

أما القرن العشرين فقد شهد مجموعة هائلة من المنشآت ، أقيم بعضها قبل الثورة ، وأقيم الحشد ضيقا في عهد أنور السادات وحسنى مبارك وبخاصة في عهد الأخير ، ولا ينسب لعبد الناصر منها إلا السد العالي مع ما حوله من الكلام مدحا أو هجوما أوردناه في الجزء التاسع من هذه الموسوعة ، وكانت منشآت السادات وحسنى مبارك لدفع عجلة الحياة التي أوشكت على التوقف أو توقفت فعلا لإهمال المرافق تماما خلال عهد عبد الناصر •

والمنشآت التي تمت في القرن العشرين قبل الثورة هي :

— مسجد السيدة زينب التي توفيت بمصر في القرن الأول وينتسب لوزارة الأوقاف في القرن العشرين (وبهذه المناسبة نذكر أن المشهد

الحسينى أقدم من المشهد الزينبى بكثير ، فعندما نقل رأس الإمام من
عسقلان للقاهرة سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) بنى له مشهد ، ثم ظل يتطور
مع الزمن اتساعا ورفاهة حتى العهد الحاضر (١٩٨٦ م) .

— مسجد السيدة سكينة بالحنيفة .

— مسجد السيدة عائشة بالقلعة .

— مسجد زين العابدين (ابن على زين العابدين بن الامام
الحسين) .

— مسجد وضريح عبد الرحيم القناوى الذى توفى سنة ٥٩٢ وبنى
ضريحه فى القرن العشرين .

ومنشآت عهد السادات هي :

— نفق أحمد حمدي الذى يمر تحت قناة السويس ، فيصل سيناء
بالوطن الأم ، وهو عمل هائل من الناحية الوطنية والناحية العمرانية ،
وستذكره الأجيال دائما بكل الثناء والتقدير .

— الكبارى العلوية وبخاصة كوبرى ٦ أكتوبر و ١٥ مايو ، وقد
أنقذا حركة المرور بين الجيزة والقاهرة وكانت امتداداتهما كبيرة
الفائدة .

— هذا بالإضافة الى اعادة الحياة للتليفونات وعلاج محدود لمشكلة
الصرف الصحى والاسكان .

وأهم منشآت عهد حسنى مبارك هي :

— امتدادات واسعة جدا فى شرايين الحياة ، أى فى الطرق
والكبارى تلك التى اقتطعت الصحارى ، وامتدت للريف والحضر ، ومنها

كذلك الامتدادات الهائلة لكوبرى ٦ أكتوبر و ١٥ مايو وكوبرى باغوص
وكوبرى مهمشة ، ومTRO الأنفاق *

— الجراجات متعددة الطوابق •

— الأنفاق التى عملت بدل الكبارى العلوية أحيانا مثل النفق فى
طريق المطار ونفق شيراتون القاهرة •

— إعادة بناء جامع عمرو بن العاص وتوسيعه ومحاولة جعله مركزا
لجامعة إسلامية •

— وبمناسبة الحديث عن إعادة بناء جامع عمرو بن العاص نذكر أن
هذا العصر شاهد نهضة شاملة لترميم الآثار وتجميلها ، سواء فى ذلك
الآثار الفرعونية أو المسيحية أو الإسلامية ، ويمكن للرائى أن يرى نتائج
هذه التحسينات فى مواقع كثيرة ، شكرا للدكتور أحمد قدرى الذى قاد
ركب هذه الإصلاحات ، وشكرا للحكومة التى أمدته بالمال اللازم
لهذا العمل الكبير •

مصر والحضارة الإسلامية

في ختام الحديث عن مصر يجدر بنا أن نذكر كلمة عن دور مصر في خدمة الحضارة الإسلامية ، فالتاريخ يسجل أن مصر أتيحت لها ظروف لم تتح لسواها لتقدم أجلاء الخدمات لهذه الحضارة ، فقد بدأت المدرسة المصرية للدعوة للإسلام ودراسة علوم القرآن واللغة العربية مبكرة ، في نفس الوقت الذي بدأت فيه مدارس العراق بالبصرة والكوفة وبغداد (١) ، ومن الطبيعي أن العصر العباسي الأول منح مدارس العراق وبخاصة بغداد مزيداً من العناية والاهتمام ، فقد زها خلال هذا العصر بيت الحكمة الذي أنشأه الرشيد ومنحه المأمون تأييداً يقصر دونه الوصف ، بيد أن الحركات السياسية والمذهبية بعد العصر العباسي الأول صبغت بغداد بالدم والقلق ، فقد جاء عصر الأتراك المماليك ، فعصر بنى بويه ، واختفى خلال هذه العصور نفوذ الخلفاء وهان شأن الكثيرين منهم ، ولا تدرى الثقافة في هذا الجو الصاخب المضطرب .

تراجع بغداد وتقدم مصر :

وبينما كانت بغداد تنحني أمام هذه العواصف ، كانت مصر تتألم نوعاً من الاستقلال وصل في أكثر الأحيان إلى اكتماله ونضجه ، فالطولونيون والإخشيديون استقلوا بمصر الاستقلال الذي وصفناه ، واهتم هؤلاء وأولئك بالعلوم والمعارف وجذبوا الفقهاء والباحثين ليعيشوا في كنفهم ، وأسبغوا عليهم ألواناً من الخيرات ومنحهم أسمى مكانة ، ثم جاء من بعدهم الفاطميون ، ولم يكن هؤلاء تابعين لبغداد بطبيعة الحال ، بل كانوا منافسين لها ، ومحاولين أن يسيطروا عليها أحياناً ، ومن ثم وجهوا عنايتهم إلى ألوان من خدمة العلوم والمعارف ، فأنشأوا الأزهر ، وأنشأ الحاكم بأمر الله بالقاهرة دار الحكمة ينافس بها أو

(١) راجع حديثنا عن « حضارة مصر في عهد الولاة » في هذا الجزء

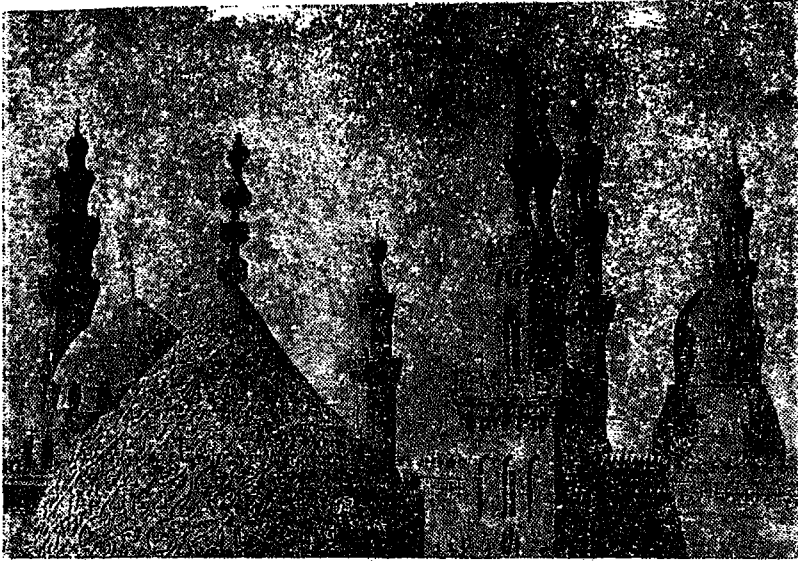
يرث بها بيت الحكمة الذى كان ببغداد ، ولا يهمننا أن الأزهر كان يعلم التشيع في وقت ما ، فالذى لا شك فيه أن الأزهر سرعان ما خدم ألوان الثقافات المختلفة في شتى الميادين ، وظل على مرّ القرون ، المنارة التى يشع ضوءها على الإسلام والمسلمين في كل الأنحاء ، وأصبحت القاهرة تسمى « مدينة الألف ليلة » كما قامت في حى الأزهر صناعات دقيقة نالت شهرة عالمية واسعة .

مصر عندما زحف الصليبيون على سوريا قلب العالم الإسلامى :

ثم حلت مجموعة من الكوارث بأكثر أقطار العالم الإسلامى ابتداء من القرن الثانى عشر الميلادى ، شملت قلبه وجناحه الأيمن وجناحه الأيسر ، فسوريا قلب العالم الإسلامى زحف عليها الصليبيون ، واحتلوا الساحل وتعمقوا بالداخل وأقاموا لهم عدة إمارات ، وبقيت المناطق التى لم يصبها الاحتلال مهددة تدافع عن نفسها ، وظلت الحروب حوالى القرنين من الزمان ، وبين قصف المدافع وصيلل السيوف ضعف سبى الحضارة وتوانى نشاطها ، وقد حاول الصليبيون أن يمدوا نفوذهم الى مصر ولكن محاولتهم كانت قليلة النجاح قصيرة العمر ، فبقيت مصر يتمثل بها جانب النشاط العلمى الذى كان يعم سوريا ومصر قبل هذه الحرب ، وكانت مصر درعا عسكريا قضت على النفوذ الصليبي وأزالته من المنطقة وخلال هذه الأربعة قرون عدد من علماء الشام لمصر .

مصر عندما زحف التتار على الجناح الشرقى :

وحلت الكارثة الكبرى بالجناح الشرقى ، وهى كارثة زحف التتار على العراق وسوريا ، وقد صاحب التتار معهم الدمار أينما حلوا ، وكانوا أعداء للثقافة والحضارة ، ففقدوا على كل شئ ، وأزالوا معالم المجد التى كانت بعاصمة الرشيد كما أزالوا كثيرا من معالم دمشق ؛ أما العلماء الذين فروا من هذا السيل الجارف ، ومعهم بعض الكتب فلم يجدوا لهم وجهة إلا مصر ، ولم يستطع إلا جيش مصر أن يوقف زحف التتار



القاهرة مدينة الألف منة



من معالم القاهرة
خان الخليلي والصناعات اليدوية الدقيقة

ويقللهم أظفارهم في موقعة « عين جالوت » ، والمواقع التي جاءت بعدها وحرس جيش مصر بذلك حضارة الإسلام وثقافته وبقية رجاله الباحثين فيه .

مصر عندما زحف الفرنجة على مسلمى الأندلس والجناح الغربى :

وقريبا من الوقت الذى زحف فيه التتار من الشرق ، كان الفرنجة يقضون على البقية الباقية للإسلام بالأندلس ويزحفون على الشمال الافريقى وهو الجناح الغربى ، فيقضون على استقلاله ويحاربون الثقافة الاسلامية به ، وهب جيش مصر بقيادة صلاح الدين الأيوبي فضرب الفرنجة وأنزل بهم أشد الهزائم ، ومرة أخرى فرّ خلال هذا الصراع عدد كبير من العلماء والباحثين من الأندلس ومن الشمال الافريقى ، ولم يجد هؤلاء موطنًا لهم إلا مصر حيث وجدوا الأمن والملاذ الكريم .

الشرق الاسلامى والغرب والشمال هدف للصدوان :

وينبغى قبل أن نورد أسماء نماذج ممن نعرف من العلماء الذين وفدوا الى مصر من العراق والشام والمغرب والأندلس أن نضع تواريخ الهجوم على هذه المناطق حتى ندرك الارتباط بين هذا الهجوم وبين فرار العلماء الى مصر :

— بدأت الحروب الصليبية بالشام سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٧ م) وظلت حتى سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢ م) .

— وبدأ التتار هجومهم على شرق العالم الاسلامى سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) ووصلوا الى بغداد ودمروها سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ثم زحفوا على الشام بعد ذلك .

— وبدأ انتصار الفرنجة فى الأندلس فالمغرب عقب هزيمة الموحدين فى موقعة « حصن العقاب » سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) .

ومن هذا يتضح أن سنوات القرن السادس والسابع الهجريين (الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين) كانت سنوات محن بهذه المناطق ،

وفي نفس الوقت كانت مصر أحسن حالا في عهد الأيوبيين والمماليك ،
فتصدى جيشها للجيوش الزاحفة وحقق عليها نصرا عظيما •
وفي ضوء هذا نستطيع أن نذكر بعض أسماء العلماء الذين وفدوا
الى مصر خلال هذه الفترة الكالحة •

وفود العلماء من كل الجهات الى مصر

من الشرق : (العراق وإيران)

يوسف بن عبد الرحمن وشهرته أبو الحجاج :

ولد ببغداد ثم رحل الى مصر وجلس يعلم بها ، واتخذ من الأقصر
مكانا لحلقته وتوفي سنة ٦٤٢ هـ في عهد نجم الدين أيوب ، وله ضريح عظيم
بالأقصر وله كذلك مسجد فاخر •

ومما يذكر أن المنطقة التي يوجد بها الضريح والمسجد تعتبر منطقة
أديان ، اذ كان يتواجد بها معبد آمون الفرعونى ثم كنيسة مسيحية ،
وأخيرا مسجد أبى الحجاج الأقصرى •

سليم أبو مسلم :

هو من أحفاد الامام الحسين رضى الله عنه ، وقد وُلِدَ بمدينة
همذان بإيران سنة ٥٣١ هـ ، وتبع في العلوم والمعارف وحضر الى مصر
في أواخر القرن السادس الهجرى ، وعُثِرَ بين المصريين بعلمه وزهده ،
فقلده صلاح الدين الأيوبي خطبة الجمعة بمسجد عمرو ، وطال عمره حتى
تجاوز المائة ومات سنة ٦٤٥ هـ ، وله ضريح عظيم بمدينة بحطيط بمحافظة
الشرقية •

عبد العزيز عبد القادر البغدادى :

وُلِدَ في بغداد وتعلم بها مختلف العلوم الاسلامية ، وكانت بغداد
آنذاك في فترة الدمار عقب الاعصار المغولى ، ولذلك لم يطب له المقام فيها ،

فهاجر الى القاهرة ، وأكمل بها ثقافته ثم جلس يعلم بها ، وظل فيها حتى مات سنة ٧٤٨ هـ .

محب الدين البغدادى :

وهو فقيه ومحدث ولغوى وهو كذلك أحد علماء المستنصرية ، وكان يعلم بها عندما عادت لها الحياة بعد الاغصار المغولى ، ولكن الحياة في بغداد لم تطب له فهاجر الى مصر ، ورحبت به مصر ، فأصبح قاضيا للحنابلة ، ومفتيا للديار المصرية ، وتوفي بالقاهرة سنة ٨٤٤ هـ .

على بن جمعة البغدادى :

ولد في بغداد ، ونال ثقافته الأولى بها ، ولكن بغداد كانت لا تزال تعيش في أعقاب الزحف المغولى ، ومن جاءوا بعدهم من الجلائريين والتركمان ، الذين لم يكن لهم معرفة بالاسلام ولا تقدير لعلمائه ، ومن هنا هاجر الى القاهرة وجلس يعلم بها حتى توفي سنة ٨٦٨ هـ .

من الغرب (المغرب والأندلس) :

الطرطوشى (ابن أبى رندقة) :

ولد في طرطوشة بالأندلس ، ودرس العلوم الاسلامية ، وتخصص في التاريخ ، وقد أحس باضطرابات الأندلس خلال عهد الطوائف ، فجا إلى الحجاز وبغداد والبصرة ودمشق ، وانتهى به المطاف الى مصر ، وظل بها حتى مات سنة ٥٢٠ هـ ومن مؤلفاته « سراج الملوك » و « الحوادث والبدع » .

الغافقى (اليسع بن عيسى) هـ

عاش في بلنسية بالأندلس ، ودرس على شاعرها ابن خفاجة ، ثم سافر الى الاسكندرية والقاهرة ، وخدم في بلاط صلاح الدين الأيوبي ، وقد شمله السلطان بعباية ورعاية ، وأهداه منزلا على ضفاف النيل ،

وطلب منه كتابة كتاب عن المغرب ، فكتب كتابه « المغرب في محاسن أهل المغرب » وتوفي بالقاهرة سنة ٥٧٥ هـ .

القاسم الشاطبي :

ولد بمدينة شاطبة بالأندلس سنة ٥٣٨ هـ وحفظ بها القرآن ثم ذهب الى معاهد بلنسية فتلقي القرآن والعلوم الاسلامية حتى أصبح أماماً في مختلف الدراسات الاسلامية .

حضر الى مصر وعمره أربع وثلاثون سنة وذهب الى الاسكندرية ثم رحل للقاهرة فاستقبله القاضي الفاضل عبيد الرحيم اليبساني وعينه مدرسا بمدرسته « الفاضلية » وتوفي سنة ٥٩٠ هـ ودفن بمقبرة القاضي الفاضل .

وله ابن هو محمد الشاطبي الذي دفن بالاسكندرية والذي ينسب له حي الشاطبي لوجود ضريحه في هذا الحي .

عبد الرحيم القناوى :

من اقليم سبته بالمغرب الأقصى ، ولد سنة ٥٢١ هـ ، وحضر الى مصر في عهد الخليفة العاضد ، وعينه صلاح الدين شيخا لعلماء قنبا ، وذلك اعترافا بفضل ، وقد التفت حوله العلماء والطلاب واستشاروا منه استفادة واسعة ، وتوفي سنة ٥٩٢ هـ وله ضريح شهير بقنبا .

العبدري (عبد الله بن الحسين) :

اندلسي المولد ، كان فقيها من أعظم فقهاء الأندلس ، وقد وفد الى مصر واستقر بها ، وأنشأ مدرسة ورباطا بالقرب من داره ، وتوفي سنة ٦٢٢ هـ .

أبو الخطاب بن دحية :

هو المحدث الحافظ الأندلسي ، وفد الى مصر في العهد الأيوبي ، فعينه الملك العادل مؤدبا لابنه الكامل ، وعندما تولى الكامل الملك بنى

لأستاذه مدرسة للحديث في المكان المسمى « بين القصرين » وتوفي سنة ٦٣٣ هـ .

أبو الحسن الشاذلي :

ينتهي نسبه إلى الامام الحسن بن علي بن أبي طالب ، ولد بالمغرب بمدينة غمارة قرب طنجة حيث تلقى العلوم الإسلامية ، وطاف بالبلاد الإسلامية حتى وصل إلى مدينة « الشاذلة » فبقي فيها فترة حتى نسب لها بعد ذلك .

وهو يقول انه رأى الرسول صلوات الله عليه في المنام يطلب منه أن ينتقل إلى الديار المصرية ، فأسرع بالاستجابة وفي مصر التقى بعلماء العصر : العز بن عبد السلام ، وابن الحاجب ، وابن الصلاح ، وابن عصفور ، وتوفي أبو الحسن الشاذلي وهو في طريقه للحج عند ميناء عيذاب على البحر الأحمر ، وكانت عيذاب وقتها ميناء مصر إلى جدة قبل الانتقال للسويس .

السيد أحمد البدوي :

ولد بمدينة فاس سنة ٥٩٦ هـ ، وينتهي نسبه إلى الامام الحسين وأمه مغربية ، ورحلت الأسرة إلى مكة واستقرت في طريقها لمكة بالقاهرة مدة خمس سنوات ، بعدها تمت رحلتها إلى مكة ، وعاشت بضع سنوات هناك ، وفي سنة ٦٣٤ هـ رحل أحمد إلى العراق وفي الموصل التقى أحمد مع « فاطمة بنت برى » فكانت لها مع أحمد قصة شهيرة لأنها كانت فاتنة الجمال فأرادت اغراء أحمد ، ولكنه لم يستجب لها بل نصحها فالتحقت به ودرست اتجاهاته الصوفية .

وقد جاء أحمد البدوي إلى مصر سنة ٦٣٧ ويقال أنه ذهب إلى طنطا نتيجة لرؤيا رآها .

ومن تلاميذه عبد المال وأخوه عبد المجيد .

وقد توفي بطنطا سنة ٦٧٥ هـ وله بها ضريح عظيم يعتبر من أشهر
أضرحة مصر .

محمد بن الشباط :

هو من مدينة « توزر » بأفريقية (تونس) انتقل الى مصر واستوطن
القاهرة ، وحفيده محمد بن على عاد الى توزر ، وكان يعرف بالمصرى لطول
حياة الأسرة بمصر ، وتوفي في مطلع القرن السابع الهجرى .

ابن هيسان :

مؤرخ شهير ولد بغرناطة وتعلم بالأندلس ، ثم رحل الى مصر وعاش
بها يتعلم ويعلم حتى مات سنة ٧٤٦ هـ .

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) :

ولد في تونس ، وهو فيلسوف ومؤرخ ، وواضع علم الاجتماع ،
ودرس المنطق والفلسفة والفقه والتاريخ ، وشغل عدة مناصب سياسية ،
وكان سفير ابن الأحمر ملك قشالة .

رحل الى مصر ودرس في الأزهر وتولى قضاء المالكية ، ولما حاصر
تيمور لك دمشق قصده ابن خلدون راجيا انقاذ المدينة ، ولكن الطاغية
المغولى لم يقبل رجاءه ، ألف المقدمة التى تشمل فلسفة علم الاجتماع
وفلسفة التاريخ توفي بمصر سنة ٨٠٨ هـ .

من الشام :

عمر بن الفارض :

ينتهى نسبه الى قبيلة حليلة السعدية مرضعة الرسول عليه السلام ،
وكان أبوه يعيش في « حماه » ، ثم جاء أبوه الى مصر وشغل مناصب عالية ،

أما عمر فقد ولد بمصر سنة ٥٧٦ هـ تقريبا ، وعاش في كنف الدولة الأيوبية ، وتوفي بالقاهرة سنة ٦٣٣ هـ وكان كثير السياحة في جبل المقطم .

الشيخ عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب :

وفد أبوه الى مصر جنديا في جيش نور الدين زنكي الذي كان يقوده أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي واستقر في مصر ، وقد ولد عثمان في مدينة اسنا ، ثم انتقل الأب وابنه الى القاهرة في أواخر عهد الخليفة العاضد ، وتوفي ابن الحاجب بالأسكندرية سنة ٦٤٦ هـ وله فيها ضريح شهير .

العز بن عبد السلام :

كان يعيش في دمشق في عهد الملك الصالح اسماعيل الأيوبي ، ولكن هذا الملك باع أسلحة للفرنجة فثار عليه الغضب ، وأوقف الدعاء له في خطبة الجمعة ، ثم حضر لمصر خفية ، وقد استقبله الأمراء والعلماء أحسن استقبال ، وعاش في مصر معززا مكرما حتى مات سنة ٦٦٠ هـ .

الشيخ محمد العتريس وأسرته العتريس :

ينتهي نسب الأسرة الى الامام زين العابدين بن الحسين رضي الله عنه ، وهو أحد عشرة اخوة من الذكور تلقوا جميعا تعليما دينيا وكانت لهم اتجاهات صوفية ، ومن أشهر اخوته الشيخ ابراهيم الدسوقي الذي ولد سنة ٦٢٣ هـ أما الشيخ العتريس فولد بعد ذلك ببضع سنوات ، وللشيخ العتريس ضريح بالركن الشمالي الغربي بجامع السيدة زينب أما أخوه الشيخ ابراهيم الدسوقي فله ضريح بدسوق ، وقد وفد أفراد أسرة العتريس الى القاهرة في القرن السابع الهجري .

عمر البلقيني :

كان قاضيا بدمشق ثم جاء الى مصر ، وولى القضاء بها ، كما ولى التدريس في بعض مساجدها ومدارسها ، وتوفي بمصر سنة ٨٠٦ هـ .

وأصبحت مصر بذلك أزهى مركز فكري في العالم الاسلامى كله ،
حتى شاع ذلك المثل الذى يقول : من لم ير مصر لم ير عزَّ الاسلام .

جهود مصر في العصر الحديث :

وحدث شيء آخر في العصر الحديث ، كانت له نفس النتائج تعريبا ،
ذلك أن العالم العربى خضع للأتراك العثمانيين منذ مطلع القرن السادس
عشر ، وكان العصر العثمانى حافلا بالحروب والقلق ، ولم يكن به استقرار
قط ، وكانت العناية بالثقافة في عواصم العالم العربى ضئيلة أو معدومة ،
مما جعل الظلام يجثم على البلاد العربية ، ومما أخفت صوت العلم فيها ،
وفي مطلع القرن التاسع عشر استقلت مصر ، وبدأ يتكون بها جيل من
أبنائها يحيون الماضى ويوقظون الفكر ، وسبقت مصر بذلك شقيقاتها
العربيات بحوالى قرن ونصف قرن ، وخطت مصر خلال هذه المدة الى
الأمام خطوات طيبة لخدمة العلوم والمعارف ، وأنشأت بجانب الأزهر
أنواعا من المدارس : منها العسكرية والفنية ، ومنها دار العلوم ، ومدرسة
القضاء الشرعى ، كما أنشأت دار الكتب ، وفي مطلع القرن العشرين أنشئت
جامعة القاهرة ، وتلاها سواها من الجامعات ، ولما أطل عهد الاستقلال
والتححر على العالم العربى ، وأرادت الدول العربية أن تحيى الدراسات
الاسلامية والعربية وغيرها ، تطلعت لمصر ، فأمدتها هذه بالأساتذة والعلماء
والكتب ، وتعاونت معها ولا تزال ، تعاوننا كاملا للوصول الى الهدف
المشترك ، ودفعت مصر بعلمائها كذلك الى أكثر أقطار الأرض لتعليم اللغة
العربية والحضارة الاسلامية ، ولسنا في حاجة الى أن نورد أرقاما عن
عدد الأقطار التى استجابت لها مصر ، ولا عن عدد العلماء الذين أوفدتهم ،
لسنا في حاجة الى ذلك ، فهو من الثليوع والذبيوع بحيث لا يحتاج الى
دليل .

وهكذا قامت مصر بدور كبير في خدمة الاسلام وحضارته وكل
الدراسات حوله .

تاریخ سوریا من الفتح العثماني

تقسيم :

نستطيع أن نقسم تاريخ سوريا من العهد العثماني (١) حتى الآن
ثلاثة أقسام متميزة هي :

١ — فترة العثمانيين (١٥١٦ — ١٩١٨) والبطلة خلالها كانت
للعثمانيين غالبا ، ولكن كان هناك نوع من الاستقلال لبعض المناطق في
جبال لبنان •

٢ — فترة الاحتلال الأوربي (١٩١٨ — ١٩٤٦) وتمتاز بتقسيم
سوريا إلى عدة دول عادت بعضها إلى الاندماج وبقي بعضها حتى الآن
محافظا على استقلاله كما سنرى •

٣ — فترة الاستقلال من ١٩٤٦ حتى الآن وتمتاز بالوحدة الكاملة
بين سوريا ومصر في « الجمهورية العربية المتحدة » (١٩٥٨ — ١٩٦١)
التي عُدَّت آنذاك نواة للوحدة العربية الكبرى •

وسنصف معالم كل فترة من هذه الفترات فيما يلي :

(١) من الواضح أننا درسنا تاريخ سوريا قبل العهد العثماني مرتبطا
بتاريخ مصر في نفس الفترة : إذ كان البلدان يتبعان حكما واحدا ، ويكونان
دولة واحدة •

١ — الفترة العثمانية

١٥١٦ — ١٩١٨

تتفق سوريا مع مصر في بعض ملامح الحياة في ظل العثمانيين ، وهناك ملامح أخرى اختلفت هنا عنها هناك ، ومن أبرز الملامح التي اتفقت فيها سوريا مع مصر مكانة الباشا ، ونظام الالتزام ، والنتائج السياسية والاقتصادية والاجتماعية للحكم العثماني ، ولن نعيد هنا الكلام عن هذه الملامح المشتركة اكتفاء بما أوردناه عنها من قبل ، وسنغنى بالملامح التي انفردت بها سوريا .

الولاية :

كانت الولاية في سوريا منصبا دسما للباشا ، إذ لم يكن هناك ممالك كأولئك الذين كانوا في مصر يتنازعون الباشا سلطانه أو ينفصون عليه عيشه ، ثم أن قرب سوريا من تركيا ضمن للولاية الباشوات نوعا من الهيبة ، ومن هنا كان تكالب الولاة على سوريا ملحوظا ، وكان الطامعون في الولاية مستعدين أن يدفعوا رشوة باهظة لينالوها ، فكثرت بذلك عدد الولاة في كل من ولايات سوريا ، إذ بلغ عددهم في ولاية دمشق ١٣٣ واليا خلال السنين المائة والأربع والثمانين التي ابتدأت بالفتح العثماني (١) ، ولم يكن بين هؤلاء من أتم السنتين في وظيفته ، وكانت الحالة في حلب مماثلة للحالة في دمشق ، بل قد توالى تسعة من الباشوات على المدينة خلال ثلاث سنوات ، وكثيرا ما كان الوالي يعزل قبل أن يحصل من الولاية على ما يعوضه الرشوة الباهظة التي دفعها ، ولذلك نجد بعض الولاة يتمسكون بالولاية على الرغم من صدور فرمان بتولية وال جديد ، بل هبت أحيانا حروب طاحنة بين الباشوات الذين كانوا يتنازعون السلطة ،

وكانت عاصمة العثمانيين تترك هؤلاء الولاية في صراعهم لأنها تعرف أنها ستقتضى الجعل ممن تكون له الغلبة منهم •

تقسيم سوريا ومشكلة لبنان :

يعتبر تقسيم سوريا أضخم ألوان العناء التي نزلت بها بل وبالعالم العربى نتيجة للحكم العثمانى ، صحيح أن الاستعمار فى المرحلة التالية هو الذى أبرز هذه المشكلة ، ولكن أساس التقسيم وضع فى العهد العثمانى ، وسنتكلم هنا عن هذا الموضوع كله سواء ما تم فى العهد العثمانى أو فى العهد الذى جاء بعده •

والعجيب أن يقع التقسيم فى سوريا مع أنها قلب العالم العربى ، وفكرة الوحدة عريقة وأصيلة فى سكان هذه البلاد ، ليس فقط بين أجزاء سوريا بعضها والبعض الآخر ، ولكن بينها وبين الأقطار العربية جميعا كما سجل التاريخ ذلك عدة مرات ، وكما سنرى ذلك فيما بعد •

التقسيم بعيد الجذور :

وقصة تقسيم سوريا بعيدة الجذور ، ربما ترجع الى أيام فتحها ، فقد اشترك فى فتحها عدد من جيوش المسلمين ومجموعة من القواد ، وقد اشتركت هذه الجيوش فى بعض المعارك الكبرى كمعركة أجنادين ودمشق واليرموك ، ثم انقسمت جيوش المسلمين قسمين : اتجه قسم الى الشمال بقيادة أبى عبيدة ومعه خالد بن الوليد ، واتجه قسم آخر الى الجنوب بقيادة عمرو بن العاص وشرحبيل ، وبقى يزيد بن أبى سفيان فى منطقة دمشق ليحمى ما حققه المسلمون من انتصارات بها ، وبعد أن تم للمسلمين فتح الشام ولقى عمر بن الخطاب يزيد ولاية دمشق كما جعل معاوية واليا على الأردن ، وعين عمرو بن العاص واليا على فلسطين (١) •

(١) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية للمؤلف ج ١ ص ٢٥٥ وما

بعدها و ج ٢ ص ٢٩ •

ولعله منذ ذلك الحين بدأت سوريا تنتسب الى ولايات ، وربما أمكن القول ان هذا الصّدّع وضح من جديد خلال العهد العباسي ، فلعله كان ضروريا لدى العباسيين أن تظل سوريا مفككة ، إذ كانت بغداد تخشى وثبات أهل الشام ، وأصبح ذلك شبه تقليد فيما بعد ، حتى انخلعت حلب عن الشام نهائيا وكونت مع الموصل دولة بنى حمدان في فترة من الفترات سبق ذكرها ، وحتى أن صلاح الدين الأيوبي عندما قسم مملكته جعل دمشق لأحد أولاده وجعل حلب لابن آخر ، وفي عهد المماليك كانت سوريا مقسمة الى « نيابات » ستة ، هي نيابة حلب وحماه ودمشق وطرابلس وصفد والكرك وكان حاكم كل منها مستقلا عن الآخرين ، له قصره الذي هو صورة مصغرة من بلاط القاهرة ، وقد أبقى الأتراك الدوائر النيابية في سوريا على نحو ما كانت عليه في عهد المماليك ، ولكنهم بدّلوا بعض الشيء في نظام التسمية ، فدُعيت النيابة ولاية ، وأصبح الحاكم يُسمّى والي بدل النائب ، ثم اندمجت هذه الولايات بعضها في بعض عقب الحركة الاستقلالية التي قام بها « جان بردى غزالي » وسنتكلم عنها فيما بعد ، فأصبحت ولايات سوريا ثلاثة ، هي ولاية دمشق وحلب وطرابلس ، ثم جعلت صيدا ولاية سنة ١٦٦٠ م لتكون مركزا للرقابة على لبنان (١). ولم تكن هذه الولايات بطبيعة الحال تقسيما لسوريا ، ولكنها على كل حال وضعت الأساس لتجزئة الوطن الواحد .

لبنان وجماعات الجبل :

والحديث عن لبنان الذي ختمنا به الفقرة السابقة يقودنا الى موضوع يحتاج الى مزيد من التفصيل عن حركات الانشعاب في الشام ، ففي لبنان كانت تعيش أسر اقطاعية منذ عهد الفاطميين ومنذ عهد الصليبيين ، فقد لجأ الى جبال لبنان الحصينة جماعة الدروز الذين يرتبط تاريخهم بالحاكم

(١) فيليب حتى : سوريا ولبنان وفلسطين ج ٣ ص ٢٧٤ و ٣٠٧ —

بأمر الله الفاطمي ، كما كان يعيش هناك جماعات الموارنة معتصمين بالجبال ، وقد ادعت فرنسا مسئوليتها عن الموارنة الكاثوليك ، متخذة الاتجاه بأن فشل الحروب الصليبية ألقى عليها مسئوليات دينية تجاه المسيحيين الذين يعيشون في هذه المنطقة منحدرين — في ادعائهم — من التجمع الصليبي الذي كان قد أفل نجمه .

هنايات غربية للظوائف في لبنان :

وجاء الحكم العثماني فأدرك قوة الاقطاع في لبنان ، ولكنه أدرك في الوقت نفسه أن لبنان ليس مصدر خطر عليه ، فأتجه الى مواطن الخطر في مصر وفارس ، وأكتفى من أمراء لبنان ومن شيوخ قبائله بالتبعية الاسمية ، ولعل هذا ساعد فرنسا أن تمتد يدها الى الموارنة ما داموا يجمعون بمركز ممتاز في الامبراطورية العثمانية ، لتقوى بذلك امتيازاتهم ولتدعم سلطتها بهم، فتقدمت الى السلطان العثماني وهو في أوج مجده تطلب — باسم الصداقة والدبلوماسية — مركزا لرعاياها داخل الدولة يمتاز عن رعايا باقي الدول ، وقد نجحت سنة ١٥٣٥ في عقد معاهدة بهذا الامتياز وأضيف في هذه المعاهدة حقها في رعاية المسيحيين الكاثوليك في الدولة ، وكان المقصود من كلمة « رعاية » بعض الخدمات الانسانية والثقافية ، ولم يكن هذا يضر الدولة العثمانية لأنها كانت قوية تستطيع في أي وقت من الأوقات التدخل وابقاف هذه الرعاية ، ولكن تطور الزمن ، وما أصاب الدولة من وهن ، نقل مدلول « الرعاية » الى « الحماية » وجعلها حقا ثابتا لا يمكن التخلي عنه .

وما ان حصلت فرنسا على هذا الحق حتى حصلت روسيا على حق مثيل له بالنسبة للمسيحيين الأرثوذكس .

ولم يكن المقصود من هذا التدخل دينيا ، ولكن ذلك كان — كالمهد بأوروبا دائما — استغلالا للدين للحصول على نفوذ سياسي ، وأوضح دليل

على ذلك أن انجلترا عندما رأت تدخل فرنسا وروسيا باسم الكاثوليكية والأرثوذكسية تدخلت هي أيضا مدافعة عن الدروز ، وهكذا أصبحت جبال لبنان باعتبارها تشجع بالمسيحيين والدروز منعزلة من الناحية العملية عن باقي سوريا ، وأتاح ذلك لأصابع الأجانب فرصة التدخل في شئونها منذ ذلك العهد المبكر .

وفي ظل هذه الامتيازات تقدمت أوروبا نحو الموارنة الكاثوليك تساعدهم وتقوى صلتها بهم ، ويقرر الدكتور فيليب حتى أن المؤثرات الثقافية الغربية ممثلة في بعثات الجزويت وغيرها من الإرساليات المسيحية عرفت طريقها إلى جبال لبنان منذ سنة ١٦٢٥ م ، وأن دائرة اللاهوت المارونية في روما أتاحَت لنصارى لبنان فرصة نادرة لتحصيل العلم ، فقد اختارت المتفوقين منهم ليدرّبوا في تلك الدائرة ، وبعد أن يَتَمَّهوا دروسهم ، يعود بعضهم إلى الوطن ليشغلوا مناصب الكيريكية رفيعة ، ويبقى آخرون في روما يكبّون على الدرس والتأليف (١) .

وكانت دول أوروبا تنتهز الفرص من حين إلى آخر لتحصل على مزيد من الامتيازات للمسيحيين ، وبالتالي مزيد من حقوق التدخل باسم حمايتهم ، وكانت هذه الفرص تنمو كلما تدهورت الدولة أو تدهورت في معركة ، وطالما حدث ذلك التدهور في عمر هذه الدولة آنذاك ، وهكذا جددت هذه الامتيازات سنة ١٧٤٠ كما جددت بفرمان الكليخانة سنة ١٨٩٩ عقب حرب القرم ، والذي كون من المسيحيين ما يمكن أن يُعَدَّ دولة في داخل الدولة .

صراع الموارنة والدروز :

ونتيجة لذلك برز الموارنة في لبنان مؤيدين بفرنسا ، ووقف الدروز مواجهين لهم مؤيدين بانجلترا ، ومؤيدين كذلك بالزعماء الذين كانوا يعملون

(١) المرجع السابق ص ٣٢٠ و ٣٢٢ .

للاستقلال منذ القرن السادس عشر ، (وسنتكلم عنهم عند كلامنا عن أشهر الولاة والأمراء) ، وبهواطف الباب العالي ، الذى — من أجل أن يستعيد نفوذه كاملا فى المنطقة — حرك الدروز للثورة ضد الموارنة سنة ١٨٤٢ م . وكان ذلك عقب جلاء ابراهيم باشا عن سوريا ، وقد ترك هذا الجلاء القوتين المتصارعتين وجهها لوجه ، وبخاصة أن ابراهيم كان يقرب الموارنة نكاية فى الدروز الذين كانوا يتجهون الى الآستانة ، وتقربا من فرنسا التى كانت ترعى الموارنة •

وهناك موضوع آخر يتصل بهذا الجلاء أيضا وهو أن ابراهيم باشا كان قد انتزع أراضى كثيرة من الدروز وسلمها للموارنة ، فلما تم هذا الجلاء حاول الدروز أن يستردوا أراضيهم من الموارنة •

تقسيم لبنان :

وهكذا تجمعت للثورة أسبابها فاندلعت ، وتحرك الباب العالي متظاهرا بالرغبة فى إخماد الثورة ، ولكن الدوافع الحقيقية كانت محاولته استعادة السلطان المباشر على الجبل كله ، بيد أن دول أوروبا تدخلت باسم الامتيازات السابقة ، فتقرر تقسيم لبنان الى منطقتين إداريتين يحكم احدهما عين من أعيان الدروز ، ويحكم الأخرى عين من أعيان الموارنة ، ويحمل كل منهما لقب « قائم مقام » • أما الأماكن المختلطة فانها تحكم بنائبين يعين أحدهما القائم مقام بمنطقة الموارنة ويعين الثانى القائم مقام بمنطقة الدروز ، وهبت الثورة من جديد سنة ١٨٤٥ فعمد الباب العالي الى نزع السلاح من كل من الطرفين وعين مجلسا يتمتع بصلاحيات ادارية وقضائية الى جانب كل قائم مقام ، وكان كل مجلس يتألف من ممثلين لمختلف طوائف الشعب (١) •

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٤ ص ٢٦ •

ولكن هذا النظام الثنائي أثبت فشله لأن القوى المحركة من الخارج كانت دائبة العمل لإثارة الفتنة ، وقد عمدت الدول الى استصدار « التنظيمات الخيرية » سنة ١٨٥٦ كما سبق القول ، فزاد هذا التصرف الأمر حدة ، وأثار ثائرة الدروز والمسلمين جميعا ، فبدأت في سنة ١٨٥٩ مذبحة هائلة كان سببها أن اعتدى بعض الموارنة على الدروز فقتلوا عددا منهم ، فهب الدروز للثأر ، وسقط في هذه المجزرة آلاف الموارنة ، وخرّبت الدور ، وارتكبت الفظائع ، وامتد لهب المجزرة الى غير لبنان فدخل بعض البلاد السورية ومنها دمشق ، وتدخل بعض من عرف بالحكمة من المسلمين من أمثال عبد القادر الجزائري فتوقفت هذه المجزرة بعد أن سقط فيها ضحايا كثيرون ، وبعد أن تركت في جسم الدولة آلاما استعصت على الشفاء ، وقد تدخلت الدولة بعنف لإيقاف هذه المجزرة ، فحكمت بالإعدام على عدد من الدروز ونفت آلافا آخرين خارج الجبل ، ولكن بريطانيا تدخلت لإنقاذ أنصارها ، فأوقفت حكم الإعدام ، وعملت على السماح للمنفقين بالعودة الى بلادهم .

وفي خلال هذه المجزرة اتفقت دول أوروبا أن ترسل فرنسا حملة الى لبنان لحماية أرواح المسيحيين على ألا تزيد مدة احتلالها للبلاد عن ستة أشهر ، وقد أرسلت الحملة فعلا ، ولكن الاجراءات الصارمة التي اتخذتها الدولة العلية لم تدع للحملة فرصة لإطالة مدتها بلعنان بالاضافة الى أن الدول الأوروبية أصرت على أن تخرج فرنسا حتى لا تستقل باحتلال هذه المنطقة فجلبت الجيوش الفرنسية عن لبنان في يونيو سنة ١٨٦١ (١) .

(١) انظر « في التاريخ الاسلامي الحديث » للدكتور ضياء الدين الرئيس ص ١١٩ وما بعده .

الحكم الذاتي في لبنان :

ولم يكن من الممكن أن تشترك أحوال الجبل على هذا الوضع ،
فالحكم المباشر له يثير ثائر الموارنة ، والبعد عنه يثير ثائرة الدروز ،
ولذلك جرت مداوالات طويلة بين الدول وبين الدولة الطليعة تقرر على
إثرها أن يُمنح لبنان استقلالاً ذاتياً تحت ضمان الدول على أن يكون
حاكم لبنان مسيحياً ومن غير لبنان ، وعلى أن تعترف هذه الحكومة
بالسيادة القانونية للدولة العثمانية ، وصدر بذلك قانون سنة ١٨٦٤ ،
وبذلك انسحبت لبنان رسمياً عن الأم سوريا ، وظلت لبنان تحكم في
ظل هذا القانون حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، وقد أتاح استقلال
لبنان لفرنسا مزيداً من التدخل في الميدان الثقافي وميدان المال فعملت
منذ ذلك التاريخ جاهدة ليتم صبغ لبنان بالصبغة الفرنسية .

ولعلنا نستطيع أن نتخلى بضع عقود من السنين لنضيف الى
حديثنا عن لبنان موضوعاً هاماً ، هو أنه بعد الحرب العالمية الأولى وبعد
أن حصلت فرنسا على حق الانتداب على سوريا ولبنان ، أصدر الجنرال
« غورو » قراراً في ٣١ أغسطس سنة ١٩٢١ نص على إيجاد « دولة لبنان
الكبير » مكونة من سنجق لبنان في العهد التركي مضافاً اليه مساحات
جديدة من الأرض السورية القديمة تضاعف مساحته الأصلية ، وتجعل
معظم الساحل السوري في أيدي لبنان الكبير .

لبنان تشترع من سوريا وتصبح دولة مستقلة :

وقد كانت المصلحة التي توخاها الجنرال غورو من ذلك أن يوسع
الإقليم الذي يتأثر ثقافياً بفرنسا ، بما يجعله دولة تستحق الوجود
المستقل ، إلا أنه كان قصير النظر في ذلك ، إذ أن معظم الاضافات
الجديدة كان أهلها من المسلمين وبذلك انكشفت النسبة المئوية
للمسيحيين ، فبعد أن كانوا كثرة ساحقة في سنجق لبنان القديم ،
أصبحوا لا يكونون في الوضع الجديد أغلبية تستطيع فرنسا المسيحية

الاعتماد عليها ، فكان ذلك — حتى من وجهة نظر الاستعمار — عملاً مرتجلاً ينبىء عن قصر النظر ، فضلاً عن أنه خلق سبباً جديداً من أسباب الخلاف في بلد يشكو من كثرة الخلافات (١) ، أما الأجزاء التي ضمت الى لبنان هذه المرة فهي لواء بيروت ويشمل بيروت وصيدا وصور وطرابلس ، وأقصية أربعة هي بعلبك وحاصبيا ورانسيا والبقاع •

وفلسطين تنتزع من سوريا أيضاً :

وكان إخراج لبنان من سوريا أول تقسيم نزل بهذه البلاد ، وتلاه تقسيم آخر تم بعد الحرب العالمية الأولى ذلك هو انتزاع فلسطين من سوريا ، وإخضاعها للانتداب الانجليزي بناء على ما قرره مؤتمر سان ريمو في ابريل سنة ١٩٢٠ ، وقد نصّ في صك الانتداب على أن تعمل إنجلترا لتحقيق وعد بلفور بجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود •

وقصة المملكة الأردنية :

وكان أول ما اتخذته بريطانيا لتحقيق هذا الوعد أن أضافت جديداً في سياسة التقسيم ، فاقطعت من فلسطين المنطقة الواقعة شرق نهر الأردن وجعلتها إمارة ، وكان الذي فعل ذلك هو هربرت صموئيل اليهودي الذي عُيّن مندوباً سامياً لبريطانيا في فلسطين وكان هربرت يقصد بذلك أن يحمي الدولة اليهودية التي يتريد إنشاءها من هجمات البدو وثوراتهم بأن يقيم على حدودها دولة صديقة للاستعمار يخدمها بما يسميه الاستقلال ، وقد اتفق هربرت صمويل مع زعماء البدو في هذه المنطقة على قيام هذه الإمارة سنة ١٩٢١ ، ثم وفد الى هذه المنطقة الأمير عبد الله بن الحسين في فبراير سنة ١٩٢٢ وكانت بعض أجزائها تابعة لسلطان أبيه في الحجاز ، وكان على رأس قوة عربية في طريقه لمهاجمة

(١) محمد حبيب احمد : نهضة الشعوب الاسلامية ص ١٨٦ •

فرنسا في سوريا انتقاما لأخيه فيصل الذي أزالته فرنسا ملكه وهو في مطلع العمر ، فأرادت انجلترا أن تصيد عصفورين بحجر واحد ، أى أن تثبت كيان الإمارة التي خلقتها بشرق الأردن من جهة ، ومن جهة أخرى أن تستجيب لفرنسا حليفها التي طلبت منها إيقاف شغب الأمير عبد الله ، فعينته انجلترا أميراً على شرق الأردن وأعطته سلطة محدودة ، وفي سبتمبر سنة ١٩٢٢ استصدرت انجلترا قراراً من مجلس عصبة الأمم بإعفاء شرق الأردن من أحكام صك الانتداب المتعلقة بإنشاء وطن قومي لليهود .

وتطورت هذه الإمارة وزيدت سلطات الأمير شيئاً فشيئاً في حدود السيادة البريطانية حتى مارس سنة ١٩٤٦ حيث أصبحت الإمارة مملكة والأمير ملكاً عليها .

وعندما شبت حرب فلسطين ضم الملك الى مملكته جزءاً من الأرض الواقعة غرب الأردن واتخذ لمملكته اسم « المملكة الأردنية الهاشمية » .

ويقول الدكتور فيليب حتى (١) عن هذه الإمارة إنها خلقت لتكون دولة حاجزة بين منطقة الانتداب البريطاني وربع القبائل البدوية الثائرة ، وقد أسهمت بوضعها ذاك في حماية الدولة الصهيونية التي كانت بريطانيا تنشئها منذ تولت الانتداب على فلسطين .

اسرائيل أيضاً في جزء من فلسطين :

ثم اقتطعت بريطانيا من فلسطين أكثر بقاعها وكونت به دولة اسرائيل .

والآن تعيش في أرض سوريا دول خمس هي : سوريا الحالية (التي تتكون من البقية الباقية من سوريا الحقيقية بعدما اقتطع منها

(١) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ٣٥٤ .

من أرض على ما سبق) ولبنان والمملكة الأردنية الهاشمية وبقية الوطن
السليلب (فلسطين) واسرائيل الدولة الدخيلة التى ينبغى ألا يطول لها
فى هذه المنطقة بقاء •

محاولات أخرى لتقسيم باقى سوريا :

وليس هذا كل ما نشأ بسوريا من تقسيم ، فإن السلطة الفرنسية
التى وكل لها الانتداب على سوريا عقب الحرب العالمية الأولى عمدت الى
مزيد من التقسيم فى هذه الدولة فاقطعت منها لواء الاسكندرونة وجعلته
تحت إشراف حاكم عسكري ثم تهاونت فيه وأسلمته ظلما الى تركيا كما
سترى فيما بعد وجعلت من باقى سوريا بعد ذلك أربع دويلات هى
دمشق ، وحلب ، وجبل العلويين (١) ، وجبل الدروز فى الجنوب على حدود
الأردن ، وكان المقصود من ذلك اتباع سياسة « فرّق تسد » ولكن
الثورية السورية قضت على هذا التقسيم ، وأعلنت حكومات هذه
الدويلات الأربع رغبتها فى العودة الى الاندماج مكونة الوطن الأصيل
« سوريا الحالية » ونفذت هذه الرغبة فعلا •

(١) سنتحدث عن العلويين ومذهبهم عند الحديث عن « تركيب المجتمع
السورى » •

أشهر الولاة والأمراء

ظهر في سوريا إبان العهد العثماني مجموعة من الولاة والأمراء جديرة بالذكر ، ومن الواضح أن هناك فرقا بين الولاة وبين الأمراء ، فالأولون تولوا المناصب بكفائهم واختيار الباب العالي لهم ، أما الأمراء فكانوا يمثلون أسرهم بلبنان ، تلك الأسر التي كان لها السلطان فترة قصيرة أو طويلة على بقعة صغيرة أو كبيرة من الجبل كما سبق ، وكان الحكم في هذه الأسر وراثيا ، ولم يكن للباب العالي في أكثر الحالات من السلطان إلا أن يجيز تعيين من آلت له السيادة ، وسنتكلم فيما يلي عن مجموعة من أولئك ومن هؤلاء :

جان بردى غزالي

سبق أن قلنا إن جان بردى غزالي خان الماليك في معركتهم ضد العثمانيين ، وفتح الطريق للجيش العثماني الزاحف ، وقد كفاه السادة الجدد بأن عينوه والياً على دمشق وجعلوا له السيادة على باقى ولايات سوريا ، وقد أخذ غزالي يدعم سلطانه بالقضاء على الزعماء العرب الذين وقفوا بجانب الماليك في معركة الغزو ، فاجتزأ رأس بعضهم كابن الحنشل وابن الحرفوش ، وألقى بزعماء بنى بحتر في السجن ، ولجأ اطمأن الى قوة يده وغلبته على زعماء عصره في هذه المنطقة استدار لسيده العثماني وحاول أن يخلم طاعته ، وقد حدث ذلك عقب وفاة السلطان سليم سنة ١٥٢٠ وأعلن نفسه في المسجد الأموي حاكما مستقلا واتخذ لقب « الملك الأشرف » وضرب النقود باسمه ، ولكن سلطته لم تستمر طويلا فإن السلطان سليمان القانوني أرسل جيشاً لجباً من الانكشارية فأباد الثمردين وقتل غزالي الخائن سنة ١٥٢١ ، وأنزل جيش الانكشارية بدمشق وضواحيها ألواناً من التخريب والتدمير والإبادة (١) .

(١) ابن اياس ج ٥ ص ٣٦٣ و ٣٧١ وما بعدها .

(م ٢) — موسوعة التاريخ ج ٥ .

وجان بردى كرميله خير بك من ممالك قايتباى ، اشتراه وأعتقه
فبعينه الأمير تغرى بردى فى وظيفة مشرف فى ضيعة فى الغربية يقال لها
منية غزال فنسب اليها ، ثم ترقى فى الوظائف حتى صار محتسب القاهرة
فى عهد الغورى ، ثم أصبح كبير الحجاب فنائب حماة ، وبهذا أصبح
فى الخطوط الأمامية مع زميله خير بك ، فدبرا معاً مؤامرة الخيانة ضد
الممالك ، وتقاضى ولاية دمشق ثمناً لهذه الخيانة .

فخر الدين المعنى الأول : (يرجع نسبه الى بنى مَعْن) :

عندما اشتعلت الحرب بين الممالك والعثمانيين انضم الأمراء
التتوخيون الى الممالك ، أما المعنيون بقيادة فخر الدين فقد استمعوا الى
نصح أميرهم بالتريث حتى ترجع إحدى الكفتين فينحازوا لها ،
فلما رجحت كفة العثمانيين أسرع فخر الدين الى السلطان العثمانى معلناً
ولاءه ودعاه فى خطبة بليغة أوردتها حيدر الشهابى المؤرخ اللبنانى (١) ،
وكافأه السلطان على ذلك بأن ثبتته فى إقطاعه ، وأيد امتيازاه ، وفرض عليه
جزية خفيفة ووسع ملكه ولقبه « سلطان البر » ، واستطاع المعنيون
بذلك أن يقضوا على سلطان باقى الزعماء الإقطاعيين ، وأن يكون لهم
اليد الطولى على الجبل كله ، وقد ظل فخر الدين يباشر سلطانه زعيماً
للدروز وللجبل حتى سنة ١٥٤٤ حيث قتل غدراً ، ويُظن أن بعض عملاء
الباب العالى هم الذين تخلصوا منه بهذه الطريقة .

فخر الدين المعنى الثانى :

بعد وفاة فخر الدين الأول أمير جبل الدروز ، قام مقامه ابنه
قورقوماز ولكن الباب العالى أوعز الى بعض عملائه فقتلوه بالسم ،
ولم يخلف إلا ابناً فى مطلع الصبا سُمى باسم جده فخر الدين ،

(١) تاريخ سوريا ص ٥٦٠ .

وقد خافت أم الصبي وأنس في نفسه القدرة عاد إلى منطقته حيث تولى الحكم مكان أبيه سنة ١٥٩٠ ، وقد وُزع فخر الدين أمامه أهدافا ثلاثة عمل طيلة عمره على تحقيقها بأية وسيلة من الوسائل شريفة كانت أو دنيئة ، وهذه الأهداف هي :

- توسيع رقعة لبنان •
- العمل على استقلاله التام عن العثمانيين •
- العمل على جلب ألوان التقدم والأزدهار إلى مملكته الكبيرة المستقلة •

وبدأ وسائله لتحقيق هذه الغايات ، فكان منها أن حارب جاره ووالد زوجته « يوسف سيفه » وانتزع منه إمارته بشمال لبنان ، وكان منها ألوان من الرشاوى قدمها لزعماء البدو في البقاع وفي المنطقة الجنوبية حتى الجليل ، ورشاوى أخرى خدر بها حماسة معارضييه بالقسطنطينية ، ولما أحس بأن قوته تزايدت ، ونفوذ عظم ، أعلن الثورة على الباب العالي سنة ١٦٠٣ ، وكانت الدولة آنذاك مثقلة بالحروب والمتاعب فعمدت إلى تسوية الأمر باللين والمسالمة •

ووصل فخر الدين في وسائله لتحقيق أطماعه إلى درجة بها كثير من الشطط ؛ فقد استعان بأحفاد الصليبيين ضد السلطان العثماني ، فعقد معاهدة مع فرديناند الأول أمير توسكانا بشبه الجزيرة الإيطالية ، وعمل على التقرب من البابا ومن أسبانيا ليحصل على ما أراد ، وفي

حمالية هذه القوى ، وبمساعدة المال الذي حصل عليه من فتح أسواق جديدة ببلاده للتجارة مع فلورنسا ، استطاع أن يكون جيشاً كبيراً استولى به على بعلبك سنة ١٦١٠ ومدد به دمشق نفسها ، وإزاء هذه الأطماع التوسعية والانفصالية ، أرسلت له الدولة جيشاً برياً من دمشق فأسطولا كبيراً سنة ١٦١٣ فاضطر الأمير إلى التراجع إلى إيطاليا مخلفاً إمارته في أيدي ابنه « علي » يساعده أخوه عثمان ، واستطاع هذان مع جدتهما أن يوقفا تدخل الباب العالي وباشا دمشق ، وبعد خمس سنوات عاد الأمير فخر الدين إلى لبنان وواصل فضاله باسم ابنه علي الذي أثر أن يبقية أميراً للامارة ، وقد استطاع الأمير فخر الدين في فضاله الجديد أن يسترد ما كان قد اقتطع من إمارته في أثناء غيابه ، كما استطاع أن يحقق مزيداً من الانتصارات ، ووجد الباب العالي نفسه مضطراً أن يعينه حاكماً على المناطق التي فتحها ، ووصل بذلك إلى العمل على تحقيق هدفه الأخير ؛ فاستقدم من إيطاليا ومن سواها من الممالك الأوروبية خبراء ومهندسين نظموا له شئون الري وحسنوا له مظاهر المدينة وبنوا له أعظم القصور ، كما قرب الإرساليات الأوروبية وأكثر من المستشارين الموارنة ، ومن أجل هذا كله كان يتهم في دينه ، واعتقد بعض الناس أن إسلامه كان في الظاهر وأنه كان يخفي المسيحية .

وفي ذلك العهد الجديد أخذت الدولة العلية علي « فخر الدين » أنه يحابي النصارى ويواصل اتصالاته بالأوروبيين ويزيد في عدد جيشه وفي عدد حساوتها المخاوف وبخاصة أن تاريخه مع الدولة لم يكن يدعو إلى الاطمئنان اليه والثقة به ، فقررت القضاء عليه نهائياً ، فأمر السلطان مراد الرابع واليه بدمشق كوتشك باشا أن يزحف عليه بجيش لجب ، كما وجه اليه أسطولا كبيراً بقيادة جعفر باشا ، وقد أبلى فخر الدين وبنوه في الدفاع عن إمارتهم بلاء حسناً ، ولكن الموالين له من آل سيفا وهرفوش بدعوا ينفضون عنه ، وسقط ابنه « علي » في الصراع ، ولم يجد فخر الدين وسيلة إلا الاستسلام فأخذ هو وبنوه

الى القسطنطينية حيث تم إعدامهم سنة ١٦٣٥ وقد حاول ملحم بن يونس وهو ابن أخى فخر الدين أن يستعيد سلطته ولكنه لم يحصل إلا على سلطان ضئيل تحت رقابة عثمانية حاسمة ، ومن بعده تولى الحكم ابنه أحمد الذى توفى بعد فترة بدون عقب فانقرضت بموته الأسرة المعنينة .

أمراء من أسرة العظم :

أنجبت أسرة العظم مجموعة من الأمراء تولوا الإمارة عدة مرات على عدد من إمارات سوريا فكان منهم حكام على دمشق وصيدا وطرابلس وحماة وغيرها ، وكانوا على العموم موضع ثقة سلاطين بنى عثمان ، كما كانوا جديزين بهذه الثقة لشدة ولائهم ووفائهم لهؤلاء السلاطين ، ولكن ذلك لم يجعلهم بمنجاة من سخط هؤلاء السلاطين فى بعض الأحيان ، وبخاصة عندما كان يشتد ثراؤهم أو يبدو فيهم مظهر الغرور ، فحينئذ كان الباب العالى يوعز باغتيالهم أو يقبض عليهم جهرة ويعزلهم ويصادر أموالهم ، ومن أشهر ولاية هذه الأسرة اسماعيل باشا العظم الذى أسندت له ولاية دمشق سنة ١٧٢٤ وابنه أسعد الذى تولى على صيدا ثم على حماة وأخيرا على دمشق والذى يشهد عصره أزهى عصور الحكم العثمانى فى منطقة ولايته ، ولأسعد هذا قصر فى دمشق بناه سنة ١٧٤٩ يعتبر أروع أثر عربى ظهر فى هذا القرن ، فطرازه الهندسى وما اشتمل عليه من فنون الفسيفساء والحفر فى الخشب تمثل أروع ما بلغه الفن الإسلامى آنذاك (١) .

بشير الشهابى :

إذا أطلق هذا الاسم انصرف الى بشير الشهابى الثانى ، (بشير الكبير) ، وقد سبقه بشير آخر هو بشير الأول وجاء بعده وال يحمل هذا الاسم أيضا هو بشير الثالث .

(١) محمد كرد على : خطط الشام ج ٢ ص ٢٨٩ - ٨٩١ .

وعندما أفل نجم المعنيين في أواخر القرن السابع عشر ، عادت البلاد الى السلطة التركية المباشرة ، بيد أن نزعة الاستقلال عبرت عن نفسها باجتماع عقده أعيان لبنان سنة ١٦٩٧ وانتخبوا الأمير بشير الشهابي (الأول) حاكماً عليهم وأرسلوا بقرارهم الى والي صيدا معلنين ولاءهم للسلطان العثماني واستعدادهم الأداء ما يفرضه عليهم عن طريق الأمير الجديد ، وقد استمر بشير الأول في الحكم الى سنة ١٧٠٧ ، وتوالى بعده أمراء من الشهابيين في فترة كثيرة القلاقل والاضطراب ، حتى جاء بشير الكبير أو بشير الثاني سنة ١٧٨٨ ، وقد استطاع هذا أن يضع حداً للقلاقل ويقضى على كل المفاوئين قضاء حاسماً ، ويبدو أن مفتاح سياسته كان متجهاً نحو كراهية الأتراك بل كراهية الدين الذي استغله الأتراك لينالوا هذه المكانة ، ويقال إنه لذلك قد تنصّر سرّاً ، وأن هذا هو سبب مساعدته لنابليون عندما زحف لاحتلال الشام ، بيد أنه أرضى العثمانيين عندما أوقف زحف الوهابيين على الشام سنة ١٨١٠ وراح بعد ذلك يقوى سلطانه ، ويوسع إقليمه ، ويمد سلطانه الى الأقاليم المجاورة ، ويبدو أنه بالغ في هذا الاتجاه ، مما أدى الى إبعاده عن لبنان مدة عام واحد سنة ١٨٢١ — ١٨٢٢ وقد أمضى هذا العام في مصر حيث عقد صلة وثيقة مع محمد علي رأس الأسرة العلوية بمصر ، وكانت هذه الصلة سبباً في تعاون الاثنين عندما زحف محمد علي على سوريا وعبر جبال طوروس موغلا في بلاد الترك .

وعندما أترغم إبراهيم باشا على الانسحاب من الشام فرّ الأمير بشير الى مالطة .

وبشير الثاني كبير الشبه في اتجاهاته الاستقلالية والإصلاحية بالأمير فخر الدين ولكنه يفوقه في هذه الاتجاهات ، كما كان يفوقه في حسن السمعة والقامة ، فقد كان فخر الدين قزماً ذميماً ، ولكن بشير كان حسن القامة مهيب الهيئة .

وبعد بشير الثاني جاء بشير الثالث (١٨٤٠ — ١٨٤٢) وكان هذا

يختلف عن بشير الكبير في براعته ومكانته وميوله ، وكان ممن ترعّموا الحركة التي ثارت في لبنان ضد ابراهيم باشا عندما أراد ابراهيم أن يجرد اللبنانيين من السلاح ويزيد في الضرائب المطلوبة منهم ، وكوفئ على ذلك بأن أسندت له إمارة الجبل بعد بشير الكبير ، ولكن سياسة الأتراك كانت قمد اتجهت نحو إثارة الخلافات بالجبل بين الموارنة والدروز ليتخذوا من ذلك وسيلة لصكم لجبل حكماً مباشراً ، فبدأت سلسلة القلاقل والمذابح التي تحدثنا عنها من قبل .

ظاهر العمر :

ينحدر ظاهر العمر من أصل حجازي ، وقد انتقل أجداده من شمالي الحجاز إلى فلسطين إبان عهد صلاح الدين الأيوبي ، حيث كانت القوى الناهضة تتجمع في منطقة الكفاح ، وأبو ظاهر العمر هو « عمر أبو ظاهر » وكان عاملاً على صفد من قبيل بشير الأول ، وبعده خلفه ابنه ظاهر العمر حوالي سنة ١٧٣٧ ثم أخذ يمد نفوذه من صفد إلى ما حولها وضمّ منطقة طبرية ونابلس والناصرية ، ثم استطاع أن يضم عكا إليه سنة ١٧٥٠ . وبهذا عظم سلطانه وكبر شأنه وأخذ يهدد الدولة العثمانية التي لم تكن ترضى عن توسعاته تلك التي أجراها دون إذن من الدولة ، ومن أجل هذا اتجه ظاهر العمر إلى إحياء عكا وإعادة تعميرها وكانت آثار الدمار الصليبية لا تزال واضحة بها ، ثم اتخذها ثغراً يصدر منه الحرير والقمح وغيرها من منتجات فلسطين ، وبذا أصبحت عكا تمثل حصناً سياسياً واقتصادياً ، وكان ظاهر العمر قوياً في غير تعسف ، مسلماً دون اضطهاد لغير المسلمين ، فنعمت البلاد في عهده برخاء واطمئنان ظاهرين .

وتحركت الدولة للقضاء على هذه الحركة الاستقلالية ، ولكن حدث في نفس الوقت أن أعلن على بك الكبير في مصر استقلاله وزحف إلى الشام ، فتحالف معه ظاهر العمر وسار الحليان يوقعان بجيوش الدولة هزيمة بعد هزيمة ، واستطاع الجيشان دخول دمشق سنة ١٧٧١ ، وكافاه على بك الكبير بأن ضم له مدن يافا وغزة والرملة ، ووصل ظاهر العمر بذلك إلى قمة مجده ، ثم بدأ الانهيار على القوتين المتحالفتين عندما غدر محمد أبو الذهب بسيده على بك الكبير وقضى عليه وأعاد اعتراقه بالدولة العلية ، وبذلك تفرغت الدولة للقضاء على ظاهر العمر ، ورمته بمملوك آخر لعلى بك الكبير هو أحمد الجزار الذي ستركلم عنه فيما بعد ، وقد حاصر الجزار عكا ، وظل ظاهر العمر يقاوم الحصار حتى كلت قواه وفرغت ذخيرته ، فحاول الهرب ولكن محاصره قبضوا عليه ، وقتل عام ١٧٧٥ بعد أن كوّن دولة مستقلة مدة تزيد على ربع قرن •

أحمد الجزار :

كان أحمد مملوكاً لعلى بك الكبير في القاهرة ، وفقد أس قيه سيده القوة والصرامة ووجده غليظ القلب قليل العاطفة فعيته جلاداً له ، وقد أظهر من التفنن في إنفاذ مهمته والرغبة في القيام بها ما أكسبه لفظ « الجزار » ، وكان شديد الافتخار بهذا اللقب ، بالغ الحرص على أن يظل جديراً به (١) •

وحدث خلاف بينه وبين سيده على بك الكبير ، يقال إن سببه ألوان الغدر التي اشتهر بها على بك الكبير ومحاولة القضاء على من

(١) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ٢٢٨ •

أمّتهم ، فهرب أحمد الجزار من مصر واتجه الى الدولة العثمانية التي رحبت به ، فلما انهار على بك الكبير أرسلت الجزار الى ظاهر العمر حليف على بك الكبير وزعيم الحركة الاستقلالية في عكا كما رأينا آنفاً ، وقد استطاع الجزار أن يقضى على ظاهر العمر وعلى حركته ، فعينته الدولة مكانه وامتد سلطان الجزار جنوباً وبنى الحصون وكوّن الجيوش والأساطيل ، وأصبحت عكا قلعة حصينة في عهده ، وقد بلغ أوج مجده سنة ١٨٩٩ عندما استطاع أن يوقف زحف نابليون ، وأن يصمد في الدفاع عن عاصمته صموداً قوياً ، حتى اضطر نابليون أن يوقف الحصار وأن يسحب جنوده عائداً بأذيال الخيبة ، وقد ظلّ يحكم هذه المنطقة حتى سنة ١٨٠٤ حيث مات وهو ناعم بكثير من الهدوء ورغد العيش .

حضارة سوريا في العهد العثماني وأثرها في الحياة العربية :

يمكن القول إن لبنان كان النافذة التي دخلت منها ثقافة الغرب الحديثة الى البلاد العربية ، وقد رأينا الموارنة فيما سبق يتصلون بفرنسا ، وبدائرة اللاهوت بروما كما رأينا الصلات التي عقدت بين الأمير فخر الدين والإمير بشير الشهابي من جانب وبين الإمارات الأوربية من جانب آخر ، ورأينا كذلك الصلات التجارية التي اتخذت من لبنان معبراً الى الشرق ، وعلى هذا حظيت لبنان بمرحلة متفوقة في العلوم والمعارف التي ازدهرت في القرن السابع عشر بأوروبا ، وفي لبنان ظهرت أول آلة طباعة في الشرق العربي في مطلع القرن السابع عشر وكانت تطبع باللغة السريانية وباللغة العربية مكتوبة بالحروف السورانية ، على أن المطبعة العربية ظهرت في أوروبا في أواخر القرن السابع عشر ، إذ اتجهت

الرغبة الجابوية الى طبع الكتب الدينية والمدرسية لاستخدامها في المعاهد المسيحية العربية بلبنان ، ثم انتقلت هذه المطبعة الى الجبل في القرن الثامن عشر وربما في مطلعته . .

على أن الجبل لم يتسع لهذه الثقافات ولا للمثقفين الذين كانوا يعيشون به ، فاندفعت هذه الثقافات الى الخارج ، ورحل كثير من المثقفين الى القاهرة ، حيث أصبحت مركزاً ثقافياً واسعاً ، تَسَرَّ العلوم والمعارف في كل أرجاء الوطن العربي عن طريق الصحافة الكبرى ، والمجلات واسعة الانتشار ، والمطابع التي أذاعت الفكر والمعرفة على أوسع نطاق .

٢ — فترة الاحتلال الأوربي

١٩١٨ — ١٩٤٦

لا يمكن الحديث عن فترة الاحتلال الأوربي لسوريا دون أن نوضح كيف تمّ الاحتلال ، وما المؤامرات الاستعمارية التي سبقتها ، وأعدت له وانتهت به . وسيتضح ذلك من بيان القوى التي تنازعت السلطان في سوريا .

القوى التي تنازعت السلطان في سوريا :

أولاً — رأينا فيما سبق كيف كانت فرنسا تتطلع الى سوريا ، وكيف نامرت الحركات الاستقلالية في لبنان ، وكيف احتلت الجبل سنة ١٨٦٠ مدة عام تقريبا ولم تخرج منه الا تحت ضغط الدول ، وكيف نشرت بين الموارنة ثقافتها ولغتها ، وفي سنة ١٩٠٤ عندما عقدت فرنسا اتفاقا سريا مع بريطانيا حرصت على أن ينص هذا الاتفاق على أن تطلق يدها في سوريا ولبنان مقابل اطلاقها يد انجلترا في مصر ، وكان ذلك كله تمهيدا لفرصة قد تسنح لاحتلال فرنسا لسوريا ولبنان ، فلا عجب أن أصرت على أن يتم لها ذلك عقب الحرب العالمية الأولى .

ثانيا — تطلعت إنجلترا إلى الجزء الجنوبي من الشام (فلسطين) على الأقل ، لحماية قناة السويس ، وتأمين قواتها في مصر ، وضمان سلامة الطريق إلى الهند .

ثالثا — كان النفوذ الصهيوني قد بدأ يتضح في المجال العالمي ، وقد لعب خلال الحرب دورا عسكريا واقتصاديا وسياسيا أتاح له أن

يفرض نفسه على القوى الغربية لاتصير هذه القوى معبرة عن آماله ،
عاملة على أن تحقق له أهدافه ، وقد تركزت هذه الأهداف قبيل الحرب
وخلالها في جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود .

رابعا كان هناك أيضا الأشراف ، وهم طلاب ملك ، ولا يهمهم
أين يكون هذا الملك ولا كيف يتحقق ، على أن سوريا كانت أقرب البلاد
لمكة حيث كانوا يعملون ولاية منذ عهد طويل ، ومن هنا اتجهت لسوريا
أطماعهم مع هؤلاء الذين اتجهوا بالأطماع إلى سوريا .

خامسا — هناك قوة خامسة كان لها السلطان على سوريا حتى الحرب
العالمية الأولى وكانت تطمح في أن يظل لها هذا السلطان ، تلك هي تركيا ،
بيد أن أحداثا جرت فباعدت بين الأتراك والعرب ، وقد آن لنا هنا أن
نوضح العلاقة بين هؤلاء الأتراك وأولئك العرب :

ماذا كان أساس هذه العلاقة ؟ وكيف تطورت ؟ وإلى أي غاية انتهت ؟
هل كان الأتراك مستعمرين للبلاد العربية ؟

أو تكون منهم ومن العرب دولة اتحادية اسلامية ؟

كان الاتجاه الذي صاحب الزحف العثماني يمثل الوحدة الاسلامية ،
وقد اتخذ الترك وسائل لتبرير هذا الموقف ، فحمل رؤسائهم لقب
الخلفاء ، وأصبح الدين الاسلامي دين الدولة ، ورفع الخلفاء العثمانيون
أفرادا من المسلمين الذين ينتمون الى أقطار عربية مختلفة الى مناصب
كبرى في دولتهم ، مثل أحمد عزت باشا وأبو الهدى الصيادي من سوريا
وعزيز على المصري من مصر ومحمد شوكت باشا من العراق وغيرهم .

وتأييد هذا الاتجاه بالحركات المسيحية ضد الدولة ، تلك الحركات
التي أبرزت الجموع المسلمة ممثلة في الامبراطورية العثمانية في جانب ،
والجموع المسيحية الأوروبية في جانب مضاد ، وتأييد هذا الاتجاه كذلك بالعداء

الذى أعلنه المؤرخين المسيحيون للامبراطورية العثمانية • وعلى العكس من ذلك وقف المفكرون والمؤرخون المسلمون موقف الذود عن هذه الامبراطورية ، واتجهت جمهرة المسلمين الى اعتبار الارتباط بالترك نوعا من التجمع الاسلامى مقتنعين بالوسائل العثمانية التى اوردناها آنفا ، واملين فى هذا التجمع القوة التى تمكثهم من رد العدوان المسيحى الذى طالما احتشد وتآلف ضدهم ، ومما قوى عند المسلمين هذا الاتجاه ما كانوا يعانون من ضغط القوى الصليبية الزاحفة على البلاد العربية من الأندلس أو من قلب أوربا وشرقيها ، ومما قواه كذلك أن الانتصارات التركية بأوربا حملت معها الاسلام الى كثير من البقاع ، وكان الدعاة المسلمون يصحبون الجيش أو يتبعونه •

وهكذا انتصر الاتجاه الاسلامى حتى أصبح الانضمام للكتلة الاسلامية عملا مألوفا نفذه بارباروسا بالشمال الافريقى ، وهدد به قادة أتشييه احدى مناطق جزيرة سومطرة ، أما ما برز فى بعض الخلفاء من عيوب فقد عُدَّ خطأ شخصيا لا يدفع لفصم التجمع وانما يدعو لمحاولة إصلاح هذا الخطأ أو تغيير هذا الخليفة ؛ وهذا هو ما حدث عندما استطاعت « جمعية الاتحاد والترقى » بقيادة أنور ونيازى وشوكت أن تتجح فى ثورتها وأن ترغم الداهية عبد الحميد على إعادة الدستور ثم أن تخلعه سنة ١٩٠٩ ، فقد قامت الأفراح فى البلاد العربية وتغننى شعراؤها بهذا النصر ، وكان مما قاله حافظ ابراهيم الشاعر المصرى فى هذه المناسبة •

ثلاثة آسـاد يجانبها الردى وإن هى لأمـها الردى لا تجانبه
روت قول بشار فثارت وأقسمت وقامت إلى عبد الحميد تحاسبه
(إذا الملك الجبار صغر خده مسينا إليه بالسيف نعاتبه)

ولكن الدولة العلية كانت كثيرة الحروب ، وكان العرب يكتفون بنار الهزائم ولا ينالون أى نصيب من الانتصارات إن كانت هناك انتصارات ،

وتدهورت الحضارة العربية خلال هذه الفترة ، حتى أصبحت البلاد تعيش في ظلام دامس وجهل مطبق ، وكان الولاة ظالمين في الغالب ، والاقطاع مسيطرا يضع الثراء في أيد قليلة ويترك ما سواها تعاني الفقر والجوع ، وكان الشعب يئن من الآلام ويجأ بالشكوى ، ولكن الدولة العلية لم يكن يندبها من أمر الرعية شيء مادام أنوثتى يرسل للاستئانة هداياه ، ويواصل دفع الضريبة المقررة عليه .

ثم إن الدولة العلية منيت بهزائم ساحقة بأوربا ، وانعكست هذه الهزائم على الدول العربية لها فتخطفتها الأيدي الاستعمارية القاسية فاحتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ وتونس سنة ١٨٨١ واحتلت انجلترا مصر سنة ١٨٨٢ وتحفزت ايطاليا لاحتلال طرابلس وأتمت الاحتلال سنة ١٩١١ ووقفت الدولة مكشوفة اليدين إزاء هذه الأحداث .

اتجاه تركيا الى القومية التركية :

وعقب عزل السلطان عبد الحميد تولى الاتحاديون الحكم سنة ١٩٠٩ واتجهوا اتجاها قاسيا نحو ضرورة سيطرة القومية التركية وتطهير اللسان التركي من الألفاظ الغريبة ، بل راحوا ينتكرون للإسلام ، ويرفعون أسماء الخلفاء الراشدين من المساجد ، وشاعت في هذه الفترة تلك العبارة التي تمثل اتجاههم تجاه العرب والاسلام وهي قولهم « إن العودة إلى عبادة الذئب الأبيض أجزى لنا من دين العرب » .

واشتط الترك في هذه المرحلة بقوميتهم فاتجهوا الى نظام المركزية ومحاربة اللغة العربية حتى في بلادها ، وقاوموا بالعنف كل حركة تنادي بالاصلاح وتحسين الأحوال .

وهكذا تجمعت الأسباب التي تدعو الى انشقاق العرب على تركيا ، واعتبار الخضوع لها نوعا من الاستعمار ، وقد بدأ العرب نشاطهم بالتشكيلات السرية وبالجمعيات العربية ، كجمعية العربية الفتاة التي

أسست سنة ١٩٠٠ في باريس ثم نُقِلَت إلى بيروت ثم إلى دمشق ، وكذلك تأسيس حزب العهد سنة ١٩١٣ لمقاومة العنصرية التركية الطورانية ، وقامت كذلك جمعيات أخرى مماثلة ، كجمعية الاخاء العربى ، والمنقدى الأدبى ، والجمعية القحطانية وغيرها .

وظهر مجموعة من الرجال العمالقة الذين بعثوا هذا الاتجاه وغذوه بأقلامهم وخطبهم ، وفي قمة هؤلاء عبد الرحمن الكواكبي وإبراهيم اليازجى وغيرهما ، وقد أصدر الأول في ذلك كتابين هما « أم القرى » و « طبائع الاستبداد » وألقى الثانى بقصائده الوطنية القوية فهيجت العرب وحسنتهم نحو التحرر من ظلم الترك ، ومن شعره في ذلك قوله يخاطب العرب .

لا دولة لكم يَشْتَدُّ أزرُكم بها ، ولا ناصر للخطب يَنْتَدِبُ
أقداركم في عيون الترك تنازلة وحقكم بين أيدي الترك مغتصب

نخلص من هذا إلى أن قوة تركيا كانت في نزعها الأخير ، وأن حرصها على البقاء في سوريا كان قد أصبح ضئيلا لا أمل في تحقيقه ، وبهذا يمكن أن تبتعد تركيا عن مسرح الطامعين في سوريا ، بل أن حرصها جلب عليها مزيدا من السخط ، فان جمال باشا قائد الجيش التركى والحاكم العسكرى في سوريا ولبنان عندما أحس بانصراف العرب عن الأتراك أنزل غضبه القاسى على الزعماء ، وراح يعدم شنقا وينكل بهم تكتيلا فظيحا وضع حدا نهائيا للعلاقة بين سوريا وتركيا .

سوريا من الحرب العالمية حتى الاستقلال :

إذا كانت تركيا قد أبعدت فان سوريا عند مطلع الحرب العالمية الأولى كانت تتنازعها القوى الأربعة التى أوردناها فيما سبق ، ولكن ينبغى أن يتضح أن هناك قوة خامسة كانت قد عقدت العزم على أن تنتصر مهما كلفها الصراع من دم ونضال ، تلك هى القوة السورية والقوى العربية

على العموم ، وسنرى فيما يلي ماذا تحقق لكل من هذه القوى من أطماع وآمال ، فلنتابع بإيجاز مجريات الأحداث من بدء الحرب العالمية الأولى .

— دخلت تركيا الحرب في نوفمبر سنة ١٩١٤ في صف ألمانيا ، وكان ذلك منها عملا غير مفهوم ، فلم تكن صلتها بألمانيا أقوى من صلتها بالخلفاء ، وبدخول تركيا الحرب على هذا الوجه ، قررت إنجلترا وفرنسا تنفيذ تقسيم الدول العربية حسبما كان مقررا في الاتفاقيات السرية ، وبخاصة اتفاقية سنة ١٩٠٤ .

— ومنعت الحرب فرصة للدول العربية لتعلن مسخطها على تركيا ورغبتها في الاستقلال عنها ، وقد تجمعت كلمة زعماء جمعية العربية الفتاة وجمعية العهد بالاتفاق مع فيصل بن الشريف حسين على المطالبة باستقلال العرب ، وهكذا أصبح الشريف حسين ممثلا للفكرة العربية .

— وأيدت إنجلترا اتجاه العرب ، ولوحت بالاستقلال ، وتعهدت بتنفيذه ، وتبذلت رسائل عن ذلك بين ممثلها بالقاهرة هنري مكماهون وبين الشريف حسين ، ومجموع هذه الرسائل ثمانية وكان تبادلها في الفترة ما بين ١٤ يوليو سنة ١٩١٥ و ٣٠ يناير سنة ١٩١٦ ، وقد حددت هذه الرسائل حدود المملكة العربية في المستقبل ، وضمنت استقلالها ، كما أيدت زعامة الشريف حسين الدينية والسياسية للحرب ، وتعرف هذه الرسائل في التاريخ برسائل حسين — مكماهون .

وأعلن الشريف حسين الثورة العربية في يونيو سنة ١٩١٦ وقدمت له إنجلترا مساعدات مادية وأدبية كبيرة ، كان من أبرزها عشرة ملايين من الجنيهات الاسترلينية ومقادير كبيرة من الأسلحة والذخائر ، كما قدمت إنجلترا للشريف ، الكولونيل لورانس الذي أصبح الرأس المدبر للثورة والعقل المفكر للأشراف ، وقد استطاع هذا أن يكسو نفسه بفروة عربية

خدع بها الشريف وأعوانه ، ودارى بها أحاسيس غربية مسيحية صهيونية متطرفة (١) ، وتقدمت الثورة بنجاح تجاه الشمال حتى دمشق وأعلن الشريف حسين استقلال العرب ، ونودى به ملكا على العرب في ديسمبر سنة ١٩١٦ •

— وفي نفس الوقت الذى كانت بريطانيا تجري مباحثاتها مع الشريف حسين وتمتعده باستقلال العرب ، كانت تجري مباحثات أخرى مع فرنسا تقسم بها ثروة « الرجل المريض » وتمت بذلك اتفاقية : سايكس — بيكو سنة ١٩١٦ وقد قبلت روسيا القيصرية هذه الاتفاقية إذ منحت من ثروة الرجل المريض ما أرادت • ويهمننا من هذه الاتفاقية أنها قسمت المنطقة العربية موضع النزاع الى قسمين ، أحدهما يشمل المناطق الآتية :

١ — المنطقة الزرقاء وتمتد على الساحل السوري شمال فلسطين وتخضع لإدارة فرنسا •

٢ — المنطقة الحمراء وتمتد من خليج البصرة بحذاء حدود ايران حتى شمال بغداد وتخضع لإرادة بريطانيا •

٣ — المنطقة السوداء ويشمل فلسطين وقد تقرر أن تخضع لنظام إدارى دولى •

أما القسم الثانى فيشمل المنطقة الواقعة بين المنطقتين الزرقاء والحمراء ، وتقام دولة عربية بهذا القسم تشرف بريطانيا على الشطر المتصل بمنطقتها وتشرف فرنسا على الشطر المتصل بمنطقتها كذلك •

(١) انظر مذكرات وايزمان ص ٤٥ — ٤٦ وانظر كذلك كتاب « اليهودية » للمؤلف ص ٩٠ •

وعند نجاح الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ في روسيا ، نشرت روسيا وثائق الأرشيف السرى لروسيا القيصرية ومنها هذه الاتفاقية ، ولكن بريطانيا تتصلكت منها مدعية أنها كانت محادثات عامة قد تمت قبل الثورة العربية ، وتقبل الشريف حسين هذا التفسير لشدة ثقته بحلفائه الانجليز •

— وفي نفس الوقت كذلك كانت اتجلقرا بتأييد الحلفاء تصدر تصريح بلفور في نوفمبر سنة ١٩١٧ وتتعهد بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، واكتفى الشريف حسين كذلك بتفسير خداع لا يحمل أى معنى الا تهدة الخواطر •

— انتهت الحرب في نوفمبر سنة ١٩١٨ وبدأ الاستعمار يسفر عن نياته الحقيقية ، وكان أول ما حرص عليه تعديل اتفاقية سايكس — بيكو بعد انسحاب روسيا من الميدان ، ويقضى هذا التعديل بما يلى :

١ — يكون انتداب فرنسا على كل سوريا لأن بقاء الجزء الداخلى مستقلا سيسبب لها المتاعب •

٢ — تتنازل فرنسا عن الموصل لبريطانيا مقابل منحها حصة ألمانيا من بقول الموصل •

٣ — توضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى لتعمل على تحقيق وعده بلفور •

— وكان شكري باشا الأيوبي أحد زعماء الثورة العربية قد أعلن قيام السيادة العربية في بيروت في أكتوبر سنة ١٩١٨ ورفع العلم العربى ، وبعد أيام دخلت قوات الاحتلال سوريا وأنزلت العلم ، ثم انتهت الحرب ومرت فترة أدرك العرب فيها خداع الوعود البريطانية ، فاجتمع المؤتمر السورى في دمشق في ٨ مارس سنة ١٩٢٠ وقرر اعلان استقلال سوريا

ومعها فلسطين ولبنان دولة ذات سيادة ملكية دستورية ونادى بالأمير فيصل ملكا عليها ، ولكن بريطانيا وفرنسا لم تعترفا بهذا القرار .

— ووسط هذا الخلاف رأى الرئيس ويلسون أن يتعرف على الأحوال في هذه المنطقة فأرسل اللجنة التي عرفت بلجنة « كنج كرين King Crane Commission » وقد أخذت اللجنة تتصل بالهيئات والأفراد ، وقررت في النهاية المحافظة على وحدة سوريا بما فيها فلسطين ، فيما عدا الأماكن المقدسة التي توضع تحت اشراف دولي ، ووضع سوريا تحت وصاية لمدة محدودة على ألا تكون فرنسا هي الدولة الوصية بأي حال من الأحوال والعدول عن فكرة اقامة وطن يهودي بفلسطين ، والموافقة على جعل الأمير فيصل رئيسا للدولة ، ولكن هذه القرارات القريبة من العدالة لم تجد أي صدى عند المنتصرين .

— واجتمع المجلس الأعلى للحلفاء في أبريل سنة ١٩٢٠ في سان ريمو وفي هذا المؤتمر تمت تقسيمات المنطقة العربية ، على نحو التعديل الذي أجرى في اتفاقية سايكس — بيكو .

— وزاد بذلك الخلاف حدة ، فالمؤتمر السوري في مارس يعلن استقلال سوريا ويضع فيصل ملكا عليها ، ومؤتمر سان ريمو يضع هذه البلاد تحت الانتداب ، وقد عينت فرنسا الجنرال غورو مندوبا لها ، وقد أرسل هذا الى فيصل انذارا حاسما بقبول الانتداب دون قيد ولا شرط ، وإلغاء التجنيد الإجباري ، والسماح للجيش الفرنسي باحتلال حلب ومحطات السكة الحديد ، ومال فيصل الى قبول الانذار بل قبله فعلا ، فخلق هوة بينه وبين الشعب السوري ، ومع هذا فان غورو لم يحفل برد الفعل السوري تجاه الانذار قبولا أو رفضا بل تحرك بقواته الى دمشق وتصدت له القوى العربية الثائرة التي لم يكن معها ذخائر تذكر ، وكان يقودها البطل

يوسف العظمة ، والتقى الجيشان عند ممر ميسلون وهو مضيق جبلى بين سوريا ولبنان ، وانتصرت القوة العاشمة ودخلت دمشق وأبعدت الملك فيصل عن البلاد ، وبدأ بذلك عهد الانتداب المقيت .

— وقامت ثورات متتالية في سوريا ضد هذا الانتداب ، من أهمها ثورة البطل ابراهيم هنانو التي قامت في شمالي سوريا سنة ١٩٢٠ والثورة التي قامت في منطقة الفرات في نفس العام واستولت على دير الزور ، ولم يستطع الفرنسيون استردادها الا بعد عام ، وثورة حوران جنوبي دمشق في نفس العام أيضا ، على أن أعظم الثورات السورية ضد الانتداب الفرنسي هي الثورة الكبرى سنة ١٩٢٥ - ١٩٢٧ ، وقد حدثت في الجبل بقيادة سلطان الأطرش ، وفيها استطاع الثوار إسقاط طائرة فرنسية ، فتوجهت لهم حملة فرنسية كبيرة ولكن الثوار أبادوها عن آخرها ، وامتدت الثورة من الجبل الى دمشق وغيرها من البلدان ، ولم تستطع فرنسا القضاء عليها الا بعد جهد كبير ، وقد أحست فرنسا بعد ما عانتها في هذه الثورة أن من المهم أن تغير سياستها ، وأن تعطى للمواطنين حقهم أو بعضه على الأقل ، وبهذا بدأت سلسلة المباحثات التي انتهت بمعاهدة سبتمبر سنة ١٩٣٦ بين سوريا وفرنسا ومعاهدة نوفمبر من نفس العام بين فرنسا ولبنان على أن فرنسا لم تقدم هاتين المعاهدتين للبرلمان الفرنسي وبذلك ظلتا معطلتين ، وضعفت الثقة بين فرنسا وبين سوريا ولبنان ، واضطرب النظام وأهلت الحرب العالمية الثانية والحالة في سوريا على هذا الوضع .

— وانهارت فرنسا أمام ألمانيا ، وبقيت سوريا تحتلها قوة الفرنسيين التابعين لحكومة فيشي الموالية للألمان ، وقوة فرنسا الحرة بقيادة الجنرال ديغول ، وانتهى الأمر بانتصار قوة فرنسا الحرة مؤكدة بقوة جيش بريطانيا ، ودخلت هاتان القوتان سوريا في يونية سنة ١٩٤١ ، وسرعان ، ما أعلن الجنرال كاترو القائد العام للقوات الفرنسية الحرة ، بياناً قال فيه : « لقد أتيت لوضع حد لنظام الانتداب ، ولأعلن لكم أنكم أحرار ومستقلون ،

وعلى هذا ستكونون منذ هذه اللحظة شعوباً مستقلة ذات سيادة ، وسيكون في إمكانكم أن تنظموا أنفسكم في دول مستقلة ، أو أن تتحدوا في دولة واحدة ، وفي أي من الحالتين سيؤكد استقلالكم وسيادتكم في معاهدة تمتد فيها علاقاتنا المتبادلة ، وسوف تبدأ المفاوضات حول هذه المعاهدة بين ممثليكم وبينى في أقرب فرصة •

وفي ٢٧ سبتمبر ١٩٤١ أعلن الجنرال ديغول استقلال سوريا دون قيد ولا شرط ، وفي ٢١ نوفمبر من العام نفسه أعلن استقلال لبنان مشروطاً بعقد معاهدة تحدد العلاقات بينها وبين فرنسا •

كما أصدر السفير البريطاني في مصر السير مايلز لا ميسون باسم حكومته التصريح الآتى : « اننى مخول من قبل حكومة صاحب الجلالة في المملكة المتحدة أن أعلن أنها تعضد وتشترك في تأكيد الاستقلال الذى أعطاه الجنرال ديغول لسورية ولبنان » •

— وتحت ضغط الحرب خطت هذه الوعود نحو التنفيذ ، فقد أجريت الانتخابات العامة في سوريا سنة ١٩٤٣ وانتخب شكرى القوتلى رئيساً للجمهورية ، وعين سعد الله الجابرى رئيساً للوزارة ، وفي لبنان انتخب بشارة الخورى رئيساً للجمهورية وعُين رياض الصلح رئيساً للوزارة ، وخطت الدولتان نحو تحقيق الاستقلال التام ، فأعلنت الحكومة اللبنانية أن اللغة الفرنسية لم تعد لغة رسمية ، كما أعلنت استقلالها التام ، فثارت فرنسا لذلك وألقت القبض على رئيس الجمهورية اللبنانية ووزرائه ، فهاج الرأي العام في سوريا ولبنان وفي العالم العربى كله ، وانضمت إنجلترا وأمريكا لهذا الاتجاه ، فأعيد رئيس الجمهورية والوزراء ، واتخذت الخطأ لتسليم السلطات الى ذويها ، ولكن فرنسا أبدت الرغبة في الاحتفاظ بقوات لها في سوريا ولبنان ، ورغبت سوريا ولبنان هذه الرغبة •

— وتقدمت الحرب نحو النهاية وضمن الحلفاء النصر ، فبدأت فرنسا تعود القهقري في اتجاهاتها ، وصدر من ديغول تصريح في أكتوبر سنة ١٩٤٤ وآخر في يناير سنة ١٩٤٥ يقرر فيها ضرورة الاحتفاظ بمركز فرنسا المتفوق في سوريا ولبنان ، وفي فبراير سنة ١٩٤٥ أدلى بيرو وزير الخارجية الفرنسية بتصريح قال فيه : إن فرنسا مسئولة عن حفظ النظام في سوريا ولبنان وأنها تدافع عن امتيازاتها بالقوة المسلحة التي تحت تصرفها ، ووضعت فرنسا أسساً للمفاوضات تحتم ضمان استقلال المؤسسات الفرنسية ، وضمان حقوق فرنسا الاقتصادية ، وضمان السماح لفرنسا بإنشاء قواعد بحرية وجوية في الجمهوريتين ، وقوت فرنسا اتجاهها بأن أرسلت إمدادات عسكرية إلى بيروت في مايو سنة ١٩٤٥ ، وإزاء ذلك قررت سوريا ولبنان عدم السير في إجراءات المفاوضات واشتد التوتر بين القوات الفرنسية والقوات الوطنية وضربت فرنسا دمشق بالقتال ، فثار السوريون ثورة قوية شملت جميع أرجاء البلاد ، وهددت بريطانيا بالتدخل ، فتوقف العدوان الفرنسي ، ولكن بريطانيا بدأت تعمل أيضاً لترسخ قدمها من البلاد .

— ورفعت الحكومتان السورية واللبنانية احتجاجهما إلى جامعة الدول العربية وهيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، وتحتم أن تجري مفاوضات يمنح فيها صاحب الحق حقه ، وفي ٤ مارس سنة ١٩٤٦ أعلن أن بريطانيا وفرنسا قررتا الجلاء في وقت واحد على أن يبدأ في ١١ مارس وينتهي في ٣٠ أبريل فيما يختص بسوريا وقد تم ذلك فعلاً ، أما عن لبنان فقد تم جلاء الجنود البريطانية في ٣٠ يونية وتمّ جلاء الفرنسيين في آخر أغسطس من العام نفسه ، وزال بذلك كابوس الاستعمار عن سوريا ولبنان وبدأتا صفحة جديدة من الحياة الحرة المستقلة .

٣ — فترة الاستقلال

من ١٩٤٦ حتى الآن

نحن الآن في العقد الخامس من القرن العشرين ، وقد أصبحت الشام مقسمة الى سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن ، ولما أعلنت العصابات اليهودية قيام دولتهم وفي الوقت نفسه اتسعت مملكة شرق الأردن أصبح بالثنام خمس دول ، وليس لنا في التاريخ لسوريا العربية أن نتحدث عن الدولة التي أعلنتها العصابات اليهودية فذلك وضع مؤقت كبير الشبه بالإمارات اللاتينية التي أقامها الصليبيون بنفس المنطقة في القرن الحادي عشر ، وكما زال ملك الصليبيين سيزول ملك الصهيونيين ، وسنعود في يوم من الأيام — نرجو أن يكون قريبا — لضم هذه البقعة العربية المقدسة الى الوطن العربي ، وبالتالي للتأريخ لها في مجال التاريخ الإسلامي ، أما الآن فتتوقف أقلامنا مؤقتا عن السير في التاريخ لهذه المنطقة المنكوبة التي نرجو أن يدفع عنها الشر وتعود الى الوطن الأم ، وفيما عدا هذه المنطقة نواصل حديثنا عن دولة الشام .

سوريا :

خرجت سوريا من هذه المعمة الطويلة جريحة ، فقد فقدت أجزاء عزيزة من كيانها ، وأصبحت بعض هذه الأجزاء عدوة كاسرائيل أو مختلفة معها في المشر ، كما حدث ذلك في فترات طويلة بالنسبة للأردن .

وقامت بسوريا مجموعة من الأحزاب اختلفت اتجاهاتها ، وظهر بها جيل من السياسيين الجدد بالإضافة الى السياسيين القدامى ، وكان كل من الطائفتين يرى أنه أحق بالسيطرة على مقاليد الأمور .

وتعرضت سوريا الى ألوان من الضغط من الاستعماريين أو من أولئك الذين ساروا زمناً في ركابهم ، فتركيا تهدد حدودها ، وحلف بغداد تدفعه القوى الاستعمارية ليضم سوريا ، والملك عبد الله يعلن في أغسطس سنة ١٩٤٧ مشروع سوريا الكبرى بقصد تجمع الشام من جديد على أن يكون ملكاً عليه ، أو على الأقل قيام دولة اتحادية من سوريا والأردن ولبنان وفلسطين ويبقى لكل دولة من هذه الدول استقلالها ، ويكون هو رئيساً للدولة الاتحادية ، وبسبب هذه الاحداث تعرضت سوريا لانقلابات عسكرية متتالية هي :

• انقلاب حسنى الزعيم في مارس سنة ١٩٤٩

• انقلاب سامى الحناوى في أغسطس سنة ١٩٤٩

• انقلاب أديب الشيشكلي في ديسمبر سنة ١٩٤٩ • ويقال إنه هو الذى دبر الانقلاب الأول ووضع على قمته حسنى الزعيم ، ثم قضى عليه ووضع سامى الحناوى حتى اشتد عوده فقضى على الحناوى وأعلن زعامته •

الوحدة مع مصر ثم الانفصال :

• انقلاب فيصل الأتاسى في شباط سنة ١٩٥٢ وقد أعاد هذا الانقلاب الحياة الدستورية والانتخابات ، فأصبح هاشم الأتاسى رئيساً للجمهورية ، وصار فارس الخورى رئيساً للوزارة ، ثم أجريت الانتخابات فأصبح شكرى القوتلى رئيساً للجمهورية من سنة ١٩٥٥ وصبرى العسلى رئيساً للوزارة ، وقد وصلت سوريا في هذه الفترة الى قمة التأثير بالاتجاه القومى العربى الذى ذابت فيه كل الاتجاهات والذى انبثقت عنه الرغبة في الوحدة الكاملة مع مصر ، وقد تمت هذه الوحدة في ٢٢ فبراير سنة ١٩٥٨ بناء على استفتاء أجرى في مصر وسوريا ، وأصبح جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية العربية المتحدة ، وقد كانت هذه الوحدة تعبيراً عما يجيش في صدور العرب منذ فقدوا وحدتهم التى عاشت عدة قرون قبل الزحف العثمانى •

فهذا الانقلاب كان في الحقيقة عودة للحياة الدستورية السليمة وكان
قضاء على الانقلابات •

ويبدو أن الفصل بين سوريا ومصر من ناحية الأرض مكن لهواة
التفرقة أن ينفثوا سمومهم ، وقد حدثت بعض الأخطاء خلال
الوحدة ، ولكن الذي نعتقده أن أرض سوريا لو كانت متصلة بأرض
مصر لما استطاعت قوة انفصالية أن تبرز وأن تنجح ، ولا تتهافت القوى
الى تصحيح الأخطاء لا الى تقسيم الدولة التي كانت أمل العرب •

وعلى كل حال فقد حدث الانقلاب ، وفيما يلي حديث عنه وعن
الانقلابات التي تلتها :

— انقلاب الانفصال في ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٦١ يقوده عبد الكريم
النجلاوي ، وموفق عصابة ، وعبد الغنى الدهمان ، ومهيب هندی وفايز
رفاعي وفخرى عمر ، وقد تولى ناظم القدسي رئاسة الجمهورية ومأمون
الكزبري رئاسة الحكومة ، ثم جاء بعده عزة النص فمعروف الدواليبي ،
وأعلن الرئيس جمال عبد الناصر رأى مصر في هذا الانقلاب بقوله
« ليس من الآنم أن تبقى سوريا قطعة من الجمهورية العربية المتحدة »
ولكن من المحتم أن تبقى سوريا •

— انقلاب ٢٨ مارس سنة ١٩٦٢ الذي أطاح بزعماء الانقلاب
السابق ونفاهم خارج البلاد ، وكان عبد الكريم زهر الدين يقود هذا
الانقلاب وبقي ناظم القدسي رئيساً للجمهورية وتولى رئاسة الوزارة
بشير العظمة ثم خالد العظم •

وكان زعماء هذا الانقلاب يتكاثرون من فريقين رئيسين ، أولهما
الفريق الذي يميل الى الوحدة ويسعى لإعادتها ، والثاني فريق حزب
البعث ، ولكن البعثيين استطاعوا أن يتغلبوا على الوندوبيين ويتخلصوا
منهم •

— وفي يناير سنة ١٩٦٣ تم انقلاب جديد بقيادة قادة الانفصال الذين كانوا قد عادوا خلسة الى دمشق ، ولكن هذا الانقلاب لم ينجح .

— وفي ٨ مارس سنة ١٩٦٣ حدث انقلاب آخر في سوريا بقيادة اللواء زياد الحريري واللواء راشد قطيني ، وقبض زعماء الانقلاب على رئيس الجمهورية والوزراء ولجأ خالد العظم الى سفارة تركيا ، وقام مجلس ثورة يرأسه لؤي الأتاسي ، وتولى صلاح البيطار رئاسة الوزارة ، وفي هذا العهد بدأت اتصالات جديدة لإعادة الوحدة مع مصر ، بل لتوسيع نطاق الوحدة بضم العراق اليها بعد أن سقط عبد الكريم قاسم ، لكن هذا الاتجاه لم يكمل خطواته الى النجاح ، فقد استطاع البعثيون أن يستولوا على زمام السلطة ، إذ أنه في يوليو سنة ١٩٦٣ تولى أمين الحافظ السلطة وأمسك بجميع المناصب القيادية باسم حزب البعث متعاوناً مع حزب البعث في العراق .

— في فبراير سنة ١٩٦٦ هب جناح آخر من حزب البعث بانقلاب جديد في سوريا قضى فيه على « أمين الحافظ » ، وكان هذا الانقلاب بقيادة يوسف زعين وإبراهيم ماحوس ، وفي ظل هذا الانقلاب أصبح نور الدين الأتاسي رئيساً للدولة .

— استولى حافظ الأسد على السلطة في مطلع سنة ١٩٧١ وفي ١٤ مارس انتخب رئيساً للجمهورية وهو الذي يشغل هذا المنصب الآن . (١٩٨٦) .

وفي سبتمبر من نفس العام أعلن قيام « اتحاد الجمهوريات العربية » من مصر وسوريا وليبيا بعد استفتاء شعبي أيدت الجماهير فيه قيام هذه الدولة الاتحادية ، ولكن الزمن مرّ دون أن يظهر لهذا الاتحاد شأن يذكر .

رعا الله سوريا ومنحها الاستقرار والسلام .

لبنان ورؤسأؤه من عهد الاستقلال حتى الآن :

عقب استقلال لبنان ظل بشارة الخورى يشغل منصب رئيس الجمهورية حتى سنة ١٩٥١ ثم انتخب كميل شمعون رئيساً لهذه الجمهورية ، وظل هذا في منصبه السنوات الست، التي حددها الدستور ، وقد حاول قبيل انتهاء المدة أن يغير من مواد الدستور بحيث يصبح له الحق في أن يعيد ترشيح نفسه لرياسة الجمهورية ، ولكن معارضيه كانوا أقوياء فوقفوا له بالمرصاد ، ووصلت الحالة بلبنان الى نوع من الصدام الداخلى المسلح ، فلم يستطع تعديل الدستور ، وانتخب فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية سنة ١٩٥٨ فأزال الخلافات التي كانت موجودة في لبنان ، ومشى بلبنان شوطاً نحو الاستقرار ، وفي سنة ١٩٦٤ انتخب شارل حلو رئيساً للجمهورية ، وفي سنة ١٩٧٠ انتخب سليمان فرنجية رئيساً للجمهورية ، وفي مطلع سنة ١٩٧٦ انتخب الياس سركيس لرياسة الجمهورية ، وتسلم سلطاته في ٢٢ سبتمبر من نفس العام .

وقبيل نهاية مدته كان لبنان يشتعل نارا من الخلافات الداخلية ، ومن الجيوش الخارجية التي كانت تحتل بعض أراضيه ، وبخاصة الجيش الاسرائيلي الذي كان يحتل جنوب لبنان ، ووسط هذه الاضطرابات اختير بشير الجميل رئيسا للبنان في أغسطس سنة ١٩٨٢ على أن يتسلم سلطاته في ٢٢ سبتمبر ، ولكن القدر لم يممه لتسلم هذه السلطات ، فقد لقي مصرعه في ١٤ سبتمبر من نفس العام ، وكان مصرعه في انفجار مروع دمر مبنى حزب الكتائب الذي يرأسه ، وكان بشير موجودا في المبنى الذي انهار على من فيه ، فلقى حوالى ٥٠ شخصا من زعماء الكتائب مصرعهم أيضا ، ويقال إن هذا التدبير كان جزاء له لصلته بإسرائيل .

وقد اختير عقب ذلك أخوه أمين الجميل لرياسة لبنان ، ولا زال يشغل هذا المنصب حتى الآن (١٩٨٦) مع ما يحيط به من عناء وآلام .

الأديان والطوائف في لبنان :

ولبنان ينظم حياته السياسية طبقاً للأديان والمذاهب به ، فرئيس الجمهورية ينتمي الى طائفة الموارنة ، ورئيس الوزراء ينتمي الى أهل السنة ، ورئيس مجلس النواب ينتخب من الشيعة ، ومقاعد البرلمان توزع بين الطوائف والمذاهب ، رجاء أن يخفف ذلك من حدة التفرقة الدينية والمذهبية به .

وبالنسبة للجيش مثلاً نجد إنه يتعين أن يكون القائد الأعلى ورئيس المخابرات من المارونيين ، وأن يكون رئيس الأركان من الدروز ، وأن يكون ٦٠٪ من الضباط من المسيحيين و ٦٠٪ من الجنود من المسلمين . وعندما وقع صدام الحرب الأهلية ذاب هذا الجيش حسب طوائفه وانقسم الى مجموعة انضمت للمسلمين ، ومجموعة انضمت للكتائب المسيحيين ، وثالثة انضمت للسوريين ، ورابعة وهي أصغر هذه المجموعات ظلت موالية للحكومة ورئيس لبنان . وهكذا انتهى الأمر بأن أصبح لكل طائفة وكل فئة في لبنان جيشها بينما رئيس لبنان الشرعي لا جيش له ولا قوة .

الطوائف اللبنانية :

ولا توجد في لبنان أية احصائيات رسمية حول التركيب السكاني للمجتمع بطوائفه وطبقاته الاجتماعية إلا في حدود ضيقة ومحدودة وغير رسمية وذلك منذ بداية الثلاثينات ، وحتى المرحلة الراهنة . غير أنه في عام ١٩٧٧ أجرت المنظمة الفرنسية لتنظيم الأسرة مسحاً شاملاً لسكان لبنان وطوائفه ، كانت أبرز نتائجه بالنسبة للتوازن السكاني ما يلي :

- ١ — الشيعة ٨٥٠ — ٩٠٠ ألف نسمة ٢٨٪
- ٢ — الموارنة ٧٥٠ — ٨٠٠ ألف نسمة ٢٤٪
- ٣ — السنة ٦٠٠ ألف نسمة ١٩٪
- ٤ — الأرثوذكس ٣٠٠ ألف نسمة ٩٪
- ٥ — الدروز ٢٥٠ ألف نسمة ٦٪
- ٦ — الكاثوليك ٢٥٠ ألف نسمة ٦٪
- ٧ — الأرمن ١٦٠ ألف نسمة ٥٪

وهناك طوائف مسيحية أخرى قوامها ٥٠ ألفاً وهذا التعداد له دلالاته في التوازن السياسي بين الطوائف المتصارعة فالثابت إن هذه النسب توضح اختفاء التوازن بين الطوائف ، فالطوائف الإسلامية مثلاً قد نمت نموّاً يجعلها تحسّ بأنه ليس لها نصيب عادل في الثروة والسلطة .

(الأهرام في ١٨ / ٥ / ١٩٨٤ بتصرف)

ويسمح لبنان بالحرية الثقافية الى أقصى مدى ، فهناك الجامعة الأمريكية ومدراس الإرساليات ، وهناك الكليات التابعة لجامعة الإسكندرية ، الى جانب المدارس والمعاهد اللبنانية ، والى جانب فور النشر والصحافة مختلفة الاتجاهات التي تتخذ من لبنان مقراً لها .

الحرية الثقافية بلبنان وأخطارها :

وباسم هذه الحرية الثقافية طالما كانت لبنان أرضاً تفرج منها المطبوعات التي تهاجم الإسلام ، وقرتفع منها الأصوات المأجورة ، وهذه الكلمات تكتب وفي يدي مجموعة من الكتب المنحرفة التي صدرت بلبنان تحت عنوان « دروس قرآنية » وهي كتب حافلة بالانحرافات الفكرية والدينية مما يجعل فكرة الحرية يساء استعمالها في كثير من الأحوال .

حروب أهلية في لبنان :

وقد شهد لبنان ابتداء من سنة ١٩٧٥ وحتى كتابة هذه السطور في شهر ابريل سنة ١٩٨٦ صراعاً دموياً عصبياً ، تارة بين حزب الكتائب والفدائيين ، وتارة بين المسلمين والمسيحيين ، ووقفت طرابلس الشام مواجهة لبلدة زغرتة فترة طويلة ، واستعملت في هذه الحروب الأهلية مختلف أنواع الأسلحة بما في ذلك الأسلحة الثقيلة ، والدبابات والصواريخ .

وقد تدخلت سوريا في هذه الحرب مرة مع الفلسطينيين ومرة ضدهم

ويرى رئيس جمهورية لبنان أن قوات المقاومة الفلسطينية تكثفت في لبنان وأنها تكون دولة داخل الدولة ، وترى مصر أن حركة سوريا ورئيس جمهورية لبنان مؤيدة بكميل شمعون وبالمسيحيين ترمي إلى القضاء على المقاومة الفلسطينية وأن إسرائيل وأمريكا تؤيدان هذه القوى .

وقد سئل محرر بصحيفة « الأهرام » عن هذه الحرب فأجاب في عدد ١٩٧٥/١٢/٢٦ إجابة فيها كثير من الحق ، وفيما يلي السؤال والجواب :

هناك تساؤلات : ما نوع هذه الحرب ؟ وما سببها ؟ وهل هي مجرد صراع سياسي أم أنها حرب أهلية طائفية ؟

وأجاب بقوله : « إن الحرب الدائرة في لبنان هي « ميني » حرب عالمية ثالثة بمعنى أن معظم الدول الأساسية في العالم لها ضلع فيها ؛ فالولايات المتحدة لها ضلع ، وروسيا لها ضلع ، وبعض الدول الثورية والاشتراكية لها ضلع ، وإسرائيل لها ضلع ، وبعض الدول العربية لها

ضلع ، وكل الضالعين في هذه الحرب يمدون الجماعة المتصارعة في لبنان بالمال والسلاح • ولو أن هذه الحرب كانت بأموال لبنانية لما أمكنها أن تستمر أكثر من أيام قليلة • أسبوع أو أسبوعين أو ثلاثة أسابيع على الأكثر •

» كذلك يمكن تصنيف هذه الحرب في بعض أوجهها على أنها مثل حرب اليمن التي قاتل فيها اليمنى شقيقه اليمنى بأموال الغير •

» والحرب الدائرة في لبنان ليست طائفية تماماً ، وليست طبقية تماماً ، ولكن الخريطة الاجتماعية للناس تجعل هذه الحرب تبدو طائفية وطبقية في الوقت نفسه • وبشيء من التفصيل إن الحرب دائرة بين فريق من الموارنة وفريق من المسلمين وليست بين كل الموارنة وكل المسلمين » •

وهذه الكلمات تكتب وقد زادت مشكلة الحرب الداخلية في لبنان تعقيداً ، ولم تعد الحرب داخلية بل اندفعت لها عناصر خارجية ، وفيما يلي خلاصة الأحداث حتى كتابة هذه السطور في إبريل سنة ١٩٨٦ •

تطور الحرب الأهلية في لبنان

قلنا آنفا ان الحروب اتجهت — بقصد أو بدون قصد الى أن صارت حربا بين المسلمين والمسيحيين في لبنان ، ومن الأسباب التي جعلت الحرب تصل الى هذا المدى أن بعض القوات الفلسطينية هناك كانت تمارس درجة متطرفة في لبنان مما جعلها تكون دولة داخل الدولة ، بل يصفها بعض الصحفيين بأنها وصلت لدرجة أفقدت السلطة الرسمية اللبنانية شرعيتها ، وأفقدتها احترام الشعب لها ، ووقف التقدميون المسلمون اللبنانيون الى جانب المنظمات الفلسطينية ، فاستجد الجانب المسيحي بسوريا وتقول الصحافة المصرية ان السوريين رحبوا بالدعوة • وزحفوا بقواتهم داخل الحدود اللبنانية ، واشتركوا في الحرب الأهلية الى جانب المسيحيين ، ولم تقبل سوريا التدخل في الحرب ، حبا في الجانب المسيحي ، ولا كرها للجانب الفلسطيني الاسلامي ، وانما تدخلت لاشيء الا لتضع لها قدما فوق الأرض اللبنانية ، التي ما زال السوريون يعتبرونها أرضهم التي انتزعتها منهم الاستعمار الفرنسي وأطلق عليها اسم « دولة لبنان » ولا شك أن هذا الاحساس جدير بالتقدير •

ورحب حافظ الأسد بالدعوة ليضرب عصفورين بحجر واحد • فهو لا يكتفى باحلال التواجد السوري المسلح ، داخل لبنان ، وانما يضيف اليه توجيه ضربة عنيفة الى المنظمات التي تمردت عليه •

وتحقق لحافظ الأسد ما أراد تماما !!

فقواته احتلت لبنان ، بتأييد معظم العواصم العربية ، ويدعوة من الجانب المسيحي اللبناني ! وينادقته ، نجحت في « تأديب » المتمردين •

سوريا تتخلى عن المسيحيين وتنضم للمسلمين :

وبعد أن حققت سوريا أغراضها بضرب الفلسطينيين وتأديبهم ،

وتثبيت أقدامها في لبنان صححت موقفها ، فقرر الرئيس حافظ الأسد توجيه غارات بنادقه ، ودياباته ، الى صدور رجال الميليشيا المسيحية المتعدية ، وأن يمد يد التحالف ، والتعاون ، الى رجال المنظمات الفلسطينية التي أعلنت ولائها له وإلى التقدميين المسلمين !

المسيحيون يطلبون العون من إسرائيل :

ونظر لبنان أول ما نظر الى الدول الغربية المسيحية ، ولكنه لم يجد منها سوى المواساة ، والكلمات الطيبة ، والمعونات الغذائية ، والطبية . واضطر المسيحيون اللبنانيون الى التحالف مع الشيطان . وكانت إسرائيل هي الشيطان المقصود . وتمت اتصالات بين الجانبين . ورحب الشيطان بالدعوة المفتوحة التي قدمت اليه . وقامت إسرائيل بتقديم السلاح للمسلحين المسيحيين . وذهب رجال الميليشيا المسيحية الى داخل إسرائيل للتدريب في معسكرات الجيش الاسرائيلي . كما تعود قادة من القوات المسلحة الاسرائيلية على الذهاب الى داخل لبنان ، لتتقيد استحكامات الميليشيا ، وتقديم النصح ، والخبرة .

إسرائيل تدخل لبنان :

ولم تنزع إسرائيل بأن تعيش بلبنان في الظل ، ولم يقنع الموارنة بالأسلحة والتوجيه من إسرائيل ، فطلب حزب الكتائب من إسرائيل أن تدخل لبنان بجيشها لإخراج العدو المشترك وهو الفلسطينيين والسوريون ، ودخلت إسرائيل لبنان .

الولايات المتحدة تدخل لبنان :

عندما دخلت إسرائيل لبنان اتجهت لضرب الفلسطينيين وحاصرتهم

في بيروت ، وألزمتهم مغادرة لبنان ، ولكن الفلسطينيين رفضوا الخروج .
الا اذا جاءت قوة تحمي ظهورهم في أثناء الخروج ، وقاوموا مقاومة شديدة ،
فدخلت أمريكا لبنان لهذا الغرض ، ولكنها سرعان ما خرجت من بيروت .

اغتيال بشير الجميل :

كان بشير الجميل الذي انتخب رئيسا لجمهورية لبنان كما سبق ،
قائدا من قواد الكتائب ، وشديد التعصب للموارنة ، واحست الجماعات
الأخرى في لبنان أن الرئيس ليس رئيسا للشعب كله ، وأنه منحاز لأحد
طرفي الخصومة في لبنان ، واتجهت المقاومة لمصارعته . فسقط صريعا في
الانفجار المروع الذي أشربنا له من قبل ، والتهبت لبنان نارا ، ثم اختير أمين
الجميل ، وهو أكثر هدوءا من أخيه ، ويقولون انه شخصية غير دموية .

مجزرة صبرا وشاتيلا :

انتهزت اسرائيل فرصة قتل بشير الجميل وتعاونت مع الكتائب
لانتقام مثير وغادر ، بأن دبرت لحدوث أعظم مجزرة عرفها العصر
الحديث ، وهي مجزرة مخيم صبرا وشاتيلا ، فقد خططت القوات
الاسرائيلية للقضاء على هذين المخيمين قضاء تاما بواسطة رجال الكتائب ،
وكان بيجين وشارون يمثلان التدبير وحركة التدمير باللغة الأسى .

وقدمت القوات الاسرائيلية للكتائب السلاح وحرس الزاحفين ،
وأيدتهم بكل الوسائل فاتجه هؤلاء في المدة من ١٦ الى ١٨ سبتمبر سنة
١٩٨٢ . وهاجموا المخيمين وذبحوا الآلاف من الرجال والنساء والأطفال
واستولوا على ما كان يملكه الضحايا من أموال وثروات .

وقد فزع ضمير العالم لهذا العدوان وهذه المجزرة فألفت لجنة

تحقيق دولية للنظر فيها ، وقد جاء في تقريرها أن الأدلة التي تجتمعت لديها تؤكد أن القوات الاسرائيلية قدمت مساعدة جوهرية للمجرمين الذين اجتاحتها مخيمى صبرا وشاتيلا في بيروت وذبحوا المئات من الفلسطينيين .. بل أن هؤلاء المجرمين كانوا يتحركون تحت قيادة اسرائيلية .

وأوضح التقرير أن اسرائيل قدمت المساعدة في التخطيط لمذبحة تستهدف الابادة كما قدمت امدادات وتسهيلات في عمليات القتل الفعلية ، وذكر التقرير أيضا ان الهدف الرئيسى لاسرائيل من غزو لبنان لم يكن القضاء على المقاومة الفلسطينية بل تدمير شخصية الشعب الفلسطيني وتحطيم هويته الاعتراف المتزايد بحقه في اقامة دولته في الضفة الغربية وقطاع غزة وكذلك تشتيت السكان الفلسطينيين عن طريق نفس مخيماتهم وارتكاب المذابح ضدهم ، وذكر أربعة من أعضاء اللجنة ان « التدمير المتعمد » للحقوق الوطنية والثقافية للفلسطينيين يمثل « أحد أشكال جريمة الابادة » .

وكانت اسرائيل قد رفضت التعامل مع هذه اللجنة الدولية وخطرت على أى مواطن اسرائيلى الادلاء بشهادته أمامها ، وتذرعت بانها قامت بتشكيل لجنة اسرائيلية ..

وشهد شاهد من أهلها :

أما اللجنة التى كونتها اسرائيل لدراسة هذه المجزرة فقد نشرت تقريرها فى أوائل فبراير سنة ١٩٨٣ ، وفيما يلى خلاصة ما أذاعته وكالات الأنباء عن هذا التقرير :

أذاعت لجنة التحقيق الاسرائيلية تقريرها عن نتائج تحقيقاتها بشأن مذابح مخيمى صبرا وشاتيلا فى سبتمبر الماضى ، وأوصت اللجنة باستقالة أو اقالة اريل شارون، وزير الدفاع ومعملى الجنرال يهوشوا ساجى مدير المخابرات الحربية . وأعلنت اللجنة أن شارون ارتكب أخطاء جسيمة

بسماحه للميليشيات اليمينية بدخول المخيمات الفلسطينية رغم علمه
بالنتائج التي قد تترتب على هذه الخطوة وهي ارتكاب المذابح ضد
الفلسطينيين •

وقد اتهمت اللجنة مناحم بيجين بأنه اتخذ موقف اللامبالاة من
القرار العسكري بالسماح للميليشيات بدخول المخيميين ، وهو لهذا يتحمل
تدرا من المسؤولية •

وأدانت اللجنة بعض المسؤولين الإسرائيليين ، وعلى رأسهم أرييل
شارون وزير الدفاع واسحق شامير وزير الخارجية •••••

المظاهرة الديمقراطية مفتعلة :

ومن الغريب أن هذه المظاهرة الديمقراطية المفتعلة •• لم تنتج
اثرا •• فقد ظل شارون وزيرا بلا وزارة لمدة ١٨ شهرا •• ولكنه عاد
مرة أخرى وزيرا للتجارة والصناعة في الحكومة الجديدة •• وكوفي شامير
بأن وجد نفسه بعد هذه المذبحة بعام واحد •• رئيسا للحكومة •• ويتناهى
ايتان منصبا أكبر في الجيش الاسرائيلي •• وهكذا •• والأغرب أن
الشعب الاسرائيلي الذي ثار في ذلك الوقت •• عاد لينتخب الحاخام المتطرف
مائير كاهن — زعيم حركة كاخ — عضوا في الكنيست •

عدد القتلى ودور اسرائيل :

وقد أذاع رالف شوينمان سكرتير الفيلسوف البريطاني الراحل
« راسل » في مؤتمر صحفي عقد في نيويورك في أول أكتوبر سنة ١٩٨٢
أن المعلومات الوثيقة تؤكد أن القوات الاسرائيلية اشتركت بالفعل
في مذابح صابرا وشاتيلا في بيروت الغربية ، وأن أربعة مبعوثين فلسطينيين
كانوا قد توجهوا لراكر القيادة الاسرائيلية لإعلان استسلام المخيمين قد
عثر عليهم قتلى ، وأن عدد الضحايا في هذه المذبحة كان عدة آلاف •

نحن نحذر :

الليل لا يظل ليلا ، والنهار لا يبقى نهارا ، وسيجيء يوم يصبح
المطلوب غالبا كما حدث في الحروب الصليبية ، وويل للطفاة مما يرصده
التاريخ ، ونحن نرصد هذه الأحداث حتى لا يلام العرب ان هم في يوم
من الايام تأروا لانفسهم .

القوة متعددة الجنسيات :

وازاء تفجر الموقف بعد مجزرة صبرا وشاتيلا طلب الرئيس اللبناني
الجديد (أمين الجميل) من أمريكا أن تدخل للمساعدة في حفظ الأمن ،
فقبلت أمريكا ، وعادت قواتها فدخلت لبنان مع بعض القوات الفرنسية
والانجليزية والايطالية باسم « القوة المتعددة الجنسيات » .

عملية فدائية ضد الولايات المتحدة :

تعرض مقر القيادة الأمريكية بلبنان الى عملية انتقامية بالغة الخطورة
لم يتضح بالضبط من الذي قام بها ، فهناك سيارة كانت تحمل قدرا هائلا
من المتفجرات ، وكان الذي يقودها يلبس الملابس الأمريكية ، واندفع بها
الى مقر القيادة فحواله الى كومة من التراب ، وراح المئات من الأمريكيين
وبعض الفرنسيين نحايها هذا الحادث .

وقد اختلفت الآراء حول من قام بهذا الحادث ، هل هم الفلسطينيون
الذين أرادوا الانتقام من الأمريكان الذين يساعدون اسرائيل والذين قتل
ضحايا صبرا وشاتيلا بأسلحتهم ؟

هل هم الكتائب الذين يرون أن الأمريكان جاءوا الى لبنان للحد
من نشاطهم والانتقام منهم ؟

هل هي اسرائيل التي لا صاحب لها والتي يهملها أن تثير في المنطقة
كل المتاعب ، ويهملها إسالة الدماء ، أي دماء ؟

هل لايران أصبح في هذه المؤامرة ؟

لم تتحدد التهمة حتى الآن ، وربما لن تتحدد أبدا .

اتفاق لبناني اسرائيلي والغاؤه :

في مايو سنة ١٩٨٣ تم توقيع اتفاق لبناني اسرائيلي كمعاهدة صلح ، ولكن اسرائيل اشترطت أن تجلو كل القوات من لبنان ، وكانت تقصد بذلك اخراج القوات السورية ، ولكن سوريا لم تستجب طبعاً لهذا الأمر ، ودافعت عن نفسها وعن اتجاهاتها أروع دفاع مما هزء القوات الأمريكية وهددها .

وكان هذا الاتفاق "على كل حال قصير العمر .

ان المشكلة اللبنانية لا تزال معقدة ، لأن جذورها قديمة ومتجددة كما رأينا ، وقد خسرت لبنان كثيراً بسبب هذه الحروب ، وخسر العالم العربي مركزاً فكرياً كان يشع نوراً على المنطقة بأسرها .

مواكب الشهداء اللبنانيين ضد اسرائيل :

في ابريل سنة ١٩٨٥ قادت فتاة اسمها « سناء مهيدلة » عمرها ١٦ سنة عملية انتحارية خطيرة ضد الجيش الاسرائيلي بلبنان ، وقد سجلت البطله حديثاً للاذاعة قبل قيامها بالعملية قالت فيه أنها قررت الانضمام لمواكب الشهداء الذين استشهدوا وهم يقاومون الاحتلال الاسرائيلي للبنان ، وكانت هذه الفتاة قد قادت سيارة ملغومة من طراز بيجو ٥٠٤ تحمل ٤٠٠ ك ج من المتفجرات وهاجمت بها قافلة عسكرية اسرائيلية ، وقد أسفرت هذه العملية عن مصرع واصابة خمسين جندياً اسرائيلياً .



سناء مهيدلة : في موكب الشهداء

اتفاق ونقصه :

وفي ديسمبر سنة ١٩٨٥ تم توقيع اتفاق السلام بين الميليشيات اللبنانية الرئيسية الثلاث « اليمينية والدرزية والشيعية » في دمشق وقد وقع الاتفاق الذي يستهدف انتهاء الحرب اللبنانية كل من : ايلي حبيقة رئيس اللجنة التنفيذية للقوات اللبنانية (عن الميليشيات اليمينية) ووليد جنبلاط زعيم الدروز ورئيس الحزب التقدمي الاشتراكي ونبيه بري زعيم حركة « أمل » الشيعية . وقد تمّ التوقيع في مكتب عبد الحليم خدام نائب الرئيس السوري وفي حضوره . وقد عقد اجتماع قصير قبل التوقيع على الاتفاق ضم لأول مرة زعماء الميليشيات الثلاثة وحضره خدام . وبعد توقيع الاتفاق تصافح الزعماء الثلاثة بينما أخذ مساعدوهم يتبادلون التهنة .

وكان زعماء الميليشيات الثلاثة قد وصلوا إلى دمشق لتوقيع

الاتفاق لإنهاء الحرب الاهلية التي راح ضحيتها ١٠٠ ألفا قتل على الأقل خلال ١٠ سنوات وأدت الى خسائر قدرت بـ ٢٠ مليار دولار • ووصل كل من برى وجنبلاط في الصباح بينما وصل حبيقة بعد الظهر مما أدى الى إرجاء التوقيع الذي كان مقررا أن يتم في العاشرة صباحا •

ولكن هذا الاتفاق سرعان ما ضاع أثره تبك أن يجف حبره •

والله ندعو أن يرعى بلادنا العربية ، وأن يعيد للبنان هدوءه واستقراره ، ويبعد عنه شياطين الانس وفي مقدمتهم العدو الأصيل للعرب والمسلمين والانسانية : إسرائيل •

المملكة الأردنية الهاشمية :

تحدثنا من قبل عن المملكة الأردنية الهاشمية حتى وصلنا بها الى ضم الأرض الواقعة غرب نهر الأردن في أثناء الحرب التي قام بها الدرب لتحرير فلسطين من عصابات اليهود ، ولقد ورث الملك عبد الله طموح أبيه الشريف حسين عند ما ضم هذه المنطقة ، وقد ظال الطموح يدفعه فأعلن مشروع سوريا الكبرى ليضعها بطريق أو بآخر تحت سلطانه ، وليكون منها ومن العراق حيث كان يجلس أخوه فيصل مملكة اتحادية •

وقد قتل الملك عبد الله في القدس سنة ١٩٥١ • وتولى الحكم بعده ابنه طلال ولكنه اتجه اتجاها عربيا عارض به خطط بريطانيا الاستعمارية ، فانتهزم بالجنون ، وأبعد عن العرش سنة ١٩٥٣. وتولى العرش بعد إبعاده ابنه الملك حسين ولا يزال يشغل هذا المنصب حتى كتابة هذه السطور سنة ١٩٨٦ فهو بذلك أقدم الملوك والرؤساء العرب الموجودين الآن ، أما الملك السابق طلال فقد عاش في تركيا بعد عزله حتى مات سنة ١٩٧٢ •

والأردن يعيش في جو من القلق لسبب بسيط هو قلة موارده ، واعتماده على الهبات والمساعدات التي يحصل عليها من دول الغرب ، وفي

خلال وزارة سليمان النابلسي ١٩٥٦ — ١٩٥٨ ، رأت مصر وسوريا والمملكة العربية السعودية أن تدفع للأردن ما يكمل ميزانيته وما يجعله في غنى عن مساعدات الغرب ، وعلى الرغم من توقيع اتفاقية بذلك في يناير سنة ١٩٥٨ تنص على أن تدفع هذه الدول ١٢ مليوناً من الجنيهات للأردن كل عام لمدة عشر سنوات ، فإن الاتفاقية لم توضع موضع التنفيذ ، لأن مؤامرات العرب تدخلت — فيها يبدو — فباعدت بين الأشقاء .

وقد رأى مؤتمر القمة السابع الذي عقد بالرباط في أكتوبر سنة ١٩٧٤ أن يعود للفلسطينيين كل جزء يتحرر من فلسطين ، ووافق الملك حسين على ذلك واتخذ الإجراءات الدستورية لتنفيذ ذلك ، وهذا موقف يحمد للملك .

موقف الأردن جدير بالتقدير :

قررت أكثر الدول العربية مقاطعة مصر عقب معاهدة « كامب ديفيد » وحلقت القطيعة محلاً للإحشاء ، ولم ترفض هذا الإجراء إلا عمان والسودان والصومال ، ومرت السنوات على هذا النحو ، ثم ارتفع صوت الملك حسين يعلن عودة العلاقات مع مصر ، وعودة تبادل السفراء ، فكان موقفاً جديراً بالتقدير من المصريين الذين تشدد رغبتهم على دوام الصلة بين الأشقاء ، ويرون أن ما بين مصر والدول العربية يعطو على القطيعة . شكراً للأردنيين على هذا الموقف العظيم .

فلسطين :

نجا من فلسطين في الجولة الأولى جزء نرجو أن يكون المركز الذي ستتطلق منه القوة التي تحرر الوطن السليب ، وذلك الجزء هو قطاع غزة ، وكذلك الجزء الذي ضمته الأردن إليها ، ومنذ النكبة سنة ١٩٤٨ ساح الفلسطينيون في البلاد العربية يحيطون بأرضهم المختصة ويتربعون ساعة الزحف لتحرير هذه الأرض ، وقد بدأت الاتجاهات لابرز الكيان

الفلسطيني ، وكان مطلع هذه الاتجاهات أن منحت غزة الحكم الذاتي تحت اشراف جمهورية مصر ، وأعلن الدستور المؤقت للشعب الفلسطيني في مارس سنة ١٩٦٢ ، كما بدأ تكوين جيش فلسطيني كبير العدد قوى العدة ، وفي دورة الجامعة العربية التي عقدت في سبتمبر سنة ١٩٦٣ وافقت الدول العربية على مشروع يقضى بالمحافظة على الشخصية الفلسطينية والعمل على تجميع قوى الشعب الفلسطيني المشتت استعداداً لاطلاق العودة ، وأصبح السيد أحمد الشقيري ممثلاً لفلسطين في المجمع الدولية ، وقد اتصل بالفلسطينيين في جميع البلاد العربية واستطاع بعد الزيارات والمشاورات أن يقترح مشروع الميثاق القومي الفلسطيني ومشروع منظمة التحرير الفلسطينية ، وقد عرض المشروعان على المؤتمر الفلسطيني الذي عُقد بمدينة القدس في مايو سنة ١٩٦٤ وأصدر المؤتمر توصيات أهمها :

- ١ — اقرار الميثاق القومي الفلسطيني وهو يتكون من ٢٩ مادة .
- ٢ — انشاء منظمة تحرير فلسطين على أساس تنظيمين أحدهما شعبي والآخر عسكري .
- ٣ — انشاء الصندوق القومي الفلسطيني لتمويل منظمة التحرير ، وإصدار سندات تحرير فلسطين بكفالة الجامعة العربية .
- ٤ — يخصص أسبوع باسم أسبوع فلسطين يبدأ في ١٥ مايو من كل عام .

واتخذ الفلسطينيون شعاراً لهم هو « اننا عائدون » وقد بدعوا فاعلا في اطلاق مضجع اليهود بفلسطين اقلاباً يكاد يكون متصلاً ، فان القديسين يتسللون الى بلادهم وبلاد أجدادهم ، وهم أعرف الناس بمساكنها ومسارها فينشرون الرعب والذعر بين الغاصبين .

وقد اختير ياسر عرفات مكان أحمد الشقيري ، وبذل جهدا كبيرا في إبراز قوة المعارضة ، وإن كانت لم تصل بعد الى ما يرجى لها من مكان .

وقد شهد عام ١٩٧٥ تصاعد العمل الفدائي الجريء وأنزل بالعدو كثيرا من الضربات ، وبعث الخوف والقلق في كل منزل ونادٍ .

والصراع الآن يدور ، ويشترك فيه كل عربي وكل مسلم ، وينبغي ألا يقتصر أحد من هؤلاء في دفع نصيبه بسخاء وحماسة وأمل ، وهذا المطلب يتطلب الجهود من كل الفئات ، يتطلع الى براعة السياسة ، وعقول المفكرين ، وأقلام الكتاب ، كما يتطلع الى مال الغنى ، وبسالة الجندي ، ويقتله المشرفين .

وقد تحدثنا من قبل عن جولة يونيو سنة ١٩٦٧ وعن الفكسة التي خلفها الإهمال والانحراف ، وقد ساعد ذلك اسرائيك على ابتلاع غزة والضفة الغربية لنهر الأردن ولكن العرب يعرفون أن الحرب الصهيونية لن تكون سهلة يسيرة ، ولذلك فإن العرب ينبغي أن ينتفعوا بالنكسات كما ينتفعون بالانتصارات ، ولا بد مما ليس منه بد .

وقد تحدثنا في كتاب خاص (مصر في حربين) عن انتصارات أكتوبر سنة ١٩٧٣ التي استعاد بها العرب مكانهم في التاريخ السياسي والعسكري ، والتي فتحت الباب لتسوية سلمية للمشكلة الفلسطينية .

وفي مؤتمر القمة الذي عقد بالرباط في ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٧٤ اجتمعت كلمة القادة — كما سبق — على الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلا وحيدا للشعب الفلسطيني ، وعلى أن أي جزء يتحرر من فلسطين يعود للفلسطينيين بزعامة منظمة التحرير ، وقد وافق الملك حسين على ذلك ، وهذا فتح الباب لعودة حميدة لفلسطين الحبيبة .

ووافقت الأمم المتحدة على بحث قضية فلسطين من جديد في نوفمبر

سنة ١٩٧٤ وعلى دعوة منظمة التحرير لتمثيل فلسطين في هذه الدورة ولتتحدث باسم فلسطين ، وكانت قضية فلسطين قد شطبت وحلت محلها قضية اللاجئين ، ثم تنوسيت قضية اللاجئين ، ولكن انتصار أكتوبر سنة ١٩٧٣ بعث الحياة من جديد في قضية فلسطين •

وفي الأمم المتحدة ألقى ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير خطابا خطيرا نكتطف منه بعض الفقرات :

« ان الأمم المتحدة قامت وسط تحركات حربية عام ١٩٤٧ بتقسيم ما لا يجوز لها تقسيمه وهو أرض الوطن الواحد • ونحن رفضنا هذا القرار فاننا كنا مثل أم الطفل الحقيقية ، التي رفضت أن يقسم لثليمان طفلها • حين نازعتها عليه امرأة أخرى •

« ومع ذلك • • • فقد منح قرار التقسيم المستوطنين الاستعماريين ٥٤٪ من أرض فلسطين وكان ذلك لم يكن كافيا بالنسبة لهم فشنوا حربا إرهابية ضد السكان المدنيين العرب واحتلوا ٨١٪ من مجموع مساحة فلسطين وشردوا مليون عربي • معتصبين بذلك ٥٢٤ قرية ومدينة عربية ، دمروا منها ٢٨٥ مدينة وقرية تدميرا كاملا وسحوها من الوجود ، وحين فعلوا ذلك أقاموا مستوطناتهم ومستعمراتهم فوق الأنقاض ، وبين بساتيننا وحقولنا ، ومن هنا تكمن جذور المشكلة الفلسطينية •

« ولم تكف إسرائيل بذلك ، بل شنت حربين للتوسع سنة ٥٦ و ٦٧ ضمت فيهما سيناء والجولان وباقي فلسطين حتى نهر الأردن •

« وجاءت حرب ١٩٧٣ لتؤكد للعدو عقم سياسته الاحتلالية واعتماده على شريعة القوة ولكن العدو لم يتعظ بذلك •

« ويقولون اننا ارهابيون ، والحق أن الجانب الذي يقف فيه حامل السلاح هو الذي يميز بين الناصر والارهابي فمن يقف في جانب

قضية عادلة ومن يقاقل من أجل حرية وطنه واستقلاله ضد الغزو والاحتكار والاحتلال والاستعمار لا يمكن بأي حال أن تنطبق عليه صفة ارهابي والا اعتبر الشعب الأمريكي حين حمل السلاح ضد الاستعمار البري اراهابيا .. واعتبر كثيرون منكم في هذه القاعة اراهابيين .. واعتبر نضال الشعوب في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية اراهابا .

« إن الارهاب الصهيوني هو الذي استلج حق الشعب الفلسطيني لاجلائه عن وطنه .. واقتلعه من أرضه .. ومدونٌ لديكم في وثائق رسمية وزعت في الأمم المتحدة أن العدو ذبح الآلاف من أبناء الشعب في قرأهم .. ومدنهم ، وأجبر عشرات الألوف تحت نار البندقية وقصف المدافع والطائرات .. أن يتركوا بيوتهم وما زرعوا في أرض أجدادهم .

« ولقد قدم شعبنا في السنوات العشر الأخيرة من نضاله آلاف الشهداء ، وأضعافهم من الجرحى والمشوهين والأسرى والمفقودين من أجل ألا يفنى أو يذوب .. ومن أجل انتزاعه حقه في تقرير مصيره على وطنه وفي عودته الى هذا الوطن .

وتعيش جماهير شعبنا الآن تحت الاحتلال الصهيوني تقاوم بكل الكبرياء المناضل فيها ، وبكل الشموخ الثورى الملازم لها .

« إننى كرئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية .. وكهائد للثورة الفلسطينية أتوجه اليكم أن تتقفوا مع نضال شعبنا من أجل تحقيق حقه في تقرير مصيره .. هذا الحق الذى قرره ميثاق منظماتكم وأقرته جمعيتكم الموقرة في مناسبات عديدة ، وإننى أتوجه اليكم أيضا أن تمكنوا شعبنا من العودة من منفى الاجبارى .. الذى دُفع اليه تحت طلقات البنادق .. وبالظلم .. ليعيش في وطنه ودياره وتحت ظلال أشجار مزارعه حرا سيدا متمتعاً بكافة حقوقه القومية ليشارك في ركب الحضارة البشرية وأن عجلات الابداع الانسانى بكل ما فيه من امكانيات وطاقات وليحمى قدسه

الحبشية كما فعل دائما عبر التاريخ ويجعلها قبيلة حرة لجميع الأديان بعيدا عن الارهاب والفقر كما فعل عبر القرون الطويلة .

« أتوجه اليكم لأن تمكنوا شعبنا من اقامة سلطته الوطنية المستقلة ..
» لقد جئناكم ياسيادة الرئيس بغصن الزيتون في يد وبندقية النائر في يدي الأخرى فلا تسقط الغصن الأخضر من يدي .. » .

وفي ٢٢/١١/١٩٧٥ وافقت الجمعية العامة بأغلبية ساحقة على قرار بالاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في الاستقلال والسيادة الوطنية ، وعلى قرار آخر يقضى بمنح منظمة التحرير الفلسطينية وضع « مراقب » في الأمم المتحدة .

ويدعو القرار الأول الى منح الشعب الفلسطيني حق تقرير المصير والاعتراف بحقه في الاستقلال والسيادة الوطنية ويعلن القرار :

— أن الفلسطينيين طرف رئيسي في أية تسوية للأزمة في الشرق الأوسط .

— تأكيد حق الفلسطينيين في العودة الى ديارهم وممتلكاتهم التي انتزعوا منها .

— أن هذه الحقوق أمر لا غنى عنه لتسوية المشكلة الفلسطينية ومن حق الشعب الفلسطيني أن يستردها بكل الوسائل بما يتمشى مع مبادئ الأمم المتحدة .

— على جميع الدول والمنظمات الدولية أن تساعد الفلسطينيين في نضالهم .

— ينبغي استشارة منظمة التحرير الفلسطينية في جميع المسائل المتعلقة بفلسطين .

وكانت الدول التي عارضت هذا القرار هي الولايات المتحدة واسرائيل وشيلي وكوستاريكا وايسلندا ونيكاراجوا والنرويج .
وينص القرار الثاني على منح منظمة التحرير الفلسطينية الحق في الاشتراك كمراقب في دورات الجسبة العامة وجميع المؤتمرات التي تعقدها أية هيئة من هيئات المنظمة الدولية .

وتحدث يوسف تيكواه مندوب اسرائيل بعد صدور القرارين فقال إن هذه أيام حزينة بالنسبة للأمم المتحدة ، واتهم المنظمة الدولية بالاستسلام .

مذبحة جديدة في « عين الحلوة » بلبنان :

وقد تعرض الفلسطينيون في فلسطين وفي لبنان الى مذابح مروعة قام بها الجيش الاسرائيلي ، وقد تحدثنا من قبل عن مذبحة صبرا وشاتيلا ، ونحدث هنا عن مذبحة أخرى في معسكر « عين الحلوة » وقد وقعت في ١٦/٥/١٩٨٤ وقالت عنها وكالات الأنباء ما يلي :

اقتحمت القوات الاسرائيلية مخيم « عين الحلوة » للاجئين على بعد حوالي ٤٠ كيلو مترا جنوبى بيروت في ساعة مبكرة من صباح أمس مستخدمة الدبابات والبلدوزرات والعربات المدرعة .

أسفرت عملية الاقتحام التي بدأت في منتصف ليلة أمس الأولى (الثلاثاء) واستمرت حتى الساعة الخامسة من صباح أمس عن تدمير أكثر من ٢٠ منزلا ومصرع واصابة حوالي ٤٠ شخصا كانوا بداخلها كما ألقت السلطات الاسرائيلية القبض على ١٥٠ شخصا آخرين من سكان المخيم . وذكرت وكالة غوث اللاجئين أن القوات الاسرائيلية نسفت ٨ منازل بالديناميت بسكانها وهم نيام .

وقد وقع الحادث بعد يوم واحد من المظاهرة التي وقعت في

المخيم وصدر بيان معاد لإسرائيل احتجاجاً على ذكرى (وعد بلفور) .

وكانت كلمة « الأخبار » عن هذه المذبحة هي :

مذبحة « عين الحلوة » .. مذبحة جديدة تضاف الى التاريخ الأسود للمذابح الاسرائيلية ضد الأبرياء العزل من أبناء الشعب الفلسطيني ذلك التاريخ الذي يبدأ بمذبحة دير ياسين وينتهي بمذابح صبرا وشاتيلا .

ولا يختلف سيناريو المذبحة الجديدة كثيراً .. ففي حوالي منتصف ليلة الثلاثاء حاصر الجيش الاسرائيلي مستخدماً سبع عشرة دبابة ومدربة مخيم عين الحلوة الذي يسكنه ٢٥ ألفاً من الفلسطينيين .. وبعد قليل اقتحم الجنود الاسرائيليون المخيم ثم انتشروا في المخيم وتسفوا بالديناميت دون هوادة ١١ مسكناً وأتلفوا عشرة أخرى : وأسفرت العملية عن اصابة العشرات واعتقال العشرات . كانت الانفجارات تدوى داخل المخيم بمعدل انفجار كل خمس دقائق . وأصيب السكان بالهلع وتذكروا ما حدث في صبرا وشاتيلا . ومما يثير الأسى والحزن في هذه المذبحة إن هذا المخيم بالذات كان قد أبيع عن آخره خلال الغزو الاسرائيلي عام ١٩٨٢ .. ولكن سكانه الفلسطينيين استطاعوا في زمن قياسي إعادة بنائه .

إن استمرار القوات الاسرائيلية في هذه العمليات التي تستهدف التصفية الجسدية للشعب الفلسطيني يستدعي من الأمة العربية كلها أن تتصدى لها لكي تكف إسرائيل عن المضي في جرائمها فإن حماية الوجود

المدنى للفلسطينيين الخاضعين للاحتلال الاسرائيلى هى مهمة كل عربى ..
وكل انسان حر شريف ومهمة كل المنظمات والهيئات الدولية .

وعلى اسرائيل أن تعلم إن العنف لن يولد الا العنف .. وإنها مهما
حاولت فلن تستطيع أن تبيد الشعب الفلسطينى .. فالشعوب
لا تموت أبداً .

وسيزل العدوان من جانب والثأر الفلسطينى من جانب آخر حتى يعود
الحق الى نصابه فى المستقبل القريب أو البعيد ولن ينال اليهود الأمن فى
فلسطين بسبب هذه السياسة التى تولد الذعر لا الأمان .

النضال الفلسطينى داخل فلسطين فقط :

أعلن السيد ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير
الفلسطينية فى ١٩٨٥/١١/٨ مسجوب المنظمة وإدانقتها لجميع عمليات
الارهاب سواء تلك التى تتورط فيها الدول أو التى يرتكبها أفراد أو
جماعات ضد الأبرياء والعزل فى أى مكان .

وأكد ياسر عرفات إن المنظمة سوف تتخذ ابتداء من اليوم كافة
الاجراءات الرادعة ضد المخالفين ، ودها عرفات — فى بيان باسم المنظمة
أعلنه فى القاهرة — المجتمع الدولى بسلن يلزم اسرائيل بوقف جميع
الأعمال الإرهابية فى الداخل والخارج .

وأعلن عرفات فى بيانه أن الأهداث تؤكد اقتناع منظمة التحرير
الفلسطينية بأن العمليات الارهابية التى تتخذ فى الخارج تسىء الى
قضية الشعب الفلسطينى وتشوه كفاحه المشروع فى سبيل الحرية .

ولكن عرفات أكد مجدداً تمسك المنظمة بحق الشعب الفلسطينى فى

مقاومة الاحتلال الاسرائيلي لأراضييه بكل السبل المتاحة بهدف تحقيق الانسحاب من هذه الأراضي •

وناشد رئيس منظمة التحرير الفلسطينية كافة الشعوب المحبة للسلام في جميع أنحاء العالم الوقوف الى جانب المنظمة وهي تتخذ هذه الخطوة لانساهام في تخليص العالم من ظاهرة الارهاب وتحرير الأفراد من الخوف ووقايتهم من الخطر •

وأكد ياسر عرفات أن المقاومة الفلسطينية لن تبأشر نشاطها إلا في الأرض الفلسطينية المحتلة حتى يتم جلاء العدو عنها •

تركيب المجتمع السوري

هناك عوامل خطيرة ساعدت على ما شأهدها من حركات الانقسام في سوريا ، ولا تزال هذه العوامل موجودة في سوريا الحالية وفي لبنان ، ولعلها أسهمت أيضاً في الحركة الانفصالية بين سوريا ومصر ، ولدينا بحث خطير كتبه عالم سوري هو الأستاذ محمد المبارك يبين عناصر المجتمع السوري الحالي والاتجاهات فيه ، وعنه نقتبس بعض المعلومات التي توضح لنا هذه العوامل :

فمن ناحية الجنس يوجد في سوريا الأجناس الآتية :

١ — العرب : والجنس العربي بسوريا يختلف بعضه عن بعض ، فمن عرب سوريا من وصل في الحضارة والمدنية درجة كبيرة ، ومنهم البدو الرحل بالجزيرة وحلب وجبل الدروز وغيرهما ، ومنهم جماعة يقفون بين البداوة والحضارة يرعون الإبل ويمارسون شيئاً من الزراعة .

٢ — الأكراد : ويكثرون في مناطق الحدود التركية والعراقية وعددهم حوالي ٣٥٠ ألفاً ، وأكثرهم مسلمون سنيون ، ولهم ماض ناصع في الحركات الوطنية ، ولكن حركة القومية الكردية تغزوهم . كما أن الشيوعية تجسد طريقها لهم ، وبخاصة أن الأكراد يكونون جمهورية كردستان إهدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي ، ومنهم خالد بكداش أهم مؤسسي الحزب الشيوعي في سوريا .

٣ — الجركس والداغستان والشاسان : وهم مهاجرون من قفقاسيا

في أواخر القرن التاسع عشر الى ما بعد الثورة الشيوعية بالاتحاد
السوفييتي ويسكنون جنوب سوريا ، وهم مسلمون سنيون •

٤ — التركمان : ويكثرون في محافظة اللاذقية ، وهم أقلية
تركية أو تركمانية أصبحوا من سوريا نتيجة لتنظيم الحدود بين سوريا
وتركيا وهم مسلمون سنيون •

٥ — الأرمن : هاجروا الى سوريا خلال الحرب العالمية الأولى
ويكثرون في الجزيرة وبعض قرى اللاذقية ، ولهم نشاط واسع في
الصناعة والأعمال الحرة ، وهم مسيحيون ، أكثرهم يتبع طائفة
الأرثوذكس ، والباقي يتبعون المذهب الكاثوليكي •

٦ — السوريان : وقد هاجر السوريان الى سوريا من تركيا إبان
عهد الانتداب الفرنسي وعددهم حوالي ٣٠ ألفاً ، وهم مسيحيون •

٧ — الكلدان والآشوريون : وقد هاجروا الى سوريا من العراق
عقب الحرب العالمية الأولى ، وعددهم ليس كثيراً (بنسبة آلاف) •

ومن ناحية اللغة : يلاحظ أن كل جنس من هذه الأجناس يتكلم
لغته ، وقد يعرف بجانبها اللغة العربية ، ولكنها أحياناً شبه رطانة ،
ولغته الأصلية عنده هي اللغة القومية ، ول بعضهم صحافة خاصة كالأرمن ،
وأندية يلتقون بها ، ومدارس خاصة لأبنائهم •

ومن ناحية الأديان والمذاهب نجد في سوريا عدداً كبيراً له أثر
عميق في المجتمع ، وذلك لميل أكثر هذه الجماعات الى الطائفية ، والتوزيع
الطائفي حسب إحصائية سنة ١٩٥٦ هو :

١ — المسلمون :

السنينيون	٣٨٧٠٠٠٠
العلويون	٤٢٩٠٠٠
الإسماعيليون	٤٠٠٠٠
الجعفريون وسنتكم عنهم فيما بعد	١٥٠٠٠
الدروز	١٢٥٠٠٠

وقد مرء حديث طويل عن الدروز عند الكلام عن الحاكم بأمر الله .

٢ — المسيحيون :

الأرثوذكس	٣٥٠٠٠٠
الكاثوليك	١٢٧٠٠٠
بروتستانت	٢٩٠٠٠
كلدان	
نسطوريون	

٣ — اليهود

٤ — اليزيدية (يقدسون الشيطان)

وفيما يلي لمحات عن هذه الأديان والمذاهب .

— يدخل في السنين أكثر العرب والأكراد والجركس والتركمان .

— بعض الإسماعيلية الأغاخانية والدروز بعدوا عن الإسلام بعد شاسعا .

— الفرقة المعروفة بالعلويين يكثر بينها الغلو في التشيع وتكثر الخرافات ، ولكن بدأت أحوالهم العلمية والدينية تتحسن ، نوعا ما .
وسنتحدث عنهم بشيء من التفصيل فيما بعد .

— تكثر الشيوعية في المسيحيين الأرثوذكس لصلة روسيا بهذا المذهب • كما توجد بين قلة من الأكراد والأرمن ...

— يتجه الكاثوليك الى الغرب بعواطفهم ويكرهون الشيوعية •

ومن ناحية العقائد الفكرية يتضح لنا ما يأتي :

— يميل أكثر السوريين الى دعم الحركة العربية والاسلامية ، واعتبارها حركة واحدة قائلين بعدم إمكان الفصل بين الفكرتين والاتجاهين •

— يوجد حزب البعث العربى وهو يتجه بكل قواه للجانب العربى ويتناسى الجانب الاسلامى •

— توجد جماعة الإخوان المسلمين وهى تتجه للجانب الإسلامى •

— الحزب القومى السورى ويرمى لعزل سوريا عن العرب وعن المسلمين ، وتكوين قومية خاصة بسوريا ، ومؤسس هذا الحزب « انطون سعادة » •

الجعفرية :

تحدثنا في الجزء الثانى من هذه الموسوعة عن مدعى التشيع وادعاءاتهم ، وكيف تقولوا الأكاذيب عن الامام جعفر الصادق رضى الله عنه ، وقد بالغ بعض هؤلاء وقالوا ان الامامة وقفّت عند جعفر الصادق السادس فى سلسلة الإمامة ، ولم تتركه الى سواه لأنه لم يمت ، وانما استقر وسيعود ، وينسبون للامام آراء منحرفة هو منها برى ، وذلك مثل الغيبة والرجعة والتناسخ والحلول وغيرها من الاتجاهات الشاذة الوافدة ، وقد ظهرت بعض هذه الآراء فى أثناء حياة جعفر ، وتبرأ منها الإمام ، ولعن القائلين بها •

العلويين أو النصيرية :

طائفة من غلاء الشيعة يعتقد الكثيرون منهم أن الامام عليا له طبيعة إلهية ، وهم يعرفون بالنصيرية ، نسبة الى محمد بن نصير الكوفي ، وهو أحد متطرفي الشيعة (أواخر القرن الثالث الهجري) أو الى نصير مولى الإمام علي ، وهم يسكنون المنطقة الجبلية التي تسمى باسم « جبال العلويين » ، وقد كونوا دولة خاصة بهم سنة ١٩٢٢ تسمى جبل العلويين وكانت الملاذقية عاصمة هذه الدولة ، ولكنها سرعان ما اندمجت في الدولة الأم (سوريا) . ومع الشطط في الناحية الدينية ، فقد وجد من العلويين بعض الزعماء السياسيين والعسكريين ، ومن هؤلاء صالح العلي الذي قاد ثورة ضد الغزو الفرنسي سنة ١٩١٩ .

ويذكر الأستاذ محمد عبد الله عنان أن النصيرية طائفة من الباطنية ، وهم يتظاهرون بالاسلام ولكنهم يدعون أن علي بن أبي طالب إله ، وأفكارهم شديدة الاتصال بأفكار الدروز ، ولهم تشريعات لا يترها الاسلام وبخاصة فيما يتعلق بالمرأة ، والمحرمات في الزواج (١) .

ويقول عنهم الدكتور فيليب حتى ان النصيرية لهم مذهب له طابع السرية ، كهنوتي النظام ، باطني التعليم ، وهو في الحقيقة رواسب من مل سورية وثنية متعاطفة بغشاء من التعليم الشيعي المنحرف ، مع بعض مظاهر المسيحية السطحية كاحتفالهم بمع النصراري بعيد الميلاد وعيد القيامة ، واستخدامهم أسماء اتفرد بها النصراري مثل يوحنا وهيلانة ويبلغ عددهم حوالي نصف مليون وأكثرهم من المزارعين (٢) .

والذي أعتقد أنه هذه المعتقدات تضعف الآن وتنتج للأفول ، فحب علي ابن أبي طالب لا يمكن أن يدفع المحبين الى الاعتقاد بألوهيته ، فإن ذلك كان من اتجاهات فترات الظلام ، وهذه الفترات هي ونتائجها في الطريق للزوال .

(١) الحاكم بأمر الله ص ٣٢٢ .

(٢) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

الحروب الصليبية

دوافعها - أدوارها - نتائجها

٤٩١ - ٦٩٢ هـ = ١٠٩٧ - ١٢٩٢ م

هبت الحروب الصليبية حوالى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ، وظلت مائتى عام تقريبا ، أكلت خلالها ملايين البشر واستنفدت الكثير من جهد الغرب وجهد الشرق ، وسنحاول فى هذه الدراسة تصوير الأحداث فى هذه الحروب تصويرا سريعا وشاملا .

أسباب الحروب الصليبية

اتخذت الحروب الصليبية تسميتها من الصليب دلالة على أن الدين كان أهم أسبابها ، ولكن مع حقد الصليب وحماسه فى هذه المعارك ، فقد كانت هناك أسباب أخرى تدعوهم روح الشر الصليبي ، وسنحاول هنا أن نلهم بأسباب هذه الحروب سواء فى ذلك الأسباب الدينية وغير الدينية ، ولكننا نسرع فنشير على القارئ أن يطالع الكتاب الجديد الذى أصدره المؤلف مرتبطا بالحروب الصليبية وعنوانه :

الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الاسلام وامتداداتها حتى الآن

أما الأسباب الأخرى التى دفعت الصليبيين للزحف على الشرق الاسلامى فهى :

١ — الأسباب التاريخية :

يرى الدكتور فيليب (١) أن الحروب الصليبية فى وضعها الصحيح فصل متوسط من فصول تلك القصة الطويلة ، قصة الخلاف بين الشرق والغرب ، مبتدئة بحروب طروادة وفارس فى الأزمنة الغابرة ، ومنتهية بالتوسع الاستعماري الأوربي فى العصر الحديث ، فالحروب الصليبية حلقة من هذه السلسلة ، وقد شنتها أوربا ليس على سوريا وآسيا الصغرى فحسب ، بل على الشرق الأوسط كله .

وهذا الصراع التقليدي القديم الذى ظهر بوضوح فى النزاع بين

الفرس واليونان ، ثم بين الفرس والروم ، لم يكن مرتبطا بأى عامل دينى ، حيث أنه بدأ عندما كان هؤلاء وأولئك وثنيين ، ولكنه كان مرتبطا بالعمل الحضارى ، فبدأ صراعا بين حضارتين مختلفتين وعقليتين متباينتين ، وقد ظل هذا الصراع بين الشرق والغرب يهدأ ويثور كالبركان فى هدوئه وثورته ، فلما جاء القرن الحادى عشر اشتد غليان البركان فثار متخذاً الصليب فى هذه المرة أداة له ، ومظهراً لغلبيانه .

٢ - أسباب ترتبط بالديانة المسيحية :

ترعرت المسيحية فى أوربا ، بعد أن وجَّهها بولس وجَّهتها الجديدة وأبعدها عن رسالات السماء (١) ، وانتشرت الديانة الجديدة بين كنائس أوربا وجامعاتها ، مع أن الشرق كان المهد الحقيقى لدين المسيح .

وهناك أديان زاحمت المسيحية فى عصور مختلفة ، وذلك مثل اليهودية والبوذية والكونفوشية والاسلام ، ولكن الاسلام كان الدين الوحيد الذى زحف بقوة جارفة على المستعمرات الأوربية المسيحية فى سوريا ومصر وشمالى افريقية وضمها اليه ، ولم يكف الاسلام بهذا بل اقتحم على أوربا المسيحية أبوابها من الغرب عن طريق الأندلس ، ومن الشرق عن طريق القسطنطينية التى دق المسلمون أبوابها منذ السجود الأموى ، وكان الاسلام فى الحالتين متجها نحو قلب أوربا ، ومتخذاً حول البحر المتوسط حركة تشبه ما يسمى فى الحروب الحديثة بحركة الكماشة .

ولا غرو إذن أن تخاف أوربا من الاسلام وتعلن عليه العداء ، على نحو ما تفعل حتى الآن ، وأن تتلمس الوسائل لتقليل أظافره والتغلب عليه .

وقبيل قيام الحروب الصليبية كانت الكماشة التى فرضها الاسلام بدأت تنفك وأعقب المد " جزر " ، وبدأت قوى المسلمين تتراجع وتقهقر ،

(١) انظر البحث العلمى الدقيق الذى كتبه المؤلف فى كتابه « المسيحية » ضمن سلسلة « مقارنة الأديان » .

وأقبل الى القول بربط أحداث الشرق بالغرب ؛ فسقوط الخلافة الأموية بالأندلس ، وقيام ملوك الطوائف بها ، وما تبع ذلك من هزائم متلاحقة منى بها المسلمون ، وتقهقر مستمر نزل بهم في الميدان الغربي (الأندلس) ، كل هذا شجع المسيحيين أن يقوموا بضربة من جهة الشرق لمحاولة تدمير قوى المسلمين من الطرفين ، ثم للقضاء على المحاولات التي كانت تظهر من حين لآخر في القسم الشرقي من العالم الإسلامي ، تلك المحاولات التي كانت ترمى الى مساعدة المسلمين بالأندلس ، ومد يد العون إليهم حتى يستردوا قوتهم أمام العدو المسيحي .

والناظر الى تاريخ هذه الحقبة يجد صراعا في الشام ومحاولات لاحتلال مضر ، كما يرى زخفا مطردا في الأندلس يعقبه محاولات لاحتلال شمال إفريقيا صادف بعضها نوعا من الفجاح . فلا غرو بعد هذا أن نؤكد أن نشاطا دينيا اتضح في تاريخ المسيحية في هذه الأثناء كان يرمى الى القضاء على الاسلام الذي مثل خلال فترة من الزمن اشارة الخطر ضد المسيحية الأوروبية .

ومن الأهداف المحددة لليقظة الدينية المسيحية في أوروبا آنذاك ، الاستيلاء على الأماكن المقدسة في فلسطين ، لتتولى الكنيسة البابوية بروما حماية هذه الأماكن المقدسة وإدارتها .

ومن الأهداف المحددة كذلك أن الكنيسة الغربية رأت أن تقتبز هذه الفرصة لتحاول بها توحيد الكنيسة المسيحية ، وجعل قيادة المسيحيين جميعا في يدها ، وقد كانت الكنيسة المسيحية قد انشقت الى كنيسة شرقية وكنيسة غربية عقب مجمع رومة الذي عقد في سنة ٨٦٩ م ، ومجمع القسطنطينية الذي عقد سنة ٨٧٩ ، إذ قرر الأول انبثاق الروح القدس من الآب والابن ، وقرر الثاني انبثاق الروح القدس عن الآب فقط ، وأصبحت لكل كنيسة عقب ذلك مجامعها الخاصة ، ولم تعد أى منها تخضع لقرارات الكنيسة الأخرى (١) .

(١) اقرا مقارنة الايمان للمؤلف : الجزء الثاني الخاص بالمسيحية .

ولهذا كله أسهرت الكنيسة الغربية بتلبية فداء البيزنطيين الذين هالهم ما حققه المسلمون ضدهم من انتصارات ، ولذلك يعتبر بعض المفكرين أن الحروب الصليبية كانت امتدادا للحروب بين البيزنطيين والمسلمين في الشام والأناضول وشمال إفريقيا خلال السنوات والقرون التي سبقت الحروب الصليبية .

ويدخل في الأسباب الدينية كذلك ما يذكره المؤرخون من أن البابا رأى في الحروب الصليبية وسيلة يحوّل بها الى الشرق وجوه البارونات والفرسان الذين يعكرون أمن القارة الأوربية بالحروب والمغامرات وأعمال اللصوصية ، ويسينّون الى رجال الإكلروس منكرين عليهم ما يحرصون عليه من إكرام واحترام ، ثم ان انسحاق هؤلاء في الحروب الصليبية استجابة لنداء البابا ، معناه خضوع الملوك والإقطاعيين لسلطان البابوية (١) .

٣ — الأسباب التجارية :

وهناك أسباب تجارية عظيمة الشأن جعلت التجار المشاهير بالساحل الشمالي للبحر المتوسط وبخاصة في البندقية وحنوا وبيزا يبذلون المال والسلاح للتشجيع على الحروب الصليبية ، وتلك الأسباب هي الرغبة في امتلاك بعض الموانئ على الساحل الشرقي والجنوبي للبحر المتوسط لتكون هذه الموانئ مراكز لتجارة الغرب في الشرق ، ولتتصل تجارة أوروبا عن طريق هذه المنافذ بالخطوط التجارية بالشرق ، ويعزّزى للتجار اليهود التشجيع على هذا الاتجاه ومساعدته ماديا وأدبيا مما يجعل اليهود أسبابا مستترة خلف إثارة الحروب الصليبية (٢) .

(١) قدرى قلجى : صلاح الدين الأيوبي ص ١٦ — ١٧ .

(٢) See : «The Jews» by James Hosmer p. 137

See also Medieval Europe by Ephraim Emerton p. 395 f.

٤ — أسباب تتصل بالنظام الاقطاعي بأوروبا :

كان النظام الاقطاعي سائداً في أوروبا قبيل الحروب الصليبية فكان لكل أمير اقطاع ، وكانت العلاقة بين أمراء الاقطاع بعضهم والبعض سيئة للغاية ، فالحروب توشك ألا تنقطع ، والتدمير سمة العصر ، وقد تسبب عن ذلك ما يلي :

(أ) رغب أمراء أوروبا في الحصول على أرض جديدة في الشرق أكثر خصوبة وأمناً من أرض أوروبا التي خضبتها الدماء ، واستوطن بها شبح الحرب .

(ب) كانت قوانين الميراث الاقطاعية قد خلقت طائفة عظيمة العدد من الشبان المعدمين الذين حجبهم عن الميراث والتملك إخوتهم الأكبر سناً منهم ، فهؤلاء وغيرهم من الأفاكين ذوى الآمال العريضة طمعوا في الثراء واقتناء الأملاك عن طريق النزوح الى بلاد جديدة (١) .

(ج) وجد رقيق الأرض تحت النظام الاقطاعي ، فرصة في الحروب الصليبية للتحرر من الرق وفك رقابهم ، فانضموا للصليبيين بنشاط وحماسة .

(د) كثرة الحروب بين أمراء الاقطاع أنتجت فئة من الأبطال والشجعان الذين احترقوا بالحروب ، حتى أصبحت ضروب الشجاعة هوايتهم ، وقد دفعهم ذلك الى الرغبة في إشعال نار الحروب في أرض جديدة حتى يظهروا قوتهم ويصبحوا بذلك أبطالاً عالمين .

(هـ) تعطلت الزراعة أو ضعفت في أوروبا بسبب استهراق الحروب ، فتسبب عن هذا مجاعات طاحنة في أوروبا ، وقد دفعت هذه المجاعات الأوروبيين الى التفكير في الهجرة للشرق حيث الأمن والخصوبة والاستقرار .

(و) تسبب عن كثرة الحروب ظهور ألوان من الأوبئة بأوروبا نتيجة الجهد والجوع وأجسام الموتى التى قد يتأخر دفنها ، وكان ذلك من أسباب الميل للذهاب للشرق فرارا من هذه الأوبئة .

هـ — أسباب تتصل بالجبهة الاسلامية :

شجعت الجبهة الاسلامية المغامرة الأوروبية على هذه المجازفة الخطيرة ، وذلك للدواعى الآتية :

(أ) قبيل الحروب الصليبية كان العالم الاسلامى يعانى من الانحلال والضعف ، فدولة السلاجقة قد ذهبت شوكتها وانحلّت الى عدة دول بعد أن مات (ملكشاه) سنة ١٠٩٢ ، واقتسم أبناؤه الأربعة محمود وبركياروق وسنجر ومحمد مملكته بعد حروب طويلة استنزفت قوى السلاجقة ، فظهرت سلطنات الفرس ، وكرمان ، والعراق ، والشام مستقلا بعضها عن بعض ، كما أنكر حكام المدن والولايات المعروفون بالأتابكية سيادة حفدة سلجوق .

وكان سلاجقة الشام أكثر تنازعا ، فقد استولى عليها تنش بن ألب أرسلان ، ولكن ابنه رضوان ودقاق تنازعا السلطة بعد مقتل أبيهما ، وقد اتخذ رضوان (٤٨٨ — ٥٠٧) مدينة حلب عاصمة له ، واختار أخوه دقاق (٤٨٨ — ٥٤٩) دمشق عاصمة له ، ودارت رحى الحرب بين الأخوين منذ سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) وشغلت جزءا كبيرا من عهديهما (١) .

(ب) كانت الخلافة الفاطمية تترنح مما نالها من ضعف حوالى ذلك التاريخ ، فقد خالف الاضطراب الذى حدث فى عهد الحاكم بأمر الله كثيرا من البلاء والفوضى لم يصلحه عهد ابنه الظاهر الذى تولى الخلافة

(١) ابن الأثير : الكامل (حوادث سنة ٤٩٠) وانظر سحيو : تاريخ العرب العام ص ٢٥٥ ومعجم الانساب والاسرات الحاكمة لزامبور ص ٢٢٣ — ٢٣٥ .

وهو صبي ، ومات الظاهر فأكلت الخلافة الى ابنه الطفل « المستنصر » ،
ووضع زمام الأمر في يد أمه ويد الوزراء حتى شرب فتسلم مقاليد
الأمر ، ولكن كان عهده مليئا بالكوارث التي نشأت عن المجاعات والوباء
حتى أكل الناس الجيف ، وقد ظل المستنصر في الخلافة ٥٨ عاما
(١٠٣٦ — ١٠٩٤) ، ولما مات قبيل الزحف الصليبي كانت مصر ظاهرة
الضعف .

(ج) كانت بلاد الشام منطقة نزاع بين الفاطميين والسلاجقة منذ
وطئتها أقدام السلاجقة في عام ٤٦٣ هـ (١٠٧٠ م) ، وقد استطاع السلاجقة
انتزاع فلسطين من الفاطميين ، ثم استولوا على دمشق واستقر نفوذهم
في الشام في عهد تتش بن ألب أرسلان ، وبسطوا سيطرتهم على حلب
والرها والموصل ، غير أن الفاطميين تمكنوا بفضل أسطولهم القوي من
الاستيلاء على جميع مدن الساحل ومنها عسقلان وعكا وصور حتى جبيل
شمالا في عام ٤٨٢ هـ ، كما عادوا الى القدس سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٦ م)
وظلوا فيها الى أن سقطت في أيدي الصليبيين سنة ٤٩٢ هـ (١) ومعنى هذا أن
استيلاء المصريين على بيت المقدس كان قبل سقوطها في أيدي الصليبيين
بفترة قصيرة ، ولهذا لم يكن تحصينها قويا ولا الدفاع عنها راسخا مما
يسر سقوطها في أيدي الصليبيين الغزاة .

وتقول بعض المصادر أن الصليبيين حاولوا الاتصال بالفاطميين في
القاهرة للاتفاق معهم لعل ذلك ييسر حصول الصليبيين على بيت المقدس
وكان رد القاهرة حاسما ، هو السخرية من هذه المحاولة التي أرادت
استغلال الخلاف المذهبي ، وتقدم المصريون لأخذ القدس للدفاع عنها
بدل السلاجقة الذين كانوا قد أفل نجمهم .

وهكذا كانت بلاد الشام مسرحا للمنازعات بين السلاجقة والفاطميين ،

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٨ ص ١٨٩ .

وكان السلاجقة كما أشرنا على مذهب أهل السنة ، والفاطميون على مذهب الشيعة ، وكانت أجزاء الشام التابعة للسلاجقة موضع نزاع بين الأمراء من أولاد تتش كما سبق القول (١) .

(د) وبجانب السلاجقة الذين يسيطرون على الشمال والفاطميون الذين يسيطرون على الجنوب ، كانت البلاد السورية في الداخل مجزأة الى مقاطعات عليها عدة زعماء من العرب يتمتعون باستقلال محلي ، ولم يكن للشعب فيها صبغة واحدة تتسم بها عناصره المختلفة فهناك الدروز في جنوبي لبنان والنصيرية في جبالهم الشمالية ، وجيرانهم الاسماعيلية (الحشاشون فيما بعد) قد انقسموا فرقا ثلاثا تختلف كل واحدة منها عن الأخرى ، وتختلف جميعها عن مذهب أهل السنة ، أما الطوائف النصرانية بالشام فكان الانقسام بينها عظيما على نفس النوال الذي انقسمت له طوائف المسلمين بهذه المنطقة (٢) .

(هـ) كان سلطان المسلمين بالأندلس يميل الى الأقوال ، فقبيل بدء الحروب الصليبية كان عهد ملوك الطوائف (٤٢٢ — ٤٨٤ هـ) سائدا بالأندلس ، وهو عهد — كما وصفناه في الجزء الرابع من هذه الموسوعة — حافل بالانحلال والهزائم والخيانات ، ولم تتجدد إسعافات المرابطين والموحدين التي عبرت لانتقاذ الأندلس من زحف المسيحيين ، وكل ما استطاعت أن تفعله هذه الاسعافات أن أجّلت المصير المؤلم بضع سنوات ، وقد شجع هذا الوضع فرسان أوروبا الى الزحف على العالم الاسلامي ، إذ زال خطر المسلمين بأوروبا ، فأتجهت كل القوى المسيحية للعدوان على المسلمين في بلاد الاسلام .

(١) انظر سلاجقة ايران والعراق للدكتور عبد النعيم حسنين ص

١٠٥ — ١٠٦ .

(٢) Hitti : History of the Arabs p. 748 .

(و) كانت مواكب الحجاج المسيحيين تكفد من أوروبا إلى بيت المقدس مكوّنة شبه مظاهرة أو فيلق حربى ، فكان الحجاج عبارة عن فوج كبير من الناس يحمل بعضهم المشاعل ، ويلعب آخرون بالسيوف ، وحولهم الطبول والزمر ، ويحيط بهم حرس مدججون بالسلاح ، وعندما كان السلطان في يد العرب قبل العهد السلجوقى لم يكن هناك اعتراض على هذه المواكب ، فقد كان التسامح الدينى من أظهر صفات العرب فلما انتقل النفوذ على بيت المقدس إلى السلاجقة سنة ١٠٧٠ لم يستطع هؤلاء أن يتسامحوا مع هذه المواكب إلى هذا الحد ، وبخاصة أن هذه الجموع مارست فعلا أعمال استفزاز واعتداء ، ويذكر غوستاف لوبون أن رئيس أساقفة ماينس وأربعة أساقفة قادوا قافلة من سبعة آلاف حاج تشمل على بارونات وفرسان ، فحاربت هذه القافلة الأعراب والتركمان (١) ، ولهذا السبب منع السلاجقة السلاح والمشاعل والطبول والحرس المدجج بالسلاح ، وأعلنوا أنهم هم المسئولون عن سلامة الحجاج الأوربيين وأمنهم ، وقد أثار هذا التصرف ثائرة الغرب واعتُبرَ تضييقا على الحجاج ، ومقاومة للمشاعر الدينية ، وقضاء على تقاليد أصبحت لدى المسيحيين حقوقا لم يستطيعوا التنازل عنها .

(ز) وقد دفع التوتر رجال الدين بأوروبا أن يشجعوا بعض الشجعان والقساة ليصبحوا ركب الحجاج ليدافعوا عنه عند اللزوم ، ووجد رجال الدين في المجرمين والعصاة طلبتهم ، فأعلنوا أن الحج وحده هو الذى يكتفّر عن الكبائر والمنكرات ، وقد نتج عن ذلك أن وفد للأمثلة المقدسة عدد كبير من المجرمين المفسّورين على ارتكاب أخطر الجرائم ، وقابل المسلمون هذا التصرف بتشديد الرقابة ، فنتج عن ذلك مزيد من الحدة والتوتر بين الجانبين (٢) .

(١) حضارة العرب ص ٣٢٠ .

(٢) انظر حضارة العرب لغوستاف لوبون ص ٣٢١ .

(ح) مرت على المسيحيين في مضر فترة اضطهاد في بعض سني خلافة الحاكم بأمر الله ، وقد استغل الأوربيون هذه الحركة للدعاية ضد الاسلام ، وللعمل لانقاذ المسيحيين والأماكن المقدسة من اضطهاد الحكام المسلمين .

٦ — موقعة ملازكرد (مانزيكرت Manzikert) وما تسبب عنها :

في سنة ١٠٧١ حدثت موقعة ملازكرد بين المسلمين والبيزنطيين ، وكان ألب أرسلان قائدا لجيش المسلمين ، وكان الامبراطور رومانوس الرابع قائدا للبيزنطيين ، وتعتبر هذه الموقعة من المواقع الحاسمة في التاريخ ، فقد هزم البيزنطيون هزيمة ساحقة ، فقتل منهم عدد لا يحصى حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى كما يقول ابن الأثير (١) ، ووقع الامبراطور في الأسر ، ويروي ابن العبري أن ألب أرسلان عندما رأى الامبراطور الأسير ويخذه وقال له : ألم أرسلك في المهادنة فأبيت ؟

— فأجاب الامبراطور : دَعْنِي من التوبيخ وأفعل ما تشاء .

فقال السلطان : ماذا كنت تفعل لو أسرمتني ؟

فأجاب الامبراطور : القبيح .

قال السلطان : فما تظن أنني أفعل بك ؟

فأجاب الامبراطور : إما أن تقتلني ، وإما أن تشهر بي في بلادك ، والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال واصطناعي .

قال ألب أرسلان : ما عزمت على غير هذا (٢) .

أما صدى كارثة ملازكرد في القسطنطينية فكان أن أعلن ميخائيل

(١) الكامل في التاريخ : حوادث سنة ٤٦٣ .

(٢) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول : ص ١٨٥ .

السابع امبراطورا (١٠٧١ — ١٠٧٨) ، ولما أطلق سراح رومانوس الرابع تلقى الامبراطور الجديد القبض عليه واعتبره مفرطا في حقوق البلاد فحكم عليه بأن تسلم عيناه ويقتل .

وفي أواخر عهد بيثايل السابع شهدت بيزنطة ألوانا من الثورات الداخلية ، مما عرض البلاد الى اضطراب داخلي بالاضافة الى الهزائم الخارجية .

وكل هذا جعل الدولة البيزنطية غير قادرة على حماية المسيحية من ضغط المسلمين ، وغير قادرة على حراسة الباب الشرقي لأوروبا من الغزو الاسلامي ، وبذلك صار على الغرب الأوربي أن يقوم بدوره في حماية هذا الباب بدلا من اعتماده على الامبراطورية البيزنطية .

دعوة البابوية للحروب الصليبية

وفي سنة ١٠٨١ اعتلى الكسيوس كومنين الأول عرش الامبراطورية البيزنطية ، وقد شغل هذا العرش حتى سنة ١١١٨ ، وبذلك يكون هذا الامبراطور أهم انسان عاصر الفترة الخطيرة التي تشمل مطلع الحروب الصليبية ، وهو يعتبر أول من وضع الانجاشات السابقة موضع التنفيذ ، فقد أدرك أن لا قبل له لجيوشه بمواجهة المسلمين فأرسل استغاثة الى البابا .

استغاثة بيزنطة بالبابا :

وقد تلقى البابا جريجوري السابع هذه الاستغاثة ، فرأى فيها اعترافا ضمنيًا بسلطانه المسيحي العام ، وقد كان جريجوري السابع من أعظم البابوات وأكثرهم نشاطا ، وهو الذي جعل اختيار الباباوات يتم بطريق الكرادلة وكان الأباطرة قبل ذلك يعينون الباباوات ، وأراد جريجوري أن يتوج انتصاراته بأن يخضع لسلطانه الكنيسة الشرقية ، فأعلن أن الكنيسة الغربية ستقود المعركة ضد المسلمين ، انتصارا لبيزنطة

والمسيحيين على العموم ، ولكن جريجورى مات قبل أن ينفذ هذا الوعد ، فجاءت استغاثة جديدة من الامبراطور اليكسيوس الى البابا الجديد « أوربان الثانى » ، وسرعان ما تحرك هذا البابا للاستجابة لهذا النداء ، فقد ذهب الى فرنسا وعقد هناك اجتماعا فى كليرمونت فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٠٩٥ م وألقى خطابه الشهير الذى أعلن به بدء الحروب الصليبية ، وقد جاء فيه :

Let the truce of God be observed at Home, and let the arms of the Christians be directed to conquering the infidils.

« بأمر الله تتوقف العمليات الحربية بين المسيحيين فى أوروبا ، ويتجه هؤلاء بأسلحتهم الى هزيمة الكفرة (يقصد المسلمين) » .

وصاح البابا مخاطب الجماهير : لقد كنتم تحاولون من غير جدوى إثارة نيران الحروب والفتن فيما بينكم ، فالآن اذهبوا وأزعجوا البرابرة واخلصوا البلاد المقدسة من أيدي الكفار ، وامتلكوها لأنفسكم فانها كما تقول التوراة تفيض لبنا وعسلا .

وأعلن البابا أن كل من يشترك فى هذه الحروب تغفر له ذنوبه ويدخل فى حماية الكنيسة .

ولعل هذه الخطبة كانت أشد الخطب فى التاريخ وقعا وأبعدها أثرا ، هذا ولم يكن اختيار البابا جنوبى فرنسا مكانا لخطابه من قبيل المصادفة ، إذ كانت تلك البقعة من القارة الأوروبية قد اكتسحتها جموع المسلمين الزاحفة من أسبانيا ، ولذلك كان سكانها أشد استجابة لدعوة البابا لمحاربة المسلمين .

وما إن فرغ أوربان الثانى من خطابه حتى تقدم الألوف من سامعيه وحملوا الصليبان رمزا للاستجابة لحامل الصليب الأكبر وبهذا عرفت هذه الحروب بالحروب الصليبية .

ولم يكتف أوريان الثانى بما قاله فى كثير مونت وانما أخذ ينتقل بين المدن والبلدان داعيا للصروب الصليبية ، فغعد مجمعا فى ليموج (ديسمبر ١٠٩٥) لهذا الغرض ، وكرر الدعوة نفسها فى أنجرز ومان وتورز وبواتية وبوردو وتولوز وغيرها (يناير - يونية ١٠٩٦) ، وأخيرا اصطحب البابا معه الأمير ريموند الرابع إلى مجمع نيم (يولية ١٠٩٦) ، مما يثبت أن هذا الأمير قام مع البابا بدور جذرى فى الأعداد للحملة الصليبية الأولى ، وإن لم يعين رسميا قائدا لتلك الحملة (١) ، ثم إن ريموند هو الذى نبه البابا إلى ضرورة الاعتماد على مساندة قوة بحرية لتنفيذ مشروع الحرب الصليبية ، فأرسل أوريان الثانى بعثة إلى جنوة لتدفعها للمشاركة فى المشروع الصليبي الكبير . ولم يلبث تجار جنوة أن استجابوا لدعوة البابا ، فأعدوا اثنتى عشرة سفينة حربية لمساندة الحملة ، فضلا عن ناقله كبيرة ، وبذلك حققت جنوة لنفسها سيقا كبيرا مكنتها من اكتساب حقوق فى بلاد الشام ، وهى حقوق لم يستطيع للبيزانة أو البنادقة الظفر بها إلا بعد جهد طويل .

وأقبل الأمراء وكثير من الناس على المشاركة فى الحركة الجديدة ، ليس فقط من البلدان القربية ، مثل فرنسا وإيطاليا وأسبانيا ، بل أيضا من البلدان البعيدة مثل اسكتلندا والدانمرك وغيرها (٢) .

وكان ضمن الجموع التى استجابت لحمل الصليب عدد وافر من أرباب الخيال البعيدة ، والنفوس المضطربة ، وعشاق المغامرات ، فهؤلاء كانوا على قدم الاستعداد دائما للانضمام الى كل حركة بارزة ، وكذلك المجرمون وأصحاب الخطايا الذين أمطوا الغفران بالحج إلى الأرض المقدسة التى لمستها قدما المسيح ، ومثلهم من مثنوا بالشفاء الاقتصادى

(١) Cambridge Mid History vol 5. p. 273.

(٢) انظر الحركة الصليبية للدكتور سعيد عاشور ج ١ ص ١٢٥ .

والاجتماعى ، فكان حمل الصليب راحة وتفريجا لهمومهم أكثر منه
تضحية (١) .

وقد أناب أوربان عنه في قيادة المتطوعين أحد الأساقفة واسمه ادھمار
Adhamer ليكون للكنيسة السيطرة على الحركة الصليبية ، وحدد أوربان
يوم ١٥ أغسطس سنة ١٠٩٦ بدءا لتحرك قوات الصليبيين ، كما حدد
القسطنطينية مكانا لالتقاء الجيوش الأوربية الزاحفة الى الشرق ، وبعد
أن أتم أوربان هذا التنظيم غادر فرنسا عائدا الى ايطاليا في أواخر
سنة ١٠٩٦ .

ومن الملاحظ أن فرنسا كانت الأرض التى شهدت أول صيحة تعلن
الحروب الصليبية ، ولهذا ، ولأن البابا الذى أعلنها ينحدر من أصل
فرنسى ، فإن الحروب الصليبية تعتبر مشروعا فرنسيا ونشاطا حربيا
فرنسيا ، وكانت الانتصارات التى حققها هذا النشاط انتصارات لها
الطابع الفرنسى ، فالامارات التى انشئت فى الشرق عقب نجاح هذه
الحروب كانت امارات فرنسية اللسان والعادات والمظاهر ، وكما يقول
الأوربيون انها كانت امارات فرنسية الحسنات والسيئات ، ولعل فرنسا
كانت أقدر من سواها على تغذية هذه الحروب بالقلادة والأبطال والأمراء
والحاربين وما تتطلبه هذه الحروب من أعباء .

ويرى Barker (٢) أن انتداب فرنسا على سوريا بعد هزيمة تركيا
فى الحرب العظمى الأولى يعد أثرا من آثار الحروب الصليبية .

الجهاد الاسلامى يواجه الحروب الصليبية :

ويجدر بنا أن نذكر أننا سنستعمل هذا التعبير « الحروب الصليبية »
عندما يمتحن المسيحيون حربا على المسلمين ، أما الحروب المضادة التى يشنها

August Kréy : The First crusade pp. 24-25. (١)

The Legacy of Islam p. 14. (٢)

المسلمون ضد المسيحيين فسنطلق عليها التعبير العربي الاسلامى « الجهاد » وعلى هذا فان الحروب الصليبية السبعة التى سنذكرها هنا كانت حملات مسيحية ناجحة أو فاشلة ضد المسلمين ، أما حملات المسلمين المتكررة التى انتهت بالقضاء على الصليبيين فلا تُعد من الحروب الصليبية فى الاصطلاح الذى اتبعه أكثر الباحثين وجريئنا عليه فى هذه الدراسة ، على أن الحملات المسيحية كانت فى الواقع أكثر من سبع حملات ، بل أن حملات الصليبيين على الوطن العربى لم تنقطع تقريبا طيلة هذين القرنين ، ولم ينقطع الجهاد كذلك الا ليهب من جديد ، ويبدو أن السر فى تمييز الحملات السبع بالذكر يرجع الى ما حصلت عليه من شهرة ؛ بسبب ما حققته من نجاح فى الأراضى المقدسة كالحملة الأولى ، أو لخروجها تحت زعامة ملوك الغرب كالحرب الثانية والثالثة والسادسة والسابعة ، أو لاتجاهها لاتجاها غير مألوف كالحرب الرابعة التى اتجهت الى القسطنطينية ، أو الخامسة التى اتجهت الى مصر ، ومن العجيب أن تسمى الحرب الرابعة حربا صليبية مع أن الصليب كان فيها يحارب الصليب .

أما الجهاد فلم يحفل المسلمون باخضاعه الى عدَدٍ أيا كان الملك أو الزعيم الذى قاده ، إذ اعتُبر المفكرون المسلمون جميع الملوك والمجاهدين وحدة متكاملة ، وتنافسوا أشخاص هؤلاء ولم يذكروهم الا فى سياق التاريخ ، دون أن يجعلوا كلامهم وحدة قائمة بذاتها كما يفعل المؤرخون الغربيون ، وكان ذلك الاتجاه هو أيضا اتجاه الملوك والسلاطين أنفسهم واتجاه الشعب الاسلامى أيضا ، إذ اعتبروا الجهاد سلسلة متصلة الحلقات يحمل كل من المسلمين عباءة فيها ، ويترك ما تبقى منها ليحمله الجيل الذى يليه .

مطلع الزحف الصليبي

بدأت حملات الحروب الصليبية بقوى شعبية هيجها بطرس الناسك وأمثاله من الدعاة المسيحيين الذين أخذوا يطوفون بأوروبا ويخطبون الناس ويدعونهم لإنقاذ الأماكن المقدسة من أيدي المسلمين ، وكان بطرس الناسك أشد هؤلاء حماسة ونشاطا ، وهو جندي قديم قد ترهب وأصبح مجذوبا شديدا للتعصب (١) ، ويقول عنه Wells (٢) انه طراز من الرجال جديد في أوروبا وإن كان يذكرنا بعض الشيء بالأنبياء العبرانيين ، قام هذا الرجل يبشر بالحروب الصليبية لعامة الناس ، وكان يقص عليهم إن صدقا وإن كذبا ، قصة حجه الى بيت المقدس ، ويحدثهم عن التدمير المنطوي على الاستهانة البالغة الذي أنزله الأتراك السلجوقيون بالقبر المقدس ، ويحدثهم عن ضروب الغصب والابتزاز الجائر والفظائع الوحشية والقساوات المتعددة التي ينزلونها بالحجاج المسيحيين الوافدين الى الأماكن المقدسة ، وطوف هذا الرجل حافي القدمين وفي ثياب خشنة وممتلئا حمرا وحاملا صليبا مسخما ، بأنحاء فرنسا وألمانيا وهو يخطب في كل مكان به جماهير حاشدة ، في كنيسة ، أو شارع ، أو سوق .

وقد استجاب لبطرس الناسك وأمثاله من الدعاة آلاف الناس وتكون من هذه الآلاف خمسة فيالق يطلق عليها في التاريخ «الحملة الصليبية الشعبية» ، وقد سارت هذه الفيالق متجهة الى القسطنطينية ، وكان من مميزاتها أنها جموع شعبية تحركها فكرة دينية ، ولكن ليست لها قيادة عسكرية تجيد فنون الحرب ، ولا قيادة إدارية مسهوعة الكلمة ، وقد لقيت هذه العصابات الزاحفة الى الشرق كل إكرام في البلدان الأوربية التي كانت تمر بها في بدء الأمر ، ولكن لم يكد الفيلقان اللذان

(١) غوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٣٠١ .

(٢) A Short History of the Middle East p. 71 .

كاننا في المقدمة يصلان الى بلغاريا حتى التقيا بأناس أقل تعصباً فأبوا أن يضيّقوهم مجاناً ، وساء هذا الرفض الصليبيين ، ولم يحجموا عن اغتصاب ما مئموه ، وعن نهب قرى تلك البلاد وذبح أهلها ، ولم يصبر الأهليون على ذلك ، فأخذوا ينتقمون لأنفسهم ويقتلون فريقاً كبيراً من الصليبيين أو يغرقونه حتى قضوا على الفيلقين (١) ، وجاء فيلق ثالث ابتدأ عمله بمذبحة أعمالها في يهود أرض الراين - ذلك أن الدم المسيحي كان ثائراً ، وكان يريد العدوان على كل من يتبع ديناً آخر وبخاصة اليهود الذين كانوا أول من حاول القضاء على المسيحية وهي في أول عهدها ، ثم تمزق ذلك الجمع أيضاً في هنغاريا ، واخترق الفيلقان الأخيران أوروبا بقيادة بطرس ووصلتا الى القسطنطينية ، وكم كانت دهشة الامبراطور اليكسيوس وجزعه بالغين ، ذلك أنهم دأبوا على طول الطريق ينيهون وينتهكون الحرمات ، فحملهم الإمبراطور آخر الأمر عبر البسفور الى أرض السلاجقة بآسيا الصغرى ، وهناك أفتاهم السلاجقة عن آخرهم ، ولم يكن لهم أى أثر اللهم إلا تقوية حماسة الأوربيين وسخطهم على المسلمين •

والآن نمشي مع الحروب الصليبية السبعة الشهيرة ، خطوة خطوة ، مع ما تخلّطها من جهاد قام به المسلمون ، يردون العدوان عن أنفسهم وعن ديارهم :

(١) غوستاف لويون : حضارة العرب ص ٢٢٢ •

الحرب الصليبية الأولى

(١٠٩٧ — ١٠٩٩)

الحروب الحقيقية التي تمثل الزحف الصليبي الأول ، كانت بقيادة الأمراء ، وكان هذا الزحف يتكون من ثلاثة فيالق كبيرة تضم نحو مائة وخمسين ألفاً يقودهم الأمراء : جودفري وبوهيموند وريموند ، وسارت هذه الفيالق تجاه القسطنطينية فوصلتها في نهاية سنة ١٠٩٦ ومطلع العام التالي ، وكان الفيالق الذي يقوده جودفري ومعه أخوه بولدوين أسبق الحملات في الوصول إلى القسطنطينية ، ولقد تردد هذا القائد من بادئ الأمر في أن يقسم يمين الولاء لأمبراطور القسطنطينية ، لأنه تابع للامبراطورية الغربية وهو في الوقت نفسه أمير كاثوليكي جساء على رأس حملة دعا لها البابا الكنيسة الكاثوليكية ، فهو لا يستطيع أن يكون تابعاً للامبراطور البيزنطي راعي الكنيسة الأرثوذكسية وكان هذا الموقف من جودفري سبباً في تلزم العلاقة بينه وبين الامبراطور لدرجة أدت إلى حدوث نوع من الصدام المسلح بين القوتين ، أدرك جودفري بعدده أن لا طاقة له بحرب الامبراطور فقدم الولاء الذي طُلب منه .

أما الفيالق الثاني فكان بقيادة بوهيموند النورماندي ، وسرعان ما قدم هذا القائد ولاءه للامبراطور وأعلن تبعيته له ، وجاء بعده الفيالق الثالث وأحد من إلهيم برومانس بقيادة ريموند ومعه الأسقف أدهمار مندوب البابا ، وقد تردد ريموند طويلاً من أن يقسم يمين الولاء للامبراطور ، وقال أن ولاءه للسيد المسيح فقط ، ولكن وساطة مندوب البابا حسنت العلاقة بين الأمير والامبراطور ، واكتفى الامبراطور بأن يقسم ريموند على احترام حياة الامبراطور وشرفه (١) ، وتعهده

الجميع أن يردوا أملاك الامبراطورية إليها عقب استردادها من المسلمين ،
وباركهم الامبراطور وسلمهم علم القديس بطرس ، وقدم لهم المأون
والذخيرة ، وأمدهم بفرق من جيشه للارشاد والمساعدة .

سير فتنة ونتائجها :

في مطلع عام ١٠٩٧ عبر الصليبيون مضيق البوسفور كالسيل العرم ،
ونزلوا آسيا الصغرى وهى آنذاك إمارة كلج أرسلان ، وأول عمل حربى
قاموا به كان حصار نيقية ، وقد سقطت المدينة فى أيديهم فى ١٨ يونيو
١٠٩٧. بعد حصار شهر ، واستردت بيزنطة بذلك ما فقدته فى شمال
الأناضول ، وتقدم الصليبيون بعد ذلك حيث دارت معركة حربية عند
ضوريوم الى الجنوب الشرقى من نيقية فى نهاية هذا العام ، وقد
انقصر فيها الصليبيون انتصارا حاسما استطاعوا بعده أن يتقدموا فى عدة
اتجاهات دون مقاومة تذكر ؛ فاستولوا على جنوب الأناضول وعلى
منطقة طوروس .

الأرمن يساعدون الصليبيين :

ثم اتجه بلدوين الى الرها : وكان سكانها من الأرمن المسيحيين
وقد استجدوا بالصليبيين وتعاونوا معهم ، وتبنى ملكهم « توروس »
بلدوين ليصبح وريثا له بعد وفاته ، وهذا سهل لبلدوين أن يستولى
على الرها سنة ١٠٩٨ ، واستولى فليق آخر بقيادة بوهيمند على
أنطاكية فى الثالث من يونيو سنة ١٠٩٨ بعد حصار استمر تسعة
شهور (١) .

بوهيمند يتنرد على الامبراطور :

وفى أثناء هذا الحصار الذى قاسى الصليبيون فيه أهوالا وشدائد

(١) ابن الاثير : حوادث سنة ٤٩١ ، وابن خلدون : العبر ج ٥

رهيبية ، تحول بوهيموند من ولائه للإمبراطور الى اتجاها لخدمة أهدافه الخاصة ، فقد أبدى في الحصار ضروبا من الشجاعة جعلت المحاصرين يدركون أهميته لهذه الأعمال الحربية ، بيد أنه فجأة أعلن رغبته في الانسحاب والعودة الى ايطاليا معللاً ذلك بأنه لم يكن يتوقع كل هذا العناء ، ولا يستطيع أن يصبر على رؤية رجاله وفرسانه وخيوله تتساقط صرعى من الجوع أمام أسوار أنطاكية ، وقد هزّ هذا التهديد جموع الصليبيين فتوسلوا له أن يبقى معهم ، ووعدوه بأن يسلموه الولاية عقب سقوطها ، وسار بوهيموند مزيداً من الخطأ في هذا الشوط فاتهم القائد البيزنطي الذي كان معهم في الحصار بأنه يتآمر مع المسلمين سراً ضد الصليبيين ، وخلا بذلك الجو لبوهيموند وأسفر العداء بين الصليبيين وإمبراطورية بيزنطة (١) .

وعقب سقوط أنطاكية استولى بوهيموند على أكثر قطاعاتها واحتل ريموند القطاع الجنوبي الغربي ، ولم يقبل أن يسلمه الى بوهيموند طمعاً في أن تكون أنطاكية إمارة له ، ولم تشكل هذه الأزمة إلا عندما بدأ الزحف نحو بيت المقدس وترعمه ريموند ، وقنع بوهيموند بالبقاء في أنطاكية ، وأخذ ريموند يتطلع الى إمارة أوسع في الأماكن المقدسة (٢) .

والموارنة يساعدون الصليبيين :

وتحركت جموع الصليبيين بعد أنطاكية تجاه بيت المقدس وفي الطريق اتصل الصليبيون بالموارنة ، وهم قوم أشداء ، ومقاتلون بواسل ، فأسدى هؤلاء اليهم خدمات جليلة لعرفتهم تلك المنطقة فكانوا الأدلاء

(١) انظر الحركة الصليبية للدكتور سعيد عاشور ج ١ ص ١٩٥ -

١٩٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٤ .

لهم (١) ، أما أمراء طرابلس وبيروت فقد خانوا بلادهم وقدموا للجيش الزاحف المؤمن والهدايا لينالوا السلامة لهم ولذويهم (٢) .

القدس تقاوم ثم تسقط :

وقد قاومت المدينة المقدسة — وقد كانت آنذاك في أيدي المصريين كما ذكرنا من قبل — مقاومة دامت حوالى أربعين يوما ، حققت خلالها ألوانا من الانتصارات على الصليبيين ، حتى أن الصليبيين اعترفوا بأن ضحاياهم خلال فترة الحصار كانوا أكثر من ضحايا المسلمين ، ثم سقطت بيت المقدس في يد المهاجمين في ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ .

المجازر والتفكيك :

بعد سقوط بيت المقدس حدثت مجزرة أليلة وحشية ، ذبح فيها الرجال والنساء والأطفال من المسلمين واليهود والمسيحيين الذين لم ينضموا للصليبيين ، ويصف غوستاف لوبون (٣) هذه المجزرة بقوله : لقد أفرط قومنا في سفك الدماء وبخاسة في هيك سليمان حيث لجأ كثير من المسلمين والنصارى واليهود ، وكانت جثث القرى تسبح في محيط من الدماء ، ولم يكتف قومنا الصليبيون الأتقياء بضروب العسف والتدمير والتفكيك حتى اتبعوها ، بل عقدوا مؤتمرا أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود وخوارج النصارى الذين كان عددهم ٦٠ ألفا ، فأغنوهم عن آخرهم في ثمانية أيام ولم يستثنوا منهم امرأة ولا طفلا ولا شيخا .

ويقول ابن خلدون (٤) : استباح الفرنجة بيت المقدس وأقاموا في

William of Tyre vol. 2 p. 429. (١)

Ibid. p. 331. (٢)

(٣) حضارة العرب ص ٢٨٧ .

(٤) العبر : ج ٥ ص ١٨٤ .

المدينة أسبوعاً ينهبون ويدمرون وأحصى القتلى بالمساجد فقط من الأئمة والعلماء والعباد والزهاد المجاورين فكانوا سبعين ألفاً أو يزيدون

ويقول : Wells (١) حدثت ببيت المقدس مذبحه رهبة ، وكان دم المتهورين يجرى فى الشوارع ، حتى لقد كان الفرسان يصيبهم رشاش الدم وهم راكبون ، وعندما أرخى الليل سدوله جاء الصليبيون وهم يكون من فرط الفرع ، وخاضوا الدماء التى كانت تسيل كالخمر فى معصرة العنب ، واتجهوا الى النافوس ورفعوا أيديهم المخرجة بالدماء يصلون لله شكراً .

ويقول الأستاذ نقولا زيادة : والحملة الصليبية الأولى ، والفظائع التى ارتكبتها فى طريقها وفى احتلال القدس ليست مما يشرف ، وقد تظهر لنا اتجاهات الصليبيين من خلال تصرفهم السيئ مع مسيحيي فلسطين أنفسهم ، فقد استولوا على أديرتهم وطردوهم من الكنائس والبيوت ، قتلهم المسيحيون فى جهات فلسطين وشرق الأردن ، وسار البطريرك الى القاهرة ليعيش فى حماية الفاطميين .

وبجوار انقتل مائة الصليبيون بعمليات سلب ونهب كثيرة شملت ما بالبيوت من ذهب أو فضة أو متاع أو حيوان كما أخذوا قناديل الذهب من المسجد وكانت مائة وخمسين قنديلاً ، وغنموا من المساجد ما لا يقع عليه الإحصاء (٢) .

ولم يسلم الصليبيون المنتصرون لامبراطور القسطنطينية كل

(١) W. Sh. History of the Middle East p. 74.

(٢) الكامل فى التاريخ ٨٠٨ م ١٨٦ .

ما تغلبوا عليه واعدثوا العهد الذي قطعوه على أنفسهم خاصاً بآسيا
الصغرى فقط ، فسلموه ما اقتحموه من بلاد الأناضول ، واستقلوا بما
سوى ذلك فكونوا في الشرق الامارات الآتية :

١ — إمارة الرءما سنة ١٠٩٨ ويحكمها بلدوين .

٢ — إمارة أنطاكية سنة ١٠٩٨ ويحكمها بوهيموند .

٣ — مملكة بيت المقدس سنة ١٠٩٩ وقد اختير جودفرى حاكماً
لها ، ويلاحظ أن حلم ريموند لم يتحقق فلم يقع عليه الاختيار ليكون
حاكماً لبيت المقدس ، على الرغم مما كان يتمتع به من مزايا ، إذ اهتم
ريموند بالإفراط في التودد لامبراطور بيزنطية ، واختير جودفرى حاكماً
لبيت المقدس في يوليو سنة ١٠٩٩ ، وقد رفض أن يتخذ لقب « ملك »
وأن يضع تاجاً على رأسه من ذهب حيث حمل السيد المسيح تاجاً من
الشوك ، واختار أن يلقب « حامى القبر المقدس » (١) ، وعيّن لبيت
المقدس بطريك كاثوليكي ، وسرعان ما توفي جودفرى ، فاختر أخوه
بلدوين حاكماً لبيت المقدس بلقب « ملك » سنة ١١٠٠ ، ولم ينافسه
أحد في ذلك لأن بوهيموند كان في هذه الأثناء أسيراً في يد الملك
الغازي كمشكين التركمانى (٢) .

وقد اعتبر انتصار المسيحيين في معركة بيت المقدس واستيلاؤهم
على الأماكن المقدسة نجاحاً للحروب الصليبية ، إذ أنها حققت أهم
أهدافها .

(١) Agiles p. 654. نقلا عن تاريخ سوريا للدكتور فيليب حتى ج ٢

ص ٢٢٩ .

(٢) ابن القلائس ص ١٣٨ .

(م ٤٧ — موسوعة التاريخ ج ٥

٤ — امارة طرابلس سنة ١١٠٩ :

لم تتوقف حروب الصليبيين بالشام بعد سقوط بيت المقدس ، فقد عهد ملك القدس الى ريموند سنة ١١٠١ أن يفتح طرابلس الشام لتكون إمارة له وهي تقع بين امارة أنطاكية ومملكة بيت المقدس ، وقد قاومت المدينة حصار الصليبيين ثمانى سنوات ولم تسقط إلا سنة ١١٠٩ ، وكان ريموند قد توفي سنة ١١٠٥ وهو يحاصر المدينة ، وقد قاد الحصار بعده وليم جوردان ، فلما مات هذا سنة ١١٠٨ قاد الحصار برتراند وفي عهده سقطت طرابلس •

ومما يذكر أن الذي حدث في بيت المقدس حدث مثله في طرابلس ، فقد كانت طرابلس آنذاك خاضعة لبقايا السلاجقة ، فلما أحس سكانها بضعف حكامها عن مواجهة الصليبيين اتصلوا بالأفضل بن بدر الجمالي بمصر ليضم طرابلس الى سلطانه ، واستجاب الأفضل وأرسل جيشا كبيرا استولى على طرابلس ، بيد أن الصليبيين شددوا من حصارهم على المدينة ، وسار أسطول مصرى لحج ليقاوم هذا الحصار ، ولكن — للأسف — قاومت الرياح هذا الأسطول فتأخر وصوله وسقطت المدينة (١) •

وقبل طرابلس كان الصليبيون قد استطاعوا الاستيلاء على عكا سنة ١١٠٤ ثم صور سنة ١١٢٤ (٢) •

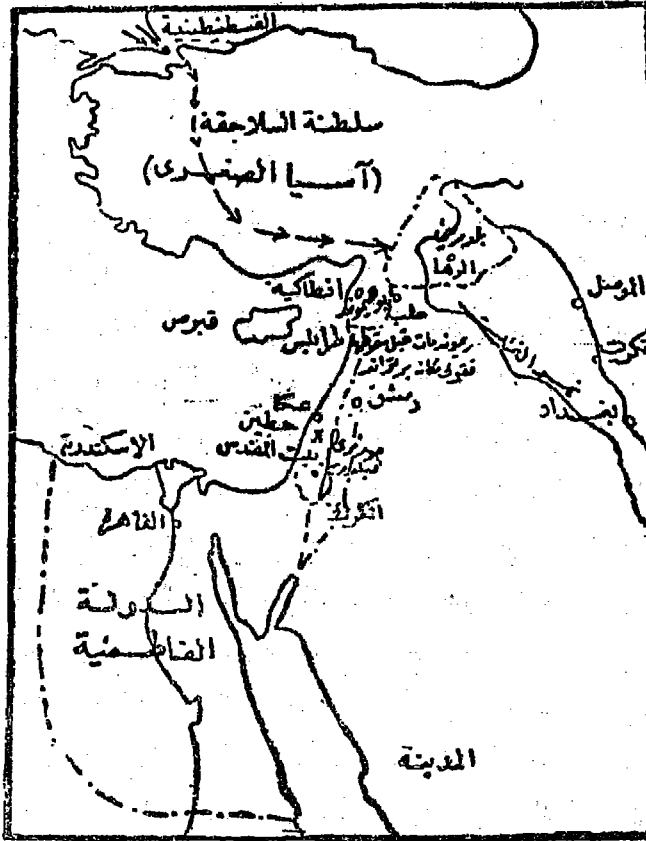
الصراع حول صور وتعاون المسلمين :

واتجه الصليبيون لحصار صور ، وحول صور ظهر تعاون المسلمين على الرغم من الخلافات التي كانت موجودة ، فقد تعاون طغتكين صاحب دمشق الذي كانت تتبعه صور مع الأفضل بن بدر الجمالي صاحب النفوذ في مصر

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ٨ : ٢٥٩ •

(٢) ابن خلدون : البرج ٥ ص ١٩١ — ١٩٢ •

آنذاك لرد الصليبيين عن « صور » مما جعلها تصمد وقتنا طويلا أمام الزحف الصليبي ، ويعبر طغتكين عن سبب تعاونه مع مصر بقوله : إنما فطعت ما فعلت لله تعالى وللمسلمين غير ناظر في مال ولا مملكة (١) .



وكانت هذه الفتوح أهم نتائج الحروب الصليبية الأولى وقد تحققت مع هذه الفتوحات نتائج أخرى ، مثل نشأة الجمعيات العسكرية ، وتأسيس أهل البندقية وجنوة للمراكز التجارية في موانئ سورية ، ونمو

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨١ .

العلاقات التجارية ببقية أجزاء آسيا ، والاتصال بها لأعمال التبشير الدينى (١) •

عوامل ضعف صليبي عقب انتصار الصليبيين :

وما إن تأسست هذه الامارات حتى أسرع الأمراء الى التخلص من الجنود الذين جاءوا لهدف الحرب الدينية ، فقد اعتقد الأمراء أن هذه المهمة قد انتهت ، وأسرعوا متجهين لتكوين اقطاعات استغلالية لهم ، وهكذا تركت هذه الامارات في أيدي الأمراء الذين اتخذوا الدين وسيلة لتحقيق الأطماع الدنيوية ، وكانت الأرض الزراعية التى قامت بها الإمارات خصبة للغاية ، ولكن اليد العاملة أصبحت قليلة بعد أن عاد المحاربون ، وقتل السكان الأصليون أو هربوا ، وهرء الأمراء بفترة يأس عندهما وجدوا إمارات لا وسائل لاستغلالها ، فاتخذوا طريقين لجلب العمال الزراعيين ، يتمثل أحدهما فى السماح لمن بقوا أحياء من السكان الأصليين بالعودة لديارهم وبالتسامح الدينى معهم ، وتشجيعهم على العمل ، أما الطريق الثانى فكان بالتآمر مع بحارة البندقية وجنوة بأن يجلبوا لهم من أوروبا وفودا كبيرة باسم الحج ويغروهم برخص التكاليف ويسير الرحلة وجمالها ، واتخذت مع هؤلاء وسائل كثيرة لئبقائهم أو لإبقاء أكثرهم فى الامارات المفتوحة ، وعلى كل حال فقد أخذ الطابع الدينى الذى قامت عليه هذه الامارات ينهار وبرز الطابع الدنيوى ، مما كان له أعظم الأثر فى فشل الحروب الصليبية ، ومن جهة أخرى فقد أصبح واضحاً أن هذه الامارات لم تكن بها وسائل كافية للدفاع عن نفسها ضد أية هجمات يقوم بها المسلمون (٢) •

(١) Barker : The Legacy of Islam p. 82.

(٢) Emerton : Mediaeval Europe pp. 368-309.

بين الحملة الصليبية الأولى والثانية

(الجهاد بقيادة عماد الدين زنكى)

تغيرات في المعسكر الصليبي :

جدعت ظروف خطيرة في الفترة التي وقعت بين الحرب الصليبية الأولى والحرب الثانية ، وكان لهذه الظروف أثر كبير في قيام الحرب الثانية وفي نتائجها ، فمن جهة الجبهة المسيحية ضعفت جبهة الدفاع بعودة رجال الحروب كما ذكرنا آنفاً ، ثم حلّ الشقاق محلّ الوفاق بين الجبهات المسيحية ، فامبراطور القسطنطينية لم يكن يتوقع أن الصليبيين قدموا لينتشئوا لأنفسهم إمارات وممالك مستقلة بسوريا ، وقد بدأ الخلاف عقب إنشاء إمارة أنطاكية سنة ١٠٩٨ . فإن الكيسوس أعلن تبعية هذه المنطقة لإمبراطوريته وأيده ريموند في ذلك ، ولكن بوهيموند تمسك بإمارته واستقلالها *

وقد أراد امبراطور القسطنطينية أن يضيق على بوهيموند فلا يدع له فرصة للتوسع فساعد هذا الامبراطور رينرد على أن يفتح طرابلس لتكون إمارة له وبذلك يقف في طريق توسع بوهيموند *

وساعت كذلك العلاقات بين هذه الامارات بعضها والبعض الآخر ، فقد كان بوهيموند وهو أبرز العباقره الذين قادوا الصليبيين في حروبهم الأولى يطمح أن تكون أنطاكية عاصمة للمملكة وأن يمتد سلطانه الى بيت المقدس ، ولكن جودفرى قفز لمركز السيادة ببيت المقدس ، فأثار حقد بوهيموند والنورمانديين على العموم ، وزاد من هذا الحقد أن نفوذ مملكة بيت المقدس أخذ يزداد وينتشر في كل الامارات . حتى في أنطاكية نفسها *

وهكذا كانت الجبهة المسيحية تضعف بسبب ضعف التعاون بينها ،
وبسبب الحقد بين الإمارات الصليبية من جهة وإمبراطور القسطنطينية
من جهة أخرى ، وبسبب التنافس بين الإمارات الصليبية بعضها والبعض
الآخر .

وتغيرات في الجبهة الإسلامية :

وبينما كانت الجبهة المسيحية تضعف ، كانت الجبهة الإسلامية تشتد
وتقوى حول الصليبيين فقد أفاق المسلمون من هول الضربة ، وأحسوا
بالنكبة الخطيرة ، فهبوا من سباتهم ينفضون الغبار ويعملون لاستعادة
ما فقدوه ، وقد رأوا تحالف المسيحيين على اختلاف بلادهم ولغاتهم
وأصولهم فاجتمعوا هم كذلك حول قائد واحد وشعار واحد سواء
في ذلك العرب والتركمان والأكراد والدروز... ولم يشذ منهم إلا بعض
إسماعيلية الساحل الذين كانوا يعملون لتكوين دولة خاصة بهم (١) .

جهود علماء المسلمين :

وقام العلماء بدور كبير لتجميع كلمة المسلمين ، فقد سارت وفود
منهم إلى الخليفة العباسي ببغداد تطلب منه التدخل لصد المسيحيين ،
وعلى الرغم من الصراع بين الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية فإن
الخليفة العباسي تناسى ذلك الخلاف الداخلي وكلف أمير الموصل بحمل
هذه الأمانة باسم الخلافة العباسية واسم المسلمين ، وسار العلماء كذلك
يندبون السلاطين والرؤساء والمسلمين لإنقاذ الأرض المقدسة فاستجاب
الجميع لهم ، وسرعان ما وجد الصليبيون أنفسهم أمام قوة إسلامية
كبيرة لم يحسبوا حسابها عندما اندفعوا نحو الأرض المقدسة .

(١) محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٣٠١ .

مصر تستعيد الرملة :

وبهذا تعرضت المنطقة المسيحية الى هجوم من الجنوب قامت به مصر فاستولت على الرملة سنة ١١٠٢ بعد موقعة انتصر فيها المسلمون وقتل من الصليبيين مقتلة عظيمة (١) .

وعاماد الدين زنكى يسقط اماره الرها :

كما تعرض المسيحيون الى هجوم من الشمال أكثر قوة قامت به دول الأتابك التي تكونت في آسيا الغربية على أنقاض السلاجقة ، وكان من أهم الدول أتابكية الموصل التي آل حكمها سنة ١١٢٧ ، لعماد الدين زنكى ، وعلى يد هذا البطل الشهير حلّ الجزر محل المدّ في الحروب الصليبية ، فقد أخذ يغير على إمارة الرها ، ويستعيد البلدة تلو البلدة حتى استطاع أن يسقط الإمارة كلها سنة ١١٤٤ (٢) ، وقد اغتيل عماد الدين زنكى سنة ١١٤٦ فتولى ابنه نور الدين مكانه ، واتخذ حلب عاصمة له (٣) .

غارات مصرية خطيرة على الصليبيين :

وحدثت مصر دورها في بعث القلق والاضطراب في جموع الصليبيين في هذه الفترة ، وقد شهد عهد الصالح طلائع بن رزيق وزير الفاطميين غارات كثيفة على أمكنة متعددة وبلاد كثيرة كان الصليبيون قد احتلوها ، ففي سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥ م) فتك جيش مصر بحامية صور ، واستولى على سفن الصليبيين في الميناء بما بها من رجال وعتاد ، ودخل الجيش المصرى (صور) عقب ذلك ، فحرق مؤسسات الصليبيين بها ،

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٩٦ .

(٢) عماد الدين الاصفهاني : تاريخ آل سلجوق ص ١٨٦ .

(٣) المرجع السابق ص ١٩٠ .

وخرَّب كل ما بنوه ، وبقي الجيش المصرى فيها ثلاثة أيام ثم خرج قبل أن تأتى نجدة صليبية لمباريته •

وفى أثناء عودة الجيش المصرى قابل بعض سفن الحجاج الصليبيين فهاجمها وقتل منهم وأسرى •

وفى سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) هاجم الجيش المصرى غزة وعسقلان وحقق انتصارات كبيرة •

وأرسل طلائع بن رزيك حملات بحرية الى بيروت فقتلت وأسرت واستولت على مجموعة من الغنائم •

وهاجم الأسطول المصرى مدينة عسكا ، وأسرى من حاميتها أكثر من سبعمائة شخص •

أبو الفسارات :

وهكذا لم تتوقف هجمات مصر على المرافئ والبلدان المختلفة فى البر والبحر طيلة عهد الصالح طلائع بن رزيك مما أضفى عليه لقب (أبو الغارات) وقد كان موقف طلائع شديد الخطورة على الصليبيين فقد جعلهم فى حرب دائمة لا يحسون بالأمن ، ولا ينعمون بالاستقرار •

الحرب الصليبية الثانية

بقيادة ملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا

(١١٤٧ - ١١٤٩ م)

الدوافع لهذه الحملة :

كان سقوط الرها في أيدي المسلمين ، وما تبسّع ذلك من إحساس الإمارات الغربية بضعفها أمام قوى المسلمين التي أخذت في النهوض ، سبباً دعا إلى الحرب الصليبية الثانية ، فقد أحس الصليبيون أن بقاءهم بالشرق رهن بالعون الذي يصلهم من الغرب ، فتوالت أصوات الاستغاثة إلى البابا وإلى ملوك الغرب ، واختار البابا أوجانيوس الثالث داعية يتحدث باسمه ويثير الرأي العام الأوربي لمساعدة الصليبيين بالشرق ، وهذا الداعية هو القديس برنارد ، وقد استطاع هذا القديس أن يؤثر على لويس السابع ملك فرنسا ، وكنراد الثاني إمبراطور ألمانيا لقيادة حملة جديدة لإنقاذ الإمارات المسيحية بسوريا .

فشل الملكين وتدمير جيوشهما :

وبدأ الزحف في صيف سنة ١١٤٧ ، وكان الألمان أسبق من الفرنسيين في التحرك تجاه الشرق ، فعبروا نهر الدانوب إلى القسطنطينية ، وهناك قابلوا الإمبراطور ما نويل الذي كان شديد الحرص على سرعة التخلص منهم من غير تفكير في الطريق الذي يحقق الهدف الذي جاءوا من أجله ، وما إن وصل الألمان إلى آسيا الصغرى حتى قابلهم المسلمون فقتلوا على الأغلبية العظمى منهم ، وجاء الفرنسيون بعدهم إلى القسطنطينية فدفعهم الإمبراطور إلى آسيا الصغرى كذلك ليلقوا نصيبهم ، وفنى أكثر الجيشين قبل أن يصلا إلى سوريا ، أفناهم المسلمون في آسيا الصغرى أو قتلهم الجوع والمرض اللذان فتسكا بهم فتسكا ذريعاً على طول الطريق .

وبالإضافة الى عدم التعاون بين الامبراطور والمسيحيين الأوربيين ،
والى ما أنزله الجوع والمرض بالجيشين ، فانه لم يكن هناك وفاق بين
هذا الجيش وذاك ، ولم تكن الثقة متبادلة بينهم من جانب وبين حكام
الامارات اللاتينية بالشرق من جانب آخر .

واتجهت الشراذم التي رصلت سوريا الى دمشق فحاصرتها ، ولكن
نور الدين زنكى سار بجيشه تجاه دمشق فأسرعت القوات الغربية تنك
الحصار ، ونجت دمشق من الصليبيين وعاد الملكان الغربيان يجران
أذيال الخيبة بعد فشلها في حصار دمشق ، وكان ذلك نهاية الحرب
الصليبية الثانية ، وليس لها من أثر يذكر إلا الأسلحة التي خلفها الجيشان
ليستعملها حكام الولايات في الدفاع عن أنفسهم (١) .

الجهاد بين الحرب الصليبية الثانية والثالثة

عصر نور الدين زنكى وصلاح الدين الأيوبي

استعادة بعض مدن إمارة أنطاكية :

أغرقت هزيمة الصليبيين في الحرب الثانية نور الدين زنكى ليواصل
هجومه ضد الامارات الصليبية في سوريا . وتم استنطاق نور الدين أن
يهزم أمير أنطاكية سنة ١١٤٩ وقتل هذا الأمير في نفس العام ، فأفسح
بذلك المجال لنور الدين ، مما مكّنه من إخضاع عدة مدن من هذه
الامارة ، كما استطاع نور الدين أن يخضع باقى مدن الرها التي لم تكن
قد خضعت من قبل ، وحمل أميرها أسيراً سنة ١١٥١ ، وفي سنة ١١٦٤
تقدم نور الدين خطوات أخرى داخل أنطاكية وقبض على أميرها
بوهيموند الثالث وحليفه ريموند الثالث صاحب طرابلس ، ولم يطلقهما

إلا بعد دفع فدية كبيرة ، وقد أطلق الأول بعد سنة والثاني بعد تسع سنين (١) .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن نور الدين لم يشأ أن يترك دمشق في يد حاكمها الضعيف معين الدين أنر ، الذي خاف على سلطانه من نور الدين فأثر الخيانة وحالف الصليبيين ، ولكن رجال دمشق الأبرار ثاروا على هذا الحاكم الخائن ، واتصلوا بنور الدين وسلموه دمشق لتكون حلقة من حلقات الحصار حول الصليبيين .

وهكذا أحاط نور الدين بالصليبيين من الشمال والشرق فلم تبق لهم وسيلة للتوسع ولتقوية أنفسهم إلا بالاتجاه إلى الجنوب حيث تقع مصر ، ذلك القطر الغني ، ذو التاريخ الطويل المجيد ، والذي آل أمره آنذاك إلى يد ضعيفة مرتعشة هي يد خلفاء العهد الأخير من الدولة الفاطمية .

ولكن نور الدين زنكي كان محيطا بالأحداث مدركا سير الأمور ، فقدّر من جانبه ضرورة حماية مصر والتدخل في شؤونها لصد تيارات الصليبيين ، وساعده على ذلك نداء استغاثة جاءه من أحد المتنازعين على الوزارة بالقاهرة ، فأرسل نور الدين أنصد قواته الأبطال وهو شيركوه حيث عثى انتصارات حربية كبيرة كما ذكرنا من قبل ، وعينه الخليفة الفاطمي الأخير « العاضد » وزيرا له سنة ١١٦٩ ، ولكن العمر لم يفسح لشيركوه فمات وتولى مكانه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي الذي أصبح وزيرا للعاضد (٢) .

وهكذا طوق نور الدين الصليبيين ، وهزمهم ، وزعزع حياتهم ولم يحقق الصليبيون أي نصر في هذه الفترة إلا ضم عسقلان سنة ١١٥٣ لمملكة بيت المقدس ، وكانت عسقلان على الساحل تلعب دورا كبيرا في صد غارات الإفرنج ، ولكن انشغال نور الدين بالجبهات الشمالية

(١) عماد الدين الأصفهاني : تاريخ آل سلجوق ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٢) أبو شامة : تاريخ الدولتين ج ١ ص ١٥٥ . وأبو الفدا ج ٣ ص ٤٧ .

والشرقية والجنوبية أتاح الفرصة لضياح عسقلان التي قاومت الإفرنج أكثر من نصف قرن قبل أن تستسلم .

وجرت الأحداث بمصر بعد ذلك تباعاً على نحو ما شرفنا عند الحديث عن الدولة الأيوبية ، فقد وضع صلاح الدين نهاية للخلافة الفاطمية وأعاد مصر إلى رحاب السنة ، ثم مات بعد ذلك نور الدين زنكي فابنه اسماعيل ، وسيطر صلاح الدين على مملكة نور الدين خطوة بعد خطوة ، ثم ضم لسلطانه أملاكاً أخرى لم تكن خاضعة لنور الدين .

والمهم هنا أنه بقيام صلاح الدين انتقل مركز النضال ضد الصليبيين من الشمال إلى الجنوب ، وأصبحت مصر عاصمة الكفاح ضد الغاصبين ، ولهذا اتجهت أكثر الحملات الصليبية بعد ذلك إلى ضرب هذا المركز ، ومحاولة السيطرة عليه كما سنرى .

ولنعد إلى صلاح الدين لنقرر أن خطته بدأت بالعمل على توحيد العالم العربي ، والقضاء على كل صراع داخلي فيه ، وقد استجاب له العالم العربي أو أكثره ، فلم يمض وقت طويل حتى أضاف إلى مملكته الفسيحة بلاد النوبة والسودان واليمن والحجاز .

مصر تحارب الفرنجة والصليبيين :

ثم اتجه بعد ذلك إلى الدخلاء الغاصبين فوجه لهم ضراعه وقوته ، وكان هؤلاء يحتلون مركزين خطيرين في العالم العربي ، أحدهما في الشمال الإفريقي الذي كان قد احتله النورمانديون والثاني فلسطين التي اغتصبها الصليبيون كما سبق القول ، وقدم استطاع صلاح الدين أن يقضى على النورمانديين بسرعة ، فاستولى على طرابلس الغرب وتونس حتى مدينة قابس سنة ٥٦٨ هـ واتجه بعد ذلك إلى الجهاد الأكبر ضد الصليبيين .

ولنأخذ الآن من تتبع مواقف البطولة والشهامة التي وقفها صلاح الدين فضمنت له إجلال الصديق والعبد علي بن الحسين :

صلاح الدين والصليبيون

يقدم Emerton مقارنة دقيقة بين صلاح الدين ومعاصريه من حكام الامارات اللاتينية ، ويجدر بنا أن نوجز هذه المقارنة فهي اعتراف مؤرخ غربي كبير يضع صلاح الدين في مكانه العظيم من التاريخ . يقول Emerton (١) :

« بعد الحرب الصليبية الثانية مرت فترة لم تقم أوروبا خلالها بأى نشاط عسكري ضد المسلمين ، وفي هذه الأثناء حدث أكبر حادث في تاريخ الحروب الصليبية ، وهو ظهور صلاح الدين الأيوبي ، وبينما كان المعسكر الإسلامى يقوى بهذا البطل كان معسكر المسيحيين ينهار ، فقد كانت الامارات اللاتينية تعيش في اتساع الظروف التى يخلقها النظام الإقطاعى ، وبالمحتلون الى الدعة يوما بعد يوم ، ونسوا ما تتطلبه حياتهم كفاصين من مهام ومسؤوليات ، أما المعسكر الإسلامى فقد حصل في هذه الأثناء على مكانة حققها له القائد الجديد الذى كان أعظم شخصية عرفها عصر الحروب الصليبية ليس فقط في بطولته الحربية بل في صفاته الشخصية التى تضعه في القمة بين العظماء والمصلحين ، لقد كان صلاح الدين يعرف أهدافه الحربية ويجيد التخطيط لها ، وكان من رعاة العلوم والمعارف ، وكان مثالا طيبا في الوفاء بالوعد والشهامة والكرم ، وعلى النقيض من كساعته ومن صفاته ، كان يتسم معاصروه من حكام الولايات اللاتينية ، الذين كانوا همجا وبرابرة » .

وفي مطلع عهد صلاح الدين كانت المشكلات جمة حوله (تلك التى أشرنا اليها من قبل) ولذلك اتجه صلاح الدين الى مهادنة الصليبيين ،

(١) Mediaeval Europe p 376.

فظهر في سياسته معهم نوع من المسالمة ، ولكن هذه السياسة قوبلت من الصليبيين بالتحدى وبروح متعصبة ، وفي حالات كثيرة نقضوا المعاهدات بينهم وبين صلاح الدين ، وكأنما كان صلاح الدين في انتظار هذه الأحداث التي كان يُعدُّ لها العدة منذ أمد طويل ، فانقلبت العلاقة السلمية الى حرب ضروس بدأها الفرنجة ، وقد كان هجومهم الأول قوياً عاتياً حاولوا خلاله الاستيلاء على بعلبك وغزو دمشق ، وقد حقق الفرنجة في هذه الجولة بعض الانتصارات ، فهزموا جند صلاح الدين وأسروا قائده وأسرع صلاح الدين من مصر لمعاونة جيشه في فلسطين ، ولكن ملك بيت المقدس قابله عند الرملة ودارت معركة عنيفة بين الجيشين سنة ١١٧٨ م هزم فيها جيش صلاح الدين ، وكاد نفسه يقع أسيراً ، وعاد صلاح الدين الى مصر ليعيد نفسه من جديد ، وانتهر الفرنجة فرصة الانتصارات ، فراحوا يبنون القلاع والحصون وينظمون المؤن والذخيرة ، والرجال ، كما اشتدت حماستهم واتحد زعمائهم ، ولكن صلاح الدين أخذ يعد للأمر عدته فكون جيشاً كبيراً حشد له المؤن والذخيرة ، كما كوّن جيوشاً اضافية عين لها كبار القواد والأبطال ، وسارت هذه الجيوش تدك الأرض ، وسار جيش صلاح الدين فحاصر قلعة يعقوب في سهل بانياس ، وهي من أقوى قلاع الفرنجة ، ومنها كانت المؤن والذخائر ترسل الى جيوش الفرنجة ، هنا وهناك ، فكان حصارها معناه إيقاف الإمدادات عن جيوش الفرنجة ، وسار أحد جيوش صلاح الدين بقيادة فروخ شاه ابن أخيه لمقابلة بلدوين الرابع الذي حاول دخول دمشق ، وقد أنزل فروخ شاه بجيش الفرنجة هزيمة ساحقة ، وسقط بلدوين جريحاً وكان على وشك أن يقع أسيراً ، وأرسل صلاح الدين جيوشاً أخرى لتهاجم الفرنجة في بيروت وصيدا ، ثم اشتد صلاح الدين

في حصاره لقلعة يعقوب ، وضيق عليها الخناق حتى أسقطها وأسر من فيها وأمر بهدمها ، وأدرك الفرنجة ألا أمل في هذا الصراع ، فراحوا يفتشون الهدنة من جديد ، وقد وافق صلاح الدين على مهادنة بعضهم ، وظل في صراع مع البعض الآخر ليفرق بين جموع الفرنجة من جهة ، وليردع الذين خافوا الهدنة السابقة من جهة أخرى .

ومما دفعه الى قبول الهدنة مع بعض الفرنجة ، أن أحداثاً جددت بالعالم العربي آنذاك ، وكان لابد أن يتفرغ لها صلاح الدين ، وقد أشرنا الى هذه الأحداث من قبل ، ومن أهمها أن يضم الموصل وحلب بعد وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين ، ولما انتهت صلاح الدين من تحقيق أهدافه في العالم العربي عاد من جديد الى الفضال مع الفرنجة ، وساعده على ذلك أن ريجلند أمير الكرك الصليبي نقض المعاهدة التي كانت بين إمارته وبين صلاح الدين ، والعجيب أن يحافظ الجانب القوي على شروط الهدنة ، ولا يحافظ عليها الجانب الضعيف ، فقد قام الصليبيون ببعض الأعمال الطائشة وبخاصة ريجلند هذا ، إذ جرد أسطولا يبعث بشواطئ الحجاز ويهاجم الحجاج المسلمين ، كما دأب على مهاجمة القوافل وسلب متاعها وأسر أفرادها ، وحدث في إحدى هذه الغارات أن أسر هذا الأمير أخنوخ أخنوخ الدين وكانت مسافرة في إحدى القوافل ، وقد كان ذلك بمثابة الشرارة التي أضرمت النار وأدت الى موقعة حطين المشهورة .

موقعة حطين :

تعتبر موقعة حطين من أشهر المعارك في تاريخ العالم ، وقد وقعت في الثالث والرابع من يوليو سنة ١١٨٧ م وحطين سهل جبلي بالقرب من بحيرة طبرية المجاورة لبيت المقدس ، وكان عسكر الإفرنج يتكون من عشرين ألفاً ، بقيادة ملك المقدس غي ده لوسينيان ، ورجلند (أرناط) أمير قلعة الكرك وقد قضى المسلمون على هذا الجيش كله ، فسقط بعض

رجاله قتل ووقع الباقون في الأسر ، وكان ملك بيت المقدس وأمر قلعة الكرك بين الأسرى •

وتتحدث المصادر العربية عن موقعة حطين فتصور بأسلوب طلي مواقف البطولة التي وقفها صلاح الدين والمسلمون في هذه المعركة ، وفيما يلي مقتطفات من هذه المصادر •

— في يوم السبت ٢٥ من ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ — ٤ من يولييه سنة ١١٨٧ م ، التقى الناصر صلاح الدين بجيوش الصليبيين غربي بحيرة طبرية في موضع يعرف باسم اللوبيا ، وحال بجيشه دون وصول الصليبيين الى ماء بحيرة طبرية ، وطاف صلاح الدين على جيوش الاسلام ، يحرضهم على القتال ، وكلما توجه فريق من الصليبيين نحو البحيرة كان مصيره القتل أو الأسر •

— ورنفت القسي وغنت الأوتار ، وبرزت السيوف في المسلا عارية ، واشتملت الحرب ، فَرَجَا الفرنج فرجاً ، وهيهات أن ينالوا مخرجاً ، فكلما خرجوا جرحوا ، وبرح بهم الحرب فما برحوا ، وكلما ساروا وشَدُّوا أسروا وشَدُّوا فعادت أسودهم قتافذ ، وضايقتهم السهام فوسعت فيهم الخرق أنفاذ •

— ولما اشتد القتال والفناء بصفوف الصليبيين ، لجأ من استطاع منهم الفرار الى جبل حطين ، وحطين قرية عندها قبر النبي شعيب عليه السلام •

— آوى هؤلاء الى جبل حطين رجاء أن يعصمهم من طوفان الدمار ، فأحاطت بحطين بوارق البوار ، ورشفتهم الظبا ، وفرشتهم على الربا ، ورشقتهم المنايا ، وقرشتهم البلايا (١) •

(١) ابن جبير : الرحلة ، وابن شداد •

— ويصف الأفضل على بن الناصر صلاح الدين موقعة حطين فيقول :

كنت الى جانب أبى فى ذلك المصاف ، وهو أول مصاف شاهده ، فلما صار ملك الفرنج على القتل فى تلك الجماعة ، حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدى ، فنظرت اليه وقد علت كآبة ، وأربد لونه ، وأمسك بلحيته وتقدم وهو يصيح : كذب الشيطان فعاد المسلمون على الفرنج ، فرجعوا ، فصعدوا على التل ، فلما رأيت الفرنج قد عادوا ، والمسلمون يتبعونهم ، صحت من فرحى : هزمناهم هزمناهم : فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى ، حتى ألحقوا المسلمين بوالدى ، وفعل هو مثل ما فعل أولاً ، وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل فصحت أنا : هزمناهم هزمناهم ، فالتفت الى والدى فقال : اسكت ، ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة — أى خيمة الملك — فهو يقول ذلك وإذا الخيمة قد سقطت ؛ فنزل السلطان وسجد شكراً لله تعالى ، وبكى من شدة فرحه » •

— وقد حدث أن استسلم من نجا من القتل من الصليبيين ونزلوا عن دوابهم وجلسوا على الأرض ، فصعد المسلمون اليهم ، واستولوا على خيمة الملك ومن بها ، وأسروا الجنود الأحياء عن بكرة أبيهم •

— فمن شاهد القتلى فى ذلك اليوم ، قال ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل ... وتمت هذه النصر يوم السبت ، وضربت ذلة أهل السبت على الأحسد » •

— استعرض الناصر صلاح الدين بعد ذلك كبار الأسرى بعد أن صلى الله تعالى صلاة الشكر على نعمته النصر ، وأجلس ملك القدس الصليبي بجانبه وأذن له بشربة ماء مشلوج ، وأجلس أرناط =

ارنولد = رينالد أمير الكرك بجانب الملك ، وهو ينوى تنفيذ نذره فيه
لمساءته السابقة وشدة عناده فلم يكن في الفرنج أشد عداوة منه للمسلمين .

ولما ناول الملك كأس الماء الى رجلند ؛ قال له صلاح الدين :
لم آذن لك في سقيه الماء (حتى لا يوجب ذلك أماناً له) .

وأخذ الناصر يذكر ارنولد بجرائمه : ويسأله كم تحلف وتنكث ؟ ثم
أمر بنقل الأسرى الى موضع عينه لهم . واستحضر أرنوط (ارنولد) وقال
له : « هأنذا أنتصر لحمد صلى الله عليه وسلم » فقد كان أرنولد عندما غدر
بالقافلة القادمة من مصر الى الشام قال لها : قولوا لحمد يخلصكم . .

وعرض صلاح الدين الاسلام على أرنولد فأبى ، فاستل التمنجاء
(خنجر مقوس يشبه السيف القصير) من وسطه وضربه بها فحل كتفه
وأجهز عليه من كان عنده من الخدم . وقال الناصر : كنت نذرت دفعتين
أن أقتله إن ظفرت به ، إحداهما لما أراد المسير الى مكة والمدينة ،
والثانية لما أخذ القافلة غدراً (١) .

ويعلق Emerton (٢) على هذه الواقعة بقوله : إنها وضعت
سلطة الحياة والموت في يد صلاح الدين ، ولكنه استعمل هذه السلطة
في أضيق الحدود . وظهر الفرق جلياً بين معاملة صلاح الدين للفرنجة
ومعاملة الفرنجة للمسلمين التي حدثت قبل ذلك بثمان وثمانين سنة ؛
والموقف الصارم الوحيد الذي وقفه صلاح الدين كان مع أرنولد الذي
يصصفه المؤرخون بأنه كان مغامراً أهوج ، حتى لقد أنزل قواء مرة على
أرض الحجاز المقدسة ، وشاع أنه ينوى نقل جثمان الرسول محمد

(١) مقتطفات من الفتح القسبي في الفتح القسبي لعماد الدين الاصفهاني
ومن مفرج الكروب لابن واصل ومن الكامل لابن الاثير .
(٢) Midiaeval Europe p. 377.

(ﷺ) الى الكرك ؛ وأن يفرض رسوماً فادحة على حجاج المسلمين ، ولم يصده عن هذا إلا فرقة مصرية نُقِلَتْ الى هناك على جناح السرعة في أسطول جُهِّزَ بعجلة ؛ ولهذا ولِسِوَاهُ أقسم صلاح الدين أن ينحره بيده ، وقد حان آنذاك الوقت للبر بالقسم ، وقد حاول أرنولد أن ينال النجاة فشرب المساء في خيمة صلاح الدين معتقداً أن التقليد العربي يؤمِّن مَنْ أكل طعام المضيف أو شرب ماءه ، ولكن صلاح الدين أجاب بأن هذا لا يؤمِّنُه لأن الماء طَلِبَ ولم يقدم ، وهوى صلاح الدين بالسيف على عنق هذا الطاغية ، وقد ارتعد ملك بيت القدس آنذاك ، ولكن صلاح الدين رد الأمان الى نفس الملك بقوله : إن الملك لا يقتل الملك (١) .

بعد موقعة حطين :

كانت موقعة حطين المعركة الحقيقية التي دمرت قوى الصليبيين ، وتركت أجسامهم دامية وعقولهم خاوية ، وكانت نتائجها بعيدة المدى ، فقد سقط فيها أكثر الأمراء والنبلاء والقادة ما بين قتل وأسير ، حتى أصبحت جيوشهم لا تكاد تجسد من يقودها أو من يدبر أمرها ، كما أن من مآثر هذه المعركة أن اسم صلاح الدين أصبح شديد الراهبة ، وأصبح يحمل معنى الموت الزؤام للصليبيين ، فلم يعد سهلاً على جيوشهم أن تقابله ، ولم يعد عيباً أن تستسلم الجيوش اليه ، وقد انتهر صلاح الدين هذه الفرصة فراح يجنى ثمار جهاده الناجح في موقعة حطين .

اتجه صلاح الدين الى حصن طبرية فاستسلم اليه ، وسار الى عكا فاحتلها وأقام بها قليلاً ، ومنها أرسل الجحافل فاستولت على

(١) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ٧٥ وما بعدها — وبهاء الدين ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٠ — ٦٥ .

الناصرية وقيسارية وحيفا ، ثم اتجه صلاح الدين الى صيدا فاستولى عليها ، وواصل سيره الى بيروت فاستسلمت له بعد حصار قصير ، وهكذا سقطت كل المدن الكبرى وكل القلاع في يد صلاح الدين (١) ، فالتجه الى بيت المقدس ليتوج بفتحه انتصاراته .

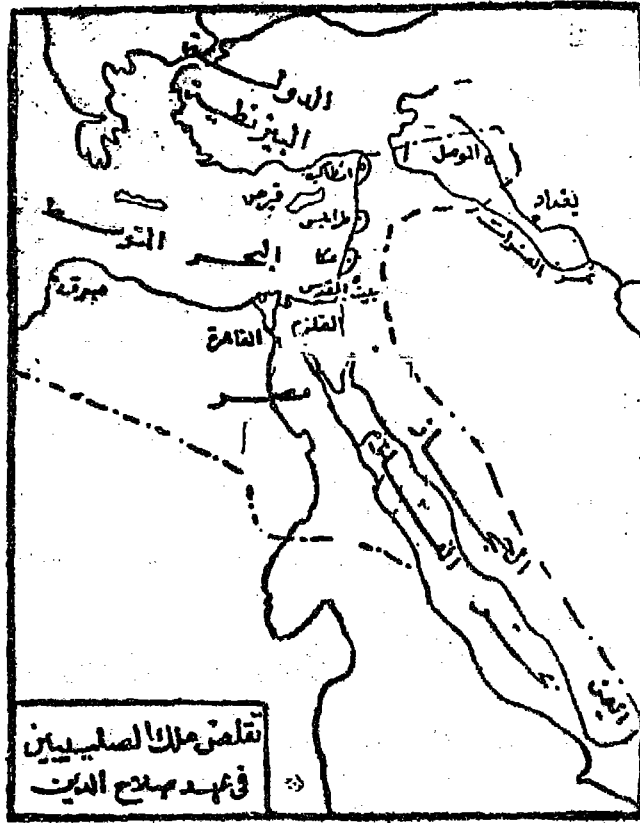
تحرير بيت المقدس :

حاول صلاح الدين أن يدخل المدينة المقدسة صلحا لما لها من مكانة روحية في نفوس المسلمين وحرصاً على أن تسلم من دمار الحرب لو هبت بها الحرب ، ولكن القدس كانت قد أصبحت أقوى حصون الفرنجة ، إذ هرب اليها كل من نجى من المعارك السابقة ، أو أفلت من حصار ، أو خرج من المدن والقلاع التي استسلمت أو فتحت عنوة ، ثم إن أمير الرملة (باليان دي ايبالين) كان أسيراً في يد صلاح الدين منذ سقوط الرملة ، وكانت أسرته في القدس ، فاستأذن باليان أن يذهب للقدس لأحضار أسرته ، وأقسم أن يبر بوعده وألا تطول بالقدس إقامته ، ولما وصل باليان استقبله جند الفرنجة وأحاطوا به ، فقد كان باليان طلبتهم وكان القائد الذي ينشدونه ليقودهم في الدفاع عن العاصمة المقدسة ، وأغراه الفرنجة بحث عهده مع صلاح الدين فاستجاب لهم ، واستكمل المدينة به عدتها للصراع .

وأحاط صلاح الدين بالمدينة واتخذ جبل الزيتون مركزاً لجيوشه وهناك نصب المجانيق وأخذ يلقي على أسوار المدينة وابلا من الحجارة ، ففر المدافعون واحتموا بالأسوار الضخمة ، وبذلك تقدم المسلمون من الأسوار وأخذوا ينقبونها تحت وابل من السهام المتبادلة بين المهاجمين والمدافعين ، وقد اتضح للفرنجة أن النصر سيحالف العرب كما حالفهم

(١) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ٧٥ .

من قبل ، ويئسوا من تحقيق أى انتصار فى ضوء ما رأوه من استماتة العرب والمسلمين ، وبهذا مال هؤلاء للصالح وطلبوه ، واتفق الطرفان على أن يخرج الفرنجة سالمين من المدينة فى مدى أربعين يوماً ، وأن يدفع الرجل منهم عشرة دنانير والمرأة خمسة ، والصبي دينارين ، ووفى المسلمون بهذا الوعد مقتاسين الدماء الغزيرة والأرواح الكثيرة التى أزهقها الفرنجة يوم انتصارهم فى بيت المقدس منذ حوالى تسعين عاماً ، وكان ضمن من خرجوا طبقاً لهذه الشروط البطريرك الأكبر يحمل أموال البيعة وذخائر المساجد التى كان الصليبيون قد غنموها فى فتوحهم ، وقال بعض المسلمين لصالح الدين : إن هذا البطريرك يقوى بهذا المال على حرب المسلمين ، فأجاب صالح الدين : الاسلام لا يعرف الغدر ، لقد



أمناء وعلينا الوفاء • وخرج الرجل بهذا الثراء ويروى أن مجموعة من النبيلات والأميرات قلن لصالح الدين وهن يغادرن بيت المقدس : « أيها السلطان ، لقد مننت علينا بالحياة ، ولكن كيف نعيش وأزواجنا وأولادنا في أسرك ؟ وإذا كنا ندع هذه البلاد الى الأبد فمن سيكون معنا من الرجال للحماية والسعى للمعاش ؟ أيها السلطان هب لنا أزواجنا وأولادنا فإنك إن لم تفعل أسلمتنا للمار وللجوع » فتأثر صلاح الدين بذلك ، وكانما أحس أن من واجبه أن يحمي هذه الأعراض من قسوة الطغاة ، فوهب لهم رجالهن وأضاف بذلك جديداً على شهامته وعلو نفسه •

ويقرر Stanley Lane Poole (١) أن كثيرين من الفرنجة الذين سقطت قلاعهم وبلادهم راحوا يطرقون أبواب المدن التي كانت لا تزال في أيدي الفرنجة ، ولكن هذه المدن أقفلت أبوابها في وجههم ، وقد عبر بعضهم البحر الى أوروبا. وكثيرون منهم اندمجوا في غمار الحياة في ظل الاسلام فوجدوا رعاية طيبة وترحيباً كريماً ، أما المسيحيون العرب فقد عادوا في ظل صلاح الدين للعيش الهنيء الذي ضمنه لهم الاسلام فيما ضمن من حقوق لغير المسلمين في المجتمع الاسلامي •

وعاد بيت المقدس الى أحضان الاسلام ، ودوى صوت المؤذن في المسجد الأقصى ، وسكت ناقوس المسيحيين ، وأنزل رجال صلاح الدين الصليب الذهبي من فوق قبة الصخرة •

صلاح الدين والصليبيون في رمضان :

ومما يذكر أنه عندما حلَّ رمضان سنة ٥٨٤ هـ كان صلاح الدين

الأيوبي قد أحرز الانتصارات الكثيرة التي أشهرنا اليها واستخلص من الصليبيين معظم البلاد التي كانوا قد استولوا عليها ، فلما دخل رمضان أشار رجال صلاح الدين عليه أن يرتاح في شهر الصوم ، ولكنه تخوَّف من انقضاء الأجل قائلاً :

« إن العمر قصير ، والأجل غير مأمون وإبقاء أعداء الإسلام في أرض المسلمين لحظة مع القدرة على طردهم منكر* لا أرتكبه » وواصل زحفه حتى استولى على مزيد من الأرض حول بيت المقدس في منتصف رمضان •

الحرب الصليبية الثالثة

حرب الملوك الكبار

(١١٨٩ — ١١٩٢)

بسقوط بيت المقدس عادت الأحوال الى ما كانت عليه قبل الخروب الصليبية ، فإن بيت المقدس كان الهدف الرئيسى الذى سعى الغرب للسيطرة عليه ، وقد عاد بيت المقدس للمسلمين فلتبدأ المعركة من جديد .

ومع التشابه فى الهدف بين الحرب الصليبية الأولى والثالثة فإن هناك خلافاً واضحاً بين الحربين فى عدة نواح أخرى نذكرها فيما يلى :

١ — كان البابا هو رائد الحرب الصليبية الأولى ولكن الحرب الثالثة كانت منبعثة عن العثمانيين ورجال السياسة .

٢ — تقابلت فى الحرب الأولى جيوش متحدة من الغرب مع قوى متخاذلة متفككة فى الشرق ، أما فى الحرب الثالثة فقد كان الأمر بالعكس .

٣ — كان الدين من أهم الدوافع التى بعثت بالغربيين الى الحرب الأولى ، أما فى الحرب الثالثة فقد حمل بعض الغربيين السلاح واشتركوا فيها هرباً من الضريبة التى فرضت على كل من لم يأخذ فيها بنصيب .

ضرائب باسم الحروب الصليبية :

فابتداء من الحملة الصليبية الثانية فرض لويس السابع ضريبة بمقدار العشر على جميع المنقولات ، يدفعها من لم يسهم فى الحروب الصليبية ، وفرض فيليب أوغسطس وريتشارد قلب الأسد ضريبة عشر

على رجال الدين والعلمانيين جميعاً للمساعدة في الحروب الصليبية ،
ولذلك سميت هذه الضريبة « عشور صلاح الدين » (١) .

واتجهت الكنيسة كذلك لجمع فرائب باسم الحروب الصليبية ،
ففى أواخر القرن الثانى عشر أعلنت البابوية أنه يجوز لمن لا يقوى على
المشاركة بنفسه فى الحروب الصليبية أن يتبرع بمبلغ من المال يسهم
به فى سير هذه الحروب ، والمتبرع بذلك تتغفر ذنوبه كالذى شارك
بنفسه فى الحروب ، وكانت البابوية تمنح لدافع المال صكاً بذلك ،
وقد تطورت هذه الصكوك فأصبحت « صكوك الغفران » التى ظلت
البابوية تعتمد عليها كمورد هام من مواردها المالية ، بعد فشل الحروب
الصليبية (٢) .

وقد تولى قيادة الحرب الثالثة ملوك أوربا الكبار وهم : فردريك
برياروسا امبراطور ألمانيا ، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وفيليب
أغسطس ملك فرنسا ، وكان فردريك أكثرهم نشاطاً وحماسة ، وقد أخذ طريق
البر ، فغرق وهو يعبر نهراً بأرمينيا بالقرب من الرها ، وانتهز جيشه
هذه الفرصة فعاد من حيث جاء ، ولم يتبع ابنه الى المعارك الا عدد ضئيل
ليس له غناء . أما الجيشان الإنجليزي والفرنسى فانتخذا من أوربا طريق
البحر ، وتقابلتا فى صقلية حيث أمضيا الشتاء ، وفى خلال هذا الاجتماع
دب الشقاق بين القيادتين ، فأبحر كل منهما وحده ، واتجه ريتشارد الى
قبرص حيث استولى عليها فى طريقه الى فلسطين ، واتجه فيليب مباشرة
الى فلسطين حيث حاصر عكا بمساعدة من تبقى من جنود فردريك ، وانضم
الى الحصار اللاتين المقيمون فى سوريا بقيادة الملك « غى » مع أنه كان
قد أقسم لصلاح الدين ألا يعود الى شهر السلاح فى وجهه ،

(١). Cambridge Mediaeval, History Vol. 5, p. 324.

(٢). Ibid 323. وانظر كتاب « المسيحية » من سلسلة مقارنة

الاديان للمؤلف .

صراع حول عكا وسقوطها :

وأتجه صلاح الدين الى المعركة ، وظهر أن كفته مسترجع ، فاستجد الصليبيون بريشارد فهيرع اليهم ، وشهدت معركة عكا أقوى هجوم من الصليبيين وأقوى دفاع من البطل صلاح الدين ، وأظهر المسلمون ألوانا من التضحيات والبطولة ، كما أظهر الصليبيون صورا من النجاسة ، إذ عده الملوك الكبار هزيمتهم ضربة تهدد أوروبا بالفناء ، وقد رجحت كفة الصليبيين بسبب بحريتهم القوية وسيطرتهم على المرفأ ، مما أدى الى استسلام المدينة مقابل شروط أهمها ألا يتعرض الصليبيون لقوة الدفاع بسوء ، مقابل فدية باهظة ، ولما توانى المسلمون في تقديم الفدية فتك النصارى بأسراهم (١) ، فدل هذا التصرف على أن أسلوب أوروبا هو لا يتغير في كل زمان ومكان .

ولم يكن سقوط عكا كافيا لتثبيت أقدام النصارى بفلسطين ، وظهر أنه ليس في مقدورهم الحصول على فتوحات أخرى ، ولم ريتشارد الحرب ، وخاف على ملكه البعيد ، فجرت مراسلات ومشاورات بين الطرفين أوردتها ابن شداد ، ونقتبس منه أهم ما جاء بهذه المراسلات (٢) :

مراسلات :

كتب ريتشارد الى صلاح الدين يقول : ان المسلمين والفرنج قد ملكوا وخربت ديارهم ، وتلفت الأموال والأرواح ؟ وليس هناك حديث سوى القدس والصليب ، والقدس متعبدنا ما ننزل عنه ، والصليب خشبة عندكم لا مقدار له ، وهو عندنا عظيم ، فيمنن به السلطان علينا ونستريح من هذا العناء .

فأجاب صلاح الدين : القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٦٤ .

(٢) سيرة صلاح الدين .

مما هو عندكم ، انه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة ، فلا يتصور أن ننزل عنه ، وأما البلاد فهي لنا واستيلائكم كان طارئا عليها لضعف المسلمين ، وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة فلا يجوز أن نفرط فيه الا لمصلحة أوفى منه .

صلح الرملة :

وقد ظلت المراسلات والمشاورات مدة طويلة وانتهت بتعقد صلح الرملة في الثاني من تشرين الثاني سنة ١١٩٧ ترك للنصارى فيه قطعة ضيقة من الساحل بجوار عكا تمتد من صور حتى حيفا ، وتسمح لحجاجهم بزيارة الأماكن المقدسة عزلا من السلاح ، واحتفظ صلاح الدين بفتوحاته في اللد والرملة وعسقلان كما احتفظ بداخل البلاد وانتهت بذلك الحرب الثالثة .

ويذكر Emerton (١) أن السبب في فشل الحرب الصليبية الثالثة أن الملوك الثلاثة لم يحملوا السلاح كرجال يدافعون عن الدين وانما كملوك يعملون لامجادهم الخاصة ، أما ريتشارد الذي يصدّء أحد أبطال الحروب الصليبية فانه لا يمكن أن يحمل هذا اللقب الا في حدود تفكير العصور الوسطى ، فلقد كان الرجل من البرابرة الذين لا يحترمون القوانين ولا يتخلّفون بسجايا رفيعة ، ولذلك فإن ريتشارد إن صلح كقائد عسكري لا يصلح قط حاكما لامة أو مديرا لمركة خطيرة من هذا النوع .

نهاية صلاح الدين :

مات صلاح الدين بعد هذا الصلح بفترة وجيزة وعمره خمس وخمسون سنة ، ويقول عنه كارل بروكلمان ما يلي (٢) : والحق أن حروب صلاح الدين ضد الصليبيين قد جعلته من أشهر ملوك الشرق في أوروبا ،

(١) Mediaeval Europe p. 378.

(٢) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٢٣٢ .

أما في الذاكرة الشرقية فلا يزال خالدا إلى جانب كبار الخلفاء والسلطانين كرمز لحقبة من أسعد حقب التاريخ وأمنتها ، وليس من شك في أن قلة ضئيلة من أمراء المسلمين كانت تضارعه من حيث تجرده عن أية نزعة للكسب الشخصي ، ومن حيث انصرافه إلى خدمة دولته ورعاياها ليس غير ، ولم يستطع أعداؤه أنفسهم إلا الإقرار له بالشهامة والنبيل في معاملة الخصم المغلوب ، ليس هذا فحسب ، بل كان صلاح الدين بالإضافة إلى ذلك نصيرا للعلم ، وقد عاش في رحابه نفر من خيرة العلماء كابن العماد الأصفهاني الذي أرخ لفتح القدس ، وكالقاضي بهاء الدين بن شداد الذي كتب سيرة صلاح الدين ، وكالقاضي الفاضل •

رحم الله صلاح الدين ، لقد كان قائدا موهوبا تمثلت في شخصه كل المعاني التي كانت تدور في نفوس العرب والمسلمين ، فأبرزها بانتمهم العرب والمسلمين •

بين الحرب الصليبية الثالثة والرابعة

(فترة اضطراب في المعسكرين)

تتأخر هذه الفترة لدى الصليبيين بالصراع المتصل حول تنفيذ بين الكنيسة والسلطات المدنية ، وقد حاولت الكنيسة أن تستعيد مكانتها في الإشراف على الحروب الصليبية وتوجيهها ، ولكن شخصية الملك هنري السادس حالت دون ذلك ، فقد كان هنري السادس أعظم رجال السياسة في عهده ، وأعظم إمبراطور بعد شرلمان ، وقد دان له بالولاء والتبعية ملك قبرص وملك أرمينيا مما مد نفوذ هنري إلى الشرق ، ودفعه لاستعادة قيادة الحروب الصليبية الامبراطورية التي قادها أبوه •

وفي معسكر الفرنج كذلك كان هناك خلاف آخر بين بقايا الصليبيين

بالشام بعضهم والبعض ، وقد ضعفت قوتهم بسبب هذا الخلاف ، وبسبب الحسد ، ورغبة كل فريق في أن يكون له السلطان والغلبة على الآخرين .

ولم يكن المعسكر الاسلامي أحسن حالا ، فإن صلاح الدين كان قد قسم الدولة بين أولاده ، فجعل دمشق وجنوبى سوريا لابنته الملك الأفضل وجعل له السلطة العامة ، وجعل مصر للملك العزيز ، وجعل حلب وشمالى سوريا للملك الظاهر ، أما الملك العادل أخو صلاح الدين فقد منح بعض الممتلكات في الجزيرة الفراتية ، وقد شب نزاع بين أولاد صلاح الدين ، وتدخل الملك العادل فآثار بعضهم ضد البعض الآخر ، وقد شجعت هذه الاضطرابات الامبراطور هنرى على العزم على الزحف للشرق .

الملك العادل يقود معسكر المسلمين :

وحدث بعد قليل تغيير في معسكر الفرنج ومعسكر المسلمين ، أما الأول فإن الامبراطور هنرى قد مات وهو يستعد للزحف ، وقد أعطى موته الفرصة للكنيسة لتعيد سيادتها وقيادتها للحروب الصليبية ، أما معسكر المسلمين فقد آل أمره الى نوع من الوحدة ، إذ استطاع الملك العادل أن يقضى على أولاد أخيه الواحد بعد الآخر - وان يتولى السلطة (١١٩٩ — ١٢١٨) في أغلب ملك صلاح الدين ، ولم يبق الأولاد صلاح الدين ، الا قطاع حلب الذى استمر تحت سلطانهم حتى زحف المغول سنة ١٢٦٠ .

وفي وسط هذا الجو جاءت الحرب الصليبية الرابعة .

الحرب الصليبية الرابعة

تتحول الى حرب داخلية بين المسيحيين

(١٢٠٢ — ١٢٠٤)

دفعت الكنيسة جماعات المسيحيين للقيام بهذه الحروب ، وكانت هذه الحروب قريبة الشبه بالحروب الصليبية الأولى من ناحية أنها كانت فرنسية القادة والروح ، ولكن هدفها هذه المرة كان مصر للسببين الآتيين :

١ — أصبح واضحا أن نجاح الحروب الصليبية لن يتم إلا اذا سيطر الصليبيون على مصر فقد أصبحت مصر مركز القوة الاسلامية .

٢ — السيطرة على مصر ستحقق الكسب التجارى المنشود ، فعن طريقها سيتمكن الاتصال بالبحر الأحمر والأخذ بنصيب في تجارة الهند وجزر الهند الشرقية « اندونيسيا الآن » .

الاتجاه ضد القسطنطينية :

ولكن حدث شيء لم يكن في الحسبان وجئه هذا الزحف وجهة أخرى فقد انحرف الغزاة تجاه القسطنطينية وقرروا الاستيلاء عليها ، وهذا يبين لنا الى أى حد انحرف الصليبيون ونسوا أهدافهم التى من أجلها زحفوا على الشرق ، وهى الاستيلاء على بيت المقدس ، وأصبحت السياسة والتجارة هى المحرك الحقيقى لهذه الجموع ، وقد اتضح لنا مما سبق أن القسطنطينية لم تعد تتعاون مع الصليبيين ، وأن الصليبيين لم يفوا بوعودهم مع امبراطور القسطنطينية بأن يعيدوا الى سيطرته كل ما يفتحون أو على الأقل يدفعون جزية له ويعترفون بسيادته العليا .

هذا من الناحية السياسية ، أما الناحية التجارية فيوضحها أن

المدن التجارية بايطاليا وبخاصة فينيسيا قد نعمت بالغنى العظيم عن طريق تجارتها مع الشرق ، وكانت هذه المدن لذلك لا تريد تدمير خطوطها التجارية بالحرب ، ومن أجل هذا حرصت هذه المدن على أن تكسب السلم لهذه الخطوط ، وحرصت في الوقت نفسه على توجيه النشاط الصليبي ضد القسطنطينية لأن هذه كانت سيئة العلاقة مع العواصم التجارية بأوروبا ، ويقول (١) Emerton إن العواصم التجارية بايطاليا لم ترد أن تقتل الإوزة التي تبيض لها بيضة الذهب .

وبالإضافة الى الأهداف التجارية ، رحبت الكنيسة الغربية بهذا الاتجاه ، إذ وجدت به فرصة إسقاط الكنيسة المنافسة لها في الشرق . كما اعتقد الصليبيون أن السيطرة على القسطنطينية ستجعل السيطرة على سوريا سهلة ويسيرة .

الاستيلاء على القسطنطينية :

وهكذا تحولت الحروب الصليبية الى حرب ضد المسيحيين ، ووصل الغزاة الى القسطنطينية في يوليو سنة ١٢٠٣ وأسطروها في ابريل ١٢٠٤ بعد مقاومه هزيلة ، وعيّن (بالوين) أول امبراطور لاثيني على القسطنطينية ، وقد ظلت القسطنطينية خاصة للآتين مدة ستين عاما ، وهكذا كانت النهاية غير المتوقعة للحروب الصليبية الرابعة (٢) .

واققسم الغزاة الغنيمة كما كانوا قد اتفقوا قبل الزحف ، فأخذت فينيسيا ٢/١ المنطقة التي استولى الغزاة عليها ، وأخذت الحق في تعيين البطريرك ، أما الفرنجة فكان التاج نصيبهم مع مسئولية الحكم (٣) .

(١) Midiaeval Europe p. 379.

and Mombert : A Short History of the Crusades p. 201.

Bears, Edwin : The Fall of Constantinople p. 187. (٢)

Ibid. p. 192. (٣)

بين الحرب الصليبية الرابعة والخامسة

(زحف الأتراك ونهايتهم)

لا تزال الأسباب التي دعت للحرب الصليبية الرابعة قائمة ، فبييت المقدس لا يزال في أيدي المسلمين ، ولا يزال واضحاً أن أي حرب مقدسة لابد لنجاحها أن يستولي الصليبيون على مصر ، وبينما كانت الحماسة تشتد في أوروبا لهذا الغزو كان الملك العادل يعقد سلسلة من المعاهدات مع المسيحيين كان من شأنها تخفيف الحدة وتقليل الحماسة ، وقد عقدت هذه المعاهدات في السنوات التالية : ١٢٠٢ ، ١٢٠٤ ، ١٢١٠ ، ١٢١١ ، ١٢١٧ ، وكان أهم ما في هذه المعاهدات تيسير الحج ، وعدم الاعتداءات بين الجانبين ، وتعديل قليل في الحدود .

وعلى الرغم من ذلك فقد حدثت أحداث في هذه الفترة هيجت النفوس ودشعت إلى الحرب الخامسة ، وأهم هذه الأحداث زحف الأطفال الفرنسيين سنة ١١١٢ بقيادة طفل من الرعاة اسمه ستيفن لتخليص الأرض المقدسة ، وزحف الأطفال الألمان بقيادة طفل اسمه منغولا لنفس الغرض ، وقد خطف تجار الرقيق هؤلاء الأطفال وباعوهم في أسواق النخاسة ، مما أثار أهليهم وذويهم ، ودفع البابا نفسه إلى أن يتخذهم وسيلة للثأر ، فقد كتب عقب هذا الحدث يقول : لقد سجل الأطفال علينا الخزي والعار ، فبينما نغرق نحن في النوم يهب الأطفال لتحرير الأرض المقدسة (١) .

وفي سنة ١٢١٥ انعقد المجلس الأوروبي فانتهز البابا فرصة هذا الاجتماع ، وحرك النار الكامنة ، ووجد استجابة لذلك ، فصدد سنة ١٢١٧ موعداً للزحف الصليبي الجديد .

الحرب الصليبية الخامسة

اتجاه الحروب الصليبية الى مصر

(١٢١٨ - ١٢٢١)

اتجهت القوى الصليبية بزحفها هذه المرة تجاه مصر ، لتنفيذ الخطة التي سبق شرحها ، وكانت مصر آنذاك تحت سلطان الملك العادل الذي لم يلبث أن مات في مطلع هذه الحملة وآل السلطان على مصر من بعده لابنه الملك الكامل (١٢١٨ - ١٢٣٨) ولكن الملك الكامل قابل في مطلع عهده ألواناً من المصاعب كان لها أثر كبير في إضعاف قوة المسلمين ، ثم إن المغول كانوا قد بدعوا زحفهم تجاه العالم الاسلامي فاستنقطوا خوارزم ، وبلاد ما وراء النهر ومعظم بلاد فارس سنة ١٢٢٠ ، وبدعوا يوغلون تجاه بغداد ، مما قسم الجهود الاسلامية وقتاً في عضد المسلمين ، يضاف الى ذلك أن الصليبيين اتصلوا بنجاشى الحبشة المسيحي ليعتاون معهم في ضرب الاسلام والمسلمين عن طريق غزو الحجاز ومهدم الكعبة (١) .

أما جيش الصليبيين فكان في حالة طيبة ، إذ تلقى جموعاً ضخمة من أوروبا جاءت تلبية للدعوة التي وجهها البابا إنوسنت الثالث ، ثم البابا هونوريوس الثالث من بعده ، وكان يقود جموع الصليبيين الملك يوحنا دى برين ملك ما تبقى من مملكة بيت المقدس ومعه المندوب البابوي بلاجيوش ، وتقدمت الحملة تجاه دمياط التي كانت تعتبر باباً لمصر ، وكان بها برج السلسلة الذي يُعَدُّ « قفل الديار المصرية » (١) ،

(١) Coulbeaux : His, d, Abyssinie pp. 259-266.

نقلا عن الحركة الصليبية للدكتور سعيد عاشور ج ٢ ص ١٦٥ .

(١) أبو شامة : ذيل الروضتين ج ٢ ص ١٠٩ .

(م ٤٩ — موسوعة التاريخ : ٥)

وقد استطاعت الحملة أن تستولى على هذا البرج في أغسطس سنة ١٢١٨ ، وأن تستولى على دمياط عقب ذلك ، ولكن بعد أن قاومت دمياط مقاومة صلبة ، وأرغمت المهاجمين على دفع أعلى ثمن لسقوطها .

ولم يسرع الصليبيون بانزحف تجاه القاهرة بل انتظروا الامبراطور فردريك الثانى الذى أذيع أنه فى الطريق للانضمام للمهاجمين ، كما أن المصريين لم يمنحهم فرصة الزحف للقاهرة بسبب الاستعدادات الهائلة التى تدفقت من كل صوب لتحيط بالصليبيين فى دمياط ، وقد أسهم فى هذه الاستعدادات الخليفة العباسى والملك الأشرف مؤتى ابن الملك العادل والملك المعظم عيسى والمنصور صاحب حماة ، كما تذق الأبطال من شتى النواحي المصرية والإسلامية لمواجهة الصليبيين ، وتمكنت القوة الإسلامية من إقزال كثير من الخسائر بالصليبيين فقتلوا منهم وأسروا واستولوا على كثير من المعدات والسفن الحربية والعتاد . ولكن الملك الكامل كان حريصا على أن تنجو مصر من التدمير الصليبي ، فأتجه الى التضحية ببعض الانتصار الضخم الذى حققه معه صلاح الدين ، رجاء أن يجلو الصليبيون عن دمياط ، فرفض عليهم شروطا سخية هى أن يمنحهم بيت المقدس ، ويطلق أسراهم ، ويعيد الصليب الذهبى الذى كان صلاح الدين قد أنزله من فوق قبعة الصخرة عقب استردادها .

وكان المسلمون قد خربوا حاميات القدس حتى إذا استعادها الصليبيون لا يستطيعون الانتفاع بها .

ولعل الملك الكامل كان يظن أن بيت المقدس هو هدف الصليبيين ، وأن منحه لهم سيضع حدا لهذه الحرب التى طالت وشقى بها الناس فى الشرق والغرب ، ولكن الصليبيون أعلنوا عن

أهدافهم عندما رفضوا هذا العرض متطلعين الى الاستيلاء على سوريا
ومصر جميعا ، وتقدموا فعلا تجاه القاهرة •

ولم يبق أمام الملك الكامل إلا النضال ، بيد أن فكرة ذكية خطرت
ببال المصريين فجعلت الحرب تسير في جانبهم ، فقد قطع المصريون جسور
النيل فأغرقوا الأرض بالماء وعجز الصليبيون عن الاستمرار في الزحف
بل أصبحوا مهددين بالجوع والهلاك ، فطلبوا الصلح على أن يتركوا
دمياط دون مقابل ، وقد رفض بعض أمراء الأيوبيين ذلك وأصرروا على
القضاء على الصليبيين ، وأسرعوا فأحاطوا بهم من الشمال ومن الجنوب ،
ومتعوه من العودة الى دمياط • ولكن الملك الكامل كان يريد أن يتفرغ
لمشكلاته الداخلية ، ثم إنه كان قسم أذيع أن الإمبراطور فردريك على
وشيك الوصول ، فأراد الملك الكامل أن يظهر مصر من الصليبيين قبل
وصوله ، مخافة أن ينضم لهم وهم محاصرون بدمياط • وتم الاتفاق
على الجلاء دون قيد ، وجلا العدو مكللا بالخيبة والعار •

وانتهت بذلك هذه الحملة القاسية وتطهرت أرض الوطن بعون
الله والنيل الذي طالما قدّم ألواناً من العون للمقيمين على ضفافه •

الحرب الصليبية السادسة

امتداد "الحرب الصليبية الخامسة"

(١٢٢٨ — ١٢٢٩)

تعتبر الحرب الصليبية السادسة تكملة للحرب الخامسة أو ذيلها ، فان فردريك جاء الى سوريا ومعه حامية قليلة ، ولم يضرب ضربة واحدة ولكنه حاول أن ينتفع بالعرض الذي كان الملك الكامل قد عرضه على الصليبيين ابان احتلالهم دمياط ، وكانت هناك مشكلات داخلية كثيرة تخيط بالملك الكامل ، فأرسل فردريك الثاني يطلب المفاوضة معه على أنساس تسليم بيت المقدس ، ولكن الملك الكامل رفض المفاوضة على هذا الأساس ، فقد كان مستعدا أن يضحي بها لتنجو مصر ولكن مصر نجت بدون هذه التضحية الباهظة ، بيد أن فردريك اتخذ جانب الاستعطف واللين مع الملك ، وفي بعض المراجع أنه أرسل له رسالة جاء فيها : « أنت تعلم أنني أكبر ملوك البحر ، وقد علم البابا والملوك باهتمامي وطلوعي فان رجعت خائبا انتكسرت حرمتي بينهم ، وهذا القدس هو سبب ضجرهم والمسلمون قد خربوا المدينة فلم يعد لها طائل ، فان رأى السلطان أن يتنعم على بقبضة البلد والزيارة ، كان ذلك منه صدقة ورفع رأسي بين الملوك (١) » ولا يستبعد الباحثون أن يستعطف فردريك الملك الكامل على هذا الوجه ، فقد نشأ فردريك في صقلية وتربى في كنف الحضارة الاسلامية ، وشعبه على حب المسلمين وحضارتهم (٢) .

الثانية : يانا والتنازل عن بيت المقدس :

هذا من جانب ، ومن جانب آخر فان الملك الكامل كان يميل الى

(١) الوافي بآثوفيات : ذيل الباب الثاني والسبعين .

(٢) دكتور سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩٩٦ .

التسامح ، وكان يريد أن يتم اتفاق على بيت المقدس ، اتفاق يرضى المسلمين والمسيحيين ، وقد رأى أن العلاقة الطيبة بالامبراطور فردريك الثانى تتيح الوصول الى حل وسط ، فسار فى المفاوضة وتمت اتفاقية يافا سنة ١٢٢٩ وجعلت مدتها عشر سنوات ، وبمقتضاها سلم الملك الكامل لفردريك الثانى بيت المقدس وبيت لحم والناصرة مع شريط يصل هذه البقاع بعكا التى كانت قد صارت عاصمة مملكة بيت المقدس ، منذ استولى صلاح الدين على بيت المقدس التى كانت عاصمة المملكة من قبل ، وقد نصّ فى الصلح « على أن تبقى بيت المقدس على ما هى عليه من الخرائب ولا يُجدد سورها وأن تكون سائر قرى القدس للمسلمين لا حكم فيها للفرنج ، وأن الحرم بما احتواه من الصخرة والمسجد الأقصى يكون بأيدي المسلمين لا يدخله الفرنجة الا للزيارة فقط ويتولاه قوام من المسلمين ، ويقيمون فيها شعائر الاسلام من الأذان والصلاة (١) » .

وبهذا بقيت عكا عاصمة المملكة اذ كانت أكثر حصانة وتسليحا .
والنظرة السريعة ترى فى هذا الصلح خسارة ، وقد هاجمه المسلمون فى حينه وبكوا على ضياع بيت المقدس ، ودافع الكامل عن نفسه بقوله :
« إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس خربة ، والمسجد على حاله ، وشعار الاسلام قائم ، ووالى المسلمين متحكم فى الأعمال والضياع (٢) » .

ولم يعدّ المسيحيون هذه الاتفاقية كسبا واضحا ، وهاجمها كثيرون منهم ، ولنا نستطيع أن نوافق على تسليم شبر من الأرض الاسلامية طوعا ، وربما رأى الساسة ما لا نراه ، وقدّروا عواقب أخرى فحشوا بالقليل ليحموا الكثير ، وهؤلاء سيساعدهم ما عُرِف عن الملك الكامل

(١) المقرئى : السلوك ج ١ ص ٢١٠ .

(٢) المرجع السابق .

من الصفات الطيبة ، فقد ذكر أبو الفدا (١) ، أنه كان ملكا جليلا مهيبا حازما حسن التدبير ، وذكر المقرئ (٢) أن الأمن كان مستتباً في عهد الملك الكامل لهيبته ويقظته ، حتى كان الواحد يمر بالذهب الكثير والأحمال من الثياب من العريش إلى مصر فلا يحس بخوف .

وفي نفس العام عاد فردريك إلى أوروبا إذ كان البابا قرر حرمانه لأسباب كثيرة منها تباطؤه في السير لسوريا مما سبب خياع دمياط ، فلما استعاد فردريك بيت المقدس أخذت البابوية تقلل من قيمة استرداده على الوجه الذي تم عليه ، على أن صلحا تم بين فردريك والبابا سنة ١٢٣٠ رُفع على أثره قرار الحرمان .

ونقطة أخرى تتصل بفردريك وكانت ذات أهمية عظمى بالنسبة لمستقبل مملكة بيت المقدس آنذاك ، تلك أن الامبراطور تزوج سنة ١٢٢٥ من الأميرة يولاند ابنة يوحنا دي برين ملك بيت المقدس ، وكانت الأميرة هي الوريثة الوحيدة للملكة عقب موت أبيها في نفس العام (١٢٢٥) وبهذا الزواج أصبح الامبراطور ملكا لمملكة بيت المقدس ، وظلت هذه المملكة تابعة للامبراطورية الرومانية المقدسة حتى سنة ١٢٦٨ ، وسنرى بعد قليل أثر هذا الوضع على مستقبل بيت المقدس .

بين الحرب الصليبية السادسة والسابعة

(صراعات داخلية)

إن الفترة التي مضت بين الحرب الصليبية السادسة والحرب الصليبية السابعة أي بين ١٢٣٨ ، و ١٢٤٨ تعتبر فترة حاسمة في تاريخ الشام وتاريخ الاسلام على العموم ، وفي كلمة موجزة نقرر أن اضطرابا

(١) المختصر في اخبار البشر : حوادث ٦٣٥ .

(٢) السلوك : ج ١ ص ٢٥٩ .

قاسيا هز المجتمع الاسلامى آنذاك ، فبعد أن أسقط المغول دولة الأتراك الخوارزمية هاج الخوارزمية وساروا فى أرض الاسلام يعيشون فسادا ، فكانوا فى تدميرهم يسيرون على أسلوب المغول أو أشد ، ثم كان الأيوبيون فى تفكك وانحلال وصراع ، والسلاجقة بينهم خلاف جلى لهم فى الأحداث والحروب الداخلية نصيبا كبيرا ، وفى هذه الفترة توفى الملك الكامل سنة ١٢٣٨ ، وتولى بعده ابنه الملك العادل الثانى (١٢٣٨ — ١٢٤٠) ولكنه كان ضعيفا فلم يستطيع أن يقاوم أخاه الصالح نجم الدين أيوب فأخلى له عرش مصر (١٢٤٠ — ١٢٤٨) .

ولم يكن المعسكر الصليبي أحسن حالا من معسكر المسلمين ، وقد رأينا عند الحديث عن الحرب الصليبية السادسة بذور الاضطراب والقلق التى نمت من يوم الى يوم ، فالامبراطور فردريك الثانى أصبح ملكا لمملكة بيت المقدس ، ولكن مصالحه فى الغرب كانت بطبيعة الحال أهم من مصالحه فى سوريا ، ولذلك سرعان ما عاد الى أوروبا تاركا مكانه خاليا ، وتاركا المملكة التى لها الاشراف على الصليبيين فى الشام دون ملك مقيم يدبر شأنها بطريق مباشر وحاسم وسريع ، ثم ان اتفاقية يافا ألزمت — كما قلنا آنفا — ألا يحصن بيت القدس . ومن هنا فقدت هذه المدينة أهميتها الحربية ، وكان من السهل أن يقتحمها المسلمون فى أى وقت ، لولا ما كان بينهم من خلاف ، وكان للخلاف بين الامبراطور والبابا أثر لم ينته بانتهاء الخلاف ، بل ظلت له آثار بعد ذلك .

وكان الصليبيون بالشام فى اضطراب وتفكك ، وقام صراع مرير بين أمراء الاقطاع الامبراطورى النورماندى .

وهكذا وقف بيت المقدس — وهو المركز الذى كانت تمرور حوله

الأحداث العسكرية آنذاك — بين القوى المتعادلة ضعفا وخورا ، وأخذ بيت المقدس يترنح مستجيبا لمن يحاول أن يتسلمه .

الصالح اسماعيل يستولى على بيت المقدس :

وفي سنة ١٢٣٩ حدثت معركة قوية عند غزة اشتركت فيها جيوش الصالح اسماعيل ملك دمشق (١) وجيوش العادل الثانى ملك مصر ، وقد مزقت هذه القوة جيش الصليبيين وقتلت ألفا وثمانمائة وأسرت عددا كبيرا ، وكان كثير من الزعماء والأمراء بين القتلى والأسرى ولم يقتل من المسلمين غير عشرة (٢) ، وقد استولت جيوش الصالح اسماعيل على بيت المقدس عقب هذه الموقعة (٣) .

الصالح اسماعيل يعيد بيت المقدس للصليبيين :

بيد أن استيلاء الصالح نجم الدين أيوب على السلطة بمصر

(١) كان ملكا لدمشق بضعة شهور خلال سنة ١٢٣٧ ثم أخلى الطريق لأخيه الملك الكامل ، وبعد الكامل جاء ابنه العادل سنة ١٢٣٨ ملكا على مصر والشام ، بيد أن الصالح نجم الدين أيوب استولى على دمشق من أخيه العادل ١٢٣٩ ثم ذهب الى مصر فاستولى عليها سنة ١٢٤٠ ، ولكنه بعد أن ترك الشام الى مصر قفز الصالح اسماعيل للسلطان مرة أخرى بالشام ، وقد استمر هذه المرة ست سنوات ١٢٣٩ — ١٢٤٥ ثم عاد فانهزم أمام الصالح أيوب .

(٢) أبو شامة : فيل الروضتين ص ١٧٠ .

(٣) أبو الفدا : المختصر بحوادث سنة ٦٣٧ وترى بعض المراجع أن الناصر داود صاحب الأردن هو الذى استولى على بيت المقدس دون أن تربط هذا الاستيلاء بهوقعة غزة ، ولكفنا نؤثر الراى الذى قلنا به لأن الصالح — وليس الناصر — هو الذى عاد فسلم بيت المقدس للصليبيين سنة ١٢٤٠ باجماع المراجع ، وليس طبيعيا أن نفترض أن الناصر داود سلم بيت المقدس للصالح اسماعيل وهذا سلمه للصليبيين .

من الملك العادل أثار الصالح اسماعيل الذي خاف على ملكه فتحالف مع الصليبيين ضد نجم الدين وأعاد لهم بيت المقدس سنة ١٢٤٠ ، فاستهدف غضب المسلمين وشنعوا عليه وأكثروا عليه السفط (١) ، وفي اللقاء الذي أعد للصدام بين الصليبيين والصالح اسماعيل من جانب وبين الجيوش المصرية من جانب آخر سنة ١٢٤٠ استدار جند الشام المسلمون وانضموا الى القوات المصرية ومالوا جميعا على الفرنج فهزموهم عند غزة وأسروا منهم خلقا لا يحصون (٢) ، ولكن المسلمين لم يعودوا للسيطرة على بيت المقدس .

الخوارزمية يستعيدون بيت المقدس :

وبعد ذلك بأربع سنوات أي في سنة ١٢٤٤ ، انتزع الخوارزمية حلفاء الملك الصالح نجم الدين أيوب آنذاك ، بيت المقدس من الصليبيين ، وقد تتبع الخوارزمية الصليبيين الفارين من المدينة المقدسة الى يافا فقصوا على الكثيرين منهم ، أما كنيسة القيامة وغيرها من الأماكن الدينية المسيحية داخل بيت المقدس فقد اعتدى عليها الخوارزمية ودمروا وأتلفوا معظمها ، وأعادوا بيت المقدس نهائيا الى المسلمين ، ولم يقدر لجيش مسيحي أن يقرب من هذه المدينة بعد ذلك حتى الحرب العالمية الأولى (٣) .

حطين الثانية وتدمير الصليبيين والخوارزمية :

وحدثت بعد ذلك موقعة غزة الثانية في أكتوبر سنة ١٢٤٤ بين الملك الصالح نجم الدين وحلفائه الخوارزمية وبين الصليبيين ومعهم الاستبارية والداوية وبعض المخرفين المسلمين ، ودارت الدائرة على الصليبيين

(١) ابو الفدا : المختصر حوادث سنة ٦٣٩ والسلوك للمقريزي ج ١

ص ٣٠٤ ، ٣٠٨ .

(٢) ابو الحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٣ .

(٣) دكتور سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٤٥ .

وحلفائهم. وخرّ منهم أكثر من ثلاثين ألفا وسبق المئات من الأسرى إلى مصر ، وتسمى هذه الموقعة لهذا « حطين الثانية » ، وعلى أثرها استولى الصالح أيوب على دمشق ، ولما واجه أطماع الخوارزمية وعبثهم حاربهم وقضى عليهم سنة ١٢٤٦ ثم استولى على حصن طبرية سنة ١٢٤٧ من الصليبيين وعلى عسقلان في نفس العام من الاسبتارية ، وقد أحدثت هذه الانتصارات ذعرا في أوروبا ودفعت لحرب صليبية جديدة هي الحرب الصليبية السابعة •

الحرب الصليبية السابعة

لويس التاسع وأسره في مصر

(١٢٤٩ — ١٢٥٠)

كان هدف هذه الحرب أن يعود الصليبيون مرة ثالثة الى بيت المقدس ، ولكن أصبح من المتأكد لديهم أن بيت المقدس من غير مصر لا يمكن أن يبقى في أيديهم ، ولذلك اتجهت هذه الحرب الى مصر كما اتجهت حروب مثلها من قبل ، وكانت هذه الحرب بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وقد حمل لويس الصليب عند سقوط بيت المقدس سنة ١٢٤٤ وأخذ يدعو الى حرب صليبية جديدة ولكنه تأخر في البدء بها لأنه كان مشغولا بمحاولة الإصلاح بين البابا وامبراطور المانيا ، ولم تنتج هذه المحاولة ، فاصطحب اخوته وحاشيته وبدأ رحلته الصليبية في أول الشتاء سنة ١٢٤٨ وأمضى الشتاء في قبرص ثم استأنف سيره موجهًا حملته الى مصر كما قلنا .

لويس التاسع في دمياط :

وكان سلطان مصر (الصالح نجم الدين الذي سبق الكلام عنه) موجودا بالشام يزاوّل بعض الحركات العسكرية التي يحاول بها أن يثبت ملكه ، فانتهاز الصليبيون هذه الفرصة ونزلوا دمياط واحتلوها سنة ١٢٤٩ ومرض الملك الصالح فعهد لولده المعظم توران شاه بالسلطنة على مصر وكان آنذاك أميرا على حصن « كنيّا » (١) وجعل الأمير حسام الدين بن علي نائبا للسلطة بالقاهرة والأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ قائدا عاما على الجيوش المصرية التي عسكرت في جديلة والمنصورة لمواجهة

(١) بلدة تاريخية على دجلة الأعلى ، وهي الآن داخل الحدود التركية المجاورة للعراق ، ويطلق عليها حاليا اسم محرف هو « حنكيف » .

الزحف الصليبي ، ومات الملك بعد ذلك فأخفت زوجته شجرة الدر خبر وفاته وأخذت تصدر باسمه الأوامر إلى المماليك ، وفي الوقت نفسه أرسلت تستدعى توران شاه •

الصليبيون يصلون إلى ضواحي المنصورة :

ولم تستطع حملة لويس التاسع أن تواصل سيرها إلى الجنوب من دمياط بسبب أنواع العقبات المائية والطينية التي تخلفت عن مياه الفيضان في هذه المنطقة المعروفة باسم جزيرة دمياط ، وذلك فضلا عن العمليات التعويقية التي قامت بها الخيالة الأيوبية المصرية خير قيام (١) وأخيرا وبعد جهد جهيد استطاعت الحملة الصليبية أن تصل إلى معسكر يقابل المعسكر المصري الموجود في جديلة إحدى ضواحي المنصورة ، ولم يبق من فاصل بين القوتين إلا البحر الصغير ، وقد أخذ لويس التاسع يعدد العدة لعبور هذا النهر ، ولكن القوى المصرية قضت على كل الوسائل التي اتخذها ، وأخيرا اهتدى الصليبيون إلى مخاضة سلمون حيث يمكن للخيالة أن يعبروا النهر راكبين خيولهم ، وفي أمسية من أيام فبراير سنة ١٢٥٠ قفز الخيالة بقيادة روبرت كونت أرتوا أخي الملك لويس ومعه طائفة الفرسان الداوية وفرق أخرى عن الفرسان ، واستطاعوا أن يصلوا إلى الشاطئ الآخر وأن يهاجموا المصريين في معسكر جديلة فسقط تل جديلة في أيديهم وقتل الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ وهو يناهض المعتدين ، وانسحبت القوة المصرية متراجعة إلى المنصورة ، ووقعت أخبار هذا الزحف المفاجيء وقع الصاعقة على المصريين في المنصورة والقاهرة •

معركة عنيقة بالمنصورة :

غير أن روبرت لم يكف بهذا الانتصار بل أصر على أن يتعقب القوات المنسحبة إلى مدينة المنصورة دون أن ينتظر القوات البرية التي كان

(١) دكتور محمد مصطفى زيادة : حملة لويس على مصر ص ١٢٨

يقودها أخوه الملك والتي كانت تنتظر عون الفرسان لاقامة جسر تعبر عليه ، وكان هذا غرورا دفع روبرت ثمنه غاليا ، فان الظاهر بيبرس قائد القوات المصرية بالمنصورة أفسح الطريق للمهاجمين ، وأكمن فرقا من جنده في مناطق خاصة ، وأمر الأهليين بالاختفاء في بيوتهم مؤقتا ، وفي لحظة مفاجئة صدرت الأوامر بالانقضاض على الصليبيين ، واذا بهؤلاء بين وائل ينصب عليهم من الجنود ومن الأهليين جميعا ، حتى أصبحت البيوت والأزقة مقابر لعدد كبير منهم ، وسقط روبرت نفسه قتيلًا في أحد شوارع المنصورة .

على أن الملك لويس استطاع بين صخب المعارك أن يقيم الجسر المطلوب ويعبر بالمشاة إلى معسكر جديلة ، وهكذا وقف الجيشان وجهًا لوجه ، وقف الصليبيون في جديلة ، ووقف المصريون في المنصورة .

ولم يثقل الظاهر بيبرس بالنصر الذي أحرزه مع الفرسان ، بل راح يهاجم معسكر الملك في جديلة ، وقد أحرز نصرا مؤزرا في هجماته ، وفي إحدى معاركه الضارية أوشك شارل كونت أنجو الأخ الثاني للملك لويس أن يسقط في أيدي المصريين ، لولا أن الملك غامر فانقضض اليه وأنقذه ، ويعرف هذا اليوم بيوم جديلة الكبرى ، وقد حدث في ٢١ فبراير سنة ١٢٥٠ .

توران شاه يقود المعركة الفاصلة :

وحضر الملك توران شاه عقب ذلك ، وتغيرت خطة المعركة فإدارها توران شاه بحريّة ، وقد استطاع أن يقطع التموين عن الجنود حتى عجز عليهم الطعام ، وحاول الملك لويس التاسع أن يلجأ لوسيلة المفاوضات ، ولكن أحدا لم يصغ اليه ، وحاول أن ينسحب بجيشه إلى دمياط ، ولكن المصريين سدوا عليه المنافذ ، وحدثت عدة معارك بحرية انتصرت فيها القوى المصرية انتصارات باهرة ، وسقط أكثر جنود الصليبيين قتلى وجرحى ، كما مرض كثيرون منهم بسبب الأوبئة

التي انتشرت والمجاعة التي تفشت ، ولم يقبل المصريون الا التسليم دون قيد ولا شرط .

لاستسلام وأسر الملك وصاحبه :

وعلا فجساة صيوت جاويش فرنسي اسمه مارسيل بأن الملك لويس أصدر أوامره بالتسليم العام للقوات الأيوبية ، ولم يشعر بالضبط الدافع الذي دفع ذلك الجاويش لهذه الصيحة ، على أن الأحوال كانت مهيأة لهذا التسليم ، ولم يقبل الملك على أى حال أن يستسلم ودافع عنه جمع من الخيالة الصليبية بقيادة كونت شاتيون ، ولكن القوى المصرية دكت هذا الدفاع وقبضت على الملك وعلى أخويه شارل كونت أنجو وألفونس كونت بواتييه وجماعة كثيرة من باروناته وجاشيته ، وسبق الملك الى دار ابن لقمان حيث سجن ، أما مجموعة الأسرى وعدتهم عشرة آلاف من الفرسان يضاف اليهم كبار البارونات وعددهم كبير فقد وضعوا في خيمة كبيرة تحت حراسة مشددة ، ودارت المباحثات بعد ذلك للجلاء دون قيد ولا شرط على أن يدفع الصليبيون فدية كبيرة لتحرير الملك السجين . ودفع الملك الجزية وأفرج عنه ، وانسحب الجيش من دمياط خائبا (١) .

وعد "وتكت" :

وقد تعهد لويس التاسع في اتفاقيته مع المماليك ألا يقصد شواطئ الاسلام مرة أخرى ، ولكن شق عليه عقب إطلاق سراحه في مايو سنة ١٢٥٠ أن يعود الى بلاده مباشرة وقد لطخت سمعته فضيحة الهزيمة وعار الأسر ، واختار أن يقصد بلاد الشام أولا عسى أن يتمكن من القيام ببعض الأعمال الصليبية التي تعيد اليه ماء وجهه ، وكان الصليبيون في بلاد الشام وقتئذ أحوج ما يكون الى زعيم قوى ينظم صفوفهم ويحل

مشكلاتهم وييث فيهم روح الأمل والثبات ، ولذلك فرحوا بمقدم لويس التاسع اليهم ورحبوا به ترحيبا كبيرا (١) . وقد قضى لويس التاسع بالشام أربع سنوات (مايو ١٢٥٠ - أبريل ١٢٥٤) عمل فيها جهادا لتصفية الخلافات بين أمراء الصليبيين بعضهم والبعض الآخر من ناحية ، والاحتفاظ بكيان الصليبيين وسط الخلافات التي تأججت بين بنى أيوب في الشام والمماليك في مصر من ناحية ثانية ، ثم القيام بمباحثات هامة مع التتار من ناحية ثالثة ، ولكن كل ذلك لم يأت بطائل ، فغادر الشام وهو مدفوع بعصبية مجنونة ضد المسلمين ، فهاجم تونس قبل أن يصل الى بلاده ومات بها ودفن في إحدى مدنها وهي مدينة قرطاجنة (٢) .

(١) الدكتور سعيد عاشور : العصر المماليكى في مصر والشام ص ٥٦ .

(٢) التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية للمؤلف ج ٤ ص ١٧٢ .
ومن انكتب المفصلة الدقيقة من الحرب الصليبية السابعة ينهى أن نذكر كتاب « حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة » لاستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة ، وهو مرجع حافل ، انتفعنا به كثيرا فيها اوردناه عن هذا الحرب .

الحروب الصليبية تقرب من نهايتها

قلت في مكان آخر من كتيبى (١) إن أوروبا قد توقفت عن مد يد العون للامراء الصليبيين في فلسطين بوتركتهم يهرون تحت أقدام المسلمين ، لسبب ظاهر هو ظهور المغول في التاريخ ، وسيامهم بحركة التدمير للعالم الاسلامى ، وإراقتهم دماء المسلمين ، وتكليفهم بالمفكرين والعلماء ، ولهذا أحست أوروبا أن المغول يقومون بالدور الذى كانت أوروبا قد اضطلعت به ، وهو القضاء على الاسلام والمسلمين بشكل يشبه فى بشاعته وقسوته اتجاهات الغربيين .

ولهذا توقفت أوروبا عن مساعدة الصليبيين بالشرق ، وإذا كان المسلمون سينتصرون عليهم فان هذا ليس كبير خطر ، فالهم هو القضاء على الاسلام والفكر الاسلامى .

وعلى هذا كانت حملة لويس التاسع آخر عون ذى بال قدمته أوروبا لحملة الصليب ، وترك هؤلاء الساكنين تحت رحمة المسلمين ، ولما حقق المسلمون النصر ضد المغول فى عين جالوت وفى المعارك التى تلتها ينس الصليبيون من الانتصار على المسلمين الذين أوقعوا الهزائم بقوة المغول الرهيبة التى كان الصليبيون يعتقدون أنها لا تهزم .

الجهاد حتى النصر :

وهكذا اذا كانت حملات أوروبا للشرق قد توقفت ، فانه كان على المسلمين أن يباشروا « الجهاد » كى يحرروا البلاد التى كانت لا تزال فى أيدي المسيحيين الأوربيين ، وحدث بعد موقعة المنصورة أن قتل توران شاه فكان آخر سلاطين الأيوبيين ، وانتقل السلطان الى شجرة الدر

(١) المجتمع الاسلامى ص ٢١٢ .

التي كانت زوجة أبيه الملك الصالح نجم الدين يعاونها عز الدين أيك ، وبهذا انتقل السلطان الى المماليك ، وتم لهم السلطان عقب التخلص من شجرة الدر ، وتحمل المماليك بذلك عبء القضاء على بقايا الغاصبين ، وكان في المماليك سلاطين جديرون بحمل هذا العبء الكبير .

وقد كان في وسع المماليك أن يعجلوا بطرد الصليبيين ، ولكن عاملا مهما ، أتاح لهم البقاء بالشام حوالى أربعين سنة بعد سقوط بيت المقدس ، ذلك أن المغول كانوا قد بدءوا زحفهم على العالم الاسلامى كما قلنا من قبل ، ثم أسقطوا الخلافة العباسية سنة ١٢٥٨ م وراحوا يحرقون المدن ويدمررون الحضارة الاسلامية ، ووصلوا في زحفهم الى الشام متجهين الى مصر ، وكان المماليك يعدون العدة لاستقبالهم في معركة حياة أو موت ، لا بالنسبة لمصر فقط بل بالنسبة للعالم الاسلامى كله ، ومن ثم فقد أجل المماليك صراعهم مع الصليبيين ، وكان هؤلاء مشغولين في خلافتهم الداخلية فلم يستثمروا حقد المماليك ، وتقابل الجيش المصرى بقيادة البطل السلطان قطز وبجواره « الظاهر بيبرس » في ٢٥ من رمضان سنة ١٢٦٠ بالمغول في عين جالوت ، فاندحر المغول وانهزموا هزيمة ساحقة ، وأتيحت الفرصة للمماليك ليستديروا للصليبيين ويصارعوهم للقضاء عليهم ، .

وفيما يلي أبرز السلاطين الذين قادوا الجيوش الاسلامية وخاضوا معارك حاسمة ، قضوا فيها على بقايا الصليبيين المعتدين .

الظاهر بيبرس

بطل عظيم من الأبطال الذين أنجبتهم مصر ، وسلطان من خيرة سلاطين المماليك ، له في كل جانب موهبة ، وفي كل مجال قدرة ومكانة ، فأياديه واضحة في الصراع ضد الصليبيين ، وضد المغول وإصلاحاته الداخلية ناطقة بجهده ومكانته .

ويقول عنه ابن خلكان : كان ملكا عالى الهمة ، شديد البأس لم نر في هذا الزمان ملكا مثله في عزمه وهمته (١) .

ويقول عنه صاحب كنز الدرر : إن بيبرس كان ملكا هماما شجاعا مقداما لا يرهب الموت كثير الحيل ، حسن السياسة ، جميل التدبير ، ميمون الحروب ، مؤيد العزم (٢) .

ويقول عنه استانلى لين بول : كان شجاعا يطمح في أن يكون نظيرا لصلاح الدين (٣) .

ويقول عنه بركلمان : ان عهد بيبرس كان كعهد الرشيد وصلاح الدين أحد عبور الاسلام الذهبية (٤) .
ماذا فعل بيبرس مع الصليبيين ؟

سنورد فيما يلى لمحات عن معاركه الكثيرة الرائعة :

قيسارية :

— في سنة ٦٦٣ هـ = ١٢٦٥ م خرج بيبرس الى قيسارية الشام ، وضربها ضربا استسلمت عقبه ، ودك ما بها من حصون .
وكان لويس التاسع قد حصنها عندما كان بالشام ، ولكنها لم تستطع الصمود أمام قوة مصر ، فسقطت في أيدي جنود بيبرس .

حيفا :

وبعد فترة وجيزة هاجم حيفا وقلعتها وأمر بتدميرها ، وقتل الكثيرين من حراسها ، وفر الآخرون الى السفن الراسية بالميناء .

(١) وفيات الاعيان ج ٤ ص ١٥٥ .

(٢) كنز الدرر : ج ٨ ص ٢١٤ .

(٣) The Story of Gairo p. 214

(٤) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٣ ص ٢٣٥ .

أرسوف :

ثم سار بييرس الى قلعة أرسوف البحرية ، وهى الى الجنوب من
قيسارية ، وبعد حصار طويل استسلمت القلعة له .

عسقد :

ثم سار بييرس الى عسقد ، وحاصرها قرابة شهر ، واستولى
عليها ، وخرَّب قلعتهما ، وطلب الفروجة منه الأمان على أن يخرجوا
بدون سلاح أو مال عائدين الى أوربا ، فوافقهم السلطان على ذلك .
وكان كل من يخفى منهم مالا أو سلاحا يدفع دمه نظير هذا الغدر ،
وبعد أن استولى على القلعة أعاد بناءها ، وكتب على الجدران عبارة
تصور مدى سروره بانتصاره على الصليبيين فيها ، وهذه العبارة هى :

عماد الدين الظاهر بييرس الذى حوّل
الكنائس الى مساجد ، ورنين النواقيس الى
أصوات المؤننين ، والهمهمة بالإنجيل
الى ترتيل القرآن .

يافا :

وسار بييرس بعد ذلك الى يافا ، وكانت شديدة التحصين ،
وقد بدأ مسيرته ليلا فلما أصبح الصباح كان الظاهر بجيشه
يدق أبوابها وعجز جنودها على المواجهة بعد هذه المفاجأة الخطيرة ،
وأخذوا يولون الأدبار ، فاندفع جنود بييرس الى المدينة ودخلوها ،
وطلب سكانها الأمان فوافق السلطان على ذلك ، وخرجوا من يافا الى
سفنهم التى حملتهم الى عكا ، وأمر الظاهر بهدم قلاع يافا .

حصن الكرك :

ثم استولى بييرس على حصن الكرك ، ولهذا الحصن فى تاريخ
النضال أهمية عظمى من عهد صلاح الدين الأيوبي :

امارة أنطاكية :

وقد هيات له هذه الانتصارات أن يتجه بضربة شديدة ضد امارة أنطاكية ، وكانت أقوى الامارات الصليبية الباقية بالشام إذ كانت تتلقى امدادات من أوروبا ، ثم لأنها كانت قد عقدت معاهدة حربية مع المغول ضد المسلمين ، وقد حاصرها الظاهر بيبرس واستنفذ حصارها جهدا كبيرا ووقتا طويلا ، ولكن بيبرس تغلب عليها ، وأحال مدنها أطلالا ، وكان لسقوطها صدى ضخيم ، إذ أدركت الجيوب الباقية للصليبيين عدم استطاعتها البقاء في وجه المصريين ، فطلبت عقد صلح مع السلطان ، وكان ذلك الصلح بمثابة راحة واستعداد لجولات أخرى قام بها السلاطين المصريون بعد بيبرس .

ومما يذكر لبيبرس أنه كان يستعمل الزعب النفسى ليقلق أعداءه بالاضافة الى قوته العسكرية ، ومن ذلك أنه كتب الى بوهيمند أمير أنطاكية ، وكان هذا عند سقوط امارته مقيما في طرابلس ، فأراد الظاهر أن يدمر نفسيته حتى لا يفكر في استرداد امارته ، فكتب له خطابا طويلا جاء فيه :

نزلنا أنطاكية في مستهل رمضان وخرج عساكرك
للمبارزة فكسروا ، وتناصروا فما نصرؤا ،
وفتحناها بالسيف رابع شهر رمضان ، وقتلنا كل
من اخترته لحفظها والدفاع عنها ، فلو رأيت خيالك
وهم صرعى تحت أرجل الخيول ، وديارك والنهاية
فيها تصول ، وأموالك وهى توزن بالقنطار ،
وجواريك وكل أربع منهن تبعن بدينار ، ولو رأيت
كنائسك وصلبانها قد كسرت ، وقبور البطارقة
قد بعثرت لتيقنت أن قوة الله أعادت
أنطاكية الى أهلها الى الابد ، وتركك بدون عون
أو مدد .

وبالإضافة الى البلاد التي فتحها الظاهر بيبرس كانت هجماته هنا وهناك لا تتقطع ، فلم يخلُ يوم من أيامه من ضربة للصليبيين وتدمير لسلطانهم ، وكان أحيانا ينال النصر كاملا ، وأحيانا يثير الخوف والرعب ، تمهيدا لهجوم آخر تكون فيه النهاية للأعدائه ، وقد وصف الظاهر بيبرس هذه السياسة بقوله : **أجىء عاما لأرعى زرعكم وأخرّب دياركم ، ثم أعود في العالم التالي اليكم لأخذ أرواحكم** .

ولا شك أن الذي يقرأ من المسلمين سيرة الظاهر بيبرس في عصرنا الحاضر ، يتجه الى الله خائسعا متضرعا أن يمنحنا قائدا في صلابته وموهبته ، ليستعيد الأرض السورية ، وليقضي على أعداء الله الذين فجروا في فلسطين محاولين الاستقرار في أرض غير أرضهم ، وديار ليست بديارهم .

قلاوون

بعد الظاهر بيبرس جاء ابنه بركة خان وسلامش ، ولكن عصرهما كان قصيرا للغاية ؛ كان عصر الأول سنتين والثاني سنة ، ثم جاء الى الحكم واحد من أبطال السلاطين هو قلاوون . وفي عهده أغار المغول على حمص في أول عهد قلاوون ، فزحف لهم السلطان وأوقع بهم هزيمة ساحقة مما جعلهم ينكمشون طيلة عهده ، وبهذا تفرغ قلاوون للصليبيين ، وكانت أولى معركة ضدهم **معركة اللاتقية** التي حاصرتها جيوش مصر حتى استولت عليها ، ثم جاء بعد ذلك دور امارة طرابلس وهي آخر امارات الصليبيين في الشرق .

امارة طرابلس :

كانت طرابلس محصنة تحصينا قويا مكنها من أن تصمد حتى ذلك الوقت ، ومما مكن لطرابلس أن البحر يحيط بها من أكثر الجهات ، وبالتالي تتلقى فيض المعونات من أوروبا ، ولكن قلاوون اختار الوقت المناسب للهجوم ، وفاجأ حراس طرابلس مفاجأة كانت شديدة التأثير عليهم ، فقد جاءهم من طرق لم يتوقعوها ، وبعدد وعدة لم يحسبوا لها أي حساب .

وحاصر الجيش المصري طرابلس ، وبدأ يضربها بالمجانيق ، وأخذ بعض الجيش في نقب الأسوار ، ولم تستطع طرابلس أن تصمد أكثر من شهر ، ثم سقطت بعد أن دمرتها قوات قلاوون وخربت حصونها ، ودخل المصريون المدينة وأسروا عددا كبيرا من جنودها واستسلم السكان .

وعقب سقوط طرابلس أرسل السلطان قلاوون الى الملك المظفر صاحب اليمن رسالة توضح فزع الصليبيين من هجوم جيش مصر ، وقد جاء فيها : قد تركناهم مسلوبى الأيا ، مشغولين بالرزايا ، أنزلهم عدم النصير ، وأصارهم الخوف بدون نصير .

ولم يبق للصليبيين إلا صور وبيروت وعكا ، وقد حاول قلاوون أن يستولى على هذه المدن ولكن المنية عاجلته وهو في الطريق .

الأشرف خليل ومفخرة إسقاط عكا

قاد الأشرف خليل الجيش الكبير الذى كان أبوه قد أعده وزحف على عكا آخر مدينة محصنة بأيدي الصليبيين ، وقد تركز بها المنسحبون من الصليبيين من كل مكان ، ولذلك كانت منيعة وقوية ، وقد حاصرتها جيوش الأشرف خليل وألقت عليها وابلا من أسلحة الدمار ، ويقص شاهد عيان من المؤرخين صراع المسلمين حول عكا بقوله : حارب المسلمون

مرة بالأبراج وأخرى بالمتجنقات ، وراية بالدبابات ، وأحيانا بالكباش وآونة باللوالب ، وطورا بالنقب وأنا بظم الخنادق وآونة بالتسرب أو نصب السلاالم بالاضافة الى الزخوف فى الليل والنهار من البر أو من فوق السفن (١) حتى ظنوا أن القيامة قد قامت ، ولم تجد عكا بدّا من انخساع للقوة فاستسلمت ، ودخلها جنود المسلمين ودمروا حصونها وأسروا أكثر رجالها .

وباستسلام عكا استسلمت صور وبيروت دون مقاومة فسلمتا من التخریب ، ودالت بذلك دولة الصليبيين فى الشام ، وانتهت فصول هذا الصراع الطويل .

ملاحقة الصليبيين خارج الحدود

الناصر محمد بن قلاوون :

وفى عهد الناصر حاول الصليبيون المطرودون والفارثون من الشام الهجوم على الساحل الاسلامى متخذين بعض الجزر فى البحر المتوسط مراكز لهم ، وقد تصدى الناصر لهذا العدوان وأعد أسطولا بحريا قويا ، لم يكتف بالدشاع عن الساحل الاسلامى ، وإنما هاجم مراكز العدوان حتى أسكت صوتها .

برسباى :

وقد حدث فى عهد برسباى حدث كبير هو استيلاء المماليك على جزيرة قبرص وتهديد جزيرة رودس ، وكانت جزيرة قبرص قد خضعت لسلطان ريتشارد قلب الأسد ، وأصبحت قاعدة لإمداد الصليبيين بالمعونة العسكرية ، وبعد طرد الصليبيين من الشام أصبحت جزيرة قبرص ملجأ

(١) نقلا عن « الاسلام والحضارة العربية » للأستاذ محمد كرد على

للسرازم الأخيرة من الصليبيين الذين طردوا من الأرض الإسلامية ، كما أصبحت الجزيرة ملجأ للقراصنة ولأعداء العرب والمسلمين ، ومن هنا بدأ التوتر يظهر بين قبرص ودولة المماليك ، وهاجم القبرصيون سواحل مصر والشام عدة مرات في مطلع القرن الخامس عشر الميلادي ، وقد اضطر برسباي أن يفكر في احتلال قبرص ، فأرسل لها بضلع سفن لجس نبض القوة بالجزيرة ، فعادت هذه السفن بالغنائم والأسرى مما شجع برسباي على الزحف للاستيلاء على الجزيرة ، وقد تم ذلك سنة ٨٣٠ هـ - ١٤٢٦ م وخرت الجزيرة أمام قوى المصريين وأسر ملكها وجيء به إلى القاهرة ، وظل بها حتى افتدى نفسه بفدية كبيرة ، وبقيت الجزيرة تحت سيطرة المماليك ، وظلت تدفع جزية سنوية حتى دخل العثمانيون مصر .

أما رودس فقد حاولت مناصرة جزيرة قبرص ، ولكن قوى مصر تصدت لها في عهد السلطان جقمق وغزتها ثلاث مرات حتى أسكتت صسوتها .

أسباب فشل الحروب الصليبية

أعلنت أوروبا كلها العداء للشرق ، واختارت الوقت المناسب لتعلن العداء وأهدافه ، ووضعت أوروبا كل إمكانياتها وكل شبابها في خدمة هذا الهدف ، ولكن الفشل كان نصيبها وآبت من هذه الجولة الطويلة بخفى جنين كما يقول المثل العربى ، ويختلف الكتاب الفرنجة في ذكر الأسباب التى أدت لهذا الفشل الذريع لتلك الحروب التى قضت دون نتيجة على مئات الآلاف من القتلى ، والتى دمرت الكثير من العمران طيلة قرنين حالكين من الزمان ، وسنقتبس فيما يلى خلاصة ما يذكرون من أسباب :

سوء سياسة الكنيسة :

فىرى بعض الكتاب أن الفشل كان نتيجة لسياسة الكنيسة التى كانت تضع مصلحتها فوق كل مصلحة ، وكان لا يهمها النصر بمقدار ما يهمها أن تجنى هى نتائجه ، ومن هنا لم تبارك النصر العجيب الذى حصل عليه فريديريك الثانى ، وأعلنت حرمان الامبراطور المنتصر ، وحاصرت روحيا الأماكن المقدسة فتوقف سيل الحجاج إليها طيلة إقامة فريديريك بها .

أمرء الإقطاع :

ويلقى بعض الكتاب اللوم على أمرء الإقطاع الذين اهتموا بمصالحهم الخاصة وتكوين إمارات يحكمونها ويورثونها أولادهم ، أكثر من اهتمامهم بالمصالح العام الأوروبى والمسيحى ، فلم يكن الصليب إلا وسيلة للتغريب بالجماهير ، كأنه غطاء يخفون به أطماعهم الشخصية ، ولكن هذا الإحساس اتضح لكثير من المسيحيين فقلل من حماسهم للحرب .

التجار الأوربيون اتجهوا للمال :

وجماعة ثالثة من الكتاب تنسب الهزيمة للتجار الأوربيين الذين أقدموا في كثير من الحالات على عقد معاهدات تجارية مع المسلمين ، إذ كان

الهدف الاقتصادي هو أهم باعث لهم على خوض هذه الحروب والتشجيع عليها ، فلما رأوا الهدف يتحقق بطريق المعاهدات مع المسلمين آثروا السلامة وخذلوا ذويهم من المسيحيين •

الصلبيون يكتفون بزحف التتار :

ومن أسباب فشل الحروب الصليبية زحف التتار المدمر الذي بدأ على العالم الاسلامي في مطلع القرن الثالث عشر ، وراح يهدم المدن ، ويلهب السيوف في رقاب المسلمين • ويدمر الحضارة الاسلامية ، فقد كان الصليبيون يعملون لنفس الغاية ، فلما رأى الأوروبيون زحف التتار يحقق لهم نفس الهدف أغناهم ذلك عن مواصلة بذل الجهد من جانبهم ، وقنعوا بهذا السيف الحاد الذي تسلط على رقاب أعدائهم المسلمين • فلم يقدموا مزيدا من العون للصلبيين بالشرق (١) •

وقد عقد الصليبيون حلفا مع التتار ليتعاونوا معا ضد المسلمين ، ولكن التتار كانوا يؤدون المهمة التي أرادها الصليبيون ولو بدون حلف أو مساعدة من أحد ، ولذلك رأى الصليبيون أن التتار وحدهم يوفون بالغرض ، فتركوا الميدان لهم ، وتوقف عون أوروبا لفتيانها المعتنين (٢) •

تجمع المسلمين وقت الشدة :

ومن أسباب فشل الصليبيين تجمع المسلمين من مختلف الأنحاء لمواجهةهم ، وسرعان ما انتصح للصلبيين أنهم ليسوا فقط أمام مصر وسوريا ، بل أمام القوى الاسلامية من مختلف البقاع •

ومن أسباب فشل الصليبيين في هذه الحروب تلك الحماسة التي

(١) انظر المجتمع الاسلامي للمؤلف ص ٢٩١ — ٢٩٢ •

(٢) انظر : Kirk : A Short History of the Middle East p. 79.

أظهرها المسلمون ولم تكن في صلبان المسيحيين • فلم يكد المسلمون
يُهزمون في الشوط الأول من هذه الحروب حتى تناسوا إلى حد كبير
ما بينهم من خصومات ، وتجمعت كلمتهم لاستعادة الأرض التي
أفتقدوها ، ويتضح هذا من ميل المصريين إلى نور الدين زنكى وترحيبهم
بصلاح الدين الأيوبي ، وميل حاكم دمشق لنور الدين وتسليمه المدينة له ،
كما يتضح في ظروف كثيرة تغلب الجانب العام فيها على المصالح الخاصة ،
ووقفت الجماهير تنصر من يعمل لتجميع الكلمة ، وتتخذ من يسعى لمصالح
ذاتية كما رأينا من قبل •

نتائج الحروب الصليبية

فشل الصليبيون في استعمار الشرق خلال العصور الصليبية ، ولكنهم على العموم كسبوا الحرب مع المسلمين ألواناً من الفوائد الثقافية والدينية والاجتماعية ، وقد دون مؤرخو الفرنجة هذا الكسب ، ومنهم من نقّس العبارات الآتية :

أقتباس الثقافة الإسلامية :

يقول Kirk إن للحروب الصليبية أهمية لا تقدر في تاريخ الثقافة بأوروبا ، بسبب ما كان لها من عظيم الأثر في تفتيح أذهان الناس إلى مستوى الحضارة في الشرق الأوسط ، ذلك المستوى الذى كان يفوق حضارة الغرب بكثير ، ولم تقدر بلاد شرق البحر المتوسط من معارف الصليبيين شيئاً يذكر اللهم إلا في بعض المنشآت والخطط الحربية (١) .

ويقول Emerton (٢) أن الثقافة التى حصل عليها الصليبيون من المسلمين انتزعت الصليبيين من الحياة البربرية ودفنتهم قدما إلى عالم الحضارة ، ويترجع هذا الباحث تاريخ اقتباس الأوربيين من المسلمين إلى عهد شارل، مقررًا أنه منذ ذلك العهد أخذت حضارة المسلمين الأصلية ، وحضارة اليونان التى أعاد المسلمون إبرازها في حلة جديدة ، أخذت طريقها إلى أوروبا ، ولم ينقطع اقتباس الأوربيين من المسلمين طيلة القرون التى سبقت الحروب الصليبية ، وكان هذا الاقتباس عن طريق لقاء المسلمين بالأوربيين في صقلية وأسبانيا ، فلما جاءت الحروب الصليبية كانت سوريا ميداناً لهذا اللقاء ، وبخاصة في فترات السلم والمعاهدات ، حيث زاد الاختلاط وكثر التعامل ، وبالتالي كثرت الاقتباسات العلمية .

١) A Short History of the Middle East p. 71.

٢) Mediaeval Europe p. 393. f.

وفي الناحية الأدبية كان اقتباس الصليبيين أكثر وأوسع ، فلقد أصبح الصليبي واسع الخيال كثير الحساسية ، فالبعد عن الوطن ، والتحرر الذي حصل عليه العبيد لأول مرة ، والمخاطر التي شهدها في الطريق وفي المعارك ، كل هذا انعكس شعرا جميلا وأقاصيص ممتازة .

تصحيح فكر الغربيين عن المسلمين :

وكان الأوروبيون يسمعون من القسوس أشياء كثيرة عن المسلمين ، ولكن ما هم المسلمون أصبحوا في مرأى العين بالنسبة للصليبيين فوجدوا فيهم إنسانية عالية ، وشرفا وشجاعة ووفاء بالوعد ، وغير ذلك من الصفات التي لم يكونوا يسمعون بها وهم في ديارهم ، وقد ساعد ذلك على تكوين الناحية الانسانية في الأوروبيين ولم تكن هذه الناحية من قبل ذات بال عندهم .

أخلاق جديدة عاد بها الصليبيون :

وعندما عاد الصليبيون الى أوربا لم يعودوا الى مباشرة حياتهم على النحو الذي كانوا عليه قبل هذه الرحلة ، بل عادوا بأخلاق جديدة ، وثقافة جديدة ، وتفكير جديد ، وأكثر من ذلك ، لقد ألفوا التجوال والرحلات ، ولم تعد حدود الاقطاع تقف حائلا أمامهم ، فراحوا في كل ربوع أوربا ينشرون هذا الفكر الجديد ، حتى أن كثيرين منهم كان يمكن أن يعدوا مدارس متقلة في ربوع أوربا .

تقليد المسلمين في التجارة والصناعة :

ومن الناحية التجارية كانت هناك علاقة كبيرة بين المسلمين والصليبيين ، إذ وضع الصليبيون أيديهم على كثير من موانئ المسلمين بسوريا ، فأصبحت هذه الموانئ مفتوحة للتجارة حتى يحصل الأوروبيون على حاجياتهم ، ومن الملاحظ أن الأوروبيين عجزوا عن تطوير الصناعة

بالشرق الأوسط ، بل عجزوا عن تقليد جيرانهم فيما وصلوا له من إتقان في هذا المجال ، وذلك لأن حكام الامارات لم تكن لهم خبرة بالأمور الصناعية ، فقد جاعوا من عالم الإقطاع فلم يكن الواحد منهم يصلح الا كمالك للأرض ، وكان كل منهم حريصا على أن يحصل على الربح دون كثير عناء ، وهكذا أصبح انصينيون في حاجة الى كثير من منتجات المسلمين وبخاصة الى الأسلحة والخيول والملابس والحبوب •

صك النقود :

واضطروهم ذلك الى صك النقود ، ولم تكن النقود ضرورية لهم من قبل ، اذ أن النظام الاقطاعي لم يكن يمنح الموظفين به نقودا ، ولا مرتبات منتظمة ، بل كان يمنحهم شيئا ماديا يمكنهم استبداله بما يحتاجونه ، ولكن هذه الحال لم تكن ممكنة في سوريا ، فالبائعون لم يكونوا ليمنعوا حاصلاتهم دون أثمان يتقاضونها عند التسليم •

الإلهام والأساطير :

ويختتم Emetron (١) حديثه عن نتائج الحروب الصليبية بقوله ان حياة أوروبا اغتنت خلال الحروب الصليبية ، لأنها اقتبس من حياة المسلمين ألوانا من الفكر والثقافة ، ولا شك أن أفق أوروبا اتسع بارتباطها ببلاد الشرق ذات الإلهام والأساطير ، ولئن فشلت أوروبا في تحقيق هدفها فقد كسبت ما هو أعظم منه ، فالحقيقة أنه ليس مهما أن تسيطر أوروبا على الأماكن المقدسة ، وانما المهم أن هذا الهدف حقق مالم يكن في الحساب وهو النهضة الأوروبية ، ولم تغفل أوروبا ، ولا عيون الأوربيين بعد أن تفتحت هذه العيون في الشرق •

جهل الصليبيين قلل استفادتهم :

ويرى غوستاف لوبون أن استفادة الصليبيين من علوم العرب كانت أقل مما يجب ، ويعمل ذلك بقوله : إن الجيوش الصليبية كانت جاهلة ، ولم تكن لتبالي بالمعارف ومن أجل هذا كانت عنايتها أكثر في ميدان البناء والعمران والصناعة أكثر منها في ميدان الفكر والفن (١) .

تلاميذ آمام علماء المسلمين :

ويقول هرنشو المؤرخ الانجليزى وقد خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين ، ولكنهم سرعان ما جلسوا عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة . ولقد بهت أشباه الهمج (الصليبيون) عندما رأوا المسلمين ينعمون بحضارة علمية ترجح حضارتهم رجحانا لا تصلح معه المقارنة بينهما (٢) .

مقارنة :

ويقول الدكتور فيليب حتى (٣) : إن الافرنج قصصوا الأراضي المقدسة وهم يحسبون أنفسهم أرفع منزلة من أهلها ، وكانوا يظنون أن أهلها وثنيون يعبدون محمدا ، ولكن ما كادوا يتصلون بهم حتى زالت الغشاوة عن عيونهم .

أما الأثر الذى تركه الفرنجة في مخيلة المسلمين فإن أسامة بن منقذ (٤) يعبر عنه بقوله : أنهم بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير .

(١) حضارة العرب ص ٣٣٨ .

(٢) علم التاريخ لهرنشو تعريب الأستاذ عبد الحميد العبادى .

(٣) History of the Arabs p. 761.

(٤) الاعتبار ص ١٣٢ .

ويقول الدكتور فيليب حتى في موضع آخر (١) : وغالب الظن أن تدابير الاستشفاء إنما انتظمت في الغرب بحوافز تسربت من الشرق ، ففي القرن الثاني عشر ظهر في أوروبا عدد من المستشفيات ودور الصحة ، لا سيما محاجر الأمراض السارية ، بحيث يسوغ اعتبار المستشفيات الأوربية وليدة نظائرها في سوريا .

ويقول كذلك : لقد أبدع الصليبيون حقاً في مجال البطولات والمعارك ، إلا أنهم كانوا دعاة لخبيثة الأمل في مآتى الفكر ومآثر الحضارة ، فكانوا من حيث غايليتهم الحضارية أبعد تأثيراً في الغرب منهم في الشرق ، إذ فتحوا أمام بصائر الأوربيين آفاقاً جديدة ، صناعية وتجارية واستعمارية ، ولم يخلّفوا في الشرق إلا النفور بين المسلمين والنصارى الذى لا يزال باقى الأثر حتى اليوم .

التأثير الاجتماعى :

وتأثر الفرنجة كثيراً بجيرانهم المسلمين في اللباس ، فقد أقلعوا عن لباسهم الأوربى وتعلقوا بالأزياء الوطنية التى كانت أدعى الى الراحة ، واكتسبوا شيئاً من الذوق الشرقى في الأطعمة والأشربة ، أخضه ما يتعلق بالسكر والتوابل ، وآثروا لساكناتهم البيوت الشرقية الطراز ، وما فيها من إيوانات واسعة ومياه جارئة .

ويرى Henne - Am Rhyn's (٢) أن تطورات العصور الوسطى في شتى النواحي بأوروبا معزّوة الى هذه الحروب ، فقد عملت في المحيط الدينى على محو نفوذ البابية ، ناهضت الرهبة مناهضة لم يمكن أن ترجع بعدها الى عهدها الأول ، وفي المحيط الاجتماعى والاقتصادى أدت الى مساواة أعم بين الطبقات ، وإلى تقدم الصناعة والتجارة ، وفي ميدان

(١) تاريخ سوريا : ج ٢ ص ٢٥٠ — ٢٥١ .

(٢) التاريخ العام ص ٤٩٨ — ٥٠٠ .

السياسة أعقب هذه الحروب قيام الدول والحكومات المركزية ، وفي عالم الثقافة الواسع ظهر كبار المفكرين في الفلسفة بعد الحروب الصليبية وما تبعها من اتصال بالعرب ، وحتى التصوف تلون بلون العلم ، واتسع نطاق دراسة اللغات القديمة ، وازدادت خصوصيتها ، واكتسبت علوم التاريخ والجغرافية نشاطا جديدا •

يرى Hans Pantz (١) أن الحروب الصليبية كانت العامل الوحيد في تقدم أوروبا وانتقالها من عهد الى عهد •

ويرى Oman (٢) أن استخدام الدرع للفارس ولفرسه في الغرب مأخوذ عن الشرق إبان الحروب الصليبية ، كذلك كان استعمال الحمام الزاجل في الحروب شيئا جديدا عرفته أوروبا من العرب •

نواة الاستشراق :

ووضعت الحروب الصليبية نواة الاستشراق ، اذ اتجه الرهبان لدراسة اللغة العربية والفكر الاسلامي لمعرفة اتجاهات المسلمين في مختلف الشؤون ، وقد أسست كلية للرهبان سنة ١٢٧٦ م • في ميراما لدراسة اللغة العربية ، كما أنشئت الكراسي للغات الشرقية في باريس ولوفان (٣) •

الارسلالات والتبشير :

ولجأ المسيحيون للاعتماد على الارسلالات المسيحية للتبشير بين المسلمين ، فقد اقتنع رجال الفكر بفشل الحروب ، واخفاق الوسائل

(١) Kulturgeschichte der Kreuzzuge.

(٢) Oman C. W. The Art of War in the Middle Ages p. 112.

(٣) Barker : The Legacy of Islam p. 125.

العسكرية في معاملة المسلمين ، فأخذوا يركزون الاهتمام على الوسائل السلمية ، ومن مؤسساتهم في هذا المضمار مدارس الفرنسييسكان والدومينكان التي أنشئت في أوائل القرن الثالث عشر في سوريا وتنسب الأولى الى القديس فرنسيس والثانية الى القديس دومنيك (١) ، وكان المبتسّر يُعَدُّ لهذه المهمة قبل أن يرسل لمباشرتها ، ومن أهم وسائل اعداده ، تعليمه اللغة العربية وشيئا من الدراسات الإسلامية ، وأصبح ذلك دستور التبشير الى العهد الحاضر .

نهاية النظام الإقطاعي :

وكان النظام الإقطاعي من أهم الدوافع للحروب الصليبية ولكن النظام الإقطاعي انتهى تقريبا مع انتهاء هذه الحروب ، فقد أدرك الصليبيون أن الدول أبقى وأقوى من امارات الإقطاعي ، وبخاصة أنهم أدركوا أن عدم التجانس في جيوشهم وقلة الوحدة في قيادتهم كانت من أسباب هزائمهم أمام الجموع الإسلامية ، ومن ثم بدأت تظهر الدول ، واتجهت هذه الدول الى نوع من الوحدة الأوربية لا يزال واضح الأثر في حياة أوربا .

تحرير رقيق أوربا :

ومما يتصل بالاقطاع الأوربي كذلك نذكر أن الحروب الصليبية كانت عاملا هاما من عوامل تحرير رقيق الاقطاع ، فالذين التحقوا بالجيوش الصليبية من الرقيق نالوا حريتهم كما ذكرنا من قبل ، وقد أشاع هذا الوضع فكرة إمكانية التحرر للعبيد ، وبخاصة أن الصليبيين لم يجدوا أرقاء في الجيوش الإسلامية ، ووجدوا فكرة التحرر سائدة في الشرق بوسيلة أو بأخرى ، لمن كان الرق قد فرض عليهم ، ثم إن مثلك الاقطاع باعوا بعض اقطاعاتهم ليُعَدِّثُوا أنفسهم للمساهمة في الجيوش الصليبية ،

(١) فليب حتى : تاريخ سوريا ج ٢ ص ١٣ .

وباعوا أحيانا لساكن الاقطاع حريتهم ، وبذلك أصبح شراء المدن لحريتها مبدءاً عاماً ، فقامت مدن مستقلة ، وأصبح ارتباط هذه المدن بملك فرنسا مثلاً ارتباطاً مباشراً وليس عن طريق مالك الاقطاع (١) .

بروز سلطان الملوك أو أمراء الاقطاع :

ولعل مما يتصل بذلك أن نذكر أن أمراء الاقطاع في فرنسا وايطاليا أسهموا في الحروب الصليبية أكثر مما أسهم أمراء الاقطاع في انجلترا وألمانيا ، وقد نتج عن ذلك قيما يتعلق بفرنسا وايطاليا بروز سلطة الملك على حساب انحلال سلطة أمراء الاقطاع ، وحدث عكس ذلك بالنسبة لألمانيا وانجلترا فإن ملوكها تورطوا في هذه الحروب دون أمراء الاقطاع ، مما قوى نفوذ الأمراء على حساب سلطان الملوك ، ويرى بعض الباحثين (٢) — كنتيجة لذلك — أن أصول دستور انجلترا السياسى المتين ترجع الى حوادث الحروب الصليبية .

وقد وفد على الشام أمراء الاقطاع لتكوين ثروات لهم عن طريق الزراعة في أرض الشرق الخصبة الواسعة ، ولكن الحروب المستمرة حالت دون تطور الزراعة وكسب المال عن طريقها ، ولذلك لجأ كثير من الصليبيين الى إنشاء المدن والاستغال بالتجارة لكسب المال عن طريق التجارة ، فكان إنشاء المدن التجارية من نتائج هذه الحروب ، وقد ظهرت عملة مشتركة يمكن أن تستعمل في البلاد الاسلامية ، وفي امارات الصليبيين ، بل في أوروبا نفسها ، وكانت هذه العملة من عمل الصليبيين وتحمل بعض آيات قرآنية كما تحمل التاريخ الهجرى (٣) .

(١) انظر حضارة العرب لغوستاف لويون : ص ٣٣٥ .

(٢) غوستاف لويون : حضارة العرب ص ٣٣٦ .

(٣) The Legacy of Islam p. 621 .

عداء ملاتر من القسطنطينية :

ومن نتائج الحروب الصليبية أن المسلمين رأوا في القسطنطينية عدوا يجب التغلب عليه وإزالته من الطريق ، فالقسطنطينية هي التي استعانت بالصليبيين ضد المسلمين ، وهي التي مهدت لهم الطريق وأمدتهم بالوأن من العون في معمة هذه الحروب ، وعلى هذا بدأت حماسة المسلمين التي انتهت باسقاط العاصمة الكبيرة على يد الأتراك العثمانيين بعد ذلك بحوالى قرن ونصف (سنة ١٤٥٣ م) وانتهت بذلك الحروب حول القسطنطينية ، تلك الحروب التي استمرت حوالى ثمانية قرون .

نواة التجسس :

ومن نتائج الحروب الصليبية أن المسلمين أدركوا أن هزائمهم الأولى كانت بسبب جهلهم بمعرفة أخبار عدوهم ، في حين كان العدو يعرف أخبارهم بدقة ولذلك عمل المسلمون على تلافى هذا النقص فأصبحوا أكثر عناية باستقصاء أخبار الصليبيين بحيث لا تفوتهم صغيرة ولا كبيرة من أحوالهم ، فلم يعد يخلو مكان من صاحب خبر وبريد ، بحيث لم تعد تخفى على المسلمين أخبار الأتامي والأداني ، وكان ذلك من الأسباب التي حققت انتصارات المسلمين فيما بعد (١) .

أضرار لحقت بالمسلمين

تدمير الكثير من المدن الإسلامية :

ولكن وجود الصليبيين بهذه البلاد مدة قرنين من الزمان عاد عليها بأبلغ الأضرار لما اقترن به إغلاؤهم النهائى عنها من تدمير بعض المدن العظيمة أمثال أنطاكية وطرابلس وعكا .

ويعيد بعض الباحثين الى هذه الحروب مسؤولية الانهيار الذى

(١) محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٣٠٦ .

تعرضت له البلدان العربية في أواخر العصور الوسطى بعد أن استنفدت هذه البلدان جهودها في الدفاع عن كياناتها ، وكرست مواردها ونشاطها للقضاء على الأخطبوط الصليبي الذي ثبتت أقدامه في بقعة بمثابة القلب من الوطن العربي ، وأخذ يسمى من ذلك المركز المتوسط الى تهديد بقية الشام والعراق ومصر والحجاز ، فضلا عن المغرب والأندلس (١) .

الاستعمار :

ومن النتائج القائمة للحروب الصليبية أنها فتحت عيون الأوروبيين للاستعمار ، فقد كانت هذه الحروب أول تجربة من الاستعمار الغربي قامت بها الأمم الأوروبية خارج أوروبا لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق ، وقد بقيت الأطماع الاستعمارية حتى اليوم .

عدم التسامح :

ومن أشأم نتائج الحروب الصليبية أن ساد عدم التسامح العالم عدة قرون ، وإن صبغت هذه الحروب بصبغة القسوة والجور وهو ما لم تعرفه ديانة من قبل خلا اليهودية ، أجل ، كان العالم قبل الحروب الصليبية يعرف الشيء الكثير من عدم التسامح ، ولكن نذكر أن كان عدم التسامح يصل الى هذا المدى من الجور والظلم ، وإن ما نعانيه الآن من نفرة بين الشرق والغرب ليس الا نتيجة لعدم التسامح الذي خلقتة الحروب الصليبية ، ثم إن رجال الدين المسيحي بعد أن حرضوا على القتل والتعذيب في الشرق عادوا الى الغرب وقد تأصلت فيهم هذه الروح ، فمارسوا هذه الفظائع مع كل من خالفهم في دين أو مذهب ، وقد نتج عن سريان روح عدم التسامح ، مذابح اليهود ، والفظائع التي ارتكبت في الحروب السيلسية ومحاكم التفتيش وأمثال هذه مما ضرع أوروبا بالدماء على مر السنين (٢) .



(١) دكتور سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣ .

(٢) غوستاف لوبون : حضارة العربص ٣٣٤ — ٣٣٥ .

نماذج لبطولات اسلامية

وفي ختام هذا البحث نورد بعض نماذج قليلة لأعمال البطولة والشرف التي قام بها المسلمون والتي شهدها عصر الحروب الصليبية ، فقد أبرزت هذه الحروب صورا ينحني أمامها القلم مأخوذا بما بها من شرف الإسلام ومجد العروبة ، وبطبيعة الحال كان هناك أشباه رجال آثروا أمجادهم الشخصية وفضلوا الدنيا الزائلة غنى خلود الذكر وثناء التاريخ ، ويروى لنا المقرئى وابن تغرى بردى صورا تحمل هذين الاتجاهين نورد منها صورة عيقة ، سبق أن أشرنا لها آنفا ، ففي سنة ١٢٤٠ تحالف اسماعيل صاحب دمشق مع الصليبيين على غزو مصر ، وجمع هذا جيشا من أهل الشام سار به متعاوناً مع الجيش الصليبي لتحقيق هذا الهدف ، ولما أشرف الجيش الشامى على غزة وأصبح عليه أن يتخذ موقفه ضد الجيش المصرى مؤيدا للصليبيين ، حدثت المفاجأة التي لم يتوقعها الحاكم الخائن ، ولم يتوقعها الصليبيون ، تلك أن عساكر الشام استداروا في لحظة سريعة ، وانضموا إلى الجيش المصرى ، ومالوا جميعا على الجيش الصليبي فهزموه شر هزيمة (١) .



بطولات خلقية :

وعندما دخل صلاح الدين الأيوبي بيت المقدس ظافرا وضع شروط الصلح ، وكان منها أن يؤدى الفرنجة مالا يفتدون به أنفسهم ، ولكن كثيرين من فقرائهم عجزوا عن تأدية ما فرض عليهم ، فأخلى صلاح الدين سبيل ألف منهم فزولا على رغبة أخيه ، وتوسط البطريرك لفريق آخر منهم فأطلقه السلطان ، ثم قال صلاح الدين : لقد زكى كل من أخى والبطريرك عن نفسيهما وأنه ينبغي ألا يفوتنى أن أزكى عن نفسى ، وأطلق سراح الباقيين دون فدية .

(١) السالك ج ١ ص ٢٠٥ والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٢٣ .

مراع لوجه الله :

وفي أثناء حصار عكا كان هناك رجل من دمشق يشرف على آلات النفط وتحضير المواد اللازمة للمفرقات ، فأحرق ثلاثة أبراج للعدو ، فأمر صلاح الدين بأن يمنح جائزة ، ولكن الرجل رفض قبولها وقال انما فعلته لله ولا أريد أنجزاء الا منه (١) •

* * *

أدى الأمانة وهو ميت :

وكان هذا الحصار محكما ، وكانت وسيلة صلاح الدين للاتصال بحامية عكا هي الحمام الزاجل والسياحون ، وفي إحدى المرات غرق سباح شد على وسطه أكياس المال وعدة رسائل للجند ، وغاصت الجثة في الماء وحملها التيار حتى قذف بها البحر عند الحامية المحاصرة ، فتعرف المسلمون على الجثة وأخذوا المال والرسائل ، وأوحى هذه الحادثة لابن شداد أن يقول : فما روى من أدى الأمانة في حياته وبعد مماته الا هذا الرجل (٢) •

* * *

معلق :

وفي أثناء الصراع حول عكا غنم المسلمون فيما غنموه طفلا رضيعا ولما عرفت أمه ذلك صاحت باكية مستغيثة ، وأمضت ليلة مريرة ، ولما يئس قادة الفرنجة من تهديتها ، حاولوا التخلص منها فأوعزوا لها أن تذهب الى معسكر المسلمين تطلب استعادة الطفل ، وكانوا يريدون دفعها الى

(١) ابن خادون ج ٥ ص ٣٢١ •

(٢) سيرة صلاح الدين ص ١٢٠ •

حتفها ، ولم تفكر المرأة في مصيرها ، ولكنها اندفعت نحو هذا المعسكر
تطلب مقابلة صلاح الدين ، وقادها جند صلاح الدين الى معسكره ،
وهناك وجدته راكبا في طريقه الى الميدان ، فاعترضته واستغاثت به ،
ففرق لها قلبه وسألها عن حاجتها ، ولما عرف قصة طفلها لم يبرح المكان
حتى أعيد اليها ، فاحتضنته وأرضعته ساعة ، وصلاح الدين واقف يظهر
السعادة بهذا الزائر ، ثم أمر بها فحملت على فرس وألحقت بمعسكر
الفرنجة مع طفلها .

* * *

جهود المرأة :

ولم تقتصر الشجاعة التي أبدتها المسلمون في الحروب الصليبية على
الرجال ، بل أسهمت المرأة بنصيب كبير في هذه المعارك ، ويروى أسامة
ابن منقذ أن عجوزاً يقال لها فنون ، أخذت سيفاً وخرجت الى القتال
وأبليت فيه .

وأن امرأة من شيزر استطاعت أن تأسر ثلاثة من الصليبيين
واحدا بعد الآخر ، وكانت كلما أسرت واحدا حبسته في بيتها ، ثم استدعت
جيرانها ليتسلموا الأسرى ويأخذوهم الى معسكر القائد .

وقد أشرنا من قبل الى أن الباطنية (الحشاشين) تعاونوا أحيانا
مع أعداء صلاح الدين ، كما تصدوا الى حربه ومحاولة الاعتداء عليه ،
وفي النضال بين قوات صلاح الدين وبين قوات الباطنية حول حصن
شيزر ارتدت أم ليث الدولة يحيى خوذة وزردا ، وتسليحت بسيف
وترس وشاركت في القتال .

ويروى أسامة كذلك أن أمّاً زودت ابنتها الكبرى بالسلاح وأمرتها
بالخروج للقتال ، وفي معمة المعركة كشفت هذه الفتاة عن نخوة أشد
من نخوات الرجال ، كما يروى أسامة ذلك .

* * *

الوطن أغلى من الولد :

ولم تأخذ الناسَ ولا قادتهم هودة فيمن كانوا يفتشون في عضد المسلمين ، أو يتهمون بأن هواهم كان مع الصليبيين حتى أن صفوة الملك (خاتون) عندما علمت أن ابنها شمس الملوك متعاون مع الصليبيين دبّرت من يقاتله ، فقد كانت بلادها أغلى عليها من ابنها الخائن (١) .

(١) محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٣٠٢ .

الانمبراطورية العثمانية «ترْكيا»

الأتراك العثمانيون : نشاطهم وتطورهم

آسيا الصغرى مفتاح لتاريخ طويل :

انتهى الزحف الاسلامى الأول شمالى الشام عند حافة آسيا الصغرى ، وأصبحت الحدود بين المسلمين والبيزنطيين فى هذه المنطقة مثار معارك متصلة تقريبا ، ولكن هؤلاء وأولئك اكتفوا بالغارات التى لم يقصد بها الاحتلال والاقامة وإنما قصد بها التخويف والاستيلاء على الغنائم والأمتعة . وظل الحال كذلك حتى عهد السلاجقة ، وفى هذا العهد اقتحم السلاجقة آسيا الصغرى ، وخاضوا معارك كان يقصد بها القضاء على البيزنطيين فى تلك البقاع وطرد سكانها الروم من آسيا نهائيا ، وقد نجح السلاجقة فى ذلك فأوقعوا سنة ١٠٧١ م هزائم حاسمة بالجيوش البيزنطية فى موقعة ملاز كرد التى سبق أن تحدثنا عنها ، واستولوا فى أثرها على معظم آسيا الصغرى التى لم يتح للعرب فتحها قط ، وجعلوها مقرا لنزول الأتراك فيها (١) .

وقد كان هذا التصرف مثيرا لأوروبا فكان من العوامل التى سببت الحروب الصليبية كما رأينا من قبل .

هذا من جهة ومن جهة أخرى كان الأتراك العثمانيون من بين الطوائف التى اشتركت فى هذه المعارك وأقامت فى آسيا الصغرى واحة بذور الدولة العثمانية التى ستظهر فى الأفق فيما بعد .

(١) Kirk : A Short History of the Middle East p. 67.

وانظر سلاجقة ايران وفارس للدكتور عبد النعيم حسنين ص ٥٧ .

أصل الأتراك العثمانيين :

والأتراك العثمانيون ينسبون الى عشيرة قابى احدى قبائل الغزو التركية ومنشؤها بلاد تركستان ، وأقدم زعيم معروف لهذه العشيرة اسمه سليمان ، وكان يقيم بقبيلته فى آسيا الصغرى بعد موقعة ملازكرد ، وقتل سليمان عند مشارف حلب ، وترددت فروع القبيلة بين العودة لموطنها الأصيل أو مواصلة المغامرة ، وانقسمت القبيلة فى ذلك ، فاختار ابنه أرطغرل مواصلة السير ، فدخل آسيا الصغرى والتحق بخدمة الأمير السلجوقى (علاء الدين الثانى) الذى كان يواصل الحرب ضد البيزنطيين وساعده فى هذا الكفاح ، وأبلى فى ذلك بلاء حسنا ، فأقطعه السلطان السلجوقى المستنقعات الواقعة على الحدود البيزنطية ، وترك له توسيع ممتلكاته على حساب البيزنطيين ، فاتخذ « شكود » عاصمة له ، وولد له ابنه عثمان سنة ١٢٥٨ ، ونشأ أبوه تنشئة حربية ، وأصبح خير عون لأبيه فى حروبه وفى أعماله الادارية ، وفى هذه الأثناء كانت الحروب الصليبية تدور وشغلت جانبا كبيرا من نشاط البيزنطيين مما أتاح فرصة الاستقرار للعثمانيين .

عثمان :

توفى أرطغرل سنة ١٢٨١ متجاوزا التسعين من عمره فتولى عثمان مكان أبيه بموافقة علاء الدين السلجوقى ، وسار عثمان سيرة أبيه فى مساعدة السلجوقيين وتأييدهم فى حروبهم ، فزاد علاء الدين فى اكرامه ، ومنحه نوعا من الاستقلال ، وأقطعه كافة الأراضى والقلاع التى فتحها ، وأجاز له ضرب العملة باسمه ، كما أجاز أن يذكر اسمه فى خطبة الجمعة ، مقرونا باسم السلطان السلجوقى ومنحه لقب (بك) ، وهكذا قرب عثمان من الاستقلال التام ، وصار زعيم اسارة من أهم الامارات ، واستمر فى التوسع حتى استولى من دولة الروم الشرقية على مدينة « قرّة حصار » فاتخذ هذه المدينة عاصمة له .

السلطة العثمانية :

زالت دولة السلاجقة من آسيا الصغرى سنة ٦٩٩ = ١٢٩٩ بمداومة المغول ، وتوفي السلطان علاء الدين في نفس العام ، فأعلن عثمان استقلاله التام مكونا السلطنة العثمانية التي أخذت تسميتها من اسمه ، ووفد له أمراء البيت السلجوقي وأعيانه ليعيشوا في كتفه وحمايته ، ووفدت له أيضا جماعات المجاهدين ضد التتار ، كما وفد له الصوفية والمغامرون وبعض العلماء ، اذ لم يبق في هذه البقاع الا العثمانيون ملجأ للمسلمين بعد زحف التتار وطغيانهم ، ولم يبق الا العثمانيون يرفعون السيوف ضد أعداء الاسلام البيزنطيين • ووفد كذلك على الدولة العثمانية الجديدة عناصر تركية ترفد الأتراك العثمانيين •

وانتهز عثمان فرصة انشغال المغول بحروبهم مع سلاجقة قونية فسار في فتوحاته ووسع مملكته •

وانتهى الطوفان الأول للمغول ، ذلك الطوفان الذي قاده جنكيزخان وهولاكو ، ولم يصل منه شر يذكر للعثمانيين •

التوسع العثماني في آسيا الصغرى :

بعد وفاة عثمان جاء ابنه أورخان سنة ١٣٢٦ ففتح مدينة بروسة وفي العام التالي سقطت أزمير ، وفي ١٣٣٠ استولى على طائشانلى ، وفي سنة ١٣٥٤ استولى على أنقرة بقيادة ابنه سليمان ، وفي عهد أورخان تم تكوين أول فرقة من طوائف الانكشارية (العسكر الجديد) وسنتكلم عنها فيما بعد •

الدولة العثمانية تنتقل الى أوروبا :

توفي أورخان سنة ١٣٥٩ فخلفه ابنه مراد (الأول) فخطى المضيق متجها نحو أوروبا وهاجم شبه جزيرة البلقان بعد أن أقر النظام وشطب على

بعض العصاة في آسيا الصغرى ، وكانت البلقان خاضعة لعدد من ضغائر الحكام فتسلطوا واحدا بعد واحد في قبضة العثمانيين ، وفي سنة ١٣٦٢ استولى العثمانيون على أدرنة ثم اتخذوها عاصمة لهم ابتداء من سنة ١٣٦٦ وظلت عاصمة العثمانيين حتى سقوط القسطنطينية ، وتوالى انتصارات مراد فأتم فتح مقدونية وصوفيا وسافونيك وجميع القسم الشمالي من اليونان ، وفي سنة ١٣٨٩ وقعت معركة عنيفة في قوصوه بين العثمانيين بقيادة مراد نفسه وبين أحلاف النصاري التي تكونت من القوات الصربية وقوات من البشناق والمجر والبلغار والألبانيين ، وانتصر مراد في المعركة ولكن صربيا كان بين القتلى طعنه غدرا فقتله ، وتولى بايزيد (الأول) بن مراد مكان أبيه سنة ١٣٨٩ ونأثر له فيقبض على ملك الصرب وقتله وقتل أعوانه •

وفي سنة ١٣٩٠ فقد البيزنطيين آخر ممتلكاتهم في آسيا الصغرى وهي مدينة آلا شهر وفي سنة ١٣٩٤ منح الخليفة المتوكل بالقاهرة بموافقة السلطان برقوق سلطان مصر ، لقب سلطان الروم لبايزيد بناء على طلبه ، وكان سبب موافقة برقوق على هذه المنحة أن الخطر المغولي كان يهدد كلا من الممالك بمصر والعثمانيين بآسيا الصغرى وشرق أوروبا ، وكان برقوق يأمل أن يكون العثمانيون حلفاءه ضد هذا الخطر الذي يهدد الاثنين •

حروب صليبية ضد العثمانيين :

عسم الهول والفرع معظم الأوربيين ، من كثرة فتوح العثمانيين وسرعة تقدمهم في أوروبا ، وقامت خسجة دينية للحض على حريهم ، فقام البسبا يدعو الناس باسم الدين الى مقاتلتهم ، وخرج الملك جيش أوربي عظيم بقيادة « سيجسمند » ملك المجر ، ضم بين كتائبه كثيرا من فرسان فرنسا وألمانيا ، وكان بايزيد إذ ذاك غائبا في آسيا ، ففاز الأوربيون في بادئ الأمر ، واستردوا من الترك كثيرا من المدن ، ثم

شرعوا في حصار مدينة « نيقوبولس » وهي من أمنع المدن على نهر « الطونة » فلما علم بايزيد بذلك أسرع للقائهم فهزمهم هزيمة تعد من أنكر الهزائم التي دونتها التاريخ ، بحيث لم ينج من جيوشهم إلا النذر اليسير ، وكانت هذه الموقعة سنة ٧٩٩ هـ (١٣٩٦) (١) .

الخطر المغولي يعترض الزحف العثماني :

في ذلك الحين كان خطر المغول يشتد في دورهم الثاني تحت قيادة بطل عسكري شهير هو تيمورلنك الذي ولد سنة ١٣٣٦ واستولى سنة ١٣٦٩ على خراسان وما وراء النهر واتخذ سمرقند عاصمة له ثم خطا خطوة أخرى نحو استعادة ملك جنكيزخان (١١٥٥ — ١٢٢٧) وهولاكو (١٢١٧ — ١٢٦٥) الذي امتد من موسكو الى الصين فسوريا .

أدرك بايزيد أنه لابد من نزول معركة فاصلة بينه وبين تيمورلنك فأخذ يعد نفسه لها ، فقوى جيشه ، واستولى على بعض مناطق استراتيجية متاخمة لآسيا الصغرى كانت خاضعة لبعض الأمراء ففر هؤلاء الأمراء ولجئوا الى تيمورلنك طالبين عونه .

وقامت المعركة الأولى بين القوتين الهائلتين سنة ١٤٠٢ عند سيواس وانتصر فيها المغول وقتل القائد أرطغرل أكبر أبناء بايزيد .

وفي سنة ١٤٠٢ بدأت المعارك الحقيقية بين المغول والعثمانيين عند جبوق آباد فانتهصر فيها المغول واتجهوا نحو أنقرة ، وكان المغول قد دخلوا الاسلام ، ولهذا كانت جيوش العثمانيين تتقصرها الحماسة الدينية التي كانت من قبل عاملا مهما في انتصاراتهم ضد البيزنطيين ، وكان بايزيد نفسه يقود المعركة ، وقد همد صموداً باسلاً أمام الزحف المغولي

(١) عمر الاسكندري وسليم حسن : تاريخ مصر من الفتح العثماني ص ٢٠ .

(م ٥٢ - موسوعة التاريخ ج ٢٥ .

ولكنه هزم في النهاية ووقع في الأسر في « أنقرة » هو وابنه موسى ومات بايزيد سنة ١٤٠٣ •

الدولة العثمانية تحت سلطة المغول :

تولى سليمان بن بايزيد مكان أبيه ، ووافق تيمورلنك على ذلك على أن يحكم سليمان البلاد كتابع للسلطان المغولي ، ولكن هذه الفترة كانت قصيرة ، فقد مات تيمورلنك سنة ١٤٠٥ وتقسم أبنائه مملكته ووقعت خلافات بين بعضهم والبعض الآخر وبينهم وبين بعض جيرانهم ، مما أضعف سلطانهم في آسيا الصغرى وفي أكثر ممالكهم ، فأخذ سلطان العثمانيين يعود لهم مرة أخرى ، وبدعوا يتخلصون من سلطة المغول .

صراع بين امراء العثمانيين :

ولكن العثمانيين عندما تخلصوا من القوة الخارجية ظهر بأسهم بينهم ، فكثر الخلاف الداخلي على السلطة بين أبناء بايزيد (محمد جلبي وعيسى وسليمان وموسى) وكان سليمان بعض النصر ولكنه لم يكن مستقيماً في خلقه بل كان مستهتراً خليعاً فلم يحتفظ بالنصر الذي أحرزه وهزمه أخوه موسى ، فهرب سليمان فقبض عليه بعض الفلاحين وقتلوه سنة ١٤١٠ •

أما محمد جلبي فقد رجحت كفته بعد ذلك ، إذ استطاع أن يتغلب على أخيه عيسى ، ثم استدار الى أخيه موسى فقتله سنة ١٤١٣ • وبذلك آلت أمور العثمانيين للسلطان محمد ، فأخذ يستعيد ما فقدته الدولة من أملاك خلال خضوع العثمانيين للتتار ، وخلال الخلاف بين امراء العثمانيين بعد التتار •

وفي سنة ١٤٢١ توفي محمد في أدرنة فخلفه مراد الثاني الذي وضع قواعد الأمن والاصلاح ثم اتجه للفتوحات فاحتل سالونيك عنسوة من البنادقة سنة ١٤٣٠ ، ولكن تكتلا مسيحياً جديدا قام في وجهه بقيادة « هونثياد » القائد المجري العظيم ، وقد حقق هُذا القائد كثيراً من النصر في البلقان ، ثم عقدت معاهدة إزجيدن سنة ١٤٤٤ وفيها تنازل العثمانيون عن بلاد الصرب وأعطوا الأفلاق للمجر ، ولكن المسيحيين نقضوا المعاهدة واستأنفوا القتال فالتقى بهم مراد الثاني مرة أخرى وأنزل بالمسيحيين هزيمة شاملة (نوفمبر سنة ١٤٤٤) وقتل في المعركة بعض ملوك أوروبا وأمرائها وتم إخضاع البوسنة والصرب ، ووصل العثمانيون بذلك الى ما يعرف بعصر القسوة .

عصر القوة

فتح القسطنطينية :

مات مراد الثانى سنة ١٤٥١ فتولى مكانه ابنه محمد الفاتح أو محمد الثانى وأخذ يخضع الثوار فى آسيا الصغرى ، فانتهاز الامبراطور البيزنطى (قسطنطين التاسع) فرصة انشغاله بهذه الحروب ، وأرسل اليه يهدده بأنه اذا لم يضاعف مبلغ الجزية السنوية التى كان يدفعها والده الى البيزنطيين لقاء احتفاظهم بالأمير أورخان حفيد سليمان ، فإنه سيدفع بالأمير للمطالبة بالعرش ويؤيده فى ذلك وقد غضب محمد من هذا التهديد ، فعمد الى إقامة حصار حول القسطنطينية ، فلما بعث الامبراطور بسفرائه للاحتجاج على هذا التصرف ، قطع محمد رؤوسهم وكان ذلك بمثابة إعلان للحرب ، وهاجم العثمانيون القسطنطينية سنة ١٤٥٣ وكانوا قد أحاطوا بها من جميع الجهات ، وقد تم لهم النصر فحاصمت لهم المدينة ، وقتل الإمبراطور فى المعركة ودخل محمد القسطنطينية ، ثم اتجه الى كنيسة أياصوفيا الشهيرة فدخلها وحوّلها مسجداً ، وبفتح القسطنطينية انمحت البقية الباقية من بيزنطة ، وأصبحت القسطنطينية تسمى « استانبول » أو دار السعادة ، وأصبحت عاصمة الامبراطورية العثمانية ، حتى نقل اتاتورك العاصمة الى أنقرة سنة ١٩٢٣ م .

القسطنطينية : لمحات من تاريخها :

كانت روما هى عاصمة الدولة الرومانية حتى عهد قسطنطين الأكبر (١) الذى أصبح إمبراطوراً من سنة ٣٠٦ الى سنة ٣٣٧ ، وفى سنة ٣٣٠ اختار قسطنطين مدينة « بوزنطة » الواقعة على شاطئ البوسفور

(١) قسطنطين هذا هو الذى اعلن حرية الدين المسيحى سنة ٣١٣ فى قزار ميلانو ثم دخل المسيحية بعد عشر سنوات ولم يعد الا وهو على غرائس الموت .

لتكون عاصمة للامبراطورية وأطلق عليها اسمه فأصبحت تعرف بالقسطنطينية ، (ظلت تعرف بهذا الاسم حتى استولى عليها العثمانيون فاشتهرت باسم قديم هو « استانبول ») وعندما قسّمت الامبراطورية الرومانية قسمين سنة ٣٩٥م بقيت القسطنطينية عاصمة للامبراطورية الرومانية الشرقية ، وعادت روما عاصمة للامبراطورية الرومانية الغربية (١) ، بيد أن هذه سقطت سنة ٤٧٦ في أيدي القوط بعد غارات المتبربرة الطويلة عليها ، وظهرت على أثر ذلك سلطة الكنيسة الغربية التي أعلنت أن لها دوراً سياسياً وأن لها سلطاناً على الملوك *

وإذا كانت الدولة الرومانية الغربية قد سقطت فإن الدولة الرومانية الشرقية ظلت تصارع بعد ذلك حوالى ألف عام ، وقد تصدت لها قوة الفرس فالعرب من الشرق ، كما هاجمتها الأمم المتبربرة من القوط والسلاف من الغرب ، وقد استطاعت أن تحمي نفسها من المتبربرين ، ولكنها تقهقرت أمام العرب المسلمين الذين حرروا من سلطانها سورية وفلسطين ومصر وشمالي إفريقية وجزر البحر المتوسط الشرقية ، وبالإضافة الى ذلك التقلص فقد جدّت أحداث أخرى أضعفت الإمبراطورية ، وأهم هذه الأحداث ما يلي :

١ - اعتحام الصليبيين للقسطنطينية في الحرب الصليبية الرابعة كما شرحنا من قبل وبقاؤهم بها ستين عاماً ، وكان الامبراطور يتخذ من نيقية بآسيا الصغرى عاصمة له خلال هذه الفترة ، وعندما ضعف الصليبيون واستعاد الامبراطور القسطنطينية وجدها مملوءة بالفتن والانحلال وما يقرب على ذلك من فساد وفقر *

(١) حدث انشقاق بعد ذلك (سنة ٤٣١) في الكنيسة قامت على اثره الكنيسة الشرقية (الأرثوذكس) والكنيسة الغربية (الكاثوليك) .

٢ — أراد أباطرة القسطنطينية — وقد أحسوا بقوة البابوية في روما — أن يوحدا الكنيسة المسيحية تحت سلطة بابا روما فأثار ذلك رجال الدين بالقسطنطينية وتمّ توحيد الكنيستين على أى حال سنة ١٤٣٩ دون موافقة عامة من قساوسة الشرق ، بيد أن ضعف البابوية بعد ذلك قسوى جانب المعارضين للتوحيد ، فكثر الاضطرابات في القسطنطينية .

٣ — ويضاف الى ذلك خلافات على السلطة ، وغارات من شعوب البلقان لم تنقطع ، والوباء الأسود الذى اجتاح أوروبا والذى بدأ ظهوره سنة ١٣٣٧ م .

٤ — وهناك قوة دقت باب القسطنطينية عدة مرات ، وكانت تتربص لها وهى قوة المسلمين ، وجدير بنا أن نخصص فراغاً أوسع لنتحدث عن تاريخ هذه القوة التى آل لها النصر فى النهاية على يد الأتراك المسلمين .

ومن تتبّع التاريخ يتبين لنا أن المسلمين حاربوا خلال عهده أبى بكر وعمر فى جبهتين كبيرتين هما جبهتا الفرس والروم ، وكانت انتصاراتهم فى الجبهة الأولى حاسمة وسريعة ، وأما الجبهة الثانية فقد طال أمد الحرب فيها واستمر عدة قرون ، ويعود المؤرخون أن من الأسباب الهامة التى أدت الى سرعة انهيار الفرس سقوط العاصمة (المدائن) ، والعاصمة دائماً مكان الذخيرة والمال والجاه ، فسقوطها يسبب اضطراباً وارتباكاً ، أما جبهة الروم فقد حقق المسلمون فيها انتصارات كبيرة ولكن الحروب طالت بها لأن العاصمة (القسطنطينية) كانت بعيدة المال ، وظلت تدبر الأمر ، وتجدد العدة كلما هزمت الدولة فى أية موقعة من المواقع ؛ وكان المسلمون يدركون هذه الحقيقة ، ولذلك بذلوا غاية الجهد رجاء الاستيلاء عليها ، ولكن موقع المدينة آخر

هذا الحدث الجليل ، وقضى أن تظل مطولات المسلمين قائمة عدة قرون •

وقد شهد القرن الهجرى الأول حملتين كبيرتين وجهتهما دمشق عاصمة المسلمين للاستيلاء على القسطنطينية ، وكانت الأولى في عهد معاوية بن أبى سفيان وقادها ابنه يزيد سنة ٤٩ هـ وكان من أبطالها الصحابى أبو أيوب الأنصارى الذى استضاف الرسول صلوات الله عليه في دار الهجرة ، وقد استعمل المسلمون في هذه الحملة ما غنموه من سفن ومعدات حربية وبخرية في موقعة ذات الصواري التى حدثت سنة ٣٤ هـ ، وقد أحس أبو أيوب الأنصارى بدنو أجله ، كما أحس بأن النجاح في فتح القسطنطينية لا يزال بعيدا ، ولذلك أراد أن يسهم - حتى بعد موته - في إثارة حماسة المسلمين ليعيدوا الكرة مرة أخرى ، فكان أن أوصى وصيته الشهيرة إذ يروى أنه قال ليزيد بن معاوية :

« إذا مت فاركب بى ، ثم سنخ بى في أرض العدو ما وجدت مساعا ، فإذا لم تجد مساعا فادفنى ثم أرجع » •

وتوفى أبو أيوب سنة ٥٢ هـ وحاصر المسلمون للمدينة لا يزال قائما ، فأنفذ يزيد وصيته ، ودفنه تحت أسوار القسطنطينية ، وفشلت الحملة وعادت أدراجها ، ولكن المسلمين ظلوا يحسون بهتاف أبى أيوب بهم ، ودعائه لهم أن يعاودوا الكرة حتى لا يظل جثمانه غريبا عن الأهل والعشيرة •

أما الحملة الثانية فقد كانت في عهد سليمان بن عبد الملك ، وكان قائدها مسلمة بن عبد الملك ، وهو رجل شجاع مشهود له بالصرامة ، وقد حققت الحملة في طريقها صورا من النجاح ووصلت إلى القسطنطينية

وحاصرتها ولكنها لم تحقق هدفها الرئيسى ، وجاء عمر بن عبد العزيز فأمر بفك الحصار (١) .

وفى خلال العصر العباسى قامت محاولات لاسقاط القسطنطينية خلال عهدى المهدي والرشيد ، ولكن النجاح لم يحالفها (٢) .

وهكذا قاومت العاصمة العتيدة محاولات المسلمين حوالى ثمانية قرون حتى تم فتحها على النحو السابق سنة ١٤٥٣ (٨٥٧ هـ) ويعتبر فتح القسطنطينية أهم نجاح حققه الأتراك العثمانيون ، وبه أصبحت مملكتهم تعد من الامبراطوريات الاسلامية العظيمة ، إذ حققت مما طمع فيه المسلمون عدة قرون ، وقد هيا لهم ذلك ألوانا من الانتصارات الأخرى فى العالم الاسلامى ، اذ اعتبر الانضمام اليهم نوعا من الوحدة الاسلامية لا من الخضوع لمستعمر غريب كما سبق القول ، وهكذا دانت لهم مصر وسوريا والعراق فيما بعد دون مقاومة تذكر .

الاسلام والتسامح العينى :

وبعد فتح القسطنطينية عاد محمد الفاتح الى أدرنة وأمر ببناء جميع الحصون الغربية ليحيط من هذه المدينة عاصمة لامبراطوريته ، وعمل السلطان على تنظيم أهوال اليونان (الروم) المغلوبين للتو والساعة ، والواقع أنه أبقى على استقلال البلغار الكنسى ، فعمل أسلافه من قبله ، واعترف — وفقا للفكرة الاسلامية المعززة بالتقاليد الدينية — بجميع السلطات الدينية اليونانية ، بل إنه زادها قوة بأن وكل اليها أمر القضاء العنى وتطبيق أحكامه على أتباعه (٣) .

(١) اقرأ تاريخ هذه المحاولات مفصلا مع المراجع الاساسية لها فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة .

(٢) اقرأ تاريخ هذه المحاولات فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة .

(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٤٢ .

ويصف فولتر الفيلسوف الفرنسي الشهير موقف المنتصر المسلم من المهزوم المسيحي بقوله : ان الأتراك لم يسيئوا معاملة المسيحيين كما نعتقد نحن ، والذي يجب ملاحظته ان أمة من الأمم المسيحية لا تسمح ان يكون للمسلمين مسجد في بلادها بخلاف الأتراك فانهم سمحوا لليونان المقيمين بأن تكون لهم كنائسهم ٠٠٠ ومما يدل على أن السلطان محمد الفاتح كان عاقلا حليما تركه للنصارى المقيمين الحرية في انتخاب البطريرك ، ولما انتخبوه ثبته السلطان وسلمه عصا البطارقة وألبسه الخاتم ، حتى صرح ذلك البطريرك عند ذلك بقوله : إني خجل مما لاقيته من التجليل والحفاوة ، الأمر الذي لم يعمله ملوك النصارى مع أسلافى (١) .

ولعل من الخير أن نشير هنا الى الفرق بين هذا التصرف وتصرف غير المسلمين مع المسلمين عندما يحظى غير المسلمين بأية انتصارات ضد المسلمين ، كانتصارات المسيحيين المدمرة في الحرب الصليبية الأولى ، وكانتصاراتهم في أسبانيا على المسلمين في عهودهم الأخيرة ، وكانتصارات الزائفة لليهود ضد العرب في فلسطين ، فقد كانت دائما انتصارات فيها حقد وغل ودماء ودمار .

بعد القسطنطينية

استمر العثمانيون يسيرون بنجاح في فتوحاتهم بأوربا ففتحو بلاد الصرب وشبه جزيرة المورة وبلاد ألبانيا الى حدود البندقية ، وهاول محمد أن يفتح إيطاليا ليرفع علم الاسلام على روما كما رفعه على القسطنطينية ، ولكنه نكص عن ذلك لمشاغله الكثيرة ، ولم يستول من إيطاليا الا على مدينة « أثرنتو » سنة ١٤٨٠ ومات محمد الفاتح سنة ١٤٨١ فأخلى خلفه هذه المدينة .

(١) نقلا عن دائرة معارف القرن العشرين للاستاذ فريد وجدى ج ٢

وكان مصعد قد أوصى بالملك لابنه الأصغر « جم » ، ولكن الابن الأكبر بايزيد (الثاني) تغلب عليه واستولى على الملك بعد مناوشات استمرت حتى سنة ١٤٨٨ ، وفي آخر عهد بايزيد أوصى هذا بالعهود لابنه أحمد ولكن الابن الثاني (الأصغر) واسمه سليم ثار في وجه أبيه وأخيه ، وقام صراع مرير انتصر فيه سليم سنة ١٥١٢ ويقال انه دس السم لأبيه ليتخلص منه كما سيأتي .

وأراد سليم أن يؤدب الأسرة المالكة الجديدة في فارس وهي أسرة الصفويين لمساعدتها لأخيه خلال الصراع بينهما ، وبالتالي أراد أن يمد سلطانه الى آسيا ، ولكن حال دون ذلك منافس آخر هو المماليك بمصر الذين كلن سلطانهم معتدا الى سوريا ، وكان نفوذهم يشمل الأماكن المقدسة بالحجاز ، فوجد سليم أن لا بد من البدء بسوريا ومصر قبل أن يدخل المعركة مع فارس .

فتح سوريا ومصر :

كانت الدولة المملوكية بمصر وسوريا قد أصيبت — كما سبق — بانحيار اقتصادي في نهاية القرن الخامس عشر عندما استطاع البرتغاليون كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، فارتبطت تجارة أوروبا بالهند دون المرور بالموانئ المصرية والعربية ، وقد بدأ هذا الكشف بواسطة هنري الملاح (١٣٩٤ — ١٤٦٠) الذي استطاع أن يصل الى سيراليون (Sierra Leoni) ، وتلاه برتولوميو دياز (Bartholomew Diaz) الذي دار حول رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٨٨ ، وبعد ذلك بعشر سنين استطاع فاسكودي جاما (Vesco de Gama) أن يسير من شواطئ افريقية الشرقية الى شواطئ الهند ، وبذلك اتصلت البرتغال بالهند وبجزر الهند الشرقية عن طريق البحر مباشرة دون الحاجة للموانئ العربية وللخطوط البرية العربية ، وقد حاول المماليك الوقوف في وجه البرتغاليين منعهم من سلوك هذا الطريق ، ولكن محاولاتهم ذهبت هباء إذ استطاع

البرتغاليون احتلال جزيرة سوكطرى قرب مدخل البحر الأحمر وجزيرة
هرمز عند مدخل الخليج العربى بأمل حبس الاساطيل الاسلامية داخل
البحر الأحمر والخليج العربى (١) .

ومن الواضح أن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح لم يقض على
التجارة عبر الخطوط العربية قضاء تاما ، ولكنه أضعفها بشكل ظاهر ،
وبيقيت الخطوط العربية تباشر نشاطها المحدود بجوار الخط البحرى
الجديد الذى اجتذب أكثر النشاط .

وكان الضغط الاقتصادى الذى طرأ على الجبهة المملوكية من الأسباب
التي يسرت على العثمانيين التغلب على المماليك فى سوريا ومصر .

فى ضوء هذه الأحداث قامت معركة بين المماليك والعثمانيين فى مرج
دابق (شلمالى حلب) سنة ١٥١٦ م انتصر فيها العثمانيون وسقط قنصوه
الغورى (سلطان مصر) قتيلا فيها ، وضم العثمانيون بذلك سوريا
لممتلكاتهم ، وتقدم سليم الى مصر فجرت معركة بينه وبين السلطان
المملوكى الجديد طومان باى ، وهى معركة الريدانية على أبواب القاهرة
سنة ١٥١٧ ، وانتصر فيها الأتراك أيضا وعقب ذلك اعترفت الأماكن المقدسة
للعثمانيين بالانفوذ والتبعية ، وقد سبق أن أوضحنا أن العثمانيين خطروا
هذه الخطوات باسم الاسلام مما يسر الطريق أمامهم ، ومات السلطان
سليم سنة ١٥٢٠ فتولى ابنه سليمان العرش ، وهو المعروف بسليمان
القانونى .

نشاط سليمان فى أوروبا وآسيا :

وبلغت الدولة أقصى قوتها فى عهد سليمان القانونى أو العظيم كما
يسميه الأوروبيون ، وقد شمل نشاطه الميدانيين الغربى والشرقى ، ففى

(١) انظر مزيدا من الدراسة حول هذا الموضوع فى الجزء السابع من
هذه الموسوعة عند الحديث عن عمان .

أوريا استطاع السلطان الجديد أن يستولى على بلغراد سنة ١٥٢١
وجزيرة رودس سنة ١٥٢٢ •

وفي سنة ١٥٢٦ حصلت موقعة مهاج الأولى بينه وبين ملك المجر ،
وقد انتصر السلطان سليمان انتصارا كبيرا فيها ، فقتل الملك الشاب لويز
وصفوة رجاله ، ولما تنازع أمير ترانسلفانيا وملك النمسا حول تاج المجر
تدخل السلطان سليمان وناصر أمير ترانسلفانيا واحتل بودابست •

حصار فيينا :

وقد حاصر العثمانيون العاصمة الساحرة (فيينا) عدة مرات كانت
أولها عقب الانتصار السابق وتمت سنة ١٥٢٩ ، وكانت الثانية سنة
١٥٣٢ ، وفي سنة ١٦٨٣ حاصر العثمانيون العاصمة للمرة الثالثة بقيادة
الصدر الأعظم عمر مصطفى ولكن تحالف ألمانيا وبولنده أنقذ العاصمة من
السقوط •

وقد طهر سليمان البحار من أعدائه ، وكان للقباطنة الأتسراك
السيطرة الكاملة على البحر الأبيض والبحر الأحمر •

فتح العراق والصدام مع الفرس :

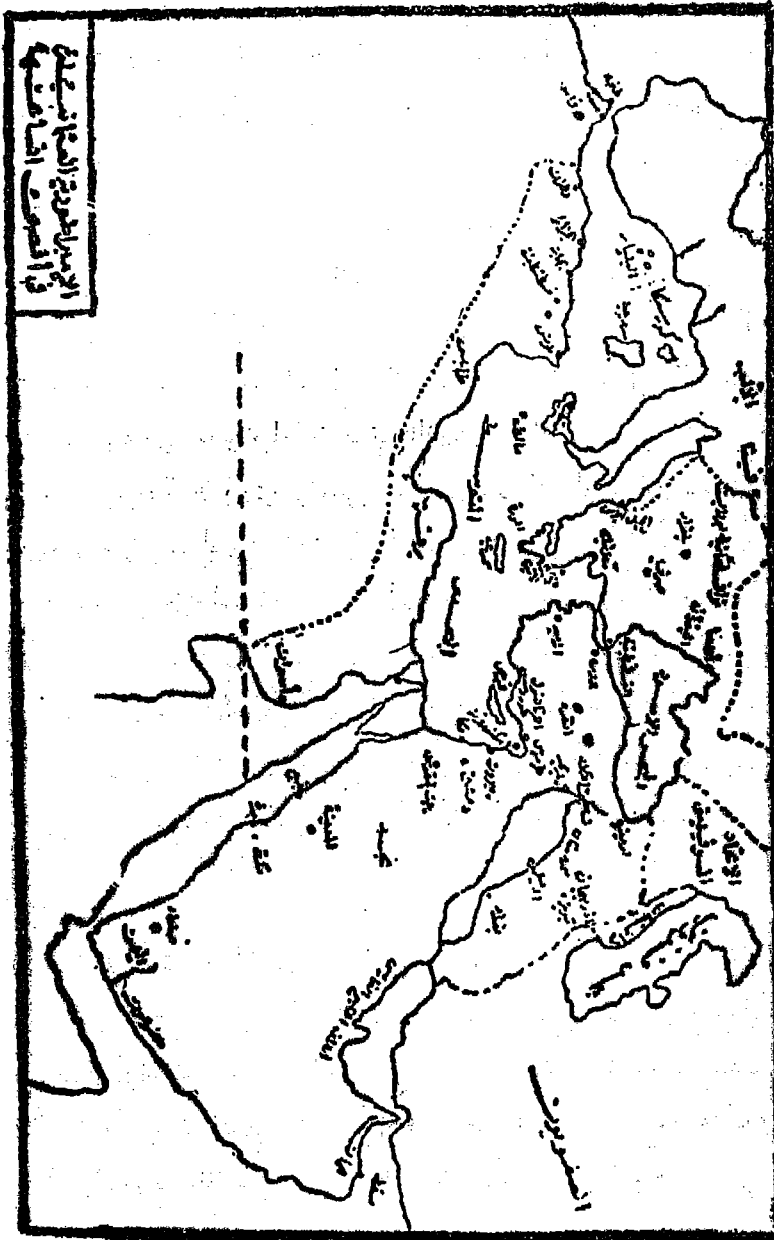
وفي آسيا حارب سليمان القانوني الفرس ، إذ أن عامل بغداد من
قبل الصفويين تمرد عليهم لتشيعهم وانحاز الى سليمان القانوني لأنه
سنى ، ليحمى نفسه وأتباعه السنيين بالعراق من ضغط الشيعة ، فجهز
الشاہ الصفوى حملة ضده وأخضعه ، فهب سليمان يدافع عن حليفه
وانتصر له سليمان ضد الفرس ، وتقدم حتى وصل « تبريز » عاصمتهم ولكنه
رجع اكتفاء بسيطرته على العراق ولحدوث تمرد في جيشه ، وكان فتح
سليمان للعراق سنة ١٥٣٤ •

الشمال الإفريقي وباقي البلاد العربية :

وكانت دول الشمال الإفريقي مضطربة بسبب محاولة أسبانيا الاستيلاء عليها عقب هزيمة المسلمين بأسبانيا وانسحابهم منها ، وقد انتهز الأتراك هذه الفرصة فتدخلوا في شئون هذه البلاد ، واستولوا على الجزائر بواسطة خير الدين بربروسا سنة ١٥١٨ ، واستولى خير الدين على تونس باسم الباب العالي سنة ١٥٣٤ من بنى حفص ، واستولى سنان باشا على طرابلس وطرد فرسان القديس يوحنا المالطيين سنة ١٥٥١ ، وهكذا دخل الشمال الإفريقي تحت سلطان العثمانيين ما عدا المغرب الأقصى ، وقبيل منتصف القرن السادس عشر قامت حملة تركية بحرية بقيادة « بيري رئيس » أخذ الأمراء البحريين ببعض الأعمال البحرية على شواطئ الجزيرة العربية الجنوبية والشرقية ، فاحتلت عدن سنة ١٥٣٨ ثم واصلت زحفها باليمن حتى احتلت صنعاء سنة ١٥٤٧ ثم احتلت مسقط سنة ١٥٥١ ووصلت حتى رأس الخليج العربي وسارت حملة من مصر فأكملت احتلال اليمن سنة ١٥٦٨ (١) ، وبذلك بلغت الامبراطورية العثمانية أقصى مداها ، فقد امتدت من بودابست على نهر الطونة الى أسوان بالقرب من شلالات النيل ، ومن نهر الفرات وقلب ايران الى باب المندب جنوبى الجزيرة العربية •

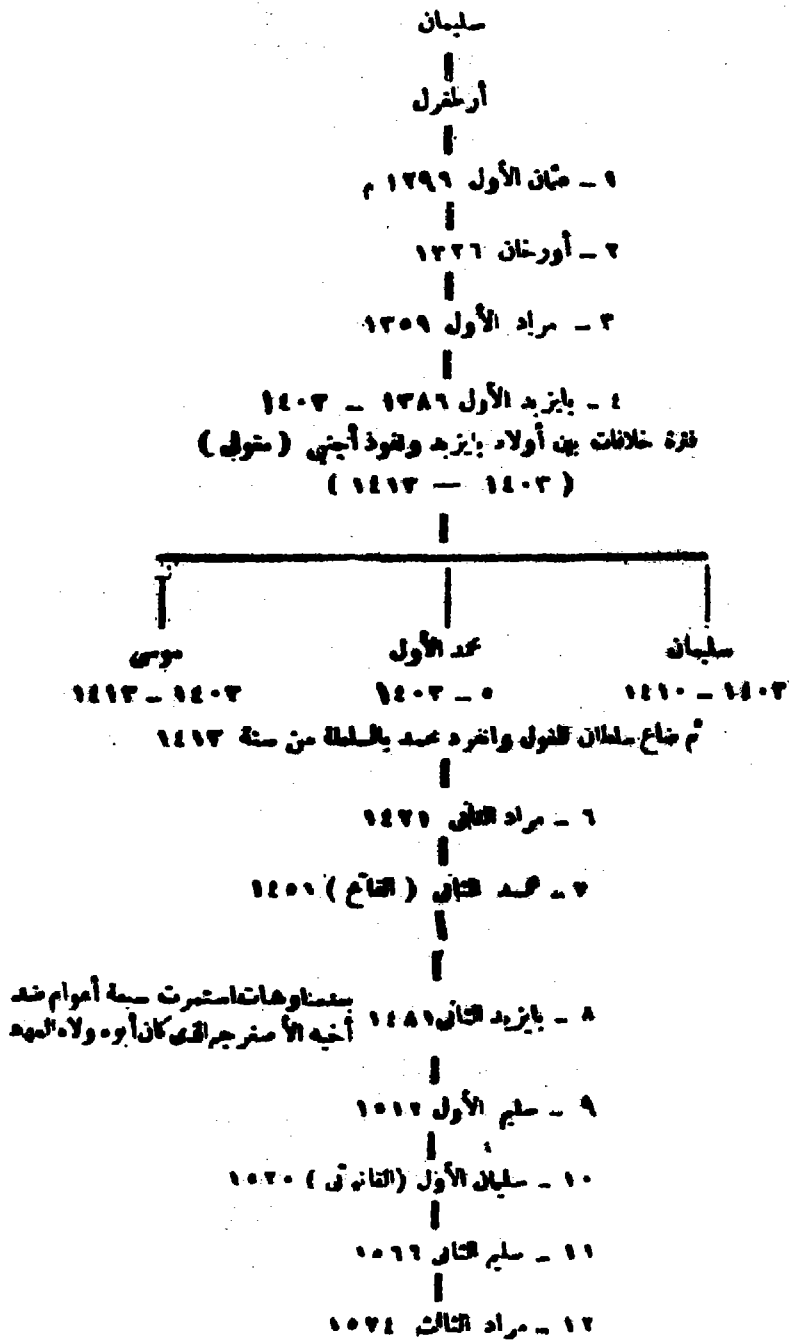
وفي النصف الثانى من القرن السادس عشر توقف نشاط العثمانيين على أثر خلاف بين أبناء السلطان سليم على السلطة ، وتجمعت عوامل متعددة أوقفت تقدم العثمانيين ، ثم جعلتهم هدفا لهجمات الآخرين ، فانتقلوا من الهجوم للدفاع ، ثم تقهقروا أمام زحف أعدائهم وأخذت الامبراطورية تنقلص وتتهار على ما سنوجزه فيما بعد •

(١) للحديث عن نشاط العثمانيين بالجزيرة العربية اقرأ الجزء السابع من هذه الموسوعة •

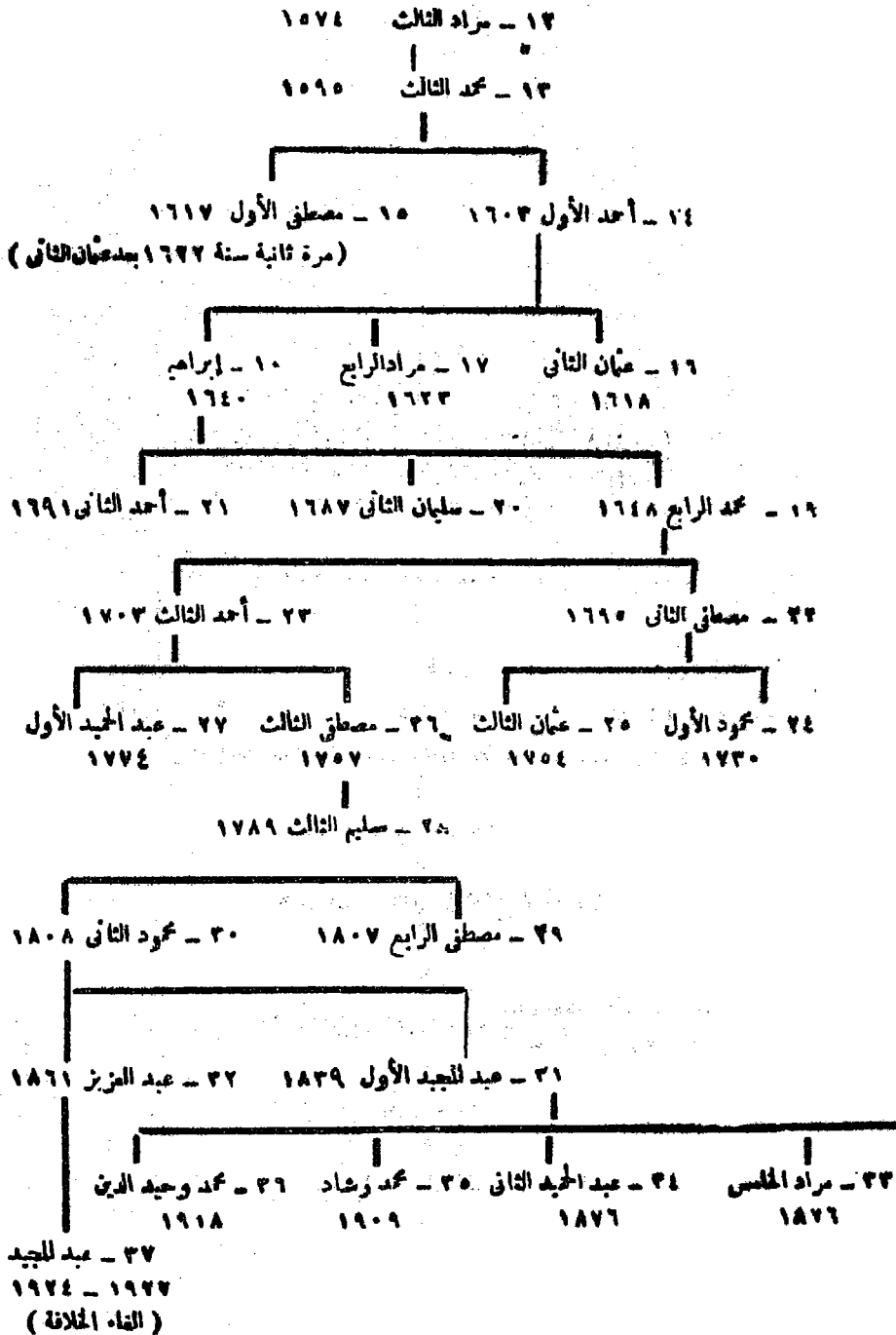


جدول نسب سلاطين آل عثمان

(أولاً) دور القوة :



(ثانياً) دور النصف :



وقد تحدثنا بشيء من التفصيل عن دور القوة ، وسنشرح فيما بعد ظروف انهيار الدولة وأسباب ذلك الانهيار ، ولكننا هنا نبادر فنضع أمام السلاطين الذين لم نتحدث عنهم أهم الأجندات التي شغلت عهودهم وأدت بالدولة الى الانحدار ، وهي كالآتي :

سليم الثاني : — فتح قبرص

— هزيمة تركيا في موقعة ليبانتو ضد الحلفاء ثم
— عودة القصر الى تركيا في البحر •
— استبعاد تونس من دون جوان

مراد الثالث : — هزيم البرتغال والفرس

محمد الثالث : — بدء تدخل نساء القصر في شؤون الدولة
أحمد الأول : — ضمدت النمسا لأول مرة في حروبها مع الترك
فاستمرت الحروب خمسة عشر عاما ، مما قلل من
هيبة الترك في نظر الأوروبيين ، وحسّلت الجزية
الى هدية غير ثابتة المقدار •
— انتصارات للفرس •

سليمان الأول : — سادج خليع أصدر شيخ الاسلام فتوى بخلعه •

عثمان الثاني : — غلام في الثالثة عشرة •

مراد الرابع : — كان لا يخرج من السراي الا نادرا ، واشتد
سلطان نساء القصر •

— ثورة للانكشارية عزلت السلطان •

محمد الرابع : — اتمام فتح كريت •

— قيام اتحاد ضد الترك من البنادقة وبولونيا والبابا
ورهبنة مالطة وروسيا والقوزاق وتوسكانه

- والنمسا باسم « الاتحاد المقدس »
- موقعة مهاج (١) الثانية التي هُزم فيها الأتراك
- على يد شارل الخامس ملك لورين •
- أسرة كوبريلي •

- سليمان الثاني : كوبريني زاده يحقق للدولة بعض الانتصارات
- أحمد الثاني : حروب عادية
- مصطفى الثاني : — عاد يقود الجيوش بنفسه أملا في إصلاح الأحوال
- صلح كارلويج

- قتل شيخ الاسلام واستقالة السلطان •
- أحمد الثالث : — انتصارات على روسيا في عهد بطرس الأكبر
- قبول الصدر الأعظم رشوة من زوجة بطرس
- الأكبر لينجو الامبراطور الروسى وجيشه من
- أسر محقق •

- محمود الأول : حروب عادية مع الفرس والروس والنمسا •
- عثمان الثالث : عهد سلام لايشغال أوروبا بحرب السبعة أعوام
- مصطفى الثالث : — انتصارات روسية •
- عبد الحميد الأول — حروب مع الروس والفرس
- معاهدة قينارجة

(١) — مهاج أو موهاج مدينة على الدانوب •
— موقعة مهاج الاولى حقق فيها سليمان القانون سنة ١٥٢٦ نصرا
سلحفا ضد لويس الثاني ملك المجر •

- سليم الثالث : — هزائم الدولة من الروس
— ظهور فساد الانكشارية
— محاولة للإصلاح الداخلى فى الجيش والادارة
— حروب انجلترا ضد فرنسا لاحتلالها مصر
— عزل السلطان
- مصطفى الرابع : — نكسة للإصلاحات الداخلية التى قدمها سليم
الثالث
— عزل السلطان
- محمود الثانى : — القضاء على سلطان أمراء الاقطاع
— ثورة اليونان وتدخل مصر
— موقعة ناورين
— زيادة الانكشارية
- عبد المجيد الأول : — فرمان الوراثة لأسرة محمد على
— اصلاحات داخلية (المدارس الحديثة — تنظيم
الميزانية — استقلال المحاكم)
— هزائم فى الخارج وثورات فى الداخل (ثورة بين
الموارنة والدروز)
- عبد العزيز : — هزائم فى الجبل الأسود والصرب والاملاق
والبغدان
— الثورة الوهابية وتدخل مصر
— تدمير عام ضد السلطان
— خلع السلطان
— انتحاره أو قتله بعد خلعه بأربعة أيام وسنشرح
ذلك عند الكلام عن عبد الحميد الثانى
- مراد الخامس : — عزله بعد فترة قصيرة لتخليطه أو اتهامه بالجنون

عبد الحميد الثاني : — مشكلة الدستور

— مدحت أبو الدستور

— الثورات الداخلية والاستبداد الحميدى

— هزائم خارجية

— معاهدة سان استفانو ومعاهدة برلين •

ومستقدم عن عبد الحميد الثانى ومدحت دراسات

مهمة وواسعة فيها بعد •

محمد رشاد : — السير نحو النهاية •

— الحرب العالمية الأولى وهزيمة تركيا •

محمد وحيد الدين : — تركيا الفتاة

— الحد من سلطان الخليفة

— مصطفى كمال يتسلم السلطة المدنية

— عزل السلطان وتولية بدله سنة ١٩٢٢

عبد المجيد : — اعلان الجمهورية سنة ١٩٢٣ وجعل الخلافة

للشعوب الدينية فقط •

— انتهاء الخلافة وطرد بيت السلاطين سنة ١٩٢٤

حضارة العثمانيين

مقدمة :

لعل من الأفضل أن نتحدث هنا عن حضارة العثمانيين وألوانها ، قبل أن نصف الدولة وهي تتهاور وتتخمش ، وذلك لأن الحضارة التي سنتكلم عنها الآن هي في الحقيقة وليدة عصور القوة ، وقد طرأت ظروف على عصور الضعف جعلت بها اتجاهات من نوع آخر ستكون موضوع حديثنا عند الكلام عن هذه العصور .

مصادر الحضارة العثمانية :

يقول الدكتور فيليب حتى : إن ثقافة العثمانيين كانت مزيجا من العناصر المتنوعة ، فقد أخذوا الترك عن الفرس كثيرا من الأفكار الأدبية ، كما أخذوا منهم بعض الأفكار السياسية كتمظيم الملك ، وقد اقتبس الترك هذه الموضوعات عن الفرس لصلاتهم بهم قبل هجرتهم الى غربى آسيا وبعد هذه الهجرة ، وكان مما منحته بداوة آسيا الوسطى للترك النزعة للحرب والفتح والبلل للاختلاط بالآخرين والامتزاج بهم ، وقد انتقل الى الترك أيضا من البيزنطيين بعض المؤسسات الحربية والنظم الحكومية ، ولكن العرب كانوا قبل الجميع معلمى الأتراك كما كان اليونان معلمى الرومان ، فقد أخذ الترك عن العرب علومهم ودينهم بما فيه من المبادئ الاقتصادية والاجتماعية والتشريعات المقدسة ، وأخذوا أيضا الحروف العربية للكتابة ، فظلت شائعة حتى سنة ١٩٢٨ ، وباعتناق الترك دين الاسلام واقتباسهم الحروف العربية انتقل اليهم من اللغة العربية ألوف الاصطلاحات الدينية والعلمية والشرعية والأدبية ، ولا يزال كثير من هذه الاصطلاحات في قلب اللغة التركية على الرغم من المحاولات القومية الأخيرة لإخراجها منها (١) .

(١) فيليب حتى : تاريخ العرب ج ٢ من ٤٨٢ — ٤٨٣ .

ولكن المطلع على حضارة العثمانيين التي سبلم بها يرى ألوانا منها بعيدة عن الفكر الاسلامى وعن الشهامة العربية كالنزعة للغدر ومصادرة الأموال والانهماك فى اللذات أحيانا ، ولذلك فنحن نرى أن الأتراك تعلموا من الاسلام ومن العرب الكثير ولكنهم لم يعملوا بها فى كل الأحوال ، وغلبت عليهم أحيانا نزعة البداوة والجمجية فى سلوكهم السياسى والعسكرى .

الهيئة الحاكمة

السلطان وحكمه المطلق :

كان السلطان العثمانى يحكم حكما مطلقا فى أغلب الأحوال ، وكان هذا الاتجاه مخالفا للإسلام وسببا من أسباب الكوارث ، وقد قامت محاولات دستورية ولكنها كانت عقيمة ، وكان السلطان يحس أنها حرمة من اكتمال السلطة فكان يحاول التمرد عليها والعودة لحكم الفرد ، مع أن الشورى اللازمة فى الاسلام تخفف العبء عن الرؤساء ، وتشارك معهم فى المسئولية بعض أولى الأمر ، ولكن متعة السلطة كثيرا ما أعمت الرؤساء المستبدين .

ويعتبر بعض الباحثين عن السلطنة العثمانية بأن الحكم المطلق كان أسلوب العصر ، ولم تكن الغالبية العظمى من دول أوربا يمارس فيها الحكم النيابى الذى هو من معالم الديمقراطية ، وكان أكثر ملوك الأرض يتبعون الحكم المطلق (١) .

ولكننا لا نوافق هذا الباحث فيما قال ، فملوك أوربا لم يكن عندهم كتاب الله الذى يلزم بالشورى ولم يكن عندهم التاريخ الشامخ للرسول وصحبه الذين كوثوا حولهم مجالس للشورى قبل العثمانيين بمئات السنين

(١) دكتور عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية : دولة اسلامية

وعلى كل حال فقد كانت الشريعة الإسلامية تحول دون انطلاق الديكتاتورية وتخفف من غلوائها ، فهناك كثير من الأحكام وردت نصوص واضحة فيها ، وكان على الخلفاء العثمانيين أن يمتثلوا لها ، وإن كان الواقع يقرر للأسف أن السلاطين العثمانيين كانوا يجدون في جميع الحالات — إلا ما ندر — استجابة فورية لرغباتهم من كبار علماء الدين : شيخ الإسلام وأمين الفتوى وقاضى العسكر ، إذ كانوا يصدرون فتاوى تحقق مآرب الخلفاء ، وتضفى على تصرفاتهم طابع الشرعية ، ونخلص من هذا كله إلى أن الاستبداد الذى مارسه السلاطين لم يكن استبدادا مقيدا بل كان استبدادا مطلقا (١) .

ويجب أن نوضح أن الاستبداد المطلق كان يوجد إذا كانت هناك رغبة خاصة للسلطان ، أما في الأمور التى لا دخل لرغبات السلاطين فيها ، فإن الشريعة الإسلامية تأخذ مجراها الطبيعى ، فمشروعات القوانين العادية كانت تعرض على شيخ الإسلام ليقرر مدى مطابقتها للشريعة الإسلامية ، وأحكام الإعدام على المتهمين في القضايا الجنائية كانت تعرض على شيخ الإسلام قبل تنفيذ حكم الإعدام للتأكد من سلامة السير في القضية .

اللقاب السلطانية :

وكان للسلطان التركى سلسلة من الألقاب لعلها اكتملت في عهد القوة إبان حكم سليمان القانونى ، وقد كتبها سليمان في مطلع رسالة منه إلى فرنسيس ملك فرنسا ، ونحن نقتبسها من Roger Mirreman (٢) .

أنا سلطان السلاطين ، وملك الملوك ، مانح التيجان للملوك على وجه البسيطة ، ظل الله في الأرض ، سلطان البحرين الأبيض والأسود :

(١) المرجع السابق ص ١١٠ .

(٢) Suleiman the Magnificent p. 130 .

وخاقان البرين ، وملك الرملى والأناضول ، وبلاد الكرمان وبلاد الروم ،
وديار بكر وكردستان ، وأذربيجان وفارس ، ودمشق وحلب والقاهرة
ومكة والمدينة والقدس واليمن وكل البلاد العربية وبلاداً كثيرة أخرى
افتتحها آباءى الأشراف وأجسادى الأمجاد نوح الله مراقدهم بقوة
سلاحهم ، وجعلتها جلالتي المهية تابعة لسيفي المتهب ومهتدى المنتصر .

لقب « الخليفة » :

أما لقب « الخليفة » فكان الأتراك يضمثونه لألقابهم منذ عهد مراد
الأول (١٣٥٩ — ١٣٨٩) ، ويقول كارل بروكلمان (١) : ان ما يقال من أن
سليمان الأول حمل الخليفة العباسى بالقاهرة على أن يتنازل له عن هذا
اللقب سنة ١٥١٧ لم يرد الا في رواية متأخرة . ويؤيد سير توماس أرنولد
اتجاه كارل بروكلمان ويعطى الأدلة ليبين أن هذا التنازل لم يتم (٢) .

ويبدو أن الأتراك العثمانيين لقبوا أنفسهم بلقب الخلافة قبل
دخولهم مصر بزمان طويل حتى ليقال ان مراد الأول (١٣٥٩) اتخذ
لنفسه هذا اللقب عقب الانتصارات التى حققتها في آسيا الصغرى وفي
أوربا ، ومن الواضح أنه لم يكن بسلطان العثمانيين حاجة لينتظروا حتى
يتنازل لهم الخليفة العباسى عن هذا اللقب ، فقد عرف المسلمون قبل ذلك
بأمد طويل فكرة تعدد الخلفاء ، ففي آخر القرن الثالث الهجرى وأوائل
الرابع (العاشر الميلادى) اتخذ الفاطميون لقب الخليفة لقباً لهم بالشمال
الأفريقى اذ كانوا شيعية ، لا يعترفون بالخلافة السنية ببغداد ، وبعد
ذلك بقليل أعلن عبد الرحمن الناصر بالأندلس أن هذا اللقب حق له
امتداداً لأبائه وأجداده بدمشق ، ولأن من سبقوه بالأندلس الذين اكتفوا
بلقب الأمير ، وعلى هذا فما حاجة العثمانيين للانتظار اذا كانوا يريدون
حمل هذا اللقب ؟

(١) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ٩٣ .

(٢) انظر : The Caliphate p. 139 .

ويقول فيليب هتشي : وسواء انصَحَّتْ الدعوة ان تاتيه من الخليفة العباسي بالقاهرة أو صي بالخلافة للسلطان العثماني أو لم تصح ، فالواقع أن أمير القسطنطينية التركية اكتسب تدريجياً امتيازات الخلافة ، ثم اتخذ أخيراً لقب الخلافة لنفسه ، وأول وثيقة دبلوماسية معروفة أشير فيها إلى السلطان العثماني بلقب الخلافة ، واعترف فيها بسلطته الدينية على المسلمين خارج الولايات العثمانية هي المعاهدة الروسية التركية الموقع عليها في كوتشوك كينرجي سنة ١٧٧٤ (١) .

السلطين بين القوة والضعف :

كان سلطين العثمانيين قسامين :

١ - قسم يمكن تسميتهم « السلطين العظام » وعددهم عشرة ، يبدأون بعثمان أول السلطين وينتهون بالسلطان سليمان القانوني وقد حكموا ٢٦٧ سنة من سنة ١٢٩٩ إلى سنة ١٥٦٦ م وقامت على سواعد هؤلاء عظمة الدولة من حيث التوسع الاقليمي في آسيا وأوروبا وأفريقية ، ومن حيث النظم والمنشآت الحضارية .

٢ - والقسم الثاني هم السلطين الضعاف وعددهم ٢٦ سلطاناً أولهم السلطان سليم بن سليمان القانوني وآخرهم محمد السادس آخر الخلفاء وقد حكموا حوالي ٣٥٧ من سنة ١٥٦٦ إلى سنة ١٩٢٤ ، وفي عهد أكثر هؤلاء تدخلت سيدات القصور في إدارة الدولة ، كما مال الخلفاء للترف وطالت اقامتهم بين الجوارى والمغنيات ، وأصبح المصدر الأعظم في كثير من الأحوال صاحب السلطة في الدولة ، وقد بلغ من هوان سلطين هذا العصر أن سمي بعضهم بإسم « السلطين التنبلة » وكان بعضهم فيه لومة عقلية ، وعدم قدرة على السيطرة .

ونتيجة لهذه الأوضاع أعقب المدء جزر ، وتراجعت الدولة في كثير من الميادين وكثير من النظم (١) .

ولاية العهد وآثارها القائمة :

لم يكن هناك قانون ينظم ولاية العهد في الامبراطورية العثمانية ، وهذا فُتِّح الباب لصراع دام لشغل منصب السلطان عقب خلوه لسبب من الأسباب .

وكانت القصور خلافة جذابة ، والمطامع في شغل هذا المنصب قوية وواضحة ، وبخاصة أن من يتولى السلطنة كان يمكنه أن يتخلص من منافسيه بالقتل ، ومعنى هذا أن المنصب كان هو الذي يحمي الانسان من القتل ، ومن هنا نشط الكثيرون لنيله حتى يحظوا بفتح القصور من جانب وبالسلامة من جانب آخر .

وفي فترة من الفترات جعلت ولاية العهد للابن الأكبر وذلك لوضع حد للمناقسة والصراع ، ولكن أحمد الأول (١٦٠٣ - ١٦١٧) اختار أخاه مصطفى وليا لعهد ، وتخطى ابنه عثمان ، ولكن هذا كافح حتى أخذ السلطنة من عمه سنة ١٦١٨ وبقيت معه أربع سنوات ثم أصبح مصطفى الأول سلطانا مرة أخرى ، وكان الباب يفتح على مصراعيه للقتال كلما خلا منصب السلطان ، وان كان الصراع على المنصب كان قد بدأ قبل ذلك بعهد طويل كما اتضح ذلك من الدراسات التي قدمناها فيما سبق والتي سنوردها هنا بعد قليل .

وقد وصلت مشكلة إراقة الدماء من أجل هذا المنصب قمتهما وفضاعتها عندما أصدر محمد الفاتح (١٤٥١ - ١٤٨١) قانونا يتيح لمن يتولى العرش أن يقتل من يرى من أخوته تأمينا لسلامة الدولة ،

(١) انظر كتاب الدكتور الشناري سالف الذكر ص ٣٤٥ وص ٦٧٢ .

ولم يقف الأمر عند قتل الإخوة بل تعداهم الى قتل الأبناء ومن يحتمل أن ينافسوه بوجه عام . ويقول كارل بروكلمان (١) إن محمدا الفاتح استهلك عهده بأن أمر بقتل أخيه أحمد ، ومن ذلك الحين صار قتل السلطان إخوته عادة شبه مطردة ، فلما جاء محمد الثالث (١٠٩٥ هـ = ١٦٠٣) أمر بقتل إخوته الذكور وكان عددهم تسعة عشر أميرا ، وأمر بإغراق نساء أبيه وجواري أبيه الحوامل ، وكان عددهن عشر نساء (٢) ويقول الأستاذ محمد كرد علي ما يلي :

ولا شك أنه من أعمال العنف والوحشية أن يبتدع العثمانيون ذلك القانون باسم اقرار الأمن ، وقد نشأت عن ذلك سلسلة من المفاجآت ، ورأى الزمان لهذا النوع من القتل مبرراً ، فوضع في قالب الحرص على سلامة الأمن العام ، ولم يقف الأمر عند الإخوة ، بل تعداهم الى غيرهم ، فأصبح قتل السلطان إخوته وأولاده وأحفاده وبناته والحاملات من نساء السلاطين مما لا يستتكر ، وظلت هذه العادة القبيحة جارياً حكمها حتى عهد محمد الرابع (١٦٤٨) إذ حاول قتل شقيقه فممنعته أمه ، وصحبا المفتي الأكبر فأورد للسلطان كلام الله وحذره عقابه ، وبذلك انقضى دور قتل أبناء الملوك بعد أن دام فترة طويلة ، وأخذ كل سلطان بعد ذلك يراقب أولياء العهد مراقبة شديدة ويقيمهم بمعزل من الناس لا يختلطون بهم (٣) .

وأكثر من ذلك ، لقد كان العقوق واضحاً بين الأب وابنه والابن وأبيه ، ويرجح أكثر المؤرخون أن سليما الأول هو الذي دس السم لأبيه بايزيد الثاني ليحصل على السلطة لنفسه بدلا من أخيه الأكبر « أحمد » الذي كان يرشحه الأب ، ومن أجل هذا كان سليم يخاف

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ٢ : ٤٠ .

(٢) محمد غريد وجدي : دائرة معارف القرن العشرين ٢ : ٥٩٣ .

(٣) الحضارة العربية ٢ ص ٢٨ و ٥٢٩ .

ابنه سليمان وينظر اليه نظرة شئك وريبة ذاكراً حدثته هو ، ومن أجل هذا عاش سليمان طيلة حياة أبيه مستكيناً خوفاً من نقمة أبيه الذي كان يمكن أن يأمر به فيلقى للفناء .

وأحيانا كان يدور الصراع بين أبناء السلطان في حياته كما حدث في حياة بايزيد ، إذ اقتتل أبناء أحمد وسليم ، أو بعد وفاته كما حدث في حالات أخرى كثيرة من أهمها ما وقع بين بايزيد الثاني سالف الذكر ، وبين أخيه « جم » الذي كان أبوه محمد الفاتح ولاء عهده ، وقد بدأت هذه الحرب بعد وفاة محمد الفاتح سنة ١٤٨١ ، وظلت حتى تغلب بايزيد على أخيه سنة ١٤٨٨ .

توحيد الإقامة :

وعندما توقفت إراقة الدماء استجابة للاستتكار الاسلامي وللشعور العالمي ، اتجه السلاطين اتجاهاً جديداً لحماية أنفسهم من منافسيهم ، وكان ذلك الاتجاه هو أن يحددوا إقامة الإخوة والأبناء ، بأن يوضع كل منهم في قصر صغير ، تحيط به حديقة ، وتكثر به الجوارى والقيان ويكون له سور مرتفع صامت ، بحيث لا يراه أحد من الخارج ، ولا يرى هو أحداً بالخارج ، وتوضع مع هذا المسكين بعض الكتب الدينية وبخاصة التي تحت على طاعة ولي الأمر .

وكانت هذه القصور الصغيرة تسمى « أقفاصاً » (١) ، وظالما تحول السجين فيها الى معتوه أو أصابته علة صحية أو نفسية .

وعلى العموم فكل جوانب القسوة التي ذكرناها كانت ردءاً فعلاً للثورات العنيفة التي قام بها الطامعون في السلطة من حين الى حين .

(١) دكتور عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية .. ص ٣٥٠

اعوان السلطان :

وبجانب السلطان كان يوجد المصدر الأعظم ، وهو يعادل منصب رئيس الوزراء في العهد الحاضر ، وكانت الرشوة الباهظة ، والتعهد بتلبية مطالب السلطان وسد حاجة بلاطه من أهم الشروط للترشيح لهذا المنصب الخطير ، ويجيء بعد سدا المنصب الولاية (الباشوات) وهم حكام الولايات ، وكان الوالى لا يعين إلا اذا أجاز العطاء للمصدر الأعظم ، بل لقد فُرض على باشوات الولايات أن يجددوا مراسيم تعيينهم كل عام لتتكرر الرشوة التى يدفعونها ، وكلما كان يخلو منصب وال كانت المساومة تظهر ، فلا تمنح الولاية إلا لمن يدفع أكثر من سواه ، وطبيعى أن الوالى يسترد ما دفعه وأضعاف أضعافه من السناجق أو الأولوية ، التى كانت تنقسم لها الولاية ، إذ كان تعيين حكام الأولوية من اختصاص الوالى ، وكان ذلك يتم بعد دفع الرشوة الكافية ، ويسترد حكام السناجق ما دفعوه من الملتزمين أو من الرعية مباشرة .

الباب العالى :

ومن الواضح أن المصدر الأعظم كان هو المنصب التالى لوظيفة السلطان ، وابتداء من عهد السلطان محمد الرابع ببنى مبنى " هضم " يقيم به المصدر الأعظم وأعوانه ، وكان درويش محمد باشا أول صدر أعظم سكن هذا المبنى ، وسمى هذا المركز الذى تصدر منه أعظم الأحكام « الباب العالى » .

غير الترك فى الوظائف الكبيرة :

كان عنصر الأتراك فى الامبراطورية الشاسعة أقلية صغيرة وكانت المناصب الكبيرة تستند اليهم عادة ، ويقول Kirk إن الأتراك فتحوا الباب لكفاءات أخرى للترقى ، فكان لكل رجل مهما كان مولده مجال لتقلد مناصب الدولة بشرط مراعاته للتقاليد المرعية فى الدولة

واصطباه بالصبغة الثقافية العامة فيها ، وبشرط مراعاة مذهب أهل السنة ، وتعلم الفنون الحربية مع التدريب عليها ، وإجادة اللغة التركية ، تلك اللغة التي — مع اقتباسها لكثير من العبارات والألفاظ العربية والفارسية — قد ناصرها العثمانيون حتى صارت اللغة الرسمية في الحكومة وتعلبت على اللغتين العربية والفارسية اللتين تَمَثَّلُ كل منهما الى حضارة أعمق وأرقى من الحضارة التركية (١) .

ولسنا نتفق مع Kirk في هذا الإطلاق ، فحقيقةً كان عدد الأتراك أقل من عدد المناصب الكبرى ، ومن ثمَّ احتاج الترك الى عناصر أخرى لتُسَنِّدَ لها هذه المناصب ، ولكنهم اتجهوا في الكثير الغالب الى الأوروبيين ، واكتفوا منهم بالتظاهر بدخول الاسلام فأسندوا لهم أرقى المناصب ، ويدلنا الإحصاء الذي أورده جلزور (٢) على أن الصدور العظام الذين تعاقبوا على الحكم خلال ازدهار الامبراطورية العثمانية (١٤٥٣ — ١٦٢٣) كانوا ثمانية وأربعين ، خمسة منهم فقط يجرى في عروقهم الدم التركي أما الباقون فكان توزيعهم على الشكل التالي :

١١ البانيا كانوا حديثي عهد بالاسلام .

١١ صقليا (سلافيا) .

٦ من اليونان كانوا حديثي عهد بالاسلام .

١ جركسي واحد من القوقاز .

١ إيطالي واحد حديث عهد بالاسلام .

١ أرمني واحد .

A Short History of the Middle East p. 90. (١)

H. Gelzer : Geistliches und Weltliches aus dem griechisch. (٢)

Turkischen orient p. 179.

١ كرجى من جورجيا (بلاد الكرج) •

١٠ من أصول غير معروفة (١) •

وهكذا ليس من بينهم عربى واحد أو مسلم عميق الأصول فى الإسلام ، ولم يستند للعرب إلا أتفه الوظائف ، وكانت الطبقات الفقيرة من العرب والمصريين تعامل معاملة مزرية (٢) •

الإقطاع

وكانت الدولة تقوم على أساس النظام الإقطاعى الذى نظمته الحكام الأولون على الفرار البيزنطى ، وكان الإقطاع الأصغر يدعى (تيمار) ويمنح لبعض الطموحين ، ويظل الفلاحون بالإقطاع يزرعون لمصاحب التيمار. ويقدمون له المحاصيل (الإيجار أو الحاصلات فيما عدا ما يمسك حياتهم) ، وعلى المقطع اليه نظير هذا الإقطاع أن يقدم للدولة عددا من الفرسان يتراوح بين اثنين وأربعة أو عدداً من البحارة لخدمة الأسطول ، بالإضافة الى بعض الضرائب المالية •

وهناك إقطاع أكبر يدعى (زعامت) ويمنح ان يقدمون خدمة شخصية للخليفة أو للدولة ، ويقدم (الزعيم) وهو لقب صاحب هذا الإقطاع ، مالا للسلطة المركزية وجنوداً للجيش يترايد عددهم تبعاً لإيراد الإقطاع •

والتيمار والزعامة كانا يخضعان لتفتيش رجال الإدارة المركزيين •

وهناك إقطاع أعلى هو (الخاص) ويمنح للولاة ولا يخضع

للتفتيش •

(١) يلاحظ ان المجموع ٤٧ لا ٤٨ كما ذكر فى الاصل •

(٢) انظر موجز تاريخ الشرق الاوسط لكريك ص ٩١ •

ولما اتسعت الإمبراطورية كثر الباشوات الذين كانوا يعينون حكاما للأقاليم ، وكان الإقليم كإقطاع لكل منهم يتولى هو توزيعه إقطاعات صغيرة على أتباعه وعبيده ، وظل الحال كذلك حتى أصدر سليمان (قانون نامه) سنة ١٥٣٠ الذى جعل حق منح الإقطاع فى يد الباب العالى (ديوان الصدر الأعظم) وأصبح الباشا يقترح من يستحقون الإقطاعات وتصدر البراءات لهم من ديوان الصدر الأعظم ، ولكن كثيرين من الباشوات احتالوا على (قانون نامه) وظلوا يباشرون سلطاتهم الكاملة . ولم يكن هناك قانون واضح للوراثة فى الإقطاع ، فكان ابن صاحب الإقطاع أحيانا يكتفى بتميز لبيدأ به ، وأحيانا كان يقسم الإقطاع بين الأولاد ، وفى آسيا كانت الوراثة جائزة فى الإقطاعات حتى للنساء .

وطالما حاول ملتزمو الإقطاعات أن يتهربوا من الالتزامات العسكرية والمالية التى يفرضها عليهم النظام الإقطاعى .

الالتزام

وبجوار الإقطاع ووجد فى الامبراطورية العثمانية نظام الالتزام فى الأقاليم والمناطق التى لا تتبع نظام الإقطاع ، وبمقتضى هذا النظام تسلم مساحة من الأرض المملوكة للدولة لمن يديرها ويشرف عليها ، ويجبى هذا خراجها ويلتزم بتسليم الدولة مقدارا معيناً منه يتفق عليه ، وقد شرحت نظام الإقطاع والالتزام بكتابى « الاقتصاد فى الفكر الإسلامى » وبيّنت رأى الإسلام فيه (١) .

والمقرئزى يصوّر الالتزام (٢) تصويرا دقيقا حين يقول : إن متولى الخراج فى مصر كان يجلس فى مسجد عمرو بن العاص فى الوقت الذى

(١) الاقتصاد فى الفكر الإسلامى ص ٢٠٢ — ٢٠٤

(٢) الخطب للمقرئزى ج ١ ص ٨٢ .

تنتهياً فيه قبالة الأرض (أوائل شهر سبتمبر) ويجتمع الناس من القرى والمدن ، ويقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات وكتاب الخراج يكتبون ما تنتهى اليه المزايدة ، وعلى مَنْ يرسو الالتزام .

ويلاحظ أن الذين يدخلون المزايدات كان يجمال بعضهم بعضا في الغالب ، وكان لكل منهم منطقة يندر أن يقتحمها غيره ، وكان هذا يجعل المزايدة صورية في أكثر الأحوال .

تكوين الجيش التركي ونشأة الانتكشارية :

اعتمد الأتراك العثمانيون في إقامة دولتهم على كفاءتهم الحربية ومقدرتهم كفرسان بارعين فيهم جرأة الى حد التهور ، ولكنهم كان ينقصهم التنظيم الفنى ، غير أن هذا النقص لم يتضح في الفترة الأولى ، فقد كان التنظيم الفنى ناقصا عند أكثر الجيوش ، ولكن صدام العثمانيين بالغربيين اضطرهم الى تكوين جيش يستكمل مقدرته الحربية والفنية ، إذ كان الأوروبيون قد تعلموا من صراع الحروب في العصور الوسطى ألوانا من التنظيمات التى خلقتها التجارب العسكرية ، وعلى هذا كوّن الأتراك لهم جيشا نظاميا من رجالهم الأتداء ، وكن مؤلّاء الجنود كانوا لا يحسون بإحساس الجنده ، وكانوا يرون لأنفسهم الحق في أن يكونوا سادة ، فبالغوا في مطالبهم المالية مما دعا أورخان (١٣٣٦ — ١٣٥٩) الى حل هذه التنظيمات .

ولجأ الأتراك بعد ذلك الى تكوين جيش من غير الترك ، ومالوا الى تكوينه من النصارى الذين كانوا يألّفون التنظيمات العسكرية ، غير أن الترك كدولة إسلامية لم يكن في إمكانهم أن يكون جيشهم من النصارى ، فلجأوا الى حيلة هى أخذ أولاد النصارى منذ طفولتهم ، ودفعهم الى الدخول فى الإسلام ، وتنشئتهم تنشئة إسلامية ، وتعليمهم

فنون الحرب ، وقد أقبل هؤلاء الغلمان على هذه الوجهة بشغف أملا في الجاه والسلطان ، ومن هؤلاء تكونت نواة الانكشارية ، وكان الغلمان النصارى الذين يختارون لهذا العمل ينشئون في قصور خاصة بأدرنة واسطنبول ، وكانت تقطع صلتهم بأهليهم تماما ، وبدلا من ذلك تعقد الصلات بينهم وبين السلطان ، فيرون فيه كل شيء لهم ، وكان تدريبهم يسير في صرامة وشدة . وكانوا يختارون كل خمس سنوات ثم تقاصرت المدة حتى أصبحت عامين فعاما واحدا ، وكان بعض غلمان الأسرة يؤخذون ويترك الباقون للأسرة ، ولكن بسبب كثرة الحروب أخذت الدولة في بعض لأوقات جميع الغلمان الذين يتراوح سنهم بين العاشرة والخامسة عشرة ، وهناك مناطق كانت تتمتع بالإعفاء ، كما كان نظام البدل معروفاً وهو عبارة عن دفع مقدار من المال لإعفاء بعض الغلمان ، وكان الغلمان يظلون في معسكرات التدريب حتى سن الخامسة والعشرين ، وأحيانا كانت تنقص هذه السن في ظروف الحرب ، وكانت التنظيمات العسكرية من هذا اللون تعرف بالانكشارية ، ولم يسمح لجنود الانكشارية بالزواج إلا في نهاية القرن السادس عشر ، فكان ذلك سبباً في أن أصبح الالتحاق بهذه الفرق بالوراثة بصرف النظر عن المقدرة العسكرية .

وبجوار الانكشارية كان يقوم جيش من جنود الإقطاع الذين كان أصحاب الإقطاع يقدمونهم للحكومة المركزية كما سبق ، ومن هؤلاء كان يتكون جيش « الطوبجية » .

وبواسطة الانكشارية حقق الأتراك العثمانيون كثيرا من ألوان النصر في الميادين المختلفة وبخاصة في الفترة الأولى ، ولكن سرعان ما أصبح الانكشارية مصدر قلق واضطراب في الدولة ، وبخاصة عندما سُمح لهم بالزواج وعندما أتيح لهم أن يعملوا في التجارة والصناعة ويسرد لنا الأستاذ محمد فريد مؤلف « تاريخ الدولة العثمانية » صورا من هذا العصيان العنيف نقتبس بعضها فيما يلي :

— في سنة ١٥٢٥ تأمر الانكشارية بعد عودة السلطان من مدينة أدرنة التي كان قد توجه للإقامة بها في فصل الشتاء ، ونهبوا سراي إبراهيم باشا الصدر الأعظم الذي كان إذ ذاك بمصر ، ونهبوا محل الجمرك ، وعدة أماكن أخرى من منازل الأعيان ، وحارة اليهود ، ولولا أن تدارك السلطان الخطب بنفسه لامتد العصيان ، لكنه أسكتهم بالسلب والنهب بتوزيع العطايا عليهم ، ثم بعد ذلك عزل بعض رؤسائهم الذين كانوا سبب هذا العصيان وقتل بعضهم (١) .

في سنة ١٦٣١ أصدر السلطان أمره بعزل خسرو باشا وإعادة حافظ باشا للصدارة ، فسعى المعزول لدى الجند وأفهمهم أنه لم يعزل إلا لمساعدته لهم ، فثاروا وأرسلوا إلى الإستانة يطلبون إرجاعه ، ولما لم يجب السلطان طلبهم ساروا إلى القسطنطينية وقاموا بثورة شديدة خيف فيها على حياة السلطان ، إذ دخلوا السراي السلطانية سنة ١٦٣٢ وقتلوا حافظ باشا ، فاغتاز السلطان وقتل خسرو باشا محرك هذه الفتنة ، وأزمع السلطان العزم على مجازاة رعوس الانكشارية وغيرهم ممن كان يهيج الخواطر (٢) .

— في سنة ١٧٢٧ ثار الانكشارية على السلطان وحاشيته ليلهم للصلح مع ملوك العجم ، وأهاج الانكشارية الأهالي ، وطلب زعيم هذه الثورة من السلطان قتل الصدر الأعظم ، والمفتي ، وقيودان باشا أميرال الأساطيل البحرية ، بحجة أنهم مائلون لمسالمة العجم ، فامتنع السلطان عن اجابة مطالبهم ، ولما رأى منهم التصميم على قتلهم طوعا أو كرها سلم لهم بقتل الصدر الأعظم والأميرال دون المفتي ، فقتلوهما وألقوا جثتيهما في البحر ، ولم يكتفوا بذلك بل نادوا بإسقاط السلطان نفسه ، وأعلنوا ذلك واختاروا للدولة سلطانا جديدا (٣) .

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٨٣ — ٨٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٦ .

(٣) تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٤٦ — ١٤٧ .

وهكذا أصبحت الانكسارية خطرا على الدولة ، ولذلك حاول السلاطين محاولات متكررة أن يتغلبوا على هؤلاء العصاة الذين وجهوا خطرهم للدولة والسلطان وأصبحوا يعصون الأوامر إذا صدرت لهم بالتصدي لأعداء الدولة أو الاشتراك في الحروب ، كما كانوا يعصون الأوامر التي تتصل بالتطور الحربى والعسكرى . ولذلك أجمعت الاتجاهات على التخلص من هذه الفئة الباغية ، ويقول الأستاذ محمد فريد مؤرخ الدولة العثمانية ما يلى (١) .

لما تحقق السلطان محمود أفضلية النظمات العسكرية المستعملة في جيوش أوروبا ، وسمع بما أتته الجنود المصرية المنتظمة من الأعمال الباهرة في شبه جزيرة المورة نتيجة للتنظيم العسكرى الحديث الذى يسيرون عليه ، زاد تعلقه باصلاح العسكرية ، وأراد اتمام المشروع الذى لم يتمكن السلطان سليم الثالث من اتمامه ، فجمع أعيان المملكة وكبار ضباط الانكسارية في بيت المفتى سنة ١٨٢٦ ، ولما تكامل الحضور خطب فيهم المصدر الأعظم مظهرا ما وصلت اليه حالة الانكسارية من الضعة والانحطاط وعدم الانقياد لرؤسائها حتى صارت من أكبر دواعى تأخر الدولة العلية بعد أن كانت هذه الفئة من أكبر عوامل تقدم الدولة وامتداد فتوحاتها ، ثم أبان لهم ضرورة ادخال النظام العسكرى الأوروبى في فرق الانكسارية ، إذ لا يمكنها بحالتها هذه الوقوف أمام الجيوش الأوربية المنتظمة ، ووافق الجميع على ذلك ، ووقعه جميع الحاضرين ، وأصدر المفتى فتواه بجواز ذلك ومعاقبة من يعارضه .

ولكن موافقة الانكسارية كانت ظاهرية ولذلك سرعان ما ثاروا عندما بدى في تنفيذ هذه الاصلاحات بتدريبهم حسب التعليمات الجديدة ، وأعلنوا أن هذه التنظيمات ستفقدهم امتيازاتهم وأنهم يعارضونها واستعدوا للثورة وتبعهم بعض الغوغاء .

(١) المرجع السابق ص ٢١٩ — ٢٢٠ .

وفي يونية سنة ١٨٢٦ بدأت الثورة ، فاستدعى السلطان مستشاريه ، فأعلنوا ضرورة مقاومة الانكشارية هذه المرة ، واستدعى السلطان فرق الطوبجية ونزل بهم يتبعه العلماء والطلبة ميدان معركة ضد الانكشارية ، وأطلقت مدافع الطوبجية نيرانها على الانكشارية الثائرين فأخذت تحصدهم ، وصدرت الأوامر بقتل الفارين منهم وبنفقيهم الى الاطراف على الأقتل ، ولجا بعضهم الى الثكنات فدمرتها المدفعية عليهم ، وانتهت بذلك هذه الطائفة ، التي كانت مصدر تقدم الدولة يوما ومصدر تخلفها فيما بعد (١) .

البحرية العثمانية :

كانت أهم عناية العثمانيين متجهة الى الجيوش البرية ، ولكن سرعان ما أرغمتهم الظروف على العناية بالقوة البحرية ، فقد خاضوا غمار حروب مع اليونان والبنادقة ، فكان على الأسطول أن يلعب دورا هاما في هذه الحروب ، كما كان عليه أن يلعب دورا هاما في ضم الشمال الاقريقي للدولة ، وقد بلغت قوة البحرية التركية غايتها في أواخر القرن السادس عشر حتى لم يكن من الممكن لأية بحرية أخرى أن تجول في البحر الأبيض المتوسط بدون اذن من سلاطين الأتراك ، ولما أعطى السلطان محمد الثالث امتيازاً لفرنسا بحرية جولان أسطولها في البحر المتوسط اغتاز الإنجليز وعملوا لدى السلطان حتى حصلوا على مثل هذا الامتياز لأسطولهم .

الموقف تجاه تكوين الانكشارية :

قبل أن نترك الانكشارية ينبغي أن نوضح موقف أتباع الديانات المختلفة تجاه أخذ أبناء النصارى ليكون منهم جيش الانكشارية .

(١) انظر تاريخ الدولة العلية وتاريخ الشعوب الاسلامية لكلل بروكلمان . والمنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ، للاستاذ أحمد النائب الانصارى ٣٣٣:١ - ٣٣٤ .

وكان من الواضح أن النصارى كانوا يضيقون بهذا التصرف وبأخذ أولادهم منهم ، ويرون ذلك حرمانا لهم من أولادهم من جانب والزاما لهؤلاء الأولاد بدخول الاسلام وهو شيء لا يقبلونه من جانب آخر ، ومن أجل ذلك كانت أسر كثيرة من أسر النصارى تحتال لينجو أولادهم من الانضمام للانكشارية ، فكانوا يدفعون فديات واسعة ، أو كانوا يزوجونهم وهم في سن مبكرة لأن قانون الجيش كان يحتم أن يكون المتحقون بالانكشارية غير متزوجين .

ومرّ الزمن وانتضح ما يستمتع به الانكشارية من تربية عظيمة ، ونفوذ كبير ، فبدأت الأنظار تنزل هذه المناصب في شغف ، حتى أن بعض المسلمين واليهود كانوا يدفعون أبناءهم لأسر النصارى لتدفع هذه الأسر بهؤلاء الأولاد الى الانكشارية ، كما أن النصارى أحسوا بالقوة في أيديهم إذ كانت الانكشارية من أولادهم ، فلم يكن خافيا على الأولاد تحقيق أنسابهم وأديانهم الأولى ، وكان هذا من الأسباب التي أدت لثورات الانكشارية وكثرة هياجهم .

الآثار المعمارية

يعتبر المسجد الذي تحولت له كنيسة القديسة - سونيا عقب الفتح أهم مساجد العاصمة ، وقد بذل مهندسو السلطان محمد الفاتح جهدا كبيرا لجعل هذه الكنيسة مسجدا ، فغطيت صور الكائنات الحية بطبقة من الكلس ، إذ كان معروفا أن الاسلام يعارض التصوير ، وأدخل في وسط جناح الكنيسة الجنوبي محراب للقبلة ، وإلى يمين المحراب شيد المنبر ، وابتدعت مساحات واسعة كتب فيها الخطاطون بعض أسماء الله الحسنى واسم الرسول وأسماء الخلفاء الراشدين . وفي خارج الكنيسة شيدت مأذن شاهقة ، أولها في عهد السلطان محمد وباقيها بعده .

ولم يكتف السلطان الفاتح بهذا المسجد ، بل بنى مسجدا آخر بدأ

فيه سنة ١٣٦٣ وسماه المحمدى أو جامع السلطان محمد الفاتح ، كما بنى مساجد أخرى هنا وهناك ، وبالإضافة الى ذلك فقد بنى السلاطين العثمانيون مجموعة كبيرة من المدارس والربط والمستشفيات ومطاعم للفقراء ، ومجموعة من الخانات والحمامات والآبار والملاجئ وغيرها .

ومن الآثار المعمارية العظيمة التى تنسب للسلاطين العثمانيين مسجد أبى أيوب الأنصارى الذى سبق الحديث عنه . وقد شُيِّد فى عهد محمد الفاتح ، وكان هذا المسجد موضع اجلال سلاطين العثمانيين ، فكان الخلفاء الجدد يذهبون اليه حيث يتقلدون سيف عثمان اشعارا ببداة خلافتهم ، وبالقرب من هذا المسجد كان مدفن السلاطين وكبار رجال الدولة .

ومن أهم آثار العثمانيين مسجد بايزيد الذى يمتاز بفخامة مواده البنائية وبزخرفته على الطريقة الفارسية ، ومسجد سليمان القانونى الذى تضاءلت أمامه جميع مساجد العاصمة لضخامته وجلاله ، وألوان الابتكار فى تصميمه ، والارتفاع فى مآذنه ، والسخاء فى الانفاق عليه .

وكان كثير من الوزراء وولاة الأقاليم يبنون الربط والمساجد والمدارس ، وكان يدفعهم لذلك تهريب الأموال أو محاولة التخلص منها بطريق يخدع ولاة الأمور ، اذ كانت الرشوة منتشرة وكان هؤلاء يبالغون منها نصيبا كبيرا ، فاذا أحس الواحد منهم بأن مصادرة مالية ستقرر عليه بادراً بأن يعلن أنه سيقوم ببعض الأعمال الخيرية ، ويبدأ فعلا فى تشييد المدارس والربط والمساجد وما ماثلها .

إهمال المؤسسات الزراعية والصناعية :

ويلاحظ فى الآثار المعمارية أنها ذات صلة بالدين بين مساجد ومدارس دينية وربط وزوايا فى أكثر الأحوال ، وليس فى الآثار المعمارية التركية شق طرق أو اقامة سدود ، فان الأتراك لم يبذلوا عناية تذكر بالزراعة والصناعة وغيرها مما يرفع شأن الرعية ويكسب لها الرفاهية .

المؤسسات الدينية التتمويه :

كانت بعض المؤسسات الدينية تعبيراً عن روح الإسلام وخدمة المسلمين ، ولكن في كثير من الحالات شيدت هذه المؤسسات للتتمويه والتضليل ، فكثير من السلاطين الذين عرفوا بالمجون وادمان الخمرور أنشئوا مساجد شامخة بلغت غاية الروعة في الجمال ، وكانوا يقصدون بذلك تضليل الناس ، وصرفهم عن الحديث عن المجون والخلاعة التي كانوا يعيشون فيها ، ومن هؤلاء الذين فعلوا ذلك : السلطان سليم الثاني ، والسلطان أحمد الثالث .

سيدات البلاط وأنشاء المساجد :

وقد اشتركت كثيرات من سيدات البلاط في إنشاء المساجد الضخمة في أمكنة متعددة ، وكان ذلك مظهراً من مظاهر التقوى ، كما كان يصرف النقاد عن تدخل النساء في الحياة السياسية .

تعالى الترك على طوك أوروبا :

قبل أن نتحدث عن ضعف الامبراطورية العثمانية والتهلاك التي ينبغي أن نورد لحة عن عظمة السلاطين إيمان قوتهم ، تقول المصادر أن سلاطين العثمانيين كان من شأنهم الاستعلاء على الملوك المعاصرين لهم بالدول الأوربية ، بل كانوا يعدون هذه الدول كأنها امارات تابعة لهم ، ويتضح ذلك لمن ينظر في اتفاقية الهدنة التي وقعت بين العثمانيين والنمسا ، فقد وردت العبارة التالية في مقدمة الاتفاقية :

منحت هذه الاتفاقية عن تفويض من السلطان
أبدى الانتصار الى ملك النمسا المخلوب دوما

وقد ظل سلاطين العثمانيين أمدا طويلا يرفضون تعيين سفراء لهم لدى الدول الأوروبية ، اعتقادا منهم أنهم في غنى عن سائر العالم ، أما الدول الأخرى فكان لها تعيين سفراء في استانبول باعتبارها عاصمة العالم ، •

وكانت مقابلة السفراء للسلطان تتم وسط مراسم وتقاليد مزرية لهؤلاء السفراء . . . • (١)

وعندما انتصرت أوروبا المسيحية أنزلوا القصاص الظالم بالامبراطورية العثمانية ، وبالدول العربية جميعا

(١). انظر الدولة العثمانية للدكتور عبد العزيز الثناوى ص ٣٢١

الخلافة العثمانية في الميزان

لماذا لم ينتفع العثمانيون بالفكر الاسلامى أو بالفكر الغربى ؟

لقد اتضح لنا مما سبق أن العثمانيين لم تكن لهم ثقافة الا في الشؤون العسكرية ، ثم انهم عاشوا عصرهم في نضال عسكرى ضد أربابا وضد روسيا وضد الصفويين بايران ، ومن هنا لم يجدوا الوقت الكافى ليجلسوا مجلس المريد أمام الفكر الاسلامى الذى كان العرب يحملون لواءه ، ولا أمام الفكر الحديث الذى كان الأوروبيون يقودون آنذاك نهضته ، وظلوا يعيشون في صراعهم العسكرى دون الاهتمام بالاتجاهات الفكرية .

وتعرفوا أحيانا على بعض الأفكار الصالحة أو التقوا ببعض المصلحين ، ولكن طبيعتهم العسكرية لم تكن خصبة تحسن استقبال بذور الإصلاح وتنميتها ، فكانت هذه البذور تذوى في رحابهم وتضمحل .

وبسبب ذلك وقعوا في كثير من الأخطاء في مجالات متعددة كما أشرنا من قبل .

ولكن ، ألم تكن لهم حسنات تذكر فتشكر ، وتوضع في الكفة الأخرى من الميزان ؟

في الحق ان الخلافة العثمانية كانت ولا تزال هدفا للهجوم وللحرب ، وان قارئ تاريخهم يواجه سلسلة من الأخطاء تنسب لهم ، ولا يكاد يقابل حسنات ذات بال . هل ما نقرؤه يمثل الحق ويعطى صورة صادقة للذى حدث أو أن أقلام المؤرخين انحازت ضدهم ، فأهملت جانب الخير وأبرزت جانب الشر وضخمته ؟

في الاجابة عن هذا السؤال نقرر أنه لا يمكن أن تخلو دولة كالامبراطورية العثمانية من الحسنات ، وما كان من الممكن أن تعبر هذا

الزمن الطويل وهي تعيش في سلسلة من الظلام والتخلف ، ولا بد أن لها بعض الحسنات ولكنها ضاعت في ضجيج الأخطاء من جانب ، وبسبب تحيز المؤرخين من جانب آخر •

ولهذا فمن الأفضل هنا أن نعرض لموضوع مهم سيساعدنا في التعرف على أهم الأبواب التي زرعت الضباب حول تاريخ العثمانيين ، وهذا الموضوع هو :

تدوين تاريخ العثمانيين :

يعتبر تاريخ الخلافة العثمانية من التاريخ الغامض الذي تحيط به الشبهات ، وذلك راجع الى الإنحراف في تدوينه ، فمن الذي دوّن تاريخ العثمانيين ؟

ان المحايدين الذين دوّنوا تاريخ العثمانيين قليلون ، وقد اعتمدنا عليهم في هذه الدراسة ، ومع رغبتهم في الحيادة فان عناصر غير منصفة دخلت دراساتهم من المصادر البعيدة عن الحيادة •

ان الغربيين كانوا أكثر اهتماما بتدوين تاريخ العثمانيين ، وهؤلاء كانوا بعيدين عن الإنصاف ، وشديدي العداء للدولة العثمانية ، وبالتالي ظهر في كتاباتهم اتجاه التعصب ضد العثمانيين الذين كانوا خلال فترة طويلة ممثلين للاسلام وعاملين على نشره بأوربا ، وذلك شيء يضايق الغربيين الذين لم يستطع التقدم العلمى أن يقتلع جذور الصليبيين القديمة من رعوسهم (١) •

ودوّن التاريخ العثماني بواسطة العرب ، ولكن العرب حينما دوّنوا التاريخ العثماني كانوا يعيشون فترة صراع مع العثمانيين بسبب

(١) شكيب أرسلان : حاضر العالم الاسلامى ج ٢ ص ٢١٧

العناء الذى لا قوه من هزائم العثمانيين ومن بعض ولايتهم ، ثم ان العرب كانوا آنذاك قد ساد فى حياتهم الثقافية أثر الفكر الغربى الذى كان ييمقت العثمانيين ، وقد جاء الفكر الغربى الى مصر عن طريق الاحتلال الانجليزى ، ووفد الفكر الغربى الى سوريا ولبنان مع النفوذ الفرنسى الذى بكر فى غزو الشام ، ثم أن العرب تأثروا بالصحافة العربية المبكرة ، تلك التى كان محرروها من المارونيين غانبا ، وكان هؤلاء مسيحيين تربوا فى معاهد الارساليات التى كانت مركزا لعداء الاسلام والمسلمين .

ودون تاريخ العثمانيين كذلك بواسطة الأتراك بعد سقوط الخلافة ، ومن الواضح أن مدونى التاريخ من الأتراك آنذاك كانوا واقعين تحت نفوذ النظام الجديد المعادى للخلافة وللإسلام .

من أجل هذا ولسواه يعتبر تاريخ الخلافة العثمانية غير دقيق ، وقد حاول الدكتور عبد العزيز الشناوى أن ينصف هذا التاريخ ، وبدأ كتابه بروح فيها وُد^٢ ، وسمى كتابه :

الدولة العثمانية : دولة اسلامية مفترى عليها

وهو كتاب جاء فى ثلاثة أجزاء ، ولكنك تقرؤه فتجد أن المؤلف يقدم القضايا التى تدّين العثمانيين أكثر مما تنصفهم ، ويمكن أن يُلْتَمَسَ له العذر للأسباب التى أوردناها .

وعلى كل حال هناك حسنات ومساوىء لا يمكن تجاهلها ، وفيما يلى أهم ما يمكن تدوينه منها :

حسنات العثمانيين :

إن الدارس لحياة العثمانيين يستطيع أن يسجل لهم مجموعة كبيرة من الحسنات ، ويمكن إيجازها فيما يلى :

أولا - توسعات عسكرية فتحت مجالا للإسلام :

يوضع في القمة في هذا المجال إسقاط القسطنطينية العاصمة البيزنطية التي قاومت المسلمين عدة قرون واستعصت عليهم ، وكان سقوط هذه العاصمة في نفس القرن الذي سقطت فيه أسبانيا في أيدي الفرنجة فاندمل بذلك جرح المسلمين بعض الشيء ، وعند ما حدث الانكماش الإسلامي في غرب أوروبا كان هناك زحف إسلامي يخطو من جهة الشرق •

ومن الواضح أن العثمانيين لو اتجهوا بفتوحاتهم الى مناطق آسيا لكان الطريق أكثر يسيرا ، فان هناك مناطق في الهند وفي جنوب شرقي آسيا كانت ترحب بالعثمانيين وتهدد بهم الأعداء ، ولكن زحف العثمانيين على أوروبا حقق ثارا للضم الذي أنزلته أوروبا بالمسلمين في الأندلس منذ وطئت أقدام المسلمين هذه البلاد ، وسواء قصدت الخلافة العثمانية ذلك أو لم تقصده ، فان ذلك كان أمرا واقعا لا يمكن تجاهله •

ومن أبرز ما ينسب للعثمانيين كذلك أنهم استطاعوا الاستيلاء على عدد من جزر البحر المتوسط ، فدخلوا رودس سنة ١٥٢٢ وقبرص سنة ١٥٧١ ، وكريت سنة ١٦٦٩ ، وجذبوا لهذه الجزر دين الاسلام عن طريق الهجرات التركية اليها وبخاصة الى قبرص وعن طريق دعوة غير المسلمين الى الاسلام •

وحرص العثمانيون على أن يجعلوا البحر الأحمر منطقة اسلامية ومن هنا مدوا نفوذهم في عهد سليمان القانوني الى مصوِّع وسواكن سنة ١٥٥٧ •

وكان امتداد الاسلام بأوروبا وسعا في عهد العثمانيين فقد وصلوا الى فيينا عاصمة النمسا ، وقد حرص العثمانيون على نشر الاسلام بالبقاع التي دخلوها بأوروبا ، اذ كانت حملاتهم العسكرية يصحبها الوعاظ والمعلمون الذين يقومون بنشر الاسلام في الامتدادات التي وصلت لها

الدولة ، كما أن السلاطين والأمراء والأثرياء العثمانيين اهتموا اهتماما كبيرا بإقامة المساجد والمعاهد والخوانق لتعليم الاسلام والدعوة له مما جعل عددا كبيرا من الأوربيين يعرفون الاسلام ويرتبطون به حتى الآن .

ثانيا : الدفاع عن الأرض الاسلامية ضد الزحف الأوربي :

وبذل العثمانيون جهودا مشكورة في مجال الدفاع عن الأرض الاسلامية التي تعرضت لمحاولات غربية للسيطرة عليها ولعل من أقدم المحاولات التي قام بها الغرب للتضييق على العالم الاسلامي هذا الكشف الذي قامت به البرتغال حين دارت حول افريقية واكتشفت طريق رأس الرجاء الصالح وحاولت أن تسيطر على الامارات العربية الساحلية وعمان وقد حققت البرتغال بعض النجاح ، ولكن جهود السكان العرب بهذه المناطق وجهود العثمانيين ، قضت على المحاولات البرتغالية التي كانت سياسية ودينية في نفس الوقت .

ومن أهم ما قدمته الدولة العثمانية لخدمة الاسلام أنها وقفت في وجه الزحف الصليبي الذي اتجه بخطته للمساس بالأمساكن المقدسة بالحجاز في أوائل القرن السادس عشر حيث كان الزحف البرتغالي يجعل من خطته اجتياح الحجاز عن طريق السيطرة على البحر الأحمر ، ولكن الأسطول العثماني وقف لهم بالمرصاد وأرغمهم على التراجع عن هذا العدوان .

ومن المعروف في التاريخ أن الشمال الافريقي تعرض لزحف من الفرنجة عقب انتصار هؤلاء على المسلمين بالأندلس واتجه الصليبيون الغربيون الى احتلال أجزاء واسعة من الشمال الافريقي وبخاصة الجزائر وطرابلس ، وقد لجأ سكان الشمال الافريقي للدولة العثمانية يطلبون عونها ضد المعتدين فاستجابت الدولة العثمانية لهذا الطلب ، وكان في

ذلك حماية للشمال الافريقي ، أوضحناها بشيء من التفصيل بالجزء الرابع من هذه الموسوعة .

ومن الواضح للمؤرخين أن الصليبيين عندما طردوا من الشام لم يستسلموا استسلاما تاما أمام المسلمين وأخذوا يعدّون العدة لزحف جديد وأرادوا في هذه المرة أن يكون زحفهم أوسع ، وغير متجه الى الشام فقط ، ولكن وجود الدولة العثمانية قاوم هذا الاتجاه ، مما يمكن معه أن نقرر أن الوحدة الاسلامية في ظل الامبراطورية العثمانية قد أخسرت الزحف الاستعماري الى الدول العربية ، وقاومته بشدة ، ولم تتجح الدول الاستعمارية في تحقيق غاياتها الا بعد أن ضعفت الامبراطورية العثمانية .

ثالثا : الامبراطورية العثمانية تواجه الصهيونية :

اتجه الصهاينة منذ عهد بعيد للسيطرة على فلسطين وبخاصة المناطق المقدسة بها ، وكانوا يزعمون في هذا النطاق أنهم يستعيدون أرضهم التي عاش فيها أجدادهم الأبعدون فترة من الزمن ، وكان مولد الحركة الصهيونية الجديدة معاصرا للنشاط العثماني في الأرض العربية ، واكثر الصهاينة لم يحققوا أى مأرب لهم في ظل العثمانيين .

وقد تجددت محاولة الصهاينة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ — ١٩٠٩) ولكنه رفض بقوة السماح باقامة وطن يهودي للصهاينة بفلسطين ، ويروى أنه بعد عقد مؤتمر بال بسويسرا سنة ١٨٩٧ الذي قرر اقامة وطن لليهود بفلسطين ذهب أحد قادة التنظيم الصهيوني واسمه « قره صو » الى الخليفة عبد الحميد وذكر له أن الحركة الصهيونية مستعدة أن تقدم قرضا للدولة قدره خمسون مليوناً من الجنيهات وأن تقدم هدية لخزانة

السلطان الخاصة قدرها خمسة ملايين من الجنيهات نظير منح اليهود الحق في اقامة وطن قومي لهم بفلسطين ، وكان رد السلطان ان صرخ في حاشيته قائلاً « مَنْ ادخل على هذا الخنزير ؟ » وطرده من البلاد وأصدر أمرا بمنع هجرة اليهود الى فلسطين ، ويقال ان هذا الصهيوني كان ضمن الذين أعلنوا انقضاء الخليفة من السلطة سنة ١٩٠٩ مما يزعزع الثقة في الاتحاديين ، وبخاصة أن حكمهم سرعان ما انقلب الى عنف وطفيان .

رابعاً : الدولة العثمانية وحماية سيناء من اليهود :

اتجه اليهود الى سيناء لتكون مهجراً لهم ، وبخاصة أن منطقة الطور هي المنطقة التي تلقى فيها موسى رسالة ربه ، وقد اتجه اليهود الى الهجرة نحو هذه المنطقة ، واتخاذها مكاناً لهجرة يهودية واسعة الى سيناء ، وقد أحس سلاطين العثمانيين منذ فتح مصر بهذه المحاولات اليهودية ، ولذلك أصدر السلطان سليم الأول وابنه السلطان سليمان القانوني فرمانات تمنع اليهود من الهجرة الى سيناء ، ولكن في عهد ضعف الخلفاء العثمانيين بدأ اليهود يهاجرون سرا بقرادى وجماعات الى هذه المنطقة ، بيد أن رهبان دير سانت كاترين أحسوا بالخطر يهدد المنطقة ، فشكلوا الى والى العثماني بالقاهرة من أن اليهود سيكونون مصدر خطر على الدير وعلى مصر ، واستجبت الدولة العثمانية لهذا النداء ، وأمرت باخراج اليهود واسرهم من منطقة الطور ، وعدم السماح في المستقبل بهجرة اليهود الى سيناء جميعها .

خامساً : الدولة العثمانية ومحاربة التشيع :

ذكرت في الجزء الثاني من هذه الموسوعة خطر من أسميناهم (مدعى التشيع) هؤلاء الذين لم يتعمق الاسلام في قلوبهم ولم يعرفوا التشيع الصحيح لآل البيت ، وانما ادعوا الاسلام ، وادعوا التشيع ليحدثوا بالعالم الاسلامي صورا من الصراع والتدمير ، وذكرنا أن هؤلاء ينحدرون من الأصول اليهودية التي كانت قد بقيت ببلاد فارس منذ عهد الأسر

البابلي ، كما ينحدرون من حاشية الأباطرة التي روعها انتصار المسلمين
وسلب سلطانها .

وذكرنا كذلك أن مبادئ هؤلاء انسابت بين الشيعة الحقيقيين في
فترات ضعف الشيعة أمام أعدائهم الأمويين حتى أصبح من العسير
التمييز بين المبادئ المنحرفة المدعى التشيع ومبادئ الشيعة الحقيقيين ،
فقد أصبح موضوع الإمامة موضوعا رئيسيا عند أكثر الشيعة أو كلهم ،
ويتبعه الاعتقاد بأن عليا خير البشر ، وأنه قد تم تعيينه إماما بعد
الرسول ، وأن استبعاده عن السلطة كان اغتصابا لها . . .

والهم أن شيعة الفرس الذين أصبحوا يمثلون التشيع الجديد
حرصوا على نشر مذهبهم في الأماكن المتعددة ، وبخاصة في العراق
وببلاد الخليج لاتصالها بإيران ، بيد أن هذه البلاد كانت تدين بالسلطة
للعثمانيين ، وقد استطاع العثمانيون أن يوقفوا المد الشيعة الفارسي ،
ولولا العثمانيون لكان من الممكن أن تنساب أفكار مدعى التشيع إلى عدة
مناطق بالعالم الإسلامي .

وبهذه المناسبة نذكر أن الشيعة الحقيقية تتمثل في حب آل البيت
وتقديرهم ، وفي مظاهر الاجلال الكامل لعلي بن أبي طالب رضي الله
عنه لقربه من الرسول ، ومصاهرته له ، ولعلمه وفضله وخدماته
للإسلام ثم لأولاده كذلك . وذلك شيء يتضح تماما لدى كثيرين من
المسلمين ، ولدى المصريين بوجه خاص .

أما التشيع بمعنى الإمامة اللازمة لعلي وأولاده ، ومعنى الظاهر
والباطن فلا يميل لها أكثر المسلمين .

ذلك حديث موجز عن حسنات العثمانيين ، أما الحديث عن المآخذ
فقد تناولناه عند حديثنا عن أسباب « ضعف الامبراطورية العثمانية »
ولكننا هنا نستطيع أن نضيف بعض المآخذ التي لم يشملها كلامنا فيما سبق :

مآخذ على العثمانيين

هناك مآخذ خطيرة تؤخذ على العثمانيين ، وقد ورد أكثرها في وثيقة مهمة هي « لفظ الهاميونى » أى الاعلان السلمى الذى أصدره السلطان عبد الحميد معدداً أمراض الدولة ، وواعداً بإصلاحها .

الحكم المطلق :

ويقف في قمة السيئات نظام الحكم المطلق وقد تحدثنا عنه من قبل ، وكان هذا النظام يضع مقدرات هذه الامبراطورية الفسيحة في يد شخص واحد هو السلطان ، فيجعله مصدر القوانين ، ويجعل سلطانه بدون حدود ، ويطبى على أن الاستبداد والحكم الفردى المطلق كانا من الانحطاط وأسباب ضعف الدولة ، وقد عبّرت الامبراطورية أكثر غيرها في ظل هذا النوع من الحكم ، وكانت النتيجة اضطرابا في الداخل وهزائماً في الخارج ، وقد تحدثنا من قبل عن الهزائم التى منى بها العثمانيون في الميدان الخارجى ، ونريد هنا أن نقول كلمة عن صور الاضطراب الداخلى :

تدخل خارجى باسم الأديان :

كانت الدولة خليطاً من أجناس غير متعاونة : وكان هذا يحدث فيها نفورا واضطراباً دون انقطاع ، وكانت الدولة كذلك خليطاً من الأديان ، فاليهود لا يعرفون الولاء للدولة وهم ينتهزون الفرص للثراء ولا هم لهم سواء ، والمسيحيون يوثقون صلاتهم بالدول الأوربية التى تدعى أنها مسئولة عن حمايتهم ضد التعصب الدينى الذى كانت ترمى به زوراً الدولة العثمانية ، والمسلمون مغلوبون على أمرهم ، ليس لهم نصير في الداخل ولا لهم عون خارجى .

اضطرابات اقتصادية واجتماعية :

ومالية الدولة فاسدة ، فلا ميزانية ، ولا اصلاحات ، والرشوة تملأ كل مكان كأنها قانون لا يعترض عليه ، والحرية مفقودة ، والمصادرات

تهدد كل مالك ، حتى لم يعد أحد يصح بالاطمئنان لغده ، والدولة تستدين من الخارج حتى بلغت ديون الدولة في عهد السلطان عبد العزيز ٥٣٠ مليون ليرة • والفقر الشائع والجوع المنتشر يدفعان الناس للسراقات وقطع الطرق •

وصحة أبناء الشعب تتدهور ، والجهل يتفشى ، والذخاء يضره صاحبه ، والثقافة ينظر اليها على أنها تدفع للتمرد والعصيان ، والجواسيس ينتشرون في كل مكان ، حتى أصبح أهل البيت يخشى بعضهم بعضا ، والشعوذة والدجل تسيطر على أكثر العقول ، وصاحب « الجلالة الشاهانية » وبخاصة في بعض الفترات كما سنرى بعد قليل ، لا يهتم غالبا إلا هواه ، والا الموسيقى والبذخ والنعيم ، وأما العدالة فليست كاملة ، فالمحاكم كثيرا ما تحكم في القضايا المهمة كما تريد شهوة الحكام لا كما يشاء القانون •

صور من طغيان السلاطين :

وتوالى السلاطين المنحرفون على الحكم ، واشتدت أزمات الدولة في الداخل والخارج ، ولكن هؤلاء ظلوا في طريقهم ، وظلوا يهيمنون بالمتسع ينعمون بها على حساب الشعب المحتاج ، وشهد القرن التاسع عشر مجموعة من أشد الخلفاء استبدادا وأعنفهم بطشا ، بدأت بمصطفى الرابع (١٨٠٧) فمحمود الثاني (١٨٠٨) فعبد المجيد الأول (١٨٣٩) فعبد العزيز (١٨٦١) فمراد الخامس (١٨٧٦) فعبد الحميد الثاني وليس في هؤلاء واحد يفضل الآخرين ، وكان كل منهم عندما يتولى يعدّ بإصلاح الحال ، ولكن سرعان ما تصبح كلمة الإصلاح أبغض الكلمات اليه وأكثرها إثارة ، بل صارت كلمة إصلاح أو مصلح في كثير من الأحيان تهمة ينكرها أكثر الناس خوفا من عواقبها ، كتهمة الشيوعية والإلحاد في بعض الدول في العهد الحاضر • وبلغ عبد العزيز في التعسف مداه ، فاحتال عليه هواة التجديد ودبروا مؤامرة عزله

بها ثم قتلوه ، وتولى بعده مراد ولكن سرعان ما ظهر اختلاط عقله فعزل ، وجاء بعده عبد الحميد الثانى الذى سنتكلم عنه فيما بعد .

وهناك مآخذ اقتصادية يمكن أن يستغلها الباحث على الدولة العثمانية ولكننا نبادر فنقرر أن أكثر هذه المآخذ راجع الى الصراع الطويل القاسى الذى دار بين العثمانيين ، وبين الصليبيين الغربيين ، فقد استنفد هذا الصراع المال وال سلاح والجهد ، ، ولم يكن للدولة خيار فيه فالمعدوان صليبي يعتبر امتدادا للحروب الصليبية بالشرق .

صراع مدمر مع الصقوقيين :

ثم كان هناك صراع آخر بين العثمانيين والصقوقيين وكم أريق فيه من دماء ، وضاعت فيه من أموال .

حالة العرب :

وكان طبيعيا أن تؤثر هذه الحروب وتلك على الجانب الاقتصادى للدولة ، وبالتالي على مستوى معيشة الفرد فى الامبراطورية العثمانية بوجه عام والشعوب العربية بوجه خاص ، فمن الثابت تاريخيا أن العالم العربى عانى اقتصاديا خلال تبعيته للعثمانيين فقد كانت العاصمة العثمانية تتطلب من الضرائب أكثر مما يطيقه الشعب ، ولم تكن تستخدم خدمات ذات بال فى المرافق نظير هذه الضرائب ، ومن هنا فإن مستوى معيشة الفرد فى العالم العربى أصبح هابطا للغاية ، بل إن كثيرين من القادرين اضطروا أن يخفوا أموالهم حتى لا تتعرض للمصادرة أو السلب وتظاهر هؤلاء بالفاقة مما جعل الفقر يسيطر على القادر والمسكين على حد سواء .

مذابح باسم الدين :

وقد حدثت فى الدولة مذابح بين المسلمين والمسيحيين ، وكان المسيحيون يبدأون بهذا العمل الوحشى ، ولكن الانتقام يجيء عقب

ذلك ، ويكون من باب معالجة الخطأ بخطأ مثله مما زاد الدولة اضطراباً وصراعاً •

ويأخذون عن الدولة العثمانية أنها منذ عهد المبر في مصر صدرت أوامرها بترحيل أعداد كبيرة من علماء الفكر الاسلامي ورجال الإفتاء ، والنوابغ في الحرف ، ورجال الأعمال ، وقد بلغ عددهم زهاء ألف وثمانمائة رجل ، أنزلتهم السلطات العثمانية تبعاً في سفن نيلية شقت طريقها الى الاسكندرية ومنها استقلوا السفن العثمانية الى استانبول (١) •

ويعلق ابن إياس (٢) على هذا التصرف بقوله : تعطل في مصر نحو خمسين صنعة •

ويمكن أن نقول : إن هذا العدد لا يمكن أن يكون شديد التأثير على الحياة الفكرية والصناعية بمصر ، هذا بالإضافة الى أن السلطان سليمان القانوني عندما جاء الى الحكم سنة ١٥٢٠ بعد ثلاث سنوات من فتح مصر ، أصدر فرماناً بعودة المصريين الى مصر (٣) •

ويذكر الدكتور عبد العزيز الشناوي أن كثيرين منهم رفضوا العودة وآثروا البقاء في استانبول (٤) •

وهكذا عندما نضع في الميزان حياة الامبراطورية العثمانية نجد الميزان متأرجحاً ، وبخاصة إذا لاحظنا المساوئ التي سببها فيها يلي عند حديثنا عن أسباب ضعف الامبراطورية •

(١) دكتور عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ص ٦٩٠ •

(٢) تاريخ مصر د ٥ ص ٢٧ حوادث شعبان سنة ٩٢٣ •

(٣) ابن إياس : تاريخ مصر د ٥ ص ٣٩٤ •

(٤) المرجع السابق •

ضعف الامبراطورية العثمانية

تدهورت الامبراطورية العثمانية كما أشهروا من قبل وكما سنرى فيما بعد ، حتى انتهى أمرها الى دولة صغيرة في الأناضول مع شريط ضيق في الجانب الأوربي لبحر مرمرة ، ما العوامل التي هدمت هذا الوحش الكاسر وحطمت أتيابه ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال ستحمل المزيد من مساوئ الحياة العثمانية ، وهاك هذه الإجابة :

اتساع الرقعة مع سوء الإدارة :

يقول الدكتور أحمد السعيد سليمان (١) إن إدارة بلد واسع الى هذا الحد أمر صعب جدا ، وبالإضافة الى ذلك فقد كان فقدان العدالة وفساد الادارة والرشوة والسرقات كان كل ذلك من العوامل الداخلية التي ساعدت على التدهور ، ولقد كان من الممكن أن يتأخر الانهيار لو قنع العثمانيون بمساحة صغيرة من الأرض دون هوس الفتوح الذي وسع مملكتهم وأدخلهم حروبا كثيرة دمرتهم ، وجعل امبراطوريتهم محاطة بالأعداء من كل جانب .

ضعف السلاطين المتأخرين :

ابتداء من حكم سليم الثالث سنة ١٧٨٩ بدأ ضعف السلاطين يتضح ، فلم يعودوا يقودون الجيوش ، أو يرأسون جلسات الديوان السلطاني ، وتركوا تلك المهام للصُدُور العظام ، وانجذب السلاطين لأجنحة الحريم مما جعل بعض الحريم يظمن في السلطة وإصدار الأوامر ، وهان الخلفاء بذلك فصدرت قرارات عزل بعضهم ، بل قتل بعضهم على يد الانقلابية وغيرهم .

(١) تاريخ الدول الاسلامية ج ٢ ص ٤٤٤ .

تخلف بالنسبة للأوربيين :

كانت الامبراطورية على صلة بأوروبا منذ تعمقت في القارة ، ولكنها عجزت عن تطوير حياتها عسكريا وسياسيا واقتصاديا بالنسبة للدول الأوربية المحيطة بها ، وهذا أبرز عجزها وضعفها •

تعدد الأجناس والأديان :

ويقول الدكتور فيليب حتى (١) • « إن دولة يوضع نظامها لغرض حربي دون الالتفات الى مصلحة الشعب ، وتتسع رقعتها فتمتد الى حدود بعيدة وتشمل مساحات غير متشابهة دون أن ترتبط بوسائل منظمة للنقل ، فيها خليط من السكان غير متجانسين ، بل مختلفون شيعاً وأحزاباً دينية وطائفية وعنصرية ... إن دولة مثل هذه لتحمل في طيات كيائها بذور الانحلال والفساد •

مساوىء القسطنطينية تنعكس على الدولة :

ويقول Sir Mark Sykes (٢) : كان فتح القسطنطينية تاجاً يزين مفرق الترك ولكنه كان لهم — الى جانب ذلك — ضربة قاصمة ، فلقد ورث الترك فيها مأساة بيزنطة ، ومساوىء أبنائها ، من الخصمان وحراس القصر ، والجواسيس ، والمرتشين ، والوسطاء ، إذ ظل هؤلاء جميعاً كما كانوا ، لقد حسب العثمانيون أنهم وجدوا كنزاً ، ولكنهم في الحقيقة تردوا في وباء •

الزواج من الأوربيات :

وتزوج السلاطين من بنات أمراء الغرب المغلوبين ، ففتح هذا الزواج الطريق الى خلق عيون للغرب في بلاط الخلفاء المسلمين ، وطالما

(١) تاريخ العرب ج ٣ ص ٨٤٤ •

(٢) The Turkish Empire p. 185. (٢)

أفشت هؤلاء الزوجات من أسرار السلاطين ما تسبب لهم الهزائم في حروبهم وسبب كشف خططهم ، كما أدعى نظام الحريم الى صور دنيئة من الفتن والاعتيالات والمؤامرات فهد ذلك من كيان الدولة وأضعف الناحية الروحية بها .

انحسار الانتكارية :

وانحسر الانتكارية كما رأينا من قبل الى المساوىء والمفاسد ، فكانوا معولا يقوض بناء الدولة بعد أن كانوا دعائم لقوتها وانتصاراتها .

نوع الرشوة :

وأسرف الولاة وكبار الموظفين الترك في سوء السيرة ، وكانت الرشوة تمارس كشيء مشروع لا غبار عليه ، ومن أعجب صور الرشوة ما تقاضاه الصدر الأعظم من الروس أعداء الدولة ليهيئ لبطرس الأكبر وجيشه أن يفلتوا من أسر كاد يكون أمرا لا مفر منه في المعارك التي جرت بين الروس والعثمانيين سنة ١٧١١ على نهر البروت (١) . ويحكى الأستاذ محمد فريد وجدى خبر هذه الحادثة فيقول : « إن الصدر بالطة جى محمد باشا تقدم على رأس جيش كثيف ليرد زحفا قام به الروس بقيادة بطرس الأكبر متتبعين شارل ملك السويد الذى كان قد هزم في معارك ضد الروس ولجأ الى البلاد العثمانية ، ونجح الصدر في تقدمه فعبّر نهر الدانوب وأحاط ببطرس الأكبر وجيشه ، ونفذت المؤن من الروس كما نفذت الذخائر ، وأوشك الجيش والامبراطور أن يقعوا أسرى في أيدي الترك ، ولكن كاترين امرأة بطرس جمعت جميع حليها وحلى من معها من الأميرات

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٣ ص ١٥٥ .

ونهر بروت يصب في الدانوب ويفصل بين الاتحاد السوفيتى ورومانيا .

وأرسلتها هدية الى الباشا فقبلها وأبرم صلحا مع بطرس الأكبر أنجاه وأنجى جيشه من الأسر (١) .

انهلال القصور :

وانتشرت المفاصد في القصور وأصبح بعض الخلفاء يحيون حياة غربية عن روح الاسلام وعن العقل السليم ، ويقول الأستاذ محمد كرد علي (٢) . إن مراد الثالث كان مظهرا من مظاهر الانحطاط في كل شيء ولا سيما في الاسترسال في مساوئه ، وقد سهلت له أمه وزوجته الطريق للحصول على شهواته ، وخلف ١١٨ ولدا . وكان ابراهيم الأول متهتكا سيئ السيرة ، قيل إنه قتل ١٠٠٠٠٠ إنسان ، منهم ٢٥٠٠٠٠ أمام عينيه ، وكان يعني كل أسبوع بذكر وتقام له الأفراح ، وكان بايزيد الثاني على جانب من السفاهة ، فانتشرت المفاصد والانحراف في أيامه في كل مكان بين الخاص والعام ، ونسى الناس الشرع وعيثوا بأحكام الدين ، وكانت تحمّل اليه أطيب المسكرات وألطف المغنين والمغنيات والموسيقيين والموسقيات ، ولا شأن للكبراء الا أن يأتوه بما ترغب فيه نفسه من الجوارى والغلمان .

أثروب ومواجهة أقوى دول العصر :

ومن عوامل الضعف أيضا تلك الحروب التي طال أمدها في ميادين مختلفة وما تأكله من أرواح وما تطلبه من أسلحة وأموال ، وبخاصة مع امتداد خطوط القتال والابتعاد عن مراكز الامداد ، والتوغل في جهات مختلفة من العالم ، فحروب في المجر ، وحصار لمدينة فيينا ، ومعارك في الجزائر ، وحملات الى اليمن ، وصراع في فارس ، ولا شك أن هذه الحروب تنهك الجند وتستنزف الأموال (٣) .

(١) دائرة معارف القرن العشرين ج ٢ ص ٦٠٩ .

(٢) الاسلام والحضارة العربية ج ٢ ص ٥٠٠ — ٥٠١ .

(٣) انظر تركيا والسياسة الحربية ص ٤٢ .

على أن من أهم عوامل ضعف الدولة اصطدامها بدول ثلاثة كبيرة في الشرق والغرب هي الروس والألمان والصفويون ، ويوضح Kirk أثر الحروب التركية الفارسية في إضعاف الأتراك فيقول (١) :

قد كانت دولة الأتراك العثمانيين ، كسابقتها الدولة البيزنطية مضطرة الى توزيع عناصر قوتها الفعالة ما بين الشرق الأوسط وبلاد البلقان ، التي ربما أربت مصالحهم فيها على مثلها في الشرق الأوسط ، وقد كان المركز الرئيسى لكل من الدولتين الشطر الشرقى من البحر الابيض المتوسط ، ولكنهما جميعا طرحا بمواردهما في حروب مستمرة ضد خصم قوى هو دولة فارس التي تباعدتها عن حظيرتهما اختلافات دينية (أو مذهبية) شديدة ، كما أن الحروب البيزنطية الفارسية كانت غير حاسمة وأضعفت من شوكة الدولتين المتحاربتين وعرضتهما لغزو العرب وفتحهم لبلادهما ، كذلك كانت الحروب العثمانية - الفارسية التي دامت من القرن السادس عشر الى القرن الثامن عشر غير حاسمة أيضا . وأضعفت الدولتين معا ، وعرضتهما لسطوة التجارة الأوروبية التي أفضت في القرن التاسع عشر الى تدخل الدول الأوروبية في شئونهما رغم أنفهما ، وفي عهد العثمانيين ، كما في عهد الدولة البيزنطية ، كان امتلاك العراق ماثرا للمقاومة من هذا الجانب أو ذاك .

القروض :

لجأت الامبراطورية العثمانية للقروض ، وللأسف كانت تقترض من أعدائها الأوروبيين ، فأتاح هذا الوضع الفرصة لهذه الدول وبخاصة إنجلترا وفرنسا للتدخل في الشؤون الاقتصادية للدولة ، واضطرت الدولة لإثشاء البنك العثماني برياسة فرنسي . وكان له نائب انجليزي ، وكان ذلك سنة ١٨٣٦ م وبعد ذلك بحوالى عشر سنوات أعلنت الحكومة عجزها عن سداد فوائد الديون فأساء ذلك لحقها اساءة كبيرة .

إغفال مصالح الشعب :

ومن أسباب الانحلال والضعف في جسم الدولة العثمانية ما يقرره كل الباحثين من إغفال الحكومة للخطط الانشائية ، وإغفالها التام لمصالح الشعب . ويقرر Kirk أن تشكيل الدولة في جوهره كان حربيا يرمي في صراحة الى المحافظة على قوة المعاولية ورعاية مصالحها الممثلة في شخص الجالس على عرشها ، دون اعتبار يذكر لمصلحة رعاياها ، فالحكم العثماني لم يسفر عن انشاء شيء يذكر من الطرق أو المستشفيات أو المدارس ، وقد كان أحد السياح يمر بمدينتي حلب ودمشق عام ١٨٣٨ أي بعد طول عهدا بالحكم العثماني فلم يجد فيهما متجرا واحدا للمكتب ، كذلك لم يبتدأ الإهتمام بذكر بتحصين حال الزراعة والري أو صيانة مراقبتهما . . . وقد هجر الفلاحون الكثير من القرى ، وانكشفت رقعة المدن حتى انتقلت الاسكندرية من مدينة زاهرة عامرة بالسكان الى بلدة لا يكاد يبلغ سكانها ١٠٠.٠٠٠ من الأتقيس .

وكان الفلاح لا يفلح من أرضه سوى ما يكفي لامتاج محصول يستطيع جنيه على عجل وإخفائه عن أعين جامع الضرائب ، وفي سوريا هجر الزراع حقولهم ، وهرع بعضهم الى المدن يلتمسون فيها العيش ، ولجأ آخرون الى أودية الجبال الوعرة الوصول ، وفي مصر أهمل الري حتى تدهورت حالة الزراعة واختل نظام نوبات المياه ، فكانت القرى يقتتل بعضها مع بعض على مورد الماء ، ولما اشتد الحرمان بالفلاحين ، وضاقوا بما يلاقونه من الملاك ، هجر الكثير منهم الأرض وتحولوا الى طوائف من اللصوص ، وقطاع الطرق ، ومرتكبي الاجرام في الخلاء المحيط بالقرى (١) .

وفتية لكل ذلك كثرت المجاعات والأوبئة ، وكانت أحيانا تشد حتى

تغضى على مئات الآلاف من البشر وتدع بعض القرى خالية تماما ، وفي
أواسط القرن السابع عشر كانت شركات الأراضي الواقعة بين حلب وأقرب
أطراف الفرات إليها ، خصبة وفيرة الحاصلات فاستحالت الى صحراء
مقفرة بعد قرن من الزمان (١) .

تقويمات والأحلاف المقدسة :

ومن عوامل الضعف كذلك أن القوميات المختلفة التى كان يضمها
نطاق الدولة أخذت تستيقظ ، فاتجه المسيحيون منهم كالأرمن واليونان
الى الدول الغربية يستعدونها على الدولة ، وانتفض الأكراد فى جبالهم ،
والعرب فى صحاريهم ووديانهم ، وساعد على ذلك فقدان الكفاءة وانتشار
روح التمرد بين الجنود ، وتفشى الفساد والرشوة بين الموظفين فى مختلف
نواحي الدولة ، وإهمال الدولة للشئون العامة ، من تعليم وأمر الصحة
وأمر المواصلات ، فقد كانت نسبة التعليم أقل من ١٪ ووصلت نسبة
وفيات الأطفال ٨٠٪ وكانت السكك الحديدية بالدولة قليلة ومضطربة (١) .

وهكذا تجمعت كل هذه العوامل وسواها على الامبراطورية فأخذت
فى الضعف والانكماش والانهيار ابتداء من القرن السادس عشر ، وقد
اتخذ الصراع الأوروبى ضد تركيا شكلا دينيا واضحا ، اذ تكون ضدها
« حلف مقدس » من امبراطور النمسا ومن بولنده والبندقية ، وكان لهذا
الحلف أثر كبير فى التغلب على تركيا وضعف قوتها ، ثم دخلت روسيا
باسم الدين أيضا هذه الحرب تؤيدها جميع الدول المسيحية ، وأنزلت
بالخلافة الاسلامية ضربات قاصمة وخسائر فادحة ، وكانت نتيجة هذه
الأحداث أن هوت تركيا من شاهق ، وهان أمرها حتى أصبحت تعرف
« بالرجل المريض » ، وكان من الممكن القضاء على « الرجل المريض »
بسرعة لولا اختلاف دول أوروبا على تركته ، فمن الذى يربث بوغازى الدردنيل

والبوسفور ؟ إن ورثتهما روسيا امتد نفوذها الى البحر المتوسط وهددت مصالح انجلترا وفرنسا ، وإن ورثتهما انجلترا خنقت روسيا في البحر الأسود ، وحل هذه المشكلة اتفقت الدول على ألا تجهز على « الرجل المريض » وأن تبقى على قيد الحياة لا حرصا عليه ولكن كراهة لما ينجم من خلاف حول ميراثه (١) . وموقف أوربا من الامبراطورية العثمانية سواء إبان امتدادها وزحفها أو إبان انكماشها وانهازمها يعرف في العرف السياسي بـ (المسألة الشرقية) وسنتحدث عن هذه المسألة الشرقية فيما يلي :

المسألة الشرقية :

هل المسألة الشرقية مسألة سياسية أو مسألة دينية ؟

يدعى أكثر المؤرخين الغربيين أن المسألة الشرقية مسألة سياسية ، ويقولون انها ليست الا تحركات للحدود ضمانا للأمن ، وهذه التحركات تحصل بين المسيحيين بعضهم والبعض الآخر .

والذي نراه أن المسألة الشرقية مسألة دينية ، وأنها تعبير يساوي التعبير الذي استعمله المسيحيون من قبل وهو « الحروب العلية » ، وقد أراد المسيحيون باستعمال التعبير الجديد الترميز وعدم إثارة المسلمين ، ويقول الأستاذ محمد فريد مؤرخ الدولة العثمانية معلقا على معركة ليبانتو البحرية ما يلي (٢) : واشتراك البابا في هذه المعركة يدل على أن المحرك الأول لهذه التآلجات ضد الدولة الاسلامية هو الدين كما يؤكدته الحوادث والحروب فيما بعد لا السياسة كما يدعون ، وكان لفوز المسيحيين رنة فرح في قلوب المسيحيين أجمع ، حتى أن البابا خطب في

(١) المجتمع الاسلامي للمؤلف ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٢) تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١١٢ .

كنيسة مارى بطرس برومة وشكر دون جوان قائدها على انتصاره على السفن الاسلامية ، وذلك مما لا يجعل عند المطالع أقل ربية أو شك في أن المسألة الشرقية مسألة دينية لا سياسية كما ادعاه ويدعي الأوروبيون ويفتره به السذج غير المطلعين *

وعندى أن مفهوم « المسألة الشرقية » قد تغير لدى الأوروبيين من عصر الى عصر ، ففي القرن الخامس عشر والنصف الأول من القرن السادس عشر كانت الامبراطورية العثمانية قد وصلت الى مدى واسع واحتلت جانبا كبيرا من جنوب أوروبا الشرقى يشمل القسطنطينية وأملاك الدولة البيزنطية وأملاك امبراطورية الصرب وامبراطورية البلغار في البلقان ، كما استولت على ولايتى الأفلاق والبغدان (رومانيا الحالية والقرم) فأصبح البحر الأسود بحيرة تركية ، واستولت كذلك على دولة المجر وهددت مدينة فيينا أكثر من مرة • وقبذ أزعج هذا الزحف دول أوروبا ، وبدأت هذه الدول تتعاون للموقف في وجه ما أسموه « المسألة الشرقية » ، وهنا كان مدلول هذا التعبير التصدى للأتراك ، والتعاون لإضعاف شوكتهم • والصراع هنا أقرب للاتجاه الصليبي •

ثم بدأ الضعف والهزال يظهران في جسم الدولة للأسباب التى سبق إيرادها ، من اضطراب فى صفوف الجيش التركى ، وإسقاط لدرعايا ، وحرب ضد الفرس ، وثورات داخلية قادها فى البلاد العربية بعض القادة والمفكرين ، ومن ظهور النمسا وروسيا كدولتين وأخذها فى مهاجمة الدولة ، وكذلك ظهور انجلترا وفرنسا كدولتين تتأثران بما يستول اليه أملاك الأتراك العثمانيين وتتنافسان فى هذا المجال ، وهكذا أصبح تطلع دول أوروبا لما يستول اليه أملاك الامبراطورية العثمانية يعرف فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بـ « المسألة الشرقية » ، ويمكن أن يُعَدَّ الصراع هنا صراعا سياسيا •

وإذا كانت « المسألة الشرقية » بمعناها الأول وحدثت أو قاربت بين

وجهاً تنظر الأوروبيين للوقوف في وجه القوة الشرقية الزاحفة بدينها وعاداتها على أوروبا ، فإن « المسألة الشرقية » بمعناها الثانی أثارت ألواناً من الخلافات والحروب والمؤامرات بين دول أوروبا بعضها والبعض الآخر ، فلكل منها أطماع تتعارض مع أطماع الأخرى ، ولذلك أدت هذه الخلافات — كما ذكرنا من قبل — الى إطالة عمر « الرجل المريض » ريثما يحل الزمن أهم المشكلات المتصلة بترائه .

وفيما يلي أبرز أطماع الدول الأوروبية في ممتلكات الامبراطورية العثمانية :

روسيا : تطلمت روسيا باهتمام الى الوصول للبحر الأسود الذي كان يعتبر بحيرة تركية لأن أملاك الترك تحيط به ، فلما وصلت روسيا الى البحر الأسود تطلمت الى السيطرة على المضائق التي تصله بالبحر الأبيض المتوسط لتكون على صلة حربية وتجارية بجنوب أوروبا وبلاد الشرق ، كما تطلمت الى أن تصبح وريثة للدولة البيزنطية لتكون لها حماية المسيحيين وبالتالي تستعيد عاصمة الدولة المسيحية الغابرة .

النمسا : كان يهمها تأمين حدودها بإضعاف العثمانيين الذين طالما هددوا هذه الحدود ، ولذلك عملت النمسا على الحصول على أجزاء كثيرة من الأملاك المتصلة بها والتي كانت خاضعة للأتراك العثمانيين كاللبوسنا وطريق سالونيك ، وقد تم لها ذلك ، وأخذت تعمل على تحرير المناطق الأخرى المجاورة لها والتابعة للعثمانيين كالمجر والبلقان .

انجلترا : خافت أن تتصل روسيا بالبحر الأبيض المتوسط فيسبب ذلك خطراً على مصالحها السياسية والاقتصادية في الشرق ، وتطلعت انجلترا الى الخليج العربي ، كمنطقة لها نفوذ في الخطوط الملاحية بين انجلترا والهند ، ولما حفرت قناة السويس زاد اهتمام انجلترا بمصر كطريق رئيسي بين أجزاء الامبراطورية البريطانية .

فرنسا : كانت تتطلع الى الشمال الافريقي المواجه لحدودها الجنوبية ، كما كانت تحاول السيادة على مصر والشام لتضرب بذلك انجلترا ، وكانت المنافسة بينها وبين روسيا قوية حول رعاية شئون المسيحيين بالامبراطورية العثمانية .

وهكذا ضمنت هذه الخلاقات عمرا أطول للأمبراطورية العثمانية ، بل كانت تركيا أحيانا تنال مساعدات وتشجيعات من بعض الدول لايقاف نشاط دول أخرى مما حقق لها بعض الانتصارات حتى في فترة الوهن والانحلال ، كما مدء في عمرها أيضا فرصة ظهور أسرة كوبريللى على مسرح السياسة وتوليهم الوزارة (١٦٥٦ — ١٦٩٠ م) ، وكان لكفاءة أفراد هذه الأسرة واخلاصها أثر ظاهر في إعادة القوة إلى صفوف العثمانيين حيناً من الزمن ، ولكن هذا كله لم يكن دواء ناجحاً ، وإنما كان أشبه بخقنة تبعث نشاطاً صناعياً وسرعان ما يختفى النشاط مع اختفاء أثر الدواء ، لتعود الدولة إلى وهنها وضعفها .

إضعاف العرب ونتائجه على الأتراك :

وللدول العربية دور سلبي هام أثر في المسألة الشرقية ، فلو أن الدول العربية أتاحت لها الفرصة لتقوم بدورها الايجابي لكان من الممكن أن تتغير نتائج المسألة الشرقية ، وسنشرح هذا الرأي فيما يلي :

أثبت العرب في أزمت كبيرة من أزمت التاريخ أنهم أبطال مغاوير ، وأنهم يصمدون أمام الأحداث ولا يهنون أمام المشكلات ، وحسبك أن تتذكر اكتساح الجيش العربي لدولتي الفرس والروم في مطلع الاسلام ، وأن تتذكر كذلك موقف الجيش العربي المصرى من المغول حيث دحروهم وهزمهم شر هزيمة في عين جالوت سنة ١٢٦٠ م ، وهنح النجاة والسلامة للثقافة العربية والاسلامية بل وللإنسانية من شر هؤلاء البرابرة ، وحسبك أن تتذكر كذلك موقف مصر والشام من الصليبيين حيث ناوروهم ونازلوهم

طيلة قرنين من الزمان حتى كتب لهم النصر ، ومن أجل هذا كان المسيحيون يحسبون ألف حساب للبطل العربى قبل أن يقدموا على الهجوم عليه .

وجاءت الدولة العثمانية واستطاعت باسم الاسلام أن تشق طريقها للنصر فى الصفوف العربيه ، ولما تم لها النصر جردت المارد العربى من أسباب القوة ، فحرمته الأسلحة والتدريب ، كما حرمتها الثقة والتقدير ، بل حرمته الأمن ولقمة العيش .

ولقد كانتم فرصة للمسيحيين أن يخلّو الجيش العثمانى من الرجل العربى الذى كان يبعث الرعب فى قلوبهم بتاريخه الطويل ونضاله القوى .

ومما زاد الأمر سوءا فى هذا المجال أن الدول العربيه كانت تقف موقف العداء من تركيا عندما كانت هذه تتناضل فى أوربا ، فقد هبت بمصر والشام والعراق حركات استقلالية وقفت وجها لوجه أمام العثمانيين وحققت أحيانا كثيرا من الانتصارات ، حتى أن دول أوربا أرجأت أحيانا نضالها ضد الأتراك العثمانيين بل ساعدت الأتراك العثمانيين ليكبحوا انطلاقا المارد المصرى والمارد العربى على العموم .

انهيار الإمبراطورية العثمانية

والآن ، بقى علينا أن نصف واقع الأحداث كما جرت لنرى ما آل اليه أمر الامبراطورية ، مع ملاحظة أن انكماش الدولة لم يكن مطردا ، بل أثرت العوامل التى سبق ذكرها على هذا الانكماش ، فاذا الدولة بين مد وجزر تفقد بلدا اليوم وتعود فتسترده غدا ، وقد أورد Harry Hazard (١) صورة سريعة لحركات هذا المد والجزر فتحدث عن إحدى وسبعين مقاطعة

(١) Atlas of Islamic History p. 38.

من المقاطعات التركية تناولتها هذه التحركات ، ونحن نورد منها بعض النماذج لترينا مدى هذا الاضطراب الذي طال ولم يصل الى نهايته الا خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها :

الصرب وتبعيتها للامبراطورية العثمانية : تبعية وجزية ١٣٨٦ — ١٤٠٢ ، خروج على السلطة ١٤٠٢ — ١٤٣٩ ، تبعية وجزية مرة أخرى ١٤٣٩ — ١٤٤٤ ، ضمها للامبراطورية لتكون ولاية ١٤٥٦ — ١٨٧٨ ، في فترة ١٨٠٤ — ١٨١٣ ، ١٨١٥ — ١٨١٧ ، شبه مستقلة ذاتيا ١٨١٧ — ١٨٢٩ ، مستقلة ذاتيا ١٨٢٩ — ١٨٧٨ استقلال تام بعد ذلك — بلغراد العاصمة تبعت الامبراطورية في السنوات التالية : ١٥٢١ — ١٦٨٨ ، ١٦٩٠ — ١٧١٧ ، ١٧٣٩ — ١٧٨٩ ، ١٧٩١ — ١٨٦٧ وانشقت بعد ذلك حتى استقلت سنة ١٨٦٧ .

البوسنة : تبعية ١٣٨٩ — ١٤٠٢ ، ١٤٦٣ — ١٩٠٨ : وتفصيل هذه المدة كالآتي : تابعة ١٣٨٩ — ١٤٠٢ ، في فترة ١٨٢١ — ١٨٥١ ، ١٨٧٥ — ١٨٧٨ ، في حكمهم بالاسم ١٨٧٨ — ١٩٠٨ .

ألبانيا : ١٤٣٠ — ١٤٤٣ ، ١٤٦٧ — ١٩١٢ — في حكمهم وان كانت قبضتهم عليها متراخية .

فلسطين : ١٥١٦ — ١٧٩٩ الحملة الفرنسية ١٧٩٩ — ١٨٠١ العثمانيون مرة أخرى ١٨٠١ — ١٨٣٢ ، مصر (محمد علي) ١٨٣٢ — ١٨٤٠ — العثمانيون ثالثا ١٨٤٠ — ١٩١٧ — الاحتلال الانجليزي ١٩١٧ .

هذه أمثلة موجزة لتحركات الحدود العثمانية ، وهي تحركات طبيعية اقتضتها العوامل التي سبق شرحها ، ومن هنا لم يكن من الممكن أن نورد حديثا منتظما عن تقلص الدولة وانكماشها ، وكل ما يمكن ايراده هو بعض المواقع الحربية الهامة وبعض المعاهدات التي دفعت حدود الدولة نحو الانقباض والانهيار .

في أوروبا والآناسول

موقعة ليبانتو :

موقعة بحرية هامة تنسب الى خليج ليبانتو اليونانى ، حدثت سنة ١٥٧١ بين الأسطول العثمانى وأسطول مسيحي مؤلف من البحرية الاسبانية وبحرية البنادقة وبحرية البابا وبعض سفن رهبنة مالطة ، وكان يقود أسطول المسيحيين دون جوان الاسباني ، وقد انتصر أسطول المسيحيين على أسطول الأتراك انتصارا حاسما ، فأسر آلافا من رجال البحرية العثمانية ، وضاعت أكثر السفن الحربية العثمانية بين غرق واحتراق ، وكان لهذه الموقعة صدى كبير فى نفوس المسلمين والمسيحيين ، ومن العجيب أن دون جوان لم ينتفع بانتصاره ولم يهاجم أية بلدة عثمانية ، واكتفى باحتلال تونس عند عودته من هذه الموقعة سنة ١٥٧٢ . وقد تم له احتلالها دون مقاومة نظرا لهزيمة أسطول العثمانيين الذى كان يحمى الشاطئ الافريقى ، ولكن هذا الاحتلال لم يدم طويلا ، فقد جددت الدولة اسطولها واسترجعت تونس سنة ١٥٧٥ بمعرفة سنان باشا (١) . وهكذا كانت هذه الموقعة الضخمة قليلة النتائج .

صلح كارلويج :

فى أواخر القرن السابع عشر منى العثمانيون بهزائم متتالية أمام القوات الألمانية وقوات البندقية ، وبولندا وروسيا وختمت هذه المعارك بمعركة مهاج الثانية (٢) فى المجر سنة ١٦٨٧ حيث كانت هزيمة العثمانيين قاصمة فى الميدان وتلاها اضطراب داخلى ، وهزيمة أمام الجيش الروسى

(١) محمد فريد : تاريخ الدولة العثمانية ص ١١١ - ١١٢ .

(٢) مهاج الاولى حدثت سنة ١٥٢٦ وكانت القيادة للسلطان سليمان القانونى ومعه الصدر الاعظم ابراهيم باشا وقد حقق الترك فيها انتصارات كبيرة ، وامتد سلطانهم الى المجر . . . وقد سبق الحديث عنها .

أدت الى أن يستولى القيصر بطرس على آزوف ، وكان من نتائج هذا كله أن عَقِدَ صلح يصفه كارل بروكلمان (١) بأنه « صلح غير مجيد » بالنسبة للعثمانيين ، هو صلح « كارلويج » سنة ١٦٩٩ ، وفي هذا الصلح تخلى الباب العالي عن ترانسلفانيا (مقاطعة نمسوية) لآل هابسبورج ، وعن المجر برمتها تقريبا ، وعن القسم الأعظم من سلاودنيا وكرواتيا ، وتنازل للبولنديين عن أوكرانيا وغيرها من المناطق التي فتحوها ، وتنازل البنادقة عن المورة .

معاهدة قينارجة :

شهد النصف الثاني من القرن الثامن عشر معارك طاحنة بين الروس وبين الأتراك العثمانيين ، وكان النصر للروس في أغلب هذه المعارك ، وقد استقطاع الروس سنة ١٧٧٠ أن يجتاحوا البغدان والأفلاق وأن يصلوا الى نهر الدانوب ويأخذوا يمين الولاء للملكة كاترينا (١٧٩٦) أرملة بطرس الثالث (٢) التي كانت تعتبر نفسها وريثة القيصر بطرس الأكبر (١٧٢٥) وأداة لتحقيق أحلامه ، وفي نفس العام (١٧٧٠) أضرم الروس النار في الأسطول العثماني المرابط في خليج جشمة مقابل جزيرة ساقز بالأرخبيل اليوناني ، ولما توالى هزائم العثمانيين عقدوا صلحا مع الروس سنة ١٧٧٤ يعرف بمعاهدة قينارجة ، وقد أورد الأستاذ محمد فريد نص المعاهدة (٣) ، وأهم ما جاء فيها أن تتنازل تركيا لروسيا عن بعض الموانئ بالبحر الأسود من أهمها آزوف ، فصار لروسيا قواعد حربية على هذا النحو ، ومنح أسطول روسيا حق عبور المضائق التركية الى البحر الأبيض المتوسط ، ومنها الاعتراف باستقلال بتار القرم ، وأن

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٣ ص ١٥٣ — ١٥٤ .

(٢) كانت أحب الى القادة من زوجها بطرس الثالث فتقرر خلعها وجعلها قيصرة روسيا ، ثم مات زوجها عقب ذلك ، واتخذت بطرس الأكبر مثالا لها .

(٣) تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٦٠ — ١٧١ .

تبني روسيا كنيسة بالأسستانية ، ويكون لها حق حماية جميع المسيحيين التابعين للمذهب الأرثوذكسي من رعايا الدولة العلية ، واعفاء الرعايا الروس الذين يذهبون للحج من دفع أية ضرائب ، وتسهيل الحياة لمن يفضل من الرهبان أو الرعايا أن يبقى بالدولة العلية ، وجاء في الملحق السري لهذه المعاهدة أن الأتراك ملزمون بدفع غرامة حربية كبيرة متسطة على ثلاث سنوات ١٧٧٥ ، ١٧٧٦ ، ١٧٧٧ •

ومن الملاحظ في هذه المعاهدة أنها لم تكف باقتطاع أجزاء من الدولة العثمانية ، بل تعدت ذلك الى اعطاء الروس حق حماية المسيحيين من رعايا الدولة ، وذلك يفتح الباب لتدخل الروس في الشؤون الداخلية للامبراطورية ، وهو انتقاص كبير لسيادتها •

موقعة نوارين ومعاهدة لندن :

وفي القرن التاسع عشر كانت قوة نابليون ترعب أوروبا وترعب العالم كله ، وأصبحت فرنسا بذلك عدوا كبيرا للأتراك العثمانيين ، وقد رسمت فرنسا خططها على اقتحام الدول العربية التي كانت تابعة لتركيا ، وعلى اثاره الاضطرابات فيما تبقى لتركيا في أوروبا من أملاك ، وساعد على ذلك رغبة هذه الدول في التحرر منتهزة فرصة الضغط على تركيا من جهات متعددة ، ولكن الصراع بين الدول الأوروبية بعضها وبعض لمواجهة قوة نابليون أطال حياة تركيا ، ولما انتهى نابليون بدأت الثورة في جزيرة كريت سنة ١٨٢١ ثم عمت شبه جزيرة المورة ، وقد استعان السلطان بواليه على مصر آنذاك محمد على فأرسل هذا ابنه ابراهيم على رأس جيش كبير استطاع به أن يخضع الثوار ، وهنا تدخلت دول أوروبا ، اذ عقد حلف بين روسيا وانجلترا وفرنسا ، وانضمت له بروسيا فيما بعد ، للتدخل بين تركيا واليونان على أساس استقلال اليونان • وكانت هذه الدول تتوة أن ترفض تركيا ومصر • ولذلك أرسلت أسطولا مشتركا بقيادة كورنجتو الى المياه اليونانية ، وكان من أهداف هذا الأسطول القضاء على القوة

المصرية القائمة ، ولذلك تلمس القائد الأسباب للاستخدام بالأسطول
التركي المصري واستطاع أن يضربه خربة قاصمة في موقعة نوارين سنة
١٨٢٧ وتلا ذلك أن أعلنت روسيا الحرب على تركيا ، وفي ضوء هذه
الأحداث تم في لندن في نوفمبر سنة ١٨٢٨ اتفاق بين محمد علي والدول
المتحالفة على جلاء المصريين عن اليونان ، وفي ٣٠ مايو سنة ١٨٣٠ اضطر
الباب العالي أن يصدّق على « معاهدة لندن » التي قضت باستقلال
اليونان .

معاهدة سان استيفانو ومعاهدة برلين :

وجاءت نهاية الأتراك في أوروبا بمعاهدتي « سان استيفانو »
و « برلين » ففي سنة ١٨٧٧ هبت الحرب بين روسيا وتركيا ، واجتاحت
روسيا الأراضي العثمانية بأوروبا وبالأناضول ، وأدركت تركيا ألا قبيل
لها بمواصلة الحرب فطلبت الصلح ، وعقدت بينها وبين روسيا
معاهدة سان استيفانو في مطلع سنة ١٨٧٨ ، وبمقتضاها خسرت تركيا
الولايات الأوربية جميعها ، وأنشئت دولة بلغاريا تابعة للروس بحيث
تكون منفذا لهم على البحر المتوسط ، كما أذن للروس في الاحتلال فارص
وباطوم في أرمينية ، وفرض على الأتراك غرامة حربية كبيرة
(٢٤٥٨٣١٧٣٩١) جنيتها تركيا .

وشارت أوروبا لهذه المعاهدة التي أخذت فيها روسيا نصيبا كبيرا من
تركة تركيا ، وكان الانجليز والألمان أكثر أوروبا ثورة على هذه المعاهدة
أما الانجليز فعارضوا وصول الروس الى البحر المتوسط خوفا على
طريق الانجليز الى الهند ، وأما الألمان فاحتجوا باضطراب ميزان القوى
بسبب ما حصل عليه الروس من مناطق في آسيا وفي أوروبا ، ودعا
دزرائيلي رئيس وزراء انجلترا لعقد مؤتمر جديد لإعادة النظر في
معاهدة سان استيفانو ، واقترح بسمارك أن تكون برلين مكان الاجتماع ،
وعلى هذا عقد مؤتمر برلين في يونيو سنة ١٨٧٨ الذي اشتركت فيه

ألمانيا والنمسا والمجر وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا وروسيا وتركيا ، وأرسلت بعض الدول الأخرى مندوبين لها لتقديم طلباتها الى المؤتمر ، ولم يصرح لهذه الدول بحضور الجلسات إلا اذا استدعيت لإيضاح نقطة ما تخص دولهم ، وهذه الدول هي رومانيا ، والصرب ، والجبل الأسود ، واليونان ، وغانيس ، كما أرسل الأرمن واليهود مندوبين لنفس الغرض .

وعقد هذا المؤتمر جلسات بدأت في ١٣ يونيو واختتمت في ١٣ يوليو وقد اشترطت فرنسا ألا يناقش المؤتمر مسألة مصر والشام مما يدل على أن نية كانت تدبر للانقضاض على الدول العربية ، ويعتبر هذا المؤتمر خطوة هامة نحو تصفية « المسألة الشرقية » ومن أهم قرارات هذا المؤتمر ؟ منح الاستقلال التام لرومانيا والجبل الأسود والصرب ، ومنح البوسنة والهرسك للنمسا وتوسيع حدود اليونان ، وضم ميناء (باري) على بحر الأدرياتيك للجبل الأسود ، هذا بالإضافة الى بعض الشروط الخاصة بالاصلاحات الدينية لغير المسلمين (١) .

ومن الواضح أن هذه الخسارة الكبرى حلت بالعثمانيين في مطلع عهد السلطان عبد الحميد الثاني ، وقد تسبب عن هذه الخسارة ، وعن تردد السلطان بين الإصلاح والحفاظ على القديم أن هبت حركة « تركيا الفتاة » وجماعة « الاتحاد والترقي » وسنراهما فيما بعد تضعان نهاية للخلافة العثمانية وتتجهان بتركيا اتجاها جديدا .

العثمانيون يخسرون أملاكهم في أوروبا

والمهم هنا ان الدولة أخذت تخسر أملاكها بأوروبا جزءا بعد جزء ، ولكن بين شد وتراخ حتى أفلتت جميع أملاكها بهزيمتها مع ألمانيا في الحرب العالمية الأولى ، وتكوّن من أملاك الدولة بأوروبا الدول التي تعرفت

(١) اقرأ هذه المعاهدة في تاريخ الدولة العلية لحمد فريد ص ٢٨٧ —

الآن بالأسماء الآتية : اليونان ، رومانيا ، بلغاريا ، يوغسلافيا ،
ألبانيا ، والمجر ، ويمكن إيراد بيان موجز عن استقلال الأجزاء الأوربية
عن الدولة العثمانية فيما يلي :

المجر : فقدتها الدولة العثمانية سنة ١٦٩٩ وكسبتها
النمسا .

القرم وجنوب روسيا : فقدتها الدولة العثمانية سنة ١٧٧٤ ثم ضمت
إلى روسيا سنة ١٧٨٤ .

صربيا (جزء من يوغسلافيا) : فقدتها الدولة العثمانية سنة ١٨١٥ إذ استقلت
جزئيا ، ثم استقلت استقلالاً ذاتياً سنة ١٨٢٩
واستقلالاً تاماً سنة ١٨٧٨ .

رومانيا : فقدتها الدولة سنة ١٨٢٩ بزوال الحماية التركية
عنها واستقلت استقلالاً تاماً سنة ١٨٧٨ .

اليونان : فقدتها الدولة سنة ١٨٢٩ ثم استقلت استقلالاً
تاماً سنة ١٨٣٠ وبعد ذلك أضيف إليها بعض
مقاطعات عثمانية في الأعوام ١٨٨٢ ، ١٩١٣ ،
١٩٢٠ .

القوقاز : فقدتها الدولة سنة ١٨٨٢ ثم ضم بعض أجزائها
إلى روسيا .

بلغاريا : فقدتها الدولة سنة ١٨٧٨ إذا أصبحت الحماية
اسمية ، ثم ضم إليها الروميلي الشرقي
سنة ١٨٨٥ وتم استقلالها سنة ١٩٠٨ .

قبرص : فقدتها الدولة سنة ١٨٧٨ إذ ضمتها بريطانيا
لإستعمارتها .

- البانيا : فقدتها الدولة سنة ١٩١٣ .
 مقدونية : فقدتها الدولة سنة ١٩١٣ وتم تقسيمها بين
 صربيا واليونان وبلغاريا .
 تراقية : فقدتها الدولة سنة ١٩١٣ وقسمت فيما بعد
 بين بلغاريا واليونان .
 جزائر بحر إيجه وكريت : فقدتها الدولة سنة ١٩١٣ وضمت الى
 اليونان (١) .

في آسيا وإفريقية

الدولة الصفوية في مواجهة تركيا :

قامت الدولة الصفوية الشيعية في فارس (١٥٠٢ — ١٧٣٦) بعد
 فترة من الاضطراب تلت الحكم المغولي ، وكان العراق — كما أشرنا آنفا —
 مسار الحروب بين الدولتين الكبيرتين ، فكان كالكرة تلتقطه هذه الدولة أو
 تلك من حين الى آخر ، ولم تقف الأطماع عند العراق بل كان المنتصر
 يحاول أن يتجاوز حدود العراق ، وقد نص صليح سنة ١٦١٢ الذي تلا
 انتصارات الشاه عباس ، على أن تترك الدولة العلية لملكة العجم
 جميع الأقاليم والبلدان والقلاع والحصون التي فتحها العثمانيون من عهد
 السلطان سليمان القانوني بما فيها مدينة بغداد (٢) .

الدول العربية في مواجهة تركيا :

أما الدول العربية فقد قامت بعدة انتفاضات ، والحقيقة أن الدول
 العربية كانت تقع بين عاملين كبيرين أحدهما يجذبها الى تركيا وهو

(١) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ص ١٢٠ وما بعدها .

(٢) انظر : « الشرق الأوسط » للدكتور عبد الرحمن زكي ص ١١٥ —

العامل الاسلامى فقد كان معروفاً أن الامبراطورية العثمانية وريثة الامبراطوريات الاسلامية الكبيرة كالأيوبيين والعباسيين ، وكان ارتباط الدول العربية بها لا يعد من الاستعمار والتبعية كما سبق القول ، وانما كان نوعاً من الوحدة الاسلامية ، أو هكذا كان يذيع الأتراك من حين الى آخر ، أما العامل الثانى فهو رغبة الدول العربية فى الاستقلال وبناء نفسها بعيداً عن الدولة العلية التى اتضح أنها تستغل الاسلام لاختضاع الدول العربية ، ولا تدين بهذا الدين الا بقدر الانتفاع به فى عالم السياسة . وعلى هذا هبت حركات استقلالية من حين الى آخر ، وكانت هذه الحركات تنتكس أحياناً بسبب انتعاش العامل الأول ، أو بسبب ضربات قاسية يسدها الأتراك العثمانيون لزعماء هذه الحركات ، وأخيراً بسبب تدخل الدول الأوروبية التى لم تنشأ أن ينطلق الأسد العربى من القفص الحديدى الذى صنعت له تركيا .

على أن القومية العربية زادت قوة واصراراً ابان الحملة الفرنسية وهبت فى كل قرية وكل مدينة ثورة طاحنة ضد المستعمر الفرنسى ، واشترك الشعب العربى فى غير مصر مع مصر فى نضالها ضد الاستعمار الفرنسى ، وانسحب جيش نابليون ولكن الصيحة الاستقلالية لم تتوقف ، فاشتدت الحركات الاستقلالية ضد تركيا فى كل البلاد العربية تقريباً ، ومن أبرز هذه الحركات ما يلى :

فى مصر : حركة على بك الكبير فى القرن الثامن عشر وحركة محمد على فى القرن التاسع عشر .

فى فلسطين : حركة الزعيم البدوى ضاهر العمر الذى كان معاصراً لعلى بك الكبير .

فى لبنان : حركة الأمير فخر الدين المعنى الثانى فى القرن السابع عشر وحركة الشهابيين فى القرن التاسع عشر .

في العراق : حركات الباشوات المماليك وفي قمتهم سليمان باشما
(أبو ليلى) في القرن الثامن عشر •

في اليمن : حركة الزيدية التي نجحت في فصل اليمن عن سلطان
العثمانيين في القرن السابع عشر (عباد العثمانيون لليمن في القرن
التاسع عشر) •

في الجزيرة العربية : قيام الدولة السعودية مع فكر الشيخ
محمد عبد الوهاب •

في شمالي افريقية : حركات استقلالية في ليبيا والجزائر وتونس
انتهت بنجاح جزئى ، فقد استبد بالسلطة في كل منها زعماء مواطنون أو
مستوطنون ولم يبق الا خيط دقيق يربط بين هذه الدول وبين العثمانيين
في تركيا ، وقد لعب السنوسيون دورا كبيرا في مصير بعض أجزاء الشمال
الافريقى •

وهناك أحاديث مفصلة عن هذه الحركات ترتبط بهذه الأقطار العربية ،
وردت مع كل قطر عربى عند الحديث عنه (١) ، فلن نتكلم عنها هنا ، بل
سيظل حديثنا الآن رتبطا بالامبراطورية العثمانية التي نحكى قصة انحلالها ،
وهذه الحركات الاستقلالية دفعت أوروبا للتفكير في أمر الدول العربية ،
وكان واضحا أن « الرجل المريض » لم يعد يستطيع أن يحتفظ بسلطانه
على هذه الدول ، كما أصبح واضحا أن استقلال هذه الدول معناه عودة
المارد العربى الى النشاط ، وبخاصة أن مصر حققت انتصارات في اليونان ،
وامتد سلطانها الى سوريا وأخذت في أوائل القرن التاسع عشر تتوسع
في الجزيرة العربية عقب انتصاراتها في الدرعية ، واتصلت بأمر

(١) رصدنا أحاديث مفصلة عن حركات سوريا ومصر بهذا الجزء وعن
الحركات بالشمال الافريقى بالجزء الرابع وعن الحركات بالجزيرة العربية
والعراق بالجزء السابع •

البحرين ، وأصبح هذا يعنى أن نفوذ مصر ونشاطها سيهدد مصالح بريطانيا ويحف بالخطر طريقها البحرى الى الهند . كما أن سيطرة مصر على الشام (١٧٣٢ - ١٨٤٠) هدد مصالح فرنسا ونفوذها الثقافى والاقتصادى فى هذه المنطقة .

هذا وأمثاله دفع أوروبا الى التدخل للسيطرة على العالم العربى ، فأخذت تنتهز الفرص لاحتلاله دولة بعد دولة ، ولما جاءت الحرب العالمية الأولى وهزمت تركيا مع ألمانيا ، أتيح للحلفاء أن يستكملوا احتلال البلاد العربية ، وهكذا وقعت هذه البلاد فريسة الاستعمار الأوروبى على النحو التالى : —

الجزائر : احتلتها فرنسا سنة ١٨٣٠ .

تونس : احتلتها فرنسا سنة ١٨٨١ .

مصر : احتلتها بريطانيا سنة ١٨٨٢ .

المغرب : احتلتها فرنسا سنة ١٩١١ .

ليبيا : احتلتها إيطاليا سنة ١٩١١ .

العراق : احتلته بريطانيا سنة ١٩١٧ .

الشام : تم تقسيم الشام الى الدول الآتية : سوريا — لبنان — فلسطين — شرق الأردن ، وقد احتلتها قوات الحلفاء فى أثناء الحرب العالمية الأولى ثم تم توزيعها سنة ١٩٢٠ — فوضعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسى ووضعت فلسطين والأردن تحت الانتداب البريطانى كما سبق القول .

جنوب الجزيرة العربية : احتلت بريطانيا جزيرة بريم المواجهة لباب المندب سنة ١٧٩٩ ومكنت لنفوذها فى لحج بمعاهدة عقدتها مع سلطانها سنة ١٨٠٢ ، ثم احتلت عدن وهى من أملاك هذا السلطان سنة ١٨٣٩ ومكنت

لتنفوذها كذلك مع سلطان مسقط والبحرين والكويت بسلسلة من المعاهدات تمت في القرن التاسع عشر ، وكانت كل معاهدة منها تضيف جديدا للنفوذ البريطاني الذي رأى في ذلك حماية لطريق بريطانيا للهند .

وهكذا كان مصير الدول العربية التي خضعت عدة قرون للإمبراطورية العثمانية ، والعجيب أن تركيا أعلنت في مؤتمر لوزان الذي عقد سنة ١٩٢٣ تنازلها المطلق عن السيادة العثمانية على مصر والدول العربية من غير أن تحدد المتنازل اليه أو تذكر استقلال هذه البلاد ، وقد أصبح مفهوم هذا الاعلان اعتراف تركيا بالأمر الواقع ، وبالاحتلال الذي نزل بالمدول العربية نتيجة انهيار السيادة التركية المقوتة .

معاهدة سيفر سنة ١٩٢٠ ونتائجها

ولنعد الى الأناضول لنرى أنه أيضا قد مسته الهزائم التي وقعت بتركيا في الحرب العالمية الأولى . فاتجهت له أنظار المنتصرين وبخاصة روسيا التي استولت على بعض ممتلكات الدول الواقعة شرق البحر الأسود ودفعت حدود تركيا تجاه الجنوب ، واحتل اليونان كذلك أزمير سنة ١٩١٩ ثم جاءت معاهدة سيفر التي عقدت سنة ١٩٢٠ بين السلطان محمد السادس سلطان تركيا وبين الحلفاء (بدون روسيا وأمريكا) وكانت هذه المعاهدة بمثابة تصفية نهائية للإمبراطورية العثمانية ، وقد أرغم الحلفاء فريد باشا رئيس الوزراء على قبول هذه المعاهدة ، وبمقتضاها لم يبق للعثمانيين الا ما تبقى من الأناضول بعد ما اقتطعته روسيا منه ، والا استانبول وما حولها في أوروبا ، وفصلت أرمنية وأصبحت جمهورية ، ومنحت تراقيا لليونان ووضعت أزمير تحت الادارة اليونانية حتى يجرى استفتاء حول وضعها ، ودولت منطقة المضائق ، ومنحت ايطاليا منطقة الأناضول الجنوبي وأصبح الحلفاء الأطراف الفعلى على اقتصاديات تركيا .

وعلى العموم فقد اتجهت هذه المعاهدة الى استعمال القوة لتحقيق
أطماع المنتصرين والى تمكين اليونان من سلب أكبر قسط من الممتلكات
العثمانية .

انحراف المسيرة :

ولكن الأمور لم تسر في هذا الطريق ، بل ظهر في تركيا قائد جديد
نال في مطلع ظهوره ثقة مواطنيه وثقة أوروبا جميعا ، فتغيرت على يده
الأمور ، ثم سرعان ما اتجه بتركيا اتجاهها مجافيا للإسلام ، فزاد قرب
أوروبا المسيحية منه ، ذلك القائد هو مصطفى كمال « أتاتورك » الذى
اضطربت عنه الأخبار حيناً ، ثم أخذت الأصواء تبرز صداقته للصهيونية
وبعدّه عن الاسلام ، وسنتتبع فيما يلى حركات هذه الفترة وانعطاف
« جماعة الاتحاد والترقى » وزعيمها أتاتورك بالامبراطورية العثمانية من
حال الى حال .

ثورة الأناضول وظهور مصطفى كمال

ثار الأناضول ثورة عنيفة ضد اليونان وضد معاهدة سيفر سالفة
الذكر ، وتلقى الثائرون ألوانا من العون المادى والأدبى من الدول
الاسلامية ، وانضم للثوار فيلق من الجيش العثمانى بقيادة مصطفى
كمال ، وكان لمصطفى كمال وصحبه صلات مشبوهة ، سنتحدث عنها فيما
بعد ، فانتهزت أوروبا المسيحية هذه الصلات ، وأرادت أن تجعل منه
صنيعة لها ، فتراخت قبضتها في معركة أزمير ، وأتاحت له بعض الانتصارات
العسكرية والسياسية اتخذ جماهير الأتراك والمسلمين حتى يسلموا
له القيادة ، ويستطيع أن ينفذ خطط أوروبا عقب ذلك ، وسنشرح فيما
يلى بعض الانتصارات التى حققها أتاتورك وجيشه بعد أن تخلت أوروبا
عن مصارعتة ، وتركت اليونان وحدها لمقابلته :

انتصارات مزيقة :

استطاع أتاتورك أن يحصل على انتصار عظيم في معركة « إين أوكي » في يناير سنة ١٩٢١ ، وعلى اثر ذلك عقد الحلفاء مؤتمرا في لندن في فبراير سنة ١٩٢١ لتعديل معاهدة سيفر التي اتضح أنها لن تضع حدا للحروب والمشكلات ، وقرر المؤتمر إيفاد هيئة الى أزمير وراقيا ، ولكن اليونان رفضت هذا القرار ، فاستمرت الأعمال الحربية في الأناضول ، وانهزمت اليونان مرة أخرى في « إين أوكي » أيضا في مارس سنة ١٩٢١ ، ثم دُعيت الجمعية الوطنية للانعتاد بأنقرة فانعقدت في ابريل سنة ١٩٢١ وانتخبت مصطفى كمال رئيسا لها •

واستعد اليونانيون استعدادا كبيرا لمواجهة هذا الخطر واستطاعوا أن يحققوا بعض النصر في قره حصار وكوتاهية في نفس العام ، وأخذوا يستعدون للزحف الى أنقرة ، ولكن الجيش التركي قرر أن يخوض المعركة ضد اليونان باستماتة وصمود هائلين ، وبدأت ملحمة كبرى في سقاريا بين الدولتين في أغسطس سنة ١٩٢١ واستمر النضال حتى منتصف سبتمبر ، ونزلت باليونان هزيمة قاصمة جعلتهم يتقهقرون بدون نظام ، ولم تفلح بعد هذه المعركة محاولات اليونان ، ولم يأت أغسطس سنة ١٩٢٢ حتى كان جيش اليونان الذي كان تعدادة يزيد عن مائتي ألف رجل قد انتهى بين قتيل وأسير وهارب ، وبناء على هذا النصر منحت الجمعية الوطنية لقب « غازي » لمصطفى كمال ، وأصبح سلطان تركيا مستقرا في يده دون منازع •

وعلى هذا عقد مؤتمر لوزان (١٩٢٣) الذي سبق أن أشرنا اليه ونهت فيه معاهدة بسطت تركيا بمقتضاها سلطاتها من جديد على جميع آسيا الصغرى وعلى القسطنطينية وراقيا الشرقية ، وتعيّن على اليونانيين الذين كانوا يقيمون بآسيا الصغرى أن ينتقلوا الى وطنهم على أن يعود الأتراك المقيمون باليونان الى الأناضول •

وقد فرح المسلمون فرحا عظيما بهذه الانتصارات ، وحسبوا أنها انتصارات اسلامية سيتلوها ازدهار للاسلام والمسلمين ، ولكن أتاتورك سرعان ما أعلن ما كان يخطر ، فأعلن عداؤه للخلافة وعداءه للاسلام والمسلمين ، وقد عبر الشاعر المصري أحمد شوقي عن فرح المسلمين بانتصارات تركيا ، وحزنهم لوقف أتاتورك من الخلافة ومن الاسلام بقصيدة رائعة ينم مطلعها عن أفكارها وهذا المطلع هو :

عادت أغاني العرس رَجْعَ نواحٍ

ونشيت بين معبرالم الأفراح

أوريا وأتاتورك ومراحل إلغاء الخلافة :

وفتت أوريا بعهدا لمصطفى كمال ، فأثاحت له أن ينتصر على اليونان وتوقفت عن صراعها ضده ، ووفى الرجل بوعوده المقابلة ، فأسرع بإلغاء الخلافة التي كانت رباطا بين دول العالم الاسلامي ، ولم يفكر في تصحيح وضعها ، أو اختيار خليفة صالح ، بل اتجه للعقد فقرّر أن يقضى عليه وأن يبعثر حياثته ، واتجه للخلفاء بالعزل والتكيل ثم بإلغاء الخلافة ، وعلمانية الدولة ، وكل ذلك تمّ بسرعة حتى يرضى انحرافه الخاص وسادته الجدد .

ففى سنة ١٩٢٢ عزل محمد السادس (وحيد الدين) واختار بدله عبد المجيد بن عبد العزيز .

وفى أكتوبر سنة ١٩٢٣ أوعز الى الجمعية الوطنية التي ألغىها فاختذت قرارا بإعلان الجمهورية واختيار مصطفى كمال رئيسا لها ، وكان معنى هذا أن يصبح منصب الخليفة منصبا دينيا ، وليست له سلطات سياسية .

وللمبالغة في التقليل من مركز الخلافة أعلن أتاتورك اتخاذ أنقرة عاصمة للدولة ، واكتفى بإرسال ممثل لحكومة أنقرة الجمهورية لدى

الخلافة بالاستانة ، وسنرى فيما بعد أنه عرض على الانجليز إلغاء
الخلافة ليضمن صداقتهم •

وفي مارس سنة ١٩٢٤ أصدرت الجمعية قرارا بإلغاء الخلافة
وأخراج الخليفة وأسرت من البلاد •

وتنهي لمصطفى كمال بذلك أن يحقق باقى وعوده لأوروبا وأن يقف
بتركيا بعيدا عن الاسلام والمسلمين كما سنرى •

ثورات ضد أتاتورك وقمعها :

كان من نتائج إلغاء الخلافة وإبعاد الدولة عن الفكر الإسلامى أن
هبت ثورة الأكراد سنة ١٩٢٥ بقيادة الشيخ سعيد شيخ مشايخ الطريقة
النقشبندية ، وشملت الثورة الولايات الشرقية التى يكوّن الأكراد أغلبية
فيها ، ولقيت هذه الثورة تأييدا ظاهرا أو خفيا من منافسى مصطفى كمال
الأترك ، وقد ضرب مصطفى كمال هذه الثورة بيد من حديد ، وانتزها
فرصة للقضاء على كل منافسيه السياسيين فألقى أحزاب المعارضة بحجة
أنها ساندت ثورة الأكراد ، وأقام محاكم الاستقلال حيث حكمت على
الكثير من منافسيه بالاعدام والسجن المؤبد والنفى ، وهكذا لم ينج من
حكم المحاكم كل من نجا من معارك القتال ، وانتهت هذه الحركة بإطلاق
يد مصطفى كمال وإطلاق فكره واتجاهاته التى سنشرحها بعد قليل (١) :

(١) من المقارنة التاريخية نذكر أن جمال عبد الناصر إقضى باتاتورك
فى إلغاء الأحزاب والسيطرة على الصحف وإقامة المحاكم للتحكيم بأعدائه •

أسماء وهيئـات

أسهمت في التحركات بتركيا بدءاً من عهد عبد الحميد الثاني :

ان الدارسى لتاريخ الامبراطورية العثمانية بدءاً من العقود الأخيرة في القرن التاسع عشر الى الآن يتحتم عليه أن يقف وقفات طويلة عند الأسماء والهيئات التالية :

- ١ — السلطان عبد الحميد الثاني .
 - ٢ — مدحت (أبو الدستور) (١٢٢ — ١٨٨٣ م) .
 - ٣ — جماعة الاتحاد والترقى .
 - ٤ — أتاتورك (أبو الأتراك) الذى لم يخلف لوطنه الا الآلام .
 - ٥ — تركيا الحديثة والعودة للإسلام والثقافة الإسلامية .
- وفيما يلى حديث عن هذه الموضوعات :

السلطان عبد الحميد (الثانى) (١٨٧٦ — ١٩٠٩)

هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية ، وهو ابن السلطان عبد الحميد ، وأمه من أرمنية ، ولد باستانبول سنة ١٨٤٢ م وتوفيت أمه وهو فى الثامنة من عمره ، ثم توفى أبوه عام ١٨٦١ وهو فى مطلع الشباب ، فتبنته احدى زوجات أبيه .

أجاد اللغة العربية والفرنسية ، كما أجاد الفروسية واصابة الهدف ، وكان بعيداً عن اللهو والخمر ، ولكنه كان مولعاً بالتدخين .

تولى عمه عبد العزيز الخلافة بعد أبيه فكان عبد الحميد من خواص عمه ، وصحبه فى زيارته للقاهرة سنة ١٨٦٣ وهى أول زيارة يقوم بها

أحد خلفاء العثمانيين لمصر ، وكانت في عهد اسماعيل باشا بن محمد على ،
ويعتقد أن الصلة الطيبة بين الخليفة ووالي مصر منح اسماعيل لقب
خديوى كما منح امتيازات أخرى •

وقد جرت أحداث خطيرة في استانبول تقرر فيها عزل السلطان
عبد العزيز في مايو سنة ١٨٧٦ ولم يمض على عزله بضعة أيام حتى
أعلنت وفاته ، وقد اتهم مدحت باشا بأنه كان وراء اغتياله •

وبعد عبد العزيز تولى ابن أخيه (مراد الخامس) ولكن اضطراب
الأحوال أثر في نفسية الخليفة الجديد ، فاتهم بالجنون وعزل ، وتولى
عبد الحميد الثانى السلطة بعد نهاية مريرة لسلطانين قبله ، واتخذ قصر
« يلدز » مقرا له ، وكان ذلك في سبتمبر سنة ١٨٧٦ •

ويعتبر عبد الحميد الثانى من أشهر سلاطين العثمانيين ، ومن
أطولهم خلافة ، ويعتبر عهده مفترق الطرق ؛ ففيه اتجاهات الى الإصلاح
ثم تكوص عنها وعودة للتشبث بالماضى ، وقد بدأ عهده بإعلان « خط
همايونى » سجل فيه الأخطاء والمفاسد التى أشرفنا عليها ، وقد جاء فيه :

« ••• •• وقصارى آمالى ومقاصدى معطوفة بالحصر لتأييد أساس
شوكة دولتنا ومكانتها ، بحيث تنال صفوف رعيتنا — بلا استثناء —
الحرية ، وينعمون جميعا بنعمة العدالة والرفاهية ، وقد عرف الناس أجمع
أن حال الاغتشاش الملم بدولتنا له جهات وأسباب متنوعة يمكن أن تجمع
في نقطة واحدة هى عدم جريان القوانين والنظامات المؤسسة على الأحكام
الجليلة والشرعية ، واتباع كل فرد أهواء نفسه في ادارة الأمور ، واتساع
ميدان عدم الانتظام الطارئ على ادارة دولتنا ملكا ومالا ، وتعذر وصول
المحاكم الى الدرجة المتكفلة بتأمين حقوق الناس ، وتأخر استفادة دولتنا
من وسائل العمران والتقدم في الزراعة والصناعة والتجارة ••• •• »

« وأول ما يلزم لإصلاح الحال هو أن نبداً بنقطة مهمة هي أن يكون مجلس عموم تكون أفعاله وآثاره مستوجبة لثقة العموم واعتمادهم ، ويكون موافقا لقابلية مملكتنا وأخلاق أهلها . . . ينظر كذلك في موازنة واردات الدولة ومصاريفها . . . »

« ثم لما كانت مسألة توديع المأموريات الى غير أهلها من المأمورين وتبدلاتهم المتوالية من غير سبب مشروع هي من جملة الأمور الباعثة على ايقاع القوانين والنظامات في حيز الاشكال ، فينبغي أن يتعين من الآن فصاعداً مسلك مخصوص لكل نوع من الخدم والمأموريات وتتخذ قاعدة ثابتة ليستخدم بمقتضاها في كل عمل من يكون أهلاً له ، ولا يعزل أحد أو يبدل من مأموريته بلا موجب . »

« ومن المعلوم أن ترقيات ملك أوروبا المادية والمعنوية انما حصلت لهم بقوة الفنون والمعارف ، ولما كان استعداد كافة رعييتنا وما غطروا عليه من الذكاء — والحمد لله — يؤهلهم من كل وجه للترقيات ، وأهم ما لدينا من الأمور الاسراع بتعميم المعارف ، فأخص ما نتمناه والحالة هذه أن يحصل الاجتهاد بابلاغ تخصيصات المعارف الى الدرجة الكافية : حسبما يساعد الامكان ، وأن تستحصل الوسائل الموصلة لتعميم نشر المعارف على الفور ، ويبادر عاجلاً بإصلاح أصول الملكية والمالية والضبط في الولايات بحيث توضع ضمن دائرة الانتظام في صورة مناسبة للقاعدة التي تتخذ في المركز » (١) .

ومن هذه الفقرات التي اقتبسناها من هذا المنشور الذي بدأ السلطان عبد الحميد به عهده يتبين لنا أن أمراض الدولة كانت معروفة ، وأن وسائل العلاج كانت معروفة كذلك ، وفي قمتها الحياة الدستورية حيث

(١) اقرأ المنشور كله في تاريخ الدولة العلية لمحمد فريد ص ٢٢٦ —

يمكن أن تكون الأعمال المالية والادارية وغيرها تحت رقابة ممثلى الأمة ،
وسنعود للحديث عن الدستور والحياة الدستورية بعد قليل .

متاعب فى طريق السلطان :

واجهت السلطان عبد الحميد مجموعة من المتاعب من أيل عهده ،
فقد سقط قبله سلطانان عبد العزيز الذى خلع ثم قتل ، ومراد الذى
جُنَّ ، وقد شارك كبار ضباط الجيش ورجال الدولة وبخاصة مدحت باشا
فى الصدثين .

وتسلم عبد الحميد دولة مثقلة بالديون ، وكان الجيش والأسطول
فى عهد عمه السلطان عبد العزيز قويين مما أزهب الروس والفرنسيين
والانجليز فحاولوا بواسطة عملائهم اسقاط السلطان عبد العزيز
بالشائعات ، ونجحوا فى ذلك ، وتمزق الجيش والأسطول عقب ذلك (١) .

واقترنت السنتان الأوليان من حكمه بهزائم عسكرية أليمة ، نزلت
بالدولة التى واجهت تكتلات دولية أوربية مسيحية لم تستطع الدولة لها
دفعاً ، وفقدت الدولة بهذه الهزائم شطرا لا يستهان به من ممتلكاتها فى
أوربا وآسيا وأفريقية ، ووصل الجيش الروسى الى ضواحي العاصمة .

واستغل خصوم الخلافة فرصة هذه الهزائم ، وقاموا بمحاولات
عزل السلطان ، ولما فشلوا فى محاولاتهم عمدوا الى إحراق الباب العالى ،
فقابل السلطان هذا التصرف بوسائل قمع عنيفة .

وهكذا قابل السلطان فى مطلع عهده مشكلات خارجية وداخلية
قاسية (٢) .

(١) شيخ الاسلام مصطفى صبرى : الاسرار الخفية وراء القاء الخلافة
العثمانية ص ٩٩ .

(٢) دكتور عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية ... ج ٣ ص ١١٥٣ —
١١٥٥ بتصرف .

وحفل عهده بهزائم دولية واسعة ، فقد احتلت بريطانيا قبرص سنة ١٨٧٨ واحتلت فرنسا تونس سنة ١٨٨١ ، ثم احتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢ بالإضافة الى فرض الرقابة المالية الدولية على الدولة سنة ١٨٨١ وضم الروملى الشرقى الى بلغاريا سنة ١٨٨٥ ، وفرض المراقبة الدولية على مقدونيا سنة ١٩٠٣ ، وهذه الثقلة الأخيرة أُنحت لقادة الجيش العثمانى فى مقدونيا مزيدا من الحرية والحركة والاتصال بالأوروبيين .

قصته مع الدستور :

ذكرنا أن الخط الهمايونى الذى أصدره السلطان عبد الحميد كانت فيه إشارة الى ضرورة الحكم النيابى ، والتقى السلطان بمدحت باشا ، واستندت له الصدارة العظمى ، وكان هذا قد أعد العدة خلال عهده عبد العزيز ومراد لمثل هذا اليوم المشهود ، ولم يمض عليه فى منصبه الا أربعة أيام حتى جعل السلطان يعلن مجموعة من القوانين الهامة ، ويعلن كذلك الدستور المؤسس على الشورى ، وعلى اشتراك جميع الرعايا فى شئون تحسين الدولة من غير تفرقة بين عنصر ودين ، ونظّم الدولة مجلسين مجلس ينتخب من الأهالى ويسمى « مجلس المبعوثان » ومجلس تعيين الدولة أعضائه ويسمى « مجلس الأعيان » ، وتلى هذا الدستور المنشتم على ١١٩ مادة بالأستانة فى محفل عام فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٦ ، وأمر السلطان بأن يكون العمل بمقتضاه فى جميع أنحاء المملكة العثمانية ، وأطلقت المدافع من القلاع البرية والبحرية واستبشر الناس خيرا ، وأقيمت الأفراح ، والليالى الملاح ، وكان هذا الدستور يتضمن حقوق الدولة وواجبات الوزراء ، ورجال الادارة ، واختصاص كل مجلس من المجلسين ، وتنظيم المحاكم ، والديوان العالى ، والمالية ... وغيرها من الشئون الرئيسية (١) . ومن أهم ما جاء به من تفصيلات أنه ضمن لجميع

(١) المرجع السابق ص ٤٤ .

رعيا الدولة الحرية والمساواة أمام القانون ، وأباح حرية التعليم مع جعله اجباريا على جميع أفراد العثمانيين ، وضمن حرية المطبوعات وبيعت حق الانتخاب وكيفيته ، وأن جميع الرعايا يطلق عليهم اسم عثمانى ، وأن الدين الرسمي هو دين الاسلام ، واللغة الرسمية هي اللغة التركية ، وقرر ابطال المصادرة في الأموال ، والتعذيب في التحقيق ، وابطال السخرة ، ووضع ميزانية سنوية تعرض على هيئة المبعوثان ثم الأعيان ، وإذا أقرها المجلسان تكون واجبة التنفيذ ، ونص على عدم جواز عزل القضاة الا بسبب شرعى ... (١)

وجرت انتخابات عامة عقب ذلك ، واجتمع مجلس النواب ، كما اجتمع مجلس الأعيان وكان أعضاؤه يعيّنون مدى الحياة .

إيقاف الدستور :

ولكن قبل أن يتمّ المجلس دور انعقاده الأول أصدر السلطان عبد الحميد قرارا في ١٤ فبراير سنة ١٩٧٨ بفضّ المجلس وتأجيل اجتماعاته الى أجل غير مسمى . وقيل في أسباب ذلك ان الدولة كانت تواجه حروبا وصراعات تستلزم أن يكون بيد السلطان تصريف الأمور حتى لا تتعطل حاجات الدولة في هذه الحالات الخطرة بين المؤيدين والمعارضين ، على أن الدالان في الحق اندفع بسبب تقييد سلطاته الى تعطيل هذا المجلس وظل الدستور معطلا احدى وثلاثين سنة ، مما يؤكد أن تعطيله لم يكن لمواجهة حالة طارئة ، بل لتحقيق رغبة السلطان في الحكم المطلق ورغبة أعوانه الذين يستفيدون من انطلاق الحكم وعدم الرقابة .

ويجب هنا أن نذكر أن الدستور ضايق دول أوروبا ، لأن وجود الدستور معناه انتظام الحياة ووجود المراقبة ، وهذا سيصيب بالشكل

(١) في محفوظات قصر عابدين صورة فوتوغرافية للدستور موهورة بتوقيع السلطان عبد الحميد .

طموح أوروبا أو على الأقل سيقال من نشاطها الذى كانت ترمى به الى افساد الحياة فى الامبراطورية العثمانية ، ولذلك اثاروا السلطان بطريق غير مباشر ضد الدستور ، وعندما أحس السلطان بأن أوروبا لا تريد الدستور اتخذ من ذلك قوة فأوقف العمل به ، ووقع بذلك فى قاع الخديعة •

ونجحت جمعية الاتحاد والترقى فى إبراز كيائها ، واتخذت من سالونيك مركز قوة لها ، وكان على رأسها الفريق شوكت باشا والاميرلاى صادق بك والضابطان أنور بك ونيازى بك ، وأعلن هؤلاء الدستور فى سالونيك وما حولها سنة ١٩٠٨ عندما أحسوا بالقوة •

إعادة الدستور :

ولما بلغت هذه الأخبار للسلطان انزعج لها ، وحاول التغلب على هذه الجماعة المتمردة ، ولكنه عجز ، وبدأت هذه الجماعة تتحرك للزحف على العاصمة ، فأسرع السلطان وأعلن إعادة الدستور ، وكان ذلك فى ٢٤ من يوليو سنة ١٩٠٨ وأصدر أمره بإجراء الانتخابات ، وأطلقت المدافع مرة أخرى كتلك التى أطلقت منذ احدى وثلاثين سنة ، وأجريت الانتخابات العامة ولكن نفوذ جماعة الاتحاد والترقى كان واضحا فيها فنتجح فى الانتخابات كثير ممن ارتضتهم هذه الجماعة •

الايقاف الثانى للدستور :

وبعد تسعة شهور من الاعلان الثانى للدستور اندلعت ثورة بالعاصمة ، أغلب الظن أنها كانت ثورة مصطنعة ، وكانت تنادى بإلغاء هذا الدستور والعودة للشريعة الاسلامية ، وعدم التدخل فى سلطة السلطان الذى يمثل السلطة التشريعية بالسلاد • وكانت هذه الثورة بقيادة الدراويش وانضم لهم بعض الجنود ، وأريق فى فيها كثير من الدماء ، وقتل فى هذا الشغب وزير الحقانية وجرح وزير الحربية ، فغضاهر السلطان بعاطفة التوفيق بين المجلس النيابى والجنود الثائرة ،

فعدّل الوزارة التي كانت قد اقترحتها جماعة « الاتحاد والترقي » وعين توفيق باشا صدراً أعظم ، وعهد اليه إعادة الشريعة أو القانون المقدس الى حيز التنفيذ ، وفر آنذاك الأعضاء البارزون في مجلس المبعوثان ؛ وأصبح واضحاً أن السلطان قد تم له التسلط على مجلس المبعوثان وعلى الحكومة ، ولكن جيش سالونيك كان بالمرصاد فزحف الى الأستانة بقيادة محمود شوكت باشا وأوقع الهزيمة بالجيش الموالي للسلطان ، وأمن الحياة الدستورية ، وعاد القارون من مجلس المبعوثان .

عزل السلطان :

وانعقدت جلسة أجمع فيها جميع الأعضاء على وجوب خلع السلطان عبد الحميد ، فخلع بناء على فتوى من شيخ الاسلام ، وأخرج من سراي يلدز الى سالونيك ، وصودرت جميع أمواله ومجوهراته لمصلحة بيت المال ، وكان ذلك في أبريل سنة ١٩٠٩ .

تركيا الفتاة :

قلنا من قبل إن السلطان أوقف العمل بالدستور في فبراير سنة ١٨٧٨ بعد إصداره بمدة وجيزة ، وقلنا إنه أعاد العمل بالدستور بعد حوالي إحدى وثلاثين سنة تحت ضغط جمعية الاتحاد والترقي ، والذي نريد أن نقوله هنا أن أحداثاً خطيرة جرت خلال هذه المدة ، ومن أهم هذه الأحداث تكوين جمعية « تركيا الفتاة » .

وقد كان قيام جمعية « تركيا الفتاة » نتيجة لإيقاف الدستور من جانب ، وللهزائم التي نزلت بالدولة من جانب آخر ، وهذا وذاك دفع مجموعة من الأتراك بالمنفى الى تأليف جماعة « تركيا الفتاة » واتخذت الجماعة من باريس وجنيف مركزاً لها ، وانضم لها بعض القادة العرب ، وكان من أبرز ما قصده وضع حد للتدخل والهزائم الخارجية ، وإصلاح الأحوال بالداخل ، وأخذ هؤلاء الأحرار يكتبون

ويخطبون ليثيروا الرأي العام بتركيا معهم ، كما حاولوا أن يوصلوا أممواتهم للجيش التركي لينضم اليهم • ونجحوا أخيرا في عقد رباط بينهم وبين الجيوش التركية في مقدونيا حيث تألفت جمعية « الاتحاد والترقي » كما سنرى بعد قليل •

الجامعة الإسلامية :

وننتقل هنا من الحديث عن « تركيا الفتاة » للحديث عن الجامعة الإسلامية ، فان السلطان عندما أحس بصوت المجاهدين الأحرار من أبطال « تركيا الفتاة » يثير الناس عليه ، أراد بذكائه ودهائه أن يقوم بعمل مضاد يرعب به أوروبا ويتظاهر به أنه راغب في الإصلاح ليؤجل بذلك العاصفة أو يقضى عليها ، فكان أن هب يدعو للجامعة الإسلامية معلنا أنه يرمى لربط المسلمين في شتى البلاد بأصرة قوية هي أصرة الدين ، متخلياً عن عصبية الجنس واللغة ، وأنه ينوى أن يهيئ للبلاد الإسلامية صنوف الحرية والرخاء ، ووجد هذا الاتجاه صدى كبيراً في نفوس المسلمين ، وحسبوا أنهم يستطيعون به أن يردوا اعتداءات الأوربيين التي بدأت تأخذ شكل الاحتلال الأكثر أقطار الاسلام ، فانجلترا مدت نفوذها في جنوب الجزيرة في أوائل القرن التاسع عشر واحتلت مصر سنة ١٨٨٢ وأطبقت بنفوذها على الهند ، واحتلت فرنسا الجزائر فتونس وأخذت تتدخل في شؤون سوريا ولبنان ، كل هذا دفع المسلمين الى الاستجابة لنداء الجامعة الإسلامية •

والجامعة الإسلامية فكرة قريبة الصلة بنفوس المسلمين ، وقد عاشوا فيها أنصر أيامهم في ظل الخلفاء الراشدين وغيرهم من خلفاء المسلمين ، وهي حلم لذيذ يرجو كل مسلم أن يتحقق ، وأن يبنى على أساس سليم ، وقد هتف بها حديثاً دعاة الوهابيين والسنوسيين ، فجذورها عميقة في التاريخ عمقها في نفوس المسلمين ، والدعوة اليها متجددة من حين الى حين •

وقد بدأ السلطان نداءه للجامعة الإسلامية باتجاه ذكى ماهر ، هو أن أحاط نفسه بلفيف من المفكرين المسلمين في طليعتهم العلامة السيد جمال الدين الأفغانى الذى استدعاه السلطان لينزل ضيفا عليه فى الأستانة ، وقرّبه اليه ، وأفدق عليه المال ، وأفسح له من مسدده لينكلم ويقترح وينقد ، وكان السلطان بذلك يرمى الى إبعاد جمال الدين عن جماعة تركيا الفتاة إذ كان جمال الدين قد اجتمع بهم فى باريس ، وعرف خطتهم فى الإصلاح وأيقظها ، كما كان السلطان يرمى أن يفسح هذا التأثير العالم قريبا منه ليسيطر على حركاته شاء أو لم يشأ ، ويقول الأستاذ أحمد أمين (١) : « إن جمال الدين ما أن وضع قدمه فى الأستانة حتى كان فى قفص من ذهب أحكم بابه » ، ولم يكن جمال الدين الأفغانى هو وحده الذى افتتن بالدعوة للجامعة الإسلامية بل افتتن بها كثيرون من زعماء العرب ، وروج لها الدعاة الذين كانوا ينتشرون فى الولايات العربية ، يحاولون إقناع الناس بأن الخلافة هى أملهم الوحيد فى النجاة من أطماع الغرب ، وأن الجامعة الإسلامية هى السبيل لإنقاذ الشرق من براثن الغرب (٢) .

وهتف كثير من الناس للدعوة الحميدية ، وأمّكوا أن تتحقق الجامعة الإسلامية ليتحقق بها إيقاف الزحف المسيحى وإعادة القوة الى معسكر الإسلام ولاقت الدعوة الى الجامعة الإسلامية نجاحا كبيرا فى العالم الإسلامى ، واستقبلتها الشعوب المسلمة التى كانت ترزح تحت عبء الاستعمار الأوروبى بالحماسة والابتهاج ، وكان لها فى مصر صدى بالغ تمثّل فيما كتبه المجاهد مصطفى كامل عندما قال : « الخلافة الإسلامية هى لكل مسلم السلطة العالية التى يستمد منها القوة والنور والهداية » وهى الحصن الحصين الذى يسان به الإسلام ويعتز به المسلمون . . .

(١) زعماء الإصلاح ص ٩٩ .

(٢) دكتور عبد الحميد البطريق : الأمة العربية ص ٨٥ .

ولقد أدرك الأوروبيون قوة الخلافة الإسلامية ومعنى سلطتها على المسلمين ، فسعوا لحل عقدها ، وتقويض أركانها وتدمير بنائها ، ليسهل لهم استعباد مناطق العالم الإسلامي ، وامتلاك بلاده وربوعه « (١) » .

وهكذا استغل السلطان عبد الحميد شعور المسلمين بالحاجة الى التضامن والتكامل ، فجعل نفسه زعيما للدعوة للجامعة الإسلامية ، ليدعم مركزه في الداخل ، ويهرب الدول الأوروبية في الخارج ، واستطاع أن يخفى عن رعاياه هياته الخاصة في قصر « يلدز » (٢) وأن يظهر للناس أنه متدين وأنه يسمى لخدمة المسلمين .

امتحانات عبد الحميد :

هناك امتحانات مهمة تنسب للسلطان عبد الحميد الثاني ، وفي مقدمتها الاهتمام بالتعليم ، فقد كانت الجهود متجهة للتعليم العسكري وحده ، فاهتم السلطان بالتعليم المدني أيضا ، فأنشأ جامعة استانبول وكانت تعرف باسم « دار الفنون » ثم أطلق عليها « جامعة استانبول » وكانت تضم أربع كليات هي : كلية العلوم العالية الدينية وكلية العلوم الرياضية وكلية العلوم الطبيعية وكلية العلوم الأدبية (كلية الآداب) ، واعتبرت مدرستا الحقوق والطب كليتين ملحقتين بالجامعة .

كما أنشأ مدرسة الفنون الجميلة ومدرسة التجارة ومدرسة الهندسة المدنية ومدرسة الطب البيطري ومدرسة الشرطة والمدرسة السلطانية للشئون المالية (٣) .

(١) المرجع السابق ص ٨٤ .

(٢) كان سكانه في عهد السلطان عبد الحميد ١٢.٠٠٠ نسمة .

(٣) د. عبد العزيز الشناوى ص ١١٥٩ نقلا عن :

Bernard Lewis : The Emergence of Modern Turkey p. 182.

وأنشأ كذلك عددا من دور المعلمين وعددا من المكتبات العامة والمجلات ، وخطت الصحافة والمجلات في عهده خطوات واسعة ، ومن إصلاحاته جهوده لإصلاح القضاء وتنظيم المحاكم .

ومن إصلاحاته الاهتمام بالسكك الحديدية من ناحية النوع ومن ناحية الزيادة في الخطوط ، كما اهتم كذلك بالطرق البرية وبالبريد والاتصالات البرقية (١) .



وعلى العموم فالرجل كانت له حسناته وسيئاته ، وأخطر سيئاته هو حرصه على الحكم المطلق الاستبدادي ، ولكن الرجل واجه تكتلا مسيحيا ضده ، لم يكن ينفذ حتى يجتمع ، كما واجه الصهاينة الذين وقفوا مصارعين له لأنه رفض مطالبهم ، وواجه كذلك جيشا يقوده جماعة انحرفت ذمهم وأخلاقيهم كما سنرى ، وخلف سيرة لا تزال بين مادح ومهاجم ، ولكن الذي لا شك فيه أن الذين جاءوا بعده كانوا أشرارا هاجموا الدين ودمغوا الدنيا ، جاءوا لمقاومة الاستبداد ولكنهم كانوا في محال الاستبداد أقصى مئات المرات من السلطان المعزول ، وقد هاشوا فترة من الزمن خلف ستار من الكذب والوهم ، ولكن الستار قد سقط فظهرت انحرافاتهم للعيسان .

مدحت باشا (١٨٢٢ - ١٨٨٣)

ولد مدحت باشا باستانبول سنة ١٨٢٢ م وحفظ القرآن الكريم ، وتعلم بالديوان الهمايوني وجاور بمسجد الفاتح .

(١) المرجع السابق ص ١١٦ وما بعدها .

ثم درس العلوم السياسية ، واتصل بالثقافة الغربية وشغف بها ، وتقلب في الوظائف العالية حتى أصبح صدرا أعظم •

كان زعيم حزب الإصلاح الذي خلع السلطان عبد العزيز ، وكان مترعما حركة المطالبين بالدستور ، وقد ذكرنا من قبل أنه كان قد أعد الدستور ، فلما اختاره السلطان عبد الحميد الثانى صدرا أعظم حث السلطان على إعلان الدستور ، فوافق السلطان ، وأعلن الدستور بعد بضعة أيام من توليه منصبه •

ظن مدحت باشا (أبو الدستور) أن آماله تحققت ، وأن البلاد ستستقبل عهداً جديداً ، ولكن سرعان ما ظهر له ولواقه المجددين أن آمالهم قد بنيت على غير أساس ، وأن السلطان أقر رأيهم ريثما يثبت عرشه ويقوى شأنه ، وأن حول السلطان قوًى كثيرة تجد في الحكم المطلق بغيتها ، وفي الاضطراب فرصتها ، وأن كثيراً من رجال الدين اشتريت ذممهم بالمساك ، فهم يذيعون في الناس أن كل تجديد بدعة وكل بدعة ضلالة ، وحول السلطان كذلك محترفو السياسة الذين روجوا لأفكارهم المضادة للدستور مدعين أن الحكم النيابى لا يصلح للدولة العثمانية لاختلاف أئتناسر شيها ، وليل كثير من المسيحيين الى خدمة مصالح الأمم الأوروبية •

أما الجواسيس وتجار الرشاوى الذين كسدت سوقهم أو كادت فلم يخلدوا للسكون ، بل راحوا يدبرون المؤامرات ضد مدحت ورفاقه ، ووجدوا من السلطان أذناً واعية ، فسكبوا فيها سمومهم منذرين أن مدحت يسعى لاقامة الجمهورية وللفصل الدين عن الدولة ، ولاعادة مراد الى الحكم ... وغير ذلك مما أزعج السلطان وأثاره •

ولم يكظم السلطان غيظه ، فسرعان ما عزل مدحت وألقى القبض عليه ونفاه قبل أن يتم شهران على إعلان الدستور ، وضاعت كل المشروعات

التي كان مدحت قد بدأ بتنفيذها ، وكذرة للرماد في العيون سمح باتخاذ الاجراءات الخاصة بالانتخابات ، ولكن حياة المجلس كانت قصيرة لم تتجاوز بضعة أشهر فقد أصدر السلطان قرارا في ١٤ فبراير سنة ١٨٧٨ بإرجاء اجتماعه لأجل غير مسمى ، وأوقف الدستور كما ذكرنا من قبل .

ولنسر مرحلة أخرى مع مدحت لنذكر أن السلطان سجنه بتهمة قتله أو اشتراكه في قتل السلطان عبد العزيز ، وحوكم مدحت فحكمت عليه المحكمة بالإعدام ولكن السلطان عفا عنه ونفاه الى الطائف ، وتقول بعض الروايات أن السلطان دبر قتله هناك ، ونفذ تدبيره .

ويدفع شيخ الاسلام مصطفى صبري هذا الاتهام ، ويقدم بعض الأدلة لذلك ، ونحن نقبس بعض كلامه في هذا الموضوع (١) ، ولنا بعد ذلك تعليق على ما يقوله :

١ — ينقل شيخ الاسلام من مذكرات السلطان عبد الحميد أن مدحت ارتكب بعض الأخطاء الجسيمة مثل تعيين ولاية من الأقليات في مناطق أكثرها مسلمون ، وأنه قبل طلبه من الأروام في المدرسة الحربية ، وهذا وذاك خطأ كبير .

٢ — كان مدحت من الماسونيين ، وبالتالي كان متعاوناً مع الانجليز .

٣ — قبل بعض الأموال والرشاوى من الانجليز .

٤ — لم يكثر الشعب لعزل مدحت باشا ، ولكن الذي ثار هو انجلترا مما يدل على صلة بين مدحت وساسة الانجليز .

(١) الاسرار الخفية وراء الغاء الخلافة العثمانية ص ١٠٢ — ١٠٨ .

٥ — عندما حوكم مدحت وأدريْن وعفا عنه السلطان ، لجأ الى قنصلية انجلترا حتى يخرج من البلاد ، فلما وجد القنصل في اجازة لجأ الى القنصلية الفرنسية ، وكانت هذه خيانة وطنية منه .

وينتهى الشيخ مصطفى من ذلك الى تبرئة السلطان من قتل مدحت أو الإيعاز بقتله ، ويقول : لو أن السلطان أراد أن يقضى عليه لترك حكم المحكمة ينفذ .

والناظر في هذه الاقتباسات لا يثق تعام الثقة فيها ، فمصدرها السلطان المتهم . ثم إن التهم التي نسبت لمدحت باشا عامة لم تتضح ، فمن هو الوالى من الأقليات الذى عيّن بولاية أكثرها مسلمون ؟

ومن هم الطلبة الأروام الذين قبلهم بالمدارس العسكرية وما عددهم ؟ وإذا كان الشعب لم يثر لعزل مدحت باشا فذلك كان نتيجة لسوء طويك تعود عليه الشعب تجاه أعمال السلاطين .

ولجوء مدحت للقنصلية الانجليزية أو الفرنسية عمل لا نقره ، ولكنه كان الوسيلة الوحيدة لسلامته .

ويبقى بعد ذلك أن يترك الأمر في غموضه ، أو أن نرجّح تورط السلطان فيه .

جماعة الاتحاد والفرق

قلنا من قبل أن بعض الأتراك الذين كانوا بعيدين عن تركيا ألفوا جماعة أطلقوا عليها « تركيا الفتاة » واتخذوا من العواصم الأوربية مراكز لهم ، وأخذوا يكتبون المقالات ، ويخطبون في المحافل لمقاومة الحكم المطلق الذى لجأ له السلطان عبد الحميد بعد أن ألغى الدستور أو أوقف العمل به ، وكذلك لمقاومة الهزائم التى نزلت بالدولة تباعا .

وكان رجال « تركيا الفتاة » حريصين على توصيل نداءاتهم للجيش
لعلهم يجسدون القوة التي تهيم النجاة لأفكارهم ، وقد وجد زعماء
« تركيا الفتاة » طلبتهم في مقدونيا ، ففي هذه المنطقة كان يوجد نظام
الرقابة الدولية على الشؤون المالية وأجهزة الأمن ، وكان قوام هذه
الترقابة خمس دول هي : بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا وإيطاليا ،
وكان معنى هذه الرقابة ضعف سلطة استانبول على المنطقة من جانب ،
ومن جانب آخر إمكان الاتصال بالقوى الأجنبية الموجودة بها ،
وهذا هي الفرصة لزعماء « تركيا الفتاة » للاتصال بالجيش
الترقي بهذه المنطقة ، وهيا الفرصة كذلك لعقد تفاهم بين قيادة الجيش
التركي وبين ممثلي أوربا المسيحية لتحقيق الأغراض المشتركة »
وفي هذا الجو تكونت جماعة « الاتحاد والترقي » بقيادة شوكت
باشا وأنور بك ونيازی بك من قادة الجيش ، وهي التي أعلنت إعادة
الدستور كما ذكرنا من قبل .

وقد انضم أتاتورك الى جماعة الاتحاد والترقي .

الصهيونية والاتحاديون :

ويذكر الدكتور عبد العزيز الشناوى أن جماعة الاتحاد والترقي كانت
على صلة بالمصهانية ، وأن الصهيونيين كانوا يتعاونون مع بريطانيا في تأليب
أعضاء جمعية الاتحاد والترقي ضد السلطان عبد الحميد ، لأن السلطان كان
حازما في منع الهجرة اليهودية لفلسطين ، وكان متعاوناً مع الألمان في
مواجهة الانجليز ، وكان مكروها من جمعية الاتحاد والترقي ، وعندما
تلاقت أهداف الجماعات الثلاثة (المصهانية والانجليز والاتحاديون)
تعاونت ضد السلطان ، ولهذا عمل الصهيونيون للوصول الى الانقلاب
الدستوري سنة ١٩٠٨ والانقلاب العسكري الذي عزل السلطان سنة
١٩٠٩ ، وأيدوا حدوث هذا وذاك بحماسة .

وكان من نشاطهم لاحداث هذين الانقلابين أن أصدروا في العاصمة العثمانية صحيفة باسم « التركي الشاب » وكانت تساند رجال الاتحاد والترقي .

وقد وجد الصهاينة في قرار عزل السلطان فرصة نادرة فاشتروا للأصف في حمل قرار العزل للسلطان ، فقد كان الوفد الذي حمل هذا القرار مكونا من ثلاثة أفراد أحدهم يهودى اسمه « قره صو » وكان السلطان قد طرده من قصره عندما عرض على السلطان أن يتساهل في أمر هجرة اليهود الى فلسطين ، وما هو الآن يحصل قرار طرد السلطان من سلطاته ومن قصره بل من الامبراطورية كلها (١) .

ديكتاتورية رجال الاتحاد والترقي :

ويمزل السلطان عبد الحميد انتهى نفوذ السلاطين من الناحية العملية ، فأخوه السلطان الجديد كان طاعنا في السن من جانب ، وكان مساهداً للأحداث التي غلبت فيها عبد الحميد من جانب آخر ، ولهذا ترك السلطة الفعلية لرجال الاتحاد والترقي ، وكان يقول انه سلطان دستورى ، والحق أنه لم تكن له وسيلة لغير هذا الموقف ، وكان مثله أو أقل منه في السلطة السلطانان الأخيران اللذان جاء بعده وهما وحيد الدين وعبد الحميد ، وكان هذا آخر السلاطين .

والمهم أنه عندما آلت السلطة الفعلية لرجال الاتحاد والترقي باشر هؤلاء حكما مطلقا غير مباينين بالدستور والمجالس الدستورية ، وأسرفوا اسرافا شديدا في الاستبداد حتى أن الأتراك آنذاك كانوا يترحمون على حكم السلطان عبد الحميد (٢) الذى كان يوجد في التشريع الاسلامى

(١) الدولة العثمانية : د ٣ ص ١٠٢٣ — ١٠٢٧ بتصريف .

(٢) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثمانى ص ١٧٨ .

ما يوقفه في كثير من الأحوال عند حد لا يتجاوزه ، ولكن رجال الاتحاد والترقي لم يحترعوا الدستور ، ولم يخضعوا للتشريع الاسلامي ، فكان حكمهم مطلقا بدون حدود ، وجاء على شاكلتهم بعد قليل « كمال أتاتورك » الذي سنتحدث عنه فيما يلي :

مصطفى كمال

الغازي — أتاتورك (أبو الأتراك)

(١٨٨١ — ١٩٣٨)

زعيم تركي ، ولد في سالونيك ، والتحق بالمدرسة الحربية ، وأصبح ضابطا بالجيش العثماني ، اشترك في « تركيا الفتاة » التي تحدثنا عنها من قبل ، وأبعد من أجل ذلك الى دمشق ، ثم اشترك في حرب طرابلس ضد ايطاليا ، وبرز اسمه سنة ١٩١٥ عندما استطاع رد هجوم الحلفاء على الدردنيل ، وفي عام ١٩١٩ نظم الحزب الوطني التركي الذي حل محل جماعة الاتحاد والترقي .

ومن أشهر أعماله حروبه ضد اليونان وضرب جيشهم الذي احتل أزمير وانتصاراته العظيمة في سقاريا وقد أشرنا لها من قبل ، واستطاع بذلك أن يطرد اليونان من الأناضول فمُنح لقب « الغازي » وكانت له ميول غربيّة غير متمسكة بالروح الاسلامية مما وثّق علاقاته بالغرب وسهّل حياته معهم فعقدوا معه معاهدة لوزان (١٩٢٣) التي بسطت تركيا بمقتضاها سلطانها من جديد على جميع آسيا الصغرى وعلى القسطنطينية وتراقيا الشرقية ، وقد أشرنا لها من قبل .

مهادنة أوروبا وصداقة الصهيونية :

وتدل الدراسات والبحوث المختلفة التي سنشير اليها أن أتاتورك أدرك أن تكبّل أوروبا ضد تركيا كان لأنها تمثل الاسلام وتدافع عنه ،

وتأكد له كذلك أن الصهاينة سيوقفون الصراع ضد تركيا لو أنه ألغى الخلافة ، وهكذا أدرك الرجل أن إبعاد بلاده عن الاسلام ، وإلغاء الخلافة الاسلامية سيضمن له تأييد الغرب والهدنة مع الصهاينة ، كما يضمن له النفوذ الكامل ولو باسم الديكتاتورية التي تظاهر بمحاربتها ، فالغنى الخلافة وأصبح رئيسا للجمهورية ولكنه رئيس مدى الحياة فهي رئاسة ديكتاتورية فقد انتخب سنة ١٩٢٣ رئيسا للجمهورية ، ثم جدد انتخابه سنة ٢٧ و ٣١ و ٣٥ وكان كل مرة ينتخب بالاجماع ولم ينقذ الناس منه الا موته سنة ١٩٣٨ وقد أحيا عبد الناصر بعده هذا النظام

بعض .

وابتعد أتاتورك تماما عن الاسلام ، وحاول — عبثا — أن يثبث تركيا عنه . وسنملى فيما يلي بعض التفاصيل عن حياة مصطفى كمال ، تلك الحياة التي دفعت تركيا الى ما يسمى « علمانية الدولة » :

الكماليين :

تحدثنا من قبل عن جماعة « الاتحاد والترقي » وتلك الجماعة كانت تسمى « الاتحاديين » وكان لمصطفى كمال صلات بها ، ولكنه لم يلبث أن كوّن لنفسه جماعة تسميت له فسميت « الكاليين » فهل الكماليون امتداد للاتحاديين ؟ أو أنهم جماعة متغايرة ؟

يقول شيخ الاسلام (١) : ان المجموعتين تمثلان شرذمة مختلفة العروق والأجناس حرصت على اختلاس السلطة واحتكارها بقصد المنافع الذاتية ، مهما سبّب ذلك من خراب للدولة ، وقد تسمّعوا الى نهاية الحرب العالمية الأولى باسم « الاتحاد والترقي » وانساقوا خلف جمال وأنور وطلعت (من العجب أنها نفس أسماء جمال (عبد الناصر) وأنور (السادات)) وبعد الهدنة جمعوا ثبملهم تحت قيادة القائد

(١) الاسرار الخفية ص ٢١١ و ٢١٢ (الهامش) .

الجديد مصطفى كمال وسُموا « الكماليين » وهم هم بأعيانهم وميولهم المنحرفة وأهدافهم الخطرة ، وقد يوجد من بين الكماليين من يشنَّع على الاتحاديين كما فعل « فالح رفقي بك » الذي نشر مقالا طويلا في صحيفة « اقشام » في ٢٨/١٢/١٩٢٣ ضد الاتحاديين ، اتَّهم فيه قادتهم بأنهم نروا بدمرة أجتبية بعد أن سلموا الأمة الاسلامية الى الأعداء الأوربيين وأن الاتحاديين لهذا وللسواه كانوا مجرمين في حق الدين والوطن ، وهم الذين دفعوا الأمة للحرب العالمية الأولى بجهلهم وحمافتهم ، فغرقت الأمة وفرثوا هم .

ويضيف شيخ الاسلام أن الكماليين لم يثدينوا الاتحاديين بل ساروا في نفس الطرق ، فهم جميعا في الثَّبر سواء .

جذور يهودية :

يقول شيخ الاسلام أن مصطفى كمال عميق الصلة بطائفة « الدونمة » اليهودية ، بل هو منها (١) وينقل الدكتور يوسف القرضاوى عن هربرت ابرى أنه لم يكن أحد من الناس يجرؤ على أن يَتَّكَبَأ أن هذه الفئة المغمورة المعروفة بالدونمة ستلعب دورا رئيسيا في ثورة كان لها نتائج خطيرة في سِر "تاريخ" (٢) ، واستمرارا مع هذه الصلات العرقيَّة يذكر شيخ الاسلام أنه لم يسلم من اعتداء الاتحاديين والكماليين الا اليهود ، وفيما عداهم فقد وقع الاضطهاد على كافة العناصر من الألبان والعرب والأكراد والروم والفتراكسة والأتركا (٣) .

صلة بالاسونية :

ينقل شيخ الاسلام عن بعض الوثائق التي نشرتها الحكومة البريطانية أن أعضاء جماعة الاتحاديين والكماليين تابعون جميعا لمحل

(١) الأسرار الخفية ص ١٦ و ٤٩ .

(٢) د. يوسف القرضاوى : الطول المستوردة ص ١٥٣ .

(٣) الأسرار الخفية ص ٤٦ — ٤٧ .

الشرق الماسونى ، وعند هزيمة الامبراطورية العثمانية فى الحرب العالمية الأولى اتفقت أحزاب ايطاليا جميعها على أن تحتل ايطاليا طرابلس الا جماعه الماسونية الايطالية التى أعلنت قولها : لا يجدر بنا أن نصول على الأتراك حلال كون حكومتهم فى أيدي الماسونيين (١) .

سوء صلة مصطفى كمال بأسرته وباتباعه :

يروى كتاب الأسرار الخفية لشيخ الاسلام أن مصطفى كمال عثرَ ف بأساليب المذابح والغدر والكذب والحيل اللا أخلاقية التى لم يسلم منها حتى زوجته وأقرب المقربين اليه من أصحابه وزملائه ومعاونيه الذين استخدمهم للوصول الى أغراضه ثم لفظهم فى النهاية (٢) . ولم يَبْقَ على زميل أو صديق علوته ، بل كان مصيرهم جميعا القتل غيلة .

تضحيات مصطفى كمال لإرضاء الغرب :

فى تقديمنا لهذا الموضوع نذكر أن الغرب كان يصارع التجمع الاسلامى ويخشى الخلافة الاسلامية لأنها ملجأ المسلمين ، وبخاصة أن بعض الدول المسيحية كانت تحكم أجزاء من العالم الاسلامى ، وتترى فى الخلافة تهديدا لها ، وقد جاء فى مذكرات عبد الحميد الثانى ما يلى عن هذا الموضوع « ولكن الدول الكبرى التى تحكم شعوبا مسلمة فى آسيا مثل انجلترا وروسيا ترتعد من سلاح الخلافة الذى أحمله ، ولهذا اتفقوا على إنهاء الدولة العثمانية » (٣) .

وكان من وسائل الغرب لإنهاء الدولة العثمانية تلمش الأسباب لإعلان الحرب على هذه الدولة ، وكان الخليفة يتحاشى الحرب بقدر الامكان ، ولكن الاستقزاز والعدوان المباثر كان يقع من الأعداء .

(١) شيخ الاسلام : الأسرار الخفية .

(٢) المرجع السابق ص ٦٦

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة الدكتور محمد حرب

الغرب يتطلع إلى مصر والقسطنطينية :

واتجه الغرب الى الأقطار الحساسة ليأخذها من الدولة العثمانية وقد كتب الفيلسوف الفرنسى « ليينتر » سنة ١٦٧٢ الى لويس الرابع عشر ملك فرنسا يقول : « انه اذا انتزعت مصر من يد الأتراك آل أمرهم الى البوار » (١) ويعتل لذلك بقوله « انها وكر الدين الاسلامى ، وملاذ المسلمين » (٢) واتجه الغرب كذلك الى القسطنطينية وعنها يقول نابليون : « من ملك القسطنطينية أمكنه أنه يسود الدنيا » ووصفها مرة أخرى بأنها « مفتاح العالم » (٣) .

هكذا كان طموح الغرب للقضاء على الامبراطورية العثمانية ، فماذا قال مصطفى كمال لارضاء الغرب ؟

يقول الشيخ محمد الصواف (٤) :

إن مصطفى كمال أوفد زميله عصمت اينونو الى لندن برسالة يقول فيها :

لماذا تقاتلوننا مرة أخرى ؟ لقد كنا امبراطورية كبيرة وكنتم تخشون جانبنا فانسلخت عنا أكثر البلاد ، ولم يبق الا العنصر التركى فى الأناضول ؟

وبعد محادثات طويلة اشترك فيها حاييم تاحوم حاخام اليهود الأكبر فى تركيا ، قال الانجليز : اننا نخشى أن تعودوا مركز تجمع للمسلمين ونواة لوحدهم .

(١) شكيب ارسلان : حاض العالم الاسلامى د ٣ ص ٢٦٣ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ص ٢٩١ .

(٤) المخططات الاستعمارية لكافة الاسلام ص ١٧٤ .

وهنا عرض مصطفى كمال الشروط الأربعة الآتية لإرضائهم :

- ١ — إلغاء الخلافة الإسلامية نهائياً في تركيا .
 - ٢ — أن تتخلى تركيا كل صلة لها مع الإسلام والدول الإسلامية .
 - ٣ — أن تضمن تركيا تجميد وشل حركة جميع العناصر الإسلامية بتركيا .
 - ٤ — أن تستبدل الدستور العثماني القائم على الإسلام بدستور مدني بحت .
- وهكذا كان موقف مصطفى كمال من الخلافة ومن الإسلام والمسلمين .

خيانة وطنية :

نشرت صحيفة Sunday Times برقية السفير البريطاني في أنقرة إلى وزارة الخارجية البريطانية التي ذكر فيها أن أتاتورك استدعاه وهو مريض ورجاه أن يخلفه في منصب الرئيس ، وقد نقلت صحيفة الأهرام المصرية نص هذه البرقية في عددها الصادر في ١٥/٣/١٩٦٨ (١) .

مخالفاته للإسلام :

كان مصطفى كمال مدمناً لشرب الخمر ، وكثير السفرية بالمقدسات الإسلامية ، وأباح زواج المسلمات من غير المسلمين ، وترك الحليفاً باسم الله في الأيمان الرسمية ، وهرقل سقر الأتراك لأداء فريضة الحج ، ومنع حجاب المرأة ، وأزال الفواصل التي كانت تفصل بين الرجال والنساء في وسائل المواصلات .

ومن أجل هذا كان الأتراك يتهمون الحكام الجدد بالالحاد واعتناق

(١) انظر كذلك كتاب الفكر الصهيوني للاستاذ مصطفى السعدني

المبادئ الهدامة ، ويقولون عنهم : إنهم يهود وماسونيون وليسوا أتراكا ولا مسلمين ، وكل ما يهدفون إليه هو القضاء على الاسلام والخلافة (١) .

ويقول للميد رشيد رضا في مجلة المنار (٢) : ان ملاحة الترك هم الذين يمتحنون الدعوة الى تشويه الدولة العثمانية ويمشون الدعوة الى الإلحاد ويحرضون الزنادقة على ترك الاسلام واحتقار تشريعهم وآدابهم ، وليس قلائس الاقترنج وإثارة النعرة القومية والعصبية الجنسية ، ولكنهم ثبت لهؤلاء الملاحة نسب صحيح في الشعب التركي الذي كان عريقا في الاسلام ، بل هم أوشاب ، منهم الروسى والرومى والبلغاني ، واليهودى الأصل ، وإن السواد الأعظم من الترك يمتنون هؤلاء الكماليين أشد مما كانوا يمتنون اخوانهم الاتحاديين .

اتاتورك وطلمانية الدولة :

اتجهت جماعة الاتحاد والترقى في سياستها اتجاها مطييا ، واستبجعت منذ سنة ١٩٠٨ الاسلام والوحدة الاسلامية ، ووجهت كل عنايتها الى تركيا والى الأتراك ، في حدود نظرتهم المادية للاسلام وكان مصطنعى كمال صوت هذه الأفكار والاتجاهات ومنهجها ، ولهذا دفع تركيا الى الطلمانية عندما آلت له السلطة .

وما المقصود بالطلمانية ؟

لعل المقصود بالدقيق بالطلمانية هو ألا يتدخل دين الشخص أو مذهبه الدينى في تقدير قيمته أو يقف حائلا دون تليه ما تستحقه مواهبه ، ولكن المعنى الشائع للطلمانية يكاد يعادل معنى اللادينية ، وذلك المعنى هو الذى اتشبع بالنسبة لتركيا آنذاك ، وقد آن لنا أن نستكمل ذكر أهم صور الانقلاب

(١) ارسترونج : مصطنعى كمال ص ٢٨ .

(٢) نقلا عن كتاب « تاريخ الصحافة الاسلامية » للاستاذ انور

الجندي ص ١٤٩ .

الدينى والاجتماعى الذى أحدثه أتاتورك (أبو الأتراك) فى حياة تركيا فى عهد الكماليين امتدادا لاتجاهات جماعة (الاتحاد والترقى) : ففى الجلسة التى عقدتها الجمعية الوطنية فى مارس سنة ١٩٢٤ ، وقررت فيها إلغاء الخلافة ، وافقت الجمعية الوطنية أيضا على قانون بإلغاء وزارتى الشرعية والأوقاف ثم سارت خطوات مصطفى كمال دون توازن لإكمال الصورة التى رسمها لتركيا الحديثة بإبعادها عن الدين إبعادا تاما أو قريبا من التمام ، فأعلن إلغاء المحاكم الشرعية وإضافة أعمالها الى المحاكم المدنية ، وألغى المؤسسات والمدارس الدينية ، وجعل إنشاء المدارس مقصورا على وزارة المعارف .

أتاتورك يناهض الإسلام :

وألقى الفازى من الدستور النص على أن دين الدولة الاسلام ، وألغى التشريع الإسلامى الذى أطلق العهد الجديد عليه « شريعة عتيقة » أى القانون البالى واستبدل به القانون المدنى السويسرى والقانون الجنائى الايطالى ، وأصدر الفازى قانونا يجعل العطلة الأسبوعية يوم الأحد بدلا من يوم الجمعة ، وألغى التقويم الهجرى ، وغير أحكام المواريث فسوى بين الذكر والانثى ، وجعل أصحاب الحق فى الارث هم الفروع دون غيرهم (١) .

وخطت حكومة أتاتورك خطوات أخرى فى سبيل التخلص من الاسلام أو إضعافه ، فحددت عدد المساجد ولم تسمح بغير واحد منها فى كل دائرة من الأرض يبلغ محيطها خمسمائة متر ، كذلك خفض عدد الوعاظ الذين تدفع الدولة أجورهم الى ثلاثمائة واعظ ، وفرض عليهم ألا يقصروا خطبة الجمعة على الأمور الدينية فحسب ، بل أن يضموا اليها فوائد عملية فيها يتصل بالشئون الزراعية وغيرها أيضا ، وأوصدت حكومة أتاتورك

(١) انظر تركيا والسياسة العربية للاستاذ سعيد العريان وآخرين

أبواب جامعين من أشهر جوامع اسطنبول في وجه المصلين ، ليحوّل أولهما (أيا صوفيا) الى متحف ، وثانيهما (مسجد الفاتح) الى مستودع •

وأصبح تعدد الزوجات — بسبب اقتباس القانون السويسرى — محرّما وقد كان من الوجهة العملية مقتضرا على الطبقات الموسرة •

وهكذا أدارت تركيا ظهرها للإسلام واتجهت لأوروبا ، ويؤثر عن هذه الجماعة جملة في هذا المعنى وهى : « شرقت وداع » أى وداعا أيّهما الشرق • واكمالا لهذا حرم مصطفى كمال الزى الدينى (الجبة والعمامة) الا على رجال الدين ، وفرض الزى الأوروبى والقبعة ذات الحافة ، وأصدر قانونا يقضى باحداث اسم الأسرة ولم يكن ذلك معروفا من قبل في تركيا ، وحُرِّمت جميع الطرق الصوفية وأغلقت زوايا الدراويش ، وقضت الحكومة في قسوة وعنف على كل نقد دينى لتدبيرها ، ونزلت المرأة التركية ميدان العمل ، وألغيت الحروف العربية واستبدلت بها الحروف اللاتينية ، وأصر الغايزى نفسه أن يظهر أمام الناس بمظهر المعلم لهذه الأحرف ، وأنشئت المدارس في طول البلاد وعرضها لتعليم الناس على اختلاف أعمارهم الحروف الجديدة التى أصبحت « وطنية » وحذف من مناهج الكليات تعليم اللغة العربية والاسلامية ، وهما اللتان كان الأتراك يعتبرون دراستهما ضرورية لفهم الأدب التركى ، وحرم استعمال الحرف العربى لطبع المؤلفات التركية ، أما الكتب التى سبق لطابع استانبول أن أخرجهما في العهود السابقة — وهى كثيرة لا تكاد تُعَدِّثُ — فقد صُدِّرَتْ الى مصر وفارس والهند •

والواقع أن هذا الانقلاب أدى الى قطيعة صعبة بين تركيا وماضيها الاسلامى من جهة ، وبينها وبين اخوان الأتراك في الدين في سائر الأقطار الاسلامية من جهة أخرى ، وهى قطيعة قاسية النتائج (١) •

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١٧ — ٢٠ •

ومن أبرز اتجاهات تركيا الحديثة اتجاهها نحو الغرب في ميولها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وتقليل علاقاتها مع الشرق الاسلامي ، وقد دفعها مصطفى كمال في هذا الطريق بقوة وعنف .

خلفاء سنتي كمال

وانتهى مصطفى كمال الذي لقب نفسه (أبو الأتراك) ولكنه لم يخلط للأتراك الا الفقر والضياع وقد ظل مصطفى كمال يشغل منصب رئيس الجمهورية حتى توفي سنة ١٩٣٨ فخلفه عصمت اينونو الذي ظل رئيسا للجمهورية حتى مات سنة ١٩٥٠ وجاء بعده جلال بايار في رئاسة الجمهورية وشغل عدنان مندريس معه منصب رئيس الوزراء . .

ثورة عسكرية :

وفي مايو سنة ١٩٦٠ حدث انقلاب عسكري قاده جمال جورسيل وقد جمع زمام الأمور في يده بصفته العسكرية ، ثم رشح نفسه لرئاسة الجمهورية ، دون منافس فاختير لهذا المنصب في العام التالي ، وقد أدانت الثورة رجال العهد الماضي بألوان من الرثوة واستغلال النفوذ واهمال مصالح البلاد تحقيقا للمصالح الشخصية وحكمت بالاعدام على عدد كبير من كبار الرجال من بينهم عدنان مندريس نفسه ، وقد نفذ فيه حكم الاعدام .

وهذه الأحكام دليل على انحراف القادة انحرافا قضي باعدامهم ولم تغير ثورة جمال جورسيل من اتجاه تركيا ، بل سارت في نفس السياسة الغربية التي كانت طريق تركيا منذ عهد مصطفى كمال .

وقد ظل جمال جورسيل في الحكم حتى مرض في أوائل سنة ١٩٦٦ ، وفي مارس اشتد عليه المرض وفقد الأول في شفائه فأنهى البرلمان رئاسته

واختار لرياسة الجمهورية « جودت سوناي » • وبعد جودت سوناي
اختير غزرى كورتوك سنة ١٩٧٣ •

انقلاب عسكرى جديد :

وفي سبتمبر سنة ١٩٨٠ هب انقلاب عسكرى آخر بقيادة الجنرال
كيناي ايفرين فاطاح بمصكومة سليمان ديميريل ، وأعلن مجلس الأمن
القومى الذى تشكل من العسكرين أن هدف الانقلاب هو منع نشوب
حرب أهلية وايقاف موجة العنف السياسى التى تجتاح تركيا منذ ٤ سنوات
والتي يروح ضحيتها هوالى عشرين شخصا كل يوم •

وقد تم حل الحكومة والبرلمان التركى وتعطيل الدستور ، وتم
القبض على كثير من الزعماء ، وهذه الانقلابات أكبر دليل على أن ثورة
أتاتورك كانت مدمرة ولم تؤد للبلاد شيئا ذا بال •

وبعد استقرار الأمور عاد الحكم المدنى الدستورى للبلاد •

رؤية شاهد عيان :

وقد زرت تركيا سنة ١٩٥٠ أى بعد إعلان الجمهورية وبعد سيرها
فى ركب الغرب أكثر من ربع قرن ، ولكنى وجدت تركيا كما لا تزال حتى
الآن شرقية الشعب غريبة الحكم ، ولا يزال شعبها يعيش فى مستوى
اجتماعى متدهور ، وقد حسب قادة الأتراك حيناً أن الاسلام كان سبب
تخلفهم ، فاطرحوا الاسلام ولكن تخلفهم لم يعالج وربما زاد ، وقد
عثرت الثورات على بعض الأسباب الحقيقية لتخلف هذه الدولة من رشوة
واستغلال نفوذ وليتها تعثر على باقى الأسباب ، ثم ليتها تحاول
أن تملجها ، وربما كان من أنجح الأدوية أن توقف الاتجاهات الروحية
التي تشعده فى الشرق دائما قويا نحو الخلق الصالح وحارسا أميناً على
الأهداف السامية •

تركيا في العهد الحاضر

تبلغ مساحة تركيا الآن ٧٦٧ر٥٣٦ ك . م ، منها ٢٣ر٤٨٥ ك . م بأوروبا والباقي بآسيا ، وأهم المدن التركية أنقرة وإستانبول وأزمير وأدنة وبورصة واسكي شهر ، ويبلغ عدد سكان تركيا حوالي ٣٠ مليون نسمة تقريبا منهم ١٤ مليون من الأتراك والباقيون ينحدرون من أجناس متعددة أهمها الأكراد والتركمان والأرمن ، والمسلمون من سكان تركيا هم ٩٨٪ وهم يتبعون مذهب السنة .

نشاط إسلامي بعد أتاتورك :

وابتداء من سنة ١٩٤٠ نشط الفكر الإسلامي واستعاد قوته ، بعد وفاة أتاتورك ، وبعد أن زالت الأسباب التي كسّنت تدعو إلى التزمّت والشدّة ، فعُيّن وعازظ وأئمة وانضموا للجيش التركي ، كما كان متبعاً في عهد الخلافة ، ويقول الدكتور برنارد لويس أنه قد ظهر اتجاه جديد في الحكومة التركية التي جاءت في أعقاب أتاتورك ، وهذا الاتجاه أزال كثيراً من مظاهر الدكتاتورية التي اتصف بها عهد مصطفى كمال ، فانتهزت العناصر الإسلامية هذه الفرصة وجددت حماسها لبعث الحياة الدينية من جديد في تركيا^(١) .

ومن الواضح أن الدكتور برنارد لويس ينبه بذلك من يهتمهم الأمر وبخاصة من دول الغرب ليوقفوا هذه الحماسة الدينية قبل أن تعود جذورها إلى ما تخشاه هذه الدول من تعمق وأصالة .

وقد بدأ تحوّل الاتجاهات الدينية بواسطة كلية الدراسات الدينية التي أُنشئت في جامعة أنقرة ، والتي وُضعت مناهجها لتخرّج علما غربي النزعة ، مسلم العقيدة عارفاً بمقارنة الأديان وبالدراسات المختلفة يجيد

(١) من مقال في مجلة الشؤون الدولية عن البعث الإسلامي بتركيا .

عددا من لغات الغرب ، يدين بالولاء لتركيا الديمقراطية ويعتق الاسلام (١) .

مؤتمرات اسلامية في تركيا :

ولكن الحق، أن تركيا اتجهت بعد ذلك نحو ماضيها الاسلامي دون توقف ، وفي سنة ١٩٧٦ عقد بها مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية وكان أول مؤتمر اسلامي يعقد بتركيا منذ الخلافة سنة ١٩٢٣ ، وقد كان العنوان الرئيسي بصحيفة :

Turkish Daily News هي :

Istanbul Again Heart of Islam

أي « استانبول تعود مرة أخرى لتصبح قلب العالم الاسلامي » .

وتقول صحيفة الاهرام الصادرة ١٩٧٦/٥/٢١ عن هذا المؤتمر ان الحكومة التركية طبعت بمناسبة المؤتمر كتابا عن الدول المشتركة في مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية اسمته « الأقطار السائرة في طريق الصواب » .

وتلك كانت مفاجأة المؤتمر الحقيقية .

وثمة حماس شديد للإسلام في تركيا تفجر بعد طول كبت وخوف ، بل أن هذا الكبت دفع الناس الى مزيد من التمسك بالاسلام لا التحول عنه ، وهذه ظاهرة اكتشفها الساسة الاتراك قبلنا في انتخابات عام ١٩٧٣ . عندما تأسس في ذلك العام حزب السلامة الوطني الاسلامي النزعة ، وخاض المعركة الانتخابية ، وفوجيء الجميع بأن هذا الحزب الوليد قد جاء ترتيبه الثالث من بين ٨ أحزاب في تركيا .

وقد فرض الحزب نفسه داخل الحكومة ، وعين زعيمه الدكتور نجم الدين أريكان نائبا لرئيس الوزراء • مشتركا في الائتلاف الوزارى الذى حكم البلاد عقب هذه الانتخابات •

ومنذ ذلك الوقت — عام ٧٣ — تنبه الجميع الى أن الاسلام لا يزال مزدهرا في تركيا ، وأن قرار إلغائه ظل حبرا على ورق •

وتقول مجلة « ديانة » التركية : ان معالم المنظر الدينى بتركيا تحدها الأرقام والحقائق التالية : في تركيا الآن ٤٤ ألف مسجد ، تتزايد بمعدل يتراوح بين ٨٠٠ وألف مسجد كل عام — والمسائل الاسلامية من اختصاص هيئة الشئون الدينية التى يعمل فى فروعها ستة آلاف من الأشخاص ، بينهم ٤٣٩ مفتيا ، و٨٨٠ واعظا ، و ١٤٠٠ مدرس لتعليم القرآن ، و٤٣٣ اماما وخطيبا — أما مدارس تعليم القرآن فعددها ألفان تضم ٥١ ألف طالب وطالبة — ومدارس الأئمة والخطباء عددها ١٧١ وفى جامعة أنقرة كلية للالهيات ، وفى جامعة أرضروم كلية للعلوم الاسلامية • وتهتم تركيا اهتماما كبيرا فى العهد الحاضر بالمؤتمرات الاسلامية وبرعاية القرآن الكريم وعلومه •

بلاد زراعية :

وتركيا بلاد زراعية عموما اذ أن أكثر سكانها يشتغلون بالزراعة ، والملكيات الزراعية الآن موزعة بين المزارعين ، وأهم حاصلات تركيا الحبوب والتبغ ، والحركة الصناعية بها ناشئة ونشيطة ، وبتركيا بعض المعادن أهمها الفحم والحديد والنحاس •

تركيا والمسلم العربي الآن

مرت السفون ، واستطاعت الدول العربية أن تحصل على استقلالها بعد صراع طويل ، كما استطاع الشعب التركي أن يسترد أنفاسه بعد المسيرة المجهدة التي عاناها ابان الخلافة وبعدها ، والمخلصون يتوقعون أن تتردهم الصلات الطيبة بين تركيا والدول العربية ، احتراماً وتقديراً للدين والتاريخ والجوار وغيرها من الصلات التي ربطت الترك بالعرب ، وان معرفتي الشخصية بجماعات من المثقفين الأتراك تجعلني أحس بتفاؤل عميق نحو مستقبل العلاقات بين الترك والعرب ، وقد عبر لى صديق تركي عن عتب بعض المفكرين الأتراك عما يقوله العرب عن الامبراطورية العثمانية ، وأجيبته بأنه ليس سهلاً أن ينسى العرب مالاقوّه من عناء ، ولكن من اليسير أن تتعاملون لخلق مستقبل أجهل وأنصح ، يضع على الماضي غلالة أو ساتراً حتى يوشك أن يحجبه عن الفكر ، واتفقنا على الدعاء مخلصين أن يتجه السياسة الترك الى الشرق بوجه عام وإلى العرب بوجه خاص لنعيد رباط الود ، متناسين مشكلات الماضي ومؤملين في مستقبل أحسن وأنفع ، وأنا أقول كلمة « السياسة » وأعنيها ، أما الشعب التركي فقد عانى معاناة قسوة الخلافة ، والكماليين وسخط مثلنا بسبب الانحراف عن هدى الدين ، وأنا أعرف هذا الشعب في داره ، وأعرفه في بلادى العربية ، متعلماً وزائراً ، وأكثر هذا الشعب ببادلنا ونبادله الأحاسيس الطيبة وبيارك نهضتنا ويؤيد جهادنا ، ونحن بالتالى ننص بأحاسيسه ، ونرجو له كل تقدم ورفق .

مشكلة الموصل والاسكندرونة

، بقيت مشكلتان عريبتان تستحقان مزيداً من الشرح والايضاح ، وهاتان هما مشكلة الموصل ومشكلة الاسكندرونة ، وذلك أن المؤتمرات التي عقدت لتصفية أملاك « الرجل المريض » لم تضع حلاً لمشكلتي الموصل والاسكندرونة ، وتتنازعت العراق وتركيا الموصل ، كما تنازعت سوريا

وتركيا الاسكندرونة ، وكان مصدر النزاع في نظر تركيا مبنيا حول عنصر السكان ، فأكثر سكان منطقة الموصل من الاكراد ، وهم من عنصر سكان الأقاليم التركية الشرقية ، ومنطقة الاسكندرونة يبلغ عدد الاثراك فيها ٤٠٪ من السكان ، ومن هنا ادعت تركيا أن المنطقتين تابعتان لها . ولم تكن العراق وسوريا مستقلين آنذاك ، وكانت انجلترا تتكلم باسم العراق وفرنسا تتكلم باسم سوريا ، وكان الاحتلال البريطاني للعراق يطمح في أن يثبت قدمه في هذه البلاد وبخاصة أن البترول كان قد بدأ يتفجر في هذه المنطقة ، ولهذا تمسك بالموصل على أنها جزء من العراق ، وفي معاهدة لوزان انتشق على أن تبقى الموصل تحت الاحتلال البريطاني رجاء أن يمكن الوصول الى حل في خلال عام ، فاذا لم يتفق الطرفان المتنازعان على حل في خلال العام رفع الأمر الى عتبة الأمم . ولم يصل الطرفان الى حل خلال الفترة المحددة فرقت بريطانيا الامر لعصبة الأمم التي ألقت لجنة لدراسة المشكلة ، وقررت اللجنة ضم الموصل للعراق على أن يبقى العراق تحت الوصاية البريطانية مدة لا تقل عن ٢٥ عاما ، ووافق مجلس عصبة الأمم على هذا القرار في ديسمبر سنة ١٩٢٥ .

ولكن تركيا عارضت هذا القرار ، بيد أنها أحست بأن الأمل ضعيف في الحصول على الموصل ، فأثرت الاتفاق مع بريطانيا اتفاقا وديا فتمتد ٢٠ سنة . بها معاهدة في يونيو سنة ١٩٢٦ نالت بمقتضاها ١٠٪ من انتاج البترول في الموصل لاستعمالها الخاص نظير تنازلها عن معارضة قرار مجلس عصبة الأمم . وبهذا انتهت مشكلة الموصل وعادت جزءا من الوطن العربي .

أما مشكلة الاسكندرية فقد انتهت على نعت آخر جعل الخلاف لا يزال قائما حتى الآن ، وقصة ذلك أن فرنسا التي كانت تتكلم باسم سوريا وقفت موقفا مضطربا في هذه المشكلة ، فنهاها تعقد اتفاقية مع تركيا سنة ١٩٣١ تنص فيها على إيجاد نظام اداري خاص يشكك به هذا اللواء ، وكان معنى هذا النص خلع هذه المنطقة من الوطن الأم

(سوريا) ، ثم نراها تم عقد معاهدة مع سوريا سنة ١٩٣٦ مَعِدَ فيها
بمنح سوريا استقلالها بما في ذلك لواء الاسكندرونة .

وشارت تركيا ضد هذه المعاهدة التي تناقض الاتفاق الذي أجرى
معهما بشأن المنطقة المتنازع عليها ، ورفعت شكوى ضد ذلك الى عصبة
الأمم سنة ١٩٣٧ ، وقضى مجلس العصبة بعدم تسليم اللواء الى سوريا وبحكم
ثنائي له ، وبضمانات خاصة للسكان الأتراك ، وأُطلِ شبح الحرب العالمية
الثانية عقب ذلك ، واتجهت فرنسا الى الاستعداد ضد تحركات النازيين
واستعداداتهم ، ومن أجل هذا تساهلت في الاتفاق مع تركيا حول هذه
المشكلة ، فعقدت معها اتفاقاً في يوليو ١٩٣٨ يقضى بحكم ثنائي للمنطقة
وأن تقوم دوريات فرنسية تركية بحراسة اللواء الى أن يثبت في مصيره
بانتخابات عامة .

ودخلت القوات التركية اللواء ، وأجريت الانتخابات في هذه الظروف
التي لم تتكافأ فيها القوى ، فأدت الى فوز تركيا بأغلبية المقاعد التي
كانت المنافسة تجري عليها ؛ إذ حصلت على ٢٢ مقعداً من ٤٠ مقعداً ،
وفي ٢ سبتمبر أعلنت أغلبية المجلس المنتخب الحكم الذاتي تحت اسم
« جمهورية هاتاي » وأرسلت وفداً الى أنقرة يطلب الانضمام الى تركيا .
وتم لتركيا ما أرادت تحت ضغط تهديد الحرب العالمية الثانية ؛
فسرعان ما اعترفت فرنسا رسمياً بسيطرة تركيا على لواء الاسكندرونة ،
وكان ذلك ضمن معاهدة عدم الاعتداء التي عقدت بين فرنسا وتركيا في
٢٣ يونيو سنة ١٩٣٩ .

وانتهت المشكلة بالنسبة لفرنسا ، ولكنها لم تنته بالنسبة لسوريا
وبالنسبة للوطن العربي ، فهذه المنطقة عربية والنظر الى الخريطة يجد
أنها زاوية انحدرت بها تركيا الى ما وراء حدودها الطبيعية ، وليس من
حق فرنسا أن تمنح من أرض سوريا ما تشاء لتركيا أو لغيرها ، ومن هنا
فإن سوريا لا تزال ترى أن اللواء جزء لا يتجزأ من أراضيها وأن احتلال
الترك له ليس مشروعاً .

تركيا والمشكلة القبرصية

وبمناسبة الحديث عن مشكلة الموصل والإسكندرونة ، هناك مشكلة مهمة يجدر بنا أن نتحدث عنها هي المشكلة القبرصية .

والناظر لخريطة البحر الأبيض المتوسط يجد بين جزرهِ جزيرةً تعتبر جزيرة آسيوية فهي تقع في شرقي البحر المتوسط وتحضنها تركيا ، لأنها تقع الى الجنوب منها وعلى مسافة غير بعيدة من حدودها ، والمسافة بين هذه الجزيرة وبين اليونان طويلة جداً اذا قيست بالمسافة بين الجزيرة وتركيا ، وكان من الطبيعي أن تتبع هذه الجزيرة تركيا ، كالجزر الكثيرة التي تتبع الأقطار التي تقع هذه الجزر قومية من حدودها ، ولكن السياسة دفعت الكثيرين من اليونانيين لسكنى هذه الجزيرة فكوّنوا بها أغلبية تصل الى حوالي ٨٠٪ من السكان ، أما الأتراك فيمثّلون حوالي ٢٠٪ فقط من السكان يعيشون في شمال الجزيرة ، وهذا الوضع خلق مشكلة لتركيا لا تزال مشكلة قوية وحساسة .

وجزيرة قبرص (Cyprus) جزيرة جبلية ، بها سلسلة جبال « سرين » شمالاً و « كرووس » جنوباً ، وبينهما سهل « نيكوسيا » وهو سهل زراعى خصب تجود به الحبوب والفاكهة والزيتون ، وعاصمة الجزيرة « نيكوسيا » أو « نيقوسيا » .

ومن الناحية التاريخية نذكر أن معاوية بن أبي سفيان استولى على هذه الجزيرة وهو والد علي الشام سنة ٢٨ هـ (٦٤٨م) في عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وذلك لأن هذه الجزيرة قريبة من حدود سوريا من جهة الشرق ، ونقل لها معاوية كثيراً من الأسر الإسلامية ، ثم تناقلتها أيدي العرب والرومان واليونان . . . خلال الصراع على

جزر البحر المتوسط ، ثم استولى عليها الأتراك سنة ١٥٧٠ م. وظلت تحت سلطة الأتراك أكثر من ثلاثة قرون ، وفي خلال الصراع بين الامبراطورية العثمانية وأوروبا الصليبية استولت بريطانيا على قبرص سنة ١٨٧٨ وظلت الجزيرة خاضعة لسلطاتها حتى سنة ١٩٣١ وفي خلال هذه المدة دفعت بريطانيا الكثيرين من اليونانيين للحياة بها ، فالليونان أقرب الدول المسيحية للجزيرة ، ولهم بها صلات تاريخية ، وبدأت بذلك المشكلة الموجودة الآن .

وفي سنة ١٩٣١ أعطى للجزيرة نظام الحكم الذاتي ، ولكن السكان اليونان طالبوا سنة ١٩٤٧ بالاتحاد مع اليونان .

وظهر الاسقف مكاريوس وكان أميل للاعتدال ، فتوقفت اتفاقية سنة ١٩٥٩ بين بريطانيا وتركيا واليونان لإقامة جمهورية قبرصية مستقلة ، ذات مجلس تشريعي ثلثه من القبارصة الأتراك وثلثاه من القبارصة اليونانيين ، واختير الأسقف مكاريوس رئيسا للجمهورية ، ونالت الجزيرة استقلالها سنة ١٩٦٠ .

وفي الستينات اشتد التنافس بين الطائفتين ، ووقعت معارك دموية ، وأحسّت تركيا أنها مضطرة لحماية الأتراك بالجزيرة فأرسلت قوة تركية قوامها ٣٠ ألفا احتلت شمال الجزيرة في يوليو سنة ١٩٧٤ ، وزادت المشكلة بذلك تعقيدا .

وفي نوفمبر سنة ١٩٨٣ أعلن القبارصة الأتراك تأسيس جمهورية خاصة بهم في شمالي الجزيرة ، وسارعت تركيا فاعترفت بالجمهورية الجديدة ، وكان ذلك ردا على بعض المحاولات التي اتجهت لضم الجزيرة لليونان ، واختير رءوف دنكتاش رئيسا لهذه الجمهورية التي تسيطر على حوالي ٤٠٪ من أرض الجزيرة .

وقد اقترح السكرتير العام للأمم المتحدة حلولاً لهذه المشكلة قوامها إعادة توحيد الجزيرة في ظل حكومة اتحادية بين طائفتين ومنطقتين ، على أن يكون رئيس الدولة من القبارصة اليونانيين ونائبه من القبارصة الأتراك ، مع منح الجانبين سلطة الاعتراض على أية قرارات يصدرها البرلمان الذي يتكون من مجلسين . واقترح أن تشكل الحكومة الاتحادية من عشرة وزراء سبعة منهم من القبارصة اليونانيين وثلاثة من الأتراك ، مع تطبيق نفس النسبة على أعضاء مجلس النواب ، أما مجلس الشيوخ فيكون مناصفة بين الطائفتين ، مع كفالة الحريات الأساسية لكل المواطنين على السواء .

ومع ان رؤوف دنكتاش قد أعلن قبوله للمقترحات التي قدمها السكرتير العام للأمم المتحدة مؤخراً لتكون أساساً لمفاوضات بين زعمي الطائفتين اليونانية والتركية ، فقد رفضها الرئيس القبرصي سيبرو كبريانو الذي يصرّ على انسحاب قوات الاحتلال التركية ومعهم المستوطنون الجدد من الأتراك ، وتقديم ضمانات دولية لاستقلال قبرص ووحدة أراضيها . وعودة حوالي ٢٠٠ ألف قبرصي يوناني إلى منازلهم التي طردوا منها أبان الاحتلال التركي وذلك قبل الجلوس أمام مائدة المفاوضات حول مقترحات السكرتير العام للأمم المتحدة .

ولا تزال المشكلة قائمة حتى كتابة هذه السطور في أواخر عام

نظرة الدول الإسلامية للامبراطورية العثمانية

اتجاه المسلمين الى الوحدة :

كان الاتجاه العام في الدول الإسلامية هو الوحدة والاشكل ، وهذا الوضع عميق الجذور في تاريخ الإسلام ، فقد نشأ الإسلام وامتد مكوناً دولة واحدة ، وهو كذلك عميق الجذور في الفكر الإسلامي الذي يرى أن المؤمنين إخوة ، ويحث المسلمين على التعاون والتآزر ، ويتفق في هذا كل الدول الإسلامية على السواء .

عجرفة لبعض القادة الترك :

هذه هي الفكرة العامة ، ولكن موقف أكثر الأتراك من الدول التي خضعت لهم كان موقفاً مشيناً ، فقد رأينا أن الإسلام لم يكن إلا هدفاً يحاول العثمانيون أن ينتفعوا به كلما اشتدت عليهم الخطوب ، أما روح الإسلام ، وآداب الإسلام ، واتجاهات الإسلام ، فلم يكن لها صدى في قصور الخلفاء الذين حكم الكثيرون منهم هذه الدول باسم الإسلام دون أن يدينوا بفلسفاته وتعاليمه .

واتجه الفكر التركي في أواخر عهد الخلافة العثمانية الى « تنريك » العرب ليكون ذلك ضماناً لاستمرار سيطرتهم على العالم العربي ، وفي ذلك يقول جلال نوري أحد كتاب الترك المشهورين في كتابه (تاريخ المستقبل) :

« ومما لا مندوحة لنا عنه للدفاع عن كيانتنا أن نحول جميع الأقطار العربية الى أقطار تركية ، لأن النشء العربي الحديث صار يشعر اليوم بعصبية جنسية ، وهو يهددنا بنكبة عظيمة يجب أن نحتاط لها من الآن » .

ويقول أحد كبار الصحفيين في جريدة (طنين) : إن العرب لا يزالون يلهجون بلغتهم ، وهم يجهلون اللغة التركية جهلاً تاماً ، كأنهم ليسوا تحت حكم الترك . فمن واجبات الباب العالي في هذه الحال أن ينسبهم لغتهم ويجبرهم على تعلم لغة الأمة التي تحكمهم ، فإذا أهمل هذا الواجب كان كمن يسعى إلى حثفه بنفسه ، لأن العرب إن لم ينسوا لغتهم وتاريخهم وعاداتهم فإنهم سيعملون عاجلاً أو آجلاً على استرجاع مجدهم الضائع وتشييد دولة عربية على أنقاض الترك (١) .

وبالإضافة إلى ذلك ذاقَت الدول التي تبعت تركيا صوْراً من المرارة والحرمان المادى والأدبى ، وطالما تصور قادة المسلمين أن الاضطراب والظغيان يصدران عن شخص الخليفة فوجهوا بغضهم نحوه فقط وعملوا على خلعه وتغييره ، ولذلك ظل الكثيرون منهم تحت ضوء هذه الفكرة يدينون بالولاء للخلافة والوحدة الإسلامية كما رأينا في ميل جمال الدين الأفغانى ومصطفى كامل وغيرهما .

فريقان :

ومرت الأيام وجاءت الحملة الفرنسية إلى مصر ، وفتح المصريون عيونهم على التقدم والمدنية والبرشاش التي حرمهم الترك منها ، وهب المصريون يناضلون الاستعمار الفرنسى وهتفوا بالاستقلال ونالوه ، واستمر هتاف الكثيرين يدوى ضد تركيا ويسعى للتبشير بالقومية العربية كما كانت جماعة الاتحاد والترقى تبشر وتعمل للقومية التركية ، وهنا ينشط المسلمون في تفكيرهم ، فيتجه المسلمون الذين ذاقوا الآلام تحت سلطان الترك إلى التخلص من هذه الخلافة ، ويبقى المسلمون الذين لم يخضعوا للإتراك على ما كانوا عليه من ولاء للخلافة وعمل على تأييدها واستهجان لهاواتها ، وكانت هذه المجموعة من الدول الإسلامية ترى في الترك حماة من الاستعمار ، ومما يدل على اتجاه هذه الدول

(١) نقلاً عن الأمة العربية للكتور عبد الحميد البطريق ص ٩٥ - ٩٦ .

أن سلاطين آتشة بسومطره تقدموا — عندما هددهم الهولنديون — الى سلاطين آل عثمان بالولاء ، وهددوا بهم المستعمر الهولندى ، وطلبوا من الترك العون لدفع الخطر عن الوطن الاسلامى .

ومثل موقف سلاطين آتشة موقف مسلمى الهند الذى نقبسه من الباحث الكبير الأستاذ عباس العقاد (١) فيما يلى :

« والمسألة التى تضاعلت الى جانبها كل مسألة من مسائل العالم الاسلامى فى حساب مسلمى الهند ، هى مسألة الخلافة الاسلامية ، التى كانت فى آل عثمان بالقسطنطينية . فقد كان أمراء الهند أنفسهم يستقبلون تلك الخلافة فى الشدائد ، وينظرون اليها نظراتهم الى البقية الباقية من الاسلام ودولته الدنيوية .

« ومنذ عهد الاحتلال البريطانى ، توجهت الأنظار الى سلاطين آل عثمان ، وكان فى طليعة المتوجهين اليه سلطان « ميسور » على مقربة من سلطنة حيدر آباد ، فإنه كتب الى الخليفة يبلغه حقيقة الخطر على الديار الآسيوية ، ولم يكن فى وسع الخليفة أن ينجده بالعون الذى أراد ، فكتب الى نابليون يطلب منه العون ، وجاءه الجواب منه بانتظار المدد فى جيش جرار يضرب الدولة البريطانية فى مقتلها ، ويخلى أنطريق الى الهند من شباكها .

« ولم يزل أمراء الهند — فضلا عن سوادها — يتطلعون الى الخلافة فى القسطنطينية حتى زالت وانتهت بخاتم الخلفاء السلطان عبد المجيد ، فسعى سلطان حيد آباد الى التزوج من إحدى بناته ، وقيل فيما قيل من أسباب هذا الزواج إنه « زواج سياسى » يمهّد به السلطان الى إمامة المسلمين فى الهند على الأمل ، إن لم تتعقد له الإمامة على العالم الاسلامى بأجمعه .

(١) العقاد الأعظم محمد على جناح .

« ولم يتفق لمسلمى الهند ما يضعف مكانة الخلافة بينهم ، كما اتفق للمسلمين الذين حكمتهم الدولة العثمانية فتمردوا على حكمها ، وتغلّبت في نفوسهم دفعة الوطنية على الولاء لحكومة ساءت سياستها ، وخرجت في رأى الأكثرين عن أحكام دينها ، فقد كان مسلمو الهند يزدادون عطفاً على دولة الخلافة كلما اشقت بهم المحن من داخلها وخارجها ، وينسبون الثورات عليها أحياناً الى دسائس الاستعمار ، وغواية الدول الأجنبية بالرشاوى والوعود الكاذبة » .

وهكذا عاشت الامبراطورية العثمانية أربعة قرون ثم سقطت ، وكان عهدها في الغالب عهد ظلام ، وقد أسلمت العالم العربى الى الاستعمار الأوروبى ، بعد أن ضعف بنيانه وانهار كيانه ، وعندما تخلت تركيا عن مكانها القيادى اتجه قادتها الاتحاديون والكماليون الى الغرب متناسين هذا التاريخ الطويل الذى ربطها بالشرق وبالاسلام ، ومن المؤكد — كما قلنا من قبل — أن أى مسوت ينبعث في تركيا لإبعادها عن الاسلام وعن الفكر الاسلامى سيكون صرخة في واد ، فالشعب التركى عريق في إسلامه وفي تمسكه بسواه من الشعوب الاسلامية .



وانختم حديثنا عن تركيا بالدعاء أن تزدهر الحياة فيها ، وأن يحقق شعبها ما يطمح له من مجد وسؤدد ، في ظل الاسلام والتعاون الشامل مع الدول العربية والاسلامية .

مراجع البحث

ملاحظات:

- ١ — الكتب التي ستذكر في هذه القائمة هي فقط الكتب التي وردت في ذيل صفحات الكتاب ، أما الكتب التي أسهمت في هذا البحث بطريق غير مباشر فلم تثبت في هذه القائمة لكثرتها .
- ٢ — نظمت المراجع فيما يلي حسب الترتيب الأبجدي للاسم الذي اشتهر به المؤلف مع صرف النظر عن الملحقات (ابن — ابن —) .
- ١ — Encyclopaedia of Islam في عدة مقالات .
- ٢ — Encyclopaedia Britannica في عدة مقالات .
- ٣ — صحف ومجلات كثيرة .
- ٤ — وثائق رسمية ومعاهدات .
- ٥ — مقابلات شخصية لزعماء أسهموا في صنع التاريخ .
- ٦ — لقطات مما أذاعه الزعماء بالراديو أو بالتلفزيون .
- سيناء : الطبيعة والتاريخ والانسان والامل (دار الهلال يونيو ١٩٧١) .
- ٧ — الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) .
- ٩ — Cambridge Mediaeval History
- ١٠ — ابراهيم بن صالح : تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد .
- ١١ — ابراهيم طرخان : مصر في عهد دولة المماليك الشراكسة .
- ١٢ — أبو شامة : كتاب الروضتين في تاريخ الغولتين .
- ١٣ — أبو شامة : ذيل الروضتين .
- ١٤ — أبو الفدا : المختصر في اخبار البشر .
- ١٥ — أبو المحاسن بن تغري بردى : النجوم الزاهرة .
- ١٦ — أبو يوسف : الخراج .
- ١٧ — ابن أبي اصيبعة : عيون الأنباء .
- ١٨ — ابن الأثير : الكامل في التاريخ .
- ١٩ — Armstrong : مصطفى كمال : الذئب (الترجمة العربية) .

- ٢٠ — انفاجلوس بابا يوانو : دير طور سيناء (الترجمة العربية) .
 ٢١ — ابن ايلس : بدائع الزهور في وقائع الدهور .
 ٢٢ — أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث .
 ٢٣ — دكتور أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية « الاجزاء الأخرى » .
 ٢٤ — دكتور أحمد شلبي : السياسة والاقتصاد في الفكر الاسلامي .
 ٢٥ — دكتور أحمد شلبي : المجتمع الاسلامي .
 ٢٦ — دكتور أحمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية .
 ٢٧ — دكتور أحمد شلبي : تاريخ التشريع والقضاء في الاسلام .
 ٢٨ — دكتور أحمد شلبي : اليهودية «من سلسلة مقارنة الأديان» .
 ٢٩ — دكتور أحمد شلبي : المسيحية «من سلسلة مقارنة الأديان» .
 ٣٠ — دكتور أحمد شلبي : الاسلام «من سلسلة مقارنة الأديان» .
 ٣١ — دكتور أحمد شلبي : مصر في حربين .
 ٣٢ — دكتور أحمد شلبي : المكتبة الاسلامية لكل الأعمال (١٠٠ جزء) .
 ٣٣ — دكتور أحمد الصاوي : الصقلابية في اسبانيا .
 ٣٤ — أحمد عرابي : مذكرات أحمد عرابي .
 ٣٥ — الشيخ أحمد كاتب الشونة : تاريخ ملوك السودان .
 ٣٦ — أحمد النائب الأنصاري : المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب .
 ٣٧ — أنور الجندي : من اعلام الحرية في العالم العربي .
 ٣٨ — أنور الجندي : تاريخ الصحافة الاسلامية .
 ٣٩ — Midiâeval Europe : Emerton —
 ٤٠ — A Short History of the Fatimid Caliphate : O' Leory —
 ٤١ — The Art of War in the Middle Ages : Oman C. W. —
 ٤٢ — The Frist Crusade : August Krey —
 ٤٣ — The Legacy of Islam : Bsrker —
 ٤٤ — The Fall of Constantinople : Bear Edwin —
 ٤٥ — The Origin of Ismailism : (Dr.) Bernard Lewis —
 ٤٦ — The Emergence of Modern Turkey : Bernard Lewis —
 Religious of the World : Berry G. —

- ٤٧ — Burton Bernstein : سيناء ارض المعارك والتداسة
(الترجمة العربية) .
- ٤٨ — بل : مصر من الاسكندر حتى الفتح العربى
(الترجمة العربية) .
- ٤٩ — البلاذرى : فتوح البلدان .
- ٥٠ — البلوى : سيرة احمد بن طولون .
- ٥١ — History of Ethiopia, Nubia and Abyssinia : Budge. F. A.
- ٥٢ — The Arab Conquest of Egypt : Butler
- ٥٣ — The Caliphate : Thomas Arnold
- ٥٤ — الثعالبى : بيتية الدهر .
- ٥٥ — Turkistan Orient : Gelzer H.
- ٥٦ — The History of the Decline and Fall of the Roman Empire. Gibbon E.
- ٥٧ — الجبرى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار .
- ٥٨ — ابن جبير : الرحلة .
- ٥٩ — The Syrian Desert : Grant C. P.
- ٦٠ — Ghildren Crusade : Gray G. Z.
- ٦١ — The Jaws : James Hosmer
- ٦٢ — جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى .
- ٦٣ — جورجى زيدان : تاريخ مصر الحديث .
- ٦٤ — ابن حجر : الدرر الكامنة فى علماء المائة الثامنة .
- ٦٥ — دكتور حسن ابراهيم : الفاطميون فى مصر .
- ٦٦ — دكتور حسن ابراهيم : عمرو بن العاص .
- ٦٧ — دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام .
- ٦٨ — دكتور حسن ابراهيم ودكتور طه شرف : المعز لدين الله الفاطمى .
- ٦٩ — حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الاثرية بمصر .
- ٧٠ — دكتور حسن محمود : مصر فى عهد الطولونيين والاحشيديين .

- ٧١ — حسين سرى : بحث عن « الأعمال الهندسية والمنشآت العامة في عهد اسماعيل » نشرته وزارة المعارف المصرية في كتاب عن « عهد اسماعيل » سنة ١٩٤٥ .
- ٧٢ — حنا النقيوسى : تاريخ حنا النقيوسى .
- ٧٣ — ابن حوئل : صورة الأرض .
- ٧٤ — ابن خلدون : المقدمة .
- ٧٥ — ابن خلدون : العبر وحيوان المبتدا والخبر .
- ٧٦ — ابن خلكان : وفيات الأعيان .
- ٧٧ — خليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتي .
- ٧٨ — ابن الداية : سيرة احمد بن طولون .
- ٧٩ — الذهبي : دول الإسلام .
- ٨٠ — Suleiman the Magnificent : Roger Merriman
- ٨١ — زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامى .
- ٨٢ — دكتور زكى حسن : كنوز الفاطميين .
- ٨٣ — زكى شنودة : تاريخ الاقباط .
- ٨٤ — ساويرس « ابن المقفع » : سير الاءاء البطارقة .
- ٨٥ — Histoire Générale des Arabes : Sédilot L. B.
- ٨٦ — Muhammadan Dynasties : Stanley Lane -- Poole.
- ٨٧ — السخاوى : الضوء اللامع في علماء القرن التاسع .
- ٨٨ — Egypt in the Middle Ages : Stanley Lane -- Poole
- ٨٩ — ابن سعيد « على بن موسى » : المغرب في حلى المغرب والمشرق في حلى المشرق .
- ٩٠ — دكتور سعيد عاشور : العصر المماليكى في مصر والشام .
- ٩١ — دكتور سعيد عاشور : الحركة الصليبية .
- ٩٢ — دكتور سعيد عاشور : السيد احمد البدوى : شيخ وطريقة .
- ٩٣ — سعيد العريان وآخرون : تركيا والسياسة العربية .
- ٩٤ — دكتورة سيدة كاشف : مصر في عهد الولاة .

- ٩٥ — دكتورة سيدة كاشف : سيرة أحمد بن طولون .
- ٩٦ — السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة
- ٩٧ — السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة
- ٩٨ — السيوطي : قزوات قبرص ورودس .
- ٩٩ — شاهنشاه بن أيوب : ذيل النوادر .
- ١٠٠ — ابن شداد « بهاء الدين » : سيرة صلاح الدين .
- ١٠١ — شكيب أرسلان : حاضر العالم الاسلامي .
- ١٠٢ — الصندي : الوافي بالوفيات .
- ١٠٣ — طارق البشري : المسلمون والاقباط في السياسة المصرية
- ١٠٤ — الطبري : تاريخ الأمم والملوك .
- ١٠٥ — عباس العقاد : القائد الأعظم محمد علي جناح .
- ١٠٦ — عباس العقاد : بحث عن « الفتوح في عهد اسماعيل »
بالكتاب الذي نشرته وزارة المعارف
عن « عهد اسماعيل » .
- ١٠٧ — عثمان بن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد .
- ١٠٨ — ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب .
- ١٠٩ — عبد الحميد البطريق : الأمة العربية .
- ١١٠ — عبد الرحمن الراغب : تاريخ الحركة القومية .
- ١١١ — عبد الرحمن الراغب : مصر من عهد اسماعيل .
- ١١٢ — عبد الرحمن الراغب : في أعقاب الثورة .
- ١١٣ — عبد الحميد العبادي : علم التاريخ (مترجم) .
- ١١٤ — دكتور عبد الرحمن زكي : الشرق الأوسط .
- ١١٥ — دكتور عبد الرازق السنهوري : بحث عن « التعليم في عهد اسماعيل » .
- ١١٦ — دكتور عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية : دولة اسلامية مفترى عليها .
- ١١٧ — عبد اللطيف البغدادي : الافادة والاعتبار .
- ١١٨ — دكتور عبد النعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق .
- ١١٩ — دكتور عبد الوهاب عزام (ناشر) : مجالس السلطان الغوري .
- ١٢٠ — ابن العبري « أبو الفرج » : مختصر تاريخ الدول .

- ١٢١ — ابن عربشاه : عجائب المقدور في تاريخ تيمور .
 ١٢٢ — ابن عساكر : تاريخ دمشق .
 ١٢٣ — دكتور على ابراهيم : مصر في العصور الوسطى .
 ١٢٤ — دكتور على ابراهيم : جواهر الصقلى .
 ١٢٥ — عماد الدين الاصفهاني : تاريخ آل سلجوق .
 ١٢٦ — عماد الدين الاصفهاني : الفتح القيسى في الفتح القدسي .
 ١٢٧ — عمر الاسكندري وميجر سفدج : تاريخ مصر الى الفتح العثماني .
 ١٢٨ — عمر الاسكندري وميجر سفدج : تاريخ مصر من الفتح العثماني .
 ١٢٩ — العيني : عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان .
 ١٣٠ — الأتيا غرغوريوس : وثائق للتاريخ .
 ١٣١ — غوستاف لوبون : حضارة العرب .
 ١٣٢ — قدرى قلجى : صلاح الدين الايوبي .
 ١٣٣ — القنطى : اخبار العلماء باخبار الحكماء .
 ١٣٤ — ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق لالهلال الصلبي .
 ١٣٥ — القلقشندي : صبح الاعشى .
 ١٣٦ — ابن القيم : زاد المعاد .
 ١٣٧ — كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية .
 ١٣٨ — Caulbeaux : Hist, d' Abyssnie :
 ١٣٩ — Kirk : A Short History of the Middle East :
 ١٤٠ — كرومر : مذكرات كرومر .
 ١٤١ — الكندي : كتاب الولاة والقضاة .
 ١٤٢ — Syria : Lammance
 ١٤٣ — The Turkish Impire : Sir Mark Sykes
 ١٤٤ — مجير الدين : الانس الجليل .
 ١٤٥ — محبوب زيادة : الاسلام في السودان .
 ١٤٦ — دكتور محمد حامد فهمي : بحث عن « مركز مصر العولى في عهد اسماعيل » .
 ١٤٧ — محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني .
 ١٤٨ — محمد حبيب احمد : نهضة الشعوب الاسلامية .

- ١٤٩ — محمد حسنين هيكل : خريف الغضب .
- ١٥٠ — محمد حسنين هيكل : مذكرات في السياسة المصرية .
- ١٥١ — محمد الحسيني زخا : خلاصة تاريخ مصر الحديث .
- ١٥٢ — د. محمد حرب : مذكرات السلطان عبد الحميد (تحقيق) .
- ١٥٣ — محمد رفعت : بحث عن « مكانة مصر الدولية في عهد اسماعيل » .
- ١٥٤ — محمد شفيق غريال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية .
- ١٥٥ — محمد صبرى : تاريخ العصر الحديث .
- ١٥٦ — الشيخ محمد الصواف : المخططات الاستعمارية لكافة الاسلام .
- ١٥٧ — دكتور محمد ضياء الدين الرئيس : تاريخ الشرق العربى والخلافة العثمانية .
- ١٥٨ — دكتور محمد ضياء الدين الرئيس : فى التاريخ الاسلامى الحديث .
- ١٥٩ — دكتور محمد عامر : الممالك العربىون الذين لمعوا فى ميدان الفكر .
- ١٦٠ — محمد عبد الجواد : تقويم دار العلوم .
- ١٦١ — محمد بن عبد الله الانتصارى : تحفة المستفيد .
- ١٦٢ — محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله .
- ١٦٣ — محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية .
- ١٦٤ — دكتور محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان .
- ١٦٥ — محمد كرد على : خطط الشام .
- ١٦٦ — محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية .
- ١٦٧ — دكتور محمد المبارك : تركيب المجتمع السورى .
- ١٦٨ — دكتور محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة .
- ١٦٩ — محمد مصطفى عطا : مصر بين ثورتين .
- ١٧٠ — محمود أبو رية : جمال الدين الامغاني : تاريخه ورسالته ومبادئه .
- ١٧١ — محمود الشنيطى : قضية ليبيا .

- ١٧٢ — مصطفى السعدنى : الفكر الصهيونى .
- ١٧٣ — مصطفى صبرى (شيخ الاسلام) : الأسرار الخفية وراء الغشاء
الخلافة العثمانية .
- ١٧٤ — دكتور مصطفى صفوت : مصر المعاصرة .
- ١٧٥ — دكتور مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة .
- ١٧٦ — العلوف : تاريخ الأمير فخر الدين الثانى .
- ١٧٧ — المفريزى : السلوك .
- ١٧٨ — المقريزى : الخطط .
- ١٧٩ — المقريزى : اتعاظ الحنفاء (تحقيق الدكتور محمد
حلى) .
- ١٨٠ — A Short History of the Crusades : Mombert .
- ١٨١ — ابن الميسر : تاريخ مصر .
- ١٨٢ — نعوم شغبر : تاريخ سيناء .
- ١٨٣ — النعمى : الدارس فى تاريخ المدارس .
- ١٨٤ — النويرى : نهاية الأرب .
- ١٨٥ — History of the World : Hall H. R. .
- ١٨٦ — Kulturgeschichte der Kreuzzuge : Hans Prantz .
- ١٨٧ — Atlas of Islamic History : Harry Hazard .
- ١٨٨ — His. Générale : Henne - am Rhy's .
- ١٨٩ — History of the Arabs : Hitti Ph. .
- ١٩٠ — History of Syria : Hitti Ph. .
- ١٩١ — هرنشو : علم التاريخ (الترجمة العربية) .
- ١٩٢ — هلال الصابى : تاريخ دمشق .
- ١٩٣ — ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب .
- ١٩٤ — وايزمان : مذكرات وايزمان .
- ١٩٥ — Outline of History : Wells .

History of William al Tyre : William of Tyre — ١٩٦

١٩٧ — ياقوت : معجم الأدباء .

١٩٨ — ياقوت : معجم البلدان .

١٩٩ — يحيى بن آدم : الخراج .

٢٠٠ — يحيى بن سعيد : تاريخ يحيى بن سعيد .

٢٠١ — د. يوسف القرضاوى : الطول المستوردة .

فهرس الأعلام

ملاحظات:

- ١ — تحاشيا للاطالة لم أضين هذه الفهارس أسماء المؤلفين اكتفاء بورودها في ذيل صفحات الكتاب وفي قائمة المصادر والمراجع .
- ٢ — رتبته هذه الأسماء ترتيبا أبجديا مع عدم اعتبار الملاحظات (ابن — ال) ومع عدم اعتبار الألقاب (الملك — الخديوى — باشا — بك ...) .
- ٣ — حرف (م) يوضع بعد الرقم للدلالة على ان الاسم تكرر في الصفحة أكثر من مرة .

حرف الألف

أبو تمام ٧٥	أبهر الطبيب ٧٢
أبو الحسن الأخشيدي ١٠٨ ، ١١١	أبراهيم (سلطان عثمانى) ٨٣٢ ، ٨٧٢
أبو حنيفة ٨٨	أبراهيم باشا « الصدر الأعظم » ٤٠٥
أبو ركوة ١٣٩	أبراهيم باشا « ابن محمد على » ٢٧ ، ١٤٧ ، ٣٩٠ ، ٤٠١ ، ٨٨٥ ، ٤١٠ ، ٤٠٥
أبو طاهر الزهلى ١١٤	أبراهيم بن خمارويه ١٠١
أبو الطيب المتنبى ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٩	أبراهيم بن صالح العباسى ٤١ ، ٦٦
أبو العباس أحمد ٢٤٤	أبراهيم فرج باشا ٥٣٠
أبو عبيدة بن الجراح ٤٠	أبراهيم عبد الهادى ٥٠٣
أبو العساكر جيشى ٩٣	أبراهيم بن محمد « ابن الصوفى » ٩١
أبو العلا الحرفى ١٧٤	أبراهيم هنانو ٦٧٦
أبو داود الكندى ١١٥	أبراهيم الوردانى ٤٨٥
أبو فراس الحمدانى ١١٨	أبراهيم اليازجى ٦٧١
أبو القاسم (الخليفة العباسى بمصر) ٢٤٤	أبو اسحق المروزى ١١٥
أبو قرة ٥٦	أبو أيوب الأنصارى ٨٢٣ ، ٨٥٥
أبو المغنر بهرام ١٥٥	أبو بكر الصديق ٣٥
أبو موسى هارون ٩٤ ، ٩٥	أبو بكر بن الناصر محمد ٢٢٨
أبو نصر الفارابى ١١٨	
أبو الهدى الصيادى ٦٦٨	
أبو الهيجا بن عبد الله ١١٧	
أحمد الأول ٨٣٣ ، ٨٤٢	

أحمد الثاني ٨٣٤
 أحمد بن الأفضل ١٥٩ ، ١٦٠
 أحمد أمين ٥٣٤
 أحمد بن إينال ٢٣٠
 أحمد بن بلزید ٨٢٦
 أحمد باشا الجزائر ٣٢٥ — ٦٦٤
 أحمد خورشید باشا ٣٣٧
 أحمد زكي باشا ١٨٩
 أحمد زيور ٥٠٢
 أحمد الثيفري ٦٩٨
 أحمد شوقي ٥٣٤ ، ٨٩٦
 أحمد بن طولون ٣٠ ، ٤٠ ، ٥٥
 ٥٦ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٠
 ١٠٠ ، ١٠٣
 أحمد غرابي ٤٢١ ، ٤٧٠ — ٤٧٩
 أحمد عزت باشا ٦٦٨
 أحمد بن علي بن الأخشيدي ١١٣
 أحمد فؤاد الأول (الملك) ٤٩٣
 ٤٩٤
 أحمد فؤاد الثاني (الملك) ٣٩١
 أحمد بن كيفلغ ١٠١ ، ١٠٨
 أحمد ماهر ٥٢٢
 أحمد بن محمد بن المدير ٩٠
 أحمد بن محمد الواسطي ٩١
 أحمد بن محمد التميمي ١١٥
 أحمد بن المؤيد ٢٢٩
 أحمد بن الناصر محمد ٢٢٨
 أحمد بن يحيى التميمي ٧١
 الأخشيدي ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩
 أدریس بن عبد الله ٦٧
 آدموند الثاني ٤٣٨
 أدهمار ٧٣٢

أديب الشيشكلي ٦٨٠
 أسامة بن منتذ ٨٠٨
 اسحاق بن كنداج ٩٦ ، ٩٧
 أسعد العظم ٦٦١
 اسماعيل باشا (بن محمد علي)
 ٤٠٣
 اسماعيل (الخديوي) ابن إبراهيم
 ٤١٢ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤٣١
 ٨٩٩
 اسماعيل بن صالح ٣٣
 اسماعيل صبري ٤٨٤
 اسماعيل العظم ٦٦١
 اسماعيل بن لؤلؤ ١٧٠
 اسماعيل بن الناصر محمد ٢٢٨
 اسماعيل بن نور الدين ١٩٦
 ١٩٧ ، ٢٠١
 الأشرف بارتسبای ٢١٨ ، ٢٦٠ م
 ٢٧٢
 ازبك ٢٣٤
 أشرف جاتبلاط ٢٣٠
 الأشرف خليل ٢٢٧ ، ٢٥٣ ، ٧٩٠
 الأشرف قاتصوه الغوري ٢٢٠
 ٢٦٥
 الأشرف مظفر الدين موسى ٢٣٢
 الأشرف موسى ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨
 افتكين التركي ١٢٨ ، ١٦٥ ، ١٦٦
 الأفضل (الملك) ٧٦٥
 الأفضل بن بدر الجمالي ١٥٥
 ١٥٨ ، ١٥٩
 الأفضل بن صلاح الدين ٢٠٢
 ٢٠٣
 الأفضل محمد ٢٠٥
 الب أرسلان ٧٢٤

الفونس كونت بواتييه ٧٨٢
 الكسيوس كومتين ٧٢٥ ، ٧٢٦ ،
 ٧٣١
 الياس بن منصور ٩١
 أم كلثوم ٥٣٤
 أم ليث الدولة ٨٠٨
 الأمين ٦٧
 الأمر ٢٩ ، ١٥٤ ، ١٥٥
 أمين الحافظ ٦٨٢
 أنقوش نافع ٢٨١
 أنوجور (أبو القاسم) ١١١
 أنور بك ٨٩٥ ، ٨٩٦
 أوجانيوس ٧٤٥
 أوربان الثاني ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨
 أرخان بن عثمان ٨١٥
 أورهان حفيد سليمان ٨٢٠ ، ٨٣١
 أويسر باشا ٢٩٥ ، ٣٠٠
 أيبك ٢٣٢ ، ٢٥٩
 إسماعيل التركي ٣٤
 ابواز بك ٣٠١

 خرق القباء
 بك التركى ٨٩
 بليان دى ايسلين ٧٥٦
 بالطة جى محمد باشا ٨٧٢
 بلانزيد الاول ٢٥١ ، ٨١٦ ، ٨١٧ ،
 ٨١٨
 بلانزيد الثاني ٨٢٦ ، ٨٤٤
 البهتري ٧٥ ، ٧٦
 بدر الجمالى ٨١ ، ١٥١ ، ١٥٤ ،
 ١٦٠ ، ١٥٧
 بدر الدين لؤلؤ ١٧٠
 برانراند ٧٣٨

برجوان التركى ١٣٣ ، ١٣٩
 بركة خان بن بيبرس ٧٨٩
 برمسباى ٧٩١ ، ٧٩٢
 برقوق ٢١٩ ، ٢٣٣ ، ٢٤١
 برنارد (القديس) ٧٤٥
 برنارد لوييس (دكتور) ٩٢٦
 برويس ٢١٩
 البساسيرى ١٥٣م
 بسمارك ٨٨٦
 بشارة الخورى ٦٧٧ ، ٦٨٢
 بشير الشهابى ٤٠٧ ، ٦٦١ ،
 ٦٦٢ ، ٦٦٥
 بشير العظيمة ٦٨١
 بشير الجميل ٦٨٢ ، ٦٩٠
 بطرس الاكبر ٨٧٢ ، ٨٧٣ ، ٨٨٤ ،
 ٨٨٧
 بطرس غالى ٤٣٨ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥
 بطرس الناسك ٧٣٠
 بكار بن قتيبة ٩٨
 البكرى ٣١٠
 بلباي ٢٣٠
 بلغور ٧٠٤
 بنيلامين ٣٩
 بهروز ١٨٥
 بولدوين ٧٣٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٧ ،
 ٧٤١ ، ٧٥٠
 بولس ٧١٦
 بوهيموند ٧٣٢ ، ٧٣٤ ، ٧٣٧ ،
 ٧٤٦
 بيبرس الجاشنكير ٢٢٨
 بيرو ٦٧٨

حرف التاء

- تاج الملوك يورى ١٦٨
تنش ١٦٨
تنش بن الب ارسلان ٧٢٠ ، ٧٢١
تشرشل ٥٧٥
تشمبرلن ٥٠٧
تقى الدين عمر ١٩٥
تكين التركى ١٠١
توران شاه ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٣٢
توران شاه اخو صلاح الدين ٧٧٦
٧٨١ ، ٧٨٢
توفيق (الخديوى) ٤٧٠ ، ٤٧١
٤٧٢
توفيق نسيم ٥٠٢
تيمور بفا ٢٣٠
تيمور لك ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٥١
٨١٧
تيودورز ٤٢

حرف التاء

- ثروت باشا ٥٠٧
ثوبان بن ابراهيم المصرى « نو
النون » ٧٢

حرف الجيم

- جان بردى غزالى ٢٦٥ ، ٦٥٧
الجداوى ٣١٠
الجرجرائى ١٤٩
جركس ٣٠١
جريجورى السابع ٧٢٥ ، ٧٢٦
جعفر البرمكى ٣٣ ، ٤١
جعفر الصادق ١٥٢ ، ٧١٠

جعفر بن الفضل بن الفرات ١١١٣ ،
١١٥

- جعفر بن فلاح ١٦٤ ، ١٦٥
جقيق ٧٩٢
جلال بليار ٩٢٥
جم بن محمد الفاتح ٨٢٦ ، ٨٢٤
جمال جورسيل ٩٢٦
جمال عبد الناصر ٣٨٧ ، ٣٩٨
٥٣٦ ، ٥٤٢ ، ٥٧٦ ، ٥٩٠
٥٩٤ ، ٨٩٧ ، ٩١٦
جمال الدين الاغفتلى ٤٣٩ ، ٤٤٠ ،
٤٥٠ ، ٩٠٧
جنكيز خان ٢٤٦ ، ٨١٥ ، ٨١٧
جودت سوناي ٩٢٥
جوردون ٤٨١
جودفرى ٧٣٢ ، ٧٣٧ ، ٧٤١
جولدا ماير ٥٥٧
جوهر الصنتلى ١٢٣ ، ١٢٤

حرف الحاء

- ابن الحاجب ٦٤١
حاجى بن شعبان ٢٣٣
حاجى بن الناصر محمد ٢٢٨
حافظ ابراهيم ٥٣٤ ، ٦٦٩
حافظ الاسد ٦٨٢ ، ٦٨٨
حافظ رمضان ٥٢٠
الحاكم بامر الله ١٢٢ ، ١٣٣
١٣٦ ، ١٣٨ ، ٦٣٢ ، ٧٠٩
٧٢٠
ابن الحرفوش ٦٥٧
حسام الدين بن على ٧٧٦
الحسن بن احمد القرمطى ١٦٥ ،
١٦٦

حرف الخاء

خالد العظم ٦٨١
خالد بن الوليد ٤٠ ، ٦٤٧
خسرو باشا ٢٣٧ م ، ٤٠٧ ، ٨٥١
خشقدم ٢٣٠
خليل بن قلاوون ٢٣٠
خليل مطران ٥٣٤
خملرويه ٩٠ م ، ٩٢ م ، ٩٣ م
٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٣ ، ٢٢٢
خورشيد باشا ٣٦٩
خوشيار ٤٧٥
خير بك ٢٦٥ ، ٢٩٨
خير الدين برباروس ٨٢٩

حرف الدال

دانتي ١٧٥
داود يكن ٤٧١
دحية بن مصعب ٦٦
دزرائيلي ٨٨٦
دقاق بن الب أرسلان ٨٢٠
دقاق بن تنتنس ١٦٨
دقلديانوس ٢٥٧
الدمهوري ٢٨٢
دوقرين (اللورد) ٤٧٧
ديجول ٦٧٦
ديليسبس ٤٧٣ ، ٤٧٤

حرف الذا

ابن فكرويه ٩٤
ذو التون ٧٢ ، ٧٣

حرف الراء

راشد الدين سنن ١٩٣
رالف ستيفنسن ٥٣٦

الحسين بن رشيق المصري ١١٥

الحسين بن الحافظ ١٥٥
حسن صبرى ٥١٧
الحسن بن عبيد الله بن طنج ١١٣
الحسن بن على بن ابي طالب ١٥٢
حسن بن مرعى ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٨٣
حسن بن الناصر محمد ٢٤٠
حسن نجات ٥٢٢
الحسن بن الهيثم ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٧٣

الحسن اليازورى ١٥٠
حسنى الزعيم ٦٨٠
الحسين بن احمد الزرافى ١٠٢
الحسين بن جوهر ١٣٦
حسن (الملك) ٦٦٦ ، ٦٦٧
حسن (الشريف) ٦٧٢ ، ٦٧٤
الحسين بن ابي زوعة ١١٤
حسن رشدى باشا ٤٣٧
حسن سرى ٥٠٣ ، ٥٢٢
حسن شفت ٣٦٨
الحسين بن على بن ابي طالب ١٥٢
الحسين بن على بن النعمان ١٣٦ ، ١٣٩

حسين المرمى ٤٢٥
حسين كامل ٤٩٣
حفص بن الوليد ٣٣
الحكم بن قيس ٢٣
الحكم بن مسلم ٤٠٠
حمد الباسل ٤٩٧

حمدان بن حيدون ١١٧
حمزة بن احمد ١٤٥
حميد بن تحفة ٦٦
احمد الحننى ٦٥٧
حيدر الشهابى ٦٥٨

سلي بن الحارث ٦٨٠
 سلويزس ٥٥
 ست الملك ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٤٠ ،
 ١٤١ ، ١٤٩
 ستيفن ٧٦٨
 سرج الغول ٧٧
 السري بن الحكم ٣٦ م ، ٦٧ ، ٨٦
 سعد الدولة ١١٨
 سعد الله الجبيري ٦٧٧
 سعد زغلول ٢٨٦ ، ٤٣٧ ، ٤٨٧ ،
 ٤٩٧ ، ٥٢١ ، ٥٢٧
 سعيد همدان ١١٧
 سعيد الدولة ١١٨
 سعيد بن يزيد ٦٥
 سيف الدولة ١١٧ ، ١١٨
 سعيد نسيخ المصايح النعشبندي
 ٨٩٧
 سعيد بن محمد علي ٣٩١ ، ٤١١ م
 سفيان الثوري ٧٤
 ابن السلاد ١٦١
 سلامش بن بييرس ٧٨٩
 سايم (السلطان) ٢٦٣ ، ٢٦٥ م ،
 ٨٢٦ ، ٨٢٧
 سليمان الثاني بن إبراهيم ٨٣٤
 سليمان باشا « ابو ليلى » ٢٩٩ ،
 ٨٩١
 سليمان بن بلزيد ٨١٨
 سليمان تيميرل ٩٢٩
 سليمان بن الحافظ ١٥٥
 سليمان الحلبي ٣٢٧ ، ٣٧٠
 سليمان القانوني ٢٨٥ ، ٢٩٩ ،
 ٨٢٧ ، ٨٢٨ ، ٨٤١ ، ٨٥٥ ،
 ٨٦١ ، ٨٦٩

ابن رائق ١٠١ ، ١٠٩ م
 رجاء بن أبي الحسين ١٣٩
 رجند ٧٥١ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤
 رزيق بن طلائع ١٥٦
 رشيد باشا ٤٠٧
 رشيد الدولة بن شبل الدولة ١٦٧
 رشيد رضا ٩٢١
 رضوان بن تقي بن الب ارسلان
 ٧٢٠
 رضوان بك كنفدا ٣٠٣ ، ٣٠٧
 رضوان بك الولخشي ١٥٥ ، ١٦٠ ،
 ١٦١
 رقاعة الطهطاوي ٤٥٦
 رفقى باشا ٤٧١
 روبرت كونت ارغوا ٧٨٠ ، ٧٨١
 روجر باكون ١٧٣
 رومانس الرابع ٧٢٥
 روف دنكاش ٦٣٨
 رياض الصلح ٤٣٦ ، ٤٨٤
 ريتشارد طلب الاسد ٣٦٠ ، ٣٦٠ ،
 ٧٦١ ، ٧٦٢ ، ٧٦١
 ريموند الرابع ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٣٢ ،
 ٧٣٣ ، ٧٣٧

هرف الزاي

زكا الروسي ١٠١
 زيد الحريري ٦٨٢
 ابن زولاقي ١٨٣

هرف المين

السلادات (الشيخ) ٥٧٣
 ساسي البارودي ٤٧١

سليمان بن محمد بن مصال ١٥٥
 سليمان فرنجية ٦٨٣
 سليمان الفرنساوى ٣٩٢ م
 سليمان النابلسى ٦٩٧
 سنان باشا ٢٩٩ ، ٨٨٣
 منجر بن ملكشاه ٧٢٠
 سولسبرى ٤٧٨
 سويلم بن حبيب ٣٠٤
 سيد قطب ٥٥٣
 سيف الدولة ١١٧ ، ١١٩
 سيف الدين ايفال ٢٣٠
 سيف الدين غازى ١٦٩ ، ١٩٦
 سيف الدين ططر ٢٢٩
 سيكو تورى ٥٩٦
 سينوت حنا ٤٩٩
 سيمانون ٢٥٨ م

حرف الثنين

شادى (جد صلاح الدين) ١٨٥
 شارل حلو ٦٨٣
 شارل كونت آنجو ٧٨٢
 شارلمان ٧١٤
 شاشنق ٢٥٣
 الشافعى « الايام » ٧٠١
 شاور بن بجير ١٥٦ ، ١٦٢ ، ١٨٧
 شبل الدولة ١٦٧
 شجرة الدر ٢٠٣ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ م
 ٧٨٠ ، ٧٨٤ ، ٧٨٥
 شرحيل ٦٤٧
 شرف الدين عيسى ٢٠٦
 شريف باشا ٤٣٣ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ،
 ٤٤٠

شعبان بن حسن ٢٢٩
 شعبان بن الناصر محمد ٢٢٨
 شفيق غريال ٤٩٢
 شكرى الأيوبى ٦٧٤
 شكرى القوطى ٦٧٧ ، ٦٨٠
 شكرى بن مرمى ٢٦٦
 شكدة ٢٥٧
 شكيب ارسلان ١٤٨
 شمس الدين الدمشقى ١٩٦
 شمس الملوك اسماعيل ٨٠٩
 شهاب الدين محمود ١٦٨
 شيبان بن احمد بن طولون ٩٥
 شيركوه ١٥٦ م ، ١٦٢ ، ٧٤٧

حرف الصاد

الصالح اسماعيل ٢٠٦ ، ٧٧٦ ،
 ٧٧٧
 صالح بن على ٣٨
 صالح بن مرداس ١٦٧ ، ١٧٤
 صالح بن الناصر محمد ٢٢٨
 الصالح نجم الدين ايوب ٢٠٦ ،
 ٧٧٦ ، ٧٧٨ ، ٧٨٥
 صالح القاسمى ٣٠٤ ، ٣٠٨
 صبرى العسلى ٦٨٠
 صدقى ٤٦٧ ، ٤٨٢
 صلاح الدين الايوبى ١٥٦ ، ١٦٢ م ،
 ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٨٥ — ٢٠٣
 ٢٢٤ ، ٢٧٤ ، ٦٣٦ ،
 ٧٤٧ — ٧٦٢ ، ٧٧٣ ، ٧٨٧ ،
 ٨٠٦ — ٨٠٨
 صلاح البيطار ٦٨٢
 صلاح الدين بن حاجى ٢٢٩

حرف الفصاد

ضرغام بن عامر ١٥٦ ، ١٦٢

حرف الطاء

طاهر باثنا ٣٣٧ م

طاهر بن الحسين ٤١

طنج أبو الاخشيد ١٠٧

طلال « الملك » ٦٦٦

طلانج بن رزيك ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٦٢

٧٤٣ ، ١٨١ ، ١٦٢

طلعت حرب ٥٣٠

طه حسين ٥٣٤

طوسون ٤٠١

طوغتكين ١٦٨ ، ٧٣٨

طويمای باي ٢٦٥ م ، ٣٦٦

حرف الظاء

الظاهر ١٦١

الظاهر ببيرس ٢١٥ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥

٢٥٣ ، ٢٤٤ ، ٢٣٥

الظاهر بن الحاكم بأمر الله ١٤٣ ، ٧٢١ ، ٧٢٠

ظاهر العمر ٣٠٩ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٨٩٠

٨٩٠

الظاهر بن صلاح الدين ٢٠٢

الظاهر قنصوه الأشرفي ٢٣٠

حرف العين

الملك المائل ٧٦٥ ، ٧٦٨ ، ٧٦٩ ، ٧٧٧ ، ٧٧٥

المائل سيف الدين ١٩٦

الماضد ١٥٦ وما بعدها

عائشة (السيدة) ١٣٨

عباس شاه ٨٨٩

عباس العقاد ٥٣٤

عبد الحكيم عامر ٥٨٩ ، ٥٩٣

عبد الحميد الأول ٨٣٤

عبد الحميد الثاني ٨٣٦ وما بعدها

عبد الخالق ثروت ٤٩٩

عبد الرحمن بن عمر (الأوزاعي) ٧٤

عبد الرحمن الكواكبي ٦٧١

عبد الرحمن الناصر ٨٤٠

عبد الشهيد بطرس ٤٧٤

عبد الصمد بن علي ٣٣

عبد العزيز (السلطان) ٨٣٥ ، ٨٣٦

عبد العزيز بن برقوق ٢٢٩

عبد العزيز الجارود ٦٧

عبد العزيز فهمي ٥٢١

عبد العزيز مروان ٣٢ ، ٣٧

عبد الغني الدهيان ٦٨١

عبد الفتاح حسن ٥٢٩ ، ٥٣٣

عبد الفتاح يحيى ٥٠٣

عبد الكريم زهر الدين ٦٨١

عبد الكريم تاج الدين ٦٨١

عبد الكريم النحلاوي ٦٨١

عبد الله برشنبو ٢٥٩

عبد الله الجزار ٤٠٦

عبد الله بن الرشيد ٨٩

عبد الله بن سعيد بن أبي سرح

٣٥ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٢٥٥

عبد الله بن طاهر بن الحسين ٦٨

عبد الله بن عبد الملك ٣٧ ، ٣٨

عبد الله بن علي ٦٩

عبد المجيد الأول ٨٢٥

عبد المجيد بن عبد العزيز ٨٣٢ ، ٨٩٦

عبد الملك بن صالح ٤١ ، ٣٣
عبد الملك بن مروان بن موسى بن
نصير ٣٣
عبد الملك بن هشام ٧٢
عبد الملك بن يزيد الخراساني ٣٣
عبد الوهاب بن ابراهيم الامام ٤١
عتبة بن ابي سفيان ٣٢
عثمان ذو الفقار ٣٠٢ ، ٣٠٣
عثمان بك البرقيسي ٣٣٦ م
عثمان بن سعيد (ورث) ٥٣ ، ٧١
عثمان الاول ٨١٤ ، ٨١٥ ، ٨٤١
عثمان الثاني ٨٣٣
عثمان الثالث ٨٣٤
عدلى يكن ٥٢٨
عدنان مندريس ٨٤١
عز الدين ابيك ٧٨٥
عز الدين بن مسعود الاول ١٦٩
العزیز عثمان ٢٠٦
العزیز غياث الدين ٢٠٧
العزیز بن صلاح الدين ٢٠٢ ، ٧٦٥
العزیز بالله الفاطمي ١٢٩ ، ١٦٥ ،
١٦٦
العزیز بن الظاهر ٢٠٤
عزة النص ٦٨١
عصمت اينونو ٩٢٤
علاء الدين بن قلاوون ٢٣٩
علاء الدين السلجوقي ٨١٤ ، ٨١٥
على بن ابي طالب ٣٤ ، ٤٩ ، ٦٤ ،
٦٥ ، ٦٧ ، ٩١ ، ١٤٦ ،
٧١١
على بن اماجور ٨٩
على بن ابيك ٢٢٧

حرف الفين

غلاب بن مالك ١٣٩
غوث بن سليمان ٦٢
الغوري « السلطان » ٢٢٠ ، ٢٦٥
غورو ٦٥٣

غى ده لوسيان ٧٥١ ، ٧٦١

حرف القاء

غاتك الرومى ١١٤

غاريس الخورى ٦٨٠

غاروق « الملك » ٥٩٤ وما بعدها

ناسكو دى جاما ٢٦١

الفائز ١٥٦ ، ١٦٢

غناير رفاعى ٦٨١

فتح الله بركات ٣٣

مخير الدين المعنى الاول ٦٥٨ ،

٨٩٠

مخير الدين المعنى الثانى ٦٥٨ ،

٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٨٩٠

مخير الدين بن لقمان ٢٣١

مخيرى عمر ٦٨١

مخروخشا داود ٧٥٠

ميرج بن برقوق ٢٥١

ميرزور ٣٩٠

مرديناند ديلسبيس ٤٧٣ ، ٤٧٤

مردريك بارباروسا ٧٦١ ، ٧٧٢ ،

٧٧٣ ، ٧٧٤ ، ٧٧٥ ، ٧٩٣

مردريك الثانى ٧٧٢ ، ٧٧٣ ، ٧٧٤

الفضل بن صالح ٦٦ ، ١٣٩

فنون ٨٠٨

فؤاد شهاب ٦٨٣

فولتير ٨٢٥

فيصل الاناسى ٦٨٠

فيصل بن الشريف حسين ٦٧٢ ،

٦٧٣

فيليب اوغسطس ٧٦٠ ، ٧٦١

الفيومى ٣١٧

حرف القاف

قايتباي ٢٢٤ ، ٢٤١ ، ٢٩٨

قاسم زعيم القاسمية ٢٩٥

قيودان باشا ٨٥١

قره صو اليهودى ٩١٤

قراقوش ١٩٩

قرة مصطفى باشا ٣٠٠

قرة بن شريك ٣٨

قسطنطين ٥٦٣ ، ٨٢٠

قطب الدين مودود ١٦٩

قطر الندى ٩٣

قطنز ٢٢٣ ، ٢٣٥ ، ٧٨٥

قلاون ٢٢٦ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٥١ ،

٧٨٩ ، ٧٩٠

حرف الكاف

كاثرينا « الملكة » ٧١١ ، ٧٢٤

كافور الاختيديدى ١٠٨ ، ١١٢ ، ١١٥

الكامل « الملك » ٧٦٩ ، ٧٧١ ،

٧٧٢ ، ٧٧٣ ، ٧٧٥ ، ٧٧٦

كاتبغا ٢٢٨

كاشنر ٤٨٦

كاچيك ٢٢٨

كرنيس ٢٥٨ ، ٢٥٩

كرومر ٤٢٦ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٦٥

كليس ٣٢٥

كميل شمعون ٦٨٣

كمشتكين ١٩٦ ، ١٩٧

كتراد ٧٤٥

كفر الدولة بن شجاع ١٩٣ ، ٢٥٩

كوباريللى ٨٨٠ ، ٨٨١

كورنچتون ٤٠٥ ، ٨٨٥

كوتشك باشا ٦٦٠

مصطفى فوزى ٥٥٧
 محمود بن ملكشاه ٧٢٠
 مدحت (أبو الدستور) ٨٩٨ ، ٩٠٩
 وما بعدها
 مراد الأول ٨١٥
 مراد الثاني ٨١٩
 مراد الثالث ٨٣٣ ، ٨٧٣
 مراد الرابع ٨٣٣
 مراد الخامس ٨٣٥ ، ٨٦٧ ، ٨٩٩
 مراد بك ٣١٠ ، ٣١٣
 مراد بن أورخان ٨٣١
 مروان بن محمد ٣٨ ، ٦٦
 مزاحم بن خاتان ٣٤
 المستعلى ١٥٥ وما بعدها
 المستنصر ١٤٩ وما بعدها
 مسعود بن غياث السلوقي ١٨٥ ،
 ١٨٦
 مسلمة بن مخلد ٣٧
 مسلمة بن عبد الملك ٨٢٣
 ابن مصال ١٦١
 مصطفى الأول ٨٣٣ ، ٨٤٢
 مصطفى الثاني ٨٣٤
 مصطفى الثالث ٨٣٤
 مصطفى الرابع ٨٣٥ ، ٨٦٧
 مصطفى باشا ٣٢٥
 مصطفى صبرى (شيخ الاسلام)
 ٩١١
 مصطفى غهمى باشا ٤٥٥ ، ٤٨٣
 ٤٨٤
 مصطفى كامل ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٤٨٤
 ٥١٩ ، ٥٢٠
 مصطفى كمال « أتاتورك » ٨٩٤ ،
 ٨٩٥ ، ٨٩٦ ، ٨٩٨ ، ٩١٨
 ٩٢٠ وما بعدها
 مصطفى مرعى ٥٢٩
 مصطفى الخامس باشا ٣٨٥ ،
 ٤٩٦ ، ٥٢١ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤
 مطر مؤنى المنصور ٣٣
 المظفر الأول تقى الدين ٢٠٥ ،
 ٢٠٧
 المظفر الثاني محمود ٢٠٥ ، ٢٠٧
 المظفر الثالث ٢٠٥ ، ٢٠٧
 معاوية بن أبى سفيان ٦٤ ، ٦٨
 المعتصم ٣٤٩ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٦٩ ،
 ١٠٧ ، ١٢٤
 المعتضد ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ،
 ١٠١ ، ١٢٤
 المعتد ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٥ ، ٩٦
 معروف الدواليبى ٦٨١
 معز الدين سنجير شاه ١٧٠
 المعز لدين الله الفاطمى ١٢٢ —
 ١٢٨ ، ١٧٤ — ١٨٠
 المعز بن باديس ١٥٣
 معين الدين انر ٧٤٧
 المعظم عيسى ٢٠٤
 المغوض بن المعتد ٩٦
 المقوقس ٥٩ ، ٦٠
 المكتفى ٩٥ ، ٩٧ ، ١٠١
 مكرم عبيد ٤٩٩ ، ٥٢٢
 ملحم بن يونس ٦٦١
 ملكشاه ٧٢٠
 ملنر ٤٩٨
 منشا اليهودى ١٣٢
 المنصور الأول ٢٠٥

مصطفى فوزى ٥٥٧
 محمود بن ملكشاه ٧٢٠
 مدحت (أبو الدستور) ٨٩٨ ، ٩٠٩
 وما بعدها
 مراد الأول ٨١٥
 مراد الثاني ٨١٩
 مراد الثالث ٨٣٣ ، ٨٧٣
 مراد الرابع ٨٣٣
 مراد الخامس ٨٣٥ ، ٨٦٧ ، ٨٩٩
 مراد بك ٣١٠ ، ٣١٣
 مراد بن أورخان ٨٣١
 مروان بن محمد ٣٨ ، ٦٦
 مزاحم بن خاتان ٣٤
 المستعلى ١٥٥ وما بعدها
 المستنصر ١٤٩ وما بعدها
 مسعود بن غياث السلوقي ١٨٥ ،
 ١٨٦
 مسلمة بن مخلد ٣٧
 مسلمة بن عبد الملك ٨٢٣
 ابن مصال ١٦١
 مصطفى الأول ٨٣٣ ، ٨٤٢
 مصطفى الثاني ٨٣٤
 مصطفى الثالث ٨٣٤
 مصطفى الرابع ٨٣٥ ، ٨٦٧
 مصطفى باشا ٣٢٥
 مصطفى صبرى (شيخ الاسلام)
 ٩١١
 مصطفى غهمى باشا ٤٥٥ ، ٤٨٣
 ٤٨٤
 مصطفى كامل ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٤٨٤
 ٥١٩ ، ٥٢٠

نفيسة بنت الحسن بن علي ٦٧
نلسن ٢١٩
نويل باشا ٤٣٥م ، ٤٨٤
نوح بن أسد الساماني ٨٧
نور الدين الأتاسي ٦٨٢
نور الدين أرسلان ١٦٩
نور الدين زنكي ١٦٢ ، ١٦٩ ، ١٧١
١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ٢١٠
٧٤٣ ، ٧٤٨

حرف الهاء

هارون الرشيد ٤٠٠ ، ٤٢٣
هارون بن خمارويه ٨٧
هاشم الأتاسي ٦٨٠
أبن هاشم الأتاسي ١٥٨
هتار ٥٠٨ ، ٥٠٩
هربرت صموئيل ٦٥٤
هرثة بن أمين ٣٣
هشام بن عبد الملك ٥٥
هكس باشا ٤٨١
همام بن يوسف ٣٠٤م
هندرسون ٥٠٨
هربرت أبري ٩١٧
هنري السادس ٧٦٤ ، ٧٦٥
هنري مكماهون ٦٧٢
هنري الملاح ٨٢٦
هولاكو ٢٣٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٨١٥
٨١٧
هونوريوس الثالث ٧٦٩

حرف الواو

ولسن ٤٨٢
وليم جوردان ٧٣٨

المنصور الثاني ٢٠٥ ، ٢٠٧
المنصور إبراهيم ٢٠٥
المنصور بن العزيز ٢٠٢ ، ٢٠٥
بهيب هندي ٦٨١
نومني بن بلزيد ٦٧٣ ، ٦٧٣
٦٨٧
الموفق ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٦ ، ٩٧
٢٢٤

موفق عصامة ٦٨١
المؤيد أبو الفدا ٢٠٣ ، ٢٠٥
المؤيد شيخ ٢٢٩
مؤسى بن عيسى بن موسى ٢٨
ميخائيل السابع ٧٢٤ ، ٧٢٥
السلطان ميسور ٩٣٤

حرف القون

نابليون بونابرت ٢٦٠ ، ٢١٣
٨٨٥
نزار المستنصر ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩
الناصر داود ٢٠٤ ، ٢٠٦
الناصر كلج أرسلان ٢٠٧
الناصر محمد بن قلاوون ٢٢٨
٢٢٩ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٧٩١
ناصر خسرو ١٥٢م
ناصر الدولة الحمداني ١٥١م
ناظم القدسي ٦٨١
نصر بن عباس ١٦١
نجم الدين أريكان ٩٢٨
نجم الدين أيوب ١٨٥ ، ١٨٦
١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٢٦
نجيب الريحاني ٥٣٤
نجيب الهاللي ٥١٥
نظام الملك ١٧١

يوسف زعين ٦٨٢
يوسف العظيمة ٦٧٦
يوسف وهبة ٥٠٢
يوسف وهبي ٥٣٤
يوليوس قيصر ٤٢
يوهان كيلر ١٧٣

حرف الياء

يحيى ابراهيم ٥٠٢
يزيد بن حاتم ٣٣
يزيد بن ابي سفيان ٦٤٧
يعقوب بن كلس ١٠٦ ، ١٥٦
يوحنا القديس ٨٢٩
يوحنا النحوي ٤٣

فهرس الأمكنة

لم أضمن هذا الفهرس الكلمات الآتية : مصر — القاهرة — سوريا ،
لكثرة ورود هذه الكلمات في أكثر الصفحات بما لا يجعل ذكرها مفيداً للكاشف .

حرف الألف

آسيا الصغرى ٢٢٥ ، ٧١٥ —
٧٤٥ ، ٨١٣ ، ٨١٤ ، ٨١٦ ،
٨١٧ ، ٨١٨ ، ٨٢١
أترنتو ٨٢٥
أدرنة ٤٠٥ ، ٨٢٤ ، ٨٥٠ ، ٨٥١
أدنة ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٩٢٦
أفريجيان ١٨٥
الأردن ٨٩٢
أرمينية ٢٨١ ، ٨٨٦ — ٨٩٨
أرسوف ٧٨٧
أرضوم ٩٢٨
أزمير ٢٥١ ، ٨٩٣ ، ٨٩٥ ، ٩٢٦
اسبانيا ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٩٦
استانبول « الاستانة » ٢٣٦ —
٣٣٧ ، ٣٤١ ، ٤٥٣ ،
٨٢٠ — ٨٢١ ، ٨٥٠ — ٨٥٧
٨٩٣
أسكندرون ٩٢٩ ، ٩٣٠ ، ٩٣١
الأسكندرية ٨٧٥
أسوان ٩١ ، ٢٥٦ ، ٣٠٩ ، ٨٢٩
اثثة ٩٣٤
أقريطش ٤٠٥
الأشهر ٨١٦
ألبانيا ٨٨٢ ، ٨٨٩
أم رشرش (أيلات) ٥٥٤
أمريكا ٥٨٥

الاناضول ٧١٨ ، ٧٢٣ ، ٧٢٧

انجلترا ٨٧٨ ، ٨٧٩ ، ٩١٣

الانطلس ٧٢ ، ٧٥ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ،
٧٢٢

اندونيسيا ٢٠ ، ٢٦١ ، ٧٦٦

انطاكيا ٧٤ ، ٩١ ، ٢٥٣ ، ٧٣٣ ،

٧٣٤ ، ٧٣٧ ، ٧٣٨ ، ٧٤١ ،

٧٤٦ ، ٧٨٨ ، ٨٠٤

أنقرة ٢٥١ — ٨١٥ — ٨١٧ —

٨١٨ — ٩٢٦

أسيه ٨٨٩

أيران ٢٠ — ١٤٥ — ٤٤٨ — ٤٥٣

إيطاليا ٤٨٢ — ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٦٧ ،
٩١٣

حرف الباء

بابليون (حصن) ٥٩ ، ٧٧ ، ٨٠
باريس ٤٤٨
باتياس
البجة ٧٤
بريرة ٤١٩ ، ٤٨٢
البرتغال ٣١٣
برقة ٩١
برلين ٨٨٦
بروسه ٢٥١ ، ٨١٥
بروسيا ٨٨٥
بريمة ٨٩٢

البشناق ٨١٦

بعلبك ٧٤ ، ٩٤ ، ٢٠٢ ، ٦٥٤
بغداد ٢٩ ، ٧٦ ، ٨٥ ، ٩٢ ، ٩٧ ،
١٠٧ ، ١١٨ ، ١٥٣ ، ٢٢٣ ،
٢٣٥ ، ٢٤٤ ، ٢٥١ ، ٦٣٢

٨٢٨

البياع ٦٥٤ ي

بليبيس ٤٩ ، ٥٥ ، ١٨٨

بلغاريا ٦٠١

بلغراد ٨٢٨

بلقان ٨١٦ — ٨٢٢

بمباي ٢٦٣

بنران ٨٧٨ ، ٨٨٤

البندقية ٢٦٣ ، ٨٧٦ ، ٨٨٣

بواتيه ٧٢٧

بودابست ٨٢٩

بروسه ٨١٥

البوستة ٨٨٢

بولاق ٢٨٣ ، ٢٠٥ ، ٣٩٣

بولندا ٨٧٦ ، ٨٨٣

بيت المقدس ٢٣٦ ، ٢٥٣ ، ٨٠٦

بيروت ٤٠ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٦٥٤

بيزنطة ١٥٢

حرف القاء

تراقية ٨٨٩ ، ٨٩٥

ترانسلفانيا ٨٨٤

تركستان ٨٧ ، ٢١٧ ، ٢٢٥

تركيا ٧٠٨ ، ٨٢٧ ، ٨٧٦

تكريت ١٨٦

الثل الكبير ٤٧٣ ، ٤٧٤

تئيس ٣٩ ، ٧٤

تورز ٧٢٧

تولوز ٧٢٧

تونس ٩١ ، ١٠٢ ، ١٩٨ ، ٧٤٨ ،

٧٨٣ ، ٨٨٣ ، ٨٩٢

تيران ٥٥٤ ، ٥٥٦

حرف الجيم

جبل الدروز ٧٠٧

جبل طوروس ٦٦٢

جبل الطويين ٦٥٦

جدة ٧٤

جديلة ٧٧٩ ، ٧٨٠

جزيرة المورة ٤٠٥

الجزائر ٢٩١ ، ٨٧٣ ، ٨٩١

جنوة ٧١٨ ، ٧٢٧ ، ٧٤٠

جولان ٥٨٤

حرف الحاء

حاصبيا ٦٥٤

الحشة ٧٤ ، ٨٥ ، ١٠٧ ، ١٥٣ ،

١٩٨ ، ٤٠٧ ، ٧٤٨ ، ٧٦٩ ،

٨٠٥ ، ٨٢٦

حران ٧٤

حزرموت ١٥٢

حطين ٧٥١ ، ٧٥٢ ، ٧٥٥

حطب ٤٠ ، ٥١ ، ٧٦ ، ١٠٩ ،

١١٧ ، ١٤٥ ، ١٦١ ، ١٦٦ ،

١٩٦ ، ٢٣٢ ، ٢٤٦ ، ٢٥١ ،

٢١٨ ، ٤٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٢٠ ،

٧٢١ ، ٧٤٣ ، ٧٥١ ، ٨٧٥ ،

طوان ٣٧ ، ٧٨

حماه ٩٤ ، ٢٠٢ ، ٢٤٦

حصص ٧٥ ، ٩٤ ، ٢٠٢ ، ٢٥١ ،

٤٠٦ ، ٧٤٩

حرف الراء

رامس نصراني ٥٥٤
 راشيا ٦٥٤
 رشيد ٤٨ ، ٣٠٥ ، ٣٩٠
 الرقة ٩٦ .
 الرملة ١٦٥ ، ٧٤٣ ، ٧٥٠ ، ٧٦٣
 الرما ٧٤ ، ٧٢١ ، ٧٣٢ ، ٧٣٧
 ٧٤٥ ، ٧٤٦ ، ٧٦١
 روفس ٢٦٠ ، ٧٩١ ، ٧٩٢
 روسيا ٧١٠ ، ٨٧٦ ، ٨٧٧ ، ٨٧٩
 ٨٨٣
 روما ٧١٧
 الريذانية ٢٦٥ ، ٢٨٢

حرف الزاي

الزباب ٣٨
 الزقازيق ٣٩٦
 زيلع ٤١٩

حرف المصين

سالونيك ٣٨٩ ، ٨١٦
 سامرا ٨٨ ، ٩٦ ، ٩٩
 سان ريمو ٦٥٤
 سلمية ٩٤
 سمرقند ٢١٨
 سنار ٣٩٢ ، ٤٠٣
 المسند ٧٤
 سواكن ٢٣٦ ، ٢٥٦ ، ٤١٩
 سويبا ٢٥٤
 السودان ٢١٧ ، ٧٤٨
 سومطرة ٢٩١
 سيراليون ٨٢٦
 سيثمل ٤٩٩

حيدر آباد ٧٦٦

حيفا ٤٠٦ ، ٧٥٦

حرف الخاء

خراسان ٦٦
 الخرطوم ٤٨٠
 خليج العقبة ٥٥٤ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧
 ٥٥٨
 الحزر ٢١٧
 خوارزم ٢١٨

حرف الدال

دارفور ٢٥٣
 دانبرك ٧٢٧
 الدرنيل ٨٧٦
 الدرعية ٤٠١
 دمشق ١٨ ، ٢٩ ، ٣٧ ، ٤٠
 ٧٦ ، ٨٥ ، ٩٤ ، ١٠٧
 ١١١ ، ١٢٦ ، ١٦١ ، ١٦٥
 ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٨٧ ، ٢٠٢
 ٢٣٢ ، ٢٨٧ ، ٧٢٠ ، ٧٢١
 ٧٤٦ ، ٧٤٧ ، ٧٥٠ ، ٨٢٣
 دمياط ٤٨ ، ٧٤ ، ١٧٨ ، ١٩٠
 ٢٨٧ ، ٣٠٥ ، ٣٣٧ ، ٣٩٠
 ٣٩٧ ، ٧٦٩ ، ٧٧٠ ، ٧٧٩
 ٧٨١ ، ٧٨٢

دنشواي ٥٢٠

دنفلة ٣٥ ، ٢٥٥ ، ٤٨٠

ديار بكر ٢٠٢ ، ٢٠٣

ديار ببيعة ١٠٩ ، ١١٠

دير سانت كاترين ٢٩ ، ٥٦٤

دير سبتاء ٤٧

الدليم ٢١٥٥

حرف الطاء

طابا ٥٥٣ ، ٥٦٩ ، ٥٧١ ، ٥٧٢
طابق ٥١٠
طيريه ١٦٥ ، ٦٦٣
طيرية (بحيرة) ٧٥٢
طيرية (حصن) ٧٧٨ ، ٧٥٥
طرابلس ٤٦ ، ١٩٨ ، ٢٥٣
٢٨٧ ، ٥١٠ ، ٦٠٦ ، ٧٣٥
٧٣٨ ، ٧٤٦ ، ٧٤٨ ، ٧٨٨
٧٨٩
طرسوس ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠
طنجة ٧٤
الطونة ٨١٧
طوروس ٧٣٣

حرف العين

عين ٧٤ ، ٨٩٢
العراق ٢٠ ، ٢٠٢ ، ٧٠٨ ، ٧٢٠
٨٨٩
العريش ٣٢٤ ، ٧٧٤
عسقلان ١٧٨ ، ٧٣١ ، ٧٤٤
٧٧٨ ، ٧٦٣ ، ٧٤٨
العسكر ٣٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٩٤
عكا ٩٨ ، ١٦٥ ، ١٧٨ ، ١٩٩
٣٢٤ ، ٤٠٨ ، ٤٠٦ ، ٧٢١
٧٣٨ ، ٧٥٥ ، ٧١٢ ، ٧٧٣
٧٩١
علوة ٢٥٤
عمان ٧٤
عمورية ٧٥
عذاب ١٧٨ ، ٢٥٦
عين جالوت ٢٠٣ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥

السويس ٧٣ ، ٧٨ ، ٢٨٧
٣٩٣ ، ٣١٣
سيلان ٤٧٣ ، ٤٩٩
سيناء ١٨ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٥١
٢٩٣ ، ٥٣٧ ، ٥٥٦ ، ٥٥٩
٥٧.

حرف اللعين

الشم ٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧٢٠ ، ٧٢١
٧٧٤ ، ٧٧٩ ، ٨٨٠ ، ٨٨٢
٨٨٥ ، ٨٨٨ ، ٨٩٢
شاقلا ٦٩٠
شبراخيت ٣١٤
شرم الشيخ ٥٥٤ ، ٥٥٧ ، ٥٩٧
شكود ٨١٤
شندى ٤٠٣
شيزر ٨٠٨

حرف الصاد

الصالحية ٣٠٩
صابرا ٦٩٠
الصرب ٨٨٢ ، ٨٨٧
صفد ٧٨٧
صقلية ١٩٣ ، ٦٠٥ ، ٧٦١
٧٧٢ ، ٧٩٦
صنافير ٥٥٤
صنعاء ٧٤
صور ١٧٨ ، ٧٢١ ، ٧٣٨
٧٣٩ ، ٧٤٣ ، ٧٩٠ ، ٦٥٤
٧٩١
صوفيا ٨١٦
صيتا ٤٠ ، ١٦٥ ، ٧٥٠ ، ٧٥٦
الصين ٢٠ ، ٧٤ ، ٢٤٦ ، ٢٦١

القطائع ٨٠ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٩٤
التسطنطينية ١٥٢ ، ٢٨١ ، ٢٩٨
٤٩٢ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧٢٤
٧٢٨ ، ٧٢٩ ، ٧٣٢ ، ٨٧١
٩١٩

القنجاك ٢٢٥

قلعة يعقوب ٧٥٠ ، ٧٥١

قناة السويس ٤٣٠ ، ٤٤١

القوقاز ٢١٥

قوله ٣٨٨

قونيه ٣٩٢ ، ٤٠٧

قيسارية ٢٥٠

قينارجه ٨٨٤

حرف الكاف

كامب ديفيد ٥٧٩

كرستان ٨٤٠

کردفان ٢٥٣ ، ٣٩٢

الكرج ٢٢٧

الكرك ٧٥١ ، ٧٥٥ ، ٧٨٧

كريت ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٨٨٩

كسلا ٤٨٠

كليربونت ٧٢٦

كوتاهية ٤٠٧

كوش ٢٥٤

الكوفة ٩٤

كيفا ٧٧٩

حرف اللام

اللانقية ٧٠٨ ، ٧١١ ، ٧٨٩

لبنان ٢٠ ، ٥١ ، ١٤٦ ، ١٤٧

٨٩٠

اللد ٧٦٣

٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٦٣٥

٨٨٠ ، ٧٨٥

عين شمس ٣٢٦

حرف الفين

غزة ٢٣٣ ، ٣٢٤ ، ٤٠٦ ، ٧٤٤

٧٧٧ ، ٧٧٦

غندكرو ٤١٨

حرف الفاء

غاريس ٢٢٥ ، ٧١٥ ، ٧٦٩ ، ٨٧٣

فرشوط ٣٠٤

الفرما ٧٤

فرنسا ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٣٠

٨٧٨ ، ٨٨٠ ، ٩١٣

الفسطاط ٣٤ ، ٦٥ ، ٧٧ ، ٧٨

٨٠ ، ٩٩ ، ١٩٤

فلسطين ١٩ ، ٢٠ ، ٥٢ ، ١٩٤

١٩٥ ، ٢٣٣ ، ٤٩٣ ، ٥٦٣

٨٨٢ ، ٨٩٠

فينييسيا ٧٦٧

فيينا ٨٧٣

حرف القاف

قالبس ١٩٨ ، ٧٤٨

قبرص ٧٤ ، ٢٦٠ ، ٧٧٩ ، ٧٩١

٧٩٢ ، ٨٨٨ ، ٩٣٢

قبة الصخرة ٧٥٨ ، ٧٧٠

القدس ٢٣٣ ، ٧٢١ ، ٧٥٦

٧٦٤ ، ٧٦٦ ، ٧٦٧

قرطاجنة ٧٨٣

القرم ٢٢٥

قره حصار ٨١٤

حرف التون

نابلتا ٢٥٤.
نابلس ٢٤٦ ، ٢٤٨
الناصرية ٧٥٦
نجيد ٤٠١
نصيين ٤٠٧
النمسا ٨٧٨ ، ٨٧٦ ، ٤٩١
٨٧٦ ، ٩١٣
نوارين ٨٨٥
النوية ٣٥ ، ٦٣ ، ٧٤ ، ٢١٧
٢٥٣ ، ٧٥٦
نهاوند ١١٧
نيقية ٧٣٣

حرف الهاء

هاتاي ٧٤٧
هرر ٤٨٢ ، ٤١٩
هرمز ٨٢٦
الهند ٢٠ ، ٧٤ ، ٢٦١ ، ٣١٣
٧٦٦
مولندا ٢٩١ ، ٣١٣

حرف الياء

يانا ٣٢٤ ، ٤٠٦ ، ٧٧٢ ، ٧٧٥
٧٧٧
البحر ٧٤ ، ١٥٣ ، ١٦٩ ، ١٩٨
٢٠٢ ، ٧٤٨ ، ٧٩٠
يوغسلافيا ٤٩١
اليونان ٨٨٨

لندن ٤٤٨ ، ٨٨٥

لوزان ٨٩٣

ليبيا ٤٩٣ ، ٦٠٧ ، ٨٩٢

حرف الميم

ماستدي ٤١٨
مالطة ٢٦٠ ، ٣١٤ ، ٣٢٠ ، ٤٩٧
٦٠٦
ما وراء النهر ٢١٧
المدائن ٨٢٢
المدينة ١١٠
المجر ٨١٦
مرج دابق ٢٦٥ ، ٢٨٢
مسط ٨٩٣
مصراته ٥١٠
مصوع ٤٨٢
المغرب ٨٩٢
معرة النعمان ٩٤
مقرة ٢٥٤ ، ٢٥٧
مقدونية ٨١٦ ، ٨٨٩
مكة ٣٦٣
ملازكرد ٧٢٤ ، ٨١٣
المنصورة ٧٨٠ ، ٧٨١
مهاج ٨٣٤
الموصل ١٠٩ ، ١١٧ ، ١٦٨
١٩٦ ، ٧٢١ ، ٧٥١ ، ٩٢٩
٩٣٠

رقم الايداع ٥٠٨٥ لسنة ١٩٨٦

مطابع سجل العرب

HISTORY and CIVILIZATION of ISLAM

**A study, in Ten Volumes,
on History and Civilization of Islam
in All Muslim Ages and Lands**



دكتور أحمد شلبي

- 5 -

- **Egypt and Syria from the Beginning of Islam up to the Present Time.**
- **Crusades: Reasons, Evolution, Results.**
- **Ottoman Empire (Turkey) from its Rise up to the Present Time.**

By

AHMED SHALABY,

B.A. (Hon.) Cairo University,

Ph. D. Cambridge University,

**Professor and Head of the Department of
Islamic History and Civilization**

Faculty of Dar El Ulum, Cairo University

Seventh Edition (1986) Revised

Published by :

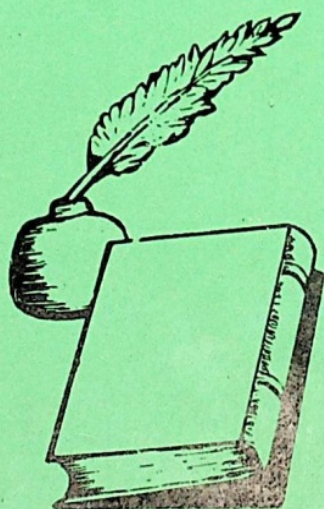
THE RENAISSANCE BOOKSHOP

9 Adly Street, Cairo.

- تلقى دراساته في الأزهر في كلية دارالعلوم (جامعة القاهرة) وفي جامعة لندن وجامعة كامبردج.
- زار الولايات المتحدة الأمريكية كما زار أكثر دول أوروبا وآسيا وأفريقيا، ومثل مصر في عدة مؤتمرات دولية.
- درس مجموعة من اللغات الأجنبية وبجهد الانجليزية والاندرنيسية.
- اشغل بالتدريس بجامعة القاهرة حتى وصل الى درجة أستاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية، وقد حاضر - مستدياً وزائراً ومُعاضراً - في جامعة الأزهر، وعين شمس، واندونيسيا، والسودان، وماليزيا، والمملكة العربية السعودية، وليبيا، وفي معهد الدراسات الاسلامية، ومعهد البحوث والدراسات العربية، ومعهد الدراسات الدبلوماسية.
- مؤلفاته تزيد عن خمسين كتاباً ظهرت الطبعة الثامنة عشرة من بعضها وأهم هذه المؤلفات :

- ١ - موسوعة التاريخ الاسلامي في عشرة أجزاء.
- ٢ - موسوعة الحضارة الاسلامية في عشرة أجزاء.
- ٣ - مقارنة الأديان في أربعة أجزاء.
- ٤ - كيف تكتب بحثاً أو رسالة.
- ٥ - المكتبة الاسلامية لكل الاعمار : ١٠٠ جزء من السير والتاريخ وقصص القرآن للأطفال والشباب والسيدات والرجال.
- ٦ - ISLAM: BELIEF, LEGISLATION, MORALS
- ٧ - HISTORY OF MUSLIM EDUCATION
- كتب بعض كتبه بالانجليزية والاندرنيسية، وترجمت أكثر لفاته الى الأوردية، والتركية، والاندرنيسية، والماليزية، والفارسية.

موسوعة التاريخ الإسلامى والمحاضرة الإسلامية



تأليف
الدكتور أحمد شلبى
دكتوراه من جامعة كمبودج

استاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلاميه
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدوت - القاهرة

مع إضافات واسعة وتحقيقات جديدة

موسم مؤتمرات

التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية

هوامة تحليلية شاملة فى عشرة أجزاء لتاريخ العلم الإسلامى كله ،
من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر ، مع دراسة الجوانب الحضارية
التي أسهم بها المسلمون فى ترقية العمران وتطوير الفكر البشرى

٦

الإسلام والبول الإسلامية جنوب صحراء إفريقيا
منذ دخلها الإسلام حتى الآن

— وسائل انتشار الإسلام :

مراكز الشمال — هجرات عربية وغربية — التجارة — الطرق الصوفية — مراكز العلم

— البول الإسلامية قبل الاستعمار الأوربي :

خافه — مال — صني — دول الموحدة — برنو — باجري — واداي — القونج — قنشو — ملكة الزنج

— البول الإسلامية الحالية :

موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيا — مال — النيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال

تأليف

الدكتور محمد سليم

مترجمه فى الفلسفة بجامعة كبرى

أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية

بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الطبعة الرابعة ١٩٨٣ مع تعديلات مهمة وإضافات واسعة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

التاريخ

شعاع من الماضي يثير الحاضر والمستقبل
دكتور أحمد شفيق

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى - ١٩٧٢

الطبعة الثانية - ١٩٧٥

الطبعة الثالثة - ١٩٧٨

الطبعة الرابعة - ١٩٨٣

خطة البحث في هذه الموسوعة

ان خطة البحث التي اتبناها في كتابة « التاريخ الاسلامى » خطة جديدة ومريحة ، ويسرنى ان ابرزها في التخطيط التالى ليعرف القارئ كنهها ، وليسهل عليه متابعتها .

دراسة زمنية في هذه	ج ١	العرب قبل الاسلام — السيرة النبوية العطرة — عصر الخلفاء الراشدين
الأجزاء الثلاثة اذ	ج ٢	الدولة الاموية والحركات الفكرية والثورية خلالها
ان العالم الاسلامى	ج ٣	الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الاول ودور المسلمين خلاله في خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية
وحدة واحدة .		

ثم دراسة مكانية (قطاعات جغرافية) في الأجزاء الخمسة التالية لأن العالم الاسلامى انقسم الى دويلات كثيرة ، ويشمل كل جزء من هذه الأجزاء قطاعا من العالم الاسلامى ، بحيث يتناول تاريخه من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر مبتدئين من الغرب ومتجهين الى الشرق كالتخطيط التالى :

الجزء الثامن	الجزء السابع	الجزء السادس	الجزء الخامس	الجزء الرابع
التاريخ الاسلامى للدول الاسلامية غير العربية بآسيا : ايران — افغانستان — الباكستان — بنجلاديش — ماليزيا — اندونيسيا — الاقليات الاسلامية بالصين والاتحاد السوفيتى والهند والفلبين وسنغافورة .	الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والمراق من مطلع الاسلام حتى الآن . دول الجزيرة العربية : المملكة العربية السعودية — عمان اليمن — جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، دولة الإمارات العربية — قطر — البحرين — الكويت — العراق	الاسلام والدول الاسلامية بجنوب صحراء افريقية منذ دخلها الاسلام حتى الآن : دراسة عن — الدول الاسلامية قبل الاستعمار الاوروبى . — الدول الاسلامية الحالية : موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيا — مالي — النيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال	الاسلام والدول الاسلامية بجنوب صحراء افريقية منذ دخلها الاسلام حتى الآن : مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر الحروب الصليبية : دوافعها — ادوارها — نتائجها الامبراطورية الممناحية (تركيا) منذ ظهورها حتى الآن	الاندلس الاسلامية وانتقال الحضارة الاسلامية منها الى اوروبا المغرب — الجزائر — تونس — ليبيا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر السوسية : مبادئها وتاريخها

ونختم الموسوعة بدراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصرة :

الجزء التاسع : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد نجيب وعصر عبد الناصر
الجزء العاشر : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد انور السادات

كتب للمؤلف

أولا : موسوعة التاريخ الاسلامى

دراسة تحليلية شاملة في عشرة اجزاء لتاريخ العالم الاسلامى كله مطلع الاسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى أسهم المسلمون في ترقية العمران ، وتطوير الفكر البشرى :

— الجزء الاول : (الطبعة الحادية عشرة)

— مقدمة الموسوعة : نطاق التاريخ الاسلامى — تفسير التاريخ — هل التاريخ علم ؟ .. فلسفة التاريخ — فائدة التاريخ — مراحل تدوين التاريخ — قضية الالتزام في كتابة التاريخ الاسلامى — علم التاريخ بين المسيحية والاسلام ...
— تاريخ العرب قبل الاسلام : البدو والحضر — حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

— السيرة النبوية العطرة : جوانب من السيرة تدون لأول مرة — الدعوة الاسلامية وفلسفتها — عصر الخلفاء الراشدين

— الجزء الثانى : (الطبعة السابعة)

الدولة الاموية والحركات الفكرية والثورية في عهدها .

— الجزء الثالث : (الطبعة السابعة)

الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الاول ، وبدور المسلمين في خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية .

— الجزء الرابع : (الطبعة السادسة)

— الاندلس الاسلامية ، وانتقال الحضارة الاسلامية الى اوربا عن طريقها .

— المغرب — الجزائر — تونس — ليبيا (من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر) .

— السنوسية : مبادئها وتاريخها .

— الجزء الخامس : (الطبعة السادسة)

— مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر .

— ... المسئلة : دوافعها — ادوارها — نتائجها .

(الطبعة الثالثة)

٦ - الجزء السادس :

الإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخلها الإسلام حتى الآن :

- دراسة عن وسائل انتشار الإسلام :
- مراكز الشمال - هجرات عربية وغير عربية - التجار - الطرق الصوفية - مراكز داخلية .
- الدول الإسلامية قبل الاستعمار الأوربي :
- غلة - مالي - صنفى - دول الهوسا - برنو - باجـرمى - واداي - الفونج - مقدشو - مملكة الزنج .
- الدول الإسلامية الحالية :
- موريتانيا - السنغال - جامبيا - غينيا - مالي - النيجر - نيجيريا - تشاد - السودان - الصومال - جيبوتي .

(الطبعة الثالثة)

٧ - الجزء السابع :

الإسلام والدول الإسلامية بالجزيرة العربية والعراق :

- دول الجزيرة العربية من مطلع الإسلام حتى الآن :
- المملكة العربية السعودية - اليمن - جمهورية اليمن الجنوبية - عمان - دولة الامارات العربية - قطر - البحرين - الكويت .
- العراق من مطلع الإسلام حتى الآن .

(الطبعة الثانية)

٨ - الجزء الثامن :

الإسلام والدول الإسلامية غير العربية بآسيا من مطلع الإسلام حتى الآن :

- ايران - أفغانستان - الباكستان - بنجلاديش - ملايزيا - اندونيسيا
- الاقليات الإسلامية في الهند والصين وروسيا والفيليبين ..

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر

(الطبعة الثالثة)

٩ - الجزء التاسع :

- ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم . عصر محمد نجيب وعصر جمال عبد الناصر (عصر المظالم والهزائم) .

١٠ - الجزء العاشر :

- ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم ، عصر أنور السادات . (عصر النجاح في الشؤون الخارجية والفشل في الشؤون الداخلية) .
- (ترجمت أكثر أجزاء هذه الموسوعة لعدة لغات)

كتب للمؤلف

ثانيا : موسوعة النظم والحضارة الاسلامية

دراسة تحليلية شاملة في عشرة اجزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية التي جاء بها الاسلام لهداية البشرية في شئون العقيدة ، والسياسة ، والاقتصاد ، وفي مجال الحياة الاجتماعية والتربوية والعسكرية ، والتشريعية والقضائية ، كما تبرز جهود المسلمين في الحضارة التجريبية ،

واجزاؤها هي :

١١ - الجزء الاول : تاريخ المناهج الاسلامية (الطبعة الثالثة)

مناهج التعليم في صدر الاسلام - انحرافاتنا في عصور الظلام - وجوب تصحيحها .

١٢ - الجزء الثاني : الفكر الاسلامي : منابعه وآثاره (الطبعة السادسة)

١٣ - الجزء الثالث : السياسة (الطبعة السادسة)

في الفكر الاسلامي

مع المقارنة بالنظم السياسية المعاصرة .

١٤ - الجزء الرابع : الاقتصاد (الطبعة السادسة)

في الفكر الاسلامي

مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة . ومع دراسة شاملة للنقاط التالية :

- ١ - الاسلام والمسلمون في مواجهة المشكلة الاقتصادية .
- ٢ - مبادئ الاسلام الاقتصادية .
- ٣ - الاسلام والقضايا الاقتصادية الحديثة (شهادات الاستثمار ...) .
- ٤ - من تاريخ الاقتصاد في الاسلام (بيت المال : موارده ومصارفه ...) .
- ٥ - النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور واثار الفكر الاسلامي فيها .

١٥ — الجزء الخامس : القربية الإسلامية (الطبعة الثانية)
نظمها — تاريخها — فلسفتها

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة القربية عند المسلمين ، ولتأهيل
التعليم وأمكنته ، ولحالة المدرسين المالية والاجتماعية ، والإجازات
العلمية ، والعقوبات ، والجوائز ، والمكافآت ، وملابس المدرسين ،
ونقابة المعلمين ، وتكافؤ الفرص بين التلاميذ ، وتوجيههم حسب
مواهبهم ..

١٦ — الجزء السادس : المجتمع الإسلامي (الطبعة السادسة)
أسس تكوينه .. أسباب ضعفه .. وسائل نهضته

١٧ — الجزء السابع : الحياة الاجتماعية (الطبعة الثالثة)
في الفكر الإسلامي

— في نطاق الأسرة : كالخنان وتحديد النسل وعمل المرأة ...

— وفي نطاق المجتمع : كالأفراح والمآتم والموسيقى والفناء ...

١٨ — الجزء الثامن : تاريخ التشريع الإسلامي (الطبعة الثالثة)
وتاريخ النظم القضائية في الإسلام
مع بحوث واسعة عن القرآن الكريم : المصدر الأول للتشريع
ومع دراسة شاملة لمصادر التشريع الأخرى

١٩ — الجزء التاسع : الجهاد والنظم العسكرية (الطبعة الثالثة)
في الفكر الإسلامي

بحث علمي يبرز موقف الإسلام من السلم والحرب ، كما يبرز اتجاهات
الإسلام في مشكلات الحرب كالاستعداد للجهاد ووسائله ، وأخلاق
المجاهد ، والخديعة في الحروب ، والثبات والفرار ، والرباط ،
والتجسس والخيانة ، والهدنة والأسرى ..

٢٠ — الجزء العاشر : رحلة حياة (الطبعة الثالثة)
تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الإسلامية

كتب المؤلف

ثالثا : مقارنة الأديان

سلسلة من الكتب في مقارنة الأديان ، تعتمد على أدق المراجع
بمختلف اللغات ، وتمتاز دراستها بالحيطة والعمق وتشمل :

٢١ — الجزء الأول : اليهودية : (الطبعة السابعة)

— دراسة لثنى المسائل اليهودية : اليهود في التاريخ من عهد
ابراهيم حتى الآن : الصهيونية ، أنبياء بني اسرائيل ، عقيدة بني اسرائيل ،
يهوه اله بني اسرائيل ، التعدد والتوحيد في الفكر اليهودي ، الثابوت والهيكل ،
الكهنة والقرايين ...

— مصادر الفكر اليهودي : العهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء
صهيون .
— اليهود في الظلام : الماسونية ، والروتاري ، الاغتيال ، التجسس ،
البابية والبهائية .
— من صور التشريع في اليهودية .

٢٢ — الجزء الثاني : المسيحية : (الطبعة السابعة)

— المسيح والمسيحية في نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة .
— بولس واضع المسيحية الحالية ، التثليث ، صلب المسيح للتكفير عن
خطيئة البشر .
— شمائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، الجامع :
طبيعة المسيح والآراء فيها ، الطوائف المسيحية ، الرهبنة والاديرة ، خرافة
ظهور المعفراء في كنيسة الزيتون ، حركة الإصلاح الديني ونتائجها ونقدها .

٢٣ — الجزء الثالث : الاسلام : (الطبعة السابعة)

— الله في التفكير الاسلامي ، النبوة في التفكير الاسلامي ، غير المسلمين
في المجتمع الاسلامي ، الدين المعاملة ، المرأة في الاسلام ، الرق وموقف الاسلام
منه ، السياسة والاقتصاد في الاسلام .

٢٤ — الجزء الرابع : اديان الهند الكبرى : (الطبعة السابعة)

« الهندوسية — الجينية — البوذية »
— تقديم عن : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات في الهند ، الأديان
في الهند .
— دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا : مهابهارتا : يوجاواسستها ،
كيتسا .
— أهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الانطلاق والنرفانا ، وحدة
الوجود .
— تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ واضعها .

كتب المؤلف

رابعاً : كتب في الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

٢٥ — كيف تكتب بحثاً أو رسالة (الطبعة السابعة عشرة)

دراسة منهجية لكتابة البحوث واعداد رسائل الماجستير والدكتوراه

كتبتان باللغة الانجليزية هما :

٢٦ — ISLAM : Belief - Legislation - Moraks
٢٧ — مكتبة النهضة المصرية History of Muslim Education

وكتب باللغة الاندونيسية والماليزية :

Pustaka National (Singapore)	cgaraN dan Pemerintahan Dalam Islam	— ٢٨
	Masjarakat Islam	— ٢٩
	Hukum Islam	— ٣٠
	Sedjarah dan Kebudajaan Islam	1 — ٣١
	Sedjarah dan Kebudajaan Islam	11 — ٣٢
	Sedjarah dan Kebudajaan Islam	111 — ٣٣
	Perbandingan Agama (Jahudi)	— ٣٤
	Perbandingan Agama (Masihi)	— ٣٥
	Perbandingan Agama (Islam)	— ٣٦
	Perbandingan Agama (Agama2 yang	— ٣٧
	Terbesar di India : Hindu-Jaina-Buddha)	
	Sadjarah Pendidikan Islam	— ٣٨
	Politik dan Ekonomi Dalam Islam	— ٣٩
	Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam	— ٤٠
	Perkembangan Keagamaan Dalam Islam	— ٤١
	dan Maschi	
	Perang Salib	— ٤٢
	Kurikulum Islam Dalam	— ٤٣
	Perkembangan Sedjarah	
	Pengajian Al Quraan	— ٤٤
	Sedjarah Kehakiman Dalam Islam	— ٤٥

كتب المؤلف

خامساً : المكتبة الإسلامية لكل الأعمار

١٠٠ جزء من سير عظماء الإسلام ومن التاريخ والحضارة
وقصص القرآن للأولاد والشباب والسيدات والرجال
ظهر منها الأجزاء التالية :

المجموعة الأولى : السيرة النبوية العطرة :

- | | |
|------|--|
| ج ١ | محمد قبل البعثة |
| ج ٢ | من غار حراء .. الى غار ثور (قصة الاسلام في مكة) |
| ج ٣ | الاسراء والمعراج : دراسة تصحيح للقضاء على الشطحات . |
| ج ٤ | الهجرة للمدينة ووسائل الاستقرار بها |
| ج ٥ | الرسول الداعية ومربى الدعاة |
| ج ٦ | الرسول في بيته : أزواجه — أولاده واحفاده — خدمه |
| ج ٧ | الرسول في بيته : مشكلات الحياة في بيت الرسول وكيف
عالجها |
| ج ٨ | الرسول بين أصحابه — الرسول يربى الفرد المسلم ويربى
المجتمع الاسلامى |
| ج ٩ | الرسول يربى القضاة ، ويربى القوة العسكرية ، ويربى
الولاة والحكام |
| ج ١٠ | الرسول والشباب — الرسول والعمل |
| ج ١١ | توجيهات طبية يقدمها الرسول — مكرمات للرسول —
الرسول والمنافقون |
| ج ١٢ | الرسول والنصارى — الرسول واليهود |
| ج ١٣ | الاسلام والقتال ، وهل انتشر الاسلام بالقوة أو بالدعوة —
غزوة بدر ودراسات جديدة حولها — أهم أحداث غزوة بدر |
| ج ١٤ | غزوة أحد والهزيمة التى أخافت المنتصر — غزوة الأحزاب
وكلمة عن سلمان الفارسي |
| ج ١٥ | صنح الحديبية — كتب الرسول للملوك والرؤساء — غزوة
مؤتة وبدء الصراع ضد الروم . |
| ج ١٦ | فتح مكة — غزوة حنين والطائف — غزوة تبوك —
الفترة الأخيرة في حياة الرسول |

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة :

- ج ١٧ (١) أبو بكر الصديق : حياته وعصره والمشكلات التي واجهها
ج ١٨ (٢) عمر بن الخطاب والتوسع في عهده — عمر باني الدولة
الاسلامية
ج ١٩ (٣) عثمان بن عفان والفتنة في عهده
ج ٢٠ (٤) علي بن ابي طالب : شخصيته وحياته والمشكلات التي
واجهها
ج ٢١ (٥) طلحة بن عبيد الله (٦) الزبير بن العوام
ج ٢٢ (٧) سعد بن ابي وقاص (٨) ابو عبيدة بن الجراح
ج ٢٣ (٩) عبد الرحمن بن عوف (١٠) سعيد بن زيد بن عمرو

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية :

- ج ٢٤ نظرة عامة للقرآن الكريم — طريقة الوحي — نزول القرآن
وتدوينه — أسماء السور وترتيبها — قراءات القرآن — فضائل
القرآن — القرآن والعلم — فضائل قراءة القرآن وحكم
التطريب في أدلته والتكسب به .
ج ٢٥ خصائص القرآن والأصول التي جاء بها لخير الناس في الدنيا
والآخرة — اعجاز القرآن ومظاهر الاعجاز — معجزات
الرسول في ميدان المقارنة .
ج ٢٦ غير العرب والاعجاز البلاغي للقرآن — وجوه الاعجاز في
القرآن — مواجهة واقعية بين العرب والقرآن — التكرار
في القرآن : أسرارہ واعجازه .

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم :

- ج ٢٧ دراسات عن القصص في القرآن قصة أصحاب الكهف .
ج ٢٨ قصة الرجلين والجنيتين — قصة ذي القرنين ويأجوج
ومأجوج .
ج ٢٩ قصة موسى والخضر — قصة أصحاب الجنة .
ج ٣٠ قصة عزيز — قصة أيوب عليه السلام
ج ٣١ قصة ثارون — قصة أصحاب الأخدود .
ج ٣٢ قصة اسماعيل عليه السلام .
ج ٣٣ قصة يوسف عليه السلام .
(الأجزاء التالية ستظهر تباعا ان شاء الله)

(لم تدخل اعداد « المكتبة الاسلامية » ضمن لعدد الخاص بكتب المؤلف)

نخب للمؤلف

ساسدسا : تعليم اللغة العربية في المغرب

وقواعد اللغة العربية

- برنامج شامل ميسر لتعليم اللغة العربية في المغرب لغير العرب .
- أول سلسلة من نوعها في المكتبة العربية تملأ هذا الفراغ .
- دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية ، نحو وصرف .
- تضم هذه السلسلة الكتابين التاليين :

٤٦ — تعليم اللغة العربية لغير العرب : (الطبعة الثالثة)
يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى : مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة ،
فالتعبير ، فالاملاء : النالخط والنصوص ، ثم يغز بالطالب الى مرحلة متقدمة
في القراءة والمحادثة والكتابة ، مستملا في هذه المرحلة موضوعات جذابة من
الفكر الاسلامي والعربي اختيرت من أهمات الكتب العربية ثم صيغت في أسلوب
مناسب ، مع أسئلة وتبرينات مفيدة .

٤٧ — قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها : (الطبعة الثالثة)
عرض لجميع أبواب النحو العربي بطريقة تربوية
ودراسة واضحة لأهم أبواب الصرف

هذا الكتاب ضروري للمؤلفين العرب وغير العرب

كتب مختارة ومنهجية

٤٨ — في تصور الخلفاء السياسيين :
أكثر مادة هذا الكتاب مستنها الكتاب رقم ٢ من هذه القائمة .

٤٩ — مصر في حربين (١٩٦٧ و ١٩٧٢) دراسة مقارنة :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٩ من هذه القائمة .

٥٠ — الحكومة والدولة في الاسلام :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٣ من هذه القائمة .

٥١ — الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحي :

٥٢ — النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور وأثر الفكر الاسلامي فيها .
وأكثر مادة هذين الكتابين تضمنها الكتاب رقم ١٤ من هذه القائمة .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١٧ - ٢٤

الباب الأول تعريف بالقارة

٢٥ - ٩٦

معلومات عامة عن إفريقيا	٢٧ - ٢٩
كشف إفريقية :	٣٠ - ٤٤
تجديد ٢٠ - دور المصريين في القارة ٢٢ - الفينيقيون والرومان ٢٥	
العرب ٣٥ - الأوربيون ٣٩ - الرحالة العرب في العصر الحديث ٤٣	
رسم خريطة القارة ٤٤	
الأديان في إفريقية	٤٥ - ٥٥
اللغات في إفريقية	٥٦ - ٦١
الأجناس والقبائل في إفريقية :	٦٢ - ٧٢
١ و ٢ السايون والحاميون ٦٢ - ٣ النيليون ٦٣ -	
٤ الزنوج (السودانيون والبانتر) ٦٤ - البوشمن والمختلطين ٦٦	
حضارة إفريقية أصيلة	٧٣ - ٩٦

الباب الثاني إفريقية قبل الإسلام

٩٧ - ١٤٩

إفريقية قبل الإسلام	٩٩ - ١٠١
خانة :	١٠٢ - ١٢٠
خانة بين البربر والسونكي ١٠٤ - اتساع ملك خانة في عهد السونكي	
١٠٥ - المرابطون في خانة ١٠٧ - السونكي يستعيدون نفوذهم ١٠٩ -	

سقوط إمبراطورية غانة ١١٠ - اقتصاديات غانة ١١٤ - الإسلام في
إمبراطورية غانة ١١٤ - حضارة غانة ١١٧ - العلاقة بين غانة القديمة
وغانا الحديثة ١١٩ .

صنغى	١٢١ - ١٢٥
إمارة البمبارا (البامبارا = البمبارة)	١٢٦
مملكة موشي (موشي = Mossi)	١٢٧
إمارات الهوسا (الهوسا = الهوسا)	١٢٨ - ١٣٢
مملكة يوروبا	١٣٣ - ١٣٥
إمبراطورية برفو	١٣٦ - ١٣٧
إمبراطورية كانم	١٣٨ - ١٣٩
السودان :	١٤٠ - ١٤٩
دارفور ١٤١ - كردفان ١٤٣ مقره وعلاوة ١٤٤ . البجة ١٤٦ -	

اللب الثالث

انتشار الإسلام بإفريقية

طرقه ووسائله

١٥١ - ٢٣٦

إفريقية القارة المسلمة	١٥٣
انتشار الإسلام في إفريقية بالدعوة	١٥٤ - ١٥٥
عوامل يسرت انتشار الإسلام بإفريقية	١٥٦ - ١٦٣
تفوق المسلمين الفكري والخلق ١٥٦ - موقف الإسلام من الرق ١٥٨ - موقف الإسلام من التمييز العنصري ١٥٩ - الإسلام يصبح فكرياً محلياً وثقافة قومية ١٦١ - انحدار الحياة للروحانية بالكنائس ١٦١ - موقف الاستعمار من الإسلام ١٦٢ انتشار للزدينية عند دخول الإسلام ١٦٣	
صورة الداعي المسلم	١٦٣ - ١٦٦
انتشار الإسلام جنوب الصحراء من مراكز الشمال :	١٦٧ - ١٨٠

(أ) بلاد المغرب ١٦٧

(ب) المراكز الثقافية بالشمال : (القيروان ١٧٠ - جامعة القرويين

بغاس ١٧٢ - ماهد تلمسان ١٧٥ - جامعة الزيتونة ١٧٥) .

(ج) سمر والأزهر ١٧٦

- انتشار الإسلام جنوب الصحراء بواسطة هجرات عربية ... ١٨١ - ١٨٨
- انتشار الإسلام جنوب الصحراء بواسطة هجرات غير عربية ١٨٩ - ١٩١
- انتشار الإسلام جنوب الصحراء بواسطة التجار ... ١٩٢ - ٢٠٨
- (أم المراكز التجارية : تمبكتو ١٩٥ - ولادة ١٩٨ - جن ١٩٩)
- وسائل التجار لنشر الإسلام ٢٠٤
- التشيع الإسلام جنوب الصحراء بواسطة الطرق الصوفية ... ٢٠٩ - ٢١٩
- (الطريقة القادرية ٢١١ - الطريقة التيجانية ٢١٣ السنوسية ٢١٦)
- انتشار الإسلام جنوب الصحراء من مراكز داخلية ... ٢٢٠ - ٢٣٦
- (المرابطون ٢٢١ - المانينجر وأحدو صدر ٢٢٢ - الهوسا والفلاحي ٢٢٢ - مبان دنغير ٢٢٥ - أحدو لوبو ٢٢٩ - وفاة من الفونج ٢٣٠ - تمبكتو ٢٣١ - جن ٢٣٤ - كانو وكاتينا ٢٣٥)

الباب الرابع

الدول الإسلامية جنوب الصحراء الإفريقية

قبل الاستعمار الأوربي

٢٣٧ - ٤١٣

قيام الدول الإسلامية جنوب الصحراء ... ٢٣٩

مبراطورية مالي : ٢٤١ - ٢٥٦

مال بين الاتساع والانتكاش ٤٤٣ - اقتصاديات مالي ٢٤٨ - مال من الناحية الاجتماعية ٢٥٢ - النظم الإداري في مالي ٢٥٣ - صلات مال بالخارج ٢٥٤ .

صنفي : ٢٥٧ - ٢٨٠

٢٥٨ - إمبراطورية صنفي من البداية إلى النهاية ٢٦١ - الحاج أسكيا محمد ٢٦٤ - أسكيا داود ٢٦٧ - جاور العاصمة ٢٦٩ - نهاية صنفي ٢٧٠ - نهاية حضارة السودان ٢٧٥ - نهاية عثرات مراكز ٢٧٥ - اقتصاديات صنفي ٢٧٦ - صنفي من الناحية الاجتماعية والثقافية ٢٧٧ - النظم الإداري في صنفي ٢٧٨ .

إمبراطورية الهوسا ... ٢٨١ - ٢٨٨

النظم الإسلامية لله الإمبراطورية ٢٨٧

الموسم	الصفحة
برنو وكافم	٢٨٩ - ٢٩٩
الكافم في برنو ٢٩٥ - أسرة الكافم في برنو ٢٩٦ - رايح الزيري	
في برنو ٢٩٦ - الفكر الإسلامي في برنو ٢٩٧ - علاقات برنو بالخارج ٢٩٨	
باجري	٣٠٠ - ٣٠٢
واداي	٣٠٣ - ٣٠٤
مملكة القونج (سنار)	٣٠٥ - ٣٢٣
من م القونج ؟ ٣٠٥ - قيام دولة القونج ٣٠٦ - ملوك القونج	
٣٠٨ - شايخ الميلاي ٣١٠ - القونج والبلدة ٣١١ - بين سنار	
والجشة ٣١٢ - ضم كردفان لدولة سنار ٣١٤ - تغلب الحج مل	
ملوك سنار ٣١٥ - الحضارة الإسلامية في دولة القونج ٣١٧ .	

السودان بعد دولة القونج : ٣٢٤ - ٣٨٧

محمد علي باشا وزحفه إلى السودان ٣٢٤ - الزير ٣٢٨ - التوسع المصري في منطقة خط الاستواء ٣٣٠ - التوسع المصري على ساحل البحر الأحمر وجنوبه ٣٣٣ - مصر تضم إقليم هرر ٣٣٤ - الاستثمار الأوربي وموقفه من الإمبراطورية المصرية ٣٣٦ - جوردون والإمبراطورية المصرية بإفريقية ٣٣٩ - سليمان بن الزير ٣٤٠ - رايح الزيري ٣٤٣ - آثار مصر في السودان ٣٤٧ .

الثورة المهدية ٣٥٢ - أسباب الثورة المهدية ٣٥٣ - عوامل نجاح الثورة للمهدية ٣٥٦ - الثورة المهدية في سطور ٣٦٧ - للمهدي وحرابي ٣٧٥ - للمهدية بعد المهدي ٣٧٧ - استعادة السودان ٣٨٠ - موقعة فركة ٣٨١ - موقعة أبي حمد ٣٨١ - معركة المنة ٣٨٢ - موقعة حطيرة ٣٨٣ - موقعة كدري (أم درمان) ٣٨٣ - فرنسا تحاول أن تأخذ نصيباً ٣٨٤ - نهاية الخليفة ٣٨٤ - أسرة المهدي ٣٨٥

الصومال الشمالي (زليغ وهرر = عَدَل) ٣٨٩ - ٣٩٤

الصومال الجنوبي (مقلشو) ٣٩٥ - ٤٠١

جهود مصر في الصومال وهرر ٣٩٧ - الصومال عقب انهيار الإمبراطورية المصرية ٣٩٨ - هرر بعد المصريين ٤٠٠ - مساوي الأسباب في الصومال وهرر ٤٠١

إمبراطورية الزنج ٤٠٢ - ٤١٣

نفوذ البرتغاليين في زنجبار ٤٠٧ - أئمة عمان في زنجبار ٤٠٨ - بنو سعي في زنجبار ٤٠٨ - انفصال زنجبار عن عمان ٤٠٩ - نهاية زنجبار ٤١٣ - سلطنة زنجبار ٤١٣

الباب الخامس
الاستعمار الأوربي لإفريقية
وموقفه من الإسلام
٤٩٢ - ٤١٥

٤٢٨ - ٤١٧

مقدمات :

الاستعمار بين التدمير والتدمير ٤١٧ - مراحل استعمار إفريقية ٤١٧
ظروف داخلية مهدت للاستعمار ٤١٨ - معاهدات تنظيم السلب
والملء ٤٢٠ - إزالة الأسماء والحدود ٤٢٣ - الملاك الجديد لإفريقية
٤٢٥ - عود إلى النطاق الإسلامي جنوب الصحراء ٤٢٧ .

٤٣٣ - ٤٢٩ الاستعمار واقتصاد إفريقية

٤٤٧ - ٤٣٤ الاستعمار والرقى بإفريقية

صيد الرقيق ٤٣٨ - سوق الرقيق ٤٤٠ - رحلة الرقيق ٤٤٠ - معاملة
الرقيق ٤٤٤ - الرقيق في المزرعة ٤٤٢ - من آثار تجارة الرقيق
٤٤٣ - تحرير الرقيق ٤٤٤ - بعد التحرير ١٧٦ .

٤٥٧ - ٤٤٨ الاستعمار والأديان

المسيحية بجنوب السودان ٤٥٢ .

٤٦٢ - ٤٥٨ الاستعمار والتفرقة العنصرية

٤٦٨ - ٤٦٣ قسوة الاستعمار بإفريقية

٤٨٢ - ٤٦٩ الصراع ضد الاستعمار

حركات مصر وصداها ٤٧٠ - الإسلام ٤٧٥ - الحربان العالميتان
الأولى والثانية ٤٧٥ - التعليم ٤٧٦ - نهر القومية ٤٧٧ - الاتحاد
السوفيتي ٤٧٧ - الاستعمار الجديد ٤٧٨ - المؤتمرات ٤٨٨ - عوامل
أخرى ٤٨٠ - خطوات الصراع ٤٨١ - جيوش المرتزقة ٤٨٢

٤٨٦ - ٤٨٣ الاستعمار الأوربي لإفريقية في الميزان

٤٩٢ - ٤٨٧ الاستعمار وتفتيت القارة

الباب السادس

الدول الإسلامية جنوب الصحراء الإفريقية
بعد زوال الاستعمار

٧٠٦-٤٩٣

٤٩٨-٤٩٦ مقدمة

٥١٩-٥٠٠ موريتانيا

التسمية والموقع ٥٠٠ - السكان : دما ولنة ودينا ٥٠١ - كلمة تاريخية
٥٠٢ - موريتانيا والاستعمار الأوربي ٥٠٧ - الاستقلال ٥٠٨ -
الستعمارات الفرنسية بإفريقية وطريقها للاستقلال ٥٠٨ - موريتانيا من
الاستعمار إلى الاستقلال ٥١٢ - اقتصاد موريتانيا ٥١٢ - التعليم في
موريتانيا ٥١٤ - بين المغرب وموريتانيا ٥١٤ أحداث جديدة تصل
بموريتانيا ٥١٩ - موريتانيا تنضم للجامعة الدول العربية ٥١٨ - انقلاب
في موريتانيا ٥١٩

٥٣١-٥٢٠ السنغال

أهمية السنغال ٥٢٠ - التسمية والموقع ٥٢١ - السكان : دما ولنة
ودينا ٥٢٣ - كلمة تاريخية ٥٢٤ - خطوات الاستقلال ٥٢٧ - اتحاد
مالى ٥٢٨ - اقتصاد السنغال ٥٣٠ - التعليم في السنغال ٥٣١

٥٤١-٥٣٢ جامبيا

مقدمة ٥٣٢ - التسمية والموقع ٥٣٣ - السكان : دما ولنة
ودينا ٥٣٤ - كلمة تاريخية ٥٣٤ - الحكم البريطاني في المستعمرات
الإفريقية ٥٣٧ - خطوات جامبيا نحو الاستقلال ٥٣٩ - اقتصاد
جامبيا ٥٤٠ - التعليم في جامبيا ٥٤١

المصنعة	الموضوع
٥٤٤-٥٤٢	غينيا
	النسبة والموقع ٥٤٣ - السكان : دماً ولنة ودينياً ٥٤٤ - كلمة
	تاريخية ٥٤٥ - سيكوتورى ودوره فى غينيا وفى إفريقيا ٥٤٨ -
	اقتصاد غينيا ٥٥٢ - التعليم فى غينيا ٥٥٤
٥٦٤ - ٥٥٥	مالى
	مقدمة ٥٥٥ - النسبة والموقع ٥٥٦ - السكان : دماً ولنة ودينياً ٥٥٧
	كلمة تاريخية ٥٥٧ - اقتصاد مالى ٥٦١ التعليم فى مالى ٥٦٣
٥٧٥-٥٦٥	النيجر
	النسبة والموقع ٥٦٥ - السكان : دماً ولنة ودينياً ٥٦٧ - كلمة
	تاريخية ٥٦٨ - اقتصاد النيجر ٥٧٣ - التعليم فى النيجر ٥٧٥
٦١٢-٥٧٦	نيجيريا
	النسبة والموقع ٥٧٦ - السكان : دماً ولنة ودينياً ٥٨٢ - كلمة تاريخية
	٥٩٠ - بعد الاستقلال ٥٩٨ - الجنرال مرتضى الله ٦٠٢ قتل مرتضى الله
	وبقاء نظامه ٦٠٤ - اقتصاد نيجيريا ٦٠٥ - التعليم فى نيجيريا ٦٠٧
٦٢٤-٦١٣	تشاد
	النسبة والموقع ٦١٣ - السكان : دماً ولنة ودينياً ٦١٥ - كلمة
	تاريخية ٦١٧ - بعد الاستقلال ٦١٩ - انقلاب عسكري فى تشاد ٦٢١
	التعليم فى تشاد ٦٢٣
٦٥٦-٦٢٥	السودان
	مقدمة ٦٢٦ - النسبة والموقع ٦٢٩ - السكان : دماً ولنة ودينياً
	٦٣٠ - كلمة تاريخية ٦٣٤ - مؤامرة يوليو (١٩٧٦) ٦٤٣ -
	جنوب السودان ٦٤٥ - اقتصاديات السودان ٦٤٨ - التعليم
	فى السودان ٦٥١ - التعليم فى جنوب السودان ٦٥٤

الصومال ٦٨٥-٦٨٧

موقع الصومال ٦٥٧ - السكان: دما ولنة ودينآ ٦٥٨ - كلمة تاريخية
٦٦١ - العرب والإمارات المريضة بالصومال ٦٦٢ - الفرس
والإمارة الفارسية بالصومال ٦٦٤ - البرتغال في الصومال ٦٦٦ -
عمان في الصومال ٦٦٧ - زنجبار في الصومال ٦٦٨ - مصر في
الصومال ٦٦٩ - الاستعمار الأوربي بالصومال ٦٧٣ - استقلال
الصومال البريطاني والإيطالي ٦٧٥ - ثورة ٢١ أكتوبر سنة ١٦٦٩
ص ٦٧٧ - اقتصاد الصومال ٦٧٧ - التعليم في الصومال ٦٧٩ -
مصر وتعليم الصوماليين ٦٨٢ - حركات في الصومال ٦٨٢ -
الصومال والسوفيت ٦٨٤

جيجوى : دولة مستقلة جديدة بإفريقية ٦٨٧-٦٨٨
للمسلمون في الدول غير الإسلامية بإفريقية ٦٨٨-٦٩١
رئيس جمهورية إفريقية الوسطى بشهر إسلامه ٦٩٢-٦٩٣
أريتريا بين الحبشة وبين الاستقلال ٦٩٣-٧٠٥

الحبشة أو اثيوبيا ٦٩٣ - عزل الحبشة في الماضي ٦٩٤ مصر والحبشة
٦٩٤ - الاستعمار يصارع الامتداد المصري بإفريقية ٦٩٥ - توزيع
النفقة وضم أريتريا إلى إيطاليا ٦٩٦ - أريتريا من إيطاليا إلى الحبشة
٦٩٦ - كلغة عن حبشة هيلاسلاسى ٦٩٨ - نهاية هيلاسلاسى
والنقاء للملكية في الحبشة ٧٠١ - أريتريا بين حكمين ٧٠٤

التقارب بين الدول العربية والدول الإفريقية ٧٠٦

كلمة ختام ٧٠٧-٧٣٥

حضارة الإسلام بإفريقية ٧٠٩-٧١٨
مستقبل الإسلام بإفريقية ٧١٩-٧٢٩
إفريقيا قارة المستقبل وقارة الإسلام ٧٢٦-٧٢٨
مستقبل الدول الإسلامية بإفريقية ٧٢٩-٧٣٥
نبت للمراجع ٧٣٧-٧٤٩
فهرس الأعلام ٧٥٠-٧٦٢
فهرس الأماكن ٧٦٣-٧٦٦

فهرست الخرائط

الصفحة

الخريطة

٤٢	أمم أنهار إفريقية
٤٦	اللغة الإسلامية يزحف على ثلاثينية
٤٩	الإسلام في قارة إفريقية الآن
٦٥	الاجتاس في إفريقية
٦٠٦	قالة ومال والمسنای
٦٤٠	الإمبراطوريات والسلطنات الإسلامية جنوب صحراء إفريقية قبل الاستعمار الأوروبي
٦٤٥	إمبراطورية رابع الزبير
٦٠٣	زنجبار ودول الساحل الشرقي
٤٢٤	الاستعمار في إفريقية سنة ١٩١٤
٤٩٥	دول إفريقية الآن
٤٩٩	الدول الإسلامية جنوب صحراء إفريقية
٥٠٠	جمهورية موريتانيا الإسلامية
٥٢٢	جمهورية السنغال
٥٣٢	جامبيا
٥٤٢	جمهورية غينيا
٥٥٥	جمهورية مالي
٥٦٤	جمهورية النيجر
٥٧٦	اتحاد نيجيريا
٦١٣	جمهورية تشاد
٦٤٥	جمهورية السودان
٦٥٧	جمهورية الصومال

مقدمة

— كانت كلمة « السودان » في التاريخ الوسيط تضم الحزام الذى سيشمله الحديث في هذا الجزء ، وقد اختفت هذه الكلمة الآن لإلّا من المنطقة التى تقع جنوب مصر ، ولذلك أطلقنا على هذه المنطقة « السودان وادى النيل » أو « السودان العربى » كلما أردنا أن نخصها بحديث .

— وهناك حدود طبيعية لهذا النطاق الذى خصصنا له هذا الجزء ، فيحدّه شمالا الصحراء الكبرى والمناطق شبه الصحراوية ، ويحدّه جنوباً منطقة الغابات الاستوائية وقد وقعت الصحراء الكبرى شائعة بين هذه المنطقة وبين الشريط الساحلى للشمال الإفريقى ، واتجه هذا الشريط الساحلى نحو البحر المتوسط وارتبطت حضارته بحضارة حوض هذا البحر ، ومع هذا فإن الشريط الساحلى ظل مدى العصور يتجه إلى الجنوب من حين إلى حين ، وعلى هذا تعتبر الصحراء أشبه ببحر عظيم يحيط به المسلمون من كل جانب ، بل يتخللونه ويقيمون به أحياناً فى بعض الواحات أو على جانبي الطرق التجارية الممتدة بين الشمال والجنوب : فكأنهم جزر وسط المحيط العظيم ، وكانت مصر وبلاد المغرب أكثر بلاد الشمال اتجاهاً إلى الجنوب ، فقد اخترقت مصر النطاق الصحراوى بواسطة نهر النيل ، وتسربت حضارتها إلى مناطق دنقلة وكردفان ودارفور حتى منطقة خط الاستواء ، واتصلت مصر بسودان وادى النيل كذلك عن طريق درب الأربعين ، بل إن اتصال هذه المنطقة تتجاوز السودان إلى بحيرة تشاد وشمالى نيجيريا ، أما بلاد المغرب فقد كانت لها مسارب متعددة إلى مصب السنغال ومنحنى النيجر ، بل إلى جميع المنطقة المعروفة بغربى إفريقيا ، وكانت الحضارة المناسبة من مصر تلتقى عند بحيرة تشاد بالحضارة المنطلقة من بلاد المغرب ويقول Roland Oliver إن شعوب

المنطقة الممتدة من مصب نهر السنغال غرباً ، وللمتجهة نحو الشرق حتى النصف الجنوبي لشاطئ البحر الأحمر تتميز بحضارة خاصة بها لأن شعوبها الإفريقية المختلفة تتبع نظماً ودرجات متشابهة كأنها منبثقة من مصدر واحد (١) والسبب في ذلك أن سهولة الانتقال في هذا الحزام كانت مكفولة نسبياً ، وقد ساعد هذا على قيام دول إفريقية متجانسة يؤثر بعضها على بعض ويكون منها وحدة شديدة التشابه (٢) .

— وعلى الرغم من قيام الدول والممالك في هذه المنطقة ، فقد كانت القبيلة هي الطابع البارز للحياة فيها ، ولانظام انتبلى سلطانه وقوته ، فهو لا يطبق الوحدة والتكتل ، ويميل للتمزق متخذاً له كلمات كالحرية والاستقلال أساساً ، وعلى هذا فلم توجد في هذه المنطقة حدود ثابتة ، وتعرضت لحركات تجمع وتمزق من حين لآخر ، وقد استغل الاستعمار هذه الظروف عند قدومه لهذه المنطقة وعند زواله عنها ، فخلق بها صوراً من الوحدة والتفكك حسبما تقضى أغراضه ، وتبعاً لذلك فإن تسمية هذه البقاع مرت بعدة أطوار ، ودأب الاستعمار على تسميتها بالسودان ، فكان هناك السودان الفرنسي والسودان البلجيكي وكان الاستعمار بذلك يرمى إلى القضاء على التسميات التي تسجل تاريخاً حافلاً لهذه المناطق ، ويرمى كذلك إلى اعتبار هذه المناطق جزءاً من الإمبراطوريات الأوروبية التي أقامها . وذلك يجعل دراسة هذه المناطق عسيرة شاقة .

— ومراجع البحث في تاريخ هذه المنطقة وفي حضارتها قليلة جداً ، وقد كتب الباحثون العرب تاريخ الفترات الأولى ، ولم يكن ما كتبوه شاملاً ولا كافياً ، ولكنه يمتاز بصدقه ودقته ، وقد أشار الدكتور نكروما إلى أهمية ما كتبه هؤلاء الرحالة في حديث له بجامعة أكرا في ديسمبر سنة ١٩٦٢

حيث قال : إن الرحالة العرب كانوا غير متحيزين فيما دونوه عن إفريقية ، ونحن مدينون لهم فيما كتبوه عن ماضينا ، أما السكان الأصليون فلم تكن العربية لغتهم ، وقد كتب بها بعضهم ، ولكن جمهور الناس لم يحفل بما كتبوه فضاع في ضجيج الأحداث ، وغلبا كتب هؤلاء السكان بغير العربية إذ لم تكن هناك لغات ذات بال في هذه المناطق ، وإنما وجدت لهجات هزيلة للاستعمال في مطالب الحياة اليومية دون صلاحية للتدوين أو للكتابة كما سنرى عند الحديث عن اللغات واللهجات ، وعندما جاء الاستعمار ارتبطت كتابة تاريخ هذه المنطقة في الغالب بالتبشير والمبشرين المسيحيين ، فحادت كتابتهم عن الصواب ، ومشت غالباً في خدمة المسيحية الغربية والاستعمار الغربي . ومع هذا فسنحاول بإصرار أن نعرض خطوط الحياة في هذه المنطقة بوضوح . والله المعين .

وبمناسبة الحديث عن المراجع أحب أن أذكر أنه مع اخشذ الكبير للمصادر والمراجع الذي استوعبته هذه الدراسة ، فإن هناك مشكلة طالما استوقفتني وأنا أطالع بعض ما كتبه المحدثون ، هي أن منهم من أخذ المصادر أصلاً والفكرة فرعاً ، فراح يضع للفكرة الساذجة عشرات المراجع ، نعيم عشرات المراجع دون مبالغة ، والرأى الذى أدين به أن الفكرة هي الأصل ، فإذا عثرنا عليها وثقناها بما يضمن صحتها وما يفتح للقارئ آفاقاً جديدة ، وإن يكون حشد المصادر بسبب وبدون سبب هدفألى على الإطلاق .

— ومنهجنا في كتابة تاريخ العالم الإسلامى يرتبط بالإيجاز من جهة ، والوضوح والشمول من جهة أخرى ، وفي ضوء هذا المنهج لا نعطي تفاصيل الأحداث حتى لا تزيد أجزاء هذه الموسوعة عن ثمانية كما رسمنا منذ ربع قرن ، لأن انسيابنا خلف هذه التفاصيل سيخرج بنا عن هذا المنهاج ويؤجل ظهور باقى أجزاء هذه الموسوعة ، وقد كان مما دعا لسرورى أن كثيراً من طلاب الدراسات العليا قد لجأوا إلى دراسة الدول والمشكلات التى ألمت بها إلماًماً سريعاً فى الجزء الرابع والخامس من هذا المؤلف ، وكتبوا عنها

دراساتهم وأبحاثهم ، وذلك هو ما قصدت إليه ، فإن هورى هو أن أرسم الخطوط العريضة للعالم الإسلامى كله فى هذه الأجزاء الثمانية ، وأن ألقى الضوء على الشخصيات المهمة والأحداث الكبرى والدول الإسلامية ، رجاء أن يتجه الباحثون لإبراز التفاصيل عن هذه الأحداث والشخصيات والدول ، على أنى فى هذا الجزء بوجه خاص لم أعتن بالايجاز ، وعمدت الى إيroad بعض التفاصيل ، وذلك لصعوبة التراجع الى مجموعات هذا الجزء ولقلة ما يغنى عنه .

- وإن سرورى بهذا الجزء لا يعدله سرور ، وذلك لسبب واضح هو أننى ضمنت به الى مادة التاريخ الإسلامى تاريخ بلاد عزيزة على الإسلام والمسلمين ، فقد درست التاريخ الإسلامى بعدة جامعات بالشرق والغرب ، وكان يرورى أن التاريخ الإسلامى محصور فيما يمكن أن نسميه « تاريخ العرب » ، إذ اتجه الاهتمام الى دمشق وبغداد والقاهرة ، وما يتصل بها من بلاد عربية ، وعندما تذكر إيران أو الهند يكون ذلك مرتبطاً بالفتوحات والحروب ، وحصراً التاريخ الإسلامى فى نطاق العالم العربى خطأ كان لا بد أن نضع حداً له ، وطالما كنت أوضح أن هذه المادة فى هذا النطاق المعمول به ينبغي أن تسمى التاريخ العربى أو تاريخ العالم العربى ، أما إذا أريد أن يكون للتاريخ الإسلامى مدلوله الصحيح فيلزم أن يمتد لدراسة تاريخ سبعمائة مليون مسلم يعيشون فى مناطق فسيحة تمتد من المحيط الأطلسى الى أقصى الجزر فى المحيط الهادى ، ومن مناطق أفريجان وتركستان شمالاً الى الغابات الاستوائية جنوباً ، فتشمل الدراسة بذلك تاريخ هذه البلاد التى خصصنا لها هذا الجزء ، وتشمل البلاد الإسلامية غير العربية بآسيا التى خصصنا لها الجزء الثامن من هذه الموسوعة . ولأننى أرجو أن يحس المسلم فى أى بقعة من هذه البقاع بأنه جزء من هذا العالم الإسلامى الفسيح ، وأن له به إخوة يرتبطون به بأوثق الروابط ، وعليه أن يتدارس تاريخهم وحضارتهم ، فإن تاريخ أى قطر إسلامى فى أية بقعة من البقاع جزء من التاريخ الإسلامى كله ، وأن أية حضارة ترفع فى أى مكان ليست إلا قيساً من الحضارة الإسلامية الخالدة .

ومن مزايا هذا الجزء كذلك أنني أحاول به أن أسهم مع الباحثين في إراز تاريخ بلاد أو شك التاريخ أن يتجاهلها أو يتجاهل أكثرها ، مع أن لكثير منها دوراً في حضارة العالم ينبغي ألا ينسى .

ومما يدل على نسيانها أن الجغرافيين المعاصرين الذين رسموا خريطة العالم الإسلامي وهي تتسع من قرن إلى قرن لم يضمنوا تلك الخريطة . هذا الجزء المهم (١) ، وأن المؤرخين المحدثين الذين تحدثوا عن الأسرات الحاكمة في العالم الإسلامي لم يتحدثوا عن هذه المناطق أى حديث (٢) .

— ومن الواضح أن انتشار الإسلام بإفريقية امتغرق عدة قرون ؛ فبينما كانت هناك وثنية في منطقة كان الإسلام يزدهر في منطقة أخرى ، وفي بعض القبائل أو بعض النواحي تجمعت الوثنية والإسلام والمسيحية في وقت واحد ، وسنحاول ما وسعنا الطاقة أن نجلى هذه المسألة .

— ويبدو من تخطيط هذا الكتاب أننا تحدثنا عن انتشار الإسلام بإفريقية وعوامله المختلفة ، فلما قامت الدول الإسلامية بإفريقية عمدنا إلى الحديث عن هذه الدول وهن تاريخها منذ قامت ، وطبعاً أننا عدنا الدولة إسلامية أو غير إسلامية حسب أكثرية السكان في أدق إحصاء استطعنا الحصول عليه ، أما الدول التي لم تصل إلى أن تُعد في نطاق الأمم الإسلامية لأن المسلمين بها يكوّنون أقلية بين السكان ، فقد تحدثنا عنها ونحن نتكلم عن نشر الإسلام بالقارة ، كما تحدثنا عنها مجتمعة في الباب السادس تحت عنوان « الأقليات الإسلامية بالدول الإفريقية » .

ولكن يبدو في هذه القارة ظاهرة خطيرة هي وجود أكثرية إسلامية عديدة أحياناً بدون نفوذ بطبع الدولة بطابع الإسلام ، فإذا كانت الحبشة مثلاً بها أكثرية عديدة من المسلمين فإن طابع الدولة هو المسيحية والتعصب

(١) انظر : Harry Hazard : Atlas of Islamic History

(٢) انظر : Stanley Lane-Poole : Muhammadan Dynasties

ومجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي لزامبارو .

لها ، ومثل هذه الدولة لا نستطيع أن نضعها بين الدول الإسلامية حتى مع كَوْن المسلمين أكثرية بها .

فالدولة الإسلامية الصحيحة هي التي تتبع التشريع الإسلامي والسلوك الإسلامي تماماً ، وإن كنا نكتفي في التاريخ بالاعتقاد بأن الدولة الإسلامية هي ذات الطابع الإسلامي وجه عام ، وهو ما لا يمكن أن ننكره على كثير من الدول وإن كان في تشريعها مقتبسات من تشريعات الغرب . أما الحبشة مثلاً فلا يمكن أن نذكر أن الطابع الإسلامي هو طابعها ، مهما كان عدد المسلمين بها .

وفيما يتعلق بالتعداد ينبغي أن أوضح أن الإحصاء ليس دقيقاً في الغالب حتى إذا كان رسمياً ، فقد اتجهت الأنظار إلى المغالطة بسبب الحياة القبلية وبسبب الأديان ، فالوثنية مثلاً أو المسيحية تريد أن تبرز أن لها كياناتاً ، وأن عددها وفير ، فتعتمد على الزيادة في عدد أتباعها ، وربما فعل المسلمون ذلك أيضاً ، ومثل هذا تفعله القبائل ليكون لها نفوذ أوسع ، ويبرز هذا الوضع في نيجيريا والحبشة ؛ ففي الأولى ارتفع عدد السكان ارتفاعاً يقال إنه صناعي وليس حقيقياً ، وظهر المسلمون أقلية بالنسبة للأرقام الخيالية التي أضافها المسيحيون والوثنيون^(١) ، وفي الحبشة قفز عدد المسيحيين وأهمل المسلمون في التعداد إلى حد كبير ، ومع هذا فسنحاول بوسائل متعددة أن نصل إلى التعداد الأقرب للصواب .

— ولم يكن من الممكن أن نسير في هذا الكتاب على نحو ما سرنا في الجزء الرابع أو الخامس من الكلام عن كل قطر على حدة منذ دخله الإسلام حتى الآن ، وذلك لاختلاف التسمية ، فقانا الحديثة مثلاً ليست هي غانة القديمة لا من ناحية الأرض ولا من ناحية السكان ، ومملكة صنغاي شملت أرضاً تقوم عليها الآن نيجيريا وساحل الذهب ، وإمبراطورية بورنو ومملكة كانم اختفتا حيث قامت دولة تشاد ، وهكذا ، ثم إن الاستعمار عندما جاء ، ألغى الأسماء القديمة والحدود القديمة واقترح أسماء جديدة وحدوداً

جديدة ، فظهر السودان الفرنسى يضم عدة دول إفريقية قديمة ، وظهر السودان البلجيكي وهكذا .

من أجل هذا سرنا على تقسيم هذه الدراسة إلى فترات تاريخية متتابعة ، كل فترة يشملها باب من أبواب هذا المجلد على النحو الآتى :

- إفريقية قبل الإسلام
- انتشار الإسلام بإفريقية : طرقه ووسائله .
- الدول الإسلامية بإفريقية قبل الاستعمار الأوروبى .
- الاستعمار الأوروبى لإفريقية وموقفه من الإسلام .
- الدول الإسلامية بإفريقية بعد زوال الاستعمار .

ومع هذا ففى الباب السادس عند الكلام عن الدول الإسلامية الحالية عمدت إلى إيراد دراسة متصلة لكل قطر ، تبدأ من الماضى وتصل إلى الحاضر ، موجزاً ما فصلت فى الأبواب السابقة لتصل معالم الصورة إلى أقصى حد ممكن من الوضوح .

- وقد خصصنا الجزء الرابع من هذه الموسوعة للحديث عن الأندلس وعن دول الشمال الإفريقى : المغرب والجزائر وتونس وليبيا ، ثم سرنا فى الجزء الخامس تكمل دول الشمال الإفريقى فتحدثنا عن مصر ، واستلزم ذلك أن نتحدث عن سوريا لطول الوحدة بين مصر وسوريا على مر التاريخ ، واستتبع ذلك أن نتحدث عن الحروب الصليبية التى دارت رحاها فى مصر وسوريا ، كما استتبع أن نتحدث عن الإمبراطورية العثمانية التى آلت لها مصير مصر وسوريا فترة طويلة من الزمن ، وكان طبيعياً بعد ذلك أن نعود لإفريقية فى هذا الجزء لنستكمل دراسة الإسلام والدول الإسلامية بها خلف الصحراء ، وهذا فيما أرى ترتيب طبيعى لم أجد مناصاً من اتباعه .

وهناك محاولة صارمة ألا يحدث تكرار بين موضوعات هذا الجزء والأجزاء السابقة إلا للضرورة القصوى ، فالخطة متكاملة وليست متداخلة .



وبعد ، ما أظننى عانيت فى كتاب مثل ما عانيت فى هذا الجزء ، لقد استدعى صبراً طويلاً ، وجهداً متصلاً ، واحتاج إلى مراجع كان الحصول على أكثرها عسيراً ، وقد تمت برحلة علمية إلى بعض المناطق التى يشملها هذا البحث ، وكان من أهم أهداف هذه الرحلة التعرف على نقاط غامضة فى الموضوع والحصول على بعض المراجع ، وأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه .

ودعاء أن يجعل الله هذا الجهد خالصاً لوجهه الكريم ، ومنبداً للأمة الإسلامية ، وأن يثيبنا عليه ، إله نعم المحيى ؟

دكتور أحمد شلبى

المعادى فى الثانى والعشرين من يناير سنة ١٩٧٢

مقدمة الطبعة الثالثة

حمداً لله واهب النعم ، اللهم لكل خير ، والأمين فى كل عمل ، وشكراً للقرأء على إقبالهم الذى فاق كل أمل ، والذى دفعنى لمضاعفة الجهد .

ويسرنى أن ألتقى بالقارئ العزيز خلال الطبعة الثالثة لهذا الكتاب ، وفيها زيادات كبيرة الأهمية فى الباب الأخير منه تصل الأحداث إلى الوقت الحاضر ، وتحقق الناية التى نسى لها من أجل الانتفاع بالتاريخ ، يجعله مؤثراً يدفع إلى تحسين الحاضر والمستقبل .

والله للسؤل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به كاتبه وقرائه إنه سميع مجيب ؟

القاهرة فى ديسمبر سنة ١٩٧٨

دكتور أحمد شلبى

الباب الاول

تعريف بالمصارة

معلومات عامة عن القارة

إفريقية قارة تبلغ مساحتها حوالى ٣٠ مليون كيلو متر مربع (حوالى ١٢ مليون ميل مربع) وهى بذلك خمس مساحة الكرة الأرضية ، وعدد سكانها ٢٣٥ مليون نسمة أى حوالى ٨٪ من سكان العالم ، وهى بذلك قليلة السكان . ويفصلها عن أوروبا البحر المتوسط ، وتقف جزره حلقات اتصال بين القارتين ، ويفصلها عن آسيا المحيط الهندى والبحر الأحمر ، وهى تقرب كثير آمن أوروبا عند مضيق جبل طارق ، ومن آسيا عند بوزغاز باب المندب وترتبط فى شمالها الشرقى بآسيا عن طريق شبه جزيرة سيناء وبرزخ السويس . وإفريقية تتكون من هضبتين كبيرتين تحف بهما سهول ساحلية منخفضة ؛ الهضبة الشمالية وتمتد من المحيط الأطلنطى حتى البحر الأحمر ، وتشمل الصحراء الكبرى وبلاد السودان ، وبها بعض المرتفعات مثل جبال تيبستى وبعض المنخفضات مثل تشاد والقطارة والنيوم ، والهضبة الجنوبية أكثر ارتفاعاً من الهضبة الشمالية ، ومن أهم مرتفعاتها هضاب الحبشة وشرق إفريقية (١) .

وبالقارة عدد من البحيرات الكبرى أكبرها بحيرة فيكتوريا نيارا ، وأهم أنهار القارة النيل والكونغو والنيجر والزمبىزى والسنغال ويقسم خط الاستواء القارة قسمين ، والقسم الجنوبى أضيق من القسم الشمالى ولهذا كان مناخه أكثر اعتدالاً .

وتكثر الزراعة فى إفريقية معتمدة على المطر أو على الرى ، فتزرع بها الحبوب الغذائية والقطن والتبغ والفول السودانى والبن والشاى والمككاكاو وغيرها .

وفى مجال المعادن نذكر أن مستقبل إفريقية مشرق كل الإشراق ؛ ففيها أكبر كميات من الصفيح فى العالم ، وفيها كميات هائلة من الكوبالت ، وهو

ملا غنى عنه في صناعة الفولاذ اللازم للآلات السريعة ، وإذا استثنينا الموارد السوفيتية ، فإن الكونغو وكندا ، هما المنطقتان الوحيدتان في العالم اللتان تنتجان الكوبالت بكميات كبيرة ومهمة ، وتقوم أضخم مخزونات النحاس في إفريقية ، وتمثل مخزونات الراديوم ستين في المائة من موارد الغرب من هذا المعدن الثمين النادر ، وهناك كميات ضخمة من الذهب في إفريقية (حوالى ٥٥ ٪ من إنتاج العالم) وتعتبر ماسات إفريقية من أجود أنواع الماس وأضخمها في العالم (٩٨ ٪) ، وفي غانا وسيراليون كميات كبيرة من الماس الصناعي ، وتنتج إفريقية ثلث إنتاج العالم من معدن الكروم ، كما تنتج خمس الإنتاج العالمى من المنجنيز ، ويمكن القول بأن أراضي غانا مملوءة بالمنجنيز والبوكسيت ، ولا تعتبر إفريقية مفتقرة إلى الحديد الذى يوجد متوافراً في جنوب السودان ، وجبال إفريقية الشرقية ، وفي القارة كميات لا بأس بها من الفحم والبترول .

ولست هناك قارة جبتها الطبيعة بالموارد الطبيعية كما جبت إفريقية ، ولا تفتقر إفريقية إلا إلى شيئين هما : المهارة الفنية ، ورأس المال ، وهذان العاملان ضروريان لكل الضرورة لتحويل الموارد الطبيعية إلى منتجات نافعة .

ولو قدر لإفريقية أن تحسب مواردها على مستوى القارة كوحدة واحدة ، فإن في وسعها أن تقول بأنها تملك ثقافة موحدة ، وسكاناً صالحين ، ومخزونات معدنية ، واحتمالات زراعية ، وتملك إفريقية في داخلها كالاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة جميع المواد الأولية التي تحتاج إليها في مشاريع تصنيعها (١) .

وموقع القارة شديد الأهمية من الناحية الاستراتيجية ، ويبرز الأمرال رئيسارد كونولى المناطق الاستراتيجية الكبرى بالقارة ، وهي طنجة وقاعدة

W. E. Abraham : The Mind of Africa p.p. 187—188 (١)

Basil Davidson : The Lost cities of Africa p. 81 ر

مراكش الجوية ، وليبيا وأريتريا والصومال وجزيرة مدغشقر ورأس
الرجاء الصالح وقاعدة دكار^(١)، ويوضع في القمة من هذه المواقع الاستراتيجية
مصر التي تعد باباً لإفريقية وآسيا في نفس الوقت ، والتي تمتاز بكثير من
الامتيازات التاريخية والاجتماعية التي تجعلها شديدة التأثير في مناطق واسعة
تحيط بها .

كشـف القارة

عنيت المراجع الأوروبية بالحديث عن كشف إفريقيا وأبرزت دور الأوروبيين في هذا العمل ، والذي يقرأ ما كتبه هؤلاء يحس أن إفريقيا كانت شديدة الشبه بأمريكا أو أستراليا ، كانت عالماً غامضاً كشف عنه الرحالة والمغامرون الأوروبيون ، والحق أن إفريقيا ليست كذلك وبخاصة هذه المناطق التي شملها الإسلام عندما جاء الإسلام ، تلك المناطق التي يتناولها هذا الجزء والجزء الرابع من هذه الموسوعة ، ولم تكن هذه المناطق معروفة فحسب ، بل أنها سبقت شمالي أورباً في الظهور يقول Panikar (١) ، « بالنسبة للإغريق والرومان كان شمالي أوربا ، لا إفريقيا ، هو الأرض الغريبة غير المألوفة » وقد قامت شمال الصحراء وجنوبها دول وإمبراطوريات قبل ظهور الإسلام والمسيحية وبعد ظهورهما ، وسوضح ذلك في الدراسة القادمة ، كما أثبت المسح الأثري على الشاطئ الآخر للمحيط الهندي أن هناك تشابها يرجع إلى عهد مبكر بين كل من تاريخ الملايو وتاريخ ساحل إفريقيا الشرقى ، وكان النفوذ الهندي المباشر قوياً جداً في الملايو ومن المحتمل أنه كان موجوداً كذلك في شرق إفريقيا ، كما أن السلع التجارية الصينية والاهتمامات التجارية كانت قد بدأت تُحدث أثراً على كل المحيط الهندي في الفترة التي تمتد من القرن الخامس إلى القرن الثاني عشر (٢) ، وقد ذكر الرحالة Gervase Mathew أن التاريخ المدون لمنطقة شرق إفريقيا يبدأ بظهور الكتيب التجارى الذى وضع فى أواخر القرن الأول الميلادى باللغة الإغريقية ،

(١) Serpent and Crescent p.p. 12, 26. من الترجمة العربية التى قام بها الأستاذ

أحمد فؤاد بليغ ولم تنشر بعد .

Gervase Mathew : The Land of Negro p. 34. (٢)

والذى يطلق عليه اسم كتاب « الطواف البحرى للمحيط الهندى » ويقرر Gervase (١) أنه عندما قام برحلته على الطرق التى وصفها هذا الكتاب أبين بما لا يدع مجالاً للشك أن هذا الوصف كان وصف شاهد عيان أبجر ناحية الجنوب على طول شواطئ المنطقة المعروفة الآن ، باسم صوماليا وكينيا وتنجانيقا ، ووصف أسواقهم بأنها كانت جزءاً من الشبكة الملتحمة لتجارة المحيط الهندى ، فقد كانت السفن تبحر إلى هناك وافدة من مصر فى شهر يوليو وتصل إليها مباشرة سفن أخرى قادمة من الهند الغربية ، وكان يوجد هناك عرب يعرفون مختلف أجزاء الساحل ، بل ويتحدثون أيضاً اللغة السائدة فيها .

وليس الساحل الشرقى فقط هو الذى كان معروفاً ومطروقاً ، وإنما كانت كذلك منطقة تشاد فى قلب إفريقيا ، ومناطق غربى إفريقيا تزدهر بها حضارة عريقة يرجع تاريخها إلى بضعة قرون قبل الميلاد ، وسنشير إلى هذه الحضارات عند حديثنا عن حضارة إفريقيا الأصيلة .

وعبر مئات السنين كانت الصلة وثيقة بين شمالى إفريقيا ، وبين غربى القارة ووسطها .

وعلى هذا فالحديث عن كشف هذه المناطق يمكن أن يكون كشفاً بالنسبة لأوروبا ، فقد كانت تجهل هذه المناطق وتعرفت عليها ، والحقيقة أن أوروبا كان جهلها بإفريقية عميقاً ، فقبل القرن الخامس عشر لم تكن تعرف عن إفريقيا شيئاً إلا عن مصر والشمال الإفريقى (٢) و لم تعرف الحبشة إلا فى عصور متأخرة ، ويقرر John Buchholzer (٣) . أن أوروبا فى العصور الوسطى لم تكن تعرف شيئاً عن بلاد اسمها أثيوبيا أو الحبشة أو عن مجرد وجودها ، وكان

The Land of Negro p. 32. (١)

Endre Sik : The History of Black Africa p. 96. (٢)

The Land of : urat Faces p.p. 115—116. (٣)

يجرى في أوروبا آنذاك حديث حول خطط مسيحية تقع دولته في مكان ما ربما في آسيا أو شبه القارة الهندية ، وقام قيس إن البابا تلقى من أمير هذه البلاد خطاباً يصف فيه عجائب بلاده ، وأشد بنوى أن ينهب إلى بيت المقدس ليطرده منها المسلمين بعد أن احتلها في مصر صلاح الدين الأيوبي ، وفي القرن الخامس عشر بدأ الرحالة الأوربيون العائدون من مصر وفلسطين يذكرون ما يروى عن وجود مملكة مسيحية كبيرة ، فيما وراء مصر بمسافة بعيدة ، ولم تُعترف الحبشة إلى أوروبا بدمقة إلا من طريق البرتغاليين في القرن السادس عشر مع أن الحبشة كانت معروفة جداً لدى العرب قبل الإسلام بمدى طويل ، وكانت مركزاً من المراكز التجارية الكبرى عند العرب ، وتذكر المراجع العربية أن بنى عبد منان الأربعة كانوا يتوجهون إلى الجهات الرئيسية الأربعة التي تتجه لها تسيرة قريش ، فكان هاشم يتجه للشام ، وعبد شمس إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن ، ونوفل إلى فارس ، وكان تجار قريش يختلفون إلى هذه البلاد في ذمة هؤلاء الإخوة الأربعة لا يتعرض لهم أحد بسوء (١) .

وهكذا كان جهل أوروبا بقارة إفريقية واضحاً ، ومن هنا كثر حديثهم عن كشف هذه القارة التي كان التاريخ القديم والوسيط يعرفها تمام المعرفة ، ويوحى كلام أكثر الأوربيين بأن إفريقية كانت غير معروفة تماماً ، وينصف بعضهم فيذكر أنها لم تطأها قدم أوربي

وسنشرح فيما يلي دور مصر في كشف القارة في التاريخ القديم ، ثم دور

(١) الطبري ج ٢ ص ١٢ - ١٣ وسبائك الذهب في معرفة قبائل العرب لعمد أمين

العرب في التعريف بها خلال التاريخ الوسيط ، وأخيراً دور أوروبا في العصر الحديث .

دور المصريين القدماء :

في الشمال الشرقي من قارة إفريقيا قامت حضارة من أقدم الحضارات التي عرفها الإنسان ، هي حضارة الفراعنة ، ولم تقف هذه الحضارة في مكانها تنعم بما قدمته لها الطبيعة من رفاهية وخصب ، بل راحت تبحث حوها لتعرف جيرانها وتنتشر مدنياتها ، وكانت خطوات المصريين القدماء هي أولى الخطوات التي كشفت أجزاء مهمة من هذه القارة وبعثت أشعة النور بين الظلام .

ولعل البعثة التي أرسلها سمورع أحد ملوك الأسرة الخامسة كانت أول الرحلات المصرية المعروفة ؛ وقد اتجهت هذه البعثة إلى بلاد الصومال والمناطق الواقعة جنوبي خليج عدن لطلب العطور وخشب المر ، وكان الهدف من هذه الرحلات تجارياً في مكانه الأول

أما التوغل عن طريق النيل فقد بدأ أيام الملك بيبى الأول حوالي سنة ٢٥٠٠ ق . م حين أرسل حملة إلى بلاد النوبة « وراء الشلال الأول » ؛ وجند من أهلها فرقاً بالجيش المصرى ، استعملها في غزواته الشمالية ؛ وظلت هذه عادته وعادة كثير من الحكام الذين جاءوا من بعده .

وقد أمر الملك مرن رع بن بيبى بفتح خمسة مسالك في صخور الشلال الجريتينية لكشف طريق نهري يصل مصر بأقاليم السودان الجنوبية التي كانت تصدر لمصر الذهب وسن الفيل وريش النعام وخشب الأبنوس .

وفي أيام بيبى الثاني أرسلت حملة بحرية إلى الصومال تدل عليها بعض النقوش التاريخية ؛ وتكررت غزوات مصر في عهد الدولة الوسطى ؛ وتركزت في منطقة السودان الأوسط ، وتعتبر رحلات المصريين أيام الملك حتشبسوت

في القرن الخامس عشر قبل الميلاد رحلات استكشافية من الدرجة الأولى وقد وصلت هذه الرحلات إلى بلاد الصومال ، وكانت هذه الرحلات عن طريق البحر الأحمر فالمحيط الهندي (١) .

ومناك رحلات نبيلة قامت إبان الدولة المصرية الحديثة وتصور نقوش هذه الدولة زنجياً يسكنون الأجزاء التي تلي التقاء النيل الأزرق بالنيل الأبيض ، وقد صورهم الفنان المصري بملاصيحهم الرنجة ، وهم يكادون أن يكونوا عراة .

وهكذا سار المصريون مع النيل سوطاً طويلاً حتى قاربوا من منابعه تقريباً ، وساروا كذلك مع البحر الأحمر نحو الجنوب فاكشفوا سواحله وتعرفوا على شرق إفريقيا حتى أريتريا والصومال ، كما اتجهوا نحو الجنوب الغربي حتى بحيرة تشاد ، وتخطوها تجاه الغرب إلى غربي إفريقيا .

وهناك طريق آخر سلكه المصريون في الكشف عن هذه القارة وهو الطريق الليبي ، ويقع غرب النيل ، وسلكه المصريون القدماء في هذا الطريق ما يعرف بدرب الأربعين ، وأحياناً سلكوا طريقاً آخر بين درب الأربعين وبين النيل ، ويبدو أن الآبار كانت كثيرة خلال تلك الفترة البعيدة ، وكانت تساعد الرحالة على القيام برحلاتهم (٢) .

وكانت صلات قدماء المصريين بهذه المناطق تشمل ارتباطات بشرية ، كما كانت تشمل الصلات التجارية والثقافية ، واتخذت الصلات أحياناً طابعاً سياسياً أو عسكرياً ، ومن هنا فإن تشابهاً بارزاً يمكن أن يلاحظه الباحث بين الشعوب التي تعيش في هذه البقاع حتى الوقت الحاضر ،

(١) كشف إفريقية من تقديم لذكور زاهر وياصر ص ٧ - ٩ .

(٢) Endre Sz: The History of Black Africa p. 97 .

وسنورد مزيداً من الإيضاح عن هذه النقاط عند الكلام عن الحضارة الإفريقية الأصيلة .

الفينيقيون والرومان :

أما شمال إفريقيا فقد عرفه الفينيقيون منذ أمد بعيد وأنشأوا على سواحلها المدن ، حتى حلّ محالهم الرومان وأنشأوا إمبراطوريتهم التي امتدت من مصر حتى المحيط الأطلسي ، ولكن قلّ من الرومان من اخترق الصحراء متجهاً إلى الجنوب .

العرب :

اشتهر العرب بجنوب الجزيرة العربية في مناطق اليمن وحضرموت بأنهم شعب تجارى أصيل ، وأنه يتخطى الصعاب ليزاول تجارته ، وعلى هذا فإن عرب هذه المنطقة عبروا البحر الأحمر في فترات بعيدة قبل الإسلام ، وتعرفوا على الساحل الشرقى لإفريقية ، وكانت لهم معه تجارة واسعة متصلة . بل إن هناك نظرية جغرافية قديمة تقول إن الجزيرة العربية كانت امتداداً لقارة إفريقية في العصور القديمة ، وذلك قبل أن يحدث انكسار الأخدود الإفريقي الذي أدّى إلى نشوء البحر الأحمر ففصل الجزيرة عن القارة^(١) وإذا صح هذا فإنه يوضح مدى النفوذ الكبير بين القارة وبين شبه الجزيرة العربية .

فلما جاء الإسلام واستولى العرب على شمال إفريقيا لم يقنعوا كما قنع الرومان بالساحل ، لأن الصحراء لم تكن شيئاً غريباً عليهم ، فاقنحوها واخترقوها إلى ما وراءها ، وكان العرب قد نزّوا مع النيل بعد فتح مصر .

شوطاً طويلاً وبهذا تَمَّتْ صلاتُ بين المتافذ العربية الوافدة من الشمال ، والمتافذ العربية المنطلقة مع النيل ، وتلك المتافذ الوافدة عبر البحر الأحمر (١) ، ثم انتشر الإسلام بعد ذلك في هذه المناطق انتشاراً واسعاً ستصفه فيما بعد ، وخلق الإسلام فرصاً واسعة للرحالة العرب الذين لا يعرفون حدوداً تفرق بين البلاد الإسلامية ، وعلى هذا فقد اهتم الجغرافيون العرب بالكتابة عن إفريقية سواء منهم من زارها وكتب مشاهداته ، أو من تلقى معلوماته من الآخرين بطريق المشافهة أو القراءة ، ومن هؤلاء :

١ - ابن خرداذبة (٣٠١ هـ - ٩١٣ م) جغرافي عربي اسمه عبد الله بن أحمد ، كان جده خرداذبة مجوسياً أسلم على يد البرامكة ، وكان عبد الله يشغل منصب صاحب البريد والخبر بناحية الجبال (العراق العجمي) فأغرته هذه الوظيفة بالتعرف على البلدان ، ونتيجة لهذه المعرفة ألف كتابه « المسالك والممالك » (٢) . وقد عني فيه بالطرق ومسافاتها بين الأقاليم التي وصفها مع بيان لإحصائي عن جباية الخراج إبان الدولة العباسية .

٢ - المسعودي (٣٤٥ هـ - ٩٥٦ م) وهو من ذرية الصحابي عبد الله ابن مسعود وإليه ينسب ، أفضى ربع قرن في رحلات شملت الهند والصين وإفريقية ومدغشقر وغيرها ، ودون ما رآه وما سمعه في موسوعة مهمة تعد مرجعاً هاماً في الدراسات الجغرافية والتاريخية (٣) .

٣ - الإصطخرى : إبراهيم بن محمد (٣٤٦ هـ = ٩٥٧ م) قام بسياحة واسعة شملت الهند شرقاً وإفريقية غرباً ، ووضع مؤلفين مهمين ضمنهما

Endre Sik : The History of Black Africa p. 180 f (١)

(٢) المسالك والممالك لابن خرداذبة عن بشرى دى غوية في المجموعة الجغرافية العربية

سنة ١٨٨٩

(٣) كتب المسعودي عشرات المؤلفات أشهر ما بق منها « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ، ويغلو طهتراته وأخبار الزمان ومن أباده الحدائق وصحائب البلدان .

ما شاهده وما سمعه أحدهما « المسالك والممالك » والثاني « صور الأقاليم » ، وقد استعان في وضع هذا الكتاب بمؤلف بهذا الاسم لأبي زيد البلخي .

٤- ابن حوقل : محمد بن علي الموصلي (٣٦٧ هـ - ٩٧٧ م) وهو للرحالة المشهور بدأ رحلاته من بغداد سنة ٣٣١ لغرض تجارى أو سياسى أو لكليهما معاً واستغرقت رحلاته ٢٥ سنة ، زار بلاد العراق وفارس وبلاد إفريقية والأندلس وصقلية ، عاصر الإصطخرى وقابله ، وعرض عليه الإصطخرى كتابه « المسالك والممالك » فصف ابن حوقل على مولاه كتابه « صورة الأرض » (١) .

٥- المقدسى أبو عبد الله (حوالى ٣٧٥ هـ = ٩٨٥ م) قام برحلات طويلة استغرقت عشرين عاماً ، زار خلالها أكثر بلاد الإسلام ثم دون دائرة معارف في الجغرافية والتاريخ (٢) ، وصف فيها بدقة الأماكن التي زارها ، وقد نقل الأوربيون هذا الكتاب إلى بعض لغاتهم .

٦- البكرى : عبد الله بن عبد العزيز (٤٨٧ هـ - ١٠٩٤ م) ينسب إلى بكر إحدى القبائل العربية اتى سكنت الأندلس ، سافر في وفد إلى مراکش سنة ٤٧٨ ليطلب عون يوسف بن تاشفين ضد ألفونس السادس ملك قشتالة ، وكان ذلك سبب عمق صلته بإفريقية ، ألف كتاب « المسالك والممالك » وهو موسوعة كبيرة خصص جزءاً كبيراً منها عن إفريقية والمغرب وهو الجزء الذى وصلنا من موسوعته (٣) . وكان لصلة البكرى بقصور حكام الأندلس فائدة كبيرة فيما كتب ، إذ كانت الوثائق والسجلات المحفوظة بهذه القصور تحت تصرفه .

(١) يسمى كذلك المسالك والممالك والمفاوز والمهاك

(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم

(٣) طبع المستشرق الفرنسي لاسال هذا الجزء سنة ١٨٥٧ : باسم « المغرب في ذكر بلاد

إفريقية والمغرب »

٧ - الإدريسي : محمد بن محمد حفيد إدريس الحمودي (٥٤٨ هـ ١١٥٢ م وهو من أمراء بني هود) ومن أعظم الجغرافيين ورسامى الخرائط في القرون الوسطى ، طاف بلاد الروم واليونان وإفريقية وأوروبا ، دعاه روجر الثاني ملك النورمان إلى زيارة صقلية فرسم له الإدريسي ما رآه من البلدان على كرة من فضة ، ورسم خريطة لوادى النيل أبرز عليها منابع النيل الأصلية التى لم يرها الأوربيون إلا فى القرن التاسع عشر ، وله كذلك خريطة للعالم على شكل قرص . وكتبه فى التاريخ والجغرافيا من أهم المراجع فى هذا الميدان (١) .

٨ - ابن جبير : أبو الحسين محمد بن أحمد (٦١٤ هـ - ١٢١٧ م) الرحالة العربى العالم ، قام برحلات ثلاث زار فيها الأندلس وإفريقية والشام والعراق وصقلية ، وقد دون مشاهداته فى كتابه الشهير المسرى ورحلة ابن جبير .

٩ - ابن بطوطة : أبو عبد الله محمد بن عبد الله (٧٧٩ هـ - ١٣٧٧ م) وهو شيخ الرحالة جميعاً ، صاحب العين النفاذة ، والتصوير الدقيق ، والذاكرة القواعية ، والملاحظة الدقيقة ، والأمانة الواضحة فى وصف المشاهدات والمقدرة على العرض والتفصيل ، طاف بجونس ومصر ثم خرج إلى الحجاز وأبجى ثم عبر البحر إلى إفريقية ، وصار من موانئ شرق إفريقية فوصل إلى صليبات مقدشو وكلوه وظفار ، ولما تمت رحلته بعد ذلك فشملت الصين وجنوب شرق آسيا ، ثم عاد إلى المغرب حتى آسيا الصغرى والقسطنطينية ، ثم سار مع الشمال الإفرنجى إلى طنجة ، وانحدر نحو الجنوب إلى فاس ، ثم عبر الصحراء الكبرى حتى وصل إلى حوض النيجر ، ودخل عدة سلطنات من أهمها سلطنة مالي ، وكان ذلك فى القرن الرابع عشر ، وقد حدثنا ابن بطوطة

(١) له فى ذلك كتابان هما : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ودروس الأندلس فى

في هذه الرحلة الشهيرة عن كثير من عادات الإفريقيين في هذه البقاع ،
وتناول حديثه ألواناً من أطعمتهم وملابسهم ، وصدرراً من حياتهم
الاجتماعية كما رآها ، وذكر أن الرجل لا ينسب إلى أبيه ، بل ينسب لحاله ،
ولا يرث الرجل إلاّ أبناءُ أخيه دون بنيه ، ووصف مجالس المسلمين
ووسائل الثقافة عندهم ، وتحدث عن المرأة فذكر بروزها للرجال وعدم
انزوائها عن مجانسهم ، ووصف ابن بطوطة الطرق التي عبرها وما بها من
أشجار كثيفة ، ووصل ابن بطوطة إلى مالي وتحدث عن سلطانها « منسى
سليان » فوصف مجالسه وإجلال الناس له ، ووصف بإسهاب ما شاهده من
ألعاب السودان التي كانوا يقومون بها في أعيادهم ، وأمام ملوكهم ، وعلى
العموم فقد كانت رحلة ابن بطوطة غنية بالمشاهد والدراسات المقيمة^(١)

وكان هؤلاء الرحالة والجغرافيون من أهم المصادر التي اعتمدنا عليها في
كتابة هذا الكتاب ، وكان من المراجع المهمة ما كتبه أبناء السودان باللغة
العربية التي كانت لغة الثقافة آنذاك ، وفي مقدمة هؤلاء محمود كمت^(٢)
وعبد الرحمن السعدي^(٣) .

ومما يدل على دقة الوصف العربي أن الكشف الأثرية الحديثة التي
أفقت الكثير من الضوء على التاريخ القوي للول السودان في العصر الوسيط
جاءت مطابقة تماماً لأوصاف المؤرخين العرب^(٤)

ملحوظة :

انجبه الأوربيون لإفريقية ابتداء من القرن الخامس عشر ، وأنجحت
رحلاتهم للربطة إفريقية مراحل ثلاثة :

-
- (١) نحة للظار في غرب الأمصار ج ٢ ص ٢٢٢ وما بعدها (بإيجاز)
 - (٢) تاريخ لفتاوى في أخبار البلدان والجوش وأخبار الناس وفيه لبعض خفته
 - (٣) تاريخ السودان
 - (٤) دكتور إبراهيم طرخان : إفريقيا قاعة الإجمالية ص ١٢

المرحلة الأولى : مرحلة كشف الطريق إلى القارة حول إفريقيا ، وبداخل
ضمن هذه المرحلة وقتلتهم للاختبار بالرقيق الإفريقي والتأقلم المحطات لهذا
الفرض ، وقد امتدت هذه المرحلة من القرن الخامس عشر إلى القرن السابع
عشر ووصل فيها البرتغاليون إلى جنوب إفريقيا ودلروا حول القارة^(١)

أما المرحلة الثانية فهي محاولة الكشف والتعرف على القارة ، وعلاوة
الحصول على موارد مالية تحمل على تجارة الرقيق بعد أن صدر قرار تحريمه ،
وقد امتدت هذه المرحلة طوال القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن
التاسع عشر .

أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة الكشف السياسي التي قامت بها للدول
الاستعمارية ابتداء من النصف الثاني للقرن التاسع عشر ، وكانت تهدف للحصول
على المستعمرات التي تقدم بالمواد الخام والتي تكون أسواقاً لمنتجاتهم .

وقد لعب العرب والمسلمون دوراً كبيراً في قيادة الأوربيين في هذه
المراحل كلها قبل أن يعرفوا سوء النية التي دفعت الأوربيين لهذا الكشف ،
قد كان هناك بحار عربي اسمه أحمد ، قام بنور المرشد إلى فاسكو دي جاما
(١٥٢٤) واستطاع جاما بهذا اللون أن يصل إلى الهند عن طريق المحيط ،
وفي بعض الأقوال أن المرشد كان رجلاً هندياً تعلم على يد الرحالة
العرب ، لأن العرب أخرجوا من فاسكو دي جاما ولم يتعاونوا معه .

وفي الكشف داخل القارة قاد العرب أيضاً المكتشفين الأوربيين
وعرفوهم المسالك بالغابات ، وقسموهم إلى القبائل ، واعتبرت منازل العرب
ملافاً لم كانوا يحملون فيها الزاد والأمن وحسن التوجيه ، وما كان
الأوربيون يستطيعون أن يقتحموا البقاع التي اكتشفوها داخل القارة
لولا عون المسلمين والعرب .

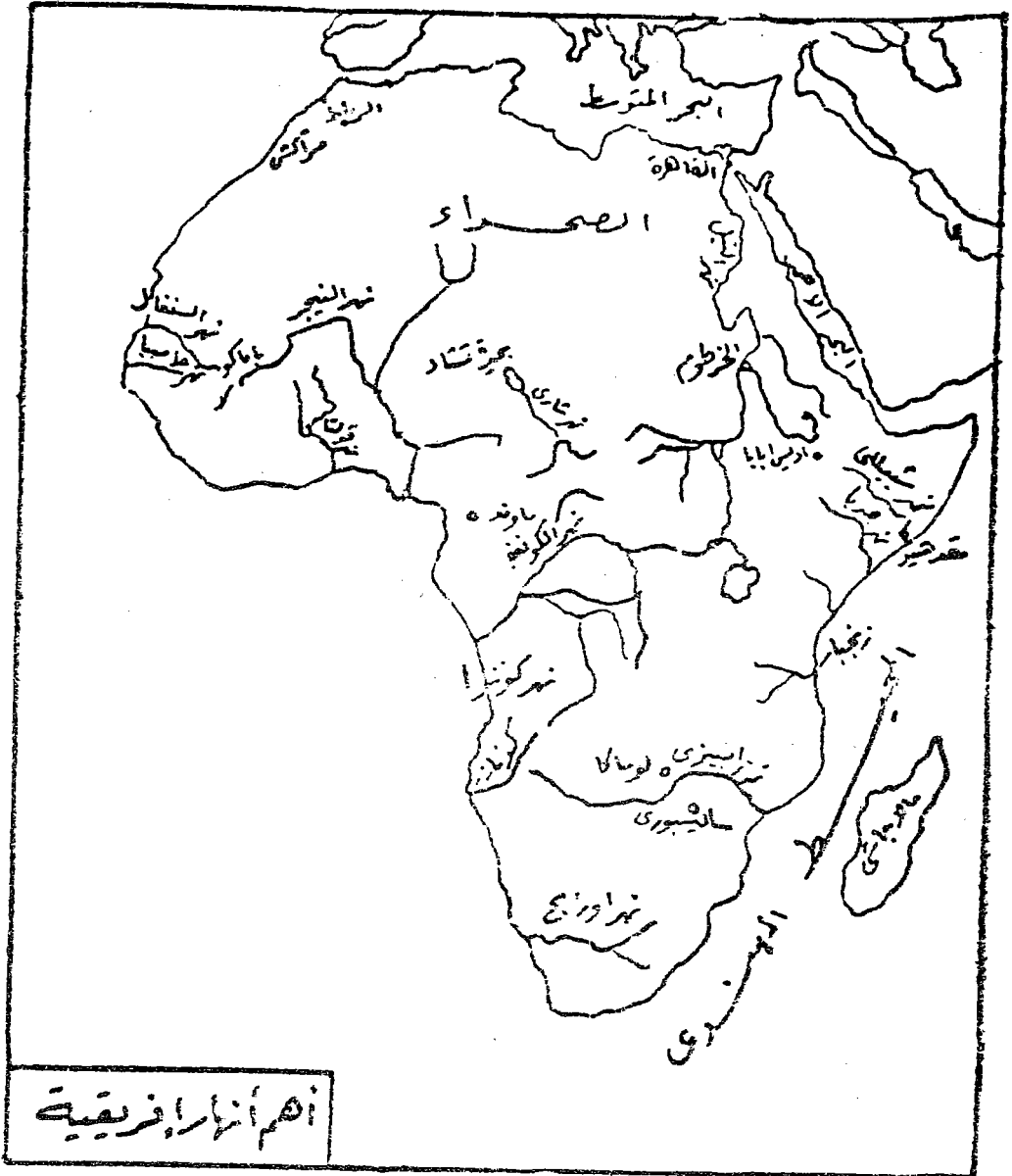
ونظم للرحلة الأوروبيين الذين تربطت أملوهم بإفريقية هو هنري الملاح (١٣٩٤ - ١٤٦٠) ، وقد كان أميراً صجاً التي اغتصبتها البرتغال من المغرب في القرن الخامس عشر ، ومن سبب انجبه إلى توسيع معلوماته عن إفريقية فلنشأ داراً لصناعة السفن ، ومدرسة للجغرافية والملاحة ، ثم أرسل أتباعه لاستكشاف الساحل الغربي لإفريقية ، وسرعان ما عادوا إليه بالذهب والعبيد ، فأفراه هذا بلزيد من الكشف والتعرف على القارة ، وأصبح هذا الاتجاه هدف البرتغال الرئيسي ، وقد واصلت سعيها حتى اكتشفت أراني الزنوج على جاتي السفن كما اكتشفت الساحل الإفريقي حتى سيراليون والرأس الأخضر سنة ١٤٤٥ ، ثم قفز إلى عالم الملاحة فلكسكو دي جلما صالف الذكر (١٤٦٠ - ١٥٢٤) واستطاع أن يلدور حول إفريقيا وأن يصل إلى الهند فكان أول أوروبي يحقق هذا الهدف حوالي سنة ١٤٩٩ وقام برحلة ثانية استعمل فيها أقصى درجات العنف ليلحم قوة البرتغال على الساحل الإفريقي وفي مياه الهند .

ولكن كشف أمريكا بواسطة أسبانيا حوالي هذا التاريخ وجه أنظار أوروبا إلى العالم الجديد ، ولم تنجبه أنظار الأوروبيين لإفريقية آنذاك إلا لتكون مصدراً يُخطف منه الرجال لتعير أمريكا ، أما موضوع الكشف فقد توقف فترة طويلة فيها عدا نزول الهولنديين جنوبي القارة في مطلع القرن السابع عشر حيث حلوا محل البرتغاليين .

واستأنفت أوروبا كشوفها في إفريقية في القرن الثامن عشر ، على يد جيمس بروس الاسكتلندي سنة ١٧٧٠ لكشف منابع النيل ، وقد تمكن من كشف بحيرة (تانا) ثم انجبه شمالاً للخرطوم فالقاهرة ، وكانت رحلته علمية تجارية هـ

وفي سنة ١٨١٦ بدأ الاهتمام بنهر النيجر وحوضه ، وبذل البريطانيون

جهوداً لذلك توجّها جهد د لانترو ، ثم د كلابرتون ، فأصبح حوض هذا
للنهر معروفاً لأوروبا .



الأنهار من أهم الطرق . لقلب القارة

وفي سنة ١٨٤٠ قام الدكتور «لفنجستون» برحلة التي عبر فيها صحراء
كلهاوى من جنوب القارة إلى الشمال ، ثم تمكن من عبور القارة من
الغرب إلى الشرق بين سنتي ١٨٥١ و ١٨٥٦ ، وفي سنة ١٨٦٤ تمكن من
كشف بحيرة نياسا وتنجانيقا ، وقد ساعده المحكم المصرى الذى كان قد
امتد أيام أسرة محمد على إلى كثير من هذه البقاع ، وقد مات «لفنجستون»
داخل القارة في تلك السنة :

واستعمل الخديوى إسماعيل صموئيل بيكر لاكتشاف مزيد من البقاع
داخل إفريقية حول خط الاستواء وكان ذلك سنة ١٨٦٤ وما بعدها .
وقد مزج صموئيل بيكر رحلته بالعنف ، فشن حرباً قاسية على بعض
القبائل في أعالي النيل وفي نفس ذلك الوقت قام المكتشف الإيطالى «جيسى»
باكتشاف بحيرة ألبرت .

ومن الرحالة المشاهير «استانلى» الذى سار من زنجبار سنة ١٨٧١ واستطاع
أن يكتشف مجاهل حوض الكونغو سنة ١٨٧٤ - ١٨٧٥ ، وكان يعمل
حساب ليوولد ملك باجيكيا ، وهما دفع بفرونسا إلى المشاركة في أعمال
الفتح ليكون لها نصيب في امتلاك الأجزاء المفتوحة .

وفي العقد الأخير من القرن التاسع عشر نشطت أوروبا للاستيلاء على
البقاع الإفريقية في كل الاتجاهات .

العصر الحديث في الحرب في العصر الحديث :

لم تتوقف رحلات العرب في إفريقية في العصر الحديث ، بل كثرت
حللتهم ودراساتهم في البقاع المختلفة بوسط إفريقية ، ومن أشهر الرحالة
لعرب في العصر الحديث محمد بن عمر التونسي الذى سار إلى دار فور سنة
١٨٠٢ وترك لنا وصفاً شامهاً لهذه المناطق شرح فيه أحوال السكان

الاجتهاد والسياسة ووصف حياتهم وطرق معيشتهم ، كما أسهم الرحالة أحمد حسين المصرى فى هذه الكشف برحلتين قام بهما بين سنتى ١٩٢١ - ١٩٢٣ وقد كشف فىهما الصحراء الغربية ، وكان برقته رحالة بريطانى فى الأولى ، لما فى الثانية فكان وحيداً ، وقد استطاع فى هذه الرحلة أن يصحح بعض الأخطاء التى وقع فيها من سبقوه^(١) .

خريطة للقارة :

لم تظهر خريطة لإفريقية فى الدراسات الجغرافية إلا على يد بطليموس الاسكندرى سنة ٨٥٠ ميلادية ، ولكن خريطة بطليموس لم تعط فكرة واضحة عن إفريقية فليس بها إلا معلومات قليلة عن الساحل الإفريقى للبحر المتوسط ، وسواحل البحر الأحمر ، أما الخريطة الحقيقية التى تعد الأولى من نوعها ، فهى تلك التى وضعها المسعودى فى القرن العاشر وهى خريطة قارية من الواقع تُظهر القارة الإفريقية وحولها المياه من كل جانب .

وقد بدأت أوربا تجمع معارفها عن بلاد السودان ، وعن التراث الإسلامى وكان هذا التراث هو العمود الفقرى أو ينبوع الرئيسى للمدرسة الخرائط أو معهد الخرائط الذى قام بجزيرة ميورقة فى العصور الوسطى وقد اعتمد علماء تلك المدرسة على المعلومات والأوصاف التى دونها كتاب العرب عن بلاد السودان ، أمثال البيرونى والبكرى وابن سعيد والإدريسى وغيرهم ، وذلك فيما أصلروه من خرائط عن العالم^(٢) .

تلك لحظة سريعة عن كشف القارة ، ومنها يتضح أن المصريين والعرب كانوا أهم عنصر مثبت أقدامه على مناطق فسيحة من هذه القارة ، وألقى بحضارته وفكره فى أكثر نواحيها .

(١) كشف إفريقية : من تقديم الدكتور زاهر زياخر ص ١٧ - ١٩ يصرف .

(٢) الدكتور إبراهيم طرخان : إمبراطورية غانة الإسلامية ص ١٠ - ١١ .

الأديان في إفريقيا

تنتشر في إفريقيا كثير من العقائد البدائية كما تنتشر بها مجموعة من العقائد الوافدة في قمتها الإسلام والمسيحية ، ومن العقائد البدائية تقديس ظواهر الطبيعة وأرواح الأجداد ، أو تقديس أرواح وسمية غامضة ، وكذلك تقديس الأبطال والروماء .

والطوطمية وجدت طريقها كذلك إلى بعض مناطق إفريقية وبخاصة قبائل الدونكا في بحر الجبل ، والطوطمية هي الاعتقاد بأصل من الحيوان أو النبات لهذه الجماعات البشرية ، ثم يتطور هذا الاعتقاد إلى تقديس الحيوان أو النبات أو عمل تمثال له يطلق عليه « الطوطم » ويكون هذا الطوطم محل التقديس ، ولعل هذا التمثال كان أساس انتشار الوثنية^(١) ، وكانت قبائل الدونكا تتخذ (آجار) - وهو اسم ثور - طوطما لها ، واتخذت بعض قبائل داهومي (الأنفى) معبوداً لها .

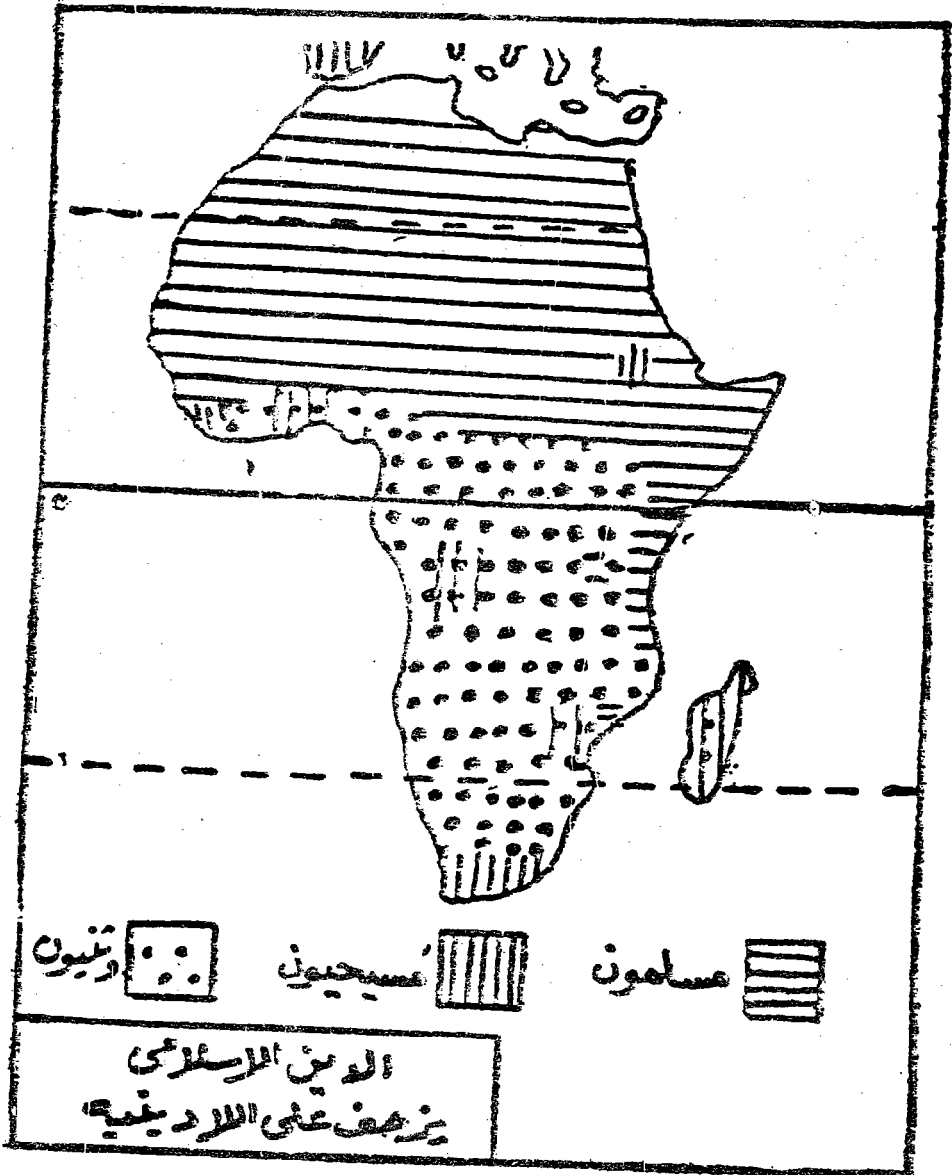
وانتشرت في بعض مناطق الكونغو عبادة الأرواح ، كما وصلت بعض المعادن وبعض النباتات إلى درجة القداسة ، وشاعت عبادة النيل في أعالي حوض النهر . وهناك اعتقاد بأن أرواح الموتى تنطلق عقب الموت إلى الخلود بقلر ما يقدم لها من القرابين والضحايا ، وفي روديسيا يعتقد البعض بتناسخ الأرواح ، وتتهم أكثر قبائل إفريقية بالسحر والكهانة ليتمكن الوصول عن طريقهما إلى الأرواح الخفية ومعرفة المغيبيات ، وكل هذه المعتقدات هي اتجاهات وثنية على أى حال^(٢) .

ويمكن أن نبسط النمط الدينى في إفريقية في خطوطه العريضة بأن نقسم

(١) اقرأ من الطوطمية في الجزء الأول من هذه الموسوعة ص ٧٨ وما بعدها .

(٢) عن الأديان البدائية بإفريقية انظر :

القارة كـلتين : إسلام في الشمال ، ووثنية في الجنوب ، أما المسيحية فلا زالت صفة محلية ، وظاهرة ساحلية طارئة ، ولما كانت الوثنية (Animism) نزعاً من اللادين أكثر منها ديناً ، أو هي دين بالمعنى السلبي ، فإن الصورة تصبح في النهاية صورة قطب موجب في الشمال يزحف باطراد على القطب السالب بالجنوب .



ويمكننا أن نميز - من حيث الانتشار في القارة - بين تصاقين زمنيين للإسلام ، نطاق « الإسلام القديم » ونطاق « الإسلام الحديث » ، وقد انتشرت اللغة العربية مع الأول ، فدخلت دوله نطاق العالم العربي ، أما الثاني فيشمل الإسلام جنوب الصحراء ، أو الإسلام المداري كما يسميه البعض وهو لا يزال يتوسع توسعاً سهلاً بعيد المدى ، حتى استطاع أن يضاف نفسه في العشرين سنة التي تقع بين ١٩٣١ و ١٩٥١ ، وهو بهذا يكون « ثورة صامتة » تكتسح القارة (١) .

وترجع قوة الدفع التي خلطت تقدم الإسلام إلى أنه - كما سنرى عند الحديث عن انتشار الإسلام - يسر غالباً بقوى من الداخل ، فالعرب أسلموه إلى البربر ، والبربر اندفعوا به في غربي إفريقية حتى تسلمه منهم السودانيون ، وراح هؤلاء يغزون به أرضهم أرض الزنوج ، وهذا يجعل نموه نمواً طبعياً ، غير مرتبط بقوى من الخارج ، وذلك يحيط بهالة من القومية والتقدير .

ثم إن الإسلام جند لخدمته أهم وأقوى لغات القارة ، وهي اللغة السواحلية ولغة الهوسا ولغة الماندينجو ، فلم يعد الشعب السوداني فقط هو الذي يحمل الدين الإسلامي ، وإنما أصبحت اللغات السودانية تلعب نفس الدور وتخدم العقيدة النشطة التي تنساب إلى كل بيت وإلى كل قصر بنفس القوة التي تغزو بها الرعاة وسكان الغابات والصحراء (٢) .

وناحية أخرى مهمة هي أن المسلمين الذين حملوا الإسلام للقارة كانوا رسل حضارة فبدروا في إفريقية كل جوانب معارفهم في كل اتجاه ، وكان لهم على الاقتصاد الإفريقي أثر كبير في مجالات التجارة والزراعة : فهم الذين

(١) Benda (١) نقل من دكتور جمال خندان : إفريقية الجديدة ص ٢٦٨ - ٢٦٩

(٢) D. Westermann : The Africa to day and Tomorrow p. 280.

أدخلوا زراعة جوز الهند وقصب السكر والأرز والقطن والمانجو وغيرها
إلى إفريقية فكانت مصدر خير وفير للسكان^(١)

وأصبح الإسلام بذلك دين القارة ، وقد جاء في (تقوم البلدان
الإسلامية) أن إفريقية هي القارة الوحيدة التي يمكن تسميتها بالقارة المسلمة
من بين قارات العالم لأن ١٥٠ مليون نسمة من مجموع سكان - الذين يبلغون
٢٣٥ مليوناً - من المسلمين ، أما الملايين الباقية فتوزع بين المسيحية واللايدنية
والعقائد والأفكار التي أشرنا إليها ، وهناك ٢٢ دولة مستقلة معظم سكانها
من المسلمين ، وذلك من بين ٣٦ دولة مستقلة بإفريقية ، هذا بالإضافة إلى
انتشار الإسلام انتشاراً كبيراً بين دول تجعل المسيحية طابعها لأن حكوماتها
من المسيحيين^(٢) ، ومثل هذا ما يقوله Sir Thomas Arnold الذي يقرر
أن الإسلام ينتظم ثلثي قارة إفريقية بما فيها من مختلف القبائل وشتى
الأجناس^(٣) .

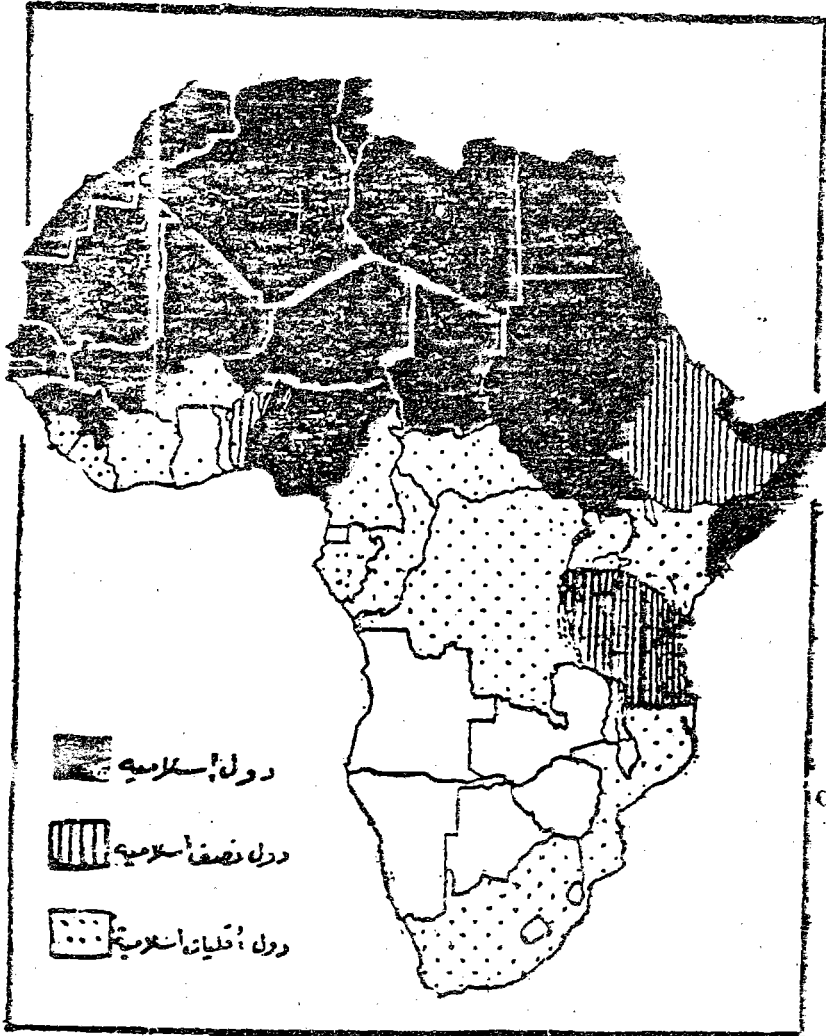
أما عن مستقبل إفريقية الدينية فيكاد يكون محتوماً أن الإسلام هو دين
المستقبل وهو يعلو للأفريقيين « ديناً إفريقياً » أو « ديناً إفريقياً - أسيوياً »
ولكن المسيحية تبدو لهم دين اليأس أو دين الاستعمار^(٤) ، وكل شيء يشير
إلى أن الإسلام هو دين المستقبل في قارة المستقبل ، وربما سجل التاريخ
قريباً أن تحرير إفريقية كان معناه أكبر موجة حديثة في انتشار الإسلام ،

(١) دكتور عبد العزيز كامل : قضية كينيا ص ٢٠ .

(٢) تقوم البلدان الإسلامية ص ٩ .

(٣) The Preaching of Islam p 262

(٤) London نقلاً عن إفريقية الجديدة للدكتور جمال حمدان .



المسلمون في قارة أفريقيا الآن

وستصبح إفريقيا قلعة الإسلام كما أن المحيط الهندي يحيط بالإسلام (١) .

ولتعد لتاريخ المسيحية بإفريقية لتقرر أنها دخلت القارة دخولاً جزئياً محدوداً عن طريق مصر حيث وصلت بلاد النوبة وأرض الحبشة ، أما انتشار المسيحية في غربي إفريقيا وفي جنوبها فقد ارتبط بالاستعمار ، يقول الدكتور فيليب رفل : وفدت المسيحية إلى إفريقية مع المستعمرين الأوروبيين ، إذ جاء المبشرون في أعقاب المستعمرين ، وتدخل المبشرون في السياسة ، ورأى الإفريقيون هؤلاء الأوروبيين يمارسون التفرقة العنصرية وتجارة الرقيق والسخرة وأبشع أنواع الاستغلال ، في الوقت الذي يقدمون فيه ديناً بحث على التسامح والمحبة والسلام ، تلك التي بشر بها المسيح بين الطبقات الفقيرة ، ومن هنا كان إقبال الإفريقيين على المسيحية ضئيلاً ومحدوداً ، وربما حاولت بعض الإرساليات أن تجعل الدين المسيحي متلائماً مع البيئة المسيحية ، فقد صنع أحد القناتين تمثالاً للمسيح أسود اللون ، وعلى كل حال فقد اتخذ المستعمرون من المسيحية سلاحاً لتنفيذ أغراضهم ولتيسير حكمهم ، وكانت هذه العناصر الدخيلة تتعالى على السكان الوطنيين وتستغلهم أسوأ استغلال (٢) .

ويعطى George Kimble مزيداً من التفصيل عن المسيحية بإفريقية ملماً بالأسباب التي جعلتها غريبة بهذه القارة ضعيفة التأثير على سكانها ، ومنه نقبس بعض عبارات توضح رأيه :

— أصبحت المسيحية الاسمية ، التي اكتفى بها كثير من الأوروبيين منذ

(١) جمال حمدان المرجع السابق .

(٢) الجغرافية السياسية لإفريقية : ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

مدة طويلة ، كافيةً أيضاً لعدد من الإفريقيين ، وأسهم عدم اكتراث
الأوروبيين بمشاعر الغير وحقوقهم في عزوف كثير من الإفريقيين عن ملاحظة
هذه المشاعر وتلك الحقوق (١) .

— كان للمسيحية أثر كبير في تفكك المجتمع الإفريقي فقد قدّم المبرر
للتلميذ في المدرسة مبادئ تعدد خليطاً من المسيحية ومن النظام الأوربي .
وعاد التلميذ للبيت ليجد أسرته تمارس حياة مختلفة عما تلقّاه بالمدرسة ،
فحصل صدع كبير في المجتمع ، وذلك بخلاف الإسلام الذي كان يقدمه
الدعاة للبيت كله أو لبطن من بطون القبيلة فيصبح عاملاً جديداً من عوامل
التعاون والالتزام ، وما زاد في الصدع الذي خلقته المسيحية أنها فرضت
على معتققيها نظماً وتشريعات تتنافى مع الطقوس الدينية لقبيلته ومع تقاليدها ،
فتمت تعدد الزوجات وختان البنات ، وإيه مهما يكن الاستغلال الاقتصادي
شراً ، ومهما يكن التمييز العنصري شراً أكثر ، فإنه ليس أشدّ إذلالاً
للنفس من إنكار حق الشعوب في تقاليدها ، وأن يقترض هذه الأوامر
غريباً (٢) .

— قامت بعثات تبشيرية بما فيها أتباع القديس بولس بالدعوة لفكرة أن
الأرض ليست دار بقاء ، وأن مستقبل الإنسان في السماء ولكن
هذه الدعوة كانت أبعد ما يكون عن سلوك الإنسان الأوربي ، ثم إن المثقفين
نظروا لهذه الدعوة على أنها متجهة للإفريقيين فقط ، لضمان خيرات الأرض
للأوروبيين (٣) .

(١) Tropical Africa p. 5 انظر أيضاً Forrinder : Religion of Africa

p. 164.

Ibid p. 270. (٢)

Tropical Africa p. 269 (٢)

وانظر كذلك : Beatham T.A. : Christianity and the New Africa p.p. 22. ff

وهناك أعمال قام بها بعض القسيس فأثارت الإفرقيين على المسيحية أو قل على
 « ديانة البيض » كما كانت تسمى أحيانا ، فقد روى أن قسيسا غنخل القمحر كان
 يهنى بكلام يثير الأحرار بالقارة ، إذ كان يسأله : أين اللون الأسود
 في النبات والأشجار والبحار ؟ من رأى الإنسان ماء أسود أو زهرا أسود ؟
 ولما نستطيع أن نصف هذا القسيس إلا بالجهل وسوء الطوية ، ولعل
 القرآن الكريم كان يقصد تعليم هذا وأمثاله حين قال « ومن الجبال جدد
 بيض وسمر مخطف ألوانها وغيرابيب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام
 مخطف ألوانه كذلك » (١) فالأرض التي نستخرج منها المعادن والمياه ونستنبثها
 الحب والفاكهة بكثير أن تكون سوداء اللون أو أقرب إلى السواد ، والسحاب
 الخافت بالحيا وانظر هو السحاب الأسود أو الأقرب من السواد ، والخبر
 الأسود هو أشهر أنواع الخبز استعمالا ووجه تلون الكتب المقلصة وكتب
 العلوم والمعارف : وكان القديس يقولون سودت الأوراق أي كتبت فيها ،
 والحيوان ذو الريح بكثير فيه اللون الأسود ، والإنسان وهو قمة ما خلق الله
 على الأرض يختلف لونه من مكان إلى مكان فهو أبيض وأصفر وأسود وهو
 مزيج من هذه الألوان ، وكم كانت الخضارات من صنع غير البيض وكم
 كانت البربرية سمة البيض . وقد وضع الإسلام حدا حاسما للاتجاه المتخرف
 المبني على لون بشرة الإنسان ، فقد سمع الرسول ﷺ أبا ذر الغفاري يصيح
 في محامده : يا ابن السوداء : فانطلق صوت الرسول يصيح هفوة أبي ذر
 ولكن في حزم وعنف ، قال له عليه السلام : « طف الصاع ، طف الصاع ،
 طف الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بعمل صالح ،
 وتعلم أبو ذر هذا الدرس من الرسول فالصق خده بالأرض وقال لخادمه :

ثم فضع قدمك على خدى (١) . وكما نظم أبوذر هذا الاتجاه تعلمه المسلمون وساروا على هدية من مطلع الإسلام حتى الآن ، وكان هذا الموقف من المسلمين وذاك الموقف من البيض كبرى الأثر بالنسبة للإسلام والمسيحية الإفريقية .

وكان من نتيجة اتجاهات الكنيسة واتجاهات القسوس ضد الوعظيين وتقاليدهم الإفريقية أن قام الزعيم الإفريقي للمسيحية الكيني Kagzia بتأسيس كنائس إفريقية تخلصا مما يعرف بالمسيحية الأوربية التي أطلق عليها "الدين الأجنبي" ، وقد وضع Kagzia لكنايس الأسس التالية :

- ١ - أن تكون إفريقية خالصة مستقلة تماما من للسيطرة الأوربية .
- ٢ - تطهير الكنيسة من الرجس الأوربي الذي قدّم للإفريقيين على أنه جزء من التعاليم الدينية .
- ٣ - إلغاء جميع الأسماء الأجنبية والعودة إلى الأسماء الإفريقية .
- ٤ - احترام التقاليد الإفريقية .
- ٥ - الدعوة إلى انتشار هذه للكنائس في كل إفريقية .

وسرعان ما انتشرت هذه الكنائس حينا ووجد المسيحيون ، والتحق بها الإفريقيون أفواجا ، وهددت الكنائس الأوربية التي لم تكن تهتم بنشر المسيحية بمقدار اهتمامها بخدمة الاستعمار ، فاستمات الكنائس الأوربية بالقوة البريطانية المحتلة في كينيا ، وراحت هذه القوة تلاحق Kagzia وأتباعه وألقت بالكثيرين منهم في السجن ، وحاربت الكنائس الإفريقية حربا

طويلة ، فضياع المسيحية كان أيسر في نظر بريطانيا من مسيحية تأخذ الطابع الإفريقي ، أى من مسيحية لا تخدع الاستعمار (١) .

وللتعرف على مستقبل الأديان بإفريقية نورد ما ذكره Parrinder Geoffrey (٢) فهو يمثل الدقة إلى حد بعيد ، وفيها يلي كلماته : يبدو أن المستقبل للإسلام لا للمسيحية أن إفريقيا الغربية والساحل الشرقى ؛ إذ يبدو الإسلام هناك ديناً ليس غربياً ، ولأن عدة دول أعلنته ديناً لها وأصبح الإسلام ظاهراً للسكان ، وليس للمسيحية نفوذ يذكر في منطقة الشمال والمنطقة السودانية ، ويقتصر نفوذها على الحبشة ، أما في الجنوب من خط الاستواء وفي جنوب إفريقيا فتوجد الوثنية في الداخل والمسيحية على الساحل وبين البيض ، وهذا لا يضمن لها مستقبلاً سعيداً لوقوفها موقف الصراع ضد أصحاب البلاد .

وهناك تفسير يوضح السبب في اقتحام المسيحية لقارة إفريقيا ، ذلك هو أن أوروبا كانت تعد نفسها قلعة المسيحية وتواجه بذلك إفريقيا وجزءاً كبيراً من آسيا حيث القلعة الإسلامية ، ولكن الإسلام اقتحم أوروبا من طرفيها ؛ الغربي في العهد الأموي حيث ضمّ اسبانيا وأتجه إلى فرنسا ، والشرقي حيث استعقل العثمانيون القسطنطينية وبسطوا نفوذهم على دول شرقي أوروبا وأدخلوا ينشرون دينهم ، ومن هنا اتجهت المسيحية لاقتحام إفريقيا وآسيا للتأثر من اقتحام الإسلام لقارة الأوربية .

يبد أن هناك تفسيراً لعله أدق وأشمل . ذلك أن الغرب أدرك أن الدين من أقوى الصلات بين البشر ، وأنه يفوق في هذا المضمار علائق الدم والجنس

(١) Jack Weddie : Africa : the Roots of Revolt pp. 484—485 .

من إضافات المترجم الأستاذ نواز بلع .

(٢) Geoffrey Parrinder : Religion of Africa p. 236 .

والوطن ، فأتخذ المسيحية وسيلة ليربط بعجلته سكان آسيا وإفريقية ، ولكن
 التفرقة العنصرية وبعد المستعمر في سلوكه عن الأديان قتل من انتشار المسيحية
 ولم يجعلها تقاوم الإسلام في مجال الانتشار والذبول ، ومن أجل هذا فاحتمالات
 المسيحية بإفريقية ضعيفة بلخمودها وتناقضاتها الداخلية ولما بها من مركبات
 النقص والعظمة (١) ، وكذلك لانحسار الاستعمار الأوربي عن إفريقية ، لأن
 المبشرين كانوا ظللا للاستعمار ، وأخذ هؤلاء ينحسرون معه .

اللغات فى إفريقيا

إن تعدد اللغات فى إفريقيا أمر طبيعى ، فالقبائل الكثيرة العدد التى كانت تعيش فى إفريقيا قبل تكوين الدول كانت كل منها مستقلة تقريباً ولها لغتها واتجاهها الدينى ، ثم إن الصحارى والغابات والمستنقعات تقسم حدوداً صارمة بين مكان وآخر ، وبالتالي تقسم هنا لغة غير اللغة التى نجد هناك ، وكثيراً ما كانت القبيلة لها لغة واحدة ، ثم انقسمت القبيلة إلى بطون وأفخاذ بعامل الزمن وكثرة العدد ، وبمرور الوقت اختلفت اللهجة التى يتحدث بها هذا القسم عن اللهجة التى يتحدث بها قسم آخر ، وبعد فترة أخرى تتحول كل هجة إلى لغة تكاد تكون مغايرة للغة الأصلية ، وتبعاً لذلك وصات اللغات فى إفريقيا إلى ما لا يقل عن ثمانمائة لغة كما يقول الدكتور محمد عوض محمد^(١) ، أو ألفى لغة كما يقول الدكتور فيليب رفلر^(٢) ، ولكن بعض علماء اللغات يرى أن هذا العدد الكبير يدخل فى نطاق أسر لغوية قليلة العدد^(٣) ، ولكن هذا لا يحل المشكلة ، فليس المهم أصل اللغات بل واقع اللغات الذى يشهد بكثرتها بإفريقية كثرة باهظة ، وأغلب اللغات فى إفريقيا - على كل حال - لغات تفاهم ، لا تكتب ، وليست لها حضارة ذات بال ، وكانت كثرة اللغات واللهجات من جانب ، وضحالة غالبيتها العظمى من جانب آخر من أسباب تمزيق القارة ، لأن اللغة من أهم أسس القومية ، وكلما كثرت اللغات كلما تشتتت الإجماعات ، وكلما ضعفت اللغات ضعفت الثقافات ، واللغات التى لا تكتب تعيد مناطقها إلى مرحلة ما قبل الكتابة (Pre literate time) .

(١) الشعوب والسلالات الإفريقية ص ٢١ .

(٢) الجغرافية السياسية لإفريقية ص ٢٠٧ .

(٣) See Encyclopaedia Britannica (Africa) (٣)

تلك هي قضية اللغات في إفريقية ، ولكن عوامل خارجية أثرت في هذه القضية ، وقضت بضرورة التجمع بين هذه الأشتات من القبائل المتناثرة المتنافرة ، واقتضى التجمع نوعاً من توحيد اللغة هنا وهناك ليتمكن التفاهم بين جماعات كانت تتحدث لغات متعددة ، وستحدث فيما يلي عن هذه العوامل وعن اللغات الكبرى التي انتشرت في القارة نتيجة لها :

١ - الإسلام واللغة العربية : الدين الإسلامي عقيدة وفكر ، ولكن نصير في ركابه اللغة العربية ، فأنتى حلّ محلّ القرآن والحديث وهما باللغة العربية ، وتحلّ الدراسات الإسلامية وأكثر مراجعها باللغة العربية ، ويقضى الدين الإسلامي بكثير من التعاون والألفة مما يجعل التفاهم بين معتقديه وبخاصة في المكان الواحد حتمياً ، وقد أخذت اللغة العربية تنتشر حيث انتشر الإسلام ، وساعدها على الانتشار علم وجود لغة موحدة في المناطق الإسلامية بإفريقية ، غلباً للجميع أو الأغلبية إلى اللغة العربية يعبرون بها عن أنفسهم وبدونون أفكارهم ، وأصبحت اللغة العربية بذلك أوسع اللغات انتشاراً بإفريقية كما أصبحت اللغة الرسمية لكثير من دول هذه القارة .

ويتجه الباحثون المحدثون إلى عدّ اللغة العربية بعد توطئها الطويل بإفريقية ورغم الأصل والنشأة لغة إفريقية ، أكثر منها أسيوية ، وذلك لأن ثلثي العرب يوجدون في إفريقية مقابل الثلث في آسيا^(١) . ويمكننا أن نضيف حقيقة مهمة هي أن مصر تعد المركز الأول للثقافة العربية في العالم ، وفيها سبيل الكتب والمؤلفات التي تغلّى العالم العربي بأسره ، ومنها يخرج الأساتذة والمدرسون لتدريس اللغة العربية وآدابها في جامعات العالم العربي وجامعات العالم كله تقريباً ، وهذا يجعل هذه اللغة مرتكزة على دعائم إفريقية راسخة . ولغة العربية قوة نحميها من الانحراف والتشتت والانقسام ، وتلك القوة

هى القرآن الكريم ، فاللهجات التى تحاول البروز سرعان ما تحطم أمام هذه القوة الهائلة التى تضمن بقاء اللغة وحدة صامدة :

واللغة العربية بلا شك لغة عظيمة ، غنية ، طيبة ، موسيقية ، فيها كل عناصر الجمال والقوة ، وبها زخيرة واسعة المدى فى مختلف الثقافات ، والمكتبة العربية شاحنة وعامرة بالمؤلفات الأصيلة وبالكتب التى ترجمت إليها فى كل فروع العلم ، فإذا دعونا أن تصبح اللغة العربية هى اللغة الأولى واللغة القومية للدول الإسلامية بإفريقية ، فإننا بذلك نقدم ثروة طيبة لإخوتنا فى الدنيا ، ونقدم لهم لغة علمية عالية الشأن ، ونذكرهم بأننا فى مصر كانت لنا لغة ولكنا عندما اعتنقنا الإسلام أخذنا اللغة العربية ليزيد فهمنا لهذا الدين ، فاجذر الأقطار الإسلامية بإفريقية أن تأخذ اللغة العربية لغة لها ، لأنها بذلك لا تستورد لغة لأن العربية لغة إفريقية ، وهى تضمن لنفسها لغة لن تعود بالناس إلى الانقسام لأن القرآن الكريم يحول دون ذلك ، ثم أن هذه الدول ستصبح بعد جيل أو بعض جيل مسيطرة على مكتبة غنية جمعت فنون الفكر التى دونها الناطقون بالضاد خلال عديد من القرون .

والعجيب أن الذى ندعو له كان موجوداً بالفعل قبل الاستعمار الأوروبى ، فقد كان إقبال المسلمين جنوب الصحراء على اللغة العربية واضحاً ، حتى أصبحت اللغة العربية لغة الثقافة والفكر والوثائق بالإضافة إلى كونها لغة العبادة . وقد ظهر بين مسلمى هذه المناطق الأدباء والشعراء والمؤلفون ، ولولا جهود الاستعمار لنشر لغته بمحاولاته انقطع وشائج الدين بين دول العالم الإسلامى بعضها وبعض ، لولا هذا لكان انتصار اللغة العربية مؤكداً ، وقبل أن ندع هذه النقطة نشير إلى العديد من الكتاب والشعراء الذين دونوا إنتاجهم باللغة العربية وفى قمة هؤلاء عثمان دان فديو الزعيم الدينى الكبير ، وأخوه عبد الله ، وابنه محمد بىل ، ولكل منهم مؤلفات عدة باللغة العربية ، وقد تحدث

الشيخ عثمان في كتابه نجم الاخوان بحث المسلمين على قراءة مؤلفاته ،
ومؤلفات أخيه وابنه ، وفيما يلي عبارته :

عليكم أيها الاخوان أن تشغلوا أنفسكم بقراءة تأليف أخي عبد الله
لأنه اتجه فيها لحفظ ظاهر الشريعة ، وقراءة تأليف ولدي لأنه اتجه لعلم
سياسة الأمة ، واشتغلوا أيضاً بقراءة تأليفي لأنني اتجهت للطرفين جميعاً (١) .
ومنهم كذلك الإمام عبد الله بن محمد مؤلف تزيين الورقات الذي حشد
فيه مجموعة كبيرة من قصائده وأشعاره يصف فيها أخلاق الامام عثمان
ومعاركه .

ومنهم أيضاً عبد الرحمن السعدي مؤلف تاريخ السودان وكثيرون
سواهم .

٢ - الاستعمار واللغات الأوربية : اقتحم الاستعمار الأوربي إفريقية ،
وراح يجلب السكان إليه أو قل يرغمهم على السير في ركابه ، وكانت اللغة
أهم وسائله ، فأخذ يحارب اللغة العربية ويحجى اللهجات القديمة ، ثم خطا
خطوة أخرى بأن جعل لغته هي اللغة الرسمية وفتح باب الوظائف لمن يجيدها ،
وجعلها شرطاً لتولي كل عمل مهم في البلاد ، وانتشرت بذلك اللغة الانجليزية
في نيجيريا وغانا وكينيا وتنزانيا وأوغندا وجنوبي إفريقية كما انتشرت
اللغة الفرنسية في مالي والسنغال وغينيا وتشاد ، وحصل صراع عنيف بين اللغة
العربية ولغات الاستعمار في السودان العربي وفي الدول العربية بشمال إفريقيا
وكانت للغة في النهاية اللغة العربية :

١ - التجارة واللغة السواحلية : تحتاج التجارة إلى تفاهم وثقة ،

(١) الإمام محمد بل : إتفاق المسود ص ٢٢ - ٢٣ .

(٢) تزيين الورقات ص ٢٥ - ٨٣ .

وقد اقتحم الأوروبيون غربي القارة ، ولكنهم لم يكونوا تجاراً يبيعون السلع ويشترونها ، بل كانوا يخطفون الناس ويسترقونهم ويجعلونهم عبيداً يدفعونهم أو يبيعونهم للعمل في مزارع أمريكا ، وفي مرحلة أخرى احتلوا الأرض للاستيلاء على ثرواتها ، وفرغوا في الغالب لغاتهم ، أما شرقي إفريقيا فكان وثيق الصلة بالجزيرة العربية لقربه منها ، وقد عرف التجار العرب شرقي إفريقيا منذ أمد بعيد ، ونشأت بينهم وبين السكان صلات تجارية لم يظهر العرب فيها بمظهر السادة لأنهم لا يحملون أسلحة السيوف والتعالي ، ومن هنا لم يفرضوا لغتهم ، وإن كانت الضرورة للغة موحدة قد برزت يمكن التفاهم بين السكان بعضهم مع بعض من جهة ويمكن التفاهم بين السكان والتجار العرب من جهة أخرى ، وقد نشأت لذلك لغة للتجارة عرفت باللغة السواحلية ، وهي خليط من كلمات وعبارات عربية وفارسية وهندية وكلمات وعبارات من لغات الساحل ولهجاته ، وكانت مدينة ممبسة بجزيرة لامو مهد هذه اللغة الجديدة ، ومنها سارت إلى زنجبار وعبرت إلى الساحل المقابل لهذه الجزر فانتشرت في ساحل كينيا وتنجانيقا وصعدت إلى جنوب الصومال ، وصبغت إلى موزمبيق ووصلت إلى جزائر القمر ومدغشقر ، ولم تقنع اللغة السواحلية بالساحل الشرقي لإفريقية بل تقفزت إلى الداخل فوصلت إلى الكونغو ، وحلها الملاحون والتجار إلى مناطق غير إفريقية مثل عدن ، الساحل الجنوبي لبسناد العرب حتى الخليج العربي واضبط الهندى .

وعندما جاء الاستعمار البرتغالى فالإنجليزى لهذه المناطق ، أخذت هذه اللغة من هاتين اللغتين مجموعة كبيرة من الكلمات ، إذ كانت فائضة فزاعها لكل ما يحل التعامل به بين طوائف الناس مهما اختفت جذورهم لوجسياتهم .

وبمرور الزمن اتسع نطاق هذه اللغة ، فلم تعد مقصورة على العلاقات التجارية ، بل أصبحت لغة متداولة في مختلف شئون الحياة بالبلاد الواقعة على ساحل إفريقيا الشرقى وبالجزر المقابلة لهذا الساحل ، ومن ثم أصبحت ضرورية للسائحين والدعاة والمبشرين ، وهذا فتح الطريق لهذه اللغة لترقى وتزدهر ، فظهرت لها آداب رفيعة ، وترجمت لها أكثر الكتب المقلعة ، وحوثت بها معارف واسعة وكتب مهمة (١) :

٤ - لغة الهوسا : حافظ شعب الهوسا في غربى إفريقيا على لغته وإن اختلفت بطونه وأفخاذه ، ولم يستطع الاستعمار أن يقضى على هذه اللغة المنتشرة في شمالى نيجيريا ومع بعض قبائل الهوسا خارج نيجيريا ، ولعل لغة الهوسا هى اللغة الإفريقية - بعد العربية - التى يتجمع حولها ملايين الإفريقيين ، ولكثرة ذبوعها تعلمها أفراد من غير قبائل الهوسا مما زاد عدد المتحدثين بها . وعلى هذا فترتيب اللغات بإفريقية هو كما يأتى :

- ١ - اللغة العربية ويتكلم بها حوالى ٨٠ مليوناً
 - ٢ - اللغة الإنجليزية ^٥ ويتكلم بها ٦٠ مليوناً بجانب لغاتهم الأصلية
 - ٣ - الفرنسية ^١ ويتكلم بها ٤٠ مليوناً
 - ٤ - السواحلية ^١ ويتكلم بها ٣٠
 - ٥ - لغة الهوسا ^١ ويتكلم بها ١٥
 - ٦ - اللغة الأمهرية (لغة الأحباش) ويتكلم بها ١٠ ملايين
- وهذه هى اللغات التى تكتب بإفريقية ، وما عداها فلهجات للحديث والتخاطب فقط .

الأجناس والقبائل في إفريقية

سبق أن ذكرنا أن طبيعة القارة الإفريقية قسمت السكان إلى قبائل متميزة بربط الدم بين أفراد كل قبيلة منها ، وزيد هنا أن نتعرف على أهم قبائل القارة ، بيد أن هناك تقسيماً أوسع للأجناس البشرية التي تعيش في إفريقية والتي تشعبت عنها هذه القبائل ، وهذا التقسيم شديد الاتصال بـجغرافية القارة ، فهو يرى أن الأجناس البشرية الرئيسية بهذه القارة أربعة هي :

- ١ - الساميون : العرب) ويعيش هؤلاء وأولئك في النصف الشمالى
- ٢ - الحاميون : البربر) للقارة تقريباً وينحدران من القوقازيين
- ٣ - النيليون : الذين يعيشون في منطقة منابع النيل وهم مزيج من القوة ازيين والزنوج .

٤ - الزنوج : سكان الجنوب وهم ينقسمون قسمين : السلالة السودانية في شمالى هذه المنطقة ، وسلالة البانتو في جنوبها .
وفىما يلى تعريف بهذه الأجناس :

٢ - الساميون والحاميون :

الحديث عن الساميين والحاميين ينبغي أن يكون معاً لشدة الاختلاط بينهما في القسم العاشر بهما من القارة ، وهما يعيشان في الشمال من خط يسير من مصب نهر السنغال ماراً بتمبوكتو والخرطوم ثم ينحدر قليلاً إلى الجنوب الغربى ليضع الحبيشة والصومال في الشمال منه ويسير حتى يصل إلى المحيط الهندي .
وقد جاء الساميون إلى إفريقية من الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر أو عن طريق البر شمالى السويس ، وكانت هجراتهم متتالية بدأت قبل الميلاد بعدة قرون ثم اتسع نطاقها في ظل الإسلام ، ومن أهم الهجرات الإسلامية

هجرة بني هلال وبني سليم في القرن الحادى عشر عندما دفع بهم الخليفة المستنصر إلى الشمال الإفريقى في أعداد كبيرة^(١) ، ولم يقتصر الساميون على شمال إفريقيا وإنما عبروا البحر الأحمر من الجزيرة العربية إلى شرق إفريقيا ، واندفع القادمون من الشمال ومن الشرق تجاه وسط القارة ، وبخاصة قبائل الجعلين وجهينة ويعيش الجعليون في دنقلة والنوبة وكردفان وعطبرة وشندى ، أما جهينة فتنتشر أيضاً في السودان العربى ومن قبائلها الزريقات والحبانية والتعايشة والقارة وغيرهم ، وهذا صيغ شمال السودان بصيغة عربية واضحة .

أما الحاميون فهم السكان الأصليون للمنطقة التى حددناها آنفاً ، وينقسمون إلى فرعين كبيرين هما الحاميون الشرقيون والحاميون الشماليون ، وفى القسم الأول يدخل المصريون والنوبيون وقبائل البجة والجالا والصومال والدناكل والأحباش ، وفى القسم الثانى يدخل البربر والطوارق والتيو سكان الصحراء والقبولبي من سكان السودان الغربى^(٢) .

ويمكن القول أن الأحباش - من بين الحاميين - اتجهوا إلى الجنوب فكان اختلاطهم بالزنج واسعا ، أما باقى الحاميين فقد اختلطوا اختلاطاً عميقاً بالساميين حتى أصبح من العسير في هذه المناطق عزو الحاميين عن الساميين :

٣ - النبلية :

هذا الجنس من سكان إفريقيا سمي باسم النيل ، وهى مجموعة من القبائل تعيش في أعالي النيل وحول روافده ومتابعه ، وتربط بينها روابط بدنية

(١) انظر حديثنا عنها في الجزء الرابع ص ١٦٤ و ٣٣٢ وابن خلدون : المعر

ج ٦ ص ١٢ .

(٢) سليجمان : أجناس إفريقية ص ٨٦ .

ولغوية وثقافية وبعض التقاليد والأساطير مما يدفع إلى الاعتماد بأنهم جميعا
جامعوا عن أصل واحد (١) ، وتعيش هذه الجماعة الآن في السودان الجنوبي
وغربي الحبشة وفي الأقاليم الشمالية لأوغندا والأقاليم الشرقية لكينيا ، وأشهر
قبائل هذه المجموعة هي : الدنكا والنور والشوك والأنوك والبورون .

ويرى الدكتور محمد عوض (٢) أن النيليين أصابهم من الزواج ولكنهم اختلطوا
على مدى قرون بعيدة بالقوقازيين فأخذوا صفة الشعر اللهب من الزواج ،
وضيق الأنف ورقة الشفة نسيبا من القوقازيين .

٤ - الزنوج (السودانيون، والبانتو) :

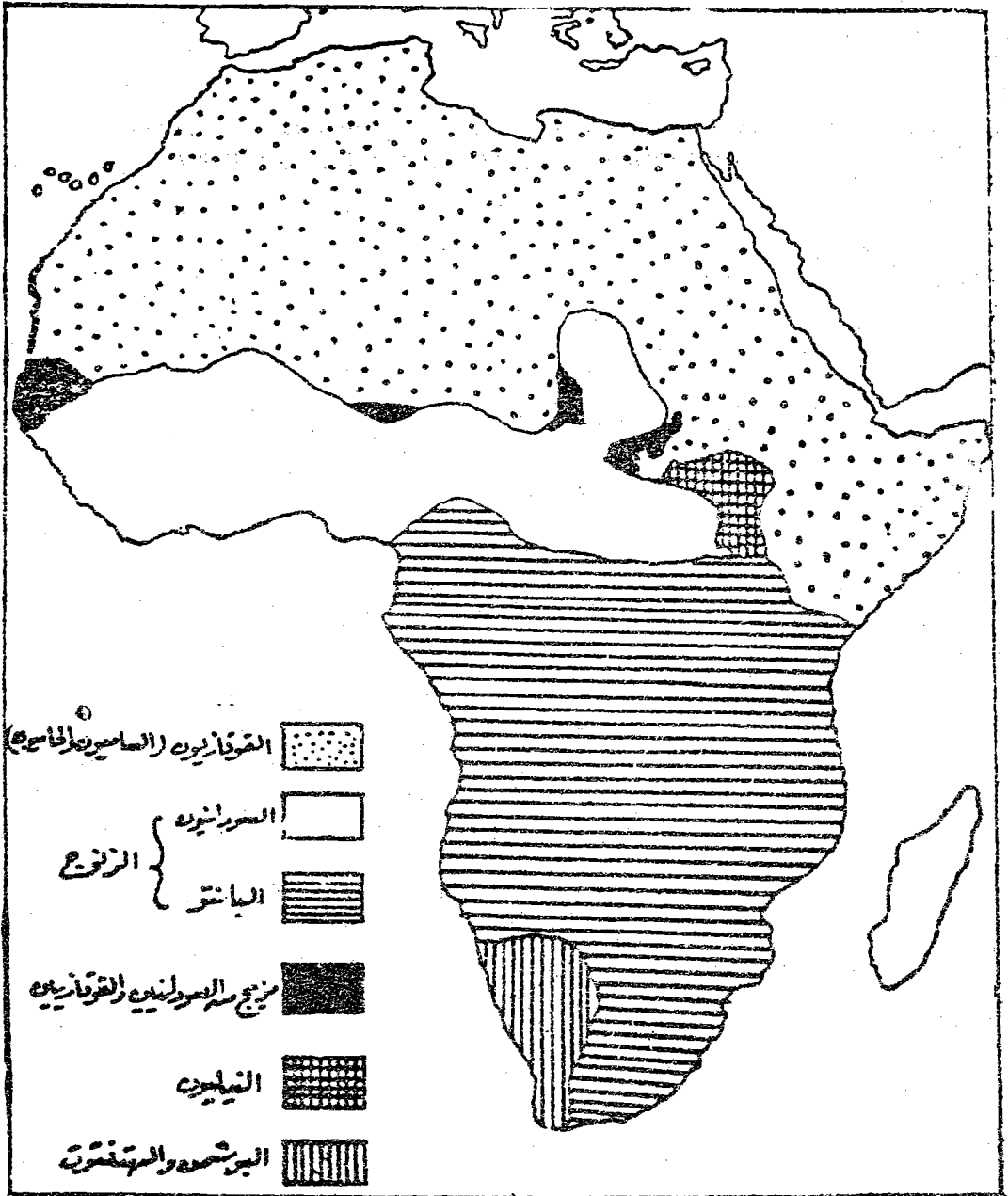
فيما عدا الأجناس التي تكلمنا عنها بتعمد علماء الأجناس باقي سكان إفريقيا
زنوجا ، ويرون أن إفريقية خزانة الجنس الزنجي ، وخاصة سكان غربي
إفريقية الذين هم بحكم موقعهم على المحيط الأطلسي الفسيح لم يستقبلوا بلدى
طويل جماعات وافدة كما استقبل سكان شرق القارة ، فاحتفظ هؤلاء إلى
حد كبير بالطابع الزنجي حتى دخول الإسلام ، وأطلق عليهم السودان وعلى
أرضهم أرض السودان . فلما جاء الإسلام ربط بين هؤلاء وبين المسلمين
من الساميين والبربر فحدث اختلاط اتسع أحيانا نطاقه ، وأهم قبائل هذه
الجماعة الولوف والتكولور والماندنجر والقاسي واليوروبا والصنغى والهوسا .
وهؤلاء يسمون « السودانيين » أما الزنوج بالجنوب فيسمون « البانتو » ،
والفرق بين القسمين يتضح في نقطتين مهمتين :

النقطة الأولى : أن سلالات البانتو حشابة اللغات ، أما السلالات السودانية
فمتعددة اللغات .

(١) محمد عبد الفتاح إبراهيم : إفريقيا : الأرض وكنس عن ٦٧ - ٦٨ نقل عن

Arérey Bell (The Niles)

(٢) دكتور محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات السودانية ص ٢٧)



والمنطقة الثانية : أن السودانيين - دون البانتو - اختلطوا اختلاطاً واسعاً بالساميين والهاميين بعد أن دخل الإسلام جنوب الصحراء ، فأصبحت بعض قبائل البربر تعيش في هذه المنطقة ، وعُدَّ « الهوسا » و « اليوروبا » وغيرهم من سكان غرب إفريقيا الآن فروعاً لمزيج سوداني من جانب ، وحالي من جانب آخر .

البوشمن والهنتوت :

وهناك في الجنوب الغربي من القارة سلالة لا تُعَدُّ من الجنس الزنجي ، وتشمل هذه السلالة « البوشمن » و « الهنتوت » وهم صفر الوجوه ، ولكن البوشمن أميل إلى القصر ، صغار الجماجم يشغلون بالصيد ، والهنتوت أطول قامة من البوشمن ويشغلون بالرعى ، ويعرفون صناعة الحديد ، وهم أسمي ثقافة من البوشمن .

ولتجّه الآن للحديث عن القبائل في إفريقيا ، وينبغي أن نذكر أن الاختلاط الذي حدث بين الأجناس حدث مثله بين القبائل أو ربما حدث أكثر منه ، فهناك قبائل عربية عاشت في مناطق البربر ، وقبائل بربرية عاشت في مناطق الزنوج ، وتشعبت بطون القبائل وانتشرت هنا وهناك ، وعلى هذا نجد بعض القبائل تعيش في دولتين أو أكثر من دولتين ، إذ لم تكن حدود الدول قد أقيمت عندما كانت هذه القبائل تتحرك وتنتقل من مكان إلى آخر ، فلما أعلنت الدول ونظمت الحدود كانت بعض القبائل قد انتشرت فروعها هنا وهناك مما خلق روابط أحياناً بين دولة وأخرى ، أو خلق مشكلة الولاء المزدوج للدولة والقبيلة .

وهناك قبائل تُعرَف بعدة أسماء كما سيأتي ، وقد يكون ذلك تبعاً لأسماء العشائر التي تنفرع من القبيلة الواحدة فتُنسَب العشيرة للجد القريب أو للجد الأعلى ، وقد يكون ذلك بسبب تسمية يطلقها الجيران على بطن من البطون ، فنسبونها إلى رئيس لم عرفوه أو إلى موطن نزلوا به .

وبعد هذا نعود للقبائل لتربطها بالدول الإفريقية في الوقت الحاضر ،
ولنذكر كلمة عن القبائل التي لما شأن في حمل مشعل الإسلام ونشر مبادئه :
الحسنة والطروس : (تسمى أيضا تاوازا) وهم من العرب ويعيشون في
موريتانيا .

التجور : قبيلة عربية هاجرت من تونس تجاه الجنوب واختزلت برنو
ووادى إلى دارفور حيث نجح زعيمهم ويدعى أحمد في نشر
الإسلام في مملكة دارفور الوثنية ابتداء من القرن الرابع عشر .

لمتوتة : لعلمها أسبق القبائل في حمل لواء الإسلام عبر الصحراء إلى منطقة
موريتانيا ، وإلى غير موريتانيا من البقاع في غربي القارة ،
وكانت الحركة التي قامت بها لمتوتة في القرن الحادى عشر بقيادة
عبد الله بن ياسين تسمى حركة المرابطين ، وقد تخلصنا عنها بكثير
من التفصيل في الجزء الرابع من هذه الموسوعة^(١) وسيأتى مزيد
من الحديث عنها عند الكلام عن امبراطورية غانة في الباب الثانى
من هذا الجزء ، وتعيش لمتوتة الآن في موريتانيا .

جدالة : قبيلة بربرية تعيش في موريتانيا ، ولمتوتة و جدالة تتحمان إلى
عشيرة صنهاجة .

طاشوشة : قبيلة بربرية تعيش في موريتانيا كذلك .

وهناك قبائل ثلاثة تساقب في مجد احتضانها للإسلام ونشرها له وبخاصة
في غربي إفريقيا ووسطها ، وهذه القبائل هي : المانتالو ، والفلو ، والموسا
ومن تحدث عنها فيما يلى :

(١) التاريخ الإسلامى والمفسرة الإسلامية ج ٤ ص ١٨٠ وما بعدها .

للماندينجو : (الماندية وتشمل البارا والسونكى) وتنتشر في السنغال والنيجر وساحل العاج وغينيا وجامبيا وغالا وسيراليون وهم من أعظم أجناس إفريقية رقياً ، وأشدهم ذكاء ، وأكثرهم مهارة وأمانة ، وهم كذلك من أنشط الدعاة إلى الإسلام وبواسطتهم انتشر هذا الدين بين الجماعات المحيطة بهم (١) حتى أصبحت كلمة سونكى تساوى كلمة « داعية إسلامي » وموطنهم الأصلية مدينة مالى عاصمة دولة مالى الكبيرة وقد جاء في تاريخ « كانوا » (Kano Chronicle) أن قبائل ماندينجو هي التي عرفت قبائل الموسا بالإسلام (٢) . وقد احتل الماندينجو مملكة غانة القديمة في القرن الثالث عشر ، وينسب أحمد صمد (١٩٠٠م) إلى قبيلة الماندينجو ، وقد قاد جموع قبيلته في حرب إسلامية حقق فيها ألواناً من الانتصارات ، ونشر الإسلام بين كثير من الوثنيين ، وقد اعترف مجلس العموم البريطانى بفضل قبيلة الماندينجو على إفريقية وكيف أنهم نشروا الإسلام في بلاد سيراليون وما حولها ، وكيف انتشرت مع الإسلام أخلاق الإسلام وسماحته مما جعل هذه المنطقة منطقة نور وفضل ، ينظرها الجميع بالاحلال والتوقير (٣) ، وقد بقى أحد فروع الماندينجو يسمى « كنو » Konnohs على الوثنية حتى عهد قريب ، فلم يدخل أفراد الإسلام إلا في السنين الأخيرة ، وأغلب فروع الماندينجو تعيش في جمهورية مالى الحالية .

الفولة : (الفولى والفولاني والفولاني) وتنتشر في النيجر والسنغال وغينيا ونيجيريا والكامرون وتشاد وموريتانيا ، وقد دخلت

(١) Spencer Trimingham : A History of Islam in West Africa p. 31

(٢) نقل من الدعوة إلى الإسلام لتوماس أرنولد ص ٢٥٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٦٨

هذه القبائل الإسلام منذ عهد مبكر ، وكثيرون منهم يتكلمون اللغة العربية مع لغتهم (لغة القولى) ، وعُرفت هذه القبائل بأنها قبائل مسالمة نشيطة ذات مزاج معتدل وأخلاق طيبة ، وقد دخل القولاينيون ولايات الهوسا تجاراً ، ولكنهم أخذوا معهم معارفهم الدينية وأتجاهاتهم الخلقية ، ونجحوا خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر فى جذب جموع كثيرة من قبائل الهوسا إلى الإسلام ، وبعض القولاينيين أقام فى بلاد الهوسا ، وقد لاحظ ملك مملكة جوبر إحدى ممالك أو إمارات الهوسا أن نفوذ القولاينيين يتزايد فى بلاده ، فأراد أن يقضى عليهم ، ولكن زعيماً إسلامياً من القولاينيين أعلن الثورة عليه ، وذلك الزعيم هو عثمان دتفديو ، وقد انتصر عثمان على ولايات الحوصا السبعة فى مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠٤) وثبت ملكه سنة ١٨١٠^(١) واستطاع بذلك أن ينشر الإسلام بين الوثنيين وبين قبائل الهوسا ، وقد ظلت السيطرة على هذه البلاد طوال القرن التاسع عشر فى أيدي القولاينيين حتى قام الحكم البريطانى فى نيجيريا سنة ١٩٠٠ ، وفى خلال هذه المدة تم اختلاط القولاينيين بقبائل الهوسا ، حتى أصبح من الصعب التمييز بين القولاينيين والهوسا بنيجيريا ، ولا يزال بعض القولاينيين فى غينيا ومالى .

الهوسا : (الحوصة) وتنتشر فى نيجيريا بوجه خاص وفى النيجر والكرون وتوجو وغانا وجمهورية إفريقيا الوسطى ويقال إنهم تعلموا الإسلام من الماندينجو ومن القولاينيين ، والهوسا أصحاب نشاط وذكاء بالغ ، ولهم مهارة فائقة فى التجارة ، أكسبتهم نفوذاً كبيراً بين القبائل ، وعاشت معهم حتى العهد الحاضر جماعة من الهوسا عنواناً للجملة

والأمانة ، واغتهم هى لغة التجارة فى غربى إفريقيا ، وهم متحمسون للإسلام وينقلونه معهم حيثما ذهبوا ، وهم منتشرون من ساحل غينيا حتى حوض النيل ، وعندما قام الحكم البريطانى فى نيجيريا حمل الهوسا لواء الإسلام ونشروه تحت الحكم البريطانى ، وكان من صالح الاستعمار أن يترك الإسلام ينتشر كما سئرى (١) فقد كانت المناطق الإسلامية تمتاز بالنظام والأمن والاستقرار ، وقد نشر الهوسا الإسلام كذلك على ساحل غينيا وفى بلاد اليوروبا ، وانتسب كثير من أبناء الهوسا إلى الطريقة التيجانية ، وراحوا بها ينشرون الإسلام بين الوثنيين بسرعة فائقة ، وتعداد الهوسا فى نيجيريا وحدها حوالى اثنى عشر مليوناً (٢)

الولوف : وتنتشر فى السنغال وغمبيا وجابون .

الصنغى : (صنگاي = سنغى) وعددهم حوالى مليونين وتمتد أرضهم من تمبوكتو حتى منحى نهر النيجر ، وقد كبر السنغاي إحدى الممالك الإفريقية القديمة غربى إفريقيا بعد أن قهرها الماندنجو ، واستولوا على مملكتهم « مالى » .

التيجر : وتنتشر فى بلاد النيجر .

الطوارق : (المانشون) وتنتشر فى النيجر وغينيا ونيجيريا وتشاد

الصوصو : وتنتشر فى غينيا

الأكان : وتنتشر فى غانا .

الأشانتى : وتعيش فى غانا .

(١) لم يعمل الإنجليز أو الفرنسيون قط على نشر الإسلام ، ولكنهم فى بعض الأحيان تركوه ينتشر رغبة فى الاستقرار والأمانة والنظام التى كانت طابع المسلمين .

اليوروبا : وتعيش في غربي نيجيريا وفي غانا وهم أهل ثقافة بين كل القبائل النيجية .

الإييو : من قبائل نيجيريا الجنوبية ، ويتكون منهم معظم سكان الإقليم الشرقي من نيجيريا الذي كان قد أعلن الانفصال سنة ١٩٦٧ تحت اسم جمهورية بيافرا ، ولم ينجح هذا الانفصال كما سئى فيما بعد ، ويوجد الإييو أيضا في الإقليم الغربي الأوسط بنيجيريا مع اليوروبا ، وقبائل الإييو متماسكة ، استطاعت أن تحتفظ بنظمها ومؤسساتها رغم كل المؤثرات (١) .

التوكولور : وتعيش في السنغال وجابون .

ليوى : وتعيش في توجو .

مينسا : وتعيش في توجو .

البجة والأعفار والصومال والخلا : وتعيش هذه القبائل في الساحل الشرقي .
الأقزام : ويعيش الأقزام في الغابات الاستوائية الكثيفة .

البانتو : موطنهم الأصلي إقليم البحيرات الإفريقية الاستوائية ، ثم هاجر البانتو غرباً وشرقاً وجنوباً واندمجوا في قبائل أخرى .

ويوجد البانتو الآن في الجزء الجنوبي من القارة في أوطان متلاصقة متجاورة في مساحة تعادل ثلث القارة تقريبا ، ويعيش بين البانتو سلالة ضئيلة العدد من البوشمن والهننتوت في الجنوب الغربي كما تعيش بينهم عناصر دخيلة من الاستعماريين في الأطراف الجنوبية ، وتبدأ أوطانهم في

(١) جذور الثورة الإفريقية لحاند ووديس من تعليقات المترجم ص ٥٧٩ - ٥٨٠ .

الغرب على خليج يافرا عند الحدود الشرقية لنيجيريا ،
وتمتد الحد بعد ذلك في اتجاه شرق مع تعريجات عديدة
حتى ينتهي إلى المحيط الهندي بالقرب من خط الاستواء
ويقسمهم الكتاب إلى بانتو شرقيين وغربيين وجازيين ،
يضوق البانتو الجنوبيون من ناحية الهند على جميع سكان
الجزء الجنوبي من إفريقيا (١) .

(١) انظر : Endre Sik • The History of Black Africa p. 56

وانظر كذلك جنود الثورة الإفريقية لحاك ووديس لعليق المترجم من ١٩٦٦م ينصرف

حضارة إفريقية أصيلة

ينجيه بعض الباحثين الغربيين إلى إنكار حضارة إفريقية أو الاستهانة بها ، وينسب هؤلاء إلى الاستعمار الغربي أنه وضع بنور الحضارة بالقارة السوداء ، وأن كل ما يلب بها من ديمقراطية وعلم ونظم اجتماعية إنما كان بفضل الدول المستعمرة ، وفي اعتقادي أن هؤلاء يبنون هذا الاتجاه على دعائم ثلاث ليستطيعوا أن يصلوا إلى تقرير هذه الفكرة ، وهذه الدعائم هي :

١ - محاولة عزل مصر عن إفريقية ، فإن حضارة مصر قد أذهلت العالم ، وليس هناك من طريق لإنكارها ، وإذا فليلجأ الباحثون الغربيون إلى تجاهل مصر عند الحديث عن إفريقية واعتبارها كيانا ليس إفريقيا ، وقد استطاع الاتجاه الغربي أن يخلق له صدى في نفوس بعض المصريين فإذا بالخدوي إسماعيل يعمل واجهة لإصلاحاته أن تكون مصر قطعة من أوروبا ، وأغلب الظن أن هذه الواجهة كانت من إيماءات الأوروبيين الذين حاولوا دائما أن يضعوا حاجزا بين مصريين وباقي القارة . وليس من شك في أن الخديوي إسماعيل لم يشأ هذا العزل بدليل أنه وجه عناية كبرى للتوسع داخل إفريقية كما سنرى فيما بعد ، مما يوضح أن مصر متمسكة بإفريقيتها وتستمد منها ماء الحياة وعناصر التاريخ .

٢ - والدعامة الثانية لتقليل شأن حضارة إفريقية أوسع مدى من الدعامة الأولى ، فالكتاب الغربيون في هذه المرة لا يكفون بعزل مصر بل يعدلون إلى عزل الشمال الإفريقي كله عن إفريقية جنوب الصحراء ، وهم بهذا يتكلمون عن إفريقيتين لا إفريقية واحدة ، وفي ذلك يقول Delby : أنا ألاحظ أنه على خريطة إفريقية السياسية توجد قارتان لإفريقية ، ويفصل هاتين القارتين الإفريقيتين محيط مائل من الرمال والصحرا هو

الصحراء ، ففي شمال الصحراء توجد إفريقية التي تعتبر جزءاً من الشرق الأوسط أكثر من كونها منطقة إفريقية ، وتلك هي إفريقية المسلسلة ، التي تضرب في أغوار التاريخ بحضارتها العريقة البارزة ، أما في جنوب الصحراء فضع إفريقية التي نسمي أحياناً إفريقية السودان ، وهي جديدة على التاريخ والجغرافيا ، لم تكشف لنا حدودها الخارجية إلا منذ عهد قريب ، وإفريقية السودان هذه تختلف عن إفريقية الشالية اختلافاً عن بقية أنحاء العالم^(١) .

وهكذا لم يكتف هذا الكاتب بالإنجاه الذي يعزل مصر عن إفريقية ، ويجعلها قطعة من أوربا ، بل راح يعزل الشمال الإفريقي كله ، ويجعله جزءاً من الشرق الأوسط ، ويفترض أن الصحراء حاجز منيع بين الأجزاء التي تقع إلى الشمال والأجزاء التي تقع إلى الجنوب منها ، وتلك نظرية خاطئة ، فلم تمثل الصحراء هذا الحاجز ، وكان هناك منافذ واسعة بين الشمال والجنوب لم تتوقف فيها الحركة على مر الزمن .

٣ - والعمامة الثالثة لتقليل شأن حضارة إفريقية بنيت كذلك على أساس خاطئ ذلك أن الكتاب الأوربيين نظروا إلى إفريقية في القرن التاسع عشر عندما بدأ الاحتلال الأوربي يمتد إلى قلب القارة . أو نظروا إلى إفريقية عقب استقلالها عن الاحتلال سالف الذكر ، وقد كانت إفريقية قد تغيرت تغيراً تاماً منذ امتد لها الاستعمار ابتداء من القرن السادس عشر ، وغبرت هذه القرون حياة القارة تغيراً تاماً ، وعلى هذا فاية نظرة إلى إفريقية بعد ذلك لن تعطي إلا الصورة المشوهة التي خلقها الاستعمار ، وإلا الخراب والدمار الذي جرّه المحتل الأوربي ، وينبغي هنا أن ننتفض لقطات سريعة عن مساوئ الاستعمار بالقارة ، وسنورد فيما بعد تفاصيل هذه المساوئ ، ولكننا هنا نشير إليها إشارات موجزة هي :

(أ) الرق : عن الرق ونتائج يقول W.F.Ward إنه بسبب تجارة الرقيق أخذ كثير من الفنون والحرف في الاضمحلال والتلاشي ، فكم من العمال وأصحاب احرف قُتلوا في الحروب أو أرسلوا عبر البحار ، وكان تهديد القرى بالحرق ، والمزارع بالدمار ، خلال الغارات لصيد العبيد ، من أسباب توقف العمران والزراعة ، فلم يكن في استطاعة المرء أن يعرف مستقبله ومستقبل أسرته إلى الغد^(١) . ويصرح Derek Kartun بأن تدهور الشعوب السوداء كان نتيجة مباشرة لتجارة الأوربيين في العبيد^(٢) .

(ب) الاستعمار : قطع الاستعمار كل صلة بين إفريقية بعد الاستعمار وإفريقية قبله ، وأنهى حضارة هؤلاء القوم ، ويقول Basil Davidson^(٣) إن البرتغاليين وجدوا شعوب شرق إفريقية تعيش في ثقة ورخاء ثم وضع البرتغاليون بهمجتهم نهاية لهذه الحياة .

(ج) المبشرون : كان المبشرون كما يقول W.E.Abraham مجرمين بما اقترفوه من أعمال التلميع للحضارة الإفريقية ، فقد خُيِّلَ إليهم أن الأفارقة يعبدون تخفهم الفنية ، فجمعوا منها ما استطاعوا جمعه وأوقدوا فيها النيران ، ولعل من معجزات القدر أن بعضها نجا من هذا المصير الأليم^(٤) .

(د) المستوطنون : إن الذين جاءوا من أوروبا ليعيشوا في إفريقية كانوا حثالة الناس ، ويقول السير كورونوول لويس في عام ١٨٣٧ : إن حثالة بريطانيا قد تدفقت على المستعمرات . . . محامين فاشلين وتجارا مفلسين ، وأسوأ أنواع الناس^(٥) .

Africa Africa p. 20 (٢)

History of Africa p. 101 (١)

Rediscovery of Ancient Africa p. 125 (٣)

The Mind of Africa p. 117 ترجمة خيرى حامد (٤)

Derek : Africa Africa p. 27 (٥)

تلك هي المؤثرات التي تجعل البعض يقلل من أهمية الحضارة الإفريقية ، وهي مؤثرات غير عادلة ، فمن الحق أن يتضح أن من الواجب أن نتعرف على الحضارة الإفريقية قبل أن تمشى أقدام الأوربيين على أرض إفريقية ، وأن يتضح لنا أن هناك إفريقية واحدة وأن مصر جزء لا يتجزأ منها ، وأن الحضارة المصرية لم تقف عند حدود الأرض المصرية بل سارت شوطاً طويلاً في القارة مع المهاجرين ومع التجار وخلال الاتصالات المتعددة بين مصر ولجزء مختلف من القارة ، وأن مصر لم تكن المصدر الوحيد للحضارة إفريقية ، فهناك حضارات هنا وهناك استمدت جذورها من إمكانية أخرى أو نبقت حيث وُجِدت ، وفي ضوء هذا الضخيم السام نتحدث عن حضارة إفريقية الأصيلة :

وإنبدأ حديثنا بأن نورد وصفاً أورده Basil Davidson عن جانب من حضارة شرق إفريقية عندما وصفاً فاسكو دي جاما في رحلته المشهورة قال :

بين سنة ١٤٨٨ و ١٤٨٩ وصلت سفن فاسكو دي جاما إلى الساحل الشرقى لإفريقية وقد أصابت الدهشة رجال هذه السفن ، إذ رأوا هناك مدناً ساحلية مزدهرة علمية بالسكان ، وبحارة يعرفون جيداً طرق الملاحة إلى الهند وما وراءها ، ممن اعتادوا التقيام برحلاتهم مستخدمين الخرائط والبوصلات وأجهزة لقياس خطوط الطول والعرض مما يماثل ما كان في حوزة الأوربيين وربما تفوقها دقة ، فهم بحارة كانوا على معرفة أكثر من الأوربيين بالعلم الخارجى ، هذا في الوقت الذى كانت فيه الاكتشافات الأوربية لا تزال في بدايتها .

ألفت هذه السفن مراسيها في خضم تجارة المحيطات ، ونزل بحارتها إلى المدن الموجودة آنذاك ، والتي كانت تماثل في روحها المدن القليلة التي وُجِدت

بأوروبا في تلك الأيام ، ولقد كان واضحاً أن هؤلاء البحارة الأوربيين في السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر لا يمكن أن يفوقوا في مدنيّتهم هؤلاء الذين كانوا يعيشون في سواحل شرق إفريقيا ، فهؤلاء كانوا على قدر كبير من المعرفة بالعالم ، وعلى قدر كبير من التدبير ، وكانت موانئهم ومدنهم مؤسسة على أحسن طراز ، حتى أن هؤلاء الأوربيين وجلوا أنفسهم أشبه بالغرباء عن هذا العلم الجديد .

ويقول مسجل سفينة فامكودي جاما « ساوجاريل » : حضر إلينا اثنان من سادة هذه البلاد كانوا على جانب كبير من التعالي ، ونظروا إلى ما قدمناه لهما من الهدايا نظيرة الترفع ، واعتبراها أشياء لا قيمة لها . وكان أحدهما يضع على رأسه قبعة حافتها مطرزة بالحرير ، ويضع الآخري قبعة من الحرير الأخضر - وبصحبته شاب صغير - وقد فهمنا من إشاراتهم أنهم قدموا من بلد بعيد . وأنهم رأوا من قبل سفنا كبيرة كسفنتنا (١) .

ويقبس Derek Kortun ما ذكره Frobenius (٢) في كتابه الحضارة الإفريقية ، عن دهشة تجار القرون الوسطى الأوربيين عندما وجلوا بإفريقية طرقاً معتنى بها ، مظلمة لمسافات طويلة بصفين من الأشجار ، ورأوا حقولاً مزدهرة ، ومدناً يسكنها رجال يلبسون ملابس زاهية ، وجملاً من الناس يلبسون الحرير والمخمل ، ودولاً منظمة ، وملوكاً أقوياء ، وحرفاً مزدهرة وصلت إلى حد كبير من المدنية (٣) .

(١) Rediscovery of Antient Africa p. 79

(٢) ليو فروبنوس (١٩٣٨) ألماني من علماء الآثار ، يعتبر من أعظم المصادر في فن ما قبل التاريخ ، قام بأثني عشرة رحلة إلى إفريقيا ، وكتب كتابه هذا الذي يعد أعظم وثيقة من حضارة إفريقية في المصور القديمة والوسيلة .

(٣) Africa Africa : A Continent Since to its first p. 26

وسوق Basil Davidson مقارنة عن الأمن للتلخل بين إفريقية وأوروبا
آنذاك يقول فيها : إن الحياة في وسط إفريقية كانت أكثر أمنا وسلاما
للسافر بالنسبة للحروب وحوادث القتل عما كانت عليه الحال في أوروبا^(١) ،

أما عن حضارة مصر والدور الذي لعبه في إفريقية ، فلنا نوجز الأمر
بأن تقرر أن حضارة مصر كانت فسيحة وعميقة ومتعددة الجوانب ، شملت
التنظيم السياسية والاقتصادية والعقائدية والفنون والعلوم والحياة الاجتماعية ،
وأن هذه الحضارة عرفت طريقها إلى نواح متعددة من القارة عن طريق
المجرات المصرية وعن طريق الحملات الحربية والتجارية ، وأن الحضارة
المصرية ذهبت إلى مدى أبعد مما وصلت له هذه الحملات ، ولتعد لهذا
الإيجاز بشيء من التخصيل :

عن الحضارة المصرية يقرر Roland Oliver^(٢) أن الزراعة التي تمثل
الحقبة الثالثة من تطورات البشر (بعد الأدوات الدائية وانتار) قد عرفت
منذ عشرة آلاف سنة ، وظهرت في مصر في ذلك الوقت للبكر ، وكان للمصريين
فائض كبير من الزراعة ، وتبع ذلك تزايد السكان وكثرة الأنعام ،
ثم تطورت الزراعة بظهور أدوات جديدة أفادت في الزراعة والصيد ،
ولمحرزت مصر نجاحا في الميادين الاقتصادية والفنية في نهاية القرن الأربعين
قبل الميلاد ، ثم استخرج المصريون الذهب من المناجم الواقعة بين الشلالين
الأول والثالث ، ويبدو أن نظام الحكم في مصر قد اتفق من مصر ذاتها ،
فأخذت هذه البلاد تخطو خطوات واسعة نحو تطور نظم الحكم ، فامتدت
الأقاليم في أثناء حكم الأسرة الأولى ثم أخذت في التمدد والازدهار ،
فلك الفن الذي وصل إلى الأهرامات والمعابد الضخمة ، ولربطت به نهضة

علمية واسعة النطاق في الطب والكيمياء ، والجغرافيا ، كما ارتبطت به نظم دينية وعقائدية مهمة .

تلك لمحات سريعة عن انجازات الحضارة المصرية ، فلنتنظر الآن في وسائل رحلة هذه الحضارة إلى نواح مختلفة بإفريقية ؛ وقد كانت هجرة المصريين إلى نواح شتى بإفريقية وسيلة مهمة لحمل الحضارة المصرية إلى المناطق التي يهاجر لها هؤلاء المصريون ، يقول Trimingham^(١) إن الشعوب الإفريقية تأثرت تأثيرا مباشرا بالثقافة المصرية بسبب الهجرات المصرية المستمرة التي كانت تتجه إلى الغرب وإلى الجنوب .

ولدينا بعض اللوحات التي تبعت هذه الهجرات وحددت نسبة بعض الشعوب الإفريقية إلى الدم المصري الذي هاجر إلى هذه البقاع منذ أزمنة سحيقة ، فشب لوغندا مثلا يوصف بأنه شعب فرعونى ، لأن أسلافه هاجروا من مصر منذ آلاف السنين حينما كانت لا توجد حدود سياسية تفصل بين أجزاء القارة ، وهناك هجرات مصرية كذلك اتجهت إلى السودان وأثيوبيا والصومال ورواندا وبوروندى ، ويدلل علماء الأجناس على ذلك بالتشابه الكبير في الملامح والتقارب في اللون والتقاليد والعادات ونظم الحكم^(٢) .

ويقرر بعض الكتاب أن علماء الأجناس أجمعوا أخيرا على أن أصول شعب القولا في ترجع إلى أرومة مصرية بدليل شبههم القريب من شبه المصريين^(٣) .

ولم تكن هجرة الحضارة المصرية إلى نواح مختلفة بإفريقية متوقفة على هجرة المصريين ، بل انتقلت هذه الحضارة بواسطة الحملات الحربية والقوافل

(١) A History of Islam in West Africa p. 13

(٢) محمد عبد الميزيز إسحاق : نفاة إفريقية ص ٢٩٦ .

(٣) فجر التاريخ الإفريقى ص ٤٧ (تعليق المترجم) .

التجارية ، يقول Davidson^(١) : إن هناك الكثير الذي يثبت أن الحملات المصرية اتجهت جنوبا في النيل وعلى شواطئ البحر الأحمر ، والوثائق التاريخية حافلة بالتفاصيل الواضحة المتنوعة في هذا الصدد ، فكثيرا ما وصل التجار والجنود المصريون إلى بلاد بنت وبلاد كوش وأثيوبيا والصومال والسودان ، بل وصلوا إلى بحيرة تشاد وغيابات الكونغو ومرتفعات أوغندا ، ويتحدث هذا المؤلف عن رحلات محددة أنبتها القروش المصرية ، وعن حملات حربية حققت انتصارات عسكرية كبيرة ودفعت الحدود المصرية بعيدا إلى الجنوب^(٢) .

أما أثر هذه الهجرات وتلك الرحلات من الناحية الحضارية فقد حفلت به مراجع كثيرة تؤكد أن الحضارة المصرية باتجاهاتها المختلفة تخطت الحدود وانساب هنا وهناك ، وقد انضج هذا التأثير في نظم الحكم ، فقد وجد الأوربيون في رواندا نظاما سياسيا دقيقا لا يختلف عن نظم الحكم في مصر الفرعونية^(٣) ، فقد كان هناك صورة الملك المطلق السلطان الذي كان له الحكم ، وكانت له السيطرة على الدين والممتلكات وكانت سلطته وراثية ، وقد وجدت هذه الصورة في إفريقية الرنجة ، واتجهت إلى الغرب ثم إلى الجنوب حتى مدغشقر . وقد تقرر O.Willigael أنه لا شك أن مصدر النظام واحد ، وأن إفريقية الرنجة قد نقلته عن مصر الفرعونية في حقبات متلاحقة من التاريخ بعد قيام عصر الأسرات .

وانضج هذا التأثير كذلك في العقائد ، فالقبائل التي كان لها السيادة في

(١) Rediscovery of Ancient Africa P. 22

(٢) Ibid p.p. 25-26

(٣) دكتور محمد محمود السيد : صور إفريقية ص ٩٠

(٤) Oriental Despotism

نقلا عن إفريقية : الأهرام والناس ص ٢٢٥ .

رواندا -- أورندى تقلىس البقرة ، كما قلىس أسلافهم بمصر عجل أبىس ، ويتخلون منها معبودا كما فعل المصريون بالإلهة هاتور (١) . ويعطى M.H. Panikar تفاصيل أوسع لتأثير العقائد المصرية على الفكر الإفريقى فيذكر أن الكيش حين أن ملى عند اليوروبا كما هو ملى عند المصريين ، وديانة اليوروبا تبمعها عناصر شبه مصرعى الأنظار بديانة مصر القديمة ، ويوجد شبه مثير بين تابوت مقبرة أتا جلا Atz Galla فى الشكل الكهنى أو القوارب التى كانت تستعمل كوايت عند قبائل النوبى وبين الرسومات الموجودة على المقابر المصرية .

بل وعلت التأثيرات المصرية إلى اللغات الإفريقية غالباً Homburger التى كرس وقتها لدراسة اللغات الإفريقية الزنجية تقرر أن هذه اللغات مشتقة من اللغة المصرية القديمة وقد أوردت على ذلك أدلة لم يستطع أحد تقضاها (٢) .

وهناك أشعة حضارية أخرى دخلت القارة من الشمال الإفريقى حيث أقام الفينيقيون سلطاتهم فى القرن الثامن قبل الميلاد بنوتس والجزائر وحيث سيطرت الدولة الرومانية على كل الساحل اجلاء من القرن الثانى والأول قبل الميلاد ، ومن الفينيقيين والرومان انسابت إلى داخل القارة ألوان من الحضارات والثقافات فى نواح مختلفة (٣) .

(١) دكتور محمد الصياد : صور إفريقية ص ٨٢ .

(٢) Saper and Crescent ص ٢٢ من الترجمة العربية التى قام بها الأستاذ أحمد فؤاد بليغ ولم تنشر بعد ، وقد تفصل فأخلى عليها .

(٣) نفلا من المخطوط السابق ص ٢١ .

Roland Oliver : History of Africa pp. 17 ff (٤)

والآن بعد هذه العجالة عن الإشعاع الحضارى الذى اتحم القارة قديما من الشرق ومن الشمال نتجه إلى إبراز لون جديد من الحضارة يمكن القول إنها نبتت الداخل ، فالحقيقة أننا لو درسنا القبائل وسكان الغابات لوجدنا هؤلاء ولأولئك ألوانا زاهية من الحضارة فى اتجاهات مختلفة من الشئون :

ولنبدا بالحديث عن القبائل ، ولعل النظام السياسى يفرض نفسه لياخذ مطلع الحديث ، ولحسن الحظ توجد عندنا دراسات قام بها باحثون شيمتهم الصبر وهدفهم إحقاق الحق ، وإذا كانت دراسات كل واحد منهم اتجهت إلى قبيلة محددة ، فقد أعلنوا جميعا أن النظم كانت متقاربة فى إفريقيا كلها^(١) لأن الخلود المعروفة الآن لم يكن لها وجود ، وكان الفكر ينساب من مكان إلى مكان ، وقد عنى W.E. Abraham بدراسة أحوال الأكانيين وأفاض فى شرح نظرية الحكم عندهم ، فذكر أن نظريتهم فى الحكم تقضى بأن الحاكم يستمد سلطانه كله من الشعب ، وللشعب حق إقالته ، وأن رأى الشعب يتحتم أن يكون وراء كل الأعمال التى يقوم بها الحكام ، وكثيرا ما وضعت قرارات الحاكم بالفعل على لسان الشعب وباسمه ، وكان الخروج على إجماع الرأى بعد من أعمال الحماسة ، وكان إصرار الفرد على رأى يخالف ما تم الاتفاق عليه يعتبر شرا هداما يقاومه المجتمع^(٢) . وكانت موافقة الملك على القرارات غير لازمة نظريا ، ولم يكن من حق الملك أن يعقد الصلح أو يشن الحرب وحده أو طبقا لرأيه كما لم تكن صلاحياته تخوله التدخل فى مفاوضات أو توقيع معاهدات ذات صلة بمصالح شعبه أو من القوانين بصورة استتلاية^(٣) ، ويمكن خلع الملك لعدة أسباب ؛ منها أن يصر

(١) Abraham The Mind of Africa PP. 48, 128

(٢) The Mind of Africa p. 81

(٣) Ibid p. 81.

باستمرار على تقديره الشخصي للأمر ، أو أن يكون ظلما أو مستبلا أو شريرا ، أو تثبت عليه تهمة الرشوة أو الإهمال لشئون الدولة ، أو الافتقار إلى الشرف ، أو أن يقف موقف المشاكسة من مستشاريه (١) .

وفي هذا الإطار يتحدث أندا باننجي ميثول المتخصص في تاريخ إفريقيا فيقرر أن الشعب كان هو الذى يختار زعيمه أو ملكه ، وكان الشعب يطلب من الشيخ الذى يقوم بإجراء مراسم التنصيب أن يبالغ رغبتهم إلى هذا الزعيم ، وهذه الرغبة تتلخص فيما تتضمنه هذه الوثيقة التقليدية :

بلغ الزعيم نيابة عنا أننا نكره الطمع
وأنا لا نقبل منه أن يسئ إلينا
ولا نريد منه أن تكون أذناه صماء عن رغباتنا
ولا نريد أن يتصرف في الأمور دون مشورتنا
ولا نحب أن يشغل عنا إذا أردنا لقاءه (٢) .

وكان من التقاليد المعروفة عند قبيلة البيروبا أنه إذا أرسل الملك حملة عسكرية ثم فشلت ، فإنه يقتل نفسه قبل أن تعود حملته المهزومة إلى أرض الوطن ، وإذا لم يقتل الملك نفسه فإن الشعب يرى أن تنفيذ القانون أمر لا مفر منه فينتولى بنفسه قتل الملك ، وهكذا كان حق إعلان الحرب ، يعنى الانتصار أو الموت بالنسبة للملك (٣) .

وتتحدث هذه المراجع عن الحكومة والنظام الإدارى المحكم ، كما تتحدث عن الحاشية وأزيائها الرائعة ، والمجوهرات الثمينة التى يستعملها الملك ورجال حاشيته ، وعن الرقابة الشعبية الحاسمة وغير ذلك مما يضمن سلامة الحكم وخير الدولة (٤) ، وقد كانت إمبراطورية غانة — وستحدث عنها في الباب الثانى — أولى حلقات

(١) Ibid p. 83

(٢) فيبر التاريخ الإثنيق ترجمة عبد الواحد الاتياني ص ٨٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٩٠ . (٤) The Mind of Africa p. 94 .

التاريخ القوي لغربي إفريقية ، وهى أول تجربة عرفها التاريخ بهذه المناطق ، وقد حدث ازدهارها وطول بقائها (من القرن الأول حتى القرن الثالث عشر) على قدرة الإفريقيين على تدبير شئونهم بأنفسهم ، وقد اضطر بعض المنصفين من الكتاب الأوروبيين إلى الاعتراف بأن حضارة إفريقية فى هذه العصور البعيدة فاقت حضارة بعض البلاد الأوروبية الآن^(١) .

وفى إفريقية نظام قضائى رائع يضمن الحق لصاحبه ، ويحتم تكافؤ القصر للمتقاضيين وإن تفاوت مكانهما الاجتماعى ، ويتيح هذا النظام الاستئناف لمن أحس أنه ظلم فى القضاء ، فإذا أحس أنه لم ينصف فى الاستئناف رفع ظلامته إلى الزعيم أو الملك لياشربنفسه حراسة القضية^(٢) .

وللإفريقيين فكر حول الروح والمادة يوضع فى مستوى رفيع بين الأفكار العالمية .

وناقى الآن للحديث عن الحياة الاجتماعية بإفريقية القديمة ، ويحذر بنا أن نفسح القول إلى حد ما حول هذه النقطة المهمة على نحو ما فعلنا مع نظرية الحكم ، وفى مطلع الحديث عن الحياة الاجتماعية تبرز قضية المرأة وتكوين الأسرة ، وقد اتجه الإفريقيون إلى الزواج من الأبعد وهى النظرية العلمية التى ترى أن اختلاط الدم يقوى الطفل ، ولم يكن يجوز إلا للملوك أن يتزوجوا من الأقارب ، ربما لأن الملك يتحتم عليه أن يعيش لشعبه وأن يضحى من أجله ، وكانت هذه تضحية التزم بها الملك حتى لا يرتبط مع الأبعد خشية أن يكون فى هذا الارتباط خطر على مستقبل أمته ، ويتم عقد الزواج بدفع مهر للعروس كثيرا ما كان ميسورا وقليلًا ، ولم تكن موافقة العروسين شرطا لازما ، إذ كان الزواج رابطة يتأثر بها المجتمع ، فهو فيها صاحب

(١) دكتور إبراهيم طرخان : إمبراطورية غانة الإسلامية ص ١٢ .

(٢) فجر التاريخ الإفريقى ص ٨٥ .

الحق الأول . ووجد في الحياة الإفريقية نوع يشير إلى القروسية وخطف العريس لعروسه ، والحق أن ذلك كان عملا ظاهريا يسبقه اتفاق بين أهل العريس والعروس (١). وتعدد الزوجات كان كثيرا ، وكان مظهرا من مظاهر الغنى والجاه ، ولا يسمح بالطلاق إلا لأسباب قوية ، وربما لا يوجد مكان في العالم يتمتع فيه الأطفال بالترحيب أكثر من إفريقية السوداء ، ولا توجد في إفريقية السوداء أراميل وأيتام بدون حماية (٢) .

وقد قيل عن بعض ملوك الأشانتي أنه لم يشترك مطلقا في حرب غير عادلة ، ولم ينقض معاهدة على الإطلاق ، ولم يقصر في القيام بواجبات الاحترام مع سفير ، ولم يتهك قط اتفاقية هدنة (٣) .

وعرفت إفريقية نظام الملكية الفردية والملكية العامة ، وكان لكل منهما ضمان واضح ، وكان إدراكهم لآثار الملكية الفردية ونتائجها كبيرا ، وكانت الأرض هي الشيء المهم الذي يمتلكه مشاعا أو ملكية عامة ، ولا يمكن خروجها من هذه الملكية (٤) .

ووجد في دول إفريقية نظام البريد ، وقد روى أن بعض ملوك شعب داهومي كانوا يحفظون بنظام نقل المراسلات بطريق العدائين ، الموجودين بمكاتب البريد المنتشرة على طول الطريق ، كما عرفوا جواز السفر من أرض شعب إلى أرض شعب آخر ، وكان جواز المرور عبارة عن عصا نقش عليها شعار القبيلة التي ينتمي لها للسافر ، ووجدت في بعض الممالك الإفريقية نظم دقيقة لتحصيل الضرائب والرسوم الجمركية ، وإحصاءات دقيقة لعدد

W.E. Abraham : The Mind of Africa pp. 72, 87 (١)

Ira Codrane Brown : The History of the Negro p.p. 42, 45. (٢)

The Mind of Africa P. 73 (٣)

Ibid p. 43. (٤)

السكان (١) ، وتلك لعمري مظاهر حضارية تدعو إلى الإعجاب والتقدير ،
وتشرّف من يتبعها في العهد الحاضر فبالكّ بها وقد وجدت في إفريقية
منذ مئات السنين .

وقبل أن نتجه إلى الغاية لئرى دورها في ميدان الحضارة الإفريقية يجدر
بنا أن نذكر في لحظة سريعة أن الإسلام دخل جنوب الصحراء فأغاض عليها
من فكره وحضارته ودفعها إلى الأمام مراحل واسعة ، ولنا نستطيع أن
نطيل الكلام واصفين ممالك هذه المناطق في ظل الإسلام ، فالكتاب كله حافل
بالمفاخر والمناقب التي جاء بها الإسلام إلى هذه المناطق ، وحافل كذلك بإبراز
الاستجابة الطيبة التي أبدتها هذه الشعوب ، ولنكتف هنا بإشارة موجزة
أروينا عن شاهد عيان هو الرحالة ابن بطوطة رأها في مملكة مالي ، وهو
يقول : في بلاد مالي يقل الظلم أو يتمحى ، فالتناس أبعد ما يكونون عنه ،
وسلطانهم لا يسامح أحداً في شيء منه ، ومن مفاخر بلاد مالي شعور
الأمن ، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب ، ومنها عدم
تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ، ولو كان التناطير المقنطرة ،
بل يتركونه بيد ثقة حتى يأني مستحقه فيأخذه ، ومنها مواظبتهم على الصلاة ،
والإتزام بالجماعات وضربهم أولادهم عليها ، وإذا كان يوم الجمعة ، ولم يكر
الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام (٢) .

وهكذا علا شأن الإفريقيين في ناحية الدين وناحية الدنيا ، وسيظهر لنا
هذه الحقيقة من حين إلى حين ونحن نسير في هذه الدراسة ، وبخاصة
الباب الأخير حيث نحدّثنا عن مظاهر الحضارة الإسلامية جنوب صحراء
إفريقية .

والآن تنجه إلى الغابة مؤكدين بادئ ذي بدء أن دورها في ميدان الحضارة كان كبيرا ، وأنها خلقت من الإفريقي لستاذا للغرب في فنون الرقص والموسيقى والنحت والتصوير ، فلنبدا حديثنا عن الغابة من مطلعها :

تتمتع الغابة بنصيب كبير في تكوين طبيعة الحياة بإفريقية الوسطى ، وتضفي على الحياة نوعا من المهابة والغموض ، فالحيوانات تغمرها ، والنهيرات وغدران الماء تجري وسطها ، والشلالات تندفق بها ، وألوان الأشجار والأزهار تزدهى فيها ، ومن هذه العناصر تألق الغابة بأصوات وألوان تكون أهم عناصر التشكيل الأدبي والفني .

فالأصوت يصدر عن حفيف الأشجار وخريف المياه وهدير الشلالات ، كما يصدر عن الحيوانات والزواحف والطيور فيكون زئيرا وعواء ومواء وفجيجا ونقيقا وزقزقة . . . ، وتتراوح درجات الصوت وتدرج طبقاته بل تلتحم وتتحد أحيانا ، فيكون منها إيقاعات وأنغام منتظمة وتشكيلات لونية متناسقة^(١) وكثيرا ما يبدأ الصوت وحيدا تابعا من مصدر واحد ، ثم تبدأ الاستجابة له ، من حيوانات أخرى ، ثم تسكت بعض أنواع الحيوانات ويستمر البعض ، وقد تبدأ بعد ذلك جميعا إلا صوتا ضئيلا كأنه خاتمة الأنغام ، وأشهد أنني طالما سمعت هذه الأصوات بيجال إنلونيسيا ومن غاباتها ، فخيّل لي أن «جوقة عزاف» تدبر هذه الإيقاعات الضخمة أو اتجهت من ناحية أخرى إلى أن الملحنين تلقوا دراستهم في الإيقاع عن الغابة أو عن تلقى عنها .

فلإذا جئنا إلى اللون وجدنا الغابة غنية به غنى عظيما ، فالطبيعة قد صغت

(١) حل شلش : من الأدب الإفريقي ص ٢٠ - ٢١ بتصرف واسع وانظر كذلك التحقيقات الإفريقية للأستاذ محمد عبد الفتاح إبراهيم (فصل الموسيقى والرقص) .

سخاء هائل في جانب الألوان على الغابة ، وتبرز هذه الألوان الرائعة في الحيوانات والطيور والزهور ، وقد انفعل الإنسان الإفريقي بهذه الألوان الخلابة فراح يحاكيها في ملابسه وأثاثه ومسكنه ، ومن هنا انجبه اعتماد كثير من القبائل في الملابس إلى الألوان الزاهية والفاخرة والمزركشة ، فقد كان ذلك من آثار البيئة ، وانعكست ألوان الغابة على التصوير والنحت الإفريقي انعكاسا واضحا ، فالتصوير كان متمشيا مع الطبيعة ومحاكاة لها ، وفي النحت لم يقنع الإفريقي بلون واحد فعمد إلى التطعيم لجعل تماثله الخشبي متعدد الألوان .

وكانت الغابة أستاذا في الرقص كما كانت أستاذا في الموسيقى والرسم والنحت ، وكما في الغابة من حيوانات وطيور تراقص في مشيتها أو قل إن مشيتها رقص طبيعي وحركاتها متعة حاكها الإنسان ، فإذا به يرقص ، وإذا بالرقص فن رفيع .

وارتباط الرقص بالموسيقى هو كذلك درس من دروس الغابة ، فاللهود بطوى الغابة أحيانا ، فلا يمشى حيوان ولا يطير طائر ، وفي نفس الوقت لا تسمع صوتا ينبعث ، فإذا دبت الحياة في الغابة وتبخترت الحيوانات وتراقصت الطيور فإن الأصوات ترتفع كذلك مع ديب الحياة ، وهكذا تدفع الموسيقى إلى الرقص ، أو يدفع الرقص إلى الموسيقى ، فهما متلازمان على كل حال .

وهكذا كان أثر الغابة عاليا على أنواع من الفنون الإفريقية ، وسنقتبس لمحات من الدراسات عن بعض هذه الفنون لنرى تقدير الباحثين لها وإعجابهم بها ، تقول الكاتبة الزنجية Pearl Primus (١) : لست أستطيع أن أفكر

(١) The African Dancing نقلا عن الثقافات الإفريقية للأستاذ محمد عبد الفتاح

إفريقية دون أن أسمع دقات الطبول العالية ودون أن تمر أمام عيني حشود الراقصين . ويقول الأستاذ محمد عبد الفتاح إبراهيم : إنه من المحتمل أننا لا نستطيع أن نجد مجتمعاً قديماً إفريقياً لا تكون للرقص فيه مكانة بارزة في حياة الناس ، فالرقص أكثر من أن يكون مجرد متعة أو مظهراً للسرور ، إنه جزء غير منفصل عن طقوس ترتبط بالمناسبات الرئيسية في حياة الفرد أو حياة الجماعة ، ذلك لأن الرقص يكون تعبيراً عن إحساس الفرد وتعبيراً عن تضامن الجماعة . . . ودليلاً على تشاركها في الفرح والحزن ؛

ففي كل مكان من القارة نجد على سبيل المثال لا الحصر . . . أن الميلاد . . . التكريس . . . البلوغ . . . الزواج . . . الموت . . . وما إلى هذا مما يمكن أن يؤثر في كيان الجماعة إنما تصحبه احتفالات قد تختلف في الطابع ولكن الرقص هو الجزء الرئيسي من برامجها كلها . . . (١)

وعن الفن الإفريقي تقول Ina Corinne Brown (٢) : اشتهر زنجوج الساحل الغربي من القارة الإفريقية منذ القدم بمهاراتهم ومواهبهم في الفنون ، فأهل داهومي أظهروا براعة عظيمة في الحفر على الخشب ، لا سيما في حفر مقاعدهم وعصيمهم وتماثيلهم ، وشعب الأشانتي اشتهر في صناعة الحلى والجواهر الأنيقة المتينة ، والموازين ومختلف المشابيل النحاسية الدقيقة التي كانت تستعمل في وزن التبر . ولقد حازت الأشغال البرونزية المصنوعة في مملكة بينن القديمة شهرة عظيمة حتى أنها عرفت طورتها في القرن الخامس عشر والسادس عشر إلى المشابيح الأوربية ، كذلك لقد تميز شعب بينن بعمله المهرة في الحفر على الخشب والعاج والحديد ، بل يعتقد بعض الباحثين أن الأشغال الحديدية إنما نشأت في الأصل عند الزنوج .

(١) محمد عبد الفتاح إبراهيم : الثقافات الإفريقية من ١٨٨٦ وما بعدها .

The Story of the Negro p. 44 (٢)

ويقول Panikar (١) إن النوك (في نيجيريا الشمالية) قد أثبتوا أن التماثيل التي صنعوها بها من التشكيل والمرونة ما يجعل بينها وبين التماثيل الهندية أوجه شبه بارزة .

وعن الفن في إفريقيا كذلك هناك عبارة لشاعر إفريقي عظيم هو الرئيس سنجور رئيس جمهورية السنغال ، وهي تصف حساسة الرجل الإفريقي أدق وصف ، وتبرز عواطفه وانفعالاته ، وتلك العبارة هي « إن الرجل الأسود هو إنسان الطبيعة ، يعيش مع أرضه ، إنسان حسي مفتوح الحواس ، لا يقبل الوساطة بين الذات والموضوع ، لكنه يقبل كل شيء أنغاما وروائح وإيقاعات وأشكالا وألوانا ، إنه يحس الأشياء أكثر مما يراها »

ويعتبر هذا القول إطارا يحوى أدق رسم للإفريقي الفنان ، وقد حفلت المراجع بتصوير الفن الإفريقي ، فزنوج غربي إفريقيا امتازوا بالبراعة الفنية وبخاصة في مسائل النحت والفن التشكيلي ، وقمة البراعة الفنية تتمثل في إقليم « بنين » Benin وإيثى Eve وما حولهما من الجهات في جنوب غربي نيجيريا ، ففي هذه البقاع برع السكان منذ قرون عديدة في النحت الفني للعاج ، وصناعة الأقنعة ، وتماثيل البرنز ، وعندما استولى الإنجليز على مدينة بنين سنة ١٨٩٧ وجدوا فيها مجموعات ثمينة من روائع الفن ، ونقلوا منها إلى المتحف البريطاني في لندن أنياباً منحوتة كاملة من العاج ، وتماثيل من البرنز في غاية الروعة والإتقان الفني ، ولم تلبث التحف الإفريقية أن ملأت كثيراً من المتاحف في أوروبا وأمريكا .

ومعظم جهات إفريقية الزنجية لا يغفل عن آثار فنية على هذا النسق ، ولكن غربي إفريقية أكثرها عناية بإنتاج التحف الجميلة (٢) .

(١) دكتور محمد عوض محمد : الشعوب : الدلالات الإفريقية ص ٤٩ .

(٢) Serpent and Crescent p. 8

واشتهرت إفريقية كذلك بتشكيل الأواني النحاسية والنحت على الخشب ،
وقد عرف كثير من قبائل إفريقية صهر الحديد وصناعة الآلات والأسلحة
الحديدية وصناعة الحلي من العاج ومن المعادن والصدف ، وصناعة الخزف
وصناعة السلال من أغصان الأشجار ، وصناعة الدباغة ، وأجادوا هذه
الصناعات لإجادات قامة ، وكانوا في تشكيل البرونز في القرن الخامس
عشر أقدر من الفنانين الأوروبيين ، كما أنهم في صهر الحديد سبقوا أوروبا
بعدة قرون .

ولنتختم هذا البحث عن حضارة إفريقية بعبارة شاملة كتبها Basil
Davidson^(١) ونصها: إن حضارة إفريقية التي ارتبطت بالعالم الخارجى حركتها
عوامل إفريقية خلافاً خالصة من بدايتها ، كما تشهد بذلك ممالك السودان
القديمة ومدن الساحل العظيمة وأسوار زيمبابوى وأبراجها ، وهى حضارة تقرر
انتصار شعوب غير معروفة قامت في داخل إفريقية وحقق ذلك الانتصار . وقد
كانت هذه الشعوب وحياتها حركة متصلة دائبة تضرب في أعماق التاريخ
وتواصل زحفها دائماً ، وكانت تمثل نمواً لا يختلف في أساسه وجوهره عن
نمو أى مجتمع في أى مكان آخر من العالم . ولقد أسهمت هذه الشعوب
بأفكارها وفنونها وآرائها في الحكم والفن في تراث الإنسانية المشترك^(٢) .

والآن مع إحساسى بأن الحضارة الإفريقية الأصيلة قد أخذت نصيبها
هنا من البحث والدراسة لا يزال أهـمى مؤلف واسع الشأن في هذا المضمار ،
كتبه اثنان من المستشرقين الروس ، وينبغى أن نفتح المجال للاقتباس
منهما ، وبخاصة انهما يتكلمان عن دور إفريقية في حضارة العالم ، يقول
سافيليف وفاسيليف :

منذ آلاف السنين صنعت الشعوب الإفريقية ثقافتها الخاصة ، من حيث
الملبس والسكن والموسيقى والرقص والأغاني والأساطير ، واللغة المكتوبة
وفن العمارة الخ . . . وكان الإفريقيون أنفسهم هم الذين صنعوا بعملهم
وذكائهم التراث الثقافي في القرون الماضية :

وتحتل الحضارة الإفريقية العظيمة التي نشأت في العصور الغابرة في الجزء
الشمالي الشرقي من القارة مكاناً بارزاً في هذا التراث . وقد شاهد وادي النيل
لأسباب مختلفة ظهور حضارة من أقدم الحضارات الإنسانية في العالم ،
فلما في هذا الوادي نظام حكومي ونظام اقتصادي راقٍ في فجر التاريخ
الإنساني ، وهذا يؤكد لنا بقوة دور إفريقية البارز في تاريخ العلم .

وظهر في وادي النيل الحصب وفي الواحات القريبة الواقعة في شمال
شرقي إفريقية نشاط اقتصادي قبل أن يعرف الإنسان استخدام المعادن بزمان
طويل ، ففي هذه المناطق بنى الناس مساكنهم على التلال المتاخمة لوادي النهر
ومارسوا القنص والصيد ، وانتظموا في جماعات مشاعية (كجموعات)
بدائية . وبنمو عدد السكان وارتفاعه أساليب العمل انتقل الإنسان إلى زراعة
الأرض ورعى الحيوانات .

وبفضل جهود كثير من الأجيال أصبح وادي النيل مغطى بشبكة كثيفة
من قنوات الري مكنت الإنسان من تسخير قوة النهر ، وتعلم الإنسان الأول
كيف يفلح الأرض بأطراف الأغصان الحادة ثم اخترع المحراث الخشبي
ولاستخدم الثيران فيه ، مما ساعد كثيراً على تحسين زراعة الأرض ،
فأصبحت الزراعة من الحرف الأساسية في وادي النيل .

وظهرت إلى جانب الزراعة حرف مختلفة كأشغال الحجر والصلصال
والخشب وسرعان ما ظهرت حرفة النسيج والدباغة وغيرها . وكان

اكتشاف المعادن إيلانا بداية عهد جديد ، وازدادت تجارة المقايضة ازدياداً كبيراً بظهور الحرف (١) .

وهكذا قامت الحضارة القديمة في وادي النيل ، بدور تاريخي غاية في الأهمية لأنها كانت من أطول الحضارات الإنسانية عمراً ، وأقواها أثراً ، إذ تمكن الشعب من إنشاء نظام عظيم للرعى ، كما توصل إلى إيجاد لغة للكتابة ، وضرب بسهم وافر في الأدب ، وأخضع الزراعة لقيضان النيل الموسمي ، مما لفت للنظر إلى الظواهر الطبيعية ، فأخذ الشعب يهتم بدراسة الفلك ؛ وأدّى ذلك إلى وضع تقويم سنوي . وعرف المصريون القدامى النظام العشري في الرياضيات وألوا بشيء من علم الجبر واهتموا بترقية فن العمارة ، فدرسوا العمليات الحسابية المتصلة بالمربعات والمثلثات والدوائر وحجوم الأهرامات البسيطة والناقصة .

وبرعوا في الطب كما تشهد بذلك دراسة المومياء ، وعالجوا العظام والأنسجة الجلدية المريضة بالآلات الجراحية وعرفوا حشو الأسنان ، وصنعوا الأواني الزجاجية والخزفية والأصباغ والمينا وعرفوا ورق البردي وكثيراً من المواد الأخرى ، وقد بقي حتى اليوم كثير من كتاباتهم وتفهم الفنية .

وقد اقتبست مصر كثيراً من مظاهر الحضارة من جيرانها الأقربين وغيرهم خلال آلاف السنين ، ولكنها أثرت فيهم تأثيراً عظيماً .

ولمصر القديمة صلة وثيقة بتاريخ الشمال الشرقى لأفريقيا بما في ذلك الحبشة وغيرها من البلدان الإفريقية ، ويرجع اتصال مصر بالحبشة إلى الماضي السحيق ، وكانت إحدى الأسر المصرية ذات أصل حبشي كما نشطت التجارة بين البلدين ، وإن توقفت بين حين وآخر بسبب الحرب .

(١) موجز تاريخ إفريقية : تأليف ي . سافلييف وج . فلستيف ص ١٠٥ ،
تعرّب أمين الشريف .

وقد أقام الفينيقيون مستعمرات لهم على ساحل إفريقية الشمالى فى العصور القديمة منها مستعمرة « أوتيكا » التى تأسست سنة ١١٠١ ق . م فى حين قامت قرطاجة فى سنة ٨١٤ ق . م (قرب مدينة تونس الحالية) ، وفى القرن الخامس ق . م أصبحت قرطاجة مملكة قوية ذات مراكز ومدن تجارية تنتشر فى سلسلة طويلة على طول ساحل إفريقية الشمالى كله .

وكانت قرطاجة فى زمنها أكبر منافس لروما القديمة ، وخاضت الدولتان حرباً عواناً من أجل السيطرة على البحر الأبيض المتوسط والعالم القديم بوجه عام . ولا تزال حتى اليوم أبقان المدن القرطاجية تهر الأنظار بعظمتها وروعها .

وشهدت هذه الفترة نفسها قيام دوائن كبيرتين للبربر فى أفريقية الشمالية هما « نوميديا » و « مورتانيا » .

وكانت نوميديا تشمل الجزء الشرقى من دولة الجزائر الحالية ، ومورتانيا تشمل الجزء الغربى منها وجزءاً من دولة المغرب الحالية . وفى آخريات القرن الثالث ق . م اندمجت الدولتان فى دولة واحدة على ينماصينا . واحتفظت هذه الدولة باستقلالها على الرغم من سطام قرطاجة الاسبانية ، وفى أثناء حرب جوجورثا من ١١١ إلى ١٠٦ ق . م أنزلت القبائل الرومانية سلسلة من الضربات الأليمة بممالك البربر ثم غزتها روما فيما بعد ، فحولت ذلك الجزء من أفريقية إلى إحدى ولاياتها (١) .

وعن الحفارة جنوب الصحارى يقول هذان المؤلفان : إن الأقاليم المتاحة لبحيرة تشاد كانت مراكز لحفارات عريقة فى القدم . وقد كشف علماء الآثار عن حفائى هامة بالقرب من منطقة زاريا فى نيجيريا الشمالية ،

(١) موجز تاريخ إفريقية : د . ساطيف وج . ساطيف ص ١٢ - باختصار ونصرف .

إذ كانت آهلة بأقوام يشتغلون بالزراعة ثم عرفوا صناعة الأواني الفخارية ، وتعلموا صهر الحديد ، واتخذوا منه آلات وأسلحة ، وصنعوا تماثيل من الطين المحروق اتسمت بأسلوبها الفني الخاص .

وكذلك كان الإقليم الواقع بين نهري السنغال والنيجر مقراً لحضارة وحكومة إفريقية قديمة ، ففى بداية التاريخ الميلادى قامت فى هذا الإقليم مملكة تدعى أوكرا أو غانة ، وكانت تعبرها الطرق التجارية ، ويقطنها قوم يسمون السوننكى وعاصمتها القديمة هى مدينة كومبي التى تقع أطلالها على بعد ٢٠٥ أميال شمالى مدينة باماكو الحالية ، والحرف الرئيسية لسكانها كانت الزراعة والرعى ، كما كانت هذه المملكة تسيطر على الذهب والملح حتى لقد اشتهرت فى قديم الزمان بأنها بلاد الذهب (١) .

وكان لشعوب إفريقية الشرقية فى العصور الغابرة صلات تجارية وثقافية مع دولة أكسوم الممتدة على الساحل الإفريقى للبحر الأحمر ، وكذلك مع الهند وإندونيسيا وبلاد اليونان القديمة ، فتأثرت إفريقية بما كان لهذه البلاد من ثقافات ، وأثرت فيها .

وهناك نقوش كثيرة على صخور إفريقية ترسم مناظر طبيعية لبقاع فى إفريقية ، وتعطى صوراً دقيقة لهذه المناظر .

والتراث الشعبى من الأغاني والملابس المزركشة والقصص المثيرة غزير للغاية مما يضع إفريقية فى مطامع الدول الغنية بالفنون الشعبية .

وهوسيقى الجاز إفريقية الأصل وإن تطورت خارج إفريقية ، كما أن إفريقية مصدر لألوان أخرى من الموسيقى والعزف ، وللإفريقيين ضربات

(١) المرجع السابق ص ١٣ - ١٤ وتحدث عن ملكة غانة فيما بعد .

خاصة على الدفوف والطبول حتى يقال إن للطبول لغات في إفريقية .
والرقصات الإفريقية فائقة السيت وقد أخذ العالم ألوانا من الرقص عن
إفريقية ، ويرجع تاريخ الرقص الإفريقي إلى الوراثة عدة آلاف من السنين ،
فقد ذكرت المراجع أنه في الألف الثالثة قبل الميلاد ، كان فرعون مصر
يبحث البعوث للجنوب حتى رآى الكفن ليحصلوا على الإقزام ليقيموا
بالرقص أمامه ، وكان فرعون يقرر أن رقص هؤلاء يدخل السرور على
قلبه ومن أجل هذا كان يُعنى بالراقصين ، ويمنحهم ألوانا من الخير والثراء ،
والرقص في إفريقية يُعد عبادة أحيانا فهم يتقدمون برقصاتهم إلى الآلهة
وتجتمع حشودهم راقصة أمام المعبودات ، وهو هنا رياضة روحية وجسمانية
في نفس الوقت ، ولم ينحرف الرقص الإفريقي إلى مجال الإثارة قط .

والإفريقي في أكثر نواحي القارة طويل القامة ، نحيل الجسم ، يعيش أحيانا
مع الحيوانات في الغابات ، وهو هنا رياضي بطبيعته ، يتسلق الأشجار ، ويسابق
الطيور والحيوانات ، ويصيد منها ويقتنص ، ومن هنا جاءت براعته في
الرياضة وبخاصة براعته في الجري والملاكمة .

وهكذا كان الفن وسيلة تعبيرية لشعب قلت عنده الكتابة ، وهكذا
وصلت الشعوب الإفريقية في العصور القديمة إلى مستوى رفيع نسبياً من
النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، كما ضربت بهم وافر
في الحضارة الإنسانية ، إذ صنعت حضارات أثرت في التقدم الإنساني في
الماضي البعيد (١) .

الباب الثاني

إفريقية قبل الإسلام

إفريقية قبل الإسلام

إن الحديث عن الإسلام وإفريقية حديث عن دين أمدّ القارة بمشاعل الضوء في مختلف الشئون ؛ فالإسلام في معناه السريع دين ودولة ، أو بعبارة أخرى هو حضارة ، أو بشيء من التفصيل هو الإيمان بالله واحد ورسالة محمد ، وبما حوته هذه الرسالة من عبادات ومعاملات ، وتشمل المعاملات أمور السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق ، ودين كهذا كانت إفريقية في أمس الحاجة إليه ، لقد كانت الوثنية هي الاعتقاد السائد ، وكان مع الوثنية عبادة الأشجار والأنهار والكواكب والأبطال والأرواح ، وفي مناطق الغابات الاستوائية كان العرى هو الزى الغالب ، وتسلط القوى هو أسلوب الحياة ، ولم يكن هناك دستور للعمل أو المدنية ، فلما طرق الإسلام قلب إفريقية بدأ ضوء المعرفة يزيع ظلمات الجهل ، وأخذ الإسلام يضع قواعد حياة سليمة تليق بالبشر وتأخذ بيدهم إلى الطريق القويم ، ولهذا يقرر Gouilly أن العصر التاريخي لإفريقية السوداء لم يبدأ إلا منذ ظهور الإسلام ، وأن بالإسلام ولغته وحضارته تقدم السود وتطوروا ، وبلغوا شأنًا كبيرًا في المدنية (١) .

وتصوير هذه القارة أو بتعبير أدق هذا الجزء الذي ندرسه من القارة قبل أن يطرقه الإسلام عمل صعب للغاية ، فالقبلية كانت موجودة في أكثر نواحي المنطقة ، والقبلية عدوة التجمع والاستقرار ، لأنها كما قلنا من قبل تسعى للتفرق والنزق لا للوحدة والتجمع ، ثم إن القبائل بإفريقية كانت كثيرة التحركات والتنقلات ، فلم توجد لها مواطن ثابتة يمكن أن تكون

(١) نقلنا من إمبراطورية غانة الإسلامية للكتور إبراهيم طرخان ص ١٠ .

مصلراً للتاريخ ، ولم تكن الكتابة معروفة عند هذه القبائل . ومن هنا لم تدون الأحداث المتصلة بها ، فأصبح تاريخها مبهماً غير واضح ، وفي بعض الأحيان دون تاريخ ثم قضى عليه لسبب من الأسباب ؛ كالأسياب الدينية التي جعلت بعض الملوك يعمدون إلى إخفاء تاريخهم قبل الإسلام اعتقاداً منهم أنه تاريخ لا يستحق الذكر وأن الإسلام جب ما قبله . وعلى هذا فحالة تصوير القارة قبل الإسلام محاولة شاقة ، نقوم بها بقدر ما يسعنا الجهد وتملأنا المراجع .

ثم إن القارة بالنسبة للإسلام ليست وحدة واحدة ، بمعنى أن الإسلام لم يدخلها في وقت واحد أو حتى في أوقات متقاربة ، وعلى هذا فليس سهلاً أن نضع خطاً زمنياً فاصلاً بين إفريقية قبل الإسلام وإفريقية المسلمة ، ومثل هذا يقال عن كل دولة من دول إفريقية على حدة . فسودان وادي النيل يتكون الآن من ممالك كانت من قبل متفرقة هي دارفور وكردفان وسنار والبجة والجنوب ، ولم يدخل الإسلام هذه البقاع في وقت في واحد ولا في قرن واحد ، فإسلام بعض جهات السودان تم مع انتشار الإسلام في مصر ، وبعد عدة قرون طرق الإسلام أرض دارفور فستار فكردفان فالبجة ، ولا يزال أكثر سكان الجنوب غير مسلمين حتى الآن .

من أجل هذا ليس حديثنا عن إفريقية قبل الإسلام حديثاً يضع حداً زمنياً دقيقاً ، وقد نتوقف عند حد واضح إذا ظهر لنا هذا الحد ، كأن تقوم دولة إسلامية على أنقاض دولة وثنية أو مسيحية ، ولكن حينما يكون الانتشار بالدعوة فإننا نصطنع الصبر والأناة لنصور بقعة ما قبل الإسلام ونصل بها رويداً رويداً إلى رحاب هذا الدين .

وبادئ ذي بدء نقوم برسم صورة سريعة نعتبر إطاراً نسير في هديه وموجزاً نستمر في تفصيله؛ فبوجه عام ينقسم جنوب الصحراء ثلاثة أقسام :

هي الغرب والوسط والشرق ؛ ففي غرب إفريقيا هناك دول ثلاثة مشهورة قامت في العصور القديمة والوسيلة هي غانة وصنغى ومالى ، ومالى إسلامية منذ نشأتها على أنقاض غانة في القرن الثالث عشر ، ولهذا فإنها تستبعد عند الحديث عن إفريقيا قبل الإسلام ، أما غانة فيرجع تاريخها للقرن الأول الميلادى ، وعبرت أكثر من عشرة قرون في حياة الوثنية ، ولهذا فإنها تكون أبرز حلقة في حديثنا عن هذه المنطقة قبل الإسلام ، وأما صنغى فقد بدأت في القرن السابع الميلادى ودخلها الإسلام في القرن الحادى عشر ، وسنتحدث في هذا الباب عن صنغى قبل الإسلام ، ثم نستانف -

الباب الرابع - حديثنا عنها في ظل الإسلام :

وفي وسط إفريقيا قامت عدة دول وإمارات قبل الإسلام أهمها مملكة اليوروبا (غربى نيجيريا) ومملكة الإيبو (شرقى نيجيريا) وإمارات الهوسا (شمالى نيجيريا) ومملكة برنو حول بحيرة تشاد ، ومملكة كانم إلى الشرق من بحيرة تشاد .

وفي شرق إفريقيا ظهرت مملكة مقرة وعلوة ودارفور وكردفان ، كما ظهرت بعض الإمارات على الساحل الإفريقى ، وإن كان الإسلام قد طبع هذه الإمارات الشرقية بطابعه منذ عهده المبكر ، إذ كان العرب يكوّنون بها عنصراً هاماً ، وسنبداً فيما يلى بدراسة فيها شىء من التفصيل عن هذه الممالك ، متجهين من الغرب إلى الشرق :

غانة

(من القرن الأول الميلادي حتى سنة ١٢٤٠ م)

غانة أقدم دولة عُرفت في غربي إفريقيا ، ومعنى كلمة غانة في لغة السوننكي « القيادة العسكرية » ، ومن هنا أطلقت هذه الكلمة على المدينة التي كانت بها هذه القيادة^(١) . ويرى البكري^(٢) أن كلمة « غانة » كانت سمة للوكهم ربما لأنها تحمل معنى « القائد العسكري » ، ثم اتسع مدلول الكلمة فأطلقت على العاصمة التي يعيش فيها الملوك ، يقول ياقوت^(٣) « غانة مدينة كبيرة في جنوبي بلاد المغرب متصلة ببلاد السودان » . واتسع مدلولها مرة أخرى فصارت علماً على المملكة كلها ، مع بقائها علماً على العاصمة ، كما تطلق كلمة مصر على العاصمة وعلى القطر ، وكلمة الشام عند السوريين على القطر وعلى دمشق ، ولهذا يتحدث القلقشندي^(٤) والمقريزي^(٥) عن هذه الكلمة بهذين المعنيين وعبارتهما واحدة تقريباً هي : « ومدينة غانة محل سلطان بلاد غانة . . . »^(٦) . ويقول على بن سعيد عنها : « مدينة غانة على ضفتي النيل (يقصد النيجر) وبها يحل سلطان بلاد غانة »^(٧) .

وتقع غانة القديمة جنوبي موريتانيا الحالية ، وكانت عاصمتها تسمى (كومي) وقد عثر الفرنسيون على أطلال مدينة بالقرب من (كومي صالح) يعتقد أنها هي (كومي) عاصمة غانة القديمة ، وتقع كومي صالح

(١) نعيم قداح : إفريقيا الغربية في ظل الإسلام ص ٢٨ .

(٢) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ١٧٤ .

(٣) معجم البلدان ج ٣ ص ٧٧٠ .

(٤) صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٨٤ .

(٥) الإمام بأخبار من بالحيشة من ملوك الإسلام ص ٢٢ .

(٦) انظر كذلك : Basil Davidson : The Lost Cities of Africa pp. 82 f .

(٧) بسط الأرض في الطول والعرض ص ٢٤ .

على بعد حوالى مائتى ميل شمال باماكو^(١) ، ويذكر Paniker أنه يوجد يقين معقول قائم على حقيقة أن كومبي هم البلد الوحيد الذى ورد ذكره فى المراجع الوسيطة ، وأن الأساطير المحلية تربط ما بين كومبي ضالج وغانة ، والخرائب التى عثر عليها فى كومبي ذات أهمية كبيرة ، وتعتبر عن فن معمارى على جانب كبير من الإتقان ، وكل هذا يجعلنا نعتقد أن هذا بالمعاصم أشبه^(٢) .

وقد بدأ ظهور دولة غانة فى القرن الأول الميلادى ، وكان ظهورها على يد جماعة من البيض وفدوا من الشمال ، كانوا أكثر ثقافة من المواطنين الأصليين الذين ينتمون إلى قبائل السوننكى ، ولكن الفقيه محمود كمت لا يقطع فى ذلك برأى ويرجح أنهم من الصحابة^(٣) . أما السعدى فقد حدد أنهم من البيضان ، ولكنه ذكر أنه لا يستطيع نسبتهم إلى أى طائفة من البيض^(٤) ، وسار أكثر المؤرخين الغربيين على عهد حكاهم غانة من البيض^(٥) ، ويرى Winfield أن أصولهم الأول جاءت من بلاد فارس^(٦) ، وتوجه بعضهم^(٧) إلى عدم من اليهود الذين هاجروا إلى هذه المناطق عقب تدمير الإمبراطور تيطس للمعبد وطرد اليهود من فلسطين سنة ٧٠ م^(٨) ، ولكن Paniker بعد أن روى هذا الزعم يرد عليه بشدة ، ويقرر أنه لا يوجد شيء فى التاريخ يمكن أن يحمل المرء على الاعتقاد بأن اليهود

(١) See : B. Davidson : The Lost Cities of Africa p. 86.

(٢) Serpent and Crescent p. 67.

(٣) تاريخ الفتاح : ص ٤٢ . (٤) تاريخ السودان : ص ٩ .

(٥) Trimingham : The Story of Islam in West Africa p. 48

(٦) The Story of old Oboza p. 9.

(٧) انظر رأى Delissae فى إمبراطورية غانة الإسلامية ، الدكتور طرخان ص ٢٢ .

(٨) من تدمير الهيكل انظر كتاب اليهودية من سلسلة مقارنة الأديان لفرلند ص ٧٢ وما بعدها .

قد تحركوا جنوباً في الصحراء إلى ما هو أبعد من مصر والمغرب ، لأن الجيوش الرومانية نفسها لم تتجه للتغلغل في هذه الجهات ، ثم إن اليهود لو جاءوا إلى هذه المناطق تركوا بها أثر لليهودية ، وهو شيء مقطوع بأنه لم يحصل ^(١) .

ونميل إلى ما قاله Fage ^(٢) من أن هذه الدولة قامت امتداداً لقوى مجاورة ، وأن الذين وفدوا لها وأعانوا على قيامها سرعان ما امتزجوا بالسكان الأصليين ، وانفتح ظهور هذه الدولة للتاريخ في القرن الثالث الميلادي ، فقد نشطت التجارة بين شمال الصحراء وبين جنوبها ، أو بعبارة أخرى بين البربر سكان الساحل الجنوبي للبحر الأبيض ، وبين الزنوج الذين يعيشون جنوب الصحراء ، وكانت التجارة تسير عبر ممرات تتحرق الصحراء ، وكان التجار يحملون من الشمال الأقشة والحلي ، ويعدون من الجنوب بالذهب والعبيد والعاج ^(٣) ، ولكن الذهب كان السلعة التي اشتهرت بها غانة ، حتى أن ملوكها كانوا يسمون « كيمع » أي ملوك الذهب ^(٤) .

خاتمة بين البربر والسوتكي :

وفي القرن الرابع وفد إلى الجنوب جماعات من البربر ، تعلمهم كانوا يعرفون ما في هذه المنطقة من ثراء ، وكان هؤلاء الوافدون أذكى من سكان الجنوب ، كما كانوا يحملون أسلحة لم يعرفها السكان الأصليون ،

(١) Serpent and Crescent p. 61—62 من الترجمة العربية التي قام بها الأستاذ

فؤاد بليغ ولم تشر بعد .

(٢) History of Africa pp. 14—15

(٣) W. Ward : History of Africa p. 43 اشتغل من لف هذا الكتاب بتدريس

التاريخ بكميات غانة بضع سنوات ؛ وقد قام الأستاذ عمود كمال بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية ولم تشر الترجمة بعد .

(٤) الفتية عمود كمت : تاريخ الفتن من ٤١ .

وقد استطاع الوافدون بذلك أن يفرضوا أنفسهم حكاماً على الزوج سكان هذه المناطق الذين ينتمون لقبائل السونكى ، على أن امتزاجاً ثم بطريق المصاهرة بين البربر والزوج ، فامتعت القبلة البربرية في الأندلس الزنجية ، ونشأ جيل جيد ينسب إلى السونكى وله ذرية البربر ومهارةهم ، بل لو أنهم لو شيء منه في كثير من الأحيان ، واستطاع هذا الجيل الجليل المنيع من السونكى أن يتولى على زمام الحكم في غانة سنة ٧٧٠ م^(١) .

اتساع ملك غانة في عهد السونكى :

وقد اتسع ملك غانة وتفرعها في عهد السونكى فأصبحت تشمل المساحات الواقعة إلى الشمال من نهر السخال ونهر النيجر حتى تخوم الصحراء : وفي سنة ٩٩٠ م استطاعت غانة أن تعد تقوفا إلى أودغست (عليها الآن مدينة نيجلوس في موريتانيا) . وكانت أودغست عاصمة مملكة إسلامية تحكمها قبيلة لحوة من البربر وهي وطن ابن يس ، وقّع على بعد حوالي مائتي ميل من كومي عاصمة غانة ، وقد تملكت عنها أكثر من المائتين للعرب الذين كتبوا عن البلدان ؛ قال ياقوت^(٢) يقول إنها من أهم مصانع القوافل في هذه المنطقة . وياقوت^(٣) يقول إن بها أسواقاً عظيمة ، ودي مصر من الأمصار جليل ، والسفر إليها متصل من كل بلد ، وأهلها مسلمون ، يقرأون القرآن ويصنعون ، ولهم مساجد واسعة ، وقد احتبس أبو القاسم^(٤) أكثر عبارات ياقوت . وقد وصلت هذه المملكة إلى درجة عالية من القوة في القرن التاسع والمشر ، مما أثار الانتباه فيها وبين غانة ، ولكن اتكلاً أصلاً عقب وفاة الملك آتنيوروتان سنة ٩٦٠ م ، فاستغادت غانة من هذه النكبة وعلت تقوفا إلى هذه المملكة

(١) Ward : *Revue* p. 48

(٢) سنة للرب للمؤرخة من كتاب الجليل من ٢٢ .

(٣) جميع الجليل في هذه اللغة .

(٤) تقوم الجليل من ١٦ .

الشرق ، ومن تخوم الصحراء في الشمال إلى أطراف المنطقة الاستوائية والبلاد المعروفة لدى العرب ببلاد Lem Lem في الجنوب^(١) .

المرابطون في غانة :

يحكى لنا ابن خلدون^(٢) مطلع قصة المرابطين ، فيقول إن يحيى بن إبراهيم زعيم قبائل الملتشين خرج للحج في رؤساء من قومه سنة ٤٤٠ هـ - ١٠٤٨ م فلقوا في منصرفهم بالقبروان شيخ المذهب المالكي أبا عمران الفاسي ، فطلبوا منه أن يرسل معهم فقيهاً يعلمهم ويرشدهم ، فاختر لهم عبد الله بن يس الجزولي ، فرحل معهم يعلمهم القرآن ويقيم لهم الدين ، ثم مات يحيى بن إبراهيم وافترق أمر الملتشين ، واطرحوا عبد الله بن يس ، واستصعبوا عمله ، وتركوا الأخذ عنه لما تجشموا فيه من مشاق التكليف ، فأعرض عنهم وترهب ، وتنسك معه يحيى بن عمر من رؤساء ملتونة وبعض المريدين وانتلبوا الناس في ربوة أسموها « رباطاً » ، أي قاعدة رباطون فيها للجهاد ضد الكفار ، أو يفرغون فيها للعبادة والتأملات الروحية والتعليم ، وكان هذا الرباط في جزيرة يقع عليها الآن ميناء سان لويس بجمهورية السنغال ، وكانت دروس عبد الله بن يس للمرابطين معه تشمل إصلاح أخلاق الفرد ، كما كانت تهاجم نظم الحكم القائمة ، وإرهاق الرعية بالضرائب الفادحة ، وقضى على ذلك عشر سنوات تكاثرت فيها مريدوه حتى صاروا ألقاً فهتف فيهم : إنكم لن تغلبوا عن قلة ، وقد تعين علينا القيام بالحق والدعاء إليه ، وتحمل الكافة عليه ، فاخرجوا بنا

(١) الإدريسي : صفة المغرب وأهل السودان ص ١٤ (قطعة من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ، والدكتور إبراهيم طرخان : إمبراطورية غانة الإسلامية ص ٣٠ بتصرف .

وانظر كذلك : Basil Davidson : The Lost Cities of Africa p. 83

(٢) العبرج ٦ ص ١٨٢-١٨٣ ، وانظر الجزء الرابع من التاريخ الإسلامي للمؤلف .

لذلك ، فخرجوا وقتلوا من استعصى عليهم من قبائل لتونة وجدالة ومهموهة حتى أنابوا إلى الحق واستقاموا على الطريقة^(١) .

وبواسطة الجيش الكبير الذى كوّنه ابن يس من لتونة وجدالة تحرك معه يحيى بن عمر وكانت له زعامة فى لتونة تجاه الشمال وسيطر على سجلماسة المركز العظيم لتجارة الصحراء ، ثم اتجه نحو الجنوب ففزا أودغست سنة ١٠٥٤ م لأنها المركز التجارى العظيم فى قلب الصحراء^(٢) ، وهكذا كان هؤلاء الزاحفون يدركون أن السيطرة على طرق التجارة والاقتصاد أيسر وسيلة لنجاح محاولاتهم الدينية والسياسية .

ويرى الدكتور إبراهيم طرخان^(٣) أن هجوم المرابطين على أودغست كان عقاباً لها على خضوعها لغاية الوثنية ، ومع أنه اقتبس هذا التعليل من المراجع المتعددة فإننا لا نوافق عليه لأن أودغست لم تخضع إلاّ كارهة ، فأولى بها أن تساعد لا أن تعاقب ، ويبدو أن هذا الرأى بُنى على موقف أودغست من الدفاع عن نفسها عندما هاجمها المرابطون ، ولكن هذا الموقف ينبغى تفسيره ، بأن أودغست لم تكن ترغب فى الاستئصال من تبعية إلى تبعية ، وربما كان الهجوم عليها لأنه ظهر بين بعض سكانها انحراف عن أخلاق الإسلام حتى سماها المؤرخون بابل الصحراء الكبرى^(٤) .

وتوفى يحيى بن عمر عقب ذلك (سنة ١٠٥٠) ، وخلفه أخوه أبو بكر وابن عمه يوسف بن ناشفين ، وبدأ بهما ملك المرابطين ، واتجه زحف المرابطين نحو الشمال ، ثم توفى ابن يس سنة ١٠٥٩ ، وبعد وفاة ابن يس قامت

(١) انظر كذلك : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب لليكرى ص ١٦٤ وما بعدها .

(٢) Panikar : Serpent and Crescent p. 71

(٣) إمبراطورية غانة الإسلامية ص ٤٦ .

(٤) Panikar : Ibid. (٤)

حركات ثورية بالجنوب ضد المرابطين ، فعاد أبو بكر إلى الصحراء ليقضى على هذه الثورات ، وترك قيادة الشمال لابن عمه يوسف بن تاشفين ، ونجح كل منهما في المنطقة التي اتجه لها ، فلما انتهى أبو بكر من مهمته بالجنوب عاد إلى الشمال فوجد يوسف قد استبد بالأمر ، وقدّم يوسف لأبي بكر مجموعة من متاع الصحراء وماعونها ، فقطن أبو بكر للأمر وتجافى عن المنازعة ، وسلم له الأمر ، ورجع إلى الجنوب ينشر دين الله بين السودانيين^(١) . فاتجه إلى إمبراطورية غانة التي كانت الوثنية لا تزال بارزة فيها ، وأخذ يهاجمها بقوة وثبات .

ويلاحظ أن أبا بكر لم يهاجم غانة بمجنود من لمتونة ، لأن أبرز الأبطال من هذه القبيلة كانوا قد ساروا مع يوسف نحو الشمال ، ولهذا اضطر أبو بكر بعد أن سلم الأمر لابن عمه أن يستقدم قبيلة الفولاني من بلاد التكرور ، وساعده على ذلك منافسة تجارية كانت بين الفولاني والسوننكي ، وكان الإسلام قد انتشر بين الفولاني فربطهم بقبيلة لمتونة ، وجمع شملهم ضد السوننكي الوثنيين ، وفي سنة ١٠٧٦ هزم أبو بكر غانة ، ودمر كومبي عاصمتها ، وأصبحت مملكة غانة جزءاً من إمبراطورية المرابطين^(٢) .

السوننكي يستغيرون قهزهم :

واكن أبا بكر مات سنة ١٠٨٧ واختلف أتباعه في هذه البقاع من بعده ، فأتاحت الفرصة للسوننكي أن يهبوا من جديد وأن يطردوا المحتلين وأن يستعيدوا عاصمتهم وحررتهم ، ولكن غانة الجديدة لم تكن كفانة السابقة في ناحية دينها ولا في ناحية نفوذها ، فإن الإسلام قد نفش في

(١) ابن خلدون : المعبر ج ٦ ص ١٨٣ - ١٨٤ .

وانظر كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ج ٢ ص ١٧٢ - ١٧٣ ، وأقرأ الجزء الرابع من هذه الموسوعة ، للمؤلف .

(٢) دكتور محمد عبد الهادي شعيرة : المرابطون ص ٥١ .

وانتشر وأصبح ملوكها مسلمين كما سنرى فيما بعد ، ثم إن الإمارات التي كانت خاضعة لها بدأت تتحرك وتستقل ، بل بدأت تهاجم الدولة التي كانت ذات سلطان عليها مما أدى إلى نهاية غانة .

شيء واحد بقي في سلطة المرابطين ، هو القيادة الفكرية والثقافية التي ظلت للمدى طويل في أيدي علماء المرابطين إلى أن تسلمها منهم علماء من السودان .

سقوط إمبراطورية غانة :

إن استيلاء المرابطين على غانة ثم خروجهم منها بسرعة قد سبب انحلالاً في الدولة لم يلتئم بعودة السوننكي إلى السلطة ، إذ أن كثيراً من القبائل ومن الأجزاء التي كانت تابعة للإمبراطورية لم تعد لهذه التبعية مرة أخرى ، وعلى هذا فقد كان فتح المرابطين لغانة أساساً رئيسياً من أسس تدهور الإمبراطورية .

وكانت مقاطعة كانجا التي تسكنها قبائل الصوصو وهم فرع من الفولانيين تابعة للإمبراطورية غانة ، وكانت تدفع لها الجزية ، وفي أثناء فتح المرابطين لغانة أعلن هؤلاء استقلالهم ، بل استطاعت هذه المملكة أن تضم لها مقاطعة أخرى من المقاطعات التي كانت تابعة لغانة ، وهي مقاطعة « ديارا » ، ثم راح ملوك الصوصو يحاولون الاستيلاء على عاصمة غانة ، وقد استطاع الملك سومانجورو أن يستولى على كومبي سنة ١٢٠٣ (١) .

وغير بعيد من مملكة الصوصو كانت هناك مملكة أخرى آخذة في النمو اسمها مملكة كانجابا « مالى فيما بعد » ، وكان أهلها جماعة من الماندينجو ، وكان الإسلام قد انتشر بينهم فقتلوا به وقوى بهم ، وتطلعوا بسبب إسلامهم أن يستعيدوا سلطان المرابطين في مملكة غانة ، وأن يطردوا منها

ملوك الصوصو الوثنيين ، وكان ملك كانجابا اسمه منديانا ، ولم يضطربه ،
سبب السبق الذي أحرزه سومانجورو ، بل راح يسارعه صراعاً عنيفاً
استطاع خلاله أن يقضى عليه في موقعة كبرينا ، وأن يستولى على كومبي ،
وأن يتوغل في بلاد الصوصو^(١) .

وهكذا استطاع الماندنجو أن يقضوا قضاء تاماً على إمبراطورية غانة ،
وأن يقيموا على أنقاضها دولة جديدة أسموها إمبراطورية ماني ومنتهذت
عنها فيما بعد^(٢) .

انتصارات غانة :

قلنا فيما سبق إن الذهب كان السلعة التي اشتهرت بها إمبراطورية غانة ،
حتى أن ملوكها كانوا يسمون ملوك الذهب ، ونضيف هنا أن الذهب لم يكن
موجوداً في أراضيها ، وإنما في الأراضي الواقعة إلى الجنوب منها ، وهي
منطقة ونقارة ، ولكن تجار غانة كانوا يشتررون الذهب من مناجه ،
ويبيعونه إلى تجار آخرين من شمال إفريقيا ، وكان ذلك يُدر عليهم ثراء
واسعاً من جانب ، ومن جانب آخر ارتبط الذهب ببلادهم ، كأنه كان
مستخرجاً منها فنسب لهم ، يقول الإدريسي : وتنصل مملكة صاحب غانة
بأرض ونقارة ، وهي بلاد النبر^(٣) ، ويقول المسعودي : وتحت يد ملك
غانة عدة ملوك وممالك فيها الذهب يظهر على وجه الأرض يستخرجه
أهله ويعملونه قوالب كاللبن^(٤) ، ويقول ابن حوقل : ومالك غانة أيسر

(١) B. Davidson : The Lost Cities of Africa p. 89

(٢) اقرأ قصة انتصارات الصوصو ثم مزيمتهم على يد أهل مالي في ابن خلدون

ج ٦ ص ٢١٠ .

(٣) صفة المغرب وبلاد السودان ص ٦ . (قطعة من نزهة المشتاق) .

(٤) أخبار الزمان : ورقة ٣٩ ا .

حَسَنَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ بِمَا لَدَيْهِ مِنَ الْأَمْوَالِ الْمَذْخُورَةِ مِنَ التِّبْرِ (١) . وتحدث
 البعقوبي عن مملكة غانة فيقول : وملكها عظيم الشأن ، وفي بلاده معادن
 الذهب وتحت يده عدة ملوك (٢) ، ويذكر البكري أن الملك كان يستصني
 لنفسه أجود الذهب ويدع ما سواه لشعبه حتى لا تهون قيمة ذلك المعدن ،
 ويقرر البكري أن ما يستصفيه الملك كان مرتبطاً بالحجم ابتداء من الأوقية
 إلى الرطل ، وأن عند بعض الملوك قطعاً كبيرة من الذهب تصل إلى حجم
 الحجر الضخم ، ويضيف البكري بياناً بمصادر الثراء الأخرى التي كان
 ينعم بها ملك غانة ، فقد كانت هناك ضرائب تجبي له ، فعلى حمار الملح دينار
 ذهب في إدخاله البلد ، وديناران في إخراجيه ، وله على حمل النحاس خمسة
 مثاقيل ، وعلى حمل المتاع عشرة مثاقيل (٣) .

واحتوت الخزائن الملكية ألواح الذهب رمز العظمة ، وكان حجمها
 كبيراً إلى حد أن أصبحت شهيرة في جزء كبير من العالم المسيحي ، ووصل
 وزن الواحدة منها ثلاثين رطلاً ، وكافة الملك يقيد بها حصانه المفضل ، وقد
 رفعتها الأساطير الشعبية إلى أحجام خرافية (٤) .

ومن الثراء الذي سببه التبادل التجاري بوجه عام ، وتجارة الذهب
 بوجه خاص ، ما وصفه الفقيه محمد كعت عن ناحية من نواحي الترف والقوة
 بهذه الإمبراطورية ، وهو وصفه لخليل أحد الأباطرة ، وكانت الخيل عنوان
 القوة والعظمة ، يقول : إن نه ألفاً من الخيل مربوطة في داره ، إن مات واحد
 منها وُضِعَ بديل له في نفس اليوم ، ولكل منها مكان خاص بنام به ،

(١) سورة الأرض : ص ٩٨ .

(٢) البعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٥٧ .

(٣) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ١٧٦ - ١٧٧ بتقديم وتأخير .

(٤) دكتور رياض زاهر : الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا ص ١٠٨ - ١٠٩ .

ولا يُربط إلا بحجر في عنقه وفي رجله ، ولكل منها آنية من النحاس لبوله وروثه بحيث يظل مكانه نظيفاً ، ويقوم على ذلك خادم خاص ، وهناك خادم آخر لكل حصان ليقدم له العلف وخادم ثالث ليقدم له الشراب (١) .

ولنعد لتجارة الذهب لنقرر أن إمبراطورية غانة كانت تبثها إلى أقطار مختلفة أهمها مصر والشمال الإفريقي وأوروبا ، ويقال إن أحد التجار المصريين هو الذي اشترى كتلة الذهب الكبرى التي كان ملوك غانة يحفظون بها في قصورهم (٢) :

وقرر Basil Davidson (٣) أنه ليس من المبالغة أن نقول إن غربي السودان كان أهم مكان لتصدير الذهب إلى دول البحر المتوسط خلال العصور الوسطى حتى كشف أمريكا ، وبسبب هذا الذهب ارتفع شأن إمبراطورية غانة وإمبراطورية الماندنغو . ويقرر كذلك أن مصدر الثراء لإمبراطورية غانة كان يتمثل في التجارة وما يرتبط بها من أرباح وضرائب ، لأن غانة كانت تقع بين مناجم الملح في الشمال ومناجم الذهب في الجنوب ، واستفادت استفادة كبيرة من عملية التبادل بين المنتجين هنا وهناك ، إذ كانت حاجة الجنوب للملح شديدة لا تقل عن حاجة الشمال للذهب ، حتى كان الذهب يستبدل بالملح وزنا بوزن (٤) .

وهكذا كانت غانة غنية وكانت الحياة بها حياة رخاء وغي .

(١) تاريخ الفتاش : ص ٤١ .

(٢) دكتور زاهر رياض : الممالك الإسلامية في غربي إفريقيا ص ١٠٩ . وانظر كذلك

الأصل الإنجليزي The Golden Trade of the Moors by E.W. Bovill p. 52

Ibid. p. 57 (٤)

The Lost Cities of Africa p. 52 (٣)

(التاريخ الإسلامي ٨ : ٦)

موسوم في إمبراطورية غانة :

لوردنا الحديث عن إمبراطورية غانة هنا مع أننا نتحدث عن إفريقيا قبل الإسلام ، وليس معنى هذا أن الإسلام لم يدخل هذه الإمبراطورية ، وإنما لأن الحقبة الإسلامية بها كانت قصيرة إذا قيست بالقرون التي كانت الوثنية طابع البلاد خلالها ، على أن الإسلام قد وُجد في هذه الإمبراطورية منذ عهد مبكر ، ولكن المسلمين كانوا أقلية فلم يصبح الإسلام طابع الدولة إلا منذ فتح المرابطين لها ، ومن أجل هذا كان وضع هذه الإمبراطورية هنا أنسب وأدق ، ولكن ينبغي أن نتبع دخول الإسلام وانتشاره بقائه حتى نتضح لنا الصورة انضاحا كاملا .

ولعل مطلع الإسلام في غانة يرجع إلى هذه البعثة أو الجيش الذي يذكر البكري^(١) أن الأمويين قد أنفذوه إلى غانة في صدر الإسلام ، والبكري يقرر أن أحفاد هؤلاء صاروا على دين أهل غانة ، ولكنهم لا يتزاوجون مع السكان الأصليين ، وهذه الرواية تفيد أن قلة ليست كثيرة بقيت بالبلاد من هذا الجيش ، وأن ذريتها بعد عدة أجيال تأثرت بمعتقدات القوم ، وإن بقيت محافظة على بعض الامتيازات العنصرية ، ويوضح Panikar أمر هذه الحملة فيقول إن بني أمية عندما أحكموا قبضتهم على مراکش الغربية شنوا هجوما على غانة فيما بين عامي ٧٣٤ و ٧٥٠ م (١١٦ - ١٣٣ هـ) لأسباب سياسية ، وكانت هذه هي الحملة المراكشية الأولى ضد دولة من دول غربي إفريقيا ، بيد أن الحملة لم تصادف نجاحا ، وكان أحفاد الجنود يعيشون في هذه الأرض ويعرفون بالهَنْشِيَّين^(٢) .

(١) المغرب ص ١٧٩ .

(٢) Serpent and Crescent p. 68

وجاء الإسلام بعد ذلك عن طريق التجار وهجرات العرب والبربر إلى هذه المناطق على نحو ما شرحنا من قبل ، حتى أصبح الإسلام موجوداً في كل قرية وكل مدينة ، وظل يتكاثر من يوم إلى يوم .

وكانت مملكة أودغست التي تحدثنا عنها من قبل مسلمة ، تسكنها قبائل السوننكي وحكامها من البيض من قبيلة الهوة . وكانت هذه المملكة مجاورة لإمبراطورية غانة ، وكان بين اللوهين صلات تجارية يشير لها ابن حوقل^(١) ، وتذكر الباحثة M.F. Leard أن ملك أودغست تيونتان كان شديد الحماس لنشر الإسلام ليس بين أهل أودغست فحسب بل بين الزنوج المجاورين لمملكته من ناحية الجنوب . ويمكننا أن نتصور أن الفترة التي كانت أودغست خاضعة خلالها للملك غانة كانت فرصة لمزيد من انتشار الإسلام ، على نحو ما تكرر في التاريخ من أن المغلوب إذا كان أعلى حضارة من الغالب أضفى عليه من حضارته ، فانتصر المغلوب فكرياً وإن كان قد هُزم عسكرياً .

ونتيجة لكل هذه العوامل أصبح الإسلام واسع الانتشار في إمبراطورية غانة ، وأصبح الإمبراطور يعمد على المسلمين لأنهم أكثر كفاءة وأعلى مستوى من سواه ، يقول البكري : وكان تراجمة الملك من المسلمين وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه^(٢) . بل كان الملك وهو وثني يؤثر المسلمين^(٣) وكثر المسلمون بإمبراطورية غانة فأصبحت هناك بلاد خاصة بهم مثل مدينة يرسنى التي يتحدث عنها البكري^(٤) كما أصبحت العاصمة شطرين : شطر

(١) سورة الأرض ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) An outlines of the Ancient History of the Western Sudan p. 107

(٣) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ١٧٥ .

(٤) البكري : المرجع السابق ١٧٤ . (٥) المرجع السابق ص ١٧٧ .

للمسلمين وشطر للملك وقومه من غير المسلمين ، ويرينا وصف المؤرخين حضارة الإسلام متمثلة في الفرق الكبير بين شطرى المدينة أو بين مدينة المسلمين ومدينة الوثنيين ، يقول البكرى : ومدينة غانة مدينتان سهيلتان أحدهما للمدينة التي يسكنها المسلمون وهى مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجداً أحدها يُجمعون فيه ، ولها الأئمة والمؤذنون والراثبون، وفيها فقهاء وحلة العلم وحواليها آبار عذبة منها يشربون وعليها يعملون الخضراوات ، ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى بالغابة ، والمساكن بين المدينتين محصلة ، ومباليهم بالحجارة وخشب السنت ، وللملك قصر وقباب ، وقد لحاط بذلك كله حائط كالسور وفي مدينة الملك مسجد يصلى فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس حكم الملك ، وحول مدينة الملك قباب وغابات يسكن فيها سحرتهم ، وهم الذين يقيمون دينهم وفيها دكا كبيرهم وقبور ملوكهم ، ولتلك الغابات حرس ، ولا يمكن لأحد دخولها ولا معرفة ما فيها^(١) .

وهكذا عاش الإسلام والوثنية جنباً إلى جنب في غانة خلال ذلك العهد ، بيد أن الإسلام ضمن لأتباعه حياة أفضل ، فلقد كانت أكثر حاشية الملك — كما قلنا — من المسلمين ، وكان أكثر جنوده من المسلمين كذلك ، وهذا جعل القوة الإسلامية تسير قدماً نحو السيطرة على السلطة ، وقد كان من جلال الإسلام أن ترفع بأتباعه عن الركوع أمام الملك ، وهو ما كان يفعله غير المسلمين ، ويقول البكرى : إن أهل دين الملك كانوا إذا دنوا منه جنوا على ركبهم ، ونثروا التراب على رءوسهم ، فذلك تحببتهم له ، وأما المسلمون فزعموا كان سلامهم عليه تصفيقاً باليدين^(٢) ، ولعل ذلك دفع

(١) المرجع السابق : ص ١٧٥ وانظر : Basil Davidson : The Lost Cities of Africa p.p. 84-85

(٢) البكرى : المغرب ص ١١٦

بالكثير من صفوف الوثنيين إلى صفوف المسلمين لينعموا بهذه المكانة في قصور الملك .

وهكذا كان الإسلام يزحف بخطى سريعة في إمبراطورية غانة فلما جاء فتح المرابطين إندفعت الجموع نحو الإسلام ، وأصبح الإسلام طابع هذه الإمبراطورية ، ويقول القلقشندي في ذلك : « وكان أهلها أسلموا في أول الفتح (١) » ، فلما استعاد السوننكي نفوذهم كان الملوك من المسلمين وأصبحت الإمبراطورية إمبراطورية إسلامية خالصة ، ويتحدث بعض المؤرخين عن ٤٤ ملكاً لغانة عاش نصفهم قبل زمن النبي محمد وعاش النصف الآخر بعد ذلك ، وقد بقي بعض هؤلاء على الوثنية ، حتى اقتحم المرابطون إمبراطورية غانة ، فأصبح الملوك الأخيرون مسلمين (٢) .

ولم يكتف ملوك غانة المسلمون بإسلامهم ، بل راحوا يوثقون صلاتهم بالخلافة العباسية ببغداد ، وراح بعضهم يدعى أنه من نسل الحسن بن علي عليه السلام (٣) . ويذكر الإدريسي أن ملك غانة ينتسب إلى صالح بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، ويُخطب له لكنه تحت طاعة أمير المؤمنين العباسي (٤) .

حضارة غانة :

نعود إلى البكري أهم مصدر لتاريخ إمبراطورية غانة لنقتبس منه لمحات عن حضارة غلطة ، نضيفها إلى ما سبق أن كتبناه عن حضارة هذه الإمبراطورية .

سار (١) تخطيط الأمتى لـ هـ كس كـ ٢٨٤ . بلاد غار

(٢) عبد الرحمن السلمي : تاريخ السودان ص ٩ . (٣) المقرئ : الإلهام ص ٢٢ .

(٤) الإدريسي : صفة المغرب وأرض السودان ص ٦ - ٧ . والإلهام المقرئ

تحدث البكري عن ملوك غانة فيرى أن ابن الأخت كان هو الذي
 على الملك بعد خاله ، وكان لا يلبس القبط من أهل دين الملك غيره ،
 وغير ولي هذه ، ويلبس سائر الناس ملاحف القطن والحرير والنباج
 على قدر أحوالهم ، وهم أجمع يحلقون لحاهم ، ونساءهم يحلقن شعورهن ،
 وملكهم يتحلى بحلى النساء في العنق والدرع ، ويحلى على رأسه الطراير
 اللذبة ، عليها عمام القطن الرفيعة ، وهو يجلس للناس في المظلم في قبة
 باهرة ، ويكون حول القبة أفراس بشاب مذهب ، وغلمان يحملون السيوف
 اللذبة ، وعن يمين الملك أولاد ملوك الأقاليم ، وحوله الوزراء يجلسون
 على الأرض .

وكان إذا مات ملكهم (أى قبل الإسلام) عقدوا له قبة عظيمة من خشب
 الساج ، ووضعوها في موضع قبره ، وأدخلوا جثمان الملك في تلك القبة ،
 ووضعوا معه حليه وسلاحه ، وآنية التي كان يستعملها ، وأدخلوا فيها
 الأطعمة والأشربة ، وأدخلوا معه خدمه ، ثم يغلقون القبة على هذا كله :
 وملك غانه جيش عظيم يذكر البكري أنه يصل إلى مائتى ألف ، منهم
 رماة أزيد من أربعين ألفاً (١) .

ويصف الإدريسي ملك غانة المسلم بأن من سيرته قربه من الناس وحبه
 فيهم ، وكان يفد له من يحس بالظلم ، فلا يعود إلا وقد أنصفه الملك (٢) :
 تلك لحة سريعة عن لولى إمبراطوريات إفريقية فيها يذكره التاريخ ، وقد
 بدأت وثنية وطال عليها الوقت ، ثم انبثق فيها الإسلام فركت في التاريخ
 ذكراً عطراً ومجداً عظيماً .

(١) المغرب : ص ١٧٥ - ١٧٦ .

(٢) نزعة المشتاق : ص ٧ .

المعروفة بين غانة القديمة وغانا الحديثة^(١) :

هل هناك علاقة بين غانة القديمة وغانا الحديثة التي كانت تسمى ساحل النوب حتى جاء الاستقلال ؟ وما مدى هذه العلاقة ؟

من ناحية الأرض ليست هناك علاقة على الإطلاق ، فغانا الحديثة لم تكن قط جزءاً من غانة القديمة ، ومن ناحية السكان لا توجد علاقة كذلك لأن سكان غانة القديمة كانوا من السوننكي وهم الفرع الشمالى من الماندينجو ولم يسكن السوننكي ولا الماندينجو غانا الحديثة أبداً ؟

وإذا فلماذا كان الاتحاد فى التسمية ؟

الجواب على ذلك أن الأكانيين الذين يسكنون غانا الحديثة قد تلقوا الكثير من حضارة غانة التي كانت قد انتشرت إلى بعيد خارج حدودها ، وقد جاء الأكانيون من منحى النيجر بهذه الحضارة ، وعاشوا فى الأرض التي تقوم عليها غانا الحديثة ، وهذا هو السبب الذى من أجله غيرت حكومة ساحل الذهب اسمها فجعلته غانا ، وذلك لأنها نظرت إلى الوراء إلى غالة القديمة باعتبارها أصل حضارتهم الإفريقية^(٢) .

على أنا لا نستبعد أن يكون لهذه التسمية مغزى دينى فإن غانة القديمة لم تكن مسلمة عدة قرون مع انتشار الإسلام حولها ، كما أن الكثيرين من

(١) حرص البكرى وهو يتكلم عن إمبراطورية غانة على أن يكتب كلمة « غانة » ببناء مربوطة فى آخرها ، واتجهت غانا الحديثة فى منشوراتها العربية إلى كتابة كلمة غانا بألف لينة بعد النون ، ونسب هذا تابين لهذا الاتجاه « انظر كتاب غانا الذى أصدرته مصلحة الاستعلامات بجمهورية غانا » .

(٢) W. Ward : History of Africa p.p. 46—47

Reindore : History of the Gold Coast and Asanti p.p. 1, 14

الزعماء الذين اقترحوا التسمية الجديدة لساحل الذهب لم يكونوا مسلحين
مع أن الإسلام كان منتشرًا حولهم ، فكانهم أراعوا أن يعودوا بالتاريخ
إلى الوراء ، وأن يعدوا دولتهم امتداداً للدولة التي لم تستجب للإسلام فترة
طويلة مع انتشاره حولها ، وإثباته في بعض جوانبها ، وهذا هو التفسير
النفسي للتاريخ ، فإن الانفعالات بنفوس هؤلاء الزعماء ترجعت في هذا
التصرف الذي نراه - بحقي - التفسير الدقيق لتسمية دولة باسم دولة أخرى
لا نربطها بها لوض أو سكان :

صنغى Songhay

من القرون الميلادية الأولى حتى دخول الإسلام بها

سنة ١٠٠٩ م

لعل دولة صُنغى (سنغى = سُنغى) من أطول الدول عمرا ، فقد بدأت بنورها في القرون الميلادية الأولى ، وعاصرت امبراطورية غانة وامبراطورية مالي ، وانتهت غانة ومالي وبقيت صنغى حتى سنة ١٥٩٤ ، ولكن تاريخها ينقسم قسمين فيما يتعلق بالإسلام فقد عاشت وثنية حتى سنة ١٠٠٩ ، ثم اعتنق ملكها الإسلام في هذا التاريخ ، وأصبحت لها حضارة الإسلام ومبادئه ، ومن أجل هذا سنتكلم عنها هنا قبل الإسلام ، أما سنغى الإسلامية فسيأتى الحديث عنها في الباب الرابع .

وقبائل الصنغى كانت تعيش على شاطئ نهر النيجر في الجزء الممتد من الانحناء إلى قرب المصب تقريبا ، في أراضي الدندى شمال غربى بحيرىل الحابية وشمالى داهومى ، وقد انقسمت هذه القبائل قسمين ، قسم اشتغل بالزراعة فاستمر بالأرض ، وقسم اشتغل بصيد السمك فراح ينتقل من مكان إلى مكان على طول منحى النهر ، وكان هؤلاء يسمون (سُرْكو Sorko) ولكن الصيادين دأبوا على العدوان على الفلاحين ، ولعل ذلك كان استنكارا لخنوح إخوانهم للفلاحة ، فقد كانت الفلاحة عندهم عملا فيه استسلام وذلة لا تليق بالمغامرين ، وتعود الصيادون أن يجمعوا قواربهم ، وأن يهجموا على قرى الفلاحين من حين لآخر ويخطفوا من متاعهم ما يستطيعونه الحصول عليه ، ويقتلوا من اعترضهم ، ثم يفرّوا قبل أن يتجمع ضدهم الفلاحون من هنا ومن هناك ، وفي حوالى سنة ٣٠٠ م تجمعت قرى الفلاحين في

تكتل واحد واتخذوا لهم ملوكاً منهم ، لعلهم يستطيعون التغلب على الصيادين ، ولكن هؤلاء الملوك لم يستطيعوا أن يضمّنوا لرعاياهم كل الحماية ، وان أحرزوا بعض الانتصار في هذا المجال ، وفي هذا العهد أخذت مملكة صنغى تلتفح حدودها لتضم بعض المناطق الزنجية المجاورة :

وفي حوالى سنة ٧٠٠ م هاجرت قبائل لمطة^(١) من البربر إلى مناطق الفلاحين من قبائل صنغى وكان قائد المهاجرين اسمه زايين ، وقد استطاع هنا أن يهاجم الصيادين في المكان الذى يختفون به ويطردهم بعيداً إلى الشمال ، وقد فرح فلاحو صنغى بهذا البطل الذى أنقذهم ، وجعلوه قائداً لهم ، وأصبح هنا الرجل أول ملك من أسرة كثر ملوكها^(٢) وهكذا أصبح ملوك صنغى من البربر (البيض) وظلوا كذلك فترة طويلة حتى انتقل السلطان إلى السود^(٣) .

ويجى السعدى^(٤) إلى اعتبار النظام الملكى في صنغى ابتداءً من زايين ويسميه زايين فهو بذلك ينظر إلى الحكومات السابقة لعام ٧٠٠ م على أنها حكومات قبائل وليست نظاماً ملكياً ، ويقول السعدى في ذكر ملوك صنغى : أول من تملك فيها زايين ثم زازكى ثم هؤلاء أربعة عشر ملكاً ماتوا جميعاً في جاهلية وما آمن أحد منهم بالله ورسوله ، والذى أسلم هو الملك الخامس عشر واسمه زايكوسوى ويقال له في لغتهم مسلم دَمْ ومعناه أسلم طوعاً بلا إكراه ، رحمه الله تعالى ، وذلك في سنة أربعائة من هجرة النبى ﷺ وقد نقل هذا الملك عاصمته من « كوكيا » إلى « جاو »

(١) انظر حديثاً عنها في البكرى ص ٨٤ و ١٢٤ .

(٢) R. Wingfield : The Story of Old Ghana and Songhai p.p. 24-25

(٣) آدم عبد الله الألوثرى : موجز تاريخ ليبيا ص ١٥٦ .

(٤) تاريخ السودان ص ٢-٣ .

ويحدد السعدى الملوك المسلمين الذين يلقب كل منهم بلقب زا حتى « على كلن Colen » الذى اتخذ لقب صنى بدل زا ، وذلك فى القرن الخامس عشر كما سيأتى فى الباب الرابع .

ويشرح السعدى^(١) مطلع هذا النظام الملكى فيذكر أن الملك الأول زا الأيمن جاء من اليمن ، وكان هو وأخوه سائرين فى أرض الله تعالى حتى انتهى بهما القدر إلى بلد « كوكيا » على ساحل البحر فى أرض صنى ، وقد بلغاه فى حال بائسة ، ولما مثلا من أين جاءا قال الأكبر : جئنا من اليمن ، فأصبح معروفا عندهم بأنه زا الأيمن بتحريف اقتضته اللغة ، وكان أهل صنى وثنيين ، وتروى الأساطير أن الولفد من اليمن ذكر لهم أنهم على ضلال مبين ودمر هذا الوثن ، وقتل حوتا كان يظهر الشيطان فى صورته ، فأقبل عليه الناس وباعوه ملكا عليهم ، وجعل هذا مقره لمدة جوجو (كوكيا)

وتلتى الروايتان على كل حال فى أن النظام الملكى ابتداء من سنة ٧٠٠ م كان ليضى ، ولقدين من الشمال أو من اليمن .

ويذكر القاضى محمود كعت السبب فى تحول مملكة صنى إلى الإسلام ، فيقرر أن ذلك كان بتأثير تجار « جوا » للذين أتاح لهم وجودهم على طرق التجارة بالشمال مركزا تجاريا ممتازا ، وقدرة على إجراء هذا التغيير فى عقائد شعوب صنى^(٢) .

ويذكر Basil Davidson^(٣) أن الملك الأول الذى اعتنق الإسلام سُمى ضياء كوسوى . سنة ١٠٠٩ ، وأن ذلك كان قبل غزوات

(١) تاريخ السودان ص ٤ .

(٢) تاريخ الفتاش : ص ١٧

(٣) *Rediscovery of Africa* p.p. 48-49

المرابطين ، ويقرر كذلك أنه قد سبق غزوات المرابطين لهذه المناطق في
غربي إفريقيا قديم بعض رجال المرابطين من الطلائع سواء أكانوا من
التجار أو من الدعاة ، ويذكر أيضاً أنه قد تمّ الثور سنة ١٩٣٩ في بالمة
« ساني » على بعد حوالي أربعة أميال من مدينة « جوا » الحالية على شواهد
لقبور ملكية يعود تاريخها إلى نهاية القرن الحادى عشر ، وقد كُتِبَ على
إحدى هذه الشواهد ما بلى « هنا جثمان الملك الذى دافع عن دين الله ، ويرقد
الآن في رعاية أبو عبد الله محمد سنة ٤٩٤ هـ (سنة ١١٠٠ م) .

ومع أن ملوك صنى دخلوا الإسلام في مطلع القرن الحادى عشر ، فإن
شعب صنى لن ينتشر به الإسلام إلاّ إبان الحركة التى قام بها المرابطون
في منتصف هذا القرن وأواخره ، والمرابطون لم يدخلوا صنى ، ولكن
حركتهم دفعت الإسلام للتقدم حتى في خارج حدودهم .

ومن هذه الأقوال يتضح أن تاريخ الإسلام بامبراطورية صنى لم يدخل
دفعة واحدة فإن هناك جموعاً دخلت الإسلام قبل إسلام الملك زاكوسى ،
وجموعاً أخرى دخلت الإسلام مع الملك ، ثم جاء انتشار الإسلام بصورته
الواسعة إبان حركة المرابطين التى خلعت الإسلام ، في البلاد التى اقتحمها
المرابطون وفي البلاد المجاورة لها ، وهذا يفسر ما يبلو من خلاف بين
الروايات التى تتحدث عن إسلام منطقة كوكو ، فياقوت يقول عن كوكو
إنها من الإقليم الأول وملكهم يظاهر رعيته بالإسلام ، وأكثرهم يظاهر به ،
وله مدينة على النيل (أى النيجر) من شرقيه بها أسواق ومتاجر ، ومدينة
أخرى على غربى النيل يسكنها هو ورجاله ، وهناك مسجد للجماعة بين
المدينتين^(١) ، ويقول ابن سعيد المغربى عن بلاد كوكو أنها بلاد كفار

السودان ، وجبل كوكو يضرب به المثل ، وهو يقابل مسلمى غانة من الغرب ومسلمى كانم من الشرق^(١) ،

وهكذا نظر ياقوت إلى المسلمين من هذه البلاد فتحدث عنها كأن الإسلام شملها ، ونظر ابن سعيد المغربي إلى الذين لم يدخلوا الإسلام فعدّها من مناطق الوثنيين بالسودان .

وعندما سقطت غانة وقامت على أنقاضها دولة مالى الإسلامية بدأت حروب بين مالى وصنغى لعدة أسباب كان منها محاولة تكوين وحدة إسلامية ، وهذا يفسر لنا سبب شدة الصراع بين الدول الإسلامية أكثر مما كان بين دولة إسلامية ودولة وثنية .

ونقف الآن لتعود للحديث عن صنغى الإسلامية في الباب الرابع إن شاء الله .

وبعد هذه الدراسة عن غانة ، وصنغى ، وهما أقدم الدول التى ظهرت قبل الإسلام في هذا النطاق الذى ندرسه من إفريقيا ، نستمر في التعريف بدول وإمارات أخرى وثنيسة عاش بعضها بالقرب من هاتين الدولتين الكبيرتين ، وعاش بعضها وسط القارة في المنطقة التى تشغلها الآن نيجيريا وتشاد والنيجر ، كما عاش بعضها في الشرق ، فيما يسمى الآن بجمهورية السودان وسنسير في دراستها متجهين من الغرب إلى الشرق .

إمارة البامبارا (البامبارا البمبارة)

المنطقة التي قامت بها إمارة البامبارا تضمها الآن دولة موريتانيا ، وقد انتشر الإسلام في موريتانيا في القرن الحادي عشر بواسطة المرابطين ، ولكن منطقة البامبارا حافظت على وثنيها حتى مطلع القرن العشرين ويقول سير توماس أرنولد^(١) : إن النفوذ الإسلامي لم يصادف مقاومة عنيدة كذلك التي جعلت جماعة البامبارا الوثنية (Bambara) يستغلون بوثنيتهم مع أنهم كانوا محاطين مدة قرون بسكان من المسلمين ، وقد حاول مرابط يدعى حُصْرُوكَا (Umaru kaba) أن يحول البامبارا إلى الإسلام فأنفق وكان ذلك في أوائل القرن العشرين ، وقد أسس هذا الرجل جمعية دينية كانت على صلة بالقنصرية ووجه اهتمامه إلى البامبارا الوثنيين محاولا أن يدخلهم الإسلام وأن يضمهم إلى جماعته ، وقد صادف بعض النجاح ، ولكن رئيس الإمارة تعصّب له وطرده خارج الإمارة ، وأمر من دخلوا في الإسلام من البامبارا أن يرجعوا إلى عقائدهم الدينية القديمة .

ولكن القرن العشرين شهد تحول البامبارا إلى الإسلام في الحركة الوطنية التي جعلت الإسلام شعارها في موريتانيا كلها ، ولم تدع فرصة لمواطن ليخلف عن الركب اللذين للوطن في هذه البلاد ، وعدد البامبارا حوالي ١٥٠.٠٠٠ أصبحوا جميعا مسلمين .

مملكة موسى (Mossi - Mossi)

كانت مملكة موسى الوثنية واقعة في منحى نهر النيجر ، وكانت مملكة قوية ، مجاورة للممالك الكبرى التي عاشت في هذه البقاع (غانا ومالى وصنغى) واستطاعت أن تحافظ على استقلالها وعلى وثنيتها فترة طويلة ، وظلت كذلك طيلة عهد مالى مع أن مالى استطاعت بقوتها أن تخضع سنغاي وكثيرا من الأراضى المجاورة ، فلما دار التاريخ واستردت صنغى حريتها كان ذلك إيذانا بحركة توسعية كبيرة تقوم بها سنغى في مختلف الاتجاهات ، والذي يعيننا هنا من هذه الحركة هو امتدادها إلى مملكة موسى ، وكان ذلك في عهد أسكيا محمد (مطلع القرن السادس عشر) ويقول السعدى^(١) ان للدولة استكملت استعمارها العسكرى ، وقامت بحركة توسعية اتخذت الإسلام مظهرها لها واستطاع الفاتح العظيم السلطان اسكيا محمد أن يسيطر على سلطنة واسعة الطول والعرض ، حتى وصلت حدوده إلى إمارة موسى وانجبه لها في السنة الرابعة من حكمه ، وكان سلطانها اسمه « نعمر » وقد أرسل له أسكيا محمد أحد العلماء ، وهو السيد المبارك صالح يدعو إلى الإسلام ، والدخول في دين الله ، فلم يقبل ، فطلب منه أن يدفع الجزية ، ويعيش في الذمة ، فرفض ، وأعلن الحرب على المسلمين ، وقد قاتله أسكيا محمد قتالا عنيفا وسبى من رجاله من سبى ، وكل من أتى في هذا السبى من رجال ونساء صاروا مسلمين ، أما الكفرة فقد سقطوا في الميامان أو هربوا من الأرض ، وأصبحت إمارة موسى بعض الأرض الإسلامية .

إمارات الهوسا (الحوس - الحوصة)

تقع بلاد الهوسا «نيجيريا الشمالية حالياً» بين صغنى في الغرب وبرنوني للشرق ، وهذه البلاد هبارة عن سهول خصبة كانت مطعم الامبراطوريتين المجاورتين ، ولكنها لم تقع في قبضة النفوذ السياسى فى أى يوم من الأيام لأية واحدة منهما ، ولكنها تأثرت بالتنظيم المتبع فى الشرق والذي كان النظام الاقطاعى أبرز خصائصه كما سئرى .

وشعب الهوسا ليس قبيلة بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ، فهو شعب لا ينحدر من دم واحد كالقبيلة ، بل قد جاء هذا الشعب نتيجة امتزاج خلل يحدث خلال عدة قرون بين جماعات قبلية وجنسية كثيرة أخذت تنصهر فى شكل ما أقرب ما يكون إلى شكل دولة ، وذلك بفضل ما كان لهم من لغة مشتركة وبفضل اعتزازهم جميعاً بحضارة واحدة مشتركة ، إلا أن هذه الجماعات لم تكن تمثل دولة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، فإن إحساسهم بالوحدة لم يكن من القوة بحيث يستطيع أن يضع حدا للحروب الصغيرة المتكررة التى كانت تقع بين إماراتهم الصغيرة بعضها وبعض ، أو بحيث يستطيع أن يخلق بينهم وحدة تجعلهم قادرين على الوقوف أمام جيوشهم ممن كانوا أقوى منهم بأساً ونفوذاً .

ويرجح أن الحكام الأوائل لهذه الإمارات كانوا من أصل بربرى ، لأن خلافة الحكم عندهم كانت تقوم على أساس الصلة من جانب الأم ، وهو الأسلوب الذى كانت تتبعه قبائل البربر ، ولأن لغة الهوسا نفسها حين قام الباحثون بتصنيفها ظهر أنها أقرب إلى لغة البربر من أى لغة أخرى^(١)

(١) D. H. Jones : شوب ملك السودان الأوسط من مجموعة فجر التاريخ الإفريقى

وتروى الأساطير أن شعب الهوسا مزيج من جماعات من البربر أغاروا من الشمال ، واحتلوا بالزنوج على حافة الصحراء عند واحة تسمى واحة إير ، ولكن عددهم كثر وضافت بهم الواحة فانسابوا نحو الجنوب حيث احتلوا شمال نيجيريا ، وتذكر هذه الأساطير أن زعيم البربر الوافدين من الشمال تزوج ملكة الزنوج في الواحة التي اقتحمها برجاله ، وأنجب منها سبعة أبناء شيدوا إمارات الحوصة السبعة وهي : بيرم ، ودورا ، وجوبر ، وزاريا ، ورائو ، وكانو ، وكاتسينا وتستمر الأسطورة لتحكى أن هذا الزعيم تزوج امرأة أخرى وأنجب منها سبعة أبناء أيضا ، واستطاع هؤلاء الأبناء أن يشيدوا سبعة ولايات أخرى إلى الجنوب هي : كبي ، ونوب ، وجواري ، ويوري ، وكوارافا ، وإيلولين ، وزنفرة .

وقد تكون هذه أسطورة ، ولكن على العموم تكونت ولايات من الحوصة كانت أحيانا يربطها ما يمكن أن نسميه مجموعة واحدة ، وأحيانا تنسب إلى مجموعتين ، وأصبح للحوصة لغة شائعة لها أصول بربرية ، وكما حمل البربر معهم أصول هذه اللغة ، فإنهم حلوا قسما كبيرا من المدنية ، فكانوا يعرفون الزراعة ، والآلات الحديدية ، وصنعوا أشياء جميلة من البرونز ، وكانوا يجيدون التجارة ، واحتل الحوصة بذلك مكانا عظيما في هذه البقاع (١) .

ويذكر الإمام محمد بلو بن حمان دان فديو أن الأقاليم الجنوبية اندرجت في أقاليم الشمال ، ولما إلى عبارته : وبقرّب كاشته (كاتسينا) وجوبر سبعة أقاليم كلها مندرجة في الأقاليم للـسبعة المذكورة آنفا (أقاليم الشمال) التي هي بلاد الهوسا وهي زنفرة وكب (كبي) ويادر (يوري) (٣)

وعتاك انجاه يرى أن غزو البربر لأرض الموصل جاء في موجتين كبيرتين ،
وفي الموجة الأولى أسست إمارات للشمال ، وفي الموجة الثانية أسست
إمارات الجنوب ، وكانت الصلة وثيقة بين هذه وتلك (١) .

ويرى بعض الباحثين أن «دورا» هي أقدم إمارات الموصل ، وأن اللعلاء
الوافدة إليها كانت من مصر العليا ومن الحبشة ومن العرب (٢) أما أقوى
هذه الولايات فولابة «جور» وكانت الولايات الأخرى تدعى لحاكم جور
بالولاء مع استقلال محدود لكل منها ، بل امتد نفوذ جور إلى بلاد يوروبا ،
وكان اسم جور يطلق على بلاد الموصل كلها في كثير من الأحيان (٣) :

وكانت الزراعة هي العمل العادي لمعظم أفراد شعب الموصل ، حتى
أصبحوا يتمتعون بمستوى عالٍ من المهارة في هذا الميدان ، وكانت منهم
أيضاً مراكز نشيطة للصناعات ، فبالقرب من أمارتي رانو وكاتوك كانت تتم
صناعة الحديد في سهولة عجيبة ، بل يقال أن مؤسس كثير من مدن
الموصل كانوا من الحدادين ، كما أن نسيج الأقمشة وصناعتها كانت تعتبر
من الصناعات الهامة في هذه المدن ، وأصبحت صناعة الجلد الموصل مشهورة
في كل مناطق شمالي وغربي إفريقيا .

وكان الموصليون من أكثر الرحالة والتجار مغامرة ، فقد كانت مدنهم
- وهي في هذا أشبه بمدينة تمبوكتو - تحتل موقعا ممتازا عند الطرف الجنوبي
لواحد من طرق القوافل الصحراوية العظيمة ، وهو الطريق الذي كان يمتد
من تونس ماراً بمدينة غات Ohat ، وغدامس وجبال إير Air حتى إذا
ما انهارت مملكة صنها في أمام الغزو المراكشي في نهاية القرن السادس عشر

(١) محمد عبد الفتاح إبراهيم : إفريقية من استقلال إلى نهر جوبا ص ١٢٧ .

(٢) آدم عبد الله الألوري : موجز تاريخ نيجيريا ص ٧٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٨٢ .

تحول المجرى الرئيسى للحركة التجارية مع شمال إفريقيا شرقا إلى نلاد
الحوصا . وقفزت إمارة كاتسينا بصفة خاصة إلى مكان الصدارة واشتهرت
باعتبارها مركزاً مهماً من مراكز التجارة والحضارة ، وسرعان ما أصبح
التجار الحوصويون يسيطرون على النشاط التجارى فى جميع أنحاء السودان
الأوسط ، وتضخمت جالياتهم فى كل المراكز التجارية المهمة ، بل وأصبحت
لغة الحوصا هى لغة التخاطب العامة فى الأسواق كما ذكرنا من قبل (١) .

وقد جاء القرن الرابع عشر : وإمارات الحوصا لا يزال أكثرها على
الوثنية ، ثم بدأ الإسلام يذب فيها ، وكانت «كانو» وهى من أغنى
الإمارات وأوسعها ، من أسبق إمارات الحوصا دخولا فى الإسلام ، فقد
دخلها الإسلام سنة ١٣٠٠ ميلادية على أيدي علماء «وانجارا» وتذكر
الروايات أن هؤلاء حضروا إلى «كانو» وبشروا ملكها عثمان زمنقاوى
بالإسلام ، فأسلم وأسلم معه كثيرون من قومه ، ثم ازداد انتشار الإسلام
فى «كانو» فى العهود التى تلت ذلك العهد ، وبخاصة فى عهد الملك عمر
الذى أحب الإسلام وأحب العلماء وقربهم إليه ، وتعلم القرآن والحديث ،
وعمل على نشر العلم ، وأغلق على أهله الرزق ، وشجعهم على طلبه
والإقبال عليه والتبحر فيه (٢) .

وبينما كان الإسلام يزدهر هكذا فى كانو كانت إمارات أخرى لا تزال
على الوثنية ، وقد زارها ابن بطوطة سنة ١٣٥٣ م وأخذته الدهشة إذ رأى
كثيرين من شعب الحوصا لا يزالون على الوثنية (٣) .

ولكن سرعان ما أخذ الإسلام ينساب فى هذه الإمارات ، واشترك

(١) D. H. Jones : شعوب وممالك السودان الأوسط ص ٤٦ .

(٢) آدم عبد الله الألوى : موجز تاريخ نيجيريا : ص ٨٢ - ٨٣ .

(٣) تحفة النظار ج ٢ ص ٢٢٨ وما بعدها .

المالنجيو والقولانيون وأهل صنفي ، ومصر في نشر الإسلام بإمارات الحوسا ، وعلى هذا فإن دخول الإسلام لها لم يكن في وقت واحد ولا من جهة واحدة ، فالولايات الغربية تلقت الإسلام من صنفي ومن الدول الإسلامية بالغرب والولايات الشرقية تلقت الإسلام من مصر ومن السودان العربي ، وقد بدأ ذلك في القرن الحادي عشر ، أما الولايات الوسطى فقد تأخر دخول الإسلام لها ، فولاية كانتينا لم يدخلها الإسلام إلا في أواخر القرن الخامس عشر ، وذلك بفضل بعثة تبشيرية من مصر سنة ١٤٩٣ (١) ، وفي القرن السادس عشر استولى أسكيا محمد إمبراطور صنفي على أكثر إمارات الحوسا فساعد ذلك على انتشار الإسلام بها ، وأصبحت كازو وكاتسينا مراكز ثقافية بارزة ، وعندما تعرض علماء تمبكتو وجني للاضطهاد هاجروا إلى بلاد الحوصا حيث باشروا دعوتهم في أمن وطمأنينة .

وعلى الرغم من كل هذه الجهود فقد بقيت الوثنية منتشرة بهذه الولايات ، وكانت مملكة جوبر التي بسطت سلطانها على أقصى الشمال من بلاد الحوصا مملكة ذات طابع وثني حتى مطلع القرن التاسع عشر . وكانت قبائل القولاني المسلمة تحاول نشر الإسلام بها . وقد أحس ملكها أن قوة القولاني تزايد يلاذه ، وتنتشر الإسلام بين رعيته ، فأراد أن يتصدى لهذه القوة ، ويكبح سطوتها ، ولكن ثورة عارمة هبت في وجهه بقيادة دنفديو الزعيم الديني الذي متحدث عنه فيما بعد ، وقد استطاع هذا الزعيم أن يسقط هذه اللولة ويضمها إلى الإسلام سنة ١٨٠٢ ، وسار دنفديو خطوة أخرى فهاجم المراكز الوثنية الباقية في بلاد الحوصا بل تعللها إلى الهجوم على الولايات الإسلامية أيضا ، ليكون منها مملكة واحدة تابعة له وقد نجح في ذلك سنة ١٨١٦ ، وستحدث فيما بعد عن حركة عثمان دان فديو . وهكذا دخلت إمارات الحوسا دين الإسلام ، وأصبحت قوة الحماس لنشر هذا الدين والعمل تحت رايه .

مملكة يوروبا

مملكة يوروبا مملكة واسعة تمتد من جنوب نهر النيجر ، وتشمل بلاد بنين إلى المحيط الأطلسي ، كما شملت إبان قوتها بلاد الداهومي والأشنتي ، وكانت عاصمتها مدينة « أويولي » ، ويُلقب ملكها بلقب « صاحب القصر » : ودولة اليوروبا - كدولة الهوسا - أقامها وافدون من البربر ، استطاعوا أن يغلبوا على الزنوج السكان الأصليين ، وأن يقيموا لهم بها دولة .

وإذا كان الوافدون من البربر الذين كونوا إمارات الهوسا قد غرسوا في هذه الإمارات أصول لغتهم البربرية ، فإن البربر الوافدين إلى اليوروبا لم يستطيعوا أن يطبعوا مقرهم الحديد بأصول لغتهم البربرية ، بل ذابت لغتهم في لغة المغلوبين ، وظلت لغة اليوروبا لغة زنجية ، وسبب ذلك أن الوافدين على أراضي الهوسا كانوا كثرة ، أما الوافدون إلى بلاد اليوروبا فكانوا قلة بالنسبة للسكان الأصليين .

وهناك فرق آخر بين منطقة يوروبا وبين بلاد الهوسا ، فالبربر الذين جاءوا إلى بلاد الهوسا حملوا معهم مع لغتهم مدنيتهم ، إذ كانت مدينة البربر أسمى من مدينة المناطق التي أقيمت بها إمارات الهوسا ، أما البربر الذين جاءوا إلى بلاد يوروبا ، فلم يقيموا بها حضارة ذات بال لأن زنوج اليوروبا كانوا على قسط كبير من المدنية ، كانوا يبيدون الزراعة ، ويستعملون الحديد ويصنعون أشياء جميلة من البرونز ، ويُعتقد أن حضارة اليوروبا وافدة من الجزء الجنوبي من وادي النيل ، وبخاصة بلاد « كوش » التي كانت ذات سلطان من سنة ٨٠٠ إلى ٣٠٠ ق م ، وكان أهل « كوش » قد أخذوا هذه الحضارة بلورهم من مصر القديمة ، فهناك على ضفاف النيل حيث السلام والطعام والدكاء عاشت هذه الحضارات ، ومن مصر انتقلت إلى أوروبا وإلى إفريقيا^(١) .

أما عن دخول الإسلام بلاد يوروبا فإن هناك أسطورة يرونها سير توماس ارنولد^(١) وهي تشرح محاولة قام بها أحد دعاة الإسلام في هذه البلاد في وقت مبكر يرجع إلى القرن الحادى عشر أو الثانى عشر الميلادى ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح .

كان هذا الرجل من الهوسا جاء إلى مدينة إيفIFE حاضرة مملكة اليوروبا الوثنية ، وجعل يدعو الناس إلى الإسلام ، ويتلو عليهم آيات من القرآن ، وكان لا يستطيع أن يتكلم لغة اليوروبا بطلاقة ، فلم يكن بد من أن يردد على سامعيه في لهجة أجنبية قوله : « هلم نعبد الله الذى خلق الجبال والوهاد ، وخلق كل شيء ، وخلقنا » ، وكان يقوم بذلك من وقت لآخر دون أن ينجح في كسب فرد واحد يتحول إلى الإسلام ، وقد مات هذا الرجل بعد ذلك ببضعة أشهر ، وبعد موته وجدوا المصحف معلقاً على مشجب ، حائط حجرته ، فصار أهل هذه البلاد يقلصون المصحف على أنه وثن . وحيث أخفق هذا الداعية ، نجد المحدثين من أبناء دينه ينجحون نجاحاً رائعاً ، وينشرون الإسلام بين كثيرين من سكان هذه البلاد .

على أن الدفعة الإسلامية القوية التى جاءت لهذه البلاد ترتبط بالغزو الذى قام به الفولانيون في القرن التاسع عشر ، ولم يستطع أهل يوروبا أن يقفوا في وجه الفولانيين ، فأصبحت هذه المنطقة جزءاً من الامبراطورية الفولانية^(٢) .

ولنعد إلى الزمان بضعة قرون لتقرر أن مملكة يوروبا تأثرت تأثراً كبيراً

(١) القصة في الإسلام ص ٣٦٢ .

(٢) آدم جادة الألوكة : موجز تاريخ نيجيريا ص ١٥٩ - ١٦٠ .

بهزيمة صنغى على يد مراکش وبتغلب الأتراك على شمالى إفريقيا ، فإن ذلك قطع الصلة التجارية بين أوروبا وبلاد الشمال ، ولكن فى الوقت نفسه بدأت صلة جديدة ببلاد أوروبا ، وكانت هذه المرة بأوروبا فإن البرتغال وصلت مدينة بنين وجنوبى أوروبا فى القرن الخامس عشر ، وبعد فترة مريرة كانت تجارة الرقيق فيها طابع الزحف الأوروبى ، بدأ الاستعمار ، وآل أمر هذه البلاد إلى بريطانيا فى مطلع القرن العشرين ، وزحفت المسيحية مع الاستعمار إلى بلاد أوروبا لتتقسم الانتشار مع الإسلام بهذه البلاد .

إمبراطورية برنو

تقع برنو إلى الشرق من إمارات الهوسا ، وتتصلح ببجيرة تشاد ، ويقول الإمام محمد بلو : وأرض برنو ذات أشجار وأنهار ، كثيرة الخصب ، عامرة بالسكان ، وليس في المنطقة بلد أوسع منها وأكثر عمارة (١) وتصب أنهار برنو في بجميرة تشاد ، وأكثر أرض برنو تقع الآن في اتحاد نيجيريا وتشغل الشمال الشرقى لهذه البلاد .

وبجميرة تشاد كانت ملتقى خطوط تجارية تصل هذه المنطقة بالشمال الشرقى والشمال ، وبالشمال الغربى والغرب ، وعلى هذا تلتقت هذه المنطقة أفواجا من الوافدين من مصر ومن العرب ومن البربر ومن السودانيين : وعن نشأة برنو وامتدادها يقول المؤرخ النيجيرى آدم عبد الله الألورى : إن هذه الدولة قامت حول بجميرة تشاد ، وقد أسسها سنة ٨٠٠ قوم من البرابرة ، ثم انتزعها منهم قوم من العرب الكانميين سنة ١٠٠٠ م ولم تلبث أن صارت إمبراطورية عظيمة امتدت إلى ضفاف نهر النيجر وإلى قلب الصحراء ، وقد قامت بهجمات على مالى أيام ضعفها (٢) .

وستحدث - بعد برنو - عن إمبراطورية كانم الجاورة لبرنو من جهة الشرق ، وقد تعاصرت اللواتان وامتزج تاريخهما في كثير من غترات التاريخ القديم والحديث ، فحكاهم كانم بهريون إلى برنو ويحتلون مكان الصدارة والحكم بها ، ثم يزحفون إلى كانم ليستردوا سلطانهم ، وإمبراطورية

(١) انظر إنفاق الميسور للإمام محمد بلو ص ٣٣ .

(٢) موجز تاريخ نيجيريا ص ١٥٨ .

التولاني ترحف على برنو ولا ينجيها من الدمار إلا قوة من كانم ترحف لمساعدتها وترد عنها للغيرين وبذكر Basil Davidson^(١) أن إمبراطورية كانم قامت في القرن الثامن الميلادي واستمرت إلى القرن الثالث عشر ، وكانت تتبعها حكومات مركزية من أهمها برنو التي ازدهرت بعد أن هرب لها ملوك كانم ، وانخذوها قاعدة لهم ، ومدوا منها سلطانهم إلى كانم مرة أخرى ، وظلت إمبراطورية برنو حتى القرن السابع عشر .

ويورد D.H.Jones حديثا عن النظام السياسي والاقتصادي في برنو فيذكر أن الملك كان يتمتع بألوان من التكريم تقرب من التمجيس ، فقد كان يعيش في عزلة تامة وسط جو من الرسميات الدقيقة ، وقاما يظهر بين أفراد شعبه ، ومع هذا فلم يكن ظلما ولا مستبدا لأنه كان خاضعا في أمور الحكم لنصائح اثني عشر رجلا هم كبار الموظفين ، وكانت كلمتهم مسموعة وبخاصة لأن الجهاز الفعال في الجيش كان مكونا من أتباع هؤلاء . أما النظام الاقتصادي فكان إقطاعيا لأن الملك يوزع الإقطاعيات الكبيرة ويقسم أقاليم البلاد على وزرائه وقواد جيشه مكافأة لهم على ما يقومون به من خدمات للدولة^(٢) .

وقد عرف الإسلام طريقه إلى برنو منذ عهد مبكر أشده اتصالا بكانم وبحصر ، وعندما أعلن ملوك كانم دخولهم الإسلام في القرن الحادي عشر - كما سنرى فيما بعد - اعتبر ذلك تاريخا لانتشار الإسلام في برنو ، إذ كانت برنو آنذاك خاضعة لكانم . وسنتحدث في الباب الرابع عن برنو الإسلامية .

إمبراطورية كانم

إلى الشرق من يرنو تقع الأرض التي قامت عليها إمبراطورية كانم ، وهي أكبر دولة نشأت في منطقة المراعى بين النيجر والنيل ، وتتصل حدودها الغربية ببجيرة تشاد ، وموقعها هذا ضمن لها مصدران مهمان من مصادر الثراء ، ويقول Basil Davidson إن أباطرة هذه المنطقة لم يكونوا يملكون مناجم الذهب مثل غانة ومالى ، ولكنهم كانوا يسيطرون على طرق القوافل الممتدة شمالا إلى فزان والبحر المتوسط ، وشرقا إلى حوض النيل^(١) ، وهي الآن ضمن جمهورية تشاد .

وكان أنجاه كانم إلى الشرق والشمال الشرقى ، فأكثر شعبها مهاجرون من الشرق في أعقاب الحروب التي هبت في وادى النيل من عهد الهكسوس إلى عهد الفتوحات العربية ، وقد عُرف هذا الشعب بشعب « ساو » ، وبما يدل على ارتباط عنصره وحضارته بعنصر المصريين وحضارتهم ، إجادة هذا الشعب لصناعة الفخار والتمثيل البرتزية ذات الصلة الوثيقة بالحضارة المصرية .

وحتى عام ٨٠٠ ميلادية لم تكن مملكة كانم قد ظهرت للوجود ، وإنما كان ذلك الشعب المهاجر « ساو » يعيش في هذه المنطقة في حياة شبه قبلية ، ومنذ ذلك التاريخ بدأت هجرات جديدة تنهال على هذه المنطقة ، ولعل أول هذه الهجرات هو هجرة « الزغاوة » وهو شعب جمع الخصائص الزنجية والخصائص الحامية ، وقد جاء هؤلاء من هضبة دارفور ، كما جاء لهذه البلاد مهاجرون ينتمون إلى الأسرة الأموية ، وقد وصلوا لها ليكونوا بمنأى عن سلطان العباسيين الذي كان يلاحقهم باضطهاد^(٢) .

وقيام دولة كانم إلى الشرق من بحيرة تشاد حوالى سنة ٨٠٠ م على
أبدى أسرة حاكمة من أصل إفريقى أبيض ، كان يعنى ظهور نتيجة من
النتائج غير المباشرة للفتح الإسلامى لشمالي إفريقيا ، فلما تحولت الأسرة
الحاكمة إلى الإسلام سنة ١٠٩٠ أصبحت نتائج الفتح الإسلامى مباشرة وباهرة
سنتحدث عنها عن الكلام عن هذه المنطقة فى ظل الإسلام بالباب الرابع ،
وأول ملك دخل الإسلام بعد الوثنية هو محمد بن جبل بن عبد الله ، وكان
فى وثنيته يعرف باسم « حُمى » (١) أو « هومب جيلمه » وكان ملك كانم
يتخذ لقب « ماو » وقد ظل القلب مستعملا مع الملوك بعد إسلامهم ،
وهذا التاريخ الذى ذكرناه عن دخول الإسلام دولة كانم يتفق مع ما أورده
البكرى من أن سكان كانم كانوا إلى عهده مشركين (٢) . وقد اتخذت
الأسرة المالكة لنفسها لقب « السيفية » نسبة إلى سيف بن ذى يزن ، مما يدل
على ارتباطهم بالعرب القحطانيين .

٥

(١) انظر فهرس المطابع الإفريقى مقال B. K. Jones ص ٤٤ .

(٢) المغرب قد ذكر بلاد إفريقيا والمغرب ص ١١ .

السودان

كلمة السودان أطلقها العرب - كما قلنا من قبل - على كل البلاد الواقعة جنوب مصر وجنوب الصحراء الكبرى بإفريقية والتي يسكنها السود ، فالسودان بهذا التقدير يضم كل البلاد التي ندرسها في هذا الكتاب ابتداء من مالي والسنغال غربا إلى اثيوبيا والسودان العربي شرقا^(١) .

أما المصريون فقد أطلقوا كلمة السودان على جزء محدود من هذا الشريط وهو السودان العربي أو سودان وادي النيل الذي يقع جنوب مصر ، وكان هذا الجزء يسمى عند المصريين القدماء «نوبيا» أي بلاد الذهب ، ويميز المصريون بين أجزاء السودان ، فالجزء الشمالي يسمى النوبة وهو ما جاور حدود مصر ويتقسم النوبيون إلى خمس مجموعات رئيسية هي الدناقلة في الجنوب ، والحس والسكوت في إقليم الجنادل ، والفديحة بين وادي حلفا وكركسكو ، والكنكور في الجزء الشيلي من كركسكو إلى أسوان^(٢) ، وجنوب النوبة يقع إقليم سنار والجزيرة ، وما يقع غرب النيل الأبيض من تلال يسمى كردفان وإلى الغرب من كردفان تقع مملكة دارفور^(٣) ، أما شرقي النيل الأزرق إلى البحر الأحمر فيسمى بلاد البجة أو البلمين^(٤) .

وهكذا يضم السودان العربي الحالي ممالك تاريخية هي من الغرب إلى الشرق : مملكة دارفور ، فكردفان ، فالممالك التي قامت في حوض النيل ، فتنقبائل النوبة إلى الجنوب منها ، فإقليم البجة ، وستتناول كلا منها بكلمة

(١) انظر كتاب «الإسلام في السودان» للأستاذ محبوب زيادة ص ١٢ - ١٣ .

(٢) دكتور محمد عوض محمد : السودان الشبلي ص ٢٨٤ .

(٣) دكتور مكى شيكة : الإسلام في قرن ص ١ .

(٤) Paul, A. : A History of the Beja Tribes p.p. 90 ff

حتى تلتقي كلها في السودان العربي ، وسأخذ طريقنا كعادتنا متجهين من الغرب إلى الشرق :

دارفور :

اشتق اسم هذه المملكة من اسم قبائل الفور التي سكنتها منذ أمد بعيد ، ومن سكانها أيضا قبائل عربية ونوبية وزنجية امتزجت سلالاتها وتأثرت باللغة العربية والفكر الإسلامى فيما بعد ، ومن أهم هذه القبائل بالإضافة إلى قبائل الفور الرزيفات والتعايشة والزغاوة والمالسيت والكواهلة والمناصير . . . وإقليم دارفور هضبة تتوسطها مرتفعات تسمى جبال مرة ، وتشترك دارفور في حدودها مع جمهورية ليبيا شمالا وجمهورية تشاد غربا .

وكان زنوج الداجو يحكمون هذه المنطقة منذ أقدم العصور حتى القرن الرابع عشر ، حيث قدمت قبائل التنجور العرب مهاجرين من تونس وعثرتين برنو ووادى ، وقد لقي واحد من هذه القبائل واسمه أحمد حفاوة عظيمة من ملك دارفور الوثني الذي تعلق به فجعله مشرقاً على شتون قصره واستشاره في كل الأمور ، ولما كانت خبرته بأساليب الحكم أكثر رقباً من تلك التي كانت معروفة في دارفور ، فإنه تمكن من أن يَدْخِل عدة إصلاحات على شتون قصر الملك وحكومة الدولة . ويقال إنه أخضع لسياسته الحكيمة الزعماء المتمردين ، وقسم الأراضى بين فقراء السكان ليضع حداً للإغارات الداخلية . وبذلك أدخل على المملكة شعوراً بالطمأنينة والرضا لم يعرفه الناس من قبل . ولما لم يكن للملك وريث من الذكور زوّج ابنته من أحمد^(١) ، فولدت له ولداً أسماه سليمان ، فشب كأبيه ثاقب الفكر سديد

(١) سير توماس أرنولد : للمعوية إلى الإسلام ص ٢٥١ .

لرأى حسن السياسة علما توفى أبوه ثم توفى جده نادى به أهل الحل والعقد سلطانا عليهم ، وكان ذلك سنة ١٤٤٥ م فكان أول سلاطة السلاطين العرب الذين تولوا الحكم بدارفور ، وبدأت به الدولة الإسلامية هناك ، وأهم سلاطين الفور السلاطين الآتية أسماؤهم .

١٧٢٢ - ١٦٨٢	السلطان أحمد بكر (بكور)
١٧٨٩ - ١٧٥١	عبد الرحمن
١٨٣٥ - ١٧٩٨	محمد الفضل
١٨٧٥ - ١٨٣٩	محمد الحسن بن محمد الفضل
١٩١٦ - ١٨٩٩	على بن دينار

ولنعد إلى ما قبل السلطان الأخير (على بن دينار) لنذكر أن الزبير باشا^(١) استولى على دارفور باسم مصر سنة ١٨٧٥ ، ثم أخذها النراووش سنة ١٨٨٣ وأسروا حاكمها ، وبعد الفتح الثنائى للسودان (١٨٩٩) اعترفت حكومة السودان بعلى بن دينار حفيد سلاطين دارفور سلطانا لهذه المنطقة امتدادا لأسرته ، ثم عادت فحاربه واستولت على دارفور بعد قتله سنة ١٩١٦ .

وكانت عاصمة سلطنة دارفور تسمى طره وتقع في شمال جبال مرة ، وفى عهد السلطان عبد الرحمن انتقلت العاصمة إلى الفاشر ، ولا تزال الفاشر عاصمة الإقليم حتى العهد الحاضر .

وقد امتدت حدود دولة سلاطين دارفور إلى كردفان شرقاً ، وإلى بحر الغزال جنوباً ووصلت إلى عطبرة وكان ذلك في أوائل القرن الثامن عشر ،

(١) تاجر رفعة ذاءه إلى الترمطة والقيادة فاستكبراء والجهاد وصار يحالف بعض الملوك ليقاثل بهم آخرين ، استعملته الحكومة المصرية سفيراً لها وحاكماً باسمها في هذه المناطق رستمدت منه بشئ من التفصيل منه حديثنا عن السودان في الباب الرابع .

ولكن هذا الاتساع أدخلها في حروب طاحنة ضد الفونج وواداي ، فأدى ذلك إلى اضمحلالها ، وهباً لسقوطها أو لتبعتها للسودان أو لمصر سنة ١٨٧٤ على يد الزبير باشا كما ذكرنا آنفاً .

كردفان :

تنسب هذه المنطقة إلى جبال كردفان التي تقع غرب النيل ، ولكم تشمل سهولاً واسعة إلى الغرب من هذه الجبال ، وهي تتوسط جمهورية السودان الآن ، وكانت المنطقة تحكم من جبال كردفان التي كانت تمثل العاصمة ، أما الآن فعاصمتها الأبيض .

والمنطقة عبارة عن سهول رملية في الشمال ، ولهذا فراعها فقيرة ، أما في الوسط فهناك تربة حمراء تغطي السهول الرملية ، وهي لهذا أكثر خصوبة وتقوم بها أنواع من الزراعات كالذرة والسمسم والقول السوداني ، ومن أشهر حاصلات هذه المنطقة الصمغ العربي ، أما في الجنوب فتقع جبال النوبة .

وسكان كردفان بدو وحضر ، ومن البدو قبيلة الكبانيش في الشمال والبقارة في الجنوب ، ومن الحضر الجوامعة ويعيشون بالقرب من الأبيض والمسلمة على الضفة النيل .

ويقرر توماس ارنولد^(١) أن تجار كردفان ينحدرون من العرب الذين شقوا طريقهم إليها عقب سقوط الخلافة الفاطمية في مصر سنة ١١٧١ ، ويرى أنه من المحتمل أن النفوذ الإسلامي امتد إلى هذه البلاد من المناطق المحيطة أي من مصر وكان في فترات متعددة ، ومع أن الإسلام دبت في هذه المناطق فإن تاريخها لم يضح إلا في القرن التاسع عشر بظهور الحكم

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٢٥٧ .

المصري بهاء الله من سنة ١٨٢٩ ، وكان الحكم المصري يأنطه الإسلام معه أنشئ سار يافريقية ، ويعمل على نشره بين الإفريقيين لينقلهم من ظلام الوثنية إلى ضوء الوحدة : وقيل منتصف القرن التاسع عشر وقد إلى كرمغان أحد الدعاة المشهورين وهو محمد عثمان الميرغني ، وقد نجح في دعوته نجاحا كبيرا وتحول على يده عدد كبير من الوثنية إلى الإسلام ، ويقول توماس ارنولد^(١) . إن الآبهة والمظاهر الخلابة التي كانت تحيط بهذا الداعية كان لها تأثير فعال وجذبت له عددا كبيرا من الأتباع .

وفي سنة ١٨٨١ ظهرت دعوة المهدي بهذه المنطقة وسرعان ما استولت على الأبيض (١٨٨٣) ولم يستطع السلطان الإنجليزي أن يقهره ، ثم تقدم المهدي إلى الخرطوم واستولى عليها (١٨٨٥) وفي سلطان المهدي بسطته البقاع حتى سنة ١٨٩٩ حيث حل محله الحكم الثنائي (المصري الإنجليزي) .

مفردة وعلمية :

ذكرنا في الجزء الخامس من هذا الكتاب^(٢) أن المسيحية انسابت من مصر في العهد المسيحي إلى السودان ، وسرعان ما انتشرت هذه الديانة في بلاد النوبة وسارت جنوبا حتى قبل القضاء النيل الأزرق بالنيل الأبيض ، وتكونت في هذه البقاع حوالي القرن السادس الميلادي ، دولتان مسيحيتان هما دولة ممتدة في الشمال فيما كان يعرف بالنوبة السفلى والوسطى وعاصمتها حنفلة ، ودولة علوة في الجنوب في النوبة العليا وعاصمتها سوبا على الضفة الشرقية للنيل الأزرق جنوب الخرطوم ، وقلعتان دولة علوة في المكان الذي

(١) المرجع السابق ص ٣٦٤ .

(٢) ص ٣٠٢ وما بعدها .

قامت به دولة كوش في القرن الثامن ق. م. وكانت عاصمتها نباتا أونيتا ، ثم تحولت إلى مروى ، ولعل هذا التحول سببه موقع مروى الذي جعلها مركزاً مهماً للتجارة بين الجنوب والشمال بواسطة النيل ، وبين سهول كردفان غرباً وموانئ البحر الأحمر شرقاً^(١) ، وقد أنشأ هذه الدولة سلالة كهنة آمون ، وكان هؤلاء قد هجروا طيبة حوالي القرن العاشر ق. م على أثر توليه الملك شاشانق الليبي حكم مصر ، وانخلوا من مقرهم الجديد بالجنوب مركزاً لتخليص مصر من حكم الأجانب^(٢) ، وكانت دولة علوة أوسع وأخصب من دولة مقرة^(٣) .

وعند ما دخل الإسلام مصر بدأ ينساب نحو الجنوب ، ثم جاء دور الحملات العسكرية التي أسفرت عن صلح ومعاهدة تسمى معاهدة البقط ، وتعتبر معاهدة تبادل اقتصادي بين الشمال والجنوب ، وقد ظلت هذه المعاهدة أساس التعامل بين شمالي الوادي وجنوبيه حتى عهد المماليك ، وفي هذا الوقت بدأ ملوك مقرة يتسردون على هذه المعاهدة ، كما ساعدوا الصليبيين أبناء دينهم في حروبهم ضد مصر ، ولهذا اقتحم الظاهر بيبرس مملكة مقرة وانتصر على ملوكها ، وأصبح له حق تعيين من يراه من الملوك^(٤) ، ونما سلطان المماليك في عهد السلاطين بعد بيبرس .

وفي هذه الأثناء كانت موجات العرب قد تدفقت على هذه المنطقة كالسيل دون انقطاع وأخذ نفوذ العرب يقوى وعددهم يتكاثر وسقطت قلاع

(١) Trimingham : Islam in the Sudan p.p. 42-43

(٢) Arkill : A History of the Sudan to A.D. 1821 p. 112

(٣) المقرئى : المواقظ والاعتبار ج ١ ص ١٩٣ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٠٢ وما بعدها وابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٤٠٠ .

(٥) المقرئى : السلوك ج ١ للقسم الثالث .

الصلبيين في الشرق ، وكل هذا مهد لتغير كبير في جنوبي الوادي ، فقد أصبح الدم العربي غالباً ، وانتشرت اللغة العربية ، وضاع الخليف المسيحي ، ومرت البلاد بفترة اضطراب وقلق من الناحية السياسية ، فإن أكثر الوافدين العرب كانوا من القبائل البدوية المتجولة التي يعمل أهلها في الرعي ، وقد وجد هؤلاء في سهول السودان القسيحة ووديانه الحصبة حياة قرية الشبه بحياتهم في الجزيرة العربية ، كما وجدوا - بعد اضمحلال الحكم المسيحي - حرثهم مطلقة ، فأقاموا سلطان القبائل على نحو ما عرفوه في الجزيرة العربية ، وانهارت بذلك دولة مقرة وحل محلها نظام قبلي يدعى بالإسلام ، أما علوة فكان صدامها مع مصر قليلاً ، لأن مقرة تقف بين الدولتين ، وكذلك لم تكن الهجرات إليها بنفس الكثرة التي اتجهت إلى دولة الشمال ، وهذا هياً للدولة علوة أن تعيش أطول ، وأن تحافظ على وحدتها على الرغم من كثرة العرب والمسلمين بها ، وأخيراً زحف الفونج والعبدلات فحربوا سوبا واستولوا على المملكة ومدوا سلطانهم إلى الشمال فأخضعوا القبائل التي كانت قد حلت محل دولة مقرة ، وأقاموا مكان الدولتين مملكة إسلامية سنة ١٥٠٥ ، وابتنوا مدينة سنار لتكون عاصمة لهذه الدولة ، وكانت للدولة تسمى دولة الفونج أو دولة سنار ، ومنتحلت عنها ضمن الدول الإسلامية بإفريقية في الباب الرابع إن شاء الله .

الطبعة :

بلاد البجة تقع شرقي السودان ، وقد عاش سكانها زمناً طويلاً قبل ظهور الإسلام على شاطئ البحر الأحمر ولا يزالون حتى اليوم ، ويرجع نسبهم إلى الشعوب السامية التي هاجرت من جزيرة العرب ، ولم يتأثر البجة كثيراً بالتعاليم المسيحية التي كانت سائدة في الممالك المجاورة لهم : في مصر ودقنة وسوبا والحبيشة ، وظلوا وثنيين يعبدون الظواهر الطبيعية والكواكب ،

ويتخذون الأصنام إلى أن جاء الإسلام^(١) ، ويبدو أن قلة منهم اعتنقت المسيحية ، واتبع هؤلاء المذهب اليعقوبي ، ولذلك سموهم « الخوارج »^(٢) .

وكان وادى العلاقى على بعد ١٠٩ كيلو مترات جنوب مدينة أسوان يجذب دائماً أنظار حكام مصر في مختلف العهود ، كما جذب أنظار العرب والمسلمين فقد هاجروا في جماعات كبيرة وسكنوا في وادى العلاقى حول منابع الذهب وكان من أشهر مهاجريهم عرب هوازن وجهينة .

وبدأ العرب يختلطون بالسكان كعادتهم ويتزوجون منهم ، فنشأت علاقة متينة بين ربيعة وقبيلة الحدارب^(٣) الذين كانوا يسكنون قرياً من المناجم ، وعلا شأن ربيعة ، حتى إن أحد أمرائها كان إذا خرج في موكبه يركب في ثلاثة آلاف من ربيعة ومضر واليمن ، وثلاثين ألفاً من الحدارب .

ولما اقتحم عبد الله بن أبي السرح دنقلة في إحدى حملاته العسكرية بالجنوب حاول أن يجهز جيشاً لفتح البجة ، ولكنه عدل عن ذلك لوعورة الطريق وقلة الماء ، ولأن البجة أبدوا استعدادهم لدفع الجزية للمسلمين ، فاستقر الرأي على ذلك ولم يتعرض لهم أحد من المسلمين ، ولكن البجة قطعوا الجزية بعد حين ، وكثر اعتداؤهم على المسلمين وغاراتهم عليهم في أسوان ، وكان ذلك في خلافة المأمون بن هارون الرشيد ، فأرسل إليهم أمير مصر آنذاك عبد الله بن الجهم عام ٨٣١ م . ودارت بين الفريقين وقائع طاحنة لعب فيها الحياة دوراً مهماً ، وقد كثرت الضحايا من الجانبين .

(١) انظر : اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٣٦ .

(٢) الإدريسي : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ٢٧ وانظر كتاب المسيحية من سلسلة مقارنة الأديان لمؤلف .

(٣) يروي الدكتور مصطفى سعد في كتابه « الإسلام والتوبة » أن الحدارب تحريف لكلمة حضارة وذلك يشير لهجرة حضرمية قديمة .

وانجلت الحركة عن هزيمة البجة ، وكان ذلك في عهد الملك كتون ملك
 البجة ، وكانت حاصمته آنذاك مدينة هجر ، ووضعت شروط للصلح هي :
 ١ - يبعد المسلمون بإعطاء الأمان لكل سكان إقليم البجة على شرط
 أن يطنوا أنهم تابعون لخليفة المسلمين .

٢ - يبقى ملك البجة حاكماً على إقليبه .

٣ - يدفع أهل البجة الخراج كالمعتاد ، كما كان يفعل أسلافهم .

٤ - يقدم للبجة كل السبيلات اللازمة للمسلمين المقيمين أو للدارين
 بأرض البجة ، ويظهرون الاحترام التام للعقيدة الجديدة وألا يسمحوا لأحد
 بالظن فيها^(١) .

وقد أقام البجة خمسة وعشرين عاماً على العهد الذي قطعوه على
 أنفسهم لعبد الله ، ثم نقضوه وقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين في وادي
 العلاقي حول المناجم وفي أسوان بصعيد مصر ، فأرسل الخليفة للتوكل بن المعتمد
 ابن هارون الرشيد قائده محمد بن عبد الله القمي واليه على الجنوب وأمره
 بحرب البجة ، وأمر عامله على شمال مصر في أن يمد له يد العون ، وقد تكون
 جيشه من ٢٠ ألف فارس وسبعة مراكب أرسلت بالبحر عملة بالموث لحرب
 البجة الخارجين عن الطاعة ، ودارت المعارك ، فانتصرت مصر ، وعاد أهل البجة
 لاحترام المعاهدة السابقة .

ورغم هذا فإن البجة لم تتم طويلاً على العهد ، وبالرغم من كثرة هجرة
 العرب من ربيعة وجهينة ، فقد امتنعوا عن الجزية وأغاروا على صعيد مصر
 مرات ، وكان المسلمون يردونهم ويرغمونهم على دفع الجزية .

هذا ولم يكن إسلام البجة إثر فتح معلوم أو تاريخ معين كما كان الحال
 في إسلام دنقلة أو سوبا بل كان نتيجة للهجرات العربية ، ثم الاختلاط

الطويل بين البجة والعرب المسلمين^(١) . وأول قبيلة اعتنقت الإسلام هي قبيلة الحدارب التي اندمجت في البشاريين ، وكان اختلاطها بعرب هوازن كما رأينا ، ومن الخليج البجاوى العربى ظهرت قبائل ضخمة دخلت كلها في دين الإسلام وهي :

العبادة - انبشاريين - الأمرار - الحلائقة - الحباب - بنو عامر :
هذا وبقى البجة من غير أن تضمهم حكومة إسلامية موحدة إلى أن جاء الفتح المصرى .

ومن أقدم مدنها سواكن المعروفة ، وعيذاب وهي في المكان المعروف الآن برأس راوية ، وكانت عيذاب هذه ملتقى الحجاج من مصر والمغرب ، وكان بينها وبين قوص في مصر طريق برى تسلكه قوافل الحجاج في سبعة عشر يوماً . كما كانت ملتقى التجار من الحبشة والهند .

تلك هي الدول التي تكوّن منها السودان فيما بعد ، وقد استطاعت دولة الفونج أن تمتد نفوذها إلى البجة ، وللى كردفان أحيانا ، ولكن تكوين دولة السودان من هذه الممالك كلها ظهر مع النفوذ المصرى الذى أخذ طريقه للسودان سنة ١٨٢١ كما سيتضح فيما بعد .

تلك جولة سريعة عن الدول والإمارات التي قامت جنوب الصحراء قبل الإسلام إلى أن انبثق فيها هذا الدين ، ومنعود لهذه المنطقة في الباب التالى ، لئرى الإسلام وهو ينساب بها ولئرى الوسائط التي حملته تغدو به وتروح حتى تغمر به هذه المنطقة وتجعلها أرضا إسلامية إلى الأبد .

(١) ابن حوقل : سورة الأرض ص ٥٠ وما بعدها .

الباب الثالث

انتشار الاسلام بافريقيه
مركزه ووسطاؤه

إفريقية القارة المسلمة

تعتبر إفريقية القارة المسلمة بين قارات العلم كما ذكرنا من قبل ،
فالعالية العظمى من سكانها الأصليين يتبعون الإسلام ، وتذكر الإحصائيات
أنهم يزيدون عن ٧٠٪ من سكان هذه القارة ، أما غير المسلمين بها فمنهم
من لا يزال يتبع المعتقدات التقليدية الساذجة ، ومنهم من لا يدين باعترافه ،
ومنهم من جلبته المسيحية إليها ، ومنهم البيض الغاصبون الذين أقامهم الاستعمار
وسلمهم الفؤوذ والسلطان في بعض المناطق :

ولم يقف حاجز ما بإفريقية أمام زحف الإسلام ، فقد انتشر بالشمال في
وقت مبكر ، ثم تخطى الصحراء وزحف خلفها ، وعبّر من الجزيرة العربية
للساحل لشرق من مصر الأول ، وتخطى هذا الساحل إلى المناطق الداخلية إلى كينيا
وتنجانيقا ، واقتحم نطاق الغابات في قلب إفريقية ، وتغلغل إلى هضبة
البحيرات ، وتغلغل إلى الهضبة الحبشية ، وانتشر على طول الساحل الغربي ،
ودخل جنوب إفريقية مع المهاجرين المسلمين من سكان شبه القارة الهندية
وماليزيا ، ولا زال ينشر حتى اليوم إلى آفاق جلييلة (١) .

وقرر Jacques Baslin أن خريطة إفريقية تغيرت تغيرا كبيرا بسبب
الإسلام خلال القرون الماضية ، ولا تزال تتغير بسبب النشاط الحثيث الذي
اتخذ شكلا جليدا ، فإن العرب والمسلمين هضموا الجليد من التغيرات
السياسية العالمية ، فأصبحوا - براءة - يحصلون على مزيد من النجاح
ظل الاشتراكية والحياد ، كما حصلوا على هذا النجاح في ظل الطرق الصوفية
والتجارة من قبل (٢) .

(١) هوبير ميشان ، الديانات في إفريقية السوداء من ١٥٢ - ١٥٢ .

(٢) The Arab Role in Africa p. 28

انتشار الإسلام في إفريقية بالدعوة

وانتشار الإسلام بإفريقية تم بواسطة الدعوة ، بدليل أن انتشاره لصغوق وقتاً طويلاً يزيد على عشرة قرون ، وترخر المراجع التي منبجها بتقرير هذه الحقيقة ، وقد قامت على مر التاريخ دول إسلامية بإفريقية بمجوار دول وثنية أو مسيحية ولم يكن الدين قط داهياً لملوان المسلمين على غير المسلمين ، على إن المؤرخين يرون أن الحروب التي هبت بين المسلمين بعضهم والبعض الآخر بإفريقية كانت أكثر وأشد مما حدث بين المسلمين وغير المسلمين ، وعلمنا تب حركة إسلامية لتسقط نظاماً وثلياً أو مسيحياً فإن ذلك يكون بعد انتشار الإسلام وقوة أتباعه للدرجة تمكنهم من القيام بهذه الحركة الانقلابية ، أما كيف أصبح هؤلاء مسلمين ، فإن من المؤكد أن ذاك حدث بطريق الدعوة ، فلما رأى هؤلاء المسلمون أنفسهم قوة أحوا بالزامهم بالتغير ليقبوا لأنفسهم النظام السياسي الذي يناسب معتقداتهم . وعن انتشار الإسلام بالدعوة في إفريقية يتحدث الكاتب المسيحي هوير ديشان الذي كان حاكماً للمستعمرات الفرنسية بإفريقية سنوات طويلة وشاهد بنفسه تقدم الإسلام وانتشاره ، يقول هذا الكاتب :

إن انتشار دعوة الإسلام بإفريقية لم تقم على القسر ، وإنما قامت على الإقناع الذي كان يقوم به دعاة مفرقون لا يملكون حولا ولا طولا إلا لإيمانهم العميق بدينهم ، وكثيراً ما انتشر الإسلام بالتسرب السلمي البطيء من قوم إلى قوم ، فكان إذا ما اعتنقه الأرستقراطية وهي هدف الدعاة الأول تبعها بقية القبيلة ، وقد يستر انتشار الإسلام أمر آخر هو أنه دين فطرة بطبعته ، سهل تناول ، لا لبس ولا تعقيد في مبادئه ، سهل التكيف والتطبيق في مختلف الظروف ، ووسائل الانتساب إليه أبسر وأيسر ، إذ لا يطلب

من الشخص لإعلان إسلامه سوى التطق بالشهادتين حتى يصبح في عداد المسلمين وقد حَبَّبَ الإسلامَ إلى الإفريقيين مظاهره الجميلة البعيدة عن التكلف ، مثل الثوب الفضفاض ، والمسبحة ، والكتابة العربية ، والوقار الدينى ، وشعائر الصلاة ، مما يضفى على المسلم مكانة مرموقة وجاذبية ساحرة ، فاللئى يخل الإسلام يشعر بأنه أصبح ذا شخصية محترمة ، وأنه قد ازداد من القوة والحياة (١) .

وإذا كان هوبير ديشان قد أوضح أن نشر الإسلام بإفريقية كان بالسلم فإن كاتباً غريباً آخر يعطينا معلومات مهمة تفيد أن نشر المسيحية بهذه القارة تمَّ في أكثر الأحوال بواسطة القسر والعنف والإلزام ، فلنرجع إلى Sir Thomas Arnold لنقتبس منه بعض العبارات : في سنة ١٨٧٨ عقد الملك جون مجمعا يضم رجال الكنيسة الحبشية وقرروا فيه وجوب الاقتصار على دين واحد في كافة أنحاء المملكة ، وألزم المسلمون بالتمعيد خلال ثلاث سنوات والوثنيون خلال خمس سنوات ، بيد أن الملك سرعان ما استطال هذه المهلة ، فأذاع بعد أيام قليلة مرسوما أنذر فيه كل الموظفين المسلمين ، بأن المهلة الممنوحة لهم هي فقط ثلاثة أشهر ، ويعلق Massala الذى ينقل عنه T. Arnold أن كثيرين من الموظفين خضعوا لهذا التنصير الإجبارى ، ولكنه كان تنصيراً عديم الأثر ، ويروى أنه شاهد بعضاً من هؤلاء يخرجون من الكنيسة بعد التعميد قاصدين المسجد يلتصقون فيه رجلاً مباركاً من رجال دينهم يحجر عنهم ما لحقهم من التعميد الذى أرغموا عليه (٢) .

(١) الديانات في إفريقيا السوداء ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٢) الدعوة إلى الإسلام ص ١٤١ - ١٤٢ .

عوامل يسرت انتشار الإسلام بإفريقية

هناك عوامل مهمة يسّرت انتشار الإسلام بإفريقية ، ومهدت له الطريق ، وفيما يلي أهم هذه العوامل :

١ - تفوق المسلمين الفكري والخلقي

مما ساعد على نشر الإسلام بإفريقية ذلك التفوق الفكري والخلقي الذي كان يتحلى به المسلمون، فيدفعهم ليكونوا نماذج يُقتدى بها في ناحية الثقافة وناحية الأخلاق ، وقد ارتبط الدين الإسلامي بذلك بإفريقية فأصبح اعتناق الإسلام مفخرة ، كما أصبح التزاما بالنظافة والصدق والأمانة وغير هذه من الصفات التي يُحتمس الإسلام على متبعية التحلى بها ، ويقول Rubbell إنه كثيراً ما لاحظ في خلال رحلاته ببلاد الحبشة أنه عندما يراد شغل منصب من المناصب التي تتطلب أن يكون الشخص أميناً كل الأمانة ، موثقاً به تمام الثقة ، كان اختيارهم يقع دائماً على شخص مسلم (١) .

وهناك رحالة سار في إفريقية فأدرك في تجواله كيف حول الإسلام متبعية من حال إلى حال ، فكتب يقول :

« بينا كانت الباهرة تسير في صعداً في مياه النهر (يعني النيجر) ، لم أجد إلا قليلاً من التغير في الأميال المائتين الأولى ، لأن الوثنية وأكل لحوم البشر وتجارة الخمر قد ظهرت كلها في وحدة موحدة ، ولكنني لما تركت ورائي المنطقة الساحلية المنخفضة ، وألقيتني على مقربة من الجلود الجنونية لما يسمونه السودان الأوسط ، لاحظت تحسناً مطرداً في المظهر الأخلاقي عند الأهليين ، وانخفضت الوحشية ، وتبعها الوثنية ، وزالت تجارة الخمر إلى حد

بعيد، على حين صارت ملابس الناس أكبر وأكثر احتشاماً، وأصبحت النظافة عندهم عادة، وقد دل مظهرهم الخارجى على وقار زائد وأدب جم. كما دل كل شيء على أن هناك نواة للمذهب أكثر رقباً إلى حد بعيد. ومن الواضح أن هذا المذهب كان يؤثر تأثيراً عميقاً في طبيعة الزنيجي ويحول منه إنساناً جديداً. ولعلك تدهش لو علمت أن هذا المذهب هو الإسلام (١)، ولما وصلت لوكوجا Lokoja عند ملتقى نهر بنوى Renue بالنيجر، وتركت ورائي المراكز الأممية لنشر الدعوة الإسلامية، ثم دخلت السودان الأوسط نفسه وجدتني في دولة أحسن في طريقة حكمها، خاصة بجماعة نشيطة من التجار الأذكاء، وأناس مهرة في صناعة المنسوجات، والنحاس، والجلد، والواقع أنهم شعب تقلم تقدماً عظيماً في مراق الحاضرة والمدنية (٢).

ومعنا نص آخر كبير الأهمية وهو من مطبوعات مجلس العموم البريطاني، التي صدرت في الخامس والعشرين من مايو سنة ١٨٠٢ م، ويدل دلالة واضحة على ما حققه الإسلام لمعتقه بإفريقية من رقي جذب الناس إليه وجمعهم حوله، وفيها يلي هذا النص: «منذ مدة لا تزيد على سبعين عاماً، استقرت جماعة صغيرة من المسلمين في بلاد تبعد عن سيراليون عن فلجة الشمال بما يقرب من أربعين ميلاً، اسمها بلاد الماندينجو. وكما هي العادة عند فقهاء هذا الدين (الإسلام) فتح هؤلاء مدارس تدرس فيها اللغة العربية والمعتقد التي جاء بها محمد، وجروا على عادات المسلمين

(١) هذا الكاتب يشعر لأنه لا يعرف الإسلام، أما الذين يعرفون حقيقة هذا الدين

فيرون تطور هؤلاء شيئاً طبعاً لأن الإسلام كما قلنا من قبل حضارة ونور ومدنية.

(٢) Joseph Thomson { 1 — Muhammadanism in Central Africa
2 — Note on African Tribes of the British Empire

وخاصة في علم بيع أبناء دينهم بيع الرقيق . وقد أقاموا لأنفسهم شرائع استخرجوها من القرآن ، واستأصلوا ما كان هناك من عادات تساعد على تخريب الساحل من السكان . وعلى الرغم من وجود كثير من اضطرابات قومية ، جلبوا إلى البلاد حضارة بلغت درجة عظيمة نسبياً ، كما جلبوا إليها الاتحاد والطمأنينة . وكان من أثر ذلك ، أن ازداد السكان زيادة سريعة ، وانتقل إلى أيديهم شيئاً فشيئاً كل النفوذ في تلك الجهة من البلاد التي يقيمون فيها . أما هؤلاء الذين تعلموا في مدارسهم فإنهم يسرون نحو الثراء والقوة في البلاد المجاورة للماندنجو ، ويعودون ومعهم قسط وافر من الدين والشرعية . وهناك رؤساء آخرون ينتحلون الأسماء التي اتخذها هؤلاء المسلمون لأنفسهم بسبب ما يقرن بها من احترام وتقدير ، ويبدو أنه من الممكن أن ينتشر الدين الإسلامي في أمن وسلام انتشاراً سلمياً ، في كل المنطقة التي تقع فيها مستعمرة الماندنجو ، حاملاً تلك المزايا التي تتغلب فيها يظهر دائماً ، على خرافات الزنوج (١) .

٢ — موقف الإسلام مع الرقيق :

وبمناسبة ما ورد عن بيع الرقيق في النص السابق ينبغي أن نذكر أن الانجماهات الفكرية نحو الرق كانت من أهم ما حجب أهل إفريقيا في الإسلام ، فإن البيض عندما اقتحموا إفريقيا كانت تجارة الرقيق من أهم أهدافهم ، فراحوا يختطفون الأطفال والشبان دون رحمة ، ويحشرونهم حشراً على ظهر البواخر ويتجهون بيوأخرهم إلى أمريكا ، ومن المعروف كذلك أن هؤلاء الإفريقيين المساكين لم توجه لهم أية عناية إنسانية أو صحة مما جعل الكثيرين منهم يسقطون في الطريق ، وتُلقى جثثهم طامعا لأسماء

البحار ، أما الذين وصلوا منهم إلى القارة الأمريكية فقد عرضوا في سوق النخاسة وبيعوا كما تباع الدواب ، وهكذا ارتبطت مشكلة الرقيق بالبيض الأوربيين^(١) . وربما يخطر ببال القارئ أن الإسلام أباح الرق ، وهنا يتحتم علينا أن نسرع ونقرر أن الإسلام لا يعرف هذا اللون من الرق على الإطلاق ولا يبيّزه ، وأن الباب الذي يمكن أن يوجد عن طريقه رق في الإسلام هو الحرب الشرعية بحيث يكون المسلمون مدافعين عن أنفسهم ، على أن أسرى هذه الحروب كانوا في الغالب يُمنّ عليهم بالإطلاق أو يُفْلَوْن أنفسهم بشيء تبعاً لنص الآية الكريمة « حتى إذا أنخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء»^(٢) ، ويقرر ابن القيم^(٣) أن الرسول ﷺ لم يفرض الرق على حرق قط ، وهناك حديث عن الرسول ﷺ يضع حداً حاسماً لهذا الموضوع هو قوله : « شر الناس من باع الناس »^(٤) .

وهكذا كان الرق تجارة أوربية ، ولم يكن إسلامياً قط ، وإذا وجد مسلم يعمل في هذه التجارة فهو منحرف جرفته تيار الغرب فلم يعرف نظم الإسلام وآدابه ، وطبيعي في ضوء هذا التفكير أن يقبل الإفريقيون على الإسلام الذي يحترم إنسانية الشخص ويحافظ على حرّيته .

٣ - موقف الإسلام من التمييز العنصري :

والحديث عن الرق يدفعنا إلى موضوع قريب الصلة به وهو التمييز العنصري : بين البيض والسود ، أو بين البيض وبين من يسمّون الملونين بوجه عام

(١) سنوضح ذلك بتريده من التفصيل فيما بعد بالباب الخامس .

(٢) سورة محمد الآية الرابعة .

(٣) زاد المعاد . ج ٣ ص ٢٩٠ وانظر « جهاد في التفكير الإسلام » المؤلف .

(٤) انظر موضوع الرق وموقف الإسلام منه في كتاب « الإسلام » للمؤلف .

(Discrimination) فإن البيض عندما أكرهوا على إيقاف التجارة بالرقبي ،
وهذا ما توقعوا عن مزاولة هذا العمل المهين ، لم يستطيعوا أن يضعوا رقيق
الأمس على قدم المساواة مع النخاسين ، فاصطنعوا التمييز العنصري ، وقد
تسرب هذا التفكير السقيم إلى القسس أنفسهم مما جعل كثيرا من الإفريقيين
يفترون إلى الإسلام من هؤلاء القسس ومن المسيحية التي يدعون لها ،
فالإسلام لا يعرف تفرقة عنصرية ، ويجعل الناس سواء كأمنان المشط كما
قال رسول الإسلام ، ولا يميز الواحد منهم عن الآخر إلا عمله وتقواه ،
ويقول سير توماس أرنولد^(١) في هذا الموضوع : ولا شك أن نجاح
الإسلام قد تقدم في إفريقية الزنيجية تقدما جوهريا بسبب عدم أى إحساس
باحترار الأسود ، وفي الحق يظهر أن الإسلام لم يعامل الأسود قط على أنه
من طبقة منحلة كما كانت الحال لسوء الحظ في العالم المسيحي .

وقد حدث أن تزوج مبشر مسيحي كان يباشر عمله في إفريقية من إحدى
الإفريقيات ، ولكن هذا الزواج جعل المسيحيين البيض يضطهدونه
ولا يتعاونون معه فاضطر إلى مغادرة إفريقية ، وأغلب الظن أنه ترك زوجته
هناك وإن كانت الرواية لم تذكر ذلك ، وخوفاً من أن يتكرر عمل هذا
التقسيم لهما البيض إلى اختيار المساومة الذين يعملون بإفريقية من أتباع
المذاهب المسيحية التي لا تبيح الزواج للمساومة .

وهذه التصرفات قادت إلى نتيجة حتمية شاعت في كثير من النواحي
والأزمة وهي أن الإسلام دين الجميع والمسيحية دين البيض ، وهذا
الاعتقاد دفع الكثرة الإفريقية إلى اعتناق الإسلام .

وعند كتابة هذه السطور نشرت صحيفة الأخبار القاهرية الصادرة في

(٢٧ / ٨ / ١٩٧٠)، نقلا عن وكالات الأنباء الهندية ، أن الحكومة الهندية ، اكتشفت فضيحة عظيمة تتصل ببعض الكنائس الكاثوليكية هي أنها تباع القتيات الهنديات للأدبرة الأوربية ، وهذا يدل على أن فكرة الرق والتمييز العنصري لا تزال في عقل البيض ، وأن الكنائس تُستَغْلُ لتُشيط هذا التصرف .

٤ - أبو سلام يصبح فكراً محلياً وثقافة قومية :

وهناك سبب آخر من الأسباب التي بسرت انتشار الإسلام بإفريقية ذلك هو أن هذا الدين سرعان ما أصبح فكراً محلياً وثقافة قومية ، فلم يصبح كسواه من الأديان التي عاشت قروناً وهي غريبة عن البلدان التي اقتحمتها ، فإذا كنا نرى البيض يشغلون مناصب القسس في آسيا وإفريقية ، ويظلون على ذلك قروناً وقروناً ، فإن الموقف مع الإسلام كان على العكس من ذلك ، إذ أن المواطنين سرعان ما أصبحوا قادة الفكر في بلادهم وأصحاب الدعوة بها ، وهكذا وجدنا الإسلام ديناً يمكن أن نسميه إفريقيّاً في إفريقية وأسبويّاً في آسيا ولم يعد الدخول فيه دخولاً في إطار غريب على الداخل .

٥ - انحمار الحياة الروحية بالكنائس :

ومما ساعد على انتشار الإسلام بإفريقية ما يرويه الكتاب المسيحيون من أن الحياة الروحية في أكثر الكنائس كانت قد انحدرت إلى أقصى درجات الانحطاط ، وأن كثيراً من المسيحيين الإفريقيين وقعوا فيها وقع فيه رجال الكنيسة من أخطاء ، وكانت الكنائس المسيحية المتنافسة مشغولة بعضها بالتنازع مع البعض انشغالاً لم يمكنها من مواجهة الإسلام ، وانزلت بعض القسس فاشتغلوا بتجارة الرقيق ، أو أخذوا إناوات من النخامين ، كما سرى عنه الحديث عن الرق ٥

٦ - موقف الاستعمار من الإسلام :

وقف الاستعمار من الإسلام موقفاً علمانياً حين الضيا بإفريقية ، فقد أدرك الاستعمار أن القوى الإسلامية أكبر عقبة في سبيل استقراره ، ومن هنا أخذ الاستعمار يتحدث عن الخطر الإسلامى على نحو ما كان يتحدث عن الخطر الأصفر (١) . وأخذ بالتالى يقف في سبيل الإسلام ويحول دون انتشاره بمختلف الوسائل . ويذكر هوبير ديشان (٢) أن Breivié نادى في كتاب له (٣) بأن من صالح فرنسا استغلال زعماء القبائل الوثنية لأن الاعتماد على الجماعات الإسلامية ينطوى على خطر أكيد على المستعمر .

ذلك هو الخط السياسى الاستعمارى تجاه الإسلام بإفريقية ، ولكن الإسلام على الرغم من ذلك تجاوز هذه العقبة ، وحقق كثيراً من الانتصارات . إبان العهد الاستعمارى ، بل يرى بعض الباحثين أن الاستعمار - بدون قصد منه - ساعد على انتشار الإسلام ، فمثلاً نجد أن الكثيرين من الإفريقيين رأوا أن الإسلام هو وسيطهم للصراع ضد الاستعمار ، فتدفقوا على الإسلام ليتجمعوا تحت لوائه ويقاوموا المستعمر الغاصب ، وهناك إحساس المستعمر بالنظام في المجتمعات الإسلامية والقوضى بين الوثنيين وقد ترتب على ذلك أن أغضى الطرف عن انتشار الإسلام ليضمن الهدوء في مستعمراته ، وقد انتهز الدعاة المسلمون هذه الفرصة فنتشروا الاسلام ، ولكنهم عند ما أحسوا القوة زلزلوا أركان الاستعمار وقوضوا بنيانه ، وهناك الجهود العلمية التى أدخلها الاستعمار في إفريقية ففتح بها أبواباً للدعاة المسلمين ، فإن الإسلام لم يكثر انتشاراً ، في المناطق الاستوائية إلا بعد جهود المستعمر في قطع الغابات ، وإنشاء الطرق ، والقضاء على الأمراض المستوطنة .

(١) Westermann, D. : The African to day and tomorrow p. 220

(٢) البيانات في إفريقية السوداء من ١٣١ .

(٣) الإسلام والوثنية في السودان الغربي .

٧ - انتشار المروية عند دخول الإسلام :

لم يكن الإسلام بإفريقية ديناً بين الأديان ، بل عاش فترة طويلة وهي الدين الوحيد بين خرافات موروثة وفراغ شامل ، ولذلك كان انتشاره سهلاً ، وعلماء مقارنة الأديان يقررون أن الذي يعتنق ديناً يصعب تحويله إلى دين آخر ، أما الذي لا يعتنق ديناً فيمكن بسهولة جذبته إلى الأديان^(١) ، وهكذا دخل الإسلام هذا القطاع من إفريقية في وقت لم يكن بها أي دين ينازع الإسلام ، بل كانت هناك الوثنية والخرافات واللاذنية ، ومن هنا كانت دعوة الداعي المسلم شديدة الأثر ، سريعة النتائج .

صورة الداعي المسلم

كان للداعي المسلم سمعة يدعو للإعجاب ويجذب له الناس ؛ ملابس فضفاضة نظيفة ، وأخلاق قوية سامية ، وشخصية مؤثرة جذابة وفيه كرم وإيثار ، يباشر دعوته مع تجارة يزاولها ، أو أحياناً يتفرغ للدعوة والتعليم ، فإن كان تاجراً كان الصديق دينه ، والأمانة دستوره ، وإن كان معلماً جمع حوله مجموعة من الأطفال والشبان سرعان ما يظهر امتيازهم عن رفاقهم ممن لا يتبعونه ، وهذا يجذب له تفرساً جديداً كل يوم للانضمام إلى حلقاته ، وعندما يحين الليل ويتوقف التاجر عن البيع والشراء ، وينصرف عن المعلم مريدوه وتلاميذه ، نجد حول هذا وذاك جوعاً جديدة من الرفاق فيما يمكن أن نسبه « صالونا أدباء ، يتذاكر فيه الحاضرون ألواناً من الفكر ، فينجذب الناس إلى الدعوة الإسلامية ، ويتسع الصالون من يوم إلى يوم ، وتنبثق عنه صالونات جديدة ويزيد انتشار الدعوة مع ذلك .

(٢) انظر سلسلة مقارنة الأديان للزلف .

وإذا استطاع التاجر أو المعلم إقناع شيخ القبيلة ، فإن القبيلة كلها تتبع شيخها في دخول الإسلام ، وإقناع شيخ القبيلة لم يكن عسيراً ، فإن الإسلام يحفظ له مكانته ولا يأخذ منه شيئاً ، والإسلام يعطيه حقوقاً مقابل التزامات ليس من العسير الوفاء بها ، وينقل توماس أرنولد حديثاً عن رحالة في القرن الخامس عشر يوضح كيف جاهد العرب في تعليم رؤساء الزنج شرعية محمد ، مبينين لهم أنه من العار عليهم أن يكونوا رؤساء ويعيشوا من غير أن تكون لهم شرعية من الشرائع الإلهية ، وأن يبقوا في جاهلية يفعلون ما تنفعه الجماعات المتحطة التي تعيش دون أن تكون لها شرعية على الإطلاق (١) ، ومثل هذا القول يجذب الرؤساء إلى الإسلام ، وبالتالي تتبع القبيلة رئيسها .

وطالما تعاون التاجر والمعلم معاً ، فبلغ التاجر من ماله ليهي للمعلم مكاناً يلقي فيه بالناس ، ويزوده في نفس الوقت بما يحتاجه من نفقات شخصية ، ومقابل هذا يعطى المعلم من جهده وفكره لدى الناس ، وطالما لم يربط بذلك إقبال الناس على التاجر ، فتمت تجارتهم ، مما يجعل خدمة التاجر للإسلام تعود عليه بالخير والثناء والشهرة ، وإذا كان الداعي من مشايخ الطرق الصوفية فإنه يجذب الجماهير حولهم بما عرف عن رجال الطرق الصوفية من وسائل تجعل الناس يتهاونون عنهم ، ويتخلونهم ملاذاً في ساعات الضيق المصير (٢) .

وإذا كان الداعي مصرياً أو مغربياً أو هاتداً من رحاب الأزهر أو من معاهد الشال ، فإنه يذهب أن يلبس زي البلاد التي عاد منها ، فالعامة الناصعة البيضاء تملو رأسه ، ويرتدي الجبة والقفطان أو الثوب القصصاقي . ويمسك بمسبحة طويلة ، ثم هو يحدث الناس حوله عما رأى بعصر وغيرها ، وما

(١) الدعوة إلى الإسلام ص ٣٦٨ .

(٢) دكتور عبد المجد عابدين : تاريخ الثقافة العربية في السودان ص ٦٢ .

شاهد في جولاته ، وعن مظاهر الحضارة الإسلامية ، وعن المساجد الشاهقة ودور العلم الفسيحة ، وكل هذا يضاف على الرجل هالات من المجد ، ويجلب إليه مختلف الطبقات من الناس ، وفي يد الناعى المسلم عصا سحرية يُلَوِّح بها للإفريقيين فيستجيبون إليه ، هي أنه يقرر لهم أن دخولهم الإسلام يجعاهم أعضاء في المجتمع الإسلامى الكبير الذى يمتد من المحيط الأطلسى إلى المحيط الهادى وإلى أسوار الصين وجزر اندونيسيا ، وإن أخوة شاملة تربط الجميع ، وأن أرض الإسلام أرض لكل مسلم ، وأن كل مسلم يجد الترحاب في كل أرض إسلامية نزل بها .

أمّا مكانة المسلم فيصفها لنا الكتاب الغربيون أدق وصف ، ولتقتبس من D.J.East بعض ما قاله في هذا الشأن (١) ، وفيما يلي كلماته : هؤلاء المعلمون الدينيون يحظون بأوفى نصيب من الإجلال . وفي بعض قبائل إفريقية الغربية تضم كل قرية داراً لاستقبالهم ، ويعامون بأعظم مظاهر الاحترام والتقدير ، ففي دارفور يحتلون أعظم مكانة بعد هؤلاء الدين يشغلون أكبر مناصب الحكومة ، كما يحتلون بين الماندينجو مكانة أعظم شأنًا ، وينالون احتراماً يلى احترام الملك ، ولذلك يعتبر الرؤساء أقل منهم هية . وفي الدول التي اتخذت فيها القرآن أساساً للحكم في كل المسائل المدنية ، تحتاج الدولة لخدماتهم احتياجاً شديداً لكي يفسروا معاني القرآن ، وقد بلغ من إجلال الناس لأشخاص هؤلاء المعلمين ، أنه لا يتعرض لهم أحد حين يحوسون خلال إمارات يمدى بعضها بعضاً ، أو يباشر أصحابها مع بعضهم البعض حرباً فعلية . ويجلهم الناس مثل هذا التمجيل ، لا في البلاد الإسلامية وحدها ، بل في القرى الوثنية ، التي يؤسسون فيها مدارسهم ، حيث يحترمهم الناس باعتبارهم معلمى أبنائهم ، ويعتبرونهم واسطة

بينهم وبين الله ، سواء في الحصول على حاجاتهم ، أو في درء المصائب
وصرفها عنهم (١) .

وفي ختام هذه الجولة عن روح الدعوة التي نشرت الإسلام بإفريقية
نبرز نقطتين مهمتين :

١ - نُشِرُ الإسلام بإفريقية كان بهدف نشر الفكر والمدنية ، وهذا يختلف
اختلافاً واضحاً عن نشر المسيحية بها ، لأن نشر المسيحية كان بهدف
سياسي ، أي بمحاولة ربط إفريقية بأوروبا ، فالداعي المسلم كان يعتقد
الإسلام ويحمله ، أما البشر المسيحي فكان في الغالب محترفاً ، والداعي
المسلم - تبعاً لذلك - كان يعمل بنفسه وبوحي من ضميره ، أما البشر
المسيحي فكان غالباً يعمل لحساب مؤسسه تعلّمه ما يقول وترسم له
الطريق ، وأنا أكتب هذه الكلمات عن تجربة شخصية وطويلة مع
هؤلاء وأولئك ، وليس ذلك بخاف على من ارتبط بثقافته بهذا
اللون من النشاط .

٢ - في أكثر بقاع هذا القطاع من إفريقية الذي عقدنا له هذا الجزء ، كان
انتشار الإسلام بسبق قيام للحكومات الإسلامية ويمهد لها ، وهذا
بخلاف مصر وفارس مثلاً : فإن الفتح العسكري أقام حكومة إسلامية
بها قبل انتشار الإسلام بعدة قرون .

• • •

والآن نستطيع أن ننتقل إلى جولة جديدة واسعة نتحدث فيها عن
الوسائط التي انبعثت خلالها أشعة الإسلام والفكر الإسلامي في هذا القطاع
من إفريقية ، فغمرته بالضوء ، وجعلته إلى الأبد جزءاً من العالم
الإسلامي الفسيح .

انتشار الإسلام جنوب الصحراء

من مراكز الشمال

دخل الإسلام مصر وشمال إفريقيا في العصور الإسلامية المبكرة ،
أمى في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعهد الخلفاء من بعده ، وعاماً
بعد عام ، وقرناً بعد قرن ، انتشر الإسلام بهذه البقاع واستقر ، ونحطى
المضيق إلى أسبانيا ، وهنا وهناك قامت حضارات إسلامية عالية الشأن ،
جعلت القاهرة والقيروان وفاس والزيتونة وقرطبة تنافس دمشق وبغداد ،
وكان طبيعياً ألا تحول الصحراء الكبرى بين الحياة الجديدة بالشمال وبين
بدائية الحياة بالجنوب ، فالعرب الذين ماجت بهم أقاليم الشمال لهم صلة
وثيقة بالصحراء والحفاف ، فليس بدعاً أن يقتحموا الصحراء الكبرى ،
وأن يتخطوا القيافي ، وألا يقتنعوا بما قنع به الرومان من قبل ، الذين
نزلوا في الشمال وأداروا ظهورهم إلى الجنوب ، ومن هنا يمكن للقارئ
أن يتخيل قوافل التجارة ووفود الرحالة وجماعات الدعاة في سلاسل
لم تتوقف ، تروح وتجيء بين الشمال والجنوب عبر الصحراء ، ومراكز
الشمال التي غذت جنوب الصحراء بالإسلام والفكر الإسلامى هي :

(أ) بلاد المغرب وبخاصة عن طريق هجرات البربر .

(ب) المراكز الثقافية الإسلامية على طول الساحل الشمالى لإفريقية .

(ج) مصر والأزهر .

وستتکلم فيما بلى عن كل من هذه المراكز لنبين كيف أدت دورها في
خدمة الإسلام والحصارة الإسلامية :

(أ) بلاد المغرب :

كانت الصلة وثيقة للغاية بين بلاد المغرب وبين إفريقيا الغربية ، وكان
المحيط الأطلسى وطرق القوافل البرية تربط بين المنطقتين رباط وثيق ،

فما ضمن قيام علاقات برية وبحرية لم تتوقف في أى عصر من العصور ، فلما جاء الإسلام إلى بلاد المغرب صار له صدى سريع في مناطق الساحل الغربى التى تشغلها الآن موريتانيا والسنغال وغينيا ومالى ، وصراعان ما تبنى المسلمون الإسلام منذ عهد مبكر ، وبلغوا بأنفسهم في ظله درجة الدولة الصحراوية المتجهة نحو السودان : كأنهم كانوا يواصلون حركة المد الإسلامى التى وصلت إليهم ، واستمرت النهضات تتتابع إلى أن كانت دولة ابن يس وابن تاشفين ، وهى أبجد النهضات على الإطلاق ، وكانت في ترتيبها الرمنى النهضة الخامسة ، وأول دولة قامت هناك إنما وقعت زمن عبد الرحمن الداخل في نفس الوقت الذى ظهرت فيه تاهرت ، وكانت اندولة الثانية معاصرة للأداسة (بين ٢٢٢ و ٣٠٦ هـ) ، وكانت الدولة الثالثة معاصرة لخلافة الناصر وخلافة الفاطميين بالمغرب ، ثم كانت النهضة الرابعة هى النهضة التى أقامها ابن تيفانوت ، والتي استأنفها من بعده خليفته يعقوب بن إبراهيم الجدلالي صاحب ابن يس (١) .

وتأتى الهجرات من الشمال إلى الجنوب أهم وسيلة لانتشار الإسلام بين السودانيين . وقوام الهجرات هنا كان مصدره البربر سكان الشمال الذين تدفقوا على الإسلام منذ عهده المبكر ، والذين أسهموا بنصيب كبير في جيش المسلمين الذى اقتحم أسبانيا في نهاية القرن الأول الهجرى ، وقد كمل إسلام البربر في عهد الأداسة ، ولكن شيئاً زرع البربر وحرهم الاستقرار في بلادهم ، ذلك هو أن الفاتحين الجدد (العرب) لم يكونوا كالرومان يعيشون في المدن ويؤثرون الساحل على الداخل ، بل كان بين هؤلاء الفاتحين من ترك الساحل وفضل الآفاق الفسيحة بالداخل ، ومن ثم أنخل كثير من البربر مكانهم للعرب والدفعوا للجنوب ، ثم جاءت غارات بنى سليم وبنى هلال في عهد

المتنصر الفاطمي في القرن الخامس الهجري ، تلك التي اندفعت كالسيل يزحف على شاطئ إفريقيا^(١) ؛ فاتجه مزيد من القبائل البربرية نحو الجنوب واقتحموا أرض الزوج حيث نزلوا بلاد السنغال ، ثم اتجهوا شرقاً إلى النيجر وبنو وكانم . ويقرر Palmer^(٢) أن هواراة ولواتة ونفزاوة من قبائل البربر رحلت إلى الجنوب عقب غارات بني هلال وأحلافهم ، ويبدو أن السكان الأصليين في بنو فروا أمام زحف البربر ، كما فر هؤلاء أمام زحف العرب ؛ ولعل هذا هو التفسير المناسب لقول Palmer إن شعب بنو بربري الأصل . وكانت قبائل البربر تحيا حياة مستقلة أينما نزلت ، وتحافظ على استقلالها بقوة السلاح ، ولم يكن في طاقة الزوج أن يقاوموا البربر الوافدين عليهم ، فكانوا يستسلمون لهم ويتقادون لسلطانهم ، ويتأثرون بثقافتهم وفي مقدمتها الدين ؛ ومن هنا نشرت هذه الهجرات البربرية دين الإسلام في بقاع واسعة على الساحل الغربي لإفريقية وجنوب الصحراء .

وامتكاماً لهذه الصلة نقرر أن الاختلاط التدريجي تم بين الوافدين من البربر وبين الزوج أصحاب الأرض ، وكان التزاوج من أهم دواعي الاختلاط ، وبمرور الزمن نشأ جيل جديد يغلب فيه الدم الزنجي من جانب ، وثقافة البربر من جانب آخر ويدين بالإسلام ، وقد استطاع هذا الجيل أن يقتبس من سادة الأمس فنونهم العسكرية وتقاليدهم الاجتماعية والثقافية ، فاستبد بالسلطة وأقام الإمبراطوريات الواسعة التي كان الإسلام دعائمها^(٣) ، وليس هناك قطر آخر يتنافس المغرب فيها دفعه للجنوب من جماعات وفيرة نشرت الإسلام وخدمت أفكاره منذ عهده الأول .

(١) ابن خلدون : البربر ج ٦ ص ١٢ .

(٢) The Burno, Sahara and Sudan p. 91

(٣) Page : West Africa pp. 16—18

(ب) المراكز الثقافية بالشمال :

كان التأثير بالثقافة منبثقاً من بلاد المغرب ومن المناطق الواقعة إلى الشرق من بلاد المغرب ، وستحدث عن أهم المراكز الثقافية بالشمال ، تلك التي أسهمت بنصيب كبير في نشر الإسلام جنوب الصحراء .

القيروان :

كان فتح الشمال الإفريقي يتخذ في أول الأمر مصر مركزاً له ، وكان إلى مصر يوجه البعوث ويُمدُّها بحاجتها من المال والسلاح ، وكانت الأجزاء المفتوحة تُعَدُّ تابعة لولاية مصر ، بيد أن المناطق المفتوحة اتسعت وأصبحت المسافة بينها وبين مصر بعيدة ، ولذلك تطلع القادة والفاتحون إلى تكوين ولاية خاصة بهذه المنطقة من إفريقية تستقل في إدارتها عن مصر ، وكان من مظاهر ذلك أن أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان لتكون عاصمة لهذه المساحة الكبيرة ، وقد اختار لها مكاناً بعيداً عن البحر حتى لا تطرقها مراكب الروم ، وبنائها في أكمة عظيمة وغيضة تشابك أشجارها وتقع هذه الأكمة في موقع وسط بالنسبة للبلاد ، وفي هذا المكان اختط عقبة داراً للإمارة واختط الناس حوله^(١) ، وكان ذلك إلهاماً باستقلال هذه البلاد عن مصر ، فلما تم هذا الاستقلال واعترفت به الخلافة الأموية ارتفع شأن القيروان وأصبح واليها يتخذ لنفسه لقب أمير القيروان^(٢) .

وأصبحت القيروان قبلة المغرب وكعبة الحضارة ومقفل الإسلام بهذه البلاد ، ثم وفد لها كثير من الصحابة ، وأقاموا بها يفتقرون الناس في شئون

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ٧ ص ١٦٤ .

(٢) الطبري ج ٤ ص ١٧٨ . والاصطخري : للمالك والمالك ص ٣٤ .

بينهم كما دُفِنَ بها كثيرون ممن استشهد منهم ، ولذلك نجد الرواة والكتاب يخلعون عنها ثوباً من الإجلال ويحيطون تاريخها بكثير من الأفاصيص ، ولم تعد القيروان مركزاً يخرج منه الغزاة والفاتحون فحسب ، بل أصبحت مركزاً ثقافياً يخرج منه الفقهاء والمعلمون لينتشروا في البلاد ، يعلمون اللغة العربية وينشرون الاسلام^(١) :

ولما أصبح الأغلبة زعماء إفريقية بذلوا جهوداً كبيرة لخدمة الثقافة والفنون الإسلامية ، كما انجهوا بعنايتهم إلى القيروان فعنوا بمساجدها وأنشأوا بها حلقات للتدريس ، كما أنشأوا مدارس جامعة أطلقوا عليها اسم « دور الحكمة » ، واستخدموا لها الأساتذة من الشرق ، فكانت هذه المدارس عاملاً هاماً في رفع شأن اللغة العربية والثقافة الإسلامية^(٢) .

وأصبحت القيروان بذلك أول مركز ثقافي إسلامي بإفريقية ، إذ غلب الفكر والدرس على بعض مساجدها ، مما نقلها من طبيعة المسجد إلى طبيعة الجامعة ، على نحو ما حدث في الأزهر^(٣) بعد ذلك ، وظلت القيروان مفتوحة الأبواب حتى دبت الإسلام خلف الصحراء . فأرسلت من خريجيها من علم الإسلام على الجانب الآخر من هذه الصحراء ، كما استقبلت بين طلابها أعداداً كبيرة من هذا الجانب ، ومما يدل على أهمية القيروان أن يحيى بن إبراهيم ، زعيم قبيلة جدالة ومنشئ دولة المرابطين ، عندما أحس بالتزامه بخدمة الإسلام وانتقاد الزوج والبربر من ظلام الوثنية والجهل ، ذهب إلى القيروان وهي المركز الإسلامي العام ، حيث قابل أحد علمائها الأفذاذ ، وهو أبو عمران الناسي^(٤) وتلقى عنه ألواناً من الفكر والفقه ، ثم ذكر له أنه يريد أن ينقل

(١) حسين مؤنس : فتح العرب لمغرب ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٢) دكتور حسن محمود : الإسلام والثقافة العربية في إفريقية ص ١٦٧ .

(٣) ياقوت . معجم البلدان ج ٦ ص ٢٣١ .

إلى قومه في الجنوب ثقافة القيروان الدينية ، وطالب منه أن يرشح له أحد العلماء لذلك ، ليصحبه إلى قومه في الصحراء ، ورأى أبو عمران أن يحمله إلى تلمبذه فقيه السوس ، واسمه وچاج اللمتوني ، فاختار له وچاج تلمبذه عبد الله بن ياسين الذي قام بدور كبير لإنشاء دولة المرابطين (١) ، وهكذا انبعث من القيروان شعاع إلى الجنوب أدى دوره خير أداء (٢) .

ذلك كان دور القيروان فلنسر خطوة أخرى تجاه الغرب لتلتحق بأقدم جامعة عرفها التاريخ في الشمال الإفريقي ، هي جامعة القرويين بمدينة فاس :

جامعة القرويين بفاس :

الحديث عن جامعة القرويين يُلزمنا أن نعود إلى الوراء فترة من الزمن وأن نجول حول مدينة فاس ، من جهة الشرق ومن جهة الشمال لنعرف أسس الثقافة بهذه الجامعة .

فن جهة الشرق كان اكتساح الهلاليين للشمال الإفريقي من الشرق داهياً لكثير من العلماء أن يفروا أمام هذا الزحف من القيروان ، وأن يحلوا في المغرب الأقصى موئلاً لهم ، وهناك ألقوا عصا التسيار ، وحطوا الرحال في مدينة فاس بوجه خاص ، ثم أسسوا جامعاً نسب لهم ، فسمى جامع القرويين ، ثم خفف الاسم إلى جامع القرويين ، وكان ذلك سنة ٨٥٩ م .

وقد شُيد جامع القرويين من أول يوم ليكون مركزاً للتعليم ، وقد ظل كذلك باستمرار مدة أحد عشر قرناً ، وهو لذلك يعتبر أقدم جامعة إسلامية .

ولم يكن جامع القرويين أول مركز علمي في مدينة فاس ، لأنها كانت

(١) ابن خلدون : المغرب ج ٦ ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٢) اقرأ كذلك للمغرب لبيكي ص ٢٢ وما بعدها .

قبل ذلك تزدهر بالعلم والفكر ، ولعل ذلك هو الذي جذب علماء القروان إليها لينضموا إلى مواكب المعرفة في هذه العاصمة الخالدة (١) .
 أما عن الشمال فمن المعروف أن الحضارة الإسلامية بلغت ذروتها بالأندلس ، وأن أمراء الأمويين وخلقاءهم بالأندلس حولوا - في قرطبة - أن يستعملوا مجد أجدادهم في دمشق ، حتى أصبحت قرطبة تنافس بغداد والقاهرة ، وبعد سقوط الخلافة الأموية عثت قصور ملوك الطوائف كما عثت غرناطة فيما بعد بألوان الثقافة والفكر .

والذي يهمنا هنا أن ارتباطاً وثيقاً بين الأندلس وبين المغرب الأقصى وخاصة في عهد المرابطين ، فقد اندفع المرابطون بردون زحف الترمجة على مسلمي الأندلس وحققوا بذلك نصراً موزراً ، ثم عاد المرابطون إلى إفريقية فعاد المسيحيون بالأندلس إلى الزحف والتوغل في المناطق الإسلامية ، فهتبه المرابطون مرة أخرى لرد المعتدين ولكنهم انجسوا إلى الأيركوا الأندلس بعد عملية الإنقاذ كما فعلوا من قبل ، ومن هنا قامت وحدة بين المغرب والأندلس ، وكان من أبرز نتائج هذه الوحدة أن نشطت وفود العلماء الأندلسيين متجهة إلى قصور حكام المرابطين بالمغرب الأقصى ، وفتح المرابطون قصورهم وصلوهم لهذا الغزو الثقافي الذي جاء بلادهم من الأندلس ، كما فتح الأندلسيون أبوابهم للغزو العسكري الصاعد من بلاد المغرب ، ويعلق الباحثون على هذه النتائج بأن المغرب قدّم الجود والأندلس قدّمت العلم والفن الرفيع ، المغرب أخضع الأندلس سياسياً ، لكن الأندلس أخضعت المغرب ثقافياً ، وكان للوافدين من الأندلس إلى فاس شطر المدينة ، أما الشطر الثاني وكان للمشاركة (٢) .

(١) انظر المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ١١٥ وما بعدها .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٣٢٠ .

وهناك جماعة آخرون من أفناذ علماء الأندلس حملتهم مواهبهم إلى قصور خلفاء المغرب ، ومن هؤلاء ابن رشد الذى ولد بقرطبة ونشأ بها وظهرت فيها ثقافته وآراؤه ، ثم رحل إلى مراكش ليعيش بقية عمره فى رحاب الخليفة أبى يعقوب يوسف ، ومنهم ابن طفيل الذى عمل وزيراً لهذا الخليفة وكبيراً لأطبائه ، وقد زكاه لهجته المكانة ابن رشد ، فأحضره أبى يعقوب من الأندلس وولاه هذه المكانة الرفيعة ، وكثيرون جداً غير هذين (١) .

وإذا كانت بلاد المغرب قد حظيت بهذه المكانة العلمية ، فإن مدينة فاس كانت أهم مركز علمى فى هذه البقاع ، تفتحت للثقافة منذ نشأتها ثم جذبت لها ثقافة الأندلس ، فأصبحت منارة علمية فائقة ، وترجع نشأة مدينة فاس إلى القرن الثامن الميلادى ، وكانت عاصمة للبلاد عدة قرون ، كما اشتهرت باستقبال اللاجئين من مسلمى قرطبة الذين فروا من وجه زحف النصارى ، وبلغت أوج عظمتها فى عهد بنى مرين خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وقد شيدت بها الجوامع والمدارس السبع ، ومن أشهر دور العلم بها جامعة القرويين التى جلس بها خيرة العلماء ، والتى خرجت للمجتمع الإسلامى وفوداً من صفوة الفكر والثقافة ، ولم تكتف جامعة القرويين بالاتجاه للشمال بل اتجهت للجنوب ترسل وفود العلماء وتستقبل جماعات الطلاب ، حتى أصبح لجامعة القرويين مكانة عظمى فى نشر الإسلام خلف الصحراء ، وعندما أنشئت مراكز علمية إسلامية جنوب الصحراء فى تنبكتو وجنى وغيرهما كانت جامعة القرويين تمدّها بالمعلمين والأساتذة والكتب ، وكان الاتصال وثيقاً بين مراكز الجنوب وثقافة الشمال مركزة فى هذه الجامعة التى أثرت الفكر الإسلامى وخدمت الثقافة العربية ، وكان

لجامعة القرويين مكتبة مشهورة تشتمل على عدد كبير من المخطوطات النادرة . ولا يزال بعضها موجوداً بها حتى العهد الحاضر :

معاهد تلمسان :

• تلمسان مدينتان : إحداهما قديمة والأخرى حديثة ، وهذه اختطها المسلمون ملوك المغرب واسمها « تافرزت » ، ويسكنها أصحاب السلطان والجند ، واسم القديمة « أقادير » ، وتسكنها الرعية كالفسطاط والقاهرة^(١) .

وتلمسان منارة أخرى من منارات الفكر الإسلامى ، لعبت في العصور الوسطى دوراً هائلاً في خدمة الإسلام جنوب الصحراء ، ومن أشهر علمائها التلمساني المغربي الذي رحل إلى السودان ونزل على الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب ، وكان له باع طويل في العقائد ، فاجذب إليه الطلاب والمريدين من أنحاء مملكة الفونج ، وقد كتب لأحد ملوكهم عهداً يعطيه فيه الإمارة ولنيرته من بعده^(٢) ، وهذا يدل على أن مكانة الرجل تخطت الجاهير إلى السادة والملوك .

جامعة الزيتونة :

ونصل الآن للحديث عن مركز كبير الأهمية من المراكز العلمية الإسلامية بشمال إفريقيا إنه جامعة الزيتونة بتونس ، التي خدمت ولا تزال تخدم الفكر الإسلامى ، وقد شيد جامع الزيتونة في مطلع القرن الثانى الهجرى ، واهتم الأغلبة بتعميره وتجديده ، ثم أصبح جامعة للدراسات العربية والإسلامية فلعب دوراً كبيراً في خدمة الفكر الإسلامى لا فى تونس وحدها ، بل شمال الصحراء

(١) ياقوت معجم البلدان ج ٢ ص ٤٠٨ - ٤٠٩ .

(٢) دكتور عبد الرحمن زكى : الإسلام والمسلمون في شرق إفريقيا ج ١ ص ٢٤ .

وجنوبها ، وكانت قبلة كثيرين من طلاب العلم من البربر والزنج ، كما تخرج منها علماء رحلوا إلى جنوب الصحراء ففشروا الإسلام وخدموا فكره وثقافته .

(ج) مصر والأزهر :

وصلت الحضارة المصرية مدى بعيداً من الرقي في اتجاهات مختلفة ، كما ذكرنا من قبل ، وقد سارت الحضارة المصرية من مصر إلى غرب مصر في الشمال الإفريقي ، وإلى جنوبها والجنوب الغربي في بلاد النوبة وما جاورها غرباً حتى قلب إفريقيا .

ومصر تمثل الباب الشرقي لإفريقية ، ومن هنا تفلقت ألواناً من الحضارات الخارجية وفي مقدمتها الأديان ، وقد قامت مصر بحمل هذه الحضارات الوافدة إلى البلدان المجاورة ، فعن طريق مصر دخلت المسيحية بلاد النوبة ، وحملها مبشرون مصريون ، وعن طريق مصر دخلت المسيحية الحبشة ، وحملها أحد رجال الدين الإسكندرانيين ، ويدعى فرومنتيوس ، حوالي سنة ٣٣٠ ، أي في حكم عيزانا ، الذي كان أول ملوك الأحباش الذين اعتنقوا المسيحية^(١) ، وأصبحت كنيسة الحبشة تابعة للكنيسة المصرية .

وجاء الإسلام إلى مصر في وقت مبكر ، ومنها قامت الجيوش الإسلامية تابع الرومان في الشمال الإفريقي وتقضى على نفوذهم ، ولما استشر الإسلام في مصر وتم انتشاره وتغلصت المسيحية ، كان ذلك إيذاناً بانتشار الإسلام أيضاً في كل الشمال الإفريقي ، وفي بلاد النوبة وإيذاناً بتدفق الإسلام إلى الحبشة ، ويقول هوبرديشان^(٢) : ولا يفوتنا أن نذكر أن مصر من أهم المراكز التي زحفت منها الدعوة الإسلامية إلى ربوع إفريقيا ، ولكن

(١) Trimingham : Islam in the Sudan p. 49 ودكتور عبد المجيد حابدين :

بين الحبشة والعرب ص ٣٦ .

(٢) للبيانات في إفريقيا السوداء ص ١٣٢ .

المسيحية عاشت مدى أطول في هذه البلاد على عكس ما حدث في مصر وشمال إفريقيا ، لأن المسيحية ارتبطت بالاستعمار في البلاد التي كانت خاضعة للرومان ، وكان زوال الاستعمار الروماني خطوة قوّمت تمسك السكان بالدين المرتبط بالمستعمر ، ولم تكن المسيحية مرتبطة بالاستعمار في بلاد النوبة وفي المنصب الحبشية ، وهذا كتب لها عمراً طويلاً ، لأن الأهلين لم يقفوا منها موقف التحدي والخصومة ، ولم يعتبروها ثقافة المستعمر ، وهذا ما لها عمراً أطول حتى استقر الدين الإسلامي وانتشر ، فلم تقو المسيحية على المقاومة والصمود .

وتأسس الأزهر بمصر في العهد الفاطمي ، وسرعان ما أصبح الجامعة الإسلامية الأولى ، وتطلعت له الأنظار من مختلف الأقطار ، ووفد له وفود الطلاب من كل صوب ، وخرجت منه أفواج العلماء والمدرسين إلى كل اتجاه ، ومن الطبيعي أن ينال السودان والبلاد المجاورة له مزيداً من الفكر الذي ينشره الأزهر ، لقرب المسافة بين مصر وهذه البقاع ، ويذكر العلامة ود ضيف الله^(١) تفاصيل واسعة عن الطلاب السودانيين الذين نهلوا من الأزهر ، وعادوا ينشرون الإسلام في السودان ، وعن علماء الأزهر الذين تخطوا حدود مصر إلى السودان يحملون دعوة الإسلام وحضارته ويفشرونها في الجنوب :

وهكذا انتشر مذهب الإمام الشافعي بالسودان منسباً من مصر ، ويعزى إلى الكيماي المصري محمد بن قرم ، أنه هو الذي حل هذا المذهب إلى ربوع السودان .

وفي عهد دولة الفونج زاد اتصال مصر الثقافي بالسودان ، فقد رحل عدد كبير من السناريين لطلب العلم بالأزهر ، ومن هؤلاء إخوة أربعة هم

(١) انظر طبقات ود ضيف الله ص ٥ و ٦ و ٣١ و ٦٤ وغيرهما .

أحفاد العالم الكبير غلام الله بن عيضا ، كما قدم إلى سنار عدد كبير من علماء الأزهر المصريين ، كالشيخ محمد القناوى الذى استوطن بربر وشيد بها مسجداً جلس به ليعلم العقائد والنحو ، فخرج على يديه عند كبير من أبناء بربر وغيرهم ، وقد كان بيت هذا العلامة مركزاً للفكر والثقافة الإسلامية ، ولا زال أحفاده يبذلون أقصى الجهد لخدمة الإسلام بالسودان ، وقد أسعدنى الحظ أن التقيت بحفيده فضيلة الشيخ مجلوب مدر ، وكان فضيلته نائباً لمدير جامعة أم درمان الإسلامية ، وكنت أستاذاً بها عام ١٩٦٦ - ١٩٦٧ ، وأشهد لقد كان مثال العلم والخلق وحسن التعاون ، وهو بالإضافة إلى علمه يشغل مكان شيخ الطريقة النيجانية بالسودان .

ولم يقف نشاط مصر ونشاط الأزهر عند البلاد المتاخمة لمصر بل تخطاها إلى مراكز مختلفة بإفريقية ، فقد انتشر عن طريق التوبة إلى إقليم دارفور وكردفان ، ودخل ممكة كاتم المتصلة ببحيرة تشاد ، بل تخطى تشاد إلى بلاد الهوسا التى يذكر توماس أرنولد أنها تأثرت فى إسلامها بالمرجة الكبيرة التى زحفت من مصر نحو الجنوب فى القرن الثانى عشر^(١) ، وبهذا اتصل هذا التيار بالتيار الإسلامى القادم من غربى إفريقيا والوافد من بلاد المغرب . وعندما أصبح الأزهر موئلاً للتفكير الإسلامى وكعبة الفكر ، تصدهد عدد كبير من الطلاب من جميع ربوع إفريقيا ، وتطلع له أقصى الغرب كما تطلعت له الأقطار المجاورة لمصر فى شرق القارة ، وكان لأهل الكروور نصيب واضح فى هذا المجال ، فتدفقت منهم طوائف كثيرة لمصر ، وجلست بحلقات العلم فى الأزهر لتسمع من شيوخه الذين ذاع صيتهم فى كل البقاع . وابتنى تجار الكروور بمصر مدرسة للمالكية عرفت بمدرسة ابن رشيق ، وأصبحت مثابة لطلاب العلم من هذه البلاد^(٢) .

(١) مقدمة إلى الإسلام ص ٣٥٧ .

(٢) حامد حماد : علاقات الدولة المملوكية بالدول الإفريقية ص ٢٧ .

وقد سبق أن قلنا إن تذكروا التي كانت أهم مركز إسلامي في السودان الغربي كانت وثيقة الصلة بجامعة القرويين وبجامعة الزيتونة ، ونقول هنا إن تذكروا كانت كذلك وثيقة الصلة بالأزهر ، وكثيراً ما رحل علماءها إليه للاستزادة من العلم وللمقابلة العلماء ، وكانت لهم صلات بإمام مصر جلال الدين السيوطي ، ومن ناحية أخرى رحل كثير من علماء الأزهر إلى تذكروا وقعدوا للتدريس بها^(١) .

ومن غربي إفريقيا جاءت وفود الطلاب كذلك من برنو ، والتحقوا بالأزهر ، ثم عادوا إلى بلادهم ينشرون الإسلام ويخدمون ثقافته^(٢) .

وعن الأزهر يقول Jacques Baulin : 'تعد مكة المكان المقدس عند المسلمين ، وتعد القاهرة مركز الثقافة الإسلامية ، ومكانة الأزهر في العالم الإسلامي لا تعدلها مكانة ، ومنذ قرون عديدة والأزهر مفتوح للمسلمين يجدون فيه العلم ومشعل النور ، بل يجدون فيه المأوى والراح ، وكان الإفريقيون يتدفقون عليه ليتعلموا علوم القرآن والحديث وغيرها ، ولكن مصر كانت تستغل الأزهر لتغرس في نفوس الوافدين إليه ألواناً من المعارف والثورات والاتجاهات القومية ، مما حدا بأحد قادة نيجيريا أن يصرح أن مسلمي نيجيريا يعلون الأزهر مركز القيادة للعالم الإسلامي كله^(٣) .

وبلاحظ بنص الباحثين أن الأزهرى المصرى يتميز عن غيره بأنه ذو طابع علمي وقلما يكون ذا طابع صوفي ، فإن علماء الأزهر ومن أخذوا عنهم اتجهوا إلى تعليم الناس الفقه والتوحيد واللغة وغيره من العلوم الإسلامية والعربية ،

(١) عبد الرحمن السعدى : تاريخ السودان ص ٣٢ وما بعدها .

(١) Palmer : Islam in the Western Sudan and on the West Coast of Africa p. 33

(٢) The Arab Role in Africa p. 59

ولكن الاتجاه المصري أو المصري العلمي معاً ، كان طابع الثقافة الحجازية والمصرية والعراقية^(١) .

وكانت مصر طريقاً للحجاج الوافدين من غربي إفريقيا ووسطها ، وطالما انتهز هؤلاء فرصة الحج ليحطوا بالرجال بمصر فترة طويلة أو قصيرة ، يفترقون خلالها العلم والمعرفة من الأزهر ، ويتعرفون على الحضارة الإسلامية التي كانت القاهرة تحمل دائماً أبرز معالمها .

وهكذا كان دور مصر ودور الأزهر واسعاً في إفريقيا ، بل كان واسعاً في العالم كله ، كان العالم المصري والكتاب المصري والمعهد المصري كلها في خدمة الإسلام ، وكانت تقابري في شرحه وحمله إلى الناس في كل صوب .

(١) دكتور عبد المجيد طاهين : تاريخ الثقافة العربية بالسودان ص ٥٦ - ٥٧

انتشار الإسلام جنوب الصحراء

بواسطة هجرات عربية

ضافت الجزيرة العربية بسكانها بسبب الجفاف الذى أصابها ، وكانت اليمن قبل انهار سد مأرب غنية التربة ، غنية الحضارة ، حافلة بالناس ، فلما انهار السد ضافت اليمن كذلك بسكانها ، فاتجه العرب منذ عهد سبئ إلى الهجرة تجاه الشمال إلى بلاد الشام والعراق ، أو الشمال الغربى إلى مصر ، أو عبر البحر الأحمر إلى إفريقيا .

فلما جاء الإسلام وهزمت القوى الإسلامية جيوش الرومان فى الشام ومصر وشمال إفريقيا ، ثم ربط للدين بين هذه البلاد وبين الجزيرة العربية ، كان ذلك مما هبأ لموجة جديدة من موجات الهجرة العربية إلى إفريقيا ، وكانت هذه الهجرات ترحل للاستقرار فى القارة الواسعة ، وتعيش هناك ترفعى الماشية ، أو تخدم التجارة ، أو تبلغ الدعوة الجديدة وتعيش فى كنفها ، وبالإضافة إلى العامل الاقتصادى الذى دفع العرب للهجرة من جزيرتهم ، وجيد بعد الإسلام عامل سياسى دفع إلى الهجرة كذلك كالأحزاب ، والفرق الإسلامية ، وكسقوط دولة وقيام أخرى ، فإن ذلك جعل بعض الفرق أو بعض القبائل تفر من اضطهاد واقعى أو محتمل وتتخذ طريقها إلى إفريقيا .

وعلى الرغم من أن الهجرات جاءت من أمكنة متعددة من الجزيرة العربية ، وعلى الرغم من أن المهاجرين جميعاً خدموا الإسلام ونشروه ، فإن بلاد حضرموت جديرة بأن نقف عندها وقفه فيها إجلال وتقدير ، لما قام به بنوها فى هذا المجال ، فلقد تخطى هؤلاء الناس الصعاب ، وركبوا البر والبحر ، ونزلوا هنا وهناك ، ولم ينسوا قط دعوة هذا الدين فى حلهم ورحلهم ، فحملوا الإسلام إلى الناس ، وحلهم الإسلام إلى أسمى

الدرجات ، أعطوه من جهدهم ومن مالهم ، وأعطاهم من قلوبهم وحضارته ، وإن عدة ملايين من البشر في مختلف البقاع في آسيا وإفريقية يرتبط إسلامهم بهجرات حضرمية ، وقد اتصلت بهم ودحاً من الزمن بحكم على بالخارج ، فرأيت دورهم وكل منها منار يهدي للإسلام ، ورأيت حماسهم لا تنفد ، ورأيت مدارسهم واسعة الانتشار ، تستقبل أفواجا من التلاميذ ، وتغرس في نفوسهم حب الإسلام ، وفي عقولهم مبادئه ، ورأيت بجانب ذلك مجموعة من أساطين العلماء من السكان الأصليين اتسعت لهم بيوت الحضارة أيام كان هؤلاء طلاباً قراء ينشئون المعرفة . وقد يختلف الحضارة في مهجرهم فيما بينهم امتداداً لاختلافهم الطبقي قبل هجرتهم ، ولكنهم يتفقون ، أو قل يتنافسون في خدمة الإسلام ونشره ، وقد كانوا عوناً كبيراً لي وأنا أؤدى رسالتى باندونيسيا . وإذا كان بعض المهاجرين من العرب قد غرقوا في تقاليد البلاد التي يهاجرون لها ونسوا عروبتهن وإسلامهم ، فإن الحضارة . أو قل أكثرهم لم يفعلوا ذلك ، بل ظلوا - مع ولائهم الكامل للبلاد التي نزلوا بها ، ومع مشاركتهم الفعالة في خدمة هذه البلاد - يرتبطون باللغة العربية وبالإسلام ويعملون على نشر غذا الدين ونشر لغة القرآن ، وهم بذلك يخلمون الوطن الذي هاجروا إليه ، والوطن الذي هاجروا منه . تحية تقدير للحضارة يستحقون أن نسجلها لهم . على جهودهم في نشر الإسلام في آسيا وإفريقية .

ومن الطبيعي أن الهجرات العربية لإفريقية اتخذت طريقها عبر مصر أو عبر البحر الأحمر ، ولم يتوقف نشاطها عند الساحل بل تعمقت في كثير من الأحوال حتى وصلت قلب القارة ، ويلاحظ أن المهاجرين العرب لإفريقية قلما صحبوا زوجاتهم في هجراتهم ، فالمرأة العربية كانت التقاليد تحبسها من المغامرات والأخطار ، ثم كان العربي قريب الشبه في زيه وطعامه من أصحاب البلاد الأصليين ، أو قل إن له مقفلة ليصبح كذلك ، ونتج عن

هذا أن حدث نزواج وارتباط واسع المدى بين الطرفين ، وهذا الارتباط قصر المسافة بين الجانبين ، ويسر انتشار الإسلام ، وبخاصة بين جماعات اللادينيين ، وما كان أكثر هذه الجماعات إفريقية ، فتحققت بذلك نظرية علماء مقارنة الأدیان التي تقرر أن الدين الأعلى ينسكب في قلوب من لا دين لهم ، أو من يعتزلون في تدينهم على خرافات وأوهام ، وذلك كالسيل يتحدر من أعلى إلى أسفل ^(١) .

وقد أحس المسلمون من سكان البلاد الأصليين أن العرب جاءوا من أرض النبي ، وأن لهم أو للكثيرين منهم صلة نسب بـرمول الإسلام ، ومن هنا أسلموهم القبادة في كثير من الأحوال ، وأصبح طبعاً ما يقوله Mock ^(٢) من أنه قل أن ترى أسرة حاكمة في غربي إفريقية لا تنسب إلى أصل عربي ، ومنهم من يرتفع بنسبه إلى الأسر التي حكمت في الشرق كالأمويين ، بل أحياناً إلى الأسر التي تربط بالرسول كالعلوين والعباسيين والفاطميين .

ولقي العلماء والمفكرون الذين هاجروا إلى إفريقية من الحجاز والعراق وغيرها كثراً لينا وبسطة في العيش في المناطق التي رحلوا إليها ، فأغرام تلك ليستروا بها لينشروا دين الله ويخلصوا العلم والتصوف ، فاتخذوا من هذه المناطق مأوى جديداً واستوطنوها ^(٣) .

وبناء على وثيقة يشير لها Sir Thomas Arnold ^(٤) يُعتقد أن أول من هاجر من العرب إلى إفريقية هم جماعة من شيعة الشهيد زيد بن علي زين العابدين بن الإمام الحسين ، وقد فروا إلى إفريقية عقب هزيمة الثورة التي

M. M. Sharif : Muslim Thought, its Origin and Achievements (١)

p. 22.

The Northern Tribes of Nigeria Vol I p. 81 (٢)

(٣) دكتور عبد العزيز عبد المجيد : التربية في السودان : ج ١ ص ٥٥

The Preaching of Islam p. 373 (٤)

قام بها زيد وأعدم من أجلها سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠ م) في عهد هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي (١) .

ويعلق «سبحان» على هذه الرواية بقوله إن هذه الجباعة عاشت في مبدأ الأمر في خوف بين السكان الأصليين الوثنيين ، ولكنها نجحت بالتدريج في نشر الإسلام ثم في بسط نفوذها على طول الساحل ، بيد أن جماعة أخرى من العرب أقوى وأشد جاءت من الإخساء على الخليج العربي ، فارة من الصراع الذي كان يدور هناك في منتصف القرن التاسع بين الخلقاء والقرامطة ، ويقال إن هذه الجباعة عبرت البحر على ثلاث سفن ، ونزلت بالقرب من المكان الذي ينزل به الزيدية سالفو الذكر ، ولكن لما كان الزيدية من الشيعة والوافدون الجدد من أهل السنة ، فإن الزيدية ارتدوا إلى داخل إفريقية ، واندمجوا في السكان الأصليين ، تاركين الساحل للوافدين الجدد الذين كانوا أكثر عدداً وأوفر قوة ، ويقال إن هؤلاء هم الذين أسسوا مدينة «مقدشو» عاصمة الصومال الآن ، وهناك رأى آخر يرى أن مقدشو أسس في منتصف القرن العاشر ، وأن الذين أسسوها كانوا فرساً بدليل أن التسمية فارسية ، ويمكن التوفيق بين الرأيين باعتبار العرب أسسوا المدينة في القرن التاسع باسم آخر ، ثم زاد الفرس في المدينة وأطلقوا عليها «مقدشو» أو أنهم أطلقوا هذا الاسم على الحى الذى نزلوا به من المدينة أو على المنطقة التى بنوها ، ثم غلب الاسم على المدينة كلها .

وبمناسبة الحديث عن الزيدية واندماجهم في السكان الأصليين بإفريقية ، نذكر ملاحظة مهمة هي أن المذاهب المتعددة التى كانت تموج بها العراق وفارس والجزيرة العربية لم تجد في إفريقية فرصة الازدهار ، فإن الوافدين سرعان ما كان يتلهمهم تيار الإسلام العام في الغالب ، وهكذا كثرت الفرق

(١) اقرأ عنها في الجزء الثاني من هذه المرسومة .

بالشرق وقلت قلة واضحة في إفريقية والأندلس ، ولم يستطع التشيع أن يثبت جزوره بهما ، كما اختفى التعصب للمذاهب الفقهية الذي كان شديداً الوضوح في العراق ، لدرجة أن الحنابلة اعتدوا على الخطيب البغدادي بجامع المتصور ببغداد سنة ٤٥١هـ (١) ؛ وقد انتشر مذهب مالك في إفريقية ، ثم مذهب الإمام الشافعي وعاش المذهبان جنباً إلى جنب في تعاون ظاهر .

ولتعد لوفود المهاجرين العرب إلى إفريقية لنذكر أنه في القرن الخامس عشر جاءت من حضرموت جماعة تتألف من أربعة وأربعين عربياً ، فزلوا بربرة ، ثم انتشروا في بلاد الصومال يدعون إلى الإسلام ، وقد شق أحد هؤلاء المهاجرين واسمه الشيخ إبراهيم أبو زرباي طريقه إلى هرر حوالي سنة ١٤٣٠ واستطاع أن يحول كثيرين إلى هذا الدين ، ولا يزال قبره موضع تعظيم وتبجيل في هذه المدينة (٢) .

وتابعت الهجرات العربية إلى الساحل الشرقي لإفريقية ، وإلى الجزر المجاورة للساحل ، ويذكر المؤرخون هجرات من اليمن والحجاز وحضرموت انسابت إلى هذه البقاع وإلى ربوع السودان العربي ، واختلطت بالسكان ، وانتشر الإسلام في ذلك البحر الجديد ، وبرزت سلطنات عديدة حاكمة أوقبائل ذات نفوذ كبير ، وقد تحولت أرض البجة إلى إقليم عربي بسبب الهجرات المتتالية التي نزلت بها ، وأول هذه الهجرات هجرة عرب ربيعة في نهاية القرن السابع الميلادي ، ثم هجرة جماعات من الأمويين في منتصف القرن الثامن عقب سقوط الدولة الأموية ، وقد فتحت هاتان الهجرةتان الطريق لمهاجرات أخرى ، ولم يمض جيل وجيل حتى كانت اللغة العربية هي لغة أكثر السكان ، وكان النفوذ في أيدي السلالات العربية (٣) .

(١) ياقوت معجم الأدياب : ١ : ٢٤٧ .

(٢) دكتور عبد الرحمن زكي : المسلمون في العالم ج ٢ ص ٥٢ .

Trimingham : Islam in the Sudan p. 10 ff

Paul : History of Beja Tribes p. 73

(٣) انظر

وقد تعرض السودان وادى النيل وبخاصة مناطق النوبة والبلجة وسائر
هجرات عربية أكثر كثافة بسبب موقعه بالنسبة لنصر ، وبالنسبة للبحر
الأحمر ، وعلى هذا استقبل السودان وفود المهاجرين من الناحيتين ومن وقت
مبكر للغاية ، وهذا هو السبب في أن السودان وادى النيل أصبح بلداً عربى
الدم واللغة ، بالإضافة إلى انتشار الإسلام به ، ويذكر يعقوب باشا أرتين
أن العرب استقروا في بلاد النوبة من عهد مبكر ، وكانوا منتشرين على
ضفاف النيل الأزرق ، وفي القرن العاشر الميلادى كانت ثرواتهم قد زادت
زيادة كبيرة ، وبدأ نفوذهم يظهر حتى أنهم استطاعوا أن يلتمسوا الإذن
ببناء مسجد في سوبا عاصمة المملكة المسيحية آنذاك^(١) .

وقد مهدت هذه الهجرات العربية للسودان لقبيلة جهينة أن تقتحم هذه
البلاد ، وسرعان ما اندمجت هذه القبيلة في الأهليين ، ونجحت في كسر
شوكة الأمراء النوبيين ممهدة بذلك لانتهاى العهد المسيحي ، وقيام دولة
الفونج ، وقيام هذه الدولة كان انتصاراً للعروبة وللإسلام بصفة رسمية ،
فتراج الانتصارات الشعبية التي سبقتها .

والتاريخ يتحدث طويلاً عن هجرة المسلمين إلى الحبشة مرتين قبل
هجرة إلى المدينة ، وعن محاولة قريش استعادة هؤلاء المهاجرين ، ويذكر
التاريخ أن جعفر بن أبى طالب شرح للنجاشي باسم المسلمين دعوة الإسلام ،
ورأى المسلمين في مريم وفي المسيح . . . وأن النجاشي تأثر بكلام جعفر
حتى يقال إنه اعتنق الإسلام والمهم هنا أن جعفر لقى مقاماً طيباً
ببلاد الحبشة ، وأن حياته هناك طالت فلم يرجع للجزيرة العربية عقب
الهجرة ، بل بقى بالحبشة حتى العام السابع للهجرة ، ويبدو أن ذلك
الوضع هو الذى جعل جماعة من سلالة أخيه عقيل بن أبى طالب تهاجر
إلى الحبشة .

وقد نزل بنو عقيل في بقعة يقال لها جَهْرَة أو جَبَرَت ، وقد نُسب هؤلاء ، المهاجرون إلى تلك المنطقة فأصبحوا يعرفون بالجبرية ، وإليها ينسب الشيخ المؤرخ الجبري الذي ينحدر من هذه الأرومة . واستطاع أحفاد بنى عقيل أن ينشروا الإسلام في هذه المنطقة ، ويمرور الزمن استطاعوا أن يكونوا أول دولة إسلامية في الحبشة . وأخذ نفوذهم يمتد ، حتى إذا جاء القرن الرابع عشر كان قد تم لهم تأليف سبع ممالك زاهرة سميت (الطراز الإسلامي) ، لأنها على جانب البحر كالطراز له^(١) . وسنتحدث عنها في الباب الرابع .

وهكذا أصبحت المنطقة الشرقية توصف بأنها سلطنات عربية إسلامية ، فنجوار ممالك الطراز الإسلامي كانت هناك سلطنات مشابهة في مقدشو ، وعلى ساحل البحر الأحمر والمحيط الهندي ، وفي الحزر المتأصلة للساحل ، وقد نعمت الشعوب الأصلية في هذه المناطق بالحكم الحديد ، وتعاونت معه في ظل الإسلام .

وفي القرن الحادي عشر حصلت هجرة بنى هلال وبنى سليم ، وهى هجرة أشبه بالطوفان ، دمرت من جانب وشيدت من جانب آخر ، كانت في فورتها عاتية ، حاربت وحرقت وخرّبت ، فلما انتهت موجة الصخب بدأت نتائج لم تكن في الحسبان ، فإن كثيرا من قبائل البربر - كما قلنا من قبل - فرّت إلى الجنوب واستقرت هناك ونشرت الإسلام ، واستقر بشمال إفريقيا كثير من الهلالين فكتبوا بذلك رجحان الجنس العربي واللغة العربية والدين الإسلامى بهذه المنطقة ، ولم يقف الحال عند هذا الحد بل تسرب من الهلالين ومن أعوانهم جماعات إلى الجنوب ، فكانوا من أهم العوامل لنشر الإسلام وازدهاره خلف الصحراء

(١) سجع الأمشى لقلقشنى ج ٥ ص ٣٢٤ - ٣٢٦ .

والقرهيزى : الإمام بأعبياد من بالحبشة من ملوك الإسلام

وإذا كان الخليفة المستنصر الفاطمي هو الذي دفع الحلاية إلى الاندفاع نحو إفريقيا فإن انتهاء دولة الفاطميين بمصر وقيام الدولة الأيوبية ، أو بالتالي حدوث التحول المذهبي من الشيعة إلى السنة دفع جماعة آخرين من العرب للهجرة من مصر إلى شرق السودان وإلى كردفان ، وكان هؤلاء يفخرون بأنهم ينحدرون من العرب (١) .

وهكذا تدفقت الهجرات العربية عبر القرون إلى إفريقيا وبوجه خاص إلى الشمال والشرق ، وكان لها أثر كبير في نشر الإسلام ، بل امتد أثر هذه الهجرات إلى الحبش واللبنة فأصبحت مناطق الشمال وكثير من مناطق الشرق عربية الدم واللسان . وهناك حقيقة تلفت النظر ، هي أن فيض المهاجرين العرب كان وفيرا في الشمال والشرق ، فتعربت بلاد الشمال والسودان العربي ، أما المهاجرون العرب إلى الأماكن الأخرى جنوب الصحراء فكانوا قلة نسيما ، وانتشر الإسلام بهذه الأماكن الأخرى : عن طريق التجار والبربر والطرق الصوفية . . . وبناء على هذه القاعدة كان ينبغي أن تصبح الحبشة بلاد عربية مسلمة ، وقد أوشكت أن تكون كذلك ، فقد قامت بها إمارات وممالك عربية اللسان ، مسلمة الدين ، ولكن الاستعمار الأوربي ابتداء من عهد البرتغال حتى العهد الحاضر بذل أقصى الجهد لجعل منها قلعة مسيحية وسط القارة .

انتشار الإسلام جنوب الصحراء

بواسطة هجرات غير عربية

يعتقد المسلمون أن الإسلام دين الناس جميعا ، وأن المسلم أيا كان جنسه يحس بأن الإسلام دينه ، يشقى اتجاهاته الروحية ، وينير له السبيل ، ويهديه لما فيه خير الدنيا والآخرة ، ولا يحس مسلم أيا كانت جنسيته أنه دخيل على جماعة المسلمين أو أن الإسلام مستورد إليه ، فالمسئولية تجاه نشر الإسلام والدعوة إليه يشترك فيها العربي وغير العربي ، وقد قام العرب بتصيبهم من المسئولية دون إهمال أو تقصير ، وقام غير العرب بتصيبهم كذلك دون إهمال أو تقصير ، وسرى فيما يلي صورا من نشاط المسلمين غير العرب لنشر الإسلام داخل إفريقيا .

ولعل أقدم الهجرات التي قام بها مسلمون غير عرب، هي تلك الهجرة الفارسية التي قدمت من شيراز في القرن العاشر الميلادي، وكانت بزعامة حسن بن علي ، أو علي بن حسن على اختلاف في الروايات ، ويروى أن هذا الزعيم كان ابن سلطان شيراز ، ولكن أمه كانت حبشية ، فجهده إخوته لذلك ، فقرر أن ينتقل إلى أرض السود ، فركب مجموعة من السفن ومعه أهله وأتباعه ، ورسى هذه السفن في أماكن متعددة على الشاطئ الشرقي لإفريقية ، فرست إحداها في مبابسا والثانية في بجا ، والثالثة في مكان أنشأ فيه هؤلاء المهاجرون مدينة كلوا وكان الإسلام قد عرف في هذه البقاع قبل ذلك ولكن هؤلاء المهاجرين زادوا نشره واخلطوا بالسكان، حتى أنهم لم يتسكوا بأنجاهتهم الشيعية ، واندمجوا في مذهب الشافعي الذي كان سائدا قبل حضورهم ، وبمرور الوقت أصبح لكلوا سيادة على مدن الساحل .

ويروى يحيى الدين الرنزي الذي نخص كتاب السلوى في تاريخ

كلوا خبر هؤلاء الوافدين ، فيذكر أنه وصل إلى كلوة سفينة فيها أناس يزعمون أنهم من بلاد شيراز من أرض العجم ، وقيل إن هؤلاء جاءوا على سبعة مراكب نزلت في مناطق متقاربة بالساحل منها كلوة وهزوان ، وأن رؤساء المراكب الستة إخوة وصاحب المركب الذي دخل هزوان هو أبوهم ، وكان هؤلاء فارين بأنفسهم^(١) . من مؤامرات ضلهم ، وهناك رواية أخرى أن الفارين من شيراز كانوا جماعة من الشيعة هرب من وجه طغرل بك السلجوقي الذي فتح شيراز سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ، وعلى هذا يكون تأسيس سلطانهم على الساحل الإفريقي يعود للقرن الحادي عشر ، لا للقرن العاشر كما يرى الرأي الأول .

وعلى كل حال فقد ازدهرت إمارة كلوا حوالى ذلك التاريخ ، وسرعان ما أصبحت أكثر هذه الأماكن رقياً وحضارة ، وتوطدت صلتها بزنجبار ، وأنشئ به مسجد وأبنة ظهر فيها الضابع الشيرازى الفارسي^(٢) .

وانتشر الإسلام في جزيرة مدغشقر ، ويعزى انتشاره إلى مهاجرين من جزر الملايو في حوالى القرن الخامس عشر^(٣) .

وعندما كان الاستعمار الإنجليزي جاثماً على الهند شجع نشاط المذاهب المختلفة التي تنتمى للمسلمين وكان بذلك يقصد التفريق بين المسلمين بل جعل من بعض الانحرافات مذاهب دافع عنها وبالتالي دافعت عنه ، وطال عمر المستعمر في ظل هذه الخلافات ، والمهم هنا أن الإنجليز وجدوا أن المناطق الإسلامية بإفريقية أكثر نظاماً وأسرع استجابة للقوانين ، ولكن الإنجليز بطبيعة الحال لا يحبون الإسلام ويخافونه ، لأنهم لا يريدونه وحدة قد تتجه ضدهم فتتوض

(١) السلووى تاريخ كلوا : مخطوط نشر في J.R.A.S. سنة ١٨٩٥ ص ٤١١ .

(٢) المخطوط السابق ص ٤١٧ - ٤١٨ .

(٣) جبريل قرارة : المسلمون في مدغشقر .

حياتهم : ومن أجل هذا أدخل المستعمرون إلى إفريقية أفواجا من المهاجرين الذين يتبعون المذاهب التي رباها الاستعمار في الهند ، وعلى هذا حفلت المستعمرات الإنجليزية بجماعات من الإسماعيلية والأحمدية ، وراح هؤلاء وأولئك يدعون للإسلام كما يرونه ، فكان لهم نشاط واسع في المستعمرات الإنجليزية بإفريقية الشرقية والجنوبية والوسطى ككل بنجاح كبير ، ولكن النتيجة التي لم يتوقعها الاستعمار كانت انتشار الإسلام في هذه الربوع دون انحرافات تذكر ، لأن إفريقية — كما قلنا من قبل — لم تكن أرضا خصبة للخلافات والفرق والمذاهب ، وسيكمل انتشار بقايا الانحرافات مع تطور الفكر عند هذه الشعوب ، ومع عمق صلتهم بالمراكز الإسلامية والحضارة الإسلامية .

وإذا تركنا قليلا نطاق المنطقة التي نتحدث عنها وذهبنا إلى جنوبي إفريقية ، وجدنا الإسلام منتشرا هناك عن طريق جماعات من أهل الملايو وإندونيسيا ومن سيلان وشبه القارة الهندية ، وتلك أيضاً حصة غير مقصودة للاستعمار ، فقد نفي بجنوبي إفريقية بعض العناصر التي ثارت عليه في البلاد السابقة ، أوجاعهم لينتفع بنشاطهم الاقتصادي وهو يستغل هذه المنطقة ، أو هاجر هؤلاء بعد أن تعرفوا على جنوبي إفريقية بواسطة الاستعمار الذي كان صاحب النفوذ في بلادهم وفي هذا الجنوب ، ولكن هؤلاء وأولئك لم ينسوا الإسلام في مقرهم الجديد ، وكأنهم كانوا دعاة رحلوا ليحملوا للناس دعوة الله ، فما إن حطت رحلهم في جنوبي إفريقية حتى انطلقوا يدعون للإسلام ، واستجاب لهم الكثيرون ، وتآلف من المهاجرين ومن الذين استجابوا لهم بالجنوب وحدة إسلامية واحدة متناسبة الوطن الأصلي الجنس واللون ، وهي الآن جالية يُحسب حسابها في هذه البقاع .

انتشار الإسلام جنوب الصحراء

بواسطة التجار

ينبغي في مطلع هذا الحديث أن نوضح أن المقصود بالتجار هنا ، التجار غير المستوطنين في هذا القطاع الذي نتحدث عنه ، أى التجار الذين يفدون بقصد التجارة ، ثم يعودون لمواطنهم الأصلية في شمالى القارة أو خارجها ، أما التجار الذين هاجروا لهذه المنطقة واستوطنوها فقد شملهم حديثنا السابق عن نشاط المهجرات العربية وغير العربية وأثرها في خدمة الإسلام ونشره ، لأن نشاط المهاجرين يرجعُ نشاطَ التاجر .

وكانت هناك إفريقية مسالك عرفها التجار منذ أمد بعيد ، وكانت هذه المسالك تربط بين شمال الصحراء وجنوبها ، أو تصل بين شرق القارة ووسطها ، أو بين الغرب والوسط ، وقد سار الرحالة العرب الذين تحدثنا عنهم بالباب الأول في هذه المسالك ، ووصفوها أدق وصف ، وبينوا المراكز التجارية الكبرى التى تقع عليها ، والمراحل المختلفة بين كل مركز تجارى وآخر ، ولذلك سُمى كثير من كتب هؤلاء الرحالة « المسالك والممالك » وإذا تصفحنا الجزء الذى بين أيدينا من « المسالك والممالك » لأبى عبد الله البكرى وهو المختص ببلاد إفريقية والمغرب وجدنا تفاصيل دقيقة تهدي السارى وترشد السالك ، وفيما يلى بعض عناوين أبحاثه :

- | | |
|---|--------------------------------|
| المشهور من المدن والقرى في الطريق من مصر إلى برقة والمغرب ص ١ | — |
| ص ١٤ | — الطريق من أوجلة إلى الواحات |
| ص ٧١ | — الطريق من القيروان إلى وهران |
| ص ١٠٩ | — الطريق من طنجة إلى فاس |
| ص ١٤٦ | — الطريق من فاس إلى سجلماسة |
| ص ١٥٢ | — الطريق من سجلماسة إلى أنعمات |

- ...
 - الطريق من سجلماسة إلى درعة ص ١٥٢
 - الطريق من تامدات إلى أودغست ص ١٥٦
 - الطريق من وادي درعة إلى الصحراء فبلاد السودان ص ١٦٣
 - بلاد السودان ، ومدنها الشهيرة ، واتصال بعضها ببعض ،
 والمسافات بينها ص ١٧٢

ووصف البكري هذه الطرق وصفا دقيقا مبيّناً عدداً للمراحل بها ،
 وذاكراً أهم ما يقع عليها من مدن وأسواق ، وأهم ما يُعترض بالأسواق
 من سلع^(١) .

وسير ابن خرداذبة^(٢) على هذا المتوال ولكنه يكثر البحث والدراسة حول
 المسالك والممالك ببلاد المشرق ويختزئ الحديث عن إفريقية ؛ ومن الطرق
 التي وصفها بإفريقية طريقتان هما :

- الطريق من القسقاط إلى المغرب ص ٨٤
 - الطريق من برقة إلى المغرب ص ٨٥

ويذكر قدامة بن جعفر^(٣) وصفا مفصلاً للطريق من القسقاط إلى برقة
 وإفريقية والمغرب .

ويورد الإصطمخري تفاصيل دقيقة عن مراحل المسافات من بلد إلى
 بلد بإفريقية^(٤) .

ويتحدث الدكتور شعيرة عن أهم طرق قوافل المغربية ذاكرة أنها
 لم تكن تتغير عما كانت عليه قديماً ، وأنها لا تزال قائمة بين المغرب الشمالي
 وبين السنغال والنيجـر وأهمها :

(١) انظر ص ١٥٢ و ١٥٥ كـ تـ مـ جـ للأتوق والسلم .

(٢) المسالك والممالك .

(٣) نيزه من كتاب الخراج طبع في مجلد واحد بعد المسالك والممالك لابن خرداذبة ،
 حوصفت هذا الطريق يقع في صفحة ٢٢٠ وما بعدها . (٤) المسالك والممالك ص ٢٧ .

(التاريخ الإسلامي ٦ : ١٣)

١ - الطريق الذى يبدأ من أغادير الواقعة على شاطئ الأطلس عند مصب نهر السوس ، ويسير جنوبا إلى عاصمة موريتانيا (نواكشوت) ، ثم يستمر فى سيره حتى يصل إلى مصب السنغال .

٢ - طريق مالى وغانة ، وهو الطريق الأوسط الممتد من سباجامسة ثم ذرعة إلى أودغشت ثم النيجر .

٣ - طريق الصحراء من أرض السودان إلى جبل نفوسة وطرابلس^(١) ويوضح الأستاذ أحمد عطية الله أن الإسلام سلك مع التجار إلى غرب إفريقيا عدة طرق من ، أهمها الطريق الذى يبدأ من فاس أو تلمسان إلى سبجلمة فأدرار إلى تمبكتو ، والطريق من تامسان إلى مكة الجديدة ، وطريق القيروان أو طرابلس إلى غدامس فتبكتو . كما سلك الإسلام مع التجار إلى السودان الأوسط وبحيرة تشاد عدة طرق أهمها الطريق من المهدية وطرابلس إلى مرزوق فكوكا ، والطريق من طبرق إلى وادى مخترقا أوجيلة والكفرة ، والطريق من القاهرة إلى دارفور فكوكا ، وهذا جعل السودان الأوسط يتأثر بموجتين ، إحداهما قلمت إليه عن طويق تونس وطرابلس والثانية من وادى النيل^(٢) .

وعلى هذه الطرق أو المسالك قامت مدن تجارية لعبت دورا مهما فى خدمة الإسلام ، وهذا يدل على صلة انتشار الإسلام بالتجارة ، فإذا رزت مدينة تجارية يؤمها البائع والمشتري ، سرعان ما تصبح مركزا ثقافيا يؤمها المعلم والمريد ، حتى أصبح من الشائع أن مراكز الاحتكاك تُبْذَلَتْ فيها السلع والأفكار ، وقد تغلب الجانب الاقتصادى على بعض المراكز مثل جينى ، وتغلب جانب العلم على مراكز أخرى مثل كانو ، واشتهرت تمبكتو بالأمرين جميعا على حد سواء تقريبا ، ويقول Basil Davidson^(٣) . إن

(١) دكتور محمد عبد الهادى شيرة: المرابطون وتاريخهم السياسى ص ١٦ - ٢٢ بإيجاز

(٢) القاموس الإسلامى ج ٣ ص ٥٥٢ .

(٣) The Lost Cities of Africa p. 90 (٢)

تمبكتو وجنى وولانة وجاو وأجاديس كانت في السودان تمثل ميلانو ونورمبرج بالعصور الوسطى ، كانت غنية وقوية ذات نفوذ تفرضه على المناطق المجاورة ، وكانت ترحب بالقوافل التي تأتي لها من الشمال عبر الصحراء ، تحمل الخيل والسيوف والأقمشة ، والسلع الصغيرة ، وتحمل الملح من مناجم الصحراء الكبرى ، وكانت القوافل تعود بالذهب والعبيد والأخشاب ، ومنتجات المناطق الاستوائية التي كانت تتجمع في بلدة ييجو التي كانت مركزاً لتجميع الصادرات الاستوائية ، وإرسالها إلى جنى ومنها إلى الشمال (١) وفيها إلى كلمة قصيرة عن أهم المراكز التجارية التي أدت دوراً ثقافياً واسعاً .

تَمبُكُتو :

مدينة تَمبُكُتو تقع على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى ، بالمنطقة المعروفة بمنحنى النيجر ، عند دوران قوسه الشمالى ، وقد أسسها الطوارق (من البربر) في القرن الخامس من الهجرة ، فكانوا ينزلون بها بهور الصيف ، وفي الخريف يرتحلون ، ومن أسباب اختيارهم لهذا المكان أن به كثيراً من الآبار ذات المياه العذبة ، كما تصل إليه قنوات متفرعة من نهر النيجر ، وعاماً بعد عام استقر بعض الطوارق في هذا الموضع ، فظهرت هذه المدينة سنة ١٠٨٧ وكان ذلك في عهد المرابطين (٢) .

وتذكر الروايات أن « تمبكتو » اسم امرأة عجوز كانت تسكن هذا المكان قبل إنشاء المدينة ، وكان الرحالة ينزلون حول بيتها فتساعدهم ويساعدونها ، وتحرس لهم بعض متاعهم ، فلما أنشئت المدينة كان اسم المرأة قد أصبح علماً على المكان فسميت المدينة باسمها (٣) .

واستولى الصنغى على تمبكتو من البربر بعد تشييدها بوقت ليس بالطويل ، وتحت سلطان مملكة صنغى علا شأن تمبكتو وذاع صيتها ، ولما

(١) انظر كذلك الممالك والممالك للإسطنبولى ص ٢٤ و ٢٧ .

(٢) السدى : تاريخ السوطا ص ٢٠ - ٢١ .

(٣) آدم عبد الله الألويسى : سويتر تاريخ تيجريتا : ص ١٥٢

تقلب متسمى موسى سلطان مالى (١٢٠٧ - ١٢٣٢ م) على مملكة صنغى
امتد نفوذه إلى تمبكتو أيضا ، وقد حظيت تمبكتو بعناية متسمى موسى الذى
استقدم مهنساً معارياً عزيماً من أسبانيا الإسلامية ، هو أبو إسحاق الساحلى (١).
فشيده له فى تمبكتو قصر أعظيماً ومسجداً ضخماً .

وقد زار ابن بطوطة مدينة تمبكتو سنة ١٣٥٣ وذكر أنها تبعد عن النيل
(يقصد النيجر) بأربعة أميال ، وأن سكانها من قبيلة مسوفة أهل الشام (٢)
وعند ما ضعف مالى عاد الطوارق فاستولوا على تمبكتو سنة ١٤٣٣
وعينوا عليها حاكماً منهم .

وفى سنة ١٤٦٨ عادت تمبكتو إلى أيدي الصنغى أيام صنغى على ، وفى
أيام أسكيا الحاج محمد وصلت ذروة مجدها التجارى والثقافى ، ثم زادت
بهجة وبهاء فى عهد أسكيا داود .

وفى سنة ١٥٩٤ استولى المراكشيون على مدينة تمبكتو ضمن ما استولوا
عليه من أملاك صنغى ، وأمر ملك مراكش جنوده بإرسال علماء تمبكتو
والأبواب من كتب عبر الصحراء إلى مراكش ، واضمحلت تمبكتو بعد ذلك ،
ثم تدارلتها سلطات مختلفة متحدث عنها عقب حديثنا عن نهاية صنغى ، ووقعت
أخيراً فى أيدي افرنسيين سنة ١٨٩٤ ، وهى الآن إحدى مدن جمهورية مالى .

وقد سبق أن قلنا إن المالى كانت أسواقاً ملهمة ومراكز تجارية كبيرة
لعبت فى نفس الوقت دوراً ثقافياً عظيماً ، لشدة ارتباط الثقافة الإسلامية
بالمراكز التجارية فى إفريقية . وكانت تمبكتو قمة فى المجالين التجارى
والثقافى ، ومنتهى حديثنا هنا من جانبها الاقتصادى تاركين الجانب الثقافى
لتحدث عنه فيما بعد عند حديثنا عن دور المراكز اللطيفية فى نشر الإسلام
جنوب الصحراء .

ومركز تمبكتو التجارى كان واضحاً منذ نشأتها ، إذ أنها تقع على ملتقى

(١) ابن بطوطة : كبير ج ٦ ص ٢٠١ .

(٢) ابن بطوطة : تحفة الخطوط ج ٢ ص ٢٤٧ .

طرق القوافل البرية عبر الصحراء ، والقوافل النهرية التي تسير بنهر النيجر ،
وأهم الطرق البرية التي كانت تتصل بتمبكتو أربعة هي :

- ١ - الطريق من مصر ماراً بكانم إلى تمبكتو .
- ٢ - الطريق من تونس ماراً بهجار إلى تمبكتو .
- ٣ - الطريق من المغرب الأقصى ماراً بسجلماسة ونوات إلى تمبكتو .
- ٤ - الطريق من تعازة ماراً بولانة إلى تمبكتو .

وفي القرن الثاني عشر ذاع صيت تمبكتو كمرکز لتجارة الملح والذهب بعد أن تحول لها النشاط التجاري الذي كانت ولاته تقوم به ، (وسنذكر عن ولة فيما بعد) وكان الملح يأتي تمبكتو من تعازة في الشمال حيث كان يوجد الملح في شكل ألواح ضخام متراكبة كأنها قد نحتت ووضعت تحت الأرض ، ولشدة ضخامتها لم يكن الحمل يحمل منها إلا أوجين ، وكانت البيوت والمساجد تبنى بهذه الألواح ، وكان ثمن الملح يختلف باختلاف المكان الذي يباع فيه ، فهو رخيص في تعازة ، وكلما بعد عنها ارتفع ثمنه حتى يصبح الحمل بأربعين مثقالاً من الذهب بمدينة مالي^(١) .

وقد أعجب الحسن بن محمد الوزان Leo Africanis بتمبكتو ، وقال إنها كانت عامرة بمجوانيت الصناعات والتجار ، ولا سيما الحوانيت التي تباع بها المنسوجات القطنية والأقمشة المصنوعة في أوروبا التي يحملها تجار المغرب^(٢) ، واشتهرت تمبكتو كذلك بالتجارة في ريش النعام والعاج والذهب .

وذكر السعدي أن تمبكتو كانت مأوى العلماء والعابدين ، وملتقى التجار

(١) ابن بطوطة : تحفة النظار ج ٢ ص ٢٣١ .

(٢) Tome II p. 38 note 307 ، نقلاً عن انتشار الإسلام في إفريقيا للدكتور

والسيار الذين جعلوها خزانة لمتاعهم ، وزروعهم ، وكان يأتيها الناس من كل جهة وكل مكان حتى صارت سوقاً للتجارة ، وأمتها ذور الأموال من كل قبيلة ومن كل بلد ، فكان يقد لها تجار مصر وفزان وغدامس وتوات ودرعة وفاس وسوس وغيرها^(١) ، وبها قبر سراج الدين بن الكويك أحد كبار التجار من أهل الإسكندرية^(٢) .

ومما يدل على مكانة التجار بها أن حاكمها عمر بن محمد الندى زوج ابنته من أخوين من تجار تمبكتو عرفا بترائهما العريض^(٣) .

ولاية :

تقع ولاية إلى الشمال الغربي من تمبكتو ، ومعناها الأرض المرتفعة ، وكان أهل صنغى يسمونها « بروج » ، وهي الآن إحدى مدن جمهورية موريتانيا الإسلامية ، وكانت مركزاً تجارياً وثقافياً عظيماً ، وإليها كان يقد التجار وأصحاب الأموال من الشمال والشمال الشرقي من كل قبيلة ومن كل بلد ، من أهل مصر وفزان وغدامس ، وتوات ودرعة وفاس وسوس وغيرها ، ثم تحول النشاط عنها قليلاً قليلاً إلى تمبكتو ، فكانت عمارة تمبكتو خراب بروج^(٤) .

ولكن يبدو أن خراب ولاية كان متأخراً ، فقد زارها ابن بطوطة في مطلع النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي (حوالي سنة ١٣٥٢) وهو يسميها « أبو الأتني » فيقول وصلنا إلى مدينة « أبو الأتني » في غرة شهر ربيع الأول بعد سفر شهرين كاملين من سجالسة ، وهي أول عمالة

(١) تاريخ السودان : ص ٢١ . (٢) ابن بطوطة . تحفة لنظار ج ٢ ص ٢٤٧ .

(٣) الحسن الوزان : Tome I p. 488 نقل من انتشار الإسلام بإفريقية .

(٤) السلي : تاريخ السودان ص ٢١ .

السودان ، ونائب السلطان بها اسمه حسين ، ولقبه قَرَبَا «أى النائب» ، ولما وصلناها جعل التجار أمتعتهم في رحبة وتكفّل السودان بحفظها وتوجهوا إلى القَرَبَا وكانت إقامتي في «أبو الآن» نحو خمسين يوماً وأكرمني أهلها ، وأضافوني ، ومنهم القاضى محمد بن عبد الله وأخوه الفقيه المرس بحى ، وهى بلدة شديدة الحر ، وثياب أهلها حسان مصرية ، وأكثر السكان بها من مسوفة ، ولنسائها الجمال الفائق ، وهن أعظم شأنًا من الرجال ، وينسب الواحد منهم إلى أمه لا إلى أبيه ، ولا يرث الرجل إلاّ أبناء أخته دون بنيه .

وكما قلنا من قبل كان نشاط ولاته الاقتصادى يصحبه نشاط ثقافى يشير له ابن بطوطه بقوله : إن سكان ولاته محافظون على الصلوات ، وعلى تعلم الفقه وحفظ القرآن^(١) . كما كثرت بها حلقات العلم والدروس ، ولكن يبدو أن الجانب الاقتصادى كان بولاته أرجح من الجانب الثقافى .

جنى :

مدينة جنى تُعدُّ منافسةً لمدينة تمبكتوفى نشاطها التجارى والثقافى ، وإذا كانت لم تصل إلى مستواها فقد اقتربت منه . وسنورد فيما يلى لمحة عن تاريخها ، ثم نتحدث هنا عن نشاطها التجارى ، ونترك الحديث عن جانبها الثقافى لتحدث عنه عند الكلام عن المراكز الداخلية التى خدمت الإسلام وعملت على نشره .

تقع مدينة جنى إلى الجنوب الغربى من مدينة تمبكتو ، على مرحلة من الضفة اليسرى لنهر «بنسى» أحد روابط النيجر ، وهى محاطة بسور عظيم به ثمانى بوابات ، وهى كثيرة الأشجار حتى أنك إذا كنت بعيدا عنها

ونظرت لما لا تحسبها إلا غابة من كثرة الأشجار فيها^(١) ، ولعل هذا هو
الذي جذب لها قوافل التجار ، فانجذبت لها الطرق التجارية التي كانت تسير
إلى تمبكتو ، وتختلف حتى عن تمبكتو في نقطة مهمة هي أن تمبكتو ولدت
مسلمة ، ولكن حتى ابتدأت كما يقول السعدى في الكفر أواسط للقرن
الثاني من الهجرة النبوية ، وعقب ذلك أصبحت ملتقى للقوافل التجارية التي
تسير بين شمال الصحراء وجنوبها ، ثم أصبحت مركزاً تجارياً مهماً ،
وهذا جعل التجار يحملون لها الإسلام مع ما حملوا من سلع ، فالتخذ الإسلام
يدب فيها وينتشر رويداً رويداً ، وأقام بها كثير من العلماء ، يعلمون
الإسلام وينشرون مبادئه ، وعند تمام القرن السادس أحس ملكها اللوثي
(كبر) أن الإسلام يحيط به من كل جانب ، كما أحس بما لهذا الدين من
مبادئ راقية وفكر جليل ، فعزم على اعتناقه ، ويروى السعدى خبر إسلامه
فيقول : لما عزم كبر على الدخول في الإسلام أمر بمحشر جميع العلماء الذين
كانوا في أرض المدينة فحضر منهم أربعة آلاف ومائتان ، فأسلم على
أيديهم ، وطلب من رعيته الذين لم يكونوا قد أسلموا^(٢) أن يدخلوا
الإسلام ، ثم هدم الملك أحد قصوره ، وحوله مسجداً لله تعالى وهو
للمسجد الجامع^(٣) .

و ظلت المدينة مستقلة حتى عهد سننى على ، الذي استولى على تمبكتو
ثم انهجه نحو جنى ليستولى عليها أيضاً ، وقد حاصر المدينة فترة طويلة ،
يروى السعدى عن أهلها أن هذه الفترة امتدت إلى سبع سنوات ، وكانوا
يتقاتلون ، ويتوقفون عن القتال فترة طويلة مكثفين بالحصار رجاء أن
يستسلم أهلها لنقص في الزاد ، أو يأس في السلامة ، وقد ظل الحال على
القتال تارة والاكتفاء بالحصار تارة أخرى ، حتى وقعت المجاعة في أهلها

(١) السعدى : تاريخ السودان ص ١٢ .

(٢) تاريخ السودان ص ١٢ - ١٣ .

ونقص قوتهم ، ولكنهم ظلوا يكابرون ويحتملون ، وقد أوشك «سنى على» أن يأس ويعود ، لولا أن أحد كبراء جيش چنى خان بلاده ، وبعث لى سنى على بأخبار المجاعة ، وبأن چنى على وشك التسليم ، وبهذا صبر سنى على ، ثم جرت مفاوضات بين سلطان چنى وبين سنى على ، انتهت بالاتفاق على أن تصبح چنى تابعة لسنى على وللمملكة صنى ، وقد كافأ سنى على أهل چنى على صمودهم ، وعلى بطولاتهم ، فعامل المدينة معاملة حسنة ، مع ما عُرف عنه من خشونة وقسوة .

وفى عهد أسكيا محمد تقدمت چنى تقدماً عظيماً فى المجالين التجارى والتتافى ، وفى عهد أسكيا إسحق كانت المدينة من أعظم مدن السودان ، وقد زارها أسكيا إسحق ، وعقد فى مسجدها الكبير اجتماعاً حافلاً لعلمائها وكبار الشأن فيها (١) .

وقد استولت مراكش على چنى مع ما استولت عليه من مدن صنى ، ولما كان الزحف المراكشى لم يعمر طويلاً ، فقد خضعت چنى بعد ذلك للقبائل السودانية وتداولتها الأيدى حتى استولى عليها الفرنسيون فى أواخر القرن التاسع عشر .

ونشاط چنى التجارى كان بين القرنين الثانى عشر والسادس عشر ، وقرر السعدى (٢) أن مدينة چنى كانت مدينة عظيمة ميمونة مباركة ، ذات سعة وبركة ، جعل الله ذلك فى أرضها خلقاً وجيلة ، وطبيعة أهلها التراحم ، ولكن النشاط التجارى جعل المنافسة على الدنيا صفة واضحة من أخلاقهم ، ومدينة چنى سوق عظيم من أسواق المسلمين ، وفيها يلتقى أرباب الملح من تعازة ، وأرباب الذهب من ييط ، وكلا المعدنين المباركين ، ما كان

(٢) محمود كمت : تاريخ الفتنة ص ٨٨ .

(٢) السعدى : تاريخ السودان ص ١١ - ١٢ .

مثلهما في الدنيا كلها ، فوجد الناس البركة في التجارة فيها وجمعوا من الأموال ما لا يحصىه إلا الله ، وبأق الرفاق إلى مدينة جنى من جميع الآفاق .

وهكذا كانت مدينة جنى مركزاً تجارياً عظيماً ، خدم التجارة والمال من جانب ، وجذب العلماء والمفكرين من جانب آخر ، وسنوضح مكانة جنى من العلم والعلماء فيما بعد .

وبعد أن تحدثنا عن الطرق التجارية ومراكز التجارة المهمة نعود فتحدث عن الشعوب والقبائل التي نشرت الإسلام بإفريقية خلال التجارة ، وكان هؤلاء من البربر أولاً ثم من العرب ، وبعد هذين الجنسين يجرى التجار من قبائل الهوسا والقولاني ، ثم تجار الهند وفارس .

وقد كانت هناك تجارة قبل الإسلام يقوم بها البربر عبر الصحراء ، وكذلك عرّف العرب - كما سنرى - التجارة مع إفريقية منذ أمد بعيد ، ولما ظهر الإسلام وأصبح التاجر مسلماً ، زاد النشاط التجارى بين شمال الصحراء وجنوبها كما زاد النشاط التجارى الذى كان يقوم به العرب ، فقد عنى المسلمون بالطرق والأمن ، وحددوا المكاييل والموازين والمقاييس السليمة ، وأشاع التاجر المسلم حوله جواً من الثقة ، فلقى ترحاباً أنّى حل ، وأصبح بيته منارة للفكر الإسلامى بما يحمله من مدنية وحضارة ، واختار مساعديه بالجنوب من خيرة الناس ، فهبأ ذلك للإسلام فرصة الانتشار والذيع مع التجارة والتجار .

وكان دور التجار البربر واسعا للغاية في هذا المجال ، فقد كانت هناك حاصلات في الشمال يحتاجها سكان الجنوب وفي مقدمتها الملح والمنسوجات

والخلى ، كما كانت هناك حاصلات سودانية يحتاجها سكان الشمال كالذهب والأخشاب وجلود الحيوانات ، ومن أجل هذا قامت حركة تجارية واسعة ، كان التجار المغاربة يدبرونها بنشاط واضح ، فكانوا يرحلون إلى الجنوب بسلعهم ، ويهودون بالسلع الاستوائية لبلاد الشمال وإلى أوروبا عبر البحر المتوسط (١) .

وكان التجار العرب يعرفون التجارة في قلب إفريقية قبل الإسلام بزمن طويل ، فلما جاء الإسلام هبأ لهم فرصا أوسع لمزيد من النشاط التجارى ، بفضل ما خلق من التلازم ووحدة العقيدة ، وبفضل ما أشاع من أمن وما مهد من طرق .

وقد برع العرب في التجارة قبل الإسلام بأمد بعيد حتى قيل : إن كل عربي تاجر . وكانت بلاد اليمن ملتقى الرحلات البحرية التجارية التي تأتي من الهند ومن إندونيسيا والصين حيث تلتقى بالرحلات البرية وقوافل الجمال التي تسير بين اليمن وبين الشام وبلاد الشمال ، ويقرر المؤرخون اليونان أن اليمن كان لها أسطول ضخمة ينقل البضائع بين موانئ اليمن وبين موانئ الهند والصين وسومطرة والصومال ، بحيث كانت التجارة شبه احتكار في يدها (٢) ، ويذكر فيليب حتى (٣) أن تجار اليمن كانوا من الذكاء لدرجة أنهم حافظوا على أسرار تجارتهم ، فلم يعرف أهل الشمال مصادر كثير من البضائع التي كانت ترد إلى اليمن من الهند وإندونيسيا والصين وغيرها ، حتى ظن بعض مؤرخي اليونان والرومان أن جميع هذه البضائع كانت من إنتاج اليمن .

وتجار اليمن هم الذين انتشروا في أنحاء الجزيرة العربية بعد وقوع اليمن
فريسة للاستعمار الحبشي الفارسي ، وكانت لهم من اليمن صلات تجارية
عبر البحر الأحمر إلى إفريقية ، وبعد هجرتهم إلى الشمال استمروا في هذه
الصلات ، وزادوا اهتماما في ظل الإسلام .

وبالإضافة إلى التجار البربر والعرب كان هناك نشاط تجارى واسع
بهذه المناطق يزاوله تجار من القولاني والموسا ، ومن بلاد التكرور ، وكل
هذه التجارات نمت في ظل الإسلام ، فخدمها الإسلام وخدمته ، حتى
إن Trimmingham يقول إن الإسلام والتجارة يرتبطان إلى حد كبير^(١)

وليان أثر التجار في خدمة الإسلام ونشره بإفريقية ينبغي أن نسبر مع
قافلة تجارية للمسلمين تجتاز الحدود إلى بلاد الزوج خلف الصحراء ،
فالقافلة تتكون من عشرات الرجال معهم البضائع المتنوعة التي تحملها
الجمال والبغال ، وبعض الرجال لهم خبرة بالتجارة ، وبعضهم يقومون بحراسة
القافلة ، والبعض للخدمة ، وهم جميعا يمتازون بصحة جيدة ، ويرتدون
ملابس نظيفة ، وكثيرون منهم يرتدون ملابس فخمة تلفت الأنظار ،
وطبيعة التاجر أن يكون حسن التأني ، فيه جاذبية يستطيع بها أن يروج
تجارته ، وترسم ابتسامة على شفتيه بسهولة عندما يبيع أو يشتري ، وهو
يحاول أن يكسب الزبون وأن يجعله يحس بأنه صديقه الوفي .

ونخط القافلة أحمالها في مركز من المراكز التجارية ، ويزاول التجار
البيع والشراء للأهالي ، ولكن التجارة في ظل الإسلام أصبحت تتخذ من
الشرف والثقة دعامة لها ، ولا غرو فالتاجر المسلم لا يستطيع أن ينسى وهو
يعامل الآخرين قوله تعالى : « ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس
يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون

ليوم عظيم^(١) ، وهذا وثق العلاقة بين التاجر المسلم وبين المشتري ، وخلق لونا من الخافضة والتقدير ، وفي هذا الجو يتم تبادل السلع وتبادل الأفكار ، ثم إن المركز التجاري ازدان بالأضواء والنظافة ، ولعب ثراء التجار دورا كبيرا ، إذ ساعد التاجر على بناء منزل جميل ، وعلى الظهور بمظهر الكرم والسخاء ، وكل هذا يجعل بيت الفنى موثلا للسادة والرؤساء ، وملاذا للمحتاجين ، ومكانا يتطلع له الأذكىاء ، ومحبو الاستطلاع ، والظموحون .

وبعد أيام ترحل القافلة إلى مركز جديد تاركة بعض رجالها وبعض سلعها في المركز السابق ، وفي المركز الجديد تتم عملية اتصال تجارى على هذا النمط ، وهكذا دواليك ، والتجار المسلمون يصلون ، وتضمهم صفوف جملة في صلاة الجمعة والجماعة ، وهم لا يشربون الخمر ، ولا يأتون المنكر ، ومستواهم الخلق غالبا طيب للغاية ، وهذه الصفات كثيرا ما جذبت الأهلين إلى الانضمام إلى دين هذه الجماعة ، والتجار المسلمون المقيمون في المراكز أو المتقلون من مركز إلى مركز يتزوجون من الأهالي ، وهم في الغالب يختارون زوجاتهم من بيوت رؤساء القبائل وأصحاب النفوذ ، وتصبح دورهم منارات ينتشر منها الإسلام ، وكثيرا ما يخل رؤساء القبائل في دين أصهارهم فتعبرهم باقي القبيلة ، وقد لعب تعدد الزوجات دورا مهما في خلة الإسلام ، فإن تعدد الزوجات كان معروفا في هذه البقاع دون حد وهون شروط ، فجعله الإسلام مشروطا بالعدالة ، ولم يسمح بأن يتجاوز عدد الزوجات أربعة ، وكانت الضرورة تقضى في هذه الظروف بتعدد الزوجات ، والتاجر ترك زوجته في وطنه ، ويصر عليه أن يعيش عدة شهور دون زوجة ، ومن هنا يتخذ له زوجة في المكان الذى يتجر فيه ، ويصبح بيته مركزا إسلاميا يلعب دورا كبيرا في خلة الإسلام .

وقليل من التجار المسلمين من يجيد الفقه والفكر الإسلامى ، وليس منهم من يستطيع انصرغ لذلك ، ولذلك نجد الكثيرين من هؤلاء يستلمون الفقهاء والعلماء هذه المناطق عندما يكثر عدد المسلمين بها ليتولى هؤلاء العلماء تعليم الناس أمور دينهم وشرح حضارته لهم ، وكان بعضهم يشيد المدارس وينشئ المساجد ، وكثيرا ما كانوا يختارون أفاضل الطلاب من اللواتين لإرسالهم إلى المعاهد الإسلامية الشهيرة في مصر أو الشمال الإفریقی ليتقوا مزيدا من العلم ، وليعودوا قلعة للفكر في هذه البقاع ، وعندما كثر إقبال الإفرقيين على السفر لتعلم في المعاهد العلمية الشهيرة ، قام كثير من التجار ببناء بيوت لهم بالشمال يعيشون بها طيلة التحاقهم بهذه المعاهد ، كما قدم هؤلاء التجار ما احتاجه هؤلاء الطلاب من ثيابات ومسرورات .

وهنا الوصف الموجز لتشاط التجار يوضح كيف أن المراكز التجارية بإفريقية أصبحت مملكة قبل سواها من المدن والأقاليم .

والآن بعد هذا الوصف نستطيع أن نطلى بعض نماذج لتشاط التجار الإسلامى جنوب الصحراء :

ذكر السلاوى أن تجار المغرب كانوا يجتمعون في سبيلامة حاضرة بني مدرار ثم يسرون في قوافلهم إلى غاتة ، وكانوا يقطعون المسافة في ثلاثة أشهر ذهبيا وفي شهر ونصف إيليا ، وكانوا يبيعون ما معهم من الأمتعة والأعمال بالبر ، وكان انتشار الإسلام يسير مع قوافل التجار ويذهب على طول المسطوط التجارية .

إذا مرنا تجاه الشرق وجعلنا تجارة العرب مزدهرة على الساحل الشرقى وفي قلب إفريقية عن طريق مصر أو عبر البحر الأحمر ، فقد كانت عاملان إفريقية الوسطى والسودان الغربى وعمامة الحاج ، مادة من مواد التجارة

التي اهتمت بها مصر ، وكان التجار المصريون في عهد المماليك يقومون بدور الوسيط لتقل هذه السلع إلى تجار جنوة والبندقية حيث يبيعونها بأسعار مرتفعة تدر عليهم كثيراً من الربح ، وكان التجار المصريون يذهبون بمتاجرهم إلى بلاد كانم والتكرور^(١) ، وكانت قوافل التجارة المصرية تحمل الإسلام معها وتبنى به صداقات تعتمد عليها في حراسة تجارتها وترويجها .

وانتبه التجار المصريون كذلك إلى بلاد الحبشة ، وهناك استقبلهم زعماء الحبشة خير استقبال ، ورحبوا بهم إذ وجدوهم وسيلة طيبة لشراء حاصلاتهم بأثمان مناسبة ، وكان هؤلاء التجار يقيمون في الحبشة في مواسم التجارة ويوطنون صلتهم بالزعماء ويعملون في نفس الوقت على نشر الإسلام . وكانوا بذلك يحتكرون تجارة الحبشة ، خصوصاً لأن الأحباش قوم محاربون أو زراعيون لا يعرفون التجارة ، ولا يشتغلون بها ، فتركوا هذا الميدان لتجار المسلمين فبرعوا فيه إلى أبعد الحاد ، واحتكروا هذه التجارة وركزوا الشئون الاقتصادية في أيديهم^(٢) .

ودخل الإسلام أوغنده في النصف الأول من القرن التاسع عشر مع التجار العرب ، وقد سعى هؤلاء التجار إلى كسب ثقة الأهالي ، وعن طريق ذلك تم تحويل الكثيرين منهم إلى الإسلام ، وهم الآن يشغلون في أوغنده مراكز هامة^(٣) .

ودخل الإسلام الصومال وتنجانيقا مع التجار المسلمين من أدل عمان ، وكان هؤلاء صلات قديمة تجارية بإفريقية ، ونشطت تجارتهم في ظل الإسلام في القرن التاسع والعاشر الميلاديين ، ونشطت معها الدعوة للإسلام حتى أصبح

(١) حامد عمار : علاقات الدول المملوكية بالدول الإفريقية (رسالة ماجستير) .

(٢) دكتور حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في إفريقية ص ٥٩ ..

(٣) نوماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٣٨١ .

للساحل يدين كله بالإسلام تقريباً ويتشرب منه الإسلام إلى بعض مسارب الداخل ، وكان تجار كردفان والسودان الشرق يصفخون بأنهم من العرب ، ويباشرون مع التجارة الدعوة إلى الإسلام في حاسة ظاهرة (١) .

وقد حقق بعض التجار أمجاداً عالية حتى أصبحوا يعلون من الرعاه والفاحين ، ومن هؤلاء حميدى بن محمد بن جمعة المرجى الذى ولد في زنجبار سنة ١٨٣٢ وهو من أصل عمانى ، وكان كأبيه يشتغل بالتجارة وبخاصة بتجارة الملح ، فحقق نجاحاً كبيراً في تجارته ، وشجعه نجاحه على التوغل بعيداً عن الشريط الساحلى حتى وصلت قوافله التجارية إلى ساحل بحيرة تنجانيقا حيث التقى عام ١٨٦٧ بالرحالة الإنجليزى لفنجستون وأنقذ حياته من الجوع والمرض ، كما ساعد في عام ١٨٧٢ الرحالة استانلى في البحث عن لفنجستون بعد أن انقطعت أخباره ، ومنذ هذا التاريخ أخذت الرحلات المرجى تنجح صوب الكونغو حتى وصل إلى نهر لوالابا ، وأقام مخي خلال ذلك عدة محطات تجارية عربية ومراكز عسكرية حصينة ، فأصبح بذلك الحاكم على هذا الإقليم ونُقِّبَ فاتح الكونغو ، وأدخل الإسلام معه هذه البقاع ، وكان في حركاته السياسية والعسكرية يعمل باسم برغش سلطان زنجبار . ولم يفهمه إلا الاستعمار ، فقد تعاون ضده البريطانيون والبابجيكيون قبيل نهاية القرن التاسع عشر (٢) .

وهكذا لعب التجار المسلمون دوراً واسعاً في خدمة الإسلام ونشره ، دوراً عاد على الإسلام بالخير ، وعاد على التجار بالنماء والبركة ، فقد امتدت تجارتهم وازدهرت في ظل الإسلام ، وتضاعفت أرباحها في كتفه .

(١) المرجع السابق ص ٣٥٧ .

(٢) أحمد مطية الله : القاموس الإسلامى ج ١ ص ٥١٩ - ٥٢٠ .

انتشار الإسلام جنوب الصحراء

بواسطة الطرق الصوفية

تردهر الطرق الصوفية وتقوم بها حلقات الذكر أو ما يسمى «الخرقة» في الليالي البسيطة ، حيث يوجد فراغ روحي ، حيث لا يتطلع الأعمال أوقات الناس ، في مثل هذه الليالي يوجد للصوفة ويوجد القارلوش الذين يصفهم الخوارزمي^(١) بقوله : إن الواحد منهم خفيف الظاهر من كل شيء ، مقلد الرقية من كل رق ، لا يلزمه أحدهم الزكاة ، ولا توجه إليه عوائل النقيات ، ولا يسيطه إخوانه ، ولا يطع فيه جيرانه ، ولا تشتكر منه في القطر صلوة ، ولا في العيد أضحية ، فهو كالسجد يحمل إليه ولا يحمل عليه ، ويؤخذ يديه ولا يؤخذ من يديه فهو إما غلام أو مسلم .

وقد كانت الطرق الصوفية واسعة الانتشار في مصر وفي سواها من البلاد الإسلامية حتى مطلع هذا القرن ، وكانت أكثر ازدهاراً في الأماكن التي يطبق عليها الوصف السابق ، أي يوجد بها فراغ روحي ولا يتطلع الأعمال فيها أوقات الناس ، فمن الطبيعي أن تردهر الطرق الصوفية في إفريقيا ، حيث يساطة الحياة وفراغ الوقت ، وحيث انفلت القلوة من الوثنية ، ومن عبادة الأنهار والأشجار والأشخاص ، وأعلنت تطلع إلى ما يملأ فراغها الروحي ، فوجد الناس في التجمع حول الشيخ وفي الاتهام لحلقات الذكر ، ما يشبع هذا الظأ ومد هذه الحاجة .

وطالما جذبت الطرق الصوفية إلى الإسلام جوعاً إفريقياً ، قد كان الشيخ ومعه يزلون على القبة ، ويقيمون بها حلقات الذكر ، ويشتبون الأتنيذ والرائيل البقية ، والشيخ تكسوه حلة من قفر ، واللوطنون يترززون له أيى الولاء والطاعة ، يطمون من البركة والدموات المعاللات ،

وطالما شاع الاعتقاد بأن للشيخ كرامات واسعة يلعب الخيال بها فيصل إلى
 قلب العاني وشفاء المريض وإزالة العقم وكان الناس يتناقلون هذه
 الشائعات ويضيفون إليها ، فتوافد على الشيخ جموع الراغبين في دخوله
 الدين والانضمام للمريدين .

وهكذا كان للطرق الصوفية مجال غير المجالات السابقة التي رأيناها مع
 المهاجرين والتجار ، فإذا كان التجار ينزلون المدن ، فإن رجال الطرق
 الصوفية يميلون لتقرى والنجوع ، وإذا كان التجار يسعون للربح فر-بال
 الطرق الصوفية لا يكثرثون بالمال ولا يسعون إلا للكفاف ، ومن هنا كان
 المريء بلقب بالفقير ، وإذا كان نشاط المهاجر ونشاط التاجر يغلب أن يكون
 بالنهار ، فإن نشاط الطرق للصوفية يرتبط بالليل ، ولهدوء الليل سحر
 وجلال ، وجمهور الليل أوفر ومربدوه أكثر ، و « حضرة » الذاكرين
 فيها جاذبية تشد لها الحاضر وتقرّب لها البعيد ، وفي هدأة الليل تغمر أصوات
 الذاكرين النجع كله فهرع الجميع إلى حلقة الذكر من شب وشبان ورجال
 ونساء ، بل ربما انتقلوا مع الشيخ من نجع إلى نجع ، ومن قرية إلى قرية .
 وقبل أن نتحدث عن الطرق الصوفية بإفريقية نذكر أنها في الغالب
 حافظت على النهج الإسلامى السليم ، ولم يكن فى أصولها بدع أو خرافات ،
 وقد سئل مؤسس التجانية سؤالاً مهماً هو : أَيْكُذِّبُ عَلَيْكَ ؟ فقال نعم ،
 إذا سمعتم عنى شيئاً فزنوه بميزان الشرع ، فما وافق الشرع فاعملوا به ،
 وما لم يوافق فهو كذب على يتحتم أن تركوه .

وأشهر الطرق الصوفية التى نشرت الإسلام بإفريقية ثلاثة هى : القادرية
 والتجانية والسنوسية ، وقد انتشرت هذه الطرق فى هذا القطاع الإفريقى
 الذى نتكلم عنه ، وكانت القادرية والتجانية أوسع نشاطاً فى النصف الغربى

من القارة والسوسية أوسع نشاطاً في النصف الشرقي ، وسنتكلم عن كل من
هذه الطرق كلمة فيما يلي :

الطريقة القادرية :

مؤسس هذه الطريقة هو الشيخ عبد القادر الجيلاني ، من أشهر رجال
الصوفية ، ويعرف بالقطب الجيلاني ، وهو أحد الأقطاب الأربعة : الرفاعي
والجيلاني والبلوي والدموقي ، وُلِدَ بجيلان سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٧ م) ،
وترعرع بها ، وانتقل إلى بغداد سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) ، وهناك تتلمذ على
كبار الشيوخ ، وتفقه على أبي سعيد المحرمي وأجاد الفقه والأدب ، واشتغل
بالوعظ والتعليم ، ثم مال للتصوف ولجأ للخلوة ومجاهدة النفس ، وعزف
عن ضجيج المدن فاتجه إلى الصحراء ، وكان له مریدون كثيرون نهجوا
نهجه وساروا مسيرته .

وُعرف الجيلاني بالتسامح الديني وحب الجار ، وإغضاء الطرف عن
الغنى ، وملذات الحياة ، ومن تسامحه الديني أنه كان إذا ذكر أدل الكتاب
لم يزد عن أن يعبر عن حسرته لانحرافهم عن طريق النور ، ويدعو الله
أن يهديهم سواء السبيل ، ومن حبه للجار أنه كان لا ينعم بطعام أو مال
دون جيرانه ، فكان يوزع عليهم كل ما يرد إليه من الهدايا والأموال
ويدعوهم إلى مشاركته طعامه كلما لذَّ له هذا الطعام ، وكان عزوفه عن
الغنى سبباً في أن يعيش فقيراً على الرغم من أن الملوكة والسلطين كانوا
يتقربون إليه بالهدايا والأموال ، ولكنه كان يوزعها في الحال على الحاضرين
وعلى الجيران والمريدين ، وأكثر أتباع عبد القادر الجيلاني ساروا على هذا
النمط من خلق أستاذهم ، وكان هذا هو السبب في انتشار القادرية
وكثرة أتباعها .

وتوفي الجيلاني سنة ٥٦١ هـ (١١٦٦ م) ببغداد ، وله بها ضريح ومزار

يعتبر من أهم مشاهد المدينة ، وقد كتب في التصوف كتباً كثيرة من أهمها « فتوح الغيب » و « الفيوضات الربانية » (١) . وقد انتشرت طريقته في العراق واليمن والصومال والهند وتركيا ومصر والمغرب وغربي إفريقيا ووسطها ، وسنتبع القادرية وهي تهدي الناس للإسلام بإفريقية .

دخلت القادرية إفريقية الغربية في القرن الخامس عشر على يد مهاجرين كانوا يتخلون من توات Tuat مركزاً لهم ، وهي واحدة في النصف الغربي من الصحراء ، ثم انتقل هؤلاء إلى ولاته Walata فجعلوا منها أول مركز لطريقتهم ، ومنها - بعد حين - انتقلوا إلى تمبوكتو .

ولم يكتف القادرية بما عرف عن الطرق الصوفية من حلقات ذكر وتراويل ، بل انجهوا وجهات مختلفة قربتهم من الجاهل ونشرت الدعوة الإسلامية ، فكثير منهم جلسوا معلمين للصبية ، وتفقه بعضهم في الدين فأصبحوا علماء وخطباء وكاباً ، واتجه بعضهم إلى كتابة التناظم والتعاويد ، أما أغنيائهم فأتجهوا إلى الشبان يختارون أذكاهم ويرسلونهم إلى مراكز الثقافة بالشمال ليتزود هؤلاء بالعلم وليعودوا قادة بين أهلهم ، وفتح الأغنياء كذلك المدارس للطلاب ، ولما جاء القرن التاسع عشر كانت السيطرة الروحية والفكرية تامة لجماعات القادرية في أكثر نواحي إفريقية الغربية ، وعلى يد رجال القادرية تحول الدخول للإسلام من حالات فردية إلى حالات جماعية .

ومن أشهر قادة القادرية في إفريقية سيدي أحمد البكاى ، الذى عاش في نهاية القرن الخامس عشر ، وقد عمل على نشر دعوته في الجزء الغربي من الصحراء الكبرى ، وتعرف طريقته بالطريقة البكاية ، وقد ازدهرت في إفريقية حتى سنة ١٨٥٠ ، ومنهم محمد بن عبد الكريم التلمساني ، الذى اتجه بجهوده

(١) انظر الاربل : تفريج الخاطر في مناقب الشيخ عبد القادر ، فيه دراسة واسعة من ترجمة حياة الشيخ ومبادئ طريقته وجهوده في نشر الإسلام .

إلى الجزء الأوسط من الصحراء وإلى بلاد الهوسا ، والشيخ السيد التارازى الذى عمل على نشر القادرية فى جيبا وغينيا البرتغالية وليبريا وساحل الذهب ، والشيخ سيدى بابا فى مطلع القرن العشرين ، وكان عالماً وأديباً واسع الفكر ، عمل على القضاء على كثير من البدع والخرافات التى نفشت بين المسلمين ، وفى التاريخ المعاصر انتهى الإشراف على القادرية إلى يد الشيخ عبد الله بن الشيخ سيدى ، ويتخذ من موريتانيا مقراً له ، وله فى الحياة السياسية دور كبير بهذه البلاد (١) .

الطريقة التيجانية :

تُنسب الطريقة التيجانية (التيجانية) إلى أبى العباس أحمد بن محمد بن المختار ، وهو فقيه مغربى وُلد بقرية عين ماضى بالجزائر عام ١١٥٠ هـ (١٧٣٧ م) ودرس العلوم الدينية بمدينة فاس ، ثم انتقل إلى تامسان ، وفى عام ١١٨١ هـ (١٧٦٨ م) خرج إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، وعند عودته إلى بلاده أمضى فترة من الزمن بالقاهرة ، وقد غلب الاتجاه التصوفى على فكره ، فانضم للطريقة الخلوتية التى تُنسب إلى كريم الدين الخلوئى الصوفى المصرى المتوفى سنة ١٥٧٨ م ، ولكن التيجانى سرعان ما اتخذ لنفسه اتجاهاً جديداً ضمن الطريقة الخلوتية مما يجعل بعض الباحثين يرى أن الطريقة التيجانية فرع من الخلوتية ، وقد اتخذ التيجانى مدينة فاس مقراً ينشر منه طريقته الجديدة ، فبعه عدد كبير من المريدين أطلق عليهم « الأحباب » ، وعندما توفى سنة ١٨١٨ م كانت الطريقة التيجانية قد استقرت وعلا شأنها ببلاد المغرب (٢) .

(١) دكتور عبد الرحمن زكى : الإسلام والمسلمون فى غرب إفريقيا ج ١ ص ١١١ -

١١٢ بتصرف .

(٢) انظر كتاب « جواهر المعاني وبلوغ الأمان فى فيض الشيخ للتيجانى » ، وهو ينسب للشيخ ، ونرجح صحة ما به ما ينسب للشيخ من أذكار وأوراد ، ولكن بعض المريدين نظموا أحسان إليه .

وبعد وفاة التيجاني قام ابنه محمد الكبير ومحمد الصغير بنشر دعوته بمعونة اثنين من أكبر مريدي الشيخ ، وهما الشيخ محمود بن علي التونسي والحاج علي بن عيسى . وانتقل مركز الدعوة إلى قرية عين ماضي مسقط رأس صاحب الطريقة ، وقد وجدت هذه الطريقة لها أنصاراً عديدين في الصحراء الكبرى وغربي إفريقيا ووسطها .

وفي سنة ١٨٣٦ م أراد الأمير عبد القادر الجزائري الاستعانة بالتيجانية في حربه ضد الفرنسيين الذين كانوا قد استولوا على الجزائر سنة ١٨٣٠ ، ولكن الاتفاق بين الطرفين لم يتم لسبب أو لآخر ، فقام الأمير عبد القادر بعدة حملات على مركز التيجانية في « عين ماضي » ، بيد أن هؤلاء دافعوا عن أنفسهم دفاعاً طويلاً ، وأبدوا ألواناً من الحماسة والشجاعة والتضحية ، ويبدو أن هذه الحروب بدأت تصنع الطريقة التيجانية بصيغة القوة ، فارتدت بالطريقة التيجانية مسألة اللجوء للسيف عند الضرورة ، وهم يعلنون ذلك بأن من المحتم إنقاذ الوثنيين من الضلال ، وبهذا اختلفت التيجانية عن القادرية التي عرفت بالتسامح كما قلنا ، وكانت تكنى بالدعاء لهم بالهداية ، وقبل أن نحكي قصة الصراع الذي خاضته التيجانية نذكر أن شئون التيجانية انتقلت بعد محمد الصغير الذي تولى سنة ١٨٤٤ إلى ابنه ، ولكن هذا الابن مات سنة ١٨٥٣ ، فخلفه محمد للعائد حفيد الحاج علي بن عيسى ، ومات هذا عن ولدين اتُّهما بمعارضة الاستعمار الفرنسي فقبض عليهما سنة ١٨٦٩ .

وأهم الحركات الحرة التي قام بها أفراد من التيجانية هي تلك الحركة التي قادها الحاج عمر ، وهو ابن شيخ من المرابطين من قبيلة توكولير ، ولد سنة ١٧٩٧ في قرية ييلاد السنغال ، فرباه والده تربية إسلامية وعلمه علوم الشريعة ، ثم تآقت نفسه - كما يقول مؤرخوه - للانتظام في سلك أرباب الكمال ، وصرف همه إلى تهذيب النفس ، فخالف المألوفات ، وعزف عن ملذات العادات ، ومن آفه عليه بالاجتماع بصاحب الفتوة ،

والأنفاس الذكية الشيخ عبد الكريم بن أحمد من علماء فوتاجالون ، وهو تلميذ محمد الحافظ العلوي الشنقيطي ومحمد الغالي ، وكلاهما أخذ عن الشيخ الأكبر مؤسس التيجانية ، وأهم ما أخذه الشيخ عمر القوق عن شيخه عبد الكريم ، الأوراد اللازمة للطريقة (١) ، ثم ذهب الشيخ عمر للحج سنة ١٨٢٠ وأمضى مدةً بين مكة والمدينة ، وتعرّف وهو بمكة على أحد زعماء التيجانية ، فالتحق بهذه الطريقة ونحس لها ، وأقامه أتباع الطريقة خليفة على السودان ، وعند عودته أمضى فترة يتعلم بحلقات الأزهر ، ثم عاد إلى برنو سنة ١٨٣٣ ، وذهب إلى بلاد الهوسا ، وأخذ يعظ الناس للرجوع إلى عقيدة السلف ويطعن في تساهل أتباع القادرية ، وانضم له أخوه أحمد ، ومضيا إلى بلاد فوتاجالون وإلى مناطق البمبارة ، وهناك واجه بعض المقاومة وهو يدعو للإسلام ، ولكن النصر حالقه ، وكثر أتباعه ومريده (٢) ، ويقول عنه توماس أرنولد (٣) : « إنه كان رجلاً كريم السجايا ، ذا نفوذ شخصي ، ومظاهر يوحى بالسيطرة والقوة ، اشتهر بعلمه وورعه حتى عدّ مهدياً جديداً . وهكذا كان لشخصية عمر والنجاح الذي صادفه أثر كبير فيما حقق من انتصارات واسعة ، فاقدر سارت حملاته للواسعة تنشر الدعوة بين الوثنيين في حوض النيجر والسنغال ، وحقق كثيراً من النجاح الديني والسياسي ، فأصبح يحكم إمبراطورية واسعة ، تمتد من تمبكتو إلى المحيط الأطلسي ، وظلت تدين له بالولاء طيلة أربعين سنة ، وكانت الطريقة التيجانية هي للطريقة الرسمية في كل هذه الإمبراطورية ، وقد قتل الحاج عمر في إحدى غزواته سنة ١٨٦٥ ، وكان الحاج عمر متمسكاً بالشرع في حربه وسلمه ، عالماً عاملاً ذا بصيرة في دينه ، لم يشغله الجهاد عن تدريس العلم لجيوشه

(١) محمد الحافظ التيجاني : الحاج عمر القوق ص ٩ .

(٢) شكيب أرسلان : حاضر العالم الإسلامي ، ص ٣٩٦ .

(٣) الدعوة إلى الإسلام ، ص ٣٦٧ .

الغازية في سبيل الله ، مع الوقوف عند الحدود والتقرب إلى الله بالتواقل (١) ، وخلفه ابن أخيه وأحد شيوخه الحاج عمر ، وحاول هذان توسيع فتوحات الحاج عمر ، ولكن الاستعمار الفرنسي كان قد بدأ في هذه البلاد فقبض على أحد وأسقط هذه الإمبراطورية الإسلامية الكبيرة (٢) .

السوسية :

نسب السوسية إلى السوسى بن العربى جد مؤسسها محمد بن على بن السوسى ، وينتهى بنسبه إلى الأدارسة (٣) . وقد ولد مؤسس السوسية سنة ١٧٩٨ في بلدة مستغانم بالجزائر ، وتلقى بها مبادئ الدراسة ، ثم رحل إلى فاس حيث التحق بجامعة القرويين ، ورحل بعد ذلك إلى الأزهر فتعلم به وعلم ، ثم سافر إلى الحجاز حيث التقى بكبار المشايخ واستفاد بعلمهم وأعجب بالكثيرين منهم ، وأدرك السوسى حاجة الدعوة الإسلامية إلى الإصلاح ، فراح يعمل لذلك بحزم وإصرار .

ووضع السوسى مبادئ السوسية التى ذكرناها في الجزء الرابع من هذا الكتاب عند الكلام عن ليبيا (٤) ، ويتضح من مراجعة هذه المبادئ أن السوسى رأى أن الحدود السياسية بالعالم الإسلامى حدود مصطنعة ، وأن حركة إصلاحية ينبغى أن تقوم بالعالم الإسلامى تتخطى الحدود وتوجه إلى محاربة الانحراف والبدع ، والعودة بالإسلام إلى اليسر والاعتماد على الكتاب والسنة ، ومحاربة الزهد والحمول والاستجداء التى كانت طابع أغلب الطرق الصوفية ، ومحاربة التضرع للأولياء والتبرك بقبورهم ، واعتمد السوسى على نظام الروايات التى شرعها في المرجع المذكور ليصل أتباعه إلى الأهداف

(١) محمد الحافظ التيجانى : خلاف كتاب « الحاج عمر الفوق » .

(٢) المرجع السابق : ص : ٥٠ - (٣) الطيب الأشهل : السوسى الكبير : ص ٧

(٤) التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ج : ٤ ص ٢٥ وما بعدها .

التي رسمها . وأنشأ الزاوية الأولى في « أبي قبيس » بالقرب من مكة المكرمة ، ثم أتبعها بزرايا أخرى بالقرب من الطائف والمدينة المنورة وبدر وجدة وينبع .

ثم أحس مؤسس السنوسية أن إفريقية أولى بحركته ، فغادر الحجاز إلى مصر ثم إلى طرابلس ، وفي سنة ١٨٤٣ أنشأ الزاوية البيضاء في الجبل الأخضر ، ثم نقل مركز الدعوة إلى واحة الجنبوب سنة ١٨٥٦ ، وقد استلزم انتقال الدعوة إلى إفريقية أن يضم إلى مبادئها مبدأ جديد كبير الصلة بموضوعنا هنا ، ذلك هو نشر الإسلام بين الوثنيين بإفريقية لهدايتهم إلى الخير من جهة ، ولمواجهة حركة التبشير المسيحية التي كانت آنذاك تغزو إفريقية من جهة أخرى .

وضمت الزوايا مئات أو آلافاً من الشخصيات التي تنتمي إلى أقطار وجنسيات مختلفة ، ويجمعها كلها دين الإسلام والحاسة لخدمته ونشره ، وهكذا انتقلت السنوسية من حركة إصلاح داخلية في الإسلام نفسه لتضم إلى ذلك حركة لنشر تعاليم الدعوة ، وأصبحت عدة قبائل إفريقية كانت قبل وثنية أو مسلمة إسلاماً اسمياً ، أصبحت من أتباع الإسلام المتحمسين له منذ أن حل فيهم دعاة السنوسية ، ومن هذا النوع من النشاط نذكر على سبيل المثال ما بذله دعاة السنوسية من جهد ليُدخلوا في الإسلام فريقاً كبيراً من قبيلة بيلي Baele كان لا يزال على الوثنية ، كما أن دعاة السنوسية حينما نزلوا بين شعب التبادا في بلاد تبستي جنوب واحة فزان نجحوا في تعليم هذا الشعب مبادئ الإسلام وأخلاقه ، وكان هؤلاء قبل ذلك مسلمين اسمياً فقط ، وللسنوسية كذلك نفوذ كبير في بلاد واداي والجلال وحول بحيرة تشاد ، وفي بلاد كانم وياجري ودارفور^(١) على العموم كانت السنوسية تنتشر

المنطقة المحصورة بين ساحل البحر وحوض النيجر وينشرون زواياهم في واحات هذه الأجزاء (١) .

وبعد وفاة مؤسس السنوسية سنة ١٨٥٩ تولى ابنه السيد المهدي قيادة الحركة بواسطة مجلس وصاية أولا ، ثم بنفسه بعد ذلك ، حتى توفي سنة ١٩٠٢ فخلوها السيد أحمد الشريف بن السيد محمد الشريف بن السنوسي الكبير ، الذي دخل في حرب طاحنة ضد فرنسا وإيطاليا ، ولما اعتزل سنة ١٩١٨ تولى رياستها السيد محمد إدريس السنوسي الذي أصبح ملكاً لليبيا بعد ذلك ، وهو زعيم السنوسية الأخير .

ويبدو أن وصول زعيم السنوسية الأخير إلى الملك شغله عن الدعوة وأزله بتقاليد الملوك ومظاهر حياتهم ، وكان أجداده يعيشون للدعوة ويندجون في الشعوب ، ومن هنا فإن الدعوة فترت وهذا نشاطها في عهد هذا الملك ، ولكن الرجل الذي ضحى بزعامة الدعوة من أجل التاج فقد التاج أيضاً في أول سبتمبر سنة ١٩٦٩ عقب قيام ثورة الجيش الليبي بقيادة العقيد معمر القذافي ، تلك الثورة التي عزلت الملك وأعلنت النظام الجمهوري . وكان ذلك نهاية لنشاط السنوسية .

وكلمة أخيرة عن السنوسية هي : هل تعتبر السنوسية من الطرق الصوفية ؟ إن أكثر الباحثين يعدونها من هذه الطرق ربما لأنها عملت على نشر الإسلام بإفريقية بوسائل مختلفة ، والذي أراه أنها ليست من الطرق الصوفية ، فتخطيها ومناهجها وأهدافها ليست كذلك التي ترتبط بهذه الطرق ، وحسبنا أننا أوضحنا خطوطها بوضوح ، ولا حرج أن يضعها كل باحث حيث شاء له تفكيره .

• • •

وفي ختام حديثنا عن الطرق الصوفية نذكر أنه من الشائع إسناد كثير من الفضل إلى الطرق الصوفية في نشر الإسلام بإفريقية ، ولسنا نحاول أن تقلل من هذا الفضل أو نغص من شأن هذه الطرق ، فإن بعضها لا يزال يقوم بنفس الدور ، ولكننا نقرر حقيقة أوضححتها الأرقام والتواريخ التي أوردناها في هذا البحث ، والتي تقيد أن نشاط هذه الطرق بإفريقية بدأ متأخراً جداً ، ولم يتضح إلا في القرن التاسع عشر ، ولكن الدعاة المسلمين والمهاجرين والتجار بدأ نشاطهم قبل ذلك بحوالى عشرة قرون ، ومن هنا نقرر حقيقة مهمة هي أن دور الطرق الصوفية كان استمراراً ولم يكن تأسيساً ، ومع هذا فقد كانت لها جوانب نجاح واسعة المدى يوضحها ما سبق أن أوردناه من أن التحول للإسلام انتقل على يد الطرق الصوفية من حالات فردية إلى حالات جماعية ، وأن الطرق الصوفية لم ترتبط بالخطوط التجارية والمسالك المعروفة والمدن الكبيرة ، بل اندفعت إلى الناس في القرى والتجوع هنا وهناك ، وهي ما أثر لا ينافسها سواها في مجالها .

انتشار الإسلام جنوب الصحراء

من مراكز داخلية

خلقت الوسائط التي سبق أن شرحناها جواً إسلامياً بإفريقية ، وتعاونت مراكز الشمال ، والهجرات العربية ، وغير العربية ، والتجار ، والدعاة ، والطرق الصوفية ، في إرساء دعائم الإسلام في هذه المنطقة التي نتكلم عنها ، وفي نشر الإسلام بين السكان الأصليين ، ثم جاءت الخطوة الجديدة وهي قيام نشاط داخلي ، نابع من المنطقة نفسها ، يختم نفس الأهداف التي خدّمها الوافدون ، والتي غدّتها المراكز الثقافية بالشمال ، نظهرت زعامات إسلامية من بين السكان الأصليين كما برزت مراكز إسلامية عظيمة في هذا القطاع نفسه ، ويمكن القول أن هذا النشاط الداخلي كان أبعد أثراً في خدمة الإسلام وأكثر نجاحاً ، إذ صور الإسلام بصورة ثقافة قومية وفكر إفريقي ، فلم يتعدّ الدخول في الإسلام تبعيةً لدولة غربية أو اعترافاً بدين جماعات من الخارج ، بل أصبح انصواءً تحت رايات يحملها زعماء من الداخل ، وأصبح الدخول في الإسلام يعني الإسهام في تكوين مجتمع إفريقي سليم ، وهذا حق ما يشبه بعض المفكرين بسباق التتابع ، فزمام الدعوة للإسلام حله العرب في مطلع الإسلام إلى إفريقية ، وتسلمه منهم البربر ليندفعوا به جنوب الصحراء ، وهناك أسلموه إلى الزنوج ، وكل هذه الجماعات تعاونت في الهتاف بوحدانية الله وبأن محمداً رسول الله ، وصرعان ماديّ هذا الهتاف في أرجاء هذا القطاع ، وأصبح الانصواء تحت هذه الرايات ملا ضرورياً من الناحية القومية ومن الناحية الحضارية ، وفي هذا الفصل سنعيش مع الزعامات المسلمة الإفريقية ومع المراكز الإسلامية الإفريقية .

المرابطون :

أخذ البربر الإسلام عن العرب كما قلنا آنفا ، وسرعان ما تحمسوا له وعملوا على نشره ؛ ومن أشهر جماعات البربر الذين حلوا راية الإسلام من الشمال واندفعوا به نحو الجنوب جماعات المرابطين ، وقد سبق أن تحدثنا عنهم وأبرزنا أن الرباط الذي تربوا فيه وربوا فيه عقائدهم ، وخرجوا منه معلنين الجهاد لإعلاء كلمة الله كان في جزيرة عند مصب نهر السنغال ، وهو مكان في أرض السودان رابط فيه جماعات من البربر والسودانيين ، فهو بهذا يمثل وسيلة الاندماج لخلق مزيج جديد يضع وحدة العقيدة في مكان أعلى من وحدة الجنس والوطن .

ومن هذا الرباط خرج المرابطون ينشرون دين الله بين مختلف القبائل والجماعات بالمنطقة ، وإلى هذا الرباط ينتسب أبو بكر بن عمر الذي قاد فيلقا عسكريا واتجه نحو الجنوب - على ما ذكرنا - فأسقط به إمبراطورية غانة الوثنية واحتل عاصمتها ، والذي يهنا هنا أنها أصبحت دولة إسلامية منذ ذلك التاريخ .

وقد سبق أن أوضحنا أن حكم المرابطين للدولة غانة الإسلامية كان قصير العمر ، وأن السوننكي استعادوا نفوذهم في غانة ولكنهم كانوا قد أصبحوا مسلمين ، وذكرنا كذلك أن القيادة الروحية والثقافية بقيت فترة ما في أيدي المرابطين بغانة بعد سقوط قيادتهم العسكرية ، ولكن سرعان ما تسلم السوننكي هذا الزمام أيضاً ، وأصبحوا دعاة مشهوداً لهم بالحماسة لخدمة الإسلام حتى أصبحت كلمة « سوننكي » تساوى كلمة « داعية إسلامي » ، وانتقل بذلك الزمام بمناطق الزنوج إلى الزنوج أنفسهم ، وسرعان ما كَوّن هؤلاء مراكز ثقافية ببلادهم ، وسنبر فيما يلي موضحين أبرز صور نشاط السودانيين لخدمة الإسلام وموضحين أهم مراكزهم الثقافية .

الماندنجو وأحمد مسمو :

كان الماندنجو من أنشط الدعاة للإسلام ، وكانت الدعوة الإسلامية تسير بجهودهم قُدُما بين مواطنهم والجماعات المحيطة بهم ، وقد امتاز الماندنجو بصفات جسمية وعقلية مكنتهم من النجاح ، وقد رآهم Winwood فكتب يقول عنهم : إنهم شعب طويل القامة ، حسن المنظر ، مشرق اللون ، وهم مسلمون متدينون ، يملكون الجياد وقطعان الغنم الكثيرة ، ولكنهم أيضا يزرعون القطن والبقول السوداني ، وأنواعا مختلفة من الفلال ، وقد سررت كثيرا بلطفهم ، وسجاياهم الكريمة ، ومظهر نسايم الجاد المحتشم ، ونظافة قراهم وهدوئها (١) .

ومن أشهر الزعماء المسلمين الذين ظهوروا من قبيلة الماندنجو إمام الصمد وشهرته صملو ، وقد ظهر في أواخر القرن التاسع عشر ، وكان جنديا وتليا اعتنق الإسلام وتحمس له ، وراح يدعو له بنشاط جم ، وتجمع حوله عدد من القبائل في جنوب منغاميا ، واستطاع أن يسيطر على المنطقة التي يربو بها الجزء الأعلى من نهر النيجر وروافده ، فألف بها حكومة إسلامية ، وقد بلغ أوج قوته في العقد التاسع من هذا القرن ، ولكن الاستعمار الفرنسي تحلاه وناضله ، وفي سنة ١٨٩٨ وقع أسيرا في يد الفرنسيين ، ومات سنة ١٩٠٠ .

الهوسا والفولاني :

جماعتان مختلفتان من الجماعات الكبرى التي خدعت الإسلام بإفريقية ، ومع اختلافهما يتحتم فيما أرى أن يسير الحديث عنهما في مكان واحد لشدة

الارتباط بينهما فيما يختص بالدعوة الإسلامية ، ولأنه تحقق فيهما ما تحقق بين روما وأثينا حيث انتصرت الأولى عسكريا ، ولكن الفكر اليوناني غزاها وانتصر عليها ، وهنا كذلك قامت حروب بين الهوسا من جانب والقبولاني من جانب آخر ، وانتصر القبولاني المسلمون ، ولكن الهوسا سرعان ما اعتنقوا الإسلام ، ثم سرعان ما نافسوا أساتلتهم في خدمته والدعوة له ، بل ذاب القبولاني في الهوسا ، واندمج الغالب في المغلوب ، ولنبداً القصة من أولها :

تعيش قبائل الهوسا — كما ذكرنا من قبل — شمالي نيجيريا الحالية ، وعددهم حوالي خمسة عشر مليوناً ، وقد سبق أن قلنا إن هذه القبائل كوَّنت سبع ولايات ، أو ضعف هذا العدد في رواية أخرى ، وقد دخل الإسلام ولايات الهوسا حوالي القرن التاسع الميلادي عن طريق البربر من جانب ، والتجارة مع مصر من جانب آخر كما ذكرنا من قبل ، ولكن الوثنية ظلت سائدة في بعض الولايات حتى زيارة ابن بطوطة لها في منتصف القرن الرابع عشر ، وعندما أطل القرن التاسع عشر كانت الوثنية قد انكشفت في الولايات الغربية أمام الدعوة الإسلامية الوافدة من دول المغرب ومن غربي إفريقيا ، وكانت الولايات الشرقية قد ازدهرت فيها الإسلام عن طريق الدعوة الوافدة من مصر ومن السودان العربي ، أما الولايات الوسطى فكان أكثرها لا يزال على الوثنية ، ومنها هبت الحركة التي قادها القبولاني ، كما سيتضح من حديثنا عنهم فيما يلي :

القبولاني قبائل قليلة العدد يختلف الباحثون في تحديد الأصل الذي انحدرت منه ، فيربطها بعضهم بالنوبة في الشرق ويربطها آخرون بالبربر في الشمال ، وأفراد هذه القبائل يشتغلون بالرعي وبعضهم يشتغل بالتجارة ، وقد وصل هؤلاء في حلهم وترحالهم إلى غربي إفريقيا في حوالي القرن الثالث الميلادي ، وأصبحوا تابعين لإمبراطورية غانة ، وجاء رحف المرابطين على غانة

وهم بها فاعتنق أكثرهم الإسلام مع الوفود التي اعنته آنذاك . وجاءت دولة
مالى بعد غارة فأصبحوا جزءاً منها ، وتمكن الإسلام منهم ، وبخاصة من
لؤلئك الفتيق كانوا يشتغلون بالتجارة ، إذ اتصلوا بالمرأى كز التجارة التي
كانت مشاعل ثقافية في نفس الوقت ، وبخاصة لأن الإسلام ضمن لهم من بلادنا من
النجاح والثراء . وبعد سقوط دولة مالى خضعوا كذلك لإمبراطورية
صنقى ، وهذا أتاح لهم أن يدفعوا نحو الشرق في الإمبراطورية التي اتجهت
هذا الاتجاه ، وانسوا كزعاة بما شيتهم بين القرى الزراعية ، وتنشط التجارة
في البيع والشراء ، وما إن جاء القرن السادس عشر حتى كانوا قد ازدادوا
قوة في بعض إمارات الهوسا ، واستقر بعضهم هناك (١) ، فلما سقطت
إمبراطورية صنقى عقب الزحف المراكشى كما سترى فيما بعد زادت مكانة
القولاني في هذه القباع ، لأن الاحتلال المراكشى لم يستطع أن يوطد سلطانه
على جوانب الإمبراطورية .

وجاء القرن الثامن عشر فشهد قبائل القولاني وهي تستقر وسطو شائها ،
وقد زلر Francis Moore مناطقهم على نهر النياسا ١٧٣١ قوصتهم
بأنهم شعب له بشرة سمراء ، معظمهم يتكلم اللغة العربية لأنها لغة القرآن ،
ويعيشون حياة قبلية لا يخضعون لأى ملك من ملوك البلاد التي يقيمون بها ،
إذ لم رؤساء من أنفسهم يحكونهم حكماً مستقلاً ، إلى حد أن كل عمل
تقوم به الحكومة يبدو كأنه عمل الشعب ، أكثر من أن يكون عمل فرد من
الأفراد ، والقولاني أصحاب طبيعة هادئة ، تعلموا جيداً ما هو عدل وما هو
حق ، حتى أن من يرتكب الشر منهم يكون موضعاً لكره الجميع ، وهذه
الجماعة على جذب كبير من النشاط الاقتصادي والاجتماعي ، فهم يزرعون
الكثير من القمح والقطن مما يزيد عن حاجتهم ، ويسمون الزائد يسر مستلك ،

ويشتهرون بالكرم إلى درجة أن الإفريقيين من سكان هذه المناطق يعتبرون أن من نعم الله عليهم أن تكون بجانبهم جماعة من الفولاني ، وإذا كانت هذه علاقتهم بمحبورهم ، فإن علاقتهم ببعضهم ببعض تظهر فيها الرحمة إلى أبعد حد ، فإذا عربوا أن أي فرد من جماعتهم قد أخذ رقيقاً اتحدوا جميعاً وحرروه ، وهم يقولون الحسن والأهمل والأعرج ، ويساونون بينهم وبين الآخرين ، وقبلما يفضون ، مع شجاعة زائلة ، وهم يمينون استعمال الأسلحة الحربية ويستغلون البنادق وهم مسلمون متمسكون بدينهم ، وقبلما يشرب أحدهم الخمر أو يخالف قواعد شريعة الإسلام (١) .

وهكذا كانت قبائل الفولاني متناثرة في شتى أقاليم الهوسا ، منهم من استقر في إقليم من هذه الأقاليم أو ولاية من هذه الولايات ، ومنهم من كان يشتغل بالتجارة فينتحط بتجارته حدود ولاية إلى أخرى من هذه الولايات ، وكانوا بصفاتهم السابقة يكوّنون ما يمكن أن يسمى دولة داخل الدولة ، لهم كثير من الاستقلال ولكن أخلاقهم الطيبة جعلتهم محبوبين في البقاع التي ينزلون فيها ، بيد أن هذه العلاقة بدأت تغبر في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر ، لأن ملوك هذه الإمارات بدأوا يخافون تفوذ قبائل الفولاني ، وكان هذا التغبر على يد زعيم كبير من زعماء الفولاني هو عثمان دندوبو (عثمان بن فودي) ، الذي آن لنا أن نتحدث عنه وعن الحركة الكبرى التي قادها :

عثمان دندوبو :

مصلح ديني من أشهر المصلحين بإفريقية ، ينحدر من عشيرة الثورودي وهي من أشهر عشائر الفولاني ، وقد استرطنت هذه العشيرة مملكة جوبر

(١) نقل من الدعوة إلى الإسلام ص ٣٦١ - ٣٦٢ .

إحدى ممالك الهوسا ، وقد ولد عثمان سنة ١٧٥٤ م . وعنى أهله بتثقيفه ثقافة إسلامية ، ولما شب ذهب إلى السودان ليتعلم مزيداً من الدراسات الإسلامية ، ثم ذهب حاجباً إلى مكة ، راقصاً هناك بالدعوة للوهابية وتأثير بها ، وعاد إلى بلاده فرأى في جوهر ما لم يستطع أن يسكت عنه ؛ رأى وثنية صارخة ، ورأى مسلمين يتحاربون إلى الوثنية ، ورأى مسلمين يملأون بسلامهم عن الدين الحق ، يعبد البهيمة منهم الأولياء ويرتكب من سواهم للمعصي والآثام ، ورأى بوجه خاص أن ملك جوهر يحرم على رعيته أن يدخلوا الإسلام ، ويعمل على أن يُعبد إلى الوثنية من أسلم منهم ، فبد صراعه للذي سئو جزه في السطور التالية ، وبين أبلينا مرجعان رئيسيان في هذا السبيل أحدهما (١) . كبه ابن هذا الزعيم واسمه محمد ، والثاني (٢) كبه أخو الزعيم واسمه عبد الله ، وقد اعتمد الأول على الثاني واقتبس منه ، ثم إنه الثاني يُعَدُّ حجة ومصدراً مباشراً ، فلفه يقول في ختامه ما يلي :

وليعلم الواقف على هذا المجموع أني لم أقتد أحداً فيما كتبتُ فيه ، ولا نظرت إلى كتاب أحد ، ولا حكيتُ فيه ما سمعت من أحد ، وإنما كتبت فيه ما حضرنى مما شاعلته وعليت (٣) وهو بهذا أجدر بأن يعتمد عليه في تصوير حياة الزعيم عثمان بن فودي « عثمان دانفديو » ، وقد كبه مؤلفه في شوال سنة ١٢٢٨ هجرية (١٨١٣ ميلادية) .

وفيما يلي موجز حياة هذا الزعيم مقتبسة من عبارات أخيه .

بدأ الشيخ بعد هودته من الحجاز يدعو الناس إلى دين الله ، ويحجم

(١) إفتاق المسور : للإمام محمد بلو بن عثمان بن فودي .

(٢) تزوين للورقات : للإمام عبد الله بن محمد .

(٣) تزوين للورقات : ص ٨٢ .

على ترك عاداتهم المخالفة للشرع ، فيأتى إليه بعض الناس من الآفاق ،
ويدخلون في جماعته ، ونحن في بلدنا الذي اشتهر به ونُسب إليه وهو
« طقل » فاستجاب له كثيرون ، وفتح الله له القبول .

ثم أخذ يسرى إلى البلاد حتى كثرت الجماعة وشاعت ، وكان الشيخ
لا يسير إلى الملوك ولا يعلمهم ، فلما كثرت الجماعة عنده واشتهر أمره
عند الملوك رأى أن لا بد من المسير إليهم ، فسار إلى أمير جوب وبيت له
الإسلام الصحيح وأمره بملك وإقامة العدل في بلاده ، ثم انتقلنا لبلاد زَنْقَر
لدعاء أهلها إلى الدين^(١) ، وبعد ذلك بعاه أو هامين أرسل سلطان جوب
إلى جميع علماء بلاده بأن يجتمعوا عنده في عيد الأضحى ، فاجتمعنا لديه ،
فقال كلاماً ثم تصدق على العلماء بأموال كثيرة ، فقام الشيخ عثمان بن
يده ، وقال له إني وجماعتي لا حاجة لنا إلى أموالك ، ولكن لسألك إقامة
الدين والعدل بين الرعية ، فأجاب السلطان قائلاً : أعطيتك ما سألت ،
ورضيت لك بجميع ما تحب أن تفعل في بلادنا هذه ، فحمد الشيخ عثمان
الله على ذلك^(٢) .

وأخذنا نجوب بلاد زَنْقَر ، وكبى ، نبلغ الدين^(٣) ، واشتهر أمر الشيخ ،
ووفد إليه الناس من كل صوب ينصرون بمواظبه ، ويتأدبون بآدابه ،
ويدخلون في جماعته أفواجا^(٤) .

ثم إن شيخنا أدام الله عزة الإسلام به ، لما رأى كثرة الجماعة ،
ومعارضة الكفار لها ، جعل يحقن أتباعه على السلاح ، ويقول لهم إن

(٢) المرجع السابق : ص ٢٠ .

(١) المرجع السابق : ص ٢٧ .

(٤) : المرجع السابق : ص ٢١ .

(٣) المرجع السابق : ص ٢٠ .

استعداد السلاح سنة ، فجعلنا نستعد ، وأخذ يدعوا الله أن يُريه مَلِكُ الإسلام في هذه البلاد^(١) ، ولما رأى الملوك وأعوانهم في الولايات المختلفة جماعة الشيخ يستعدون بالسلاح ، خافوا ذلك مع أنهم قبل ذلك غاظهم كثرة الجماعة ، وتفرّدُها عن أحكامهم ، فجعلوا يمنون زى الجماعة كالعلماء ، وكأمر النساء بالتستر ، فخاف بعض الجماعة من هؤلاء الملوك فهاجروا إلينا ، فأرسل سلطان جوهر إليهم أن يرجعوا ، فأبوا ، ثم أرسل ذلك السلطان إلى الشيخ أن يسير إليه ، فسرنا ؛ الشيخ وأنا وصديقه عمر الكوى ، فأراد أن يحرقنا ، ولكن الله رده عنا ، وصرح لنا بأنه لا عدو له على الأرض مثانا ، ووده الله عنا فخرجنا من عنده إلى منزلنا ، وأرسل للشيخ أن يخرج من بين جماعته ويفارقهم هو وعباله فقط ، فأجابه الشيخ قائلا : إني لا أفارق جماعتي ، ولكني أفارق بلادك وأرض الله واسعة ، فتهيأنا للهجرة ، وكان ذلك في فبراير سنة ١٨٠٤^(٢) .

ويذكر مسلمو شمال نيجيريا هذا اليوم ، على أنه يوم الهجرة ، ويعلمونه من أعيادهم الوطنية والإسلامية .

ومن العجيب أن سلطان جوهر يُنمّنه ، كان في صباه تلميذاً للشيخ ، ولكن لما آل له الملك خاف من منافسة الشيخ له في السلطة ، فلم يتمسك بالإسلام وضائق الشيخ حتى اضطر إلى الهجرة من بلاده .

وفي المهجر تجتمع حول الشيخ مريدوه وأهله من الفولاني ، وأطلقوا على عثمان «ساركين مسلماني» ، أي أمير المسلمين ، ولما أنس في نفسه القوة أعلن الجهاد ضد مملكة جوهر الوثنية ، وسرعان ما سقطت في يديه ، ولم يكف الزعيم المسلم بهذا الانتصار بل سار يضم إليه ممالك الهوسا مملكة إثر مملكة ، وتجمعت له عشائر الفولاني من كل صوب ، وأحسنوا استقباله في

(١) المرجع السابق : ص ٥١ .

(٢) المرجع السابق : ص ٥٥ .

كل ولاية دخلها ، بل إن المسلمين من الهوسا أو الكثيرين منهم انضموا تحت لوائه ، وبذلك سار من نصر إلى نصر ، ولم تأت سنة ١٨١٠ حتى كان عثمان قد بلغ الذروة ، وكانت انتصاراته قد كللت بالنجاح فكونَ إمبراطورية فسيحة في شمالي نيجيريا والسودان الغربي ، وستحدث عن هذه الإمبراطورية فيما بعد عند الكلام عن الممالك الإسلامية بإفريقية قبل الاستعمار الأوربي ، واتخذ عثمان مدينة «سكوتو» عاصمة له ، ثم قسم مملكته قسمين ، وجعل القسم الشرقي تحت سيطرة ابنه بلكو ، وجعل القسم الغربي تحت سيطرة أخيه عبد الله ، واكتفى هو بالزعامة الروحية متخذاً سكوتو مركزاً للدعوة إلى الإسلام ، كما عكف على تأليف الكتب التي تهدي المسلمين إلى الرشاد وتبعدهم عن الانحراف ، ومن كتبه نذكر ما يلي : إحياء السنة - الجهاد - نور الأبواب - التصوف وتوفي عثمان سنة ١٨١٧ وهو في قمة مجده . وأقيم له ضريح ومزار بمدينة سكوتو ، وبعد وفاته قام ابنه مقامه ، ولم يعتمد الفولاني على الجهاد وحده في نشر الإسلام ، بل سلكوا طريق الدعوة في أغلب الأحوال ولم يلجأوا للجهاد إلا عند الضرورة ، وقد زار الرحالة الأوربيون بعض المناطق التي دانت له ورأوا هناك المعلمين من الفولاني يعلمون الوثنيين مبادئ الإسلام ، كما أن السلاطين أنفسهم من أسرة عثمان ومعاونيه اضطلعوا بالدعوة للإسلام ونشرها في المناطق الوثنية حولهم^(١) .

أحمدو لوبو وابنه :

ينحدر أحمدو لوبو من عشيرة مسلمة من عشائر الفولاني هاجرت إلى منطقة ماسنة بين السنغال والنيجر ، وعاشت مع شعب البامبارا حيث كانت الوثنية منتشرة ، وتلقى أحمدو ثقافته الإسلامية من شيوخ أسرته ، ثم التحق

بمدينة جنّي التي كانت مركزاً إسلامياً كبيراً كما سئرى فيما بعد ، فتمتّع
التفسير والفقه وعلوم الدين الأخرى ، ثم عاد إلى ماسنة وقد اعترّم الجهاد
للقضاء على البدع بين المسلمين ولإتقاز الوثنيين من عبادة الأحجار والأشجار
وجنبهم إلى عبادة الله ، ولكن أحمّو لوبو لم يقنع بأن يكون داعية عادياً ،
بل ادعى الانتساب إلى البيت النبوي (١) ، ثم ادعى المهديّة ، وفي سنة ١٨١٣
أعلن الجهاد على الوثنيين حوله وانتصر عليهم ، ثم دخل مدينة تمبكتو
وانتصر على المراكشين الذين كانوا يحتلونّها ، ودخل مدينة جنّي وطهرها
من البدع والمنكرات ، واتخذ له حاضرة على مقربة منها سماها (حمد الله) ،
ونشأت بذلك إمارة إسلامية عظيمة الشأن في منطقة ماسنة ، وتوفى أحمّو
لوبو سنة ١٨٤٤ (٢) ، فخلفه ابنه أحمّو شيخو الذي ظلت دولته حتى مطلع
النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وقد أثرت حركة أحمّو لوبو وابنه
تأثيراً واسعاً في المنطقة التي ازدهرت بها وبسببها استقر الإسلام بين
شعوب هذه المنطقة .

وهكذا كان الفولاني والموساهو عثمان دانفديو وأخوه وابنه وأحمّو لوبو
وابنه قوى إفريقية هائلة نشرت الإسلام في غربي إفريقيا ووسطها
وثبتت دعائمها .

دعاة من الفوننج :

عندما قامت دولة الفوننج سائر شجعت هذه الدولة الفقهاء والمعلمين
على أن يباشروا بها نشاطهم ، كما شجعتهم على أن يتخطوا الحدود تجاه
الغرب وأن يقوموا بالدعوة للإسلام في مناطق وإداى ، ومن الفقهاء الذين
اشتهرت أسماءهم في هذا المجال : أبو زيد بن عبد القادر ، وأبو سرور
الفاضل ، وقد كانت الاستجابة واضحة للدعوة الإسلامية التي حملها هؤلاء
الفقهاء . وسنعطى بعض التفاصيل عن الثقافة الإسلامية في مملكة الفوننج عند
الكلام عن هذه الدولة في الباب الرابع .

...

والآن بعد أن تحدثنا عن القبائل السودانية التي حلت لواء الإسلام وحملت على نشره ، وعن الزعامات السودانية التي بذلت جهوداً كبيرة لخدمة الإسلام ، ودافعت أعداءه وشرحت مبادئه ، بعد هذا نتجه إلى المراكز الثقافية التي قامت جنوب الصحراء فكانت منارات عالية الشئ - لدى للإسلام وتيسر السبيل إليه ، وتستقبل الطلاب وثوفد العلماء ، تلك المنارات التي نافست مراكز الشمال ، استمدت منها المعرفة ثم استوت واكتمل نضجها ، وبلاحظ أن المراكز الثقافية كثيراً ما كانت أسواقاً تجارية في نفس الوقت ، لشدة ارتباط الدعوة الإسلامية بالتجارة كما قلنا من قبل ، ولكي هناك مراكز غلب عليها أحد الطابعين مع وجود الاثنى بها ، وقد سبق أن تكلمنا عن تمبكتو وجنى من ناحيتها التجارية ، وستكلم عنها هنا من الجانب الثقافى ، وبعدهما سنتحدث عن مراكز ثقافية أخرى ، وعن الدور الذى قامت به لخدمة الإسلام ونشره .

تمبكتو :

تحدثنا من قبل عن نشأة تمبكتو وتاريخها ومكانتها كمركز تجارى ، ونريد هنا أن نتحدث عنها كمركز ثقافى ، والحقيقة أن تمبكتو كانت عالية الشأن فى المجالين ، ولكن الجانب الثقافى كان أروع ، وقد كسب لها كثيراً من الجلال والخلود ، حتى أننا نرى الكتاب السودانين يتحدثون عنها كأنهم يتحدثون عن مكان مقدس ، فالسعدى يقول عنها : هذه البلدة الطيبة الطاهرة الذكية الفاخرة التى هى مسقط رأسى ، وبغية نفسى ، مادنتها عبادة الأوثان ، ولا تُعبد على أديمها قط لغير الرحمن ، مأوى العلماء والعابدين ، ومألف الأولياء والاهلين : : : (١) ، والإمام محمود كعت

يفخر بأن ينتسب لها فيقول في صدر كتابه : يقول محمود كمت الكرسي دارا ، التمكنى مسكناً ، الوعكرى أصلاً^(١) .

وقد اتجهت تمبكتو هذا الاتجاه الثقافي منذ عهدها المبكر ، فإن تشييد المساكن بها صحبه تشييد المساجد والمدارس والمعابد ، وإقبال العلماء عليها ، وكثرة حلقات التدريس بمعاهدها ومساجدها ، وفي عهد منسى موسى حظيت بمزيد من الازدهار ، فلقد أقام بها مسجداً كبيراً أصبح بعد قليل جامعة إسلامية يؤمها الطلاب من كل فج ، كما جعل جامعها القديم معهداً علمياً تلقى فيه المحاضرات الدروس ، ودعا منسى موسى للتدريس بجامعات تمبكتو أشهر فقهاء العصر من مختلف البلدان ، وأغدق على الطلاب الذين يفلون لها لتلقى العلم ، وفي عهد اسكيا محمد وصلت تمبكتو ذروة مجدها الثقافي ، كما خطت نحو مزيد من المجد . في عهد اسكيا داود . ويقول ليو الإفريقي « الحسن الوزان » : إنه كان يتمبكتو كثير من القضاة والأطباء والدعاة ، الذين كانوا يعيّنون بأمر ملكي ، وكان الملك يُجِل العلماء والأدباء كما كان يشتري كثيراً من المخطوطات لمكتبات تمبكتو ، ولا يخل ببلغ أمانها مهما غلت ، مما يدل على تقديره الشديد للعلم والأدب^(٢) . ولمع مسجد سنكوري في الشمال الشرقي ، ومسجد صيدى يحيى في وسط المدينة كجامعات عالية الشأن .

وهكذا تحولت تمبكتو شيئاً فشيئاً لتصبح مركزاً ثقافياً عظيماً جنوب الصحراء ، وجلس علماؤها في المساجد والمدارس يعلمون الطلاب الذين وفدوا لها من مختلف النواحي بإفريقية ، وسرعان ما جذبت لها علماء من مختلف الجنسيات ، من المغرب والأندلس ومصر والحجاز ، وبالتالي جذبت لها

(١) تاريخ القناش : المقة .

مزيديا من الطلاب والراغبين في تحصيل العلم من السنغال والنيجير ، وإمارات
الهوسا ، والسودان ، فنافست بذلك مراكز الشمال في خدمة الإسلام ،
وأصبحت مكانتها تشبه مكانة القيروان وفاس وقرطبة والقاهرة :

ويذكر السعدى نماذج من الكتب التى كانت تُدرس في جامعة تمبكتو ،
ومنها صحيح البخارى وصحيح مسلم ، والشفاء للقاضى عياض ، والموطأ للإمام
مالك ، والألفية لابن مالك والحنفية فى العروض ، كما يورد باباً طويلاً
عن العلماء والصالحين الذين سكنوا تمبكتو وخدموا العلم والمعارف بها^(١) ،
مثل عمر الساكن وأبو عبد الله محمد ، وأبو جعفر عمر بن محمد ، ومخلف
ابن على ، وأحمد بابا ليكتي ويخصه السعدى بفيض من الثناء والتقدير ،
فيصفه بأنه العالم العلامة فريد دهره ووحيد عصره البارع فى كل فن من
فنون العلم ، الذى جدّ واجتهد حتى فاق معاصريه ، وشهد له أشياخه
بالفضل ، وقد اشتهر أمره فى الغرب كله ، وانتشر ذكره ، وسلم له
علماء الأمصار فى الفتوى ، وكان وقفاً عند الحق لا يدهن فيه
ولو للأمرء والسلاطين^(٢) .

وقد كثرت المكتبات فى تمبكتو ، وكانت مفتوحة لاطلاع الطلاب
والراغبين فى العلم ، واشتهرت تمبكتو بعدد كبير من المكتبات المملوكة
لعلمائها ، ولكن عرف عن هؤلاء أنهم كانوا لا يخلون بكتبهم على الراغبين
فى الاستعارة مهما كانت الكتب قيمة ، وكانت تدور بها حركة نسخ نشيطة
ليحصل عن طريقها بعض الناس على نسخ من الكتب التى يريدونها .

ويبدو أنه كانت هناك صلات ثقافية خاصة بين تمبكتو والقاهرة ،
وبوجه خاص فى العهد المملوكى ، حيث أصبحت القاهرة مقر الخلافة

(١) تاريخ السودان : الباب التاسع ص ٢٧ - ٢٧ .

(٢) المرجع السابق : ص ٢٥ .

الإسلامية ، ومركز الثقافة التي يتطلع لها الناس من كل مكان ، وفي تاريخ
السعدى ما يدل على أن الإمام السيوطى المصرى كان واسع الشهرة في جامعة
نمبكتو ، وكانت له مكانة مرموقة لدى سلاطين صنفى :

وهكذا كانت نمبكتو مركزاً إسلامياً عظيماً الأثر في نشر الإسلام ، وفي
الرق بالدراسات الإسلامية داخل إفريقيا ٥

جنى :

تحدثنا من قبل عن تاريخ جنى ونشاطها التجارى ، ونريد أن نتحدث
هنا عن النشاط الثقافى الذى قامت به جنى ، وقد عقد السعدى بابين طويلين
للحديث عن جنى (١) ، وسنحاول أن نقتبس منهما اقتباسات سريعة توضح
مركز جنى الثقافى ، وتوضح الدراسات حول جنى أن المساجد التى أقيمت
بها سرعان ما أصبحت جامعات يؤمها الطلاب ، ويجلس بها العلماء ، وقد
ساق الله لمدينة جنى - كما يقول السعدى - سكانا من العلماء والصالحين
من غير أهلها ، من قبائل شتى وبلاد شتى منهم : يورمغ كنى الذى رحل
إلى بلاد كثيرة لتلقى العلم ، ثم جاء إلى جنى في أواسط القرن التاسع
وكان فقيهاً عالماً صالحاً جليل القدر ، فأسرع إليه الطلبة لاقتباس الفوائد
منه ، وكان في هدأه الليل يخرج من داره إلى الجامع لنشر العلم ، فيجلس
الطلبة حوله يأخذون العلم حتى مطلع الفجر ، ثم يعودون بعد الصلاة
فيجلسون إليه إلى الزوال تقريباً ، ويعود لهم مرة أخرى في النصف الثانى
من النهار ٥

ومن علماء جنى الفقيه محمد صاقوا الونكرى الذى كان فقيهاً عالماً
هابداً ، جاء إلى جنى في أواخر القرن التاسع من بلده بيط ، وقد ولاه أمير

المؤمنين أسكبا محمد قضاء مدينة جنى ، فأخذ بفصل بين الناس بالشرع ،
وينشر دين الله بين أتباعه ومريديه .

ومنهم القاضي محمود أبو بكر وهو جنوى (نسبة إلى جنى) بلداً
وتكرى أصلاً ، وكان فقيهاً ، عالماً جليلاً . تولى القضاء على يد أسكبا
إسحق ، ومنهم القاضي أحمد ترف وهو جنوى الأصل والبلد ، وكان خطيباً
ولامع الجامع وقاضياً ، فجمع المراتب الثلاثة ،

ومنهم القاضي مودب بكر وهو ككوى أصلاً ، من أولاد سلاطينها ،
زهده في السلطنة وانجبه لخدمة العلم ، وهناك كثيرون سوى هؤلاء من القضاة
والعلماء الذين نشأوا في مدينة جنى أو رحلوا لها من علماء السودان وعلماء
البيضان (١) .

ظنر ولاتينا :

امتدت مراكز الثقافة إلى الشرق في المنطقة الواقعة شمالى نيجيريا في
إمارات الهوسا بعد أن دخلت هذه الإمارات في الإسلام وخضعت لنفوذ
صنقى ، فظهرت مدن كانو وكاتسينا كمراكز للثقافة الإسلامية منذ
القرن الخامس عشر ، وعندما أصيبت تمبكتو وجنى بالأحداث التي أشرنا
لها ابتداء من احتلال المراكشيين لهما ، بدأ دور كانو وكاتسينا ينمو ، إذ
استقبلتا كثيراً من علماء تمبكتو وجنى وأصبحتا ملجأ الطلاب والراغبين
في العلم بعد أن كان هؤلاء يتجهون إلى تمبكتو وجنى ، ويبدو أنه كانت
هناك علاقة وثيقة بين كاتسينا ومصر ، فالتاريخ يحدثنا عن صلة طيبة بين
أمير كوتسينا وجلال الدين السيوطى ، بل هناك ما يدل على أن السيوطى

رحل إلى شمالى نيجيريا وأقام فى كوتسينا زمناً يعلم الناس وعاد إلى مصر سنة ١٤٧١ م^(١) . ويذكر Trimingham^(٢) أن كاتسينا فى النصف الأول من القرن السابع عشر كانت أهم مركز تجارى فى مناطق الهوسا ، وكذلك كانت ذات شهرة واسعة فى مجال الفكر والعلم ، وبخاصة خلال عهد جان هازو بكى^(٣) (١٦١٨ - ١٦٤٨) .

• • •

والآن بعد أن تحدثنا عن المراكز الثقافية غربى إفريقيا ووسطها يخطر بالبال سؤال مهم هو : لماذا لم تقيم مراكز ثقافية شرقى إفريقيا تنافس تلك التى قامت بالغرب والوسط ؟

والجواب الذى نعتقد أنه أن وجود الأزهر بتاريخه ومكانته جعل سكان الشرق لا يفكرون فى سواه ملجأ لثقافتهم ولا يستطيعون منافسته أو الاستغناء عنه .

• • •

وهكذا تجمعت عناصر عظيمة الشأن ، قوية الأساس فحملت الإسلام إلى أجزاء هذه المنطقة التى نتحدث عنها ، وكانت هذه العناصر من الخارج أو من الداخل ، وكانت خدمة الإسلام هدفها الرئيسى أو نشاطاً إضافياً تقوم به بجانب التجارة والسياسة ، وقد كانت النتائج ناجحة للغاية ، فعلا شأن الإسلام فى هذه البقاع وأصبح المسلمون أغلبية ساحقة ، وتلا ذلك أن قامت ممالك إسلامية ستكون موضوع حديثنا فى الباب التالى :

الباب الرابع

الدول الإسلامية جنوب الصحراء الإفريقية
قبل الاستعمار الأوربي

قيام الدول الإسلامية جنوب الصحراء

انتشر الإسلام جنوب الصحراء بالوسائط التي أوردناها آنفا ، وقد سبق أن اقتبسنا رأى Gouilly عن أن العصر التاريخي لإفريقية السوداء لم يبدأ إلا مع الإسلام ، وأن بالإسلام ولغته وحضارته تقدم السود وبلغوا شأوا كبيرا في المدينة (١) .

وقد كان دخول شعوب هذا النطاق دين الإسلام يعنى الصلة الوثيقة بالقطار العربية ، ويقول Thomas Hodgkin (٢) إن انتشار الإسلام جنوب الصحراء كان يعنى - من بين ما يعنيه - وجود ارتباط أكثر قوة بين العالمين العربي والزنجي عبر الصحراء ، وكان يعنى كذلك نمو تعاليم الإسلام وعلومه .

ونمو علوم الإسلام قاد الشعوب الإسلامية جنوب الصحراء إلى تكوين الدول ، فالفكر الإسلامى فى السياسة يبحث على التجميع ويضع نظما دقيقة للسياسة والحكم (٣) . كما قادتهم لنفس الغاية صلتهم بالدول العربية ، وبخاصة فى مواسم الحج ، وتعرفتهم على نظام الحكم بها ، ثم إن العناصر المهاجرة لتخلت معها فكرة الدولة بدل القبيلة ، وهذا وسواه أدّى إلى قيام الدول الإسلامية على طول هذا القطاع .

وستقوم فيما يلى بدراسة تاريخ هذه الإمبراطوريات وتلك الدول ، وسنسير فى دراستنا كمعادتنا من الغرب إلى الشرق :

(١) نقلا عن « إمبراطورية غانة الإسلامية » الدكتور طرخان ص ١٠ .

See Also : Trimingham : Islam in West Africa p. 34.

(٢) فجر التاريخ الإثنيق ص ٢٦ .

(٣) انظر كتاب « السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى » المؤلف .

إمبراطورية مالي (١٢٤٠ م - ١٤٨٨ م)

قلنا في الباب الثاني عند الحديث عن دولة غانة^(١) : إن المرابطين بقيادة أبي بكر بن عمر هاجموا دولة غانة الوثنية ، وأسقطوها سنة ١٠٧٦ م ، وجعلوها جزءاً من إمبراطوريتهم ، وأشاعوا الإسلام في ربوعها ، وبعد موت أبي بكر سنة ١٠٨٧ اختلف أتباعه في هذه البقاع ، فتفتح هذا الخلاف الباب للسونكي حكام غانة السابقين ليستعيدوا نفوذهم ، ولكن صراعاً دُبَّ بين المقاطعات التي كانت خاضعة لإمبراطورية غانة ، وكان النصر في هذا الصراع لقبائل الماندينجو المسلمة الذين كانوا سادة مقاطعة كانجابا ، إحدى هذه الدويلات ، وكان يقودهم ملكهم سندناتا ، وقد أتاح لهم ذلك النصر أن يستولوا على أكثر الأجزاء التي كانت تابعة لدولة غانة ، وأن يقيموا على اقتناص غانة دولةً جديدةً إسلامية عُرِفَت بدولة مالي أو ملتي ، وكان ذلك سنة ١٢٤٠ م ، وقد رأى الملك سندناتا زعيم الماندينجو أن يبنى عاصمة جديدة في نفس السنة لتوسط هذا الملك الكبير بدل عاصمته القديمة « جرية » ، التي يسميها الإمام محمود كعت « جكارب »^(٢) ، ويكتبها Panikar « دياليا Diallba »^(٣) ، فاختر مكاناً غير بعيد من نهر النيجر وشيّد فيه عاصمته الجديدة وسمّاها Niamey ، ويذكر القلقشندي نقلاً عن مسالك الأبصار للعمري أن العاصمة كانت بَنِي «^(٤)» ، وبواقته على ذلك ابن خلدون ، «^(٥)» ، ولعل تسمية مالي كانت تبعاً لأقدم مدينة عرفت بهذه المنطقة ، وهي مدينة Malel^(٦) .

(١) انظر ص ١٠٩ - ١١١ . (٢) تاريخ الفتاح ص ٢٨ .

(٣) Serpent and Crescent p. 75

(٤) صبح الأمش ج ٥ ص ٨٣ . (٥) الجبر ج ٦ ص ٢٠٢ .

(٦) Trimingham : The History of Islam in West Africa p. 81

وإذا تذكرنا أن دولة الموحدين سقطت سنة ١٢٦٩ م ، وأن الانحلال والتفكك كانا طابع الحياة بعد الموحدين في الشمال الإفريقي ، إذا تذكرنا ذلك فإن هذا يساعدنا على إدراك سبب من أهم الأسباب لنمو دولة مالي الإسلامية الجديدة ، فإن أفول دولة الموحدين ، والصراع الذي دار بين الدول التي قامت على أنقاضها شغل الشمال الإفريقي عن الدولة الجديدة ، هذا بالإضافة إلى أن النشاط الإسلامي كان يمتد حول الدولة الجديدة ، ويمهد الطريق لها لمزيد من الانتصار والتوسع ، ولذلك نشهد استمرار حركة التوسع في عهد الملك سندياتا نفسه ، وفي عهد الملوك الذين جاءوا بعده ، وبذلك صار الذين يتولون السلطة يلقبون « مَنَسَي » أي الملك الأكبر^(١) ، وملوك مالي هم :

سندياتا ولقبه (مارى جاطة)	}	١٢٣٠ - ١٢٤٠ ملك مملكة كانجبابا
وماوى معناها أمير وجاطة معناها الأسد ، ومعنى اللقب الأمير الأسد أو الشجاع		١٢٤٠ - ١٢٥٥ إمبراطور مالي

ملسى على بن سندياتا ١٢٥٥ - ١٢٧٠

فترة اضطراب تولى فيها بعض الملوك الضعاف والحمقى ومنهم الملك والى والمملك خليفة	}	١٢٧٠ - ١٢٨٥
--	---	-------------

ساكورة (مولى اغتصب الملك ، عرف بالقوة ، وحقق كثيرا من الانتصارات)	}	١٢٨٥ - ١٣٠٠
--	---	-------------

عودة الملك إلى الأسرة الحاكمة ،
ولكن تولاه ملوك ضعاف منهم
محمد بن قو

منسى موسى (أعظم ملوك مالى) ١٣٠٧ - ١٣٣٢
(من أحفاد أبى بكر شقيق سنديانا)

١٣٣٢ - ١٣٣٦ مفا بن موسى

١٣٣٦ - ١٣٥٠ سليمان شقيق منسى موسى

١٣٥٠ - ١٣٥٣ قنبا بن منسى سليمان

١٣٥٣ - ١٣٥٩ فترة اضطراب

١٣٥٩ - ١٣٧٥ ماري جاطة الثانى بن مفا

موسى الثانى بن ماري جاطة الثانى ١٣٧٣ - ١٣٨٧ (١)

وبعد ذلك نجى فترة انحلال وضعف لمدة قرن تولى خلاله ملوك لا قيمة لهم أو ملوك غلبهم الأحداث ، وانتعشت خلال ذلك مملكة سنغى ثم قضت على إمبراطورية مالى مع نهاية القرن الخامس عشر ، وعاد حكام مالى بعد هذا الانكماش إلى دولتهم الصغيرة فى كنجابا حتى دهمهم الاستعمار الأوروبى ، وسعود بنىء من التفصيل لهذا الإيجاز :

مالى بين التوسع والانهيار :

أشرنا إشارات سريعة إلى أحوال مالى ونحن نعدد ملوكها ، ونريد أن نعطي هنا بعض التفاصيل لأحوال الانتصارات والهزائم التى تتصل بهمة الدولة ، وأغلب الدول تبدأ نشيطة قوية ، ثم تنمر حتى تصل إلى قمة

(١) ابن خلدون : العبر ٦ من ٢٠٠ - ٢٠٢ .

لنصر ، ثم تبدأ في الانحدار حتى تسقط أو تضعف ، ومالي سلكت نفس الطريق ، وتشبه حياتها قوماً يجلس مكتسبي موسى على قته ، فكل الملوك الذين سبقوه وضعوا أسس المجد الذي آتاه ، ثم بدأت الدولة بعده في الانحدار بسبب الترف والاعتماد على ما خلفه الآباء والأجداد حتى كانت النهاية ، وسنبر هنا خطوة خطوة ، نصف الدولة وهي ترتفع وتنهض ، ونصفها وهي في أوج عظمتها ، ثم نعطي لمحات عنها حتى تنهار ، ولولا ما ذكره ابن خلدون الذي عاصر فترة الانهيار وتحدث عنها حديث معاصر ، لولا هذا لما وجدنا عن هذه الفترة مادة تذكر لأن الانهيار السياسي يبقعه غالباً انهيار فكري وعلمي يوقف أنفلام الكتاب ورحلات الرحالة ، فلا يصل لنا ما نحتاجه من تاريخ ، أو بلغة أخرى أن الدول وهي تنهار ليس لها تاريخ يستحق التدوين ، فلنبداً سيرة مالي من أولها :

كان الملك سندياتا مؤسس إمبراطورية مالي يقود جيوشه بنفسه في المرحلة الأولى لتكوين الإمبراطورية ، حتى تم له الانتصار على غانة ، وبني عاصمته الجديدة ، ثم توقف عن حل السلاح وترك ذلك لقواد جيشه الذين لم يقنعوا بهذا الانتصار ، وتحطوا باسمه حلود بلادهم ، يحاربون وينتصرون في كل الاتجاهات (١) ، حتى أدخلوا ضمن مملكتهم بلاداً وراء السنغال لم يسبق أن هزمتها دولة غانة ، كما وصلوا إلى نهر جامبيا ، واندفعوا إلى مسافات بعيدة جنوب السنغال حتى حدود (تكرور) ، وبدأت مالي تمارس نشاطها في السودان الغربي كله ، وحقت آمالها في ميادين السياسة وميادين الاقتصاد ، وامتدت الإمبراطورية من جبال الأطلس غرباً إلى بلاد الهوسا شرقاً ، ومن المحيط الأطلسي جنوباً حتى الصحراء الكبرى شمالاً . وحجج «ماري جاطة» شكراً لله على هذا الانتصار

المعظم ، والتوفيق الذى حالفه وحالف جيشه ، وأعان العلماء فى ظل الدولة
الحديثة على نشر العلم والإسلام^(١) .

ويضيف ابن خلدون أنه بذلك اعتر سلطان مالى ، وهابتهم أم السودان ،
واوئحل إلى بلادهم التجار من بلاد المغرب وإفريقية^(٢) .

وحمل منسى على الراية بعد أبيه ، فسار سيرته وآتم بعض انتصاراته ،
وقد ظهرت فى عهده بعض اتجاهات الوهن ، وامتدت بعده ، ولكن ذلك
لم يؤثر فى سير الدولة لأنها كانت فى فترة القوة والمد والشباب ، فتغلبت على
الضعف والوهن إلى حد كبير .

وجاء عهد منسى موسى أزهى عهود الدولة ، فوصل قمة التوسع ، إذ
استولت جيوشه على مملكة صنغى الواقعة على نهر النيجر ، وضمت عاصمتها
« جوا » ومدينة تمبكتو التى كانت مركزاً ثقافياً عظيماً تحدثنا عنه من قبل ،
وضمت بلاد التكرور فى الغرب ، وامتدت شمالاً فى قلب الصحراء وجنوباً
حتى فوناجالون ، وحدود نيجيريا الحديثة ، فكان أول من ملك صنغى
من سلاطين مالى^(٣) . وقد ذكر القلقشندى^(٤) الأتانيم التى انضوت تحت
لواء منسى موسى ، فقال : إنها كانت ملى ، وصوصو ، وغانة ، وكوكو ،
وتكرور ، ويضيف القلقشندى قصة تدل على أن أطباع منسى موسى كانت
واسعة ، فإنه لم يفتح بسيطرته على البر ، بل أراد أن يسيطر على المحيط وأن
يكشف ما خلفه من أرض ، فأرسل مجموعة من السفن شحنها بالزاد
والرجال ، ولكن هذه المحاولة انتهت بالفشل^(٥) ، ولعل أعظم المناطق التى

(١) Trimingham : A History of Islam in West Africa pp. 84-85

(٢) البر ج ٦ ص ٢٠٠ . (٣) السمعى : تاريخ السودان ص ٧ .

(٤) صبح الأمان ج ٥ ص ٢٩٢ .

(٥) أورد الدكتور عبد الرحمن زكى هذه القصة على أنها من صنع الملك السابق لمنسى

موسى : الإسلام والمسلمون فى غرب إفريقيا ص ٢٤

قهرها منسى موسى كانت دولة صنفى التى أشرنا لها ، والتى تقع على النيجر الأوسط ، وكانت صنفى دولة مسلمة منذ أن أسلم ملكها (زا) سنة ١٠٠٩ قبل عهد المرابطين بنحو خسين سنة كما سبق .

وامتدت مالى كذلك فى أثناء حكم منسى موسى داخل الصحراء فاستولت على مناجم الملح فى نِعْمَزَه ، ومناجم النحاس فى تَسْكِدَا ، ووصلت إلى المحيط الأطلسى ولم يكن هناك مكان فى الأراضى الواقعة بين النيجر والغابات والسنغال غير داخل فى إمبراطورية مالى سوى بلدة جنى الواقعة على ممرات النيجر ، وسوى مملكة موشى التى كانت آخذة فى النمو ، والتى تقع فى جنوب منعطف نهر النيجر^(١) . وهكذا بلغ الاتساع مداه ، وفى عهده اتجهت عناية مالى لنشر الإسلام حتى غمر أكثر بلاد نيجيريا ، وأصبح أهل يوروبا يدهون الإسلام بدين مالى وظلوا على ذلك حتى العهد الحاضر^(٢) ، ويقرر Trimingham أن منسى موسى صنع مالى بصيغة إسلامية واضحة بما شيده بها من مساجد ، وبالاحتفالات الباهرة فى المناسبات الإسلامية المختلفة ، وبرعايته للعلم والعلماء^(٣) .

وبقيت الدولة فترة فى هذه القمة ، ونشط منسى سليمان شقيق منسى موسى لإصلاح الخلل اليسير الذى أصاب الدولة بعد موت أخيه ، كما أنه كثيرا من المساجد والمدارس .

وبوفاة منسى سليمان ، بدأ الانحدار الذى لم يمكن جبره ، فقد كان مالى جاعة الثانى من السيرة ، مسرفا فى خبلى ، مترددا فى ضعف ، ويقول عنه ابن خلدون إنه كان أشد وال على قومه ، بما ساءهم من

J.. D Fage : An introduction to the History of West Africa p 24 (١)

(٢) آدم عبد الله الألورى : موجز تاريخ نيجيريا ص ١٥٦ .

Islam in West Africa p. 70 (٣)

النكال والعنف وإفساد الحرّم ، فأنتف ملكهم وأفسد ذخيرتهم ، وقد انتهى به الحال في سرفه وتبذيره أن باع حجر الذهب الذي كان في جملة الذخيرة عن أبيهم وهو حجر يزن عشرين قنطارا متغولا من المعدن من غير علاج بالصناعة ولا تصفية بالنار ، كانوا يرونه من أنفس الدخائر والغرائب لدور مثله في المعدن ، فعرضه جاطة هذا على تجار مصر المترددين إلى بلده فابتاعوه منه بأبخس من (١) ،

وجاء بعد ماري جاطة الثاني ابنه موسى وقد عاصره ابن خلدون ، ولذلك فهو يكتب عنه حديث معاصر ويقول إنه الآن مرجو الهداية . . . ولكن الأمر كان قد أفلت ، والدولة كانت قد اتجهت للانحدار ، فأذن ذلك بالروال (٢) ،

ونتيجة لهذا الاضطراب تفكك جيش مالى وتمزق ، وأصبح أداة سوء واخل ، ولم يعد أداة دفاع وقوة ، ومن هنا فتح الباب لاستقلال الدول والإمارات التي كانت أجزاء من الإمبراطورية ، وتمزقت أوصالها ، وجاءتها الضربات من كل جانب ، ففي الشمال هب الطوارق في حركة استقلالية واسعة شملت ولانة وتمبكتو ومعظم الأقاليم الشمالية ، وفي الجنوب الغربي وجه التوكولور واللولوف ضربات قوية إلى الإمبراطورية واستقلوا بأجزاء منها ، وفي الجنوب ضمت قبائل موشى جزءا كبيرا من أملاك الإمبراطورية المتداعية ، وفي الشرق تعرضت الإمبراطورية لهجمات دولتي صغنى وكانم .

على أن أكبر الضربات التي وجهت لإمبراطورية مالى كانت من صغنى التي تحررت من سلطان مالى ، ثم قويت قوة عظيمة جعلتها تثار لكبرياتها وتمدد نفوذها إلى الدولة التي كانت يوما صاحبة النفوذ فيها ، وفي النصف

الثاني من القرن الخامس عشر كان جلال مالى قد آذن بالزوال ، ولم يبق لحكامها إلا الإمارة الضئيلة التى نشأوا فيها ، كنجابا ، ، وقد دعمهم الاستعمار الأوروبى وعم فى هذه الإمارة الصغيرة (١) .

مختصات مالى :

تجمعت لإمبراطورية مالى مصادر هامة للثراء أشاعت الغنى والرخاء فى دوائر الحكومة ولدى أفراد الشعب ، فقد استولت مالى كما قلنا على مناجم الملح فى تنزة ، وكان الملح عظيم القيمة يستبدل به الذهب ، واستولت على مناجم الذهب فى تنقارة ، ومناجم النحاس فى الشرق ، وتدفقت إلى خزائن الدولة للضرائب من مختلف النواحي بهذه الإمبراطورية الفسيحة ، وفيما يتصل بالذهب حاول ملوك مالى أن يحولوا أهل تنقارة من الوثنية إلى الإسلام ، ولكن هؤلاء هددوا بالكف عن استخراج الذهب من مناجمه إن أرغمتهم الدولة على اعتناق الإسلام ، فكف ملوك مالى عن هذه الحالة وتركهم للزمن وللموثرات البطيئة مما جعل أهل تنقارة يتأخرون فى اعتناق الإسلام (٢) .

واهتم ملوك مالى بالزراعة ، وكانت الأرض الفسيحة التى تتكون منها الإمبراطورية تشمل مناطق عظيمة الحصوية ، فتدفقت الثروات من المحاصيل الزراعية المختلفة التى ازدهرت بمناطق الإمبراطورية .

وسيطرة مالى على هذه المناطق الواسعة يسر أعمال التجارة ، فأخذت الأسواق المختلفة من الشمال ومن الشرق تتصل بمالى ، ولمع شأن تمبوكتو

(١) يورد Panikar تفاصيل الانهيار والفساد انظر من ١٠٨ - ١٠٩ وانظر

كنك : Fage : West Africa p. 26 .

Ward : History of Africa p. 64 (٢)

التجاري ، وكانت الطرق مائجة بالقوافل التجارية التي تروح وتجيء بنشاط
واسع في ظل الاستقرار والأمن .

وعكس انتشار الغنى والرخاء في مالي ، وقد قلنا من قبل إن التوسع كان
من أسباب جلب الرخاء ، ونقول الآن إن الرخاء كان من أسباب المحافظة
على التوسع وأسباب المحافظة على الأمن والسكينة (١) .

وتعدنا المراجع التي بين أيدينا بنماذج لهذا الغنى نختار نموذجاً منها يتمثل
في رحلة منسى موسى إلى الحج عن طريق مصر سنة ١٣٢٤ م ، فلقد كان
موكباً من أروع المراكب التي شهدتها مصر لحاج من الحجاج ، حتى ليلو
وصفه مبالغاً فيه ، وحتى أن أكثر المؤرخين المحدثين حين يروون أحداث
هذا الموكب يعلقون عليها بأن الخيال والمبالغة لعبا دورهما في هذا الوصف ،
ولعل منار الدهشة أن المؤرخين المحدثين لم يتح لهم أن يروا في حياتهم للواقع
مثل هذا الموكب أو ما يقرب منه ، فقاموا أحداث الماغى بالخاص
فاسنكروه ، وسنقتبس فيما يلي مقتطفات مما أثر عن هذا الركب دون تعليق
سوى ما قلناه :

كان هذا الركب يضم عدداً كبيراً يصل السعدى في تقديره إلى ستين
ألفاً (٢) ، وكانت قافلة الملك تتألف من ثمانين جملاً يحمل كل منها ثلاثة
قناطير من التبر ، بخلاف الهدايا النفيسة التي أحضرها الملك ليقدمها إلى
المعظم والملوك (٣) ، وأمام موكب كان يسير ٥٠٠ عبد يحمل كل منهم عصاً
من ذهب ، وقد قدرت أثمان هذه العصى بملايين الجنيهات (٤) ، وكان له
وصائف يبلغ عددهن اثني عشر ألفاً لا بسات أقيية الدياج والحرير الجماني (٥) ،

(١) انظر : Basil Davidson : Rediscovery of Africa pp. 45-46 .

(٢) تاريخ السودان : ص ٧ . (٣) ابن خلدون : للبر ج ٦ ص ٢٠١ .

(٤) آدم عبد الله الألورى : موجز تاريخ نيجيريا ص ١٥٤ .

(٥) ابن خلدون : للبر ج ٦ ص ٢٠١ .

ويقول الإمام محمود كفت : إنه في الطريق بين تعازة ونوات أحست الإمبراطورة برغبة في الاستحمام ، وكان المكان قفراً ، ولكن الأوامر صدرت فأقيمت بحيرة صناعية لاستحمام الملكة ، ويمطى كمت وصفاً دقيقاً لهذا العمل (١) .

وقد ندب السلطان الناصر محمد سلطان مصر أحداً أمراء المالك ليكون في محبة الضيف الكبير ، وقد روى هذا المملوك ما عرفه من معلومات وتلقاها عنه العمري صاحب مسالك الأبصار ، واستقبل السلطان الناصر ضيفه في القصر السلطاني بكثير من الترحيب والتقدير ، وقدم إمبراطور مالى للسلطان أروع الهدايا من بينها حمل حمل من الذهب الخالص ، كما قدم لحاشية السلطان وللأمراء والموظفين هدايا عظيمة كان الذهب في قمتها .

أما سلطان مصر فقد بعث بالخلع للإمبراطور ولحاشيته ، كما كفل له جميع وسائل الراحة خلال رحلته ، فزوده بالمتونة والحراسة وقدم له ما يحتاجه الركب من جال وهجن ، ويقول Davidson إن سكان القاهرة ظلوا يتحدثون عن هذا الموكب الفخم طيلة مائة عام بعد مروره بها ، فكانوا يتحدثون عن خدم الملك وزوجاته وهداياهم وقرسانه ، وكل مظاهر العظمة التي تمتع بها ملك يمتد سلطانه ليشمل بلاداً تعادل في مساحتها مساحة غربي أوروبا كلها مجتمعة (٢) .

ولما وصل منسى موسى الحجاز ، فاضت خبراته وهداياهم على سكان الأراضي المقلمة حتى لميج الجميع بشكره والدعاء له ، ولم تكن خيرات الإمبراطور وهداياهم مقصورة على مصر والحجاز ، بل نعم بها الناس والقبائل على طول الطريق من مالى إلى مكة المكرمة .

واشترى السلطان من مصر ومن الحجاز هدايا لآله في مالى ، وكان

(١) تاريخ القناش : ص ٣٤ وما بعدها .

(٢) إفريقية القديمة تكتشف من جديد : ص ٤٦ .

يدفع أضعاف ثمنها للبائعين ، و يروى أنه أنفق كل ما كان معه من مال حتى اضطر في النهاية إلى الاستدانة من التجار الذين لهم علاقات تجارية ببلادهم ، وسرعان ما سدد هذه الديون^(١) .

ويقول Trlmingham إن رحلة الحج التي قام بها منسى موسى كانت شديدة الأهمية في تاريخ مالي ، وبسببها ارتقت سمعة مالي رقياً عظيماً ، وطبقت شهرتها الآفاق من الأندلس إلى خراسان ، وأصبح منسى موه من أشهر أسماء ملوك عصره ، واتخذت مالي مكانها الواسع في خرائط هذا العصر^(٢) ، وانبج المورخون الذين عاصروا منسى سليمان أن ينجذبوا للكتابة عن تاريخ منسى موسى أكثر مما فعلوا تجاه معاصريهم وإمبراطور مالي في زمانهم^(٣) .

ومن الآثار الكبيرة التي تتصل برحلة الحج التي قام بها منسى موسى أن السلطان التقي في مكة بمهندس عربي شاعر من عرب إسبانيا اسمه أبو إسحق الساحلي ، وصحبه إلى بلاده ، وفي تمبكتو أراد السلطان أن يشيد قصر أجيلا يليق بهذا الملك الكبير ، ويقول ابن خلدون إن أبا إسحق أطرفه ببناء قبة مربعة الشكل استغرق فيها إجادته ، وكان صناع البدين ، وأضفى عليها من الكلس ، ووانى عليها بالأصباغ ، فجاءت من أنقن المباني ، ووقعت من السلطان موقع الاستغراب ، وبني له كذلك مسجداً عظيماً في تمبكتو أيضاً ، وقد وصل منسى موه أبا إسحق بائني عشر ألفاً من مشاقيل التبر ماثوبة عليها بالإضافة لما جعل له من الأثرة والصلوات السنية^(٤) .

(١) القلائدي : صبح الأمشي : ج ٥ ص ٢٧٩ - ٢٨٠ نقلًا عن مسالك الأهمار للسري وتاريخ السودان لسمي ص ٨ .

(٢) A History of Islam in West Africa pp. 65-67

(٣) Ibid p. 65

(٤) ابن خلدون : المعبر ج ٦ ص ٢٠١

مالى من التامية الاجتماعية :

لعل ابن بطوطة هو أهم مرجع يصف لنا حالة مالى الاجتماعية ، وقد زارها ابن بطوطة خلال مدة الإمبراطور منسى سليمان ، وقابل ابن بطوطة السلطان وتقل بين المدن مما التقى بالعلماء ، ورحلة ابن بطوطة فى مالى وفى سواها دراسة اجتماعية قبل كل شيء ، فهو يصف ما رآه وما شاهده وما سمعه ، وهو يعيش بين الجماهير ويتصل بالعظماء ، ويدون تجربته وملاحظاته ، فلا عجب أن نعتمد عليه فى مجال بيان الحالة الاجتماعية لمالى ، يقول ابن بطوطة (١) :

من الأفعال الحسنة لأهل مالى قلة الظلم ، فهم أبعد الناس عنه ، وسلطانهم لا يسمح أحدا فى شيء منه ، ومنها شمول الأمن فى بلادهم ، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب ، ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيض ولو كان القناطير المقنطرة ، وإنما يتركونه يهدى ثقة حتى يأخذنه مستحقه ، ومنها مواظبتهم على الصلوات والزامهم بها فى الجماعات وضربهم أولادهم عليها ، وإذا كان يوم الجمعة ولم يذكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلى لكثرة الزحام ، ومن عاداتهم أن يبحث كل إنسان غلامه بسجاده فيسقطها له بموضع يستحقه بها حتى يذهب إلى المسجد ، ومن عاداتهم لبس الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ولو لم يكن لأحد منهم إلا قميص غسله ونظفه وشهد به الجمعة ، ومنها عنايتهم بحفظ القرآن الكريم وهم يحملون لأولادهم للقيود إذا ظهر منهم التقصير فى حفظه فلا تتركهم حتى يحفظوه .

ويذكر ابن بطوطة أن من مساوئ عاداتهم أن الخدم والجواري والبنات

(١) نسخة النظار ج ٢ ص ٢٢٧ وما بعدها بتقديم وتأخير ، وقد سبق أن قمنا بحسن تلك نسخة سابقة .

الصغار يظهرن للناس عرايا ، ويعجب ابن بطوطة كيف لم يقض الإسلام على هذا التصرف البغيض .

ويورد ابن بطوطة قصة وفاء حدثت لمنسى موسى ، فإن رجلا من تلمسان يعرف بابن شيخ اللبن ، كان قد أحسن للسلطان في صغره ببعة مثاقيل ، فلما آل الملك إلى منسى موسى تذكر ذلك فقرب الشيخ وأجلسه بجواره ، وسأل الأمراء عن المكافأة التي تليق لفعله فقالوا : الحسنة بعشر أمثالها ولكن السلطان أعطاه مبعماتة وأعطاه كسوة وعبيدا وخدماء ، وأمره ألا يتقطع عنه .

ويذكر ابن بطوطة أن أهل السودان أعظم الناس تواضعا للمكهم ، وأشدهم تذلا له ، وهم يحلفون باسمه ، ويصف ابن بطوطة ملابس السلطان وملابس القضاة والفقهاء ومن أمهم الطيلسان ، كما يصف أسلحتهم وألعابهم التي فيها كثير من المهارة والفروسية ، وكذلك ألعاب الصبيان في الاحتفالات الكبرى ، وكيف أنهم يتقلبون في الهواء ويلعبون بالسيوف أجمل لعب ويؤدون ذلك في رشاقة وخفة بديعة .

ويصف ابن بطوطة مجالس السلطان وقبته وما يضعه أصحاب الرماح والحياة في موكب ، وإنشاد الشعر أمامه ومكافأته للشعراء : : : :
وهكذا يدور حديث ابن بطوطة في كل صوب ويصف كل اتجاه :

النظام الإداري في مالي :

يتحدث القلقشندي^(١) عن النظام الإداري في مملكة مالي فيقول : وكان بهذه المملكة الوزراء والقضاة والكتاب والدواوين ، والسلطان لا يكتب

شيئا في الغالب بل بكل كل أمر إلى صاحب رظيفته من هؤلاء ، وكاتبهم
بالخط العربي على طريقة المغاربة .

وكان عسكر السلطان مائة ألف ، منهم عشرة آلاف من الحيلة
والباقي مشاة ، وكانت إقطاعات السلطان تشمل الأمراء وكبار الموظفين
والجند ، وكانت إنعاماته عليهم متواصلة ، ومن أكارهم من يبلغ جملة
ما يأخذه من السلطان في العام خمسين ألف ، بمقال سوى القماش
والهدايا العينية .

صلات مالى بالخارج :

اتسعت صلات مالى فشملت الدول الإسلامية المهمة آنذاك شملت مصر
التي كانت بها الخلافة العباسية آنذاك ، والتي كانت تعتبر مركز الثقافة
الإسلامية ، وشملت المغرب وابق الصلة بالمناطق التي شغلها مالى ، وشملت
الأندلس الإسلامية التي كانت غرناطة تمثلها في ذلك الحين .

وكانت علاقة مصر ببعض المناطق التي تكونت منها مالى علاقة قديمة
نسبى قيام إمبراطورية مالى ، ومن أشهر هذه المناطق منطقة تكرر التي
كانت تعيش منها جالية كبيرة في بولاق بالقاهرة حتى صُرفت بولاق التكرور ،
وكان ضمن هذه الجالية رجل من الصالحاء اسمه الشيخ أبو محمد يوسف
ابن عبد الله التكرورى ، وقد تولى في بولاق وبنى له مسجد وقبة وصُرفت
مسجده باسم جامع التكرورى (١) .

وفى ظل إمبراطورية مالى تمت هذه العلاقات نمواً واسماً وشملت
إنجاءات متعددة ، ولعل الصلات الثقافية كانت أوسع هذه الصلات ، فقد

(١) دكتور عبد الرحمن زكى : الإسلام والمسلمون في غرب إفريقيا ص ٤٣ .

كان لطلاب مالى رواق عظيم فى الأزهر عرف أيضاً برواق التكرارة ، ورحل كثير من علماء مصر إلى تمبكتو ليعلموا بها ، ورحل من تمبكتو بعض العلماء ليتصلوا بعلماء مصر ويتدارسوا معهم بعض المسائل ، وقد جلس بعضهم يعلم فى الأزهر ، ومن الصلات الثقافية كذلك اهتمام أهل مالى بالكتب الإسلامية التى تنشر فى القاهرة ، ويروى أنه عند زيارة منسى موسى لمصر وهو فى طريق الحج اشترى مجموعة كبيرة من الكتب الإسلامية لبودعها فى مكتبات مالى خدمة للعلم وطلابه .

وهناك صلات إدارية بين مصر ومالى تظهر من الألقاب المسجلة فى التواوين المملوكية لمكانة ملوك مالى (١) ، ومن التكرارة من خدم فى الجيش المملوكى ، وترقى حتى وصل إلى الرتب العالية مثل هنر التكرورى الذى رفاه قايتباى سنة ١٤٩٥ إلى نائب مقدم الممالك ثم صار مقدما سنة ١٤٩٩ ، وقد خدم بعض الممالك المصريين كذلك فى حاشية سلاطين مالى ، ويقال إن عددهم وصل الأربعين (٢) .

وكانت هناك صلات تجارية بين مصر ومالى ، ورحل التجار المصريون إلى مالى ، ورحل تجار مالى إلى مصر ، وكانت القوافل التجارية لا تكاد تنقطع بين البلدين ، تحمل من مالى الذهب والنحاس ، وتحمل من مصر الأقمشة والحبوب ، وقد اتسعت هذه التجارة عقب رحلة منسى موسى إلى مصر فى طريقه إلى مكة (٣) .

وكانت هناك صلات واسعة بين مالى وبين المغرب ، وذلك شىء طبعى لعنق الصلة بين المنطقتين ، وقد زادت هذه الصلة عمواً فى عهد السلطان

(١) القلشنقى : مسج الأمتى ج ٨ ص ١١٥

(٢) دكتور عبد الرحمن زكى : المرجع السابق

(٣) Serpent and Crescent p. 99

أبى الحسن على المرنسي ، وانتهم موسى موسى فرصة استيلاء الأتراك على النصارى
وبعث إليه بالتهمة ، كما كان هناك ممثلون داعمون لمالى فى مدينة فاس ،
وامتدت علاقات مالى كذلك إلى الأندلس ، وقد سبق أن ذكرنا أن
موسى موسى صاحب مهتمهما عربيا من أبناء الأندلس لبني له قصراً ومسجداً
فى تمبوكتو ، وقد أصبح هذان البناءان طرازاً يحتلى فى مالى مما أشاع الفن
الأندلسى فى هذه البلاد ، هذا وقد وفد إلى مالى بعض العلماء الذين فروا
من الأندلس تحت ضغط الزحف المسيحى وحلوا معهم إلى إفريقية صورياً
من حضارات المسلمين بأسيانها :

صنفي

(١٤٦٤ - ١٥٩١)

قلنا في الباب الثاني من صنفي إنها كانت دولة وثنية ، وإن الملك الخامس عشر من الأسرة المالكة بها اعتنق الإسلام سنة ١٠٠٩ ، وأصبحت بذلك صنفي دولة مسلمة (١) ، وكانت صنفي جارة لإمارة كانجابا التي كان الماندينجو المسلمون سادتها ، وقد حصل احتكاك ومتافسة بين صنفي وكانجابا ، وكانت كفة صنفي أرجح آنذاك ، فاستطاع ملكها زاييمكوري أن يمد نفوذه إلى كانجابا وأن يقتل أبناء السلطان جميعاً .

ثم دار الزمان دورته واستعادت كانجابا مكانتها وتطورت حتى أصبحت دولة مالى العظيمة ، وعندما كان منسى موسى في طريق هودته من مكة سنة ١٣٣٢ م رأى أن يثار من صنفي فرج على عاصمتها جاو ، وكان ملكها قد مات حديثاً وخلف ولدين صغيرين هما علي كولن وسليمان نار (٢) ، فأخذهما منسى موسى معه إلى عاصمته ، وبطل السعدى لل ملك بقوله إن منسى موسى أخذهما للخدمة على عادتهم بالنسبة لأولاد الملوك الذين في طاعتهم ، وتلك العادة جارية عند سلاطين السودان كلهم . والمعتقد أن أخذ أولاد الملوك إنما كان كرهينة وليس فقط للخدمة ، فقد ذكر السعدى رحلات الأميرين وغيبتهما الطويلة من حين إلى حين ، ولو كانا للخدمة لالازما الملك (٣) ، وهى كل فإن نفوذ مالى امتد فشمّل صنفي ، ويقول السعدى إن منسى موسى هو أول من ملك صنفي من سلاطين مالى (٤) .

(١) ص ١٢٣ وما بعدها .

(٢) هما ابنا زاييمسى في رواية السعدى (تاريخ السودان ص ٢) .

(٣) اقرأ تاريخ السودان ص ٦ . (٤) تاريخ السودان ص ٧ .

(التاريخ الإسلامى ١٧ : ٩)

ودار الزمان دورته مرة أخرى وأخذت دولة مالى فى الانحدار بعد منه ، موسى ، فاستطاع الولدان - وكانا قد وصلا سن الرجولة - أن يهربا من عاصمة مالى وأن يتجها إلى عاصمة صنى بعد سلسلة طويلة من الحيل والتدبير ذكرها السعدى^(١) ، وهناك استقبلهما المواطنون بكثير من الفرح والتأييد ، وهبت ثورة ضد جنود مالى المقيمين فى صنى ، ونجحت هذه الثورة وطردت هؤلاء الجنود واستردت صنى بذلك حريتها من جديد . وأصبح على كولن سلطاناً لها باسم « سنى على » ، وكان ذلك حوالى سنة ١٣٧٥ ، وأصبحت هذه الكلمة « سنى » لقباً يستعمله ملوك مالى بدلاً من لقب « زاء » الذى كان مستعملاً من قبل ، وبعد سنى على تولى أخوه سليمان :

على أن مالى لم تستسلم لذلك الوضع بل عادت تكافح لتعيد صنى إلى دائرة نفوذها ، وقامت بذلك عدة حروب بين الجانبين ، فلما بدأ نجم إمبراطورية مالى فى الأفول فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، كان ذلك إيذاناً بتألق صنى ، ونالت صنى هذه المرة نصراً حاسماً على مالى ، وبدأت خطواتها نحو تكوين إمبراطورية عظيمة سنة ١٤٦٤ ، وكان ذلك بقيادة ملك اسمه على أيضاً ، عرف فى التاريخ باسم سنى على الكبير ، وبه بدأت إمبراطورية صنى ، وبينه وبين سلفه سنى على كولن عدة سلاطين ذكرهم السعدى ، وأباطرة مالى ابتداء من سنى على الكبير هم :

سنى على الكبير ١٤٦٤ - ١٤٩٢

سنى بارو بن على ١٤٩٢ - ١٤٩٣

أسكيا الحاج محمد ١٤٩٣ - ١٥٢٩ بعد فترة صراع ضد أولاد

سنى على الكبير

أسكيا موسى ١٥٢٩ - ١٥٣١

١٥٣٧ - ١٤٣١	أسكيا محمد بن كن
١٥٣٩ - ١٥٣٧	أسكيا إسماعيل بن محمد
١٥٤٨ - ١٥٣٩	أسكيا إسمحق بن محمد
١٥٨٢ - ١٥٤٨	أسكيا داود بن محمد
١٥٨٦ - ١٥٨٢	أسكيا محمد الثاني بن داود
١٥٨٨ - ١٥٨٦	أسكيا محمد باني بن داود
١٥٩١ - ١٥٨٨	أسكيا إسمحق الثاني بن داود
١٥٩٢ - ١٥٩١	فترة اضطراب حكم فيها ابن زرغون نائباً عن سلطان المغرب
١٥٩٤ - ١٥٩٢	أسكيا نوح

قتل في معاركه ضد مراکش وبنائه انتهت إمبراطورية صغنى ٥

كلمة عن ألقاب ملوك صغنى :

رأينا أن أول ملك لصغنى اعتنق الإسلام كان بلقب « زا » ومعناها الملك ، وكان يُكنى بهذا اللقب أحياناً دون ذكر اسم معه ، كما يتحدث المواطنون عن الملك أو الإمبراطور أو الرئيس دون ذكر اسمه ، وقد ظلت الأسرة التي يحمل ملوكها لقب « زا » عدة قرون تحكم صغنى ، وكان آخر من حل هذا اللقب هو زا ياسي الذي مات وخلف ولدين صغيرين أخذهما منسى موسى لقصره عقب احتلال مالى لصغنى .

وفرّ الولدان - كما سبق القول - وجاهد شعب صغنى لاسترداد حريته بقيادة أحدهما وهو على كولن ، وانتصر على كولن في نضاله ضد مالى ، وأصبح ملكاً على صغنى ، فاتخذ هذا لنفسه لقب « منسى » ، أى المحرر ، بدلا

من لقب زاءى الى اخفى خلال فترة اخلال صنى ، وظل لقب « صنى » يستعمله للوك من سنة ١٣٧٥ الى ١٤٩٢ وهو تاريخ نهاية صنى على الكبر مؤسس إمبراطورية صنى .

وكان صنى على الكبر محورياً عظيماً ولكن فيه طبش ونزق ، وكان مسلماً ولكنه لم يكن متحمساً للدين ولا شديد الاكثراث بشعائره ، وكان أهورج فى طيبة وتردد، فكان إذا غضب على أحد أتباعه أمر به أن يُقتل ، ثم يحزن لقتله ويتعنى لو أنه لم يفعل ، وكان له وزير عظيم الشأن ، مسلم غوى الإيمان ، واسع الثقافة والرواية والعقل ، عادل شفق ، وكانت له بحوار الملك سيطرة واسعة على أمور البلاد ، واسمه محمد أبو بكر ، وقد درس محمد طباع الملك فأخذ يكتمل نقصه ويسد ثغرات خلقه ، فكان الملك يأمر بأحد أتباعه أن يقتل عقب غضبه عليه ، فيتظاهر الوزير بالاستجابة إليه ، ولكنه يكتمى بإخفاء المضروب عليه ربما تبدأ ثورة الملك ويعود كعادته بتعنى لو أنه لم يقتله ، وحينئذ يظهره الوزير ، ويذكر للملك أنه احتفظ بهنـه حبيسا فإن غيـر الملك رأيه فيه أخرجه ، وإن استمر الملك على خطه نفذ أمر الملك ، وكان الملك يفرح للملك ، وهذا ممكن لمحمد فى نفوس الناس ، كما مكنت له شجاعته وقيادته إلهيوش لتكوين الإمبراطورية .

واللهم هنا أن الملك عتـما مات سنة ١٤٩٢ رأى وزيره أن الوقت قد حان ليتولى هو الملك ، وعلى هنا لم يابح لسنى بارو بن صنى على الكبر ، وحاربه حتى انتصر عليه ، وأعلن نفسه ملكا على صنى ، ولما علمت بنات صنى على بذلك صرخت إحداهن وقالت « أسكيا ، أى غاصب وقاهر ، وعلم الوزير بذلك فابتسم وقال سأسمى نفسى « أسكيا ، رجاء أن أقهر كل الأعداء ، وأصبح « أسكيا » لقب الملوك حتى سقوط الإمبراطورية (١) .

بقيت كلمة عن هذا الإمبراطور العظيم الذي ارتقى لنفسه لقب
« القاهر » ، وهذه الكلمة ترمز كيف تهر الأحداث الرجال ، فقد أمضى
هذا الرجل حوالي ستين سنة بين الوزارة والملك حقق فيها ألوانا من
النجاح ، ثم تقلعت به السن ، بل تقلعت السن بأولاده وأولاد أخيه ،
وكانهم أحسوا أن الرجل شغل جيلته وجيلتهم ، ولم يترك لهم فرصة للحكم
والملك ، فثار عليه ابن أخيه موسى وعزله ، ونقل في هذا الموضوع عبارة
القاضي محمود كعت (١) ، وفيها يقول : مكث أسكيا محمد في السلطة
أربعين سنة إلا واحدة ، وقيل ثلاثة وأربعين ، ثم عزله أسكيا موسى
في يوم عيد الأضحى سنة ١٥٢٨ وتسلطن أسكيا موسى ولكن
لم يبارك له فزله أخوه أسكيا محمد بنجان ، وجاء بعده أسكيا إسماعيل بن
محمد ، وفي عهده مات أسكيا محمد ، بعد أن أنهدَّ جُرم الرجل وعانى شيخوخة
مريرة ، وكان موته سنة ١٥٤٢ وهو في السابعة والتسعين .

إمبراطورية صغنى مع البداية إلى النهاية :

تكاد تكون أحوال صغنى قرية الشبه بأحوال مالى ، قوة ، تحرر .
توسع ، وصول إلى القمة ، ثم بلبه في الانحلال والانكماش ، وقد سبق
أن وصفنا أحوال مالى بأنها تشبه القوس قته إلى أعلى ، وهكذا كانت
حياة صغنى أيضا ويجلس أسكيا محمد في الندوة من تاريخ صغنى واتساعها ،
فكثير من الملوك الذين سبقوه وضعوا أسس الانتصارات التي أكملها هذا
الإمبراطور العظيم ، ولتسر مع القصة من أولها .

سبق أن تحدثنا عن « على كولن » الذي استقل بصغنى عن دولة مالى
حوالى سنة ١٣٧٥ وسُمِّي لذلك « سُنَى على » أى المحرر ، وقد استمرت
ببلاده بعد ذلك فترة طويلة تكدرح لتثبيت هذا الاستقلال الذى عارضته

مالى بكل قوة ، فسارت المعارك بين انتصارات وهزائم حتى جاء سنى على الكبير سنة ١٤٦٤ ، ذلك الملك الذى يعد مؤسس إمبراطورية صنغى ، فقد استولى على تمبكتو سنة ١٤٦٨ وطرد منها الطوارق ، وامتد سلطانه فشم كل الأراضى التى تحيط بمنحنى النيجر ، وبسط نفوذه فى سهول غربى إفريقية فشمها جميعاً ، ثم احتل مدينة جنى ١٤٧٠ وهى لم تخضع قط للإمبراطورية مالى ، ثم اتجه هذا القائد إلى مملكة موشى الزنجية ، وكانت أيضاً قد استعصت على سلطان مالى ففتحها وضمها إلى سلطانه وتقدم شرقاً فهاجم بعض إمارات الهوسا فخضعت له كاتسينا وجوبر وكانو ، وزقوره وزاريا ، وراح غرباً حيث استولى على بلاد الماندنجو والفولاني ، وشمالاً حتى مراطن الطوارق ، وبهذا نقل سولته من مملكة إلى إمبراطورية ، وكان هو أول إمبراطورها .

وهكذا نجد هذه الدولة لم تقنع بما كان تحت سلطان مالى ، وإنما امتدت إلى أكثر منه ، وبخاصة فى الناحية الشرقية والجنوبية ، فدخلت هذه الإمبراطورية مناطق وسط إفريقية^(١) ، ويقول Trimingham عن سنى على الكبير أنه لم يعرف الاستقرار ، كأن لم تكن له عاصمة يحاول فيها الراحة ، بل كان دائماً غازياً متقللاً بجيشه من معركة إلى معركة ، ومن نصر إلى نصر^(٢) .

وقد تحول الملك بعد سنى على من أسرته إلى أسيرة أسكيا الحاج محمد كما سبق القول ، وكان هذا التحول بعيد الأثر فى كتابة تاريخ هذه الحقبة ، فإن مؤرخيها عاشوا فى كنف الأسيرة الحاكمة الجديدة ، أو تلقوا الروايات ممن عاشوا فى كنفها ، ومن هنا كتبوا عن سنى على بكثير من التحامل

والمهجوم ، ولطخوا اسمه بالعار ، ومن أهم هؤلاء السعدى الذى وصفه بأنه الظالم الأكبر ، والفاجر الأشهر ، وأنه كان ظالماً فاسقاً متسلطاً ، سفاكاً للدماء ، مُذِلًّا للعلماء والصالحين^(١) ، كما وصفه بالتلاعب فى دينه وتركه للصلوات^(٢) ، ويتحدث الإمام محمود كمت عن انتصارات سُنِّى على أنها تدمير وتخويف وإذلال^(٣) .

ولكن هذه الأوصاف ينبغى ألاّ تقبل دون تحفظ ، فالرجل قد طال عمره ، وكثرت فتوحاته وانتصاراته ، وكان له نشاط إدارى ممتاز ، ولكن المؤرخين يفضلون أن يتحدثوا عنه كحاكم جبار ، وأن ينسبوا كل الفضل فى فتوحاته ونظمه الإدارية إلى أسكيا محمد ، ولكن محمداً لم يكن سوى واحد من قادة سُنِّى على^(٤) . ولعل من الأدلة على حصافة الرجل موقفه من تمبكتو التى كانت خاضعة للطوارق الذين كانوا قد انزعوها من مالى سنة ١٤٣٣ ، وعينوا عليها حاكماً تابعاً لهم ، وكان الحاكم ذكيا ، أراد أن ينجو من زحف سُنِّى على ، فكتب له خطاباً رقيقاً بالسلام والدعاء ، وذكر فيه ألاّ ضرورة لسُنِّى على أن يزحف على تمبكتو لأن حاكمها يعترف بالولاء له ، وبأنه من بُجلة « عياله » وقع سُنِّى على بذلك ، فلما توفى هذا الحاكم وتولى ابنه كتب هذا نسئى على بعكس ما كتبه أبوه ، وددّ بأن القوة متوافرة عنده ، ومن تعرض له رأى ما لديه من القوة ، فقال سُنِّى على لأصحابه شتان ما بين عقل هذا الفتى وبين عقل أبيه ، وهاجم تمبكتو سنة ١٤٦٨ ، وكان ذلك من أسباب ما أنزله بالمدينة الإسلامية من قسوة عيبت عليه ، وكان من الأجدر أن تُعاب على الحاكم الغر الذى تذكر الروايات

(١) تاريخ السودان : ص ٦٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٧ . (٣) تاريخ الفتن ص ٤٣ .

(٤) Panikar : Serpent and Crescent Chap. 4

أنه اضطرب عندما سمع يزحف سنى على عليه بين اللجوء إلى الطوارق ،
أو الاستسلام للزاحف الكبير (١) .

ومات سنى على الكبير فجأة سنة ١٤٩٢ م ، وقد اختلف في سبب
موته ، واتهم فيه أسكيا محمد ، إذ كان أسكيا محمد ضمن الذين حكم عليهم
سنى على الكبير بالموت عدة مرات وأخفاه القادة حتى حزن عليه سنى على
فاظهروه (٢) . ولكن اتهم أسكيا محمد لم يدم طويلاً ، لأن السلطان آل إلى
أسكيا محمد ، فذابت سيئاته ، وبرزت حسناته ، ويكتفى Trimingham
بأن يذكر أن سنى على مات في ظروف غامضة (٣) .

وعندما أطاح أسكيا محمد بسنى بارو وضع حداً بذلك لأسرة ظلت
تحكم البلاد مدة ثمانية قرون .

الحاج أسكيا محمد :

عقد السعدى باباً طويلاً عن الحاج أسكيا محمد (٤) ، وصفه فيه بأنه
الأسعد الأرشد أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ، الذى فرج الله به عن
المسلمين الكروب ، وأزال به عنهم البلاء والمطوب ، واجتهد بإقامة ملة
الإسلام وإصلاح أمور الأنام ، وصاحب العلماء واستغاثهم فيما يلزمه من أمر
الحل والعقد . . . ويذكر Trimingham أن أسكيا محمد انضغ بالإسلام
أروع التضاع لتوطيد سلطانه وتثبيت ملكه (٥) .

وتحدث السعدى عن غزوات أسكيا محمد الكثيرة الناجحة ، وعن

(١) السعدى : تاريخ السودان ص ٦٤ - ٦٥ .

(٢) الإمام محمود كمت : تاريخ الفتاش : ص ٤٤ .

(٣) West Africa p. 96

(٤) تاريخ السودان : الباب الثالث مشر .

(٥) Islam in West Africa p. 93

أنها غزوات شرعية (جهاد في سبيل الله) ، ويتحدث عن اتساع ملكه
اللى ضم مدينة جنى كما امتد من بلاد الماندينجو والقولة في الغرب إلى أغاديس
وحدود إمارات الهوسا في الشرق (١) ، ومن بلاد الموشى في الجنوب إلى
تغازه في الشمال ، وبهذا وصلت الدولة في عهده إلى قمة التوسع والمجد .

وفي عهد أسكيا محمد حوالى سنة ١٥١٣ أو بعدها بقليل بدأت قصة
« ليو » الإفريقى وارتبطت بالأسكيا ، وقصة ذلك أن شابا عربيا اسمه
الحسن بن محمد الوزان ، الفاسى النشأة ، زار منطقة السودان الغربى في رفقة
عمه الذى كان موفداً في مهمة دبلوماسية من قبل سلطان مراکش إلى أسكيا
الكبير ، وكان هذا الشاب في أوائل العقد الثالث من عمره ، ولكن قراصنة
صقلية أسروه وسلموه للبابا « ليو » العاشر فحولوه البابا إلى المسيحية ،
وخلع عليه اسمه المسيحى « ليو » فأصبح الحسن بن محمد يُعرف باسم « ليو
الإفريقى » وشجعه البابا على الكتابة عن إفريقية ، فأصبح ما كتبه ليو
الإفريقى من أهم مصادر هذا العصر ، ويقول ليو الإفريقى : إن نفوذ التجار
والمثقفين في إمبراطورية جاو أيام أسكيا محمد كان يدعو للدهشة ، وكان
سكان مدينة تمبكتو على جانب كبير من الثراء ، وكان يوجد بها عدد كبير
من القضاة والأطباء ، وكانت هذه المدينة هى المركز الثقافى المعترف به
لإمبراطورية أسكيا ، وكان بها طلب متزايد للكتب المخطوطة التى تستورد
من بلاد البربر ، وكانت تجارة الكتب بها تجلب الربح الوفير (٢) .

ولم يقنع أسكيا محمد بأن ينال الملك بسيفه ومواهبه ، بل اتجه إلى أن
يؤيد سلطانه باعتراف شرعى من الخليفة العباسى ، فحجج إلى بيت الله الحرام
سنة ١٤٩٤ م ، وكان هذا الهدف من أسباب حجه ، ويذكر السعدى
أنه في الأرض المباركة (لعله يقصد مصر موطن الخلافة العباسية آنذاك)

(١) لم ينجح أسكيا محمد في فرض سلطانه على بلاد الهوسا (آدم الألورى : موجز
تاريخ نيجيريا ص ٤٩) .

(٢) نقلا عن ملك السودان الغربى تأليف Thom Hodgkin .

لدى الخليفة العباسي ، وطلب منه أن يجعله خليفته في أرض سنغى ، ففعل ،
وألهمه قلنسوة وعمامة من عنده ، فكان خليفة صحيحا في الإسلام .

ويبدو أنه أراد أن يُزيل من أذهان الناس ، ما تركته رحلة منسى موسى
من خيالٍ وعظمة ، فبالغ في عطاياه وكرمه ، ويذكر السعدى أنه تصدق
في الحرمين بمائة ألف مثقال من الذهب ، واشترى بساتين في المدينة المنورة
حبسها على أهل تكرور ، واشترى هدايا وسلعا بمائة ألف ، وكان يصحبه
في هذه الرحلة قاضيه وإمامه ومؤرخه عمود كعت ، ولقى كثيراً من
العلماء والصالحين بمصر والحجاز ، ومن هؤلاء الجلال السيوطي ، وسألهم عن
أمرٍ فافتوه فيها ، وطلب منهم الدعاء ، فقال من بركاتهم كثيراً (١) .

ولأسكيا محمد مواقف إسلامية شهيرة ، فقد كان أول حاكم في غربي
إفريقية برغم النساء على اتباع قواعد الإسلام في تاحية الزنى والاختلاط ،
وكان أول من حكم بحرية ابن الرجل الحر من زوجة رقيقة ، وكان هذا
الابن قبل أسكيا محمد يعتبر عبداً تبعاً لأمه ، وأنعم على العلماء بعطايا كبيرة .
وعين شيخاً للإسلام يقيم في تمبكتو وتكون له السلطة العليا في أمور الدين .

وفي مطلع القرن السادس الميلادي قام أسكيا محمد بعدة غزوات
ضد مال ، ونجح فيها جميعاً ، وضمت إلى صفغى أكثر الأقاليم التي
كنت تابعة لكاننجابا .

ثم جاءت نهاية المطاف ، فقد تقدمت بالرجل السن وطالت مدة حكمه ،
ضعف جسمه وفقد بصره سنة ١٥١٩ ، ولكنه لم يفقد فطنته فظل يحكم
حوالي عشرة سنوات وهو على هذه الحال ، واتخذ له أعواناً حكموا باسمه ،
أو حكم باسمهم (٢) ، بيد أن الطامعين في السلطة من أولاده وأولاد أخيه رأوا

(١) السعدى تاريخ السودان : ص ٧٣ .

(٢) السننى : تاريخ السودان ص ٨٥ .

أن الرجل شغل وقته ووقتهم ، وشاع السخط بين الأمراء ، وكان في قفة هؤلاء موسى بن أخيه الذي جمع حوله الجموع ، ودخل العاصمة « جاو » سنة ١٥٢٩ ، وأعلن نفسه إمبراطوراً وخلع أسكيا محمد ، وبعلى Panikar على هذا الوضع بأن أسكيا محمد الذي يقال إنه اغتال سُني على وأخذ السلطة لنفسه تثار منه الأقدار فتخلعه وتسجنه على يد ابن أخيه ، والله في خلقه شئون ، وظل أسكيا محمد يُعاني شيوخوخة مبررة حتى مات سنة ١٥٤٢ كما قلنا من قبل .

بعد أسكيا محمد :

كان عهد أسكيا موسى مملوءاً بالدماء بسبب الصراع الذي دار بينه وبين منافسيه في السلطة ، وسقط موسى قتيلاً في هذا الصراع وتلاه محمد بنكن ، ثم عادت السلطة إلى أولاد أسكيا الحاج محمد على نحو ما أوردنا في قائمة الملوك ، ولكن الخلافات الداخلية التي بدأت منذ أخريات عهد أسكيا محمد أعطت الفرصة للأقاليم التابعة لصغى أن تحاول أن تتحرر ، وقد استدعى هذا صراعاً طويلاً خاض الملوك غماره ، ذكره السعدى بنخير من التفصيل ، ولسنا نورد هنا تلك التفاصيل ويكفى أن نشير إلى أنها لا تخرج عن الإطار الذي أوضحناه .

كلمة عن أسكيا داود :

ومع رغبتنا في الاختصار فإن كلمة عن أسكيا داود تبدو ضرورية^(١) ، فالرجل كان واسع المهمة عظيم الشأن ، وقد قام بغزوات واسعة شملت بلاد التكرور وقبائل الموشى ؛ وبعض دويلات الهوسا لمقاومة الحركات

(١) يرى ترمينجهام أن داود هو وحده الذي يستحق الذكر من بين خلفاء أسكيا

الاستلابة التي ظهرت في هذه البقاع ، وانتصر عليها انتصاراً باهراً ،
ويحدث عنه القاضي عمود كعت^(١) ، حديثاً فيه تقدير وإجلال
وفيها يلي عبارته :

كان أسكيا اسحق قد جعل ابنه عبد الملك ولياً لعهدده ، ولكن أهل
صنفي لم يرضوا به وبابعوا أسكيا داود بن أسكيا محمد الكبير ، وقد مكث
هذا في السلطة أربعاً وثلاثين سنة وبضعة أشهر ، وساعدته الدنيا فتال ما شاء
من دولة ورياسة ، وقد جنى نتائج صراع أبيه وأخيه فكانت المملكة كلها
خاضعة له ، وكان أهلها مسلمين طائعين ، وكان أسكيا داود سلطاناً مهيباً
فصيحاً خليفاً للرياسة ، كريماً جواداً ، وهو أول من اتخذ خزائن المال
وخزائن الكتب ، وكان له نسخ ينسخون له الكتب ، وكانت الكتب هديته
للقضلة التي يقدمها للعلماء والعارفين .

وبمناسبة الحديث عن العلماء نوجز قصة لوردها القاضي عمود كعت
تقرر أن عبداً اعترض أسكيا داود وصافحه ، ولم يكن من حق العبد أن
يصافحوا الملوك خشية أن يكونوا أداة تأمر عليهم ، فحكم أسكيا داود على
العبد بقطع يده ، ولكن القاضي عمود كعت اعترض على هذا القرار ،
وقال إن يد المسلم لا تقطع إلا بحقها ، فرجع أسكيا داود عن قراره وقال :
لولا العلماء لكنا من المالكين ، وقدّم عطايا واسعة لهذا العبد ، ولقومه
مخوفاً عما أصابه من دعر بقرار الملك^(٢) .

وكان أسكيا داود يحل مدينة تمبكو لأنها مركز العلم والعلماء ، فكان
إذا مر عليها في غزواته لا يقتحمها يحمده ، بل يبقى الجند بعيداً ، ويلتخطها
في خاصة رجاله في إجلال وتعظيم ، وينزل في ضيافة القضاة والعلماء ،

(١) تاريخ الفتاوى : ص ٩٣ - ٩٤ تصرف .

(٢) تاريخ الفتاوى : ص ١١١ - ١١٢ .

وبعد ذلك يستأنف سيره ، وقد أقام لمساكين تمبكتو حدائق واسعة كانت تسمى جنان المساكين .

ومن إجلاله العلماء أنه لما مرض الفقيه أحمد بن عمر كان يأتيه بليز ويصمر عنده حتى يرى (١) .

جلو العاصمة :

جاو هي عاصمة صغنى ، وكانت أيضاً تُعرف بكوكو وكوكيا وكاغ ووجاغ ، وكانت أحيانا هذه الأسماء تطلق على المملكة كلها ، ويتحدث اليحقوبى (٢) عن مملكة الكوكو ، ويذكر أنها أعظم ممالك السودان ، وأجلها قدراً ، وأعظمها أمراً ، وكل الممالك تعطى للملكها الطاعة ، ويقرون له بالرياسة ، على أنهم ملوك بلدانهم ، ومنهم مملكة ، وهي كلها تنسب إلى مملكة الكوكو .

وتقع جاو على الضفة اليسرى لنهر النيجر ، على بعد حوالى ٤٤٠ كيلو متراً من تمبكتو ، وهي الآن إحدى مدن جمهورية مالى ، وقد بنى فيها منسى موسى مسجداً كبيراً ، عندما استولى على صغنى ، وهو فى طريق عودته من الحج (٣) ، وقد زارها ابن بطوطة وكتب عنها يقول : ثم سرت إلى مدينة كوكروهي مدينة كبيرة على النيل « يقصد النيجر » ، من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها . وأقام بها ابن بطوطة حوالى شهر فى ضيافة محمد بن عمر والحاج محمد اللوجدى (٤) ، وكتب عنها للملهمى حوالى سنة

(١) المرجع السابق : ص ١٠٩ - ١١٠

(٢) تاريخ اليعقوبى : ج ١ ص ١٥٧ .

(٣) اليعقوبى : تاريخ السودان ص ٧ . (٤) رحلة ابن بطوطة ص ٢٤٨ .

٩٩٦ م ، وتقل ياقوت عنه فقال : إن ملك جاو كان مسلماً وإنه كان يعيش هو ونبلائه على الضفة الغربية للنهر ، أما الضفة الشرقية فتوجد بها الأحياء التجارية ، ويتردد عليها التجار من كل بلاد العالم (١) ، ويذكر Panikar أن جاو كان لها مساجدها ومدارسها وكان الملك ونبلائه بها يلبسون العباءة والعمامة ، ويمتنعون الجهاد دون سروج (٢) .

يقعد بلغت جاو قمة مجدها في عهد أسكيا محمد ، وظلت المركز السياسي للسودان الغربي فترة طويلة ، ثم تدهورت مكانتها مع تدهور سلطة صنفي بالغزو المراكشي .

نهاية صنفي :

إن الصراع الطويل الذي حدث بين الطامعين في الحكم أثار القلاقل في إمبراطورية صنفي ، وهبوا القصر للتمرد على السلطة المركزية ، ولكن الأباطرة كان في طاقتهم أن يصارعوا من أجل تمكين نفوذهم كلما تزعزع هذا النفوذ ، ولكن عندما بدأ الصراع بين المغرب وصنفي ، كان ذلك نذير النهاية ، وقد أضعف هذا الصراع الدولتين جميعاً ، وهو لم يحقق أطماع المغرب ، ولا حافظ على صنفي من التفكك ، وكان من أبرز نتائجه أن الأقاليم المختلفة انتهزت فرصة انشغال صنفي بالصراع ضد المغرب ، فأعلنت استقلالها ، وخروجها عن الطاعة ، وتمزقت بذلك صنفي ، ولبدأ قصة هذا الصراع من أولها .

كانت تعزة منجم الملح الذي تتطلع له كل البقاع في إفريقية الغربية ، وكان الملح على القيمة وغالى الثمن ، حتى أنه كان يقرن بلذهب « وتقاربه »

بل إن الناس يستطيعون الاستغناء عن الذهب ، ولا يستطيعون الاستغناء عن الملح ، وكانت صغنى قد استولت على هذه المناجم وتلك ، بالإضافة إلى ما كان يمكن أن تشتره أو تستولى عليه من العبيد الوثنيين ، والذهب والملح والعبيد هي مصادر الثروة وعناصر التجارة آنذاك في تلك البقاع ، وكان استيلاء صغنى عليها جميعاً يثير مخاوف مراكش وقلقها ، فقد كانت مراكش تحرص على أن تبقى منطقة الجنوب أقل منها حجماً وقوة وثروة .

وكانت تعزة أقرب إلى مراكش منها إلى النيجر ، وهي منطقة فقيرة إلا من عنصر الملح ، وعمال مناجمها ينتظرون غداهم وشراهم من خارج البلاد مع القوافل التي تغدو وتروح ، تأخذ منهم وتعطيهم ، وعندما استولت صغنى على تعزة وجد ملك مراكش أن هذا أمر غير مرضٍ ، وبخاصة أن صغنى كانت تحكم الطرق الرئيسية التي تمر بها التجارة ، وكان لها وحدها تحديد الأسعار كما تشاء ، والتحكم في التجارة ومساكنها حسب رأيها ، وإذا كان ملوك مراكش قد قبلوا هذا الوضع في عهد الأباطرة الأقوياء لصغنى ، فإن حكام صغنى الذين جاءوا بعد أسكيا محمد لم تكن لهم هبة تمنح مراكش من التصدي لهم ومقاومة نفوذهم ، ففي عهد أسكيا إسحق طلب منه مولاي حامد ملك مراكش تسليم مناجم الملح في تعزة ، ورفض إسحق هذا الطلب ، وقال مهدداً : إن الذي يطلب هذا الطلب لا يمكن أن يصير ملك مراكش ، وعلى كل حال فإنني لست الذي يصغى لذلك ، فلما جاء أسكيا داود للحكم طلب منه ملك مراكش أن يعطيه مناجم تعزة لمدة سنة واحدة ، على أن يدفع عنها إيجاراً فوافق داود ، ويبدو أن مراكش تركت المناجم في نهاية المدة وفاء بوعدها ولأنها - فيما يبدو - كانت خلال هذا العام تعد العدة لحولة جديدة عسكرية لم يأت أوانها بعد ، ولذلك نجد أنه بعد فترة من إخلاء تعزة بعث ملك مراكش جنوداً للاستيلاء عليها بالقوة ، بيد أن الأخبار وصلت بسرعة إلى تعزة فسحبت صغنى جيوشها

وعمالها من هذه المنطقة مما جعل الاستيلاء عليها عديم القيمة ، إذ لا يمكن استغلال هذه المناجم بدون عمالها ، وهذا جعل المراكشين يعودون دون جنوى .

وفي سنة ١٥٧٨ تولى ملك مراكش الملك أحمد المنصور ، أعظم ملوك الأشراف الحسنيين ، وقد جاء إلى الحكم بعد موقعة القصر الكبير التي تسمى موقعة الملوك الثلاثة حيث التقى محمد الثاني ملك مراكش بويده ملك البرتغال بعد الملك عم السلطان بويده العثمانيون ، وقد سقطت للملوك الثلاثة في المعركة واندهر جيش البرتغال ، وتولى أحمد المنصور فجئى ثمار هذا النصر وكان لديه عدد وفير من الأسرى الأسبان استبقى بعضهم وأخذ فدية من الذهب من البعض الآخر كما أن إنجلترا كانت تبيع للسلطان الأخشاب لبناء المراكب ، وتبيع له القنابل والمدافع ، واستطاع أحمد المنصور بذلك أن يكون جيشاً حديث التنظيم ، ولم يعد قانماً بأهداف أسلافه التي كانت تقف عند نغزة بل أصبح يطمح في غزو صغنى كلها ، والاستيلاء على أرض الذهب ، وساعده على ذلك هذا السلاح الجديد الذي توافر لجنده في حين يحارب جنود صغنى بالسيف والرماح والأقواس (١) .

ويذكر Trimmingham (٢) أن المنصور انتهر فرصة الخلافات الداخلية التي أضعفت حكام صغنى ، وأثارت لعابه أنباء الرأى في هذه الإمبراطورية ، فهاجمها بجيش من الأوروبيين بعضهم أسرى وبعضهم مرتزقة ، ولم ينجح هذا الجيش في الاستيلاء عليها وإنما نجح في إسقاطها ، فكان الغرم على الجميع ولا فائدة لأحد .

وقد تجاوز هذا الجيش مراكش في أكتوبر سنة ١٥٩٠ متجهاً إلى صغنى

(١) J. D. Fage : West Africa pp. 29-30

(٢) Islam in West Africa p. 100

بقيادة ضابط اسمه جودر باشا أسباني الأصل ، ولكن الصحراء أكلت بعض الجيش ، كما عانى أفراد العطش والمتاعب في الطريق الذي استغذ عشرين أسبوعاً ، وكانت صغنى مهملة ، اعتقدت أن الهجوم عليها سيكون من ناحية الغرب عبر التكرور ، وليس من الشمال عبر الصحراء ، ولذلك لم تقابل الجيش الزاحف في الوقت المناسب ، ثم حدثت موقعة بين الجيشين في أبريل سنة ١٥٩١ بالقرب من نهر النيجر تسمى موقعة «توندبي» وهي تقع بالقرب من جاو ، وقد هزم فيها جيش صغنى ، وسرعان ما عبر الجيش المهزوم النهر إلى الجنوب ، واستقر في دندى الوطن الرئيسى لحكام صغنى ، ولكن هذا الحدث أربز أعداء جدداً للجيش المراكشى الزاحف ، فإن المقاطعات التي تخلفت عنها صغنى هبت تدافع عن نفسها وتستعيد استقلالها ، فلم تكن ثورة الموشى ومالى والبربر والفلوانى ضد صغنى فقط آنذاك ، وإنما كانت ضد أى تحكم من الخارج ، وأدرك جودر باشا أن خسارة جيشه فادحة سواء منها ما ألم بهذا الجيش في طريقه إلى السودان ، أو ما يُخْبِئُه المجهول بالنسبة للمستقبل ، كما أدرك كذلك أن ثراء إمبراطورية صغنى لم يكن بسبب امتلاكها للمناجم الملح أو للذهب أو غيرها من المنتجات ، بل بسبب سيطرتها على الطرق التجارية ، وبسبب إتاحة الفرصة للتجارة لتزدعم في ظل الأمن والنظام ، وبخاصة في عهد الأباطرة الأتوميا^(١) ، وإذا كان القلق والاضطراب قد حلا محل الأمن والنظام ، فقد توقفت التجارة ، وبالتالي ضاع أهم مصدر من مصادر الثراء بهذه البلاد :

وبينا كان جودر باشا يحس بهذه الأحاسيس ، عرض أسكيا إسحق بعض الأموال كمجزية تكتفى بها مراكش ، ويبدو أن جودر باشا مال إلى قبول هذا العرض ، وكتب بذلك إلى ملك مراكش ، ولكن هذا كان هتدً هذه الحملة فكره الذى لم يُريد أن يتخلى عنه ، فأرسل قائداً جديداً اسمه ابن زرقون أسباني الأصل أيضاً ليكمل القيادة العسكرية من جودر باشا ،

وأعد ابن زرقون زوارق عبر بها النيجر ، والتي بإسحق في موقعة « بامبا » ،
وهزمه وقتله ، وتولى أسكيا نوح الذي غلب* يحارب حتى قتل أيضاً سنة
١٥٩٤ ، وبنياته انتهت إمبراطورية صنفي ؟

ولكن نهاية إمبراطورية صنفي لم يكن نهاية الحملات المغربية إلى السودان
لأن الجيش المراكشي لم يستطع أن يسيطر على المناطق الواسعة التي كانت
تخضع إلى صنفي ، ولا أن يعيد الأمن في المناطق التي يسيطر عليها ،
ولم يمتد نفوذه لأكثر من المدن الرئيسية الثلاث جاو ، وتمبكتو ، وجني ،
التي اتخذها قواعد يشن منها بعض الغارات من حين إلى حين ، وواصلت
المغرب إرسال القادة والجنود إلى السودان رجاء أن تحقق نصراً حقيقياً على
هذه المناطق وبناء على ما ذكر Page (١) أرسلت مراكش ٢٣.٠٠٠ جندي
إلى السودان في المدة بين ١٥٩٠ و ١٦١٨ ، ويقرر Page أنه نادر من عاد
من هولا إلى المغرب بعد ذلك ، وفي خلال هذه الفترة كانت الحروب
مشتتة في كل مكان بين الولايات التي انفصلت عن صنفي بعضها ضد البعض
الآخر ، وبينها وبين القوة الغازية من الشمال ، ولم يعد لباشوات مراكش هيبة في
تلك البقاع مما جعل مولاي زيدان بن المنصور يتخطى نهائياً عن صنفي سنة
١٦١٨ ، ولكن أكثر قواته كان قد استوطن هذه البلاد ، ولم يعد إلى المغرب
إلا قلة ضئيلة ، وهكذا كانت أطماع المنصور سيياً في القضاء على عشرات
الآلاف من جنود المغرب ، ومن رجال صنفي ، كما كانت سيياً في توقف
النشاط التجاري والاقتصادي ، وإحلال الفلق محل الأمن ، والفقر محل
الرخاء (٣) ، وقد عادت بعض النتائج الاقتصادية على مراكش ، فقد كتب
لورانس مادوك سنة ١٥٩٤ يقول : منذ عشرة أيام قدم من الجنوب قائد

(١) An Introduction to the History of West Africa p. 31

(٢) خلاصة موجزة لمسا كبه السعدي في تاريخ السودان من حملات مراكش ضد
السودان : ص ١٢٧ وما بعدها . انظر كذلك Page في المرجع السابق ص ٢٠ - ٢١ .

أنجلسي المولد ومعه زعيم مراكشي كان الملك قد أرسلهما قبل ذلك مع القائد حود وأحضرا معهما ثلاثين بقة محملة بالذهب ، وقد رأيت ذلك بعيني رأسي وسُرَّ به الملك (١) .

نهاية حضارة السودانية :

يقول Ward إن الحضارة في السودان كانت أرق من حضارة غرب أوربا ، ثم بدأت حضارة السودان تتضاءل بسبب الحروب والخلافات ، ولكن أوربا أخذت تتقدم بفضل ما تعلمته من العرب ، وهذا أنصح الطريق لأوربا الغربية أن تستعمر غربي إفريقيا ضمن ما استعمرته من مناطق العالم (٢) . ومن مساوئ هذا الفتح أن الحاكم ظلم العلم والعلماء ، فقد أصدر أمره بالتبض على العالم الكبير أحمد بابا التمبكتي الذي تحدثنا عنه عند الحديث عن تمبكتو ، واقتيد إلى مراكش سنة ١٥٩٤ ، وفقد التمبكتي كتبه خلال هذه المأساة وكسرت ساقه ، ولكنه ظل ثابت الجأش وانتهز أقرب فرصة ليستأنف نشاطه العلمي في مراكش نفسها ، ولم يسمح له بالعودة إلى تمبكتو إلا سنة ١٦٠٥ في عهد مولاي زيدان ، وخلد التاريخ له فضله وجهده ، كما خلد العار على ظالميه .

نهاية باشوات مراكش :

بقيت كلمة عن باشوات مراكش الذين بقوا في السودان ، ولم يعودوا إلى مراكش بعد أن أعلنت مراكش أنها تتخلى عن هذا الغزو ، وقد حاول هؤلاء أن يقيموا لهم دولة تعترف بسلطان المغرب وتربطها به روابط هذا الاعتراف ، وأخذت هذه الجماعة تختار رئيسها بنفسها ، كما سمحت بأن يدخل في سلك الجنودية أبناء السودان ، ولكن على أن يشغلوا المناصب الصغيرة ، أما مناصب الضباط فقد بقيت وقفا على المراكشين ، ثم على أبنائهم من الزوجات السودانيات بعد ذلك ، وقد ظل اعتراف هؤلاء بتبعيةهم لسلطان مراكش حتى سنة ١٦٦٠ ، ثم قطعت السلالات الجديدة هذه الصلة .

وكانت تمبكتو عاصمة هذا الحكم ، وبها تقيم الحامية الرئيسية ، ويوجد بالمدين الأخرى ممثلون لهذه الحامية ، وكانت هذه المدن تدفع جزية سنوية لحكام تمبكتو ، ولكن سرعان ما ضعف هذا النظام الذى يتخذ من الحياة العسكرية قوة له ، وكثرت الخلافات والاضطرابات التى تصحب الحكم العسكرى دائما ، ويقرر المؤرخون أنه بين سنة ١٦٦٠ ، و ١٧٥٠ وصل عدد الباشوات ١٢٨ ، وهذا يدل على انفجار الاضطراب وكثرة الانقلابات والاضطرابات .

ونتيجة لهذا الضعف أصبح الباشوات فى تمبكتو يدفعون الجزية لبعض الحكام الوثنيين ، وتبعاً لذلك استغلت عن تمبكتو المدن التى كانت تابعة لها من قبل ونطعت عنها الجزية ، وحاشت هذه المناطق فى ضعف وتمزق استغله الاستعمار الأوروبى ليمد نفوذه إلى هذه الأرجاء^(١) .

انصهارات صنفى :

قلنا فيما سبق إن صنفى سيطرت على مصادر الثروة فى هذه البقاع وهى الذهب والبلع ، كما سيطرت على طرق التجارة الرئيسية بين الشمال والجنوب بما تدره من ضرائب ، وما تستلزمه من رخاء ، وهى بهذا تعد أغنى من مالى التى تحدثنا عن رخائها من قبل ، وفى ظل الأمن الذى نعمت به صنفى فى عهودها الأولى كانت التجارة ناجحة ، وكانت تدرّ الرخاء والثراء على الحكومة والشعب جميعاً ، ويقول Ward^(٢) ، كانت التجارة عبر الصحراء قد بلغت درجة عظيمة أسمى مما بلغت فى أيام مالى ، إذ كانت تملكه الصنفى أكبر وأعظم ، وكانت تضم مناطق ذات أجواء ومخاضيل أكثر تعدداً مما

J.D. Fage : Ibid p. 82 (١)

Ward : History of Africa p. 81 (٢)

كانت مالى ، وكان فيها نحاس وذهب كما كانت مناجم الملح خانبة لها ، وهكذا تدفقت الأرباح على حكومة صنغى وشعبها تابعة من المناجم وخصب الأرض أو وافدة مع التجارة الصاعدة والهابطة ، وبما يدل على ما وصلت له صنغى من غنى رحلة أسكيا محمد إلى الحج سنة ١٤٩٤ ، التى نلفت أيتها وجلالها رحلة منسى موسى ، وقد تحدثنا عنها من قبل .

صنغى من الناحية الاجتماعية والثقافية :

كان الأمن سائداً فى فترات الاستقرار التى مرت بها صنغى ، وبخاصة فى عهد أسكيا محمد ، وكان للناس أمناء شرفاء ، وكان القضاء عدولاً ، ولا أثر للرشوة فى مملكة أسكيا محمد ، وكانت الشرطة ذات أثر فعال حتى كان الطفل يذهب إلى السوق فلا يغشه أحد ولا يسرقه سارق ، ولم يكن يُسمح للنساء بالخروج غير مقنعات ، وكانت حكومة أسكيا محمد أكثر تمسكاً بالشدة من حكومة مالى^(١) ، وبممكننا هنا أن نقرر أن أكثر العادات الاجتماعية التى ذكرها ابن بطوطة وهو يصف مالى ، كالمشاركة على الصلاة ، واستعمال الثياب البيض ، والعناية بحفظ القرآن ، وشدة اجلال الرعية للملك ، كل هذه ظلت فى دولة صنغى كما كانت فى دولة مالى ، فالعادات الاجتماعية وثيقة الصلة بالإنسان والتحول عنها عسير ، وهذه العادات يرتبط أكثرها بالدين وآدابه ، وقد اهتم أسكيا محمد وأكثر من جادوا بعده بتعاليم الإسلام وسلوكه .

أما الناحية الثقافية والإسلامية منها بوجه خاص فقد نالت عناية ملوك صنغى وبخاصة أسكيا محمد الذى وضع الأساس لهذه العناية ، ويروى أنه كان صديقاً للعلماء كلهم ، وقد وفد كثير منهم على « نمبكتو » و« جنى »

للدراسة والقيام بالتعليم ، وكان عظيم التقدير لهم ، فإذا دخلوا عليه أجلسهم على سريرة ورفاهية ، وقد أمر ألا يقف أحد إلا للعلماء ، وألا يأكل معه سواهم^(١) ، وشيد كثيرا من معاهد العلم وجذب لها العلماء من المغرب والبلدان المجاورة ، وعمل على نشر الإسلام بين الوثنيين من قبائل الهوسا ، والفولا والموشي ، وظهرت في ظله مدن إسلامية شمالي نيجيريا ، مثل كانو وكاتسينا وجذبت هذه المدن طبقات العلماء مثل أحمد التيفيكي الذي عرج على كانو عند عودته من الحج وجلس بها يعلم الناس ، ووصل انتشار الإسلام في ظله إلى منطقة بحيرة تشاد ، ولهذا يطنب السعدى ومحمود كعت التيمبكي في ذكر محاسنه وأفضاله ، ويرقون به إلى درجة الأولياء أصحاب الكرامات والموارق .

وسار كثير من ملوك صنفى أسكيا محمد في هذا المضمار ، فشجعوا العلماء وأكرمهم ، وبذلوا أقصى الجهد لخدمة الإسلام ونشره ، والعناية بالكتب والمكتبات ، وكان بعضهم يحفظ القرآن ويجلس أمام الشيوخ يتلوه عليهم ويستمع إلى شرحهم وتفسيرهم^(٢) .

النظام الإدارى فى صنفى :

تكاد كل المراجع التى بين أيدينا تجمع على أن صنفى فى أوج عظمتها كانت تحظى بنظام إدارى رائع ، وأن أسكيا محمد أعاد تنظيم الدولة ، وأن النظم الدقيقة التى وضعتها شملت الناحية المالية والناحية العسكرية والعلاقات القبلية ، وكانت كلها ترمى لخلق وحدة قوية من الأجزاء المختلفة للدولة ، والقضاء على السلطة القبلية ، وكان عماد التنظيم الجديد هو المركزية فى مجال

(١) تاريخ لفتاوى ص ٥٦ .

(٢) السعدى ومحمود كعت فى أمكة متعددة وقد أشرنا لذلك من قبل .

الشئون الرئيسية والتشريع ، واللامركزية أو الحكم المحلي في الأمور الثانوية
والتنفيذية ، وفيها يلي تصوير هذا النظام :

يقول Basil Davidson إن من أعظم ما قام به أسكيا الحاج محمد من
أعمال أنه طور النظام الإداري في صنغى بحيث دفع الدولة دفعة قوية نحو
الحكم المركزى القوى^(١) ، ويعطى Thomas Hodgkin بعض التفاصيل عن
هذا النظام فيقول : إن عبقرية أسكيا محمد لم تتجل فيما قامت به من أعمال
عسكرية مثلما تجلت في التنظيم الإدارى الممتاز ، الذى وضعه هذا الرجل
بتأييد الزعماء المسلمين ، وبتأييد التجار ، كوسيلة من وسائل توحيد هذه
الإمبراطورية المترامية الأطراف وربطها ، وقد تضمن هذا التنظيم إنشاء
نظام حكام الأقاليم ، وإنشاء عدد من الوزارات المركزية للشئون المالية
وشئون الجيش ، وشئون القضاء ، والشئون الداخلية ، وشئون الزراعة
والغابات ، وكذلك إنشاء وزارة خاصة للشعب الأبيض أى للمغاربة والطوارق
الذين كانوا يعيشون على الحدود الصحراوية للامبراطورية :

ويحدد المؤرخ الإفريقى آدم عبد الله الآلورى أقسام الولايات في هذه
الإمبراطورية ، فيقول : أنها كانت أربعة أقسام يمتد الأول من بلاد دندى
حتى بلاد الهوسا ، والثانى من مدينة جاو حتى تمبكتو ، والثالث من شمال
جاو حتى بلاد الطوارق ، والرابع ما يشمل بلاد السودان ، وكان حاكم
الولايات يلقب (نارى أوغريا) ، وكان لهؤلاء الحكام سلطة واسعة في ولاياتهم
في حدود سلطات الوزارات المركزية التى يمتد نفوذها إلى كل الأقاليم^(٢) .

(١) Rediscovery of Ancient Africa p. 50

(٢) بلاد السودان للقرن من مجموعة أبحاث عن فجر التاريخ الإفريقى ص ٢٠ .

(٣) موجز تاريخ نيجيريا ص ١٤٧ وعن لقب الأمراء أقراً ابن بطوطة ج ٢ ص ٢٢٢

ويقول Trlmingham (١) إن أسكيا محمد كان ينفذ في قبة هذا النظام ، وكانت جاو تخضع خضوعاً مباشراً له ، وكان أغلب سكانها معاونين لاسكيا وحاشية له وجنود حراسة ، وكان يعين حكام الأقاليم من أسرته أو من خالصائه ، وبراقبهم مراقبة دقيقة فثيب الحسن ويعاقب المسىء ، ولم يكن الحكام إقطاعيين وبهذا لم تنمق جنودهم في مناطقهم ، وظلت السلطة الحقيقية في يد أسكيا ، ولكن ولاية العهد لم يوضع لها نظام ، ولم يكن هناك مجلس ليختار الإمبراطور الجديد إذا خلا منصبه ، ومن أجل هذا كانت وفاة الإمبراطور تستتبع حركات ثورية يقوم بها الطامعون .

بقيت كلمة عن جيش مبنى الذي حقق هذه الانتصارات الواسعة وقد نالته في هذا العهد عناية الإمبراطور ، فنظمه تنظيماً دقيقاً ، ودربه تدريباً كاملاً ، وأصبح به فرق من الفرسان وفرق من المشاة ، وطور أسلحته حتى أصبح من أقوى جيوش ذلك العهد ، ووضع بمكان القيادة فيه خبرة العسكريين الذين انجهوا في اهتمامهم إلى الدولة ، دون أنانية تصرفهم عن الإخلاص لها أو تدفعهم إلى إثارة انقلاب ، ومحاولة الانقلابات (٢) .

وهكذا شهد العالم الإسلامى دولة عظيمة الشأن عالية السلطان وللأسف الشديد جاءت نهايتها على أيدي جماعات تنتمى لنفس الدين ، ولو تعاون هؤلاء بدل الصراع والحصام لأمكن أن يكون تاريخ هذه المنطقة غير ما دونه .
هنا التاريخ فيما بعد .

إمبراطوريات الهوسا

يكاد يجمع المؤرخون على أن تاريخ إمارات الهوسا كغير الموضوع ، ويكتفه سنارُ بمعنى حقائقه إلى حد كبير (١) . ولكن على الرغم من ذلك فقد استطعنا - الباب الثاني - من هذه الدراسة (٢) ، أن نبرز أهم معالم تاريخ هذه الإمارات ، وأن نتبع هذا التاريخ حافة بعد حلقة حتى انتشار الإسلام بينها ، وقد ذكرنا هناك أن شعب الهوسا ليس قبيلة بالمعنى الدقيق للمصطلح ، وأن جماعات الهوسا لم تكن تمثل دولة بهذا المعنى كذلك ، إذ لم تنقطع الحروب بين هذه الإمارات بعضها والبعض الآخر ، ولم تستطع جماعات الهوسا أن تكون من بينها وحدة تمكنها من حماية أبنائها أمام جيرانهم ، ولكن في ظل الإسلام برزت بين هذه الإمارات فترات تجمُّع قوية ، تحت قيادة واحدة منها ، واستطاعت الدولة الوائدة أحياناً أن تضم لنفسها مناطق أخرى غير مناطق إمارات الهوسا ، وتكونت بذلك إمبراطوريات هوسوية هي التي سنروي هنا خبرها .

وأولى إمبراطوريات الهوسا هي إمبراطورية ، كبي ، وأصل أهلها مزيج من أم كشناوية وأب من صنفى ، وقد بدأت إمبراطورية كبي مع بداية القرن السادس عشر ، وكان ملكها يلقب (كانتا) وقد استطاع كائتا الأول أن يقهر البلاد حوله ، وأن يملك منها الأنصافى والدوانى كما يقول الإمام محمد بلو ، فشمس سلطانه كاشنا وكانو وجوبر وزكرك (زاريا) ، كما غزا برنو ، وغيرها من الأقاليم المجاورة (٣) ، وقد استطاعت دولة كبي

Trimingham : A History of Islam in West Africa p. 134

J. D. Fage The History of West Africa p. 27

(١) انظر

(٢) ص ١٢٨ وما بعدها . (٣) اتفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور ص ٤٦ .

أن تصمد أمام الحاج أسكيا محمد ، حتى بعد أن استولت جيوش صنفى على كانم ، وبهذا لم تسترد إمارات الهوسا استقلالها الذى فقدته فى عهد صنفى على فحسب ، بل راحت تنازع أسكيا الحاج محمد وتطاول سلطانه ، وقد هزمت جيوش كبرى قوات أسكيا محمد ، وتوقف أمل أسكيا فى حكم إمارات الهوسا (١) .

وامتد نفوذ إمبراطورية كبرى عقب ذلك ، فسيطرت على جورما ، وعلى شرقى صنفى حتى تبرا ، وسارت فى نفس الطريق الذى تسلكه دول السودان ، ففكرت حكم الإمارات إلى قاداتها ، فيما علما بعض الأجزاء حكمها الكانتا بطريق مباشر وكان ذلك فى زقرة وونقارة (٢) :

وكانت عاصمة كبرى اسمها «سورامى» ومركزها العسكرى فى «جونجو» ، حيث الحصون والقلاع الضخمة ، لتحضى الجانب الغربى من الولايات من ممالك الغرب التى كانت تنطلع للسيطرة على إمارات الهوسا :

وقد طال الصراع بين إمارات الهوسا وحكام صنفى ، فقد هاجم أسكيا محمد بنجان هذه الإمبراطورية ، ولكنه هزم هزيمة منكرة أمام جيوش الكانتا فى موضع يقال له وتشرماس وهرب مع عسكره بصعوبة (٣) ، ومع علما فقد قتل الكانتا سنة ١٥٤٥ ، فى طريق عودته إلى بلاده بعد انتصار حاتم حصل عليه ضد على بن إدريس ملك بورنو (٤) ، وتولى كانتا الثانى الذى حاصر أسكيا داود ، وجرت بينهما مفاوضات حرية سنة ١٥٥٢ انتهت بمعاملة صلح فى العام التالى (٥) ، واستطاع الملوك اللذين جاءوا بعد كانتا

(١) إنفاق الميسور ص ٤٩ و 50 p. Baill Davidson : Ancient Africa

(٢) Trimingham : 185 p. 186

(٣) كسمى : تاريخ لموتان ص ٨٨ .

(٤) الإمام محمد بلو : إنفاق الميسور ص ٢٧ .

(٥) Trimingham : West Africa p. 131 (c)

الأول أن يحافظوا على هذه الإمبراطورية مدة نصف قرن ، ولكن صراعهم ضد ملوك برنو ، وأباطرة صغنى أثر فيهم ، فأخذت الإمبراطورية في الانحلال والضعف .

وكان لإمبراطورية كبي حياة بصفها المؤرخون بالرخاء والثراء بسبب موقعها الممتاز ، ونشاط أهلها في مجالات الزراعة والتجارة والصناعات اليدوية ، ومن هنا استطاعت إمارة كبي أن تحافظ على نفسها بعد أن فقدت كثيراً من أجزائها التي تبعتها في عصر القوة ، وعاشت إمارة كبي حتى دعمها الاستعمار البريطاني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وقد تحولت العاصمة من «سوراي» إلى «برنين» سنة ١٧١٥ بعد حركة الانكماش التي أصيبت بها الإمبراطورية (١) .

وإذا كانت إمبراطورية كبي قد ضعفت بسبب الصراع في الشرق ضد حكام برنو ، وفي الغرب ضد أباطرة صغنى فإن هاتين الدولتين قد ضعفتا أيضاً ، فالغزو المراكشي قضى على إمبراطورية صغنى ، كما لم يستطع ملوك برنو أن يخضعوا بعظمة هذه المملكة ، وعندها هيا لإمارات الهوسا أن تأخذ الزمام التجاري والثقافي والسياسي في هذه المنطقة (٢) . وكان بروزها هذه المرة تحت قيادة إمارة كاتسينا ، إذ أن المجرى الرئيسي للحركة التجارية مع الشمال إفريقية تحول شرقاً إلى بلاد الهوسا ، وقفزت إمارة كاتسينا بصفحة نخاعية إلى مكان الصدارة والشهرة في عالم التجارة والحضارة ، وسرعان ما أخذت القيادة في عالم السياسة أيضاً تحت قيادة حاكمها : جان مانو بكسي (١٦١٨ - ١٦٤٨) فقدت نفوذها إلى ما رادى في الشمال وشنقرة في الغرب ، وبوين وجواري في الجنوب (٣) ، ولكن إمارة كاتسينا لم تكن طويلة العمر ،

ولم تصل إلى درجة الإمبراطوريات ، ومثلها إملاوة زنفرة التي حاولت بعد
كبي أن تأخذ طريقها لقوة خلال القرن الثامن عشر فاستولى سلطانها
يعقوب بن ببة على كثير من الولايات التي كانت خاضعة لكبي وخرب
ديارها كما هاجم كاشة واستولى على بعضها (١) .

ولكن جوبر تُعد في الحقيقة الإمبراطورية التي خلفت كبي ، فإن سلطان
جوبر محمد بن شروم ، استطاع أن يستولى على زنفرة وما أخذته من كبي ،
كما استولى على كثير من الإمارات الأخرى (٢) ، ويقول Trimingham
إنه في خلال عهد الملك بابارى (١٧٤٣ - ١٧٦٢) اقتحمت جوبر
الإمارات التي كانت لا تزال تابعة لكبي ، كما استولت على زنفرة ،
وما تبعها من بلاد ، وقد أنشأ هذا الملك عاصمة جديدة اسمها « القلوة » ،
واستمرت جوبر في تقدمها فقصفت على ما تبقى للطوارق من نفوذ في
إملاوات الهوسا ، واحتلت نفوذاً كاملاً في كل هذه الإمارات ، وعند
متصف القرن الثامن عشر كانت جوبر مركز التجمع لإمارات الهوسا كلها (٣)

وامتد نفوذ جوبر إلى مناطق أخرى غير بلاد الهوسا ، فشمل كثيراً
من أرض يوروبا ، وأصبح اسم جوبر علماً على مناطق الهوسا كلها حتى
أن سكان يوروبا كانوا لا يعرفون للهوسا اسماً سوى جوبر ، ويطلقون على
أى واحد من إمارات الهوسا اسم جوبرى ، وقد بلغ ملوك جوبر ثلاثة
عشر ملكاً ، وجوبر بذلك يمكن أن تكون الإمبراطورية الثانية بعد كبي في
تاريخ إمبراطوريات الهوسا (٤) .

وفي نهاية القرن الثامن عشر كانت تسود العالم الإسلامى حركة واسعة

(١) إنفاق الميسور : ص ٤٦ .

(٢) المرجع السابق : ص ٤٧ . West Africa p. 137 (٣)

(٤) آدم عبد الله الألوثرى : مرجز تاريخ نيجيريا : ص ٨٣ .

رمى إلى بحث الفكر الإسلامى ، وإعادته إلى ما كان عليه من مجد سابق ،
ومصرعان ما تبع ذلك ظهور الحركة الوهابية ، والحركة السنوسية وحركات
إصلاحية متعددة هنا وهناك فى بلاد المشرق ، وامتدت هسله الحركة
الإصلاحية إلى جنوب الصحراء ، وكانت هنا على يد الإمام عثمان دانفديو
الذى سبق أن تحدثنا عنه ، وقد قام بحركته أولاً فى إمارة جوبر ، وساعده
القولانيون والمسلمون من قبائل الهوسا ، ولكن ملك جوبر تصدى له ،
فدافع الإمام عن نفسه فى حركة جهادٍ واسعة النطاق أريد بها إنقاذ الوثنيين
من الوثنية ، وإبعاد المسلمين عن الانحراف ، والاستفادة بالحركات
الإصلاحية التى ظهرت أشعتها فى كل بلاد المسلمين ، وكان الإمام مخلصاً فى
دعوته كل الإخلاص ، فلم تقف أمامه إدعاءات أعدائه ، وأنهارت كالمشم ،
ولم تستطع دولة من دول المنطقة أن تقف أمام إمبراطورية القولانى فى ذلك
الوقت ، بل دفعت الإمبراطورية بحلودها فى كل اتجاه ، كما حملت لغة
الهوسا والدين الإسلامى إلى المناطق المجاورة مثل توجو والكمرون^(١) ،
وانتفع القولانى إلى الجنوب تجاه شعب البيرويا ، وحملوا الإسلام
إلى هنا الشعب ، كما شغلوا كثيراً من الوظائف الهامة بهذه الدولة ،
وقد أحس ملك البيرويا بازدياد قوة المسلمين فى بلاده فأراد أن يدبر
مؤامرة يتخلص بها منهم ، ولما عرف هؤلاء ذلك ثاروا على الملك
واستطاعوا القضاء عليه ، وأجلسوا أحد الدعاة أميراً على البيرويا ،
وأصبحت هذه المنطقة تدبى بالطاعة لإمبراطور سكوتو^(٢) .

وهكذا استطاع الإمام عثمان دانفديو أن يكون إمبراطورية غسيحة فى
نيجيريا والسودان الغربى ، وكان ذلك سنة ١٨١٠ ، واتخذ الإمام مدينة

(١) Dr. J. Jones ملك للسودان الأوسط من مجموعة فجر التاريخ الإفريقى ص ٤٨ .

(٢) دكتور حسن إبراهيم : انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية ص ١٢٥ .

سكوتو عاصمة له ، ثم رتب نواباً له على الأقاليم التي ضمنها إمبراطوريته ، وهؤلاء هم :

- سليمان حاكماً على كانو . - عمر دلاج حاكماً على كاشنة .
- يعقوب حاكماً على بوشي . - بويارو حاكماً على غامبي .
- موسى حاكماً على زكرك . - إسحق حاكماً على دوره .
- عبد الله حاكماً على كبي . - إبراهيم زاك حاكماً على برنو وكتاغم (١)

ولكن برنو سرعان ما استعادت استقلالها بجهود محمد الأمين الكانمي كما سنرى فيما بعد ، ثم مال الإمام للتفرغ للدعوة ، وترك الحكم لابنه وأخيه ، فقسم مملكته قسمين ، وكان هذا التقسيم أساساً لنوع من الاستقلال لكل منهما ، فالقسم الشرقي كانت سوكتو عاصمته ، ويشمل إمارات الهوصا الكبيرة ، وقد عين بلال بن عثمان أميراً على هذا القسم ، وقد تداول على سلطنة سوكتو ستة عشر سلطاناً ، كان من بينهم تسع فقط من نسله ، ذلك لأن اختيار الملوك في هذا القسم سار تبعاً للفكر الاسلامي الذي يحتم الشورى عندما يخلو منصب السلطان ، فكان « مجلس اختيار الملك » يجتمع حينذاك ويختار أصح المرشحين سواء كان من أسرة السلطان أو من سواها .

أما القسم الغربي فكانت عاصمته مدينة « جواندا » على بعد مائة ميل من سوكتو ، وقد عين الامام عثمان أخاه عبد الله أميراً على هذا القسم ، ويبدو أن التورث سار بانتظام في هذا القسم ، وقد شمل هذا القسم مملكة نيوبى والوردين :

وعندما دخل الإستعمار البلاد أصبح نفوذ كل من إمارة سوكتو وجواندا مقصوراً على منطقتها ، ولا يتعداه للإمارات الأخرى التي كان يحكمها من قبل ، وأبرز شخصية في إمارة سوكتو في مطلع العقد السابع من هذا

القرن كان أهدو بللو الذى كان رئيس وزراء نيجيريا الحالية وفى إمارة جواندا الحاج هارونا ، وكان أميراً لهذه المقاطعة (١) .

وقد قامت هذه الإمبراطورية من مطلع القرن التاسع عشر حتى الربع الأخير من هذا القرن ، وفى هذه المدة فتر للأسف الخماس الدبنى لبعض زعمائها وكان هذا الخماس عماد قوتها ، وبسبب هذا الفتور ضعف نفوذ العاصمةين على الأقاليم التابعة لكل منهما ، ولم يعد لسكوتو نفوذها الكامل على مناطق الإمبراطورية (٢) .

وفى الربع الأخير من القرن التاسع عشر وطئ الاستعمار هذه البلاد فأزال استقلالها ، واختصم الإنجليز والفرنسيون حول اقتسام هذه البلاد وكانت الغلبة للإنجليز ، ف وقعت هذه البلاد بأمرها تحت السيادة البريطانية بناء على المعاهدة الإنجليزية الفرنسية المعقودة فى أغسطس سنة ١٨٩٠ والمكتملة باتفاقيتي ١٢ يوليو سنة ١٨٩٣ ، و ١٤ يونيو سنة ١٨٩٨ ، والاتفاق الإنجليزي الألماني المؤرخ فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٩٣ .

النظم الدستورية لهذه الإمبراطورية :

تمتاز هذه الإمبراطورية بأن منشئها لم يكن فقط بطلا ورجل سياسة ، بل كان عالماً ورجلاً من كبار المفكرين المسلمين ، وقد سبق أن ذكرنا أن له مؤلفات واسعة فيها عمق وبحت ودراسة ، وقد غلبه هذا الاتجاه فلم يحفل بالعرش الذى كونه ، ولا بالمجد السياسى الذى أحرزه ، بل ترك هذا لابنه وأخيه ، وعكف هو على البحث والدرس ، ووضع قاعدة للفكر السياسى موضع التنفيذ فدان بها أبنائه من بعده ، وهى أن الملك مستحقه لا لوارثه ، وأن الأمر شورى .

(١) عبد الرحمن صالح : أحتوبلو زعيم من نيجيريا ص ٣٧ - ٣٨ .

(٢) فيبر للتاريخ الإنبيق ص ٤٨ .

وبالإضافة إلى هذا كان القضاء مستقلاً عن السلطة التنفيذية ، ولم يكن للحكومة تدخل في أمور القضاء ، وكان القضاء يتفنون الشريعة الإسلامية على مذهب الإمام مالك ، وقد عرف عن قضاة هذه الإمبراطورية الدقة والتبحر في العلم وفهم القوانين الإسلامية .

ومن الناحية الاقتصادية كان هناك بيت المال وله موارد ومصارفه التي تتبع الفكر الإسلامى ، فالزكاة على التجارة ، والحاصلات الزراعية والأنعام تلغ ليث المال ، وكانت هناك جزية على غير المسلمين نظير إعفائهم من الخدمة العسكرية ، ونظير استمتاعهم بالمرافق العامة التي يدفع المسلمون تكاليفها من بيت المال ؛ ويتولى بيت المال الإنفاق على مطالب الدولة بكثير من الدقة وبخاصة عندما يكون الأمير قوياً عميق التعرف على الفكر الإسلامى .

برنو وكانم

١٠٨٥ - ١٨٩٣

تقع برنو إلى الشرق من إمارات الهوسا ، وتقع كانم إلى الشرق من برنو ، وهما تحيطان ببحيرة تشاد ، وقد سبق أن تحدثنا عن كل منهما على حدة قبل أن يغمرهما الإسلام^(١) ، فلما انتشر الإسلام في برنو وكانم ارتبط تاريخهما ارتباطا طويلا ومهماً بحيث أصبح ضروريا أن يجرى الحديث عنهما في نطاق واحد ، وذلك هو ما سلكه أكثر المؤرخين ، فقد تحدث Trimingham^(٢) و Fage^(٣) . عن دولة « بورنو - كانم » وأكثر برنو الآن يدخل ضمن اتحاد نيجيريا ، أما كانم فجزء من جمهورية تشاد .

وقد انتشر الإسلام في كانم قبل أن ينتشر في برنو ، وتكونت بها دولة إسلامية منذ سنة ١٠٩٠ ميلادية ، عندما أعلن ملكها دخوله الإسلام هو وحاشيته ، وحث رعاياه على اعتناق هذا الدين^(٤) ، وقد سبق أن ذكرنا ذلك ، وذكرنا أن اسمه كان « هوميه جيلمه » ، وأن الأسرة المالكة كانت تلقب بالأسرة السيفية نسبة إلى سيف بن ذى يزن ، ويقرر أخذ ملوكها وهو عثمان بن إدريس هذه الحقيقة في خطاب له للسلطان برقوق (١٣٨٢ - ١٣٩٨ م) فيقول له : نحن بنو سيف بن ذى يزن العربي القرشي ، كذا ضبطناه عن شيوخنا^(٥) ، وكان ملك كانم يتخذ لنفسه لقب « ماو » . وكانت عاصمته « جيمي » .

وقد دام حكم جيلمه اثنتي عشرة سنة (١٠٨٥ - ١٠٩٧) . وكان

(١) ص ١٣٦ - ١٣٩ .

(٢) Islam in west Africa pp. 110 ff

(٣) History of west Africa pp. 35 ff

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٨ ص ١١٧ .

لتحواله إلى الإسلام صدى كبير ونتائج عظيمة ، وبذكر D.H. Jones أنه عندما تحولت الأسرة الحاكمة في كانم إلى الدين الإسلامي استطاع الإسلام أن يكسب لنفسه جبهة ثابتة في منطقة السودان الأوسط ، ويقول Jones إننا لا نستطيع أن نتجاهل مدى ما كان للدخول الإسلام إلى هذه المناطق من أهمية تاريخية كبرى ، فقد جاءت مع هذا الدين الجديد معرفة الكتابة التي جعلت من الممكن قيام دولة ضخمة أكثر تنظيماً وكفاية في أساليب الحكم ، كما رفع هذا الدين مستويات شعوب هذه البلاد من الناحية الأخلاقية والإنسانية ، وخلق علاقات حضارية وفكرية بين هذه المناطق وجيرانها المسلمين (١) .

وأهم ملوك كانم المسلمين في « جيمى » هم :

١٠٨٥ - ١٠٩٧	هوميه جيلمه
١١٥٠ - ١٠٩٧	دوناما بن جيلمه
١١٧٦ - ١١٥٠	برى الأول
١١٩٣ - ١١٧٦	عبد الله بوكورو
١٢١٠ - ١١٩٣	عبد الجليل
١٢٢٤ - ١٢١٠	دوناما ديبا نيمى
١٣١١ - ١٢٩٠	الحاج إبراهيم
١٣٦٦ - ١٣٤٣	الحاج إدريس بن إبراهيم
١٣٧٠ - ١٣٦٦	داود بن إبراهيم
١٣٨٨ - ١٣٨٤	عمر بن إدريس
١٣٩٠ - ١٤٢٢ (٢)	عثمان بن إدريس

(١) شعوب وملك السودان الأوسط من مجموعة نجر التاريخ الإفريقى ص ٤٤ .

(٢) Trimingham : Islam in wets Africa p. 120

وقد وصلت كانم إلى فترة التضعج في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، فبسطت سلطانها على بعض قبائل السودان الشرقى ، واحتلت برنو ، ووصل نفوذها إلى فزان ، وأصبحت لها علاقات تجارية وثقافية مع طرابلس ومصر ، وبهذا اتسعت حدودها في كل اتجاه تقريباً^(١) .

ويذكر Basil Davidson^(٢) أن إمبراطورية كانم كانت تتبعها حكومات مركزية ظلت قائمة حتى القرن السابع عشر ، وأن حكام كانم استحدثوا نظاماً جديدة في الحكم المركزى وفي أساليب الحرب والغزو ، وهنا تكمن العوامل التي ربطت بين النمو الحضارى المتصل ، واستخدام الحديد ، والاستفادة من التجارة الدولية .

وفي القرن الرابع عشر تعرضت كانم إلى ألوان من الصراع الداخلى بسبب ثورات بعض القبائل ، وبسبب خلافات بين أفراد الأسرة الحاكمة ، وقد ضعفت كانم نتيجة لذلك ، على أن أهم شىء أثر في حياة كانم هو ذلك الزحف العائى الذى قامت به جماعات البولالا من الشمال الشرقى قبيل نهاية القرن الرابع عشر ، وقد استطاعت هذه الجماعات أن تحتل العاصمة « جيمى » وأن تستولى على السلطة الحقيقية ، ومن ثم فرت الأسرة الحاكمة من كانم إلى برنو التي لم يمتد لها نفوذ البولالا .

وقبل أن نتبع ملوك الأسرة السيفية في برنو نذكر أن جماعات البولالا ، قنعت بالسيادة التي حصلت عليها ، ولم تطمع في ألقاب الملك ، بل اختارت بعض أفراد الأسرة السيفية للذين لم يغادروا كانم ، وعينتهم ملوكاً ، على أن يقنعوا بالاسم ، وألا يكون لهم في السلطان الفعلى نصيب .

ولنتج الآن ملوك كانم في برنو، وقد أحسنت برنو استقبال الأسرة المالكة الفارة إليها من عاصمة الإمبراطورية في كانم ، فقد كان لكثيرين من هؤلاء الملوك سيرة حميدة ، ولم تستطع جماعات البولالا أن تساوقهم أمجادهم ، وبخاصة أنها اعترفت بملوك الأسرة السيفية ، ولو من الناحية الاسمية ، وبهذا استطاعت الأسرة السيفية أن تواصل حكمها على شطر المملكة وأن تأخذ منه مركزاً لتناضل عن حقها ، وتستعيد سلطانها في كانم أيضاً ، وهكذا شهد القرن الخامس عشر صراعاً مريراً ، قام به ملوك الأسرة السيفية في برنو ليثبتوا أقدامهم من جديد وليقضوا على خصومهم ، ويُعبد على غازي بن دوناما (١٤٧٦ - ١٥٠٣) المؤسس الحقيقي للدولة الجديدة ، فقد استطاع أن يقضى على الحروب الداخلية ، وأن ينشئ نظاماً إدارياً مستقلاً ، وقد شيد له عاصمة جديدة على نهر « يو » ، واستطاع - بعد هذا الاستقرار - أن يمد نفوذه إلى بعض دول الهوسا^(١) ، واضطرت « كانوا » أن تدفع الجزية إليه .

وجاء دور إدريس ابنه (١٥٠٣ - ١٥٢٦) ، وقد زحف هذا الملك على كانم من جديد ، ولم تستطع جماعات البولالا أن تقف في وجهه ، فاستعادها سلطانه ، راندفع البولالا إلى الشرق ، وقبلوا أن يلغوا الجزية إليه ، وقنع إدريس بذلك دون أن يتابع الهجوم عليهم .

وهناك نقطة ذات بال ترتبط بالفترة التي أقامها ملوك الأسرة السيفية في برنو ، وتلك النقطة هي أن الإسلام زاد بهذه البلاد انتشاراً وتمكناً^(٢) .

وكان حكم إدريس بن علي المشهور بإدريس علومه (١٥٧٠ - ١٦٠٢)^(٣) قمة المجد لهذه الأسرة ، وسبب شهرة إدريس علومه يرجع في

(٢) الإمام محمد بلو : إنفاق الميسور ص ٤٦ .

(٢) Trimingham : Islam in west Africa p. 121

(٣) يذكر Jones أن حكم كان بين سنتي ١٥٨٠ و ١٦١٧ .

الحقيقة إلى المعلومات الحصبة التي وصلتنا عنه عن طريق إمام الأئمة أحمد ابن فرتوا الذي كتب تاريخه ودون حروبه في شرق بحيرة تشاد وغربها ، ولم نعرف إلا القليل عن سواه من الحكام ، وقد وصف الإمام نجاحه الباهر ، وفتوحاته الناجحة كما وصفه أيضاً بأنه عادل وحكيم ، وقد ذهب « إدريس علومه » للحج ، وعرف خلال هذه الرحلة قيمة الأسلحة النارية الجديدة ، فاشترى كثيراً منها من الأتراك ، واستطاع بذلك أن يغير طبيعة الحرب في هذه المناطق ، كما استخدم كثيراً من العرب في جيشه (١) .

واستطاع بذلك أن يحقق انتصارات كبيرة حول برنو ، وأن يهزم قبائل الطوارق وأن يدخل بعض القرى التابعة لكانو ، ولكنه لم يستطع أن يأخذ المدينة نفسها (٢) .

على أن أعظم ما حققه من نصر كان في الاتجاه السياسي ، إذ استطاع أن يوحد بين القبائل المختلفة التي تسكن مملكته .

وكان إدريس علومه مهماً من ناحية اتجاهاته الإسلامية ، أكثر منه كمؤسس للإمبراطورية ، ففي مملكة كانم القديمة كانت طبقة الحكام والفقهاء هي التي تدين فقط بالإسلام الحقيقي ، وقد بذل إدريس جهداً كبيراً لجعل الإسلام دين الدولة ، ولينشره في جميع ربوعها ، ويقرر الإمام أحمد أن عهد إدريس حفل بانتشار الإسلام ، وأن الطبقة العليا أصبحت جميعها مسلمة ، كما اتجه الاهتمام إلى اقتباس التشريع الإسلامي والعمل به .

وقد نظم إدريس السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية ، وفصل بينها : وبني مساجد ضخمة من الحجارة ، كما بنى في مكة مقراً لحجاج برنو .

وانجه إدريس إلى تنظيم حروبه لتتشي مع نظم الجهاد الإسلامية ، كما اتبع الفكر الإسلامى فى نظام أسرى الحرب ، وأصبحت حروبه لنشر الإسلام تابعة للفكر الإسلامى ، ولم يعد هناك إكراه لأى شخص ليدخل الإسلام وأصبح الدخول فى الإسلام طوعية ، وعن اقتناع ، وهكذا انتشر الإسلام انتشاراً واسعاً خلال عهد إدريس عن طريق الدعوة وبدون أى إكراه^(١) .

ولما توفى إدريس حكم أبناؤه الثلاثة بعده الواحد تلو الآخر ، وهم محمد إبراهيم فقمّر ، وكانت للمملكة خلال حكم هؤلاء تسير بدافع التاريخ الذى خلفه إدريس ، إذ لم يكن فى هؤلاء نبوغ يضارع نبوغ إدريس ، ولكن إدريس خلف دولة قوية فعاشت باسمه فى أيام أولاده وبعد هؤلاء الثلاثة جاء على بن عمر ، وكان كجده بطولته وكفأته ، ولذلك أعاد مكانة جده وهيبته ودام حكمه أربعين عاماً (١٦٤٥ - ١٦٨٥) ومن بعده جاء خلفاؤه إدريس ابن على ودونمة بن على وحدون بن دونمة ودونمة بن حملون وأحد بن على ، وفى أيام هؤلاء ظهر الضعف على إمبراطورية برنو وأعاد البولالا هجومهم على البلاد ، فلما جاء القرن التاسع عشر هبّ فى مطلقه الزعيم حبان دانغديبو يقود ثورة الفولاني ويوسع سلطانه هنا وهناك ، وقد زحف هذا يجيشه على برنو ، كما ذكرنا من قبل^(٢) ، وكان الضعف قد أخذ منها كل مأخذ ، ولم يكن فى حولها أن ترد هذا الزحف ، وظهر أنه لا بد من دم جديد ينقذ برنو من المآل الذى أوشكت أن تتردى فيه ، وتمثل هذا الدم فى الزعيم الكبير الشيخ محمد الأمين الكانمى ، وستحدث عنه فيما يلى :

Trimingham : Op Cit 123-124, Page : west Africa p. 86 (١)

(٢) عند الكلام من إمبراطورية الهوسا . وانظر كنك :

الكامي في برنو:

كانت بعض أقاليم الهوسا خاضعة لبرنو أو تدفع لها جزية سنوية كما ذكرنا من قبل ، فلما قام للزعيم هيمان دان فديو بثورته سنة ١٨٠٤ حوّر هذه الولايات ، وزاد على ذلك أن هاجم برنو نفسها سنة ١٨٠٨ ، وكانت تمر بفترة ضعف أشرنا إليها آنفاً ، ففر ملكها أمام الجيش الزاحف متجهاً نحو كانم ، وامتد نفوذ هيمان دان فديو إلى برنو ، وأصبح واضحاً أن جيش برنو لا يقوى على رد الزاحفين .

بيد أن قوة جديدة برزت آنذاك لتتخذ إمبراطورية برنو ، وكان محور هذه للقوة بطلا أبوه عربي من فزان وأمه من كانم ، واسمه محمد الأمين ، وقد نسب نفسه إلى كانم لتوثيق الاتصال بها فعُرف بالكانمي ، وكان يلقب بالشيخ ، وكان هذا الزعيم عالماً واسع المعرفة ، له جاه عريض في مجال العلوم العقلية والتقليدية (١) ، وقد كوّن هذا الرجل فرقة للمقاومة أكثر أفرادها من كانم وهاجم الغزاة في حرب انتحارية ، ولكن سرعان ما كثر أتباعه واستطاعوا أن يردوا الجيش الزاحف إلى الوراء (٢) .

وعقب هذا الانتصار هبت منافسة بينه وبين سلاطين برنو ، إذ خاف هؤلاء أن يثبت نفوذ الكانمي ، فحاول سلطان برنو أن يقود الجيش بنفسه ليتابع مقاومة الفولاني ولكنه عجز عن تحقيق النصر ، فاستدعى الكانمي ليواصل فضاله ، وقد حقق الكانمي ألواناً من الانتصارات فأصبح السلطان الحقيقي له ، ولم يبق للسلطين إلا الاسم ، وكشف السلاطين عن حقدهم عليه ، وحاولوا التمرد ، فأقدم الكانمي على الخطوة الضرورية ، وهى حكم البلاد بنفسه من العاصمة «كوكا» التي كان قد بناها سنة ١٨١٤ ، وأسعى

(١) آدم عبد الله الألورى : المرجع السابق ص ٦٨ .

(٢) Robin Hallett : Elkanemi of Bornu من مجموعة : Eminent Nigerians

الكانمى بذلك أسرة حاكمة جديدة ظلت تحكم البلاد حتى جاء الاستعمار ،
 وفي عهد الكانمى اتسع نفوذ برنو شرقا وغربا واستعادت أغلب البقاع التي
 كانت تسطر عليها في عهد إدريس علومة ، ومات الكانمى سنة ١٨٣٩ ،
 وكان قبل موته قد اعتزل الحكم وولى ابنه الشيخ عمر (١٨٣٥ - ١٨٨٠) :

الأسرة الكانمى في برنو :

يمكن القول أن أسرة الكانمى لم تنفرد بالسلطان إلا في عهد عمر بن
 الأمين الكانمى ، لأن الشيخ الأمين ظل في أغلب الأحوال يقنع بالسلطة
 الدينية والعملية مع ترك الاسم للأسرة السيفية ، وكذلك حاول ابنه عمر من
 بعده ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح وبدأ أنه من الضروري وضع نهاية
 للأسرة الحاكمة التي كان نفوذها قد انهار منذ عهد الشيخ الأمين ، وقامت
 أسرة حاكمة جديدة بصفة رسمية وإن كانت قد قامت بصفة عملية من قبل ،
 ومن سنة ١٨٤٦ أصبح لقب « الشيخ » هو اللقب المختار لرؤساء هذه
 الإمبراطورية تيمنا باتجاه الشيخ الأمين .

وبعد عمر آل الأمر إلى ابنه بويكر (١٨٨٠ - ١٨٨٤) ، وبعده تولى
 لقنوه إبراهيم مدة عام واحد ، فالشيخ هاشم (١٨٨٥ - ١٨٩٣) ، وفي عهده
 أهب الضعف في برنو لأن الشيخ شغل بالقصر والحريم ولم يوجه همة عالية
 للإدارة والسلطة .

وهذا الضعف هيا الفرصة لثائر جديد ليزعزع أسرة الكانمى ويحكم برنو
 وهذا هو الثائر السوداني رابع الزبيرى ، وفيما يلي كلمة عنه :

رابع الزبيرى في برنو :

سنتكلم فيما بعد عند الحديث عن السودان عن الزبير باشا ، الذى كان

تاجراً ، واشتد نفوذه ، فنال مكاتبة سياسية عن طريق ثروته وقوته ، وفتح دارفور باسم الحكومة المصرية ، وكان من قواد الزبير قائد بطل اسمه رابع ، وكانت تربطه بالزبير روابط سمحت له أن ينسب إليه ، فعرف برابع الزبيرى ، وسرى أن غوردون باشا الذى تولى حكم السودان إبان عهد الخديوى إسماعيل غدر بالزبير وبابنه سليمان ، وأن هذا هبّج رابحا الزبيرى وأثار خوفه ، فقاد فيلقه الضخم ، وتخطى حدود السودان غرباً إلى وادى ، و سنة ١٨٩٢ استولى على سلطنة باجرى (وستنكلم عن وادى وباجرى بعد قليل) ، ثم واصل زحفه فدخل كانم ، وفى سنة ١٨٩٣ قضى على سلطنة برنو ، وأسقط هاشم بن عمر آخر السلاطين من أسرة الكانمى ، وأصبح رابع حاكم هذه الإمبراطورية الفسيحة . مدة تراوح بين ست سنوات وعشر سنوات .

وفى هذه الأثناء كان الاستعمار الفرنسى قد بدأ ينساب تجاه إفريقيا ، وتحالف الاستعمار الفرنسى مع سلطان باجرى الذى كان رابع قد أوقع به ، ودار صراع بين رابع من جانب ، وبين الفرنسيين وأعوانهم من جانب آخر هزم فيه رابع وقتل سنة ١٩٠٠ فى معركة كسورى بعد صراع مجيد ، كما قُتل القائد الفرنسى الكونت لامى Lamy فى المعركة أيضاً ، وحاول فضل الله بن رابع استعادة مكانة أبيه فى برنو ، ولكنه خسر شهيداً فى المعركة بعد عام من استشهاد أبيه ، وأصبحت برنو خاضعة للاستعمار الفرنسى ، أما الأقاليم التى كانت خاضعة لبرنو إبان عهد الإمبراطورية ، فقد استولت إنجلترا على بعضها وألمانيا على البعض الآخر بجانب فرنسا التى استولت على الكثير منها :

الفكر الإسلامى فى برنو :

على أكثر حكام إمبراطورية برنو بالنظم الإسلامية ، وانحلوا الدين الإسلامى دستوراً لحياتهم ، وأشاعوا العدل والإنصاف بين الجماهير ، وحاولوا

أن يتفنوا نظام الاقتصاد الإسلامى ، فأتجهت العناية إلى جمع الزكاة وحسن توزيعها ، كما عُنِيَ الحكام بتعليم القرآن واتباع آدابه ، وشيدوا مدرسة للمالكية كانت فى هذه المنطقة مركزاً مهماً للثقافة الإسلامية^(١)

عرفات برنو بالخارج :

اتجهت برنو إلى مصر اتجاهاً واضحاً ، فقد كانت العلاقات وثيقة بين الدولتين ، وكانت الطرق الصحراوية تربط واحات مصر بإمبراطورية برنو ، مما ييسر التبادل التجارى ، وتبادل للزيارات بين البلدين ، وفى الوثائق التى دوتها القلقشندى نماذج لنصوص رسائل من سلطان برنو إلى سلطان مصر برقوق ، ونص الرسالة يفيد اعتداد سلطان برنو بنفسه ومملكته ، ثم يصف مصر بأنها أم الدنيا وأرض الله المباركة ، مما يوضح مكانة مصر وتطلع هذه الشعوب إليها ، وفيها يلى مطلع هذه الرسالة^(٢) :

من المتوكل على الله تعالى الملك الأجل سيف الإسلام، وربع الأيتام، الملك المقدام، القائم بأمر الرحمن، المستنصر بالله ، المنتصر فى كل حين وأوان ، ودهر وزمان ، الملك العادل الزاهد أبى عمرو عثمان الملك ، بن إدريس الحاج أمير المؤمنين للرحوم ، كرم الله ضريحه
إلى ملك مصر إبن خيل ، أرض الله المباركة ، أم الدنيا

وبجانب هذه الاتصالات الرسمية ، كانت هناك اتصالات فكرية عميقة المدى ، فالطلاب من برنو عبروا الصحارى إلى الأزهر ، وكان سيدهم يتلفق دون انقطاع ، يرتشفون من منابع الفكر الإسلامى فى مصر ، ويتنصسون إلى

(١) صبح الأمنى ج ٥ ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٢) المرجع السابق : ج ٨ ص ١١٦ - ١١٨ .

حلقات العلم بها ، ويتزودون من كتبها ، ومن حضارتها ، ولم رواق
فسبح بالأزهر يعرف برواق برنو^(١) .

وإذا كانت مصر مقصودة لثباتها في هذه الاتصالات ، فهناك اتصالات
أخرى حدثت عرضاً : إذ أن وفود الحجاج ، كانوا يمرون بمصر في
طريقهم إلى الأرض المقلعة ، وكانت قوافلهم تُنمضي فترات قصيرة
أو طويلة بأرض النيل ، وتوضح لنا مراجع التاريخ رحلات حج قام بها سلاطين
برنو مارين بمصر ، وما أنفقوه عن سعة بأرض الحجاز وأرض النيل .

ومن المعروف أن العثمانيين بسطوا سلطانهم على مصر والشام في مطلع
القرن السادس عشر ، وأصبحوا يمثّلون العالم الإسلامي ، وقد اتصل سلاطين
برنو بالعثمانيين ، وأمدّهم العثمانيون بالأسلحة النارية التي كان لها شأن كبير في
اتساع برنو ، وسقوط الوثليين أمام هذه الأسلحة الجديدة .

باجرى

تقع باجرى فى الجنوب الشرقى من كانم ، وسكانها ينتمون إلى أصول متعددة ، ففهم الكانورى والعرب والقبولة والزنج ، ومنهم مزيج من هؤلاء جميعا ، وهى الآن ضمن جمهورية تشاد ، ولم يستطع مايات كانم ولا قبائل البولالا التى خلفت هؤلاء المايات ، أن يسيطروا على باجرى وإن أخذوا منها الجزية أحيانا ، ولم يكن لمناطق الباجرى تاريخ يذكر قبل الإسلام ، فقد كانت الحياة قبلية ، وعند ما تجمعت القبائل فى كيان واحد يرأسه ملك ، سرعان ما اعتنق الملوك الإسلام ، ولذلك فالحديث عن باجرى ينبغى أن يتصل قبل الإسلام وبعده ، حتى الاحتلال الفرنسى .

وباجرى عاصمتها ماسينيا ، وأول سلطان لها اسمه (برنى يسى) ، وقد كُون هذه السلطنة حوالى سنة ١٥١٣ م ، وفيما يلى أسماء أشهر ملوكها بعد (برنى يسى) .

١٥٦٨ - ١٥٤٨	مالو
١٦٠٨ - ١٥٦٨	عبد الله أخو مالو
١٦٤١ - ١٦٣٥	بورجو ماندا
١٧٤١ - ١٧٣٩	علوى
١٧٨٥ - ١٧٥١	محمد الأمين
١٨٠٦ - ١٧٨٥	عبد الرحمن جوارنج الأول

فى القرن التاسع عشر حتى
الاستعمار الفرنسى

بورجوماندا بن عبد الرحمن
محمد بن بورجوماندا
عبد الرحمن جوارنج الثانى

وقد قبل جوارنج الثاني الحماية الفرنسية سنة ١٨٩٧ ليقوى بالفرنسيين ضد رايح الزبيرى الذى أشرنا له من قبل والذى استطاع أن يقحم البلاد فى زحفه السريع الذى سنفصل القول عنه عند حديثنا عن السودان .

وكان « مالو » آخر الملوك الوثنيين ، وفى عهده ظهر الاسلام بالمملكة ، وبدأ ينتشر ، وقد أتاح ذلك فرصة لأخيه عبد الله ليثور عليه باسم الإسلام . وقد انتصر عبد الله ، وتولى الملك (١٥٦٨ - ١٦٠٨) ، وسرعان ما أدخل عبد الله النظم الإسلامية ، وبنى المؤسسات الإسلامية للعبادة والدراسة ، ونشر الدعوة الإسلامية ، فاستجاب لها كثيرون من أتباعه ، واتخذ لنفسه لقب « مبانج » أى ملك ، وكون جيشاً عظيماً ، ونظم الإدارة تنظيمًا دقيقاً على نمط التنظيم الذى كان متبعاً فى برنو ، وكان هذا الملك يستوحى من برنو أكثر اتجاهاته ، وفى عهده امتد نفوذ باجرى إلى كثير من المناطق المجاورة ، فتبعته أو دفعت الحزبة له ، وكانت باجرى تدفع الحزبة لإدريس علومه ملك برنو (١٥٧٠ - ١٦٠٣) ، ولكن بعد وفاته تخلص حكام باجرى من هذه التبعية وقطعوا الحزبة ، وكان الملك « بورجوماندا » أول من فعل ذلك ، ولم يكتف به ، بل قام بغزوات واسعة حقق فيها انتصارات بادرة ، فقد هاجم سكورو ومندارا ، وكثيراً من المناطق والقبائل حوله ، كما وجه إحدى حملاته إلى وادى عن طريق بحيرة « فيترى » (١) Feiri .

وقد امتدت باجرى فى كل المناطق حولها ، واتصلت حدودها بحدود برنو ، فقام صراع بينهما ، كما قام صراع مماثل بين باجرى ووادى فأصبح تاريخ باجرى سلسلة من الحروب ، وأبرز سلوك باجرى الذين قادوا هذه الحروب هو محمد الأمين ، ويعتبر عهده العصر الذهبى لباجرى ، وقد

حجّ هذا الملك إلى مكة المكرمة ، وقام بنشر الإسلام في بلاده إلى درجة كبيرة^(١) ، وجاء بعده عبد الرحمن جوارنج ، وقد بدا عليه انحراف في الناحية الإسلامية ، فاتخذ عبد الكريم صابون ملك واداي (١٨٠٣ - ١٨١٣) هذا التصرف سبباً لمهاجمة باجري ، واستطاع هذا أن يفتح باجري ويضمها إلى واداي^(٢) ، وأصبح ملوك باجري ملوكاً بالاسم فقط وليس لهم نفوذ ، وانتقلت السلطة الحقيقية إلى سلاطين واداي واستمر السلطان على باجري للملوك واداي طيلة أغلب القرن التاسع عشر ، فلما ضعف ملوك واداي وبخاصة الملك يوسف (١٨٧٤ - ١٨٩٧) استعادت باجري استقلالها كما سرى عند الحديث عن واداي ، ولكن راجح الزيري استولى عليها فتحالف ملوكها المعزلون مع الاحتلال الفرنسي ضده ، وعند ما انتصر الفرنسيون على رابع كان ذلك إيذاناً بالاحتلال الفرنسي لهذه البلاد .

وقد ظهر في باجري مجموعة كبيرة من المفكرين والعلماء البارزين منهم محمد الوالي ، الذي يقول عنه الإمام محمد بلو إنه أعجوبة الزمان ، وطريقة الأوان ، العالم العلامة ، الزاهد الورع ، وله مؤلفات تدل على وفور علمه ، وكثرة إحاطته^(٣) ، ومن شيوخ باجري كذلك الشيخ « ولولو » وقد تلقى العلم في تمبكتو ، وكان له فيه باع واسع^(٤) ، ومنهم سليمان بن محمد المتوفى بالقاهرة سنة ١٨٠٦ وهو يعرف بالبيجري نسبة لهذه البلاد ، وقد ولد سنة ١٧١٩ وقدم إلى القاهرة ودرس بالأزهر وتوفّر على فقه الشافعية وألف مجموعة من الكتب الشهيرة في الفقه^(٥) .

(٢) إنفاق الميسور ص ٢٩ .

Ibid p. 188 (١) .

(٤) إنفاق الميسور ص ٣١ .

(٣) المرجع السابق : ص ٣٠ .

(٥) أشهرها التجريد وتحفة الحبيب .

وادای

تقع وادای فی جنوب جبال تبستی إلى الشرق من باجرمی ، وقد دخلوها لإسلام فی فترة متأخرة ، مع زحف قبائل الزغاوة التي انتشرت فی جنوب هذه المنطقة ، وسكان وادای مزيج من قبائل متعددة ، وقد اقتحم التنجور مناطق وادای فی مطلع القرن السادس عشر ، وأقام هؤلاء لهم سلطاناً بها ، وأنحدروا « کاداما » عاصمة لهم ، والتنجور ينحدرون من أصل نوبی فی الغالب ، ولكن ارتباطهم بالعرب كان وثيقاً ، فأصبحت العربية لغتهم ، وأصبحت أسماءهم عربية كذلك (١) .

ويذكر Barth أنهم قلموا من دنقلة ، وانجهوا إلى دارفور فأقاموا بها فی القرن الخامس عشر ، وأخذوا السلطة من قبائل الداجو ، ومن دارفور انتشروا فی وادای إلى حدود باجرمی (٢) .

وكان التنجور مسلمين ، ولكنهم لم يعتنوا بنشر الدعوة الإسلامية ، وتُبرز المراجع اسماً اهتم بنشر الدعوة وهو « الجامعی » وفي بعض الروایات اسمه صالح ، وكان له صلة بقبائل الجعليين وقبائل شندي ، وقد قام ابنه (وفي بعض الروایات ابن أخيه) واسمه عبد الكريم الصالح بنشاط واسع لخدمة الدعوة الإسلامية ، وأعلن الجهاد على التنجور ، فهزمهم ، وأنشأ أسرة حاكمة فی وادای اتخذت لها لقب « العباسی » دليلاً على انحدارها من العرب أو من الأسرة العباسية (٣) ، وأشهر ملوك هذه الأسرة عبد الكريم صابون (١٨٠٣ - ١٨١٣) وهو الذي هاجم باجرمی واستولى عليها كما

(١) Trimingham : Op. Cit, p. 138, Barth : Travels III : 430

(٢) Trimingham : Op. Cit, p. 139

(٣) طبقات « دؤيف الله » ص ٣٢ وما بعدها .

سبق ، وقد ضعفت هذه الأسرة الحاكمة أحياتا ، فدفعت الجزية لدارفور و برنو ، حتى تلمن أن تناصر هذه أو تلك قبائل التجور ، وتعيدها إلى السلطة ، وفي عهد الملك يوسف (١٨٧٤ - ١٨٩٧) استقلت باجرى عن وادى ، ثم اقتحمها رابع الزيرى مع ما اقتحم من هذه المناطق ، ولكن الزحف الفرنسى غلب راجا وأحال البلاد إلى الاحتلال الفرنسى وقد تم ذلك سنة ١٩٠٩ ، ومنطقة وادى جزء من جمهورية تشاد الآن .

وتذكر المراجع التى بين أيدينا نشاطاً إسلامياً واسعاً فى وادى قام به فقهاء من مملكة الفونج ، ومن بين هؤلاء أبو زيد بن عبد القادر ، وأبوسرور الفضلى ، كما ذهب كثير من طلاب وادى إلى المراكز الإسلامية بمحوض النيل ، فتلقوا بها علوم الإسلام ، ومن هؤلاء الشيخ الزين بن صغيرون^(١) .

(١) طبقات وضيف الله ص ٣٢ وما بعدها .

ملكة القونج (سنار)

١٥٠٥ - ١٨٢١ م

تحدثنا في الباب الثاني^(١) عن الممالك القديمة التي تتكوّن منها السودان الحديث (مقرة - علوة - البجة - كردفان - دارفور) وسرنا معها حتى قامت دولة القونج الإسلامية فضمت أكثر هذه الممالك وهنا في هذا الباب الذي خصصناه للحديث عن الممالك الإسلامية جنوب الصحراء قبل الاستعمار الأوربي ، ينبغي أن نخصص فراغاً أوسع لدولة القونج ، أول دولة إسلامية في السودان العربي ، فالسودان ومصر فكر واحد واد واحد ، فما أجدرنا أن نهتم بتاريخ السودان ، وبيان الدور الحضاري الذي لعبه في تاريخ هذه المنطقة ، وسنستمر بعد القونج في تكوين السودان الحالي ، حتى نصل إلى مرحلة الاستعمار التي ستكون موضوع الحديث في الباب التالي .

من هم القونج ؟

ليس هناك تاريخ محقق عن أصل القونج ، ويرى الأستاذ محبوب زيادة^(٢) ، أنهم من بقايا الأمويين الذين قروا عقب سقوط دولتهم وقيام دولة بني العباس ، واختفوا هنا وهناك حتى وصلت أفواج منهم إلى الحبشة والسودان في القرن الخامس عشر الميلادي ، وموطن الشك في هذه الرواية هو الفترة الطويلة بين سقوط الأمويين سنة ٧٥٠ م وقيام دولة القونج سنة ١٥٠٥ م

وإذا صح ان هناك صلة نسب بين القونج وبين الأمويين ، فإني أرى أن

(١) ص ١٠١ و١٠٢

(٢) محبوب زيادة : الإسلام في السودان ص ٢٩ .

هؤلاء الذين وفدوا على السودان من بقايا الأمويين كانوا قد رحلوا أولاً إلى الأندلس وشاركوا في قيام الحكم الأموي هناك ، فلما تدهورت دولة الإسلام بالأندلس بدأ هؤلاء رحلة جديدة إلى إفريقية في القرن الثالث عشر حتى انتهى بهم المطاف إلى السودان في القرن الرابع عشر أو الخامس عشر ، ومروا بفترة سيطروا خلالها على باقي القبائل العربية بالسودان ، ثم أعلنوا سلطانهم عليها .

ولكن هناك سبباً آخر يدعو للشك في هذا النسب ، وقد سبق أن أشرنا إليه في هذا الكتاب أكثر من مرة ، ونذكره الأستاذ نوم شقير مرتبطاً بالقونج ، هو أنه ما من أسرة حاكمة ظهرت في السودان إلا ادعت لنفسها نسباً عربياً أو نسباً يتصل بالبيت (١) .

قيام دولة القونج :

ومملكة القونج أسسها عمارة دُونَقْس من قبيلة القونج التي ترد نسبها للأمويين كما سبق ، وترغم أن اسم جبال القونج قد غلب عليها لطول ما عاشت في هذه الجبال ، واشترك مع عمارة في تأسيس هذه المملكة زعيم عربي آخر هو عبد الله جماع من قبيلة القواسمة الجهنية ، وكان تأسيس هذه المملكة عام ١٥٠٥ بعد أن أغارا بجيشيهما على سويته وكانت تعاني انشقاقاً داخلياً واسعاً ، وكان لهذا الانشقاق جذور دينية ، فإن عدداً كبيراً من القبائل العربية المسلمة كان قد زحف إلى دولة مقرة وأسقطها وكون شبه إمارات مستقلة تدين بالإسلام ، وتسرب الإسلام بعد ذلك إلى أكثر أجزاء مملكة علوة المسيحية ، وكل هذا مهدّد لحلف إسلامي يضع نهاية لهذه الدولة أيضاً في هذه البقاع .

ويقول الشيخ أحمد كاتب الشونة ، وهو أهم مصدر كتب عن الفونج
 تبدأ قصة الفونج من جبل مويه حيث تجمع بعض الناس حول عمارة
 دونقن وحضر عبد الله جماع من عربان القواسمة ، وتمت الكلمة على
 عمارة الفنج ملوك سوبه ، فتوجه الاثنان بجيوشهما وحاربا ملوك سوبه
 وانتصرا (١) ، وامتدوا عليها جيش عمارة وجماع ، كما زحفت جيوشهما إلى
 الشمال حتى النشال الثالث تاركة منطقة تحكمها القبائل بينها وبين مصر ، وفي
 بعض الروايات أن مملكة الفونج وصلت حدود مصر ، وجعل عمارة كل
 الأراضي الواقعة بين النيلين إلى حدود الحبشة والبجة تابعة له ، وبنى مدينة
 « سنار » سنة ٩١٠ هـ لتكون عاصمة له ، وسُميت الدولة كلها باسم العاصمة (٢) ،
 وكان عمارة يشرف على سنار وما حولها بطريق مباشر ويشرف على مشيخات
 فازوغلي والحلمة وخشم البحر وبنى عامر في خور بركة حتى البحر الأحمر
 بطريق شيوخها ، فقد كان لهذه المشيخات استقلالها الداخلي برعاية شيوخها
 الذين يدينون بالولاء للملك سنار .

أما عبد الله جماع فاتخذ قرى عاصمة لمشيخته ، وبنى وكيلا عن عمارة على
 كل السودان الشمالي من رأس الجزيرة إلى حدود الشمال ، فحلّ البدلاب
 محل دولة مقرة وحل الفونج محل دولة علوة ، وكانت مشيخات الشمال
 تتبع عبد الله جماع بطريق شيوخها كالحال بالنسبة لصلة مشيخات الجنوب
 بالملك عمارة .

وانقضاء دولة علوة وتملك الفونج والبدلاب لها ولأراضي دولة مقرة
 التي أسقطها النظام القبلي قبل ذلك ، يعتبر إعلاناً رسمياً للدين الإسلامي والسيطرة
 العربية في بلاد السودان ، لأن تسرب الإسلام للعرب سبق انقضاء الدولة

المسيحية بأكثر من قرنين ، وبهذا الانتصار للعربي الإسلامي بصفة رسمية بدأ اتصال السودان ببقية الأنظار الإسلامية العربية بأخذ مظهراً جديداً ، وبدأ رواد الإسلام الأوائل يجوبون أنحاء السودان تارة من مصر ، وأخرى من بلاد المغرب ، وأحياناً من الحجاز ، وبلاد الرافدين ، وكانوا يلقون كل إكبار وإجلال من الملوك والسلطين^(١) .

وقد شملت مملكة الفونج كل أراضي علوة وأكثر أراضي مقرة أو كلها ، كما شملت أرض للبجة بين النيل والبحر الأحمر ، وضمت كردفان في عهد محمد أبي لكيك قبيل انبهار الدولة كما سرى .

وملوك الفونج هم حسب رواية الشيخ عبد الدافع وكاتب الشونة مع تطبيقات مقتبسة منهما^(٢) :

عمارة دونقس	١٥٠٥
عبد القادر ابنه	١٥٣٤
نابل أخو عمارة	١٥٤٤
عمارة أبو سكاكين	١٥٥٥
دكين بن نابل	١٥٦٣ من الملوك العظماء
طبل بن عبد القادر	١٥٧٨
أونسه الأول	١٥٨٩
عبد القادر الثاني	١٥٩٩

(١) دكتور مكي شيكة : الإسلام في قرن من ٢ - ٤ .

See also : Arkell, A. J. : A History of the Sudan from the earliest time to 1821.

(١) تاريخ ملوك السودان من ٢ وإبراهيم عبد الدافع اشترك مع الشيخ أحد كاتب الشونة في تأليف الكتاب وتنقيحه وقد اشترك معها كذلك الشيخ الزبير ود غوره والشيخ الأمين للتصوير والتعليقات من ص ٢ و ٣ و ٥ . (ص ١٥ من مقدمة الناشر) .

عدلان الأول ١٦٠٥ صراع بينه وبين الشيخ عجيب ونهاية
عجيب

بادى الأول (سيد القوم) ١٦١٢

رياط ١٦١٥

بادى الثانى (أبو دقن) ١٦٤٣ اشتهر بالشجاعة والتقوى وتشجيع العلم

وكان على صلة بعلماء مصر

أونسة الثانى ١٦٧٨

بادى الثالث (الأحمر) ١٦٨٩

أونسة الثالث ١٧١٥ لاه فاجر ، عزّل وكان آخر أحفاد

دونقس

نول ١٧١٨ تربطه بعائلة دونقس صلة نسب

بادى الرابع (أبو شلوخ) ١٧٢٤ آخر الملوك ذوى السطة ، من أعظم

الملوك

ناصر ١٧٦٢ بدء نفوذ الهمج ، وكان ناصر من

إسماعيل ١٧٦٩ أهل العلم

عدلان الثانى ١٧٧٨ ملوك بالاسم فقط ، واكتمال النفوذ

طبل الثانى ١٧٨٩ للهمج الذين كانت لهم الوزارة والحكم

بادى الخامس ١٧٨٩ كله ، وكان ذلك بعد صراع بين

حسب ربه ١٧٩٠ عدلان الثانى وبين جماعات الهمج

نوار ١٧٩٠ انتصر فيه هؤلاء (نعوم شقير ٢ :

بادى اكساوس ١٧٩١ (٨٦

راجع العبدروب هـم :

عبد الله جماع
الشيخ عجيب المنجلك
دام ملكه حتى عمارة رابع ملوك القونج
من أعظم شيوخ العبدلاب حارب الملك التاسع
من ملوك القونج وانهمز

العجيل

حمد السميع

عثمان

عبد الله بن العجيل

مسار بن عبد الله

دياب

الأمين ود مسار

عجيب بن عبد الله

عبد الله ود عجيب

عمر

محمد الأمين بن مسار

بادى بن مسار

عبد الله الرابع

ناصر ود الأمين

أمين الثانى ود ناصر

ناصر ود عجيب
عزله إسماعيل بن محمد على عقب الزحف

المصرى سنة ١٨٢١

المعروف بين الفرع والعبادة :

يذكر الشيخ أحمد كاتب الشونة^(١) أن الاتفاق تم بين عمارة وعبد الله جماع على أن يكون عمارة مَلِكًا في مكان ملك علوة المسيحي لكونه الكبير ، وأن عبد الله جماع ينوب عنه في الشمال مع سلطة الملك كاملة في بقاعه ، وكان عمارة وعبد الله كالأخوين إلا أن رتبة عمارة أعلى وأعظم من رتبة عبد الله إذا اجتمعا في مكان ، وأما إذا غاب عمارة فيعامل عبد الله كما يعامل عمارة .

وكان إذا توفي شيخ العبدلاب اختار زعمائهم شيخا آخر وأخذوه إلى ملك سنار فيؤيده^(٢) .

وكان على شيخ العبدلاب أن يحضر إلى سنار كل عام ليقدم جزية للملك ، ويصف شاهد عيان موكب الشيخ عجيب إلى الملك وقد حضر إلى سنار في موكب عظيم ، ومعه مئات من العبيد والجمال والحيل ومبلغ من المال كجزية يدفعها للملك ، وبدأت مراسم الاستقبال بأن خرج الملك في موكب يتألف من نحو مائة من الحاشية بعضهم من المشايخ وبعضهم من الفرسان ، يتلوهم عدد مماثل من المشاة يحملون الرماح ، وعند ما تقابل الموكبان خارج المدينة ترجل الشيخ عجيب عن فرسه ولثم رجل الملك وهو على فرسه ، وعندئذ أشار عليه الملك بالركوب ، ودخل الموكب المشترك المدينة تتقدمه نحو ٣٠٠ من خادmates الملك وهن يحملن المباخر ويضعن عليها من وقت لآخر الصندل

(١) أحمد كاتب الشونة ورفاقه : تاريخ ملوك السودان ص ١ (اقتبنا عدة اقتباسات من الصفحة الأولى لأنها في الحقيقة حافظة بالأفكار) .

(٢) نعم شقير : تاريخ السودان ج ٢ ص ١٠٠ .

واللبان وغيرها من العطور حيث يفوح غيرها في الجو ، وتعالى أصواتهن بالغناء والزغاريد (١) .

ذلك كان أساس العلالة بين الفونج والعبادة ، وقد ساعد عليه مكانة زعيمين فكل منهما يعرف مكانه بالنسبة للثاني ، ولكن ذلك لم يدم طويلا ، ففي الجبل التالي للأسرتين الحاكتين بدأت الأوضاع تتغير ، فقد تولى بعد حمارة ثلاثة ملوك لم يكونوا في جلاله وسطوته ، وتولى بعد عبد الله جماع ههه الشيخ عجيب المنجلك ، وهو كأبيه عظمة وجلالا ، وبهذا بدأت ترجع كفة العبادة ، وقد عمل عجيب المنجلك على تقوية سلطانه بالاهتمام بالناحية الدينية ، فقرب العلماء وبنى المساجد ودور العلم ، وأحاط نفسه بهالة من النور والمجد ، وهذا أوحى له بمنافسة ملوك الفونج ، بيد أن ماكما جديدا آل له عرش للفونج وهو دكين بن نايل ، وكان كجده الأعلى حمارة جلالا وقتلرا وكفاءة ومقدرة ، وبهذا اصطلمت قوتان كبيرتان ، تدفع الأبطال عجيب المنجلك ، ويقف دكين يدافع عن مكانة الأسرة ، وبعد دكين جاء ملوك آخرون فشهدوا هذه المنافسة وقد خلع أكثرهم لأنهم لم يكونوا يستطيعون مواصلة كفاح دكين ، حتى آل الأمر إلى الملك عدلان ، وفي هذه أصبح الصدام مسلحا ، والتقت القوتان الكبيرتان عند مكان يقال له كركوج بين العيلفون والخرطوم ، حيث دارت معركة حامية قتل فيها الشيخ عجيب وفر أولاده إلى دنقلا .

وكان يمكن أن يستأنف القتال ولكن أحد العلماء الأفاضل واسمه الشيخ إدريس محمد الأرياب (العربي) تنخل بالحسني بين الطرفين ، وطلب من ملوك الفونج السفور عن أبناء العبادة فقبلوا وساطته واستجابوا له ، فعاد

(١) دكتور مكى شيكة : ملكة الفونج الإسلامية ص ٧٨ .

أولاد العبادلة من دنقلا إلى مقر مشيختهم ، وأجلس العجيل على كرمى
مشيخته العبدلاب بدلا من أبيه^(١) .

بين سنار والحبشة :

كانت الحبشة تمثل حصن المسيحية في شرق إفريقيا ، وكانت مصر قلعة
الإسلام في هذه المنطقة منذ دخلها الإسلام ، ولعبت الحبشة دوراً كبيراً
ضد الإسلام في هذه البقاع ، وأشعلت خروبا يسميها الباحثون « الحروب
الصليبية في شرق إفريقيا » ولكن امتداد الإسلام للسودان وقيام دولة
الفونج الإسلامية زاد الأمر تعقيداً بالنسبة للحبشة ، فقد أصبحت لها جارة
مسلمة قوية تعد امتداداً لمصر الإسلامية وشوكة في ظهر دعاة الصليبية ،
وكان هذا هو السبب الحقيقي - فيما نرى - للغيوم التي سادت العلاقات بين
الفونج وبين الحبشة منذ قامت الفونج واخذت مكان الدولتين المسيحتين
مقرة وعلوة ، ولكن تصدى الحبشة لدولة الفونج لم يكن سهلاً لقوتها من
جانب ولصلتها بمصر من جانب آخر ، وفي النصف الأول من القرن
الثامن عشر حدثت حادثة أشعلت الحقد في نفوس الأحباش ، فإن سفير
فرنسا لدى الحبشة قتل في سنار ، واعتقد الأحباش أن هذا العمل مدبر
ضدهم ، وأن تدبيره كان بالتعاون بين ملوك سنار وسلاطين مصر ، فأرسل
إمبراطور الحبشة يهدد مصر بتحويل مجرى النيل ، وأخذ يستعد لمهاجمة
السودان .

وفي ٨ مارس سنة ١٧٤٤ زحف الإمبراطور ياسو الثاني يميشه على سنار ،
وأحرز في الجولة الأولى بعض الانتصارات ، ولكن جيش الفونج والعبدلاب
صرعان ما استعد وتقدم للمعركة وأنزل بالمعتدين خسارة فادحة ، فسقط

(١) الشيخ أحمد كاتب الشونة : المرجع السابق ص ٢ .

من سقط من جيش الأحباش وولّى الملكُ والباقون فارّين تاركين خلفهم كثيراً من الأسلحة والذخائر والأموال ، واعتبر سكان المملكة المسلمة هذا الانتصار منحة من الله وعونا منه للمسلمين ، فزينوا المساجد وشكروا الله على هذه النعمة (١) .

ضم كردفان لمملكة سنار :

كان الانتصار الذي حققته دولة الفونج ضد الأحباش حدثاً يدعو للزهو والإعجاب ، ومن هنا طمعت الفونج في دفع حدودها تجاه الغرب لتضم منطقة كردفان ، وكانت كردفان آنذاك يحكمها الشيخ هاشم من قبيلة المسبعات ، وأصل هذه القبيلة من دارفور ، انحدرت إلى الجنوب الشرقي واستطاعت أن تستولى على السلطان في كردفان .

هل كان زحف ملوك سنار إلى كردفان يمثل محض الرغبة في التوسع ؟ أو كان بدفع قائد اسمه خبيس من دارفور أبلى بلاء حسناً في حرب سنار ضد الحبشة وبينه وبين قبيلة السبعات منافسة فكلاهما وافد من دارفور ؟ ربما ! وعلى كل حال فقد زحفت جيوش سنار في منتصف القرن الثامن عشر في عهد الملك بادى أبو شلوخ ، وكان الجيش بقيادة أمراء من الفونج والعبادلة ومعهم قائد آخر اسمه محمد أبو لكيلك ، ودارت المعارك ضد المسبعات ، ولكن هؤلاء دافعوا عن كردفان بحماسة رائعة فاستطاعوا أن ينزلوا الهزائم بجيش الفونج في معركتين كبيرتين ، وسقط مع القتلى في هاتين المعركتين أكثر أمراء الفونج والعبادلة ، وأصبح محمد أبو لكيلك أبرز قائد في جيش سنار ، فعهد إليه الملك بادى أبو شلوخ بقيادة الجيوش ، واستطاع

(١) الشيخ أحمد كاتب الشونة ورفاقه : المرجع السابق ص ٦ . وانظر كذلك :

هذا أن يحسن الخطة ، وأن يصمد صمودا جبارا حتى كسب النصر في المعركة ، وطرده قبيلة المسبعات من كردفان ، وأصبحت هذه المنطقة جزءا من مملكة سنار ، وأصبح السلطان فيها للشيخ محمد أبى لكيلك ليحكمها باسم الملك بادى أبو شلوخ^(١) .

قلب الهرم على ملك سنار :

ينبغي هنا أن نشرح المقصود بكلمة « همج » في سياق الأحداث التاريخية بدولة سنار ابتداء من زوال سلطة الملك بادى أبو شلوخ ، وأن نشرح كذلك الظروف التي هيأت للهمج أن يستأثروا بالسلطة ابتداء من عهد هذا الملك .

و « همج » هم بيت حكم دولة سنار عقب عزل بادى أبو شلوخ ، وقد سموا همجا لكثرة انقسامهم على أنفسهم واستعانة كل فريق منهم ضد الآخر بأعداء يكرهون في الحقيقة هذا البيت كله ، ولأنهم حكموا البلاد بطابع الاستبداد والقوة دون شورى حقيقية في تولى الحكم أو في إدارة الدولة ، وجدير بمثل هؤلاء أن يسموا همجا ، وأول هؤلاء همج هو الشيخ محمد أبو لكيلك الذي حقق النصر ضد المسبعات وضم كردفان للدولة وحكمها باسم ملك سنار حتى استبد فيها بعد بالسلطان ، وقد يكون الرجل ناجحا في بعض أو حتى في كثير من المشكلات التي خاضها ولكن : التاريخ يحدثنا أن حكم الفرد مهما كان عادلا ومستنيرا من غير أن تكون له قاعدة من الشورى ويخلفه غيره بطريق دستوري معتمدا على هذه القاعدة ، يُدخل البلاد في فوضى كهذه بعد زوال عهده^(٢) ، وهذه قاعدة لا تتخلف : فكم عرف

(١) الشيخ أحمد كاتب الشونة ورفاقه : تاريخ ملوك السودان ص ٦-٧ .

(٢) دكتور بكى شيكة : ملكة الفونج الإسلامية ص ١٠٢ .

التاريخ ملوكا عظاما انهارت بعدهم الدولة لأنهم استطابوا الحكم الفردى فأسلموا الدولة إلى صراع يغلب أن ينتهى بانتهيار إن لم يتداركها الله بمصلح ينسى الأنانية ويقضى على حكم الفرد ، ويعيد حكم الجماعة ، وربما جاز لنا أن نستطرد هنا قليلا لنذكر أن ابن تيمية^(١) يقرر أن هناك عصمة للدولة ولكن ليست هناك عصمة للفرد ، فالدولة التى تحكم بالشورى لا تنزلق لأن عصمة المجموع تحميها ، ولكن التى يحكمها الفرد لا بد أن تكون نهايتها للخراب والدمار فى عهده إن زلّ ، أو فى عهد أتباعه إن كان هو عظيم القوة شامل العدالة والاستنارة .

أما الظروف التى هيات للهمج أن يستأثروا بالسلطة فرجعها أن الشيخ محمد أبو لكبيك كان فى كردفان حاكما بأمره منذ فتحها سنة ١٧٤٧ حتى سنة ١٧٦٢ ، وكان الجند يحبونه لعزيمه وقيادته الرشيدة فانطبعت عليه قلوب العساكر ، وألفته النفوس ، وخضعت له كل الرعوس ، وكان الملك فى ذلك الوقت ينحدر إلى أتباع الهوى والظلم ، فقتل وسجن وقسا فى سجنه ضرائب ، ولم ينج من عسفه أهل بيته وأصدقاء الأمان ، وشاع سلوك الملك فى أعوانه ، فأسرف هؤلاء فيما أسرف فيه سادهم ، وتعطلت بنود الهوى التى كانت طابع الحكم فى سنار ، وكل هذا هيا للثورة على الملك ، وكان الشيخ محمد أبو لكبيك أمل الثائرين ، فتحت يده فى كردفان جيش يدين له بكامل الولاء ، ومعه بعض أبناء أسرة القونج الذين أبلوه فى أية حركة يقوم بها ضد الملك ، وسار محمد بالجيش إلى سنار ، وفى الطريق أرسل إلى ناصر بن الملك يعده بالملك بعد خلع أبيه ، فاستجاب هذا وهرب ولحق بجيش الشيخ محمد ، وحاصر هذا الجيش الملك الذى انقض أتباعه عنه فاستسلم ، وخلعه محمد وولى ابنه ناصرا مكانه^(٢) ، ولكن السلطة

(١) ابن تيمية : المتن من سهاج الاعتدال ص ٤١٠ .

(٢) الشيخ أحد كاتب الثورة ورفاقه : الكتاب السابق ص ٦ - ٧ .

الحقيقية اكتملت للشيخ محمد أبو لكيل في دولة سنار كلها ، وصارت
تولية الملوك رسما لا حقيقة ، وصار الحل والعقد بيد الجميع^(١) ، وبعد وفاة
محمد أبو لكيل دار صراع على السلطة اشترك فيه الطامعون من الجميع
والطامعون من بقايا الفونج ، وآذن ذلك بانهار الدولة ومهد للحكم المصري
الذي اجتاحت البلاد في مطلع القرن التاسع عشر^(٢) .

الحضارة الإسلامية في عهد الفونج :

دولة الفونج كما قلنا في مطلع الحديث عنها أول دولة إسلامية في السودان
العربي ، وقد ذكرنا كذلك من قبل أن الإسلام كان قد انتشر في ربوع
السودان قبل قيام دولة الفونج ، وكان انتشاره تمهيدا لإسقاط الممالك
والإمارات المسيحية وإقامة دولة إسلامية .

والإسلام يرادف فيما نرى كلمة « حضارة » بأوسع معانيها ، فعندما يحمل
الإسلام بأرض تنتشر حضارته التي تشمل العقيدة والأخلاق والتشريع ،
وعندما تقوم له دولة تصح هذه الحضارة دستور هذه الدولة وأهم دعامة
في دعائمها ، والتشريع الإسلامي يمتد ليشمل السياسة والاقتصاد والنظم
الاجتماعية وغيرها ، وقد عني الأقدمون بدراسة الفقه الإسلامي
وأخلاق الإسلام ، وعلى أية دولة إسلامية تنبثق في المحيط العالمي أن تعمل
على نشر هذا الفقه وذلك الفكر ، وتتخذ الوسائل المتعددة لتحقيق ذلك ،
فليس الإسلام بمعزل عن الحياة ، بل إنه يرسم حياة المسلم في مختلف
اتجاهاتها ، ويوضح له ما يأخذ به وما يدعه ، ومن هنا كان لزاما علينا أن
نتحدث عن الحضارة الإسلامية في عهد الفونج وعن وسائل نشرها ،

(١) الشيخ أحمد كاتب الشونة ورفاقه ص ٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٩ - ١٠ و ٢٢ .

كان للحكم في سنار نظامه الشورى الذى يأخذ جنوده من الفكر الإسلامى والفكر العربى ، وكان هناك مجلس شورى يرفع المرشح من بيت الملك إلى العرش ، ويخلمه إن اقتضت الحال ذلك ، وقد ظل ذلك الوضع معمولاً به حتى قضى عليه الشيخ محمد أبو لكيل وأقام حكم الفرد ، فعرض البلاد للفوضى وعدم الاستقرار .

وكانت اللامركزية طابع الحكم بالنسبة لأقاليم مملكة سنار ، وكان شيخ القبيلة أو حاكم الإقليم يُختار بواسطة زعماء القبيلة ، ثم يتم تعيينه بواسطة ملك الفونج أو أمير البدلاب كل فى دائرة نفوذه ، ويصبح له بالتعيين ، نفوذ كبير فى حدود مقاطعته ، مع الاعتراف بالولاء للملك أو لأمير البدلاب ، وتبعاً لذلك كانت موارد القبيلة الاقتصادية مملوكة لها ، وإن كان شيخ القبيلة ينعم بأوفى نصيب .

ويمكن أن نقول إن القوة كانت مركز الحياة فى دولة سنار ، فع وجود الشورى كان لا بد أن توجد قوة تحمى هذا النظام ، فإذا ضعفت السلطة المركزية كثر التمرد ، وبالتالي كثر استقلال الأقاليم ، وكانت الخيول وسيلة القوة ، فحيث توجد الخيول الفارحة يوجد المحارب القذ والفارس المقدام ، فالقوة الحربية تعتمد فى أساسها على الخيل وعلى ما للحاكم من أتباع ، وهذا ما ساعد الفونج على إنشاء دولتهم وعلى احتفاظهم بها مدة طويلة ، لأنهم كانوا يقطنون أرضاً بها إمكانات ضخمة من موارد الخيل وتوفير العلف لها ، كما كان عندهم منبع لا ينضب من الرجال الأشداء .

وما يرتبط بالقوة تلك الأغاني والفنون الشعبية التى تستمد أصولها من قصص البطولة ومن صور المبارزة ، ولكل قبيلة أغانيها وفنونها التى تمجى

لحات من التاريخ وترسم للجبل الحاضر صورة الأجداد لينضغوا بها وهم
يننون المستقبل ، ويشيدون للأبناء والأحفاد^(١) .

وكان لمملكة سنار نظام إدارى دقيق ينسب للملك دكين بن نايل ،
ويقول عنه الشيخ أحمد كاتب الشونة إنه كان من أفخر ملوك الفونج ،
وقب الدواوين أحسن ترتيب ، وجعل لها قوانين مربوطة لا يتعدها أحد
من جميع أهل مملكته ، وجعل لكل جهة من جهات المملكة رئيسا معاوما ،
وقنن لمن عادته الجلوس بحضرته رتباً ، الأعلى فالأعلى في جلوسهم أمامه^(٢) .

ولترك الآن النظم السياسية والاقتصادية والعسكرية لتتحول للحديث
عن التربية والتعليم في مملكة سنار ، وقد كانت الحاجة ملحة لبهم ملوك
الفونج وأمراء العبدلاب بنشر الفكر الإسلامى والتشريع الإسلامى ، لأن المسلمين
في بلاد السودان قبيل تأسيس الدولة كانوا يجهلون أمور دينهم حسب
ما وصفهم الشيخ أحمد كاتب الشونة ، لأنهم كانوا يتزوجون المرأة قبيل
إكمال عدتها من زوجها السابق^(٣) ، والآن وقد قامت للدولة الإسلامية
كان لا بد من معالجة هذا التقص يجذب العلماء ورجال الدين من الأقطار
الإسلامية الأخرى لهذه الدولة الناشئة في قلب إفريقيا لإرشاد الناس في أمور
دينهم ، وهناك شخصيتان مهمتان كان لهما أكبر الأثر في تطور الحياة
الدينية بالسودان ، أولهما شخصية الشيخ إبراهيم بن جابر البولادى
المصرى الأصل الذى كوّن مدرسة اتجهت نحو العلوم الظاهرية ،
فعلت علوم الشريعة والفقه ، وأخرجت الفقهاء والقضاة ورجال
الفتوى^(٤) . والشخصية الثانية هى شخصية الشيخ تاج الدين البهارى الذى

(١) انظر « مملكة الفونج الإسلامية » للدكتور مكى شبيكة ص ١١٧ ونعم شقير
ج ٢ ص ١٠٠ - ١٠١ . (٢) تاريخ ملوك السودان ص ٢ .
(٣) تاريخ ملوك السودان ص ١ .
(٤) نعم شقير : تاريخ السودان ج ٢ ص ٧٦ .

تجه بمدرسته تجاه الحياة الباطنية والنظم الصوفية ، فأدخل إلى السودان طريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني سنة ١٥٤٥ وكانت الشاذلية قد سبقتها بنحو قرن ، واشتد النزاع أحيانا بين المدرستين ، وعلى الرغم من أن علماء الشريعة كانوا يعاملون بكل تجملة واحترام ، فإن التأثير الأكبر في المجتمع السوداني كان للصوفية ، لشدة ارتباط الشيخ بمريديه وارتباطهم به وهو حي ، وبضريحه وخليفته بعد موته (١) ، على أن هناك طبقة من العلماء ورجال الدين أخذت من التصوف نصيبا كبيرا فنالت الحسين ، وكان تأثيرها واسعا في المجتمع السوداني .

وستذكر فيما يلي لمحة عن مدارس الاتجاه الأول ومدارس الاتجاه الثاني .
ولعل أهم ما تبدأ به هو العناية الكبيرة التي وجهها ملوك الفونج وشيوخ العبدلاب للدين كانوا لا يزالون على وثنياتهم ، والوثنية انحطاط فكري لا يُغتنر للعقل البشري ، وإذا كان التسامح الديني محمودا فإن الوثنيين لا يدخلون ضمن نطاق هذا التسامح ، بل يلزم أن تقدم لهم المعارف حتى يثوبوا إلى الرشد ، وفي مملكة سنار انتبه أولو الأمر لهذه القضية وأولوها عناية كبرى ، فأرسلوا المعلمين والدعاة إلى مناطق الوثنيين وبنوا بها المساجد ليجذبوا الناس إلى نور الحق .

ومسألة أخرى أجهت لها الأنظار في عهد مملكة الفونج كذلك هي الارتباط الثقافي بالخارج وبخاصة بمصر ، فقد جذب الملوك والشيوخ مجموعة كبيرة من العلماء ، من مصر والمغرب والعراق ، كما أوفدوا الطلاب إلى الأزهر وإلى مكة المكرمة والمدينة المنورة وبنوا لهم الأروقة هنا وهناك ، وكان رواق السنارى بالأزهر من أفسح الأروقة وأهمها .

ومن أهم المدارس التي عنت بالتشريع الإسلامى واللغة العربية مدرسة
العركين بالأبيض، وتنسب للشيخ محمود العركى ، ومدرسة أولاد جابر ، وهم
إخوة أربعة : إبراهيم «عبد الرحمن وإسماعيل وعبد الرحيم ، وأبوهم جابر
ابن عوف الذى يصل نسبه بسيدنا الحسين ، وقد هاجر أسلافهم عن طريق
البحر الأحمر وسكنوا دنقلا العجوز ، ونزح بعضهم فى طلب العلم إلى مصر ،
وتولى منهم عدد كبير منصب القضاء ، وإليهم يعزى أكبر الفضل فى نشر
الدين الإسلامى فى جنوب كردفان (١) .

ومن أشهر المدارس مدرسة سوار الذهب فى دنقلا العجوز ، وكانت لها عدة
فروع فى نواح مختلفة بالسودان ، وزعيم أسرة سوار الذهب هو الشيخ محمد
ابن عيسى بن صالح ، وهو شريف النسب ، لأن أباه عيسى بن صالح تزوج
بنت الشريف حمد أبو دقانة الحسينى الذى قدم السودان من مراكش فى أيام
دولة سوية المسيحية ، وتزوج الشيخ عبد الله جماع أحد مؤسسى دولة الفونج
من الابنة الثانية للشريف حمد فأنجب منها الشيخ عجيب المانجلك ، وهذا كان
عجيب المانجلك ابن خالة الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب ، ولعل هذه
القربة أضافت مكانة عظمى للشيخ سوار الذهب لتتضم إلى علمه وفضله .
وكان سوار الذهب واسع المعرفة فى علوم القرآن وعلوم التصوف جميعاً ،
ولهذا أمه الطلاب والمريئون من كل صوب (٢) .

وكان الشيخ محمد يتمتع باحترام عظيم لدى ماوك الفونج ولدى
أخواله مشايخ العبدلاب ، وقد كتب له الملك بادی الأول عهداً أعطاه فيه
الأمان له ولجميع طلبته على أهلهم وأنفسهم وديارهم ، وأن الملك يجبر كل
من يجبرونه أو يلجأ إليهم ، ولن يمسهم أحد بمكرهه ، وكان هذا الامتياز

(١) محمد ضيف الله : طبقات ودخيف الله ص ٥ - ٦ .

(٢) الشيخ أحمد كاتب الشونة : المرجع السابق ص ٣ .

يعرف في دولة القونج بلقب « الجاه » ، ولا يتمتع بهذا « الجاه » إلا كبار العلماء من المحررين إلى ملوك القونج ، وكانت جميع أراضي سوار الذهب وملحقات مدرسته معفاة من الضرائب ، بل كانت تجري عليهم العطايا من حين لآخر ، وكان الملوك يرسلون لأبناء سوار الذهب يطلبون الدعاء والمشورة كما ألفت بهم الأحداث (١) .

وكانت بنت في مملكة سنار تأخذ نصيبها من العلم والمعرفة حتى نبغ من بين النساء عدد غير قليل مثل قاطمة بنت جابر وهي أخت أولاد جابر الأربعة الذين سبق ذكرهم ، وكانت تضارعهم في العلم والمعرفة ، وقد تخرج على يدها كثيرون من العلماء والمشاهير ، ومن النساء الشهيرات كذلك عائشة بنت القنال التي كانت تدرس القرآن في « تونق » ، وقد أخذ عليها القراء في أيامه الأولى الشيخ خوجلي أبو الجاز الذي كانت له فيما بعد شهرة واسعة (٢) .

وتمتع العلماء في مملكة سنار بنفوذ واسع كذلك الذي حظيت به أسرة سوار الذهب ، فكان للعلماء مكان رفيع عند الملك والحكام بحيث كانوا لا يُردُّ لهم طلب ، ومن استجار بهم أصبح آمناً ، كما منحوا الإقطاعات الواسعة ، وهذا شجع هؤلاء المشايخ على نشر الدين والثقافة الإسلامية بالبلاد (٣) .

وإذا جئنا إلى مدارس التصوف أو الطرق الصوفية كما اصطلاح على تسميتها ، وجدنا أن أول طريقة صوفية عرفها السودان كانت الشاذلية التي تسب إلى أبي الحسن الشاذلي من « شاذلة » بتونس ، وقد أدخلها إلى

(١) محبوب زيادة : الإسلام في السودان ص ٥٦ - ٥٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٥ .

(٣) دكتور عبد المجيد حابدين : تاريخ الثقافة العربية في السودان ص ٥٨ .

السودان الشريف حمد أبو دنانة عام ١٤٤٥ م قبل قيام دولة القونج وقد سبق ذكره ، وكان قدومه من مراکش ، والطريقة الصوفية الثانية كانت القادرية التي تنسب إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني العراقي ، وقد أدخلها إلى السودان الشيخ تاج الدين البهاري سنة ١٥٤٤ م وعنه أخذ الشيخ محمد الأمين عبد الصادق وبنقا الضرير وعبد الله العركي وعجيب المانجلث ، والطريقة الثالثة هي الطريقة الختمية وقد أدخلها إلى السودان في أواخر عهد القونج (سنة ١٨١٧) السيد محمد عثمان الميرغني ، وكان قد خرج من مكة وعبر البحر الأحمر إلى صعيد مصر ثم بلاد النوبة فدنقلا فكدفان وسنار^(١) . وأصبحت الطريقة الختمية ذات مكانة عظيمة في البلاد فيما بعد .

السودان بعد دولة الفونج

محمد علي باشا وزحفه للسودان :

ربط النيل بين مصر والسودان برباط مقدس ، وعلى مر التاريخ حرص حكام مصر من وطنيين أو فاتحين أن يسبروا مع النيل جنوباً لاستفادهم أن حوض النهر يكون وحدة ذات عناصر مشتركة اقتصادياً وجغرافياً ، وهناك كذلك عناصر تاريخية بين سكان الوادي شماله وجنوبه ، جاءت نتيجة للروابط التي تمت بين هؤلاء السكان في عهد الفراعنة والفرس والرومان والبطالسة والعرب ، وبخاصة العرب المسلمون ، ولعل هذا كان السبب في زحف محمد علي إلى السودان ، هذا بالإضافة إلى رغبته في القضاء على الممالك الذين فروا إلى بلاد النوبة ، ورغبته في القضاء على من بقي بجيشه من الجنود الألبانيين كثيري الشغب وإحلال السودانيين في الجيش محلهم ، ومن أطماعه في السودان كذلك البحث عن الذهب لينفذ به مشروعاته الواسعة (١) .

هذه في الحقيقة هي أهداف محمد علي في زحفه إلى السودان ، ولكن وجهة نظر السودانيين تختلف عن ذلك ، فقد كانوا يرون أن الزحف المصري حلقة من التوسع العثماني ، بل كانوا يرون أن الحكم القائم في مصر نفسها آنذاك حكم عثماني ، وأن محمد علي كان أداة في يد العثمانيين يرسلونه تارة ليحارب ضد الوهابيين ، وأخرى ليزحف على السودان ، وطوراً لإخماد ثورة اليونان ، وأشاع الأوروبيون ذلك بين السودانيين عندما اتصلت أوروبا بإفريقية وبالسودان ، فاتجه السودانيون إلى اعتبار زحف محمد علي

للسودان زحفا تركيا ، وأطلقوا على حكم مصر للسودان قبل الفتح الثانى
 التركية السابقة ، وعلى الحكم الثانى التركية ، وتلك غمزة أريد بها التأثير
 على الروابط الحقيقية بين مصر والسودان ، ولعلنا لا نوافق على ذلك ، فصلاص
 مصر بالسودان ، والرغبة العميقة فى الشمال والجنوب للتوحيد بين الشطرين
 لا توضع فى إطار واحد مع الحملات التى قلمها محمد على للدولة العثمانية
 فى أجزاء أخرى من الإمبراطورية العثمانية .

وحديثنا هنا عن الرغبة العميقة فى الشمال والجنوب للوحدة يؤيده
 ما يذكره المؤرخون من أن أهل السودان طالبوا بإنشاء حكومة قوية على
 يد مصر تقضى على أسباب الفوضى المنتشرة بالجنوب ليستبدل بهذه الفوضى
 عهد أمن ونظام وطمأنينة ورخاء (١) . والذى يقرأ كتاب تاريخ ملوك
 السودان للشيخ محمد كاتب الشونة وزملائه يصل إلى هذه النتيجة بوضوح ،
 فإن هذا الكتاب يفصل القول عن الحفاوة والترحيب اللذين لاقاهما الزحف
 المصرى من الملوك والأمراء والعلماء والقبائل بالسودان ، كما يذكر أن
 إسماعيل بن محمد على قابل العلماء والأعيان بالبشرى والانشراح وكساهم
 جميعاً وأكرمهم غاية الإكرام فى المخاطبة ، وأظهر الحلم وحسن الأخلاق
 وسهولة الحجاب (٢)

وسرى فيما بعد أن الأهداف الاستغلالية لمحمد على لم تتحقق ،
 فلا الذهب فاض من السودان ، ولا الجنود السودانيون ناسبهم الجور
 بمصر ، ومع هذا ظل التوسع فى مسيرته ، بل زاد زيادة باهرة
 فى عهد إسماعيل ، ويمكن القول أن إسماعيل أتجه للتوسع فى إفريقية ليصل
 الأوربيين عنها ، لينشر بها المدنية ، وليحقق روابط الود بين شعوب
 يربطها النيل والجوار والانتماء لقارة واحدة . وقد رحبت أكثر الأماكن

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٧ - ٨ .

(٢) تاريخ ملوك السودان ص ٢٢ .

أو كلها بالزحف المصرى فيما عدا أفراد قائلين كان الزحف المصرى يهدد استغلالهم لشعوب المنطقة ، وأدرك السكان أن مصر جاءت لتعطى لا لتأخذ ، تعطى من حضارتها ونظمها وتضمن الأمن والنظام .

ولنسر مع الزحف المصرى من مطلعه ؛ فقد أعد محمد على حملة ضخمة سارت إلى السودان برأ وبحراً سنة ١٨٢٠ بقيادة إسماعيل بن محمد على ، وكان مع الحملة عدد من علماء الشريعة الإسلامية ليدعوا المسلمين بالسودان إلى الوحدة والمواخاة ؛ وليدعوا غير المسلمين إلى الدخول فى الإسلام ، وكان من هؤلاء القاضى محمد الأسيوطى الحنفى ، والسيد أحمد البقلى الشافعى ، والشيخ أحمد السلاوى المالكى ، وقد قصد محمد على بذلك أن يقدم شيوخاً يتبعون المذاهب الفقهية السائدة بالسودان ليدعم هذه المذاهب ويقوى الأبحاث الفكرية الإسلامية .

وقد حاولت بعض القلول أن تنصدى للجيش الزاحف ، ولكنها فشلت فى ذلك ، فلك القونج لم يكن - كما ذكرنا من قبل - إلا دمية تحركها أصابع الهمج ، وكان آخر مشايخ الهمج هو محمد ود عدلان ، وقد حاول أن يلاقى الجيش الزاحف فانتصل بأمر العبدلاب والأمراء المجاورين ليتجمعوا وليلاقوا جيش محمد على ، ولكن الذين استجابوا إليه كانوا قلة ، وقد اعتدى عليه بعض منافسيه وقتله فى هذه الأثناء ؛ وجمع أخوه رجب بعض الناس حوله ، ولكنه اتجه بهم نحو قاتلى أخيه للأخذ بالنار ، وهياً ذلك لانتصار جيش محمد على ، واستسلمت بذلك بربر وشندى وسنار (١) .

واكن حدث عند عودة إسماعيل بن محمد على إلى مصر أن مرّ هذا بشندى فطلب من الملك - سر الذى كان إسماعيل قد ثبته على ملكه بعض

(١) دكتور مكى شيكة : السودان فى قرن ص ٢٥ و ٢٧ - ٢٨ ونعم شقير

المال والماشية ، ويبدو أنه كان شديد اللهجة في مخاطبته للملك الجعليين (١) ، فأسرّها هذا في نفسه ، ونظم مكيدة أحرق فيها لإسماعيل وبعض خاصته في أثناء وليمة أقامها لهم (٢) .

ويقول الشيخ أحمد كاتب الشونة إنه لما بلغ محمد بك الدفتردار وهو بكردفان قتل لإسماعيل توجه إلى جهة الأبواب للثأر ، ولما وصل إلى الشنة وجد جماعة مجتمعين فطلب بعضهم الأمان فأمنهم ، ولكن واحداً منهم اسمه سعد وثب إليه وطعنه بجرية ، فخافهم الدفتردار وعاقبهم ، وظهرت القسوة في المعاملة بعد أن كان الود والترحاب طابع اللقاء بين السودانيين والزحف للمصرى (٣) ، وهرب الملك نمر وأصحابه إلى الحبشة واتخذوها مركزاً ضد مصر ، وكان أحفاد نمر من أخلص أنصار المهدي فيما بعد (٤) .

والشيخ أحمد كاتب الشونة يوضح لنا بذلك حقيقة مهمة ويصحح خطأ مشهوراً ، فالسودان أحسن استقبال الزحف المصرى ، ولم تكن حملة الدفتردار انتقامية ولكنها كانت رد فعل لبعض العلوان الفردى الغاشم .

والشيخ أحمد يثنى ثناء مكرراً على بعض الأعمال المصرية بالسودان كبناء المساجد وحسن السيرة ونشر العلم وتقريب العلماء وزيادة العمارة وحسن السياسة وانتشار الأمن، والمشورة ، وإزالة الفتن (٥) . وسار الدفتردار بعد ذلك يكمل فتح بلاد السودان ، وكانت كردفان آنذاك تدين بالطاعة للملك دارفور . فحاول أميرها أن يتصدى للمصريين ولكن لم تستطع قواته

(١) ملوك الجعليين في شندى هم سعداب دبرس قسليمان العناد فادريس بن سليمان فعيد السلام فالقفل بن عبد السلام فادريس الثانى فدهاب ونمر هو الملك السادس عشر في هذه السلسلة ، ومدة حكم ملوك الجعليين في شندى ٢٤٥ سنة .

(٢) الشيخ أحمد كاتب الشونة : المرجع السابق ص ٢٢ .

(٣) تاريخ ملوك السودان ص ٢٤ .

(٤) نمر فقير : تاريخ السودان ج ٣ ص ١٠٩ .

(٥) تاريخ ملوك السودان ص ٢٨ - ٣١ .

أن تقف في وجه الأسلحة الجديدة التي كانت مع جيش الدفردار فانهمزمت واستولى جيش مصر على كردفان .

وتأزمت الأمور بين الحملة المصرية وبين دارفور بسبب فتح كردفان ، وفكر الدفردار أن يستمر في زحفه ليضم دارفور ، ولكن بسبب الرغبة في إقرار النظام فيما تم فتحه ، تأجل فتح دارفور ، ثم انشغلت الأذهان عن هذه المنطقة حتى عهد إسماعيل باشا حفيد محمد علي ، حيث تم فتح دارفور على يد القائد السوداني الشهير الزبير رحمة الذي أشرنا إليه من قبل ، وقد ارتبطت بالزبير أحداث خطيرة تمثل حلقة مهمة في تاريخ هذه الحقبة ، فيجدر بنا أن نخصه بمحدث يوضح معالم تاريخ هذه المنطقة خلال هذه الأعوام .

الزبير :

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت تجارة سن القبل وريش النعام من أروج السلع في أسواق مصر والشرق ، مما شجع كثيراً من المغامرين من تجار مصر والسودان على التوغل في غابات الجنوب طلباً لصيد النعام والأقبال والجواميس والخرتيت ، وكانوا يذهبون في جماعات مسلحة بالبنادق ومدرة على ركوب الخيل وعلى صيد الحيوانات ، وكان لكل تاجر (زرية) تعرف باسمه يجمع فيها تجارته ويقم حصونه للدفاع عن نفسه ورجاله وماله ، ولما نشطت تجارة الرقيق أصبح العبيد سلعة مهمة في حياة هؤلاء التجار .

ومع أحد هؤلاء التجار المصريين كان يعمل شاب من الجعليين ، عرف باللهكاه والمغامرة هو الزبير رحمة العباسي ، وفي سنة ١٨٥٧ ثارت بعض قبائل الجنوب على التجار المسلمين وهاجت زرايتهم ، ولكن الزبير تصدى لهم بشجاعة فاقحة ، واستطاع أن يضمن السلامة للتجار اللذين عاونهم ، ولم نجمه منذ ذلك الحين ، وأصبح التجار يلجأون إليه يطلبون منه الحماية ،

كما استغل بتجارة واسعة في هذه المناطق ، وراح يتصل بالقبائل المحيطة به وبرؤسائها وتزوج من بنات عدد من الرؤساء ، وأصبح واسع الجاه في المنطقة كلها ، يحترمه السكان الأصليون ومحيطون به ، ويحتمى به الوافدون ، وحصل خلاف بينه وبين قبائل نيام نيام وسلاطين بلاد قولو في بحر الغزال ، وانتهى ذلك الخلاف بانتصار الزبير سنة ١٨٦٥ ، فم استيلاؤه على منطقة بحر الغزال وأعلن نفسه ملكاً عليها ، ولما كان الزبير قد تربى تربية دينية فحفظ القرآن أيام صباه في كتابيب الخرطوم ، ودرس الفقه على شيوخها ، فقد كان لهذه التربية الإسلامية أثرها في حكمه ، فساس مملكته بالكتاب والسنة ، واتخذ له مجلس شورى من العلماء^(١) .

وقد ذكرنا من قبل^(٢) أن دارفور كانت مملكة دخلها الإسلام في القرن الخامس عشر ، وتكونت بها أسرة إسلامية مالكة آخرها على بن دينار (١٨٩٩ - ١٩١٦) فكانت بذلك معاصرة للدولة القونج في سنار ، وفي خلال حكم هذه الأسرة اتسعت سلطة مملكة دارفور وضمت لها عدداً من الممالك والإمارات حولها .

وحدث خلاف بين مملكة بحر الغزال ومملكة دارفور ، وفي نفس الوقت كان إسماعيل باشا حفيد محمد علي يتطلع لفتح دارفور ، كما كانت العلاقة غامضة بين الزبير وبين الإدارة المصرية بالسودان ، ولكن الزبير قضى على كل هذا الغموض وحقق أحلام إسماعيل باشا ، فسار بجيشه وخاض معارك طاحنة ضد ملوك دارفور ، كان آخرها موقعة منواشى سنة ١٨٧٤ ، وقد تحقق فيها النصر الكامل للزبير ، وزحف بعدها إلى الفاشر العاصمة فدخلها ، وأعلن أن مملكة بحر الغزال ومملكة دارفور جزء من السودان

(١) محبوب زيادة : الإسلام في السودان ص ١٠٢ - ١٠٤ بتصرف .

(٢) ص ١٤٢ .

للمصري ، وأعلن ولائه للحكومة المصرية ، وقد كافأه إسماعيل باشا بأن منحه رتبة اللواء والباشوية ، واستدعاه لمصر وأكرمه أيما إكرام (١) . وكان اتجاه الزبير الإسلامى هو الذى دعاه لوضع كل سلطاته تحت راية مصر ، وقد خلف الزبير ابنه سليمان نائباً عنه يحكم منطقته بالسودان ، وسرى فيما بعد ماذا سيحصل له .

وبينما كان الزبير فى مصر فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، كان الاستعمار الأوروبى قد بدأ يدب وسط القارة الإفريقية وينفث سمومه ، وقد أفلح الاستعمار الأوروبى فى أن يسىء لسمعة الزبير ، مما جعل الخديوى إسماعيل يستبقه بمصر ثم يرسله فى حرب العثمانيين ضد الروس ، وعاد من هذه الحرب فبنى فى مصر إلى أن قامت الثورة المهدية فوشى به غوردون عند الخديوى توفيق وأتهمه بالتآمر مع المهلى ، فأمر الخديوى باعتقاله ونفيه إلى جبل طارق ، وبقي هناك مدة ثلاثين شهراً ، ثم أخلى سبيله وعاد إلى مصر ، وعندما انتهت المهدية ودخل السودان تحت الحكم الثانى لم تعد "تحشى شوكة" فأذن للزبير بالعودة إلى السودان حيث عاش حتى مات سنة ١٩١٤ ، وسرى بعد قليل موقف غوردون من سليمان بن الزبير ورجاله (٢) .

التوسع المصرى فى منطقة خط الاستواء :

بعد ضم منطقة بحر الغزال وفتح سلطنة دارفور تطلع إسماعيل إلى مرحلة أخرى من الفتح فى قلب إفريقيا حول خط الاستواء ، وإذا كانت عملية ضم بحر الغزال ودارفور ارتبطت بشخصية الزبير باشا ؛ فإن فتح منطقة خط الاستواء ارتبطت بشخصين إنجليزين هما : صموئيل بيكر وجوردون ، ومن الواضح أن الحديث عن فتح هذه المنطقة ليس كالحديث عن أنواع

(١) عبد الرحمن الرافى : مصر إسماعيل ج ١ ص ١٣٠ .

(٢) موجز سريع لما كتبه سعد الدين بن الزبير عن : الزبير باشا وجبل السودان .

الفتوحات في المناطق المختلفة ، فلم يكن في منطقة خط الاستواء ممالك ولا سلطنات ، وإنما قبائل متناثرة هنا وهناك يكاد كل منها أن يكون مستقلاً ، وبعضها خاضع بشكل أو بآخر لقبيلة أعظم قوة وأعز منعة ، كما كانت هناك بقاع شاسعة لا يمتد لها نفوذ ، وكان معنى الفتح أن تقبل قبيلة ما راضية أو كارهة تبعيتها للقوة الفاتحة ، وأن ترفع علم هذه القوة ، أما المناطق التي ليست بها سلطات ذات بال فإن فتحها لم يكن سوى رفع العلم المصري بها .

والفتح بهذا المعنى ارتبط بالرحالة الذين كانوا يعرفون المسالك ولهم صلة ما ببعض القبائل النازلة في هذه المنطقة ، وإذا كان الرحالة هو أداة توسع في هذه المناطق والحاجة إلى جهوده ماسة ، فإن حاجته هو ماسة كذلك إلى قوة قريبة منه تتولى الإنفاق على تحركاته وتأييده بالسلح والرجال ، ومن هنا وُجدت المنفعة المشتركة بين إسماعيل من جانب الذي كان نفوذه قد بلغ حدود هذه المنطقة ، وبين هذين الرحالين اللذين ارتبط بهما كشف هذه المنطقة .

ويذكر (١٨٢١ - ١٨٩٣) ارتبط اسمه بكشف بحيرة ألبرت (١) ، وهذا رشحه ليكون ضابطاً في الجيش المصري يعمل على ضم أعلى النيل للممالك المصرية ، ولذلك جاء في قرار الخديوى عن تعيينه ما يلي : « تقرر تعيين صموئيل بك الذى سبق له اكتشاف منبع النيل ، ولديه المعلومات الكافية عن تلك الجهات مأموراً لإلحاق أعلى النيل الأبيض بالممالك المصرية » ، وقد بقى يكرر يعمل في هذه المناطق حوالى أربع سنوات كانت نهايتها سنة ١٨٧٣ ، وقد استطاع في خلال هذه المدة أن يرفع العلم المصري في غندوكرو (٢) ، وأن يعلن ضمها إلى الأملاك الخديوية بمصر ، كما أسس محطتين أخريين في

(١) اقرأ من تاريخ بيكر : Middleton, Dorothy : Baker of the Nile

(٢) عبد الرحمن الرافعي : مصر لإسماعيل ج ١ ص ١١٢ .

«اتيكو وفويرا» ، ورفرف عليهما العلم المصرى كذلك ، وكان ليكر خصم
لنود فى هذه البقاع اسمه أبو السعود ، وكان ينوب عن شركات التجارة
التي احتكرت الاقتصاد فى هذه المناطق ، والتي كانت ترى فى قوة مصر
عائقاً فى طريقها ، ولذلك أغرت الأهالى بالجنود المصريين ، فلم يبيعوا
لجنود الحملة ما يحتاجون إليه من طعام بل ربما هاجوهم ليلاً ونهاراً ،
وينبى أن نذكر أن عدااء هؤلاء التجار للحملة المصرية لم يكن واضحاً
ولا علنياً ، إذ لم يكن فى مقدور التجار أن يضارعوا الجيوش المصرية
الزاحفة (١) .

وعتلىما استقال بيكر تطلع الخديوى إلى رحالة إنجليزى آخر يقوم مقامه ،
فاقترح نوبار باشا على الخديوى تعيين الجنرال جوردون ، ووافق الخديوى
على ذلك ، ثم خطا بسلطات جوردون خطوة أخرى ، إذ جعله حاكماً لمديرية
خط الاستواء ، فلم يعد تابعاً لحكمदार السودان العام (إسماعيل باشا أيوب
آنذاك) ، وأصبحت العلاقة بينه وبين الحكمदार العام علاقة تعاون ، لا علاقة
تبعية ، وسرعان ما تحولت إلى علاقة منافسة ، فقد ظهرت أطماع جوردون
الذى حاول أن يضم إلى منطقتة بعض المناطق التابعة للحكمदार العام ، ولكنه
لم ينجح فى ذلك ، وأخذ جوردون يقيم محطات جديدة يرفع عليها العلم
المصرى ، فأقام محطة على نهر سوبات ، وأقام بعض المحطات العسكرية
بالقرب من البحيرات ، كما حاول أن يصل بين منطقة خط الاستواء وبين مصر
عن طريق البحر الأحمر ، واتصل بملك أوغندا فقَبِلَ هذا الملك أن يرفع علم مصر
على مملكته وأن يعلن قبيلته لمصر ، كما أبدى رغبته فى تعلم الدين الإسلامى (٢)

(١) تفاسيل للفتوحات فى منطقة خط الاستواء أوردها الأمير عمر طوسون فى كتابه
الحافل « تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية من فتحها إلى ضمها » (١٨٦٩ - ١٨٨٩)
ج ١ ص ١٧ - ١٠٥ .

(٢) عبد الرحمن : مصر إسماعيل ج ١ ص ١١٤ و ١١٦ و ١٢٠ .

وقد جاء في التبليغ الرسمي للقاهرة عن هذه الفتوح ما يلي :

« وبذلك تم لمصر ضم جميع الأراضي الواقعة حول بحيرتي فكتوريا وألبرت نيانزا إلى ألاكها ، وهاتان البحيرتان الكبيرتان تفتحان مع روافدهما ونهر سومرست ميداناً رحباً للريادة البحرية يقوم الآن جوردون باشا بإعداده (١) . وقد أرسل شريف باشا مذكرة للدول تفيد ضم منطقة البحيرات لأملاك مصر (٢) .

التوسع المصري على ساحل البحر الأحمر وجنوبه :

كان العثمانيون قد استولوا على سواكن حوالى سنة ١٥٢٧ ، أى في نفس التاريخ الذى دخل فيه العثمانيون مصر ، وأصبحت سواكن تابعة في إدارتها لبلدة ، كما استولى العثمانيون على المنطقة المقابلة لليمن على الشاطئ الغربى للبحر الأحمر (أرتيريا وعاصمتها مصوع) إذ كانت هذه المنطقة تابعة لليمن ، فانتقلت إلى العثمانيين ، واستولوا كذلك على ميناء جيبوتى وزيلع وبربرة وتاجورة ، وكانت تابعة لليمن كذلك ، وانحصرت أهمية هذه المناطق لدى العثمانيين في مراقبة الأسطول البرتغالى بالبحر الأحمر وبمداخله .

وعندما تقدمت فتوحات محمد على باشا في السودان ، استأجر سواكن ومصوع من السلطان العثمانى ليتخدهما وسائل ليربط مصر بفتوحاته بالسودان عن طريق البحر الأحمر .

وفي عهد إسماعيل لم يكتف هذا بعملية الاستئجار ، كما لم يكتف بسواكن ومصوع ، بل توسع في ذلك من ناحية المساحة ومن ناحية طبيعة الصلة بين مصر وبين هذه المناطق ، ففي سنة ١٨٦٥ تنازل الباب العالى لمصر نهائياً عن سواكن ومصوع ، وفي سنة ١٨٦٦ تم لمصر امتلاك جميع الشاطئ

(١) عمر طوسون : تاريخ مذبذبة خط الاستواء للمصرية ج ٣ ص ٤٨٧ و ٤٨٩ .

(٢) اقرأ هذه المذكرة في « مصر إسماعيل » للأستاذ عبد الرحمن الرافعى ج ٤ ص ١٢٢ .

الواقع على خليج عدن الجنوبي من بربرة إلى رأس غوردافوى ، وفي سنة ١٨٧٠ استولى الأسطول المصرى على ساحل البحر الأحمر حتى مضيق باب المندب ، وعلى بلاد الصومال (١) حتى مصب نهر جوبا ، وكان جمال باشا أميراً لهذا الأسطول ، وعين ممتاز باشا فى الوقت نفسه على جميع الشاطئ الإفريقى من السويس إلى رأس غوردافوى بما فى ذلك بربرة وبلهار ، وفى سنة ١٨٧٤ كلفت الحكومة المصرية مونزنجير باشا قنصل فرنسا فى مصرع بالقيام برحلة تفتيشية على الساحل الصومالى ، وقد قام بهذه الرحلة وأعد تقريراً وافياً عنها ، جاء فيه أن من الضرورى للقضاء على تجارة الرقيق أن يتم الاستيلاء على الطريق الداخلى من الشاطئ الصومالى إلى هرر .

وفى سنة ١٨٧٥ حصلت مصر على زيلع من الباب العالى ودفعت مصر للباب العالى جزية تساوى دخل الباب العالى من هذه الموانى ، وأسندت إرادة هذه المنطقة إلى محمد رموف باشا ، وكانت تاجورا ملحقة بميناء زيلع وتسلمها رموف باشا كذلك ، وهكذا امتد النفوذ المصرى إلى الساحل الجنوبى فشملى منطقة مقدشو حتى نهر جوبا كما سبق . واعترفت إنجلترا بذلك (٢) .

مصر نفهم إقليم هرر :

ستحدث عن تاريخ هذا الإقليم فيما بعد ، ولكننا هنا نتحدث عن ضمه لمصر مرتبطاً بالتوسع المصرى فى عهد إسماعيل ، وقد ذكرنا آنفاً أن مصر استولت على كل الموانى التى كانت منافذ لإقليم هرر ، وبدأت مصر تفكر فى فتح هذا الإقليم الذى كان الاستيلاء عليه يحتاج لسياسة جديدة غير تلك التى اتبعتها مصر فى الاستيلاء على الشاطئ الإفريقى ، وتلك السياسة هى الفتح العسكرى .

(١) ستحدث من تاريخ الصومال فيما بعد .

(٢) عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل ج ١ ص ١٣٧ - ١٣٩ .

ومما ساعد مصر لتحقيق هدفها بيسر أن هذا الإقليم أصبح معزولاً عن الساحل ، وأن تياراته كسدت ، وأن قبائل الجبال تهدده ، وكان حاكمه معروفاً بالقسوة والاستبداد .

وقد صدرت الأوامر لمحمد رموف باشا أن يقود حملة يضم بها هذه المنطقة ، وقد سارت الحملة بعد أن سبقتها دعاية ضخمة ، تعلن الرغبة في المسألة من جهة ، وتهدد بالوعيد من جهة أخرى ، وتعارض من جهة أخرى ، واتخذ الإسلام وسيلة لجذب قلوب السكان الذين أعلنت مصر التزامها بحمايته من تهديد المسيحيين والوثنيين ، وقد استجابت أكثر القبائل لهذه الدعاية ورحبت بالجيش المصرى الزاحف ، ووقفت قبائل أخرى تعارض جيش مصر ، ولكن محمد رموف استطاع أن يكتسحها بعد بعض المعارك ، فقتل وأمر ، ولكت سرعان ما أطلق الأسرى وأحسن لمن عاد إلى الرشد ، واجتمعت الكلمة على تبعية هذه المنطقة لمصر (١) .

وهكذا امتد النفوذ المصرى امتداداً واسعاً شمل الشاطئ الغربى للبحر الأحمر وامتد إلى الشرق والجنوب على ساحل المحيط الهندى ، كما اتجه في توسعه للدخول فضم إقليم هرر الحبيب .

ووصلت إمبراطورية إسماعيل بذلك إلى قمتها فشملت حكمدارية هرر ومنطقة خط الاستواء ومنطقة بحر الغزال وضربت في قلب إفريقيا حتى قريباً من بحيرة تشاد ، كما شملت ساحل البحر الأحمر كله ، وهبمنت على مداخله وعلى الجزء الواقع إلى الشرق منه وإلى الجنوب ضامة بلاد الصومال حتى مصب نهر جوبا ، وكان التوسع المصرى بإفريقية يصحب معه كل أساليب الحضارة والمدنية ، وكل جوانب الود والتعارف ، ولذلك ازدهرت كل البقاع التى امتد لها الحكم المصرى ، وانتشر بها الإسلام وروح الإسلام . بل انجهدت مصر إلى السيطرة على الساحل الشرقى لإفريقية حتى كلوة وسفالة ، ولو تم لها ذلك لصدت الاستعمار الأوروبى عن القارة ولتعدت بحضارتها إلى

(١) عبد الرحمن الرافى : مصر إسماعيل ج ١ ص ١٢٢ .

القارة كلها أو أعظمها ، ويقول المؤرخ إسماعيل سرهنك^(١) إن إحدى فرق الجيش المصرى تسلت من أوغندا إلى زنجبار سنة ١٨٧٢ واستقبلت هناك استقبالا حسناً من السكان ، وعرض قائدها على برغش مشروع معاهدة تنص على وضع بلاده تحت الحماية المصرية ، ولكن غوردون - وكان آنذاك حاكماً على مديرية خط الاستواء - عرقل هذه المساعي ، فكتب إلى برغش يحذره من وقوع سلطته تحت الحماية المصرية ، وفي نفس الوقت أوعز إلى إسماعيل بأن سلطان زنجبار يسمى بمعاملة المصريين ، قضى غوردون بهذه الحيلة على محاولة كان من الخير أن يكتب لها النجاح .

الاستعمار الأوروبي وموقفه من الإمبراطورية المصرية :

إن دراستي بصلة أوروبا بإفريقية ابتداء من القرن الخامس عشر قادتي إلى فكرة أعتقد صوابها ، هي أن أوروبا اتجهت بضراوة نحو إفريقية عقب انتصار للمسيحيين على المسلمين في أسبانيا ، وقد لاحق المتصرون المهزومين بإفريقية بعد أن سَلِمَت أوروبا للمسيحية ، ولكن كشف أمريكا حدث حوالى ذلك التاريخ ، وجذب الفراغ الأمريكى والثراء الأمريكى هؤلاء المغامرين إلى رحابه ، فاكتفى الأوروبيون من إفريقية بأن يسرقوا رجالها لبيعوهم عبيداً بأمريكا ثم استقلت أمريكا وحروب الانحجار بالرفيق لسبب أو لآخر ، كما سنشرح ذلك فيما بعد ، فاتجه الأوروبيون إلى إفريقية لاستعمارها بعد أن انحسرت أطماعهم عن أمريكا ، وكان ذلك حوالى الربع الأخير من القرن التاسع عشر .

بيد أن الأوروبيين واجهوا بإفريقية عملاقاً ضخماً هو النفوذ المصرى والإمبراطورية المصرية ، والمصريون ليسوا غرباء في إفريقية ، ولهم حضارة واسعة وأطباعهم ضئيلة إن كانت لهم أطماع ، وتربطهم روابط عميقة بالتواحي

(١) حقائق الأخبار من دول البحار ج ٢ ص ٣١٩ .

التي نزلوا بها في القارة ، وكان لا بد لأوروبا أن تدمر هذه الإمبراطورية
ليُسنى لها أن تمد رجلها في هذه البقاع ، فانجذبت إلى الخديوى إسماعيل
تصارع وتناوذه ، وتتفق مع تركيا ضده ، وتيسر له القروض ، ثم تخلق أزمة
حول القروض ، ولعبت اللعبة دوراً كبيراً حتى خيل للناس أنه مسرف
مثلاف ، وأنه لا بد من أن يعزل ٥

ولم يكن عزل إسماعيل في الحقيقة بسبب الديون ، فإنها كانت ضئيلة
إذا قيست بسواها من ديون الدول ، وإذا قيست بإمكانات مصر الاقتصادية ،
وليس عزل إسماعيل ضماناً لسداد الديون ، وقد لاحظ الأستاذ عبد الرحمن
الرافعى أن الديون اتخذت وسيلة لأهداف استعمارية فكتب يقول : صحيح
أن هذه القروض لو استدانها دولة أوربية لما كانت في نظر الدول مسوغاً
للتدخل في شئونها ، وإنما كان تدخل الدول في شئون مصر اضطهاداً مقصوداً
منه لتحقيق أطماع استعمارية قديمة (١) ٥

ولعل « فارمان » ممثل بريطانيا في مصر آنذاك يُعَدُّ أوثق مصدر عندما
يتحدث عن أسباب عزل إسماعيل في تقرير رسمي يبعث به إلى حكومته من
القاهرة في ٨ يوليو سنة ١٨٧٩ ، وفيما يلي مقتطفات من هذا التقرير :

— لو أرادت فرنسا وإنجلترا أن تخلعا أمير الأفغان أو شاه العجم أو سلطان
الأتراك ، لما صعب عليهما أن يتخلاصوا الحكم كعزير لما يريدان ،
ولما وجدتا صعوبة في جعل هذا الادعاء يرسخ في أذهان العالم
المسيحي كله .

— وما أريد ذكره هو أن من بين كل هذه الحكومات كانت حكومة
الخديوى (إسماعيل) لإجلالها هي أفضلها ، وذلك حسب أكل ما لدى
من معلومات استطعت الحصول عليها ، فهي الحكومة الشرقية الوحيدة

(١) عبد الرحمن الرافعى : مصر إسماعيل الجزء الأول (قضية الديون) .

التي اقتصرت دون نظيراتها بمحاولة التقدم والرقى في كل ما يتصل
بأسباب الحضارة الحديثة ، والآن وقد بدأ الناس يستعرضون ما تم في
عهد سموه ، فإن مما لاشك فيه أن التقدم الذي أحرزه كان
عظيماً جداً .

— والمساءلة المالية وشعور الاستياء العام بسببها في أوروبا ، ليس إلا مجرد
أعذار لتجعل من الممكن تنفيذ خطط سياسية معينة ، ولم يسبق أن
اعتبر عجز الدولة عن دفع ديونها سبباً يخول الدول الأجنبية الحق في
أن تخلع حاكمها أو أن تغير حكومته .

— والمسيو فريدناند ديليسبس رجل عظيم وفاضل ، ولكنه فيما يتعلق بمصر
وبالتحديوى كان بمثابة الروح الشريرة (١) .

* * *

وهكذا كان عزل إسماعيل ليس سبب الديون ، بل كان في الحقيقة
خطوة أوربية نحو الزحف على القارة .

لقد كان إسماعيل عملاقاً ، ولكنه جاء في وقت انجبه فيه السحار الأوربي إلى
إفريقية ، ولو جاء إسماعيل في غير هذا الوقت لتغير وجه التاريخ ، ولأصبحت
القارة أو أكثرها مصرية عربية إسلامية .

أما التحديوى توفيق فكان حاكماً ضئيلاً ، وكان صفيحة الإنجليز من أول
يوم ، والفرق كبير بينه وبين أبيه ، فكان عزل إسماعيل تمهيداً دقيقاً لتصفية
الإمبراطورية التي كونها هذا التحديوى الطموح . وكان موقف الاحتلال
البريطاني من الثورة المهديية الذي انجبه لعدم التدخل أولاً ، وللإصرار على
إخلاء مصر للسودان ثانياً ، استمراراً لهذه السياسة ، سياسة تصفية
الإمبراطورية المصرية ، ليخلو الجو للمستعمر الأوربي .

(١) اقرأ التقرير كله في كتاب : « مصر والسودان » للدكتور محمد فزاد شكرى
ص ١٦٠ وما بعدها .

وبعد زوال إسماعيل دبرت الحيل لاحتلال مصر ، ودبرت الحيل لتتصر
الثورة المهدية على النفوذ المصرى بالسودان ، ثم اتجهت أوروبا لتجنى ثمار
هذه الحيل ، ولتتقسم أشلاء الإمبراطورية ، ومن الطبيعى أن تترك لبريطانيا
نصيب الأسد لأنها لعبت الدور الرئيسى فى القضاء على إسماعيل ، فكانت
القسمة كالآتى :

الحبشة : هرر .

إيطاليا : اريتريا ، والإقليم الشرقى من الصومال ، وسمى الصومال الإيطالى

فرنسا : منطقة جيبوتى وميناء أوبوك وسميت الصومال الفرنسى

بلجيكا : عدلت حدود الكونغو فأخذت بعض أملاك مصر على
هذه الحدود .

إنجلترا : زيلع واماحقاتها ، والإقليم الشمالى من الصومال ، وسمى الصومال
البريطانى ، ومحمية أوغندة ، ثم استولت على السودان نفسه فيما
يسمى باستعادة السودان ، فإن نصيب مصر كان الاسم وليس
سواه ، وما يدل على أن استعادة السودان كانت عبارة عن عملية
احتلال متتعة أن إنجلترا أعدت العدة للزحف على السودان دون
أخذ رأى مصر ، وأن خبر الاستعداد للزحف كان مفاجأة
للخديوى (عباس حلمى) ، وكان مثار دهشة وإنكار من
الجميع ، ولم يقبل الخديوى ذلك إلا تحت ضغط شديد مما جعل كرومر
يعرق إلى سولسبرى بأن أحدا لا يرضى عن سياسة الزحف لوضوح
أن الذى أملى هذه السياسة لم يكن النظر فى مصلحة مصر (١) .

جوردون والبر المهورية المصرية بإفريقية :

من الواضح أن جوردون لم يكن مخلصاً فى العمل الذى وُكِّلَ إليه ،

(١) أحد شفيق باشا : مذكراتى فى نصف قرن . القسم الأول ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

وكان يعمل لحساب بلده قبل كل شيء ، وكان نفوذ إنجلترا قد بدأ يمتد
تجاه هذه البقاع ، ولعلّه بسبب ذلك لم تتم صلة مصر بأوغندة ، ولم يتم
فتح الطريق بين منطقة خط الاستواء والبحر الأحمر ، ولم يتم إسلام الملك
التيه بل جنبه المهشرون المسيحيون إلى المسيحية . ولم يتم دخول زنجبار
تحت الحماية المصرية وكان ذلك على وشك الحدوث كما ذكرنا من قبل .

والعجيب أن الخديوى لم يدرك اتجاه جوردون في الوقت المناسب ، ولذلك
واح يعزز قوة جوردون بموظفين آخرين من الإنجليز ، بل نجده في فبراير
سنة ١٨٧٧ يُعين جوردون حاكماً عاماً للسودان كله ، وعمنحه سلطات
واسعة لم تمنح من قبل لمن تولوا هذا المنصب^(١) ، وجوردون بهذا يقف وجهاً
لوجه أمام سليمان بن الزبير ، ويلقى في روع الخديوى أنه عديم الولاء له ،
بل يلقى في روعه كذلك أن الزبير نفسه ضالع مع ابنه في هذا التمرد كما
ذكرنا من قبل ، وقد كان من آثار ذلك أن عوقب الزبير بالتقي كما رأينا ،
وظل مبعداً عن بلاده فترة طويلة ، أما نهاية ابنه سليمان فكانت مريعة
وقاسية وستكلم عنها فيما يلي :

سليمان بن الزبير :

لقد كانت الفتنة التي أثارها جوردون ضد الزبير مزدوجة ، اتجه بجانب
هنا ضد الزبير نفسه ، واتجه بالجانب الآخر ضد سليمان بن الزبير ، وكان
الزبير في القاهرة لا يستطيع أن يدافع عن نفسه إلا بالكلمة ، ولم تسمع
كلمته في كثير من الأحوال ، فعوقب بالتقي والتشريد كما سبق القول ،
أما سليمان فقد كان معه الرجال والسلاح ، فكان الصراع معه أطول
وأقسى ، واحتاج من جوردون إلى صومر من القنصل والحياة ، وسنسير
فيما يلي نصومر الصراع بين جوردون وسليمان .

كان سليمان في الحادية والعشرين من عمره عندما بدأ يواجه مؤامرات غوردون ، الذى كان قد عين حاكماً عاماً للسودان (خلفاً لإسماعيل أيوب) والذى لم يأل جهداً منذ اليوم الأول لتعيينه في التمهيد للاستعمار الإنجليزى^(١) .

وقد بدأ غوردون في تنفيذ مؤامراته بتفريق جيش سليمان ، وإخضاعه لقيادات متعددة جعل عليها أعوانه وخواصه ، من الأتراك والخنوة ، تاركاً سليمان بلا جيش ولا رجال ، وعينه حاكماً على مديرية بحر الغزال ، وقابل سليمان كل هذا بالسكوت فقد كان أبوه بالقاهرة ، وكان سليمان يحس أن معارضته لغوردون ستكون له عتاً ، ولكن غوردون عندما اطمأن إلى تجريد سليمان من كل قوة أقدم على الخطوة التالية ، فعزله وعين إدريس أبتر حاكماً على بحر الغزال بدلاً من سليمان ، وإدريس هذا كان وكيلاً للزبير في منطقة بحر الغزال ، ولكنه استبد بالأمر وتمرد متهازاً فرصة بُعد الزبير ، فلما ذهب سليمان إلى بحر الغزال أراد معاقبته ، ولكن إدريس فر وأغرى غوردون بسليمان ، فعزل غوردون سليمان ، ولكن سليمان لم يخضع لهذا العزل ، وراح يقاومه بحد السلاح ، ولم يمكن إدريس من السلطة في بحر الغزال ، وكان كثير من رجال سليمان أوفياء له ، فتركوا قاداتهم الجدد وانضوا تحت لواء سليمان من جديد^(٢) .

وقاد الأفاق الإيطالي « روميلو جيسى » الجيوش ضد سليمان ، ودلر صراع مرير بين الرجلين ، استغله غوردون ليعلن أن سليمان متمرد على طاعة الخديوى ، بل ليعلن أكثر من ذلك أن هذا التمرد بإيعاز من الزبير إلى سليمان ، ولم يكن من المعقول أن يوعز الزبير لابنه بالثورة ضد مصر ، وهو مقيم بمصر تحت رحمة حكامها ، ولم تكن ثورة سليمان تحتاج إلى إيعاز

(١) سد الدين الزبير : إمبراطورية رابع الزبير ص ٣٦ .

(٢) نموم شقير : تاريخ السودان ج ٣ ص ٩٦ .

من الزبير ، لأنها كانت رداً على خيانة غوردون وتطاوله ، ويقرر لورد كرومر أن الزبير في تقياً يائساً لإعازة لابنه ، وأما غوردون فقد أكد فلك ، وقال إن معه خطاباً من الزبير لابنه بهذا الخصوص ، ولكن كرومر يقرر أنه لم يتيسر له إحضار ذلك الخطاب (١) .

وهكذا يتضح أن اتهام الزبير لم يكن له أساس صحيح ، ولعل ذلك الاتهام أُعيد ذريعة لإرغام الزبير أن يكتب لابنه رسالة ينصحه فيها بالكف عن الحرب ، مذكراً إياه بواجب الخضوع لحكومة الخديوي السنية (٢) .

وتسلم سليمان رسالة أبيه بخطه ، وأحس أن من البر أن يُطِيع أباه لعله بذلك يحبه من أزمة يمر بها ، ولكن أحد قادة الزبير الأبطال وهو رابع الزبيرى نهى سليمان عن التسليم وقال له : « لقد ناوأنا جيوشاً فلا تتوقع منهُ عفواً إذا صرت في قبضته . أما أنا فيؤسفني الانفصال عنكم بعد أن شاركتكم في السراء والضراء هذه السنين الطوال ، ولكني لا أسلم نفسي لجيوش لأن الدناقلة محبسون به ، وهو مطواع لهم ، وأنت تعلم ما بيننا وبين الدناقلة من عداوة قديمة ، وإني لأشير عليك بالذهاب غرباً وفتح بلدان جديدة » (٣) .

ولكن حرص سليمان على طاعة أبيه من جانب ، وتخلقه بأخلاقه من اللولاء لمصر من جانب آخر دفعاه ليسلم سلاحه لعدوه ظاناً أن هذا العدو يعرف الوفاء ، ولكن سرعان ما غدر به عدوه وعدو الإسلام ، فقد صدرت الأوامر لجيوش الإيطالي بأن يوثق سليمان وكبار رجاله بالحبال وهم

(١) لورد كرومر : بريطانيا في السودان ص ٨٧ - ٨٨ .

(٢) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان ص ١٣١ ، وقرأ هذا الخطاب

البلغ المؤثر المخلص في نعم شقير ج ٣ ص ٩٩ - ١٠١ .

(٣) إسماعيل سرهنك باشا : حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٢٣ .

ضيوف عنده ، وأطلق عليهم الرصاص جميعاً في يوليو سنة ١٨٧٩ (١)

رابع الزبير :

لم تنته جهود الزبير باعتقاله وإبعاده عن السودان حصنه الحصين ، ولم تنته كذلك بقتل ابنه غدرأ بين رجاله وفرسانه ، بل امتدت جهود الزبير عن طريق فارس بطل من أتباعه اسمه رابع تحدثنا عنه من قبل عند الكلام عن برنو وكانم وباجرى ، وكان رابع قائداً أميناً للزبير ، وجزءاً من فلسفته وأفكاره ، حتى تسمى باسمه تبعاً للعرف الذى يقضى بأن نسب الفكر لا يقل عن نسب الدم .

وكان رابع أكبر سنّاً من سليمان إذ كانت سنه أقل من الزبير بخمسة عشر عاماً ، وكان يرى أنه ملتزم بأن يحل محل الزبير فى غيبته ، فلم تخدعه وعود غوردون ورجاله ، وأحس بأن هذه الوعود تُخفى وراءها الغدر والضعف فرفض الاستسلام ، واتجه برجاله غرباً لينفذ الخطة التى كان يراها خطة الزبير نفسه ، وخلّصتها مصارعة الاستعمار الذى كان قد أخذ يدب فى هذه المناطق ، وتكوين إمبراطورية إسلامية بها تستطيع أن تثبت أمام الاستعمار ، فقد أدرك بفطرته وخبرته أنه ما لم توحّد تلك القبائل المتفرقة فى حوض نهر شارى وعلى ضفاف بحيرة تشاد ، فإن يُقيّض لهذه المناطق الوقوف أمام الغزو الفرنسى الذى كان قد أخذ يتسلل نحوها ، واستطاع رابع أن يحتل مناطق قبائل الملتوس والبواس ، وغيرها على نهر شارى ، وقد استسلمت له هذه القبائل دون جهد يذكر ، وكان أكثرها لا يزال على الوثنية ، فاتجه رابع لنشر الإسلام بينها وسرعان ما استجابت له والتفت حوله .

وتطورت الأحوال في السودان عقب ذلك، فقد بدأت انتصارات المهدي وجاءت نهاية غوردون ، فعاد رابح إلى دارفور واحتلها وضمها إلى ما كان بيده من المناطق التي تقع للغرب منها ، وقد كتب له المهدي يطلب إليه أن ينضم بقواته إلى قوات الثورة ، وقد رَحَّب رابح بالانضمام للمهدي ليصارع معه النفوذ الأجنبي الذي يعدّ عدواً مشتركاً لهما ، ويقول مؤرخ رابح الزبير : أن رابحاً وجد في المهدي بديلاً عن قائده الأول الزبير ، أو ربما رَحَّب بذلك الانضمام ليغسل بدم غوردون ذكرى مقتل سليمان (١) .

وسار رابح تجاه المهدي ، ولكن أخبار وفاة المهدي أوقفته عن متابعة السير ، لأنه لم يكن على صلة طيبة بالخليفة عبد الله التعايشي زعيم المهدي الجديد لخلاف قديم بين هذا وبين الزبير (٢) ، ولكنه اختار راية المهدي راية لجيشه :

رابح يجهز إلى الغرب :

فقل رابح إلى الغرب ليكمل تكوين إمبراطورية إسلامية مستقلة بهذه البقاع فكثرت لنفسه في واداي ثم اندفع إلى باجري ، وكان ذلك سنة ١٨٩٣ ففتح لسه بها طريقاً إلى برنو حول بحيرة تشاد ، واستلزم ذلك أن يحتل بلدة « مانهافا » ، واكتفى رابح بهذه المنطقة من باجري ليوصل عن طريقها سيره إلى برنو، وكان يحكمها سلطان يُدعى هاشم، وقد دار صراع عنيف بين جيش برنو يقوده « خيارى » ابن أخت السلطان ، وبين جيش رابح، وبعد نضال عنيف تمكن رابح من إحراز النصر، وأصبح لرابع بذلك إمبراطورية واسعة تمتد من دارفور التي احتلها قبيل سقوط الخرطوم ، ومشملة واداي وبعض

(١) سعد الدين الزبير : إمبراطورية رابح الزبير ص ٤٦ - ٤٧ .

(٢) اقرأ أسباب هذا الخلاف في كتاب « تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل »

باجرى حتى منطقة برنو، واتخذ رابح مدينة «دكوة» عاصمة لهذا الملك الكبير:

وكانت فرنسا قد بدأت زحفها تجاه وادى وباجرى، ولكنها أدركت أنها لا تستطيع أن تحقق خططها في استعمار هذه الأمكة مع وجود رابح، فدارت بينها وبينه معارك اتضح فيها بُعد غوره، ففكرت في الحصول على طريقة رخيصة للتغلب عليه، فعمدت إلى الزبير ترجوه أن يتوسط لعقد صلح بين فرنسا ورايح، وأدرك الزبير أن الصلح خدعة يعقبها القضاء على رابح على نحو ما فعل غوردون بسليمان، فرفض أن يكرر غلطته، وبقي الأمر لتحكم فيه القوة، ويمكى الزبير ذلك في مذكراته عن حوادث عام ١٨٩٦ بقوله: «... حدث في هذا العام أن زارنى سراً وفي بهم الليل بعض كبار الفرنسيين من أصحاب النفوذ في بلادهم، وبقوا معى إلى ما بعد منتصف الليل بساعتين، يحاولون إقناعى بأن أسعى لعقد اتفاق بينهم وبين رابح قائدى القديم الذى كان قد أبى التسليم لجيسى مع ابنى سليمان، ومضى نحو الغرب بألف من الرجال المسلحين إلى أن وصل برنو ففتحها، وأسس فيها ملكاً عظيماً جعل عاصمته «دكوة» جنوبى بحيرة تشاد، إلى أن دخلت برنو هذه في نطاق نفوذ الفرنسيين فجردوا عليه جيوشهم، ولكنه كان ما يزال القائد الذى سار تحت لوأى من نصر إلى نصر، فهزم هذه الجيوش فى أكثر من معركة «دامية». ولهذا التجأوا إلى طالبين أن أستعمل نفوذى لدى رابح لإيقاف هذه الحرب ولأطلب منه الانسحاب من برنو وعرضوا علىّ فى مقابل هذا، المبالغ الطائلة مع استعدادهم لتنفيذ كل ما أطلبه منهم...، غير أننى رفضت عروضهم هذه(١)».

وخاف سلطان باجرى من نفوذ رابح، فعقد معاهدة مع فرنسا سنة ١٨٩٧، فأحس رابح بأن هذه المعاهدة ترمى إلى مقاومته، فافتحم باجرى

واحتلها ، واتسع بذلك ملك رابع ، ولكن هذا الاتساع أوقفه وجهاً لوجه أمام الفرنسيين الذين كانوا يطعمون في هذه المناطق ، والذين كانوا قد تحالفوا مع الرؤساء الذين قضى عليهم رابع ، ووقع الصدام بين رابع من جهة وبين الفرنسيين وأعدائهم من جهة أخرى سنة ١٨٩٩ ، وفي نفس الوقت كانت إنجلترا قد زحفت إلى دارفور عقب استعادة السودان ، مما أوقع رابع بين فكي الأسد ، ودار صراع عنيف بين رابع من جهة والفرنسيين من جهة أخرى في إبريل سنة ١٩٠٠ وكانت القوات الفرنسية تحت قيادة لامي الذي كان يُنظم قواته بالقرب من مدينة « كاسوري » ، وفي هذه المعركة الفاصلة سقط لامي ورابع معاً ، وانتهزم جيش رابع بعد صراع مرير ، وقد حاول فضل الله بن رابع أن يحمل اللواء بعد أبيه ، ولكن أسلحة الغرب كانت أقوى منه فخراً في الميدان (١) .

مصر في السودان :

كان الحصول على الشبان السودانيين للجيش ولأنواع العمل المختلفة أهم مطلب دفع إلى غزو السودان ، وقد كتب محمد علي بذلك لقادة جيشه أكثر من مرة ، ونقل فيما يلي نصاً واحداً من النصوص الكثيرة التي تحمل هذا المعنى ، وفيه يقول : « وإن المقصود الأصلي من هذه التكاليف الكثيرة والمتاعب الشاقة ليس جمع المال كما كتبنا إليكم ذلك مرة بعد أخرى ، بل الحصول على عدد من العبيد الذين يصلحون لأعمالنا ويجددون بقضاء مصالحنا (٢) » ، ولكن هذا الهدف لم يتحقق كما كان يرجى لاختلاف الجو والطبيعة البشرية ، فخاب أمل محمد علي في هذا الاتجاه .

(١) خلاصة دقيقة لما أورده سعد الدين الزبير في كتابه السابق .

وانظر كذلك Cyril Claydon : The Rise of French Imperialism

(٢) مكتوبة رقم ٢٢٥ في مرة أخرى لقصته سنة ١٢٣٧ هـ .

وفرضت الإدارة المصرية الضرائب على سكان السودان ، وكثيرون من السكان لم يكونوا مستعدين لدفع الضرائب ، فاستعملت الإدارة أحياناً أساليب فيها قسوة لتحصيل الضرائب التي تازم لفقات الجند وأوجه الإصلاح ، ولكن الأهالي ثاروا على المحصلين وعلى الإدارة بسبب الضرائب التي لم يألفوها والتي كانوا يرون فيها صورة من الابتزاز ، وهكذا خاب الأمل كذلك في الأهداف الاقتصادية ، فلا الضرائب كان تحصيلها سهلاً ، ولا أرض السودان جادت بالذهب الذي كان أيضاً من أهداف الحملة .

وكان من أهداف الحملة كذلك الحصول على المواشى السودانية ، ولكن هذا الهدف لم يتحقق بشكل مُرضٍ ، لأن ما كان يصل منها إلى مصر سالماً كان لا يستأهل الجهد الذي يبذل في سبيلها ، ولذلك نجد أن عباس باشا ألقى مصلحة المواشى السودانية التي كان مقرها أسوان ، وأوقف جلب المواشى إلى مصر .

وهكذا فشلت كل الأمانى التي تمتاها محمد علي بفتح السودان، ولكنه استمر واستمر أولاده من بعده في التوسع ، ويبدو لي أن الأهداف تغيرت بمرور الزمن ، وأصبح التوسع استجابة للعوامل الطبيعية والتاريخية التي تربط بين الشمال والجنوب ، وأعطى الشمال كثيراً ، ولكنه لم يحسب ما قدمه فقد أصبح الجنوب جزءاً من الوطن الواحد ، وتنضج هذا جلياً من مراجعة القرارات الصادرة بالزحف للجنوب في عهد إسماعيل ، فإن هذه القرارات توضح أن الهدف خدمة الجنوب لا استغلاله ، وفيما يلي سطور من قرار تعيين بيكر :

نحن إسماعيل خديوى مصر قد أمرنا بما هوأت :

نظراً للحالة الممجية السائدة بين القبائل القاطنة في حوض نهر النيل ونظراً لأن النواحي المذكورة ليس فيها حكومة ولا قوانين ولا أمن ، ولأن شرائع الإنسانية تفرض منع النخاسة والقضاء على القاطنين بها

ولأن تأسيس تجارة شرعية في التواحي المشار إليها يعتبر خطوة واسعة في نشر المدنية أمرنا بما هوأت :

تؤلف حملة (١) .

وطبعي أن غدر الملك عمر بإسماعيل بن محمد هلى كان عملاً مشيناً ، وكان مشيناً كذلك أن بعض من أمثهم الدفتردار وراح يطعن مؤمنيه من الخلف ويخون الأمان ، ولكن الانضمام لهذا الغدر الذى قام به محمد بك الدفتردار كان قاسياً فيما يبدو فأضعف الثقة بين الجانبين .

ومن ولاء محمد على على السودان عثمان بك ، واتسم الرجل بالكبر والظلم ، فأسهم في توسيع الشقة بين أبناء الشمال وأبناء الجنوب من ذلك العهد ٥

ولكن مع القسوة والظلم اللذين اتسم بهما حكم بعض الحكام نذكر أن من الإلتصاف أن نقرر أنه كان هناك مصريون يعنون مثالا في العنالة والزراعة والكفاءة ، ومن هؤلاء خورشيد باشا ، وأحمد باشا أبو وذان ٥ وقد اهتم محمد على بالسودان اهتماماً كبيراً ، حتى إنه سافر بنفسه ليتفقد الأحوال هناك ، وقام بعدة إصلاحات كانت بعيدة المدى في تحسين أحوال السودان والسودانيين (٢) ، كما زار سعيد باشا السودان ، وحدد الغرض من زيارته في أمر أصله إلى ناظر الجهادية جاء فيه : إن علم دخول بلاد السودان التي هي من أجزاء ممتلكاتنا تحت الإلتقان والانظام حتى الآن ، مع أن مقصدنا ومطلوبنا هو تقديمها وعمرانها ، لأمر مؤسف جداً ، والحق يقال ، وليس بقاؤها على ما هي عليه من الأمور التي يجوز

(١) عمر طرسون : تاريخ مديرية خط الاستواء ج ١ ص ١٣ .

(٢) انظر رحلة محمد على إلى السودان ١٨٢٨ / ١٠ / ١٥ - ١٨٢٩ / ٢ / ١٥

تأليف انجلو ساماركو ، ترجمة طه فوزى .

نعملها ، وبما أتى صممت العزيمة منذ مدة على أن أرى تلك البلاد ،
وأبين أحوالها وأوضاعها ، وأقف على ما يجري فيها لكي نضع لها
النظم التي تكفل عمرانها ، وتكون بها الرفاهية للرعابا والأحالي (١) ،
والمقارنة بين رسالة محمد علي التي أوردناها من قبل ، وبين اتجاهات سعيد
وإسماعيل التي أوضحناها الوثائق التي ذكرناها ، تؤكد لنا أن تحولاً مهما
حدث في علاقة مصر بالسودان ، وأن أهداف الترحف قد تغيرت تماماً ،
وسيزيد ذلك وضوحاً في عهد إسماعيل .

« وهكذا نجد محاسن ذات بال تتصل بفتح مصر للسودان ، ولعل في قمة
هذه المحاسن تكوين السودان الحالي الذي يشمل إدارفور ومنطقة بحر الغزال
ومنطقة خط الاستواء ، ولم يكن السودان قبل مصر يشمل هذه المناطق ،
ومن محاسن الفتح أنه أزال الفوارق التي كانت قائمة بين الممتلكات الصغيرة
في السودان وأوقف الغارات والحروب التي كانت سائدة بين كل قبيلة
وأخرى ، وأمن المواصلات بين أجزاء انقطر بأكملها وقد كانت مضطربة ،
ووحّد إدارة البلاد ففضى على الشحاجز والانفصالية التي كانت متحكمة في
عهود الفونج ، فأصبح أهل السودان يحسون بأنهم جميعاً أهل بلد واحد ،
ورعابا حكومة واحدة تهيمن على البلاد بأجمعها ، وليسوا يعيشون في ظل
ملك صغير أو شيخ قبيلة .

« وفتح السودان أتاح له الاتصال بالعالم الخارجي فأصبح يتأثر بالملنية
القائمة آنذاك ، وقد هرع السائحون له لمعرفة وتقصي أحواله ، وفوق
هذا اتبع محمد علي سياسة عمرانية رشيدة بالسودان ترمي إلى تحسين الزراعة
وطرق الري ، وزيادة الإنتاج الحيواني ، فتجلبب العمال المهرة وحفر
الترع والسواقي الجديدة وأدخل للبلاد السلالات الحيوانية الممتازة والأشجار
المثمرة وتقاوى المزروعات الجيدة .

(١) وثيقة رقم ٥٠ بتاريخ ١١ ربيع الأول سنة ١٢٧٣ (محفظه رقم : أوامر
لديوان الجهادية) . .

« ويمتاز عهد إسماعيل بإصلاحاته الإنسانية وفي قمتها العمل على إبطال الرق ، وإصلاحاته العمرانية كربط أجزاء السودان بشبكة من الأسلاك التلغرافية ، وكالبدء في مد خط السكة الحديدية السودانية ، وإصلاحاته الثقافية كإنشاء المدارس والمدنية والإتفاق على المساجد التي كانت تمثل دور العلم والقرآن ، وكرعاية الكتاتيب »

« ولكن لهذه المزايا مقابل من المساوئ ليست بالجديدة على أجزاء المملكة العثمانية ، ولكنها جديدة على السودان . فجشع الحكام والعمل لإثراء أنفسهم أشاع الرشوة والاختلاس وترك مثلاً سيئاً للسكان يقتدون به . والضرائب التي مهما خففت أعباؤها فهي ثقيلة على كاهل السوداني الذي لم يألف ما يماثلها من قبل ، وبخاصة سكان البادية الذين لا يقتنعون حتى الآن لماذا يدفعونها ، وكانت طريقة جبايتها بواسطة الجند تزيد في سيئاتها (١) » .

الثورة المهدية (*)

في القديم للحديث عن هذه الثورة ينبغي أن أوضح أن منهاجى فيها لن يكون على النهج الذى يتبعه أكثر المؤرخين ، وإنما سيكون دراسات فيها أقصى ما يمكن من العمق والبحث والتقصى ، لنعرف أغوارها وفلسفاتها حتى يتناسب ذلك مع ما لوادى النيل من حق علينا ، وذلك هو هدفى وبالله التوفيق لتحقيق هذا الهدف .

والثورة المهدية حدث يلابسه كثير من الغموض ، فعلى الرغم من كثرة الوثائق المتصلة به ، والتي توحى بأن مراجعه كثيرة ومتوافرة ، فإن هذه الوثائق لا تكشف تاريخ هذه الحقبة بدقة ، لأنه أريد بها فى كثير من الأحوال التويه والتضليل لا كشف الأستار وإيضاح المطلوب ، وطالما كتب الإنجليز شيئاً وأوعزوا بسواه ، وأعلنوا شيئاً وهم يحققون غيره ؟

ثم إن موقف الخديوى توفيق كان مضطرباً ، فهو رجل صغير يعيش فى حماية الإنجليز ، عدواً لشعبه فى مصر ، ومع هذا يتطلع لحكم السودان ، وهو رجل أصدر قراراً عقب الاحتلال البريطانى لمصر بحل الجيش المصرى لأنه الهيئة التى أعلنت عليه العداء والتي حاولت عزله ، ومع هذا فهو بعيد جمع أشتات هذا الجيش ليمد به سلطانه إلى الجنوب ، وهو رجل يبدى تمسكه بالسودان وحوله مُحامته يشيرون عليه بالتدخل عنه .

والمصريون ، هل عدُّوا الثورة للمهدية ضدّهم أو عدُّوها لهم ؟ ، لقد كانت تحارب أبناءهم وتحاصرهم وتحاول القضاء عليهم ، وكانت تعتق مذهب للمهدية وهو مذهب لم يكن العلماء والفقهاء يرتضونه أو يؤمنون به ،

ولكنها كانت عند الكثيرين مناط الأمل ضد المستعمر الذى كان يضرب
الحريات ويستعمر البلاد .

ولكن هل كان من الممكن لمثل هذه الثورة أن تقتصر على الإنجليز
وتحقق أحلام الطامعين في طرد الاستعمار من مصر ؟ وإذا كان الجيش
المصرى مع معداته الأفضل ، وتدريبه الأمثل ، قد هوى أمام التكتل
الأوربى فكيف كان بطمع أعداء الإنجليز في زحف المهديّة من الجنوب
لطرده الإنجليز من الشمال ، ومواجهة الأسطول الذى كان يمثل المارد في
مختلف البحار ؟

وهكذا نجد ألواناً من المفارقات حول هذه الثورة تجعل دراستها ليست
بالشيء اليسير .

والثورة المهديّة من ناحية أخرى حلقة مهمة من تاريخ وادينا ، ولهذا
ليس من الممكن أن نمر عليها سريعاً ، بل لابد أن نقف عندها ، وأن نحاول
أن نتعرف أغوارها وأياً ما كانت أهدافها ، فإن هذه الثورة وضعت
الأساس للفرقة بين شقي الوادى ، وإذا كانت مصر قد منحت السودان
التكتل والتجمع وضمت إليه ما لم يكن قط منه ، فإن هذه الثورة - أرادت
أو لم ترد - فرقت هذا التجمع ، وأحدثت الانقسام الذى نعمل على رتقه
وليتنا نستطيع .

أسباب الثورة المهديّة :

في تقديري أن هناك أسباباً حقيقية عميقة للثورة المهديّة ، كما أن هناك
أسباباً ظاهرية قليلة الغور ، ويقف في قمة الأسباب الحقيقية موقف أوربا
من الإمبراطورية المصريّة ، فإن ذلك الموقف هباً الفرصة لنمو حركة المهدي
حتى أصبحت ثورة ، ولولا التخطيط الاستعماري الأوربى لما وصلت حركة
المهدي إلى ثورة ، فانتصار ، فدولة ، وقد سبق أن أوضحنا أنه في عهد

إسماعيل كانت الإمبراطورية المصرية قد امتدت حدودها امتداداً طويلاً ، وسيطرت على منطقة واسعة بالبحر المتوسط ، وعلى البحر الأحمر كله ، وضربت في قلب إفريقيا حتى خط الاستواء ، وفي هذه الفترة كان الاستعمار الأوربي قد بدأ ينشط ويتطلع إلى إفريقيا لتكون مركزاً له ومطعماً لتحركاته ، ولكن الإمبراطورية المصرية كالت تمثل محجرة في طريق الاستعمار الأوربي لإفريقية ، ومن هنا اتجه الأوربيون لتصفية هذه الإمبراطورية حتى يخلو لهم الجو ، ولولم يفعلوا لكان من الممكن أن تقف الإمبراطورية المصرية حقة في طريق الاستعمار الأوربي لإفريقية ، لأن الإمبراطورية المصرية إفريقية الجنس والدم والفكر ، تنشر النظام والمذلية ، وتأخذ بقدر ما تعطى ، أو في الحق تعطى أكثر مما تأخذ .

ويرتبط بهذا أنه في النصف الأول من القرن التاسع عشر لم تكن أنظار أوروبا تنحصر لخطر الإمبراطورية المصرية على الاستعمار الإفريقي ، لأن أوروبا آنذاك لم تكن قد مدت أطباعها إلى حيث يمتد النفوذ المصري بإفريقية ، ولذلك نرى الدول الأوربية تختم سنة ١٨٤٠ على محمد علي أن يخلى السعودية وسوريا وكريت ، ولا تهتم بالسودان ، فلما تطلعت هذه الدول إلى إفريقية ، ووجدت الإمبراطورية المصرية تقف أمامها ، وقفت هذه الدول من مصر في الربع الأخير من هذا القرن بالنسبة لإفريقية ، نفس الموقف الذي وقفته منها بالنسبة لسوريا والسعودية وكريت في النصف الأول منه .

وكان الإسلام من أهم عوامل الربط بين شطرى الوادى ، ولكن استخدام مصر لموظفين من الأجانب وبخاصة جوردون الذى أصبح حاكماً عاماً للسودان أضعف هذه الصلة ، فلقد كان جوردون معروفاً بتمرده على كل القيم الإنسانية (١) ، وقد وضع جوردون الأساس للقضاء على العلاقات

بين الشمال والجنوب ، وعندما سقطت مصر تحت أقدام الاحتلال ، وأصبحت السلطة الفعلية فيها في أيدي الأجانب المسيحيين ، أتت السودان أن تلقى بنفسها تحت هذا النير وتخضع لسلطان الأجنبي دماً وديناً ، وهبت الثورة باسم الإسلام ضد أعداء الإسلام .

وكان من أهم أسباب ثورة عرابي على الخديوي التمييز في الترتيبات والمرتبات بالنسبة للضباط الأجانب ، حتى لو لم يكن الأجانب أعلى كفاءة من المصريين ، وهذا السبب نفسه أثار ثورة السودانيين على الخديوي ، فإن القيادات والسلطات العالية بالسودان وضعت في أيدي إنجليزية وأوربية ، ليست لما كفاءة المصريين والسودانيين ولا لإخلاصهم ، وحرّم هؤلاء من حقوقهم في بلادهم ، فثاروا على هذا الوضع .

وفي السودان الذي يمتد إلى خط الاستواء وبحر الغزال التفت الحضارة المصرية التي كانت قد وصلت إلى مدى رفيع من المدنية والتقدم ، بالحضارة السودانية التي كانت في بعض الأمكنة لا تزال تحبس ولم يستطع بعض السودانيين تقبّل الحضارة التي تنعم الضرائب ، وتطعم الرق ، وتلزم الخدمة في الجيش وبخاصة عندما تولى الأجانب بكثير من التعالي فرض هذه الحضارة بأسلوب نعنى بعيد كل البعد عن الأخلاق والمدنية مما خلق اضطراباً في النفوس ، وثورة بين السكان .

تلك فيما أرى هي الأسباب الحقيقية للثورة ، ولكن هناك أسباباً يبرزها بعض ممثلي الفكر السوداني وتلك الأسباب هي :

١ - الحكم المصري في السودان كان مبنياً على الاستغلال .

٢ - نظّر المصريون إلى الخدمة في السودان كعقوبة يوقعونها على الذين يراد إبعادهم .

٣ - اهتم الحكم المصري في السودان بالفتح والتوسع أكثر من اهتمامه بالتنظيم والإدارة (١).

ولكن إذا نظرنا للسبب الأول نجد الواقع لا يؤيده ، فصر أعطت السودان أكثر مما أخذت كما ذكرنا من قبل ، ويبدو أن جمع الضرائب فُهِم على أنه استغلال ، ولكن الضرائب تُجمَع من السودانيين لمصلحة السودانيين ، وربما أريد بالاستغلال الإشارة إلى من اغتنوا عن طريق الانحراف ، وقد وُجد هؤلاء كما يوجدون في كل زمان ومكان . ولكنهم بلا شك كانوا قلة .

وأما عن السبب الثاني فإن الواقع يثبت أن كثيرين من الموظفين كانوا ذوي كفاءة ممتازة ، وكان إرسالهم للثقة فيهم ،

ولا يصمد السبب الثالث أمام ما قدمته مصر للسودان من وسائل المدنية التي اقتبسناها آتفاً من مرجع سوداني كالأمين والبريد والبرق والمواصلات والتعليم ، على أن مصر نفسها أصابها الانتكاس في بعض عهود الحكام من أسرة محمد علي كعهد عباس مثلاً .

عوامل نجاح الثورة المهدية :

ذكرنا آتفاً الأسباب التي دفعت لقيام الثورة المهدية وقد كان من الممكن أن تقشل هذه الثورة عقب قيامها . فإنها عند مطلعها لم تكن ثورة عاتية ولا شديدة للبأس ، ولكنها أخذت قوتها من ظروف مواتية ، ولعل في قفة هذه الظروف الأسباب الأربعة الآتية : -

- (أ) موقف أوروبا من مصر والسودان ،
- (ب) موقف الأجانب الذين استخدمتهم مصر بالسودان .
- (ج) احتلال مصر .

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(د) عدم الثقة بين الخديوى والمصريين .

ومنشرح هذه الأسباب فيما يلى :

- موقف أوربا من مصر والمردانه :

أشرنا من قبل إلى أن الاستعمار الأوروبى الذى بدأ يمتد إلى إفريقيا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر وجد فى الإمبراطورية المصرية خطراً عليه ، فبدأ يصارع هذه الإمبراطورية ويعمل على تصفيتها وأطلق لانجلترا عنان القيام بهذا الدور ، ولهذا أعلنت بريطانيا من أول لحظة أن سياستها تقوم على ضرورة أن تسحب مصر كل جنودها من السودان وأعلنت أنها لا تحمل أية مسئولية لا تنمشى مع ذلك ، ولم تستجب انجلترا لارغبة الحاكم العام المصرى الذى طلب بعض الجند والمال للقضاء على هذه الثورة فى أولها ، ولكن الخديوى أخذ موقفاً لا ينمشى مع رغبة سادته ، واتجه شريف باشا رئيس الوزارة إلى التمسك بالسودان ، لأن ترك السودان والتراجع إلى حلقة سيقطع من مصر مناطق تعد جزءاً منها ، ويحرم مصر من حدود طبيعية ، ويلزمها أن تدافع عن نفسها عند الحدود الجديدة دفاعاً يحتاج إلى جيش كبير ونفقات باهظة ، ولذلك فإن الحكومة المصرية ترفض إخلاء الأراضى التى تعتبرها ضرورية جداً لأمنها ولوجود مصر نفسها (١) .

وقد جاء الرد البريطانى على هذا الاتجاه صريحاً وحاسماً يوضحه خطاب جرانفيل إلى يارنج فى ٤ يناير سنة ١٨٨٤ وفيه يقرر أنه يجب إفهام الوزراء المصريين وحكام الأقاليم بوضوح أن المسئولية الملقاة حالياً على كاهل انجلترا تضطر حكومة صاحبة الجلالة إلى الإصرار على تنفيذ السياسة التى أوصت بها وهى سياسة إخلاء السودان ، وأنه سيكون من اللازم أن يُوقف

(١) مذكرة شريف إلى يارنج فى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٨٣ .

الوزراء والحكام النى لا يتبعون هذا التوجيه عن القيام بأعمالهم (١) . وهكذا
أعلنت بريطانيا تمسكها بانسحاب مصر من السودان ، وحددت لمن يعارضها
طريقه وهو البعد عن كراسى الحكم .

ب - موقف الأجانب الذين استقروا منهم مصر بالسودان :

الأجانب الذين تولوا مناصبهم بالسودان تابعين لحكومة مصر لم يكونوا
مخلصين لهذه الحكومة ، وكانوا يمدعونها ويمكثون لرغبات إنجلترا بوجه
خاص ، والرغبات الأوربية على العموم ، ونقدم هنا قاموساً قصيراً بأشهر
هؤلاء ، وما قاموا به من ألوان الخداع والتضليل والخيانات : بيكر

بيكر : كان كشافاً ورحالة ، ولا تؤمله هذه الصفات للإدارة
والسياسة ، وقد أساء السيرة عندما استخدمته حكومة الخديوى في
السودان ، وقد اعترف بيكر أنه وهو موظف مصرى في عهد إسماعيل
كان يعمل على تقوية النفوذ البريطانى في المناطق التى عهدت إليه
مصر بإدارتها ، وكان فخوراً بأن يخلفه غوردون في هذا العمل ،
وكان يعمل جاهداً لينساب للنفوذ البريطانى في مصر ، ويتوغل فيها
وراءها (٢) .

مالكولم : كانت له السلطة على ممتلكات مصر بسواحل البحر الأحمر ،
وهناك عمل على بث النفوذ البريطانى في شرق إفريقيا .

ماكيلوب باشا : قائد في البحرية المصرية ، كان بعيداً كل البعد عن
الإخلاص لمن أولوه هذه الثقة .

(١) جرافيل إل باونج في ٤ يناير سنة ١٨٨٤ .

(٢) Middleton Dorothy : Baker of the Nile p 168

هكس : عين هكس على رأس حملة لمقاومة الثورة ويقول عنه أحد حمدي ياور الخديوى الذى أرسل للسودان للدراسة الحالة : إن هكس لم يكن مرغوباً فيه ، وقد قام بتصرفات ضد واجبه الوطنى ، وضد رغبات الحكومة المصرية ، وكان معه ثمانية من الضباط الإنجليز واثنتان من الخدم الأوربيين ، وقد أخذوا لأنفسهم كل الامتيازات . ولم تكن للرحلة بالنسبة لهم إلا أشبه برحلة صيد ونزهة على حساب الحكومة المصرية ، وأما الأعباء والأعمال فكانت متروكة على كاهل الضباط المصريين . للذين أحسوا بالحياة وسوء التصرف من القائد ومعاونيه ، وكان هكس يظهر علناً عدم احترامه لمصر وللمصريين ، ولكن أحد حمدي ياور الخديوى الذى أوفد للدراسة الحالة بالسودان عمل على تخفيف الحدة بين هكس وبين المصريين ، ولولا ذلك لثار المصريون ضد هكس وضد من أرسله قائداً عليهم .

وقد ذكر أحد حمدي (١) فى تقريره عن هكس أنه عندما عرف وهو فى الطريق إلى الخرطوم أن الحالة بالسودان آخذة فى التحسن ، ضاق وظهر عليه الغضب فلم يكن يريد هدوءاً ، وإنما يتبنى الثورات والقلق ، وتحدث أحد حمدي كذلك عن بلاغ أصدره هكس للسودانيين تحدث فيه عن العدالة التى عُرِفَتْ بها إنجلترا ، وأنه كواحد من أبناء إنجلترا ، يعلن أنه جاء إلى السودان لينشر العدالة والإتصاف بين الناس ، وهو بهذا يثير السودانيين على مصر ويقف ضد الدولة التى أرسلته .

غوردون : وإذا وصلنا إلى غوردون فلنأتنا نصل إلى الشخصية الغامضة التى لعبت أكبر أدوار الخيانة فى السودان ، وقد عين غوردون أول الأمر لتوسيع

(١) انظر التقرير فى المخطوطات التاريخية بمابدين : السودان ١ / ١ - ٧ .

السلطان للمصرى في منطقة خط الاستواء ، ووضع في هذه الأثناء الأساس لسوء العلاقة بين مصر والسودان بقسوته وسوء معاملته للسودانيين ، ثم عين بعد ذلك حاكماً على هذه المنطقة فحاكماً عاماً للسودان كله ، وهنا بلغ القمة في سوء المعاملة ، ومن أبرز ما ارتكبه من خيانات موقفه بالنسبة للمواطن المخلص الزبير باشا رحمت الذي قدّم كل جهده لخدمة الدولة والذي كان مثالا طيباً للجندى الممتاز ، ولكن غوردون كان يكره هذه الصفات فوشى بالزبير وبأسرته وابنه ، فاستبعد الزبير ونفى ، وقتل ابنه سليمان وصودرت أملاك أسرته ، وحكم عليهم بالتشريد وكانت هذه إساءة للشعب السودانى كله ، وفرض جوردون على الشعب السودانى الضرائب الباهظة واستعمل في جبايتها المصى والكراييج ، والسجون والتشريد .

وفي عهد غوردون أكثر هذا تعيين الأوربيين حكاماً لأقاليم السودان ، فأصبح شينترز الألماني حاكماً لخط الاستواء ، ورومولو الإيطالى حاكماً في بحر الغزال وچيجلر الألماني مفتشاً عاماً للتلغرافات بالخرطوم (وقد صار حاكماً عاماً بالنيابة بعد سفر محمد رموف الذى عين حاكماً عاماً بعد غوردون) ، وأصبح سلاطين النصارى حاكماً على دارفور ، وبرز كتابه « السيف والنار في السودان » ملئ الخيالة التى انغمس فيها (١) .

وعتما رأى جوردون تضارب المصالح المصرية والإنجليزية في إقليم مضبة البحيرات لم يتردد في أخذ جانب الإنجليز ، وأصدر إلى شينترز الألمان أمراً بإخلاء هذه المنطقة ، ففعل ، ولكن رموف باشا استطاع أن يُلغى هذا الأمر وأن يُعيد الحدود إلى ما كانت عليه عندما عين حاكماً عاماً للسودان بعد غوردون (٢) :

(١) انظر كتاب السيف والنار في كل صفحاته تقريباً .

(٢) الأمير عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية ج ٣ ص ٣٨٠-٣٨١

ومرحلة ثالثة من مراحل حياة غوردون بالسودان أنه ذهب لتنفيذ سياسة الإخلاء ، وهو في هذه المرحلة يُظهر اضطرابه ، فهو يدعى أنه جاء للإخلاء ، وإعادة سلطان الأسر السودانية إليها (١) ، ولكنه في الوقت نفسه يمنح الأمانى لمن يعمل على توطيد سلطانه بالسودان ، وهو يطلب إلحاح بأن يعاد الزبير للسودان ، ويرى فيه الأمل الوحيد للإنقاذ ، مع أن جراح الزبير وأسرته من غوردون لم تكن قد اندملت بعد (٢) ، وهو يعلن العودة لتجارة الرقيق ، وذلك بغضب مصر وإنجلترا ، والعالم المتحدين كله ، وهو يلتقى بشيوخ القبائل الموالية لمصر ويطلعها على قرار يحمله من الخديوى بإخلاء السودان ، فتحس هذه القبائل بضرورة الانضمام للمهديين فوراً حتى لا تفقد هؤلاء وأولئك ، وهو يفرج عن الذين سجنهم من قبل فيخرجون وكلهم ثورة عليه ، ويحرق علناً سجلات الضرائب ويحرق الكراييج التى كانت تستعمل في جمعها ، ولكن هذا يذكر الناس بمساوئه وأيامه السوداء .

بل وصل غوردون إلى أعظم حالات الخيانة عند ما كتب في نوبة من نوبات العصية التى كانت تعذره أنه سيكتب استقالته من خدمة الخديوى ، ويأخذ البواخر والمحازن إلى مديريات خط الاستواء وبحر الغزال ، ويعتبرها تابعة الملك الباجيك ، وأنه يمثلها فيها .

وموقف الاضطراب الذى وقفه جوردون في هذه الفترة يعبر عنه هو بنفسه أصدق تعبير حين يقول « لا يوجد في العالم رجل أكثر منى تغيراً » (٣) ويقول عنه نور تبروك « يا لشلوذ حوردون ، ويا لسرعة قلبه في ترواه » (٤) .

(١) لورد كرومر : بريطانيا في السودان ص ١٦١ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٥ و ١٠٦ و ١٠٩ و ١٢٥ .

(٣) لورد كرومر : بريطانيا في السودان . ص ١٦٩ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٤٥ .

وكان غوردون يعيش آخر أيامه في بؤس جله يكتب المهلى ويطلب
منه رعاية الأهالي ، ومع هذا فهو لا يقبل التسليم ويعرض جنوده الجائعين
الى حرب لا أمل فيها ، وقد دفع غوردون دمه ضحية مع الضحايا الذين
كتب عليهم الموت بسوء سياسته وحقه ٥

وقد ذكرنا آنفاً أن جيچر الألماني أصبح حاكماً عاماً بالنيابة بعد إقالة
رموف باشا ، وقد حلت بذلك الحياة عمل الأمانة والغدر مكان الثقة ، وكان
من أبرز خيانات جيچر أن أسرع حين ذاك بالإبراق الى مصر أن الحالة في
في السودان لا تستدعي إرسال إمدادات جديدة ، وصدقته القاهرة للأسف ،
فحقق ذلك ما أراده من تأجيل الاستعدادات حتى لا تصل في الوقت
المناسب :

وهناك شخصيات إنجليزية لم تكن تابعة للحكومة المصرية ، ولكن
انجلترا جندتها بمصر لصالحها ولرسم المخطط الذي تريده ، ومن أهم هؤلاء
الميجر هنر والكولونيل ستيوارت ، وكان الميجر هنر مساعد المقيم السياسي
البريطاني في عدن ، وقد ذكر في برقياته للقاهرة سنة ١٨٨٣ أن قبائل الجالا
تستعد للاستيلاء على هرر ، وأن قبائل الصومال أعلنت أنها ستخرج المصريين
من بربرة وزيلع ، بل راح يجمع التوقعات من الأهالي ضد مصر ، وأخذ
يرتب تصفية النفوذ المصري على ساحل البحر الأحمر .

أما الكولونيل ستيوارت فقد أرسلته بريطانيا لدراسة الحالة بالسودان
وتقديم تقرير ونصائح من موطن الأحداث ، ويمكن القول إن التقرير
والنصائح كان متفقاً عليها قبل سفر ستيوارت للسودان ، ولم تكن الرحلة
إلا مظهراً لصنيع هذه التصرفات بصيغة المنطق ، ولذلك جاء تقرير ستيوارت
منشئاً مع السياسة التي أعلنتها الحكومة البريطانية من أول يوم ، فقد ذكر
ستيوارت أن سبب الثورة هو التعصب الديني لدى القبائل ، وخذ الأهالي

على الموظفين المصريين لقسوتهم وعدم كفائتهم ، وإلغاء تجارة الرقيق التي كانت تدر ربحاً كبيراً على بعض أتباع المهدي ، وسحب بعض القوات المصرية بالسودان ، ولكنه لم ينس أن يذكر أن القوات المصرية الباقية بالسودان كفيلة بالسيطرة عليه لو وضعت تحت قيادة حازمة وهو في هذه الحملة يصطاد عصافيرين بحجر واحد كما يقولون ، فهو أولاً لا يطالب بمزيد من الجند لأن المزيد من الجند قد يحقق الاستقرار المصري بالسودان وهو ما لا يريده ، وهو ثانياً يوصي بوضع القوات الموجودة بالسودان تحت قيادة حازمة أى إنجليزية وبالتالي فإن هذه القيادة ستحقق أمل الإنجليز ، وأثنى متيوارت على السفاح سلاطين باشا ، والتشار المهلوى في مديرية دارفور التي يحكمها ، وذكر أن مصر لا تستطيع أن تمنح الرفاهية لهؤلاء السكان ، ولذلك ينبغي أن نعيد معظم هذه الأقاليم لمشايخ القبائل والزعماء المحليين قبل دارفور وكردفان ومديرتي خط الاستواء وبحر الغزال .

وقد كان هؤلاء الأجانب أهم صرخة دوت بها صوت المهدي ، فقد أعلن أن ما نزل بالسودان من مظالم ومصائب تقع تبعاته على عاتق الحكومة المصرية ، لأنها استخدمت الأجانب والدخلاء وولتهم أمور العباد (١) .

وبحس عمر طوسون بهذا الإحساس ، فهو إذ يثنى على الخديوى إسماعيل لأنه ضم منابع النيل إلى الإمبراطورية المصرية يعلن أن الخديوى لو عهد بهذا الفتح إلى قائد مصري لكان ذلك أسلم . . . (٢) .

ج - امتداد الوباء في مصر :

احتلال الإنجليز لمصر سهّل للثورة المهديّة طريقها ، ويبدو للدارس أنه

(١) الشيخ محمد القيان : السودان المصري الإنجليزي ص ١٧ .

(٢) تاريخ مديرية خط الاستواء : فاتحة الجزء الأول .

ما كان يمكن لهذه الثورة أن تنجح لو لم تسقط مصر تحت الاحتلال البريطاني ، ففي خلال الصراع بين عرابي والإنجليز اضطر عرابي أن يسحب بعض الفرق المصرية من السودان لمواجهة بهم الإنجليز ، وبهذا أضعف الحماية المصرية هناك ، وبعد الاحتلال كان رأى المصريين أنه ليس من المستحب ولا من المعقول أن تُقاوم ثورة المهدي ، لأن القضاء عليها معناه مدُّ سلطة الاحتلال إلى السودان ومد سلطة الخديوى الخائن إلى جنوب الوادى ، ولذلك نجد كثيراً من الجنود والضباط الذين جُمِعوا ليُسْعَثَ بهم إلى السودان يهربون من المعسكرات وتضطر القيادة إلى تقديم بالسلاسل حتى لا يهربوا .

وراح الإنجليز يبرون الإشاعات بأن أنصار المهدي انفضوا عنه ، وأن من بقى معه انتهات روحهم المعنوية ، وأن حركته على وشك الانتهاء ، وقد حصل هذا في نفس الوقت الذى كان المهدي يحقق فيه انتصاراً واسعاً في الأبيض ويستولى عليها ، وكان المقصود من هذه الإشاعات أن تجعل الحكومة المصرية متحائلة فلا ترسل قوات لمواجهة قوات المهدي (١) .

وقد أجمعت الأدلة على أن الزبير كان وسيلة مؤكدة لتأكيد سلطان مصر بالسودان ، ولكن الحكومة الإنجليزية اعترضت على تعيينه لسبب يدعو للسخرية هو اعتراض جمعية منع الرقيق في لندن عليه (٢) .

ووقف شريف موقفه الوطنى من السودان وقال قوله المشهورة « إذا تركنا السودان فإن السودان لا يتركنا » وبقه في ذلك رياض فخاف اللورد كرومر من نزعة إعراض المصريين عن تأليف الوزارة التى توافق على إخلاء السودان ، وقرر مواجهة ذلك بأن يشرف على إدارة الشئون الحكومية بنفسه ، أى أن يصبح هو الحكومة بأسرها ويتخذ ما يراه من قرارات ، وقد خاف

(١) دى شيبكة : السودان في قرن ص ٣٧٠ .

(٢) لورد كرومر : بريطانيا في السودان ص ١٠٥ .

الخدوي من ذلك واستدعى الخائن نوبار الأرمني الذي تبنى سياسة سادته الإنجليزي وقبل الوزارة على أساسها ، ووضعت إنجلترا برنامجاً لضيق الممتلكات المصرية على البحر الأحمر ، فطلبت من السلطان أن يوافق على منح ميناء مصوع لملك الحبشة ، واستولت هي على باقي الموالي .

وهكذا كان الاحتلال البريطاني لمصر أقوى الأسباب لنجاح الثورة المهدية بالسودان .

و — عدم التقنيين الخديوي والمصريين :

لم يكن بمصر إلا قلة قليلة تتعاون مع الخديوي عقب عودته إلى القاهرة على أسنة الحراب الإنجليزية ، وكان بعض الذين يتعاونون كشریف باشا يعملون على إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، حتى لا يبتلع النفوذ الإنجليزي كل شيء ، وكان عبد القادر حلمي القائد العام بالسودان عقب الاحتلال من الأشخاص الذين تعاونوا مع الخديوي عقب الاحتلال ، ولكن الخديوي لم يكن يثق فيه ولذلك استمع إلى وشايات ضده تصوره بأنه يريد الاستقلال بالسودان ولذلك أرسل برقية في يناير ١٨٨٣ يأمره فيها بوقف جميع العمليات الحربية .

ولقد أجاب عبد القادر بأنه لا يمكن تنفيذ هذا الأمر لأنه سيؤدي إلى انتشار الثورة . ويؤكد ضياع كردغان ودارفور ، ولقد حقق عبد القادر بعد ذلك انتصارات مهمة ، ولكن سرعان ما تلقى إقالته من مناصبه ، وتولى القواد الإنجليزي ما كان يقوم به من مهام ، وقد كانت الجفوة واضحة بين القواد الإنجليزي الذين يثق فيهم الخديوي وبين الجنود والضباط المصريين ، وما كان يمكن لقائد إنجليزي مثل هيكس أن ينجح في حملة لا يدين له رجالها بالولاء ، ومن أجل هذا أيدت حملة هيكس في أول لقاء ، وعقب إبادتها

هلت الصحافة المصرية الحرة لانتصارات المهدي وهلل الزعماء المصريون
للك ، بل فكر بعضهم في اللحاق بالسودان ليكونوا في ركب المهدي
وأيدين لثورة الجنوب التي تسعى لتخليص الشمال من الخديوى وسادته
الإنجليز .

وقد سبق أن ذكرنا أن بعض الضباط والجنود كانوا يساقون سوقا من
مصر للحرب بالسودان ، وكانوا يقيدون بالسلاسل حتى لا يهربون من
خدمة الخديوى ، وما كان يمكن لمثل هذا الجيش أن يحقق أى انتصار^(١) .

الثورة المهدية في سطور

إن الدراسة التحليلية التي قلدناها هي أهم ما يعيننا في دراسة التاريخ الإسلامي ، وهي الدراسة التي توضح لنا أخطاءنا ، وتعلمنا أن نتحاشى هذه الأخطاء في حياتنا ، بقي بعد ذلك أن نورد الأحداث التاريخية للثورة المهدية بإيجاز :

— ترتبط هذه الثورة بالإمام محمد أحمد ، وقد ولد سنة ١٢٥٠هـ (١٨٤٤م) بجزيرة لبيب التي تبعد نحو ١٥ كم جنوب دنقلة^(١) ، وتعلم العلوم الدينية في بربر والخرطوم واشتهر بالورع والزهد ، ثم تصدى للتدريس فالتف حوله التلاميذ فأنشأ مدرسة بالخرطوم سنة ١٨٦٣ ، ثم انتقل إلى جزيرة أبا على بعد ٢٥٠ ميلاً جنوب الخرطوم ، وعكف على العبادة والتأمل ، ودرس الطرق الصوفية فانصل بالشيخ محمد شريف ثم بالشيخ القرشي^(٢) وحلت الأنباء عنه فيضاً من الكرامات ، وقد هباً هذا لخروجه وإعلانه أنه المهدي الذي أختارته العناية الإلهية لإنقاذ العالم الإسلامي كله مما لحق به من ضعف وانهار^(٣) .

وكان الاستعمار بدأ ينشب مخالبه في إفريقيا ، ويتجه بصره نحو مصر وامتداداتها بالجنوب ، وقد انتهز محمد أحمد هذه الظروف فدرس مشكلات بلاده وأعلن خروجه لإصلاح الأحوال متخذاً العامل الديني ومصلحة في ثورته ، وكان عبد الله التعايشي أول الذين صدقوه وآمنوا بمهديته ونصروه ، ويقال إن التعايشي عندما رأى المهدي لأول مرة انكب على

(١) إبراهيم فوزي : السودان بين يدي غوردن وكنتشر ج ١ ص ٧٠ .

(٢) نديم شقير : تاريخ السودان ج ٢ ص ١١٥ وما بعدها .

(٣) Darmesteter James : Mahdi past and present pp. 7—15 abridged (٢)

وجهه كأنه مغشى عليه ، فلما أفاق مثل عن سبب إغمائه ، فقال :
نظرت أنوار المهدي على وجهه فصعقت : : (١) وأصبح التعايشى بنظك
الصديق والخليفة الأول للإمام.

وقد بدأ الإمام المهدي دعوته العلنية ببيان شامل تحدث فيه عن نسبة
وأنه من ذرية رسول الله ، كما تحدث عن دعوته وأنها تكليف من الله ،
وأن الرسول أخبره أنه المهدي المنتظر ، وأنه أمره بالهجرة إلى جبل قدير ،
ولن من شك في مهديته كفر (٢) .

- حاول محمد رفوف حاكم السودان أن يستدعى المهدي للخرطوم
فرفض ، فأرسل إليه قوة صغيرة اعتقاداً منه أنه لن تحدث مقاومه ، ولكن
المريدين وصلوا لها وهزموها .

وتوقع المهدي صداماً بالحكومة على نطاق واسع في جزيرة أبا فقرر
الهجرة إلى مكان أحصن ، فاختار جبل قدير غرب النيل في كردفان ،
وهاجر إليه مع أهله وأصحابه ، وأصبح هذا المكان مركزاً هاماً لدعوة المهدي ،
ثم أخذ المهدي يرسل لزعماء القبائل يطلب منهم الانضمام إليه والجهاد معه
في سبيل الله وكان هذا مطلع الانجاء الثوري للمهدية .

- وكان سحب قطع كبيرة من الجيش المصري بالسودان وانشغال القاهرة
بمشكلات الدفاع من أهم العوامل التي ساعدت على نمو قوة المهدي ،
وبخاصة أن حاكم السودان لم يكن يستطيع التصرف بوضوح مع
اضطراب الأحوال في مصر .

(١) إبراهيم فوزي : السودان بين يدي جوردون وكنتشر ج ١ ص ٧٥ ونوم شقير

ج ٣ ص ١٢٠ .

(٢) اقرأ هذا البيان في تاريخ السودان القديم والحديث لنوم شقير ج ٢

ص ١٢٢ - ١٢٤ .

— جرت بعض المعارك الحربية ، ولكن كثيرين من الجنود كانوا يفرون من الخيمة للانضمام للمهدى ضد الإنجليز وأتباعهم (١) .

— استطاع الثوار محاصرة الأبيض وبارة في أغسطس سنة ١٨٨٢ ، وجرت معارك خسروا فيها كثيراً ، ولكن الحصار استمر ، وكان نزول الجنود البريطانيين بالإسكندرية قد تم في ١٣ يوليو وتلا ذلك الاحتلال البريطاني لمصر عن طريق قناة السويس ، ووصلت أنباء هذا الاحتلال للسودان والثوار يحاصرون عاصمة كردفان فهباً ذلك طريق النصر للثوار ، فسقطت الأبيض في مطلع عام ١٨٨٣ ويسقوطها أصبحت كردفان تابعة للثورة ، وهى أغنى مديريات السودان ، ويسقوطها قطع الطريق بين الخرطوم ودارفور التى كانت تحت قيادة سلاطين باشا ، وقطع الطريق كذلك بين الخرطوم وحامية بحر الغزال التى كان يقودها لبتون بك (٢) .

٥ — وانضم السودان الشرق إلى المهدى عقب سقوط الأبيض ، وعين المهدى عثمان دقنة حاكماً عاماً على جميع بلاد البجة التى بين الأتربة والبحر الأحمر ، أى بلاد سواكن وطوكر وكسلا ، وسلمه كلاً إلى مشايخ تلك البلاد يدعوهم بها لنصرة الدين ، والقيام مع عامله (عثمان دقنة) لمحاربة الترك والجهاد فى سبيل الله ، وتم النصر لعثمان دقنة فى هذه المناطق وكانت كثيرة الوفاء للمهدى ولتعاليمه وسياسته .

وكان عثمان دقنة من أهم من قاوم حركة استعادة السودان ، وله وقائع شهيرة ضد جيش الاستعادة ، ولم تستطع هذه الجيوش أن تقضى عليه إلا سنة ١٩٠٠ حين وقع فى قبضتها ، ويتحدث عنه نعوم شقير حديث

(١) سلاطين باشا : السيف والنار فى السودان ص ٥٦ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص ٦٥ .

عارف به رآه وحادثه ، فهو يقول عنه : رأيت في محطة مصر ثم في سين
 وشيد ، ثم في سين حياط حيث هو الآن ، فإذا هو رجل أسمر اللون براق
 العين معتدل الأنف ، تدل ملامحه على الدماء وصدق العزيمة ، سريج
 الحركة قليل الكلام ، له صبر غريب على المشى والجوع ، وهو ينتمى إلى
 أكراد ديار بكر ، جاء أجداده إلى سواكن مع السلطان سليم الفاتح
 فاستوطنوها واختلطوا بالحدنلوة بالزواج (١) .

— أرسلت القاهرة مكس ومعاونيه في ٤ نوفمبر سنة ١٨٨٣ ، ومرعان
 ما اتهار هذا الجيش وستط قائده وأسباب هزيمة مكس بصورها الدكتور
 مكى شيكة (٢) بقوله : جيش يكون من ثلوث جنود وُصِموا بالثورة على
 الحكم الشرعى ، زعمائهم في سين القاهرة رهن المحاكمة ، وهؤلاء الجنود
 ينتقلون بحالة سينة إلى السويس ثم يُلقَوْنَ في البواخر وبعضهم مقيدة
 أرجلهم ، وعلى رأسهم قائدهم (مكس) رجل غريب عنهم ، يجهل طباعهم
 وأخلاقهم ، ويخالفهم في الدين والعقيدة ، ومهمته القضاء على ثورة دينية
 تعتق نفس الدين الذى يعتقه الجند ولا يدين به القائد هذا
 الجيش بهذه الروح المعنوية ، يتوغل في أرض السودان فيلقى المصير الذى
 لا بد منه . ويكسب المهلى ثروة هائلة من الأسلحة والأموال بالإضافة إلى
 القوة المعنوية التى وصلت قتها لدى المهلى ولدى أتباعه (٣) .

— وبالقضاء على مكس وحلته أعلنت إنجلترا أنها تصر على ضرورة
 انسحاب القوات المصرية من السودان ، وضغطت على الخديوى فأصبح
 يرى بعينها ، واتجهت الأنظار البريطانية إلى رجل ينفذ سياسة الإخلاء

(١) نكوم شقير : تاريخ السودان ج ٣ ص ٢٠٠ .

(٢) السودان في قرن ص ١٧٣ .

(٣) انظر كذلك { السيد والتار في السودان للسلاطين باشا السناسوى ص ٧ ومن ٩٥
 Colbourn J.: With Hicks Pasha in the Sudan, Passim }

البريطانية ، فوقعت العين على جوردون وهو شخص كرهه للسودانيين ترك هناك أسوأ الذكريات ، ومع هذا فقد كان يرى أن الثورة المهدية كانت ضد الذين خلفوه من الشراكسة في حكم السودان ، وكانت بمثابة نداء بعودته لهذا القطر الذى حكمه ثلاث سنوات ونشر به لواء الحرية كما يدعى !!!

وتحت ضغط من بريطانيا اختبر جوردون لهذا الغرض ، فبدأ رحلته للسودان ، وما إن وصل حتى كانت هزيمة أخرى قد وقعت للقوات المصرية التى كان يقودها بريطاني آخر هو فلتين بيكر وكانت هذه المرة فى الميدان الشرقى ، وهذه الحملة كانت فى تكوينها وعبئها كتلك التى قادها هكس ولاقت الهزيمة فى الميدان الغربى ، وقد ضعفت هذه الهزيمة من نفس جوردون وهو يخطو خطواته الأولى بربروع السودان ، ولكنه ظل فى سيرة حتى وصل الخرطوم وهناك أراد أن يلعب على جبل السياسة فساوم المهدي ليصبح ملكاً على كردفان ظاناً بذلك أنه يرضى طموح الرجل ، وهو فيكر خاطئ ، فلقد كان المهدي ينعم بسلطان واسع حصل عليه بسيفه ، فأجدره أن يرفض هذا العرض الضئيل ، وهكذا فعل المهدي ، بل راح يطلب من جوردون أن يعتنق الإسلام ويلبس جبة الأنصار .

واتجه جوردون إلى التفكير فى إعادته الاستقلال لأحفاد السلاطين والروساء السابقين ، ولكنه رأى أن ذلك سيعيد القوضى الكاملة للسودان ، فاتجه إلى إخضاع السودان لسيادة إنجلترا . ونسى جوردون أن الثورة المهدية كانت تهدر ولا تنتظر قراره .

وفكر جوردون فى الانتفاع بالزبير ، وفكر أنه الوحيد الذى يمكن أن يلتف السودانيون حوله فى مواجهة المهدي ، وأغلق صفات المدح للزبير

وقتل بنفس الإسراف الذى استعمله عندما أغلق عليه صفات النجم من قبل^(١) .

وقد استطاعت قوى الثورة أن تحاصر الخرطوم ، وأن تقطع الصلة بين مصر والخرطوم بواسطة الشيخ محمد الخير الذى كان أستاذاً للمهدى لإبان صباه واللى له نفوذ كبير فى بربر ، وسقطت بربر فى أيدي المهديّة ، وقطعت الصلة كذلك بين الخرطوم وسواكن بفضل عثمان دقنة قائد الجبهة الشرقية ، وحلّت قوات جوردون رفع الحصار عن الخرطوم وعاشت فترة بين النجاح والفشل وانتهى الأمر بفشلها التام فى هذا المضمار ، وفى خلال فترة الحصار حققت المهديّة ألواناً من الانتصارات هنا وهناك .

— وأدركت إنجلترا أن جوردون فى خطر فأعدّت لإتقاذه حملة ضخمة بقيادة اللورد ولسلى ، واتخذت هذه الحملة طريق النيل للإنتقاذ ، وبلغت لتجارب هذه الحملة للمهدى ، فحدث سباق تجاه الخرطوم بين قوات المهدي من جانب وقوات ولسلى من جانب آخر ، وكتب عبد الرحمن النجوى قائد جيوش المهدي لجوردون يطلب منه التسليم ليأمن على نفسه وعلى من معه ، وكتب له بذلك للمهدى الذى حضر آنذاك لأم درمان ، ولكن جوردون ردّ ردّاً فيه كل التحلى والوعيد ، ناسياً أن الروح المعنوية لرجالها كانت ضعيفة ، وأن كثيرين منهم كانوا على صلة بالمهدى ، ويؤيدون دعوته ، وتوالت كتب المهدي لجوردون وتوالت منشوراته لأهل الخرطوم^(٢) ، وكل هذا مهد الطريق للنصر .

— وزحف جيش المهديّة فجر ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ فاقبض الخرطوم

(١) اقرأ رسائل جوردون من الزبير فى « بريطانيا فى السودان » لآررد كرومر

ص ٨٥ و ١٠٦ و ١٠٩ .

(٢) نعم شقير : تاريخ السودان ج ٢ ص ٢١٨ - ٢١٩ .

جوردون وأصبحت العاصمة السودانية تحت سلطات المهدي^(١) ، وقد عانت الخرطوم ساعات رهبة للغاية أن صحت رواية سلاطين باشا^(٢) أما عن موت جوردون فلعل كرومر^(٣) أصدق من عبر عنها بقوله « أن غوردون كان أكثر الناس ابتهاجاً بفرصة الموت » وهذا القول المجمل صلت له لإيضاحات حاسمة من بعض المفكرين الإنجليز أبانوا فيها عن شنوذ الرجل وإجسامه بأن الموت وحده هو الذى يمكن أن ينقذه من هذا الشنوذ ، وقد اقتبسنا هذا الرأى فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة^(٤) .

— وربما خطر ببال للبعض أن الحكومة الإنجليزية أرادت أن تجعل من حملة ولسلى حملة قضاء على المهديّة بعد أن فشلت فى إنقاذ جوردون ، ولكن ذلك غير صحيح ، لأن الفكر الإنجليزى كان يتجه لفصل السودان عن مصر ، وفصل عملية استعادة السودان فيما بعد عن عملية استبقاء السودان ، فعملية استعادة السودان فيما بعد ستجعل للإنجليز الحق للواسع فيه أو ستجعل لهم كل الحق فيه ، وعلى هذا صدرت الأوامر فى إبريل سنة ١٨٨٥ لولسلى بالانسحاب والإخلاء ، فأخذ يخلى المناطق التى كان يحتلها وسارع جنود المهديّ باحتلال هذه المناطق ، كما أسرعوا فى القضاء على « الجيوب » الباقية التى كانت لم تعلن الولاء للمهديّ بعد ، ودان السودان كله للإمام المهديّ . فأخذ ينظم شئون دولته على غرار التذكير الإسلامى الأول ، فكون مجلساً من الأئمة برياسة الخليفة عبد الله ، وعن لكل إقليم أميراً لا يرجع للسلطة المركزية إلا عند الضرورة ويتبع فى أسلوب حكمه بإقليمه الشريعة الإسلامية ، وضرب النقود ، وأخذ

(١) سلاطين باشا : المرجع السابق ص ١١٩ . (٢) المرجع السابق ص ١٦١ .

(٣) بريطانيا فى السودان ص ٢٠١ .

(٤) كتاب « شهيد فى غير محله » لأنثونى ناتنج وانظر الجزء الخامس من هذه

الموسوعة ص ٣٢٠ من الطبعة الثانية .

يرسل الكتب والدعاة لمختلف البلاد الإسلامية ، وأمر بجمع الزكاة وتوريدها
لبيت المال الذي كان يتولى توزيعها حسب التفكير الإسلامى ، ووضع نظاماً
للتنام وتوزيعها (١) .

- ولم تطل حياة المهدي بعد ما أحرزه من نصر ، فسرهان ما حل
شهر رمضان ، وتفرغ المهدي للعبادة والمناجاة ، وفى اليوم التاسع منه
(٢٢ يونيو سنة ١٨٨٥) أسلم روحه لخالقها .

- ويتحدث النقاد عن تعاليم المهدي وكيف اختلفت عن الدعوة الوهابية
فالوهابية أسسها رجل علم ودين ، واعتقها أمير حمل راية جهادها ،
وقدر لابن عبد الوهاب أن يتوالى على مذهبه من يتوفرون على شرحه
وتفسيره ، وتأليف الكتب عنه ، وهو ما لم يتيسر للمهدي (٢) ، وقد اتجه
المهدي إلى أن تعدد المناهج وأكادس الكتب التى تشرحها هو أساس
الضرر الذى لحق بالفكر الإسلامى لأنه حجب نور الحق وباعد بين
المسلم وبين مصدرى الضياء وهما القرآن والسنة ، ولهذا أحرق الكتب
إلا الأصول منها كالقرآن والصحيحين وإحياء علوم الدين للغزال وغيرها
مما سماها لأنصاره ، كما اتجه المهدي إلى تعليم شعب السودان أن يعود
للدين ويخضع لأوامره ونواهيه بحيث يمارس الناس تعليماته ، ويصبح المسلم
مسلماً حقيقة قولاً وفعلًا .

والتقى المهدي الطرق الصوفية باعتبار المهدية بجزراً زائراً شمل كل هذه
القروء فليس للطرق الصوفية حياة مستقلة مع المهدية .

ومن الإصلاحات الاجتماعية التى أحياها المهدي تيسير الزواج بتخفيف

(١) نوم شقير : تاريخ السودان ج ٢ ص ٣٥٥ - ٣٥٧ مع تقديم وتغيير .

(٢) مكى شيكة : السودان فى قرن ص ٢٣٥ .

المهور وبساطة والولائم ، وإبطال بدعة البكاء والنواح على الميت ومحاربة
السحر وأعمال الشعوذة ، وإبطال الرتب ولباس الجبة المرقعة للجميع ،
وتحريم السجائر والتدخين على العموم (١) .

• • •

وبعد ، لقد كان الإمام المهدي بطلا عربياً مسلماً ، وكان صراعه
موجهاً ضد أعداء العرب وأعداء الإسلام ، وقد أعطى المهدي أكثر جدّاً
مما زال في حياته ، ولو كان حول المهدي نخبة من المفكرين المسلمين لكان
عمله أدعى للنجاح ، وعلى العموم فإن جهده يجعله يستحق بعد أن أوى
إلى ربه أن تستزل عليه الرحمات ، وتدعوه بأصدق الدعوات .

المهدي وعراقي :

هناك سؤال يثور دائماً عن العلاقة بين عراقي والمهدي ، وهل كان
هناك اتفاق نظري بين الاثنين أو أن المهدي كان ثائراً على مصر بما في
ذلك عراقي ؟

يتجه الرأي الذي نراه سديداً إلى أن ثورة المهدي كانت ضد الأتراك
و ضد التدخل الأجنبي في مصر والسودان ، والدارس لخطابات المهدي
ومنشوراته يراه يهاجم الأتراك ويتعاطف مع الشعب المصري ، كما يراه
يهدد الخديوى الذي كان بعيداً عن الشعب ، وهناك حقيقة واضحة هي أن
عراقي وهو وزير الجهادية في مصر رفض أن يرسل جيشاً إلى السودان عند
بدء حركة المهدي لمقاومة هذه الحركة ، وليس بعيداً إذا علّنا لذلك
بأنه لا يريد صداماً مع المهدي لأن هدف الاثنين كان واحداً ، وإن كان

(١) نعم شقير : تاريخ السودان ج ٢ ص ٣٦٤ - ٣٦٦ وتاريخ مصر الحديث

لمرجى زيدان ج ٢ ص ٢٨٥ - ٢٨٧ .

بعض المفكرين يرى أن عرابي أراد أن يستقي الجيش معه في صراعه ضد
الخليوي وضد الإنجليز^(١) .

ويورد الدكتور جلال يحيى أفكاراً تعزز اتجاهنا في أنه كان هناك على
الأكل تعاطف بين الثائرين ، يقول :

— والحقيقة أن العامل الديني قد لعب دوراً خطيراً في كل من الثورتين^(٢) .

— كان العرابيون يفكرون في التحالف مع المهدي الذي كان يعمل في
ذلك الوقت على إثارة أهالي دارفور وكردفان^(٣) .

— وكانت سياسة عرابي تسعى إلى إقامة جبهة موحدة ضد التدخل العسكري
البريطاني في مصر ، ذلك التدخل الذي لم يرحب به أحد سوى الأسرة
الخليوية التي رأت فيه الوسيلة الوحيدة للمحافظة على كياناتها^(٤) .

— أعلن بعض عناصر المهديين تأييدهم لعرابي مثل عثمان دقنة الذي كان
يمهد بشدة على الإدارة التركية والإنجليزية ، فلما فشلت ثورة عرابي
انضم عثمان للمهدي لعله يحقق تحت رايته ما عجز عن تحقيقه تحت
راية عرابي^(٥) .

— ويذكر Crewe أن عرابي لم يُخَفِّ وهو في منفاه تأييده وميله
للمهدي ، وأعلن أنه كان ينوي تعيينه حاكماً عاماً على السودان^(٦) .

(١) دكتور مكي شيكدة : السودان في قرن من ١٦٣ .

(٢) الثورة المهديّة وأصول السياسة البريطانية في السودان من ٢٨ .

(٣) نقلا من Bievs Achelle : Français et Anglais en Egypt p. 247 .

(٤) دكتور يحيى جلال : المرجع السابق من ٣٩ .

(٥) انظر كذلك Jackson, H: O, Osman. Dava p. 23 .

(٦) The Marquess of Lord Rosebery Vol I p. 191 .

المهدية بعد المهدي

بدأت المهديّة في ١٢ أغسطس سنة ١٨٨١ وانتهت في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٩ وهي فترة قصيرة ، أدار الثورة فيها قائدان ، أولهما الإمام المهدي صاحب الدعوة ، ورافع لوائها ، ومحقق انتصاراتها ، وقد ذكرنا من قبل أنه فارق الحياة في يونيو سنة ١٨٨٥ بعد أن حقق بعض أهدافه وقبل أن يحنى ثمار انتصاراته ، وقد كان موته المفاجئ غير المتوقع ضربة شديدة للمهدية ، ففتر الحماس الديني إلى حد كبير ، لأن الادعاءات المهديّة لم تتحقق في حياة المهدي كما وعد بذلك ، فلا هو فتح مصر ، ولا فتح مكة ، ثم لأنه ترك جيوشاً جائرة أصبحت عبئاً على النظام ومصدر شغب في السودان ، كما ترك صراعاً عنيفاً في قمة عنقه^(١) .

أما القائد الثاني أو خليفة الإمام فهو الخليفة عبد الله بن السيد محمد من قبيلة التعايشة ، وقد ظل يقود الدعوة حتى سقط في الميدان في نوفمبر سنة ١٨٩٩ كما سبق .

وإذا كان الإمام المهدي قد بذل الجهد خلال سني حكمه للاستقلال بالسيان وتنظيم الدعوة ، فإن الخليفة عبد الله بلى أكثر جهده في الصراع الداخلي ، بينه ومعه أهل الغرب من جانب ، وبين الأشراف أهل الإمام المهدي ومعهم أهل النيل من جانب آخر ، وقد طال هذا الخلاف وامتد حتى هز السلولة ، وعندما انتصر الخليفة نوعاً ما تطلع إلى أهداف عريضة ينوء بها وضعه ، فقد أرسل للنشورات والكتب ينشر ويهدد ، وشمل ذلك أهل مصر ، والحدوبى ، والملكة فيكتوريا ، والسلاطان عبد الحميد ، وغيرهم . فكان

(١) دكتور محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٣٧٢

اعتقد أن المنشورات والكتب تجلب النصر فاعتمد عليها ، ولكنها لم تجلب له إلا النهاية الأليمة ، ولتعد لما أوجزنا بشيء من التخصيل .

كان المهدي روح الهدية وعقلها المتكرر ، ولكن حركتها وقيادتها الصلبة كانت متروكة للخليفة عبد الله التعايشي ، فلقد كان لهذا قدرات إخبارية ومواهب عسكرية جعلت الإمام يَكِلُ له شئون العمل ، وقد ساعد على ذلك أن الإمام المهدي لم يُعَرَف عنه إثارة للنوى قرباه ، بل إنه كان يرمي للسبق في اعتناق المهديّة والإخلاص لها صلةً تفوق كل نسب ، وقد كان عبد الله التعايشي أسبق الناس إليه وأول من صدق دعوته ، حتى قبل أن يعلنها المهدي ، ومن هنا عينه المهدي خليفته الأول ، وعيّن على وَدِّ حلو خليفة ثانياً وظل المكان الثالث شاغراً للسوسى ، واحتل محمد شريف أحد أقارب المهدي المكان الرابع (١) ، وقد بدأ النزاع يدب في حياة الإمام بين الخليفة عبد الله وبين محمد شريف ، ولكن الإمام أيد الخليفة عبد الله ضد بنى قومه (٢) .

ويذكر نعوم شقير أن المهدي وقف بالمسجد في آخر جمعة أداها بعد الصلاة فقال : أيها الناس ، إني ملئت من النصيح والمذاكرة لأقاربي الأشراف الذين تمادوا في الطيش وظنوا أن المهديّة لهم وحدهم ، ثم نفّض قومه وصاح : أنا برئ من كل من طغى منهم (٣) .

وبعد وفاة المهدي بدأت الأمور تزداد سوءاً ، فقد تجمع أهل الغرب

(١) مكى شيكة : السودان في قرن ص ٢٤٤ .

(٢) انظر رسالة المهدي الذي أشاد فيها بمكان الخليفة في : السودان بين يدي غوردون

وكشفر ص ١٦٩ - ١٧١ .

وانظر كذلك نعوم شقير : تاريخ السودان ج ٣ ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٣) تاريخ السودان ج ٣ ص ٣٥٤ .

حول الخليفة ، وتجمع أهل النيل حول أهل المهدي ، وعندما تفرغ الخليفة عبد الله للدعوة ترك القيادة والإدارة لأخيه يسقوب ، ومن هنا تركزت السلطات في يد أهل الغرب ، وحرص هؤلاء على أمنهم فاستدعوا قبائل البقارة بفروعها (تعايشة ورزيقات ومسيريہ) إلى الزواج لأم درمان ليعيشوا بها ، فأصبح العدوان يعيشان وجهاً لوجه .

وزادت الأمور حدة ، ووصل التوتر غايته ، حتى وصلت الحالة إلى حمل السلاح بين أتباع المهدي من هنا ومن هناك ، وانتهى الأمر بإعدام بعض الثائرين ضد الخليفة وسجن محمد شريف ، ولم يطلق من السجن إلا عند هجوم الجيش المصرى على السودان .

هذا جانب من الاضطراب الذى حدث بالسودان عقب وفاة المهدي ، وهناك جانب آخر يعد صدمة نفسه لأتباع المهدي ، لأن الإمام كان قد وعدمه بأنواع من الفتوح والانتصارات ، ولكن موته السريع وما أعقبه من خلافات قضى على هذا الأمل ، وترتب على ذلك أن الجيوش الجارة وأكثرها من الأعراب والبدو التي كانت تكسب ثرواتها عن طريق الجهاد اتجهت لكسب قوتها عن طريق الغصب والعدوان . ثم إن الهجرات سببت زحاما في مكان وفراغا في مكان آخر تبعه بوار الأرض وضياح الماشية ، وكل هذا أثر على كيان الدولة الاجتماعى وعلى ميزانها الاقتصادى ، هذا بالإضافة إلى جموع الثائرين والساخطين .

ولذكر نعوم شقير أن من سياسة الخليفة الداخلية محاولة جعل السلطة وراثية ، والإيقاع بكل من وفرت نعمته خوف أن يتقلب عليه ولا يركن من أهر أصداقته (١) .

وانجى الخليفة عبد الله في سياسته الخارجية اتجاهاً قصد به شغل الناس

عمّا هم فيه من عوز واضطراب ، فراح يوزع إنذاراته هنا وهناك ، ويهدد الملوك والسلاطين إن لم يخضعوا له ، بل راح الخليفة ينفذ ما توعد به فأمر عبد الرحمن النجوى بالزحف على مصر (١) ، ولم تكن حال جيش النجوى تسمح بذلك ولكنه أطاع الأمر وبدأ يتحرك في مايو سنة ١٨٨٩ ووصلت عمليات الإنجليز بالاستعداد للمقاومة ، وكان جرانفيل سرداراً للجيش المصرى ، فأعد عدة واسعة وخطط تخطيطاً دقيقاً للقاء ، وعندما أيقن ضعف النجوى وجيشه كتب له جرانفيل يطلب منه التسليم انقاء الموت والأمر ، ولكن النجوى رفض وأثر الاستشهاد ، وفي موقعة توشكى في أغسطس سنة ١٨٨٩ تمّ القضاء على هذا الجيش الهزيل ، وكان ذلك بدء نهاية للمهدية .

استعادة السودان :

في العقد الأخير من القرن التاسع عشر كانت الأمور قد تغيرت تماماً في مصر والسودان ، ففي مصر تكون الجيش الجديد الذى تمّ إعداده عقب حل جيش عرابي ، وانتظمت الميزانية ، كما تطلع الإنجليز إلى احتلال السودان باسم مصر ليكون احتلال السودان حلقة من حلقات تغلقهم الاستعماري في إفريقيا ، وكان السلاح والتدريب والتخطيط في مصر في درجة عالية ، أما السودان فكان على العكس من ذلك ؛ اضطراب سياسى ، وانهيار اقتصادى ، وفوضى اجتماعية ، وعلى هذا لم يكن من الممكن أن تقف قوة جيوش الخليفة أمام الزحف الهادر من الشمال .

ومما ساعد على التعجيل بالزحف انحسار الجيوش الإيطالية أمام الأجاش سنة ١٨٩٦ فطلب الطليان مساعدة الإنجليز بالزحف على السودان حتى

(١) كان المهدي قد كتب خطابين طويلين أحدهما للخديوى توفيق يهدده ويترحمه إن خالفه ، والثاني للشعب المصرى يدعو له لنصرته . اقرأهما في نوم شتير ج ٣ ص ٢٤٧ - ٢٥١ فكانت تحركات الخليفة استمراراً لموقف المهدي .

لا ينضم السودان للأجاش في محاولة لتجميع الإفريقيين ضد الغزو الأوربي ،
وقد استجابت بريطانيا لذلك وبدأ العمل لهذا الزحف الكبير بقيادة كتشير
النلى أصبح سردار الجيش المصرى عقب اعتزال جرانفيل سنة ١٨٩٢ ،
وكان شهر مارس سنة ١٨٩٦ هو نقطة البدء في هذا الزحف ، وأهم معارك
استعادة السودان هي (١) :

موقعة فرقة :

كانت معركة فرقة أولى المعارك بين الجيش المصرى بقيادته الإنجليزية
وبين الأنصار ، وكانت أسلحة الجيش المصرى أقوى وأقوى ، ثم كان
في الخاطر أن يكون البدء قويا ، وكان جيش الأنصار أقل عدداً وأقل
عدّةً ، بالإضافة إلى ما أصابه من ضعف نتيجة للخلافات بين القادة ،
ولهذا كانت هزيمته طبيعية على الرغم من البسالة التي أظهرها بعض هذه
القوات ، وقد سقط أكثر هذا الجيش بين قتل وأسير وجريح ، وانسحب
الباقون إلى الجنوب ، وقد حدثت معركة فرقة في ٧ يونيو سنة ١٨٩٦ (٢) .

وبعد فرقة زحف الجيش المصرى إلى دنقلة وأحاط بها من الجانب الغربى
وسار لها الأسطول يضربها من الجهة الشرقية فانسحب جيش الأنصار منها
واحتلها الجيش المصرى ، أما جيش الأنصار فقد هرب الصحراء إلى المتمة
وهو بهذا يخلى مساحة كبيرة ومواقع استراتيجية هامة للجيش للزحف .

موقعة أبى محمد :

تمثل أبو محمد نقطة مهمة في أرض السودان ولم يكن بها إلا حامية

See : Henty, G. A. : Wils Kitchener in the Sudan (١)

(٢) نعم شكير : تاريخ السودان ٢٧ ص ٥٧٩ ودكتور محمد فزاد شكرى :

هزب والسودان ص ٤٦٥ .

صغيرة لم تسلم مع بسالتها أن تقف طويلاً أمام الجيش الماهر فانهزمت واستولى المصريون على أبي حمد ، وكان من دواعي انتصار الزاحفين أن خطا حديدياً أقيم بين حلقا وأبي حمد بسرعة للربط بين هذين المكانين المهمين عبر الصحراء (١) .

وبعد احتلال أبي حمد اتجه الانتصار إلى الجنوب لتركيز قوام في النمة ، وبهذا زحف الجيش المصرى فاحتل بربر دون مقاومة ، كما ذهبت قوة مصرية من سواكن واحتلت كسلا من الإيطاليين الذين سلموها للجيش الزاحف بناء على اتفاق سابق .

وفي بربر طلب ككثرت بعض الجنود الإنجليز لينضموا للجيش المصرى في الموقعة القاصلة التي توقعها في النمة ، وليكون لإنجلترا الحق بعد ذلك في ادعاء للمشاركة في فتح السودان الذى بات أكيداً ، والذي تحقق النصر فيه بقوات مصرية ، وسرعان ما تجمعت في النمة جيوش كثيرة تحت قيادة ككثرت تضم أغلبية مصرية وبعض السودانين وبعض الإنجليز .

مركز النمة :

حدث خلاف بين أتباع الخليفة الذين أنيط بهم الدفاع عن النمة وملافاة الجيش الزاحف عندها ، ويقال إن الجمعين سكان هذه المنطقة كانوا متصلين بالجيش الزاحف ويتجرون معه ، وقد أضعف هذا الخلاف قوة السودانين ، ويسر الطريق لانتصار تام حصل عليه الجيش الزاحف ، وكان وجود العناصر الإنجليزية في هذا الزحف مما سبب قسوة مريعة بسكان النمة فقضى على الرجال وأسر النساء والأطفال ودمرت المدينة كلها ، وبالإستيلاء على النمة استولى الجيش كذلك على شندى .

(١) نعم شقير : المرجع السابق ص ٥٩٨ .

موقعة عطبرة :

كانت هذه الموقعة في إبريل سنة ١٨٩٨ وتعتبر موقعة هائلة أظهر فيها الفريقان كل شجاعة ، لأنها الباب الذى يحمى العاصمة أو يوصل لها ، وقد انتصر الجيش الزاحف وسقط من الأنصار عدد من القتلى فيهم القائد ، وفر من استطاع الفرار إلى أم درمان ومنهم عثمان دقنه القائد الشهير الذى حقق للمهدية كثيراً من الانتصارات في الغرب إبان عهد المهديّة (١) .

موقعة كررى (أم درمان) :

كررى هي مفتاح أم درمان ، وقد استعد لها الجيشان استعداداً عظيماً ، وأشرف الخليفة نفسه على استعدادات رجاله ، كما أعد الجيش الزاحف عدته لهذا اللقاء الفاصل ، وفي الثاني من سبتمبر بدأت المعركة العنيفة التي استعمل فيها كل من الفريقين ما أتبع له من قوى ومحاولات استراتيجية ، وانتهت المعركة بانتصار الجيش الزاحف ، ودخله أم درمان التي مرت بها فترة عصية لأن القائد لم يكبح جماح جنده بل أطلق لهم العنان للعبث والفساد (٢) .

وبعد ذلك دخل الفاتحون الخرطوم ، وسرعان ما اتجه القائد الإنجليزي إلى المكان الذي لاق فيه جوردون حتفه ليقيم صلاة على روحه كما تأمّن بثبت بذلك أن للإنجليز ضحايا من كبار الرجال بالسودان ، ثم أمر كتشنر أن يرتفع فوق السراى العلمان الإنجليزي والمصرى ، مع أن العلم المصرى وحده كان هو الذى يرتفع على البقاع والحصون التي سبق فتحها قبل الخرطوم ، وكان

(١) محمد فؤاد شكري : مصر والسودان ص ٤٤٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٦٧ .

رفع العلم المصرى وحده من قبل خديعة للمصريين والسودانيين لأنه أظهر الأمر كأنه عودة للوحدة بين مصر والسودان ، ولكن بعد انهيار قوة الأنصار أسفر كتنشر وهو موظف مصرى عن نواياه الحقيقية فرفع العلمين ، وقد قوبل هذا التصرف بالاستياء والاستنكار ، ولكن القوة كانت هي كل شيء .

فرنسا تحاول أنه تأخذ نصيباً :

أدركت فرنسا أن الزحف على السودان ليس مصرياً ، وإن لبس ثوب المصريين ، ولذلك أرادت أن تأخذ من القرية نصيباً فزحفت فرقة من الجيش الفرنسى في إفريقية الإستوائية الفرنسية إلى فاشودة واحتلتها ورفعت العلم الفرنسى عليها ، وقد أوشك هذا أن يهدد بصراع بين الدولتين الكبيرتين ولكن كتنشر اكتفى بالوقوف في مقابلة هذه القوة ورفع الأمر لحكومته ، واتفقت الحكومتان على انسحاب الفرقة الفرنسية بحجة أن إنجلترا تستبعد السودان لمصر ، ولكن الحق أن اقتسام الغنائم أخذ طريقاً آخر (١) .

نهاية الخليفة :

لم يبق على الخليفة بعد سقوط أم درمان إلا أن يتجه إلى الغرب حيث كانت تعيش قبيلته ، فقتل مع أهله ورفاقه في هذا الطريق ، ولكن قيادة الجيش الزاحف أرادت أن تحول دون وصوله للغرب ، فكاتبته القبائل هناك ، وساعدها على ذلك أن أسرع على دينار وهو من سلالة ملوك دارفور ليستعيد سلطان آبائه ، وحط الخليفة رحاله في أبوركية ، وتجمع حوله بعض الأنصار من القضاة والأعيان وبخاصة القائد أحمد فضيل ، ثم شق

(١) ممثل نفسى مداية : واقعة فاشودة ، انظر أيضاً :

الخليفة طريقه في جبال التوبة حتى وصل إلى قدير التي كانت مكانا مفضلا لدى المهدي في مطلع دعوته ، ومنها حاول الهجوم على أم درمان من الشمال ولكن محاولته فشلت ، وأخيراً قامت معركة في أم دويكرات في نوفمبر سنة ١٨٩٩ قادها الخليفة بنفسه ضد الجيش الذي ينبع تحركاته ، وانتهزم الخليفة في هذه المعركة وقُتل فيها ، وكانت نهايته نهاية حكم المهدي .

سرة المهدي :

بعد سقوط أم درمان خرج محمد شريف وأبناء المهدي منها مع الخليفة ولكم لم يواصلوا السير معه ، بل اتجهوا إلى جزيرة أبا واستسلموا لقوات القنح^(١) ، وهناك أذنت لهم في الحياة في الشكاية بين مدني وسنار على النيل الأزرق ، ولكنهم سرعان ما اتهموا بالاستعداد لمقاومة قوات القنح ، فقبض عليهم وأعلموا جميعاً ركباً بالرصا ص .

وينبغي ونحن نتحدث عن أبناء المهدي أن نواصل كلامنا عن أشهر قادتهم الذين ظهروا في الميدان السياسي بعد ذلك ، وأول من تحدث عنه هو الزعيم عبد الرحمن المهدي الذي أعاد للأسرة مكانتها ، وأعاد الزعامة للروحية للأنصار أتباع أبيه ، وكان عبد الرحمن المهدي طفلاً في السنة الأولى من عمره عندما مات أبوه ، ولما شب كان الحكم الثنائي قد سيطر على السودان ، فترغم جماعة كبيرة سُميت الأنصار ، وصار له نفوذ كبير بالسودان ، وأصبح المنافس الوحيد له هو السيد علي الميرغني الذي قاد الحنية التي تحدثنا عنها من قبل ، أما أسرة الخليفة التعايشي فلم تدخل دائرة النفوذ والمناصفة .

(١) دكتور مكى شيكة : السودان في قرن من ١٩٢٧ .

وتوفى عبد الرحمن المهدي سنة ١٩٥٩ ، وخلفه ابنه السيد صديق المهدي وكان له نشاط سياسي واسع في حياة أبيه ، فكأنه حل اتجاه أبيه السياسي ، وآثر الإمام عبد الرحمن أن يبدو في حلق الجلباب الروحي ، وكان السيد صديق واسع العلم والمعرفة ، تلقى علومه بكلية غوردون بالخرطوم وعقب الحرب العالمية الثانية أسس حزب الأمة وأصبح رئيساً له ، وقد ظل رئيساً لهذا الحزب في حياة أبيه الذي كان راعياً للحزب ، ولكن الانقلاب العسكري الذي حدث بالسودان سنة ١٩٥٨ بقيادة اللواء إبراهيم عبود حل حزب الأمة مع غيره من الأحزاب ، وفي نوفمبر سنة ١٩٦٠ ، انقضى العهد العسكري بالسودان وعاد حزب الأمة للظهور وتوفى السيد صديق المهدي سنة ١٩٦١ .

وآلت رئاسة حزب الأمة للابن الثاني للإمام عبد الرحمن وهو الزعيم الهادي ، وفي عهده ظهر شاب لامع ، واسع المعرفة حاد الذكاء من أسرة المهدي هو السيد الصادق المهدي وهو ابن صديق المهدي صالغ الذكر ، وكان التقاد السودانيون يعتقدون أملاً كبيراً على السيد الصادق المهدي ، ويرون له نظرية خاصة في اتجاهاته للسياسة الخارجية ولصلته بعصر وبالقومية العربية وبالوحدة الإفريقية ، وبآرائه نجاحه الطائفية بالسودان ونجاح الحركة العمالية ودستور السودان^(١) ، وقد أصبح الهادي المهدي راعياً لحزب الأمة ، وأصبح الصادق المهدي رئيساً للحزب والمشراف على الحركة الإدارية والتنفيذية فيه ، ولأول مرة أصبح رئيس الوزراء من أسرة المهدي وكان حزب الأمة يوصى من قبل بأحد أتباعه من غير أسرة المهدي ليتولى هذا المنصب مثل عبد الله خليل ومحمد محمود ، وقد أبدى الصادق المهدي نشاطاً ضخماً في الوزارة ، ولكن التقاد يأخذون عليه شيئاً مهماً هو أنه تعجل تحقيق آماله ليكون قطب الرحى في الحياة السودانية ، فنشأ

(١) بحث عن النظرية السياسية لصاحبه. المهدي نشرته جريدة الرأي العام السودانية بتيق

شفاق بينه وبين عمه الهادى ، وانتم بذلك حزب الأمة قسمين واعتبر
 الهادى المهدي تصرف ابن أخيه نوعاً من التمرد على الزعامة الروحية وعلى
 تقاليد الأنصار ، وفي حركة الجيش التي قادها اللواء جعفر نمري حلت
 الأحزاب ثم قام صراع بين الأنصار وبين الحكومة العسكرية وترععت
 جزيرة أيا هذه الحركة ، وفي هذا الصراع سقط الهادى المهدي قتلاً ، ويقال
 أنه مات وهو في طريقه فاراً إلى الحبشة ..

• • •

والآن وصلنا بالسودان الشقيق إلى الحكم الثنائي ، وهي فترة استعمارية
 كانت السيطرة الكاملة فيها للإنجليز وليس لمصر فيها إلا الاسم ، ومن هنا
 فالحديث عن هذه الفترة يدخل في نطاق الباب الخامس والسادس من هذا
 الكتاب حيث ندرس في الباب الخامس الاستعمار الأوربي في إفريقيا^(١) .
 وفي الباب السادس ندرس ما قام به السودان من نضال وهو يروح تحت
 الاستعمار ، ثم ما حققه من أهداف في ظل الحرية .

(١) يقرأ من هذا الموضوع :

إمارات وممالك إسلامية

بالساحل الشرقى

نحلفنا عن الإسلام جنوب الصحراء ، و سرنا فى حديثنا متجهين من الغرب إلى الشرق حتى وصلنا البحر الأحمر ، و شرحنا - ونحن نتكلم عن الإمبراطورية المصرية فى عهد إسماعيل - أن هذه الإمبراطورية امتدت إلى الجنوب من هذا البحر ، فشملت الصومال ، وأن الاستعمار الغربى اقتسم هذه الإمبراطورية بعد أن أبعد عنها الخديوى إسماعيل ، وكان الصومال من نصيب إنجلترا وفرنسا وإيطاليا جميعا ، و نريد هنا - استكمالاً للدراسة الإسلام فى إفريقية - أن ندرس تاريخ الصومال قبل هذه الفترة ، وأن ندرس كذلك تاريخ المناطق الواقعة إلى الجنوب من الصومال ؛ منذ دخولها الإسلام حتى استولى عليها هذا الاستعمار البغيض ، فقد كان للإسلام فى هذه البقاع صولة ودولة لا يمكن إغفالها .

وأهم الإمارات التى ينبغى أن نتحدث عنها هى إمارات الصومال وإمبراطورية الزنج فى الجنوب منها وهاك الحديث عن ذلك :

الصومال الشمالى

(زِيلَع وهرر أو مملكة عدَل Adal)

زِيلَع ميناء على خليج عدن وكانت قبل الإسلام تابعة للحبشة^(١) ،
ويذكر ابن حوقل أنها فرضة للعبور إلى الحجاز واليمن^(٢) ، ويسمى
الإدريسى (زالع)^(٣) وقد انتشر فيها الإسلام منذ عهد مبكر ، ربما يرجع
إلى عهد الرسول عليه السلام ، فقد كانت هجرات المسلمين إلى الحبشة
تصل بها ، ومن أشهر الذين هاجروا إليها ونشروا الإسلام بها بنو عقيل .
ومن تتبع المراجع العربية يتضح لنا خطوات فكائثر المسلمين في هذه
المنطقة حتى أصبحوا الغالبة العظمى بها ، فالمسعودى يتحدث عن زِيلَع
والدهلك وناصر ، ذاكراً أنها مدن فيها خلق كثير من المسلمين ، إلا أنهم
في ذمة الحبشة^(٤) ، ويقول أبو الفدا^(٥) : ويخاور الحبشة من الجنوب
« الزِيلَع » والغالب على سكانها دين الإسلام ، عيب فقيه فيذكر عن
زِيلَع أنها أصبحت عاصمة السلاطين المسلمين^(٦) .

وهكذا يمكننا أن نقرر أن زِيلَع كانت منطقة حبشية ، ثم انتشر بها
الإسلام منذ مطلعها ، وظل ينتشر بها رويداً رويداً ، حتى غلب على أهلها ،
ثم تكونت بها سلطنة إسلامية سرعان ما امتد نفوذها ، فلما جاء القرن
الرابع عشر كان قد تمّ للمسلمين تأليف سبع ممالك زاهرة في هذه المنطقة
سميت الطراز الإسلامى لأن بعضها يقع على جانب البحر كالطراز له ، كما
ذكرنا من قبل^(٧) ، وبعدد المقرئى هذه الممالك السبع فيقول أنها : أوقات ،
ودوارو وأرابينى ، وهديّة ، وشرخا ، وبالى ، وداره وأعظمها « أوقات »

(١) ياقوت : معجم البلدان ٤ : ٢٥٠

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٦١

(٣) صفة المغرب وأرض السودان ص ٣٥ (مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق)

(٤) مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٢ ص ١٨ - ١٩

(٥) المختصر في تاريخ البشر ج ١ ص ٦٩ (٦) فتوح الحبشة : ص ٥

(٧) ص : ١٨٧

ويُقال لها « جبرت (١) » ، وهى المجاورة لخليج عدن وتتبعها ميناء زيلع ، وتتبعها كذلك إمارتان إسلاميتان صغيرتان هما مورا وميناء عدال إلى الغرب من ميناء زيلع ، وقد تحول إلى ميناء زيلع كثير من النشاط التجارى الذى كان من قبل يتركز فى منطقة مقديشو .

أما باقى ممالك الطراز الإسلامى فتتبع بدائل القارة فى أرض الحبشة الحالية ، وأكثرها تعمقاً مملكة هدية وأرابينى وتفران من نهر سوباط .

وسبب موقع أوقات على البحر ، وبعدها عن مركز القوة فى الحبشة وامتلاكها ميناء زيلع ، أصبحت أقوى الممالك الإسلامية الأخرى المجاورة لها ، وأصبح سلطانها أقوى السلاطين ، ولهذا كان هؤلاء يدينون له بالاحترام والتقدير ، وكانوا جميعاً متقادين إليه (٢) . ومن هنا غلب اسم أوقات على المنطقة كلها ، فيقال أوقات أو جبرت أو عدال ، ويُقصد بذلك جميع هذه الممالك بما فيها ميناء زيلع .

وكانت منطقة هرر تقع بين هذه الممالك . وكانت تابعة للحبشة ، ثم انتشر بها الإسلام ، وانتهزت أوقات فرصة ضعف الحبشة ، فاستولت على منطقة هرر ، وكانت الصلة وثيقة قبل ذلك بين هرر وزيلع لأن زيلع كانت المئذى البحدى لتجارة هرر ، فلما انتشر الإسلام فى هرر قويت العلاقة الدينية والتجارية بين زيلع وهرر فتهيات الفرصة لاستيلاء زيلع على هرر . ولما تم الاستيلاء على هرر انتقل لها مركز القوة ، وأصبحت تقود الصراع بين المسلمين وبلاد الحبشة .

ويصف Gervase Mathew (٣) مملكة عدك بقوله : إلى أقصى الشمال وراء رأس « جوردافيو » قامت مملكة عدك الإسلامية المزدهرة فى القرن الخامس عشر كنتيجة للعلاقات التجارية التى امتدت غرباً حتى الممالك

(١) الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام ص ٦

(٢) القلقشندي : صبح الأمش ج ٥ ص ٣٣٢

(٣) بلاد الفرنج من مجموعة « فجر التاريخ الإفريق » ص ٢٣

الإسلامية جنوب الصحراء الكبرى ، وكان ميناء زيلع هو منفذ هذه المملكة (عدل) التي كانت السلع التجارية والإفريقية وكذلك بعض الحجاج تصل من خلاله إلى الجزيرة العربية ، وكان يوجد على طول الساحل الشرقي لإفريقية نفوذ للإسلام في المدن التجارية القائمة هناك .

وفي خلال ازدهار مملكة عدل كانت الحبشة محصورة بين الممالك الإسلامية ، فعدل تحيط بها من الجنوب والشرق ، والسودان تحيط بها من الشمال والغرب ، ولم يكن للحبشة موانئ على البحر الأحمر بعد استيلاء المسلمين على موانئ عدل ومصروع وزيلع ، وقد أدى هذا إلى تدهور الحبشة وعزلتها عن العالم الخارجي ، فوجدت في سبات عميق عدة قرون نسبت خلالها العالم ونسبها العالم كما يقول John Buchholzer^(١) .

ورأى المسيحيون بالحبشة في إمارة عدل خطراً عليهم ، لانعاشها وقوتها ، ولأن اتساعها كان على حساب ضم بعض الأجزاء الحبشية إليها ، ومن هنا فإن حروباً عنيفة نشبت بين الأمراء المسلمين وبين الأحباش ، وطالما حقق المسلمون النصر ، وصنعوا مناطق جديدة من بلاد الأحباش لدولتهم ، وقد استمرت هذه الحروب طيلة القرن الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، وقد ذكر المقرئى بعض التفاصيل الدقيقة عن هذه الحروب^(٢) ، وفي القرن السادس عشر أخذت الحروب وجهاً جديداً ، فقد ظهر في الميدان قوتان كبيرتان إحداهما مسلمة هي تركيا ، والأخرى مسيحية هي البرتغال ، وانضم الأتراك للإمارة المسلمة ، وانضم البرتغاليون للأحباش ، وقد استطاع السلطان أحمد بن إبراهيم بمساعدة الأتراك أن يحقق كثيراً من الانتصارات على الأحباش ، وأن يضم كثيراً من أراضهم ، ويروى أحمد عن نفسه أنه كان ابن أحد قناوسة إيحيو المسيحيين ، وكان قد ترك موطنه ودخل في الإسلام في عدل واستطاع أن يصل إلى السلطة لقوته وتحمسه للإسلام ، ثم أخذ يغزو الحبشة من سنة ١٥٢٨ إلى

(١) The Land of Barot Faces p. 115

(٢) الإقليم بأخبار من أرض الحبشة من ملوك الإسلام ص ٩ - ٢٠

سنة ١٥٤٣ ، وانضم إلى جيشه الظافر كبير من زعماء الأحباش مع أتباعهم وأصبحوا مسلمين (١) .

ولكن أحد بعد أن حقق هذه الانتصارات على الأحباش ، بدأ يتوقع غدر الأتراك ، فلم يدم ولاؤه لهم ، وفي نفس الوقت كان البرتغاليون يدفعون بقوتهم لمساعدة الأحباش ، وقد أدى ذلك إلى تراجع السلطان أحد وإضعاف شوكة ، وكان الأتراك قبل ذلك قد استولوا على ميناء زيلع من سلطان عدل سنة ١٥٢٢ نظير مساعداتهم له ، ولما ضعف أحد أمام الأحباش والبرتغاليين مدّ الأتراك نفوذهم إلى الساحل واستولوا على موانئه . زيلع وبرأوة وتاجورة ، وكانت بعض مناطقه تابعة لليمن فأل للعثمانيين السلطان على هذه المناطق عندما آل لم السلطان على اليمن نفسها ، وأصبح للعثمانيين السيادة الاسمية على الأقل على الصومال الشمالي ، أما منطقة هرر فقد حكمها أمراء من أسرة أحد بن إبراهيم ، وأهم هؤلاء :

نور بن مجاهد	١٥٥٨	ويعتبر مؤسس مدينة هرر
عثمان الحبشي	١٥٦٧	عبد استولى على السلطة بالقوة
طلحة بن عباس	١٥٦٨	بعد فترة قصيرة من حكم عثمان وهو ابن أخ الأمير نور بن مجاهد

الأمير نصير بن عثمان الحبشي ١٥٧١

محمد بن نصير ١٥٧٣

الأمير إبراهيم جازة ١٥٧٧

فترة اضطرابات

الأمير عبي بن داور ١٦٤٧ وهو من أسرة الأمير نور

وتولى بعده أمراء من أسرته هم هاشم وعبد الله وطلحة وأبوبكر . . .
وآخرهم الأمير عبد الشكور الذي حكم من سنة ١٨٥٦ إلى سنة ١٨٧٥
وكان معروفا بالعنف والظلم ، وفي عهده تقلصت إمارة هرر وأصبحت

تمثل في مدينة هرر وحدها ، أما باقي المناطق فقد اقتطعتها قبائل الجالا أو استعادتها الحبشة ، وفي عهد إسماعيل باشا حلت مصر محل القوتين اللتين كانتا تحكمان الصومال الشمالي وهرر ، فاستولت مصر على ساحل الصومال من العثمانيين ، وأرسلت جيوشها فاستولت على منطقة هرر دون مقاومة تذكر كما ذكرنا من قبل ، واستعادت مصر كثيرا مما اقتطعته قبائل الجالا أو استولى عليه الأحباش .

أما تاريخ هذه المنطقة بعد الحكم المصري فلسنا في حاجة إلى أن نعود إليه فقد ذكرناه ضمن حديثنا عن الإمبراطورية المصرية ونهايتها كما أشرنا في مطلع هذا الكلام ، وعلى كل حال فقد استولى البريطانيون على أملاك مصر بالساحل وسمحوها لفرنسا بالاستيلاء على منطقة جيبوتي ، وسلم رضوان باشا قائد الجيش المصري في هرر تلك الولاية إلى عبد الله بن الأمير عبد الشكور الذي سبق أن سلم المدينة لرؤف باشا منذ عشر سنوات ، وأراد عبد الله أن يكون مستقلا استقلالاً تاماً ، ولكن بريطانيا أرادت أن يكون السلطان الحقيقي لها ، وأنف الأمير أن يقبل ذلك ، فأوعزت بريطانيا لملك الحبشة أن يستولى على هرر ففعل ، وكانت مدة استئثار هرر حوالى عامين .

ويوجز John Buchholzer تاريخ هرر وما دار بأرضها من صراع صليبي بقوله : لمدينة هرر تاريخ ملطخ بالدماء ، وتفصيل أحداثها القديمة ناثية في ظلمات التاريخ ، ولكن إمبراطورية زليام العربية امتدت في القرن الرابع عشر إلى المرتفات ، وعلى طول الساحل إلى ما يعرف في الوقت الحاضر بالصومال ، وزليام هي المدينة الساحلية الواقعة جنوب جيبوتي ومنها كانت تطلع السفن العربية عبر الخليج إلى بلاد العرب حاملة ما تخصص فيه تجار هرر من سلع .

وفي نهاية القرن الماضي كان العلم المصري مرفوعاً على هرر ، وظل هناك عشر سنوات قبل انتهاء حكم مصر ، ولكن تلك المدينة الصغيرة الغنية التي لا تزال نقطة البداية لطرق التجارة المؤدية إلى إثيوبيا قد اجتذبت غزاة آخرين ، ولقد أتيح لعلم أمير هرر الأخضر أن يحقق فوقها ولكن لمدة عامين فقط ، وقد أيدت حملة إيطالية ، زعمت أنها بعثة علمية على الرغم من وضوح نواياها للعيان في أثناء زحفها على المدينة ، وحينئذ جاء دور منليك ، ونهاية عهد استقلال هرر .

علماء زيلعيريه :

نبح في ريلع مجموعة من العلماء والمفكرين ، أقاموا بها ينشرون الإسلام ويتولون كبراً من المناصب القضائية والإدارية ، وفي قتهم الفقيه عبد الله الزيلعي ، وهو الذي رأس سفارة إلى سلطان مصر الناصر محمد حوالي سنة ١٣٣٨ م ليساعد أهل زيلع في صراعهم ضد الأجاش ، وليعمل لحماية المسلمين في هذه البقاع (١) .

ومن علماء زيلع من وفد إلى القاهرة وأقام بها ، ومن هؤلاء فخر الدين الزيلعي الذي وفد إلى مصر سنة ١٣٠٥ وجلس بها للتدريس والإفتاء على مذهب أي حنيفة ، وله كتاب عنوانه (تبين الحقائق في فقه الحنفية) وهو شرح على كنز الدقائق للسني ، وقد توفي فخر الدين سنة ١٣١٣ .

ومنهم جمال الدين الزيلعي ، وقد وجه اهتمامه لدراسة الأحاديث ، واهتم اهتماماً خاصاً بتخريج الأحاديث الواردة في تفسير الكشاف للزمخشري ، وأحاديث الهداية في ذكر الشافعية ، وألف في ذلك كتاباً عنوانه (نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية) وتوفي في القاهرة سنة ١٣٦٠ :

الصومال الجنوبي (مقدشو)

يرى المؤرخون الصوماليون أن كلمة مقدشو مركبة من كلمتين الأولى مقد وهي اختصار لكلمة مقعد ، والثانية شو وهي تحريف لكلمة شاه ، وإن إضافة ياء في الكتابة بعد الدال أو بعد الشين خطأ كبير^(١) ، وعلى هذا فلكمة مقدشو بها مقطعان أحدهما عربي والثاني فارسي ، ولا تدل هذه التسمية على ارتباط لإنشاء المدينة بالفرس لأن بعض الكلمات الفارسية كانت شائعة في الجزيرة العربية ، وعلى الساحل منذ أمد طويل ، ولأن هجرات الفرس كانت في الغالب إلى الجنوب من مقدشو ، في المنطقة التي قلمت بها دولة الزنج كما سرى فيها بعد .

وقد أنشئت مدينة مقدشو في القرن العاشر الميلادي ، وكان إنشاءها على يد مهاجرين من العرب ، نزحوا من الخليج العربي ، بعضهم من أزد عمان هاجروا في أيام عبد الملك بن مروان بسبب صراع القبائل بعضها ضد بعض ، وكان هؤلاء بقيادة سليمان وسعيد الجنديين^(٢) ، وبعضهم من الزيدية الذين فروا إلى هذا الساحل عقب القضاء على ثورة زيد بن علي زين العابدين في عهد هشام بن عبد الملك وقد اندمج هؤلاء وأولئك في السكان الأصليين ، وبنى أحفاد هؤلاء مدينة مقدشو ومدينة براوة^(٣) ، وحول مقدشو أنشئت مدن متعددة ولكن مقدشو كانت تفوقها جميعاً ، إذ تركزت فيها أعظم الحركات التجارية في شرقي إفريقيا ، وكان لها السيادة السياسية على المدن التي تحيط بها ، إلى أن أنشئت مدينة كلوة فبدأت تنافسها في

(١) جامع عمر الصومال : تاريخ الصومال ص ١١

(٢) ستورد عند الحديث عن الصومال رأياً آخر يرى أن عبد الملك أرسل حملة توسعية

على نخط فتوحاته

(٣) الدكتور صلاح العقاد وجمال ذكريا : زنجبار ص ٦

مكاتها ، ونجذب الانتظار إليها ولكن لم تستطع كلوة في أوج عظمتها أن تسلط على مقدشو ، ولم يستطع سليمان أعظم حكام دولة الزنج الذي مدّ سلطانه على أكثر بقاع الساحل أن يتسلط على مقدشو ، وكان حكام مقدشو يخافون عليها من المؤامرات التي تختفي خاف التجارة ، ولها لم يسمحوا للتجار الأجانب أن يبيتوا بها ، وكان عليهم أن يغادروها مع غروب الشمس ، وقد نمت تجارة مقدشو في هذا العهد نموا واسعا ، وكانت تحكمها ارستقراطية تجارية لا تتوارث الحكم فيها ، مما جعل الباحثين يشبهونها بجمهورية البندقية^(١) .

وقد استطاعت قبيلة الأيجل الصومالية أن تستولى على السلطة في مدينة مقدشو في القرن الثالث عشر ، وأول من حكم مقدشو من قبيلة الأيجل هو الشيخ عمر جلولة ، ورسم نظام التوارث في حكم مقدشو بين أولاده ، وفي عهد ابنه أبي بكر زار ابن بطوطة مدينة مقدشو ، وتحدث حديثا طويلا عن سلطانها وعن مجالسه ووزرائه ، وطعامه ولباسه وفرشه ، وتكلم بإسهاب عن كرمه وتقديره للفقهاء والعلماء ، وعن نظام الشورى الذي كان متبعاً في مملكته ، وعن الأبنية العظيمة بالمدينة ، مما يفيد أن مقدشو آنذاك كانت تنعم بحياة الرفاهية والازدهار^(٢) .

وكانت مقدشو قوية الحصون فاستطاعت أن ترد الغارات ، وأن تعيش عزيزة الجانب فترة طويلة ، ولم يستطع البرتغاليون أن يسيطروا عليها عندما سيطروا على الساحل الجنوبي في القرن السادس عشر ، والسبب في ذلك هو ما ذكره بعض المؤرخين من أن بعض الحكام في ساحل الصومال كانوا يدينون بالولاء للوثة المماليك بمصر^(٣) . وبعد المماليك عاون العثمانيون مدينة مقدشو على الاحتفاظ باستقلالها .

(١) الدكتور صلاح المقاد وجمال ذكريا : زنجبار ص ٨

(٢) تحفة النظار ج ١ ص ١٩٠ - ١٩٢

(٣) Guillaum : Documents vol 1 b 353 (٢)

وحدث خلاف داخلي بين زعماء مقدشو ، انتقل إلى صراع مربر في القرن التاسع عشر ، وفي نفس الوقت كان الاستعمار الأوروبي يذق أبواب مقدشو ، فكتب بعض الزعماء الوطنيين رسالة إلى سلطان زنجبار (سيد برغش) يطلبون حمايته من غارات القرنجة فاستجاب سلطان زنجبار لهذه الرغبة ومد نفوذه من زنجبار إلى المناطق المجاورة لها جنوبي الصومال سنة ١٨٧١ و تقس الوقت كان نفوذ مصر ينساب إلى الجزء الشمالي من هذه المنطقة فيشمل مقدشو وكيسمايو (١) .

مهرد مصر في الصومال وهرر :

يقول المؤلف الصومالي سالف الذكر إن الأمة الصومالية كانت تعتقد أن الدول الإسلامية لها الحق في دخول كل بلد إسلامي لمساعدته ضد أي عدوان يهدده ، ولتشر دين الإسلام في كل البقاع ، ومن أجل هذا فرح الصوماليون بدخول مصر بلادهم ، ورحبوا بهم وساعدوهم ، حتى استقر حكمهم فيها ، وقد جعل المصريون بربرة وزيلع وتاجورة محافظات تابعة لهرر .

وكان حكم المصريين في هذه الجهات حكما مستنيراً ، قائماً على أسس عادلة ، وقد اهتم المصريون بالتعرف على حال السكان ، وحاجاتهم المختلفة ، وعملوا على قضاء هذه الحاجات ، كما قاموا بنشر العمل والمساواة بين طبقات الشعب وبذلوا جهودهم لتأمين سلامة البلاد ، ولتحقيق الأمن الداخلي .

وأرسل المصريون مهندسين لوضع الخرائط للبلاد ، ومعلمين لتشر

(١) جامع عمر الصومال ص ٤٢ ، ودكتور المنعم : هرر والصومال ص ١٠١

التعليم وفتحوا عدة مدارس لتثقيف الشعب . وتعليمه أحكام الشريعة الإسلامية .

وشجع المدرسون الشباب الصومالي على دراسة فنون الحرب ، وحثوا الأهالي على الاستقرار والزراعة ، وقلعوا لهم أنواعاً شتى من البذور وآلات الحرث .

وفي ضوء الأمن الداخلي والخارجي استطاع الأهالي والمسافرون أن يحرقوا البلاد دون خوف ، وكانت القوافل تحرق الطرق من زيلع وبربره إلى مرر وبالعكس تحمل مختلف البضائع في أمن وسلام ، وعملت مصر على توفير وسائل المواصلات المختلفة .

وأصبحت هرر بذلك عاصمة عظمى الشأن متصلة بالساحل اتصالاً قوياً^(١) .

الصومال عقب انهيار الإمبراطورية المصرية :

عندما انهارت الإمبراطورية المصرية بإفريقية عقب عزل الخديوى إسماعيل والاحتلال البريطانى لمصر ، انجهت أوروبا لاقتسام مناطق الصومال التى كانت تابعة لمصر ، وقد وضعت لذلك حيلة أشبه بالمرحبات ، فإيطاليا تذكرت أنها كانت قد ابتاعت منطقة خليج عصب سنة ١٨٦٩ من أحد الحكام المحليين ، فأرسلت قوة لاحتلال هذه المنطقة بالاتفاق مع بريطانيا ، وقد وقعت مقلشو بذلك تحت حكم الإيطاليين الذى استمر زهاء نصف قرن حتى سقطت إيطاليا تحت أقدام بريطانيا فى الحرب العالمية الثانية (سنة ١٩٤٢ م) وتذكرت فرنسا كذلك أنها كانت قد ابتاعت منطقة أوبوك من أحد الحكام المحليين ، وانتهزت فرصة انحلال الإمبراطورية المصرية فأسمرت إلى هذه المنطقة واحتلتها ولا تزال تحتلها حتى اليوم باسم الصومال

الفرنسى ، أما بريطانيا فقد كانت تعد نفسها الوارث الشرعى لأملاك مصر
بمسم احتلالها لمصر ، ومن هنا مدت سلطاتها على منطقة زيلع وبربرة
وسميت هذه المنطقة الصومال الإنجليزى ، وتقدمت الجبهة كما سنرى فاحتلت
إقليم هرر (١)

وكان جهد مصر من الناحية الثقافية بالغ للذى فى الصومال وهرر
والسودان وجمع الأرض التى نزلت بها مصر ، ويجمع المؤرخون على أن
دور مصر كان عظيماً للغاية فقد كتب « هنتر » قنصل بريطانيا فى زيلع يقول :
لو استمر نظام الإدارة المصرية بضع سنوات أخرى على هذه الأقاليم
من شرق إفريقيا لانضمت مجموعة كبيرة من القبائل الإفريقية تحت راية
الإسلام ، ولأصبحت هذه البلاد مركزاً هاماً من مراكز الثقافة والحضار
فى إفريقيا .

وكتب العالم الألمانى « فيليب باولتشكة » يقول : إن نظام التعليم الذى
اختط سياسته المصريون فى السودان ، وفى أجزاء أخرى من إفريقيا نظام
سلم يعتمد على الواقع ويقوم على أساس فكرة التطور التدريجى حسب
الاحتياجات والإمكانات ، وقد نجح المصريون فى ذلك رغم قصر عهدهم ،
وخلقوا وعياً تعليمياً بين شعوب هذه الجهات كان من الممكن استغلاله
لولا دخول الاستعمار الأوروبى الذى أطاح بهذه المكاسب وأختر سبيل النهضة
الفكرية .

ويقول الدكتور محمد المعنصم إن الحكام المصريين أدوا واجبهم كاملاً
فى النهوض بالتعليم والعناية بالصحة وشجعوا الزراعة ونشطوا التجارة وكشفوا
عن المعادن وأدخلوا الصناعات المختلفة وعمروا المدن ، وأقاموا كثيراً من
المنشآت الإصلاحية التى سببت الاستقرار والرخاء (٢) .

(١) انظر الجغرافية السياسية لإفريقية للدكتور فيليب رفلر ص ٢٤٨ وجامع عمر

الصومالى : تاديج الصومال ص ٤٣

(٢) هذه الانتبسات من مجلة نهضة إفريقيا عدد يناير سنة ١٩٦٢

هرر بحر المصري :

ضُخِط الاستعمار البريطاني على مصر كما ذكرنا من قبل لتتخلّى عن امتداداتها بأفريقية ، وتسحب جيوشها من كل البقاع التي ارتبطت بها ، وتحت هذا الضغط أصدر مجلس النظار للمصرى أمراً بإجلاء القوات المصرية عن هرر وملحقاتها ، ونسليم السلطة إلى الوارث الشرعى للأسرة التي كانت حاکة قبل قنوم المصريين ، والعجيب أن بعض المسيحيين فى الجيش المصرى أرسلوا رسالة سرية إلى ملك الحبشة يخبرونه فيها أن الحاميات المصرية ستخرج من هرر بعد فترة وجيزة ، وينصحونه بالزحف عليها قبل أن تدخلها قوة أخرى ، ولكن مصر سلّمت الإمارة إلى عبد الله بن عبد الشكور من أسرة السلاطين كما ذكرنا آنفاً وسرعان ما أرادت بريطانيا أن تمد نفوذها إلى هذه الإمارة ، فطلبت من الأمير عبد الله أن يرفع العلم الإنجليزى باسم أن بريطانيا تحل محل مصر فى مصر نفسها وفى البلاد التي كانت تابعة لها ، ولكن الأمير رفض ذلك ، فشجعت بريطانيا الأحباش ليزحفوا على هرر ، إذ أن التعاون بين الحبشة المسيحية والإنجليز كان أيسر من تعاون المسلمين فى هرر مع الإنجليز ، وزحفت الحبشة سنة ١٨٨٦ بجيش كبير على إمارة هرر الإسلامية التي لم تكن قد استعلت بعد لمقابلة جيوش الأسرة ، فاستولت على هرر وراحت تدفعها أطماعها ، وتدفعها أوروبا المسيحية لمزيد من الزحف ، وفى خلال السنوات التالية حتى نهاية القرن التاسع عشر كان حكم الحبشة قد امتد إلى مناطق أخرى من الصومال هى مناطق الجالا وعروسة والأغادين نتيجة للزحف من جانب ، والاتفاقات الدولية التي عقبتها الحبشة مع الدول الأوربية من جانب آخر (١) .

صاوى' الأمباش فى الصومال وهرر:

لما استولت الحبشة على هذه الإمارات فى نهاية القرن التاسع عشر ، أغلق ملك الحبشة المدارس ، ومراكز العلم ، وهدم المساجد ، وأحرق المصاحف ، ومنع إقامة شعائر الإسلام ، وألقى القبض على أكثر العلماء ، واعتقل بعضهم ، وقتل أكثرهم بالحبس وبالطرق الخبيثة ، وفتح باب الهجرة للمبشرين المسيحيين ، وأعطى لهم الأموال والأراضى التى انتزعها من أبندى المسلمين ، ومنحهم كل المساعدات المادية ، والمعونات المعنوية ، وعهد إليهم أن يكفروا الشعب المسلم وبخاصة المزارعون ، وحينما أراد الفلاحون أن يقاوموا أو يقوموا بالدعاوى والاحتجاجات كان الجواب الوحيد الضرب بالرصاص والسجن والحكم بالإعدام ، وأرغم كثيراً منهم على بيع أراضيهـم ، وكان المبشرون يحتطفون الأطفال الأيتام ، وتارة يأتون برب العائلة ويقتلونه ويسلمون الأولاد إلى المبشرين ، وكان الصليبيون الفرنسيون يشجعون على هذه المعاملة الوحشية ، ويعاونون على الظلم والاعتداء ، ولكن كل ذلك لم يلق أى نجاح ولم يأت بنتيجة فى تكفير المسلمين (١) .

ولا تزال هذه المناطق التى يسكنها مسلمون صوماليون ، موضع صراع مزير بين الصومال والحبشة ، وكانت القوى الأوربية هى التى هيات للحبشة أن تستولى عليها كما هيات لها فيما بعد (سنة ١٩٥٠) الاستيلاء على منطقة إسلامية خفيفة هى منطقة أريتريا باسم تكوين اتحاد فيدرالى بينها وبين الحبشة ، وهذا جعل الحبشة تمثل قلعة أوربية مسيحية فى قلب إفريقيا ، ينتفع بها الاستعمار وينفعها .

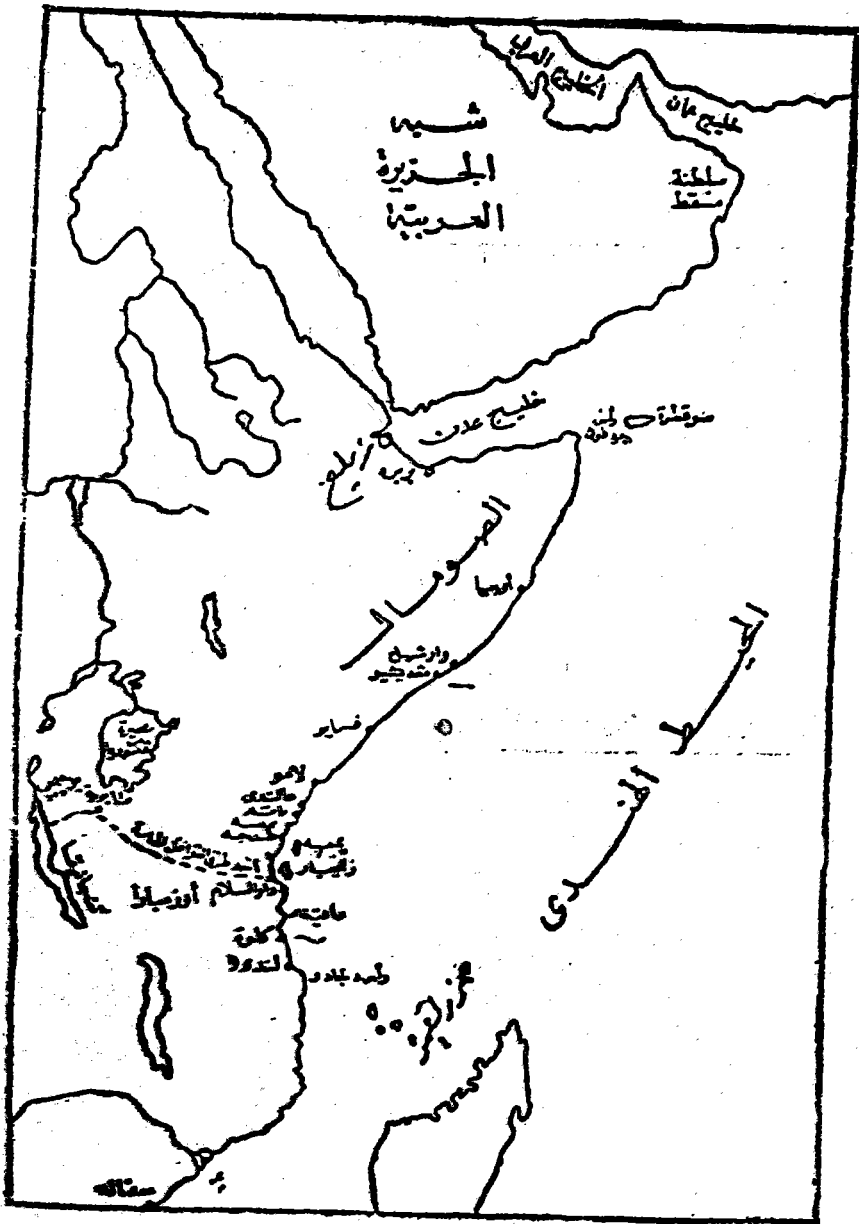
(١) جامع عمر : تاريخ الصومال ص ٢٠٠

إمبراطورية الزنج

من القرن العاشر إلى القرن العشرين

إن تاريخ إمبراطورية الزنج أو « زنجبار » تاريخ طويل حافل ، به
صعود من النجاح وانتشل ، ولكن خاتمة مريرة ، وزنجبار معناها ساحل
الزنج ، وهذه التسمية تدل على نسبة هذه الدولة لزنج إفريقيا ، أى أن
الواقدين لها الذين سئلت عنهم من فرس وعرب ذابوا في المجموع الإسلامى
الذى كان أكثره من الزنج فنسبت للدولة للأغلبية :

وتنح الآن أمام ظاهرة عجيبة من ظواهر الاستعمار الأوروبى والضغط
المسيحى ، فإن إمبراطورية زنجبار الإسلامية التى امتد تاريخها عدة قرون ،
وانتصت رفعتها اتساعاً كبيراً ، وكثر عدد سكانها ، واحتلت مكاناً
استراتيجياً مهماً . هذه الإمبراطورية قض حليها الاستعمار تماماً ، مزقتها إلى
أشلاء ، وورع هذه الأشلاء على ممالك ينسب الحكم فيها بالمسيحية المتعصبة ،
والمسيحية - كما يقرر التاريخ والواقع - متعصبة دائماً إذا كانت أكثرية .
وسلم الحكم المسيحى بتلك الدول هذه الأقليات من الاستعمار ، فغصب
عليها جام غضبه حتى ردها إلى المسيحية أو على الأقل كبت الإسلام فى
صدور المسلمين . فأكمل هذا الحكم للمهمة التى بدأها الاستعمار بالنسبة
لسكان زنجبار ، واختفت هذه المملكة من الوجود ، ومن هنا لن نتحدث
عن زنجبار فى الباب السادس الذى خصصناه للدول الإسلامية جنوب الصحراء
الآن ، وهما يستلزم أن نسير مع زنجبار هنا أطول مما سرنا مع سواها من
الدول الإسلامية ، ففى الدول الإسلامية الأخرى ظلنا مع تاريخها حتى بدأ
الاستعمار ، ووصفناها فى الباب الخامس وهى تصارع الاستعمار ، واستأنقنا
حديثاً عنها فى الباب السادس وهى مستقلة ، ولكن زنجبار قد ر لها غير
هذا الطريق ، فإن الاستعمار لم يكف فيها بأن يلتهم ثروتها أو يؤذى أهلها ،



زنجبار ودول الساحل الشرقي

بل دمرها تماما وأسلمها إلى الضيع ، ومن هنا سنظل في هذا الباب نتحدث
عن زنجبار حتى نصل بالحدث إلى نهاية هذه الدولة .

ولنبداً القصة من أولها :

الساحل الشرقى لإفريقية قريب بالنسبة للعرب في جنوب الجزيرة
العربية ، وهو كذلك قريب بالنسبة لمنطقة الخليج العربى الذى تقع بلاد الفرس
إلى الشرق منه ، ومن هنا اندفعت هجرات عربية كثيرة من الجزيرة
العربية ومن البحرين وساحل عمان إلى شرقى إفريقية ، وكونوا لأنفسهم
عدة إمارات بالجزء الشمالى من الساحل ، ونشروا الإسلام في هذه البقاع ، ولكن
هناك هجرة تُعدُّ من أبعد الهجرات أثرا في تاريخ الإسلام بالجزء الجنوبى من
الساحل ، وهذه هى الهجرة التى وفدت من شيراز بزعامة على بن الحسن
الشيرازى والتى نحدثنا عنها من قبل (١) وقد استطاع هؤلاء المهاجرون أن
يصلوا إلى مكان السيادة بهذه المنطقة ، وأسسوا مدينة كلوة وجعلوها
عاصمة لهم ، وكونوا نواة دولة الزنج ، وكانت بيوارها إمارات عربية
متعددة على الساحل ، وقد استطاع سليمان بن على أن يوحد معظم الإمارات
العربية في شرقى إفريقية ابتداء من جنوب مدينة مقدشو حتى سفالة وأن
يضم جزيرتى زنجبار وبمبة ، وأن يعقد صلات تجارية مع جزيرة مدغشقر ،
وجزر القمر ، وبهذا أصبحت مملكة الزنج واسعة الرقعة عظيمة الشأن وكان
ذلك في القرن العاشر والحادى عشر (١) .

(١) ص ١٨٩ - ١٩٠

(٢) دكتور صلاح العقاد وبحال قاسم : زنجبار ص ٨

وخلال القرون التالية ازدهرت دولة الزنج وامتد نفوذها بالداخل ، ونشطت الدعوة الإسلامية حيث امتد هذا النفوذ ، حتى أصبحت هذه الدولة عزيزة الجانب قوية السلطان ، وقد وقف الإسلام في هذه البقاع وجها لوجه أمام الوثنية واللا دينية ، ومن هنا عني حكام هذه الدولة بتقوية دولتهم لتستطيع أن تواجه أى أنواع التحدى ، وبالإضافة إلى القوة ، كان طابع الازدهار والرخاء ظاهراً في دولة الزنج لأنها كانت الدولة الوحيدة في هذه البقاع التي لها نظام وتخطيط وتجارة ، تحرسها نظم دقيقة ووسائل دفاع قوية ، وقد ازدهرت في هذه الإمبراطورية بوجه خاص تجارة العاج والرقيق والذهب ، ونشطت نشاطاً واسعاً بين الشاطئ الإفريقي وللشاطئ الآسيوى ، وكانت حضارة كلوة ذات صبغة فارسية في مبانيها ، فقد أدخل الشيرازيون أساليبهم في طرق البناء بالحجارة واستخدام الجير والنقش على الخشب ، كما استخدموا العقود في المباني .

وقد زار ابن بطوطة هذه المناطق ، وقال عن مدينة كلوة إنها مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها من الزنوج ، ولهم شرطات في وجوههم ، وبينها وبين مدينة سفالة مسيرة نصف شهر ، وكلوة مدينة من أحسن المدن وأتقنها عمارة ، ويوتها من الخشب ، والأمطار بها كثيرة ، وأهلها أهل جهاد لأنهم في بر واحد متصل مع كفار الزنوج ، والغالب عليهم الدين والصلاح ، وهم شافعية المذهب .

وتحدث ابن بطوطة عن سلطان كلوة الذى رآه ابن بطوطة ، وهو أبو المظفر حسن وكنيته أبو المواهب لكثرة مواهبه ومكارمه ، ويقول ابن بطوطة عنه إنه كان كثير الغزو إلى أرض الزنوج لينشر الإسلام ، وإذا حصل على غنائم صرفها في مصارفها المينة في كتاب الله ، واحتفظ بنصيب قوى القربى ليدفعه للشرقاء عندما يزورونه (١) .

وزار ابن بطوطة كذلك جزيرة ممبسى « ممبسة » وذكر عنها أنها جزيرة كبيرة بينها وبين أرض الساحل مسيرة طويلة ز ، وبها أشجار الموز والليمون والأترج وبها فاكهة تسمى الجامون أشبه بالزيتون ، ولها نوى كثواه إلا أنها شديدة الحلاوة (١) .

والمطلع على حوليات كلوة يدرك أن صراعاً طويلاً نشب في هذه المدينة بين الطامعين في السلطة ، وأن المدينة لم تعرف الاستقرار ، ولم يطل بها عهد سلطة الشيرازيين ، بل انتقل السلطان منهم إلى المتمندين ، فإلى أبى المذهب وأبى المواهب ، واستولى الوزراء في فترات متقطعة على السلطة ، وأحياناً حكموا البلاد عن طريق ما يسمى بحكومة الصبيان ، إذ وضعوا في السلطة صبيّاً وحكموا المملكة عن طريقه ، وتسبب عن هذا اضطراب متصل يورد محي الدين الزرنبازى (٢) تفصيلاً له .

على أنه من أهم أسباب الاضطراب في هذه الدولة أنها شريط مستطيل على البحر ، وأن كل مدينة بها كانت تعتبر نفسها دولة قائمة بذاتها مرتبطة بالبحر ، وبما خلف البحر من عالم فسيح . ولعل ذلك كان مصدره الاهتمام بالتجارة أكثر من الاهتمام بالسياسة وتكوين الدول ، وكان مصدره كذلك اختلاف العناصر التي تكوّن منها خليط السكان في هذه المناطق ، فقد كان منهم الفرس ومنهم العرب ومنهم جماعات الإفريقيين الذين كانوا أصلاً يعيشون في هذه المناطق أو الذين وفدوا إليها من الداخل واعتنقوا الإسلام وتعاونوا مع النظام الجديد ، ويدور أيضاً أن الحباة على الساحل خلقت فكرة لم توجد عند أولئك الذين هاجروا إلى أماكن داخل

(١) المرجع السابق : ص ١٩٢

(٢) السوى في تاريخ كلوى : مخطوط نشر في J.R.A.S. سنة ١٨٩٥ ص ١١١

القارة ، فالحياة على الساحل توحى بالارتحال لا بالاستقرار ، فكان المهاجرون يتجهون للبحر بوجوههم ويولون ظهورهم للقارة ، ومن هنا كان انتماع المهاجرين بالسكان الأصليين قليلا ، واتجهت أغلب العناية إلى التجارة والربح ، وهذا هو الذي مهد للنهاية المريعة التي انتهت لها هذه الدولة ، ولم يخطر ببال هؤلاء المهاجرين أن قوى أخرى ستقف في سبيلهم يوما ما ، وتقضى على تجارتهم بل على حكمهم ، والأناية دائما تضعف الجميع في المدى القريب أو البعيد .

قعود البرتغاليين في زنجبار :

وبينا كانت زنجبار تعاني من هذه الاضطرابات دخل القرن السادس عشر ، ودخل معه الزحف البرتغالي على القارة ، وكان البرتغاليون يحقدون على المسلمين أشد الحقد ، كما كانوا يبحثون عن الذهب والثراء ، وقد وجدوا في دولة زنجبار هدفهم الذي يسعون إليه ، وجدوا مسلمين يحكمون دولة فسيحة ، كما وجدوا مظاهر الثراء واللغنى ، فراحوا يهاجمون الساحل ويحتلونه حوالى سنة ١٥٠٩ ، وقد ساعدهم على ذلك بعض انحرافات من القادة الذين أرادوا أن يستعينوا بهم في صراعهم ضد سلطان كلوة ، وانتهى الأمر بأن خضعت أكثر الإمارات الإسلامية إلى البرتغاليين ، واعترفت بسيادتهم ، ودفعت لهم الجزية ، ولكن ظروفاً أخرى هددت سلطان البرتغال ، وذلك بسبب منافسات الدول البحرية لها ، ثم بسبب أن البرتغال نفسها فقدت استقلالها حين ضمها « فيليب الثاني » إلى عرش أسبانيا سنة ١٥٨٠ . وكانت هناك إمارات إسلامية لم تستسلم للبرتغال بل صارعت من يوم إلى يوم ، وقد تسبب عن هذا الصراع تدمير الحضارة التي عرفها الساحل في عهد ازدهار دولة الزنج (١) :

أئمة عمان في زنجبار :

ربط المحيط بين منطقة عمان بآسيا ، وبين ساحل إفريقيا الشرق منذ فجر التاريخ ، وكانت حركة الصلات البحرية لا تنقطع ، ولا عجب إذن أن يتطلع سكان الساحل الإفريقي إلى أولاد عمومهم بمنطقة عمان ومسقط ليتفهمهم من سطوة البرتغال ، وقد استجاب أئمة عمان لهذا الرجاء ، ودار صراع طويل بينهم وبين البرتغاليين كان النصر فيه لأئمة عمان الذين استولوا على أغلب الجزر وأكثر المناطق الساحلية من البرتغاليين ، وعينوا عليها أمراء يحكمونها باسمهم ، فعينوا أسرة الحارث لجزيرة زنجبار ، وأسرة النبهانيين لحكم باتا ، وأسرة المعموري لحكم ممسة ، وتلتها في هذه الجزيرة أسرة المزروعى ، وكانت هذه الأسر خاضعة خضوعاً اسمياً لأئمة عمان ، وعندما سقطت أسرة اليعاربة في عمان وقامت على إثرها أسرة بنى سعيد « البوسعيديين » اكتمل سلطان أئمة عمان على الساحل الإفريقي وعلى الجزر ، ولم يقبل البوسعيديون منافسات بين الأمراء ، وبخاصة أمراء المزروعيين الذين حاولوا الاستقلال بجزيرة ممسة .

بنو سعيد في زنجبار :

ومنذ منتصف القرن الثامن عشر أصبحت زنجبار تابعة لحكم البوسعيديين وبلغت الدولة الأسيوية الإفريقية ذروة مجدها إبان حكم السلطان سعيد بن سلطان ، الذى خلف والده سنة ١٨٠٦ ، وقد دام حكمه للدولة الأسيوية الإفريقية حتى سنة ١٨٥٦ ، ونقل عاصمة المملكة من مسقط إلى زنجبار سنة ١٨٣٢ كما أنما أراد أن يقوى نفوذه على الساحل الإفريقي ، وقد استطاع أن يضم إليه جميع الموانئ الهامة والجزر الساحلية ، كما أنه استطاع أن يفرض العثور على التجارة الداخلة والخارجة ، بل أصبح له وكلاء في بومباي

وكلكتا وغيرها من موانئ المحيط الهندي ، وبهذا أصبحت زنجبار مستودعاً هائلاً للتجارة ، تخزن فيها البضائع التي تأتي من أنحاء إفريقيا ومنها توزع على التجار العرب الذين يحملونها إلى موانئ شبه الجزيرة أو الهند ، وعلى التجار الأوروبيين والأمريكيين الذين يحملونها إلى بلادهم^(١) .

وبالإضافة إلى الحركة التجارية والنشاط الاقتصادي ، اتسع نفوذ زنجبار السياسي في عهد السلطان سعيد ، فشمّل مسافة على الساحل تقدر بأكثر من ألف وستائة كيلومتر ، ممتدة من جنوب مقدشو شمالاً إلى سفالة وتونجي جنوباً ، كما امتد نفوذه أيضاً داخل القارة حتى وصل إلى حدود الكونغو وأوغندا وروديسيا ، وانتشرت في هذه الأجزاء كلها شبكة من خطوط القوافل تربط بين الساحل ، وبين شواطئ فيكتوريا وتنجانيقا ونياسا ، وتابع توغله في الأجزاء الشرقية من الكونغو ، وعلاصيته حول البحيرات للعظمى حتى كان يقال : إن الناس على شواطئ البحيرات يرقصون على أنغام زنجبار^(٢) ،

وعلى هذا فقد صادف السلطان سعيد نجاحاً كبيراً ، على الرغم من أن عصر الاستعمار الأوروبي كان قد بدأ ، واتجهت القوى الأوروبية لمصارعة السلطان المسلم في هذه المنطقة^(٣) .

انقصال زنجبار عن عمان :

عقب وفاة السلطان سعيد انقسمت دولته إلى سلطنتين مستقلتين الأولى أسبوية في عمان ومسقط ، والثانية إفريقية تشمل الساحل الإفريقي والجزر

(١) دكتور صلاح المقاد . . . المرجع السابق ص ٧٤

See: Ruete' R. : Said Bin Sultan, Ruler of Oman and East Africa (٢)

(٣) دكتور عبد العزيز كامل : قضية كيليا ص ٢٢

المواجهة له ، وكان يحكم مملكة زنجبار أثناء السلطان سعيد الدين ظلوا في الحكم حتى سنة ١٩٦٤ ، وفيما يلي أسماء هؤلاء السلاطين

ماجد (أو مجيد) بن سعيد ١٨٥٦ - ١٨٧٠

برغش بن سعيد ١٨٧٠ - ١٨٨٨

خلقة بن سعيد ١٨٨٨ - ١٨٩٠

علي بن سعيد ١٨٩٠ - ١٨٩٣

حامد بن ثويني بن سعيد ١٨٩٣ - ١٨٩٦

هود بن محمد بن سعيد ١٨٩٦ - ١٩٠٥

علي بن هود ١٩٠٥ - ١٩١١

خليفة بن خروب بن برغش ١٩١١ - ١٩٦٤

وفي خلال عهد برغش برز اسم تاجر عربي إفريقي هو حميد بن محمد ابن جمعة المرجبي الذي يسميه الأوربيون « نيوتيب » وقد ولد هذا البطل في زنجبار سنة ١٨٣٢ وسر من أصل عماني واشتغل بالتجارة ، فنجح فيها نجاحاً كبيراً ، وعرف بالشجاعة وحب المغامرة ، واستلزمت التجارة الواسعة التي كان يزاوئها أن يكون له حرس وأعوان على نحو حالة الزبير رحمت الذي تحدثنا عنه من قبل ، وسارت تجارة المرجبي شوطاً واسعاً داخل إفريقيا ، وتوغلت قواته مع تجارته لتحملها وتلطف عنها ، واستطاع أن يصل إلى الكونغو وأن يقيم به وبالمناطق الأخرى التي دخلها محطات تجارية ومراكز عسكرية حصينة ، واستطاع بالمصالحة حيناً وبال حرب حيناً أن يرفع علم برغش سلطان زنجبار على مساحات شاسعة بالداخل اعترف ببيعها لزنجبار وكان المرجبي يلقب « فاتح الكونغو » وقد التقى سنة ١٨٦٧ بالرحالة الإنجليزي ليفنجستون وأنقذ حياته من الجوع والمرض كما ساعد

سنة ١٨٧٢ الرحالة استأنل في البحث عن لفنجستون بعد أن انقطعت أخباره (١) .

وجاء الربع الرابع من القرن التاسع عشر ، وهو الفترة التي اتجه فيها الاستعمار إلى الاحتلال ، وكان من قبل يكتفى بالسيطرة الخارجية والاستغلال الاقتصادي ، فتعاونت قوات إنجلترا وبلجيكا للتخلص من المرجي ، فافتعلت هاتان الدولتان الوسائل للصدام به والقضاء على سلطانه بالكونغو ويداخل القارة ، وقد تمّ للاستعمار ذلك في معركة حدثت سنة ١٨٩٢ ومات المرجي عقب ذلك في زنجبار سنة ١٩٠٥ .

واتجهت قوى الاستعمار كذلك لساحل زنجبار ، وقام صراع بين ألمانيا وبريطانيا في السيطرة على هذا الساحل ، فتكونت لجنة من هاتين الدولتين للتوفيق بين مطالبهما ، وصدر تقريرها في يونيو سنة ١٨٨٦ وخلاصته أن للسلطان حقوق سيادة على جزيرتي زنجبار وبمبا ، وعلى شريط ساحلي عرضه عشرة أميال بين مقدشو شمالا ، وإفريقية الشرقية البرتغالية جنوبا ، ووقعت معاهدة بذلك في نفس العام ، وقسمت الأرض للداخلية خلف هذا الشريط إلى منطقتي نفوذ ، الشمالية بريطانية « كينيا » والجنوبية ألمانيا « تنجانيقا » ، وقد آلت السلطة فيها أيضا لبريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى ، ووافق السلطان على ذلك ، تحت ضغط الوعد والوعيد (٢) ، وأصبح مسلمو مملكة زنجبار بذلك يكوّنون أقلّيات في المستعمرات التي شملتهم .

وهكذا تقلصت سلطة زنجبار ، فأصبحت عبارة عن جزيرتي زنجبار وبمبا وشريط ضيق على الساحل وسرعان ما تطلعت بريطانيا لهذا الشريط

(١) أحد مطية الله : القاموس الإسلامى ج ١ ص ٢٠

(٢) دكتور عبد العزيز كامل : قضية كينيا ص ٢٢ - ٢٣

فلرغمت السلطان على أن يمنحها به امتيازات نظير مبلغ مالي ، ثم استولت عليه نهائياً ولم تعد سلطنة السلطان تتمثل إلا في جزيرتي زنجبار وبمبا ، بل لأن بريطانيا لم تدع هاتين الجزيرتين في حكم مستقل ، فقرضت عليهما الحماية سنة ١٨٩٠^(١) .

نهاية زنجبار :

خلال سنة ١٩٦٣ و ١٩٦٤ تلاحقت أحداث خطيرة تتصل بسلطنة زنجبار على النحو التالي :

— في ٢٤ يونيو سنة ١٩٦٣ منحت بريطانيا زنجبار استقلالاً في الأمور الداخلية وبقيت شئونها الخارجية تابعة لبريطانيا .
— في ٩ ديسمبر من العام نفسه أعلنت زنجبار انفصالها عن التبعية البريطانية والاستقلال التام .

— في ١٢ يناير سنة ١٩٦٤ أعلن الحزب الإفريقي الشيرازي الثورة ، وعزل آخر السلاطين البوسعيديين خليفة بن خروب ، وأعلن زنجبار جمهورية شعبية ، وعين الشيخ عبيد كروى رئيس مجلس الثورة رئيساً للجمهورية .

— في ٢٧ إبريل من العام نفسه أعلن الحزب انضمام جمهورية زنجبار إلى جمهورية تنجانيقا لتكون منهما جمهورية واحدة اسمها جمهورية تنزانيا برأسها رئيس جمهورية تنجانيقا (جوليوس نيريري ، وأصبح عبيد كروى نائباً أول للرئيس الجمهورية ،

— في السابع من إبريل سنة ١٩٧٢ اغتيل الشيخ عبيد كروى وهو

يجلس في مقر الحزب الأفرو شيرازي ، وقد استطاع المهاجرون أن يصيخوا بعض الحاضرين بإصابات مختلفة بعضها خطير ، وفي نفس اليوم والأيام التالية قضى على أربعة ممن اتهموا بهذا العدوان ، وذكرت المصادر أن اغتيال الشيخ عبيد كان عملية سياسية ، ولم ترد تفاصيل أخرى حتى كتابة هذه السطور ، ولم يتم اختيار خلف لرئيس مجلس الثورة في زنجبار .

مسلمو زنجبار :

كانت زنجبار دولة ذات جاه وصولة ، وكان من الممكن أن ينزل بها ما نزل بالدول الإسلامية من ضرر من جراء الاحتلال الأوربي ، ثم تفيق من كبوتها كما فعلت أكثر الدول الإسلامية ، ولكن نصيب زنجبار كان قاسيا ، فقد أناخ الاستعمار عليها بكل كلفة ، ولم يدعها تصحو من جديد ، بل مزقها إلى أشلاء ووزع هذه الأشلاء على ممالك يتسم الحكم فيها بالمسيحية المتعصبة كما قلنا من قبل ، وحاول الحكام الجدد أن يقضوا على الإسلام فأصبح المسلم يوارى إسلامه ويتظاهر بتغيير اسمه وبخاصة في تنزانيا ، وفقد العالم الإسلامي بذلك قطرا إسلاميا له في التاريخ مكان وسلطان .

• • •

والآن بعد هذه الجولة الطويلة مع الإسلام جنوب صحراء إفريقيا يتضح لنا أن الإسلام خلق في هذا النطاق مجموعة كبيرة من الإمبراطوريات والممالك ، وقد عشنا معها وهي تعبر القرون في هذه القارة ، وتنتشر الحضارات والازدهار والعدالة ، حتى اقتحمها ذلك الوحش الأوربي الكاسر ، فذلك الممالك ، وأوقف الرقي ، وسلب الحقوق ، وألقى بالقارة في دياجير الظلام ، وقد آن لنا أن نتنقل إلى هذه الفترة الكالحة من تاريخ القارة لنترى ما فعله المستعمر الأوربي بأرض القارة وبشعبها وخيراتنا .

الباب الخامس

الاستعمار الأوربي لأفريقيّة
وموقفه من الإسلام

مقدمات

— الاستعمار بين التدمير والتخريب :

من الواضح أن كلمة الاستعمار من أسماء الأضداد ، فإذا كان اللفظ العربي يفيد أن الاستعمار انتقال إلى العمران ، فإن واقع الأمر يجعل الاستعمار أداة للتدمير والتخريب الذي يمس الإنسان والأرض ، والحاضر والمستقبل .

فإذا جئنا إلى معنى الاستعمار في القانون الدولي ، فإن أقرب ما يقال عن الاستعمار هو أن تضم دولة قوية لأراضيها أرضاً تسكنها شعوب متأخرة ، وتباشر الدولة القوية على هذه الشعوب صوراً من السيادة والنفوذ ، واستغلال الأرض والسكان لصالحها .

وقد كان نصيب إفريقيا من الاستعمار واسعاً وكريهاً ، فقد وفدت لها كل الدول الاستعمارية دون استثناء ، وفدت لها بريطانيا أم الاستعمار ، وفرنسا ، وبلجيكا ، والبرتغال ، وأسبانيا ، وألمانيا ، وحتى إيطاليا التي كانت محدودة الجهد ضعيفة البناء ، اتجهت إلى الاستعمار في إفريقيا .

— مراحل استعمار إفريقيا :

وقد بدأت الحركة الاستعمارية في القرن الخامس عشر ، مرتبطة بحركة الكشف عن هذه القارة ، وكانت البرتغال زعيمة في هذا الشأن ، وقد اتخذت حركة الكشف مراحل ثلاثة : امتدت الأولى من القرن الخامس عشر إلى القرن السابع عشر وتزعمتها البرتغال التي اتجهت إلى الساحل الغربي ثم الساحل الشرقي لإفريقية ، أما المرحلة الثانية فقد اشترك فيها عدد من الرحالة اتجهوا

نحو اثيوبيا وغربي إفريقيا وسناليها وظلت حتى مطلع الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، أما هذا الربع الأخير فتشمل فيه المرحلة الثالثة ، وفيه اندفعت دول الاستعمار إلى قلب القارة وتغلقات فيها .

وقد كانت الجزر التي توجد في غرب القارة وشرقها محطات أولى نزل بها الاستعمار ، وبما يقصد التجارة والاستغلال ، ولكنه سرعان ما اتخذها أماكن يقفز منها إلى الساحل ، ومن هذا الساحل خطا الاستعمار خطوته الثانية ، فوثب إلى قلب القارة ، ففي الغرب استولت البرتغال على جزيرة ماديرا وقفزت منها إلى الساحل الغربي ، واستولت أسبانيا على جزر كناريا ووثبت منها إلى سواحل ريونورد ، وفي الشرق استولى البرتغاليون على جزيرة زنجبار لتقفز منها إلى شرق القارة وهكذا .

وكانت بنجيكا أسرع للدول في السخول إلى قلب القارة ، فقد أدخل ليوبولد ملك بلجيكا الرحالة ستانلي في خدمته سنة ١٨٧٩ ووجه ليوبولد عنايته نحو الساحل الغربي ، وأقنع دول أوروبا بأن تبقى الكونغو خاضعة لشوذه ، فوافقت هذه الدول على ذلك ، وكان الصرت الأمريكي ذا أهمية كبرى في مساعدة ليوبولد لوضع هذه المستعمرة في جيبه ، ثم اندفعت ألمانيا بعد ذلك فاستولت على جنديب شرقي إفريقيا وتوجولاند والكمرون وشرقي إفريقيا ، وتنافست دول أوروبا لاقتسام القارة ، ولقيت أوروبا في زحفها كل صنوف العون والمساعدة من الأمريكيين المتشبعين بالحرص على المصالح المالية والتجارية (١) .

— ظروف داخلة سببت نهو استعمار :

وكانت إفريقيا تعاني أثناء المئاة من مشكلات سياسية واجتماعية وثقافية ،

وقد يتر هذا الوضع للأوروبيين أن يتسللوا للقارة ويكونوا بها مراكز نفوذ وسلطة ، فمن الناحية السياسية كان بعض الزعماء يقبضون في أيديهم بزمام سلطة لا منازع لهم فيها ، وكان هؤلاء يرون أنهم يحكمون مطلقاً ، وقد استطاع الاستعمار أن يلوح لأولئك بالرأفاهية والغرف وضمان الحقوق فتعاونوا معه وعقدوا معه بعض المعاهدات ، أو اشترى منهم الاستعمار بعض الموانئ والمواقع .

ومن الناحية الاجتماعية والاقتصادية لم تكن هناك ملكية فردية تدفع الفرد ليدافع عن ممتلكاته ، وهذا جعل الصراع ضد الاستعمار - في مراحله الأولى - قليلاً ، وبالإضافة إلى ذلك لم يكن هناك للفرد وطن معين يرتبط به ويحس بالتزامه بالدفاع عنه ، وذلك بسبب حياة التنقل والرعى ، فكان الاستعمار إذا اقتحم أرضاً اتجه الإفريقيون إلى أرض سواها ، في القارة الشاسعة .

٥

ومن الناحية الثقافية كانت إفريقية متخلفة علمياً وعسكرياً ، فلم تستطع أن تنتفع بما في القارة من ثروات طبيعية ، واكتفى الإفريقيون بالجهد البسيط الذي يضمن لهم لقمة العيش الجاف عن طريق الرعى أو صيد الحيوانات وما شاكل ذلك ، ولم تستطع الوسائل الحربية البدائية أن تقف في وجه أسلحة الغرب الفتاكة (١) ،

وكانت مأساة الرق التي بدأت من القرن الخامس عشر ، قد أضعفت الإفريقيين وقللت مقدرتهم على المقاومة فساعد ذلك على سقوط القارة ضحية للاستعمار .

— معاهدات تنظيم السلب والعرواح :

في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، أصبحت إفريقية كلها فريسة للاستعمار الأوربي ، وراح الأوروبيون يقسمون القارة كالفريسة تتقاسمها السباع الضارية ، وسرعان ما وصل التنافس بين المستعمرين إلى حافة الصراع ، ثم رأى المستعمرون أن ينموا بالفريسة بدل أن يتصارعوا عليها ، فلم تكن الفريسة عندهم موضع عطف ، ولا كان التهام إفريقيا موضع تردد ، ولكن الوقتة التي وتغيرها كانت لتنظيم التهام هذه الفريسة ، ومن هنا شهدت أوروبا سلسلة من المعاهدات والاتفاقات من أشهرها وأهمها معاهدة برلين (١٨٨٤ - ١٨٨٥) وهي تعتبر عملاً دولياً لتنظيم عملية السلب وانتهب في القارة الإفريقية ، فإنه لما أدنى استعمار إفريقية وتقسيمها بين الدول الأوروبية إلى منازعات مستمرة بين هذه الدول ، دعا بمبارك لهذا المؤتمر واشتركت فيه إنجلترا ، فرنسا وألمانيا وبلجيكا والبرتغال وأسبانيا وإيطاليا ، ومن أهم ما جاء فيه المادة الرابعة والثلاثون وهي تدل على روح المؤتمر ، « أن المقصود منه حماية الدول المستعمرة وليس رعاية الفريسة ، ونص هذه المادة هو : « تلزم كل دولة من الدول الأطراف في هذه الاتفاقية في حالة قيامها بوضع بدنها ، أو تقرير حمايتها على أى إقليم من إفريقية بإبلاغ ذلك إلى الدول الأخرى الموقعة على هذه الاتفاقية » وواضح من هذا النص أنه يفتح الباب على مصراعيه لسلب أية بقعة من إفريقية ، وليس على السالب من حرج ، وكل ما عليه أن يبلغ ذلك إلى الدول الأخرى حتى لا ينافسه سالب آخر .

وقد علق باحث على هذه المعاهدة بقوله : لقد كان معنى مؤتمر برلين إضفاء الشرعية والأحقية الدولية على التهام قارة من قارات العالم ، وكان معنى نصوص المعاهدة أن التملك بوضع اليد جائز في الأراضي غير التابعة

للولة أخرى من الدول الموقعة على الاتفاقية ، سواء أكانت مسكونة بقبائل
رحالة أو بأمة من الأمم ، ولم يكن يدرك رؤساء القبائل معنى العهد التي
تضعهم تحت الحماية الاستعمارية ، ومعنى هذا أن الاتفاقية لم تفكر في حرية
الشعوب الإفريقية ، ولا في إدارتها ولم تلاحظ مشيئة الشعب في مصر ووطنه
على الإطلاق ، وتجاهلت الدول الأوربية هذه الشعوب على اعتبار أنهم
لا وجود لهم في نظر القانون الدولي العام (١) .

وتدفع البيض المستعمرون على إفريقية من كل صوب ، واقتحموا أعماقها ،
وفوجئ بهم للمواطن الإفريقي ، ولكن المستعمر الأبيض كان يريد أن ينال
هذه القرية دون أية تضحية ، ولذلك راح يخدع الإفريقيين ويوهمهم
بأنه جاء بقصد التجارة ومساعدة المواطن الإفريقي في مجالات الحضارة
والصحة والتعليم والاقتصاد ، وخدع المواطن الإفريقي بهذا القول المعسول ،
وأحسن استقبال سارقة في كثير من الأحوال ، أو وقف أمامه بصارعه حتى
هزمته أساحة الغرب ، وفي كلا الحالتين عقيدت اتفاقيات بين المستعمر
الأبيض وقبائل إفريقية ، حتى أن بريطانيا وحدها عقدت ثلاث سنوات
(١٨٨٤ - ١٨٨٦) نحو ثلاثمائة معاهدة واتفاقية مع زعماء القبائل في غربي
إفريقية وحدها (٢) .

وينبغي أن نقف وقفة قصيرة أمام المعاهدات الخداعة وغير المتكافئة
التي عقدت في أنحاء كثيرة من إفريقية بين المستعمرين وبعض السلاطين
والزعماء والقادة ، تلك المعاهدات التي سلم فيها هؤلاء الزعماء للمستعمر
بكثير أو قليل من الحقوق في أرض القارة ، والحق أنه لم يكن من مصلحة
هؤلاء الزعماء أن يتنازلوا عن حقوق شعوبهم في الأرض للغير ، ولكن

(١) دكتور فيليب رفل : الجغرافية السياسية لأفريقية ص ٤٨ .

(٢) Statesman's Yearbook 1894 p 1830

نفوسهم كانت قد دُمِّرت بسبب ما رآوه من رق الإفريقيين فأصبحوا يخافون البيض ، وبعض هؤلاء الزعماء اشتركوا بطريق أو بآخر في جريمة استرقاق الإفريقيين فأصبحوا يخافون السود كذلك ، ومن هنا كان تعاونهم مع الأوروبيين ، ومن هنا جاءت هذه المعاهدات التي فسرناها الاستعمار على أنها تنازل لم في احتلال الأرض ، مع أن نسبة التنازل لم تكن في الحقيقة واضحة فيها ولا مسترة (١) .

وعقب معاهدة برلين الجماعية عقدت معاهدات أخرى بين الأوروبيين لتنظيم الحدود وتقسيم الأسلاب ، وعلى هذا لم يخل عام من الأعوام التالية تقريباً من معاهدات من هذا النوع ، وفيما يلي نماذج من هذه المعاهدات :

سنة ١٨٨٥ : معاهدة بإنشاء ولاية الكونغو

اتفاق بين بلجيكا والبرتغال بشأن الحدود .

» » بلجيكا وفرنسا » »

سنة ١٨٨٦ : اتفاق ألمانيا وإنجلترا بشأن شرق إفريقيا .

سنة ١٨٨٧ : اتفاق بين بلجيكا وفرنسا بشأن الحدود في منطقة الكونغو .

سنة ١٨٨٨ : اتفاق بين فرنسا وإنجلترا بشأن الصومال الشمالي .

سنة ١٨٨٩ : اتفاق بين إيطاليا وإنجلترا بشأن الصومال الجنوبي .

سنة ١٨٩٠ : اتفاق بين فرنسا وإنجلترا بشأن الصحراء .

اتفاق بين إنجلترا والبرتغال بشأن نياسالاند .

سنة ١٨٩١ : معاهدة إنجلترا مع ملك أوغندا .

اتفاق إنجلترا وإيطاليا جديد بشأن الصومال .

سنة ١٨٩٤ : اتفاق بين إنجلترا وإيطاليا بشأن أريتيريا :
معاهدة بين البرتغال وبلجيكا وإنجلترا بشأن حدود الكونغو
اتفاق بين ألمانيا وفرنسا بشأن الصحراء الكبرى (١).

— إزاحة الأسماء والمحمود :

إذا كنا نشهد الآن محاولة ملحّة من إسرائيل لتخفي اسم فلسطين كأنها
نحس أن هذا الاسم يقلت مضجعها ، ويحدث الاضطراب في حياتها ، فإن
هذه السياسة مستوحاة من الاستعمار الأوربي لإفريقية ، فإن هذا الاستعمار
جعل من أبرز أسسه أن يزيل الأسماء القديمة للدول والمناطق الإفريقية ،
وأن يزيل الحدود بينها ، ويبعد تقسيم القارة وتسمية أجزائها ، كأنه بذلك
يحاول أن يخفي معالم الحق والماضي ، ويصنع القارة بصيغة جديدة لا تصلها
بالتاريخ ، وعلى هذا أصبحت مناطق إفريقية مسماة بالأسماء الآتية :

- ١. إفريقية الغربية الفرنسية .
- ٢. إفريقية الغربية للبريطانية .
- ٣. إفريقية الفرنسية الاستوائية .
- ٤. إفريقية الشرقية الألمانية .
- ٥. إفريقية الجنوبية الغربية .
- ٦. إفريقية البرتغالية وهكذا .

بل راح الاستعمار يسمي بعض المناطق بأسماء الفاتحين والملوك الأوربيين
مثل سيشل ، لبوبولد فيل ، استانلي فيل ، بحيرة فيكوتوا ، بحيرة ألبرت ،
رودس ، روديسيا ،



وفي بعض مناطق إفريقية عمد المستعمر إلى ما يسمى استعمار الإبادة ،
فدفع السكان الأصليين إلى الهجرة من مكان إلى مكان ، وطاردتهم حتى
هلموا على وجوههم ولم يبق منهم إلا من يحتاجه المستعمر كيد عاملة أو آلة
منتجة لصالحه ، ولم يجعل المستعمر لهؤلاء أية حقوق سياسية أو اقتصادية ،
وذلك ما حدث في روديسيا وجنوبي إفريقية ، مما جعل المواطن غريباً
وطنه وجعل الغريب مالكا للدار .

وكانت الأرض ذات المناخ الجميل ضحية هذا الاتجاه ، فقد اختار
الأوروبيون المناطق المرتفعة لتسكون وطننا لهم ، وفي ذلك يقول
A. J. Hughes (٣) لو أن أرض شرق إفريقية لم تكن مرتفعة هذا الارتفاع
للساحل الذي يتراوح بين ٤,٠٠٠ و ١٠,٠٠٠ قدم ، لتغير تاريخ هذه
المنطقة ، فإن أكثر أرض القارة مسطحة تحيط بها الشواطئ ، ولكن
مساحات واسعة في ليبيا وتنجانيقا مرتفعة ، وهذا جعلها أرضاً صالحة
لإقامة الأوروبيين ، لجمال جوها ومناسبتها للقادمين من الشمال . ومثل كينيا
وتنجانيقا في ذلك روديسيا وجنوبي إفريقية .

— المهرول الجرد لإفريقية :

وبناء على ذلك شمل الاستعمار إفريقية كلها ، ولم ينج منه إلا دولتان
اثنتان فقط ، شيء واحد هما من الاستعمار ، ذلك هو المسيحية ، وهاتان
الدولتان هما اثيوبيا وليبيريا

أما القارة كلها فقد اقتسما الاستعمار الأوروبي ، لا فرق بين المناطق
الإسلامية أو الوثنية أو اللادينية ، وكان نصيب إنجلترا وفرنسا نصيب الأسد
في هذا السلب ، فإجلترا احتلت مصر والسودان وكينيا وأوغندا والصومال

البريطاني ونيجيريا وغانا وسيراليون وبتشوانالاند واتحاد وسط إفريقية وجنوب إفريقية ، وبهذا خضع لها أكبر عدد من السكان الإفريقيين ويقدر عددهم بحوالى ٦٥ مليون نسمة ؛ واحتلت فرنسا تونس والجزائر ومراكش وإفريقية الغربية الفرنسية ، وإفريقية الفرنسية الاستوائية والكمرون ومدغشقر والصومال الفرنسى ، وكانت بذلك أكبر دولة أوربية مستعمرة بإفريقية من حيث المساحة ، واحتلت بلجيكا الكونغو وأوراندى ، واحتلت البرتغال مناطق على الساحل الشرقى والغربى وأنجولا وغينيا البرتغالية ، واحتلت أسبانيا بعض الجزر بغربى إفريقية وبعض المناطق فى شمالى إفريقية وغربها ، واحتلت إيطاليا ليبيا والصومال الإيطالى ثم احتلت أثيوبيا فترة قصيرة إبان عهد موسولنى ، واحتلت ألمانيا إفريقية الشرقية الألمانية ، كما احتلت إفريقية الجنوبية الغربية وتوجولاند والكمرون .

وكان اتجاه بريطانيا فى استثمارها لإفريقية يميل إلى محاولة شق القارة بتمتلكاتها من الشمال إلى الجنوب وتحدث البريطانيون عن حلم كان يساورهم ، وهو إقامة خط يجرى فى ممتلكات الناج ويشق القارة من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، ولكن هذا الحلم كان يعارضه حلم فرنسى آخر ، فقد اتجهت فرنسا إلى رسم حزام إفريقى يسير فى ممتلكات فرنسا التى تشق القارة من الشرق إلى الغرب ، وقد سارت كلتا الدولتين خطوات واسعة لتحقيق أحلامها ، واتجهت بمستعمراتها هذا الاتجاه ، ولكن نقطة الالتقاء بين الحزامين أو الخطين حالت دون تحقيق المهدفين .

وقد ذكرنا آنفاً مستعمرات ألمانيا ، ولكن ألمانيا عندما هزمت فى الحرب العالمية الأولى ، وضعت مستعمراتها تحت انتداب الدول المنتصرة ، أو قل إن هذه المستعمرات ضمت إلى ممتلكات المنتصرين ، فأشرفت بريطانيا على تنجانيقا وزنجبار ، وبريطانيا وفرنسا على توجولاند والكمرون ،

واتحاد جنوب إفريقيا على افريقية الجنوبية الغربية .

وقد سبق أن قلنا أن أثيوبيا وليبيريا نجتا من الاستعمار بكل صورته ، ولم يكن ذلك لترقي الدولتين ، وإنما كان نشيء واحد هو أنهما كانتا تدينان بالمسيحية دين المستعمر الأوربي ، فأثيوبيا يمثلها المفكرون بسفينة مسيحية وسط محيط من المسلمين ، ولذلك حماها الاستعمار الأوربي ، بل منحها كل تأييده وأضاف لها بعض مساحات من أرض المسلمين ، كأريتريا وبعض مناطق الصومال وهذا مكن لها أن يكون لها منفذ على البحر ، ولم تكن من قبل تستمتع بمثل هذا المنفذ إذ كان يحيط بها من الجنوب والشرق ما يسمى بممالك الطراز الإسلامي^(١) .

أما ليبيريا فقد أعيد لها بعض الأرقاء الذين كانوا قد بعث بهم إلى أمريكا ثم - بعد تحرير الرقيق - أعادتهم أمريكا ، واتخذت لهم موطناً في إفريقيا هو ليبيريا ، وكان هؤلاء قد اعتنقوا المسيحية في جولاتهم بين الوطن الأم وبين الدنيا الجديدة ، وبسبب اعتناقهم المسيحية لم تمتد لهم يد المستعمر ، التي امتدت يده إلى كل البقاع الأخرى .

عود إلى النطاق الموسوم بجنوب الصحراء :

وبعد هذه الجولة عن الاستعمار الأوربي بإفريقية ، نعود لندخل بدراستنا ضمن الإطار الذي يشمل هذا الكتاب ومو الدول الإسلامية جنوب الصحراء الإفريقية ، فإن هذه المنطقة هي التي يعنينا بحثنا الآن ونحن نتكلم هنا عن التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بها ، والناظر إلى خريطة إفريقيا يجد

هذه المناطق تحت سلطان فرنسا وإنجلترا وإيطاليا ، وربما كان لفرنسا
التصيب الأكبر في هذه المنطقة ، فقد خضعت لها موريتانيا والسنغال ومالي
(السودان الفرنسي) وغينيا والتيجر والصومال الفرنسي ، وكان لبريطانيا
السلطان على نيجيريا وسودان وادي النيل والصومال البريطاني وزنجبار ،
وكان لإيطاليا السلطان على الصومال الإيطالي ، وأما البرتغال فقد امتد
تقوؤها فترة ما إلى جزر الساحل للشرق وبعض مناطق الساحل الغربي ،
ولا يزال تقوؤها في غينيا البرتغالية .

وسنورد فيما يلي بعض الدراسات عن هذه المناطق الإسلامية بوجه خاص
وعن المقاومة كلها بوجه عام إبان حياتها تحت نير الاستعمار الأوربي البغيض :

الاستعمار واقتصاد إفريقيا

كان بإفريقية ثروة ضخمة من المواد الخام لم تجد اليد التي تستغلها ، كما كانت هناك مناطق شاسعة تصلح للزراعة ، وكانت أوروبا تحتاج للجانبين ، تحتاج للمواد الخام لتموين المصانع في عهد النهضة الصناعية بأوروبا وتحتاج للأرض الزراعية التي تَمُدُّ المستهلك الأوربي بمحاجته من الطعام بعد أن تعطلت المزارع الأوربية بسبب هجرة عمال الزراعة إلى المناطق الصناعية التي جذب بريقها أكثر الأيدي التي كانت تعمل في الحقول .

هذا جانب اقتصادي ، وهناك جانب اقتصادي آخر هو أن تتولى الدول المستعمرة دور الوسيط التجاري للمنتجات الإفريقية كالعاج وزيت النخيل والماس والذهب والقطن وهو جانب يُدِرُّ ربحاً طائلاً لأن المستعمر كان يشتري بالثمن الذي يجدهه في منافسة ، ويبيع في السوق العالمية لمن يدفع ثمناً أعلى .

وجانب اقتصادي ثالث أنجه له الاستعمار هو أن يجعل إفريقيا تمتص الأيدي الزائدة والبطالة بأوروبا ، ومن هنا شجعت الدول المستعمرة الهجرة للعمل أو الاستيطان بإفريقية .

وجانب اقتصادي رابع هو أن المستعمر رفع شأن بعض الزعماء وروساء القبائل ومنحهم بعض المال ليساعدوا على استقراره ، كما خلق بعض العناصر من الوطنيين لبعض الأعمال الإدارية بإفريقية ، وقد تكون من هؤلاء وأولئك مجموعة من المستهلكين يبيع لها المستعمر منتجاته ويصرف حاصلاته الصناعية .

وقد مارس الاستعمار الأوربي كل هذه الأنواع بالتقاطع الإسلامي بإفريقية

الذى نتحدث عنه ؛ فقد يسرت القوانين الفرنسية وسائل استيلاء الفرنسيين على الأرض في إفريقية الغربية والاستوائية ، فقضت هذه القوانين بأن الاعتراف بالملكية الفردية السابقة للاحتلال يستلزم وجود مستندات ثابتة ، ومن الطبيعي أنه لم تكن هناك مستندات للملكية ، وبهذا آلت أكثر الأرض إلى الدولة ، وهناك أراض أخرى صدرت قوانين مباشرة بمصادراتها وهى أراضي السلاطين الذين قاوموا الفتح ، وأراضى أسرهم وأراضى الذين فروا أمام قوات الفتح ، أو ماتوا خلال عمليات الزحف ، وكذلك أراضي الغابات والجبال ، وبهذا نترك أن هذه القوانين جعلت أكثر الأراضي ؛ إن لم يكن كلها ملكاً للمستعمر .

وبعد هذا جاء دور استغلال هذه المساحات الشاسعة ، فقد أعطيت هذه المساحات لشركات استثمار فرنسية ، وقد بلغت مساحة الأراضي التى أعطيت للشركات بصفة الملكية الدائمة ٥٧,٤١٩ هكتاراً (الهكتار ١٠,٠٠٠ متر مربع وذلك يساوى فدانين وثلاثاً تقريباً) والى أعطيت بصفة الملكية المؤقتة ٩٣,٢٨٤ هكتاراً ، وكانت معظم هذه المساحات فى ساحل العاج وغينيا ، وخصص أكثرها لإنتاج الموز والأرز والبن ، وقد أعطيت تجارة الصادر والوارد فى هذه الممتلكات الفرنسية احتكاً لعدة شركات ، كما جعل التعدين وفقاً على بعض الشركات الفرنسية الأخرى ، وقد بلغ ما استُخرج من الذهب فى إفريقية الغربية ستون كيلو جراماً سنة ١٩٢٩ ، ثم ارتفع إلى ٢٠٣٩ كيلو سنة ١٩٣٤ ، ومثل الذهب معادن الفوسفات فى السنغال ، وغيرهما من المعادن (١) .

وبمختلف الحال انجلترا عن فرنسا ، فإن الاستيطان البريطانى اتجه إلى المناطق التى تناسب الأوروبيين سعى ناحية الجو ، كجنوب إفريقيا ،

(١) دكتور زاهر رياض : استثمار إفريقيا من ٢٥١ - ٢٥٢ بصرف .

وروديسيا ، أما المناطق الإسلامية التي نتحدث عنها كنيجيريا والسودان فقد عاش فيها الموظفون الرسميون الإنجليز الذين عنوا بتوجيه الاقتصاد والإنتاج الزراعى لخدمة بلادهم ، فاتجهت صادرات نيغيريا من الكاكاو وزيت النخيل والقول السوداني إلى بريطانيا ، كما أن بريطانيا باعت من المحصول ما يزيد عن حاجتها إلى الدول الأخرى ، وفي السودان استُغلت جميع الإمكانات الزراعية لخدمة الاقتصاد البريطانى ، فقد زُرِع إقليم الجزيرة قطعاً وتولت الإشراف عليه شركة زراع القطن البريطانية ، وكانت هى التى تتولى الإتفاق عليه من أجل الحصول فى النهاية على جميع إنتاجه بالأسعار التى تحددها ، وقد كانت هذه الأسعار خلال الحرب العالمية الثانية ، أقل بكثير جداً من الأسعار العالمية ، أما فى المناطق التى يناسب مناخها ظروف المستعمر فقد صُنّت القوانين سهولة الاستيلاء على الأراضى وتسليمها للمستوطنين الإنجليز ، فقد أباح قانون الأراضى استيلاء الدولة على كل الأراضى الخالية فى شرق إفريقيا ، أو التى ليس لها ملاك ، أو على أى أرض شاءت لأى غرض شاءت ، دون أن تعوّض أهلها أو مالكيها ، وتنفيذاً لذلك طُرِدَت قبائل إفريقية بأكملها من أراضىها واستولت عليها الحكومة ، وأعطيت إلى مستغلين من البيض ، وجُعِلَ متوسط الأرض التى يملكها الرجل الأبيض عشرة آلاف فدان ، اتخذت شكل إيجار اسمى لمدة ٩٩ سنة ، بل العجيب أن هذه المدة لم تقنع المستعمر البريطانى ، فطالب بإطالتها ، فاستجابت الدولة له ، وأضافت رقم (٩) إلى التسعين السابقتين لتصبح المدة ٩٩.٩ سنة وهو تاريخ خيالى (١) ، وأكد السير تشارلز ايلبوت سنة ١٩٠٥ أن من السخف والتناقض عدم الاعتراف بأن مصالح البيض هى التى يجب أن تُرَوِّد فى إفريقيا البريطانية (٢) .

(١) دكتور رياض زاهر : الإستعمار الأوروبى لإفريقية ٢٢٩ بمصر .

(٢) A. E. Abraham : The Mind of Africa p. 136

أما إيطاليا فقد راحت تقلد فرنسا وبريطانيا في هذه الاتجاهات الاستعمارية ، بل بالغت أحياناً فأرادت القضاء على العنصر الوطني لتدفع بالإيطاليين إلى مساكنهم وأراضيهم ، ولكن سياسة إيطاليا فشلت فشلاً تاماً ، فلم تستطع أن تتغلب على المواطنين في الصومال وأريتريا والحبشة ، ولم تفلح سبلستها في استعمال بعض القبائل ضد بعض ، كما لم تنجح المزارع الإيطالية التي استغلها الإيطاليون ، وظلت إيطاليا تستورد للإيطاليين بشرفي إفريقيا كثيراً من السلع الضرورية للحياة كاللحبق والأرز والأقمشة والبنزول والشاي ، مما جعل الاستثمار الإيطالي عبثاً على الخزائن الإيطالية ، وهكذا لم تستثمر إيطاليا الأرض ، ولم تدع الأهليين يستثمرونها ، وإذا كانت قد استوردت حاجات المهاجرين الإيطاليين ، فإن المواطنين بالمستعمرات الإيطالية قاسوا الجوع والحاجة ، خلال هذا الاستعمار البغيض ، وحرصت إيطاليا بطبيعة الحال على احتكار الأسواق التجارية والاستيلاء على كل ما أنتجته الأرض التي كانت خاضعة لها كالصمغ والقطن والبن والأسماك ، وبعض الحيوانات الحية كالجمال .

وتدل الإحصاءات على بشاعة الشره الأوربي في إفريقيا ، فقد أصبحت الشركات الفرنسية تملك في إفريقيا الإستوائية ما يقرب من مليوني هكتار ، أما في السنغال فلم يكن ما تملكه الشركات الفرنسية أقل من ٩٠,٠٠٠ هكتار من أجود الأراضي .

وحقت شركة إفريقية البريطانية ربحاً قدره ٢٩ مليون جنيه عام ١٩٥٠ ، وحقت الاحتكارات البريطانية في غرب إفريقيا وأوغندا ربحاً صافياً قدره ١٣٣ مليون دولار من الكاكاو وزيت النخيل فقط ، في الفترة بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٥٢ ، واستخرجت الشركات البريطانية في السنغال قرابة ٣,٧٦٠,٠٠٠ أوقية من الذهب (١) .

(١) صبرى أبو المجد : ثورة إفريقيا ص ٦١ - ٦٢ .

وبالإضافة إلى وسائل السلب الخفية ، كانت دول أوروبا تعتمد إلى العروات التي لا تستطيع سلبها وإنخاءها فتودعها في بنوكها ، ولا تسمح لها بأن تعود إلى إفريقيا لتُنفق في أوجه الإصلاح أو لترفع مستوى الشعب ، وقد بلغ الرصيد الأسترليني للمستعمرات البريطانية سنة ١٩٤٩ مبلغ ٦٧٠ مليوناً من الجنيهات ، وارتفع هذا الرقم سنة ١٩٥٢ فبلغ ١٢٢٢ مليوناً (١).

وهكذا استغل الاستعمار اقتصاد المناطق الإسلامية لصالحه من ناحية الإنتاج ، ومن ناحية الاحتكار ، ومن ناحية امتصاص الأيدي الزائدة وخلق أسواق استهلاكية يبيع بها المستعمر منتجاته الصناعية ، فكل تطور تم في اقتصاد المستعمرات كان لصالح المستعمر ، أما الاستعمار الإيطالي والبرتغالي فقد دمرا الاقتصاد بالمستعمرات تماماً ، فلم يستفد منه المستعمر ، ولم يتبق ثماره للمواطن الإفريقي .

٥

الاستعمار والرق بإفريقية

من المهم أن نذكر ما ذكرناه من قبل من أن المستعمرين الأوربيين اكتفوا في المرحلة الأولى من الاستعمار بإقامة محطات على الساحل ، يشترط فيها حاصلات إفريقية من الإفريقيين أو من العرب الذين يجلبون هذه الحاصلات من قلب القارة ، ولكن المستعمرين سرعان ، ما اكتشفوا سلعة أكثر رواجاً وأوفر ربحاً ؛ هي سلعة البشر والتجارة بين الإنسان ، وبحضرنا هنا الحديث للشريف الذي يصرخ « شرُّ الناس من باع الناس » ولكن المستعمر الأوربي كان شر الناس في كل شيء ، كان يسرق جهد الناس وأرضهم وحاصلاتهم ، ثم اتجه لسرقة أشخاصهم .

وتمتازة هذا الحديث الشريف ينبغي لنا أن نشير إلى أن الإسلام عارض الرق معارضة شديدة ؛ حرّر عقل الرقيق وقلبه تحريراً تاماً من أول لحظة ، ووقف من عبودية الجسم موقفاً حاسماً ضيق المدخل للرق ، وأفسح المخرج منه ، وحث على إقرار نظام يطابق الحديث السابق ليُقضى على الرق قضاء تاماً ، كما حدد للرقيق حقوة عظيمة إلى أن يجتبي الرق اختفاء نهائياً^(١) ،

وفي مطلع الاستعمار الأوربي لإفريقية كانت صورة السيد والعبد موجودة في العالم كله ، ولم تكن أوربا قد نسبت بعد حياة الإقطاع حيث سيد الإقطاع ورقيق الأرض ، ووجدت أوربا أن الإفريقيين يعرفون هذا النوع من الرق لحراسة السادة أو خدمة البيوت ، ولكن البرتغاليين الذين كانوا يبحثون عن الربح في أي مكان وبأية صورة ، أحسوا أن تجارة الرقيق ستضفي عليهم

(١) اقرأ ما كتبه المؤلف عن الرق وموقف الإسلام منه في كتابه (الإسلام) من سلسلة مقارنة الأديان من ٢٢١ - ٢٤١ من الطبعة الثالثة .

ما يسعون له من مال ، فارست البرتغال تجارة الرقيق بإفريقية منذ منتصف القرن الخامس عشر ، فانضلت هذه التجارة من حال إلى حال ، من رقيق كان يستعمل بإفريقية في مكان من العزة والكرامة ، كفرد من الأسرة يخلمها وينعم بما تنعم به ، أو كحارس للسيد . سبيء له السيد ما يجعله موضع نقمة ، إلى رقيق أصبح يُباع ويشترى لي جلب المال لمن يتاجر فيه ، وهذا الوضع كان لوناً جديداً خلقه الاستثمار في تاريخ الرق ، وكان البرتغاليون — كما قلنا — أول من ابتدع هذه التجارة ، وينسب إلى ألوزو غونزاليز البرتغالي أنه كان أول من بين لأبناء جلده في عام ١٤٣٤ أن في إمكانهم أن يجعلوا من الأفارقة سلعاً يتاجرون بها ، ولقد اختطف في عام ١٤٤٠ اثني عشر إفريقياً ثم اختطف امرأة إفريقية أملاً أن يراها بنو قومها فيسارعوا لإنقاذها ، وبهذا يقعون مثلها في الشرك ، ثم تقل الهولنديون عن البرتغاليين ممارستهم لهذه التجارة ، وأخيراً أخذ التجار الفرنسيون والإنجليز والدانمركيون والأمريكيون يتنافسون في سرقة الرجال والنساء والأطفال ، وإخراجهم من إفريقية وبيعهم في العالم الجديد ، ولمدة ثلاثمائة عام إظلت القارة الإفريقية تُفْتَنُّ حرمتها وتدمر مقلساتها ، وتُفْسَد أخلاق حكامها وأهلها ، وتُشَوِّر حياتها الاجتماعية ، وتتهار صناعاتها حتى غرق جزء كبير من القارة في غياهب الظلمات والجهل ، ولم تفق منها تماماً حتى الآن (١) .

وقد أراد المستعمر الأوربي — وهو يمارس هذه التجارة اللعينة — أن يجد قوة ذات بال يعتمد عليها ، ورأى في الكنيسة هذه القوة ، فأغراها بالمال ، وقبلت الكنيسة هذا الإغراء مكشبة بنصيب من الأسلاب ، وسرعان ما أعلنت الكنيسة أنها ستعبد العبيد المرسلين إلى أمريكا ، وهي فرصة لتتخذ

أرواح هؤلاء العبيد ، وعن طريق هذه الخدعة أخذت الكنيسة تبشر تعميده العبيد ، وراح مندوبها يجلس على مقعده الرخامى على الشاطئ فيعمد العبيد ، ويقبض نصيبه من رسوم التصدير التى أصبحت مورداً هاماً من موارد الكنيسة^(١) ويذكر Derek Kartun أن الكنيسة كسبت من هذه العملية مبالغ طائلة لأنها كانت تنقضى ضريبة تعميده كبيرة على كل فرد^(٢) .

وكان هذا الاتجاه من الكنيسة يسار رأى بولس الرسول عن العبيد ، فقد جاء فى رسالته إلى أهل إفسيس^(٣) :

«أيها العبيد ، أطيعوا سيادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح ، لا بخلعة العين كمن يُرضى الناس ، بل كعبيد المسيح ، حاملين مشيئة الله من القلب ، خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس ، حاملين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك بثاله من الرب عبداً كان أم حراً .»

وكان من مظاهر التسامح بالمسيحية التى مارسها جون هوكز أحد تجار الرقيق المشهورين ، أن أطلق على سفنه أسماء مثل «المسيح» ، «الملاك» ، «نعمة الرب» ، كما أن أوامره اليومية بشأن إبحار السفن كانت دائماً تنتهى بكلمات مقتبسة من الكتاب المقدس مثل : «خدموا الرب ، ليحب بضمكم بعضاً^(٤) .»

ولم تكن المسيحية الأوربية فقط هى مصدر الإلزام للأوربيين لممارسة تجارة الرقيق ، وإنما كانت هناك اتجاهات الفلاسفة الأوربيين التى ترى ذلك للرأى أيضاً ، فقد قسم الفلاسفة اليونان الجنس البشرى قسمين : حر بالطبع

(١) دكتور زاهر رياض : الاستعمار الأوربي لإفريقية ص ١٢٨ .

(٢) Africa Africa p 24

(٣) الإصحاح السادس : ٥ - ٩ .

(٤) Ina Corinne Brown op. Cit p 25

ورقيق بالطبع ، وذكر أفلاطون في الجمهورية الفاضلة طبقات المجتمع ،
وقرر حرمان المييد حق المواطنة ، وإجبارهم على الطاعة والخضوع لساكنهم ،
ووافقهم أرسطو على ذلك وقرر أيضاً أن وظيفة المييد تحصيل الثروة للسادة^(١).

وقفزت هذه الأفكار إلى العصر الحديث فقال بها مونتسكيو (١٦٨٩ -
١٧٥٥) وهو من أكبر فلاسفة الفكر الفرنسي ، ومن قوله في ذلك : إن لنا
حقاً مكتباً في اتخاذ الزوج عبيداً . . . إن شعوب أوروبا بعد أن أفنت
سكان أمريكا الأصليين لم يعد أمامها إلا أن تستعبد شعوب إفريقيا لكي
تستغلها في استغلال هذه الأقطار القسيحة ، فإلى هذه الشعوب إلا عناصر
سوداء البشرة من قبة الرأس إلى أخمص القدم ، ولا يمكن أن نتصور أن الله
جلت قدرته ، وهو ذو الحكمة السابعة ، يضع روحاً طيبة في مثل هذا الجسم
الحالك السواد^(٢).

وعلى هذا بدأ البرتغاليون هذه التجارة الشريرة ، وأحملوا التجارة في
السلع الأخرى لأن البرتغاليين سرعان ما وصلوا في اكتشافاتهم إلى الجانب
الشرقي من إفريقيا ، ومنه وصلوا سيرهم حتى شبه الجزيرة الهندية التي
ركزوا فيها اهتمامهم ووجدوا بها ما يطعمون فيه من ثروات ، ولم تعد
إفريقية في نظرهم إلا محطة وصول إلى الهند ، وإلا مزرعة لارقيق ، وكان
الأسبان آنذاك قد وصلوا إلى الدنيا الجديدة ، وبدلوا هناك بزروعهم قصب
المسكر والدخان ، ولكنهم شعروا أنهم في احتياج إلى الأيدي العاملة ، وفي
نفس الوقت أبدى الهولنديون استعدادهم لتقديم الأيدي العاملة إلى الأسبان
بأمريكا ، وسرعان ما عقد الطرفان اتفاقاً بذلك ، وبدأت شحنات العبيد
الإفريقية تسير إلى المزارع الأسبانية بأمريكا منذ مطلع القرن السادس عشر .

(١) انظر تفاصيل ذلك في حديثنا عن الرق وموقف الإسلام منه في كتابنا الإسلام من

(٢) روح القوانين

سلسلة مقارنة الأديان .

وسرعان ما اكتشفت الدول الأوروبية الأخرى ما فى هذه التجارة من ربح وفير ، فراحت تنافس البرتغاليين فى هذا الشأن ، وعلى هذا تقدمت هولندا وفرنسا وانجلترا إلى هذا الميدان ، ثم تقدمت الدانمرك ، وأخذت بريطانيا مكان القمة فى هذه التجارة ، ومما ساعد على ذلك أن البرتغال ضعفت سلطاتها فى الميدان الإفريقى لأن المستعمرات الهندية استولت على كل نشاطها ، وفى نفس الوقت زاد الطلب على الرقيق الإفريقى بسبب المزارع الواسعة التى اكتشفها الأسبان أو التى اكتشفها البريطانيون فيما بعد ، وهكذا أصبحت بريطانيا عماد هذه التجارة ، لأنها تحتاج إلى الرقيق لمزارعها بالدنيا الجديدة ، وهى سيلة البحار ورائلة الاستعمار ، فانجهت لجلب الأرقاء من إفريقية لمزارعها بأمريكا حتى وصل إلى ممتلكاتها فى المدة بين سنة ١٦٨٠ وسنة ١٧٨٦ أكثر من مليونين من الأرقاء الإفريقيين ، كما وصلت أعداد ضخمة إلى المستعمرات الأخرى عن طريق تجار الرقيق الآخرين ، ومن الواضح أن ما وصل كان لا يزيد عادة عن نصف ما يشحن من شواطئ إفريقية ، أما النصف الآخر فكان يموت فى الطريق ، وهذا يبين لنا انعقد للضخم الذى استُتْرِف من القارة ، ويقدره بعض الباحثين بحوالى ثمانين مليوناً من الأفراد (١) .

وكان التنافس بين الشركات الأوروبية فى هذه التجارة يدفعها إلى أن تضع كل شركة علامة خاصة على رقيقها كما توسم الماشية ، وكانت هذه السمة حرقاً فى مكان خاص من أجساد الرقيق .

والآن ينبغى لنا أن نتعرف على بعض مظاهر هذه التجارة بأن نورد أوصافاً لبعض مراحلها المختلفة ، حتى يتم لنا تصور قسوة الإنسان على الإنسان :

مصدر الرقيق :

ذكرنا من قبل أن الرق كان معروفاً فى إفريقية وفى العالم كله ، فى الحقيقة

المزلية وفي أعمال الحراسة وغيرها ، وكان الرقيق يعد في البلاد العربية جزءاً من الأسرة في كثير من الأحوال ، وقد عبر الشاعر العربي عن ذلك بقوله :

ما هو عبد لكنه ولد خولته المفرد الصمد^(١)

وقد ارتبط السادة بالعبيد ارتباطاً قوياً ، وتسلسل أولاد العبيد يقومون بنفس الدور في بيوت السادة ، وقد كان السيد بأنف أن يبيع عبده ، وكان هؤلاء العبيد يعاملون معاملة طيبة كأنهم أعضاء في الأسرة ، وكثيراً ما تبوهوا مناصب هامة^(٢) .

ثم جاء الاستعمار الأوربي فأغرى الأرييون بعض السلاطين بما قدموه لهم من سلاح وخور ولذائد نظير أسرى حرب يكونون لدى السلاطين ، أو نظير عبيد يكونون قد ارتكبوا جريمة يستحقون عليها العقاب فيباعون حقاباً لهم على ذلك .

ولكن ذلك لم يكف المستعمر الأوربي ، فراحوا يخلقون للوسائل لينالوا عن طريقها مزيداً من العبيد ، فأشعلوا نيران الحقد والحرب الأهلية بين القبائل حتى يتسنى لهم الحصول على الأسرى ، وقدم الاستعمار آلات الفتك هؤلاء ، وأولئك لتشنه الحروب ، وكان رئيس القبيلة أو بعض المغامرين يتعاقدون على تسليم عدد من الأسرى نظير سلاح وآلات ترف ، فإذا عجز هؤلاء عن الحصول على العدد المطلوب عن طريق الحرب ، بدأوا خطوة جديدة لصيد الرقيق ، هي الغارة لاختطاف النساء والأطفال الذين يقومون ببعض الأعمال الزراعية ، أو يحتطبون في الغابة ، أو يباشرون بعض المرح في ملاعب الصبا ، وقد قدم المستعمر وسائل الغارات ووسائل الإغراء ، وفي مرحلة أخرى دخل المستعمر قلب القارة وراح يغري بالمزيد من الخطف

(١) آدم متر : الحضارة الإسلامية - ج ١ ص ٢٩١ .

(٢) Ina Corinne Brown : The Story of the Negro p. 40 (٢)

والعدوان أو يشترك فيه بضه حتى أصبحت القارة وكأنها صائد وصيد ، وكان كثير من الإفريقيين يقاومون الأسر بكل عناد وقوة ، فإذا وقعوا أسرى تمردوا على أسرهم ما وسعتهم الحيلة ، فإذا فشلوا في تمردهم نجد منهم من يفضلون الانتحار على الرق فيلقون بأنفسهم في الماء ليعرقوا أو يضربون عن الطعام حتى للموت (١) .

سوق الرقيق :

كان الرقيق يعرض في سوق عام في هيئة دائرة ، وكان الرجال يقفون وحلهم ووجوههم نحو مركز الدائرة ، وكان بعضهم يعجز أحياناً عن الوقوف من قسوة ما عاناه من جوع وعنف على طول المسافة ، بين مقرة في القارة ومكان السوق على الساحل ، وفي وسط الدائرة كان يقف تجار الرقيق الذين جاءوا لشراء هذه المعروضات ، ويتقدم مندوبهم لينحسروا السلع البشرية للمعرضة ، أما البنات والسيدات فكن يتقن صفوفاً ويتقدم تجار الرقيق منهن فيتحسرنهن ، وكان ذلك يعرض الفتيات لألوان من المهانة تقشعر لها جلودهن ، ولكن النخاسين كانوا يعتنون بقسوة على كل امرأة تعارض من يريد أن يصرف «ليبا» ويتحسّن جسمها ، وطالما شهدت زنجبار وبلاد السنغال مثل هذه الأسواق التي ليس بها من سلع إلا السلع البشرية .

مرحلة الرقيق :

بعد شراء الرقيق في حلبة السوق تبدأ مرحلة أخرى من مراحل هذه المذلة ، وهي نقل الرقيق من سواحل إفريقيا إلى الأرض الجديدة ، وكانت الشركات المتاجرة في الرقيق تبذل جهدها لتتال ربحاً أوفر ، ومن هنا فإن العبيد كانوا يحشرون حشراً في السفن بحيث لا يجد الواحد منهم مكاناً لنومه

إلا في صفوف متراصة يجوار بعضهم البعض ، وقد تبلغ شدة الازدحام درجة لا يتوفر لهم معها متسع لكي يستلقوا على ظهورهم ، وكثيراً ما سبب هذا الازدحام موت عدد من الرقيق في خلال الرحلة ، وقد قلر هذا العدد بحوالى ١٠ المسافرين .

وكان الرجال يقبلون بقبود حديدية مثبتة في السفينة ، ويتركون في هذه الحالة إلى أن تبدأ السفينة رحلتها ، وقد يظلون كذلك طيلة الرحلة ، وإذا اكتشف ربان السفينة بعد قيامها أن عدد أفراد الشحنة يزيد عن طاقة سفينته ، فإنه لا يجد مانعاً أن يتخلص من بعضهم بإلقائه في البحر ، وكان الطعام الذى يقدم لهم ضئيلاً ورتيباً ، كما كانت المعاملة خشنة ، وقد يتمرّد بعضهم على ذلك وكثيراً ما يعاقب بالجلد علناً ، أو بإطلاق الرصاص عليه نظير احتجاجه .

وهناك في الأرض الجديدة ، كان أصحاب المزارع يتسلمون عبيدهم لتبدأ مرحلة جديدة من مراحل تعذيب الإنسان .

معاملة الرقيق :

تقول Ina Corinne Brown إن مما لا شك فيه أن كثيراً من العبيد كانوا يعاملون معاملة قاسية ، إذ أن نظام الرق كان يدل على أن العبد إنما هو سلعة أكثر منه إنساناً ، وقد اختلفت القوانين التي وضعت لتنظيم الرق ، ولكنها كانت متشابهة في مبادئها الأساسية ، فقد حرمت هذه القوانين بصفة عامة امتلاك الرقيق للعقارات أو الحيوانات الأليفة ، وكان من حق السيد أن يبيع عبيده أو يورسهم كتناح ، وفي بعض الولايات لم يكتف السيد بجلد عبيده إذا أخطأوا ، بل كان يدمغهم بالنار ، ويشوه أجسادهم ، وإذا هرب أحد العبيد كان القانون يعتبره طريد العدالة ، وكانت هناك قوانين تمنع العبد من مغادرة مزارع سيده دون تصريح ، أو الاجتماع بزملائه لأي

سبب دون حضور رجل أبيض ، وفي بعض الحالات كان يحرم عليه تلقى الدراسات الدينية ، وتعلم القراءة والكتابة ، وكان للسيد أن يأمر بقتل عبده إذا رأى ذلك ، وظل هذا معمولاً به حتى أواخر القرن الثامن عشر^(١) .

ويذكر الباحثون قصصاً أليمة من هذا النوع فسيردندس من رجال السلك السياسي البريطاني يذكر أن هناك بريطانيا من أسرة عريقة مزق جسم خاتمه الإفريقي بالرصاص وقال في سبب ذلك (إن الشقي الأسود قدّم إلى قشلة رديئة مع الكمك) وهناك بريطاني آخر ظل يضرب بالسوط إفرقياً يعمل عنده حتى قد وعيه ثم مات بعد قليل ، وكان السبب أن البريطاني كلّف العبد أن يصحب فرساً إلى محطة السكة الحديد على بعد ثلاثين كيلو متراً ، ولكن الإفريقي المسكين ركب الفرس فكان جزاؤه الموت ، وأمثال هذه القصص كثيرة متكررة .

وهناك نوع آخر من العقوبة ربما كان أشد من الموت ، ففي غرناطة عندما رأى السادة أن عبيدهم الإفريقيين يمتصون قصب السكر ، راحوا يعالجون المسألة من جنورها فاقطعوا ألسنتهم^(٢) .

هرقيس في المزرعة :

تقتبس الكاتبة Ina Corinne^(٣) صوراً ترينا حالة لفرقي في المزرعة ، ولعل هذه الصور متشابهة في أكثر الحالات ، فهي تروى أن سيدة انجليزية هزوجة من مزارع من جورجيا يعمل في زراعة الأرز والقطن ، قامت بزيارة مزرعة زوجها ، وهناك وجدت منزلاً صغيراً صليحاً في حالة

(١) Ina Corinne Brown : The Story of the Negro p 60

(٢) Sir : The Story of Black Africa p. 113

(٣) Ina Corinne : Ibid p. 89

سبته ، ومشرفاً زراعياً ضجراً بجانب زوجته الطيبة المحجولة عديمة التأثير ،
 ووجدت بضع مئات من العبيد البدائيين الجهلة الأفظاظ مجتمعين في أماكن
 ممتدة من المزرعة الشاسعة ، وكان الأطفال يعانون من الاتساخ والإهمال
 بالغى المدي ، كما كانت مساكنهم قذرة وغير مفروشة ، وكان المرضى منهم
 ينامون على الأرض ، وليس عليهم من أغطية وافية سوى بطاطين مهلهلة ،
 ولم يكن لدى هؤلاء العبيد ملابس مناسبة ، ولا مواد غذائية كافية ، وكان
 النساء يُضربن بالسياط ، والروابط العائلية غير محترمة ، والخسة والقذارة
 والغباوة منتشرة بينهم ، وقلما كان السيد يزور هذه المزرعة ، ولم تستطع
 هذه الزوجة أن تعود لهذه المزرعة ، بعد أن رأت هذا الموان لبنى الإنسان .
 ويمكن أن تقرر أن هذه الصورة كانت واسعة الانتشار ، وأن حسن
 معاملة العبيد إن وجدت أحياناً كانت تعد نوعاً من الشفوذ غير المتوقع .

من آثار تجارة الرقيق :

إن آثار الرق كانت فوق ما يتصور الإنسان ، فالحروب التي اشتعلت
 بين القبائل في كل مكان بالقارة دمرت كل شيء ، وأوقفت كل نشاط ، فقد
 عرّضت أوروبا كل صناعاتها مقابل العبيد ، ومن هنا لم تكن هناك حاجة
 لإقامة صناعات يافريقية ، وأخذ كثير من الفنون والحرف في الاضمحلال
 والتلاشي ، مثل الأعمال البرونزية ، والحفر على الخشب ، ومن يدرى
 كم من حفارى الخشب ، والتساجين ، وعمال المعادن قُتلوا في الحروب ،
 أو أرسلوا عبر البحار ، ليعملوا في تقطيع قصب السكر في جزر الهند
 الغربية ، ليس هذا فقط ، ولكنه لم يكن في استطاعة أحد أن يجرم بما إذا
 كانت قريته سوف تبقى قائمة غداً ، فلقد كانت الغارات من أجل العبيد
 تحدث ليلاً ، فتحرق البيوت ، ويؤخذ الناس عبيداً ، يبعداً عن ديارهم ،
 فإذا كانت فائدة التخطيط للمستقبل أو للزراعة أو بئس المجهود من أجل

أعمال جيدة إذا لم يكن هناك أى أمل لتحقيق ذلك ؟ كل ما كان يستطيع المرء أن يعمل هو أن يعيش من يوم إلى يوم دون أى تفكير أو تخطيط للمستقبل .

وتجارة الرقيق لم تترك أثرها في تفسخ المجتمعات الإفريقية فقط ، بل إنها تركت آثاراً نفسية عميقة تبدو في الشك والريبة والحذر بل العداء الذي يكنه الإفريقي الزنجي للأوروبي ، والذي يطبع علاقاته بكل أبيض يقابله .

وكثير من الإفريقيين المتعلمين يعتقدون أن هذه التجارة هي السبب في هذا التأخر الشديد الذي انحدر إليه قومهم بعد أن كانت لهم ممالك مزدهرة ذات حضارة متقدمة مثل الممالك الإسلامية التي ذكرناها ، ومثل ممالك البوروا وبنين في القرون الحادى والثاني والثالث عشر (١) .

تحرير الرقيق :

إن القرون التي شهدت الرق ، جعلت سيرته بشعة ورائحته كريهة ، وحركت كثيراً من الكتاب والمفكرين للقضاء على هذا العسف والطغيان ، ولكن ذلك في الحقيقة لم يكن كافياً للقضاء على الرق ، حتى حدث شيء لم يكن في الحسبان فوضع الخطوة الأولى للقضاء على هذه الجريمة البشعة ، ذلك أن أمريكا كانت أكبر المستعمرات البريطانية ، وكانت حقلاً لإنتاج بريطاني يستوعب الغالبية العظمى من رقيق إفريقيا ، ثم حصلت أمريكا على استقلالها في يوليو سنة ١٧٧٦ ، وكانت زراعة القطن فيها قائمة على أكتاف الزنوج ، وأراد الإنجليزية ضرب الاقتصاد الأمريكي ، فأعلنوا مقاومتهم لتجارة الرقيق ، حتى بمنعوا اليد العاملة الرخيصة عن أمريكا عقاباً لها على تمرداها من جانب ، وحرصاً على الكيان الاقتصادي البريطاني من جانب

آخراً ، لأن وجود الرقيق بأمريكا كان يساعدها على أن تنجح إنتاجاً رخيصاً لا يقرى الإنتاج الإنجليزي على منافسته ، ثم إن بريطانيا بعد أن فقدت أمريكا اتجهت إلى إفريقيا ، وأرادت أن تحتفظ باليد العاملة بها ، لتكون هذه اليد في خدمة الاستعمار البريطاني بإفريقية .

ذلك هو السبب الحقيقي لصرخة بريطانيا ضد تجارة الرقيق ، ولكن بريطانيا لم تعلن عن هذا السبب بطبيعة الحال ، وإنما لبست ثوب المَسُوح ، وراحت تتحدث عن جرائم الرق ومنافاته للإنسانية ، وهكذا بدأت الصيحات الأولى لإيقاف تجارة الرقيق .

وهناك سبب آخر خفي أضمرته بريطانيا وهي تتظاهر بالدفاع عن الإنسانية ، ومحاربة تجارة الرقيق ، ذلك السبب هو أن تتسلط بريطانيا على مقدّرات إفريقيا باسم مقاومة تجارة الرقيق ، فقد راحت تعقد المعاهدات مع السلاطين والزعماء لتقضي على هذه التجارة ، وتولت جيوشها مكافحة هذا الداء ، واتخذت ذلك وسيلة لتتسلط على القارة وتند لها نفوذها الاستعماري ، وأصبح لبريطانيا السلطان داخل البلاد ، فحكمت بالرق على الإفريقي في بلاده ، وكان من قبل رقيقاً خارج هذه البلاد .

هذه هي الدوافع الحقيقية لموقف بريطانيا من تجارة الرقيق ، ثم جاءت الثورة الفرنسية فأثرت بظواهر الحركة البريطانية وبالحس الإنساني الذي كان يهله مقاوماً بيع الإنسان للإنسان ، فأصدرت هذه الثورة قراراتها سنة ١٧٨٩ بالمساواة ومع تجارة الرقيق ، وأصدرت الداعمر كمرسوماً سنة ١٧٩٢ بإبطال تجارة الرقيق على رعاياها ، وأعطت فرصة أقصاها عشر سنوات ليقوم التجار الداعمر كيون بتصفية أعمالهم في هذه التجارة ، وحرمت الولايات المتحدة الأمريكية استيراد الأرقاء سنة ١٧٩٤ ، ثم منعت الاتجار بالرقيق سنة ١٨٠٧ ، وأصدرت بريطانيا قراراً بتحريم تجارة الرقيق سنة

١٨٠٧ وحُرِّمت الرِّبْتَال تجارة الرقيق سنة ١٨١٥ ، وحددت سنة ١٨٢٣ موعداً لرعاياها لتصفية أعمالهم ، ولكنها مدت هذا الموعد إلى سنة ١٨٥٠ ، ونشطت إنجلترا وفرنسا لتحريم عبء الرقيق ، واتفقت الدول على معاقبة من يخرج على هذا القرار ، بل خطت الدول خطوة أخرى لتحرير الأرقاء ومنحهم الحرية في كل البقاع ، ثم خطت إنجلترا وأمريكا خطوة أخرى فأعادوا بعض الأرقاء بعد تحريرهم إلى إفريقيا حيث الجؤ الذي يناسبهم ليكونوا بها مستعمرات ثلاثهم في الوطن الأم ، فأعادت بريطانيا بعض الرقيق إلى منطقة سيراليون ، وأعادت أمريكا بعض الرقيق إلى منطقة ليبيريا . وكان ذلك بعد اختراع الآلات التي حلت كثيراً من عبء العمل عن الإنسان .

بصر التحرر :

زكت فترة العبودية آثاراً عميقة في نفس الرجل الأسود وسلوكه ، فقد رباها السادة البيض طيلة قرون العبودية في جو من القنطرة والجوع والتعب والخوف ، فلم يكن يعرف الإبداع أو يحتاج لبعد النظر ، فلما تحرر الإفريقي وتترك بلا تجارب وبدون تعليم كان طبعياً أن يظهر منه أحياناً العجز أو الإهمال ، ولما كان قد اعتاد عدم الملكية فإثنا تراه بعد التحرر لا يعبأ بالملكية ويدد ما يديه ، ولم يكن له تحت نير العبودية أسرة وأولاد فأصبح بعد التحرر يضيق بمسئوليات الأسرة والأولاد .

ذلك هو الطابع العام لكثير من الإفريقيين الذين استعادوا حريتهم ، والعجيب أن الرجل الأبيض أصبح يعد هذه الصفات طابع الزنحي وبحسبها عاراً فيه ، ونسى أنه هو الذي غرس هذه الصفات في الزنحي ، وأنه الذي حرمه سبيل الحياة الشريفة والفكر السليم .

وهناك نقطة خطيرة عن الإفريقيين المسلمين الذين سبقوا عبيداً إلى الدنيا الجديدة ، فإن هؤلاء تحت ضغط السيد الأبيض نسوا تراثهم الإسلامى ، وجاء

بعدهم أولادهم وأحفادهم فلم يعرفوا من الإسلام ولا اسمه ، فإذا قُدّم للرفيق أى
 زاد وروحى فذلك عن طريق المسيحية كما يراها الرجل الأبيض ، وهكذا كانت
 الحسارة مضاعفة بالنسبة للإسلام ، فقد كان استرقاق المسلم يعنى حسابته من
 الوثنيين ومعاملته على هذا الأساس ، وعندما أُعيدت الحرية لحفيد هذا
 الإفريقى لم يعد له دين أجداده وعقيدة قومه فى شرق القارة أو غربها ، لأنه
 كان قد أصبح شديد البعد عن هذا الدين وعن آرائه واتجاهاته . ولعل
 مما أكد ذلك أن المستعمر كان حريصاً أن يخلع الإفريقى عن ماضيه ، فكان
 لا يجمع فى مكان واحد بالأرض الجديدة رقيقين يتكلمان لغة واحدة
 أو يربطهما دين واحد أو أرومة واحدة لأن عزل الإفريقى عن ماضيه كان
 أساساً لحياة الرق التى أرادها الرجل الأبيض للرجل الأسود .

الاستعمار والأديان

أدرك أكثر الخبراء وعلماء مقارنة الأديان المسيحيون أن الغريزة الدينية موجودة دائماً ، وأنها أكثر قوة ويقتطع عند من يواجهون قوى الطبيعة في آسيا وإفريقية لأن تعرضهم للأعاصير والجفاف والسيول والأعداء ... يحلهم دائماً يهرعون إلى الله ولا يجلون ملاذاً سواه ، وهذا يقوى الغريزة الدينية عندهم ، كما أدرك هؤلاء الخبراء أن الغريزة الدينية رباط أقوى في تماسكه وتعاونه من رباط الدم والجنس والوطن (١) .

كانت هذه المعارف أساساً لنشر المسيحية بإفريقية ، ففي إفريقية كان الناس غالباً يواجهون قوى الطبيعة ، ومن هنا كانت غرائزهم الدينية قوية يمكن توجيهها إلى اعتناق دين معين ، وكان الأوروبيون يقصدون خلق روابط يستغلونها في عقد صلات المنفعة بالإفريقيين ، ومن هنا انجهوا لنشر المسيحية ، فلم يكن نشر المسيحية مقصوداً لذاته ، وإنما كان المقصود أن يتخللوا الدين وسيلة لاستغلال الأرض وسكان الأرض ، لأن المبرش نفسه - كما سنرى فيما بعد - لم يكن يتسلك بالدين ولا يدين به ، حاله في ذلك حال من أرسله ومن أنفق عليه .

وهناك جانب آخر يتصل بالأديان ذلك هو محاولة الأوروبيين الوقوف في وجه الإسلام ، فالإسلام منذ مطلعته اقتحم كثيراً من المستعمرات الأوروبية وحررها وانتشر بها ، كما فعل بالنسبة لمصر وسوريا وشمال إفريقيا ، ثم اقتحم أوروبا واجتاح الأندلس ونحطى حدودها إلى فرنسا ، فلما أفاقت أوروبا من غفوتها قامت تصارع الإسلام ورأت حضارته دماراً لها ، فردته عن القارة الأوروبية ، واقتحمت عليه إفريقيا ومن هنا كان نشر المسيحية

(١) انظر موسوعة التاريخ الإسلامى لمؤلف ج ١ ص ٨٧ - ٨٨ من الطبعة الخامسة .

ضروريا عند الأوروبيين ، لا من أجل المسيحية نفسها ، ولكن لإضعاف الإسلام ، وشغله في دياره بمعارضين من بيئته ، ومن أجل هذا يرى الباحثون المسلمون أن نضال الدول للمسيحية بإفريقية للدول الإسلامية هو في الحقيقة حروب صليبية وإن لم تتخذ الصليب شارة بارزة لها .

واتجهت أوروبا كذلك إلى أن تحاول السير بإفريقية في مدارها من ناحية اللغة ، فلم تكن في إفريقية لغات ذات بال غير العربية ، فعملت أوروبا على القضاء على هذه اللغات واللهجات الإفريقية ، وأصبحت لغة المستعمر هي لغة القوم ، ولغة الثقافة ، بل لغة الحاجات اليومية في كثير من الأمكنة ، وكانت معرفة اللغة الأوروبية وشيء من الحضارة الأوروبية ، واعتناق الدين المسيحي وسائل تفتز بالإفريقي وتجعله موضع ثقة المستعمر ، ومكان اهتمامه .

واتجهت الدول المستعمرة إلى انتزاع المواطن الإفريقي من ماضيه ومن حضارة قومه ، فإذا قدمت له شيئا من العلم فهو تاريخ البلد المستعمر ، وجغرافيته ومبادئه وقوانينه ، وتاريخ أبطاله وقادته ، حتى يحس الإفريقي في المستعمرة الفرنسية بأنه جزء من فرنسا ، وفي المستعمرة الإنجليزية بأنه رضيع الفكر الإنجليزي وهكذا .

يبد أن إحساس الأوروبي تجاه الإفريقي كان إحساس الإنسان بالنسبة للآلة ، فالإفريقي وإن تعلم لغة القوم وحضارتهم واعتنق دينهم لم يكن لديهم إلا أداة تنفذ أغراضهم ، وتكون لسانا لم بين مجموعات السود ، فقد أدرك الأوربي أن الأسود قد يكون أيسر قيادة لقومه من الأوروبيين .

ذلك هو الأساس الذي اتبعه الأوروبيون في المجال الروحي والفكري وقدموا به المسيحية للرجل الإفريقي ، ولنعد بعد إيضاح هذا الأساس لنذكر بعض التفاصيل عن سير التبشير بالمسيحية في القارة الإفريقية وفي المنطقة

التي نتحدث عنها بوجه خاص ، ولتتبع في هذه الدراسة على مقتضات
 مما كتبه Hubert Deschamps الذي كان حاكماً للمستعمرات الفرنسية حتى
 نهاية هذه المستعمرات .

يقول هوبير ديشان^(١) : إن البرتغاليين عندما أتوا استكشفوا سواحل
 إفريقية أسسوا مستعمرة على الساحل المعروف اليوم بساحل الذهب كما أسسوا
 مراكز للتبشير فيها ، وأما على الساحل الشرقي فقد وقف الإسلام حائلاً دون
 نشر المسيحية ، وقد حاول الآباء اليسوعيون محاولات في هذا الشأن ،
 ولكنها باءت بالفشل ، ودخل الأسبان ميدان التبشير فأرسلوا عدة بعثات
 تبشيرية ، ولكن ملك داهومي طرد هذه البعثات من بلاده ، وقام الفرنسيون
 بجهود تبشيرية كبيرة ، ولكن لم يبق منها إلا نواة صغيرة في مدينة سان
 لويس ، وعندما جاء القرن التاسع عشر لم يكن للمسيحية قدم ثابتة في
 مكان ما بإفريقية ، إذا استثنينا فقطاً ضحلة على الساحل ، وإذا استثنينا
 كذلك جنوبي إفريقية التي كانت هدفاً للنشاط تبشيري متعدد الجهات اشتركت
 فيه أمريكا وفرنسا وهولندا وإنجلترا .

وفي سنة ١٨٤٠ سمحت إنجلترا لأحد المبشرين الألمان بأن يؤسس فرعاً
 لجمعية التبشير الكاثوليكي في مدينة ممبا ، وفي سنة ١٨٦٠ أسست بعثة
 كاثوليكية للتبشير مركزاً لها في مدينة بوجا مايو على الساحل المواجه لجزيرة
 زنجبار ، ولكن جميع هذه الجهود لزمّت الساحل ، ولم تستطع التوغل في
 الداخل إذ كان بالداخل محيط إسلامي قوى ، وعندما امتد النفوذ
 الاستعماري إلى منطقة البحيرات ومنايع النيل ، يسّر المستعمرون للبعث
 التبشيرية النفاذ إلى داخل البلاد ، وينبغي أن نذكر المبشر الفرنسي القديس
 الدكتور شيفاتيزر Shweitzer فقد كان هذا الطبيب موسيقياً بارعاً ،

(١) هوبير ديشان : للبيانات في إفريقية السوداء من ١٥٥ وما بعدها .

وفيلسوفاً حكيماً ، اهتزل العالم بقرية في جابون ، وأسس بها مستشفى لمعالجة السكان هناك ، وكان نواة للتبشير المسيحي في هذه المناطق .

وفي غربي إفريقيا نزلت بعثة سويسرية للتبشير في ساحل الذهب ، كما أسست كنيسة مستقلة محلية في ساحل العاج ، وفي سنة ١٨٤٤ أسس بنيجيريا فرع للجمعية التبشير الكنسية ، كما عملت عدة بعثات لنشر المسيحية على ساحل جنوبي نيجيريا وفي شمالها ، واشترك الألمان في إرسال بعثات تبشيرية إلى إفريقيا في منطقة توجو قبل الحرب العالمية الأولى ، واشترك عدة مبشرين من الإنجليز والأمريكيين بشيء من النشاط في المنطقة الفرنسية مع البعثة التبشيرية الفرنسية ، وكان للجماعات روح القدس مراکز في السنغال .

ولمى جانب بعثات المبشرين كانت هناك بعثات تبشير نسوية حاولت نشر المسيحية بين النساء بإفريقية ، ومنها « إرساليات الراهبات البيضاءات » و « راهبات سيده الرسل » و « الراهبات الزرقاوات » و « راهبات روح القدس » ، وقد اتخذت هذه البعثات من بلاد السنغال مركزاً لها .

وهكذا اشترك في نشر المسيحية بإفريقية أكثر الأمم المسيحية ، فالكاثوليك وعلى رأسهم بلجيكا وفرنسا والبرتغال وألمانيا وإيطاليا وأسبانيا ، والبروتستانت وأهمهم الإنجليز والسويسريون والأمريكان والألمان ، اشتركوا جميعاً في هذا الزحف ، ولكنهم أخذوا معهم التعصب الديني الذي لا يتفق وعادات التسامح عند الوثنيين ، وخاصة على ساحل غينيا ، وهذا التعصب كان من أسباب تناقل نشر المسيحية كما ترك بنوره بين الإفريقيين الذين اعتنقوا المسيحية .

وقد عمدت المسيحية إلى دراسة العقائد الوثنية بإفريقية لتستغل بنورها

وتجعل عاداتهم القديمة عادات مسيحية ، وهذا - مرة أخرى - يبين لنا أن نشر المسيحية لم يكن هدفا لذاته ، بمقدار ما كان وسيلة للارتباط السياسى بالإفريقيين .

ويمكن القول إن البعثات التبشيرية من هذا المذهب أو ذاك رجالا كانت أو نساء لم تحقق أى نجاح طالما كان اهتمامها متجهاً للتبشير الدينى فقط ، ولذلك اتخذت خطوة مهمة بالتعاون مع السلطات الاستعمارية ، وهى أن ترك لهذه البعثات مجال التعليم والخدمات الطبية ، ومن هنا فتحت هذه البعثات المدارس والمستشفيات ، وبذلك استولت على مادة من البشر أصبح من السهل التحكم فيها ، فالطفل فى المدرسة ملتزم بقبول توجيه أساتذته ، وقد وجد نفسه يمارس بعض الطقوس الدينية التى انغرست فيه من يوم إلى يوم ، وكان رفض الانصياع للطقوس الدينية معناه الفصل من الدراسة ، والمريض ضعيف المقاومة ، محتاج إلى العطف والابتسامة والدواء مع الزاد والأمل ، وكل هذا قدمته البعثات التبشيرية ممزوجة بالمسيحية . فإذا أضيف إلى ذلك نفوذ المستعمر ، وما قدمه للمسيحيين الإفريقيين من وظائف ووسائل التشجيع أدركنا الأسباب الحقيقية التى حملت المسيحية لبعض الإفريقيين ،

المسيحية بمنحوب السودان :

ولعلنا هنا ينبغي أن نعطي بعض التفاصيل عن أثر التبشير بجزء من بلادنا ومن المسلم به أن اتصال مصر بالسودان ربطهما على مر الأجيال ثقافياً وحضارياً ، فلقد دخلت المسيحية إلى السودان عن طريق مصر قبل الإسلام ، ثم دخل الإسلام للسودان عن طريق مصر كذلك ، على أن هناك جولة أخرى لمصر فى السودان من الناحية الإسلامية ، تلك هى العناية الكبرى التى وجهتها السلطات المسلمة للسودان فى القرن التاسع عشر ابتداء من العلماء

الذين صحبوا جيش مصر في عهد محمد علي وما تلا ذلك من مواقف مماثلة ، على أن التبشير المسيحي بدأ يخطو نحو ممتلكات مصر في جنوب الوادي عندما كان النفوذ السياسى بهذه البقاع في يد الموظفين الإنجليز الذين استخدمهم إسماعيل ، ولكن الثورة المهدية وضعت نهاية للتبشير المسيحي بهذه المناطق وساد الفكر الإسلامى في كل هذه الربوع ، بيد أن الثورة المهدية لم تمتد للجنوب ، ثم إنها كانت قصيرة العمر - وسرعان ما أعقبها ما سمي بالفتح المصرى الإنجليزى الذى كان في الواقع استعماراً إنجليزياً ، وفي خلاله تقمّدت إنجلترا بجنوب السودان المخطط الاستعماري الذى أشرنا إليه آنفاً ، فأوفدت بعثات التبشير إلى الجنوب ، وتركت لها شئون التعليم وشئون الصحة ، وأبدتها بما تحتاجه من مال ونفوذ ، وقد استطاعت هذه البعثات أن تخلع الجنوب من الشمال في اللغة والدين والحضارة ، وأشاعت بين سكان الجنوب أن صلة شمالى السودان له ليست إلا صلة استعمارية . فلما انتهى الاستعمار البريطانى من كل هذه البقاع ، ودخل الجندى الإنجليزى عنها ، ترك بالجنوب المبشّر المسيحي بكل سلطاته ونفوذه ، وأدركت حكومة السودان خطر اتجاهات هذه البعثات التبشيرية ، فأصدرت سنة ١٩٦٤ قراراً بتأميم التعليم والمستشفيات ، ومعنى هذا قطع الصلة بين البعثات التبشيرية وكنائسها من جانب ، وبين المؤسسات العلمية والصحية من جانب آخر ، وأخذت حكومة السودان تدبر هذه المؤسسات بما يحقق مصلحة السودانين جميعاً ، ولكن هذا القرار كان ضربة قاصمة للنفوذ التبشيري ، فقد سبق أن ذكرنا أن التبشير المسيحي لم ينجح إلا عن طريق المدرسة والمستشفى ، فإذا عُزل في الكنيسة فإنه لن يجد من يطرق بابه من المواطنين .

وقرر الاستعمار مثلاً في التبشير بالسودان أن يثور على هذا القرار الذى اتخذته الحكومة الشرعية ، وأن يتخذ الكنائس مراكز لهذه الثورة

والدين وسيلة للصراع ، فخطت حكومة السودان خطوة أخرى بأن أمتت الكنائس أى جعلت الإشراف عليها للهيئات المسيحية السودانية ، فزادت ثورة المشرين اشتعالاً وتوجهاً ، وقاد المبشرون جوع الثائرين من أتباعهم إلى الغابات ، فظهروا بذلك على حقيقتهم من موقفهم العدائى ضد الشعوب الإفريقية ، وطال الصراع بين المبشرين وبين الحكومة السودانية الشرعية وجلب المبشرون بعض القادة الأوربيين الذين يجيدون حرب العصابات « للترنزة » ، وفى يونيو سنة ١٩٧١ استطاعت الحكومة السودانية أن تقبض على قائد ألماني من قواد هذه الحركة واسمه « شتاينر » وحاكمته أمام القضاء فاعترف فى شهر أغسطس أنه يتزعم الحركات الانفصالية بجنوب السودان ، وأن إسرائيل تلرب للمتمردين وتعلمهم بالأسلحة ، وأن الفاتيكان يدفع بعض تكاليف عمليات العصيان ، وكان هذا وصمة صارخة تطبع جبين التبشير المسيحي فى قارة إفريقية .

واستكمالا لهذه الدراسة أقرر أن لى تجربة خاصة بهذا الموضوع ، فقد ذهبت معاراً من جامعة القاهرة لجامعة أم درمان الإسلامية التى قصد بها أن تكون فى الجنوب مركزاً إسلامياً ضخماً يماثل الأزهر من شمالى القارة ، وكنت أطمح أن أقابل بين طلاب الجامعة عدداً من جنوبي السودان ، ولكن هذا الأمل كان بعيد التحقيق فسكان الجنوب لا يعرفون اللغة العربية غالباً ، ولا يصل مستوى المسلمين منهم إلى أن يؤهلهم للالتحاق بالجامعة ، وعند كتابة هذه السطور كانت الكلية الإسلامية بأم درمان تباشر النشاط التى باشرته جامعة أم درمان حيناً ، وأرجو أن يعرف بعض طلاب الجنوب طريقهم إليها ليكونوا خير دعاة بين أهلهم عندما يعودون إلى الجنوب .

أسباب فشل التبشير المسيحي بإفريقية :

هناك أسباب مهمة جعلت التبشير المسيحي بإفريقية قليل الجدوى وخاصة

في المناطق التي كان الإسلام قد سبق إليها ، وقد سبق أن ذكرنا بعض هذه الأسباب وهنا نعود فنبرز أهمها في النقاط التالية :

١- وفد المبشرون بالمسيحية في أعقاب المستعمرين ، وتدخلوا في السياسة ، ورأى الإفريقيون هؤلاء الأوربيين يمارسون التفرقة العنصرية ، وتجارة الرقيق ، والسخرة ، وأبشع أنواع الاستغلال ، في الوقت الذي يمشرون فيه بدين يحض على التسامح والمحبة والسلام ، تلك المسيحية التي بشر بها السيد المسيح بين الطبقات الفقيرة الكادحة والتي لا تعرف تمييزاً عنصرياً^(١) .

٢- جاءت المسيحية إلى إفريقية على أنها دين السادة ، فالمبشر المسيحي كان يعد نفسه في منزلة أرقى من منزلة تلميذه ومريده ، فخلق ذلك جفوة بين الداعي والمدعو ، ولم يجذب حلقة المعلم جموع المريدين .

٣- عرف الإفريقيون بطريق أو بآخر فكرة الأدب المسيحي عن الزنوج ، ذلك الأدب الذي بهاجم الزنوج ويحط من أقدارهم^(٢) .

٤- كان المبشر الأوربي بعيداً عن الإفريقيين في كل شيء ، في عاداته وتقاليده وزيه وطعامه واتجاهاته الاجتماعية ، فلما استطاع بطريق أو بآخر تقديم المسيحية لبعض الإفريقيين انسلخ هؤلاء بالمسيحية عن مجتمعاتهم ، ووضعت المسيحية حداً فاصلاً بين ماضيهم وحاضرهم ، فأصبحوا طبقة غريبة عن المجتمع لم تشجع الآخرين على الانضمام لهم ، وهذا ما يسميه بعض الباحثين بالطفرة المفاجئة ، وليس التطور التدريجي البطيء .

(١) دكتور فيليب رنه : الجغرافية للسياسة لإفريقية من ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٢) Blyden : Christianity. Islam and the Negro Race p. 15 (٢)

٥ - اتجه أغلب المبشرين إلى تلك الأرض واستغلها بوساطة الرقيق ، وانصرفوا عن التبشير ، وفي كثير من الأحيان دخلوا في سلسلة من المؤامرات في سبيل الحصول على هذا الثراء ، وقد حدث أن دخل ملك الكونغو المسيحية ، وأمر شعبه باقتناقها ، ولكنه عندما رأى مؤامرات المبشرين البرتغاليين رفع شكاية إلى زميله ملك البرتغال ، ولكن هذا أصم أذنيه عن ذلك النداء ، وتخطى ملك الكونغو ملك البرتغال ، فأرسل بشكواه إلى البابا ، ولكن تلامذته ذهبت هباء فاعلن ملك الكونغو عداؤه للرجل الأبيض ، وتخلّى عن المسيحية (١) .

٦ - اتخذت حركات التبشير الكاثوليكي جانب الاستعمار غالباً في الصراع الذي قاده الوطنيون مطالبين بالحقوق الوطنية والاستقلال .

٧ - وعندما كان التبشير المسيحي يصطدم بالإسلام ، فإن نتيجة التبشير كانت معلومة تماماً ، فإذا كانت المسيحية بين الوثنيين أو اللادينيين قد استطاعت أن تجذب عدداً منهم لسبب أو لآخر ، فإنها وقفت أمام المسلمين عاجزة عجزاً كاملاً ، وهذا هو السبب الذي ترتب عليه انتشار المسيحية الآن في جنوبي إفريقية وليبيريا وجابون ، وعجزها تماماً في المناطق التي كان الإسلام واسع الانتشار بها ، وهناك محاولة تبشيرية حدثت في الصومال إبان الاحتلال الإنجليزي إذ نزل عدد من المبشرين المسيحيين إلى البلد ، واتخذوا لهم مراكز في بربرة وديعولي ، ولكنهم أخفقوا تماماً في نشر المسيحية ، ولم يستطيعوا أن يحملوا إليها أكثر من خمسين طفلاً من اللقطاء والأيتام الذين لا عائل لهم ، ومع هذا فقد هاجهم مسلمو الصومال لأنهم قادوا إلى الضلال هؤلاء الأطفال الأبرياء ، وكانت ثورة تنقل الاستعمار على أرضها هؤلاء المبشرين من الصومال إلى عدن (٢) .

(١) زامر ريانز : استعمار إفريقية ص ٣٥ و ٤٧ .

(٢) جده الله الملك ومحمود خليفة : تقرير عن أحوال المسلمين في بلاد الصومال وأديبيريا وعدن ص ٨٨ - ٨٩ .

وهكذا فشل التبشير المسيحي بإفريقية فشلاً كبيراً ، فلم يكن البشر في الغالب أهلاً لهذه المكاة ، ولا كان الإفريقيون مستعدين للاستسلام لعقيدة الرجل الأبيض ، ثم إن المسيحية التي حملها السادة لم تكن المسيحية التي دعا لها عيسى عليه السلام بل كانت أشتاتاً من الأفكار والاتجاهات انتحلت هذا الاسم ، وأخيراً فإن السكان في المنطقة التي نغنى بها كانوا مسلمين في الغالب فحرسوا أنفسهم وحرسوا مواطنهم من غير المسلمين من الانزلاق في الخديعة التي حملها لهم الرجل الأبيض باسم الدين .

الاستعمار والتفرقة العنصرية

التفرقة العنصرية هي قوانين مختلفة يضعها المستعمر تقرر تفوقه الجنسى والحضارى على المواطنين الذين احتل بلادهم ، كما تقرر له - بناء هذا التفوق - امتيازات لا يستمتع بها السكان الأصليون ، وربما كان فى وسع المستعمر أن ينال هذه الامتيازات بحكم سلطانه وقوته ، ولكنه أرادها حقوقاً ظناً منه أنه بذلك يخرجها من دائرة الغصب والسلب إلى دائرة الحق والشرع ، ولكن ذلك لم يتحقق له ، راح الضمير الحر ينسب له أنه لم يكتف بأخذ ما ليس له بحق ، بل وصَّع التشريعات ليجعل الظلم قانوناً .

وقد أبدت الكنائس هذا الاتجاه بصراحة أو على الأقل بالسكوت عن معارضة هذه التفرقة ، والعجيب أن الزمن تقدم ، وخطت إفريقية خطوات واسعة تجاه الاستقلال ، وهبت أصوات متعددة تكافح المستعمر ، وهوجت التفرقة العنصرية فى كل الميادين مما شدد الكنائس السير فى هذا الركب حتى لا تفقد مكانتها ، ولكن الكنيسة الهولندية لم تستطع حتى سنة ١٩٢٥ أن ترفض التفرقة العنصرية ، وظلت على سابق العهد بالكنائس تقف فى صف التفرقة (١) .

وقد مارس المستعمرُ التفرقة العنصرية مدعياً أنه يمثل الطبقة الأسمى بالقياس لسكان إفريقية ، ولكن التاريخ يثبت للإفريقى ألواناً من التضج والرقى فى الميادين المختلفة إذا أتاحت له الفرصة ، والمؤرخون الغربيون يشتمون جوانب متعددة لعظمة الرجل الإفريقى ، ومعنا الآن صوت من هذه الأصوات يصف أسكيا الأكبر الملك الزنجى المسلم أنه جعل من تمبكتو

مركزاً ثقافياً وأدياً يشع نوره ، وأنه وفد لهذا المركز طلاب العلم من البيض والسود لإتمام دراساتهم ، ويتكلم كذلك عن السجلات المتناثرة التي بدأت تسترعى انتباه العالم الغربي وهي تكشف عن حضارة غنية ومتنوعة ، ازدهرت في المناطق التي تكون القطاع الإفريقي الذي يقع جنوب الصحراء ، وكان حكام هذه المناطق يحاولون دائماً توسيع سلطاتهم تجاه الجنوب ، ويضمون إلى ممالكهم مساحات شاسعة من أرض الوثنيين ، وكانت عاداتهم أن يملأوا حضاراتهم إلى هذه المناطق في سرعة مذهلة ، بحيث لم تظهر فوارق ذات بال في الإمبراطورية الواحدة ، ويستمر هذا الصوت الغربي في الحديث عن الممالك الإسلامية التي اقتحمها المستعمرون الغربيون فيقرر أن ملوك هذه الممالك لم يشتركوا قط في حروب غير عادلة ، ولم يشطوا قط معاهدة ، ولم يقصروا قط في القيام بواجبات الاحترام مع السفراء ، ولم ينتهكوا اتفاقية هدنة ، وأن روعة البلاط ومظاهر الثراء فيها كانت تدعو للدهشة ، وأن المرأة الإفريقية كانت تستمتع بحياة دونها حياة المرأة الأوربية (١) هـ

ليت شعري كيف جاز للمستعمر الأوربي أن يعد هؤلاء أقل قدراً منه ، وأن يباشر التفرقة العنصرية بالنسبة لهم .

الجواب على ذلك هو أن المستعمر الأوربي حينما اقتحم هذه البقاع كان يجهل تاريخها ولا يريد أن يعرفه ، ثم إنه كان ينوي أن يسلب خيراتها ويسترق أهلها ، فالتخذ كل الوسائل التي توصله لهذه الغاية مهما كان فيها من اتجاهات الشطط .

وقد شملت التفرقة كل اتجاهات الحياة ، شملت الانجازات السياسية ونظم

الحكم ، والناحية الاقتصادية ، والناحية الاجتماعية ، فالحكام من الأوروبيين ، ولا يستعمل الإفريقى إلا في المراكز الدنيا ، أو إذا كان المستعمر يريد سلاحاً ضد بني قومه ، وعند ما وضعت الدساتير وأنشئت الهيئات النيابية كان نصيب الإفريقيين فيها صفرًا ، وأحياناً كان هناك ممثلون للإفريقيين ولكنهم أوروبيون ، وفي مراحل متأخرة أصبح للإفريقيين عدد ضئيل جداً .

أما التفرقة في المجال الاقتصادي فقد اتضحت في ملكية الأرض التي جعلت كلها بدون استثناء للرجل الأبيض ، وكذلك جعلت المصانع من حق الرجل الأبيض وحده ، وكانت التجارة كذلك نصيب المستعمر ، فهو الذي يحدد الأسعار لما يشتريه من سلع وطنية ، وليس أمام المنتج الإفريقى إلا أن يخضع لهذا النظام ، أما العمال فإن أجورهم اختلفت اختلافاً واضحاً ، فالعامل الأوربى كان متوسط مرتبه في السنة في أعمال التعدين ٧١٢ جنياً ، ولكن أجر العامل الوطنى الذى يؤدى نفس العمل كان مرتبه ٥١ جنياً في السنة طبقاً لإحصاء سنة ١٩٥٣ . ومرتبات العمال في حرفة التعدين هي الأساس الذى كالت قسوى على نسقه أجور الحرف الأخرى .

وكانت التفرقة في المجال الاجتماعى أبرز وأخطر ، فالأوربى في شرق إفريقيا كان يتوقع أن يقابل بمظاهر احترام وتبجيل أينما ذهب ، وإذا لم يتم الإفريقى بهذه المظاهر اعتبر الأوربى هذا العمل نوعاً من الإهانة ، وأمعن بعض الأوروبيين في تحدى الشعور الإفريقى إلى حد أن يطلب من الوطنيين أن يكون سلوكهم تجاه البيض سلوك العبيد ، وإذا وجد أوربى خلت نفسه من التعصب وعامل الإفريقى على قدم المساواة فإنه يعرض نفسه لانتقاد زملائه ، أو ليمزله ، وكان من مظاهر التفرقة قيام مجتمعين منفصلين تمام الاتصال ، فبعض المناطق مغلقة تماماً في وجوه الإفريقيين ، والأندية

خاصة بهم ، ولهم فنادق خاصة ، ودور خاصة للسينا ، وقد سمحت بعض النوادي بعضوية الإفريقيين بشروط خاصة ، فانضم إليها بعض المعلمين في الجامعات الأوربية ، وكانوا يحسون بشيء من المساواة داخل هذه الأندية ، ولكنهم لا يكادون يخرجون من أبوابها حتى تقوم التفرقة بينهم وبين زملائهم الأوربيين الذين يتجاهلونهم إلى أقصى حدود التجاهل (١) .

وتصل التفرقة أيضاً إلى السجون ، فالمجرمون الأوربيون يعاملون معاملة ممتازة بالنسبة للمجرمين الوطنيين .

والتفرقة العنصرية في المستعمرات الفرنسية كانت بارزة للغاية ، مع أن المستور الفرنسي به عبارة خداعة تنص على المساواة بين الفرنسيين وسكان المستعمرات الفرنسية ، ولكن التطبيق يوضح الفوارق الجمة ، إذ قسم القانون سكان المستعمرات أقساماً ثلاثة هي :

١ - الذين يقبلون أن يتعاملوا وفقاً للقوانين الفرنسية بما فيها نظام الأحوال الشخصية في العلاقات الزوجية والميراث والولاية إلى آخره .

٢ - الذين يقبلون أن يتعاملوا وفقاً للقوانين الفرنسية فيما عدا الأحوال الشخصية .

٣ - الذين لا يقبلون أن يتعاملوا وفقاً للقوانين الفرنسية ويفضلون أن يتبعوا قوانينهم الوطنية وعرفهم في كل معاملاتهم .

والنوع الأول فقط هو الذي يأخذ حقوق الفرنسيين بشرط أن يجيد اللغة الفرنسية ، وأن يقدم طلباً لذلك ، وهؤلاء يكونون نسبة ضئيلة جداً بين سكان المستعمرات الفرنسية ، لأن أكثر من ٩٠٪ من مستعمرات فرنسا الإفريقية من المسلمين الذين رفضوا رفضاً باتاً أن يتخلوا عن قوانين الأحوال

الشخصية الإسلامية فدخلوا في النوع الثاني . وهؤلاء لا يتساوون بالمستعمر الفرنسي ، ولكن يباح لهم حق الانتخاب ، على أن ينتخبوا نوابهم من الفرنسيين ولا بد للحصول على حق الانتخاب هؤلاء أن يجيدوا اللغة الفرنسية كذلك ، أما الطبقة الثالثة وهم الذين ظلوا محتفظين بقوانينهم الوطنية في كل معاملاتهم ، مضافاً لهم الذين لا يعرفون للفرنسية من الطبقتين الأولى والثانية ، فهؤلاء جميعاً لا يشتركون في الانتخاب إطلاقاً وليس لهم ممثلون في المجالس النيابية .

وكانت التفرقة الاجتماعية في القانون الإيطالي أفسى وأشد ، فقد منع هذا القانون الزواج بين الإيطاليين والمواطنين ، وحدد عقوبة لتلك تصل إلى السجن مدة خمس سنوات ، كما أن القانون حرّم على الوطنيين ركوب الدرجة الأولى بالقطارات ، وجعل لهم سيارات خاصة ، كما حرّموا من الاشتراك في الأندية ، ومن الالتحاق بالمدارس ، وحدد القانون الإيطالي عقوبة الحبس مدة ستة أشهر بالإضافة إلى غرامة مالية لمن يحاول من الوطنيين أن يستمتع بامتيازات الإيطاليين .

وهكذا لم يقبل المغتصب أن يعيش على قدم المساواة مع صاحب الدار وإنما قرر لنفسه امتيازات في كل شيء ، وكانت هذه الامتيازات الجائرة هي النواة التي أزكت في نفوس الوطنيين هيب الإحساس بالظلم فهبوا يدفعون عن أرضهم أقدام المغتصبين .

قسوة الاستعمار بإفريقية

تحدثنا آلفاً عن الاستعمار واقتصاد إفريقية ، وعن الاستعمار والرق بإفريقية ، وعن محاولة الاستعمار فرض المسيحية بإفريقية ، وعن التفرقة العنصرية ، وقد صورت لنا هذه الدراسات صوراً من قسوة الاستعمار بالقارة السوداء ، ومع هذا لا تزال هناك صنوف أخرى من هذه القسوة والوحشية ، نتخيم أن نشير إليها لتكمل لنا صورة هذا الاستعمار بتلك القارة .

وعلى الرغم من بشاعة الرق وبُعده عن الإنسانية ، فإن بعض الإفريقيين يرى الرق أهون من الاستعمار لأن الرق لم يستعبد سوى بعض الأفراد ولكن الاستعمار استعبد الجميع ، وقد خسرت القبائل بعض رجالها الذين خطفهم تجار الرقيق ، ولكن القبيلة خسرت كيانها كله عندما زحف الاستعمار إلى القارة ، وامتدت يده فامتلكت الأرض والمناخ ، ولم يبقَ له إلا القتات ، ولقد كان من الممكن أن تنسى القبيلة من اختطفه النغامون من أبنائها ، ولكنها لم تستطع قط أن تنسى صور الاستعباد التي كانت تتجلى في كل منظر من مظاهر الحياة التي فرضتها أوروبا على إفريقية .

ولقد آل الثراء الإفريقي إلى أن تُصبح إفريقية بلداً منتجة للمواد الأولية بأرخص سعر لأن اليد العاملة لم تكن لها أية حقوق ، وراحت هذه المواد الأولية إلى مصانع أوروبا لتتحول إلى مصنوعات دقيقة ، ثم تصدر مرة أخرى إلى إفريقية لتباع هناك بأعلى الأسعار فتمتص المال القليل الذي تدفعه أوروبا هدايا للزعماء أو أجوراً للعمال .

ومن العجيب أن إفريقية الحصينة أصبحت في ظل الاستعمار محتاجة إلى المواد الغذائية لتستوردها من الخارج ، وذلك لأن الجهود اتجهت في

الحقل الزراعى الى إنتاج الحاصلات التى تصدّر ، لا انخصلات التى تستهلك محلياً ، وعلى هذا اتسعت مزارع القطن والبن والشاي والكاكاو اتساعاً كبيراً ، وترك الإفريقيون يعانون نقص الغذاء ، وعلى لرغم من أن إفريقية محاطة من جميع جهاتها بالمحيطات فإن صناعة صيد السمك لم تتجه لها الأنظار وترك المجال لأساطيل الصيد اليابانية والأوربية تجول فى مياه إفريقية ، وتعود إلى بلادها بالصيد الوفير ، حيث يُعلَب هناك ويُعاد تصديره إلى إفريقية نفسها .

ولم يكن حرمان الإفريقى مرتبطاً بصيد البحر فقط ، ولكنه حرّم كذلك من صيد البر ، فقد كانت الطيور فى الغابات فى متناول يده ، ولكن الأوربي كان هو وحده الذى يستطيع أن يصيدها ، وقد انطلقت الشاعر الإفريقى يصوّر هذه المأساة بقولته :

فوق الحسيّزة سنجابُ والأرنب يروح فى الحقل
وأنا صيِّبٌ واثابُ لكن الصيِّب على مثلى
محظور إذ أننى عبدُ

وقبل أن ندع حديثنا عن تجويع إفريقية نذكر أن الكاتب Derek Kartus^(١) عقد فصلاً عن الجوع فى كتابه عن إفريقية صورّ فيه ما تُعانيه القارة من مجاعات ومن أمراض تنتشر بسبب هذه المجاعات ، وفى مطلع هذا الفصل يذكر أن الجوع يكاد يكون ظاهرة عامة فى إفريقية ، وإذا وُجِد إفريقى لديه ما يكتبه ويكتبى حالته من الطامام طيلة أيام السنة ، فإنه يوجد مئات آخرون ليس لديهم ما يكتبهم ، وعليهم أن يروا أطقام يتضورون من الجوع ثم يلوون ويموتون أمام أعينهم ، إن الجوع حقيقة واقعة فى إفريقية وهو بالنسبة للإفريقى يطفى على كل ما عداه . وأن ما يُنداع

عن خراقة كسل الإفريقى ليس إلا نتيجة لسوء التغذية ، لأن الإفريقى لا يعرف اللحم ولا السكر ولا المواد الدهنية التى تمد الجسم بالحرارة الطبيعية وبالنشاط الذى يعطى القدرة على العمل ، وليس من الغدل أن تنتظر من إنسان يُعانى الجوع القارص أن يستطيع أن يكدح وأن يظهر بمظهر النشاط وليست عنده وسائط النشاط .

ويذكر Kartun أن هذا الجوع عرّض الإفريقى إلى ألوان من الأمراض ويقرر أن هذا الكلام يحده الباحث في كل التقارير الرسمية أينما أدار رأسه في إفريقية .

والعجيب أن هذا الإفريقى الجائع كانت تُفرض عليه ضرائب قاسية ، وكانت تُستعمل معه وسائل وحشية لجباية هذه الضرائب ، ففي الكونغو مثلاً كانت القرى التى تفشل في تقديم المقدار الكبير من المطاط المستخرج من الغابات في الموعد المحدد يتعرض أهلها لأعمال القسوة التى لا يمكن وصفها ، وقد جرت عادة البلجيكي على أن يقتلوا الرجال والأطفال ، ثم يقطعوا أيديهم لإرسالها إلى المعتمد البلجيكي دليلاً على نجاح بعثة العقاب (١) .

وكتب الكاتب الأمريكى مارتن توين كتاباً عن حكم الملك ليوبولد ووحشته في الكونغو ، وقد جاء في هذا الكتاب قوله إن دم الضحايا الأبرياء الذى أراقه الملك ليوبولد في الكونغو لو صب في دلاء ، ولو صفت هذه الدلاء لامتد للصف ألف ميل ، ولو قدر للهياكل العظيمة للملايين العشرة الذين قتلوا أو ماتوا جوعاً أن تنهض وتمشى في خط واحد لا متفرق مرورها من نقطة واحدة سبعة أشهر وأربعة أيام .

ومن قسوة الاستعمار الأوروبى بإفريقية أعمال السخرة التى فرضتها جميع الدول على المناطق التى استعمرتها ، فقد أجبر الرجال على أعمال قاسية بدون

مقابل مدة تراوح بين خمسة شهور وسبعة شهور في السنة، ولم يكن يوجه لهؤلاء العمال أى اهتمام طبي مما جعل الكثيرين منهم يسقطون في ميدان العمل ، وما زالت السخرة متبعة في جنوبي إفريقيا وموزمبيق وأنجولا وإفريقية الاسبانية مصحوبة بقصص أسطورية من الوحشية والقسوة (١) ،

ونجىء إلى قسوة من نوع آخر تلك هى حرمان الإفريقيين من الصحة والثقافة ، فإن المناهج التعليمية التى رسمتها أوروبا لإفريقية لم يكن هدفها خدمة المجتمعات الإفريقية والحفاظ على وحدة المجتمع ، وإنما رسمت هذه المناهج لتقوية ما تقدمه إفريقية لأوروبا من خدمات ، ومن هنا نشأ هذا الشكل الغريب للتعليم بكل ما فيه من محتوى تافه ، وقد يختلف نهج التعليم الذى تفرضه دولة أوربية عن الذى تفرضه دولة أوربية أخرى ، ولكن الهدف واحد، وإن اختلفت الأشكال ؛ ففرنسا مثلاً كانت ترى أن رعاياها يمكن أن يُصنّفوا فئتين ، فئة الصفوة المختارة وفئة الجماعات (البلدية) ، وكانت فرنسا تتجه لتثقيف الفئة الأولى بالثقافة الفرنسية ، وتعلمهم عاداتها وأساليب حياتها ليصبحوا فرنسيين قلباً وقالباً ، أما الفئة الثانية فلم يكن أفرادها يتلقون إلا شكلاً خفيفاً من أشكال التعليم الأولى ، في مدارس أقرب إلى الكتاتيب ، وتابع البلجيكيون نهجاً لا يختلف عن النهج الفرنسي في تقسيم الرعايا قسمين ، ولكنهم كانوا يختلفون عن هذا النهج في أنهم كانوا يرون أن ممتلكاتهم الإفريقية ليست إلا مجرد شئء يملكونه ولم تساورهم الفكرة التى ساورت الفرنسيين في أن يدجوا مستعمراتهم ببلادهم فرنسا ، ولم يكن هناك في المستعمرات البلجيكية أى تعليم بعد حدود التعليم الأولى أما الصفوة النادرة المختارة فكان يُبعث بها إلى بلجيكا لتعاد صياغتها من جديد ، حتى تصبح أداة في يد المستعمر ، أما البرتغاليون والاسبان فقد نجردوا تماماً عن

فكرة التعليم واتجهوا إلى استغلال المستعمرات ورأوا أن سكانها ليسوا إلا مجرد مواد طبيعية وأولية يستغلونها بوحشية لتعطيم أكبر عطاء ممكن ، وينطبق هذا على الألمان عندما كانت بلادهم في عداد الدول التي تستعمر إفريقيا .

وفي ختام هذه اللوحات عن قسوة الاستعمار الأوربي لإفريقية نقتبس فقرات من الخطاب الحافل الذي ألقاه باتريس لومومبا رئيس وزراء الكونغو في الثلاثين من يونيو سنة ١٩٦٠ بمناسبة استقلال بلاده ، قال :

« لقد خبرنا العمل الشاق المرهق نبذله مقابل أجور لم تكن تسمح لنا أن نأكل حتى نسكت صوت الجوع في أحشائنا ، أو بأن نلبس أو نسكن في احترام ، أو بأن نقضى أولادنا باعتبارهم أحب المخلوقات لدينا .

« لقد خبرنا السخرية والإهانات والضرب ، توجه إلينا في كل وقت صباحاً وظهراً وليلاً ، لاشيء إلا لأننا « زنوج » . . . من مینسی أنهم كانوا يخاطبون الزنجرى باحتمار ، وبألفاظ مجردة من كل احترام ، لأن ألفاظ الاحترام والتوقير كانت وفقاً على البيض فقط .

« لقد رأينا أرضنا تُستنزف باسم نصوص قانونية لم تكن في الواقع غير سلطة القوى وجبروتها .

لقد رأينا القانون لا يسوى في المعاملة بين البيض والسود . . . فحينما نجده متساهلاً إنسانياً بالنسبة للبيض ، فهو في الوقت نفسه قاس غير إنسانى بالنسبة للسود .

« لقد رأينا القسوة المتناهية التي يعانيها الذين يسجنون بسبب آرائهم السياسية أو معتقداتهم الدينية ، لقد رأيناهم يُنفقون في قلب بلادهم ، ورأينا مصيرهم أسوأ من الموت نفسه .

« لقد علمنا أنه في المدن توجد رائحة للبيض ، وجحور صغيرة للزنوج ، وأن الزنجي لا يُسمح له بدخول دور السينما أو المطاعم ، ولا بدخول ما يسمى بمحلات الأوربيين ، وأن الزنجي حين يسافر فإما سيراً على قدميه : أو قابلاً في جوف قارب . . أما الأبيض فبسيارته الفاخرة .

« وأخيراً من سينسى المشائخ ، والحرائق الشاملة ، التي أيد بها العديدون من إخواننا ، أو الترنانات المخيفة التي ألقى فيها بوحشية هؤلاء الذين نجوا من طلقات الجنود . . . هؤلاء الجنود الذين جعل منهم الاستعمار أدواته وزياتته (١) ؟ ، »

الصراع ضد الاستعمار

يمكن القول إن إفريقية تاحضت الاستعمار منذ مطلعها ، وأن المقاومة ضد المستعمر لم تنهأ يوماً من الأيام ، وإذا كان البرتغاليون هم أسبق الأوروبيين استعماراً لإفريقية فإنهم كانوا أسبق الأوروبيين مواجهته للصراع ضد الاستعمار ، ففي سنة ١٦٥٠ ثار ساحل إفريقية الشرقي كله ضد البرتغال ، ووجد الثوار مساعدات جمة من عرب عمان ، وظل الصراع دون هوادة من عام إلى عام ، وفي سنة ١٦٩٨ حاصرت حملة عمانية حصن يسوع حوالى ثلاث سنوات قضت خلالها على أكثر من ألف جندي برتغالى ، وعلى كثير من أعوانهم ، وتم طرد البرتغال من الساحل الإفريقى .

وفي مطلع القرن السادس عشر كان أحد القرنين الذى تحدثنا عنه من قبل بصارع إمبراطور أثيوبيا فى منطقة هرر ، واستعان الإمبراطور بالبرتغاليين ولكن أحد القرنين استعان بالعلمانيين وحقق فى زحفه كثيراً من الانتصارات .

ومنذ اللحظة الأولى للاحتلال الألمانى لشرقى إفريقية هب السكان فى ثورات متلاحقة ضده ، وكثرت هذه الثورات هنا وهناك ثم تجمعت تحت قيادة قائد بطل اسمه بوشيرى بن سالين وهو من أب عربى وأم زنجية ، وكان واسع الدهاء والشجاعة ، عميق الإخلاص لدينه ووطنه ، ولذلك لراه يعلن السخط على سلطان زنجبار لأنه أجر للألمان بعض المناطق على الساحل رسمح لهم بنزول البلاد ، كما وقف موقف التحدى من الألمان أنفسهم ، وقد انفجرت ثورته فى سبتمبر سنة ١٨٨٦ وأخذ يهاجم الساحل . وقد حقق فى هجومه انتصارا كبيرا فأباد القوة الألمانية فى المنطقة التى هاجمها ، ثم دخل دار السلام فقبض على البعثات التبشيرية بها ، وأصبح له

السلطان في منطقة واسعة ، وطلبت شركة شرق إفريقيا معاونة السلطان ولكن بوشيرى أعلن أنه سيصارع السلطان إن تدخل ، ولم يكن موقف السلطان من الألمان مخلصا ، مما دعا الشركة أن تطلب معاونة حكومة ألمانيا ، وسرعان ما زحف الأسطول الألماني بحمل قوة كبيرة ، وكانت الحملة الألمانية بقيادة الميجور فيسمان ، ودار صراع طويل مرير بين القوتين انتهى بالقبض على بوشيرى وإعدامه في ديسمبر سنة ١٨٨٨ .

ولكن القبائل التي أيدت بوشيرى انضمت إلى خلفه بوناخرى ، وبدأت تحت قيادته صراع جديد ، كما قامت القبائل بالداخل بحركات ثورية عظيمة بعضها لمحاولة الثأر لإعدام القائد بوشيرى ، وفي سنة ١٩٠٥ هبت ثورة ماجى ماجى ، ويشبهها بعض المؤلفين^(١) بالثورة المهدية بالسودان ولكن يظهر الفرق بينهما في عدم توفر الزعامة الموحدة المركزة لثورة ماجى ماجى ، وقد كانت مدينة كلوة الشهيرة أهم مركز لتوجيه نشاط هذه الثورة التي ظلت ثلاث سنوات وكلفت المستعمر الألماني كثيرا من الأرواح والعنادر .

فإذا جئنا إلى فترة سُّعار الاستعمار الأوربي بإفريقية الذى يبدأ مع الربع الأخير من القرن التاسع عشر أمكننا أن نبرز المعالم الكبرى للصراع ضد هذا الاستعمار فى العوامل التالية :

١ - مرآت مصر وعندها :

لا تدخل مصر فى نطاق الإطار الذى نتحدث عنه فى هذا الجزء ، ولكن مصر بإفريقية لها وضع خاص ، فهى باب إفريقيا الفسيح المطل على العالم ، وهى ذات التاريخ الطويل المجيد ، ثم - وهو المهم هنا - تعقمت

(١) دكتور زاهر رياض : الاستعمار الأوربي لإفريقية ص ٢٨٢

مصر في قلب إفريقيا سياسيا وثقافيا إلى أبعد مدى حتى أصبحت حركاتها تتجاوب بها كل البقاع في هذه القارة ، وبخاصة البقاع الإسلامية التي نتحدث عنها ، فقد كان أكثر مفكرها على صلة . مصر ، وكانوا يعدونها الوطن الأم ، وينقلون عنها اتجاهاتها في ميادين الحياة المختلفة ، وبخاصة أدق تلك البقاع التي ارتبطت بمصر سياسيا كالسودان والصومال وساحل البحر الأحمر ، فإن هذه كانت أقرب ليظهر بها صدى الصراع ضد الاستعمار الذي هب بمصر .

وصراع مصر ضد الاستعمار بدأ مبكراً ، وانحاز له الخديوي عباس حلمي نفسه ، وقاده مصطفى كامل ومحمد فريد وانضمت لهم جموع الشعب ، وعندما اتهم بطرس غالي بالخيانة لكثرة ما نسب له من أشياء تتنافى مع الوطنية أطلق عليه إبراهيم الورداني أحد الشبان القداثيين الرصاص فقتل عليه ، واضطرت إنجلترا أن تعزل الخديوي في مطلع الحرب العالمية الأولى ، ولكن حركة مصر ظلت في طريقها ، وقادها في مرحلتها الجديدة سعد زغلول سنة ١٩١٩ ، واستطاع هو ورفاقه أن ينتزعوا من إنجلترا تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، واستمر الصراع بعد ذلك لاستكمال ما كان في هذا التصريح من نقص ، واشترك فيه السياسيون والطلاب ، هؤلاء بالمفاوضة وأولئك بالثورات والتضحيات ، ثم هبت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فأكملت الشوط ، وكان الاستعمار يلفظ أنفاسه الأخيرة في العالم ، فلم تطل مقاومته لزعماء هذه الثورة وحل عصاه ورحل عن البلاد .

هذه فكرة سريعة عن صراع مصر ضد الاستعمار ، وقد كانت حركات مصر حركات رائدة بالنسبة لإفريقية ، ولكن مصر لم تكتف بذلك ، بل أعلنت أن سلامة إفريقية سلامة لها ، فساندت كل ثورة إفريقية ، وفتحت أبوابها للثوار الإفريقيين الذين وفدوا إلى القاهرة ليمارسوا ألوانا من النشاط

ضد الاستثمار في بلادهم ، وتدخلت بصورة شتى لتحقيق استقلال البلاد الإفريقية .

وكانت الثورة المهدية في السودان استمراراً لثورة العرابية ، التي كانت ترمي إلى سيادة العنصر الوطني ، والقضاء على الامتيازات التركية والأوربية ، وقد استطاعت الثورة المهدية أن تنزع السودان من مصر حتى لا تمتد له يد الاحتلال البريطاني ، وقضت الثورة المهدية على المحاولات البريطانية التي قادها هكس وجوردون ليمتد أثر هذا الاحتلال إلى الجنوب ، وعندما قضت إنجلترا على الثورة المهدية أخذ السودانيون يربصون ليهبوا من جديد ثائرين في وجه المحتل الغاصب .

وقسّلُ الثورة المهدية بعد الثورة العرابية ألتي الزمام لثائر آخر في جزء آخر من الأجزاء التي كانت تكونُ الإمبراطورية المصرية ، وذلك الجزء في هذه المرة هو الصومال ، والثائر هو محمد بن عبد الله بن حسن الشهير بالمللا ، وقد لقب نفسه « المهدي » مما يشعرنا بعلاقة ارتباط بينه وبين الثورة المهدية بالسودان .

ومهدي الصومال ولد سنة ١٨٥٦ ميلادية من إحدى بطون قبائل الأوجادين وهو صومالي أباً وأماً ، تشف في مطلع حياته ثقافة دينية ، حفظ القرآن وعرف مبادئ العلوم الدينية والعربية ، ثم التحق بمحلقات العلم والأدب ، كان حسن الصلّه بشيوخه شديد الرغبة في الأخذ عنهم ، وكان يحيا بين الأوجادين مسقط رأسه وبين الصومال وطن أبيه وأمه ، ولكنه بعد وفاة أبيه عاد إلى الصومال في المنطقة التي كانت بريطانيا قد تسلمت عليها وعاش بهذه المنطقة واشتغل بالتدريس ، وسافر منها إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج ، وهناك التي بكبار الشيوخ وقادة المسلمين ، وعاد للصومال البريطاني وقد أضمر شيئاً .

وفي سنة ١٨٩٧ نزل المبشرون المسيحيون الصومال البريطاني ، فنار
الرأى العام لذلك ، واتجه الساخطون إلى الشيخ محمد بن عبد الله فزعهم ،
وطالب رجال الإدارة بإبعاد المبشرين ، ولكن البريطانيين لم يستجيبوا
لهذا الطلب ، وكان هذا الوضع مطلع ثورة الجهاد الكبرى التي قادها محمد
بن عبد الله ، وقد انضم له كل الصوماليين في أقسام الصومال وبنوا
الحصون وأعدوا للنخائر والمون وقاد المهدي هذه الثورة بشجاعة فائقة ،
ومقدرة هائلة ، ومن خلفه وقف الجند يعملون بعزيمة لا تكل ، ووقف
الزراع يكسحون ليقدموا المؤن للجيش المكافح ، وقد حقق المهدي ألوانا
من الانتصارات أقضت مضاجع المستعمر وكلفته كثيراً من الأموال
والرجال ، ولم يعد مهدي الصومال يقنع بطرد المبشرين ، وإنما راح يطالب
بجلاء المستعمر عن البلاد ، ولم يعد مهدي الصومال يهدد الاستعمار الإنجليزي
وحده ، وإنما أخاف بحركته التي استمرت أكثر من ربع قرن كل المستعمرين
بإفريقية ، وعلى الرغم من المنافسات الاستعمارية بين دول أوروبا فإنها تعاونت
للقضاء عليه خوف أن تسرب حركته إلى حيث تعيش هذه الدول المستعمرة ،
وهكذا اجتمعت إيطاليا وفرنسا وإنجلترا وأثيوبيا ضده ، ولعبت الخدع
السياسية دورها حتى نمت إليه أن بعض أنصاره يعملون عيوناً عليه ، وينقلون
أسرارهم إلى الأعداء ، ويبدو أن هذه التهمة ثبتت على بعضهم فأصدر عليهم
حكمهم بالإعدام لخباياهم ، واستمرت السياسة الاستعمارية في نشاطها ، فاتخذت
من هذا الحادث ما أثار بعض القبائل على القائد ، وعملت هذه السياسة على
إشاعة الفرقة بين الصوماليين بدعوى أن القائد يسعى لنفسه الشخصية ، فتخلى
عنه أتباعه شيئاً فشيئاً ، وكانت سنة قد تقدمت ومسَّ الضرر نتيجة الصراع
الطويل ، فراجع وضعف ومات سنة ١٩٢١ في مكان بالصومال الأوجاديني
ودفن في مكان لا يعرفه إلا خاصة أصدقائه ، وحاول أعداؤه العثور على
جثته فلم يهتولوا ، وبقي تاريخه مثار الفخر والإعجاب بين الصوماليين .

وقد كتب الملا رسائل بعنوان « مباحث المناقبين » شرح فيها فلسفته في الكفاح ، كما شرح أسباب الصراع ، وهى أسباب دينية ووطنية وتكلم عن اجتماع كلمة المستعمرين ضده ، كما تحدث عن المناقبين الذين تعاونوا مع الاستعمار ، وهو يصف هؤلاء وأولئك بأنهم أحاطوا برجاله كإحاطة الهالة بالقمر والسوار بالمعصم ، وأنهم قطعوا عنه وعن رجاله جميع المواصلات والإمدادات الحربية والغذائية ، ويذكر أنه قد اتفقت لإبادته الحكومات الإنجليزية والفرنسية والحبشية والإيطالية مع بعض القبائل الصومالية التى خالت العهد وانضمت للمعتدين .

وسيرة مهدي الصومال سيرة عظيمة ، وموقفه من الاستعمار موقف جدير بالتقدير والإعجاب (١) .

وبينا كان مهدي الصومال يضعف ويلقى الزمام ، كانت مصر تعود لتلتقط الزمام مرة أخرى ، وكان في هذه المرة في يد سعد زغلول ورفاقه في ثورة سنة ١٩١٩ الهائلة التى أشرنا لها من قبل ، ويذكر الدكتور زاهر رياض فكرة تكاد تكون مجمعة عليها من المؤرخين هى أن ثورة ١٩١٩ جعلت الحياة الثورية تدب في إفريقية كلها فكان لها صدى في الجزائر وتونس والمغرب وبرقة ، وكان صداها واضحاً كذلك بالسودان ؛ إذ قام البطل على عبد اللطيف بتادى باستقلال السودان وطرد المستعمر منه وألّف لذلك جمعيه اللواء الأبيض وجعل رمزها علماً أبيض رسم عليه خريطة للنيل ورسم في ركن منه العلم المصرى الأخضر ، دليل ارتباط بين سكان الشمال والجنوب ،

(١) من مهدي الصومال اقرأ : ١ - تقرير من أحوال المسلمين في بلاد الصومال

وإريتريا للأستاذ عبد الله المشد ومحمود خليفة

ص ٩٠ - ٩٢

وكتاب « مهدي الصومال » للدكتور محمد

المعتمد سيد

٢ - الإسلام :

يعتبر الإسلام من أهم القوى التي ساعدت دول جنوب الصحراء على التحرر ، فإن المسلمين بهذه الدول أحسوا دائماً بأن المستعمر المسيحي يحارب دينهم قبل كل شيء فكتلوا ضده ، ومن هنا نستطيع أن نقول بثقة وإصرار إن الإسلام حتى معتقيه ، وإن الاستعمار الأوربي الذي غمر إفريقيا كلها ، لم يستطع أن يستقر في المناطق الإسلامية ، وإذا كان قد استوطن بعض مناطق إفريقية فذلك لأنه حط رحاله في هذه المناطق قبل أن يصل لها الإسلام ، ثم إن الدول الإسلامية في المحيط العالمي تبنت حركات التحرر التي ظهرت بين مسلمي إفريقية ، وكان هذا النضال من الداخل والخارج سبباً مهماً من أسباب الاستقلال .

٣ - الحرباء العالمية الأولى والثانية :

كان الصراع بين المستعمرين من أهم أسباب الحرب العالمية الأولى ، ولكن أوار هذه الحرب تخطى مناطق الاستعمار وشمل العالم كله ، واضطرت أمريكا أن تتخوض غمار هذه الحرب ، ولذلك حاول مستر رلسن أن يضع حداً للصراع بين الدول ، وقد ترجم هذه المحاولة في تصريحه في الأربع عشرة مادة الذي قررت إحدى مواده حق الدول في تقرير مصيرها . ولذلك ما إن توقفت هذه الحرب حتى هبت المستعمرات كلها تطالب بالحرية ، ولكن أملها سرعان ما خاب ، وتبين لها أن مثل هذا التصريح كان خدعة لجلب المستعمرات إلى جانب الحلفاء وقت الحرب ، وثار الرعلاء ، وعوقبوا بالنفي خارج بلادهم ، ولكن نفيم زاد النار اشتعالاً . وجعلت الحرب العالمية الثانية ، وادعى المحور والحلفاء جميعاً أن انتصاره

سيكون فتحا للشعوب المستعمرة ، وأصبحت هذه الدعوى مثار التأكيد من الجانبين ، وأخذت الدول الصغيرة الموائيق لذلك وبخاصة عن طريق نداء للرئيس روزفلت ، واشتركت قوات كثيرة من جنود المستعمرات في هذه الحرب مع الحلفاء ، فأسهمت في انتصار الحلفاء على قوات المحور ، وطالما وقف الرجل الإفريقي بجوار الرجل الأبيض في ميادين القتال ، وعانى معه قسوة الصراع ، وقلقى معه سهام الموت ، ولذلك . ما زلنا نوقفت هذه الحرب حتى هبت الدول تعلن استقلالها من جانبها دون انتظار موافقة الدول المستعمرة ، وقد قاومت أوروبا هذه الاتجاه ، ولكنها لم تستطع أن تصمد في المقاومة ، فبدأت تعترف بهذه الحقيقة راحة حتى لا تفقد صلتها بهذه الدول كما حصل مع هولندا التي قاومت رغبة إندونيسيا في التحرر فانتصرت إندونيسيا ، وخسرت هولندا مستعمرتها كما خسرت صداقتها لهذا الشعب الذى خضع لها عدة قرون .

٤ - التعليم :

اتجهت إفريقية التعليم في القرن العشرين ، ولم يحل حائل بين الشاب الإفريقي وبين العلم ، فتمخطو حدود القبيلة والدولة باحثا عن معهد أو مدرسة ، واستقبلت مدارس المبشرين عدد كبيرا من الإفريقيين ، وأكانت هذه المدارس تعمل لترسم لهم طريقا معيناً يسرون فيه ، ولكن عندما تربى الفكر عند الإفريقي لم يخضع للتخطيط الذى رسمه له المبشرون ، بل أخذ يخطط لنفسه ويعمل لصالح بلاده .

وخرج بعض الطلاب من هذا النطاق الذى نتحدث عنه فالتحق بالأزهر وبعض معاهد الشمال ، بل التحق بعض الطلاب بجامعة أمريكا ، وعاد هؤلاء بقلوب متفتحة ونفوس طموحة ، وأخذوا عدتهم لتجميع

مواطنيهم حول راية الحرية ، وساعدتهم اللغات الأجنبية التي تعلموها فأخذوا يشرحون قضاياهم للرأى العام العالمى ، ويدافعون عن حقوقهم ، ولم يَسْكُتْ هذا الصوتُ الذى أطلقه العلم ، وحرَّرَ قيوده ، حتى حقق النجاح بلده .

٥ - نمو القومية :

كان من أسباب نجاح الاستعمار بإفريقية وجود القبيلة ، ولم تستطع القبيلة أن تقتصر على جيوش المستعمرين ، ولكن العلم أزال حاجز القبيلة ، وأخذ المتعلمون يعملون لتحل القومية محل الحياة القبلية ، وقد ساعد الاستعمارُ هذا الوضع بطريق مباشر وبدون قصد عندما ربط حياة القبائل فى نظام واحد وتحت قوانين واحدة ، وقد أدرك الإفريقى أن الدول الأوروبية وبخاصة ألمانيا وإيطاليا كانت تعاني من الانقسام وكثرة الولايات وأن الوحدة هي التي سببت لها هذه القوة بالداخل والخارج ، فراح يزيل حواجز القبيلة ويعمل لإنعاش الدولة ، والتفت تحت راية واحدة جماعات كانت متنافرة متحاربة ، فهزَّت بوحدتها الغزاة الوافدين من الشمال .

٦ - الاتحاد السوفييتى :

تمخضت الحرب العالمية الثانية عن قوتين كبيرتين هما قوة الولايات المتحدة وقوة الاتحاد السوفييتى ، والقوتان ليست لهما مستعمرات فى إفريقيا ، وتطلعان لمد نفوذهما لهذه المنطقة أو لعقد روابط من الود والصداقة ، ولكن الاستعمار الأوروبى كان يحول دون ذلك ، فعملت الدولتان لمساعدة الشعوب النائرة ، وكان نصب الاتحاد السوفييتى فى هذا المجال وفيرا ، فلم تكن بينه وبين المستعمرين الأوربيين مجاملات تقضى بأن يتجه لإغضاء الطرف عن تصرفات الاستعمار كما فعلت أمريكا ، وهكذا

وقف الاتحاد السوفيتي في صف شعوب هذه المنطقة ، وكان صوته عاليا في الأمم المتحدة لتأييده تحرير هذه الشعوب ، وأسرع الاتحاد السوفيتي بتقديم الأموال العون للدول التي استقلت حتى يحجبها من أن تعود بسبب الحاجة المادية إلى الارتقاء في أحضان الاستعمار الاقتصادي ، وأبأ ما كانت الدوافع التي دفعت الاتحاد السوفيتي لذلك ، فإن النتيجة كانت استغلال الشعوب الإفريقية .

٧ - الاستعمار الجديد :

ومن أهم الأسباب التي أنهت الاستعمار الأوربي لإفريقية هو إحساس العالم أن عصر الاستعمار بالمعنى الذي كان موجودا بإفريقية قد انتهى ، وأن بقظة الشعوب الإفريقية هددت المستعمر وجعلته يدرك أن الاستعمار سيكلفه الكثير من الأرواح والكثير من النفقات ، مما أفقد الاستعمار غايته ، فراحت الدول الأوربية تبحث عن بديل لذلك ، وكان البديل الذي وجدته هو الاستعمار الثقافي والاقتصادي الذي يضمن لها كثيرا مما كانت تأمل فيه عن طريق الاستعمار العسكري . وقد نجح هذا الاستعمار في بعض المناطق وفشل في أخرى ، والمأمول ألا تحقق الدول الإسلامية له أى نجاح في هذا القطاع الذي نتحدث عنه ، وأن تتجه نظرتها إلى خير الدين والوطن ، وأن تتخلص مما تكون قد أكرهت عليه من تنازلات للاستعمار .

٨ - المؤتمرات :

أعست شعوب إفريقية بأن مشكلتها واحدة ، وأن التحدى الذى يواجهها لها من الغرب يواجهها ككل ، ولذلك تضافرت وتعاونت لرد هذا الاعتداء ، فاجتمع ممثلون للشعوب عدة مرات في مؤتمرات مهمة ، وتدارسوا مشكلات بلادهم وموقف الاستعمار منها ، واتخذوا قرارات رفعوها للمحافل الدولية ، وتماهلوا على العمل على تنفيذها لإتقاذ بلادهم وسكانها واقتصادها من الغاصب ، وقد هزت هذه القرارات صرح الاستعمار وقوضت أركانها .

ومما يذكر للقارة بخير أن للدول التي استقلت منها لم تنس في أفراحها جاراتها التي لم تستقل ، بل راحت تعلن أن الاعتماد على هذه الأجزاء من القارة اعتداء على القارة كلها ، وتنفيذا لذلك عقدت عدة مؤتمرات على مستوى الدول أعلنت فيها الحكومات المستقلة مساندتها للشعوب التي كانت لم تستقل بعد ، بل سمحت هذه المؤتمرات بأن تمثل بها البلاد التي لم يكتمل استقلالها فكان هذا تحديا صريحا للمستعمر ونجاهلا لوجوده .

وقد أفادت المؤتمرات الشعبية ، والدولية قضية إفريقية فائدة تامة ، وفيما يلي إشارة لأهم هذه المؤتمرات .

من المؤتمرات السّميّة :

١ - مؤتمر الشعوب الإفريقية والآسيوية بالقاهرة سنة ١٩٥٧ وقد طالب بإقرار حق المستعمرات في الاستقلال التام ، وأيد مطالب شعوب الكومرون وكينيا وأوغندا والجزائر ومدغشقر والمغرب والصومال في التمتع بالحريات .

٢ - مؤتمر أكرّا في ديسمبر سنة ١٩٥٨ وطالب بعدم الانضمام إلى كتلة من الكتل ، وبضمان سيادة الدول الإفريقية ومناهضة الاستعمار .

٣ - مؤتمر الشعوب الإفريقية في تونس سنة ١٩٦٠ .

٤ - مؤتمر الشعوب الإفريقية بالقاهرة سنة ١٩٦١ .

من المؤتمرات الدوليّة :

١ - مؤتمر باندونج للدول-آسيا وإفريقية وقد عقد سنة ١٩٥٥ وناقش حقوق الإنسان الأساسية في الاستقلال ومناهضة الاستعمار .

- ٢ - مؤتمر طنجة وقد عقد سنة ١٩٥٧ .
- ٣ - مؤتمر أكرا وقد عقد في إبريل سنة ١٩٦٠ :
- ٤ - مؤتمر أديس أبابا في يونيو ١٩٦٠ وحضره مراقبون عن الدول للمستعرة ونوقش في المؤتمر موضوع الاستعمار الجديد .
- ٥ - مؤتمر منروfia في مايو ١٩٦١ ولم تحضره مصر لرفض تمثيل حكومة الجزائر للوقت به .
- ٦ - مؤتمر الدار البيضاء في يناير ١٩٦١ وكان نجاح المؤتمر كبيراً في اعتبار إسرائيل قاعدة استعمارية ، وتجميع الجهود الإفريقية ، وإنشاء قوة عسكرية .
- ٧ - مؤتمر القمة الأول في أديس أبابا في مايو ١٩٦٣ وللغرض منه هو تصفية الاستعمار ومناهضة التفرقة العنصرية ،
- ٨ - مؤتمر القمة الثاني بالقاهرة سنة ١٩٦٤ ، وقرر تحقيق التضامن والوحدة الإفريقية والقضاء على التفرقة العنصرية :
- ٩ - مؤتمر القمة الثالث في أكرا في أكتوبر ١٩٦٥ وتناقش المؤتمر في مشكلة الكونغو وروديسيا .
- ٩ - عوامل أخرى :

هناك عوامل أخرى أسهمت بشكل واضح في تحقيق الاستقلال لدول جنوب الصحراء ، ومن هذه العوامل افتضاح قوى كبير من الدول الاستعمارية ، تلك القوى التي اتهازت بسرعة هائلة أمام زحف ألمانيا ، فلم يعد في مقدورها أن تدعى ما كانت تدعيه من غطرسة وجبروت .

وكان هناك عدد وفير من الإفريقيين اشترك في الحرب العالمية الثانية وأبلوا فيها بلاء حسناً ، وعندما عاد هؤلاء الأبطال إلى بلادهم ، بدأت موجات من الوعي السياسي تبرز ، واشترك هؤلاء المحاربون في إعداد قوى شعبية تكافح المستعمر ، واستعملوا في ذلك خبراتهم ومهاراتهم التي اكتسبوها من الحرب العالمية .

وهناك النشاط العالمي الذي ظهر بتكوين هيئة الأمم المتحدة التي انجهدت بحماسة لمحاربة الاستعمار في كثير من الظروف .

وكان استقلال آسيا حافزاً دفع إفريقية إلى أن تطالب بالمثل ، وكانت أوروبا هي التي تقوم بدور المستعمر في آسيا وإفريقية ، فعندما جلست عن آسيا كان لا بد أن تجلو كذلك عن إفريقية .

وهناك سبب غير متوقع كافح الرجل الأبيض بإفريقية في كثير من البقاع ، ولم يمنحه الاستقرار بها ، ذلك هو « ذبابة التسي تسي » ويقول عنها أحد الإفريقيين : إنها الجندي الذي ساعد على هماقتنا ، ودفع الرجل الأبيض بعيداً عنا ، ويتحدث كثير من أبناء ساحل الذهب عن أن من العدل أن يُقام تمثال لهذه الذبابة التي كانت من أقوى المكافحين لاسترداد الاستقلال الوطني .

خطوات الصراع :

كانت التفرقة العنصرية التي تحدثنا عنها من قبل هي أبرز دافع للإفريقي لبناهض المستعمر ، فلم يكن من المعقول أن يصبح الوافد سيد الدار والمواطن غريباً في وطنه ، ملوب الحقوق سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ، ومن هنا فقد هبت إفريقية تقاوم التفرقة العنصرية وتطالب بالمساواة ، ولكنها في ثورتها أحست أن المقتصب لا يسمح بالمساواة ، ولا يقبل أن يصبح الرجل

الأيض كالإفريقي في كل الحقوق ، وأحست كذلك بدافع التطرد أن ليس هناك موجب أن تستجدي المساواة مع الخاص ، فلماذا لا تطالب بطرد الخاص من الأرض ، واسترداد كل الحقوق للسياسة والاقتصادية والاجتماعية ؟ وكانت ثورة الشعوب عاتية عبر عنها كليمنت دافيلز زعيم حزب الأحرار البريطاني بقوله : إننا لم نكن نستطيع البقاء في وجه مقاومة عنيفة من الرأي العام العالمي والبريطاني ، ورد على ذلك أننا لو حاولنا البقاء لاكتسحتنا الانتفاجار الشعبي .

وهكذا خطا الصراع من المطالبة بالمساواة إلى المطالبة بالاستقلال التام وطرد المستعمر ، وتركزت المطالبة في هذا الاتجاه الجديد ، ولم يعد الرجل الإفريقي يقنع بمناهضة الضربة العنصرية ، وكان له ما أراد .

جيوسم المرتزقة :

أدت العوامل السابقة إلى تحرير القارة الإفريقية أو أكثرها ، وانسحبت منها جيوش المستعمر ، وعادت الحقوق لأصحابها ، ولكن شيئاً حدث يندى له الجبين ، ذلك أن بعض الدول لم تقنع بما سلبته من إفريقية فراح تفع تخطيطاً يشغل الإفريقيين ويبرز نشاطهم حتى لا يتضرعوا لإعادة البناء ، وذلك بإلشاء جيش من المرتزقة البيض لا هم لهم إلا مناهضة للوطنيين وإثارة الشغب وتقوية المتمردين ، ولا يزال هذا الداء يلدب في القارة ، تؤيده إسرائيل وبقايا المبشرين الذين يدعون أنهم يلتصقون إلى للسيجة وهم عنها بمنأى بعيد ، ويعتقد هؤلاء المرتزقة من غينيا البرتغالية وجنوب السودان مراكزهم ، ولا بد في يوم قريب أن تتخلص إفريقية من هذا الداء الويل .

الاستعمار الأوربي لإفريقية في الميزان

عاش الاستعمار الأوربي بسواحل إفريقية وقلبها عدة قرون ، واصطدم بقوى الشعوب التي رأت فيه غاصباً جاء يسلب الدار وصاحب الدار ، فتخلفت تقارمه وتناهض أهدافه ، وخلصت القارة بعد جهد جهيد من هذا اللخبيل ، والآن نريد أن ننظر للتأثير التي خلفها هذا الاستعمار وهذا الصراع ، فالبعض يدعون أن أي تطور عرفت القارة هو نتيجة لوجودهم بها ، وأنه ثمار عملهم ، أما الإفريقي فيرى أن التقدم الذي حصلت عليه إفريقية خلال الاستعمار ليس إلا من فعل الزمن ، ولا يمكن أن نسقط عدة قرون من تاريخ تطور القارة ، ففي خلال هذه القرون ، خطا العالم خطوات فسيحة جداً نحو التقدم والرقى ، ولونجت إفريقية من الاستعمار لكان حظها أوفر ، ولكن الاستعمار عاقها عن أن تنال نصيبها الطبيعي من التطور العالمي .

o

وينظر عادة ينبغي أن نضع الأمور في نصابها ، فلا نستطيع أن نسقط من حساب التقدم تلك القرون ، كما لا نستطيع أن ننسى بعض صور التقدم التي جلبها المستعمار لإفريقية لسبب أو لآخر .

وكل ما يذكره الباحثون عن الفوائد التي جلبها الاستعمار إلى إفريقية هي أنه قللها بسرعة (١١١) من الحالة البدائية إلى عصر المحراث فعصر الآلات ، وأحل اقتصاد العملة محل اقتصاد المبادلة ، وتكونت في رحابه حياة القرية بفضل الشبان الوطنيين الذين تعودوا على العمل في المدن محل الحياة القبلية .

وجلب المستعمار بعض أنواع الثقافة ، وربما أراد بها خلق طائفة من

الأنواع أو صغار الموظفين والعمال ، ولكنها كانت فوائد على كل حال ، وأقام بعض السود وطرق المواصلات لخسمة اقتصاده ، ولكنه تركها على كل حال عندما غادر البلاد .

ولكن ما خصصه للمستعمر من أموال لتحسين حالة الشعب الإفريقي كان ضئيلاً جداً ، ويورد Derek Kartou مثلاً يدل على تخافة ما آتفته بريطانيا لرفع مستوى الشعوب التي كانت تقع تحت سيطرتها ، قال : في أثناء السنوات الخمس التي تولت خلالها وزارة العمال الحكم ابتداء من عام ١٩٤٥ أنفقت بريطانيا في ٤٦ مستعمرة تابعة لها مبلغ ٤١ مليوناً من الجنيهات على سكانها ، وكانت بريطانيا تفخر بذلك ، ولكن الواقع أن عدد السكان كان أكثر من ثمانين مليوناً ، وهذا يعني أن كل فرد نال من هذه المبالغ حوالى شلّين في السنة ، وهو رقم يدعو للخرى وللعار إذا قيس بما يتكلفه الفرد في بريطانيا ، أو بما أنفخته بريطانيا من ثروات هذه المستعمرات (١) .

فإذا جئنا إلى مضار الاستعمار وهيوب الثقافة الأوربية في إفريقية ، قابلنا أيضاً من الدراسة تشرح ما حل بالقارة من ضم ، وتقرر أن الأوربيين عندما نزلوا إفريقية أنها حقبة طويلة من السلام والنمو الثقافي اللذين كانا يميزان إمبراطوريات السود الإسلامية ، وأنهم عزلوا إفريقية عن العالم المتملن ، وعندما خرجت أوربا من إفريقية تركتها على ما كانت عليه أو أسوأ مما كانت عليه (٢) ، ويذكر الباحثون عن نجاح البعثات التبشيرية في تحويل بعض الإفريقيين إلى المسيحية ، أن هذه المسيحية كانت شكلية بحتة ، قرنت بالاعتقاد في الأرواح ، ويتحدث العالم « أبيل » عن دور المسيحية

والحضارة الأوربية بإفريقية بقوله : إن مملكة الكونغو تعرضت لنفوذ الإرساليات المسيحية ، والثقافة الأوربية أكثر من مائتي سنة دون انقطاع ، ولكن حينما يبحث المرء عن نتائج كل هذا الجهد لا يرى أنه أنتج أى تقدم أخلاقى أو مادى للزنج (١) . وبذكر علم متخصص فى شئون إفريقية أن جميع الكتاب الذين كتبوا عن المستعمرات البرتغالية الإفريقية ومن استوطنها من البرتغاليين يجمعون أنها كانت سلسلة متتابعة من الإخفاق الاقتصادى ، كما أخفقت أيضا فى إدخال أى نوع من المدنية (٢) .

فإذا تركنا بلجيكا والبرتغال وجئنا للاستعمار الإيطالى وجدناه أشنع وأبشع ، فقد عملت إيطاليا على القضاء على العنصر الوطنى ، فأسرفت فى القتل والتكبل وحشدت الآلاف فى معسكرات الاعتقال ، وحرقت كثيرا من القرى على سكانها ، وقد عاش الصومال تحت الحكم الإيطالى قرابة خمس وأربعين سنة دون أن تصنع له شيئا ، وتركت الناس هناك فى فقر شديد ، يعيشون على الفطرة ، وعشرات الألوف منهم فى المراعى والغابات شبه عرايا يعيشون على الصيد أو الرعى فى أولى مراحل الحضارة الإنسانية ، وتركت إيطاليا مساحات كبيرة من الأرض الصالحة للزراعة دون أن تستثمرها ، وعندما غادرت البلاد ، كان الناس بالصومال يجهلون أبسط وسائل الزراعة ، كالحراث والساقية والشادوف (٣) .

وهناك عيوب مشتركة ، يلحظها الدارس جميع المستعمرات الأوربية على السواء ، فالتعليم فيها كلها ضعيف جداً فى كنه ، أما من ناحية الكيف فيكاد يكون معدوماً ، وتراوح نسبة التعليم بين ٢ ٪ و ١٩ ٪ مع ملاحظة

(١) نقلا عن د استهار إفريقية ، للدكتور زاهر رياض ص ٢٦

(٢) المرجع السابق ص ٢٧١

(٣) زاهر رياض : الاستثمار الأوروبى لإفريقية ص ٢٦٠

أن المتعلم هنا هو من يعرف القراءة والكتابة فقط ، وهناك ٨٠ ٪ من أطفال القارة لا يتلقون أى نوع من الدراسة ، وقد كان للأوروبيين مدارسهم الخاصة التى لا تقبل لإفريقيين بها ، أما الإفريقيون فقد ترك تعليمهم للمدارس التبشير ، وقد اهتمت مدارس التبشير ، والمدارس الأوربية بإفريقية على العموم بلغة المستعمر وعاداته وتاريخه ، وبهذا قضت هذه الثقافة على اللغات الأصلية ولم تعمل على تطويرها ، كما قضت على التاريخ الطويل العريض للإمبراطوريات الإسلامية فى القطاع الإسلامى الذى نتحدث عنه ، فأهملته أهلاً تاماً ، وهى بهذا تقصد الإيحاء إلى الإفريقى بأن بلاده غير ذات حضارة أو فن ، وهو ما يكذبه الواقع على الأقل بالنسبة للمنطقة الإسلامية التى قامت بها حضارة مزدهرة هامة قرون .

ومن آثار الاستعمار الإفريقى فى هذه المنطقة وسواها ، جعل البلاد تقتصر على الإنتاج الزراعى دهن الصاعى ، وتصدير الخامات المعدنية لتصنيعها بأوروبا ، ومن آثاره نشر الإفساد السياسى والاجتماعى بإثارة الفتن والاضطرابات بين القبائل تحقيقاً لسياسة « فرّق تسد » ، ومن آثار الاستعمار الأوروبى العمل على إضعاف صحة الإفريقيين بإهمال العلاج من جهة ، وإدخال الخمور والمخدرات من جهة أخرى ، بل إن الاستعمار قد عمل أحياناً على نشر الأمراض بين المواطنين ، بقصد إضعافهم وإبادتهم (١) .

لما الحديث عن الرق ظننى جعل الإفريقيين سلماً تباع وتشترى ، فهو من أخطر عيوب الاستعمار الأوروبى لإفريقية ، وقد سبق أن تحدثنا عنه وعن المساوئ المتعددة التى ترتبط به .

الاستعمار وتفتيت القارة

من مساوئ الاستعمار الأوربي في إفريقيا مسألة تفتيت القارة ، وقد قلنا في مطلع هذا الباب إن الاستعمار عندما جاء إفريقيا أزال الحدود والأسماء ، وقام بعملية تجميع أطلق عليها مسميات جديدة مثل إفريقيا الغربية الفرنسية وإفريقية الغربية البريطانية وهكذا ، ولكنه عندما وجد ألا مناص من الرحيل راح يفتت القارة ويقطع أوصالها ، ويخلق منها دولا متعددة هزيلة ضعيفة لتظل كلها تتطلع إليه ، وبينما كان العلم يوقن أن التجمع أساس القوة ، وأن الولايات المتحدة وألمانيا وإيطاليا لم تأخذ مكانتها إلا بسبب الوحدة ، فإن سياسة الاستعمار بإفريقية كانت تعمل للفرقة والتفتيت ، ويلاحظ أن عمليات التجميع وعمليات التفتيت جميعا لم تكن برأى السكان ولا لصالحهم ، وإنما كانت عمليات استعمارية لصالح الاستعمار ، فاتحادات وسط وشرق إفريقيا لم تكن متجانسة ، وتفتيت الإمبراطوريات كانت له أهداف استعمارية عميقة .

ويبدو أن خبراء الاستعمار بذلوا أقصى الجهد ليحققوا أهدافهم في إضعاف القارة ، وخلق المشكلات بها عقب خروجهم منها ، واتخذوا تفتيت القارة أساسا لهذا الهدف ، ونتج عن ذلك وجود خمسين دولة بإفريقية بالإضافة إلى بعض الجيوب الاستعمارية ، وبهذا أصبحت إفريقيا أكثر القارات تقسما وتعدداً سياسياً ، وهي بهذا تمثل النقيض لاسرائيل (القارة الدولة) والنقيض للولايات المتحدة لأن دول إفريقيا غير متحدة .

وإذا قارنا إفريقيا بآسيا نجد أن وحدات آسيا ٣٥ وحدة مع أن آسيا أوسع رقعة من إفريقيا ، ووجدنا أن الصحراء الكبرى بآسيا وهي سيبيريا تكاد تقع كلها في حدود دولة واحدة ، ولكن الصحراء الكبرى بإفريقية

يقاسمها عشر دول^(١) ، وبسبب كثرة الوحدات وبالتالي كثرة الحدود أصبحت حدود إفريقية أطول من حدود القارات جميعا بطبيعة الحال .

وحدود إفريقية حدود لا تعتمد على المظاهر البشرية أو الجغرافية ، وإنما هي حدود استعمارية بنيت على النظرية القبلية فحسب ، ولارتبطت بخطوط الطول والعرض ، ولهذا فهي حدود مستقيمة غالبا ، وفي شبه القارة الهندية لجناس ولغات وحفائد متعددة ، ومع هذا فقد قامت بها دولة واحدة ، ولكن الاستعمار عمل بإفريقية عكس ذلك فخلق عديدا من التقسيمات بين الخفص الواحد وبين المتكلمين بلغة واحدة أو المتحدثين للدين واحد . فقد قسمت قبائل الأيوى فأصبح جزء منها في غانا والجزء الآخر في توجو ، وقسم قبائل المازاي بين كينيا وتنجانيقا ، وقبائل صوماليا فأصبح بعضها في أثيوبيا وبعضها في الصومال ، وبعضها في كينيا ، وبعضها في الصومال الفرنسي ، وهكذا ، كما جعلت الأنهار حدودا مع أن الأنهار عوامل ربط لا عوامل فصل ، فإذا انتقل الإنسان من شاطئ نهر إلى الشاطئ الآخر انتقل من دولة إلى أخرى مع ما في ذلك من صعوبات لعدم إمكان تخطيط الحدود في منتصف الأنهار ، ولعرقلة الاتصال البشري وللأدى .

ويلاحظ على حدود السودان أنها ليست حدودا جغرافية ، فقبائل البديات والمسالط تنتشر في السودان وفي جمهورية إفريقية الوسطى ، وقبائل بني حامر في الشرق تنتشر في السودان وفي أثيوبيا ، والأزاندى في الجنوب الغربي ينتشرون في السودان وفي الكونغو ، والحد المصري السوداني لا يفصل صلاات متباينة ولا أرضا مختلفة ولا بلادا متبايزة في أى اعتبار ، فهو حد صناعى يمتد عبر أرض متشابهة وسكان متحدثين في أصولهم وثقافتهم .

ومن مشاكل التفتت الصناعي ما يظهر في جنوب شرق غينيا ، فإنه
عُتزل عن باقي أجزاء الجمهورية وعن خطها الحديدى ، وإن اتصال هذا
الجزء بالبحر تنوّه صيرليون وليبريا وغينيا البرتغالية وهى مشكلة اقتصادية
خطتها الحدود المصطنعة التى لم تحسب أى حساب للظروف الطبيعية
أو البشرية (٢) .

وقد نتج عن كثرة الوحدات الإفريقية وجود عدد كبير من الدول بدون
مواصل يزيد عن الدول التى لا سواحل بها فى العالم كله ، ففى إفريقيا ١٣
دولة من هذا النوع ، وفى القارات الأخرى كلها إحدى عشرة دولة فقط
(٤ فى أوروبا و ٥ فى آسيا ودولتان فى أمريكا الجنوبية) ولذلك تسمى
إفريقية «قارة الدول الداخلية» ، والدول الداخلية مشكلات صعبة باللبسة
لاقتصادها، وكثيراً ما تلجأ هذه الدول إلى العزلة الداخلية والانتطاع والتكيس
الحضارى والاكتفاء الذاتى الذى يشجع على الانتصديات البدائية ، ويزداد
هذا إذا كانت المحاصيل الرئيسية من النوع الثقيل الوزن القليل القيمة كالجلود
والحيوانات الحية ، ويزداد هذا إذا ضعفت وسائل المواصلات كالحال فى
منطقة تشاد ، وكثيراً ما تضطر هذه الدول للنخول فى اتفاقيات معينة لمرو
للتجارة أو الأشخاص ، وكثيراً ما يمتد هذا إلى نوع من التبعية
الاقتصادية (٣) ، والدول الإسلامية الداخلة فى القطاع الذى نتحدث عنه
هى تشاد والنيجر ومالى .

ومن مشكلات كثرة الدول فى إفريقيا تعدد الجيران ، ويصل الجيران
إلى ٨ فى السودان و ٩ فى الكونغو وهى مشكلة تؤثر فى التماسك السياسى ،

(١) دكتور فيليب دقة : الجغرافيا السياسية لإفريقية ص ١٠٨ - ١١١

٣١١ بصرف

(٢) دكتور جمال خندان : إفريقيا الحديثة ص ٧٦

وزيد من صعوبة هذه المشكلة ألا يوجد تناسب في عدد السكان بالأقطار المجاورة ، فإذا كان لقطر عدد كبير من الجيران وكان ازدحام السكان واضحا بها فإن ذلك يهدد هذا القطر ويجعله يحتاج دائما إلى يقظة لمراقبة حدوده ، وهذه الحالة كثيرة الانتشار في إفريقيا .

ومن مشكلات كثرة الدول وعدم تناسق التقسيم ، أن وجدت بإفريقية دول فقيرة لا تقوم لها قائمة إلا بالاعتماد على دولة أخرى ، وكثيرا ما كانت الدولة التي تقدم المساعدات دولة غريبة ، وهذا منزلق للنفوذ والتأثير في القارة ، ومن هذه الدول الصومال وموريتانيا وليبيا قبل اكتشاف البترول .

وفي مصر والسودان نموذج عجيب لما أراده الاستثمار من تفتيت وتقطيع الأوصال ، فقد كانت الإمبراطورية المصرية كما ذكرنا من قبل تشمل مصر والسودان ومنطقة خط الاستواء وبحر الغزال وجنوب السودان ، وتشمل مناطق واسعة على البحر الأحمر وكنتاك الصومال وهرر ، ولما جاء الاستعمار إلى مصر مزق أوصال هذه الإمبراطورية فأضاع منطقة هرر والصومال وممتلكات مصر على ساحل البحر الأحمر جنوبا ، ومع أنه أعاد فتح السودان باسم مصر سنة ١٨٩٩ إلا أنه استقل بالسيطرة على السودان ، واتجه بكل جبروته الفكرى والعسكرى لعزل السودان عن مصر والاتجاه به إلى الشرق بدل اتجاهه الطبيعى إلى المنطقة العربية بالشمال ، وكان من وسائله لذلك قطع المواصلات بين السودان ومصر ، فالحط الحديدى الذى أنشئ بالسودان إبان حملة الفتح بدئ به من وادى حلفا بدلا من أن يكون البسه به من أسوان أو من الحدود بين السودان ومصر ، وجعل عرض الخط يختلف عن عرض الخطوط المصرية حتى لا يتحقق يوما ما الاتصال بين الخطوط الحديدية المصرية والسودانية ، ثم اتجه هذا الخط إلى البحر الأحمر الذى أقيمت به ميناء بور سودان ليتحقق اتجاه السودان نحو هذا البحر ، وربطت

مراكز الإنتاج بالسودان بهذا الميثاء لتصريف محصول القطن والمحاصيل الزراعية الأخرى ولاستيراد مختلف الأشياء دون الاتصال بالشمال .

ولم يكن ذلك لخدمة السودان وإنما كان لخدمة الاستعمار ، بدليل أن الاستعمار اتجه لعملية فصل جديدة بين أقاليم السودان بعضها وبعض ، فقد عمل على عزل جنوب السودان عن شماله ، واتخذ لذلك وسائل العزل اللغوي والديني ، كما أشاع بين سكان الجنوب أنهم زنوج يختلفون عن سكان الشمال الذين ينتمون للجنس السامي ، واتخذ الاستعمار كذلك قطع المواصلات بين الشمال والجنوب وسيلة لذلك ، فلم يمد السكة الحديدية إلى الجنوب ، ولم يعمل على تمهيد الطرق البرية ، ولم يشجع الملاحة ، ولا يزال جنوب السودان يعاني مما غرسته به يد الاستعمار .

بقي من الآثار التي خلفها الاستعمار بإفريقية نقطة تتصل بعواصم الدول الإفريقية ، تلك أن الغالبية العظمى من العواصم ساحلية ، فكلما وجدت دولة تتصل بالساحل نجد عاصمتها ساحلية ، وضعها الاستعمار كذلك منذ زحف بحرياً ثم ظلت كذلك ، والاستعمار بذلك يهددها عند الزوم ، ثم إن وجود العاصمة على الساحل دون أن تتوسط الدولة يجعل من الصعب أن تسيطر على الأقاليم ، كما يجعل الاتصال بها عبثاً على السكان البعيدين عن الساحل ، فيقتل ولاؤهم لها ، ويزيد سخطهم عليها ويكثر التفكك وتتضاعف هذه المشكلات مع صعوبة المواصلات . والعجيب أن الدول القليلة غير الساحلية وضعت عواصم أكثرها في طرف الدولة ولم توضع في وسطها وذلك يضني عليها أكثر مساوئ العاصمة الساحلية .

وهناك إسفين مرير وضعه الاستعمار الأوربي في الدول الإسلامية قبل أن يترك هذه الدول ، وهو يلجأ لمقصود يرتبط بالقوى التي هيأ الاستعمار

لها السلطة والنفوذ قبل أن يرحل ، ففى كثير من هذه الدول حيث توجد أغلبية إسلامية ساحقة ترك الاستعمار زمام الأمر فى أيد غير إسلامية ، وطبيعى أن هذا أشاع القلق فى كثير من الحالات ولا تزال بعض الدول الإسلامية تعاني منه .

• • •

وهكذا عند حساب الأرباح والخسائر التى ترتبط بآثار الاستعمار الأوروبى لإفريقية نجد أن خسارة إفريقية كانت باهظة ، وألا مزايا لها من هذا الاستعمار البغيض على الإطلاق ،

• • •

هذا ، وبعد زوال الاستعمار الأوروبى أصبح بالقطاع الذى نتحدث عنه عشر دول إسلامية هى موريتانيا والسنغال وجامبيا وغينيا ومالى والنيجر ونيجيريا وتشاد والسودان العربى والصومال ، وستكون موضوع حديثنا فى الباب التالى ، كما سنذكر كذلك كلمة إجمالية عن المسلمين فى الدول غير الإسلامية .

الباب السادس
الدول الإسلامية جنوب الصحراء الإفريقية
بعد زوال الاستعمار

مقدمة

سرنا في هذا القطاع بإفريقية منذ دبَّ فيه الإسلام حتى انتشر ، ثم تكلمنا عنه عندما قامت به دول وإمبراطوريات إسلامية لها حضارة زاهرة ومجد عظيم ، ورأيناه والصراعات الداخلية تضعفه ، والنزعات القبلية تقسمه ، ورأينا الاستعمار الأوربي ينتهز هذه الفرصة فيمد لهذا القطاع نفوذه ويسلبه حريته وحقوقه ، ثم شاهدنا هذا القطاع وهو يصارع الاستعمار وينتصر عليه ، والآن نسير خطوة أخرى مع هذه الدول التي انبثقت في هذا القطاع الإسلامي بعد زوال الاستعمار ، وهنا سنتحدث حديثاً فيه إيجاز ولكن فيه شمول ، فيه إيجاز لأن كل دولة من هذه الدول يمكن أن يكتب عنها كتاب مستقل ولذلك لا بد من الإيجاز لنظل في حدود هذا المجلد ، وفيه شمول لأننا لن نترك نقطة ذات بال دون أن نلم بها ، وسنجعل حديثنا عن كل دولة من هذه الدول عرضاً تاريخياً يربط الماضي بالحاضر ، ثم يعطى صورة واضحة لحالة كل دولة منها ، مع إبراز الدور الذي يمكن أن تلعبه في مجال السياسة الإسلامية أو الاقتصاد الإسلامي .

وسنبداً حديثنا عن هذه الدول بإعطاء صورة عامة لها نبين فيها تبعية كل دولة لإبان الفترة الاستعمارية ، ومكانتها من الدول والإمبراطوريات الإسلامية قبل الاستعمار .

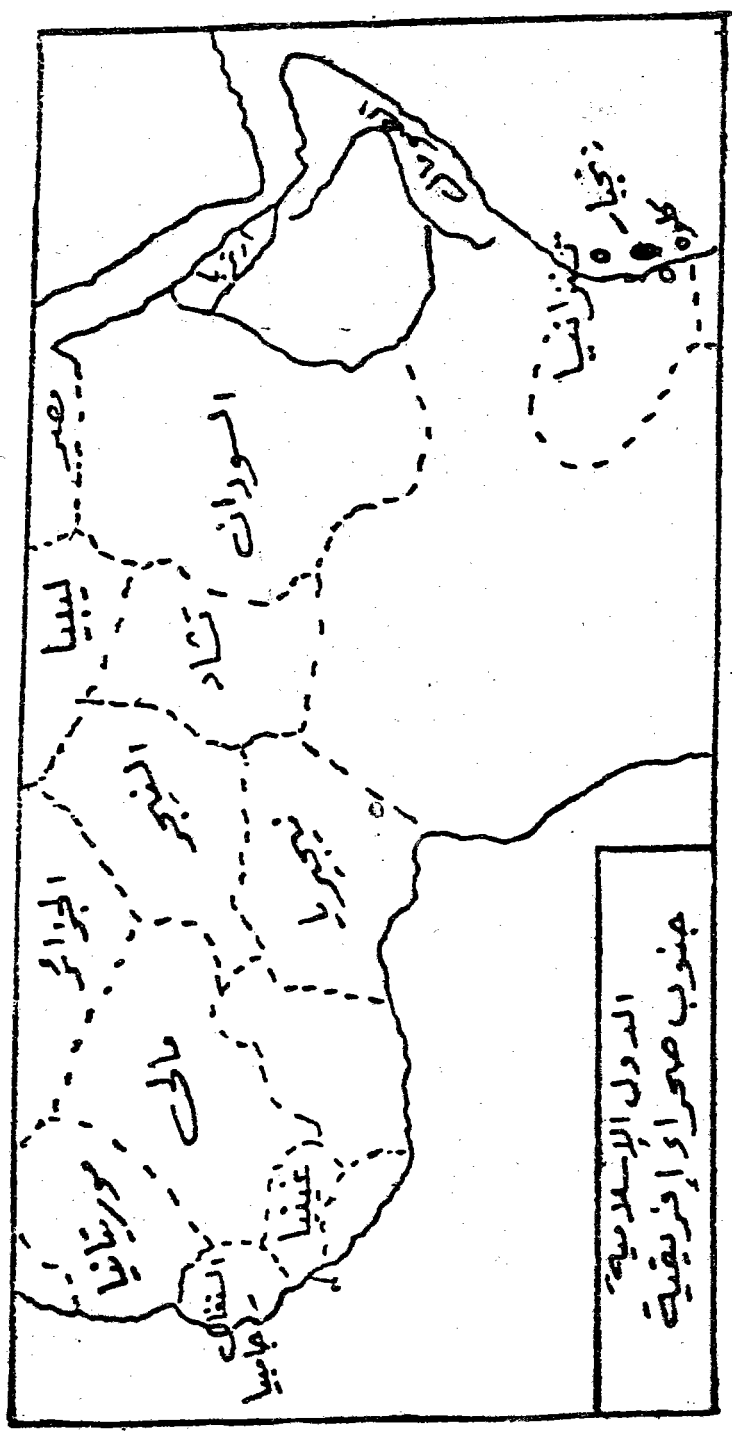
تبعيتها في عهد الاستعمار	تبعيتها في العصور الوسطى الإسلامية	هولاء الآن
إفريقية المغربية الفرنسية	تابعة للمغرب حتى عهد بنى مرين - حكم قبل - الاستعمار البرتغالي فالفرنسي	موريتانيا
إفريقية المغربية الفرنسية	جزء من إمبراطورية مالي الإسلامية - حكم قبل - الاستعمار الفرنسي	السنغال
بريطانيا	جزء من إمبراطورية مالي الإسلامية - حكم قبل - الاستعمار البرتغالي ثم صراع بين فرنسا وإنجلترا ونجاح إنجلترا في هذا الصراع	جلميا
إفريقية المغربية الفرنسية	جزء من إمبراطورية مالي الإسلامية - حكم قبل - الزعيم ساموري يحاول توحيد غربي إفريقيا تحت زعامته ولكن دهمه الاستعمار الفرنسي	غينيا
إفريقية الغربية الفرنسية	جزء من إمبراطورية مالي الإسلامية - حكم قبل - الاستعمار الفرنسي	مالي
" " "	جزء من إمبراطورية صغنى ومملكة برنو - نشاط دان فديو - راج الزيرى - الاستعمار الفرنسي	نيجير
إفريقية الاستوائية الفرنسية	كانم وباجرى وواداي - راج الزيرى - الاستعمار الفرنسي	تشاد
إفريقية الغربية البريطانية	البوروايا في الجنوب - دول الهوسا في الشمال - والقولاني وعثمان داندديو - الاستعمار البريطاني	نيجيريا
بريطانيا من الناحية الفعلية	الفونج - كردفان - دارفور - مصر تجمع المنطقة كلها . وتدفع حدود السودان في كل اتجاه - الثورة المهدية - بريطانيا .	السودان
فرنسا - إيطاليا - بريطانيا	إمبراطورية عدال - سلطنة مقلشو - أحمد	للمصومال

القرين في هير - اليمن فالأتراك العثمانيون - مصر -
 الاحتلال البرتغالي فالبريطاني والإيطالي والفرنسي -
 للعرب بالساحل الشرقى والجزر - سلطنة كلوة
 - البرتغال - عمان - بريطانيا وألمانيا ثم بريطانيا
 زنجبار وألمانيا بالساحل ثم بريطانيا بعد نهاية
 الاستعمار الألماني .

زنجبار - البرتغال - ألمانيا - بريطانيا

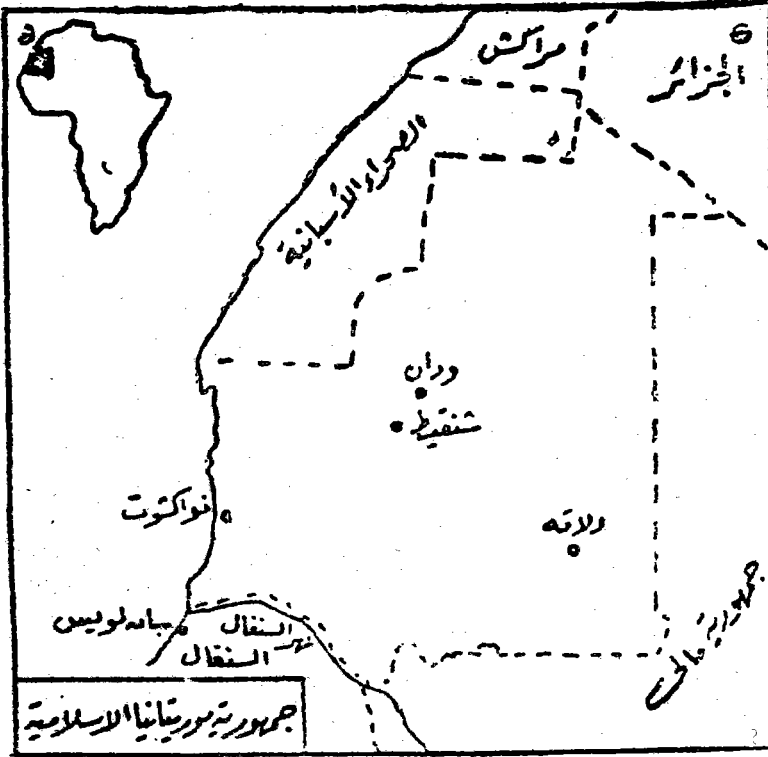
وينبغي أن يلاحظ أن هذا التحديد ليس كامل الدقة ، لأن الخلود
 بين الدول لم تكن دقيقة ، حاسمة ، ولكن هذا الموجز على كل حال يعطى
 صورة اقرار عما تكون إلى الواقع .

والآن نبدأ دراستنا عن كل دولة على حدة مبتدئين من الغرب
 متجهين نحو الشرق اتباعاً لخطتنا في كتابة هذه الموسوعة .



موريتانيا

«جمهورية موريتانيا الإسلامية»



التسمية والموقع :

أطلق الرومان كلمة موريتانيا على المنطقة الشمالية الغربية من قارة إفريقيا ، إذ كان هذا الاسم يُطلق على مملكة قديمة قبل العهد الروماني ، فلما جاء العهد الروماني أطلق هذا الاسم على المنطقة كلها (١) ، ومن هنا كان الأسبان يطلقون على العرب الذين جاءوا إلى شمال إفريقيا كلمة

« مور » إذ كان قائدهم طارق بن زياد وأكثر جنده من أبناء هذه المنطقة ، وسار الفرنسيون والإنجليز على طريق الأسبان ، فأطلقوا كلمة « مور » على سكان موريتانيا إذ كانت منهم الجيوش التي عبرت المضيق مرة أخرى لرد الفرنجة الزاحفين على ملوك الطوائف المسلمين بالأندلس .

وجمهورية موريتانيا الإسلامية يحدها من الشمال الغربي إقليم تندوف والساقية الحمراء « الصحراء الأسبانية » ومن الجنوب نهر السنغال وجمهورية مالي ، ومن الشرق جمهورية مالي ، ومن الغرب المحيط الأطلسي ، وتبلغ مساحتها ٤١٩ الف ميل مربع :

ويذكر الكتاب السنغاليون أن موريتانيا والسنغال كان يطلق عليهما « فوقى » قبل الاحتلال الفرنسي ، ولما جاء الفرنسيون لهذه المنطقة أعادوا كلمة « مور » للجزء الواقع شمال نهر السنغال وأطلقوا اسم النهر على الجزء الواقع إلى الجنوب منه (١) وكان ذلك تفتيتاً للقوى . كما قصد به كذلك عزل هذه المنطقة عن تاريخها الذي ارتبط بالشيخ عمر القوتى وخلفائه .

السلالة : وما وقع ودينا :

تعداد السكان غير معروف بدقة ، ويمكن القول إن سكان موريتانيا يزيدون عن مليون نسمة وتقديرات حكومة موريتانيا سنة ١٩٦٥ تصل بحملة السكان إلى نحو المليونين ، والسكان من المغاربة غالباً ، وهم شعب أبيض بدوى ينحدر من أصل بربرى وعربى ، وهناك قلة تعيش في الجنوب فيهم دماء زنجية وهؤلاء يعملون بالزراعة في حوض نهر السنغال ، ومن ثم فهم مستترون ، وليس هؤلاء منزولين عن سكان الشمال ، بل هناك على مر الزمن ألوان من

(١) أبو بكر خاله : فوقى السنغالية ص ٨ (الهامش) .

(٢) انظر الجزء الرابع من هذا الكتاب ص ٣٣١ .

الاختلاط بهم ، أما المغاربة فأكثرهم رحل كانوا يعيشون على الرعي والانتقال من مكان إلى مكان ، وتحاول الحكومة في العصر الحديث أن تربط كثيرين منهم بصناعات مختلفة أو بالزراعة عن طريق الآبار والمياه الجوفية ، وبهذا ينقلونهم إلى حياة الاستقرار بالمدن والقرى :

واللغة العربية هي لغة الغالية العظمى من السكان ، وتوجد معها اللغة البربرية في بعض المناطق ، ولهجات الزنوج بالجنوب ، كما توجد اللغة الفرنسية عند بعض السكان ، تلك اللغة التي خلفها الاستعمار الفرنسي بموريتانيا كما خلفها عند بعض السكان في كل المناطق التي احتلها :

وإذا كانت اللغة العربية هي لغة الغالية العظمى ، فإن الإسلام هو دين الجميع دون استثناء ، بل إن هذه البلاد كانت المركز الذي تربت فيه حركة المرابطين واندفعت منه تنشر الإسلام في نواح كثيرة وتحمل الإسلام بالأندلس من زحف الفرنجة :

كلمة تاريخية :

يتجه أكثر الباحثين إلى القول بأنه ليس لهذه المنطقة تاريخ معروف قبل الإسلام ، ومرجع ذلك أن الرومان عندما حكموا الساحل الشمالى لم ينحدروا إلى الصحراء ، وتركوا الأهالى يعيشون فى الأراضى الداخلية تحت إشراف مندوبين منهم ، وتركوا لهم حرية الإبقاء على تنظيمهم لقبلى .

ومع هذا فإن وجود هذه المنطقة فى طريق الخط التجارى بين منحنى النيجر وبلاد المغرب الأقصى أكسبها ألواناً من الحضارة واللغة ، وجعلها على صلة بالمدنية العالية آنذاك ، ولذلك أبرزت الحفريات أن البلاد كانت تعيش فى ازدهار حتى أغارت عليها جماعات الماندال التى اكتسحت أسبانيا

وشمالى إفريقيا وحطمت روما سنة ٤٥٥ ميلادية ، وقد كانت غارات مليشة
بالعنف والوحشية لا غرض لها إلاّ تحطيم آثار الحضارات والفنون حتى
شتت من اسمهم صفة للتعبير عن التدمير الأخرق ، الذى يسمى لتحطيم كل
ما هو جميل وهذا التعبير هو : «Vandalism» (١) ؛

وعندما جاء الإسلام إلى هذه المنطقة قدّر لها أن تلعب دوراً كبيراً في
تاريخ الإسلام ، وأن تصبح مركزاً وهاجاً ينشر هذا الدين ويزود عنه في
الشمال والجنوب ، ومن أجل هذا ينبغي أن نقسح المجال لدراسة تاريخ الإسلام
في هذه المنطقة المهمة .

في صحراء موريتانيا كانت تعيش قبائل الملثمين التى تنحدر من قبائل
صنهاجة ، وقد اتخذت هذه القبائل لقب « الملثمين » إذ كان اللثام شعاراً موهماً
لها لا يكاد ينفك عنها ، حتى كان كشف الوجه عندها مثل كشف العورة (٢) ،
وكانت هذه القبائل تستعمل اللثام في الليل والنهار في أثناء العمل وفي أثناء
الراحة ، بل كانوا ينامون ويأكلون وهم ملثمون (٣) ، ومن هنا كانت
تسميتهم بالملثمين تسمية طبيعية .

أما اتصال هؤلاء بصنهاجة وبالعرب فتؤكدته شواهد كثيرة ، لعل
لوضحها ما قاله ابن خفاجة الشاعر الأندلسي وهو يمدح الأمير أبا يحيى إبراهيم
ومنه تقتبس اليتن الآتين :

تُسبِهم الدنيا إلى صنهاجة والدين ينسبهم إلى الأنصار
شادت يد العلياء في عرصاتهم أعلى منار في أحر ديار (٤)

(١) محمد عبد الفتاح إبراهيم : إفريقيا المعاصرة ص ٢١ .

(٢) دمشق : نخب الدرر ص ٢٦٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٩ ص ٢٦٠ .

(٤) ديوان ابن خفاجة : ص ٥٥ .

وقد تكون نسبة الملثمين إلى العرب صحيحة ، أو قد تكون قد اشتهرت بناء على ادعاء رسخ في أذهان الناس ، إذ يلاحظ أن كثيراً من القبائل المغربية كانت تنسب نفسها إلى العرب ، لأنها أرادت بعد أن تمّ إسلامها أن تكون على قدم المساواة مع القبائل العربية حتى تستطيع المشاركة في الحياة السياسية الجديدة التي أظلت المغرب بمجيء العرب (١) . ونقطة أخرى يلزم توضيحها هنا هي الامتزاج الذي تمّ سريعاً بين العرب وغيرهم في كل المناطق التي دخلها العرب مع الإسلام ، وهذا الامتزاج الذي كان التزاوج أساسه حل أنساب العرب من مكان إلى مكان .

على أن بعض الباحثين يرى أن هذه القبائل عربية ، دخلت المغرب مع موسى بن نصير ، وتوجهت مع طارق إلى طنجة ، ولكن كثيرين منهم مالوا بعد ذلك إلى البعد عن ضوضاء المدن ، فدخلوا الصحراء بالمغرب الأقصى واستوطنوها (٢) .

وقبائل الملثمين كثيرة العدد ، ولكن أهمها لمتونة في الشمال ، إلى الجنوب من مراکش الحالية ، وحدالة في الجنوب بالقرب من نهر السنغال ، ومسوفة في الوسط ، وقد كان للمتونة الرياسة على كل هذه القبائل (٣) .

وعلى كل حال فإن قبائل الملثمين اتخذوا موقعهم في موريتانيا إما فراراً من صخب الحياة في الشمال ، أو هرباً أمام الغزوات العربية والهجرات العربية التي اندفعت إلى شمالي إفريقيا في موجات الفتوحات التي تعاقبت على هذه المناطق خلال حكم الدولة الأموية .

(١) دكتور حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٧ .

(٢) عبد الحميد اللباد : الجبل في تاوغيغ الأندلس ص ١٧٥ .

(٣) ابن خلدون : المعبر ج ٦ ص ١٨١ .

ولما قامت دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى (١٧٢ هـ - ٣٧٥ هـ) ،
اندفعت تنشر الإسلام في مناطق الجنوب ، واستطاعت بالحرب تارة ،
وبالفكر تارة أخرى أن تدخل منطقة موريتانيا ، وأن تنشر الإسلام بين
الملثمين ، وقد تمّ ذلك في القرن الثالث الهجري ، فأصبحت هذه المناطق
عميقة الإيمان قوية العقيدة ، ولكن دخولها الإسلام خلق اتجاهات جديدة فيها ،
فقد وحد صفوفها بعد أن كانت متفرقة ، ووضعت زعامة لمتونة لها بفضل
الزعيم ثيولوتان بن تيكلان الذي كان قوى الإسلام قوى الشخصية ، فاتصاعت
له كل القروى في قبائل الملثمين (١) .

وأنفت هذه القوة الجديدة أن تظل على خضوعها للأدارسة ، وبدأت
تكون لها كيانات خاصة ، وكان من الأيسر عليها بعد ذلك أن تتجه إلى الجنوب
لتنشر الإسلام فراحته تهاجم مملكة غانا الزنجية وتوجه لها أعنف الضربات ،
وكان المهاجمون يترقبون لإحدى الحسينين ، فلما أن يموتوا في سبيل الله ، وإما
أن ينشروا دين الله ويقضوا على الوثنية في مملكة الزنوج (٢) ، وساعدهم على
ذلك أن شعب صوصو الذي كان يقطن إلى الجنوب من مملكة غانا انتهز
فرصة هجوم الملثمين بالشمال على مملكة غانا ، وراح يطعن من الجنوب ،
وبهذا أتبع للملثمين النصر ، وتوغلوا في مملكة غانا ، واستولوا على
مدينة أودغشت (٣) .

ويبدو أن قوة الملثمين بدأت تضعف بعد ذلك ، وأن حياة الترف
شغلهم عن الدين ، فلما جاء القرن الخامس ، بدأت نهضة جديدة لهذه
القبائل ، وكانت هذه المرة بقيادة يحيى بن عمر من لمتونة كذلك ، ومعه
الفتية العالم عبد الله بن يس الجازولى ، وكان عبد الله يلقي دروسه على

(١) ابن خلدون : المعبر ج ٦ ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٢) القلقشندي : صبح الأضنى ج ٥ ص ٢٩٣ .

(٣) ابن خلدون : المعبر ج ٦ ص ١٩٩ .

المؤمنين ، ولكنهم استصعبوا عمله وتركوا الأخذ عنه ، فأعرض عنهم وترهب وتنسك معه يحيى بن عمر من رؤساء لمتونة وبعض المرينيين ، وانتقلوا الناس في ربوة أسماها رباطاً ، أى قاعدة يربطون فيها للجهاد وللعبادة ، وكان هذا الرباط في جزيرة عند مصب نهر السنغال هي التي تقع عليها اليوم ميناء سانت لويس وفي خلال هذه الفترة تكاثروا المرابطون في هذا الرباط حتى صاروا أئمة ، فتهتف فيهم عبد الله بن يس قاتلا :

« إنكم لن تغلبوا عن قلة ، وقد تعين علينا القيام بالحق والدعاء إليه ... » فخرج المرابطون بقيادة يحيى بن عمر ، ولما توفي يحيى خلفه أخوه أبو بكر وابن عمه يوسف بن تاشفين ، وبدأ بهما ملك المرابطين الذي أتجه نحو الجنوب حتى بلاد السنغال ، كما اتجه نحو الشمال حتى ضم أسبانيا .

وهكذا نتضح لنا أهمية موريتانيا في التاريخ الإسلامي ، والقوى العظيمة التي نشأت بها ودفعت الإسلام إلى الجنوب مساحات واسعة ، كما حث الإسلام فترة طويلة عندما تعرض لضغط الفرنجة في أسبانيا ، ولم يكن المرابطون وحدهم هم الذين نشأوا في منطقة موريتانيا وما حولها وإنما نشأ بها الموحدون وبنو مرين مما يوضح لنا أن لهذه البلاد في التاريخ الإسلامي دوراً حافلاً ، ذكرناه بشيء من التفصيل في الجزء الرابع من هذه الموسوعة ، إذ كانت الصلة وثيقة بين موريتانيا والمغرب ، وكانا يكرنان دولة واحدة طيلة التاريخ الإسلامي الوسيط .

وموريتانيا في التاريخ الوسيط كانت تسمى شنقيط ، ولا يزال هناك كثير من العلماء يحملون اسم الشنقيطي نسبة لهذه البلاد .

وبعد هذا التاريخ الناصح انحلت البلاد ، وتقطعت أوصالها ، وقام بها حكم قبلي مهد الطريق للاستعمار الأوربي .

موريتانيا وهو استعمار الأوربي :

كان البرتغاليون أول من زحف على هذه المناطق لقرب المسافة بين البرتغال وموريتانيا من جهة ، ولثأر من هذه المناطق التي طالما دفعت بأبنائها لاحتحام أسبانيا والبرتغال من جهة أخرى ، ثم بدافع احتكار تجارة الصمغ العربي الذي اشتهرت به منطقة السنغال .

ولم يبق البرتغاليون وحدهم في هذه المناطق مدة طويلة ، فمرعان ما جاء على أثرهم الهولنديون والفرنسيون ، وكان الفرنسيون أطول مقاماً وأعرض آمالاً ، أما البرتغاليون فقد انجهوا إلى الجنوب من نهر السنغال في محاولتهم للدوران حول القارة والوصول إلى الهند ، وقد انجهدت عناية الفرنسيين لاحتكار تجارة الصمغ ، ومن ثم أقامت فرنسا محطة تجارية جنوب مصب السنغال لتفد لها قوافل التجارة من الداخل ، ولكن بعض قبائل موريتانيا وبخاصة جماعات الطرارزة أخذوا يغيرون على هذه القوافل وعلى منطقة نهر السنغال التي اعتبرها الفرنسيون أرضاً لهم ، فبدأ الفرنسيون يردون غارات الطرارزة ويهاجمون أرض موريتانيا ، وقد ظلت هذه هي العلاقة بين موريتانيا وفرنسا حتى القرن التاسع عشر عندما عيّن فيديرب Faidherbe حاكماً على أرض السنغال وتصدى لقبيلة الطرارزة وهزمها سنة ١٨٥٨ وأرغم زعماءها على توقيع معاهدة تلزم فيها بعدم الاقتراب من حوض السنغال وعدم مهاجمة سكانه أو القوافل المارة به :

وكانت هذه المعاهدة مطلع تطلعات فرنسية لموريتانيا ، فلما جاء عصر الاستعمار الأوربي بعد ذلك ، مدت فرنسا نفوذها كاملاً لموريتانيا واتخذ الحاكم الفرنسي اكسافير كويولاني المنافسة بين العرب والبربر وسيلة للسيطرة على

هذه المناطق ، فانتصل ببعض زعماء البربر وأغرام بطلب الحماية الفرنسية ، وفي عام ١٩٠٣ ضم إلى حكمه أرض الطرارزة ، وبعد وفاته سنة ١٩٠٥ سار الكولونيل غورو على نهجه فبسط نفوذه الفعلي على منطقة أورار سنة ١٩٠٩ وبهذا سيطرت فرنسا على أغلب البلاد وفي سنة ١٩٢٠ اعتبر الفرنسيون أرض موريتانيا وحدة إدارية ، وأصبحت بالتالي إقليبا من إفريقيا الغربية الفرنسية التي تضم ثمانى مقاطعات فرنسية في إفريقيا الغربية (١) ، وكانت عاصمتها مدينة « سانت لويس » وهي تقع في بلاد السنغال وليس في بلاد موريتانيا ، وذلك من دواعى الدهشة ، وقد بقيت « سانت لويس » عاصمة لموريتانيا حتى يوليو سنة ١٩٥٧ فصدر مرسوم يجعل العاصمة مدينة « نواكشوت » وهي مدينة موريتانية وانتهى بذلك هذا الشلوذ .

الاستقلال :

إن استقلال موريتانيا وغيرها من المستعمرات الفرنسية لم يتم دفعة واحدة وإنما مرت هذه المناطق بمراحل طويلة حتى وصلت إلى الاستقلال التام ، وسنقدم هنا دراسة عن « المستعمرات الفرنسية وطريقها إلى الاستقلال » وهي دراسة تفيدنا مع كل الدول الإسلامية التي كانت خاضعة للاستعمار الفرنسي بإفريقية ، لأن الطريق كان واحداً ولم تظهر فروق إلا مع استثناء ٢٨ سبتمبر الذي اقترحه الجنرال ديغول ، وفيما يلي هذه الدراسة .

المستعمرات الفرنسية بإفريقية وطريقها للاستقلال :

كانت إفريقيا الفرنسية الغربية تتكون من أقاليم ثمانية هي : موريتانيا والسنغال والسودان الفرنسي « مالى حالياً » وغينيا الفرنسية « غينيا حالياً » وساحل العاج وفولتا العليا وداهومى والنيجر .

وكان يحكم كل إقليم من هذه الأقاليم حاكم فرنسي ، وكان هؤلاء مسئولين أمام حاكم عام للمنطقة كلها يقيم في دكار التي كانت في الوقت نفسه عاصمة إقليم السنغال ، هذا الحاكم بدوره مسئول أمام وزير المستعمرات والبرلمان الفرنسي .

وكانت إفريقية الفرنسية الاستوائية تتكون من أربعة أقاليم هي جابون والكونغو الأوسط وأوبانجي شاري وإفريقية الوسطى الآن ، وتشاد ، وكانت - كإفريقية الفرنسية الغربية - يحكم كل إقليم منها حاكم فرنسي ، وكان هؤلاء الحكام الأربعة مسئولين أمام حاكم فرنسي عام للمنطقة كلها يقيم في برازافيل بالكونغو الأوسط ، في حين كانت عاصمة هذا الإقليم هي (بوانت نوار) وكان الحاكم العام مسئولاً أمام وزير المستعمرات والبرلمان الفرنسي ، وكان لكل حاكم مساعدون فرنسيون للشئون المختلفة ، ولا يستعان بالوطنيين إلا في الأعمال الدنيا ، وكان النظام الانتخابي المعمول به غير مباشر ، وهكذا كانت فرنسا تحكم هذه الأقاليم حكماً مباشراً دون الاعتماد على السلاطين أو الرؤساء الذين استغنت عنهم الإدارة الفرنسية شيئاً فشيئاً ، ولم يبق لهم إلا مظاهر لا جدوى لها كجباية الضرائب لحساب الخزنة الفرنسية وكالإعفاء من الجندية .

وظل الحال كذلك منذ بدء الاستعمار الفرنسي بإفريقية حتى سنة ١٩٤٤ وكانت فرنسا قد سقطت في الحرب العالمية الثانية أمام ألمانيا ثم بدأت تنتعش من جديد ، ولكن كبرياءها كان قد انهار ، فعقيد في هذا العام مؤتمراً في برازافيل أوصى بضرورة تطوير نظم الإدارة وزيادة استخدام الإفريقيين في وظائف الحكومة ، والأخذ بنظام الانتخاب المباشر ، كما ظهر في المؤتمر انجاء نحو منح هذه الأقاليم الحكم الذاتي والاكتفاء بالارتباط بفرنسا في اتحاد فيدرالي (١) .

وبناء على هذا المؤتمر جاء دستور ١٩٤٦ وأهم ما ورد به البنود التالية :

١ - أصبحت الإمبراطورية تدعى « الاتحاد الفرنسي » وذلك تراجع واضح من الاستعمار .

٢ - ألغيت كلمة « المستعمرات » وحل محلها تعبير جديد هو « الأقاليم الواقعة فيها وراء البحار » ومنحت حق تمثيلها في الجمعية الوطنية ومجلس الجمهورية ، وحمية الاتحاد الفرنسي .

٣ - تنتخب الأقاليم الفرنسية ممثلين لها في الجمعية الوطنية الفرنسية .

٤ - تكوين جمعية تمثيلية بالانتخاب في كل إقليم .

٥ - إنشاء « المجلس الكبير » لكل من إفريقية الغربية وإفريقية الاستوائية وتختار الجمعيات الإقليمية ممثلها فيه .

٦ - يتمتع جميع الأفراد بهذه الأقاليم بصفة « المواطن الفرنسي » ولكن لا يكون له حق الانتخابات إلا إذا كان موظفاً عمومياً أو من المحاربين القدامى أو من حملة الإجازات العالية .

وعلى الرغم مما في هذا الدستور من قصور فإنه أتاح لعديد كبير من الإفريقيين أن يصيروا أعضاء في الجمعية الوطنية الفرنسية بباريس ، وهناك زجرت هذه الأصوات وطالبت بحقوق أوسع ، وعدالة أكثر ، كما أنه أعاد لهذه الأقاليم مكانها إلى حد كبير .

وفي مطلع عهد ديغول أدركت فرنسا أن عهد الاستعمار المباشر قد انتهى فأرادت أن تكون منها ومن مستعمراتها السابقة جماعة أشبه بالكومنولث البريطاني ، فأعلن ديغول قيام الجمهورية الفرنسية الخامسة سنة ١٩٥٨ ، ومن أهم ما ورد في دستورهما مما يتصل بالمستعمرات السابقة ما يلي .

١- بتحول الاتحاد الفرنسي إلى « الجماعة الفرنسية » أو « المجتمع

الفرنسي » ؛

٢- تمنح الأقاليم الإفريقية الاستقلال الذاتي، ويكون لكل دولة رئيسها وبرلمانها ولكن الجماعة تحفظ بطائفة من الاختصاصات أهمها السياسة الخارجية والدفاع والاقتصاد، وهذه الأمور يديرها « مجلس تنفيذي » مكون من رؤساء كل الدول المتحدة التي يرأسها رئيس الدولة الأم (فرنسا) ومعهم الوزراء الفرنسيون المسئولون عن المسائل المشتركة.

٣- للدول الحق في الانسحاب من الجماعة وقتما تشاء إذا أرادت ذلك .

وجرى استفتاء في ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٥٨ فوافقت عليه كل الدول الإفريقية الفرنسية إلا غينيا فقالت « لا » مؤثرة الاستقلال التام خارج الجماعة .

وينبغي أن نوضح أن الاستفتاء لم يكن حراً حرية حقيقية ، فلم يجيء معبراً تعبيراً دقيقاً عن اتجاه الشعوب ، ولذلك كانت نتائجه قصيرة العمر ، فلم يستمر العمل طويلاً به ، ومرعان ما رأينا الدول التي أعلن من قبل أنها موافقة على الدستور تطالب بالاستقلال التام ، على أن يكتفى بمعاهدات ثنائية لمعالجة بعض الأمور ، وطأطأت فرنسا للعاصفة ، وتركزت الدول الإفريقية تستقل عنها كما أرادت ، وكان عام ١٩٦٠ عام الاستقلال وحل محل المجلس التنفيذي « مؤتمر دورى من رؤساء الدول والحكومات » يقتصر عمله على التنسيق ، لأن السياسة الخارجية والمال والدفاع تركت لكل دولة ، وتبعاً لذلك لم يكن في هذا المؤتمر مكان للوزراء لأنه لم تعد هناك أمور مشتركة معلقة كما كانت الحال من قبل (١) .

(١) جيك ووديس : جلوس الثورة الإفريقية ترجمة أحمد فؤاد بليغ ص ٥٠٦ و ٥٠٨ .

ولقد كتور راشد البراوى : تشكيلات القارة الإفريقية ١٢٣ وما بعدها .

موريتانيا مع الاستمرار إلى المستقبل :

مرت موريتانيا بالمراحل التي ذكرناها في الدراسة السابقة حتى إذا جاء الاستفتاء على دستور ٢٨ سبتمبر صوت موريتانيا إلى جانبه ، ونتيجة لذلك أصبحت عضواً مستقلاً في الجماعة الفرنسية ، ثم أخذت بعد ذلك طريقها بالمراحل التالية ليكمل لها الاستقلال :

- في مارس سنة ١٩٥٩ صدر أول دستور للبلاد ، وقضى بأن تتولى السلطة التنفيذية حكومة من ثمانية وزراء مع جمعية وطنية تتكون من ٣٤ عضواً .

- في نوفمبر سنة ١٩٦٠ أعلن استقلال البلاد .

- في مايو سنة ١٩٦١ صدر دستور جديد يقضى بتكوين حكومة رئاسية يكون رئيس الجمهورية فيها هو رئيس للوزراء ، وله ما يتبع ذلك من حقوق .

- ضمت موريتانيا إلى منظمة الأمم المتحدة في أكتوبر سنة ١٩٦١ .

- اختير الرئيس « مختار ولد داداه » رئيساً للجمهورية في أغسطس سنة ١٩٦٢ ، وجرى انتخابه في أغسطس سنة ١٩٦٦ وهو رئيس الجمهورية الآن .

اقتصاد موريتانيا :

لا تعد موريتانيا من البلاد الغنية ، فالصحراء تغطي أغلب أرضها ، وتتحصر المنطقة الزراعية في حوض نهر السنغال جنوبي البلاد ، والمدن قليلة في موريتانيا وأغلب السكان بدوي يعيشون على الرعي وتربية الماشية ، وفي حوض نهر السنغال يُزرع الدخن وهو نبات من فصيلة النجيليات حبه

صغير ، يقدم طعاماً للطيور والدجاج ، كما تزرع الفاصوليا والبطاطا وتكثر التمور وكلها تستهلك محلياً ، وبمناسبة الحديث عن التمور ذكرت إحصائيات سنة ١٩٥٩ أن بموريتانيا حوالى نصف مليون نخلة ، ويعتبر الثمر غذاء رئيسياً للبدو ، وبين أشجار النخيل يزرع الشعير والقمح والبنج والخناء ، وكثير من أشجار الفاكهة ، وفي عهد الاستقلال اهتمت الحكومات باستصلاح الأراضى ، وإعادة الحياة للمزارع القديمة ، ومن أشهر المشروعات الزراعية فى موريتانيا محطتان زراعتان فى كيفا وكانكوسا .

ونظراً لكثرة المراعى فى موريتانيا كانت تربية الحيوانات تمثل جزءاً عظيماً من النشاط الاقتصادى فى موريتانيا ، وتذكر الإحصائيات أن بالبلاد أكثر من خمس ملايين رأس غنم وماعز ، وحوالى مليون بقرة ، ومئات الآلاف من الجبال والنخيل والحمير .

وصيد الأسماك يمثل جانباً مهماً فى اقتصاد موريتانيا ، ويعتمد على المحيط وعلى نهر السنغال فى صيد هذه الكمية الكبيرة من الأسماك ، ويستهلك أكثره محلياً ، ويصنع بعضه تجفيفاً أو تعليباً ليصدر إلى البلاد المجاورة .

أما الثروة المعدنية فتعتمد على الحديد الذى يستخرج من مناجم فورغورو ، وهى مناجم غنية بالحديد بنسبة ٦٥ ٪ وبالإضافة إلى الحديد هناك معدن النحاس الذى عثر عليه فى منطقة أكجوج ، كما أن هناك توقعات حول العثور على البترول بكيات وافة بالقرب من ساحل الإطلنطى ، أو فى الخوض الرسون لنهر السنغال ، ويؤمل أن يحقق عهد الاستقلال ألواناً من الرفاهية للسكان ، وأن ينقل البلاد إلى الزراعة المتطورة ، والصناعة التى ترتبط بما فى البلاد من محاصيل زراعية أو معدنية .

التعليم :

إن مهمة التنقل التي أشرنا إليها ، والـاـ نتظم كثيراً من سكان موريتانيا كانت من أهم العوامل التي أدت إلى صعوبة التعليم ، وانخفاض نسبته ، وفي عهد الاستقلال حاولت الدولة أن تعالج هذا الأمر ، فتتمت القبائل عندما تحط رحالها لتوجه أطفالها إلى أقرب المدارس إلى المكان الذي ينزلون به ، ولكنها أدركت صعوبة هذه الحالة ، لاختلاف مستوى التعليم بين تلاميذ البدو والتلاميذ المقيمين ، ولذلك بدأت الدولة مشروع المدرسة المتنقلة فألحقت بالقبائل مدرسين يقيمون معها ويرحلون بترحالها ، بيد أن هذه الحالة سيحل مكانها المدارس الثابتة مع نجاح خطة الاستقرار للبدو التي تعمل الدولة على نشرها بربطهم بالزراعة بدل الرعى ، وعلى كل حال فقد شهد عهد الاستقلال تطوراً واضحاً في عدد المدارس ونوعها ، وعدد التلاميذ والطلاب ، فأصبح في موريتانيا عدد كبير من المدارس الابتدائية ، وحوالى عشرين مدرسة ثانوية ، ومعهد للدراسات الإسلامية ، أما التعليم العالى فلا يزال محدوداً في موريتانيا ولذلك يتجه الراغبون فيه إلى جامعة داكار في السنغال أو إلى مصر .

بين المغرب وموريتانيا :

هناك تباران سياسيان يتجاذبان موريتانيا ، أحدهما تيار الجنس الغالب والدين وهو يجذبها نحو المغرب ، والثاني تيار الروابط الاقتصادية والتقارب للمادى وهو يجذبها نحو وسط إفريقيا^(١) ، وقد ظلت موريتانيا تكون مع المغرب وحدة واحدة طيلة عهد المرابطين والموحدين وبنى مرين ، وانتشرت

(١) صلاح جبرى : إفريقيا وراء الصحراء ص ١٩٦ .

بها اللغة العربية والدين الإسلامى خلال هذه العصور ، لكن سكان موريتانيا هم من القبائل ، وطبيعة القبائل لا تميل للخضوع لحكومة مركزية ، وتحاول ما استطاعت أن تنمرد على هذه التبعية وتعود للانطلاق ، ومن هنا كان سكان موريتانيا يفتخرون الفرص لإعلان نوع من الاستقلال عن حكومة الشمال ، وهكذا عاشت موريتانيا معظم الوقت تتأرجح بين الاندماج في المغرب أو إعلان نوع من الاستقلال عنه ، وإقامة حكم محلى قبلى .

ولما زحف الاستعمار الفرنسى إلى منطقة السنغال فى آخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وزحفت قواته إلى موريتانيا لحماية تجارتها فى السنغال كما ذكرنا آنفاً ، عارضها السكان والأهالى ، ولكن مراكش نفسها سرعان ما خرت تحت الاستعمار الفرنسى والأشبانى ، وفى عهد الاستعمار رجحت الكفة التى تميل للنفرة بين موريتانيا والمغرب (١) .

وإذ كان دعاة الانضمام للمغرب يستندون إلى نوازع الجنس والدين ، فإن دعاة الاستقلال يستندون إلى أنه ليس هناك حدود مشتركة بين المغرب وموريتانيا ، ويرون أن موريتانيا لها طابع خاص يخالف طابع سكان الشمال كما يخالف طابع سكان قلب إفريقيا ، ومن ثم فموريتانيا تكون حلقة اتصال بين القسمين ، ولا يجوز أن تندمج مع أى منهما .

ونحن دعاة وحدة ، ونرى فى الوحدة مجدداً وقوتنا ، ولكننا فى الوقت نفسه يحكمنا حق تقرير المصير ، فالوحدة لا بد أن تكون لإرادة الشعوب ، وفى كلمة مغلظة أحب أن أقرر أن مصر باركت استقلال السودان مع شدة ارتباطها به ومع تمسكها بالوحدة معه فترة طويلة ، ولكنها رأت أن الاعتراف باستقلال السودان سيحرس الروابط بين البلدين ، ويزيل الجفوة

(١) للتاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ج ٤ ص ٢٢٥ - ٢٢٦ من الطبعة الثالثة

التي ظهرت لسبب أو لآخر ، وقد استطاع البلدان أن يحققا خطوات واسعة في سبيل التقارب بعد موقف مصر من الاعتراف باستقلال السودان ، ومثل هذا موقف مصر بالنسبة إلى سوريا ، فقد اعترفت مصر باستقلالها سنة ١٩٦١ بعد أن ربطتها بها وحدة تامة أرادها شعب مصر وسوريا سنة ١٩٥٨ ، وفي ظل اعتراف مصر باستقلال سوريا عادت خطوط الود تنسج من جديد بين البلدين الشقيقين .

وكم أتمنى أن يقف الغرب من موريتانيا نفس الموقف الذي وقفته مصر من السودان ومن سوريا لتحفظ بموريتانيا ، دولة عربية إسلامية ؛ واعتقادي أنه لو تم هذا لأصبح بين الغرب وبين موريتانيا علاقات قوية ينسجها التاريخ الطويل المشترك ، والأمل المريض في المستقبل .

أهمرات جبريرة تعمل بموريتانيا :

دارت الأيام دورتها وتغيرت الأوضاع بالنسبة لموريتانيا في ذاتها ، وبالنسبة لموريتانيا في علاقاتها بجيرانها ، وحتى يتضح الموقف نذكر أن الصحراء المغربية التي احتلتها أسبانيا سنة ١٨٨٥ كانت السبب في هذا التغير ، وكانت المغرب ترى أن الصحراء جزء منها ، أما أسبانيا فكانت تمسك بهذه الأرض مدعية أنها عندما احتلتها سنة ١٨٨٥ كانت أرضاً بلا صاحب ، وقد تساهلت المغرب في الصراع كما يقول سفيرها بالقاهرة حرصاً على علاقات العرب بأسبانيا وتقديراً لموقف أسبانيا من العرب في قضية فلسطين والشرق الأوسط ، ولكن التساهل لم يكن أبداً يعني التنازل عن هذه الأرض .

واتهمزت أسبانيا فرصة التساهل للغربي قوتاً أطاعها في المنطقة

وبخاصة عند احتمال ظهور البترول فيها ، وتحقيقاً لأهدافها قامت بالاتفاق مع بعض سكان المنطقة لمنح المنطقة استقلالاً ، ولتفصلها نهائياً عن المغرب ، وبما ساعد على ذلك أن موريتانيا كانت كذلك تدعى أن لها حقاً في الصحراء .

وإزاء ذلك تم الإتفاق سنة ١٩٧٤ بين موريتانيا والمغرب على أن تقسم الصحراء بين الدولتين ، وتقدمت المغرب برسالة إلى السكرتير العام للأمم المتحدة تنذر باستخدام القوة إذا أقدمت أسبانيا على تنفيذ مخططاتها ، فقررت هيئة الأمم تحويل القضية إلى محكمة العدل الدولية في لاهاي ، وفي ١٧ أكتوبر سنة ١٩٧٥ قررت محكمة العدل الدولية أن هذه الصحراء لم تكن أرضاً بلا صاحب حين تم ضمها لمستعمرات أسبانيا في أواخر القرن الماضي ، كما قررت أن هذه الصحراء كانت لها روابط قانونية بالملكة المغربية . وعقب ذلك قرر الملك الحسن أن يقوم المغاربة بزحف سلمي إلى الصحراء .

انسحاب أسبانيا :

ونتيجة لكل ذلك وقعت اتفاقية مدريد في ١٤ نوفمبر سنة ١٩٧٥ والتي تقضى بانسحاب أسبانيا من الصحراء ، ثم عقدت اتفاقية في نفس العام بين المغرب وموريتانيا بتقسيم الصحراء بين المغرب في الشمال وموريتانيا في الجنوب .

الوفاء بين المغرب وموريتانيا :

وهكذا نحقق الأمل الذي تطلعنا له وصفت العلاقات بين المغرب وبين موريتانيا ، فلم يكتف المغرب باعترافه باستقلال موريتانيا

بل أضاف لها جزءاً من الصحراء ، وفي مايو سنة ١٩٧٧ عقدت اتفاقية دفاع وتعاون إقتصادي مشترك بين المغرب وموريتانيا رابطة بمقتضاه قوات مغربية داخل موريتانيا يبلغ عددها ٩ آلاف مقاتل .

الجزائر ومشكلة الصحراء :

على أن القضية لم تنته بالوفاق بين المغرب وموريتانيا ، فقد برز اسم الجزائر في الصراع من أجل هذه الصحراء ، وأيدت الجزائر منظمة ظهرت حديثاً باسم « منظمة البوليزاريو » ولها جيش يسمى « جيش التحرير الصحراوي » وكان موقف الجزائر مبني على ادعاء حقوق لها في الصحراء ، ثم لمحاولة الحصول على طريق بري في جمهورية صحراوية مستقلة لتقل عن طريقه ثروتها المعدنية إلى المحيط الأطلسي ، وقد وصل الخلاف إلى معارك عربية اشتركت فيها الجزائر ، وتدخلت وفود عربية لإيقافها ، ولم تصل المشكلة بين الجزائر والمنظمة الصحراوية من جانب وبين المغرب وموريتانيا من جانب آخر إلى حل نهائي حتى كتابة هذه السطور (أكتوبر ١٩٧٨)

موريتانيا تنضم للجامعة العربية :

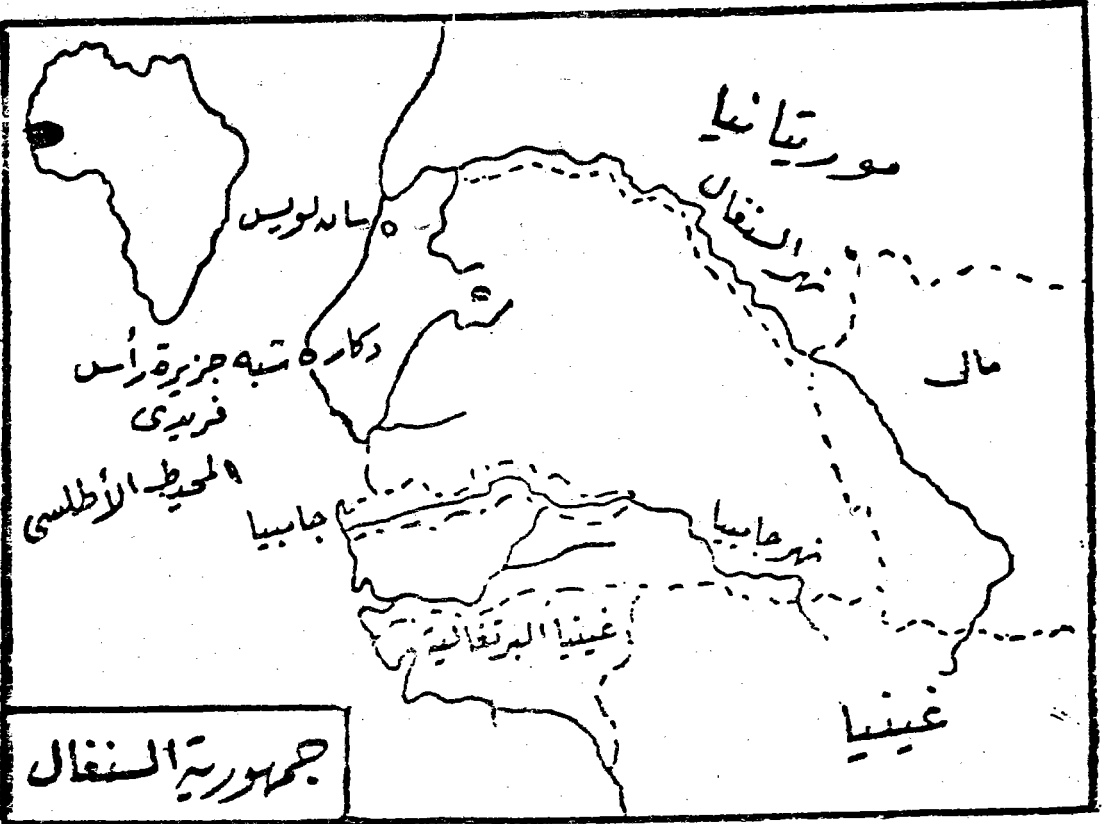
في مطلع عام ١٩٧٤ وعقب اتفاق موريتانيا مع المغرب أسفرت موريتانيا عن عروبتها ، وأعلنت انضمامها للجامعة الدول العربية فتحقق بذلك الأمل الذي راود محي العرب بأن يغمر اللسان العربي هذه المنطقة المهمة من إفريقية ، ونرجو في ظل هذا الوضع الجديد أن تزداد اللغة العربية بموريتانيا ازدهاراً ورفعة .

انقلاب في موريتانيا :

في العاشر من يوليو سنة ١٩٧٨ هبَّ انقلاب في موريتانيا بقيادة مصطفى محمد ولد سالك الذي كان يشغل منصب أركان حرب القوات للموريتانية المسلحة ، وكان سبب هذا الانقلاب كما قال الرئيس الجديد هو الاضطراب الاقتصادي ، ووضف حكومة مختار ولد داه في مواجهة حرب الصحراء .

وقد أعلن الرئيس الجديد أن الانقلاب يحرص على استمرار التعاون مع المغرب على العزم على وضع حد لحرب الصحراء ، والاستمرار على السياسة الخارجية السابقة ، مع محاولة إصلاح الاقتصاد للموريتاني وتقوية الجيش بالأساليب المتعددة .

السنغال



أهمية السنغال :

للسنغال أهمية خاصة بالنسبة لأقطار إفريقية الغربية الفرنسية كلها حتى جرى على ألسنة كثير من الناس في الشرق والغرب تسمية جميع هذه الأقطار باسم السنغال^(١) ومرجع ذلك أنه عن طريق نهر السنغال تغلغل الاستعمار

(١) أبو بكر خاله : فوق السنغالية ص ٢٦ .

الفرنسي حتى شمل المنطقة كلها ، واعتُبر إقليم السنغال نقطة الارتكاز للاستعمار الفرنسي في غرب إفريقيا ، كما اعتُبرت دكار عاصمة السنغال أحد طرفي الحزام الإفريقي الذي كانت فرنسا تطمح في مده بين هذه العاصمة وجيوتي ، وكان بهذه العاصمة أكبر قاعدة جوية وبحرية لخدمة الاستعمار للفرنسي ، وكانت دكار عاصمة للمنطقة كلها ومقر المقيم العام الفرنسي كما سبق ، ومن أجل هذه الأسباب كانت عناية المستعمر الفرنسي بالسنغال أكثر من عنايته بالمناطق الأخرى ، فنال السنغال من التقدم ما لم يحظ به إقليم آخر من أقاليم هذه المستعمرات .

الموقع والتسمية :

تقع السنغال بين جمهورية مالي في الشرق والمحيط الأطلنطي في الغرب وبين جمهورية موريتانيا في الشمال وجمهورية غينيا وغينيا البرتغالية في الجنوب ، وهي المنفذ الطبيعي لجمهورية مالي ، ومن هنا يوجد خط حديدي يربط بين البلدين ، ويبدأ من « باماكو » عاصمة مالي حتى يصل إلى المحيط ، وتقع السنغال في أقصى امتداد إفريقية إلى الغرب ، ومن هنا كانت أنسب المحطات في الطريق بين أوروبا والولايات المتحدة .

أما تسمية السنغال فوضع حديث طريف ، ويرى البعض أن هذا القطر اشتق اسمه من نهر السنغال^(١) . ولكن هذا الاتجاه لا يحل المشكلة ، فالسؤال سيظل قائماً مع تحول بسيط هو لماذا سمي هذا النهر نهر « السنغال » وبخاصة أن هذا النهر لم يحمل هذا الاسم إلا في القرن السابع عشر^(٢) :
والذي يدور لنا أن تسمية النهر والمنطقة مرتبطة بقبيلة صنهاجة العربية

(١) أحمد طية الله : القاموس الإسلامي ج ٣ ص ٥٢٤ .

(٢) تقرير البلدان الإسلامية ص ٣٥١ .

التي سبق أن تحدثنا عنها عندما أوردنا كلمة تاريخية عن موريتانيا ، فإن أفراداً من قبيلة لمتونة إحدى قبائل صنهاجة اتخذوا لهم رباطاً في جزيرة عند مصب نهر السنغال ومن هذا الرباط خرج المرابطون وحققوا انتصارات واسعة للإسلام والمسلمين بمعونة قبائل أخرى تنحدر أيضاً من صنهاجة ، ولذلك كان من حق هذا النهر أن يحمل اسم الجماعة التي تربت في كنفه وخرجت من بين أحضانه تدافع عن عقيدتها وتشر دين الله ، وبالتالي أن يصبح هذا الاسم اسماً لهذه المنطقة التي شهدت هؤلاء الأبطال يخرجون ليحملوا هذا العبء ولينشروا الحق في هذه الربوع ، ومن الواضح أن اللسان الإفريقي انحرف قليلاً بنطق الكلمة فاستبدل بالصاد سينا وبالحاء غينا على نحو ما فعل بأكثر الكلمات التي اقتبسها من اللغة العربية ، وعلى نحو ما يحصل دائماً عندما تنتقل كلمة من شعب إلى شعب ، وكان إقليم السنغال يعرف قديماً ببلاد التكرور .

وتقع في السنغال مدينة « سانت لويس » وكانت كما قلنا من قبل عاصمة موريتانيا ، ولهذا لا زالت هذه المدينة تحمل ذكريات هذا التاريخ على الرغم من انصراف العمران عنها إلى دكاك التي يتزايد سكانها من يوم إلى يوم ، وتقع دكاك في نهاية شبه جزيرة « رأس فريدي » وعندها ينتهي الخط الحديدي سالف الذكر .

وتعاني بلاد السنغال أثراً سيئاً من آثار الاستعمار وآثار تنافس الدول الأوروبية التي استعمرت إفريقية فترة طويلة من الزمن ، وذلك هو وجود دولة كاملة بداخلها هي دولة جامبيا التي كانت مستعمرة بريطانية : وهي تمتد مع نهر جامبيا وعلى جانبيه في داخل السنغال بعرض حوالي ١٣ ميلاً وطول ٣٠٠ ميل ، وستكلم عن دولة جامبيا فيما بعد ، ولكتنا هنا نذكر ما يخص السنغال من هذا الوضع ، فإن دولة جامبيا تشغل الجزء الصالح للملاحة من نهر جامبيا الذي يُعَدُّ من أصلع مجارى المياه للملاحة

في كل إفريقية ، إذ أن البواخر الكبيرة عابرة المحيط يمكن أن تسير في النهر حوالي مائة وخسين ميلا من باثورست عاصمة جامبيا وبخاصة في أيام الفيضانات ، ولهذا كان هذا النهر جديراً بأن يكون أصلح مخرج لتجارة السنغال ومال لولا هذا التقسيم الاستعماري الذي بُليت به المنطقة ، ولما كان نهر السنغال أقل صلاحية للملاحة من نهر جامبيا فإن السنغال ومال لم تستطعا الاعتماد عليه في نقل تجارتها للمحيط ، وأقامتا الخط الحديدي سالف الذكر مع ما كلفه إنشاؤه من نفقات باهظة ، ومع ما يتطلبه النقل بالخط الحديدي من تكاليف . وهناك تأثير معيب آخر تعانيه السنغال بسبب هذه الإصبع الممتدة بداخلها ، ذلك أن جامبيا تعزل ولاية كاسامانس الجنوبية عن شمالي السنغال ، وتجعلها بطيئة التطور على الرغم من التسهيلات التي حصلت عليها السنغال ابتداء من سنة ١٩٤٧ للاتصال بين جانبيها عبر دولة جامبيا^(١) .

وبالإضافة إلى نهر السنغال الذي يقع على الحدود بين موريتانيا والسنغال ونهر جامبيا الذي يحدنا عنه والذي يهيم في أرض السنغال في مجراه الأعلى حتى يصل إلى أرض جامبيا ، يوجد هناك نهران مهمان هما نهر سالوم ونهر كاسامانس وهما صالحان للملاحة في بعض أجزائهما .

الطعام : وما ولقروونا :

يتألف السواد الأعظم من السكان من قبائل الولوف وتوكلور والفلاحي والماندنجو والبربر ، وعدد السكان حوالي ثلاثة ملايين ، وترتفع نسبة المسلمين منهم إلى ما يزيد عن ٩٠ ٪ والباقي مسيحيون أو وثليون أو لادينيون . ويتكلم السكان لغاتهم المحلية وتنتشر العربية بين المثقفين المسلمين ، والفرنسية هي اللغة الرسمية حتى الآن .

كلمة تاريخية :

كانت بلاد السنغال أو بلاد التكرور إقليماً هاماً في مملكة غانة القديمة :
ثم دخلها الإسلام من الشمال وافتدأ مع التجار والدعاة من بلاد المغرب ،
ومن الشرق وافتدأ من مصر وسودان وادى النيل ، ومن ليبيا عبر نهر
التبجر ، ويقرر بعض الكتاب السنغاليين^(١) أن عدداً وفيراً من المسلمين
رحلوا من مصر العليا عقب الفتح العربى واتخذوا وجهتهم إلى الغرب حتى
استقر بهم المقام في السنغال ، وقد أصبح لهم الملك فيما بعد في هذه المناطق ،
وقد اعتنق ملك التكرور وأعيان دولته الإسلام في منتصف القرن
الحادى عشر .

ومن هذه المناطق هب المرابطون كما ذكرنا من قبل^(٢) ، ونشروا
الإسلام في ربوعها نشراً واسعاً ولما قامت إمبراطورية مالى (القرن
١١ - ١٥) أصبحت بلاد السنغال جزءاً من هذه الإمبراطورية ، ولعبت
دوراً هاماً في نشاطها خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

وعقب انهيار إمبراطورية مالى قام بهذه المنطقة نظام الحكم القبلى
فأضعف شأنها وبدد قوتها ، ثم هبت نهضة إسلامية بقيادة توكلور الذى قام
بالتبشير الإسلامى بين قبائل فولبي سنة ١٧٧٠ ونجح في ضمها للإسلام سنة
١٧٧٦ ، وكان بذلك يصارع الاستعمار الذى دبّ في هذه المناطق ابتداء
من القرن الخامس عشر واشتد عوده في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ،
ومن قادة هذا الصراع المتأخرين الحاج عمر الفوقى التيجانى الذى جند جيشاً
كبيراً جمع أهم كتائبه من فوقى السنغالية التى تحدثنا عنها من قبل ثم دعا إلى
جهاد الكفار ، وهاجم الأمراء الذين اتفقوا مع فرنسا ، واستطاع أن يحقّق

كثيراً من الانتصارات ضد الاستعمار الأوربي وضد قبائل البحارة الوثنيين وضد أمراء المسلمين الذين هادنوا الاستعمار ، وكانت وفاة الحاج عمر سنة ١٨٦٥ م ، وقد خلف للطريقة التجانية سلطنة إسلامية عظيمة في وسط بلاد الزنوج ، وخلفه ابنه أحمدو شيخو ثم أحمدو صمدو الذي ظل يناضل حتى سنة ١٨٩٨ عندما أسره الفرنسيون وتوفي في المتني بجابون سنة ١٩٠٠ (١).

ذلك هو موقف هذه البلاد من الاستعمار ، ومدى المقاومة الصلبة التي أبديتها ، ولنعد للاستعمار لتحدث عنه من مطالعته ببلاد السنغال :

وقلنا آنفاً إنه عقب اننيار إمبراطورية مالي قام بهذه المنطقة نظام الحكم القبلي الذي أضعف من شأنها وبيد قوتها ، وكان شعار الاستعمار قد بدأ يظهر وينتج لإفريقية ، ومهد الحكم القبلي له الطريق ليدخل هذه المنطقة ، وقد وصل البرتغاليون إلى رأس فريدي في القرن الخامس عشر ، ومنه تسللوا إلى منطقة بلنبوك بحثاً عن الذهب ولكن السكان طردوهم .

ثم جاء الاستعمار الفرنسي إلى هذه المنطقة ، وتأسست بالساحل أول مستعمرة فرنسية سنة ١٦٢٦ في « سانت لويس » التي تحدثنا عنها من قبل ولكن هذه المستعمرة احتلها البريطانيون سنة ١٧٥٨ ثم عادت منطقة السنغال إلى فرنسا بناء على معاهدة عقدت سنة ١٧٨٣ ، وحاولت إنجلترا خرق هذه المعاهدة والعودة لاحتلال المنطقة ، ولكن فرنسا استطاعت أن تثبت أقدامها في المنطقة ابتداء من سنة ١٨١٧ (٢).

ومن الواضح أن فرنسا في هذه الكرة كانت تعاصر النهضة الإسلامية التي قادها « توكلور » ونجح فيها في ضم قبائل فولبي للإسلام سنة ١٧٧٦ وأخذت فرنسا تغري بعض الإمارات بالدخول معها في حلف حتى تنجو

(١) محمد الحافظ التيجاني : الحاج عمر القزويني سلطان الدولة للتيجانية ص ٢ و ٤ .

(٢) تقرير العالم الإسلامي ص ٢٠٢ .

من الزحف الإسلامي الذي كان يقوده خلفاء فوكلور من التجانية ، وقد استجاب للأسف بعض منهم لدعوة فرنسا فأبرم « للماي محمد » أول معاهدة وداد مع فرنسا سنة ١٨٤١ وتمكنت فرنسا بذلك من التعمق داخل البلاد ، وأخذت تخض بعض الأقاليم التي كانت التحقت بالحلف الإسلامي على التخلي عن هذا الحلف ، والاعتراف بالسلطات الفرنسية ، كما أن فرنسا أجبرت بعض الإمارات على الدخول معها في معاهدات ضد الحلف الإسلامي ، وينبغي أن نذكر أن بعض الإمارات وقفت صامدة أمام القوة الفرنسية ، ولم تعترف بسيادتها طيلة فترة الصراع الذي قاده خلفاء عمر القوتى ، ولم يتم لفرنسا الأمر إلا سنة ١٨٩٨ عندما قبض على أحمدو صمدو كما ذكرنا آنفاً (١) . وكان « فايد هرب » القائد الفرنسى أشهر القواد الذين باثروا هذا النضال ضد الحكام المسلمين وقضوا على استتلال هذه المنطقة .

وفى سنة ١٨٩٥ عندما مالت الكفة الفرنسية إلى الرجحان ، وضعفت مقاومة المسلمين أعلنت فرنسا قيام ما يسمى « إفريقيا الغربية الفرنسية » وجعلته يضم ثمانى مناطق ، وجعلت « سانت لويس » عاصمة لهذه المنطقة الواسعة ، ثم نقلت العاصمة سنة ١٩٠٢ إلى داكار .

وفى سنة ١٩٢٤ صدر مرسوم يجعل داكار والمنطقة المحيطة بها منطقة خاصة ، ولكنها عادت فاندحدت مع السنغال بمرسوم آخر صدر سنة ١٩٤٦ ، وفى خلال هذه الفترة تطورت أحوال داكار انتفاعاً بهذه الميزة حتى أصبحت عاصمة كبرى مليئة بالحياة والحركة والتقدم ، ويبدو أن مكانة داكار وما حصلت عليه من تقدم سياسى واقتصادى أنساب إلى ما حولها من نواح بمنطقة السنغال ، فبالسنغال نصيباً أوفر من التقدم فى إفريقيا الغربية الفرنسية ، فأصبح به ربيع شبكة الخطوط الحديدية التى أقامتها فرنسا

إفريقية الغربية كلها ، وأصبح يضم نصف عدد الأوربيين ، كما كان تطوره الصناعي أسبق من التطور في البلدان المجاورة ، وكان يضم عدداً كبيراً من المدن ، وبلغت نسبة التعليم فيه ٢٠ ٪ سنة ١٩٥٥ مقابل ١٠ ٪ بالمنطقة كلها وكان السنغال وحده ثلث تلاميذ المدارس الثانوية بالمنطقة ، وفيه وحده كان الإفريقيون يتمتعون بما للمواطنين الفرنسيين من الحقوق السياسية بالرغم من عدم خضوعهم لقانون الأحوال الشخصية الفرنسي ، وبسبب كثرة العمال في السنغال لعبت المنظمات العمالية دوراً كبيراً لرفع مستوى العمال الإفريقيين ، وطالبت بعبء و تساوى الأجر إذا تساوى العمل (١) .

خطوات الاستقلال :

إن تفوق السنغال الذي أشرنا إليه خدّم المنطقة كلها وهي تناضل من أجل الاستقلال ، وقد مر السنغال في طريقه للاستقلال بالمراحل المختلفة التي ذكرناها في الدراسة التي أوردناها عند الحديث عن موريتانيا ، عن المستعمرات الفرنسية وطريقها للاستقلال ، وكان من الخصائص التي برزت في نضال السنغال جهودها في ميدان الكتل والأحزاب السياسية قد ظهرت بها هذه التجمعات من سنة ١٩٥٢ وكانت الكتل والأحزاب تحمل الأسماء الآتية :

الاتحاد الديمقراطي للسنغال والكتلة الديمقراطية السنغالية ، ومنهما تكون حزب الكتلة الشعبية السنغالية ١٩٥٦ ، وبرزت كذلك الحركة الاشتراكية الإفريقية التي اتحدت سنة ١٩٥٨ مع حزب الكتلة الشعبية السنغالية صالفاً الذكر فتكوّن حزب الاتحاد التقدمي ، وأصبح الحزب الوحيد في البلاد .

وفي سنة ١٩٥٨ عند إجراء الاستفتاء على دستور ديول صارت

(١) دكتور راشد البراوي : مشكلات القارة الإفريقية ص ١٢٢ .

السفال عضواً في الجماعة الفرنسية مع سلطة داخلية كاملة ، وفي يونيو سنة ١٩٦٠ أعلنت الجمهورية في السنغال ، واختير ليوبولد سنجهور رئيساً للجمهورية ، ولا زال يشغل هذا المنصب حتى كتابة هذه السطور ، كما اختير محمد ضيا « ماما دوبا » رئيساً للوزراء ، ولكن حدث صراع بين رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء انتصر فيه رئيس الجمهورية ، وقبض على محمد ضيا ، وأودع السجن ، ثم صدر دستور جديد بأن تكون الحكومة في السنغال ذات نظام رياضي ، فأصبح الرئيس سنجور رئيساً للجمهورية ورئيساً للوزراء .

والرئيس ليوبولد سنجهور فيلسوف شاعر ، بالإضافة إلى موقعه كمثاند سياسي ، وشعره باللغة الفرنسية يضعه بين الصفوف الأولى للشعراء الفرنسيين ، وله دوره الكبير في قيادة إفريقية بوجه عام وغربي إفريقيا بوجه خاص^(١) ، وسنجهور كاثوليكي يقود دولة إسلامية ، ومن أجل هذا يرجي أن يقود هذه الباخرة بنجاح ، وأن يصل شعبه بالشعوب الإسلامية فإن ذلك سيجعل تمثيله لهم معبراً عن اتجاهاتهم السياسية والروحية .

اتحاد عالمي :

عندما انحلت الرابطة الاستعمارية التي كانت تحمل اسم « إفريقيا الغربية الفرنسية » قام على إثرها دول ثمانية كان أكثرها دخلت في إمبراطورية مالي الإسلامية خلال العصر الإسلامي الوسيط بإفريقية ، وقد نجحت فرنسا في خلق حدود بين هذه الإمارات أو الدول على نحو ما ذكرنا من قبل عند حديثنا عن كثرة الدول بإفريقية وطول الحدود : بيد أن هذه الدول عندما نالت استقلالها ظهر فيها الحنين إلى التجمع ، وكان السودان الغربي « مالي » أكثر حاجة لهذا التجمع بسبب عدم اتصاله بالبحر وحاجته إلى

الارتباط بدول ساحلية ، وجرت مفاوضات واتصالات أوشكت أن تؤدي إلى قيام اتحاد فيدرالى بين السودان الغربى (مالى) والسنغال وداهومى وفولتا على أن يظل الباب مفتوحاً أمام دول غربى إفريقية الأخرى ، ولكن فرنسا انزعجت من هذه الفكرة لأن هذا الاتحاد سيمنح هذه المجموعة قوة تستطيع بها أن تواجه المطامع الاستغلاية الفرنسية ، كما أن هذه الدول الأربع ستكامل اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً ، مما يجعلها تستغنى إلى حد كبير عن فرنسا ، وزاد فى المشكلة أن هذا التجمع اتجه لاتخاذ « اتحاد مالى » اسماً له ، وهو بهذا يربط بين حاضره وماضيه ويعيد للأذهان ذكرى هذه الإمبراطورية القسيحة بما حوته من أنجاد وبطولات مما يهدد أطماع فرنسا ، ويحقق قوة كبيرة تقضى على مصالحها وآمالها فى هذه المنطقة .

وزاد فى المشكلة أيضاً أن هذا الاتجاه برز بعد أن أعلنت غينيا فى استفتاء ديجول أنها تريد الاستقلال التام ، وألا تكون عضواً فى الجماعة الفرنسية ، غير مكترثة بالتهديدات التى صاحبت هذا الاتجاه ، فإذا قام اتحاد مالى بعد ذلك ، فإنه يحمل ثورة عاتية ضد نفوذ فرنسا فى هذه المنطقة .

ومن أجل هذا أخذت فرنسا تحارب اتجاه التجمع ، ومارست ألواناً من الضغط السياسى والاقتصادى على زعماء داهومى وفولتا ، مما أدى إلى انسحاب هاتين الدولتين قبيل إعلان الاتحاد ، وبقيت السنغال والسودان الغربى ، فأعلننا قيام « اتحاد مالى » سنة ١٩٥٩ . واتخذ الاتحاد دكاكر عاصمة للاتحاد ، وفى يونيو سنة ١٩٦٠ أصبح اتحاد مالى مستقلاً ، ولكنه ظل ضمن الأسرة الفرنسية .

ولكن عمر هذا الاتحاد كان قصيراً لأن السودان الغربى كان يميل إلى التقليل من التعاون بين الاتحاد وبين فرنسا ، كما مال إلى أفرقة الوظائف فى الاتحاد ، وكانت السنغال تتجه إلى التعاون مع فرنسا ، وتأجيل هذه

الأفرقة ، كما حدث خلاف حول من يشغلون الوظائف الكبرى ، فقد أبد موديبوكيتا « لامين جوى » عمده دأكار رئيساً للاتحاد بدل سنجور ومن أجل هذا انسحب السنغال من الاتحاد فى ٢٠ يونيو سنة ١٩٦٠ وأعلن السودان نفسه جمهورية مستقلة استقلالاً تاماً ، باسم « جمهورية مالى » ولم يلتزم بالمعاهدة التى كان اتحاد مالى قد عقدها مع فرنسا ، وفى نفس الوقت أصبح السنغال جمهورية مستقلة كذلك .

اقتصاد السنغال :

يمكن القول إن السنغال بلد زراعى من الدرجة الأولى ، ويعد الفول السودانى أشهر محاصيلها الزراعية ، وتصديره يدر ربحاً واسعاً على البلاد ، ومن المحاصيل الزراعية الأخرى الأرز والذرة والبطاطا والقطن ، وتحاول الحكومة استصلاح مزيد من الأراضى وجعلها صالحة لإنتاج الأرز وتصديره ، كما عملت على تطوير مستودعات الفوسفات لاستخدامه فى إخصاب الأرض ، وأنهار السنغال تساعد كثيراً على تطور الاتجاه الزراعى بالبلاد ، كما أن تربتها الخصبة تعمل كذلك لتحقيق هذا الهدف .

وفى البادية تكثر المراعى وتربى الأبقار والأغنام والجمال والخيول ويوجد منها عدد كبير .

وهناك غابات فسيحة فى السنغال معظمها فى القسم الجنوبى ، ولذلك يعتبر القمح الجبرى أهم منتجات هذه الغابات ، كما أنها تنتج الخيزران وأشجار جوز الهند .

وفى السنغال بعض المعادن من فوسفات الكلسيوم وفوسفات الألومنيوم كما يوجد الحجر الجبرى لإنتاج الأسمنت .

وبدأ إنتاج البترول يظهر فى السنغال ابتداء من سنة ١٩٥٢ وهو فى تزايد ظاهر .

ومن ناحية الصناعة فإن دكاكانات المركز الصناعي لإفريقية العربية الفرنسية كلها حيث يوجد بها مصنع للسكر وصنع لصناعة الحبال ومصانع للنسيج وبعض المصانع للصناعات الكيماوية ، ولا تزال هذه المصانع تقوم بعملها في عهد الاستقلال مع تطور ملحوظ .

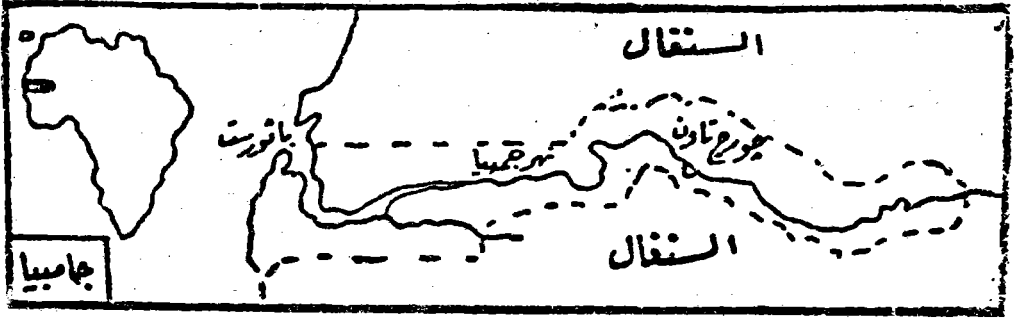
وموقع السنغال أعطاها أهمية كبيرة في نطاق المواصلات العالمية مما عاد على اقتصادها بالخير العميم ، فطار دكاكان يعتبر أعظم مطار في غرب إفريقيا ، وهو يربط بين أوروبا وجنوبي إفريقيا ، وبين أوروبا وأمريكا الجنوبية ، وميناء دكاكان يعتبر أكبر ميناء إفريقي على المحيط الأطلنطي ، وفي سنة ١٩٥٧ دخلت موانئ السنغال ٩٣٦ سفينة ، واستخدمت مطاراتها ٩٢٨٠ طائرة .

التعليم في السنغال :

تتم السنغال بأعلى نسبة ثقافية إذا قيست بمواها من المستعمرات الفرنسية كما ذكرنا من قبل ، ويوضح آخر إحصاء رسمي أن عدد الطلاب في المدارس الابتدائية حوالي مائة ألف طالب ، وفي المدارس الثانوية حوالي ٧٠٠٠ طالباً ، كما توجد مدارس مهنية تضم أكثر من ألف طالب .

وفي سنة ١٩٥٧ افتتحت جامعة دكاكان ، وهي تستقبل الطلاب من بلاد غرب إفريقيا الناطقة باللغة الفرنسية ، وتوجد بها كلية للطب وأخرى للصيدلة وكلية للحقوق ومعاهد للاقتصاد والإحصاء ومراكز تدريب للإخصائيين على أعمال التعدين والصناعة ، وفي دكاكان معهد للدراسات الإفريقية يعد من أهم المعاهد في هذا المجال ، وكل هذا جعل السنغال مشعل نور في إفريقيا الغربية كلها .

جامبيا



مقدمة:

على الرغم من صغر مساحة هذه الدولة (٤٠٠٠ ميل) فإنها لم تكن كتلة موحدة ، وإنما كانت أشلاء أطلق الاستعمار عليها مسميات متعددة ، فالماصمة (بانجولست) كانت مستعمرة والأرض كانت محمية ، وبينما كانت الضفة الجنوبية لمدخل نهر جامبيا الذي سميت الدولة باسمه في يد الإنجليز كانت الضفة الشمالية في يد فرنسا ، ومن هذه الأشلاء تكونت جامبيا التي لا تزال حجرة عثرة وضعها الاستثمار في طريق تقدم السنغال ، بل في طريق وحدة غربي إفريقيا كله ، لأنها إنجليزية اللغة والثقافة والفكر تعيش في قلب المناطق التي كانت تعرف بإفريقية الغربية الفرنسية ، والتي تأثرت بالفكر الفرنسي ، وتستهمل اللغة الفرنسية ، فهي جسم غريب في قلب السنغال وفي قلب المنطقة كلها ، قريب الشبه من هذه الناحية بإسرائيل في قلب البلاد للعربية ، وإن كانت إسرائيل تزيد عن جامبيا بأنها غريبة الدم وافدة من الخارج ، ولكن جامبيا غريبة الفكر والثقافة فحسب .

التسمية والموقع :

اتخذت هذه الدولة اسمها من نهر جامبيا ، لأنها كما قلنا من قبل شريط ضيق يسير مع مجرى النهر حوالى ٣٠٠ ميل ، وتبعد الحدود عن مجرى النهر حوالى سبعة أميال فى الشمال ومثلها فى الجنوب تقريباً ، ولذلك يمكن أن نسمى دولة النهر ، ومن أجل هذا فالحديث عن النهر يعتبر حديثاً عن الدولة ، لأنه كل شئ فيها تقريباً .

وينبع نهر جامبيا من مرتفعات فوتا جالون ، ويسير فى أرض غينيا فالسنغال ، ثم يدخل أراضي جامبيا عند بلدة كونيا وقد بقى من طوله حوالى ٣٠٠ ميل ليصل إلى المصب ، وهو من أكثر الأنهار صلاحية للملاحة ، لأن عابرات المحيط (غاطس ١٩ قدماً) تستطيع أن تسير فيه حتى « كتور » على مسافة ١٥٠ ميلاً من بانثورست ، ويمكن أن تصل السفن التى غاطسها ستة أقدام ونصف إلى « فوتونو » على مسافة ٢٨٨ ميلاً من العاصمة ، وهى آخر مرمى للسفن التجارية ، أما القوارب واللشاش فتصل إلى ما يقرب من منبعه ، وطول مجرى النهر ٥٠٠ ميل ولكنه كثير الالتواء ، ولهذا فالمسافة بين منبعه ومصبه أقصر من ذلك بكثير ، وسعة النهر عند مصبه حوالى ثلاثة أميال (١) .

وحوض النهر تكثر فيه الأوبئة وتنتشر الملاريا وغيرها من الأمراض نتيجة لكثرة المستنقعات والأشجار ، والجو حار للغاية حتى أن العاصمة « بانثورست » تسمى « حفرة جهنم » ، وقد حصل اختلاط عند الجغرافيين الأول حول امتداد هذا النهر ، وظنه بعضهم امتداداً لنهر النيل أو امتداداً لنهر النيجر ، ولكن يبدو أن شهرة النيل جعلته يرادف كلمة « نهر » فكان يقال

« النيل » يقصدون النهر وأحيانا يقولون نيل النيجر أو نيل السودان وربما نيل جامبيا .

وهناك صلة أخرى تربط هذه المنطقة كلها « موريتانيا والسنغال وجمبيا » بمصر وحوض النيل ولكنها هذه المرة أقرب إلى الصواب ، فيذكر الرواة أخبار هجرات بين القرنين العاشر والخامس عشر لأناس حاميين هاجروا من حوض النيل إلى الغرب ، وأكد هؤلاء الرواة أن هؤلاء الناس قد وصلوا إلى حوض السنغال وجامبيا وأنهم قد وجدوا الأرض تماثل ما تركوه وراءهم من أرض في حوض النيل الأعظم ، ولهذا أقاموا واستقروا وتزاوجوا مع الناس الذين وجدوهم في مقرهم الجديد ، وسببت هذه الهجرات وجود ظواهر قبلية تبدو واضحة في المجموعات القبلية التي تعيش في غربي إفريقيا (١) .

والسنغال تحيط بجمبيا من الشمال والجنوب والشرق ، وتواجه جامبيا المحيط الأطلنطي من الغرب .

الطاهر : وما ولغة ودينا :

تعداد سكان جامبيا حوالي ٣٥٠ ألفا وهم ينتمون إلى قبائل أهمها الماندينجو والقولاني والسيراكولي والولوف واليولا ، والماندينجو والقولاني والسيراكولي من المسلمين ويوجد بعض الوثنيين في اليولا ، وبعض المسيحيين في العاصمة (بانورست) ونسبة المسلمين حوالي ٩٠ ٪ من السكان ، واللغة الرسمية للبلاد هي الإنجليزية ، ويتكلم السكان لغاتهم المحلية ، والثقفون المسلمون يعرفون اللغة العربية .

كلمة تاريخية :

لم يعرف انفصال منطقة جامبيا عن السنغال إلا مع الاستعمار ، أما قبل ذلك

فقد كانت هذه المنطقة ضمن السنغال ، وكان يطلق على الكل و بلاد التكرور ، ويميل أكثر المؤرخين إلى أن بلاد التكرور كانت جزءاً من إمبراطورية مالي الإسلامية ، وإن كان Ward كما ذكرنا من قبل يزعم أنها ظلت مع انتشار الإسلام فيها بلاداً مستقلة لم تخضع للدولة مالي ، ولا يمكن القطع بهذا الزعم لأن الحدود لم تكن ثابتة ، فيمكن توفيقاً بين الرأيين أن تقرر أن بعض بلاد التكرور انضم إلى إمبراطورية مالي إبان نهضتها أو أن كل بلاد التكرور انضمت لفترة ما ، فلما ضعفت الإمبراطورية استقلت التكرور عنها كما استقلت أكثر أطرافها ، مع ملاحظة احتمال طول فترة الاستقلال بالنسبة لبلاد التكرور لأنها في أقصى الغرب بالنسبة للإمبراطورية .

وعلى كل حال فإن الإسلام انتشر في هذه المنطقة قبل قيام دولة مالي أي منذ عهد المرابطين .

وكان البرتغاليون أول من قصد جامبيا من الأوروبيين ، وكان ذلك في منتصف القرن الخامس عشر ، ولكنهم لم يتعمقوا في البلاد بل جلسوا على الساحل يباشرون التجارة في المحصولات الزراعية وفي الرقيق ، على أن شيئاً مهماً كان يجلب البرتغاليين لهذه المنطقة هو أطعمهم في الوصول إلى مناجم الذهب التي كان يتردُّ قدام كبير منها إلى أسواق الساحل ، وكان البرتغاليون لا يعرفون مصدرها بالضبط ، بل يتوقعون أنها ليست بعيدة عن مصب النهر .

وابتداء من القرن السادس عشر بدأ الإنجليز والفرنسيون يقدون إلى نفس المنطقة التي يصب عندها نهر جامبيا ، وقد جاء الإنجليز لهذه المنطقة إثر صفقة بيع قام بها المطالب بعرش البرتغال (دون أنطونيو) لصالح التجار الإنجليز ، فقد باع لهم حق الاتجار على نهر جامبيا سنة ١٥٨٨ ، وانتهى بذلك دور البرتغال ، وحل محله صراع بين فرنسا وإنجلترا ، ففي منتصف القرن السابع عشر باع أحد الزعماء المحليين جزيرة تبعد قليلاً عن

مصب النهر وتقع إلى الشمال منه إلى «دوق كورلاند» فأصبحت هذه الجزيرة تسمى باسم هذا الدوق «جزيرة جيمس» ، وبني بها هذا حصنا يحمي تجارتها ويعزز الدفاع عنها ، ثم جاءت فرنسا إلى هذه المنطقة فاستولت على جزء صغير على الضفة الشمالية للنهر يقابل جزيرة جيمس وبنت به حصنا سمي Albrede (البريدا) ، وبذلك بدأ الصراع بين الإنجليز والفرنسيين الذين تقابلت قواتهم ولم يعد يفصل بينهما إلا النهر ، وحصلت حركات عسكرية بين الطرفين رجحت فيها كفة الإنجليز وبخاصة عندما اشترى سنة ١٨١٦ جزيرة تانجول من أحد الرعماء المحليين التي سميت «جزيرة سانت ماري» وهي تقع قرب مصب النهر إلى الجنوب منه ويمكن لهذه الجزيرة أن تتحكم في مدخل النهر ، ولم يجد الفرنسيون حيلة للتمسك بهذه المنطقة فتنازلوا عن جيب البريدا للإنجليز مقابل بعض الامتيازات التجارية ، وأصبح للإنجليز كل السلطان على مدخل النهر ، وكان قد تم اكتشاف منابعه في مطلع القرن التاسع عشر فصار نشاط الإنجليز السياسي إلى الداخل مع النهر ، وعقدوا بضع معاهدات مع الرعماء المحليين بهذه المنطقة ، ومن أهم هذه المعاهدات المعاهدة التي عقدت سنة ١٩٠١ مع موسى مللو زعيم فولادو الأكبر ، وتكونت بذلك دولة جامبيا .

وقد عادت فرنسا تحاول أن تتفق مع إنجلترا لإجراء عملية تبادل بين منطقة جامبيا ومنطقة أخرى في غربي إفريقيا حتى لا تبقى جامبيا في قلب السنغال الذي كانت فرنسا توليه عنايتها والذي يعتبر مركزاً للمنطقة الاستعمارية الفرنسية ، ولكن الاستعمار الإنجليزي ما كان يقبل أن يدعم الاستعمار الفرنسي وأن يزيل المشكلات من طريقه ، ولذلك لم تنجح هذه المفاوضات وبقيت جامبيا «إسنينا» في قلب الاستعمار الفرنسي وفي قلب السنغال المستقل كما ذكرنا من قبل .

وينبغي أن نتذكر صراع المسلمين ضد الاستعمار في هذه المنطقة الذي قام

لدفع المستعمر ورده عن أرض الإسلام ، وقد وصفناه من قبل عند حديثنا عن السنغال ، وقد كان هذا الصراع للدفاع عن المنطقة كلها فلم تكن دولة جامبيا قد خلقت بعد .

وقد أدركت إنجلترا شذوذ هذه النولة ففكرت أن تقيم وحدة أو اتحاداً بينها وبين سيراليون ، ولكن علم وجود حدود تربطها بسيراليون حال دون ذلك ، كما حال دون ذلك أيضاً اختلاف العنصر هنا وهناك .

الحكم البريطاني في المستعمرات الإفريقية :

يجدر بنا ونحن بصدد الحديث عن إدارة جامبيا إبان عهد الاستعمار أن نعطي صورة لنظم الحكم البريطاني في المستعمرات الإفريقية لنرى مكان جامبيا في هذه النظم ، ثم لمساعدتنا ذلك عند الحديث عن باقي المستعمرات البريطانية بإفريقية .

ويمكن القول إن بريطانيا لم تحدث في مستعمراتها تطوراً في نظام الحكم كذلك التطور الذي أحدثته فرنسا في مستعمراتها ، والذي أوردناه عند الكلام عن موريتانيا ، فقد اتبع نظام الحكم في المستعمرات البريطانية بشكل عام أحد وجهتين ، الوجهة الأولى نظام الحكم غير المباشر ، وقد طبق ذلك في البلاد التي رأى الاستعمار البريطاني أن بها نظاماً على درجة معقولة من الرقي وذلك مثل نيجيريا وغانا وزنجبار ، والوجهة الثانية نظام الحكم المباشر الذي تتولى فيه بريطانيا إدارة كل الشؤون ، وقد وجد ذلك في المناطق التي رأت بريطانيا أنه لم يكن بها قبل الاستعمار نظم حكم معقولة ، كما سددت في السودان والصومال البريطاني وجامبيا ، ويلاحظ أن السودان حُكِمَ إلى حد كبير بطريق مباشر ، إذ لم تعترف بريطانيا بنظم الحكم التي كانت سائدة به قبل الاستعمار ادعاء منها أن حكم الدراويش قضى على النظم الحكومية الجديرة بالتقدير .

ويشارك النظامان المباشر وغير المباشر في أن هناك حاكماً علماً إنجليزياً في كليهما ، وهو الرئيس الأعلى للمستعمرة والممثل أمام وزير المستعمرات .

وفيما عدا الحاكم العام فإن الحكم المباشر يختلف عن الحكم غير المباشر ، ففي الحكم غير المباشر يحكم الحاكم العام عن طريق الملوك أو السلاطين ، فنصيحته واجبة التنفيذ إن نصح ، وإن لم ينصح فالأمر للملك أو السلطان ، ومساعدو السلاطين من زعماء القبائل يوجد بجوارهم موظفون بريطانيون هم بالنسبة لهم كالحاكم بالنسبة للملك أو السلطان ، وفيما يتعلق بالإدارات المالية والتعليمية فإنه يرأسها موظف بريطاني كبير ، وتحت رياسته يوجد عدد من الموظفين الوطنيين ، ومن الممكن أن تكون هناك مجالس تشريعية وطنية ، أو مجالس استشارية للملوك والسلاطين ، على أن يبقى تفوذ هذه المجالس سائراً في الفلك الذي يريده الاستعمار ، وهؤلاء الزعماء والموظفون الوطنيون يمكن عزلم إذا حادوا عن الاتجاه الذي يريده الاستعمار ، كما يمكن حل هذه المجالس التشريعية أو الاستشارية ، وإحلال غيرها محلها ، ويختصر للتطور الذي أدخله البريطانيون في هذه المجالس في ضم بعض الأعضاء البريطانيين إليها ، ويقل عدد البريطانيين رويداً رويداً مع تقدم الأنظمة ، وللحاكم العام معارضة قرارات هذه المجالس على أن يبين أسباب معارضته لها .

أما الحكم المباشر فإن السلطة فيه تكون لمينة بريطانية تعاون الحاكم العام وتتكون من السكرتير العام الذي يرأس ثلاثة من السكرتارين هم : السكرتير المالي ، والسكرتير الإداري ، والسكرتير القضائي . وهؤلاء الأربعة يتكون منهم ومن المفتش العام ما يسمى « مجلس الحاكم العام » الذي يرأسه الحاكم .

وتنقسم المستعمرة إلى مقاطعات يرأس كلأ منها مدير ، وتنقسم المقاطعة بدورها إلى مراكز يرأس كلأ منها « مأمور » وجميع هؤلاء من البريطانيين فيها عدا السودان حيث كان المأمورون من المصريين ، لإعطاء الحكم صورة

أنه ثنائى ، وفى كل مقاطعة مفتش وظيفته الطواف بالمقاطعة للإشراف على المأمورين والاستماع إلى آرائهم وشكاواهم ، ويرأس هؤلاء المفتشين « المفتش العام » الذى أشرنا إليه آنفاً ودوريطوف على المقاطعات كلها ليستمع إلى آراء المفتشين وحكام المقاطعات ، وهو يمثلهم فى مجلس الحاكم العام :

أما الإدارات المالية والثقافية فيشرف عليها موظفون بريطانيون بحيث يصبح البريطانيون هم للمسئولين عن كل شئ فى المستعمرة ، ولا يستعان بالوطنين إلا فى الأعمال الصغيرة^(١) .

• • •

وقد طبق نظام الحكم غير المباشر فى جامبيا لأنها تقع فى منطقة عالية المستوى من الناحية التاريخية والفكرية ، ولأن بها نظماً استبقاها المستعمر فى قواعدها وحكم البلاد عن طريقها .

مطارات جامبيا نحو الاستقلال

ولنتقل فى العرض التاريخى إلى فترة الاستقلال ، فإن سنة ١٩٦٠ تعد عام الاستقلال لمنطقة غربى إفريقية ، ولكن جامبيا كانت بعيدة عن الاستقلال ، بيد أن استقلال الأقطار المحيطة بها فتح لها الباب لتبدأ خطوات الاستقلال ، وهكذا بدأت جامبيا مراحل استقلالها عندما انتهت الدول المجاورة إلى قمة هذه المراحل ، ففي مايو سنة ١٩٦٠ أجريت أول انتخابات عامة لانتخاب بعض أعضاء الجمعية الوطنية التى تتكون من ٣٠ عضواً ينتخب مواطنو الجمعية ١٢ عضواً منهم ومواطنو المستعمرات سبعة ورؤساء القبائل ثمانية ويعين الحاكم العام ثلاثة .

(١) دكتور زاهر رياض : استعلاء أفريقية من ٢١٩ - ٢٢٢ بصرف .

وفي إبريل ١٩٦٢ صدر دستور يوحد البلاد ويمنحها حق الحكم الذاتي ، وبمقتضاه جرت انتخابات جديدة وأسندت رئاسة الوزراء إلى « داود كويسى حوارا » وظل الحاكم العام يتولى الشؤون الخارجية والدفاع حتى سنة ١٩٦٥ ، وفي هذه السنة حصلت جامبيا على الاستقلال وأصبحت عضواً في الكومنولث ، ونضمت إلى هيئة الأمم .

ولا تزال جامبيا تكون مشكلة مع السنغال ، ولعل الحل الوحيد لهذه المشكلة هو إقامة وحدة بين جامبيا وبين السنغال ، وإن كان اختلاف اللغة والمشرّب في العهد الماضي يجعل ذلك صعباً إلى حد ما ، ولكن هذه الصعوبة يمكن أن تذلل ، فالتاريخ الطويل وصلات القربى والدين الإسلامى ، كل هذه العوامل القوية كفيلة أن تغلب على ما خلفه الاستعمار من تباعد بين السنغال وجامبيا .

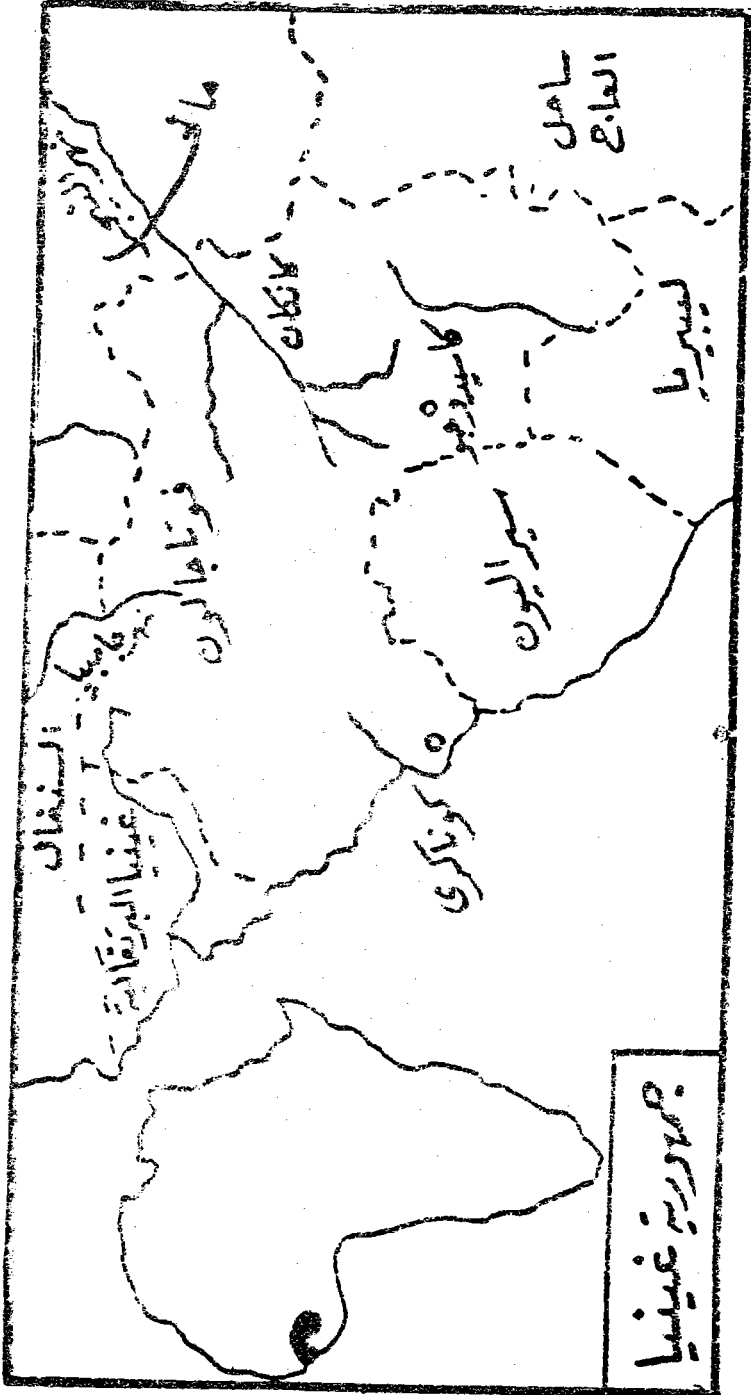
اقتصاد جامبيا :

جامبيا بلاد زراعية وأشهر محصولاتها القبول السودانى ، ولعله المحصول الوحيد التى تصدره البلاد ، وليس فى جامبيا معادن ولا بترول ولا صناعات تذكر ، وقد كان استعمال السنغال لنهر جامبيا مصدراً من مصادر الدخل العام ، ولكن تطوير المواصلات الحديدية فى السنغال قلل من حاجتها لاستعمال هذا النهر ، وبالتالي قلت موارد جامبيا منه ، ومن الموارد التى تحصل عليها جامبيا وفود السكان الذين يرحلون سنوياً إلى السنغال ليعملوا فى مزارعها ، ويعودون إلى جامبيا بعد جنى القبول السودانى ومعههم حصيلة عملهم طيلة مدة إقامتهم بالسنغال ، وبالإضافة إلى القبول السودانى يزرع كذلك الأرز فى المستنقعات المطهرة وفى المناطق الرطبة القريبة من النهر ، وتزرع الذرة مع القبول السودانى أو بعده ، والأرز والذرة هما الغذاء الرئيسى للسكان ، ويجوارهما تزرع البطاطا والكاكاو .

التعليم في جامبيا :

وضعت مدارس التبشير أساس التعليم في جامبيا ، ولا يزال للإرسالية الكاثوليكية مدرستان ثانويتان في باثورست بالإضافة إلى كثير من المدارس الابتدائية ، ولما استقلت البلاد تولت الحكومة الإشراف على التعليم ، وفي جامبيا الآن حوالي ثمانين مدرسة ، ومعهد للمعلمين ، ونصف المدارس تقريباً يوجد في باثورست وحدها ، وتمارس بعض القبائل المسلمة تعليم أولادها في الكتابات والمعاهد الدينية ، ولكن ذلك قليل ، ولا تزال الأمية منتشرة وبخاصة في مناطق الريف ، والمأمول أن يجد كل تلميذ فرصته للعلم ، وأن تفضي الحكومة الوطنية على النفوذ التبشيري في التعليم ليتخذ العلم طريقة الصحيح للخليفة الدين والوطن .

غينيا



التسمية والموقع :

يعتقد بعض المؤرخين أن تسمية غينيا اشتقاق من كلمة « جني » المدينة الزاهرة التي تحدثنا عنها من قبل^(١) ويقال إن هذه المدينة أعطت اسمها لكل الساحل ، ويرى آخرون أن غينيا اشتقاق من كلمة غانا ، فجمهورية غينيا أولى بمراث إمبراطورية غانا القديمة .

وغينيا تحتل موقعا خطرا للغاية ، فهي في الانحناء الجنوبي الغربي لمنطقة إفريقية الغربية ، وعلى هذا فإنها تعد محطة مهمة بين جنوبي إفريقيا ، وإفريقية الغربية ، كما أنها تطل على المحيط من الناحية الغربية والناحية الجنوبية ، ويحدها شرقا ساحل العاج ، وجزء من جمهورية مالي ، وشمالا جمهورية مالي والسنگال وغينيا البرتغالية وجنوبا ليبيريا وسيرالون ، أما في الغرب فيقع المحيط الأطلنطي كما ذكرنا آنفا .

وتعد غينيا البرتغالية في الحقيقة جزءا من غينيا ، ولكن البرتغال تحفظ سيادتها على هذه المنطقة وتزعمها في ذلك دول الغرب تأييدا واضحا أو مستترا ، لأن الدول الاستعمارية ترى في غينيا واجهة الاستقلال لهذه المنطقة ورمز التحرر ، ومن أجل هذا ألقت على البرتغال في هذا الإسفين ، ليكون شوكة في ظهر اللولة الناهضة ، وقد تحرك جنود المرتزقة من غينيا البرتغالية وهددوا غينيا الإسلامية التي نتحدث عنها أكثر من مرة ، ولكن الشعب الصامد المسلم دمر هذه الديدان التي أرادت أن تمس جسمه وتضعف بنيانه .

وبالإضافة إلى ما تعانية غينيا مما يسمى « غينيا للبرتغالية » ، في الشمال ،

نجدها تعاني مشكلة أخرى في الجنوب ، فإذن امتدادها الطبيعي نحو الساحل قد قُطِعَ بكل من سبراليون وليبيريا ، فأصبحت سبراليون بذلك تقع في قلب غينيا ، كما وقفت ليبيريا حاجزاً بين الجزء الجنوبي من غينيا وبين الساحل ، وهذا جعل الجنوب الشرقي لغينيا لا يحظى بصلة مباشرة بالبحر ، وأصبح على هذا الجزء أن يقطع مسافة طويلة ليصل إلى ميناء كوناكري مما أدى إلى تأخر هذا الجزء اقتصادياً^(١) .

وفي قلب جمهورية غينيا توجد مرتفعات فوتاجابون التي يصل ارتفاعها إلى ستة آلاف قدم وتسقط عليها أنطار غزيرة يصل مسدداً إلى ثمانين بوصة في السنة ولذلك سميت « القلعة المائية » لإفريقية الغربية ، ومنها تنبع الأنهار العظيمة لهذه المنطقة وهي النيجر والسنگال وجامبيا .

وأكثر مساحة البلاد من الجبال ومناظرها ذات جمال أخاذ^(٢) .

وعاصمة غينيا هي مدينة كوناكري ، وهذه العاصمة ميزان خاص في تاريخ الصراع الوطني الذي قامت به إفريقية للتحرر ، لأنها اجتذبت كل الزعماء الإفريقيين الذين يحاربون الاستعمار بإفريقية الغربية أو يحاربون الزعامات التي خلقها الاستعمار ، فهي لذلك مركز إشعاع تحوري في المنطقة كلها .

السكان وما ولفه ودينها :

ينتسب أغلب شعب غينيا إلى أصليين كبيرين هما الفولاني والمالينك ، ويعيش الفولاني في هضبة فوتاجالون ، وفي السهول التي تقع إلى الشمال الشرقي منها ، ويعيش المالينك في شمالي غينيا حول مجرى نهر النيجر وفروعه ،

(١) دكتور فيليب رنلة : الجغرافية السياسية الإفريقية ص ٤٦٦ .

(٢) تقويم البلدان الإسلامية ص ٨٦ .

وبجوار هاتين المجموعتين الكبيرتين هناك قبائل الماندى التى تعيش فى منحدرات فوتاجالون من ناحية الجنوب ، وقبائل الفولانى يمثلون العنصر الغالب على أهل غينيا ، وهذه القبائل امتزاج تاريخى بين سادة غانا القديمة وأتباعهم الذين فروا منها عقب قيام دولة الإسلام بها ، وبين السكان الأصليين بالبلاد .

ومجموع السكان ثلاثة ملايين حسب إحصاءات الأمم المتحدة عام ١٩٦٠ وفى البلاد لغات أصلية ثلاث هى الفولانية والمالينكية والصوصوية ، ويتكلم بهذه الأخيرة جماعة الصوصو أكبر قبائل الماندى بغينيا ، وبجوار هذه اللغات المحلية هناك اللغة الفرنسية التى تعد لغة رسمية حتى الآن ، ولكن الحكومة تعرف باللاغات الوطنية الثلاث ، وتضع اللغة الانجليزية لغة أوروبية ثانية بمدارسها ، أما المثقفون المسلمون فيعرفون اللغة العربية ، وبعضهم يجيدها إجادة عالية .

والإسلام هو دين الدولة إذ تبلغ نسبة المسلمين فيها طبقاً لتقديرات الحكومة ٩٥ ٪ أما القلة الباقية فوثنية أو مسيحية ، وقد افتتحت الجلسة التاريخية للجمعية التشريعية التى أعلن فيها الاستقلال فى ٢ أكتوبر سنة ١٩٥٨ بآيات من القرآن الكريم ، وقال رئيس الجمعية التشريعية فى خطابه الافتتاحى إن العالم يشهد اليوم مولد دولة إسلامية جديدة ، دولة مستقلة ذات سيادة (١) .

كلمة نارنجية

كانت أرض غينيا وبخاصة المناطق الداخلية على هضبة فوتاجالون ومنحدراتها حتى القرن السادس عشر الميلادى جزءاً من الممالك الإفريقية

التي قامت على نهري النيجر والسنغال ، فكانت جزءاً من إمبراطوريات غانا ومالي وصنغى : أما المنطقة الساحلية ، فكانت ملجأً للفارين من حكم هذه الإمبراطوريات ، سواء من الأسر المالكة أو من سواهم ، وكانت المهجرات تكثر عادة في عهد الملوك الأشداء المحاربين أمثال منسى موسى وأسكيا محمد ، وكانت هذه المهجرات كبيرة أحياناً شملت جماعات وقبائل ممتدة ، بل هناك احتمال يميل إلى القول بأن هذه المنطقة الساحلية ، تلقت وفوداً من المهاجرين قبل قيام هذه الإمبراطوريات (١) .

وعندما ضعفت إمبراطورية صنغى واحتلت ، قام بهذه المناطق حكومات قبلية متنافرة أحياناً ومتحاربة أحياناً ، وفي وسط الظلام الذي تثيره الفقرة قام رجل مسلم تقي يدعى « كارموكوا » حوالي سنة ١٧٣٠ م واستولى على الحكم في منطقة فوتاجالون وتمكن بقوة شكيمته أن يبعث نهضة إسلامية عظيمة انتشرت طولا وعرضا بين شعبه « الفولاني » وبين الشعوب المجاورة حتى شملت تلك النهضة منطقة النيجر العليا والوسطى وإلى أبعد منها (٢) :

وبعد هذا المجاهد عادت المنطقة إلى الحياة القبلية مما مهد للطريق للاستعمار الأوربي ليطرق هذه المناطق ، بيد أن بلاد غينيا كانت أكثر المنطقة استعداداً للصراع ، فالكثيرون من سكانها ينحدرون من أمر وقبائل حاكمة كما ذكرنا ، ومن هنا لم يكن سهلاً عليهم أن يخضعوا للمستعمر ، أو يستكينوا لقوته ، بل إن هذه البلاد اختطت لنفسها سنة للحفاظ على استقلالها ، فعمدت إلى عدم السماح لغريب غير مسلم بالدخول إلى أراضيها ، ورفضت بإصرار أن تتعامل مع الأوربيين .

وأدرك الاستعمار أن غينيا تحتاج إلى نهج جديد لتقهرها ، فاعتمد سنة

(١) محمد عبد الفتاح إبراهيم : إفريقيا المعاصرة ص ٨٣ .

(٢) تقرير البلدان الإسلامية ص ٨٨ .

١٨١٥ على مغامر فرنسي يدعى « رينيه كابل » كان يتقن العربية ، ويدهى أنه مسلم مصري فرّ من اضطهاد سلطان مصر ، واستطاع تحت هذا الستار أن يدخل البلاد ، وفي داخل غينيا لم يعدم الرجل المحتال أن يقابل بعض ضعاف النفوس من الزعماء أو بعض المرتورين منهم ، واستطاع هو وأمثاله من لحق به من المحتالين أن يعقدوا في الظلام بعض معاهدات مع هؤلاء ، وبقي بعد ذلك أن يكشف النقاب عن هذه المعاهدات ، وأن تتدخل القوة لفتح الطريق إلى غينيا ، فأرسلت فرنسا حملة عسكرية في منتصف القرن التاسع عشر لمُكِّن الفرنسيين من إنشاء مستعمرة على ساحل غينيا ، ووجهت هذه الحملة بمقاومة عنيفة (١) ، وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر تطلعت فرنسا إلى احتلال البلاد بأسرها ، ولكن زعيما برز من صفوف الشعب ، أو دفعه الشعب ليقود نضاله ضد المعتدين ، ذلك الزعيم هو « الساموري توري » وجرت معارك عنيفة بين قوات العدوان وبين المواطنين أظهر أهل غينيا خلالها بطولة نادرة ولم يستطع الساموري أن يقاوم الأسلحة الجديدة ، فوقعت معاهدة بين القوتين سنة ١٨٨٤ تُقرّر أن تفسح فرنسا إلى الساحل ويسمح لها بالبقاء هناك ، وأن يترك الداخل إلى الساموري ليمد مملكته إلى الشرق في كتلة فونجالون وما حولها .

على أن هذه المهادنة كانت موقوتة ، ففي سنة ١٨٩٠ نظم الساموري توري مع إمبراطورية التكلور في الشمال ومع مملكة « سيكاسو » في الشمال الشرقي حلفاً هجومياً دفاعياً وبدأت القوات المتحدة حرباً ضد الفرنسيين لطردهم من البلاد ، وفي سنة ١٨٩٨ أي بعد ثمانى سنوات في قتال استنفد فيه الفرنسيون كل ضروب الوحشية تمت هزيمة قوات الساموري توري وسيطر الفرنسيون على غينيا وساحل العاج .

واستمرت المقاومة بعد ذلك حتى سنة ١٩١١ ، ولكنها كانت مقاومة مبغرة غير ملقاة وكانت ذات طابع محلي ، وكان يقوم بها الزعماء الوطنيون كل في منطقة قبيلته ، وكُتِبَتْ هذه الثورات المسلحة بقسوة ووحشية ، ولعل هذا النشاط العسكري كان السبب في أن أرض غينيا كانت أقل المناطق تطورا ، فلم يُعْنِ الفرنسيون بتطويرها ، وبخفظ الناس حتى الآن ذكريات الآلام التي موت بهم إبان الحكم الفرنسي (١) .

على أنه كان هناك اعتماد للساموري ، ويروى عنه أنه كان يدعو أن يحى من أخفاده من يحمل رسالته من بعده ، ويظهر أرض غينيا من القرنين ، وقد تحققت أمنية هذا الزعيم البطل ، فإن سيكوتوري بطل القرن العشرين حفيد لبطل القرن التاسع عشر (٢) .

سيكوتوري ودوره في غينيا وفي إفريقيا :

نحن الآن أمام بطل من أبطال إفريقيا ، وزعيم من زعماء الإسلام ، وأمام موهبة نادرة من المواهب الوطنية في العالم ، نحن الآن مع الزعيم المسلم الرئيس سيكوتوري ويمكن أن يطول الحديث عنه ، والحديث عنه عذب جميل ، ولكننا في نطاق دراستنا التي تأخذ طابع الشمول والإيجاز معاً ، لن نطلق ألعناناً لحديث طويل عن هذا البطل ، وسنكتفي بإبراز أخطر مواقفه .

ولد الزعيم سيكوتوري سنة ١٩٢١ وبدأ دراسته في اتجاه إسلامي ، إذ التحق بمدرسة لتحفيظ القرآن وللدراسات الإسلامية في مدينة « كان كان » ، ثم انتقل بعد ذلك للدراسة في مدرسة صناعية فرنسية ، وعندما ترك المدارس والتحق بالعمل في إحدى الوظائف الحكومية الصغيرة ، لجأ إلى تنقيف

(١) محمد عبد الفتاح إبراهيم : إفريقيا المعاصرة ص ٨٥

(٢) صلاح جبري : المرجع السابق ونفس الصفحة بتصريف .

تسه ، واتجه إلى العمال وتنظيم اتحاد العمال ، فبرزت موهبته الإدارية والخطائية ، وأتيح له أن يزور أغلب أقطار أوروبا الشرقية والغربية ، فعاد بمحصلة فكرية واسعة ، وأسس أول اتحاد وطني لعمال غينيا غير تابع لاتحادات العمال الفرنسية ، واشتغل بعد ذلك بالسياسة وبالأحزاب ، فلمع نجمه ، وأصبح موضع تقدير الجميع ، وأصبح لحزبه « حزب الجبهة الديمقراطية الإفريقية » مكان الصدارة بين الأحزاب .

وكانت فرنسا قد انجذبت عقب الحرب العالمية الثانية - كما ذكرنا من قبل عند الحديث عن موريتانيا - إلى تغيير سياستها نحو المستعمرات ، وقد مرت غينيا بالمرحلة التي ذكرناها هناك ، ولكن غينيا كانت غير قانعة بهذه الخطوات التي اتكرها العقل الفرنسي ، وصاح سيكوتوري يعان أن هذه القوانين ليست إلا واجهة جديدة للنظام السابق ، وأن غينيا ترفض ذلك . وتوقع سيكوتوري أن يحاول المستعمر الاستفادة من كثرة الأحزاب السياسية في غينيا ، فدعا إلى توحيد الأحزاب والتكتل في جبهة واحدة ، فاستجابت له الأحزاب (١) .

وجاء دور استفتاء ٢٨ سبتمبر ولم تُعط الحرية الكاملة للشعوب الإفريقية لتقول رأيها بصراحة في هذا الاستفتاء فإن ديمبول هدد بمقاطعة الدولة التي تختار الاستقلال التام ، ولكن سيكوتوري سخر من هذا التهديد، ورسم سياسة الحرية الكاملة للمستعمرات الفرنسية كلها ، أو المستعمرات الأوربية على العموم وقال بحملة الشهيرة ردأ على تهديد ديمبول ، تلك الحملة التي تعد أنشودة وطنية رائعة الثغاث وهي : « إنا نفضل الفقر في ظل الحرية على الغنى مع العبودية »

وراح سيكونتورى يحث قومه على أن يقولوا فى الاستفتاء « لا » أى أن يرفضوا الدخول فى الجماعة الفرنسية ، وأن يختاروا الاستقلال التام ، وعقد الاجتماعات الكثيرة لهذا الغرض وطاف البلاد وهو يهتف « إن يوم الاستفتاء سيخرجنا إلى عالم الحرية ، وستصبح دولة مستقلة اعتباراً من ٢٩ سبتمبر ، فالجماعة الفرنسية ليست فى الواقع سوى الاتحاد الفرنسى فى صورة مجددة . إنه نفس البضاعة القديمة مع بطاقة جديدة » .

واستجابت غينيا لهتاف سيكونتورى ، وقالت فى الاستفتاء « لا » وأعلنت استقلالها يوم ٢ أكتوبر سنة ١٩٥٨ ، وقد راح سيكونتورى وهو فى موجة الفرج بهذا الاستقلال يُعلل الأسباب التى جعلته يقول « لا » فى هذا الاستفتاء ، وفى ذلك يقول : « إن موقفنا من هذا الاستفتاء كان عملاً إيجابياً فى الأساس إزاء الإسراع فى التطور التاريخى لإفريقية ، فليس علينا أن نحدد أنفسنا بالنسبة للقوة الاستعمارية ، وإنما نحدد لأنفسنا بالنسبة لأنفسنا وإفريقية . ما هى الفكرة التى سادت فى الجمهورية الغينية فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٥٨ ؟ إنها فكرة الاستقلال ، لقد كنا نريد تأسيس أمة ذات سيادة ، فافترعنا « لا » فى الاستفتاء الذى كان يسعى إلى ربطنا بالنظام الفرنسى ، ويجب أن نشير إلى أن اختيارنا جانب الاستقلال لم يكن إيجابياً فقط لصالح غينيا ، وإنما كان إيجابياً لصالح إفريقية كلها ، إذ أن دستور « الأسرة الفرنسية » قد تجاوزته الأحداث بفعل هذا الاقتراع وأمضى بالياً ، حتى أننا نستطيع القول أن هذا الاقتراع الغينى هو الذى شق طريق الاستقلال أمام جميع الدول التى كانت تشكل فى السابق الممتلكات الاستعمارية الفرنسية فى إفريقية

« إن الدور الذى لعبته غينيا والذى قاد إلى انهيار الإمبراطوريات الاستعمارية فى إفريقية بشكل عاجل ، هو أبعد ما يكون عن عرقلة الوحدة الإفريقية ، بل إن الموافقة على اقتراع ٢٨ سبتمبر ١٩٥٨ كان أهم الأسس لعرقلة الوحدة ، فمن عوامل

الوحدة أن يتصرف كل شعب إفريقي بمصيره الخاص ، فيربط وجوده بوجود الشعوب الأخرى في القارة ، بكل حرية ودون أى تدخل خارجي . ولكن الوحدة الوهمية التي كانت الأسرة الفرنسية تقترحها علينا لم تكن لتستطيع أن تخرج للنور وحدة إفريقية حقيقية ، لقد كانت تساعد بالأحرى على « بلقنة إفريقية » ، وأعني بذلك تقسيمها إلى دول مستقلة صغيرة في اتحاد سياسي اقتصادي يرتبط بالدولة الاستعمارية ، وهذا هو الهدف الأساسي لكافة التكتلات سواء كانت الأسرة الفرنسية الإفريقية أو الكومنولث أو تجمع المقاطعات الإفريقية تحت السيطرة البرتغالية .

« لقد تبين اليوم أن الاستقلال الغني كان بمثابة نعمة لاستقلال كافة البلدان الإفريقية (١) » .

وقد واجهت غينيا ضغطاً قاسياً من فرنسا فور إعلان نتيجة الاستفتاء ؛ فسحبت فرنسا في الحال من غينيا الموظفين الإداريين والفنيين والمعلمين والأطباء بحيث لم يبق منهم سوى عشرين شخصاً من بين أربعة آلاف ، ولكن الحزب الحاكم صمد للموقف بشجاعة ، واستطاع بصلابته وبنفوذه بين الجماهير أن يتخذ البلاد من كارثة اجتماعية واقتصادية محققة .

واضطرت فرنسا أن تعود للتعاون مع غينيا حتى لا تتم القطيعة بين الدولتين ، ولم يكن استقلال غينيا محدود النتائج بل إن موجة الاستقلال اندفعت من قطر إلى قطر ، فلم تأت سنة ١٩٦٠ حتى كانت كل المستعمرات الفرنسية قد أعلنت استقلالها سراً وراء النهج الذي رسمته غينيا ، والريادة الرشيدة التي ابتكرتها وتحملت نتائجها .

واعترف الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة بغينيا ، واعترفت بها دول

العالم وانضمت لحيمة الأمم المتحدة في ديسمبر سنة ١٩٥٨ ، وانحطت غينيا لنفسها نظاماً وطنياً ، كما اتجهت للتعاون التام مع دول إفريقيا ، فوقعت مع جمهورية مصر العربية اتفاقات القاهرة التي تُفَرِّد التعاون بين الشعبين في قضايا التجارة والمدفوعات والمساعدة الفنية والتعليم والتسليح ، وأعلنت تأييدهما لسياسة الحياد الإيجابي ، وفي التطاق الإفريقي أعلن قيام اتحاد بين غانا وغينيا ، ثم انضمت له مالى سنة ١٩٦٠ ولم تكف غينيا بالتمرد السياسى على فرنسا بل إنها أصدرت سنة ١٩٦٠ عملتها المحلية ، وتركت منطقة للفرنك ، وعقدت اتفاقات تجارية مع بريطانيا والولايات المتحدة وحصلت على معونات كبيرة من دول الكتلة الشرقية .

وهناك إصلاح إدارى اقترحه عبقرية سيكوتورى هو القضاء على النظام القبلى الذى كان يتناقى مع الروح القومية ، وأحل سيكوتورى محل زعماء القبائل مجالس محلية تقوم على أساس الانتخاب العام المباشر ، وهذا الإجراء الذى اتخذ قبل الاستقلال كان بلا شك العمل الأساسى فى استجابة الشعب لاتجاه سيكوتورى تجاه استفتاء ديمول .

لقد بذل سيكوتورى جهداً كبيراً فى سبيل غينيا وفى سبيل إفريقيا ، ولكن ينبغي أن نعرف أن البلاد استجابت له ، فالحامات الطيبة تستجيب ليد الصانع الخالص الحكيم ، فتحية إلى غينيا المسلمة وللأبطال الذين قادوا الباكخرة بين الأعاصير حتى وصلوا بها إلى بر السلامة .

اقتصاد غينيا :

لا تزال الزراعة أساساً للنشاط الاقتصادى فى غينيا ، ويعمل فيها حوالى ٨٠ ٪ من السكان ، والزراعة تمد البلاد بالغذاء الكافى ، وتسهم فى التجارة

الخلوجية بنصيب كبير ، وأهم الحاصلات الزراعية في غينيا هي النرة والبقول السوداني والقمح والبطاطا ، والكاسافا ، تسمى أيضا التايوكا وهي كالبطاطا نبات درني ، وهناك كذلك حاصلات البلح ، والموز والفواكه الحمضية والأناناس ، وهي تكفي للاستهلاك المحلي والتصدير ، وتكثر في غينيا حقول البن الذي ينتجه الفلاحون في منطقة الغابات ، ويكثر السمسم الذي تؤخذ منه الزيوت ، ويؤزرع الأرز في مناطق فوتاجالون حيث الحصوبة وكثرة الماء ، وتنتشر في غينيا جوزة الكولا .

وتعد المراعى مصدراً هاماً للاقتصاد الغني ، وتمارس قبائل الفولاني الرعى وتربية الماشية ، وتزيد رموس الماشية في غينيا عن المليونين وهي من الأغنام والماعز والبقرة التي تصدر لحومها إلى سيراليون وليبيريا ، وما يذكر أن غينيا الإسلامية تمنع تربية الخنازير .

والأسماك تمثل نصيباً كبيراً في الاقتصاد الغني كذلك ، وظهرت في غينيا أخيراً بعض الصناعات السمكية التي تعنى بتعليب السمك وتصديره .

وتغطي الغابات حوالي ثلاثة ملايين من الأفدنة في غينيا ، والغابات مصدر للأخشاب والخيزران والطيور وبعض الفاكهة وجلود الزواحف والحيوانات ، ويستعمل الخشب لصنع فحم الحطب الذي يصدر منه قدر كبير .

وأرض غينيا غنية بمعادن الحديد والبوكسيت « خام الألومنيوم » ويوجد بها كذلك الذهب والرصاص والماس ، وتعد مناجم خام الألومنيوم من أغنى مناجم العالم ، فجزيرة « روما » المواجهة لميناء كوناكري تؤلف كتلة ضخمة من البوكسيت ، والماس اكتشف في الطبقات الرسوبية بالمجاري المائية وفي مناطق أخرى ، والحديد اكتشف في شبه جزيرة كالون بالقرب من كوناكري وأعطى كمية كبيرة .

وتهم غينيا بمشروعات توليد الكهرباء من مساقط الأنهار السريعة المنتشرة بها ومن أهمها مشروع نهر كوناكري ، ويرجى أن تولد هذه المشروعات كيات ضخمة ينتفع بها في تطوير الصناعة ، وعلى كل حال فإن صناعة التعدين ، تعد أهم الصناعات في غينيا حتى الآن ، وبالإضافة إلى صناعة التعدين ، توجد صناعات لحفظ الفاكهة والأسماك ومعمل للبلاستيك ، ومصنع للدخان .

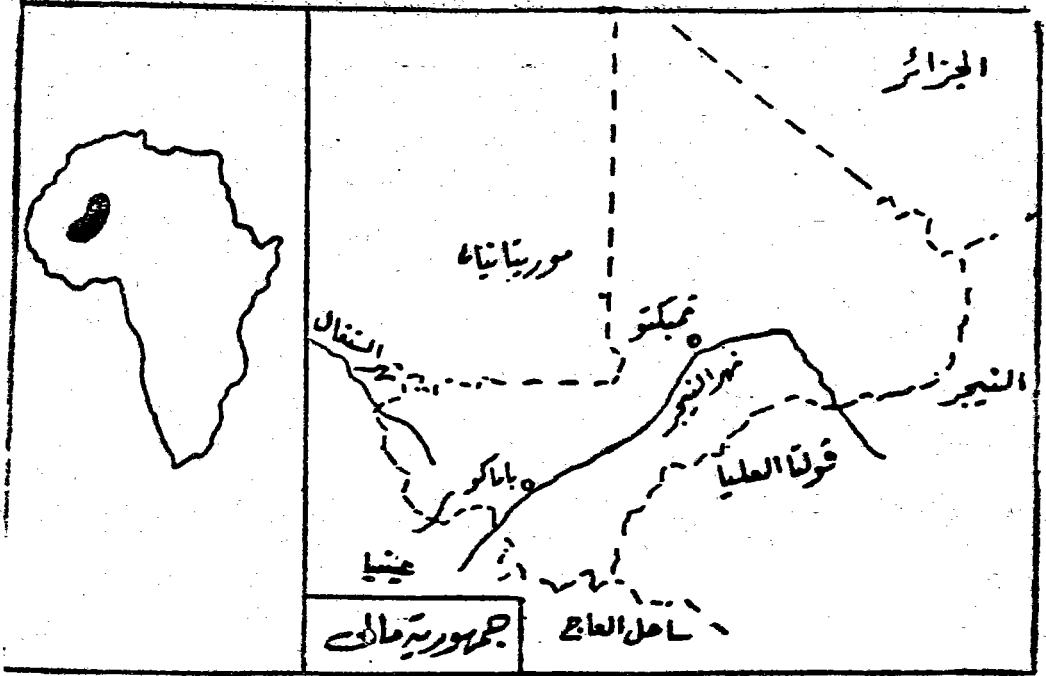
وفي كلمة قصيرة نقرر أن غينيا بلاد أقرب إلى الغنى ، وأن مستقبلها الاقتصادي يبشر بازدهار عظيم .

التعليم في غينيا :

قلنا من قبل إن غينيا لم تحظ بتطوير حياتها إبان فترة الاستعمار ، إذ كان المستعمر يخافها ويتوقع حركات استقلالية بها ، وكان إهمال التعليم وعدم تطويره من أبرز ما عانته غينيا خلال فترة الاستعمار ، وكان التعليم يسير في غينيا طبقا للمناهج الفرنسية ، ويعنى بتخريج بعض صغار الموظفين والعمال ، وكانت اللغة الفرنسية هي اللغة المستعملة في التعليم .

وورث عهد الاستقلال هذا العبء الكبير ، ولكن غينيا راحت تحل هذه المشكلة بحزم ونشاط ، فبدلت الجهد الكبير لمحاربة الأمية المنتشرة في البلاد ، وبنت عدداً ضخماً من المدارس الابتدائية والثانوية والمهنية ، وجذبت هذه المدارس لها عدداً كبيراً من البنات والفتيات ، وتعمل الحكومة على أن يكون لكل تلميذ مكانه في المدرسة الابتدائية كما تعمل على إتاحة الفرصة للموهوبين أن يكلوا تعليمهم ، وقد بدأت حكومة غينيا بإنشاء نواة للتعليم العالي يرجى أن يتطور ويصبح جامعة عظمى .

مالى



مقدمة:

إن الحديث عن مالى يشد الباحث إلى العصر الوسيط حيث كانت إمبراطورية مالى شعلة نور وهاج فى قلب إفريقيا ، وحيث كانت حدود الإمبراطورية مترامية الأطراف وعاصمتها مركز إشعاع وزعمائها شيوخ البحث والفكر فى مختلف الفنون ، والعجيب أن الدولة التى أخذت اسم الإمبراطورية القبيصة التى كانت تسيطر على الساحل والداخل ، هذه الدولة حية ليس لها مرفأ على المحيط ، ولا تخرج إلى العالم إلا عبر أقطار أخرى ، ومع هذا فقد استطاعت مالى الجديدة أن تحقق الكثير لتصبح جديرة برعاية التراث الضخم الذى خلفته جمهورية مالى فى العصور الوسيطة .

التسمية والموقع :

كلمة مالى تعنى باللغة البهارية « فرس البحر » ، وترمز التسمية إلى قوة الدولة ومنتجها ، وكانت إمبراطورية مالى جذيرة بهذه التسمية ، وحظيت خلال بعض عصورها بمكانة سامية في التاريخ ، ويبدو أن هذا التلوخ كان يلوى في آذان الغرب فأراد الاستعمار أن يحنى هذه التسمية ، حتى لا يرتبط الأحفاد بالأجداد فيتخلوا من تراثهم دوافع وقوة تزلزل أقدام المستعمر ، ومن أجل هذا أطلق الاستعمار سنة ١٩٠٤ على هذه المنطقة اسم « السنغال العليا والنيجر » وفي عام ١٩٢٠ أطلق الاستعمار اسماً جديداً على هذه المنطقة هو السودان الفرنسى ، ثم أصبحت إقليمياً من أقاليم إفريقية الغربية الفرنسية ، ولكن يبدو أن التسمية الحقّة كانت في أعماق الشعب ، فانتهز الفرصة لإعلانها كما سئرى فيما بعد .

ومالى يحدّها من الشرق النيجر ومن الغرب السنغال ومن الشمال الجزائر وموريتانيا ، ومن الجنوب الغربي غينيا ، ومن الجنوب الشرقى فولتا العليا ، ومن الجنوب ساحل العاج .

ويمكن تقسيم البلاد إلى ثلاث مناطق جغرافية : المنطقة السودانية الممتدة إلى الجنوب من نهر النيجر وهى منطقة زراعية واسعة ، ومنطقة حوض النهر ، ومنطقة الصحراء الكبرى في الشمال ، ومن اناحية المائية يشكل القسم الغربى من مالى جزءاً من حوض نهر السنغال ، ويشكل الجزء الأوسط جزءاً من حوض نهر النيجر ، وبالقرب من تنبكتو يلتقى نهر النيجر بنهر بانى الذى يروى مع روافده مساحة كبيرة جداً ، وتشغل بحيرات النيجر أجزاء شاسعة حول النهر ، وفي الجنوب الغربى توجد جبال فوتاجالون التى تمتد إلى غينيا (١) .

السطح وما لغة وديننا :

يبلغ تعداد سكان مالي حوالي أربعة ملايين ونصف ، وأكثرهم من قبائل الماندينجو ومن الطوارق ، واللغة الرسمية بالبلاد هي اللغة الفرنسية ويتحدث الناس لغات محلية من أهمها لغة البجارا والمالينكي والموسى والتوكلور ، وفي الشمال يتحدث الطوارق لغة البربر ، وبعض اللغات تكتب بالحروف العربية ، والمسلمون للشقون يعرفون اللغة العربية معرفة قوية .

والإسلام هو دين الغالبية من السكان ، ويشكل المسلمون حوالي ٩٠ ٪ منهم ، أما الباقون فلا دينيون أو يتبعون الديانات البدائية ، وهناك قلة ضئيلة تتبع المذهب الكاثوليكي .

ويكثر في مالي أن يُعرف الناس بصناعاتهم فتتسم القبيلة إلى شعب يطلق على كل شعب اسم الصناعة التي تشتهر بها .

كلمة تاريخية :

إن صحراء مالي الشمالية التي أشرنا لها من قبل جزء مهم من الصحراء الإفريقية التي تصل إلى الجزائر وبلاد المغرب ، ومن هنا ارتبط تاريخ بلاد مالي بتاريخ الشمال عبر الصحراء الكبرى ، فقد كانت القوافل التجارية تحمل الرقيق واللحم من الجنوب وتُسبدل به الملح والملابس والسلع الأخرى من الشمال ، وعلى هذا ارتبط تاريخ هذه المنطقة بتاريخ الشمال الإفريقي ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الرباط الذي أقامه عبد الله بن يس في جزيرة بالقرب من مصب السنغال كان غير بعيد من هذه المنطقة ، وعلى هذا انحصرت بلاد مالي بين حركتين إسلاميتين إحداهما وافدة من الشمال مع التجارة الساحلة والهابطة ، والأخرى وافدة من الغرب مع حركة

عبد الله بن يس ، وكانت هذه المناطق تابعة لإمبراطورية غانا ، فلما هبَّ عبد الله بن يس من رباطه سنة ١٠٤٢ حرَّر قبيلته لثبوت من سلطان غانا وراح - ومعه أبطال هذه القبيلة وجنودها - يدعو إلى الإسلام برابرة أدرار وزنوج تكرور ، فاعتنق ملك تكرور وأسرته الدين الإسلامي ، واعتنق ملك ماندنج « مالى » الإسلام كذلك ، وعندما اتجه المرابطون إلى الشمال بقيادة يوسف بن تاشفين واختلف معه ابن عمه أبو بكر بن عمر عاد هذا إلى الجنوب ومعه بعض أتباعه كما أشرنا من قبل (١) واستطاعوا احتلال كرمبي عاصمة إمبراطورية غانا ، وبهذا قضى على هذه الإمبراطورية واتسع انتشار الإسلام في هذه المناطق .

ولم يطل عهد المرابطين بالجنوب واتجه نشاطهم كله إلى الشمال بعد وفاة أبي بكر بن عمر سنة ١٠٨٧ ولكن الإسلام ظلَّ ينتشر في هذه المناطق ، وقامت على أثر ذلك إمبراطورية مالى التى تحدثنا عنها من قبل ، والتي كان بعض ملوكها ذوى صيت واسع في التاريخ ، وقد استطاع منسى موسى (١٣٠٧ - ١٣٣٢) ، وهو أحد أباطرة مالى العظماء أن يستولى على تمبكتو (٢) التى كانت مركز ثقافياً وتجارياً كبيراً ، ويستولى كذلك على أرض مترامية الأطراف حول النيجر .

وفي هذه المنطقة كذلك قامت إمبراطورية صنغى ذات الصيت البعيد الذى تحدثنا عنها من قبل ، ولما ضعفت هذه الإمبراطورية ، فكر سلطان المغرب فى الاستيلاء على هذه المناطق وبخاصة لأن بها مناجم الملح ، وقد تحدثنا من قبل عن هذه المغامرة وعن نتائجها ؛ على أن أهم هذه النتائج كان التفكك والانحلال وقيام الحكم القبلى والدويلات الضعيفة وكان ذلك فى أواخر القرن الثامن عشر .

(١) ص ١٠٩ و ٢٢٠ .

(٢) عبد الرحمن السلى : تاريخ السودان ص ٢٠ وما بعدها .

ومن الواضح أن تاريخ جمهورية مالي ارتبط في هذه الفترة بتاريخ
النيجر وتشاد وإفريقية الغربية على الصوم ، وقد سبق أن تكلمنا عن
النهضة الإسلامية التي زادها عيان دان فديو في أواخر القرن الثامن عشر
وأوائل القرن التاسع عشر ، وقد استطاع أن يؤسس إمبراطورية سُكوتو ،
وقد تبعه سيكو حاد الذي أرسى الإسلام في ماسينا وشيد عاصمة له أمهاها
« حد الله » عام ١٨١٠ ، ثم أتى توكولور حاج عمر الذي حمل لقب خليفة
البيجاتية وقد سبق أن تحدثنا عنه ، وقد عاصر حاج عمر بدء تدخل الفرنسيين
في هذه المنطقة وحاربهم حرباً لا هوادة فيها حتى قتل سنة ١٨٦٤ ، وتسلم
ابنه زمام الأمر ، ولكن الفرنسيين بذلوا كل الجهد وألقوا في الميدان بأخطر
الأسلحة وعندما احتج هذا القائد أخذ مكانه الساموري الذي تحدثنا عنه
عند كلامنا عن غينيا وظل يصارع حتى نهاية القرن التاسع عشر .

كلمة موجزة نقرر بها أن هذه المنطقة حريق في الإسلام وأنها صارت
الاحتلال دون هوادة مدة طويلة ، ولم تُسَاحَ للمستعمر لحظة استقرار
أو هدوء وإذا كنا قد تكلمنا عن الجانب الإسلامي فيجب علينا أن نصف
الجانب الاستعماري وهو يزحف على هذه المنطقة الغالية .

لم يصل من الأوروبيين إلى داخل إفريقيا وإلى منطقة مالي الحالية سوى
بعض الرحالة الذين كانوا يسعون للكشف والصرف على البلاد ، وكان أشهر
هؤلاء فوج من الملاحين البرتغاليين الذين ساروا في نهر النيجر ووصلوا إلى
تمبكتو في القرن السادس عشر .

أما عن الاستعمار العسكري فمن الواضح أن المستعمر الفرنسي بمنطقة الساحل
في مطلع العهد الاستعماري ، ولكنه في الربع الأخير من القرن التاسع عشر بدأ
يتجه إلى الداخل ليضع المقاومة التي كانت تتخذ من الداخل مركزاً لها وتهاجمه في
الساحل ، هذا من جهة ومن جهة أخرى اتجه الاستعمار ليحصل على مزيد من الكسب

والتراء من داخل البلاد ، وكان قدومه إلى منطقة مالي الحالية عن طريق نهر السنغال وقد وصل المستعمر إلى مدينة كايس في غرب مالي سنة ١٨٨٠ ثم أراد أن تكون الصلة بين الساحل والداخل سريعة فأنشأ خطاً حديدياً من ساحل السنغال إلى كايس ثم مدّه إلى باماكو العاصمة الحالية ، وأخيراً جعل الاستعمار هذا الخط جزءاً من شبكة المواصلات العامة التي أراد بها ربط مناطق غربي إفريقيا بعضها ببعض ، وعلى هذا فالاستعمار الفرنسي لم يبدأ متأخراً ، وصادف مقاومة عنيفة جعلت استقراره لم يبدأ إلا مع القرن العشرين فقد شغل الحاج عمر ثم الساموري فترة الصراع التي امتدت حتى نهاية القرن التاسع عشر ، وبعد ذلك رزحت هذه البلاد تحت يد الاستعمار الفرنسي ، وكابدت ما كابدته المناطق الأخرى من قسوة ووحشية ، وهانت أرض الأبطال ذل الاستعمار حتى بدأ النور يتسرب من جديد لهذه المنطقة ، وكان ذلك عقب نهاية الحرب العالمية الثانية ، وأدركت فرنسا أن لا أمل في استمرار الحال على ما هو عليه فخطت فرنسا تلك الخطوات التي أوردناها من قبل عند الحديث عن موريتانيا عن « المستعمرات الفرنسية وطريقها إلى الاستقلال » وقد مرت مالي بهذه الخطوات جميعاً ، فلما أعلنت الجمهورية الخامسة في فرنسا اتجهت مالي في استفتاء ٢٨ سبتمبر إلى قبول أن تبقى عضواً في الجماعة الفرنسية عن أن يكون لها حكمها الذاتي ، وكان ذلك ناتجاً عن التهديدات التي أهانها ديغول لمن يرفض الاستمرار في عضوية الجماعة الفرنسية ، ولكن الوضع الجديد لم يقنع مالي كما أنه لم يقنع غيرها من الدول التي اتجهت هذا الاتجاه وأصبحت غنياً التي رفضت البقاء في الجماعة وأعلنت الاستقلال التام مثلاً لغيرها من دول هذه المنطقة ، وأدرك الاتحاد الفرنسي ذلك الاتجاه ، فأعطى مالي مزيداً من السلطات وعناصر الاستقلال ، وفي يناير سنة ١٩٥٩ أعلن قيام اتحاد فيدرالي بين السنغال

والسودان الفرنسي ، والاتحاد اسم ، واتحاد مالي ، ليربط نفسه بتراث الإمبراطورية العظيمة التي أشرنا لها ، وحصل الاتحاد على الاستقلال ضمن الجماعة الفرنسية في يونيو سنة ١٩٦٠ ، ولكن هذا الاتحاد كان قصير العمر ، فانهار بسرعة وانسحبت منه السنغال كما ذكرنا من قبل (١) فأعلن السودان الفرنسي نفسه جمهورية مستقلة استقلالا تاماً باسم « جمهورية مالي » وتخلّى عن المعاهدة التي كان اتحاد مالي قد عقدها مع فرنسا .

وانتهت مالي اتجاهاً جديداً بالنسبة للاتحاد ، فانضمت إلى اتحاد غانا وغينيا التي أشرنا إليه عند حديثنا عن غينيا (٢) ثم انسحبت القوات الفرنسية من قواعدها بمالي سنة ١٩٦١ واستكملت مالي بذلك استقلالها .

ومنذ استقلال مالي اتجهت هذه الدولة اتجاهاً واضحاً لتقديم القضايا التي يملها عليها تاريخها ومكانها في إفريقيا ، فهي تساعد كل جهد للحرية الكاملة ، وتستجيب لكل اتجاه للوحدة الإفريقية .

وعاصمة جمهورية مالي الآن هي باماكو ، وعقب الاستقلال اختير موديبو كيتا رئيساً لها في يناير سنة ١٩٦١ وهو من أسرة إسلامية عريقة لحد فروع قبيلة بيجارا وينتهي نسبه إلى أباطرة مالي القديمة ، وقد بدأ حياته معلماً ، ثم انجبه للسياسة فنجح فيها نجلها عظيماً ، وقاد بلاده إلى التقدم والنجاح ، واتخذ سياسة الحباد الإيماني سياسة لبلاده ، ولم يسمح بأي قوة خارجي أن يطرق بابه ، وخلفه في الرئاسة موسى تراوري سنة ١٩٦٨ .

اقتصاد مالي :

قلنا من قبل إن هناك منطقة زراعية هائلة في جنوب البلاد يروها نهر

النيجر ونهر باني ونهر السنغال ، وفي الشمال توجد الصحراء القصبية ، ويرتبط اقتصاد مالي على العموم بهاتين الظاهرتين ، ففي المنطقة الزراعية تنمو حاصلات وفيرة وأهمها الأرز ويُعد المحصول الرئيسي للاستهلاك المحلي ، كما ينمو القول السوداني والقطن والذرة والسمسم والفاكهة والخنا ، ومن أجل هذا كانت الزراعة هي المصدر الرئيسي لاقتصاد مالي ويشغل بها حوالي ٦٠ ٪ من السكان ، وتنتج البلاد كل حاجاتها الغذائية ولديها فائض كبير تحاول تصديره للخارج ، وكان التصدير أيام الاتحاد مع السنغال عن طريق السكة الحديدية إلى دكا ومن دكا إلى الأقطار المختلفة ، ولكن انسحاب السنغال من الاتحاد جعل مالي تحاول أن تجد مخرجا آخر عن طريق كوناكري بغينيا أو عن طريق ايجان بساحل العاج ، وتعمل مالي الآن على بناء الطرق الحديثة التي تربطها بغينيا لتتخذ منها مخرجا إلى المحيط الأطلسي ، ويساعدها على ذلك وحدة التاريخ والدين والثقافة بين البلدين .

ولما كانت الزراعة هي أهم مصدر لاقتصاد مالي فإن جهوداً تبذل لتوسيع مساحة الأرض المزرعة ، وقد أقيم لذلك سد على نهر النيجر ، بالإضافة إلى خنادق تغذية وقنوات للري ، وخزانات أضافت ما يقرب من مائة ألف فدان للمنطقة الزراعية ، كما أقيمت بعض الصناعات التي ترتبط بالحاصلات في هذه المنطقة .

أما في الشمال في المنطقة الصحراوية فترى الماشية على نطاق واسع ، وقد بلغ عدد المواشي رقما هائلا يقدره الباحثون بحوالي سبعة ملايين من الغنم والماعز ، وأربعة ملايين من البقر بالإضافة إلى الخيول والحمر ، ويصدر منها عدد كبير من الرعوس ، كما تصدر عشرات الآلاف من مبيعات اللحوم .

ومن المصادر كذلك التي ترتبط بمحوض النهر وبالصحراء ، جلود
القماسيح والأفاعى والقهود .

وتوجد في مالي غابات تعد مصدراً للأخشاب والصمغ التي تستهلك
في الداخل ويصدر بعضها للخارج .

ويمثل صيد الأسماك بأنهار الجنوب جزءاً من اقتصاد مالي ، وهو يستعمل
في التغذية الداخلية ، وتصلر منه كميات كبيرة للبلدان المجاورة .

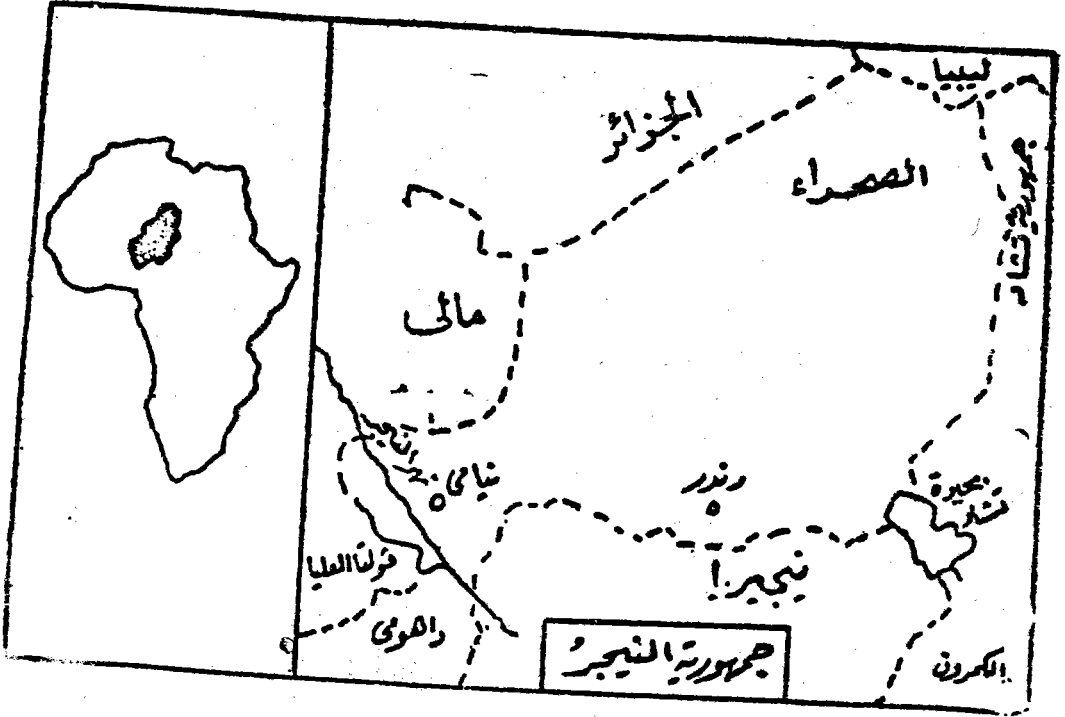
أما المنتجات فأمهمها الذهب والملح ، وللذهب والملح تاريخ طويل في هذه
المنطقة وتعد مدينة تمبكتو مركزاً تجارياً للقوافل التي تحمل السلعتين ، وهناك
آثار تدل على وجود الحديد الخام والمنجنيز والماس والبرول ، وقد بدأ
الثور على بعضها ولكن بقدر غير تجارى حتى الآن ، ويرجى أن يمتنع
باطن الأرض لسكانها ألوانا من الغنى والثراء ، ويرتبط بالمعادن موضوع
الصناعة ، فليس في مالي صناعات ثقيلة ذات بال ، لعدم وجود المواد
الخام بكميات تسمح بالتصنيع ، ولذلك تنبج الصناعة إلى المنتجات المحلية ،
كصناعة الزيوت والجلود والصايون والأدوات المنزلية .

التعليم في مالي :

لم تُعْمَن دوائر الاستعمار بنشر التعليم في مالي أو غيرها لأن التعليم
علمو الاستعمار دائماً ، ولذلك كان الذين يلمون بالقراءة والكتابة عند
حصول مالي على الاستقلال لا يزيدون عن ٥ ٪ من السكان ، وكان هناك
عدد ممن يلتحقون بالكليات ليحفظوا القرآن ومبادئ الدراسات الإسلامية ،
وكانت الكليات تنشر بالقرى وتعيش في حالة بدائية ، ومن العجيب أن
يحصل ذلك في مالي التي كانت في العصور الوسطى مركز إشعاع ونور والتي
تضم مدينة تمبكتو التي كانت ملاذ العلم والعلماء طوال سنوات عديدة ،

وعلى كل حال فقد بدأت الجهود الواسعة لنشر الثقافة والعلم في عصر الحرية والاستقلال ، فأنشأت عدداً وفيراً من المدارس الابتدائية والثانوية ، ومعاهد كثيرة للمعلمين وللتعليم المهني ، وبُعِثَت الحياة في تَبَكُّو ، فاستقبلت من جديد طلاب الدراسات الإسلامية على مستوى عالٍ ، والمأمول أن تحقق حكومة مالي ما يحتاجه السكان من ثقافة شاملة عميقة ، وأن تصبح تَبَكُّو من جديد جامعة تنشر العلم والفكر ، لا في مالي وحدها ولكن في سواها من الأقطار الإسلامية المجاورة .

النيجر



التسمية والموقع :

أخذت جمهورية النيجر اسمها من نهر النيجر ، وإن كان النهر في الحقيقة لا يمر إلا جانباً صغيراً من الجنوب الغربي للجمهورية ، وتسمية النيجر مستمدة من الكلمة اللاتينية نجرو Negro أى الأسود وكان يسمى نيل النجرو أى نيل الزنج أو نيل السودان ثم أخذت البلاد اسمها منه ، وللنهر عدة أسماء محلية ، فهو عند الفولاني «جوليا» وعند الهوسا «بارا» وعند البيروبا «أوبا» (١) ، وقد تطورت تسمية البلاد في عهد الاستعمار ، وتطورت

حدودها كذلك ، فقد كانت جزءا من منطقة كبرى تشمل النيجر والسنغال ، وكانت تسمى « السنغال العليا - النيجر » ثم دخلت وحدة ضمن المنطقة الغربية الاستوائية ، ثم عدلت حدودها وأطلق عليها النيجر .

وعاصمة النيجر لم تكن مستقرة كذلك ، وكانت تتأرجح بين مدينتي « زندر » و « مياي » ثم استقرت العاصمة ابتداء من سنة ١٩٢٦ في « مياي » .

ويعتبر نهر النيجر كبير الأهمية لهذه البلاد ، لأنه النهر الوحيد الذي يوجد بها ومن أجل هذا كان عصب الحياة فيها ، بل في كل البلدان التي تقع عليه في إفريقيا الغربية ، ومن أجل هذا عني به الجغرافيون العرب للذين زاروا هذه المناطق أو سمعوا عنها ، وفيما يلي مقتطفات مما كتبه هؤلاء الجغرافيون .

يقول عمر بن الوردى :

وتكرور مدينة في جنوب النيل وغريه ، وبها أمم عظيمة من السودان ، وهى مقر ملكهم وبلادهم معدن الذهب ، ويسافر إليها أهل المغرب بالصوف والنحاس والخرز والودع ولا يجلب منها إلا الذهب العين ، و « للمم » مدينة متوسطة ، وبها معدن الذهب ، وأرض مغراوة ، وأرض غانا أكبر بلاد السودان ، وأوسعها شجراً ومالاً ، وللسكان في النيل زوارق عظيمة ، وأهلها يستخرجون الذهب ويصنعونه في ألواح « كاللبن »^(١) .

ويقول ابن بطوطة :

ثم سرنا فوصلنا إلى النهر الأعظم وهو النيل الذى ينحدر إلى كاهره ثم زاعا ، وأهل هذه البلاد قدماء في الإسلام متدينون يحبون العلم ، ثم يسير النيل من زاعا إلى نيككو فكوكو فماني التي هى من أكبر بلاد السودان ،

وسلطانها مسلم من أعظم سلاطينهم ولا يدخلها الرجل الأبيض لأنهم يمنعونهم ويقتلونه قبل الوصول إليها ، ورأيت التماسح بهذا الموضع من النيل بالقرب من الساحل كأنه قارب صغير (١) .

وإذا توكلنا حوض النهر في الجنوب وانجهدنا إلى الشمال وجدنا صحراء فسيحة ، تغطي ثلثي البلاد تقريباً ، وتواجه الرمال بدفعات الريح حتى تصبح كأنها في سير منتظم ، والحياة فيها صعبة ، ولذلك يندر فيها السكان . وحدود النيجر هي جمهورية تشاد شرقاً ومالي وغولتا العليا غرباً ، وليبيا وصحراء الجزائر شمالاً ، واتحاد نيجيريا وجمهورية داهومي جنوباً ، وتقع بحيرة تشاد في الزاوية الشرقية الجنوبية لها ، وعاصمتها هي كما قلنا مدينة ميامي وتقع في حوض نهر النيجر بالجنوب الغربي من البلاد ، ومن أهم مدنها زندر وأغاديس .

الطوارق وماولفة ودينا :

سكان النيجر حوالي ثلاثة ملايين ونصف ، والجنوبيون منهم من قبائل الهوسا والحرما ، أما في الشمال فيعيش القولا في والطوارق ، ولا زال الطوارق بالنيجر يستعملون اللّهم انتساباً للمسلمين الذين سبق أن تكلمنا عنهم ، وبشرتهم أقرب إلى البياض ، ويتكلمون اللغة العربية ، ويعملون في الرعي بخلاف سكان الجنوب الذين يشتغل أغلبهم في الزراعة ، والمرأة عند الطوارق لها احترام وافر ، ويستشيرها الرجال في كل مشاكلهم ، وإذا رفع الرجل صوته أمام امرأة عُدّ ذلك من سوء الأدب .

وليس الطوارق هم البيض فقط ببلاد النيجر ، فالتبوو كذلك بشرتهم أقرب إلى البياض وهم يعيشون في الشمال الشرقي .

واللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية بالبلاد ، ويجوارها توجد لغات محلية أهمها لغة الموسا وهي لغة التجارة ، وتوجد كذلك بعض اللهجات المحلية ، أما اللغة العربية فتوجد في الشمال كما قلنا ، ويتكلم بها كذلك بعض المثقفين المسلمين في مناطق مختلفة .

والإسلام هو دين الغالبية العظمى ، وتصل نسبته إلى ٩٥ ٪ أما القلة الضئيلة الباقية فتتبع الديانة المسيحية أو الوثنية الإفريقية .

كلمة تاريخية :

بلاد النيجر متصلة من ناحية الشمال بالشمال الإفريقي ، وتربط الصحراء الكبرى بين هذه وتلك ، ولم تكن الصحراء دائما حاجزا بين المنطقتين في الشمال منها وفي الجنوب ، بل كانت أحيانا همزة وصل . ووصيلة ارتباط ، وبواسطة الصحراء عُرِفَت بلاد النيجر منذ العهد الروماني ، فيروى أن حملةً رومانية توغلت في المناطق الجبلية حتى جنوب الصحراء الكبرى . وقد حددت هذه المنطقة فيما بعد بكلمة جبل « إير » بالنيجر الآن (١) .

ومما يتصل بتاريخ هذه المنطقة قبل الإسلام كذلك ما يروى عن انحذار الساميين والحاميين من الشمال والشمال الشرقي للسيطرة على القبائل الزنجية . وما يروى عن أن النفوذ الحامي قد وصل إلى هذه البلاد منذ عهد بعيد من مصر ومن بلاد النوبة العليا (٢) .

على أن النيجر كسواما من أقطار هذه المنطقة مدينة للإسلام بما هيأ لها من إيضاح التاريخ ، وبما دفع لها من نور الثقافة والمعارف ، حتى يمكن القول إن التاريخ الدقيق لهذه المناطق ارتبط بالإسلام والحياة الإسلامية .

(١) تقوم البلدان الإسلامية ص ٢٣٩

(٢) محمد عبد الفتاح إبراهيم : إفريقية المعاصرة ص ٢٥٦

وبلاد النيجر لها وضع يختلف نوعا ما عن بلاد غربي إفريقيا التي تحدثنا عنها من قبل ، ذلك أن بلاد النيجر ارتبطت بنشاط إسلامي وافد من الغرب ومن الشمال ومن الشرق ، وكانت النيجر أقصى الأمكنة التي طرقتها الإسلام من مصر والشرق ، فإن المعروف أن النشاط الإسلامي الوافد من الشرق ، والوافد من الغرب التقيا عند بحيرة تشاد ، وبذلك تأثرت بلاد النيجر بكلا الاتجاهين ، وفي القرن التاسع عشر امتد النفوذ السياسي لعمان دان فيديو من الجنوب ومن الغرب إلى النيجر ، كما امتد لها نفوذ رايح الزبيري الزاحف من السودان العربي بالشرق ، وفيما يلي تفصيل لهذا الاجمال :

كان هناك خط تجاري يسير من مصر فليبيا إلى منطقة بحيرة تشاد ماراً بمدينة أغاديس التي كانت مركزاً تجارياً عظيماً ، وكانت أغاديس كذلك موضع تقاطع الطريق التجاري بين شمالي إفريقيا والبحيرة ، ومن هنا جاء الإسلام مع التجار الوافدين من الشرق والوافدين من الشمال ، وانتشر الإسلام بين السكان خطوة خطوة ، ثم قامت بهذه المنطقة إمبراطورية مالي الإسلامية التي كانت فسيحة الأرجاء واثبت انتشار الإسلام في رحابها انتشاراً واسعاً ودخلته قبائل الهوسا ، وفي مطلع القرن السادس عشر مدّ أسكيا محمد إمبراطور صني سلطانة إلى هذه المناطق وأخضع لحكمه بعض ولايات الهوسا ، واستولى على مدينة أغاديس ، وأصبح الإسلام واسع الانتشار بالأرض التي تعرف الآن بجمهورية النيجر ، وبعد انهيار مملكة صني استعاد الطوارق نفوذهم بمنطقة أغاديس وتغلبوا على القولايتين ، ثم هب من بين قبائل القولاين زعيم عظيم هو عثمان دان فيديو ، في مطلع القرن التاسع عشر ، وأخضع لإمارات الهوسا لحكمه ، ومدّ سلطانه إلى جزء من إمبراطورية يرنو التي تقع غربي بحيرة تشاد ، وساد الحكم الإسلامي هذه الإمبراطورية الواحدة إبان عهده وإبان عهد خلفائه ، وتأثرت منطقة النيجر بملك تأثيراً كبيراً .

وجاء الاستعمار الأوربي إلى إفريقيا واتخذ من الساحل - كما قلنا من قبل - مراكز لينفذ منها للداخل، وكانت مناطق غربي إفريقيا غالبا من نصيب فرنسا، كما كانت فرنسا قد احتلت الجزائر منذ سنة ١٨٣٠ وصحراء الجزائر تقع على حافتها الجنوبية منطقة النيجر، وبدأت أهمية هذه المنطقة تتضح للفرنسيين، فهي كما أشرنا آنفا على طريق القوافل القديم الذي استعملته الجماعات البشرية منذ آلاف السنين وما زالت تستعمله إلى اليوم، وهو الطريق الذي يبدأ من مدينة الجزائر شمالا ويتجه جنوبا ليمر بعين صالح في صحراء الجزائر، ثم يدخل النيجر، ليمر بمدينة أجاديس وزنجر، ومنها إلى منطقة الغابات الكثيفة التي تقع خلف حزام السافانا، وتحتل النيجر موقعا استراتيجيا هاما بالنسبة لدول غربي إفريقيا وشرقيها وشمالها، ففي الغرب مالي والسنغال وفي الشرق تشاد والسودان وفي الشمال ليبيا والجزائر، والنيجر بذلك تستطيع أن تتحكم في مجموعة هذه الأقاليم (١) ومن هنا حرصت فرنسا على ضمها لسلطانها.

غير أن فرنسا واجهت في زحفها على هذه المنطقة قوة إسلامية كبيرة جاءت من الشرق وسبقت فرنسا في الاستيلاء على هذه البلاد، وتلك القوة كانت بقيادة رابع الزبيرى الذى تكلمنا عنه من قبل، والذي كان من أتباع الزبير سلطان دارفور، ولم يقبل أن يسلم للإنجليز كما فعل سليمان بن الزبير وسار مع مجموعة كبيرة من أتباعه تجاه الغرب حتى وصل واداي وبرنو - فانتصر على السلطات القائمة هناك، وكون له إمبراطورية واسعة حول بحيرة تشاد.

وجاء سعار الاستعمار لهذه المنطقة آنذاك، ووقف رابع بين قوتين هائلتين من قوات أوروبا الضاربة المعتدية، إحداهما الجيوش الإنجليزية في

الشرق والتي كانت تزحف لتستعيد للسودان ، والثانية في الغرب وهي قوة فرنسا التي تطلعت إلى منطقة النيجر الحالية ومنطقة تشاد ، ولم يكن في طوق رابع ولا خلفائه أن ينتصروا على هذه القوى الباغية ، فتم الأمر لفرنسا ودخلت النيجر .

وكان نهر النيجر من أبرز الطرق التي سلكها الاستعمار ليصل إلى هذه المنطقة ، كما أنه سلك طرقاً برية أخرى من الجزائر عبر الصحراء ، وما إن احتلت فرنسا هذه البلاد حتى هبَّ السكان في صراع مرير طويل ضد الغاصب الأوربي ، وكانت قبائل الطوارق وعرب كانم أول من قاد هذا الصراع ، فقد أخفقت ثكن الغارات المتوالية ضد الحاميات الفرنسية التي وضعت بالمناطق التي كانت تعيش بها هذه القبائل ، فرأت فرنسا ضرورة التضيق على هؤلاء باحتلال منطقة تيسى بالشمال ، التي تمدهم بالعون والتي يفرون إليها عقب غاراتهم على القوات الفرنسية ، ولم تستطع فرنسا أن تسيطر على منطقة تيسى إلا سنة ١٩١٤ بعد تضحيات فادحة وخسائر واسعة ، ولكن الثورة كانت قد هبَّت في مكان آخر بالجنوب والغرب ، ويسجل التاريخ أن الثورات التي قام بها السكان هناك ، اشترك فيها جهاير الشعب وقادتهم جميعاً ، أما الجماهير فلم تكن تكف عن الاضطرابات والغارات ، وأما القادة فالتاريخ يقرر أن ساطان زندر أعدَّ العدة لوثبة قوية ضد الفرنسيين سنة ١٩٠٦ ، ولكن السلطات الفرنسية عرفت أخبار هذا الاستعداد قبل نشوب الثورة فخلع السلطان ، وفي خلال الحرب العالمية الأولى اشترك الطوارق والسوسيون وغيرهما من الجماعات والقبائل في حرب اتخذت شعار « الحرب المقدسة » ضد الغاصبين لا في النيجر فحسب ، بل في كل المناطق الإسلامية التي احتلها الفرنسيون والإنجليز على السواء ، ولم يجد الإنجليز والفرنسيون بداً من أن يتعاونوا لمقاومة هذه الحرب المقدسة ، ولم يتم النصر ضد القوات الوطنية إلا في سنة ١٩٢٢ ، وفي هذه السنة جعل

الفرنسيون من النيجر مستعمرة لهم ، وعانت النيجر من الاحتلال الأجنبي ما تعانيه كل الدول من المحتل الأوربي الذي يسرق الأموال ويقتل الحريات وينشر الجهل ، ويثير الحزازات والقبلية ليضرب بعض الناس ببعض ، فلما قامت الحرب العالمية الثانية راحت الدول الأوربية تنشط ودمستعمراتها ، وتعدم بالاستقلال بعد الحرب ، وقد كانت هذه الدول تحسب هذه الوعود خديعة تخدع بها قوى المستعمرات ، ولذلك حاولت الدول الأوربية التخلص من وعودها عقب الحرب ، ولكن زمام الأمر كان قد أفلت من يدها ، فن تطورات هائلة شملت المستعمرات ، وإصراراً واضحاً على الحرية أصبح أنشودة الجميع ، وإزاء ذلك قامت فرنسا بالاصلاحيات الدستورية التي ذكرناها عند الحديث عن موريتانيا بعنوان « المستعمرات الفرنسية وطريقها إلى الاستقلال » وقد مرت النيجر بها جميعاً ، وفي استفتاء ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٥٨ قالت غينيا « لا » وفضلت الاستقلال التام على الرغم من تهديدات دييجول وصحبه كما ذكرنا من قبل ، وفي الحقيقة أن غينيا لم تكن وحدها في هذا الاتجاه ، بل إن النيجر كانت تقف هذا الموقف ، وكانت بها أغلبية ساحقة تفضل الانفصال والحرية على الدخول في الجماعة الفرنسية ، وكانت هذه الأغلبية بقيادة « باكارى » زعيم حزب التجمع والذي كان من أقوى زعماء التحرر في إفريقيا ، وقد قاد باكارى أعنف حملة واجهها ديستور دييجول ، وقت إجراء الاستفتاء عليه ، ولذلك عمدت الإدارة الفرنسية إلى تأجيل إعلان نتيجة الاستفتاء ، إذ أدركت أنه يتجه إلى الرفض ، فادعت فساد الإحصاء الأول ، وأجرت استفتاء لاحقاً ، وخلال تلك الفترة طاردت « باكارى » ومنعت عقد اجتماعات حزبه ، وما آلت القلة المناهضة ، وأخيراً أعلنت نتيجة مزورة .

وقد رأينا من قبل خطورة موقع النيجر بالنسبة للمستعمرات الفرنسية ، وقد برزت هذه الخطورة بوضوح بالنسبة لاستفتاء دييجول ، فهي تقع في حدود صحراء الجزائر إلى الجنوب الشرقي ،

وللى الشرق منها تبدأ الدول الاستوائية الفرنسية ، فهي إن خرجت على المجموعة الفرنسية شطرتها قسمين دون اتصال (١) .

ولكن مسرحية دييجول لم يطل عرضها ، وأثر موقف غينا وانتصارها على التهديدات على اتجاه دييجول ، كما أثرت روح الحرية والاستقلال التي بدأت تنتشر وتنتصر فاتجه دييجول إلى السماح للدول الأعضاء بممارسة السيادة التامة في الشؤون الداخلية والخارجية مع عقد معاهدات عسكرية تتضمن حق فرنسا في إنشاء قواعد عسكرية بالبلا ، وعقد معاهدات اقتصادية تحقق امتيازات خاصة للتجارة الفرنسية ، ولكن النيجر لم يقبل هذا الاتجاه وانتهز فرصة تراجع دييجول ليحقق النيجر كل أمانية ، فتمسك شعب النيجر وقادته بالاستقلال التام غير الشروط ، وحصلت النيجر على استقلالها سنة ١٩٦٠ ، واختير الرئيس همامي ديوري رئيساً للنيجر ، وأصبحت النيجر عضواً في هيئة الأمم المتحدة عقب استقلالها .

والرئيس ديوري من أبناء مديرية مياي ، تلقى دراساته بالمدارس المحلية ثم انتقل إلى دكاكار عاصمة السنغال فآتم بها تعليمه ، واشتغل بالتدريس فترة ، ثم ترك التدريس واشتغل بالسياسة ومرحان ما أصبح نالبا عن منطقة زندر ، وممثلاً لبلاده في الجمعية الوطنية الفرنسية من عام ١٩٤٦ إلى عام ١٩٥٩ ، ثم أصبح رئيساً للجمهورية عقب الاستقلال ، وظل في منصبه حتى وقع انقلاب ضده في منتصف أبريل ١٩٧٤ بقيادة الكولونيل سيني كونق الذي كان رئيساً للأركان ، والذي أصبح رئيساً للجمهورية النيجر اقتصاد النيجر :

تشمل جمهورية النيجر مساحات واسعة تختلف طبيعة الأرض فيها ، فحول نهر النيجر توجد الأرض الصالحة للزراعة ، وفي المناطق الجنوبية تغطي

الأرض بالحشائش الصغيرة التي تعرف بالسافانا ، وفي الشمال تكثر الصحارى الشاسعة التي توجد بها بعض الواحات وبعض المراعى .

والمنطقة الزراعية تنتج بوفرة القول السوداني والأرز والقمح والبطاطا والقطن والذرة ، وتقوم قبائل الهوسا بزراعة هذه الأرض ، وإنتاج هذه المحصولات ، أما في منطقة السافانا فتكثر المراعى وتربى الماشية بأعداد كبيرة هذه المنطقة وفي مراعى الصحراء ، وتبلغ الأبقار والأغنام عدة ملايين تربو على العشرة ، وتكثر بها الخيول والحمر والجمال وتصدر النيجر أعداداً هائلة من المواشى إلى المناطق المجاورة وبخاصة نيجيريا كما تصدر اللحوم إلى ساحل للعاج وداهومى وغانا وغولنا العليا .

أما عن الثروة المعدنية فقد اكتشفت منها كميات كبيرة في الصحراء ، وهى تشمل المواد المشعة والقصدير والحديد الخام والمنجنيز والصفصيح وهناك أمل في وفرة البترول والغاز امتداداً للبترول الذى اكتشف على الجانب الآخر للحدود في الجزائر .

وترتبط الصناعة في النيجر بالحاصلات التي أشرنا إليها فهناك صناعة للجلود وحفظ اللحم ، ومعاصر لإنتاج الزيت من القول السوداني ومصانع لحليج القطن .

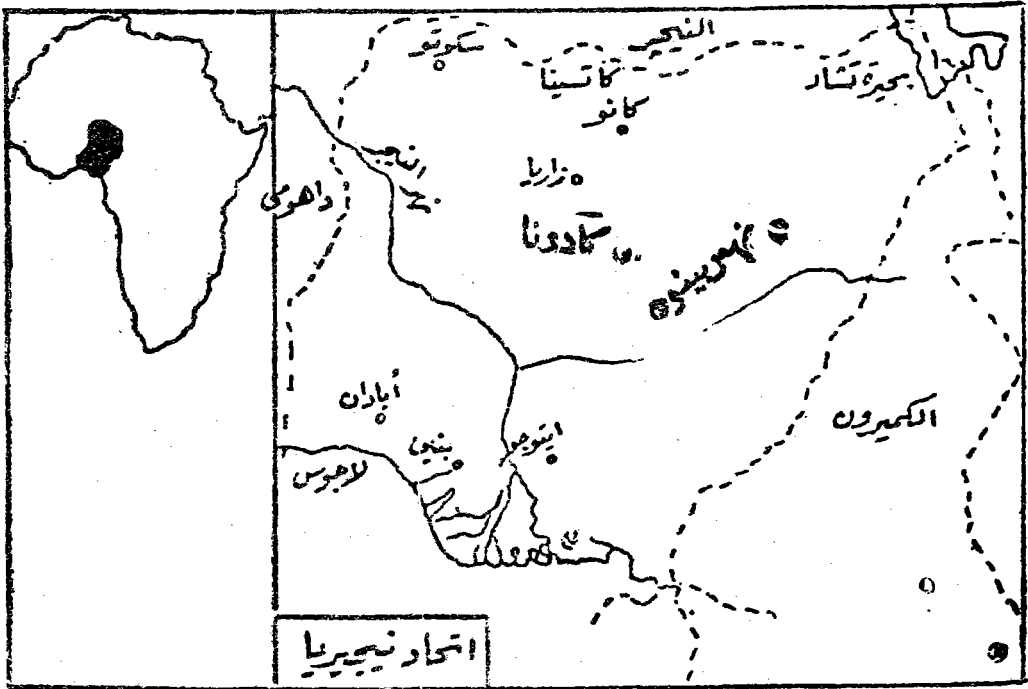
وتعد نيجيريا المنفذ الطبيعي لبلاد النيجر ، والعلاقات بين النيجر ونيجيريا طيبة للغاية ، قبايل الهوسا تسكن في جنوبي النيجر وشمالي نيجيريا ، وقد قسم الاستعمار هذه القبائل ، فأصبح بعضها تابعاً لفرنسا في النيجر ، وبعضها تابعاً للإنجليز في نيجيريا ، وأقيمت الحواجز والحدود بين أبناء المجلس الواحد ، وقد أعاد الزعماء هنا وهناك بعد الاستقلال فتح الطريق بين أبناء المجلس الواحد ، ومما ساعد على حسن الجوار كذلك ، وحدة الدين ،

فالمطقتان تبعان الدين الإسلامى . وتحسان لشعائره ، وكل هذا قضى
على الفواصل المفتعلة التى ألقى بها الاستعمار بين البلدين الشقيقين .

التعليم فى النيجر :

من الطبعى أن التعليم تخلف تخلفاً واسعاً فى النيجر إبان فترة الاحتلال ،
وكانت نسبة المتقنين ضئيلة للغاية وكانت للمدارس قلبية ، فقد كان من
أهداف المستعمر أن ينشر الجهل ليكون ذلك عوناً له على الاستغلال ،
ويمكن القول إن الهياكل الإسلامية التى حرصت الثقافة فى النيجر خلال
فترة الاحتلال ، فقد أقامت عدداً من المعاهد والمراكز الثقافية ، ونشرت
المكتبات ، فكانت بذلك مشاعل ضوء وسط الظلام الحالك ، ولما جاء عهد
الاستقلال عنى بالتعليم عناية كبيرة ، فأنشأ المدارس فى المراحل المختلفة ،
كما أنشأ معاهد للتدريب المهني ، وأنشأ كذلك المدارس المتفلة التى تنحرك
مع القبائل لتعلم أبنائهم ، واهتم عهد الاستقلال بإرسال البعثات للخارج
لتحصيل التعليم العالى ، كما أنشأ قرية للشباب ومنظمات دينية ورياضية ،
ومعهداً للدراسات الشعبية والآثار ، وكل هذه تعاون لخطة العلم ونشر
الثقافة بالبلاد .

فیجیریا



التسمية والموقع :

إن تسمية نيجيريا متصلة بنهر النيجر ، وإذا كانت دولة النيجر أخذت اسم النهر تماماً فإن نيجيريا أضافت على اسم النهر مقطعاً ، فأصبحت بذلك تعنى « ما حول النيجر » والنيجر - كما قلنا من قبل - معناه الأسود (Negro) فالنهر يسمى نهر الزنج أو نهر السودان وأحياناً نيل الزنج أو نيل السودان ، وله أسماء محلية أخرى ذكرناها في مطلع الحديث عن « جمهورية النيجر » ، ولكن الفرتجة هم الذين أطلقوا عليه « النيجر » تبعاً للون ، وكان الأسبان أول من اشتق من اسمه تسمية

للجزء المحيط بالنهر من نيجيريا الحالية (١) أما جعل الاسم شاملا لكل نيجيريا الحالية فيقال إنه من اختراع جريدة التيمس البريطانية في عددها الصادر بتاريخ ٨ من يناير سنة ١٨٩٧ (٢) ويبدو أنها كانت تعبر بذلك عن أن سلطان بريطانيا قد انبسط على هذه المنطقة الفسيحة التي كانت تشمل ولايات الهوسا ودولة اليوروبا ودولة برنو ومناطق الأيوو ، ثم كانت الفكرة بحوار ذلك أن تُعزّل بلاد نيجيريا عن المنطقة كلها فقد كان العرب يطلقون على هذه المنطقة اسم « السودان الغربي » أو « بلاد التكرور » .

ومما يتصل بالتسمية كذلك أن العاصمة الفينرالية « لاجوس » أخذت اسمها من اللغة البرتغالية ، فكلمة « ديجرس » معناها بالبرتغالية « البحيرة » ومنها الكلمة الإنجليزية « Lakes » أي البحيرات لأن لاجوس كانت أشبه ببحيرة واسعة هادئة فاتخذت ميناء طبيعياً للأسطول البرتغالي .

ونيجيريا تحدها الكاميرون شرقاً وبحيرة تشاد في الشمال الشرقي وتشاد والنيجر شمالاً وداهومي غرباً ويقع المحيط إلى الجنوب منها .^(٣)

وتتكون نيجيريا الحالية من برنو ودول الهوسا ومناطق اليوروبا الخيرية ، ومن بعض مناطق صغيرة أخرى كانت مبعثرة هنا وهناك ، وبلغة أخرى تشمل نيجيريا الحالية أساساً دولة برنو وإمبراطورية الفولاني وممالك اليوروبا والأيدو ومناطق الأيوو بالإضافة إلى المناطق الصغيرة المتناثرة وهي بهذا من أكبر دول إفريقية من حيث المساحة ، وتصل مساحتها إلى أربعة أضعاف مساحة بريطانيا .

ويشق نيجيريا نهران عظيمان هما نهر النيجر سالف الذكر ونهر بينو ، ويدخل نهر النيجر بلاد نيجيريا من الغرب بعد أن يجري عبر البلدان

(١) آدم عبد الله الألورى : موجز تاريخ نيجيريا ص ٢١ بتقديم وتأخير .

(٢) عبد الرحمن صالح : أحمدو بللو زعيم من نيجيريا ص ٢٢ .

الأخرى حوالى ثلثى طوله البالغ ٢٦٠٠ ميل وعنتما يصبح نهر النيجر على بعد ٣٤٠ ميلا من المحيط يلتقى بنهر يننو عند مدينة لوكوجا ، ويعتبر نهر يننو من الروافد الرئيسية للنيجر ، وهو ينبع من بلاد الكرون ولكنه سرعان ما يدخل نيجيريا منحطراً من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى ، وهناك روافد أخرى لنهر النيجر أهمها سوكونو وكادونا ، ونهر النيجر ذكاً واسعة إذ تعدد فروعه قبل أن يصب فى خليج غينيا .

ويلعب النهران الرئيسيان دوراً مهماً فى نيجيريا لا من الناحية الاقتصادية فحسب ، بل من الناحية السياسية كذلك ، فالأرض الواقعة إلى الشرق من نهر يننو وإلى الشرق من نهر النيجر بعد أن يلتقى النهران تكون الإقليم الشرقى ، والأرض الواقعة إلى الغرب من نهر النيجر تكون الإقليم الغربى ، أما الإقليم الشمالى فيتكون من الأرض التى تقع شمالى النهرين ، وذلك هو الإقليم الذى تقسّم كثير السكان ، وقد نظم دستور ١٩٤٦ المقاطعات وفقاً لهذا التقسيم الذى يمكن عدّه تقسيماً طبعياً ، فقسّم هذا الدستور الجنوب إلى مقاطعتين شرقية وغربية ، وأقام برلمانات للمقاطعات الشمالية والشرقية والغربية مع مجلس تشريعى مركزى تشترك فيه كل المقاطعات ، وتكون فى نيجيريا إقليم رابع هو الإقليم الغربى الأوسط وكان ذلك نتيجة استثناء عام أجرى سنة ١٩٦٣ وتعداد السكان حوالى ٥٥ مليوناً موزعة على الأقاليم كالآتى :

الإقليم الشمالى تعدادة حوالى ٣٠ مليوناً من الهوسا والفلولانى ومعهم قبائل الكاتورى .

الإقليم الشرقى تعدادة حوالى ١٢ مليوناً أكثرهم من الإيبو .

الإقليم الغربى تعدادة حوالى ١٠ ملايين أكثرهم من قبائل اليوروبا والإيدو .

الإقليم الغربى الأوسط تعدادة حوالى مليونين وأكثرهم من النيجريين والإيويو كللك .

وعاصمة الإقليم الشمالى كادونا والإقليم الشرقى اينوجو والغربى أبادان والإقليم الغربى الأوسط بنين ، أما العاصمة الاتحادية فهى لاجوس ، وقد كانت سوكونو عاصمة الشمال إبان عهد عثمان دانفديو ، ثم أصبحت كادونا هى العاصمة منذ عهد الاحتلال ، ومنذ ذلك العهد اطلقت كلمة سوكونو على الإقليم الذى به العاصمة القديمة والذى يشمل بلاد زنفره إحدى ممالك الهوسا القديمة ، ولكن هذه المقاطعة لا تزال عريقة الصلة بالماضى يستمع تاريخها بحوروحى عبق ، ويحمل سلطاتها لقب أمير المؤمنين (١) .

وتقع كادونا على النهر المسى باسمها وبها منطقة صناعية عظيمة ، وقد زاد نموها زيادة مطردة منذ أصبحت عاصمة الإقليم الشمالى ، كما أصبحت مركزاً ثقافياً وحضارياً يستلفت الأنظار .

واينوجو عاصمة الإقليم الشرقى منجم مهم لإنتاج الفحم ، ويصدر الفحم المستخرج من مناجمها بواسطة خط للسكك الحديدية يصلها بميناء بورت هاركورت ، وعندما أعلن انفصال الإقليم الشرقى كما سرى غيا بعد لم بطل انفصال اينوجو عن الوطن الأم فسرعان ما سقطت فى أيدي القوات الاتحادية فى غضون بضعة أشهر من إعلان الانفصال ، وكان سقوط العاصمة ممهداً لعودة الإقليم كله إلى مكانته من اتحاد نيجيريا (٢) .

وابادان (Ibadan) عاصمة الإقليم الغربى أكبر بلاد غربى إفريقيا وأكثرها سكاناً ، وبها أكبر جامعات نيجيريا ، وكانت من قبل كلية جامعية تأسست سنة ١٩٤٨ كفرع للجامعة لندن ثم استقلت واتمعت

(١) آدم عبد الله الألوثرى : موجز نيجيريا ص ٧٦ - ٧٧ .

(٢) جاك ووديس : جلور الثورة الإفريقية ص ٤٦٠ (إضافات الترجيم) .

وأصبحت مشعل نور لنيجيريا كلها وللأقطار المجاورة ، وكانت أبادان قبل الاحتلال البريطاني مركزاً مهماً للثقافة الإسلامية والعربية ، وكان يقصدها الطلاب من كافة أنحاء أوروبا ، ومن الذين عملوا على رفعة شأنها في مجال الدراسات الإسلامية الرأى عثمان بشورن الذى أوفد إليها جلة العلماء من بلاد الهوسا وأنفق على نشر التعليم من ماله الخاص ، ثم حذا حذوه بالى شث ثم عباس أولويدن ، وكلهم مسلمون مخلصون شيدوا المساجد ونوحوها بفضل العلم والعلماء .

ومن العلماء الذين كرسوا حياتهم للدراسات الإسلامية والعربية في أبادان الشيخ عثمان الدندى الذى تولى الإمامة فيها سنة ١٨٣٩ ثم الإمام هارون ابن السلطان الذى كان يدعى بالشيخ الأكبر لأهل أبادان وكانت وفاته سنة ١٩٣٥ ، وقد تعاون هؤلاء مع الرؤساء في توطيد دعائم الإسلام واستقدموا المرشدين والمدرسين إلى بلاد أوروبا من بلاد الهوسا ومن غيرها ، وكان لجهدهم ثماره الطيبة التى نشرت الإسلام والفكر الإسلامى بهذه المناطق (١) .

وأبادان الآن من أكثر مدن إفريقيا نشاطاً وأكبرها حجياً ، ويرجع التوسع المستمر فيها إلى موقعها كمركز تجارى لكل ما يتعلق بمحصول الكاكاو النيجيرى ، وقد وجدت البعثات التبشيرية بها - للأسف - مكاناً أفرخت فيه ، فأصبح لها نفوذ كبير وبخاصة في التعليم على الرغم من أن أكثر سكانها من المسلمين (٢) .

و « بنين » عاصمة الإقليم الغربى الأوسط ، وفي منطقتها وجدت إمبراطورية بنين التى شكلها الزنوج : وقد امتد سلطانها نحو الشرق ، وهناك فواصل عنصرية تفصل سكان هذه المنطقة عن قبائل أوروبا

(١) آدم عبد الله الألورى : موجز تاريخ نيجيريا ص ٤٢ - ٤٤ .

(٢) جاك ووديس : بطور الثورة الإفريقية (تعليقات المترجم ص ٥٦١) .

والإيو ، كما أن هناك مميزات اجتماعية وحضارية يختص بها سكان منطقة بنين .

والذين بنوا مدينة « بنين » ليسوا من قبائل اليوروبا ، ولا يتكلمون لغتهم ، وقد امتدت فتوحات اليوروبا فشلت بنين واستعمرتها ، وخلعت قبائل اليوروبا في بنين بعض التراث اللغوي والثقافي ، ولكن بنين سرعان ما استعادت استقلالها ، وأنشأت مملكة قوية الشوكة أدركها الأوروبيون في أوج الحضارة والمدينة ، عندما حط البرتغاليون رحالهم بها سنة ١٤٨٥ ، وقد التقى القائد البرتغالي مع ملك بنين ، وجرت بينهما مفاوضات أسفرت عن إرسال سفير من بنين إلى البرتغال لعقد اتفاق تجاري بين البلدين ، وإعطاء تصريح للمبشرين البرتغاليين لياشروا أعمالهم التبشيرية في بنين .

ويبدو أن بنين اتخذت هذه الخطوة اتقاء لما توقعته من إمكان هجوم قبائل اليوروبا عليها ، وكانت بنين بذلك من أول المراكز التي اقتحمها التبشير المسيحي عن طريق البرتغال ولكن ذلك التبشير لم يستقر بها طويلا ، وانتقل إلى قبائل الإيو سنة ١٥٢٠ ثم غادر بعد ذلك نيجيريا ، وفي سنة ١٥٥٣ وصلت لها أول باخرة إنجليزية باسم التجارة ، ولكن روح الاستعمار ظهرت في تصرفات الإنجليز ، فبدأ النزاع بينهم وبين الأهالي ، فهاجمت القوات الإنجليزية بنين ودمرت أبنيتها .

وفي عصر الاستقلال عادت بنين من جديد لتصبح مدينة مهمة ، وعاصمة للإقليم الغربي الأوسط ومكانة بنين هذه هي التي دفعنا لتكوين مقاطعة خاصة بها عن مناطق اليوروبا .

ولاجوس هي العاصمة الاتحادية والميناء الرئيسي لنيجيريا وثاني مدنها بعد أبادان وتقع على بحيرة ساحلية بجانب خليج غانا ، وتقوم المدينة على جزيرتي لاجوس وإدو ومنطقة الساحل المجاور ، وقد اتخذت اسمها من مكانها بالنسبة للبحيرة ، فلاجوس معناها بحيرة في اللغة البرتغالية كما قلنا من قبل .

وبالإضافة إلى هذه العواصم توجد في نيجيريا بلاد ذات أهمية كبرى في مجال التاريخ الإسلامى ، ومن أهمها كانو وكاشنه وزاريا وكاتسينا وغيرها .

السكان وما قبله ودينه :

سكان نيجيريا يبلغون حوالى ٥٥ مليوناً ، منهم حوالى ٣٨ مليوناً من المسلمين ، وهناك حوالى ١٣ مليوناً من المسيحيين والباقي من الوثنيين واللا دينيين .

ويتنسب السكان إلى قبائل برنو والهوسا والقولاني والإيبو والبوروبا وقبائل نوفا ويقطن قبائل برنو بالشمال الشرقى من نيجيريا ، ويشتهرون بالفروسية والشجاعة وإتقان الصناعات المختلفة ، ومن أبرز صفاتهم الأتفة وعزة النفس والفخر بالآباء ، وقبائل الهوسا والقولاني هم سكان الإقليم الشمالى بوجه خاص ، ويوجد منهم فروع في الأقاليم الأخرى ، وقد اندمج النقولاني في الهوسا ، حتى لم يعد هناك من يمكن أن يدعى أنه ينسب إلى النقولاني الخالص ، ولقد القبائل تاريخ عجيد ، وذكريات طيبة في السياسة والتجارة والصناعة ، وينتشر الإسلام بينهم انتشاراً واسعاً حتى يحس البعض أنهم جميعاً مسلمون ، ويعرف هؤلاء باعتزازهم بأنفسهم وتمسكهم بالإسلام ، واحترامهم للتقاليد ، وصراعهم مع الاستعمار ، وثقافتهم منه موقف الخشية والحذر مما حدث من تطورهم الثقافي في خلال الفترة الاستعمارية .

ويقطن قبائل الإيبو في الإقليم الشرقى غالباً ، وقد كالت هذه القبائل جماعات عشرقية لا تربطها روابط ، ولا تتكون منها دولة ، وبالتالي لا تخضع لأمير أو سلطان ، وكانت هذه المنطقة من المناطق التي اتخذها التبشير المسيحي مركزاً له ، حتى أصبح عدد المسيحيين فيها يبلغ حوالى نصف السكان ،

أما النصف الثاني فلا يزالون وثنيين ، وهناك قلة قليلة من المسلمين ؛ وقد نالت هذه المنطقة كثيراً من التطور في عهد الاستعمار ، وبرز فيها ألوان من المتنوعين ، في مختلف العلوم والفنون وكان منها « الدكتور عملي أزيكوى » الذي كان حاكماً عاماً على نيجيريا وأول رئيس للجمهورية .

أما قبائل يوروبا فعظمهم في الإقليم الغربي ويوجد بعضهم بالإقليم الشمالى ، وكانوا أكثر قبائل نيجيريا إقبالا على الثقافة الأوربية والتعليم العام حتى أصبح منهم عدد كبير من الأطباء والمحامين ورجال السياسة ، وسكان هذا الإقليم مزيج من المسلمين والوثنيين والمسيحيين ، ونسبة المسلمين فيهم ربما تزيد عن نسبة سواهم .

أما قبائل توفى فإنهم ينزلون على ضفاف نهر النيجر ، في المقاطعات المحاذية لبلاد يوروبا .

وهناك زنوج بنين بالإقليم الغربى الأوسط ، وسكان هذا الإقليم مزيج من المسلمين والمسيحيين والوثنيين (١) .

واللغات في نيجيريا كثيرة جداً تبعاً لبطون القبائل التي أشرنا إليها ، ويقال إنها تصل إلى حوالى ٢٥٠ لغة ، وينبغى أن نبداً حديثنا عن اللغات بكلمة عن اللغة العربية بنيجيريا التي كان لها مجال واسع جداً في نيجيريا قبل الاستعمار ، فقد انتشرت اللغة العربية انتصاراً واسعاً مع الدين الإسلامى ، وحلها الطوارق إلى أرض الهوسا ، فكانت لغة الثقافة والعلم ، وقد عُنى بها عدد وفير من أهل نيجيريا فجمعوها لغتهم الأولى ، دونوا بها المؤلفات ونظموا القصائد والأشعار ، وكانوا يفتنون إلى مصر والبلاد العربية ، ويبتون فقرات ضيقة ليزيد من تجويد هذه اللغة ، ولتزيد من الاطلاع على

(١) آدم عبد الله الألوذى : موجز تاريخ نيجيريا ص ١٢٥-١٢٨ بصرف واسع

آدابها ، وكان بعض سلاطين الهوسا من العلماء ، برزوا في اللغة العربية وآدابها وكتبوا بها مؤلفاتهم ، ومن هؤلاء الإمام محمد بلو بن عثمان دانقديو ، الذي كتب كتابه الذي يعتبر حجة في تاريخ هذه البلاد وعنوانه « إتفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور » ، وقد تحدث في هذا الكتاب أحاديث دنيئة ، و ترجم لوائده القائد الشهير عثمان دانقديو وتحدث عن غزواته وانتصاراته الكبيرة ، وبالإضافة إليه عقد المؤلف فصلاً ترجم فيه لبعض علماء الأقاليم السبعة^(١) التي عاشت بها قبائل الهوسا ، ومن هؤلاء العلماء الشيخ عبد الله سك القلاتي الذي رحل في طلب العلم إلى فزان وغيرها ثم رجع لبلادته وتصدى للإقراء وتعليم اللغة العربية والدراسات الإسلامية ، ومنهم الشيخ محمد الكشاوي الذي رحل للشرق وحج وجاور بالحرمين ورحل لمصر وتوفي بها ، وقد شهد له علماء الحرمين ومصر بالعلم والنضل ، ومنهم القاضي محمد بن أحمد للذي كان فقيهاً عالماً ومحدثاً كبيراً جيد الحفظ حسن الفهم كثير المنازعة ، وقد رحل للشرق حيث قابل القلقشندي وابن أبي شريف السباطي وغيرهما ، وأجازه من مكة أبو البركات التويري ، وعلى بن ناصر الحجازي وغيرهما ، ورجع لبلاد السودان فتولى قضاءها .

ومنهم الشيخ البالغ عمر بن محمد الترودي ، وكان يجتنب فقهه وعلمه شاعراً مجيداً ، له تخميس على « بات سعاد » ، ومنهم الأستاذ جبريل بن عمر شيخ الإسلام العلامة المحقق الذي مدحه الإمام محمد بن بلو بقصيدة مظلماً :

إن قيل فيه بحسن الظن ما قبلا فوجه هو من أمواج جبريلا

ومن أشعار الشيخ نفسه قوله في شيخه مرتضى :

فريد الدهر فابتق كل قرن عجيب شأنه في كل فن^(٢)

(١) الفصل التاسع .

(٢) اقرأ : إتفاق الميسور ص ٥٠ - ٥٦ .

وبين أيلينا كتاب آخر ألفه باحث نيجيرى عن تاريخ نيجيريا ، وأورد فيه نماذج كثيرة لعلماء من نيجيريا أجادوا اللغة العربية وكتبوا بها مؤلفاتهم ونظموا بها القصائد والأشعار ، ومن هؤلاء علماء كشته الذين برزوا فى الثقافة الإسلامية واللغة العربية ، ومن أشهرهم ابن الصباغ الذى يقول فى فضل العلم :

العلم روض لله كالبلستان أشجاره كثيرة الأفتان

ومنهم محمد مود بن محمد الذى ينم الحسد بقصيدة طويلة منها :

من أجهلُ الناس سوى الحسود يغضب من قضية الودود
منى رأى نزول غيث الرحمة تُصبه غشية تذيب لحمه

ويقول مؤلف هذا الكتاب إن الإسلام لما دخل نيجيريا أزال عن أهلها الأمية والجهالة ، فصاروا فى عداد الأمم للكاتب القارئة ، وبالتالي ظهر فيهم علماء يؤلفون باللغة العربية مؤلفات ثرية وشعرية ناضجة فى شتى الموضوعات الأدبية والدينية والاجتماعية^(١) .

وكان من ميزات اللغة العربية بنيجيريا أنها لعبت دور الوسيط اللغوى ، فصارت كما يقولون « *Lingua franca* » أى أصبحت لغة يتكلم بها جماعات تختلف لغاتهم الأصلية ، فلما جاء الاستعمار حارب اللغة العربية بوسائل الأول دقَّعُ اللغات المحلية إلى البروز والظهور ، وعلاوة خلق أحرف مجاثمة لما تصبح لغات تكب . وللأسلح الثانى هو أنه دفع لغته لتحل محل العربية فى مجالات الثقافة والعلم ، وفى أن تصبح لغة وسيطة تتكلم بها مختلف القبائل ، وهناك سلاح

(١) آدم عبد الله الألوثرى : موجز تاريخ نيجيريا ص ١٠٢ وانظر فنانج أخرى فى صفحات أخرى .

ثالثاً أضرباً باللغة العربية وقلل من مكانتها ذلك هو أن المستعمر أوقف السبل
البشرى الجوارف الذى كان يتشغل فى طالبى العلم من نيجيريا إلى البلاد العربية ،
ليعودوا إلى بلادهم وقد تمكنوا من هذه اللغة ، على أن اللغة العربية قبل أن
تضعف فى نيجيريا تركت آثارها التى لا تمحى عن طريق بعض القواعد
التي انسابت منها إلى لغة الهوسا كالفصائر المؤنثة والمذكورة وجموع التكسير ،
وضمائر المتكلم والغائب والمخاطب ، وعن طريق الكلمات الكثيرة التي اقتبستها
اللغات الكبرى بنيجيريا كلغة الهوسا ولغة اليوروبا ، وبعض الكلمات العربية
دخلت لغة الهوسا دون تحريف كالأعداد من العشرين إلى التسعين ، وبعضها
دخل بشيء من التحريف الذى تقتضيه الأجيال الصوتية ، وعضلات النطق
التي تختلف من شعب إلى شعب (١) ، وقد أورد الألوورى نماذج كثيرة من
الكلمات العربية التي انتقلت إلى لغة الهوسا أو لغة اليوروبا بتغيير بسيط فى
نطقها وكتابتها (٢) .

وبعد الحديث عن اللغة العربية نتقل إلى الحديث عن أشهر اللغات بنيجيريا
وفى القمة من هذه اللغات توجد لغة الهوسا ، وهى لغة أهل شمالى نيجيريا
كما أنها تخطت حدود نيجيريا ، فأصبحت لغة التجارة والسياحة بغرب
إفريقية كلها ، وذلك بسبب انتشار قبائل الهوسا الذين يزولون التجارة
والسياحة فى هذه الأقطار ، وقد دخلت لغة الهوسا كلمات كثيرة من اللغة
العربية كما ذكرنا ، ومن لغات الزنج والبربر وثنية ، كما أنها اقتبست من
اللغة الإنجليزية أسماء المخرعات الحديثة والمصطلحات السياسية ، ولغة الهوسا
سهلة التعبير خفيفة على اللسان (٣) ، لها قواعد ثابتة دقيقة ، وكانت من قبل
تكتب بالحروف العربية ، وفى عهد الاستعمار وضعت لها حروف لاتينية .

(١) آدم مبداه الألوورى للكتاب السابق ص ١٤٤ بصرف .

(٢) للكتاب السابق : ص ١٤٥ - ١٤٨ .

(٣) المرجع السابق ص ١٤٤ - ١٤٥ .

وبعد لغة الهوسا تنحى لغة إيبو ويتكلم بها حوالى ثمانية ملايين من قبائل الإيبو بشرق نيجيريا ، وقد تختلف لهجة منها عن أخرى مع اختلاف البطون .

واللغة الثالثة بنيجيريا هى لغة اليوروبا ويتكلم بها حوالى خمسة ملايين بالإقليم الغربى كما يتكلم بها أبناء قبائل اليوروبا بالإقليم الشمالى وبيغانا وساحل العاج وداهومى ، وهذه اللغة غنية بالكلمات العربية التى اندمجت فيها . كما أخذت بعض الكلمات من لغة الهوسا ومن الإنجليزية .

وننقل الآن لأحدث عن الأديان بنيجيريا ، وفى هذه الأرض الفسيحة كانت تنتشر الأديان المحلية والمعتقدات البدائية ، كعبادة الأصنام والتماثيل المنحوتة من الخشب والطين ، وكانت اللبائح والقرابين تقدم لهذه الأصنام ، وكان منهم من يعبد الرعد والبرق والنار وبعض الأنهار والأشجار ، وتوجد الطوطمية كذلك فى بعض نواحي نيجيريا ، كما تعبد أرواح الأجداد والتماثيل والشماعين والأفبال ؛ ومن أعيادهم الدينية عيد الغول ، وفيه يتكفرون داخل جلود السباع ، وكانت تنتشر فى نيجيريا عبادة النار ، وكان عابدها يطوفون بها ويرقصون حولها ، وعلى هذا فالوثنية بسائر أنواعها كانت الديانة الأولى بنيجيريا ، وللوثنية كهنة يرشدون إلى تأدية الطقوس ويقودون إلى خلعمة هذه الآلهة التى يصنعها الإنسان (١) .

وبينا كانت نيجيريا تعيش فى هذا الظلام إذ دق الإسلام بابها واتخذ طريقه إليها ، فبعث بها النور والحضارة ، وسكب فى أرجائها المدنية والعرفان ، ويرى علماء نيجيريا أن الإسلام دخل هذه البلاد فى أواخر القرن الأول الهجرى الذى فتح للمسلمون فيه شمالى إفريقيا وجزءاً من غربها ، وبرون أن الإسلام انتفع إلى نيجيريا من منبعين أولهما من مصر عبر السودان العربى ودارفور وياجوى وبرنو ، وثانيهما من شمالى إفريقيا عبر الصحراء :

ثم جاءت إمبراطوريات غربي إفريقية وحركة عثمان دان فديبو الإصلاحية فتسكن الإسلام بالشمال وانتشر به انتشارا واسعا ، ومن الشمال انساب نحو الغرب وبخاصة في عهد إمبراطورية الفولاني .

وهكذا شمل الإسلام مناطق الهوسا بشمال نيجيريا مما جعل بعض المؤرخين يعتقدون أن هذه المناطق الشاسعة تتبع دين الإسلام بنسبة ١٠٠٪ أو أقل قليلا ، أما غربي نيجيريا فقد عرف الإسلام في أيام إمبراطورية الفولاني ، ومن هنا كان الإسلام في الغرب يشمل حوالي نصف السكان أما النصف الثاني فيتبع المسيحية والوثنية ، أما شرقي نيجيريا فلم تمتد له إمبراطورية الفولاني ، ولهذا كان انتشار الإسلام فيه محدوداً .

وجاءت المسيحية إلى نيجيريا مع الاستعمار الأوروبي ، ولم تكن نيجيريا قبل ذلك تعرف كلمة واحدة عن المسيحية إلا عن طريق ما يرد عنها في الدراسات الإسلامية أو تفسير القرآن الكريم ، فلما جاء الاستعمار تعاون المستعمرون على اختلاف ميولهم ، وعلى ما بينهم من حقد وصراع لينشروا المسيحية في نيجيريا كما فعلوا في مستعمراتهم الأخرى ، كأنهم كانوا يدركون أنهم يوماً ما سيُطردون من مستعمراتهم ، وأن الشيء الوحيد الذي سيقى لهم في المستعمرات هو المسيحية الغربية التي تشد بعض الوطنيين إليهم وتربطهم بهم برباط محكم ، وفي نيجيريا اتجه الاستعمار إلى المناطق الوثنية واللا دينية فهي التي يمكن التأثير فيها ، أما المناطق الإسلامية فلم يجد الاستعمار وسيلة لنشر ديانته بها ، وهكذا كان انتشار المسيحية مطرداً اطراداً عكسياً مع انتشار الإسلام ، فكلما كان انتشار الإسلام واسعاً كلما ضاقت حلقة انتشار المسيحية ، وعلى هذا لم تجد المسيحية منفذاً لها في الشمال ، أما في الغرب فاقتسمت النفوذ مع الإسلام وأما في الشرق فقد وجدت الحقل فتغللت وزاد انتشارها .

على أن الاستعمار لم يدع المسلمين بالشمال يعيشون في سلام ، بل لحاطهم

بستار حديدى حجب عنهم العرفان والنور ، وحجب عنهم صلّتهم باللؤلؤ الإسلامية ، وبذلك لم يدع متفلاً للفكر والمعرفة يتخطى ديارهم ، وكلمن كل نشاطه فى المناطق الأخرى التى نشر فيها المسيحية ونشر فيها مع المسيحية العلوم الحديثة وتطورات الفكر العالمى ، ووحد الاستعمار بين أجزاء نيجيريا بهدف واضح ، هو أن تستولى القلة المسيحية باسم الثقافة والمدنية على الأكثرية المسلمة التى حكم عليها بالتخلف وحجب عنها نور المدنية ، وقد كانت ثورة شرقى نيجيريا نتيجة طبيعية للأوضاع فى نيجيريا ، فقد أراد هذا الجزء أن يتسلط على الكل تحقيقاً لأهداف الاستعمار ، فلما عجز أعلن استيلائه وأيده الاستعمار ، ولكن قوى الحق أعادته إلى مكانه لطبعى من الوطن الواحد ، وسقطت فيما بعد عن هذه الأحداث السياسية .

وفى كلمة موجزة يشمل الإسلام حوالى ٧٠ ٪ من سكان نيجيريا ، وتشمل المسيحية حوالى ٢٠ ٪ والباقيون لا يزالون على الوثنية والأديان البدائية .

الإحصاءات الإنجليزية تعتمد إلى التثليل من عدد المسلمين والمبالة فى عدد المسيحيين ، ومع هذا فالكاتب الإنجليزى Geoffrey Parrinder يذكر أن المسلمين فى نيجيريا يبلغ عددهم حوالى ثلاثة أضعاف المسيحيين ، وإن كان يعتمد إلى التثليل فى العددين لأن قليل عدد المسلمين فى نيجيريا وفى إفريقيا مقصود لذاته ، وتعداد المسلمين فى رأيه ١٤,٠٠٠,٠٠٠ (١) وتعداد للمسيحيين ٥,٠٠٠,٠٠٠ (٢) .

ويقول Stapeleton ما سبق أن أوردناه عن أن انتشار المسيحية بنيجيريا لم يتم إلا فى أثناء الحكم البريطانى ، ويضيف أن انتشارها اعتمد فى الغالب على الإغراء المادى أو جاذبية مدارس الإرساليات (٣) .

كلمة تاريخية :

ترك العلماء المسلمون العرب شيئاً يمكن أن تعطى صورة واضحة عن تاريخ الجزء الشمالى من نيجيريا ، كما أن مسلمى نيجيريا الذين تعمقت ثقافتهم الإسلامية العربية كتبوا أيضاً لمحات من تاريخ هذه البقاع ، ويمكن أن نأخذ من هذه وتلك صورة واضحة عن تاريخ شمالى نيجيريا ، أما الإقليم الغربى فليس له تاريخ مدون إلا ما جاء عرضاً فى أثناء تاريخ الشمال ، وأما الإقليم الشرقى فلم ينون له تاريخ إلا ابتداء من تاريخ الاحتلال البريطانى ، وسنحاول أن نورد لإلمامة واضحة عن تاريخ هذا القطر الواسع الرقعة العميق التأثير فى الحياة الإفريقية .

وتدل المراجع التاريخية على أن صلة وثيقة قامت بين مصر ونيجيريا لإبان التاريخ القديم ، فقد وجدت فى نيجيريا آثار مصرية ، كالتماثيل الخرفية ، والأسلات الحجرية ، والحجارة التى نقش عليها بحروف هيروغليفية ، مما يدل على أن المصريين وصلوا إلى هذه البلاد ، وتركوا بها ألواناً من حضارتهم ، وجاء فيما كتبه هيرودوت أبو التاريخ أن الجيش المصرى فى عهده كانت به وحدات زنجية تحمل أسلحة هى نفس الأسلحة التى كان يستعملها سكان نيجيريا ولا زال بعضهم يستعملها حتى الآن (١) .

ويذكر W. Ward فى كتابه عن تاريخ إفريقيا (٢) أنه وجيد فى نيجيريا ألوان من الصناعات لا يمكن أن تكون من صنع أهل نيجيريا ولم تكن مادتها الخلم قد عرفت عندهم ، وتدل هذه الصناعات على أنها نوع من حضارة مصر القديمة ، حيث كان السلام والطعام متوافرين ، وحيث وجد رجال عندهم وقت للتفكير ومواهب للابتكار .

(١) آدم الألويز : موجز تاريخ نيجيريا ص ٢٧ و ١٧ بتقديم وتأخير .

(٢) A Short History of Africa p. 97

وذكرت Margaret Potts (١) أنه ثبت أن أحد فراعين مصر في القرن الثامن عشر ق. م قام بفتوحات واسعة في الشمال، ثم انتفى راجعاً إلى بلاده، وسار إلى الجنوب حيث نلت مجموعة عديدة من أجناس البشر الحفاة المرأة . ووصل في سيره إلى النهر الأسود ، نهر النيجر ، واجتمع هناك بسلطان عظيم المملكة والأبهة فتبادل معه الهدايا والأحجار الكريمة .

وبدل التاريخ كذلك على صلة وثيقة بين البربر من جهة وشمالي نيجيريا ومناطق اليوروبا من جهة أخرى، فقد زل البربر إلى تلك البقاع حوالي القرن السادس الميلادي وكونوا بها ممالك قوية (٢) .

على أن تاريخ نيجيريا اتضح بدخول الإسلام لها وانتشاره بها ، وقد بدأ الإسلام بدخل هذه البقاع في عهد مبكر يرجع به بعض مفكرى نيجيريا إلى القرن الأول الهجرى كما ذكرنا آنفاً ، ويذكرون أن خلق التسامح الذى عرف به سكان هذه المناطق ساعد على انتشار الإسلام ، فقد كان الوثنيون من الملوك وأفراد الشعب يجاملون المسلمين ويحتفلون معهم بأعيادهم ، ويكرمون العلماء المسلمين والتجار المسلمين ، وقد ساعد ذلك على نشر الإسلام من يوم إلى يوم ومن جماعة إلى جماعة .

وقد دخل الإسلام نيجيريا من الشمال ومن الشرق ومن الغرب ، وكانت بلاد الهوسا هدفه الرئيسى ، وسرهان ما انتشر الإسلام بها ، ولا بد أن نذكر في هذا المجال ما أحرزه الاسلام من تقدم خلال إمبراطورية غانة التى تحولت إلى الاسلام في عهدهما الأخير بفضل الجهد الذى بذله أبو بكر بن عمر لحد زعيمى المراتطين ، والزعيم الثانى هو ابن عمه يوسف بن تاشفين ، وقد انجبه هذا إلى الشمال فبنى مراکش واقتحم أسبانيا ، وانجبه أبو بكر إلى

الجوب فلتشر الاسلام في هذه الربع التي امتدت حتى شملت شمالي
نيجيريا (١).

وبعد إمبراطورية غانة قامت إمبراطورية مالي الإسلامية التي أخذت
تمارس نشاطها في السودان الغربي كله ، وامتدت إمبراطورتها الإسلامية
من جبال الأطلس غرباً إلى بلاد الهوسا شرقاً ، ومن المحيط الأطلسي جنوباً
حتى الصحراء الكبرى شمالاً ، ومن أشهر ملوكها ملهى موسى الذى انتشر
الاسلام في عهده في أكثر بلاد نيجيريا حتى أصبح سكان بوروبا يربطون
بين الاسلام وبين مالي ، فيسمونه دين مالي لأنهم عرفوه أول ما عرفوه عن
طريق تجار مالي وسفرائها إلى بلادهم قبل أن يزحف لها الاسلام .

وقامت إمبراطورية صنفى بعد إمبراطورية مالي ومن أشهر ملوكها أسكيا
محمد الذى امتدت إمبراطوريته الإسلامية فشملت بلاد التكرور وشمالي
نيجيريا كلها ، وضمت ممالك الهوسا فترة من الزمن (٢) .

وإلى الشرق من نيجيريا قامت دولة كانم الإسلامية التي امتد منها
الاسلام إلى منطقة برنو إحدى مقاطعات نيجيريا الحالية .

ثم جاء الزحف الكبير الذى شنه في مطلع القرن التاسع عشر الأمام عثمان
دان فديو ، وقد تحدثنا عنه من قبل وقد غام الإمام بما سماه مؤرخوه
« غزوات » (٣) ، وضم بها ممالك الهوسا وبلاد جوير وكبي ، وتكونت بذلك
إمبراطورية واسعة حكمها عثمان دان فديو ، وكانت سوكوتو عاصمتها ،
وقسم الامام إمبراطوريته قسمين جعل القسم الشرقى لابته محمد بللو والقسم

(١) آدم الألورى : موجز تاريخ نيجيريا ص ١٥٤ .

(٢) W. Ward : A Short History of Africa p. 98

(٣) اقرأ منه الغزوات مفصلة في كتاب إنفاق الميسور تأليف الإمام محمد بن عثمان

الغربي لأخيه الأصغر عبد الله وقد اتجهت الامبراطورية الغربية لمزيد من التوسع فأنضمت تصطلم بإمارات دولة اليوروبا ، وكانت دولة اليوروبا قد أضعفتها الحرب وتجارة الرقيق ، وانتهر القولاني فرصة هذا الضعف كما انتهزوا فرصة الخلاف على السلطة في إحدى ولايات هذه المملكة وهي ولاية نوبى فتدخلوا في الصراع وكان لهم الفوز ، وبعد توبى زحفوا على ألورين واحتلوها كذلك فأصبحت هي الأخرى إحدى ولايات إمبراطورية القولاني ، وعقب ذلك انهارت مملكة اليوروبا ودخل أكثرها في حكم إمبراطورية القولاني الغربية ، وقد حالت المرتفعات الصخرية والغابات الكثيفة دون تقدم الفرسان القولانيين في أقصى الجنوب (١) .

وحاول القولاني في عهد الإمام عثمان أن يحققوا مزيدا من التوسع فهاجموا دولة برنو ولكن هذه المملكة استطاعت بجارتها كانم فأجارتها ، وزحفت لرد القولانيين واستطاعت كانم بقيادة الشيخ محمد الأمين الكانمي أن تمنح برنو ، ولما رأى محمد الأمين أن دولة برنو لا تقوى على حماية نفسها أقام بها واحتط مدينة « كوكا » سنة ١٨١٤ لتكون عاصمة له بعد أن دمر القولاني العاصمة السابقة « قصر اكمو » وتكونت من كانم وبرنو دولة واحدة بزعامة الكانمي وأولاده من بعده ، وسرى بعد قليل كيف أصبحت برنو جزءا من نيجيريا ،

وقد كان نفوذ القولاني قويا في هذه المناطق الشاسعة عندما دق الاستعمار الأوربي أبوابها ، وشيء آخر شاهده الاستعمار في الشمال هو الوحدة والتعاون بين السكان وإن اختلقت جنودهم أو قبائلهم (٢) .

وفي الحديث عن الاستعمار الأوربي بنيجيريا ينبغي أن نعود للوراء لتابعه منذ طرق أبواب إفريقيا قبل قيام إمبراطورية القولاني بأمد بعيد ، وكان

(١) تفويم البلدان الإسلامية ص ٢٥٠

(٢) Lewis : Islam and Nationalism in Africa pp. 72-73

البرتغاليون أول من وصلت سفنهم إلى خليج غينيا سنة ١٤٨٥ ودخلوا مدينة بنين ، وانصلوا بملكها وعقدوا معه معاهدة ودية ، وفي سنة ١٥٥٣ وصلت أول حملة إنجليزية إلى هذه الشواطئ ، ولكنها لم تستقر بها فتركها ثم عادت سنة ١٥٨٨ وفي هذا العام بدأ نوع من الاستقرار التجاري للدول أوربا فأنشئت أسواق بعضها تابع لإنجلترا ، وبعضها تابع للبرتغال وهولندا ، وكانت للتجارة مقتصرة على العاج والفلفل وزيت النخيل وبذور ، ثم اتجهت التجارة كلها إلى الرقيق كما ذكرنا من قبل ، فلما تم إلغاء الرقيق أخذت بريطانيا ذلك وسيلة للتدخل في شؤون هذه البلاد باسم القضاء على تجارة الرقيق ، وكان ذلك بدء الاستعمار البريطاني لنيجيريا .

ولما كانت لاجوس أكبر موانئ غرب إفريقيا لتجارة الرقيق ، فقد رأى الإنجليز أن يستعمروها ليستطيعوا بذلك أن يحققوا مخططاتهم التي بضر الاستعمار ويظهر العمل على القضاء على الرق ، ولما ساعدتهم على التدخل في أمور لاجوس نزاع قام بين أخوين على عرشها واستعان أحدهما بالإنجليز ، فانتصروا له على الثاني وعينوه على العرش ، وعقد معهم معاهدة تتضمن توسيع أعمال التبشير المسيحي ، وإطلاق الحرية لهم لإقامة معسكراتهم أننى يشامون .

وهكذا أصبحت لاجوس أول مستعمرة بريطانية في هذه المنطقة وكان ذلك سنة ١٨٦١ ، ولكن كان من أثر ذلك أن امتنع زعماء البلاد عن تسخير تجارتهم إلى لاجوس ، وبدءوا يعارضون البريطانيين ، فكسدت التجارة وشعر بكسادها التجار البريطانيون ، كما شعر مبعوثو البعثات التبشيرية بعباء الأهالي ، فاتجه البريطانيون إلى مهاجمة الأهالي بالساحل (١) وأخذوا يتحركون ويتغلغلون في الجهات المجاورة ، ويفرضون نفوذهم بالسياسة حثياً ، وبال حرب في أكثر الأحوال ، وقد قصدى لهم الشعب ودافعهم في حروب طويلة فلم يتمكنوا من السيطرة على هذه المناطق (جنوبي نيجيريا) إلا بعد صراع مرير استطاعت بريطانيا خلاله أن تعقد مجموعة من المعاهدات مع الأمراء

المهزومين أو المرددين ، وقد بلغت هذه المعاهدات ٣٧٢ بين سنتي ١٨٨٤ و ١٨٩٢ ثم حلت بريطانيا سنة ١٩٠٠ « شركة إفريقية المتحدة » التي كانت بريطانيا قد أقامت لتقوم بالنشاط التجاري التي كان يقوم به من قبل عدد من الشركات التجارية البريطانية ، وسميت المنطقة « محمية نيجيريا الجنوبية » واتجهت بريطانيا إلى الشمال حيث كان الأمراء الفولانيون يحكمون أرض الهوسا وأخذت تغريهم بإقامة معاهدات سياسة لحمايتهم من النفوذ الألماني في الشرق والفرنسي في الغرب ، ولكن أمراء الشمال رفضوا هذا العرض ، وأعدوا أنفسهم للدفاع عن بلادهم ، ودار صراع عنيف بين الإنجليز وأمراء الشمال ، استعمل فيه الاستعمار كل قوى التلميع ، وحقق بذلك النصر فأنشأ ما أسماه « محمية نيجيريا الشمالية » سنة ١٩٠٠ ، وقد لاقى الاستعمار البريطاني وهو يزحف على كانوا وكاشنة مقاومة عنيدة كادت تقتصر عليه لولا الامدادات الضخمة التي زحفت له من لاجوس ، ولما تقدم نحو سوكوتو قارمه السلطان الطاهر بن أحمد بن عتيق بن عثمان إلى أن سقطت سوكوتو ، وكان السلطان وقضاته وأمراؤه من ضحايا هذا العدوان الذي نجح على أشلاء القادة والجنود وكان ذلك سنة ١٩٠٣ .

ووصل الإنجليز الآن إلى حدود برنو التي تكلمنا عنها من قبل ، وكان رابع الزبيري قد استولى عليها كما ذكرنا من قبل ، فاستغاث أميرها الشيخ هاشم بفرنسا لتسرد ملكه من رابع ، وانتهزت فرنسا هذه الفرصة ، فقتلت لرابع وهزمته ، وطالبت فرنسا الشيخ هاشم بجزية مالية نظير مساعدتها له ، ولكن إنجلترا كانت قد وصلت إلى هذه المنطقة ومدت أطباعها إليها ، وعقد اتفاق بين ألمانيا وفرنسا وإنجلترا حصلت به إنجلترا على نصيب كبير من برنو سنة ١٩٠٦ وضمته إلى محمية الشمال (١) .

وهكذا نجد أن نيجيريا الحالية من صنع الإنجليز سواء في تكوينها ككل ، أو في تقسيمها الداخلي ، فقد كان الإنجليز في هذا وذاك لا يتبعون أساساً طبيعياً ولا قليلاً وإنما يعملون لصالح الاستعمار في كل خطوة قاموا بها ، فخلقوا نيجيريا من جماعات مختلفة في الدم والدين واللغة ، ثم عدلوا إلى

(١) هذه المعلومات مستقاة من عدة مراجع بعد كثير من التذهيب والتنظيم والتحقيق .

تقسيمها لثلا يربطها رباط يخلق منها قوة تحارب الاستعمار ، ولكن كل حساب قام به الإنجليز فشل في النهاية ، ولكن بعد صراع ودماء .

ولتعد إلى نيجيريا بعد أن سيطر عليها الإنجليز لتتاج تطر الحكم بها ، ففي سنة ١٩٠٠ تم استيلاء إنجلترا على كل المنطقة المبراة نيجيريا ، وكانت مقسمة ثلاثة أقسام منفصلة هي مستعمرة لاجوس وعمية الجنوب وعمية الشمال ، ومحكم كلا منها حاكم مسئول أمام السلطات العليا في المملكة المتحدة ، وفي سنة ١٩٠٤ ضمت مستعمرة لاجوس وعمية جنوب نيجيريا ووضعنا تحت إدارة حاكم عام واحد هو السير والتر إيجرتون . . وظلت كل من نيجيريا الشمالية ونيجيريا الجنوبية تحكم حكما منفصلا حتى سنة ١٩١٤ حين أدمجت مستعمرة لاجوس وعمية الشمال والجنوب ، ووضعنا كلها تحت إشراف حاكم عام واحد وأدمجت في وحدة سياسية موحدة سميت مستعمرة وعمية نيجيريا وجعلت لاجوس عاصمة لها . وكان الرابط الوحيد في الوحدة السياسية لهذه الدولة هو شخص الحاكم العام الجديد السير فرديريك لوجارد ، فقد ظل كل إقليم محتفظا بطابعه الإداري الخاص ، ونفذ في نيجيريا نظام الحكم غير المباشر الذي شرحناه عند كلامنا عن نظم الحكم البريطاني للمستعمرات ، ثم قسمت عمية الجنوب قسمين . . الإقليم الشرقي والإقليم الغربي يفصل بينهما نهر النيجر ومحكم كلا منهما نائب للحاكم يخضع مباشرة للحاكم العام ويتبعه عدد من الموظفين البريطانيين يتولون كل المناصب الكبيرة والحساسة (١) .

ومنذ تم توحيد مناطق نيجيريا بدأت حسنة البلاد تخطو نحو الحكم الديمقراطي ، وكانت أولى الخطوات نحو هذا قيام المجلس الاستشاري الذي أنشأه لوجارد سنة ١٩١٤ وكان يضم أعضاء بمحكم مناصبهم كالحاكم ونائب الحاكم والسكرتير الإداري ونائبي الحاكم في الجنوب والشمال وإمراء الأقاليم ، يضاف إليهم أعضاء يختارهم الحاكم من المواطنين ومن الأوربيين الذين

(١) عبد الرحمن صالح : زعيم من نيجيريا ص ٢٢ - ٢٤

و A short History of Africa : ward ص ١٠٨

يمثلون غرف التجارة والمناجم ، وينتخب سكان لاجوس ثلاثة أعضاء نيوبون عنهم . ولم يكن لهذا المجلس نفوذ يذكر .

ولما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها بدأ الوعي السياسى يتضح بالبلاد فطالبت بمزيد من السلطة ، فأعلن دستور ١٩٢٢ وبمقتضاه ألف مجلس دستورى ليحل محل المجلس الاستشارى الذى كان قد ألفه لوجارد ، وكان هنا قد تقاعد سنة ١٩١٩ ، وقد ضمن المجلس الدستورى مزيدا من السلطة لنيجيريا ، ولكن الإقليم الشمالى لم يكن ممثلا به ، وكان الحاكم العام هو الذى يصدر التشريعات الخاصة بهذا الإقليم .

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية صدر سنة ١٩٤٦ دستور يؤهل نيجيريا للحكم الذاتى ويقرر أن تقسم نيجيريا ثلاثة أقاليم : هى إقليم الشمال وإقليم الشرق وإقليم الغرب ، وأن يكون لكل إقليم مجلس تشريعى خاص مؤلف من ثمانين عضواً ينتخبهم دافعو الضرائب ثم تنهار هذه المجالس بدورها مجلساً موحداً يكون مقره لاجوس ، وكان من مميزات هذا الدستور أن مثلت كل الأقاليم فى المجلس التشريعى ، وأصبحت الأغلبية للمتخفين ، وكانت الأغلبية من قبل الرسميين الذين يعينون بحكم وظائفهم .

ولكن مثل الأقاليم كانوا بناء على هذا الدستور متساوين فى العدد مع اختلاف نسبة السكان ، وكان هذا يسمى للإقليم الشمالى ولذلك عدل هذا الدستور سنة ١٩٤٩ بحيث أصبح للإقليم الشمالى نصف الأعضاء والنصف الآخر للإقليمين الشرقى والغربى ، وكان الحاكم يعين من هؤلاء النواب مجلس الوزراء تحت رياسته ، وظل الحكم بهذا النظام حتى سنة ١٩٥٣ ، فأصبح رئيس الوزراء من أهل نيجيريا ، ولكن على أن يأخذ لقب الوزير الأول ، وخطت البلاد خطوة أخرى فأصبح رئيس الوزراء من نيجيريا وتأخذ لقب رئيس الوزراء ، ثم سرعان ما طالب هؤلاء باستقلال نيجيريا ، واستجابت بريطانيا لذلك فأعلن استقلال نيجيريا فى أول أكتوبر سنة ١٩٦١ . على أن تكون نيجيريا عضواً فى الكومنولث البريطانى ، وعين الدكتور نمدي أزيكوى حاكماً عاماً والحاج أبو بكر تافوا رئيساً للوزارة المركزية ، وفى سنة

١٩٦٣ وافق البرلمان النيجيري على دستور جمهوري يجعل نيجيريا جمهورية اتحادية ضمن الكومنولث وانتخب الدكتور أزيكوي (رئيساً للجمهورية بعد أن كان حاكماً عاماً ، ون نفس العام وجد القسم الرابع الذي أشرف له من قبل وهو الإقليم الغربي الأوسط ، وقد تم ذلك بانتخاب مباشر (١) .

ومن المتاعب التي خلفها الاستعمار بنيجيريا أن بريطانيا ساعدت الصهيونيين على التغلغل في الإقليم الغربي ، فانتشرت رؤوس الأموال اليهودية ، وأصبح الصهيونيون يشفرون على بعض المزارع ، وحاول اليهود أن يتغللوا إلى الإقليم الشمالي ولكن السلطات المحلية الإسلامية رفضت السماح لهم بذلك (٢) .

بهرامستفول :

إن نظام الحكم الذي اقترحه بريطانيا لنيجيريا وضع أساساً للصراع الذي عانته هذه البلاد بعد الاستقلال ، فقد عملت بريطانيا على إعطاء كل من الأقاليم الثلاثة سلطات واسعة حتى أصبح كل منها يتمتع بشيء من الفردية والاستقلال ، وقد اتضح هذا في دستور سنة ١٩٤٦ والتعديلات التي طرأت عليه والدساتير التي جاءت بعده ، ففي دستور ١٩٤٦ أعطيت كل إقليم بعض السلطات الواسعة ثم أخذت هذه السلطات تنزع حتى جاء دستور ١٩٥٤ فأعطى الأقاليم مزبداً من الاستقلال الذاتي داخل اتحاد نيجيريا الفيدرالي ، وقبل ذلك كانت إنجلترا - كما شرحنا من قبل - قد عمدت إلى توسيع الحركة الثقافية والاجتماعية بين هذه الأقاليم ، فانتشرت المسيحية في الشرق ونشرت معها ألوان الثقافة المدنية والعلم وأهملت الشمال إهمالاً قاملاً ، فعاش في عزلة إلى حد كبير عن الثقافة والعلم ، ورضى الشمال بهذه العزلة

(١) تقرير العالم الإسلامي : ص ٢٥٥ - ٢٥٦ وموجز تاريخ نيجيريا ص ١٢١ - ١٢٢

(٢) فيليب رفل : الجغرافية السياسية لإفريقية ص ٥٢٥

خوفاً من التبشير المسيحي الذي كان يلبر الثقافة والمدارس في نيجيريا ،
لما إقليم الغرب فقد وقف بين بين تبعاً لانتشار الإسلام في بعض مناطق
والوثنية في جهات أخرى ، وهذا الوضع خلق نوعاً من التفكك لا يحبس
عنه ، وكأنما أراد الاستعمار أن يدمر هذه الدولة التي تحمل لقب « العملاق
الإفريقي » فعاشت نيجيريا منذ استقلالها في شكل وحدة ، ولكنها لم تكن في
الحقيقة وحدة ، فقد كان القلق والاضطراب يزلزل هذا الكيان الذي
يحتاج إلى جهود كبيرة لتكوين دولة واحدة منه ، وإذا كان الإقليم الشمالي
قد تخطت في ميدان العلم والمدينة فإنه يمثل أكثر السكان عدداً وأوسع البقاع
مساحة ، ثم إنه كان مستعداً بعد الاستعمار أن يسرع الخطى نحو ركب النور
والمدينة لأن التربة الروحية التي غرسها الإسلام فيه غرست هذا الاستعداد ،
ولذلك انجبه بسرعة نحو تكميل نفسه في ظل الاستقلال حتى يعوض ما فات .

وإذا كان الجنوب يَدِلُّ بعلمه على الشمال ، فإن الشمال - مع سيرة
الخير نحو العلم والمدينة في ظل الاستقلال - يَدِلُّ بعده الكبير
وتاريخه المجيد الذي ثبت له طيب المنبت ، وهذا الصراع من هنا
ومن هناك قاد للانقلابات التي عايتها نيجيريا ، وكان الانقلاب الأول
في يناير سنة ١٩٦٦ وقام به عدد من صغار ضباط الجيش ، واغتيل فيه
زعيم نيجيريا الشمالية أحمدو بلو ، والحاج أبو بكر تافاوا رئيس الوزارة
الاتحادية ، ورئيس الإقليم الغربي وغيرهم ، وقامت حكومة عسكرية ترتكز
في نفوذها على الإقليم الشرقي ، وكان هذا الانقلاب نذير حرب أهلية تهدد
البلاد بالخطر ، وفي وسط هذه البيئة قفز إلى السلطة ضابط من الإيو اسمه
أورونسي لم يشترك في الانقلاب ولكنه جنى ثماره ، ولم تكن تصرفاته بعيدة
عن الحرية ، فأصدر قراراً بأن تكون نيجيريا وحدة لا اتحاداً وهي تكون
هناك حكومة واحدة ومجلس تشريعي واحد ، وبين حكومتها عسكريين على

الأقاليم ، وألغى مركز رئيس الجمهورية الذى كان يتولاه "زيبكوى" وكان هذا آنذاك يعالج فى بريطانيا .

ونظام الوحدة لا يتناسب ظروف نيجيريا للاختلافات الواسعة بين الجماعات التى تعيش بها ، ومن هنا فهميم نظام الوحدة على أنه تسلط سكان الشرق على باقى السكان ، وكان هذا الشعور كافياً لزعزعة هذا النظام وتقويض أركانه .

وبعد ستة أشهر من هذا الانقلاب حدث انقلاب آخر قاده الكولونيل يعقوب جيون وهو من أهل الشمال ، وهو انقلاب مضاد كان هدفه إزالة دكتاتورية الشرق والعودة إلى الديمقراطية التى ينبغى أن تحكم الأقاليم كلها بواسطتها ، وذلك بالعودة إلى نظام الاتحاد الذى بدع لكل إقليم جانباً من السلطة فى إطار الحكم الفيدرالى ، ولكن الكولونيل أوجوكو الحاكم العسكرى على الإقليم الشرقى لم يرض عن هذا النظام ، وتردد بين الانفصال عن نيجيريا وبين الخضوع لوحدها الفيدرالية ، وقد جرت محاولات متعددة لإعادة الوثام بين الإقليم الشرقى وباقى الأقاليم ، ولكن هذه المحاولات لم تأت بباطل ، وأعلن الكولونيل أوجوكو أن الانقلاب المضاد الذى وقع فى يوليو لم يضع خليفة كفوفاً لأورونسى الذى كان يحظى بقبول الإقليم الشرقى ، والذى كان له نفوذ قوى - فى تقديره - على كل البلاد ، وأضاف أن الجيش أصبح منقسماً على نفسه بدرجة خطيرة على أساس إقليمي ، وأن المذابح التى وقعت للمدنيين قضت قضاء تاماً على الأمل الذى كان يبنى عليه الاتحاد الفيدرالى القديم .

وواضح من تصريحات هذا القائد أنه كان يتجه إلى حركة انفصالية رويداً رويداً وقد استغل الاستعمار هذه الحركة فأيدتها وبخاصة أن هذا الإقليم يدين أكثره بالمسيحية وقد تطور خلال الاستعمار إلى درجة ملحوظة

في ناحية الثقافة والمدينة ، ثم إنه إقليم غنى وبخاصة بالبترول فبه ثمانون في المائة من بترول نيجيريا ، كما توجد به ثروات نيجيريا المعدنية ومن أهمها الفحم وقد ظهر به معدن الكولومبيت الذي يستخدم في صناعة صواريخ الفضاء ، وقادت أمريكا حركة الاستعمار التي أيدت الانفصال لتكون لها السلطة في هذه المنطقة بدل بريطانيا التي كانت تركز على الحكومة الاتحادية والتي ترتبط بالاتحاد بروابط وثيقة ، وتقدمت إسرائيل لتنفيذ مخطط أمريكا فساعدت الحركة الانفصالية بمختلف الوسائل .

وفي ضوء هذا قدم أوجوكو الحاكم العسكري للإقليم الشرقي لائحة مطالب إلى الحكومة الاتحادية ينبعث منها ربح الانفصال ، وهدد بفصل الإقليم الشرقي عن اتحاد نيجيريا إذا لم تستجب الحكومة الاتحادية لمطالبه .

ولم يكن من الممكن الاستجابة لهذه المطالب ، لأن الاستجابة لها تضر سياسياً واقتصادياً وعسكرياً بالبلاد ، ونتيجة لذلك أعلن الجنرال أوجوكو في ٣٠ مايو سنة ١٩٦٧ انفصال الإقليم الشرقي تحت اسم جمهورية « يافرا » وأعلن أن العاصمة هي ابينوجو .

وانتظرت الحكومة الاتحادية شهراً كاملاً ولم تحرك ساكناً وذلك في محاولة دائمة منها لحل الأزمة سلمياً وتجنب نزوب حرب أهلية واكتفت بمحاصرة الإقليم بحرباً وفي الوقت نفسه وجهت إنذاراً إلى أوجوكو من ثلاث نقاط .

١ - التراجع عن القرار بانفصال الإقليم الشرقي - وإلغاء جميع الإجراءات المترتبة على إعلان الانفصال .

٢ - أن تعترف السلطات الشرقية علناً بسلطة الحكومة الاتحادية في لاغوس "العاصمة الاتحادية" .

٣ - أن توافق حكومة الإقليم الشرقي على رفع الحجز على الأموال الفيدرالية التي استولت عليها عقب إعلان الانفصال .

ولكن السلطات الانفصالية لم ترضخ لإنذار الحكومة الاتحادية ،
وفي ٨ يوليو وافقت الحكومة الاتحادية على عقد مؤتمر قمة من رؤساء
زاسيا وأوغندا وتانزانيا لحل المشكلة، ولكن الاجتماع لم يسفر
عن أية نتائج إيجابية .

ولم يكن أمام الحكومة الاتحادية بعد أن استفدت جميع الوسائل
التي يمكنها من زحف وتحريك الإقليم الشرقي وضمه إلى الوطن الأم ،
إلى الاتحاد النيجيري .

وهكذا زحفت القوات الاتحادية ، ورغم المساعدة الأجنبية لقوات
الانفصال فقد استطاعت القوات الاتحادية تحرير الإقليم والسيطرة
على عاصمته ، واستسلمت القوات الانفصالية في يناير سنة ١٩٧٠ إثر هرب
أرجوكو، وانتهت أسطورة جمهورية يافرا وعاد الإقليم الشرقي جزءا
من نيجيريا (١) .

الجنرال مرتضى الله

في الأيام الأخيرة من شهر يوليو سنة ١٩٧٥ كان مؤتمر القمة
الإفريقي متقدماً في كيبالا بأوغندا ، وكان الجنرال يعقوب جوارو
رئيس جمهورية نيجيريا ممثلاً لبلائه في هذا المؤتمر ، وفي هذه الأثناء
وقع انقلاب عسكري في نيجيريا ضده ، وأعلن قادة الانقلاب ومن بينهم
الكولونيل جوزيف جلوبا رئيس الحرس الخاص لرئيس الجمهورية
إسناداً منسباً رئاسة الدولة إلى البرديجادير مرتضى الله رفاعي محمد الذي عين

(١) هذه المعلومات مستقاة من الدوريات والصحف والمحاضر
الرسمية لهذه الأحداث .

أيضاً رئيساً للقوات المسلحة ، ورئيساً الجديد كان قد أسهم بدور كبير فى تولية الجنرال يعقوب جـوون مقاليد الحكم سنة ١٩٦٦ ، وكان الرئيس الجديد يعمل رئيساً لسلح الإشارة بالقوات المسلحة النيجيرية ؛ وقد تم الانقلاب بدون إراقة دماء ، وأعلن قادة الانقلاب ان السبب فيه يرجع للأحداث التى مرت بالبلاد فى الشهور القليلة الماضية ، ويقال إن جـوون كان يتوقع هذا الانقلاب وأنه لذلك بعث بأسرته إلى لندن قبل أن يغادر لاجوس إلى كمالا ، ومما يذكر أن جـوون عندما تلقى خبر الانقلاب ضده أصدر بياناً وزع على أعضاء مؤتمر القمة ذكر فيه أن حكومة جديدة قامت فى نيجيريا ، وأنه يقبل هذا التغير ، ويعلن ولاءه لدولته ، وللحكومة الجديدة ، داعياً لبلاده بالخير والرشاد ، وداعياً كل الأطراف أن تتعاون بحماسة مع الحكومة الجديدة للبلاد وتمنى لها الأمن والوحدة والاستقرار ، وأعلن كذلك استمداه لأن يخدم بلاده من أى موقع يوضع فيه .

ونعلق على هذا البيان الذى اقتبسنا بعض فقراته بأن نحمد للرئيس يعقوب جـوون هذا الموقف الذى يمد بعيداً عن الأنانية ، ويضع مصلحة الوطن فوق كل المصالح الفردية .

ولم يحضر يعقوب جـوون باقى جلسات المؤتمر بعد توقيع قام به له رئيس المؤتمر عيذى أمين رئيس جمهورية أوغندا المضيغة .

ويذكر المعلقون السياسيون أن السبب فى الانقلاب أن جـوون كان قد وعد فى أوائل السبعينات بتسليم السلطة للمدنيين فى ١٩٧٦ ، ولكنه عاد منذ شهر ليعلن أن هذه الخطوة لن تتم فى الموعد الذى حدده من قبل « خشية أن تعود الفوضى إلى البلاد من جديد » .

وقد أعقبت ذلك مطالبات بتولى المدنيين زمام السلطة في البلاد ، وطالبه
رئيس اتحاد نقابات العمال في نيجيريا باستقالة جوون وتنفيذ وعده ،
نظرا لأن عشر سنوات من الحكم العسكري أمر يزر تضرير القيادة ،
كما نظم الطلاب والاساتذة الجامعيون مظاهرات تطالب بالحكم المدني ،
وانضم إلى المظاهرات بعض المسؤولين في الحكومة وبعض العسكريين .
ودعا الحاج شيخ شجارى وزير الخزانة النيجيرى باتخاذ خطوات
تدريبية لإعادة الحكم المدني ، وتشكيل لجان دستورية واستشارية
لهذا الغرض .

ولعل هذا التراجع من يعقوب جوون هو الذى دفع إلى هذا المصير .

قتل مرتضى الله وبغاء نظام :

في منتصف فبراير سنة ١٩٧٦ قاد الكولونيل ديمكة انقلاباً
ضد حكومة الرئيس مرتضى الله فى لاجوس ، ولعل من أهم الدوافع
التي دفعت ديمكا لهذه المحاولة أنه من قبيلة الجنرال يعقوب جوون
الذى أطاح به الرئيس مرتضى الله فى الانقلاب السابق .

وقد قتل الجنرال مرتضى الله فى هذه المحاولة ، كما قتل معه أربعة
من كبار العسكريين ، ولكن المحاولة منيت بالفشل إذ تصدت لها قوات
الحكومة وقضت عليها وألقت القبض على الكولونيل ديمكا والقوات
التمردة التي ساندته .

والكولونيل مرتضى الله أحد زعماء قبيلة الهوسا وهى من أكبر
قبائل نيجيريا ، وكان قد اكتسب شعبية عريضة خلال الشهور التي حكم
فيها نيجيريا ، ومن أهم الخطوات التي لقيت صدى طيباً لدى المواطنين
النيجيريين ما أعنه قبل وفاته بمحوالى أسبوع أنه سيعيد تشكيل ولايات

الاتحاد، وسيرفع عددها إلى ١٩ ولاية بهدف توسيع نطاق الحكم المحلي وتخفيف المركزية، وحدة الاحتكاكات القبلية.

وقد أعلن عقب نجاح القوات الحكومية أن الجنرال أولوسيجوى أوباسانجو قد عين رئيساً للدولة خلفاً للجنرال مرتضى الله . وكان هذا يمثل مركز الرجل الثانى بعد مرتضى الله في نيجيريا كما كان يشغل منصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة وأعلن عقب توليته أن حكومته ستواصل نفس السياسة التى كان الرئيس مرتضى الله يتبعها، وسيبقى كل شىء كما كان فى عهد الرئيس الراحل، كما سيبقى الوزراء فى مناصبهم.

اقتصاد نيجيريا :

إن الإنتاج الزراعى هو الإنتاج الرئيسى فى البلاد، وهو يسهم بأكثر نصيب فى اقتصاد الدولة، إذ تصل قيمة الفلات الزراعية حوالى ٥٠٪ من الدخل القومى، وتشمل المحاصيل الزراعية الفلات الغذائية كالبطاطا واللوب والحبوب والبقول والفاكهة والخضروات، كما تشمل المحاصيل النقدية كالقطن والكاكاو، والمحاصيل الزيتية كالفول السودانى والسمسم والكمون، ولا كانت الحاصلات الزراعية تمثل هذا النصيب الكبير فى اقتصاد نيجيريا فقد قامت الدولة بعدد من مشروعات التنمية الزراعية رجاء الحصول على محاصيل أكثر وأجود، ومن هذه المشروعات مشروعات تهتم بالابحاث الزراعية، واستعمال المحصبات وتوفير الخدمة والتنظيم التعاونى، وإدخال

الوسائل الحديثة في الزراعة وقد أفادت هذه التطورات في تحسين الإنتاج وإكثاره^(١) ، وهناك مشروع متعدد الأغراض هو مشروع سد النيجر عند كاينجي وهو مشروع لخدمة الأغراض الزراعية والصناعية ويضيف كذلك لوسائل النقل وسيلة النقل بالبوأخر وهي من أرخص وسائل النقل .

وفي نيجيريا ثروة حيوانية واسعة ، وهناك قبائل متنقلة من القولا في منتشرة في المنطقة المدارية تمتلك من قطعان البقر والجاموس أعداداً كبيرة ، وتفل التقارير على أن بنيجيريا ثمانية ملايين رأس من البقر ، يوجد أكثر من نصفها في الإقليم الشمالي ، ويوجد لديها من الأغنام أكثر من خمسة ملايين ومن الماعز أكثر من عشرة ملايين^(٢) .

وتغطي الغابات ثلث المساحة الكلية تقريباً ، ولكن أكثرها تنحصر أهميتها الاقتصادية في استعمال أخشابها مواد للوقود ، ولعمل الفحم النباتي ، ولأغراض البناء ، والإقليم الشرقي غني بالغابات ، ولكن وسائل النقل فيه قليلة ، مما لا يتيح فرصة لمزيد من الانخفاض بأخشابها .

وتحتكر نيجيريا معدن الكولومبيت ، حيث تنتج ما يقرب من ١/٣ الإنتاج العالمي ، كما أنها تشغل المركز السادس من بين الدول المنتجة للقصدير ، ويوجد هذان المعدنان في هضبة جوس ، وتعتبر نيجيريا البلد الوحيد في غرب إفريقيا من ناحية إنتاج الفحم الذي تُقدَّر المخرجات منه بحوالي ١٤٠ مليون طن ، وتوجد أربعة مناجم منه بالقرب من اينجو بالإقليم الشرقي ، ونيجيريا رابع بلد إفريقي ينتج البترول ، وبها عدة حقول يتدفق منها النفط في منطقة الجنوب ، وقد بلغ الإنتاج النيجيري سنة ١٩٦٢ ثلاثة ملايين

(١) سجلات الأمم المتحدة : نيجيريا الجديدة : كنوزها واقتصادها من ص ٢٠ وما بعدها

(٢) U.N. Economic Development in Africa

ونصف طن ، وهناك أمل في العثور على مزيد من حقول البترول في نيجيريا^(١) ، وبالإضافة إلى هذه المعادن توجد في نيجيريا معادن أخرى كالذهب الذي يوجد في المناطق الشمالية الغربية ، وتعتبر منطقة شرق مديرية أويو أهم المناطق التي يستخرج منها الذهب في الوقت الحاضر ، ويستخرج بعضه كذلك من منطقة كالابار^(٢) .

ومنها كذلك الحديد ، وقد حفر عليه في نيجيريا منذ عدة قرون ، ويستعمل في الصناعات في نطاق على كصناعة الحراة والسيوف والمحرث ، وغيرها من الأدوات الزراعية ، ولا يستغل استغلالاً اقتصادياً بعد نيجيريا عن أهم مراكز الصناعة العالمية ولعدم وجود صناعات على مستوى عالٍ بالداخل^(٣) .

ويوجد الرصاص والزنك في شمال نيجيريا منذ زمن طويل ، واكتشفت في نيجيريا معادن متعددة من تلك التي تستخدم في الطاقة الذرية ، وتعتبر طبقات كانتو الجرانيتية من الأنواع المحتوية على اليورانيوم ، والتوريوم ، ويقدر احتياطي الخام منها بملايين الأطنان ، ويمكن القول أن محتويات الخام الموجودة في نيجيريا بها كميات من المواد المشعة ، تبلغ قيمتها أضعاف قيمة الذهب الذي ينتجه جنوب إفريقيا^(٤) ، هذا بالإضافة إلى الملح والحجر الجيري ، والكاولن وغيرها من المعادن التي لم تصل بعد إلى درجة تجارية .

التعليم في نيجيريا :

يقرر تاريخ نيجيريا أن هذه البلاد قامت بها مدارس ومعاهد للدراسات الإسلامية والعربية في مدن متعددة ، من أهمها كاشنة وبرنو وكاتو وزاريا ،

(١) مجلة نهضة إفريقيا : إبريل سنة ١٩٦٢ مقال الدكتور راشد البراوي عن اقتصاد نيجيريا .

(٢) Buchanan K.M. and Pugh J : Land and People of Nigeria p. 182

(٣) محبات إمام : نيجيريا الجديدة كنوزها واقتصادياتها ص ٢٠٢

(٤) Harrison Church : west Africa p. 509

وقد ارتقى بها التعليم حتى وصل المستوى الجامعي في العهد الماضي ، وصار المتخرجون منها يكتبون الكتب والرسائل في مختلف الموضوعات الدينية والأدبية ، وقد برع الكثير منهم براعة تضعهم في مستوى الكتاب العرب دون تفاوت ، وحسبك أن تذكر - بالإضافة إلى من سبق أن أوردنا أسماءهم - الإمام عثمان دان فديو نفسه الذي ألف عدة كتب ، منها : عدة البيان ، وعملة العلماء ومرآة الطلاب ، والسلاسل الذهبية ، وقد أوردها ابنه محمد بلو ، وذكر أنها تزيد عن المائة كتاب^(١) ، ومنهم الإمام عبد الله بن فديو شقيق الإمام عثمان ومن أشهر مؤلفاته تزيين الأوراق ، ومنهم الإمام محمد بلو شيخ عثمان وهو مؤلف كتاب إنفاق المبسور الذي اقتبسنا منه كثيراً من المعلومات في هذه الدراسة . ومنهم . . . المؤلف الشهير عبد الرحمن السعدي الذي يُعد كتابه المسحى « تاريخ السودان » المصدر الأول لتاريخ هذه البلاد ، وهو في أسلوبه وتخطيطه يفوق كثيرين من الكتاب العرب الذين عاصروه .

وقد ظل التعليم الإسلامي والعربي ينمو ويتطور من القرن السابع الهجري حتى أواخر القرن الثالث عشر ، وحينئذ بدأ يتخلص بسبب الاستعمار الذي حارب الفكر الإسلامي واللغة العربية ، وعمل على نشر الثقافة الأوروبية واللغة الانجليزية بالبلاد ، فأخذت اللغة الانجليزية تحل محل اللغة العربية ، بعد أن مهد الانجليز لتعلمها السبل والأسباب ، ورفضوا شأن من يعرفها وجعلوها اللغة الرسمية للبلاد .

وقد سبق أن ذكرنا أن الاستعمار لم يهتم بنشر الثقافة والتعليم بالشمال ، واتجه بكل جهده إلى الشرق والغرب ، واستورد فيها بعد إحصاء بذلك ، ومن أجل علنا دبت البقطة والغيرة في نفوس أهل الشمال ، فأعادوا للثقافة العربية والإسلامية نهضتها من جديد كما فتحوا بها المدارس المختلفة ليحققوا أبناءهم

بركب الثقافة المدنية ، وهكذا أنشأ أمراء المسلمين بالشمال مدرسة العلوم العربية في كاتو سنة ١٩٣٤ كما أنشأوا مراكز التعليم العربي الإسلامي في أبي كونه سنة ١٩٥٢ ، واتجه كذلك أبناء المسلمين بالإقليم الغربي لإحياء الثقافة العربية والإسلامية ، فأنشأوا عدداً من المدارس لهذا الغرض ، واتجه أبناء الشمال والغرب إلى إرسال مبعوثين إلى مصر والبلاد العربية ليثقفوها في الدين ولينفذوا قومهم إذا رجعوا إليهم .

أما المدارس الإنجليزية فقد بدأ ظهورها بنيجيريا سنة ١٨٤١ على أيدي المبشرين المسيحيين لغرس العقيدة النصرانية في نفوس الأطفال ، وكان المبشرون في بداية أمرهم يجمعون أطفال القرى باستعمال آلات اللهو واللعب وتوزيع الحلوى والأكسية عليهم ، كما كانوا يستعملون الكتب المصورة ذات الألوان الزاهية بهدف جذب الأطفال إلى هذه الدراسة ، وقد بنى المبشرون الكنائس والمدارس في نطاق واحد إذ لم يكن التعليم منعزلاً عن التبشير ، وكان اتجاه المبشرين مركزاً في شرقي نيجيريا وغربها كما قلنا وفيما يلي إحصائية تدل على اهتمام الاستعمار بنشر التعليم بالشرق والغرب كما تدل على مدى إهماله للشمال ، وهذه الإحصائية هي للتعليم العام ، وهي عن سنة ١٩٥٧ :

في شرقي نيجيريا ٧٢٢٦ مدرسة بها ١,٢٣٣,٣٥٤ تلميذاً

وفي غربي نيجيريا ٦٩٦٣ مدرسة بها ١,٨٤٥,٢١٨

وفي شمالي نيجيريا ١٩٩٥ مدرسة بها ٢,١٢,٨٥٤ -

وهكذا يتضح أن نصيب الشمال ضئيل جداً ، وبخاصة إذا لاحظنا أن

سكان الشمال يزيد عددهم عن مجموع سكان الشرق والغرب :

أما عن التعليم العالي فإن أول مدرسة هالية في نيجيريا هي كلية يابا

الحكومية وقد أنشئت سنة ١٩٣٤ وقد لعبت دوراً هاماً قبل إنشاء الجامعات ،

وأنشئت أول جامعة بنيجيريا في أبادان بالإقليم الغربي سنة ١٩٤٨ ، وكانت آنذاك مشتركة للمستعمرات البريطانية في غربي إفريقيا ، وتعتبر الآن أولى جامعات نيجيريا ، ثم أسست جامعة نيجيريا بالشرق سنة ١٩٦٠ ، وفي نفس السنة أسست بالغرب جامعة أخرى هي جامعة إيني ، وفي سنة ١٩٦٢ أسست جامعة أحمد وبلو بزاريا في الإقليم الشمالي ، وفي نفس السنة أسست جامعة لاجوس .

وتنتشر في نيجيريا مدارس كثيرة للمعلمين ، وللتدريب المهني ، وللصناعات ، واهتم عهد الاستقلال بإنشاء فصول لمحو الأمية بين كبار السن ، ولتشجيع الكبار ، وكان الجهد الذي بذله الشمال في هذا المضمار كبيراً للغاية (١) .

وتمتاز نيجيريا عن الدول المجاورة بأنها ما تزال تحتفظ بثقافة محلية مروية ، وبمحصول ضخم من القصص الشعبية على الرغم من تأثير ثقافة الغرب وتعليمه ، وكانت القصص الشعبية في نيجيريا الوسيلة الوحيدة لنقل الثقافة القومية والأساطير والمعتقدات ووجهات النظر الاجتماعية من جيل إلى جيل ، وقصص نيجيريا الشعبية ذات روح مرحة ، ولكنها مع هذا كانت أداة للنقد الموجه ولمقاومة الاحتلال (٢) ، وبين أبلدينا كتاب حافل بمجموعة كبيرة من هذه القصص ، ولما نستطيع أن نقبض منها سوى نموذجين أحدهما يتبع الاتجاه الرمزي ، والنموذج الذي اخترناه لذلك عنوانه « لماذا يطارد الثعلب الديك ؟ » وهو يرمز إلى أن هجوم الاستعمار على إفريقيا كان نتيجة لتساهل الإنريقيين حتى أطمعوا المستعمر الأوروبي في اقتحام ديارهم ، والنموذج الثاني أخلاقي وعنوانه « الزنبرور والحنلة » وهو يعلمنا أن نصغي باهتمام لتعليمات العلمين والمرشدين لنصل إلى الغاية المثلى .

(١) هذه المعلومات مستقاة من عدد مراجع ونشرات وإحصائيات ، وبمضغ أخذ من كتاب موجز تاريخ نيجيريا .

(٢) بار باراك واردين ووكر : نيجيريا ؛ ثقافتها وقصصها الشعبية : انظر المقدمة

ونص الأسطورة الأولى هو :

في قديم الزمان كان الثعلب يهرب كلما رأى ديبكا ، لاعتقاده أن عُرْفه من مادة نارية ، وذلك بسبب تشابه اللون بين عُرْف الديك والنار ، ودهش الديك عندما لاحظ أن الثعلب يخافه ويفر منه ، وكان الديك طيب القلب لا يحب أن يزعج أحدا ، فسأل الثعلب يوما : لماذا تهرب مني وأنا حيوان مثلك ؟

فأجاب الثعلب : أخاف النار التي فوق رأسك .

قال الديك : إنها ليست نارا ، وكيف أحمل نارا فوق رأسي وأروح بها وأغدو وأنا من لحم ودم ؟ تعال المِمْسِها لترى .

فتقدم الديك رويدا رويدا ولمس عُرْف الديك فلم يجدده يحرق ، وسأل الثعلب نفسه : ألا يكون هذا العُرْف لذيذ الطعم ؟ وصمم على أن يختبر ذلك ، وكان انديك قد اطمأن له ووثق به ، ولكن الثعلب خانته وقضم عُرْفه فوجده لذيذ الطعم ، ومنذ ذلك الحين والثعلب يطارد الديك^(١) .

ونص الأسطورة الثانية هو :

خلق الله العالم ، وأخذ يعلم مخلوقاته الدور الذي تقوم به في هذا الكون ، فلما جاء دور النحلة وقفت صابرة لتتلقى تعليمات الغزة الإلهية فتعلمت كيف تمتص الرحيق من الزهر ، وكيف تصنع العسل ، ثم نزلت إلى الأرض .

وأتى بعد ذلك دور الزنبور ، وكان قلقا متسرعا ، فلم ينتظر ليتلقى تعليمات الخالق ، وادعى أنه يعرف كل شيء وأسرع بالنزول إلى الأرض .

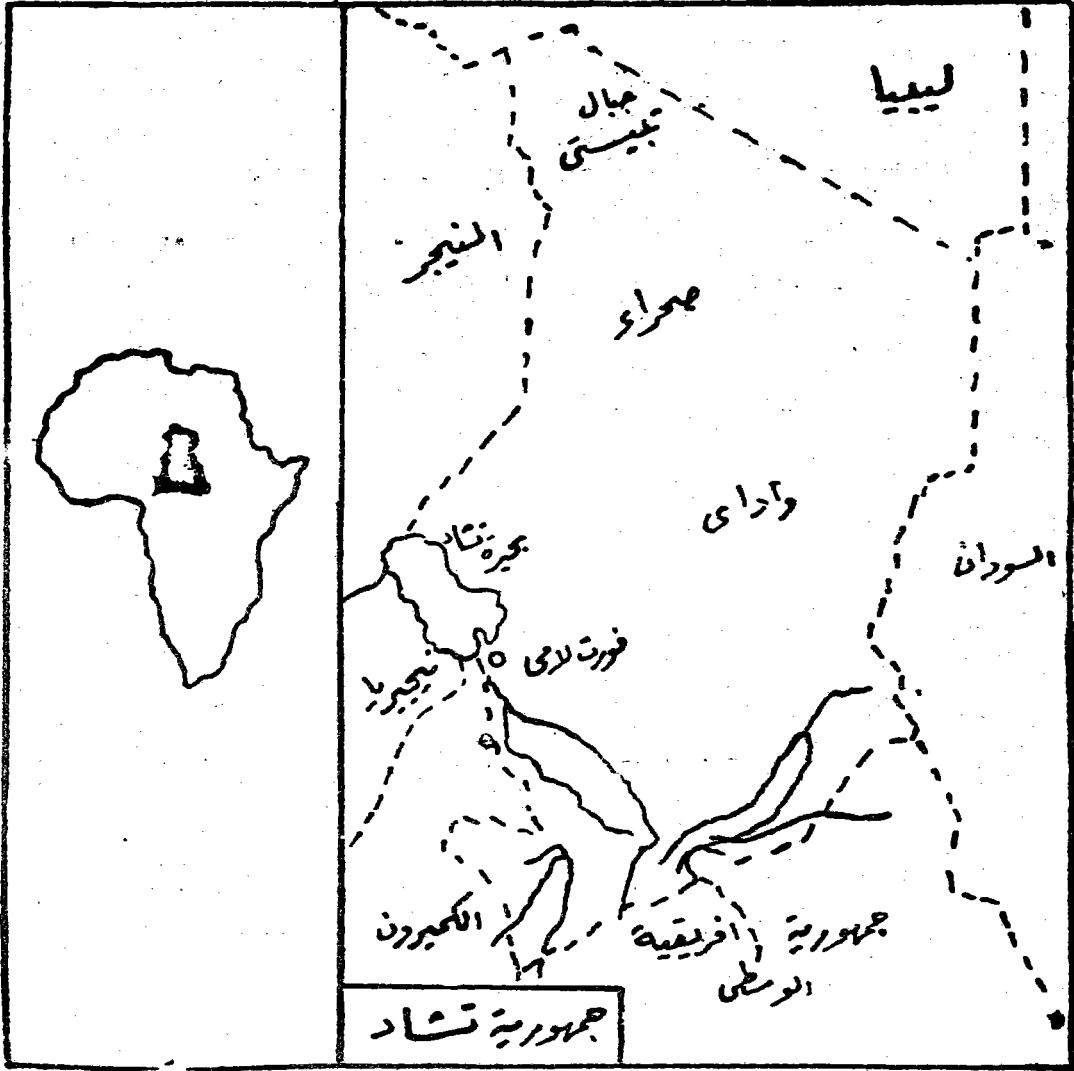
(١) نيجيريا : ثقافتها وقصصها الشعبية ص ٤٦-٤٧ مع صياغة جديدة لفكرة الأسطورة

وأدت النحلة دورها بنجاح فأخرجت عسلا شها فيه شفاء للناس ، وحاول
الزنبور أن يصنع عسلا ففشل ، فحقد على النحلة وراح يهاجمها ، فتصلى
له الناس ليقطوه حتى لا يقتل النحل ، وحينئذ صنع في جسمه خلية ملأها
بالم ، وأخذ يهاجم بها الإنسان .

ولا زال الزنبور يطارد الناس ويطارده الناس ، ولا تزال النحلة
تسجد^١ لتنتج الشهد المصفى (١) .

(١) نيجيريا : ثقافتها وقصصها الشعبية ص ٧١-٧٢ مع صياغة جديدة لفكرة الأسطورة

تشاد



التسمية والموقع :

أخذت تشاد تسميتها من البحيرة الشهيرة التي تقع في حدودها الغربية ،
وبحيرة تشاد أخذت تسميتها من اسم نوع الأسماك (Chad = Shad) غني

بالمواد الغذائية ويكثر وجوده في هذه البحيرة (١) .

وتقع جمهورية تشاد في أواسط إفريقية ويحدها شمالاً ليبيا وجنوباً جمهورية إفريقية الوسطى ، وشرقاً السودان وادى النيل وغرباً النيجر وبحيرة تشاد ونيجيريا والكامرون ، وهي بهذا منطقة مغلقة لا سواحل لها وتبعد عن السواحل بأكثر من ألف ميل ، ومن أجل هذا يصنفها بعض الباحثين بأنها « نهاية العلم » وطريق جمهورية تشاد للتخلص من هذه العزلة هو أن تفتح أراضي جيرانها للوصول إلى البحر ، وهذا ممكن عن طريق نيجيريا أو الكاميرون أو السودان أو ليبيا . ومن الملاحظ أن الاتصال بالبحر عن طريق نيجيريا أو الكاميرون سيؤدي بتجارها بعيداً عن أوروبا ونحتاج إلى رحلة بحرية طويلة لتصل إلى أهدافها ، أما الاتصال بالبحر الأحمر عن طريق السودان أو الاتصال بالبحر المتوسط عن طريق ليبيا فهو أقرب وأيسر للوصول إلى الهدف ، والواضح أن طريق ليبيا أقصر وأهم ولكن قوى متعددة تحاول أن تحول دون نجاح هذا الاتصال حتى لا تندمج تشاد في المحيط العربي الإسلامي ، ولكن الخبر يمكن في هذا الطريق ولا بد للخير أن ينتصر .

وتعتبر بحيرة تشاد الحد الفاصل بين شرقي إفريقية وغربها تقريباً ، وملئى الحضارات الراحلة من الشرق ومن الغرب ، ومن هنا كانت جمهورية تشاد في النصف الشرقي وكانت وجهتها مصرية سودانية ، أو بلغة أخرى كانت امتداداً لتوجه الشرقية في اللغة والدين والحضارة ، وهي كذلك معبر للثقافة الشرقية ، وللتجارة بين الشرق والغرب ، ومن ناحية أخرى فإن أراضيها تمتد لتشمل بعض صحراء الشمال وتنساب جنوباً حتى أرض الغابات الاستوائية ، فكانت بذلك معبراً للتجارة بين ساحل البحر الأبيض وبين منطقة قلب إفريقية . وهكذا يجد البلاد المغلقة المحرومة من الاتصالات بالبحر ، تمثل حلقة اتصال بين مجموعة من البلدان ومجموعة من الثقافات .

وتشمل جمهورية تشاد مناطق جبلية شهيرة في التاريخ أهمها جبال نيبستي في الشمال وجبال واداي في الجنوب ، وهنا وهناك قلمت حضارات وأمم عظيمة الشهرة في التاريخ ، والموقع الذي تشغله جمهورية تشاد حالياً قامت به من قبل مملكة كانم وياجري وواداي ، ولا تزال مدينة (أبشة) عاصمة واداي مركزاً إسلامياً مهماً كما كانت في فترة ازدهار هذه المملكة ، أما عاصمة تشاد الآن فهي فورت لامي وقد أخذت اسمها من القائد الفرنسي لامي الذي قتل هو ورايح الزبيري في معركة كسوري .

السطح : دما وافتة ودينا :

يلغ عدد سكان جمهورية تشاد حوالى ثلاثة ملايين ، ويرتبط حديثنا عنهم بالنسبة للسم والقبائل بمحدثنا عنهم مرتبطاً بالدين ، وذلك لأن القبيلة الواحدة بها كانت غالباً تنبع ديناً واحداً ، ومن أجل هذا يمكن تقسيم هؤلاء السكان قسمين كبيرين :-

١ - السكان المسلمون وهم يتكونون من العرب الذين يشتغلون بالرعى غالباً ، ومن الهوسا الذين يشتغلون بالتجارة أساساً ومن أهل واداي الذين يحترفون الزراعة ومن التويو وهم من البدو الرحل ، وأكثر السكان المسلمين يعيشون بالمناطق الشمالية ويقدر بعض الباحثين نسبة المسلمين بحوالى ٨٥ ٪ من السكان (١) .

٢ - السكان غير المسلمين ويتكونون من الساراس والحفنة والماسا واللوندانج وتنتشر بينهم الوثنية التي تقلس الحيوان والظواهر الطبيعية ، وتقل فيهم المسيحية (٢) ، ويميش هؤلاء بالمناطق الجنوبية ، ويعمل أكثرهم في الزراعة وقطع الأشجار والأعمال اليدوية البسيطة .

(١) . تقويم البلدان الإسلامية ص ٧١ .

(٢) فيليب رفل : الجغرافية السياسية لإفريقية ص ٥٢٤ .

وقد أثار الاستثمار ولا زال يثير زوايج من الخلاف بين المسلمين والمسيحيين ، ومثل هذه الزوايج تنور أيضاً في نيجيريا وفي كل بلد للاستثمار فيه سلطة ظاهرة أو باطنة ، ومن العجيب أنك لا ترى مثل هذا الاتجاه بالقية للأقليات المسيحية في مصر وسوريا لأن الأكرية المسلمة تعرف لأهل النمة حقوقهم على أن يؤدي هؤلاء واجباتهم تجاه المجتمع المشترك ، ويوم ينقضى نفوذ الاستثمار في إفريقية سيكون التعاون بين المسلمين والمسيحيين سائراً على النهج الذي تسير عليه البلاد التي تقلص فيها نفوذ الاستثمار .

والشمال للمسلم محافظ قبلي ، أهدافه السياسية تنجه إلى تقليل الارتباط بفرنسا ، وزيادة الارتباط بالدول الإسلامية المجاورة ، وأهدافه الاجتماعية تركز في نشر الإسلام وتعميق فهمه ، والمحافظة على الاتجاهات الإسلامية في شئون الأسرة والمجتمع ، أما الجنوب الوثني المسيحي فهو ضد للقبيلة ويتجه إلى العلمانية ، ويتعارض بشدة أي اتحاد أو ارتباط سياسي بالدول الإسلامية المجاورة (١) .

وفي السنوات الأخيرة توترت العلاقات بين تشاد وجارتها العرييتين ليبيا والسودان وتعددت حوادث الحدود ، كما تعددت تيارات اللاجئين السياسيين للتبادلة ، ولكن كانت هناك لحسن الحظ محاولات جادة لتصفية هذه المشكلات والتغلب عليها (٢) .

واللغة العربية سائدة في مناطق الشمال ، وتوجد كذلك لغة سارا وهي إحدى لهجات البانتو ، واللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية :

(١) W. Lewis : Islam and Nationalism in Africa p. 72-73

(٢) دكتور جمال حمدان : العالم الإسلامي المعاصر ص ١١٧ وإفريقية الجديدة ص

كلمة تاريخية :

تدل بعض الآثار التي عثر عليها بيجال تبسّتي على أن حضارة قديمة قامت بهذه المنطقة ، فقد وجدت بعض الرسوم والمصنوعات الفخارية التي تثبت مهارة الصانع ورقى فكره ، ومن المؤكد كذلك أن طريق القوافل : من مصر إلى بحيرة تشاد عبر السردان ، ومن الشمال عبر ليبيا إلى نفس البحيرة يعودان إلى الورا عدة مئات من السنين ، وقد حملت هذه القوافل حضارة مصر وحضارة حوض البحر المتوسط إلى هذه المنطقة .

على أن تاريخ هذه البقاع اتضح مع الإسلام فقد قامت بها الدول التي تحدثنا عنها من قبل ، وأولها مملكة كانم التي انتشر بها الإسلام في القرن الحادى عشر وتكونت بها أسرة مالكة هي الأسرة السيفية التي فرّت إلى برنو إثر اضطرابات داخلية ثم استطاعت أن تحكم برنو وأن ترحف منها إلى كانم فتعيد عليها سلطانها ، وظلت هذه الأسرة حتى حلت محلها أسرة الشيخ الكانمى وبعدها راجح الزيرى الذى صارع الاستعمار الفرنسى حتى سقط سنة ١٩٥٠ فى معركة كسورى ، ومن الدول الإسلامية التي قامت بأرض تشاد مملكة باجرى إلى الشرق من موقع مملكة كانم ومملكة واداي إلى الشرق من باجرى على حدود دارفور ، وكانت واداي تدفع الجزية لدارفور ثم قويت واستقلت وغزت باجرى واتجهت تصارع دارفور عندما تقدم راجح الزيرى لغزو الجميع ، وفى أيام راجح نشطت الدعوة الإسلامية فى الجزء الجنوبي لجمهورية تشاد الحالية .

وعندما كانت فرنسا تصارع راجح الزيرى فى هذه المنطقة كانت إنجلترا تطارده من الخلف باسم استعادة السودان ، ولم يستطع راجح وابنه فضل الله أن يتغلبا على القوتين الكبيرتين بأسلحتهما الفتاكة ، وبخاصة أن إنجلترا آنذاك كانت تستعمل اسم مصر وتدعى أنها تستعيد السودان لها ، وكانت فرنسا تحالف

سلطان باجرى الذى طرده رايح واستولى على مملكته ، ومع هذا فقد كان صمود رايح صموداً عنيداً وقوياً ، فقد سقط معه القائد الفرنسى لامي فى نفس المعركة ، وباسم هذا القائد سميت العاصمة الحالية ببرت لامي أو فورت لامي تبعاً للنطق الفرنسى . وعندما سقطت إمبراطورية رايح اقتسمت القوتان الغربيتان الاستعماريان هذه المنطقة ، فوقفت قوى بريطانيا على الحدود بين دارفور وواداي ، واستولت فرنسا على واداي وباجرى وكانم ، أما مملكة برنو فقد أخذت فرنسا جزءاً منها من الناحية الشرقية وتكونت من هذه المناطق جمهورية تشاد الحالية ، واستولت بريطانيا على أكثر برنو وضمتها إلى نيجيريا فحققت بذلك المحاولة التى أرادها الإمام عثمان دان فيديو .

وقد كانت تشاد منطقة شديدة الأهمية للاستعمار الفرنسى ، فقد سبق أن قلنا إن فرنسا اتجهت فى إفريقية إلى أن تقيم بمستعمراتها حزاماً يصل بين شرق إفريقية وغربها ، وكانت تشاد تمثل جزءاً هاماً فى تحقيق هذه المحاولة ، واكتمل لفرنسا فى إفريقية الاستوائية السيطرة على مناطق أربعة هى : الكونغو برازافيل ، وأوبنجى شارى « جمهورية إفريقية الوسطى حالياً » وجابون وتشاد ، وبدأت فرنسا بأن كونت من أوبنجى شارى وتشاد مستعمرة واحدة أسمتها مستعمرة أوبنجى شارى - تشاد وكان ذلك سنة ١٩١٠ ، ثم فصلت المستعمرتين وأصبحت كل منهما قائمة بذاتها وتكوّن من المستعمرات الأربع سالفة الذكر ما سمي « إفريقية الاستوائية الفرنسية » ، وخلال الحرب العالمية الثانية استعملت تشاد قاعدة تموينية لمسرح عمليات الدول الحليفة فى شرق إفريقية والبحر المتوسط ، وبحكم موقعها بين ليبيا وجمهورية إفريقية الوسطى والكمرون والنيجر ونيجيريا والسودان كان لها مركز استراتيجى خاص ، وفى تشاد تجمعت الجيوش الفرنسية التى خرجت بقيادة الجنرال لكريل عبر الصحراء لقتال الألمان فى شمال إفريقية سنة ١٩٤١ - ١٩٤٢ .

وتطور للحكم في تشاد على نحو ما تطور في المستعمرات الفرنسية بإفريقية كلها وقد سقنا من قبل نسق هذا التطور (١) ، فلما جاء استفتاء سبتمبر سنة ١٩٥٨ كانت الأكرية بجانب دستور الجنرال ديغول ، وأصبحت تشاد بذلك عضواً في مجموعة الشعوب الفرنسية .

جبريل تومبالبا :

وكانت الزعامة في تشاد لرجل من الهند الغربية اسمه جبريل ليزيت أتى البلاد في وظيفة إدارية ثم اشتغل بالسياسة وأسس حزباً باسم التشاديين التقدميين ولكن هذا الزعيم أحس بأنه ليس عريق الأرومة في هذه البلاد ، فأفسح المجال لعضو من حزبه من أبناء البلاد هو « فرنسوا تومبالبا » Francois Tombalbya فأصبح هذا رئيساً للوزراء ، وقنع ليزيت بأن يكون نائباً للرئيس مع احتفاظه بزعامة الحزب وتطورت تشاد مرة أخرى فأصبحت جمهورية مستقلة في ٢ أغسطس سنة ١٩٦٠ ، وأعلن ذلك في فور لامى ، وفي اليوم التالي منح فرنسوا تومبالبا لقب رئيس الجمهورية مع احتفاظه برياسة الوزراء ، وأصبحت تشاد عضواً في هيئة الأمم المتحدة . ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٦٠ ، وفي نوفمبر سنة ١٩٦٠ أُعيد دستور مارس ١٩٥٩ ليتمشى مع الاستقلال التام ، وبناء على الدستور الجديد أصبحت السلطة التنفيذية في يد رئيس الجمهورية الذي يشغل منصب رئيس الوزراء أيضاً ، وفي أواخر عام ١٩٦٠ أعفى ليزيت من جميع مناصبه وأصبح تومبالبا رئيساً للحزب أيضاً .

وحدثت بعد ذلك تطورات داخلية مهمة ، فقد كان الدستور ينص على أن يُختار رئيس الجمهورية بواسطة زعماء القبائل وروؤساء المدن ، ويختار أعضاء الجمعية الوطنية بانتخاب مباشر بواسطة الأهليين ، وفي يونيو سنة

١٩٦٤ أصدرت الجمعية الوطنية قراراً بأن تتولى الهيئة السياسية لحزب تشاد
التدبير السيطرة على كل النشاط الحكومي وأنها هي التي تختار المرشحين لكل
المراكز الرئيسية بما في ذلك منصب رئاسة الجمهورية ، وفي سنة ١٩٦٧
عقد هذا الحزب مؤتمره السادس وكان الهدف من انعقاده في هذه المرة أن
يكون نقطة تحول في تاريخ البلاد ، ومن أجل هذا دُعيت له وفود من
عدة أقطار ، وحضره بعض رؤساء الجمهوريات الإفريقية ووفود من
أقطار أوروبا ، وفي هذا المؤتمر أعلن رئيس الجمهورية في خطابه الطويل أن
التصرفات المستقبلية لأعضاء الحزب ستكون موضع مراقبة وتقد حازمين ،
وأن الطريق للمستقبل ليس مفروشاً بالورود ، وأن تشاد تحتاج إلى التضحية
الشخصية وإلى الكشف ، كما تحتاج أولاً وقبل كل شيء إلى الزاخرة وندد
بالمستولين الحكوميين الذين ينظرون إلى الخدمة العامة ، باعتبارها وسيلة
للارتقاء الشخصي ، وفي هذا المؤتمر عولجت مشكلات التخلف الاجتماعي
والاقتصادي بواقعية وإبتكار ، ورُسمت خطة لتحقيق نمو مطرد ، ولكنه
بطيء ، وتم في صراحة بحث المشكلات الشائكة مثل الأمية ومكانة المرأة ،
والنقص في عدد الموظفين المدربين والحاجة الماسة إلى المساعدات الفنية
والمادية ، وقد تضمنت قرارات المؤتمر أن يكون التعليم إلزامياً ، وأن يكون
هناك اتحاد واحد للعمال ، وطُلب من الشركات الأجنبية العاملة في تشاد أن
يكون لها مركز رئاسة في فورت لاي (١) ، ويرجى من هذه القرارات أن
تساعد على حل مشكلات التخلف التي تعانيها تشاد في المجالات الاجتماعية
والاقتصادية .

انقلاب عسكري في تشاد

في الثالث عشر من أبريل سنة ١٩٧٥ حدث انقلاب عسكري في تشاد كان يقوده جنرال نويل أودينجار القائد الأعلى للقوات المسلحة بالنيابة ، وقد قاوم الرئيس تومبالباي ومعاونوه هذا الانقلاب ، فحدث صراع بين الجانبين ، ودارت معارك بالمدفعية والأسلحة الخفيفة حول مبنى الرئاسة ، ولم تتوقف هذه المعارك حتى أعلن أن الرئيس تومبالباي لقي مصرعه ، وقد سقط في هذه المعارك عدد كبير من القتلى والجرحى .

وكان تومبالباي قد غير اسمه في الفترة الأخيرة من فرانسوا إلى نجارتا ، وغير اسم العاصمة من فورت لامي إلى نجامينا ، كما غير أسماء الشوارع الفرنسية إلى أسماء إفريقية ، وكانت إذاعة تشاد قد توقفت عدة ساعات وعندما استأنفت إذاعتها أعلن راديو تشاد أنه تم إطلاق سراح ثلاثة من العسكريين من بينهم الجنرال فيلكس مأمون القائد العام السابق الذي كان قد قبض عليه بتهمة تدبير مؤامرة ضد تومبالباي . وأصبح الجنرال فيلكس مأمون رئيس مجلس الثورة الذي حكم البلاد ، ثم اختير رئيسا للجمهورية .

اقتصاديات تشاد :

في مطلع حديثنا عن اقتصاديات تشاد ينبغي أن نوضح أن هذه البلاد كانت تمثل في نظر الفرنسيين موقعا استراتيجيا عسكريا ليس غير ، فلم يكن

فيها مطمع اقتصادي وهذا يفسر لنا السبب في أن فرنسا لم تبذل جهداً يذكر للنهوض باقتصاد البلاد على أن فرنسا عادت بعد ذلك فقدمت مساعدات ضخمة لتقيم أود البلاد ، ويدخل في هذه المساعدات المعاشات التي تدفعها فرنسا إلى المحاربين القدامى ومساعدات أخرى متعددة ، أما باقي الدول فإن معونتها هزيلة لا تكاد تذكر ، ومن المضحك أن الدعاية تبلغ حداً كبيراً أحياناً لمعونة هزيلة شاحبة كذلك التي تقدمها الولايات المتحدة إلى تشاد ، ويمكننا في هذا الصدد أن نقبس فقرة من دراسة نشرتها جريدة ليموند الفرنسية في عددها الصادر بتاريخ ٢٩ مارس سنة ١٩٦٧ للباحث الفرنسي فيليب دوكر وفيما يلي نصها :

تعتبر فرنسا الدولة الوحيدة التي تقدم مساعدات قيمة إلى جمهورية تشاد ، أما بقية الدول فهي تقوم بدعاية ضخمة عندما تقدم مساعدات ضئيلة للغاية ، وقد أقامت سفاره الولايات المتحدة في تشاد احتفالاً كبيراً من أجل تسليم نصف ستة من الكرات لفريق كرة القدم في تشاد .

ولا تنطبق هذه الحالة على حكومة الولايات المتحدة وحدها وإنما على جميع الدول التي تدعى أنها تساعد الدول الإفريقية الحديثة . وتتكلم الأرقام عن نفسها . ففي الفترة من بداية الاستقلال حتى عام ١٩٦٥ بلغ حجم المساعدات الفرنسية خمسين ضعفاً للمساعدات التي قدمها صندوق التنمية الأوروبي ، وثلاثين ضعفاً لمساعدات الولايات المتحدة وجمهورية ألمانيا الاتحادية والأمم المتحدة مجتمعة كلها . وقد صرح رئيسي الوزير المختص بتنفيذ الخطة وبالتالي بقوله : نحن لانتخبّر في المحيط السياسي الإفريقي من بين الثوربين كما لا نعتبر من بين الرجعين ولذلك لا يهتم بنا أحد . ويعتبر هذا الوزير من ضمن العناصر الشابة التي يعتمد عليها الرئيس فرنسوا تومبا لباغا لتنفيذ خطة التنمية (١) .

وهكذا تقرر المراجع أن تشاد بلد محدود الدخل اقتصادياً ، ويعد من بلاد إفريقيا الفقيرة ، ولعل من أسباب تخلفه ارتفاع أسعار المواد المستوردة فالبنزين مثلاً يرتفع سعره إلى ثمانية أضعافه بسبب نقله من موانئ نيجيريا إلى فورت لاي ، والأسمنت يرتفع سعره إلى أربعة أضعافه بسبب نقله من موانئ الكيرون إلى فورت لاي ، وهذا مما لا يشجع على استثمارات صناعية في تشاد .

وتعتمد تشاد على الزراعة ، والقطن هو المحصول الرئيسي النقدي بالنسبة لميزانية البلاد ، وتزرع في جنوب بحيرة تشاد ، ويزرع كذلك الفول السوداني والأرز والذرة ، وتبذل جهود واسعة لرفع مستوى الزراعة من ناحية الكم والكيف .

وفي تشاد ثروة حيوانية كبيرة في مناطق واداي وباجرمي ، وقد أنشئت بعض الصناعات لتعليب اللحوم وصناعة الجلود والفراء وتصدر تشاد البقر واللحم والجلود إلى جابون وجمهورية إفريقيا الوسطى .

وتعتبر بحيرة تشاد مصدر ثروة صمكية واسعة ، وتصدر تشاد بعض أنواع السمك إلى الكرون ونيجيريا .

ولا توجد في تشاد غابات تذكر ، كما لا توجد معادن ذات بال سوى كربونات الصوديوم ، ولكن توجد على العموم إمكانيات لم تستخدم بعد ، ويرجى منها مستقبل أحسن لهذه البلاد الإسلامية المهمة .

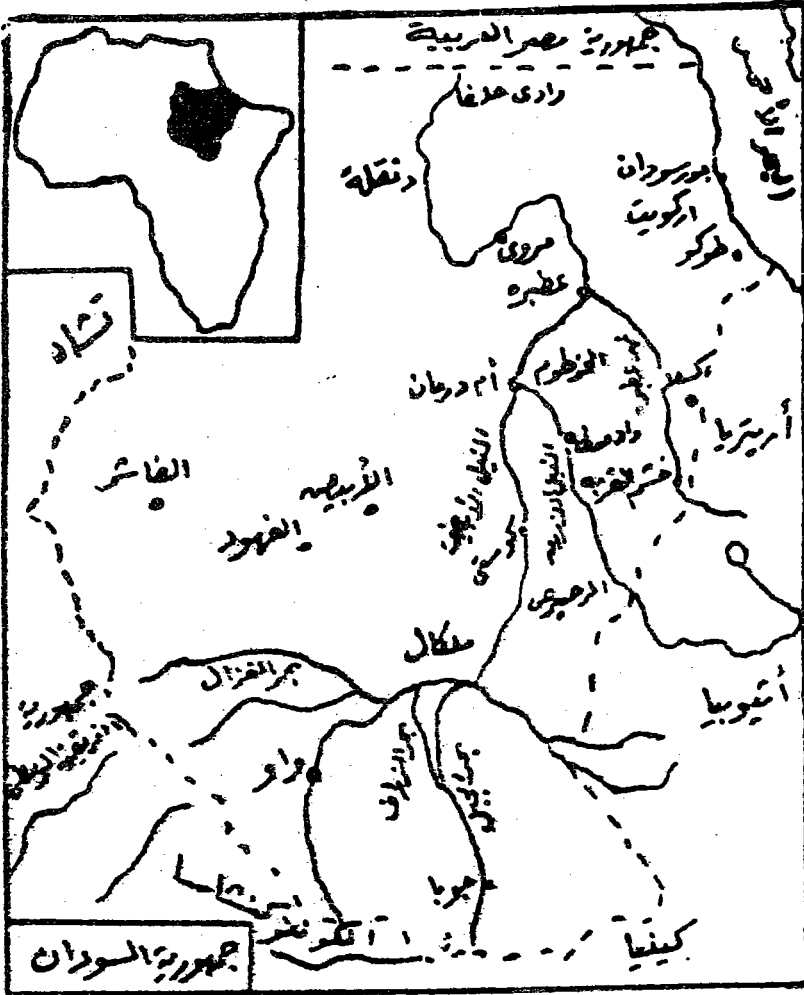
التعليم في تشاد :

في أيام الاستعمار لم توجه أية عناية إلى التعليم من قبل السلطات الفرنسية ، وكانت مدارس التعليم الابتدائي والثانوي قليلة جداً لم تتسع إلا إلى أقل من ١٠,٥٪ من الذين كانوا في سن التعليم في سنة ١٩٤٥ ، وكان شعاع الضوء ينبعث فقط من المعاهد الإسلامية التي أقامها المسلمون في مناطق الشمال وبخاصة من

جامعة أبشّة التي فتحت أبوابها للطلاب من مختلف البلاد ليعودوا رسلًا
 إلى أديبهم ينشرون العلم والفكر الإسلامى ، وفي عهد الاستقلال حاولت
 الحكومة الوطنية أن ترعى العلم والتعليم ، فأكثرت من فتح المدارس
 الابتدائية والثانوية والمعاهد المهنية ومعاهد التدريب ، ولا تزال تكافح في
 هذا المضمار لتقدم العلم لطلابها أو لمستحقيه ، وتعتبر العاصمة أهم مركز ثقافى
 في البلاد ، ففيها عدد من المدارس بمستوياتها المختلفة ، والتعليم في تشاد باللغة
 الفرنسية في المدارس الحكومية ، وباللغة العربية في المدارس والمعاهد الإسلامية ،
 ويتم الطلاب دراستهم العالية في مصر وفي فرنسا وفي بعض البلاد المجاورة ،
 ويؤمل من الحكومة أن تبذل مزيداً من الاهتمام بالتعليم ، ومزيداً من تنمية
 الاقتصاد ، ومزيداً من الديمقراطية .

السوان

السودان



مقدمة :

كتابة التاريخ في العصر الحاضر كتابة هادقة ، وفي هذه الموسوعة نبرز
 الرباط الطبيعي بين الدول الإسلامية بعضها والبعض الآخر كما نبرز رباط
 الثقافة والحضارة لتتخذ هذه الدول من فلك وسيلة لمزيد من الالتقاء ومزيد
 من التعاون

وعند حديثنا عن السودان يعزز رباط آخر يربطنا بهذه الأرض ،
 فالعلاقات بين مصر والسودان لم تنشأ مع الإسلام ، وإنما تمتد جنورها
 عشرات القرون قبل هذا الدين الخفيف ، ولهذا يتحتم أن نعطي مزيداً من
 التفاصيل عن الشطر الجنوبي لوادى النيل وعن الأرض التي تربطنا بها أوثق
 الروابط ، روابط الدم والدين واللغة والحياة والماضى والمستقبل ، ولعلنا
 بهذه الدراسة نعالج عيماً كان يوماً من الأيام واضحاً جلياً يؤاخذنا عليه
 إخوتنا بالسودان ، ذلك العيب هو قلة علمنا أمور السودان من مدنية وجغرافية
 وتاريخية واجتماعية ، وكانوا يرون أن من العيب أن يعرف المصرى كثيراً
 من الشئون حول البلاد العربية الأخرى ، بل أن يعرف كثيراً عن أوروبا وأمريكا
 ثم يجهل نظائر ذلك عن السودان ، ولعلنا فى هذه الدراسة نفتتح أمام المصرى بين
 والمسلمين آفاقاً للتعرف على جنوب الوادى ، ثم لعلنا نستجيب لهذا العتب فنكتب
 عن السودان ونحدث عن السودان .

وقد أكدت الطبيعة الوحدة بين شطرى الوادى بما هو واضح من
 تداخل كثير من المظاهر الطبيعية فى الشمال والجنوب ، ونظرة إلى خرائط
 التضاريس والمناخ والنبات كافية لتأكيد هذا الترابط ، فمظاهر السطح تكاد
 تجرى بنظام واحد ، وحالة المناخ والنبات إنما هى حالة تدرج طبيعى لا يحس
 فيه الإنسان بانتقال فجائى بين مصر والسودان .

والحدود الفاصلة بين مصر والسودان حدود صورية مبنية على اتفاقات
 إدارية ولا يتوفر فيها أى أساس من الأسس الجغرافية للحدود الصحيحة ،
 كما ذكرنا من قبل (١) ، وعلى هذا فالحدود برهانية على الصحة وليست برهانية
 على الانفصال ، ومن أبرز دلائل عيوبها أنها تقسم أراضى القبيلة الواحدة

بآثارها ومراعيها فتعد جزءاً منها في مصر والجزء الآخر في السودان كما يتضح بالنسبة للشاربين وغيرهم .

وتكوين السكان في الشمال والجنوب يبين مدى الترابط والاتصال بين المجموعتين ، فالأثر الحامى في سكان السودان هو الأثر الذى يرتبط ارتباطاً وثيقاً بسكان مصر والتوبة إذ أسهمت الموجات الحامية مساهمة أساسية في التكوين الجنى لسكان السودان على اختلاف ما يسكنون من أقاليم ، ولكن موقع السودان بالقرب من مواطن الزنوج في وسط إفريقيا بدون حواجز طبيعية مانعة لوصول الأثر الزنجى إليه ؛ فلك الموقع هو الذى قلل من الأثر الحامى في جنوب السودان ، ولكنه على أى حال قوى جداً في الشمال وفي الجزء الشرقى من وادى النيل ، وبخاصة في المنطقة التى تسكنها جماعات البجة .

ولا يقل الترابط الثقافى بين مصر والسودان أثراً عن الترابط المادى وترابط الدم ، وتعود هذه الآثار الثقافية إلى عصور متناهية في القدم .

وكل هذا نزع السودان وأهله من طابع الثقافة الإفريقى إلى الطابع الآسيوى الذى كانت مصر بابه على مر العصور ، وهكذا ظل السودان يتجه نحو مصر ويتخذها مركزاً للزعامة الثقافية والروحية ، أو — كما يقول بعض الباحثين — يتخذها قبلة له في مجال الفكر والثقافة والأدب^(١) . ويقول الأستاذ عمر الحاج موسى وزير الثقافة والإعلام السودانى : إن الوحدة بين مصر والسودان قائمة من زمن بعيد ، ولأنها في وجدان كل سودانى وعقابه ، ولأنها لا محالة تلمن اليوم أو غداً ، وإن احتياج مصر للسودان والسودان لمصر بديهة سياسية واقتصادية وثقافية^(٢) .

(١) دكتور يسرى عبد الواحد الجومرى : جمهورية السودان ص ٨ - ٩

(٢) من حديث نشره الأستاذ أنيس منصور في أوائل يناير سنة ١٩٧٢ بصحيفة الأخبار

التسمية والموقع :

كان المصريون يسمون البلاد بلغتهم المبروغلوفية « تا - نيكسو » أى أرض السود ، وهو قصص المعنى الذى يدل عليه الاسم الحديث « بلاد السودان » ، وأطلق المصريون على هذه البلاد فى عصورهم المتأخرة اسم « كوش » وهو الاسم الذى اقتبسته الحبشة فيما بعد فأصبح خاصاً بها ، وفى زمن الرومان كان يطلق على بلاد السودان اسم « نوبيا » .

وإذا رجعنا إلى كلمة السودان فى نطاقها العام نجد أن هذه التسمية تنطلي على الحزام الإقليمى الذى يشمل المساحة التى تقع بين المشارف الجنوبية للصحراء الكبرى الإفريقية وبين الأقاليم الاستوائية ، ويمتد هذا الحزام يعرض للقارة كلها من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلسى ، أى يشمل النطاق الذى تتدرجس تاريخه وأحواله فى هذا المجلد ، ويميز الجغرافيون العرب بين بلاد السودان وبلاد الزنج ، ومع أن لفظ السودان يعنى بلاد السود إلا أن سواد البشر قوحده لا يكتفى لاعتبار الزنوج والسودان جنساً واحداً ، فكلمة السودان فيها معنى أن اللون طارئ ومستحدث فى هذه المنطقة ، أما الزنوج فقها معنى أصالة اللون الأسود ، وسبب ذلك أن هذا الحزام الذى يطلق عليه « السودان » دخلته عناصر مختلفة من عرب وبربر وحاميين وساميين ، وأن الجنس الجديد يمثل مزيج هذه العنماء بدماء السكان الأصليين لهذه المنطقة .

ويقسم الجغرافيون المحدثون السودان بوجه عام إقليمياً إلى ثلاث مناطق هى : السودان الغربى والسودان الأوسط ثم سودان وادى النيل ، ويقسم السودان الغربى فى الوقت الحاضر الوحدات السياسية الآتية : السنغال ، جامبيا ، غينيا ، مالي ، النيجر مع أجزاء من الكونغو وسيراليون وغانا وفولتا العليا ، أما السودان الأوسط فيشمل تشاد وجمهورية إفريقيا الوسطى مع بعض أجزاء

من الكرون ونيجيريا ، أما سودان وادى النيل فهو وحدة سياسية قائمة بنفسها وهي جمهورية السودان حالياً .

وقد تخلصت هذه المناطق من هذه التسمية بلداً إثر بلد ، وكانت مالى آخر هذه البلاد التى اطرحت اسم السودان واستعادت الاسم التاريخى « مالى » واحتفظ السودان وادى النيل بهذه التسمية ، مع أنه من أقل هذه البلاد سواداً إذا لوحظ لون البشرة ، فالشاليون أقرب فى لونهم إلى سكان صعيد مصر ، ولا يزال الامتزاج واسع النطاق بين سودان وادى النيل وبين أرض الشمال فى مصر ، مما يحل لون البشرة يتلرج يوماً بعد يوم نحو اللون العربى الذى نطلق عليه السمرة بدل السواد .

وتتصل حدود جمهورية السودان بثمانى دول ، فيحدها من الشمال مصر ومن الجنوب كينيا أوغندا والكونغو ، ومن الشرق أثيوبيا (ومعها اريتريا) والبحر الأحمر ومن الغرب ليبيا وتشاد وجمهورية إفريقيا الوسطى .

السطح وما وقع ورثنا :

يبلغ تعداد سكان السودان حوالى ١٢ مليون نسمة ، ولعله مما يرتبط بالتعداد أن نقرر حقيقة يذكرها كل الباحثين هي أن السودان يحتاج إلى أضعاف هذا العدد لتستثمر أراضيه الشاسعة وتستغل موارده الكبيرة ، ففى السودان ما يقرب من ٢٥ مليون فدان صالحة للزراعة ولا يزرع منها إلا حوالى أربعة ملايين ، وإذا جاز لنا أن نستطرد فإننا نقرر أن هذه الحالة موجودة أيضاً فى بلاد عربية أخرى ، ويوجد فى مصر عكس هذا الوضع كأنما ألفت الأقدار على المصريين عبء حمل التبعات المرتبطة بالتنمية ، فالأرض فى السودان وفى بلاد عربية أخرى تجود بالخصوبة وتجوّد بالمعادن ، والأرض

في مصر تنتج الرجال الذين يمكن أن يتعاونوا مع رجال كل قطر لاستغلال الأرض والرقى بالمستوى الفكري والاجتماعي هنا وهناك .

والسودانيون من الناحية العنصرية ينتمون إلى الحاميين وإلى العنصر الزنجي ، وقد وفدت للسودان منذ عهد طويل جماعات قوقازية عن طريق الشمال مع مجرى النيل وجماعات ليبية وفدت في عصور متأخرة من الشمال الإفرنجي عن طريق تبستي أو من السودان الأوسط مثل وادى وتشاد واستقر في غرب السودان (١) ، على أن أكبر غزو بشري عرفه السودان جاء عن طريق العرب فند القرن السابع غزا العرب بلاد النوبة من الناحية الشمالية كما أن مجموعات عربية أخرى استمرت تعبر البحر الأحمر طيلة عدة قرون مهاجرة من الجزيرة العربية ، وعلى هذا صار السودان الشمالى عربيا مسلما نتيجة للامتزاجات السنصرية بين السكان الأصليين والعرب الوافدين ، ويحوى السودان الشمالى العناصر البشرية التالية :

- ١ - الهدنوة والبشارين ونبي عامر في منطقة جبال البحر الأحمر :
- ٢ - القبائل النوبة في وادى النيل الشمالى :
- ٣ - مجموعة ضخمة من القبائل العربية تسكن كل السودان الأوسط كالكبابيش والكواهلة والجليلين ومختلف قبائل البقارة وغيرها :
- ٤ - بقايا السكان الأوائل مثل النوبة والفور الذين لم يتم اتصالهم بالعنصر العربى الوافد :

أما السودان الجنوبي فقد بقى بعيدا عن التأثيرات الوافدة بسبب الصعوبات

(١) انظر ، الشعوب والحللات الإفريقية ، للدكتور محمد عوض ٢٣٢ وما بعدها

المناحية والجغرافية ، وتسكن هناك مجموعات بشرية زنجية يمكن تقسيمها إلى المجموعات التالية :

١ - السوديك : وهم مجموعات مختلفة من القبائل غرب النيل ومنهم الزاندي والمورو - مادي .

٢ - النبلين : ويسكنون حول الأنهار والمستنقعات ومنهم الدنيكا والنوير والشلوك^(١) .

ويلاحظ أن جزءا كبيرا من سكان المدن فيما بين الخرطوم وحلفا من أصول مصرية .

واللغة العربية هي اللغة الوحيدة لأكثر سكان الشمال والوسط وهي اللغة الأولى لباقي هؤلاء السكان ويتكلم معها هؤلاء ببعض اللهجات الخاصة أو بقايا اللغات القديمة ؛ أما سكان الجنوب فقد وقف الاستعمار حائلا دون تعلمهم اللغة العربية ، وحاول نشر اللغة الإنجليزية بينهم ، ولا يزال هؤلاء يعتمدون على اللهجات المحلية قليلة الفكر والثقافة ، ويعرف المسلمون منهم اللغة العربية كما توجد اللغة الإنجليزية بين الذين التحقوا بمدارس التبشير الغربية ، ويكثر أن تكون اللغة العربية بين هؤلاء لغة التخاطب عند تعدد اللهجات .

وفما يتعلق بالدين فإنه لم يحدث أن أجرى إحصاء دقيق للديانات في السودان ، ومن الواضح أن سكان المديرية الشمالية كلهم مسلمون ما عدا عددا قليلا من اللادنيين وحفنة من المسيحيين الذين يقطنون المدن

(١) تقويم السودان : أصدرته وزارة الاعلام والشئون الاجتماعية بجمهورية السودان

في الغالب ، أما عن المديرية الجنوبية الثلاث فيوجد بها عدد كبير من المسلمين والمسيحيين ولكن أغلبية السكان من اللادينيين^(١) .

ويرتبط بالناحية الدينية في السودان موضوع شديد التأثير هو الطرق الصوفية ، وقد تحدثنا عن الطرق الصوفية من قبل حديثاً شمل الحزام السودا^٢ الذي ندرس تاريخه في هذا المجلد ، ولكننا نضيف هنا عن الطرق الصوفية شيئاً متصلاً بالسودان وأهم الطرق الصوفية بالسودان الطرق الآتية :

الطريقة التي أسسها عبدالقادر الجيلاني ، وتسمى الطريقة القادرية ، وهي أول طريقة دخلت السودان ، وكان دخولها بواسطة الشيخ تاج الدين البهاري ، وقد انقسمت هذه الطريقة فيما بعد بالسودان إلى أقسام متعددة .

الطريقة البدوية وتعرف بالطريقة الأحمدية وتنسب للشيخ أحمد البدوي المدفون ببلدة طنطا بمصر ، ودخلت هذه الطريقة بالسودان بعد الفتح المصري في القرن التاسع عشر .

الطريقة السماتية وأتباعها ينتشرون في منطقة النيل الأزرق والأبيض .
الطريقة الشاذلية أو المجذوبية ، وقد أدخلها إلى السودان الشيخ محمد المجذوب في القرن الثامن عشر وأتباعها بربور وللدامر .

الطريقة الختمية وزعمائها من آل المرغني .

الطريقة التيجانية ومؤسسها أحمد التيجاني من مراکش .

الأنصار وهم أتباع أسرة المهدي وينتشرون في أنحاء مختلفة بالسودان .
وقد حاولت حكومة الثورة بالسودان أن تخلق رباط الوحدة الوطنية بين شعب السودان ليحل محل الطرق الصوفية التي اتخذت أحيانا مجالا^٣ سياسياً فأحلت الفرقة محل الوحدة بين صفوف الشعب الواحد^(٢) .

(١) تقويم السودان ص ٢٧

(٢) المرجع السابق ص ٢٧ - ٢٨

كلمة تاريخية :

يذكر تقويم السودان^(١) أن الاكتشافات الأثرية القديمة أثبتت وجود إنسان العصر الحجري القديم في السودان ، ويحتمل أن يكون الاستيطان الأول قد حدث بين سنة ٥٠٠٠ و ٤٠٠٠ ق م ولم يكن المستوطنون يعرفون الزراعة في ذلك الحين ، ويقول هذا التقويم : إن الوثائق المصرية القديمة هي المصدر الوحيد لمعلوماتنا عن الأحداث التاريخية المبكرة والتي تنحصر في السودان الشمالى (كوستى القديمة) وأولى تلك الأحداث كانت عبارة عن الغارات التي قام بها المصريون في المملكة القديمة حوالى سنة ٢٨٠٠ ق م ، وبعد مضي ٢٠٠ سنة من تلك الغارات قام المصريون بنشاط تجارى في منطقة دنقلا ، وقد تكونت هناك حملة وصلت إلى دارفور ، وفي أثناء هذه الفترة كانت تقطن السودان مجموعات من الناس تمارس شئون الزراعة والرعى ، وتجهل فنون الكتابة والاشتغال بالمعادن .

وفي عهد المملكة المصرية الوسطى التي بدأت حوالى عام ٢٠٠٠ ق م بسط المصريون سيطرتهم على السودان إلى منطقة الشلال الثانى ، وأنشأوا على طول النيل سلسلة من القلاع لتحضى المواصلات مع مصر ، واستمرت هذه الفترة حوالى ٣٠٠ سنة ، ويبدو أن نهايتها كانت مرتبطة بغزو الهكسوس لمصر حوالى سنة ١٧٠٠ ق م .

وبعد طرد الهكسوس أعاد المصريون سلطانهم على السودان ابتداء من عهد أمنمحات الأول^(٢) الذى بنى معبداً في بوهين بالقرب من وادى حلفا ، ثم بنيت بجواره معابد أخرى كثيرة ، وعند انتهاء الامبراطورية المصرية في نهاية الألف الثانى قبل الميلاد اختفى المصريون مرة أخرى من تاريخ السودان .

(١) ص ٣٢ وما بعدها

(٢) انظر كتاب « اليهودية » من سلسلة مقارنة الأديان لمؤلف

وبالتالى مرت فترة اخفى فيها تاريخ السودان بوجه عام حتى حوالى سنة ٧٥٠ ق . م ، إذ قامت فى نبتة بالقرب من مروي مملكة سودانية ذات صبغة مصرية من حيث الثقافة والدين ، ثم اتسع نفوذ هذه الدولة تجاه الشمال فدخلت مصر وكونت الأسرة الخامسة والعشرين ، ثم تغلب الآشوريين على مصر ففر أمامهم هؤلاء الحكام إلى السودان ، وظلت مملكة نبتة فترة تقرب من ألف عام ، ونقلت عاصمتها من نبتة سنة ٥٥٠ ق . م إلى مروي شمال شنلى الآن وبقيت نبتة مركزاً دينياً يُدفن فيها ملوك وملكات مروي ، واحتفظت هذه المدينة بأهمية كبيرة حتى فتك بها الرومان سنة ٢٣ ق . م ، وكانت قد وصلت آنذاك إلى قمة ازدهارها ، وقد تدهورت مملكة مروي بعد ذلك ، إما بسبب زحف من الجنوب أو زحف من أثيوبيا حوالى سنة ٣٥٠ ميلادية وليس تاريخ هذه الفترة واضحاً ، وتلا هذه الفترة عصر انحلال وقيام عدد من الممالك الصغيرة المستقلة القبلية .

وفى القرن السادس بدأ تحويل السودان إلى الديانة المسيحية ، وكان نفوذ الكنيسة القبطية أقوى من نفوذ الكنيسة الملكانية ، وفى ظل المسيحية قُسم القطر سياسياً إلى مملكتين هما مملكة مقرة وعلوة وقد سبق أن تحدثنا عنهما (١) .

ثم دخل الإسلام مصر ، ومن مصر دخل الإسلام بلاد النوبة السودانية من عهد مبكر ، إذ كانت غارات النوبيين غير المسلمين تتوالى على حدود مصر الجنوبية ، فأرسل عمرو بن العاص حملة هاجمت دنقلة ، وأرغمت ملك النوبة على إعلان السلام ، ووقعت معاهدة بين الطرفين نصّت على أن المسلمين فى بلاد النوبة ، يجب أن توفر لهم الحماية ، وقد ظلت هذه المعاهدة معمولاً بها حوالى ستة قرون ، فلما كان عهد المماليك فى مصر أصبح واضحاً أن

الاستمرار للمملكتين المسيختين بالسودان لم يعد ممكناً ، لأن أكثر الرعايا كانوا قد دخلوا الدين الإسلامى كما زحف إلى السودان عدد كبير من القبائل المسلمة الوافدة من الجزيرة العربية أو من مصر ، وكان من نتيجة هذه الاضطرابات أن خربت دنفلة العجوز ، واندحرت الأسرة المالكة حوالى سنة ١٣٤٠ ميلادية وسقطت هذه المملكة ، وتبع ذلك هجرات سريعة من مصر ونشر الإسلام فى السودان حتى شندى ، وقسمت الأراضى بين زعماء القبائل .

وعاشت المملكة الجنوبية «مملكة علوة» فترة أطول بالرغم من أنه كان يبدو أن القبائل العربية كانت تشمل داخل الدولة فى أواسط القرن الخامس عشر ، وجاءت نهاية مملكة علوة سنة ١٥٠٤ ميلادية ، وقامت على إثرها مملكة الفونج اتى سبق أن تحدثنا عنها وظلت مملكة الفونج حوالى ٣٠٠ سنة ، وكانت عاصمتها سنار ، واستولى سلاطين الفونج على كردفان لمدة وجيزة فى القرن الثامن عشر ، ولم يستطيعوا التوسع فى الشرق بسبب قيام مملكة مسيحية قوية فى الحبشة ، وكانت سلطنة الفونج على العموم أشبه بالحداد إقطاعى مضحك ، وكانت الأرض مقسمة بين الإمارات الكثيرة التى تتمتع كل منها باستقلال كبير .

هذا وقد كان الفونج فى بناء إدارة مركزية مع ضعف البيت المالك على العموم وظهور نفوذ المصح سبياً فى تشكيل الدولة ، وشهد القرن الثامن عشر زعزعة ولاء الحكام المحليين واحداً تلو الآخر لسنار ، وحتى سنة ١٨٢٠ كان سلطان الفونج يمتد قليلاً إلى ما بعد شمال الخرطوم .

وقد أتاح هذا الاضطراب والتفكك فى الجنوب الفرصة من جديد لمصر لتستعيد نفوذها بالسودان مرة أخرى ، فأرسل محمد على حملة إلى السودان سنة ١٨٢١ وقد تحدثنا عنها من قبل ، ولم نجد هذه الحملة مقاومة تذكر . فتم الاستيلاء على سنار والأبيض وأنشئت العاصمة «الخرطوم» وقسم

السودان إلى مديريات ومراكز ، ولم يتحقق هدف محمد علي للحصول على الذهب في السودان ، أو الحصول على جنود للمعارك الكبرى التي كان يقودها محمد علي هنا وهناك ، ولذلك اتجه محمد علي إلى إدخال الكثير من المحصولات الجديدة بالبلاد وتطوير اقتصادياتها ، ليتمكن الانتفاع بالجنوب في النطاق الزراعي والاقتصادي .

وشهد عهد الخديوي إسماعيل فكرة ضخمة حاول هذا تحقيقها ، وهي خلق إمبراطورية مصرية واسعة في إفريقيا ، وقد تحقق له كثير من هذه المطامع ، فدانت له دارفور وضمت الأقاليم الجنوبية بعد اكتشافها وهي التي عرفت باسم مديرتي بحر الغزال وخط الاستواء ، كما ضمت الموالي البحرية ، وهي محافظات سواكن ومصوع وزيلع وبربرة فضلاً عن حكمدارية هرر ، وأصبح السودان وحدة سياسية ضخمة تمتد من المحيط الهندي إلى الشلال الأول ومن ساحل البحر الأحمر إلى وادى . وأصبح السودان مع مصر يكونان إمبراطورية مصرية ضخمة وأجريت تحسينات واسعة في المواصلات البرقية لربط هذه الإمبراطورية بعضها ببعض ، ولكن خطأ إسماعيل كان في اعتماده وثقته بالإداريين الأوربيين الذين وكل لهم الاستمرار في التوسع في قلب إفريقيا ، ووكّل لهم الشئون الإدارية في المناطق التي يتم فتحها ، في نفس الوقت الذي كانت ممالكهم وأوطانهم تحاول التوسع في هذه المناطق .

وتم احتلال الإنجليز لمصر سنة ١٨٨٢ قبل هذا المستعمر أقصى الجهد لإخلاء السودان ، أمام الثورة المهدية التي كانت قد هبت قبيل ذلك التاريخ ولم يكن إخلاء السودان عجزاً عن مقاومة المهديين ، ولكنه كان ينبع من سياسة بريطانية تخطط للمستقبل ، وترى لإعادة الفتح من جديد ليتحقق بذلك الفتح سلطان بريطانيا على الجنوب .

وكانت الثورة المهدية قصيرة العمر فقد استولت على الخرطوم سنة ١٨٨٥ وفي نفس العام توفي المهدي زعيم هذه الثورة ، وتولى مكانه الخليفة

عبد الله التعايشي ، وقامت عقب ذلك اضطرابات داخلية واسعة أتاحَت الفرصة لإعادة فتح السودان ، وسرعان ما تمّ ذلك سنة ١٨٩٩ وقُتل الخليفة عبد الله التعايشي في الميدان ، وعادت السودان هذه المرة ليست تابعة لمصر ، لكن تابعة لحكم ثنائي من الناحية القانونية ولحكم بريطاني من الناحية الواقعية ، وكان لمصر جيش في السودان مع الجيش البريطاني ولكن نفوذه كان محدوداً ، وانتَهزت بريطانيا فرصة حدثت سنة ١٩٢٤ وهي أن قُتل بالقاهرة السير لي ستاك حاكم السودان العام ، فقررت إجلاء القوات المصرية عن السودان ، وإجلاء المدرسين والإداريين المصريين .

ونعود الآن إلى مرجع سوداني نرى رد فعل ذلك التصرف لدى الجنود السودانيين الذين كانوا يرون في الجنود المصريين إخوة لهم ، ويرون في نجلز عدوا للجميع ، يقول الدكتور مكى شيكة (١) :

وعندما أرادت السلطات الإنجليزية تنفيذ سفر الوحدات المصرية إلى مصر ، رفض قائد الطوبجية الأمر إلا بأوامر تصاه من الملك وبعث الملك مندوباً في طائرة خاصة ، وانصاع القائد لأمر الملك ، وبدأ يتجهز بأورطته للرحيل ، وترأى إلى سمع الضباط السودانيون رفض الطوبجية الرحيل ، وأشيع أنهم سيقاومون واستعد الضباط السودانيون لمساعدة المصريين ، وخرج جماعة منهم على رأس جنودهم للانضمام إلى زملائهم في السلاح بكامل معداتهم ، ولعند ما كانوا في شارع الشاطئ ، بالقرب من المستشفى العسكري تصدت لهم القوات البريطانية التي كانت تحتل كلية غوردون ومنعهم من الوصول إلى الكوبري ، ووقعت معركة حامية استمرت بقية اليوم وطيلة الليل وصباح اليوم التالي ، وانهزم السودانيون بعد أن أبلوا بلاء حسناً وقدموا تضحيات واسعة ، وكان على رأس المضحين

البطل عبد القضايل لماظ حيث سقط في المعركة وهو ممسك بمدفعة الرشاش ،
وكبدوا البريطانيين خسارة كبيرة ، ولولا أن فخيرتهم نفذت لصدوا
وقتاً كبيراً مضحين بأرواحهم ، وقبض على الضباط الثوار وأعلموا وهم
المغفور لهم سليمان محمد وحسن فضل المولى وثابت عبد الرحيم .

ذلك موقف رائع يعد خير دليل على روابط الود بين الشمال والجنوب ،
ولكن الإرادة الإنجليزية نفذت على أي حال وتم إجلاء المصريين ، وحاولت
إنجلترا أن تسرضى السودانيين فأحلت للسودانيين محل المصريين في الوظائف
التي كان يشغلها هؤلاء ، ولم تكن محاولة السودان التي ظهرت آنذاك لصالح
السودانيين ، وإنما كانت حلقة من حلقات التقسيم الذي أراده الإنجليز من
عهد مبكر ، وكانت خطتهم أن يخلعوا السودان من مصر ، ثم أن يعمدوا
للسودان بالتجزئ والتقسيم فيضمو الجنوب إلى أوغندا وكينيا ليؤلفوا من
ذلك جامعة زنجية مسيحية يحاربون بها العرب والإسلام كما كان في تخبطهم
أن يسلخوا شرق السودان لضمه إلى لريتيريا أو إلى الحبشة ، كما حاولوا
إعادة أحفاد السلاطين القدامى لمنطقتي كرتفان ودارفور (١) ، وقد نجحوا في
بعض هذه المحاولات وأضاعوا بعض الممتلكات السودانية كهرر التي تركوها
للحبشة وكأجزاء واسعة على البحر الأحمر ، ولكن عيون المواطنين حفظت
بأق السودان من الضياع .

ويمكن تقسيم التطور السياسي للسودان منذ الفتح الثاني إلى الاستقلال
إلى الأقسام التالية :

١ - من سنة ١٨٩٩ إلى ١٩٣٨ وفي هذه الفترة تم بالتدريج إحلال
المدنيين مكان العسكريين في الإدارة ، وبعد الحرب العالمية الأولى قللت

الحكومة بعض الوظائف والمناصب الإدارية المحلية للصغيرة لزعهاء القبائل ،
وفي سنة ١٩٣٦ عقدت للمعاهدة المصرية البريطانية التي أعادت الجيش المصري
للسودان ولكن بتفوض محدود للغاية .

٢ - من سنة ١٩٣٨ إلى ١٩٥١ وفي هذه الفترة تأسس مؤتمر الخرطوم
العلم الذي حل علم الكفاح بين السودانيين ، وعبر عن آمالهم وقاوم أطماع
المستعمر ، وفي هذه الفترة كذلك تم تأسيس مجلس استشاري للسودان الشمالي
كان أعضاؤه سودانيين ، واتجه مؤتمر الخرطوم اتجاهاً بالنسبة إلى مصر ، فتأدى
بعض أعضائه بالاتحاد مع مصر ، ومال البعض الآخر إلى الاستقلال التام .

٣ - من سنة ١٩٥١ إلى ١٩٥٣ : وفي مطلع هذه الفترة أعلنت مصر
من جانبها إلغاء معاهدة التحالف مع بريطانيا التي عقدت سنة ١٩٣٦ وكذلك
الاتفاقية المشتركة لاستعادة السودان التي عقدت سنة ١٨٩٩ ونودى بملك مصر
ملكاً على مصر والسودان ، ولم تقبل بريطانيا هذا التغيير ، وبعد ثورة ٢٣
يوليو سنة ١٩٥٢ تنازلت مصر عن موقفها بالنسبة للسودان ، ووصلت مع
بريطانيا إلى اتفاقية حددت الخطوات الدستورية التي يتحدد بمقتضاها مستقبل
السودان ، ومن أهمها أن يوجد إشراف دولي على الانتخابات وأن تحدد
فترة ثلاث سنوات يقرر السودانيون في نهايتها مستقبل بلادهم في حدود
الاتحاد مع مصر بصورة من الصور أو الاستقلال التام ، ووقعت بذلك
اتفاقية مصرية بريطانية سنة ١٩٥٣ ، وأشرفت لجنة دولية على الانتخابات
التي جرت في نفس العام ، والتي فاز فيها الحزب الوطني الاتحادي الذي
كان ينادى بالاتحاد بين مصر والسودان ، وأصبح رئيس الحزب «الرئيس
إسماعيل الأزهرى» أول رئيس للسودان وافتتح البرلمان في مارس سنة
١٩٥٤ .

ونخطا الرئيس إسماعيل الأزهرى بعد ذلك خطوة هامة نقلها بحروفها من تقويم البلدان الإسلامية (١) :

« ربح الحزب الوطني الاتحادي الانتخابات بتأييد المصريين ، وتعهد زعيم الحزب عقبه ذلك بتحقيق اتحاد مع مصر تعبيراً عن رغبة الجماهير السودانية ، ولكنه غير سياسته إلى سياسة مستقلة ، وأزاح جانباً بكل فطنة وذلك جميع الخطط الانجلو - مصرية من أجل إجراء استفتاء وغير ذلك من الإجراءات الطويلة الأمد التي نصت عليها المعاهدة المصرية البريطانية وارتضاها كل السودانيين ، وفي يناير سنة ١٩٥٥ أعلن البرلمان السوداني البلاد جمهورية مستقلة ، ولما ووجهت كل من بريطانيا ومصر بهذه الحقيقة الراهنة لم تستطيعا إلا أن تقبلاها وترسلا أطيب التحيات ، واستقال الحاكم العام ، واستبدل به مجلس أعلى مؤلف من خمسة من الزعماء السودانيين ، وانسحبت الحمايات البريطانية والمصرية في شهرى ديسمبر ١٩٥٥ ويناير ١٩٥٦ وقدمت مصر لجيش السودان الناشئ كل ما كان لدى جيش مصر بالسودان من أسلحة ومعدات ، وأعلن قيام جمهورية السودان المستقلة ابتداء من أول يناير سنة ١٩٥٦ وقبلت عضواً بالأمم المتحدة منذ ذلك التاريخ . »

وهذه القفزة التي قفزها الرئيس إسماعيل الأزهرى وباركها أكثر السودانيين وقبلتها مصر وبريطانيا ، تركت آثاراً شاحبة على الحكم في السودان لأنها فتحت الباب لقفزات مماثلة قامت بها حركات انقلاب عسكرية متعددة ، وكانت المحاولة الأولى في مايو سنة ١٩٥٧ وكان يزعّمها الصاغ عبدالرحمن كييلة ولللازم عمر خلف الله ، ولم تنجح هذه المحاولة إذ تم اكتشافها قبل

وقوعها ، والمحاولة الثانية كانت في ١٧ نوفمبر سنة ١٩٥٨ . وكان يقودها الفريق إبراهيم عبود القائد العام للقوات المسلحة ونجحت هذه المحاولة وأعلن القائد العام في بيانه الأول حل جميع المنظمات الديمقراطية وتعطيل الدستور المؤقت وإعلان حالة الطوارئ في جميع البلاد ، كما قام بتكوين مجلس أعلى للقوات المسلحة ليكون السلطة التشريعية والمجلس الأعلى للحكم في البلاد ، وأصبح هو رئيساً لهذا المجلس ورئيساً لمجلس الوزراء ووزيراً للدفاع وقائداً عاماً للجيش (١) .

وفي عام ١٩٥٩ حدثت ثلاث محاولات للانقلاب نجحت الأولى وفشلت الثانية والثالثة ، ولذلك يعرف هذا العام بعام الانقلابات ، وكان نجاح الأولى بإبعاد بعض أعضاء المجلس الأعلى وتعيين قادة هذه المحاولة أعضاء فيه .

وفي أكتوبر سنة ١٩٦٤ هبت ثورة مجيدة في السودان وضمت نهاية للحكم العسكري ، وأعادت حياة الديمقراطية ، واختير مجلس سيادة برئاسة الرئيس إسماعيل الأزهرى .

ومع هذا فقد حدثت محاولة عسكرية في ٢٨ ديسمبر ١٩٦٤ بقيادة الملازم خالد حسين أحمد ، ولكنها كانت محاولة تحمل بذور فشلها .

وحدثت بعد ذلك حركة عسكرية في مايو سنة ١٩٦٩ سميت حركة التصحيح لسيرة أكتوبر سنة ١٩٦٤ وكانت هذه المرة بقيادة اللواء جعفر نميرى ولكن هذا التصحيح أيضاً هبّ ضده انقلاب في أغسطس ١٩٧١ بقيادة الرائد هاشم عطا ولكن انتصاره كان قصير العمر فلم يمكث أكثر من يومين عاد

بعدهما اللواء جعفر نميري إلى مكانه حيث قضى على القائمين بهذه الثورة وانتخب بعد ذلك رئيسا للجمهورية .

مؤامرة يوليو سنة ١٩٧٦ :

على أن المؤامرة التي قامت ضد الرئيس نميري في يوليو سنة ١٩٧٦ كانت أقصى ماتعرض له السودان من مؤامرات واطقالات ، وزعيم هذه المؤامرة اسمه محمد نور سمد وهو عميد سابق في الجيش السوداني ، وكان يؤيده بعض زعماء الأحزاب السودانية السابقة ، وقد أذيع أن ليبيا كانت تنفق على هذه المؤامرة ، وأن تخطيطا دقيقا وضع لها بمعرفة قادة عسكريين من الصفوف العالية الأولى ، وأذيع كذلك أن المؤامرة كانت جزءا من الصراع ضد دولتي وادي النيل العرييتين (مصر والسودان) وقال الرئيس أنور السادات في تصريحه في العاشر من يوليو إنني كنت أعرف من مدة خبر الاستعداد لمؤامرة ضد السودان ، وهذا ماجعلني أرسل مندوبا إلى الخرطوم منذ شهر ، وأطلب إليه أن يوقف الرئيس نميري لو كان نائما .. ليطلع على ماتلقيناه من معلومات عن الإعداد لمؤامرة ، كان محمدا لها ٢٥ مايو الماضي .. واتخذ نميري حيلته ولكتلالم نكن تصور أن المؤامرة غزو شامل .. تقذ على مدى عام كامل وتُقل لتنفيذه اللثا ومعهم أحدث الأسلحة ..

وقال الرئيس : « ان خطة هذا الغزو الخطير ، أكبر كثيرا جدا ، من تفكير القذافي إنه تخطيط على مستوى عالمي ، من أصحاب إمكانات عصرية ، بأحدث وسائل الإرهاب والاطقالات تخطيطا وتنفيذا » .

وكان زعماء المؤامرة قد انتهزوا فرصة غياب الرئيس نيمرى عن السودان في رحلة إلى أمريكا وأوروبا وعرفوا موعد عودته ، ويدون أن الحطة قد وضعت لاغتياله ساعة وصوله إلى المطار بتدمير طائرته والقضاء على مستقبله ، واتهاز هذه الفرصة لاحتلال القيادة العامة في غيبة قادتها ، بواسطة فرق عدوانية مسلحة اتخذت أهبتها في أمكنة متعددة ، ولكن طائرة الرئيس نيمرى وصلت قبل مواعدها ، بساعة ، وعندما عرفت الفرق المستعدة للزحف خبر وصول طائرة الرئيس تقدمت واستطاعت أن تحقق ألواناً من النصر ، فاحتلت المواقع العسكرية المهمة كالقيادة العامة وسلاح المهندسين ، ثم مبنى الهاتف ومبنى الإذاعة والتليفزيون ، واقتحمت منازل القادة والوزراء ، فقتلت من بها من الرجال والنساء والأطفال ، وقبضت على البعض وحبسهم في غرف ضيقة دون تفكير في طعامهم وشرابهم ، وهاجمت منزل نيمرى فقضت على حرسه بعد معركة رهيبة .

يبد أن الاستعداد للدوان على طائرة نيمرى لم يكن قد اكتمل ساعة وصولها المبكر ، وأحس نيمرى ومستقبلوه بالخطر من دوى الرصاص فأسرع الرئيس نيمرى بالاختفاء ليقود النضال ضد هذا الخطر . ولعبت مصر دوراً مهماً في مساندة نيمرى ، وقد وصف الرئيس السادات هذا الدور بقوله : لقد أقننا جسراً هائلاً من طائرات الاتينوف ، وقد نقلت هذه الطائرات القوات السودانية التي كانت على الجبهة المصرية بأسلحتها الكاملة إلى السودان ، واستطاعت هذه القوات التي قادها نيمرى أن تسحق هذا الانقلاب وتقضي عليه ، وكان الرئيس نيمرى يقودها من مكان مجهول ، ولم يظهر إلا بعد ذلك

ظهرت نبأته النجاة

ومما يذكّر أن صلحاً تمّ بعد ذلك بين الرئيس نيمرى وزعماء
الأحزاب الذين قيل إنه كان لهم دور في هذا الزحف وعلى رأسهم السيد
الصادق المهدي ، وعاد الزعيم عقب الصلح ليسهم في خدمة بلاده وأمه

جنوب السودان:

أشرنا آنفاً أن إنجلترا بذلت أقصى الجهد لفصم عرى الارتباط بين
مصر والسودان ، ولكنها بذلت جهوداً أوسع وأحكم لفصل جنوبي السودان
عن شماليه ، ومن أبرز ما عمله الاستعمار لذلك أن اعتبر جنوب الـ دان
منطقة مقفلة بالنسبة للمصريين ولأهل الشمال السودانيّين ، ولكنه فتح
أبوابها على مصاريعها بالنسبة للإرساليات المسيحية التي بذلت جهوداً عنيدة
لفصم كل العلاقات بين الشمال والجنوب ، فقد وكلّيت لها شئون التعليم
تماماً ، واتخذت البعثات التبشيرية من ذلك وسيلة لنشر المسيحية ونشر اللغة
الإنجليزية ، ومحاربة الإسلام واللغة العربية ، ثم لعبت الإدارة البريطانية
والبعثات التبشيرية لعبة الجنس والعنصر لتضيف بذلك وسيلة جديدة إلى
اللغة والدين بقصد القضاء على كل مقومات الصلة بين الشمال والجنوب ،
وقد شجعت بريطانيا أهل الجنوب فعقدوا مؤتمراً في جوبا سنة ١٩٤٧
يطالبون فيه بالانفصال ، وأثارت اضطرابات في «توريت» جنوبي السودان
الأقصى ، وشجعت على إقامة الأحزاب التي تنادى بالانفصال مثل حزب
سانو الذي يميل الكثيرون من أتباعه إلى الانفصال التام ، وفي مقدمة
هؤلاء الزعيم «جادين» ، ويميل بعض أتباع هذا الحزب إلى قيام اتحاد
فيدرالي ، ويتزعم هؤلاء «وليم دينج» .

وعندما اضطّر الاستعمار أن يخلى السودان ظل على صلة بالتمردين من
أهل الجنوب وكانت هناك اتصالات غامضة بين الإنجليز في أوغنده وبين

زعماء القبائل الانفصالية ، ولا استعملت حكومة اللواء عبود باشا القوة ضد ثورات الجنوب فرّ حوالي ١٥٠ ألفاً من الجنوبيين المتمردين إلى الكونغو وأوغندا وكينيا وأثيوبيا .

على أن عدواً جديداً للرب وتلمسلمين بدأ يلتقط الزمام من الإنجليز ويعمل على تحقيق المخطط الاستعماري ، ذلك العدو هو إسرائيل ، وفي قضية المرتزق الألماني رولف اشتاينر الذي كان يقود المتمردين بالسودان وقبضت عليه حكومة اللواء جعفر نميري في أغسطس ١٩٧١ ظهرت حقائق بعيدة العمق في هذا المجال ، فقد اعترف شتاينر أن إسرائيل تدرب المتمردين وتقدم بالأسلحة ، وأن الفاتيكان يدفع بعض تكاليف عمليات العصيان ، وكشف رئيس هيئة الادعاء السوداني في محاكمة هذا المرتزق أنه شخصية عجيبة كانت تفرض الموت على الأحرار في كل مكان إذا ما طالبوا بالحرية ، ومن أجل هذا الهدف عمل هذا الرجل في الهند الصينية والجزائر والسويس وبيافرا ثم انتهى به المطاف إلى جنوبي السودان ، وقد ذكر السيد خلف الله رشيد رئيس هيئة الادعاء بالسودان أن شتاينر اعترف بأنه تم تدريب عدد من قادة المتمردين بإسرائيل ، وأن إسرائيل تقدم للمتمردين مساعدات عسكرية ضخمة ، وأن العسكريين الإسرائيليين يقومون بزيارات لم تقطع لمعسكرات المتمردين بجنوبي السودان ، وأنها تنفق لهم الأسلحة والعتاد الحربي والأطعمة عن طريق الطائرات التي تخرج من قواعد إحدى الدول المجاورة ، وأكثر من ذلك لقد أنشأ الإسرائيليون مدرسة لتخريج الضباط في ونجي كابول لتخريج القادة العسكريين الذين يقودون الحركة الانفصالية ، بل إنهم كانوا يشتركون اشتراكاً مباشراً في تخطيط عمليات المتمردين .

وأكد رئيس هيئة الادعاء أن استجواب المتهم شتاينر قد أكد أن حاييم

ماساني ريجل المخابرات الإسرائيلية في أوغنده كان يعاود بين الحين والآخر زيارة مناطق المتمردين في جنوبي السودان .

وأكد استجواب شتاينر كذلك امتداد هذا الدور الإسرائيلي القدر إلى كل حركات الانفصال والتمرد في إفريقيا . . ومن خلال شهادته التي تلاها المدعى العام تأكد أن أبا إيمان وزير الخارجية الإسرائيلي كان موجودا في يافرا خلال الحرب الأهلية النيجيرية ، وأنه هو الذي دبر شحن الأسلحة إلى جماعات الانفصاليين . . أما كيف أدرك شتاينر ذلك فلأنه بنفسه كان مسئولاً عن إعداد المخططات العسكرية للحركة الانفصالية في يافرا ولكن يافرا انتهزت قبل أن تتحقق هذه المخططات .

ومن الجمعيات التي اتصل بها شتاينر قبل سفره لجنوبي السودان جمعيات مسيحية تسمى جمعية « آباء فيرونا » وقد طلب الأب أنستوفى أحد زعماء هذه الجمعية من شتاينر السفر إلى جنوبي السودان ليقوم بمهمة جمع المعلومات حول طبيعة التمرد القائم في الجنوب ومدى المساعدات اللازمة لنجاحه (١) .

ذلك حديث موجز عن الجنوب فيما يختص بالسياسة ودور الاستعمار والتبشير وإسرائيل في هذا الدور ، ولنا فيما بعد حديث آخر يتصل بالجنوب في ميدان الثقافة والعلم . وسلم بهذا الحديث عند كلامنا عن التعليم في السودان .

وقبل أن ندع ميدان السياسة نقرر أن الحكومة الحاضرة تعمل على القضاء على سياسة التفرقة ، وتتعاون مع المخلصين من الجنوبيين ، وقد قرر اللواء جعفر نمبري أن يستمع الجنوب بالحكم الذاتي في إطار الوحدة مع الشمال ، وعقدت اتفاقية بذلك .

اقتصاديات السودان :

يمكن اعتبار السودان بلداً زراعياً نظراً لمعاليه الجغرافية ومصادره الطبيعية ، ومع أن الزراعة في السودان قديمة وعريقة ، فإن مشروع الجزيرة الذي بدأ في سنة ١٩٢٥ كان دفعة قوية إلى الأمام منحت السودان كثيراً من التقدم في مجال الزراعة ، ومنحت أفواجا من البدو حياة الاستقرار والرخاء .

وقد اشتقَّ المشروعُ اسمه من الجزيرة التي يقع بين النيل الأزرق والنيل الأبيض جنوب الخرطوم ، وتبلغ المساحة الكلية المزروعة حالياً بأرض الجزيرة بما فيها أرض التوسع الزراعي بمنطقة المناقل حوالي ١٨٧٠.٠٠٠ فداناً يزرع منها سنوياً أكثر من نصف مليون فدان قطناً ، ويعتبر القطن عماد الإنتاج الاقتصادي للمشروع الذي يزرع إلى جانبه بعض المواد الغذائية والعلف .

وقد اعتمد هذا المشروع على سدين عظيمين هما سد سنار الذي أقيم إلى الشمال على بعد ١٨ كم من المناطق المروية وذلك لتخزين المياه عقب انتهاء فيضان النيل الأزرق ، فبناء على اتفاقية الميلاء الموقعة بين مصر والسودان سنة ١٩٢٩ حددت بصفة كمية المياه اللازمة للزراعة في فترة الحاجة إلى المياه ، أما اتفاق ١٩٥٩ فقد أوجد إمكانيات جديدة عن طريق بناء السد الثاني وهو يقع بالقرب من الروصيرص ، وهذا السد يخزن خمسة أضعاف الكمية التي يخزنها سد سنار ، وهذا مكن السودان من زيادة مساحات واسعة جديدة لأرض الجزيرة وينتج مشروع الجزيرة قطناً طويل الثيلة ، وهو من الأقطان القليلة في العالم ولذلك يكثر الطلب عليه ، كما ينتج كميات هائلة من القمح والحبوب والبقول السوداني والخضراوات .

ويزرع القصب في منطقة جنبد بأرض الجزيرة أيضا على النيل الأزرق غير بعيد عن الخرطوم ، والمساحة المزروعة قسبا تبلغ حوالى ٤٥ ألف فدان ، وأنشئ بموارها مصنع لإنتاج السكر ، وقد بلغ إنتاجه ٦٠ ألف طن سنويا وهى كمية تعادل نصف احتياجات السودان ، وبأن مشروع الجنبد بعد مشروعى الجزيرة والمناقل ، وفيما عدا هذه المشروعات فإن الزراعة بوجه عام تعتمد على الأمطار بالسودان .

ويحتل الصمغ العربى المكان الثانى فى قائمة الصادرات بعد القطن بالسودان ، ويؤخذ من شجر المشاب والطلح وأهم جهاته كردفان ، وأهم مراكز تسويقه الأبيض التى تعد أكبر سوق للصمغ فى العالم ، وقد صدر منه سنة ١٩٥٦ بمبلغ خمسة ملايين من الجنيهات ، ومن أشجار السنط يؤخذ القرض للدباغة . وقد نجحت زراعة الأرز فى الجنوب بعد أن فشلت فى أرض الجزيرة ، ويزرع فى منطقة واو وأويل ، كما يوجد البن والتبغ فى المناطق الاستوائية (١)

وتكثر فى الجنوب قطعان الماشية وأصناف الفواكه الكثيرة كالباباى والموز والقشطة والمانجو وأشجارها تنمو نموا منقطع النظير وتوجد محاصيلها جيدة فائقة حتى أنها تملأ جوانب الشوارع والطرق (٢) ولكن الاستفادة بها قليلة جدا لأن الاستثمار لم يوجه أية عناية لخلق شبكة مواصلات بالسودان ويقول الأستاذ عمر الحاج موسى وزير الثقافة والإعلام السودانى فى حديث صحفى (٣) : إن فى السودان أكثر من عشرين مليون رأس من الأغنام يحلبها أصحابها ، ويلقون بلبنها فى الأرض كل يوم لأنه لا توجد وسيلة لحفظ اللبن ونقله إلى المدن التى تحتاجه ، وإن ثمار المانجو يلفن أصحابها منها بالأرض ما تساوى قيمته عشرة ملايين من الجنيهات

(١) دكتور فليب ولة : الجغرافية السليسة لإثريفة ص ٣٢٤ - ٣٢٥

(٢) مهندس توفيق محمد خليفة : الحياة فى السودان ص ١٠٣

(٣) الإحصاء فى السودان سنة ١٩٥٤

لأنهم لا يستطيعون نقلها إلى المدن ، ولأن تركتها بدون دفن يُسبب كثرة اللباب والأمراض .

والغابات تغطي ٣٧ ٪ من مساحة السودان ، وتغطي الغابات حاجة البلاد من الأخشاب وأعمدة البناء ، وبعض الأخشاب من أنواع الماهوجنى غالى القيمة فى صناعة الأثاث ، وقد وضع مشروع لصيانة الغابات وغرس الأشجار وتضم المناطق الحرجية التاسعة فى السودان حيوانات برية متعددة ، تجلب انتباه السائحى ، وتكسب البلاد مزيداً من العملة الأجنبية عن طريق تصدير هذه الحيوانات أو منتجاتها كالعاج والجلود .

وقد رت الثروة الحيوانية فى سنة ١٩٦٠ بما يزيد على ٧ ملايين رأس من البقر و ٧ ملايين رأس من النعم و ٦ ملايين رأس من الماعز ومليونى جمل (١) .

وقد اكتشفت فى السودان المعادن التالية :

الذهب - الكروميت - خام الحديد - خام المنجنيز - خام للنحاس - خام الرصاص مع الزنك - موليدانيت - كولبيت - مغنسيوم - ملح طعام - حجر جبرى (رخام) وغيرها من المعادن الكثيرة .

وقد استُغل الذهب على نطاق محدود فى جبال البحر الأحمر والمديرية الشمالية وجنوب وادى حلفا وجنوب الفونج والمنطقة الاستوائية وتوجد خامات الحديد بالقرب من وادى حلفا وفى جبال البحر الأحمر وكذلك توجد بالقرب من الرنك وفى كردفان (جبل ابوتولو) وفى المسطة الاستوائية وغرب دارفور .

وقد استخرجت خامات الحديد من قرب وادى حلفا ومن جبال البحر الأحمر ومن جنوب كردفان .

وأهم خامات الحديد المكتشفة والمستخرجة حتى الآن في رجل القولة جنوب كردفان .

وعلى كل حال فإن المعادن في السودان لم تُصَف بعد قلرا كبيرا في ميزانية الدولة .

وقد شهدت السنين الماضية قيام عدة مصانع حكومية بالسودان ، وهي مصنع السكر بالجند ، ومصنع السكر بنجشم القرية ، والمدبغة الحكومية ، ومصنع الكرتون بأروما ومصنع تعليب الفاكهة بواو وآخر بكريمة ، ومصنع تجفيف البصل بكسلا ، ومصنع البلح بكريمة ، وغيرها ، وهناك عدة مصانع غير حكومية مثل مصنع النسيج السوداني وشركة الخرطوم للغزل والنسيج ، ومصنع التريكو ومصنع الأسمت وغيرها من المصانع الهامة (١) .

وتعتبر مصر من أهم البلاد التي تنجر مع السودان ، تصدر لها وتستورد منها ، وتتنافس مصر وبريطانيا والهند في اتخاذ المكانة الأولى بين الدول التي ترتبط بالسودان بروابط تجارية .

التعليم بالسودان :

عند إعادة فتح السودان سنة ١٨٩٨ كانت هناك بالسودان مدرستان فقط ، إلى جانب مدارس تحفيظ القرآن ، وكانت الدراسة في هاتين المدرستين مقصورة على البنين ، وكان عدد التلاميذ بهما حوالى ثلاثمائة تلميذ فقط .

وحدد كرومر اتجاه الاستعمار في السودان نحو التعليم ، فأعلن سنة ١٩٠٢ عن ذلك الاتجاه بقوله : إن الحكومة البريطانية ستعمل على نشر القراءة والكتابة والحساب بين مجموعة معينة من الشبان حتى يصبحوا قادرين على شغل المناصب الصغيرة في إدارة بلدهم .

وكان هذا هو المخطط الاستعماري للثقافة بالسودان ، ولذلك كان تقدم التعليم بطيئاً ومحدوداً ، حتى أن كلية غوردن التذكارية التي أنشئت في الخرطوم سنة ١٩٠٢ لم تكن غير مدرسة ابتدائية ، وربما لم تؤسس إلا للتذكير بالقائد الإنجليزي الذي سقط في الخرطوم بسيف أبناء السودان (١) .

على أن التعليم انطلق من عقالة على الرغم من إرادة المستعمر ، وربما كان انطلاقه بسبب كثرة المدارس التبشيرية بالجنوب ، مما ألزم الحكم للتشأن بإنشاء مدارس بالشمال ، ثم إن لدينا مرجعاً يقرر أن الحكومة المصرية حملت عبء نفقات التعليم بالسودان إبان عهد الاحتلال رغبة منها في المساهمة في رفع مستوى السكان ، ولولا ذلك لظل التعليم بالسودان محدوداً (٢) ، ونتيجة لتطور التعليم بالسودان بلغ عدد الطلاب سنة ١٩٣١ تسعة آلاف طالب ، وعند استقلال السودان كان هناك أكثر من ١١٠٠ مدرسة حكومية ، بها ما يقرب من مائة ألف طالب ، وبعض هذه المدارس كان للتعليم الابتدائي وبعضها للثانوي كما كان هناك كليات للمعلمين والمعلمات ونحو ٦٠٠ مدرسة من مدارس التبشير أكثرها في الجنوب ، كما أن كلية غوردن التذكارية تطورت من مدرسة ابتدائية عند إنشائها إلى مدرسة ثانوية سنة ١٩١٣ مع محاضرات خاصة للمسلمين والمهندسين والقضاة ، وفي سنة ١٩٢٤ افتتحت مدرسة كتشنر للطب ، وفي سنة ١٩٥١ انحدت

(١) جورج كبل : إفريقيا الإدارية ج ٢ ص ١٢١ - ١٢٢

(٢) أحمد مطية الله : القاموس الإسلامي ج ٣ ص ٥٥٥

للمدرستان لتوثيقا كلية الخرطوم الجامعية ، وبعد بضعة شهور من الاستقلال أطلق عليها جامعة الخرطوم وضمت عدة كليات للفنون والآداب والقانون والاقتصاد والهندسة والطب والعلوم والصيدلة والطب البيطرى .

وقد عُنِيَ عهد الاستقلال عناية كبرى بالتعليم فى مختلف فروعہ ، فأنشأ المدارس الابتدائية فى أكثر النرى وفى كل المدن ، كما أنشأ كثيرا من المدارس المتوسطة والثانوية ، وعُنِيَ عناية كبيرة بالتعليم المهنى وإعداد المعلمين ، أما التعليم الجامعى فقد شهدت السودان منه ثلاثة منابع كبرى أولها جامعة الخرطوم سالفة الذكر التى تضم عدة آلاف من الطلاب والطالبات ، والثى يعمل بها أساتذة من مختلف أقطار العالم بالإضافة إلى الأساتذة السودانيين ، ول هذه الجامعة مكتبة ضخمة تسير على أحدث النظم وبها حوالى مائتى ألف مجلد فى مختلف المواد ومختلف الدراسات .

أما المنبع الثانى للتعليم العالى فيتمثل فى فرع جامعة القاهرة بالخرطوم ، وقد أنشئ ذلك الفرع سنة ١٩٥٥ ويشمل ثلاث كليات هى كلية الآداب وكلية الحقوق وكلية التجارة ، ولكل منها أقسامها الخاصة ، وهذه الكليات وحدات مستقلة عن نظيراتها بجامعة القاهرة ، وتكوّن كل منها وحدة تتبع جامعة القاهرة ، ول هذه الكليات مجلس يرأسه مدير الفرع لبحث الموضوعات الخاصة بهذه الكليات تمهيداً لعرضها على مجلس جامعة القاهرة ، وهناك أيضا مجلس استشارى يمثل فيه السودانيون ليوصى بما يراه من حيث البرامج والمواعيد وشروط القبول وغيرها ، والإقبال على هذه الكليات واسع للغاية ، وطلابها الآن حوالى خمسة آلاف ، وتهتم جامعة القاهرة بالرعاية الصحية والاجتماعية والرياضية لطلاب الفرع بالإضافة إلى اهتمامها بالناحية العلمية .

أما المنبع الثالث فى التعليم العالى ، فهو جامعة أم درمان الإسلامية ،

هى تطوير لمعهد أم درمان العلمى الذى أنشئ سنة ١٩١٢ ، ثم اكتمل نموه فأصبح به قسم للتعليم العالى سنة ١٩٢٤ ، ثم تطور إلى كلية إسلامية فجاءة إسلامية ١٩٦٦ تضم كلية الآداب وكلية للشريعة والقانون وكلية للبنات ، كما تضم معهدين للدراسات العليا ، أحدهما للدراسات الإفريقية والآخر للدعوة الإسلامية وكاتب هذه السطور كان له الشرف أن عمل بهذه الجامعة رئيساً لقسم التاريخ والحضارة الإسلامية بكلية الآداب ، ومع أن المدة التى شغل فيها هذا المنصب لا تتجاوز العامين فإنه بذل مع زملائه جهوداً كبرى لخدمة الدراسات الإسلامية واللغة العربية ، وقام بالإضافة إلى محاضراته بالجامعة ، بإلقاء عدد كبير من المحاضرات العامة فى عدد من عواصم المديرىات وفى هيئات متعددة ، كما اشترك فى الدورات التدريبية التى أقامتها الجامعة للصحفيين ورجال الإعلام ، ورجال الدعوة ولأمناء المكتبات ، وأشهد أنه من حق الإخوة فى السودان أن نشيد بتعاونهم وإقبالهم الذى لمناه واضحاً فى الزملاء من الأساتذة السودانيين ، وفى الطلاب الذين أقبلوا علينا بنهم وحرص شديدين .

وفى السودان مدارس للتعليم الدينى تحت إشراف دائرة الشؤون الدينية ، وهى تدير عدداً من المدارس مخصصة لتعليم الثقافة الإسلامية ، وهذه المدارس ذات مراحل ، فهى تستمد طلابها من كتائب تحفيظ القرآن المنتشرة فى القرى ، وترتقى بمستواهم فتعلم لهم علوم القرآن وعلوم السنة ، وشيئاً من التاريخ الإسلامى وبعض المواد المدنية تمهداً لالتحاقهم بالجامعة الإسلامية أو بالكلية الإسلامية التى حلت محل هذه الجامعة ابتداء من سنة ١٩٦٩ .

التعليم فى جنوب السودان :

من الملاحظات التى استرعت انتباهى وأنا أعمل بالسودان ، أنه لا يوجد

طالب واحد من طلبة الجنوب بجامعة القاهرة « الفرع » أو بجامعة أم درمان الإسلامية ، ويقل جداً عدد الطلاب الجنوبيين الملتحقين بجامعة الخرطوم ، وهذه الحالة ناشئة عن الماضي الاستعماري للبلاد الذي حارب اللغة العربية بالجنوب ، فوضع بذلك حائلا دون التحاق الجنوبيين بالكليات والجامعات التي يكون التدريس فيها باللغة العربية .

ولنعد إلى الوراء قليلا لنرى موقف الاستعمار من الثقافة بالجنوب ، ويبقى أن نكرر ما سبقناه آنفاً من أن الاستعمار كان حريصاً كل الحرص على عزل جنوب السودان عن الشمال ، وأنه اتخذ وسيطه لذلك بمحاربة الدين الإسلامي واللغة العربية ، ثم بإثارة جواهر الجنوبيين ذوى الدماء الزنجية ضد الدم العربي المنتشر بالشمال ، ورغبة في أن نجعل كلامنا محدوداً في نطاق التعليم نقرر أن الحركات التبشيرية بدأت بالجنوب وبالشمال مع مطلع الزحف الأوروبي على إفريقيا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، أوقبله بقليل ، وكان ذلك تنفيذاً لاتمرار الذي أصدره البابا جريجوري السادس عشر سنة ١٨٤٦ بتأسيس مركز تبشيري في السودان يعمل على تنصير الزنوج وإصلاح الحالة الروحية ، وعلى كل حال فإن هذه المحاولة التي امتدت في شمال السودان وجنوبه ، لم يطل نجاحها لأن الثورة المهدية - وقد قامت باسم الدين - حاربت هذا الاتجاه دون هوادة ، وقضت عليه قضاء تاماً ، ولكن القضاء على الحكم المهدى ، وبسط نفوذ الإنجليز في هذه البقاع أعطى الزمام لبريطانيا لتصرف في الثقافة على نحو ما تشاء ، وفيما يتعاقب بالجنوب فإن بريطانيا جعلته كما قلنا من قبل منطقة مغلقة على أهل الشمال وعلى المصريين ، وفتحت أبوابه على مصارعها للمبشرين الغربيين ، فانتشرت بالجنوب مدارس التبشير وكنائس المبشرين ، ولم يقف أمامها إلا المراكز

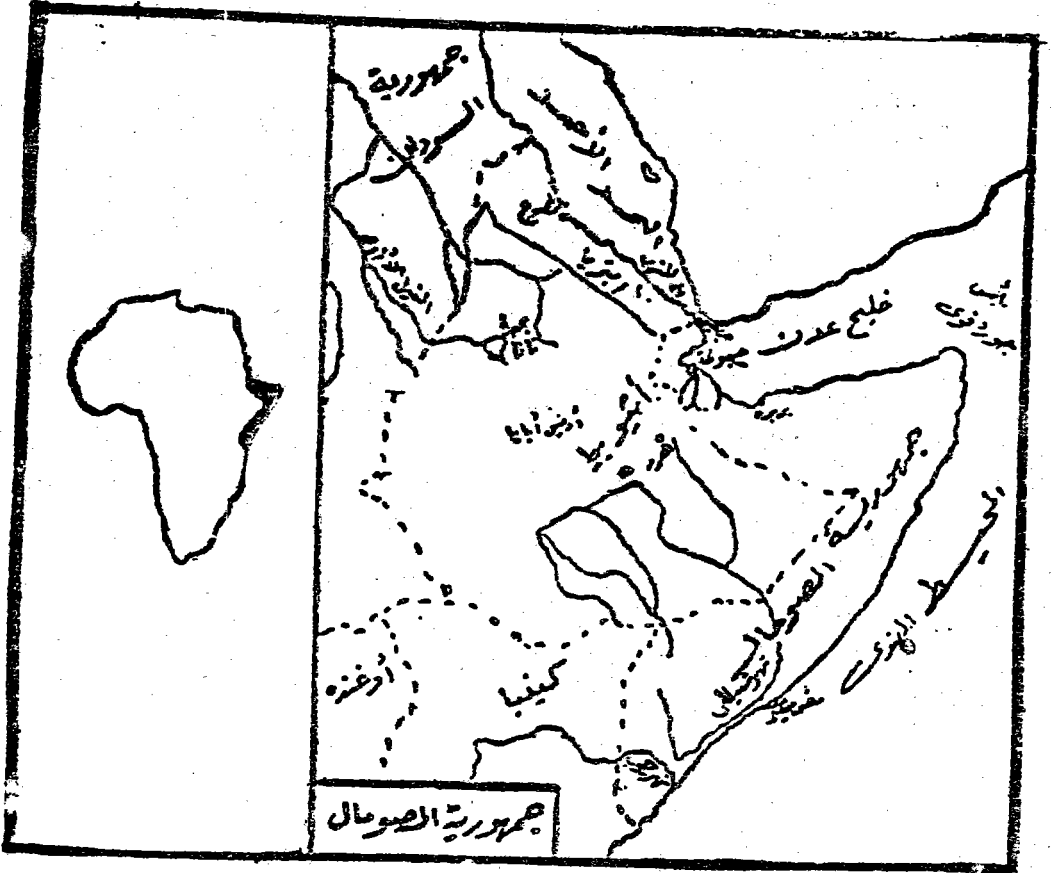
الإسلامية الباهتة التي كانت يظهر ومبضها خافتا هنا وهناك في بعض نواحي الجنوب .

ولكن مئات الكنائس وعشرات المستشفيات التي أقامها المبشرون بالسودان لم تحقق نجاحاً يذكر ولكن التعليم على كل حال كان تابعا لهذه الكنائس ، فمن أراد أن يتعلم تخم عليه أن يعتنق المسيحية .

وجاء الاستقلال فوجد أن الكنائس بالجنوب تمثل دولة داخل الدولة ، وعندما أرادت حكومة السودان أن تشرف على التعليم بمدارس التبشير أو توصي ببعض العلوم في مناهجه ، ثارت هذه الكنائس في وجه الحكومة السودانية ، ورفضت قبول توصياتها ، ولذلك خطت حكومة اللواء عبود خطوة مهمة . فأمنت التعليم بالسودان ، وعزلت المدارس عن الكنائس لتزاول التزامها الطبيعي في الإشراف على التعليم ، ولكن هذا لم يرض الكنائس لأن المدارس كانت وسيلتها السهلة لتأدية مهمتها ، فثارت هذه الكنائس ضد الحكومة وأعانت مقاومتها لقرار التخلي عن المدارس ، وكان أن خطا اللواء عبود خطوة ثانية هي أن أمم الكنائس نفسها ، وأعلن أنها ستدار لعبادة الله على يد رجال الدين السودانيين ، ولكن هذا ضاعف الثورة ، وانطلق المبشرون ومن تبعهم ممن يدين بالولاء لهم إلى الغابات ثائرين ، وتعاون الاستعمار وإسرائيل كما قلنا آنفا في مد هذه الثورات بالنار والسلاح حتى تبتى متأججة ، وقد سردنا آنفا طرفا منها متصلا بلمرتقي رولف شتاينر ، وهنا نعود إلى التعليم لنقرر أن الدولة تتولاه الآن بالجنوب كما تشرف عليه بالشمال ، وتفتح المدارس وتنتشر لغة البلاد والثقافة المحنمة ، وقد دعت المتشددين إلى إلقاء السلاح والتعاون تحرير الوطن وإعادة من استجاب بمفر شامل .

ويوم يحتفي التبشير من السودان ينتشر دين الله ويرتفع علم الإسلام بالدمعة الخالصة كما انتشر في كل مكان .

الصومال



موقع الصومال :

تقع جمهورية الصومال الحالية شرق إفريقيا، وتتخذ الجزء الشمالي من أرض الصومال شكل مثلث رأسه هي رأس «جوردفوى» ثم يمتد في شكل مستطيل على المحيط الهندي فهو بذلك يطل من ناحية الشرق على المحيط الهندي ، ويطل من ناحية الشمال على خليج عدن ، وعلى هذا فالصومال يشمل الأجزاء

الساحلية انتهى تبدأ من جنوب مدينة جيوقي ويستمر حتى جنوب نهر جوبا و
وفي الشمال يقع الصومال الفرنسي ، وفي الغرب إثيوبيا ، وفي الجنوب الغربي
والجنوب كينيا .

والصومال بذلك له موقع استراتيجي خطير لأنه يشرف على بوزار
باب المنذب ، مدخل البحر الأحمر ، ثم هو أقرب نقطة التقاء في المحيط الهندي
بين إفريقيا وآسيا ، وقد اصطلح علماء الجغرافيا على أن يسموا ذلك الجزء
للبارز من أرض الصومال « القرن الإفريقي » .

ويحري في جمهورية الصومال نهران هما نهر جوبا وشيللي ويستمدان
ماءهما من جنوب منطقتي عيسى وبالي في إثيوبيا ويصب نهر جوبا في المحيط
الهندي قرب مدينة كيسماو ، ويتلاشي الثاني في الرمال قرب مدينة براوة و
وجهورية الصومال الحالية لا تسيطر على كل الشعب الصومالي وكل
الأراضي التي يسكنها هذا الشعب ، بل هناك أجزاء كبيرة مقطوعة من الوطن
الكبير أو من الصومال الكبير ، ويستفصح ذلك عند الكلام عن تاريخ الصومال .

المسألة : وما وقع ورونا :

موقع الصومال خلق رباطاً كبيراً بين هذه المنطقة وبين مصر منذ فجر
التاريخ ، فهذا الموقع يحرس مدخل البحر الأحمر من الجنوب ومصر تسيطر
على مدخله من الشمال ، ولهذا يرى كثير من المؤرخين أن رحلات وصلات
واسعة وجدت بين مصر والصومال في الأزمنة القديمة ، سواء في ذلك من
قدموا من مصر إلى الصومال أو ذهبوا من الصومال إلى مصر ، أو من
هاجروا من العرب في وقت مبكر عبر باب المنذب إلى الصومال فصر ،
وهنا يفسر التشابه الواضح في اللامح بين المصريين والصوماليين ، ذلك
التشابه الذي لا يزال بارزاً حتى العهد الحاضر ، وقد عبر في جنوب الصومال

على لوحات أردوازية ترجع لعصر ما قبل الأسرات وعليها نقوش تؤيد
العلاقات المصرية القديمة بالصومال ،

وقد زادت هذه العلاقات قوة خلال بعض فترات عصور الأسرات
بمصر ، وكانت العلاقات التجارية والسياسية عميقة الاتصال بين البلدين ،
ومن أشهر هذه العلاقات بعثة الملكة حتشبسوت إلى الصومال ، وقد نقش
أخبار هذه البعثة على جدران معبد الملكة حتشبسوت بالبر الغربي بمدينة
الأقصر ، وقد حملت هذه البعثة هدايا من الملكة لحكام الصومال وعادت
بالكثير من الهدايا الصومالية للملكة المصرية .

وكانت صلة الصومال بالجزيرة العربية وثيقة منذ فجر التاريخ كذلك ،
فتجارة اليمن عرفت الطريق إلى الصومال ، وبوغاز باب المندب شهد
رحلات متبادلة بين الموقعين . وعقب انهيار سد مأرب استقبلت الصومال
عدداً كبيراً من المهاجرين العرب ، كما استقبلت أعداداً كبيرة من العرب
بعد الإسلام كما سنشرح فيما بعد ، وكان من نتائج ذلك أن انتشرت الأسماء
العربية بالصومال انتشاراً واسعاً ، وأوشكت بذلك أن تختفي الأسماء الإفريقية .

ووقدت إلى بلاد الصومال كذلك قبائل الجلا من قلب إفريقيا ، ولكن
التزاوج بين هذه القبائل والقبائل العربية خلق مزيجاً جديداً يمثل مع الدم
المصري والدم العربي حقيقة أصل السكان بهذه البلاد .

وقد جاء في كتاب « السلطنة الاستعمارية الألمانية » ما يفيد أن أهل
الصومال اختلطوا مع العرب منذ أكثر من ألف سنة ، وأن صورهم
وقسماتهم لا تختلف عن العرب اختلافاً كثيراً (١) .

والصوماليون الذين يرجعون بأنسابهم إلى العرب يسمون « الأشا »

(١) نقلنا من تقرير الاستاذين عبد الله ليلد ومحمود خليفة مبعوثي الأزهر للصومال .

ومعناها الصوماليون الخالص ، أما الذين ينحدرون من قبائل الجلا فيسمون « افويا » ولم تخل قبائل الجلا من الدم العربي اللى امتزج بها على مر العصور . وقبائل الصومال أشهرها الداروت والاسحاقيون والدرو عيسى والهاوية ، وتسكن الداروت في شمال الصومال الجنوبي وفي إقليم الأوجادين ، ويسكن الاسحاقيون في الصومال الشمالى بهرجيسة وبربرة ، وبعض مناطق الصومال الحبشى ، ويسكن الهاوية والدرو بالصومال الجنوبي وتسكن قبائل عيسى في الصومال الشمالى بمنطقة زيلع وحول جيبوتي بالصومال الفرنسى .

وبالإضافة الى هذا المزيج الذى تظهر فيه سمات الوجه العربى ، فإن قبائل عربية هاجرت على مختلف العصور واستوطنت الصومال ، وهى تكون الآن أكبر جالية به ، ومعظمهم من اليمنيين والحضارمة ، وسهمون بنصيب كبير في حضارة الصومال ونشاطه الاقتصادى ، ويسكنون المدن والقرى . وهناك كذلك الجالية الهندية الباكستانية ، وأفرادها يسكنون المدن ويقومون بدور الوسيط التجارى بين البلاد وخارج البلاد . هذا بالإضافة إلى الجالية الأوربية التى بدأت مع الاحتلال الأوروبى وأكثر هؤلاء من الإيطاليين وفيهم بعض الإنجليز والأمريكان .

وهكذا نستطيع أن نقول إنه لولا ما خلقه الاستعمار من تباعد لكان الصومال بلداً هربياً بحكم الهجرات العربية الواسعة إليه ، وبحكم قرب السكان الأصليين نتيجة لهذه الهجرات .

ولغة أهل البلاد هى اللغة الصومالية ، وهى لغة متعددة اللهجات ، وتنتشر في المدن والقرى والبادى ولكنها لغة تُتَظَنق ولا تُكُتَب ، وليس لها قواعد أو نظم تعليمية ، وقد تسربت كلمات كثيرة وحمل متعددة من اللغة العربية إلى اللغة الصومالية .

أما لغة الأدب والوثائق والكتابة في الصومال فهى اللغة العربية ،

وهي واسعة الانتشار في المدن ، ويعرفها رجال الدين بالقرى والبوادي ،
وهي اللغة التي تكب بها الحجج وعمود الزواج والوقف ، وهي لغة التعليم
بالمحلة الأولى ، ويتجه أغلب السكان أو كلهم إلى جعلها لغتهم الرسمية ،
ولكن الاستعمار حال دون ذلك ، عفاة أن تصبح الصومال بلداً عربي الدم
واللغة ، وحلول الاستعمار فرض لغته ، كما حاول أن يتكر وسائل لكتابة
اللغة الصومالية لتقوى هضبه في مواجهة اللغة العربية الزاحفة ، وعلى هذا
تنشر في الصومال الشمال اللغة العربية أولاً ثم اللغة الإنجليزية ، وفي
الصومال الجنوبي اللغة العربية ثم اللغة الإيطالية ، وتوجد بالشمال الصحف
العربية والإنجليزية وفي الجنوب الصحف العربية والإيطالية .

أما عن نسبة الإسلام بين سكان الصومال فإنها تضع الصومال مع المملكة
العربية السعودية أو قرية جداً منها ، فالإسلام في الصومال يشمل السكان
جيماً أو لا يدع أكثر من ١ ٪ لغيره من الأديان ، وعدد سكان جمهورية
الصومال الحالية حوالي مليونين وإن كان الصوماليون لا يذكرون عددهم
بلون أن يذكروا قوتهم وأهلهم الذين يخضعون للحكم الأجنبي وتخوتهم
ممالك أجنبية ، وإذا لاحظنا ذلك فإن تعداد الصوماليين هنا وهناك يصل
إلى خمسة ملايين ، مع ملاحظة أن الإسلام دينهم جيماً في كل بلد التحقوا به
أو وطن اتسبوا إليه ، ومن أجل هذا اتخذ البرلمان الصومالي في ٢٨ فبراير
سنة ١٩٦٣ قراراً بأن الإسلام هو الدين الرسمي للجمهورية الصومالية .

كلمة تاريخية :

إن تاريخ الصومال قبل الإسلام يكتشفه شيء من الغموض بسبب أحية
القبيلة التي كانت مسيطرة عليه ، وبسبب حياة الارتحال والبلادة التي كانت
طابع السكان^(١) .

(١) جلع عمر الصومال : تاريخ الصومال ص ١٢ .

وقد بدأ تاريخ الصومال يتضح مع دخول الإسلام هذه الأرض إذ أصبحت الصومال جزءاً من عالم المدينة والحضارة التي ظهر في الصور الوسطى في العلم ، ولكن الصومال تعرضت للاستعمار الأوروبي منذ عهد مبكر ، إذ اقتحمها البرتغاليون في أوائل القرن السادس عشر ، وحاولوا هم ومن جاء بعدهم من المستعمرين الأوروبيين هذه البلاد طمس معالم التاريخ التي خطها الإسلام بأرض الصومال ، وقد كان من سياسة الاستعمار أن يدفن محاسن الدول المغلوبة ويحسم تاريخها ، وأن ينشر بها تقاليد وأفكاره ، وقد نجح الاستعمار إلى حد كبير في إخفاء معالم تاريخ الصومال ، ولكننا على كل حال نستطيع أن نقبض لمحات من الماضي وأن نضم هذه اللوحات بعضها إلى بعض لتكون منها تاريخ هذا البلد الحبيب .

ولسنا نحب أن نعود إلى تاريخ الصومال القديم اكتفاء بما ذكرناه آنفاً عن علاقته بالمصريين والعرب قبل الإسلام ، ونحس خطوة خطوة في إبراز تاريخه الإسلامي ، وفي هذا العهد الإسلامي حكمت هذه البلاد بالعرب والفرس والبرتغال ثم العرب مرة أخرى قصر فلانسيا فلانجلترا وفرنسا وإيطاليا واقتطعت أجزاء منها كما سنرى فيما بعد ، ضم بعضها إلى الحبشة وبعضها إلى كينيا ، وجاء الاستقلال بعد ذلك فحق تحرير بعض الأرض ، ولا يزال يعمل لتحرير الباقي .

وسنبر خطوة خطوة مع كل مرحلة من مراحل تلك الحياة السياسية التي عاشها الصومال :

العرب ومعارات العربية بالصومال :

يرتبط تاريخ العرب بالصومال مع التاريخ الإسلامي ، ويدور أن الصومال كان من أسبق البلاد لدخول الإسلام ، فهناك رأي سديد يذكر أن هجرة المسلمين إلى الحبشة كانت عن طريق الصومال ، وأن هؤلاء المهاجرين الأول

حطوا رحاظم ببلاد الصومال فترة يغلب أن تكون طويلة نوعاً ما عقب عبورهم البحر الأحمر ، فلقد وجلوا في إفريقية منجاة من العسف القرشي الذي كانوا يعانونه في مكة ، وإذا كانوا قد حثوا السير في الجزيرة العربية ليُفْلِتُوا من الكفار الذين كان من الممكن أن يلحقوهم ويكترهوهم على العودة ، فإنهم في الجانب الثاني من البحر أحسوا بالأمن والطمأنينة ، فلم يعودوا يمشون الخطأ ، بل مالوا إلى الراحة وحاولوا نشر الدعوة ، ولا يزال في الصومال قبائل تنسب إلى عقيل بن أبي طالب ، وهي قبائل الداروت التي ينحدر منها الشيخ الجبرقي المشهور ، وهذا يشير إلى أن المهاجرين أقاموا بالصومال فترة سمحت بأن تبقى جنودهم بها بعد أن استأنقوا السير إلى الحبشة .

وتتابع دخول الإسلام بلاد الصومال منذ ذلك التاريخ المبكر عن طريق الحجرة أو التجارة ، على أن هناك معالم بارزة دفعت الإسلام إلى الصومال ، وفرضت سيادة ذلك الدين على الساحل والداخل جميعاً ، ومن أهم هذه المعالم ما يروى أن عبد الملك بن مروان (٨٦ هـ) الخليفة الأموي الشهير أرسل جيشاً إلى بلاد الصومال ضمن جيوشه التي بعث بها هنا وهناك تفشر الإسلام ، وتقاوم دولة الكفر والشرك ، وكان الجيش الأموي بقيادة بطل اسمه الأمير موسى من بني جشم ، ولم يقابل هذا الجيش مجيئاً صومالية ، وبالتالي لم يدخل معارك حربية ، إذ كانت الأفكار الإسلامية قد سبقت ذلك الزحف ، وكانت الدماء العربية أسبق من الأفكار الإسلامية لهذا المكان ، فلم تدرُ معارك حربية ، وإنما انقلبت عملية الجيش إلى دعوة إسلامية ، وإلى تقديم كتاب الله وسنة رسوله لمزيد من السكان ، ونشطت بذلك دعوة الإسلام نشاطاً ملحوظاً .

وهناك موجة إسلامية أخرى جاءت إلى بلاد الصومال في مطلع القرن الهجري الثاني ، وكانت هذه الموجة تتمثل في جماعة الزيدية أتباع الإمام زيد

حفيد الإمام علي بن أبي طالب ، وكان هذا الإمام قد خرّ صريعاً عقب ثورته على هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢ هـ ، فقرّ أتباعه وخافوا اضطهاد الأمويين وعبروا البحر إلى منطقة الصومال .

وإذا كانت الحملة التي أرسلت في عهد عبد الملك بن مروان ونشرت الإسلام في الصومال قد انماعت بين السكان ، فإن جماعة الزيدية لم يناعوا ، وإنما استقروا على الساحل عند مدينة بنادر ، وسيطروا على هذه المنطقة وأقاموا بها إمارات عربية أخذت تباشر الأمور التجارية والزراعية والحضارية ببلاد الصومال .

وهناك موجة أخرى عربية إسلامية دخلت الصومال ونشرت الإسلام به ، وقد جاءت هذه الموجة من بلاد الإحصاء على الخليج العربي بزعامة إخوة سبعة ، واستقرت على ساحل بنادر حيث كان الزيديون يعيشون ، ولم يشأ الزيديون أن يدخلوا معارك ضد المسلمين النابئين الوافدين من الإحصاء ، فقد كانوا قد كرهوا المعارك بعد أن رأوا إمامهم يُقتل ويصلب ، ومن أجل هذا هجروا الساحل واتجهوا إلى داخل البلاد ، وكان لهذا التصرف أثر بعيد عليهم وعلى السكان الأصليين ، أما الأثر الذي يتصل بهم فهو أنهم انماعوا بين السكان الأصليين ، وبالتالي اختفى للذهب الشيعي الذي كانوا يتمسكون به فإن وجودهم في محيط أوسع جعل اتجاههم يحنّى ، وأما الأثر الخاص بالسكان الأصليين فهو مزيد من نشر الإسلام بالداخل ، إذ كان الساحل من قبل أكثر تأثراً من الداخل في هذا المجال ،

الفرس والإمارة الفارسية بالصومال :

هناك موجة أخرى حملت الإسلام إلى هذه المناطق وتمثل هذه المرة في

(١) عن ثورة الزيدية ونتائجها اقرأ الجزء الثاني من هذه الموسوعة ص ٢١٢ - ٢١٥

جماعة من الفرس ، نزحوا من شيراز في القرن العاشر الميلادي إلى ساحل الصومال ، وحطوا رحالهم في المكان الذي أقاموا فيه إمارة مقدشو ، وكان اسم هذا المكان من قبل « سُحْر » نسبة إلى الحميريين الذين كانوا يعيشون بها منذ أمد بعيد ، وقد بنى الفرس مدينة مقدشو في ذلك المكان ، وكونوا لهم حولها إمارة بين الإمارات العربية ، وجعلوا مقدشو مقراً لهذه الإمارة ، وتعاون العرب والفرس في الصومال على خدمة التجارة والزراعة ، فقد اشتغلوا بالزراعة وعلموا أبناء البلاد الاشتغال بها ، وأدخلوا إلى أرض الصومال أنواعاً من أشجار الفاكهة ، كما أدخلوا شجرة القطن وكذلك السمسم وغيرها .

وعندما جاء القرن الحادي عشر الميلادي ، كان الإسلام قد شمل هذه المناطق جميعاً ، وأصبح السكان الأصليون يدينون بالدين الخفيف شأنهم شأن الوافدين من العرب والفرس .

وقد عثر البرتغاليون على وثيقة عربية في مدينة كلوة سنة ١٥٠٥ ، وأمكن منها معرفة بعض الأخبار المهمة عن مدينة مقدشو في القرون الأولى للهجرة منها أخبار البعثات العربية التي قلمت من الإحساء سالفة الذكر . وتنسب الوثيقة لهم أنهم هم الذين أسسوا مدينتي مقدشو وبرأوة ، وتذكر الوثيقة العربية أن العرب أقاموا بهذه المدن حكماً شورياً ظل حوالي ثلاثمائة سنة ، وأن أكبر الهجرات التي وصلت إلى مقدشو كانت سنة ١٤٩ هجرية ، وكانت مكونة من إحدى وثلاثين قبيلة أكثرهم وفدوا من حضرموت (١) .

وليس ذلك مخالفاً لما أوردناه عن نسبة هذه البلدة للفرس ونسبة اسمها للغة الفارسية ، فإن المدينة كانت أقدم وجوداً من الهجرة الفارسية ،

(١) نقلا عن الإسلام في الصومال : رسالة ماجستير للأستاذ عبد الرحمن النجار ص ٦٥ (لم تطبع بعد) .

وكان العرب أقدم زوّجاً لهذه المنطقة من الفرس ، ويبدو أن الفرس جاءوا إليها واستوطنوها قسبت إليهم .

ولم يكن هناك حكم واحد يسيطر على إمارات الساحل وقبائل الداخل ، فقد كانت القبائل بالداخل شبه مستقلة ، وكانت كل إمارة بالساحل شبه مستقلة كذلك وقد استطاع الشيخ عمر فخر الدين الصومالي « عمر جلولة » في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي أن يمد نفوذه إلى مقدشو وبعض المناطق المجاورة ثم ورث السلطنة بعده ابنه أبو بكر بن عمر وكان من خبرة السلاطين وتعايب بعدهم السلاطين الوطنيون الذين حاولوا تكوين مملكة متحدة من هذه الإمارات ، حتى فاجأهم الاستعمار البرتغالي ، وقد سبق أن تحدثنا عن عمر جلولة وسلطنة مقدشو عند كلامنا عن الإمارات والممالك بالساحل الشرقي (١) .

البرتغال في الصومال :

يرتبط تاريخ البرتغال بالصومال بهذه الرحلة المشهورة التي قام بها الرحالة فاسكو دي جاما وطاف بها حول إفريقيا واكتشف رأس الرجاء الصالح ، وقد وصل الاستعمار البرتغالي إلى بعض مناطق الصومال سنة ١٤٩٩ م ، ثم أخذ يمتد حتى شمل نفوذه التجاري منطقة الساحل سنة ١٥٠٣ م أعدا مدينة مقدشو ، وكانت فترة النفوذ البرتغالي فترة عصيبة على أهل الصومال ، وقد امتدت حوالي ١٧٠ سنة ؛ كانت بلاد الصومال خلالها مصدراً مستلباً من البرتغاليين وغير البرتغاليين من الأوروبيين كل ما استطاعوا أن يحصلوا عليه من خيرات البلاد وثرواتها ، وقد اتسم هذا العهد بأنه عهد التدمير والتخريب ، فقد تحطمت خلاله ميناء براوة نتيجة لحملات السلب والنهب

التي كان يقوم بها «راكبو السفن» وهي القسبة التي كان يطلقها الصوماليون على القرنجة في ذلك الوقت .

عمارة في الصومال :

تطلع أهل الصومال وهم عرب مسلمون إلى عون الدول العربية والإسلامية ضد الغزو البرتغالي ، فأرسلوا رسالة سرية إلى إمام عمان يشرحون له فيها أحوالهم السيئة وما يعانونه من غزو المسيحيين الأوروبيين ، ويطلبون منه أن يمد لهم يد العون ليتحرروا ويحموا أرضهم ونراهم ، وكان طبعاً أن يستجيب إمام عمان ، فأرسل لهم جيشاً كبيراً في النصف الثاني من القرن السابع عشر (الحادي عشر الهجري) وكان يقوده بطل اسمه الأمير سالم الصارمي ، وقد اشتبكت هذه الجيوش في حرب طاحنة مع البرتغاليين وهزمتهم ، وأرغمتهم على الجلاء لا من الصومال فحسب ، بل من أغلب الموانئ التي كانوا يحتلون في الشاطئ الشرقي لإفريقية ، ومن بينها موانئ ممباسة وزنجبار ، ولم يكن لسلطان عمان مطامع بهذه البلاد ، ولذلك غادرتها جيوشه عقب طرد البرتغاليين بعد أن أسلمت السلطة إلى المواطنين ممثلين في شيوخ القبائل ، وهناك مخطوطة صومالية تصور النصر الذي أحرزه القائد العباسي ، كما تصور فرح الصوماليين بالاستقلال ، وقته كتبت هذه المخطوطة مسجوعة وهو أسلوب العصر آنذاك ، ومما جاء فيها «ورجع الأمير إلى عمان مسرور الحال ، وأخبر الإمام أخباراً سارة عن نهاية القتال ، ضد الذين كانوا يفعلون أمور المكروه والمنكر وذكر للإمام أن المسلمين يدعون له بالعمر الطويل ، والخبر الحزيل ، لأنه دفع عنهم الذل والبلى ، وتفضل فسمع منهم الشكوى ، وكان ذلك الوقت سنة ١٠٧٦ و طاب قلب الإمام بذلك » (١) .

(١) مخطوطة صومالية نقلت عن الإسلام في الصومال للأستاذ عبد الرحمن النجار ص ٩٩ -

وهكذا عادت الصومال إلى الاستقلال وحكت نفسها بنفسها مرة أخرى ، وبرزت من جديد السلطات القبلية ، ولكن ذلك أدى إلى جور من التناحس اقلب إلى صراع مرير وبخاصة في منطقة بنادر ، فهبت معارك دامية بين أهلها وكان ذلك في النصف الأول من القرن الثالث عشر للمجرى هـ التاسع عشر الميلادي ، وقد انتهز الأوربيون فرصة هذا الصراع فبدأوا يُغفرون على الشاطئ يسلبون ثرواته ، ويهددون ساكنيه مما فتح الباب لمرحلة جديدة في تاريخ الصومال تلك هي مرحلة سلطة زنجبار بالساحل .

زنجبار في الصومال :

يمكننا هنا أن نقول القول الشائعة بأن التاريخ يعيد نفسه : فالزحف الأوربي دفع الصوماليين للاستعانة بأمير عمان في القرن الحادي عشر ، والاضطراب الداخلي بالصومال الذي جاء جنباً إلى جنب مع المحاولات الأوربية للعودة للصومال دفع البلاد مرة أخرى أن تطلب العون من حفيد إمام عمان الذي حماها من قبل وأعاد لها استقلالها ، وكانت سلطنة عمان ومقط بعد أن حققت انتصاراتها على البرتغاليين بسواحل بلاد العرب وشرقي إفريقيا قد اتجهت لاحتخاذ جزيرة زنجبار قاعدة لها تواجه بها الزحف الأوربي الذي كان يعاود التطلع خلف المنطقة ، فنقل السلطان سعيد سلطان عمان مقر سلطته إلى زنجبار سنة ١٨٣٢ ، وعقب وفاته انقسمت دولته إلى سلطتين الأولى في عمان والثانية في زنجبار ، وحكم ابنه ماجد زنجبار وبعده جاء برغش وفي عهده عادت بلاد الصومال تطلب عونه ، وما إن تلقى برغش دعوة الصوماليين حتى استجاب لها ، وزحف إليها سنة ١٨٧١ ، واكن نتوذه لم يستطع أن يشمل البلاد كلها بل امتد إلى السواحل الجنوبية

.....

مصر في الصومال :

كانت تركيا قد مدت نفوذها خلال التوسع العثماني إلى بعض الموانئ بالساحل الإفريقي بالبحر الأحمر لتحمي بذلك سلطانها على البلاد التابعة لها على جانبي البحر وهي الجزيرة العربية في الشرق ومصر في الغرب ومن أهم هذه الموانئ سواكن ومصوع ، ولكن سلطان تركيا على هذه الموانئ كان اسمياً لا يقصد به الموانئ نفسها بقدر ما يقصد به حماية الأسطول التركي الذي يحمي بدوره البلاد التابعة لتركيا على جانبي البحر الأحمر .

فلما قامت أسرة محمد علي بمصر بدأت هذه الأسرة تتجه إلى هذا البحر وعند نفوذها عليه ، فاستأجر محمد علي مينائي سواكن ومصوع من سلطان تركيا ، وبدأ يدب في هذين الميناءين روح جديدة ، فنشطت التجارة بين مصر وبينهما وتعددت الرحلات السياسية والثقافية .

وفي عهد الخديوي إسماعيل حدث حادثان كبيران يرتبطان بمصر ، الحادث الأول هو مزيد من التوسع في بلاد السودان وحوض النيل الأعلى ذلك التوسع الذي بدأه محمد علي ، والحادث الثاني هو افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ ، التي ربطت البحر الأحمر بالبحر الأبيض ، وأبرزت ضرورة سيطرة مصر على هذا البحر ، وقد عمل الخديوي إسماعيل على أن تلتقي جهوده بالسودان مع توسعاته على البحر الأحمر ، وكان امصر آنذاك أسطول في هذا البحر ، ولهذا الأسطول محطات في أماكن متفرقة على الساحل الإفريقي ، وقد امتد نفوذ مصر في هذا العصر إلى زيلع وبربرة ، ثم اتجهت مصر إلى المحيط الهندي ليكون للأسطول محطات به ، وكان ذلك سنة ١٨٧٥ حين أقلعت حملة مصرية فوصلت القرن الإفريقي ، ونزلت إلى الجنوب منه ، أي في شمالي الصومال ، وهناك استقبلها الصوماليون بالترحاب

لتساعدهم ضد الغزو الأوربي الذي كان يدد أبواب الصومال ، والذي لم يعد سلطان زنجبار قادراً على رده ، وهكذا ارتفع العلم المصري على هذا الموقع الخطير ، وبعد ذلك واصلت الحملة سيرها ببلاد الصومال تجاه الجنوب ، وكانت تُستقبل في هذه البلاد بالحفاوة البالغة والرحيب المتواصل ، فنهضت براوة التي كانت تابعة لسلطان زنجبار ، ورحب هذا السلطان بالمصريين ، باعتبار أن القوة الإسلامية قوة واحدة تتعاون ضد الزحف الأوربي الذي يتخذ الصليب رمزاً له في الظاهر أو في الباطن ، وفي براوة ترك الأسطول المصري حاكماً مصرياً ، واستمر في زحفه إلى الجنوب حتى بلدة كيسمايو التي تقع إلى الجنوب من نهر جوبا ، ودخلت السفن المصرية هذا النهر وسارت فيه مسافة طويلة بقصد أن تلتقي بمنطقة البحيرات الاستوائية التي كان الزحف لها يسير من الداخل أيضاً كما قلنا من قبل ، وأطلقت مصر على بلدة كيسمايو « بور إسماعيل » (١) .

وعلى الرغم من الترحيب الواسع الذي لقيه القوات المصرية في زحفها على ساحل المحيط الهندي ، وعلى الرغم من أن القبائل كانت ترحب من الداخل لترحب بمقدم المصريين لهذه المناطق ، بل جاءت لهم وفود السلاطين من جزر القمر « القومور » يطلبون أن تمد مصر نفوذها إلى جزرهم ، وأن تركز سلطاتها بالساحل كله وبالجزر لمقاومة له ، نقول على الرغم من ذلك فإن الوقت لم يكن مناسباً لهذا الزحف للمصري لأن الربع الأخير من القرن التاسع عشر كان قد أطل ، فبدأت الدول الأوربية وبخاصة إنجلترا تضع المراقيل في الطريق للمصري ، ومن أهم هذه المراقيل دعت سلطان زنجبار إلى المطالبة بحقوقه في الساحل المواجه للمحيط الهندي ، إذ كانت قوة الإنجليز يسهل عليها أن تقهر هذا السلطان ، وتمد نفوذها إلى الداخل ، ولكن ذلك لم يكن

سهلاً في حالة وجود المصريين بالصومال ، وفي نفس الوقت كان الساحل قد طال على الأسطول المصري وكانت حمايته أمام الزحف الأوربي عسيرة ، ولم تشأ مصر أن تنزل صراعاً مع المسلمين المثلين في ساطنة زنجبار ، فم الاتفاق على أن يكون الساحل المواجه لخليج عدن حتى القرن الإفريقي تابعاً لمصر بما فيه ذلك الصومال الشمالي « البريطاني بعد ذلك » ، واعترفت بريطانيا بذلك في معاهدة سنة ١٨٧٧ .

وقد بقيت مصر في هذه البلاد حوالى عشر سنوات ، ومع أن هذه المدة قصيرة إلا أن آثارها واسعة المدى ، فقد أخذت مصر للصومال الشمالي حضارتها وفكرها ونظمها ، ولا تزال الآثار قائمة في كثير من بلاد هذه المنطقة تشهد بما أدته مصر من خدمات لها ، ولا يزال الناس يتحدثون عن تلك الأيام الغر التي انتشرت فيها حضارة الإسلام وحضارة مصر يلادهم دون ضغط أو إكراه فلقد تفاعلت هذه البلاد مع مصر ، وكأنها تستعيد روابط الدم والعلاقات القديمة التي ربطت الصومال بمصر منذ فجر التاريخ : ووفدت إلى السلطات المصرية وفود القبائل من الداخل تطلب مزيداً من التدخل للإصلاح والتوفيق بين القبائل المتنافرة ، وتبرز المراجع المصرية أسماء أربعة من زعماء القبائل هم عثمان شيخو وعلى القاضي والحاج محمد عبد القادر ومحمد بشير .

ولم يكن من الممكن أن تطول مدة المصريين أكثر من ذلك ، فإن سعار الاستعمار الأوربي قد اشتد ، ووقعت مصر نفسها في قبضة هذا الاحتلال سنة ١٨٨٢ ، وقامت اثورة المهديّة بالسودان التي تحدثنا عنها من قبل ، ولوحّمت قوات مصر على إخلاء كل المناطق التي كانت قد امتد نفوذ المصريين لها ، وأخذت الإمبراطورية المصرية تنكش إلى حدود مصر ، تاركة السودان والمناطق الجنوبية وتاركة الصومال الشمالي الذي نتحدث عنه الآن ، وقد ثار الصوماليون لسحب القوات المصرية من بلادهم ، ذلك

لأنهم لم يحسوا أنها قوات احتلال ، ولأن هذه القوات لم تكن كذلك في الحقيقة ، وإنما كانت قوة إسلامية في بلاد إسلامية ، ولا يعرف الإسلام حدوداً بين أراضيه ، وبخاصة إذا تعرضت منطقة من مناطقه إلى تهديد أجنبي وتدخل صليبي .

وكان من آثار قرار حكومة مصر أن تسحب قواتها أن غضب الشعب الصومالي على هذا القرار وظهر أسفه فأرسل ممثلو بريرة عدة عرائض إلى الحكومة المصرية يطلبون منها عدم الانسحاب ، وقد جاء في إحدى هذه العرائض « إنا مسلمون ولا يمكن أن ندين بالطاعة إلا لمسلمين مثلنا » .

وكتب سكان هرر عرضة أخرى وقعها ثلاثة وخمسون شخصاً من الأعيان والتجار الوطنيين جاء فيها :

« من خمسين سنة خلت كانت هذه المملكة ميداناً للبربرية يحكمها ملوك صغار ، وكان إهراق الدماء وأعمال السلب والنهب قائمة على قدم وساق ، وقد هيمنت الحكومة المصرية على هذه البلاد قبل تسعة أعوام ، فوطدت النظام والأمن ، وجعلت من مدينة هرر مركزاً من أهم مراكز التجارة فإذا كان قرار الحكومة لا مرد له لم يكن لنا بد من - الهجرة مع الجنود وترك أملكنا للنهب » .

وقد أخذت مصر تحت الضغط الاستعماري تاجورة وزيلع وبربرة عام ١٨٨٤ ، أما هرر فرفضت حاميتها تنفيذ أمر الإخلاء واستعدت للمقاومة ، ولكن صدور الأوامر بفصل كل متعرد من خدمة الجيش ، جعل الحامية تستسلم للقرار وخرجت الحامية من المدينة في شهر يونيو من العام التالي سنة ١٨٨٥ وسط أسف الناس وأحزانهم (١) .

الاستعمار الأوربي بالصومال :

عقب انهيار الحكم المصرى ببلاد الصومال زحفت عليه القوات الأوربية لأن بلاد الصومال بلاد ساحلية تعتبر باباً مهماً من أبواب إفريقيا ، وقد تقاسمت أوروبا على النظام الآتى :

١ - أسرع إنجلترا فاحتلت المناطق التى كانت تحتلها مصر والصومال الشمالى ، باعتبارها وريثة مصر والمسئولة عن أملاكها ، ولكنها فى الحقيقة كانت تأخذ المنطقة لنفسها ، لأنها تواجه خليج عدن ، وتحرس الطريق لإمبراطوريتها بالمند ، وقد تم احتلال هذه المنطقة فى نفس الوقت الذى خرجت فيه القوات المصرية ، بل ربما قبل ذلك بقليل سنة ١٨٨٣ ؛ إذ كانت القوات المصرية فى كل مكان خاضعة لإنجلترا منذ احتلالها لمصر سنة ١٨٨٢ ، وعاصمة هذه المنطقة هرجيسه .

٢ - وحتى لا تصطدم إنجلترا بفرنسا تم الاتفاق على أن تحتل فرنسا منطقة صغيرة عند مدخل البحر الأحمر هى الصومال الفرنسى الآن وعاصمتها جيبوتى ، وقد عزلت فرنسا هذه المنطقة عن العالم ، وأقامت عليها ستاراً حديدياً يقطع الصلة بين هذه المنطقة وبين جهات العالم ، وبخاصة العالم الإسلامى ، وكانت هذه المنطقة تابعة لمصر أيضاً .

٣ - عاد الصومال الجنوبى إلى السلطة الاسمية لسلطان زنجبار ، ولكن هذا كان قد أصبح غير قادر على مقاومة الاستعمار الأوربى ، فعقد معاهدة مع ألمانيا سنة ١٨٨٦ اعترفت له ألمانيا فيها بالسلطان على زنجبار وسواحل الصومال الشرقية ، على أن تكون هذه المنطقة تحت حماية ألمانيا ، ولكن ألمانيا لم تدم على تمسكها بهذه المنطقة فتخلت عنها لإنجلترا سنة ١٨٨٩ ، وسمحت بريطانيا لإيطاليا أن تعقد اتفاقيات مع بعض السلاطين لتأجير الموانئ إليها ، وكان

ذلك أساساً لاحتلال إيطاليا للصومال الجنوبي سنة ١٨٩١ وعاصمة هذا الجزء هي مقديشو ، والصومال الإيطالي يمثل الجزء الأكبر من الصومال وكان يمتد فيشمل المنطقة الجنوبية من الصومال التي تتبع كينيا الآن .

٤ - الصومال الحبشى وهى المنطقة التي تعرف باسم أوجادين ، وقد زحف لها الأحباش عقب انتصارهم على إمارة هرر سنة ١٨٧٦ ومنطقة الأوجادين منطقة صومالية ١٠٠ ٪ يسكنها حوالى ١ مليون من الصوماليين ولكن بريطانيا سهلت للحبشة باسم الصليب الزحف على هذه المناطق الإسلامية .

وفى سنة ١٩٣٥ - ١٩٣٦ زحفت إيطاليا على الحبشة فاحتلتها واحتلت معها منطقة الأوجادين وهرر وبهذا أصبح لإيطاليا جزء كبير فى شرق إفريقيا يمتد من المحيط الهندي إلى قلب إفريقيا ويشمل الصومال الإيطالي والأوجادين وهرر وبلاد الحبشة .

وامتد نفوذ إيطاليا فشمل الصومال البريطاني نفسه فى مطلع الحرب العالمية الثانية أى عندما انضمت إيطاليا لألمانيا التي كانت قد حققت انتصارات سريعة على الحلفاء ، فأرادت إيطاليا أن تكسب من انتصارات ألمانيا فانضمت لها ، وسرعان ما استولت على الصومال البريطاني نفسه فضمت رقعة جديدة إلى النفوذ الإيطالي فى هذا المكان .

ولكن ذلك لم يدم طويلاً فإن قوات الحلفاء سرعان ما استعادت خيوط النصر ، ففى سنة ١٩٤١ - ١٩٤٢ انهزمت إيطاليا فاستولت بريطانيا على كل ما كان لإيطاليا فى شرق إفريقيا ، أى على الصومال البريطاني والإيطالي وعلى الأوجادين وهرر والحبشة ، وفى سنة ١٩٤٧ تَرَكت الحبشة لأهلها وأعدت الإمبراطور هيلا سلامى إلى سلطانه بها ، وبقي سلطانها على الصومال شمالي والجنوبي وعلى طقة الأوجادين وعلى المنطقة الصومالية التي تتبع كينيا الآن .

وهكذا آل أمر الصومال كله إلى بريطانيا ما عدا الصومال الفرنسي ، وأرادت بريطانيا أن تكون منه دولة واحدة تمنحها الاستقلال الاسمي تحت سلطتها ، ولكن الصوماليين رفضوا هذا الاتجاه ، ومن ثمّ انجهدت بريطانيا إلى تحقيق ما يمكن تحقيقه من أهدافها بالصومال قبل أن تترك الصومال ، فأعادت سنة ١٩٤٩ منطقة أوجادين إلى الحبشة مدعية أن هذه المنطقة كانت ضمن الحبشة قبل استيلاء إيطاليا عليها ، متناسية أن هذه المنطقة منطقة صومالية بحتة ، وأن الحبشة قنعت باستقلالها ، وما كان لها أن تطالب بأن تضم لها الأوجادين التي أخذتها في فترة من فترات قوتها بمساعدة الاستعمار الأوروبي الذي كان دائماً يحارب الإسلام ويقوى جانب الأحباش .

ونصرف آخر قامت به بريطانيا قبل أن تترك الصومال وهي أنها ضمت جزءاً من جنوب الصومال إلى كينيا ، وهذا الجزء هو ما يعرف الآن بالصومال الكيني ، وكانت بريطانيا تدرك أن الأمل في بقائها بالصومال ضئيلاً ، ولكن هذا الأمل كان واسعاً بالنسبة لبقائها في كينيا ، وكان المسلمون يؤيدون اتجاهات للصومال الاستقلالية ، وكانت إيطاليا بعد أن اتجهت نحو الحلفاء تطمع في أن تستعيد نفوذها بالصومال ، ومن أجل هذه الأسباب كلها رأت بريطانيا أن تأخذ بعض الغنيمة فضمت الجزء الجنوبي من الصومال إلى كينيا وهو جزء صومالي الشعب والأرض ، سكانه مسلمون مائة في المائة تربطهم كل الروابط بإخوانهم بالشمال .

وهكذا لم يبق من الصومال إلاّ جزأين هما الصومال البريطاني في الشمال ، والصومال الإيطالي بالجنوب وسلبت أجزاء ثلاثة من الصومال هي الصومال الحبشي والصومال الكيني والصومال الفرنسي .

استعمار الصومال البريطاني والإيطالي :

عقب الحرب العالمية الثانية ، هبّ الشعب الصومالي يطالب باستقلاله

وكانت ثورته امتداداً لثورة مهدي الصومال التي أشرنا إليها من قبل
ولثورات صومالية كثيرة ظهرت ضد المستعمرين الأوروبيين في كل مكان ،
وبذات هذه الثورات ، اضطرت الدول الأربع : أمريكا وبريطانيا وفرنسا
وإيطاليا إلى عقد اجتماع بينها لتحديد مستقبل الصومال ، وفي هذا الاجتماع
ظهرت اتجاهات متعددة كلها كانت ضد الصومال والصوماليين ، ولكن
عين المواطنين كالت بالمرصاد ، فاضطرت هذه الدول إلى أن تصل إلى اتفاق
يرضى بعض آمال للصوماليين وبخاصة أن نادى الشباب الصومالى الذى أنشئ
سنة ١٩٤٣ كان قد تحول إلى حزب سياسى سنة ١٩٤٧ وأخذ يتولى الدفاع
عن مستقبل البلاد ، ويعارض بشدة الاتجاهات الاستعمارية ، وكل هذا
لم يمنح فرصة للدول الأربع الكبرى أن تصل إلى اتفاق ، فأحالت الأمر إلى
الأمم المتحدة ، ونظرت الجمعية العامة في دورتها الثالثة ، ثم صدر قرار
الأمم المتحدة في ديسمبر سنة ١٩٥٠ .

وأهم ما ورد في هذا القرار ما يلى :

- ١- يصبح الصومال الإيطالى دولة مستقلة بعد عشر سنوات .
- ٢- خلال هذه الفترة يوضع الصومال الإيطالى تحت وصاية إيطاليا
ويتحتم عليها أن تعدد للاستقلال خلال هذه الفترة .
- ٣- يساعد السلطة الإيطالية مجلس استشارى يتكون من ممثلين لمصر
وكولومبيا والفلبين .

وقد أسهمت مصر وبنوبها المرحوم كمال الدين صلاح بنصيب كبير
في تهيئة الشعب الصومالى للاستقلال ، وقدمت خدمات واسعة في هذا المجال .
أما الصومال البريطانى فقد وعدت بريطانيا بمنحة الاستقلال سنة ١٩٦٠ .
وبناء على ذلك تمّ استقلال الصومال البريطانى في ٢٦ يونيو سنة ١٩٦٠ ،
وتمّ استقلال الصومال الإيطالى في أول يوليو سنة ١٩٦٠ وقد أجمع السكان

الصوماليون بالصومال الإيطالي والبريطاني على تكوين دولة واحدة هي جمهورية الصومال ، على أن يطلق على الصومال البريطاني الإقليم الشمالي ، وتكون عاصمته الإقليمية هرجيسة ، ويُطلق على الصومال الإيطالي الإقليم الجنوبي وتكون مقلشو عاصمة الإقليم الجنوبي وعاصمة للجمهورية ، وانتخب أعضاء المجالس التشريعية في الصومالين آدم عبد الله عثمان رئيساً للجمهورية ، وأصبحت الجمهورية الصومالية عضواً بالأمم المتحدة ابتداء من سبتمبر سنة ١٩٦٠ : وبعد الرئيس آدم عثمان تولى عبد الرشيد شارماكي رئاسة الجمهورية وظل يشغل هذا المنصب حتى اغتيال في أكتوبر سنة ١٩٦٩ وحدث عقب اغتياله ثورة ٢١ أكتوبر التي سنتكلم عنها فيما بعد . وفي عهد الاستقلال حقق الصومال ألواناً من التقدم في المجالات المختلفة .

ثورة ٢١ أكتوبر سنة ١٩٦٩ :

عقد الصومال المستقل اتفاقيات فنية وتجارية مع الولايات المتحدة ومع إيطاليا ومع غيرها من الدول الأوربية ، وقد رأت مجموعة من ضباط جيش الصومال أن هذه المعاهدات تكبل بلادهم ، وتدفعها إلى طريق غير الطريق الذي يريد له المواطنون ، كما اتهم هؤلاء الضباط بعض حكام البلاد بالانحراف عن الأهداف الوطنية ، ومن ثم قلمت ثورة ٢١ أكتوبر ١٩٦٩ بقيادة اللواء محمد سياد بري ، وقد كان قيامها بعد ستة أيام من اغتيال الرئيس عبد الرشيد شارماكي وبعد يومين من تشييع جنازته ، وتبذل الثورة جهوداً كبيرة في ميادين السياسة والاقتصاد والتعليم والإعلام والتصنيع وغيرها لتسير بالصومال قلماً نحو مستقبل أنصح .

اقتصاد الصومال :

يمكن القول بوجه عام أن الصومال قد تركه الاستعمار وهو في حالة ظفيرة من التخلف الاقتصادي ، ولعل أوضح دليل على ذلك أن بالصومال

حوالى ١٥ مليون فدان تصلح للزراعة ، وهى أراض منبسطة خصبة ، ولكن الذى يزرع فعلاً لا يتجاوز مائتى ألف فدان ، وتلك نسبة ضئيلة جداً ، وإذا لوحظت هذه الصومال ليست به صناعة ذات جال كما سئرى فإن ذلك يبرز المشكلة ، إذ يصبح القطر قبل الإنتاج وبالتالي يحتاج إلى عون من الخارج .

وتوجد الزراعة فى حوض نهر شيدالى وحوض نهر جوبا ، وقد شُقت حديثاً بعض القنوات لرى الأرض البعيدة عن النهرين ، كما أنشئت بعض الخزانات للاحتفاظ بالمياه التى كانت تنحدر إلى المحيط أو تبتلعها الرمال ، فإذا أضيف إلى ذلك ما قدمه عهد الاستقلال للمواطنين من الوسائل الحديثة للزراعة أمكن القول أن تطور الإنتاج الزراعى يسير قسماً إلى الأمام ، وبالإضافة إلى حوضى النهرين هناك مزارع تعتمد على الآبار أو على مياه الأمطار .

ويزرع فى الصومال القطن للتصدير والنوز والأرز للاستهلاك المحلى وللتصدير ، كما يزرع السمسم واللوزة والقمح وقصب السكر .

وفى ضوء ما قدمنا من معلومات عن ماضى الزراعة وما اتصل بها من إهمال ، يتضح لنا السبب فى إهمال الصوماليين بالثروة الحيوانية ، مما جعل تربية الحيوانات هى المصدر الأول للثروة ، ويقدر ما يوجد بالصومال منها بمليون رأس من الغنم ومثلها من الماعز وما يقرب من هذا الرقم من الجمال وأكثر من مليون رأس من الأبقار ، والثروة الحيوانية لهذا تمد أهم مصدر للثروة فى الصومال ، ويصدر الصومال أعداداً وفيرة منها ، كما ينتفع بالجلود والأصواف والوبر ، وينتفع باللحوم والألبان للاستهلاك الداخلى وللتصدير .

ومن مصادر الثروة فى الصومال صيد الأسماك ، ويستغل بهذه الحرفة عدة آلاف من الصوماليين ، ويستعمل السمك فى الاستهلاك المحلى كما يوجد مصنع لتعليب الأسماك لتصديرها .

وتوجد الغابات فى بعض نواحي الصومال ، حيث توجد بها بعض

الحيوانات المفترسة ، وبعض الزواحف ، والغابة مصدر رزق لبعض
المغامرين الذين يعملون في صيد الحيوانات والزواحف لبيعها حية أو الانتفاع
بجلودها ، كما يتجه للغابة كثير ممن يخلبون الأخشاب ويجمعون الصمغ .

لما الصناعة فهي مبتدئة بالصومال ، ويوجد منها - بالإضافة إلى مصنع
تعليب الأسماك - مصانع لتعليب الفاكهة وتعليب اللحوم ، ومصانع للسكر
والنسيج والصابون ودينج الجلود ، وفي برامج حكومات الاستقلال اتجاهات
لترقية الصناعة بالصومال من ناحية فتح مبادي صناعات جديدة أو تحسين
إنتاج للمصانع الموجودة وتوسيعها .

وقد اكتشف البترول في الأجزاء الشمالية من الصومال ، ولم يصل بعد
إلى كفة تجارية بحسب حسابها في ميزان الاقتصاد .

والإحصائيات في مطلع الستينات تقسم الأهالي بالنسبة لنشاطهم
الاقتصادي كما يلي :

٤٣ ٪ رعاة رحّل يرعون البقر والغنم والماعز والجمال .

٢٨ ٪ رعاة مستترون يزرعون بعض المناطق بالإضافة إلى الرعي .

١٩ ٪ زرايع بالقرب من نهري شيبلى وجوبا

٦ ٪ صناع وأصحاب حرف بلوية بسيطة

٣ ٪ تجار ومساعدون لهم

١ ٪ يشتغلون بصيد الأسماك وبالقتنص بالغابات

التعليم في الصومال :

يمكن القول بحق أن من مفاخر الإسلام أنه بعث شعاعاً من ضوء العلم
في كثير من الأقطار ، ولولا الإسلام وما ارتبط به من معاهد لعم الظلام
عدداً كبيراً من البلدان كالذى حدث في المناطق الوثنية قبل الاستعمار ،

ومجسك أن تعود للوواء قرناً أو قرناً ونصف قرن ترى مصر وليس بها إلا الأزهر وبعض المساجد التي تُعبد للأزهر ، والكتاتيب التي بالمساجد ، وقد كانت هذه المعاهد هي مراكز النور في مصر التي تعد الآن رائدة في مجال الفكر بين أقطار العالم الإسلامي .

والصومال مثل بلوز في الانزاع بالإسلام ، فتاريخه الطويل ارتبط بالتعليم الديني ، وكان هذا التعليم يبدأ بالكتاتيب ويسمونها هناك (الموكسي) وكانت منتشرة في المدن والقرى ويعلم بها كتاب الله واللغة العربية وبعض العلوم الابتدائية ، وينتقل منها الطالب إلى الالتحاق بمسجد المدن ليدرس للعلوم الإسلامية فيما يتأهل للتعليم الإعدادي . وهناك مرحلة إسلامية أنشئت حديثاً هي المعاهد الدينية ، ومنها معهد مقدشو وهو للدراسة الثانوية ، وقد أنشئ معهد الدراسات الإسلامية العالية ويلتحق به الذين أكملوا دراستهم بالمعاهد الدينية الثانوية ، وبعض هذه المعاهد تابع للأزهر .

وحتى منتصف القرن العشرين لم يكن بالصومال مركز إشعاع علمي إلا ما اتصل بالإسلام ، وكانت هذه المراكز ضئيلة الضوء ولكنها على كل حال ثابتة ، وكانت ملاذ الفكر حتى جاء عهد النور فأزال عنها الصدا وأضاف إليها مراكز ثقافية أخرى كما سنرى . وكان التعليم الديني في جميع مراحله بالغة للعربية .

وهناك نوع ثان من التعليم يسمى « التعليم الوطني » وهو نوع من التعليم يتضم إلى الدراسات الإسلامية العلوم الحديثة ولغة أجنبية وقد أنشأ الصوماليون من قوى الوعي المدني ابتداء من سنة ١٩٢٤ واتخذوا منها المصري مناراً لهم ، وكثيراً ما استقدموا مدرسين مصريين للتدريس بهذه المدارس (١) .

ويجىء دور التعليم المصرى بالصومال ، والمدارس المصرية بالصومال تسير تبعاً لخطة المدارس بمصر ، ويقبل عليها أبناء الصومال إقبالاً ملحوظاً .

أما التعليم الحكومى فهو حديث النشأة ، فقد ظلت الصومال كما يقول George Kimble حتى أواخر الأربعينات من القرن العشرين تون سياسة تعليمية ، ولا تكاد تعرف شيئاً عن الاتجاهات العلمية الحديثة ، ففي أثناء الاحتلال الإيطالى وقبله لم يهتم أحد بالاحتياجات التعليمية للسكان الأصليين^(١) ولم يقدم الإنجليز فى المدة التى كان لهم فيها السلطان على الصومال بين ١٩٤١ و ١٩٥٠ أى جهد يذكر فى هذا المجال ، ولكنهم على العموم فتحوا للباب لنوع من التعليم الحكومى الذى نما فى عهد الرصاية ثم تطور فى عهد الاستقلال ، ولكن عهد الاستقلال قابل مشكلتين مهمتين : أولاً أن المدارس بالإقليم الشمالى كانت ذات طابع إنجليزى والمدارس بالإقليم الجنوبى كانت ذات طابع إيطالى ، وكان لا بد من جعل الطابع الصومالى مسيطراً على الجميع . المشكلة الثانية أن التعليم فى الشمال والجنوب كان باللغة العربية فى المدارس الابتدائية ، وكانت اللغة الإنجليزية أو الإيطالية تقدم كلفة ، أما فى الثانوى فإن التعليم يصير بالإنجليزية أو الإيطالية وتقدم اللغة العربية كلفة فقط .

وقد عملت الثورة الجبلية لتصفية هذه المشكلات كما عملت على الإكثار من المدارس حتى تستوعب أكبر عدد ممكن ، وقامت بإنشاء مدارس متقلة تسير مع لراحة الرحل وتبشر تعليم صغارهم من مكان إلى مكان ، وعمل عهد الاستقلال كذلك على إنشاء جامعة صومالية ، وقد ظهرت بعض كلياتها للواقع ، كما توجهت الصومال إلى الإكثار من إيفاد مبعوثين لها لتلقى العلم بالجامعات الخارجية وبخاصة بمصر ، وعملت الثورة على اختيار العناصر الصالحة لهذه البعثات ليضع المبعوثون يدهم القلم ويعدوا فيخدموا الثقافة بالصومال .

وقد اهتمت الثورة بإنشاء عدد من المدارس الفنية للهنية ومدارس البنات .

وفي أيام الاستعمار كانت هناك مدارس لإبناء الجاليات الأجنبية الأوربية ، وكانت تفتح أبوابها للأجانب فقط ، وقبل أن يدخل بها أحد من الصوماليين . وبعد الاستقلال بقيت بالصومال مدارس أجنبية تبقي عدة دول حتى صدر قرار بتأميمها .

مصر وتعليم الصوماليين :

وكلمة حق ينبغي أن تذكر ، هي أن مصر قدمت للصومال والصوماليين جوانب من العون والمساعدة في مجال التعليم ، فقد كان لها بالصومال مدارس إعدادية وثانوية ، ولها مساهمة أزهرية ، وكانت تستقبل عدداً كبيراً من الطلبة الصوماليين الذين يخدمون في كل دراساتهم بالمناهج والكليات يتصرفون ويحسون بها أرق ترحيب وعناية طيبة مشهودة . ولا غرو فالروابط التاريخية التي تربط الصومال بمصر روابط وثيقة المرى عميقة الجذور ، وقد أمت الصومال للوحدات المصرية بها ، ورضيت بذلك مصر مراعاة للروابط بين الشعبين .

حركات في الصومال

شهدت الصومال منذ مطلع عام ١٩٧٣ حتى كتابة هذه السطور في أغسطس ١٩٧٨ مجموعة من الحركات التي يبدو بها بعض التناقض ، وسنشير لها هنا برفق ، رجاء أن تحمل لنا أبناء المستقبل ما يتلأ صدورها بالأطمحان نحو مستقبل هذا القطر العربي الإسلامي الشقيق .

١ - الفترة في الصومال والارتصاص لجامعة الدول العربية :

في منتصف يناير سنة ١٩٧٣ قرر المجلس الأعلى للثورة الصومالية أن اللجنة الصومالية هي اللجنة الرسمية الوحيدة في البلاد على أن يسرى

ذلك على جميع الصحف والمجلات ، وبعد حوالي عام من ذلك (٧٤/٢/١٤) انضمت الصومال إلى جامعة الدول العربية فشملت للقمة رقم ١٠ في هذه الجامعة ، وأعلن وزير الخارجية الصومالي عمر عمرته أن انضمام الصومال لجامعة الدول العربية وضع الأمور في وضعا سليما . ولا شك أن انضمام الصومال للجامعة العربية شيء يعتز به العرب ، ولكنه لا يلزم أن تصبح اللغة العربية هي اللغة الرسمية لهذا الشعب ، وأن تبنى في الحال كل الإجراءات التي تدفع الصوماليين بعيداً عن المجتمع العربي وعن اللغة العربية .

٢ - الفكر الإسلامي في الصومال :

وهناك كذلك تحول تطلع أن تمنى به حكومة الصومال ، فقد نشر في الشهور الماضية كلام كثير عن مواقف تنبثق في الصومال ولا تتفق مع الفكر الإسلامي ، وتنبأ عن ذلك احتجاج بعض العلماء وعقوبات صارمة نزلت بالذين احتجوا

ونحب أن نقول في قوة ووضوح إن الإسلام دين كل زمان ومكان ، وإنه لا اجتهاد مع وجود نص إسلامي في قضية من القضايا ، وإن الحقوق التي كفلها الإسلام للمجتمع الإسلامي والمجتمع البشري بوجه عام حقوق رائدة تكفل كل الخير لهذا المجتمع ، وما يقال عن التجديد والتطور في غير نطاق الحدود الإسلامية كمكانة المرأة ونصيبها في الميراث يضر أكثر مما ينفع ، وقد فشل في الغرب تماماً ، فلسنا في حاجة أن نقبس هذا النوع من الحضارة ، فتراثنا في هذا المجال وافر ، وينبغي أن نتجه إلى الغرب لنقتبس منه في الصناعة والاختراع ، أما مكانة المرأة في المجتمع وحقوق المرأة ، فذلك شيء نقف فيه موقف العلم لا موقف المريد ، فقد قدمناه للمجتمع العالمي ولا يزال يقدمه ، ولذلك نرجو أن يهدي الله إخوتنا في الصومال إلى الرشده وأن يعودوا للوضع السليم .

٣ - الصومال والسوفييت :

وقع الصومال فيها وقعت فيه مصر في عهد عبد الناصر ؛ فقد غنت مصر بما أسماه عبد الناصر وأعووانه (كسر احتكار السلاح) وكانت أغنية مدمرة وفكرة مريضة جلبت على مصر عداوات كثيرة وهزائم ساحقة ، ولم تُشَفَّ مصر منها إلا بالمودة إلى حيث كنا نشترى السلاح من أمريكا وبريطانيا وفرنسا بعد أن توقف السوفييت عن إمدادنا بالسلاح في أخطر فترة من فترات التاريخ .

وهكذا فلت الصومال ، ولكن بشكل أكثر مرارة ، فمن المعروف أن أجزاء واسعة من الصومال ضمتها إثيوبيا في عصور الظلام مثل « أوجادين » و « هرد » و « الصومال الغربي » .

ولم ينس الصوماليون أرضهم السلية ، وكان يؤرقهم اقتطاعها من الوطن الأم ، وقد فرح الصومال بسقوط هيلاسلاسي ، وطن الصوماليون أن يحكم إثيوبيا الجدد سيردون الأرض إلى أصحابها ، ولكن سرعان ماخاب أملهم ، فإن مانجستو زعيم إثيوبيا سار على سيرة سلفه ، ومن هنا اشتعلت الثورة في الأرجاء الصومالية السلية وأمد الصومال الثوار بالسلاح ، وفي طريق الحاجة للسلاح تم اتصال بين زعماء الصومال وبين السوفييت ورحب السوفييت بهذا الطلب بشرط أن يدفع الصومال الثمن من تراثه وحضارته وصلاته بالعروبة والإسلام وأن يصبح أحمر الفكر والانجلاء .

ودفع الصومال الثمن ، ويقولون الملقون أن اللاتعات الحمراء ملأت الجدران في مقدشيو ، وأحاطت الشارات الشيوعية صور سياد بري إلى جوار صور لينين وماركس وانجاز ، وربما قبل الصوماليون أو بعضهم هذا المظهر من أجل تقوية الجيش الذي رؤى فيه الخلاص ،

ولكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد فقد استمر الإلحاح بتغيير النظم الاجتماعية والأحوال الشخصية بالصومال بما ينأى الإسلام ، وتحت هذا الضغط صدر قانون يعطى للمرأة نفس حظ الرجل في الميراث ، ويقيّد حق الزواج والطلاق ، ويعطى للمرأة حق مطالبة الرجل مقاسمتها شئون التدبير المنزلى ...

ولم يكن هناك أى مشكلة اجتماعية تقضى بإصدار هذا القانون ، ولكنها الثورة الغبية من الأصدقاء الجدد الذين أرادوا توسيع الهوة بين الحاكم والحكوم من جانب ، وبين الصومال والدول الإسلامية والعربية من جانب آخر ..

وهاجم العلماء هذا القانون ولاقوا أقصى تصرف وهم يدافعون عن دينهم وتقاليدهم .

يبد أن السوفيت وجدوا فرصة أوسع لنفوذهم في إفريقية ، تلك هي صلتهم بأثيوبيا التي لا تخضع لما تخضع له الصومال من علاقات عربية وإسلامية ، وأمد السوفيت أثيوبيا بالسلاح أيضاً بل بالسلاح الكثير ، وقتلوا من حماسهم للصومال ومن إمدادهم بالسلاح وقطع التيار ، وحاول السوفيت التوفيق بين الصومال وأثيوبيا ولكن ذلك كان مستحيلاً بل بالغ الأثيوبيون حينما طلبوا من الصومال عشرة آلاف جندي ليقضوا بها على ثورة أرتيريا ، وفي الوقت نفسه تيقظ العرب فقدموا بعض القروض والمساعدات للصومال ، فقويت الهوة بين الصومال والسوفيت .

إنه درس جديد على مدى إخلاص السوفيت وأنجاساتهم، لمل الدول تبعه فلا تسقط فيما سقطت فيه مصر والصومال .

جيو تى دولة مستقلة جديدة بإفريقية

اشتدت فى السنوات المائىة حركة تحرير الساحل الصومالى الذى كان خاضعاً إلى فرنسا ، وقد قوت هذه الحركة التى بدأت نشاطها منذ حوالى عشر سنوات ، وقام ممثلو حركة التحرير بزيارة الاقطار العربية والإسلامية لشرح قضيتهم وكسب تأييد الرأى العام لجانهم ، وقد أصدرت الجامعة العربية قراراً بتأييد هذه الحركة ، وشكلت لجنة لدراسة الموضوع مع الحكومة الفرنسية ، وأعلن ممثلو حركة التحرير أن الوجود المسكرى بالمنطقة قوى وتطرد قوته باستمرار ، لتظل ميناء جيو تى متحركة فى باب الندب والباب الجنوبى للبحر الأحمر ، وأن الاستعمار الفرنسى يخضع الرأى العام العالمى بقوله إن المنطقة تتمتع بالحكم الذاتى ، وإن بها حكومة ومجلساً تشريعياً . والحق أن جميع هؤلاء من الموالين للاحتلال وليست فى أيديهم سلطة حقيقية لأن السلطة الحقيقية متركزة فى يد القوميسير الفرنسى .

وقال زعماء الحركة الوطنية إن حركتهم تقابل بإجراءات قمع وإرهاب ، وإن المعتقلين السياسيين بالمنطقة وصل عددهم إلى حوالى خمسة آلاف .

وقد أنشأت اللجنة مكاتبها فى القاهرة وطرابلس وعدن والجزائر ودار السلام ، تحاول من خلالها التعريف بالقضية وأهميتها .

وكانوا يدركون دقة العلاقات العربية الفرنسية ، ويتصورون أن تحسن هذه العلاقات ينبغى أن يهيئ الفرصة لحل مشكلاتهم مع فرنسا .

وقد كللت هذه المساعى بالنجاح فأجريت فى ١٩٧٧/٥/٨ عملية استفتاء على مستقبل هذه المنطقة ، واتفق ممثلو البلاد على ضرورة حصول

جيوٲى على الاستقلال ، فقد قدمت الأحزاب بالبلاد قائمة واحدة ضمت
٦٥ شخصا تحت راية التجمع الشعبى للاستقلال ، وفى هذا الانتخاب
أعلن شعب جيوٲى رغبته فى الاستقلال بنسبة إجماعية تقريبا كما استُخب
أعضاء القائمة المذكورة أعضاء لأول برلمان للبلاد ، وأختير حسن جوليد
رئيسا للدولة .

ونحن نرحب بالدولة الجديدة وندعو لها بالمر والرفاهية .

المسلمون

في الدول غير الإسلامية بإفريقية

بالإضافة إلى المسلمين الذين شملهم حديثنا في هذا الكتاب ، وبالإضافة إلى المسلمين الذين يعيشون في الشمال الإفريقي لا يزال هناك عدد آخر من المسلمين يزيد عن الثلاثين مليوناً يتناثرون هنا وهناك بباقي دول إفريقيا ، ومن العجيب أنهم في دولة كالخبيشة أكثرية ولكنها أكثرية مغلوبة على أمرها ، فالسلطة في يد المسيحيين الذين يجعلون المسيحية طابع الدولة ، ويبرزون الخبيشة - بالقوة لا بالعدد - جزيرة مسيحية وسط محيط من المسلمين :

وفي بعض دول أخرى يزيد عددهم قليلاً أو ينقص قليلاً عن النصف ، وتنتشر اللادينية بين الباقين ، ولكن السلطة مع هذا في أيدي غير المسلمين لأنه في عهد الاستعمار انجم غير المسلمين إلى الثقافة الحديثة وبرعوا فيها ، وفي نفس الوقت أحجم المسلمون عن المدارس التي فتحتها الاستعمار خوفاً على أولادهم من التمرسين الأوروبيين أن يلتفتونهم المسيحية مع ما يقدّمون من أفكار^(١) ، فلما أحس الاستعمار بنهاية أسلم السلطة لغير المسلمين متخفياً من تفوق هؤلاء الثغاف أصاحاً لذلك ، ولكن الحق أنه لم يطمئن قط للمسلمين ورأى أن التعاون مع سواهم أيسر وأمنح .

وفي هذه الدول لا يمكن أن نعتبر المسلمين أقلية ، لأنهم في هذه الحالة لا يمثلون طرغاً في ثنائية دينية ، بل يتحرك المسلمون في فراغ ديني ، وبخاصة إذا لاحظنا أن الأستورية الوثنية لا تعادى الإسلام غالباً بل تفتح أبوابها إليه ، وقلوبها لا اعتناقه ، وأبرز مثال لهذا الوضع دول غربي إفريقيا الساحلية اصطفاً

من سيراليون إلى داهومي بما في ذلك فولتا العليا، وينطبق هذا أيضاً على الكرون والكونغو وشرق إفريقيا وموزامبيق وغيرها، وفيها جميعاً يزحف الإسلام حالياً بقوة؛ ويرجح أن يحقق الإسلام بها أكبر توسع خلال العقد القادم^(١) .

ولعل الكرون هي أبرز حالات الأقليات الكبيرة "فهيها يبلغ تعداد المسلمين ثلث السكان أو يزيد، وفي وحدات غربي إفريقية تحتل الأقليات الإسلامية موقعاً شمالياً غالباً، وتضاروت في أهميتها، فالأغلبية في توجو وثنية، ولكن للمسلمين كثيرون، وفي فولتا العليا يكثر المسلمون وهم من الطوارق والقوله، وفي ليبيريا جماعات من الماندي شديدة التمسك بالإسلام، وفي غينيا البرتغالية يؤلف الماندينج والتولة حوالي مائتي ألف، ويكثر المسلمون في غانا كثرة بالغة، ولكن الدولة الغانية تحد نشاطهم، ويقرر الباحثون أن أكبر مجال للتقدم الإسلامي في هذه المنطقة هو في فولتا العليا وساحل العاج وسيراليون^(٢) .

لما في شرق إفريقيا وموزمبيق فهناك ما يزيد على ثلاثة ملايين من المسلمين، والإسلام هنا قديم الجذور، إلا أنه تلقى موجة جديدة في القرن الحالي، هي هجرة المتود إلى الساحل الشرقي، ويكثر المسلمون في بعض مناطق شرق إفريقيا للدرجة تخلق اتجاهات اتصالية أحياناً كما هو حادث في الصومال الكيني التي يحاول سكانه الاستقلال عن كينيا أو الانضمام للصومال الكبير^(٣) .

وفي اتحاد جنوب إفريقيا يندوى صوت الإسلام عن طريق المجرات

(١) Lewis : Islam and Nationalism in Africa p. 81

(٢) دكتور جمال حسان : إفريقيا الجديدة ص ٢٧٨ - ٢٧٩

(٣) Statesman Year - Book

الهندية والماليزية ، وقد انضم لها عدد من السكان الأصليين مما جعل الجالية الإسلامية يُحسب حسابها ، وإن كان عددها حتى الآن محدوداً للغاية .

«ربن أبلينا إحصائية عن المسلمين في اندون غبر الإسلامية (١) ، وترفع هذه الإحصائية عدد المسلمين في بعض الأقطار فتجعلهم أغلبية ، وقد يكون ذلك صحيحاً ولكن طابع هذه النول إيس إسلامياً على كل حال ، وفيها يلي نورد هذه الإحصائية متجهين - تبعاً لخطينا - من الغرب إلى الشرق :

النسبة	عدد السكان	عدد المسلمين	نسبة المسلمين المئوية
غينيا البرتغالية	٦٠٠٠٠٠	٣٣٠٠٠٠	% ٥٥
سيراليون	٢,٤٥٠,٠٠٠	١,٥٩٢,٥٠٠	% ٦٥
ليبيريا	٢,٥٠٠,٠٠٠	٧٥٠,٠٠٠	% ٣٠
ساحل العاج	٣,٣٧٥,٠٠٠	١,٨٥٦,٢٥٠	% ٥٥
فولتا العليا	٤,٤٠٠,٠٠٠	٢,٤٢٠,٠٠٠	% ٥٥
غانا	٧,٣٩٠,٠٠٠	٢,٢١٧,٠٠٠	% ٣٠
توجو	١,٥٢٠,٠٠٠	٨٣٦,٠٠٠	% ٥٥
داهومي	٢,١٥٠,٠٠٠	١,٢٣٠,٠٠٠	% ٦٠
الكامرون	٤,٩٠٧,٠٠٠	٢,٦٩٨,٨٥٠	% ٥٥
جانبون	٤٤٨,٠٠٠	١٧٩,٢٠٠	% ٤٠
الكونغو برازافيل	٩٠٠,٠٠٠	١٣٥,٠٠٠	/ ١٥
إفريقية الوسطى	١,٢٥٠,٠٠٠	٧٥٠,٠٠٠	% ٦٠
إثيوبيا	٢٣,٨٠٠,٠٠٠	١٤,١٨٠,٠٠٠	% ٦٠

النسبة	عدد السكان	عدد المسلمين	نسبة المسلمين للنسبة
أوغندا	٦,٨٤٥,٠٠٠	١,٣٦٩,٠٠٠	% ٢٠
كينيا	٨,٦٧٦,٠٠٠	١,٦٤٨,٤٤٠	% ١٩
تنزانيا	٩,٨٧٥,٠٠٠	٦,٠٢٣,٧٥٠	% ٦١
موزمبيق	٦,٦٥٠,٠٠٠	١,٦٦٢,٥٠٠	% ٧٥
ملايشتي	٥,٧٣٠,٠٠٠	١,١٤٦,٠٠٠	% ٢٠

رئيس جمهورية إفريقيا الوسطى

يشهر إسلامه

من الأحداث المهمة التي ترتبط بجمهورية إفريقيا الوسطى أن رئيسها « جان بيدل بوكاسا » دخل الإسلام وأعلن ذلك على يد إمام مسجد بانجوي العاصمة ، وقد تم هذا الحدث العظيم على الرغم من أن الزعيم بوكاسا قد تربى في مدارس البعثة الكاثوليكية .

والزعيم بوكاسا بدأت سياسته لجمهورية إفريقيا الوسطى في مطلع سنة ١٩٦٦ وهو يناهض الاتجاهات الموالية للاستعمار ، ويبدل كل جهد ليحقق لبلاده استقلالاً كاملاً لا تشوبه شائبة .

وبوكاسا من الزعماء الإفريقيين الذين يؤمنون بقيمة التعاون العربي - الإفريقي لصالح القضايا المشتركة ، وخلال حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، أعلن قطع بلاده لملاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل .. وقام بسدة جولات في كثير من الدول العربية ، وقد زار مصر عدة مرات ، منح خلالها قلادة النيل .. ومن كلماته حول التعاون العربي الإفريقي ، قوله :

إن الدماء العربية تجري في جسد الأفارقة ، كما أن الدماء الإفريقية تجري في جسد العرب ، ولما كنت أعلم أنني شخصياً إلى أجداد من العرب ، فإنني شديد القرب منهم .

والاعتقاد السائد هو أن دخول الرئيس بوكاسا الإسلام سيفتح الباب أمام حشد من المواطنين ليعلموا دخولهم الإسلام ، ونحن نحيي الرئيس بوكاسا وترجو الخير له ولبلاده ، ورحب بإفريقية الوسطى

بين الحبشة وبين الاستقلال

إن حديثنا عن أريتريا سيتصل اتصالاً وثيقاً بالحديث عن الحبشة أو اثيوبيا التي تناولتها دراسائنا في هذا الجزء في عدة أمكنة ، ولكن الحبشة التي تكلمنا عنها في الطبعة الأولى كانت حبشة هيلاسلاسي التي كان يقيم أعياد ميلاد صاحبة لكلايه وشعبه يسقط من الجوع ، كانت الحبشة التي تمثل غلب القطب التي استعمله الاستعمار الأوربي ليضرب الإسلام والمسلمين في كل اتجاه يافريقية ، ولكن الحبشة في هذه الطبعة هي حبشة العلمانية كما أعلن زعمائها الجدد ، الحبشة التي تخلصت من هيلاسلاسي ويرجى أن تتخلص من مساوئها ، وأن تتحرر المناطق التي ضمها بظلمه وجبروته ، وفي مقدمتها أريتريا .

ومن أجل هذا نبدأ حديثنا عن أريتريا بالتقاط فقرات عما أوودناه في الصفحات السابقة مصوّرين بها الماضي ليكون ذلك أساساً لدراسائنا عن الحاضر والمستقبل .

الحبشة أو اثيوبيا :

الحبشة — كالأحايش — معناها التجمعات التي لا تربطها قومية أو وطن ، والكلمة مأخوذة من تحبشوا أي تجمّسوا^(١) ، ومن أجل هذا لا يميل قادة هذه البلاد إلى استعمال هذه الكلمة اسماً لبلادهم لأنها توحى بالتفكك ، ويفضلون أن نسي بلادهم « اثيوبيا » ومظاهرها الوجه المحروق ، ولكن

كلمة « الحبشة » كانت الاسم الشائع استعماله من قبل ؛ ولذلك سنستعمل كلمة « الحبشة » حتى نصل إلى العصر الحديث ، فنتجه إلى استعمال كلمة « اثيوبيا » .

عزلة الحبشة في الماضي :

ولإبراز دور الحبشة المدوانى يتجهم أن تعود إلى الوراء لتتعرف على حقيقة الحبشة قبل أن تبدأ دور المدوان والقسلط ، ويقول للؤرخون إنه فى خلال ازدهار مملكة عدل فى القرن الخامس عشر كانت الحبشة محصورة بين الممالك الإسلامية ، فعدل تحيط بها من الجنوب والشرق ، والسودان تحيط بها من الشمال والغرب ، ولم يكن للحبشة موان على البحر الأحمر ، وقد أدى ذلك إلى تدهور الحبشة وعزلتها عن العالم الخارجى ، فرقدت فى ثبات عميق عدة قرون ، نسيت خلالها العالم ، ونسيها العالم ، ووصل الأمر إلى أن أصبح عدد كبير من الناس لا يعرفون فى أى قارة من قارات الأرض تقع الحبشة^(١) .

مصر والحبشة :

وفى القرن التاسع عشر كان اتساع الإمبراطورية المصرية قد بلغ مداها فى إفريقيا ، وامتدت حدودها فى عهد الخديوى إسماعيل امتداداً واسعاً ، فشملت مصر ومنطقة خط الاستواء ، ومنطقة بحر الفزال ، وضربت فى قلب إفريقيا حتى قريباً من بحيرة تشاد كاشملت ساحل البحر الأحمر كله ، وهيمنت على مداخله ، وعلى الجزء الواقع إلى الشرق منه وإلى الجنوب ، ضامة بلاد الصومال حتى مصب نهر جوبا ، وكان التوسع للمصرى بإفريقية يصحب معه كل أساليب الحضارة والمدنية ، وكل جوانب المعارف والود ، ولذلك ازدهرت

(١) انظر صفحة ٣٩١ من هذا الكتاب

كل البقاع التي امتد لها الحكم المصري وانتشر بها الإسلام وروح الإسلام^(١)

وتسحق أفريقيا هنا كلمة خاصة ، فإن العثمانيين كانوا قد ضموا لهم هذه المنطقة منذ احتلالهم اليمن في مطلع القرن السادس عشر ، فقد كانت هذه تابعة لليمن ، فلما امتد نفوذ العثمانيين لليمن مدؤوا كذلك نفوذهم إلى أريتريا ، وعندما تقدمت فتوحات محمد علي في السودان ، استأجر مصوع عاصمة أريتريا آنذاك^(٢) كما استأجر المنطقة المحيطة بها من السلطان العثماني لتكون هذه المنطقة وسيلة تربط مصر بفتوحاته بإفريقية عن طريق البحر الأحمر ، فلما جاء عهد إسماعيل لم يكتف هذا بعملية الاستئجار ، كما لم يكتف بهذه المناطق ؛ ففي سنة ١٨٦٥ تنازل للباب العالي لمصر نهائياً عن منطقة أريتريا وسواكن ، ثم توالى التوسع المصري على نحو ما سبق ، وجذبت أريتريا إليها عناصر عربية كثيرة ، ووجهت مصر لها عناية خاصة ، ولذلك سرعان ما انتشر بها الإسلام واللغة العربية ، وأصبحت جزءاً مهماً من الوطن العربي الإسلامي .

الاستعمار بصارع الوطن المصري بإفريقية :

اتجه الاستعمار الأوروبي بضراوته نحو إفريقية ، عقب انتصار المسيحيين على المسلمين في أسبانيا في نهاية القرن الخامس عشر ، ولكن أمريكا ظهرت للعالم آنذاك فغذبت أنظار القوى الأوروبية ، وفي أواخر القرن الثامن عشر استقلت أمريكا وطردت الغزاة الأوروبيين ، فاتجه هؤلاء من جديد إلى إفريقية ، ولكنهم وجدوا النفوذ المصري متغلغلا ، والإمبراطورية ممتدة هنا وهناك ، كما وجدوا الإسلام قوة تعارضهم ، فاتجهوا لمحاربة مصر ومحاربة الإسلام ، وفيما يتعلق بمحاربة مصر

(١) انظر صفحة ٣٣٥ من هذا الكتاب .

(٢) العاصمة الحالية أمرة أما مصوع الآن فيناء مهم لأريتريا .

اتخذوا وسيلتهم لذلك هزل الخديوى اسماعيل بدعاوى باطلة من أسباب هزله ،
 وبإياد هذا الخديوى العظيم خلا الجو للاستعمار الأوروبى فى إفريقيا ، إذ أن
 الاستعمار جاء بالخديوى توفيق ، هو شخصية ضئيلة سيطر عليها الاستعمار ،
 واستطاع من طريقه أن يجرى تصفية للإمبراطورية المصرية بإفريقيته ليخلو له
 الجو ، وفيما يتعلق بالإسلام عثر الاستعمار على الحبشة المسيحية ، فنفت فيها القوة ،
 واستعملها وسيلة لضرب الإسلام فى المناطق المحيطة بها ، بعد أن وعدوا
 بنصيب من أشلاء الإمبراطورية المصرية التى تقرر القضاء عليها^(١) .

توزيع الفئمة وضم أريتريا إلى إيطاليا :

وعندما سقطت الإمبراطورية المصرية استولت الحبشة على حرر واستولت
 إيطاليا على أريتريا وعلى الإقليم الشرقى من الصومال ، وسُمى الصومال الإيطالى
 واستولت فرنسا على منطقة جيبوتى وميناء إيبوك وسميت الصومالى الفرنسى ،
 ونالت إنجلتراصيب الأسد إذ احتلت مصر ، وباسم نفوذها فى مصر أخذت
 زيلع وملحقاتها ، والإقليم الشمالى من الصومال ، وسيطرت على أوغندا وعلى
 السودان الذى استعادنه باسم مصر ثم استبدت به ، وقد تم لها هذا بعد أن
 تركت لشركائها نصيباً من الفئمة كما أوضعنا آنفاً^(٢) .

أريتريا من إيطاليا إلى الحبشة :

وانجحت إيطاليا فى المناطق التى احتلتها وبخاصة فى إريتريا إلى القضاء على
 العنصر الوطنى قضاء تاماً ، لتدفع بالإيطاليين إلى مساكن مؤلاء وأراضيهم ،

(١) انظر ص ٣٣٦ وما بعدها من هذا الكتاب .

(٢) انظر ص ٣٣٩ من هذا الكتاب .

وحاولت لتحقيق ذلك أن تضرب بعض القبائل بالبعض الآخر ، وأن تدفع بالسكان بعيداً عن المدن والمناطق الخصبية ، وأن تقضى على الإسلام واقفة العربية . ولكن إيطاليا فشلت في كل ذلك ، ولم يتحقق لها أى شيء مما سعت إليه . وخسرت إيطاليا خسارة اقتصادية فادحة وهي تعمل لرعاية للمستوطنين الجدد الذين جلبتهم إيطاليا لهذه المناطق ، فأصبح الاستعمار عبئاً على الخزنة الإيطالية وحقق الصراع الوطنى أهدافه ضد الجيش الإيطالى المحتل ، فجعله يعيش في ذعر مستمر وقلق دائم .

ولما وقفت إيطاليا ضد الحلفاء في الحرب العالمية الثانية ، انهارت في هذه الحرب ، اتجه الحلفاء بكل قواهم لمساعدة الحبة التي كان سوسوليني قد استولى عليها ، ولم يكتف الحلفاء بإعادة الاستقلال للحبة . وانكسرت منعوها ومنعوا إمبراطورها هيلاسلاسي كل تأييد ومساعدة ، وكان من ذلك أن اتجهوا إلى خلق منفذ لهم على البحر الأحمر ، فأتجهت الأنظار إلى أريتريا . وكانت الدول الأربع الكبرى قد عقدت معاهدة سلام مع إيطاليا سنة ١٩٤٧ . وبتمنضها تنازلت إيطاليا عن مستعمراتها في افريقية ، وفشلت الدول الأربع في الوصول إلى اتفاق بشأن القضية الأريترية ، وذلك بسبب اتجاه بعض هذه الدول لضم أريتريا إلى الحبة ومعارضة البعض الآخر ، فأحيلت القضية إلى الأمم المتحدة في عام ١٩٤٨ . وفي ديسمبر ١٩٥٠ اتخذت الجمعية العامة قراراً بارتباط أريتريا مع إثيوبيا في اتحاد فيدرالى ، وأكد القرار على مبادئ أساسيين هما سيادة أريتريا ضمن نظام اتحاد حقيقى ، وحكم ديمقراطى لأريتريا .

ولكن سرعان ما مارست حكومة الإمبراطور بواسطة جيش الاحتلال الأثيوبى سياسة الإرهاب ، وشتت حرباً ضروساً على معالم الكيان الأريترى مركزة على محو اللغة العربية ، واعتقلت كافة العناصر للقيادة الشعبية ، وناهضت الإسلام مناهضة جبارة .

ولإزاء هذه الاعتداءات شكّل الشعب الأريتري وفدًا إلى البلاد العربية والجامعة العربية وهيئة الأمم المتحدة ليشرح لها مأساة الشعب الأريتري . وترأس الوفد إدريس محمد . وفي نفس الوقت بدأ النشاط السياسي ينتشر بين الجماهير التي انبثق منه جبهة تحرير أريتريا . وفي سبتمبر ١٩٦١ أعلنت الجبهة الثورة المسلحة ، وكان رد الحكومة الأثيوبية أن أعلن الإمبراطور في يونيو ١٩٦٢ أن أريتريا جزء لا يتجزأ من إثيوبيا وأنه لن يتخلّى عنها بأي حال . ولكن الثورة للمسلحة ظلت مستمرة لتحقيق الاستقلال لأريتريا .

وبدأت بذلك مشكلة أريتريا تتمعد ، وانشغلت الدول العربية عن أريتريا فقد كان هناك ود عميق بين هيلاسلاسي وجمال عبد الناصر ، فضعفت الأصوات التي تساعد الشعب العربي الشقيق ضد هيلاسلاسي عدو الإسلام والعروبة والإنسانية .

كلمة عن عبّاس عبيد الله عبيد الله :

على أن أريتريا لم تكن وحدها فيما عانت من حكم الإمبراطور المعجوز ، فقد عانت الحبشة كلها حكم هذا الطاغية ، ومن أجل هذا ينبغي أن تنف عننا لنلقى بعض الأضواء على حبشة هيلاسلاسي معتمدين على كلمات الثقات الذين زاروا الحبشة حديثًا ، وعلى كلمات المعلقين السياسيين الذين يتابعون الأحداث بالإمبراطورية المزعومة .

يصف شاهد عيان جموع الناس في إثيوبيا عقب صلاة عيد الفطر فيقول : كانوا خليطًا غريبًا من الناس ، يلبسون خليطًا من الأزياء ، وكان المصلّون يشقون طريقهم بصعوبة وسط مئات الشعاذين العميان والعرج والمرضى بأمراض خبيثة الذين كانوا يتصايحون بكلمات السؤال والاستجداء ، وكان منظرهم مثيرًا ،

وغير محتمل، يشير مشاعر متباينة بين الشقة عليهم والنصب على السلطات التي دفعت بهم إلى هذا المركب الأسفل من القمر، فلذا وصل الإنسان قلب العاصمة وجعلها عامرة بالبارات والمواخير، ورأى الفتيات يقفن في ميكروجيب قبيح مهككات ليضيفوا اللسات الأخيرة في صورة غريبة لعالم فريد معقد ومنمزل، عالم اسمه «المجتمع الاثيوبي».

ولإثيوبيا بلاد متناهية في التباين والتنافر في طبيعتها وجوها وما بها من لغات وعادات وأجناس تتألف من كتل تصل العداوة بين بعضها والبعض الآخر إلى متنهاها.

وإذا انحدر الإنسان خارج العاصمة، أو في الأحياء القديمة من العاصمة نفسها سرعان ما يجد نفسه وقد تراجع إلى الوراء عدة قرون، ويحس بأن الشعب لا يكاد يشعر بكيانه أو بملافته مع الدولة.

وأشهر قبائل الحبشة هي قبائل الأحباش (أمهرة)، وقبائل الجالا الزنوج، وقبائل الصوماليين، والتنافر شديد جداً بين هذه القبائل بعضها والبعض الآخر، وقبائل الأحباش في بداها الحكم منذ عدة قرون، ولكن قبائل الجالا تصارع الأحباش، وتحاول أن تلب منهم السلطان، وقبائل الجالا تدين بالإسلام، وهي من أنشط قبائل الحبشة وأكبرها وأكثرها قدرة على العمل، وهي تمتلك مناطق واسعة، وتشتغل بالزراعة وتسيطر على التجارة في المدن، وكثير من المراقبين يتصورون أن الحبشة قد تدخل في عصر جديد تكون الغلبة فيه لهذه القبائل.

وينص الدستور الأثيوبي الذي صدر سنة ١٩٥٥ في المادة الثانية

على ما يلي:

تظل السلطة الإمبراطورية متصلة في سلافة هيلاسلاسى الأول ، خفيد الملك هيلاسلاسى الذى يتعذر بدون انقطاع من أسرة منليك الأول ابن ملكة أنثيوبيا ملكة سبأ والملك سليمان ملك بيت المقدس ، وشخص الإمبراطور مقلد لا منافس لسلطته ، ولا نزاع في حكمه ، وتقع على الإمبراطورية مسئولية حامية « المذهب الأرثوذكسى » .

وغالية السكان في أنثيوبيا مسلمة ، ولكن هيلاسلاسى جعل الحبشة جزيرة مسيحية في بحر من الإسلام ، والإمبراطور المعجوز من مواليد عام ١٨٩١ ، واسمه الأسلى تافرى ، أما كلمة هيلاسلاسى فمعناها باللغة الأمهرية « قوة الثالوث » والإمبراطور الحبشة قبل هيلاسلاسى اسمه يبيج ياسو ، وقد اعتنق الإسلام ، وكان تافرى متعصباً للأرثوذكسية ووالياً على بعض المقاطعات ، فأثار جانباً من الجيش ضد ياسوراً كرهه على التنازل عن العرش ، وأجلس تافرى على العرش فتاة من الأسرة المالكة ، ونصب نفسه وصياً عليها ، وفي سنة ١٩٢٨ توج تافرى ملكاً على أنثيوبيا ثم إمبراطوراً .

وقد شاهد المعلقون السياسيون خفلات صاحبة كان الإمبراطور يقيمها بتصوره لأعياد ميلاد كلابه ، وفي نفس الوقت كان الشعب يفسق من الجوع والموز ، وكانت بعض المؤتمرات الدولية تعقد بعاصمة أنثيوبيا ، وكان الإمبراطور يقيم حائطاً من الصفيح في الطرقات التى يحترقها المدعوون من المطار إلى قصور الضيافة حتى يخفى خلفها الأكواخ والبيوت المتداعية .

وكان من الضروري أن يخفى مثل هذا الرجل من مسرح السياسة ، فهو ملك خان شعبه وعاش مترفاً على ألقاه وبسبب جوعه ، وبما أطلال عمر الرجل كان قاسياً مع معارضيه ، وعند ما هبّ انقلاب ضده سنة ١٩٦٠ وهو الرافض عاد بسرعة إلى بلاده واستطاع أن يقضى على الانقلاب ، وشنت

الذين قاموا به في شوارع العاصمة أمام أهليهم وذويهم ، ولكن لكل إنسان نهاية ،
وسنرى فيما يلي خطوات هذه النهاية :

الوصبراطور في الطريق إلى النهاية :

لا يستطيع النشر أن يدوم وإن استطاع أن يطول ، وقد طالت شرور
هيلات لاسي ليس على للسلمين في الحبشة فقط ، ولا على المناطق الإسلامية
كأرتيريا التي استولى عليها بالقهر فقط ، بل على الشعب الأنثوي كله على
اختلاف جماعته وأجناسه ، ومن أجل هذا السوء اتى امتد ، والنشر الذي
انتشر قام ببعض العسكريين بإعداد انقلاب ضده وبذلوا أقصى الجهد لينجح
الانقلاب هذه المرة .

والانقلاب الجديد قاده تحالف عسكري مدني يتزعمه لجنة التنسيق للقوات
المسلحة التي تتكون من ٩٦ عضواً ، من بينهم مجموعة صغيرة العدد (حوالي
خمس أعضاء) تأخذ مكان الزعامة في هذه اللجنة ، وهي تمثل أسلحة الجيش
المختلفة ، و فرق القوات المسلحة ، ودستور هذه اللجنة الإيمان بضرورة التغيير
في ميادين الإصلاح الزراعي ، والحريات السياسية والفقائية ومحاربة الفساد ،
والاعتراف بالحقوق القومية للشعوب والقوميات المتعددة داخل البلاد ، وحل
مشكلة أرتيريا التي تدور فيها حرب مسلحة طويلة اثنى عشرة سنة .

وقد بدأ ظهور هذه الحركة في فبراير سنة ١٩٧٤ ، واتخذت أسلوب حصار
للطبقة الحاكمة القديمة ، وانتزاع التنازلات منها وإجبارها على التراجع
المستمر ، حتى تم القضاء عليها ، ثم اتجه الأسلوب لاعتقال جميع القيادات
العسكرية والمدنية القديمة حتى الطبقة المحيطة بالإمبراطور من مرافقين
ومستشارين ، وانجهدت اللجنة إلى خطوة ثالثة هي إلزام الوزارة الامبراطورية

التي كان برأسها أكليلو هيت لود بالاستقالة ، وتم القبض على جميع أعضائها ،
وفي نفس الجولة عُزلت القيادات المركزية والإقليمية وعُينت قيادات جديدة ،
وأسهمت القيادات الامبراطورية بالفساد والرشوة والعمولات ، وبأنها المسئولة
عن المجاعة التي اجتاحت البلاد ، ومات بسببها مائة وخمسون ألفاً من المواطنين .

الكنيسة والامبراطور :

عندما بدأت حركة الانقلاب خطواتها الأولى هادئة متأنية حسبت
الكنيسة أن الحركة سيقضى عليها كالحركات التي سبقتها ، وكانت للكنيسة
في أثيوبيا تنعم كالمصر الإمبراطوري بكل صور الثراء والسلطان ، إذ كان
لها ٣٠ ٪ من مساحة الأراضي المزروعة بالحبشة ، وكانت مع ذلك تجبي الصدقات
والنذور من المعلمين والفقراء التماساء والجهة ، وكان للامبراطور وأسرته
وحاشيته ٥٠ ٪ من مساحة الأراضي ، أما باقي الأرض فقد منحه الامبراطور
لكبار المواطنين المدنيين والعسكريين ولبعض زعماء القبائل . وتركزت الجماهير
للعرمان والوزر .

وعلى هذا فإن الكنيسة كانت شديدة الحرص على بقاء النظام الامبراطوري ،
ولذلك ما إن أحست بقوى تناهض هذا النظام حتى دقت أجراسها في كل
مكان ، تستنفر الرعية للدفاع عن النظام المقدس ، وتذكر الشعب بالحكمة
المقدسة التي تقرر أنه : « إذا راح ملك الملوك اختفت العدالة » .

ولكن الحركة هذه المرة كانت أقوى من الكنيسة ، وكانت تعارض
الكنيسة كما تعارض الإمبراطور ، والعجيب أن الكنيسة عندما أحست بأن
الحركة أقوى منها ، وأن العرش لا أمل فيه راحت تؤيد النظام الجديد
وتستطفه .

وفي شهر أغسطس سنة ١٩٧٤ كانت الحركة الانفلاية قد قضت على

كل أعوان الإمبراطور ، وتركته وحده ، فبدأت الحركة تنعجه إليه ، بعد أن كانت نحوم حوله ، وفي ٢٧ أغسطس سنة ١٩٧٤ حددت القوات المسلحة إقامة هيلاسلاسى ، وألزمته بأن يلزم قصره وألا يتجول فى أديس أبابا إلا مسافة لا تتجاوز خمسة كيلومترات ، وفى نفس الوقت تم تجريد الإمبراطور من كل سلطانه ، ومن ملكية جميع قصوره .

وفى ١٢ سبتمبر ١٩٧٤ أعلن الجيش عزل الإمبراطور هيلاسلاسى وتعيين ابنه الأمير أصفا واصن خلفاً له ، والملك الجديد قارب الستين من عمره وهو مريض بشلل يمالج منه فى مصحات سويسرا ، ولم يكن هذا ولي عهد الإمبراطور ، فإن الإمبراطور كان قد عين حفيده الأمير زارا يعقوب ولياً لعهد ، وكان من الواضح أن تعيين أصفا واصن إمبراطوراً ليس إلا خطوة على الطريق . وفى نفس اليوم أصدر الجيش قراراً بحل مجلس الشيوخ والنواب ووقف العمل بالدستور .

وكانت اللجنة العسكرية قد مهدت لعزل الإمبراطور بإعلان اتهامه بالاحتفاظ بعشرات الملايين من الدولارات بالخارج ، وبفقر مئات الآلاف من الكيلوجرامات من الذهب إلى الخارج ، وبغير ذلك من صور الاستغلال وأجبرته على التنازل عن ١٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠ (خمس عشرة ألف مليون دولار) كان يحتفظ بها فى البنوك الأجنبية ، وبخاصة بنوك سويسرا ولأنه كان الشعب يهتف ضده « باللعن » وهو ينتقل إلى منفاه .

إنهاء الملكية فى إثيوبيا :

لقد كان واضحاً من الإجراءات التى أوردناها أن العرش الإثيوبى أصبح فى خطر ، وأن تعيين ملك جديد ليس إلا خطوة فى طريق إلغاء الملكية تماماً فى إثيوبيا ، وفى ٢٢ مارس ١٩٧٥ أذاعت الحكومة العسكرية مرسوماً

أثنت فيه القرار الخاص بعين أصفا واصن ملكا على البلاد ، وقالت إنها ستترك للشعب الأثيوبي أن يقرر مستقبل بلاده ، وكان واضحا أنها تنوي إعلان إثيوبيا جمهورية اشتراكية . وانتهى بذلك عرش كان الفساد قوامه والظلم أصله ، وتبج الأمور نحو إعلان الجمهورية وتكوين حزب اشتراكي لحكم البلاد . ويبدو أن ذلك سيكون في ١٢ سبتمبر أي بعد عام من عزل هيلاسلاسي .

نجى للموت هذا الرجل من مزيد من الهوان كان يمكن أن ينزل به . فقد أذاعت الأنباء الإثيوبية يوم ٢٧ أغسطس سنة ١٩٧٥ أن أحد خدم القصر رأى الإمبراطور وهو ملق على سريرته دون حركة ، ولما اقترب منه وجده قد فارق الحياة .

والموت نهاية كل حي ، ولكنه نهاية مريرة للظالمين .

إريتريا بين حكمين

لقد كان واضحا أن أريتريا كانت سببا من أسباب الثورة على الإمبراطور ، وقد اشتعلت فيها حرب التحرير منذ سنة ١٩٦٢ ، وعندما ظهر الانقلاب الأثيوبي أعلن قادة الانقلاب أن من مبادئهم احترام القوميات ، وحل المشاكل بالبلاد وبخاصة مشكلة أريتريا ، واتجهت الأنظار إلى الصلح ، وتقدم السودان باقتراح لوقف إطلاق النار ، وفتح حوار عاجل بين الجانبين ، وظهر الأمل في نجاح هذا الاتجاه ، ولكن سرعان ما ظهر اتجاهان يتعارضان معه ، الاتجاه الأول يدعو للأسف الشديد ذلك أن صراعاً نشب بين زعماء أريتريا بعضهم والبعض ، والاتجاه الثاني هو اتجاه قادة مجلس الثورة الأثيوبي الذي أعلن أن حل مشكلة أريتريا في نظرنا الانقلاب يتمثل في اللامركزية التي نتجها

لما البلاد في عهدنا الجديد ، والمملانية التي لا تفرق بين دين ودين ، وفي اللامركزية
وفي المملانية حل لمشكلة أريتيريا ، ومعنى هذا أن الاستقلال التام الذي تمنوا
له أريتيريا ليس معترفاً به الآن من زعماء أثيوبيا في عهدنا الجديد ، وقد وصل
بهم الأمر إلى قطع العلاقات مع تونس لأنها أعلنت أنها تؤيد انفصال أريتيريا .

ولا تزال المشكلة قائمة ، ولكن الأمل كبير في تحقيق استقلال أريتيريا
إذا استطاع زعماء البلاد أن يوحّدوا جبهتهم ، وأن يتكلموا بلسان واحد ،
وهو ما نرجو أن يكون ، وأريتيريا بالنسبة للحبشة ليست إلا كالجزائر بالنسبة
لفرنسا ؛ وكما انتصرت الجزائر ستنتصر أريتيريا ولكن بعد توحيد صفوفها
على نحو ما فعلت الجزائر .

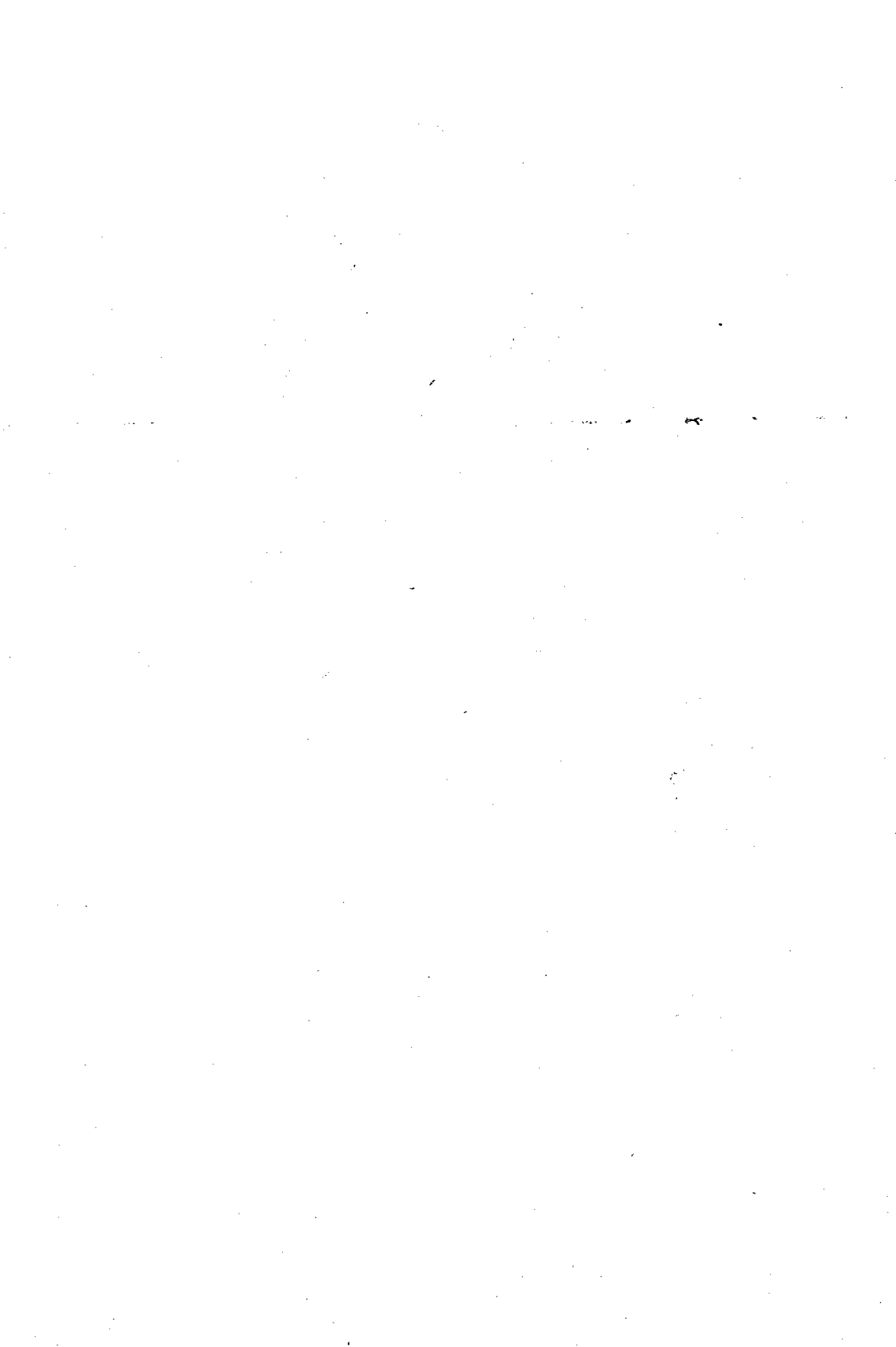
التقارب بين الدول العربية والدول الإفريقية

عقد مؤتمر إفريقي بالقاهرة في أوائل شهر مارس سنة ١٩٧٧ ، مثلت فيه ستون دولة عربية وإفريقية وتدارس المؤتمر الروابط السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية التي تربط بين المجموعتين ، وأصدر في نهاية اجتماعاته قرارات هامة سميت « ميثاق القاهرة » وقد وقعه ستون ملكاً ورئيس دولة ورئيس وفد ، وتقرر أن تحفظ نسخة من ميثاق القاهرة بالجامعة العربية ، ونسخة بمنظمة الوحدة الإفريقية . وتمهدت دول البترول بتقديم الكثير من العون الاقتصادي للدول الإفريقية ، وكان نصب الملكة العربية السعودية من تحمل هذه المسؤوليات كبيراً .

وقد نص ميثاق القاهرة على احترام سيادة جميع الدول العربية والإفريقية ، واستقلالها الاقتصادي والسياسي . وإدانة الصهيونية والاستعمار والاستعمار الجديد وكل أنواع التمييز العنصري والديني في أفريقيا وفلسطين والأرض المحتلة . كما تضمن مساندة القضايا الإفريقية والعربية في العالم ، ومواصلة مساندة حركات التحرير الإفريقية والعربية ، وتأكيد التعاون الاقتصادي في الاقتصاد والمال والتجارة والتعدين والزراعة وتكثيف التعاون بين المؤسسات المالية العربية والإفريقية ، وتكثيف التعاون في استغلال الموارد الطبيعية في إفريقيا . وإنشاء لجان مشتركة على المستوى الوزاري لتابعة التنفيذ .

وتضمن إعلان القاهرة سياسي تأييد حركات التحرير في جنوب إفريقيا وفلسطين ، والنضال المشترك للشعوب العربية والإفريقية ، وأن أي عدوان على دولة إفريقية أو عربية يعتبر اعتداءً موجهاً ضد إفريقيا والعرب .

کلمہ ختم



حضارة الإسلام بإفريقية

إن الحضارة هي النتيجة المهمة للتطويع ، فقيام الدول وسقوطها ، والانتصار في المعارك أو الهزائم فيها ، لا يعنى شيئاً إلا أن نتج فكراً وحضارة ، وقد إنساب الإسلام إلى إفريقية ، وانتشر في ربوعها ، وريداً وريداً ، وقامت في ظله دول وإمبراطوريات إسلامية ، ونريد هنا أن نتعرف على نتائج انتشار الإسلام بإفريقية ، وعلى الدور الحضارى الذى قام به .

وقد سبق لنا أن تحدثنا عن حضارة كل دولة إسلامية بإفريقية عقب حديثنا عنها ، ولكن هناك ملامح عامة أضفاها الإسلام على كل المسلمين وكل الدول الإسلامية بإفريقية ، وهى التى نريد أن نتحدث عنها هنا .

والباحث فى هذا الموضوع يدرك أن الحضارة الإسلامية التفت بالتقاليد المحلية بإفريقية وصارعتها ، فقضت على ما يخالف الإسلام منها واختلطت بالتقاليد الأخرى فعدلتها حتى تتماشى مع الفكر الإسلامى ، وأعطى الإسلام فى تشريعاته هذه النرصه للوفاق والامتزاج الحضارى ، وهذا يفسر ما يقول me.ek (١) من أن اعتراف الإسلام بتعدد الزوجات وبالرق على العموم جعل الطفرة من المجتمع البدائى للمجتمع الحديد ليست واسعة ، وسهل على الإفريقيين دخول الإسلام لشيوع تعدد الزوجات بينهم تعدداً غير محدود ، ولشيوع الرق فى الخدمة والحراسة كذلك ، وكأن ذلك كان خطوة سريعة ، سرعان ما يدرك المسلم بعدها أن تعدد الزوجات ليس مطلقاً ، وأن الرق ضيق المدخل وواسع المخرج بحيث يصبح بعد الدراسة والتأنى مقفل الباب (٢) .

Northern Tribes of Nigeria p. 5 (١)

(٢) اقرأ ما كتبه المؤلف من تعدد الزوجات وعن الرق فى كتابه « الإسلام » من سلسلة مقارنة الأديان .

وكان انتشار الحضارة الإسلامية بإفريقية سهلاً يسيراً كانتشار الدين نفسه ، فالمسلمون لم يبذلوا جهوداً كبيرة لنشر دينهم أو نشر حضارتهم ، وكان دورهم في ذلك أن قدموا الدين لطالبيه ، وعلموا المسلمين مبادئ هذا الدين ونظمه ، وهذا يختلف اختلافاً كبيراً عن نشر المسيحية بين الإفريقيين ، فقد كان للمبشرين سياسة مرسومة ، وأهداف محددة ، وكانت ترى قبل كل شيء إلى إخضاع السود للبيض ، وأوضح دليل على ذلك أن تقتبس من مبشر رسولى كان مديراً لدير الروح القدس ، وقد وضع المبشر صيغة صلاة يُعلمها السود في المستعمرات الفرنسية ، ونصها ما يلي :

أيها الروح القدس ، ليتسع صدرى دوماً حتى لا أحاول - وأنا ألقى للظلم - أن أنتقم لنفسى ، وأرد السوء بالسوء ، يجب عليّ أن أنزع تماماً من قلبي الميل نحو الأشياء الزائلة الفانية من كل قلبي يا إلهي أصلى من أجل سيدى ، تفضلْ واقبل صلاتى ، أنضرع إليك بأن تغدق خبرائك على سيدى وعلى جميع أفراد عائلته وبارك كل ما يملك (١) .

وهكذا نلوك هدف نشر المسيحية ، لقد كانت تبني نفسها على أنقاض الآخرين ، أما لإسلام فكان يعلى بناء الآخرين ، ويُعطيهم حضارة تضمن لهم خير الدنيا والدين .

وقد قدّم الرئيس أحمد سيكوتورى دراسة واسعة النطاق للحضارة الإفريقية قبل الإسلام وبعده ، فسحّ من اللبّين ينكرون حضارة إفريقية بإفغان حضارة مصر ، وحضارة النوك وحضارة بنين كما قدّم بإفانصة دراسة للحضارة السودانية في العصور الوسطى تلك الحضارة التي نبتت في غلى الإسلام وتودهرت بتزدهلوه (٢) .

(١) نقلنا من إفريقية وتكونة الرئيس أحمد سيكوتورى من ٢٠٦ .

(٢) المرجع السابق من ١٨٤ وما بعدها .

وقد شملت الحضارة الإسلامية بإفريقية النواحي النظرية ، والنواحي العمرانية ، فعرف الإفريقيون في الحكم قاعدة الشورى ، وكانت دار الشورى تُسمى عندهم « المِشْوَر » . وقد تحدث ابن بطوطة عن « المشور » حديثاً طويلاً يشمل وصفه وطريقة الشورى به (١) ، [وعرف الإفريقيون نظام البيعة الذى اشتهر عند المسلمين] وأن أهل الحل والعقد هم الذين يقومون به ، كما عرفوا حق الجاهير فيما يقرره أهل الحل والعقد ، وكانت البيعة مشروطة بأن يبيع الخليفة كتاب الله وسنة رسوله ، وإلا فلا طاعة له على المسلمين ، وكان نص البيعة « بايعتك على السمع والطاعة ، الأمر أمرك والنهى نهيك على السنة والكتاب » (٢)

وعرف الإفريقيون في الاقتصاد حق الفقير في مال الغنى ، ونظام بيت المال ، وردّ الأمانات إلى أهلها ، كما عرفوا في الآداب الدينية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والتزموا بترك المحرمات وآداء الصلوات (٣) ، وعرفوا في الآداب الاجتماعية اللباس القضاض والعامة والقلنسوة ، واهتموا بالنظافة اهتماماً كبيراً والتزموا بمراسم الوفاء ، وعلا شأن المرأة فارست حقوقها بانطلاق وحرية ، وتغلغت الشريعة الإسلامية شيئاً فشيئاً في المجتمع القبلى بفضل الأحكام الشرعية التى كان يصدرها رجال القضاء الإسلامى في تلك البلاد (٤) .

ولما كان الفقهاء هم مصدر العلم فقد حظوا بمكانة سامية في بلاط السلاطين

-
- (١) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .
 (٢) نعم فقير تاريخ السودان : ج ٢ ص ١٤٢ .
 (٣) نعم فقير : ج ٢ ص ١٣١ .
 (٤) هويزر ميفان : البيانات في الرقعة السوداء ص ١٤٤ .

والملايك ، وكان لهم ثراء عريض وجاه عظيم بحيث كان من يلجأ لبيت العالم بأمن العقاب ، ولا يمرؤ أحد على التعرض له كما قلنا من قبل .

يقرر هوبير ديشان أن كبار المشايخ وأفذاذ العلماء كانوا في متبى الاستقامة والمعرفة بقواعد الإسلام ، فكانوا لا يدعون لأنفسهم كرمات أو خوارق ، وكانوا على فضلهم وسعة علمهم لا تعدو علاقة الواحد منهم بمرتيبه علاقة الأستاذ بطلبته ، وكان الخاصة المستنبطون يرون العلماء مربين روحين يوجهون النفوس ويبصرون الناس بأحوال القلوب ، ولكن العامة كانت تنظر لهؤلاء العلماء نظرة تقديس ، وقد بلغ نفوذهم بين قبائل الولوف في السنغال أن حلّوا محل أرباب الإقطاع في النظام السياسى القديم لتلك القبائل (١) .

والحضارة الإسلامية في ناحية الجنس واللون حضارة تدعو إلى الإعجاب والفخر ، وقد انطلق فيها قوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم (٢) » ، وقال ﷺ في حجة الوداع : أيها الناس إن ربكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر ، إلا بالتقوى ، وهكذا نقل الإسلام التفاضل من مجال الجنس واللون إلى مجال العمل النافع والخلق الصالح .

وإذا قورن هذا بالفكر الأوربي تجاه الجنس واللون يتضح لنا شطط الفكر الأوربي ، ذلك الشطط الذى لم ينحرف له فقط عامة الأوربيين ، وإنما انزلق إليه كبار المفكرين والفلاسفة الأوربيين مثل مونتيسكيو المفكر الفرنسي الذى يرى أن استعباد الأوربيين للزنج عمل عظيم اقتضته حكمة الله ، وقد اقتبسنا كلامه من تيمى .

(١) ملاحظات في إنزوية السود : ص ١٤٦ .

(٢) سورة الممتبرات الآية ١٢ .

ويقدم الرئيس ألد سبكتورى دراسة حافلة حول مفهوم الزنجية ،
ويسخر من أولئك الأوربيين الذين اندفعوا إلى إفريقية بمساطر وأفلام يقيسون
الجاهل والقصّات ويقررون بناء على غده لتقاييس الظلمة ، أن الرجل
الأسود مكانه فى علم الحيوان بين الشمبانزى والحيوان أى الفروود شديدة
الشبه بالإنسان ، وبصرخ الرئيس سبكتورى بأن لون البشرة ليس سوى
واقع يطابق ظروف البيئة ، ويتساءل هل جميع الأبقار لهم لون واحد ، وهل
تفضل البقرة البيضاء زميلتها الحمراء أو السوداء ؟ والإجابة بالتق
بالأكيد (١) .

وفى الحضارة العمرانية يفخر الإسلام بأن فى ظلّه عرفت إفريقية المدن
الفيحة، والمساجد، والبيوت ، والقصور ، ومعاهد العلم ، وقد أوردنا فى دراستنا
السابقة أحاديث عن المدن التجارية والثقافية التى بُنيت على طراز مدن الشمال
وحاكتها فى أبنائها وجمالها .

بنى بعد ذلك أن تقتبس من مفكرى الغرب رأيهم فى الحضارة الإسلامية
بإفريقية ، وما قدمته للإفريقيين من نور وضياء ، يقول Meek :

إن الإسلام جاء بحضارة جديدة أتاحت للشعوب الزنجية طابعاً حضارياً
متميزاً لا زال واضحاً حتى اليوم مؤثراً فى نظمهم السياسية والاجتماعية .
ذلك أن الإسلام حل الحضارة لى القبائل المتبريرة ، وجعل من المجموعات
الوثنية المنعزلة المتفرقة شعباً ، وجعل تجارتها مع العالم الخارجى ميسورة ...
نقد وسع من أفق الناس ، ورفع من مستوى الحياة بخلق مستوى اجتماعى
ترقى ، وخلع على أتباعه الكرامة والعزة واحترام الذات واحترام الآخرين
.. ولقد أدخل الإسلام فن القراءة والكتابة ، وحرم الخمر ، وأكّله

(١) ! إفريقية والشمرة ص ١٨٩ وما يملأ .

البشر ، والأخذ بالتأثر ، وغير ذلك من العادات الوحشية ، وأتاح للفرنجي
السوداني الفرصة لأن يصبح مواطناً حراً في عالم حر^(١) .

ويقول Anderson :

وقد أخذ أثر الشريعة الإسلامية يجاوز نطاق العقيدة إلى الحياة العامة
والفريقية ، لأن الشريعة الإسلامية لها قوانينها في الزواج والطلاق والميراث
والوصية : وقد نجح هذا القانون في تحديد نعمة الزوجات ، كما أن للميراث
الإسلامي ألغى نظام الأمومة ، وجعل الأبوة هي الأصل للعلاقات
الأسرية^(٢) .

ويقول Bosworth Smith :

« إن أقبح الرذائل وهي أكل لحوم البشر ، وتقديم الإنسان قرباناً ، ووأد
الأطفال أحياء ، تلك الرذائل ، قد اختفت فجأة وإلى الأبد . والآمال
للذين كانوا يعيشون حتى ذلك الوقت حرة أو أشباه حرة يلبسوا يرتدون
الملابس ، بل أخذوا يتأقنون في ملابسهم ، والآمال الذين لم يقتلوا خط
من قبل ، بدءوا يقتلون ، بل إنهم يكترون من الاختزال ، لأن الشريعة
الإسلامية تأمر بالطهارة . . . واتجه النظام القبلي إلى إفراح المجال لأساس
لوسع نطاقاً ، وبعبارة أخرى إلى اندماج القبائل بعضها في بعض لتصبح أمة ،
وبازدياد النشاط والمعرفة أصبحت الأمم إمبراطوريات .

« وإذا نظرنا إلى الحروب نجد أنها في ظل الإسلام أصبحت دقيقة للنظم ،

(١) C. K. Meek : The Northern Tribes of Nigeria pp. 1, 4

(٢) The Civilization of Islam in Africa p 373.

(٣) The Nineteenth Century, December 1887 pp 796—800

فالمسلمون لا يثيرون القتال دون سبب ، ويقل أو يتعدى في حروبهم التهب والسلب ، كما زاد تأمين الناس على أملاكهم وأرواحهم .

وفي ظل الإسلام أنشئت مدارس لو اقتصر على تعليم القرآن لكانت ذات قيمة كبرى ، فبالك وقد خطت خطوات واسعة في مختلف الدراسات ، وأصبح المسجد الجيد البناء ، للنظيف ، بما فيه من أذان للصلاة خمس مرات في اليوم ، وقبلة تتجه إلى مكة ، وإمام وصلاة جمعة ، مركزا للقرية بدلا من دار عبادة الأوثان ذات المنظر البشع .

وقد قهرت عبادة الله الواحد القهار ، الكائن في كل مكان ، العليم الرحيم كل ما لُتقن الأهالي عبادته من قبل ، قهرا لا حذله ، وظهرت صناعات وتجارة لا كالتجارة الصلصة التي تقوم بالإشارات فيها مقام اللغة في التزام ، ولا كالمبادلة البدائية في الخلمات تلك المبادلة التي نعرف من هيرودوت أنها وجدت في إفريقية منذ أقدم العصور ، بل أصبحت الصناعات تتطور على مهارة فائقة ، وأصبحت التجارة منظمة نظاهما حكما ، وظهرت هذه المدن الكبيرة في أرض الزنوج بتأثير هذه الصناعة والتجارة ، وتأثير الحكومات المستقرة التي جاء بها الإسلام .

أما فيما يتعلق بالفرد ، فمن المسلم به من كل الوجوه أن الإسلام أمد السود الذين تحولوا إليه بالنشاط والعزة ، والاعتماد على النفس واحترام الذات ، وهذه كلها صفات يندر جدا أن نجدها في مواطنهم الوثنيين أو المسيحيين .

وفي مجال الاقتباس من الغربيين اعترافهم عن الطور العظيم الذي لعبته الحضارة الإسلامية بإفريقية ، نتجه إلى باحث مسيحي عنى عناية كبيرة بالإسلام في إفريقية ، ذلك الباحث هو Seneer Trimingham الذي كتب عدة كتب في هذا المجال ، وكتب أخيرا كتابا خاصا عن أثر الإسلام على

إفريقية عنوانه : *The Influence of islam upon Africa* ، ومن هذا الكتاب تقتبس عدة اقتباسات في جوانب مختلفة من جوانب الحضارة :

— كانت الجماعة الإفريقية تؤسس حياتها على أساسين : القبيلة والأرض التي تعيش عليها ، وكانت العصبية القبلية على أشدها ، كما كانت العصبية شديدة بالنسبة للأرض التي تعيش بها القبيلة أو مجموعة من القبائل ، فلما جاء الإسلام غير هذين الأساسين ، فحلت الأخوة في الإسلام محل العصبية القبلية ، وارتبط الإفريقي بالمسلمين جميعاً بعد أن كان رباطه محدوداً بأفراد قبيلته وذلك طبقاً للآية الكريمة « إنما المؤمنون أخوة (١) » ، وساعد على ذلك ما خلقه الإسلام من ظروف تؤكد هذه الأخوة ، فالمسلمون جميعاً يحتفلون بعيد واحد ، ويصومون شهر رمضان ، ويتخذون يوم الجمعة يوم عطلة لهم ، كما يقيمون نوعاً واحداً من التشريع ، وكانت من قبل أعيادهم مختلفة وشرائعهم متباينة .

أما الأساس الثاني وهو أرض القبيلة ، فقد حل محله أساس جديد جعل ديار الإسلام كلها دياراً للمسلم ، وجعل المسلم في أى مكان يحس بمشكلات أخيه المسلم في أقصى الأرض ويدرك أنه مسئول عنها (٢) .

— كان اتجاه المسلمين تجاه الحضارة الأوروبية قليلاً أو معدوماً ، لأن الإسلام حتى معتقديه من الحضارات التي تخالفه ، ومنحهم حضارات في مختلف شؤون الحياة ، وكان المسلمون يتأقلمون بثقافتهم الإسلامية ، أما الوثنيون الذين لم تكن لهم حضارة تشغلهم فقد اتجهوا للانغراف من الحضارة الغربية ، وفي كثير من الأحوال جذبتهم المسيحية فأصبحوا على دين المستعمر وتابعين حضارته ، وقد اتهم المستعمرون هذا الاتجاه بنزولوا المسلمين عن الحضارة

(١) سورة الحجرات الآية الخامسة .

(٢) *The Influence of Islam Upon Africa* p. ٢٥ .

الغربة وأنجهوا بحضارتهم إلى العناصر الوثنية والعناصر التي جذبتها المسيحية (١) .

ونتيجة لعزل المسلمين عن الحضارات الحديثة ، عاش هؤلاء في تخلف في العلوم التجريبية ، وجعل الاستعمار مدارس الأطفال لا تعرف غير القرآن الكريم ، ولكن الذين اتبعوا ثقافة الغرب فتحت أمامهم أبواب المعارف المختلفة ، فدرسوا الطب مثلا على أحدث النظم ، ومن الحق أن نذكر أن هذه النظم الحديثة كانت معروفة لدى المسلمين في الأقطار المتطورة ، ولكن الاستعمار حال دون دخولها مدارس المسلمين في إفريقيا (٢) .

- انتشرت مع الإسلام بإفريقية أحكام الشريعة الإسلامية في مختلف الشئون ؛ فعرف الإفريقيون نظام النصل بين السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية ، وعرفوا الزكاة وكانوا من قبل يأتقون من نظام الضرائب ، واتبعوا بدقة قوانين الإسلام في الأحوال الشخصية كمترواج والطلاق ، وقوانين الإسلام في المال فأصبح نظام الملكية لا يقوم على القوة ، وأصبح الربا ممنوعا ، وأخذوا بنظام الميراث الإسلامي مع أنه يختلف عن نظمهم القبلية اختلافا كبيرا ، واتبعوا نظام الإسلام في الجنائز ودفن الموتى (٣) .

- ويحرم الإسلام العُرى ، ومن هنا اختفى العرى بين المسلمين بإفريقية بل اهتم الكثيرون من المسلمين بالأناقة في الملابس ، كما اهتموا بالنظافة ، وحرّموا بعض الأطعمة والأشربة تبعا للإسلام (٤) .

Ibid p. 107 (١)

Ibid p. 111 (٢)

Ibid p. 51 (٣)

Ibid p. 52 (٤)

- وكان للحج أهمية كبرى على الإفريقيين فإن الإفريقي كان عندما
يسافر عنه المسافة الطويلة في أرض إسلامية يحس بالقبح ، ويشعر كأن
العلم كله أصبح مسلما ، وهناك يرى الجماهير الضخمة ويشترك مع هؤلاء
في أداء الشعائر فيزيد تعلقا بدينه وتقديرا له ، ذلك الدين الذي جعله عضوا
في هذه الجماعة الواسعة التي انسابت من كل مكان إلى الأرض المقدسة
التي تتأخر الشعائر في مساواة لا تعرف فروق الغنى ولا فروق المجلس
واللون (١) .

مستقبل الإسلام بإفريقية

ذكرنا من قبل أن إفريقية يقال لها القارة المسلمة ، وأنها بذلك تقف مواجهة لأوروبا المسيحية ، وأن انقشاع الاستعمار عن إفريقية أضعف نتائج التبشير المسيحي الذي كان يتحرك بتأييد السلطات المستعمرة ، وفتح الباب على مصراعيه لمزيد من النشاط الإسلامي في القارة .

ولكن لا ينبغي للمسلمين أن يعيشوا في هذه الصورة الزاهية ، وأن يهملوا التزاماتهم التي لا بد منها لينتقل هذا الأمل إلى حقيقة واقعة ، فعل المسلمين في كل مكان أن يتذكروا أن هذا السباق الذي يقوم به المبشرون المسيحيون لا يرى لضم أتباع جدد إلى المسيحية ، ولا يقصد إلى رفع شأن الدراسات الروحية ، وإنما يرى قبل كل شيء وبعد كل شيء إلى محاربة الإسلام والمسلمين ، بدليل أن هؤلاء لا يبنلون أي جهد لتعليم أبنائهم ولا ذويهم دين السيد المسيح ، وأن أوروبا وأمريكا ليس بهما أي اهتمام حقيقي يذكر ، فالجهد ليس متوجها نحو الدين ، وإنما هو وسيلة حلوانية ضد الإسلام وضد الشرق .

وماذا يفعل المسلمون لمقاومة هذا التحدي ؟ وللود عن أنفسهم ضد من يتشم عليهم فارم ؟

هنا ما نريد أن نضعه في ختام هذه الدراسة الطويلة المفضية :

نريد أن يبرز الإسلام الحقيقي بشريته وأخلاقه ، وهذه الكلمات

القصيرة تشمل مدلولات واسعة للغاية ، إنها تشمل تطبيق النظم الإسلامية في السياسة وفي الاقتصاد وفي الحياة الاجتماعية ، أي أن تكون الشورى أساس السياسة في الدول الإسلامية ، وأن تكون الطائفة الاجتماعية دعامة التفكير

الاقتصادى ، حتى تطابق هذه النظم ما شرعه الله ، ونريد تطبيق النظم الاجتماعية الإسلامية في المجتمع الإسلامى^(١) ونريد التمسك بأخلاق الإسلام وآدابه ، تلك الأخلاق التى تحتم المساواة والحرية والأمانة والوفاء بالوعد والعدل والتعاون وتنتهى عن الإهمال والرشوة والغش والحسد وشهادة الزور . . . (٢) .

ونحب أن نثبت هنا إجابة لشكوك تدور في بعض الأذهان ؛ فإننا عندما نصرخ بأن طريق النجاح للمسلمين يكمن في العودة للإسلام الصحيح ، يبيننا البعض بأن كثيراً من الأفطار غير الإسلامية خطت نحو النجاح وحققت ألواناً من التقدم في مختلف الانجهاات .

ونقول هؤلاء إن هذه الأفطار اقتبست الفكر الإسلامى ، شعرت بذلك أو لم تشعر ، فالفكر الإسلامى أصبح تراناً إنسانياً اقتبسته أوروبا في الأندلس وفلسطين ، واقتبسته دول أخرى قبل ذلك وبعد ذلك . وبعُد المسلمون للأسف عن هذا الفكر ، ففي اللقاءات التى تمت بين الشرق الإسلامى والغرب الأوروبى في العصر الوسيط والعصر الحديث حصل تبادل في الأفكار فآخذوا أجل ما عندنا وتركوا بيننا مساوئهم التى يعرفها التاريخ دون أى غموض .

فإذا أردنا أن نحقق ما حققه المسلمون السابقون من انتصارات وتقدم ؛ كان علينا أن نعود للإسلام وأخلاق الإسلام وشرعية الإسلام ،

وعليتنا كذلك أن نأخذ من العلوم التجريبية كالطب والرياضة وغيرها أسمى ما وصل له الفكر العالى ، وأن نسهم في تنشيط هذا الفكر ، وأن

(١) انظر سلسلة « الحضارة الإسلامية » لمؤلف ومى في ستة أجزاء تشرح رأى الإسلام في الفكر ، والسياسة ، والاقتصاد ، والاجتماع ، والتربية ، والشؤون العسكرية .
(٢) اقرأ باب « الدين للمسلمة » ، في كتاب الإسلام من سلة مقارنة الأديان لمؤلف .

نظروا أن أجدادنا قدموا في هذا المجال ذخيرة ضخمة ، وأن علماءنا كانوا
لسانة العلم وقروناً طويلة في هذا المضمار (١) .

وينبغي أن يكون الداعي للمسلم واسع الثقافة ، عميق الفكر ، مطلعاً
على النتائج الحديثة في الدراسات الإسلامية التي يقدم له خير عون وهو
يتحدث عن الإسلام ، وفي مقدمة ذلك دراسة الحضارة الإسلامية
بأفانيتها واتجاهاتها .

والمبشر للمسيحي يعرف الكثير عن الإسلام ، ويهاجم الإسلام من خلال
هذا التعرف المتحرف ، ولذلك ينبغي للداعي المسلم أن يدرس مقارنة
الاديان ليعرف الأديان السابقة ومكانة الإسلام منها ، فقد مضى العهد الذي
كان الإسلام فيه يدرس دراسة مستقلة ، واتجه الفكر الآن إلى تصحيح ذلك ،
فأصبح الإسلام يُدرّس كحلقة ختامية في سلسلة الأديان ، وهذا يستلزم
أن نعرف الأديان السابقة وندرس كل شيء عنها ، ثم نعرف الدور المهم
الذي جاء الإسلام به ليُكمل صلة السماء بالأرض ، وليقدم للبشرية
خاتمة الرسالات •

ويتحتم على المسلمين وبخاصة العرب أن يبذلوا أقصى الجهد لنشر
اللغة العربية في إفريقية ، فاللغة العربية هي الوعاء الذي جاء به كلام الله
وأحاديث الرسول ، والتعرف عليها سيفيد كثيراً في مزيد من فهم الإسلام
وتقديره ، ثم إن اللغة العربية هي لوسع اللغات الإفريقية انتشاراً وأكثرها
حضوراً ، فالتعرف عليها سيكون مفيداً كل الفائدة . وإذا لم تكن اللغة
العربية هي الأولى في الأقطار الإسلامية فلتكن الثانية بعد اللغة الوطنية إن
كانت هناك لغة وطنية ، ولكن يتحتم أن تسبق اللغات الأوروبية ، فن العيب
أن نرى مؤتمراً انعقد ضد الاستعمار القديم أو الحديث ولكن اللغة التي

(١) انظر كتاب الفكر الإسلامي : منابعه وآثاره للمؤلف من سلسلة الحضارة الإسلامية .

نستعمل فيه هي لغة المستعمر ، وقد كان لي الشرف أن كنت عضواً في الوفد الذي مثل مصر في المؤتمر الإسلامي بماليزيا سنة ١٩٦٩ وفي هذا المؤتمر قمتُ بحثاً عن ضرورة الاهتمام باللغة العربية في كل الأقطار الإسلامية ، وقد وُفق على هذا البحث بالإجماع ولكن التنفيذ يحتاج إلى تخطيط ودراسة .

وينبغي أن نذكر أننا سنقابل مقاومة عنيفة عندما نشرع في نشر اللغة العربية بإفريقية وستكون هذه المقاومة من أولئك الذين جعلوا اللغة الأوربية حياتهم ومفتاح مجدهم ، فهم يريدون الدواع عنها بإصرار ، ولكن يتحتم أن نشبّت في الميدان حتى نزيّم هذه الاتجاهات ، وقد شهدتُ في مصر نفسها منذ حوالي ربع قرن أناسا يتشدقون بلغات أجنبية ، أو يحشرون كلمات منها في أحاديثهم دليلاً على معرفتهم بها ، ولكن هذا التيار أوشك أن يزول ، وفي الصراع الذي يقوم به قادة الجزائر لتعريبها مستعبدون بمدرسين من مصر ، اتجهت بعض القوى المضادة بالجزائر لإيقاف هذه الحركة عن طريق إثارة متاعب في وجه المدرسين المصريين لعلهم يقلّ نشاطهم أو تقلّ حماسهم للسفر للجزائر ، ولكن هذه القوى لم تحقق أى نجاح ، وانتصر عليهم اتجاه الحق ، وبدأ اللسان العربي يحل محل الرطانة الفرنسية في مدى وجيز ، ومثل هذه المقاومة ستظهر هنا وهناك ولكن لا بد من تقوم هذا الانحراف .

ولكن الاهتمام باللغة العربية يجب ألا ينسحب أن نحاول تقديم الإسلام لتناس بلغاتهم ، وأذكر أن لي تجربة في هذا المجال حققتُ كثيراً جداً من النجاح ، فقد ذهبت إلى إندونيسيا أستاذاً بالجامعة الإسلامية ومديراً للمركز الثقافي المصري ، وكنت أصرف قليلاً من اللغة الإندونيسية وهناك زدت تعرفاً على هذه اللغة وإجادتها ، ولستطعت أن أتحدث بها ، وألقي بها محاضراتي ، وأكتب بها كسبي أو أراجيحها إذا ترحها بعض الزملاء ، وقد ظهرت فائدة هذا الاتجاه ظهوراً مبيناً . وعندما تركت إندونيسيا عائداً إلى بلادي ، تركت بها آلافاً من المراسلين وأكثر من عشرة كتب باللغة

الإندونيسية ومقالات وأبياتاً منشورة ، وقد شهدت النتائج الضخمة لهذا العمل ، ولا زلت أراه من تكرار طبع هذه الكتب ونشرها في نطاق واسع .

وما يذكر في مجال تقديم الدين إلى القوم بلغاتهم نذكر أن الكنيسة وضعت أجزاء من الإنجيل في حوالى ٥٠٠ لغة أو لهجة إفريقية^(١) لتيسر على الناس قراءة الإنجيل ، ولست أقصد بذلك أن نكتب القوم أجزاء من القرآن الكريم بلغاتهم أو لهجاتهم ، وإنما أقصد أن نقدم لهم الإسلام والفكر الإسلامى بهذه اللغات وتلك اللهجات ، وأن تكون آيات القرآن الكريم منارات بين هذه الدراسة .

ويتحتم على المسلمين أن يعملوا بأقصى الجهد لتقريب الثقافى بين بلدان العالم الإسلامى ، وقد دعانى إلى ذلك ما لاحظته حين زيارتى لأنظار العالم الإسلامى من فروق كبيرة من مدلول الدراسات الإسلامية هنا وهناك، ويوشك الإنسان عندما ينتقل من مصر إلى إندونيسيا واليمن ودول إفريقية أن يقرر أن الإسلام هنا يختلف عن الإسلام هناك ، وأن الدراسات الإسلامية تبعد بعداً واسعاً في مكان ما ، عنها في مكان آخر ، فالفقه الإسلامى والفقهاء المقارن الذى يُدرس بكلية الحقوق بجامعة القاهرة بعيد كل البعد عن فقه الحواشى الذى لا يزال يدرس في إندونيسيا وفي إفريقية ، والحضارة الإسلامية التى ازدهرت دراستها في بعض البلاد تعثرت في بلاد أخرى ، واختضت تماماً من بعض البلاد الإسلامية ، وهكذا ، ومن أجل ذلك ينبغي أن تقرب بين الثقافات الإسلامية هنا وهناك ، وأن تكون هناك هيئة إسلامية تشمل فيها كل الأنظار الإسلامية ، لتضع خطط هذا التقارب وتعمل على تنفيذه .

وصح على المسلمين وهم يضحون للأسس القلبية لرفع شأن الإسلام
بالإفريقية أن يوجهوا عناية كبيرة إلى المرأة الإفريقية ، فللرأة عماد الأسرة ،
وهو تعرف للمرأة الإفريقية الإسلام وحضارته وآدابه ، مستثنى أبناءها
عليه ، وما يذكر في هذا المجال أن الكنية عنت للمرأة الإفريقية في كثير
من الأحوال ودفعها لثقل مكان بارز في المجتمع ، وعملت لتسد لها بعض
الوظائف الهامة ، ولتصبح عضواً واسع النشاط في بعض الأندية^(١) ،
ويمكن أن نقول بصراحة إن هذا أرضى غرور المرأة وجعلها أحياناً شديدة
الغيرة المسيحية ، لأنها اعتدت أن هذا التصرف كان ميزة مسيحية قدّمت
لها ، وعندما نهتم بالمرأة الإفريقية سنلحس لها مكانة المرأة في الحضارات
العظيمة ومكانتها في الحضارة الإسلامية ، نرى ماذا قدّم الإسلام للمرأة
وكيف قللها من حال إلى حال ، بعد أن كانت مغبوة في أوروبا حتى
طلع هذا القرن^(٢) .

وهناك بالتحديد مكان حساس يعتبر باباً مهماً من أبواب الثقافة
الإسلامية إلى إفريقية ، وهو لا يزال باباً مفتوحاً ولكن يُخشى أن يوصد ،
هذا الباب هو جنوب السودان ، فجنوب السودان منفذ فكري إلى قلب
إفريقية ، ويمكن أن يكون منفذاً حريماً كذلك ، وهو منطلق فسيح به
ثروات معروفة ، وثروات مجهولة ، ثروات واقعة وثروات متوقعة ،
وبه رصيد بشري ارتبط بالشمال فترة طويلة ، ثم عزله الاستعمار ، ودربه
المبشرون ، حتى رأى بعض سكانه في هؤلاء المبشرين خلاصه واستقلاله ،
وهم في الحق أبعد ما يكون عن خدمة الشعوب واستقلالها ، هذا الموقع
يحتاج إلى جهود كبيرة لتثيف أهله وتصحيح مفاهيمهم ، وهذه الجهود

(١) Geoffrey Parrinder : Religion in Africa p. 164

(٢) انظر بحثاً مقارناً عن المرأة وموقف الإسلام منها في كتاب الإسلام من سلطة

مقارنة الأديان لأدولف .

ينبغي ألا تترك للسودان وحده ، بل لا بد أن يشترك مع السودان حول العالم العربي والإسلامي ، لترعى هذه الدول سكان الجنوب وتجعل اتجاهه نحو الشمال ، ارتباطاً بالسودان الشمالي ، وتطلعاً إلى العالم العربي والإسلامي ، وإذا قصر السودان ، أو قصرت الدول العربية والإسلامية في ذلك ، أعجبه الاستعمار بمزيد من الجهد نحو هذه الأرض فزادها بُعداً عن السودان وعن الوطن الأم .

وقد شهد هوبير ديشان حركة نشاط إسلامي ضخم بالسودان أيام كان حاكماً للمستعمرات الفرنسية بإفريقية في الربع الثاني من هذا القرن ، وكتب عن هذه الحركة وعن صداها ونتائجها ، وقبل أن تقتبس ما كتبه تقرر أن بالعالم الإسلامي الآن حركات تجديد أوسع مدى من تلك التي عرفها العالم الإسلامي في الربع الثاني من هذا القرن ، ولو اتجهت هذه الحركات الإسلامية لإفريقية لكانت لها نتائج أعمق وأوسع من تلك التي شهدتها هوبير ديشان وسنقتبس فيما يلي كلماته لعلها تشجعنا على مواصلة السعي لتحقيق مزيد من النتائج ، يقول هوبير ديشان :

« أخذ الإسلام في الاتساع بشكل ملحوظ بين قبائل وثنية دأبت على مقاومته زمناً طويلاً مثل قبيلة « موشى » وقبائل أخرى في جنوب مستعمرة نيجيريا ، ومن جهة أخرى نشاهد في بلاد السنغال وغينيا وهي بلاد إسلامية ، اتجاهها من الطرق الدينية إلى اقتباس النظام الاشتراكي الزراعي السائد بين طائفة للردين . .

« ولكن أبرز تلك المظاهر وأقواها ذلك النشاط العظيم الذي دب في أوصال العالم الإسلامي ، وحركة التجديد التي مرت في كيانه . فقد هب رجاله وعلمائه ونادوا بوجوب تطهير الدين من الشوائب والبدع الدخيلة عليه . وقد بدأت تلك الحركة في سوريا والبلاد العربية الأخرى ، وقامت مصر بنشرها وإذاعتها ، فوصل صداها إلى أقاصي أرجاء السودان ، ونبه

شعوبها العريقة في الإسلام ، فأبقيت فيها الوعي الديني وخاصة حيث توجد للطبقات المستتيرة من المسلمين ، وقصدت أفواج من طلبة نيجيريا ، ومستعمرة « نيجر » إلى الجامع الأزهر في مصر ، فتعلموا اللغة العربية ولقنوها أبناءهم ، فأصبحت لغة التخاطب بينهم ، واشتدت أواصر للصلات بين منطقة تشاد وبين مصر والسودان القرنسي ، وأسست مدرسة دينية في مدينة « أبشر » في « واداي » . وقد تحولت اليوم إلى كلية إسلامية .

« وسارت حركة الإصلاح الإسلامي جنباً إلى جنب مع انتشار اللغة العربية ببلاد السودان بفضل سهولة المواصلات ، وأساليب الدعاية التي تتبعها الدول الشرقية ، وكان من نتائج ذبوعها وتأثيرها ذلك الاقتراح الذي تقدمت به الجمعية الوطنية في السنغال ، وطلبت فيه أن تكون اللغة النهرية لغة إجبارية في برامج الدراسة ، ولا شك إن هذه ظاهرة خطيرة ، تدل على مدى انتعاش الحركة التقدمية للإسلام بين الشعوب الزنجية ، وتنبئ بما سيكون لها من آثار بعيدة المدى في الخطط المرسومة لحكم المستعمرات بخاصة ، والسياسة الدولية بوجه عام (١) » .

إِخْرَاجُ قَارَةِ الْمَسْقِلِ وَحَاةِ الْإِسْلَامِ :

للباحثون يقررون أن إفريقية كما أنها قارة المستقبل ، فإنها ستصبح تارة الإسلام ومنطلقه ، وكما أن الإسلام قضى في فجر الدعوة الإسلامية على كل الخلافات والحروب القبلية ، وذوب الفوارق التي كانت تقوم بين جماعات المسلمين ، فإنه وحده الدواء الذي يمكن أن يصهر الأفاقة ، ويزيل الحواجز التي خلقها الاستعمار أو خلقتها القبلية والتفوق ، ويجعل من الشعوب الإفريقية للسلة شعباً قوياً متحداً ، لا يبدأ حضارة جديدة ، وإنما يعتمد على الحضارة الإسلامية

الزامية التي عرفها صدر الإسلام وطورها المسلمون على مرّ المصور ، والتي كانت أساساً لحضارة أوروبا .

والإسلام وحده هو الذي يقضى على الصراع الدائر في إفريقيا سواء كان وجهه شرقياً أو غربياً ، فالوجهان يعملان لصالح الشرق وصالح الغرب لا لصالح إفريقيا ؛ يحاول الوجه الشرقى اجتذاب الدول إلى جانبه وبثّ تعاليمه فيها ، ويحاول الوجه الغربى مزيداً من الاستغلال والاحتفاظ بالأسواق لمنتجاته ، أما الإسلام فتقوة متكاملة ، تمنح إفريقيا ولا تأخذ منها .

والإسلام هو الوسيلة التي تقضى على التبشير الجارف الذي يحاول أن يجتاح القارة وبالتالي يقطّعها ببشرة كالخة ويميدها إلى التبعية لأوروبا عن طريق الدين بعد أن عجزت السياسة عن إخضاع القارة لهذه التبعية ، وكما يقضى الإسلام على التبشير للمسيحي فإنه كذلك يقضى على الشيوعية المألحة التي تتدثر بفلاحة الأمل وليس فيها أمل .

ومن الواضح أن الإسلام يحقق انتصاراً في القارة كل يوم ، فإذا كانت قبائل الحاروسا والبهل في نيجيريا وعددها عشرون مليوناً قد دخلت الإسلام في القرن الماضي ، فإن قبيلة ديبولا في السودان وهي تضم ثلث الألوف قد دخلت الإسلام منذ سنوات قليلة ، وإذا قفزنا إلى العهد الحاضر وجدنا أن قبائل إيبو بنيجيريا تدخل الإسلام الآن تباعاً بعد أن كانت تخافه بالأمس القريب ^(١) .

وينبغي أن توضح فكرة مهمة تتصل بالإحصائية التي أوردناها ص ٦٧٥ من هذا الكتاب وبإحصائيات هيئة الأمم المتحدة عن تعداد سكان القارة وأديانهم ، وتلك الفكرة تصحح خطأ شائعاً هو أن هذه الإحصائيات الرسمية

(١) نقلاً عن الأستاذ زين العابدين الكتاني (بحث بمجلة دعوة الحق يونيو ١٩٧٠)

تذكر مثلاً أن نسبة المسلمين للسكان في فولتا العليا ٥٥٪ وفي سيراليون ٦٥٪ وفي ساحل العاج ٥٥٪ ويظن بعض الناس أن باقي السكان مسيحيون أو على الأقل تنكّر المسيحية فيهم ، وهذا خطأ ، فإحصائية الأمم المتحدة تقرر أن المسيحيين في فولتا العليا أقل من ١٪ وأنهم في سيراليون ٦٪ وفي ساحل العاج ١٢٪ وهي نسبة ضئيلة من جانب ، وتميل للانخفاض يوماً بعد يوم من جانب آخر .

وليس معنى هذا أن تميل للدعة وتدفعنا هذه المعلومات للتهاون ، فإن نشاط المسيحية مسمور ، ويوم تتصدى له ، ونحرص على تقديم ديننا الخفيف للسكان بحماس ومثابرة ودقة فإننا نقرب اليوم المأمول الذي تصبح فيه إفريقيا قارة الإسلام ومنطلقه .

مستقبل الدول الإسلامية بإفريقية

عرفنا في الدراسة السابقة تاريخ الدول الإسلامية بإفريقية سواء منها ما يقع شمال الصحراء ، وما يقع جنوبها (١) ، وعرفنا أن الصحراء لم تكن حاجزاً بين الشمال والجنوب ، وإنما كانت وسيلة ارتباط ، وأن الإسلام زحف من الشمال عبر الصحراء ، وانتشر في الجنوب ، وهذه الحقيقة ينبغي أن تكون منارةً يهتدى لمستقبل أزهى وألمع ، فعلى دول الشمال أن تترك التزاماتها تجاه دول الجنوب تلك الالتزامات التي يجب أن تتخطى المجال الثقافي إلى سواء من المجالات الحيوية ، وعلى دول الجنوب ألا تنسى الدول الأم في الشمال ، وأن تظل على صلة بها ، صلة الشقيق بشقيقه الأكبر .

على أن الصلات مع دول الجنوب ينبغي ألا تقف عند حدود دول الشمال ، بل يتحتم أن تشمل كذلك الدول الإسلامية جميعاً ، وإتنا نقولها واضحة جلية : إن في جنوب صحراء إفريقية عشر دول إسلامية مستقلة ، وعشرات الملايين من المسلمين في أقطار غير إسلامية ، ول هؤلاء وأولئك حق على المسلمين جميعاً في كل أقطار الأرض ، ولهذا نطلع إلى يوم تقوى فيه العلاقات بين الدول الإسلامية في جميع القارات ، ونحس كل دولة إسلامية بالتزاماتها تجاه المجتمع الإسلامي كله وحقوقها لديه .

وينبغي أن نقب إلى أن الاستعمار يقف بالمرصاد من الإسلام ، ويعمل بكل جهوده للثبل منه ، يُثير الفتن في الداخل بين المسلمين وغير المسلمين ، ليأخذ من غير المسلمين وسيلته للتدخل ، وليضعف من قوى المسلمين ، ويحسنا الواقع عن الأذان الصماء والقلوب المغفلة ، عندما توجد مذابح ضد المسلمين في القيليب أو في غيرها من الأمكنة ، كما يحدثنا عن الصراخ

(١) تاريخ دول الشمال في الجزء الرابع عمود المقروءة خلافاً لهذا الجزء .

للدوى ، والفرجة العانية عندما يحصل أى عدوان على مسيحي فى أى بلد من البلدان ، حينئذ نرى ونسمع كلاماً طويلاً عن الإنسانية وعن حرية الأديان وعن القسمة البشرية ، ولهذا ينبغي أن يواجه المسلمون هذه الاتجاهات يومئذ ، وأن يدافعوا بإصرار أى عدوان على المسلمين فى أى مكان ، وألا يسمحوا بأى عدوان على غير المسلمين حتى لا يتيحوا فرصة لتدخل الاستعماري .

واستمراراً لهذا الحديث نقرر أن الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين إفريقية يؤخذ وسيلة أحيانا لحركات انفصالية ، وعندما يتم الانفصال يجهه الغرب بكل طاقاته لتخوية غير المسلمين ليستعملهم أدوات للهجوم على المسلمين ، ونحن نحذر من هذه الاتجاهات التي لا ترمى إلا للخدمة الاستعماري ، فالاستعمار علو الإفريقيين جميعاً ، وكان الإفريقيون جميعاً ضحاياهم اقتصادياً وسياسياً وإنسانياً ، على اختلاف قبائلهم وأديانهم ، ولهذا نقرر أننا لا نوافق على الحركات الانفصالية باسم الإسلام ، وندعو لإقامة مجتمعات متساوية متحابية فيها حرية الأديان مكفولة ، وقد أقام سيدنا رسول الله ﷺ أول مجتمع إسلامي بالمدينة وكان يحوى أغلبية مسلمة وأقلية عربية وثنية وأقلية يهودية ، ووضع الرسول أول معاهدة تعاون بين هذه الأصناف الثلاثة ، وتم للتعامل بين المتعاقدين ، لولا غدر اليهود الذي ظهر من عام إلى عام ، فكدر هذا المجتمع الناشئ .

وليعلم المسلمون أن الوصول إلى الاستقلال ليس شيئاً إذا قيس بالمحافظة على هذا الاستقلال ، وكل من دولة ضحت بالدماء لتحصل على الاستقلال ، ولكنها بعد أن حصلت عليه تورطت فى صراع داخلي ، أو حكمتها طبقية استبدادية ، أو مال أهلها إلى الهدوء والترف ، وكل هذه الأشياء تدمر الاستقلال وتقضى عليه ، وتجعل عهد الاستعمار أقل منه لظنى واضطراباً ، ولذلك فإننا نصبح الدول الإسلامية التي استقلت أن تعد نفسها لعهد ما بعد

الاستقلال ، وهو عهد يحتاج إلى جهود أوسع ، وتخطيط أدق ، وإثارة ، ليبقى المسلمون ما دمره الاستعمار ، وما دمره الصراع من أجل الاستقلال ، فليس الحصول على الاستقلال هو نهاية المطاف ونهاية الصراع ، ولكنه نهاية مرحلة لتبدأ مرحلة أخرى أشق وأطول وأكثر حاجة للتدبر والجهد المخلص المضنى .

وإذا كان الحصول على الاستقلال ليس نهاية المطاف بالنسبة للدول الإفريقية فإنه أيضاً ليس نهاية المطاف بالنسبة للدول المستعميرة ، فإن الاستعمار عندما رأى تصميماً أكيداً من الشعوب الإفريقية لتحكم نفسها بنفسها ، وتقيم لها نظاماً برلمانية ، وتتصب أعلاماً وطنية ، وتتشيد أناشيد قومية عندما رأى الاستعمار ذلك بإفريقية وضع خطأ جديداً قوامه العناوين التالية :

— الذهاب من أجل البقاء ، أى أن يذهب جيشه ليقبى نفوذه .

— الاختفاء من أجل الظهور ، أى أن يختفى ممشوه البيض ليظهر ممثلوه السود

— الخروج من الباب والدخول من النافذة ، أى خروج الجيش ثم دخول ممثلين كخبراء ومستشارين .

وهكذا وضع الاستعمار هذه الأسس وغيرها ، وبمقتضى هذه الأسس يمكن أن يتوارى الاستعمار خلف الاستقلال ، أو أن يلبس الاستعمار ثوب الاستقلال ، وفى أمريكا اللاتينية مثلاً عدد كبير من رؤساء الجمهوريات أقامتهم أمريكا كالمثالي يصنع المثال ، وليس للمثال من رأى ، وإنما الرأى نصانه وخالفه (١) .

ولم تقنع الولايات المتحدة بدورها فى أمريكا اللاتينية ، بل راحت تمدد جهودها تجاه إفريقية لترث بها نفوذ الدول الأوروبية بلافتة خطاهه توهم

(١) انظر أحمد محمد أوردها Jack Wodda فى كتابه :

أن أمريكا عدوة الاستعمار ، وهي في الحقيقة أم الاستعمار ، يقول
: Jack Woddis

« عن طريق التواعد العسكرية، والتغلغل الاقتصادي، والضغط السياسي ،
واستغلال الدعاية على نطاق واسع ، تجاهد الولايات المتحدة في أن تدفع نفسها
إلى كل منطقة في إفريقيا ، مستقلة كانت أو غير مستقلة .

« وفي كل مكان يجد المرء جوعاً متزايدة من الأمريكيين الذين يُبحرون
مراسلات مطولة ، ويعملون ككتبيين ومستشارين ، ويشتركون في الوفود التي
تزرع إفريقيا ، ويفتحون المشروعات ، وينشئون الاتصالات .

« ويتركز نشاط الولايات المتحدة بصفة خاصة في ميدان الدعاية ، حيث
تنشئ مراكز الإعلام الفاخرة ، وتنفذ المطبوعات بسخاء ، وتقيم عروض
الأفلام مجاناً ، وتوزع الآلات الناحقة ، وأجهزة العرض السينمائي ، وعربات
مكبرات الصوت ، كما تمنح الإفريقيين المختارين الذين تغترم صنفهم بالحياة
الأمريكية المنح الأمريكية السخية ، ومن ثمَّ تميلهم إلى أصدقاء لوزاره
الخارجية الأمريكية .

« ويستفيد الاستعمار الأمريكي من كراهية المناطق الإفريقية للحكم
الاستعماري المباشر ، فيحاول أن يزعم مناهضته للاستعمار ، آملاً أن تمكنه
هذه الطريقة من تنحية الدول الاستعمارية القديمة ، ولا سيما بريطانيا
وفرنسا ، ومن تعزيز نفوذه في الممتلكات السابقة لهذه الدول .

« وتقوم تقايات العمال الأمريكية بالدور الرئيسي في تغلغل أمريكا في
القارة الإفريقية (١) . »

والعجيب أن أمريكا بترائها الفاحش تضنُّ على إفريقية بأى معونة ،
وتقيم الدنيا وتقعدها إذا قدمت معونة نافعة ، وقد سبق أن تحدثنا عن

احتفال هائل أقامته أمريكا لتقدم عدداً من كرات القدم لفريق رياضي !!
ومن المؤكد أن تكاليف حفل العناية تكلف أكثر من ثمن هذه الكرات
التي ليست هامة تذكر ، وقد أعرب الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة في
العاشر من ديسمبر سنة ١٩٥٩ عن الاستياء من محاولات الولايات المتحدة
لاستغلال مشروعات المونة في التدخل في شئون بلاده ، وأعربت صحيفة
خزان الليبية (قبل الثورة) عن استياء مشابه عند ما قالت : إننا نتلق من
أمريكا مبلغاً من المال لا يُستَح لنا بإنفاقه بحسب ما نرى ، فلماذا يأخذ
سبيله إلينا عن طريق وكالات غير اقتصادية يعمل فيها موظفون من
الأجانب ذوي المرتبات العالية وتستخدم أساطيل من السيارات (١) .

فإذا جئنا للقروض وجدنا الحال أدهى وأكثر مرارة ، فإن أمريكا
خصصت للقروض في المدة بين ١٩٤٥ و ١٩٥٥ مبلغ ١٦٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠ دولار
وكان نصيب كل دول إفريقية مجتمعة من هذا المبلغ حوالي ٢ ٪
(اثنين في المائة) وذهب نصف ما خصص لإفريقية إلى اتحاد جنوبي
إفريقية ، فلول إفريقية كلها - ما عدا جنوبي إفريقية - تأخذ ١ ٪
من هذه القروض (٢) ١١١ . وقد دفعت أمريكا لإسرائيل بطريق الهبات
والقروض أضعاف أضعاف ما دفعت لكل دول إفريقية ، وبعد هذا تستطيع
أمريكا أن تتكلم عن صداقتها للدول إفريقية ومساندتها لها .

وعمامة الحديث عن إسرائيل يتحتم أن نرفع علامة الخطر أمام قادة
الدول الإسلامية بإفريقية بوجه خاص والدول الإفريقية جميعاً بوجه عام ،
فإسرائيل في ذاتها عدوة للإسلام ، ولكل الأديان ، ولكل القيم الإنسانية ،
وإسرائيل لم تهم نفسها وإنما أقامت قوى أخرى عدوة للإسلام وللشرق ،
وإسرائيل لم تهم نفسها وإنما تعيش بعون هذه القوة ، وإسرائيل

لا تتحرك بدوافع ذاتية وإنما تتحرك بدوافع القوى المعادية ، فإسرائيل -- في ذاتها -- خطر على الإسلام وعلى إفريقية ، وإسرائيل -- بالقوى التي تتركها -- خطر أكبر على الإسلام وعلى إفريقية ، وهذا هو النافوس نلقنه لنحتر من هذه الديدان التي أقامها الاستعمار ، ودعمها الاستعمار ، ليصل عن طريقها إلى ما يريد ، واختارها بوجه خاص لينفع بما يجري في عروق الصحابة من حقد على الإنسانية ، ومن سخط على الإسلام ، ومن رغبة ذاتية في التدمير . وقد سبق أن أوردنا دور إسرائيل في الصراع الذي كان يلور في جنوبي السودان ، وذكرنا أنها دربت المتآمرين وأمدتهم بالسلاح والمال ، أما دور إسرائيل في أوغندة فقد كشفته الوثائق الرسمية التي أذاعتها أوغندة بعد أن قطعت علاقاتها السياسية مع إسرائيل في أوائل أبريل سنة ١٩٧٢ وطردت منها جميع الخبراء العسكريين والمدنيين الإسرائيليين ، بعد علاقة بدأت مع استغلال أوغندة أو سبقت هذا الاستغلال .

لماذا فعلت أوغندة ذلك :

يقول الرئيس الأوغندي « عيسى أمين » : إن تسلل إسرائيل إلى أوغندة خطأ لن يحدث مرة أخرى ولا يجب تكراره في أية دولة إفريقية ، لقد كانت إسرائيل تعيش في أوغندة ، لا لصالح الشعب الأوغندي ، بل لصالح إسرائيل وصالح الاستعمار ، وكانت تعمل جاهدة لتدمير الاقتصاد الأوغندي وتدمير الوحدة الأوغندية وتقرر للبيانات الرسمية أن إسرائيل كانت تعمل ضد مصلحة أوغندة بوجه خاص ومصالح الدول الإفريقية بوجه عام ، فكانت تقوم على ترتيب الانقلابات الداخلية ، وتعمل على القضاء على حركات التحرر الوطني ، وتحاول التحكم في القوات العسكرية ، وهي في كل هذا كانت تقوم بدورها بالاتفاق مع الولايات المتحدة الأمريكية (١) .

(١) ملخص لما ذكره السيد والدوريات في أبريل ومايو سنة ١٩٧٢ .

وفي ختام هذا البحث الطويل الشاق نقرر أن الدول الإسلامية بإفريقية ينبغي أن تقيم نوعاً من الوحدة أو الاتحاد بينها ، فذلك هو أساس ما يرجى لإفريقية من نجاح ، ويقول الرئيس أحمد سيكوتوري (١) : نحن نريد الوحدة الإفريقية على غير أساس الحدود المصطنعة التي فرضها الاستعمار ، نريدها من زاوية معطيات جديدة تحطم هذه الأنظر الجغرافية والسياسية والاقتصادية التي قامت تحت ستار إفريقية التي كانت الدول الاستعمارية تعبر عنها وتتحدث باسمها ، وأن اليوم الذي نحقق فيه هذا الهدف لا بد أن يطل على إفريقية لتطل معه القوة والرفاهية .

ولنجعل حديثنا عن الوحدة مسك الختام .

وللى اللقاء في الجزء السابع إن شاء الله

وبعد...

من الحق على* أن أنحنى لله ، وأن أجد له* مشاكراً عوناً الكبير
الذي لازمني حتى آمنت هذا المجلد الضخم ، ولقد تحملت من
العناء وأنا أعيدُهُ أكثر مما يخطر بالبال ، وكنت قد عقدت العزم
حين بدأت للعمل فيه منذ أكثر من عشر سنوات ، أن أضع له
تخطيطاً يمتاز بالوضوح والتسلسل ، وأن أنقل الدراسة فيه من
السرعة إلى الأمانة ، ومن الخلق إلى البحث العلمي ، ومن
السطحية إلى العمق ، ومن دراسة الأجزاء إلى الشمول ودراسة
الكل* ، وأرجو أن أكون قد نجحت في تحقيق هذا العزم .

وهذا العمل هديتي للأقطار الشقيقة جنوب الصحراء ، وهديتي
لكل مسلم باحث عن إخوته المسلمين في جميع أرجاء الأرض ،

ثبت المراجع

ملحوظاته :

١ - المصادر المذكورة هنا هي التي اعتمد عليها هذا الكتاب ووردت في ذيل صفحاته ، أما المراجع الأخرى التي أسهت بطريق فيه غير مباشر فلم تذكر في هذه القائمة :

٢ - الطريقة التي اتبعت في تنظيم هذه القائمة بُنِيَتْ على عدم اعتبار الملحقات (ابن وال) :

- ١ - القرآن الكريم
- ٢ - مجموعة من كتب التفسير
- ٣ - كتب الأحاديث الستة
- ٤ - مجموعة من كتب الفقه
- ٥ - الإنجيل
- ٦ - Encyclopaedia of Islam
- ٧ - Encyclopaedia Britannica
- ٨ - (U.N.) Economic Development in Africa
- ٩ - وثائق ومعاهدات
- ١٠ - صحف ومجلات ودوريات كثيرة
- ١١ - مقابلات شخصية لزعماء أسهموا في صنع التاريخ الحديث
- ١٢ - لقطات مما أذاعه الزعماء بالراديو أو التلفزيون
- ١٣ - أطلس الشئون الإفريقية (ترجمة عبد العليم منسى ولم يذكر مؤلفه)
- ١٤ - تقويم السودان ؛ أصدرته وزارة الإعلام والشئون الاجتماعية بجمهورية السودان سنة ١٩٦٧ م

١٥ - تقويم البلدان الإسلامية (مؤتمر العالم الإسلامى مجلة)

Statesman,s Yearbook - ١٦

Nigeria Handbook 1970 - ١٧

Periplus of the Erythraean Sea - ١٨

- | | |
|---|---|
| الإسلام فى نيجيريا | ٢٩ - آدم عبد الله الألورى |
| موجز تاريخ نيجيريا | ٢٠ - د د د |
| الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع
المجربى (ترجمة د . محمد أبو رييدة) | ٢١ - آدم منز |
| The Mind of Africa | ٢٢ - Abraham, W. E. |
| إمبراطورية غانة الإسلامية | ٢٣ - دكتور إبراهيم طرخان |
| السودان بين يدى غوردون وكنتشر | ٢٤ - إبراهيم فوزى |
| فوقى السنغالية | ٢٥ - أبو بكر خالد |
| المختصر فى أخبار البشر | ٢٦ - أبو القلا |
| تقويم البلدان | ٢٧ - د د |
| جواهر المعانى وبلوغ الأمانى فى فيض
الشيخ التيجانى | ٢٨ - أبو العباس أحمد بن
محمد بن المختار (التيجانى) |
| الكامل فى التاريخ | ٢٩ - ابن الأثير |
| Gordon in China and the Sudan | ٣٠ - Egmont Hake |
| إفريقية والثورة | ٣١ - الرئيس أحمد سيكوتورى |
| مذكراتى فى نصف قرن | ٣٢ - أحمد شفيق باشا |
| موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة
الإسلامية (الأجزاء السابقة) | ٣٣ - دكتور أحمد شلبى |
| مقارنة الأديان : اليهودية | ٣٤ - دكتور أحمد شلبى |
| المسيحية : د د | ٣٥ - د د د |

- ٣٦ - دكتور أحمد شلبي مقارنة الأديان : الإسلام
- ٣٧ - د د د أديان الهند الكبرى : د د د
- ٣٨ - د د د لفكر الإسلامى : متابعة وآثاره
- ٣٩ - د د د تاريخ العربية الإسلامية
- ٤٠ - د د د المجتمع الإسلامى
- ٤١ - د د د السياسة والاقتصاد فى التفكير الإسلامى
- ٤٢ - أحمد صوار كفاح النيجر
- ٤٣ - أحمد عطية الله القاموس الإسلامى
- ٤٤ - الشيخ أحمد كاتب الشونة تاريخ ملوك السودان وآخرون
- ٤٥ - الإدريسي نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق (مخطوط)
- ٤٦ - د صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (مأخوذ من المخطوط السابق)
- ٤٧ - د روض الأنس فى نزهة النفس
- ٤٨ - الإربلى تفريج الخاطر فى مناقب الشيخ عبد القادر
- ٤٩ - Ardrey Butt The Nilotes
- ٥٠ - Arkell, A. I. A History of the Sudan from the earliest time to 1821
- ٥١ - إسماعيل سرهنتش باشا حقائق الأخبار عن دول البحار
- ٥٢ - الإصطخرى المسالك والممالك
- ٥٣ - د صور الأقاليم
- ٥٤ - Olaude George The Rise of British West Africa
- ٥٥ - إلياس الأيوبى تاريخ مصر فى عهد الخديوى إسماعيل
- ٥٦ - أنتونى ناتنج شهيد فى غير محله

- ٥٧ - أنجلوساماركو
رحلة محمد على إلى السودان (١٥ / ١٠)
- ٥٨ - أندرا باننجي سيتهول
بحث من مجموعة بحوث جمعها وترجمها
عبد الواحد الإنباني بعنوان : فجر
التاريخ الإفريقي : :
The History of Black Africa
The Civilization of Islam in Africa
Western Africa
The Story of the Negro
نيجيريا : ثقافتها وقصصها الشعبية
Travels
Rediscovery of Ancient Africa
The Lost Cities of Africa
Islam in the Western Sudan and
on the West Coast of Africa
The Burno, Sahara and Sudan
Serpent and Crescent,
Gordon at Kartoum
Land and People of Nigeria
الإسلام والوثنية في السودان الفرنسي
تحفة النظار في غرائب الأمصار
المسالك والممالك
(المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب)
جزء نشره لارمال من الكتاب السابق
- Endre Sik - ٥٩
Anderson - ٦٠
East, D. I. - ٦١
Ina, Corinne Brown - ٦٢
٦٣ - بارباراك وارين ووكر
J. Barth - ٦٤
Basil Davidson - ٦٥
Basil Davidson - ٦٦
Palmer - ٦٧
Palmer - ٦٨
Panikar, M. H. - ٦٩
Buchan John - ٧٠
Buchanan and Pugh - ٧١
٧٢ - بريف
٧٣ - ابن بطوطة
٧٤ - البكري (عبد الله بن
عبد العزيز)
٧٥ - البكري (عبد الله بن
عبد العزيز

- Christianity, Islam and the Negro
Race
- The Nineteenth Century, (December, 1887)
- The Golden Trade of The Moors
A History of the Beja Tribes
- The Geography of the African
Affairs
- Christianity and the New Africa
The African Dancing
- Francias et Anglais en Egypt
East Africa Protectorate
- Islam in the Sudan
- The History of Islam in West
Africa
- The Influence of Islam upon
Africa
- الحياة في السودان
- The Preaching of Islam
- ممالك السودان الغربي ؛ بحث من مجموعة
محوث بعنوان « فجر التاريخ الإفريقي »
المتقى من منهاج الاعتدال
- The Mahdiya, a history of the
Anglo-Egyptian Sudan
- Osman Digna
- Africa : the Roots of Revolt.
- : The Line Awakes
- Blyden, E.W. — ٧٦
- Bosworth Smith — ٧٧
- Bovil, E.W. — ٧٨
- Poul. A. — ٧٩
- Poul Fordhan — ٨٠
- Beatham, T. A. — ٨١
- Pearl Primus — ٨٢
- Pioves Achelle — ٨٣
- Charles Eliot — ٨٤
- Trimingham, Spencer — ٨٥
- Trimingham, Spencer — ٨٦
- Trimingham, Spencer — ٨٧
- ٨٨ — مهتمس / توفيق محمد خليفة
- Sir Thomas Arnold — ٨٩
- Thomas Hodgkin — ٩٠
- ٩١ — ابن تيمية
- Theobold, A. B. — ٩٢
- Jackson, H. — ٩٣
- Jack Waddis — ٩٤
- Jack Waddis — ٩٥

- Africa : The Way Ahead Jack Waddis — ٩٦
- تاريخ الصومال ٩٧ — جامع عمر الصومالي
- المسلمون في مدغشقر ٩٨ — جبريل قران
- رحلة ابن جبير ٩٩ — ابن جبير
- تاريخ مصر الحديث ١٠٠ — جورجى زيدان
- The Land of Negra Oervase Mathew — ١٠١
- Fashoda, the incident and its G. Morrison — ١٠٢
- Diplomatic setting
- الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية ١٠٣ — دكتور جلال يحيى
- في السودان
- العلاقات المصرية الصومالية ١٠٤ — دكتور جلال يحيى
- إفريقية الجديدة ١٠٥ — دكتور جمال حمدان
- العالم الإسلامى المعاصر ١٠٦ — دكتور جمال حمدان
- Tropical Africa George Kimble — ١٠٧
- East Africa Gordon Brown — ١٠٨
- Mohammadanism in Central Africa Joseph Thomson — ١٠٩
- Note on African Tribes of British Joseph Thomson — ١١٠
- Empire
- The Arab Role in Africa Jcques Baulin — ١١١
- The Land of Burnt Faces John Buchholzer — ١١٢
- شعوب وممالك السودان الأوسط ؛ من مجموعة بحوث « فجر التاريخ الإفريقى » Jones, D. H. — ١١٣
- Africa Speaks James Duffy and — ١١٤
- Religion in Africa R. Manners
- Geofirey Parrinder — ١١٥

- | | |
|--|------------------------------|
| Documents | Quillain — ١١٦ |
| علاقات الدولة المملوكية بالدول الإفريقية | ١١٧ — دكتور حامد عمار |
| انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي | ١١٨ — دكتور حسن إبراهيم |
| للصحراء الكبرى | |
| الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا | ١١٩ — دكتور حسن محمود |
| قيام دولة المرابطين | ١٢٠ — دكتور دكتور |
| Africa | ١٢١ — الحسن الوزان |
| — | Lea Africanis |
| فتح العرب للمغرب | ١٢٢ — دكتور حسين مؤنس |
| صورة الأرض | ١٢٣ — ابن حوقل |
| الممالك والممالك | ١٢٤ — ابن خردادبة |
| ديوان ابن خفاجة | ١٢٥ — ابن خفاجة |
| العبر وديوان المبتدأ والخبر | ١٢٦ — ابن خلدون |
| رسائل الخوارزمي | ١٢٧ — الخوارزمي |
| Mahdi past and present | Darmesteter James — ١٢٨ |
| نخب الدهر | ١٢٩ — الدمشقي |
| Baker of the Nile | Dorothy Middleton — ١٣٠ |
| Africa Africa | Derek Kartum — ١٣١ |
| مشكلات النارة الإفريقية | ١٣٢ — دكتور راشد البراوي |
| Elkanemi of Bornu من مجموعة | ١٣٣ — Robin Hallett |
| Eminent Nigerians of the 19 th Century . | |
| Africa To-Day | Richard Conoley — ١٣٤ |
| History of Africa | Roland Oliver and Fage — ١٣٥ |
| Political Africa | Roland Segal — ١٣٦ |

Sáid Bin Sultan, Roler of Oman
and East Africa

معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في

التاريخ الإسلامى

كشف إفريقيا (ناشر آ)

استعمار إفريقية

الاستعمار الأوربي لإفريقية

الممالك الإسلامية في غربي إفريقية

موجز تاريخ إفريقية (ترجمة أمين

الشريف)

The Wealth of Nigeria

Mohammadan Dynasties

إمبراطورية رابع الزبير

الزبير باشا رجل السودان

بسط الأرض في الطول والعرض

السيف والنار في السودان]

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى

أجناس إفريقية

The Rise French Imperialism

Moslim Thought : Its Origin and

Achievements

حاضر العالم الإسلامى

ثورة إفريقية

إفريقية وراء الصحراء

Ruete, R. — ١٣٧

١٣٨ — زامباور

١٣٩ — دكتور زاهر رياض

١٤٠ — د د د

١٤١ — د د د

١٤٢ — د د د

١٤٣ — ي . سافليف وج .

فاسليف

Stapeleton — ١٤٤

Stanley Lame-Poole — ١٤٥

١٤٦ — سعد الدين بن الزبير

١٤٧ — سعد الدين بن الزبير

١٤٨ — ابن سعيد المغربي

١٤٩ — سلاطين باشا

١٥٠ — السلاوى

١٥١ — سليجمان

Cyril Claydon — ١٥٢

Sharif MM. — ١٥٣

١٥٤ — شكيب أرسلان

١٥٥ — صبرى أبو المجد

١٥٦ — صلاح صبرى

- ١٥٧ - دكتور صلاح العقاد زنجبار
ود: جمال قاسم
- ١٥٨ - الطبرى تاريخ الأمم والملوك
- ١٥٩ - الطيب الأشبل السنوسى الكبير
- ١٦٠ - عبد الحميد العبادى المجلد فى تاريخ الأندلس
- ١٦١ - عبد الرحمن الرافعى عصر إسماعيل
- ١٦٢ - دكتور عبد الرحمن زكى الإسلام والمسلمون فى شرق إفريقيا
- ١٦٣ - " " " " فى غرب إفريقيا
- ١٦٤ - " " " " المسلمون فى العالم
- ١٦٥ - عبد الرحمن السعدى تاريخ السودان
- ١٦٦ - عبد الرحمن صالح أحمدو بللوزعيم من نيجيريا
- ١٦٧ - عبد الرحمن النجار الإسلام فى الصومال (رسالة ماجستير لم تطبع بعد)
- ١٦٨ - عبد العزيز عبد المجيد الترية فى السودان
- ١٦٩ - دكتور عبد العزيز كامل قضية كينا
- ١٧٠ - عبد الله المشد ومحمود خليفة تقرير عن أحوال المسلمين فى بلاد الصومال وأرتريا وعدن
- ١٧١ - الإمام عبد الله بن محمد تزوين الورقات
- ١٧٢ - دكتور عبد المجيد هابدين بين الحبشة والعرب
- ١٧٣ - " " " " تاريخ الثقافة العربية فى السودان
- ١٧٤ - دكتور عبد الملك عودة السياسة والحكم فى إفريقيا
- ١٧٥ - عرب فقيه فتوح الحبشة
- ١٧٦ - على شلش من الأدب الإثري

- ١٧٧ - عمر طوسون
تاريخ مديرية خط الاستواء المصرية من
فتحها إلى ضياعها (١٨٦٩-١٨٨٩ م)
خريدة العجائب
مسالك الأبصار
Africa
Fitzgreld - ١٨٠
An Introduction to the History
of West Africa
Fage, J. D. - ١٨١
History of the Arabs
الجغرافية السياسية لإفريقية
كتاب الحراج
صبح الأعشى
زاد المعاد
تاريخ الشعوب الإسلامية
The Fong Kingdom of Sennar
بريطانيا في السودان
The Marquess of Lord Rosebery
With Hicks Pach in the Sudan
An Outlines of the Ancient
History of the Western Sudan
Islam and Nationalism in Africa
On Mahdi and Mahdism
تجبريا الجديدة : كنوزها واقتصادياتها
الإسلام في السودان
سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب
١٨٢ - فيليب حتى
١٨٣ - دكتور فيليب رفلة
١٨٤ - قدامة بن جعفر
١٨٥ - القلقشندى
١٨٦ - ابن القيم
١٨٧ - كارل بروكلمان
١٨٨ - Crawford, O. S.
١٨٩ - (لورد) كرومر
١٩٠ - Crewe
١٩١ - Colbornet, J
١٩٢ - Lugard, F.
١٩٣ - Lewis, W. H.
١٩٤ - Margollioth
١٩٥ - محبات إمام شرابي
١٩٦ - محبوب زيادة
١٩٧ - محمد أمين البغدادي

- ١٩٨ - الإمام محمد بلو بن عثمان دان فديو
 اتفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور
- ١٩٩ - محمد الحافظ النيجاني
 الحاج عمر الفوق ؛ سلطان الدولة النيجانية
- ٢٠٠ - محمد عبد العزيز إسحاق
 نهضة إفريقية
- ٢٠١ - محمد عبد الفتاح إبراهيم
 إفريقية ؛ الأرض والناس
- ٢٠٢ - د د د
 الثقافات الإفريقية
- ٢٠٣ - د د د
 إفريقية من السنغال إلى نهر جوبا
- ٢٠٤ - د د د
 إفريقية المعاصرة
- ٢٠٥ - د . محمد عبد الهادي شعيرة
 المرابطون وتاريخهم السياسي
- ٢٠٧ - دكتور محمد عوض محمد
 السودان الشمالي
- ٢٠٨ - د د د د
 الشعوب والسلالات الإفريقية
- ٢٠٩ - دكتور محمد فؤاد شكرى
 مصر والسودان
- ٢١٠ - الشيخ محمد اللقباني
 السودان المصرى الإنجليزى
- ٢١١ - دكتور محمد محمود الصياد
 صور إفريقية
- ٢١٢ - دكتور محمد المعتمد
 مهدى الصومال
- ٢١٣ - د د د
 هرر والصومال
- ٢١٤ - محمد نجيب
 رسالة عن السودان
- ٢١٥ - محمود كعت
 تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيش
 وأكابر الناس ؛ وذيله لبعض حفته
 السلوى في تاريخ كلوا ؛ مخطوط نشر في
 (J. R. A. S.) 1895
- ٢١٦ - محي الدين الزنبارى
 أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب
 البلدان « مخطوط »
- ٢١٧ - المسعودى

- مروج الذهب ومعادن الجوهر ٢١٨ - المسعودى
- واقعة فاشودة ٢١٩ - مصطفى فهمى هداية
- الإسلام والنوبة ٢٢٠ - دكتور مصطفى سعد
- أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ٢٢١ - المقدسى
- الإمام بأخبار من بالحشة من ٢٢٢ - المقرئى
- ملوك الإسلام ٢٢٣ - المقرئى
- السلوك ٢٢٤ - المقرئى
- المواعظ والاعتبار ٢٢٥ - دكتور مكى شيكة
- السودان عبر القرون ٢٢٦ - د د د
- السودان فى قرن ٢٢٧ - د د د
- مملكة الفونج الإسلامية ٢٢٨ - Meek
- The Northern Tribes of Nigeria ٢٢٩ - دكتور نعم شقير
- تاريخ السودان القديم والحديث ٢٣٠ - نعم قداح
- إفريقية الغربية فى ظل الإسلام ٢٣١ - دكتور نقولا زيادة
- ليبيا من الاستعمار الإيطالى إلى الاستقلال ٢٣٢ - Harry Hazard
- Atlas of Islamic History ٢٣٣ - Harrison Church
- West Africa ٢٣٤ - هوبير ديشان
- الديانات فى إفريقية السوداء ٢٣٥ - Hughes, A. j.
- East Africa ٢٣٦ - Henty, G. A.
- With Kitchener in the Sudan ٢٣٧ - Ward, W.F.
- History of Africa ٢٣٨ - Wittfogel
- Oriental Dispotism ٢٣٩ - ود ضيف الله
- الطبقات

- The African Today and Tomorrow
The Story of Old Ghana and
Songhai
- African Sketchbook
- معجم الأدباء
- معجم البلدان
- جمهورية السودان
- إنجلترا في السودان
- كتاب البلدان
- صفة المغرب المأخوذة من كتاب البلدان
- Westermann, D. — ٢٤٠
- Wingfield, R. — ٢٤١]
- Winwood Reade — ٢٤٢
- ٢٤٣ — ياقوت
- ٢٤٤ —]
- ٢٤٥ — دكتور يسرى عبد الواحد
الجهوى
- ٢٤٦ — يعقوب باشا أرئين
- ٢٤٧ — يعقوبى
- ٢٤٨ — يعقوبى

فهرس الأعلام

ملاحظات :

- ١- تحاشياً للإطالة لم أضمن هذه الفهارس أسماء المؤلفين اكتفاء بورودها في نيت المراجع .
- ٢- رتبت الكلمات في الفهرس ترتيباً أبجدياً مع عدم اعتبار الملاحظات « ابن - آل » ومع عدم اعتبار الألقاب .
- ٣- حرف (م) بوضع بعدم الرقم للدلالة على أن الاسم تكرر في الصفحة أكثر من مرة .

حرف الألف

أبو اسحاق الساحل ١٩٦ - ٢٥١ م	آدم عبد الله مثنان ٦٧٧
أبو البركات النويرى ٥٨١	أبا إيمان ٦٤٥
أبو بكر (أمير هرر) ٣٩٢	إبراهيم أبو زربلى ١٨٥
أبو بكر شقيق سدياتا ٢٤٣	إبراهيم بن ادريس علومه ٢٩٤
أبو بكر تفاوا ٥٩٤ - ٥٩٦	إبراهيم : الحاج (ملك كانم) ٢٩٠
أبو بكر بن عمر ١٠٨ - ١٠٩ - ٢٢١ -	إبراهيم جابر للبولاتى المصرى ٣١٩
٢٤١ - ٥٠٦ - ٥٥٨ - ٥٩٨ -	إبراهيم جابر بن صوف ٣٢١
أبو بكر عمر جلولة ٣٩٦	إبراهيم جابزه (أمير هرر) ٣٩٢
أبو جعفر عمر بن محمد ٢٢٣	إبراهيم اللسوق ٢١١
أبو الحسن الشاذلى ٣٢٢	إبراهيم زاك (حاكم برنو وكشغم) ٢٨٦
أبو الحسن حل المريقى ٢٥٦	إبراهيم عبود (الفريق) ٣٨٦ - ٦٤٧
أبو حنيفه (الإمام) ٣٩٤	إبراهيم بن محمد بن عمر بن الأمين الكانى ٢٩٦
أبو ذر الفخارى ٥٢ - ٥٣	إبراهيم اللورداف ٤٧١
أبو زيد البلى ٣٧	أجل (العالم) ٤٨٤
أبو زيد عبد القادر ٢٣٠ - ٣٠٤	

أبو سرور الفاضل ٢٣٠ - ٣٠٤
 أبو السمود (التاجر) ٢٣٢
 أبو سعيد المحرمي ٢١١
 أبو أنباس أحمد بن محمد المختار ٢١٣
 أبو عبد الله محرم ١٣٤
 أبو عمران الفاسي ١٠٧ - ١٧١ - ١٧٢
 أبو عمرو عثمان الملك بن إدريس ٢٩٨
 أبو محمد يوسف بن عبد الله التكروري ٢٥٤
 أبو المظفر حسن (سلطان كلوة) ٤٠٥ - ٤٠٦
 أبو يحيى إبراهيم (أبى المؤمنين) ٥٠٣
 أبو يعقوب يوسف ١٧٤
 ابن أبي شريف السنباطي ٥٨
 أنتيوروتان (ملك أودغست) ١٠٥
 أحمد بن إبراهيم القرين ٣٩١ م - ٣٩٢ م - ٤٦٩ - ٤٩٧
 أحمد (بحار عربي) ٤٠
 أحمد (زعيم قبائل التنجور العربية) ٦٧ - ١٤١
 أحمد باشا أبو ودان ٣٤٩
 أحمد بن أبي التبتكي ٢٣٣ - ٢٧٥ م - ٢٧٨
 أحمد البدوي (ولي الله) ٢١١
 أحمد البقل الشافعي ٣٢٦
 أحمد بكر (السلطان) ١٤٣
 أحمد البكاي ٢١٣
 أحمد توف (القاضي) ٢٢٥
 أحمد التيجاني ٦٢٥
 أحمد حسنين المصري ٤٤
 أحمد حدي (باور الخديوي) ٣٥٩ م
 أحمد السلاوي المالكي ٣٢٦
 أحمد الشريف بن السيد محمد الشريف بن
 الشرفي الكبير ٢١٨

أحمد شيخو بن الحاج عمر ٢١٦ - ٢٢٠ - ٢٢٥
 أحمد صندو ٦٨ - ٢٢٢ م - ٢٢٦ - ٢٢٦
 أحمد بن علي ٢٩٤
 أحمد بن عمر (قنقيه) ٢٦٩
 أحمد فرتوا (الإمام) ٢٦٣
 أحمد فضيل (قائد التمايش) ٣٨٤
 أحمد الفتوح ٢١٥ - ٢١٦
 أحمد المنصور (ملك مراکش) ٢٧٢ م
 أحمدو بللو ٢٨٧ - ٥٩٦
 أحمد لوبو ٢٢٩ م - ٢٣٠ م
 أحمد الأول ٦٢٦
 إدريس أيت ٣٤١ م
 إدريس بن إبراهيم (الحاج) ٢٩٠
 إدريس بن علي بن عمر بن إدريس علومه
 ٢٩٤
 إدريس بن علي خان (إدريس علومه)
 ٢٩٢ م - ٢٩٣ م - ٢٩٤ م - ٢٩٦ م
 ٣٠١ م
 إدريس بن محمد الأرباب ؛ الشيخ (العربي)
 ٣١٢
 أرسطو ٤٣٧
 استانلي (رحالة) ٤٣ - ٢٠٨ - ٤١١ -
 ٤١٨
 إسحاق (حاكم دوره) ٢٨٦
 إسحاق الثاني بن داود (أسكيا) ٢٥٩
 إسحاق بن محمد (أسكيا) ٢٠١ - ٢٣٥ -
 ٢٥٩ - ٢٦٨ - ٢٧١ م - ٢٧٢ م
 ٢٧٤
 إسماعيل الأزهرى ٦٤٠ - ٢٤٩ - ٢٤٣
 إسماعيل باشا أبوب ٣٣٢ - ٣٤١

أبو سرور الفاضل ٢٣٠ - ٣٠٤
 أبو السمود (التاجر) ٢٣٢
 أبو سعيد المحرمي ٢١١
 أبو أنباس أحمد بن محمد المختار ٢١٣
 أبو عبد الله محرم ١٣٤
 أبو عمران الفاسي ١٠٧ - ١٧١ - ١٧٢
 أبو عمرو عثمان الملك بن إدريس ٢٩٨
 أبو محمد يوسف بن عبد الله التكروري ٢٥٤
 أبو المظفر حسن (سلطان كلوة) ٤٠٥ - ٤٠٦
 أبو يحيى إبراهيم (أبى المؤمنين) ٥٠٣
 أبو يعقوب يوسف ١٧٤
 ابن أبي شريف السنباطي ٥٨
 أنتيوروتان (ملك أودغست) ١٠٥
 أحمد بن إبراهيم القرين ٣٩١ م - ٣٩٢ م - ٤٦٩ - ٤٩٧
 أحمد (بحار عربي) ٤٠
 أحمد (زعيم قبائل التنجور العربية) ٦٧ - ١٤١
 أحمد باشا أبو ودان ٣٤٩
 أحمد بن أبي التبتكي ٢٣٣ - ٢٧٥ م - ٢٧٨
 أحمد البدوي (ولي الله) ٢١١
 أحمد البقل الشافعي ٣٢٦
 أحمد بكر (السلطان) ١٤٣
 أحمد البكاي ٢١٣
 أحمد توف (القاضي) ٢٢٥
 أحمد التيجاني ٦٢٥
 أحمد حسنين المصري ٤٤
 أحمد حدي (باور الخديوي) ٣٥٩ م
 أحمد السلاوي المالكي ٣٢٦
 أحمد الشريف بن السيد محمد الشريف بن
 الشرفي الكبير ٢١٨

أفلاطون ٤٣٧
 أكافير كوبولاني (حاكم السفن القروسي)
 ٥٠٧
 أفونس السادس (ملك تشالة) ٣٧
 إلماي محمد ٥٢٣
 الأمين ودمبار ٣١٠
 أمين الثاني ود ناصر ٣١٠
 أوجوكو (زميم نيجيري) : الكولوفيل
 ٢٥٦٠ - ٢٥٦١
 أوردوني ٥٩٩ - ٦٠٠
 أونه الأول ٢٠٨
 أونه الثاني ٢٠٩

إسماعيل (ملك القونج) ٣٠٩
 إسماعيل جابر بن عوف ٣٢١
 إسماعيل باشا (خديوي مصر) ٤٣ - ١٧٣م -
 ٢٩٧ - ٣١٠ - ٣٢٥م - ٣٢٦م -
 ٣٢٧م - ٣٢٨ - ٣٣٠ - ٣٣١م -
 ٣٣٢ - ٣٣٤ - ٣٣٦ - ٣٣٧م -
 ٣٣٨م - ٣٣٩ - ٣٤٨م - ٣٤٩ -
 ٣٥٠م - ٣٥٤ - ٣٥٨ - ٣٦٣ -
 ٣٨٨م - ٣٩٣ - ٣٩٨ - ٤٥٣ -
 ٦٦٩م - ٦٦٩
 إسماعيل بن محمد (أسكيا) ٢٥٩ - ٢٦١

حرف الباء

يرغش (سلطان زنجبار) ٢٠٨ - ٣٣٩م -
 ٣٩٧ - ٤١٠م - ٦٦٨م
 برفوق (سلطان مصر) ٢٨٩ - ٢٩٨
 برفي يسي ٣٠٠
 برفي الأول ٢٩٠
 بطرس غالي ٤٧١
 بطليموس الاسكندري ٤٤٤ -
 بللو بن صنان (أمير) ٢٨٦
 بوبايرو (حاكم غامبي) ٢٨٦
 بو بكر بن عمر بن محمد الأمين الكانمي ٢٩٦
 بو شيري بن سالم ٤٦٩ - ٤٧٠م
 بولس (الرسول) ٤١ - ٤٣٦
 بونا هري ٤٧٠
 بيني الأول ٢٣
 بيني الثاني ٢٣

باباري ٢٨٤
 باتريس لوموبا ٤٦٧
 بادى الأول (سيد للقوم) ٣٠٩
 بادى الثاني (أبو دقن) ٣٠٩
 بادى الثالث (الأحر) ٣٠٩
 بادى الرابع (أبو شلوخ) ٣٠٩ - ٣١٤م -
 ٣١٥م
 بادى الخامس ٣٠٩
 بادى السادس ٣٠٩
 بادى بن مسبار ٣١٠
 بارو بن عل (سفي) ٢٥٨ - ٢٦٠
 باكارى (الزميم) ٥٦٩م
 بالي شنت ٥٧٧
 البشارى ٢٣٣
 برجروماندا ٣٠٠ - ٣٠١

حرف التاء

توفيق (خديوي مصر) ٣٣٠م - ٣٣٨ -
 ٣٥٢

تاج الدين البهاري ٣١٩ - ٦٣٣
 تشارلز أيليوت (السير) ٤٣١

توكولو - (حاج عمر سلم) ٥٢٤ - ٥٢٥ - | تيوتان (ملك) ١١٥
٥٦٠ - ٥٦٦ - ٥٥٩ -

حرف الثاء

ثابت عبد الرحيم (ضابط سوداني) ٦٣٩ |

حرف الجيم

٦٣٦ - ٦٣٧	جابر بن عوف (من نسل الحسين) ٢٢٢١ -
جلال الدين السيوطي ١٧٩ - ٢٣٤ -	٦٢٢ م
٢٢٥ - ٢٦٦	جادين (سوداني من الجنوب) ٦٤٣
جال باشا ٣٣٤	الجامعي (صالح) ٣٠٣
جال الدين الزيلعي ٣٩٤	جان هاز وبكي (ملك) ٢٣٦ - ٢٨٣
جودز باشا ٢٧٢ م	جيريل بن عمر (شيخ الإسلام) ٥٨٤ م
جوليوس نيرير ٤١٢	جيريل ليزيت (زعيم تشاد) ٦٣٤ م
جون هوكنز ٤٣٦	جربجوري السادس عشر (البابا) ٦٥٥
جيجلر (الألماني) ٣٦٠ - ٣٦٢ م	جرتفيل ٣٥٧ - ٢٨٠ - ٣٨١
جيمس بروس الاسكتلندي ٤١	جعفر بن أبي طالب ١٨٦ م
	جعفر نميري ٣٨٧ - ٦٤٧ - ٦٤٣ -

حرف الحاء

حسين (القريا) ١٩٩	حامد ؟ مولاي (ملك مراکش) ٢٧١
حد أبو دفانة الحسيني ٣٢١ م - ٣٢٣	حامد بن ثويني بن سعيد (سلطان زنجبار)
حد السميع (المبدلاب) ٣١٠	٤١٠
حدون بن دوقة ٢٩٤	حاييم ماساتي ٦٤٤
خود بن محمد بن سعيد ٤١٠ م	حشيشوت (الملكة) ٣٣
حي (أو هية) جليمة ١٣٩ - ٢٨٩ م -	حسب ربه (ملك من ملوك الفونج) ٣٠٩
٢٩٠	الحسن بن حل الشيرازي (أو حل ابنه)
حيدى بن محمد بن جمعة المرجبي (تيوتيب)	١١٧ - ١٨٩ - ٤٠٤
٢٠٨ - ٤١٠ م - ٤١١ م	حسن فضل المولى (ضابط سوداني) ٦٣١
	الحسين بن علي ٢٢١

حرف الخاء

ابن خفاقة (الشاعر) ٥٠٣	خالد حسين أحمد (ملازم سوداني) ٦٤٤
خلف الله رشيد (سوداني) ٦٤٤	الخطيب الخندادي ١٨٥

خوجل أبو الجاز ٢٢٢	خليفة بن خروب بن برغش ٤١٠ - ٤٦٢
خورشيد باشا ٢٤٩	خليفة بن سعيد ٤١٠
خياري (قائد جيش برنو) ٣٤٤	خيس (قائد دارفور) ٣١٤

حرف اللال

دوناما بن جيلسة ٢٩٠	داود بن ابراهيم ٢٩٠
دوغة بن حدون ٢٩٤	داود كويس جوارا ٥٣٧
دوناما ديباني ٢٩٠	داود بن محمد الكبير (اسكيا) ١٩٦ -
دوغة بن حل ٢٩٤	٢٣٢ - ٢٥٩ - ٢٢٦٧ - ٢٢٦٨ -
دياب (القديلاب) ٣١٠	٢٨٢ - ٢٢٧١
ديجول ٥١٠ - ٥٢٤ - ٥٢٦ - ٥٤٦ -	دكين بن نايل ٣٠٨ - ٣١٢ - ٣١٩
٥٤٩ - ٥٥٧ - ٥٦٩ - ٥٧٢ -	دفنس ، السير ٤٤٢
٦١٩ .	دون أنطونيرو ٥٣٥

حرف الراء

رضوانه باشا ٢٩٣	رايح الزيري ٢٩٦ - ٢٩٧ - ٣٠١ -
الرفاعي ٢١١	٣٠٢ - ٣٠٤ - ٣٤٢ - ٣٤٣ -
روجر الثاني (ملك النورمان) ٣٨	٣٤٤ - ٣٤٦ - ٣٤٧ - ٤٩٧ -
روزفلت (الرئيس الأمريكي) ٤٧٦	٥٦٦ - ٥٦٧ - ٥٩٢ - ٥٠٩ -
روميلوجي ٤٣ - ٣٤١ - ٣٤٢ -	٢١٧ - ٢١٨ -
٣٦٠ - ٣٤٦	رباط (ملك القونج) ٣٠٩
رؤوف باشا ٢٩٣	رجيسي (وزير تشاد) ٦٤١
رياض باشا ٣٦٤	رجب و مدلان ٣٢٦
ريتشارد كرنول (الأميرال) ٢٨	ابن رشد ١٧٤
رينيه كابل (مفكر فرنسي) ٥٤٧	ابن رشيق ١٧٨

حرف الزاي

زكي (ز) ١٢٢	الزير باشا رحمت العباسي ١٤٢ - ١٤٣ -
زيدان بن المنصور (مولاي) ٢٧٤ -	٢٩٦ - ٢٩٧ - ٣٢٨ - ٣٢٩ -
٢٧٥	٣٤٠ - ٣٤١ - ٣٤٢ - ٣٦٠ -
زيد بن علي زين العابدين ١٨٣ - ٢٩٥ -	٣٦١ - ٣٦٤ - ٣٧١ - ٤٩٠ -
٢٦٣	٥٧٠ .
الزين بن صنيرون ٣٠٤	ابن زرعون ٢٥٩ - ٢٧٣ - ٢٧٤ -

حرف السين

سليمان الجلتى ٣٩٥	ساكورة (ملك مال) ٢٤٢
سليمان بن الزبير ٢٩٧ - ٣٣٠ -	سالم المصري (الأمير) ٦٦٧
٣٤٠ - ٣٤١ - ٣٤٢ - ٣٤٣ -	الساموري، توري ٤٩٧ - ٥٤٧ - ٥٤٨ -
٣٤٤ - ٣٦٠ -	٥٥٩ - ٥٦٠ -
سليمان بن حل بن الحسن الشيرازي ٣٩٦ -	ساو جابريل ٧٧
٤٠٤	ستوارت ؛ الكولونيل ٣٦٢ - ٣٦٣
سليمان بن محمد (ضابط سوداني) ٦٣٩	سحورح (فرعون مصر) ٣٣
سليمان بن محمد البيجري ٣٠٢	سراج الدين بن الكوكيك ١٩٨
سليمان بن فار (ملك صنتي) ٢٥٧ - ٢٥٨ -	سعد (سوداني) ٣٢٧
سليم الفاتح (سلطان تركيا) ٣٧٠	سعد زقلول ٤٧١
سنديانا (ملك كانجابا) ١١١ - ٢٤١ -	ابن سعيد ٤٤
٢٤٢ - ٢٤٤ -	سيد باشا ٣٤٩ - ٣٥٠ -
السنوسي بن العربي ٢١٦ - ٢٧٨ -	سيد الجلتى ٣٩٥
سولجري ٣٣٩	سيد بن سلطان ٤٠٨ - ٤٠٩ - ٤١٠ -
سومانجورو (ملك غانة) ٤١٠	٦٥٨
السيد التارازي ٢١٣	سلاطين باشا الخصاصي ٣٣٠ - ٣٦٣ -
سيلي باها ٢١٣	٣٦٩ - ٣٧٣ -
سيف بن قتي يزن ١٣٩ - ٢٨٩ -	سليمان بن أحد ١٤١
سيكوتوري ؛ الرئيس أحد ٥٤٨ م ←	سليمان (حاكم كانو) ٢٨٦
	سليمان ؛ علي (سلطان مال) ٣٩ -
	٢٤٣ - ٢٤٦ - ٢٥١ - ٢٥٢ -

حرف الشين

شريف باشا ٢٣٣ - ٢٥٧ - ٢٦٤ - ٣٦٥ -	شاشاق (الملك) ١٤٥
شيفاتير (د. مبشر) ٤٥٠	شتاير ؛ (رولف) ٤٥٤ - ٦٤٤ م -
شينتريز (ألماني) ٣٦٠	

حرف الصاد

صديق المهدي ٣٨٦ م	الصادق المهدي ٣٨٦ م
صلاح الدين الأيوبي ٣٢	صالح بن عبد الله بن الحسن بن حل ١١٧
صموئيل بيكر ٤٢ م - ٣٣٠ - ٣٣١ -	صالح المبارك ١٢٧
٣٤٨ - ٣٥٨ م	ابن الصباح ٥٨٥

حرف الطاء

طبل الثاني (ملك الفروج) ٣٠٩
 طفرل بك السلجوق ١٩٠
 ابن طفيل ١٧٤
 طلحة بن عباس ٣٩٢

طارق بن زياد ٥٠١ - ٥٠٤
 قطاهر بن أحمد بن حقيق بن عثمان ٥٩٥
 طبل بن عبد القادر (ملك الفروج)
 ٣٠٨

حرف الظاء

قطاهر بن جبر ١٤٥ م

حرف العين

عبد الفضيل أمان (سوداني) ٦٣١
 عبد القادر الثاني (ملك الفروج) ٣٠٨
 عبد القادر الجزائرى ٢١٤
 عبد القادر الجيلاني ٣١١ م - ٤٢٠ -
 ٣٢٣ - ٦٣٣
 عبد القادر حلي ٣٦٥ م
 عبد القادر بن حارث تهنون ٣٠٨
 عبد الكريم بن أحمد ٢١٥ م
 عبد الكريم صابون (ملك وادى) ٣٠٢ -
 ٣٠٣
 عبد الكريم الصالح (ملك وادى) ٣٠٣
 عبد الله بن أبي السرح ١٤٧
 عبد الله (أمير حرر) ٣٩٢
 عبد الله ملك باجرى ٣٠٠ - ٣٠١ م
 عبد الله بوكورو (ملك كانم) ٢٩٠
 عبد الله التمايشى ٣٤٤ - ٣٦٧ م - ٣٦٨ -
 ٣٧٣ - ٣٧٧ م - ٣٧٨ م - ٣٧٩ م -
 ٦٤٠
 عبد الله (حاكم كبي) ٢٨٦
 عبد الله الرابع (من مشايخ المبدلاب)
 ٣١٠

عائشة بنت القدال ٣٢٢
 عباس باشا ٣٤٨ - ٣٥٦
 عباس أولوبك ٥٧٧
 عباس حلي (التهديوى) ٣٣٩ - ٤٧١
 عبد الجليل (ملك كانم) ٢٩٠
 عبد الحميد (سلطان تركيا) ٣٧٧
 عبد الرحمن (سلطان دارفور) ١٤٢ م -
 عبد الرحمن بن جابر بن عوف ٣٢١
 عبد الرحمن الجبري (المورخ) ٦٥٦
 عبد الرحمن جوارنج الأول ٣٠٠ - ٣٠٢
 عبد الرحمن جوارنج الثاني (٣٠٠)
 عبد الرحمن الداخل ١٦٨
 عبد الرحمن السمدى ٦٠٩
 عبد الرحمن كبيبة (الصاغ) ٦٤١
 عبد الرحمن المهدي ٣٨٥ - ٣٨٦ م
 عبد الرحمن النجوى ٣٧٢ - ٣٨٠ م
 عبد الرحمن بن جابر بن عوف ٣٢١
 عبد الرشيد شار ماكى (رئيس الصومال)
 ٦٧٧ م
 عبد الشكور (الأمير) ٣٩٢
 عبد شمس ٣٢

عبد الله حجاج ٢٠٦ - ٢٠٧ - ٢٠٨ -
 ٢١٠ - ٢١١ م - ٢١٢ م - ٢٢١
 عبد الله بن الجهم ١٤٧ - ١٤٨
 عبد الله خليل ٢٨٦
 عبد الله عمر حبان دانتدير ٥٨ - ٥٩ -
 ٢٢٦ - ٢٢٩ - ٢٨٦ - ٥٩٢ -
 ٦٠٨
 عبد الله لزيلى ٢٩٤
 عبد الله مك القلاق (الشيخ) ٥٨١
 عبد الله بن سبيى بابا ٢١٢
 عبد الله بن عبد الشكور ٢٩٢ م - ٤٠٠ م
 عبد الله بن العجيل ٢١٠
 عبد الله البركى ٢٢٢
 عبد الله بن سمود (الصحابى) ٢٦
 عبد الله ود حبيب ٢١٠
 عبد الله بن ياسين ٦٧ - ١٠٧ م - ١٠٨ م -
 ١٦٨ - ١٧٢ - ٥٠٥ م - ٥٠٦ -
 ٥٥٨ م
 عبد الملك بن مروان ٢٩٥ - ٦٦٢ - ٦٦٤
 عبد مناف ٢٢
 حيد كروى ٤١٢ - ٤١٣
 حبان (المبدالاب) ٢١٠
 حبان بك ٢٤٩
 حبان بن ادريس ٢٩٠
 حبان بشرون (الوالى) ٥٧٧
 حبان الحبشى (أمير حرر) ٢٩٢ م
 حبان دانتدير ٥٨ - ٥٩ - ٦٩ م -
 ٢٢٥ م - ٢٢٦ م - ٢٢٧ م -
 ٢٢٩ م - ٢٣٠ - ٢٨٥ م - ٢٨٦ -
 ٢٩٤ - ٢٩٥ م - ٤٩٧ م - ٥٥٩ -
 ٥٦٩ م - ٥٨٤ م - ٥٨٨ م ←
 حبان دفته ٢١٩ م - ٢٧٢ - ٢٨٢
 حبان اللقى ٥٨
 حبان زنتقوى ١٢١
 حبان شينو ٦٨١
 حبيب بن عبد الله حجاج ٢٠٨ - ٢٠٩ -
 حبيب للنجل ٢١٠ - ٢١١ م - ٢١٢ م -
 ٢٢١ م - ٢٢٢
 الحجيل ٢١٠ - ٢١٢
 عدلان الأول ٢٠٩ - ٢١٢
 عدلان الثانى ٢٠٩ م
 عراقى ٢٥٥ - ٢٧٥ م - ٢٧٦ م - ٢٨٠
 عقبه بن نافع ١٧٠
 عقيل بن أبى طالب ١٨٦ - ٦٥٢
 علوى (سلطان باجرى) ٢٠٠
 عل بن ادريس ٢٨٢
 عل (سقى جل الكبير) ١٩٦ - ٢٠٠ -
 ٢٠١ م - ٢٥٨ م - ٢٦٠ م -
 ٢٦٢ م - ٢٦٣ - ٢٦٤ م - ٢٦٧
 عل بن سمود (سلطان زنجبار) ٤١٠
 عل بن داود ٢٩٢
 عل بن ديثار ١٤٢ م - ٢٢٩ - ٢٨٤
 عل بن سيد ٤١٠
 عل بن سديانا ٢٤٢ - ٢٤٥
 عل عبد الطيف (البطل) ٤٧٤
 عل بن عمر بن ادريس ملوه ٢٩٤
 عل بن عيسى (الحاج) ٢١٤ م
 عل خانى بن دوفاما ٢٩٢
 عل لقمانى ٦٧١
 عل كولن ١٢٢ - ٢٥٧ - ٢٥٨ -
 ٢٥٩ - ٢٦١

عبد الله حجاج ٢٠٦ - ٢٠٧ - ٢٠٨ -
 ٢١٠ - ٢١١ م - ٢١٢ م - ٢٢١
 عبد الله بن الجهم ١٤٧ - ١٤٨
 عبد الله خليل ٢٨٦
 عبد الله عمر حبان دانتدير ٥٨ - ٥٩ -
 ٢٢٦ - ٢٢٩ - ٢٨٦ - ٥٩٢ -
 ٦٠٨
 عبد الله لزيلى ٢٩٤
 عبد الله مك القلاق (الشيخ) ٥٨١
 عبد الله بن سبيى بابا ٢١٢
 عبد الله بن عبد الشكور ٢٩٢ م - ٤٠٠ م
 عبد الله بن العجيل ٢١٠
 عبد الله البركى ٢٢٢
 عبد الله بن سمود (الصحابى) ٢٦
 عبد الله ود حبيب ٢١٠
 عبد الله بن ياسين ٦٧ - ١٠٧ م - ١٠٨ م -
 ١٦٨ - ١٧٢ - ٥٠٥ م - ٥٠٦ -
 ٥٥٨ م
 عبد الملك بن مروان ٢٩٥ - ٦٦٢ - ٦٦٤
 عبد مناف ٢٢
 حيد كروى ٤١٢ - ٤١٣
 حبان (المبدالاب) ٢١٠
 حبان بك ٢٤٩
 حبان بن ادريس ٢٩٠
 حبان بشرون (الوالى) ٥٧٧
 حبان الحبشى (أمير حرر) ٢٩٢ م
 حبان دانتدير ٥٨ - ٥٩ - ٦٩ م -
 ٢٢٥ م - ٢٢٦ م - ٢٢٧ م -
 ٢٢٩ م - ٢٣٠ - ٢٨٥ م - ٢٨٦ -
 ٢٩٤ - ٢٩٥ م - ٤٩٧ م - ٥٥٩ -
 ٥٦٩ م - ٥٨٤ م - ٥٨٨ م ←

مر دلاج (حاكم كاشفة) ٢٨٦ .
 عمر الفوتى (الحاج) ٢١٤ - ٢١٥ م -
 ٢١٦ - ٥٠١ - ٥٢١ - ٥٢٥ -

٥٢٦

عمر بن محمد الأمين الكانمى ٢٩٦ م
 عمر بن محمد الترودى ٥٨١
 عمر بن محمد الندى ١٩٨
 عمرو بن العاص ٦٢٧
 عنبر التكرورى ٢٥٥
 عيسى أمين (الرئيس) ٧٠٢
 ميزانا (ملك أكسوم) ١٧٦
 عيسى بن صالح ٢٢١
 مياض (القاضى) ٢٢٢

حل الميرضى ٣٨٥ - ٦٢٥
 حل ود حلو (خليفة المهدي) ٢٧٨
 حمارة أبو سكاكين ٣٠٨ - ٣١٠
 حمارة ونقيس ٢٣٠٦ - ٢٣٠٧ - ٢٠٨ -
 ٢١١ م - ٣١٢
 عمر بن إدريس ٢٩٠
 عمر بن إدريس علومه ٢٩٤ م
 عمر (ملك كاتو) ١٣١
 عمر (المبدا) ٣١٠
 عمر جلولة ٢٩٦ - ٦٦٦ م
 عمر الحاج موسى ٦٢٨ - ٦٤٧
 عمر بن الخطاب (أمير المؤمنين) ١٦٧
 عمر خلف الله ٦٢٢

حرف الغين

٣٥٨ - ٣٥٩ - ٣٦٠ م - ٣٦١ م -
 ٣٦٢ م - ٣٧١ م - ٣٧٢ م -
 ٣٧٣ م - ٣٨٢ - ٤٧٢

غلام الله بن مريض ١٧٨
 غوردن باشا ٢٩٧ - ٣٣٠ م - ٣٣٢ م -
 ٣٣٣ - ٣٣٩ - ٣٤٠ م - ٣٤١ م -
 ٣٤٢ - ٣٤٤ - ٣٤٦ - ٣٥٤ م -

حرف الفاء

فضل الله بن رابع الزبيرى ٢٩٧ - ٣٤٧ -
 ٦١١
 فلتين بيكر (قائد بريطاني) ٣٧١
 فيديرب (فرنسى) ٥٠٧
 فيسيان (الميجور) ٤٧٠
 فيكتوريا (ملكة بريطانيا) ٣٧٧
 فيليب باولتشك ٣٩٩
 فيليب القانى (ملك أسبانيا) ٤٠٧
 فيليب ووكر (باحث فرنسى) ٦٤١

فارمان (مثل بريطانيا في مصر) ٣٣٧
 فاسكو دى جاما ٣٧ م - ٤١ - ٢٧٦ م -
 ٠٧٧
 فاطمة بنت جابر ٣٢٢
 فايد حرب (قائد فرنسى) ٥٢٣
 فخر الدين الزيلعى ٣٩٤
 فرانسوا تومبا لبالا ٦٤١ - ٦٩٣
 فردريك لرجاود ٥٩٣
 رديناند ديلس ٣٣٨
 فرومتهوس ١٧٦

حرف القاف

قشبا بن منى سليمان ٢٤٣

قايتباى (سلطان مصر) ٢٥٥
 القلقشنى ٥٨٤

حرف الكاف

كاجيا (الزعيم المسيحي الكيني) ٢٥٣	كلينت دافينز ٤٨٢
كارموكوا (زعيم مسلم) ٥٤٣	كالك الدين. صلاح ٦٧٦
كتشنر ٢٨٦ - ٢٨٢ م - ٢٨٢ - ٢٨٢	كنبر (ملك جني) ٢٠٠
- ٢٨٤ م - ٦٥٢	كتون بن عبد العزيز (ملك البجة) ١٤٨٠
كرومر (الورد) ٢٢٩ - ٢٤٢	كورلاند (اللوق) ٥٣٦
٣٧٢ - ٦٥٢	كورونبول لويس ٧٥
كريم الدين المملوكي ٢١٢	كوسوي (ز) ١٢٢ - ١٢٤
كلابرتون ٤٢	الكيماني المصري محمد بن قمر ١٧٧

حرف اللام

لاي (الكونت ؛ قائد فرنسي) ٢٩٧ -	لورانس ماذوك ٢٧٤
٢٤٧ م - ٦١٥ - ٦٤١ م	ل ستاك (السير) ٦٣٨
لامين جوي ٥٢٧	ليو بولد (ملك بلجيكا) ٤٣ - ٤١٨ م -
لاند (مكتشف بريطاني) ٤٢	٤٦٥ م
لبتون بك ٣٦٩	ليو بولد سنجيود (الرئيس) ٥٢٨ م -
الفنجنون ٤٢ م - ٢٠٨ م - ٤١٠ - ٤١١	٥٣٠ م
لكريل (جنرال فرنسي) ٦١٨	

حرف الميم

مفاجد بن سعيد ٤١٠ - ٦٦٨	١٩٦ - ٢٠١ - ٢٢٢ - ٢٣٥ -
مارتن توين ٤٦٥	٢٥٨ - ٢٦٢ - ٢٦٣ م - ٢٦٤ م -
ماري جاطه الثاني بن مفا ٢٤٢ - ٢٤٤ -	٢٦٥ م - ٢٦٧ م - ٢٧٠ - ٢٧١ -
٢٤٦ - ٢٤٧	٥٤٦ - ٥٩٢
مابيننا (ملك) ٩٤	محمد الثاني (ملك مراکش) ٢٧٢
ماكيلوب باشا ٢٥٨	محمد أبو بكر ٢٦٠ م - ٢٦١ م -
مالك (الإمام) ١٨٥ - ٢٢٢ - ٢٨٨	٢٦٦ م - ٢٦٧ م - ٢٧٧ م -
ابن مالك (النحوي) ٢٣٣	٢٧٨ م - ٢٧٩ - ٢٨٠ - ٢٨٢ م
حالكولم ٢٥٨	محمد أبي لكلك ٣٠٨ - ٣١٤ م -
مالو (سلطان باجرمي) ٣٠٠ - ٣٠١	٣١٥ م - ٣١٦ م - ٣١٧ م -
المأمون بن هارون الرشيد ١٤٧	محمد بن أحد (القاضي) ٥٨٤ -
المتوكل بن المتصم بن هارون الرشيد ١٤٨	محمد بن إدريس الشافعي (الإمام) ١٧٧ -
مجنوب مدثر (الشيخ) ١٧٨	١٨٥ - ١٨٩
محمد (أسكيا الحاج) ١٢٧ م - ١٣٢ -	محمد إدريس السنوسي ٢١٨

محمد بن إدريس طومره ٢٩٤
 محمد الأسير طلى الحنفى (القاضى) ٣٢٦
 محمد الأمين (حاكم باجوئى) ٣٠٠ - ٣٠١
 محمد الأمين بن الصادق ٣٢٣
 محمد الأمين الكافى ٢٨٦ - ٢٩٤ -
 ٢٩٥ م - ٢٩٦ - ٢٩٧ م
 محمد الأمين بن سيار ٣١٠
 محمد باقى داود ٢٥٩
 محمد بشير (سوملى) ٦٦٦
 محمد بل بن عثمان داندليو ٥٨ - ٢٢٦ -
 ٣٠٢ - ٥٨١ م - ٥٩٢ - ٦٠٤
 محمد بنجان (أسكيا) ٢٦١ م - ٢٨٢
 محمد بنكن (أسكيا) ٢٥٩ - ٢٦٧
 محمد بن بورجوماندا ٣٠٠
 محمد بن جبل بن عبد الله ١٣٩
 محمد الحافظ العلوى الشنقىلى ٢١٥
 محمد الحسن بن محمد الفضل ١٤٢
 محمد الخير ٣٧٢
 محمد الثانى بن داود (أسكيا) ٢٥٩
 محمد الفردلو ٣٢٧ م - ٣٤٩ م
 محمد رؤوف باشا ٣٢٤ م - ٣٣٥ م -
 ٣٦٠ م - ٣٦٢ - ٣٦٨
 محمد ساقو الوئكرى ٢٢٤
 محمد سياد برى (الواه) ٦٧٧
 محمد شريف (شيخ المهدي) ٣٦٧
 محمد شريف (قريب المهدي) ٣٧٨ م -
 ٣٧٩ - ٣٨٥
 محمد بن شرم (سلطان) ٢٨٤
 محمد الصغير ٢١٤
 محمد ضيا (ملما دوبا) ٥٢٨
 محمد العالده ٢١٤
 محمد عبد القادر (استاج) ٦٦١
 محمد بن عبد الكريم التلمسانى ٢١٢
 محمد بن عبد الله (الرسول ص) ٥٢ م -
 ١١٧ - ١٥٧ - ١٥٩ م - ١٦٠ -
 ١٦٤ - ١٨٣ م - ٢٢٠ - ٣٦٨ م
 ٣٨٩
 محمد بن عبد الله (القاضى) ١٩٩
 محمد بن عبد الله بن حسن (مهدى الصومال)
 ٤٧٢ - ٤٧٣ م - ٤٧٤
 محمد بن عبد الله القمى ١٤٨
 محمد بن عبد الوهاب ٣٧٤
 محمد عثمان الميرغى ١٤٤ - ٢٢٢
 محمد حل (حاكم مصر) ٤٣ - ٣٢٤ م -
 ٣٢٥ م - ٣٢٦ م - ٣٢٣ - ٣٤٧ م -
 ٣٤٩ م - ٣٥٠ - ٣٥٦ - ٤٥٣ -
 ٦٣٦ - ٦٣٧ م - ٦٦٩ م
 محمد بن عل السنوسى ٢١٦
 محمد بن عمر ٢٦٩
 محمد بن عمر التونسى ٤٣
 محمد بن عيسى سوار الذهب ٣٢١ م -
 ٣٢٢ م
 محمد بن عيسى بن صالح ٣٢١
 محمد الغالى ٢١٥
 محمد فريد ٤٧١
 محمد الفضل ١٤٢
 محمد بن قو (ملك) ٢٤٣
 محمد القناوى ١٧٨
 محمد الكبير ٢١٤
 محمد الكشناوى (الشيخ) ٥٨٤
 محمد المجذوب ٦٣٣
 محمد محبوب ٣٨٦
 محمد مود بن محمد (عالم نيجيرى) ٨٥

محمد بن إدريس طومره ٢٩٤
 محمد الأسير طلى الحنفى (القاضى) ٣٢٦
 محمد الأمين (حاكم باجوئى) ٣٠٠ - ٣٠١
 محمد الأمين بن الصادق ٣٢٣
 محمد الأمين الكافى ٢٨٦ - ٢٩٤ -
 ٢٩٥ م - ٢٩٦ - ٢٩٧ م
 محمد الأمين بن سيار ٣١٠
 محمد باقى داود ٢٥٩
 محمد بشير (سوملى) ٦٦٦
 محمد بل بن عثمان داندليو ٥٨ - ٢٢٦ -
 ٣٠٢ - ٥٨١ م - ٥٩٢ - ٦٠٤
 محمد بنجان (أسكيا) ٢٦١ م - ٢٨٢
 محمد بنكن (أسكيا) ٢٥٩ - ٢٦٧
 محمد بن بورجوماندا ٣٠٠
 محمد بن جبل بن عبد الله ١٣٩
 محمد الحافظ العلوى الشنقىلى ٢١٥
 محمد الحسن بن محمد الفضل ١٤٢
 محمد الخير ٣٧٢
 محمد الثانى بن داود (أسكيا) ٢٥٩
 محمد الفردلو ٣٢٧ م - ٣٤٩ م
 محمد رؤوف باشا ٣٢٤ م - ٣٣٥ م -
 ٣٦٠ م - ٣٦٢ - ٣٦٨
 محمد ساقو الوئكرى ٢٢٤
 محمد سياد برى (الواه) ٦٧٧
 محمد شريف (شيخ المهدي) ٣٦٧
 محمد شريف (قريب المهدي) ٣٧٨ م -
 ٣٧٩ - ٣٨٥
 محمد بن شرم (سلطان) ٢٨٤
 محمد الصغير ٢١٤
 محمد ضيا (ملما دوبا) ٥٢٨
 محمد العالده ٢١٤

٢٢٧٢ م - ٢٢٧٣ م - ٢٢٧٤ م -
 ٢٢٧٥ م - ٢٢٧٦ م - ٢٢٧٧ م - ٢٢٧٨ م -
 ٢٢٧٩ م - ٢٢٨٥ م - ٢٢٨٦ م -

المهدي ٢٦٩

موتزجير باشا ٢٣٤

مودب بكر (القاضي) ٢٣٥

موديو كيتا ٥٢٧ - ٥٥٨

موسولني ٤٢٦

موسى (حاكم زكرك) ٢٨٦

موسى (أسكيا) ٢٥٨ - ٢٦١ - ٢٦٢ م -
 ٢٦٧ م

موسى (منى) ١٩٦ م - ٢٢٢ م -

٢٤٢ م - ٢٤٤ - ٢٤٥ م -

٢٤٦ م - ٢٤٧ - ٢٤٩ - ٢٥٠ -

٢٥١ م - ٢٥٢ م - ٢٥٥ -

٢٥٦ م - ٢٥٧ م - ٢٥٨ - ٢٥٩ -

٢٦٦ - ٢٦٩ - ٢٧٧ - ٥٤٦ -

٥٥٨

موسى من بنى جشم ٦٥٣

موسى الثاني ابن ماري جابطه الثاني ٢٤٣ -

٢٤٧

موسى تراورى (رئيس مال) ٥٥٨

موسى ملو (زعيم فولادو الأكبر)

٥٣٦

موسى بن نصير لا ٥٠٠

موتسكيو (فيلسوف فرنسي) ٤٣٧

محمد بن نصير (أمير هرر) ٢٩٢

محمد الرالى ٣٠٢

محمد الرجلنى ٢٦٩

محمد ود عدلان ٢٢٦

محمود أبو بكر (القاضي) ٢٣٥

محمود بن على التونسى (الشيخ) ٢١٤

عثمان ولد دادة (الرئيس) ٥١٥

مخلوف بن حل ٢٢٣

مرتضى ؛ شيخ جبريل بن عمر ٥٨٤

المرسى يحيى (الفقيه) ١٩٩

مرون رح بن يبنى (فرعون مصر) ٢٣

مريم (السيدة المذمومة) ١٨٦

المختصر الفاطمى ١٦٩ - ١٨٨

مسلم (صاحب الصحيح) ٢٢٣

مسار بن عبد الله ٣١٠

المسيح (عليه السلام) ١٨٦ - ٤٣٦ -

٤٥٥

مصطفى كامل ٤٧١

معمار القذاق (الرئيس) ٢١٨

الملاك ٤٣٦

متاز باشا ٢٣٤

منليك (إمبراطور الحبشة) ٣٩٤

المهدي (محمد بن أحمد) ٢١٨ - ٣٤٤ م -

٣٥٣ - ٣٦٢ - ٣٦٣ م - ٣٦٤ م -

٣٦٦ م - ٣٦٧ م - ٣٦٨ -

٣٦٩ م - ٣٧٠ م - ٣٧١ م -

حرف النون

نايل أخو عمارة دو نقيس ٣٠٨

النجاشي ١٨٦ م

نصير بن عثمان الحبشى (أمير هرر)

٣٩٢ م

نمسر (سلطان موسى) ١٢٧

ناصر (ملك الفونج) ٣٠٩ م - ٣١٦ م

ناصر محمد (سلطان مصر) ١٦٨ -

٢٥٠ - ٢٩٤

ناصر ود الأيمن ٣١٠

ناصر ود عجيب ٣١٠

نوح (أسكيا) ٢٥٩ - ٢٧٤	نحر (الملك) ٣٢٧ م - ٣٤٩
نور بن مجاهد (إمام حرر) ٣٩٢ م	نضى أنيكوى (الدكتور) ٥٨٣ - ٥٩٧
نوفل بن عبد مناف ٣٢	- ٥٩٨
نول (ملك الفونج) ٣٠٩	نوار (ملك الفونج) ٣٠٩
	نوبار باشا ٣٣٢ - ٣٦٥

حرف الهاء

هائم بن عمر الكافى ٢٩٦ - ٢٩٧	هاتور (إلهة فرعونية) ٨١
هامانى ديورى (الرئيس) ٥٧٠	الهافى المهدي ٣٨٦ م - ٣٨٧ م
هشام بن عبد الملك ١٨٤ - ٢٩٥ - ٦٥٤	هارونا (الحاج أمير) ٢٨٧
هكس ٣٥٩ م - ٣٧٠ م - ٣٧١ - ٤٧٢	هارون بن سلطان ٥٧٧
هنتز (المبجر) ٣٦٢ - ٣٩٩	هائم (أمير حرر) ٣٩٢
هنرى الملاح ٤١	هائم (حاكم برنو) ٣٤٤ - ٥٩٥ م
هيرودوت (أبو التاريخ) ٥٩٠	هائم ، الشيخ (حاكم كردفان) ٣١٤
هيلاسلى ٦٦٤	هائم بن عبد مناف ٣٢
	هائم مطا ٦٣٤

حرف الواو

ولسن ٤٧٥	ويجاج المتونى ١٧٢
دلولو (الشيخ) ٣٠٢	ولسل (الورد) ٣٧٢ - ٣٧٣
وليم دينج (من جنوب السودان) ٦٤٣	

حرف الباء

يعقوب (حاكم بوشى) ٢٨٦	يارنج ٣٥٧
يعقوب بن بب (سلطان) ٢٨٤	ياسبى (زا ؛ ملك) ٢٥٧ - ٢٥٩
يعقوب التدايشى ٣٧٩	ياسو الثانى (إمبراطور الحبشة) ٣١٣
يعقوب جرون (الرئيس) ٦٠٠	يحبسى (سيدى : ول) ٢٣٢
يمكورى (زا ؛ ملك) ٢٥٧	يحبسى بن إبراهيم (زعيم الملتحين) ١٠٧ م -
يورفع كنكى ٢٣٤	١٦٨ - ١٧١
يوسف (ملك وادى) ٣٠٢ - ٣٠٤	يحبسى بن عمر (من رؤساء ملتونة) ١٠٧ -
يوسف بن تاشفين ٣٧ - ١٠٨ - ١٠٩ م -	١٠٨ - ٥٠٨ - ٥٠٩ م
٥٩٩ - ٥٥٨ - ٥٠٩ - ١٦٨	يعقوب باشا أرتين ١٨٦

فهرس الامكنة

تحاشي للإطالة لم أحسن هذا الفهرس الكلمات الآتية :

١- أسماء الدول التي عقدت الدراسات هنا حولها : سواء كانت هذه الدول قبل الاستعمار الأوربي أو بعده ، اكتفاء بفهرس المحتويات في مساعدة الباحث .

٢- كلمة « إفريقية » وما اتصل بهذه الكلمة مثل : صحراء إفريقية - الشمال الإفريقي - شمال الصحراء الإفريقية - جنوب صحراء إفريقية لكثرة ورود هذه الكلمات بالكتاب مما يجعل إثباتها في هذا الفهرس قليل الجدوى .

٣- كلمة « مصر » لورودها في أكثر صفحات الكتاب .

حرف الألف

الأجادين (أقادين - أوجادين) ٤٠٠ -	أبا : جزيرة ٢٦٧ - ٢٨٥ - ٢٨٧
٦٧٥ - ٦٧٤ - ٦٦٠	أبادان ٥٧٩ م - ٥٨٠ م - ٥٨١ م
الإحصاء ١٨٤ - ٦٦٤ - ٦٦٥	أبشة (مدينة) ٦٩٥
إدو (جزيرة) ٥٨١	أبوتولو (جبل) ٦٤٨
إدار ١٩٤	أبو حد (جبل) ٣٨١ - ٣٨٢
أديس أبابا ٤٨٠ م	أبوركة ٣٨٤
أرابيني (ملكة) ٣٨٩ - ٣٩٠	أبو قيس (جبل) ٢١٨
أرتريا ٢٩ - ٣٤ - ٣٣٣ م - ٣٣٩ -	أبيجان ٥٥٩
٤٠١ - ٤٢٣ - ٤٢٦ - ٤٣٢ -	الأبيض ٣٢١ - ٣٦٤ - ٣٦٩ م - ٣٨٢ -
٦٢٨ - ٦٢٩	
أروما ٦٤١	أتاجلا (مقبرة) ٨١
الأزهر ١٦٤ - ١٦٧ - ١٧٦ - ١٧٧ م	الاتحاد السوفيتي ٢٨ - ٤٧٧ م - ٤٧٨ م
١٧٨ - ١٧٩ م - ١٨٠ م - ٢٣٦ -	
٢٥٥ م - ٢٩٨ - ٣٠٢ - ٣٢٠ م -	أنثوريا (أنظر الحبشة أيضا) ٣١ - ٧٩
٤٥٤ - ٤٧٦ - ٦٨٠ م	٨٠ - ١٤٠ - ٣٩٤ - ٤١٨ -
أسبانيا ٤١ - ٥٤ - ١٦٧ - ١٦٨ -	٤٢٥ - ٤٢٦ - ٤٢٧ م - ٤٦٩ -
١٩٦ - ٢٥١ - ٢٥٦ - ٢٣٦ م -	٤٧٣ - ٤٨٨ م
٤١٧ - ٤١٨ - ٤٢٠ - ٤٢٦ -	

٢٥٩ م - ٣٦١ - ٣٦٥ - ٣٧٠ -
 ٣٧١ - ٣٨٤ - ٣٨٨ - ٤١١ -
 ٤٢٠ - ٤٢٢ م - ٤٢٣ م - ٤٢٥ -
 ٤٢٨ - ٤٣٠ - ٤٣٨ - ٤٤٦ م -
 ٤٥٠ م - ٤٧١ - ٤٧٢ - ٤٧٣ -
 ٤٩٧ م - ٥٢٢ - ٥٢٢ - ٥٢٣ -

أبجولا ٤٢٦

الأتلوس ٣٧ م - ٣٨ - ١٧٣ م - ١٧٤ م -
 ١٨٥ - ٢٢٢ - ٢٥١ - ٢٥٦ م -
 ٣٠٦ م - ٤٤٨ - ٥٠١ - ٥٠٢ -
 إندونسيا ٩٥ - ١٨٢ - ١٩١ - ٢٠٣ م -

٤٧٦

أوياتي شاري ٥٠٩ - ٦١٢ م

أويل ٦٤٧

أويوك (ميناء) ٣٢٩ - ٣٩٨

أويول (مدينة) ١٣٣

أوتيكا (مستعمرة قديمة) ٩٤

أودغشت ١٠٥ م - ١٠٨ م - ١١٥ م -

١٩٣ - ١٩٤ - ٥٠٥

أورار : منطقة ٥٠٨

أوراندس ٤٢٦

أوربا ٢٧ - ٣٠ - ٣١ م - ٣٢ م -

٣٣ - ٣٨ - ٤١ - ٥٤ م - ٧٣ -

٧٥ - ٧٧ - ٧٨ م - ١٩٧ - ٢٠٣ -

٢٥٠ - ٢٧٥ م - ٢٢٤ - ٢٢٦ م -

٢٢٧ - ٢٢٨ - ٢٢٩ - ٢٥٢ -

٢٥٤ م - ٢٥٦ - ٢٩٨ - ٤١٨ م -

إستانل نيل : جزيرة ٤٢٣

إسرائيل ٤٢٣ - ٤٥٤ - ٥٢٩ م - ٦٤٤ م -

٦٣٧ - ٦٤٦ - ٧٣١ - ٧٤٢ م -

الإسكندرية ١٩٨

أسوان ١٤٠ - ١٤٧ م - ١٤٨ - ٢٤٨ -

٤٩٠ -

أفادير أو أفادير ١٧٥ - ١٩٤

أفاديس ١٩٥ - ٢٦٠ - ٥٦٧ - ٥٦٩ م -

أكرا ٤٧٩ - ٤٨٠ م -

أكوم ٩٥

ألبرت ٤٢ - ٢٣١ - ٢٣٣ - ٤٢٣ -

البريدا (حسن) ٥٣٣

ألمانيا ٢٩٧ - ٤١١ - ٤١٧ - ٤١٨ -

٤٢٠ - ٤٢٢ - ٤٢٦ م - ٤٥١ -

٤٧٧ - ٤٨٠ - ٤٨٧ - ٤٩٨ م -

ألدوين ٢٨٦ - ٥٩٣

الإمبراطورية المصرية ٢٨٨ - ٣٩٨ م -

٤٩٠ م

أم درمان ٣٧٢ - ٣٧٩ - ٣٨٣ م -

٣٨٥ م - ٤٥٤ م

أم دويكرات ٣٨٥

أمريكا ل. تينية ٦٩٩

الأم المتحدة ٤٨١ - ٥١٢ - ٧٢٩ -

ألمانيا ٢٩٧ - ٢٢٤ - ٢٢٧ - ٢٢٩ م -

٢٥٨ - ٢٤٠ - ٢٤٦ - ٢٥٧ م -

الإيبو (مملكة) ١٠١

أير (واحة) ١٢٩ - ٥٦٨

إيطاليا ٢١٧ - ٢٢٩ - ٢٨٨ - ٣٩٤ م

- ٤١٧ - ٤١٨ - ٤٢٠ - ٤٢٢ -

- ٤٢٣ - ٤٢٦ - ٤٢٨ - ٤٣٢ م

- ٤٥١ - ٤٧٣ - ٤٧٧ - ٤٨٥ م

- ٤٨٧ - ٤٩٧ - ٦٦٢ - ٦٧٣ -

إيلولين (ولاية) ١٢٩

اينوجو (مدينة) ٥٧٦ م - ٦٠٩ -

٦٠٣

أبو الآن ١٩٨ م - ١٩٩

- ٤٢٠ - ٤٢٩ م - ٤٣٣ - ٤٤٣

٤٤٨ م - ٤٤٩ - ٤٦٦ - ٤٧٦ م

- ٤٨١ - ٤٨٦ - ٤٨٤ - ٤٨٩ -

أوغندا ٥٩ - ٦٤ - ٧٩ - ٨٠ - ٢٥٧

- ٢٣٦ - ٢٣٩ - ٢٤٠ - ٢٥٩ -

- ٢٢٢ - ٢٢٥ - ٢٧٩ - ٥٩٨ -

- ٦٣٠ - ٦٣٩ - ٦٤٣ - ٦٨٦ -

٧٧٣ م

أوقات (جيرة، جبرت) ١٨٧ - ٣٨٩ م

- ٣٩٠ م

أوكرك (خانة) ٩٥

حرف الباء

بريرة ١٨٥ - ٢٢٢ - ٢٢٤ م - ٣٦٢

- ٣٩٧ - ٣٩٨ - ٣٩٩ - ٤٠٠ -

٤٥٦

البرتغال ٣٩١ - ٤١٧ - ٤١٨ - ٤٢٠

- ٤٢٢ - ٤٢٣ - ٤٢٦ - ٤٢٨ -

- ٤٣٥ - ٤٣٨ - ٤٤٦ - ٤٥١ -

- ٤٨٥ م - ٤٩٨ م - ٥٠٧ - ٥٤٣ م

برزخ السويس ٢٧

برقه ١٩٣ م - ٤٧٤

برفين (خاصة كهن) ٢٨٣

بريخانيا ٣٥٧ - ٣٥٨ - ٣٧١ - ٣٩٣

- ٣٩٨ م - ٣٧٩ م - ٤٠٠ - ٤١١ م

- ٤١٢ م - ٤١٧ - ٤٢١ - ٤٢٦ م

- ٤٢٨ - ٤٣٠ م - ٤٣٢ - ٤٣٨ م

باب المنجب ٢٢٤ - ٦٤٨ - ٦٤٩

باتودست (خاصة جامبيا) ٥٢٠ - ٥٣٢

٥٣٣ م - ٥٣٤ - ٥٤٩

باريس ٥١٠

بال ٣٨٩ - ٦٥٨

جاماكو (مدينة) ٩٥ - ١٠٣ - ٥١٨

- ٥٦١ -

بامبا (موقعة) ٢٧٤

بامبوك (منطقة) ٥٢٥

بنتوانالاند ٤٢٦

بدر (مكان بالمجاز) ٢١٧

برازافيل (مدينة) ٥٠٩ م

براوو ٣٩٢ - ٣٩٥ - ٦٥٨ - ٦٦٥ -

بومر ١٧٨ م - ٢١٧ - ٣٧٢ م - ٣٨٢ م

بنوى (نهر) ١٥٧	٤١٢ - ٤٤٥ - ٤٤٦ - ٤٧٢ -
نخ (نهر) ١٩٩	٤٨٤ م - ٤٩٧ م - ٤٩٨ م -
بنين (مدينة وإقليم) ٩٠٠ - ٥٧٦ -	٥٣٧ م - ٥٥٢ - ٥٧٧ - ٥٩٤ -
٥٧٧ م ←	٥٩٣ م - ٥٩٧ - ٥٩٨ م - ٦٠٠ -
بوانت قوار ٥٠٩	٦٠٩ - ٦١٨ م - ٦٢٩ - ٦٣٨ -
بوجا مايو (مدينة) ٤٥٠	٦٣٩ م - ٦٤٤ م - ٦٤٥ - ٦٤٩ -
بور سودان ٤٩٠	٦٥٠ م - ٦٧١ - ٦٧٢ - ٦٧٥ م -
بورت هاركورت (ميناء)	٦٧٦ م -
بوروندى ٧٩	بنبلد ٣٧ - ١١٧ - ١٦٧ - ١٧٣ م -
بوشى ٢٨٦	٢١١ م -
بوهين ٦٣٦	بلجيكا ٤١١ - ٤١٨ - ٤٢٠ - ٤٢٢ م
بولاق التكرور ٢٥٤ م	٤٢٣ - ٤٢٦ - ٤٥١ - ٤٨٥ -
بيامرا ٧١ - ٧٢ - ٦٠٩ - ٦٠٧ -	بلهار ٣٣٤
بيت المقدس ٣٢	بما (جزيرة) ٤١١ - ٤٠٤ - ١٨٩ -
بيجو (بلدة) ١٩٥	٤١٢ -
بيرم ١٢٩	بمباى ٤٠٨
بيرو ١٩٨ م	بنادر (ساحل) ٦٥٤ - ٦٥٨ -
بيط (بلدة) ٢٣٤	بنسى (عاصمة) ٢٤١
	البطنية ٢٠٨ - ٢٩٦ -

حرف التاء

تجداوست (مدينة) ١٠٥	تاجورة ٣٢٢ - ٣٣٤ - ٣٩٢ - ٣٩٧ -
تركيا ٢١٢ - ٢٣٧ - ٢٩١	٦٦٢ -
تشار (بحيرة) ٢٤ - ١٠١ م - ٣٤٣ -	تافروز (مدينة) ١٧٥
٢٤٦ -	تلمك ١٩٣
تمازه ١٩٧ م - ٢٤٦ - ٢٥٠ - ٢٦٥ -	تانا (بحيرة) ٤١
٢٧٠ - ٢٧١ م - ٢٧٢ -	تاترايا ٤١٢ - ٦٠٧ -
تكدا ٢٤٦	تلموت ١٦٨
التكرور ٢٠٤ - ٢٠٧ - ٢٤٥ - ٢٦٦ -	تهد ١٣ - ٢٧ - ٢١٧ - ٥٧١ -
٢٦٧ - ٢٧٢ -	

٢٠٧ - ٢٠٨ - ٤٠٩ - ٤١١ -

٤١٢ م - ٤٢٥ م - ٤٢٦ - ٤٨٨

تنجانيقا (بحيرة) ٤٣

توات ١٩٧ - ١٩٨ م - ٢١٢ - ٢٥٠

توق ٢٢٢

توجو ٦٩ - ٧١ م - ٢٨٥ - ٤٥١ -

توجولاند ٤١٢ - ٤٢٦ م

توريت ١٣٥

تونجي ٤٠٩

تونليني ٢٧٣

تونس ٣٨ - ٦٧ - ٨١ - ٩٤ - ١٧٥ م

- ١٩٤ - ١٩٧ - ٢٢٢ - ٤٢٦ -

٤٧٤ - ٤٧٩

تيرا ٢٨٢

التكولور ؛ ملكة ٥٤٤

تلسان ١٧٤ م - ١٩٤ م - ٢١٢ -

٢٥٦ - ٢٥٣

تمبكتو ٦٢ - ٧٠ - ١٣٠ - ١٣٢ -

١٧٤ - ١٧٩ م - ١٩٤ م - ١٩٥ م

- ١٩٦ م - ١٩٧ م - ١٩٨ م -

١٩٩ م - ٢٠٠ م - ٢١٢ - ٢١٥ -

- ٢٣٠ - ٢٣١ م - ٢٣٢ م -

٢٣٣ م - ٢٣٤ - ٢٣٥ - ٢٤٧ -

٢٥١ - ٢٥٦ - ٢٦٢ - ٢٦٣ م -

٢٦٥ - ٢٦٨ - ٢٦٩ - ٢٧٤ -

٢٧٥ - ٢٧٦ م - ٢٧٧ - ٢٧٩ -

٣٠٢ - ٤٥٨ - ٥٥٨ - ٥٥٩ -

٥٦٣ م - ٥٦٤ - ٥٦٦

تنجانيقا ٣١ - ٥٩ - ٦٠ - ١٥٣ -

حرف الجيم

٢٦٧ - ٢٦٩ - ٢٧٠ م - ٢٧٣ -

٢٧٤ - ٢٧٩ م

الجل الأخضر ٢١٧

جدة ٢١٧

جنلة ٦٧

جربة ؛ جارب ؛ ديالبا ٢٤١

الجزائر ٨١ - ٩٤ - ٢١٣ - ٢١٤ -

٢١٦ - ٢٢٦ - ٤٧٤ - ٤٧٩ -

جايون ٧٠ - ٧١ - ٤٥١ - ٥٠٩ -

٥٢٥ - ٦١٨

جامعة أم درمان الإسلامية ١٧٧ - ٦٥٣

٦٥٥ -

جامعة تمبكتو ٢٢٢

جامعة الزيتونة ١٧٥ م - ١٧٩

جامعة القاهرة ٦٤٣ م - ٦٤٥

جامعة القرويين ١٧٢ م - ١٧٤ م -

١٧٥ - ١٧٩

جار (جاغ ، كاغ ، كوكو ، كوكيا) ؛

مدينة ١٢٢ - ١٢٣ - ١٩٥ - ٢٦٥

الجزيرة العربية ٣٤ م - ٦٢ - ٦٣	البحر ٦٤٧ م - ٦٤٩
١٤٦ م - ١٥٣ - ١٨١ م - ١٨٤	جونا (نهر) ٢٢٤ م - ٢٣٥ - ٢٥٨ -
١٨٦ - ٢٩٥ - ٦٢٨ - ٦٣٩	٦٧١ - ٦٧٨
البحر ٢١٧	جونا (مدينة) ٦٤٣
جمهورية ألمانيا الاتحادية ٦٤٥	جوازي ١٢٩ - ٢٨٢
جنوب إفريقيا (اتحاد) ٦٨٤	جورجيا ٤٤٢
جنوب شرق آسيا ٢٨	جورما ٢٨٢
جنوب ٢٠٧	جوردافوي ٢٣٤ - ٢٩٠ - ٢٥٧
جني ١٣٢ - ١٧٤ - ١٩٤ - ١٩٥ م -	جوس ٦٠٤
١٩٩ - ٢٠٠ م - ٢٠١ م - ٢٠٢ م	جونجر ٢٨٢
٢٣٠ - ٢٣١ - ٢٣٤ م -	جيتوك ٢٢٢ - ٢٩٢ م - ٥١٨ - ٥٨
٢٣٥ م - ٢٤٦ - ٢٦٢ - ٢٦٥	٦٦٠ - ٦٤٩ -
٢٧٤ - ٢٧٧ - ٥٤٤	جيس (جزيرة) ٥٢٢ م
	جيبى ٢٨٩ - ٢٩٠ - ٢٩١

حرف الحاء

الحبشة (انظر اثيوبيا أيضا) ٢٧ - ٣١	الحجاز ٣٨ - ١٨٥ - ٢١٢ - ٢١٦
٣٢ م - ٥٠ - ٥٤ - ٦٢ - ٩٣ م	٢١٧ - ٢٢٢ - ٢٥٠ م - ٢٦٦
١٣٠ - ١٤٦ م - ١٤٧ م - ١٥٦	٢٩٩ - ٣٨٩ - ٤٧٢
١٧٦ - ١٨٦ م - ١٨٧ - ١٨٨	الحرمين ٥٨١
٢٠٧ م - ٢٠٥ - ٢٠٧ - ٢١٢ م	خضرموت ٢٤ - ١٨١ - ١٨٥ - ٢٦٥
٢١٤ - ٢٢٧ - ٢٦٥ - ٢٨٧	حلفا (وادي حلفا) ٢٥٧ - ٢٨٢ -
٢٨٩ م - ٢٩٠ - ٢٩١ م -	٦٣٤
٢٩٢ م - ٤٠٠ م - ٤٠١ م -	حداقه (حاصه) ٢٣٠ - ٥٥٩
	حر (اسم موقع مقدشو قديما) ٦٦٥

حرف الخاء

خراسان ٢٥١	٣٤٤ - ٣٥٩ - ٣٦٠ - ٣٦٧ م -
الخزطوم ٤١ - ٦٢ - ١٤٤ م - ٢١٢ -	٣٦٨ - ٣٦٩ - ٣٧١ - ٣٧٢ م -

٢٢٥ - ٢٤٠ - ٢٥٠ - ٤٩٠ -

٦٣٧

الخليج العربي ٦٦٤

خليج عدن ٢٢ - ٢٨٩ - ٦٦١ - ٦٧٢

خنور بركة ٢٠٧

٢٧٢ - ٢٨٢ - ٦٤٤ - ٦٤٦ -

٦٢٧ - ٦٤٧ - ٦٤٩ -

٦٥٢ - ٦٥٠ -

خشم البحر (مشيخة) ٢٠٧

خشم القربة ٦٤١

خط الاستواء ٧٢ - ٢٠ - ٢٢٢ -

حرف الدال

ديباط ٢٧٠

دندى ٢٧٢ - ٢٧٩

دنفلة ٦٢ - ١٤٤ - ١٤٦ - ١٤٧ -

١٤٨ - ٢٠٢ - ٢١٢ - ٢١٢ -

٢٦٧ - ٢٨١ - ٦٢٦ - ٦٣٥ -

دنفلة المجوز ٢٢١ - ٢٢٢ - ٦٣٦ -

للتعك : أرغيل ٢٨٩

دوارو (مسلحة) ٢٨٩

دورا ١٢٩ - ١٢٠ - ٢٨٦ -

ديارا (مقاطعة) ١١٠

دياربكر ٢٧٠

ديمول ٤٥٦

الدار البيضاء ٤٨٦

دائرة (مسلحة) ٢٨٩

الدامر ٦٢٥

الدامر ٤٢٨ - ٤٤٥ -

داموسى ١٢١ - ٥٦٨ - ٥٢٩ - ٥٦٧ -

٥٧٤ - ٥٨٧ - ٦٨٥ -

دوب الأربعين ٣٤

دودة ١٩٢ - ١٩٨ - م

دكار ٢٩٠ - ٥٠٩ - ٥١٤ - ٥١٨ - م

٥١٩ - ٥٢٦ - ٥٢٩ - ٥٣٠ -

٥٣١ - ٥٣٢ - ٥٧٤ -

دكة (حاصنة) ٢٤٦ م

دمشق ١٦٧ - ١٧٢ -

حرف الراء

الرنك ٦٤٨

رواندا ٧٩

رواندا - أوراندى ٨١

رودس ٤٢٢

دوديبيا ٤٥ - ٤٠٩ - ٤٢٢ - ٤٢٥ - م

٤٨٠ - ٤٣١ -

الرأس الأخضر ٤١

رأس داوية ١٤٩

رأس الرجاء الصالح ٢٩

رأس قريدى ٥٦٩ - ٥٢٥ -

وانو ١٢٩ - ١٤٠ -

وشيد ٢٧٠

روما القديمة ٩٤ م - ٥٠٣

ريودورو ٤١٨

لرو صيرس ٦٤٦

روما (الجزيرة) ٥٥٤

حرف الزاي

زنلر ٥٦٣ - ٥٦٧ - ٥٧٠ - ٥٧١ - ٥٧٤

٥٧٤

زنقرة ١٢٩ - ٢٢٧ م - ٢٦٢ - ٢٨٢

٢٨٢ - ٢٨٤ م - ٥٧٩

زيمبابوي ٩١

زاريا (منطقة) ٩٤ - ١٢٩ - ٢٦٢ -

٢٨١ - ٥٨٤ - ٦٠١ - ٦٠٤

زالغا ٥٧٤ م

زامبيا ٦٠٧

زكرك ٢٨٦

لزيوتنة ١٦٧

حرف السين

سوزامى ٢٨٢ - ٢٨٣

سوريا ٣٥٤ م - ٤٤٨ - ٥١٦ م

السوس ١٩٤ - ١٩٨ م

سنوكوتو ٥٧٩ م - ٥٩٢ - ٥٩٥

سومرست ٣٢٣

السويس ٦٢ - ٣٧٠ - ٦٤٤

سومطرة ٢٠٣

سيراليون ٢٨ - ٤١ - ٦٨ م - ١٥٧ -

٥٥٠ - ٦٢١

سينيل ٤٢٣

سيكاسو ٥٤٧

سكوتو ٢٢٩ - ٢٨٥ - ٢٨٦ م - ٢٨٧ -

سيلان ١٩١

سيتاه ٢٧

ساحل اللهب ٦٨ - ١٢٠ - ٢١٣ م

ساحل اللهب ٤٥١ - ٥٠٨ - ٥٤٠ - ٥٥٦

٥٦٣ - ٥٧٤ - ٥٨٧ - ٦٨٤

سانت لويس ١٠٧ - ٤٥٠ - ٥٠٦

٥٠٨ م - ٥٦٩ - ٥٢٥ - ٥٢٦

سانت ماري ٥٢٦

سجليلة ١٠٨ - ١٩٣ م - ١٩٤ - ١٩٧

١٩٨ -

سد مارب ١٨١ - ٦٥٩

سفالة ٣٣٥ - ٤٠٤ - ٤٠٥ - ٤٠٩

سكورو ٣٠١

سواكن ١٤٩ - ٢٢٣ م - ٢٦٩ - ٢٧٠

٢٧٢ - ٢٨٢ - ٦٣٧ - ٦٦٧ م

سوبا ١٤٤ - ١٤٦ - ١٤٨ - ٢٠٦ -

٢٠٧ م - ٢٢١ -

سوياف ٢٣٢ - ٢٩٠

حرف الشين

شراز ١٨٩ م - ١٩٠ م - ٤٠٤ - ٦٦٥	شاذلة (مدينة) ٣٢٢
شرخا (مملكة) ٣٨٩	الشام ٣٨ - ١٠٢ - ١٨١ م - ٢٠٢ - ٢٩٩
شندى ٦٢ - ٢٢٦ م - ٢٢٧ - ٢٨٢	شبه القارة الهندية ٣٢ - ١٥٣ - ١٩١ - ٤٨٨
٦٣٥ - ٦٣٩	شيبلى (نهر) ٦٥٦
ر شنيق ٥٠٦	

حرف الصاد

صومر ٢٤٥	سقلية ٣٧ - ٣٨ - ٢٦٥
الصين ٣٦ - ٣٨ - ٢٠٢ م	سحابه ٢٧ - ١٠٣ - ٥٠٣ م

حرف الطاء

طقل ٢٢٧	الطائف ٢١٧
طنجة ٢٨ - ٣٨ - ١٩٣ - ٤٨٠ - ٥٠٤	طبرق ١٩٤
طنطا ٦٢٥	طرابلس ١٩٤ م - ٢١٧ - ٢٩١
طوكمر ٣٩٩	الطوا: الإسلاني (ممالك بالحيثية) ١٨٧
	طره ١٤٢

حرف العين

العلاق (وادي) ١٤٦ م - ١٤٨	عدل (مملكة) ٣٩٠ م - ٣٩١ - ٣٩٢
المليقون ٣١٢	عدن ٤٥٦ - ٦٥٧
عمان ٢٠٢ - ٤٠٥ - ٤٠٩ - ٤٦٩ -	العراق ٣٦ - ٣٧ - ٣٨ - ١٨١ - ١٨٤
٤٩٨ - ٦٦٧ م - ٦٦٨ م	٢١٢ - ٢٢٠ -
عين مانى (بلدة) ٢١٢ - ٢١٤ م	عصب (خليج) ٢٩٨
عيناه ١٤٩	عنبرة (نهر) ٦٢
عيسى (منطقة) ٦٥٨	عنبرة (موتقة) ٢٨٣

حرف الفيل

خرنطة ٤٤٢	خايف (مدينة) ١٣٠
خندكرو ٣٣١	خامس ٢٨٦
خيليا البرتغالية ٦٧٥ - ٦٧٤	خانا ١١٩ م - ٦٨٤ - ٦٨٥
	خنافس (مدينة) ١٣٠ - ١٩٤ - ١٩٨

حرف القاء

٥٥٧ - ٥٥٨ - ٥٦٧ م - ٥٦٨ م	القانيكان ٤٥٤ - ٦٤٤
- ٥٦٩ - ٥٧٠ - ٥٧١ - ٥٩٢ -	قاليكو ٣٣٢
٦١٠ - ٦١١ م - ٦١٢ م - ٦١٥ م	قارس ٢٢ - ٣٧ - ١٨٤ - ٢٠٢
٦١٧ - ٦٦٣ م - ٦٦٦	قازوغل (مدينة) ٣٠٧
قزان ١٣٨ - ١٩٨ - ٢١٧ - ٢٩١ -	قاس ٣٨ - ١٦٧ - ١٧٢ م - ١٧٣ -
٥٨١	١٧٤ م - ١٩٢ م - ١٩٤ - ١٩٨ م
قسطاط ١٧٥ - ١٩٣	- ٢١٣ م - ٢٢٢ - ٢٥٦
قسطين ٣٢ - ٥٢٣	قفاشر ١٤٢ م - ٣٢٩ م
القليين ٦٧٦	قاشودة ٣٨٤
قوتاجالون ٢١٥ - ٥٣٣ - ٥٤٤ م -	القديحة ١٤٠
٥٥٥ م - ٥٤٧ - ٥٥٦	
قورق ٥٠١ - ٥٢٤	قرنسا ٤٣ - ٥٤ - ١٦٢ - ٢١٨ - ٢٩٧
قوتوتو ٥٣٤	- ٢١٣ - ٢٣١ - ٢٣٧ - ٢٣٩ -
قورت لاي ٦١٥ - ٦١٨ م - ٦١٩ -	- ٢٣٤٦ م - ٢٣٨٤ م - ٢٣٩٨ -
٦٤٤	- ٤١٧ - ٤٢٢ م - ٤٢٣ - ٤٢٦ م -
قولنا العليا ٥٠٨ - ٥٢٩ م - ٥٥٦ -	- ٤٢٨ م - ٤٣٠ - ٤٣٢ - ٤٣٨ -
	- ٤٤٦ - ٤٤٨ - ٤٤٩ - ٤٤٩ -
	- ٤٥٠ - ٤٥١ - ٤٦٦ م - ٤٧٣ -
	٤٩٧ م - ٥٠٧ - ٥٠٨ - ٥٠٩ م
قويرا ٣٣٢	- ٥١٠ - ٥١١ - ٥٢١ - ٥٢٢ م
فيكتوريا نيانزا (بحيرة) ٢٧ - ٣٣٢	- ٥٢٣ م - ٥٢٥ - ٥٢٦ م - ٥٢٧ -
٤٢٣ - ٤٠٩	- ٥٢٩ - ٥٣٢ - ٥٣٣ م - ٥٣٤ -
لفيرم ٢٧	- ٥٤٤ - ٥٤٦ - ٥٤٨ م - ٥٤٩ -

حرف القاف

القسطاطية ٥٤	قفاهرة ٤١ - ١٦٧ - ١٧٣ - ١٧٥ -
قشالة ٣٧	١٩٤ - ٢١٢ - ٢٢٣ م - ٢٥٠ -
قصر أكر ٥٩٤	٢٢٧ - ٢٢٣ - ٢٠٢ - ٢٥٥ م - ٢٤٤
القصارف ٢٨٤	٢٦٨ - ٢٦٥ م - ٢٦٢ - ٢٤٠ -
القفاطرة ، منخفض ٢٧	٤٧٩ - ٤٧١ - ٢٩٤ - ٢٧٩ م -
القمر (جزائري) ٦٠ - ٤٠٤ - ٦٧٠	٥٦٤ - ٤٨٠ -
قناة السويس ٣٧٠	قدير (جبل) ٣٦٨ م - ٣٥٥
قوص ١٤٩	قرطانية ٩٤
القيروان ١٠٧ - ١٦٧ - ١٧٠ م -	قرطانية ٩٤
١٧١ م - ١٧٢ م - ١٩٣ - ١٩٤	قرطبة ١٦٧ - ١٧٣ - ١٧٤ م - ٢٣٣
٢٣٣ -	قري ٣٠٧

حرف الكاف

كانو ٦٨ - ١٢٩ - ١٣٠ - ٢٣٥ -	كابره ٥٦٦
٢٦٢ - ٢٧٨ م - ٢٨١ - ٢٨٦ -	كادونا (عاصمة واداي) ٣٠٣
٥٧٩ - ٦٠٧ م	كادونا ٥٧٩ م
كانابجا (مقاطعة) ١١٠	كاسوري ٢٤٧ - ٦٠٩ - ٦٢٩
كايس (مدينة) ٥٦٠	كاشنة (كاتسينا) ١٣١ - ١٣٢ م - ١٣٩
كاينجي (مدينة) ٦٠٤	٢٣٥ م - ٢٣٦ - ٢٦٢ - ٢٧٨ -
كب (كبي) ١٢٩ م - ٢٢٧ - ٢٨١ م	٢٨١ - ٢٨٢ م - ٢٨٦ - ٥٨٤ م
٢٨٢ م - ٢٨٣ م - ٢٨٤ م -	٥٨٥ -
٢٨٦ - ٥٩٤	كالرن (شبه جزيرة) ٥٥٤
كتانم ٢٨٦	كان كان (مدينة) ٥٤٨
كرسكو ١٤٠ م	كافينايا (مملكة) ١١٠ م - ٢٤١ -
كركوج (مكان) ٣١٢	٢٤٢ - ٢٤٣ - ٢٤٨ - ٢٥٧ م
كريت ٣٥٤ م	٢٦٦ -
كرمة ٦٤٩ م	كانكوسا ٤١٣

كوليا ٦٦٦
 كونا كرى (عاصمة لينيا) ٥٤٤ م -
 ٥٥٤ م - ٥٥٩
 الكنفور ٢٨ - ٤٢ - ٤٥ - ٦٠ - ٨٠ -
 ٢٢٩ - ٤٠٩ - ٤١١ - ٤١٨ -
 ٤٢٢ م - ٤٢٢ - ٤٢٦ - ٤٦٧ -
 ٤٨٠ - ٤٨٥ - ٤٨٨ - ٦١٨ -
 ٦٢٧ -
 كونيا (بلدة) ٥٣٢
 كيساير (بور إسماعيل) ٢٩٧ - ٦٥٨
 ٦٧٠ م -
 كيفا ٥١٣
 كينيا ٣١ - ٥٢ م - ٥٩ - ٦٠ - ٦٤
 ١٥٣ - ٤١١ - ٤٢٥ م - ٤٧٩ -
 ٤٨٨ م - ٦٢٨ - ٦٣٩ - ٦٤٤ -

كلا ٣٦٨ - ٣٨٢ - ٦٤٩
 الكنفرة ١٩٤
 كلكتا ٤٠٩
 كلوة ٢٨ - ١٨٩ - ١٩٠ م - ٣٢٥ -
 ٣٩٦ - ٤٠٤
 ٤٠٥ م - ٤٠٦ - ٤٠٧ - ٤٧٠ -
 ٤٩٨ - ٦٣٥
 لكرون ٦٨ - ٦٩ - ٢٨٥ - ٤١٨ -
 ٤٢٦ م - ٤٧٩ - ٦١٤ م - ٦١٨ -
 ٦٢٤ م - ٦٨٤ - ٦٨٥
 كناريا (جزر) ٤١٨
 كيتور ٥٣٠
 الكنور ١٤٠
 كوارانا ١٢٩
 كوستى القديمة ٦٣٤
 كوكا ١٩٤ - ٢٩٥ - ٥٩٢
 كوكو (منطقة) ١٢٤ - ١٢٥ - ٢٤٥
 ٥٢٧ -

حرف اللام

لوكوجا ١٥٧
 ليريا ٢١٣ - ٤٢٥ - ٤٢٧ م - ٤٤٦ -
 ٤٨٩ - ٦٨٤ - ٦٨٥
 ليبيا ٢٩ - ٢١٦ - ٤٢٥ - ٤٢٦ -
 ٤٩٠ - ٥٢٤ - ٥٦٧ - ٦٤٤ -
 ٦١٦ - ٦١٧ - ٦١٨ -

لاجوس ٥٧٦ - ٥٧٨ م - ٥٩١ م -
 ٥٩٥ - ٥٩٦ م - ٦٠٩ - ٦٠٤
 لامو (جزيرة) ٥٩
 لبيب (جزيرة) ٣٢٧
 لم ٥٦٣
 لندن ٩٠ - ٦٢٢ -

حرف الميم

ماسينيا ٣٠٠ - ٥٥٩
 ماليزيا ١٥٣
 ماليل (منطقة) ٢٨١

ماراى ٨٣٢
 ماديرا (جزيرة) ٦٤١٥
 مانت ٢٢٩ - ٢٧٠ م

١٩٧ - ٢٠٦ - ٢١٢ - ٢٢٢
 ٢٢٢ - ٢٤٥ - ٢٥٥ - ٢٥٩
 ٢٧٤ م - ٢٧٥ م - ٢٢١ - ٤٧٤
 ٤٧٩ - ٥٠٢ - ٥٠٤ - ٥٠٥
 ٥٠٦ - ٥١٤ م - ٥٢٥ - ٥١٦ م
 ٥٥٧ - ٥٥٨
 مكة ٢١٥ م - ٢١٧ - ٢٢٦ - ٢٢٧
 ٢٥٠ - ٢٥١ - ٢٥٥ - ٢٩٢
 ٣٠٢ - ٣٢٠ - ٣٢٢ - ٣٧٧
 ٥٨٥ - ٦٦٣
 مكة الجديدة ١٩٤
 الملايو ٣٠ م - ١٩٠ - ١٩١
 ميا (مدينة) ٤٥٠
 مينة ٦٠ - ١٨٩ - ٤٠٦ - ٦٦٧
 مندارا ٣٠١
 منروفيا ٤٥٠
 منواش (موقعة) ٢٢٩
 مورا (ملكة) ٣٩٠
 موزمبيق ٦٠ - ٦٨٤ - ٦٨٦
 موية (جبل) ٣٠٧
 ميلانو ١٩٥
 ميورة (جزيرة) ٤٤

ماندينج (مال) ٥٥٨
 المنة ٣٨٢ م
 مديرية خط الاستواء ٣٢١ - ٣٢٦
 ٣٦١ - ٣٦٣
 مدقشر : جزيرة (مالاجاشي) ٢٩ -
 ٣٦ - ٦٠ - ٨٠ - ١٩٠ - ٤٠٤
 ٤٢٦ - ٤٧٩ - ٦٨٦
 المدينة ٢١٥ - ٢١٧ - ٢٢٠
 يراكش ٢٩ - ٣٧ - ١٧٤ - ١٩٦ م -
 ٢٠١ م - ٢٥٩ - ٢٦٥ - ٢٧١ م -
 ٢٧٢ م - ٢٧٣ م - ٢٧٤ -
 ٢٧٥ م - ٢٢١ - ٢٢٣ - ٥٠٤ -
 ٥١٥ - ٥٩٩ - ٦٣٤
 مروي ١٤٥ م - ٦٣٥ م
 مستغانم ٢١٦
 سقط ٤٠٨ - ٤٠٩ - ٦٦٨
 سوقة ١٩٩
 مصوع ٢٢٢ م - ٢٢٤ - ٣٦٥ -
 ٢٨٩ - ٢٩٦ - ٦٦٩ م -
 المغرب ٣٧ - ٤١ - ٩٤ - ١٠٤ -
 ١٤٩ - ١٦٧ م - ١٦٨ م -
 ١٦٩ - ١٧٠ م - ١٧٢ - ١٧٣ م -
 ١٧٤ م - ١٧٨ - ١٧٩ - ١٩٣ م -

حرف النون

نوبيا : دوش ١٤٠ - ٦٢٩
 نودميرج ١٩٥
 نوميديا ٩٤ م
 نياسالاند ٤٢٢
 نياجا (بحيرة) ٤٣ - ٤١٩
 نجي ٢٤١

فاصع انظر مصوع
 نياتا : نيتا (عاصمة) ١٤٥ - ٦٣٧ م
 نفوسه (جبل) ١٩٤
 نواكشوت ١٩٤ - ٥٠٨
 نوب ١٢٩
 النوبة ٣٣ - ٥٠ - ٩٣ - ١٤٠ م -
 ١٤٤ - ١٧٦ - ١٧٧ - ١٧٨ -
 ١٨٦ م - ٢٢٢ - ٢٢٣ - ٢٨٥ -

حرف الميم

الهند ٣٦ م - ٤٠ - ٤١ م - ٧٦ - ٩٥ -	هجاز ١٩٧
١٩٩ - ١٩١ - ٢٠٢ - ٢٠٣ م -	حبر ١٤٨
٢١٢ - ٤٠٩ - ٤٣٧ - ٦٤٩ -	حبة (ملكة) ٢٨٩ - ٢٩٩
٦٧٣	حرجية ٣٦٠ - ٦٧٣ - ٣٧٧
منزوان ١٩٠ م	حضة البعير ١٥٣
	الحضة المبهشة ١٥٣

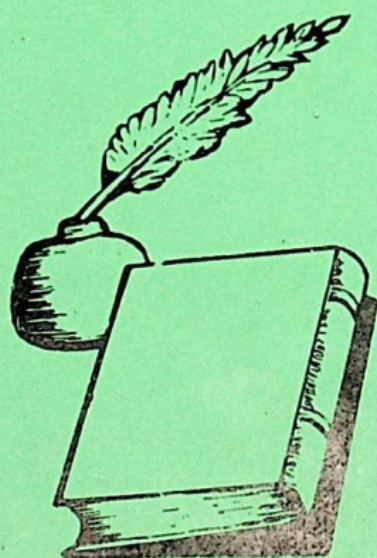
حرف الواو

الولايات المتحدة الأمريكية ٢٨ - ٤٤٥ -	وادي حلفا ٤٩١ - ٦٤٨ - ٦٤٩
٤٧٧ - ٤٨٧ م - ٥١٨ - ٥٤٨ -	وادي العلاق ١٤٧ م
ونجي كاهول ٦٤٤	وانجارا ١٣١
ونقاره ١١١ م - ٢٧٠ - ٢٨٢	واو ٦٤٧ - ٦٤٩
وعران ١٩٣	ولاعة ١٩٥ - ١٩٧ - ٢٩٨ - ١٩٩ م -
	٢٤٧ - ٢١٢

حرف الياء

يوروبا ١٢٣ م - ١٣٤ م - ١٣٥ م -	ياها (كلية) ٦٥٣
٢٨٤ م - ٢٨٥ م - ٥٧٧ م -	يمن ٣٢ - ٣٤ - ٣٨ - ١٢٣ م -
٥٨٠ م - ٥٩٨	١٨٥ - ٢٠٣ م - ٢٠٤ م - ٢١٢ -
يوري ١٢٩	٢٨٩ - ٣٩٢ - ٤٩٨ - ٦٥٩ -
يكونان ٩٥ - ٢٢٤	٦٩٣
	يو (حبر) ٧٢٣

موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية



تأليف
الدكتور أحمد شلبى
دكتوراه من جامعة كامبردج

استاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى - القاهرة

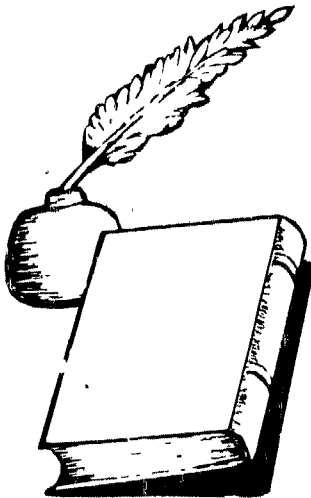
مع إضافات واسعة وتحقيقات جديدة

موسوعة التاريخ الإسلامى

٧

الإسلام والدول الإسلامية بالجزيرة العربية والعراق
من مطلع الإسلام حتى الآن

- نجد والحجاز حتى قيام المملكة العربية السعودية .
- تاريخ المملكة العربية السعودية منذ قيامها حتى الآن .
- سلطنة عمان وامتداداتها وانكماشها حتى الآن .
- اليمن من العصر الجاهلى حتى الآن .
- الخليج العربى ومشكلاته ودوله : دولة البحرين - دولة قطر
- دولة الامارات العربية - دولة الكويت .
- العراق فى جميع العصور .
- أحداث العراق والكويت (١٩٩٠ - ١٩٩١) دراسة محايدة .



تأليف
الدكتور أحمد شلبى

دكتوراه من جامعة كمبردج (إنجلترا)

أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية

بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

والفائز لوسام « العلوم والفنون » من الطبقة الأولى
لكتاباته فى التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية

مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى - القاهرة

الطبعة الخامسة
مع إضافات وأسعة وتحقيقات جديدة



Bibliotheca Alexandrina

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا

(سورة الممتحنة الآية الرابعة)

التاريخ ♦ ♦ ♦ ♦

شعاع من الماضي ينير الحاضر والمستقبل

أحمد شلبي

الطبعة الأولى سنة ١٩٧٧

الطبعة الثانية سنة ١٩٨٢

الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٦

الطبعة الرابعة سنة ١٩٩٠

الطبعة الخامسة سنة ١٩٩٢

(ج)

خطة البحث في هذه الموسومة

ان خطة البحث التي اتبعتها في كتابة « التاريخ الاسلامي » خطة جديدة ومريحة ، ويسرني ان ابرزها في التخطيط التالي ليعرف القارئ كنهها ، وليسهل عليه متابعتها .:

دراسة زمنية في هذه الأجزاء الثلاثة إذ أن العالم الإسلامي كان وحدة واحدة .	ج ١ ج ٢ ج ٣	العرب قبل الاسلام — السيرة النبوية العطرة — عصر الخلفاء الراشدين الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية خلالها الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسي الأول ودور المسلمين خلاله في خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية
ثم دراسة مكانية (قطاعات جغرافية) في الأجزاء الخمسة التالية لأن العالم الاسلامي انقسم الى دويلات كثيرة ، وشمل كل جزء من هذه الأجزاء قطاعا من العالم الاسلامي ، بحيث يتناول تاريخه من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر مبتدئين من الغرب ومتجهين الى الشرق كالتخطيط التالي :		
الجزء الثامن	الجزء السابع	الجزء السادس
التاريخ الاسلامي للدول الاسلامية غير العربية بآسيا : أيران — أفغانستان — الباكستان — بنجلاديش — ملايزيا — اندونيسيا — الاقليات الاسلامية بالصين والاتحاد السوفيتي والهند والفلبين وسنغافورة .	الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق من مطلع الاسلام حتى الآن . دول الجزيرة العربية : المملكة العربية السعودية — عمان اليمن ، دولة الامارات العربية — قطر — البحرين — الكويت — العراق	الاسلام والدول الاسلامية جنوب صحراء افريقية منذ مطلعها الاسلام حتى الآن : — دراسة عن — الدول الاسلامية قبل الاستعمار الأوربي . — وسائل انتشار الاسلام بقلب افريقية . موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيا — مالي — النيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال
الجزء الخامس	الجزء الرابع	
مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر الحروب الصليبية : دواعيها — ادوارها — نتائجها الاجبراطورية العثمانية (تركية) منذ ظهورها حتى الآن	الانديلس الاسلامية وانتقال الحضارة الاسلامية منها الى أوروبا المغرب — الجزائر — تونس — ليبيا ، من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر السنوسية : مبادئها وتاريخها	
وتختتم الموسومة بدراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر :		
الجزء التاسع : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد نجيب وعصر عبد الناصر عصر المظالم والهزائم		
الجزء العاشر : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : أنور السادات : شخصيته وعصره		

كتب المؤلف

أولا : موسوعة التاريخ الاسلامى

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة مجلدات لتاريخ العالم الاسلامى كله ،
من مطلع الاسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى
حققتها الدول الاسلامية عبر التاريخ . (الطبعة الرابعة عشرة)

الجزء الاول : السيرة النبوية العطرة وعصر الخلفاء الراشدين .

الجزء الثانى : الدولة الاموية وانصاف تاريخها .

الجزء الثالث : الخلافة العباسية والدور الحضارى خلال عصرها الاول .

الجزء الرابع : الاندلس الاسلامية ، انتقال الحضارة الاسلامية منها الى
أوربا .

تاريخ المغرب - الجزائر - تونس - ليبيا من مطلع
الاسلام حتى الآن .

الجزء الخامس : تاريخ مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى الآن - الحروب
الصليبية - تاريخ الامبراطورية العثمانية .

الجزء السادس : الاسلام والدول الاسلامية جنوب صحراء افريقية منذ
دخلها الاسلام حتى الآن : موريتانيا - السنغال -
جامبيا - غينيا - مالى - النيجر - نيجيريا - تشاد -
السودان - الصومال - جيبوتى .

الجزء السابع : دول الجزيرة العربية والعراق من مطلع الاسلام حتى الآن .
المملكة العربية السعودية - اليمن - عمان - دولة الامارات
العربية - قطر - البحرين - الكويت - ثم العراق -
(أحداث العراق والكويت : ١٩٩٠ - ١٩٩١ دراسة
محيدة) .

الجزء الثامن : الدول الاسلامية غير العربية بآسيا : ايران - افغانستان -
الباكستان - بنجالاديش - ماليزيا - اندونيسيا -
الأقليات الاسلامية فى الهند والصين وروسيا والفيلبين .

الجزء التاسع : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم .
عصر جمال عبد الناصر : عصر المظالم والهزائم .

الجزء العاشر : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر أنور السادات .

كتب للمؤلف

ثانيا : موسوعة الحضارة الاسلامية

دراسة تحليلية شاملة في عشرة مجلدات ، تبرز الاتجاهات الحضارية التي جاء بها الاسلام لهداية البشرية في شؤون الفكر ، والسياسة ، والاقتصاد ، والعلاقات الدولية ، وفي مجال الحياة الاجتماعية والتربوية والتشريعية والقضائية والعسكرية ، كما تبرز جهود المسلمين في الحضارة التجريبية كالطب والرياضة والفلك ... (الطبعة العاشرة)

الجزء الاول : موجز عام للحضارة الإسلامية - المناهج الإسلامية :
أصولها الصحيحة - انحرافاتهما - وجوب تصحيحها .

الجزء الثاني : الفكر الاسلامي : منابعه وآثاره .
مآثر المسلمين في مجال الدراسات العلمية والفلسفية .

الجزء الثالث : السياسة في الفكر الاسلامي - مع المقارنة بالنظم السياسية المعاصرة .

الجزء الرابع : الاقتصاد في الفكر الاسلامي - مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة .

الجزء الخامس : التربية والتعليم في الفكر الاسلامي .

الجزء السادس : المجتمع الإسلامي : تكوينه وعلاج مشكلاته .

الجزء السابع : الحياة الاجتماعية في الفكر الاسلامي : نطاق الأسرة ونطاق المجتمع كالأفراح والمآتم والموسيقى والغناء .

الجزء الثامن : التشريع والقضاء في الفكر الاسلامي .

الجزء التاسع : العلاقات الدولية في الفكر الاسلامي .

الجزء العاشر : رحلة حياة : تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الإسلامية .

ثالثا : التفسير المبسر للقرآن الكريم .

تفسير موجز وواضح يهدف لأن تفهم القرآن الكريم اذا قرأته او سمعته ، مع وقفات تفصيلية عند بعض القضايا القرآنية المهمة .

كتب للمؤلف

رابعاً : مقارنة الأديان

سلسلة من الكتب في مقارنة الأديان ، تعتمد على أدق المصادر بمختلف اللغات ، وتمتاز دراستها بالحيدة والعمق ، وتشمل :

الجزء الأول : اليهودية : (الطبعة العاشرة)

– دراسة لشتى المسائل اليهودية : اليهود في التاريخ من عهد ابراهيم حتى الآن : الصهيونية – أنبياء بنى إسرائيل ، عقيدة بنى اسرائيل ، يهوه اله بنى اسرائيل ، التعدد والتوحيد في الفكر اليهودي ، التابوت والهيكل ، الكهنة والقرايين ...

– مصادر الفكر اليهودي : العهد القديم ، التلمود ، بروكولات حكماء صهيون .

– اليهود في الظلام : الاغتياى ، التجسس ، الماسونية ، التروتارى ، اللونز – شهود يهوه ، البابية والبهائية .

– من صور التشريع في اليهودية .

الجزء الثانى : المسيحية : (الطبعة العاشرة)

– المسيح والمسيحية في نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة .

– بولس واضع المسيحية الحالية ، التثليث ، صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر .

– شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، المجامع ، طبيعة المسيح والاراء فيها ، الطوائف المسيحية ، الرهنة والأديرة ، خرافة ظهور العذراء في كنيسة الزيتون ، حركة الاصلاح الدينى ونتائجها ونقدتها .

الجزء الثالث : الاسلام :

– الله في التفكير الاسلامى ، النبوة في التفكير الاسلامى ، غير المسلمين

في المجتمع الاسلامى ، الدين المعاملة ، المرأة في الاسلام ، الرق وموقف الاسلام منه ، السياسة والاقتصاد في الاسلام ، آراء المفكرين الغربيين في الاسلام ورسول الاسلام .

الجزء الرابع : أديان الهند الكبرى :

« الهندوسية – الجينية – البوذية » .

– تقديم عن : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات في الهند ، الأديان في الهند .

– دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا : مهابهارتا : يوجاواسستها ، كيتا .

– اهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الانطلاق والزفانا ، وحدة الوجود .

– تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ واضعها .

كتب المؤلف

خامسا : كتب في الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

- ٢٥ - كيف تكتب بحثا أو رسالة •
دراسة منهجية لكتابة البحوث واعداد رسائل الماجستير والدكتوراه •
(الطبعة الثانية والعشرون - مع ثلاثة ملاحق مهمة)
- ٢٦ - الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الاسلام ، واستمرارها حتى الآن :
عرض للهجمات الصليبية الغربية عسكرية وفكرية على العالم الاسلامى عبر
العصور •
- ٢٧ - أحداث العراق والكويت : ماذا أبرزت من مشكلات ؟ وما السبيل
للتغلب عليها ؟ دراسة تاريخية نفسية محايدة (الزهراء للاعلام العربى)

كتابان باللغة الانجليزية هما :

مكتبة النهضة المصرية	ISLAM : Belief - Legislation - Morals	— ٢٨
	History of Muslim Education	— ٢٩
	وباللغة الفرنسية :	
	Islam : Croyance - Législation - Morale	— ٣٠

وباللغة الاندونيسية والماليزية :

Pustaka National (Singapore)	Nearag dan Pemerintahan Dalam Islam	— ٣١
	Masjarakat Islam	— ٣٢
	Hukum Islam	— ٣٣
	Sedjarah dan Kebudajaan Islam	1 — ٣٤
	Sedjarah dan Kebudajaan Islam	11 — ٣٥
	Sedjarah dan Kebudajaan Islam	111 — ٣٦
	Perbandingan Agama (Jahudi)	— ٣٧
	Perbandingan Agama (Masihi)	— ٣٨
	Perbandingan Agama (Islam)	— ٣٩
	Perbandingan Agama (Agama2 yang Terbeser di India : Hindu-Jaina-Buddha)	— ٤٠
	Sadjarah Pendidikan Islam	— ٤١
	Politik dam Ekonomi Dalam Islam	— ٤٢
	Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam	— ٤٣
	Perkembangan Keagamaan Dalam Islam dan Maschi	— ٤٤
	Perang Salib	— ٤٥
	Kurikulum Islam Dalam	— ٤٦
	Perkembangan Sedjarah	— ٤٧
	Pengajian Al Quraan	— ٤٨
	Sedjarah Kehakiman Dalam Islam	— ٤٩

كتب للمؤلف

سادسا : تعليم اللغة العربية لغير العرب وقواعد اللغة العربية

- برنامج شامل ميسر لتعليم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب .
- أول سلسلة من نوعها في المكتبة العربية تملأ هذا الفراغ .
- دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف .
- تضم هذه السلسلة الكتابين التاليين :

٤٩ - تعليم اللغة العربية لغير العرب : (الطبعة الرابعة)

يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى ، مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة ، فالتعبير ، فالاملاء ، فالخط والنصوص ، ثم يقفز بالطالب الى مرحلة متقدمة في القراءة والمحادثة والكتابة ، مستعملا في هذه المرحلة موضوعات جذابة من الفكر الاسلامي والعربي اختيرت من أمهات الكتب العربية ثم صيغت في أسلوب مناسب ، مع أسئلة وتمارين مفيدة .

٥٠ - قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها : (الطبعة الرابعة)

عرض لجميع أبواب النحو العربي بطريقة تربوية سهلة ودراسة واضحة لأهم أبواب الصرف .

هذا الكتاب ضروري للمثقف العربي وغير العربي

كتب نفدت ولن يعاد طبعا

- ٥١ - في قصور الخلفاء العباسيين :
- أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الجزء الثالث من موسوعة التاريخ .
- ٥٢ - مصر في حربين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) دراسة مقارنة :
- وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الجزء التاسع من موسوعة التاريخ .
- ٥٣ - الحكومة والدولة في الاسلام :
- وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الجزء الثالث من موسوعة الحضارة .
- ٥٤ - الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحي .
- ٥٥ - النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور وأثر الفكر الاسلامي فيها .
- وأكثر مادة هذين الكتابين تضمنها الجزء الرابع من موسوعة الحضارة .
- ٥٦ - الجهاد والنظم العسكرية في التفكير الاسلامي :
- وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الجزء التاسع من موسوعة الحضارة .

كتب للمؤلف

سابعا : المكتبة الإسلامية لكل الأعمار

تخطيط يشمل ١٠٠ جزء ، يقرؤها كل فرد من أفراد الأسرة ظهر منها ٧٢ جزءا كالآتي :

المجموعة الاولى : السيرة النبوية العطرة (١٦ جزءا)
وتشمل سيرة الرسول ﷺ وجوانب منها 'تدوّن لأول مرة .

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة (٧ أجزاء)
المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية (٥ أجزاء)

نزول القرآن وتدوينه - القرآن والعلم - فضائل القرآن -
اعجاز القرآن - الاخلاق الاسلامية من القرآن الكريم .

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم (٧ أجزاء)
المجموعة الخامسة : الدولة الاموية : تاريخ يحتاج الى انصاف (٥ أجزاء)
لماذا انحرف تدوين التاريخ الاموي ؟ مدعو التشيع وسومومهم -
قمم أموية .

المجموعة السادسة : شخصيات اسلامية (٥ أجزاء)
صقر قريش - هارون الرشيد - الخليفة المأمون - الناصر لدين الله -
عبد الرحمن الناصر . . .

المجموعة السابعة : صراع وشهداء وانتصارات (٦ أجزاء)
- من شهداء الاسلام .

- الحروب الصليبية: بدؤها مع مطلع الاسلام واستمرارها حتى الان
(٣ أجزاء في مجلد)

- شهر رمضان وانتصارات المسلمين فيه (جزءان في مجلد)
المجموعة الثامنة : الاسلام والمرأة (٥ أجزاء)

حالة المرأة في الحضارات غير الاسلامية - ماذا قدم الاسلام للمرأة؟
نماذج من السيدات المسلمات: من بيت النبوة «السيدة زينب والسيدة
سكينة » ونماذج في السياسة والاداب والعلوم والفنون - زيجات
شهيرة في التاريخ : « زبيدة - بوران - قطر الندى » .

- مكة المكرمة : من التهيؤ لاستقبال دين جديد الى التنكيل بمن
اتبعه (٣ أجزاء في مجلد واحد)

- الميراث في الشريعة الاسلامية : دراسة شاملة .
- تاريخ الطب في الإسلام .

- حركات فارسية ضد الاسلام والمسلمين عبر العصور

(٣ أجزاء في مجلد واحد)

- تطوير دراسة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ودور دار العلوم
في هذا المجال .

- الصحوة الاسلامية : مظاهرها - معوقاتنا - الصحوة تستعيد نشاطها .
- السلفية : نماذج رائعة للسلفية وتعثّر السلفية أحيانا .

- عواصم إسلامية مقدسة : مكة - المدينة - القدس : عبر العصور .

(الأجزاء التالية ستظهر قريبا ان شاء الله)

الموضوع	صفحة
مقدمة الطبعة الأولى	١٧٠ - ٢٠
مقدمة الطبعة الخامسة	٢٠

الجزيرة العربية

في صدر الاسلام والعهد الأموي والعصر العباسي

الجزيرة العربية في عهد الرسول	٢٣
الجزيرة العربية في عهد الخلفاء الراشدين	٢٤
الجزيرة العربية في العصر الأموي	٢٩
الجزيرة العربية في العصر العباسي	٣٢
التفكك الفكري في الجزيرة العربية	٣٦
اتجاهات مصر الاستقلالية وصلتها بالجزيرة العربية	٣٧
العثمانيون في الحجاز والجزيرة العربية	٤٢
العثمانيون ولقب الخلافة	٤٣
مصر بالحجاز خلال العهد العثماني	٤٥

نجد

من مطلع الاسلام حتى قيام المملكة العربية السعودية

غموض تاريخ نجد ومحاولة التغلب عليه	٤٧
حدود نجد وتعريف سريع بها :	٤٨
مناطق الخصوبة في نجد ٤٩ - مناطق الجفاف في نجد ٥٠	
قسوة الطبيعة في بعض المناطق ٥١ - صراع القبائل الذي	
لا يتوقف ٥٢ - كثرة الأوبئة والقحط والغلاء ٥٤ -	
مظاهر الجمال في نجد ٥٥ .	

مفتاح تاريخ نجد :

٥٧	
١ - الحياة القبلية في نجد	٥٨
(أ) القبائل البدوية المتجولة	٥٩
من مشاهير العلماء في نجد	٦٤

الموضوع	صفحة
(ب) مزيد من الدراسات عن تاريخ نجد وتاريخ القبائل المستقرة وتاريخ بعض مدنها :	٦٩
عنيزة	٦٩
قضاة عنيزة وعلمائها	٨٢
العيينة	٨٩
قضاة العيينة وعلمائها	٨٩
حائل	٩١
٢ - زحف من الداخل	١٠٢
٣ - زحف من الخارج على نجد :	١٠٥
من الشرق ١٠٦ - من الغرب ١٠٩	

نجد وآل سعود والدعوة الإصلاحية

السعوديون :

الأمير سعود والدولة السعودية الأولى	١١٧
أمراء السعوديين وملوكهم في الدولة السعودية الأولى	
والثانية والثالثة	١١٨
الدولة السعودية الأولى - والامام محمد بن سعود	١٢٠
الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوته	١٢١
فقه الدعوة واتجاهها العقائدى	١٣٠
عبد العزيز بن محمد بن سعود	١٣٨
سعود الكبير	١٤٠
القوى المضادة للسعوديين	١٤٤
الزحف المصرى على الحجاز والجزيرة العربية :	١٤٩
طوسون يقود الحملة الأولى ١٤٩ - محمد على يقود	
الحملة الثانية	١٥٠
الصلح وشروطه من مصادر سعودية	١٥١
نقض الصلح وغزوة « محرش » من المصادر السعودية	١٥٢
ابراهيم باشا يقود حملة للرد على نقض الصلح	١٥٤
نهاية الدرعية ونظرة شاملة لهذا الصراع	١٥٧
الدولة السعودية الثانية والصراع الداخلى	١٦٢

المملكة العربية السعودية

١٦٩	الدولة السعودية الثانية (دولة البطولة والاستقرار والتقدم)
١٧٠	الملك عبد العزيز وجهوده ونتائج كدحه
١٧٢	وقفة عند المواقع التاريخية
	أخطر المعارك التي خاضها الملك الباسل :
١٧٥	الأحساء والعثمانيون
١٧٨	آل الرشيد
١٨٢	عسير والأدارسة
١٨٦	الأشراف
٢٠٨	الاخوان
٢١٢	رحلة الى الغطف
٢١٤	نهاية البطل
٢١٤	الملك سعود
٢١٨	الملك فيصل :
٢١٩	مآثر الملك فيصل
٢٢١	فيصل وحرب رمضان
٢٢٣	نهاية الملك فيصل
٢٢٥	الملك خالد : بيعة ونهاية
٢٢٥	الملك فهد وجهوده
٢٢٦	ملايين النسخ من القرآن الكريم
٢٢٦	لقب الملك : خادم الحرمين الشريفين
٢٢٦	جسر الملك فهد الى البحرين
٢٢٧	أقسام المملكة العربية السعودية وأهم بلدانها
٢٣٢	حضارة المملكة العربية السعودية
	التصحيح الفكري ٢٣٢ - وحدة الملكة ٢٣٢
	القيادة الرشيدة ٢٣٣ - الأمن ٢٣٣ - الادارة ٢٣٤
	محاربة الاعداء الثلاثة ٢٣٤ - النهضة العلمية ٢٣٥
	الصحة ٢٣٦ - مقارنات ٢٣٦ - الزراعة ٢٣٨ -
	العمران والحرمين الشريفان ٢٣٩ - الصناعة ٢٤٠
٢٤٣	عدوان على المسجد الحرام
٢٤٥	عدوان إيراني بالمسجد الحرام
٢٤٥	عدوان عراقي على السعودية

سلطنة عمان

٢٤٩	 تقديم
٢٤٩	 موقع عمان على خريطة العالم
٢٥٢	 تسمية عمان
٢٥٣	 أهم المدن في عمان
٢٥٧	 عواصم عمان السياسية
	 صحرار ٢٥٩ - الرستاق ٢٦٥ - مسقط ٢٧٠ - نزوى ٢٧٩
٢٨٨	 هل تعد عمان من دول الخليج أو لا تعد ؟
٢٩٢	 اقتصاد عـمان
٢٩٦	 جولة تاريخية عن عمان
٢٩٧	 سكان عمان
٢٩٩	 عمان الاسلامية :
	 في عهد الرسول ٢٩٩ - في عهد الخلفاء الراشدين ٣٠٠
	 في العهد الأموي ٣٠٢ - عمان والمذهب الإباضي ٣٠٤
	 عمان في العصر العباسي ٣٠٦ .
٣٠٨	 عمـسـور الحكم في عمان عبر التاريخ الاسلامي :
٣١٠	 عصر الأئمة الإباضية
٣١٢	 العصور المظلمة
٣١٥	 ملوك آل نبهان
٣١٩	 عمان هدف لعدوان خارجي (فارسي ثم برتغالي)
٣٢١	 اليعاربة وتعريف بأشهر أئمتهم
٣٣٠	 من مآثر اليعاربة
	 آل بوسـعيد :
٣٣١	 المستشار أحمد بن سعيد وخلفاؤه
	 الانقسامات والتفكك ٣٣٦ - فصل ساحل الصلح عن
	 عمان ٣٣٧ - القاب الحكم ٣٣٨ - عمان والقوى
	 الأوربية ٣٤١ - السعوديون وعمان ٣٤٣ - البوسعيديون
	 في شرقي أفريقية ٣٤٦ .
٣٤٨	 تعريف بأشهر سلاطين البوسعـيديين :
٣٥٠	 سلطان بن أحمد ٣٤٩ - سعيد بن سلطان
٣٥٣	 السلطان قابوس وعصره :

الموضوع	صفحة
مقاطعة ظفار ٣٥٦ - حضارة عمان	٣٥٩
صلوات شخصية بعمان	٣٦٢
العقل العماني المتفتح :	
مازن بن غضوبة والصنم الذي نكلم !!	٣٦٣

اليمن

١ - الجمهورية العربية اليمنية

٢ - جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية

حدود اليمن	٣٧٣
أقسام اليمن الطبيعية	٣٧٥
كلمة عن تاريخ اليمن قبل الاسلام وحضارته	٣٧٥
الاسلام في اليمن :	

عهد الرسول ٣٨١ - عهد الخلفاء الراشدين ٣٨٣

الأسود العنسي ٣٨٤ - الأشعث بن قيس ٣٨٥

زبيد :

٤٠٠ - ٤٠١

الفتوحات الاسلامية وأهل اليمن	٣٨٧
اليمن بين عثمان وعلى	٣٨٨
اليمن في العهد الأموي	٣٨٨
مقارنة بين اليمن وحضرموت	٣٩١
اليمن في العصر العباسي	٣٩٤
أقاليم اليمن والدول التي قامت بها	
بنو زياد ٤٠٣ - بنو نجاح ٤٠٦ بنو المهدي	٤٠٨

صنعاء :

بنو يَغْفَر ٤١٣ - القرامطة ٤١٥ - بنو صليح	٤١٧
مكانة الفاطميين في دولة بنى صليح	٤٢٠
الهمدانيون	٤٢١

صعدة :

الشيعة في صعدة ٤٢٣ - الرس والأئمة الزيديون	٤٢٨
--	-----

عدن :

بنو زريع	٤٣٧
	٤٣٨

الموضوع	صفحة
مصر في اليمن :	٤٤١
مطلع الدعوة الفاطمية في اليمن	٤٤١
الأيوبيون في اليمن	٤٤٤
بنو رسول	٤٤٩
بنو طاهر	٤٥٦
اليمن يمنان	٤٥٩
ممالك مصر الشراكسة في اليمن	٤٦١
العثمانيون في اليمن	٤٦١
المرحلة الأولى للغزو العثماني ٤٦٤ - المرحلة الثانية	٤٦٦
المرحلة الثالثة	٤٦٧
آل حميد الدين	٤٦٩
عهد الامام يحيى ٤٦٩ - عهد الامام أحمد ٤٧٥ - الامام البدر	٤٧٦
الجمهورية العربية اليمنية	٤٧٧
عبد الناصر واليمن ٤٧٧ - ثورة جديدة في اليمن	٤٨٠
العقيد على عبد الله صالح	٤٨٢
الشيخ زايد يجدد سد مأرب	٤٨٢

اليمن الجنوبية قبل وبعد اعلان الجمهورية

مناطق اليمن الجنوبية قبل اعلان الجمهورية	٤٨٤
عدن حتى الاستعمار البريطاني	٤٨٧
المقاطعات الشرقية حتى الاستعمار البريطاني	٤٨٨
المقاطعات الغربية حتى الاستعمار البريطاني	٤٩١
الحياة السياسية والاجتماعية بحضر موت قبل الاستقلال	٤٩٢
بريطانيا والجنوب اليمنى	٤٩٥
اتحاد الجنوب ٤٩٧ - الاستقلال التام وخطواته	٤٩٨
عبد الناصر وحركات التحرير	٤٩٩
قيام الجمهورية اليمنية الديمقراطية الشعبية	٥٠٢
وحدة اليمن الشمالية والجنوبية	٥٠٥
جهود الحضارمة في نشر الاسلام	٥٠٧

الخليج العربى
والدول العربية الواقعة عليه

٥١٣	 تسمية الخليج
٥١٨	 أهمية الخليج وأهمية منطقته
٥٢١	 ساحل الخليج (البحرين)
٥٢٣	 الاسلام فى منطقة الخليج
٥٢٦	 الردة والصراع ضد المرتدين
٥٣٠	 البحرين فى العهد الاموى
٥٣٠	 الخوارج فى منطقة الخليج
٥٣٥	 البحرين فى العصر العباسى
٥٣٨	 حركة الزنج فى البحرين وخطوات الثائر
٥٤٤	 مقاومة حركة الزنج
	القرامطة ودولتهم :
٥٥١	 التاريخ للقرامطة ٥٤٨ - الباطنية وأثرهم فى القرامطة ..
٥٥٥	 تسمية القرامطة ٥٥٤ - من الأهواز الى حمدان
٥٥٩	 عقائد القرامطة ٥٥٨ - من حركة دينية الى مذهب سياسى
٥٦١	 أبو سعيد الجنابى وأولاده وتعريف بهم
٥٧٦	 القرامطة والفاطميون ٥٧١ - مصر والقرامطة
٥٨٣	 نهاية القرامطة ٥٨٠ - نظم القرامطة السياسية والاقتصادية
٥٨٧	 العيونيون فى البحرين
٥٨٩	 فارس فى البحرين
٥٩٠	 نفوذ مصر فى البحرين
٥٩١	 صراع النفوذ ابتداء من القرن السادس عشر
٥٩٣	 البرتغاليون ٥٩٢ - الفرس والانجليز والهولنديون
٥٩٤	 العرب ضد القوى الاستعمارية
٥٩٨	 دول المنطقة بعد الاستقلال
٦١٢ - ٥٩٩	 دولة البحرين
٦٠٥	 تاريخ جزر البحرين ٦٠١ - الخطوات نحو الاستقلال
٦٠٨	 ايران والبحرين وتجدد محاولات ايران للسيطرة على البحرين

الموضوع	صفحة
مواجهة المحاولات الايرانية :	
١ - جسر الملك فهد	٦١١
٢ - جامعة الخليج العربى	٦١٢
دولة قطر	٦١٣ - ٦٢٣
لمحة تاريخية ٦١٥ - آل ثانى فى قطر	٦١٦
قاسم بن محمد آل ثانى وخلفاؤه	٦١٧
قطرى بن الفجاءة	٦٢٢
دولة الامارات العربية المتحدة	
٦٢٥ - ٦٤٥	
الامارات كانت جزءا من عمان ٦٢٧ - مشكلات الامارات	٦٢٩
تعريف بالامارات واحدة بعد واحدة	٦٣٠
قيام دولة الامارات وجهودها فى مختلف الميادين	٦٤٠
دولة الكويت	
٦٤٧ - ٦٧٥	
معلومات عامة عن الكويت ٦٥٠ - تاريخ الكويت	٦٥٣
أمراء الكويت وكلمة تاريخية عن أهمهم ٦٦١ - اقتصاد	
الكويت ٦٦٧ - الحياة فى الكويت	٦٦٨
الكويت والعرب	٦٧٠
غنى الكويت والفقر حولها ، وآثار ذلك	٦٧١

العراق

ارض الحضارة فى التاريخ الوسيط	
ومقر الرشيد والمأمون وبيت الحكمة	٦٧٩
نبذة عن تاريخ العراق القديم	٦٨٠
الموقع والسطح والسكان	٦٨٠
العراق فى صدر الاسلام	٦٨٤
كلمة عن البصرة والكوفة والموصل	٦٨٧
الفرس احتلوا أرض السواد أكثر من الف عام	٦٨٥
العراق فى العهد الأموى	٦٩٢
العراق فى العهد العباسى	٦٩٥
المغول :	
التتار والمغول ٧٠١ - أصل المغول ٧٠١ - ديانات المغول	٧٠٢
أشهر زعماء المغول	٧٠٥

الموضوع	صفحة
جنكيزخان : الياسا ٧٠٣ - جنكيزخان وأرض الاسلام	٧٠٥
الدولة الخوارزمية والمغول	٧٠٥
جلال الدين 'منكبرتي'	٧١٠
المغول يتجهون صوب العراق	٧١١
تحالف المغول مع الصليبيين	٧١٣
المغول والاسماعيلية	٧١٣
هولاكو وسقوط بغداد	٧١٤
دفاع عن ابن العلقمي	٧١٨
الاسلام يغلب المغول	٧١٩

العراق ابتداء من عهد المغول

المغول الايلخانيون	٧٢١
الجلائريون	٧٢٤
تيمورلنك وآل جلائر	٧٢٥
الدولة الجلائرية، بعد تيمورلنك	٧٢٦
القرهقوينلو (التركمانية الاولى)	٧٢٧
الاق قوينلو (التركمانية الثانية)	٧٢٩
علاقة الاق قوينلو مع القوى المجاورة :	
علاقاتهم مع التيموريين ٧٣٢ - مع العثمانيين	٧٣٢
الصفويون في العراق	٧٣٥
العثمانيون في العراق	٧٣٧
الادارة التركية في العراق ٧٣٩ - ولاية العراق في العهد التركي	٧٤٠
دولة المماليك في العراق	٧٤٥
قائمة المماليك وتعريف بأشهرهم ٧٤٦ - نهاية المماليك	٧٥١
مصر ومصير ممالك العراق - اصلاحات المماليك	٧٥١
باشوات بغداد بعد المماليك	٧٥٤
العراق من القرن التاسع عشر للقرن العشرين	٧٥٦
بريطانيا والعراق	٧٥٧
الاستعمار والملكية بالعراق	٧٥٨

الموضوع	صفحة
ثورات العراق الاستقلالية والاصلاحية :	
ثورة ١٩٢٠ : ٧٦٠ - ثورة ١٩٤١ : ٧٦١ - ثورة ١٩٥٨ ونهاية الملكية وعلان الجمهورية ٧٦٤ - ثورة ١٩٦٣ : ٧٦٦ - ثورة ١٩٦٨ : ٧٦٧ - صدام رئيسا للجمهورية ٧٦٩ - الحرب مع ايران	٧٧٠
أحداث العراق والكويت : دراسة تاريخية نفسية محايدة	٧٧٣ - ٧٨١
ثبت المصادر والمراجع	٧٨٢ - ٧٨٨

فهرس الخرائط والمخططات

الدول التى ستدور حولها الدراسة فى هذا الجزء	١٩
مناطق القبائل التى اتجهت لها جيوش أبى بكر	٢٦
عنيزة بالقصيم وعيينة بالعارض وحائل بجبل شمر	٨١
مخطط رؤساء وملوك الأسرة السعودية	١١٩
أمراء وملوك آل عون (من الأشراف)	١٩١
سلطنة عمان ومقاطعاتها	٢٥١
أهم المدن فى سلطنة عمان	٢٥٥
قلعة صحر	٢٦٤
مسقط مدينة الأبراج	٢٧٥
مسقط مدينة الأبراج	٢٧٦
حصن جبرين فى نزوى	٢٨١
مخطط أسرة آل بوسعيد	٣٣٥
مناطق اليمن الرئيسية والأسر الحاكمة بها	٤٠٠ - ٤٠١
أهم المناطق التى تكونت منها جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية	٤٨٦
غارات المغول على العالم الاسلامى	٧١١

مقدمة الطبعة الأولى

في مسيرتنا من الغرب إلى الشرق لدراسة تاريخ العالم الإسلامي انتهينا من الدول الإسلامية بإفريقية شمالي الصحراء وجنوبها ، ودرسنا منطقة سوريا ونحن ندرس تاريخ مصر لطول ارتباط سوريا بمصر على مر التاريخ ، كما درسنا تركيا منذ ظهورها حتى الآن ، ووقفنا بذلك عند البحر الأحمر ، وعند الحدود الفاصلة بين سوريا وتركيا من جانب وبين العراق من جانب آخر ، متطلعين لقطاع جديد من قطاعات العالم الإسلامي ليكون موضوع جزء جديد من أجزاء هذه الموسوعة .

ومتابعةً لمسيرتنا نجدنا في هذا الجزء أمام منطقة مهمة للغاية ، هي الجزيرة العربية وامتداداتها إلى الشمال الشرقي حيث العراق ذو التاريخ الإسلامي المجيد .

والجزيرة العربية مهد الإسلام ، وفيها انبثقت الحضارة الإسلامية التي سرعان ما أصبحت حضارة إنسانية ، وقد ظلت الجزيرة العربية رداً من الزمن ترسل الإشعاعات الفكرية في اتجاهات متعددة حتى تسلمت دمشق فبغداد فالقاهرة مشعل النور ، ولكن الإسلام كان قد ربط بالحجاز ركناً من أركان الإسلام هو الحج حيث يلتقي كل عام مئات الآلاف من القادرين على تكاليف الرحلة ومشاقها ليؤدوا فريضة الحج ، وليجتمعوا في مهبط الوحي ليتدارسوا مشكلات المسلمين ، وليرسّموا الطريق لعلاج هذه المشكلات ، وعلى هذا لم يفقد الحجاز جلاله الديني عندما ضعف جلاله السياسي .

وفي الجزيرة العربية كذلك توجد المدينة المنورة حيث مثوى سيدنا رسول الله ، وكثير من خلفائه وصحبه ، وزيارة سيدنا رسول الله بالمدينة هدف تحرص عليه الغالبية العظمى من الحجاج .

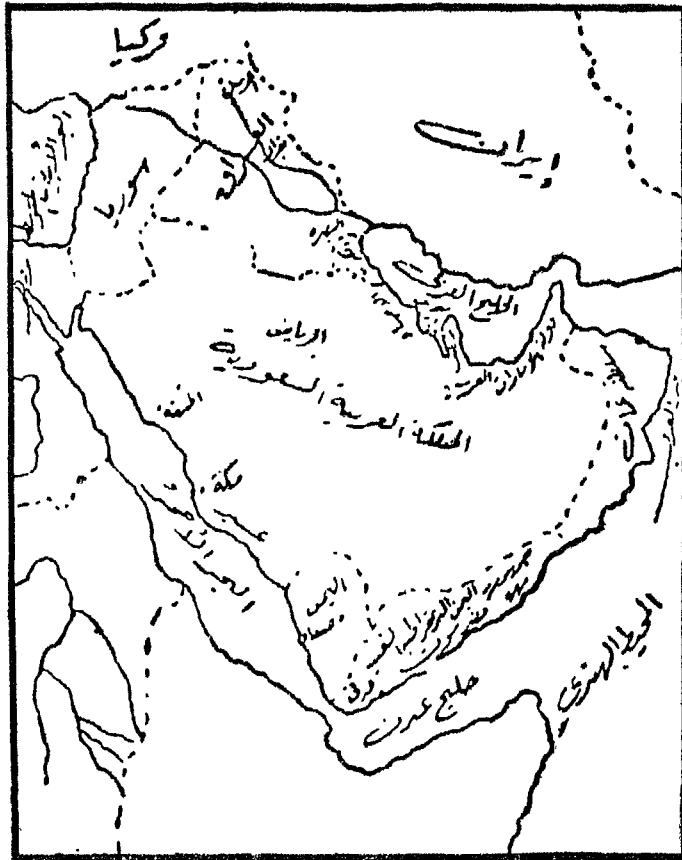
(م ٢ - التاريخ ج ٧)

ومن أجل هذا نجدنا في هذا الجزء على صلة وثيقة بمنزل الوحي ، وبالعنصر العربي الذي تلقى الإسلام وفهمه ، وحمله للبشر ، وذاد عنه عندما تصدّى له أعداء الحرية والعدالة والمساواة ، وتخطى به المخاطر والحدود ، وحارب من أجله المعارضين المعتدين ، ولو كانوا أولى قربى أو أصحاب تيجان وعروش ، وعلى هذا فإننا نؤكد أن انتشار الإسلام كان انتشارا حضاريا ، وأن تفوقه على العقبات التي وقفت في طريقه كان بسبب رجحانه فكريا على الحضارات أو أشلاء الحضارات التي واجهته .

ومن الواضح أن هذا الجزء يرتبط بالجزء الأول من هذه الموسوعة ارتباطا وثيقا ، ففي الجزء الأول تحدثنا عن العرب قبل الإسلام ، وعن السيرة النبوية العطرة ، وعن الدعوة الإسلامية وفلسفتها ، وعن عصر الخلفاء الراشدين ، وقد كانت الجزيرة العربية مسرح الأحداث في تلك الفترة ، ويرتبط هذا الجزء كذلك بالجزء الثاني من هذه الموسوعة حيث الصراع بين الحجاز والأهويين ، ويرتبط أيضا بالجزء الثالث حيث قامت الخلافة العباسية في العراق ، وسلم هنا إمامات موجزة بالتاريخ الذي أوردناه في الأجزاء السابقة ، ثم نفصل القول في الأحداث التي لم تشملها تلك الأجزاء حتى نصل بهذه الأحداث إلى العهد الحاضر .

ومن الملاحظ أننا إذا نظرنا إلى خريطة المنطقة التي سيشمها هذا الجزء يتضح لنا أنها الآن تشمل الدول الآتية :

- ١ — المملكة العربية السعودية .
 - ٢ — سلطنة عمان .
 - ٣ — جمهورية اليمن الشمالية .
 - ٤ — جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .
 - ٥ — دولة الامارات العربية .
 - ٦ — قطر .
 - ٧ — البحرين .
 - ٨ — الكويت .
 - ٩ — العراق .
- (وقد اتحدت الدولتان (مايو ١٩٩٠) وسنتكلم عنهما فيما بعد كدولة واحدة)



الدول التي ستدور حولها الدراسة في هذا الجزء

ومن الواضح أن الغموض يكتنف فترات طويلة من تاريخ هذه الدول ، وأن الإقدام على دراسة تاريخها السياسى والحضارى دراسة متصلة يحتاج الى جهد جهيد ، وصبر طويل ، حتى ندفع تاريخ هذه المناطق إلى النور ، أو ندفع النور لها ، فتاريخ الجزيرة العربية يدخل فى نطاق غموض لم تكشفه بعد أبحاث ذات بال ، فأكثر ما كتب عن هذه المنطقة مجلدات هى الى الدعاية أقرب ، وأمثلة هذه المجلدات قد تخدم أغراضها فى مجال الدعاية ، ولكنها لا تخدم البحث والدراسة ، ومن هنا فهى لا تزال اللبس والغموض بصفة حقيقية •

قاللهم نضرع إليك أن تلهمنا السداد والرشد ونحن نقترح هذا العمل الكبير ، فكل صعب يهون إن شملنا تأييدك ، وكل ضباب يثلاثى إن كان معنا عونك ، وكن يارب معنا لنكمل العمل الذى بدأناه باسمك ، وسرنا فيه بتوفيقك فعليك اعتمادنا ، ومنك وحدك ما حققناه ، ونحققه من نجاح لخدمة الإسلام والمسلمين •

يارب ••••• يارب

المعادى فى يناير سنة ١٩٧٧.

دكتور أحمد شلبى

مقدمة الطبعة الرابعة

يسعدنى أن أقدم الطبعة الرابعة من هذا الكتاب بعد أن أدخلت عليه إضافات عن الأحداث التى جرت بعد آخر طبعة منه ، وبعد أن أدخلت عليه بعض التحسينات والتحقيقات •

والله المسئول أن ينفع به قارئه ومؤلفه ، وهو نعم المولى ونعم النصير •

المعادى فى ابريل سنة ١٩٩٠

دكتور أحمد شلبى

الجزيرة العربية

في صدر الإسلام والعهد الأموي والعصر العباسي الأول

الجزيرة العربية في صدر الإسلام

في عهد الرسول :

في الجزء الأول من هذه الموسوعة ذكرنا أن الرسول عليه الصلاة والسلام — بعد أن انتصر على قريش في بدر ثم هادنهم في العام السادس من الهجرة ، وبعد أن انتصر على اليهود في العام الثاني والرابع والخامس والسابع للهجرة — راح يتطلع لنشر الإسلام في نواحي الجزيرة العربية ، فأرسل مبعوثين من قبله يحملون كتبه لرؤساء القبائل والأمارات بالجزيرة العربية ، بل كذلك للماوك والرؤساء بالأقطار المحيطة بالجزيرة ، وأوردنا هناك أسماء هؤلاء المبعوثين ، ونتائج هذه البعث ، والمهم هنا أنه عن هذا الطريق انتشر الإسلام انتشارا واسعا بالجزيرة على وجه خاص .

وفي العام التاسع قدمت وفود عربية للرسول من كل جهة ، ولذلك سمى العام التاسع للهجرة عام الوفود ، وقد أوردنا في الجزء الأول أسماء هذه الوفود ، وأشرنا الى ما عرف من شعرهم وخطبهم .

ومن الذين وفدوا على الرسول ضمن هذه الوفود وائل بن حجر الكندي وكان أمير بلاد الشاطئ من حضرموت فأسلم ، وأقره النبي على أمارته ، كما جاءت وفود حمير من اليمن تعلن إسلام هذه المناطق ، وكانت هذه الوفود بقيادة الحارث بن طلال وأخويه نعيم والنعمان .

وكتب فروة بن عمرو الجذامي عامل الروم على من يليهم من العرب إلى الرسول بإسلامه ، وأرسل بعض الهدايا ، فلما عرف الروم عنه هذا التصرف قبضوا عليه وسجنوه ثم قتلوه ، وقد أشرنا إلى هذا في الجزء الأول من هذه الموسوعة .

ومن بين الوفود وفود تميم وربيعة وقحطان وثقيف وأسد والأزد وغسان ومهرة ونجران ومذحج وخثعم وغيرهم .

وأرسل النبي عليه الصلاة والسلام عماله على المناطق المختلفة التي أسلمت ، كما أرسل الدعاة والمعلمين ليعلموا الناس مبادئ الإسلام وليقرئوهم القرآن •

الجزيرة العربية في عهد الخلفاء الراشدين :

وذكرنا أيضا في الجزء الأول من هذه الموسوعة أن من العرب من دخل الإسلام دون دراسة ، ودون إيمان عميق ، ومنهم من دخل الإسلام تجنباً لخوض الحروب ضد المسلمين الذين حققوا انتصارات واسعة في معاركهم ، ومنهم من دخل الإسلام طمعا في منعم أو جاه ، والمهم أن وفاة الرسول أتاحت الفرصة لهؤلاء ليظهروا ما في نفوسهم ، أو ليثوروا على حَصْر الرئاسة في جماعات قريش ، ومن هنا ظهر من يعرفون في التاريخ بالمتنبئين والمرتدين ومانعي الزكاة ، وهي أسماء مختلفة ولكنها تعبر عن مدلول واحد هو القهر بدليل أن الأشعث بن قيس كان من مانعي الزكاة ثم انضم للمرتدين ، وكانت كندة مع الأسود العنسي مدعي النبوة فلما قتل انضمت للمرتدين ، وكان أهل اليمامة من المرتدين فلما علا شأن مسيلمة انضموا له (١) وهكذا •

ولكن أبا بكر وقف موقفا رائعا ، وحمل المسؤولية بكفاءة ممتازة ، فأرسل رسله بكتب مفتوحة إلى هؤلاء المرتدين يوضح لهم ما خفى عليهم ، ويرد على ما أظهره قادة الضلال من انحراف ليعودوا من جديد إلى الإسلام والتمسك به (٢) ، ثم انثنى يدفع بالقوة من لم تنفع معه الحسنى ، فأعد جيوشا جبارة أوصاها بقوله : من حرص على الموت في الحرب وهبت له الحياة • فكانت هذه الوصية خير ضمان للنصر ، وكانت جيوش أبي بكر التي أعدها لهؤلاء كالآتي :

(١) صالح بن حامد العلوي : تاريخ حضر موت ج ١ ص ١٤٧ و ١٥٧ •

(٢) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ص ١٨٨١ وما بعدها • وانظر كتاب أشهر مشاهير الإسلام لرقيق العظم ج ١ ص ١٠٩ وما بعدها •

خالد بن الوليد الى طليحة بن خويلد ومالك بن نويرة ومسيلمة
عكرمة بن أبي جهل الى مسيلمة حتى جاء خالد بن الوليد
المهاجر بن أمية الى الأسود العنسي بصنعاء
حذيفة بن محصن الى أهل عمان
عرفجة بن هرثمة الى أهل مهرة
سويد بن مقرن الى تهامة اليمن
طريف بن حاجز الى بنى سليم وهوازن
عمرو بن العاص الى قضاة
العلاء بن الحضرمي الى البحرين
خالد بن سعيد الى مشارف الشام

وكانت جولة خالد بن الوليد أعظم هذه الجولات فقد اتجه إلى
قبيلة بنى أسد التي كانت تنزل في « عين بزاخة » بالقرب من مكة (١)
وقد حاربهم خالد وانتصر عليهم ، وأسر طليحة ، وأرسله إلى المدينة ،
ولكنه أعلن توبته وعاد بصدق إلى الإسلام ، وانتقل خالد بأمر أبي بكر
إلى بنى حنظلة (من أهم بطونها تميم) وكانت هذه القبائل تقيم في المنطقة
الممتدة بين المدينة والخليج العربي ، حيث كان مالك بن نويرة قد توقف
عن دفع الزكاة ، وقد هزّم خالد العشائر التي قاومته ، وقتل مالك بن
نويرة وتزوج امرأته ، وقد دار نقاش طويل حول خالد مرتبطا بهذه
الزيجة ، ولكننا نميل إلى الاعتقاد بأن خالد تزوج هذه المرأة بعد أن
فصلت الردة بينها وبين زوجها مالك ، وكان مالك متهما بالردة مع قطع
الزكاة ، أو كان قطع الزكاة وعدم الاعتقاد بوجوبها نوعا من الردة (٢) .

وسار خالد بعد ذلك إلى أرض اليمامة ، وهي قرية من البحرين (٣)
وتسكنها قبائل كثيرة أهمها بنو حنيفة التي كانت مشهورة بكثرة العدد

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٣ ، ياقوت : معجم
البلدان ج ٢ ص ١٦٠ .
(٢) انظر الاحكام السلطانية للماوردي ص ٤٧ .
(٣) ياقوت : معجم البلدان ج ٨ ص ٥١٥ .



مناطق القبائل التي اتجهت لها جيوش أبي بكر

وشدة البأس ، وكان مسيلمة كاهنا ادعى النبوة ، وقد بدأ ادعاؤه قبل وفاة الرسول ، وكتب للرسول أن يعترف بالمشاركة بينهما ، وقد استطاع مسيلمة قبل أن يصل له خالد أن يهزم جيش عكرمة بن أبي جهل ولكن خالد أنزل به عدة هزائم وقضى عليه في « حديقة الموت » حيث سقط آلاف من بنى حنيفة ، وعدد كبير من المسلمين ، منهم مجموعة من حفظة القرآن الكريم ، وسمى هذا اليوم ، « يوم القيامة »^(١) وقد زرت الدرعية موطن مسيلمة وأهلها يقولون أن الله طهر بلادهم بظهور محمد بن عبد الوهاب بها بعد أن دنسها مسيلمة ورفاقه •

واتجه خالد بعد ذلك إلى البحرين ليساعد عاملها « العلاء بن الحضرمي » في صراعه ضد المرتدين الذين كان يقودهم رجل اسمه « الحطم » ، وكان كثير من سكان البحرين من عناصر فارسية أو من اليهود والنصارى^(٢) وقد هزَمَ خالد هؤلاء المرتدين وقتل « الحطم » •

وهكذا جالت الجيوش الإسلامية جولة في الجزيرة العربية أعادت خلالها التأثير إلى الاستسلام ، والصال إلى الهدى ، وعادت الجيوش إلى المدينة ، وقد عادت للجزيرة العربية وحدتها وتمسكها بالدين الحنيف بعد أن زالت الأشبهات والثرهات بالحكمة عند من عرف الحكمة أو بالسيف عند من دفعته العصبية الضالة إلى السيف ، ولم تعرف الحكمة إلى نفسه سبيلا •

ثم قسم أبو بكر الجزيرة ولايات ، وعين على هذه الولايات عماله كالآتي :

عنتاب بن أسيد	عاهلا على مكة
عثمان بن العاص	» » الطائف
المهاجر بن أمية	» » صنعاء

(١) الميداني : معجم الأمثال ج ٢ ص ٢٧١ •

(٢) ياقوت : معجم البلدان ٢ ص ٧٤ •

زياد بن ليبيد	» »	حضر موت
يعلى بن أمية	» »	خولان
أبو موسى الأشعري	» »	زبيد
جرير البجلي	» »	نجران
عبد الله بن ثور	» »	جرش
العلاء بن الحضرمي	» »	البحرين

وفي أواخر عهد أبي بكر بدأ الصراع ضد قوى الشمال ، ضد الفرس والروم ، وزحف الإسلام بحضارته وفكره فلم تستطع دولتا الشمال أن تتقفا في وجهه ، فقد كان كثير من العراقيين والسوريين والفرس يحسبون أن الإسلام دين الجميع ، وأن الانضمام اليه ليس هزيمة وإنما هو فرار من العسف والظلم والانحراف الى حضارة الاسلام وروح الاسلام التي سمعوا بها ، وترقبوا يوم الخلاص مما يعانون ليعتقوها ، ومن هنا كان جنود الفرس والروم يفرشون من جيوشهم وينضمون للمسلمين ، حتى اضطر قادة الفرس والروم أن يقيحوا الجنود بالسلاسل حتى لا يفرروا ، وقد عرفت هذه المعارك بمعارك ذات السلاسل ، وقد تحدثنا عنها في الجزء الأول من هذه الموسوعة .

وعلى هذا فالتوسع الاسلامي ليس كما تعود المؤرخون أن يصفوه بالفتح والغزو والانتصارات ، وإنما هو في الحق صراع بين حضارة نضبت وانهارت ، وحضارة انبثقت وعلا شأنها وهي دعوة من الله لكل الناس ، يثبكر منهم من قدمها وذاد عنها ، ويثبكر من استقبلها فأحسن استقبالها .

وكلمة أخيرة عن الجزيرة العربية قبل أن نترك عهد الخلفاء الراشدين هي أن منها كان يثبكم العالم الاسلامي في أكثر سنوات هذه الفترة ، فقد كانت المدينة المنورة هي عاصمة الدولة الاسلامية خلال عهد الرسول ، وعهد الخلفاء الثلاثة بعده ، ومطلع عهد الإمام على كرم الله وجهه ، حتى انتقل منها إلى الكوفة سنة ٣٦ هـ .

الجزيرة العربية في العصر الأموي

في كلمة موجزة نقرر أن الجزيرة في عهد الرسول والخلفاء الراشدين نعمت بشيئين مهمين هما :

- ١ — كانت بها عاصمة الدولة الإسلامية كلها •
- ٢ — أبناؤها هم حملة الدعوة والمدافعون عنها •

وقد أكسبها هذا الوضع امتيازات أدبية ومادية بعيدة المدى ، وفي العهد الأموي فقدت الجزيرة العربية الصفة الأولى فلم تعد عاصمة الدولة الإسلامية إذ أصبحت دمشق هي العاصمة ، ولكن الصفة الثانية بقيت لها ، فان الأمويين كانوا يكرمون العرب ، ويعتمدون عليهم في كل شئونهم ، فلما جاء العصر العباسي فقدت الجزيرة الصفة الثانية كما فقدت الأولى ، إذ قوى نفوذ الفرس والترك في بغداد ، وانتهى الأمر بأن أسقط المعتصم العرب من دواوين العطاء ، فقل شأن الجزيرة واستسلمت للمهجول •

تلك فكرة موجزة تحتاج إلى بعض التفاصيل والإيضاح :

في العهد الأموي انتقلت العاصمة — كما قلنا — إلى دمشق ، وتركت الجزيرة العربية ، التي يمكن أن نقسمها في هذا العصر قسمين مختلفي الملامح ، القسم الأول الحجاز ، والقسم الثاني يشمل باقى الجزيرة العربية ، ولنرجى الكلام عن الحجاز لنبدأ الحديث عن باقى الجزيرة ، فنقرر أن انتقال الخلافة الى دمشق أبعد السلطة التي كانت تشرع القبائل على الخضوع والتبعية ، وكانت أغلب بقاع الجزيرة تموج بالقبائل التي كانت بطبيعتها تكره الخضوع لسلطات مركزية ، وترى ذلك تدخلا في حريتها وسيادتها ، ومن أجل هذا استعادت القبائل تقريبا حياتها الأولى التي كانت عليها قبل الاسلام ، فأصبح لكل قبيلة شأنها ورياستها واستقلالها ، وفي بعض المناطق قامت حركات استقلالية بقيادة بعض الأمراء الطموحين الذين كانت الخلافة عينتهم ، ولكن الحياة القبلية كانت تهدد هؤلاء أيضا ، ومن أجل هذا ائتمت التناحر في أرجاء الجزيرة العربية

بين أمير وأمير ، وبين قبيلة وقبيلة ، كما كانت الحال قبل الاسلام ، ولعل الأمويين أرضاهم ذلك حتى تنشغل هذه القبائل بهذا الصراع ، فيكون في ذلك السلامة للخلافة التي كانت ثورات الجزيرة العربية أخطر ما تخافه ، وأصبح تاريخ أغلب المناطق بالجزيرة العربية هو تاريخ الحياة القبلية أو قل ان الجزيرة أصبحت بدون تاريخ .

وكان الأمويون يحاولون أحيانا أن يمدوا نفوذهم إلى بعض المناطق الحساسة بالجزيرة العربية ، فيضمون نجد إلى ولاية العراق أو البحرين ، ويضمون عسير إلى الحجاز أو إلى اليمن ، ويضمون البحرين إلى البصرة ، ولكن الوالى هنا أو هناك لم يستطع غالبا أن تكون له سيطرة فعلية ثابتة على القبائل .

أما القسم الثانى وهو الحجاز ، فقد أدرك الأمويون أن الخطر يتهددهم منه أكثر من غيره ، ففيه الطامعون الذين لم يخضعوا لمعاوية إلا كارهين ، والذين وقفوا موقفا صلبا ضد ابنه يزيد ، وضد الحجاج عامل عبد الملك بن مروان ، ثم ان بالحجاز توجد الأماكن المقدسة حيث ينساب الحجاج كل عام لأداء فريضة الحج ، وحيث يتدفق الناس للعمرة ولزيارة مئوى سيدنا رسول الله بالمدينة ، ومن أجل هذا لم يكن في وسع الأمويين أن يتغاضوا عن الحجاز كما تغاضوا عن الأماكن الأخرى بالجزيرة ، بل وجئوا له عناية كبرى لمنع الحركات فيه من جانب ولتيسير شئون الحج من جانب آخر ولهذا عينوا لحكمه مجموعة من الأفذاذ وخيرة الرجال من بنى أمية ، مثل عتبة بن أبى سفيان ، ومروان بن الحكم ، وسعيد بن العاص وابنه عمرو ، وخالد بن العاص ، وعمر بن عبد العزيز ، وقد تولى بعض هؤلاء مكة ، وتولى بعضهم المدينة ، وجمع لبعضهم الحجاز كله .

ويمكننا على كل حال أن نقرر أن التفكك شمل الجزيرة العربية ، وأن المدينة الإسلامية أدارت للجزيرة ظهرها ، وأن كبار الرجال بها من

قادة وعلماء استقروا حيث طاب لهم المقام في الشام أو العراق أو مصر ، وفيما عدا الحجاز استسلمت هذه المنطقة بوجه عام إلى الظلام والقبلية والمجهولة .

ومن أوضح ما يدلنا على مدى التفكك الذي انتاب الجزيرة العربية ابتداء من العهد الأموي أن ابن الزبير وأعوانه بمكة لم يهبوا لمساعدة المدينة عندما كان مسلم بن عقبة المري يكدشها ويبيحها لرجاله ، وبالتالي لم تتقدم المدينة لمساعدة مكة عندما دمرها الحجاج ورمى الكعبة بالمنجنيق ، ومعنى هذا أن التفكك شمل سكان المدينتين المقدستين مع ما شمل من مناطق الجزيرة .

على أن ثورة المدينة من جهة ، وثورة ابن الزبير بمكة من جهة أخرى جعلت الدولة الأموية تقف موقف الحذر من الحجاز ، وتقلل من استخدام أبنائه ، فانصرف الجيل الجديد إلى الفن والشعر ، وتخلّى عن عالم السياسة والطموح (١) .

وينبغي أن يكون واضحاً أن عناية الأمويين بالأماكن المقدسة لم تقلّ بسبب سخط الأمويين على أهل الحجاز ، فقد أمر عبد الملك بن مروان قائد الحجاج بأن يبنى الكعبة عقب نهاية الصراع بينه وبين ابن الزبير (٢) ، وعمّر عبد الملك المسجد الحرام عمارة حسنة ، فرفع جدرانه وسقفه وجعل في رءوس الأساطين خمسين مثقالاً من الذهب في رأس كل أسطوانة (٣) وفي عصر الوليد بنى عمر بن عبد العزيز المسجد النبوي سنة ٨٨ هـ ووسعه بأن أدخل فيه بيوت زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام إلا بيت عائشة حيث مثوى الرسول وصاحبيه (٤) وأمر الوليد عمر بن

(١) أنظر الجزء الثاني من هذه الموسوعة ص ٦٩ - ٧١ .

(٢) الأزرقي : أخبار مكة ص ١٤٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٩ .

(٤) الطبري ج ٨ ص ٦٥ .

عبد العزيز أن يبنى الفوارة التي يشرب منها أهل المدينة ، كما أمره بتسهيل السبل ما بين الحرمين وتمهيد الثنايا الواقعة بها ^(١) وبالنسبة للمسجد الحرام فقد زاد الوليد في زخرفته ، ونقل له أساطين الرخام ، وهناك اصلاحات علمية وعمرانية كثيرة عرفها الحجاز في العهد الأموي .

وفي أواخر العهد الأموي قامت محاولة ضد الأمويين ترمى إلى الاستيلاء على الحجاز ، وقد قام بهذه المحاولة عبد الله بن يحيى الكندي الحضرمي ، الذي استولى سنة ١٣٩ هـ على حضرموت ثم أنفذ المختار ابن عوف الأزدي أحد قواده ، فاحتل مكة والمدينة ولكن جيوش مروان ابن محمد سرعان ما قضت على هذه المحاولة .

ومعنى هذا أن التفكك الذي شمل الجزيرة أو أكثرها كان على وشك أن يبتلع الحجاز ، لولا ما للحجاز من أهمية دينية جعلت كل الخلفاء في مختلف العهود يهتمون به ، ويحرصون على الحفاظ عليه .

وهناك نقطة خطيرة هي أن بعض خلفاء الأمويين كان لا يعلم عن موطن آبائهم وأجداده إلا ما يسمعه من الناس ، فقد أصبحت دمشق وطنهم ، ومقر أمجادهم ، أما مكة حيث أمجاد أبي سفيان ومنشأ معاوية ، فقد أصبحت للأمويين ولغيرهم من المسلمين ، مدينة مقدسة فقط ، يحج لها بعضهم ، وينشغل آخرون حتى عن أداء فريضة الحج أو العمرة لها .

الجزيرة العربية في العصر العباسي

قلنا من قبل إن الجزيرة العربية فقدت في العهد العباسي عاملي الرخاء وهما العاصمة والقيادة ، وهذا القول يحتاج إلى مزيد من التفصيل ، فالعاصمة العباسية (بغداد) زادت بعدا عن الجزيرة العربية ، فقد كانت دمشق قريبة الصلة بالخط التجاري في رحلتى الشتاء والصيف ،

(١) الطبري ٨ : ٦٦ والأزرقى : أخبار مكة ص ٣٠٩ .

ولكن بغداد لم تكن كذلك ، ثم أن دمشق كان وجهها عربيا ، ولكن عاصمة العباسيين لم تكن كذلك على الرغم من حزم بعض الخلفاء ، ففي العصر الأول كانت فارسية الوجه ، فأبو مسلم الخراساني ، وأبو سلمة الخلال ، والبرامكة ، وبنو سهل * كان لهم النفوذ الكبير ، وبعد العصر الأول زاد وجه العاصمة العباسية بعدا عن العروبة *

ويرى بعض الباحثين أن الصراع بين الأميين والمأمون كان صراعا بين العرب والفرس ، وقد انتصر فيه المأمون بجيشه الذي زحف به من خراسان بقيادة طاهر بن الحسين ، ولا شك أن المأمون حاول عقب انتصاره أن يعيد للعرب بعض النفوذ ولكن الزمن كان أقوى منه ، وجاء المعتصم ففضى على هذه المحاولة عندما أسقط العرب من قوائم العطاء *

وينبغي أن نبرز هنا ما سبق أن ذكرناه من أن العرب الذين كانوا يقودون الجيوش ، ويتولون المناصب ، وينشرون الإسلام في مختلف البقاع لم يعودوا للجزيرة العربية ، بل استوطنوا البلاد التي نزلوا بها ، وأقاموا بها أسرا جديدة ، فتوقف تدفق المال على الجزيرة ، وأصبحت كبيت رحل أهلته عنه ، فعادت القهقري في الفكر والسياسة ، وبالتالي عادت الحياة القبلية تستشري فيها من جديد ، وتم ذلك مع نهاية العصر العباسي الأول *

ومع هذا فقد حظيت منطقة الحجاز بعناية الخلفاء العباسيين كما حظيت من قبل بعناية الخلفاء الأمويين بسبب الأمانة المقدسة ، وحرصا على سلامة الحجاج الوافدين إلى الحجاز *

وقد حاول بعض الخلفاء العباسيين أن يستعيدوا النفوذ في أكثر مناطق الجزيرة العربية ، ولو على الأقل من الناحية الاسمية ، فكان أمير الحجاز يـُـعـدُّ أميرا على أكثر مناطق الجزيرة ، فأبو العباس السفاح ولي سنة ١٣٣ هـ خاله زياد بن عبيد الله الحارثي على الحجاز ، وجعل الطائف (م ٣ - التاريخ ج ٧)

وتليمامة تابعتين له ^(١) وداود بن علي كان واليا على الحجاز في عهد المنصور وكانت اليمامة تابعة له ^(٢) .

ولكن نفوذ هؤلاء الولاة خارج الحجاز كان محدودا للغاية ، وبخاصة ما دامت لم توجد بتلك المناطق ثورات تهدد الخلافة .

ومن الأعمال التي تنسب للعباسيين أن أبا العباس السفاح أنشأ القلاع على طريق الحج لحراسة الحجاج من هجمات البدو ، كما أنشأ بيوت الضيافة في محطات الاستراحة ، وينسب لأبي جعفر المنصور أنه زاد في الحرم المكي زيادة كبيرة سنة ١٣٩ هـ ، وكان من اصلاحات المهدي أن أخذ عددا كبيرا من أولاد الأئصار وأقطعهم الأملاك الواسعة بالعراق ، وأكثر بناء الخانات على دروب الحج ، ووسع في بناء المسجد الحرام ، وأدخل فيه دورا عديدة من جهة المسمى ، وينسب لزوجته الخيزران ، أنها — عندما حجت — ابتاعت بعض الأماكن التاريخية ، وأنشأت فيها مساجد ، ومنها المكان الذي ولد فيه سيدنا رسول الله ، ومنها دار الأرقم ابن أبي الأرقم ، أما السيدة زبيدة فمن منشآتها « عين زبيدة » بمكة التي أجرت إليها الماء من وادي النعمان على بعد عشرة كيلو مترات من مكة ، كما أنها مهدت طريق الحج من العراق الى الحجاز عبر الصحراء ، وبنّت عليه المرافق والمنازل ، وحفرت الآبار ، وما زال يعرف باسم « درب زبيدة » ^(٣) .

ولكن كان هناك عامل مهم باعد بين العباسيين وبين الحجاز ، فمنذ مطلع الدولة العباسية ظهر الحجاز مناوئا للدولة الجديدة ، وقامت به مجموعة من الثورات العلوية ذكرناها في الجزء الثالث من هذه الموسوعة ^(٤) ، وفي قمته ثورة النفس الزكية ، والحسن بن علي بن الحسن بالمدينة ، ومحمد الديباج بمكة ، كما أنه خرج من الحجاز مناوئون

(١) الطبري ج ٩ ص ١٤٧ .

(٢) تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ٨٨ .

(٣) أحمد عطية الله : القاموس الاسلامي ج ٣ ص ٢ .

(٤) انظرها في ص ٢٩٦ وما بعدها .

آخرون زعزعوا أركان الدولة في أرجاء أخرى من العالم الإسلامي ، فمن الحجاز خرج ابراهيم بن عبد الله الذي سار الى الديلم بعد موقعة (فسخ) وكون هناك حركة رآها الرشيد خطرا عليه ، وبذل جهدا كبيرا ليتحاشاها ، ومن الحجاز كذلك خرج إدريس بن عبد الله الذي أخذ طريقه الى المغرب ، وكون دولة الأدارسة وهي أول دولة تنتشق على العباسيين من العالم الذي كان يدين لهم بالولاء .

ولم تقتصر ثورات الحجاز على الثورات السياسية ، بل امتدت الثورات في الحجاز الى مدى آخر ، فقد هب بنو سليم وأشجع بالمدين في ثورة سلب ونهب وتدمير ، وامند أذاهم الى كثير من الناس ، وقطعوا الطرق ، وتغلبوا على جند الموالي ، وكان ذلك في عهد الواثق ، فأرسل لهم الخليفة جيشا بقيادة بغا الكبير فأوقع بهم وأخذ عددا كبيرا من الأسرى (١) .

والذي ينظر في تلاحق ثورات الحجاز على العباسيين يدرك أن الحجاز كان مصدر خطر على الدولة العباسية مما جعل هذه الدولة لا تعنى بالحجاز الا بالقدر الذي يرتبط بالأمكنة المقدسة ، وسلامة الحجاج ، والتغلب على صور التمرد ، وفيما عدا ذلك انضم الحجاز للأمكنة الأخرى بالجزيرة العربية من حيث الفراغ والنسيان والعودة للمجهول والحياة القبلية .

بقى من الجزيرة العربية أن نتكلم كلمة عن عمان وعن اليمن ، وهذان القطران قامت بهما في عصور التاريخ الاسلامي دول وممالك ، ولكن الحياة القبلية كانت نشطة بهما نشاطا لم يتوقف ، ومنافسات للأمراء وحركات التنفك لم تنقطع كما سنرى عند عرض تاريخهما بالتفصيل فيما بعد .

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك حوادث سنة ٢٢٠ .

التفكك الفكرى فى الجزيرة العربية

وصفنا من قبل التفكك السياسى الذى أصاب الجزيرة العربية ولكن هذه الجزيرة أصيبت بانحيار آخر هو التفكك الفكرى فقد اجتمعت بالجزيرة بقايا المذاهب المختلفة ، وتعمق التعصب فاتضحت صورته فى التعصب المذهبى الذى يصفه المقدسى ^(١) بقوله : « ومذاهبهم بمكة وتهماء وصنعاء سنّة ، وسواد صنعاء ونواحيها مع سواد عمان شراة غالية ، وبقية الحجاز وأهل الرأى بعمان وهجر وصعدة شيعة ، وجماهير عمان وصعدة وأهل السهروات وسواحل الحرمين معتزلة ، والغالب على أهل صنعاء اتجاهات أبى حنيفة ، وبالمعافر مذهب أبى المنذر ، وفى نواحي نجد اليمن مذهب سفيان ، والأذان بتهماء ومكة يترجّع على مذهب مالك ، ويكبر فى العيدين على قول ابن مسعود ، والعمل بهجر على مذهب القرامطة » .

وفى الجزيرة العربية وبخاصة فى منطقة الخليج العربى ظهرت حركات مدمرة ، وانحرافات متعددة ، ستكون موضع اهتمامنا عندما نصل فى دراستنا الى هذه المنطقة ، ولا شك أن القرامطة كانوا من أبرز هذه الحركات ، وقد بعث القرامطة الذعر ، ونشروا الخوف فى الجزيرة العربية مدة قرن من الزمان ، فكانوا بانحرافهم الفكرى مثالا واضحا لما أصاب الجزيرة من تدهور وانحلال .

(١) أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ٩٦ .

اتجاهات مصر الاستقلالية

وصاتها بالجزيرة العربية

لمصر تاريخها الطويل العريض قبل الإسلام ، فعلى ضفاف النيل نبئت أقدم وأعظم حضارة عرفت البشرية (١) ، وشعب مصر ورث هذه الحضارة الرائعة جيلا عن جيل ، وجو مصر جو ممتاز طيلة العمام . وهواء مصر عبق ، ونيلها ساحر ، ورخاؤها غامر ، وآمالها عراض ، وقد فتحت مصر ذراعيها للإسلام ورحبت بفكره وحضارته ، وحذق اللسان المصرى لغة القرآن وبلاغة القرآن ، وتكونت بمصر مدرسة إسلامية عظيمة الشأن منذ العهد الأول ، وكان من دعائهما وافدون من الجزيرة العربية جنبا إلى جنب مع الذين نبتوا على أرض مصر ، وسرعان ما أصبحت المدرسة الإسلامية بمصر من أعظم المدارس التى تخدم الإسلام والفكر الإسلامى (٢) ، فلما ضعفت الجزيرة العربية سياسيا وفكريا ، وسقطت الدولة الأموية ، واصطُرعت بعاصمة العباسيين قوى البغى ، تطلعت مصر إلى مكان الصدارة ، وفى العهد الطولونى تحقق لمصر استقلال يكاد يكون تاما ، ومن مظاهر هذا الاستقلال نمو الثروة المصرية فى عهده نموا كبيرا بسبب الإصلاحات الشاملة التى قام بها (٣) ، وتكوين جيش ضخم يحمى البلاد ويحقق الأهداف العسكرية (٤) ثم صراعه ضد الموفق أخى الخليفة والمسيطر على دار الخلافة ، وهذا الموضع يجعل مصر على قدم المساواة مع بغداد وينفى التبعية التى كانت موجودة من قبل ، وطمع ابن طولون فى أن يجذب لمصر الخليفة المعتمد المغلوب على أمره ، وكتب له يقول : وقد جمعت عندى مائة ألف عنان ، وأرى لسيدي

(١) انظر حديثنا عن هذه الحضارة فى كتاب « الفكر الإسلامى » أحد أجزاء موسوعة الحضارة الإسلامية للمؤلف .
(٢) أقرأ عن هذه المدرسة فى الجزء الخامس من موسوعة التاريخ الإسلامى للمؤلف .

(٣) ابن خلكان : وفيات ج ١ ص ٦٨ .

(٤) المقرئزى : الخطط ج ١ ص ٩٤ .

أمير المؤمنين الانجذاب إلى مصر ، فان أمره يرجع بعد الامتحان الى نهاية العز ، ولا يتهيا لأخيه فيه شيء مما يخافه (١) .

ووصل الاتجاه الاستقلالى فى ذلك العهد الى أن ابن طولون عزل « الموفق » وأن كان هذا العزل بطبيعة الحال لم يتم .

وبعد أن كانت مصر تابعة للمدينة أو دمشق أو بغداد أصبحت مصر ذات سلطان واسع ، فيه استقلال لها ، وفيه امتداد الى الخارج ، فقد اتسعت دولة ابن طولون من العراق شرقا الى برقة غربا ، ومن آسيا الصغرى الى بلاد النوبة ، كما أسهم ابن طولون فى الدفاع عن الثغور الشمالية المواجهة للروم ، حتى خشي امبراطور الروم بأسه : وترضاها بأن أطلق بعض أسرى المسلمين الذين كانوا عنده (٢) .

ولما كان الحجاز قبلة للعالم الإسلامى ، ومطمع الحكام الأفذاذ فقد كان من الطبيعى أن تحاول مصر أن تمتد نفوذها الى الحجاز ، وقد حاول أحمد ابن طولون ذلك ، ونازل قوات الموفق فى مكة (٣) .

وقامت الدولة الأخشيديية بعد ذلك بمصر ، واتجهت نفس الاتجاه الاستقلالى الذى بدأ فى العهد الطولونى ، وكما حارب ابن طولون الموفق فقد حارب الأخشيد ابن رائق أمير الأمراء الذى كان مسيطرا على الخلافة العباسية فى عهده (٤) ، وكما دعا ابن طولون الخليفة المعتمد ليالحق بمصر ، وليتخذ منها عاصمة للخلافة ، فقد دعا الاخشيدي الخليفة العباس (الراضى) ليجيء الى مصر حتى يتخلص الخليفة من نفوذ أمير الأمراء وكما اتسع سلطان مصر فى عهد ابن طولون ، فان سلطان مصر فى عهد الاخشيدي كان أكثر اتساعا ، فقد شمل مصر واليمن والشام ، وقد ذكرنا

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٢٨١ ، ابن الاثير ج ٢ ص ١٣١ .

(٢) دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ج ٣ ص ١٢٩ .

(٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ٧ ص ١٣٢ .

(٤) المرجع السابق : ج ٨ ص ١١٧ .

من قبل أن ابن طولون تطلع للسيطرة على الحجاز لمكانة الحجاز في العالم الإسلامي ، وأنه نازل جند الموفق في مكة ولكن الاخشيد كان أكثر توفيقا من ابن طولون في هذا الاتجاه ، فقد امتد نفوذه الى الحجاز كله (١) .

ولابد في الحديث عن الاخشيديين أن نرجع الى الوراء قليلا ، لنذكر أن الخلافة الفاطمية قامت بتونس سنة ٢٩٧ هـ وهي خلافة لا تعترف بالخلافة العباسية ، وتقف منها موقف المنافسة وتحاول أن تقضي عليها ، وبينما كانت الخلافة الفاطمية قوية في مطلع حياتها وقمة قوتها ، كانت الخلافة العباسية تترنح تحت ضغط القوى التي استولت على السلطة في بغداد متماثلة أولا في الأثر ثم البويعيين .

ومن الطبيعي أن يكون الحجاز محل صراع بين العباسيين والفاطميين ، فللحجاز مكانه المقدس عند هؤلاء وأولئك وسيكون لمن يستولي عليه مكان أرفع لدى كافة المسلمين ، وقد أدرك العباسيون ألا قبل لهم بالمصراع ضد الفاطميين الذين كانوا يندفعون بقوة تجاه مصر وتجاه الحجاز ، وبخاصة أن مصر كانت في حالة اضطراب بعد نهاية الطولونيين ، كما كانت الحجاز تمر بفترة سيئة اثر تدخل القرامطة وانتزاع الحجر الأسود من مكانه .

في ضوء هذه الظروف لم يجد الخليفة الراضي بدا من اللجوء الى قائد عرف عنه الحزم والحكمة هو محمد بن طنج الاخشيدى الذى كان واليا على دمشق ، وكانت مصر تابعة له بصفة مؤقتة ، فجعل الراضى ولاية مصر لمحمد بن طنج الاخشيدى ولاية أصيلة ، وأمره بالانتقال لها ، ليعيد اليها حياة الاستقرار ، فجاء ابن طنج الى مصر سنة ٣٢٣ هـ (٢) ثم ضمت الحجاز لدولة الاخشيديين وظلت الحجاز مرتبطة بمصر عدة قرون بعد ذلك خلال العهد الفاطمى والأيوبي وخلال عهد المماليك حتى

(١) الكندى : تاريخ مصر وولاتها ص ٢٨٨ - ٢٩١ .

(٢) انظر الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

الفتح العثماني (أى من سنة ٩٤٥ الى سنة ١٥١٧) ما عدا فترات قصيرة جدا ، وكان حكام مصر يولون الولاية على الحجاز ليدون لهم الحكم والسياسة ، ويوافقون على تولية الأشراف الذين ستنكلم عنهم فيما بعد ، والذين كانوا يباشرون الأمور الدينية ، وفي بعض الأحوال كان الشريف يختار ليتولى شئون الحكم والسياسة مع عمله الديني تابعا لحكام مصر ، وكانت مكانة الشريف تعلو أو تهبط حسب كفاءته من جانب ، وانتهازا لفرص ضعف أو اضطراب بمصر من جانب آخر .

وقد حاول بعض ولاية الحجاز من قبل مصر أن يمدوا نفوذهم الى مناطق أخرى بالجزيرة العربية ، ولكن هذه الفترات كانت قصيرة العمر ، وكانت الحياة القبلية تنشط من جديد فتستعيد السلطة من هؤلاء الولاية .

وعلى هذا ليس صحيحا ما تذكره بعض المراجع ^(١) من أن ارتباط الحجاز بمصر بدأ بعد وفاة كافور الاخشيدى عندما رحل عن المدينة المنورة محمد بن جعفر الحسيني ، ودخل مكة ودعا للفاطميين ، لأن ارتباط الحجاز بمصر بدأ في مطلع عهد الاخشيديين ، وكان بموافقة العباسيين .

وهكذا ارتبطت الحجاز بمصر حوالى ستة قرون ، ولم يقصمها الا تدخل العثمانيين ، واستيلائهم على السلطة في البلاد العربية ، وقد حاولوا اضعاف مصر لأنهم تصوروا أن الخطر ضدهم يكمن في مصر ، ولكن مصر على كل حال استطاعت في عهد العثمانيين أن تستعيد مكانتها بالحجاز من الناحية الأدبية ، وقدمت الى الحجاز أسمى المساعدات دون أن تنتظر تعليمات من العثمانيين كما سنرى بعد قليل ، فلما تحقق لمصر

(١) سعيد باوزير : معالم تاريخ الجزيرة العربية ص ١١٥ .

استقلالها عن العثمانيين ابتداء من سنة ١٨٠٥ (عهد محمد على) حاولت مصر أن تستعيد مكانتها بالحجاز كاملة كما كانت عبر القرون الماضية (١) .

ماذا فعلت مصر للحجاز ؟

في اعتقادي الذي أؤمن به بناء على الدراسات الدقيقة أن مصر قدمت للحجاز أكثر مما قدمت لنفسها ، تطاعت الى الأماكن المقدسة بعناية فائقة من الناحية العمرانية والثقافية ومن ناحية الأمن داخل الحجاز أو في الطرق الموصلة اليه ، ومن ناحية كبح جماح الطامعين والمتمردين ، ومن ناحية دور الايواء والإحسان ، وقد استوى في ذلك الطولانيون والاششيديون والفاطميون والأيوبيون والمماليك ، ولست أورد تفاصيل ما فعلته مصر في الحجاز فليس ذلك بخاف على أحد .

والذي دفعني الى هذا الاتجاه ما لا حظته من بعض المؤلفين الذين يميلون الى أن يبخسوا مصر حقها ، بل يميلون الى أكثر من ذلك ، يميلون الى إخفاء اسم مصر ، ومحاولة الكلام عنها ضمن ما أسموه « ملوك الطوائف » وهي تسمية خاطئة في مجال التاريخ ، ويوم يعمد عربى الى إخفاء اسم مصر فانه يحفر قبره بيده .
لماذا اتجه هؤلاء المؤلفون هذا الاتجاه ؟

لقد خطر لهؤلاء المؤرخين — كما أوضحت بذلك عباراتهم — أن مدح مصر يسئ الى المملكة العربية السعودية ، وقد كتبت مؤلفاتهم مهداة الى ملوك هذه المملكة ، وترينت بصورهم وحملت أعق الأذعية لهم ، ولكننى أعتقد أن التوفيق لم يحالف هؤلاء المؤلفين ، فملوك المملكة العربية السعودية لا يخدعهم هذا الزيف ، وهم يعرفون لمصر قدرها ، وتعترف مصر لهم أقدارهم بكل العمق والتقدير ، ويوم يكتب التاريخ بهذا الاتجاه يضر كثيرا ولا ينفع أحدا ، وحسبى هذا دون أن أذكر

(١) انظر الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

هؤلاء المؤلفين ، وإن كنت أرثى لحالهم ، وبخاصة إذا لاحظنا أن نشاط مصر بالحجاز الذى نتحدث عنه الآن حصل قبل بدء الدولة السعودية بمدى طويل ، فقد بدأ كما قلنا فى القرن الهجرى الرابع وظل حتى الفتح العثمانى فى القرن العاشر الهجرى ولم تكن الإمارة السعودية قد بدأت بعد فليس مما يضر ملوك السعوديين أن ننسب لمصر ما قامت به من أعمال جليلة فى الحجاز حيث القبلة التى يتجه إليها المسلمون فى صلواتهم ، وحيث الأمكنة المقدسة التى يفد إليها الحجاج من كل ربوع العالم الإسلامى ، وليت ملوك العالم الإسلامى ورؤساءه يتسابقون دائماً لخدمة هذه الأمكنة المقدسة وإعلاء شأنها .

العثمانيون فى الحجاز والجزيرة العربية

عندما فتح العثمانيون مصر سنة ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) تطلّعوا لاستعمال الدين وسيلةً لتثبيت سلطانهم فيما فتحوه من البلاد الإسلامية ، ووسيلةً لتيسير توسع جديد باسم الدين ، ولذلك عمد السلطان سليم بعد فتح مصر إلى شيئين مهمين :

الأول : نقل الخليفة العباسى وأهله إلى القسطنطينية ، لتصبح القسطنطينية بذلك مقر الخلافة ، ويرتبط بهذا موضوع يثار دائماً ، وهو ما يشاع من أن السلطان العثمانى أمر الخليفة العباسى فتنازل له عن الخلافة وهو موضوع سنحققه بعد قليل .

الثانى : أنه حرص بسرعة أن يمد نفوذه إلى الحجاز ، وكان ذلك سهلاً حينئذ لأن الحجاز كان تابعاً لمصر ، وسقوط مصر كان معناه استلام ما يتبعها من أقطار .

وكان بالحجاز من الأشراف رجال اسمه بركات ، وأكثر الأشراف بعد الرعيل الأول ، لم يكن لهم — للأسف — أية مبادئ ، وكانوا مستعدين

ليصادقوا أو يعادوا تبعا لمصالحهم لا الأفكارهم ، ولذلك نجد الشريف بركات يسارع فيقدم مفاتيح الحرمين الشريفين الى السلطان سليم اعترافا بسلطانه ، ويثبتة السلطان على ذلك بأن يقره في مكانه •

ويتحقق للعثمانيين بذلك ما أرادوا ، فقد كان فتح الأقطار الإسلامية بعد ذلك سهلا بل تقدمت بعض الأقطار الإسلامية من تلقاء نفسها تطلب أن تشملها سلطة العثمانيين •

العثمانيون ولقب الخلافة :

كان السلطان سليم قد قابل الخليفة المتوكل في سوريا ، وعاد به إلى استانبول بعد فتح مصر لتصبح استانبول مقر الخلافة (١) أما ما يشاع من أن السلطان طلب من الخليفة أن يتنازل له عن لقب الخلافة فلا يقوم عليه دليل ، ويرى المرحوم الأستاذ ساطع الحمصى أن هذا التنازل ليس صحيحا بدليل أن ابن إياس وهو معاصر لهذه الفترة وقد دوّن في كتابه « بدائع الزهور » تفاصيلها لم يذكر شيئا عن هذا التنازل ، وكذلك لم تورد « اليوميات » التي ألفها « فريدون بك » أى ذكر لهذا التنازل ، مع أنها أوردت تفصيلات عن أشياء بسيطة جدا ، ومثل هذا يقال عن كتاب « تاج التواريخ » وقد كتبه ابن شيخ الإسلام الذى رافق السلطان سليم الأول في رحلته إلى مصر •

بل نتحدث « اليوميات » المشار إليها عن تحركات المتوكل العباسى واصفة إياه بأنه الخليفة ، كما يتحدث ابن إياس عن تولية خلفاء آخرين من العباسيين (٢) •

والحق أن السلطان سليم ، والسلطان سليمان من بعده لم يحتاجا إلى أن يتنازل الخليفة المتوكل لهما عن الخلافة ، فان الحاكم العثمانى

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ج ٣ ص ١٤٧ •

(٢) انظر : البلاد العربية والدولة العثمانية للاستاذ ساطع الحمصى

ص ٤٢ وما بعدها •

بعد الانتصار على مصر شرع من تلقاء نفسه في مباشرة سلطات الخلفاء دون حاجة إلى هذا التنازل .

ومع أن هذا التنازل ليس ثابتا بصفة شكلية إلا أنه حدث بصفة واقعية ، فإن الخليفة المتوكل كان قد سلم إلى السلطان العثماني شارات كانت تعتبر من شارات الخلافة كالبردوة التي كان يلبسها الخلفاء في المناسبات الرسمية ، وكالذخائر النبوية ، وهي العصا والخاتم وخصلة من الشعر يقال إنها من شعر الرسول صلوات الله عليه : وقد أودعت هذه المخلفات السراي الكبير في استانبول (١) .

أما استعمال السلاطين العثمانيين للقب الخليفة فعلا فقتشير إليه بعض أحداث لعل أولها رسالة السلطان سليمان إلى شريف مكة التي يخبره فيها ب وفاة والده السلطان سليم ، وأنه تسلم بعده سدة السلطنة ، وأصبح « مستقر الخلافة » وقد أجابه شريف مكة مهنتا إياه على تسلمه العرش ، وعلى منصب الخلافة (٢) وكان شريف مكة في ذلك — كالعهد بأكثر الأشراف — ملكيا أكثر من الملك كما يقولون فصرح بما لم يصرح به السلطان ، فاذا كان السلطان قد اكتفى بأن يصف نفسه بأنه « مستقر الخلافة » فإن شريف مكة يثبت الخلافة بصراحة إلى السلطان .

وعلى كل حال فإن هذا اللقب لم يظهر في وثيقة رسمية إلا عندما ضعف العثمانيون وراحوا يبحثون عن مصادر للقوة ، وكان لقب الخلافة والظهور بمظهر من يمثل المسلمين من بين هذه المصادر ، ففي معاهدة كوتشك كينارجى بين الروس وبين الأتراك سنة ١١٧٤ لقب السلطان بلقب خليفة المسلمين (٣) .

(١) فيليب حتى : لبنان في التاريخ ص ٤٣٢ — ٤٣٣ .

(٢) فريدى باي : مجموعة منشآت السلاطين ص ٥٠٠ — ٥٠٢ .
وانظر الجزء الخامس من هذه الموسوعة ص ٦٧٢ من الطبعة الثالثة .

History of the Arabs Vol. 3 p. 831.

(٣)

عودة إلى علاقة العثمانيين بالجزيرة العربية :

المهم الآن أن سلطان العثمانيين امتدَّ إلى الحجاز ، وتطلع العثمانيون إلى المناطق الساحلية حول الجزيرة كما سنرى فيما بعد ، ولم يبدوا اهتماماً يذكر بقلب الجزيرة فلم يكن بها ثراء يغريهم ، أو قوة تخيفهم ، وتركوا هذه المناطق كما كانت قبلهم تعيش بها القبليّة ، وتتناحر الرياسات ، ويعتشش الجهل ، ولا يتوقف الصراع بين القبائل بعضها والبعض ولا يتوقف الصراع بين البدو من جانب والحضر من جانب آخر .

وقد وجه العثمانيون في هذه الفترة عناية كبيرة للحرمين ولسكان الحرمين ، فالصدقات أصبحت تصل بانتظام إلى السكان ، والمحمل والأكسية للكعبة كانت موضع العناية ، وأرسل السلطان سليمان القانوني للحرم المكي منبراً بديع الصنع من الرخام ، لا يزال موجوداً حتى الآن كما عني باصلاح سقف الكعبة المشرفة ، وجلب الماء للحجاج في قنوات بناها لتأتى بالماء من عين زبيدة ، وبنى أسوار جدة .

مصر بالحجاز خلال العهد العثماني :

وأعيد بناء الكعبة في زمن السلطان مراد الرابع فاتح بغداد وكانت مصر هي التي قامت بالبناء وبتكاليفه ، وكان ذلك في شهر شوال سنة ١٠٣٩ هـ ، ويروى أنه في ذلك العام نزل مطر عظيم جرف ما وجده أمامه ، ودخل بيت الله الحرام فبلغ طوق القناديل المعلقة حول المطاف ، ودخل الكعبة المشرفة بارتفاع مترين عن قفل باب الكعبة ، وقد سبب هذا سقوط الجدار الشمالي ، وتصدعت باقى الجدران وجمع المشرفون على البيت القناديل المرسعة بالأحجار الكريمة والذهب ، في بيت سادن الكعبة وأرسلوا هذا النبأ إلى مصر ، وطلبوا تبليغه إلى استنبول .

وبادر والى مصر بالعمارة قبل أن يجيء أمر من الأستانة ، وفي كتاب « أخبار مكة » للأزرقى يذكر شاهد عيان قائمة طويلة بالآلات

والمؤن التي وردت من مصر لهذه العمارة ، وهي كميات هائلة وثمانية
الغاية ، كما يورد تفاصيل سير العمارة من يوم إلى يوم ، وبعد تمام
العمارة كُتِبَ محضر إلى والى مصر به شهادة المكيين بحسن عمارة
البيت المعادة (١) :

وهكذا ارتبطت أكثر الحركات بدائر الجزيرة العربية ، أى بمناطق
الحضر فيها ، وربما امتدت قليلا إلى الداخل عن طريق ضمم بعض
المناطق الداخلية لولاية دائر الجزيرة ، ومن هنا لزم أن نولى قلب الجزيرة
بعض العناية فنتجه لدراسة تاريخ نجد ، ذلك التاريخ الذى لم يتضح
بعد للباحثين ، وذلك ما سنحاوله فيما يلى :

(١) الأزرقى : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ج١ ص ٢٤١ - ٢٥٤ .

نجد

من مطلع الإسلام حتى قيام المملكة العربية السعودية

تشغل نجد أكبر منطقة في الجزيرة العربية ، ومع هذا لم تأخذ حظها من الدراسة ، ولا مكانها في تدوين التاريخ ، حتى أصبح من الحقائق المعروفة أن « الباحث في أية ناحية من نواحي التاريخ تتعلق ببلاد نجد قبل ثلاثة قرون من الزمن تعوزه المصادر »^(١) ولم يتجه علماء نجد إلا إلى هذه القرون الثلاثة الأخيرة • ويستوى في ذلك الشيخ حسين بن غنام والشيخ عثمان بن بشر والشيخ إبراهيم بن صالح •

وإني جولت في التاريخية باحثاً ومعلماً ومؤلفاً طالما قابلت حقبا وبلاداً يكتنف تاريخها الغموض ، ولكني لم أعرف اليأس ، وظلت أكدح حتى حققت نتائج مرضية ، وعندما وصلت نجداً في هذه الجولة التاريخية الطويلة هالني أن أرى الفرق الواسع بين ماض غامض وبين حاضر ناصع ، فاستعنت بالله ، واتجهت بكل العزم الألقى شعاعاً من الضوء على تاريخ هذه البلدة ، فما كان لي أن أدع نجداً بدون تاريخ ، وسألتهم الوسائل العلمية لأحقق بعض ما أتطلع إليه ، ويتطلع له الناس حول تاريخ نجد التي أصبحت بمكانتها في العالم العربي الإسلامي وبثرائها تشغل المفكرين ورجال المال ، وبهذا أصبح من الضروري أن نتعرف على ماضى هذه البلاد ، فالحاضر لا بد أن يكون له ماض عميق الجذور ليرتفع الحاضر عليه ويباهى به •

ويزعم بعض الناس ، أن أمريكا مثلاً لا ماضى لها ، ولا يضر ذلك بحاضرها ، ونجيب بأن الذين بنوا حاضر أمريكا هم نازحون من أوروبا بتاريخهم ونهضتهم ، فهم في أمريكا امتداد للفكر الأوربي ، وليس الحال كذلك في نجد ، فناسها في الحاضر هم أحفاد شعبها ، فإما أن يكون

(١) مقدمة كتاب « تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد » للشيخ إبراهيم بن صالح بن عيسى •

لهم تاريخ أو لا يكون ، وهذا يجعل من المحتّم أن نتعرف على تاريخ نجد .

وفي اعتقادي أنه ليس من العسير إبراز تاريخ نجد في حدود الاطار العلمى التاريخى الذى يرسم المدى الذى يسعى له المؤرخ وهو يدرس تاريخ القبائل أو المدن أو الدول *** وسنتتبع تاريخ نجد في ضوء هذا الاطار العلمى .

وقد كان من الوسائل التى أطمع أن تعيننى لتحقيق أملى ، صلتى الطويلة بالتاريخ الإسلامى أستاذًا ومؤلفًا ، وصلتى الدقيقة بالمراجع التى كتبها الباحثون والرحالة من الشرق أو الغرب من الجزيرة العربية ، وزياراتى المتكررة لمناطق متعددة في نجد ، زيارات باحث يتعرف على وسائل الحياة فى الحاضر تلك التى تعين على فهم ما غمض فى الماضى .

وفي هذا الضوء وبهذا الأمل أخطو طلبا العون من الله ودوام التأييد .

حدود نجد وتاريخها سريع بها :

حدود نجد ليس متفقا عليها تماما ، ولكنها على العموم تشمل الأراضي الممتدة من قريّات الملح شمالا إلى وادى الدواسر جنوبا ، ومن حدود الأحساء شرقا إلى حدود الحجاز غربا وتشمل المناطق التالية من الشمال إلى الجنوب .

قريّات الملح — الجوّف — جبل شمر — القصيم — سدّير —
الوشم — العارض — الخزّج — الحريق — الأفلاق — وادى
الدواسر .

ويبلغ امتداد نجد من الشمال إلى الجنوب ثمانمائة ميل (٨٠٠ ميل)
ويبلغ عرضها من الشرق إلى الغرب حوالى ٢٢٠ ميلا .

ومن الواضح أن المناخ يختلف في هذه المناطق حرارة وبرودة ،
واكثها على العموم قليلة الأمطار ، مما سبب الجفاف في أكثر بقاعها *
وتكثر العيون في بعض المناطق فيستقر بعض السكان حولها ، أما
الأكثرية الغالبة فيعيشون حياة البسداوة ، وينتقلون من مكان إلى
مكان (١) *

عشائر نجد :

والعشائر النجدية يمكن بوجه عام ترتيبها كالآتي :

في الشمال	: شمّر
في الشمال الغربي	: عتيبة ومطير
في الشمال الشرقي	: عنزة وحرب
في الغرب	: سبيع
في الشرق	: آل مرة وبنو خالد والعجمان
في الجنوب والجنوب الشرقي	: قحطان

مناطق الخصوبة في نجد :

ينبغي علينا أن نتعرف على مناطق الخصوبة والجفاف في نجد ،
فإن ذلك سيسيطر أمامنا الأرض التي نحاول أن ندرس تاريخها ، وبمهد
لشرح العلاقات بين السكان والأرض ، ومن الخطأ أن يظن ظان أن نجداً كلها
بلاد صحراوية قاحلة لأن فيها مناطق شديدة الخصوبة سخية في إنتاجها
الزراعي ، وتعد العارض من أكثر بلدان نجد خصوبة ، وفيها يقع وادي
حنيفة الذي يمتد حوالي ٦٠ ميلاً ابتداء من الجبيلة حتى الرياض
عاصمة المملكة العربية السعودية ، ثم إلى ما بعد الرياض ، وهذا الوادي كثير
العيون ، وتجتمع فيه الأمطار ، فيكوّن ما يشبه النهر عدة شهور في العام ،

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب في القرن العشرين من ٥٢ - ٥٣ .

(م ٤ - التاريخ ج ٧)

وقد عشت في هذا الوادى ردحا من الزمن بين نخيله الباسقة وأشجاره المنيانة وزراعته الخضراء ، وهو ينتج محصولا هائلا من التمر بالاضافة إلى بعض الحاصلات الأخرى ، وقد سميت الرياض بذلك الاسم لأنها تكون فعلا مجموعة من الرياض التى تعد منحة لهذا الوادى ، ومن أشهر بلدان العارض الجبيلة سالفه الذكر ، والمعينة مسقط رأس المصلح الدينى الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، والدرعية التى ستتناولها أحاديثنا فيما بعد ، وحريملة •

ومن مناطق الخصوبة في نجد منطقة القصيم ، وهى منطقة فسيحة تقع بين الوشم وعتيبة وجبل شمر ومزارعها كثيرة ، وحدائقها فسيحة ، ومن أشهر مدنها بريدة وعنيزة ، وفى شهر يناير سنة ١٩٧٧ افتتحت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض إحدى الكليات التابعة لها في بريدة ، وحضرت حفل الافتتاح ، وأتاحت لى هذه الفرصة أن أعيش في القصيم فترة من الزمن ، وأن أرى ما بها من خصوبة ، ورياض فينانة ، ولا تزال هناك منافسات بين بريدة وعنيزة حتى العهد الحاضر ، وهى منافسات انحدرت من الحياة القبلية المصاخرة ، ومع أن هذه وتلك أصبحتا ضمن المملكة العربية السعودية التى انصهر فيها المواطنون مكونين دولة واحدة ، فإن آثار الماضى لا تزال لها بقايا ، وإن كانت هذه البقايا تنتج الآن إلى الأحسن ، فإذا كانت هناك كلية في بريدة فإن عنيزة تطمع أن تكون بها كلية مماثلة وسنعيش مرة أخرى مع بريدة ، وعنيزة فيما بعد •

ومن أشهر مدن القصيم بالاضافة إلى بريدة وعنيزة الرس والخبر والعيون •

مناطق الجفاف في نجد :

تلك هى أهم مناطق الخصب والنعاء من نجد ، تضاف لها بعض الواحات والمناطق الصغيرة التى يوجد بها آبار ومزارع محدودة المساحة ،

مثل قفار وتيماء والجوف ، وفيما عدا ذلك فالصحراء فسيحة الامتداد لا تقع العين على آخرها ، والصمت هائل مخيف والتربة فقيرة ، مكوشة أساسا من حصباء أو رمال ، والمراعى القليلة تظهر وتختفى وفي بعض الأحيان تنعدم الآبار تقريبا كالحال في الرشح الخالي وصحراء النفود ، وتقول الليدى آن بلنت (١) : إن صحراء النفود ليس هناك ما يفوقها في العالم ، ولقد سمعنا عنها تقارير عجيبة ، وسمعنا عن الناس الذين فقدوا فيها ، والرحلة من بلاد الجوف عبر صحراء النفود إلى حائل تستغرق عشرة أيام على الأقل وليس هناك الا بئران على الطريق ، الأولى في نطاق مسيرة اليوم الثاني ، والآخرى في اليوم الثامن وعلى من يقوم بهذه الرحلة أن يكون حريصا مزودا بفدر كاف من الماء والتمر ، ومعه دليل خبير وإلا أكله الطريق الذي طالما اختفى فيه عابروه ، وفي هذه الصحراء تعيش القبائل الرحل التي لا تستقر في مكان وتسير مع الدروب وخلف الآبار ، وهؤلاء هم الذين يسمون البدو ، وما يزال بعضهم يمارس نفس الحياة وإن كان الكثيرون منهم قد جذبتهم مناطق النفط ، أو تركوا الجمال ليمتلكوا السيارات الفارهة ، وليعملوا عليها سائقين ينقلون الناس من مكان إلى مكان داخل المدن ، أو عبر الصحراء من مكان إلى مكان .

قسوة الطبيعة في بعض المناطق :

تحدث الرحالة الانجليزية « آن بلنت » عن ريح شديدة قابلت ركبهم في يوم من أيام ديسمبر ، وكانت برودتها تنفذ من خلال جببهم المصنوعة من الفراء ، وكانت هذه الريح هوجاء لدرجة أنها منعتهم من الكلام ، بل كما تقول الكاتبة حرمتهم التفكير ، وفي يناير التالي كان البرد قاسيا للغاية والصقيع شديدا ، حتى تجمد الماء في الدلاء ، وتحدث كذلك عن العواصف الرملية التي يقال إنها تدفن القوافل أحيانا ، وقد شرح لها دليلها ذلك قائلا : ان الرمل لا يدفن القوافل ، لأن بقايا القوافل تظهر

على سطح الرمل ، والخطر الوحيد على القوافل هو أن العاصفة تستمر كثيرا في بعض الأحيان فتتفقد المؤن والمياه إذ لا تستطيع القافلة أن تتحرك عند هبوب العاصفة ، وعندما ينفد ماؤها ومؤنها تتعرض للمهلك ، وقد حدث ذلك لكثير من القوافل التي كانت تعبر الصحراء ، ومن هذه القوافل بعض الجنود الأتراك الذين كانوا يتجهون إلى دمشق عبر الصحراء ، ونفد ماؤهم ، ولما يئسوا من عدم الحصول على الماء اضطجعوا تحت بعض الأشجار الصحراوية حيث لاقوا نهايتهم المحتومة .

وبجانب البرد القارس الذي أضرنا له ، تقتبس الكاتبة من رحلة آخر هو « بلجريف » حديثا عن لهب الصحراء الذي يصبح في بعض الأيام نارا متأججة ، يقول بلجريف : إن المسافرين في بعض الأيام بصحراء الجزيرة العربية ، يجد نفسه كما لو كان سجيناً في حفرة رملية ضيقة محاطا بأسوار لاهبة من كل جانب ، وأحيانا يجد نفسه كأنما يطل على بحر واسع من النار تتصاعد تحت ربيع موسمية شديدة (١) .

صراع القبائل الذي لا يتوقف :

إن الذي يطالع تاريخ الحياة القبلية في نجد ، قبل قيام المملكة العربية السعودية ، يهوله ما في هذه المناطق من قتل وسلب وحرق وتدمير ، لقد كانت الحياة سلسلة متصلة من سفك الدماء ، ليس فقط بين العدو وعدوه ، ولكن بين الابن وأبيه ، والأخ وأخيه ، وبين أولاد العم ، وأولاد الأخوال ، بعضهم البعض ، وقد أورد الشيخ إبراهيم بن صالح بن عيسى من ذلك صورا يشيب لها الولدان ، ولمسنا ندري ماذا نقتبس منها وماذا ندع ، وكنموذج قصير نذكر أن موسى بن ربيعة يحتال على قتل أبيه ربيعة ابن مانع المريدي ويجرحه جراحات خطيرة ، ولكن الرجل يفلت من هذه المؤامرة ، ويلجأ إلى رئيس العيينة يطلب حمايته ، ثم يندفع موسى هذا برجاله من المردة والموالفة وغيرهم ويصبح بهم آل يزيد في الانعمية

(١) صفحات ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٦ ، ١٤٠ ، ٩٩ على التوالي .

والموصل ، ويقتل منهم أكثر من ثمانين رجلا ، ويستولى على منازلهم ويدمرها ، ولم يقيم لهم بعد هذه الواقعة قائمة ، وهى التى يضرب بها المثل فى نجد فيقال : « صَبَحَهُمْ فُلَانُ صَبَاحَ الْمَوَالِفَةِ لَأَلِ يَزِيد » (١) .

ويتحدث ابن صالح عن زحف قاسٍ قام به عريعر بن وجين استطاع به أن ينتصر على بريدة وعنيزة ، ولكنه مات بعد ذلك بشهر فتولى بعده ابنه بَطْنين ، ولكن أخويه سعدون ودُجَيْن قتلاه خنقا ، ثم تولى دجين . فسقاه سعدون سما وقتله (٢) .

وإذا سرنا صفحة أخرى (٣) مع هذا المؤلف وجدناه يتحدث عن وقعة « أَكَيْتَال » بين الظفير والفضول بنجد سنة ١٠٨١ هـ ، وعن وقعة أخرى تسمى وقعة الملتبهة فى نفس العام بينهما أيضا ، كما يتحدث عن اختلاف بين بنى خالد أدى إلى قتال بينهم سقط فيه كثيرون ، منهم محمد بن حسين ابن عثمان وآخرون ، وفى نفس الصفحة يورد حديثا عن مسيرة رئيس بلد الجلال ومعه آل تميم من بنى خالد ، وسطا هؤلاء على مانع بن عثمان وصارت رئاسة بلد الحصون لبنى خالد .

وهكذا يروِّع الباحث والقارئ بالدم الذى كان يسفك ، والمنازل التى كانت تحرق وتدمر ؛ والرحم الذى كان ينتهك ، ومن الواضح أنه لم يكن هناك أمن لأحد ، ولا أمل لمن يصبح أن يسمى ولا لمن يسمى أن يصبح ، وسنرى صورا من ذلك فيما بعد حتى بين السعوديين بعضهم والبعض فى الدولة السعودية الثانية كما سنرى فيما بعد .

ولم تكن هذه الوقائع أخذا بثأر فقط ، بل كان سفك الدماء يوشك أن يكون هدفا لذاته ، وهواية يحاول كل انسان إشباعها ، أو كان الأتفه كسب يمكن أن يحصل عليه الإنسان ، وتحدث Anne Blant عن هجوم جماعة

(١) تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد ص ٣٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١١٥ - ١١٦ .

(٣) ص ٦٤ .

من البدو عليها هي وزوجها بطريق مفاجيء ، وأن هؤلاء المهاجمين أصابوها هي وزوجها بضربات من رماحهم ، وأخذوا البندقية من زوجها وكسروها على رأسه ، واستولوا على مهریهما ، ولكن بعد قليل اتضح أن الكاتبة وزوجها في حماية ابن شعلان وهو شخصية مهيبة الجانب لا يستطيع البدو العدوان على من يسير في حمايته ، فردوا ما أخفوه وهم في أشد الغيظ لضيعاع هذه الغنيمة (١) .

كثرة الأوبئة والقحط والغلاء :

ونتيجة لقسوة الطبيعة التي تحدثنا عنها ، ونتيجة للصراع الذي لم يكن يتوقف بين القبائل بعضها والبعض ، عانت مناطق نجد ألوانا مريرة من الأوبئة والقحط والغلاء في كثير من الأوقات ، فالطبيعة في كثير من الأحوال كانت تدمر المزارع والمراعي ، والحروب كانت تقوم بنفس الدور وأقسى منه ، وسنعطى فيما يلي لمحات عن هذه الآلام :

في سنة ١٠٧٦ هـ حدث قحط عظيم بنجد امتد إلى الحجاز ، واشتد الغلاء اشتدادا هائلا ، وقل الطعام حتى هلك كثير من الناس جوعا ، وحتى أكلت الميتات والكلاب ، ويسمى هذا القحط « صلهام » وقد كانت شدته زائدة في مكة المكرمة ، حتى باع بعض الناس أولادهم طابا للقوت .

وفي سنة ١٠٩٨ هـ هبت ريح عاصفة في منطقة سدير فأسقطت من نخيل المنطقة نحو ألف نخلة .

وفي سنة ١١٣٥ وقع بنجد قحط عظيم سمى (سَحَى) وامتد في السنة التالية إلى الشام واليمن ، وبانغ غاية قسوته حينما غارت الآبار حتى هلك الناس عطشا وجوعا وتشردا ، وقد وصفه بعض الأدباء بقصائد باكية تمثل الناس بين مشرد وجائع وفقيد .

وفي مطلع سنة ١١٣٧ هـ عُدِمَت الأتوات تقريبا ، ويقول الشيخ
ابراهيم بن صالح^(١) انه في هذا القحط أكلت جيف الدواب ، ومات كثير
من الناس جوعا ، وزاد البلاء عندما اشتد البرد فماتت الزروع بسبب
ذلك ، ثم جاء جراد أكل غالب الثمار •

وفي سنة ١١٣٩ وقع وباء في بلدة أشيقر توفى فيه خلق كثير ،
يعدد الشيخ ابراهيم بن صالح بعضهم ، ومثله الوباء الذي حصل في
بلدان سدير سنة ١١٧٥ هـ •

وفي سنة ١١٨١ هـ بدأ بنجد قحط شديد وغلاء هائل سُمِّي (سوقه)
وقد مات فيه خلائق كثيرة جوعا ووباء ، وجلا فيه كثير من أهل نجد إلى
البصرة والحسا •

وفي سنة ١٢٨٧ هـ و ١٢٨٨ وقع بنجد غلاء وقحط كان من نتيجته
كما يقول الشيخ ابراهيم بن صالح^(٢) ان أكلت الميتات والجيف ، وان قتل
الناس بعضهم بعضا طلبا للقوت مما ضاعف الفتنة والمحن ، وقد مات في هذا
القحط كثير من الناس جوعا •

تلك لحظة سريعة عن صور من الآلام عانتها نجد خلال تلك العصور
نتوقف عن مثيلات لها كثيرة ، وقد كانت كلها نتيجة للطبيعة من جانب ،
وللصراع المدمر من جانب آخر •

مظاهر الجمال في نجد :

وإذا كنا قد تحدثنا عما يوجد في نجد من رياح وعواصف وبرد
قارس وحر ملتهب ، فإن من الحق علينا أن نتحدث عما في نجد من جمال
وروعة ، وطالما وقفت في رحلاتي بنجد لأطل على واحة يضوع منها

(١) تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ص ٩٧ •

(٢) المرجع السابق ١٨١ •

المشذى ، وتمثل ابتسامه طيبة ، كأنها نابضة من فم حسناء ، وبسنتين النخيل تتحدث بروعتها وبجمال ثمرها ، وفى بعض فصول العام تبدو الصحراء رائعة حتى انها طالما أوحى للشعراء بأروع القصائد ، وأجمل الأناشيد ، ويقول « ولفريد » زوج الرحالة « آن » بعد أن رأى جبل « ثمر » انه يموت بعد ذلك سعيدا لأنه رأى مكانا فريدا فى جماله تقريبا ، وكلماته هى « ان كل مكان يمكن أن يمثله مكان آخر الا ثمر فلا شئ يشبهه إلا أن يكون جبل سيناء (١) » .

وبعد ، ذلك تعريف بنجد يبسط أمامنا المنطقة التى نتدارسها ، وذلك العرض السريع لها سيساعدنا على الخوض فى تاريخها ، أملا فى أن تأخذ نجد مكانها اللائق بها فى ضوء التاريخ .

مفتاح تاريخ نجد

ان المشكوى من غموض تاريخ نجد مصدرها — فيما أعتقد — فقدان مفتاح هذا التاريخ ، ويوم نعثر على هذا المفتاح ، ونتمسك به نرى كل شيء متقنعا ومترصيا للغاية ، وهذا المفتاح هو أن نعرف طبيعة المنطقة التي نتلمس تاريخها أو ندونه ، فلا بد أن يكون هناك فرق واضح في التاريخ لأمریکا قبل أن يكتشفها كولومبس وبعد الكشف ، ولا بد أن يكون هناك فرق في التاريخ للأرض الألمانية وهى حافلة بالدويلات المستقلة ، والدوقيات والامارات والمدن الهانسية التي كانت تعد بالعشرات والتي كان لكل منها تاريخ مستقل تقريبا ، وبين التاريخ الألمانية الموحدة التي تكونت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ونمت بعد ذلك حتى أصبحت من دول القمم ، ومثل ذلك يقال عن التاريخ لقبائل متناثرة في نجد لا توجد بينها روابط ، أو توجد روابط عدائية ؛ وبين الدولة السعودية التي سنها فيما بعد تضم هذه الأشتات بوسائل متعددة وتقييم من هذه القبائل دولة ذات شأن •

ولا بد أن يكون هناك فرق واضح بين التاريخ لدولة وبين التاريخ لقبيلة ، ففي الدولة هناك جماعات يربط بينهم وطن وقوانين ، وهناك استقرار داخلي وألوان من الحضارة والنظم السياسية والعلاقات الخارجية ، أو قل هناك الأرض نؤرخ للحياة فوقها ، ولكن الحال في القبيلة يختلف ، لأن القبيلة أسرة كبيرة يربط بين أفرادها الدم ، وكثيرا ما تنزح من مكان إلى مكان ، مما يجعلنا لا نؤرخ للأرض تدب فوقها نظم ، بل نؤرخ لجماعة من البشر لا يرتبط أكثرهم بأرض أو يرتبطون بها ارتباطا غير طويل ، وتحكمهم العادات والتقاليد وعلاقاتهم بمن حولهم علاقات عدائية ، ومما يزيد تاريخ الحياة القبلية غموضا كثرة الحروب التي كانت تدور بينها ، وكثرة هذه الحروب تدمر أية آثار عمرانية أو حضارية قد تقيمها قبيلة من القبائل ، ومما سبب الغموض كذلك عدم

الاهتمام بالتاريخ فقد اتجه علماء نجد الى دراسة الفقه والتفسير
ولم يعنوا بتدوين السير والتاريخ (١) .

وعلى هذا فالذى يؤرخ لنجد لا بد أن يكون فى يده المفتاح التاريخى
الذى يعرف به طبيعة المنطقة التى يؤرخ لها ، وبهذا المفتاح لا نتوقع فى
التأريخ لنجد قبل المملكة العربية السعودية مثل ما نتوقعه للتأريخ للدول ،
فالتأريخ لنجد قبل هذه المملكة له نهج خاص سنشرحه ونتبعه فيما يلى :

مهاور تاريخ نجد :

إن حياتى مع نجد باحثا وزائرا تجعلنى أعتقد أن تاريخ نجد قبل
قيام المملكة العربية السعودية ينضوى تحت ثلاثة محاور هى :

١ — الحياة القبلية .

٢ — زحف من الداخل تقوم به قبيلة ما وتسيطر على مجموعة من
القبائل ، وكان هذا النوع قصير العمر ، ولم يكون دولة بالمعنى المعروف .

٣ — نفوذ أو زحف من الخارج يمتد الى نجد من شرقى الجزيرة
أو من غربها .

وسنقدارس هذه المحاور فيما يلى :

١ — الحياة القبلية فى نجد

إن الحياة القبلية هى السمة العامة للحياة فى نجد قبل المملكة العربية
السعودية ، وهى السمة الضرورية ، والطبيعية لهذه البلاد ، والذى يريد
أن يدرس تاريخ نجد قبل السعوديين يتحتم عليه أن يعيش فى نجد ، فان
الصحراء الشاسعة ، والجبال الشاهقة ، والأغوار والوديان والرمال والفراغ
سترسم له معالم هذا التاريخ ، ويمكننا أن نرسم هنا بالكلمة صورة لنجد

(١) ابن بشر : عنوان المجد ص ١٤ .

قبل السعوديين لتساعد القاريء على تصوُّر هذا البلاء والفقر الغالب ،
وبالتالى تصوُّر المدى الذى يمكن أن يكون عليه تاريخها .

وقد سبق أن قلنا إن امتداد نجد من الشمال الى الجنوب يصل الى
٨٠٠ ميل وأن عرضها من الشرق للغرب يزيد عن ٢٢٠ ميلا وهى بذلك
بلاد فسيحة ، فإذا أضفنا الى ذلك أن هذه المساحة لم يكن بها طريق
مرصوف ولا معبد ، وأن منابع المياه لم تكن متوافرة فى الطريق ، وأن
وسائل المواصلات حتى العهد السعودى كانت مرتبطة بالجمال ، وأنه لم
تكن هناك إذاعة ولا مذياع ، وبالأحرى لم تكن هناك صحافة ولا كتاب ،
إذا تصورنا ذلك أدركنا أن نجد كانت أشبه بمحيط رملى هائل ، تبرز فيه
بعض الجزر الصغيرة ، وهذه الجزر الصغيرة تمثل القبائل المتناثرة التى
لا يربط رباط بين إحداها والقبائل الأخرى ، وأن كلا من هذه القبائل
كان أشبه بدولة مستقلة ، وتقول Lady Anne Blant : حيث توجد
الآبار بقدر كاف من الماء تظهر المدن والقرى ، تحاط بالبساتين ، وهذه
على أية حال كثيرا ما تكون متباعدة بحيث تبدو مجرد نقط على خريطة
بلاد العرب ، وعلى هذا فكل مدينة منفصلة عن جارائها إلى درجة كبيرة ،
وتحيط بها الصحراء من كل جانب ، فهى منعزلة بالمعنى الحرفى لهذه
الكلمة ، ومن هذه الحقيقة تنبع الفردية السياسية التى ظلت العناية
مركزة دائما لرعايتها ، إذ كانت كل مدينة تمثل دولة مستقلة (١) .

وقد سرت فى نجد أشواطاً طويلة فى سيارة من السيارات الفارهة
وعلى طرق مرصوفة ناعمة ، وظهرت لنا الصحراء خالية إلا من قرى
صغيرة متباعدة تنام وسط الصحراء ، وقد كانت هذه القرى قبل السيارات
والطرق والمملكة يخاف بعضها بعضاً بدليل « المراقب » التى تنتشر حول
كل قرية ، أو توجد فى الأماكن التى يخشى منها هجوم على القرية ،
وكان يعيش فى هذه المراقب حرس يتناوبون حراسة القرية لينذروا قومهم

إذا حاولت قبيلة أخرى أن تدهم قريتهم ، وهذا يؤكد الانفصال الشديد بين قرية وأخرى * .

وإذا تركنا القرى التي تعرف نوعا من الاستقرار والاستقلال واتجهنا إلى البدو الرحل نجد أن هناك قبائل تتجول كل منها في منطقة معينة بالجزيرة العربية بحثا عن الكلاء للرعى ، وهؤلاء ميالون للحرب وأكثر عددا من سكان المدن ، وهم يسيطرون على كل الطرق بين مدينة وأخرى ، مما يمكنهم من أن نصفهم أنهم كانوا عوامل انفصال لا عوامل اتصال (١) * .

ومما يؤكد الانعزالية بين القبائل أن كل قبيلة لها صفات جسمانية يغلب ألا تتخلف ، وتروى Lady Anne Blant أنها سألت « الدليل » قائلة : كيف يسهل على أبناء القبائل أن يحددوا نسب آخرين يقابلونهم في الصحراء ؟ فأجاب : أن كل قبيلة لها خصائص في اللبس والملامح معروفة جيدا للجميع ، وعلى ذلك (فثمر) بصفة عامة طوال الإقامة ، و (السبعة) قصار إلا أن رماحهم طويلة ، و (حرب) سود الوجوه كالعبيد تقريبا ... (٢) * .

نظام الحكم في القبيلة ودستور الحياة بها :

كيف كان نظام الحكم في القبيلة ؟ وما دستور الحياة فيها ؟
في الإجابة عن هذا السؤال يمكننا أن نقول إن نظام الحكم في القبيلة بعد الإسلام كان امتدادا لنظام الحكم فيها قبل الإسلام ، وكل ما طرأ عليها بالإسلام هو دخول الدين ، أما نظمها السياسية فقد تركت لها ، فمن الواضح أن شيخ القبيلة عندما كان يفد إلى المدينة معلنا إسلامه ،

(١) المرجع السابق ص ٢٠٨ .

(٢) Pilgrimage to Nejd p. 115

كان الرسول يقره على مكانته في قبيلته ، كما ذكرنا من قبل ^(١) ومن أجل هذا نجد أبا بكر عندما عين ولاته على مناطق الجزيرة التي ذكرناها فيما سبق لم يعين أيا منهم على هذه القبائل اكتفاء برؤسائها •

ونجى لهذه القبيلة لنذكر أنها كانت تكون وحدة سياسية يربط الدم والعصبية بين أفرادها ، ويعتبر من أفراد القبيلة هؤلاء الضعاف أو العبيد الذين يلجأون للقبيلة ويعيشون في جوارها وحمايتها ، ولو لم يكن بينهم وبين القبيلة صلة دم •

والقبيلة العربية تخضع لدستور صارم نظمته التقاليد والعرف ، خلاصة هذا الدستور أن يحس الفرد برابطة القبيلة ، ويلتزم بتأييد مصالحها والعمل لها بكل ما يملك من قوة ، وأفراد القبيلة جميعا متضامنون فيما يجنيه أحدهم تضامنا حازما ، تلقى مسؤوليته على سيد العشيرة الذي عليه أن يتحمل التبعة ، ومن أجل هذا له حق الطاعة على أفراد القبيلة •

وسيد القبيلة يختار من بين مَن تجمعت فيهم صفات الشجاعة والكرم والحلم ، أو قل إن الامتياز في هذه الصفات يفرض صاحبه ليكون سيدا للقبيلة ، وقد يجىء لرئيس القبيلة ابن يعدله في الشرف والسؤدد وحينئذ يستطيع أن يرث مكان أبيه ، وإذا تكررت رئاسة القبيلة في بيت بيوتها عرف البيت بالمجد والجاه •

ومسؤوليات سيد العشيرة أو رئيس القبيلة أكثر جدا من حقوقه فهو في السلم جواد كريم مسئول عن إكرام الضيوف الوافدين ، وإغاثة المحتاجين من أبناء القبيلة ، وإجارة المستجير ، وهو في الحرب يتقدم الصفوف ويساعد من لا عتاد له ، وهو يتحمل باسم القبيلة تبعة ما قد يرتكبه أى فرد من أفراد القبيلة من أخطاء ، ولكن إذا ارتكب فرد من

(١) الميدان : مجمع الأمثال ج ٢ ص ١٧ •

أفراد القبيلة جرماً ترفض القبيلة أن تتحمل نتائجه ، أو أخطأ في حق قبيلته نفسها فإنه يطرد منها ، ويسمى الطريد خليعاً •

أما حقوق رئيس القبيلة فهي الطاعة المطلقة على كل أفراد القبيلة ، وليس لدى رئيس القبيلة قوة مادية يرغب بها أفراد القبيلة على الطاعة ، وإنما هي التقاليد والعرف ، وللبدوى أن يتمرد على أى قرار يتخذه رئيس القبيلة ، ولكن عليه في هذه الحال أن يدع القبيلة وأن يهجرها هجراً تاماً ، وكثيراً ما لجأ البدوى إلى هذا التصرف ، فإن أهم ما يمتاز به البدو عدم الخضوع ، فالحرية عند البدوى هي خير ما يعتز به ، ولا يستطيع أن يتنازل عن أى جزء منها لقاء أى شيء ، فما نعرشه في العصر الحديث من أن كل فرد ينبغي أن يتنازل عن جزء من حريته لتحقيق الحرية للمجموع ، هذا الاتجاه كان البدوى يعتبره خدعة ، ولا يقبله ، والموت أو الهجرة عن الوطن أيسر على البدوى من فقدان حريته •

والدارس لتاريخ البادية ونظام الحكم بها يجد أن تمرد أفراد من القبيلة على حكم رئيسها كان كثير الوقوع ، وكانت الحرية المطلقة ، والأناية المفرطة ، والأثرة من أهم العوامل التي تتحرك في نفوس البدو ، فلا يخضعون لحكم صدره رئيس القبيلة ، ويؤثرون أن يخلعوا أنفسهم ويهيمنون على وجوههم مع نظرائهم من الخلعاء (١) •

وحدة الدين ووحدة اللغة :

ويخطر بالبال سؤال مهم في هذا المجال هو : وحدة الدين قبل الإسلام وبعده ، ووحدة اللغة ، فقبل الإسلام كانت الوثنية منتشرة في الجزيرة وإن اختلفت الأوثان والأصنام ، وبعد الإسلام انتشر الدين الإسلامي في جميع أرجاء الجزيرة العربية وإن أصاب القوم انحراف قليل أو كثير ، كما سنرى فيما بعد ، وكانت اللغة العربية هي السائدة

(١) انظر الجزء الأول من هذه الموسوعة للمؤلف •

قبل الإسلام وبعده ، وربما خطر بالبال أن حياة الانعزالية التي كانت تعيشها القبائل كانت تستدعى اختلاف الدين واللغة ، كالذي يحدث في مناطق مماثلة في العالم ، فلماذا حافظت الجزيرة العربية على وحدة الدين واللغة ؟

الاجابة على هذا في تقديري ترجع إلى الكعبة المشرفة التي كانت تنفذ لها وفود العرب من كل مكان للحج ، فكان هناك لقاء سنوى تتقارب فيه وجهات النظر من ناحية الدين ، وتكون اللغة العربية هي لسان الجميع في جميع اللقاءات ، كما كانت أسواق العرب في الجاهلية كسوق عكاظ ومجنة وذى المجاز من أهم الأسباب التي وحدت الدين واللغة .

وليس معنى هذا أنه كان هناك اتفاق تام في الدين واللغة ، فقد كان الاختلاف في عبادة الأصنام مظهرا من مظاهر الاختلاف بين القبائل العربية . إذ كان لكل قبيلة صنم تعبدده ولا تعبد سواه ، فقد كانت « اللات » صنم ثقيف المفضل ، وكانت « العزى » أعظم صنم عند قريش بعد « هبل » وكان « وَدَّ » صنم كلب وقضاعة و « نهم » صنم مزينة وهكذا (١) .

وبعد الإسلام أخذ الأولياء والقباب وبعض الأشجار مكان المقداسة ، وتعددت هذه المقدسات حتى قامت دعوة الإصلاح فحُصت عليها كما سنرى فيما بعد .

ومن ناحية اللغة قامت في بعض النواحي لهجات بعدت كثيرا أو قليلا عن اللغة الفصحى ، وقد التقيت في رحلاتي بنجد ببعض السكان في القرى والبادية وكنت لا أعرف من كلامهم إلا النذر القليل ، واضطر بعض الذين كانوا يرافقوننى من آل الأسطل (الشيخ على وأبو محمد عمر والسعيد منير) إلى أن يترجموا لى كلامهم إلى اللغة العربية التي أفهمها ،

(١) انظر كتاب « الأصنام » لابن الكلبي في عدة صفحات وانظر الجزء الأول من هذه الموسوعة .

وقد طالت جلستنا مع شيخ في الغطف أكرهنا أيما اكرام ، ولأخنى لسم
أستطع أن أتحدث إليه بطريق مباشر *

علماء نجد ودورهم :

كانت هناك صلات بين علماء نجد تتمثل في موقفهم طلابا أو معلمين ،
فأحدث هؤلاء نوعا من الارتباط بين البلاد ، إذ كان يحجج لهم الطلاب
للأخذ عنهم ، أو كانوا ينتقلون بعلمهم من مكان إلى مكان .

وقد ازدهرت نجد بمجموعة من العلماء والفقهاء كان بعضهم يرتبط
ببلدة من بلاد نجد ، وكان آخرون ينتقلون بين البلاد فالعلم لا وطن له ،
وسنذكر فيما يلي مجموعة من مشاهير العلماء وما عرف لبعضهم من
مؤلفات :

من أشهر علماء نجد شهاب الدين أحمد بن يحيى بن عطوه التميمي
النجدى الحنبلى وقد عاش في أواخر القرن التاسع الهجرى والنصف
الأول من القرن العاشر الى أن توفي سنة ٩٤٨ هـ في بلدة الجبيلة بوادى
حنيفة ودفن ضجيجا لزيد بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد أخذ ابن عطوة
العلم عن عدة مشايخ منهم الشيخ شهاب الدين أحمد العسكري السدى
كثيرا ما كان يروى عنه ، وكان له مطارحات ومدارسات مع معاصريه من
العلماء أمثال القاضى أجود بن عثمان ، والقاضى عبد القادر بن بركيد ،
والقاضى منصور الباهلى وغيرهم ، وله مصنفات كثيرة منها التحفة البديعة
والروضة الأنيسة ، وقد أخذ عنه كثير من العلماء في بلاد نجد منهم الشيخ
أحمد بن الأسيقرى وغيره (١)

ومن علماء نجد المشاهير الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الله بن بسام ،
وهو من بلدة أسيقر — وقد انتقل منها الى « القصب » قاضيا لها سنة ١٠١٠
هجريه ، ولكنه لم يرغب فى الاستمرار فى القصب فطلبه أهل بلد مكنهم

(١) ابراهيم بن صالح : تاريخ بعض الحوادث الواقعة بنجد ص ٤٧
بتقديم وتأخير .

قاضيًا لهم ، فانتقل لها قبل تمام السنة المذكورة وفي سنة ١٠١٥ انتقل من ملهم إلى العيينة ، وكان عالماً فاضلاً تلقى العلم عن الشيخ محمد بن أحمد ابن إسماعيل في أشيقر وعن غيره من علماء نجد ، كما تلقى عنه عدد كبير من فقهاء نجد منهم الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب المشرفي ، وتوفي الشيخ ابن بسام سنة ١٠٤٠ هـ .

ومن علماء نجد كذلك الشيخ محمد بن أحمد بن إسماعيل ، وقد أخذ الفقه عن أحمد بن محمد بن مشرف ، وأخذ عنه جماعة من العلماء الذين ظهروا بعده ، وتوفي سنة ١٠٥٩ هـ .

وعندما نصل إلى القرن الثاني عشر الهجري تبرز لنا في ميدان العلوم الإسلامية أسرة المصلح الديني الشيخ محمد عبد الوهاب وهي أسرة عرفت بالعلم والمعرفة في عدة أجيال منها ، ولا تزال ترعى العلم والمعرفة حتى العهد الحاضر ، وسنعتقد بابا خاصا للحديث عن المصلح الديني الشيخ محمد بن عبد الوهاب وعن شيوخه ومعاصريه ومريديه .

ومن علماء نجد في القرن الثاني عشر العلامة عبد الرحمن بن عبد الله بن خميس أبو بطين وكان فقيهاً واسع المعرفة ألّف كتاباً في الفقه اسمه « المجموع فيما هو كثير الوقوع » وقد توفي في سدير سنة ١١٢١ هـ .

ومن علماء نجد الشيخ أحمد بن محمد المنقور ، وله كتاب مفيد جمع فيه فتاوى فقهاء نجد ، وجملة من فتاوى غيرهم ، ومن تلاميذه الشيخ عبد الله بن زهران ، ومن تلاميذه ابنه إبراهيم بن أحمد المنقور ، وقد توفي الشيخ أحمد في حوطة سدير سنة ١١٢٥ هـ .

ومن علماء نجد الشيخ أحمد بن محمد بن مبارك قاضي (الجمعة) وقد أخذ الفقه عن عدة مشايخ منهم عبد القادر العديلي ومحمد بن عفالق ، وتلقى عنه محمد بن سلوم الفرسي ، وعثمان بن عبد الجبار الذي تولى قضاء الجمعة بعد شيخه وغيرهم وقد توفي الشيخ أحمد سنة ١١٩٤ هـ .
(م ٥ - التاريخ ج ٧)

ومن علماء نجد الشيخ بن عبد الله بن عبيدان قاضي حريملاء ،
والشيخ عبد الرحمن بن زهران من قضاة العارض وقد توفيا سنة ١٢٠٢ هـ
والشيخ حميدان بن تركي من عنيزة وقد توفي بالمدينة المنورة سنة ١٢٠٣
والشيخ عبد الوهاب بن محمد بن فيروز مؤلف كتاب « زاد المستنقع في
الفكر » وقد توفي سنة ١٢٠٣ هـ •

ومن علماء نجد العلامة أحمد بن ناصر بن معمر ، وهو من تلاميذ
الامام محمد بن عبد الوهاب ، وهو أيضا من تلاميذ الشيخ سليمان بن
عبد الوهاب والشيخ حسين بن غنام ، وكان قاضيا في الدرعية ، ثم أرسله
سعود الكبير الى مكة قاضيا ، وتوفي بها سنة ١٢٢٥ هـ •

ومن علماء نجد الشيخ عبد العزيز بن الشيخ حمد بن ناصر بن
معمر ، وهو من المعامرة أهل العيينة ، وكان أدبيا ليبيا ورعا وله قصائد
جميلة ، وقد توفي سنة ١٢٤٤ في البحرين ورثاه أحد أصدقائه الشيخ
بن علي بن مشرف بقصيدة مشهورة •

ومن علماء نجد الشيخ ابراهيم بن حمد بن عيسى قاضي بلدان
الوشم ، وقد توفي في شقرا سنة ١٢٨١ هـ •

وفي العام التالي توفي الشيخ عثمان بن عبد العزيز قاضي سدير •

تلك نبذة عاجلة عن فقهاء نجد وعلمائها ممن ترتبط بهم بعض
المؤلفات أو الأحداث ، وبجانب هؤلاء ، كانت هناك مجموعة وافرة من
العلماء تتردد أسماؤهم قضاة ومعلمين في مختلف المناطق ، سلاذ نجد لم
نذكرهم لقلّة ما حول أسمائهم من أفكار ومعارف •

مزيد من الدراسات التفصيلية عن تاريخ نجد

أوردنا فيما سبق بعض دراسات تاريخية عن نجد ، ونريد فيما يلي أن نعطي مزيدا من الدراسات التفصيلية عن تاريخ نجد ، لعلنا بذلك نغذّي رغبة الذين يتلهفون إلى تاريخ مدون لهذه البلاد .

ولكننا نذكر هؤلاء بما سبق أن كررناه من أن الحياة القبلية كانت الحياة السائدة في نجد ، وأن كل قبيلة ، كانت تعيش في حياة منعزلة عن القبائل الأخرى ، سواء كانت هذه القبيلة مستقرة في بلدة أو منتقلة بحثا عن المراعى ، وبهذا كانت القبيلة أو المدينة وحدة سياسية مستقلة تهاها .

وفي ضوء هذا الواقع الذى لم يتخلف تجيء دراساتنا التاريخية عن نجد ، بمعنى أنه من المحتتم أن ندرك أن نجدا كانت تحوى عشرات الدول الصغيرة المستقلة المتعادية ، فإذا أردنا أن ندرس تاريخ نجد كان علينا أن ندرس تاريخ هذه الوحدات أو هذه الدول ان جاز أن نسميها دولا ، وليس هناك من سبيل آخر لدراسة تاريخية عن نجد ، اللهم الا ما سنراه فيما بعد من محاولات زحف داخلى أو زحف من الخارج كما أشرنا من قبل .

وعلى هذا فتاريخ نجد هو تاريخ هذه البلدان أو هذه القبائل ، وقد اتجهت بكل الجهد والصبر لجمع تاريخ أشهر هذه البلاد ، من المراجع المختلفة ، ومن أهمها :

- معجم البلدان لياقوت ثم المستدرك عليه .
 - تاريخ نجد للشيخ حسين بن غنام .
 - عنوان المجد في تاريخ نجد للشيخ عثمان بن بشر .
 - الجزيرة العربية في القرن العشرين للشيخ حافظ وهبة .
- وقد كتبنا تاريخ نجد ابتداء من سنة ١١٥٧ هـ فقط

- تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد عبد الوهاب لجون فيليبى ، وكل كلامه يتصل بالحركة السعودية فى عصورها المختلفة .
- تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد للشيخ ابراهيم بن صالح .
- رحله إلى نجد لليدى أن بلنت .

وهناك مراجع أخرى كذلك ولكن أهم ما ساعدنى على هذا العمل أننى قمت بدراسة ميدانية ، ورأيت الحاضر الذى أوحى بالخير عن الماضى كما سيرى القارئ فيما يلى من صفحات ، ومن تتبع الأحداث تجمع لى زاد وفير ، ثم عرضت هذه المعلومات للنقد التاريخى فتبين لى أن هناك بينها تشابها كبيرا كالغارات والنصر والهزيمة ، وتبين لى من جهة أخرى عدم جدوى ايراد التفاصيل المتشابهة وبخاصة أنه لم يوجد دور حضارى ذو بال لأى منها ، وما كان يمكن أن يوجد مثل هذا الدور لأية وحدة صغيرة من وحدات نجد ، إذ كان كل الجهد متجها للحراسة من جانب وللاعداد لهجمة من جانب آخر ، وتأثرا بذلك رأيت أن أورد نماذج لبعض بلاد نجد تمثل تاريخا مفصلا لها طيلة عدة قرون ، وقد حاولت أن أختار بلادا تمثل العارض والقصيم وجبل شمر لعلنا نقتارس أهم مناطق نجد . ويمكن القول إن هذه النماذج هى أحداث يمكن أن تنطبق على جميع بلدان نجد تقريبا .

وستبدأ دراستنا عن أية بلدة منذ إنشائها ما أمكن ذلك ، وإنشاء بلدة يمثل فى نجد تكوين دولة ، وسفسير مع تاريخ هذه البلدة حتى نراها جزءا من المملكة العربية السعودية التى أنشأها العمال العظيم الملك عبد العزيز آل سعود ، حيث ذابت هذه البلاد كما ذابت القبائل فى المملكة الفتية ، فلنأخذ فى الأمر :

عنيزة

عنيزة من أهم بلدان القصيم ، والكلام عن عنيزة يحتاج إلى مقدمة عن منطقة القصيم التي تعد من أهم مناطق نجد وأكثرها خصوبة كما ذكرنا من قبل ، ومنطقة القصيم يحيط بها جبل شمر في الشمال والغرب ، وصحراء النفود في الشمال ومنطقة الوشم في الجنوب الشرقي ، ومنحدرات عتيبة في الجنوب الغربي •

وقرى القصيم حوالى خمسين قرية متناثرة في المنطقة الشاسعة ، وأشهرها بُرَيْدَة وعنيزة والرس والخبر والعيون والبكيرية ، وبريدة أعظم مدن القصيم ولذلك تسمى أم القصيم ، وتقع بريدة على مرتفع رملى بالجانب الأيسر لوادى الرمة ، ويقول ياقوت عن بريدة أنها تصغير برد (١) ، وتقول المراجع عنها إنها أعظم سوق للإبل ، وقد زرتها في العصر الحديث فوجدت أنها يمكن القول إنها من أعظم أسواق السيارات في العالم ، فامتداد معارض السيارات بها فسيح للغاية •

وتقع القصيم في الطريق بين الحجاز والشرق ، وبسبب وقوعها على الطريق كانت معرضة أكثر من غيرها من بلاد نجد لغزوات أشراف الحجاز ، ومن هنا كذلك كانت من البلاد التي مسها الصراع بين محمد على باشا وبين السعوديين في العارض كما سنرى فيما بعد ، وبسبب موقع القصيم وخصوبة المنطقة نشطت التجارة بها نشاطا عظيما ، وهن هنا كان أهل القصيم أكثر النجديين اتصالا بالعالم الخارجى ، وهذا أضفى عليهم قدرات طبية وجعلهم يستمتعون بمواهب ممتازة ، ورقة طبع وكرم خلق (٢) •

وينبغى أن يتضح أن أكثر قرى القصيم كانت متنافسة متصارعة ، وأن الصحراء الفسيحة تقف حاجزا بينها فلم يتكون منها وحدة قبل عهد

(١) معجم البلدان ج ٢ ص ١٥٩ •

(٢) انظر جزيرة العرب في القرن العشرين للشيخ حافظ وهبة ص ٦٩ •

المملكة العربية السعودية ، وطالما شهدت بريدة وعنيزة هجوما من احداها على الأخرى •

وبعد هذا التعريف بالمنطقة نجىء للكلام عن عنيزة ، وأول ما يطالعنا كلام ياقوت الذى يدل على قدم هذا الموقع ، وعلى أن مدينة عامرة كانت به قبل الإسلام وفي مطلع الإسلام ، ويحددها بأنها تقع في بطن الرمة وهى لبني عامر بن كريز ، ويروى قول امرئ القيس :

تراعت لنا يوما بسفح عنيزة وقد حان منها رحلة وقلوص

وقول خاله مهلهل بن ربيعة :

غداة كأننا وبني أبينا بجنب عنيزة رَحِيًا مدير

ويؤخذ من كلام ياقوت أنها كانت تابعة للأمير البصرة في العصر العباسي ، إذ يروى عن أبى عبيدة السكوني قوله : استخرج عنيزة (أى حصل على خراجها) محمد بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس وهو أمير على البصرة (١) •

ويفهم من كلام المهلهل أن حروبا طاحنة دارت في هذا الموقع ، ولعل هذا يرتبط بيوم بريدة الذى عناه ياقوت بقوله « ويوم بريدة يوم من أيام العرب في الجاهلية (٢) » •

ويبدو أن هذه الحروب دمرت عنيزة تماما وأزالتها من الوجود وهو ما كان يحدث كثيرا في بلاد نجد ، بدليل أننا نقرأ عن تأسيس جديد لها في القرن السابع الهجرى ، ففي الملحق الثانى لكتاب « تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد » أن عنيزة أنشئت سنة ٦٣٠ (٣) ، وهذا

(١) معجم البلدان ج٦ ص ٣٣ - ٢٣٤ •

(٢) معجم البلدان ج٢ ص ١٥٩ •

(٣) ص ٢٣٢ •

سيُفسر لنا السبب في تغلب اسم « عنيزة » على أسماء القرى التي كانت موجودة قبل إعادة إنشاء عنيزة في التاريخ الهجري السابق .

ونستمر مع الملحق الذي أشرنا اليه والذي يقرر أن منشئ عنيزة هذه المرة هو زهرى بن جراح الثورى ، وكانت عند انشائها هذه المرة قرية صغيرة ضمن القرى الواقعة في هذه المنطقة وهي قرى الضبط والخربة والمكينة والعقيلية ، ولكن سرعان ما غلب اسم عنيزة على هذه القرى جميعا لمكانتها التاريخية السابقة كما ذكرنا آنفا ، وبقيت هذه القرى بأسمائها تمثل كل منها محلة أو حيا من محلات المدينة الشاملة « عنيزة » وقد أصبحت عنيزة امارة بعد حوالي ٢٥٠ سنة من انشائها أى في أواخر القرن التاسع ، وأول أمير لها هو عقيل بن ابراهيم بن موسى من أحفاد زهرى بن جراح الذي سبق ذكره .

ونستطيع بعد ذلك أن نسير مع عنيزة لنروى أهم الأحداث التي تتصل بها :

في سنة ١٠٩٧ أغار الشريف أحمد بن زيد بن محسن على نجد ، ونزل عنيزة ودمر العقيلية (محلة من محلات عنيزة) وفعل بأهلها القبيح والفساد (١) .

وفي سنة ١١١٠ هـ سطا آل غنام والبكر على فوزان بن حميدان أمير عنيزة ، وكان يقيم في المليحة ، وأخرجوه من بلدة عنيزة وذلك ردا للعدرة التي قام بها فوزان ضد بريدة في العام السابق .

وفي سنة ١١١٥ هـ هجم آل جناح على عنيزة وقتلوا أميرها فوزان ابن حميدان الملقب ابن معمر واستولوا على عنيزة كلها .

وفي سنة ١١١٦ غرقت عنيزة بسيل جارف غمرها وتسمى هذه الحادثة « غرقة السليمي » وهو رجل أعمى دخل السيل بيته وأغرقه فعرّف

(١) الشيخ ابراهيم بن صالح . تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد

سيل هذا العام باسمه • ويروى الشيخ ابراهيم بن صالح ^(١) أنه اطلع على بعض وريقات في التاريخ تثبت أن غرقة السليمي كانت سنة ١٠٨٠ هـ •

وفي سنة ١١٢٨ سطا ادريس بن شايح بن صعب شيخ آل جناح من بنى خالد على المليحة في عنيزة وملكها •

وفي سنة ١١٣٣ حدثت « ذبحة آل جناح » في دارهم بالخريزة في بلدة عنيزة •

وفي سنة ١١٤٠ عمر آل عفالق وهم من قحطان بلدة الخبرا في القصيم وكان مسكنهم قبل ذلك في عنيزة •

في سنة ١١٥٥ قُتِلَ حسن بن مشعاب رئيس بلدة عنيزة ، واستولى عليا آل جناح من بنى خالد والشخنة من المشاعيب من آل جراح ، وقد استولى هؤلاء على عنيزة كلها ، وكان الشخنة ينزلون « الجادة » في عنيزة ، وفي نفس العام غرس نخل « الجادة » في عنيزة •

وفي سنة ١١٥٦ حاصر آل شماس ومعهم رشيد بن محمد رئيس بلد عنيزة حيّ الدريبي في بريدة ، ونهبوا جنوبى البلد ، ثم صارت الغلبة للدريبي وهزمهم •

وفي سنة ١١٦٠ حدثت « ركدة عنيزة » ويقتصد بها استقرار ماء الآبار وثباته ، وقد ساعد ذلك على غرس الأشجار •

وفي سنة ١١٧٤ قُتِلَ رشيد رئيس بلدة عنيزة وهو من آل جراح ، وقُتِلَ فراج رئيس آل جناح من بنى خالد ، قتلهم عيال الأعرج من آل أبو غنام ومعهم آل زامل وذلك في مجلس عنيزة •

(١) تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ص ٥ .

وفي سنة ١١٧٩ انتقل حمد بن ابراهيم بن عبد الله بن بسام من بلدة « حرمة » الى عنيزة وسكنها هو وأولاده .
وفي سنة ١١٨٠ تقريبا بنيت « البكيرية » من بلدان القصيم وليست بعيدة عن عنيزة .

وفي سنة ١١٨٢ قام سعود الكبير ومعه راشد الكبير وراشد الدريبي رئيس بلدة بريدة بغزو بلدة عنيزة ونزلوا بالقرب من باب شارخ ، وحصل بينهم وبين أهل عنيزة قتال قتل فيه من أهل عنيزة ثمانية رجال ، منهم عبد الله بن حمد بن زامل ، واستولى آل سعود على عنيزة والقصيم .

وفي سنة ١١٩٢ أصيبت بلدة عنيزة بسيل عظيم أغرقها ، ومحا بعض منازلها ، فخرج أهل عنيزة الى الصحراء ، وبنو فيها بيوت الشعر ، وقعدوا بها حتى عمروا منازلهم .
وفي سنة ١١٩٥ سطا آل « أبو غنام » وآل جناح على العقيلية في بلدة عنيزة واستولوا عليها .

وفي سنة ١١٩٦ أجمع أهل القصيم على نقض البيعة لآل سعود وعلى حربهم ، ما عدا أهل بريدة والرس والتنومة ، وأجمعوا على قتل من كان عندهم من المعلمين ، وأرسلوا الى سعدون بن غرير آل حميد الخالدي رئيس الحسا والقطيف يستحثونه على القدوم اليهم ، فأقبل اليهم بجنوده ، فلما قرب من القصيم قام أهل كل بلد بقتل من عندهم من المعلمين ، فقتل أهل الخبر امامهم منصور أبا الخيل ، وثنيان أبا الخيل ، وقتل أهل الجناح رجلا عندهم يقال له البكرى وصلبوه ، وقتل أهل الشماس أميرهم على بن حوشان ، وحاصر سعدون بلدة بريدة ، أربعة أشهر ^(١) جرت خلالها عدة وقعات ، ثم ارتحل عنها سعدون ونزل

(١) الشيخ ابراهيم بن صالح : المرجع السابق ص ١١٩ وروايته بعد ذلك غير واضحة .

قريباً من الزلفى ، وأقام هناك أياماً ، ووفد عليه كثير من رؤساء بلدان نجد الذين لم يدخلوا في طاعة آل سعود ، وحقق نصراً في القصيم والعارض ، وأعاد الروضة إلى رؤسائها آل ماضي ، وكان الامام السعدي قد فتحها عنوة وفر منها هؤلاء الرؤساء ، ثم رحل سعدون راجعاً إلى وطنه (١) .

وفي سنة ١٢٠٢ غزا سعود بن عبد العزيز بلدة عنيزة وأجلى آل رشيد منها ، وعين عبد الله بن يحيى أميراً لها .

وفي سنة ١٢٢٩ توفي إبراهيم بن عفيصان في عنيزة وكان سعود ابن عبد العزيز قد جعله أميراً لها بعد عزله عن الاحساء وهو من آل عفيصان المعروفين في الخارج .

وابتداء من هذا العام (١٢٢٩) بدأت أحداث الصراع في نجد بين محمد علي باشا وبين آل سعود وعانت منطقة القصيم ألواناً من مرارة هذا الصراع ، وسنذكر تفاصيل ذلك عندما نصل في دراستنا إلى وصف هذه الحروب .

وفي سنة ١٢٣٤ سالت عنيزة وبعض بلدان نجد خريفاً ، وأصبح وادي الرمّة روضة طيبة .

وفي سنة ١٢٥٧ حدثت وقعة « بقعا » بين أهل القصيم وبين أهل رشيد وصارت الهزيمة على أهل القصيم ، وقتل منهم عدة رجال منهم يحيى السليم أمير بلدة عنيزة .

وفي سنة ١٢٥٩ قدم فيصل بن تركي إلى جبل شمر من مصر ، فقام معه رئيس الجبل عبد الله بن رشيد وساروا إلى عنيزة واستجاب لهما أهل عنيزة وتحرك الجميع إلى الرياض وحاصروا عبد الله بن ثنيان حتى

(١) محمد بن عبد الله الأنصاري : تحفة المستفيد ص ١٣٠ - ١٣١ .

ظفروا به وحبسه الأمير فيصل حتى توفى في الحبس ، واستقل بالملك
فيصل بن تركى .

وفي سنة ١٢٦٠ أغار عبيد بن على بن رشيد على بلد عنيزة وأخذ
أغنام الناس ومتاعهم ففزعوا ضده وحصلت بينهم وقعة في «مقطاع
الوادى» وهزم أهل عنيزة في هذه الوقعة وقتل منهم عدد كبير .

وفي هذا العام والعالم التالى توفى في عنيزة وفي القصيم مجموعة
من الأفاضل والشيوخ منهم الشيخ عبد الرحمن بن محمد القاضى في عنيزة
والشيخ قرناس بن عبد الرحمن في الرس ، وحمد السليمان في عنيزة ،
وفي سنة ١٢٦٣ هاجم الحميدى بن فيصل الدويس حبيب القصيم .
واستولى على كثير من متاعهم .

وفي نفس السنة أغار الشريف محمد بن عون على نجد ووصل
عنيزة ، فأرسل اليه الامام فيصل هدية مع أخيه جلوى بن تركى ، فقبلها
وعاد الى مكة .

وفي سنة ١٢٦٥ استعمل الامام فيصل بن تركى أخاه جلوى أميراً
على عنيزة .

وفي سنة ١٢٧٠ هب أهل عنيزة على جلوى هذا وأخرجوه منها ،
فقصد الى بريدة فلما علم الامام فيصل بذلك ، أرسل ابنه عبد الله لمحاربة
أهل عنيزة ففسار هذا حتى نزل القصيم ، فقطع جملة من نخيل الوادى ،
وجرت بينه وبين أهل عنيزة وقعة ، قتل فيها بعض الرجال ، ثم وقع
المصالح بين المتحاربين سنة ١٢٧١ ، ورحل عبد الله وعمه جلوى الى
الرياض ، وركب عبد الله آل يحيى السليم الى الامام فيصل بالرياض ،
واستقر المصالح بينهم .

وفي سنة ١٢٧٣ اعترض ابن مهيلب الحجاج من عنيزة وحبسهم عن

السير الى الحجاز ، وطلب منهم أشياء معينة ، فرفضوا إعطائها له ولكنه استطاع أن يأخذها منهم •

وبين سنتي ١٢٧٩ و ١٣١٨ استؤنف الصراع بين آل سعود وبين آل عنيزة ، وصارت الهزيمة على آل عنيزة في الواقعة التي تسمى « وقعة المطر » •

وفي سنة ١٣٠٨ شهدت منطقة القصيم حراعا على السلطة بين آل رشيد وآل سعود ، وقد استطاع آل رشيد أن ينتصروا في موقعتي « المقرعا » و « المليدا » وقتل من أهل القصيم خلائق كثيرة منهم زامل العبد الله أمير عنيزة ، وقد انتهت هذه المعارك باستيلاء آل رشيد على بادية نجد ، وجرت محاولة أخرى سنة ١٣١٨ ساعد فيها الأمير مبارك ابن صباح من الكويت ولكنها لم يقدر لها النجاح أيضا وظل آل الرشيد أصحاب السلطة في نجد حتى العام التالي (١٣١٩) حيث بدأ يتألق نجم آل سعود على يدي البطل عبد العزيز بن عبد الرحمن كما سنرى فيما بعد ، وفي عهده الزاهر أصبحت عنيزة جزءا من المملكة الفتية « المملكة العربية السعودية » وغمر الضوء تاريخها كما غمر باقى أجزاء المملكة •

من أمراء عنيزة :

ذكرنا من قبل أسماء أمراء عنيزة الذين كان لهم السلطان حتى بدء الصراع بين ابراهيم باشا وبين السعوديين ، وأشرنا الى هذا الصراع الذى دار بالمنطقة والذى اشترك فيه آل الرشيد وآل سعود ومحمد على باشا ، وكان المنتصر يعين لعنيزة أميرها ، ونذكر فيما يلى أمراء عنيزة بعد الأميرين عبد الله بن يحيى ومحمد بن غفيصان اللذين عينهما الامام سعود بالتوالى أميرين على عنيزة أيام أن كانت عنيزة تابعة له ، وأمراء عنيزة بعد ذلك هم (١) :

(١) نقلا عن الشيخ ابراهيم بن صالح : تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ص ٢٣٦ وما بعدها •

عبد الله بن حمد الجميعى من سبيع وقد ولاه ابراهيم باشا على
عنيزة عندما قدم الى نجد سنة ١٢٣٢ •

وفي سنة ١٢٣٦ تأمر في عنيزة محمد بن حسن الجمل باتفاق من
أهلها ، ثم تأمر الجمعى الى أن قتله يحيى بن سليمان المعروف بسليم •
ولما تمكن الامام تركى بن عبد الله بن محمد بن سعود في الرياض
أمّر في عنيزة خير الله تابع سعود بن عبد العزيز ، ثم أمر محمد بن
ناهض ثم صالح القاضي •

ولما قتل تركى تأمر يحيى المسلم ، ثم قتل يحيى في بقعاء سنة ١٢٥٤
في أثناء حربه مع ابن رشيد ، فتأمّر أخوه عبد الله المسلم ، فلما قتل
بالجوا سنة ١٢٦١ هـ تأمر ابراهيم المسلم ، ثم عزله الامام تركى وأمر
ناصر بن عبد الرحمن السحيمي •

وفي سنة ١٢٦٥ تأمر في عنيزة جلوي بن تركى بن عبد الله بن محمد
ابن سعود ، ثم خرج من عنيزة سنة ١٢٨١ وتأمّر عبد الله آل يحيى المسلم
وتوفي سنة ١٢٨٥ فتأمر على المسلم ولم يكن له الا اسم الامارة فقط
وحقيقتها لزامل العبد الله المسلم ثم تأمر زامل حتى قتل في المليدا
سنة ١٣٠٨ •

ثم تأمر من قبل الرشيد عبد الله آل يحيى الصالح الغانم ، ثم
تأمر أخوه صالح ، ثم تأمر حمد العبد الله آل يحيى الصالح •

ثم زالت دولة الرشيد ، فعادت امارة عنيزة الى أهلها بمساعدة
الامام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، وأصبحت جزءا
من المملكة السعودية ، وأول أمير لها في هذا العهد كان عبد العزيز العبد الله
آل يحيى المسلم •

قضاة عنيزة :

جمع الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع قائمة بقضاة عنيزة ، وقد وردت هذه القائمة في الملحق الثاني لكتاب الشيخ ابراهيم بن صالح ونحن نقتبس بتصرف ما يلي عن هؤلاء القضاة :

قبل القرن الثاني عشر لم يكن في القصيم علماء مشهورون ، وكان مركز العلماء بنجد في أشيقر وسدير والعارض ، أما أهل القصيم فكان عندهم « مطوعون » وهم الذين يصلون بالناس ويعلمونهم القرآن ، وربما لجأ أهل القصيم الى قضاة المناطق المجاورة اذا ألم بهم أمر ذو بال .

وفي سنة ١١١٠ طلب أهل عنيزة الشيخ عبد الله بن أحمد بن عزيب ليكون قاضيا لهم ، وكان قبل ذلك في « المذنب » فاستجاب لهم ، وجاء الى عنيزة ، وهو الذي حفر لهم البئر المعذبة التي يستقون منها ، وقد توفي في « الضبط » وقبره معروف حتى اليوم في مقبرتها .

ثم تولى القضاء بعده تلميذه الشيخ سليمان بن عبد الله بن زامل سنة ١١١٦ .

- ثم تولى بعده الشيخ محمد بن ابراهيم أبو الخيل .
- ثم الشيخ عبد الله بن حمد بن اسماعيل .
- ثم الشيخ محمد العلي بن زامل الملقب أبو شامة .
- ثم الشيخ صالح بن عبد الله الصائغ .
- ثم الشيخ عبد الله بن سويلم سنة ١٢٢٠ .
- ثم الشيخ غنيم بن سيف ، وبعدة أخوه الشيخ عبد الله .
- ثم الشيخ عبد الله الفائز أبو الخيل .
- ثم الشيخ عبد الرحمن بن محمد القاضي .

ثم الشيخ عبد الله أبا بطين • وقد ولاه الامام تركى بن عبد الله ثم رجع الشيخ عبد الله الى بلدة نسقرا ، فلما استشهد الامام تركى وتولى الامام فيصل ركب أمير عنيزة ومعه جماعة الى الشيخ عبد الله وجاءوا به مع عائلته ، ومعه زوج ابنته الشيخ محمد بن عبد الله بن مانع وهو أول من سكن عنيزة من آل المانع ، وكان ذلك حوالى سنة ١٢٥١ ، واستمر الشيخ عبد الله قاضيا عشرين سنة تقريبا •

وبعده جاء الشيخ على المحمد من بلدة الزبير التى كانت آهلة بفقهاء الحنابلة •

ثم الشيخ عبد العزيز بن محمد بن مانع •

ثم الشيخ عبد الله بن غائض حوالى سبع سنوات ويقول الشيخ ابراهيم بن صالح ^(١) انه قبل ولاية الشيخ عبد الله بن غائض كان يأتى الى عنيزة أحيانا الشيخ صالح بن الشيخ قرناس من أهالى الرس ويقولى القضاء ، كما يذكر رواية تفيد أن الشيخ العلامة عبد العزيز بن حمد سبط الشيخ محمد بن عبد الوهاب تولى قضاء عنيزة فترة من الزمن ، وكان هذا ضمن الوفد الذى أرسله الامام سعود بن عبد العزيز الى مصر لمفاوضة محمد على باشا ، وقد اجتمع به الجبرتى وأثنى عليه •

وكلمات الجبرتى عنه هى : وقد اجتمعت مرتين بعبد العزيز بن حمد وبمبعوث آخر معه اسمه عبد الله فوجدت فيهما أنسا وطلاقة لسان ، وإطلاعا وتضلعا ومعرفة بالأخبار والنوادر ، ولهما من التواضع وتهذيب الأخلاق ، وحسن الأدب فى الخطاب ، والتفقه فى الدين ، واستحضار الفروع الفقهية ، واختلاف المذاهب فيها ما يفوق الوصف ، وكان عبد العزيز أكبر حسا ومعنى من عبد الله ^(٢) •

ونعود لقضاة عنيزة بعد الشيخ عبد الله بن غائض ، فهم :

(١) المرجع السابق ص ٢٤٤ •

(٢) تاريخ الجبرتى : ج٤ ص ٢٢٩ •

- الشيخ ابراهيم بن حمد الجاسر سبع سنوات وهو من أهالي بريدة .
- ثم الشيخ صالح بن عثمان واستمر قاضيا سبعة وعشرين عاما .
- ثم الشيخ عبد الله بن محمد بن مانع مدة عشر سنوات .
- ثم الشيخ محمد العبد المحسن من أهل بريدة مدة تسعة أشهر .
- ثم الشيخ عبد الرحمن بن عودان من أهالي شقرا مدة تسع سنوات .
- ثم الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل سنة ١٣٧١ .
- ثم الشيخ محمد بن عبد العزيز سنة ١٣٧٥ ، وقد نقل الى عنيزة من الجمعة .

أشهر القبائل في عنيزة الآن :

كتب الشيخ ابراهيم بن صالح بعض الفوائد في خاتمة كتابه عن تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ، وفي قمة هذه الفوائد أنساب بعض الأسر النجدية ومحال اقامتها ، ويهمننا منها هنا الأسر الموجودة في عنيزة وهي :

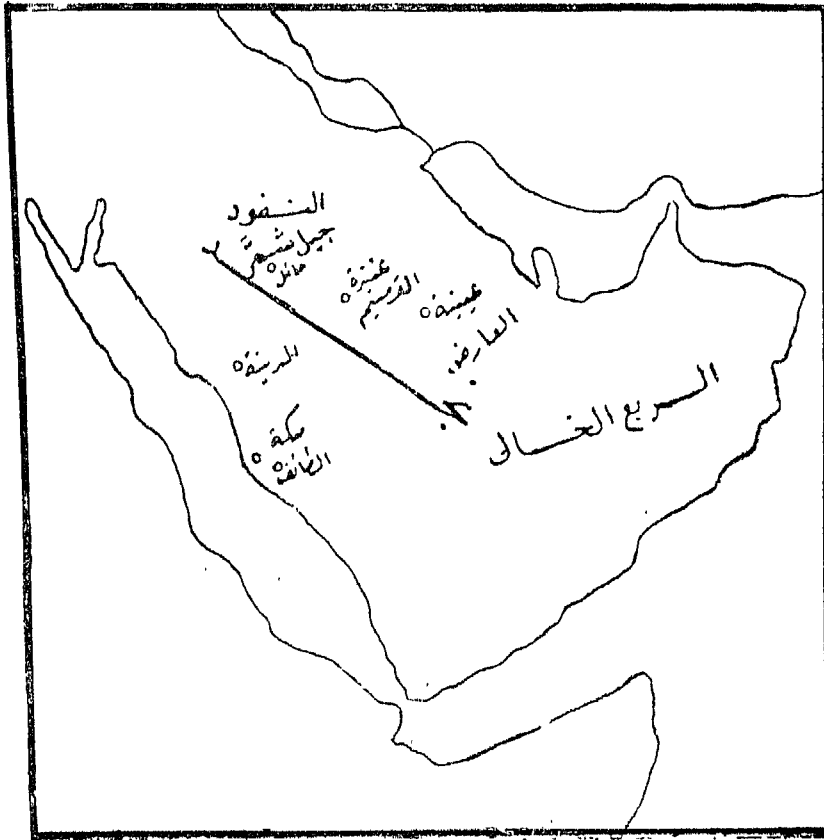
آل بسام ومنهم الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الله جد آل بسام بعنيزة وينتهي نسب آل بسام الى مالك بن حنظلة بن مالك ... حتى معد بن عدنان .

ومن آل بسام ينحدر آل القاضي المعروفون في عنيزة وآل حسن الذين في أشيقر ، ويوجد من آل بسام فروع في أشيقر وفي الدرعية وفي بريدة .

وفي عنيزة كذلك آل شبل الذين منهم الخروب وهم من المشارفة ، وكذلك آل شبل آخرون في عنيزة وهم من العناقر .

وفي عنيزة كذلك آل مستند ، وآل ضبيب ، وآل سلوم (١) .

(١) انظر الكتاب السابق : اقتباسات من ص ٢٠٥ الى ٢٢٦ .



حائل بجبل شمر وعقيزة بالقصيم وعيينة بالعارض

المدينة

إن الحديث عن العيينة يقتضى أن نتحدث عن المنطقة الواسعة التى تقع فيها العيينة وهى « العارض » التى كانت تعرف قديما بالعروض أو اليمامة ، وتقع هذه المنطقة بين سدير شمالا والخرق والحريق جنوبا ، وهى تمثل الجزء الأوسط من طَوَيْق ، ويقع وادى حنيفة فى قلب العارض ، ولوادى حنيفة تاريخ شهير فى التاريخ الاسلامى سنعرض له بعد قليل .

ويقول ياقوت عن العارض انه اسم للجبل المعترض ، ومنه عارض اليمامة وهو جبلها ، وفيه أودية كثيرة ، ولا نعلم جبلا يسمى عارضا غير عارض اليمامة ، والمسافة بين طرفى العارض مسيرة شهر (١) .

وإذا كنا ذكرنا عن القصيم أنها أكثر بلاد نجد اتصالا بالعالم الخارجى ، فإن بلاد العارض كانت أميل بلاد نجد الى العزلة ، وعدم الامتزاج بالآخرين ، وإذا كانت بلاد القصيم تهتم بالتجارة فإن الحرب كانت تمثل الاهتمام الأول لأهل العارض .

ومما يدل على جانب التعصب فى بلاد العارض ، وجانب الانتصار للقبيلة فى كل الأحوال ما يروى أن مسيلمة الكذاب عندما ادعى النبوة وقدم قرآنه الذى يعارض به القرآن الكريم ، أدرك أهله زيف ما عرض ، ولكن واحدا من بنى قومه صاح قائلا ، أشهد أنك كاذب ، ولكن كذب حنيفة خير من صدق مضر . واتبعه قومه وأيدوه بحماسة شديدة .

ومن أجل ما عثر به أهل العارض من الشجاعة والاقدام والبطولة الحربية ، اعتمد عليهم آل سعود فى كثير من المواقف الحرجة واستندوا عليهم عندما كانت تشتد بهم الكروب .

(١) معجم البلدان ج ٣ ص ٥٨٥ .

وأشهر بلدان المعارض الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية ،
ومقر آل الشيخ ، والدرعية التي كانت العاصمة الأولى لآل سعود ،
والجبيلة والعيينة . وهما بلدتان متجاورتان كثيرا ما شملهما حديث
واحد ، ومثلهم وحريملاء ^(١) ، ومنفوحة بلد الأعشى الشاعر .

معارك التنبؤ في وادي حنيفة :

ومن أعنف المواقف التي شهدتها وادي حنيفة معارك الردة والتنبؤ
التي وقعت في عصر الصديق أبي بكر ، وكانت هذه المعارك بقيادة
مسيلمة الكذاب وهو من بنى حنيفة باليمامة ، وكان قد وفد على الرسول
عليه الصلاة والسلام ضمن بنى حنيفة في عام الوفود (٩ هجرية)
وأعلن إسلامه ، ولكنه كان يضمّر التردد والغدر ، فما إن عاد إلى اليمامة
حتى ارتد عن الإسلام وادعى النبوة ، وكتب للرسول ، يقول : من
مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، أما بعد فإن لنا نصف الأرض
ولقريش نصفها ، ولكن قريشا لا ينصفون والسلام عليك .

فكتب له الرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب
أما بعد ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ،
والسلام على من اتبع الهدى ^(٢) .

وبدأ الصراع في حياة الرسول ، ولكنه بلغ قمته في عهد الصديق
أبي بكر ، وقد سبق أن قلنا أن بنى حنيفة قوم أشداء يحبون الحرب ،
ولا يخافون الموت ، وقد دفعهم اعتزازهم بالنفس ورغبتهم في العزلة إلى
وأن ينفصلوا عن المجتمع الإسلامي الذي ساد الجزيرة ، وأن يتسللوا
لذلك حربا ضروسا ، وكانت قيادة المسلمين في يد خالد بن الوليد ،
وشهدت منطقة الجبيلة حربا مريعة سقط فيها عدد كبير من الجانبين

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٥٥ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٩٧ - ٩٨ .

وكان بين قتلى المسلمين عدد كبير من حفظة القرآن الكريم ، وقد أورد ابن كثير أسماء كثيرين من هؤلاء الحفاظ ^(١) ، ولما أحس مسيلمة بأن كفته شالت تراجع ودخل حديقة فسيحة لها سور مرتفع ، ولحق به أصحابه ، ليحتموا بهذه الحديقة ولكن المسلمين تسوروها عليهم ، ودارت بها معركة شرسة سقط فيها آلاف من الفريقين ، حتى سميت حديقة الموت ، وقتل مسيلمة بعد جهد كبير ^(٢) .

وقد زرت منطقة الجبيلة والعيينة مع أصدقاء لى من آل الأسطل خلال شهر فبراير ١٩٧٧ ، وأمضيت بتلك المنطقة التى تقع على بعد حوالى عشرين ميلا من الرياض يوما كاملا وتتبعنا فيه آثار المعركة بين المسلمين وبين مسيلمة وذويه ، ورأينا المنطقة التى تسمى حاليا « وادى الدم » لكثرة من سقط فيها من القتلى ، ورأينا بقايا سور ، قيل لنا أنه بقايا سور حديقة الموت ، كما رأينا الأرض الخصبة التى تعد منحة لوادى حنيفة ، والتى لا تزال حتى الآن عامرة بالزراعة والنخيل ، ومما شاهدناه فى هذه البقاع آثار مقابر الشهداء ومن الواضح أن تعاليم المصلح الدينى محمد بن عبد الوهاب لم تدع أثرا للقباب التى أقيمت لشهداء معركة اليمامة ، وكان من أهمها مقبرة زيد بن الخطاب ، ومع زوال هذه الآثار فإن الوادى لا يزال يحتفظ بفتحات فى جوفه يمكن مشاهدتها بسهولة ويقولون عنها إن كلا منها كان بقايا اللحد الذى دفن فيه أحد الشهداء .

وقد كان اليوم الذى أمضيناه بوادى حنيفة يوما طويلا ، وهذه الكلمة ليست ارتجالية لأنه فى الحق كان يوما شاقا ، فقد اتجهنا بسيارتنا الى أعماق الوادى محاولين أن نتعرف على جوانب المكان الذى دارت به أعنف معارك المرتدين والمتنبئين ، ووصلت السيارة الى مكان كانت رماله كالدهيق الناعم ، فغاصت عجالاتها فى أعماق هذه الرمال وكنا نخشى أن تمسنا لعنة مسيلمة ، فالمكان كان موحشا حولنا ، ورفع السيارة كان

(١) البداية والنهاية ج ٦ ص ٣٣٤ - ٣٤٠ .

وانظر هامش ص ٦٧ من « العواصم من القواصم » لأبى بكر العربى .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٠٤ وابن الأثير ج ٢ ص ٢٢٤ ،

عملا لا أمل فيه لاتساع حجمها وثقل وزنها ، وقد اضطررنا أن نستعمل آلة الرفع لنرفع عجله إثر عجلة ، ونضع تحتها قدرا من الحجارة مختلفة الأحجام ، ثم ندير جهاز السيارة ونحاول الاندفاع بها الى الخلف ولكنها بعد حوالى نصف متر كانت تغوص مرة أخرى ، فنكرر العملية ، ولم ننج من وادى حنيفة الا بعد أن أوثك أن ينفذ صبرنا ويصينا الإعياء ، ومع هذا فإن ما حصلنا عليه من معلومات ، وما شاهدناه من مناظر كان معنا لنا على هذا الجهد ، وكان مبعث متعة علمية عظيمة .

وبعد هذه المقدمة عن العارض ووادى حنيفة ، نعود للحديث عن العيينة ، ويبدو من المراجع التى بين أيدينا أن العيينة كانت موجودة منذ أمد طويل ولكن خرابا ألم بها الأسباب متعددة ويشير الشيخ حافظ وهبة ^(١) إلى قصص كثيرة عن أسباب هذا الخراب وعن هجر الناس لها ، ويتحدث الشيخ ابراهيم بن صالح عن العيينة فيقول :

في سنة خمسين وثمانمائة اشترى حسن بن طوق جد آل معمر العيينة من آل يزيد من بنى حنيفة ، ورحل حسن عن ملهم ونزل العيينة عقب ذلك ، وتداولتها ذريته من بعده ^(٢) .

وهذا القول يفيد وجود العيينة قبل ذلك التاريخ ، وأن ما فعله حسن بن طوق كان مزيدا من التعمير والتجميل .

وبعد حسن بن طوق أصبحت رياضة العيينة الى ابنه حمد وهو الذى احتفى به ربعة بن مانع المريدى عندما اعتدى عليه ابنه موسى ، واضطره الى الفرار ، فسار الى العيينة حيث وجد بها الكرم والتكريم ، ومما يذكر أن موسى بن ربعة قُتل في العيينة سنة ١١٣٩ .

ومن أحفاد ابراهيم بن موسى وطَبَّان الذى نزل أولاده العيينة ، وقد حدث صراع طويل بينهم وبين يحيى بن سلامة رئيس الرياض .

(١) جزيرة العرب في القرن العشرين : ص ٥٩ .

(٢) تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد : ص ٣٥ .

وفي سنة ١٠٥٦ توفي أمير العيينة أحمد عبد الله بن معمر ، وهو حاج ، وفي سنة ١٠٥٧ نزل الشريف زيد بن محسن على « بيان » على مشارف الرياض وهدد العيينة فدفع له أهلها مبالغ كثيرة وثلاثمائة جمل .

وفي نفس السنة قُتل ناصر بن عبد الله بن معمر صاحب العيينة قتلته ابن أخيه دواس بن محمد بن عبد الله ، وتولى دواس العيينة ، ولكنّه قتل في العام التالي ، وتولى العيينة محمد بن حمد بن عبد الله .

وفي سنة ١٠٧٠ تولى عبد الله بن أحمد بن معمر رئاسة العيينة .

وفي سنة ١٠٧٢ سار عبد الله هذا الى بلد « ألبير » وكان أهلها قد استولوا على قافلة لأهل العيينة ، وقد سار مع عبد الله جنود كثيرة : فبات بعضهم تحت جدار من جدران بلد : « ألبير » فسقط الجدار عليهم : فمات منهم خلق كثير ، وتدخل القاضي سليمان بن علي للإصلاح بين أهل العيينة وأهل ألبير ، وقد تم ذلك ، ورجع عنهم ابن معمر .

وفي سنة ١٠٩٦ تولى عبد الله بن محمد بن معمر رئاسة العيينة في حياة أبيه ، وصار له فيها شهرة عظيمة ، وكبرت العيينة في زمنه وترخرفت ، وكثر أهلها وزادت عمارتها ، وحج أبوه محمد بن أحمد تلك السنة .

وفي سنة ١٠٩٧ استولى عبد الله هذا على بلد « العمارية » وفي العام التالي أغار على حريملة وقتل من أهلها عدة رجال ، وقد تسبب عن هذا أن هبت حرب بينه وبين أهل الدرعية الذين جاءوا لمساعدة العمارية .

ومن المفاخر التي تنسب الى العيينة أن ولد بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب المصلح الديني الكبير ، ونشأ بها قبل أن ينتقل أبوه الى حريملاء .

وفي سنة ١١١٦ نزل على العيينة سيل خرب منازلها .

وفي سنة ١١٢٦ أغار سعدون بن محمد آل غرير رئيس الحما والمقطيف هو وعبد الله بن معمر رئيس العيينة على اليمامة من بلاد الخرج ونهبوا بعض منازلها .

وفي سنة ١١٣٧ قام صراع بين آل معمر في العيينة وبين أهل العمارية وقد انهزم أهل العيينة في هذا الصراع وقتل منهم حوالي عشرين رجلا .

وفي سنة ١١٣٨ حل بالعيينة وباء أفنى الكثيرين من سكانها ، ومن مات في هذا الوباء رئيسها عبد الله بن محمد بن معمر الذي لم يذكر في زمنه ولا قبله في نجد من يدانيه في الرياسة ، وسعة المملكة والعدد والعقارات والأثاث ، وتولى في العيينة ابن ابنه محمد بن حمد بن عبد الله الملقب « خرفاش » .

وفي سنة ١١٣٩ غدر خرفاش هذا بزيد بن مرخان صاحب الدرعية ، وبدعيم بن فايز السبيعي وقتلها ، وذلك أنه لما أصاب الوباء المذكور أنفا العيينة وفنى رجالها ، وقتل رئيسها ، طمع زيد بن مرخان وأتباعه في أموالها ، وأرادوا نهبها ، فساروا إليها بآل كثير وبوادي سبيع وغيرهم ، فلما وصل الجميع « عقربا » أرسل خرفاش إلى زيد من يقول له : انه لا ينفعك نهب البوادي ، وأنا مستعد أن أعطيك وأرضيك ، فأقبل إلى أكلهم من قريب وأناجيك ، فسار إليه زيد في أربعين رجلا ، ومعهم محمد بن سعود وغيره ، ثم أدخل رجالا من قومه في مكان وطلب اليهم أن يرموا زيدا بالبنادق ففعلوا ومات زيد ، وتنبه أصحاب زيد ، فتحصنوا في مكان بالقصر ولم ينزلوا منه الا بأمان الجوهرة بنت عبد الله ابن معمر ورجع محمد بن سعود بمن معه من أهل الدرعية .

وفي سنة ١١٤٢ قتل محمد بن حمد (خرفاش) رئيس العيينة قتله آل نبهان من آل كثير ، وتولى العيينة أخوه عثمان .

وفي سنة ١١٦٠ هـ غزا عبد العزيز بن محمد بن سعود ومعه عثمان بن معمر رئيس العيينة بلدة « سرمدا » وتمت الهزيمة على أهل سرمدا ، وقتل منهم حوالي سبعين رجلا وتسمى هذه الواقعة وقعة « البطين » لأنها حدثت في « بطين سرمدا » •

ويمتاز عهد عثمان بن حمد بن معمر بخطوة هامة ترتبط بالمصالح الديني الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، فإن الشيخ بعد جولة علمية طويلة اتجه الى مدينة حريملاء التي كان والده قد عين قاضيا بها ، وظل الشيخ مع والده حتى توفي ذلك الوالد ، فجهر الشيخ بأرائه ، وحينئذ تجمع بعض الجماهير في حريملاء للعدوان على الشيخ ، وهذا دفعه الى أن يعود الى العيينة مسقط رأسه ، وأن يدعم صلاته برئيسها عثمان ابن حمد الذي رحب به وبالتع في اكرامه ، وزوجه قرييته « الجوهرة » وبدأ الشيخ يرفع صوته بدعوته ، فهدم القباب التي كانت قد أقيمت على قبور شهداء موقعة اليمامة ، ومنها القبة التي أقيمت على مقبرة زيد بن الخطاب ، وبهذا كانت العيينة أول مكان يحقق الشيخ فيه أهدافه ولكن عثمان بن حمد لم يستطع أن يظل على حمايته للشيخ كما سئرى فيما بعد ، فنصح الشيخ بترك العيينة ، فانتقل منها الى الدرعية ، كما سئرى عند الحديث عن الشيخ ودعوته •

وفي سنة ١١٦٣ قتل عثمان بن حمد رئيس العيينة ، وتولى مشاري ابن معمر رياستها •

وفي سنة ١١٦٤ أغار عبد العزيز بن محمد بن سعود ومشاري بن معمر رئيس العيينة على أهل سرمدا مرة أخرى وحدث قتال بين الجانبين هزم فيه أهل سرمدا وتسمى هذه الواقعة ، وقعة « الوطنية » والوطنية موضع بين سرمدا ومراة • وقد ذكر ابن غنام وابن بشر أن هذه الواقعة حدثت في سنة ١١٦٣ هـ •

وقد ظلت العيينة بعد ذلك وثيقة الصلة بالحركة السعودية ، وشديده
الولاء لها حتى قامت المملكة العربية السعودية في عهد البطل عبد العزيز
ابن عبد الرحمن •

من قضاة العيينة وعلمائها :

كانت العارض منطقة تتردهى بالعلماء والفقهاء ، ومن العلماء
المشاهير بها أسرة الامام محمد بن عبد الوهاب الذين ورثوا العلم كابراً
عن كابر ، والذين تولوا مناصب القضاء والفتوى في أكثر بلدان العارض ،
قبل الشيخ وبعده ، وكان منهم أبو الشيخ الذي تولى القضاء في العيينة
وفي حريملاء ، ومنهم الشيخ الذي ارتفع صوته بالمعرفة في حريملاء
والعيينة والدرعية ، ومنهم أولاد الشيخ وأحفاده ومريدوه وهم كثير
تولوا أكثر المناصب الدينية في بلاد العارض قبل المملكة العربية السعودية •
وفي ربوع المملكة بعد قيامها ، ونذكر منهم الشيخ حسن بن محمد بن
عبد الوهاب وأبناءه وأحفاده الذين ازدهوا في مواقع كثيرة بالدولة ،
والشيخ حسين ومن أبنائه علماء مبرزون كذلك •

ومن علماء العارض أيضا الشيخ سايما بن موسى الباهلي والشيخ
محمد بن عبد الوهاب بن عبد الله من المشارفة ، والشيخ محمد بن علي
ابن عيد ، والشيخ موسى بن عامر قاضي الدرعية •

فإذا جئنا الى العيينة وجدنا مجموعة من قمم العلماء والفقهاء
تردهى بهم ، منهم الشيخ ابن عفالق قاضي العيينة الذي توفي بها سنة
١٠١٩ ، ومنهم الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب قاضي العيينة الذي أخذ
الفقه عن الشيخ منصور البهوقي ، والشيخ أحمد بن محمد بن بسام ،
وقد توفي سنة ١٠٥٩ •

ومن علماء العيينة كذلك الشيخ عبد الوهاب بن عبد الله سالف الذكر
الذي كان مريداً لأبيه ، ووارثاً لعلمه وفضله وكان أستاذا لمجموعة من
العلماء منهم الشيخ سيف بن عازز ، وتوفي سنة ١١٢٥ •

ومنهم الشيخ العلامة سليمان بن علي التميمي الذي توفي بالعيينة
سنة ١٠٧٩ •

ومنهم الشيخ عبد الوهاب بن الشيخ سليمان بن علي قاضي العيينة
الذي عزله خرفاش رئيس العيينة سنة ١١٣٩ ، وقد انتقل عقب ذلك من
العيينة الى حريملاء •

ومنهم الشيخ أحمد بن عبد الله بن عبد الوهاب الذي عينه خرفاش
قاضيا عقب عزله للشيخ عبد الوهاب بن سليمان سالف الذكر •

وهناك كثيرون غير هؤلاء من العلماء والفقهاء الذين كانوا ينتقلون
قضاة ومعلمين بين بلدان العارض •

حائل

مدينة حائل عاصمة جبل شمر ، ومن هنا كان من الأوفق أن نبدأ بالحديث عن جبل شمر لنعرف به ، وبعد ذلك ننثني متحدثين عن حائل .

وجبل شمر يقع شمال نجد والى الجنوب من صحراء النفود ، وهو يتكون من سلسنتين متوازيتين من الجبال هما « أجا وسلمى » جبلا طي ، ويتجه الجبلان من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى ، وفى جبل شمر توجد منابع عديدة للمياه تستخدم فى أرض السهل الخصبة التى تنمو بها شتى أنواع المزروعات ، وبخاصة النخيل ، كما تهطل على الجبل أمطار غزيرة فى الشتاء ، فتكثر المراعى التى ترتادها الخيل والتى يشتهر بها الإقليم فضلا عن الإبل والغنم (١) .

و (شمر) أحد أجداد العرب فى الجاهلية ، وهو ابن أيمد بن خزيمة من طي ، واليه يئسب هذا الجبل ، اذ يعيش بطن من بطون شمر فى هذا الجبل منذ أمد طويل ، وهناك بطون أخرى من هذا الجند تعيش فى العراق وفى سورية .

وتتحدث Lady Anne Blant عن هذا الجبل فتصفه بأن منظره رائع ، وأنه سلسلة طويلة بدیعة تمتد من الشرق الى الغرب ، وبه عدة قمم شاهقة متميزة عن السلسلة الرئيسية ، وهو يذكر من رآه بأروع الجبال فى أسبانيا المسماه « جودا راما » (٢) ومنظر الجبل يفوق الوصف ، فهو سهل كامل الاستواء يتدرج فى الارتفاع ، وتنبثق منه صخور وتلال كأنها جزر فى محيط ، وبعض صخوره قرمزية اللون شاهقة ، تشمخ على الجميع ، وهى تهدى من يقصد جبل شمر قبل أن يصله بعدة أيام ، ومعالم جبل شمر لها روعة غريبة ، والمرتفعات به تكوّن ذرا وقبابا تاركة بينها

(١) أحمد عطية الله : القاموس الإسلامى ج٤ ص ١٤٢ .

(٢) أن بلنت : رحلة الى نجد ١٦٩ .

كوى تستطيع من خلالها أن ترى السماء ، وبعض صخوره كانت على شكل
جمل ، وهى تخدع أى شخص لا يعلم أن الجمال ليس فى استطاعتها أن
تتسلق تلك القمة. (١) •

وقد سبق لنا أن ذكرنا أن ولفريد زوج الرحالة ليدى آن بلنت قال
عندما رأى جبل شمر إنه يموت الآن سعيدا لأنه رأى هذا المنظر البديع
الذى ليس هناك مكان آخر يشبهه الا أن يكون جبل سيناء •

وأهم البلاد فى جبل شمر « حائل » العاصمة التى سنتحدث عنها فيما
بعد ، و « فيد » التى تقع فى جنوب حائل و « قفار » وهى بلدة فى
الجنوب الغربى من حائل ، ثم قنّا وعقدة وتيماء ، ولدينا معلومات ذات
بال عن البلدان الثلاثة الأخيرة ينبغى أن نورد هنا لمزيد من التعريف
بالمنطقة :

« قنّا » قرية صغيرة جميلة تشهد باب جبل شمر المن يأتى عبر
صحراء النفود ، وبها حقول خصبة ، تزرع بها الحبوب وتكثر الأشجار •

« وعقدة » تقع على بعد عدة أميال من حائل ، وكانت قلعة حصينة
فى الجبل ، وقد اختير لها مكان تخصصته القوى الطبيعية ، وأضيفت لها ألوان
من التحصينات التى صنعها الإنسان ، وعقدة عبارة عن مجموعة من قرى
منتشرة فى مزارع النخيل فى الجنوب الغربى من حائل ، ومن هذه القرى
قرية الروضة وغزالة والمستجدة •

وتيماء واحة كبيرة فى الشمال الغربى لنجد ، وأرضها خصبة صالحة
للزراعة ، وبها أشهر عين ماء فى بلاد العرب ، وقد عُثِرَ بها على نقوش
يُظَنُّ أنها من القرن السادس قبل الميلاد وتنسب الى (تيماء) أحد أبناء
اسماعيل وتقع تيماء فى منخفض من السهل المرتفع ، ولتيماء مكان مهم فى

(١) رحلة الى نجد : آن بلنت ١٧٩

التاريخ الإسلامى ، اذ كانت إحدى قرى اليهود فى الشمال من المدينة ، وقد كونت هى وبلدان اليهود الأخرى فى وادى القترى وفسدك وخيبر خصما عنيدا للإسلام والمسلمين ، وقدم هؤلاء مساعدات لمن حاصروا المدينة فى غزوة الخندق ، ولذلك نجد الرسول يزحف على تلك المناطق فى العام السابع للهجرة ، بعد أن تم صلح الحديبية بينه وبين قريش ، وحاصر المسلمون خيبر ، فتساقطت حصونها ، واستسلم أهلها وانفق معهم المسلمون ، اتفاقا سمحا ، فقد تركهم الرسول يزرعون الأرض ، ولهم شطر الزرع والثمار نظير عملهم ^(١) ، وعقب سقوط خيبر طلب يهود فدك الصلح فصالحهم الرسول على نصف التمر ونصف الأرض ، أما يهود وادى القري وثيماء فقد حاربوا المسلمين ، ثم حلت بهم الهزيمة ، وبعد ذلك تركهم المسلمون على نظام خيبر ^(٢) .

وفى عهد عمر بن الخطاب عندما تقدمت جيوش المسلمين الى الشمال رأى عمر أنه ليس من الحكمة أن تكون جيوش المسلمين بين عدوين : الروم فى الشمال واليهود فى الجنوب فأخرجهم من الجزيرة العربية ، على أن يحملوا ما يستطيعون حمله ، وأن يدفع المسلمون ثمن أى متاع لا يحملونه معهم ^(٣) .

ونجىء الآن الى حائل العاصمة لنروى ما يمكن من حديث عنها : تقع حائل على مرتفع هائل بجبل شمر إذ يبلغ ارتفاعها عن مستوى سطح البحر حوالى ٣٥٠٠ قدم ، وهى تقع على الطريق الصحراوى الذى يربط الحجاز بالعراق وإيران وبلاد الشرق ، وعلى هذا فهى تقع على طريق مطروق وبخاصة فى موسم الحج ، ومن هنا كانت مركزا تجاريا مهما بين الشرق والغرب كما أن هذا الموقع ضمن لها ولضواحيها ربحا

(١) أبو عبيد : الأموال ص ٩ .
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٧ .
(٣) انظر الجزء الأول من هذه الموسوعة .

طيبا فقد كان كثير من الحجاج يشتررون منها الماعز والخراف التي يقدمونها هديا في حجهم ، ففي موسم الحج كان الرعاية يفدون الى حائل بقطعانهم لبيع بعض ماثيبتهم الى حجاج الفرس والعراق ، كما كانوا يفدون ليعملوا على تسهيل مهمة الحجاج وتقديم بعض الخدمات اليهم *

وبالإضافة الى موقعها الذي جلب لها أقواعا من الثراء عن طريق التجارة والمقوافل فإن مدينة حائل تقع في منطقة خصبة تجود فيها بساتين النخيل والتين والرمان والتفاح ، وتحيط بها حقول واسعة يزرع بها الشعير والقمح والخضر ، وفي الجنوب الشرقي من حائل تكثر بساتين النخيل والرمان واللييون الحلو والنارنج والبرتقال والتفاح والبرقوق والمياه اللازمة لهذه البساتين تستخرج من آبار عمقها حوالي ٩٠ قدما ، وفي شمال المدينة توجد مزارع النخيل *

ويتحدث ياقوت عن حائل فيذكر أنها موضع باليمامة ، وهو واد أصله من الدهناء ، ويستمر ياقوت متحدثا عن حائل بما يفيد أنها كانت دائما بلاد الزهر والخير ، فيذكر أن بدويا من حائل ذهب الى « الحضرة » ولكنه سرعان ما اشتاق الى حائل وحن اليها وقال فيها قصيدة رائعة منها :

لعمري لنور الأقحوان بحائل

ونور الخزامى في ألاء وعرفج

أحب الينا يا حميد بن مالك

من الورد والنعمى ودهن البنفسج (١)

وكانت حائل في هذا المكان التجاري الزراعى من جهة والشاهق النائم من جهة أخرى محمية بموقعها وبطولات أهلها ، فان استقلال حائل واستقرارها كانا يعودان بالخير والبركة على جميع السكان بقرى جبل

شمر ، الذين ذكرنا من قبل أخبار وفادتهم على حائل متاجرين أو عاملين ، وعلى هذا لم تكن القرى المجاورة لحائل منافسة لها بقدر ما كانت تابعة ، ولا كانت حائل هدفا لهجمات ذات بال من الخارج بسبب هذا الموقع ، وهذا الوضع قلل الصراع حولها ، ذلك الصراع الذى رأيناه مستمرا دون توقف فى عنيزة ومثيلاتها •

وتشتهر حائل بخيولها الأصيلة ، وقد كانت هذه الخيول تمثل السبب الذى دفع الرحالة أن بلنت لتقوم برحلتها الى بلاد نجد اذ كانت هذه الرحالة مهتمة بتربية الخيول العربية ، وكانت تملك مزرعة بها حظيرة حافلة بأمهر الخيول ، وقد تحدثت فى كتابها عن خيول آل الرشيد ، وأبرزت أن فى حائل مجموعة ممتازة من الخيل ، وأن ابن الرشيد كان يعنى بها أحسن عناية ، حتى انه كان يذهب بخيوله كل ربيع الى الصحراء لتعيش فى الهواء المطلق ، ولتتأقلم تدريجيا على السرعة والكر والفر ، وفى خلال الصيف كان يترك أكثر خيوله مع القبائل لتستمر فى التدريب ولا يبقى معه فى حائل الا القدر اللازم للاستعمال فى المدينة •

وسنرى فيما بعد أن خيول آل رشيد كسبت له بعض الجولات العسكرية ، وحققت النصر لجانبه •

وقد دخلت حائل فيما دخلت فيه مناطق نجد فأصبحت جزءا من دولة آل سعود الأولى ، وعيّن آل سعود عبد الله بن الرشيد أميرا على حائل ، فلما سقطت الدولة السعودية الأولى وجاءت الدولة السعودية الثانية بما فيها من اضطرابات وقلائل أعلن عبد الله بن رشيد استقلاله بجبل شمر ، بل أخذ يوسع سلطاته حتى أصبح آل الرشيد هم أصحاب السيادة على أكثر ربوع نجد معظم القرن التاسع عشر كما سنرى فيما بعد •

وسنذكر فيما يلى بعض الأحداث التى اشتركت فيها حائل ، حتى نصل الى مطلع المملكة العربية السعودية •

مطلع عهد آل الرشيد :

في سنة ١٢٩٤ هـ حمل محمد بن عبد الله بن علي الرشيد راية المغزو مستقلا بها عن متابعة آل سعود ، وهو أول من حملها مستقلا بها من بيت آل الرشيد وكان قبل ذلك أميرا في حائل تابعا لآل سعود خلال دولتهم ثم اتجه بعد حمل راية الاستقلال الى غزو بادية عتيبة ، وهذا الوضع فتح الباب لصراع بينه وبين آل سعود (١) .

وفي سنة ١٣٠٠ هـ حدث أول قتال بين آل سعود وآل الرشيد وقصة ذلك أن الامام عبد الله بن فيصل خرج من الرياض لغزو المجمععة فنزل على عربان عتيبة في الحمادة المسماة « أم العصافير » ولما علم بذلك أهل المجمععة أرسلوا الى محمد بن عبد الله الرشيد يستنجدونه فتجهز لذلك وخرج في أهل حائل ، ومعه قبيلة شمر ، وانضم اليه حسن بن مهنا رئيس بريدة بمن معه من أهل بريدة ، والتقى الجمعان في « أم العصافير » واقتتلوا ، فانهزم الامام عبد الله بن فيصل ، وقتل منهم خلق كثير من المشاهير منهم تركي بن عبد الله بن تركي ، وفهد بن سويلم ، وفهد بن سلطان ، وفهد بن عسيان والشيخ عبد العزيز بن الشيخ عبد الله بابطين ، ورجع الامام عبد الله الى الرياض ، وأقام محمد الرشيد في الحمادة عدة أيام ، وأحضر رؤساء بلدان الوشم وسدير وعيكن في كل بلد من بلدانهم أميرا ، ثم رجع الى بلاده ، وبهذه الموقعة امتدت أطماع محمد بن الرشيد الى الاستيلاء على جميع بلدان نجد ، وكان سلطان آل سعود آنذاك يتجه الى الضعف .

وفي سنة ١٣٠٣ خرج أولاد سعود بن فيصل (محمد وسعد وعبد الله) على عمهم عبد الله بن فيصل ، أمير الرياض وقبضوا عليه وسجنوه وبلغ ذلك محمد بن عبد الله بن رشيد ، فانتهز هذه الفرصة ليضد نفوذه الى الرياض عاصمة آل سعود ، فأظهر الإنكار والسخط على أولاد سعود لاعتدائهم على عمهم ، وتجهز وقصد الرياض ، ولما قرب منها تلقاه وفد

(١) الشيخ محمد بن عبد الله الأنصاري : تحفة المستفيد ص ١٧٦ وما بعدها

من أهلها على رأسهم الامام عبد الرحمن بن فيصل (والد جلالة الملك عبد العزيز) وفاوض الوفد ابن الرشيد لمعرفة قصده ، فأخبرهم أنه جاء لتخليص الامام عبد الله من السخط فقط ، ولما عرف أولاد سعود ذلك ، وعلموا من أنفسهم العجز عن مقاومته ، خرجوا اليه ، وطلبوا منه الإيمان لأنفسهم ، فأمنتهم ، فخرجوا من الرياض الى الخرج ، ودخل محمد بن عبد الله الرياض ، وأطلق عبد الله بن فيصل من السجن ، وبعد ذلك بأيام خرج من الرياض ومعه الامام عبد الله وعبد الرحمن ابنا فيصل ، وعشرة آخرون من آل سعود ، ورجع بهم الى بلده ، وجعل سالم السبّهم أميراً له في الرياض .

وقد قام أولاد سعود الذين سبق الحديث عنهم بألوان من الهجمات ضد ابن رشيد ، واتخذوا من الخرج مركزاً لهم ، ورأى ابن الرشيد ان يتخلص منهم ، فأوعز الى سالم السبّهم أمير الرياض بأن يهاجمهم في غفلة منهم ويقضى عليهم ، ففعل سالم ذلك ، وعندما ضج أهل نجد لهذه الخيانة ، تظاهر ابن رشيد باستنكارها وعزل سالم السبّهم عن الرياض ، وجعل مكانه فهد بن رخيص وهو من أهل حائل .

وفي سنة ١٣٠٧ دبر ابن رشيد حيلة للتخلص من زعماء آل سعود الموجودين عنده ، فيقال انه قدم القهوة وفيها شيء من السم بطيء النتائج للامام عبد الله بن فيصل وأخيه عبد الرحمن ، وقد استطاع عبد الرحمن أن يحس بذلك فتخلص من هذه القهوة ، ولكن عبد الله شرب القهوة فبدأ السم ينساب في جسده ، وأراد ابن الرشيد أن يخفي هذا فسمح للامامين بمغادرة حائل الى الرياض ، ولم يكن يعرف أن عبد الرحمن لم يشرب القهوة المسمومة ، وكان يريد هما أن يموتا بعيداً عنه ، وسرعان ما توفي الامام عبد الله في الرياض (١) .

(١) المرجع السابق ص ١٧٧ - ١٧٨ .

ولم يقنع ابن الرشيد بذلك ، بل أراد أن يقضى على البقية الباقية من آل سعود بنفس الطريقة المغادرة ، وكان سالم السبهان خير معين له في ذلك الاتجاه ، فأعاده الى اماره الرياض وأوعز اليه أن يقضى على زعماء آل سعود ، وبدأ سالم يدبر المكيدة لذلك ، ففى يوم عيد الفطر أرسل سالم للامام عبد الرحمن يخبره أنه يرغب فى زيارة آل سعود للتهنئة بالعيد وطلب منه أن يجمع أفراد الأسرة فى قصره لهذا الغرض ، إذ يتعذر عليه أن يزور كل واحد فى مقره ، ففطن الامام عبد الرحمن لاتجاه الغدر ، وأمر رجال آل سعود أن يحضروا بسلحهم وأن يكونوا على حذر ، ثم جاء سالم السبهان بأعوانه وهم مدججون بالسلاح ، وبعد قليل بدرت من سالم بواخر الغدر فهب السعوديون للدفاع عن أنفسهم ، وتغلبوا على جماعة سالم ، وأسروه هو نفسه ، وأودعوه السجن ، وعادت اماره الرياض للامام عبد الرحمن •

ولم يسكت ابن الرشيد على هذا النصر الذى أحرزه السعوديون ، فزحف بجيوشه الى الرياض ، وتحصن أهل الرياض بمدينتهم ، وفى الوقت نفسه كان أهل القصيم قد غضبوا على آل الرشيد ، وكتبوا للامام عبد الرحمن أنهم على استعداد لمناصرتة ، وعلى هذا أحس ابن الرشيد بضعف موقفه فطلب المفاوضة ، وخرج له زعماء آل سعود ، وتم الصلح على أن يكون العارض وما حوله تحت سلطة الامام عبد الرحمن ، وأن يثطلق آل سعود الأمير سالم السبهان ، وتم ذلك ورجع ابن الرشيد الى بلده •

وقد سبق أن ذكرنا أنه كان هناك تعاون بين محمد بن عبد الله الرشيد وبين أمير بريدة حسن بن مهنا ، وكان ابن الرشيد قد طمع فى أن تكون علاقة بريدة به علاقة تبعية لا علاقة تحالف ، بل اتسعت أطماعه فأراد ضم القصيم كله اليه ، ولم يكن أهل القصيم يريدون ذلك فتجمع جيش من أهل بريدة بقيادة حسن بن مهنا ، ومن أهل عنيزة بقيادة زامل السليم ، والتقى هذا الجيش بجيوش ابن الرشيد فى المليدا ، وقامت حرب ضروس

بين الجماعتين لعبت فيها خيول جيش حائل دورا هائلا ، فتحقق النصر لابن الرشيد ، وقتل زامل السليم ، وعاد حسن بن مهنا الى وطنه **بعد** هذه الموقعة ، ويقال انه قتل من أهل القصيم في هذه المعركة ألف رجل • وقد جىء بحسن بن مهنا الى ابن الرشيد فأرسله الى حائل وسجن هناك ، واستولى ابن الرشيد بذلك على القصيم •

وكانت هذه الموقعة شديدة الأثر على السعوديين في الرياض فإن عبد الرحمن بن فيصل خرج من العارض ليسانع أهل القصيم ، ولكن خبر الهزيمة قابله فتراجع الى الرياض ، وتفرق جنده ، ولكنه أدرك أن ابن رشيد سيتابعه الى الرياض فخرج عنها الى بادية العجمان ^(١) •

وتم استيلاء ابن رشيد على الرياض وعلى بادية نجد سنة ١٣٠٨ •

وفي سنة ١٣٠٩ حاول عبد الرحمن بن فيصل محاولته الأخيرة ضد آل الرشيد ، وكان يساعده ابراهيم بن مهنا وجند كثيرون ، وقصدوا مدينة الرياض ، ولكن ابن الرشيد خرج من حائل بحشد كبير من الجند والنقى بهؤلاء عند حريملاء وهزمهم ، وقتل ابراهيم بن مهنا ، ودخل الرياض ، وهدم سورها ، وأحس أن الأمر قد استقر اليه •

أما الامام عبد الرحمن فقد أمضى فترة مترددا بين قبيلة العجمان وبين قطر والاحساء وانتهى به الأمر الى اللجوء الى الكويت •

وفي سنة ١٣١٥ توفي الأمير محمد بن علي بن عبد الله بن رشيد في حائل ، وتولى بعده ابن أخيه عبد العزيز المتعبد ويقول عنه الشيخ محمد عبد الله الأنصاري ^(٢) : انه كان شجاعا قاسيا لا يعرف من السياسة الا القهر والمغلبة ، فطمع في الاستيلاء على الكويت التي تحمي آل سعود ، وقد نتج عن هذا أن قامت سنة ١٣١٨ محاولة سعودية كويتية لاسترداد

(١) الشيخ ابراهيم بن صالح : ص ١٩٦ - ١٩٧ •

(٢) تحفة المستفيد ص ١٩٤ •

الرياض ، واسترداد مدن القصيم ، وقد حقق أمير الكويت نصرا مبدئيا على جند ابن الرشيد ، وانتصر الإمام عبد الرحمن على أمير الرياض من قبل ابن الرشيد ودخلها ثم ترك بها ابنه عبد العزيز (الملك عبد العزيز فيما بعد) وذهب لينضم الى جيش الكويت ولكن الأمير عبد العزيز بن الرشيد علم بذلك فسار بجيش كبير ، وحقق نصرا في مناطق القصيم وانهزم أمير الكويت والإمام عبد الرحمن بن فيصل ، وجاء خبر الهزيمة الى من بالرياض من آل سعود فخرجوا منها ، ولجأوا الى الكويت مرة أخرى .

وفي العام التالي (١٣١٩) اندفع البطل عبد العزيز فاحتل الرياض وقتل الأمير عجلان أمير الرياض من قبل آل الرشيد ، وبدأ نجم السعوديين في التآلق وراح نجم آل رشيد يتجه الى الأفول كما سنرى فيما بعد .

وهكذا بدأ دور حائل في الصراع بنجد متأخرا ، ولكنه عندما بدأ كان عنيفا وطموحا ، وسنعود لدراسته فيما بعد عند الكلام عن آل الرشيد .

وهكذا نقرر ونكرر أن (نجد) في أكثر تاريخها كانت تتكون من وحدات سياسية مستقلة تماما ، وبعض هذه الوحدات كان يتمثل في القبائل التي تتقيم حول آبارها خلال شهور الصيف ، ثم تبدأ تجوالها مع سقوط المطر لترعى ما ينجم عن المطر من عشب ، وتجوال القبيلة يكون في نطاق محدد لا تتعداه ، وتعرف الأرض الخاصة بكل قبيلة بالديرة .

وبعض هذه الوحدات يتمثل في المدن الموجودة في الأودية والتي يظهر فيها الاستقرار البشرى .

والقبيلة التي تستقر وترحل من جانب ، والمدينة بأحد الأودية من جانب آخر ، تلفها الصحراء الفسيحة ، وتكاد تكون منقطعة عن غيرها ، ومن هنا كانت تكون وحدة سياسية مستقلة تماما ، فتاريخ نجد قبل المملكة

العربية السعودية هو تاريخ هذه القبائل وتلك المدن التي أعطينا نماذج لها •

وكانت الغارة والنصر والهزيمة هي أسلوب الحياة ، ومن هنا لم تنم مع القبائل ، ولا في المدن حضارات ذات بال ، وأشعة النور بها كانت منحصرة في الفقهاء الذين يتعلمون العلوم الدينية ، ثم يعلمون ما تعلموه في دورات لا تتخلف من ناحية الفكر أو المنهج ، وقد تحدثنا عن كثيرين منهم •

وإذا كانت القبيلة أو المدينة هي الوحدة السياسية بوجه عام كما ذكرنا ، فإن هناك نوعين آخرين من الحكم والسيادة ظهرا في نجد من حين إلى حين ، وقد أشرنا لهما من قبل ^(١) وهما :

— زحف من الداخل تقوم به قبيلة أو مدينة وتسيطر على مناطق أخرى أو مدن أخرى •

— نفوذ أو زحف من الخارج يمتد إلى نجد من شرقى الجزيرة أو من غربها •

وقد آن لنا أن نتكلم عن هذين النوعين بشيء من التفصيل •

٢ — زحف من الداخل

تحدثنا آنفا عن الحياة المستقلة التي كانت تعيشها القبائل الرحل أو المدن بنجد ، وكانت القبائل على كل حال أكثر ميلا للحرب وأكثر عددا من سكان المدن ، وأكثر قدرة على قطع الصلات بين سكان المدن وبين العالم •

وسكان المدن كانوا في حاجة للاتصال الخارجى لبيعوا انتاجهم وليشتروا ما يلزمهم ، ولذلك اتفقت كلمتهم في الجاهلية على تحريم الغارات والحرب خلال الأشهر الحرم ^(١) ، وجرى عرفهم بعد ذلك على أن سكان المدن يتفقون مع عاهل بدوى واسع النفوذ في قبيلته وفي « الديرة » على أن يضمن لهم السلامة داخل حدود دائرته ، وتدفع المدينة أتاوة (أخاوة) نظير ذلك ، ويحصل هذا عندما تكون هذه القبيلة قوية ، نفوذها واسع ، وحدود هذا النفوذ تبلغ مئات الأميال ، وتضم مدنا كثيرة على هذا النسق ^(٢) •

ذلك نوع من النفوذ الداخلى ، ولعل هدفه طيب ، ولكن هناك أنواع من النفوذ هدفها السيطرة من قبيلة على قبيلة ومن مدينة على مدينة ، ومن هذا زحف آل الرشيد الذى تحدثنا عنه من قبل ، ومنه كذلك زحف آل سعود في دولتهم الأولى والثانية ، إذ لم تكن الدعوة الإصلاحية قد اختمرت في النفوس واتضحت أهدافها الإصلاحية ، فاعتبر الزحف السعودى في خلال هاتين الدولتين وبسبب سوء فهمه لونا من الألوان التى ألفتها نجد في هذا المجال •

على أن الزحف الرشيدى والزحف السعودى خلال هاتين الدولتين لم يكونا دولة بالمفهوم العلمى المعروف ، وكل ما كان يفهم منه هو نوع

(١) انظر الكلام عن الأشهر الحرام في الجزء الأول من هذه الموسوعة ص ١٢٢ وفي الطبرى ج ٢ ص ١٥ •

(٢) انظر رحلة الى نجد للرحالة آن بلنت ص ٢٠٨ •

من الاعتراف بالسلطة السعودية أو الرشيدية ، وتدخل الحاكم السعودي أو الرشيدى فى اختيار رئيس المدينة أو القبيلة وهو فى الغالب من أهلها المواليين للحكم الجديد ، ودفع الاتاوة لآل سعود أو آل الرشيد ، وفيما عدا ذلك فالقبيلة أو المدينة تعيش حياتها الاستقلالية .

والزحف السعودى ومن بعده الزحف الرشيدى كانا يتجهان للاستيلاء على نجد كلها تقريبا ، ولكن كان هناك زحف آخر لا يتوقف تقوم به مدينة على مدينة ، ومن هذا النوع نذكر بضعة أمثلة :

فى سنة ١٠٩٧ استولى عبد الله بن معمر رئيس العيينة على بلدة « العمارية » وقد تسبب عن هذا أن هبت حرب بينه وبين أهل الدرعية الذين جاءوا لمساعدة العمارية ، وقد سبق أن ذكرنا ذلك ^(١) .

وفى سنة ١١٢٣ استولى أهل حريملاء على بلدة « ملهم » .

فى سنة ١٠٩٧ استولى عبد الله بن معمر رئيس العيينة على بلدة « جلاجل » على بلدة « روضة سدير » وعلى منزلة آل أبو هلال ، ومنزلة آل أبو سليمان ، ومنزلة آل أبو سعيد ^(٢) ، وأخرج العبيد من حوطة سدير ، وأسكن فيها أهلها آل أبو حسين من بنى العنبر ، وكانوا قد جلوا عنها ^(٣) .

وهناك نماذج كثيرة من هذا النوع يقابلها الباحث دون عناء ، فقد كانت هذه الحالة هى شريعة نجد قبل قيام المملكة العربية السعودية .

(١) انظر ص ٨٦ من هذا الكتاب .

(٢) (أبو) تستعمل مرفوعة فى المراجع فى جميع الأحوال .

(٣) الشيخ ابراهيم بن صالح : تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد ص ٨٩ و ٩٤ .

وينبغي أن يتضح أن هذا الزحف لم يستقر غالبا ، فكثيرا ما كان
يواجه بمقاومة تقضى عليه ، وأحيانا تجعل الغالب مغلوبا .

وينبغي كذلك أن يتضح أننا نقصد هنا الزحف الذى يتطلع للاستقرار
والسيادة ، أما الزحف الذى يرمى الى السلب والنهب دون محاولة
استقرار فهو عمل كان كثير الوقوع بسبب وبدون سبب فى مختلف الأرجاء
ببادية نجد وقد تحدثنا عنه من قبل .

٣ — زحف من الخارج على نجد

تحدثنا من قبل عن القبائل والمدن في نجد وقلنا ان كلا منها كانت تكون وحدة سياسية مستقلة ، وان العلاقات بينها كانت علاقات عدوانية ، والى الشرق من نجد والى الغرب منها قامت قوى أقرب ما تكون الى الدولة سواء كان ذلك في منطقة الأحساء أو في الحجاز ، فقد كانت هنا وهناك جيوش وعتاد وإدارة ، مستقلة أو تابعة لقوة أعظم ، وشهد التاريخ ألوانا من الزحف على نجد من الشرق ومن الغرب •

ولم يكن هذا الزحف يرمى الى ضم مناطق نجد الى الشرق أو الغرب ، فليس ذلك بمستطاع بسبب الصحراء الفسيحة التي تحيط بكل مدينة وبكل قبيلة ، مما يجعل تكاليف هذه المحاولة غالية الثمن وليست هناك فائدة تدعو لها ، وعلى هذا كان الهدف من حملات الشرق والغرب على نجد ينحصر في أمرين :

١ — التهديد حتى لا تحاول قوى نجد أن تقوم بأعمال ضد سيادة النظم بالشرق أو الغرب •

٢ — التبعية العامة ودفع إتاوة كانت تسمى الزكاة غالبا وقد تسمى خراجا أو إتاوة ، وتكون نقدا أو حاصلات عينية •

أما الحكم السياسي للمدينة أو القبيلة فيظل — كما ذكرنا من قبل — بالاعتراف بشيخها أو بتعيين شيخ آخر منها يكون أكثر استجابة للتعاون مع الغزاة ، ولم يحصل أن حكمت هذه المدن أو القبائل حكما مركزيا ، وما كان ذلك ممكنا •

ويلاحظ أن أطماع الشرق كانت مبكرة عن أطماع الغرب اذ قام بالشرق طيلة القرون الهجرية الأولى قشوى علا شأنها وعظمت قوتها في بعض الأحيان كالخوارج وبنو الأخيضر والزنج والقرامطة ، وكان لهؤلاء أطماع في نجد بل أحيانا أطماع وصلت الى الحجاز عبر نجد ، أما الحجاز

فى الغرب فكان تابعاً لمصر منذ عهد الأخشيديين ولم يكن لولائه أطماع فى نجد ، فلما تمكن نفوذ الأشراف فى العهد العثمانى ، بدأ هؤلاء الأشراف يتطلعون الى نجد فى النطاق الذى شرحناه من قبل •

وسنتحدث فيما يلى عن زحف على نجد من الشرق ، ثم عن زحف مماثل من الغرب •

زحف على نجد من الشرق :

كانت بلاد الأحساء منطقة مهمة لاتصالها بالخليج الذى كان يمثل منطقة اقتصادية هائلة ، ولاتصالها كذلك ببلاد فارس على الجانب الآخر من الخليج ، وقد قامت فى منطقة الأحساء دول كبيرة شديدة الأطماع ، وقد امتد نفوذها الى مناطق متعددة فى الجزيرة العربية وخارجها ، وكانت نجد من أهم الأماكن التى تطلع لها حكام الأحساء لىضموها ولأهلها ، أو ليحشروا أبطالها على مشاركتهم فى الغارات التى كانوا يقومون بها • وسنتدارس فيما بعد منطقة الخليج ، وننتحدث عن نشاط الدول التى قامت بها ، ونكتفى هنا بلمحات عن زحف دول الأحساء على نجد •

لقد تطلع الخوارج الى نجد واستطاع النجدات احدى فرق الخوارج أن يستولوا على اليمامة ، وأرسل نجدة سريعة الى « الخط » فظفر بأهله ، وامتد نشاط الخوارج بوادى نجد وأخذ نجدة الصدقة من أهلها ووصل فى زحفه الى الطائف •

وبعد نجدة سار أبو فديك فى هذا الاتجاه كما سار فيه مسعود العبدى الذى استطاع أن يستولى على اليمامة (١) •

أما بنو الأخيضر فقد ظهوروا فى الحجاز بقيادة محمد بن يوسف فى منتصف القرن الثالث الهجرى ، فحاربهم العباسيون وهزموهم ، ففروا

(١) الكامل : ابن الأثير ج ٤ ص ٢٨ •

الى اليمامة وملكوها ، ومن اليمامة مدوا نفوذهم الى بعض النواحي في نجد ، وظلوا يحكمون هذه المناطق في المدة من سنة ٢٥٣ هـ الى سنة ٣١٧ هـ ونشروا بها مذهب الشيعة الذي عاش بتلك البقاع فترة طويلة (١) .

وعندما قامت دولة الزنج في هجر انسابت للمنطقة كلها تقريبا ، وكانت لها تطلعات في نجد وسواها ، ولكنها لم تحقق ما حققه الخوارج قبلها ولا القرامطة بعدها .

أما القرامطة فقد اتسع نفوذهم في مناطق كثيرة بنجد ، ووصل هذا النفوذ الى أرض الحجاز واستطاع هؤلاء أن يأخذوا الحجر الأسود من مكة وأن ينقلوه الى عاصمتهم بالخليج ، وقد اتسع نطاقهم اتساعا هائلا ، فلم يتوقف عند نجد ، وانما امتد الى دمشق وحماه ومعرة النعمان وبعلبك .

وعندما قامت الأسرة العيونية بالبحرين تطلع كثير من أمرائها الى نجد وكان بعض أمرائها شديدي الاهتمام بالبراري لتعقب المفسدين ، والضرب على أيدي الأعراب ، كما كان منهم من امتد نفوذه الى نجد تماما مثل الأمير محمد بن أحمد بن عبد الله وستشمله أحاديثنا فيما بعد .

واذا قفزنا فترة الاحتلال الفارسي والمغولي في البحرين ووصلنا الى القرن السادس عشر ، وجدنا محاولات واضحة للزحف على نجد من الاحساء ، فإن العثمانيين الذين غزوا منطقة الأحساء في القرن السادس عشر لم يأبهوا في بادئ الأمر بالجزيرة العربية ، ولكنهم سرعان ما اتجهوا لها وحاولوا تمكين نفوذهم في أهم مناطقها (٢) ، وأصبح ذلك دستور السياسة في منطقة الأحساء ، أي أن يتطلع حكامها الى مد نفوذهم الى نجد ، وسنروى فيما يلي نماذج من زحف قادة الأحساء الى نجد .

(١) دكتور منير عجلاني : تاريخ المملكة العربية السعودية .

(٢) جون فيلبي : دعوة الشيخ محمد عبد الوهاب ص ٧ .

وفى سنة ١٠٨١ غزا براك بن غريز الخالدى رئيس الحسا والقطفيف
بلاد نجد وعين لها ولاية من قبله •

وفى سنة ١٠٨١ عين سلامة بن صويط رئيسا لبوادي الظفير •

وفى سنة ١٠٩٨ أغار محمد آل غثير صاحب الأحساء على منطقة
سبيع فى العارض وانتصر على سكانها ، وفى السنة التالية نزل هذا منطقة
الخرج وحارب آل عثمان رؤساء الخرج حربا شديدة ، ولكنهم صالحوه
فرجع عنهم •

وفى سنة ١١٢٦ أغار سعدون بن محمد آل غريز رئيس الحسا
والقطفيف هو وعبد الله بن معمر رئيس بلد العيينة على اليمامة ونهبوا
منها بعض المنازل وفى سنة ١١٣٣ عاد سعدون هذا الى نجد وأمضى فصل
الصيف فى العارض ، كما سار الى عقرب وإلى الدرعية ، ونهب كثيراً من
البيوت •

وفى سنة ١١٨٨ سار غريز بن دجدن آل حمد الخالدى رئيس
الحسا والقطفيف بالجنود العظيمة من الحاضرة والبادية ، وقصد بلدة
بريدة ، وأخذها عنوة ونهبها ، وقبض على أمير بريدة عبد الله الحسن
وجعل راشد الدريبي أميراً لها •

وفى سنة ١١٩٦ استعان أهل القصيم بسعدون سالف الذكر ضد
آل سعود ، وقد تحدثنا عن ذلك فيما قبل ويضيف الشيخ محمد عبد الله
الأنصارى معلومات ذات بال عن هذه الغزوة ، إذ يقرر أن سعدون هذا
حاصر بلدة بريدة ، ونزل قريبا من الزلفى وأقام عليها أياما ، ووفد
عليه كثير من رؤساء بلدان نجد يعلنون الطاعة والتعاون ، كما أرسل
فرقا من جنده الى مناطق متعددة فى نجد ، فأحرزت نجاحا كبيرا (١) •

وهكذا تعرضت بلاد نجد إلى ألوان من الزحف من الشرق في فترات متتالية على مر القرون •

زحف على نجد من الغرب :

ونجىء الآن للمحدث عن الزحف الذى عانته نجد من الغرب ، أى من الحجاز ، وقد سبق أن ذكرنا أن أطماع الشرق كانت مبكرة عن أطماع الغرب ، ولكن يبدو لمن يمعن النظر أن الحجاز سبق الأحساء في تطلعاته الى السيادة على مناطق نجد ، ففى مطلع الإسلام وفى حياة الرسول نفسه دخلت أرجاء الجزيرة العربية فى الإسلام وكان الرسول — كما قلنا من قبل — يفتقر رؤساء المدن والوفود على مكانتهم ، وقد بدأ نوع من التمرد فى أواخر حياة الرسول فى بنى حنيفة كما ذكرنا من قبل ، وبعد وفاة الرسول اتسع نطاق هذا التمرد فشمّل بقاعاً مختلفة فى الجزيرة وحمل هذا التمرد لواء الردة والتبؤ ومنع الزكاة وقامت العاصمة الإسلامية بواجبها فى ردع هذا التمرد والقضاء عليه حتى عادت الجزيرة العربية الى الطاعة (١) •

وقد حرصت الحجاز بعد ذلك على القيام بهذا الدور كلما حصل تمرد فى الداخل بشرط أن تكون الحجاز نفسها قادرة على مقاومة هذا التمرد •

وفى بعض الحالات شغلت الحجاز بصراع مع الخلافة الأموية أو العباسية ، فأتاح هذا الصراع فرصة الاستقلال التام للوحدات السياسية بنجد ، ففى عهد ثورة عبد الله بن الزبير ضد الأمويين أو ثورة الامام محمد النفس الزكية وخلفائه ضد العباسيين تم استقلال وحدات نجد عن الحجاز ، ولكنها بدأت تتعرض لزحف الشرق الذى أشرنا اليه آنفاً ، فقد انتهزت الأحساء فرصة الضعف بالغرب ، وكان بالأحساء قوى تعتبر

(١) انظر حديثنا عن الصراع فى الجزء الأول من هذه الموسوعة •

متمردة على الخلافة كالزنج والقرامطة ، فانتجعت هذه القوى الى غزو نجد ، على ما ذكرنا من قبل . وبخاصة أن الحجاز عقب ذلك أصبح تابعا لمصر في أكثر الأحوال ، ولم يعد له تطلعات بقلب الجزيرة العربية ، مما أتاح لقوى الشرق أن تستبدّ بمحاولة الزحف على نجد .

ومع ظهور الأتراك العثمانيين تم فصل الحجاز عن مصر ، ثم قوى نفوذ الأشراف الذين كانوا يتولون أمر الحجاز باسم العثمانيين . وعندما أحس الأشراف بنفوذهم ، تطلّعوا الى مناطق نجد وأصبحوا يعتبرون أنفسهم سادة المناطق الداخلية من الجزيرة كما يقول جون فيلبى ، وكانوا يقومون بالاغارة على هذه المناطق بغية تأديب أهلها حيناً ، وللماء حرائنهم بالمال حيناً . وأولى هذه الغارات فيما يذكر ابن بشر تلك التى وقعت سنة (٩٨٦ هـ — ١٥٧٨ م) عندما وصل الشريف حسن أبو ندى الى الرياض بجيش عدته خمسون ألفا من الجنود ، ورابط هناك طويلا يقتل وينهب ، وحين هم الشريف بمغادرة البلاد عين من لدنه رجلا اسمه محمد ابن فضل أميرا عليها وارتهن عددا من الزعماء سجنهم عاما ، ولكنه عاد فأطلق سراحهم بعد ذلك شريطة أن يدفعوا له جزية سنوية معينة ، وبعد انقضاء ثلاث سنوات عاد الشريف نفسه فغزا نجدا ، وقد وجه اهتمامه هذه المرة الى مقاطعة الخرج ، فاحتل مدنها الرئيسية والمواقع الاستراتيجية فى المرتفعات المحيطة بها ، ثم عاد الى بلاده تاركا من ينبون عنه فى ادارة شؤون المنطقة (١) .

وبعد وفاة الشريف حسن تولى ابنه ادريس ، وفى عهده غزا شقيقه أبو طالب نجد سنة (١٠١١ هـ = ١٦٠٢ م) واتضم له ادريس فى هذه الغزوة فحقق انتصارا كبيرا ، ومات ادريس فى جبل شهر ، وتولى بعده ابن أخيه محسن إذ كان ادريس قد أشركه فى الامارة يوم تولاهما ، فلما مات ادريس استبد بها محسن دون أبناء عمه ، فقد كان أقوى رجل فى

(١) دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية : ص ٧ وتاريخ بعض الحوادث الواقعة بنجد لابراهيم بن صالح ص ٤٨ .

الأشراف آنذاك ، وقد غزا نجد سنة ١٠١٥ هـ = ١٦٠٦ م ووصل الى قرية قصب في شعيب فاحتلها وأعمل السيف في رقاب أهلها بوختية ، وقد استطاع الشريف محسن أن يصل في غزواته الى قرب الأحساء ، ويقول ابن بشر أنه لم يتفق لأحد من القادمين من الغرب أن يصل الى الأحساء غير الشريف محسن (١) .

وقد توفي محسن بعد غزوة الأحساء بفترة وجيزة ، فخلفه ابن عمه سعود بن ادريس ، ولكن اماره هذا لم تطل فخلفه زيد بن محسن سالف الذكر ، وقد طالت مدة زيد حتى توفي سنة ١٠٧٦ هـ = ١٦٦٥ م ، وفي عهده قام بغزو نجد عدة مرات ففي سنة ١٠٥٧ هجرية نزل روضة سدير ، وقتل أميرها ، وعين أميراً يحكم باسمه من آل أبو سعيد ، وكان قاسياً بأهل البلاد قسوة بالغة الحد ، وفي نفس العام نزل (بيان) على مشارف الرياض فسلب منها وقتل . وفي أثناء عودته زار العيينة وأخذ من أهلها مالا كثيرا وثلاثمائة جمل . وفي سنة ١٠٦٩ هجرية هاجم نجدا مرة أخرى . ونزل بين التويم وجلاجل .

وفي سنة ١٠٨٤ هـ غزا الشريف بركات مناطق (حَرَب) وانتصر انتصارا كبيرا على أهلها . ويقول الشيخ ابراهيم بن صالح ان خنادقهم التي حفروها لم تتفعهم ، وكانت قبورا لهم واستبيحت أموالهم وديارهم ، ونُهبت أموالهم ، وقتل خيارهم (٢) .

وفي سنة ١٠٨٨ هـ غزا الشريف محمد الحارث منطقة « الظفير » وقتل غانم بن كاسر رئيس الفضول ، وتسمى هذه الغزوة (مناخ الضلفة) والضلفة ناحية من نواحي القصيم .

وفي سنة ١١٠٥ هـ هاجم سعد بن زيد صاحب مكة بلاد نجد ، ووصل

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد - ج٢ ص ٤٠٣ .
(٢) تاريخ بعض الحوادث بنجد : ص ٦٥ بالهامش .

الى منطقة الحمادة ، وفي سنة ١١٠٧ هـ غزا الشريف سعد بلاد نجد ،
ونزل روضة سدير •

وفي سنة ١١١٣ هـ هاجم الشريف الحارث منطقة « الظفير » ووقعت
وقعة « السبّيع والبقرا » وكان النصر فيها للشريف •

وفي سنة ١٢٠٥ هـ غزا الشريف غالب بن مساعد بلاد نجد ونهب
(ضربة) وهدمها ، وهاجم (الشّعرا) و (البرود) ولكنه لم يحقق
فيهما وطرا •

وفي سنة ١٢٦٣ هـ غزا الشريف محمد بن عون بلاد نجد ووصل الى
عنيزة ، فأرسل اليه الامام فيصل بن تركي هدية مع أخيه جلوي فقبلها
ورجع الى مكة •

ويمكن أن يعد الزحف المصري على نجد الذي سنتحدث عنه فيما
بعد ، لونا من ألوان زحف الغرب على قلب الجزيرة العربية ، فإن محمد
على احتل الأحجاز أولا واتخذ مركزا لزحفه على نجد •

ولعل من آثار الزحف الخارجي على بلاد نجد تلك الكتابات الأثرية
التي توجد في عدة مناطق بنجد ، وتوحي بأنها بقايا زحف ، أو بقايا
كشف على أحسن تقدير ، وقد أشارت ليدي بلنت^(١) الى بعض هذه
الكتابات الأثرية في رحلتها بنجد فذكرت أن هناك في النفود بقايا بعض
حروف قديمة محفورة على الصخور من نفس النوع الذي يوجد في
سيناء ، وهناك أيضا في بلدة « عقدة » صخور من الجرانيت التي توجد
كثيرا بجبال سيناء ، وعلى واحدة من هذه الصخور نُقِشت كتابة عربية
غير جيدة الوضوح هي : « هذه خربة سنحاريب^(٢) » وليس من المؤكد

(١) رحلة الى نجد : في صفحات متعددة •
(٢) سنحارب ملك آشور (٧٠٥ - ٦٨١ ق م) •

أن سنحاريب اتخذ يوما طريقه الى نجد ، وبخاصة أنه لم يكتب بلغته المسمارية •

وتتحدث كذلك هذه الرحالة عن ثل عجيب بالقرب من حائل ينتصب وحيدا في السهل ، وهو من الصخر الرملي مغطىً بنقوش وصور طيور وحيوانات ، وبه كتابة تمتاز بالوضوح والتناسق وهي بالحروف الفينيقية القديمة ، ولعل هذه الكتابات كما تقول الرحالة كانت لجماعة من الفينيقيين التجار الذين كان من عاداتهم اقتحام هذه الفيافي لعرض تجارتهم ، أو للتعرف على إنتاج هذه المناطق ، وكانوا يتوقفون على الطريق فينقشون أسماءهم اذا وجدوا صخورا ليئة ، ويرسمون بعض الحيوانات •



وهكذا تعرضت نجد إلى زحف من الغرب كما تعرضت إلى زحف من الشرق ، ولكنه كان زحفا كما حددناه من قبل لا يقصد إلا التهديد أو ضمان التبعية العامة ودفع الزكاة ، وفي كل الأحوال كانت وحدات نجد تتمتع باستقلال ذاتي ، عندما ترتبط بقوة القاهرة ، ولكن هذه الوحدات كانت تعمل على أن تستعيد استقلالها التام ، وتتخلص من كل قوة دخيلة ، فبلاد نجد — كما تقول ليدي آن بلنت — لم تخضع لحكم أجنبي ، ولم تدخل قط ضمن نطاق الامبراطوريات التي كانت تحيط بها ، وقد ظل الحرص على الاستقلال دستور الحياة في نجد حتى جاء الاسلام فخضعت نجد للدولة الاسلامية ، ولكنها كانت أسرع أجزاء الدولة الاسلامية للعودة لاستقلالها القديم (١) •

وهكذا نجد أن تاريخ نجد في تلك الفترة الطويلة هو تاريخ القبائل بما بها من استقلالية وصراع ، وقد أعطينا نماذج منه يمكن أن تنطبق على باقى مناطقه ، فليس تاريخ نجد مجهولا الآن هذه هي ملامحه التي

(١) رحلة الى نجد : ص ٢٠٩ و ٢١٠ •

(م ٨ - التاريخ ج ٧)

لم تتخلف ، وليس تاريخ نجد معروفا الآن هذه المعرفة لا تبعث الضوء
بقدر ما تبعث الأسى *

وبعد ، لقد سرنا مع نجد في مسيرتها التاريخية عبر عدة قرون ،
ورأيناها تموج بالصراع والدم والقلق ثم انبثقت بها الدعوة الإصلاحية
التي نادى بها الامام محمد بن عبد الوهاب ، وأزرتها سيوف آل سعود ،
وقد آن لنا أن نتحدث عن نجد في ظل هذا العهد الجديد فنصف ما شاهدته
نجد من مد وجزر حتى أقام الملك عبد العزيز المملكة العربية السعودية
ثابتة الأركان ، ربيعة البنيان ، قُعمرت البلاد بالأمن والاستقرار ، وتكونت
الدولة بمفهومها العلمى الدقيق *

نجد وآل سعود والدعوة الإصلاحية

أشرنا فيما سبق إلى أن العثمانيين كانوا قاننين من الجزيرة العربية بالحجاز وبعض المواقع المهمة بدائر الجزيرة ، ولم يثبدوا اهتماما يذكر بنجد ، وفي القرن الثامن عشر الميلادي انبثقت بنجد حركة جديدة استدعت قلق العثمانيين أو اضطرتهم لتغيير خططهم تجاه حكم الجزيرة العربية ، فقد ظهرت حركة دينية رفع الشيخ محمد بن عبد الوهاب بها صوته والتقت هذه الدعوة الدينية بإحدى القوى الناشئة في نجد وهي قوة السعوديين واستجاب السعوديون لدعوة الإصلاح ، وقويت الدعوة بسلطة الأمير السعودي ، وقوى الأمير السعودي بالدعوة الجديدة التي نقلته من قائد حركة قبلية ككل الحركات العربية ، إلى دعوة إصلاحية بعيدة المدى ، وحركة كهذه أفضت مضاجع العثمانيين لأنها تنافسهم السلطان ، ولأنها أيضا وصلت لهم ولأهل الحجاز مشوّهة الصورة ، وقد تسبب عن تشويه صورة الدعوة الجديدة أن قام شريف مكة سعود بن سعيد سنة ١١٦٢ هـ باعتقال الحجاج النجديين (الموحدين) حتى لا ينشروا معتقداتهم بين أهل الحجاز وبين الحجاج الآخرين ، وقد توقف حجاج نجد بعد ذلك ، أو قل منعوا عن أداء فريضة الحج فترة من الزمن .

وفي سنة ١١٨٣ هـ حدثت مناوشة بين النجديين وبين فرقة عسكرية تابعة لأشراف الحجاز ، واستطاعت القوة السعودية أن تعتقل رئيس فرقة الأشراف واسمه (الشريف المنصور) ، ولكن الأمير السعودي عبد العزيز أطلق سراحه بدون فدية مما دعا إلى تحسين العلاقات بعض الشيء بين حكام نجد وأشراف الحجاز ، فأذن شريف مكة بالحج لأهل نجد ، بل أرسل شريف مكة أحمد بن سعيد إلى السعوديين يطلب فقيها وعالما من جماعتهم ليتناقش مع شيوخ مكة حول حقيقة الدعوة ، فاختارت السلطة في نجد الشيخ عبد العزيز الحصين ليقوم بهذا العمل ، وسافر إلى مكة حيث التقى بعلمائها ، ودارت مناقشة في أمور ثلاثة هي :

- ١ — ما نسبَ للموحدين من التكفير العام للمسلمين •
- ٢ — هدم القباب التي على القبور •
- ٣ — إنكار شفاعة الصالحين •

وقد استطاع الشيخ عبد العزيز أن يشرح اتجاه الموحدين شرحا وافيا فاعترف علماء مكة باستقامة حججه ولكنهم جحدوا (١) •

وقد كان هذا التصرف من الشريف أحمد بن سعيد مثيرا للعثمانيين ولبعض الأشراف ، مما دعا الى خلع الشريف أحمد بعد سنتين من ولايته وتعيين شريف آخر هو سرور بن مساعد ١١٨٦ هـ ورأى العثمانيون أن لابد من التدخل بالقوة لمنع الزحف السعودي على الحجاز إذ كان الحجاز بطبيعة الحال شديد الأهمية في نظر الأتراك العثمانيين ، وبدأ بذلك صراع طويل بين السعوديين وبين العثمانيين جعل العثمانيين يحاولون مد سلطانهم إلى نجد ، وكانوا ينتصرون أحيانا ويترجعون أحيانا ، ويتخذون من مصر والعراق والحجاز مراكز لهجومهم على نجد ، أو يتخذون أحيانا بعض القوى القبلية بالجزيرة أداة ضد السعوديين ، كما أصبح السعوديون أكثر من قوة قبلية ، بل دعوة إصلاحية كبرى تعمل على مد نفوذها ونشر مبادئها في الجزيرة العربية وخارجها

ولتوضيح هذا الصراع يجدر بنا أن نتجه بحديثنا إلى القوة السعودية التي ستصبح لها الغلبة في النهاية ، لنرى كيف انبثقت هذه القوة ، وأدوار الحياة التي أحاطت بها ما بين عسر ويسر ، وماذا حدث بينها وبين العثمانيين وسواهم من القوى التي صارعتهم بالجزيرة العربية

(١) ابن غنام : روضة الأفكار ج ٢ ص ٩٢ •

السعوديون *

الأمير سعود :

يستمد السعوديون تسميتهم من جدهم سعود بن محمد بن مقرن ، ويؤكد سعود هذا هو المؤسس الأول للأسرة السعودية ، على أن مقرن جد الأمير سعود ينسب له حادث مهم هو الاستقرار في وادي حنيفة ، وكان لأجداد السعوديين ارتباط ببلدة « داريا » على الخليج ، ولهذا أطلقوا على مقرهم الجديد في وادي حنيفة اسم « داريا » وقد عرفت فيما بعد باسم « الدرعية (١) » .

وكانت الأسرة قبل أن يستقر مقرن في « داريا » تتحرك في أنحاء مختلفة من الجزيرة العربية طلبا للماء والكلا فزلت حيناً خيبر وحيناً نيماء ، ومدائن صالح والمدينة المنورة ، ونواحي مختلفة في نجد ، ثم استقر مقرن في الدرعية ، ولا يعد مقرن مؤسساً للملكة السعودية ، لأن استقراره كان أشبه باستقرار القبائل الذي يحصل من حين إلى حين ، أما الأمير سعود فقد ثبت استقراره في الدرعية ، وبنى بها دار إمارة ،

- * هناك مراجع كثيرة عن تاريخ السعوديين منها :
- | | |
|------------------------------------|--|
| حافظ وهبة | جزيرة العرب في القرن العشرين |
| صلاح الدين المختار | تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها |
| فؤاد حمزة | قلب جزيرة العرب |
| حسين غنام | تاريخ نجد |
| عثمان بن بشر | عنوان المجد في تاريخ نجد |
| محمد طارق الافريقي | المملكة العربية السعودية بين الأمس واليوم |
| جمال الدين الشعراني | التاريخ السياسي للمملكة العربية السعودية |
| محمود شكرى الألوسى | تاريخ نجد |
| John Philby | تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب |
| محمد عسه | السلفية . |
| كارل توتشل | معجزة فوق الرمال |
| ابراهيم بن صالح | المملكة العربية السعودية |
| (١) تقويم البدان الاسلامية ص ٢٨٧ . | تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد |

ومدة نفوذه الى ما جاورها من واحات ، وكان ذلك أساس الملك السعودي
فلا عجب أن تستمد هذه الدولة اسمها من هذا الأمير الذكى الطموح .
وأمرء السعوديين وملوكهم هم الآتى :

الدولة السعودية الاولى :

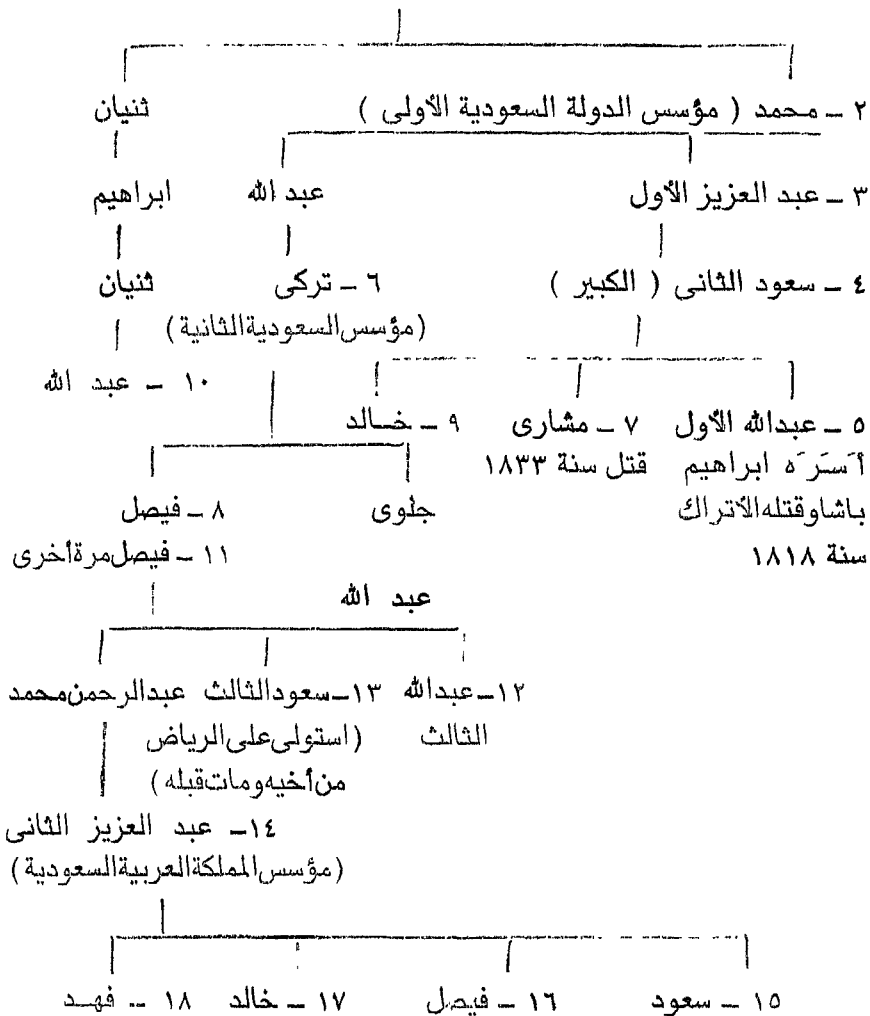
- | | |
|----------------------------|---------------------|
| ١ — سعود | إلى ١١٣٧ هـ |
| ٢ — محمد بن سعود | من ١١٣٧ هـ = ١٧٢٤ م |
| ٣ — عبد العزيز الأول | من ١١٧٩ هـ = ١٧٦٥ م |
| ٤ — سعود الثانى (الكبير) | من ١٢١٨ هـ = ١٨٠٣ م |
| ٥ — عبد الله الأول | من ١٢٣٠ هـ = ١٨١٤ م |

الدولة السعودية الثانية :

- | | |
|------------------------|--|
| ٦ — تركى | من ١٢٣٤ هـ = ١٨١٨ م |
| ٧ — مشارى | من ١٢٤٩ هـ = ١٨٣٣ م |
| ٨ — فيصل | من ١٢٥٠ هـ = ١٨٣٤ م |
| ٩ — خالد | من ١٢٥٧ هـ = ١٨٤١ م |
| ١٠ — عبد الله الثانى | من ١٢٥٧ هـ = ١٨٤١ م |
| ١١ — فيصل (مرة أخرى) | من ١٢٥٩ هـ = ١٨٤٣ م |
| ١٢ — عبد الله الثالث | من ١٢٨١ هـ = ١٨٦٤ م |
| ١٣ — سعود الثالث | (استولى على الرياض فترة من
أخيه عبد الله ثم مات قبله) |

الدولة السعودية الثالثة :

- | | |
|-------------------------|---------------------|
| ١٤ — عبد العزيز الثانى | من ١٣١٩ هـ = ١٩٠١ م |
| ١٥ — سعود بن عبد العزيز | من ١٣٧٣ هـ = ١٩٥٣ م |
| ١٦ — فيصل بن عبد العزيز | من ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٤ م |
| ١٧ — خالد بن عبد العزيز | من ١٣٩٥ هـ = ١٩٧٥ م |
| ١٨ — فهد بن عبد العزيز | من ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م |



وقد كُتِبَ على هؤلاء السعوديين أن يصارعوا في عدة جبهات ، وأن يحققوا أحيانا نجاحا معجزا ، وتنزل بهم أحيانا هزائم قاصمة ، ولكنهم بقوا وانتهى الآخرون ، وامتد ملكهم فابتلع المملكة الحجازية والإمارة الرشيدية ، والإمارة الادريسية ، وإمارات آل عائض تلك الإمارات التي تخلفت بالجزيرة عن عهد الأتراك العثمانيين كما سنرى •

وهكذا ورث تيار الحياة السعودي الجميع ، وعاش يتدفق في حين نضبت الفروع الأخرى ، وهوت إلى الأبد •

الدولة السعودية الأولى

محمد بن سعود :

إذا كان الأمير سعود هو الذي وضع الأساس للمملكة السعودية فإن الذي رفع البناء هو ابنه محمد أو قل بوجه أدق هو الارتباط بين القوة السعودية والفكر الإصلاحى الذى حمل لواءه الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، فعندما لجأ الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية واعتنق محمد بن سعود مذهبه تغير وجه الزحف السعودى فأصبح دينيا فكريا بعد أن كان قبلها ، ويقول الأستاذ حافظ وهبه ^(١) : قبل سنة ١١٥٠ هـ (١٧٣٧ م) وهى السنة التى وفد فيها الشيخ محمد بن عبد الوهاب المصلح الكبير على محمد بن سعود لم يكن لآل سعود شأن كبير فى نجد ، ولم يكن لهم دور يذكر فى شئون الجزيرة ، بل كان شأنهم شأن غيرهم من شيوخ المقاطعات النجدية ، وكانت الجزيرة العربية مقسمة الى مناطق عدة ، لكل منطقة أمير يمتد نفوذه أو يقصر ، حسب كفاءته الشخصية وهمته ، والأمراء البارزون فى ذلك هم أمراء الحجاز وبنو خالد فى الأحساء وما والاها على الخليج ، وآل معمر فى العيينة ، والسعدون فى العراق ، وإمام صنعاء فى اليمن ، والسادة فى نجران ، والبوسعيديون وسواهم فى

(١) جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٢٤٣ - ٢٤٤ •

مسقط وعمان ، وبعد أن تعاهد محمد بن سعود مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب على تطهير جزيرة العرب من البدع والخرافات التي كانت شائعة بها ، وعلى نشر كلمة التوحيد ووقفت نجد أو بالأحرى وقفت الدرعية ضد سائر المدن والإمارات الأخرى ، وبدأت حرب دينية دامية كان النصر فيها لجيوش التوحيد ودعاة الإصلاح •

ويجدر بنا أن نتوقف هنا لنتعرف على الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأفكاره :

الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوته

إذا كانت مصر سنيّة تعتنق مذهب الإمام الشافعي غالبا ، وإذا كان الشمال الأفريقي سنيا يتبع مذهب الإمام مالك غالبا ، وإذا كانت إيران شيعية •• وهكذا فإن الجزيرة العربية مهد الإسلام لم تكن على هذا المذهب أو ذلك ، بل عشت بها بقايا أفكار وحثالة اتجاهات ، يقول Gerald de Gaury (١) : كانت الجزيرة العربية أكثر البقاع الإسلامية بعداً عن المذاهب الإسلامية وجريا خلف التطرف من أى اتجاه ، ويصدق هذا على نجران والجوف ، والأحساء ونجد وغيرها •

وقد سبق أن اقتبسنا من المقدسي تصويره للتفكك الفكري بالجزيرة العربية ، وكيف عشت بها بقايا المذاهب المتطرفة والاتجاهات الشاذة ، ونتجه الآن لمؤرخي نجد لنقتبس منهم مزيدا من التفصيل عن الانحرافات الفكرية في نجد والجزيرة العربية حتى قيام دعوة الإصلاح •

يقول الشيخ حسين بن غنام :

كان كثير من المسلمين في مطلع القرن الثاني الهجري قد اركسوا في الشرك وارتدوا الى الجاهلية ، وانطأ في نفوسهم نور الهدى لغلبة

الجهل عليهم ، فنبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، وعدلوا إلى عبادة الأولياء والصالحين ؛ أمواتهم وأحيائهم ليستشفوا بهم في النوازل ويستعينوهم على قضاء الحاجات ، وتفريج الشدائد ، بل إن كثيرا منهم كان يرى في الجمادات كالأشجار والأحجار القدرة على تقديم النفع ودفع الضرر (١) .

وكان في بلاد نجد من ذلك أمر عظيم وهول مقيم ، كان الناس يقصدون قبر زيد بن الخطاب في الجبيلة يدعونه لتفريج الكرب ، وكشف النوب ، وقضاء الحاجات ، وكانت في الدرعية قبور بعض الصحابة ، وقد عكف أهل البلاد على عبادتها وصارت هذه القبور في صدورهم أعظم من الله خوفا ورهبة (٢) .

وتحدث المؤلف عن نظائر لذلك في شعيب وبليدة والطرفية وعن غار أسفل الدرعية ، وبعض الطواغيت ممن كانوا يُعَدُّون أولياء (٣) .

وانثنى إلى الحرم المكي ليذكر أن ما يفعل به يزيد على غيره ، فإن جماعات الأعراب يأتون فيه بألوان من الفسوق والضلال (٤) .

وتحدث عما يفعل عند قبة أبي طالب وقبر ميمونة بنت الحارث في سكر ، وقبر عبد الله بن عباس في الطائف وقبر الرسّيل في المدينة من ضلالات وانحرافات (٥) .

ولم يكتف الشيخ حسين بن غنام بنجد والحجاز ، بل تكلم عن انحرافات وأضاليل مشابهة في كثير من الأقطار الإسلامية وأفاض في

- (١) تاريخ نجد ص ١٠ .
(٢) المرجع السابق ص ١١ .
(٣) المرجع السابق ص ١١ - ١٢ .
(٤) المرجع السابق ص ١٣ .
(٥) المرجع السابق ص ١٤ .

الكلام عما يتبع عند قبر الإمام على كرم الله وجهه ، ومشهد الإمام الحسين ، ومشهد الإمام الكاظم ع

ويقول الشيخ عثمان بن بشر النجدي (١) :

كان الشرك قد فشا في نجد وغيرها ، وكثر الاعتقاد في الأشجار والأحجار ، والقبور والبناء والتبرك بها والنذر لها ، والاستعانة بالجن والذبح لهم ، ووضع الطعام لهم في زوايا البيوت لشفاء مرضاهم ونفعهم وضرهم ، وكثر الحلف بغير الله ، وغير ذلك من الشرك الأصغر والأكبر ، ويذكرون من أمثلة ذلك أنهم كانوا في الجبيلة يقصدون قبر زيد بن الخطاب باعتباره مؤثلاً يحسن الأحوال ، ويجيب في الملمات ، كما كان سكان بلدة « منفوحة » عندهم فحل نخل تؤمه العوانس ليتزوجن ، وكن يهتفن به : يا فحل الفحول أريد زوجاً قبل الحول •

هذا من الناحية الدينية ، أما من الناحية السياسية فقد عادت الجزيرة العربية الى فترقة الجاهلية الأولى ، وتجددت فيها الحياة القبلية ، وعادت الحروب تأكل كل البشر والحيوان والنبات ، ولم تكن هناك شريعة أو قانون الا ما تقضى به أهواء الأمراء وعملهم •

وكان هذا مؤثلاً حقا أن يصير الموطن الأول للدعوة الإسلامية على هذا النمط ، فقيض الله فكر الشيخ وسيف الأمير للقضاء على هذا الباطل •

مولد الشيخ وتحركاته :

وقد ولد الشيخ محمد سنة ١١١٥ هـ (١٧٠٣ م) في بلدة العيينة بنجد ، وكان والده الشيخ عبد الوهاب من العلماء ، وكان قاضياً للعيينة في عهد أميرها عبد الله بن معمر ، وحفظ الشيخ محمد القرآن الكريم في مطلع العمر ، وقرأ على أبيه كثيراً من الكتب في العلوم الإسلامية ، ولما

اشتد عوده راح يطوف بالبلاد ليلتقى بالعلماء وليأخذ عنهم ، فذهب الى مكة حاجا وطالب علم ، كما سار الى المدينة حيث جلس في حلقة الشيخ عبد الله بن ابراهيم من آل سيف رؤساء بلدة « الجمعة » بالقرب من سدير ^(١) ، كما أخذ العلم عن العلامة محمد المدني ، ثم ذهب إلى البصرة وقرأ على الشيخ محمد الجموعى في بلدة « المجموعة » في ضواحي البصرة ، وامتدت رحلاته العلمية فشملت بغداد وكردستان ، وهمذان واصفهان ، ودرس الشيخ — كما يقول الأستاذ أحمد أمين ^(٢) — فلسفة الإشراق والتصوف ثم رحل إلى « قم » حيث التقى كذلك بعلمائها •

وعندما كان الشيخ في البصرة أحس أنه أصبح على درجة من العلم يستطيع بها أن يتكلم وأن يعطى بعد أن أخذ كثيرا ، فبدأ بجهر ناقدًا الضلال الذى يراه هنا وهناك ، والانحراف الذى يثبده الناس عن الدين الصحيح بل بدأ يقرر أن الدعوة للحق إلزام ، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب ، وأن السكوت على هذا الإثم إثم كبير •

وأثار هذا الاتجاه الناس على الشيخ ، وتجمع أهل البصرة عليه ، وألحقوا به الأذى وطردوه •

وكان هذا أول امتحان يمر به الشيخ فإما أن يصمد وإما أن ينهار ويستسلم ويكتفى بالسخط بقلبه وهو أضعف الايمان ، ولكن الشيخ رحب بالأذى وقرر أن يدخل المعمة ، فإما أن ينتصر وإما أن يموت في سبيل الله •

وغادر البصرة حيث استكمل جولاته ، ثم هبط إلى نجد بعد العناء المطويل الذى تعرض فيه للبطش والعدوان ، ونزل في الاحساء على الشيخ عبد الله بن محمد الشافعى الأحسائى ثم رحل الى بلدة « حَرِيْمَلَة » التى اتخذها أبوه مقرا له بعد أن ترك العيينة إثر خلاف بينه وبين واليها ،

(١) الشهاب : لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب ص ١١٤ •

(٢) زعماء الاصلاح ص ٧ •

وفي الحريملة عاد الشيخ محمد يتدارس مع أبيه علوم الدين ، ويجهر
بضرورة تغيير الحال المنحرف في تلك البقاع ، وتوفي والده سنة ١١٥٣ هـ
(١٧٤٠ م) فأصبحت التبعة الفكرية ملقاه على الشيخ محمد الذي منعه
إجلاله لأبيه أن يسبقه في حياته إلى الجهر بدعوة يعتنقها جميعا •

وكان في حريملة ظروف دعت إلى سرعة الجهر بالدعوة ، فقد كانت
تعيش فيها قبيلتان دون أن يكون بالبلدة رئيس عام ، واحد القبيلتين
تملك طائفة من العبيد الذين أظهروا العدوان وأكثروا الفسق والفجور ،
فصرخ الشيخ بأن هذا منكر ينغى القضاء عليه ، فثار عليه العبيد وقرروا
الفتك به ، ولكن بعض الناس حموه وساعدوه على الخروج من حريملة
سالما (١) •

ومن حريملة اتجه الشيخ الى العيينة مسقط رأسه ، فرحب به رئيسها
عثمان بن حمد بن معمر ، وزوجه قرييته (الجوهرة) وعرض الشيخ
على عثمان فكره وقرر له حقيقة التوحيد وحدوده ، وما ينقضه ، ودعاه
إلى اعتناق هذا الاتجاه وقال له : أرجو إن قمت بنصرة لا إله إلا الله أن
يظهرك الله وتملك جميع بلاد نجد ، فقبل عثمان دعوته ووعدته بالعون
والمساعدة ، وجهر الشيخ بدعوته فاعتنقها عدد كبير من الرجال بالبلدة ،
واتجهت جموع الشيخ الى القباب التي كانت على شهاداء معركة اليمامة
فهدموها وبخاصة التي كانت على زيد بن الخطاب ، كما قطع الشيخ
وأعوانه أشجارا كان الناس يعظمونها وينذرون لها ، وشرع الشيخ في
إقامة الحدود الشرعية وكانت معطلة ، ففضى بالإعدام رجما على امرأة
زنت واعترفت بالخطيئة دون أن تكره عليها •

وأمر الشيخ عثمان بن معمر بإحياء الصلوات مع الجماعة وعيّن
للمتخلفين عقوبات ، وألغى الشيخ الضرائب الجائرة والرسوم التي كان

(١) الشيخ حسين بن غنام : عنوان المجد ص ٧٨ وصلاح الدين مختار
تاريخ المملكة العربية السعودية ص ٣٧ •

يأخذها الأمراء من الرعية ، ولم يسمح إلا بأخذ الزكاة فقط على أن تصرف في مصارفها ، واستجاب عثمان بن معمر لهذه الاتجاهات القويمية وعمل على نشرها (١) .

ولكن الرواة والمعرضين شوّهوا هذه الدعوة ونقلوها مشوهة إلى حاكم الأحساء سليمان بن محمد الذي كان سلطانه قد امتد إلى كثير من بلاد نجد بما في ذلك المدينة ، وكان لابن معمر مرتب سنوى عنده باعتباره أميراً تابعاً له ، فكتب إليه يقول : « ان المطوع الذي عندك قد فعل كذا وكذا من المنكر فاقته ، فإن لم تفعل قطعنا خراجك » ، واضطرب أمير المدينة لرسالة الأحساء ، وأحس الشيخ بذلك فاتجه إلى الأمير يقول له إن هذا الذي قمت به ودعوت له هو ركن الإسلام ، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإن أنت تمسكت بذلك وأظهرته ، فإن الله يظهرك على أعدائك . فلا تنزعج بقول سليمان ولا تنزع منه .

ولكن عبد الله بن معمر لم يصنع إلى الشيخ ، وإن كان لم يقتله . وأرسل له يقول : ان سليمان أمرنا بقتلك ولا نقدر على غضبه ولا مخالفة أمره لأنه لا طاقة لنا بحربه وليس من الشيم والمروءة أن نقتلك في بلادنا ، فحسبك ونفسك ونحل بلادنا » .

وهكذا لم يستطع عثمان أن ينفذ الأمر أو يرفضه فلجأ إلى الحل الوسط بأن أوعز إلى الشيخ بالهرب فاتجه الشيخ إلى الدرعية ونزل دار تلميذه محمد بن سويلم العريني ووصلت أخباره إلى رئيس الدرعية محمد ابن سعود بن مقرن ثانی أمراء السعوديين وعرفت زوجة الأمير (موسى بنت أبي وطبان) خبر مجيء الشيخ إلى الدرعية وكانت ذات عقل وروية ، فأشارت على زوجها بمقابلة الشيخ وإيوائه ومؤازرته ، فقبل نصيححتها وزار الشيخ ، وقال له أبشر ببلد خير من بلدك وأبشر بالعرز والمنعة ، فأجابه

(١) مسعود الندوي : محمد بن عبد الوهاب ص ٤٧ .

الشيخ : وأنا أبشرك بالعز والتمكين لأن من قام بنصر الحق فهو منصور وكلمة لا إله إلا الله من تمسك بها وعمل بها ونصرها ملكك العباد .
فبسط محمد بن سعود له يده وباعه على النصرة والمنعة والجهاد في سبيل الله (١) .

السيدة موصى :

وقبل أن نتجه إلى أفكار محمد بن عبد الوهاب يجدر بنا أن نقول عن السيدة الفاضلة حرم الإمام محمد بن سعود ، إنها كانت نقطة انتقال الفكر الإصلاحى من الضعف إلى القوة مما يدل على أننا يوم نعلّم النساء سنكسب كثيرا ، فالمرأة العاقلة لها تأثير عظيم على زوجها وعلى أولادها .

أفكار محمد بن عبد الوهاب :

بعد هذا الحديث عن شخصية الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتكوينه العلمى ، ينبغى أن نقف وقفة قصيرة نعطي فيها مزيدا من التعريف بأفكار الشيخ ، وعلى العموم كان الشيخ يتخذ من ابن تيمية رائدا له ، ولهذا يجل بنا أن نعود الى كتب ابن تيمية لنستقى منها صورة للأفكار التى اقتبسها محمد بن عبد الوهاب ، وسار على هديها بنفس التشدد الذى سار عليه ابن تيمية ، بل بأكثر منه فى بعض الأحوال ، وأبرز اتجاهات ابن تيمية من أقواله هى :

أولا — بنى ابن تيمية فقهه على الكتاب والسنة ، واتجاهات السلف الصالح ، فقد فكر فى القرآن الكريم ، وتعلم على مائدته ، واجتهد فى استخراج فقهه ومعانيه ، وتعرف أحكامه ومراميه ، ولجأ الى محمد صلوات الله وسلامه عليه فى شرح كتاب الله ، كما اعتمد على من تخرجوا عليه ، ونهلوا من ينبوعه وهم الصحابة والتابعون ، وبهذا لم يتبع من الجبال

(١) تحفة المستفيد للشيخ محمد بن عبد الله الأنصارى ص ١٢٦ و ١٢٧
وعنوان المجد لابن بشر من ص ١ الى ص ١١ وتاريخ نجد للشيخ حسين بن غنام .

إلا السلف الصالح ، وهو في ذلك يقول : « إن دلالة الكتاب والسنة على أصول الدين ليست بمجرد الخبر كما تظنه طائفة من المغالطين من أهل الكلام والحديث والفقهاء والصوفية وغيرهم ، بل الكتاب والسنة دلاء الخلق وهديهم الى البراهين والأدلة المبيّنة لأصول الدين ^(١) » ويقول كذلك في مناظرته في العقيدة : قد أمهلت من خالفني في شيء ثلاث سنين فإن جاء بحرف واحد عن القرون الثلاثة الأولى يخالف ما ذكرته فأنا أرجع عن رأيي ^(٢) .

وعلى هذا كان ابن تيمية — كما يقول الشيخ أبو زهرة — حر التفكير من كل قيد إلا الكتاب والسنة ، وآثار السلف الصالح ، كان في نشأته حنبلياً ، ولكنه ما إن شب عن الطوق حتى درس المذاهب الإسلامية كلها . واقتبس منها ، وأضاف لها ^(٣) .

ثانياً — اهتم ابن تيمية اهتماماً كبيراً بقضية التوحيد ، وتشدد فيها ، ورأى أن الوجدانية لله سبحانه وتعالى تشمل وحدانية الذات والصفات ، كما تشمل وحدانية العبادة ، وذكر أن وحدانية العبادة تقتضى أن نعبد الله ولا نشرك به سواه ، وقرر أن الدعاء من جملة العبادات ، فمن دعا المخلوقين من الموتى والغائبين واستغاث بهم كان مبتدعاً في الدين مشركاً برب العالمين ، متّبعا غير سبيل المؤمنين ، ومن سأل الله بالمخلوقين أو أقسم عليه كان مبتدعاً بدعة ما أنزل الله بها من سلطان ^(٤) » وبني على هذا منع التقرب الى الله بالصالحين والأولياء ، والتوسل بالموتى وزيارة القبور ، ويروى في هذا قوله صلى الله عليه وسلم : « انه لا يستغاث بى وانما يستغاث بالله » وذكر ابن تيمية أن الطلب من الأنبياء والصالحين لم يفعله

(١) رسالة معراج الوصول في مجموعة الرسائل الكبرى ص ١٨٣ .

(٢) العقيدة الواسطية ج ٢ ص ٤٠٩ من مجموع الرسائل .

(٣) الشيخ محمد أبو زهرة : ابن تيمية ص ٢١٤ .

(٤) ابن تيمية : قاعدة جلييلة في التوسل والوسيلة ١٠٢ .

أحد من السلف ، وهو ذريعة إلى الشرك بخلاف الطلب من أحدهم في حياته فإنه لا يفضى إلى الشرك (١) .

وربط بين هذا وبين النذور فانطلق يقول : ومن اعتقد أن في النذور والقبور نفعاً أو أجراً فهو ضال جاهل ، وإن من يعتقد أنها تكشف الضرر وتفتح الرزق فهو كافر مشرك يجب قتله (٢) .

ثالثاً — يتجه ابن تيمية إلى ترك الغلو في الرسول صلوات الله وسلامه عليه والاكتفاء بالاهتداء بهديه ، ويجيز زيارة قبره صلوات الله عليه لأن زيارة القبور بوجه عام جائزة للعبرة والاتعاظ ، ولكن على ألا تتجه الزيارة للتمسح والطلب ، فقد عدّ ذلك نوعاً من الشرك .

ويذكر الشيخ حافظ وهبة أن الوهابيين تكاد تعليماتهم تكون مطابقة لما كتبه ابن تيمية ، وأنهم لا يختلفون معه إلا في بعض الفروع ، وتشدّد الوهابيون في تفسير التمسح بالقبور ، وعدّوا ذلك شركاً ، كما عدّوا الاستشفاع بالرسول والهتاف بالأولياء لرفع غمة شركاً ، وحاربوا الموالد وألزموا بجهاد من يعمل هذه الأشياء ، وفسهروا قول الرسول عليه السلام « من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله فقد عصم ماله ودمه » بأن ذلك مشروط بالعمل الذي تستلزمه هذه الشهادة ، أما إذا قال ذلك وعمل بسواه أى استشفع بالأنبياء ، أو دعا الموتى فهو كافر حلال الدم (٣) .

وأعلن الشيخ الحرب على البدع الشائعة في الأمصار مثل قراءة مولد الرسول والزيادات في الأذان ، وخروج النساء وراء الجنائز وإحياء موالد الأولياء ، ومثل ما يفعله بعض الدراويش من الأذكار مع الدفء والمزمار (٤) .

(١) ابن تيمية : قاعدة جلية في التوسل والوسيلة ص ١١٣ .

(٢) مجموعة الرسائل والمسائل ج ١ ص ٥٥ .

(٣) جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٣٣٩ إلى ٣٤١ .

(٤) حافظ وهبة : جزيرة العرب ص ٢٤٠ - ٣٤١ .

(م ٩ - التاريخ ج ٧)

ودعاة هذه الدعوة يحرصون أشد الحرص على تنفيذ أحكام الشريعة مثل تحريم لبس الحرير للرجال ، وتحليّهم بالذهب ، كما يجرمون التدخين والتصوير ، ويكرهون الموسيقى (١) .

وعلى العموم لقد كانت دعوة محمد بن عبد الوهاب في أصولها سلفية حنبلية ، وكانت في إجمال دقيق ترى التوحيد أساس الإسلام ، وترى اللجوء للقباب والأضرحة شركاً عم بلاؤه وانتشر ، وهناك نوع آخر من الفكر عدّه الشيخ شركاً ، أو قريباً من الشرك وهو التشريعات الباطلة . ومن هذه التشريعات الذبح للقبور والذور لها ، والتوسل الى الله بها . ومثل هذه التشريعات المنحرفة لابدّ أن ترفض لأنها بعيدة عن العقيدة الصحيحة ورأى الشيخ أن خضوع نفوس المسلمين إلى هذه المعبودات النافهة ، وانحناءها لها خاشعة طائعة هو الذى دفع هذه النفوس الضعيفة لتتحنى أمام الحكام الظالمين ، وتتقبّل كل جورهم وانحرافهم ، وليس هذا وذاك من التعاليم الإسلامية في شيء .

ومن أجل عناية الشيخ بالتوحيد سُمّي هو وأتباعه « بالموحدين » أما اسم « الوهابية » فقد أطلقه عليهم خصومهم حتى يجرموهم من اللقب الذى يمثل اتجاههم .

مزيد من التفصيل

من فقه الدعوة واتجاهها العقائدى

بقى بعد ذلك أن نذكر بعض التفاصيل عن الاتجاهات المحددة للشيخ محمد بن عبد الوهاب في المجالات الفقهية والعقائدية .

(١) المرجع السابق ص ٣٤٣ .

المذهب الفقهي :

كان الشيخ يستمد مذهب الفقه من الكتاب والسنة واتباع السلف الصالح ، وكان في الفروع الفقهية يتبع مذهب الامام أحمد بن حنبل ، ولكنه كان إذا وجد حديثا صحيحا يخالف مذهب الامام ابن حنبل ، فإنه يتبع الحديث ، ولا يقدّم عليه قول باحث ، وهو في ذلك يقول : وأما مذهبنا فمذهب الامام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة ، وذلك في الفروع ، ولا ندعى الاجتهاد ، وإذا بان لنا سنة صحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عملنا بها ، ولا نقدم عليها قول أحد كائنا من كان (١) .

وعن علاقته بفكر ابن تيمية وابن القيم يقول : الامام ابن القيم وشيخه إماما حق من أهل السنة ، وكتبهما عندنا من أعز الكتب ، إلا أنا غير مقلدين في كل مسألة (٢) .

العقائد :

يتبع الشيخ في العقائد مذهب السلف ، وهو إقرار ما ورد من الصفات الإلهية في القرآن والأحاديث الصحيحة ، والإيمان بظواهره مع نفى الكيفية ، وهو في هذا يتبع مذهب ابن تيمية الذي يقول : ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن نَكْصِفَ الله تعالى بما وصف به نفسه وبما وصفه رسول الله صلوات الله عليه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، فلا يجوز نفى صفات الله تعالى التي وصف بها نفسه ، ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين بل هو سبحانه ليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، وقد عبر الامام مالك عن رأى السلف أدق تعبير عند تفسير قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » فقال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والايان به واجب ، والسؤال عنه بدعة (٣) .

(١) سليمان بن سحمان : الهدية السنية ص ٩٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٣ .

(٣) الشيخ نعمان خير الدين الألوسى : جلاء العينين ص ٢١٢ وانظر

محمد بن عبد الوهاب للأستاذ مسعود الندوى ص ١٨٣ - ١٨٤ .

التوحيد :

يقول الأستاذ مسعود الندوى ^(١) : لقد اهتم الشيخ اهتماما بالغا في جميع كتبه ورسائله بالتوحيد ، بل إن كتبه كلها ليس بها إلا التوحيد ، فقد كان شعاره (لا إله إلا الله) وكان يوضح معانى هذه الجملة لكل إنسان ويسعى إلى ترسيخ حقيقتها في الأذهان ، ولذلك سميت الدعوة بدعوة الموحدين •

وبناء على اتجاه التوحيد يرى الشيخ أن الأمور الآتية تبعد عن التوحيد وتقرب من الشرك وهي :

- ١ — دعاء غير الله في المصائب أو دعاء غير الله مع الله •
 - ٢ — الاستغاثة أى طلب العوث من غير الله •
 - ٣ — التوسل الى الله تعالى بالأنبياء والصالحين ، فهذا التوسل كأنه يحلف على الله بهؤلاء ، وليس ذلك مأثورا •
 - ٤ — الاستعاذة : أى لا يجوز الاستعاذة بشيء من المخلوقين أو المخلوقات ، وتكون الاستعاذة بالله وأسمائه وصفاته فقط •
 - ٥ — الحلف بغير الله فذلك ينافي التوحيد •
 - ٦ — زيارة القبور لدعاء الموتى وللشفاعة بهم ، أما زيارة القبور للعتة والعبرة فهي مأثورة •
- ومما يتصل بذلك عدم جواز بناء المساجد على القبور ، ولا بناء القباب عليها ، فهذا منكر يوجب الشيخ إزالته ، وقد سبق أن شرحنا ذلك •

(١) المرجع السابق ص ١٨٦ وما بعدها بإيجاز •

نقد دعوة الإصلاح :

اتجه كثير من الناس إلى نقد الدعوة الإصلاحية ، واشتط بعضهم في نقدها شططا قاسيا ، ولم يكتف بعض الناس بالنقد بل اختلفوا الاتهامات والأكاذيب ضد الدعوة ، وقد شاع عن دعوة الإصلاح أنها منشدة ، تكفر الكثيرين من المسلمين وترى في زيارة القبور للاستشفاع كفرا واضحا ، ويدافع أحد دعاة الموحدين عنهم بقوله (١) : لم يكفر شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله إلا عبادة الأوثان من دعاة الأولياء والصالحين وغيرهم ممن أشرك بالله وجعل له أندادا ، بعد إقامة الحجة ووضوح المحجة ، وبعد أن بدأوه بالقتال فحينئذ قاتلهم ، وسفك دماءهم ، ونهب أموالهم •

وقد سبق أن اقتبسنا من الشيخ حسين بن غنام ، ومن الشيخ عثمان ابن بشر وصفهما لبعض أهل نجد الذين كانوا يعظمون مقبرة زيد بن الخطاب وسواها ويقفون منها موقف العبادة ، ولا شك أن الشيخ تأثر في أحكامه باتجاهات هؤلاء ، ومن الحق أن أقرر بتجربة قمت بها في مصر مرتبطة بالوفود التي تزور الصالحين في مصر كالامام الحسين والسيدة زينب وغيرهما ، وقد سألت كثيرين من هؤلاء الرواد عن مدى اعتقادهم في مكان صاحب الضريح وإمكان أن ينفع وأن يضر ؟ فانتضح لى أنهم جميعا بدون استثناء بعيدون كل البعد عن الشرك بالله ، وأنهم مؤمنون تماما بوحداية الله ، وأن الله وحده هو الذي ينفع ويضر ، ولكنهم يستشفعون بصاحب الضريح ، أخذا من قوله تعالى « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه » (٢) فهم يأملون أن يكون صاحب الضريح ممن يؤذن لهم في الشفاعة ، وإذا كان هؤلاء مخطئين في هذا الأمل فإن ذلك لا يدفعهم إلى نطاق الشرك ماداموا بعيدين تماما عنه ، ومؤمنين بوحداية الله وبأنه وحده الذي يدبر الأمر •

(١) الشيخ سليمان بن سحمان : تبرئة الشيخين الإمامين ص ٨٦ •

(٢) آية الكرسي من سورة البقرة •

وعلى كل حال فقد تعرضت دعوة الإصلاح الى هجوم قاس من أعدائها وألّف بعضهم الكتب والرسائل في مناقشة المسائل التي أثارها الشيخ وتفنيد اتجاهاته * وقد كان منهم أخو الشيخ (سليمان بن عبد الوهاب) الذي عارضه بقسوة ، وألّف في الرد على مبادئ الشيخ كتابا اسمه (الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية) ولكنه عاد وتاب وأتاب سنة ١١٩٠ هـ كما يقول ابن غنام ^(١) .

وفي ختام هذه الدراسة نورد نقداً أوردته المؤرخ المصرى عبد الرحمن المرافعى وفيه يقول :

« الفكرة التى دعا إليها محمد بن عبد الوهاب فى أصلها وفى جوهرها فكرة صحيحة ، ولكنه غلا فيها وتشدد ، حتى صار أساسها تكفير كل من لم يأخذ مأخذه ، أو يتبع تعاليمه ، واعتباره مشركا بالله ، ومن هنا جاءت تسمية الوهابيين للمخالفين لهم (مشركين) ومثل هذه الدعوة قد تصادف نجاحا ، وتجد لها الأتباع فى بلاد فطّر أهلها على الخسونة والبداءة ، ولكنها تتعارض ومقتضيات الحضارة والعمران ، ومن تعاليم الوهابية تحريم لبس الحرير ، وشرب الدخان والتبّاك ، وكذلك تحريم إقامة المزارات ، ونصب القباب على القبور ، واعتبارها مخالفة لأحكام الدين ، ثم الدعوة إلى هدمها ، وغير ذلك من التعاليم المنطوية على التشدد والغلو * على أن هذا الغلو لم يسيء إلى الدعوة الوهابية ، بمقدار ما أساء إليها الإسراف فى القسوة ، وأرتكاب الفظائع مع المخالفين فى المذهب والعقيدة ^(٢) » .

ومن النقد المهادى لدعوة الإصلاح ما ذكره الأستاذ أحمد أمين بقوله :
« لم ينظر محمد بن عبد الوهاب الى المدنية الحديثة ، وموقف الاسلام منها ، ولم يتجه فى إصلاحه إلى الحياة المادية كما فعل معاصره محمد

(١) تاريخ نجد : ج ٢ ص ١٨٠ .

(٢) عصر محمد على ص ٢٨ - ٢٩ .

على ، وانما اتجه إلى العقيدة وحدها ، والروح وحدها ، وعنده أن العقيدة والروح هما الأساس وهما القلب إن صلحا صلح كل شيء ، وإن فسدا فسد كل شيء ، وطبيعى أن يكون هذا هو الفرق بين الرئيس الدينى فى نجد ، ورئيس الحكم فى مصر (١) .

ونضيف كذلك أن هذه الدعوة لم يكن بها دراسات عن حضارة الإسلام واتجاهاته فى الفكر والسياسة والاقتصاد والتربية وغيرها ، لأن مجتمع الجزيرة آنذاك لم يكن فى حاجة الى مثل هذه الدراسات ، وكان حسب الشيخ أن يعود بالمجتمع الله ، ولترك أنواع الشرك به ، سواء ارتبطت بحجر كالجاهلية الأولى ، أو بقباب وشجر كالجاهلية التى شاهدها الشيخ .

مؤلفات الشيخ وجهوده :

ترك الشيخ مجموعة مهمة من المؤلفات بعضها يرتبط بدراسات إسلامية عامة ، وبعضها يرتبط بالمسائل التى عنى بها لشرح مبادئه واتجاهاته الفكرية ، ومن أشهر مؤلفاته : كتاب التوحيد ، وكشف الشبهات ، وكتاب الكبائر ، وكتاب الإيمان ، ومختصر الإنصاف ، والشرح الكبير ، ومختصر تفسير ابن كثير ، ومختصر الفتوح ، ومختصر سيرة ابن هشام ، وكتاب المسائل التى خالف فيها رسول الله أهل الجاهلية ، ومختصر زاد المعاد ، وله كثير من الرسائل والأجوبة ، وله كتاب فى الأصول الثلاثة : معرفة الله ، ومعرفة الاسلام ، ومعرفة الرسول .

وبالإضافة إلى الكتب التى كتبها عنى الشيخ بحلقات الوعظ والدرس ، فكان يقيمها دون انقطاع ، وكانت حلقاته تمتد من الصباح الى المساء ، وكان يفد إليها الكثيرون من مختلف ألبقاع ، وكانت هذه الحلقات جذابة ممتعة تخرج فيها كثيرون من المريدين والعلماء ، وحملوها إلى بقاع مختلفة .

تلاميذ الشيخ :

ومن الشيوخ الذين أخذوا عنه : الشيخ محمد بن ناصر بن معمر والد الشيخ عبد العزيز مؤلف « منحة القريب المجيب في الرد على عبادة الصليب » ومنهم عبد الله بن محمد الناصري ، والشيخ عبد الرحمن بن خميس إمام مسجد الدرعية ، والشيخ عبد الرحمن بن نامى الذى تولى القضاء بالأحساء ، والشيخ محمد بن سلطان وقد تولى قضاء الأحساء أيضا ، والشيخ حسن ابن عيدان ، وكان قاضيا في حريملاء ، والشيخ عبد العزيز بن سويلم وكان قاضيا في القصيم ، والشيخ محمد بن راشد العريبي وكان قاضيا في ناحية سدير •

وفى قمة من تأثر بالشيخ وحمل دعوته إلى الآفاق أبناؤه وأحفاده ولا يزالون يباشرون هذا الجهد بهمة عالية ونجاح موفور •

رسائله وبعوثه :

وعنى الشيخ كذلك بإرسال الكتب والبعوث للرؤساء والقضاة بنواحي نجد ، فاستجاب البعض له ، واتجه آخرون للتكفل لمحاربة دعوته الجديدة ، وحيث أعلن الشيخ أن الجهاد للدعوة شيء واجب ، وتعاونت الكلمة مع القوة في الزحف الجديد ، وأصبح حملة الدعوة جنود الله بعد أن كانوا جنود ابن سعود ، وهذا الاتجاه ضمن للزحف كثيرا من النجاح ، ويقول بعض المفكرين : إن الامتزاج بين القوة السعودية والدعوة الإصلاحية كان تاما لدرجة أن صار وصف وهابى ونجدى مستخدما للدلالة على معنى واحد (١) •

وفاة الشيخ :

توفى الشيخ في ذى القعدة سنة ١٢٠٦ هـ (يوليو ١٧٩٢) ، وله من العمر أكثر من تسعين سنة هجرية بعد أن اشتغل بالدعوة والارشاد مدة خمسين سنة متتالية ، وقد عظم شأن الشيخ في حياته ، ولكنه مع هذا ظل

(١) صلاح العقاد : جزيرة العرب في العصر الحديث ص ٧ •

زاهدا راضيا بالقليل ، وقليل من الناس من قنع بمثل هذا الاتجاه
القويم •

والآن بعد أن اتحدت الفكرة والقوة نستطيع أن نتابع هذا الزحف
الواعى وهو يحقق صورا عظيمة من النجاح •

عودة للحديث عن محمد بن سعود :

عندما شاعت مبادئ الامام محمد بن عبد الوهاب فى الدرعية ،
وذاعت بيعة الأمير محمد بن سعود له بدأ أهل الدرعية يفدون له مؤيدين
مبايعين ، وسرعان ما أصبحت الدرعية مركزا قويا للدعوة الجديدة ،
وعرف أهل العيينة ذلك فانتقل منها إلى الدرعية كثيرون من تلاميذ الشيخ
ومريديه الذين التفوا حوله إبان إقامته بها ، بل إن عثمان بن معمر أسف
على ما حدث منه ، وكتب للشيخ يعتذر له ، ويطلب منه العودة إلى
العيينة مسقط رأسه ، ولكن الشيخ لم يستجب له •

واتجه الشيخ ومريده إلى نشر الدعوة خارج الدرعية وسرعان ما
التحق بها أمير العيينة وعاهد الشيخ على إقامة الحدود الشرعية (١) ،
كما جاء أهل حريملاء إلى الشيخ وبايعوه أيضا •

وعنى الشيخ عناية كبيرة بشرح الإسلام الصحيح للمريدين الذين
توافدوا عليه من كل البقاع ، فأصبح بيته أشبه بمعهد علمى يتربى فيه
دعاة الإسلام وتلاميذ الدعوة الجديدة ليخرجوا منه إلى مختلف البقاع
ما استطاعوا لذلك سبيلا •

صراع من أجل الدعوة :

وبجانب نشر الدعوة بالفكر والموعظة الحسنة ، قام محمد بن سعود
وابنه عبد العزيز فى حياة أبيه ، بألوان من الصراع ضد الذين هددوا
الدعوة أو حاولوا خنقها ، ففى ١١٦٠ هـ غزا عبد العزيز بن محمد بن

(١) لم يخلص عثمان للدعوة إخلاصا تاما ، بل إنه تمرد أحيانا
عليها كما يقول مؤرخوها •

سعود ومعه عثمان بن معمر رئيس العيينة منطقة ثرمدا ، وهزموا أهلها ،
وتسمى هذه الواقعة وقعة البطين •

ولما قُتل عثمان بن معمر سنة ١١٦٣ هـ ، وتولى مكانه مشارى بن معمر
رئاسة العيينة ظل على والائه للدعوة ، واشترك مع عبد العزيز بن محمد
ابن سعود سنة ١١٦٤ هـ في معاودة الهجوم على ثرمدا التي وقفت من
الدعوة موقف المعارضة ، وتسمى هذه الواقعة وقعة (الوطنية) وقد قُتل
فيها عدد كبير من أهل ثرمدا •

وفي سنة ١١٧٧ هـ أي قبل وفاة الأمير محمد بن سعود بعامين
استطاع عبد العزيز بن محمد أن يستولى على بعض بلدان « سدير » •

على أن أشد معركة عاناها آل سعود في حياة الأمير محمد بن سعود ،
كانت معركتهم ضد أمير الرياض « دھام بن دواس » الذي كان يبتلى
الموحدين في الرياض ومنفوحة بأنواع المصائب والمحن وما كان لهم أي
ذنب سوى أنهم انخرطوا في سلك دعوة التوحيد واتبعوا الشيخ في
دعوته • فاضطر الشيخ والأمير إلى المقاومة ، وقد دام الصراع بين القوتين
فترة طويلة ، ولم تسقط الرياض في أيدي آل سعود إلا بعد وفاة الامام
محمد بن سعود ، كما سنرى عند الحديث عن ابنه وولى عهده عبد العزيز •

عبد العزيز بن محمد بن سعود :

من الواضح للباحث في تاريخ آل سعود أن هناك نوعاً من التداخل ،
بمعنى أن الصراع الذي دار في عهد الأمير محمد بن سعود كان في حالات
كثيرة بقيادة ابنه عبد العزيز ، ومثل هذا حدث بالنسبة لعبد العزيز وابنه
سعود ، فإن الأمير سعود طالما قاد جيوش أبيه ، وكسب النصر للدعوة
الجديدة ، في عهد أبيه ثم في عهده هو بعد ذلك •

وهناك شيء يلحظه الباحث مرتبطاً بالعلاقة بين الشيخ محمد بن
عبد الوهاب وآل سعود ، بعد جيل أو جيلين ، ذلك هو الاتجاه نحو اختفاء

الازدواجية إذ نشأ جيل ينحدر من الاثنين بسبب المصاهرة التي قامت بين
الركنين السياسى والدينى *

وفى عهد عبد العزيز كان اتساع الدولة السعودية سريعا وواسع
المدى ، ففي سنة ١١٨٢ هـ غزا سعود بن عبد العزيز بلدة عنيزة وانتصر
عليها ، وفى السنة التالية توجه عبد العزيز نفسه إلى القصيم ونزل بلدة
الهالية وأخذها عنوة ، وبإيعه أكثر أهل القصيم على السمع والطاعة *

على أن أكبر نصر أحرزه آل سعود فى نجد فى هذه الفترة كان
استيلاؤهم على الرياض بعد حرب استمرت حوالى ثلاثين عاما ، وانتهت
سنة ١١٨٧ هـ عندما يئس دهام بن دواس من مقاومة آل سعود فخرج من
الرياض واتجه الى الأحساء ، واستولى عبد العزيز بن محمد بن سعود
على الرياض وذلك بعد قتال مرير ووقائع عديدة ، وكان سقوط الرياض
فى يد آل سعود يثعتبر خاتمة المقاومة العنيدة فى نجد ، فلم تستطع أقاليم
نجد بعد ذلك أن تقاوم دعوة الإصلاح وسيوف آل سعود ، ففي سنة
١١٨٩ هـ تم النصر على بريدة ، وفى سنة ١١٩٠ هـ أغار عبد العزيز على
عربان آل مرة فى الخرج ، وفى سنة ١١٩٣ هـ استولى سعود بن عبد العزيز
على بلدة حرمة ، وفى سنة ١١٩٦ هـ أخذ سعود بن عبد العزيز الصهبة
من مطير وفى سنة ١٢٠١ هـ هدم عبد الله بن رشيد أمير بلدة عنيزة « الجناح »
فى عنيزة تجملا مع ابن سعود بسبب خروج أهل الجناح على دعوة
الإصلاح ، وفى سنة ١٢٠٥ هـ أغار سعود بن عبد العزيز على شمر
ومطير وانتصر عليهما *

ومن الواضح أن انتصارات آل سعود كانت تعترتها نكسة أحيانا
فتراجع ، ولكنها سرعان ما كانت تنشط من جديد وتستعيد الزمام *

وعندما توفى الامام محمد بن عبد الوهاب سنة ١٢٠٦ هـ كانت نجد
كلها تقريبا خاضعة لآل سعود ، وتابعة لدعوة الإصلاح *

وقد بدأ عبد العزيز بعد أن امتد سلطانه على نجد يغير على المناطق المحيطة بنجد ، وقد شملت غاراته هذه الاحساء والعراق وعمان وغيرها ، فقد استولى سعود بن عبد العزيز سنة ١٢٠٧ هـ على الحساء والمقطيف ، **بهد وقعة « الشَيْط »** وزال ملك آل حميد من بني خالد عن الحساء والمقطيف ، وكانوا قد استولوا على هذه المناطق سنة ١٠٨٠ هـ .

وفي سنة ١٢١٧ قصد عبد العزيز أرض كربلاء ونازل أهلها واستولى عليها .

أما عن الحجاز فقد شهدت سنة ١١٩٧ هـ توقيع صلح بين الأمير عبد العزيز والشريف سرور بن مساعد الذي جاء بعد أحمد بن سعيد الذي سبق أن ذكرنا أنه استدعى بعض علماء نجد لمناقشة علماء الحجاز حول الدعوة الإصلاحية وبمقتضى هذا الصلح سُمحَ للنجديين بأداء فريضة الحج ، ويقول ابن غنام « فشمر المسلمون وانتهزوا فرصة هذه الرخصة فحجوا ذلك العام ، وكانوا نحو ثلاثمائة من الأنعام ^(١) » .

وهكذا كان مثلك السعوديين عندما مات الأمير الثانى عبد العزيز بن محمد بن سعود (١٢١٨ هـ = ١٨٠٣) واسع الرقعة ممتد الأطراف ، وقد تحققت بعض هذه الانتصارات على يده ، وتحقق الكثير منها بقيادة ابنه الأمير سعود الذى كان خير عونٍ لأبيه في صراعه السياسى والعسكرى ، وكانت وفاة الأمير عبد العزيز غيلة ، فقد قتله أحد شيعة العراق انتقاما لما قام به الأمير من هجوم على الأماكن المقدسة لدى الشيعة بالعراق .

سعود الكبير :

استكملت الدولة اتساعها في عهد الأمير سعود ، ولذلك اصطلح على تسميته سعود الكبير ، إذ دانت له عمان واليمن واستولى على تيماء وخيبر وفتح الحجاز ، ووضع الحرمين تحت حمايته وكان احتلاله مكة سنة ١٨٠٦

(١) روضة الأفكار : ج ٢ ص ١٣٤ .

ميلادية وأبقى الشريف غالب ، في مكانه (١) • وامتد سلطانه الى نجران وعسير •

ووصلت دولة السعوديين بذلك الى أقصى اتساعها ، وهددت بلاد الشام •

وفي الحجاز واجهت الدعوة الجديدة كثيرا من الأماكن المقدسة ، ونفّذت دون تسامح منهاجها كاملا ، فهدمت القباب الأثرية بمكة ، كقبة السيدة خديجة ، وقبة المكان الذي ولد فيه النبي عليه الصلاة والسلام ، وفي المدينة أخذ السعوديين الحلى والذخائر التي كانت في ضريح الرسول ، ودمروا القباب ، وأزالوا المصاطب بقبور البقيع ، وقد أحس كثير من المسلمين بالأسى لهذا التصرف ، وإن اختلف سبب حزنهم ، فمنهم من كان حزنه لضياع معالم التاريخ ، ومنهم من كان حفيّا بالفن الإسلامي ، ومنهم من رأى في ذلك جرحاً لعاطفته الدينية •

بيد أن الذي يقرأ عن الاشراف بالحجاز في هذه الفترة ، وعن أعمالهم لا ييسعه إلا أن يحس بضرورة الحركة الإصلاحية لإزالة الآثام التي كانت سمة العصر بالأرض المقدسة ، وكان الجبرتي معاصرا لهذه الأحداث ، وهو يقول عنها : وفي هذه الأيام أيضا وصلت الأخبار من الديار الحجازية بمسألة الشريف غالب للوهابيين ، وذلك لشدة ما حصل بالحجاز من المضايقة الشديدة ، وقطع الجالب عنه من كل ناحية حتى وصل ثمن الأردب

(١) أشراف الحجاز في هذه الفترة هم :

أحمد بن سعيد	١١٨٤ هـ
عبد الله بن حسن	١١٨٤ هـ
أحمد بن سعيد (مرة أخرى)	١١٨٤ هـ
سرور بن مساعد	١١٨٩ هـ
عبد المعين بن مساعد	١٢٠٢ هـ
غالب بن مساعد	١٢٠٢ هـ
يحيى بن سرور	١٢٢٨ هـ

المصري من الأرز ٥٠٠ ريال ، والأردب من البر ٣١٠ ، وقس على ذلك السمن والعسل وغير ذلك ، فلم يسع الشريف إلا مسالمتهم والدخول في طاعتهم ، وسلوك طريقتهم ، فأخذ دعائهم العهد عليه ، وألزموه بأن يأمر بمنع المنكرات والتجاهر بها ، ومنع شرب الأراجيل في المسعى بين الصفا والمروة ، كما ألزموه بأن يأمر بملازمة الصلوات في الجماعة ، ودفع الزكاة ، وترك لبس الحرير ، والمقصبات ، وإبطال المكوس والمظالم ، وكان الأشراف قد خرجوا عن الحدود في ذلك حتى أن الميت كان يتحتم أن يُدفن عليه إتاوة حتى يسمح بغسله ودفنه ، كما ظهرت أنواع أخرى من البدع والمكوس والمظالم التي أحدثها الأشراف على المبيعات والمشتريات ، على البائع والمشتري ، وكثرت مصادرات الناس في أموالهم ودورهم حتى كان الشخص يفاجأ وهو جالس في داره بأنها أصبحت ضمن أملاك الشريف وعليه إخلاؤها حالا ، إلا أن يصالح عليها بمقدار ثمنها أو أكثر ، وقد التزم الشريف غالب أن يترك ذلك كله ويتبع ما أمر الله تعالى به في كتابه العزيز ، من إخلاص التوحيد لله وحده ، واتباع سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وما كان عليه الخلفاء الراشدون والصحابه والتابعون ، والأئمة المجتهدون آخر القرن الثالث وترك ما حدث في الناس من الالتجاء إلى غير الله من المخلوقين الأحياء والأموات في الشدائد والملمات ، وما أحدثوه من بناء القباب على القبور والتصاوير والزخارف ، وتقبيل الأعتاب والخضوع والتذلل والمناداة والطواف والنذور وغيرها ، وعمل الأعياد لأصحاب هذه القباب وما يتبع ذلك من اختلاط الرجال بالنساء في هذه الأعياد ، وتعهد الشريف غالب بهدم القباب المبنية على القبور والأضرحة ، والقضاء على كل المستحدثات (١) .

وبسيطرة السعوديين على الحجاز امنت السبل ، وانقطع قطاع الطرق الذين كانوا ينتشرون في طرق الحجاز ، وتبع ذلك أن انخفضت الأسعار

وكانت الأظعمة ، وعاد النشاط الاقتصادي الى طبيعته ، ومع ذلك فقد ظل الشريف غالب يأخذ العشور من التجار ، وكان إذا نوّش في ذلك يقول هؤلاء مشركون وأنا آخذ من المشركين لا من الموحدين (١) .

وهكذا اهتم آل سعود بنشر العقيدة الإسلامية والقوانين الإسلامية السلفية في كل المناطق التي خضعت لنفوذهم ، ومن ثم اختفى من هذه المناطق شرب الخمر والسرقة وقطع الطريق ، وكانت وسيلة الأمير سعود للوصول إلى الأمن والنظام أن ألقى مسئولية الجرائم التي تقع في أية منطقة على شيخ القبيلة التي تقع هذه المنطقة تحت نفوذه ، ومن هنا جد شيوخ القبائل في الضرب على أيدي المفسدين وكف أذاهم ، وبهذا نعم الناس بأمن لم يحاموا به منذ أمد بعيد ، فأقبلوا على الدعوة الجديدة وأيدوا الحكم السعودي .

ولكن يد الإصلاح لم تمتد الى الحياة العقلية أو الاجتماعية بل ربما عارض الشيوخ أى تطور من هذا النوع ، وقد ظل موقفهم كذلك حتى عهد الملك عبد العزيز آل سعود الذى تغلب على هذا الاتجاه خطوة خطوة فأخذت مظاهر المدنية تعرف الطريق إلى الجزيرة العربية .

وقبل أن نترك دعوة الموحدين نذكر أن صداها انتشر الى عدة أقطار إسلامية ، وكان موسم الحج أعظم مناسبة لذلك ، فسرعان ما ترددت أفكارها في الهند على يد زعيم اسمه الحاج أحمد ، وحملها السنوسى إلى شمال أفريقية وعنى الشوكانى باليمن بدراستها وشرحها .

على أن صوت الامام محمد عبده بمصر كان من أعلى الأصوات بأفكار هذه الدعوة ، ولكنه ضم لمحاربة البدع الأخذ بوسائل المدنية الحديثة ، فكان صوته بذلك يناسب مصر ، ويناسب البلاد التي فتحت أبوابها للمدنية الحديثة .

القوى المضادة

لا شك أن هذا النجاح العظيم أثار ألوانا من السخط في جبهات مختلفة ، كان في مقدمتها العثمانيون الذين كان انتزاع الحجاز من سلطانهم يتعد تهديدا خطيرا لمكانتهم كخلفاء المسلمين ، ثم ان السعوديين أرادوا أن ينفذوا تفكيرهم مع المصريين والأتراك ، فرفضوا قبول المحمل ومنعوا الطبول والاحتفالات التي كانت تتبع مع تسليم كسوة الكعبة ، وعدوا ذلك من الانحراف ، وتسبب عن ذلك توقف الحجاج المصريين والسوريين ، ويقول ابن بشر ^(١) : ان سعودا حشد جيوشا عظيمة لمنع الحجاج القادمين من الشام واستانبول ، لأن سعودا خشي مكاييد الشريف غالب بمكة ، وأخرج سعود ذلك العام من كان في مكة من الأتراك ، كما أخرج منها من كان بها من العساكر التركية •

وقد أثار هذا التصرف السعودى الأتراك ، واعتبر ذلك تمردا وبخاصة بالنسبة للحجاز فهو مكان مقدس لدى المسلمين ، ولا تستقيم لهم الخلافة الإسلامية بدونه ، ثم إن الدولة السعودية ضربت العراق وتطلعت إلى الشام ، وكل هذا أقض مضجع العثمانيين ودفعهم لمقاومة عنيدة ، وقد دخلوا هذا الصراع بقواهم المباشرة ، وتطلعوا لا إلى استعادة الحجاز فحسب بل إلى الاستيلاء على نجد والقضاء على السعوديين ، ودخلوا هذا الصراع بقوى غير مباشرة ، فدفعوا محمد على باشا حاكم مصر للاستيلاء على الحجاز وضرب السعوديين ودفعوا سليمان باشا والى العراق للهجوم على نجد ، فأرسل لها عدة حملات ، إحداهما بقيادة توينى بن عبد الله والأخرى بقيادة الوزير على كخيا ، كما حركوا القوى العربية المنافسة للسعوديين بالجزيرة وأمدوها بالمال والسلاح والخبرات لقتلهم على السعوديين وتستولى على بقاع من أملاكهم ، ومن هؤلاء صاحب عمان ومسقط ، والشريف غالب أمير مكة ، وآل معمر أمراء العيينة ،

(١) عنوان المجد في تاريخ نجد حوادث سنة ١٢٢١ هـ •

وانضم أهل الحجاز للقوى المعادية للسعوديين ، لأن توقف الحجاج المصريين والسوريين والأتراك أضر بمصالحهم واقتصادهم ، وبقي على الولاء للسعوديين من أمراء الجزيرة صالح بن علي أمير حائل وزعيم شمر ، فقد عقد صلحا مع الأمير تركي السعودي أكسبه نفوذا قويا على أكثر الجبل وعلى القصيم •

وكان من الأسلحة التي أطلقها العثمانيون ضد هذه الدعوة ، الدعاية القاسية التي جندت لها بعض الأفلام وبعض الألسنة ، فصورّت الدعوة على أنها بدعة منكرة ، وانحراف خشن ، وأنها حركة ضد وحدة العالم الإسلامي ، وضد المقدسات الإسلامية •

وهناك خصم عنيد آخر ظهر في الجو وهو الاستعمار البريطاني الذي كانت له مصالح هائلة في الخليج ، وكان لا يخشى على هذه المصالح ما دامت السلطات الحاكمة في الجزيرة سلطات ضعيفة ، فلما بنى السعوديون دولتهم الكبيرة القوية التزم الاستعمار البريطاني أن يتدخل لحماية مصالحه بالسياسة والخداع ان كفت السياسة والخداع ، وبالتهديد والحروب عند اللزوم ، وعلى هذا تم تحالف بين الاستعمار البريطاني وبين سعيد بن سلطان صاحب مسقط ، وامتد نفوذ الانجليز إلى البحرين •

على أن الهجوم المصري كان أشد هجوما نزل بالسعوديين ، أما القوى العربية التي ثارت بالجزيرة فلم تكن في الغالب الا امتدادا للهجوم المصري وتنفيذا لتدبيره •

لماذا قامت مصر بزحفها على الحجاز ونجد ؟

هل كان ذلك استجابة لتعليمات الأستانة كما استجابت مصر لها فأشعلت

حربا ضد اليونان ؟

أو كان رغبة من مصر لتستعيد الحجاز امتدادا للقرون الطويلة التي كان فيها الحجاز تابعا لمصر ؟ كما فعلت مصر في زحفها الى الشام لنفس الغرض وعلى الرغم من إرادة الأستانة ؟

أو كان الرغبة في التوسع كالزحف المصرى الى السودان وقلب افريقية ؟

إن بعض الباحثين يميلون للرأى الأول ، ويعتقدون أن الأستانة أرادت أن تتخلص من القوتين العربيتين : المصرية والسعودية فضربت هذه بتلك ^(١) ، ولكن هذا الرأى ليس بشئ لأن العثمانيين ألجأوا قوى مختلفة في داخل الجزيرة وخارجها ضد السعوديين ، ولأن العثمانيين كذلك دفعوا محمد على لحرب اليونان دون أن يكون الهدف التخلص من قوتين عربيتين كما يتجه هذا الرأى الذى نراه ساذجا ، ولأن محمد على وافق على الصلح مع السعوديين دون أن يستشير سلاطين الأستانة ، وكان اتجاه الصلح أن يرفع السعوديون أيديهم عن الحجاز وأن ترفع مصر أيديها عن نجد وسنرى ذلك فيما بعد مقتبسا من المراجع السعودية ، ولعل ذلك يقطع دابر هذه الفرية التى تتجه الى القول بأن الباب العالى سخر مصر ليتخلص من القوتين العربيتين .

والذى نراه وتدل عليه اتجاهات التاريخ ، أن مصر كانت تتجه لتستعيد نفوذها فى الأماكن التى كانت تابعة لها خلال حقبة طويلة ، وبخاصة فى الحجاز الذى سيكتسب مصر قوة معنوية كبيرة ، وقد سبق أن ذكرنا أن صلة مصر بالحجاز كانت طويلة المدى ، بدأت من عهد الاخشيديين واستمرت حتى العهد العثمانى ، وقد كان العثمانيون حريصين على حرمان مصر من الاتصال بالحجاز ، ولذلك جعلوا الحجاز ولاية مستقلة تابعة للأستانة بشكل مباشر ، ولكن مصر مع هذا ظلت فى العهد العثمانى تحتفظ بالمسئولة الأولى عن الحجاز ، وقد رأيناها تهب لتبني الكعبة المشرفة عند ما تلقت الأنباء بانتهاء هذا البناء المقدس ، ولم تنتظر تعليمات أو أوامر من تركيا فى هذا الشأن .

(١) فؤاد حمزة : قلب الجزيرة العربية ص ٣٠٦ وقد اقتبس الاستاذ سعيد عوض باوزير رأيه وكلماته ص ١١٨ فى كتابه : معالم تاريخ الجزيرة العربية .

وكان مما ألتهب العواطف ضد السعوديين ما سبق أن أشرنا إليه أخذاً عن ابن بشر أن سلطات السعوديين بالحجاز منعت حجاج الشام وتركيا ومصر من الدخول إلى الأرض المقدسة ابتداءً من سنة ١١٢١ هـ وقد وضع إبراهيم بن صالح أن هذا التصرف استمر بعد ذلك فقال : ان سعود بن عبد العزيز حج بالناس سنة ١٢٢٢ هـ ومنع الحاج الشامي من الحج وفي سنة ١٢٢٣ حج سعود بالناس مرة أخرى ، ولم يحج أحد من الشام ومصر وتركيا تلك السنة (١) .

ويذكر الجبرتي (٢) أنه في شهر صفر سنة ١٢٢٢ هـ وصلت ثلاث سفن من جدة إلى السويس فيها أتراك وشوام وأجناس آخرون وذكروا أن الوهابي نادى بعد انقضاء الحج ألا يأتي إلى الحرمين بعد هذا العام من يكون حليق الذقن ، وتلا في المناداة قوله تعالى « يأيتها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » (٣) .

ويحدد المؤرخ المصري عبد الرحمن الرافعي أسباب الزحف المصري على الحجاز بقوله : أن الحرب ضد الوهابيين كانت وسيلة لتوطيد مركز محمد على كما كانت وسيلة لرفع شأن مصر وإعلاء مكانتها وبخاصة أن فكرة الانفصال عن تركيا ، وتحقيق استقلال مصر كانت تملك على محمد علي مشاعره ، وليس هناك من وسيلة تتعلو مكانة مصر ، وتنيلها مركزاً ممتازاً ، وتكسبها عطف الشرق والعالم الاسلامي مثل الحرب الحجازية التي أذاع محمد على أنها ترمى إلى إنقاذ الحرمين الشريفين من تحكم فرقة به ، وترمى إلى إعادة مناسك الحج وتأمين السبيل للحجاج الذين يأتون كل عام من مشارق الأرض ومغاربها .

(١) تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ص ١٣٠ وانظر الجبرتي

ج٤ ص ٥ .

(٢) تاريخ الجبرتي ج٤ ص ٥٤ - ٥٤ .

(٣) سورة التوبة الآية ٢٩ .

ويسنمّر هذا المؤرخ فيقرر : أن محمد على خاض هذه الحرب لا لمصلحة تركيا بل تثبيتنا لمركزه وإعلاءً لشأن مصر ، وقد حققت الأيام صدق نظره ^(١) * * * * * وقد ظلت مصر في الحجاز وفي غيرها من بقاع الجزيرة العربية إلى أن اضطربت الأحوال السياسية سنة ١٨٤٠ ، واضطرت مصر إلى سحب جنودها كما وضعنا ذلك عند الحديث عن تاريخ محمد على في الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

تلك هي الأسباب الحقيقية لهذا الزحف وسنسير مع الزحف المصري لنصوّر بإيجاز خطواته ونتائجها :

الزحف المصرى على الحجاز والجزيرة العربية

بدأ الزحف المصرى على الحجاز سنة ١٢٢٦ هـ = ١٨١١ ، وقد اشترك فى قيادة الجيوش المصرية فى هذا الزحف الأمير طوسون بن محمد على ، ثم سافر محمد على نفسه لإدارة المعارك ، وبعد أن عاد محمد على وعاد ابنه طوسون سافر إبراهيم باشا لإكمال الشوط ، وسنتابع فيما يلى مسيرة الجيوش المصرية فى الحجاز ونجد بشيء من الوضوح والإيجاز .

طوسون يقود الحملة :

أقلعت السفن تحمل الجنود من ميناء السويس فى سبتمبر سنة ١٨١١ قاصدة ينبع ، أما الفرسان بقيادة طوسون فقد غادروا القاهرة فى أكتوبر ، وكان يصحب الحملة طائفة من الصناع وأربعة من العلماء يمثلون المذاهب الأربعة .

وقد أحسن أهل الحجاز استقبال الجيش المصرى لأن قلة الحجاج ضيق عليهم أرزاقهم ، كما رحب الشريف غالب بالجيش المصرى لأن نفوذ السعوديين قد قضى على سلطانه .

وقد احتلت الحملة ينبع دون مقاومة تذكر ، ومن ينبع سارت الحملة برا فاحتلت وادى بدر وزحفت إلى وادى الصفراء ، وفى وادى الصفراء وقعت الموقعة الأولى المهمة بين الجيش المصرى والسعوديين وقد هُزم فيها الجيش المصرى بسبب اختلاف قواده وتقصير بعضهم من الانثناء وط . ، وقد أرسل طوسون الى أبيه بخبر هذه الهزيمة وبأسبابها ، وطلب مددا جديدا وقد تلقى محمد على هذه الأخبار برباطة جأش كما يقول الجبرتى (١) ، وأرسل المدد والأموال الى ابنه ، فاستطاع المدد الجديد

(١) عجائب الآثار : ج٤ ص ١٤٦ ويعلق المؤرخ عبد الرحمن الرافعى على ما ذكره الجبرتى بقوله : إن الجبرتى كان يعطف كثيرا على الوهابيين ، ويدافع عنهم ، وينتقد الحملة عليهم وهو الاتجاه السائد بين كثير من المفكرين .

أن يستولى على الصفراء وأن يتابع سيره إلى المدينة المنورة ، وقد استطاع في ذى الحجة سنة ١٢٢٧ هـ أن يستولى على قلعة المدينة حيث نزل أميرها على حكم طوسون ، ثم تقدم المصريون فاحتلوا الحنايكة شمالي المدينة ، وعاد طوسون بعد ذلك إلى ينبع ، وسار جنوبا إلى جدة فأخذها ، واستقبله بها الشريف غالب ، ومنها سار إلى مكة فدخلها دخول الظافر وقد عاونه في ذلك الشريف غالب وقبائل عرب الحجاز ، وكان ذلك في شهر صفر سنة ١٢٢٨ (١٨١٣) ، ومما يذكر أن الأمير سعود الكبير كان قد حج في الموسم الذي سبق هذا الشهر ، وكان الشريف غالب في معيته ، وهذا يدلنا على تذبذب الشريف ، واختلال أمره ، وبعد دخول المصريين مكة اتجهوا إلى الطائف واستولوا عليها في العام نفسه •

وفي تربة حصل لقاء هُزم فيه الجيش المصرى ، واعتصم طوسون وجيشه بمكة والمدينة وجدة وينبع ، وأرسل إلى أبيه بذلك ، وطلب منه مزيدا من المدد •

محمد على يقود الحملة :

لم يجد محمد على بدا من أن يسافر بنفسه ليقود ذلك الصراع وقد درس محمد على ظروف الجزيرة دراسة دقيقة ووضع خطة حاسمة لتقوده إلى الفوز ، وأبحر بجيش المدد إلى جدة ، ثم قصد مكة حيث أدى فريضة الحج ، وكان من أوائل الأعمال التي قام بها محمد على أن اعتقل الشريف غالب لأنه إرتاب في إخلاصه ، وأحس أنه يعمل لصالحه هو ، ويتمنى تدمير القوتين المتصارعتين •

وحقق محمد على ألوانا من النصر فاحتل القنفذة ، وأخذ يستعد لمزيد من التقدم ، وفي هذه الأثناء مات الأمير سعود الكبير ، وخلفه في الإمارة ابنه عبد الله •

ثم حدثت موقعة فاصلة في «بِسْلَ» وهو وادٍ شرقي الطائف وكانت بين محمد علي وبين فيصل بن سعود ، وصارت الهزيمة على فيصل أخى الأمير عبد الله ومن معه ، وقتل منهم خلق كثير (١) ، واستولى محمد علي على بيشة ورائية ، وفي الوقت نفسه زحف طوسون إلى الرس إحدى مدن نجد المهمة وهى تقع على نحو ٢٧٠ ميلا فى الشمال الشرقى من المدينة المنورة ، وقد استطاع أن يستولى عليها ، ثم أخذ الشيعية الواقعة على طريق الدرعية ، كما استولى على الخبرا والبلاد الواقعة حولها (٢) .

وتجمعت لذلك الأسباب للوصول الى حل وسط ، فوجود محمد علي من جانب ووفاة الأمير سعود من جانب آخر ، وما تلا ذلك من انتصارات للجيش المصرى ، كل هذا دعا القوة السعودية أن تطلب الصلح وقد تم هذا الصلح سنة ١٢٣٠ هـ وهذا الاتجاه للصلح ساعد محمد علي على العودة لمصر حيث كانت تتطلبه أسباب داخلية ، فعاد محمد علي إلى مصر قبل إتمام الصلح بقليل .

أما نصوص هذا الصلح فنقتبسها من المؤلفين السعوديين :

يقول الشيخ عثمان بن بشر : فى سنة ١٢٣٠ وقع صلح بين عبد الله ابن سعود وبين طوسون على وضع الحرب بين الفئتين ، وأن المصريين يرفعون أيديهم عن نجد وأعمالها ، ويرفع عبد الله بن سعود يده عن الحجاز وأن السابلة تمشى آمنة من الفريقين ، فالترك وأهل مصر والشام يمشون إلى نجد وجميع ممالك عبد الله ، والكل يحج آمنة ، وكتبوا بذلك سجلا ، ورحل جند طوسون من نجد متجهين الى المدينة ، وبعث عبد الله بن سعود بكتاب الصلح الى مصر مع وفد مصرى ، ومعهم عبد الله بن محمد صاحب الدرعية ، والقاضى عبد العزيز بن حمد ليعرضوه على محمد علي

(١) الشيخ ابراهيم بن صالح . تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد ص ١٤٠ . وانظر الجبرتي : عجائب الآثار ج٤ صفحات ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٩ ، ١٧٢ ، ٢١٢ .

(٢) محمد بن عبد الله الأنصارى : تحفة المستفيد ص ١٤١ .

صاحب مصر ، فوصلوا مصر ورجعوا منها وانتظم الصلح ^(١) .

ويقول الشيخ محمد بن عبد الله الأنصاري ^(٢) : ان طوسون بعد أن احتل الرس والخبر وميسكه والبوصير . . . جنح الفريقان الى الصلح ، فوقع الصلح بين الامام عبد الله وأحمد طوسون على أن تنسحب القوات المصرية من جميع بلدان نجد ، وعلى ألا يتعرض الامام عبد الله للحجاز ولا لأحد من رعايا الأتراك والحكومة المصرية وكتبوا بذلك عهدا ، ورحل الجيش المصرى من الرس وتوجه إلى المدينة .

ويقول الشيخ ابراهيم بن صالح ، وفي سنة ١٢٣٠ قَدِمَ أحمد طوسون ابن محمد على بالعساكر العظيمة ، ونزل الرس والخبر ، وكان عبد الله ابن سعود إذ ذاك في المذنب ، فلما علم بذلك رحل من المذنب ، ونزل في بلد عنيزة ، وكانت آنذاك تابعة له ، واتخذ مزارع الحجاوى مركزا له نحو عشرين يوما ، وكان يصابر عساكر محمد على ويجادلهم ، ثم ان الصلح وقع بين أحمد طوسون وبين عبد الله بن سعود على وضع الحرب ، وأن عساكر مصر ترفع أيديها عن نجد ، ويرفع عبد الله بن سعود يده عن الحرمين ، وكل منهم يحج آمنا . وكتبوا بذلك سجلات ، ورحل أحمد طوسون ومن معه من العساكر في غرة شعبان من هذه السنة ، وتوجهوا الى المدينة المنورة ^(٣) .

ذلك هو الصلح وتلك هى بنوده من المراجع السعودية ، فماذا حدث بعد ذلك ؟ وما الأسباب التى أدت الى نقضه ؟

في الإجابة عن هذا السؤال نعود للمراجع السعودية أيضا :

(١) عنوان المجد فى تاريخ نجد : ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٢) تحفة المستفيد ص ١٤١ .

(٣) تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد ص ١٤١ .

يقول الشيخ عثمان بن بشر : في سنة ١٢٣١ هـ سار عبد الله بجموع رعيته وقصد ناحية القصيم ، ونزل على بلدان الخبرا وهدم سورها وسور البكيرية عقوبة لهم على ما تقدم من استدعائهم محمد على ، وأقام عبد الله أياما على الخبرا ، وقتل شاعرا من أهلها اسمه عميان قتلته عبد الله بن حجيلان ، ثم سار منها متجها الى الحجاز ، وبعث جيشا أغار على الحرة بالقرب من المدينة ، وأخذوا أغناما كثيرة وشيئا من الابل ، وقبض على ثلاثة من رؤساء أهل الرس وسار بهم الى الدرعية ، ويستمر الشيخ ابن بشر قائلا ان هذه الغزوة سُميت (غزوة مُحَرَّش) لأنه حدث النقض بسببها ، وقد ركب رجال من أهل القصيم والبوادي وزخرفوا القول لصاحب مصر ، فتلقى قولهم بالقبول ، وشمر في تجهيز العساكر إلى نجد (١) .

أما الشيخ محمد بن عبد الله الأنصاري فينقل رواية ابن بشر ولكنه يضيف لها جملا ذات بال ، ومن أجل هذا يجدر بنا أن ننقل كلماته : في سنة ١٢٣١ هـ سار الامام عبد الله رحمه الله بجموع من المسلمين من الأحساء وعلان ووادي الدواسر والجبل ، والجوف ونجد ، من الحاضرة والبادية ، وقصد ناحية القصيم ، ونزل قرية الخبرا وهدم سورها وسور البكيرية عقوبة لهم لأنهم دخلوا في طاعة القائد المصري ، وتأديبا لهم لئلا يعودوا لئلاها ، وقتل شاعرا من أهل الخبرا يسمى عميان ، ثم توجه الى الحجاز ، وبعث جيشا أغار على أعراب في الحرة ، فركب رجال من أهل القصيم إلى مصر ، وشكوا إلى محمد على ما فعله بهم الإمام عبد الله ، وأنه نقض بذلك الصلح ، فشمّر محمد على في تجهيز العساكر إلى نجد (٢) .

ويقول الشيخ ابراهيم بن صالح : وفي سنة ١٢٣١ هـ سار عبد الله بن سعود بجنوده من البادية والحاضرة وقصد القصيم فنزل الخبرا وهدم

(١) عنوان المجد : ص ١٨٣ - ١٨٤ .
(٢) تحفة المستفيد ص ١٤١ - ١٤٢ .

سورها وسور البكيرية وربط ثلاثة من رعوس الرس والخبرا ، ومنهم الأمير شارخ الفوزان أمير الرس ، وسار بهم الى الدرعية بسبب تعاونهم مع الجيش المصرى ، وسميت هذه الغزوة « غزوة محرّش » لأنه انتقض بسببها الصلح الذى بين محمد على وبين عبد الله بن سعود ، وسار رجال من أهل القصيم الى مصر وأكثروا القول عند محمد على ، فتلقى قولهم بالقبول وشمر فى تجهيز العساكر إلى نجد (١) .

وبكل الحيدة يستطيع المؤرخ أن يبرز بعض النقاط من هذه المقتبسات :
أولا : كانت هناك بلدان فى نجد لا تزال تحرص على وضعها الاستقلالى الذى أشرنا له من قبل ، وتعارض زحف السعوديين لها ، ومن هذه البلاد الخبرا والرس والبكيرية وغيرها من مدن القصيم .

ثانيا : تعجل الأمير عبد الله فى القيام بهذه الغزوة بعد عام واحد من الصلح وأنزل الضر بمن تعاونوا مع مصر إبان زحفها ، ويتحتم أن نتذكر أن هذا التعاون مع مصر لا يعد من الخيانة لأن كل بلدة وكل قبيلة كانت حتى ذلك الحين تحرص على استقلالها كما ذكرنا من قبل .

ثالثا : لم يقنع الأمير عبد الله بالهجوم على بلاد نجد ، بل ترك أتباعه يقتلون ويسلبون .

رابعا : امتد زحف الأمير عبد الله الى الحجاز الذى كان الجيش المصرى معسكرا فيه بناء على الصلح السابق .

إبراهيم يقود جيش مصر إلى نجد :

ذكرنا من قبل أن محمد على عاد إلى مصر سنة ١٢٣٠ بسبب أحداث داخلية رأى أنها تستلزم عودته ، وبعد الصلح مع السعوديين عاد طوسون

(١) تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد : ص ١٤٢ .

أيضا في نفس العام ، وفي العام التالي مات طوسون وعلى هذا كان الشوط الجديد بقيادة ابراهيم باشا ، وقد نزل ابراهيم باشا المدينة المنورة وضبط ثغورها واستولى على ما حولها من القرى ، ثم سار الى الحنايكة فانحازت اليه البوادي من حرب ومطير وعتيبة والدهامشة من عنيزة ، وخرج الإمام عبد الله من الدرعية ومعه جموع غفيرة من أهل نجد وقصد الحجاز ، وجرت حروب بين الجيشين ، فانوزم الأعراب الذين كانوا مع عبد الله ، وتتابعت الهزيمة في جميع الجيش كما بقول الشيخ عبد الله الأنصاري (١) ، ثم سار إبراهيم من الحنايكة إلى الرس وحاصرها ولكن أهلها قاوموا الحصار وكتبوا الى عبد الله وهو مقيم في عنيزة يقولون له : اما أن يناجز ابراهيم باشا ويفك عنهم الحصار واما أن يأذن لهم في المصالحة ، وعندما لم يستطع عبد الله المناجزة تم الصلح بين أهل الرس وبين ابراهيم ، ثم دخل ابراهيم بلدة عنيزة فقابله أهلها بالطاعة والتسليم ، ووصل ابراهيم من عنيزة الى بريدة فسلمت له البلاد ، وكان كلما فتح بلدا أخذ رئيسه معه خوفا من الخيانة ، ثم حاصر بلد شقراء مدة أسبوع ، ثم تم صلح بينه وبين أهلها ودخل جميع أهل الوشم في هذا الصلح ، وسار ابراهيم باشا في بلاد نجد يفتحها صلحا وحربا حتى انتهى الى الدرعية سنة ١٢٣٣ = ١٨١٧ م (٢) .

وفي الدرعية واجه ابراهيم جيشا باسلا يتخذ مواقعه في حصون تحيط بالمدينة ، وكانت المدينة مسورة ، وقد حاصر ابراهيم الدرعية أكثر من شهرين ، وكان الجنود السعوديون يدافعون عن أنفسهم بجسارة وقوة ، ثم حدث أن هبت نار التهمة مستودع الذخيرة المصري ، فأصبح موقف الجيش المصري حرجا ، ويقول المؤرخون (٣) ان ابراهيم قابل تلك الكارثة بشجاعة وجلد ، وخطب في جنوده قائلا : لقد فقدنا كل شيء ،

(١) تحفة المستفيد : ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(٢) الشيخ محمد عبد الله الأنصاري : تحفة المستفيد ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(٣) عبد الرحمن الرافعي : عصر محمد على ص ١٦٠ .

ولم يبق لدينا إلا شجاعتنا ، فلننتدفع بها ، ولنهاجم العدو بالسلاح الأبيض ، وأخذ يشجع الضباط والجنود ، وفي الوقت نفسه أرسل يطلب الذخيرة من المواقع التي قد تم فتحها كالشعراء وبريدة وعنيزة ومكة والمدينة •

وقد انتهز السعوديون قلة الذخيرة لدى الجيش المصرى ، فهجموا هجمة قوية عليه ، ولكن ابراهيم أحكم خطة القتال ، فأمر جنوده بالاعتصام في استعمال الذخيرة ، واستطاع بذلك أن يرد هجمة السعوديين •

وبعد فترة وردت إلى إبراهيم الذخيرة التي طلبها من المواقع المختلفة ، وجاءت رسالة من أبيه بأنه أمدّه بمدد باسل بقيادة خليل باشا ، ولكن ابراهيم قرر أن يكسب النصر قبل وصول هذا المدد حتى لا يشاركه خليل باشا في شرفه ، فتشدد هجومه على الدرعية التي أخذت أحياءها تتساقط الواحد بعد الآخر ، ورأى عبد الله بن سعود ألا أمل في المقاومة فأرسل في سبتمبر سنة ١٨١٨ (أواخر ١٢٣٣ هـ) رسولا إلى ابراهيم باشا يطلب وقف القتال حتى يتم الاتفاق على الصلح ، يقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعى : فابتهج ابراهيم باشا بهذه الرسالة ابتهاجا عظيما ، وأذن بوقف القتال ، ثم جاء عبد الله بن سعود نفسه إلى معسكر ابراهيم باشا ، فتلقاه القائد العظيم بالحفاوة والإكرام ، وتم الاتفاق بينهما على أن تسلم الدرعية إلى ابراهيم ، وأن يتعهد بالإبقاء عليها ، وألا يوقع بالسعوديين أو ينالهم بضرر ، وأن يذهب عبد الله بن سعود إلى مصر ثم إلى الأستانة كرجبة السلطان ، فقبل عبد الله بن سعود هذه الشروط حماية لشعبه ولبلاده ، واستولى الجيش المصرى على الدرعية بعد حصار دام ستة أشهر ، وبعد فتح الدرعية لم تلبث المدن الأخرى من نجد أن خضعت لما خضعت له العاصمة (١) ، وتبعاً لهذه الشروط جىء بعبد الله بن سعود الى مصر فأحسن محمد على استقباله ، وأكرمه ، وسنرى ذلك مفصلاً بعد قليل.

(١) عصر محمد علي : ص ١٦٠ - ١٦١ •

تبعاً لرواية الجبرتي ، ومن مصر أرسل عبد الله الى الأستانة حيث أعدم هناك ، رحمه الله ، وسقطت بذلك الدولة السعودية الأولى .

نظرة شاملة لهذا الصراع :

في ختام هذه الدراسة نقدم بعض تعليقات حول هذا الصراع .
أولاً : إن المعروف أن الحرب تضعف المنتصر والمهزوم ، وإذا كانت هناك روابط عديدة بين الدول العربية ، فينبغي أن نصل إلى وضع حاسم بمنع أن يراق دم عربي بيد عربية ، فالقتال والمقتول سيسببان ضعفا للجسم العربي كله ، وقد قدمت مصر في معارك الجزيرة العربية فيضاً من الدماء وفيضاً من الأموال ، وكانت الفيافي والعواصف تهاك الرجال والذخائر والمؤن ، ولولا ما عرف عن محمد علي وابنه إبراهيم من العزم ورباطه الجأش لكان من الممكن أن تكون نتيجة هذه الحروب على غير ما كانت ، وقدم السعوديون كثيراً من التضحيات في الأنفس والأموال ، وليس لهذه التضحيات من هنا أو هناك أى طائل ، وقد استطاعت الأجيال الحاضرة أن تتناسى أهوال الماضي لأن الروابط بين مصر والسعودية أعمق وألزم للطرفين من أن تهتز بسبب هذه الأحداث ، فالحاضر والمستقبل يحتاجان الى وصف عربي واحد يتقدمه تعاون وثيق بين مصر والسعودية .

ثانياً — لقد أنصفت المراجع السعودية مصر ، وكان مؤلفوها في قمة الحياد ، والدقة التاريخية ، ولم يذكر الجبرتي ولا سواه من المؤرخين المصريين ، شيئاً عن غزوة المحرش ، وعن نقض الجانب السعودي للصالح الذي كان قد تم بين السعوديين والمصريين ، ومن هنا استحق هؤلاء المؤرخون كل تقدير و إعجاب ، أما الجبرتي المؤرخ المصري الذي عاصر هذه الحرب فلم تصله آنذاك أخبار هذه التحركات بدقة ، ومن هنا لم يدون عنها شيئاً ، وعلى نهجه سار المؤرخون المصريون المتأخرون ، بل المؤرخون في العالم كله .

ثالثاً — لقد ذكرنا من قبل مذهب الشيخ محمد عبد الوهاب الذي

اعتنقته الساطة السعودية وتصرفت بمقتضاه ، فهاجمت كربلاء ، ومنعت حجاج الأتراك والمصريون من الحج — وتحرشت بالشام ، ولو أن قسادة السعوديين آنذاك فعلوا ما فعله البطل المحنك العظيم « الملك عبد العزيز » لما قامت هذه الحروب ، فالملك عبد العزيز اعتنق فكر محمد بن عبد الوهاب ، ونفذه في بلاده ، وقدمه للآخرين دعوة خالية من العنف أو الغزو ، فلتبقى المشاهد في كربلاء ، ولتبقى في مصر ، والمهم أن الحج مفتوح للجميع ، وليس للحاج عندما يصل إلى الديار السعودية أن يتمسح بالمشاهد أو القبور ، ولكن لا تكفير لأحد ولا منع لأحد من الحج ، والدعوة سلمية تسير دون سيف ودون إكراه ، وقد سار سيرة الملك عبد العزيز أبناؤه الملوك من بعده •

رابعا : لم تكن كل البلاد النجدية التي امتلكها السعوديون الأوائل تعد نفسها جزءا لا يتجزأ من الدولة السعودية ، بل كانت تتبعها بحكم الغزو ، كما كان يحدث دائما في الجزيرة العربية ، بدليل ما ذكرناه من قبل من أن أهل القصيم أجمعوا سنة ١١٩٦ على نقض بيعتهم للسعوديين واستعانوا برئيس الحسا والقطيف وقتلوا من عندهم من المعلمين ... فما كان أخرى السعوديين الأوائل بأن يثبتوا معتقداتهم وسلطانهم في بقاع نجد قبل التفكير في الخروج بهذه المعتقدات إلى خارج نجد •

خامسا : دمر إبراهيم باشا بلدة الدرعية عاصمة السعوديين ، فقد اختار لجيشه ربوة مرتفعة تجعل الدرعية هدفا قريبا المنال ، وقد زرت هذا المكان سنة ١٩٧٦ ورأيت أنقاض الدرعية ، وإحساسنا في الجهد الحاضر يصور تصرف إبراهيم في الدرعية عنفا وقسوة ، ولكن المؤرخ ليس عادلا إذا حكم بإحساس اليوم على عمل جرى منذ أكثر من قرن ونصف ، وبخاصة إذا وضعنا في الميزان ما يقال من أن تصرف إبراهيم كان رد فعل لتصرفات مماثلة ارتكبتها القوات السعودية ضد القوات المصرية في ساعات تراجعها أو هزائمها •

سادسا : عن معاملة مصر للأسرى السعوديين نسوق دراسة أغفلها

كثيرون من الذين يعنون بإثارة الغبار ، ونعتمد في ذلك على الجبرتي وهو مؤرخ ثقة عاصر الأحداث ، وبخاصة أنه لم يكن راضيا عن الزحف المصرى على الجزيرة العربية ، وكان متعاطفا مع الفكر الذى قال به الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وكان في الوقت نفسه سىء الصلة بمحمد على باشا وهذا يجعل كلامه جديرا بالقبول :

يقول الجبرتي في أحداث السابع عشر من المحرم سنة ١٢٣٤ هـ (نوفمبر ١٨١٨) :

وفيه وصل عبد الله بن سعود ، فدخل من باب النصر راكبا هجينا ، فذهبوا به الى بيت اسماعيل باشا بن محمد على باشا ، فأقام به يومه ، ثم انتقلوا في الصباح التالى الى بيت الباشا بشبرا ، فلما دخل قسام له محمد على وقابله بالبشاشة ، وأجلسه بجانبه وحادثه وقال له ما هذه المطاولة ؟ فقال عبد الله : الحرب سجال * قال الباشا : وكيف رأيت ابراهيم ؟ قال : ما قصر وبذل همته ونحن كذلك حتى كان ما كان * فقال الباشا : أنا إن شاء الله أترجى فيك عند مولانا السلطان * فقال الأمير : المقدر يكون ، ثم ألبسه الباشا خلعة ، وعاد الأمير الى مقره ببيت اسماعيل باشا *

ويواصل الجبرتي يومياته عن هذا الموضوع فيذكر أن الأمير عبد الله ابن سعود سافر يوم التاسع عشر من المحرم ١٢٣٤ الى الاسكندرية ومنها إلى دار السلطنة بالأستانة ، ومعه عدد من خدمه حسبما طلب *

وقد ذكرنا آنفا أن الأستانة قضت باعدام الأمير ونفذت ذلك القضاء ، وهو تصرف ليس غريبا على الأستانة التى كان القتل فيها عقوبة كثيرة الوقوع ، ولم يتجدد معها ما تقدم به محمد على من رجاء ، ولا شك أن الباحث يجد الفرق شاسعا بين المعاملة التى لقيها الأمير في القاهرة ، وبين تلك التى قوبل بها في الأستانة ، وهو فرق ينبىء عن صلة الدم

والعروبة بين مصر والجزيرة العربية ، فان محمد على أنزل الأمير السعودي في منزل يليق به ، وأحسن استقباله ، وحادثه ببشاشة ، ووعدته بالعون لدى السلطان ، وخلع عليه ، وأحسن له ولذويه . وتلك صفات قلما نجدها بين المنتصر والمهزوم .

أما باقى الأسرى فیتحدث عنهم الجبرتی بقوله : حضر بواقى السعودیین والوهابیة بحریمهم وأولادهم ، وكانوا نحو أربعمائة نسمة ، وأسكنوا بالقرب من الأربکیة من غیر حرج علیهم ، وطفقوا یذهبون ویجیئون ویمشون فی الأسواق ویشترون البضائع والاحتیاجات ، وتردد كثير من مشایخ الوهابیة علی العلماء والشيوخ بمصر واستمعوا إليهم واستفادوا من علومهم (١) .

ویرى بعض المفكرین أن اللقاء العلمی بین أتباع الشیخ محمد عبد الوهاب و بین علماء مصر أثرى الفكر الوهابی وهدأ نوعاً ما من غلوائه ، وهذا هو السبب فی الفرق الذى اتضح فیما بعد بین هؤلاء من جانب و بین « الإخوان » الذین سنتحدث عنهم فیما بعد من جانب آخر ، فإن هؤلاء « الإخوان » ظلوا نشأة بدویة أمیل إلى الخشونة والجفوة ، وكانت تعارض كل إصلاح وتراه بدعة ، مما اضطر الملك عبد العزیز إلى مصارعتهم والقضاء علیهم .

أما اللقاء السیاسی بین قادة مصر وقادة السعودیین فقد برهن علی أن العلاقات بین مصر والسعودیین لها جذور طیبة ، ولا تشابهها أو تقرب منها العلاقات بین السعودیین والعثمانیین ، أو بین السعودیین والأشراف .

سابعاً : نعیب علی محمد علی باشا أنه أرسل عبد الله بن سعود إلى الأمتانة ، واكتفى بالوعد بأنه « سیترجی فیہ السلطان » فمحمد علی یعرف قسوة السلاطین وسهولة إراقة الدماء عندهم ، وقد كان ل محمد

(١) تاریخ الجبرتی ج٤ صفحات ٣٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣١٩ .

على وزنه آنذاك ، ولو اعتبر محمد على الأمير السعوى لاجئاً له لكان
من الممكن فيما نعتقد أن يَنقُذ الأمير من القتل ، وكان ذلك يوضع فى ميزان
الحسنات له .

وهكذا زالت الدولة السعودية الأولى ، ولكنها وضعت الأساس الذى
لم يمكن إزالته ، وعلى هذا الأساس بدأت تقوم الدولة السعودية الثانية
التي آن الأوان لنتكلم عنها .

الدولة السعودية الثانية

فترة صراع من سنة ١٨٢١ الى ١٨٨٩

تمكّن محمد علي من الاستيلاء على الحجاز ونَجْد وبلاد عسير ، ولم يتقدّم هذه البلاد إلى العثمانيين بل شرع في إدارتها على وجه الاستقلال كما لو كانت خاضعة لحكمه المباشر (١) .

ولم يطل بقاء المصريين في نجد التي سيطروا عليها في سنة ١٨١٨ ، فلم تجيء سنة ١٨٢١ حتى كانوا قد بدعوا الانسحاب منها مكتفين بالحجاز وقنعين من نجد بالاعتراف الاسمي بسلطانهم ، وهكذا يؤكد وجهة النظر التي ترى أن الزحف المصري على الجزيرة العربية لم يكن استجابة لتعليمات الأستانة بقدر ما كان لدافع داخلي هو الرغبة في إعادة ربط الحجاز بمصر ، وهو ما حدث في أكثر فترات التاريخ الإسلامي .

ونقطة أخرى تؤكد هذا الاتجاه ، تلك هي بروز الصراع السلافر بين محمد علي وبين الأستانة بعد ذلك ، وقد انتصح في هذا الصراع أن محمد علي حريص على أن يكون الحجاز لمصر تماما ، ولكن الدولة العثمانية كانت تدرك أن ذلك يضعف مكانتها الدينية في العالم الاسلامي ، وقد طلبت تركيا تدخل روسيا وأوروبا في هذا الصراع ، وكانت انجلترا تخشى التطور السياسي والديني للقوة الناشئة في مصر ، فأخذت جانب الأتراك مع الآخرين ، وأرغم محمد علي عكس إخلاء الحجاز سنة ١٨٤٠ م وضاعت سدى تلك الدماء العربية التي أريقَت على الأرض المقدسة من المهاجمين أو المدافعين وانتهت بذلك علاقة مصر بالحجاز .

وهكذا انسحبت مصر من نجد سنة ١٨٢١ وبقيت بالحجاز حتى سنة ١٨٤٠ م ثم انسحبت منه أيضا كما قلنا ، وقد خلفهم الأشراف في الحجاز

يحكمونه باسم العثمانيين (وسنتكلم عن الأشراف فيما بعد) أما نجد فإن انسحاب مصر منها ترك بها فراغا هائلا واضطرابات جمة كتلك التي تحصل دائما وقت المحن ، فقد حاول السعوديون استعادة مكانتهم ، ولكن الصراع كان قد طحنهم ، وجعل جبهتهم متصدعة حافلة بالفتن ، كما كانت هناك قوى أخرى في نجد وفي الأحساء نافست السعوديين ومن أهمها قوة آل الرشيد التي نمت وأصبحت خطرا على السعوديين وقد تحدثنا عنها من قبل (١) .

على أن أشق ما عاناه السعوديون كان الفتن الداخلية بين أمراءهم ، وقد سقط في هذه الفترة عدد من الأمراء كان بعضهم خفيف الوزن لا يستحق الذكر ، وكان بعضهم بطلا ولكن الظروف كانت أقوى منه ، ومن هؤلاء الأبطال الأمير تركي الذي استعاد الرياض ، واستعاد كثيرا من ملك آبائه بمعاونة ابنه فيصل ، ثم قُتل تركي غدا بيد ابن عمه مشاري بن عبد الرحمن بن سعود ، مع أن الأمير تركي أكرم مشاري هذا عقب عودته من مصر ووفادته عليه ، ولكن الهزائم والاضطرابات تخلق الفتن ، وتخرّب الذمم ، وقد دفع هذا القاتل رأسه ثمنا لغدره ، فقد قتله فيصل بن تركي ثارا لأبيه ، وراح فيصل في إمارته الأولى (١٨٣٤ — ١٨٤٨) يواجه التفكك الذي كان لا يزال سائدا في نجد ، وكان كجده محمد بن سعود في لينة أحيانا وشجاعته أحيانا ، وقد استطاع أن يستعيد نجد كلها وينشر بها الأمن والسلام ، وأخذ يتطلع للحجاز التي كانت لا تزال تابعة لمصر ، فتصدت له مصر ، وكان مع مصر بعض النجديين بقيادة خالد بن سعود وأرسلت مصر حملة بقيادة خورشيد باشا سنة ١٨٣٨ م ولم يستطع فيصل أن يطيل أمد مقاومته لها ، فاستسلم وأرسل إلى مصر مع أخيه جلوي وولديه عبد الله ومحمد وعيشت مصر خالد بن سعود مكانة ، وبعد نهاية حكم مصر في الجزيرة العربية أي

(١) انظر حديثنا عن آل الرشيد وموقفهم من الدولة السعودية الثانية

فيما كتبنا آنفا .

بعد سنة ١٨٤٠ خلعه أهل نجد وولوا عبد الله بن ثنيان ، ولم يدم حكمه كذلك فترة ذات بال ، فإن مصر أطلقت فيصل فعاد هذا إلى نجد واستعاد الإمارة ، وظل بها بقية عمره ، وقد ساعده على الاستقرار نهاية النفوذ المصرى بالجزيرة ، وحسن الصلة مع الأتراك الذى عمل له فيصل ، وبعد وفاة فيصل هبت حقبة جديدة من الحروب الأهلية فى هذا العهد متمثلة فى الصراع بين ولدى فيصل عبد الله الثالث الذى تولى الإمارة أولا ، وسعود الثالث الذى اغتصب الإمارة من أخيه عبد الله لفترة ، ولكنه سرعان ما مات واستطاع أولاده أن يقبضوا على عمهم ويأسروه وأن يتولوا السلطة فى الرياض ، وقد أضعف هذا الصراع شأن السعوديين وقوى جانب منافسهم محمد بن رشيد فى حائل * وانتهاز ابن الرشيد فرصة سنحت له ، فإن عبد الله الثالث استنجد به ليفك أسرهم ، فهب ابن الرشيد للرياض وفك أسر عبد الله وأخذه إلى حائل ، وقتل كثيرا من السعوديين ومكن لنفسه فى الرياض ، وأقام بها عاملا من قبله بجوار عبد الرحمن بن فيصل (والد جلالة الملك عبد العزيز) الذى اختاره ابن رشيد أميرا للرياض ولكن عبد الرحمن لم يقبل أن يحكم الرياض فى ظل ابن رشيد ، ودار صراع فى القصيم بين الأمير عبد الرحمن وأمير عنيزة وأمير بريدة من جانب وبين ابن رشيد من جانب آخر ، وكانت الغلبة لابن رشيد وكانت هذه آخر محاولة يستطيعها الأمير عبد الرحمن ، فلما فشلت حمل متاعه إلى الكويت حيث نزل فى ضيافة آل صباح سنة ١٨٩١ وولى ابن الرشيد محمد بن فيصل بن تركى ليحكم الرياض تحت سلطانه ، ولما مات محمد هذا استبد ابن الرشيد بالأمر ظاهرا وباطنا (١) ، وانتهت بذلك الدولة السعودية الثانية التى كانت حافلة بالاضطراب والفوضى *

ذلك تصوير سريع لتاريخ نجد من مطلع الإسلام حتى قيام المملكة العربية السعودية التى آت لنا أن نتحدث عنها وعن أمجادها ، والتى

(١) سيأتى حديث خاص عن آل الرشيد فيما بعد .

كوّنت دولة حقيقية بالجزيرة العربية ، ذابت فيها المدن والقبائل ،
واختفت الميول المتعارضة ، وأصبح الكل يفخر بالانتساب لها ، وليست
بها سيطرة لمدينة على مدينة ولا لقبيلة على قبيلة ، وانما المسطرة للقانون
ولشريعة السماء التى اتخذتها الدولة دستوراً لها ، وقد عملت المملكة
العربية السعودية على الربط الشامل بين هذه الأصقاع بواسطة الطرق
المرصوفة ، وبواسطة الطائرات التى تنتشر مطاراتها فى مختلف النواحي
بالبلاد ، بواسطة الصحافة والإذاعة •

وسيطول حديثنا عن المملكة العربية السعودية وعمّا حققت لإنسانها
بوجه خاص وللإنسان العربى والمسلم بوجه عام •

المملكة العربية السعودية

الدولة السعودية الثالثة

من سنة ١٩٠١ م

دولة البطولة والاستقرار والتقدم

يرتبط قيام الدولة السعودية الثالثة بشخصية تعددت فيها نواحي التفوق والجلال ، تلك هي شخصية الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود ، لقد كان الرجل شجاعا لا يعرف التردد ، ونبيل لا ينسى وعده ولا يغدر فيه ، وكريما شديد الرغبة في العطاء ، وعبقريا يحسب خطواته بدقة .

وقد خلقت المحن هذا البطل ، ودفعته الأقدار ليلعب دورا يشبه الأبطال والأساطير .

والجزيرة العربية في مطلع القرن العشرين كانت بها قوتان كبيرتان هما السلطنة العثمانية والامبراطورية البريطانية ، وكانت هناك قوى عربية كثيرة تعيش في ظل القوتين الكبيرتين . ففي ظل العثمانيين كانت تعيش قوى الداخل ، وفي ظل الانجليز كانت تعيش القوى التي تقطن ساحل الخليج ، وبوجه الدقة كان الأشراف بالحجاز ، وآل الرشيد بحائل والرياض ، ونائف الهزالي في عنيزة ، ومحمد أبو الخيل في بريدة ، كل هؤلاء كانوا يدينون بالولاء للعثمانيين ، أما آل الصباح بالكويت ، وأمراء البحرين فكان ولاؤهم للإنجليز .

في هذا الجو وصل عبد العزيز إلى عهد الشباب ، وحمل مسؤولية الصراع ، واتجه بكل قوته إلى مسقط رأسه وعاصمة أجداده إلى الرياض ، وأول معركة خاضها عبد العزيز في هذا الشأن كانت تلك المعركة التي أعد جيشها أمير الكويت واشترك فيها آل سعود ضد آل رشيد ، ولم تنجح هذه المعركة ، كما ذكرنا من قبل وكأنما أحس عبد العزيز أن نجاحها

سينقل الرياض من سلطة آل الرشيد إلى سلطة آل الصباح ، وهو يريد الرياض بجهد خالصة له وآله ، ولأجل هذا المهدف كان لأبد من خطة تجمع بين المغامرة والدقة ، بين المفاجأة والتنظيم ، ووضع عبد العزيز هذه الخطة ، وهي كما قلنا من قبل شيء أشبه بالأساطير •

لقد خرج هذا الشاب يريد تحقيق هذا الهدف الكبير بمجموعة صغيرة المدد قليلة العدد ، ولكنها كبيرة القلوب والآمال ، لقد كان عددها ستين شخصا ، ولكنهم كانوا من الرجال الأشداء المخلصين ، كانوا من بني قومه ومن خلصائه ، كان منهم أخوه محمد وابن عمه عبد الله بن جلوى وعبد العزيز بن مساعد ، ووصل بهم مكانا اسمه « ذيل عشب » بضواحي الرياض في الرابع من شوال سنة ١٣١٩ هـ (١٩٠١) وعسكر بهم في مكان لا يلفت الأنظار •

وبعد أن استراح قليلا ترك منهم عشرين فارسا في هذا المكان لحراسة مؤخرتهم ، وقال لهم إذا لم تأت لهم أخبار منه خلال أربع وعشرين ساعة فإن عليهم أن يذهبوا إلى الكويت ويخبروا والده أن ولده عبد العزيز ومن معه قد قضاوا نحبهم ، أو سقطوا أسرى بيد ابن الرشيد •

وتقدم بالعدد الباقي قاصدا الرياض ، وقبل أن نواصل الكلام عن هذا الزحف الهادئ الهائل يجدر بنا أن نتعرف على الحالة في الرياض آنذاك لنرى ظروف هذه المدينة التي سيقفز لها هؤلاء العمالقة •

كان ابن الرشيد قد بنى حصنا بالرياض سماه (المصمك) وأنزل به جماعة من رجاله الأشداء ، وعين لإدارة الرياض واليا من الأبطال اسمه عجلان ، وكان هذا الوالي يخاف انتفاضة الرياض ، أو يخاف أي هجوم على الرياض من الخارج ، ومن أجل هذا كان يمضى ليله في هذا الحصن بين الجنود ، ولا يأوى إلى بيته إلا مع إشراقة الصباح وكان هذا التصرف سرا لا يعرفه إلا خاصته ، وبالتالي لم يعرفه عبد العزيز آل سعود ولا

صحابه ، وقد استلزم ذلك أن تدور المعركة على نحو غير النحو الذى خططت له ، وليبيان ذلك نعود إلى الجماعة المهاجمة بقيادة عبد العزيز لنعايشها لحظة لحظة فى تلك الألفية التى غيرت وجه التاريخ فى هذه المنطقة .

عندما وصل عبد العزيز وصحبه الأربعون إلى سور الرياض أبصر ثلاثون بجوار السور برياسة شقيقه محمد انتظارا لتعليماته وتقدم بالعشرة الباقين ، فاستطاع بهم أن يتخطى الأسوار حتى وصلوا إلى بيت مجاور لبيت الأمير عجلان عامل ابن الرشيد ، وكان هذا البيت مملوكا لتاجر ، فعرفت زوجة التاجر عبد العزيز وأوشكت أن تصبح بين الخوف والترحاب ، ولكن عبد العزيز أمرها بالصمت الشامل ، وهدد بأن أى صوت سيجلب الضرر على صاحبه ، ولضمان الصمت دفعهم عبد العزيز إلى إحدى غرف المنزل وأقفلها عليهم ، وتسلق عبد العزيز وصحبه إلى بيت آخر مجاور لبيت الأمير عجلان ، وفيه وجد امرأة وزوجها نائمين فأغلق عليهما الباب كما فعل مع أصحاب البيت الأولى ، وأصبح عبد العزيز بذلك قريبا من الممعة التى كان يتوقعها ، وحينئذ أرسل إلى أخيه وإلى من معه الذين تركهم عند أسوار المدينة ليلاحقوا به ، وعندما اجتمع جمعهم بدعوا يتسلقون أسوار قصر عجلان ، وكان عبد العزيز يعتقد أنه سيواجه عجلان بقصره ففضى عليه نائما أو مستيقظا ، ولكنه عرف وهو بالقصر أن عجلان لا يبيت فى المنزل ، وقد أخبرته بذلك زوجة عجلان ، ولكنه هدهدها بالويل والثبور إن رفعت صوتها ، وجلس عبد العزيز وصحبه يترقبون لحظة خروج عجلان من الحصن مع إشراقة الصبح .

وفتح باب الحصن وخرج منه عجلان بين عشرة من رجاله ، فدفع عبد العزيز بعض صحبه ليدخلوا الحصن وليواجهوا من بداخله ، واندفع هو ومنعه بعض رفاقه لمواجهة عجلان ، ودار صراع مرير ، صراع حياة أو موت بين عبد العزيز وعجلان ، وحاول الأخير أن يرتد إلى الحصن ولكن عبد العزيز حال دون ذلك فى أول الأمر ، ولكن عجلان استطاع

على الرغم من إصابته برصاصة من بندقية عبد العزيز أن يصل إلى داخل الحصن ، بيد أن عبد الله بن جلوي لحق به وقضى عليه ، وفي هذه الأثناء كان الرصاص يندفع من كلا الطرفين ، وعندما عرف أتباع ابن الرشيد أن الأمير عجلان سقط قتيلا ضعفت قوتهم وهانت عزائمهم ، وكان عددهم حوالي الثمانين قتل أكثرهم واعتصم الباقون في برج من بروج الحصن فأمنهم عبد العزيز فاستسلموا *

ومما يذكر عن الملك عبد العزيز أنه كان لا يحب سفك الدماء إلا للضرورة القصوى ، وكان يؤمن من طلب الأمان ، ولا يعرف التاريخ أنه غدر في أمان أعطاه *

ومع إشراقة الشمس نادى المنادى بأن آل سعود عادوا إلى الرياض بقيادة عبد العزيز ، وأن عامل ابن الرشيد قد قتل كما قتل بعض رجاله واستسلم الباقون ، فضجت المدينة بالفرح والبشرى بسبب ما عاناه السكان خلال حكم ابن الرشيد ، وامتلا الجو بأهازيج الأغاني ، وزحفت جموع المهنيين تعلن الفرح والتأييد ، وبقد قتل في هذه المعركة اثنان من أتباع عبد العزيز ، وجرح أربعة (١) *

وسرعان ما أخذ عبد العزيز يحصن الرياض ، ثم استدعى أباه وذويه وأتباعه ، وفي فترة قصيرة أصبحت الرياض قوة سعودية هائلة ، وقفت بصلابة أمام المحاولات المتعددة التي قام بها ابن الرشيد ليسلبها مرة أخرى ، وكانت وفود الأبطال تأتي إليه من كل الجهات تدعم جبهته وتقوى بنيانه *

وقفه عند المواقع التاريخية :

في يناير سنة ١٩٧٧ زرت « المصمك » ورأيت أبراجه ، وعشت

(١) روى الملك عبد العزيز قصة هذا الصراع وقد تلقاه عنه عدد كبير من السامعين ودونته عدة مؤلفات *

ردحا من الزمن فى المكان الذى شهد هذه المعركة التى غيرت تساريف المنطقه ، ورأيت بقايا الحراب بباب الصمك ، وقد تأسف لأن أكثر المعالم من الأسوار والمنازل التى شهدت هذه الأحداث التاريخية قد أزيلت ، وحلت محلها عمارات نهائيه ، ولو كان الحس التاريخى قويا لاشتد الحرص على هذه المواقع التاريخية ، أو على ان الناس لا يحسبون بقيمة مثل هذه المواقع وهم على مقربة زمنية من الأحداث ، ولكن اذا بَعُد الزمن ظهرت القيمة التاريخية لهذه المواقع ، وكفى أتمنى أن تعود هذه المنطقه الى ما كانت عليه ، فذلك كسب عظيم للتاريخ .

عبد العزيز يواصل جهوده :

بعد فترة رأى عبد العزيز أنه آن الأوان ليخرج من الرياض مستفيدا الملك السليبي ، فبدأت حملاته تشق الطرق ، وتبعث الضجيج فى نجد ، وهاجم مقاطعات نجد واحدة بعد أخرى حتى استعادها جميعا على النظام التالى :

- فى عام ١٣٢٠ هـ ١٩٠٣ م احتل واحتى الخرج والأفلاق .
- وفى عام ١٣٢١ هـ ١٩٠٤ م احتل السدير والوشم .
- وفى عام ١٣٢٢ هـ ١٩٠٥ م احتل عنيزة .
- وفى عام ١٣٢٤ هـ ١٩٠٦ م احتل بريدة .

على أن المعارك التى دارت حول بريدة كانت بعيدة الإثر فى حياة عبد العزيز ، وفى حياة منطقة نجد ، ففى موقعة (روضة مهنا) قرب بريدة سنة ١٩٠٦ سقط ابن الرشيد قتيلًا ، وتضعفت بموته سلطة قومه ، وتضعفت بموته كذلك أطماع العثمانيين الذين كانوا يصارعون عبد العزيز فى نجد بواسطة آل الرشيد ، ولم يجد العثمانيين بدا من محاولة إجراء نوع من المصالحة بينهم وبين عبد العزيز الذى بدأ فارس الميدان وبطل نجد ، ولكن عبد العزيز كان لا يثق فيهم ومن هنا مرت فترة بين المشدة

والأمن ، ولكن اتجاه عبد العزيز إلى ضرورة المنصر جعل المعركة في هذه الآونة لا تعسم إلا بالسيف وهن أجل هذا كان على عبد العزيز أن يخوض في الجزيرة العربية جولات أبعد مدى ، وأشد قسوة ، ومناطق هذه الجولات هي :

الأحساء : حيث كان يعسكر العثمانيون •

حائل : منطقة آل الرشيد •

عمير : حيث إمارات الادريسيين وآل غانص •

الحجاز : حيث سلطة الأشراف •

وفي الصفحات التالية سنتدارس هذا الصراع منطقة إثر منطقة ، لنرى النتائج التي حصل عليها الملك البطل :

الأحساء

تضبط الأحساء بفتح الهمزة ، ويقول ياقوت ^(١) إنها جمع « حِس » بكسر الحاء وهو ماء المطر يهبط على أرض تكسوها الرمال ، وتحت الرمل أرض صلبة ، فإذا نزل المطر سرعان ما يختفى بين الرمال حتى يصل إلى الأرض الصلبة فتحتجزه ، ويمكن الحصول عليه بحفر الآبار ، ويكون عذبا بارداً •

ويذكر ياقوت أن البادية بها عدة أحساء وأن من أشهرها أحساء الخليج في منطقة المجرين •

ومنطقة الأحساء هذه منطقة مهمة من مناطق المملكة العربية السعودية ، وكان يحكمها الفرس قبل الإسلام ، وكان يسكن بها جماعات من عبيد قيس وبكر وتميم ، وقد أرحل لها الرسول العلاء بن عبد الله الحضرمي ، فدخلت الإسلام على يديه ، وفي الأحساء قامت دولة القرامطة ، وبعد القرامطة تنازعتها الأيدي الحاكمة ، وعبثت بها أيدي البدو ، وتم فتحها السعوديون في دولتهم الأولى ، ثم انتزعتها منهم المصريون بعد دخولهم الدرعية سنة ١٨١٨ ، وعادت للسعوديين في دولتهم الثانية في عهد الأمير فيصل ، وظلت تحت حكم السعوديين حتى عهد ابنه عبد الله حيث استولى عليها مدحت باشا سنة ١٨٧١ باسم الأتراك وألحقها به لاية البصرة ، وأخيرا كان فتحها الثالث على يد عبد العزيز آل سعود سنة ١٩١٣ (٢) •

وقد اتبع عبد العزيز تخطيطا دقيقا لفتح الأحساء ، فقد سار في إحدى ليالي الربيع في سبعة آلاف من رجاله الأقوياء قاصدا المنطقة الشرقية ، واتجه إلى الهفوف مركز الإدارة العثمانية ، وقد استعان

(١) معجم البلدان ج ١ ص ٣٦ •

(٢) حافظة وهبه : جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٨٣ •

عبد العزيز بأعوانه من آل القصيبي ويوسف الذين كتبوا له عن مواطن الضعف وعن أصلح الأماكن للهجوم ، وقبيل الفجر كان عبد العزيز يحاصر بقواته المهائلة حامية العثمانيين ، التي فوجئت بهذا الحصار ، فلجأ عدد من الحامية وعائلاتهم الى مسجد هناك وتحصنوا فيه ، فحاصرهم عبد العزيز وهددهم فاستسلموا ، وأمنهم عبد العزيز على حياتهم وأسلحتهم الخفيفة ان خرجوا من غير قتال ، فقبلوا ذلك ، فرحلهم عبد العزيز الى (العقير) ومن هناك أعد لهم سفنا نقلتهم إلى البحرين ، ولم يسمح لهم بنقل الأسلحة الثقيلة التي كانت موجودة في الهفوف . وبسقوط الهفوف لم تستطع الحامية العثمانية في القطيف أن تقاوم ، فاستسلمت للقوة التي أرسلها لها عبد العزيز ، وسلكت الحامية العثمانية في العقير نفس المسلك (١) .

وكان فتح الأحساء ذا شأن كبير من الناحية السياسية والاقتصادية والعسكرية ، فقد وضع السعوديون أقدامهم على ساحل الخليج مرة أخرى ، وذلك يحقق لهم مكانة سياسية واقتصادية هائلة ، ثم ان هذه المنطقة هي التي انفجرت منها كنوز البترول ، تلك الكنوز التي دفعت الخير والترف إلى مملكة آل سعود .

وتاريخ فتح الأحساء يضع مؤشرا خطيرا ، فإن الحرب العالمية الأولى كانت على الأبواب ، ووجد العثمانيون ألا مناص من وضع حد لهذا الصراع حتى يتفرغوا للخطر الأعظم الذي كان يهدد العالم آنذاك ، فاعترف العثمانيون بعبد العزيز واليا على نجد ، ومتصرفا على الأحساء ، على أن تكون ولاية نجد من بعده لأولاده وأحفاده ، ومن الواضح أن العثمانيين لم يكونوا مخلصين في هذا الاتجاه ، ولكن الضرورة ألجأتهم له ، بدليل أنهم كانوا في نفس الوقت يشجعون آل الرشيد ويمدونهم بالسلاح لمهاجمة نجد ، ومناضلة السعوديين . ولم يكن البترول قد تدفق آنذاك في منطقة الأحساء ، وهذا سهل على العثمانيين التضحية بالمنطقة .

ومن نتائج انتصار السعوديين على الأحساء كذلك أن بريطانيا بدأت تتصل بعبد العزيز ، وتدخل معه في مباحثات سياسية إذ كانت بريطانيا في ذلك الحين تحتل الكويت وتستعد كذلك لخوض الحرب العالمية الأولى ، وقد نتج عن هذه المباحثات أن عٌقدت معاهدة (العقير) بين عبد العزيز وبين بريطانيا ، وكان في هذه المعاهدة تأييد لعبد العزيز من القوة العظمى ، وفي نفس الوقت كانت تحوى بعض القيود ضد استقلال الدولة السعودية ، ومن أجل هذا حرص الملك عبد العزيز فيما بعد على أن يتخلص من هذه القيود عندما توطدت أقدامه وساعدته الظروف على ذلك •

الحرب العالمية الأولى وأثرها على المنطقة :

انتهى عبد العزيز من الأحساء سنة ١٩١٣ كما رأينا ، وقبل أن يواصل صراعه في المناطق الأخرى بالجزيرة اندفعت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، فشغلت العالم كله ، ويبدو أن الدول الكبرى أرغمت الدول الصغرى على عدم إثارة المشكلات في فترة الحرب العالمية الحرجة ، فكان من الضروري أن تؤجل — إلى حين — خطوات الصراع الذي كان على السعوديين أن يخوضوه •

وكان عبد العزيز خلال الحرب العالمية الأولى حسن الصلة بالانجليز ، لأن الصلة بينه وبين العثمانيين لم تكن طيبة ، ثم ان انتصار العثمانيين كان معناه استمرار استغلال هؤلاء للإسلام للسيطرة على البلاد العربية ، وذلك ما لم يكن عبد العزيز ولا العرب يريدونه ، وانتهت هذه الحرب بهزيمة العثمانيين وبالتالي بجلائهم عن البلاد العربية كلها ، ومن ضمنها الجزيرة العربية وقد قفز على أثر ذلك شريف الحجاز يطمع في أن يحل محل العثمانيين في الجزيرة ، كما كانت هناك منطقتا حائل وعسير تنتظران جولة السعوديين ، وسنواصل فيما يلي وصف الصراع الذي عاناه الملك عبد العزيز ضد هذه القوى حتى تتضح النتائج النهائية •

آل الرشيد

في مطلع القرن التاسع عشر الميلادى كانت جبال شمر وعاصمتها حائل خاضعة للأمير محمد بن عبد المحسن بن على ، ولكن كان هناك منافس يتطلع للسلطة ، ذلك المنافس هو عبد الله بن على بن الرشيد من عشيرة جعفر .

ولم يقو عبد الله بن الرشيد على الصراع ، فترك المنطقة ، ولجأ إلى الرياض التي كان الأمير تركي يعيد إنشائها بعد انسحاب الترك والمصريين منها ، وتقرب عبد الله بن الرشيد من فيصل بن تركي ، وصاحبه في غزواته في حياته أبيه ، ولما قتل مشارى ابن عمه الامام تركي واستولى على الامارة بالرياض ، كان الأمير فيصل بن تركي آنذاك في إحدى غزواته بالقطيف فعاد بسرعة الى الرياض ومعه عبد الله بن الرشيد ، وبذل هذا جهدا كبيرا للثأر للإمام القليل ، واستقرت الإمارة لفيصل بن تركي الذي كافأ عبد الله ابن الرشيد بأن عينه حاكما على جبال شمر محل منافسه .

ولكن عبد الله بن الرشيد لم يستطع أن يحتفظ بإمارته طويلا ، فقد استعادها منافسوه بمعونة الترك ، وأرغموه على الفرار ، فاتخذ بعض القرى الصغيرة مركزا لنشاطه ، ثم حدث أن انصرف الترك والمصريون عن آل على ، فجدد ابن الرشيد صراعه ضد آل على ، ثم جاءت قوة عسكرية مصرية برياسة خورشيد باشا سنة ١٨٣٨ فقابله عبد الله بن الرشيد وأعلن له خضوعه ، وقدم له هدايا وفيرة ، فاطمأن له خورشيد وأجلسه على كرسي الامارة في حائل ، وفر أميرها من آل على تجاه المدينة المنورة ، فقتل في الطريق ، واستقر الأمر لآل الرشيد في حائل ، واستطاع أن يضم لإمارته منطقة الجوف (دومة الجندل) في وادي السرحان ، كما استطاع أن يضم بعض الواحات الشمالية ، وقد حكم عبد الله هذه الولاية حتى وفاته سنة ١٨٤٧ ، تاركا ثلاثة أبناء هم طلال ومتعب ومحمد ، وإذا كان عبد الله بن على بن الرشيد هو الذي أسس هذه الإمارة فإن طلالا ابنه

خطا بها خطوات كبيرة للأمام ووصلت القمة في عهد محمد الابن الثالث لعبد الله •

وتفصيل ذلك أنه في عهد طلال استطاع هذا أن يضم لها خير وتيماء بعد انسحاب الترك منهما ، وبعد طلال جاء عهد ملء بالاضطرابات والفتن والصراع بين أبناء طلال ومعهم متعب ، ثم قفز إلى السلطة محمد الابن الثالث لعبد الله بن علي ، وقد استطاع أن يتخلص من كل منافسيه فخلا له الجوى ، وساعدته الظروف فامتد سلطانه امتدادا واسعا حتى سيطر على كل البلاد النجدية من وادي السرحان إلى وادي الدواسر ، ومن تيماء وخيبر إلى قرب الخليج وكثيرا ما امتد سلطانه إلى تدمر وجبال حوران (١) •

ثم سنحت له فرصة فاهتبلها ، وقد أشرنا لها من قبل وهي أن صراعا دار في البيت السعودي بين أولاد فيصل بن تركي ، واستنجد به عبد الله بن فيصل فذهب إلى الرياض ودخلها ثم ثبت بها أقدامه ، وثار القصيم وعنيزة وبريدة على حكمه وتجمعوا حول عبد الرحمن بن فيصل ابن سعود ، ولكن محمد بن عبد الله بن الرشيد هزمهم ، فقد كانت الدنيا آنذاك قد أدارت ظهرها لآل سعود ، وقد اعترف عبد الرحمن بذلك فأخلى الرياض لآل الرشيد كما قلنا من قبل ، ولجأ ضيفا على أمراء الكويت سنة ١٨٩١ م •

وكان محمد شديد القسوة ، وقد قضى على أعدائه ومنافسيه بوحشية شديدة ، وتقول ليدي آن بلنت : إن تصرفه ذلك نشر الرعب في طول البلاد وعرضها ، ولم يعد أحد يجرؤ على معارضته ، أو إثارة الرعب في إمارته ، ومن هنا اختفى قسطنطع الطرق ، وأصبح المسافر يستطيع أن يتجول في أي جزء من الصحراء بأمان وأطمئنان ، كما اختفى اللصوص

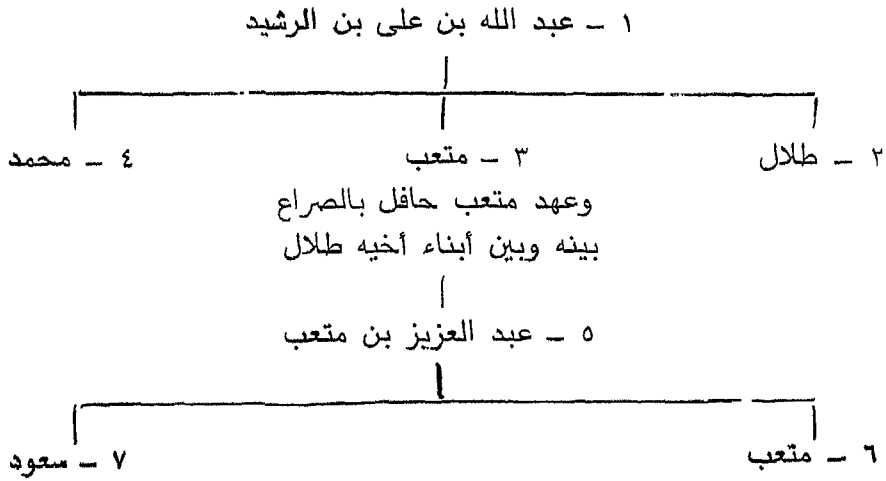
(١) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص ٣٥٢ بتصرف •

من المدن ، وكان يوارى قسوته بالكرم ، لعله يجلب رضا الناس عنه ، ولم ينجب محمد أولادا ، ولذلك هبت بعد موته صراعات مريرة (١) .

وبعد محمد بدأت الأمور تتغير ، فآل الرشيد دب بينهم خصام وصراع ، وآل سعود هب من بينهم بطل مغامر ذكى هو المرحوم الملك عبد العزيز ، وقد استطاع هذا أن يستعيد الرياض سنة ١٩٠١ كما ذكرنا من قبل ، ثم أخذ يوسع إمارته رويدا رويدا على حساب الحروب الداخلية التى هبت بين أمراء آل الرشيد الذين لا يستحقون أن نذكر أسماءهم أو نقف عندهم ، وبعد الحرب العالمية الأولى ، وبعد أن فقد آل الرشيد حماية الأتراك العثمانيين وعونهم أصبح سهلا على الملك عبد العزيز آل سعود أن يقضى عليهم ، وأن يضم إلى مملكته آخر قلاعهم فى حائل سنة ١٩٢١ م .

(١) رحلة إلى نجد ص ١٦٣ .

وأشهر أمراء آل الرشيد هم :



منطقة عسير

تذكر الوثائق والمراجع التاريخية ^(١) أحاديث فيها كثير من الغموض عن إمارات صغيرة قامت جنوب الحجاز في عسير وفي الجنوب منها إلى حدود اليمن ، وسكان هذه المناطق ليسوا شيعية ، ولذلك حرصوا على عدم الاندماج في الدولة الزيدية باليمن ، ولكنهم في الوقت نفسه حرصوا على ألا تشملهم شرافة مكة ، ويمكن القول ان هذه الإمارات الصغيرة كان يشملها التفكك الواسع الذي لف الجزيرة كلها منذ أمد بعيد ، ومع الطابع الاستقلالي لهذه الإمارات فإنها كانت تعترف بشكل ما بسلطة الحكومة ، التركية بعد الزحف التركي الى الحجاز ، إذ كان الأتراك لهم سلطان فعلي على منطقة القنفذة بالساحل ، وبذلك كانت تهاجم هذه الإمارات وكان الأشراف في بعض عهود قوتهم يمدون نفوذهم الى هذه المناطق أو أكثرها فيعترف الأمراء بسلطانهم وبمكانتهم .

وأقدم هذه الإمارات إمارة أبو عريش التي ظهرت على أثر دخول العثمانيين مصر والحجاز ، واتفقت واختلفت مع العثمانيين ثم انقطعت أخبارها حتى مطلع القرن التاسع عشر حيث بدأت تظهر من جديد ، وتشترك في الأحداث التي قامت بها مصر والسعوديون والعثمانيون في هذه المناطق ، وقد حل الادريسيون محل آل أبي عريش ، والادريسيون جديرون بكلمة أوسع بالنسبة للمكانة التي حققوها في هذه المنطقة ردها من الزمن ، وجدد الأدارسة رجل من أهل العلم والصلاح جاء من المغرب الأقصى ، وعاش في صبيا في رحاب آل عريش فترة نافس فيها الزيدية في الجنوب ، والوهابية في نجد ، فالتف حوله كثير من الناس ، فلما ضعف آل عريش كان الأدارسة في وضع يهيء لهم أن يرثوا السلطة في هذه الإمارة ، وكان أول من أعلن قيام الأدارسة هو السيد محمد علي الإدريسي .

(١) في هذا الموضوع توجد وثائق لدى وزارة الخارجية السعودية ووزارة الخارجية البريطانية ، كما توجد عدة كتب مثل تاريخ بلاد العرب لهوغارث ، وظهور أئمة صنعاء لتريتون ، وتاريخ المخلاف السليماني لفهد بن أحمد بن عيسى .

والسيد محمد على الإدريسي ولد في صبيا وتعلم في مكة وفي الأثره الشريف ، وزار واحة الكفرة مركز السنوسية ، وزار السودان ، ثم عاد إلى صبيا ، وقد استفاد من هذه الرحلات تجارب مهمة ، ثم إن الفترة كانت تمنح الفرص لأنها فترة السلطان عبد الحميد ، وما مارسه من أعمال المكر والحيل ، ولم يضيع الإدريسي الفرصة فأعلن استقلاله بمنطقة صبيا ، وأرسلت له الحكومة العثمانية قائدا يتعرف حاله ، فاستطاع الإدريسي أن يخدعه وأن يظهر الولاء للدولة فنال رضا ذلك القائد ، وثبته في صبيا وأبى عريش .

ولم يدم هذا الوفاق طويلا فإن الإدريسي أخذ يوسع دائرته ويهاجم ولاية العثمانيين ، وأعلن الانفصال عن الدولة العثمانية سنة ١٩١٠ م ، ولكن الشريف حسين شريف مكة أبدى استعداداه بالنيابة عن العثمانيين في كبح جماحه ، وسار فعلا ولكنه لم يحقق نجاحا يذكر ، وبعد عودة جيش الشريف اتفق الإدريسي مع إيطاليا ، وأخذ منها بعض أسلحة ، وكان الصراع بينها وبين العثمانيين قد بدأ ، واستطاع أن يثبت أقدامه في منطقته ، وقامت الحرب العالمية الأولى فانفق الإدريسي مع الانجليز ، وعقد معهم معاهدة سنة ١٩١٧ اعترفوا فيها بسيادته على تهامة حتى اللحية في الجنوب والقنفذة في الشمال ، وبلغت دولة الأدارسة في عسير بذلك أقصى اتساعها فشملت قبائل قحطان بالقسم الجنوبي من عسير ، والقسم الأكبر من تهامة من البرك حتى الحديدة ، ويبلغ طول هذه المنطقة من الشمال للجنوب ٣٥٠ ميلا وعرضها ٧٠ ميلا ، وشملت ما كان معروفا بالمخلاف السليمانى وجيزان وغيرها ، ومنطقة أبى عريش ، ووصلت جنوبا إلى اللحية ، وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى ترك له الانجليز الحديدة التى احتلوها خلال الحرب اعترافا بخدماته التى قام بها ضد الأتراك ، وقد استطاع الإدريسي أن يتحالف مع سلطان نجد (الملك عبد العزيز) وبهذا وقف في وجه الشريف حسين في الشمال والامام يحيى في الجنوب .

وعقب وفاة السيد محمد الادريسي الكبير سنة ١٣٤١ (١٩٢٢ م) اغتتم الامام يحيى ملك اليمن الفرصة فاستولى على الحديدية وبعض مناطق الساحل ، وثار السكان ضد الأمير الادريسي الجديد على بن محمد الذى لم يستطع حماية إمارته فهرب هذا إلى السعودية إبان فتح الحجاز ، ولم يستطع الأمير الحسن شقيق الادريسي الكبير أن يحتفظ بإمارته وقتاً طويلاً على الرغم من ألعيب السياسة التى اتبعها ، فأرسل للملك السعودى يطلب حمايته ، ويقول حافظ وهبة : اجتمعت بمندوب الإدريسي ووضعنا معاً معاهدة الحماية سنة ١٩٢٦ لإنقاذ ما بقى من ملك الأدارسة (١) .

وفى سنة ١٩٣٠ طلب الأمير الإدريسي أن تتضم البلاد إلى مملكة جلالة الملك عبد العزيز لتصبح جزءاً لا يتجزأ من هذه المملكة ، وقد تم إعلان ذلك ولكن الإدريسي أراد سنة ١٩٣٣ أن يتراجع فثار فى عسير تهامة ، فاغتنم الامام يحيى باليمن الفرصة ، فهاجم منطقة عسير ، واستولت جيوشه على نجران ، فأرسل الملك عبد العزيز ابنه الأمير فيصل فى مايو سنة ١٩٣٤ على رأس قوات كبيرة نزلت جيزان ثم زحف بقواته إلى دبرى واستولى عليها ، وخضع له سكان اللحية وقبائل « مور » ثم تقدم فاستولى على الحديدية وخضعت له قبيلة الزرناق ، وفى أثناء وجوده فى الحديدية نزلت بها قوات مسلحة بريطانية جاءت على ثلاث سفن حربية بدعوى حماية الرعايا البريطانيين الهنود الذين كانوا فى اليمن ، ووصلت سفينتان حربيتان ايطاليتان لرعاية الطليان ، وقد استطاع الأمير فيصل أن يجرى مفاوضات مع هؤلاء وأولئك انتهت بانسحابهم من هذه المناطق ، وقد انتهى الصراع بين اليمن والسعودية بتوقيع معاهدة الطائف سنة ١٩٣٤ على أن تكون الحديدية لليمن ، وعسير تهامة ، وعسير السراة للسعودية .

وبقى من هذه الإمارات الصغيرة إمارة آل عائض فى عسير ، وعاصمتها أبها ، وقد نشأت هذه الإمارات فى النصف الثانى من القرن

(١) جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٥٠ .

الثالث عشر الهجري ، ويقال ان عائض كان جنديا باسلا أظهر كفاءة حربية في النضال ضد الجنود المصرية ، فأوصى به قائده على بن مجتل إلى ابن سعود ، فثبته هذا في الإمارة بعد ابن مجتل (١) .

بلغت اماره آل عائض قمته في عهد محمد بن عائض ، فقد امتدت مملكته إلى عسير السراة وقسم من الحجاز وغامد وزهران ، وقسم كبير من تهامة عسير واليمن حوالي سنة ١٨٨٠ ، وقد خافت الدولة العثمانية نتيجة هذا التوسع نقضت عليه ، ولكنها عادت فاستعملت حسن بن علي ابن محمد بن عائض إبان الفتن التي هبت بهذه المناطق حوالي سنة ١٩١٠ ليكون مساعدا للوالي التركي ، وبعد الحرب العالمية وزوال الأتراك من الجزيرة العربية عاد فاستقل بإمارته ، ولكن الزحف السعودي تقدم وضم هذه المناطق إلى الدولة الأم .

وانتهت بذلك هذه الإمارات التي قصدنا الإيجاز في الحديث عنها ، فلم تكن إلا حركات لم تصل إلى القاع ، وليست لها أهداف حضارية تخلد لها أية ذكريات .

أما الصراع الطويل المير فقد كان في الحقيقة بين السعوديين وبين الأشراف الذين كانوا يرون أنهم أصحاب الحق في أن يخلّفوا العثمانيين ويصبحوا سادة العالم العربي ، ولم تكن للأشراف بالمنطقة كفاءات أو تاريخ يساعد على تحقيق هذا الأمل ، ولكنه الغرور القاتل ، وسنفسح المجال للحديث عن الأشراف منذ مطلع نفوذهم بالجزيرة حتى القضاء على هذا النفوذ على يد الملك عبد العزيز .

(١) أمين الريحاني : نجد الحديث وملحقاته .

الأشراف

نقرر أولا أن الاصطلاح السائد في الحجاز هو أن يطلق اسم « الشريف » على نسل الحسن بن علي رضي الله عنهما ، واسم « السيد » على نسل الحسين رضي الله عنه .

ونقرر ثانيا أن آل البيت لهم بيننا مكانة سامية لصلتهم بالأرومة الطيبة التي كان سيدنا رسول الله رائدا لها ، ولكن على أن يكونوا قد انتفعوا بما جاء به نبي الاسلام من فكر وأخلاق ، فإن حادوا عن ذلك حملوا مسئولية ذلك ، فلقد هتف نوح مناجيا ربه : رب إن ابني من أهلي .

فأجابه الحق جل وعلا : إنه ليس من أهلك .

فالانحراف عن الحق لا يغني معه دم ولا نسب ، ولا شك أن الكثيرين منهم قد استقاموا على الطريقة ، وكانوا جديرين بالانتماء لهذه الأرومة الطيبة ، ولكن وجد من بينهم من كان النسب هو كل بضاعته ، وحاول أن يستغل هذا النسب لتحقيق أغراض شخصية ، وذلك ما لا يتفق مع الإسلام ، وتماذى بعضهم فتمرد على كل القيم والشرائع ، فوجد منهم من لم يتورع عن قتل أخيه وأبناء عمومته في سبيل الحكم ، بل يورد الأستاذ حافظ وهبة (١) صورا من قسوة بعضهم بأهله تقشعر الأبدان لذكرها .

واعتدى الكثيرون منهم على الحجاج لسلب أموالهم ، بل كانوا يغتالون أحيانا الحجاج النازلين في بيوتهم (٢) .

ونقرر ثالثا أن الحسن بن علي كان حكيما عندما تنازل عن الخلافة

(١) جزيرة العرب في القرن العشرين ص ١٦٦ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦٧ .

لمعاوية لجمع كلمة المسلمين ، ولم يتشبث بها خوفا على دماء المسلمين أن تراق ، وعلى أموالهم أن ينزل بها الضر ، ولكن هذا المثل السامى لم يتكرر كثيرا ممن طمعوا فى السلطان من نسله ، فقد حرص كثيرون منهم على السلطان بأى ثمن •

ونقرر رابعا أن آل البيت كانوا يطمعون فى الخلافة منذ مطلع الإسلام ، فلما أفلتت الخلافة من أيديهم الى أبى بكر وعمر وعثمان ثم إلى الدولة الأموية فالعباسية •• قنعوا بالحجاز يباشرون المشرافة عليه ولو تحت ظل الآخرين •

وفى ضوء هذه المقدمات نستطيع أن نتحدث عن الأشراف بمكة ••

كانت المدينة المنورة هى حاضرة الحجاز منذ عهد الرسول حتى حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى بصرف النظر عن المحاولة التى قام بها عبد الله بن الزبير بمكة إذ لم يكتمل نجاحها •

وينسب إلى جعفر الحسنى أنه أول من جعل مكة عاصمة الحجاز ، فلقد ثار على الخليفة المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ = ٩٠٨ — ٩٣٢ م) واحتل مكة وأيده الفاطميون فى ذلك فاستقر أمره ودعا للفاطميين (١) وأصبحت المدينة تابعة لمكة ، وأصبحت الحجاز تابعة لمصر بوجه عام منذ ذلك الحين •

وهناك رواية أخرى تقول إن الفاطميين أرسلوا جيشا إلى مكة ليخلصها من القرامطة وأتباعهم ، وكان جعفر أحد رؤساء هذا الجيش فاستولى على مكة باسم الفاطميين (٢) ، ثم استقر بها ، وكون أسرة الأشراف ، وكان حكم جعفر من سنة ٣٥٥ إلى سنة ٣٧٠=٩٦٥ إلى ٩٨٠م •

(١) Gerald de Garury : Rulers af Mecca p. 59

(٢) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص ٣١٣ — ٣١٤ •

وجاء بعد جعفر ابنه عيسى (٣٧٠ — ٣٨٤ = ٩٨٠ — ٩٩٤ م) •

ثم جاء أخو جعفر واسمه أبو الفتوح الى سنة (٤٣١ هـ = ١٠٣٩ م)
فابنه محمد من بعده •

وقد شغل أبو الفتوح وابنه محمد بصراع طويل ضد جبهتين : الجبهة الأولى الأمراء الحسينيون في المدينة الذين حاولوا استعادة السلطان بالمدينة وجعل مكة تابعة لهم •

والجبهة الثانية : أمير حسنى اسمه الفاتكى استعان بالزيدية باليمن ليأخذ السلطة من أسرة جعفر ، وقد استطاعت أسرة الفاتكى أن تتغلب في النهاية لانقراض أسرة جعفر ، إذ مات أميرها الأخير دون أن يكون له نسل من الذكور •

ثم قفزت للسلطة جماعة ثالثة من آل الحسن تسمى « الهواشم » (١) ، ودار صراع بين الفاتكين والهواشم ، تغلب هؤلاء مرة وأولئك مرة أخرى ، فلما سقطت أسرة الفاطميين أزال صلاح الدين الجماعتين ، وعهد لفرع حسنى جديد ليكون منه الأشراف بمكة ، فكان رابع فرع حسنى يتولى هذه المهمة •

وفي أواخر القرن السادس الهجرى كانت المظالم قاسية على أهل مكة وعلى الحجاج ، وكان الأشراف منهمكين في الملذات ، فاستغاث الناس بالشريف قتادة وهو من فرع خامس (٢) من فروع بنى الحسن ، فاستجاب لهذا الهتاف وكان يسكن في جهات ينبع ، فزحف إلى مكة مع أعوانه ، واستولى عليها سنة ٥٩٨ هـ ، ثم مكن لنفسه في الحجاز ، واستقرت أسرته

(١) الجماعة الحسينية الأولى هي جماعة جعفر والثانية هي جماعة الفاتكى •

(٢) يرى الاستاذ حافظ وهبه (ص ١٦٦) أن قتادة مطلع الفرع الرابع فكانه لا يعترف بالفرع الذي أسلمه صلاح الدين السلطة ويرى أنه امتداد للفرع السابق •

في هذه المكانة حتى نهاية الأشراف بالحجاز ، واستطاع أن يمد سلطانه على كافة الأرض الحجازية من خيبر شمالاً حتى القنفذة جنوباً ، كما أنه حاول أن يكون حسن الصلة بكل الأطراف الإسلامية ومنفذاً للتعليمات المصرية ، ولكن أولاده لم يستطيعوا أن يحافظوا على هذا الوضع مما عرضهم أحياناً للهجوم عليهم ، وإخضاعهم ، وبخاصة في عهد المماليك بمصر الذين عينوا حكاما لحماية الحجاج وتنفيذ أوامر القاهرة ، وتركوا الأشراف بدون سلطان حتى أنهم تركوا مكة أحياناً إلى « وادي فاطمة » إذ لم يبق لهم دور في الحكم والسياسة (١) .

ومن أهم الأشراف من نسل قتادة أبو ندى الأول ، وكل معاصرا للظاهر بيبرس ، وقد ظهر عليه مرة ميل للتمرد ، وكان الظاهر بيبرس لا يغفر هذا الاتجاه ، فكتب إليه يقول : « أما بعد يا شريف فإن الحسنة في نفسها حسنة ومن بيت النبوة أحسن ، والسيئة في نفسها سيئة ومن بيت النبوة أسوأ . قف عند حدك ولا أغمدنا فيك سيف جدك » فانهار الرجل وأجاب : إن العبد مقر بذنبه ، نائب إلى ربه ، فإن تؤاخذ فيدك الأقوى ، وأن تعف فاعفو أقرب للتقوى (٢) .

ومنهم كذلك الشريف أبو ندى الثاني الذي سافر إلى مصر لإعلان تسليم الحرمين للسلطان سليم العثماني سنة ٩٢٢ هـ ، وقد انتهز أبو ندى الثاني فرصة اكتفاء العثمانيين منه بالولاء ، وقراءة اسم السلطان في الخطبة فوسع سلطاته ، ووضع قواعد عديدة للأشراف والأشراف تعرف بقانون أبي ندى ، وكان هذا القانون يشمل ستاً وثلاثين مادة أهمها جعل الإمارة إراثاً في أسرة أبي ندى ، ومنع الأشراف من الاشتغال ببعض المن ، وحقوق الأشراف بالنسبة إلى غيرهم ، وذلك بأن جعل للشريف أربعة أمثال حق غير الشريف (٣) .

(١) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص ٣١٥ - ٣١٦ بتصرف .

(٢) ابن فهد : اتحاف الوردى ص ٦٧٥ .

(٣) حسين محمد نصيف : ماضي الحجاز وحاضره ص ١٧ - ١٨ .

ومع وجود الفرمان العثماني بتعيين الأشراف ، ومع وجود قسانون
أبى ندى ، فإن حق مصر فى الحجاز الذى باشرته عدة قرون ظل يتضح
حتى فى العهد العثمانى كما ذكرنا من قبل ، فلقد كان لوالى مصر أكبر
قسط من النظارة على شئون الحجاز ، وأحيانا كان أمراء الحج من مختلف
القطار يتدخلون فى سلطة الأشراف ويمنعونهم من مزاوله كثير مما
يريدون •

وقد ظهرت فروع ثلاثة من أسرة أبى ندى الثانى وهى :

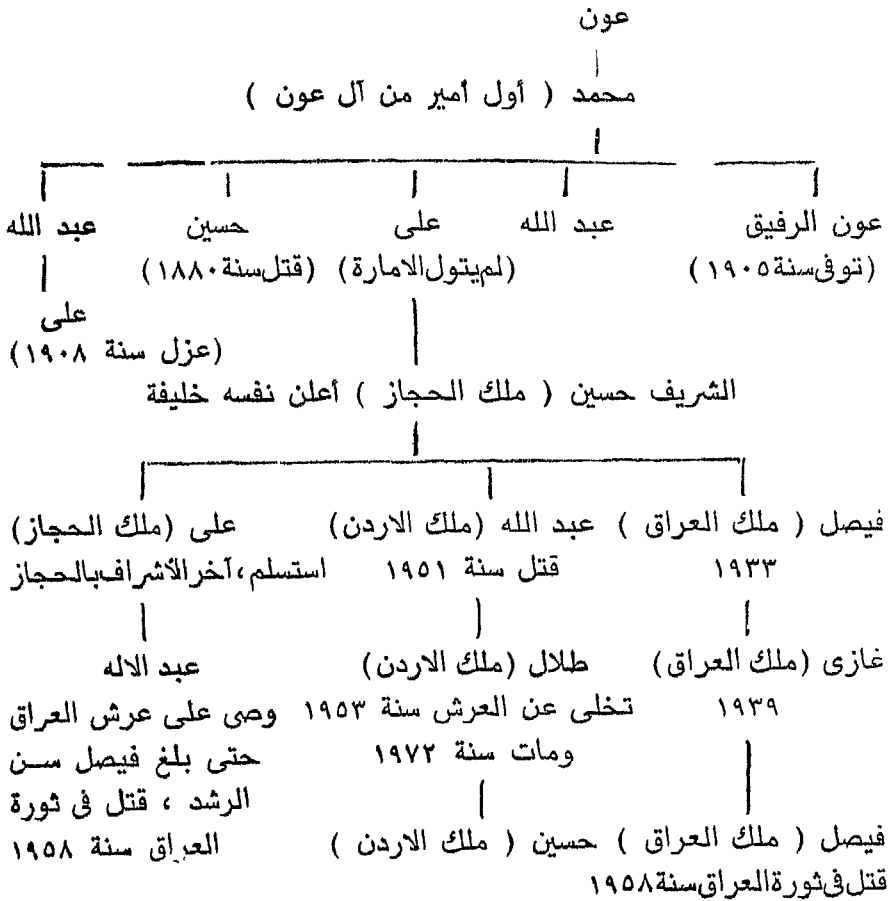
آل بركات — وآل زيد — وآل عون •

وقد استبد آل بركات بالشرافة حوالى مائة سنة (القرن العاشر
الهجرى) ثم ظهر فى الجو آل زيد ونافسوهم أحيانا ، وهزموا أحيانا ،
ثم كانت لهم الغلبة حتى فتح محمد على الحجاز فانتقلت الشرافة الى
آل عون وبقيت فيهم حتى أزيلت •

ومن أشهر أمراء آل زيد الشريف سرور ، وقد استطاع أن يخضع
الأشراف الآخرين بمكة الذين كان كل واحد منهم يعد نفسه أميرا ، وصاحب
نفوذ على السكان وعلى الحجاج ، وقد أحبه أهل مكة لذلك حبا جما ، وكان
بالإضافة إلى ذلك يميل للبساطة والتواضع والكرم ، مع الشجاعة النادرة
والذكاء المتوقد •

ويلى سرورا فى الشهرة الشريف غالب ، وإن كان دونه فى حب العدل ،
وفى أيام غالب غزا السعوديون الحجاز ، كما أنه فى أيامه أيضا غزا المصريون
الحجاز ونجد ، وقد قبض عليه محمد على باشا ، ونفاه الى سلانيك حيث
مات هناك ، كما ذكرنا من قبل ، ونقل محمد على الشرافة الى آل عون •
وفيما يلى شجرة تسلسل الملوك والأمراء من آل عون :

الأمراء والملوك من آل عون



وقد ضعفت قيمة الأشراف ابتداء من الزحف المصرى ، ولم يسترد الأشراف مكانتهم التامة بعد أن أخلى المصريون الحجاز سنة ١٨٤٠ ، فقد أرسل العثمانيون واليا على الحجاز تكون له قيادة الجيوش وإدارة المصالح بجوار الشريف الذى يتولى الأمور الدينية ، وقد أحدث هذا كثيرا من الاضطراب والارتباك فى البلاد ، وعم الشر والفساد لأن كلا من الحاكمين كان يلقى المسئولية على الآخر •

الشريف حسين :

وفى وسط هذه الفوضى اختارت الأستانة الشريف حسين لمنصب الشرافة وتركت له الأمور الدينية والمدنية ، وقد تسلم عمله سنة ١٣٣٦ هـ (١٩٠٨ م) وحاول أن يكون حسن الصلة بالممالك الكبرى ذات النفوذ فى المنطقة كالانجليز فى مصر ، بالإضافة إلى محاولته أن يكون على صلة طيبة بالدولة العثمانية التى اختارته لهذا المنصب ، وعلى هذا فالرجل كان يتمتع بقدر من الذكاء وحسن التدبير لتنفيذ مصالحه الخاصة ، وقد أحست الدولة العثمانية أن ولاءه موضع شك فعينت معه القائد وهيب باشا لمراقبه ولينفذ ما يراه حول إدارة الحجاز ، ولكن إعلان الحرب العالمية الأولى أحدث كثيرا من التغيرات فى المنطقة على النحو الآتى :

— غادر وهيب باشا الحجاز ليقوم بدوره فى هذه الحرب ، وبهذا أزيل هذا الكابوس عن الشريف حسين •

— كانت البلاد العربية تنثن تحت حكم العثمانيين ، وكانت تتطلع إلى قيادة تقودها للتخلص من الاستعمار ، واتجه الشريف حسين ليكون ذلك القائد •

— بمجرد دخول الحكومة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا اتجه الشريف إلى :

١ — تأمين سلامة المواصلات البريطانية بين الهند والبحر الأبيض المتوسط بطريق البحر الأحمر وقناة السويس •

- ٢ — إثارة المتاعب ضد الحكومة العثمانية داخل البلاد التي تحكمها •
- ٣ — إثارة المسلمين بوجه عام والحجاز بوجه خاص ضد العثمانيين
للقضاء على الفكرة التي كان الأتراك يذيعونها بأنهم سيثعلون نار حرب
مقدسة ضد الانجليز وأعوانهم •

وكانت البلاد العربية تتوَّاقة إلى الاستقلال والتخلص من الحكم العثماني ، ولذلك رحب العرب بهذا البريق الخداع دون أن يتصوروا العواقب الوخيمة التي ستتقلهم من استعمار مغلف إلى استعمار سافر ، ولعل من الحق أن نقرر أن الشريف حسين كان من أسباب هذه النتائج السيئة لأنه كان شديد الرغبة في أن يصبح ملكا وكان شديد الثقة بالانجليز وبخاصة أن علاقاته كانت قد ساءت مع الأتراك كما شرحنا من قبل •

وبدأت المشاورات بين الشريف حسين يعاونيه أبناؤه على وعبد الله وفيصل وبين الانجليز ، وقد أدرك الانجليز أنهم أمام مفاوض سهل يرضى بالقليل ويعطى الكثير ، فقدموا له بعض المال (٤٠٠.٠٠٠) جنيه كل عام) كما جاء في بيان اللورد كروفورد في مجلس اللوردات سنة ١٩٣٢ (١) ، وقدموا له بعض الوعود الساذجة غير الدقيقة ، وكان ذلك كافيا ليعلم الشريف ثورته في شعبان ١٣٣٦ هـ (١٩١٦ م) ، وقبل أن تسير مع ثورة الشريف نوَّكد ما ذكرناه من قبل أن بريطانيا وعدت بالقليل ، فقد كان الاتفاق أن يقوم العرب بالثورة على الترك مقابل اعتراف بريطانيا باستقلال العرب ، بدون تعيين حدود البلاد التي يشملها هذا الاستقلال ، واستثنت بريطانيا المناطق التالية :

- ١ — المناطق الواقعة غرب الخط من حلب وحماة وحمص ودمشق حتى البحر •

(١) دكتور أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، ج ١ ص ٢٢٣ و :
Geraled de Gatty : Rulers of Mecca p. 265.

٢ — المناطق التي لا تستطيع أن تتصرف فيها مستقلة عن حليفتها
فرنسا •

٣ — منطقة عدن •

٤ — ولاية البصرة •

٥ — المناطق العربية التي لا تستطيع أن تتصرف فيها من تلقاء
نفسها (١) •

والناظر إلى هذه الشروط يجد أن ما وعدت بريطانيا باستقلاله
كان ضئيلاً جداً لا يتعدى منطقة الحجاز وبعض مناطق الجزيرة ، وإذا
كان هذا هو حال الوعد عند ضرورة الحرب فما بالك بالتنفيذ بعد انتهاء
الضرورة •

ولكن هذه المفاوضات كانت سرية ، فلما هب الشريف حسين يعلن
ثورته ضد تركيا ، واتخذ بكل قوة جانب إنجلترا وحليفتها ظن أكثر
الشباب العربي أن هناك ارتباطات قوية وآمالاً واضحة ، باستقلال
العرب ، ولذلك ساعدوا الشريف واتصموا بكل قوة لحركة المقاومة ضد
العثمانيين •

وانتصرت إنجلترا والحلفاء ، ووضعت الحرب أوزارها ، وجاء يوم
الحساب ، فقابل العرب حقيقة مرة هي أنهم انتقلوا من تبعية كان الاسلام
بخفف مشكلاتها الى استعمار صليبي سافر ، وحاول الشريف أن يجنى
أية ثمرة لجهوده فلم يجد شيئاً ذا بال •

وكان الشريف قد تعجل الملك والجاه ، فأعلن نفسه « ملك العرب »
عقب ثورته ، ولكن الانجليز منعه من ذلك لأن ذلك سيثير ثائرة حكام
العرب الآخرين ، ولكنه كان شديد الحرص على لقب « ملك » ، فاكتفى

بأن أعلن نفسه « ملك الحجاز »^(١) ، ولما خرج من المعركة صفر اليدين حاول توسيع سلطانه على حساب العرب والمسلمين بعد أن فشل أن ينال ما تحت يد الإنجليز والفرنسيين ، فقد انتهاز الشريف حسين فرصة إلغاء الخلافة من تركيا وطرد الخليفة العثماني الأخير عبد المجيد من تركيا فجر الرابع من مارس سنة ١٩٢٤ فأعلن نفسه خليفة على المسلمين في المكان الذى خلا ، وكان ذلك في ١١ مارس سنة ١٩٢٤ ، ولكن تصرفه هذا أساء إليه ، فقد أثار ضده كل زعماء المسلمين واتهموه بأنه يبحث عن مصالحه الشخصية ، ويحاول تحقيق أطماعه دون اهتمام بمصالح المسلمين^(٢) ، وعلى كل حال فإن هذا الاعلان لم يكن ذا نتيجة فإن البلاد الإسلامية لم تعترف به^(٣) .

على أن إدعاء الشريف حسين الخلافة كان حدثا قصير العمر ، وزوبعة في فئان كما يقولون ، ولذلك ينبغى أن نتخطاها لنعود للعلاقات بين الشريف والملك عبد العزيز ، أو قل بين الطموح الذى لا أساس له ، وبين الطموح الذى تدعمه الدعائم القوية والتاريخ .

عندما أدرك الشريف حسين فشله في السياسة اتجه للحرب فأخذ يهاجم واحتى تربة والخرمة ، وكان أهلها تابعين للسعوديين ، وقد فشل فشلا مريرا في هذه المحاولة كما سنرى ، وراح بعد ذلك يتخبط يمينا وشمالا ، ولكن الحقيقة المرة اتضحت له ، فقد اضطربت الأحوال داخل الحجاز ، واستغفرت أعماله عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ، فقرر الزحف على الحجاز ، وكما قام مثلك الشريف بسرعة وبدون أساس فإنه هوى بسرعة ، وانضم إلى ملك السعوديين .

(١) lipid p. 274.

(٢) دكتور أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ج١ ص ٢٣٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٣٥ .

وفيما يلي بعض التفاصيل عن سير العلاقات بين الشريف حسين والملك عبد العزيز آل سعود :

العلاقة بين الشريف والملك :

بدأ الصدام بين عبد العزيز والشريف حسين حين استسلمت الحامية التركية في المدينة للشريف سنة ١٩١٨ ولم يخفف هذا الصراع تلك التهيئة الرقيقة التي بعث بها الملك عبد العزيز مهنتاً الجيش العربي بالانتصار على فلول العثمانيين واقتحام المدينة ، فإن الشريف سرعان ما أرسل خطاباً شديد اللهجة لابن سعود يطالبه فيه بالاعتراف به ملكاً على البلاد ، ويطالبه أيضاً بإخلاء واحة خرمة وعدم التعرض لأهلها بنى عتيبة .

وكان رد الملك ساخراً ، فقد أرسل بعثة من علماء نجد لنشر مبادئ دعوة الإصلاح بين قبائل عتيبة ، وقد رحب الناس بهذه المبادئ ، وتحمسوا لها مما آذن بصراع عسكري بين عبد العزيز والشريف حسين ، وقد ابتدأ هذا الصراع حول واحتى تربة وخرمة على النحو التالي :

تربة وخرمة منبت الصراع :

تقع واحة تربة على بعد خمسة وسبعين ميلاً جنوبى جبل حضن . وتتقع واحة خرمة على بعد خمسين ميلاً شرقى هذا الجبل ، وهما بذلك أبرز مكانين فى الحدود الفاصلة بين نجد والحجاز ، ومن أجل هذا كانتا محل نزاع دائم بين حكام نجد وحكام الحجاز ، وكان من يتسلط عليهما يحظى بموقع استراتيجى يدفع الطرف الآخر لمناقصته ومصارعته .

وقد بدأ الصراع العسكرى سنة ١٩١٩ فقد أعد الشريف حسين بن على حملة كبيرة يقودها ابنه الأمير عبد الله لإخضاع قبائل تربة والخرمة التى ثارت على الحكم الحجازى وأعلنت انضمامها للسعوديين ، وقد تصدى أتباع السعوديين لهذه الحملة بقيادة سلطان بن بجاد متعاونين مع قبائل

تربة والخرمة ، وهاجموا جيش الأمير في الليل فتفككت عراء وتمزق شمر ممزق ، وأفلت الأمير من موت محقق تاركاً أسلحته ومناعه وعدداً كبيراً من القتلى ، واتضح أن بقاء المملكة الحجازية سيكون ماثراً متاعب بالجزيرة العربية وبخاصة أن هؤلاء الحكام ليست لهم أعماق في هذه البقاع ، ولا يعرف عنهم إلا صفة الانتهازية ، ولكن السعوديين لم يواصلوا زحفهم على الحجاز ، فاسم « ملك العرب » كان لا يزال يدوي ، وعلاقة الانجليز بالشريف كانت لا تزال قوية ، وقد تلقى ابن سعود رسالة من الوكيل السياسي البريطاني في جدة يطلب منه عدم التعرض للحجاز (١) .

ولكن أسباباً حدثت فجعلت بالصراع ، فبينما كان الشريف حسين يطمح في توسيع سلطانه ، وكانت الأطماع تتخيل له كأنها حقائق ، كان ابن سعود يوسع سلطانه فعلاً ، فلقد ضم بلاد حائل ، واستولى على تيماء وخيبر والجوف ووادي السرحان وهد نفوذه فشملاً بلاد عسير .

وكان رد الفعل من الشريف حسين يثير حفيظة الناس ، فقد ضيق على أهل نجد ، وحرّمهم من القدوم لأداء فريضة الحج كما تعاون الشريف مع سلطات العراق وشرق الأردن لتطويق ممتلكات السعوديين .

واقترحت بريطانيا عقد مؤتمر بالكويت لتسوية الأحوال التي تثير الخلاف ، وعقد المؤتمر في ديسمبر ١٩٢٣ وفضّل المؤتمر لأن الشريف حسين كان يريد أن تعود عقارب الساعة للوراء ، فطالب بإعادة الأوضاع في الجزيرة العربية إلى ما كانت عليه قبل الحرب ، أي أراد أن يلزم السعوديين بإعادة الجوف ووادي السرحان لشرق الأردن ، وإعادة تيماء وخيبر وتربة والخرمة إلى الحجاز ، وإعادة آل الرشيد إلى حائل ، وآل عائض إلى عسير ، وكان هذا مطلباً ساذجاً لا يحتمل التنفيذ ، فانهارت عليه آمال المؤتمر .

(١) دكتور صلاح العقاد : جزيرة العرب في العصر الحديث ص ١٢ .

بين سياستين :

تعتبر السنوات الأولى من العقد الثالث من هذا القرن سنوات حاسمة بالنسبة لتاريخ الحجاز ، وقد أتضح لنا التنافس القوي بين الأشراف وبين السعوديين في هذا المجال ، ولكن سياسة الملك السعودي كانت دقيقة وحكيمة ، وكانت سياسة الشريف حسين فيها كثير من الخرق والفوضى ، كان الملك السعودي يأخذ للأمر أهميته من كل ناحية ، فهو من الناحية الداخلية عميق الصلة بشعبه ، يعدّ جيشاً نظامياً مدرباً على أحدث الأسلحة ، وهو — فيما يتعلق بالجزيرة العربية — يخفى خططه خلف جدار من الصمت والهدوء ، وهو بالنسبة للعالم الخارجى كان يحاول أن يخرج من عزلته ، ويكون حسن الصلة بالعالم الإسلامى ، وقد أولى مصر مزيداً من الاهتمام لكانتها العربية والإسلامية فأرسل برقيّة تهنئة للملك فؤاد بمناسبة افتتاح أول برلمان مصرى ، ومن الواضح أن هذا الحدث كان بعيداً آنذاك عن الفكر بالجزيرة العربية ولكن الملك السعودي كان يتلمس الوسائل ليظهر رغبته في حسن الصلة بمصر ، واستمر الملك السعودي في هذا الاتجاه فتبنى رأى مصر عقب سقوط الخلافة الإسلامية وكانت مصر ترى أن حلّ مسألة الخلافة الإسلامية ينبغى أن يكون بمؤتمر إسلامى عام يعقد في القاهرة •

وأدرك الملك السعودي ذعر الرأى العام المصرى من احتمال وقوع الحجاز تحت سلطة السعوديين ، لأن ذلك ارتبط عند المصريين بهدم القباب وإيقاف المحمل المصرى ، وبالتالي وضع عقبات في طريق الحجاج المصريين — تلك الأحداث التى انتهجها السعوديين إبان الدولة السعودية الأولى عندما صار لهم الحكم في الحجاز ، وقد أوعز الملك لكثير من رجال الرأى أن يؤكدوا أن الحج حق لجميع المسلمين ، وأنه ليس من الممكن أن يمس أحد القبة النبوية بالمدينة بأى سوء وقد اعتبر ذلك حلاً لمشكلة كانت تشغل الجماهير (١) •

(١) اقرأ كتاب « الوهابيون والحجاز » •

وكانت سياسة الوفاق بين الملك السعودي وبين الانجليز ثابتة تبعا للمعاهدة التي عقدت سنة ١٩١٥ ، وقد رأى الملك الإبقاء على هذه السياسة وتلك المعاهدة حتى لا ينضم الانجليز الى خصومه •

وبينما كان الملك السعودي ينهج هذا النهج ، كان الشريف يتخبط ، وينصرف كأن قوى الأرض تدين له ، وأنه غالب لا يقهر ، فقد كان داخل الحجاز بعيدا عن الجماهير ، هؤلاء الذين ذاقوا ألوانا من الولايات على أيدي الأشراف كما ذكرنا من قبل ، وكان جيش الأشراف مجموعات من المرتزقة لا تربطهم أواصر دم أو فكر بالاحكام ، ولذلك كانوا يطالبون بالمال في أخرج الأوقات ، ويتوقفون عن أداء واجبهم حتى يقبضوا المال •

وفي الجزيرة العربية كان الشريف يمثل حركة استفزاز وتسلط على كل النواحي ، ولذلك كانت كل بقاع الجزيرة تخشى شره •

وكانت علاقات الشريف بالعالم العربى والاسلامى غير طيبة ، فهو مرة يعلن نفسه ملك العرب ، وهو لقب واسع ، ومرة يعلن نفسه خليفة المسلمين ، ويحدث هذا وذاك منه دون استئذان العرب ودون شورى من المسلمين ، كأن العناية الالهية اختارته ملكا أو خليفة ، وعلى الناس أن يستجيبوا ، ولكن الناس فى الحالتين رفضوا وقاوموا •

واتسعت آمال الشريف فراح يخلق الامارات والممالك لأولاده فى ظل الانجليز ، فخلق إمارة شرق الأردن وعين الأمير عبد الله أميرا لها ، وعين فيصل ملكا على سوريا ، فلما لم تنجح هذه الأمنية حرّك فيصل ليصبح ملكا على العراق ، وقد خلق هذا التصرف استياء عاما فى النفوس العربية التى أحست أن الشريف يمد نفوذه لصالحه وصالح أبنائه دون نظر لرغبات الشعوب وحقوق الشعوب •

على أن الزلة الكبرى التى تردى فيها الشريف هى سياسة الجفاء التى بدأت بينه وبين الانجليز أولياء نعمته ، أو الذين أمدوه بالمال

والسلاح والنفوذ ، وقد حسب الشريف أن وعود الانجليز له خلال الحرب وعود حقيقية ، فلما انتهت الحرب وظهر الانجليز على طبيعتهم من الغدر بالعرب ، والسعى لصالح الاستعمار وصالح اليهود فكر الشريف في نوع من الاعتداد بالنفس فكان في ذلك حتفه •

لقد امتنع الشريف عن حضور بعض المؤتمرات التي نسقها الانجليز لتنظيم الحدود بين دول الجزيرة ورفض معاهدة قدمها له الانجليز . احتجاجا على بعض بنودها ، وظهرت الجفوة في كثير من التصرفات فأدت الى قطع المعونة البريطانية سنة ١٩٢٤ و آذن ذلك بتقويض الركن القوى الذي بنى الشريف عليه آماله وطموحه •

وهكذا كانت سياسة الملك السعودي تقفز به للأمام وكان حمق الشريف يدفعه إلى التدهور والمتقهقر ، وفي ضوء هذا تهيأت الظروف لفتح الحجاز كما سنرى فيما يلي :

فتح الحجاز :

إزاء الموقف السابق كان لابد من الصراع للتخلص من الأشراف فوجودهم بالحجاز مثار للفتن ، فسارت حملة عسكرية من تربة حتى الأخضر ، ومنها الى الطائف في أوائل صفر سنة ١٣٤٣ هـ (٦ سبتمبر سنة ١٩٢٤) وكان يقودها خالد بن لؤى ، وسلطان بن بجاد ، فاحتلت الطائف دون مقاومة تذكر ، ثم اشتبكت مع جيش للأشراف الذي يقوده على بن الملك حسين في معركة الهدى HADA ، وقد اندحرت قوات الأشراف في هذه المعركة وقد حدثت هذه المعركة في ٢٦ صفر سنة ١٣٤٣ هـ (٢٦ سبتمبر سنة ١٩٢٤ م) وتقدم الجيش بعدها فحاصر المدينة • أما جند الشريف فقد فروا في حالة من الفوضى والاضطراب ، ويصف جون

فيلبى موقف على بن الحسين قائد الجيش بقوله : وقد سار على إلى جدة مخلفا مكة وراءه معتبرا الحكمة فوق شجاعة المشجعان (١) .

ومن العجب أن آمال الشريف حسين انهارت تماما بعد هذه المعركة : وانكبَّ الرجل على وجهه بعد أن كان منذ عام واحد يحاول أن يملأ شريطه في مؤتمر الكويت ، ولم يستطع صبرا ، فتنازل عن العرش لابنه على ، وسافر الى ميناء العقبة ومعه ثروته الضخمة ، ومن هذه الميناء أبحر الى قبرص وبقي بها حتى مات سنة ١٩٣١ م .

أما على بن الحسين فقد بقى في جدة ليشهد أفول المملكة التي بناها أبوه في الخيال .

واستمر التقدم السعودي دون توقف ، ففي ١٧ ربيع الأول سنة ١٣٤٣ هـ (١٦ أكتوبر سنة ١٩٢٤ م) دخلت قوات السعوديين مكة م . احتلوا القنفذة والليث ورابع .

وتقدم الجيش السعودي الى جدة فحاصرها ، واستمر الحصار مدة عام تقريبا ، وفي خلال هذا الحصار نشطت الوساطة لإيقاف المعارك في الأرض المقدسة ، وقد اشتركت في هذه الوساطة دول وهيئات مختلفة ، فجمعية الخلافة الاسلامية في الهند كانت تنادى بحكومة جماعية للحجاز أشبه بالنظام الجمهورى ، ومصر كان ملكها (الملك فؤاد) يطمع في الخلافة ، وقد أرسل الى الحجاز بعثة في أغسطس سنة ١٩٢٥ اشترك فيها الشيخ محمد مصطفى المراغى وعبد الوهاب طلعت ، وكان الملك عبد العزيز يحرص على إرضاء مصر مع حرصه على أهدافه الخاصة ، ولذلك قدم للوفد المصرى مقترحات مطاطة ترضيهم من جانب ، ولا يبعد عن أهدافه من جانب آخر (٢) .

(١) تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٣٢٥ .

(٢) انظر هذه المقترحات في فيلبى .

وتتقدم للوساطة كذلك « سان جون فيليبى » خبير المخابرات الانجليزى الذى كان متخصصا فى الشئون العربية ، كما تتقدم لها كذلك أمين الريحانى أحد المسيحيين السوريين وهو مفكر عربى معروف •

على أن صوت الحجاز كان مدويا آنذاك ومتمثلا فى الحزب الوطنى برئاسة محمد الطويل ، وكان هذا الصوت لا يوافق على فكرة الحكومة الجماعية خشية أن تتدخل فى حكم البلاد جنسيات غير عربية لا تعرف التقاليد العربية كالفرس والهنود ، ولا توافق على التبعية لمصر لأن الحجاز عانى ألوانا من الاضطراب فى بعض فترات الحكم المصرى له ، ولذلك كان يميل الحزب الوطنى فى أثناء الحصار على الإبقاء على حكم الملك على بن الشريف حسين •

ولكن صوت السلاح كان أقوى من كل هذه الأصوات فقد زهجر هذا الصوت وحسم هذه القضية ، حتى اضطرت جدة الى التسليم فى ديسمبر سنة ١٩٢٥ بعد حصار دام عاما كاملا وبعد أن لاقى المحاصرون ألوانا من العناء ، وفى نفس الوقت سلمت المدينة المنورة الزمام للسعوديين كذلك •

ولم يجد الملك قصير العمر على بن الحسين بدءا من توقيع اتفاقية تنازل فيها عن الحجاز ، وسافر من جدة عقب ذلك ، ودخل الحجاز فى ملك السعوديين ، وتحققت آمال البطل عبد العزيز آل سعود ، وكان دخول الحجاز تحت سلطان الملك عبد العزيز وسيلة مهمة لذيوع صيت الرجل ، وبروز اسمه فى العالم الاسلامى كله •

وأسرع الملك عبد العزيز فأوضح بنفسه أن الحجاز ستبقى وديعة لكل المسلمين فى العالم ، وأنها ترحب بجميع المسلمين سواء جاءوها حجاجا أو طالبى معاش ، على شرط أن يقبلوا بها الشريعة الاسلامية نبراسا لحياتهم ومعاملاتهم المشروعة فى كل شئ (١) •

(١) جون فيليبى : تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ص ٣٤٣ •

وتطلعت بعض قوى الوساطة التي تحدثنا عنها آنفا أن تستعيد نشاطها بعد زوال الحكم الهاشمي ، ولكن الملك عبد العزيز حسم الموضوع ، وجذب إليه أعيان مكة ، كما جذب رجال الحزب الوطني الذين كانوا من قبل يؤيدون الملك « على » ، ونادى هؤلاء في ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣٤٤ هـ (٨ يناير سنة ١٩٢٦) بابن سعود ملكا على الحجاز فأصبح لقبه : ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها •

وفي ٢٤ ربيع الثاني سنة ١٣٢٥ هـ (٢١ أكتوبر سنة ١٩٢٦) بسط حمايته على تهامة عسير المعروفة بالمقاطعة الإدريسية كما ذكرنا من قبل •

وفي ٢٥ رجب سنة ١٣٤٥ هـ (١٦ يناير سنة ١٩٢٧) صدر قرار بأن يصبح لقب جلالته : ملك الحجاز ونجد وملحقاتها •

وفي ٢١ جمادى الأولى سنة ١٣٥١ هـ (٢٢ سبتمبر سنة ١٩٣٢ م) صدر مرسوم ملكي ، وحد أجزاء المملكة جميعا ، فأصبحت مملكة واحدة باسم : المملكة العربية السعودية ، وأصبح لقب عبد العزيز هو ملك المملكة العربية السعودية •

الملك عبد العزيز بين عهدين ،

قبل أن نطوى صفحة جلاله الملك عبد العزيز آل سعود يجدر بنا أن نوضح التطور الخطير الذي حدث في علاقة الملك بالشريف حسين ، وسنعمد في بيان هذه الحقيقة على كتب رسمية أرسلها عبد العزيز عندما كان أميرا لنجد ، إلى الشريف حسين الذي لم يكن فقط حاكم الحجاز ، وإنما كان — كما توحى به هذه الرسائل — واسع النفوذ في الجزيرة العربية كلها ، مما جعل السكان في كل مكان يلجئون إليه إذا أحسوا ظلما من أميرهم ، وكان الأمراء لهذا يتملقونه ويعملون على نيل رضاه ، فكأنما كان ممثلا للأثر في الجزيرة العربية كلها ، وليس في الحجاز وحده ، وبعد هذا بحوالي خمسة عشر عاما أنهار كل شيء ، وزحف أمر

نجد في جيش صاحب ، فقضى على ملك الشريف وأمجاده ، وأصبح الرجل الذي كان يتملك الشريف منذ أعوام قليلة صاحب الحول والطول في أكثر الجزيرة العربية ، كما أصبح الحجاز جزءاً من المملكة الكبيرة التي امتد لها سلطان العاهل السعودي •

وفيما يلي هاتان الرسالتان اللتان تحملان عبارات الإجلال والتقدير من أمير نجد إلى الشريف حسين ^(١) :

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة جناب الأجل الأفخم يمين الشيم أمير مكة المكرم سيدنا الشريف حسين باشا بن السيد على دام مجده وعلاه آمين •

بعد إهداء مزيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام مع السؤال عن شريف خاطرکم العاطر ، لا زلتم بكمال الصحة والسرور حايزين الأوصاف الحميدة •

أحوالنا من كرم الله جميلة ، وتقدم سعادتكم قبل هذا كتاب نرجو أنه وصل وأنتم مسرورين • ثم نعرض لدولتكم العزيز أنه بموجب شفقتكم وعلو هممكم وأنظاركم العالية قدمنا أخينا عبد العزيز عبد الله السعود لموجب خدمتكم وأحبينا المصاوغة معه لموجب التبرك باقدامكم ، وأرسلنا معه الصقلاوية والحمداني وكحيلان ، ولا والله قصدنا في إرسالها لأنكم بحاجة ، ولا شك في غاييتنا نبغى نقرّب أنفسنا منكم ، فإننا هنا حاسين أنفسنا من خواصكم ، والله ثم لكم ، والا هديتنا لحضرتكم رعوسنا وما تحت أيدينا ، ولكنها هي صوغة للأولاد الكرام ، وحررنا هذا الكتاب لموجب التعرض لخدمتكم ، وما يبدو منه اللازم ، والا أمرك علينا تام على

(١) ننقل هاتين الرسالتين بنصهما مع ما فيهما من أخطاء نحوية وضعف في الأسلوب ، فالرسالتان صورة لعصرهما من الناحية السياسية والناحية الثقافية •

على كل حال ، ومهما تفعلونه معنا وتحطون أنظاركم علينا تجدونه إن شاء الله مضاعفا بالخدمات والسمع والطاعة ، هذا ما لزم تعريفه ، والولد برسم الخدمة مع إبلاغ السلام حضرة الإخوان المسادات الكرام على وفيصل وزيد ، ومن عندنا أولادنا محمد وسعود وكافة السعود يسلمون ودمتم محروسين •

١٨ ن سنة ١٣٢٨ هـ خادم الدولة والملة والوطن
(سنة ١٩١٠ م) أمير نجد ورئيس عشائرها
(التاريخ هكذا في الأصل) عبد العزيز السعود
(ختم)

والخطاب الثانى هو :

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة جناب الأجل الأمجد الأفخم بهى الشسيم أمير مكة المكرمة سيدنا الشريف حسين باشا ابن السيد على دام مجده وعلاه آمين •

بعد اهداء مزيد السلام التام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام مع السؤال عن شريف خاطرکم العاطر ، ولا زلتم بكمال الصحة وواتر السرور حائزين الأوصاف الحميدة ، أحوالنا من كرم الله جميلة ، بأشرف وقت أخذنا مشرفكم المكرم ، فسرنا ما تضمنه من صحة أحوالكم واعتدال أوقاتكم ، وما عرف جنابكم كان لدى ابنكم معلوم خصوصا ما عرف جنابكم من جهة غيبية والقصيم ، وأنهم يلقون اليكم من الأكاذيب الذى ليس لها حقيقة ، ويتظلمون عند حضرتكم ، فنحن نقول عما قالوا : سبحانه هذا بهتان عظيم فأما وجهة نظرکم علينا وعليهم فهذا هو شأن مثلکم وهو مقامکم العزيز ، وأحن متيقنين ان حنا بأنفسنا أقرب منهم ومن غيرهم لسعادتکم وأدنى جواب يصدر منكم الينا بمنع السو عنهم اذا كان

صادر منا شيء فنحن نمتثل به لموجب رضا الله ثم لخدمة سعادتكم مع
إني ما والله أعلم أن أحد من أهل نجد يطلب مني مثقال حبة من خردل
من ظلم إلا أن كان عدو ضعيف جاني ، ولجنايته سبب ، وقول العدو ما
يؤخذ في عدوه ، والا أدام الله وجودكم نجد يوم جيته ما فيه من جميع
مأموريته أحد كلها مناصب لابن رشيد ، وولانا الله عليه بهداية الله ثم
هدايتكم ، وأمرنا كل في منصبه فمنهم من أطاع واستقر والى الآن بمكانه ،
ومنهم من ظلم الرعية ، وبنا غدر وأعانا الله عليه وأحسننا فيه ، فالآن
ابنكم وخادمكم ومملوك فضلكم ثاني نفسه سامع مطيع لله ثم لحضرتكم
لأدنى واحد من أهل القصيم أو عتيبة يدعى على بأدنى شيء منه ظلم ،
فكما تأمرون أفعل امتثالا لأمر الله ثم أمركم ، وجميع ما زوروه على
حضرتكم دواء الكذب للقابل ، فإن كنت المجرم فأنا تحت امركم كما
تأمرون أفعل ومضطرب لأدبكم ، فإن كانوا هم الكاذبين وتحقق عند جنابكم
ذلك ، فنحن قد دمنا لهم من الزلات أكثر ، وحقا على جنابكم أن تكونوا
على حذر من أقوال الغاشين للإسلام والمسلمين ، وأنا والله وبالله وتالله
أن رضاكم وامتنال خدمتكم عندي أعز من رضا عبد الرحيم وخدمته
ثم أنا معطيكم عهد الله وأمان الله ، أني ولد لك سامع ومطيع ، ما
أخالف شوفتك في جميع أمر ، وأنا تحت أمركم أن كان تريدون المقابلة
بينى وبين المزورين في أى وقت تحبونه أحضر ، فإن كان تحبونه من بعيد
فالمراجعة بيننا ونحن تحت تدبير الله ثم تدبيركم ، وانما لا يزورون على
حضرتكم أنى مستغزى أهل نجد ، قصدى محاربتكم أو مكابرتكم لا والله
لا والله والله ، انى ما استغزيتهم إلا لموجب بنى خينا وبعض الفساد الى
ما يخفى جنابكم ، ولا يقطع عقلكم أن قدومى بها المحل قصدى محاربة
أو أمر يغضب خواطركم الا انما هو تقرب لخدمتكم وعن البعد الذى

يحصل به الاتحاد للأعداء ، ويزورون أعظم مما زوروا سابق ، وأجبنا
تعجيل الطارش لموجب رد جوابكم العزيز ، ونحن بانتظار تدبير الله ثم
تدبيركم ، وتحت الأمر هذا ما لزم ، والرجاء ابلاغ سلامنا للإخوان
السادات الكرام ، ومن عندنا أولادكم محمد وسعود وكافة السعود يقبلون
أياديكم ودمتم محروسين •

خادم الدولة والملة والوطن

١٥ ل ١٣٢٨ هـ

أمير نجد ورئيس عشائرها

(سنة ١٩١٠ م)

عبد العزيز سعود

(ختم)

مرة أخرى نقرر أن هذين الخطابين صورة واضحة للتحول الضخم
الذي تم في الجزيرة العربية ، ولا شك أن الحرب العالمية الأولى ونتائجها
كانت أكبر وسيلة لتحقيق هذا التحول •

والآن وقد حقق الملك عبد العزيز هذا النجاح الساحق في ميدان
السياسة والحرب بجدة يتجه بحماسة وإصرار إلى تقوية الجانب الحضارى
في هذه المملكة الفسيحة لتستعيد مكانها بين دول العالم الإسلامى ، فقد
كانت مهبط الوحى ومركز الثقافة والفكر في مطلع الإسلام ، ومنها شاع
الضوء على العالم ، فكيف بها تتخلف عن الركب وتنزوى بعيدا عن
التقدم ، وسنراه هو وأولاده من بعده يصارعون في هذا المضمار ، فيفتحون
المدارس والجامعات وينشئون المدن ، ويمهدون الطرق ، ويعنون بالصحة •

وقبل أن ندع الملك عبد العزيز ونتجه الى أولاده وخلفائه يجدر بنا
أن نخصص مساحة ولو قصيرة لدراسة صورة من صور الصراع خاضها
الملك العظيم ، ضد رفاق الأمس ، ضد من يسمون « الإخوان » •

الإخوان

كلمة الإخوان في الحجاز خلال العقد الثاني والثالث من القرن العشرين كانت كلمة تثير الذعر ، وتملأ الجو بالخوف والفرع ، وقد ارتبطت هذه الكلمة بمشروع تحضير البادية الذي بدأ سنة ١٩١١ إذ اتجهت عناية الملك الى توطين البدو ومنحهم الأرض والآلات لزرعها ، وقد أقيمت كثير من القبائل على هذا الاتجاه ، فتركت سكنى الخيام ، وبنت لها بيوتها في تجمعات اختيرت لها الأمكنة المناسبة ، وأطلقت كلمة هجرة على كل تجمع من هذه التجمعات ، واستعملت كلمة هجرة إشارة الى أن هؤلاء هجروا حياة البادية بما فيها من جهل وتعصب وصراع ، وأول هذه الهجرات هجرة الأرطاوية ، ثم الغطف ، ثم دخنه ، وقد بلغت هذه التجمعات ستين هجرة •

وقد حاول البدو أن يقربوا من الاسلام الصحيح ، فاتجهوا لدراسة هذا الدين في تجمعاتهم الجديدة ، وبالغوا في اتجاهاتهم التحضرية ، فباع بعضهم إبله وغنمه •

ولكن خطرا جديدا داهمهم ، فإن الذين جلسوا من الاخوان مجلس المعلمين كانوا أنصاف متعلمين ، وكانت ثقافتهم ضحلة ، وبناء على ذلك اتجه التفكير في هذه الهجرة الى أنهم وحدهم المؤمنون ومن عداهم بعيدون عن الإيمان ، فالبدو الذين لم يقبلوا على الهجرة أعراب يصدق عليهم قوله تعالى « الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ^(١) » وقوله : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ^(٢) » وسكان الحضر كفرة بعيدون عن مبادئ الاسلام وتعاليمه ، وعلى الاخوان أن يجاهدوا في سبيل الله هؤلاء وأولئك لتعلو كلمة الله ، وعدّ الاخوان ارسال سعود

(١) سورة التوبة الآية ٩٧ •

(٢) سورة الحجرات الآية ١٤ •

ولى العهد إلى مصر عملا منافيا للدين الآن مصر — في نظرهم — بلاد شرك ، كما انتقدوا الملك عبد العزيز لتسامحه مع الشيعة وعدم إلزامهم بالدخول في الاسلام كما يروونه ••

وظن الاخوان أن معارفهم هي وحدها الدين ، وكانت هذه المعارف عبارة عن أمور ضئيلة ، فمثلا أصبح لبس العمامة هو السنتنة ، ولبس العقال بدعة منكرة ، أو — عند بعضهم — لباس كفّار ، واتجهوا الى أنه لا اسلام لمن لم يسكن الهجرة ، كما اتجهوا الى إساءة المظن بالحضر ، والاستعداد لمهاجمتهم لأنهم أهملوا الإسلام كما يروونه ، وشاع عندهم أن الثوب الطويل إسراف يجب القضاء عليه ، فكانوا اذا وجدوا ثوبا طويلا قصوه معتمدين على فهم خاص للحديث الذى يقول « فضل الازار فى النار » ثم خطوا خطوة أخرى عارضوا بها كل وسائل الاصلاح فى الدولة ، ورأوها كفرا وانحرافا ، فعارضوا مدّ أسلاك التليفون بحجة أنها تنقل الأصوات بواسطة الشياطين ، وعارضوا ركوب الدراجة وسموها عربة الشيطان ، كما أنهم اتجهوا للعبادة ولم يهتموا بالفلاحة والإنتاج مما جعلهم عبئا على الخزانة السعودية ومصدر استهلاك لا إنتاج •

وهكذا كرّس الإخوان جماعات ليست أقل من البدو فى حميتها وخطرها ، وان اختلفت مع البدو فى أسباب هذا الخطر •

ويصفهم الأستاذ حافظ وهبة بقوله : إنهم لا تعرف الرحمة قلوبهم ، ولا يفلت من تحت أيديهم أحد ، فهم رسل الموت أينما حلوا (١) •

ويطراً دائما سؤال عن مدى العلاقة بين العلماء من نسل الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومؤسس حركة التوحيد وبين الاخوان ، ويجب بعض الباحثين عن ذلك بقوله : إن هؤلاء العلماء قالوا بضرورة طاعة الامام

(١) جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٣١٤ •

(م ١٤ - التاريخ ج ٧)

في مسائل الحكم كإقامة الحصون وإعداد الجيوش ، وتوقف هؤلاء العلماء عند مسألة المخترعات الحديثة ولم يبدوا فيها رأيا قاطعا ، وأظهروا تعاطفا مع الإخوان في بعض المسائل كإرسال المعلمين لتعليم الشيعة حتى يدخلوا في الإسلام ، ويمنع المحمل ما دام مصحوبا بما أسموه مظاهر الشرك (١) .

وهكذا يتضح لنا أن العلماء الوهابيين كانوا أكثر تطورا من الإخوان ، وكان استعدادهم للفهم أنضج وأقوى ، أما موقفهم من المخترعات الحديثة فلعله كان موقفا شائعا عند كثيرين من العلماء المسلمين بالعالم ، لأن الدراسات الإسلامية حتى مطلع القرن العشرين كانت متعثرة ، ولم يكن لعلماء الدراسات الإسلامية حظ يذكر من العلوم المدنية .

وانتهت الحال الى الصراع بين الملك وبين الإخوان عندما لم تبقي وسيلة غير الصراع ، وكان فيصل الدويش أهم قائد من قواد الإخوان قد خر جريحا في إحدى المعارك سنة ١٩٢٩ ، وأشفق الملك عليه . ولكنه عندما أحسّ ريح العافية هبّ من جديد يصارع الملك ، وضيق الملك عليه حتى استسلم للانجليز الذين سلموه بدورهم للملك الذي عفا عنه بعد أن قلّص أظافره ، ويروى أن الملك عندما انتهى من ثورات الإخوان قال : « من اليوم سنحيا حياة جديدة » ، مما يدل على أن الإخوان كانوا عائقا للتقدم والحضارة .

وبسبب ثورات الهجر توقف مشروع تحضير البادية سنة ١٩٣٠ .

الإخوان والجيش السعودي :

كان الإخوان يكونون النواة الأصلية للجيش السعودي ، وبهم خاض الملك عبد العزيز كثيرا من المعارك ، وحقق كثيرا من الانتصارات

(١) دكتور صلاح العقاد : جزيرة العرب في العصر الحديث ص ٢٨ .

فبهم اقتحم الملك الأحساء ، وأخذها من الأتراك العثمانيين ، وبهم قضى على ابن رشيد ، وضم إمارة حائل ، وبهم اقتحم واحتى تربة وخرمة ، وبهم دخل مدينة الطائف •

ولكن الهجر كوَّنت للاخوان قوة وقيادات أشرنا لها فيما سبق ، فقد أصبحت لجموع الهجر فلسفات بعدت قليلا أو كثيرا عن آراء الامام ، كما ظهرت بين الاخوان قيادات تمردت على توجيهاته كما رأينا في فيصل الدويش ، ولعل الخلاف بين الاخوان وبين الكويت كان نذير خطر أدركه الملك السعودي ، فقد جاء بعض الاخوان من قبيلة مطير وقرروا بناء هجرة عند بئر قريب من ساحل الكويت ، وأدى ذلك الى صراع مسلح بين الإخوان وأمير الكويت « سالم الصباح » الذى لم يكن حسن الصلة بالحركة النجدية التى يقودها الملك عبد العزيز ، وقد تدخل الملك بحكمته حتى لا يتفاقم هذا الصراع ، وساعد على الوصول لهذه النتيجة الطيبة تولية أحمد الجابر إمارة الكويت خلفا للشيخ سالم الذى توفى فانكمشت بوفاته هوة الخلاف •

ثم جاء دخول الطائف فى سبتمبر سنة ١٩٢٤ ، وفى الطائف أفلت زمام بعض الإخوان أو قل نفذوا اتجاههم الذى كان يرى مَنْ سواهم مشركين لا حرمة لهم ولا لأموالهم فأكثروا القتل والسلب •

وبجانب هذه الفوضى قاوم الاخوان استعمال الآلات الحديثة ، وكانت الجيوش فى العالم قد عرفت آلات حربية لم تعرفها من قبل •

من أجل هذا بدأ الملك عبد العزيز يعد فرقا جديدة من الشبان لتكون نواة جيشه ، فاختر جماعات تدين له بالولاء الكامل ، وتلتزم بالطاعة التامة لولى الأمر ، ودرب هذه الجماعات على استعمال الأسلحة الحديثة التى استنكر الاخوان استخدامها •

وعندما لم يبق إلا القوة حكما بين الملك وبين المتمردين من الاخوان اقتحم الملك بجيشه النظامى تجمعات مطير النائرة بقيادة فبصل الدويش وعملت السيارات المصفحة والآلات الحديثة عملها ، فهزمت جموع الثائرين شر هزيمة ، وأسلم قائدها نفسه للانجليز كما سبق .

وأصبح الجيش السعودى منذ ذلك اليرم جيشا نظاميا موحد القيادة سواء انحدر جنوده من الإخوان أو من الحضر .

رحلة الى القطط :

فى الرابع من شهر فبراير ١٩٧٧ قمت ومعى بعض الأصدقاء برحلة الى القطط وهى قرية قريبة من مدينة المراحمية التى تبعد عن الرياض بحوالى ثمانين كيلوا مترا .

والقطط الآن بقايا قرية واسعة تقع فى أحضان منطقة خصبة كثيرة الزرع والنبخيا ، وقد دققنا باب شيخ (مطوَّع) له صلة بأحد رفاقنا فى الرحلة ، وقد أحسن المطوع استقبالنا ورحب بنا ودعانا لجلسة فى نخيله على بعد حوالى ميلين من المنزل ، وقد هتف بابنه أن يحضر بعض البلاح فأسرع الابن باحضار عدل كبير ، وكنا نظن أننا سنأكل منه فقط ، ولكن الرجل أسرع فأفرغه كله فى سيارتنا وسار معنا إلى حديقة النخيل على حافة القطط وجلس يحدثنا عن أحداث الاخوان هناك .

وكان الرجل يهمس فى حديثه كأن الحديث عن الاخوان خطير مثل خطر الاخوان أنفسهم ، وذكر الرجل أن مؤامرة أعداها الاخوان ضد الملك عبد العزيز ، فقد أرسلوا له يدعونه للقاء ، ولكنهم كانوا يضمرون الغدر ، وقد استطاع أمير المنطقة (ماجد بن خثيلة) أن يعرف خبر المؤامرة فأرسل بأخبارها سرا الى الملك عبد العزيز الذى أخذ حذره ، وبعد أن انكشف خبر المؤامرة أعان الإخوان عن عصيانهم ، وكانوا قد أعدوا قريتهم إعدادا يناسب التمرد ويواجه الحصار ، وقد زرنا بقايا القرية حيث وجدنا الاستحكامات

والاستعدادات ، فأماكن للتجمع والدفاع والهجوم ، وآبار عامة وآبار خاصة تساعد على احتمال ما يمكن من حصار ، وأسوار ومراقب ، ثم أن الغطط متصلة تماما بمناطق زراعية وحدائق واسعة يمكن الاختباء فيها ، ويمكن الانتفاع بثمارها وزرعها مهما طاللت المقاومة •

وقد اتخذ الملك كل الوسائل ليردع الإخوان وليعودوا إلى الطاعة ، ولكن هؤلاء كانوا قد ألفوا الحروب وتكفير الناس ، وبالتالي استحلال أمرهم ، فلم يعودوا يقنعون بما تنبته الأرض أو تقدمه الدولة •

وبدأت المعركة ويبدو أنها كانت شرسة ، وقد رأى الملك ضرورتها ليحمي الدولة التي بناها بالعرق والجهد ، ولم يبدأ الملك المعركة إلا بعد محاولات واسعة ليتراجع هؤلاء إلى الطاعة ، ولكنهم كانوا قد وصلوا إلى غاية الشطط ، بل إنهم بدءوا بإشعال نار الحرب ، فدارت الدائرة عليهم بعد أن أظهروا بطولات هائلة وصمودا عظيما ، وقد قتل منهم عدد كبير وجرح وأسر كثيرون ، وأغضى الملك الطرف عن مئات منهم ليهربوا ، ويختفوا هنا وهناك وينماعوا بالمجتمع رعاة وزراعا وعمالا ، ويتحدث (المطوع) سالف الذكر عن حميه الذي كان واحدا من هؤلاء ، فاختم في مزارع أهل المطاع ولحقت به أسرته وكنتموا أمره ... شأن كثيرين من أمثاله . كان الملك يدرك ذلك ويرضى عنه ولكن دون أن يعلن ذلك ، فإنه كان حريصا على تقليل أظافرهم والقضاء على خطرهم ، ولكنه لم يكن قط حريصا على دمائهم ، ولو كان يريد قتلهم بعد هزيمتهم ما نجا منهم أحد لأن سطوته كانت غالبية •

وقد سرت مع رفاقى نجوب أطلال القرية الكبيرة ، وقد دمرت تدميرا تاما خلال المعركة ، ودمر ما تبقى من منازلها بعد المعركة ، وصدرت الأوامر ألا يعاد بناؤها لتظل هكذا تذكّر من تراوده نفسه بالعصيان ، ولم يعمّر من أبنيتها إلا المسجد الذي أعيد بناؤه على أحسن حال ، وهو يقف شامخا وسط الأطلال وإن كان لا يوجد من يصلو فيه إلا القليل النادر اضلّ المنطقة من الناس •

نهاية البطل

كل شيء في هذه الدنيا له نهاية ، والملك عبد العزيز أمضى نصف قرن في صراع عسكري رأيناه واجتماعي سنراه ، وآن له أن يستريح بعد ما بذل من جهد وحقق من أهداف تعزّث على الكثيرين ، وقد سعدت روح الملك إلى بارئها في ربيع الأول سنة ١٣٧٣ هـ (الموافق ٩ نوفمبر سنة ١٩٥٣) تاركاً لأجل الأعمال ، وأخذ الذكريات • رحمه الله رحمة واسعة ، وأحسن جزاءه كفاء ما قدم للإسلام والمسلمين من خير وعون •

مآثر الملك عبد العزيز :

إن الدراسة السابقة تبرز المآثر السامية للملك العظيم عبد العزيز آل سعود ؛ فلقد خلق مملكة عظيمة من الأثنيات التي كانت متصارعة ، وأقام دولة شامخة متماسكة إنماع فيها الجميع وافتخر بها الجميع ، وذلك وضع قل أن وجد في هذه البقاع ، ولا شك أن كل حبة من حبات الرمان بالجزيرة العربية أحست بعرق الملك وجهده •

ولما كوّن الملك هذه المملكة الفسيحة فتحت أبوابها للحضارة والمجد ، وهبها لتأخذ مكانها العظيم في التاريخ •

وسنعود فيما بعد للحديث عن حضارة المملكة العربية السعودية •

الملك سعود

كان الملك عبد العزيز قد عين ابنه الأكبر « سعودا » ولياً للعهد ، وأخذ البيعة له في مارس سنة ١٩٣٢ ، كما عين ابنه الثاني « فيصل » ولياً للعهد لابنه الأكبر ، فلما مات الملك عبد العزيز نفذ الأمراء والعلماء رغبة الملك الراحل ، فأصبح « سعود » ملكاً ، وأصبح فيصل ولياً للعهد بالإجماع •

وكان التعجيل بتعيين فيصل وليا لعهد الملك سعود نابعا عن حقيقة كانت واضحة هي أن فيصل كان يمثل اتجاهها هاما ، ولا يمكن أن يدبر أمر المملكة بدونيه ، فقد كان الملك سعود يمثل الاتجاه التقليدى المحافظ فى الحكم ، وكان ولى العهد يمثل الطبقة المثقفة المستتيرة ، وكان ذلك سببا لصراع خفى حيناً أو بارزا حيناً آخر بين الشخصيتين الكبيرتين ، فالملك سعود يريد أن يكون فى مكان أبيه له السلطان كله ، ولكن الملك سعود لم يكن فى كفاءة أبيه ، ولم تكن له جهود أبيه لخلق هذه المملكة الواسعة •

أما ولى العهد فمع ثقافته وخططه الإصلاحية لم يكن يريد الصدام مع أخيه حرصا على مكانة الدولة من جانب ومكانة الأسرة من جانب آخر ، وسارت أمور الصراع الخفى والظاهر على النحو التالى :

— ١٩٥٧ ترك فيصل المملكة إلى الخارج تفاديا للصدام مع الملك ، — ظهر اضطراب اقتصادى فى المملكة بسبب ما عانته فى السنوات التى تلت توقف الملاحة فى قناة السويس بسبب الاعتداء الثلاثى سنة ١٩٥٦ ، فأحدث هذا حرجا فى موقف الملك فاستدعى الملك أخاه الأمير فيصل ، وترك له تشكيل وزارة فى ٢٢ مارس سنة ١٩٥٨ • وفى هذه الوزارة وضع الأمير فيصل أسسا اقتصادية وسياسية سرعان ما ضاق بها الملك ، كما ضاق بها الذين تأثروا بها اقتصاديا ، وأدرك فيصل أن مناورات تدبر ضد موقفه فى الخفاء ، فأثر التخلّى مرة أخرى عن السلطة ، فترك رئاسة مجلس الوزراء سنة ١٩٦٠ •

وشكل الملك سعود الوزارة عقب ذلك برياسته ، ولكن مجلس الوزراء الجديد لم ينجح فى اقرار الأمور ، ثم قامت باليمن ثورة السلاسل ، فخاف الملك عواقبها فلجأ مرة أخرى إلى أخيه ليتولى السلطة من جديد •

— نوفمبر ١٩٦٢ فيصل يعود للسلطة من جديد ، وفى هذه المرة وضع برنامجا واسعا للإصلاح يلخص فى الآتى :

ففيما يتعلق بالعلاقات الخارجية :

- وضع ميثاق يجمع بين الدول الإسلامية في دائرة تضامن وتعاون .
- محاربة بقايا الاستعمار في كل البلاد الإسلامية .
- التعاون الصارم ضد الصهيونية وإصلاحة فلسطين .

وفي المجال الداخلي :

- أصدر فيصل قرارا بإلغاء الرق إلغاء تاما على أساس تعويض الملاك .
- سن تشريعات تضمن حقوق العمال .
- تزويد البلاد بأحدث الأجهزة في ميادين المواصلات والصحة والتعليم .

وسافر الملك سعود إلى نيس بفرنسا للاستشفاء ، وهناك اتصل به أنصاره يخوفونه من إصلاحات ولي العهد التي ستقضى على حكم الملك وتربط البلاد بولي العهد .

وسرعان ما عاد سعود محاولا استرداد سلطته والاستبداد بها ، وكان معنى هذا هو العودة بعقارب الساعة إلى الوراء ، ولذلك فشل ولم تمكنه الظروف من ذلك مما اضطره إلى مغادرة البلاد تاركا خلفه جرحا حافلا بالغموض والاضطراب .

وكان لابد من وضع حد لهذا الغموض ، فصدر في ٢٣ مارس سنة ١٩٦٤ فتوى وقعها علماء السعودية طلبوا فيها من الملك سعود أن يقوم فيصل بتصريف جميع شئون الدولة الداخلية ، الخارجية وأن يبقى الملك سعود ملكا بالاسم فقط ، وأيد مجلس الوزراء فتوى العلماء . ووافق الملك على ذلك ، وعلى نقل جميع سلطاته إلى الأمير فيصل .

— خطا العلماء وأفراد أسرة آل سعود خطوة أخرى ، فقرروا في أواخر أكتوبر سنة ١٩٦٤ خلع الملك وطلبوا إلى الأمير فيصل أن يتولى الملك ، وفي الثامن من نوفمبر ١٩٦٤ قرر مجلس الوزراء السعودي الاستجابة لقرار العلماء والأمرء ، فخلع الملك سعود وبإيع الأمير فيصل ملكا شرعيا على البلاد ، وقبل فيصل هذه المبايعة فتم له الأمر •

— في الثاني من يناير سنة ١٩٦٥ أى بعد شهرين من عزل الملك سعود أعلن الملك السابق (سعود) موافقته على ما ارتآه أهل الحل والعقد فكتب للملك فيصل خطابا نصه كما يلي :

من سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل إلى جناب الأخ
جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز سلمه الله •

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، بناء على ما أقرته الأسرة والعلماء بتنصيبكم ملكا على البلاد فإننا نبإيعكم على كتاب الله وسنة رسوله ملكا للبلاد راجيا لكم التوفيق ، وللشعب السعودي الرفاهية والازدهار والتقدم والسلام •

وتوفي الملك السابق سعود سنة ١٩٦٩ ونقل إلى الرياض حيث دفن بها •

الملك فيصل *

لم يكن الملك فيصل جديداً على الحكم ولا على الحياة الدولية ، فقد كان ساعد أبيه في نضاله ، وكانت مواهبه الادارية واضحة وعالية ، وفيما يلي أبرز المناصب والأعمال التي باشرها فيصل قبل أن يصير الملك إليه :

- اصطحب أباه في هجومه على ابن رشيد في حائل سنة ١٩٢٠ •
- اشترك في حصار جدة بعد أن استولى السعوديون على المطائف ،
- في سنة ١٩٢٧ أصدر الملك عبد العزيز (التعليمات الأساسية للمملكة الحجازية) وعين فيصل نائبا عاما للملك في الحجاز ورئيسا لمجلس الشورى ، وكان عمره آنذاك عشرين عاما •

— في مايو سنة ١٩٢٧ كان فيصل نائبا عن والده في المباحثات التي جرت بين المملكة وبين الانجليز الذين كان يمثلهم الجنرال « كلايتون » لتعديل معاهدة العقير التي سبق أن وقّعت في أثناء الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٥ ، وكان بها بعض القيود التي تتنافى مع الاستقلال الكامل للبلاد ، وقد انتهت المفاوضات بإبطال معاهدة العقير واستقلال البلاد استقلالاً تاماً •

- شغل منصب رئيس مجلس الوكلاء الذي كان يدير أكثر الشؤون بالبلاد ، والذي صدر به مرسوم سنة ١٩٣٢ •
- وكان أول وزير للخارجية عندما أنشئت هذه الوزارة •
- وقد أنشئ مجلس الوزراء في أكتوبر ١٩٥٣ في عهد الملك

(*) من مراجعنا للحديث عن جلالة الملك فيصل الكتب التالية :
(١) خطب الملك فيصل بن عبد العزيز في وفود الحجاج المسلمين •
(٢) فيصل بن عبد العزيز من خلال أقواله وأفعاله للدكتور صلاح الدين المنجد •
(٣) معجزة فوق الرمال للاستاذ أحمد عيسى •

عبد العزيز ، على أن يكون الأمير سعود رئيساً لهذا المجلس والأمير فيصل نائباً للرئيس ، ولكن الملك عبد العزيز توفي في الشهر التالي (٩ نوفمبر) قبل أن يباشر هذا المجلس سلطاته ، ولما أنشئ هذا المجلس في عهد الملك سعود كانت الرئاسة الفعلية لولى العهد (فيصل) ولو أن الرئاسة الاسمية كانت للملك سعود •

— وقد رأينا جهده العظيمة في خلال عهد الملك سعود ، تلك الجهود التي رجحت بكفته ونقلت الملك إليه •

وإذا كان الملك عبد العزيز قد أسس الدولة ووحدها ووضع أسس نهضتها فإن الملك فيصل رفع شأن البناء ، ونقل المملكة من عصر إلى عصر ، ومن حال إلى حال ، وقد برهن جلالته بحق أنه قمة من قمم العروبة ، ورائد من أعظم رواد الإسلام ، وفتح "جديد بين الرجال •

مآثر الملك فيصل :

وقد اتجهت جهود الملك فيصل إلى كل اتجاه ، فله في الميدان الداخلي جهد يذكر فيشكر ، وله كذلك جهود عظيمة في الميدان العربي والإسلامي ، وكذلك في الميدان الدولي •

وتشعبت جهوده الداخلية فشملت الجانب الثقافي والاقتصادي والاجتماعي ، كما شملت حركات التقدم والعمران وتقوية الجيش •

ففي مجال العلم والمعرفة فتحت الجامعات في مختلف العواصم بالمملكة ، وشيدت مئات المدارس والمعاهد والكليات لتستوعب مئات الألوف من الطلاب ، كما ارتفع عدد المبعوثين من أبناء المملكة إلى الخارج ارتفاعاً عظيماً •

وقد أصبح عدد الطلاب يقترب من المليون في جميع مراحل التعليم •

وارتفعت مخصصات تعليم الفتيات في عهده إلى ٤٨٥ مليون ريال ، أى ٢٤٢ ضعفا عما كانت عليه سنة ١٩٦٠ ، حينما بدأت سياسة تعليم الفتيات في السعودية ، وكان فيصل وقتئذ رئيسا للوزراء ، وهو الذى أصدر هذا القرار ، وتحمل كل آثاره من جانب العقول المتعصبة الراضة لتعليم الفتيات .

وفضلا عن ذلك دخلت المملكة السعودية عصر التصنيع على يديه ، فبدأت خطوات جديدة تستهدف الانتقال بهذه البلاد من مجرد الاعتماد على ثروتها الطائلة من البترول إلى بلد يسير نحو الصناعة ، وتطوير الزراعة .

كما صاحب ذلك حركة مماثلة في ميدان الصحة ، حيث انتشرت المستشفيات وظهرت قلاع علمية طبية تستفيد من أحدث المنجزات العلمية في هذا الميدان ، وتجذب إليها أعظم الخبراء في هذا المجال .

وفي الميدان العربى كان الملك ضمان ود عند الأزمات ، وكان دائما كبير القلب مستعدا أن يمد يده لكل العرب وأن يتعاون معهم ، يمشى للرؤساء العرب أو يستقبلهم ، وكان مستعدا — من أجل المستقبل — أن ينسى إساءات الماضى التى تنسب لبعض الرؤساء ، وكانت الميزانية السعودية على استعداد أن تقدم المال كلما احتاجت الأمور للمال ، وبخاصة للمنظمات الفلسطينية التى تصارع لاستعادة كيائها .

وفي الميدان الإسلامى كانت هناك حقيقة تتمثل أمام الملك هى أن بلاده مشرق النور ، وأن الإسلام انبثق من الأرض المقدسة التى تقع ضمن نطاق مملكته ، وإذا كان الفكر الإسلامى قد اتخذ له عدة مراكز هنا وهناك فإن الحجاز ينبغى أن يظل مركزا مهما من مراكز الفكر بالإضافة إلى أبيه مقدسه لآلاف من المسلمين كل عام للحج وزيارة مدينة رسول الله ، وقد اتجه الملك بعناية فائقة إلى ربط بلاده بأقطار العالم الإسلامى برباط من الود

الموثيق وتبادل المنافع ، كما اتجه إلى أن يكون من المسلمين قوة تقف أمام الملائكية والإلحاد ، وتعمل على التعاون المثمر حتى تبقى كلمة الله خفاقة عالية ، والذي يدرس تاريخ الملك فيصل في هذا المجال يجده سلسلة من النشاط أثمرت أطيب الثمرات ، وعملت على أن تخلق من المسلمين قوة كبيرة قوية متماسكة تتعاون في مختلف المجالات ، حتى تسهم كل دولة من الدول الإسلامية برصيدا الشكرى أو البشرى أو الاقتصادى بهدف خدمة المجتمع .

ولا شك أن الملوك والرؤساء المسلمين استجابوا أقوى استجابة لدعوة الملك فيصل للتضامن والتعاون ، فالتضامن والتعاون بين المسلمين من أهم أسس الإسلام ، وعندما ينادى بهما صوت أو ترتفع بهما راية يتجاوب الصدى في كل مكان ، وتجتمع حول الراية كل القوى بالحماس والثبات والأمل .

فيصل وحرب رمضان ١٣٩٣ (أكتوبر ١٩٧٣)

من الحق أن نذكر أن الملك فيصل كان له دور فريد في حرب رمضان ، وقد بدأ هذا الدور قبل اندلاع المعركة ، فقد صرح الرئيس أنور السادات بأنه عرض على الملك فيصل قبل المعركة بفترة نيئة مصر نحو بدء الصراع ضد إسرائيل ، ودعا الملك فيصل لمصر بالتوفيق ، ووعد بكل التأييد في جميع المجالات ، كان له شرط واحد هو أن تكون المعركة طويلة ، فطولها فرصة للثقة والجدية ، وبالتالي للتجمع العربى والتضامن ، ووعد أنور السادات بذلك .

ومع بدء المعركة وصلت برقية إلى الرئيس السادات من الملك فيصل يقول : « نؤكد لكم بأننا إلى جانبكم بجميع إمكانياتنا ، داعين للجيش المصرى المظفر بالنصر والتأييد » .

• ودارت المعركة ، ووقف الرجل عملاقا هائلا كأنه في غرفة لعمليات الحربية ، ويقول الرئيس السادات عنه :

إن كل ما صدر بعد ذلك عن قضية البترول ، وعن مدّ مصر بكل ما تحتاج إليه ، وعن الوقوف الصّلب في المحيط الدولي ، وعن الدعم الكامل للنضامن العربى ... كل ذلك صدر من الملك فيصل دون أن يطلب أحد منه شيئا » •

وعلى هذا فسيظل التاريخ يذكر للرجل دوره الكبير في المعركة الناجحة •

ومن الواضح أن صدى قطع البترول عن أمريكا كان عنيقا للغاية ، فلقد أحس كل بيت وكل مصنع بهذه الصّفحة الشديدة ، وانطلقت ألوان من التهديدات الثائرة ، ولكن الرجل كان أصلب عودا ، وكان كالجبل الأثمن ، فلم تتل منه هذه الترهات منالا ، وتراجعت التهديدات من تلقاء نفسها ، وسحبها أولئك الذين ظنوا أن صداها سيكون له تأثير على نفس الملك ، مع العلم أن الملك لم يقل شيئا يرد به على هذه التهديدات ، ولكن صمته كان أبلغ من كل كلام ، فالذين هددوا توقفوا عن التهديد ، ثم سحبوا هذا الشعار الزائف وتراجعوا ثم سلكوا الطريق الذى يرضى الصّف العربى الذى نال من الملك فيصل قوة وثباتا وجلالا •

ولم يكن قرار فيصل عن البترول وليد انفعالات صاحبت المعارك العسكرية ، وإنما جاء تنفيذا لحكمه ولحساب دقيق ، ومن أجل هذا اجتمعت حول هذا القرار كلمة جميع الدول العربية المنتجة للبترول •

وكانت معركة البترول — ولا زالت — نموذجا لاستخدام الحكمة والدهاء والمرونة التى هزت أنماط التفكير الغربى من أساسه ، فبدأ يعيد الحسابات فى مواقفه نحو العالم العربى ، وكانت النتائج مذهلة :

- تحركت دول أوروبا الغربية لتصدر قرارا جماعيا تطالب فيه بانسحاب إسرائيل من جميع الأراضي العربية التي احتلتها •
- تخلت اليابان عن حيادها ، وأعلنت انحيازها وإيمانها بالقضية العربية ، وبدأت تشترك بصوت فعال في عمليات تنمية الدول العربية •
- ثم تحركت الولايات المتحدة ، وبدأت تبحث عن حل للأزمة الشرق الأوسط ، بعد انحياز كامل دام أكثر من ربع قرن نحو ربيتها المدللة
- وانتهت إلى الأبد حالة الملا حرب والملا سلم • وشرع كيسنجر في رحلاته المتلاحقة لنزع الفتيل من الأرض المشتعلة والمهددة بالانفجار ، وما يستتبع ذلك من خطورة الموقف الدولي •
- أفاق العالم بأسره من غيبوبة اللامبالاة ، واعتناق أسطورة الدولة المسالمة التي يريد العرب إلقاءها في البحر •

نهاية الملك فيصل :

وهذا الرجل الذي رفع شأن بلاده وأعز شأنها ، وأيد المعركة قبل أن تقوم ، ودعمها وهي مشتعلة ، وناصرها بحزم بعد أن توقفت ، سقط شهيدا في لحظة كان العالم العربي ، والعالم الإسلامي في أشد الحاجة إليه ، وكان موته غدرا بيد ابن أخيه المسمى فيصل بن مساعد بن عبد العزيز ، وقد أطلق عليه هذا الشاب الرصاص وهو يتظاهر بأنه يريد أن يقدم له التحية ، وفي لحظة سريعة أفرغ في جسد الملك رصاص مسدسه ، وسقط الرجل العظيم شهيدا في الثاني عشر من ربيع الأول سنة ١٣٩٥ هـ (٢٥ مارس ١٩٧٥) وأحدث نبأ اغتيال الملك فيصل دويا هائلا في العالم كله بوجه عام ، وفي العالم الإسلامي والعربي بوجه خاص •

وكان الشاب القاتل قد عاد حديثا من أمريكا ، ولا يستبعد أن يكون قد تأثر بالحنق الذي يذيعه الصهيونيون وعملاؤهم ضد الملك الراحل ،

فأقبل الشاب على فعلته الطائشة لهذا السبب أو لسواه ، وقد قيل عقب الحادث أن الشاب مختل العقل ، ولكن سرعان ما أثبت الأطباء أنه عاقل مسئول عما يفعل ، وبناء على ذلك قدم الشاب للمحاكمة ، وقد استغرقت محاكمته عدة أشهر ، ولما سئل أحد أولاد الملك الراحل عن القصاص قال : وماذا يجدى القصاص من ذلك الشاب بعد أن قضى بفعلته الشنعاء على رجل كان العالم الإسلامي يتطلع إليه ويرقب فضله :

ولكن القصاص على كل حال يحمي الأحياء من مثل هذا التصرف الإجرامي ، وهو المعنى الذى تشير له الآية الكريمة « ولكم فى القصاص حياة » *

وفى صبيحة يوم ١٨ يونيو سنة ١٩٧٥ صدر حكم المحكمة الشرعية بإعدام القاتل الأثيم وتم تنفيذ الحكم فى نفس اليوم وصدر بذلك بيان رسمى يقول :

« تم تنفيذ الإعدام فى المجرم القاتل بناءً على حكم أصدرته صباح اليوم المحكمة الشرعية العليا لارتكابه جريمة قتل فقيده الأمة العربية والإسلامية المغفور له الملك فيصل ، وإن جلالة الملك خالد بن عبد العزيز قد صدق على الحكم فور صدوره وأمر بتنفيذه عقب صلاة العصر » *

وقال الراديو نقلا عن بيان للقصر الملكى أن القاتل اعترف خلال محاكمته بأنه قتل الملك لكى يضع حدا للإسلام ، وأن جريمته هى جزء من أهدافه لمحاربة هذا الدين * لعن الله هذا القاتل الأثيم *

ورحم الله الفقيد وأثابه على ما قدمه لبلاده وللعالم العربى والإسلامى من جهد وعون *

الملك خالد بن عبد العزيز

عقب وفاة الملك فيصل صدر عن الديوان الملكي السعودي بيان يقرر أن أفراد الأسرة المالكة وأولى الأمر بالمملكة بايعوا ولي العهد الأمير خالد بن عبد العزيز ملكاً على البلاد ، وبعد إتمام البيعة أعلن صاحب الجلالة الملك خالد ترشيح صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن عبد العزيز ولياً للعهد وقد أجمع أفراد الأسرة وأولو الأمر على ذلك ، ثم بايعت الجماهير والقوات المسلحة الملك وولى العهد •

ولئن سقط في الميدان بطل ، فهناك أبطال وأبطال يمثلون الفراغ ويكملون مسيرة الذين رحلوا بعد أن أناروا الطريق ، ومهّدوا السبيل •

وفاة الملك خالد

لم تطل حياة الملك خالد بعد أن آلت له الأمور ، فقد هاجمته الأمراض ، وعجز الطب عن شفائه ، وأسلم الروح بعد حياة ملكية قصيرة ولكنها عامرة بالإيمان والخدمات العامة رحمه الله وأجزل ثوابه •

البيعة للملك فهد بن عبد العزيز

وآل الملك للملك فهد ، وهو من الملوك الأفذاذ ، فقد استطاع أن يعيد أمجاد أخيه الملك العظيم فيصل في قوته وكياسته وعمق تفكيره وحسمه للأمر ، عطّر الله أيامه ، وجعل عصره من أزهى العصور للمملكة العربية السعودية وللعالم الإسلامي كله •

وللملك فهد مآثر رائعة جديرة بالتسجيل مع الإجلال والتقدير ومن أهمها ما يلي :

تعاون وعون :

شهد هذا العصر تعاوننا وصل إلى القمة بين المملكة العربية السعودية

(م ١٥ - التاريخ ج ٧)

وبين دول العالم الإسلامى ، وفتحت الملكة خزائنها بقدر الطاقة لكل الدول التى طلبت عوناً أو مسكها الضر ، وعندما شمل التصحش بعض الدول الإسلامية بإفريقية فى الثمانينات امتدت يد العون من السعودية فكانت بلسما خفف آلام المنكوبين وأزال كربتهم ، أحس الجميع أن الملك « فهد » واقف فى صفوفهم •

ملايين النسخ من القرآن الكريم :

وقامت الملكة بطبع ملايين النسخ من القرآن الكريم ووزعتها على العالم الإسلامى ، واختارت لهذه المصاحف أحسن الأوراق وأجود وسائل الطباعة •

وعندما هبت صحوة إسلامية فى الدول الإسلامية التى يشملها الاتحاد السوفييتى استغلت الملكة السعودية هذه الفرصة وأرسلت للمسلمين هناك ملايين من المصاحف ومن الكتب الإسلامية ، وكانت هذه الهدية مؤثرة تأثيراً عظيماً ، ولفتة إسلامية طيبة •

خادم الحرمين الشريفين :

وتنازل الملك فهد عن لقب « صاحب الجلالة » واختار بديلاً عن ذلك لقباً آخر هو : « خادم الحرمين الشريفين » •

جسر الملك فهد :

ومن أخطر الأعمال التى تمت فى هذا العهد الميمون « جسر الملك فهد » • وطوله ستة وعشرين كيلو متراً ، وهو الذى وصل « دولة البحرين » بأرض السعودية ، وقضى بذلك على الأمل الفارسى الذى كان يراود حكام إيران بأن تكون جزر البحرين جزءاً من إيران ، وسنرى عندما نتكلم عن البحرين محاولات الفرس للتسلل لهذه البلاد ، ولكن هذا الجسر قضى على الأطماع والمحاولات وثبتت البحرين دولة عربية عميقة العروبة •

أقسام المملكة العربية السعودية

وأهم بلدانها

بعد هذا الحديث عن المملكة العربية السعودية يتضح لنا أنها الآن تشمل أربعة أقسام رئيسية هي : نجد والأحساء والحجاز وعسير ، وأن نجدا تشغل المساحة العظمى بالمملكة ، وأما الأحساء فتطلق على المنطقة الممتدة على الساحل الغربى للخليج من حدود المنطقة المحايدة بين الكويت والسعودية إلى حدود قطر ، أما الحجاز وعسير فيشغلان شريطا موازيا للبحر الأحمر يضيق حيناً فيصل إلى عشرة أميال ، ويتسع حيناً فيصل إلى أربعين ميلاً ، ويقع الحجاز في الشمال وعسير في الجنوب وفيما يلي معلومات سريعة عن أقسام المملكة :

أولاً — نجد :

تحدثنا عن نجد حديثاً طويلاً فيما سبق ، وكل ما نضيفه هنا أن نجدا معناها الأرض المرتفعة وعكسها تهامة ، وأن نجدا تمثل همزة الوصل بين أقاليم المنطقة وهى التى تربط بينها ، وفي نجد مواقع أكثر المشاهير من شعراء الجاهلية ، ففى جبل السموأل بالقرب من حائل عاش حاتم الطائي وسجل أروع المكرمات ، وفى منطقة الوشم توجد بلدة جرير الشاعر ، وفى بلدة منفوحة عاش الأعشى الشاعر ، وهكذا ، وتعداد نجد حوالى مليونين

ثانياً — الأحساء :

الأحساء هى — كما سبق — الأرض الرملية التى يقرب الماء من سطحها ، وهى اليوم تطلق على المنطقة الممتدة على الساحل الغربى من الخليج العربى من حدود المنطقة المحايدة جنوب الكويت إلى حدود قطر ، وتلتقى بالربع الخالى فى الجنوب ، وكانت قديماً تسمى البحرين أو هَجَرَ ، ويقول أبو الفدا ، إن البحرين أو هَجَرَ ناحية تمتد على شط بحر فارس ،

والأحساء جزء فيها ، والقطيف بلدة على شاطئ بحر فارس من البحرين (١) وتعرف هذه المنطقة الآن بالمنطقة الشرقية •

ومنطقة الأحساء كثيرة العيون ، نضرة خضراء ، خصبة التربة تنمو بها زراعات الأرز وغيره من الحبوب ، ويكثر بها النخيل كما توجد بها أنواع مختلفة من الفواكه ، ولكن أعظم ما تشتهر به الأحساء هو حقول البترول الهائلة التي تمثل بحرا فيضاً بالذهب الأسود ، وتكثر البلدان المشهورة بالأحساء ، ومن أهمها البلدان التالية :

— الهفوف : كانت عاصمة الأحساء قبل اكتشاف النفط ، وهي مقر أسرتين من كبار التجار الأثرياء ، وهما القصيمي والعجاني ، والأفراد هاتين الأسرتين قصور ضخمة تحيط بها حدائق فينانة ، والهبوف مدينة مسورة ، وبها سرق حافلة بأنواع البضائع والحاجيات ، وكانت الهفوف عاصمة المنطقة في العهد العثماني يوم كانت الأحساء لواء إداريا مستقلا •

— الظهران : هي مدينة حديثة تقع على أكمة مسماة بهذا الاسم ، وتبعد حوالي خمسة أميال عن الساحل ، والظهران مركز شركة الزيت العربية الأمريكية ، وقد أنشئت الظهران على نسق أنبلاد الأمريكية ، ولها ميناء على الساحل وهو رأس تنورة ، ومنه يتدفق البترول إلى نواح مختلفة بالعالم •

— القطيف : واحة في الجهة الشمالية الشرقية من الأحساء ، وأكثر سكانها من الشيعة ، وهي تقع على الخليج على بعد ٣٦ ميلا من الظهران ، وهي كثيرة المياه العذبة ، وبها حركة تجارية واسعة •

— الدمام : تقع الدمام على الخليج ، وهي عاصمة الأحساء الآن ، وتبعد سبعة أميال عن مدينة القطيف وكانت الدمام قد خربت في القرن

التاسع عشر ، ثم أعيد عمرانها ، وفي الدمام تكثر الحداثق والآبار الارتوازية ، وهى مركز اقتصادى هام ، ومركز رئيسى لشحن البترول ، وأهم الموانى السعودية على الساحل الشرقى ، وتبدأ منها سكة حديد الرياض •

وسنتكلم عن تاريخ الأحساء فيما بعد ضمن حديثنا عن منطقة الخليج •

ثالثا — الحجاز :

طول الحجاز على ساحل البحر الأحمر حوالى ٧٠٠ ميل تبدأ من خليج العقبة إلى عسير ، ويقدر عدد سكان الحجاز بحوالى مليونى نسمة ، وهم يتكونون من حضر يسكنون المدن أو القرى ويشغلون بالتجارة أو الزراعة ، ومن بدو يتنقلون طلبا للمراعى وبحثا عن الماء •

وتجارة الحجاز تنحصر غالبا فى البضائع التى ترد له من الخارج والتى يشتريها الحجاج ويعودون بها إلى بلادهم ، وتصدر الحجاز بعض الحاصلات من التمر والجلود والحناء والصمغ ، وأهم مدن الحجاز مكة والمدينة والطائف وجدة وينبع ، وسنتكلم كلمة عن كل من هذه المدن :

— جدة : جدة هى الميناء الأولى للمملكة العربية السعودية ، وينبع هى الميناء الثانية ، وتقع جدة فى منتصف طول البحر الأحمر تقريبا ، وبينها وبين مكة ٥٥ ميلا ، وقد أسست جدة فى عهد الخلفاء الراشدين أسسها الخليفة عثمان رضى الله عنه ، وكان بجدة قبر ينسب إلى حراء أم البشر ، وقد أزالته حركة الإصلاح ، إذ كان الحجاج يتمسحون به ، ويتوسلون به إلى الله •

وتبعد جدة عن بور سودان الواقعة على الشاطئ الآخر بمقدار ١٩٠ ميلا ، وتبعد جدة عن السويس بمقدار ٧١١ ميلا ، وكانت تحصل على ماء الشرب من تقطير مياه البحر ، ولكنها الآن تحصل على المياه العذبة من منابع فى وادى فاطمة الذى يبعد عن جدة بمقدار ٥٠ ميلا •

— مكة : ومكة تسمى بكة وأم القرى ، وهى أشهر مدن الحجاز ، وتعتبر المدينة الأولى بالمملكة العربية السعودية ، تقع على ارتفاع يبلغ ١٤٠٠ قدم ، ولا يدخلها غير المسلمين ، وهى محاطة بالتلال الصخرية ، ومعرضة لحرارة الصيف الهائلة ، كما أنها تتعرض أحيانا لفيضانات جارفة وتعتمد مكة على عين زبيدة فى الحصول على ماء الشرب ، وفى مكة يوجد المسجد الحرام أول مساجد العالم ، ولقد كان فى مكة كثير من الآثار التاريخية مثل المكان الذى ولد فيه الرسول ، وببيت السيدة خديجة ، وببيت أبى بكر وغيرها من الآثار ، ولكن الإخوان هدموا هذه الآثار مع ما هدموا من القباب والقبور ، ويقول المؤرخون للحركة السعودية الأولى إن مكة والمدينة فى أثناء الحكم السعودى فى القرن التاسع عشر قد أزيل منهما كل الآثار التاريخية التى كان يتبرك بها الحجاج (١) .

— المدينة : المدينة تسمى طيبة ويثر ب ، وهى أول عاصمة إسلامية ، وتبعد المدينة عن مكة حوالى ٣٠٠ ميل ، وعن ينبع حوالى ١٣٠ ميلا ، وبها قبور الصحابة وآل البيت وأئمة الحديث والفكر ، وكانت تكثر بها القباب والمباني فوق هذه القبور ، ولكن الحكومة السعودية هدمت هذه القباب والمباني وسوّتها بالأرض ، وترتفع المدينة حوالى ٢٠٠٠ قدم عن سطح البحر ، وفى المدينة مياه غزيرة وافرة تساعد على زراعة الفواكه والخضر بكثرة تزيد عن حاجة السكان .

— الطائف : والطائف مدينة مسورة تقع على بعد ٧٥ ميلا من الجنوب الشرقى من مكة على ارتفاع ٥٠٠٠ قدم من سطح البحر ، وهى مصيف العظماء والأغنياء ، وأمطارها غزيرة تسقط فى فصل الخريف ، وآبارها كثيرة ، وأرضها خصبة يكثر بها العنب والرمان والخوخ والليمون والشمش ، كما تنمو بها أنواع مختلفة من الزهور والورد .

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ٣٤ .

رابعا — عسير :

تقع عسير إلى الجنوب من الحجاز بين الحجاز واليمن ، وتشمل سهول تهامة ، وفي عسير قامت إمارات متعددة تحدثنا عنها من قبل ، وكان بعضها تابعاً للأتراك أو خاضعا لنفوذهم ، ولكن المملكة العربية السعودية شملت منطقة عسير فيما شملته من بقاع •

ويبلغ عدد السكان حوالى مليونين ، وهم شافعيو المذهب وهناك قلة في الشمال الشرقي تتبع مذهب أحمد بن حنبل ، ويشتهل أغلب الأهالى بالزراعة ، والبدو الرحل قليلون جدا في عسير ، والاختلاط في الأنساب قليل فيها ، إلا ما كان في المدن الكبيرة ، وحدود القبائل معينة تعيننا دقيقا ، ليس له نظير في غير عسير ^(١) ، وعسير أغزر جهات السعودية مطرا •

وأهم مدن عسير هي جيزان وأبها والقنفذة — وصَبْيَا ، وأبو عَرِيش وترَبَّة ومِيدى •

وجيزان عاصمة تهامة في إقليم عسير ، وكانت ميناء الأدارسة في زمنهم ، وجيزان تقع على قمة خليج يكتنفه المد والجزر العنيف ، وبها مقر الحاكم ، يشتهل مكان جيزان باستخراج اللؤلؤ •

وأبها كانت العاصمة القديمة في عهد الأتراك ، وموقعها جذاب ، وتقع على ارتفاع ٧٠٠٠ قدم ، وهي محاطة بحقول وجبال خضراء •
والقنفذة أهم ميناء بعسير ، وهي على بعد حوالى ٢٠٠ ميل جنوب مكة ، وهي ميناء أبها •

وصَبْيَا كانت عاصمة الأدارسة ، وبها قلعة قديمة بنيت أيام الحكومة السعودية الأولى ، وقد أصلحتها الحكومة الحالية •

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٤٢ •

وأبو عريش أشهر بلدة في تهامة ولها تاريخ حافل في القرن التاسع عشر ، عصر النهضة الدينية الأولى •

حضارة المملكة العربية السعودية

لا يعرف ما حققه السعوديون من تقدم في المملكة العربية السعودية إلا الذى يعرف أو يتصور ماذا كانت عليه هذه المنطقة قبل السعوديين : وكيف عبّر سكان هذه البلاد مئات السنين في حياة جاهلية وقبلية وصراع وتناحر وسلب ونهب وفوضى ، فلما قامت الدولة السعودية بها تغير كل شئ ، ومع هذا فإن شوطا طويلا لا يزال يترجى من القادة السعوديين ، فإن الإمكانيات الكبيرة المتاحة لهم تهيء لهم أن يلعبوا دورا واسعا لخدمة الإسلام والمسلمين ، ولكن هذا الأمل لا ينسينا أن نكسِفَ المتطور الهائل بين ما كان وما هو كائن فعلا ، وفي السطور الآتية نشير لهذا التطور الكبير •

التصحيح الفكرى :

في قمة ما حققه السعوديون في مملكتهم ذلك التصحيح الفكرى الذى انطلق به الإمام محمد بن عبد الوهاب وحمل القادة السعوديون لواءه ، وقد انتقل الناس بهذا التصحيح من جاهلية حمقاء وشرك أو ما يقرب منه إلى التوحيد الخالص ، وقد تحدثنا عن ذلك فيما سبق ، وأظهرنا أثره في داخل البلاد وخارجها •

وحدة المملكة :

أصبحت هذه المنطقة الفسيحة تتكون منها دولة واحدة بعد أن كانت أشماتنا من القبائل والجماعات ، وخضعت هذه الدولة للشرعية الغراء بعد أن كانت تتبع شريعة الغاب • وكما استطاع الملك عبد العزيز وخلفاؤه من بعده أن يتغلبوا على الشعور القبلى الذى كان يهدد المملكة ، فقد استطاعوا كذلك أن يقضوا على التفكك الإقليمى الذى حدث بعد ضم الحجاز وغيره من المناطق إلى نجد ، ويوما بعد يوم ، وعاما بعد عام ضعف

هذا التفكك ، وزال تقريبا ، ويمكن القول أن ما قام به السعوديون في هذا المجال عجز عنه غيرهم في الظروف المشابهة وكانت عدالة السلطة وحكمتها أعظم وسيلة لما وصلت له من وحدة حقيقية ، هذا بالإضافة إلى اتباع أحدث الوسائل لهذه الغاية كتمهيد الطرق بين نواحي المملكة ، وكبرامج التعليم ، وكالحزم عند الضرورة وغير ذلك من الوسائل •

القيادة الرشيدة :

عُرف عن ملوك السعوديين أنهم يحسنون اختيار بطانتهم ، وبطانة الخير تدفع للخير وتثعين عليه ، وفي الفترة الأولى من ظهور المملكة العربية السعودية كانت بطانة الملك عبد العزيز تختار من الكفائات العربية الإسلامية بدون ارتباط بالجنسية ، وعلى هذا ظهر بين مستشاري الملك شخصيات تنسب إلى العراق وسوريا ومصر ، ولما اتضحت الكفائات بين أبناء المملكة السعودية ، اتجه الاختيار إليهم ، وإن كانت المملكة لا تزال ننتفع بالخبراء وقمم المفكرين في مجالات مختلفة من أبناء العالم العربي والإسلامي •

الأمن :

عمّ الأمن تلك المناطق الفسيحة التي تكونت منها المملكة العربية السعودية ، وأصبح الحجاج من مختلف البقاع يسبغون رحلتهم إلى الأرض المقدسة في أمن وسلام وطالما تعرضوا من قبل للسلب والنهب والعدوان وهم في طريقهم لأداء فريضة الحج ، ومثل وفود الحجيج حظيت القوافل التجارية التي تجتاز الجزيرة العربية بمثل ذلك الأمن ، ولم تعد قوافل التجارة تحتاج لحراسة ، إذ اختفى العدوان في ظل المملكة العربية السعودية وقد سبق أن ذكرنا أن قادة السعوديين جعلوا قيادات المناطق مسئولة عن أي عدوان يقع في مناطقها ومن هنا حرص هؤلاء القادة على حفظ الأمن في مناطقهم خوفا من هذه المسئولية ، وكان بعض القادة من قبل يشترك في التخطيط للعدوان ، وينال نصيبا موهورا من الغنائم المسلوقة

وهذا يوضح الفرق الكبير بين ما كانت عليه الأحوال قبل قيام المملكة العربية السعودية ، وبعد قيامها •

الإدارة :

خلق السعوديون للدولة الجديدة جهازا إداريا دقيقا ، وأخذ هذا الجهاز يتطور بتطور الظروف ، فقد كان الملك عبد العزيز يحكم البلاد كأنه أب لأسرة يحكم أسرته ، فثروة الدولة كلها كانت في يده دون فصل بين مان الدولة وماله الخاص ، وكان ينفق من هذه الثروة على الدولة وعلى الأسرة ، وكان هناك معاونون في العاصمة وخارجها لمساعدة الملك في مختلف الشئون : وكان للملك بعض المستشارين يطلب رأيهم كلما عن له ذلك ، وكان هذا يكفي عن الوزارات والتقسيمات الفنية ، ثم اتجه الملك إلى نوع من التطور في هذا المجال ، فأنشأ وزارات متخصصة ، وكانت وزارة الخارجية أولى هذه الوزارات إذ أنشئت سنة ١٩٣٠ ، وجاءت بعدها وزارة المالية ١٩٣٣ ، فالدفاع سنة ١٩٤٤ ، فالداخلية سنة ١٩٥١ ، فالمراسلات والمعارف سنة ١٩٥٣ ، ثم أنشئ مجلس يضم هذه الوزارات سنة ١٩٥٣ قبل وفاة الملك بشهر واحد ، كما ذكرنا من قبل ، كما قسمت البلاد إلى مناطق متعددة ، وعين لها محافظون أكفاء أشداء ، ووُجدت كذلك مجالس محلية ومجالس بلدية لإدارة المدن والمناطق ، كما وضعت التشريعات اللازمة للعمل وللتأمينات الاجتماعية ، واتخذت من التشريع الإسلامى اتجاهاتها ومبادئها •

محاربة الأعداء الثلاثة :

كان الفقر والجهل والمرض صورة للحياة العامة في الجزيرة العربية قبل قيام المملكة العربية السعودية ، وقد ذكرنا عند حديثنا عن نجد نماذج من الآفات الطبيعية والمجاعات التي كانت تنتاب البلاد من حين إلى حين ، وقد حارب السعوديون هذه الآفات قبل أن ينبثق البترول وبعده ، حتى وجد كل إنسان وسيلة طيبة للحياة والعلم والعلاج ، وسنعطى فيما يلي صورة سريعة لما حققته المملكة السعودية في مجال العلم والصحة ومحاربة

الفقر ، وقد ذكرنا بعض هذا التطور متصلا بالملك فيصل ، ولكننا هنا نتحدث عن الجهود العامة منذ إنشاء المملكة حتى العهد الحاضر .

النهضة العلمية :

إن عناية ملوك السعوديين بلغت غاية رائعة في مجال التعليم ، فالمدارس وجدت في القرى والنجوع ، والجامعات شيدت في الرياض ومكة والمدينة وجدة وأقيمت كليات تابعة لها في المدن الأخرى مثل بريدة وأبها ، ووجدت البنات طريقها للعلم ابتداء من سنة ١٩٧٠ ، والحق يقال إن الملك فيصل — كما أشرنا من قبل — واجه تذمرا واسعا عندما بدأ وهو رئيس للوزراء يفتح المدارس للفتاة السعودية ، وكان إقبال الأهالي على تعليم بناتهم محدودا ، ولكن سرعان ما زال التذمر ، وأدرك الناس يثمن هذه الخطوة وباركوها ، فتدفقت الفتيات على التعليم حتى أصبح للطابات ٤٦٤ مدرسة سنة ١٩٧٠ ، بعد أن كان عددها يعد على أصابع اليد الواحدة سنة ١٩٦٠ ، وتضاعفت المدارس والكليات بعد ذلك ولا شك أن النهضة العلمية تستحق التقدير والإعجاب .

والتعليم بالمملكة العربية السعودية بالمجان في جميع مراحل ، ويقدم للتلاميذ ما يحتاجونه من كتب وعلاج ، وتقدم وجبة غذائية للتلاميذ في مراحل ما قبل الجامعة ، ولكل طالب في المدارس المهنية وفي الفروع العلمية من الجامعة وكلية البترول مرتب شهري يتراوح بين ٢٥٠ و ٣٠٠ ريال سعودي .

وقد أنشئت أول مديرية للتعليم سنة ١٩٢٦ ، وجعلت تابعة لإدارة الشؤون الداخلية وفي سنة ١٩٥٣ أنشئت أول وزارة للمعارف في تاريخ شبه الجزيرة العربية ، وتولاها الأمير فهد بن عبد العزيز ، (الملك فهد الآن) ومنذ ذلك الحين تطور التعليم بالمملكة تطورا عظيما .

الصحة :

حقق السعوديون في مجال الصحة تقدماً هائلاً ، ففتحو المستشفيات الكثيرة ، وبعض هذه المستشفيات ينافس في إعداده وأطبائه أعظم المستشفيات في العالم ، وأدخلوا نظم التحصين ، والعناية الصحية بمختلف أنوعها ، كما عنوا عناية كبيرة بالنظافة العامة ، وبتطهير الأماكن التي تكثر فيها التجمعات ، وبخاصة في موسم الحج ، متبعين أحدث الطرق للوقاية من ظهور الأمراض أو انتشارها .

مقارنات :

ولا يمكن أن نترك الحديث عن التقدم العلمي والتقدم الطبي اللذين أشرنا لهما آنفا بدون أن نعود إلى الوراء قليلاً لنضع في ميزان المقارنة صورتين من الصور الفكرية والطبية التي كانت سائدة بهذه البلاد في مطلع عهد الراحل العظيم عبد العزيز آل سعود لنرى الجهد الكبير الذي بذله هذا الرجل وبذله خلفاؤه من بعده :

في المجال الأدبي نقتبس سطوراً من الخطابين اللذين أرسلهما الملك عبد العزيز وهو أمير نجد سنة ١٩١٠ إلى الشريف حسين بمكة — والخطابان ركيكا الأسلوب ضعيفا البنيان ، وتكثر الأخطاء النحوية بهما ، وقد سبق أن أوردنا الخطابين عند الحديث عن الملك عبد العزيز بين « عهدين » ، وفيما يلي هذه المقتطفات :

من الخطاب الأول :

بعد إهداء مزيد السلام عليكم ورحمة الله ومركاته ، على الدوام مع السؤال عن شريف خاطرکم العاطر لازلتكم بكمال الصحة والسرور حايزين الأوصاف الحميدة ... أحوالنا من كرم الله جميلة ، وتقدم لسعادتكم قبل هذا كتاب ، نرجو أنه وصل وأنتم مسرورين ، ثم نعرض لدولتكم العزيز أنه بموجب شفقتكم وعلو همتكم وأنظاركم العالية قدّمنا أخينا عبد العزيز

عبد الله السعود لموجب خدمتكم ، وأحبينا المصاوغه معه لموجب التبرك
بأقدامكم .٠٠٠

وفي الخطاب الثانى فى نفس العام يقول عبد العزيز آل سعود
للشريف ، بعد نفس المقدمة السابقة ما يلى :

أحوالنا من كرم الله جميلة ، بأشرف وقت أخذنا مشرفكم ، فسئرننا
ما تضمنه من صحة أحوالكم واعتدال أوقاتكم ، وما عرف جنابكم كان
لدى ابنكم معلوم خصوصا ما عرف جنابكم من جهة عثنية والقصيم ،
وأنهم يلقون إليكم من الأكاذيب التى ليس لها حقيقة ، ويتظلمون عند
حضرتمكم ، ونحن نقول عما قالوا : « سبحانهك هذا بهتان عظيم » فأما
من جهة نظركم علينا وعليهم فهذا شأن مثلكم ، وهو مقامكم العزيز ،
ونحن متيقنين ان حنا بأنفسنا أقرب منهم ومن غيرهم لسعادتكم ، وأدنى
جواب يصدر منكم إلينا إذا كان صادر منا لشيء فنحن نمتثل به٠٠٠٠٠٠

ذلك هو مدى ما وصل له البيان فى مطلع هذا القرن ، ولو قارنا ذلك
بما تنعم به هذه البلاد من فصاحة القول ، وعمق الفكر الآن ، لاتفصح لنا
التفاوت الواسع بين ما كان فى مطلع عهد الملك الراحل ، وما تم فى عهده وعهد
خلفائه من تطور مرموق عظيم .٠

وفى المجال الطبى يقرر الشيخ حافظ وهبة (١) أنه حتى العقد الثالث
من القرن العشرين كان الطب بالجزيرة العربية بدائيا وضارا أحيانا ،
ويذكر أن الملك ابن سعود نفسه عانى من ذلك ، فقد أصيب بدمل صغير
فى شفته ، فاستعملوا معه أنواع العلاج المستعملة فى نجد من كى وغيره
فزادت حالته خطرا ، وسبب تقيحا شديدا ، فارتفعت معه حرارة الرجل ،
وأوشك أن يقضى نحبه ، وفى حالة أخرى أصيب برمد حاد ولجأ كذلك

(١) جزيرة العرب فى القرن العشرين للاستاذ حافظ وهبة ص ١٣٩ .

للطب المحلى الذى كان ضرره أكثر من نفعه ، وفى الحالتين كان اللجوء للطب الحديث ومشاهير الأطباء المصريين والأمريكيين هو مطلع العلاج الصحيح •

أين هذا مما حققه الرجل نفسه من تطرر فى المجال الأدبى ، والمجال العلمى والطبى الذى شهدته مملكته فى عهده ، وفى عهد خلفائه فى مدى وجيز ؟ •

الزراعة :

تقدر المساحة الصالحة للزراعة بالمملكة العربية السعودية بحوالى ١٢٪ من مساحة المملكة ، ولكن المنزرع فعلا كان لا يتجاوز ١٪ فقط ، ومن أجل هذا تبذل جهود كبيرة للزحف الأخضر ، حتى تنكمش المساحات الجرداء ، وتنمو المساحات الخضراء ، ومن هذه الجهود بناء السدود ، والتعرف على المناطق التى تكثر بها المياه الجوفية لاستخراجها بأحدث الوسائل الميكانيكية والذى يزور مناطق المملكة العربية السعودية يثدرك قوة هذا الجهد ويرى انتشار الآلات فى أمكنة متعددة ، لتزحف الخضرة على الرمال ، وقد استطاعت السعودية بهذا الجهد أن تنتج ما تحتاجه من قمح وأن يكون عندها فائض •

ويرتبط بالزراعة موضوع مهم هو : توطين البدو ، الذى أشرنا له من قبل ، فقد اتجهت عبقرية الملك عبد العزيز إلى أن توطين البدو سيخلق استقرارا نفسيا ، واستعدادا لحمل المسئولية ، كما سييسر التعليم والعلاج ، وعلى هذا أقطع جلالته الأرض للبدو ليزرعوها ، وأمدّهم بما يحتاجونه من عون ، كما بنى لهم الدور والمساجد ، وكان ذلك اتجاها طيبا نحو تحضير البادية ، لولا الانحراف الذى ارتبط بهذا الأمر ، والذى درسناه فيما سبق تحت عنوان « الإخوان » •

على أن الظروف التى أتاحت للإخوان فرصة الثورة سنة ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ قد زالت بعد حقبة من الزمن ، ولذلك جدد الملك عبد العزيز ، والملك

فيصل من بعده مشروع توطين البدو ، وساعد على ذلك وجود النفط غير بعيد من مناطق هؤلاء البدو ، واجتذاب هذه الصناعة لكثير من الأيدي التي كانت تحويها البادية من قبل ، وكل هذا جعل نسبة البدو تتناقص من حين إلى حين ، حتى أصبحت أقل من ربع السكان •

ويبدو أن البدو استعادوا مكان الثقة من نفس الملك فيصل ، ولذلك كُتِبَ منهم جيشاً أسماه الشرطة ، وهذا الجيش شديد الولاء للملك ، وهو يخلق عملية توازن بالنسبة للجيش النظامي •

وقامت سياسة المملكة السعودية في عهد الملك فيصل وبعده بالنسبة للبدو على توطينهم حيث هم ، فلا ينتقلون لموطن جديد إلا للضرورة ، على أن يكون هذا الموطن أقرب ما يمكن لمناطقهم الأصلية ، فالقصد التوطين لا التهجير ، وعلى أن يتاح لهم ما يحقق حياة مستقرة طيبة من خدمات علمية وصحية وفنية ، ولنجاح هذا الاتجاه وضعت مشروعات كثيرة في مجال تدمية البادية والتوطين ، منها البحث عن المياه ليكون وسيلة إلى الاستقرار ، وتوسيع المراعي طبيعياً وصناعياً ، لأنها لا بد منها في حياة البدو وتوسيع الأراضي الزراعية التي يعمل البدو فيها بدلاً من الارتحال ، وإنشاء الخزانات لشرب المواشي ، وإنتاج الأعلاف لها ، ومن أهم المشاريع التي قامت بها المملكة في هذا المجال : مشروع حرص ، ومشروع وادي جيزان ، ومشروع وادي السرحان (١) •

الامران والحرمان الشريفان :

يمكن القول أن المملكة العربية السعودية حققت نصيباً مرموقاً من التطور فيما يرتبط بالحضارة العمرانية ، فالمملكة ترتفع فيها العمائر الضخمة ، وتوجد بها المستشفيات الكبيرة والمدارس

(١) دكتور صلاح المنجد : فيصل بن عبد العزيز من خلال أقواله وأعماله

والجامعات الفسيحة على نحو ما قدمنا ، كما ترتبط مدنها وكثير من قراها بشبكة مواصلات دقيقة ، وقد نال الحرمان الشريفان من عناية المملكة قسما كبيرا ، فقد وسّعا عدة مرات حتى ضم الحرم المكي المسعى بين جدرانها ، وضم الحرم المدني كثيرا من المساحات حوله ، وعلى كل حال فالذى يزور المملكة العربية السعودية من عام إلى عام يشهد درجات التطور التى تؤشك أن تكون مستمرة لا تتوقف ، قوية لا تتوانى •

الصناعة :

اتجهت المملكة العربية السعودية إلى ادخال بعض الصناعات بها ، فوجدت بها مصانع للحديد ، ومصانع للصفائح المعدنية ، والمدابغ ، وصناعة البلح ، وتعبئة الغاز ، وقد بدأت المدارس المهنية تخرج عمالا مدربين على مختلف الاتجاهات الصناعية ، ولكن الصناعات المرتبطة بالبتترول أكثر نشاطا ، وأكثر جذبا للأيدى العاملة ، ومن هنا ينبغى أن نتحدث كلمة عن تاريخ النفط فى السعودية ، ومدى النشاط فيه ، لأن النفط يمثل أبرز العناصر فى اقتصاد هذه البلاد وفى تطوراتها المختلفة •

وقد جاء النفط أثر أزمة اقتصادية طاحنة مرت بالسعودية ، وشملت العالم كله فى مطلع العقد الرابع ، فكان النفط إنقاذا للبلاد •

وكان أول اتفاق عملى لاستخراج النفط السعودى مع شركة استاندارد أوف كاليفورنيا الأمريكية ، وقد أسست هذه الشركة فرعا خاصا للتنقيب عن النفط السعودى عرف باسم شركة أرامكو ، وأسهمت فيه شركة تكساس ، وعندما تدفق النفط فى منطقة الظهران أنشأت الشركة خطا للأنايب يصل بين الآبار وبين ميناء الدمام على بعد خمسة أميال منها ، وصدرت بأكورة الإنتاج سنة ١٩٣٩ •

بيد أن الحرب العالمية الثانية شبت عقب ذلك فتوقف نشاط استخراج البترول السعودى ، ولم يستأنف إلا عقب نهاية الحرب ، وقد رأت الشركة

التي تقوم باستخراجه أن تضم لها شركتين أمريكيتين أخريين هما : نيوجرسي وسوكونى فاكوم لتضمن فتح أسواق جديدة لإنتاجها ، واتسعت أعمال التنقيب اتساعا واسعا ، ولم تقنع هذه الشركات بموانئ السعودية على الخليج ، بل بنت خط التابلاين الذى أمتد ١٠٦٨ ميلا إلى البحر المتوسط ، وبذلك لم يحتاج البترول السعودى إلى قناة السويس ليصل إلى أمريكا وغيرها •

وأُنشئت شركات أخرى يابانية وفرنسية وأسبانية وغيرها للبحث عن البترول فى مناطق أخرى غير تلك التى تعمل فيها أرامكو •

وتوصف المملكة العربية السعودية بأنها البلد البترولى الأول فى الشرق الأوسط ، فإنتاجها من البترول يزداد عن إنتاج أى بلد آخر ، والاحتياطى من البترول يزداد برغم ازدياد الإنتاج ، بسبب الاكتشافات المستمرة الجديدة فيها ، وقد تجاوز هذا الاحتياطى ١٤٣ مليون برميل ، وتبلغ نسبة احتياطى السعودية من البترول - إحصاء ١٩٧١ - إلى الاحتياطى العالمى ٢٧٢٪ وإلى احتياطى الشرق الأوسط ٣٩٥٪ وهذا يجعل السعودية البلد البترولى الأول فى العالم أيضا ، وبالتالي يزداد فى مسؤولياتها ورخائها •

وقد سبق أن ذكرنا أن النفط لعب دورا عظيما فى خلال حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، فأصبح الأول مرة سلاحا خطيرا فى المعركة ، فعندما قامت الحرب ، وظهرت انتصارات مصر وسوريا تشجع العرب فبذلوا كل ما عندهم لاستمرار الانتصار ، وكانت وحدتهم أولى الثمرات ، وبعدها أصدروا قرارات حاسمة فى قضية النفط كان دورها فى العالم قويا ، هزه أرجاءه وزلزل أفكاره ، ومن أهمها تخفيض ضخ البترول بمقدار ٢٠٪/ تتزايد ٥٪/ كل شهر طيلة فترة الصراع ، ومنعوا تصدير البترول تماما إلى الولايات المتحدة وهولندا ، وهددوا بأن قرار المنع سيمتد إلى أية دولة أخرى تساعد إسرائيل ضد العرب •

وكان احتياطي النفط في الدول المستوردة قليلا ، ولذلك سرعان ما عانت هذه الدول من هذا القرار ، ودخل موسم الشتاء في أعقاب ذلك فقامت هذه الدول متاعب المظالم والبرد حتى أحس العالم كله بالمشكلة وبأن وجود إسرائيل وعدوانها سيعود على العالم كله بالضرر والخسران ، ولم تكن الولايات المتحدة تظن إيمان أن يقف العرب منها هذا الموقف ، ولذلك هزها هذا القرار هزا عنيفا ، وعندما أطلقت الولايات المتحدة وغيرها من الدول إشاعة عن الاستيلاء بالقوة على منابع الزيت كان رد العرب حاسما وقويا هو أن أعلنوا أن المتفجرات ستنسف آبار البترول قبل أن يستولى عليها أحد ، وستنسف كذلك أنابيب المضخ ، فتهاوت قوى التهديد وتلاشت •

واتخذت الدول المنتجة للبترول قرارا آخر بزيادة أسعار النفط زيادة كبيرة ضاعفت أثمانه ، وحجة العرب في ذلك أن المعركة تأكل كثيرا من ثرواتهم ، وتحتاج إلى نفقات باهظة ، ومعدات عسكرية كبيرة يشتريها العرب من الدول الغربية ، ولا بد من مضاعفة أسعار النفط لتغطية هذه النفقات ، ووعدوا ببحث تخفيض الأسعار عقب تصفية العدوان الإسرائيلي •

وكلمة حق سجلناها من قبل ونعود لتسجيلها الآن ، هي أن جلالة الملك فيصل كان له موقف يذكر فيعشكر في هذا المضمار ، وأن صوته كان أول صوت دوى بهذه الإجراءات ، واستجاب له الجميع في حماسة وقوة وإيمان •

وفي ختام أحاديثنا عن المملكة العربية السعودية يطيب لنا أن نبارك تقدمها ونثني على تعاونها العميق مع العالم العربي والإسلامي وندعو الله لها باليمن والبركة ، وأن يكون التعاون بينها وبين العالم الإسلامي سبب عز ومجد لدولة الإسلام وللشعوب الإسلامية •

عدوان على المسجد الحرام

رُوع العالم الإسلامى فى موسم الحج الذى يوافق العام الهجرى الأول من القرن الخامس عشر الهجرى (أواخر نوفمبر ١٩٧٩) بحادث مؤلم اهتزت له قلوب المسلمين فى مختلف الأنحاء ، ذلك هو عدوان شرذمة من الرجال على المسجد الحرام وعلى الحجاج فيه •

وقد احتل المعتدون الذين كانوا مسلحين بأسلحة مختلفة أمكنة متعددة بالمسجد الحرام ، واحتجزوا مجموعة من الرهائن يحتمون بهم ، وقام خطبائهم بإلقاء مجموعة من الخطب العدوانية المثيرة ، وكان المسجد الحرام كعادته خاليا من جنود الحراسة مما مكن لهؤلاء المعتدين من الأمر ، وأحكم إلى حين سلطانهم على البيت الحرام وعلى من فيه ، واتخذوا هذا البيت المقدس والحجاج الذين وفدوا اليه من مختلف الأنحاء وسيلة لدعاية متمرده قاموا بها •

وقد هب العالم الإسلامى كله يستنكر هذا العدوان على بيت الله الحرام الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا ، ويستنكر لذلك العدوان على الحجاج الذين وفدوا من كل فج عميق •

ومن الحق أن يقال إن مصر بكّرت فى رد هذا العدوان واستنكاره وبعد ساعات قلائل من حدوث هذا التمرد ، وقف كاتب هذه السطور بالتلفزيون المصرى يندّد بهذا العمل ويدينه •

وسنروى أحداث هذا الحادث من البيانات الرسمية السعودية التى صدرت عنه :

وصل المسلحون إلى المسجد الحرام فى فجر يوم الثلاثاء فى عدد من سيارات الأتوبيس بدعوى تأدية صلاة الفجر كأول صلاة فى القرن الخامس عشر الهجرى ، وعندما وصلوا إلى المسجد اتخذوا مواقعهم فى الأماكن

الاستراتيجية وأخرجوا مسدسات ومدافع رشاشة من تحت ملابسهم ثم قدّموا إلى إمام المسجد ورقة مكتوبة ليقرأها على المصلين : ولكن إمام المسجد رفض قراءة الورقة كما رفض السماح لهم بتلاوتها من إذاعة المسجد الحرام . فأنطلقوا عليه الرصاص وقتلوه في الحال وعند سماع أصوات طلقات الرصاص . انطلق الحراس الموجودون حول المسجد الحرام إلى داخل المسجد ليعرفوا ماذا يحدث ، ولكنهم فوجئوا بوابل من طلقات المدافع الرشاشة . وسقط منهم عدد كبير من الجرحى والمقتلى بينما فشل باقى الحرس فى السيطرة على الموقف .

وسرعان ما وفدت قوات سعودية ، وحدثت اشتباكات بينها وبين المتمردين ، ولكن المتمردين اندفعوا إلى بعض الأماكن بالمسجد وأخذوا معهم مجموعات من الحجاج كرهائن يحتمون بها ، وتقول المصادر السعودية إنه كان من الممكن القضاء على هؤلاء المتمردين لولا الحرص على أرواح الرهائن ، ومن أجل هذا امتدت الأيام قبل أن ينتهى هذا العدوان ، وقد ذكرت المصادر السعودية أنه لم يتضح لديها أن العملية مخططة من أى جهة أجنبية ، بل إن المجموعة الكبيرة من أفراد هذه الشذمة من السعوديين . وإذا كانت هناك مجموعات تنتمى إلى جنسيات أخرى فهي أعداد قليلة .

وأعلن الأمير سعود الفيصل وزير الخارجية السعودى أن المسلحين الذين احتلوا المسجد الحرام من جنسيات مختلفة ولا ينتمون لأى جماعة سياسية محددة . وقال إنهم متعصبون فى أشد حالات الهياج وسيحاكمون طبقا للشريعة الإسلامية وأحكام القرآن الكريم .

وأوضح أن السلطات السعودية تسيطر على الموقف وأنه لم يعد هناك داخل المسجد سوى حوالى ثلاثين شخصا انزوا واعتصموا بالأركان .

وبعد بضعة أيام أضاف الأمير سعود الفيصل أنه قد تمت السيطرة

على الموقف • وقالنا إننا نحاول الآن معرفة دوافع هذه الجماعة التي
تضم حوالى مائتى شخص •

وذكرت وكالات الأنباء أن عدد المسلحين الذين اقتحموا المسجد الحرام
يتراوح بين مائتين وخمسمائة ، كما يقدر عدد الرهائن بحوالى مائة
 وخمسين •

ويقال إن من الأسباب التي ألزمت هؤلاء المتمردين بالاستسلام أن
الحكومة بدأت تغمر المسجد الحرام بالماء ، وأصبح الغرق لا مفره منه إذا
لم يستسلم هؤلاء ، فكان الاستسلام أفضل لأنه يطيل هذه الأرواح الرخيصة
ساعات أو أياما •

وقد عالجت السياسة السعودية هذا الأمر بحكمة وكياسة ، واستسلم
المتوردون بعد عدة أيام ، وحوكموا على فعلتهم الشنيعة حسب قوانين
الإسلام •

عدوان إيرانى بالمسجد الحرام

هناك سلسلة من الأعمال العدوانية على المسجد الحرام ، وهى هذه
المرّة ترتبط بإيران ، وقد بدأت هذه السلسلة بالعدوان الأول سنة ١٤٠١ هـ
(١٩٨١ م) ثم توالى هذه المرات فى سنة ١٤٠٣ و ١٤٠٤ و ١٤٠٥ ، ثم
كان العدوان الكبير سنة ١٤٠٧ هـ فقد سقط قتيلان فى هذا العدوان عدد من
النساء والأطفال والكهول وكان تعدادهم ٤٠٢ بخلاف عدد كبير من الجرحى •
وقد كتبت بالتفصيل عن ذلك فى مرجع آخر (١) •

العراق والسعودية :

من أخطر الأحداث التى مرت بالملكة العربية السعودية تلك الأحداث

(١) انظر : حركات فارسية للمؤلف ص ٢٠٤ - ٢٠٨ •

التي شهدتها شهر أغسطس سنة ١٩٩٠ ، فقد غزت القوات العراقية دولة الكويت في مطلع هذا الشهر ، وأقامت بها حكومة لم تتعش إلا بضعة أيام ، ثم أعلنت العراق اعتبار الكويت محافظة من محافظاتهما ، ولم تقنع العراق بالزحف على الكويت ، بل حشدت ^(١) قواتها على حدود المملكة العربية السعودية ، مما جعل الملك فهد يستنجد حدود المملكة العربية السعودية ، مما جعل الملك فهد يستنجد بالدول الإسلامية والمصدقة لرد العدوان المحتل ، وقد هبّت الولايات المتحدة وبريطانيا ومصر للاستجابة لهذا الطلب وحشدت قواتها للدفاع عن المملكة •

إنه موقف يدعو لشدة الأسف أن تفعل العراق ذلك ، وألا تكون للدول العربية قدرة لحماية بعضها البعض دون حاجة للغرب ، ولست أدري ماذا تعنيه اتفاقية الدفاع المشترك مادامت تعجز عن الدفاع •

(٢) سنتكلم عن هذا الموضوع عند حديثنا عن الكويت والعراق فيما بعد •

سَلْطَنَةُ عُمَانِ

تقديم :

في الكتابة عن عمان يحس الكاتب بغبطة وسعادة إذ يدفع بتاريخ هذه البلاد إلى الضوء بعد أن احتواها الظلام فترة طويلة حتى أصبحت منقطعة عن جيرانها ، وأصبحت في عداد الأقطار التي لا يعرف الكثيرون عنها شيئا ، وعمان جديرة بمكان واضح على صفحة التاريخ ، فقد لعبت أدوارا عالمية في مجالى السياسة والاقتصاد ، ثم أدار لها الزمن ظهره ، وأوشكت أن يغمرها النسيان ، ولكن الجوهر الحر يستجيب لصاقله ، وسرعان ما يعود للبريق واللمعان .

موقع عمان على خريطة العالم :

تقع عمان في أقصى الجنوب الشرقى لشبه الجزيرة العربية ممتدة شمال بحر العرب ، وعلى طول خليج عمان حتى إمارة الفجيرة إحدى إمارات دولة الإمارات العربية ، وبعد إمارة الفجيرة توجد منطقة تابعة لعُمان أيضا وهي منطقة رأس مسندم الذى يقع على مضيق هرمز .

وتقع الجمهورية العربية اليمنية إلى الغرب من عمان ، وتقع المملكة العربية السعودية في الجهة الغربية والشمالية منها ، كما تقع دولة الإمارات في الناحية الشمالية الشرقية منها .

وعُمان تطل على البحر من جهة ، وتطل على الصحراء من جهة أخرى ، ومن هنا يمكن تقسيم سكانها إلى طائفتين متميزتين هما الحضر والبدو ، والحضر هم الذين يسكنون الساحل وبخاصة مسقط ، وهم خليط متمازج من السكان أشد اتصالا بالعالم الخارجى ، أما البدو فيعيشون في المناطق الداخلية ، وهم أكثر فطرة وبساطة ، وهم شديدا المحافظة على عاداتهم وتقاليدهم (١) .

(١) عمر رضا كحاله : جغرافية شبه جزيرة العرب ص ٤٤٣ .

ومساحة عمان حوالى مائة وعشرين ألف ميل مربع ، وهى مساحة انجلترا تقريبا ، وعدد سكانها حوالى مليونين ، وتنقسم هذه المساحة إلى عدة مقاطعات هى :

— مقاطعة الباطنة التى تطل على خليج عمان إلى الشمال من مسقط ، وهى سهل خصب •

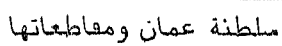
— ومقاطعة عمان ، وهى المقاطعة الداخلية ، وتضم الجبل الأخضر ، كما تضم المناطق المحيطة بهذا الجبل والتى توجد بها العواصم القديمة والمدن الشهيرة مثل نزوى والرسناق وسمايل ، وفى الجبل الأخضر ، توجد أهم أنواع الفاكهة ، وتشمل هذه المنطقة منطقة الظاهرة ، وسميت بذلك لأنها أول ما يظهر من عمان للوافد من الجزيرة العربية ، ومنطقة الظاهرة أرض جبلية تتخللها الواحات والسهول الخصبة والوديان التى تعتبر مصدرا مهما من مصادر المياه فى الصحراء •

— والمقاطعة الشرقية وأهم نواحيها المضيقى ووادى بنى خالد •

— ومقاطعة جعلان ، واسمها مشتق من اسم سكانها القسدامى ، وأهمها بلاد بنى بو حسن وبو على وصور •

— والمقاطعة الجنوبية المسماة « ظفار » وتتألف من سهل ساحلى منبسّط تحاذيه الجبال •

يفصل بين مراكز العمران الرئيسية حواجز طبيعية تتمثل فى سلاسل الجبال الشاهقة ، وأهمها سلاسل جبال الحَجَر التى تمتد من الحجر الغربى إلى الحجر الشرقى ويفصل بينهما وادى سمايل الذى يعتبر الطريق الرئيسى بين الساحل وبين المناطق الداخلية ، وفى جبال الحجر الغربى تقع منطقة الجبل الأخضر التى تعتبر أعلى القمم فى سلسلة تلك الجبال ، إذ يصل ارتفاعها إلى عشرة آلاف قدم ، ويمكن مشاهدتها على بعد مئات الأميال من البحر •



وهناك مجموعة من الجزر تتبع سلطنة عمان وهى جزر كوربا موربا « الحلايبات » وهى تقع فى بحر العرب مواجهة لمقاطعة ظفار ، وجزيرة « مصيرة » وهى تواجه مقاطعة جعلان ، وجزيرة الغنم ، وتقع عند مدخل مضيق هرمز •

وعلى هذا يمكن القول بأن عمان تحتل أقصى الزاوية الشرقية من شبه الجزيرة العربية ، وتلتف حولها مياه المحيط الهندى وخليج عمان ، وتشكل الصحراء العربية حركة الالتفاف حولها من الجهة الغربية ، ومن الطبيعى أن هذا الموقع له أهميته العظمى من الناحية الاستراتيجية ومن الناحية الجغرافية كما سيتضح ذلك فيما بعد •

تسمية عمان :

إن دولة عمان مرت بها تسميات مختلفة ، فكانت فى فترة من الفترات تسمى « مزون » أو « مازون » وهو اسم يعود فى أصله إلى السومريين (بلاد ما بين دجلة والفرات جنوب الموصل) ، ويقال أن الفرس هم الذين أطلقوا هذا الاسم على عمان ، ويروون فى ذلك قول الشاعر :

« إن كبرى سمي عماناً مزوناً » (١) •

وقد وردت « مرون » فى المسعودى بالراء المهملة (٢) ولعل الاعجام أشهر :

ونقل السالمى أن قبيلة الأزد اليمنية التى هاجرت إلى عمان بعد حادثة سيل العرم سنة ١٢٠ ق.م. الذى سبب انهيار سد مأرب ، هى التى أطلقت على هذه المناطق اسم « عمان » إذ كان هؤلاء يعيشون فى واد قريب من مأرب يدعى « عمان » فسموا الوطن الجديد باسم موطنهم الأصل (٣) •

(١) انظر كشف الغمة الجامع لأحكام الأمة لأحد علماء الإباضية

ص ٣٢ •

(٢) مروج الذهب ج١ ص ٩١ •

(٣) تحفة الأعيان ج١ ص ٥١ •

ولما انتقلت عاصمة البلاد من الداخل إلى الساحل واختيرت مسقط لتكون العاصمة سميت البلاد « عمان ومسقط » وظلت كذلك حتى العصر الحديث حينما كان السلطان يباشر نشاطه في مسقط وينيب عنه ممثلا في عمان ، وهذا أتاح الفرصة لبروز فكرة استقلال عمان عن مسقط ، فتوجد السلطنة في مسقط والإمامة في عمان ، وكانت الدولة على وشك أن تصبح دولتين حتى سنة ١٩٥٥ عندما هاجم السلطان عمان ، وأعاد توحيد البلاد وسنشرح ذلك فيما بعد ، ومن أجل هذا وقف السلطان الحالي « السلطان قابوس » موقفا حاسما من هذه الازدواجية ، فجعل اسم البلاد هو « عمان » وهو الاسم المستعمل الآن ، ومسقط هي عاصمة البلاد .

أهم المدن في عمان :

وبمناسبة ذكر مسقط العاصمة ينبغي أن نعطي بعض المعلومات عن هذه المدينة المهمة وأن نعرف أيضا بالمدن المهمة بعمان ، ثم بعواصم عمان ، ويقول المؤرخون عن مسقط إنها تشتمل على كثير من خصائص عمان ، فهي تطل على البحر الذي يمتد امتدادا طويلا مع بلاد عمان ، وبها الصخور السوداء الفاحمة التي تنتشر في عمان ، وتصلها طريق ملتوية ضيقة إلى « مطرح » ومن ثم إلى داخل البلاد ، وعلى هذه فمسقط تتمثل فيها الخصوبة والبحر والجبال ، وتلك هي أبرز مظاهر الحياة في عمان .

أما منظر مسقط من البحر أو الجو فهو منظر رائع إذ يمتد صف فوق صف من الجبال الجرداء مسافات طويلة ، وتقع في الخليج الصغير الذي يلتقي عنده البحر بالجبال مدينة مسورة تطل عليها قلعتها القديمتان ، وقلما يوجد ركن في مسقط لا يمكن منه رؤية هاتين القلعتين ، ولم يكن القصد من بناء مدينة مسقط قديما أن تكون صالحة للسيارات على الإطلاق ومازال السير على الأقدام في أنحائها هو الطريقة الواقعية الوحيدة التي يمكن بواسطتها التعرف عليها .

أما خارج الأسوار فتوجد مسقط الحديثة الآخذة في النمو ، وهي

فسيحة الشوارع ، ضخمة المباني ، وتُعد مسقط الآن أعظم مرفأ على خليج عمان ، ونشاطها التجارى واسع فهي تستورد الأقمشة القطنية والحربية وتصدّر اللؤلؤ والعاج والجلود والبلح والزبيب وغيرها ، ولها علاقات تجارية مع أكثر بلاد العالم وبخاصة مع الباكستان والهند وبلاد الخليج وبلاد فارس (١) .

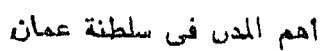
على أن مسقط لم تكن دائما عاصمة عمان ، فقد ذكر الاصطخرى أن قصبة عمان هي صحار ، وذكر أنها على البحر وبها متاجر ومرفأ للمراكب ، وهي أعمر مدينة بعمان ، وأكثرها مالا ، ولا تكاد تعرف على شاطئ بحر فارس مدينة أكثر عمارة ومالا منها (٢) . ويقول ابن حوقل عن صحار أنها قصبة عمان وتقع على البحر ، وبها من التجارة والتجار مالا يحصى كثرة (٣) ، ومن البلاد التي كانت عواصم لعمان كذلك « نزوى » وكانت عاصمة لعمان قديما ، وأحيانا كانت العاصمة هي مدينة « الرستاق » أو مدينة « ازكى » . وسنتحدث بعد قليل عن « عواصم عمان » .

وفي عمان مدن كثيرة شهيرة ، يحمل بعضها آثار الماضي ومظاهره ، ودرج بعضها في طريق المدنية والحضارة الحديثة فتلاّت به الأنوار ، وظهرت المباني الضخمة ومظاهر المدنية المختلفة ، ومن هذه المدن مدينة « مطرح » وهي تقع على بعد ميلين إلى الغرب من مسقط ، وبها ميناء قابوس الجديد ، وتطل عليها قلعة عالية بناها البرتغاليون ، وقد ظلت هذه المدينة عدة قرون الميناء الذى يصل بين عمان والعالم الخارجى ، واسمها مأخوذ من طرح أى حط الرجال ، وأهم معالمها « سور اللواتيا » أو حى الخوجات ، وهي منطقة مسورة داخل المدينة ، والخوجات ، وجماعة من التجار من أصل سندي أصبحوا مواطنين عمانيين ، ولكنهم مازالوا يحتفظون بعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم .

(١) عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب ص ٤٤٤ .

(٢) المسالك والممالك ص ٢٥ .

(٣) صورة الأرض ص ٤٤ .



ومن المدن الشهيرة في عمان مدينة « قلهاة » التي زارها ماركوبولو في أواخر القرن الثالث عشر ، وراها كذلك الرحالة العربي ابن بطوطة ، وهي تبعد عن مسقط بحوالى ٨٢ ميلا إلى الجنوب الشرقى •

ومن المدن الشهيرة مدينة صور ، وقد زارها ابن بطوطة أيضا وكانت في يوم من الأيام الميناء الرئيسى في عمان ومركزا للتجارة مع ساحل أفريقيا الشمالى ، وكان سكانها من البحارة والتجار ، مما يوحى بارتباط بينها وبين مدينة صور الفينيقية •

ويقول الشيخ سالم بن حمود بن شاس . . . : وجاء في بعض الرسومات التاريخية أن « صور » هى إحدى مدن الخليج التى استوطنها الفينيقيون وربما بنوها ، وما إن هجروا الخليج إلى البحر المتوسط لسبب من الأسباب حتى أنشأوا لهم هناك مدينة أطلقوا عليها الاسم نفسه : وأهل صور كالفينقيين لهم مهارة في الأسفار البحرية ، ولهم بها ولىع ، وهم أهل علم بأحوال البحر (١) •

ومن المدن المهمة بالداخل مدينة عبرى وهى أكبر مدن مقاطعة الظاهرة وهى مركز منطقة كانت في وقت من الأوقات منطقة زراعية مهمة •

ومن المدن المهمة « الرستاق » التى كانت عاصمة لعمان في الماضى ، وهناك بلدتان تشبهانها ، ولكنهما أصغر منها قليلا هما بلدتا « العوابى » و « نخل » وهذه المدن الثلاثة تسيطر على ممرات الجبل الأخضر ، وتقع « العوابى » بين « نخل » و « الرستاق » وفى كل منها فلكج من الأفلاج العمانية الشهيرة ، وقد زارها الكولونيل « ماينز » وكتب عنها كتابة رائعة •

والآن نتجه إلى عواصم عمان عبر التاريخ لنعطيها مزيدا من الدراسة والاهتمام •

(١) سالم بن حمود : العنوان في تاريخ عمان ص ١١٨ •

عواصم عمان السياسية

مقدمة :

تعددت العواصم في عدة أقطار من عهد إلى عهد ، ففي العراق كانت « الكوفة » أول عاصمة للدولة العباسية ثم انتقل العباسيون إلى « الحيرة » وجعلوها عاصمتهم ، ثم إلى « الأنبار » (الهاشمية) وبقوا بها حتى بنوا « بغداد » ، ومع ما وصلت له بغداد من الشهرة والعظمة فقد انتقل منها المعتصم إلى عاصمة جديدة هي « سامراء » •

وفي مصر كانت أول عاصمة إسلامية هي « الفسطاط » وفي عهد الخلافة العباسية بنى العباسيون مدينة « العسكر » وجعلوها عاصمة مصر ، ثم أنشأ أحمد بن طولون عندما تولى السلطة في مصر مدينة « القطائع » وجعلها عاصمة له • فلما قامت الدولة الفاطمية أنشئت « القاهرة » وأصبحت العاصمة •

عواصم عمان :

وفي عمان حدث مثل ذلك أيضا ، بل حدث شيء آخر هو أن البلاد ظهر فيها حاكمان أو أكثر من حاكمين أحيانا في وقت واحد ، وأصبح لكل حاكم عاصمة •

ويتحدث ابن رزيق ^(١) عن أنه عندما بويع الإمام ناصر بن مرشد كان يمتلك « نخل » سلطان بن أبي العرب ، ويمتلك « سمائل » مانع بن سنان ويمتلك « سعد » علي بن قطن الهلالي ، وكان ملك « أبر » محمد بن جفير وكانت « ازكى » بيد بنى عزرة و « نزوى » بيد أهل المعقر •••••

وتجمعت البلاد في عهد « اليعاربة » ثم تفرقت في نهاية ذلك العهد فلما

(١) الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين ص ٢٦٣ •

بويج أحمد بن سعيد إماما على عمان وكان آنذاك واليا على صحار كانت هناك عواصم متعددة لمقاطعات كانت كل منها مستقلة فمضى أحمد بن سعيد من صحار إلى الرستاق ففتح حصنها ، ومضى إلى سمائل فاستخلصها ، ثم إلى ازكى فأذعنت له ، ثم إلى نزوى فسلمت له الأمر ، ثم إلى بهلاء فطاعته (١) .

وأحيانا كان « الإمام » يتخذ عاصمة يمكن أن يطلق عليها العاصمة الدينية ، وفي نفس الوقت كان ملوك النباهنة يتخذون لهم عاصمة أو عواصم أخرى .

وهكذا تعددت العواصم في عمان تبعا للزمن أو تبعا للطموح ، أو لوجود الأئمة في جانب والسادة أو السلاطين في جانب آخر ، وانتهى هذا التعدد في عمان ، وأصبحت مسقط عاصمة وحيدة للبلاد .

وفي الدراسات التالية سنتحدث حديثا موجزا عن عواصم عمان ، تلك العواصم التي تَكَابَعَتْ أو وُجِدَتْ في وقت واحد ، ونقول ان الدراسة ستكون موجزة لأن المادة التي بين أيدينا يمكن أن تكون حديثا طويلا ، ولكن الظروف الآن تقتضى الإيجاز .

صحار

تقع صحار إلى الشمال الغربى من مسقط بعد مطرح والسيب والخابورة ، وبين صحار ومسقط مائة وأربعة وخمسون ميلا (١) ويقول عنها ابن حوقل (٢) إنها قصبة عمان وتقع على البحر وبها من التجارة والتجار ما لا يحصى كثرة .

وذكر الاصطخرى (٣) أن صحار أعمر مدن عمان وأكثرها مالا ، ولا تكاد تعرف على شاطئ بحر فارس (!!) مدينة أكثر عمارة ومالا منها .

ويذكر المقدسى أن صحار مدينة طيبة الهواء كثيرة الخيرات والفاكهة ، واسعة ، ليس في تلك النواحي مثلها ، وهى قصبة عمان ، بلد عامر أهل ، حسن ، طيب ، نزه ، ذو يسار وتجار ، أسواقه عجيبة ، والجامع على الساحل له منارة حسنة ، والبلدة بها آبار عذبة وقناة حلوة ، وأهلها في سعة من كل شيء (٤) .

وبالإضافة إلى موقع صحار وأهميته يذكر الباحثون أن النحاس استخرج من مكان يقع بالقرب من صحار ، وكان ذلك في الألف الرابعة قبل الميلاد (٥) .

واستمر استخراج النحاس بعد ذلك ، وترتب على هذا أن قامت في مشارف صحار صناعة صهر النحاس ، عند الطريق الطبيعى إلى الداخلية ، وكان عمال النحاس يشغلون حيزا كبيرا في المدينة (٦) .

(١) حصاد ندوة الدراسات العمانية ج ١ ص ٢٧٢ .

(٢) صورة الارض ص ٤٤ .

(٣) المسالك والممالك ص ٢٥ .

(٤) أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ج ٥ ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .

(٥) مال الله بن على بن حبيب : ملامح من تاريخ عمان ص ٣ .

(٦) اندرو ويليامسون : صحار عبر التاريخ ص ٢٧ .

ومع صناعة النحاس كانت صحار دائماً المركز الطبيعي للتطور الزراعى فى اقليم الباطنة الساحلى ، وهى تنتج غائضا كبيرا من المنتجات الزراعية ، وبخاصة البلح والفواكه شبه الاستوائية .

ويصف بعض الكتاب الحالة الزراعية فى صحار خلال فترة ازدهارها بأنها كانت تنتج كمية هائلة من البلح بالإضافة إلى الموز والتين ، وكان الزراع يتوسعون فى زراعتها (١) .

وازدهار الصناعة فى مشارف صحار ، وازدهار الزراعة حولها ، مع موقعها الساحلى الممتاز ، كل هذا هيا « صحار » لتلعب دورا كبيرا فى مجال التجارة ، فقد نشطت تجارتها إلى الهند وإلى شرقى إفريقيا ، وقد ذكر عنها الاصطخرى وابن حوقل فى هذا المجال أنها كانت مستودع العالم ، ولا توجد مدينة فى جميع أنحاء العالم تضاهى صحار فى ثراء تجارتها ، وإن جميع منتجات الشرق والغرب والجنوب والشمال تصب فى هذه المدينة ، وتخرج منها إلى جميع المراكز التجارية فى العالم (٢) .

وننتقل بالحديث عن صحار من وضعها الطبيعى إلى دورها السياسى وحظها فى الاستقلال والاحتلال ، وجهود أهلها لدفع الاحتلال عنها .

وأول ما نذكره كتابان وردا من الرسول صلى الله عليه وسلم أحدهما إلى أهل عمان بوجه عام والثانى إلى « عبد » و « جيفر » ابنى « الجندى » بوجه خاص ، وكانت لهما السيادة على عمان وكانا يقيمان فى مدينة صحار .

ونص الكتاب الأول هو : من محمد رسول الله إلى أهل عمان ، أما بعد ، فأدعوكم أن تثقروا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، وأن تثقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة ، وأن تعمروا المساجد .

(١) المرجع السابق ص ١١ و ٢٢ .

(٢) اندرو ويليامسون : صحار عبر التاريخ ص ١٩ و ٢٣ .

ونص الكتاب الثانى هو : بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ، أما بعد فإنى أدعوكما لدين الإسلام ، أسلما تَسْلما ، فإنى رسول الله إلى الناس كافة الأئذ من كان حيا ويحق القول على الكافرين (١) •

وحمل هذه الرسالة عمرو بن العاص وقابل « عبدا » وهو أحكم الرجلين فأوصله إلى أخيه جيفر ، وإيجاز القول هنا أنهما أسلما وتبعهما قومهما ، ورفض الفرس الذين كانوا يقيمون بعمان أن يدخلوا الإسلام ، فاشتعلت الحرب بين المسلمين وبين الفرس ، وغلب الفرس وطلبوا الصلح على أن يخرجوا من البلاد ، وتم ذلك فخرجوا من عمان وبقيت أموالهم لأهل البلاد •

وهكذا حظيت صحار بأنها كانت أول مدينة في عمان ترحب بالإسلام وتدخله طواعية ، ثم حظيت بشرف طرد الأجانب منها لرفضهم الإسلام •

وحظيت عمان كذلك بالاستقلال ، وكان بصحار الوالى الذى عينه الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده لتنظيم الزكاة ، وفى عهد الدولة الأموية تعرضت عمان لهجوم حربى من بعض خلفاء الأمويين ، ولكن عمان عادت فحصلت على استقلالها التام إبان العهد العباسى ، وبدأ بذلك العصر الذهبى لصحار (٢) •

صحار تحت سلطة البرتغال :

وفى مطلع القرن السادس عشر زحف الاستعمار البرتغالى إلى أرض عمان بعد أن نجح فاسكو دى جاما فى الدوران حول إفريقيا ، فيما عرف بطريق رأس الرجاء الصالح ، وبفتح هذا الطريق تحولت تجارة الشرق من

(١) الكتابان وردا فى مخطوطة عمانية مجهولة المؤلف حققها الدكتور سعيد عاشور وجعل عنوانها « تاريخ أهل عمان » ص ٤٠ وما بعدها •
(٢) عمان وتاريخها البحرى : اصدار وزارة الاعلام والثقافة ص ٣٤ •

الطرق البرية — البحرية إلى هذا الطريق البحرى المتصل ، وحاول البرتغاليون أن يقيموا مراكز للقموين والحراسة على طول الطريق ، فاتجهوا إلى عمان واحتلوا صور وقريات ثم مسقط وصحار سنة ١٥٠٧ ، واتجه القائد الجائر البوكيرك إلى تدمير السفن العمانية وإقامة القواعد والقلاع ليدعم مركزه ويقوى سيطرته على تلك المنطقة الاستراتيجية ذات الموقع الملاحي الممتاز (١) .

اليعارية يحرقون صحار :

وقامت دولة اليعارية ، وأعلن مؤسسها الإمام ناصر بن مرشد الحرب على البرتغاليين بعد أن وحّد البلاد ، وكانت أجزاء من عمان خاضعة لهرمز . وباثالى خضعت للبرتغال التى احتلت هرمز ، ولما تحررت هرمز بجهود مشتركة سنة ١٦٢٢ وأصبحت تابعة للفرس حاول الفرس أن يسيطروا على المناطق العمانية التى كانت تابعة لهرمز ومن أهمها صحار ، ولكن الإمام ناصر بن مرشد خاض حربا ضد الفرس ونجح فى تخليص صحار وجلفار (رأس الخيمة) (٢) من السيطرة الفارسية .

وهكذا عادت الحرية لصحار بعد نضال طويل ، وأدى ذلك إلى توجيه حملات نحو صور وقريات ، فاستطاع الإمام تحريرها أيضا من البرتغاليين (٣) وكانت صحار قلعة المقاومة ضد الفرس وضد قوات العدوان على العموم .

وكانت صحار مقرا للأحمد بن سعيد مؤسس دولة البوسعيديين والذي كان الإمام سيف بن سلطان قد ولاه صحار قبيل نهاية اليعارية ، وعقب نهاية اليعارية آل الأمر للأحمد بن سعيد واتخذ من صحار مركزا حرر منه مسقط وغيرها من الموانى .

Stephan and Handy Ronald : 'Arab Civilization' p. 396. (١)

Boger : History of the Imams and Sayyids of Oman : The (٢)

Introduction

وستأتى تفاصيل الاحتلال البرتغالى وطرده فيما بعد .

(٣) حصاد ندوة الدراسات العمانية ج ٢ ص ٣٨ .

وسنرى بعد قليل عندما نتكلم عن « الرستاق » انتهاء دور صحار كعاصمة ، ووجود عاصمتين في عمان ، عاصمة الإمامة في الرستاق ، وعاصمة سياسية في مسقط .

مكانة صحار العالمية :

كانت صحار قوة هائلة في الدفاع عن عمان كلما اتجه أعداء عمان إليها بسوء ، وكانت في الوقت نفسه تحظى بمكانة عالمية في مجال التجارة والبحرية ، ونعّمت صحار بموقع فريد فتجمعت لها خصائص قل أن تجتمع لسواها ، ونعید في هذا المجال قول الاصطخرى إنها كانت مستودع العالم ، وان جميع منتجات الشرق والغرب والشمال والجنوب كانت تصب في هذه المدينة وتخرج منها إلى جميع المراكز التجارية في العالم .

وظلت صحار عاصمة لعمان فترة طويلة كما ذكرنا ، ففيها كان يقيم الولاة الذين كان الخلفاء يعينونهم ، وكانت صحار تمثل موقعا مهما بالنسبة للسيطرة على المجتمع العماني ، وعندما اختار الجلنديون المناطق الجبلية الداخلية كقاعدة للحكم ظلوا يحتفظون ببعض التحصينات في صحار ، وظلت صحار تحتفظ بصلات وثيقة مع الخارج كالבصرة والهند وخراسان ، ولهذا فعندما تحولت السلطة السياسية عن صحار احتفظت صحار بطابعها الدولي كعاصمة اقتصادية لعمان .

وهكذا كانت صحار تمثل مركزا عمانيا مهماً بسبب ارتباطها ببقية المناطق العمانية وبسبب علاقاتها بالخارج .

وتشتهر صحار بقلعتها الشماء التاريخية ، ومن صحار انطلقت السفن العمانية تجوب البحار والمحيطات متجهة للصين وغيرها من موانئ الشرق والغرب .



قلعة صحار

وموقع المعركة الحاسمة التي قادها أحمد بن سعيد لتحقيق استقلال عمان

وفي صحار الحديثة معالم نهضة وتطور ، ومنها مزارع شمس عمان
التي أنشئت سنة ١٩٧٢ وهذه المزارع تتسع أنشطتها فتشمل أنشطة صناعية
وزراعية وحيوانية •

ومن معالمها الحديثة كذلك التنقيب عن النحاس الذي نجح نجاحا عظيما
وتكوّن على أثره مصنع النحاس •

وفي صحار الحديثة مؤسسات تعليمية وصحية رائعة •

الرسنق

ذكرنا فيما سبق أن « عمان » تنقسم خمس مقاطعات هي :

- ١ — مقاطعة الباطنة •
- ٢ — مقاطعة عمان •
- ٣ — المقاطعة الشرقية •
- ٤ — مقاطعة جعلان •
- ٥ — المقاطعة الجنوبية (ظفار) •

والذى يهمنا هنا هو مقاطعة عمان حيث توجد الرسنق التى تبعد عن مسقط بحوالى ١٧٠ كم •

وعندما تغلب البرتغاليون على ساحل عمان أصبحت عمان خاضعة لثلاث سلطات هي :

- ١ — سلطة الأئمة فى الرسنق ، وكان الإمام آنذاك هو محمد بن إسماعيل (٩٠٦ هـ) •
 - ٢ — بعض ملوك بنى نبهان وتَسَبَّعَهم بعض مناطق بالداخل •
 - ٣ — البرتغاليون ويسيطرون على المدن الساحلية : صور ومسقط وقريات وقلعات وصحار •
- أما القرى الساحلية التى تقع بين المدن الساحلية فكان ولاؤها للإمام فى الرسنق •

وهكذا لم تخضع الرسنق للبرتغال ، فما كان هؤلاء يستطيعون الاندفاع لداخل عمان ، ولو قد فعلوا لالتقطتهم أيدي العمانيين وأنزلت بهم الضرر • فالعدو كان يعيش بالموانئ فى حراسة البوارج العسكرية وعلى صلة بالتموين من الخارج •

وكانت الرستاق عاصمة الأئمة الذين حرصوا — وبخاصة في فترات ازدهار الإمامة — على الحياة مع الشعب ووسط تجمعاته ، ولهذا فقد عٌقدت الإمامة للإمام ناصر بن مرشد بالرستاق سنة ٩٠٣ هـ (١٦١٥ م) وبدأت بذلك دولة اليعاربة ^(١) في هذه العاصمة المهمة .

ويقول كتاب « تاريخ أهل عمان » الذى لم يشرف مؤلفه : ظهر الإمام ناصر بن مرشد بين أهل الرستاق ، بعد أن اشتدت المحن ، وكثر الشقاق ، فتشاور أهل الاستقامة فى الدين ، وبحثوا فيمن يكون أهلاً لقيادة الأمر ، فأجمعوا أمرهم أن ينصبوا السيد الأجل ناصر بن مرشد فمضوا إليه وطلبوا منه ذلك فاستجاب لهم ، وكان مسكنه فى بلد الرستاق فأظهر العدل ، ودّهم الجهل ^(٢) .

وجال الإمام جولته يضرب العصاة حتى اجتمع الكل إليه ثم رجع إلى الرستاق .

ومن الرستاق خرجت جيوش ناصر بن مرشد التى أوقعت أشد الهزائم بالبرتغاليين والفرس ، وأحرز ناصر انتصارات واسعة ، ولم يبق مع البرتغاليين إلا مسقط ومطرح ، وقد خرجت جيوش ابن عمه وخليفته سلطان بن سيف من الرستاق أيضا فأجهزت على الأعداء ، وحررت مسقط ومطرح .

وفى أواخر عهد اليعاربة شهدت الرستاق — كما سيأتى تفصيله — صراعا مريرا بين أفراد هذه الأسرة فلجأ أحد المتنافسين (سيف بن سلطان بن سيف) سنة ١٧٣٧ إلى نادر شاه ملك الفرس يطلب عونه ، وانتهاز نادر شاه هذه الفرصة فدخل عمان بجيوشه ، وسرعان ما ظهر أنه لا يعمل لحساب سيف بن سلطان بل يعمل لحساب نفسه
.....

(١) الشيخ سعيد بن على المغيرة : جبهة الاخيار فى تاريخ زنجبار ص ١٩٩ .

(٢) انظر كذلك حمد بن سيف : الموجز المفيد فى تاريخ البوسعيد ص ١١ .

وقد مات بالمرستاق آخر أئمة اليعاربة ، وعند موته كانت هارس
تحتل بعض المناطق ومنها مسقط ***

واستقبلت المرستاق علما جديدا من أعلام السياسة والحرب ، هو
الإمام أحمد بن سعيد الذي انتخب إماما لعمان سنة ١١٥٧ هـ (١٧٤٤ م)
وهو رأس الأسرة البوسعيدية التي لا تزال تحكم البلاد حتى الآن ، واستطاع
حكم البلاد من عاصمته المرستاق ، وأعاد للبلاد استقلالها بالحرب حينما
وبالخدعة حينما ، حتى خلص البلاد من الاحتلال الفارسي ، وكانت
المرستاق في عهده عاصمة سياسية واقتصادية مهمة إذ عمل أحمد بن سعيد
على تنشيط التجارة وازدهار المال ، وأقام أحمد بن سعيد توازنا بين
الساحل والداخل وشجع التجارة وحقق الأمن والاستقرار للبلاد .

وتوفي الإمام أحمد بن سعيد بالمرستاق في محرم سنة ١١٩٨ هـ ودفن
بها وقبره هناك معروف .

وبعد وفاة أحمد بن سعيد حدثت حركات سياسية وثورات جعلت ابنه
سعيد بن أحمد بن سعيد يقنع بالإمامة في المرستاق ، إذ ثار عليه ابنه
حمد واستولى على مسقط وجعلها عاصمة سياسية ، ومع أن حياة حمد بن
سعيد لم تطل إلا أن مسقط أصبحت العاصمة منذ ذلك التاريخ (١٢٨٣ م) (١)

ومنذ ذلك التاريخ الذي ثار فيه حمد بن سعيد على أبيه وانتقل
إلى مسقط وقنع أبوه سعيد بأن يبقى في المرستاق إماما ، منذ ذلك التاريخ
أصبح هناك إمام في المرستاق و « سيد » أو « سلطان » في مسقط ،
يتبع لذلك فإن سلطان بن أحمد بن سعيد الذي ثار على أخيه سعيد بعد
وفاة حمد اتخذ من مسقط عاصمة له .

وانتهى بذلك دور المرستاق كعاصمة سياسية ، وانتقل الأمر إلى

(١) مال الله بن علي : ملامح من تاريخ عمان ص ٢٤ .

مسقط التي ستكون موضوع حديثنا بعد الانتهاء من الكلام عن الجوانب الحضارية في الرستاق :

وتشتهر الرستاق بقلعتها العظيمة وكذلك بقلعة الحزم وجامع البياضة الذي تخرّج منه عدد كبير من علماء عمان وأئمتها الأفذاذ .

وتشتهر الرستاق كذلك بعين « الكسفة » التي تتدفق منها مياه حارة نقية .

وكانت الرستاق فيما مضى مركزا تجاريا مهما يعرض منتجات الجبل الأخضر من المشمش والرمان والخوخ والتين والعنب ، وكانت الدواب تتوافد على الرستاق تحمل هذه الفواكه من الجبل الأخضر ، كما كان أهل الباطنة يقدون إلى الرستاق يحملون إنتاج هذه المنطقة من الأسماك والموز والليمون ، فكانت الرستاق بذلك نقطة التقاء اقتصادي كما كانت نقطة التقاء سياسي .

ومن الصناعات التي برزت في الرستاق صناعة الحلوى العمانية ، وصناعة المصوغات الفضية ، وتحظى الخناجر الرستاقية بشهرة بالغة إذ يضع الصائغ العماني في الرستاق بصماته الدقيقة على هذه التحفة الفضية الرائعة .

ومن الصناعات التي حظيت بالاهتمام في الرستاق صناعة التمور ، وهناك بالرستاق مصنع عظيم للتمور ، تُختار فيه أجود التمور وتمر بمراحل مهمة لتعلب تعليبا رائعا للتمور مما جعل تمور عمان من أرقى أنواع التمور في العالم .

كلمة عن قلعة الرستاق وقلعة الحزم :

زرت هاتين القلعتين يوم ١٧/٥/١٩٩٠ وهما قلعتان شاهقتان ، وتقع

قلعة الرستاق على مرتفع يجعلها تطل على كل الجهات حولها ، وبهذه القلعة مساكن للإمام والأسرته ، ومساكن للحراس ، ومكان للمسجونين ليكونوا تحت رقابته ، ومكان آخر للمعتقلين السياسيين وبها مدرسة لتعليم القرآن الكريم وعلوم الإسلام ، ومكتبة يقال أنها كانت عامرة بأهم الكتب •

أما قلعة الحزم فيرجع بناؤها إلى سنة ١١٢٦ هـ وهى على طبيعتها عندما زرتها أى لم تدخلها يد التجديد والإصلاح •

وقيل لى إن هناك نفقا يربط بين القلعتين وطوله ٢٥ ك م •

ومما يذكر عن القلاع أن الولاة يجلسون بها الآن مرة كل شهر حيث يباشرون أعمال الولاية منها ، وذلك لربط الحاضر بالماضى •

مسقط

الحديث عن مسقط يحتاج إلى نَفَسٍ طويل ، فهي درة الخليج ، والنجم الساطع في هذا المكان من العالم ، وقد أتيح لى أن أزور مسقط عدة مرات ، وأن أتجول في ربوعها ، وكانت تسحرني مظاهرها ، فالقلاع الشامخة تبهر الرائي والبحر يخلب الألباب ، وناسها ينعكس عليهم صفاء البحر فنافسوا الماء في النظافة والنقاء ، وانعكس عليهم صمود الجبال فظهروا كأجدادهم قوة وصلابة •

وأشهد أن مسقط جذبتني ، وتمنيت أن أصف مشاهدتها ، وأن أعيش مع تاريخها لأضيف شيئاً إلى ما كتب عنها ، وهأنذا أفعل ، ولكن ليس بالقدر الذي تمنيته بل بالقدر الذي تتحمله الظروف •

وقد كتب علماء الجغرافيا والرحالة شيئاً عن مسقط ولكنه ليس كثيراً ، فهو لذلك لا يشفى الغلة ، وكتب الباحثون المحدثون دراسات تطول وتقتصر عنها ، ونحن نقتبس من هؤلاء وأولئك ما ينير لنا السبيل ، ثم نضيف بعض ما دوناه عنها خلال زيارتنا ودراساتنا •

يقول ابن الفقيه الهمداني (٩٠٢ م) عن مسقط : إنها تقع في نهاية عمان وعلى بعد مائتي فرسخ من « سيراف » وهي ميناء تبجر منها السفن إلى الهند (١) •

أما أبو عبد الله المقدسي (٩٨٥ م) فيذكر أن مسقط أول ميناء ترسو فيه السفن اليمنية المتجهة للشمال في الخليج الفارسي ، ومسقط مدينة كثيرة الفواكه (٢) •

(١) كتاب البلدان ص ١١٧ •

(٢) أحسن التقاسيم ج ٢ ص ٦٣ •

ويتحدث ابن بطوطة عن مسقط فيقول : هي بلدة بها السمك الكثير المعروف بقلب الماس ، وبعدها سافرنا إلى قريات ثم قلعات وهذه البلاد كلها من بلاد عمان (١) .

أما المؤرخ العماني الشيخ سالم بن حمود فقد كتب عن مسقط كلمات قصيرة أيضا بدأها بتصحيح ما ذكره عنها ياقوت الحموي ، ثم أضاف أن مسقط مدينة من أهم المدن على البحر العربي الفارسي ، علا شأنها وعظم مكانها منذ القرن الحادي عشر للهجرة حين حل بها البرتغاليون ، وبنوا بها حصنا لهم بل حصونا وسوَّروها من الجبال بأسرار متينة ، حين صار ملك عمان بأيدي الطغاة من آل نبهان ، واستمر بها الحال أيام اليعاربة الأجلاء الذين يفتخر بهم الدين ، وتبتهج بهم الدنيا ، ثم اتخذها آل بوسعيد عاصمتهم الوحيدة ، وهكذا تطور الزمن بها حتى الآن (٢) .

ولعل العلامة الشيخ سالم كان في عجلة من أمره ، فلم يمنح مسقط ما تستحقه من عناية ، وربط علو شأنها بالبرتغاليين ثم اتجه بسرعة للحديث عن آل نبهان الطغاة ، واليعاربة الأجلاء ، وختم كلمته القصيرة ذاكرة أن آل بوسعيد اتخذوها عاصمتهم الوحيدة مع أن قمة البوسعيديين « الإمام أحمد بن سعيد » كانت الرستاق عاصمته .

وعلى العموم فالعلامة سالم بن حمود تحدث طويلا عن مسقط وهو يسرد تاريخ عمان ، فإذا كان قد أوجز هنا ، فقد أعطى فيما بعد تفاصيل واسعة عنها وهي تصارع الأحداث .

وفيما يتعلق بأهمية مسقط ومطلع بروزها في التاريخ نتفق مع الرأي الذي يقرر أنه على الرغم من أن صحار كانت الميناء الرئيسي في عمان

(١) رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٢) عمان عبر التاريخ ج ١ ص ٦٢ .

إيان ما يسمى « العهد الذهبي لتجارة الخليج » ما بين سنة ٧٥٠ و ١٥٠٧ بعد الميلاد ، وارتبطت بعلاقات تجارية مع موانئ الخليج الهامة الأخرى كسيراف وهرمز ، فإن مسقط هي الأخرى كانت محطة هامة لتموين السفن واستقبال البضائع القادمة من موانئ الخليج والهند وشرقي إفريقيا ، وإن ظل دورها ثانويا في هذا المجال ^(١) .

وعلى هذا فقد كان لمسقط دور في التجارة العالمية بجوار صحار منذ القرن الثامن الهجري مع الاعتراف بأن دور صحار كان هو الدور الرئيسي .

ونستمر في مزيد من الاقتباسات للتعريف بمسقط ، ونحن الآن نقتبس من أحمد بن ماجد البحارة الشهير الذي كتب عن مسقط يقول :

« إنها ميناء شهير لا مثيل له في العالم ، وفيه أمور وأشياء لا يجدها المرء في أي مكان آخر ، وفي رأس الميناء صخرة عالية يراها القاصي والداني ، ويهتدى بها المسافر أينما كان ، ويستطيع أن يراها المسافر إلى الهند أو السند أو هرمز أو مكران أو الغرب ، وتوجد إلى القرب من الشمال الغربي جزيرة حمراء عالية اسمها (الفحل) وهي ظاهرة بارزة بروزا كافيا حتى يمكن للجاهل أن يهتدى بها ليلا ونهارا .

« أن مسقط هي الميناء الأول لعمان ، وتأتي إليه السفن وتتموّن فيه ، وفي مسقط تباع الأقمشة والخضروات والزيوت والحبوب ، ثم إن السفن حين تقصد مسقط تكون في مكان آمن من كل ريح ، وفي مسقط المياه العذبة ، وسكانها كرام لطفاء يحبون الغرباء » ^(٢) .

(١) سطور من مقال عن : مسقط : الحاضر والمستقبل للاستاذ عباس ابن غلام نشر في « أخبار شركتنا » .
(٢) المرجع السابق بتصرف ص ١٢ .

مسقط بين الاحتلال والاستقلال :

عانت مسقط احتلال الفرس ثم الاحتلال البرتغالي الذي وصلت به المقحة أن يعتبر أهل مسقط قراصنة ، وأنزل بهم أنفسهم ألوان العنت . ثم تحقق لمسقط النصر المؤزر على يد ناصر بن مرشد وابن عمه سلطان ابن سعيد •

وعاد الفرس لاحتلال مسقط في آخر عهد اليعاربة ، ولكن البطل أحمد بن سعيد حرر مسقط وأذل المعتدين •

وكان أحمد بن سعيد قد جعل الرستاق عاصمة له ، ولكن خفيده حمد ابن سعيد (١٧٧٩ — ١٧٩٣) اتخذ مسقط عاصمة له كما سبق ، فانتقلت العاصمة إلى مسقط ، ومنذ ذلك التاريخ ظلت مسقط عاصمة البلاد وواجهتها •

موضوعات ختامية عن مسقط

هناك موضوعات مهمة ترتبط بمسقط سياسيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا وثقافيا ، وفيما يلي نتكلم عن هذه الموضوعات :

(١) اقتصاد مسقط :

من مشاهدات السير بارتر فريير أنه زار مسقط فشهد الأسواق تتعجج بالحركة حيث تعرض السلع والمنتجات على اختلاف أنواعها مثل المنسوجات والأقطان والحريير والمجوهرات وأدوات المائدة واللحوم والأسماك •

وفي « رحلات عبر الجزيرة العربية » لكارستان يقول : تنتج مسقط الجبن والشعير والعدس والعب وتصدر كميات هائلة من البلح إلى الخارج •

(م ١٨ — التاريخ ج ٧)

وذكر G. T. Rinal أن مسقط تصدر اللبان والمر والفضة والصمغ^(١) .

وأهم دور اقتصادي قامت به مسقط هو أنها كانت محطة تجارية ومركزاً لتوزيع البضائع وشحنها ، فالخليج يتوسط شبكة من الطرق البحرية التي تربط الهند وجنوب شرقى آسيا والشرق الأقصى وإفريقية ، هذا الخليج كانت مسقط تمثل أهم ميناء بين موانيه ، وكان هذا الموقع يدرّس ربحاً عظيماً على البلاد وعلى العمال العمانيين .

وعلى هذا فمنتجات مسقط وموقعها الجغرافي جعلها لها عبر التاريخ مكانة اقتصادية مرموقة ، ولذلك كان يقال إن نفوذ مسقط في الخليج نفوذ غير منازع^(٢) .

وكان لمسقط معاهدات سياسية واقتصادية مع بريطانيا وفرنسا وهولندا والولايات المتحدة الأمريكية^(٣) .

ولكن انقسام الدولة العمانية إلى دولتين بعد وفاة سعيد بن سلطان أو سعيد العظيم كما كان يسميه الحكام الأوروبيون جعل عمان تفقد مكان الصدارة الذي كانت تحتله بين دول المنطقة بقوة أسطولها البحري العظيم ، كما فقدت مدينة مسقط أهميتها كميناء بحري هام ، وهكذا تداعت حياة النعيم والرخاء التي كانت تتمتع بها هذه المدينة العربية .

وعندما جاء للحكم السلطان سعيد بن تيمور عام ١٩٣٢ استطاع هذا الحاكم تهدئة النزاعات القبلية ، ولكن البلاد كانت شبه منقسمة إدارياً ، فالإمام كان لا يزال الحاكم في داخلية عمان فهو الذي يعين الولاة والقضاة من مقره في « نزوى » على الولايات الداخلية ، بينما كان السلطان

(١) عمان في صفحات التاريخ ص ٧٤ ، ٣١ ، ٤٣ بالتوالى .

(٢) عمان وتاريخها البحري ص ٧١ .

(٣) دكتور جمال ذكرى قاسم : الخليج العربى ص ٣٧٩ .

سعيد يسيطر على المنطقة الساحلية وهي الباطنة وعلى المنطقة الجنوبية من السلطنة • ولكن السلطان سعيد قضى على هذا الانقسام وأصبح الحاكم الوحيد •

وجاء عصر السلطان قابوس بدءاً من ٢٣ يوليو سنة ١٩٧٠ دون صخب ودون إعلام زائف عن الماضي والمستقبل فكان هذا العهد نورا كله ويثمهنا كله في مختلف المجالات فوحد البلاد تماما ، وأصبح الحاكم الوحيد يعاونه وزراؤه ومستشاروه ، وكان النفط قد انبثق في الستينات فاستغل السلطان هذا المورد الجديد كما استغل مواهبه الخصبة السمحة في حركة عمران رائعة سننكم عنها عندما نتحدث عن مسقط المعاصرة •

(ب) مسقط مدينة الأبراج والقلاع :

تكثر الأبراج والقلاع والحصون في عمان ، وتقوم هذه عادة على



مسقط مدينة الأبراج

النتال البارزة ، ومهمتها الحراسة والدفاع عن مداخل المدن ، وأحيانا كانت القبائل المتنازعة تقيم الأبراج للحماية ضد بعضها البعض •
والقلاع والأبراج كانت منازل للحكام ، وأحيانا كانت توجد بداخلها مدارس ومكتبات ، وكان للمساجين السياسيين حتى يكونوا تحت سماع الحاكم وبصره •

وفي مسقط مجموعة من الأبراج والقلاع تشرف على المدينة من ناحية البحر ، فمسقط كانت دائما يخشى عليها أن تضرب من البحر •

وفي مسقط قلعتان عظيمتان أقامهما البرتغاليون والقلعة الغربية تسمى « ميراني » ولعلها أخذت اسمها من الادميرال البرتغالي ، وكان البرتغاليون يطلقون عليها في الأصل « كابيتان » إذ كانت مقرا للقائد البرتغالي •

أما القلعة الشرقية فتسمى قلعة « جلالى » ولعل اسمها مقتبس من اسم أحد القادة الذين ارتبطوا بها •



(ج) مسقط المعاصرة :

إن الحديث عن مسقط المعاصرة يحتاج إلى دراسة طويلة لا تتسع لها هذه العجالة ويكفى أن نذكر أن عهد السلطان قابوس أقام جسرا هائلا بين الماضى والحاضر والمستقبل ، فقد اتجهت عمان المعاصرة إلى المحافظة على القيم الأصيلة والتقاليد العربية مع تطعيمها بما يزيدها بهجة وجمالا دون تغيير فى جذورها ، ثم اتجهت عمان إلى الحضارة الحديثة فأخذت منها قسما كبيرا بحيث لا يتناقض مع القيم والآداب العربية والإسلامية ، ولا نستطيع هنا إلا تقديم إشارات سريعة لما جدد فى مسقط من صور حضارية :

— امتداد الشريط الساحلى من مسقط إلى مطرح ، ويحس السائر فيه بروعة الطبيعة وقدرة الحضارة الحديثة •

— شق الطرق فى الجبال الصلدة بحيث قربت المسافات إلى حد كبير وربطت بين أحياء العاصمة فى سهولة ويسر •

— ظهرت للوجود مدن جديدة أو ما يسمى بالضواحي لمسقط ومن هذه مدينة قابوس الفاخرة ، ومدينة الإعلام التى تحوى محطة الإذاعة والتليفزيون ونادى الصحافة ومساكن العاملين ، والمدينة الدبلوماسية لرجال السلك السياسى ولسفاراتهم •

— المنطقة الصناعية بكل ما تحويه من أجهزة ومعدات •

— مجموعة من الفنادق الضخمة العالمية •

— المستشفيات التى أعدت أروع أعداد لاستقبال المرضى وعلاجهم •

— مطار دولى يستقبل أضخم الطائرات •

— ميناء قابوس الذى يستقبل أعظم السفن •

— جامعة قابوس وهى مفخرة عظيمة للعلم والمعرفة •

- التماثيل التى تزدان بها الميادين الرائعة المختلفة فى العاصمة •
- ومن أهم ما يذكر لمسقط ولعمان الأمن الذى يسود العاصمة ويسود القطر كله ليلا ونهارا فوقوع الجريمة يعتبر شيئا نادرا للغاية •
- وبعد ، إننى أرفع القلم عن الحديث عن مسقط ولا يزال هناك الكثير مما يمكن أن يدوّن عنها •

نزوى

تقع نزوى فى المنطقة الداخلية بعمان ، على بعد ١٨٠ كيلو مترا من مسقط ، وهذه المنطقة مهمة جدا وبخاصة بالنسبة لمؤرخ الإسلام ، وذلك لما تزدهر به من مساجد ، ولما قدمته للمجتمع العماني من أساطين العلماء ، ثم لأن هذه المنطقة بها حصون فخمة تنبئ بجلالها ، وبعض الحصون شملت معاهد عليا ترعى العلوم والمعارف ، ولذلك فإننا قبل أن نتحدث عن نزوى كأحدى العواصم العمانية يجدر بنا أن نتحدث عن نزوى بلدة العلماء ونزوى منطقة الحصون .

نزوى بلدة العلماء :

حظيت نزوى بأن أطلق عليها « بيضة الإسلام » وذلك لوجود مدارس الفقه الإسلامى بها ، وعكوف العلماء والمريدين فيها على الدراسة والتأليف فى كل جوانب الدراسات الإسلامية ، وقد تخرج من معاهد نزوى مجموعة من جلة العلماء انسابوا فى نواحي عمان يحملون العلوم والمعارف وسنذكر بعد قليل أسماء بعض هؤلاء العلماء ، وقد كان مناخها المعتدل من الأسباب التى جذبت حلقات العلم لاتخاذ نزوى مركزا للدراسة .

ونزوى من أوائل بلدان عمان التى احتضنت الإسلام ، ولذلك نجد مساجد نزوى تتجمع فى عمارتها بين القديم والحديث ، وعلى سبيل المثال مسجد الشواذنة المنسوب لعيسى بن عبد الله بن شاذان ، وهو أول مسجد فى المنطقة وقد أعيد تجديده سنة ١٠٧ هـ .

وبمناسبة الحديث عن أول مسجد بنى فى منطقة نزوى ينبغى أن نقفز قليلا من نزوى إلى سمائل حيث نقابل الصحابى الجليل مازن بن غصوية ، وهو أول عماني اعتنق الإسلام ، وأسس مسجدا سُمى « مسجد الخمار » وهو أول مسجد أسس فى عمان ، وقد جدده السلطان قابوس على حسابه الخاص تكريما لهذه الذكرى المجيدة .

ونعود إلى نزوى لنكمل حديثنا عن مساجدها ، ففيها الجامع الذى لايزال مقرا لدراسة الفقه والعلوم الإسلامية ، وجامع سعال الذى يقال أنه بنى فى السنة الثامنة للهجرة ، ويوجد بنزوى كذلك مسجد العين ومسجد الشيخ ، وقد تخرج العديد من العلماء الفطاحل من مساجد نزوى ومن هؤلاء الإمام الصلت بن مالك الخروصى والإمام جابر بن زيد « أبو الشعثاء » والشيخ محمد بن إبراهيم الكندى مؤلف كتب « بيان الشرع » والشيخ العلامة بشير بن المنذر ، والشيخ أحمد بن عبد الله بن موسى الكندى وغيرهم كثيرون .

نزوى بلدة الحصون :

وتشتهر نزوى بالحصون والقلاع ، ومن أهم حصون نزوى قلعتها التاريخية التى بناها سلطان بن سيف ١٠٥٩ — ١٠٧٩ هـ (١٦٤٩ — ١٦٦٨ م) وقد استغرق بناء هذه القلعة اثنى عشر عاما ، ويزيد طول قطر برجها الدائرى الضخم عن ٣٧ مترا ، وهى تضم تحصينات متينة كما تضم أبراجا محصنة .

ويوجد بهذه القلعة أماكن للتعبد والصلاة والإدارة الحكومية وسبعة آبار للمياه العذبة .

وتتعدد الحصون فى نزوى فمنها حصن « تنوف » الذى يقع على سفح الجبل الأخضر ويتحكم فى مدخل الجبل الأخضر ، وتحيط به ثلاثة أبراج .

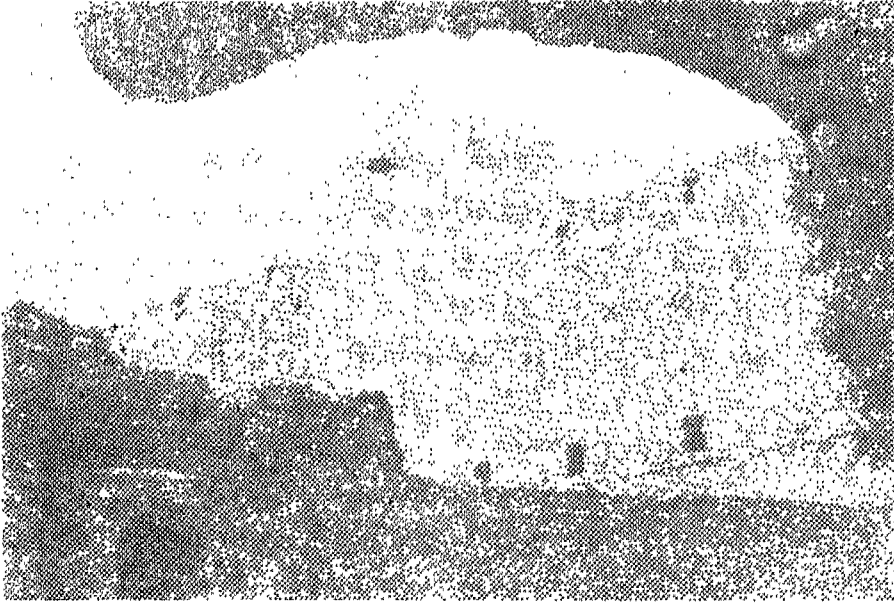
وهناك حصن الدويذة وله موقع استراتيجى ، إذ يقع فى الشمال الغربى ، ويتحكم فى مدخل الوادى المؤدى للجبل الأخضر ويخترقه فليح المبركة (١) وقد أسسه محمد بن الإمام أحمد بن سعيد وولده هلال ، وبه قلعة الشهباء وبرج القرن (٢) .

(١) سلطنة عمان ومسيرة الخير : المنطقة الداخلية والوسطى ص ١٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٣ .

ومرة أخرى ونحن نتحدث عن الحصون — نقفز إلى حصن جبرين ، ولجبرين صلة سياسية بنزوى سنتحدث عنها فيما بعد ، وحصن جبرين (ويسمى أحيانا بجرين) يقع في ولاية بهلاء غير بعيد عن نزوى ، وهو من أهم الحصون الأثرية في عمان • وقد بناه الإمام بلعرب بن سلطان ، وأصل اسمه « أبو العرب » ثم نطق بلعرب اختصارا ، وهذا الحصن هو أحد الآثار الكاملة الباقية ، وهو مزين بالنقوش الملونة ، وتنتشر فيه السرايب ويطل على مدينة بهلاء ، وحوله أرض زراعية تنتشر فيها أشجار النخيل ، وله فلج للمياه ، وهو مزود بشبائك وفتحات تيسر مراقبة الداخلين والخارجين منه (١) •

وبمناسبة الحديث عن حصن جبرين ينبغي أن نعود إلى تحفة الأعيان لنزوى عنه قوله :



حصن جبرين

حصن جبرين من أعاجيب الزمان ، وقد بنا . بلعرب من صلب ماله
لأن الأموال قد كثرت في أيامه وأيام والده قبله وذلك لبركة العدل وفضل
الجهاد ، ولذلك أقبلت الأمة على تشييد الحصون والمعاقل وإجراء الأنهار
وغرس الأشجار ، وإحياء المواتات ليعيش الناس بأرغد عيش وأتم نعمة ،
فبنى والده قلعة نزوى وهى الشهباء ، وبنى هو حصن جبرين ، وبنى ابن
أخيه وهو سلطان بن سيف بن سلطان حصن الحزم والثلاثة من أعاجيب
الزمان حتى قيل إن حصن جبرين لا يستطيع أحد أن يصفه بجميع ما فيه
ولو بقى به شهرا كاملا ، وهو قصر عال يجرى فى بطنه نهر جاره وله
حيطان شاهقة ، ومن أعاجيبه أنه لو دخله داخل من غير أهله لم يستطع
أن يبلغ أعلاه إلا بدليل من أهله (١) .

أشياء أخرى تشتهر بها نزوى :

وتشتهر نزوى أيضا بصناعة الحلوى العمانية التى برع فيها العمانيون
بصفة عامة وأهل نزوى بصفة خاصة ، وقد ساعد على ذلك توافر السكر الأحمر
بنزوى الذى تصنع منه هذه الحلوى .

وتشتهر نزوى كذلك بصناعة دبغ الجلود وتصنيع هذه الجلود بعد
دبغها ، كما تشتهر بالمشغولات الذهبية والفضية والخناجر وحلى الأعراس
والسيوف وغيرها من المشغولات التى تزدهان بالنقوش البديعة .

جولة تاريخية

اتحد الأئمة الإباضيون « نزوى » عاصمة لهم طيلة تاريخهم الطويل
فى فترة الإمامة الأولى التى بدأت سنة ١٣٥ هـ باختيار جلندى بن سعيد
إماما ، وامتدت إلى الإمامة الثانية التى بدأت سنة ١٧٧ هـ باختيار محمد
ابن عبد الله بن أبى عفان ، ثم فترة الإمامة الثالثة التى بدأت باختيار

(١) السالمى : تحفة الاعيان ج ٧ ص ٧٧ وانظر كذلك جبهة الاخبار
لسعيد بن على ص ٢٠١ .

الخليل بن شاذان إماما سنة ٤٠٨ هـ واستمرت حتى مالك بن علي الحواري الذي توفي سنة ٨٣٣ هـ مع ملاحظة وجود فترات كان منصب الإمامة شاغرا ، أو وجود فترة ظلام سيطرت على البلاد •

وعادت الإمامة مرة أخرى باختيار عبد الله بن خامس بن عامر الأزدي سنة ٨٣٩ وظلت إلى نهاية بركات بن محمد بن إسماعيل في إمامته الثانية سنة ٩٦٨ هـ وكانت العاصمة تتأرجح بين نزوى وبهلاء (١) •

وفي خلال عهد الأئمة وبسبب الصراع الداخلي الذي اشتد وامتد ظهرت سلطات جديدة بعمان هم ملوك بني نبهان الذين كانوا إلى الشر والتخريب أميل ، وقد اتخذ هؤلاء عاصمتهم بهلاء أو مقنيات (٢) وأحيانا في نزوى (٣) •

وعندما أصبحت الإمامة لليعاربة كانت « الرستاق » غالبا هي العاصمة ، ولكن بلعرب أمضى فترة طويلة من حياته بين جبرين — التي شيّد بها حصنه الذي سبق الحديث عنه — وبين نزوى (٤) •

وقد ذكرنا من قبل أنه قبل قيام اليعاربة كان بعمان خمسة من صغار الملوك يحكمون في الرستاق والنخل وسمائل وسمد وأبرا •

ويقول الشيخ سعيد بن علي المغيرة (٥) عن « نزوى » إن الإمام العادل سيف بن سلطان توفي بها سنة ١١٢٣ ويصفها بأنها بيضة الإسلام وعاصمة الإمامة العمانية ، ويصفها السالمى بأنها كرسى مملكة العرب (٦) •

(١) انظر السالمى : تحفة الاعيان بسيرة أهل عمان ج ١ ، ٢ وانظر كذلك زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامى ج ١ ص ١٩١ وما بعدها •

(٢) زامباور : المرجع السابق ص ١٩٤ •

(٣) تاريخ أهل عمان ص ١٠٣ •

(٤) تاريخ أهل عمان : مؤلفه مجهول ص ١٤٦ •

(٥) جبهة الاخبار في تاريخ زنجبار ص ١٩٦ •

(٦) تحفة الاعيان ج ٢ ص ٣١١ •

عواصم ثانوية مع نزوى :

وهكذا نجد نزوى قد نعمت بأن تكون عاصمة عمان لفترة طويلة ، وفي عصور التفكك ظهر بجانبها كثير من العواصم الثانوية (بهلاء — جبرين — النخل — سمائل — سمد — ابرا) وقد ذكرناها جميعا حتى نلم بكل العواصم العمانية ، المهم منها وقليل الأهمية .

صلالة :

بقيت كلمة تقال عن « صلالة » فأغلب المفكرين العمانيين أو ربما كلهم لا يعدون « صلالة » في العواصم العمانية ، ومن المعروف أن جلالة السلطان سعيد بن تيمور أقام بها اثنتى عشر سنة إقامة متصلة ، ومنها كان يصدر تعليماته وتوجيهاته إلى وزرائه ورجاله بمسقط ، وإذا كان العرف قد جرى على اعتبار « الاسكندرية » مثلا عاصمة صيفية إذ يقيم بها الملك أو الرئيس شهرين في العام ، فإن من الممكن أن تعتبر صلالة أيضا عاصمة ثانوية بجوار مسقط .

أحداث تاريخية تتصل بنزوى :

وهناك أحداث تاريخية مهمة تتصل بالعاصمة نزوى ، ونحن نوردها فيما يلى :

أولا — احتلال فارسى قصير :

مرّت بعمان — كما أشرنا من قبل — فترات فوضى واضطرابات وبخاصة في عهد ملوك بنى نبهان وكان الفرس يتحسّون الفرص لمهاجمة عمان مستغلّين أى اضطراب أو أى مظهر من مظاهر الضعف ، ولذلك نجد أنه في سنة ٦٧٤ هـ في عهد الملك عمر بن نبهان هاجمت شيراز عمان ، وكان المهاجمون عددا من الفرسان الأتداء ، واستطاعوا أن يحتلوا نزوى ، وأن يسلبوا أموال الناس ، وحاصروا بهلاء ، ولكنهم لم يستطيعوا فتحها فارتدوا على أعقابهم بعد احتلال لنزوى دام أربعة شهور .

ثانياً — خضوع نزوى بسهولة لناصر بن مرشد :

عقب البيعة للإمام ناصر بن مرشد سار بالبلاد ليقضى على الفرقة التى كانت سائدة ، وسرعان ما رحبت به سمائل ، ثم سار إلى نزوى ومعه القاضى خميس بن سعيد ، وفى الطريق نصرته قوة من أهل أزكى ودانت له أزكى بالطاعة ، ثم سار إلى نزوى فالتقاه أهلها بالكرامة ودخلها فى حال من السلامة (١) .

ثالثاً — الإمامة فى عهد الأخير بنزوى :

كان الإباضيون يرون أن بعض سلاطين آل بوسعيد لم يتم اختيارهم بالطرق التى يوافق عليها المذهب الإباضى ، ومن هنا لا يعتبر هؤلاء أئمة فى نظرهم ، وقنع البوسعيديون المتأخرون بلقب « السيد » أو « السلطان » ولم يتمسكوا بلقب الإمام ، وعلى هذا اختفت الإمامة طيلة القرن التاسع عشر وقبله بقليل وبعده بقليل أيضاً ، وكانت ذلك تظهر أحياناً باهتة لا غناء فيها .

وفى سنة ١٩١٣ م بدأت حركة قوية لبعث الإمامة ، فاجتمع زعماء الإباضية ومعهم الشيخ نور الدين السالمى واختاروا راشد بن سالم الخروصى إماماً ، وقتل هذا سنة ١٩٢٠ فبويع محمد بن عبد الله الخليلى إماماً لعمان ، وقد ظل يشغل إمامة عمان فترة طويلة حتى سنة ١٩٥٤ وحاول خلال هذه المدة أن يجعل من عمان الداخلية دولة ثبته مستقلة عن مسقط ولكنه لم ينجح ، وعندما توفى سنة ١٩٥٤ اختير غالب بن على إماماً وحاول هذا أن ينهج نهج سلفه ، ولكن هذه الازدواجية وذلك التقسيم لم يكن فى مصلحة عمان ، ولذلك سار جيش من مسقط سنة ١٩٥٩ وقضى على هذه المحاولة تماماً ، واختفت بذلك الإمامة من نزوى إلى الأبد كما ذكرنا من قبل .

نزوى فى رأى العلامة سالم بن حمود :

فى ختام هذه الدراسة نذكر أن العلامة الشيخ سالم بن حمود يذكر نزوى بالكثير من التقدير والإجلال ، ولعله تلقى العلم فى معاهدها أو علّم فيها ، وعلى كل حال فالعلماء يجاثون معاهد العلم وملتقى الفكر ، ويسعدنا أن نقبس منه هنا بعض كلماته عن نزوى :

تعرضت عمان من الفرس وقراصنة الهند **** إلى هجمات متعددة ، فرأى المسلمون تحويل عاصمة الإمامة من صحار إلى نزوى ، ورأى ذوو الشأن أن نزوى أمنع لهم وأحصن لزعامتهم وأقرّ لسلطانهم ، فاتفق نظرهم إلى أن يكون الإمام بها ، ولا يخرج منها إلا لهم يبدو أو لداعٍ يستدعى .

وأصبحت نزوى كرسى الإمامة فى عمان ، وكان مقام الإمام فى الحصن ، وفى عهد الإمام غسان سُميت تخت ملك العرب ، كما سُميت بيضة الإسلام .

والخلاصة أن نزوى كانت عرش الإمامة فى عمان ، وقد استوطنها الأئمة والعلماء والقضاة ، وكم حوت تربتها من إمام وفقه وزاهد .
ويختتم العلامة الشاعر كلامه عن نزوى بقصيدة طويلة نقبس منها البيتين التاليين :

فإن تيامنكتُ الصوراءُ شاختُ
لها مع السحب أكنافُ وأحضانُ
فحط رحلك عنها إنها بلغت
نزوى وطافت بها للمجد أركانُ

تلك هي العواصم العمانية بما حفلت به من أمجاد وما عانته من
صعاب واستبداد ، وقد سعدت وأنا أعيش معها ، وكانت تنعكس على
نفسى أحوالها فأفرح عندما أدوّن انتصاراتها العسكرية والفكرية ،
وأحزن عندما أراها تعاني من صراعات داخلية أو عدوان خارجي *

حمى الله عمان ورعى سلطانها العظيم الذى شاهدنا بصماته فى كل
شبر من هذه الأرض الطيبة ، إنه طاقة من الخير والنور ، سطع على البلاد
فاستجابت له البلاد ، وخطت فى ظله أوسع خطوات فى طريق المجد
والسؤدد *

هل تعد عمان من دول الخليج ؟ أو لا تعد ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تتوقف على اعتبار خليج عمان جزءا من الخليج العربي ^(١) ، أو ليس جزءا منه ، فإذا كان خليج عمان جزءا من الخليج العربي كانت عمان إحدى دول الخليج ، وكان الحديث عنها ينبغي أن يكون ضمن الحديث عن دول هذا الخليج ، أما إذا كان خليج عمان ليس جزءا من الخليج العربي ، فإن عمان لا تكون إحدى دول الخليج ، وبالتالي يكون الحديث عن عمان مستقلا كالحديث عن السعودية واليمن وغيرهما •

وإذا ذهبنا نتعرف عما إذا كان خليج عمان جزءا من الخليج العربي أو ليس جزءا منه ، نحس أن هذه القضية ليست موضع اتفاق ، أو قل إنها لم تطرح للبحث والتفكير من قبل ، ولهذا تكرر مضطربة عند بعض الكتّاب ، فالدكتور جمال زكريا له كتاب عنوانه « الخليج العربي » وفيه يتحدث عن عمان ضمن دول الخليج ، وله كتاب آخر عن « دولة بوسعيد » وفيه لا يجعل عمان إحدى دول الخليج العربي إذ يذكر في صفحة ٦ أن حدود عمان هو الخليج العربي شمالا وبحر العرب جنوبا ، وخليج عمان شرقا ، وصحراء الربع الخالي غربا •

وهذا الاضطراب يتضح أيضا فيما كتبه الدكتور سيد نوفل فهو مرة يجعل خليج عمان جزءا من الخليج العربي ، إذ يقول عن جنوبى الجزيرة العربية وشرقيها ما يلى : إن جنوب الجزيرة العربية يبدأ من مضيق باب المندب ويستمر شرقا إلى عدن وحضر موت ، ثم يتجه شرقا فشمالا على بحر العرب ، فخليج عمان حيث عمان ومسقط ، ثم ندخل الخليج العربي من جانبه الغربى ^(٢) فهو بهذا يجعل ما بعد خليج عمان جزءا غربيا للخليج

(١) عن تسمية هذا الخليج سيجد القارئ دراسة شاملة فيما بعد عند الكلام عن الخليج ودوله •

(٢) الأوضاع السياسية لامارات الخليج العربى وجنوب الجزيرة ج١ ص ٤٠ •

العربي عادةً خليج عمان الجزء الشرقي لهذا الخليج ، ولكنه يعرّف في مكان آخر فيقرر أن خليج عمان ليس جزءاً من الخليج العربي ، وهاك كلماته (١) « إن بريطانيا استطاعت أن تسيطر باسم سلطان مسقط على مدخل الخليج العربي في مضيق هرمز » فهو بهذا يحدد مضيق هرمز ليكون مدخلاً للخليج العربي مما يجعل خليج عمان ، ليس جزءاً من الخليج العربي ، ويكرر المؤلف هذا الاتجاه في موضع آخر فيقول : إن مضيق هرمز هو باب الخليج العربي (٢) .

وإذا ذهبنا لغير هذين المؤلفين أحسنا أن الموضوع غير مطروح ، ولا مدروس ، وبالتالي تختلف الآراء حوله كلما ورد له ذكر ، وكانت المراجع القديمة يتبع بعضها بعضاً في عدّ خليج عمان جزءاً من الخليج العربي ، فالمسعودي وهو يتحدث عما أسماه بحر فارس جعل حدوده تمتد من البصرة حتى مسقط (٣) .

واتجه ياقوت هذا الاتجاه أيضاً ، فقد جعل الخليج الفارسي سبعة من بحر الهند (٤) ، ومعنى هذا أنه ابتداءً به من المحيط الهندي وجعله يشمل خليج عمان .

واتجه النويري (٥) هذا الاتجاه أيضاً ، فقد حدد خليج فارس وجعله يشمل مضيق هرمز وخليج عمان ، ويمتد إلى بلاد مهرة .

وتحدث ابن الوردی (٦) حديثاً واضحاً عن بحر عمان بقوله : هو شعبة من بحر فارس ، وهو بحر كثير العجائب فيه مغاص اللؤلؤ ، ويخرج منه الحب الجيد .

-
- (١) المرجع السابق ص ٦٦ .
 - (٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٨١ .
 - (٣) مروج الذهب ج ١ ص ٩١ - ٩١ .
 - (٤) معجم البلدان ج ١ ص ٣٤٣ .
 - (٥) نهاية الأرب في فنون الأدب : ج ١ ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .
 - (٦) جريدة العجائب ص ٦٤ .

وذكر ابن خلدون ^(١) ان عمان إقليم سلطاني منفرد يقع على بحر فارس •

ومن الباحثين المحدثين الذين قالوا بهذا الرأي الدكتور صلاح العقاد الذي خصص جزءا كبيرا للحديث عن عمان في كتابه عن « التيارات السياسية في الخليج العربي » •

وهناك لمحات أخرى تدعم هذا الاتجاه منها أن البلاد امتد لها الاحتلال الفارسي قبل الإسلام مع ما امتد له من دول الخليج ، وأن هذا الاحتلال ترك على المنطقة كلها بصمات متشابهة تربط بين نواحيها المختلفة •

ومن اللامحات كذلك أن الفرق الإسلامية التي عاشت بالخليج العربي امتد نشاطها إلى عمان ، وطبعت المنطقة كلها بطابع واحد تقريبا •

أما الاتجاه المضاد أي الذي يجعل خليج عمان ليس جزءا من الخليج العربي ، وبالتالي لا يجعل عمان جزءا من دول الخليج العربي فهو اتجاه له ثقاه فيما نرى ، فعمان يقع جزء كبير منها على بحر العرب ، والمحيط الهندي ، مما يبعتها عن أن تكون محصورة في نطاق هذا الخليج ، ثم ان عمان توصف في المؤلفات العمانية ، بأنها الطريق البحري بين الخليج والمحيط الهندي ^(٢) • وهي بذلك ليست من دول الخليج وقد ذكر Stephan and Handy Ronart ^(٣) حدود عمان فقرر أنها تمتد من ظفار إلى الشاطئ العماني الذي يطل على بحر العرب وعلى خليج عمان شاملا رأس مسندم حتى مطلع الخليج الفارسي ، وهو بهذا يوضح أن الخليج الفارسي يبدأ من ناحية خليج عمان ، وبهذا لا تكون عمان من دول الخليج الفارسي •

(١) العبر : ج٣ ص ١٩٧ •

(٢) سلطنة عمان ص ١٠ •

(٣) Concise Encyclopaedia of Arabic Civilization p. 379.

وقد ورد ذلك الاتجاه بوضوح في تعريف بوغاز هرمز ذلك التعريف الذى أورده « عليرضا مرزا محمد » ونصه : وبوغاز هرمز يوصل خليج العجم ببحر عمان (١) .

وعدّد رفاة الطهطاوى خلجان آسيا ، فذكر أنها عشرة ، وعدّ الخليج العربى واحدا منها ، وخليج عمان واحدا آخر (٢) .

وذكر ابراهيم رفعت باشا حدود الجزيرة العربية فقال : انها يحدها البحر الأحمر غربا ، والمحيط الهندى جنوبا ، وبحر عمان والخليج الفارسى شرقا (٣) .

بقيت كلمة تحسم الموضوع فيما أرى هي أن الساحل المهادن أو ساحل الصلح كان جزءا من عمان (٤) ، وهذا الجزء يقع على الخليج العربى ومن هنا فعمان قيل أن تفقد هذا الجزء كانت تقع على خليج عمان والخليج العربى جميعا ، وأهلّ الذين عدّوها من دول الخليج العربى لاحظوا وضعها القديم أيام كانت شاملة لدولة الإمارات . وفى أثناء التفتك الذى انتاب عمان وأخضعها إلى عدد من الطموحين والقبائل ظهرت هذه الإمارات وتلقفها الإنجليز عندما ظهوروا فى الخليج العربى فثبتوا إبعادها عن الوطن الأم ، وتكرّنت منها أخيرا دولة الإمارات العربية كما سنرى فيما بعد .

ومن هنا فإن عمان الحالية تقع على خليج عمان وليست من دول الخليج العربى ، ولهذا يجدر بنا أن نتدارسها مستقلة قبل أن نتدارس هذا الخليج ودوله .

(١) الخليج الفارسى عبر القرون والاعصار من ١٠٢ وانظر التحفة الأزهريّة لاسماعيل على ص ٤٥٩ .
(٢) التعريفات الشافية ص ٢٦ .
(٣) مرآة الحرمين ج ١ ص ١٤٣ .
(٤) دكتور سيد نوفل : الأوضاع السياسية ج ١ من ١٥٤ و ج ٢ ص ٣٧ — ٣٨ .

صورة عمان بصفة عامة

لو أردنا أن نرسم صورة بالقلم لعمان لقلنا إنها بلاد تكثر بها
المفارقات ، فهي قمم شاهقة تطل على وديان منحدره ، وهي صخور جرداء ،
بجوار سهول البساتين والبيارات ، وهي بحر زاهر من جانب ورمال مترامية
بلا نهاية من جانب آخر ، وشعبها تبعاً لذلك يشتغل بالرعى والزراعة كما
يعمل في صيد الأسماك ، ولكن بحر العرب وخليج عمان والموقع الاستراتيجي
قدّمت لشعب عمان مهنة أخرى هي السفارة التجارية ، فعمان تسيطر على
أقدم وأهم الطرق التجارية البحرية في العالم ، وهو الطريق البحري بين
الخليج والمحيط الهندي ، وقد استغل أهل عمان الموقع البحري أعظم
استغلال ، ودرسوا اتجاهات الرياح أعمق دراسة ، وراحوا بسفنهم
الشراعية تدفعهم الرياح الموسمية عبر بحر العرب إلى الهند ثم إلى ما
بعد الهند من أقطار ، وهناك كانوا يبيعون ما يحملون من سلع تحتاجها
هذه البلاد ، ويجمعون من منتجاتها ما يملئون به سفنهم ، وينتظرون حتى
موسم هبوب الرياح العاكسة التي تدفعهم في رحلة العودة إلى عمان ،
ومن عمان يبدعون رحلة جديدة داخل الخليج حتى حوض دجلة والفرات ...
وكان ذلك هو طابع الحياة لتلك البلاد في العصور القديمة والوسيطة .

ويقول المؤرخون الغربيون إن موقع عمان الجغرافي كفل لعمان أهمية
خاصة ، لأنها تحلّ مركزاً مهماً بالنسبة للطرق الموصلة إلى الهند وإفريقية
والبحر الأحمر ، كما أن الرياح الموسمية كانت خير وسيلة للعمانيين
ليزاولوا هذه التجارة بين هذه المناطق (١) .

اقتصاد عمان

وبمناسبة الحديث عن التجارة البحرية التي كانت عمان تقوم بها

Palgrave : Narrative of a year's journey through Central (١)
and Eastern Africa vol. I p. 255.

خلال قرون طويلة مضت ، نقرر أن هذه التجارة كانت وسيلة ربح وغير للعمانيين ، ليس فقط للذين يزاولون التجارة ، بل لعدد كبير غيرهم ، كالذين كانوا يعملون في بناء السفن ، ويقومون بشحنها- أو تفريغها وكأولئك الذين كانوا يحرسون المخازن التي تودع فيها البضائع إلى أن تجيء السفن . . .

وهكذا شهدت الموانئ العمانية حركة تجارية نشطة للغاية ، وكان نشاط العمانيين أبرز نشاط ملاحى في المحيط الهندي قبل أن تظهر السفن التجارية الكبيرة ، واستتبع هذا النشاط أن قام أبناء عمان بدور واسع في إنشاء عدد من المدن البحرية على امتداد شواطئ إفريقيا الشرقية ، كما اتخذوا مراكز لهم في المدن الساحلية التي كانوا يفدون لها على طول المحيط الهندي وحتى شواطئ الصين .

وتقرر المراجع العمانية أن عمان كانت في النصف الثاني من القرن الثامن عشر تملك أسطولاً من السفن يقدر بنحو خمس عشرة سفينة من الطراز الغربى المربع المهيكل ، وثلاث سفن كبيرة ، ونحو ٢٥٠ سفينة سراعية أغلبها من سفن الشحن الكبيرة الحجم والحمولة ، إلى جانب مائة سفينة أخرى تراول مختلف ألوان النشاط الملاحى ، وكانت السفن الكبيرة من هذا الأسطول التجارى تربط بين ميناء مسقط وميناء زنجبار من جانب ، وبين مسقط وكلكتا وجاكارتا من جانب آخر (١) .

ويتضح من التاريخ السابق أن النشاط التجارى العماني ضم إلى نفوذه كل المناطق التجارية التي كانت البرتغال تتصل بها ، فما إن أجلى العمانيون البرتغال عن بلادهم في النصف الأول من القرن السابع عشر حتى ورثوا معاقلهم ، وورثوا الخطوط البحرية التي كان البرتغاليون يزاولون فيها نشاطهم ، وفرضوا سيطرتهم على مضقى خليج عمان ، وامتد سلطانهم قويا عزيزا إلى ساحل إفريقيا الشرقية .

(١) عمان الماضى والمستقبل ص ١٩ - ٢٠ .

وهكذا كانت التجارة مصدر رزق وفير الأبناء عمان طيلة عدة قرون .

وبالإضافة إلى التجارة كانت الزراعة مصدرا مهما من مصادر الاقتصاد العماني ، بل إنها كانت المصدر الرئيسي الذي يعمل فيه حوالى ٨٠٪ من أهل البلاد ، وقد ساعد على نشاط الزراعة في عمان أن بها مساحات واسعة من الأراضي الخصبة ، كما أن بها بعض الواحات التي تكثر بها أنواع الفاكهة ، ويبرز في الحديث عن الزراعة بعمان منطقة الباطنة الساحلية ، ووادى سمايك حيث توجد المساحات الخصبة والماء الوفير ، وتنتج أرض عمان الحنطة والشعير والخضروات وقصب السكر ، كما تكثر بها فواكه المناطق الاستوائية كالمango والمانجو والبرمان والبرمان ، وينمو العنب في منطقة الجبل الأخضر ، وتكثر أشجار جوز الهند في مقاطعة ظفار ، كما تكثر أشجار النخيل في الواحات ، وهي تنتج أنواعا متعددة من التمر تصل إلى مائتى نوع .

ويتصل بالإنتاج الزراعى تربية الحيوانات وتتنوع هذه الحيوانات بتنوع المناطق في عمان ، فالقبايل في الصحراء تهتم بتربية أجود أنواع الجمال ، وتكثر الأغنام في مناطق الرعى الجبلية ، ويوجد البقر في مقاطعة الباطنة ، وتكثر الجياد العربية في مقاطعة عمان .

ومن مصادر الاقتصاد العماني الثروة السمكية ، إذ تمتد سواحل عمان مساحات طويلة على المحيط الهندي وخليج عمان ، ويقدر طول الشاطئ العماني بـ ١٥٠٠ كيلو متر ، وقد اتجه الأهالى منذ عهد طويل إلى اتخاذ صيد الأسماك حرفة مهمة يعتمدون عليها في الطعام والتجارة ، كما يقومون بتجفيف الأسماك أحيانا ثم سحقها لاستعمالها سمادا أو غذاء للحيوان ، وساعدهم على ذلك أن الساحل العماني من أغنى البحار من حيث كثافة الأسماك وتنوعها ، إذ يشمل سمك « التين » و « المارلين » وسمك « القرش » و « السردين » وغيرها من الأنواع ، ويستعمل صيادو

الأسماك القوارب والشباك وغيرها من الأنواع البدائية ثم المتطورة لتحقيق أهدافهم في صيد الأسماك .

ولعمان أطماع في أن تصبح الصناعة مصدرا من المصادر الاقتصادية بها ، وتدل البحوث على أن بأرض عمان مناجم للنحاس والفضة ، ومن الممكن أن تتحقق هذه الأطماع في المستقبل عندما تُجرى بعمان عمليات للتنقيب للبحث عن هذه الثروات .

على أن أكبر مصدر تعتمد عليه عمان في الوقت الحاضر هو البترول الذي انبثق في منتصف العقد السابع ، وبدأ تصديره سنة ١٩٦٧ ، ومع أن كمياته لا تزال قليلة نسبيا فهو قد فتح لعمان بابا واسعا من أبواب الخير يرجى أن يكون باب ثراء وبركة .

جولة تاريخية عن عمان

لمحة عن التاريخ القديم :

يتجه كثير من الباحثين إلى أن الحضارة البحرية الأولى ظهرت على مياه الخليج ، وأن هذه المنطقة جذبت لذلك جماعات الوافدين عبر البحر أو عبر الصحراء غزاة أو تجارا أو نازحين •

وبجانب الحضارة البحرية القديمة تدل الآثار على حضارة زراعية قديمة ارتبطت بمناطق الخصب والمياه في عمان ، وتدل عليها المقننات والسدود التي لا تزال آثارها واضحة للعيان •

وهناك مظاهر حضارية من الفخار ، ومن الأدوات الحجرية ، ومن نظام المرى ، والأسلحة ، تدل على أن عمان كانت جزءا من الحضارة التي شملت مع عمان منطقة بلاد فارس وامتدادها إلى أفغانستان وغرب الهند في القرن الثالث قبل الميلاد ، وأن الإسكندر المقدوني حينما استولى على مصر أدرك أن مقامه بها غير آمن ما دامت الفرس تسيطر على المنطقة البحرية بالخليج العربي وامتداده في المحيط الهندي إلى المدخل الجنوبي للبحر الأحمر ، وهذا هو الذي دفعه للزحف على امبراطورية فارس ، وامتدادها في أفغانستان وغرب الهند (الباكستان حاليا) •

وقد كان غزو الاسكندر لبلاد فارس وسيلة لتخليص منطقة الخليج ومنطقة عمان من الفرس فحصلت هذه المناطق على استقلالها في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد •

ولكن الفرس لم يقبلوا استقلال هذه المناطق عنهم ، فحاولوا من جديد فرض سلطانهم عليها ، بل حاولوا دفع جماعات من الفرس ليعيشوا بها ، ولكن العرب في هذه المناطق حرصوا على الاستقلال عن سلطان

الفرس ، ولم يقبلوا أن يعيش في بلادهم من الفرس إلا من يخضع لسلطانهم كما يعيش العرب على الشاطئ الشرقي تحت سلطان الفرس . وعلى هذا شهدت القرون الميلادية الأولى محاولات من الفرس للزحف ، وإصرارا من العرب لرد الزاحفين ، ولم ينته هذا الصراع إلا بمجيء الإسلام الذي استقرت في ظله عروبة هذه المناطق كما استقر استقلالها عن الفرس إلى حد بعيد (١) .

سكان عمان :

وبمناسبة الحديث عن عروبة عمان يجدر بنا أن نتحدث عن أصل العمانيين ، ويقرر التاريخ أن السواد الأعظم من أهل عمان يرتبط بهجرتين عربيتين كبيرتين ، أولاهما هجرة منذ زمن سحيق من قلب الجزيرة العربية إلى جبال عمان وشواطئها ، وقد وفد هؤلاء المهاجرون بسبب الجفاف في نجد وما حولها ، بحثا عن أرض خصبة ، أو بحثا عن الماء ولا يعرف بالضبط تاريخ هذه الموجة من المهاجرين ، ويغلب أن يكون هؤلاء قد وفدوا على عدة دفعات ، وينتسب هؤلاء إلى قبائل نزار ، ويعرفون بالنزاريين .

وأما الهجرة الثانية فقد وفدت من جنوب الجزيرة العربية ، أي من مناطق اليمن ، وارتبطت هذه الهجرة بانهيار سد مأرب سنة ١٢٠ ق م . وقد بدأت هذه الهجرة مع بدء الانهيار في القرن الثاني قبل الميلاد ، وظلت تتوالى كلما تعرض السد إلى مزيد من التصدع حتى كمل هذا التصدع في نهاية القرن السادس الميلادي ، وبهذا تكون الهجرات اليمنية إلى عمان قد استغرقت ثمانية قرون ، ويعرف هؤلاء الوافدون باليمنيين أو القحطانيين ، ويقال أن إحدى موجات اليمنيين كانت بقيادة

(١) Arian's History of Alexander's Expedition vol. I p. 108

وانظر الأوضاع السياسية لامارات الخليج العربى وجنوب الجزيرة
للدكتور سيد نوفل ج ١ ص ٤١ - ٤٢ .

نصر بن الأزد ، وأن موجة أخرى يمنية كانت بقيادة مالك بن فهم وهو أيضا من بني أزد •

ولا يزال سكان عمان حتى الآن ينتسب بعضهم إلى نزار ، وبعضهم إلى أزد ، أو بلغة أخرى يرتبط بعضهم بالشمال وبعضهم بالجنوب ، وهذا الانقسام عانى منه المجتمع العماني أحقابا طويلة ، وطالما هددت النزعة القبلية الاستقرار والسلام في المنطقة ، على أن النزعة الوطنية كانت تغلب على النزعة القبلية كلما هدد خطرٌ خارجي أرضَ عمان ، فحينئذ ينسى هؤلاء وأولئك مشكلاتهم القبلية ، ويتجمعون صفا واحدا للوقوف في وجه ذلك الخطر ، ولكنهم سرعان ما يعودون للصراع القبلي إذا تغلبوا على الخطر الخارجي ، وقضوا على الاعتداء الذي يهدد وطنهم •

وبالإضافة إلى عرب الشمال وعرب الجنوب الذين يكونون العنصر الرئيسي في عمان توجد هناك جماعات أخرى وفدت على عمان من خارج الجزيرة العربية ، واستقرت بها ، وأصبحت عمانية الجنس ، عربية اللسان ، تدين بالإسلام ، وبعض هؤلاء وفدوا من إفريقية إبان الارتباط الطويل الذي كان يربط زنجبار وساحل إفريقية الشرقي بعمان ، وأكثر هؤلاء يعيشون في مسقط ومطرح وغيرهما من المدن الساحلية ، وبعضهم وفدوا من شبه القارة الهندية عن طريق الارتباط التجاري الذي ربط شبه القارة الهندية بعمان قرونا طويلة ، وأكثر هؤلاء يعيشون في مطرح ، وبعضهم وفد من ساحل مكران في بلوخيستان (الباكستان الآن) وأصبحوا الآن جزءا من المجتمع العماني ، ويعيش أكثرهم في الظاهرة ، وبعضهم في المناطق الساحلية •

عمان الإسلامية

في عهد الرسول :

عندما جاء الإسلام كانت أكثر مناطق عمان تحت حكم أسرة الجَلَنْدِي الأَرْدِي ، وقد اشتهر من هذه الأسرة شخص عظيم هو « جيفر » وكان ينزل من قومه منزلة الملوك بين الرعية ، فبعث إليه الرسول عمرو بن العاص بن وائل السهمي في العام السابع للهجرة بكتاب يدعوه هو وقومه إلى الإسلام في نفس الوقت الذي كتب فيه الرسول بذلك إلى الملوك والرؤساء في الجزيرة العربية وخارجها ، وقد أورد أبو عبيد نص كتاب الرسول إلى ملك عمان مع ما أورد من نصوص لكتب الرسول إلى الملوك والرؤساء (١) ، ويذكر الخثعمي السهيلي أن من الملوك من أتبع محمد صلى الله عليه وسلم كملوك اليمن وملك عمان (٢) ، وقد أسلم مع ملك عمان وجوه العشائر وبقية الناس .

ولم يكتف جيفر بإسلامه ، وإنما أرسل من قبلكه رسلا تحمل دعوة الإسلام إلى مهرة وغيرها من المناطق المجاورة لعمان ، وقد استجاب أكثر العرب في هذه المناطق إلى الدعوة الجديدة ، ولكن الفرس الذين كانوا يقيمون بها رفضوا دعوة الإسلام ، فاجتمع الأرد إلى جيفر وقالوا له : لا يجاورنا العجم بعد هذا اليوم ، وأجمعوا على إخراجهم ، فدعا جيفر مرازمة الفرس وقال لهم : إما أن تدخلوا فيما دخل فيه الناس أو تخرجوا من أرض العرب ، فرفضوا الاستجابة لأي من هذين الاتجاهين مما سبب صراعا شديدا بين الجماعتين ، كان النصر فيه لأهل عمان ، واضطر المرازمة أن يطلبوا الصلح ، وتم الصلح على أن يخرج الفرس من عمان بأنفسهم وذرائعهم ، وعقب ذلك خلت عمان من الفرس الذين عادوا إلى بلادهم .

(١) الأموال لأبي عبيد ص ٢٠ - ٤٢ .

(٢) انظر الروض الأنف ج ١ ص ٢٥٠ .

وأقام عمرو بن العاص عاملا على عمان من قبيل الرسول فكان يجمع الصدقات ويوزعها ، ويعلم الناس مبادئ الإسلام ، ويقضى بينهم حسب تعاليم الدين الجديد ، وكان زعماء الأزد من بني الجلندی عوناً له في أداء مهمته ، وقد ظل كذلك حتى جاءت الأنبياء بوفاء الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فعاد عمرو إلى المدينة ومعه عبد الله بن الجلندی وبعض بني أزد ، وألقوا زمام الأمر إلى أبي بكر ليختار من يراه ليكون والياً على البلاد .

ويقرر المفكرون العمانيون أن الإسلام استطاع أن يوحد القوى انقبلية في عمان تحت لوائه ، فقد منحها شخصيتها الدينية كما أمدها بنظام سياسي وتشريعي أقامت عليه دعائم مجتمعا (١) .

عمان في عهد الخلفاء الراشدين :

يذكر السالمى (٢) أن أبا بكر استقبل عمرو بن العاص ووفد عمان بترحاب وتقدير ، وأن أبا بكر قال لهم : إنكم يا معشر أهل عمان أسلمتم طوعاً ، فجمع الله على الخير شملكم وبعث الرسول صلوات الله عليه لكم عمرو بن العاص بلا جيش ولا سلاح فأجبتهموه إذ دعاكم ، مع بُعد داركم ، وأطعتهموه إذ أمركم على كثرة عددكم ، فأقام فيكم عمرو مكرماً ما أقام ، وكنتم على خير حال حين أتتكم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأظهرتم ما يضاعف فضلكم ، وقمتم مقاماً حمدناكم فيه وأقر أبو بكر جيفر وأخاه عبداً على ملكهما ، وجعل على الصدقات حذيفة بن محسن .

وفي عهد عمر عيّن على صدقات عمان عثمان بن أبي العاص وهو الذي أغرى عمر أن يعبر الخليج إلى بلاد فارس ، وظل جيفر وأخوه « عبد » يقومان بعملهما إلى أن ماتا في عهد عثمان ، فتولى السلطان بعدهما عباد

(١) عمان بالالوان (انظر المقدمة) .

(٢) تحفة الأعيان : ج ١ ص ٤٧ ، ٤٨ .

بن عباد الجندى ، وأقره عثمان على ذلك ، وظل على حاله تلك طيلة عهد عثمان وعهد على كرم الله وجهه •

ولنعد إلى عهد أبى بكر الصديق لنذكر أنه حدث بعمان خلاله فتنة يختلف المؤرخون في سببها ومداه ، ومن المعروف أن حركات الردّة وادّعاء النبوة ومنع الزكاة ظهرت في مناطق مختلفة من الجزيرة في أخريات عهد الرسول ، ونشطت في عهد أبى بكر الصديق ، ويذكر ابن الأثير ^(١) أن إحدى هذه الحركات قامت بعمان بزعامة رجل اسمه ذو الناج (لقيط ابن مالك الأزدي) فقد ارتد هذا عن الإسلام ، ودعا الكثيرين إلى رأيه ، واتخذ من الزكاة وسيلة لإثارة الناس ضد مركز السلطة بالمدينة ، وكرر في هذا المقام التعبير الذى كان شائعا في هذه المناطق ، والذى قيل لعمر بن العاص وهو في طريقه من عمان إلى المدينة ، ونصه « إن العرب لا تطيب لكم نفسا بالاتاة ، فإن أعفيتهموهم من أخذ أموالهم فستستمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا تجتمع عليكم كلمة العرب » ^(٢) ، وبهذا استجاب الكثيرون من أهل عمان لهذا القائد ، وأرسل أبو بكر أحد جيوشه التى دكت الجزيرة العربية للقضاء على هذه الفتن ، وكان الجيش الذى أرسل إلى عمان بقيادة حذيفة بن محصن من حمير ، وأرسل أبو بكر إلى عكرمة ابن أبى جهل بعد أن اشترك في القضاء على مسيلمة الكذاب أن يلحق بحذيفة ، ودارت معركة هائلة ، انتصر فيها المسلمون انتصارا عظيما ، وتسمى هذه المعركة موقعة « دبا » وقد انضم للمسلمين فيها بنو ناجية بقيادة الخريب بن راشد ، وبنو عبد القيس بقيادة سيحان بن صوحان •

ولكن المؤرخ العمانى السالمى يهاجم ابن الأثير وروايته ، ويرى أن كلامه باطل لا أصل له ، ويقرر أن سبب هذه الواقعة أن امرأة من بنى الحارث بن مالك بن فهد كان عليها أن تدفع الزكاة لعامل الزكاة ، ولكنها

(١) الكامل في التاريخ : ج ٢ ص ١٤٣ •

(٢) انظر هذا الحديث أيضا في تاريخ خضر موت لحامد بن صالح

العلوى ج ١ ص ١٥٧ •

دفعت أقل مما كان يجب أن تقدمه ، فأخذ عامك الزكاة منها حق المسلمين غير مكترث برأيها ، فاعتبرت المرأة هذا غصبا وعدوانا ، وصرخت يا آل مالك ، وكانت دعوة جاهلية استجيب لها بعض الناس دون تمحيص وصارعهم حذيفة بن محصن الذي كان أمير الصدقات ، وقامت حرب ليست واسعة انتصر فيها الجانب الإسلامي ^(١) . وعلى هذا لم تكن بعمان حركة منع الزكاة وإنما هي حادثة فردية أزكاها الاتجاه القبلي الذي استجاب لنداء المرأة .

عمان في العهد الأموي :

إن الحديث عن عمان في العصر الأموي يحتاج إلى عودة للوراء لتتحدث عن الصراع الذي دار بين علي بن أبي طالب وبين معاوية ، ففي هذه الحرب نشأت فرقة « الخوارج » وقد تحدثنا عنها حديثا طويلا في الجزء الثاني من موسوعة التاريخ الإسلامي ، وشمل حديثنا عنهم مبادئهم وحركاتهم ^(٢) والمهم أنه في موقعة النهروان التي حدثت بين الإمام علي وبين الخوارج سنة ٣٨ هـ لم يكتف من الخوارج إلا عدد قليل لم يتجاوز العشرة ، وأن هؤلاء تفرقوا في البلاد ، واتجه أكثرهم إلى المناطق النائية ، فذهب اثنان منهم إلى عمان واثنان إلى كرمان ، واثنان إلى سجستان ، واثنان إلى الجزيرة ، وواحد إلى اليمن ^(٣) ، شهدت عمان نشاط الخوارج الذين وفدوا إليها ، فلما قتل على كرم الله وجهه بعد هذه الموقعة بحوالي سنتين ، وآل أمر الخلافة إلى بنى أمية أعلن الخوارج أن عداءهم الحقيقي هو لمعاوية ، وأصبحت عمان أهم مركز بالجزيرة العربية لهذا العداء ، وتجمع ضد الأمويين السكان الأصليون ، وعدد كبير من الخوارج الموالدين ، ووجد أهل عمان في ذلك فرصة لإعلان استقلالهم عن الحكم المركزي ، وهذا الاتجاه الاستقلالي واضح فيهم عبر التاريخ ، وساعدهم عليه مكان بلادهم النائي ، وانشغال الخلافة الأموية بكثير من

(١) تحفة الأعيان : ج ١ ص ٥٣ - ٥٤ .

(٢) ص ٢٢٩ - ٢٦٨ .

(٣) الشهرستاني : الملل والنحل القسم الأول ص ١٠٧ .

المشكلات ، كما ساعدتهم عليه أن المجتمع العماني مجتمع قبلي ، لا يقبل بسهولة سيطرة الخلافة النائية ، ثم ان طبيعة عمان الجغرافية تجعل الاتصال بها والتغلغل بداخلها أمرا عسيرا ، وعلى هذا فإن أية حركة انفصالية بعمان تجد أمامها فرصة معقولة للنجاح ^(١) وعلى هذا أصبح أمر عمان — كما يقول السالمى ^(٢) — بيد أهلها ، ولم يكن لمعاوية ، ولا لمن بعده سلطان في عمان حتى عهد عبد الملك .

وفي عهد عبد الملك تغيرت الأمور ، فقد أصبح الحجاج صاحب السلطة في أرض العراق ، ومن هنا تطلع إلى الخليج ، وبالتالي إلى أرض عمان ، ورأى أن سلطانه بالعراق لا يتم إلا إذا امتد سلطانه إلى الخليج العربى وخليج عمان ، ومن هنا قام صراع طويل بين أهل عمان وبين جيوش الحجاج ، وانتصر الحجاج في نهاية الأمر ، وفرَّ زعماء أسرة الجُستندى من وجه الحجاج إلى بلاد الزنج « زنجبار » وكانت لعمان صلة سابقة ببلاد الزنج ، فكنمت هذه الصلة ووضعت أساسا لصلة طالت وامتدت بعد ذلك بين عمان وساحل إفريقيا الشرقى ، واستعمل الحجاج على عمان الخيار بن صبر المجاشعى ، وعندما آل الأمر إلى الوليد بن عبد الملك عين هذا سيف الهمدانى واليا على عمان ، ثم عين سليمان ابن عبد الملك على عمان صالح بن عبد الرحمن اللبثى ، وبعده زياد بن المهلب بن أبى صفرة من أهل عمان .

واتجه عمر بن عبد العزيز وجهته الإسلامية ، فعين واليا صالحا هو عمر بن عبد الله الأئصارى ، فأحسن المسيرة بين الناس ، ومن أجل هذا ظلَّ مكروما محبوبا بين أهل عمان حتى وفاة الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز ، وحينئذ تنحى هذا الوالى عن الولاية ، وأعاد السلطة لزياد بن المهلب قائلا له : هذه البلاد بلاد قومك فشانك بها . وخرج عمر بن عبد الله من عمان ، وقام بالولاية زياد بن المهلب ^(٣) .

(١) سلطنة عمان ص ٣٣ بتصرف .

(٢) تحفة الأعيان ج ١ ص ٥٧ .

(٣) السالمى : تحفة الأعيان ج ١ ص ٥٩ .

عمان والمذهب الإباضي :

رأينا فيما سبق أن اثنين من زعماء الخوارج أخذوا طريقهما إلى عمان عقب موقعة النهروان ، وأن مذهب الخوارج بدأ ينتشر في هذه البلاد ، وزاد في تعميق جذوره أن السكان أخذوه وسيلة ليعلموا به رغبتهم في استقلالهم عن السلطات المركزية البعيدة التي تجبى الزكاة وتفرض الولاة ، ورأينا كذلك أن الاتجاه الاستقلالي نجح في خلال عهد الخلفاء الأمويين الأوائل ، فلما جاء عبد الملك بن مروان صارع الخوارج بالعراق ، وكان يقودهم نافع بن الأزرق وقطرى بن الفجاءة وعبد الله بن إياض ، وانتصر عبد الملك ، فهرب بعض من نجا من الخوارج عبر الخليج العربي إلى عمان ليكونوا بمنأى عن العراق ، ولكن جيوش الحجاج لحقت بهم في عمان كما ذكرنا من قبل * * .

وعاش الخوارج في عمان ، وكان أكثرهم من أتباع عبد الله بن إياض ، وكانوا يضررون ثورتهم حيناً ويعلمونها أحياناً ، حتى جاءت الدولة العباسية فاستعاد أهل عمان سلطانهم كاملاً منذ مطلع هذه الدولة * .

والذي نريد أن نقوله هنا أن تفاعلاً دقيقاً حدث في عمان بين الأمانى الوطنية ، وبين المذهب الإباضي ، وكان المذهب الإباضي في طبيعته أقرب مذاهب الخوارج إلى أهل السنة * وقد قام الإباضيون في عمان بدور واسع في الصراع العسكري ضد النشاط الأموي ، ومن هنا انمازجت الحركة الاستقلالية العمانية بالفكر الإباضي * وانبثق عن هذا الامتزاج فكر جديد هو الذي ساد عمان منذ ذلك التاريخ حتى العهد الحاضر ، ومن هنا حق لأهل عمان أن يكرهوا أن يُقال عنهم أنهم خوارج ، ومما جعلهم يكرهون أن يسموا خوارج أنهم لا يريدون أن يرتبطوا بجماعة خرجوا على الإمام على كرم الله وجهه ، ويفضلون أن يرتبطوا بعبد الله ابن إياض الذي خرج على عبد الملك بن مروان ، ثم إنهم من ناحية المذهب لم يشترطوا كما اشتط بعض الخوارج ، بل كانوا معتدلين جداً ،

واعتبروا أنفسهم ورثة للفكر الإسلامى الأصيل الذى جاء به القرآن الكريم .
رسنة الرسول ، وتبعه الخلفاء الراشدون من بعده . وقد شرح هذا الفكر
إفاضة المؤرخ العمانى أبو محمد عبد الله بن حميد السالمى ^(١) .

وجاء فى كتاب سلطنة عمان ^(٢) ما يلى عن الامتزاج بين المذهب
الإباضى والدم العمانى : كان المذهب الإباضى هو النبراس الذى أضاء
قلوب العمانيين ، ووحد بينهم فى كفاحهم لنيل استقلالهم ، وكان العمانيون
فى هذا الكفاح يستبسلون فى الدفاع عن عقيدتهم وتقاليدهم .

سالمى الإباضية فى عمان :

من أبرز التعاليم التى يعتنقها إباضية عمان أن لى مجتمع إسلامى
أن يختار إمامه من تتوافر فيهم القوة والعلم والعدالة والفضل والورع ،
ولا يشترط أن يكون من قريش ولا من العرب ، ومن الممكن أن يهيش
الإباضيون بدون إمام فترة من الزمن ، ومن الممكن أن تتعدد الأئمة بتعدد
الاجتمعات الإسلامية ، وعلى الإمام أن يستشير قوى الراى فيما يكلم من
أحداث ذات بال ، ومن الواضح أن هذه المبادئ كانت عميقة الاتصال
بالفكر الاستقلالى الذى اهتم به العمانيون .

ومن المبادئ الإباضية أن الله لا يثرى بالبصر ، وأن الثواب والمقاب
بديان ، والله يغفر الصغائر ، ولكن الكبائر لا تمحى إلا بالتوبة النصوح .

ومن المبادئ الإباضية أن القرآن والحديث هما مصدر الشريعة
الإسلامية ، ويقول الإباضيون بالراى لا بالقياس ، ويعتبرون أبا بكر وعمر
القدوة الطيبة بعد الرسول ، ويرون صحة مناقحة المخالفين من المسلمين
والتوارث معهم ، ويرون أن مخالفهم من أهل الإسلام دار توحيد ،

(١) تحفة الأعيان ج ١ ص ٦٠ - ٦٦ .

(٢) ص ٣٤ .

ويقبلون شهادة مخالفيهم ويقولون إن أفعال العباد مخلوقة لله إحدائاً وإبداعاً ، ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازاً ، ولا يسمون إمامهم أمير المؤمنين (١) وبسبب هذه المبادئ الإباضية السمحة كان مذهب الإباضية هو الوحيد بين مذاهب الخوارج الذي عاش حتى العهد الحاضر .

والإمام عند الإباضية ينتخب عن طريق مجلس صغير من الشيوخ هم « العلماء » ثم عليه أن يتقدم إلى الشعب للحصول على موافقته (٢) وفي هذا الجمع العام يبايع الشعب الإمام ، ويتعهد الإمام بصيانة كيان الجماعة والذود عنه ، ولم يكن التجاء الإمام للشعب لفئة للمجاملة ، بل كان لذلك نتائج مهمة ، فهناك حوادث مسجلة وثابتة رفض فيها الشعب الأشخاص الذين انتخبهم العلماء ، وكان الإمام المنتخب على هذا النحو يسمى « إمام بيعة » وولاء الشعب قابل للاسترداد إذا ظهر أن الإمام دون المستوى اللائق (٣) .

عمان في العصر العباسي :

لم تطل مدة ارتباط عمان بالخلافة العباسية ، بل كانت مدة قصيرة سرعان ما استقل أهل عمان بعدها بشؤونهم ، ويذكر الساملي أنه لما آل الأمر لبنى العباس وولّى السفاح أخاه أبا جعفر شئون العراق الجنوبي استعمل هذا على عمان جناح بن عباد بن قيس بن عمر الهنائي ، فقدم إلى عمان عاملاً عليها ، وهو صاحب المسجد المعروف بمسجد جناح بصحار ، ثم عزله المنصور وولّى ابنه محمد بن جناح ، وكان هذا سمحاً

(١) الملل والنحل : الشهرستاني - القسم الأول ص ٧١ و ١١٣ -
١١٤ ، والفرق بين الفرق للبغدادى ، والملل والنحل لابن حزم .
(٢) ذلك هو الاتجاه الاسلامى الذى وضعه كبار المفكرين المسلمين
(انظر كتاب الاموال لأبى عبيد ص ٤ ، والخلافة لرشيد رضا ص ١٢ ،
والاسلام والحضارة العربية لكرد على ، والسياسة فى التفكير الاسلامى
للدكتور أحمد شلبى ص ٤٩ - ٥٤ م) .
(٣) الساملى : تحفة الأعيان ج ١ ص ٦٠ - ٦٦ وسلطنة عمان
ص ٢٣ .

عاقلا أدرك رغبة العمانيين في أن يكون واليهم منهم ، وأن يكون لهم حق انتخابه بأنفسهم ، فوافقهم على ذلك ، فعقدوا الإمامة للجلندي بن مسعود بن جيفر بن جلندي ، وبدأت به الإمامة في عمان سنة ١٣٥ هـ ولكن أبا العباس السفاح أرسل جيشا بقيادة حازم بن خزيمة الخراساني للقضاء على هذه الحركة الاستقلالية ، وانتصر العباسيون وقتل إمام عمان في المعركة التي دارت برأس الخيمة ، وسرعان ما مات السفاح وانشغل المنصور بعمه عبد الله بن علي ، وترك عمان بدون وال أو إمام حتى سنة ١٤٥ حيث عادت الإمامة .

وقد حاول العباسيون استعادة السلطة على عمان ، حاول ذلك المنصور والرشييد والمعتضد ، ولكن هذه المحاولات لم تحقق نجاحا على الإطلاق أو لم تحقق نجاحا ذا بال^(١) .

(١) انظر تحفة الأعيان للسالمى ج ١ ص ٧٤ و ٨٩ و ٢٠٦ - ٢٠٨ .

عصور الحكم في عمان

عبر التاريخ الإسلامي

١ — الأئمة الإباضية : ١٣٥ هـ (٧٥٢ م) حتى القرن الخامس عشر الميلادي ،
مع تسلسل حيناً ، وانقطاع حيناً آخر ، ومع ظهور آل
نبهان الذين كوّنوا لهم ملكاً عدة قرون ، ومع قيام
أسر ملكية قصيرة العمر ، وحدث تمزق وتشتت
في بعض الأحيان مما مهد لاحتلال البرتغاليين
لعمان سنة ٩١٤ هـ = ١٥٠٧ م .

وتشمل هذه الفترة ما يسمى « العصور المظلمة » في
عمان ، تلك التي بدأت بقتل الإمام عزان بن تميم
سنة ٢٨٠ هـ واستمرت حوالي ستة قرون .

٢ — عصر الاحتلال البرتغالي : من ٩١٣ = ١٥٠٧ م إلى سنة ١٠٣٤ =
١٦٢٤ م .

٣ — الأئمة من بني يعرب ، ١٠٣٤ — ١١٥٤ هـ (٦٢٤ — ١٧٤١ م) مبتدئين
بالإمام ناصر بن مرشد الذي خلّص البلاد من حكم
البرتغاليين ، وفي آخر حكم اليعاربة خضعت البلاد
لنفوذ الفرس .

٤ — البوسعيديون : ١١٥٤ هـ (١٧٤١ م) حتى العهد الحاضر ، وهؤلاء
هم الذين خلصوا البلاد من نفوذ الفرس .
: يلاحظ أن الإمامة في أكثر العهدين الأخيرين أصبحت بالوراثة ،
أو قل أن الحكم أصبح بالوراثة بدل الانتخاب .

وكانت الإمامة بالانتخاب هي القاعدة الإباضية التي سار عليها
الحكم في عمان ، وقد بلغ الأئمة المنتخبون ٣٤ إماماً ، أولهم الجلندي
ابن مسعود سالف الذكر ، ولكن نظام الإمامة تهيول من الانتخاب إلى

نظام الملكية الموروثة ثلاث مرات ، وذلك في عهد بنى نبهان واليسارية
والبوهميين (١) .

ومع التعرف على عصور الحكم بعمان النى أوردناها آنفا ، فإن
المصادر العمانية تبرز أن فترة غامضة طويلة مرت ببلادهم ، وإن عصورا
حالة شملت تاريخ عمان عدة قرون ، وسنقتبس فيما يلى سطورا عن هذا
الغموض الذى لف البلاد وأخفى أهم معالم تاريخها :

١ — فى الجبل الأخضر توجد طريق غير معبدة تقع عليها بلدتان
سغيرتان هما سمد والمضيبي ، وللاولى مكانة تاريخية مهمة ، لأنها كانت
مكان معركة جرت فى منتصف شهر أبريل سنة ٨٩٣ م (٢٨٠ هـ) وقتل
فيها الإمام عزان بن تميم الخروصى ، وكان ذلك يوما كالحا أسود فى
تاريخ عمان ، إذ كان بمثابة علامة لنهاية حقبة من السلام ، وبداية فترة
من الحرب الأهلية أدت إلى الدخول فى « العصور المظلمة » فى تاريخ
البلاد .

ولسنا نجد اليوم فى التاريخ سجلا لما جرى فى عمان بين القرن
العاشر والسادس عشر بعد الميلاد ، فقد ضاع ذلك كله ، وتلك هى الحقبة
التي تعرف بالعصر المظلم (٢) .

٢ — بعد أن ازدهرت عمان فى رحاب الإسلام عاد الغموض يخيّم على
تاريخها فيما بين القرن العاشر والسادس عشر الميلاديين ، ولم تعد عمان
للأصواء إلا عندما وصلت الدول الاستعمارية إلى المحيط الهندى باحثّة عن
طريق تجارى بديل لذلك الذى سيطر عليه العثمانيون باستيلائهم على
القسطنطينية سنة ١٤٥٣ (٣) .

٣ — ومن القرن العاشر راحت عمان تغط فى نوم عميق ، حتى جاء

(١) دكتور أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ج ١
ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(٢) سلطنة عمان ص ٢٣ .

(٣) عمان بالألوان (انظر المقدمة) .

التجار البرتغاليون ومن بعدهم الإنجليز والهولنديون والفرنسيون يطرقون أبواب سواحلها • • • •

ومع هذا الغموض فإننا سنحاول أن نعطي لمحة تاريخية ما وسعنا السبل عن عصور الحكم في عمان بما في ذلك تلك العصور المظلمة •

الأئمة الإباضية

وأول من يواجهنا من حكام عمان عقب الحركة الاستقلالية التي بدأت مع مطلع العصر العباسي الأئمة الإباضية ، وكان هؤلاء ينتخبون بواسطة أهل العلم على أن يوافق الجمهور على الاختيار ، كما ذكرنا من قبل ، ولم يكن هناك توارث ، وكان الإمام يعزل أحيانا ، والأئمة الإباضية الأوئل هم :

جلندى بن مسعود بن جيفر بن جلندى الأردى من ١٣٥ هـ
قتل بعد سنتين تقريبا من حكمه ، وكان مصرعه في حربه ضد الجيش العباسي •

ومرت عقب ذلك بعمان فترة شغور وفوضى •

محمد بن عفان الأردى ١٤٥ هـ

الوارث بن كعب اليمحدي ١٨٥ هـ

غسان بن عبد الله ١٩٢ هـ

عبد الملك بن حميد الأردى ٢٠٨ هـ

مهنا بن جعفر اليمحدي ٢٢٦ هـ

الصلت بن مالك الأردى ٢٣٧ هـ

راشد بن نصر (أو النظر) ٢٧٣ هـ

عزان بن تميم (٢٧٧ هـ قبل سنة ٢٨٠ هـ)

محمد بن الحسن ٢٨٤ هـ

عزان بن خضر ٢٨٥ هـ

عبد الله بن محمد ٢٨٦ هـ

الصلت بن القاسم ٢٨٧ هـ

٢٨٧ هـ

محمد بن الحسن (للمرة الثانية)

٢٨٧ هـ

الحسن بن سعد (١)

ونقف عند هذا الإمام دون أن نتبع سياسة زامباور الذي راج يسرد بعد ذلك عددا من الأئمة دون أن يحدد تاريخا لتعيين أكثرهم ، أو يذكر نهاية حكمهم أو مداه بسبب الدخول في عصر الظلام الذي أشرنا له مسن قبل ، والذي لم تعد تتبين فيه الحقائق .

وسنعود للحديث عن هذا العصر المظلم فيما بعد ، ولكن ينبغي قبل ذلك أن نقف هنا وقفة نتحدث فيها عن أهم الأحداث التي تتصل بقائمة الأئمة الذين أوردنا ذكرهم آنفا .

وأول ما نذكره متصلا بعهد هؤلاء الأئمة أن اختيار الإمام لم يكن يتم بالاجماع ، إذ كانت هناك جهات نظر متعددة ، وهذا كان يفتح الباب من حين لآخر لخلافه قد يتسع مداه ، ويكثر أن يتصدى الإمام المنتخب لمن كانوا يعارضون انتخابه ، أو أن يظل هؤلاء المعارضون على موقفهم دون أن يلتفتوا حول الإمام بعد انتخابه ، ومن هنا جاز لنا أن نقول إن الإمام لم يكن إماما للجميع كما تقتضي بذلك تقاليد العصر الحاضر التي تجعل الرئيس رئيسا لكل ، من انتخابه ومن انتخب خصمه ، ويورد السامى صورا من الصراع الذى حصل بين إمام منتخب وبين من عارضوا انتخابه ، كما يورد صورا من الثورات التي كانت تشتعل لو سقط الإمام في صراعه مع معارضيه (٢) .

ثم إن كثيرين من الأئمة لم يكونوا محمودى السيرة ، وينسب المؤرخون لهؤلاء صفات غير طيبة ، فيقولون مثلا عن محمد بن عفان إنه أساء

(١) زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامى ج ١ ص ١٩١ .
(٢) تحفة الاعيان ج ١ ص ٨١ ، وانظر كذلك ص ٨٣ .

السيرة ، وبدل غير فعزله المسلمون حين لم يرضوا سيرته ولا مذهبه ، ويقرلون عن عزان بن تميم إنه لم تحمد سيرته ، وإن التنازع قد كثر بين أهل الديار في عهده حتى انفض الناس عنه ، واختلفوا حول صحة إمامته ، وكانوا يقولون عنه إن عقده مشكلة (١) .

وحدثت أحداث خطيرة في عهد الصلت بن مالك ، ففي سنة ٣٥١ هـ نزل أمر عجيب في بدبد والباطنة وسمائل وصحار ، إذ حل بهم دوى وظلمة ، ثم انسكبت الأمطار ، واقتحمتهم السيول فهدمت المنازل وغرقت المزارع وأصبح القوم في ليلة واحدة أصواتهم خامدة ومنازلهم هامدة (٢) .

ويذكر المؤرخون عن راشد بن النظر أن عهده كان حافلا بالظلم ، فيعرف عنه أنه حبس الكثيرين من مخالفيه ، وأنزل بهم الضر وهم في سجونهم ، وكان كلما سمع عن جماعة يخالفونه في الرأي أوقع بهم ، وقد عرّف عهده ما نعرفه الآن بالسل (٣) .

وعلى هذا يمكننا أن نقول إن الأحداث التي جرت في عهد هؤلاء الأئمة ، والخراب والدمار الذي عرفته البلاد في عهدهم ، كل هذا كان من الأسباب التي مهدت للاضطراب والفوضى في العهد التالي .

العصور المظلمة

بدأت العصور المظلمة في عمان من نهاية القرن الهجري الثالث وامتدت إلى القرن العاشر (أي من القرن العاشر الميلادي إلى القرن السادس عشر) وتلك الفترة تعد محورا جديرا بأن ندير حوله دراسة دقيقة توضح لنا أسباب الظلام الحالك الذي أحاط بها ، ومداه ، ونتائجه ، لعلمنا بذلك نملا فراغا تركه كثير من المؤرخين الذين كانوا يتخطون هذه

(١) تحفة الاعيان : ص ٨٤ ، ١٩٤ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٢٥ .

(٣) المرجع السابق : ص ١٧٤ .

المقرّون باعتبار أنها عصور مظلمة لا يشرف تاريخها ، وفيما يلي دراسة عن أحداث هذه العصور التي قادت إلى الظلام ، وقضت على صوت عمان وحضارته حيناً طويلاً من الزمان •

أولاً : لعل من أهم أسباب العصور المظلمة ، تلك الفترة السابقة التي تحدثنا عنها ، والتي خلفت دماراً أحدثته الطبيعة أو أحدثته الخلافات التي طال مداها بعمان خلال أكثر عهود الأئمة ، ومن الواضح أن الدمار العسكري يترك أثره على الاقتصاد ، لأن الاقتصاد لا يستطيع أن يعيش إلا في جو من الأمن والطمأنينة ، وإذا اضطرب الاقتصاد توقفت الزراعة وانكسحت التجارة أو اختفت ، فإن الفوضى يتسع مداها ، والاضطراب يتعمق أثره ، وعلى هذا فقد كان طبيعياً أن يبدأ عصر مظلم بعد عصور الاضطراب التي أسلفنا الحديث عنها •

ثانياً : شهدت العقود الأخيرة في القرن الثالث صراعا مريرا بين المجموعتين الكبيرتين اللتين تكونان المجتمع العماني ، وهما النزارية واليمينية ، وقد وصل هذا الصراع قمته في موقعة « القاع » التي حدثت في شوال سنة ٢٧٨ هـ وانهزمت فيها النزارية هزيمة لم يرَ أقبح منها كما يقول السالمى (١) وأسر منهم خلق كثير وقتل منهم في المعركة ستمائة رجل بعضهم من القادة العظماء ، وقتل من اليمينية خمس وثمانون ، وقد فتحت هذه المعركة الباب لصراع طويل سنشير له فيما بعد •

ثالثاً : شهدت منطقة جنوب العراق ومنطقة الخليج صراعا فكريا مريرا طوال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، وقد بدأ ذلك بثورة الزنج (٢٥٤ — ٢٧٠ هـ) وما إن انتهت هذه الثورة بعد جهد كبير وتضحيات واسعة حتى هبت ثورة القرامطة في نفس المنطقة ، وصاح أبو سعيد الجنابي (توفي سنة ٢٨٦ هـ) صيحته المدمرة التي استلزمت جهدا كبيرا من العباسيين لإيقاف نشاطها ، وقد اهتم الخليفة العباسي المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) بمواجهته ، فاختر العباس العنوي أحد قادته الأشداء ،

(١) تحفة الاعيان ص ٢٠٢ •

وأمره بحرب القرامطة في البحر والمهم هنا أن نشاط الزنج والقرامطة قد امتد من البحرين إلى عمان ، فأحدث في عمان مزيدا من الغموض والاضطراب .

رابعا : قام المعتضد العباسي بحركة مهمة من حركات العباسيين لاسترداد سلطانهم على عمان ، وقد ارتبطت حركة المعتضد بالصراع الداخلي الذي حدث في عمان بين النزارية واليمينية ، فإن النزارية عقب هزيمتهم في موقعة (القاع) توجه بعض زعمائهم إلى الخليج وقابلوا محمد بن بور عامل المعتضد ، وطلبوا منه الزحف على عمان ووعدوه بالتأييد ، وقد استأذن محمد بن بور الخليفة في ذلك فأذن له ، فسار في جيش كبير سنة ٢٨٠ وحارب عزان بن تميم وقتله ، وهزم جنده ، ثم هب أهل عمان ضده في معركة شرسة كان له النصر في نهايتها ، فأوقع بأهل عمان وأذلّهم (١) .

خامسا — كان من عمال المعتضد على عمان محمد بن القاسم السلمي . وقد استطاع هذا أن يكون له دولة في عمان توارثها أبناؤه من بعده ، ومن ملوكهم أحمد بن الخليل (٣٠٠ هـ) وعبد الخاتم بن ابراهيم (٣١٦ هـ) (٢) .

سادسا : قامت في بعض مناطق عمان أسرة حاكمة أخرى هي أسرة (بنى وجيه) وقد قويت شوكتها حتى تطلع ملوكها إلى السيطرة على البصرة ضد البريدي ، ولكن هذه المحاولة قد فشلت (٣) وملوك بنى وجيه هم كما جاء في رواية زامبور (٤) :

حتى سنة ٣٣٢

يوسف بن وجيه

٣٣٣

نافع (غلام يوسف)

-
- (١) انظر السلمي ج ١ ص ٢٠٩ .
 (٢) زامبور : معجم الانساب — ج ١ ص ١٩٤ .
 (٣) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٨ ص ١٣٠ (حوادث سنة ٢٣١) .
 (٤) زامبور : المرجع السابق ص ١٩٣ .

محمد بن يوسف

حتى سنة ٣٤٠

سابعاً : في سنة ٣٦٣ هـ حدثت بعمان أحداث مؤلة يرويها ابن الأثير (١) بقوله : في هذه السنة استولى المطهر بن محمد وزير عضد الدولة على عمان ، وكان يتولى أمرها عمر بن نبهان الطائي ، ولكن الزنج غلبت على البلد ، وقتلوا ابن نبهان ، فأرسل عضد الدولة جيشاً كبيراً قتل ودمر ، واستطاع أن يستعيد النفوذ على البلاد بعد سيل من الدماء ، ودمار في البيوت والمزارع ، وكان أهل عمان يتبعون إماماً من أئمة الإباضية كان يقودهم في هذه المعارك .

ثامناً : وفي وسط هذا الصراع عرفت عمان سلطتين متعارضتين ، فكثيراً ما وجد بعمان سلطان أو ملك في منطقة ، وإمام في منطقة أخرى ، ويتحدث السالمي عن يوسف بن وجيه الذي كان قد ملك ناحية من عمان ، وكان معاصراً للإمام سعيد بن عبد الله (٢) ، وعن محمد بن مالك الذي كان ملكاً بعمان في عهد الإمام بن أبي المعالي (٣) ، ويتحدث السالمي عن صراع مستمر بين الأئمة والملوك .

ملوك آل نبهان

ظهر ملوك آل نبهان ولايةً للبويعيين في عمان في القرن الهجري الرابع كما ذكرنا من قبل ، وساعت حالة عمان من جراء الأحداث التي ذكرناها آنفاً ، وأكتملت الفوضى والخراب من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) فاستبد آل نبهان بالنفوذ في أكثر ربوع عمان ، ولكنه في الحق كان نفوذاً على الدمار والخراب ، فقد استبد بنو نبهان بما تبقى في البلاد من خيرة وتركوا الأهالي للضياع ، ويقول السالمي (٤) إن الملك انتقل إلى آل نبهان وذلك لما أراد الله إنفاذ أمره في أهل عمان لأنهم افترقوا فرقتين ، وصاروا

(١) الكامل في التاريخ ج ٨ ص ٢١٣ - ٢١٤ .

(٢) تحفة الاعيان ج ١ ص ٢٣١ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٧٧ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٨٦ .

طائفتين ، فنزع الله دولتهم من أيديهم ، وسلط عليهم قوما من أنفسهم يسومونهم بسوء العذاب ، وكانت دولتهم مبنية على الاستبداد بالأمر ، وقهر الناس ، ولم نجد لدولتهم تاريخا ولا للملوكهم ذكرا

وعلى هذا فإننا نريد أن نقرر أن بنى نبهان ليسوا وحدهم المسئولين عن عصر الظلام كما يظن أكثر من كتبوا عن تاريخ عمان ، وإنما المسئول هو العوامل المتعددة التي ذكرناها فيما سبق ، فعصر الظلام هو نتيجة طبيعية للخلافات في عهد الأئمة الأول ، وللصراع الداخلي ، ولوجود الزنج والقرامطة ، ولهجمات العباسيين ، ولولاتهم الذين كثيرا ما استقلوا بعمان لبعدهم عن مركز الخلافة ، وكان من النتائج الطبيعية لذلك أن خربت البلاد وشملها ظلام دامس .

وأهم ملوك بنى نبهان هم أبو عبد الله محمد بن عمر بن نبهان واخوته والحسين أحمد ، وأبو محمد نبهان ، وأبو عمر معمر ، ثم أبو القاسم علي بن عمر بن محمد بن عمر بن نبهان ، وأبو الحسن ذهل ابن عمر وقد ذكر زامبائر (١) ملوكا آخرين مثل الفلاح بن المحسن النبهاني ، وعرار بن الفلاح ، والمظفر بن سليمان ، ومخزوم بن الفلاح .

وقد ظلت حركة بنى نبهان حتى القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) حيث عاد معظم النشاط إلى الأئمة من جديد .

الأئمة خلال عهد آل نبهان وبعدهم

لم تنقطع محاولات انتخابات الأئمة بعمان بعد الحسن بن سعيد (٢٨٧) فحتى في أحلك العصور خلال حكم آل نبهان ظهر بعض الأئمة الاباضية ، ولكن سلسلتهم لم تكن منتظمة ، ولم تكن تواريخهم محددة ، وأحيانا تعدد الأئمة في وقت واحد ، وأحيانا خلت البلاد من وجود الأئمة

(١) معجم الانساب ج ١ ص ١٩٤ ، وانظر كذلك تاريخ الدول الإسلامية لأحمد السعيد ج ١ ص ٢٣١ .

سما ، وفي بعض الأحيان ظهرت فترات يقظة ووحدة لبعض الأئمة ، ومن الأئمة الجديرين بالذكر بعد الحسن بن سعيد نذكر :

٢٩٣ هـ	الحواري بن مطرف
٣٠٠ هـ	عمر بن محمد بن مطرف
٣٣٥ هـ	سعيد بن عبد الله بن محمد بن محبوب
٣٣٨ هـ	راشد بن الوليد
٤٠٠ هـ	الخليل بن شاذان بن الصلت بن مالك
٤٤٥ هـ	حفص بن راشد
٤٤٥ هـ	راشد بن علي
٥٤٩ هـ	موسى بن موسى

ومن الواضح أن هناك فترات خلت من الأئمة في عهد بني نبهان ، ولكن عندما زالت دولة آل نبهان بدأ الأئمة يظهرون من جديد ، في سلسلة متصلة تقريبا ، وقد أوردنا زامباور كالاتي :

٨٣٩ هـ	أبو الحسن عبد الله بن خامس بن عامر الأزدي
	عمر بن الخطاب بن محمد بن أحمد بن شاذان بن الصلت اليمحمدي
٨٥٥ هـ	
٨٩٦ هـ	عمر الشريف
٨٩٧ هـ	أحمد بن محمد
٩٠٥ هـ	أبو الحسن بن عبد السلام
٩٠٦ هـ	محمد بن اسماعيل
٩٣٦ هـ	بركات بن محمد بن اسماعيل
٩٦٧ هـ	عبد الله بن الهنائي
٩٦٨ (١) هـ	

وكما ان الأئمة اقتحموا على بنى نبهان حياتهم ولم يسمحوا لهم بالتفرد بالسلطة ، فإن بنى نبهان اقتحموا على الأئمة الذين ظهروا بعد بنى نبهان حياتهم ، وأرادوا سلب السلطة منهم ، فقد خرج سليمان بن سليمان النبهاني على عمر بن الخطاب ، وحاربه سنة ٨٨٥ ، وتم النصر للإمام بعد جهد جهيد ، وفي سنة ٩٦٤ ظهر ملوك بنى نبهان المتأخرون في نزوى وأصبح لهم جاء وسلطان *

وقد نشأ عن هذا الصراع تمزق شمل البلاد وقطع أوصالها ، فقبل قيام اليعاربة كان بعمان خمسة من صغار الملوك يحكمون في الرستاق والنخل وسمائل وسمد وأبرا كما كانت بعض الحصون والمدن في قبضة عدد من رؤساء القبائل بالإضافة إلى الاستعمار الخارجي الذي بدأ يجثم على البلاد ، وسنتحدث عنه بعد قليل *

بقي أن نقول عن بنى نبهان كلمة تصور مظالمهم وقسوتهم على الرعية ، ويسمهم السالمى بالجبابرة دائما ، ويصف خردلة بن سماعة أحد ملوك بنى نبهان بقوله : إنه كان يأخذ أموال رعيته ظلما ، ويأكل أموال المساجد والمدارس والمقابر ، ويأخذ نصف مهر المرأة من العاجل إذا تزوجت ، وإذا طلقت خاسم للرجل ، وكان يأخذ نصف الحب والتمر ، ويكلف الناس العنت ، ويأخذ نصف حق المدعى ، ويختتم السالمى كلامه عنه بقوله : لقد ابتليت به البلاد لتغير أهل عمان في الله (١) *

ويقول المؤلف العماني سالم بن الرزيق عن بنى نبهان : لم يكن بين حكم بنى نبهان إمام أو ملك واحد يرضى عنه الرحمن الرحيم ، بل كان الأمر على العكس ، فكلهم ظالم طاغية ، مما أدى إلى سقوطهم ، فلما شاء تعالى أن ينزل رحمته على أهل عمان مما أصابهم ، ولما شاء أن يضمد جراحهم ويشملهم بعدله ورعايته ، أرسل عليهم شعاعا من نوره خلصهم ، وبدد عنهم سحب الظلم والطغيان *

عمان هدف لعدوان خارجي

أسفرت هذه الفوضى ، وهذا التمزق بعمان عن استهانة الأعداء بها ، فأصبحت هدفا لعدوانين من الخارج ، وكان أولهما من بلاد فارس سنة ٦٧٤ هـ في عهد الملك عمر بن نبهان ، فقد هاجم أهل شيراز عمان وكانوا عددا من الفرسان الأشداء واستطاعوا أن يحتلوا نزوى وأن يسلبوا أموال الناس ، وحاصروا بهلى ولكنهم لم يستطيعوا فتحها فارتدوا على أعقابهم بعد احتلال دام أربعة شهور *

أما الاحتلال الثاني فكان احتلالا أوربيا قامت به البرتغال في مطلع القرن السادس عشر الميلادي ، ففي القرن الخامس عشر استطاع الرحالة البرتغاليون ، أن يجدوا طريقا إلى الهند بالدوران حول إفريقيا وبدون المرور في البحر المتوسط والبحر الأحمر كما ذكرنا من قبل ، ويعرفت الطريق الجديد بطريق رأس الرجاء الصالح ، وقد اشترك عدد من البحارة البرتغاليين في المحاولة التي أدت لهذا الكشف ، وكان النجاح النهائي على يد فسكودي جاما الذي بدأ رحلته سنة ١٤٩٦ (١) *

وبفتح هذا الطريق بدأ الاستعمار الأوربي للشرق في العصر الحديث ، وتحولت تجارة الشرق من الطرق البرية — البحرية إلى هذا الطريق البحري المتصل *

وبفتح هذا الطريق اتصل البرتغاليين بالهند وبالشرق الأقصى ، وأخذوا يبنون لأنفسهم ملكا واسعا على يد مستعمرين معروفين ، وقواد ذوى خطر من أمثال (كيرو) (البوكرك) (Alfonso de Albuquerque) وأصبح المحيط الهندي والهادي تحت سلطانهم وكانت تلك البحار مقصورة على ملاحى المسلمين من عرب وفارس (٢) *

(١) انظر موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية للمؤلف ج ٥ ص ٢١٣ .
(٢) حسين مؤنس : الشرق الاسلامي في العصر الحديث ص ٤٣ .

وحاول البرتغاليون أن يقيموا مراكز للتموين والحراسة على طول الطريق ، فاتجهوا بوجه خاص إلى عمان التي كانت مركزا تجاريا مهما ، وكانت في الوقت نفسه تصلح لحماية الخط البرتغالي إلى أبعد حد ، ومن هنا اتجه البرتغاليون إلى عمان ، فاحتلوا صور وقريات ثم مسقط وصحار سنة ١٥٠٧ ، وكان البوكرك هو قائد الجيش البرتغالي الذي أسقط مدينة مسقط ، وسرعان ما اتجه هذا القائد إلى تدمير سفن مسقط ومبانيها (١) . واتجه المستعمر لإقامة القواعد والقلاع هنا وهناك ليدعم مركزه ويقوى سيطرته على تلك المنطقة الاستراتيجية ذات الموقع الملائم الممتاز (٢) .

واستولى البرتغاليون كذلك على بعض الموانئ بشرقي إفريقية لتكون محطات لسفنهم في الذهاب إلى الهند والعودة منها .

وحاول البرتغاليون الاستيلاء على الطريق البحرية البرية القديمة لتصبح جميع المنافذ التجارية في أيديهم ، فاستولوا على خليج عمان وعلى جزيرة هرمز مدخل الخليج العربي سنة ١٥٠٧ ، ودمروا مدينة عدن وعقدوا محالفة مع الأحباش ضد مصر ، وكان من أساليبهم لضرب مصر أن يحاولوا تحويل مجرى النيل ، وعلى كل فقد كان صراعا صليبيا مريرا قادته آنذاك البرتغال ضد عدد من المواقع الإسلامية (٣) .

ولنعد للطريق الملاحى الجديد لنقرر أن الممالك لم يستطيعوا أن يتغلبوا على البرتغاليين وأن يعيدوا الأوروبيين إلى الطريق التقليدى القديم ، ولا استطاع ذلك السلطان سليم بعد فتح مصر (٤) . وكانت

(١) محمد صبيح : مواقف حاسمة في تاريخ القومية العربية ص ٤٦٧ .

(٢) Stephan and Handy Ronart : Arabic Civilization p. 396.

(٣) شكيب أرسلان : حاضر العالم الاسلامى ج ٤ .

(٤) انظر تفاصيل ذلك في الجزء الخامس من موسوعة التاريخ للمؤلف

المشكلة بالنسبة لعمان مزدوجة ، فلم تتوقف عند ضرب الاقتصاد بل امتدت إلى احتلال الأرض ، ومن هنا أتجهت عمان لمصارعة الاستعمار الذى جثم على البلاد ، وكما يقولون إن المشكلة إذا استعصت على قوم خلكت القيادة الرشيدة ، وسنتحدث فيما يلى عن القيادة التى صارت البرتغاليين وطردهم من عمان ، وأعادت عمان إلى الاستقلال والضوء :

بنو يعرب (اليعاربة)

١٠٣٤ - ١١٥١ هـ = ١٦٢٤ - ١٧٣٨ م

قبيلة اليعاربة :

تتحدّر قبيلة اليعاربة من أصل أزدى ، فهى قبيلة غافرية شمالية ، وكانت هذه القبيلة قبل ظهور الزعيم ناصر بن مرشد قبيلة عادية بين قبائل عمان ، فلما سقطت البلاد ضحية التفكك والانقسام فى الداخل ، والهجوم الاستعماري من الخارج ، ظهر ذلك الرجل العملاق الذى دفع قبيلته إلى القمة ، وقاد بلاده إلى السلامة ، وكأنما كانت البلاد تنتظر ظهور القائد لتلتف حوله لينقذها مما ألمّ بها من ضيم ، فلما ظهر ناصر ابن مرشد سرعان ما بدا فيه امتيازه ومواهبه وإخلاصه للمهمة الكبرى التى كانت تنتظره ، وكان فى « الرستاق » حيث ظهر ناصر عالم تقى صالح اسمه الشيخ خميس بن سعيد ، وكان هذا الشيخ مسموع الكلمة ، فلما اجتمعت الحلبة لاختيار الإمام ، قاد هذا الشيخ المناقشات والمشاورات ، فأجمع الكل على اختيار ناصر بن مرشد اليعربى إماما لعمان ، فبومع بالإمامة فى الرستاق سنة ١٦٢٤ م وبه بدأت إمامة بنى يعرب ، والأئمة اليعاربة هم :

١٦٢٤ = ١٠٣٤

١٦٤٩ = ١٠٥٩

١٦٨٠ = ١٠٩١

(م ٢١ - التاريخ ج ٧)

ناصر بن مرشد بن سلطان بن مالك

سلطان بن سيف بن مالك

بلعرب بن سلطان بن سيف

١٦٩٢ = ١١٠٤	سيف بن سلطان بن سيف
١٧١١ = ١١٢٣	سلطان بن سيف بن سلطان
١٧١٨ = ١١٣١	سيف بن سلطان بن سيف بن سلطان
١٧١٨ = ١١٣١	مهنا بن سلطان بن سيف
١٧٢١ = ١١٣٤	يعرب بن بلعرب
١٧٢٢ = ١١٣٥	سيف بن سلطان (للمرة الثانية)
١٧٢٤ = ١١٣٧	محمد بن ناصر بن غافر
١٧٢٧ = ١١٤٠	سيف بن سلطان (للمرة الثالثة)
١٧٣٨ = ١١٥١	سلطان بن مرشد
الى سنة ١١٥٤ = ١٧٤١ (١)	

ويلاحظ على هذه القائمة أنها حصرت السلطة في أسرة اليعاربة مع أن الفكر الإباضي لا يرى التوارث في السلطة ، ولكن يلاحظ أن الأئمة الأوائل من اليعاربة كانوا قمما قيادية ، وكانت البلاد محتاجة لهم لطرده المستعمر ، وإعادة الوحدة ، فكانت بيعتهم الواحد بعد الآخر طبيعية . ثم أصبح التوارث عادة بعد ذلك في هذه الأسرة ، وفي أسرة البوسعيديين ، مما جعل هذا النظام شديد الشبه بالملك والسلطان ، ولهذا حاولت الإمامة أن تقوم من جديد مستقلة عن « السلطان » ولكن هذه المحاولة كانت قصيرة العمر كما سنرى فيما بعد .

وسنتكلم فيما يلي كلمة عن أشهر الأئمة اليعاربة .

الإمام ناصر بن مرشد

كانت بيعة الإمام ناصر بن مرشد عودة للفكر الإباضي المتأصل في عمان ، والذي غلب أمدا بين طيات الأحداث ، وقد وجد ناصر أن أمامه مشكلات كبرى ليعيد البلاد إلى الوحدة ، حتى يستطيع أن يواجه الغزاة

(١) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ج١ ص ١٩٤ - ١٩٥ .

الأوروبيين ، ومن أبرز هذه المشكلات الملوك الصغار الذين كان كل منهم يحكم في منطقة من مناطق عمان ، ومن أبرزهم خمسة كانوا يحكمون في الرستاق والنخل وسمائل وسمد وأبرا ، كما كانت بعض الحصون والمدن في قبضة عدد من رؤساء القبائل ، أما البرتغاليون فكانوا يحتلون مسقط وغيرها من المناطق الساحلية كما ذكرنا من قبل ، كما كانوا يحتلون جزيرة هرمز حتى سنة ١٧٢٢ م ، وكانوا كذلك يمدون نفوذهم على ساحل إفريقية الشرقى الذى تربطه بعمان روابط عميقة منذ زمن بعيد ، إذ يروى التاريخ أن حكام عمان الذين فروا من الزحف الأموى اتخذوا من الشرق الإفريقى موطناً لهم ، وكان ذلك أساساً لصلات القربى بين هذين الموقعين .

وخطا ناصر خطوته الأولى نحو توحيد البلاد تحت قيادة واحدة والقضاء على حكم المناطق ، فاستجابت له البلاد ، والتفتت تحت لوائه ، وتجمعت عمان تحت قيادة واحدة بعد فرقة امتدت أكثر من سبعة قرون ، واتجه ناصر عقب ذلك لمصارعة البرتغاليين الذين عاثوا بالبلاد ظلماً ، ونهبوا خيراتها أكثر من مائة عام .

ولقد كان ناصر بن مرشد بطلاً عظيماً بلا شك ، ولكن كانت هناك ظروف مهمة ساعدته على تحقيق أمله ، وأيدت خطواته ، ومن هذه الظروف أن البرتغال سقطت تحت سلطان أسبانيا فيما بين سنتي ١٥٨٠ و ١٦٤٠ وقد أيدت أسبانيا الاستعمار البرتغالى في الشرق ، ولكن حماسة البرتغاليين تحت الحكم الأسباني ضعفت ، واهترت يدها ، مما هيناً للحركات التحررية في المناطق المستعمرة أن تنجح .

ومن هذه الظروف كذلك أن الاستعمار البرتغالى لم يبق وحده دون منافس في مناطق الشرق ، ولم يبق الطريق الجديد وقفاً على مكتشفيه ، فسرعان ما ظهرت عناصر استعمارية أخرى نافست البرتغال ، وهى هولندا وبريطانيا ، فإن هولندا بعد أن تخلصت من حكم أسبانيا سنة ١٥٨٨ شجعها هذا الانتصار على خوض المجالات السياسية والاقتصادية الشائكة ،

فوجهت نشاطها التجارى نحو الشرق ، وأسست الشركة الهندية — الهولندية
في عام ١٦٠٢ •

واتجهت بريطانيا بحماس تجاه الشرق كذلك فأُسست شركة الهند
الشرقية الإنجليزية ، وقام صراع طويل بين هذه الدول الاستعمارية
بعضها مع بعض في مناطق الشرق كان نتيجته إضعاف جبهة البرتغال (١) •

جزيرة هرمز وأثرها في إضعاف البرتغال :

ومن الظروف التي أضعفت البرتغال ضياع جزيرة هرمز من يد
البرتغاليين ، مما نقل زمام القوة في هذه المنطقة من البرتغاليين إلى أيدي
أعدائهم ، وجزيرة هرمز تحتاج إلى مزيد من الإيضاح والدراسة يتحتم
أن نقوم به ؛ فقد كانت هذه الجزيرة تتخذ من موقعها في مدخل الخليج مركزا
خطيرا لها ، وهى بذلك تحتل موقعا استراتيجيا مهما للغاية •

هل كانت هرمز تابعة للفرس وجزءا من بلاد فارس ؟ •

يتجه الكتاب الإيرانيون المعاصرون إلى الإجابة عن هذا السؤال
بالإيجاب (٢) ولعل الاتجاه القومى والوضع المعاصر الآن هما من الأسباب
التي دفعت المؤرخين الفرس لهذا الرأى ، ويتابعهم في هذا

Stephan and Handy Ponart

الذى يقول إن البوكرك عقد مع الشاه إسماعيل امبراطور فارس
معاهدة لتصبح له مكانة خاصة في جزيرة هرمز التي كانت تابعة
للفرس (٣) •

وهناك نظرة تاريخية أخرى (٤) ترى أن هرمز لم تكن دولة
عربية أو فارسية ؛ بل كانت دولة إسلامية تضم مختلف الجنسيات الإسلامية

(١) لوريمر : دليل الخليج ج ١ ص ١٦ (الترجمة العربية) •

(٢) آدميات : البحرين ص ١٤ •

(٣) Encyclopaedia of Arabic Civilization p. 190.

(٤) دكتور صلاح العقاد : التيارات السياسية في الخليج العربى

ص ٥ ، ١٠ •

التي تسكن دول الخليج من عرب وفرنس وهنود وغيرهم ، ولم تتخذ طابعا قوميا ، وإنما كان طابعها محليا ، ونشاطها تجاريا ، فقد حققت كثيرا من الثراء لسكانها ، واستلزم وضعها أن تبسط سلطانها السياسي على أجزاء مترامية من شواطئ الخليج وجزره ، فشملت بعض سواحل عمان وجزر البحرين وجزءا كبيرا من الساحل الشرقي ، ويستدل هذا الرأي على أن هذه الدولة لم تكن جزءا من الفرس بأن الدولة الصفوية الفارسية لم تساعد هرمز عندما احتلها البرتغاليون ، وتركتها مدى طويلا تحت نير الاحتلال .

وعلى كل حال فقد تعاون الإنجليز والفرس ضد البرتغاليين ، وقدمت عمان للقوى المناضلة للبرتغال عوناً كبيراً أسفر عن تحرر هرمز سنة ١٦٢٢ وأصبحت هذه الجزيرة تابعة للفرس .

ومن الظروف التي ساعدت ناصر في نضاله ضد البرتغاليين الاتجاه الديني ، فقد ظهر التعصب الصليبي في تصرفات البرتغاليين ، وهذا دفع المسلمين للتجمع والحماسة فيما يمكن أن نسميه « الجهاد » ضد هذا الزحف الصليبي .

ومن هذه الظروف كذلك سوء معاملة البرتغاليين لكل المناطق التي نزلوا بها ، فقد اتسمت أساليبهم في الحكم بالاستبداد والجور .

وقد انتهز ناصر هذه الظروف فأعلن — بعد توحيد البلاد — الحرب لاستقلال بلاده ، ولما كانت أجزاء كبيرة من عمان تابعة لهرمز وبالتالي للبرتغاليين ، فإن هزيمة البرتغاليين في هرمز دفعت الإمام ناصر أن يعلن استقلال هذه الأجزاء ، وأن يطرد البرتغاليين منها ، ومن أهمها « صحار » وخاض ناصر حرباً ضد الفرس الذين حاولوا أن يرثوا البرتغاليين في سيطرتهم على البلاد فنجح في تخليص جلفار « رأس الخيمة » منهم (١) .

واتجه ناصر بعد ذلك لمواجهة البرتغاليين في مراكزهم الرئيسية بعمان
أى فى مسقط ومطرح ، وقد حاصرهم ناصر حصارا طويلا ، ولكن الحامية
البرتغالية التى كانت متصلة بالبحر استطاعت أن تصمد لهذا الحصار ،
فاضطر الإمام أن يعقد صلحا يحقق له بعض الأهداف ، فعقد صلحا
التزم فيه البرتغاليون بدفع الجزية لعمان ، وألا يعترضوا نشاطهم
التجارى ، وأن يكتفوا عن الاتيان بأية حركة عدائية ضد عرب عمان ،
وأن يهدموا التحصينات التى أقاموها فى سمند وقريات (١) .

وقد كسر هذا الصلح قوة البرتغاليين وأذلهم ، وترك ناصر لخليفته
وابن عمه أن يجهز على هؤلاء الأعداء كما سنرى .

سلطان بن سيف

بويح سلطان بن سيف سلطانا على عمان عقب وفاة البطل ناصر ،
وكان سلطان عوناً لابن عمه فى أثناء حكمه ، ومن هنا كانت بيعته دفعة
لاستمرار الفضال الذى بدأه ناصر ، ومن الواضح أن البيعة لسلطان
استمرار للفكر الإباضى الذى لا يمنع اختيار إمامين أو أكثر من أسرة
واحدة ما دام ذلك هو رأى أهل الحل والعقد ، وكان سلطان جديرا بالثقة
التي ارتبطت به .

واستمرارا للجهود التى بدأها ناصر استطاع سلطان أن يستعيد من
البرتغاليين كل ما كان قد تبقى بأيديهم من عمان ، فطردهم سنة ١٦٥٨
من مسقط ومطرح .

ولم يكتف سلطان بذلك بل راح يتتبعهم فى المراكز الأخرى التى
أنشئوها فى شرقى أفريقيا أو فى الهند ، ففى أفريقية استطاع تخليص
جزيرتى ممبا وزنجبار ، ثم اتجه لحصار ممبسة مناء على استغاثة أهلها .

ونلقى سلطان بن سيف رسالة سرية من أهل الصومال يشرحون فيها ما يعانونه من استعمار البرتغاليين المسيحيين ، فأرسل لهم جيشا كبيرا يقوده بطل اسمه الأمير سالم الصارمي ، وقد حقق هذا الجيش كثيرا من الانتصارات ضد البرتغاليين ، وطردهم من الصومال ، ولم يكن لسلطان عمان مطامع في الصومال فغادرتها جيوشه عقب النصر بعد أن أسلمت الزمام للأهالي ، وهناك مخطوطة صومالية تصور النصر الذي أحرزه القائد العماني كما تصور فرح الصوماليين بالاستقلال (١) .

وفي الهند وصل أسطول سلطان إلى ساحل كوجرات بالهند واجتاحت عساكره (ديو) و (دامان) وقفلت بغنائم وافرة .

وكان سلطان بالإضافة إلى قدراته العسكرية رجل تعمير ، فقد وجه همته إلى ترويج التجارة وعمارة الأسواق ، كما كان حسن السيرة في الرعية ، واتجه كذلك إلى تجديد القلاع والحصون وجلب الأسلحة حتى يحافظ على استقلال البلاد ومكانتها (٢) .

سيف بن سلطان

رأينا سلطان بن سيف يقضى نهائيا على الوجود البرتغالي في عمان ، ويحقق نصرا ضد البرتغال في المراكز التي أقاموها في الهند وفي شرقي إفريقيا ، وكانت عمان قوة واحدة خلال هذا الصراع فلما صفا الجو ، وتحقق النصر دب الخلاف وأطلقت الأطماع ؛ ولذلك ما ان توفي سلطان ابن سيف حتى تطلع ابنه بلعرب وسيف إلى السلطة ، وكان بلعرب أكبر سنا فأخذ مكانة أبيه باسم السبق في السن ، ولم يكن ذلك وحده كافيا ، ومن هنا ثار عليه أخوه سيف ، وقام صراع داخلي طويل حسمه موت بلعرب فخلا الجو لسيف بن سلطان .

(١) اقرأ بعض ما جاء فيها في الجزء السادس من هذه الموسوعة ص ٦٥٧ .

(٢) سعيد باوزير : معالم تاريخ الجزيرة العربية قص ١٦٩ .

وهذه الحادثة تكررت في التاريخ العربي في مختلف العصور فإن العرب تجتمع كلمتهم عند الشدائد ، فإذا حققوا نصرا بسبب وحدتهم أسرعوا إلى الفرقة والخلاف ، وكان جديرا بهم أن يجنوا ثمار تعاونهم في تعاطف وإبتهاج ، ولم ينل الأعداء من العرب أكثر مما نالوا هم من أنفسهم .

جهود سيف الموقفة :

وكان سيف من أبرز القادة والأئمة في تاريخ اليعاربة وقد وجه عنايته للقضاء على البرتغاليين في شرقي أفريقية ، فاستعاد الجزر التي كان البرتغاليون قد استردوها إبان فترة الخلاف الداخلي ، وخطا خطوته الحاسمة حينما استولى سنة ١٦٩٨ على ممبسة التي كانت تعد عاصمة المستعمرات البرتغالية بشرقي أفريقية ، والتي عز الاستيلاء عليها على من سبقه ، وقد استلزم الاستيلاء عليها حصارا دام ثلاثة وثلاثين شهرا بسبب حصنها المنيع ، ولكن قوة العمانيين كانت أعظم من مناعته ، وقد وضع سقوط ممبسة نهاية لتفوق البرتغاليين في شرقي أفريقية (١) وكان أساسا لانتهيار آمالهم في تلك المناطق .

واهتم سيف بالأسطول اهتماما كبيرا ، فقد كان الأسطول أهم وسائل الدفاع عن البلاد ، وأهم وسائل الهجوم على أعدائها ، وقع بلغ عدد سفن الأسطول ثمانية وعشرين سفينة كبيرة ، يحمل بعضها ثمانين مدفعا (٢) مما يدل على تقدم عمان في فن الملاحة ، وعلى القدرة في تسليح السفن ، وهو فن كان آنذاك جديدا .

وقد استطاع سيف بهذا الأسطول أن يحتل بعض الجزر القريبة من بومباي بالهند ، وأن يطرد البرتغاليين منها ، ومن بعض المدن التي كانت تحت سيطرتهم .

(١) Caupland : East Africa and its invaders pp. 67-77

(٢) السالمى : تحفة الاعيان ج ٢ ص ٨٩ .

وكان سيف كأبيه محبا للعمران يصفه الأستاذ سعيد باوزير (١) بأنه كان بصيرا بالإصلاح : شديد الاهتمام بمرافق البلاد ومصالحها ، ابتكر حفر القنوات تحت الأرض ليجلب الماء من الأعماق ، مما سبب تطور الزراعة ، واعتنى بغرس النخيل حتى أصبح محصولا يدر على الأهالي كثيرا من الثراء .

سلطان بن سيف (الثاني)

تولى سلطان بعد أبيه ويعتبر آخر الأئمة العظماء ، وقد استطاع أن ينزع البحرين من أيدي الفرس الذين كانوا قد استولوا عليها سنة ١٦٢٢ عند طرد البرتغاليين من هرمز .

بعد سلطان

لم يعمر سلطان بن سيف (الثاني) طويلا ، وتفتشت بعده الخلافات ، وكثر الطامعون في الحكم من أفراد الأسرة ومن خارجها وظهر الصراع القبلي بين العدنانيين والقحطانيين ، وازداد هذا الصراع حدة عندما طُعّم بالنزاع الطائفي فأصبح النزاريون من أتباع المذهب السني ، واعتنق اليمنيون المذهب الإباضي ، وكان ذلك يمثل زيتا جديدا يضاف لـ"شئدة" اللهب .

وسقط كثير من القادة والجند في المعارك ، وأعمى الدم والحقد العيون والقلوب ، فلجأ أحد المتنافسين (سيف بن سلطان بن سيف) سنة ١٧٣٧ إلى نادر شاه ملك الفرس يطلب عونه ، وكان هذا شديد الطموح ، فاستجاب لهذا النداء ، وزحف بجيوشه إلى عمان ، ولكن سرعان ما انتضح أن ملك الفرس يعمل لحسابه لا لحساب الذي استنجد به ، ولذلك ندم سيف على تصرفه ، وعقد صلحا مع منافسه ، واستعاد العمانيون أكثر بلادهم من الفرس ، ولكن منافسا جديدا اسمه (سلطان

(١) معالم تاريخ الجزيرة العربية ص ١٧٠ .

ابن مرشد) ظهر في الجو ونجح في الاستيلاء على أكثر عمان . فعاد سيف يطلب عون الفرس مرة أخرى ، واستجاب الفرس كذلك . ولكن سيف الذي تولى الإمامة ثلاث مرات لم يعمر بعد ذلك ، ومات تاركاً البلاد غارقة في بحر من الدم والخلافات ، وتاركاً الفرس يحتلون بعض المناطق ومنها مستط أعظم ميناء بعمان ، وقد هيا ذلك الجوش لتظهر أسرة مالكة جديدة تعمل لاستعادة الاستقلال والأمن للبلاد ، وستكون هذه الأسرة موضع حديثنا بعد قليل .

من مآثر اليعاربة

أنشأ اليعاربة جيشاً جراراً ضم حوالى ٩٠٠٠٠ مقاتل ، وأسطولاً ضخماً باع غاية مجده في عهد سيف بن سلطان كما أشرنا من قبل ، وشيدوا القلاع والحصون في كثير من المناطق الاستراتيجية ، واهتموا اهتماماً بالغاً ببناء البلاد وتعميرها بعد ما أحدثه البرتغاليون بها من إهمال ، وبعد التدمير الذي أصاب البلاد في فترات الصراع ضد هذا العدو ، واهتم اليعاربة بالزراعة فأحيوا البرارى والقفار وغرسوا عشرات الألوف من الأشجار المثمرة ، وشقوا الأخلاج (مجارى المياه) وحققوا منجزات معمارية رائعة في الفن الهندسى في نزوى وجبرين ، وبسطوا أيدي العمل في كل ناحية ، وأقاموا في قصر جبرين مدرسة فتحت أبوابها لطلاب العلم من عمان ومن سواها من الأقطار ، وأشاعوا مناخات من الاستقرار والأمن أسهمت في إشاعة الرخاء والتقدم والازدهار في جميع مرافق الحياة (١) .

(١) سالم بن حمود بن شاميس : العنوان في تاريخ عمان (مقتطفات) .

آل بو سعيد

١١٥٤ هـ = ١٧٤١ م حتى الآن

قبيلة آل بو سعيد :

قبيلة آل بو سعيد قبيلة هناوية جنوبية هاجرت من اليمن إلى عمان منذ عهد بعيد ، وكان اهتمامها محصوراً في التجارة ، ولم يكن لها شأن سياسى ينبىء عن أنها ستصبح من أكثر القبائل شهرة في مجال السياسة ، سواء في الجزيرة العربية أو في العالم الخارجى بوجه عام (١) .

المستشار أحمد بن سعيد :

شهدت السنوات الأخيرة من حكم اليعاربة اضطراباً واسع المدى في عمان كما ذكرنا من قبل ، وقد شمل هذا الاضطراب صوراً من التفكير الداخلى وصوراً من تدخل الفرس العسكرى في شؤون البلاد ، وقد كانت الأمور حول سيف بن سلطان الذى تولى الإمامة ثلاث مرات حافلة بالأكدار والدسائس من الداخل والخارج ، فأحس بحاجته إلى مستشار يلجأ لرأيه إذا اشتد الأمر ، فذكر له أحمد بن سعيد ، وقد كان شخصية لامعة له حول واسع في شؤون التجارة والاقتصاد ، وهو فرع من قبيلة عادية ، فعينه مستشاراً له ، وعهد إليه بإدارة ميناء صحار ذى الأهمية الكبرى ، وبدأ أحمد بن سعيد بذلك خطواته نحو المجد .

وسار أحمد في إدارة الميناء بيقظة بالغة وحزم قوى ، وكانت البلاد من حوله تـموج بالفتن ، وتئن تحت ثقل الاحتلال الفارسى ، وتجاهد للخلاص منه ، وفي نفس الوقت برز شخص جديد ادعى الإمامة ، وحاول أن ينزعها من سيف بن سلطان ، ذلك هو سلطان بن مرشد ،

(١) عمان والساحل الجنوبى للخليج الفارسى : من مطبوعات شركة الزيت العربية الامريكية ص ١٧٤ .

وقد حقق هذا ألوانا من النجاح دفعت خصمه سيف بن سلطان أن يفادى الفرس لمساعدته على أن يترك لهم صحار ، واستجاب الفرس كعادتهم لهذه الدعوة وأرسلوا جيشا كبيرا غزا البلاد ، واستولى على أكثر مناطقها وظهر أنهم لا يعملون للحساب سيف وإنما لحسابهم هم كما ذكرنا آنفا ، وفي هذه الأثناء مات المتنازعان ، مات سيف حزينا كاسف البال ، ومات سلطان بن مرشد نتيجة جراح ألئت به في صراعه ضد الفرس ، ولم يبق إلا شخص واحد ، كان اسمه يلمع دون أن تمسه المثالب ، ذلك هو أحمد ابن سعيد حاكم صحار مستشار السلطان الراحل •

أحمد بن سعيد يتزعم عمان :

في هذه الفترة نشط أحمد ليدافع عن بلاده ، وليعيد لها الوحدة والاستقلال ، وقد استطاع أن يحقق خطوات ثابتة في هذا المجال ، فقد سار من صحار التي حافظ على استقلالها حتى حاصر مسقط ، وهنا لعب الذكاء دوره أو لعبت الحظوظ دورها ، فإن مستشاري شاه إيران كانوا قد نصحوه ألا يستمر في الصراع مع العمانيين ، وأن يسلم مسقط إلى رجل من اليعاربة متعاون مع الفرس اسمه ماجد ، وهو بذلك يضمن استمرار الصراع الداخلي بين الطامعين في الحكم ، وبالتالي يجنى لنفسه ثمارا طيبة بدء من جهد كبير ، واستجاب الشاه لهذه النصيحة وأصدر أمره إلى الحامية الفارسية بمسقط أن تسلم المدينة إلى ماجد بن سلطان ، بيد أن هذا الأمر وقع بطريق المصادفة في يد أحمد بن سعيد الذي أرسل مندوبيه إلى الحامية الفارسية متظاهرين أنهم يمثلون ماجد بن سلطان ، وتسلموا منهم المدينة بناء على ذلك ، ولم يكدَ أحمد بن سعيد سفن الفرس تبحر إلى الموانئ الفارسية ، بل تصدى لها وأغرقها واستسلم له أكثر من كانوا بها •

ويرى كذلك أنه دبر وليمة دعا إليها الإيرانيين وفي أثناء الوليمة دفع بعض رجاله فهاجموا الإيرانيين وذبحوهم ، وانتهى بذلك أمر الفرس ببلاد عمان ^(١) وأصبح أحمد بن سعيد سيد الأمر كله بالبلاد ، وسارع أحمد فبعد

(١) سعيد باوزير : معالم تاريخ الجزيرة العربية ص ٧١ - ١٧٢ •

اجتماعا من الرؤساء وشيوخ القبائل لاختيار إمام للبلاد ، وكان من الطبيعي أن اقتُرح اسمه ؛ لأنه الذي خلص البلاد من استبداد الفرس ، وبايعه الحاضرون بالإمامة (١) .

وسنرى أن لقب الإمامة لم يطل بقاءه في بيته ، وأن أكثر قادة هذه الأسرة قنعوا بلقب « السيد » ويعيد بعض المفكرين ذلك إلى أن البيعة التي تمت لأحمد بن سعيد لم تكن على النمط الذي تعودده الإباضيون ، ومن الذين يرون هذا الرأي السالمى في كتابه « تحفة الأعيان » الذي يقول : إن عقد البيعة لأحمد جاء بعد فتنة ، وتغلب على الأمر ، ولم تتوافر فيه الشروط المطلوبة لإمامة إباضية صحيحة (٢) .

ولكننا نرى رأيا يخالف السالمى لأن اليعاربة بويعوا في ظروف مدائنة ، ولم يعترض السالمى على البيعة لإمامهم الأول ، ثم إن السالمى مشكوك فيه رأيه هنا ، لأنه لم يكن له ولاء لهذه الأسرة ، وقد اشترك في إعلان إمامة الخروصي كما سنرى فيما بعد ، فكان رأيه ضد إمامة أحمد بن سعيد متأثرا بميول شخصية .

وسلاطين أسرة آل بو سعيد بعمان هم :

١٧٤١ = ١١٥٤	أحمد بن سعيد
١٧٧٤ = ١١٨٨	سعيد بن أحمد
١٧٧٩ = ١١٩٣	حامد بن سعيد
١٧٩٢ = ١٢٠٦	سلطان بن أحمد
١٨٠٤ = ١٢١٩	سالم بن سلطان وسعيد بن سلطان
١٨٥٦ = ١٢٧٣	ثويني بن سعيد

J. B. Kelly : Easter Arabian Frontiers p. 53. (١)

(٢) تحفة الأعيان ج ٢ ص ١٦٣ .

١٨٦٦ = ١٢٨٣	سالم بن ثويني
١٨٦٨ = ١٢٨٥	عزان بن قيس
١٨٧٠ = ١٢٨٧	تركي بن سعيد
١٨٨٧ = ١٣٠٥	فيصل بن تركي
١٩١٣ = ١٣٣٢	تيمور بن فيصل
١٩٣٢ = ١٣٥١	سعيد بن تيمور
١٩٧٠ = ١٣٩٠	قابوس بن سعيد

وقد أشرنا من قبل إلى الجهود الكبيرة التي بذلها أحمد بن سعيد لينتظم شأن عمان ، وليؤسس أسرة مالكة جديدة في تلك البقاع ، وقد استحق أحمد بجهده أن يصبح إماما لعمان ، وأن تجتمع حوله الرايات .

بيد أن هذه البلاد كانت كما ذكرنا من قبل تجتمع كلمتها عندما تعصف بها الشدائد ، فإذا هب عليها ريح الرخاء عادت للتمزق والفرقة . وكانت فكرة الإمامة والاختيار لها ، من الأسباب التي تثير الخلاف ، فلم يكن القوم يحترمون رأى الأغلبية في ذلك الوقت ، وطبيعى أنه من الصعب أن يجمع كل السكان في أوقات السلم على رجل واحد ، ومن هنا كانت قضية الانتخاب تخلق دائما الفرصة لتعدد الولاة ، والذي يقرأ تاريخ آل بو سعيد ترعجه هذه الخلافات التي لم تهدأ على الإطلاق إلا عندما أصبحت السلطة بالوراثة في أخريات الدولة ابتداء من عهد تركي بن سعيد ، ومن هنا يحق لنا أن نقول : إن النظام الانتخابي يحتاج إلى احترام رأى الأغلبية ، وهذا يحتاج إلى عقلية متطورة لم تعرفها البلاد خلال حكم آل بو سعيد ، ولا حكم من سبقوهم ، فقد رأينا أن كل جماعة كانت تعين إماما أو ملكا ، ومن هنا كانت البلاد تحكمها الانقسامات والخلافات العميقة ، وسنرسم فيما يلي شجرة الأسرة البوسعيدية ، ونبين عليها أبرز الحركات الثورية والانفصالية التي ظهرت بعمان ، والتي وُجِدَت بين الابن وأبيه ، والاخ وأخيه ، ولنا بعد ذلك تعليق أوسع مدى على أبرز الأحداث التي وقعت خلال هذه الأسرة :

١ - أحمد بن سعيد (مؤسس الأسرة)

١١٥٤ - ١١٨٨ | ١٧٤١ - ١٧٧٤

- | | |
|---------------------------|---|
| ٢ - سعيد بن أحمد | ٤ - سلطان بن أحمد |
| ثائر على أبيه | ثائر آخر على أبيه أحمد |
| اتخذ الرستاق عاصمة له | اتخذ مسقط عاصمة له بعد وفاة حماد |
| وقنع بالامامة بها حتى مات | استبد ابنه سالم وسعيد بالسلطة في حياته |
| سنة ١٧٧٩ | |
| ٣ - حامد بن سعيد | |
| ثائر على أبيه سعيد ، احتل | قتل قبل وفاة أخيه سعيد |
| مسقط ثم مات قبل أبيه | وبعد وفاته ووفاة أخيه سعيد آل الأمر لابنه : |

٥ - سعيد بن سلطان

- | | |
|--|---------------|
| ٦ - ثويني في عمان | ماجد |
| ٧ - سالم : اتهم بالتآمر ضد أبيه وقتله | في شطر الدولة |
| ٨ - عزان بن قيس : اختير اماما ، ثم زحف وأخذ السلطة من السلاطين | يافريقيا |
| ٩ - تركي بن سعيد : ثار على سالم بن ثويني | |
| هزم وأبعد للهند ثم عاد في عهد عزان وطرده ، واستولى على السلطة | |
| ١٠ - فيصل : هو الذي وقع معاهدة الحماية مع انجلترا سنة ١٨٩١ . | |
| ١١ - تيمور : تنازل عن السلطة لخلافاته مع الانجليز الذين زاد تدخلهم في الشؤون ولم يساعدوه ضد الحركات الانفصالية بالبلاد . | |
| ١٢ - سعيد : عهده عهد جمود وتخلف - عزله ابنه قابوس من السلطة واحتل مكانه | |
| ١٣ - قابوس : هذا السلطان نافذة خير لبلاد عمان - عهد استقرار وتطور . | |

الانقسامات والتفكك :

أُسرنا في شجرة الأسرة التي أوردناها آنفا إلى ألوان من الانقسامات والتفكك التي انتابت هذه الأسرة ، ولكن هذا الأمر يحتاج إلى مزيد من الدراسة ، فقد بدأت هذه الانقسامات في عهد أحمد نفسه ، فإن ثورات اليعاربة ظلت شوكية في ظهره حتى اضطر أن يترك لهم بعض جوانب النفوذ ، وأن يدع تحت سيطرتهم قلعتين هما قلعتا نخل والحزم ، كما ظل أفراد من أسرة اليعاربة ينعمون بسلطات محلية اقطاعية ، وكان لهم في ممتلكاتهم بالجبل الأخضر سيطرة ونفوذ (١) .

وبجانب الثورات التي هبت في وجه أحمد من خارج أسرته هناك ثورات هبت ضده من أولاده ، ومن أهمها ثورة ابنه سعيد وسلطان اللذين تمردا على أبيهما ، ولم يقنعا بما أعده لهما أبوهما من سطوة وسيادة .

ويبدو أن ثورة سعيد وسلطان ضد أبيهما كانت فاتحة صراع طويل من هذا اللون ، وكانت نموذجا اتبعه كثير من أفراد هذه الأسرة ، فعندما تولى سعيد بن أحمد السلطة بعد أبيه ثار عليه ابنه حامد ، واتخذ مسقط عاصمة له ، وعجز أبوه عن إخضاعه ، ولم يرجع الأمر لأبيه في عاصمته بالمرستاق إلا بعد موت حامد نفسه ، على أن موت حامد أبرز شخصية أخرى في مدينة مسقط ، تلك هي شخصية سلطان بن أحمد الذي ثار على أبيه من قبل ، ثم ثار على أخيه سعيد بعد موت ابن أخيه حامد ، واستولى على مسقط ، وظل « سلطان » صاحب السلطة في مسقط من سنة ١٧٩١ حتى قتل في نوفمبر سنة ١٨٠٤ عندما كان عائدا من البصرة بواسطة البحر ، ومات بعده الإمام سعيد ، وبعد مناوشات آل الأمر إلى ابنه سعيد ابن سلطان سنة ١٨٠٦ الذي اتخذ زنجبار عاصمة له من سنة ١٨٣٢ والذي تخلى إلى حد كبير عن المناطق الداخلية بسلطنة عمان مقتنعا بالساحل .

وبعد وفاة سعيد بن سلطان سنة ١٨٥٦ انقسمت الدولة قسمين بين ولديه ماجد وثويني ، واستقر ماجد في زنجبار ، واستقل ثويني بعمان ، على أن يدفع ماجد جزية لأخيه ولكنه سرعان ما قطع هذه الجزية •

وثار تركي بن سعيد على أخيه ثويني ولكنه هزم في هذه الثورة وأبعد إلى الهند ، وثار كذلك سالم بن ثويني على أبيه ، واتهم بقتله ، وتردد الناس في البيعة له مع وجود هذا الاتهام ، ولكن الانجليز أيدهم ذاكرين أن التهمة لم تثبت عليه •

وقفز شخص طموح آخر من الأسرة اسمه عزان بن قيس ليغتصب الملك من سالم بن ثويني ، فاعتصب مسقط من سالم الذي فر من وجهه ، فعاد تركي من منفاه بالهند وأخذ السلطة من عزان •

فصل ساحل الصلح عن عمان :

وبسبب هذا التفكك وتلك الانقسامات فصل ساحل عمان (ساحل الصلح) عن عمان ، وقسم هذا الساحل إلى سبع إمارات حسب المحاكم والقبائل بكل قسم ، وقد كان هذا الساحل جزءا من عمان كما ذكرنا من قبل ، وكان اليعاربة يعينون عليه حاكما من قبلهم ، فلما زالت دولة اليعاربة أعلن رحمة بن مطر الاستقلال ، واتخذ رأس الخيمة قاعدة له واعترف له بالاستقلال أحمد بن سعيد مؤسس دولة آل بو سعيد (١) وسنطوى مزيدا من التفاصيل عن هذا الموضوع عند الكلام عن دولة الإمارات •

وهكذا نجد أن أسرة البوسعيديين عاشت في صراع مستمر ، وكان العتوق من أبرز مظاهرها ، ولم تعرف الأسرة الاستقرار نوعا ما إلا في

(١) دكتور سبد نوفل : الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي

ج ٢ ص ٦٣ •

(م ٢٢ - التاريخ ج ٧)

السنين الأخيرة بالقرن التاسع عشر ، ربما بعد أن أصبح الأمر للانجليز ، فلم يعد هناك أمل في نجاح ثورة ضدهم ، أو ضد من ينال تأييدهم من السلاطين وقد أصبح التوارث منهج القسوم في الحكم ، ولكن السلطة الحقيقية أفلقت من أيدي الحكام المتأخرين ، وصارت إلى أيدي الانجليز ، ولم يستعد السلطة حقيقة إلا السلطان الحالي قابوس بن سعيد •

لقاب الحكام :

قلنا فيما سبق إن الأصل في السلطة بعمان أن تكون بالانتخاب تبعا للمذهب الإباضي ، وقلنا كذلك إن نتائج الانتخاب لم تكن بالاجماع بطبيعة الحال ، وهذا خلق عددا من الأئمة في وقت واحد كما خلق ملوكا ورؤساء عشائر في أماكن مختلفة دون حاجة لانتخاب •

ولكن يتضح ابتداءً من أسرة آل بوسعيد شيء جديد أصبح بمثابة قاعدة ثابتة ، فقد كان الإمام يعيش في الرستاق ، واتخذت الثورات من مسقط مكانا مفضلا لها ، ولم يطمع حاكم مسقط في لقب الإمامة ، وفي نفس الوقت قنعت الإمامة بالمقاطعات الداخلية في عمان ، وبالمظاهر الدينية التي ترتبط بالأئمة ، وتركت السلطة لحاكم مسقط الذي كان يباشر الأمور السياسية وأكثر شئون الحكم ، ومما زاد ذلك تأكيدا إن الإباضية كانوا قليلي العدد بالساحل ، وفي نفس الوقت كان سكان مسقط خليطا من الأجناس لا ينضوي أكثرهم تحت المذهب الإباضي ، إذ أن الكثيرين منهم وفدوا من بغداد أو البصرة أو الكردستان أو أفغانستان وسواحل مكران ، وأفريقية وغيرها ممن كانوا يرتبطون بالتجارة أو يعملون في المال •

وقد قلنا من قبل إن إمامة أحمد بن سعيد لم تتوافر فيها الشروط التي يراها أكثر المؤرخين والإباضيين ، فالرجل مع بطولته وجهاده لم تكن إمامته موضع اتفاق ، ثم إن الاتجاه للثورات قلل من الاعتراف بهؤلاء الحكام كأئمة . ونشأ عن ذلك حقد وانفصال بين الإباضية في الجبل الأخضر ونزوى وبهلا وازكي والرستاق وغيرها من مناطق الداخل ، وبين سلاطين

مسقط الذين كان يراهم الإباضيون بعيدين عن نهجهم ، ومن أجل هذا كله قنع سلاطين آل بوسعيد بلقب السيد ، وطرحوا لقب الإمامة ، وكان للقب « السيد » مكانة سامية في تلك المناطق فرأوا فيه ما يرضى اتجاهاتهم دون حاجة إلى الإمامة التي تستلزم البيعة ولا ترضى بالوراثة ، ثم اتخذ الحكام أخيرا لقب « سلطان » .

وأصبح الاتجاه لترك لقب الإمامة ضرورة لازمة عندما اتصل السلاطين بالقوى الخارجية الأوروبية واستعانوا بها ضد الأحداث التي صادفتهم ، فانتسعت الهوية بين الإباضية الذين استنكروا هذه الصلات ، وبين سلاطين آل بوسعيد .

وعلى هذا اختفت الإمامة أمدا طويلا يقرب من قرن ونصف قرن وكانت خلال هذه المدة تظهر أحيانا باهتة لا غناء فيها ، وفي سنة ١٩١٣ بدأت حركة قوية لبعث الإمامة ، فاجتمع زعماء الإباضية ومعهم الشيخ نور الدين السالمي واختاروا راشد بن سالم الخروصي إماما لعمان ، وأيد هذا الاختيار زعماء الغافرية والهنأوية جميعا ، مما قوى مركز الإمام الجديد ، وأعلن زعماء الإباضية خلع السلطان فيصل بن تركي ، واعتبار وجوده في الحكم غير شرعي ، وتطلع الإمام إلى توسيع حكمه وإلى الزحف إلى الساحل لاستكمال السلطة على عمان كلها ، ولكن هذا الإمام قتل في سنة ١٩٢٠ قبل أن يتم الزحف وبويع محمد بن عبد الله الخليلي إماما ، وتدخل الانجليز لوقف أي محاولة زحف يقوم بها أتباع الإمام للساحل .

اتفاق السيب :

عقد « اتفاق السيب » في سبتمبر سنة ١٩٢٠ بين تيمور بن فيصل وبين ممثلي الإمام ، وخلاصة هذا الاتفاق تخفيف الضريبة التي يحصل عليها السلطان في الموانئ عند تصدير السلع العمانية ، وأن ترفع جميع القيود عن العمانيين الذين يمشون بمدن الساحل ، وأن يتمتع أهل عمان بالأمن والحرية بالمدن الساحلية ، ولا يتدخل السلطان في الشؤون الداخلية للمناطق

الداخلية ، وفي مقابل ذلك تتعهد القبائل بعدم مهاجمة مدن الساحل ، وإباحة الحرية لسكان الساحل في أن يباشروا التجارة الداخلية وأن يكون المشرع هو المحكم عندما يوجد خلاف بين تجار الساحل وبين أهل الداخل •

ويختلف المفكرون في قيمة اتفاق السيب ، فيرى البعض أنه يفيد اعتراف السلطان بوجود دولة مستقلة في عمان ، ويرى آخرون أنه عمل تنظيمي بين السلطان وبين بعض القبائل التابعة له •

وقد ظل محمد بن عبد الله الخليلى يشغل إمامة عمان فترة طويلة حتى سنة ١٩٥٤ ، وحاول في منصبه أن يبرز عمان في شكل الدولة المستقلة . فطالب الانضمام لجامعة الدول العربية ، وأصدر جوازات سفر ، ولكن ذلك لم يبرز عمان كدولة مستقلة ، ولم تقبل جامعة الدول العربية طلبه •

وعقب وفاة الإمام الخليلى سنة ١٩٥٤ اختير غالب بن على إماما لعمان في نفس العام (سنة ١٩٥٤) ، وفى عهده تفجر الخلاف بين الإمام والسلطان لأن الحكومة البريطانية احتلت وانحات البريمي باسم السلطان وبدأ الأمل في انتاج متدفق من البترول من هذه الواحة ، وطالب الإمام بجزء من عائد البترول ، وكل هذا هيا لنهاية حاسمة وضرورية للموضوع ، فزحف جيش السلطان سعيد بن تيمور بقيادته وبمعمونة قوات إنجليزية قوية ، وهاجم نزوى وحاصرها مدة ثلاثة أيام ثم احتلها سنة ١٩٥٥ وألغى الإمامة ، وهرب غالب بن على إلى السعودية ، وذكر أن هذا اعتداء إنجليزى على الإمامة أخذ ثوب الشرعية ، بوضع القوات تحت قيادة السلطان سعيد بن تيمور ومن أجل هذه النظرة اندفع الإمام غالب وشقيقه طالب لإشعال ثورة جديدة ضد السلطان وكان ذلك في يوليو سنة ١٩٥٧ واستطاعا أن يدخلوا نزوى وأن يرفعوا علم الإمام على مدن الجبل الأخضر ومقاطعاته ، ولكن السلطان سعيد قاد جيشا قويا اقتلع به هذه الثورة من أصولها وأعاد سيطرته على الجبل الأخضر في يناير سنة ١٩٥٩ •

وقد اتجه بعض الباحثين آنذاك إلى مهاجمة السلطان سعيد واعتباره ييطش بيد بريطانيا ، وكان الإمام غالب يحظى لذلك بالعطف والتأييد من هؤلاء ، ولكن الزمن مر ، وأثبتت الأحداث أن التجمع خير من الفرقة وأن في تلك البقاع دولة واحدة هي عمان ، وأن مسقط عاصمة لها ، ولهذا أصدر السلطان الحالي قابوس بن سعيد قرارا بالألا تسمى البلاد سلطنة مسقط وعمان كما أتبع في عهد سلفه ، وأن تسقط هذه الازدواجية ، وأن تسمى البلاد سلطنة عمان فقط ، وتصبح مسقط عاصمة لها ، وكان هذا التصرف توحيدا لبلاد كانت على وشك أن يثبت تقسيمها ، والاتجاه للوحدة هو اتجاه المخلصين في الوطن العربي والوطن الإسلامي .

عمان والقوى الأوربية :

تعرضت عمان بحكم موقعها إلى محاولات من بريطانيا وفرنسا لتضمها هذه أو تلك إلى مناطق نفوذها ، وقد كانت بريطانيا أكثر حرصا وأكثر حاجة إلى عمان بسبب مكانة عمان في طريق المواصلات البريطانية إلى الهند ، ولما بدأ نابليون مغامراته في الشرق ودخل مصر سنة ١٧٩٨ أسرع بالتطلع إلى عمان ، وكتب رسالة إلى سلطان مسقط يخطب وده ، ومن هنا زاد اهتمام بريطانيا بعمان ، واستطاعت أن تعقد معها أول معاهدة ، وكان ذلك في عهد سلطان بن أحمد وكانت المعاهدة بين السلطان وبين شركة الهند الشرقية البريطانية ، وتم توقيعها في أكتوبر سنة ١٧٩٨ وتعد هذه المعاهدة أول معاهدة عقدتها بريطانيا مع الأمراء العرب ، وأول تدخل إنجليزي في شئون عمان ، وخلاصة هذه المعاهدة تقوية روح المودة بين عمان وبريطانيا !!! والمقضاء على النفوذ الفرنسي والهولندي بالبلاد ، وفي سنة ١٨٠٠ وقعت بريطانيا مع السلطان اتفاقية لتأكيد معاهدة ١٧٩٨ ، ونصت هذه الاتفاقية على أن يعين ممثل لانجلترا يقيم في مسقط ، ويتم عن طريقه الاتصالات بين الدولتين ، كما نصت على استثناء الانجليز من

القوانين المحلية المعمول بها في السلطنة ^(١) ونصوص هذه المعاهدة توضح الزحف البريطاني على سيادة عمان *

وقتل سلطان بن أحمد سنة ١٨٠٤ وقام صراع بين ولديه سالم وسعيد ورجحت كفة سعيد ابتداء من سنة ١٨٠٦ وقد حاول أن يتخلص من النفوذ البريطاني ، فعقد معاهدة مع فرنسا سنة ١٨٠٧ ثم عززت بأخرى سنة ١٨٠٨ وبمقتضى ذلك نزل بمسقط أول مقيم فرنسي *

واتجه سعيد كذلك لعقد معاهدة مع الولايات المتحدة الأمريكية لإمداده بما يحتاجه من أسلحة وعون ، نظير منح الولايات المتحدة امتيازات سياسية واقتصادية مهمة ، وقد وقعت هذه المعاهدة سنة ١٨٣٣ م ، وخافت إنجلترا أن تفلت عمان من نفوذها فعرضت استعدادها لتقديم ما طلبته عمان من الولايات المتحدة ، وعقدت عقب ذلك معاهدة سنة ١٨٣٦ وأصبحت عمان بذلك تحت الحماية البريطانية ، ثم عقدت معاهدة أخرى بنفس الروح سنة ١٨٩١ *

وفي سنة ١٩١٣ حدث خلاف على السلطنة عقب وفاة فيصل بن تركي وكانت ظروف الحرب العالمية الأولى تدعو للحذر ، فتدخلت بريطانيا في الحال واحتلت البلاد ، كما احتلت الدول العربية الواقعة على ساحل الخليج العربي ، وأخذت الدولة البريطانية على عاتقها أن تشرف على حكم بلدان الخليج وخفارته بدل الامبراطورية العثمانية التي كان لها هذا الإشراف من قبل ^(٢) واستمر هذا الاحتلال حتى سنة ١٩٢١ *

وفي سنة ١٩٢٣ وقّع أمير عمان تعهداً للحكومة البريطانية ألا يقوم بالبحث عن البترول أو استغلاله دون استشارة المقيم البريطاني ^(٣) *

(١) Bombay Government Selection from the Records. See also (١) Kelly p. 58.

(٢) عمر رضا كحالة : جغرافية جزيرة العرب ص ٤٤٩ - ٤٥٠ .

(٣) محمد حبيب أحمد : نهضة الشعوب الاسلامية ص ٣٣٤ .

وفي فبراير سنة ١٩٣٩ أبرمت آخر معاهدة بين عمان وبريطانيا ،
وجددت هذه المعاهدة سنة ١٩٥١ لمدة خمسة عشر عاما وبمقتضى هذه
المعاهدة قدمت بريطانيا مساعدات للسلطان سعيد ليستعيد نفوذه في عمان
وليقتضى على الإمامة سنة ١٩٥٥ ، وعندما رأت بريطانيا أن هذا التدخل
أثار ثائرة العرب بوجه خاص ، والمالم بوجه عام تراخت قبضتها عن
عمان ، وكان ذلك طبقا للسياسة البريطانية الجديدة بالنسبة إلى مناطق
ما أسمته « ما بعد السويس » تلك السياسة التي كانت مطلع زوال
الاستعمار البريطانى من العالم كله .

ويقول الدكتور سيد نوفل ^(١) إن بريطانيا عقدت مع عمان منذ أواخر
القرن الثامن عشر حتى القرن العشرين أكثر من عشرين تعهدا واتفاقا
تمنح الرعايا البريطانيين امتيازات ضخمة ، وتقدمهم على غيرهم في
المعاملات التجارية ، وتقرر لهم في مسقط مقيمين ووكلاء في شئون
السياسة والاقتصاد ، ثم تمنع أيدي السلطة عن التصرف في أراضيها إلا
بموافقة بريطانيا ، وتطلق أيدي الانجليز في شئون البلاد ومواردها .
وبمرور الزمن تقلص هذا النفوذ الأجنبي حتى زال في العصر الحالى .

السعوديون وعمان :

تحدثنا عند الكلام عن المملكة العربية السعودية عن الموحدين أتباع
الإمام محمد بن عبد الوهاب وشرحنا مبادئهم ، وذكرنا أن أمراء السعوديين
استجابوا لهذه الدعوة ، وتعهدوا بحمايتها ، والتقى بذلك فكر ابن
عبد الوهاب مع قوة آل سعود فتنت لل دعوة خطوات واسعة من النجاح ،
وأحيانا يسمى النكتل أو المزيج الذى تكوّن من الدعوة والقوة في نجد
باسم « الوهابيين » وهى تسمية غير مقبولة بالمملكة العربية السعودية وإن
اشتهرت خارجها ، وتسمى بالسعودية « دعوة التوحيد » .

ودعوة التوحيد ليست دعوة خاصة لحدود معينة، بل هى تتطّلع إلى

(١) الاوضاع السياسية لإمارات الخليج العربى ٠٠٠ ج ١ ص ٦٣ .

الانتشار في العالم الإسلامي ، وإزالة الانحراف الذي كان سائدا ، وبخاصة في الجزيرة العربية ، ومن هنا سارت الدعوة تحت الخط ، وتدق الأبواب ، ونزيل الحواجز •

وكانت الجزيرة العربية تُحكم في الغالب بنظام قبلي ، إذ تتغلب كل قبيلة على منطقة من المناطق ، وكانت عمان قد انحلت خلال عهد البوسعيديين إلى مقاطعات ومناطق شبه مستقلة ، بسبب الصراعات الضخمة التي انتابت هذه البلاد ، وبسبب الخلافات الحادة التي سادت بين أمراء البيت الحاكم بعضهم والبعض أحيانا ، وأحيانا بين السلاطين وبين الطموحين الذين كانوا يبرزون من حين إلى حين ، ونتيجة لذلك استقلت عن عمان إمارات الخليج التي كانت جزءا من عمان كما ذكرنا من قبل ، كما استقلت بعض مناطق الظاهرة بعد أن تركزت سلطات مسقط في مناطق الساحل •

أضف إلى ذلك أن كثيرين من سكان الظاهرة ، وبعض المناطق الداخلية من عمان تجمعت لديهم أسباب خاصة تدفعهم إلى التخلي عن سلطة البوسعيديين والانضواء في السلطة السعودية الناشئة في الجزيرة العربية ، ومن هذه الظروف أن كثيرين منهم ينحدرون من عرب الشمال ، وتربطهم بسكان نجد السعوديين رابطة الدم ، ومنها كذلك أن تنافسا خطيرا كان موجودا بين القبائل التي كانت تعيش في المناطق الداخلية وبين مناطق الساحل ، ومنشأ هذا التنافس أن بعض القبائل كانت تتبع المذهب السني ، وكانت في الوقت نفسه فروعاً من الغفارية ، وذلك مثل قبائل نعيم في البوريمي التي كانت على خلاف مستمر مع القبائل الهنادية الدم الإباضية التفكير ، ومثل القواسم سكان الشارقة ورأس الخيمة فقد كانوا كبنى نعيم سنيين غفارية (١) •

واحة البوريمي وصراع القوى :

ولكل هذه الأسباب وجد الوهابيون فرصتهم للزحف إلى واحة البوريمي

فاحتلواها لأول مرة سنة ١٧٩٥ ، كما واصلوا زحفهم حتى وصلوا إلى ساحل الخليج العربى فى عهد الأمير سعود والأمير عبد العزيز ، وسرعان ما أصبحت واحة البورىمى معقلا لهم ، فكان القائد السعودى يتخذ منها مقرا له ، وكان يجبى الزكاة من سكانها ومن سكان القرى المجاورة ، وكان جبى الزكاة رمزا للسلطة والتبعية •

وعندما اشتد ساعد الوهابيين كان المتصارعون على السلطة فى عمان يطلبون العون منهم ، ومن هؤلاء بدر الدين سيف بن أحمد بن سعيد « أحمد بن سعيد مؤسس الدولة » فقد حاول بدر هذا أن يخلع سلطان ابن أحمد ولكنه فشل فى محاولته ، فطلب العون من السعوديين ، مما فتح الباب للنفوذ السعودى فى عمان ، وبخاصة عقب مقتل سلطان بن أحمد ، وتولية بدر الوصاية على أبنائه ^(١) ومن هؤلاء كذلك ثوينى بن سعيد الذى استصرخ السعوديين عندما ثار عليه أخوه « تركى » الذى كان واليا على حشار ، وتطلع لنيل السلطة •

وتقول المصادر السعودية إنه بالنسبة لانتساع الصحراء العربية وقلة طرق المواصلات السريعة بها فإن الأمراء السعوديين اكتفوا بالروابط الاجتماعية والاقتصادية بينهم وبين البورىمى ، وكانت الزكاة تدفع للعمل السعوديين ، وكان أمراء البورىمى يعلنون ولاءهم للأمير نجد ^(٢) •

على أن تدخل محمد على والى مصر وخضوع الدرعية لإبراهيم باشا سنة ١٨١٨ أوقف نشاط السعوديين بواحة البورىمى ، وفى المناطق الواقعة حولها ، ولم يستطع حاكم البورىمى الذى كان يمثل السعوديين أن يستبقى السلطة فى يده ، فسلّم الواحة إلى سلاطين عمان ^(٣) على أن

(١) دكتور زكريا قاسم : دولة بوسعيد ص ٥٢ •

(٢) مشكلة البورىمى : من مطبوعات سفارة المملكة العربية السعودية

بجاكرتا •

J. B. Killy Ibid : p. 57.

(٣)

منافسين جديدين ظهرا لعمان في امتلاك هذه الواحة ، أما المنافس الأول فهم بنو يباس الذين كانوا يعيشون في الداخل غير بعيد من البوريمي ، وكانوا يذهبون للساحل لصيد السمك أو اللؤلؤ ، فلما ظهر الماء في أبو ظبي سنة ١٧٦١ رحلوا لها واتخذوها وطناً لهم ^(١) والمنافس الثاني هو بريطانيا التي اهتمت بالخليج ابتداء من القرن السابع عشر ، ثم رجحت كفتها على كل القوى الأوروبية بالخليج العربي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وعقدت معاهدات مع إمارات الخليج في القرن التاسع عشر أصبحت بمقتضاها تتحدث باسمهم ^(٢) فلما ظهرت بوادر البترول في البوريمي سنة ١٩٤٩ أعلنت بريطانيا أن السيادة على هذه الواحة من حق مشيخة « أبو ظبي » وسلطان مسقط ، وهما خاضعان لحماية بريطانيا ، وأعلنت المملكة العربية السعودية آنذاك أن الواحة جزء لا ينفصل من المملكة وأن سكانها يدينون بالولاء للمعاهل السعودي منذ زمن بعيد •

وتطورت المشكلة ووصلت إلى درجة خطيرة سنة ١٩٥٣ فقبل الطرفان (بريطانيا والسعودية) إجراء تحكيم دولي لحل المشكلة ، وعقدت لإجراء التحكيم اتفاقية في ٣٠ يوليو سنة ١٩٥٤ ولكن بريطانيا لم تنتظر نتيجة التحكيم ، وأوعزت لسلطان مسقط أن يزحف بجيشه ، وكان أكبر قواده من البريطانيين فاحتل هذا الجيش منطقة عمان وواحة البوريمي ، واثارت ثائرة السعودية ، بيد أن الأمر قد سوى بعد ذلك بين الأطراف العربية ، وكان أساس هذه التسوية اعتبار الدعوة إلى التوحيد منطلقاً فكرياً ، وأن اتّباع هذه الدعوة لا يستلزم تبعية سياسية •

البوسعيديون في شرقي إفريقيا :

رأينا من قبل الجهود الكبيرة التي بذلها اليعاربة لطرد البرتغاليين

Ibid. p. 51. (١)

Ibid. p. 35. (٢)

من شرقى إفريقية ، ولكن اليعاربة اكتفوا بالسلطنة الاسمية على هذه المناطق لشدة ارتباطهم بالجزيرة العربية وحراسة أملاكهم بها ، وعينوا على المناطق الإفريقية أمراء يحكمونها باسمهم ، فعينوا أسرة الحارث لجزيرة زنجبار ، وأسرة النبهانيين لحكم باتا ، وأسرة المعمودى لحكم ممبسة ، وتلتها أسرة المزروعى ، وكانت هذه الأسر خاضعة خضوعا اسميا لأئمة عمان ، وعندما سقطت أسرة اليعاربة فى عمان ، وقامت على أثرها أسرة بو سعيد (البوسعيدية) اكتمل سلطان أئمة عمان على الساحل الإفريقى ، وعلى الجزر المواجهة له ولم يقبل البوسعيديون أن ينافسهم الأمراء فى حكم هذه الجزر وبخاصة الأمراء من أسرة المزروعى الذين كانوا قد حاولوا الاستقلال بجزيرة ممبسة ، ولعل السبب فى اهتمام البوسعديين بالمناطق الإفريقية أن نفوذهم تقلص فى المناطق الآسيوية ، وتقلت بعض أجزاء عمان عن حكم الدولة ، فاتجه البوسعديون إلى إفريقيا بأكثر نشاطهم ، بل نقل سعيد بن سلطان (١٨٠٦ — ١٨٥٦) عاصمة ملكه من مسقط إلى زنجبار سنة ١٨٣٢ مما يشير إلى أن البوسعديين كانوا يتجهون إلى جعل القسم الإفريقى عماد دولتهم واستطاع سعيد أن يفرض العشور على التجارة الداخلية والخارجية وأن يجعل زنجبار مستودعا هائلا للتجارة ، تخزن فيه البضائع التى تأتى من أنحاء كثيرة بإفريقية ، ومنها توزع على التجار العرب الذين يحملونها إلى سواحل شبه الجزيرة ، وإلى المناطق المختلفة بآسيا وإفريقية ، كما توزع على التجار الأوربيين والأمريكيين الذين يحملونها إلى بلادهم (١) .

وبالإضافة إلى الحركة التجارية والنشاط الاقتصادى اتسع نفوذ زنجبار السياسى فى عهد السلطان سعيد ، فشمّل مسافة على الساحل تقدر بأكثر من ألف وستمئة كيلو متر ممتدة من جنوب مقدشيو شمالا إلى سفالة وتونجى جنوبا ، كما امتد نفوذه أيضا داخل القارة حتى وصل إلى

(١) دكتور صلاح العقاد ، والدكتور جمال قاسم : زنجبار ، وانظر موسوعة التاريخ الإسلامى للدكتور أحمد شلبى الجزء السادس ص ٤٠٨-٤٠٩ .

حدود الكونغو وأوغندا وروديسيا ، وانتشرت في هذه الأجزاء كلها شبكة من خطوط القوافل تربط بين الساحل وبين شواطئ فيكتوريا وتنجانيقا ونياسا ، وتابع سعيد توغله في الأجزاء الشرقية من الكونغو وعلا صيته حول البحيرات العظمى حتى كان يقال : إن الناس على شواطئ البحيرات يرقصون على أنغام زنجبار (١) .

وعلى هذا فقد صادف السلطان سعيد نجاحا كبيرا على الرغم من أن عصر الاستعمار الأوربي كان قد بدأ ، واتجهت القوى الأوروبية لحصارة السلطان المسلم في هذه المنطقة (٢) .

وعقب وفاة السلطان سعيد انقسمت دولته إلى سلطنتين مستقلتين ، إحداهما إفريقية حكمها ماجد بن السلطان سعيد وقد تكلمنا عنها ، وعددنا سلاطينها عند الحديث عن الدول الإسلامية بإفريقية في الجزء السادس من هذه الموسوعة ، والثانية آسيوية عاصمتها مسقط حكمها ثويني ابن السلطان سعيد وهي التي نتحدث عنها الآن .

تعريف بأشهر سلاطين البوسعيدين

لقد تعرفنا خلال الدراسة السابقة على سلاطين هذه الأسرة وتكلمنا بشيء من التفصيل عن مؤسسها أحمد بن سعيد ، ويبقى بعده سلاطين جديرون بشيء من التفصيل كذلك ، وهؤلاء هم :

(١٧٩١ — ١٨٠٤)	سلطان بن أحمد
(١٨٠٦ — ١٨٥٦)	وسعيد بن سلطان
(١٩٧٠)	وقابوس (السلطان الحالي)

(١) See Ruete R. : Salid Bin Sultan, Rulers of Oman and East Africa
(٢) دكتور عبد العزيز كامل : قضية كينيا ص ٢٢ وانظر الجزء السادس من هذه الموسوعة للمؤلف ص ٤٠٩ .

وفيما يلي كلمة عن كل من هؤلاء وستعطينا هذه الكلمة فكرة عن سلاطين الآخرين سيمتد الحديث إليهم ونحن نتحدث عن هؤلاء السلاطين الثلاثة :

سلطان بن أحمد :

ثار سلطان بن أحمد على أبيه ، ثم ثار على أخيه سعيد ، واستولى على السلطة منه في مسقط والساحل من سنة ١٧٩١ وقنع أخوه معه بالنفوذ الديني بالداخل ، كما كان قانعا بذلك إبان ثورة ابنه حامد عليه ، ومنذ تولى سلطان بن أحمد جعل التوسع الخارجى سياسة ثابتة له ، وبدأ بالجزر المواجهة الساحل عمان وهى قشم وهرمز ، ثم بسط سلطته على الموانى المهمة في ساحل مكران ، واستولى على مينائى شهباز وجوار دور ، وبواسطة هذين الميناءين توثقت الصلات بين بلوخيستان وبين عمان ، واستولى كذلك على بندر عباس ، وهكذا صارت دولة عمان في عهد سلطان ابن أحمد تتكون من شريط ساحلى في شبه جزيرة العرب ، ويضاف إليه عدة جزر وموان حتى حدود باكستان الحالية بالإضافة إلى جزيرة زنجبار •

وهذا التكوين الجغرافى لعمان استوجب أسطولا قويا ، ويبدو أن السفن التجارية كانت أحيانا تستعمل لأغراض الدفاع ، فإذا أخذنا بذلك استطعنا أن نقول إن أسطول عمان في عهد سلطان بن أحمد كان يتكون من ٦٠٠ سفينة بخلاف السفن الكبيرة المخصصة للحرب ، ومن الطبيعى في مثل هذه الظروف أن تنمو العلاقات بين مسقط وبين العالم الخارجى نموا كبيرا (١) •

وانتهز سلطان بن أحمد فرصة وقوع نزاع بين أهالى البحرين وبين حاكمهم الشيخ سليمان آل خليفة فأرسل أسطوله إلى تلك الجزر ، وربما كان ذلك بناء على طلب السكان ، وانتهى الأمر بعقد صلح بين سلطان بن

أحمد وبين آل خليفة سنة ١٧٩٩ نص على أن تمتد مسقط سيادتها على البحرين ، وعاد سلطان بن أحمد إلى بلاده بعد أن أخذ أخا حاكم البحرين رهينة عنده ، وبعد أن وضع ابنه سالم ليمثله في السيادة على البحرين ، ولكن هذا الابن كان لا يزال حدثا فأشرك أبوه معه أحد زعماء الشيعة واسمه محمد بن خلف في هذه السلطة (١) .

وحدث بعد ذلك أن مات أخو الحاكم الذي كان رهينة في مسقط ، فتنحل آل خليفة « العتوب » من وعدهم واستعانوا بالسعوديين ضد سيطرة مسقط ، فاستسلم سالم وانسحب ، ولكن مسقط عادت تدافع عن مكانتها متعاونة مع بعض القوات الفارسية واستعادت السلطة في البحرين من جديد ، ولكن ذلك الموضع لم يدم طويلا بسبب العون السعودي المستمر لسكان البحرين .

وبالإضافة إلى هذه الانتصارات العسكرية والتوسع الخارجي يضيف المؤرخون إلى سلطان بن أحمد فضلا عظيما في المجال الحضارى ، فقد فتح الباب للألوان من التقدم والمدنية كانت بعيدة عن بلاده من قبل ، كما تعاون مع العثمانيين على حماية البصرة من الفرس ، مما جعل له مكانة خاصة لدى الباب العالي الذي أصدر فرمانا بإعطائه راتبا سنويا نظير هذه المساعدة .

سعيد بن سلطان :

عندما توفي سلطان بن أحمد سنة ١٨٠٤ كان ولداه سالم وسعيد في سن الحداثة ، لم يصلا بعد إلى سن البلوغ ، وكان سعيد بن أحمد قائما بمنصب الإمامة في الرستاق وقيس بن أحمد يسيطر على صحار ، ومحمد بن أحمد يسيطر على السويق ، وكان بدر بن سيف بن أحمد يحاول أن يستولى على مسقط بعد وفاة عمه سلطان ، وكان يعتمد على

(١) دكتور جمال قاسم : المرجع السابق ص ٧٧ .

المسعوديين الذين وعدوه بالعون والمساعدة ، وكان اليعاربة مستبدّين في نخل ، ووسط هذا التفكك تمكن السعوديون من تأكيد سلطانهم في الظاهرة والبريمي .

وحاول كل من إخوة سلطان بن أحمد أن يخلفه في السلطة وأن يبتئاسى ولديه الصبيين اللذين آل إليهما ميراث أبيهما الراحل ، وكانت ترعاهما عمة لهما اسمها « معازة » وقد لجأت هذه العمة إلى بدر بن سيف ليساعدها ضد القوى الزاحفة على مسقط ، وكان بدر طموحا من جانب ، وقويا بعون السعوديين له من جانب آخر ، فاستجاب لطلبها وأصبح وصيا على الصبيين ، وتخلت له معازة عن الوصاية ، ولكن بدرا حاول أن يأخذ الأمر لنفسه ، فقوى صلاته بالسعوديين ، وعقد معهم اتفاقية تنعير السلطة لهم في عمان ، وتبيح أن يكون لهم في مسقط مندوب يتولى جمع الزكاة باسمهم ، ووضع بدر سعيد بن سلطان في مقاطعة صغيرة ليشغله بها ، وكانت سنة آنذاك حوالي خمس عشرة سنة .

وكان هذا الشاب في أول خطواته لمرحلة الشباب ، ولكنه كان شديد البأس عميق الفكر ، فدعا عمه بدر بن سيف لحضور اجتماع في إقليمه لتتفق على وسيلة للتخلص من قيس بن أحمد حاكم صحار ، واستجاب حذر لهذه الدعوة ، وكان سعيد قد أعد كميناً له في القلعة التي يعقد فيها الاجتماع ، وما إن دخل بدر حتى انقض عليه سعيد ورفاقه ، فأجهزوا عليه وخالست بذلك مسقط لسعيد سنة ١٨٠٦ .

وأخذ سعيد بعد ذلك يتخلص من باقى المنافسين وكانوا أهون عليه من عمه بدر ، ولذلك تهاوت القوى المنافسة له واحدة بعد الأخرى ، ثم استولى على الرستاق بعد وفاة الإمام سعيد بن أحمد ، وبذلك وحّد سعيد المنطقة كلها تحت حكمه .

بيد أن سعيد أدرك أن استمرار الاستقرار في هذه المنطقة شيء بعيد

المال ، فإن الخلافات والانقسام كانت لا تتوقف حتى تبدأ من جديد في الجزيرة العربية ، وبالإضافة إلى هذا فقد ظهر بالجزيرة العربية منافس جديد خطير هو محمد على والى مصر ، وتثبت الوثائق أن محمد على فكر في الزحف على عمان واتصل بأمر البحريين ، مما جعل حدود عمان تهددها القوة التي حلت محل السعوديين في الجزيرة العربية لفترة من الزمن ، ومن أجل هذا وجه سعيد عنايته إلى إفريقيا ، واسترد ما كان قد ضاع من الساحل خلال الصراعات التي سبقته ، ثم آثر سنة ١٨٣٢ أن ينتقل إلى زنجبار ويتخذها عاصمة له ، وقد سبق أن تحدثنا عن جهود سعيد في الساحل الإفريقي ، وعن المكانة السياسية والاقتصادية التي حققها هناك *

وكان سعيد معروفا بالتواضع يميل إلى الشورى ، ولا يصدر حكما مهما كان إلا بعد اجتماع مجلس الرؤساء والشيخوخ للتشاور في هذا الأمر ، وكان محبوبا لدى الرعية ، معظما بينهم ، وقد عد أحد المؤلفين السعوديين هذا التعظيم مطعنا في سعيد وهو في هذا يقول : إنه الرئيس المعروف عند شعبه بالسيد ، المتقدم في رياستهم وسياستهم والمطلق فيهم ، ولقد أتى الناس من توقيره وتعظيمه ، والاعتقاد فيه ، ما أفضى بهم إلى طريق الضلال والإلحاد (١) *

وكان سعيد ذكيا مستنيرا حريصا على تنمية معلوماته والتعرف على أعمال الزعماء من معاصريه ، فكان يتابع إصلاحات محمد على لمباشرة ما يمكن مباشرته منها في بلاده وبين رعيته *

ويقول عنه الرحالة Wellested إنه كان يحتفظ بكثير من الصفات البدوية الأصلية ، لا يتحلى باللكم والجواهر ، وكان يلبس لباس مواطنيه ،

(١) حسين بن غنام : روضة الافكار والافهام ج ١ ص ٩ *

وكان يظهر في الاحتفالات والمناسبات بدون المظاهر التي يحرص عليها السلاطين والملوك ، وكان يزور والدته يومياً كدليل على البر والتقدير (١) .

وتوفي السيد سعيد سنة ١٨٥٦ وهو في سفينة من مسقط إلى زنجبار ، ودفن في هذه الجزيرة ، كأن القدر أراد له أن يوارى جسده في الجزيرة التي أحبها واستوطنها .

السلطان قابوس :

عندما نحاول أن نتعرف على السلطان قابوس وجهده في خدمة بلاده ينبغي لنا أن نتعرف على أحوال هذه البلاد خلال الفترة التي سبقت حكم السلطان قابوس .

ومن الواضح أن التدخل الانجليزي في البلاد بعد وفاة السلطان سعيد كان شديدا للغاية ، وقد أنتهز الاستعمار الانجليزي وفاة السلطان سعيد ، وحدث خلاف بين أولاده فنقدم هذا الاستعمار وحكم بإقامة سلاطين يحكم إحداهما تويني بن سعيد ويحكم الثانية ماجد بن سعيد كما ذكرنا من قبل ، وقد تسبب عن هذا التقسيم أن حلت بعمان أضرار بالغة ، وبخاصة بالمقاطعات الساحلية بالبلاد ، فقد تدهورت تجارة عمان مع زنجبار ، واضطر عدد كبير من التجار العرب إلى الهجرة من عمان ، وتقلص النشاط الاقتصادي عن البلاد ، وبدأت تعاني أزمة قاسية ، وبالإضافة إلى ذلك فإن الاستعمار بدأ يتمكن من البلاد ، وأخذ يتدخل بما يحقق له أهدافه وأطماعه ، وقد دخلت البلاد تحت الحماية بناء على المعاهدات التي حدثت مع الانجليز وكانت النتيجة أن السلاطين لم يعد في يدهم سلطة ، وأن السلطة الحقيقية أصبحت في يد المستعمر ، وفي سنة ١٩١٣ تجدد بعث الإمامة فانشطرت البلاد شطرين ، شطر يحكمه

الإمام وشطر يحكمه الانجليز ، وأحسن تيمور بن فيصل ألا سلطان له
فتنازل عن مكانه لابنه سعيد بن تيمور سنة ١٩٣٢ ، واتجه الحكم في عهد
سعيد بن تيمور نحو العزلة والانغلاق والصمت ، وتحول نشاط الخليج إلى
« دبی » ولم يعد لعمان صوت يسمع في الخارج ، ولا كيان يذكر في الداخل ،
وأخذت البلاد تتأخر يوما بعد يوم نتيجة للقيود العجيبة التي فرضها
السلطان على عمان وعلى شعبيها ، ومن هذه القيود عدم جواز اقتناء
المذياع للاستماع للإذاعة الخارجية إذ لم تكن هناك إذاعة محلية ،
وبالتالي كان امتلاكه محرما حتى لا يتأثر أهالي عمان بمجريات الأمور
خارج البلاد ، ومن المحظورات كذلك التدخين ، وقرع الطبول ، وإحياء
الأفراح ، والبقاء خارج أسوار المدن بين غروب الشمس وشروقها ،
وهكذا أصبحت عمان ، نقطة هامة على خريطة العالم ، ولم يكن لعمان
قبل قابوس عهد بالعلم ، فلا توجد في البلاد كلها غير مدرستين لا تقبلان
إلا عددا قليلا من التلاميذ على أن يكون ذلك بأمر السلطان نفسه ،
ولم يكن بالبلاد مراكز صحية ذات بال ، ولا مستشفيات على الإطلاق ،
ولم تعرف التخطيط والنظم الإدارية السليمة ، واقتصاد البلاد كان في
القاع ، وكان الشعب يعيش في ظلام لا يعرف الأمل .

ووسط هذا الظلام انبثق الأمل متجسدا في قابوس بن السلطان
سعيد ، وكان قابوس قد عاد من الخارج بعد أن أتم دراسته في كلية
سانت هيرست العسكرية في لندن ، وطاف قبل عودته بعدد من دول
العالم ، وما إن خطت قدماه على أرض عمان حتى أدرك الهوة السحيقة
التي تعيش فيها هذه البلاد ، وسرعان ما أحس أن السجن الكبير القائم
الذي يضم شعب عمان قد احتواه هو أيضا ، فإن أباه السلطان فرض عليه
العزلة حتى لا يختلط بالناس كي لا يتأثر بهم أو يؤثر فيهم ، وعانى
قابوس ما يعانيه الشعب ، وبالتالي أحس بإحساسه ، فأخذ يدبر الأمر في
صمت ، ويحجر بعض الاتصالات ببعض العناصر المخلصة بالخارج فلما
حاء شهر يوليو سنة ١٩٧٠ كانت الخطة قد أحكمت ، وانبثق يوم الثالث

والعشرين من هذا الشهر على فجر جديد ، فقد هبت ثورة الخلاص ، فأبعد قابوس أباه عن الحكم وتولى مسئولية الحكم بالبلاد ، وكان ذلك مطلع عهد جديد •

وأخذ قابوس يعمل بسرعة هائلة لتعود عمان إلى النور ، فأسرع بإزالة القيود التي كان السلطان السابق قد فرضها على الشعب ، وأسرع كذلك في إقامة إصلاحات في مختلف الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية •

وفي أكتوبر سنة ١٩٧١ دخلت سلطنة عمان الجامعة العربية ، ثم دخلت الأمم المتحدة ، وأقامت علاقات دبلوماسية بينها وبين كثير من الدول العربية ومن دول العالم ، وأخذت تلعب دورها في الحياة العربية والعالمية •

لقد كان قابوس نافذة نور لعمان ، وكانت يده تعمل في كل مجال ، في مجال التعليم ، وفي مجال الزراعة ، والطرق والمواصلات ، والتخطيط ، والتنمية ، والصحة ، والأهل ، وبناء الإنسان العماني بوجه عام ، وذن هنا فقابوس يستحق تقدير المنصفين لأنه خطا أوسع الخطوات في أقصر وقت وهو بهذا يفوق الكثيرين من الأنداد •

أما سياسة السلطان قابوس الخارجية فكانت مثالا في الدقة والحكمة وبسعد الرأي ، فقد خالص قابوس بلاده تماما من آثار الاستعمار ، وأمسك بزمام كل الأمور ، ولم يخضع في تصريف شئون البلاد الخارجية للأهواء أو الانفعالات بل وقف كالطود الشامخ يتدارس المشكلات بعمق وأصالة ليضع بلاده في الوضع الذي يخدم العروبة والإسلام ويستعيد لعمان مسا كان لها من مجد تليد •

لقد رأت عمان في عهد السلطان قابوس أنصر عهودها في كل اتجاه ، ببارك الله له ، وهياً الخير على يديه •

مشكلة المقاطعة الجنوبية « ظفار » :

تحكى المصادر العمانية ^(١) قصة الصراع في ظفار فتقول : إنه عندما تسلم العهد الجديد بقيادة السلطان قابوس مقاليد الحكم وضع في اعتباره حل المشاكل المختلفة ومن بينها مشكلة ظفار ، وكانت مشكلة ظفار قد ظهرت إلى الوجود في منتصف الستينات بسبب الأحكام الجائرة ، والأوضاع غير المقبولة التي فرضها العهد السابق على أبناء الشعب في عمان .

وقد حاول الأهالي أن يرفعوا أصواتهم بالشكوى أكثر من مرة ولكن أحدا لم يستمع إليهم ، أو يحاول رفع الظلم عنهم ، لذلك قاموا بانتخاب جماعة من بينهم لنذهب إلى مسقط وترفع شكواها إلى السلطان سعيد لعله يستمع إليهم ، ويحقق رغباتهم ، ويلبى مطالبهم ، ولكن السلطان كان لا يستجيب لشيء ، فأتجه لرفض كل حركات الإصلاح ، ومن هنا بدأت حركة ظفار ، وكانت الحركة وطنية خالصة .. إلا أن بعض الماركسيين والشيوعيين استغلوا هذه الحركة واندسوا في صفوفها باسم الوطنية ليحققوا المخطط الشيوعي الرامي إلى الاستيلاء على الجزيرة العربية والسيطرة على مقدساتها .

وفي سبتمبر سنة ١٩٦٨ بدأ الشيوعيون يخرجون من أثوابهم وتزعمو حركة لتغيير اسم جبهة تحرير ظفار إلى الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي .

وانتهجت الحركة الخط الماركسي اللينيني وزعمت أن هذا الخط لا يتعارض مع الإسلام ، أو مع العقيدة الإسلامية ، وبالطبع كان هذا الزعم مجرد محاولة لتضليل العناصر الوطنية المنضمة إلى الحركة .

وبدأت أهداف الحركة الدخيلة تتضح أكثر فأكثر عندما عاد بعض أفرادها من بكين حيث كانوا في دورة تدريبية ، وشكلوا مؤتمرا حزبيا في يونيو سنة ١٩٦٩ •

وهنا اتضح لدى الثوار أن هذا الحزب هو حزب شيوعى قلبا وقالباً ، وأن الحركة خرجت من الخط الوطنى لتسير فى الخط الشيوعى فبدأ الناس ينفضون من حولها وبدأت الجبهة تهتز وتتخلخل •

وفى ٢٣ يوليو سنة ١٩٧٠ قام السلطان قابوس بحركة التغيير التاريخية ، وفتح الأبواب أمام جميع المواطنين ليمارسوا الحياة الطبيعية التى تمارسها الشعوب الراقية ، وأعلن السلطان قابوس أنه سيعفو عن جميع المتمردين فى ظفار الذين ثاروا ضد سياسة السلطان السابق ، وأنه يفتح أمامهم الأبواب ليعودوا إلى صفوفه ، واستجاب العديد منهم لدعوته ، وحملوا سلاحهم وعادوا إلى الوطن ورفضوا أن يعملوا فى صفوف الشيوعيين •

وأحدث هذا التحول ذعرا ضخما فى صفوف الشيوعيين فلجأوا إلى العنف والإرهاب والتنكيل بالمواطنين الأبرياء وقتل شيوخهم ونسائهم وأطفالهم • وأصبحت أرض ظفار نتيجة لذلك مسرحا للصراع بين الأفكار الوطنية المؤمنة بعروبتها وإسلامها وبين الأفكار الشيوعية المؤمنة بالماركسية واللينينية •

ومن المؤسف والمؤلم فى نفس الوقت أن هؤلاء المارقين المتمردين وجدوا من أرض اليمن الجنوبية قاعدة يحتمون بها ، ويتدربون على أرضها ، وينطلقون منها فى الظلام إلى قرى ظفار المسالمة ليقتلوا الشيوخ والنساء والأطفال ويحرقوا المحاصيل والماشية ، ثم يعودوا من جديد إلى قواعدهم فى اليمن الجنوبية •

وتقول المصادر العمانية ^(١) : إن السلطان قابوس قد حاول أكثر من مرة أن يلفت نظر جيرانه إلى هذه الأعمال غير الودية ولكنهم رفضوا الاستماع إليه ، واتفاهم معه .

إزاء كل هذا الإرهاب ، وخوفا من خطر التسلل الشيوعي إلى باقى أنحاء السلطنة كان لابد للعهد الجديد فى عمان أن يتحرك ، فقد تأكد قابوس أن حرب هذه الفئات الباغية الخارجة على مبادئ الدين الإسلامى ضرورة دينية ، واضطر لتخصيص نصف ميزانية البلاد للصرف على الحرب والقضاء على الفتنة الحمراء .

وبدأ يُعِدُّ الجيش المدرب على فنون القتال ليحمى حقوق الشعب العماني ومصلحه وأمنه ، واستطاع فى أقل من عامين أن يجهز القوة الضاربة التى دخلت الحرب ضد المتمردين من أجل نصره قضايا الحق والعدل .

وتقف إلى جوار القوات المسلحة فرق شعبية قوامها الرجال الذين رفضوا القتال فى صفوف الشيوعيين ، وآثروا العودة إلى صفوف السلطان والقتال تحت رايته .

على أن اتجاهات الإصلاح التى قام بها السلطان قابوس بالبلاد كانت خير رد على هذا التمرد ، فعاد الكثيرون إلى صوابهم وإلى التعاون لتحقيق الأهداف الوطنية التى اتجهت لها عمان فى عهدها الجديد .

وفى العيد القومى لعمان فى نوفمبر سنة ١٩٧٦ ألقى السلطان قابوس فى اجتماع ضخم عقد فى مدينة مسقط خطابا حافلا عدد المنجزات التى حققها والمشروعات التى ينوى السير فى تحقيقها ، وكان أهم ما حققته البلاد الانتصار الشامل على حركة ظفار والدمار بجد لإعادة البناء للديار

التي خربتها هذه الحركة ، وإعادة المهجرين إلى دورهم ، وتحدث السلطان كذلك عن النهضة التعليمية الكبرى بالبلاد ، وعن السير نحو إيجاد مكان لكل طفل بعمان في المدارس ، وعن الاهتمام بالجانب القومي في التاريخ حتى يكون الجيل الجديد فخورا بما حققه أجدادهم من تطور وتقدم .

وتكلم السلطان عن مشروعات الصحة والإسكان والشباب والبتترول ، فرسم للبلاد مستقبلا طيبا ، كما تحدث عن مشاركة عمان للدول العربية في الجهود التي تبذل لتأييد الحق العربي بفلسطين ولخدمة قضية السلام بوجه عام .

والناظر إلى عمان يحس أن نافذة الضوء على عمان التي فتحتها السلطان فابوس قد اتسعت ، ونتجه دائما إلى مزيد من الاتساع ، والباخرة تسير .

حضارة عمان :

خيبت على عمان سحابة قاتمة من التخلف خلال عهود الظلام التي تكلمنا عنها ، وزاد التخلف عمقا في عهد الاستعمار البريطاني ، فكانت عمان — كما يقول المفكرون العمانيون — نقطة هامة على سطح الأرض ، ولم يكن لها دور في حياة العرب أو المسلمين ، ولكن هذه الحالة الطارئة ينبغي ألا تنسينا ما حققته عمان قبل ذلك من أمجاد حضارية ، ولهذا نذكر هنا أبرز ما قامت به عمان في هذا الميدان ، ولعلنا قد أثّرنا إلى بعض هذه المنجزات الحضارية في دراستنا السابقة .

وأول ما نبرزه أن عمان كانت الدولة الوحيدة بين الأقطار العربية التي كانت لها مستعمرات خارج المنطقة العربية ، نالت مكانتها بحسد السيف بعد أن طردت المستعمر الأوربي منها ، وبقيت عمان في هذه البقاع برغبة سكانها لتحميمهم من أطماع الغرب التي بدأت تظهر عقب طرد البرتغال .

ويقتصل بهذا أن نذكر لعمان بكثير من الفخر أنها قاومت البرتغاليين بدون معونة من أحد ، وهى بهذا تعد فى صفوف الدول التى حطمت بالسيف قوى المستعمر الغاشم وأذلته ، وألزمته أحيانا أن يدفع الجزية وأحيانا أن يستسلم .

ومن المواقف الحضارية التى تحسب لعمان دورها التجارى العظيم فى دنيا ذلك الزمان ، فقد غطت تجارتها أكثر دول آسيا وإفريقية ، وكانت لها السيطرة على أكثر بحار هذه المناطق كما كانت لها مراكز تجارية على جميع السواحل التى يرسو بها أسطولها التجارى العظيم ، وقد استدعت هذه الحركة التجارية النشطة تطهير ساحل ملبار من القراصنة الذين ينتمون إلى مختلف الجنسيات الآسيوية والأوروبية ، وهكذا سبق العمانيون الإنجليز إلى تلك السياسة التى ترمى إلى تأمين الملاحة التجارية فى المحيط الهندى (١) :

وقد أنجبت عمان صفوة ممتازة من الناس فى مختلف نواحي المجد فمنهم الأبطال ، ومنهم العلماء والقادة ، وفى قمة الأبطال العمانيين الذين عرفهم التاريخ الإسلامى المهلب بن أبى صفرة ، ومن علمائها صهار العبدى صاحب الخلفاء الراشدين ، وكعب بن سور قاضى عمر بن الخطاب على البصرة ، والخليل بن أحمد الفراهيدى واضع علم العروض وصاحب كتاب العين ، ومن خطبائها صعصعة بن صوحان ، ومن أجوادها مرة بن الوليد ، ويقال : إنه لم يكن فى الأرض أجود منه ، وكان رسول المهلب إلى الحجاج ، ومن فصحاءها بشر بن المغيرة ولم يكن فى الأرض أنطق منه ، ومنهم الربيع بن حبيب الفراهيدى وكان يضرب به المثل فى العلم ، ومنهم حمزة الشارى وهو من بنى سليمة ، ومنهم أبو بكر أحمد بن دريد صاحب الجمهرة ، ومنهم أبو العباس المبرد صاحب كتاب الكامل وكثيرون جدا غيرهم ممن ذاع صيتهم فى ميادين السياسة والبطولة والعلم .

(١) السالى : تحفة الاعبان ج ١ ص ١٠ وما بعدها .

وقد عرف التاريخ مجموعة عظيمة من نساء مسقط شاركن بنصيب كبير في النشاط السياسى والاجتماعى ، وقد مر ذكر السيدة ممارة التى كانت وصية على سالم وسعيد ابنى سلطان بن أحمد فأحسنّت تسيادة الأمر ، وظهرت كثيرات من النساء على رأس الثورات التى كانت تشتهل أحيانا ، وكان حجاب النساء فى مسقط أقل مما كان عليه فى البلدان العربية الأخرى (١) .

ويشتهر سكان عمان بالنظافة والدقة ، وقد كان هذا الاتجاه مما لفت أنظار الرحالة الأوربيين فقال Buckingham إنهم أنظف وأشد رقة وأكثر أناقة من جميع العرب الذين صادفهم فى رحلاته (٢) .

Bohem : The Persian Gulf p. 6. (١)

Travels in Syria, Media and Persia vol 2 p. 413J, (٢)

صلات شخصية بعمان

ارتبطتُ بعمان منذ كتبت تاريخها السابق ، ثم تطورت الصلات بعد ذلك ، وأنا بطبيعة عملى شديد الرغبة فى تطوير الصلة بالبلاد التى أكتب عنها ، ففى مطلع حياتى العلمية اكتشفت مجموعةً من الأخطاء وقع فيها الذين يكتبون تاريخ بلادٍ وهم بعيدون عنها ، وقد صححت بعض هذه الأخطاء عند زيارتى للمواقع التاريخية ^(١) ، ومن أجل هذا كنت شديد الحرص على زيارة البلاد التى أكتب عنها ، وقد أتيت لى والحمد لله فرص متعددة لزيارة كثير من البلاد التى كتبت عنها ، ومن ضمنها سلطنة عمان •

وسلطنة عمان جذابة ، ناسها طيبون ، وتاريخها حافل بالغموض من جانب ، والمفاخر من جانب آخر ، وتاريخ كهذا فيه إغراء للمؤرخ ليحاول أن يكشف ما به من غموض ، وليستمتع بما به من مفاخر ، تنضاف للمفاخر العربية والإسلامية •

وقد دُعيت لزيارة عمان عدة مرات سأحدث عن أهمها فيما بعد ، ولكن الذى يعنينى أن أبدأ به هو أننى خلال هذه الزيارات أو بعضها دُعيت لدخول بيوت بعض العمانيين ، وبهذا أصبحت هذه الزيارات بها لمسة عائلية ، وقد تركت هذه الزيارات أثرا كبيرا فى نفسى الأننى جالست العمانيين بعيدا عن الرسميات والفنادق ، فراعنى كرمهم الذى يصل إلى حد البذخ ، وسعدت ببيوتهم التى تحفل بالطنافس وتزدان بجيد الأثاث •

وهناك نقطة أكثر أهمية هى أن عقل الرجل العمانى متفتح يستقبل أحدث الأفكار فيفكر فيها ويناقشها ، ولا يردّها — دون تفكير — كما يفعل غيره ، ومن هنا أتيج لجلساتنا أن تشاهد عرض كثير من الإسرائيليات لتقنيدها ، فنناقشناها بصراحة مع أننى لاحظت أنه فى بعض البلاد الأخرى لا يوافقون

(١) انظر صورا من ذلك فى كتابى : التربية والتعيم فى الفكر الاسلامى ص ١١٩ — ١٢٠ •

على مناقشة مثل هذه الأفكار ، ويعدونها أصولاً إسلامية لا تحتفل المناقشة (١) وفي هذا المجال لابد من تسجيل الإعجاب بعالمين جليلين من علماء عمان هما معالي الشيخ محمد بن أحمد مستشار السلطان للشؤون التاريخية والدينية ، وهو عالم جليل ، سمح ، واسع الأفق ، كريم الحيا ، وقد زرته في مكتبه ، ثم زرته مرة أخرى في المكتبة الحافلة التي أنشأها للاطلاع في « السيب » .

أما العالم الثاني فهو سعادة الشيخ يحيى بن عبد الله الزبهماني ، وقد أمضيت سهرة علمية حافلة بمنزله العامر .

وفي هذا البيت وذاك دار حوار حول مجموعة من القضايا العربية والإسلامية ، فأسعدني أن العقل العماني يحسن التلقى ، واختار ما يتلقاه ، كما يحسن تصدير ما اقتنع به غير مكبل بتقاليد ، وغير خاضع لجمود .

• تحية للعقل العماني السمع المنفتح •

مازن بن غضوبة والصنم الذي تكلم

ومن أمتع المواقف التي تدل على سعة أفق الإنسان العماني أن حلقة دراسية كانت قد عقدت عن الصحابي « مازن بن غضوبة » أول من أسلم من عمان ، وقد اشتركت في هذه الحلقة وكان النظام يقضى أن يكتب باحث دراسة متكاملة عن « مازن » وقد كُلف بهذا العمل الباحث العماني الأستاذ أحمد بن مسعود السيابي ، ثم يقوم كل من الأساتذة الآخرين بكتابة بحث عن جانب من جوانب هذه الشخصية ، أو في موضوع عماني على العموم ، وكان الموضوع الذي اختير لي هو عن « مشاركة العمانيين في الفتوحات الإسلامية » .

(١) انظر بعض هذه القضايا في « الاسرائيليات والجمود وحرب أعلنها على الجبهتين » بكتابي « رحلة حياة » .

وهناك قضية متواترة عن « مازن بن غضوبة » خلاصتها أنه كان قبل الإسلام سادنَ أصنامٍ ، وأنه في يوم من الأيام ذهب ليقدم قربانا لصنمه « ناجر » ولكنه سمع صوتا ينبعث من جوف الصنم يقول له :

يَا مَازَنُ اسْمَعْ تَسْرَ تَسْلَمُ مِنْ حَرِّ سَقَرٍ
بُعِثَ نَبِيٌّ مِنْ مَثَرٍ بَدِينِ اللَّهِ الْأَكْبَرِ
فَدَعْ نَحِيئًا مِنْ حَجَرٍ تَسْلَمُ مِنْ حَرِّ شَعَرٍ

واضطرب مازن عندما سمع هذه الأرجوزة ، ولعله ظن أن القربان كان أقل من مستوى الصنم ، ولذلك أعدَّ قربانا أكبر وذهب به إلى الصنم في يوم تالٍ ، ووضعه بين يديه ، ولكنه سمع الصنم يقول له :

أَقْبِلْ إِلَى أَقْبِلْ تَسْمَعُ بِمَا لَا تَجْهَلُ
هَذَا نَبِيٌّ مَرْسَلٌ جَاءَ بِحَقِّ مَنَزَلٍ
آمِنْ بِهِ كَيْ تَعْدِلَ عَنْ حَرِّ نَارٍ تَشْعَلُ
وَقُودُهَا كَالْجَنْدَلِ

وانبرى مازن يحطم الصنم ، واتجه للحجاز حيث قابل الرسول صلى الله عليه وسلم وأسلم وأعلن إسلامه •

وهذه القصة كانت شائعة ومتواترة ومقبولة لدى الجميع • وتسربت إلى بعض المصادر التاريخية ، وليس هناك حوار عنها ، وتعرض لها أكثر المتحدثين في الندوة ومن أولهم الأستاذ أحمد بن مسعود •

وقد طلبت الكلمة لمواجهة هذه القضية ، وأعلنتُ سخريتي منها ، وذكرتُ أن الصنم لا يتكلم أبداً ، ولو كانت الأصنام تتكلم لكان أولى بذلك أصنام مكة المكرمة ، لتخفف من الاضطهاد والتنكيل الذي نزل بالرسول صلى الله عليه وسلم وبصحبة الأولين •

وقلت إن الشعر الذى رُوى فى ذلك هو فى الحق يُنسب لمازن نفسه ، وهو عبارةٌ عن حديث لمازن حدثتُه به نفسه ، وعندما نضع هذا الشعر فى ميزان النقد الأدبى ونقارنه بما نعرف من شعر مازن يتضح لنا أنه فى نفس مستوى شعره ، وطلبتُ من الزميل الذى كان يتكلم عن أدب مازن أن يضم المقطوعتين اللتين تنسبان للصنم إلى شعر مازن ، فاستجاب لذلك •

وكان هذا موقفاً خطيراً لفكرة مرت عليها القرون من مطلع الإسلام حتى الآن ، والعجيب أن العقل العمانى قبلها بهدوء ، وفكر فيها وارتماها ، وصدرت صحف عمان فى اليوم التالى (الوطن الأسبوعى فى ١١/١/١٩٩٠) تذكر أن الأستاذ الدكتور أحمد شلبى فجر قضية مهمة ***** وجدت قبولاً لدى السامعين أو أكثر على الأقل ، تحية للعقل العمانى المتحرر •

وقصة مازن وصنمه تذكرنى بقصة مماثلة لعلها تؤكد أن الشعر هو شعر مازن وأنه كان يحدث نفسه بهذه الأفكار •

والقصة الجديدة حدثت فى السودان وكان ذلك عقب عيد الأضحى ، فالرعاة السودانيون كانوا قد وفدوا بقطعان من الخراف والماعز على العاصمة قبيل العيد ليبيعوها إلى الراغبين فى تقديم الأضاحى ، وباع الرعاة الكثير ، ولكن بقى لديهم كثير من الخراف والماعز لم تجد من يشتريها ، فعاد بها الرعاة إلى القرى والنجوع ورأى شاعر سودانى تلك القطعان العائدة فتخيل خزيها وأسفها ، ونظم قصيدة ، نشرت فى حينها بالصحف السودانية ، وكانت القصيدة على لسان الخراف والماعز تبدو أسفها لأنها جاءت للمدن وهى حريصة على أن تمتنع أهلها وأن تقدم لهم لحومها وصوفها وجلودها ، ولكن الناس أعرضوا عنها ، فعادت حزينة كاسفة البال راجية ألا يتكرر إهمالها عندما تفد مرة أخرى فى عيد مقبل •

على أن الأدب العربى يعرف ذلك كثيرا فى كتاب « كليله ودمنة » •

المهم مرة أخرى أن العقل العماني استجاب بسهولة لفكرة عرضتها
تتعارض مع تراث طويل لديه •

ونعود بعد ذلك للحديث عن زيارتي لعمان وعن أهدافها :

الزيارة الأولى : الاشتراك في ندوة الدراسات العمانية :

في سنة ١٩٨٠ دعا سمو الأمير فيصل بن علي بن فيصل وزير التراث
القومي والثقافة مجموعة من المفكرين المسلمين والغربيين للاشتراك في
« مهرجان التراث العماني » وحضور « ندوة الدراسات العمانية » التي
أقيمت في مسقط من أول نوفمبر إلى الناهن منه سنة ١٩٨٠ وذلك بمناسبة
احتفال السلطنة بعيدها الوطني العاشر في العهد الزاهر لحضرة صاحب
الجلالة السلطان المعظم : السلطان قابوس بن سعيد •

وسرعان ما اخترت موضوعاً أسهم به في هذه الندوة ، وفي الموعد
المحدد كنت هناك ، حيث التقيت بعدد كبير من الباحثين والدارسين دعوا
لهذه الندوة من الأقطار العربية والإسلامية والغربية •

وفي « مسقط » عشنا في رحاب وزارة التراث القومي والثقافة فترة رائعة
شاهدنا فيها عمان الحديثة ، وهي تصل تاريخها المعاصر بأعجابه القديمة ،
ونعمننا بالإخوة العمانيين الذين أحاطونا بكل مظاهر الكرم والحنافاة •

وكلمة حق لا بد أن يقال هي أن صاحب السمو معالي فيصل بن علي
ابن فيصل كان طيلة أيام الندوة يحيط الأعضاء والباحثين بكامل الرعاية ،
وكان يعيش معنا ، ويشترك بكل اهتمام في سير العمل ، مما أضفى على
الندوة جواً من الدقة والتوفيق •

وقد بدأت الندوة مساء السبت أول نوفمبر بحفل افتتاح رسمي كبير
حضره مجموعة من أصحاب السمو أفراد الأسرة المالكة الكريمة ، كما حضره
أصحاب المعالي الوزراء ومجموعة من علماء عمان الأجلاء ومن أعيان البلاد •

وابتداءً من يوم الأحد بدأ إلقاء البحوث والدراسات في الصباح والمساء وقد وُضع تخطيط دقيق لضمان حسن سير العمل ، فخصصت أربعة أيام هي أيام : الأحد والاثنين ، والأربعاء والخميس لإلقاء البحوث ومناقشتها أما يوم السبت ويوم الثلاثاء فقد خُصّصا لرحلات داخل عمان ، وكان يوم الجمعة يوم راحة •

وقد لوحظ أن البحوث كانت غزيرة المادة ، وأن المناقشات كانت جادة ومثمرة ، مما أضفى على الندوة جوا من الاهتمام والنجاح •

أما الرحلات فكانت ممتعة حقاً ، فقد زرنا فيها المناطق العريقة في عمان ، ورأينا العواصم القديمة ، والقلاع الشاهقة ، وكم وقف الباحثون بإعجاب أمام قلاع جبرين ونزوى وبهلا وببت النعمان وحصن الحزم والرسنق •• ••

على أن إعجابنا بالقديم لم يصرفنا قط عن إعجابنا بالحديث ففى كل خطوة خطوناها ، وفى كل مكان وقفنا به ، كانت معالم النهضة الحديثة تنطق أمامنا بالتحية والإجلال للقائد هذه النهضة ، وباعت هذا المجد حضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم ، الذى بعثته الأقدار ليشوم بنهضة شاملة فى هذا القطر العظيم ، وقد استجابت عمان ليد الإصلاح ، فإذا كل شئ نابض بالحركة . وإذا الأمل يفيق ، والخير يمتد ، ويعم الأرجاء •

وقد كانت لمسات التقدم ظاهرة فى كل مكان زرناه ، رأينا هذه اللمسات فى الإنسان العماني ، وفى العمران ، والطرق ، والحقول ، فى القرى والمدن ، مما دفعنا جميعا للدعاء لصاحب الجلالة بجسّن الجزاء من الله الذى لا يضيع أجر من أحسن عملاً •

الإشراف على تصنيف وطباعة البحوث ،

وكان لي الشرف أن أَسندَ إلى الإشراف على طباعة البحوث التي قُدمت
الندوة ، وهذا التكليف استلزم أن أقوم بالخطوات التالية :

أولا — كتابة تاريخ موجز ومتصل لعمان حتى يستطيع أي «أري»
بحوث الندوة أن يوضح كل بحث على خريطة التاريخ بسهولة .

ثانيا — تصنيف البحوث :

رغبة في أن تخرج هذه البحوث في شكل علمي اتجهت إلى تصنيفها
انحفاظة على التسلسل التاريخي بين بعضها والبعض من جانب ، وعلى
الوحدة في كل مجلد من مجلدات هذا العمل من جانب آخر . ولهذا فسمت
البحوث للأقسام التالية :

- عمان في العصور القديمة .
- تاريخ عمان ونشاطها الداخلي من مطلع الإسلام حتى الآن .
- عمان في شرق إفريقيا .
- مسلات عمان بالمنزب العربي .
- عمان في مواجهة البرتغال .
- الحصون والعمران في عمان .
- علاقات عمان الخارجية سياسيا وحضاريا واقتصاديا .

ثالثا — تنفيذ الإصلاحات التي أشار بها الباحثون العمانيون :

كانت البحوث قد أُحيلت إلى مجموعة من الباحثين العمانيين لمراجعها
قبل الطبع ، وقد أثبت هؤلاء الباحثون بعض الملاحظات المهمة ، وكان
على أن أضع هذه الملاحظات موضع التنفيذ .

رابعاً — الإشراف على الطبع والإخراج :

وهذا الإشراف استلزم إعداد الأكتنشييات والخرائط والتنسيق والمراجعة ، ثم عمل الفهارس ، لضمان إخراج هذه المجموعة من البحوث في شكل يلائم المناسبة العظيمة لهذه الدراسات الرائعة .

ومن الاعتراف باليد لصاحب اليد أن نذكر أن صاحب السمو معالي وزير التراث القومي والثقافة السيد فيصل بن علي بن فيصل قد أولى هذا العمل كل العناية ، وكما رعى الندوة رعى إخراج بحوثها في أحسن سوب .

ومما يذكر أن هذه البحوث قد خرجت في ثمانية أجزاء بعنوان :

حصـاد

ندوة الدراسات العمانية

الزيارة الثانية لعمان : تكريم عالم فاضل من علماء عمان :

ومن الرحلات التي قمت بها إلى عمان رحلة للاشتراك في مهرجان لتكريم أحد علماء عمان البارزين هو الفقيه الفاضل الشيخ سالم بن حمود السيابي ، وهو مؤلف لعشرات من الكتب في موضوعات مختلفة وشاملة ، ولعل أهمها كتابه « عمان عبر التاريخ » وهو يقع في خمسة أجزاء وكتاب « إرشاد الأنام في الأديان والأحكام » وهو أيضا يقع في خمسة أجزاء وبعض مؤلفاته في الفقه مثل : القول المعتبر في أحكام صلاة السفر ، والعقود المفصلة في الأحكام المؤصلة

وقد كتبت بحثاً طويلاً عرضت فيه مؤلفات الشيخ وحللت أهم مناسباتها .

الزيارة الثالثة : الاشتراك في كتاب عن « عمان في التاريخ » :

في سنة ١٩٩٠ اتجهت عمان للاحتفال بمرور عشرين عاما على نهضتها وارفعه الظلال منذ بدأ عهد السلطان قابوس . وكان من الأعمال العلمية التي اتجهت وزارة الإعلام لإبرازها في هذه المناسبة أن دعت عددا كبيرا من المؤرخين لإعادة كتابة تاريخ عمان . واختير لى موضوع مهم في هذا التاريخ هو « تاريخ العواصم العمانية » .

والحق أن هذا الموضوع كان غامضا تماما ، ولم تسبق الكتابة عنه ، بل إن العواصم لم يكن متفقا عليها . وقد زرت عمان بهذه المناسبة وتجوّلت في أنحائها ، واطلعت على كثير من المراجع ، وقابلت عددا من علماء عمان وعدت لمصر ، وعشت في تصوراتى ومراجعى حياة خصبة كان من ثمارها ان كتبت بحثا مهما عن هذا الموضوع . يسرّنى أننى أضفته من قبل لهذا الكتاب في الصفحات من ٢٥٧ إلى ٢٨٧ .

هذا وإذا كانت لى صلات خاصة بعمان ، فإن لبلادى صلات خاصة بها كذلك ، فالإنسان المصرى لا ينسى أن سفارة عمان ظلت اعلامها ترفرف بالقاهرة ، وظلت الصلات الدبلوماسية والثقافية متصلة بين البلدين . يوم اتبعت باقى الدول العربية اتجاه العراق فى مؤتمر بغداد سنة ١٩٧٨ الذى قرر قطع العلاقات مع مصر وسحب السفراء .

وهذا يدل على عمق الروابط بين مصر وعمان . وعمق استقلال عمان فى اتخاذ القرار .

اليمن:

- ١- الجُمهُورِيَّة العَرَبِيَّة اليَمَنِيَّة
- ٢- جُمهُورِيَّة اليَمَن الديمقراطيَّة الشَّعْبِيَّة

ثم الوحدة التي تحققت سنة ١٩٩٠

حدود اليمن

إن المحاولات التى تجرى فى العهد الحاضر لتوحيد اليمن الشماليه واليمن الجنوبيه ليست إلا عملاً يُقصد به إعادة الحق إلى نصابه ، فاليمن الشماليه واليمن الجنوبيه يكوّنان على مر التاريخ دولة واحده ولم يوجد الانفصال إلا بفعل تمزق يعم البلاد ، أو قوى أجنبية تحتل بعضها •

والكتب التاريخيه التى بين أيدينا تضع حدود اليمن بحيث تشمل اليمن الشماليه واليمن الجنوبيه ، ومن هذه المراجع ما يمتد بحدود اليمن الشرقيه إلى الخليج العربى ، فيجعل المساحة الجنوبيه من الجزيرة العربيه الممتدة مع المحيط الهندى من البحر الأحمر إلى خليج عمان تكوّن دولة واحده هى اليمن ^(١) وهؤلاء فى هذا الاتجاه يتبعون ما عرف عن حدود اليمن قبل ظهور الإسلام ، فقد ذكر جورجى زيدان ^(٢) أن اليمن فى التاريخ القديم كان يحدها من الشرق خليج العرب ، ومن الغرب البحر الأحمر ، ومن الجنوب المحيط الهندى ، وذكر الهمدانى ^(٣) أن بلاد اليمن تمتد من جنوب نجد والحجاز فى الشمال إلى خليج عدن فى الجنوب ، ومن حدود عمان والربع الخالى شرقاً إلى البحر الأحمر ومضيق باب المندب غرباً ، وهناك نص قديم يرجع إلى عهد الملك شرحبيل بن يعفر (٤٣٥ — ٤٥٥ م) وهو مكتوب بخط المسند ويفيد هذا النص أن هذا الملك الذى امتد حكمه على هذه المناطق جميعاً قام بترميم سد العرب (مأرب) وفيما يلى فقرات من هذا النص :

شرحبيل ملك سبأ وريدان وحضرموت وبمئات وأعرابهم فى الطور وتهامة ، قام بترميم سد العرم أى سد مأرب ، بأن سرّاه (طهره) من

(١) أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ص ١٠ •

(٢) العرب قبل الاسلام ص ١١٩ •

(٣) صفة جزيرة العرب : ص ٥١ •

أكداس القرب من أسفله إلى أعلاه ، بغية تحويل المياه إلى العرم ، وقد اشترك في العمل الكثيرون من قبائل حمير وحضرموت (١) .

وقد امتد اليمن في التاريخ الإسلامي فشمّل حضرموت في آخر فترات هذا التاريخ ، فكان عمال الخلفاء على اليمن يتولون ولاية حضرموت أيضا في أكثر الأحوال ، ويعينون من قبلهم نوابا عليها (٢) .

ذلك هو الاتجاه العام بالنسبة لليمن وحضرموت ، ولكن هناك اتجاها آخر يميل له بعض الحضارمة ، وهو أن حضرموت غير اليمن تاريخا وحضارة ، وقد تمسك بهذا الرأي الأستاذ صالح بن سعيد . فقد انتهر فرصة رواية تشير إلى أن حضرموت جزء من اليمن فعلق عليها قائلا : لا يفوتني أن أذكر أنه ليس المراد أن حضرموت جزء من اليمن ، وإن كان بعض المؤرخين يطلقون عليها اليمن بوجه عام ، ولكن إذا أردنا الدقة فحضرموت دولة مستقلة لها تاريخها القديم المستقل وعاداتها وتقاليدها ، ومنذ فجر الإسلام كان الرسول يبعث لها بعوثا خاصة غير مكثف ببعوث اليمن (٣) .

ويستدل هذا المؤلف على رأيه برواية يثبتها من ابن كثير في البداية ، وفيها يذكر ابن كثير عمال الرسول على اليمن وعلى حضرموت ويختتم ابن كثير روايته بقوله : وبعث معاذ بن جبل معلما لأهل البلدين : اليمن وحضرموت ، ينتقل من بلد إلى بلد (٤) . فيرى هذا المؤلف أن ابن كثير عدّهما بلدين .

(١) انظر النص كله في كتاب اليمن عبر التاريخ ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٢) صالح بن حامد العلوي : تاريخ حضرموت ج ١ ص ١٦٨ .

(٣) دخول الاسلام الى حضرموت ص ٢٧ (وانظر الهامش) .

(٤) المرجع السابق ص ٣٠ .

أقسام اليمن الطبيعية :

تنقسم اليمن طبيعياً ثلاثة أقسام هي :

١ — منطقة تهامة ذات المناخ الحار الواقعة على ضفة البحر الأحمر ابتداء من المحيط الهندي إلى « حرض » شمالاً بعرض خمسين كيلو متراً تقريباً ، وتمتاز أرضها بالخصوبة ، وتدفق المياه •

٢ — المنطقة الجبلية ذات المناخ الصحى المعتدل ، وتسمى منطقة الجبال « سلسلة جبال السارات » وتبدأ هذه المنطقة من أرض المغافر الحجرية جنوباً إلى الطائف شمالاً بعرض حوالى ١٥٠ كم ويتراوح ارتفاعها عن سطح البحر بين ١٠٠٠ و ٣٦٠٠ متر ، وهى من أهم المناطق لزراعة البن والحبوب ، وتهطل عليها الأمطار بغزارة •

٣ — المنطقة الصحراوية الشرقية ، وهى منطقة حضرموت حتى عمان شرقاً ، وعرضها حوالى خمسمائة كم ، وفيها مناطق اليمن الأثرية ، ومدن معين وسبأ وقتبان ، كمأرب ، وصراوح ، وحريب ، ••••• ، وقد حظيت هذه المنطقة بازدهار عظيم فى الماضى فى المجال الزراعى والعمرانى ، وتعتبر أقدم منطقة فى العالم عرفت أساليب الري التى كانت تعتمد على السدود ، كسد مأرب ويسرين وغيرهما ، وفيها الكثير من بقايا القصور والمباني مما يرجع بناؤه إلى عهد شهرة اليمن وتفوقه (١) •

تاريخ اليمن قبل الإسلام :

إن تاريخ اليمن قبل الإسلام تاريخ حافل ، ومن الممكن أن نقرر هنا حقيقة شهيرة ، هى أن اليمن حملت لواء حضارة مزدهرة فترة طويلة من الزمن ، ولعبت فى التجارة دوراً كبيراً ، كما كان لها دور عظيم فى نشر الفكر الحضارى قبل الإسلام وبعده •

(١) أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ص ١٧ بتصريف •

وفي اليمن القديمة قامت إمارات كثيرة ، لم يكشف التاريخ بعد عن مكاناتها ، ولكنَّ هناك خمس دول ذات أهمية كبرى ، تكلمنا عن أهمها في الجزء الأول من هذه الموسوعة . وهي بإيجاز كالآتي :

مملكة معين :

أقدم دول اليمن المعروفة هي دولة معين . وقد بدأت من القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وظلت حتى ٨٥٠ قبل الميلاد وحلت محلها مملكة سبأ . وكان لمعین عاصمتان إحداهما سياسية وهي « معين » والثانية دينية وهي « بثيل » وسنتكلم كلمة فيما بعد عن هذه الدولة التي وضعت الأساس لحضارة اليمن ، ونشاطها في الداخل والخارج .

مملكة حضرموت :

وقد بدأت حوالي سنة ١٠٢٠ قبل الميلاد وظلت حتى سنة ٦٥ ميلادية ، وكانت عاصمتها « شبوة » وقد تغلبت عليها سبأ وضمّت أرضها .

مملكة قتبان :

وقد بدأت حوالي الألف الأول قبل الميلاد ، وكان لها الإشراف على باب المندب ، وكانت عاصمتها (تمنع) وسقطت سنة ٥٤٠ قبل الميلاد ، وقد ورثتها سبأ كما ورثت دولة معين ودولة حضرموت .

مملكة سبأ :

وقد قامت حوالي سنة ٩٥٥ قبل الميلاد وظلت حتى سنة ١١٥ ميلادية ، وكانت عاصمتها مأرب ، واتسع ملكها كما ذكرنا من قبل فشمل مملكة حضرموت ، ومملكة معين وكتبان ، وقد تحدثنا عنها في الجزء الأول من هذه الموسوعة (١) .

(١) موسوعة التاريخ الاسلامي ج ١ ص ٩٨ من الطبعة الرابعة عشرة .

مملكة حمير :

ونسمة دولة التتابعة ، وكانت عاصمتها (ظفار) وظلت حتى أسقطها
الاستعمار الحبشى سنة ٥٢٣ ميلادية •

حضارة اليمن القديمة

وينبغى أن نفرر أن أقدم سكان اليمن الذين سكنوا مملكة معين جاءوا
إلى هذه المناطق وافدين من أرض العراق ، وكانوا هناك من العمالة الذين
نالوا حظا وفيرا فى دولة حمورابى ، ثم وفدوا إلى اليمن ومعهم
حضارة زاهرة كانت أساسا للدور الحضارى الذى لعبوه فى موطنهم
الجديد • •

ومع قيام دولة معين بدأت صلة كبيرة بين هذه المناطق وبين اليونان
ومصر ، وكانت موانى اليمن الكثيرة تستقبل الحاصلات من الهند والصين
ودول جنوب شرقى آسيا ، وتصدرها إلى اليونان ومصر ، فكانت همزة
وصل بين هذه الدول •

وتتحدث النصوص التى عثرت عليها فى مصر عن الصلات التى كانت
تربط مصر بالمعنيين ، كما تقرر أن جالية معينة كانت تعيش فى مصر ،
وأن المعنيين كانوا يقومون بتزويد معابد مصر بالبخور ^(١) ، وصلات
اليمن باليونان ومصر وصلاتها بالفرس والهند والشرق الأقصى جعلها على
علم بما كان يوجد فى هذه الأقطار من علوم وفنون مما جعل التبادل لا
يتوقف عند السلع ، بل يشمل الأفكار والحضارات •

وقد خلفت سبأ وحمير آثارا تدل على العظمة والرقى ، وهى تشمل
كثيرا من الأطلال والنقوش ، كما كان لها أسطول ضخم ينقل البضائع

(١) دكتور جواد على : تاريخ العرب قبل الاسلام ج ١ ص ٣٩٧
وما بعدها •

بين موانئ الهند والصين وسومطرة والصومال بحيث كانت التجارة شبيهة احتكار في يدها (١) .

ومن اليمن كانت التجارة تصعد إلى الشمال بقوافل برية تسيطر عليها اليمن أيضاً ، قبل أن ينتقل مركز هذه القوافل إلى مكة ، فقد كانت سبباً إبان عظمتها التجارية تسيطر على طرق النقل التي تجتاز الحجاز متجهة شمالاً حتى موانئ البحر المتوسط ، وكانت لها مستعمرات أنشئت على هذه الخطوط ، ويرى الدكتور حتى أن بلقيس لم تكن ملكة على بلاد اليمن ، وإنما كانت ملكة على أحد معاقل سبأ ومراكزها التجارية سالفه الذكر (٢) .

وقد كان تجار اليمن من الذكاء لدرجة أنهم حافظوا على أسرار تجارتهم ، فلم يعرف أهل الشمال مصادر كثير من البضائع التي كانت ترد إلى اليمن من الهند وإندونيسيا والصين وغيرها حتى ظن بعض الرومان واليونان أن جميع هذه البضائع كانت من إنتاج اليمن (٣) .

وقد كتب الهمداني (٣٣٤ هـ) مجموعة كبيرة من الكتب وصف فيها حضارة اليمن كما شاهدها ، وتحدث بإفاضة عن آثار سبأ وحمير من الحصون ، والقصور ، والمعابد ، والسدود ، وصهاريج المياه وقنوات الري ، والأبراج ، وتماثيل الرخام والبرونز ، وجلاميد الصخر الهائلة المنحوتة نحتاً فنياً رائعاً إلى غير ذلك من زخرفة الحيطان وسقوف الأبنية والمعابد بالذهب والفضة والبرونز ، وغيرها من المعادن التي استطاعوا

(١) Peciplus of the Erytarasan Sea Translated from the Greck.

(٢) فيليب حتى : تاريخ العرب ج ١ ص ٥٤ .

(٣) المرجع السابق : ص ٥٩ - ٦٠ .

استخراجها من بطون الأرض ، واستخلصوها مما خالطها ثم استعملوها
أروع استعمال (١) .

الاديان في اليمن قبل الإسلام :

وقد انتشرت في اليمن الديانة التي كان القمر فيها يعد إلها ، وهي
إحدى الديانات الرئيسية التي كانت تسيطر على جنوب الجزيرة منذ عام
ألف قبل الميلاد ، أى منذ مطلع عهد مملكة سبأ ، وعاشت بهذه المناطق
حتى دخلت الديانة اليهودية اليمن في مطلع القرن السادس الميلادي ،
ولكن هذه لم تعمر باليمن كثيرا ، فحلت محلها الزراد شتية على يد الفرس ،
ثم الديانة المسيحية على أيدي الأحباش ، وظلت المسيحية باليمن حتى
جاء الإسلام ، ويبدو أن كثرة الأديان باليمن واضطراب هذه الأديان لم
تدع لأى منها فرصة للتعمق في ذهن اليمنيين ، فلما جاء الإسلام رحّبوا به .

وقد عرّف تاريخ اليمن القديم النظام الدستوري ، والمجالس النيابية
والقبلية التي كانت تمثل بها القبائل تمثيلا يترك لها مجالا واضحا في
السلطات التنفيذية .

كما عرفت اليمن بناء السفن ، وفن الملاحة بما يستتبعه من علوم
فلكية وطبيعية ، كما كانت قصور اليمن نموذجا ظل بعد الإسلام لما كان
له من جلال وجمال .

اليمن فريسة الاستعمار :

سقطت اليمن فريسة الاستعمار سنة ٥٣٣ ميلادية ، وقد وضعنا في
الجزء الأول من هذه الموسوعة ظروف امتداد نفوذ الحبشة إلى اليمن ،
وقد ظل الأحباش باليمن اثنتين وسبعين سنة ، ثم انتصر عليهم الفرس

(١) أنظر كتاب : صفة جزيرة العرب ، والاجزاء التي عرفت من
كتاب الاكليل للمهمداني ، وحديث الاستاذ أحمد شرف الدين عن الهمداني
وكتبه .

وطردوهم منها (١) ، وكان مع الفرس أحد أولاد ملوك حمير واسمه سيف بن ذى يزن ، وقد عينه ملك الفرس حاكما على اليمن ، ولكنه قتل على يد الذين استبقاهم لخدمته من الأحباش وقيل قتل بتدبير الفرس ، وتشتت شمل اليمن بقتل سيف بن ذى يزن ، وقامت باليمن طوائف متعددة ، ودويلات كثيرة لكل منها ملك ، وعين كسرى وهرز حاكما لليمن ، وكان سلطانهم فوق سلطان ملوك الطوائف (٢) .

وبعد وهرز حكم أبناؤه وأحفاده على ما ذكرناه في الجزء الأول من هذه الموسوعة ، حتى آل السلطان إلى يد باذان الذى عينه كسرى ، والذى ظهر في عهده الإسلام ، وبعث له رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم يطلب دخوله هذا الدين ، في الوقت الذى بعث فيه للملوك والرؤساء في مناطق الجزيرة وما حولها ، وتذكر الرواية أن كسرى عندما جاءه رسول محمد ثار وأرسل إلى باذان نائبه باليمن يطلب منه أن يرسل رجلين شديدين إلى مكة ليقبضا على محمد تمهيدا لإرساله إلى كسرى ، وبدأ باذان ينفذ ما أمر به ، فأرسل الرجلين إلى رسول الله ، ودخل الرجلان على محمد وأخبراه الخبر فقال محمد لهما : قولوا لمن أرسلكما أن ربى قتل ربه ، وكان قد أوحى للرسول أن شبرويه ابن كسرى قتله ، وعاد الرجلان بهذه الرسالة ، وكان خبر القضاء على كسرى لم يصل إلى اليمن ، فقال باذان : إن صدق محمد فهو نبي حقا ، وبعد فترة قصيرة وردت الأخبار بذلك ، فأمن باذان وآمن معه كثير من السكان ، وبدأ الإسلام ينتشر في اليمن .

(١) تاريخ الطبرى : ج ١ ص ٥٥٨ .

(٢) صالح بن حامد العلوى : تاريخ حضرموت ج ١ ص ١١٣ .

الإسلام في اليمن

فتح إسلام باذان الطريق لانتشار الإسلام بنواحي اليمن ، وكان التخلص من نفوذ الفرس من أهم العوامل التي دفعت السكان لاعتماد الإسلام .

وفي عام الوفود مَدَّمت من اليمن ، ومن حضرموت وفود متعددة ، ومنها وفود كندة وهمدان وخولان والنخع والصدف وعذرة وجهينة ومراد غيرها .

وكان وفد كندة برئاسة الأشعث بن قيس الكندي صاحب مرباع حضرموت ، وله ولأولاده تاريخ قلق أبرزناه في الجزء الأول والثاني من هذه الموسوعة ، ويقولون أن وفد كندة كان أهم وفود اليمن للرسول ، وقد كان هذا الوفد مثالا للروعة وحسن الهيئة ، وكان يتكون من ثمانين عضوا ، كل واحد منهم متأنق في لباسه وهيئته ومركبه ، وكان الأشعث رئيس الوفد من ملوك كندة ، وصاحب مرباع حضرموت .

وكان وفد همدان برئاسة مالك بن الخطهمداني ، ومالك بن أيفع الهمداني .

وكان وفد حمير برئاسة الحارث بن عبد كلال الحميري ، ونعيم بن عبد كلال ، وكان وفد مراد برئاسة فروة بن مسبك المرادي .

ومن العظماء الذين وفدوا على الرسول من اليمن وائل بن حجر بن ربيعة وكان من أبناء الملوك باليمن ، فأدناه الرسول منه وأجلسه على رداءه ثم أقطعه الرسول أرضا وأرسل معه معاوية بن أبي سفيان ليعلمها إليه ، فركب وائل ناقته ومشي معاوية خافه ، ولما شق المشي على معاوية طلب من وائل أن يردفه خلفه ، فقال وائل : لست كفتا لأن تكون ردفا .

وقد عاش وائل حتى أصبح معاوية خليفه ، فوفد وائل عليه بدمشق ، فأكرمه معاوية وأحسن إليه فقال وائل : وددت لو كنت حملته بين يدي ^(١) .

ومن مشاهير الذين وفدوا من اليمن أبو موسى الأشعري ، وأخوه أبو بردة ، وياسر بن عمار العنسي والد عمار بن ياسر ^(٢) .

عمال الرسول على اليمن :

لما أسلم باذان أقره الرسول على مكانته باليمن وأيا على جميع مخاليف اليمن ، وقد اتخذ صنعاء عاصمة له وبقي بها حتى مات بعد حجة الوداع ، فقسم الرسول اليمن إلى عشر عمالات ، عين عليها ولادة من قبله كما يلي :

• شهر بن باذان على جانب من صنعاء .

• وعامر الهمداني على الجانب الآخر من صنعاء .

• وظاهر بن أبي هالة الأسدي على مك

• وزيادة بن لبيد على حضرموت .

والمهاجر بن أبي أمية أخى أم سلمة على كندة وقد تولى زياد بن لبيد إمارة كندة بالنيابة عن المهاجر الذي منعه المرض من الذهاب لها عقب توليته إياها .

• وعكاشة بن ثور على السكاسك والمسكون .

• وأبو موسى الأشعري على زبيد .

• وخالد بن سعيد على نجران .

(١) ابن عبد البر : الاستيعاب ، والاصابة .

(٢) تحدث ابن حجر العسقلاني في كتابه « الاصابة في تمييز الصحابة » عن أبرز شخصيات هذه الوفود أحاديث واسعة .

ويعلى بن منبه التميمي على الجند *

وعمر بن حزم الأنصاري على بعض مناطق حضرموت *

وبجوار هؤلاء الولاة أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم دعاة وقضاة إلى اليمن ، ومن هؤلاء : أبو عبيدة بن الجراح الذي أرسله الرسول صلى الله عليه وسلم مع وفد نجران حينما سأله قادة هذا الوفد أن يبعث لهم إلى اليمن رجلاً أميناً ، فنظر الرسول إلى أبي عبيدة بن الجراح وقال له : قم يا أبا عبيدة معهم ، فأنت أمين هذه الأمة (١) .

ومن هؤلاء كذلك على بن أبي طالب الذي بعث به الرسول ليتولى منصب القضاء باليمن ، ولما تردد على خوفاً من هذا المنصب قال له الرسول : إن الله سيهدي لسانك ويثبت قلبك ، وكانت وجهته رضى الله عنه صنعاء ومخالفها ، ومنهم كذلك معاذ بن جبل الذي اتجه إلى الجند ومخالفه ، وهكذا شمل الدعاة أقسام اليمن الكبرى .

ويتضح مما ذكرناه أنفاً عن عمال اليمن أن الانقسام أصبح واضحاً في هذه المنطقة ، ذلك الانقسام الذي عرفه تاريخ اليمن قبل ذلك كما اتضح من الوفود التي جاءت شبه مستقلة لتعلن الرسول إسلامها .

اليمن في عهد الخلفاء الراشدين

تحدثنا في الجزء الأول من هذه الموسوعة ، وفي مطلع هذا الجزء (السابع) عن المشكلات التي واجهها الخليفة الأول أبو بكر الصديق ، وهي المرتدون ، ومانعو الزكاة ، والمتنبئون ، وذكرنا أن عدم تعمق الإسلام في بعض النفوس جعلهم يستجيبون لكل ثورة تعمل لتخليصهم من تكاليف الإسلام المادية كالزكاة — أو التزاماته العقائدية

(١) بدر العيني : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان : مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ ج ٧ ورقة ٦٥٤ .

كالتوحيد والعبادات ، ونريد هنا أن نقول : إن اليمن أسهم بنصيب كبير في هذه الثورات المضادة للإسلام ، وإنه قامت به أكثر هذه الحركات ، وكانت باليمن أسباب كثيرة تمهد لهذا التمرد والانحراف عن الإسلام الصحيح ، فقد كانت هناك منافسات عميقة الجذور بين الحضر باليمن والبدو في وسط الجزيرة ، ورأى اليمن أنه سيفقد سلطانه نهائيا إذا أصبح الحجاز مركز السلطة ، ثم إن ملوك الطوائف باليمن أصبحوا مرعوسين للعمال الذين عينهم الرسول على مناطق اليمن ، وكان هؤلاء الملوك يحرصون على مكانتهم ويرون أن خضوعهم لعمال المدينة فيه مهانة لهم ، وكانت هناك كذلك الاضطرابات الفكرية المنتشرة باليمن بسبب الاتجاهات الدينية والفكرية الكثيرة التي عرفها اليمن بسبب موقعه وظروفه ، فقد وفدت على اليمن اتجاهات دينية مع التجار الوافدين أو المعائدين من الهند ومن الشرق الأقصى ، وانتشرت في اليمن اليهودية عندما تهود حاكمها ، وحكم الفرس اليمن فجلبوا الزرادشتية معهم ، وحكمها الأحباش ففرضوا المسيحية ، وكانت الوثنية دينا شائعا بين العرب ، وكل هذه الأسباب حالت دون تعمق الإسلام في النفوس ، وهيات لإثارة الشغب في مناطق اليمن وما جاورها ، وقد هبت الحركات المضادة للإسلام في أواخر عهد الرسول ، واتسعت في عهد أبي بكر الصديق ، والحق أنه ليس يعنينا أن تسمى الحركة بمانعى الزكاة أو المرتدين أو المتبئين ، فكلها تنبع من معين التمرد ، وتصب فيه ، وكانت إذا فشلت حركة انضم أتباعها إلى أية حركة أخرى تحمل لواء العصيان . وفيما يلي كلمة عن أشد حركات اليمن .

الأسود العنسي :

ادعى الأسود العنسي النبوة في بلاد مذجح حيث كان يتكهن هناك في أحد الكهوف (١) وكان له مريدون افتتنوا به ، فهب بهم يعان نبوته وسمى نفسه « رحمان اليمن » وقد استطاع أن يدخل نجران التي تجاور

(١) النويري : نهاية العرب ج ٣ ص ٣٧٩ .

بلاد الحجاز وأجلى عنها خالد بن سعيد ، وتبعه كثيرون من نجران فاقتحم بهم صعاء ، وقتل نسر بن باذان وتشت جيشه وتزوج امرأته ، وعلا شأنه في اليمن ، وكان ذلك في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان الرسول آنذاك يعد العدة للزحف على الروم بالشمال وقد طرأت فكرة أن يتجه الجيش الذي أعد للشمال ليضرب الأسود باليمن ، ولكن الرسول اثار أن تبقى خطته كما هي ، إذ ظهرت في بلاط هذا المتنبئ موجه من المؤامرات اغت عن شن حملة عسكرية عليه ، وكان في قمة هذه المؤامرات حركة قادتها زوجته وألها نقمة عليه بسبب زواجه من امرأة شهر بن باذان ، ونجحت هذه المؤامرات ، فقتل الأسود العنسي غيلة بمؤامرة دبرتها هذه الزوجة مع بعض خصومه في سكون الليل ، وكان ذلك نيل وفاة الرسول بيوم أو يومين ^(١) وكانت مدة ظهور العنسي حوالى أربعة شهور ^(٢) .

وبعد مقتل الأسود العنسي ووفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه أرسل أبو بكر أحد جيوشه بقيادة المهاجر بن أبي أمية للقضاء على ما تبقى من أتباع الأسود ، ثم للقضاء على ثورة كندة بحضرموت التي سنتحدث عنها فيما يلي :

الأشعث بن قيس :

أظهر الأشعث بن قيس الكندي التمرد في حضرموت عقب وفاة الرسول ، ثم حدثت حادثة جعلته يعلن الردة ، فقد كانت طوائف من كندة قد أعلنت ردتها ، فحاربها زياد بن لبيد ، وأسر منها كثيرا من النساء ، وقد مر وفد النسوة بالأشعث فنادينه منتحبات باكيات لينقذهن من الأسر ، فهب الأشعث يعلن تمردا شاملا في كندة وحضرموت ، ويعلن وقف دفع الزكاة ، ولكن فواد المسلمين تدافعوا نحو هذه المناطق بجيوشهم الكبيرة ، فقبضوا على الأشعث وهزموا جيشه ، فشد المهاجر بن أبي أمية

(١) انظر ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٢٣٠ وفتوح البلدان للبلاذري ١٠٦ .

(٢) ابن عبد البر : الاستيعاب القسم الثالث ص ١٢٦٥ .

وثائق الأتسعت وأرسله إلى أبى بكر ، وقد درخ فيه أبو بكر قائلا : أكفر بعد إيمان يا أتسعت ؟ فأجاب الأتسعت : لا ولكننا شححنا بأموالنا • وتاب الأتسعت فقبل أبو بكر توبته ، وتزوج هذا أخت أبى بكر فيما بعد ^(١) ، وقد أوردنا فى الجزأين الأول والثانى من هذه الموسوعة دراسات عن أخلاق أسرة الأتسعت تدل على أن مبادئ الإسلام لم تتعمق فى نفوس هذه الأسر ، وقد اشتترك فى حرب الأتسعت مع المهاجر زياد بن لبيد وعكرمة ابن أبى جهل •

أهل مهرة :

وارتد أهل مهرة فى موجة التمرد التى شملت جنوب الجزيرة ، فأرسل لهم أبو بكر عكرمة بن أبى جهل عقب الخلاص من مسيلمة فتحقق النصر على يديه •

وفاء أهل اليمن إلى الإسلام كما يقول تاج الدين اليماني ^(٢) واتجه أبو بكر إلى تجميع وحدات اليمن لتكون تحت أميرين فقط ، فجعل عبد الله بن أبى ربيعة على الجند ومخالفه ويعلى بن منية التميمي ^(٣) على صنعاء وأعمالها ، وكان والى صنعاء يتولى حضرموت أيضا ويعين من قبله نوابا عليها •

واستكمالا للحديث عن ولاية اليمن فى عهد الخلفاء الراشدين نذكر أن عمر بن الخطاب أقر عبد الله ويعلى فى عمليهما ، ثم عزل عمر يعلى لشكاية فيه واستعمل بدله المغيرة بن شعبة على صنعاء ، فلما عاد يعلى إلى عمر دافع عن نفسه وأظهر بطلان الشكاية فردده عمر إلى عمله بعدد سنتين •

(١) ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة ج ١ ص ٦٩ •

(٢) بهجة الزمن فى تاريخ اليمن ص ١٥ •

(٣) نسبة إلى أمه وأحيانا ينسب إلى أبيه فيقال يعلى بن أمية •

وفي عهد عثمان أقر الخليفة النواليين في مكانهما ، فلما جاء على ابن أبي طالب استعمل ابن عمه عبيد الله بن العباس على جميع اليمن ، ففارق يعلى وعبد الله بن أبي ربيعة اليمن ، وأتيا مكة ، وانضم يعلى إلى طلحة والزبير وعائشة وأعانهم بمال وإبل ، واستمر عبيد الله باليمن حتى أدبر أمر على (١) .

الفتوحات الإسلامية وأهل اليمن

عندما انتهت مشكلات التمرد بالجزيرة العربية ، وعادت الجزيرة إلى الطاعة ، بدأ التوسع الإسلامي في الشمال ، وقد حملت اليمن عبئا ضخما في الصراع ضد الفرس والروم ، ويذكر المؤرخون أنه عندما تلقى خطاب أبي بكر داعيا أهل اليمن للجهاد استجابوا بحماسة لهذه الدعوة حتى يخدموا راية الإسلام من جانب وحتى يتجهوا بنشاطهم العسكري إلى أعداء العرب من جانب آخر ، وسرعان ما نهض عدد كبير من قبيلة ذي الكلاع بقيادة زعيمها ذي الكلاع الحميري ، ومن قبيلة مذحج بقيادة زعيمها قيس بن هبيرة ومن قبيلة روس (الأزد) بقيادة زعيمها جندب ابن عمر الروسى ، ومن طيء بقيادة زعيمها حابس بن سعد الطائي ، ووصل هؤلاء جميعا إلى أبي بكر في يوم واحد ، وكان عددهم يزيد على العشرين ألفا بكامل سلاحهم وعتادهم ، فبعثهم أبو بكر إلى العراق والشام فجاهدوا أصدق جهاد ، وأبرزوا أعظم بلاء (٢) .

وكان معظم الجيش الذي اعتمد عليه عمرو بن العاص في فتح مصر من اليمنيين الذين ينحدرون من عك وغافق ، ومن لخم ، وراشده (٣) ويرجع الفضل في اقتحام حصن الفرما إلى سميدع بن وعله السبئي ، كما أبلى اليمنيون بلاء حسنا في حصار حصن بابلون (٤) .

-
- (١) تاج الدين اليماني : في تاريخ اليمن ص ١٥ .
(٢) أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ص ١٦٨ .
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٥٦ - ٥٨ .
(٤) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٢ وما بعدها .

اليمن بين عثمان وعلي :

اختلف اليمنيون إبان الثورة على عثمان ، فمال أكثرهم إلى علي بن أبي طالب ، الذي كان يعتبر منافسا لعثمان ، ومن أجل هذا كانت اليمن أحد مراكز الثورة على عثمان ، ولما آلت الخلافة إلى علي وعارضه معاوية أخذ اليمنيون مكانهم في صفوف علي ، وكانت همدان شديدة الحماس لعللي في صراعه ضد منافسيه *

ومن الشخصيات اليمنية التي برز اسمها في تاريخ الصراع الذي خاضه علي كرم الله وجهه مالك بن الأشتر النخعي اليماني الذي كان كبير القواد في جيش علي ، وأبلى أحسن البلاء في موقعتي الجمل وصفين * ومنهم كذلك البراء العذري الهمداني الذي كان في جيش معاوية ثم تركه وانضم إلى جيش علي ، عندما رأى معاوية يمنع الماء عن جيش علي ، ومنهم سعيد بن قيس الذي يعتبر أحد فرسان العرب المحدثين وأحد الدهاة الخمسة : معاوية وعمر بن العاص والمغيرة بن شعبة ، وقيس بن سعد ابن عباد ، وسعيد بن قيس *

اليمن في العهد الأموي

كان معاوية يدرك انحياز اليمن إلى علي بن أبي طالب ، ومن أجل هذا نجده عندما ضعف أمر علي إبان صراعه مع الخوارج والأمويين * يتجه معاوية لضم اليمن إليه ، واستعمل في سبيل ذلك صورا من القسوة والعنف ليثبت أمره بهذه البلاد ، فأرسل لها جيشا كبيرا بقيادة رجل عرف بالقسوة والشدة هو بسر بن أرطاة العمري ، وأمره أن يقتل شيعة علي وكل أنصاره ، ولم يستطع عبید الله بن العباس أن يتصدى لهذا الجيش فترك اليمن عائدا إلى الكوفة تاركا أهله وذويه باليمن ، ودخل بسر صنعاء ، فقتل ولدين لعبید الله بن العباس ، كما قتل كثيرا من أنصاره ، وقد دفن الولدان في مكان بنى به مسجد ^(١) يسمى مسجد الشهيدين *

(١) الهمداني : الاكليل ج ٨ ص ٦٦ *

ولم يستكت على بن أبى طالب على هذا التصرف فأرسل جيشا كبيرا بقيادة حارثة بن قدامة السعدى ، ولم يستطع بسر أن يلتقى بهذا الجيش الكبير فولى الأدبار ، ولكن وفاة على بعد ذلك ضمت اليمن نهائيا إلى معاوية مع أجزاء العالم الإسلامى المخلفة التى دانت له .

وقد بذل الأمويون جهودا كبيرة فى تغريب اليمنيين لينتفعوا بهم وبجهودهم ، وليأخذوهم درعا يستعينون به ضد غير العرب ، وضد أعدائهم . وقد تزوج معاوية امرأة كلبية يمانية ، وأنجب منها إبنة وولى عهده يزيد ، ومن أجل هذا كانت قبيلة كلب اليمانية هى التى استطاعت أن تعيد السلطان إلى الأمويين وكان على وشك أن يزول بقيام ابن الزبير ، فبواسطة كلب قهر مروان بن الحكم عرب الشمال فى مرج راهط وبدأت انتصارات الأمويين على ابن الزبير ^(١) ولعل هذا هو الذى دفع جورجى زيدان إلى أن يقول : إن أكتاف اليمانية هى التى رفعت عرش الدولة الأموية (٢) .

وقد اتجه اليمنيون بكل قواهم للمساعدة فى حركة الفتوح الواسعة التى خاضها الأمويون وبرزت من القادة اليمنيين أسماء الكثيرين مثل عبد الرحمن الغافقى العكى اليمانى بطل الفتح الإسلامى فى أسبانيا ، وأمير الأندلس السمع بن مالك الخولانى فاتح قرطبة ، وأسد بن عبد الله القسرى الذى كافح بإصرار فى خراسان ليحافظ على ملك الأمويين بها ضد حركات الشيعة التى ظهرت هناك .

يبدو أن نشاط اليمنيين فى الأندلس كان واسعا بدليل ما عرف من قلاع تنسب إلى قبائل يمنية مثل قلعة همدان فى قرطبة ، وقلعة خولان فى غرناطة وقلعة يهصب فى أشبيلية ، ولا عجب أن يتقبل اليمنيون على أماكن الخصب بالأندلس أو الشام ومصر ، فقد كانت لهم والأجدادهم جنود فى معانة الزراعة والعيش فى رحابها .

(١) انظر كتاب اليمن وحضارة العرب للأستاذ عدنان ترسييس ص ٨٩ .

(٢) التمدن الإسلامى ج ٤ ص ٥٢ .

أما عن ولاية الأمويين في اليمن فقد تحدث عنها تاج الدين اليماني ،
ومنه نقتبس قائمة هؤلاء الولاة :

- عثمان بن عفان الثقفي
- عتبة بن أبي سفيان
- النعمان بن بشير الأنصاري
- سعيد بن دادوية (من أبناء الفرس ^(١))
- الضحاك بن فيروز الديلمي
- يزيد بن بوجير الحميري

ويلاحظ أن هؤلاء الولاة كان لهم أمر اليمن كله •

وقد ظل الموالي الأخير في السلطة حتى مات يزيد بن معاوية ، وظهر أمر عبد الله بن الزبير فأطاعه أهل اليمن إلا القليل منهم ، فولى ابن الزبير على اليمن عددا كبيرا من الولاة ، كان بعضهم لا يبقى في منصبه أكثر من بضعة شهور ثم يعزله ابن الزبير ، ومن ولاية ابن الزبير على اليمن ، عبد الله بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وعبيدة بن الزبير •

ولما عاد سلطان الأمويين على اليمن توالى أمراؤهم على النحو التالي :

- محمد بن يوسف الثقفي (أخو الحجاج)
- أيوب بن يحيى الثقفي
- عروة بن محمد السعدي
- مسعود بن عوف الكلبي
- يوسف بن عمر الثقفي
- السلطان بن يوسف بن عمر الثقفي

(١) ترى بعض المراجع أن الذي تولى بعد النعمان بن بشير هو مشير بن سعد الأعرج •

- مروان بن محمد الجعدى
- الضحاک بن واصل
- القاسم بن عمر الثقفى

ونشب آنذاك صراع باليمن قاده عبد الله بن يحيى الحضرمى الخارجى ،
وفقد استنفد هذا الصراع كثيرا من جهد الأمويين ، ولما استعادوا سلطانهم
على بلاد اليمن ، ولى مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين الوليد بن عمر ،
فكان هذا آخر ولاية الأمويين باليمن •

بين اليمن وحضرموت

رأينا القبائل باليمن الكبرى تشترك بحماسة وافرة فى حركة الفتوح
التي بدأت فى عهد الخلفاء الراشدين ، واستمرت فى العهد الأموى ، ولكن
يبدو أن هناك فرقا خلقتة الطبيعة بين اليمن وحضرموت ، فاليمن استعادت
كثيرين ممن خرجوا منها بسبب ما تنعم به من خصب ورخاء ، أما حضرموت
فقد دفعت بفلذات أكبادها إلى الميادين المختلفة بالأقطار المتعددة ،
واستطاب أكثر هؤلاء تلك المناطق التي نزلوا بها ، فأقاموا فيها ، وتخلوا
عن حضرموت إلا بارتباط الذكرى ، وتراث الأجداد ، وتحدد المراجع
التي بين أيدينا تلك القبائل التي نزلت هنا وهناك فى رحاب العالم
الإسلامى الذى كان يعد وحدة واحدة لا يحس الإنسان بغربة فى أى
منطقة من المناطق يعيش بها ، وبناء على المراجع التي نتدارسها سكنت كندة
الكوفة ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يطول مقامهم بها لأنهم كانوا عثمانية ،
وكانت الكوفة شيعية النزعة ، فكان سكانها يتناولون عثمان بمالا يرضى
الكنديين ، فنقلهم معاوية إلى الرها من أرض الجزيرة ، ولم يبق منهم
بالكوفة إلا من كان شيعى النزعة •

وفى الشام سكن عدد كبير من كندة ، ومن قبيلة حضرموت كنفيير بن
مالك الحضرمى ، وعمر بن عبد الله الحضرمى وكان ممن قدم حمص

مع أبى عبيدة ، وقد اتجهت قبيلة السكون إلى حمص فنزلت بها ومن زعمائها صالح بن شريف السكونى ، كاتب أبى عبيدة ، والحسين بن نمير السكونى الذى استخلفه مسلم بن عقبة بعد وقعة الحرة وكثيرون سواهم •

وفى مصر نزل عدد كبير من قبيلة الصدف ، وقبيلة حضرموت والسكون ، ومهرة وكندة ، وقد نزل هؤلاء الفسطاط والفيوم ومنفلوط ، وانتشروا فى محافظتى الشرقية والقليوبية وغيرهما وسارت جماعات من القحطانيين حتى حطت رحالها فى ليبيا ، كما نزل عدد كبير من الحضارمة بالحجاز •

ونبغ فى الفقه الإسلامى عدد كبير من الحضارمة فتولوا مناصب القضاء فى عدة أمكنة ، ففى مصر عين سليمان بن عتر النجيبى للقضاء فى عهد عبد الله بن أبى سرح ، ويونس بن عطية فى عهد عبد العزيز بن مروان وتولى بعد يونس ابن أخيه أوس ، وفى الكوفة تولى سلمة بن كهيل وأوس بن ضمج •

الحضارمة فى جنوب شرقى آسيا :

وربما جاز لنا أن نقفز قفزة زمنية واسعة لنقرر أن الحضارمة فى العصر الحديث لعبوا نفس الدور الذى لعبه أجدادهم فى الزمن الماضى ، فتركوا حضرموت واتخذوا وجهتهم نحو جنوب شرقى آسيا ، وبخاصة فى إندونيسيا ، وعندما طاب لهم المقام هناك أقاموا واستوطنوا الأرض الجديدة ، وأخلصوا لها وتعاونوا مع أهلها لخدمتها ، والكثرة الغالبة منهم لم تنس وطن الأجداد ، وتحرص على اللغة العربية ، وعلى توثيق الصلات بمن تعدت همهم عن الهجرة ، أو آثروا البقاء بموطن الأجداد •

أسباب ضعف حضر موت :

ويقول مؤرخ حضرموت الأستاذ صالح بن حامد العلوى : إن حضرموت بسبب الهجرات فى عهد الفتوح خلت من الوجوه والأعيان ،

ولم يبق بها إلا من قعدت بهم عزائمهم ، وأناخت بهم همهم عن النهوض في نصره الإسلام ، وكان جفاف حضرموت والثرء العظيم عند الأمويين ، ورغبة الأمويين في الاعتماد على العرب في صراعهم للفتوحات من جانب وللقضاء على ثورات الفرس التي وضعت التشيع لافتة لها من جانب آخر ، كل هذا سبب رحلة أهل حضرموت إلى الشام ، فنتج عن ذلك خراب البلاد ، حتى لم تعد لحضرموت أهمية تذكر ، وأصبحت تابعة لليمن وعدت إحدى بواديه ، وكانت هذه هي الضربة الثانية لليمن بعد ضربة الردة (١) .

وهناك ضربة ثالثة أصابت حضرموت تلك هي ثورة عبد الله بن يحيى الكندي التي أشرفنا إليها آنفا ، وقد تعاون هذا مع أبي حمزة الخارجي الذي كان قد استولى على مكة وعلى المدينة ، وقد تعرضت حضرموت لكثير من الخسائر في أرواح البقية الباقية من أبنائها ، فقد أرسل مروان ابن محمد الخليفة الأموي الأخير جيشا كبيرا بقيادة عبد الملك بن عطية السعدي ، وشعيمب البارقي ، وقد استطاع هذا الجيش أن يقضى على الثائرين ، ولكنه في الوقت نفسه قضى على البقية الباقية من آمال حضرموت في التقدم والتطور (٢) .

ومرة أخرى نقرر أن هذه الأسباب أضعفت حضرموت وجعلت هذه المنطقة تابعة اليمن ، وهذا يوضح جذور الاتصال والانفصال بين اليمن وبين ما يعرف الآن بجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .

(١) تاريخ حضرموت ص ١٨١ - ١٨٢ ، ١٩٨ .

(٢) تاج الدين اليماني : تاريخ ص ١٨ .

اليمن في العصر العباسي

لما بويغ أبو العباس السفاح بالخلافة بعث على الحجاز واليمن عمه داود بن علي فاستخلف داود على اليمن عمر بن عبد المجيد بن عبد الرحمن ابن زيد بن الخطاب ، وهو الذي بوب جامع صنعاء ^(١) وسار ولاية اليمن بعد ذلك على النحو التالي :

محمد بن زيد بن عبد الله الحارثي وقد نزل صنعاء وبعث أخا له على عدن *

عبد الله بن مالك الحارثي *

علي بن الربيع بن عبد المدان *

عهد المنصور :

عبد الله بن الربيع بن عبد المدان *

معن بن زائدة الشيباني : وهو من أشهر أجواد العرب ، وأحد المشجعان العظماء ، وكان من خواص المنصور ^(٢) ، ولما ولي معن بعث ابن عمه سليمان نائبا عنه إلى حضرموت ، فكان بها قاسيا غليظا ، مما دفع أهل حضرموت إلى قتله بقيادة زعماء الإباضية ، وانتفضت حضرموت على معن ، فسار إليها وأوقع بأهلها عدة وقعات ، قيل بلغ من قتله خمسة عشر ألفا فأعظم الناس ذلك ، ولكن المنصور استصوب فعله لأن هؤلاء بقية الخوارج ^(٣) *

زائدة بن معن : كان أبوه قد ولاه حضرموت عقب الإيقاع بها *

الفرات بن سالم العبسي :

(١) القاضي عبد الله الكريم الجرافي : المقتطف من تاريخ اليمن

ص ٤٩ *

(٢) وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٥٨ *

(٣) تاج الدين اليماني : تاريخ اليمن ص ١٩ ، ٢٠ *

يزيد بن منصور الحميري ابن خال المهدي وأقرمه المهدي

خلافة المهدي :

- يزيد بن منصور الحميري
- رجاء بن روح الجذامي
- علي بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس
- منصور بن يزيد بن منصور الحميري
- عبد الله بن سليمان النوفلي وكان رجلاً خيراً من أهل العلم
- سليمان بن يزيد بن عبد المدان

خلافة الهادي :

- عبد الله بن محمد بن إبراهيم الإمام
- إبراهيم بن سليمان الباهلي

خلافة الرشيد :

- الغطريف بن عطاء : خال الرشيد قدم اليمن والفتنة شائرة بين الجند وأهل صنعاء فأصلح بينهم
- عاصم بن عتبة الغساني
 - أيوب بن جعفر بن سليمان
 - الربيع بن عبد الله الحارثي

محمد إبراهيم الهاشمي : وقد جمع له الحجاز واليمن فأقام بالحجاز وبعث ابنه العباس إلى اليمن

عبد الله بن مصعب بن عبد الله بن الزبير : ويذكر تاج الدين اليماني أن الرشيد رفع رزق عبد الله إلى ألفي دينار في الشهر ، وكان مرتب

الوالى ألف دينار فقط ، فقال له يحيى بن خالد : هذا يفسد عليك من توليه من أهل بيتك * فرد الرشيد رزق عبد الله إلى ألف دينار ، ووصله بصلة جليلة *

- أحمد بن إسماعيل بن علي الهاشمي
- إبراهيم بن عبد الله بن طلحة بن أبي طلحة *
- محمد بن خالد بن برمك *

حماد البربري مولى الرشيد : جاء إلى اليمن خلال ثورة الهيصم بن عبد الرحمن الهمداني بجبل سور ، وكان الهيصم قد قام بثورة عاتية زلزلت سلطان بني العباس في اليمن ، وامتد نفوذه إلى عدة بقاع ، ولم يستطع ولادة الرشيد التغلب عليه ، فأرسل الرشيد مولاة حمادا البربري لذلك وقال له : « أسمعني صوت أهل اليمن » أى افس عليهم حتى يضجوا بالشكوى ، وقد حقق حماد ذلك بعد صراع طويل ، ويقول الشماحي (١) * وبرغم التغلب على الهيصم فقد كانت ثورته فاتحة لقيام الدول اليمينية ، وفرصةً انتهت الشيعة لنشاطهم الذى مهدوا به الطريق إلى ظهور دعائهم كما حدث أيام المأمون ، وكقدوم إبراهيم الجزار العلوي إلى اليمن كما سئرى فيما بعد ، وبعد الرشيد أقر الأمين حمادا على اليمن (٢) *

خلافة الأمين :

- محمد بن عبد الله بن مالك الخزاعي : عينه الأمين بعد حماد *
- سعيد بن السرح الكنانى *

خلافة المأمون :

- يزيد بن جرير بن خالد بن عبد الله القسرى *
- اسحق بن موسى بن عيسى *

(١) اليمن : الانسان والحضارة ص ٨٨
(٢) عبد الواسع بن يحيى الواسعى : تاريخ اليمن ص ١٤٩ *

محمد بن على بن عيسى بن ماهان : وقد صارع إبراهيم بن موسى الطالبى الذى يقول عنه ابن خلدون : إن ظهوره باليمن كان سنة ٢٠٠ هـ وإن أمره لم يتم ، وكان يعرف بالجزار لكثرة ما سفك من دماء ^(١) ، ويقول عنه الجرافى : إنه دخل صعدة وخرّبها كما خرب سد الخائق ^(٢) وكان قد أرسله الحسين بن على الطالبى لما نجحت ثورته الطالبية فى الاستيلاء على مكة والمدينة وقد حدثت وقائع بين محمد بن على بن عيسى وبين إبراهيم بن موسى الطالبى كان النصر فيها لابن ماهان وقد تركت هذه الوقائع وما سبقها من معارك ، بلاد اليمن فى فوضى شاملة ، فتحت الباب لتقسيم اليمن ، كما فتحت الباب لاستقلاله عن الخلافة العباسية على ما سنرى *

اليمن

ابتداء من عهد بنى زياد فى خلافة المأمون

قلد المأمون محمد بن زياد ، وهو من ولد عبيد الله بن زياد بن أبى سفیان الأعمال فى تهامة ، وما يستولى عليه من الجبال التى كانت الثورة مستقرة بها ويقول ابن خلدون : إن المأمون اختار ابن زياد لما عرف عنه من شدة البغض لآل على ، فقصد اليمن سنة ٢٠٢ هـ ، واستولى على تهامة بعد حروب جرت بينه وبين أهلها ، واختط مدينة زبيد سنة ٢٠٤ هـ وكان مع ابن زياد مولى له يسمى جعفر ، وهو الذى نسب إليه مخلاف جعفر ، وكان فيه دهاء وكفاية ، حتى كانوا يقولون « ابن زياد بجعفره » واشتد على عرب تهامة ألا يركبوا الخيل ، وقد سير ابن زياد بعد أن استقر له الأمر مولاه جعفر إلى المأمون سنة ٢٠٥ هـ بهدايا جليلة ، وأموال عظيمة فعاد جعفر فى العام التالى ومعه ٢٠٠٠ فارس ، فيهم من

(١) العبر ج ٤ ص ٢١٢ .

(٢) المقتطف من تاريخ اليمن : ص ٥٣ .

مسودة خراسان ٩٠٠ ، فعظم بذلك أمر ابن زياد ، واتسع ملكه فشمل المناطق التالية :

عدن : وهى مدينة جنوبية ، تهامية ، من أقدم أسواق العرب •
أبين : وهى مخلاف باليمن تعد عدن مدينة منه ، ولذلك يقال ،
« عدن أبين » •

لحج : بلد بمنطقة أبين •

ديار كندة : وهى من جبال اليمن مما يلى حضرموت وقاعدتها
دامون •

حضرموت : وهى ناحية واسعة تقع شرقى عدن قرب البحر ، ولها
أعمال عريسة ، وبينها وبين عمان رمال كثيرة تعرف بالأحقاف •

الشحر : وهو ساحل اليمن الممتد بين حضرموت وعمان ، وتسمى
هذه المنطقة أيضا مهرة ، وقصبتها أيضا تسمى الشحر •

مرباط : وهى مدينة منفردة على ساحل البحر بين عمان وحضرموت

الجند : وهى تمثل قسمها كبيرا من أقسام اليمن الثلاثة « الجند
ومنعاء وحضرموت » •

وملك بن زياد أيضا من الجبال أعمال المعافر وهو بلد واسع ذو
مزارع وقرى كثيرة •

وقتلد ابن زياد جعفرًا مناطق الجند ، فاخبط جعفر بها مدينة
« المزيخرة » فى جبل قريب من صنعاء ، به أنهار ورياحين واسعة •

وخطب لابن زياد بصنعاء وصعدة ونجران وبيحان ، ووضع ابن زياد بذلك أساس ملك وراثي باليمن ^(١) وكان بصنعاء خلال عهد ابن زياد (بنو يعفر) وهم من حمير ، وكان لهم السلطان بها ، ولكنهم كانوا يخطبون للعباسيين ، وأحيانا يذكرون اسم ابن زياد في الخطبة بعد اسم الخليفة العباسي بها ، وذلك لمكانة ابن زياد من الدولة العباسية •

وفي السنوات الأخيرة من حياة ابن زياد ، وخلال عهد أولاده من بعده بدأ التفكك وكثرت الحركات الانفصالية ، وسرعان ما انقسمت اليمن لا إلى اليمن شمالي ويمن جنوبي فحسب بل إلى إمارات وعمالات كثيرة ، وقد بدأ ذلك من القرن الثالث الهجري ، ويمكن أن يوضح التخطيط التالي صورة سريعة للحركات السياسية باليمن :

(١) تاج الدين اليماني : تاريخ اليمن ص ٢٥ - ٢٦ •

زبيد	صنعاء
- بنو زياد ٢٠٣ - ٤١٢ هـ	- عمال العباسيين : ٢٠٣ - ٢٧٢ هـ
- وامتد ملكهم الى مناطق أخرى	- بنو يعفر : ابتدا ملكهم في شبام
- بنو نجاح ٤١٢ - ٥٥٤ هـ	- بحضرموت سنة ٢٢٥ هـ ثم امتد الى
- بنو المهدي ٥٥٤ - ٥٦٩ هـ	- صنعاء سنة ٢٤٧ في حركة صراع ضد
	- ولاية بنى العباس وبنى زياد في زبيد ،
	- ثم استقر الامر لهم في صنعاء وجند من
	- سنة ٢٤٧ الى ٣٨٧ هـ
	- حكم قبلى
	- الأئمة الزيديون يمدون نفوذهم الى
	- صنعاء حتى سنة ٤٢٩ هـ .
	- بنو همدان (بنو حاتم) ٤٩٢ - ٥٦٩ هـ
	- بنو صليح ٤٢٩ - ٤٩٢ هـ .

١ - الحدود غير ثابتة بين هذه الممالك بعضها والبعض الآخر ، وكانت كل مملكة تحاول أن تدفع بحدودها لتضم مزيدا من الأرض .

٢ - بعض التواريخ ليست دقيقة وهى على كل حال خلاصة الأبحاث المتعددة .

٣ - بعض هؤلاء الحكام كانوا يكتفون بلقب الإمارة ، وبعضهم اتخذ لقب السلاطين ، أما الأئمة فاحتفظوا بلقب الإمامة .

— الأيوبي
— بنو رسة
— بنو طاه
— المماليك المصري
— العثماني

— الأئمة في اليمن الشمالية حتى قيام الثورة (١٩٦٢)
— الجمهورية العربية اليمنية بالشمال ثم جمهورية اليمن

صعدة

الأئمة الزيديون ٢٨٠ - ١٣٨٢ هـ
(أبو طباطبا)

كان سلطان الأئمة محصوراً في صعدة حتى سنة ٧٠٠ هـ ثم امتد إلى صنعاء ، وبعض المناطق الأخرى وانكمش وامتد عدة مرات ثم خلصت لهم اليمن من سنة ١٠٤٠ هـ حتى سنة ١٣٨٢ هـ حيث قامت الثورة ، وكان أئمة الزيدية على مر تاريخهم يصارعون لتثبيت أقدامهم ، أو بطأطئون لقوى أخرى تمد نفوذها عليهم ، ولكنهم على كل صمدوا في صراع اليمن ضد العثمانيين ، فبقوا وفنى الآخرون ، ولكن وجودهم باليمن الشمالية وصمودهم كان من الأسباب لفصم العلاقة بين اليمن الشمالية وحضرموت ، لأن الحضارمة كانوا سنيين ، وكان الزيدية فرقة شيعية ، وكانت الوحدة تعود غالباً مع الحكم السني كحكم الأيوبيين والعثمانيين فإذا برز حكم الزيدية بدأ الانفصال .

عدن

بنو زريع ٤٧٦ - ٥٦٩ هـ
بدأ بنو زريع في عدن ولاية للصليحيين ، ثم استقلوا عن ملك بنى صليح ، وبقوا بعد سقوط بنى صليح حتى دخلت عدن فيما دخلت فيه ولايات اليمن سنة ٥٦٩ .

سنة ٥٦٩ - ٦٢٦ هـ

سنة ٦٢٦ - ٨٥٨ هـ

سنة ٨٥٥ - ٩٠٤ هـ

سنة ٩٠٤ - ٩٥٥ هـ مع التداخل مع بنى طاهر

سنة ٩٤٥ - حتى الحرب العالمية الأولى

(محاولات لم تنجح أكثرها وصراع ضد الأئمة)

الاستعمار والقبلية في اليمن الجنوبية حتى سنة ١٩٦٧ .

الديمقراطية الشعبية بالجنوب .

(م ٢٦ - التاريخ ج ٧)

ملاحظات مهمة :

هناك ملاحظات مهمة نبرزها فيما يلى ، وقد أشرنا لبعضها فى التخطيط السابق ، وهى :

— كان الائمة الزيديون موجودين مع الحكام الآخرين ، وكانوا يعلنون الولاء أو يثورون حسب الأحوال ، وعندما اختلف أمر بنى زياد غلب أهل الأطراف على ما بأيديهم وبدأ بذلك تفكك اليمن •

— كانت الدولة الأيوبية ، والدول التى تلتها تهتم بما يسمى الآن بجمهورية اليمن الشمالية ، وتحاول أن تمد نفوذها لليمن الجنوبية لتعيد وحدة اليمن كله ، ولكن محاولاتها كانت دائما قصيرة العمر فإذا نجحت فى ضم بعض أجزاء منا يدخل الآن تحت اليمن الجنوبية فإن هذه الأجزاء سرعان ما تتحرر وتستقل وبخاصة أن اليمن الشمالية نشط فيها الائمة وهم شيعة ، أما اليمن الجنوبية فكانت تتبع المذهب السنى ، وهذا كان بمثابة حاجز بين المنطقتين •

— عندما احتل الإنجليز عدن سنة ١٨٣٩ م كان ذلك بمثابة حاجز حصين قسم اليمن قسمين ، وكان من آثاره الحالة التى وجدت بجنوب الجزيرة فترة طويلة •

وستزيد هذا الموضوع وضوحا فيما بعد تحت العنوان التالى « اليمن يمان » •

وبعد هذا التخطيط نعود لهذه الدول السابقة لننتحدث عنها بشيء من التفصيل ، وسنتكلم عن زبيد ، فصحاء ، فصعدة ، فعدن على النحو السابق حتى نلتقى كلها فى ظل الأيوبيين •

زبيد

مدينة من أهم مدن تهامة اليمن ، تقع فى السهل الساحلى فى موضع متوسط بين ميناءى الحديد فى الشمال ومخا فى الجنوب ، وهى على بعد

٢٥ كم من البحر الأحمر ، ومحاطة بسور عظيم وبها كثير من المساجد والدور الكبيرة •

وقد أسسها مؤسس أسرة بني زياد وجعلها عاصمة ملكه ، وذلك في خلافة المأمون العباسي •

وكانت زبيد عاصمة لبعض الأسر المالكة فيما بعد كالدولة الصليحية التي نقلت عاصمة ملكها من صنعاء إلى زبيد ، وكبني المهدي الذين استقروا بها حتى استولى عليها توران شاه عام ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) الذي أسس الدولة الأيوبية باليمن ، ثم أصبحت في عام ٨٥٠ هـ (١١٤٦ م) عاصمة الطاهريين حتى انتقلت عاصمتهم بعد ذلك إلى عدن •

وفي عام ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) استولى عليها أبو نهمى الثانى شريف مكة حتى ضمت مع باقى مدن اليمن إلى الدولة العثمانية •

ويمر بمدينة زبيد وادٍ من أهم وديان اليمن يسمى وادى زبيد ، تسير فيه المياه معظم أيام السنة ، وهو ينبع من الهضبة ، ويمر بمدينة زبيد إلى أن يصب في البحر الأحمر •

والنسبة إليها زبيدى ، وهو لقب اشتهر به جمع من الفقهاء وعلماء اللغة الذين ينحدرون منها أو ينتسبون لها ، وقد كانت ولا تزال من أهم مراكز العلم باليمن •

بنو زياد في زبيد (٢٠٣ — ٤١٢ هـ)

تحدثنا من قبل عن ابن زياد وعن نشأة دولته باليمن ونفوذه هناك ، ذلك النفوذ الذى شمل أكثر مناطق هذه البلاد ، وذكرنا أنه بعد عشرين سنة تقريبا من بدء ملكه بدأ لون من استقلال الأطراف ، ثم نما ذلك الاتجاه في عهد أولاده وأحفاده ، مما سبب حركات انفصالية كثيرة ، وعلى

كل حال فقد ظل ملك الزياديين بين اتساع وانكماش حتى دالت دولتهم
بعد حوالى قرنين •

وأمرأ بنى زياد هم :

٢٠٣ — ٢٤٥ هـ	محمد بن عبد الله بن زياد
٢٤٥ — ٢٨٩ هـ	إبراهيم بن محمد
٢٨٩ — ٣١١ هـ	زياد بن إبراهيم
٣١١ — ٣٧١ هـ	اسحق بن إبراهيم
٣٧١ — ٤٠٩ هـ	عبد الله بن اسحق
٤٠٩ — ٤١٢ هـ	بعض موالى بنى زياد

ومن الواضح أن عهد محمد بن زياد كان عهد السلطة والنفوذ لهذه
الدولة ، وإن كان سلطانه لم يكتمل لاستبداد بنى يعفر بصنعاء العاصمة
الرئيسية لليمن ابتداء من سنة ٢٢٥ هـ ، وهى السنة التى تعتبر مطلع
الضعف •

وبعد ابن زياد زاد الجرح اتساعا ، فلما جاء عهد اسحق بن إبراهيم
كمل الخطب ، إذ امتنع عليه أهل الأطراف ، وانقطعت الخطبة له فى الجبال
واستولى سليمان بن طرف على المخلاف المعروف بالسليمانى نسبة إليه
وجعل السكة والخطبة باسمه ، وخرج أيضا على نفوذ اسحق لحج وأبين
وبعض البلاد الشرقية (١) •

ولما مات اسحق كان ابنه عبد الله طفلا فتولت كفالته أخته هند وعبد
للأبيها اسمه الحسين بن سلامة النوبى ، ولكن هذا استبد بالأمر ولم يعد
الزمام إلى عبد الله عندما شب عن الطوق ، ويبدو أن عبد الله ترك النفوذ
إلى الحسين وقنع بالاسم •

وفي عهد نفوذ الحسين بن سلامة النوبى استطاع هذا أن يسترد كثيرا من الأطراف المتهردة ، ويستعيد السلطة على الحصون والمخاليف التى كانت قد أعلنت استقلالها ، فاستعاد بذلك مملكة ابن زياد الأولى ، واختط مدينة (الكدراء) وهى الآن من المدن القديمة المخربة ، وكانت لها شهرة كبيرة (١) كما اختط مدينة المعفر ، وأنشأ كثيرا من المساجد والمنارات ، ومهد الطرق فى داخل المملكة ، وبينها وبين مكة المشرفة ، وحفر كثيرا من الآبار ، ونظم البريد .

ولما مات الحسين بن سلامة النوبى قام مولاه مرجان بالأمر ، وكان لمرجان هذا عبدان أحدهما اسمه نفيس ، والثانى اسمه نجاح ، وقد تنافسا فى حياة سيدهما مرجان على السلطة التى آلت إليه ، وتقول الرواية : إن عبد الله بن أسحق وعمته التى كفله من قبل كانا يميلان إلى نجاح الذى عرف بالعدل والرفقة ، وينقبضان عن مرجان ونفيس ، ولذلك قبض هذان عليه وعلى عمته ، وبنيا عليهما جدارا وتركاهما به حتى ماتا ، ولما عرف نجاح ذلك ثار من أجل سادته بنى زياد ، وكان له الفوز ، ولكنه سرعان ما أقام دولة جديدة لنفسه والأولاده من بعده ، فأسس بذلك دولة بنى نجاح وسنذكر عنها فيما بعد .

وبعض المؤرخين اليمنيين يرى أن دولة بنى زياد أول دولة وطنية نشأت باليمن واستقلت به ، وبعضهم لا يراها حكومة وطنية لأنها جاءت إلى اليمن من بغداد ، وظلت تابعة للخلافة العباسية ، وقد عرف بعض ولائها ووزرائها بالصلاح والإصلاح ، ولكن عهود أكثرهم كانت حافلة بالفوضى ، وأسلموا البلاد فى النهاية إلى طبقة من العبيد (أهم بنو نجاح) جعلت الحياة فى اليمن حافلة بالاضطرابات كما سنرى عند حديثنا عن آل نجاح فيما يلى (٢) .

(١) الجرافى : من تاريخ اليمن ص ١

(٢) القاضى عبد الله الشماخى : اليمن الانسان والحضارة ص ١١٠ .

بنو نجاح في زييد (٤٠٣ — ٥٥٥ هـ)

في الصراع الذي دار بين موالى آل زياد ونجاح من جانب وبين نفيس ومرجان من جانب آخر استطاع نجاح الحبشى أن يحقق لنفسه الفوز فدخل زييد ، واستتب له الأمر في تهامة ، وكتب للخليفة العباسى في بغداد معلنا ولاءه وطاعته للدولة العباسية ، فأقره الخليفة ونعنته بالمؤيد نصير الدين ، وكان حازما سمحا ، يتبع مذهب الإمام الشافعى ، وقد دانت له تهامة طيلة حياته ، وبعد وفاته دار صراع طويل بين أولاده وأحفاده من جانب وبين دولة بنى صليح التى كانت قد نشأت فى صنعاء سنة ٤٢٩ هـ من جانب آخر ، وبعد شد وجذب حول العاصمة زييد حيث انتصر بنو صليح تارة وبنو نجاح تارة أخرى استقر الأمر لبني نجاح حوالى سنة ٤٧٣ هـ وبقي فيهم إلى سنة ٥٥٤ هـ وسلسلة أمراء بني نجاح هى كالاتى :

٤٠٣ — ٤٥٢ هـ	الأمير نجاح
٤٥٢ — ٤٨١ هـ	سعيد بن نجاح
٤٨٣ — ٤٩٨ هـ	جياش بن نجاح
٤٩٨ — ٥٠٣ هـ	فاتك بن جياش
٥٠٣ — ٥٢١ هـ	منصور بن فاتك
٥٢١ — ٥٤٠ هـ	فاتك بن منصور
٥٤٠ — ٥٥٤ هـ	فاتك بن محمد بن فاتك

ومن الواضح أن فترة نجاح كانت أطول الفترات بالنسبة للأمراء هذه الدولة ، وقد عاصر نجاح قيام دولة بنى صليح فى صنعاء ، وبدء المنافسة بين الدولتين ، ويقال إن على بن محمد الصليحي لم يجد وسيلة للتخلص من نجاح إلا بقتله بواسطة سم استطاع أن يدهسه فى طعامه ، على يد جارية أهداها إليه .

ولما مات نجاح ، وكان أولاده لم يبلغوا سن الرشد بعد ، قام بأمرهم مولى له اسمه كهلان ، فأتاح هذا فرصة لمحمد بن علي الصليحي ، فزحف إلى تهامة سنة ٤٥٥ هـ واستولى على زبيد ، وفر من وجهه آل نجاح إلى جزيرة « دهلك » فظلوا بها حتى سنة ٤٥٩ هـ ، وهي السنة التي قتل فيها علي بن محمد الصليحي ، فعاد سعيد بن نجاح إلى زبيد ، ولكن مدته لم تطل ، فأخرجه المكرم الصليحي سنة ٤٦١ هـ واستطاع سعيد أن يعود مرة أخرى سنة ٤٧٦ هـ ، وظل سعيد أميرا حتى قتل سنة ٤٨١ هـ فاندفع بنو صليح إلى زبيد مرة ثالثة ، وفر جيش بن نجاح إلى الهند ولكن بقاء بنى صليح في زبيد هذه المرة لم يزد عن عام ، ثم جاء جيش وطردهم سنة ٤٨٣ هـ ، واستقرت السلطة إلى حد كبير لآل نجاح بعد ذلك .

وجاء سقوط بنى نجاح على يد بنى المهدي ، وهي أسرة حميرية سنتكلم عنها فيما بعد ، وقد هالها تحكّم بنى نجاح الأحباش في اليمن نجتمع زعيمها علي بن مهدي حوله الجموع ، وغزا مدينة الكدراء سنة ٥٣٨ هـ ولكن أميرها ألحق بهم الهزيمة ، فعاد ابن المهدي يعد نفسه من جديد وانتهاز فرصة ضعف الأمير فأتك بن محمد آخر أمراء بنى نجاح ، فاندفع مرة أخرى نحو زبيد سنة ٥٥٣ هـ ، وقد تخلى أهل زبيد عن فائق ، واستنجدوا بالإمام المتوكل فوعدهم هذا بالنجدة إن تخلصوا من فائق ، فتخلصوا منه فعلا ، ولكن المتوكل عجز عن نصرتهم ، فأعطى ذلك فرصة لبنى المهدي أن يدخلوا زبيد ويستقروا بها .

وقد اتخذ آل نجاح وزراءهم من الأحباش أيضا وكان أول وزير لهم أنيش الفاتكي وكان جبارا غشوها حاول أن يستبد بالملك ، فقتل منصور ابن فائق ، ولكنه قتل فيه ، وجاء بعده الوزير من الله الفاتكي ، وكان سيء السيرة ، فمات في ليلة من ليالى العيب والمجون ، ووزر بعده رزيق الفاتكي ، ثم أبو محمد سرور الفاتكي ولم يكن في هؤلاء الوزراء صفات المشجاعة أو الشهامة ، فألحقوا بالدولة ألوانا من الضرر ، ومن الواضح أن هؤلاء جاءوا في عصور الضعف مما تسبب في نهاية الدولة .

بنو المهدي الحميريون بزييد

٥٥٣ — ٥٦٩ = ١١٥٨ — ١١٧٤

تبدأ هذه الأسرة بعلى بن مهدي الحميري ، وهو ينحدر من أسرة الأغلب بن أبي الفوارس بن ميمون الحميري الروعيني ^(١) . وكان آل المهدي يعيشون في قرية اسمها العنبرة من سواحل زبيد . ويسمونها ابن خلدون « العنزة » وهو تحريف والتصحيح من معجم البلدان ، ومن مرادف الاطلاع .

ونشأ على بن مهدي نشأة دينية ، حيز وزار ، ولقى العلماء والوعاظ وتضلّع في المعارف ، وكان فصيحاً صبيحاً ، حسن الصوت ، طيب النعمة ، حلوا التأنسي ، غزير المحفوظات ، يعظ الناس على الطريقة الصوفية ، وقد استمال القلوب حوله بهذه الصفات ، حتى ظهر أمره بساحل زبيد .

ولما ذاع أمره في الصلاح والتقوى ، قرّبت له أم فانتك بن منصور ، وأطلقت له ولأهله خراج أملاكهم ، فأثروا واتسعت حالهم ، ونهياً لهم الغنى والعلم ، وأمرهم الناس من كل صوب فأصبحوا قوة كبيرة ^(٢) .

وكان حال آل نجاح في انهيار وانحدار ، وكان اليمنيون يتحدثون عن حكم الأحباش لبلادهم ، وعن سوء سيرة وزراء هؤلاء الأحباش ، وكل هذا دفع بعلى بن المهدي إلى الثورة على آل نجاح ، وقد فشل مرة كما ذكرنا من قبل ، عندما هاجم مدينة الكدراء سنة ٥٣٨ ولكنه عاد بجميع جموعه ويعد نفسه ، ثم هتف بأصحابه قائلاً : أيها الناس دنا الوقت ، أرف الأمر كأنكم بما أقول لكم وقد رأيتموه عياناً . وبدأ يهاجم زبيد . ودار صراع طويل بينه وبين آل نجاح . واستطاع أن يحاصر زبيد ، حتى ألحق الضرر بأهلها ، فاستجدوا بالشريف أحمد بن سليمان صاحب صعدة ، وشرطوا

(١) القاضي حسين بن أحمد : بلوغ المرام ص ١٧ .

(٢) تاج الدين اليماني : تاريخ اليمن ص ٧٠ — ٧١ .

له أن يملكوه عليهم ، فقال لهم : إن قتلتم مولاكم فاتكا نصرتمكم ، فوثب أهل زبيد على فاتك فقتلوه سنة ٥٥٣ ، ولكن الشريف بعد ذلك عجز عن نصرتهم ضد على بن المهدي ، فاستطاع هذا أن يدخل زبيد ويقيم بها دولة بنى المهدي كما ذكرنا من قبل •

وكانت دولة بنى المهدي قصيرة العمر ، فلم تتجاوز مدتها خمسة عشر عاما وبضعة أشهر ، وأمرؤها هم :

على بن مهدي	٥٥٣ — ٥٥٣ (٨١ يوما)
مهدي بن على	٥٥٣ — ٥٥٨
عبد النبي بن على	٥٥٨ — ٥٦٩
مع فترة استولى فيها عبد الله بن على على الملك من أخيه عبد النبي •	

ونذكر هنا أن اليمن أحسنت استقبال هذه الأسرة لأنها أسرة وطنية تماما ، ولأن منشئها كان يمتاز بالعلم والخلق ، ومن أجل هذا يذكر تاج الدين اليماني أنه اجتمع للعبد النبي ملك الجبال ، والتهائم ، وانتقل إليه ملك جميع اليمن وذخائرها ، حتى إنه يقال إن ملك خمس وعشرين دولة من دول اليمن قد آلت إليه (١) •

ولكن هذه الدولة كانت قصيرة العمر كما ذكرنا من قبل لأن الزحف الأيوبي بدأ يمتد إلى اليمن من جهة ، ولأن أمراء الأسرة الذين جاءوا بعد مؤسسها اتجهوا إلى القسوة والشدّة ، كما انحرفوا في أخلاقهم ، مما جعل الناس في دولتهم يعيشون في رعب منهم ومن أفعالهم القاسية ، وجعل اليمن تنهياً لاستقبال أي فاتح ، ومن أشق ما عرف به ابن مهدي أنه كان يكفّر بالمعاصي ويستبيح نساء هؤلاء ، ويسترق ذراريهم ، كما أنه كان

(١) تاج الدين اليماني : تاريخ اليمن ص ٧٣ •

إذا غضب على أحد من أتباعه عذبه بقسوة • وكان يقتل من انهزم من
عسكره ، كما كان يقتل من تأخر عن صلاة الجماعة أو عن مجلس وعظه ،
أو من شرب خمرًا ، أو من سماع غناء وبخاصة من رجال العسكرية (١) •
ولهذا اتجه أهل اليمن لكره بنى المهدي ، لتخوفهم منهم بسبب هذا التصرف
وكثرة الفتك بالأهلين (٢) •

ويذكر المؤرخون أن صلاح الدين الأيوبي اتصل به من ينقل له أن
عبد النبي بن مهدي يزعم أن دولته تطبق الأرض ، وأن ملكه يسير مسير
الشمس ، فجهز صلاح الدين جيشًا كبيرًا بقيادة أخيه توران شاه ، ومعه
خمسة من آل رسول كانوا يقيمون في مصر ، وبعث بهم إلى اليمن سنة
٥٦٩ هـ فاستطاع أن يدخل زبيد ، وأسر عبد النبي وقتله (٣) •

وزالت بذلك دولة بنى المهدي ، وبدأ ملك الأيوبيين في اليمن كما
سنرى فيما بعد •

(١) انظر تاريخ اليمن لعمارة اليمن ص ١٢١ •
(٢) ابن سمرة : طبقات فقهاء اليمن ص ١٨٢ •
(٣) علي بن الحسن الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٢٨ •

صنعاء

صنعاء هي العاصمة الرئيسية لليمن ، وأهم المدن به ، وأجملها ، وهي ترتفع عن سطح البحر ٢٣٥٠ مترا ، ولذلك يضرب المثل بصعوبة الوصول إليها ، فيقال « لا بد من صنعاء وإن طال السفر » وتقع صنعاء في منطقة خصبة كثيرة الزرع والفاكهة ، وبخاصة العنب ، وهي ملتقى لكثير من طرق القوافل من جميع أرجاء اليمن ، مما جعلها مركزا تجاريا هاما ، وهي إلى الجنوب من لواء صعدة ، وإلى الشرق من لواء الحديدية ، وإلى الغرب من مأرب والربع الخالي ، ومن أوديتها الرئيسية وادي المواهب ووادي الزبيدي ، وتقع في السفح الغربي من جبل نقم .

ويقول ياقوت ^(١) إن اسمها كان (أوزال) فلما وقعت اليمن تحت الاستعمار الحبشي ، غير الأحباش اسمها إلى « صنعاء » ومعناها حصينة وذلك لأن جبل نقم يقف منها موقف الحارس ، فهو يرتفع عنها بحوالي ٦٠٠ متر ويشرف عليها بموقعه وقلاع ومداغعه ، ويقال إن هذا الوضع هو السبب في المثل الذي أوردناه آنفا وهو (لا بد من صنعاء وإن طال السفر) أي أن الوصول إليها والسيطرة عليها شيء شاق للغاية .

ويمتد تاريخ صنعاء فترة طويلة قبل الإسلام ، ولا يزال هناك عمد وأحجار عليها نقوش وكتابات ترجع إلى ما قبل الإسلام ، وقد أعيد استخدام هذه الأحجار في بعض المباني الحديثة ، وبخاصة في الجامع الكبير ، وقبيل الإسلام بنى بها أبرهة كنيسة القليس ، وموه جدرانها بالذهب ، وغطى حيطانها بالفضة ورصعها بالجواهر ، وكان هدفه أن يجذب العرب إلى الحج إليها بدل حجهم إلى الكعبة بمكة ، ولكن أعرابيا من كنانة دخلها ليلا ولطخها بالقاذورات ، مما كان سببا في إغارة الحبشة على مكة التي رواها القرآن الكريم في سورة الفيل .

(١) معجم البلدان ج ٥ ص ٤٢٤ .

ومن آثارها القديمة كذلك قصر غمدان ، ولا تزال هناك أطلال تنتسب إليه .

وفي العصر الإسلامي ظلت صنعاء العاصمة الأولى لليمن وإن قامت بجانبها عواصم أخرى للولايات المتعددة التي قامت باليمن .

وفي العهد الأيوبي أقيم حول صنعاء سور ضخيم لا تزال آثاره موجودة ، وتكثر في صنعاء الجوامع الضخمة التي يمتاز بعضها بالجمال والروعة ، وبها دور كثيرة ترتفع عدة طوابق مع أنها مشيدة بالحجر الآجر على الطراز الصناعى الجميل ، وبها بعض الصناعات المعدنية وصناعة الحلى التي تزين بالأحجار الكريمة التي تنتسب لليمن كالجزع اليماني والعقيق .

وسنعيش مع الدول التي قامت بصنعاء ، حتى توحدت اليمن تقريبا تحت سلطان الأيوبيين .

صنعاء في العهد العباسى

كانت صنعاء عاصمة اليمن خلال العهد العباسى ، فلما بدأ التشكك في اليمن في عهد المأمون ، كان أمراء صنعاء لا يزالون على ولائهم للعباسيين ، ولذلك أرسل الخليفة المأمون عبد الله بن زياد ، ليستعيد للعباسيين السلطان في المناطق المتمردة ، واختط هذا مدينة زبيد كما قلنا من قبل ، وجعلها عاصمة له . وأخذ يوسع منها دائرة سلطانه ، واكتفى من صنعاء بالدعاء له بعد الدعاء للخليفة العباسى .

وعلى هذا فإن سلطان العباسيين قد استمر على صنعاء ردحا من الزمن بعد أن قامت دولة بنى زياد في زبيد ، وتوالى على صنعاء ولاية العباسيين ومن أشهر هؤلاء الولاة نعيم بن وضاح الأزدي ، واسحق بن العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، ولكن هذا كان قاسيا

مع أهل اليمن فأثار الحميريين عليه ، وهب أهل صنعاء في وجهه فعزله
المأمون وولى العباس بن عمر الشنهابي *

وفي عهد المعتصم عين جعفر بن علي الهاشمي واليا على نجد واليمن ،
فأناب هذا عنه في اليمن عبد الرحيم بن ابراهيم الحوالي
الحميري ، ولما توفي عبد الرحيم قام ابنه يعفر مقامه ، ويعد يعفر مؤسسا
للدولة اليعفرية التي آن لنا أن نتكلم عنها *

دولة بنى يعفر بصنعاء

(٢٢٥ — ٣٨٧)

بدأ نفوذ هذه الأسرة في (شبام) بخضروت سنة ٢٢٥ هـ . وقد
امتد نفوذ بنى يعفر إلى صنعاء عن طريق جعفر بن علي الهاشمي كما ذكرنا
آنفا ، فقد ولي هذا عبد الرحيم بن ابراهيم الحوالي الحميري اليمن نيابة
عنه * ولما توفي عبد الرحيم قام ابنه يعفر مقامه ، وقد صارع يعفر في عدة
مباريات من أهمها صراعه ضد حمير بن الحارث الذي عينه المتوكل ٢٣٢ هـ
حاكما على اليمن ، ودفعها صراعه ضد ابن زياد الذي كان يتطلع إلى ولاء
ولاية صنعاء له ، وفي سنة ٢٤٥ هـ توفي ابن زياد وبعده بحوالي سنتين
قتل المتوكل ، وكان ذلك إيذانا بتثبيت سلطان يعفر في صنعاء ، ويعود
هذا العام ٢٤٧ بدء قيام هذه الدولة بصنعاء ، ويعتبر المؤرخون اليمنيون
دولة بنى يعفر دولة حققت الاستقلال اليمن (١) .

وأمرأ بنى يعفر بصنعاء هم

٢٤٧ — ٢٥٩

يعفر بن عبد الرحيم

٢٥٩ — ٢٧٩

محمد بن يعفر

(١) الشماحي : اليمن الانسان والحضارة ص ٩٩ .

أبراهيم بن محمد بن يعقوب — ٢٧٩ — ٢٨٥

فترة من الاضطراب تولى فيها جعفر بن ابراهيم
وعبد القادر بن أحمد بن يعقوب فترات قصيرة (

أسعد بن ابراهيم بن محمد بن يعقوب — ٢٨٦ — ٢٨٨

(: الإمام الهادي يقتحم صنعاء ويتسلط عليها من
سنة ٢٨٨ — ٢٩٩ ، ثم يدخل على بن الفضل
القرمطي صنعاء ويستقر بها من ٢٩٩ — ٣٠٣)

أسعد بن ابراهيم (مرة أخرى) — ٣٠٣ — ٣٣٣

محمد بن ابراهيم — ٣٣٣ — ٣٥٢

وقد اختلكت الدولة في عهده اختلالا واسعا نتيجة
لاقتحام الأئمة والقرامطة البلاد وتسرب الملك إلى
ابن أخت أسعد واسمه عبد الله بن قحطان حتى
سنة ٣٨٧ هـ حيث انحلت الدولة وسيطر الحكم
القبلي في نواحيها .

وكانت المعارك التي دارت بين الإمام الهادي وبين بنى يعقوب معارك
كثيرة وقاسية ، وفي إحدى هذه المعارك كان النصر حليف بنى يعقوب ،
فأسروا محمد بن الإمام الهادي وقضوا على جيشه . وقد تعرض أسعد
لمصراع آخر مع على بن الفضل القرمطي ، وانتصر القرمطي ، ودخل صنعاء
وشبام وأخرج أسعد منهما ، ولكن أسعد حاول مرة أخرى أن يستعيد
سلطانه وساعده على ذلك وفاة على بن الفضل ، فاستطاع أسعد أن يحقق
نصرا كبيرا وأن يقتل من القرامطة عددا هائلا وأن يستعيد سلطات آبائه
وأجداده . ولكن الانهيار كان قد بدأ يذب في الدولة بسبب ما عانت من
صراع فتفتتت كما قلنا من قبل ، وأصبحت صنعاء القمة سائعة لمن يتناولها

القرامطة في صنعاء :

تحدثنا في الجزء الرابع من هذه الموسوعة ^(١) عن نشاط الشيعة في الأمانة النائية عن مركز الخلافة ، ومنها اليمن والشمال الإفريقي ، وكان من أهم دعائهم في اليمن على بن الفضل الذي تحدثنا عنه آنفا ، وأصله من اليمن ، من حمير ، وينسب إلى « خنفر » وهي قاعدة « أبين » الواقعة في الجنوب الشرقي من اليمن ^(٢) وكان يعاونه المنصور بن الحسن بن زاذان ، وكانا يدعوان لعبيد الله المهدي الذي كان مختلفيا في سلمية بالقرب من حماة . وقد استطاع هذان الداعيان أن يحققا انتصارا واسعا في اليمن وتمكن على بن الفضل من الاستيلاء على صنعاء كما ذكرنا آنفا . ولكنه عندما تم له ذلك أظهر مذهبه الخبيث وتبعيته للفكر القرمطي ، وادعى النبوة وأباح المحرمات وأسقط اسم عبید الله المهدي ، مما أثار عليه زميله المنصور بن الحسن ، فوقع حروب بينهما كان النصر فيها لعلي الذي حاصر رميله في قرية من قرى اليمن عدة أشهر ثم انصرف عنه . ومات المنصور سنة ٣٠٢ ثم مات علي بن الفضل سنة ٣٠٣ وكان موت هذا عن طريق طبيب فصدّه ومسح بسّم على موضع الفصد واضمحل أمر القرامطة بعد ذلك . ومبادئ القرامطة تجمعها قصيدة لشاعر من شعرائهم لعنهم الله جاء فيها :

تولّى نَبِيّ بنى هاشم وهذا نَكِي بنى يعرب
لكل نبي مضى شرعه وتلك شريعة هذا النبي
لقد حط عنا فروض الصلاة وحط الصيام ولم يتعجب
وما الخمر إلا كماء السماء حلال، فقد سدت من مذهب ^(٣)

وقد حقق على بن الفضل نجاحا كبيرا على معظم اليمن فخضع له ملوكها أو أخلوا الطريق له ، ومن هؤلاء بنو يعفر في صنعاء ، وبنو زياد

(١) ص ٣٢٣ وما بعدها .

(٢) الجرافي : المقتطف من تاريخ اليمن ص ٥٩ .

(٣) تاج الدين اليماني : تاريخ اليمن ص ٣٩ - ٤٠ .

في زبيد والأئمة في صعدة ، وامتدت غزواته إلى حضرموت • ويرى بعض الكتاب أن اتهامه بمذهب القرامطة كان عملاً قام به أعداؤه الكثيرون الذين قضى على سلطانهم فأثاروا ضده دعاية راجت بين الدهماء ، وامتد صداها إلى اليوم ، وهي في الحقيقة لا وجود لها ولا يقبلها ذوق (١) •

وسواء كانت الأشياء التي نسبت إليه حقيقة أو افتعالاً فقد التصقت به ، وكان صداها مريراً ، وهذا ساعد على نهاية على بن الفضل ، ومكّن للأمير أسعد بن أبي يعفر ، من غزو القرامطة في المذيخرة وإبادتهم سنة ٣٠٤ هـ •

صنعاء في الفترة بين بنى يعفر وبنى صالح :

بعد سقوط دولة بنى يعفر بصنعاء قبيل نهاية القرن الرابع الهجري وقعت صنعاء فريسة للخراب والدمار ، ويقول عنها السيد محيى الدين بن الحسين (٢) : في الفترة من ٤٠٥ إلى ٤٤٧ عم الخراب صنعاء وغيرها من بلاد اليمن ، لكثرة الخلاف والنزاع وعدم اجتماع الكلمة ، فأظلم اليبس وكثر خرابه ، وفسدت أحواله ، وكانت صنعاء وأعمالها كالخرقة الحمراء تتخطفها الحداة ، لها في كل سنة أو شهر سلطان غالب عليها ، حتى ضعف أهلها ، وهجروها وتوالى عليها الخراب وقل العمران •

ولا غرو ففي هذه الفترة كان الصراع مريراً حول صنعاء ، اشترك فيه بنو نجاح ، وبنو يعفر الذين تحدثنا عنهم ، وحكام بنى صالح ، والأئمة الذين سيثملهم حديثنا فيما بعد ••• فكل هذه الأطراف بالإضافة إلى القرامطة والصراع القبلي أسهمت في تدمير صنعاء خلال هذه الفترة إلى أن رسخت دولة بنى صالح فأعادت الحياة للعاصمة اليمنية الكبيرة •

(١) القاضي عبد الله الشماحي : اليمن الانسان والحضارة ص ١٠٩ •

(٢) انباء الزمن « نقلا عن اليمن عبر التاريخ » ١٩٣ •

بنو صليح في صنعاء

ثم في سواها

٤٢٩ — ٥٣٢ هـ = ١٠٣٧ — ١١٣٨ م

تحدثنا آنفا عن المنصور بن الحسن الذي كان شريكا لعلی بن الفضل في الدعوة لعبيد الله المهدي ، ثم افترق عنه عندما استبعد علی بن الفضل بسلطانه ، وادعى النبوة ، أو علی الأقل تناسى القراباته بالنسبة للمهدي ، أما المنصور فقد ظل وفيما بعهد للمهدي ، واقتنع ببسط نفوذه علی منطقة مسار ، ولما مات سنة ٣٠٢ خلفه عبد الله الهمداني ، ولما قتل هذا خلفه ابن الطفيل ٠٠٠٠ ثم سليمان بن عبد الله الحميري الذي استمال علی بن محمد الصليحي إلى مذهب الإسماعيلية ، واستخلفه علی هذه المنطقة فبدأ به ملك بني صليح ، ومما يذكر أن الخلافة الفاطمية كانت قد قامت قبل ذلك بالشمال الإفريقي ثم بمصر ، وكان بنو صليح يدينون لها بالولاء .

وسرعان ما علا أمر الصليحي فاستولى علی كثير من الحصون ، وتبعه عدد كبير من الناس ، ثم استولى علی صنعاء ، ودس السم لابن زياد واستولى علی زييد (١) ، ويقول عنه تاج الدين اليماني (٢) إنه طوى اليمن طيا ، سهله وجبله ، وفي سنة ٤٥٥ هـ ملك الصليحي جميع اليمن إلى حضرموت ، كما ولاه المستنصر الفاطمي أمر مكة ، واتخذ صنعاء عاصمة له ، وبنى فيها عدة قصور ، وأحسن سيرته في الرعية واستمر علی التسليح ، ولكنه سمح لأهل السنة بإظهار مذهبهم ، وأسكن معه ملوك اليمن الذين أزال ملكهم ، وكان إذا حج اصطحبهم معه حتى لا ينتهزوا فرصة غيبته فيثوروا في البلاد ، وأمرأ الصليحيين هم :

علی بن محمد

٤٢٩ — ٤٥٩ هـ

(١) انظر حديثنا فيما سبق عن ابن زياد وسبب وفاته .

(٢) تاريخ اليمن ص ٥٣ .

(م ٢٧ - التاريخ ج ٧)

- المكرم أحمد بن على
شمس المعالي سبأ الصليحي
السيدة أروى بنت أحمد الصليحي (زوجة المكرم)
٤٥٩ — ٤٨٤ هـ
٤٨٤ — ٤٩٢ هـ
٤٩٢ — ٥٣٢ هـ

ونهاية على بن محمد الصليحي جاءت على يد سعيد بن الأحول النجاشي وأخيه جياش ، وقصة ذلك أن الصليحي كان في طريقه إلى مكة ومعه بعض الفرسان والاتباع ، ومعه كثير من التحف والهدايا ، فلما وصل قرية المهجم في تهامة فاجأه سعيد الأحول ، وأخوه جياش وبعض اتباعهما من الفرسان ، وقد دارت معركة بينهم قتل فيها على الصليحي وأسرت نساء بنى صليح ، وفيهن زوجة على (أسماء بنت شهاب) ، وسار ركب المنتصرين إلى زبيد ، ومع اليكب أسيرات بنى صليح ، وبدأ التفكك في دولة الصليحيين .

وعقب مقتل على الصليحي قام بالأمر ابنه المكرم وصارع أعداء الدولة والمنشقين على سلطان أسرته فحقق كثيرا من الانتصارات وأتجه لإنقاذ والدته وأسيرات أسرته من بنى نجاح ، ودارت معارك عنيفة بينه وبين النجاشيين سنة ٤٦٠ هـ تحقق له فيها النصر وقتل عدد كبير من جيش بنى نجاح ، ونجا سعيد الأحول زعيم بنى نجاح من الموت بأعجوبة ، وهرب إلى « دهلك » وهي جزيرة بالبحر الأحمر بالقرب من شواطئ زبيد ، واستطاع المكرم بذلك أن يستعيد والدته وأسيرات أهل بيته .

وكان للمكرم زوجة من أسرة بنى صليح أيضا أسمها أروى وكانت خير عون لزوجها في صراعه الحربى ، وفي إدارته لشئون دولته ، ولما مرض زوجها انتقلت به من صنعاء إلى « ذى جبله » على بعد ٨٠ كم من مدينة تعز في الشمال الشرقى وبنت بهذه المدينة دارا تعرف بدار العز ، ويتحدث المؤلفون اليعينيون بإعجاب عن السيدة أروى فيقولون : لقد ضريت أروع الأمثال من الحزم والثبات ، والحكمة والعدل ، وكانت إلى جانب هذا

على مكان عال من الفضل في الأدب والمعرفة والدهاء ، وسمو التفكير وسداد الرأي ، ولها محاسن في اليمن كثيرة ، وأعمال خيرية جليلة ، منها بناء جامع « ذى جبلة » وعمارة الجناح الشرقي للجامع الكبير بصنعاء ، وغير ذلك من المساجد والمحاسن ومعاهد العلم ، والوقفيات الكبيرة ، والصدقات ورواتب العلماء والمرشدين والمدرسين ، وكان يقال لها بلقيس الجديدة في راحة عقلها وحسن تدبيرها للملك .

وكان من وزرائها ورجال دولتها سبأ بن أحمد الصليحي ، والمفضل ابن أبي البركات ، وابنه منصور ، وسبأ بن أبي السعود بن الزريع ، وعلى ابن إبراهيم بن بخيت الدولة المصري مندوب الخليفة الفاطمي في بلاط بنى صليح .

ولما مات المكرم سنة ٤٨٤ هـ قام بالأمر بعده شمس المعالي سبأ وهو من أسرة بنى صليح ، ومن خاصة المكرم . وقد خطب شمس المعالي السيدة أروى أرملة المكرم فاستجابت إلى ذلك بعد أن أذن الخليفة الفاطمي في مصر لها ، ولم تنجب منه بل يقال إنه لم يدخل بها ، وإنما كان زواجا سياسيا يشتركا في إدارة شئون الدولة .

ولما مات شمس المعالي قامت أروى بالأمر بطريق مباشر .

نهاية دولة بنى صليح :

بدأ انهيار دولة بنى صليح ، عقب اغتيال على بن محمد الصليحي الأمير الأول ، وقد بذل ابنه المكرم وزوجته أروى جهودا كبيرة لاستعادة بناء الدولة ، بيد أن انتقال أروى بزوجه من صنعاء إلى ذى جبلة ، واستخلاف عمران بن أبي الفضل الهمداني على صنعاء ، خلق الأطماع حول صنعاء . وبعد موت المكرم وقيام أروى وشمس المعالي بالأمر لم تعد المملكة إلى ما كانت عليه ، ولم تستطع السيدة أروى أن تستعيد صنعاء وما إن ماتت سنة ٥٣٢ هـ حتى تفككت المملكة الصليحية .

وسنواصل دراستنا عن صنعاء بعد خروجها من إمارة بنى صليح ،
وقبل أن نبدأ ذلك ، نقول كلمة عن صلة اليمن بالخلافة الفاطمية بمصر .

مكانة الفاطميين في دولة بنى صليح :

كان الصليحيون من دعاة الفاطميين ، ومن أتباعهم كما سبق القول ،
وقد قامت دولتهم بعد قيام الدولة الفاطمية في الشمال الإفريقي وانتقالها
إلى مصر ، وقد ساعدتهم الفاطميون ماديا وأدبيا حتى قامت دولتهم واتسع
ملكهم وكان للفاطميين في بلاط الصليحيين مندوب يمثل النفوذ الفاطمي
وقد ذكرنا من قبل ابن بختيت الدولة الذي كان مندوب الخلافة الفاطمية
في عهد السيدة أروى .

ومما يدل على نفوذ الفاطميين في دولة الصليحيين ما يذكره أحمد
حسين شرف الدين ^(١) من أن هذا المندوب اتهم لدى الخليفة الفاطمي
بشيء فأرسل الخليفة يطلب القبض عليه ، ولكن السيدة أروى ترددت
في تسليمه ، ولكن عظماء دولتها عظموا عليها الخلاف مع الخليفة ، فسلمت
المندوب وأرسلت معه كتابا إلى الخليفة تستعطفه .

ومما يدل على صلتها بالخلافة الفاطمية كذلك ما ذكرناه آنفا من أن
السيدة أروى لم تستطع أن تتزوج من الأمير شمس المعلى بعد موت
زوجها إلا بعد أن حصلت على إذن من الخليفة الفاطمي بمصر .

ويحدث عمارة اليمنى في كثير من صفحات تاريخه عن الصلة الوثيقة
بين دولة بنى صليح وبين الفاطميين في مصر ^(٢) .

ومن الملاحظ أن الصليحيين بعد أن قامت دولتهم لم يرغبوا الناس
على التشيع وسمحوا لأهل السنة أن يظهروا مذهبهم كما سبق القول .

(١) اليمن عبر التاريخ ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٢) تاريخ اليمن ص ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٩ .

وكان ذلك متمشيا مع الفكر الفاطمي الذي ارتأى عقب وصوله إلى السلطة في مصر أن يهدىء من تعصبه للتشيع ليضمن ارتباط الناس به ، وقد جاء في الوشيقة التي كتبها جوهر الصقلي للمصريين ما يلي :

« ... وذكرتم وجوها التمستم ذكرها في كتاب أمانكم . فذكرتها إجابة لكم وتطمينا لأنفسكم ، وهي إقامتكم على مذهبكم وثباتكم على ما كان عليه سلف الأئمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم ، ومن فقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم ... » (٣) .

وفي هذا المجال يختلف الصليحيون عن الأئمة الزيدية الذين لم يسمحوا بغير المذهب الزيدى ، مما سبب شرخا بين اليمن الشمالية واليمن الجنوبية عاش طويلا .

صنعاء بعد بنى صالح (سلاطين الهمدانيين)

٤٩٢ - ٥٩٦ هـ = ١٠٩٨ - ١١٩٩ م

مرت صنعاء ، عقب وفاة سبأ الصليحي سنة ٤٩٢ هـ بفترة اضطراب مدمرة ، وأول من ملكها بعد سبأ رجل من همدان يعرف بحاتم الهمداني المغلسي (٢) ويسميه القاضي الجرافي (٣) حاتم بن الغشم الهمداني ، ويقول تاج الدين اليماني عنه (٤) انه كان ناهضا كافيا ، وكان له ولد اسمه محمد ، لم يشاركه أحد في شجاعته وجوده ، ولكن كان فيه لومة واختلاط عقل . فكان إذا أحب امرأة وتزوجها قتلها ، فأحدث اضطرابا في الدولة حتى قتله أبوه .

(١) المقرئى : اتعاط الحنفا ص ٦٧ - ٧٠ .

(٢) القاضي حسين العرشى : بلغ المرام ص ٢٩ .

(٣) المقتطف من تاريخ اليمن ص ٧١ .

(٤) تاريخ اليمن ص ٦٢ .

وبقيت صنعاء في أيدي بني حاتم الهمدانيين حتى سقطت ، وضمها
الأيوبيون إلى سلطانهم مع ما ضموه من اليمن •

وسلاطين الهمدانيين بصنعاء هم :

٤٩٢ — ؟	حاتم بن الغشم الهمداني
لم تورد المراجع	عبد الله بن حاتم
تواريخ محدد	معن بن حاتم
لأمرأه هذه الفترة	هشام بن القبيب الهمداني
	حماس أخو هشام

حاتم بن أحمد بن عمران الياصمي الهمداني ٥٣٢ — ٥٥٠
فترة صراع بين حاتم وبين الأئمة على صنعاء

٥٥٠

على بن حاتم

فترة صراع ضد عبد النبي بن مهدي الذي هاجم
عدن مهدت الطريق لانتصار الأيوبيين

وهكذا كانت هذه الفترة حافلة بالفوضى والاضطرابات حول العاصمة
الرئيسية لليمن ، وقد مهد ذلك لتدخل مصر التي كان الأيوبيون بها يرون
أنهم الورثة الحقيقيون للمناطق التي كانت تابعة للفاطميين •

وسنرجى الآن الحديث عن الأيوبيين لنواصل حديثنا عن باقي
المناطق اليمنية ، بعد أن انتهينا من الحديث عن زبيد وصنعاء •

صعدة

صعدة بفتح الصاد وسكون العين كما يقول ياقوت ^(١) لواء باليمن ، وعاصمتها اسمها صعدة كذلك . ويقع لواء صعدة في شمالى اليمن متاخما للواء عسير السعودى ويسمى هذا اللواء كذلك الشام أو القبلة ، وهو معقل أئمة الشيعة الزيدية ومركز للعلوم الدينية ، وفي صعدة كثير من المساجد والدور المهمة .

ومدينة صعدة مدينة عامرة ، آهلة بالسكان ، نشاطها التجارى واسع وبها بعض الصناعات وبخاصة الجلود . ونكثر فيها الفواكه وبخاصة الأغراب ، وستدارس فيها يلى تاريخ صعدة ، ونرى الأئمة الزيديين وهم يبنون بها أنفسهم ، ثم يخرجون منها ليوسعوا رقعة سلطانهم ، وتظل معهم عدة قرون نشاهد فيها حركة المد والجزر ، وصورا من الصراع الطويل .

الشيعة :

في الجزء الثانى من هذه الموسوعة ^(٢) تحدثنا بإفاضة عن الشيعة من ناحية العقائد والأفكار ، ومن ناحية الفرق ، كما تحدثنا عن الحركات التى قاموا بها في العصر الأموى الذى خصصنا له الجزء الثانى سالف الذكر ، ونريد هنا أن نعود مرة أخرى لتقديم إلمامة سريعة عن عقائد الشيعة وفرقهم ليكون ذلك وسيلة لمزيد من التفصيل عن الزيدية الذين اتخذوا اليمن مركزا لنشاطهم ، ولنعرفت مدى ملائمة اليمن للفكر الشيعى بوجه عام ، ولل فكر الزيدى بوجه خاص .

والشيعة هم الذين شايعوا عليا رضى الله عنه ^(٣) وقد كان لعلى

(١) معجم البلدان ج ٥ ص ٣٥٧ - ٣٥٨ .

(٢) ص ١٤٥ وما بعدها من الطبعة الثامنة .

(٣) الشهر ستانى : الملل والنحل ج ١ ص ١٣١ .

شيعة منذ الملاحظات الأولى بعد وفاة الرسول ومن هؤلاء جابر بن عبد الله وحذيفة بن اليمان ، وسلمان الفارسي ، وأبو ذر الغفاري وغيرهم ، وتم الأمر لأبي بكر الصديق ، وجاء بعده عمر الفاروق ، وقد بدأ التشيع خلال عهديهما بسبب ما عرفا عنهما من أطييب الخصال ، وأرقى السجايا ، وفي عهد عثمان رضي الله عنه بدأ التشيع ينشط من جديد ، ودخلته أفكار منحرفة على يد عبد الله بن سبأ وجماعته ، كما تسلك لصفوف الشيعة جماعات أسميناهم في الجزء الثاني « مدعى التشيع » غنفثوا في صفوف الشيعة بعض سمومهم ، واستطاع الشيعة أن يكشفوا ضلالتهم أحيانا ، ويتنزلوا بهم أقسى العقوبات ، كما استطاع مدعو التشيع أن يحققوا النجاح أحيانا أخرى ، وأن يغرسوا أفكارهم الضالة في عقول الشيعة ، وقد أوردنا تفاصيل لهذا الاجمال في الجزء الثاني سالف الذكر ، والمهم أن قبول الشيعة للأفكار الموافقة لم يكن على مستوى واحد ، وهذا سبب وجود فرق مختلفة للشيعة باختلاف القدر الذي تأثرت به هذه الأفكار الواردة .

وتتفق فرق الشيعة على عقيدة واحدة هي أفضلية علي* على جميع الخلق فيما عدا رتبة النبوة التي أمتاز بها أنبياء الله ، وفيما عدا هذا فإن الاختلاف يدب بين فرق الشيعة ، وتبرز في ذلك فرقتان كبيرتان إحداهما الإمامية والثانية الزيدية .

والفرقة الإمامية انقسمت فيما بعد إلى فرقتين هما الاثنا عشرية والإسماعيلية ، ويرى الإمامية جميعا أن الإمامة خاصة بعلي* ثم بأولاده من فاطمة أي بالحسن والحسين فأولاد الأخين ، وليس لأولاد الحسن فيها نصيب عندهم لأن تنازل أبيهم لمعاوية عن الخلافة أضاع حقه ، ولا يجوز أن تكون الإمامة — ويدخل فيها الخلافة — لغير هؤلاء المستحقين ، ومن هنا فهم لا يعترفون بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان .

أما الزيدية فاعتقادهم أسهل وأيسر فهم يرون جواز إمامة المفضل

مع وجود الأفضل ، فمع أن عليا وأولاده أفضل الخلق إلا أن خلافة غيرهم جائزة ، وعلى هذا فمذهب الزيدية كان أقرب مذاهب الشيعة لرأى الجمهور .

ولكن زيدية اليمن انحرفوا عن الفكر الزيدى العام وتمسكوا أن تكون الإمامة فيهم على نحو ما يقول الإمامية ، ويرى المفكرون اليمنيون أن هذا الاتجاه فى زيدية اليمن هو الذى أثار المشكلات ضدهم منذ مطلع عهد الزيدية باليمن فى أيام الهادى يحيى بن الحسين أول الأئمة بصعدة ، ويقول القاضى الشماخى ^(١) إن الإمام زيد بن على كان أبعد نظرا من الهادى فقد أبى أن يأخذ بنظرية حصر الخلافة فى أبناء جدته فاطمة الزهراء ، ولقد كان الهادى يحيى بن الحسين ممثلاً لصفات القائد والقذوة الحسنة لاتباعه وكان يتمتع بصفات نادرة .. ولكنه للأسف اتجه اتجاه الإمامية فى المذهب ففرض أبناءه وأحفاده رؤساء على الدولة مع أن كثيرين منهم لم يكونوا مثل جدهم الهادى ولم يكونوا أهلاً لكان الصدارة ، ولو أن الهادى سار على مذهب جده زيد وحطّم هذه القيود الدخيلة على المذهب لخرج من الدائرة الضيقة التى جرت عليهم وعلى اليمن ألواناً من الخراب والدمار لأن اعتبارهم متميزين عن الآخرين ووضعهم أنفسهم موضع السيد الدائم بالنسبة للناس مهما ضعفت كفاءتهم ومهما سمت كفاءة الآخرين ، هذا الاعتبار أساء لهم ولليمن وكان من أسباب ضعف الزيدية .

اليمن والتشييع :

فى ظروف مختلفة شرحناها فى الجزء الأول من هذه الموسوعة ^(٢) هاجرت جماعات كثيرة من اليمن واتجه بعض هذه الجماعات إلى يثرب قبل الإسلام ، وقد حل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جوار هؤلاء بالمدينة ،

(١) اليمن الانسان والحضارة ص ٩٩ - ١٠٢ .
(٢) ص ٢٥٠ وما بعدها من الطبعة الرابعة عشرة .

وفي ذلك يقول المويبي (١) : نزل بيثرب من القبائل القحطانية قبيلتا الأوس والخزرج وهما بطنان من الأزد ممن نزع من اليمن بعد حادثة سيل العرم ، ثم هاجر الرسول وبعض آله إلى يثرب ، وقامت صلة وثيقة بين الهاشميين وبين الأنصار ، بل بين الهاشميين وبين اليمن الموطن الأصلي للأنصار ، وهذا يفسر لنا كلمات عبد الله بن العباس للإمام الحسين عندما أراد هذا أن يترك الحجاز إلى العراق فقال له ابن عباس : إن أهل العراق قوم غدر ، فلا تقربنهم ، أقم بهذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز ، فإن أبيت إلا الخروج فسر إلى اليمن فإن بها حصونا وشعابا ، وهى أرض عريضة طويلة ، ولأبيك بها شيعة ، وأنت من بنى أمية فى عزلة (٢) .

وإذا كان الإمام الحسين لم يستجب لفكر ابن عباس ولم يتجه إلى اليمن ، فإن كثيرين كانوا يرون فى اليمن ملاذا لهم كلما نزلت بهم النوازل فى الشمال ، ومن أجل هذا كان اليمن دائما مكانا مناسباً لدعوة الشيعة ، فإليه لجأ دعاة الفاطميين قبل أن يتجهوا للشمال الأفريقى ، وفيه هب على بن الفضل الخنفرى ، وكان يدعو للإسماعيلية ، واستطاع أن يخضع أسعد اليعفرى ويقيم سلطان زبيد ويهاجم صعدة ويهد سلطانه إلى حضرموت ، ولكن كل أعدائه تجمعوا ضده ، ورموه بثشتى الانحرافات ، وشرحوا للناس أنه من القرامطة ، وأنه من أعداء الإسلام ، وساعدهم ما انتشر عنه من عبث وسفك دماء ، فانفض الناس عنه وحججه أحد الأشراف فوضع السم فى الموضع فمات سنة ٣٠٣ هـ .

ومن الدعاة الإسماعيلية فى اليمن أبو القاسم المنصور حسن بن حوشك الذى نجحت دعوته فى بعض مخاليف اليمن .

(١). اليمن الكبرى ص ٢٥٢ .

(٢) الطبرى ج٣ ص ٢٨٨ وعقيدة الشيعة تأليف هوايت دونالدش

ص ١٥ .

وأيا ما كانت نتائج هذه الدعوات ، فإن الدعوة الزيدية باليمن كانت أكثر الدعوات الشيعية عمقا ورسوخا ، ذلك لكفاءة الإمام الهادي (الإمام الأول للزيدية) ولأن هذا الإمام لم يصل إلى اليمن إلا والدعوة الشيعية قد رسخت فيه تساندها عشائر قوية (١) .

وإذا رجعنا إلى الموراء حوالي قرن من الزمان قبل وصول الهادي أي إذا عدنا إلى العقد الأخير من القرن الثاني الهجري ، نجد اليمن متأثرة هائجة ضد الخليفة العباسي هارون الرشيد الذي هاله عصيان اليمن ، فأرسل مولاه « حماد البربري » وأوصاه وصيته الشهيرة التي أوردناها من قبل وهي : أسمعني صوت أهل اليمن ، وإذا كان حماد قد نجح في ذلك فإن نجاحه لم يكن إلا كبتا للشعور اليمني ، وسرعان ما تجددت ثورة اليمن بعد وفاة هارون الرشيد بعام واحد .

وكانت ثورة اليمن آنذاك مرتبطة بظهور محمد بن ابراهيم بن طباطبا ابن إسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بالكوفة يعاونه أبو السرايا السري بن منصور الذي خرج من جيش هرثمة احتجاجا على ما اتهم به المأمون من تعاطف مع الفرس ضد العرب ، وأستولى أبو السرايا على الكوفة والمدائن . . ودعا للطالبين (٢) وظهر ابن طباطبا سالف الذكر ، وسرعان ما اتجه إلى اليمن أحد قادة هذه الحركة وهو ابراهيم الجزار ابن موسى بن جعفر بن محمد علي بن الحسين بن علي والتلف حولة الشيعة الذين كانوا قد كثروا باليمن وبخاصة في صنعاء وحاربهم حمدويه بن عيسى بن ماهان وإلى اليمن من قبل المأمون ، وحقق كثيرا من الانتصارات ، وتركز بلواء صعدة وسمى الجزار لكثرة ما قتل ودمر ، إذ أعلن أن كل خارج عن الإمامة الزيدية لا حرمة لدمه ولا لماله .

وتغلب المأمون على هذه الحركة بعد جهد طويل ، ولكنها خلقت

(١). القاضي الشماحي : اليمن الانسان والحضارة ص ١٠٦ .

(٢) موسوعة التاريخ الاسلامي ج ٣ ص ١٧٤ من الطبعة العاشرة .

بصعدة اتجاها زيديا بقى قويا وواضحا ، على أن ما قاساه الشيعة على يد المأمون دفعهم إلى الميل إلى الهدوء وعدم الالتجاء إلى الثورات والاكتفاء بنشر الدعوة وتجميع الأنصار ، وبخاصة أن المأمون عقب ذلك ولى محمد بن عبد الله بن زياد الذى بدأ به الاتجاه الاستقلالى فى اليمن •

الرسّ والأئمة الزيديون

يقال إن «الرس» دار «بالمدينة لأحد زعماء الزيدية ، ويقال إن «الرس» جبل» أسود عند ذى الجحفة بالقرب من المدينة ، والنسبة إليها الرّسّى ولعل أول من نسب لها هو الإمام القاسم بن إبراهيم بن اسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن على وكان يلقب «نجم الأئمة» وهو شقيق محمد بن إبراهيم سالف الذكر ، وقد اختفى بعد وفاة أخيه وانتقل من قطر إلى قطر ثم لجأ إلى الرس واختارها مكانا له ولشييعته وبدأ يُعرف بالرسى •

وأول من طالب بالإمامة من بنى الرسى هو المهادى يحيى بن الحسين ، وقد ذهب له وفد من شيعة اليمن يطلبه للقُدوم لحكم اليمن بعد ما ساءت به الأحوال وكثر الصراع واشتدت شوكة الشيعة ، فقدم المهادى لليمن سنة ٢٨٠ هـ ولكنه لم يجد العون الكافى فعاد أدراجه إلى الرس ، وفى سنة ٢٨٤ عاد شيعة اليمن يطلبون مقدمه ويعدون بالتجمع حوله ونصرته ، فجاء ومعه آله ، ومريدوه ونزل بصعدة واليف الناس حوله وبدأت به ساطة الأئمة باليمن ، ومن صعدة بدأت الدعوة الزيدية تنتشر إلى بقاع أخرى باليمن ، ومن أجل هذا قاد المهادى معارك شرسة قوية ضد كثير من دول اليمن التى كانت موجودة فى عهده وبخاصة بنى يعفر وعلى بن الفضل •

وكان المهادى شخصية ممتازة جديرة بأن تقوم بهذا الدور الكبير الذى فامت به ، فقد نشأ بالمدينة نشأة فيها ضوء للعلم ، وفيها ورع وتقوى ،

ولما اكتمل فكرة كتب عدة مؤلفات في الدراسات الإسلامية منها الأحكام ،
والمنتخب ، والفنون ، وعندما قدم اليمن برز فيه جانب القيادة برونزا
واضحا ، وتجمعت فيه صفات القائد الناجح ، فكان مترفعا عن الأهواء
والمتع ، شجاعا في المعارك ، معتدلا حتى مع أعدائه ، لم يمنعه ترفعه بنسبه
عن ترويح بناته من غير العلويين (١) .

وعندما بدأ يعد المدة لصراع أعدائه وضع لنفسه نهوذجاً مثاليا أملنه
على أتباعه في صورة عهد ، قال فيه : أيها الناس إني أشتري لكم
أربعا على نفسي : الحكم بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ،
والآخرة لكم على نفسي فيما يكون بيني وبينكم ، وأن أقدمكم عند العطاء ،
وأقدم عليكم عند لقاء العدو .

واشتري لنفسى عليكم اثنتين النصيحة لله في السر والعلانية ، والطاعة
لأمرى ما أطعت الله .

كان هذا نهجا رائعا نفذ الهادي أدق تنفيذ مما كسب له النصر في أكثر
ما خاض من المعارك .

ومما يذكر أن المهادي ينتهي نسبه بالحسن بن علي ، فهو ليس من
أبناء زيد بن علي زين العابدين ، ولكنه اعتنق الزيدية كما اعتنقها من قبل
أبوه وجده .

وإذا كنا في حديثنا عن الإمارات التي قامت في زبيد وصنعاء قد
توقفنا عند سنة ٥٦٩ هـ وهي السنة التي دخل فيها الأيوبيون اليمن ،
فإننا مع أئمة الزيدية ان نقف عند ذلك التاريخ لأن هؤلاء الأئمة لم يختلفوا
كما اختلف سواهم ، بل ناضلوا أو طأطأوا الرعوس للقوى التي تفوقهم
لكنهم بقوا على كل حال في أكثر فترات التاريخ حتى سنة ١٣٨٢ هـ (١٩٦٢ م)
عندما قامت الثورة ضد الإمام البدر .

(١) القاضي الشماحي : اليمن الانسان والحضارة ص ١٠٠ .

ومما يذكر أن الأئمة الزيدية عاشوا في صراع مع الدول اليمينية الأخرى من سنة ٢٨٤ هـ حتى سنة ١٠٤٥ هـ ثم خلصت اليمن الشمالية للأئمة الزيدية حتى قيام الثورة ، فيما عدا فترة الاحتلال التركي (١) .

ومما يذكر كذلك أن الأئمة الزيدية اندفعوا في كثير من الأحوال إلى صراع مرير ضد بعضهم البعض ، فكان كلما مات واحد منهم ادعى عدد من الزيدية حقهم بولاية الأمر ، ويدور بذلك صراع مرير مما يمكن أن يجعلنا نقرر أن أرض اليمن عرفت الدماء والأهوال بسبب الصراع الذي قام بين فرق الزيدية وأحزابها بعضهم والبعض ، وبين الزيدية من جانب والدول اليمينية من جانب آخر .

ويصف المؤلف اليمنى أحمد الجندارى الصراع بين الأئمة بعضهم والبعض أدق وصف حين يقول : وبعد موت المؤيد محمد بن المتوكل إسماعيل ، اختلف آل الإمام فركبوا ، ومثلئ بعضهم من بعض فركبوا ، فطمع الكل في الإمامة ، حتى كادت تقوم القيامة .

وكان المؤيد قد أوصى بالإمامة لابنه يوسف لاعتقاده أنه أحسن إخوته ، ولكن ادعى الحسين بن عبد القادر الإمامة بكونه كنان ، وادعاهما الحسين بن محمد بعمران ، وعلى بن أحمد بصعدة والحسين بن الحسن برداع ، ومحمد ابن أحمد بالمنصورة وسمى صاحب المواهب ، وصارت الأرض جيفة وفي كل قرية خليفة ، ولكن صاحب المواهب هو الذى غلب ، وصال على أنداده ووثب ، وما ظفر سواه بغير اللقب (٢) .

بقى أن نقول عن الأئمة الزيدية : إن سلطانهم ظل محصورا في المنطقة الشمالية حتى القرن السابع الهجرى ثم بدأ سلطانهم يمتد جنوبا إلى صنعاء وإلى المناطق الأخرى في اليمن الشمالية .

(١) القاضى الشماخى : اليمن الانسان والحضارة ص ٩٥ - ٩٦ .
(٢) الجامع الوجيز في وفيات أولى العلم والتبريز مخطوط نقلا عن تاريخ اليمن السياسى للدكتور حسن سليمان ص ٢٨٢ وعن اليمن عبر التاريخ للأستاذ أحمد حسين شرف الدين ص ٢٤٧ .

ومنذ أوائل القرن الحادى عشر الهجرى حاول الأئمة أن يندفعوا إلى اليمن الجنوبية ، إلى حضرموت وبخاصة بعد جلاء الأتراك عنها ، ولكن سلطانهم لم يستقر فى تلك المناطق إذ تمسكت منطقة حضرموت بالمذهب الشافعى ، وكان ذلك من أهم الأسباب التى لم تهيء للزيدية النجاح فى اليمن الجنوبية ، هذا بالإضافة إلى الحياة القبلية التى وجدت لها فى مناطق حضرموت أرضا خصبة ، فدفعت إلى الورا كل سلطان حاول أن يقضى عليها من الشمال .

وبعد هذه الدراسة عن الأئمة الزيدية باليمن نثبت فيما يلى قائمة بأسمائهم مع بعض المعلومات المهمة التى ترتبط ببعضهم ، وسنلاحظ من هذه القائمة أن التسلسل غير موجود ، فطالما قفز إمام إلى السلطة من غير أولاد الإمام المعزول أو المتوفى ، وأحيانا يتلاحق بعض الإخوة بعد أبيهم ، وأحيانا كان يقوم إمامان أو أكثر فى وقت واحد فى أمكنة متعددة ، ولكن المؤرخين يذكرون أقواهم أو أحقهم ويهملون الآخرين ، وسنلاحظ كذلك وجود أوقات بدون أئمة على الإطلاق . وملاحظة أخيرة هى الألقاب التى تحدث اضطرابا فى الفهم ، فكل إمام لقب كالمهدى والهادى والمنصور والمتوكل ، والمؤيد وهى تتكرر أحيانا وكانت ألقاب مملكة فى غير موضعها ، وقد حذفت الكثير منها طلبا للإيضاح .

وفىما يلى هذه القائمة :

١ — الهادى يحيى بن الحسين ٢٨٤ — ٢٩٨ = ٨٩٨ — ٩١١

٢ — المرتضى بن الهادى ٢٩٨ — ٣٠١ = ٩١١ — ٩١٣

(تنبئى)

٣ — الناصر بن الهادى ٣٠١ — ٣٢٥ = ٩١٣ — ٩٣٤

تغلب على الداعية منصور بن حسين فى موقعة
(نغاش) إحدى معاركه ضد الباطنية .

- ٤ — المنصور بن الناصر $٣٢٥ - ٣٦٦ = ٩٣٤ - ٩٧٦$
- ٥ — يوسف بن المنصور $٣٦٦ - ٤٠٣ = ٩٧٧ - ١٠١٢$
- ٦ — المنصور القاسم بن علي العياني $٣٨٩ - ٣٩٣ = ٩٩٩ - ١٠٠٣$
الإمامان رقم ٦ ، ٧ قاما في أثناء حكم الإمام رقم ٥ .
- ٧ — المهدي الحسين بن القاسم $٣٩٣ - ٤٠٣ = ١٠٠٣ - ١٠١٢$
- ٨ — أبو هاشم الحسن بن عبد الرحمن $٤٢٦ - ٤٣١ = ١٠٣٥ - ١٠٤٠$
- ٩ — أبو الفتح الديلمي $٤٣٧ - ٤٤٤ = ١٠٤٦ - ١٠٥٣$
- ١٠ — المتوكل أحمد بن سليمان $٥٣٢ - ٥٦٧ = ١١٣٧ - ١١٧١$
- ١١ — المنصور عبد الله بن حمزة $٥٨٣ - ٦١٤ = ١١٨٦ - ١٢١٧$
ينتهي نسبه إلى عبد الله بن الحسين أخى الهادي يحيى بن الحسين
- ١٢ — المعتضد يحيى بن المحسن $٦١٤ - ٦٣٦ = ١٢١٧ - ١٢٣٩$
- ١٣ — المهدي أحمد بن الحسين $٦٤٦ - ٦٥٦ = ١٢٤٩ - ١٢٥٨$
ينتهي نسبه إلى محمد بن القاسم عم الهادي
- ١٤ — يحيى بن محمد السراجي $٦٥٦ - ٦٦٠ = ١٢٥٨ - ١٢٦٢$
ينتهي نسبه إلى الحسن بن زيد بن علي ، سمله سنجر الشعبي عامه
المظفر الرسولي .
- ١٥ — المنصور الحسن بن بدر الدين $٦٦١ - ٦٧٠ = ١٢٦٢ - ١٢٧٢$
- ١٦ — المهدي إبراهيم بن تاج الدين $٦٧٠ - ٦٧٤ = ١٢٧٢ - ١٢٧٦$
حارب المظفر الرسولي وانتصر أحيانا ، ولكنه هزم
أخيرا ووقع أسيرا وظل في الأسر حتى مات .
- ١٧ — المتوكل المطهر بن يحيى $٦٧٦ - ٦٩٧ = ١٢٧٨ - ١٢٩٨$

١٨ — المهدى محمد بن المطهر ٦٩٧ — ٧٢٨ = ١٣٩٨ — ١٣٢٧
استولى على صنعاء وعدن ولحج وحصر ملك الدولة الرسولية في
منطقة تعز +

١٩ — المؤيد يحيى بن حمزة ٧٢٩ — ٧٤٩ = ١٣٢٨ — ١٣٤٩
ينتهى نسبه إلى علي زين العابدين بن الحسين

٢٠ — الواثق المطهر بن محمد ٧٣٠ — ٧٥٠ = ١٣٣٠ — ١٣٥٠

٢١ — المهدى علي بن صلاح ٧٣٠ — ٧٥٠ = ١٣٣٠ — ١٣٥٠

٢٢ — الداعي أحمد بن علي الفقي ٧٣٠ — ٧٥٠ = ١٣٣٠ — ١٣٥٠

٢٣ — المهدى علي بن محمد ٧٥٠ — ٧٧٣ = ١٣٥٠ — ١٣٧٣

٢٤ — صلاح الدين بن المهدى ٧٧٣ — ٧٩٣ = ١٣٧٣ — ١٣٩٣

٢٥ — علي بن صلاح الدين ٧٩٣ — ٨٤٠ = ١٣٩١ — ١٤٣٦

٢٦ — المهدى أحمد بن يحيى المرتضى ٧٩٣ — ٧٩٣ = ١٣٩١ = ١٣٩١

٢٧ — الهادي علي بن المؤيد ٧٩٦ — ٨٣٠ = ١٣٩٣ — ١٤٢٧

٢٨ — المتوكل المطهر بن محمد الحمزي (في ذمار) +

٨٤٠ — ٨٧٩ = ١٤٣٧ — ١٤٧٥

٢٩ — المهدى صلاح بن علي (في صنعاء) ٨٤٠ — ٨٤٩ = ١٤٣٧ — ١٤٤٦

٣٠ — الناصر بن محمد ٨٤٣ — ٨٦٦ = ١٤٣٩ — ١٤٦٢

٣١ — محمد بن الناصر ٨٦٦ — ٩٠٨ = ١٤٦٢ — ١٥٠٣

٣٢ — الهادي عز الدين بن الحسن ٨٧٩ — ٩٠٠ = ١٤٧٥ — ١٤٩٥

٣٣ — الناصر الحسن بن عز الدين ٩٠٠ — ٩٢٩ = ١٤٩٥ — ١٥٢٤

٣٤ — محمد بن علي الوثلي ٨٨٠ — ٩١٠ = ١٤٧٦ — ١٥٠٥

فترته متداخلة مع الإمامين قبله ، اعتقله السلطان الطاهري (علي

بن عامر) وبقي بسجن صنعاء حتى مات +

(م ٢٨ - التاريخ ج ٧)

٣٥ — شرف المدين بن المهدي ٩١٢ — ٩٦٥ = ١٥٠٧ — ١٥٥٨

اعتزل الإمامة بعد حكمه الطويل

٣٦ — المطهر بن شرف الدين ٩٦٥ — ٩٨٠ = ١٥٥٨ — ١٥٧٣

صراع الأتراك العثمانيين

٣٧ — الحسن بن علي داود ٩٨٦ — ٩٩٣ = ١٥٧٩ — ١٥٨٥

استمر في محاربة الأتراك ولكن هؤلاء قبضوا عليه ونفوه للأسمانة

٣٨ — القاسم بن محمد ١٠٠٦ — ١٠٢٩ = ١٥٩٨ — ١٦٢٠

يعرف هو وأولاده بالدولة القاسمية ، قهر الأتراك ، وحصر سلطانهم في نقاط ضيقة *

٣٩ — محمد بن القاسم ١٠٠٩ — ١٠٥٤ = ١٦٠٠ — ١٦٤٤

تم في عهده جلاء الأتراك للمرة الثانية

٤٠ — اسماعيل بن قاسم ١٠٥٤ — ١٠٨٧ = ١٦٤٤ — ١٦٧٦

امتد نفوذه فشمّل جميع نواحي اليمن ، ومنها حضرموت

٤١ — أحمد بن الحسن بن القاسم ١٠٨٧ — ١٠٩٢ = ١٦٧٦ — ١٦٨١

٤٢ — المؤيد محمد بن اسماعيل بن القاسم

١٠٩٢ — ١٠٩٧ = ١٦٨١ — ١٦٨٦

٤٣ — محمد أحمد بن القاسم ١٠٩٨ — ١١٣٠ = ١٦٨٧ — ١٧١٨

يعرف بصاحب المواهب نسبة لقرية بناها وسماها « المواهب » *

٤٤ — الحسين بن القاسم بن المؤيد ١١٢٧ — ١١٣١ = ١٧١٦ — ١٧٢٠

٤٥ — القاسم بن حسين ١١٢٨ — ١١٣٩ = ١٧١٦ — ١٧٢٧

٤٦ — محمد بن إسحق ١١٣٥ — ١١٣٥ = ١٧٢٣ — ١٧٢٣

٤٧ — الحسين بن القاسم ١١٣٩ — ١١٦١ = ١٧٢٧ — ١٧٤٧

٤٨ — عباس بن الحسين بن القاسم ١٦٦١ — ١١٨٩ = ١٧٤٨ — ١٧٧٥

٤٩ — على بن الحسين بن القاسم ١١٨٩ — ١٢٢٤ = ١٧٧٥ — ١٨٠٩

٥٠ — أحمد بن الحسين بن القاسم ١٢٢٤ — ١٢٣١ = ١٨٠٩ — ١٨١٦

٥١ — عبد الله المهدي بن الحسين بن القاسم

١٢٣١ — ١٢٥١ = ١٨١٦ — ١٨٣٥

٥٢ — أحمد بن علي السراحي ١٢٤٧ — ١٢٤٧ = ١٨٣١ — ١٨٣١

٥٣ — علي بن المهدي ١٢٥١ — ١٢٥٢ = ١٨٣٥ — ١٨٣٦

بدأ في عهده غزو الأتراك الثالث لليمن

٥٤ — عبد الله بن الحسن بن أحمد بن المهدي

١٢٥٢ — ١٢٥٦ = ١٨٣٦ — ١٨٤٠

في عهده احتل الانجليز عدن — قتل في ثورة همدان سنة ١٢٥٦ ،

٥٥ — محمد بن أحمد بن الحسين ١٢٥٦ — ١٢٥٩ = ١٨٤٠ — ١٨٤٣

٥٦ — محمد بن يحيى بن المنصور ١٢٦٠ — ١٢٦٥ = ١٨٤٤ — ١٨٤٩

٥٧ — أحمد بن هاشم ١٢٦٤ — ١٢٦٥ = ١٨٤٨ — ١٨٤٩

٥٨ — العباس بن عبد الرحمن ١٢٦٦ — ١٢٦٦ = ١٨٥٠ — ١٨٥٠

٥٩ — غالب بن المتوكل محمد ١٢٦٧ — ١٢٦٨ = ١٨٥١ — ١٨٥٢

٦٠ — محمد بن عبد الله الوزير ١٢٦٩ — ١٣٠٧ = ١٨٥٣ — ١٨٩٠

٦١ — الحسن بن أحمد ١٢٧١ — ١٢٩٥ = ١٨٥٥ — ١٨٧٨

٦٢ — حسين بن محمد بن الهادي ١٢٧٥ — ١٢٧٩ = ١٨٥٩ — ١٨٦٣

٦٣ — شرف الدين بن محمد ١٢٩٦ — ١٣٠٧ = ١٨٧٨ — ١٨٩٠

٦٤ — محمد بن يحيى حميد الدين ١٣٠٧ — ١٣٢٢ = ١٨٩٠ — ١٩٠٤

٦٥ — يحيى بن محمد بن يحيى حميد الدين

١٣٢٢ — ١٣٦٧ = ١٩٠٤ — ١٩٤٨

جعل صنعاء عاصمة له وانتقل لها من صنعاء

- ٦٦ — أحمد بن يحيى ١٣٦٧ — ١٣٨٢ = ١٩٤٨ — ١٩٦٢
٦٧ — البدر بن أحمد ١٣٨٢ = ١٩٦٢ (عدة أيام ثم هبت
ثورة السلال)
-

وقد بدأ الأئمة نشاطهم في صعدة كما تلانا من قبل ، ثم امتد سلطانهم إلى أكثر اليمن الشمالية وبعض بقاع اليمن الجنوبي ، وانتهى الأمر بسيطرتهم على اليمن الشمالي كله ، وعلى انفصال اليمن الجنوبي ، وسنترك الآن الأئمة الزيدية لنواصل حديثنا عن عدن منذ ظهرت بها اتجاهات استقلالية حتى زحف الأيوبيون على اليمن كله .

وبعد الأيوبيين جاء على نظامهم بنو رسول وبنو طاهر والمماليك المصريون ، ثم ظهر الأتراك العثمانيون واقتحموا اليمن ، ولم يقف أمامهم في حلبة النضال إلا الأئمة ، ولم يجد اليمنيون قيادة غيرهم في الصراع ضد العثمانيين ، ومن أجل هذا التفوا حولهم ، وظهر بعض الأئمة قادة ممتازين قادوا الشعب بمهارة في هذا الصراع الطويل .

عدن

عدن — كما يقول ياقوت — مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن ، لا ماء بها ولا مرعى ، وعدن مرفأ هام ، وتسمى « عدن أبين » وأبين مخلاف باليمن عدن من جملته ، وتعد عدن من أقدم أسواق العرب ، وهى تطل على البحر . ويحيط بها جبل لم يكن فيه طريق يحصل عدن بما خلف الجبل ، فقطع في الجبل باب فصار لها طريق إلى البر ، ويورد ياقوت أسبابا عدة من تسمية عدن وأكثرها يتجه إلى نسبتها إلى أشخاص سمووا بهذا الاسم (١) .

وفي التاريخ القديم كانت عدن تسمى « أدانا » وكانت أهم الموانئ في جنوب شبه الجزيرة العربية عند مضيق باب المندب حتى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد ، إبان دولة سبأ التى تحدثنا عنها في الجزء الأول من هذه الموسوعة ، وكانت دولة سبأ تحتكر التجارة بين البلاد العربية وبين البلاد الشرقية (الهند والصين) ومن أجل هذا لم تكن تسمح للسفن العربية الهابطة من البحر الأحمر بأن تجتاز المضيق وتواصل سيرها في الخط التجارى الذى احتكرته سبأ ، وكانت سبأ تشتري التجارة الهابطة وتقوم بتسويقها حيثما تشاء ، وتبيع لتجار الشمال ما يحتاجونه من حاصلات الأقطار الشرقية ، وظل الحال على ذلك حينما سقطت سبأ ، وضعفت حمير من بعدها ، ولم يعد في سلطة حكام اليمن أن يوقفوا السفن عن اجتياز المضيق ومواصلة الرحلة في المحيط الهندى إلى الشرق .

وفي كلتا الحالتين كانت عدن أهم ميناء تقف فيه السفن الهابطة والمساعدة لتتروا بحاجياتها قبل أن تواصل سيرها في المحيط الهندى أو البحر الأحمر .

ولم تصبح عدن مملكة قائمة بذاتها إلا ابتداء من دولة بنى زريع سنة ٤٧٦ هـ ، وكانت قبل ذلك ولاية تابعة لآل زياد وآل نجاح والصليحيين ، وسنتحدث فيما يلى عن عدن في فترة استقلالها .

(١) معجم البلدان : ج ٣ ص ٦٢١ - ٦٢٢ .

بنى زريع فى عدن

٤٧٦ — ٥٦٩ هـ

من بنى صليح إلى بنى زريع :

عندما استولى على بن محمد الصليحي على اليمن مد سلطانه إلى عدن فوجد بها بنى معن الحميريين ، وكان هؤلاء قد تغلبوا على لحج والشحر وحضرموت ، وقد أظهر هؤلاء ولأهم لبنى صليح وعاونوهم فى حروبهم ضد بنى نجاح ، ومن أجل هذا أبقاهم على الصليحي على ما تحت أيديهم على أن يكونوا نوابا عنه فى حكم هذه البقاع ، والمتزم بنو معن بذلك ، وقنعوا بالسلطة فى ظلال التبعية لبنى صليح .

ولما خطب الصليحي الأميرة أروى التى تحدثنا عنها من قبل إلى ابنه المكرم جعل دخل مدينة عدن وما حولها صداقا لها ، كما قرر أن يدفع لها هذا الخراج كل عام هدية لها ، وظل بنو معن يدفعون للسيدة أروى هذا الخراج حتى سقط على بن محمد الصليحي بسيوف بنى نجاح سنة ٤٥٩ هـ فاستبد بنو معن بما تحت أيديهم ، وتوقفوا عن دفع الخراج للسيدة أروى ، ولكن زوجها (السلطان المكرم) انتظر ريثما فرغ من المشكلات التى كانت تحيط به ، فلما جاءت سنة ٤٦٧ هـ هاجم المكرم بنى معن وطردهم من عدن وما والاها ، وقضى على نفوذهم تماما .

بدء سلطة بنى زريع :

لما استقر الأمر للمكرم الصليحي فى عدن وما حولها جعل ولايتها للعباس ومسعود ابنى المكرم الجشمى بن يام بن أصبى الزريعى — ويعرف بابن الذئب مما جعل المؤرخين يطلقون على الزريعيين أحيانا « بنى الذئب » (١) وجعل المكرم الصليحي للعباس حصن التعكر وما يليه من

(١) جمال الدين يوسف بن يعقوب : صفة بلاد اليمن ص ١٢١ .

البر ، والمسعود حصن الخضراء وما يليه من البحر ، وله كذلك مدينة عدن ، إذ كان هذا قد أبلى بلاء حسنا في الصراع الذي دار بين المكرم السليحي وبين بنى نجاح ، والذي استطاع المكرم بواسطته أن ينفذ أمه وصواحبانها من أسر بنى نجاح ، وقد أثرنا لهذا الصراع من قبل ، واستخلص المكرم العباس والمسعود على أن يدفع كل منهما للسيدة أروى مبلغ خمسين ألف دينار كل عام ، وقد استمرا على ذلك طيلة حياتهما وسار على ذلك أبناؤهما من بعدها مع تخلف وانتقاض في بعض السنوات .

وهكذا أصبح بنو زريع شبه مستقلين في هذه البقاع ، على أن الزمن قد مر وسقط بنو صليح ، وماتت السيدة أروى وظهر على أثر بنى هليلج بنو مهدي وبنو همدان ، ولكن عناصر من بنى زريع قفزت إلى السلطة وتلقدها خلفاء الفاطميين سلطة الدعوة باسمهم ، وقد استمر ذلك حتى سقطت الخلافة الفاطمية بمصر ، وقام الأيوبيون مقامهم ، فتطلعوا إلى أن يرثوا أملاك الفاطميين ومن ضمنها اليمن كما سنرى فيما بعد .

وقائمة سلاطين آل زريع هي :

في حصن التعكر	في حصن الخضراء وعدن
العباس بن المكرم ٤٧٠ — ٤٧٧	المسعود بن المكرم ٤٧٠ — ٤٨٠
زريع بن العباس ٤٧٧ — ٤٨٠	أبو الغازات بن المسعود ٤٨٠ — ٤٨٥
أبو المسعود بن زريع ٤٨٠ — ٤٩٤	محمد بن أبي الغازات ٤٨٥ — ٤٨٨
	علي بن محمد ٤٧٨ — ٤٨٩
الداعي سبأ بن أبي المسعود (في المنطقتين)	٤٨٩ — ٥٣٣

والداعي سبأ هو ابن أبي المسعود بن زريع ، وكان عظيم الشخصية في عهد أبيه ، حارب ابن عمه علي بن محمد حاكم حصن الخضراء وعدن ، وانتصر عليه ، واستولى على منطقته سنة ٤٨٩ هـ ثم ورث أباه في حصن

التعتر سنة ٤٩٤ هـ فدانت له المنطقة كلها ، وقلده الخليفة الفاطمي بمصر
الدعرة ، وسمى الداعي سبأ ، وظل في سلطانه إلى أن مات سنة ٥٣٣ .

الداعي محمد بن سبأ (في المنطقتين) ٥٣٣ — ٥٥٠

عمران بن محمد بن سبأ (في المنطقتين) ٥٥٠ — ٥٦٠

أبو الدر جوهر المعطى وصيا على أولاد عمران ٥٦٠ — ٥٦٩

ويقول تاج الدين اليماني^(١) عن محمد بن سبأ : إن لقبه كان المعظم
المتوج الكبير ، وكان ممدحا ، ويقصده الشعراء فيجزل لهم العطاء ، وكان
جوادا كريما ، توسع في الملك ، وغلب على أكثر البلاد ، وعندما توفيت
السيدة أروى سنة ٥٣٣ انتقل ما كان بيدها من الحصون والذخائر إلى
المنصور بن الأفضل ، فابتاع الداعي محمد منه الحصون والبلاد سنة ٥٤٦
وسكن الداعي بذي جبلة — ولما مات سنة ٥٦٠ انتقل الأمر إلى ذرارية ، إلى
أن نفاهم سيف الإسلام توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين سنة
٥٦٩ هـ .

محصن في اليمن

مطلع الدعوة الفاطمية :

إن الحركة العلوية التي أثمرت خلافة فاطمية بالشمال الأندلسي قبيل نهاية القرن الهجري الثالث ، كانت قد بدأت نشاطها قبل ذلك في اليمن ، وإذا كانت أضرحة أئمة أهل البيت في النجف وكربلاء عُدَّت المكان الملائم لاختيار الدعاة العلويين ، فإن اليمن كانت المكان الملائم لنشاط هؤلاء الدعاة .

وقد سبق أن ذكرنا المميزات التي جعلت اليمن تنعم بهذه المكانة وهي بعدها عن مركز السلطة في دمشق وبغداد ، وكثرة ما بها من أغوار وكهوف ونجاد ، ولما كان بها من مذاهب وفلسفات متعددة قبل الإسلام ، ثم لما كان يربطها بالهاشميين من روابط ووشائج ، ويضيف على بن الفضل اليماني سببا آخر جعل اليمن بلادا مناسبة للدعوة الفاطمية ، وهو في ذلك يقول : « والله ان الفرصة ممكنة في اليمن ، وان الذي تدعون إليه جائز هنالك ، وناموسنا يمشى عليهم فإن فيهم ضعف العقول ، وقلة المعرفة بأحكام الشريعة المحمدية » .

وعلى هذا أرسل الفاطميون دعائهم إلى اليمن ليقوموا بالدعوة للإمام أبي عبد الله المهدي ، وبعد وفاة هذا استمرت الدعوة لابنه عبد الله المهدي (١) .

وكان أول الدعاة الفاطميين باليمن أبا القاسم الحسن بن حوشب وهو من ولد عقيل بن أبي طالب ، وعلى بن الفضل الخنفرى اليماني ، وقد أوحى أبو عبيد الله المهدي داعيته أبا القاسم بقوله : أجمع المال والرجال وألزم الصوم والصلاة والتقشف ، واعمل بالظاهر ، ولا تظهر الباطن ،

(١) انظر هذه الموسوعة ج٤ ص ٣٢٣ وما بعدها .

وأوصاه بعلى بن الفضل قائلاً عنه : هو شاب قريب عهد بالأمر ، فأنظر
تكيف تسوس أمره .

ووجه المهدي نصحه لعلى بن الفضل قائلاً : إن هذا الرجل (ابن
حوشب) الذي نبعث به معك هو بحر علم ، فأنظر كيف تمسجه ، وقتره ،
واعرف له حقه ، ولا تخالفه فيما يراه لك ، انه أعرف منك ، وإنك إن
خالفت لم ترشداً

واتجه إلى الاثنين قائلاً : أبعثكما إلى اليمن تدعوان إلى ولدي هذا ،
فسيكون له ولذريته عز وسلطان ، وأن الله عز وجل قسم لليمنيين ألا
يتم أمره في هذه الشريعة إلا بنصرهم (١) .

وخرج الداعيان معا حوالي سنة ٢٦٨ هـ ثم افترقا ، فذهب كل منهما
إلى مكان باليمن على أن يتصل أحدهما بالآخر من حين إلى حين ، وقد
اتجه أبو القاسم إلى عدن ، وأخذ على بن الفضل وجهته إلى بلاد يافع
الجبلية بالقرب من الجند .

ونجح الاثنان نجاحاً موفوراً للأسباب التي ذكرناها ، وبسبب
الاضطرابات السياسية التي كانت سائدة باليمن آنذاك ، وعندما أحس
أبو القاسم بما ناله من نجاح تسمى « منصور اليمن » ودانت له بتقاع
كثيرة باليمن من أهمها ذخار وشبام *** وحقق على بن الفضل نجاحاً واسعاً
ببطريق القوة تارة والدعوة تارة أخرى ، وبطريق التأمر تارة ثالثة ، ودانت
له عدن وصنعاء وزبيد .

ولكن النصر العسكري خلق كثيراً من الغرور والأطماع في نفس على
ابن الفضل ، فبدأ يظهر التمرد والرغبة في الاستقلال بل اتجه إلى الانحراف

(١) نقول من « افتتاح الدعوة الزهراء » مخطوط لمحمد بن منصور
التميمي (النعمان) .

والخطيئة كما ذكرنا من قبل ، وتغلبت عليه ثقافة قرمطية قديمة كانت ألقت بذورها في نفسه ، ولعل هذا هو ما جعل المهدي لا يُقبل على اليمن وأثر أن يتبع أبا عبد الله الشيعي الذي كانت دعوته قد حققت نجاحا عظيما في الشمال الافريقي ، وقد اغتيل على بن الفضل سنة ٢٠٣ هـ ومات ابن حوشب في العام التالي سنة ٢٠٣ هـ .

والمهم أن الخلافة الفاطمية قامت في الشمال الافريقي ولكن الفاطميين كانت لهم دعوة ناجحة في اليمن . وانتصارات لا تنسى ، وإذا كان الفاطميون قد شغلتهم الأحداث في الشمال الافريقي وفي مصر . فإنهم لم ينسوا اليمن الذي كان على وشك أن يكون قاعدة لسلطانهم .

على أنا نعتقد أن أطماع الفاطميين جعلتهم يؤثرون أن تقوم دولتهم في الشمال الافريقي وفي مصر ليكونوا على صلة بمناطق النشاط بالعالم الإسلامي ، بدل أن تقوم دولتهم في اليمن حيث يصعب أن يمتد منها سلطانهم إلى مناطق أخرى .

والمهم أن صلة وثيقة قامت بين مصر التي انتقلت لها الخلافة الفاطمية ، وازدهرت بها ، وبين اليمن منذ ذلك التاريخ البعيد .

تجدد الدعوة الفاطمية باليمن :

عندما قامت الدعوة الفاطمية بمصر تطلع الخلفاء الفاطميون إلى أن يستعيدوا نفوذهم باليمن ، ووجدوا في بنى صليح وسيلتهم لذلك ، وقد ساعد الفاطميون بنى صليح ماديا وأدبيا حتى قامت دولتهم في صنعاء واتسعت إلى أماكن أخرى باليمن ، وهذا الوضع وثق الصلة بين مصر واليمن .

الأيوبيون في اليمن

٥٦٩ - ٦٣٦ هـ = ١١٧٤ - ١٢٣٩ م

لماذا دخل الأيوبيون اليمن ؟ :

إن المراجع التي بين أيدينا تعطى لذلك أسبابا متعددة ، ولكنى لم أستطع تقبل هذه الأسباب . ومع هذا فلنوردها أولا ، ثم نورد بعد ذلك الرأي الذى نراه .

— يقول ابن الأثير ^(١) : إن السبب في إرسال صلاح الدين أخاه توران شاه إلى اليمن يرجع إلى أن صلاح الدين كان خائفا أن يأخذ نور الدين منه مصر ، ولذلك فكر في الاستيلاء على باد آخر ليلجأ إليه في حالة استيلاء نور الدين على مصر ، واقتضى هذا أن يُسَيِّر صلاح الدين أخاه إلى بلاد النوبة ولكنها لم تعجبه ، فسيره صلاح الدين إلى اليمن .

ويورد ابن الأثير ^(١) نصا آخر يحمل فكرة أخرى فيقول : إن توران شاه استأذن نور الدين في أن يسير إلى اليمن لمحاربة صاحب زبيد الذى قطع الخطبة لبنى العباس ، فأذن له بذلك .

ويرى ابن واصل أن قطع الخطبة لبنى العباس كان أيضا السبب في زحف الأيوبيين إلى اليمن ، وهو في ذلك يقوِّف ^(٢) لما ملك على بن مهدي زبيد وقطع خطبة بنى العباس ، وخطب نفسه ، استأذن صلاح الدين نور الدين أن يسيرَ عسكرا إلى اليمن فأذن له بذلك .

وهكذا نرى أن الأسباب التي يوردها المؤرخون لدخول الأيوبيين اليمن تدور في نطاق قطع الخطبة لبنى العباس ، أو في نطاق أحاسيس

(١) الكامل في التاريخ ١١ ص ١٤ .

(٢) مفرج الكروب ج ١ ص ٢٣٨ .

المخلاف بين نور الدين وصلاح الدين ، ولكنى فى الحق لم أقنع بهذه الأسباب ، ففرار الأيوبيين من مصر لليمن خوفا من نور الدين لن يجعلهم بمأمن منه ، فإذا كانت اليد الطولى لنور الدين فإنه يستطيع بسهولة أن يلحق بهم فى اليمن ويتضى عليهم •

أما أن يقوم الأيوبيون بهذه الحملة لأن صاحب زبيد قطع الخطبة لبني العباس فيناقضه أن حملة الأيوبيين كانت على اليمن كله ولم تقف عند زبيد • ثم إنها لم تكف بتأديب المتمردين بل استقرت فى اليمن وحكمته •

وعلى هذا فإنى أرى من تتبعى الأحداث التاريخ أن السبب الحقيقى كان يكمن فى اعتقاد الأيوبيين أنهم ورثوا ملك الفاطميين بكل اتساع يشمل هذا التعبير ، ومن أجل هذا الاعتقاد زحف الأيوبيون إلى كل مكان امتد له سلطان الفاطميين ، سواء كان ذلك فى اليمن أو فى الشمال الأفريقى ، أو فى الحجاز ، أو فى النوبة ، وكان اهتمام الأيوبيين بالحجاز واليمن أكثر ، لأن سلطان الفاطميين كان أطول ، وأثبت فى هاتين المنطقتين

ومما يؤكد أن ملك الأيوبيين فى اليمن كان امتدادا لسلطان الفاطميين بها ما أورده كاتب اليمنى ^(١) من أن الشريف قاسم بن يحيى ، وهو من كبار أعيان المخلاف السليماني استنجد بالخليفة العاضد ضد نشاط آل مهدى فى زبيد وجميع المدن والقرى التهامية ، وأن العاضد استجاب لذلك وأمر وزيره صلاح الدين أن يأخذ فى نجدة ، فبعث صلاح الدين أخاه توران شاه الملقب شمس الدين إلى اليمن ومعه قوة كبيرة ••• وهذا الرأى يوضح أيضا أن الحملة الأيوبية لم تكن من أجل العباسيين ، بل كانت دفاعا عن سلطان الفاطميين بهذه البلاد ، ذلك السلطان الذى ناله صلاح الدين بعد أن قضى على الدولة الفاطمية •

(١) تاج الدين بن عبد المجيد : بهجة الزمن فى تاريخ اليمن ص ٢٥ وما بعدها •

وقد بدا الزحف الأيوبي على اليمن في شوال سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) واتخذ رجنته زبيد ، وسرعان ما انتصر على عبد النبي بن المهدي ، وقضى على مقاومته وآسره ، واستولى على أمواله ^(١) وسار الزحف الأيوبي من زبيد إلى عدن فقضى على آل زريع ، وقبض على القائم بأمر الأولاد المنصر من بني زريع ^(٢) ثم غادرها إلى ذي جبلة حيث أنهم حكم الصليحيين دعاه الفاطميين ؛ لأن سلطان الفاطميين بمصر كان قد أوقف ، وأصبح من الضروري إيقاف نشاط دعائهم حتى لا يثوروا من أجلهم . وامتد حكم الأيوبيين إلى صنعاء ، وإلى مناطق كثيرة من حضرموت ^(٣) وكان الزيدية قد ضعفوا واشتد بينهم الخلاف حتى أنهم لم يستطيعوا أن يعينوا إماما لهم في المدة بين سنة ٥٦٦ و ٥٩٣ وكان هذا مما يسر زحف الأيوبيين ونجاحهم ^(٤) .

واسس توران شاه عاصمة جديدة له هي « تعز » واهتم بتعمير اليمن مما قاسى من صراعات وشدائد ، ويروى أنه لما رأى جنده يحاولون تخريب بعض المدن عقب الاستيلاء عليها للتأكد من خلوها من جنود المقاومة صاح فيهم : ما جئنا لتخريب البلاد ، وإنما جئنا لنحكمها ونعمرها .

ولكن مقام توران شاه باليمن لم يطل ، إذ استأذن صلاح الدين في العودة إليه ، فأذن له ، فعاد بعد حوالى العام ، وولى توران شاه الولاية على نواحي اليمن فجعل على زبيد أبا الميمون المبارك الاكثانى المشهور بسيف الدولة ، وعلى تعز ياقوت التعزى ، وعلى الجند مظفر الدين ، وعلى عدن الزنجيلي .

بيد أن صراعا دار بين هؤلاء الولاة ابتداء من سنة ٥٧٦ هـ فأرسل صلاح الدين أخاه طغتكين للقضاء على الفتن وإعادة السلام والولاء ، وقد استطاع طغتكين أن يستولى على البلاد بكثير من اليسر إذ خضع له كثير من الفتن ، أو فرأ من وجهه ، واستولى بذلك على جميع اليمن ، واخضع المندسيرة

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٥ ص ١٧٨ .

(٢) ابن الجبير : بهجة الزمن ص ٧٦ .

(٤) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ج١ ص ٣٤١ .

في جبال المعافر ، وسور زبيد وصنعاء ، وإليه ينسب بستان السلطان في صنعاء ، وخضعت له عدن وحضرموت ^(١)

وفيما يلي قائمة سلاطين الأيوبيين باليمن :

السلطان توران شاه بن أيوب	٥٦٩ — ٥٧٠ هـ
ولادة توران شاه على النواحي	٥٧٠ — ٥٧٩
السلطان طغتكين بن أيوب	٥٧٩ — ٥٩٠
المعز اسماعيل بن طغتكين	٥٩٠ — ٥٩٨
السلطان المنصور بن طغتكين	٥٩٨ — ٦١١
السلطان المسعود يوسف بن الكامل	٦١١ — ٦٢٠
عمر بن علي بن رسول الغساني نائبا عن السلطان يوسف	٦٢٠ — ٦٢٦ (٢)

ومما يذكر أن المعز اسماعيل كان من أهم أسباب انهيار النفوذ الأيوبي باليمن ؛ إذ كان مضطرب الاتجاهات ، فقد أعلن التشيع ولكنه في الوقت نفسه انتسب إلى بني أمية وانتقص من بني العباس ، وادعى الخلافة ، كما كان شحيحا مع الجند كثير الغدر ، مما قوى نفوذ إمام الزيدية عبد الله ابن حمزة ، ودفع الكثيرين من قادة اليمن إلى الالتحاق بهذا الإمام ^(٣)

وبمقتل المعز اسماعيل سنة ٥٩٨ هـ عادت الأمور مرة أخرى لصالح الأيوبيين ، وذلك بسبب نفوذ الأتابك الذين كان لهم الإشراف على الناصر أيوب بن طغتكين ، ولكن ذلك الاستقرار لم يطل ، وعادت الاضطرابات لليمن مرة أخرى ، فرأى السلطان العادل الأيوبي خطورة الوضع في اليمن ، فأغذ قوة جديدة لاستعادة سلطان الأيوبيين ، وكان يقودها

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج٥ ص ٢١٦ .

(٢) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي

ج١ ص ١٥٢ .

(٣) يحيى بن الحسين غاية الأمان ج١ ص ٣٢٩ — ٢٣٠ .

المسعود بن الكامل ، وقد استطاع المسعود أن يحقق نصرا على كل أعدائه ولأنه سرعان ما استدعى إلى مصر ، فاناب بها عنه عمر بن رسول ^(١) . وبوفاته السلطان المسعود ، وبدء تدهور شأن الأيوبيين في مصر أخذ امر اليمن ينتقل لبني رسول . ولكن الباحث المدقق يحس أن الارتباط بين اليمن وبين مصر في عهد المماليك لم ينقص تماما بانتقال الأمر لبني رسول ، فقد ظل هناك نوع من الارتباط يلحظه الباحث من قراءته عن رحلات سلاطين بني رسول لمصر ، ومن الثابت أن السلطان الأخير من سلاطين بني رسول (المسعود أبو القاسم) قد رحل إلى مصر وكانت رحلته كما سنرى خطوة تحول من بني رسول إلى بني طاهر ويتحدث المؤرخ اليماني أحمد حسين شرف الدين ^(٢) عن هذه الرحلة فيقول : استولى بنو طاهر على زبيد بعد سفر المسعود إلى الديار المصرية للمرة الأخيرة ، وهذه العبارة تدل على تكرار رحلات هؤلاء السلاطين إلى مصر ، وبالتالي على وجود العلاقة .

وسيرا مع هذا الاتجاه يمكن ان نرى في زحف المماليك الشراكسة من مصر إلى اليمن في عهد قنصوه الغوري امتدادا لتمسك مصر بالعلاقة بين البلدين الحقيقيين .

وقبأ أن نترك حكم الأيوبيين لليمن ينبغي أن نقرر أن انضمام اليمن لمصر في تلك الفترة الحاسمة في تاريخ العرب والمسلمين كان نتيجة الجهد ، فقد اشتركت اليمن أرضها وشعبها في الصراع الذي كان يتقوده صلاح الدين وخلفاؤه ضد الصليبيين ، وكان ذلك من أسباب النصر الذي نالته القوى الإسلامية .

وبعد الأيوبيين لم تقم باليمن إلا دولة واحدة وبجانبا القبلية التي انتشرت ، وبخاصة في اليمن الجنوبية ، ثم تحولت إلى سلطات متعددة قامت أساسا جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية فيما بعد .

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج٢ ص ٣٣ .

(٢) اليمن عبر التاريخ ص ٢٢٧ .

بنو رسول

٦٢٦ - ٨٥٨ هـ = ١٢٢٩ - ١٤٥٤ م

إن تسمية بنى رسول لها قصة ؛ فإن نسبهم ينتهى إلى محمد بن هارون الغساني ، وكان هذا أثيرا عند الخليفة العباسي ، فأرسله عدة مرات إلى سلاطين الأيوبيين بمصر ، فأطلق عليه لقب « رسول » .

ويميل المؤرخون ^(١) اليمينيون إلى الربط بين هذه الأسرة وبين الوطن اليمني ، واعتبار دولة بنى رسول دولة يمنية وليست دخيلة ، ولذلك يعتبرون محمد بن هارون من حفدة جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة ، وهذا بدوره ينتهى نسبة إلى زيد بن كهلان بن سبأ الأكبر .

أما Stanley Lane' Pool فيرى أن بنى رسول ينحدرون من أصل فارسي ، ودليله على ذلك أن جدتهم يسمى « رستم » وهو اسم فارسي ^(٢) ولكن فاته أن بعض الأسماء الفارسية دخلت بلاد اليمن منذ احتلال الفرس لليمن فلا ينهض ذلك دليلا .

ويتجه بعض الباحثين إلى أن بنى رسول من أصل « تركماني » ^(٣) ودليلهم على ذلك أن محمد بن هارون كان يتكلم اللغة التركمانية ولكننا نرى أن معرفة اللغة لا يعنى ارتباط العرق .

وقد رأينا أن بنى رسول قد بدأوا سلطانهم نوابا عن الأيوبيين وقد قنع عمر بن على أول سلاطين بنى رسول بهذه النيابة منذ عاد السلطان مسعود آخر سلاطين الأيوبيين إلى مصر سنة ٦١٥ هـ حتى وفاة السلطان

(١) انظر العقود اللؤلؤية للخزرجي ج١ ص ٢٦ - ٢٨ .

(٢) Muhammadan Dynasties P. : 92.

(٣) المقرئزي : السلوك ج٢ قسم ١ ص ٢٣٤ .

(م ٢٩ - التاريخ ج ٧)

مسعود سنة ٦٢٦ هـ فاعلن عمر استقلاله بالأمر في اليمن ، واستصدر بذلك أمرا من الخليفة الظاهر بن الناصر العباسي ، وضرب المسكة بإسمه ، وأمر الخطباء فدعوا له في خطب الجمعة ، وبدأ بذلك ملك بنى رسول .

ومما يذكر أن السلطان مسعود عندما أناب عنه عمر بن على خاف أن يطنخى بنو رسول على اليمن فقبض على بدر الدين وفخر الدين أخوى عمر وصحبهما معه إلى مصر ليضعف من شوكة بنى رسول ، وقد ظل هذان في مصر حتى سنة ٦٤٩ هـ فأعيدا إلى اليمن في عهد المظفر بن عمر . ولكن هذا أودعهما السجن أيضا ، ولذلك يروى أن بدر الدين قال وهو يُدفع سجيناً إلى القلعة : قبحك الله قلعة ، أخرجنا منك مقيدين وعدنا إليك مقيدين (١) .

وكان عمر بن على يحس بالرهبة تجاه السلطان مسعود لقسوته مع بدر الدين وفخر الدين ، لذلك حرص عمر على التقرب للعمامة لعلهم يكونون درعا له إذا غضب عليه السلطان مسعود ، أو لعلهم يؤيدونه بعد مسعود ، وهذا هو الذى يسر الأمر لعمر ، فما كاد يصله خبر وفاة السلطان مسعود حتى استبد بالأمر ، واتخذ الوسائل لذلك كما رأينا آنفا .

وقد طالبت مدة بنى رسول باليمن فاستمرت أكثر من قرنين ، واتسع ملكهم فشمل أكثر بقاع اليمن الشمالية والجنوبية بما في ذلك حضرموت ، وقهروا الأئمة في كثير من الأحوال وأذاقوهم الويلات .

ولما ضعف شأن الأئمة من طول صراعهم ضد بنى رسول اتجه بنو رسول إلى إهمالهم ، وقنعوا بإرسال الإمدادات إلى منافسيهم ، وإلى بعض عمالهم ليحملوا عنهم عبء هذا الصراع وكان ظاهر بن عامر أحد عمال بنى رسول من أكثر العمال ملاحقة للأئمة ، وقد استطاع أن يستولى على

بعض معاقلهم ، ويطرده منها العمال المواليين للإمام على بن صلاح الدين ^(١) وسلاطين بنى رسول هم :

- ١ — المنصور عمر بن على بن رسول ٦٢٦ — ٦٤٧ هـ
- ٢ — المظفر يوسف بن عمر ٦٤٧ — ٦٩٤
- ٣ — الأشرف (الأول) عمر بن يوسف ٦٩٤ — ٦٩٦
- ٤ — المؤيد داود بن يوسف ٦٩٦ — ٧٢١
- ٥ — المجاهد على بن داود ٧٢١ — ٧٦٤
- ٦ — الأفضل العباسي بن المجاهد ٧٦٤ — ٧٧٨
- ٧ — الأشرف (الثاني) اسماعيل بن العباس ٧٧٨ — ٨٠٣
- ٨ — أحمد بن الأشرف الثاني ٨٠٣ — ٨٢٩
- ٩ — المنصور بن أحمد ٨٢٩ — ٨٣٠
- ١٠ — الأشرف (الثالث) بن منصور ٨٣٠ — ٨٤٢
- ١١ — يحيى بن الأشرف (الثالث) ٨٤٢ — ٨٥٠
- ١٢ — المسعود أبو القاسم بن الأشرف الثالث ٨٥٠ — ٨٥٨

الاتجاهات الحضارية لبنى رسول :

شَغَف كثير من سلاطين بنى رسول بالدراسة وتأليف الكتب التي تناولت مختلف المجالات ، ومن هؤلاء السلطان المظفر الذي درس الحديث والفقه والنحو وغيرها ، واشتغل منذ شبابه بدراسة الطب .

وكان الأشرف الأول بن السلطان المظفر متضلعا في بعض علوم الطب ، وفلاحة الأرض ، ومن مؤلفاته (كتاب الجامع في الطب ^(٢)) وكتاب (التفاحة في معرفة الفلاحة) ^(٣) .

(١) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ج٢ ص ٥٤١ .

(٢) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج١ ص ٦٤ و ٥٤١ .

(٣) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ج١ ص ٤٧٦ .

أما المؤيد بن المظفر فيبوى أنه حفظ مقدمة ابن بابشاذ^(١) في النحو وكفاية المتحفظ في اللغة ، واحتوت خزانة كتبه على مائة ألف مجلد ، وله مؤلف عن الخيل وأنواعها وصفاتها وبيطرتها .

والأفضل بن المجاهد ألف كثيرا من الكتب منها كتاب : « نزهة العيون في تاريخ طوائف القرون » وكتاب : « العطايا السننية في المناقب اليمنية^(٢) » وكتاب : « نزهة الأبصار في اختصار كنز الأخبار » و « بغية ذى الهمم في أسباب العرب والعجم » .

وكان بنو رسول يهتمون باختيار الوزراء من بين أرباب الأقلام ، وكان الوزير لقب « القاضي » أو « الشيخ »^(٣) .

وكان قائد جيش بنى رسول يلقب « أمير القلم » ومن أشهر من تولوا هذه الوظيفة الأمير حسام الدين التوريزى وهو الذى عينه السلطان المظفر مقدما لجيشه ، وقد أنفق على هذا الجيش كثيرا من الذهب والفضة^(٤) .

واهتم بنو رسول بتبادل السفارات مع كثير من سلاطين عصرهم ، وكانوا يختارن ذوى القربى والمخلصين لهم ليكونوا سفراء من قبلهم ، ومن أهم الشروط التى كانوا يهتمون بها في السفير أن يكون مشهورا بالتقوى والاستقامة^(٥) .

ومن الحياة الاجتماعية لبنى رسول أنهم كانوا يحرصون على حضور « الكتيب » وهو الاحتفال بليلة ٢٧ من رجب كل عام ، وكانوا يأمرن الحجاب ألا يحولوا بينهم وبين الناس في هذه الليلة .

(١) النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ج٩ ص ٢٥٣ حاشية .

(٢) ابن الريد : بغية المستفيد : ورقة ١٢ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج٤ ص ٢٨ .

(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج١ ص ٢١٠ .

(٥) أبو محزمة : قلادة النحر .

موارد حكومة بنى رسول :

يبدو أن مسئوليات الاستقلال الذى أعلنه عمر بن على دفعته لفرض ضريبة إضافية على المزارعين أسمها « المعونة » بالإضافة إلى الخراج الذى كان مفروضا من قبل ، وقد أحس ابنه المظفر بضجر المزارعين لمضاعفة الضرائب فأوقف تحصيل « المعونة » • وكان ذلك فضلا من أفضاله جعله موضع الدعاء والتقدير •

أما أهم مصدر من مصادر الدخل عند بنى رسول فكان ما يجلب من التجار ، وبخاصة من تجارة عدن التى كانت مركزا تجاريا واسع النشاط ، ويبدو أن بعض سلاطين بنى رسول اشتط في تحصيل الضرائب من تجار عدن فاتجه هؤلاء إلى جدة ليجعلوا منها مركزا لنشاطهم التجارى بدل عدن ، وقد تسبب هذا في حرمان بنى رسول من أرباح هائلة كانوا يجلبونها من تجار هذه المدينة •

أعظم ملوك بنى رسول :

ولنعد إلى عمر بن على لنقرر أننا إذا استثنينا « المعونة التى عُدت قسوة منه فإن مؤرخى اليمن يذكرونه بخير ، ويقررون أنه من أهل العزم وقد دانت له البلاد والعباد ، وأدرك في نفسه المراد ، ومد نفوذه إلى مكة ، وقام بضبط الحرمين الشريفين ضبطا مرضيا وله بهما آثار جليلة ومحاسن عظيمة ، ومن محاسنه في اليمن مدرستان في تعز هما الوزيرية والعزابية وثلاث مدارس بزبيد ، ومدرسة بالجند ، وأخرى بعدن ، كما بنى بكل قرية من قرى تهامة مسجدا ، وأوقف عليه وقفا جيدا (١) •

وجاء المظفر يوسف بن عمر بعد أبيه ، فوجد دولة شاهقة البنيان فزادها رفعة ومجدا ، ويعد أكبر شخصية في الدولة الرسولية ، وكان يقال لـ « التبغ الأصغر » وفي أيامه اتسعت المملكة الرسولية حتى شملت

(١) أبو عبدون الجندى : السلوك في طبقات العلماء والملوك •

حضر موت وأعمالها والسهول الداخلية وجبالها ، وصعد ومعظم الجزيرة ،
ومنها الحرمان ، ولما قتل هولاء الخليفة العباسي الأخير المستعصم وأنهى
الخلافة العباسية سنة ١٢٥٨ م نادى المظفر بنفسه خليفة للمسلمين ^(١)
ولعل هذا هو الذى دفعه إلى التدخل لدى ملك الصين عندما حرم هذا
الختان على المسلمين ببلاده فكتب له المظفر فى ذلك ، وأرفق بالكتاب
هدية مناسبة فكان لذلك أثره ، وقد شيد المظفر كثيرا من المدارس
والمساجد ^(٢) .

وممن يذكر اسمه فى مجال العمران المؤيد الرسولى الذى بنى القصر
العقيلي سنة ٧٠٨ هـ فى تعز ، وبلغ طول مجلس هذا القصر ٢٥ ذراعا
وعرضه ٢٠ ذراعا ، وكان له سقفان بغير عمد ، مطليان بالذهب ، وكان
هذا المجلس يطل على بستان جميل المنظر ، وكان لا يرى فى المجلس إلا
الرخام والذهب ، وأمامه بركة طولها ١٠٠ ذراع وعرضها ٥٠ ذراعا وعلى
حافتيها تماثيل من النحاس الأصفر للطيور والوحوش ، وهى تقذف الماء
من أفواهها ، وقد استعان المؤيد بكثير من الصناع اليمنيين والغرباء فى
بنائه ^(٣) .

ويذكر الخزرجى أن الدولة الرسولية تعد أعظم دولة وطنية يمنية
عرفها التاريخ منذ سقوط الدولة الحميرية ، وقد قامت بإنهاض البلاد
وتعميرها ونشر العلوم بها ، ونبع من أفرادها علماء عابرة حتى فى الطب
والرياضيات والتاريخ وغيرها من العلوم وساهموا فى إنهاض اليمن على الرغم
من معارضة الأئمة الرسميين الذين تمكنوا فى عصر الدولة الأيوبية من تنمية
دعوتهم ، وتوسيع رقعتهم ونفوذهم ^(٤) .

(١) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج١ ص ٢٧٩ .

(٢) أحمد محمد شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ص ٢٢٩ .

(٣) تاج العروس ج٩ ص ٣١٦ والقلقشندي : صبح الاعشى ج ٥

ص ٢٦٢ والخزرجى : العقود اللؤلؤية ج١ ص ٣٧٨ .

(٤) الخزرجى : العقود اللؤلؤية ج١ ص ٨٤ ، ٢٧٦ .

الأئمة بعد قيام الأيوبيين :

يبدو أن تجمع اليمن كلها تحت سلطان الأيوبيين وسلطان من خلفوهم ، وبالتالي اختفاء السلاطين في المناطق المختلفة ، أتاح الفرصة للأئمة الزيدية أن ينشروا دعوتهم في غيبة السلطات المحلية المناوئة ، ولذلك كان على ملوك بني رسول أن يصارعوا الأئمة صراعا طويلا ، وقد كان النصر حليف بني رسول ، ويعتبر عصر المظفر أهم العصور في هذا المجال فقد حارب الإمام المهدي أحمد بن الحسين (٦٤٦ — ٦٥٦ هـ) ثم حارب خلفه يحيى بن محمد السراجي (٦٥٦ — ٦٦٠ هـ) وقد تمكن سنجر الشعبي عامل المظفر أن يسمل عينيه (١) ، فعاش بقية عمره مكفوبا ، وحارب الملك المظفر الإمام المهدي إبراهيم بن تاج الدين سنة (٦٧٠ — ٦٧٤) وتمكن من القبض عليه سنة ٦٧٤ هـ وسجنه في تعز حتى مات ، ولعل لقب « المظفر » جاء ليوסף بن معمر بسبب هذه الانتصارات .

نهاية بني رسول :

مما أضعف ملك بني رسول أن تنافسا قاسيا هب بين الأمراء وبين الطامعين من بني رسول ، وكان الثائرون على الأمير أحيانا أولاده أو إخوته ، وكانت هذه الثورات المتلاحقة من أبرز الدواعي للقضاء على دولة بني رسول .

وعندما رحل السلطان مسعود آخر سلاطين بني رسول إلى مصر ، استبد عبيده بالسلطة وأساءوا التصرف ، فحلجأ الناس إلى بني طاهر أبرز عمال بني رسول لينقذوهم من عنت هؤلاء العبيد ، وتقدم بنو طاهر فأزالوا سلطان العبيد واستبدوا بالسلطة لصالحهم هم ، فسقطت دولة وقامت دولة .

(١) السخاوي : الضوء اللامع ج٢ ص ٢٩٩ .

بنو طاهر

٨٥٨ — ٩٢٣ = ١٤٥٤ — ١٥١٧ م

ينتسب بنو طاهر إلى جدهم الشيخ طاهر بن تاج الدين بن معوضة ، وهم لهذا يسمون أحياناً بنى معوضة ، ويرى بعض النسابة أن بنى طاهر ينحدرون من الأسرة الأموية ، وباسم هذه الصلة طمع بعض سلاطينهم في الخلافة ، وحمل بعضهم لقب أمير المؤمنين ، وهذا يوضح لنا طموح سلاطين اليمن ، وقد رأينا بعض ملوك الدولة الرسولية يدعى الخلافة بعد نهاية الخلافة العباسية ، ومن الدولة الرسولية من قنع بالارتباط بمصر كما رأينا من قبل ، فهم بين الطموح والقناعة .

وسلاطين بنى طاهر سرهم ما قاله بعض النسابة عن انحدارهم من الأمويين فادعوا الخلافة لذلك ، ولكن اليمن — كما قلنا من قبل — كان بمثابة قلعة هاشمية وبالتالي كان يتمنع على الفكر الأموى وما انحدر منه وقد وجد أعداء بنى طاهر في هذا النسب طلبتهم ، فثاروا الناس ضد بنى طاهر لذلك (١) .

وكانت الظروف السائدة في أخريات عهد بنى رسول تمهد لقيام دولة بنى طاهر ، فقد كانت لهم ولاية عدن ، وكانوا يشغلون مناصب الوزارة والقيادة في ملك الرسولين ، ثم جاءت رحلة السلطان مسعود آخر سلاطين بنى رسول إلى مصر واستبداد عبيده بالسلطة في غيبته ، وانحرافهم بما آل إليهم من نفوذ ، وما تبع ذلك من التجاء الجماهير لبنى طاهر لينقذوهم ، مما آل له الأمر من فساد وعبت ، كل ذلك دفع عامر بن طاهر أن يهب للأمر ، وقد استطاع أن يدخل زبيد بدون قتال ، وبدأت بذلك دولة بنى طاهر (٢) .

(١) انظر اليمن الانسان والحضارة للقاضى الشماخى ص ١٢٨-١٢٩ .

(٢) يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ج٢ ص ٦٦٩ .

ولكن سيطرتها على اليمن لم تكن ييسرة لأن نفوذ الأئمة كان قويا فجعل عهد بنى طاهر عهدا حافلا بالصراع كما سنشير لذلك بعد قليل .

وقد اتخذ بنو طاهر « المقرانة » وهي من بلاد وداع عاصمة لهم .
وسلاطين بنى طاهر هم :

الظافر (الأول) عامر بن طاهر	٨٥٧ — ٨٧٠ هـ
المجاهد على بن عامر	٨٧٠ — ٨٨٣
المنصور عبد الوهاب بن طاهر	٨٨٣ — ٨٩٤
الظافر (الثانى) عامر بن عبد الوهاب	٨٩٤ — ٩٢٣
عامر بن داود بن طاهر	٩٢٣ — ٩٤٥

احتفظ بعدن حتى سنة ٩٤٥ بعد أن استولى الجراكسة على باقى ما كان بيد طاهر قبل ذلك .

صراع بنى طاهر مع الأئمة :

كان الصراع بين بنى طاهر وبين الأئمة يمثل الصراع بين الشمال والجنوب ، ومن هنا كان هذا الصراع عنيفا ، فبنو طاهر كانوا يطمعون أن ينالوا ملك بنى رسول شمالا وجنوبا ، والأئمة كانوا يرون أن الألوان قد آن لتتم سيطرتهم على اليمن كله ، وليقضوا على مناوئتهم ، ومن هنا كان الصراع شاقا ومريرا ، وسنعطى فيما يلى لمحات منه :

— تمكن عامر بن طاهر من بسط نفوذه على جنوب اليمن ، فهب يصارعه الإمام الناصر بن محمد من ذمار ، ودارت المعارك بين مد وجزر ، حتى وقع الناصر أسيرا فى أيدي عمال عامر ، وظل فى السجن حتى مات سنة ٨٦٨ وتم استيلاء بنى طاهر على صنعاء عقب القبض على الإمام .

— قام الإمام الجديد محمد بن الناصر بقيادة الأمر بعد أبيه ، وصارع عامر ابن طاهر فى حروب مريرة حول صنعاء ، انتهت بانتصار الإمام ،

وقتل عامر في المعركة ، ولم يستطيع على بن عامر ولا عبد الوهاب بن طاهر أن يحققا انتصارات ذات بال ، وبذلك بقيت كفة الإمام راجحة . وجاء إلى السلطة الظافر الثاني عامر بن عبد الوهاب ، وهو أعظم سلاطين بني طاهر بأسا ، وأوسعهم رقعة ، وفي مطلع عهده قامت قبيلة الزرانيق بتهامة بثورة ضده ، ولكنسه قنابل هذه الثورة بحزم وقوة ، ففرض عليها قضاء تاما ، ولما اطمأن لولاء الجنوب صعد إلى الشمال حيث حارب الإمام محمد بن علي الوشلي (٨٨٠ — ٩١٠) في صنعاء ، واستطاع أن يقبض عليه ويودعه السجن حتى مات ، ودخل السلطان الظافر صنعاء ، ودانت له اليمن في الشمال والجنوب .

حضارة اليمن في عهد بني طاهر :

لبنى طاهر عدة مآثر باليمن ، فقد انتشرت في عهدهم المدارس والمساجد في عدن وتعز وزبيد ورداع وغيرها ، وهم الذين بنوا مدينة « المقرانة » في رداع ، وشيدوا بها القصور العظيمة ، وأقاموا الحدائق البديعة ، كما شيدوا بعض المساجد من طابقين وجعلوا الطابق الأول للعبادة والطابق الثاني للتدريس والإقامة الطلبة والمدرسين .

وقد شهدت اليمن في أيام بني طاهر نهضة علمية تتمثل في المحدث الكبير والمؤرخ الربيع العامري ومعاصريه في الشمال وفي قمته الإمام شرف الدين ، كما بلغت العلوم الرياضية والفلكية والبحرية والجغرافية في أيامهم شأوا بذمت اليمن معاصريها من الدول البحرية مثل البرتغال وتركيا ، ويمثل هذا التفوق العالمان الجغرافيان البحريان أحمد بن ماجد العدني ، وسليمان المهري فهما اللذان تتلمذ عليهما البحارة والجغرافيون البرتغاليون والأتراك ، وبأحمد بن ماجد استعان البحار البرتغالي « دى جاما » في كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، واعترافا لابن ماجد نصب له البرتغاليون تذكارا ببلدة « مليندى » بكنيا على الساحل الأفريقي ، ولابن ماجد مؤلفات في الجغرافيا والملاحة ، وأحوال البحار

وطرقها ، ويبلغ الموجود من هذه المؤلفات — كما حكاها الأستاذ محمود كامل في مؤلفه « اليمن : شماله وجنوبه » — أربعين مؤلفاً ، ترجمت إلى عدة لغات ، كما أن له أرجوزة مطولة حوت معلومات ملاحية هامة ، وللسليمان المهري : « العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية » ويقول الرحالة الانجليزى « رينشارد بيرتون » الذى اكتشف بحيرة تنجانيقا سنة ١٨٥٦ م إن ملاحى عدن كانوا إلى منتصف القرن التاسع عشر ينسبون اختراع البوصلة إلى ماجد ، ويقرعون الفاتحة إلى روحه قبل ركوبهم البحر (١) .

نهاية بنى طاهر :

جاءت نهاية السلطان الظافر على يد المماليك الجراكسة الذين اقتحموا اليمن كما سنرى ، وأوقعوا ببني طاهر عدة هزائم ، واستطاعوا فى النهاية أن يقبضوا على السلطان ، وتم إعدامه سنة ١٥١٧ وانتهت بمقتله سلطة بنى طاهر ، ولم يبق إلا عامر بن داود بن طاهر الذى ظل فترة ما بعد ذلك محتفظاً بعدن حتى قتلته الأتراك سنة ٩٤٥ هـ — (١٥٣٨ م) .

اليمن يمنية :

ذكرنا من قبل أن الأئمة قوى سلطانهم فى عهد الأيوبيين ، أى فى عهد اختفاء السلطات المحلية المناوئة لهم ، فلما ظهر بنو رسول بعد الأيوبيين دار صراع طويل بين القوتين ، ولما سقط بنو رسول وقام بنو طاهر متخذين من الجنوب مركزاً لهم عظم الأئمة فى الشمال ، واتضح بذلك انقسام اليمن إلى يمنية ، ثم برزت عوامل أخرى قوّت هذا الانقسام ، أهمها :

١ — الاختلاف المذهبى الذى أبرزناه أكثر من مرة فإن الجنوب السنى رفض بإصرار الخضوع للشمال الشيعى .

(١) القاضى الوشاحى : اليمن الانسان والحضارة ص ١٢٩ .

٢ — اتخذ الزحف الخارجى (زحف الشراكسة والعثمانيين وسنتكلم عنهم فيما بعد) من عدن مركزا له ، فتكتلت القوى الوطنية متخذة من الشمال مركزا لها •

٣ — استيلاء الانجليز على عدن بعد العثمانيين ، وكان ذلك بمثابة إسفين قوى قام حاجزا بين الشمال والجنوب •

وهكذا ثبت الانقسام ، وثبت بالتالى أمر الأئمة فى الشمال لأنهم هم الذين قادوا القوى الوطنية ضد الزحف الخارجى ، أما الجنوب فقد ترك بعد انعزاله بدون قادة موحدة كما سنرى فيما بعد •

(١) القاضى الوشاحى : اليمن الانسان والحضارة، ص ١٢٩ •

ممالك مصر (الشراكسة) في اليمن

٩٣٣ — ٩٤٥ هـ = ١٥١٧ — ١٥٣٨ م

في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي استطاع البحارة البرتغاليون أن يجدوا طريقا إلى الهند والشرق الأقصى بالدوران حول أفريقيا بدون المرور في البحر المتوسط والبحر الأحمر كما كانوا يفعلون من قبل ، ويعرف الطريق الجديد بطريق رأس الرجاء الصالح ، وقد اشترك عدد من الرحالة البرتغاليون في المحاولة التي أدت لهذا الكشف ، وكان النجاح النهائي على يد « فاسكو دي جاما » الذي بدأ رحلته سنة ١٤٩٦ م .

وقد سبب هذا الكشف لمصر وسوريا خسارة مالية فادحة ، فقد كانت التجارة عبر دولة الممالك رائجة راجا كبيرا ، وكانت مصر والشام تلعبان دورا مهما فيها بواسطة البحر الأحمر والبحر المتوسط ، وكان كشف الخط الجديد ضربة قوية للاقتصاد المملوكي (١) .

وحاول البرتغاليون تأمين طريقهم الجديد فعمدوا لاحتلال بعض المناطق الاستراتيجية المهمة فيه ، فاحتلوا جزيرة كهران اليمنية وقتلوا عاملها ، كما هاجموا مدينة عدن تمهيدا لاحتلالها .

واتجه سلطان مصر « قنصوه الغوري » لمحاربة البرتغاليين وقطع الطريق الجديد عليهم حتى يعود النشاط للطريق القديم ، ووجد قنصوه الغوري أن مياه اليمن في المحيط الهندي هي المكان المناسب للصراع ، وتذكر قنصوه الغوري العهود السابقة التي قام خلالها ارتباط وثيق بين مصر واليمن ، فرأى أن زحف مصر على اليمن سيحمي اليمن ، وسيهيء للقوات المصرية وسيلة النجاح ضد البرتغاليين ، وكانت في اليمن ظروف

(١) انظر هذه الدراسة مفصلة في الجزء الخامس من هذه الموسوعة ص ٢١٣ وما بعدها .

هيات الفرصة للزحف المصرى المملوكى ، وتلك هى المنافسة الشديدة بين سلاطين بنى طاهر فى أيامهم الأخيرة وبين أئمة الزيدية الذين كان نفوذهم قد تقلص فى دائرة ضيقة بالشمال خلال عهد السلطان عامر بن عبد الوهاب وقد استنجد الإمام شرف الدين (١٥٠٧ — ١٥٥٨ م) بالمماليك فانتهزوها فرصة واستجابوا له ، ودخلوا اليمن وقضوا على سلطنة بنى طاهر ، وبخاصة أن بنى طاهر رفضوا التعاون مع المماليك فى الحرب ضد البرتغاليين ، بل قام عاملهم بعمل عدوانى هو حجز سفن مصرية بالحديدة كانت تحمل طعاما للجيش المصرى فى جزيرة كمران التى استولى عليها المصريون من البرتغاليين ^(١) .

وعلى هذا بدأ هجوم المماليك المصريين على اليمن ، ومما ساعد على سرعة انتصار الجيش المملوكى ، أنه كان يستعمل البنادق ، والمدافع النارية ، وكانت هذه لم تعرف بعد باليمن وقد تم انتصار المماليك بعد معارك عنيفة أبلى فيها قادة بنى طاهر بلاء حسنا ، ومن أشهر المواقع موقعة (الصافية) التى قادها أخو السلطان (عبد الملك بن عبد الوهاب) ولاذ السلطان بالفرار ولكنه وقع أسيرا ، وجاءت نهايته عقب ذلك ، وبدأ بذلك ملك الشراكسة .

بيد أن ممالك مصر آنذاك كانوا فى أيامهم الأخيرة ، لأن الزحف العثمانى بدأ فى نفس الوقت الذى بدأ فيه زحف المماليك لليمن ، وسقط قنصوه الغورى فى مرج دابق سنة ١٥١٦ م كما هزم المماليك كذلك فى موقعة الريدانية سنة ١٥١٧ م ، ووقع مصر تحت سلطان العثمانيين جعل المماليك الذين كانوا باليمن يتشبثون بالحياة هناك ، بل دفع بعض المماليك الذين نجوا من معارك العثمانيين إلى الانضمام لزملائهم الذين كوّنوا لهم سلطانا فى اليمن ، ثم وجد ممالك اليمن ألا طاقة لهم فى مواجهة العثمانيين فاعترفوا بهم ، وخطبوا باسمهم .

(١) أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ص ٣٦ .

وأشهر المماليك الجراكسة الذين حكموا اليمن هم :

الأمير حسين الكردي : استولى على تهامة وزبيد ، ولم يستطع أخذ عدن من عامر بن داود وبعد ذلك رحل إلى الحجاز ثم قبض عليه وقتل •
برسبای : استولى على تعز والمقرانة ، وصنعاء •

اسكندر المخضرم : سمي المخضرم لأنه قبل التبعية للعثمانيين ، وخطب لهم ، وكان يحكم ويسيطر على زبيد وتهامة ، قتله كمال بك التركي أحد رجال العثمانيين •

كمال التركي : استولى على زبيد عقب مقتل اسكندر المخضرم ، وقد قتله حسين الكردي وجماعته •

الناخوذه أحمد الجركسي : وفي عهده اشتد الصراع بينه وبين الأئمة الزيدية ، وقد استطاع الناخوذه أن ينتصر على المطهر بن شرف الدين في معركة زبيد ، ويرده جريحا فاشلا ، وبقي الناخوذه حتى سنة ٩٤٥ (١٥٣٨) عندما انتهى سلطان الجراكسة باليمن ، ومن الواضح أن سلطان الجراكسة باليمن كان في منطقة تهامة وزبيد حتى تعز •

ولم يمتد حكمهم إلى صنعاء إلا فترة قصيرة ، وكان سلطان الأئمة آنذاك يغمر منطقة الشمال •

وقد بدأ سلطان العثمانيين لليمن خلال عهد الجراكسة •

وفي سنة ٩٤٥ هـ (١٥٣٨) قتل الناخوذه غدرا ، وكان قاتله سليمان باشا مملوك السلطان سليم العثماني ، وقتل غدرا كذلك في نفس العام الأمير عامر بن داود بن طاهر •

وبنهاية الناخوذه أحمد وعامر بن داود لم يبق في اليمن إلا قوتان في ميدان الصراع : أولاهما اليمنيون بقيادة الإمام شرف الدين وابنه المطهر والثانية الأتراك العثمانيون ^(١) وقد تحدثنا من قبل عن الأئمة وتأخذ الآن في الحديث عن العثمانيين •

(١) القاضي الشماحي : اليمن الانسان والحضارة ص ١٣٥ •

العثمانيون في اليمن

ابتداء من ٩٤٥ هـ إلى ١٣٣٨ هـ (١٥٣٨ — ١٩١٩ م)

بدون اتصال

تحدثنا عن العثمانيين في الجزء الخامس من هذه الموسوعة ، وتتبعناهم وهم يبدعون إمارة صغيرة في الأناضول ، أصبحت سلطنة بعد نهاية السلاجقة ، ثم رأيناهم وهم يقفزون إلى أوروبا في عهد مراد الأول ورأينا توسعهم في أوروبا ، ذلك التوسع الذي حقق هدفا كبيرا من أهدافه بالاستيلاء على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ في عهد محمد الفاتح .

واتجه الأتراك بعد ذلك إلى العالم العربي لسبب أو آخر ففتحو سوريا ومصر (١٥١٦ — ١٥١٧) ثم احتلوا الجزائر وتونس وتطلّعوا لاحتلال اليمن لاستكمال سيطرتهم على البحر الأحمر ، ولتنقية بحريتهم في المحيط الهندي ، ثم ليهدوا سلطانهم إلى اليمن الذي ارتبط بمصر عدة قرون ، والذي لجأ إليه بعض الأتراك الجراكسة بعد انتصار العثمانيين على جيش المماليك في موقعتي مرج دابق والريدانية .

وقد بدأ الزحف العثماني على اليمن سنة ٩٤٥ هـ ولم يكن احتلال الأتراك لليمن مستقرا ولا متصلا ، وقد مر بثلاث مراحل كالآتي :

المرحلة الأولى للغزو العثماني :

عندما احتلت الامبراطورية العثمانية مصر سنة ١٥١٧ م أحست أن من حقها أن تمتد سلطتها لليمن للأسباب التي ذكرناها آنفا ، ثم لأن الامبراطورية العثمانية وضعت يدها على شمال البحر الأحمر ، وبدأت تتطلع إلى جنوبه ليكون هذا البحر خاضعا لسلطان العثمانيين ، ولتستطيع أن تعترض البرتغاليين في دوراتهم حول إفريقيا ، إذ أن ذلك سبب خسارة لمصر التي أصبحت جزءا من الإمبراطورية العثمانية ، وأصبحت

مسئولة عن مواصلة الكفاح ضد البرتغاليين ، ذلك الكفاح الذى بدأه المماليك المصريون قبل هزيمتهم أمام العثمانيين ، وأخيراً فإن العثمانيين كانوا يحاولون دائماً استكمال مد سلطانهم على البلاد العربية .

ومن أجل هذه الأسباب أعد الأتراك العدة للزحف على اليمن وكان ذلك سنة ٩٤٥هـ = ١٥٣٨م وكانت القوى العثمانية بقيادة الأمير سليمان باشا الأرناؤوطى . وقد أبحرت هذه القوى من السويس متجهة إلى اليمن ، وكانت الحملة العثمانية مزودة بالأسلحة النارية التى لم تكن آنذاك متوفرة لدى جيش اليمن .

وقد سبق أن ذكرنا عند الحديث عن غزو المماليك لليمن أن الإمام شرف الدين استنجد بهم ضد منافسيه من بنى طاهر ، وأن المماليك استجابوا إلى ذلك ، وساعدوا الأئمة فقتلوا على ملك بنى طاهر ، ولم يبق لبنى طاهر ، ألا منطقة عدن التى ظلت تحت سلطان عامر بن داود بن طاهر . وقد حذا حذو الأئمة فاستنجد بالعثمانيين ليستعيد بهم ملك آرائه ، وقد تظاهر العثمانيون بالاستجابة له ، ليتمكنوا من النزول بـعدن ، ثم قتلوه غدراً ، ومن عدن زحف الجيش العثماني إلى زبيد ، وقضى على أمير المماليك الجراكسة ، ثم استولى على تعز ، ووصل إلى صنعاء حيث دارت معارك عنيفة بين العثمانيين وبين الأئمة الزيدية ، الذين حملوا عبء الصراع ضد الجيش الزاحف ، وقد استمر هذا الصراع حوالي مائة عام ، وتجمعت القوى اليمنية تحت قيادة الإمام ، وبرز من هؤلاء الأئمة الإمام شرف الدين ثم ابنه الإمام المطهر ، وقد أبلى المطهر بلاء حسناً فى صراعه ضد العثمانيين ووقعت بينه وبينهم وقائع هائلة يذكر المؤرخون أنها زادت عن الثمانين موقعة ، وكانت معركة « شغوب » على أبواب صنعاء سنة ٩٧٥هـ (١٥٦٨ م) هى المعركة الحاسمة ، وقد انتصر المطهر انتصاراً رائعاً ، وحاصر الأتراك فى صنعاء عدة أيام بعد أن قُتل قائدهم مراد باشا ، وبعد هذه الموقعة جلا الأتراك

عن أرض اليمن ، وتسلم المطهر بنفسه تغز وعدن ، ولم يبق في أيدي الأتراك إلا مدينة زبيد ويعد ذلك نهاية للمرحلة الأولى في الصراع التركي اليمنى ، كما تعد مدينة زبيد بابا أدى إلى بدء المرحلة الثانية •

المرحلة الثانية للغزو العثماني :

كانت مدينة زبيد المركز الذي بدأ حوله الصراع في المرحلة الثانية ، فإن الإمام المطهر لم يقنع بما وصل إليه من نتائج ، ودفع بجيوشه لتكمل النصر وتحتل مدينة زبيد ، وتتقضى على الوجود العثماني باليمن ، ولكن الأتراك العثمانيين كانوا آنذاك في فترة ازدهارهم وقوتهم ، ولذلك أعدوا العدة من جديد للزحف على اليمن زحفا واسعا سنة ٩٧٦ هـ (١٥٦٩ م) ودار صراع طويل بين القوتين ، انتصرت فيه القوة العثمانية واحتلت صنعاء بقيادة الوزير سنان ، واستمرت حركة الصراع بين مد وجزر حتى سنة ٩٨٠ هـ ، وفيها توفي الإمام المطهر وكانت وفاته شديدة الأثر على القوات اليمنية ، فاندفع الجيش العثماني يحرز ألوانا من التقدم •

وفي سنة ١٠٠٦ هـ بدأت القوة اليمنية تنفض عنها الغبار ، وتقاوم من جديد بقيادة الإمام (المنصور) القاسم بن محمد الذي دعا قبائل اليمن لمساعدته في الصراع ضد الأتراك ، فاستجاب له معظم قبائل الشمال ، وخاض الإمام القاسم عدة معارك ضد الأتراك حقق فيها ألوانا من النصر ، وكان أولاده خير عون له ، ولذلك يعرف القاسم هو وأولاده « بالدولة القاسمية » وقد تم لليمنيين في عهد الإمام (المنصور) القاسم بن محمد استعادة أكثر الجهات الشمالية •

وبعد الإمام القاسم قام بالأمر ابنه المؤيد محمد بن القاسم (١٠٠٩ - ١٠٥٤ م) ، وقد واصل حركة النصر ، ودارت بينه وبين العثمانيين مواقع قاسية أهمها معركة (الصافية) التي قدر لها أن تقضى على القوة

العثمانية ما بين قتييل وأسير ، وبعدها رحل الأتراك العثمانيون عن اليمن ، وسلموا لليمنيين كل المدن والجزر •

وانتهت بذلك المرحلة الثانية للغزو العثماني •

المرحلة الثالثة للغزو العثماني :

بدأت هذه المرحلة سنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩ م) وكان ذلك في عهد السلطان عبد المجيد بن محمود ، وكان الزحف التركي هذه المرة جارفا شديدا ، سرعان ما احتل الحديدة ، وبسط نفوذه على جميع تهامة ، ولكن هذا الزحف الذي جاء بعد أكثر من قرنين من الاستقلال التام ، أيقظ القادة اليمنيين المعاصرين له ، والذين وجدوا أن من الضروري أن يحافظوا على استقلال بلادهم ، كما فعل أجدادهم واندفع لقيادة اليمنيين شيخ من شيوخ صنعاء هو الشيخ علي الدفعي ، وسرعان ما التفت حوله القبائل ، وأخذ يهاجم الأتراك في كل جانب أقاموا فيه ، حتى أقض مضاجعهم ، وقد اتخذ الأتراك سبيلا ملتويا للهجوم عليه ، فقد أعلنوا أنه قاطع طريق ، وأنه ليس أهلا للزعامة ، وسقط الدفعي صريحا ، وكانت وفاته شرارة أيقظت ثورة عارمة ضد الأتراك العثمانيين باليمن ، وتقدم الأئمة الزيدية لحمل عبء الصراع واشترك فيه المتوكل المحسن بن أحمد من سنة ١٢٧١ هـ إلى أن توفي سنة ١٢٩٥ هـ وخلفه الإمام الهادي شرف الدين من ١٢٩٦ هـ إلى ١٣٠٧ هـ ثم الإمام المنصور محمد بن يحيى بن محمد حميد الدين من سنة ١٣٠٨ هـ إلى ١٣٣٢ هـ ثم ابنه الإمام المتوكل يحيى (١٣٣٢ — ١٣٦٧ هـ) ويقول المؤرخون اليمنيون ^(١) إن الإمام المحسن كان أصلب الأربعة مغامرة ، لا مقر له ولا قصر ولا حدن ولا عاصمة إلا سرج حسانة يغادى الأتراك ويرأوهم حتى أقض منساجعهم ، ومهد لخلفه الإمام الهادي أن يقتطع إزاء صعدة ، ويقيم فيها حكومة ، وظل ينازع الأتراك بشجاعة فائقة •

(١) القاضي عبد الله الشماحي : اليمن الانسان والحضارة ص ١٦٣ •

وعندما استهل القرن الرابع عشر الهجرى كانت الحرب بين اليمنيين والأتراك على أشدها ، وكان منها جانب يمكن أن يوصف بأنه حرب عصابات وجانب آخر كانت تخوضه الجيوش النظامية ، وقد اتسعت رقعة الأرض التى يسيطر عليها الإمام الهادى ، وعندما مات سنة ١٣٠٧ هـ كانت سيادته تشمل منطقة واسعة ، وأموالا وفيرة ، ومعدات قوية ، ولم يقو ابنه محمد الهادى على حمل تبعات الإمامة فاختير لها محمد بن يحيى حميد الدين الذى ابتداءً به حكم آل حميد الدين ، وقد استمر فى الصراع ضد الأتراك ، ثم جاء بعده ابنه الإمام يحيى فأكمل الشوط ، وكانت معركة « شهارة » من أعظم المعارك التى دارت بين اليمنيين والأتراك وفيها سقط عدد ضخم من الجيش التركى ، وغر القائد مع من نجوا من الموت وترك الجيش المهزوم معدات عظيمة استولى عليها جيش الإمام ، ولم يجد الأتراك بداً من محاولة التوصل إلى تسوية فعقدوا اتفاقية مع الإمام فى قرية دعان تسمى « اتفاقية دعان » سنة ١٩١١ م وبمقتضاها أصبح للإمام الاشراف على شئون الأوقاف والمقضاء ، وتعيين الحكام والمرشدين ، وتشكيل هيئة شرعية فى البلاد ، وأن تكون جباية الضرائب على الطريقة الشرعية ، واتفق الطرفان على أن تبقى قوات رمزية تركية باليمن كرمز للوحدة الإسلامية (١) وقد بقيت هذه القوات باليمن حتى نهاية الحرب العالمية الأولى وهزيمة الأتراك ، وحينئذ صدرت الأوامر من الأستانة بأن تغادر القوات التركية بلاد اليمن ، وأن تعود إلى تركيا بطريق عدن ، وانتهت فى سنة ١٩١٩ م المرحلة الثالثة من مراحل الغزو العثمانى لليمن .

لقد دمر الأتراك العثمانيون كثيراً من المدن والقرى والمزارع باليمن خلال الحروب الطويلة بها ، وأراقوا دماء الكثيرين وسلبوا كثيراً مما كان باليمن من تحف وآثار ، ولكن اليمن ظلت تتناضل حتى تم لها النهوض المبين .

(١) انظر نص الاتفاقية فى : أمين سعيد : اليمن ص ٢٨ - ٢٩ .

آل حميد الدين

١٣٠٧ — ١٣٨٢ هـ = ١٨٩٠ — ١٩٦٢

ينحدر آل حميد الدين من بيت القاسم ، ذلك البيت الذى أنجب عدة أئمة فى سلسلة الزيدية ، فاختيار محمد بن حميد الدين للإمامة عودة بالسلطة إلى البيت القاسمى ، وعندما مات الإمام الهادى سنة ١٣٠٧ هـ لم يطمع ابنه محمد فى الإمامة إذ لم يبلغ درجة الاجتهاد ، وقد اجتمع اعيان الزيدية ، واستعرضوا أسماء كبار الشيوخ الذين يستطيعون تحمل المسئولية ، واستقر رأيهم على استدعاء محمد بن يحيى حميد الدين من صنعاء إلى حسدة ليروا إن كان أهلا للإمامة أولا ، فحضر هذا والتقى بالقيادة الزيدية ، وأقنعهم بصلاحيته من مختلف الوجوه ، فقبلوه وبايعوه اماما لهم ، وقد كان واسع الاطلاع بأحوال زمانه ، وسياسة عصره قوى البنيان فى رسائله . شديد التمسك بالمبادئ الزيدية ، نشيط الحركة ، وقد ظل يصارع الأتراك بمهارة حتى توفى سنة ١٣٢٢ هـ (١٩٠٤ م) قال الأهر إلى ابنه لإمام يحيى ، وسنتكلم عنه فيما يلى :

عهد الإمام يحيى :

حكم الإمام يحيى طيلة النصف الأول من القرن العشرين تقريبا (١٩٠٤ — ١٩٤٨ م) وقد حقق كثيرا من النصر ضد العثمانيين كما رأينا ، ولكن قابليته أحداث صعب لم تظهر فى عهد من سبقوه ، فقد ظهرت أطماع الانجليز فى اليمن ، وظهر الأدارسة فى المخلاف السليماني وظهرت القوة السعودية ، وكل هذا جعل عصره شائكا ، ويكفى أن نتذكر أنه خلال حكمه قامت الحربان العالميتان ، ولم تكن اليمن بمنأى عن الصراع ، ومع هذا استطاع أن يدير دفة الأمر بكثير من الحياد ، ولكنه لم يستطع أن يتطور باليمن تطورا يناسب تطور الزمن ، ويناسب ما شهده العالم من تغير عقب الحرب العالمية الثانية بوجه خاص ، ولهذا تأمر عليه جماعة من أتباعه ، وقتلوه سنة ١٩٤٨ م كما سنرى فيما بعد .

ولنعد إلى عصر الإمام يحيى لنصور أهم ما برز به من أحداث :

علاقاته مع تركيا :

قلنا فيما سبق ان انتصار الإمام يحيى في معركة « شهارة » قضى على آمال الأتراك في النصر ، ودفعهم إلى طلب الصلح الذى تم فى دعان سنة ١٩١١ م بعقد معاهدة اعترفت فيها تركيا باستقلال اليمن ، وأعدت إلى الإمام صورا مختلفة من النفوذ ، ولم يبق فى اليمن من الجنود الأتراك إلا عدد قليل فى صنعاء اعتبر بمثابة ارتباط إسلامى بين اليمن وبين دولة الخلافة .

وبعد سنوات قليلة تأزم الموقف الدولى ، واقتربت الحرب العالمية الأولى وانضمت تركيا لألمانيا فى هذه الحرب وأخذ الشريف حسين جانب بريطانيا متكررا لتركيا ، كما اتجهت أكثر الدول العربية هذا الاتجاه ، بحكم عدم رضاها عن سياسة الأتراك بها ، ولكن الإمام يحيى وقف موقفا محايدا ، بل لم يعارض فى أن يتطوع من بلاده مَنْ يشاء لينضم للدولة العثمانية المسلمة فى صراعها ضد غير المسلمين ، وبعد هزيمة ألمانيا وتركيا فى هذه الحروب ، صدر أمر من تركيا بانسحاب حاميتها من صنعاء باليمن ، فانسحبت فى أمن دون أن يمسه سوء ، وكان ذلك نهاية للعلاقات بين اليمن والأتراك العثمانيين .

علاقاته مع الانجليز :

لم تكن علاقة الإمام يحيى طيبة مع الانجليز بسبب عواطفه التى كانت تؤيد العثمانيين خلال الحرب العالمية الأولى ، ثم إن الإمام يحيى كان يطمح فى أن تمتد سلطاته فتشمل حدود اليمن القديمة أى أن تشمل اليمن الجنوبية ، وكانت هذه مرتعا خصبا للانجليز ، وأن تشمل منطقة عسير بين اليمن ومكة ، ولكن هذه البقعة كانت أمانة للإدريسى الذى يؤيد الانجليز ، وقد ساعدوه حتى احتلوا ميناءى اللحية ، والحديدة ، ولم يكن

الإمام يستطيع أن يناضل الانجليز ، ولذلك عقد معهم معاهدة صداقة وتعاون سنة ١٩٣٤ م نصت على الاحتفاظ بالوضع الراهن فيما يتعلق بالحدود ، ريثما تسوى مشكلة الحدود في معاهدة أخرى ، وكانت مدة هذه المعاهدة أربعين سنة ومعنى ذلك تسليم الإمام بأطماع الانجليز .

علاقته مع السعودية :

كان الصراع بين السعودية وبين الإمام مرتبطاً بمشكلة عسير التي شرحناها من قبل ، فإن الإدريسي وافق على أن توضع إمارته تحت حماية السعودية ثم نكث العهد ، فاقترحت السعودية هذه الإمارة ، ولجأ الإدريسي لليمن ، وتأزم الموقف ، وكانت السعودية تقرر أن منطقة عسير لم تكن في يوم من الأيام تابعة لليمن .

وإذا تركنا منطقة عسير مؤقتاً فإننا نقابل منطقة أخرى كانت ماثرة خلاف بين السعودية واليمن ، تلك هي منطقة نجران ، ويقول المعارفون أن أياً من الحكومتين لم تكن تسيطر على هذه المنطقة الداخلية ، بل كانت تسكنها قبائل من الإسماعيلية ، وكان شيخها يعتبر زعيماً دينياً وسياسياً في نفس الوقت ، وقد دخلت القوات اليمنية منطقة نجران بحجة مقاومة المذهب الإسماعيلي وإقامة الشريعة الحقة ، ثم أصبح من المتعارف عليه أن تقبل اليمن وجود السعودية في عسير ، وأن تقبل السعودية وجود اليمن في نجران (١) .

وحدث بعد أن عقد الإمام يحيى معاهدة صداقة مع انجلترا أن اعتقد أنه تفرغ للسعودية ، فبدأت قواته تتسلل إلى عسير ، وهبت بسبب ذلك معارك طاحنة بين الطرفين ، وكانت القوات السعودية بقيادة الأمير سعود (الملك سعود فيما بعد) وكانت تستعمل أسلحة أحدث من أسلحة اليمنيين ، كما كانت درجة التدريب لديها أوفر وأعظم واستطاعت القوات السعودية

(١) دكتور صلاح العقاد : جزيرة العرب في العصر الحديث ص ٦٧ .

أن تحقق النصر في نجران وعسير بل احتلت الحديدة ، ولكن هذه القوات لم تطلع في مواصلة الزحف باليمن ، فقد كان واضحاً أن مقاومة اليمنيين بالجبال ، ستكون عنيفة وستستنزف جهود السعوديين ، ولهذا ، وللرغبة المتبادلة في السلم ، ولوساطة مجموعة من أعلام العرب والمسلمين مكونة من الحاج أمين الحسيني وهاشم الأتاسي ومحمد عالى علوبة وشكيب أرسلان ، انظر هذا عقدت بين الدولتين معاهدة الطائف ^(١) في سنة ١٣٥٣ (١٩٣٤ م) وبمقتضاها اعترف اليمن بتبعية عسير ونجران للسعودية وأخلت السعودية الحديدة ، ووضعت حدود دقيقة بين البلدين . كما تركت منطقة منزوعة السلاح خلف الحدود من الجانبين *

سمات عهد الإمام يحيى :

من أبرز سمات عهد الإمام يحيى العزلة عن العالم ، وبسبب العزلة معروف ، فإن الإمام ينتمى إلى سكان الجبال وطبيعة هؤلاء أن يميلوا للعزلة ، وهو كذلك ينتمى إلى الشيعة الزيدية ، وهم أقلية في العالم الإسلامى ، ثم ان اليمن عانت الكثير من حراها ضد الأتراك العثمانيين ومن أجل هذا أكثر اليمنيون أن يعيشوا بمعزل عن الناس ، فقد أحسوا أن الناس أعداؤهم ، وبخاصة عندما ظهرت قوى جديدة تناصبهم العداء بعد أن تخلصوا من الصراع ضد العثمانيين ، وهذه القوى هى البريطانيين والإدريسيون والسعوديون ، وبسبب سياسة العزلة بقيت اليمن بمنأى عن ركب الحضارة ، وعاشت التاريخ الحديث في تشكك واضطراب فكري لا تسمح بأعمال التنقيب أو دخول المخترعات الحديثة ، فقد كان ذلك بعد عند الإمام انحرافاً أكثر البعد عنه ، وقد كان من مظاهر العزلة والتشكك أن اتجهت اليمن لعدم المشاركة في الاعداد لجامعة الدول العربية : وثمنت بأن يكون مندوبها « مستمعا » وظل الناس يتندرون بالمندوب المستمع مدة طويلة ، ولم تصبح اليمن عضواً كاملاً إلا عندما

(١) انظر نصوص هذه المعاهدة وملحقاتها في أمين سعيد : اليمن

اتضح أن جامعة الدول العربية كائن قليل النفوذ وضعيف التأثير أن كان
اسه نفوذ أو تأثير *

وكان الإمام يحيى قليل الثقة بمعاونيه وكبار رجال دواته ، ولذلك
كان يسيطر عليهم بطريق أخذ أولادهم رهائن بالقرب منه ، وكان يعمل
ذلك في الظاهر بأنه يجمعهم للتدريب ولتهيئتهم لحمل المسئوليات الكبرى
بالدولة ، ولكنهم في الحق كانوا وسيلة ليسيطر على ذويهم *

ومن الأساليب الشاذة التي مارسها الإمام يحيى ما يسمى
« التخطيط » ومفهوم « التخطيط » هو دفع إحدى القبائل للسطو المفاجئ
على قبيلة أخرى تشكك الإمام في ولائها ، أو ترددت في تقديم التزاماتها
المادية للإمام ، وكثيرا ما ترتب على ذلك القضاء على القبيلة المعتدى عليها ،
ومن الواضح أن هذه التصرفات حبست اليمن في العصور الوسطى ، ولم
تسمح له بأي نوع من الانطلاق نحو التقدم والرقى *

ولم يشهد عصر الإمام يحيى إلا ومضات خفيفة من التقدم كانت
أقل بكثير مما يتطلبه العصر ، ومن هذه الومضات من الجانب السياسي
أن اليمن أصبحت تدعى « المملكة المتوكلية » ويعتبر ذلك تطورا في الفكر
السياسي ومؤشرا إلى عهد جديد من السلطة قوامه الملك ، فلم يعد
الإمام يختار كما اختير والد الإمام يحيى بسبب علمه وفضله ، وإنما
وضع الإمام نظام الملك وما يتبعه من توارث ، وتنفيذا لهذه الفكرة حدد
الإمام ولي عهده وأعلن ذلك سنة ١٩٤٧ باختيار ابنه أحمد لهذا المنصب
ولعل انتقال الإمام يحيى إلى صنعاء واتخاذها عاصمة له عقب اتفاقية
« دعان » كان تأييدا لهذا الاتجاه ، فذلك يوضح أن الإمام لم يعد يقنع
بعاصمة أجداده ، وإنما أصبح يطمح في عاصمة عامة ، ومن المؤكد أن
صنعاء أنسب مدينة لهذا الغرض ، فظالما كانت عاصمة اليمن كلها في
عهود متعددة *

وهناك ومضات في الجانب الاقتصادي ، كاستدعاء بعض الخبراء في
المشئون الصناعية والزراعية من مصر وسوريا وغيرها ..

وهناك ومضات في الجانب الثقافي تتركز في فتح مدرسة « دار العلوم » بصنعاء ، وإرسال بعثات قليلة إلى العراق وإيطاليا المتزهد من الثقافة الطبية أو العسكرية .

ولكن هذه الومضات كانت أقل جدا مما تتطلبه الأحوال ، وكان ذلك مما أدى إلى نهاية الإمام يحيى كما سنرى فيما يلى :

نهاية الإمام يحيى :

كان الإمام يحيى حاكما غنيما مخيفا ، وكان ولى عهده مشهورا بالقسوة والعنف ، وطال عهد الإمام يحيى ، وثقل ظلكه ، وتقدمت به السن ، ولكن الناس كانوا لا يتوقعون تغييرا على فرض وفاة الإمام يحيى ، لأن السلطة ستنقل إلى ولى العهد الذى لم يكن يبشر بالخير ومن هنا كانت المؤامرة للقضاء على الإمام يحيى تتجه كذلك للقضاء على ولى العهد ، بالفنك بالاثنين أو بالفنك بالأول وإبعاد الثانى عن السلطة .

وقد قاد المؤامرة عبد الله بن أحمد الوزير عضو ديوان الإمام ، وزوج ابنته ، وأحد كبار دولته ، وقائد جيوشه بعدة جبهات عسكرية ، وكان يعاونه فيها عدد من أحرار اليمن الساخطين على الحكم والذين كونوا لهم جمعية أسموها « الجمعية اليمنية » واتخذت « عدن » مقرا لها وكان يتزعمها أحد أبناء الإمام الساخطين عليه وهو سيف الإسلام إبراهيم ، واشترك في هذه المؤامرة كذلك حسين بن محمد الكسبى ممثل الإمام في الثئون الخارجية ، وزيد بن على الوشكى حاكم تعز ، وانضم لهم الضابط العراقى جميل جمال ، والفضيل الورتلانى عضو جمعية الإخوان المسلمين وهو تاجر مغربى قدم لليمن من القاهرة بحجة محاولة القيام بمشروعات اقتصادية باليمن .

وفى يوم ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٤٧ نجحت المؤامرة ، إذ اختبأت المجموعة التى عهد لها بالتنفيذ في طريق الإمام وهو عائد من بلدة حريز إلى صنعاء ، ووضعوا بالطريق ما يعوق سير السيارة التى يركبها الإمام ، وعندما ظهرت

خرج هؤلاء من مكنهم وأطلقوا الرصاص على السيارة ومن بها ، وقد قتل الإمام ورئيس وزرائه القاضي عبد الله بن حسين العمري وسائق السيارة والخادم الخاص للإمام •

وكان المتآمرون قد وضعوا خطة هجوم على ولي العهد عقب الانتهاء من الإمام ، وكانت الجماعة التي أسند لها القيام بذلك تعيش في تعز حيث يقيم ولي العهد ، ولكن ولي العهد استطاع أن يفلت من تعز في الوقت المناسب ، ووصل ولي العهد إلى بلدة « حجة » وهي معقل حصين له •

ويبدو أن عبد الله الوزير قنع بموت الإمام ، فبدأ يحاول جذب الناس له قبل أن يتأكد من القضاء على ولي العهد ، وهذا التصرف كان سييء العواقب ، فقد أعد ولي العهد عدته — ونازل قوات الوزير ، ودارت بين القوتين عدة معارك ، سرعان ما انتهت بفوز ولي العهد الذي أعلن نفسه إماما لليمن ، واتخذ لقب « الناصر لدين الله » كما اتخذ تعز عاصمة له ، وقبض على المتآمرين والمتهمين بمساعدتهم ، فأعدم بعضهم ودفع للسجون عددا كبيرا منهم ، وتمكن الفضيل الورتلاني وقلة معه من الفرار من اليمن ، وبدأ عهد الإمام أحمد في ١٨ أكتوبر سنة ١٩٤٨ •

عهد الإمام أحمد :

في كلمة موجزة يمكننا أن نقول ان الإمام أحمد كان امتدادا لعهد أبيه في الحقيقة والواقع ، ولكن الإمام أحمد حاول أن يضع طلاء يظهر حكمه بصورة مخالفة لواقعه ، فعمد إلى التظاهر بتأييد حركات الوحدة بالعالم العربي ، بل كان عضوا في الحلف الثلاثي الذي عقد سنة ١٩٥٦ بين مصر والسعودية واليمن ، وأقام اتحادا مع الجمهورية العربية المتحدة عقب قيام هذه ضامة مصر وسوريا سنة ١٩٥٨ وعقد اتفاقية تعاون مع الاتحاد السوفيتي ••• ولكن هذه الاتجاهات كانت مظاهرة قليلة المدلول ، وفي الناحية الداخلية حصلت تغييرات طفيفة ، كانشاء مؤسسة للنقود ، وإعادة تنظيم الجهاز الحكومي ، والقيام ببعض الإصلاحات الخاصة

بأنشاء الطرق ، ولكن أمور الدولة كلها بقيت في يد الإمام كما كانت في عهد أبيه .

وفي ديسمبر سنة ١٩٦١ أصدرت الجمهورية العربية المتحدة قرارا أعلنت فيه حل الاتحاد ، وكان ذلك عقب الانفصال الذي حدث بين مصر وسوريا .

وقد قامت ضد الإمام أحمد ثورات أو محاولات للقضاء عليه ، أهمها ثورة مارس سنة ١٩٥٥ ، وقد أرغم الإمام في هذه الثورة على التنازل عن الإمامة لأخيه الأمير عبد الله الذي كان مؤيِّداً من قادة الجيش ومن كثير من القبائل ويبدو أن أعداء الإمام قنعوا بهذا التنازل ، وراحوا يدبرون أمر المملكة ، ولكن الإمام أحمد كان يعد عدته للثورة عليهم ، فكتب سرا أعوانه وابنه البدر الذي كان بالحديدة ، واستطاع الإمام أحمد أن يدفع ثورة مضادة قضت على أعدائه وقبض على قادتهم حيث نفذ فيهم حكم الإعدام والسجن .

وفي مارس سنة ١٩٦٠ اعتدى عليه بعض ضباط الجيش ، وأطلقوا عليه نيران مدافعهم الرشاشة وهو يزور مستشفى الحديدة ، وقد سقط الإمام من هول ما أصابه ، واعتقد المعتدون أن الإمام قد مات فاخطفوا حتى تتضح الأمور التالية لذلك الحدث . ولكن الإمام لم يكن قد مات . وسرعان ما وضع تحت العلاج مما أصابه من جراح ، وألقى القبض على من حامته حوله الشبهات حيث أعدموا .

وقد ظل الإمام متأثرا بآلامه وجراحه ، حتى مات في ١٩ سبتمبر سنة ١٩٦٢ ، وكان الأمير البدر في صنعاء فأعلن إمامته .

الإمام البدر :

ليس للإمام البدر عهد نتحدث عنه ، فكل مدته لا تتجاوز أسبوعا ، فقد هبت ثورة ٢٦ سبتمبر ضده ، وأطاحت به ، وكانت بقيادة عبد الله السلال ، وأعلنت الثورة إلغاء الإمامة وقيام الجمهورية باليمن .

الجمهورية العربية اليمنية

كانت الثورة التي هبت في سبتمبر نقوم على عناصر من الجيش ، ومعهم جماعة من المدنيين ، ففي مساء الخامس والعشرين من هذا الشهر ، تحركت قوات عسكريه واتجهت إلى قصر البدر في صنعاء ، وبدأت تسكب عليه وبلا من رصاصها ، ولكن الإمام البدر استطاع أن يتسلل من باب خلفي وأن يجد طريقة إلى جيزان ، وكان هذا الهروب نذير صراع طويل ، فقد لجأ الإمام البدر إلى القبائل التي تدين بالولاء له ولآله يطلب عونهم وتجمعت بعض القبائل حول البدر ، وخيف أن تفشل الثورة كما فشلت ثورة سنة ١٩٤٨ وثورة سنة ١٩٥٥ ، فجلأت الثورة إلى عبد الناصر بمصر تطلب مساعدته لتأمين الثورة .

عبد الناصر واليمن :

سارع عبد الناصر في السج بجيش مصر في اليمن دون تفكير في العواقب ، وبدون استشارة الشعب المصري أو رضاه ، وسرعان ما قدم للثورة العتاد والرجال ، ولكن حركة البدر طلبت العون من السعودية بسبب تدخل مصر في المنطقة ، وكانت العلاقة انذاك بين مصر والسعودية في شبه أزمة ، فقدمت السعودية العون للإمام البدر ، واندفع جمال عبد الناصر يرسل لليمن فرقا مقاتلة من الجيش المصري ، والذي يتتبع أحداث التاريخ يحس أن عبد الناصر كان متلهفا لدفع الجيش إلى اليمن ، وننقل فقرة من خطابه الذي ألقاه في ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٦٢ ونصها : « يوم ٥ أكتوبر كان لنا مائة صف ضابط وعسكري في اليمن ، ويوم ٩ أكتوبر أصبحوا ٣٠٠ ويوم ١٠ بعثنا أول قوة من سلاح الطيران ويوم ١٦ أصبح لنا باليمن ألفان ٠٠٠ » وهكذا نلاحظ سرعة الاستجابة لطلب ثورة اليمن ، كما نلاحظ سرعة تطوير العدد والعتاد .

وكانت هامة هزيمة ، فقد شهدت أرض اليمن مذابح رهيبة ، ودماء يمنية أريقّت على تراب اليمن ، دماء يمنية أراقها اليمنيون ، ردهاء

يمنية أراقها المصريون ، وقد تحدثنا بإفاضة عن صراع اليمن ودور عبد الناصر فيه في دراستنا عن عهد عبد الناصر ، عهد الظالم والهزائم بالجزء التاسع من هذه الموسوعة •

وقد طال الصراع باليمن واستغرق عدة سنوات واستلزم خسارة هائلة قديماتها مصر من اقتصادها ومن سمعتها ، وكانت حرب اليمن من أسباب هزائم مصر سنة ١٩٦٧ ، إذ كانت مصر تحارب في جبهتين ، وكانت قد سحبت بعض جيوشها من مواجهة إسرائيل لتصدرهم اليمن •

ولم يتوقف تدخل عبد الناصر في شئون اليمن إلا بهزيمة سنة ١٩٦٧ الساحقة وبحاجته الماسة للعون المادى من السعودية ودول البترول ، فطلب إليه في مؤتمر الخرطوم أن يخرج بجيشه من اليمن فانصاع ، وسحبت جيوش مصر من اليمن بعد خسارة جسيمة في الأرواح والأموال •

ومن الواضح أن تدخل عبد الناصر دفع السعوديين للتدخل في الجانب الآخر ، وبخاصة لأن هتافات عبد الناصر بالاشتراكية وتصريحاته ضد النظم الملكية كانت تجعل دفاع السعودية عن اليمن دفاعا عن النفس حتى لا تمتد لها صيحات عبد الناصر وأهدافه ، والذي يتتبع أحداث الوجود المصرى باليمن يدرك اضطراب عبد الناصر وعدم وضعه خطة دقيقة في هذا الموضوع ، فقد استجاب عبد الناصر لتأييد الثورة ثم اندفع في هذا المضمار ، وعادى السعودية ، ولكنه عاد عن هذه السياسة فزار جدة في أغسطس سنة ١٩٦٥ ، وعقد اتفاقية جدة التى تقرر موافقة مصر على سحب قواتها من اليمن في موعد محدد على أن يوقف السعوديون تأييدهم لأتباع البدر ، ويتقرر مصير اليمن فى استفتاء حر ، ولكن هذه الاتفاقية لم تنفذ لسخط الجمهوريين باليمن عليها من جانب ، ولتردد عبد الناصر فى سياسته من جانب آخر ، ولم يضع حدا لهذا التردد إلا هزيمة ١٩٦٧ الساحقة وحاجة عبد الناصر للمال السعودى كما قلنا آنفا •

وإذا اتجهنا لقيادة الثورة ، وجدنا أن عبد الله الساطع لم ينجح في قيادتها ، ويبدو أن معلوماته السياسية كانت ضحلة ، ومن هنا بدأ حكمه بإعدام عشرين شخصا خلال الأسبوعين الأولين ، وأعلن عن رومد مكافآت مالية سخية لكل من يأتي برأس أحد أعضاء الأسرة المالكة ، ثم اتجه إلى زملائه فأخذ يحقد عليهم ، ويرى في منافستهم له خطرا عليه وبخاصة اللواء حسن العمرى واللواء محمود الجائفي ، ومن أجل هذا اتضح أنه من الضروري أن يتبعد عن اليمن رجاء الوصول إلى استقرار النظام بها ، وفي منفاه بالقاهرة لم تتحسن الأحوال مما جعله يطلب أن يعود إلى سلطانه ويؤكد أن ذلك هو السبيل لاستقرار الأحوال في اليمن ، واستجاب القاهرة وأعادته ، ولكنه سرعان ما اتجه إلى الدم والتفكيك بخصومه ، مما جعل من الصعب أن يستمر في مركزه ، فأبعد نهائيا عن رئاسة الجمهورية في فبراير سنة ١٩٦٧ ، وتكون مجلس رياسى بقيادة القاضي عبد الرحمن الإريانى .

على أن تكوين مجلس رياسى بقيادة القاضي الإريانى كان تنفيذا للمحاولات التى اشترك فيها حسن العمرى وأحمد النعمان ، والتى وضعها أحمد النعمان موضع التنفيذ عندما أصدر فى مايو سنة ١٩٦٥ قرارا بنظام مؤقت يقضى بأن يعين رئيس الجمهورية ومجلس الرئاسة بواسطة المجلس الاستشارى الذى كونه من رؤساء القبائل ، واتجهت اليمن إلى تنفيذ هذه الإصلاحات فى نظام الحكم عقب خروج الجيش المصرى منها .

وينبغى أن نذكر أن الوجود الناصرى باليمن كان قليل الجدوى ، بسبب قلة الخرائط ، وبسبب عدم دراسة الطبيعة اليمنية ، وحرب العصابات والكهوف ، ولأن جيش مصر فى عهد عبد الناصر كان ضحية للتمزق والقتل بسبب الصراع الذى كان يختفى ويظهر بين عبد الناصر والمشير ، ذلك الصراع الذى سيطر عليه الحقد والتنافس والأنانية من الزعيمين اللذين أثبتت الظروف أنهما كانا بعيدين كل البعد عن المواهب والكفاءات ، ومع الوجود الناصرى باليمن زحف جيش الإمام البدر وجيش عمه الأمير

الحسن من الشمال ، فحققا نجاحا كبيرا . واستطاعا أن يسيطرا على أكثر من نصف اليمن ، ولولا موقف أمريكا التي اعترفت بالجمهورية ، ولولا عدم استمرار الدعم السعودي ، لكان من الممكن أن تهوى الجمهورية المناشئة ، وهكذا لم يكن الوجود الناصري كبير الفائدة ، وعندما انسحب الوجود الناصري من اليمن كان يُظَن أن الجمهورية ستسقط وينتصر المكيون ، ولكن نظام الإمامة كان قد فقد هائلته نهائيا وبدأت عيون اليمنيين تنفتح ، فلم يكن من الممكن أن تعود الأمور القهقرى .

على أن الوجود المصري باليمن كان كبير الفائدة من الناحية الحضارية ، فقد شجعت طرق وأقيمت مدارس ، وبدى في بعض الإصلاحات الاقتصادية ، ودبت روح جديدة في اليمن لا يمكن أن تزول ، وبتوةف نشاطها على قدرة اليمنيين وإخلاصهم .

ومن القرارات التي أسرعت الثورة بإصدارها ، قرار بإلغاء السرق وبمبدأ المساواة بين الناس أمام القانون ، وقرار بإلغاء الطبقات ، كما أتت الثورة أن الأحكام تستمد من الشريعة الإسلامية ، وأنه لا فرق بين الشافعية والزيدية أمام القانون والحقوق .

ثورة جديدة في اليمن :

في يونيو سنة ١٩٧٤ قدم رئيس المجلس الجمهوري استقالته إلى القيادة العامة للقوات المسلحة ، وكان الإيراني القائد العام للقوات المسلحة موجودا في باريس للعلاج ، وكان العقيد إبراهيم الحامدي نائب القائد العام يتولى مهام القائد في أثناء غيابه ، ولذلك أصدرت القيادة العامة للقوات المسلحة اليمنية قرارا بتكوين مجلس قيادة من سبعة أعضاء برئاسة العقيد إبراهيم الحامدي ، وأعلن المجلس سياسته وهي تقضي بتوثيق الروابط الأخوية مع الدول العربية ، ودعم أواصر الصداقة مع كل دول العالم على أساس الاحترام المتبادل ، والمحافظة على استقلال اليمن ، والتمسك بسياسة عدم الإنحياز .

وأعلن المجلس كذلك أنه سيعمل على دعم القضايا العربية والمواثيق الدولية ، وكل الاتفاقيات والمعاهدات السابقة ، والوقوف بجانب القضايا الإنسانية العادلة ، وسيعنى المجلس بتحقيق الوحدة اليمنية ودعم روابط الجوار مع الدول العربية الشقيقة المجاورة ، وسيعمل على القضاء على أسباب الرشوة والسلبات ، وسيتعاون مع العناصر الوطنية الشريفة القادرة على تسيير الأمور •

وبعد العقيد إبراهيم الحامدي أصبح المقدم حسن الغشمى رئيساً لجمهورية اليمن الشمالية وفى يونيو سنة ١٩٧٨ اغتيل المقدم الغشمى بتدبير سالم ربيع رئيس اليمن الجنوبية ، فقد صدر بيان أذاعه راديو صنعاء يقول ان الحادث وقع عندما دخل مبعوث خاص لرئيس مجلس رئاسة اليمن الديمقراطية (الجنوبية) سالم ربيع إلى مكتب الرئيس الغشمى ليسلمه رسالة خاصة من سالم ربيع وأضاف أن الانفجار وقع عندما فتح ممثل سالم ربيع حقيبة الملعومة التى كان يحملها أمام الرئيس الغشمى فانفجرت وأسفر الانفجار عن مصرع المقدم الغشمى والمبعوث نفسه •

وألقت اذاعة صنعاء مسئولية الاغتيال على « حزب يتكرر لله وللوطن » وقالت اذاعة صنعاء أن اليد الشريرة فى عدن قد اقترفت أسفل وأفطع العمليات الخادرة ونوهت الاذاعة بأنه ينبغي تسوية الحساب • وقال راديو صنعاء أن الشخص الذى نفذ الاغتيال قد نقل إلى الجمهورية العربية اليمنية على متن طائرة خاصة من عدن • وأضاف أن المبعوث قد أخذ إلى مكتب الرئيس الغشمى بكل ثقة وطيب نية بعد مكالمة هاتفية من سالم ربيع رئيس مجلس الرئاسة فى عدن •

وقد ذكرت وكالة الأنباء العراقية نقلا عن مراسلها فى اليمن الشمالية قررت قطع علاقاتها الدبلوماسية مع اليمن الجنوبية •

وهكذا كانت الأوضاع المضطربة في اليمن الجنوبي تمتد ليهيها إلى اليمن الشمالي ، فعانى اليمن الشمالي من عبد الناصر ومن أحداث الجنوب •

العقيد على عبد الله صالح :

وبعد هذه الغمة وهذا العدوان من الجنوب آلت السلطة للعقيد على عبد الله صالح ، وهو حاكم اليمن عند كتابة هذه السطور •

سد مأرب :

في ديسمبر سنة ١٩٨٦ حدث في اليمن أعظم حادث حضارى ، وننقل الكلمة إلى صحيفة الاتحاد التي كتبت تفاصيل رائعة عن هذا الحادث عنوانها :

زايد يتوجه إلى صنعاء اليوم لافتتاح سد مأرب

وجاء تحت هذا العنوان ما يلي بإيجاز :

يتوجه صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيس الدولة ، بحفظ الله ورعايته ، اليوم إلى صنعاء ، في زيارة رسمية للجمهورية العربية اليمنية تستغرق أربعة أيام بدعوة من فخامة الرئيس على عبد الله صالح • ويشترك صاحب السمو رئيس الدولة الشعب اليمنى فرحته في الاحتفال غدا بافتتاح سد مأرب التاريخى الذى قام سموه بإعادة بنائه على نفقته الخاصة •

كما يجرى صاحب السمو رئيس الدولة مباحثات مع فخامة الرئيس اليمنى مساء اليوم ١٠ ويستقبل سموه بالعاصمة اليمنية السيد ثورجوت أوزال رئيس وزراء تركيا الذى يحضر الاحتفال بافتتاح سد مأرب •

وقد أدلى صاحب السمو رئيس الدولة بحديث « للاتحاد » قال فيه أن الذى جعلنى أفكر فى بناء سد مأرب ثلاثة أمور رئيسية مهمة •

✽ أولها : أن هذا السد هو الذى أحيا اليمن فى الماضى ، وهو الذى تطور اليمن بوجوده .

✽ ثانيها : ان اليمن كان قد خرج لتوه من حروب طاحنة ابتلى بها من الداخل ومن الخارج واستطالت هذه الحروب وازمنت ، وأصبح الشعب اليمنى مشتتا ، كما أصبحت الدولة اليمنية شبه ممزقة ، وأمسى واضحا للعيان أن التخلف فيها أكثر من أى دولة عربية أخرى .

✽ ثالثها : ان من يقرأ التاريخ يعرف أن نسب العرب وحسبهم كله يعود إلى اليمن ، فمنه خرجت الهجرات إلى كل بقاع العرب وبالأخص إلى الخليج العربى .

من هذا المنطلق رأينا ان من واجبنا ان نأخذ بيد اليمن حتى يكون رافدا للأمة العربية فى الحاضر والمستقبل فلم أجِد عندئذ أعز وأعلى للمنى من بناء سد مأرب ، فعزمت على بنائه من جديد ، لأن اليمن يعتبر جناح الخليج . فكيف نساعد اخواننا فى كل مكان ولا نساعد الذين دمرتهم الحروب وطحنتهم .

وأضاف سموه قائلا : أن هذا واجب الابد منه ، لأن كل دولة عربية تقوى وتنهض هى سند وقوة للأمة العربية أجمع ، وكل دولة تضعف تضعف الكيان العربى لذا لم أتوان ولم أتأخر فى تلبية نداء الإخوة وحرصت على أن يكون هذا العمل سعادة لحاضر اليمن وقوة ومنعة لمستقبله .

وكما كان وجود السد القديم يسبغ على اليمن اسم اليمن السعيد فإننى أردت أن يجعل السد الجديد اليمن سعيدا بعون الله وتوفيقه .

وكان هذا السد قد بدىء فى إنشائه فى الثانى من أكتوبر سنة ١٩٨٤ أى أن العمل فيه استغرق أكثر من سنتين ، وكانت تكاليفه باهظة ولكنها حق اليمن على جيرانها الأثرياء .

اليمن الجنوبية

قبل وبعد اعلان الجمهورية

وصلنا في الحديث عن اليمن إلى العهد الحاضر ، ولكن هناك مساحة مهمة يجب أن يشملها حديثنا ونحن نتكلم عن اليمن ، وهذه المساحة هي ما قامت عليه جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .

وقبل اعلان جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية كانت المناطق التي تكونت منها هذه الجمهورية هي :

١ — عدن : وتشمل ثلاث مناطق هي البلدة الأصلية وما حولها من جبال ، والمعلا التي تشرف على شبه البحيرة الموصلة إلى باب المندب ، تلك التي ترسو بها البواخر الصغيرة ، ثم التواهي التي يقع بها الميناء العام حيث ترسو البواخر المختلفة ، ويتبع عدن كذلك بعض الجزر التي تقع في مضيق باب المندب مثل جزيرة بريم ، وفي المحيط الهندي مثل جزيرة سو قطرة ، وفي أول البحر الأحمر مثل جزيرة كيران .

٢ — المقاطعات الشرقية : وهي أهم مقاطعات الجنوب ، وبها مناطق حضرموت ومهرة ، حيث تقع سلطنات ومشيخات يبلغ عددها ثمانى ، وأهمها سلطنة القعيطى وعاصمتها المكلا ، وسلطنة الكثيرى وعاصمتها سيون ، وسلطنة الواحدي وعاصمتها بلحاف .

٣ — المقاطعات الغربية : وهي كثيرة السلطنات والمشيخات ويبلغ عدد هذه وتلك ٢٣ سلطنة ومشخة ، وهي قليلة السكان ، ويصل تعداد بعض هذه المشيخات ألفى شخص فقط ، وأهم سلطنات المقاطعات الغربية سلطنة لحج وعاصمتها الحوطة ، ثم سلطنة الصبيحة وعاصمتها الطور ، وسلطنة العقارب وعاصمتها بير أحمد ، وهناك سلطنة العوالق العليا والسفلى وسلطنة يافع العليا والسفلى ، وإمارة الضالع ، وإمارة بيحان وغيرها .

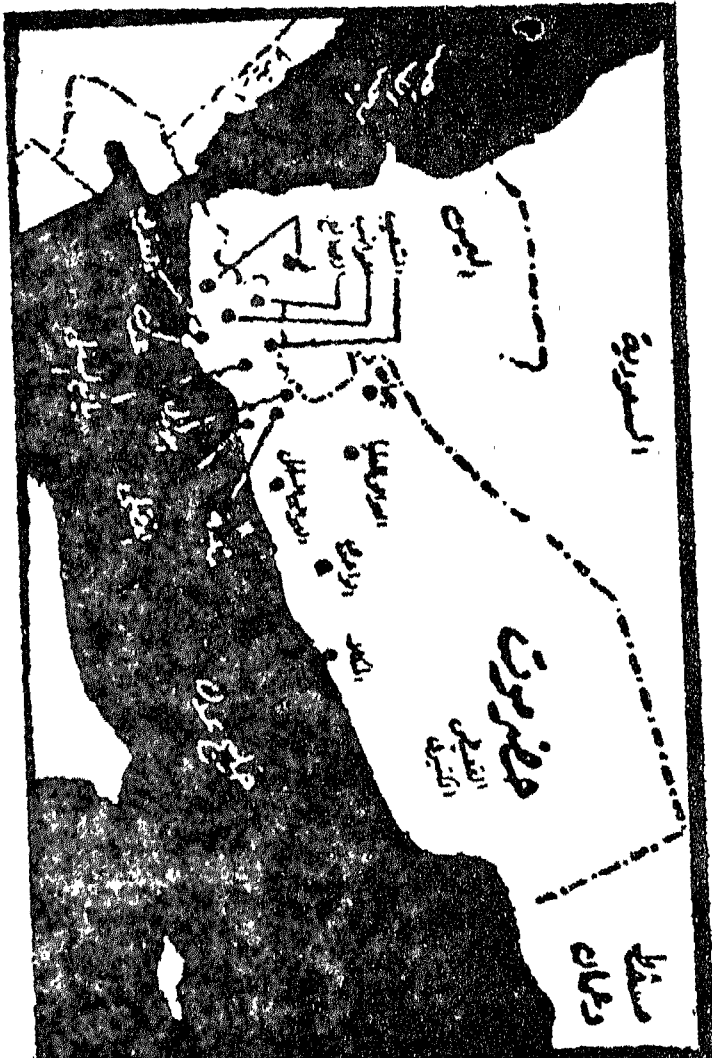
ومن الملاحظ أن الوحدات اختلفت أسماؤها ، وبالتالي اختلفت السلطات بها وفيما يلي تعريف مجمل بهذه التسميات :

المشيخة : القبيلة الواحدة التي يتحول شيخها إلى حاكم سياسى تسمى مشيخة ، فإذا تجمعت عدة قبائل فى وحدة واحدة ، وكانت واحدة منها أعز شأننا وأقوى نفوذا فإن هذا التجمع يسمى « الاتحاد القبلى » .

السلطنة : نظام أقرب للدولة حيث يوجد شرطة وجيش وحكام بالوراثة .

الإمارة : سلطنة صغيرة يعتمد الأمير فيها على مكانة دينية أو يكون تابعا لسلطنة بشكل ما من أشكال التبعية .

وسنعطى كلمة تاريخية لعدن والمقاطعات الشرقية والمقاطعات الغربية فيما يلى :



نهر بردى الذي تكثر منه جمهورية اليمن نديمًا لأمه الشامية

عدن حتى الاستعمار البريطاني :

كانت عدن جزءا من اليمن في كثير من الأزمنة — كما ذكرنا من قبل — تابعة للولاة الأمويين ثم العباسيين ، ولما قامت دولة بنى زياد باليمن ، كانت عدن جزءا من هذه الدولة ، وتبعت بعدهم بنى نجاح وبنى صليح حتى دخلت فيما دخلت فيه مناطق اليمن ابتداء من سنة ٥٦٩ حيث تبعت دولة الأيوبيين فبنى رسول فبنى طاهر ، وكان عامر بن داود بن طاهر آخر أمراء بنى طاهر في عدن حين دخلها العثمانيون بدعوة منه ثم قتلوه واستولوا على المدينة ، ولكن أئمة اليمن قادوا اليمنيين في الصراع ضد الأتراك العثمانيين واستطاعوا أن يستعيدوا عدن في عهد الإمام المطهر (١٥٥٨ — ١٥٧٤ م) وظلت عدن تابعة لحكم الأئمة حتى سنة ١٧٣٣ م ، وفي هذا العام قام أهل يافع بقيادة الشيخ فضل بن علي العبدلي بثورة ضد الشيخ أحمد الوداعي عامل الإمام المنصور الحسن بن القاسم ، وقد استطاع العبدلة بهذه الثورة أن يطردوا عامل الإمام وأن يستولوا على عدن .

وفي سنة ١٨٢٢ م تم اتفاق بين سلطان عدن السلطان أحمد عبد الكريم بن فضل بن العبدلي وبين شركة الهند الشرقية البريطانية على أن تقيم الشركة محطة للوقود في خليج عدن في الطريق إلى الهند (١) ...

وفي سنة ١٨٣٧ غرقت سفينة انجليزية بالقرب من عدن ، وادعى الإنجليز أن رعايا السلطان العبدلي نهبوا ما بها وطالبوا بالتعويض ، فلم يرضخ لهم السلطان ، فأرسلت شركة الهند مركبا حربيا ضربت عدن ، وقد تصدى لها السلطان وساعدته قوات يمنية ، ولكن القوات الانجليزية بمعداتها الحديثة كان لها النصر ، وسقطت عدن تحت الاحتلال الانجليزي .

وقد اعتبرت عدن قاعدة ، زحف منها الاستعمار الانجليزي إلى

(١) انظر نص الاتفاقية في « اليمن » لأمين سعيد ص ١٨ - ٢١ .

المقاطعات الشرقية والغربية ، واعتبرت عدن كذلك عاصمة عامة للجنوب العربى ، وحصل الانجليز على فرمان عثمانى يعترف بالوضع القائم لهم فى عدن (١) .

المقاطعات الشرقية حتى الاستعمار البريطانى :

كانت هذه المقاطعات جزءا من اليمن قبل الإسلام ، وفى عهد الرسول ، وعهد الخلفاء الراشدين ، ودولة بنى أمية ، ومطلع العهد العباسى ، وكان والى اليمن يعين من قبله من يلى أمر حضرموت ، وقد سبق أن ذكرنا عند الحديث عن « اليمن فى العصر العباسى » أن المنصور ولى معن بن زائدة الشيعيانى اليمن ، فبعث هذا ابن عمه سليمان نائبا عنه إلى حضرموت .

وهناك نص يورده المؤرخ الحضرمى سعيد عوضى باوزير يفيد أن المنصور ولى مرة عاملا على حضرموت بطريق مباشر وبدون أن يكل هذا إلى والى اليمن ، ويعلق عليه هذا المؤرخ بأن عمال حضرموت كانوا أحيانا يعينون من قبل مركز الخلافة (٢) ، ويتجه باحث حضرمى آخر (٣) إلى أن حضرموت لم تعرف فى تاريخها الطويل حكومة مركزية خضعت لها كل أنحاء الاقاليم إلا فى عهد جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، وكانت تقوم — فى فترات متعاقبة من التاريخ — إمارات فى مناطق متعددة من حضرموت شديدة الشبه بدويلات المدن . أما المناطق المحيطة بالمسند فكانت السلطة فيها متروكة لرؤساء العشائر ، وكانت هناك علاقات لتبادل المنافع بين حكام المدن ورؤساء العشائر وكان حكام المدن يتغيرون من حين إلى آخر ، أما حكام العشائر فكانوا ثابتين ، وما يقال عن أن حضرموت خضعت كلها لهذا الأمير أو لذلك قبل الإسلام أو بعده ، فليس إلا من باب التجوز أو الإفراط فى العمل .

(١) المرجع السابق ص ٢١ - ٢٢ .

(٢) معالم تاريخ الجزيرة العربية ص ٢٥٢ .

(٣) محمد عبد القادر بامطرف : فى سبيل الحكم ص ١١ وما بعدها .

وفي عهد المأمون — كما ذكرنا من قبل — تولى محمد بن زياد ولاية اليمن فأخضع اليمن جميعها لحكمه ، ودخلت في طاعته حضرموت ، والشحر وديار كندة • وقد تحدثنا من قبل عن الدولة الزيادية وعهدها باليمن • وفي عهد هذه الدولة عظم شأن الإباضية الخوارج ، فلما ضعف الزيادية في آخر عهدهم ، بدأ نشاط الإباضية في الارتفاع ، ودار صراع طويل بين الإباضية من جانب والولاة العباسيين من جانب آخر ، كان من نتائجه أن أُصيبت حضرموت بكثير من المصائب والبلاء • وبينما كانت حضرموت غارقة في هذا الصراع الدامي دخل عنصر جديد زاد الطين بلة ، ذلك هو القرامطة الذين هاجموا حضرموت عدة مرات خلال القرن الرابع والخامس الهجريين ، مما جعل الحياة في حضرموت ظلاما وضبابا ، ومما أخفى المعالم التاريخية الدقيقة لهذه المنطقة المهمة ، ويصف المؤرخ الحضرمي سالف الذكر هذه الفترة بقوله :

حال بُعد المسافة وصعوبة المواصلات وقلة موارد حضرموت وأسباب أخرى كثيرة دون استقرار سلطة الحكومات الإسلامية في حضرموت ، فبقيت البلاد عرضة لتعاقب سلطات القبائل المحلية التي ليس لأفرادها من المؤهلات ما يمكنها من القيام بواجبات الحكم وتبعاته ، وقد تسبب عن هذه الفوضى والاضطراب اختفاء معالم التاريخ الحضرمي ، وامتد ذلك إلى القرن العاشر الهجري ، بل إن الفترة بين القرن السادس والعاشر كانت أكثر عهود التاريخ اضطرابا وفوضى (١) •

ومع هذا الظلام سنحاول أن نبرز فيما يلي أهم معالم تاريخ حضرموت — في مطلع القرن السابع ظهر آل راشد وهم ينحدرون من قبيلة حمير القحطانية ، ويتزعمهم عبد الله بن راشد الذي كان معروفا بالعلم والورع ، وقد استولى على جميع وادي حضرموت ، وبويع له سنة ٦٠٦ هـ •

(١) معالم تاريخ الجزيرة العربية ص ٢٧٣ •

وفي هذه الفترة كان الأيوبيون قد بسطوا سلطانهم باليمن ومسدوا سلطانهم إلى حضرموت ، ولكن بدون استقرار ، وانتهى ملك الأيوبيين في حضرموت سنة ٦٢٦ هـ .

— ونحو هذا التاريخ ظهرت أسرة آل كثير ، وعاشت بين مد وجزر ولكنها على كل حال كانت أطول عمرا من سواها حتى قيام الجمهورية .

— وفي تيريم ظهر مسعود بن يمانى الكنانى ، وكون دولة آل يمانى في منتصف القرن السابع الهجرى ، وقد بقيت دولة آل يمانى في تيريم حتى قضى عليها بدر الكثيرى سنة ٩٢٧ هـ .

ولم تقبل الدولة التى قامت على أعقاب الأيوبيين أن ينكمش سلطانها عن حضرموت ، ولذلك دخلت حضرموت تحت حكم بنى رسول فترة من الزمن .

— وفى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى بدأ تدخل أئمة اليمن في شؤون حضرموت يتخذ شكلا عمليا أيام الإمام الحسين بن القاسم وقد استطاع الإمام المتوكل أن يزحف إلى حضرموت بجيش كبير سنة ١٠٧٠ هـ بيد أن جموع الشوافع في حضرموت كانت لا تتقطع ثوراتها ضد الزيدية

— وبينما كانت حضرموت تتور على الزيدية كانت الدولة الكثيرة تتعرض لضغط شديد وصراع مزير حتى قضى عليها مؤقتا في عهد جعفر ابن عمر في منتصف القرن الثانى عشر الهجرى .

— وعلى أثر ذلك أنفكت حضرموت كعقد تهاوى ، وأصبح كل جزء فيها خاضعا لقبيلة من القبائل ، وقد عاشت حضرموت هذه الفترة حتى انبعثت من جديد أسرة آل كثير .

— ثم ظهرت كذلك السلطة القعيطية التى أسسها عمر بن عوض القعيطى اليافعى في مطلع القرن الثالث عشر الهجرى ، وقد عظم نفوذها

واتسعت رقعتها ، ويجوار آل كثير والقيعطي ظهرت سلطنة الواحدى نسبة
لعبد الواحد القرشى كما ظهرت كثير من السلطنات والمشيخات التى أشرنا
إليها من قبل والتى استغلها الوجود البريطانى فى عدن كما سنرى فيما بعد .

المقاطعات الغربية حتى الاستعمار البريطانى :

كانت المقاطعات الغربية أكثر ارتباطا بالوطن الأم (اليمن) من
المقاطعات الشرقية ، وذلك لقرب المقاطعات الغربية لليمن ، وأهم
المقاطعات الغربية سلطنة لحج وهى لا تبعد عن عدن إلا بحوالى ٣٥ ميلا ،
وحولها تقع باقى السلطنات والمشيخات بالمقاطعة الغربية . ويمكن القول
إن المقاطعات الغربية ظلت تابعة للحكم اليمنى فخضعت لدولته المتعاقبة ،
وعند الزحف التركى أيدت الأئمة وكانت تابعة لهم يولون عليها من يحكمها
باسمهم ، وقد ولى الإمام الحسين بن القاسم (١٧٢٧ - ١٧٤٢ م) على
لحج رجلا من قبيلة العبادلة اسمه فضل بن على ، وأراد هذا الوالى أن
يستقل بحكم ولايته فاتفق مع جاره حاكم يافع على الخروج على الطاعة وأن
يتعاونوا فى الاستيلاء على عدن واقتسام مواردها المالية ، ونجحت المؤامرة
حوالى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى ، ولكن نشب بين الاثنين خلاف
ورثته عنهما القبيلتان (١) ، وقد عاش هذا الخلاف حتى يسر للإنجليز
التدخل فى تلك البقاع ، وبسبب هذا الخلاف انفصلت عن لحج مناطق
كثيرة كانت تابعة لها ، وكان ذلك من أسباب كثرة السلطات والمشيخات فى
المقاطعات الغربية ، ومما سبب كثرة المشيخات انشغال الأئمة الذين آل
لهم وخدمهم السلطان فى اليمن ابتداء من الزحف التركى — بالحرب مع
العثمانيين وهذا شجع القبائل على اعلان استقلالها ، وتكوين مشيخات
أو سلطنات قبلية مستقلة حتى داهمها جميعا النفوذ البريطانى فلم تستطع
وهى أشتات متفرقة ضعيفة أن تصمد أمام جبروته كما سنرى فيما بعد :

(١) انظر ملوك الغرب للريحانى .

الحياة السياسية والاجتماعية بحضرموت قبل الاستقلال

بين أيدينا كتاب كتبه باحث حضرمي ، وهو يعد مرجعا مهما لتصوير أحوال حضرموت السياسية والاجتماعية ^(١) ، ومنه نقتبس بعض المعلومات في هذا المجال :

كان نظام الحكم في حضرموت متشابها قبل الاحتلال الانجليزي وبعده لأن الانجليز لم يتدخلوا في الشؤون الداخلية بالبلاد ، واتجهت عنايتهم إلى الأمور الخارجية والزام السلطات المحلية بعدم التفاوض أو الاتصال بأية حكومة أجنبية غير بريطانية .

وكان نظام الحكم كذلك متشابها في جميع المقاطعات الحضرمية ، وبوجه الاجمال تتكون الحكومة من السلطان والوزير والقاضي الشرعي ، ويعين السلطان الوزير وغيره من الموظفين والولاة وقد يبقى هؤلاء في مراكزهم عشرات السنين ، وتصدر أحكام الزواج والأسرة والميراث حسب الشرع الإسلامي ، أما ما عدا ذلك من القضايا فإن الأحكام تتبع العرف إذ لا توجد قوانين جنائية أو مدنية ، ولهذا قد تتضارب الأحكام وتختلف شدة ولينا باختلاف الولاة والقضاء ، ولا توجد سجلات تدون فيها الأحكام .

ولا يرتبط الولاة بالسلطان إلا فيما يتعلق بتزويد الجيش بالرجال والمال ، والسلطان هو الذي يزيد عدد الجيش أو ينقصه ، وهو الذي يعلن الحرب أو يوقفها ، وليس هناك دوائر خاصة للقضاء ، وليس للسجون نظام محدد .

والحقوق المدنية غير نافذة في بعض بلدان الحكومة ، فالضرائب في كثير من المقاطعات تجبى من فئة دون أخرى فإن كثيرا من العلويين وآل

(١) هو كتاب تاريخ حضرموت السياسي للاستاذ صلاح الدين اليافعي .

عمودى وآل باوزير معفون من الضرائب وليس هناك عذر سوى أن هؤلاء من المروحانيين ولأصحاب السلطة الروحية •

وتتكون الإيرادات في الدولة غالبا من الجمارك ، وليس لهذه الجمارك نظام خاص وقواعد ترتبط بها ، فتتمين البضائع يرجع إلى رجال الجمارك وعرفهم • وتأتى بعض الإيرادات من المزارع •

أما المصروفات فتشمل مرتبات الوزير والقضاة والجيش والموظفين وهم قليلون جدا • والناس لا يعرفون بالضبط مبلغ إيرادات الحكومة ولا مصروفاتها لأنه ليس لها ميزانية خاصة ولا عامة (١) •

ومن ناحية الحالة الاجتماعية ، يذكر الأستاذ صلاح البكرى أنه لم يكن لحضرموت احصاء رسمى عن تعداد السكان ، ويقدر سكان حضرموت بنصف مليون نسمة بما فيهم سكان البادية • ويقسم السكان أربع طوائف هى :

١ — حملة السلاح •

٢ — التجار •

٣ — الزراع •

٤ — المروحانيون •

وحملة السلاح يحفظون الأمن وبخاصة في الحواضر ويحرسون القوافل ومنهم تتكون حاشية السلطان وأعوانه والرياسات القبلية ، ويسمى حملة السلاح في تعبیر الحضارم « القبائل » وربما ترك بعض هؤلاء مهنة حمل السلاح ليصلوا إلى التجارة طمعا في المال ، أو إلى العلم اجلالا له •

وحملة السلاح يحملون نوعا من البنادق والخناجر والسيوف أو

الرماح ، وأولاد حملة السلاح يتدربون على أنواع منه من مطلع الصبا ، وبعضهم لهم نظر عميق في شئون السياسة والأصلاح وكثيرا ما يحدث نزاع بين قبيلتين ، بل بين القبيلة الواحدة بعضها والبعض ، ولكنهم يتعاونون ويتناسون المشكلات الداخلية إذا واجهوا عدوا من الخارج .

أما طائفة التجار ، فيلحق بهم أرباب الصناعات كالنجاريين والبنائين وعليهم يقع النشاط في الأسواق والمدن . والتجار الحضرميون مشهود لهم بالأمانة والنشاط والصبر والجلد .

أما الزراع فهم يحرقون الأرض ، ويزرعونها بالنخيل وأنواع الحبوب ، وهم أكثر الطوائف الحضرمية عددا ومنفعة للناس ، ومع هذا لا يلاقون احتراماً من « حملة السلاح » ومن الروحانيين ، لأنهم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم لتجردهم من السلاح ومن أجل هذا يسمى هؤلاء « الضعفاء » .

ولعله لهذا السبب لا يجب الفلاح الحضرمي أن يبالغ في الجهد للحصول على الثراء عن طريق الزراعة لأنه لا يستطيع أن يحمي أى ثراء يملكه ولا تهتم الحكومة بحمايته .

أما الروحانيون ، فأشهرهم آل باعلوى « العلويون » ومن العلويين أمخاذ وبطون شهيرة كأسرة العطاس ، وآل عيدروس ، وحبش ، وشهاب ، والحضرمي ، والكاف ، والسقاف ، ولهؤلاء نفوذ روحى واسع ومكانة اجتماعية خاصة ، وألقاب يحرصون عليها ، وقد اتجهت بعض هذه البطون لتوثيق علاقاتها بالرؤساء السياسيين ، وتبادل هؤلاء وأولئك المصالح والمنافع .

وبيوت الحضارمة تبنى بالطين المخلوط بالتبن ، وتتكون البيوت من طابقين غالبا ، ويمكن أن ترتفع بيوت الحكام وقصورهم إلى أكثر من ذلك

وأثاث البيوت بسيط جدا ولكن الأغنياء يؤثثون منازلهم بفرش وفيرة ،
والنظافة عامل مهم في كل بيت عظم أو حقير .

وكرم الضيافة من أبرز صفات الحضارة مهما كلفهم هذا الكرم من
جهد أو استدانة .

ويغلب على المرأة الحضرمية أن تكون بيضاء هيفاء ممشوقة القد وهي
قنوع صبور — مقتصدة تجيد إدارة المنزل وتربية الأولاد مع عفة وشرف .
ولكن الجهل منتشر بين النساء والحجاب كذلك منتشر في الغالب .

وكان الرق موجودا في حضرموت حتى تم إلغاؤه منذ مدى ليس
بالبعيد .

وأهم الصناعات في حضرموت هي صناعة الحلوى ، والأسلحة ، ودبغ
الجلود ، والنسيج ، وتجفيف السمك .

وكانت الأمية منتشرة بحضرموت انتشارا واسعا ، وكان الاهتمام
يتجه لشئ من علوم الدين واللغة العربية ، وكانت الدراسة تتبع الطريقة
القديمة في تقديم هذه العلوم للطلاب (١) .

تلك لحظة سريعة عن الحياة في حضرموت كما كانت قبل الاستقلال ،
ومن الواضح أن الاستعمار حرص على إبقاء هذا الظلام في البلاد التي
كانت يوما مهبط حضارة رفيعة والتي دفعت للعالم نماذج طيبة من العلماء
والقادة .

بريطانيا والجنوب اليمنى

رأينا كيف احتلت بريطانيا عدن ، وكيف كان الأئمة مشغولين في
الشمال بالصراع ضد العثمانيين وسواهم ، وقد وجد الانجليز حوالى عدن

(١) صلاح البكرى : مقتطفات من تاريخ حضرموت السياسي ج ٢
ص ١١٤ - ١٢٨ .

قبائل متناحرة ، فأضافوا المزيد من الزيت ليقوى اللهب ، وفي نفس الوقت لوحث بريطانيا للشيوخ المساكين بأن تمدهم بالمال والسلاح فاستجاب بعضهم وخضع الآخرون تحت التهديد ، وهكذا بدأ التدخل البريطاني في شئون المقاطعات الشرقية والغربية وبدأ الزحف الاستعماري بالسياسة والمال حيناً وبالقوة والتهديد أحياناً حتى سقط الجميع ، وكان الثمن رخيصاً للغاية فقد قنع الذين قبلوا المال بالقليل منه ، نظير إعطاء الكثير من الحقوق للسلطة الانجليزية .

وكانت أول معاهدة تعقدها بريطانيا مع سلاطين الجنوب تلك التي عقدتها سنة ١٨٤١ م مع سلطان لحج محسن بن فضل العبدلي وتنص على تخويل البريطانيين نفوذاً واسعاً في السلطنة نظير مرتب سنوي قدره ٦٥٠٠ ريال تدفع للسلطان وأعوانه (١) .

ومن عجائب المعاهدات ، تلك المعاهدة التي أمضيت مع سلطان الضالع في أكتوبر ١٩٠٣ وتنص على أن يدفع مندبو بريطانيا من لطف الحكومة وكرمها سبعة ريالات في الشهر للشيخ مطهر بن علي اعترافاً بصداقته وبالخدمات الجليلة التي أداها للحكومة وبالأخص للجنة الحدود ، ويوافق الشيخ المذكور على التمسك دائماً بصدقة وطاعة الحكومة البريطانية ومساعدة ضباطها وملاحظة أعمدة الخطوط الموضوعة في حدود بلاده ، والاعتناء بها وإصلاحها فيما يطرأ عليها من خلل (١) .

وهكذا استسلم كثير من هذه المشيخات بهذا الثمن البخس ، وما كان لهم أن يفعلوا وان غلا الثمن ، ولكن سلاح القوة والإرهاب كان البديل لمن يتردد في القبول ، ومع هذا فنحن نقرر أن الموت كان أهون من هذا الخضوع والهوان .

(١) أمين سعيد : اليمن ص ١٨٤ وقد حوى هذا الكتاب نماذج كثيرة من المعاهدات المماثلة .

وقد قسمت بريطانيا منطقة الجنوب الغربى ثلاثة أقسام ذكرناها سابقا وهى :

- ١ — مستعمرة عدن ، صارت العاصمة الادارية والاقتصادية للبلاد .
- ٢ — المحميات الغربية وهى ٢٣ وكانت تتناقص بعمليات إدماج .
- ٣ — المحميات الشرقية ، وبها ثلاث سلطنات رئيسية بالإضافة إلى المشيخات .

وكانت بريطانيا تحكم الجنوب العربى بواسطة حاكم بريطانى مقره عدن ، وكان هذا الحاكم يتبع وزارة الخارجية البريطانية بلندن ، ولكنه ابتداء من سنة ١٩٣٢ أصبح تابعا لحاكم الهند ، فلما اتضح أن الهند على وشك أن تستقل أعلنت « عدن » مستعمرة تاج سنة ١٩٣٧ فعادت تبعيتها إلى بريطانيا وكان لحاكم عدن ابتداء من هذا العام ممثل فى المحميات الشرقية وآخر فى المحميات الغربية ، وكان حاكم عدن واسع النفوذ ، إذ أن موافقته كانت ضرورية لتنفيذ القرارات المهمة التى يتخذها الحاكم ، بل كانت ضرورية عند اختيار أى حاكم جديد ، وبدونها لا يتولى منصبه (١) .

اتحاد الجنوب :

كان قيام اتحاد أو وحدة بين الشنتات المتناثرة بالجنوب العربى هدفا مهما للاستعمار ، وهدفا مهما للمخلصين من المواطنين ، وإن اختلفت الدواعى والأسباب ، فالاستعمار كان يرمى إلى دعم نفوذه وتيسير حكمه لتلك المناطق ، أما المواطنون المخلصون فقد كانوا يتجهون إلى العودة للوطن الواحد وإزالة الحواجز الصناعية التى تقسم الجسم إلى أشلاء لإضعافها ، وكان من الواضح أن مشروعات الاتحاد التى كان يقترحها

(١) انظر تفاصيل علاقات بريطانيا بهذه التجمعات فى « سياسة بريطانيا فى الجنوب العربى » للدكتور جاد طه ص ١٧٥ وما بعدها .

المستعمر كانت تحوى نصوصا تتنافى مع آمال السكان والزعماء المخلصين ومن هنا كانت تقابل بحركات مقاومة ، ولسنا نحب أن نمشى خلف التفاصيل حول المقترحات ومقاومتها ، وحسبنا أن نقرر أن الاتحاد أعلن كما أراد الاستعمار ومعاونوه الذين انضموا للاستعمار فى مواجهة القوى الوطنية التى كانت تريد الوطن للمواطنين جميعا وليس للحكام السابقين والاقطاعيين • كما كان من قبل

وكان اعلان الاتحاد فى فبراير سنة ١٩٥٩ وتكون آنذاك من ست إمارات من إمارات المحميات الغربية ، ثم تلاحق انضمام المحميات الأخرى إلى أن شملها جميعا ومنها عدن ، وظهر إثر ذلك ما سمي « حكومة الاتحاد » وبمقتضى هذا كان لبريطانيا أن تباشر العلاقات الخارجية لدولة الاتحاد ، وكان لها تدريب جيش الاتحاد ، وتنبيه حكومة الاتحاد إلى أى خطر فى الداخل والخارج ، وكان واضحا من هذا الاتحاد أنه لا يحقق الأمنى الوطنية ، ومن أجل هذا تعاونت فى الجنوب العربى التكتلات والأحزاب التى تقاومه وتنادى بوحدة حرة ، ومن أبرز التكتلات حزب رابطة أبناء الجنوب العربى ، وحزب الشعب الاشتراكى ، وحزب المؤتمر الشعبى ، والمؤتمر العمالى ، وحركة القوميين العرب ، والاتحاد الشعبى •

الاستقلال التام وخطواته :

لم تستطيع حكومة الاتحاد أن توقف غضب المواطنين ، ولم يستطع الاتحاد أن يوارى طاقة الاستعمار التى خلقتها ، ثم انضم إلى القوى الداخلية عاملان مهمان أشعلا الثورة المسلحة فى الجنوب وهما :

العامل الأول : قيام الثورة فى شمال اليمن ونجاحها فى ٢٦ سبتمبر من عام ١٩٦٢ ، وقد أتاحت الثورة الفرصة لتشكيل الجبهة القومية لتحرير الجنوب اليمنى المحتل تلك الجبهة التى قادت العمليات العسكرية وكان ذلك فى شهر أكتوبر من العام نفسه ، أى فى الشهر التالى

لنجاح ثورة الشمال ، وظلت مدينة تعز اليمنية مركزا هاما لقيادة ثورة الجنوب طيلة السنوات التالية .

العامل الثانى : الدعم الذى قدمته جمهورية مصر العربية والذى ساند ثورة الجنوب فى كل مراحلها ، والثابت أيضا أن أول سلاح تلقته الجبهة القومية كان من جمهورية مصر العربية عقب اتصالات جرت فى صنعاء واستكملت فى القاهرة قبل بدء الثورة ، والثابت كذلك أن عددا غير قليل من ثوار الجنوب تلقوا تدريباتهم فى مصر وتحت إشراف خبراء مصريين ، ولم تكن هذه الحقيقة خافية على أحد فقد أعلن جمال عبد الناصر ذلك أكثر من مرة ، وفى زيارة له إلى تعز أعلن أن مصر تقدم كل صور الدعم لثوار الجنوب ، وأنها لن تتراجع عن موقفها رغم ما أدى إليه من تدهور علاقاتها مع بريطانيا .

عبد الناصر وحركات التحرير :

ولنتقف هنا وقفة لنعلق على تصرفات عبد الناصر فى هذا المجال ومن المعروف عن عبد الناصر أنه كان يدعم كل ثورة فى الخارج ، وكان يتظاهر بالعمل لتحرير الشعوب ، وفى سبيل ذلك كان يقدم أموال مصر ورجالها بسخاء ولكن ذلك لم يكن ميلا فى الرجل الحرية ، وإنما كان — كما برهنت على ذلك الأحداث التى سنشير لها — أحد وسائله للدعاية الشخصية وخداع الشعوب ، بدليل أنه كان مع شعب مصر يمثل أعنف حاكم عرفه التاريخ ، فقد عانى شعب مصر منه صورا مريعة من الاستعباد والإذلال والمصادرات والاعتقال والتكيد والتعذيب والجوع وهتك الأعراض ... وقد باشر عبد الناصر بعض هذه المظالم مع الشعوب التى انضمت مخدوعة تحت لوائه كالشعب السورى والشعب اليمنى ، وحاول أن يتدخل فى الشؤون الداخلية للجزائر عقب انهاء حكم ابن بيل ، ولكن قادة الجزائر الجدد ردوه عن هذا الاتجاه .

وهكذا كان عبد الناصر يهتف بالحرية ولكنه كان عمليا يرتكب أبشع

وسائل الاستعباد والإذلال ، وكان يحارب الاستعمار وهو يتطلع ليحل محل الاستعمار .

ولنعد بعد ذلك لنقدم باقى العوامل التى ساعدت على إشعال الثورة فى الجنوب العربى ضد الاستعمار الانجليزى ، فنذكر أن عاملاً طرأ على السياسية الاستعمارية العالمية ، وذلك العامل هو الاتجاه إلى القواعد العسكرية البحرية المتحركة دون الارتباط بالقواعد البرية التى تثير سخط المواطنين .

وعامل آخر أضيف إلى هذه العوامل ذلك هو موقف الأمم المتحدة ، فلقد أصدرت لجنة الوصايا التابعة للجمعية العامة للأمم المتحدة قراراً فى أوائل نوفمبر سنة ١٩٦٥ ينص على ضرورة إزالة القواعد العسكرية البريطانية من عدن والمحميات ، وفيما يلى نص هذا القرار الخطير :

« تعرب الأمم المتحدة عن أسفها للمحاولات التى تبذلها الدولة الحاكمة (بريطانيا) لإنشاء نظام حكم لا يمثل الشعب فى المنطقة ، وتناشد جميع الدول ألا تعترف بأى استقلال لا يكون نتيجة للتعبير الحر عن رغبات وأمانى الشعب عن طريق انتخابات تقوم على أساس حق الاقتراع للراشدين ، كما تعرب عن أسفها لرفض الدولة الحاكمة تنفيذ قرارات الجمعية العامة ، وتؤكد الأمم المتحدة حق شعب المنطقة فى تقرير المصير وفى التحرر من الحكم الاستعماري ، وتعترف بشرعية الجهود التى تبذل لنيل الحقوق التى نص عليها ميثاق الأمم المتحدة ، وترى الأمم المتحدة أن بقاء القواعد العسكرية فى المنطقة يمثل عقبة كبرى فى سبيل تحرير الشعب من السيطرة الاستعمارية ، ويعتبر بقاء هذه القواعد ضاراً بسلم المنطقة وأمنها ، ومن ثم فإن إزالتها فوراً إزالة تامة أمر ضرورى وتدعو الأمم المتحدة بريطانيا إلى إلغاء حالة الطوارئ وجميع القوانين التى تحد الحريات العامة ووقف أعمال القمع ضد شعب المنطقة ، ولا سيما العمليات العسكرية ، وإطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين ، والسماح

بعودة المنفيين أو الذين منعوا من البقاء في البلاد بسبب نشاطهم السياسي * وتناشد الأمم المتحدة جميع الدول تقديم كل المساعدات الممكنة إلى شعب المنطقة في مساعيها وجهودها للحصول على الحرية والاستقلال ، وتلفت نظر مجلس الأمن إلى الموقف الخطير المسائد في المنطقة نتيجة الأعمال العسكرية البريطانية ضد شعب المنطقة ، وتطلب من الوكالات المتخصصة تقديم المساعدات إلى الشعب الذي يعاني من العمليات العسكرية ، كما تطلب من يوثانت العمل على ضمان تنفيذ هذا القرار » *

وتأججت الثورة بسبب هذه العوامل ، وضعفت حكومة الاتحاد عن القيام بمهامها ، وجرفت الثورة بعض من اتشهموا بالخيانة الوطنية من المواطنين فخروا صرعى ، كما فر عدد من جند الاحتلال ، وأدرك حكام بعض الولايات ما يحيط بهم من خطر ، ففروا إلى السعودية ، ومن هؤلاء غالب القعيطى وحسن بن على الكثيرى وخليفة بن عبد الله حاكم مهرة ، وحلت الجبهة القومية محل هؤلاء الفارين فى السلطة *

جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية

إزاء هذه الحركات والتطورات رأت بريطانيا ألا أمل في البقاء ، فحددت موعدا للجلاء تم عادت فقدمت هذا الموعد ، وجعلته ٣٠ من نوفمبر سنة ١٩٦٧ وتسلمت الجبهة القومية السلطة في جميع أنحاء البلاد منذ ذلك التاريخ ، وانسحبت بريطانيا إلى الأبد من هذه البقاع ، ولأول مرة في التاريخ ، تكونت في جنوب اليمن دولة واحدة ذات شوكة فعالة ، تشمل كل أنحاء اليمن الجنوبي ، وكان زمام الصراع ضد الاحتلال في يد « عبد القوى مكاي » ولكن ما ان تم استقلال البلاد حتى قفزت قيادة جديدة يسارية ، وسميت الدولة الجديدة « جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية (١) » وكان يرأسها آنذاك (سنة ١٩٧٦) السيد سالم ربيع . وتوحى تسمية الدولة كما توحى دلائل أخرى باتجاه الدولة الجديدة اتجاها يساريا (٢) ، وإذا صح ذلك فإننا نرجو أن تعود بسرعة هذه البقاع الطيبة إلى رحاب العروبة السمحة والإسلام الحنيف ، وهي نتيجة لا شك آتية إن شاء الله .

بقيت كلمة جديرة بالذكر تتعلق بما ذكرناه آنفا من أن النظام الثوري باليمن الشمالية قدم مساعدات جمة لحركة التحرير في الجنوب ، ونريد هنا أن نقول إن حركة تحرير الجنوب قدمت مساعدات جمة للنظام الثوري في الشمال وبخاصة بعد انسحاب مصر من اليمن الشمالية بناء على اتفاق الخرطوم .

نهاية سالم ربيع ثم رئاسة عبد الفتاح اسماعيل :

في يونيو سنة ١٩٧٨ حدثت حركة انقلاب ضخمة في اليمن الجنوبية قتل فيها سالم ربيع ، وقد كان هذا الانقلاب انقلابا دمويا تقول الأنباء

(١) محمد عبد القادر بامطرف : في سبيل الحكم ص ١١ .
(٢) بيان نشره السيد محمد على الحضري رئيس رابطة اتحاد الجنوب العربي في مؤتمر بمكة المكرمة سنة (١٩٧٥) ١٣٩٥ هـ .

أن عبد الفتاح إسماعيل هو الذى قاده بمساندة الاتحاد السوفيتى ، وقد قام الطيارون السوفييت بقذف قصر الرئاسة الذى كان يوجد به سالم ربيع رئيس الدولة •

وأعلن عبد الفتاح اسماعيل فى بيان ألقاه عقب الحادث أن اللجنة المركزية والمكتب السياسى للجهة القومية قد اتخذتا عدة قرارات فى اجتماعهما أهس الأول من بينها الموافقة على إعدام سالم ربيع على وجاسم صالح وعلى سالم الأعور رميا بالرصاص • كما تقرر تجريد كل من على صالح عباس وعبد الله الباز وحسن باعوم من كافة المسئوليات الحزبية والرسمية وفصلهم نهائيا من الجبهة القومية •

وآل حكم اليمن إلى عبد الفتاح اسماعيل وأعوانه •

على ناصر :

ولم نتوقف حركات الانقلابات والثورات فى اليمن الجنوبى ، بل تلاحقت ، وسقط عبد الفتاح اسماعيل ، وأبعد عن البلاد ، ثم قتل ، وجاء إلى الحكم على ناصر محمد الذى اتهم بقتل عبد الفتاح اسماعيل ، ولكنه يدافع عن نفسه وينفى هذه التهمة •

أبو بكر السقاف :

وفى ١٣ يناير سنة ١٩٨٦ حدثت حركة انقلاب دموية باليمن الجنوبى ضد على ناصر ، ويقول هذا عن هذه الحركة ، ولا نعرف مدى الدقة فيما يقول :

— القاصى والدانى يعرف ما حدث فى ١٣ يناير والأيام التى تلت هذا التاريخ ويمكن أن أقول بإيجاز لقد قامت المجموعة الانفصالية منذ صباح هذا اليوم بانقلابها الدموى المشؤم والذى راح ضحيته عشرات الآلاف من الضحايا الأبرياء ، ويكفى أن أقول أن هؤلاء الدمويين قتلوا ٢٠٠٠

يمنى فى يوم واحد وألقوا بهم فى مقابر جماعية وقد استمرت القوات الشرعية تواجه قوات الانشقاق لمدة عشرة أيام • وتمت بعض المفاوضات داخل السفارة السوفيتية إلا أنهم لم يحترموا هذه المفاوضات واستمروا فى تدمير المدينة وإطلاق النار ، حتى أنهم حاصروا السفارة السوفيتية نفسها بالدبابات والمدافع فى الوقت الذى كانت تجرى داخلها المفاوضات وانتهى الأمر بعد عشرة أيام من المعارك الشنيعة إلى حسم الصراع عسكريا لحساب هذه القلة التى قامت على الفور بتصفية معارضيها جسديا فى الشوارع كما اعتقلت أكثر من سبعة عشر ألف مواطن يمنى مارست عليهم أبشع وسائل التعذيب الجسدى والمعنوى • وقد أدت هذه الممارسات القمعية لفرار أعداد كبيرة من أبناء اليمن الجنوبى إلى اليمن لشمالى للحاق بقيادتهم الشرعية حيث بلغ عدد النازحين فى الشهور الأولى حوالى ٢٠ ألفا ثم وصل مؤخرا أكثر من ٦٠ ألفا منهم وزراء سابقون وديبلوماسيون وقيادات عمالية ورجال الاعلام وفنانون ، هذا فضلا عن نسبة كبيرة من القوات المسلحة جنودا وقيادات •

وأصبح أبو بكر السقاف رئيسا لجمهورية اليمن الجنوبية الشعبية •

وحدة اليمن الشمالية والجنوبية

تتجه حكومات اليمن بعد الاستقلال إلى إعادة الوحدة بين شطري اليمن ، فقد أعلنت حكومة الجنوب عقب خروج الانجليز أن اليمن الجنوبية جزء من اليمن ، وأن الوحدة هدف الجميع ، وأعلنت حكومة اليمن الشمالية ذلك أيضا ، والذين زاروا اليمن يقررون أن الزعماء في الشطرين ينادون بالوحدة ، وكل الحكومات هنا وهناك تطالب بها ، وجميع المثقفين ينادون بها ويتناقشون ، ويناضلون لها ومن أجلها ، وأجهزة الاعلام تبشر بها ، ثم ان الشعب اليمنى الجنوبى يملأ المدن الساحلية على شطآن اليمن الشمالية تجارا وفنيين وطابة ومزارعين وعائلات ، والشعب الشمالى يذهب إلى الجنوب ويجيئ دون أن يعترضه أحد ، بل أن الحزب الحاكم فى الجنوب ينتمى الكثير من أعضائه إلى الشمال ... وتعجب ما الذى يؤخر تلك الوحدة التى ينادى بها الجميع ؟؟

وسيرا فى طريق الوحدة اجتمع ممثلون لليمنيين بالقاهرة فى أواخر أكتوبر سنة ١٩٧٢ ، وبعد مباحثات شاملة صدرت صحف الصباح التالى تعلن الآتى :

٤٠ أعلن قيام الوحدة بين شطرى اليمن مساء أمس فى اتفاقية بمقره محسن العينى وعلى ناصر رئيسا وزراء جمهوريتى اليمن ، وحضر توقيع الاتفاق أمناء الجامعة العربية وجميع السفراء العرب فى القاهرة وأعضاء مؤتمر المصالحة وأعضاء الوفدين الممثلين لليمن الشمالية واليمن الجنوبية .

ويتضمن اتفاق الوحدة ١٥ مادة تحدد شكل الدولة الجديدة ونظام الحكم فيها ، ونص الاتفاق على تعيين ممثلين شخصيين لرئيسى الدولتين لمتابعة تنفيذ الاتفاق ولتنظيم عقد اجتماع لرئيسى الدولتين يوم ٢٥ نوفمبر التالى . وبالنسبة لشكل الدولة الجديدة نص الاتفاق على

أن تقوم وحدة بين دولتي اليمن تذوب فيها الشخصية الدولية لكل منهما في شخص دولي واحد ، وقيام دولة يمنية واحدة ، ويكون للدولة الجديدة علم واحد ، وشعار واحد ، وعاصمة واحدة ، ورئاسة واحدة ، وسلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية واحدة ، ونظام الحكم في الدولة الجديدة نظام جمهوري وطني ديمقراطي . ويضمن دستور الوحدة جميع الحريات الشخصية والسياسية والعامّة للجماهير كافة ، ولتختلف مؤسساتها ومنظماتها الوطنية والمهنية والنقابية ، وتضمن دولة الوحدة حماية جميع المكاسب التي حققتها ثورتا سبتمبر وأكتوبر .

ومع كل هذه الآمال وتلك الجهود فإن الوحدة لم تتم ، ربما للفارق الكبير بين الاتجاهين في الشمال المتحفظ والجنوب التقدمي ، وربما لما يقوله الدكتور صلاح العقاد (١) ونصه :

ان استمرار هذا الانفصال إنما يعبر عن ظاهرة تعم للأسف مختلف أنحاء الوطن العربي ، وهي أن التقسيمات التي وضعها العهد الاستعماري تظل قائمة بعد الاستقلال لأن المناضلين الذين حصلوا على هذا الاستقلال في إطار التقسيمات الاستعمارية لا يحبون أن يتنازلوا عن شيء من السيادة التي حصلوا عليها ، وسرعان ما تتحول الوحدة إلى مبادئ نظرية فحسب .

وأخيرا تمت الوحدة بين اليمنين :

ذكرنا من قبل أن المحاولات لم تهدأ لتعود اليمن الموحدة للوحدة ، وكانت أغلب المحاولات تفشل لأن الوحدة تتعارض مع الأطماع الشخصية ، وأخيرا نجحت هذه المحاولات في الثاني والعشرين من مايو سنة ١٩٩٠ ، وقد تمّ الاتفاق على أن يكون على عبد الله صالح رئيس اليمن الشمالية رئيسا لليمن الموحدة وحيدر أبو بكر العطاس رئيس اليمن الجنوبية رئيسا لوزراء اليمن الموحدة .

(١) جزيرة العرب في العصر الحديث ص ١٦٠ .

وللأسف يبدو أن روح التقسيم تسيطر على الوسادة ، فكل وزراء الشمال وكل وزراء الجنوب تقريبا وزراء في الوزارة الموحدة ، فبلغ عدد الوزراء ٣٩ وزيرا •

وندعو الله أن تختفى روح التقسيم تماما ، وأن تصبح اليمن موحدة واقعا وروحا •

وتبعاً لقرار الوحدة توحدت الشعارات ، ورفع علم اليمن الجديد على مقر الأمم المتحدة في نيويورك عقب احتفال حضه ببريز دي كويار السكرتير العام للأمم المتحدة ، الذي وصف هذا الحدث بأنه مناسبة جيدة ومريحة لتحقيق الوحدة بين بلدين عن طريق المفاوضات الودية والمثمرة •

جهود الحضارمة في نشر الإسلام :

لقد سرنا بتاريخ حضرموت من مطلع الإسلام حتى الآن ، ويجدر بنا قبل أن نرفع القلم عن هذا التاريخ أن نتكلم كلمة عن جهود الحضارمة لخدمة الإسلام • وقد تكلمنا من قبل عن هجرات الحضارمة في الأزمنة المختلفة إلى بقاع شتى في العالم ، ونزيد هنا هذا الموضوع وضوحاً ، فقد كان للحضارمة دور كبير في نشر الإسلام وخدمته في كل مكان نزلوا به ، وأكثرهم هاجر واستقر حيث هاجر ، فكان جهدهم مستمرا • والحضارمة فيهم العلماء الأفاضل ، ومنهم التجار المهرة الذين ورثوا هذه المهارة عن أسلافهم الذين احتكروا التجارة العالمية في يوم من الأيام •

ولنعد إلى كتاب تاريخ حضرموت السياسي ليصور جهود الحضارمة في مجال خدمة الإسلام ونشره ، وهو يقول عن هجراتهم أنهم هاجروا إلى الأندلس في أواخر القرن الأول ، وكان على رأس المهاجرين أسرة خلدون ، بزعامه رئيسها خالد بن عثمان الذي ينتهي نسبه إلى وائل بن حجر الكندي ، وقد علا شأن هذه الأسرة وظهرت بها شخصيات كبيرة شغلت أعظم المناصب في مختلف العهود •

وممن اشتهر من علماء الحضارمة في الأندلس محمد بن إبراهيم

الحضرمي ونعمان بن عبد الله الحضرمي في اثبيلية ، وعبد العزيز بن الحسن الحضرمي الذي نزل قرطبة ، ومساوهم كثيرون ^(١) .

وهاجر كثير من الحضارمة إلى مصر ومن هؤلاء يونس بن عطية بن أوس بن عبد الله ، ويحيى بن ميمون وتوبة بن نمر ، وخير بن نعيم وغوث بن سليمان ، ويزيد بن عبد الملك ، وعبد الله بن لهيعة ، ولهيعة بن عيسى ، وقد ولي هؤلاء مناصب القضاء ^(٢) . ومن المهاجرين الحضارمة إلى مصر كذلك حفص بن الوليد ، وقد تولى ولاية مصر من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٤ هـ ، وجمع له هشام الصلاة والخراج جميعا ، ولما توفي هشام سنة ١٢٥ هـ أقر الوليد بن يزيد بن عهد الملك حفصا على الصلاة والخراج ^(٣) .

وهاجر كثير من الحضارمة إلى اليمن في عهود مختلفة وكانوا يرحلون للتجارة وطلب العلم ، وإن كان التجار لم يطلبوا بقاءهم في اليمن لاضطراب السياسة وعدم استقرار الأمن في الشمال ^(٤) .

وهاجر آلاف الحضارمة إلى الحجاز ، وأمسكوا بزمام التجارة فترة طويلة من الزمن ، وتولى بعضهم مناصب كبيرة كمنصب الوزارة الذي تولاه السيد عبد الله بامصفر الذي كان وزيرا للمالية في عهد الأشراف ، وكان وزير المالية في عهد الشريف عبد الله بن عون حضرميا كذلك هو عبد الله باناعمة ، ثم ابنه علي ، وفي عهد الشريف حسين كان وزير المالية السيد أحمد باناعمة ^(٥) .

وهاجر عدد كبير من الحضارمة إلى شمال إفريقية ، ومن هؤلاء

-
- (١) صلاح البكري : تاريخ حضرموت السياسي ج ٢ ص ٢١٨-٢٢٠ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٢٠ - ٢٢٤ وأقرأ كذلك تاريخ التشريع والقضاء للمؤلف .
(٣) تاريخ حضرموت السياسي ج ٢ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .
(٤) المرجع السابق ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .
(٥) المرجع السابق ص ٢٣٥ .

بنو هلال بقيادة زعيمهم « أبو زيد الهلالي »، وبصحبه أبناء عمه وهم
مرعى ويحيى ويونس أبناء حسن بن سرحان (١) .

وهاجر عدد من الحضارمة إلى الهند ، وهناك اشتغلوا بالتجارة
والأعمال ، والتحقوا بجيوش حاكم حيدر آباد ، وأصبح بعضهم من أقرب
المقربين إلى ملك تلك البلاد ، وقد استطاع بعضهم أن يصل إلى مكانة
عالية في بلاط الملك ، وحصل آخرون على غنى واسع وثروة طائلة ، ومن
مؤلاء المقعيطى اليافعى ، وغالب بن محسن الكثيرى ، وقد سبق أن
ذكرنا أن زحفا بدأ من حيدر آباد وحقق في حضرموت انقلابا سياسيا .

ولعل من أعظم هجراتهم التاريخية هجرتهم إلى إندونيسيا فبدأ
خطوا رحلتهم في هذه البلاد تجارا وعلماء ، وقد بدأت وفودهم إلى هذه
الجزر في أواخر القرن الثامن الميلادى ، أى قبل نزول البرتغاليين بها ،
وكانت ديانة بوذا منتشرة في كل مكان ، واستطاع الحضارمة أن ينتشروا
في كل الجزر ، وفي كل البلدان ، وأن يعاشروا السكان معاشرة أقرب
إلى الامتزاج ، وأمسكوا بزمام التجارة في البر والبحر ، وسيطروا على
المواصلات البحرية ابتداء من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر ،
وكانت مراكبهم تجوب جزائر إندونيسيا وتبحر إلى الهند وإلى سواحل
الجزيرة العربية ، وهى تحمل في الذهاب وفى العودة ألوانا من البضائع
والسلع تشتريها من هنا لتبيعها هناك على طول الطريق .

وكان لهم دور هائل في نشر الإسلام بإندونيسيا وبالجزر والبلاد
المحيطة بها مثل تايلاند والفلبين وسنغافورة ، ولا يزالون يقومون بهذا
الدور حتى كتابة هذه السطور ، وهم يرون في إندونيسيا وطنهم ،

ويخلصون لهذا الوطن أعظم إخلاص وقد اشتركوا في حركات التحرير بهمة ونشاط ، وأسهموا في دفع عجلة التقدم والتطور بالبلاد (١) •

تلك هي اليمن وذلك هو دور الحياة معها ، ونرجو ليمن المستقبل كل ازدهار ونعيم ، ولشعب اليمن شماله وجنوبه كل رفاهية وتقدم لتحقيق اليمن في المستقبل ما حققته في الماضي من مجد وعزة •

(١) اقرأ ما كتبناه عنهم في الجزء السادس من موسوعة التاريخ الاسلامي من ١٨١ - ١٨٢ •

أَخْلَيجَ الْعَرَبِيَّ
وَالدُّوْلَ الْعَرَبِيَّةَ الْوَاقِعَةَ عَلَيْهِ

مقدمة :

سنحاول بادىء ذى بدء أن نتكلم كلمة عن الخليج نفسه قبل أن نتكلم عن ساحله العربى فهذا الخليج كبير الأهمية من جهات متعددة ، وترتبط به عدة قضايا ينبغى أن نعرضها وأن نحاول شرحها ، وهذا ما سنقوم به فيما يلى :

تسمية الخليج

ولعل أول قضية تواجه الباحث فى هذا النطاق هى تسمية الخليج ، فالمراجع القديمة تسميه الخليج الفارسى أو خليج فارس أو خليج العجم ، وتتجه المراجع العربية الحديثة وبعض المراجع غير العربية إلى تسميته خليج العرب أو الخليج العربى ، وهناك حساسية دقيقة حول هذه التسمية ، فالعرب المحدثون لا يقبلون إلا أن يسمى الخليج العربى ، ويتمسك الفرس بأن ينسب إلى بلادهم ، بل راح أحد علماء الفرس المحدثين يجمع من مختلف المراجع أى اقتباس ورد فيه ذكر هذا الخليج مرتبطا بكلمة الفرس أو فارس أو العجم ، وهو يريد بذلك تأكيد هذه التسمية ^(١) ، ويقول العرب إنهم ظلوا يسمونه الخليج الفارسى أو خليج العجم ، إلى أن حاولت إيران استغلال الاسم سياسيا ، فاتجه العرب إلى تسميته الخليج العربى وضعا للأمور فى نصابها ^(٢) وقد لاحظ العثمانيون أن إيران تستغل التسمية استغلالا سياسيا فأسماء العثمانيون « خليج البصرة » .

ونحن دعاة تجمع لا دعاة فرقة ، وتربطنا بإيران روابط عميقة دينية وثقافية وتاريخية ، ومن أجل هذا سنجعل خطتنا فى دراسة هذه القضية

(١) عليرضا ميرزا محمد : الخليج الفارسى عبر القرون والاعصار .

(٢) مصطفى كامل الدباغ : قطر ماضيها وحاضرها ص ٢٦ - ٢٧ .

بالهامش .

أن نعرض الآراء والجذور التاريخية لها مكتفين بذلك حرصاً على هذه الروابط التي ينبغى الحفاظ عليها •

وقبل أن نسير في تحقيق التسمية نتساءل : هل التسمية تمنح حقوقاً ؟ وبالتالي يحرص العرب والفرس على تسمية ينالون عن طريقها حقوقاً في هذا الخليج ؟

إن الإجابة الدقيقة ترى أن التسمية لا تجلب حقوقاً ، وتستدل على ذلك بالبحار التي تسمى بأسماء بلاد ولكن هذه البلاد ليس لها في تلك البحار غير المياه الإقليمية المعترف بها دولياً كالمحيط الهندي الشاسع الذي لا تملك الهند فيه إلا مياهها الإقليمية محدودة ، ومثل هذا يقال عن خليج عمان وخليج عدن وغيرها من البحار والخلجان •

وهناك بحار كثيرة تسمى بأسماء ذاتية ولا تنسب لأي بلد من البلاد كالبحر الأبيض والبحر الأحمر والبحر الأسود ومع هذا فلهبلاد المتصلة بها نفس المياه الإقليمية ، مما يدل على أن التسمية ليست ذات بال •

ولكن العرب يرون أن هناك أهدافاً أخطر من ذلك فيما يتعلق بهذا الخليج ، فإن الكاتب الفرنسي « جان جاك بيرى » ألف كتاباً باسم الخليج الفارسي ، وترجمه كاتبان عربيان وجعلا تسمية الكتاب « الخليج العربي » فنارت البعثة الإيرانية الدائمة بالأمم المتحدة لذلك ، ونهبت دار النشر الفرنسية التي أخرجت الأصل لتحتج على ذلك ، وتطلب إعادة الكتاب باللغة العربية ، على أن يكون عنوانه « الخليج الفارسي » ويرى العرب أن ذلك ما كان يحصل لولا أن هناك أطماعاً ترتبط بهذه التسمية •

ودليل آخر يثير شكوك العرب هو هذا الجهد الكبير الذي أشرنا إليه آنفاً ، إذ اتجه عالم كبير ليقرأ ويجمع من مختلف المراجع بشتى اللغات كل الاقتباسات التي يرد فيها ذكر هذا الخليج باسم « الخليج الفارسي » وقد جمع ذلك في مجلدين نشرهما بعدة لغات مع أن المفكر

العربى يرى ذلك أمراً يسهل الرد عليه ، فإن التسمية كانت كذلك فى المراجع القديمة والوسيلة بدون شك ، فالإلحاح على وجودها أمر يحس العرب بأنه يخفى شيئاً •

ما الأهداف التى يرى العرب أن الفرس ينتظعون لها من وراء هذه التسمية ؟ •

يسرى بعض المفكرين ^(١) أن إيران ترمى من وراء ذلك إلى جعل الخليج بحيرة فارسية ، وقد احتلت فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٧١ ثلاث جزر فى مدخل هذا الخليج ، وأعلنت حينئذ أن « البحرين » جزء منها ، وليس هذا وذاك إلا لتحقيق هذا الهدف •

وعلى كل حال فنرجو أن يكون هذا الاتجاه قد هدأ بعد أن أصبحت عروية البحرين موضع اتفاق ، والعرب والفرس مسلمون قبل كل شيء وتربطهم روابط الدين والجوار والود وهذا يخفف من التعصب للتسمية ويجعل الود والقربى تحل محل التعصب والأطماع •

وهذا الأمل لا يعفينا من دراسة التسمية دراسة تاريخية محاولين التعرف على منشأ هذه التسمية ومدى الدقة فيها ، ويذكر الباحثون أن هذا الخليج كان يطلق عليه فى العصور القديمة اسم « البحر الأدنى » أو « البحر المر » وعندما زحف الإسكندر المقدونى إلى الشرق اكتشف أسطولته بقيادة نيارك ^(٢) « Nearchus » شواطئ آسيا من نهر السند إلى هذا الخليج ، وقد تعرف على الشاطئ الشرقى (الفارسى) قبل أن يتعرف على الشاطئ الغربى (العربى) فأطلق على هذا الخليج « الخليج الفارسى » لاتصال الشاطئ الأول ببلاد فارس ، وأصبح هذا هو الاسم المعروف لهذا الخليج واستعمله المؤلفون والكتاب بعد ذلك •

(١) دكتور سيد نوفل : الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربى ج ١ ص ١٢١ •

(٢) حقائق الاخبار عن دول البحار ج ١ ص ٧ •

ومما ساعد على ثبات هذه التسمية أن البحر الأحمر كان يسمى البحر العربى أو الخليج العربى فى العصور اليونانية والرومانية ، فلم يكن من الممكن أن توضع كلمة « العربى » بدل « الفارسى » فى هذا الخليج حتى لا يحدث اختلاط لو أطلقت كلمة العربى على الاثنين ، ولكن هذا السبب زال إذ أصبح هذا البحر معروفاً بالبحر الأحمر ^(١) .

ومر الزمن ، وجاءت النهضة العربية ، وأخذ العرب يحيون أمجادهم ويستعيدون حقوقهم ، وكان من ذلك أن أطلقوا على هذا الخليج اسم « الخليج العربى » لأسباب مهمة أوردوها ، ونذكرها فيما يلى :

١ — إن الساحل العربى يندفع فى فوهة الخليج عند رأس مسندم حتى يصبح كأنه مسيطر عليه ، ثم يتلوى هذا الساحل فى قلب الخليج ليلقى بقطر فى داخله أشبه بمنارة عربية وسط الأمواج ، وبالإضافة إلى هذا توجد بالخليج جزر البحرين وهى حوالى ثلاثين جزيرة وهى جزر عربية اللغة والدم .

٢ — إن طول الساحل العربى للخليج يمثل ضعف طول الساحل الفارسى تقريباً مما يعمق صلة الخليج بالعرب .

٣ — سكن العرب شاطئ الخليج العربى منذ الأزمنة القديمة ، وارتبطت به حياتهم بخلاف الفرس الذين تعزلهم عن الخليج سلاسل جبلية .

٤ — إن الساحل الفارسى للخليج آهل بالسكان العرب ولذلك يسميه الفرس « منطقة عربستان » .

٥ — ركب العرب الخليج متاجرين منذ عهد طويل ، فكانت لهم السيطرة عليه ، إذ كانوا رواد الملاحة فى العالم ، ولم يكن للفرس شيء يذكر فى هذا المجال .

٦ — التزم العرب بالدفاع عن الخليج يوم اقتحمه الاستعمار البرتغالى ، وبفضلهم تحرر الخليج من هؤلاء الغزاة .

وهذا الخلاف حول تسمية هذا الخليج وما يتبع هذا الخلاف من حساسية جعل الباحثين الأجانب يدلون برأيهم حول هذه التسمية ، وهل من الأجدر أن يسمى الخليج الفارسى تبعاً لاتجاه قادة الإسكندر المقدونى ، ذلك الاتجاه الذى جاء عفواً ، أو أن يسمى الخليج العربى تبعاً لطبيعة وضع هذا الخليج الذى شرحناه من قبل .

تعال بنا نقتبس بعض ما ذكره هؤلاء الباحثون :

يقرر Roderic Owen ^(١) أنه عندما زار الخليج أحس بأنه من الظلم أن يسمى « الخليج الفارسى » لأن واقع الأمر يجعل الخليج منطقة عربية ، وأن هذا المعنى تبرزه الرمال والرجال والمياه واللغة القومية التى تتضح فى الشاطئ العربى وفى داخل الخليج نفسه ، وإن تسميته بالخليج الفارسى تغضب العرب أشد الغضب ، كما ينكرها الواقع والإنصاف .

ويقول الكاتب الفرنسى جان جاك بيربى : إن هذا الخليج ارتبط بالعرب منذ أمد بعيد ، منذ كانت رحلاتهم البحرية تغمر الطريق بين هذا الخليج وبين بحر الصين ، وكان البحارة الصينيون يختلطون بالبحارة العرب ويتعاونون معهم ، إذ تربطهم جميعاً رابطة الأخطار المشتركة من عواصف ورياح وقراصنة وغزاة ، كما أن استقرار العرب فى الساحل الملاصق لبلاد فارس أكد للخليج صفته العربية من جانبيه ، ثم إن الفتح العربى الإسلامى لبلاد فارس جعل المنطقة عربية تماماً ، وقد ظلت كذلك عدة قرون ، وحينما بدأت القومية الإيرانية تستأنف استقلالها وكيانها كانت فى الغالب بعيدة عن هذا البحر مما أطال عروبة جانبى هذا الخليج ^(٢) .

(١) The Golden Bubble, Arabian Gull Documentary p.p. 3-16.

(٢) جان جاك بيربى : الخليج الفارسى فى عدة صفحات .

أهمية الخليج ومنطقته

في الحديث عن أهمية هذه المنطقة يجدر بنا أن نقرر أن بعض المؤرخين يرون أن الخليج العربى هو مهد الحضارة ، بل مهد الجنس البشرى ^(١) ، وكان أجدادنا في العصور القديمة قد أدركوا أهمية هذه المنطقة فأقاموا بها حضارة عريقة ، فيرى بعض المؤرخين أن سكان هذه المنطقة هم أول من بنوا السفن ومارسوا الملاحة ، وكانوا صلة وثيقة بين الشرق والغرب ، بل يرى بعضهم أن الفينيقيين كانوا يعيشون على ساحل هذا الخليج وكانت أسفارهم تمتد منه إلى الهند والشام ومصر ، ثم نزحوا إلى سواحل سوريا منذ حوالي خمسة آلاف سنة واستوطنوا شاطئ البحر المتوسط ، ويستدل على ذلك بوجود بعض الآثار الفينيقية في هذه المناطق ^(٢) .

ونقطة أخرى فكرية ترتبط بهذه المنطقة ، تلك هى أن مواجهة الدول العربية بهذه المنطقة للفرس بعد الإسلام ، وخضوعها أحيانا لسلطانهم ، جعلها تتأثر بالفكر الفارسي تأثرا كبيرا ، فظهرت بها حركات كثيرة مخالفة للإسلام تبعا لهذا التأثير ، فمن الواضح أن دخول الشام ومصر والشمال الإفريقي في الإسلام كان اندماجا وتلقيا للفكر الإسلامى بالقبول والإيثار ، ولكن الحال كان غير ذلك فيما يتعلق ببلاد فارس ، فإن العناصر التى فقدت سلطانها في فارس أخذت تأكيد للإسلام ، واتخذت الفكر أحد الوسائل لتنفيذ هذا الكيد ، ومن هنا كانت بلاد فارس والفكر الفارسي مصدر كثير من الحركات الهدامة التى عانى منها الإسلام والمسلمون ،

(١) مصطفى مراد الدباغ : قطر ماضيها وحاضرها ص ٢١ .

(٢) الريحاني : ملوك العرب ص ٤٨ .

كحركة الردة والتنبيؤ والزنادقة والزنج والقرامطة وغيرها ، وانعكست أقسى هذه الحركات على الساحل العربى كحركة الزنج والقرامطة (١) .

ومن أهمية الخليج أنه اندفاعه ضخمة من المحيط الهندى ربطت بهذا المحيط عدة دول كانت بدون الخليج ستكون منقطعة عن العالم كبلاد فارس ودولة الإمارات والكويت والعراق ، ثم إن هناك بلادا لا تتصل اتصالا مباشرا بالخليج ولكنها تتصل به اتصالا غير مباشر كأفغانستان والهند وروسيا .

ويعتبر الخليج منفذا لمناطق واسعة بالجزيرة العربية كانت لولاه ستكون معزولة .

وللخليج أهمية واسعة في مجال السياسة وقد عبر Raymondo Shea عن هذه الأهمية السياسية بقوله أنه يتوسط جميع الخطوط البحرية والجوية الرئيسية ، ويحوى الموانئ والمراكز البحرية ومحطات الوقود اللازمة للأساطيل والبواخر والطائرات ، والدولة التى تستولى على الخليج الفارسى تستطيع أن تحكم جزيرة العرب والعراق وإيران وإفريقية (٢) وقد اقتبس Raymondo هذا التفكير من اتجاه علماء الجغرافيا السياسية الذين كانوا يضعون الخليج في أهم مواقع الطوق الساحلى المحيط بقلب الأرض (٣) وقد تطلعت الدول الاستعمارية جميعها لهذا الخليج وحاولت السيطرة عليه لهذا الهدف ، وبذلت أقصى الجهد لمقاومة حركات التحرر حوله ليدوم لها السلطان والسيادة في المنطقة .

وللخليج أهمية قصوى في مجال الاقتصاد وقد عبر عن ذلك الباحث

(١) عندما نتحدث عن انحرافات وفدت من بلاد فارس الى منطقة الخليج فاننا نقصد بلاد فارس في مطلع الاسلام ، ونرجو أن يكون ذلك قد توقف في العهد الحاضر فبلاد فارس تمثل الآن دعامة قوية من دعائم الاسلام والمسلمين .

(٢) ملكة الرمال في عمان .

(٣) انظر الخليج العربى للدكتور سيد نوفل ج ٢ ص ٢٧ .

الفرنسى جان جاك بيرى فقال^(١) : هذا الشرق العجيب الذى كثر عنه الحديث على ألسنة الخبراء إنما ينحصر أغلبه فى الخليج العربى بصورة خاصة ، لأن الخليج هو قلب الشرق الأوسط جغرافيا ، وبابه المسمى وصندوقه الذهبى الرائع الذى يسيل له اللعاب •

ومن الأهمية الاقتصادية للخليج أنه طريق التجارة بين الغرب والشرق لكل وسائل النقل ، برية كانت أو بحرية أو جوية ، وهو مصدر مهم لاستخراج اللؤلؤ ، وقد انبثق البترول تحته وحوله فأصبح باطن الخليج مصدر ثراء واسع لأهله ، ومحرك الطاقات والآلات بالدول الصناعية الكبرى •

وللخليج أهمية عظيمة فى الناحية العسكرية ، وكان ذلك واضحا منذ الزمن البعيد ، فيروى أن الإسكندر بعد أن فتح مصر قال لقواده : إني لا أستطيع تأمين مقامى فى مصر إذا كانت للفرس السيطرة على هذه المنطقة البحرية ، وبدأ رحلته إلى فارس والهند^(٢) ومن أجل هذا كانت الدول تتطلع إليه وتحاول ربطه بالأحلاف ، ولم يضعف هذا الاتجاه إلا عندما ظهرت الصواريخ عابرة القارات والأقمار الصناعية وأمثالها مما قرب البعيد •

وقد تحدث ابن الوردي عن هذا الخليج فأضفى عليه أطيب الصفات وأكرمها ، قال^(٣) : هو بحر مبارك ، كثير الخير ، وطىء الظهر ، قليل الهيجان ، قال عنه أبو عبيد الله الصيئى : خص الله بحر فارس بالخيرات الكثيرة والبركات الغزيرة ، والفوائد والعجائب والظرف والغرائب ، فيه مغاص المدر يخرج منه الحب الكبير ، وربما وجدت فيه الدرة اليتيمة التى

(١) الخليج الفارسى ص ٢٠٤ •

(٢) Arrian's History of Alexander's Expedition vol 1 p. 30.

نقلا عن الخليج العربى للدكتور نوفل ج ١ ص ٤١ •

(٣) ابن الوردي : جزيرة العجائب ص ٦٢ •

لا تقدر قيمتها ، وفي جزائره معادن تحوى أنواع الميواقيت والأحجار
الملونة النفيسة ، ومعادن الذهب والفضة والحديد والنحاس والمرصاص
والعقيق وأنواع الطيب •

ولم يتحدث أبو عبيد الله الصينى عن البترول لأنه لم يكن ظهر في
عصره ، ولم يخطر ببال الصينى أن النفط سيندفع من تحت الخليج
فتهاوى أمام قيمته مكانة هذه المعادن ، بل سيجذب البترول كثر الأيدي
التي كانت تعمل في صيد اللؤلؤ ، فإن البترول أنفع وأثمن من اللؤلؤ
الفريد •

ساحل الخليج : البحرين

كانت المناطق التي تقع على امتداد الساحل الغربى للخليج العربى
تسمى قديما البحرين أو الأحساء أو هجر ، يقول ياقوت : البحرين اسم
جامع " للبلاد على ساحل الخليج بين البصرة وعمان ، وتسمى هذه المنطقة
أيضا هجر ، وقيل إن هجر قصبة البحرين ، فيها عيون ومياه وسلاسل
واسعة ، وربما عد بعضهم اليمامة من أعمالها ، والصحيح أن اليمامة عمل
برأسه في وسط الطريق بين مكة والبحرين (١) •

ويقول سديو (٢) وهو يعدد مناطق بلاد العرب : إن الأحساء —
وتسمى البحرين أيضا لأهمية الجزر التي تجاورها — تمتد على طول
الخليج الفارسى من حدود عمان إلى الفرات •

وعلى هذا فالبحرين أو الأحساء في التاريخ تشمل قطر والأحساء
(الحاليين) فالكويت حتى البصرة ثم الجزر التي تعرف الآن بالبحرين

(١) معجم البلدان ج ٢ ص ٧٢ •

(٢) تاريخ العرب العام ص ٢٤ •

ويذكر ياقوت عن سبب تسمية البحرين كلاما طويلا ^(١) ولكن الذى نرجحه أن سبب التسمية هو اتصال هذه المنطقة ببحرين ينسب أحدهما إلى عمان والآخر إلى فارس ، وعلى مر الزمن أخذت التسمية تنحصر في كلمة « البحرين » تشمل فقط الجزر المجاورة لقطر •

ومعظم أراضي البحرين صحراوية تثبت الأعشاب والنباتات البرية ، ولكن المياه الباطنية تتوفر في معظم أنحائها ، وهذه المياه قريبة من سطح الأرض ، مما يجعل استغلالها للزراعة ممكنا ويسيرا ، هذا بالإضافة إلى المياه التى تتجمع في بطون الأودية ، وتكفى هذه المياه لزراعة بعض المحاصيل كالحنطة ، والشعير والحناء ، وبعض الفاكهة كالوز والرمان والتين والتمر الذى اشتهرت به منطقة هجر ، حتى ضرب المثل بهذه المنطقة في وفرة ثمرها ورخص سعره ، فقليل كم يستبضع التمر إلى هجر ^(٢) ، وذلك كناية عن الدهشة من أن يرحل إنسان بالتمر إلى منطقة تكثر فيها أنواع التمر •

وعرفت نواحى البحرين بأنواع متعددة من النسوجات وكان كل إقليم من أقاليم البحرين ينتج نوعا معينا ينسب لهذا الإقليم ، كالثوب الهجرى نسبة إلى هجر ، والثوب القطرى نسبة إلى قطر ، ثم أصبحت التسمية علما على الثوب في العصور المتأخرة ، فلم تعد تدل على مكان الصنع ، بل أصبحت تقوم على أساس الصفات المميزة للثوب ^(٣) • ويروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم وبعض كبار الصحابة قد لبسوا أردية من صنع البحرين ^(٤) •

(١) المرجع السابق ص ٧٣ •

(٢) الميدانى : مجمع الأمثال ج ٢ ص ٩٨ ، والزمخشري : المستقصى

من أمثال العرب ج ٢ ص ٢٣٣ •

(٣) عبد الرحمن النجم : البحرين في صدر الاسلام ص ٨١-٨٢ •

(٤) ابن حنبل : المسند ج ٥ ص ٤٣ ، والنهاية في غريب الحديث

لابن الاثير ج ٣ ص ٢٦٦ •

ومنطقة البحرين كانت آهلة بالسكان الذين ينتمى أكثرهم إلى عبد القيس وبكر بن وائل وتميم^(١) ، وقد وفدت عبد القيس إلى البحرين من تهامة ، وتغلبت على من كان بها من إياد والأزد ، وانتشروا في أكثر جهات البحرين وبخاصة المناطق الساحلية منها ، ونزلوا أهم مدنها ، وقد احتفظت عبد القيس بهذه الأمكنة حتى ظهور الإسلام^(٢) ، أما بكر بن وائل وتميم فقد عاشوا غالبا في المناطق الداخلية ، وبالتالي لم يكن لهم دور كبير في التجارة وكانتا تعيشان في حياة بدوية •

وكانت هناك جماعات من « الزط » تعيش في ساحل البحرين بمنطقة « الحظ » والزط — كما يقول ابن خلدون^(٣) — قوم من أخلاط الناس يرجع أصلهم إلى الهند (ويعرفون بالفتور) ، وكان همهم الشغب والخطف •

وبعد هذا التعريف بالخليج وساحله نسير مع منطقة الخليج مسيرة تاريخية من مطلع الإسلام حتى الآن :

الإسلام في منطقة الخليج

الإسلام حدث ديني وسياسي زحف إلى منطقة البحرين ضمن المناطق التي زحف إليها ، وينبغي أن نتعرف على أحوال هذه المنطقة قبل الإسلام دينيا وسياسيا لنرى كيف استقبل الإسلام فيها :

فمن الناحية الدينية كانت منطقة البحرين واقعة تحت تأثير عوامل متعددة تركت بها آثارا دينية مختلفة ، فأغلب السكان وافدون من الجزيرة العربية ومن هنا كانت لهم صلات بالوثنية العربية ، ووقوع هذه المناطق

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٧٤ •

(٢) عبد الرحمن النجم : المرجع السابق ص ٤١ •

(٣) العبر ج ٣ ص ٢٥٧ وانظر الجزء الثالث من هذه الموسوعة

ص ١٧٧ •

في مقابلة الفرس وتحت سلطانهم في بعض الأحيان أتاح الفرصة للمجوسية لتجد طريقها إلى البحرين ، وصلة هذه المناطق بالعراق عن طريق البصرة فتحت الباب للمسيحية التي كان يدين بها المناذرة ، كما أن المسيحية جاءت أيضا عن طريق البحر وعن طريق الصلات التجارية .

وعندما نتذكر الأهمية الاقتصادية للخليج الفارسي التي تحدثنا عنها من قبل يقفز إلى الذهن ضرورة وجود العنصر اليهودي بهذه المنطقة ، لأن اليهود يتسللون إلى حيث النشاط المالى والاقتصادي ، ويتحدث التاريخ عن وجود جالية يهودية بالبحرين أكثر أفرادها وافدون وقلة منهم من العرب تهودوا ، وقد أشار طرفه بن العبد الذي نشأ في البحرين إلى يهود هذه المنطقة بقوله في معلقته :

عدولية أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاح طورا ويهتدى

والعدولية سفن تنسب إلى ميناء عدول بالصومال ، وابن يامن يهودى من أهل هجر كان يمتلك عددا من السفن التي تعمل في الخليج العربى (١) .

ذلك هو الوضع الدينى بشكل عام لهذه المنطقة عند مطلع الإسلام ، أما الوضع السياسى فخلاصته أن البحرين كانت تابعة للفرس عند ظهور الإسلام (٢) وكان الفرس يحكمون البحرين بحاكم من العرب هو المنذر ابن ساوى وبجانبه يوجد المرزبان « سبيخت » الذى كان يقود قوة عسكرية فارسية ويتخذ من هجر مركزا له ، وهذا لا يتدخل في الأمور الداخلية إلا إذا دعت الضرورة (٣) وعلى هذا فحكم الفرس لمناطق الخليج العربى كان حكما اسميا لا غير .

وعندما استقر الإسلام في المدينة بعد صلح الحديبية أو بعد فتح

(١) التبريزى : شرح القصائد العشر ص ٣٠ - ٣١ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٧٨ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٧٤ .

مكة حسب الروايات الكثيرة أرسل الرسول العلاء بن عبد الله الحضرمي (١) إلى البحرين ليدعو أهلها إلى الإسلام أو الجزية ، وكتب معه كتابين إلى المنذر بن سلاوى التميمي وإلى المرزبان سبيخت يدعوهما إلى الإسلام ، ويبدو أن المنذر أسرع بقبول الدعوة حتى يتخلص من ساطان الفرس ، وقد كافأه الرسول بتثبيته في مكانه ، فظل واليا على البحرين حتى وفاته سنة ١١ هـ (٢) ، وفي رواية ياقوت أن سبيخت أسلم أيضا ، وأسلم مع المنذر . ومع سبيخت جميع العرب هناك ، وبعض العجم ، أما الذين بقوا على أديانهم من المجوس واليهود والنصارى فإنهم صالحوا العلاء على دفع الجزية ، وكتبوا معه كتابين بذلك (٣) .

ويقول العلاء بن الحضرمي : إني كنت آتئى الحائط (أى الحديقة أو المزرعة) بين الإخوة قد أسلم بعضهم ، وبقي بعضهم على دينه ، فأخذ من المسلم العشر ، ومن غيره الخراج (٤) .

وبجوار المنذر كان هناك عمال للرسول بالبحرين ، وكان هؤلاء يعملون على نشر الدعوة ، وينظمون الأمور المالية دون أن يكون لهم سلطان سياسى ، وأول هؤلاء العلاء بن الحضرمي ، ويقال إن الرسول عزله وولى أبان بن سعيد بن العاص ، ويبدو أن أبان لم يظهر كفاءة مثل العلاء ، فلم يستطع أن ينال رضا القوم ، ولذلك طلب هؤلاء من أبى بكر أن يرد العلاء إلى منصبه فاستجاب لهم ، وبقي العلاء واليا عليهم حتى توفي سنة ٢٠ هـ .

وبعد العلاء الحضرمي توالى الولاة على البحرين ، ونذكر فيما يلى أهم هؤلاء :

-
- (١) انظر سيرة ابن هشام وزاد المعاد لابن القيم وعيون الاثر لابن سيد الناس والطبقات لابن سعد .
(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٧٤ .
(٣) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٧٤ .
(٤) أبو عبيد : الاموال ص ٣٢ - ٣٣ .

قدامة بن مظهر — أبو هريرة — عثمان بن أبي العاص — مروان بن الحكم — عبيد الله بن العباس — أسيد بن الأخنس بن شريق — زياد بن الربيع المصاري — الأشعث بن عبد الله بن الجارود — يحيى بن زياد بن الحارث — عبد الله بن شريق — المهاجر بن عبد الله الكلابي (١) .

ومما يذكر هنا أن عثمان بن أبي العاص وإلى البحرين في عهد عمر كان من أشهر القواد الذين عبروا إلى بلاد الفرس ، وأسهموا في فتحها ، وقد ترك أحفاه المغيرة بن أبي العاص خليفة له على البحرين بإبان جهاده في فتح فارس .

ومما يذكر أيضاً ما رواه محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال : استعملني عمر بن الخطاب على البحرين ، فاجتمعت لي اثنا عشر ألفاً فلما قدمت على عمر قال لي : يا عدو الله والمسلمين ، أخذت مال الله . فقلت لست بعدو الله ولا المسلمين ، ولكني عدو من عاداهما ، قال : فمن أين اجتمعت لك هذه الأموال ؟ قلت : خيل لي تتاجت ، وسهام اجتمعت قال أبو هريرة : فقاسمني عمر هذا المال (٢) .

الردة والصراع ضد المرتدين

من الواضح أن بعض سكان هذه المنطقة دخلوا الإسلام دون أن يتعمقوا في التعرف عليه ، وكان أهم دواعي قبولهم الإسلام رغبتهم في التخلص من حكم الفرس كما ذكرنا من قبل ، فلما تحقق لهم الاستقلال عن الفرس طمعوا في أن يكون استقلالهم تاماً ، أي أن يستقلوا عن السلطة المركزية بالمدينة المنورة ، وشجعهم على هذا الاتجاه ظهور مسيلمة الكذاب متنبئاً في بني حنيفة باليمامة غير بعيد عنهم ، وقد بدأ مسيلمة

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٧٥ .

(٢) ياقوت : المرجع السابق ص ٧٦ .

حركته قبيل وفاة الرسول (١) ، وعظم أمره بعد وفاة الرسول ، ثم ان الرسول صلوات الله وسلامه عليه عزل العلاء بن الحضرمي وجعل مكانه أبلن بن سعيد بن العاص ، وفي فترة مرض الرسول عليه السلام توفي المنذر بن ساوى ، فزال بذلك صمام الأمان ، وارتد مَنٌ بالبحرين من وند قيس بن ثعلبة ، كما ارتد من بالبحرين من ربيعة خلا الجارود ابن بشر العبدي ومن تابعه من قومه * وكان قائد المرتدين يسمى « الحطم » من بنى قيس بن ثعلبة ، وانتهاز الفرس حركة الردة فأرسلوا جيشا فارسيا بقيادة رجل اسمه « المكعبر » لقتال بنى نميم في محاولة لإعادة احتلال المناطق العربية وضرب الاتجاه الإسلامي ، وكانت حجة الفرس في هذا العدوان أن بنى نميم تعرضوا للغير كسرى بالزارة ، وانضم إلى المكعبر بعض المجوس الذين كانوا قد تجمعوا بالقطيف وامتنعوا عن أداء الجزية ، وماجت هذه المنطقة بالتمرد والفوضى (٢) *

وخطا المرتدون خطوة زادتهم قوة هي أن الهطم استغوى بعض أهل الخط والقطيف ، وبخاصة من بها من الزط والديابجية ، ثم أرسل إلى الغرور بن سويد بن المنذر (وهو ابن أخى النعمان بن المنذر ملك العرب) أن يأتيه بمن معه ، وقال له ان ظفرنا ملكك البحرى حتى تكون كالنعمان بالحيرة فاستجاب له الغرور *

وتجمعت جيوش المرتدين والتمريدين وحاصرت المسلمين في جواثا * وطال حصار المسلمين في هذه المدينة ، واستنسل المسلمون في الدفاع عن أنفسهم ، ولكن أعداءهم كانوا أكثر منهم عددا وعدة فأرسل المسلمون لأبى بكر يستجدونه ، ويورد ياقوت مقطوعة من الشعر يهتف بها أحد المسلمين المحاصرين بأبى بكر والمسلمين أن يمدوا لهم يد العون (٣) *

(١) اقرأ الجزء الاول من هذه الموسوعة ص ٢٧٨ ، وما ذكرناه من قبل في هذا الجزء عن مسيلمة *

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٧٥ - ٧٦ *

(٣) المرجع السابق *

واستجابة لذلك أرسل أبو بكر جيشا بقيادة العلاء بن الحضرمي للبحرين ، كما طلب من خالد بن الوليد أن يذهب لمساعدة العلاء عقب الانتهاء من مسيلمة ، وكان بجيش العلاء بعض المسلمين من أهل البحرين وبخاصة الجارود وأتباعه ، والتقى الجيش في عملية كره وفرو نهارا مع الهدوء ليلا ^(١) . واتيحت للعلاء فرصة فاهتبلها ، ذلك أنه في ليلة من ليالى الصراع كان الجيشان في راحة بعد نهار حافل بالطعن والدم ، فسمع العلاء ضوضاء وحركة في معسكر الحطم فأوفد إلى المعسكر من يأتيه بخبر الضوضاء ، وعاد رسول العلاء ليقول له إن القوم قد شربوا وشملوا فأطبق عليهم العلاء ورجاله ، فهزموهم هزيمة كبيرة وقتل الحطم في هذه المعركة .

وحضر خالد بن الوليد بجيشه وخططه فاكتسحهم وأدرك المرتدون ألا قبيل لزم بالصمود أمامه ففروا إلى الجزر الداخلية (البحرين الآن) وأحرقوا السفن حتى لا تستطيع جيوش المسلمون أن تلتحق بهم ، وهنا تحول خالد بن الوليد إلى العراق بناء على طلب الخليفة وترك الأمر للعلاء الذي أصر على ملاحقة المهاربين ، وتقول الرواية إن العلاء وقف بجيشه أمام الماء الذي يحول بينه وبين المرتدين ، وصلى العلاء في تضرع ، ودعا الله أن يمكنه منهم ، فأنحسر الماء في حركة جزر كثيرا ما تجعل المسافة بين الشاطئ والجزر يمكن خيضاها ، وحينئذ زحف العلاء بجيشه ، وداهم المرتدين ^(٢) وقد ظنوا أنهم آمنون ، فأعلن بعضهم عودته للإسلام وأسفه عما بدر منه ، وقضى العلاء على من بقى على

(١) الطبرى : ج ٢ ص ٥٢١ وما بعدها بتصرف .

(٢) يورد الطبرى موقفا آخر من الكرامات يتصل بهذا الصراع ، فإن جيش العلاء تعرض لعطش قاتل ، فاتجه العلاء إلى الله واستجاب الله إليه ، إذ سرعان ما رأوا ماء يلعب فذهبوا إليه وشربوا واستراحوا ، بل رآته القوافل فاتجهت إليه من كل صوب . قال أبو هريرة لقد عدت بعد حين لأتأكد من حال هذا الغدير ، وهل هو غدير فعلا أو أنه منحة من الله سخرها لحاجة المسلمين ، فلم أجد غديرا في المكان ، ولم أجد إلا أثرا لغدير وركب ، كان وراح (انظر تحفة المستفيد ج ١ ص ٩٧) .

كُفِّرَهُ ، ثم زحف إلى التجمعات التي التفتت حول المكعب ، ولم يقف
العلاء عند هذا الحد ، بل قرر أن يعبر المضائق إلى بلاد فارس ليصارع المركز
الحقيقي الذي يثير القلاقل في المناطق المسلمة ، ويريد أن يقضى على
الإسلام ، وعبر العلاء الخليج ، فكان أول من وجهه الضربات إلى فارس ،
ولكن عمر بن الخطاب استدعاه وعينه واليا على البصرة ، وولى على
البحرين عثمان بن أبي العاص الذي ذكرنا من قبل أنه ترك المغيرة خليفة
له على البحرين وعبر إلى بلاد الفرس ليرد عدوانهم ، فكان ممن أسهموا
في فتحها ، وبعد عثمان أسندت ولاية البحرين إلى الربيع بن زياد
الهمداني .

ولم تغفل عين الخلفاء الراشدين عن هذه المنطقة بسبب ظهور هذه
الحركات بها ، وظلت موضع عنايتهم طيلة عهدهم .

البحرين في العهد الأموي

كانت منطقة البحرين في العهد الأموي من المناطق التي اهتم بها خلفاء بني أمية اهتماما كبيرا ، بسبب صلتها ببلاد فارس التي كانت — كما قلنا من قبل — مصدرا لكثير من الانحرافات الفكرية ، فقد خيف دائما على هذه المنطقة أن تجرفها تيارات التمرد ، ولهذا ، وللأهمية الاستراتيجية لهذه المنطقة لم يمتد لها الأهمال الذي امتد لكثير من بقاع الجزيرة العربية في العهد الأموي ، وكانت اليمامة في هذا العصر تتضمن أحيانا إلى البحرين ، وأحيانا تبقى ولاية مستقلة (١) .

فلما جاء عهد مروان بن الحكم وابنه عبد الملك واجه الخليفة الأهمى مصاعب جمة لإعادة السلطان الأموي الذي كان قد هزته حركة عبد الله ابن الزبير ، ولهذا انشغل الخليفة عن منطقة الخليج فضعفت المراقبة على هذه المنطقة ، وهنا انتهر الخوارج هذه الفرصة فهبوا في حركات متتالية قاسية سنتحدث عنها فيما يلي :

الخوارج في منطقة الخليج

كانت منطقة الخليج منطقة ملائمة لنشاط الخوارج ، فهي تموج بالفتن والاضطرابات بسبب العوامل المختلفة التي أشرنا لها من قبل ، ولهذا جذبت هذه المنطقة فرقة مهمة من فرق الخوارج هي فرقة النجدات (٢) وسنتحدث عنها فيما يلي :

فرقة النجدات :

بعد أن افترق الخوارج عن عبد الله بن الزبير انقسموا قسمين : الأزارقة ، والنجدات ، وقد توجه الأزارقة إلى البصرة ، أما النجدات

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص ٧٣ .

(٢) انظر حديثنا عن فرق الخوارج في الجزء الثاني من هذه الموسوعة ص ٢٢٩ وما بعدها .

فقد توجهوا إلى اليمامة ، ويقول ابن الأثير « انطلق أبو طالوت من بني بكر وأبو فديك عبد الله بن ثور بن قيس بن ثعلبة ، وعطية بن الأسود البشكري إلى اليمامة بقيادة أبي طالوت ثم اجتمعوا بعد ذلك على نجدة ابن عامر الحنفي وتركوا أبا طالوت ^(١) » وسنذكر بعد قليل سبب هذا الانتقال .

وأطلق عليهم « النجدات » وليس « النجدية » للفرق بينهم وبين من انتسب إلى أتباع نجدة بن عويمر وهو عامر الحنفي الخارج باليمامة فقد كان هؤلاء يطلق عليهم « النجدية » ^(٢) .

نشاط نجدة بن عامر :

مضى نجدة يقود الخوارج إلى « الحضارم » فنهبا ، واعترض عيرا كان يراد بها ابن الزبير ، واستولى عليها ، وساقها إلى أبي طالوت فقسمها بين أصحابه ، فاقتسموا المال وقالوا : « نجدة خير لنا من أبي طالوت فخلعوا أبا طالوت وبايعوا نجدة ، وبايعه أبو طالوت كذلك ، وكان ذلك سنة ست وستين ^(٣) » .

وقد تحرك نجدة للسيطرة على المنطقة ، فسار إلى بني كعب وهزمهم بذي المجاز ، وكثر أتباع نجدة ، وسار إلى البحرين سنة سبع وستين فسلمته الأزد ، واجتمعت عبد القيس ومن بالبحرين غير الأزد على محاربته ، وقد حاول الأزد اقناع عبد القيس ومن معهم بمسالة نجدة فرفضوا ، والتقوا مع نجدة في القطيف ، فهزمهم وقتل منهم جمع كثير ، قال الشاعر :

نَصَحْتُ لِعَبْدِ الْقَيْسِ يَوْمَ قُطَيْفَا وَمَا نَفَعُ نَصْحَ قَتِيلٍ لَا يَسْتَقْبَلُ

(١) الكامل : ابن الأثير ج ٢ ص ٣٣٦ .

(٢) الخطط للمقرئ ص ٣٥٤ .

(٣) راجع الكامل : لابن الأثير ج ٣ ص ٣٥٢ .

وقد أقام نجدة بالقطيف ، وأرسل ابنه ينتبع فلول المنهزمين ، ولكن ابنه قتل مع نفر من أصحابه ، وأرسل نجدة سرية إلى « الخط » فكتب لها الانصر ، وأقام نجدة بالبحرين •

وفي سنة تسع وستين أرسل مصعب بن الزبير عبد الله بن عمير في جيش إلى نجدة ، ولكن نجدة استطاع أن يدهمهم في غفلة من ابن عمير ويهزمهم هزيمة بالغة ، وغنم ما في عسكرهم « وأصاب جوارى فيهن أم ولد لابن عمير ، فعرض عليها أن يرسلها إلى مولاها فقالت : لا حاجة لى إلى من فزعنى وتركنى (١) » •

وبعث نجدة بعد هزيمة ابن عمير جيشا إلى عثمان واستعمل عليه عطية بن الأسود ، فاستطاع عطية أن يستولى عليها ويقتل حاكمها عباد ابن عبد الله ، ولكن عطية لم يستمر بها طويلا فخلف عليها رجلا يكنى أبا القاسم واستطاع ابنا عباد أن يقتلا أبا القاسم ، وخالف عطية نجدة ففارقه وانتهى به الأمر إلى السند حتى تمكنت خيل المهلب من قتله هناك

وبعث نجدة إلى البوادي بعد هزيمة ابن عمير من يأخذ من أهلها الصدقة ، وقاتل بنى تميم وأهل طويل وأخذ منهم الصدقة ، ثم سار نجدة إلى صنعاء فبايعه أهلها ، بعد أن ظنوا أن وراءه جيشا كبيرا ، وأرسل نجدة أبا فديك إلى حضرموت فجبى الصدقات من أهلها •

وحج نجدة سنة ثمان وستين ، وقيل سنة تسع وستين ، وصالح ابن الزبير على أن يوصل كل واحد بأصحابه ، وعندهما صدر نجدة عن الحج ، سار إلى المدينة فتأهب أهلها لقتاله ، وعندما علم نجدة بذلك رجع إلى الطائف ، وأقامه عاصم بن عروة فبايعه عن أهله دون أن يدخل نجدة الطائف ، وعاد نجدة إلى البحرين ، وقطع الميرة عن أهل الحرمين ، ولكنه أعادها عندما كاتبه ابن عباس في ذلك (٢) •

(١) المرجع السابق ص ٣٥٣ •

(٢) الكامل : لابن الاثير ج ٣ ص ٣٥٣ •

الاختلاف على نجدة وقتله :

وقع خلاف بين نجدة وأتباعه في أمور كثيرة منها : أنه سير سرية بحرا وأخرى برا ، ففضل سرية البحر في العطاء ، ومنها أن عبد الملك ابن مروان كاتب نجدة في الطاعة على أن يوليه الليمامة ، ويهدر له ما سفك من الدماء ، ولكن أصحاب نجدة اتهموه بالاتصال بعبد الملك ، وبالتردد ، ومنها أن قوما استتأبوه ثم ندموا على استتأبته وفرقوا ، ونقموا عليه أشياء أخرى ، فخالف عليه العامة وولوا أمرهم أبا فديك واختفى نجدة ولكن أصحاب أبي فديك تمكنوا من القبض عليه وقتله وهو يقول :

وان جر مولانا علينا جريرة صبرنا لها ان الكرام الدعائم (١)

أبو فديك في البحرين :

تولى أبو فديك أمر الخوارج في الخليج بعد أن اختلفوا على نجدة وقتلوه ، وكان ذلك سنة ٧٢ هـ ، ويقول الطبري : « وفي هذه السنة كان خروج أبي فديك الخارجي وهو من بني قيس بن ثعلبة ، فغلب على البحرين ، وقتل نجدة بن عامر الحنفي » (٢) .

وثبتت قدم أبي فديك في المنطقة « فوجه إليه عبد الملك أمية بن عبد الله ، فهزمه أبو فديك وفضحه وأخذ أثقاله وحرمه (٣) » ثم أرسل عبد الملك بن مروان عمر بن عبيد الله ، وقال له : خذ معك أهل البحرين الكوفة والبصرة ، فسار والتقى بأبي فديك وأصحابه في البحرين ، وحمل عليهم حتى استباحوا عسكر أبي فديك وقتلوه ، وحسروا أصحابه « فنزلوا على الحكم فقتل منهم نحو ستة آلاف وأسر ثمانمائة » (٤) .

(١) راجع الكامل لابن الاثير ج ٣ ص ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(٢) الطبري ج ٦ ص ١٧٤ أحداث ٧٢ .

(٣) البيهقي المجلد الثاني ص ٢٧٣ دار بيروت ١٩٦٠

(٤) الكامل . لابن الاثير ج ٤ ص ٢٨ .

مسعود العبدى ونشاطه في البحرين :

وفي سنة ١٠٥ هـ خرج مسعود العبدى زعيم الخوارج بالبحرين ، فغلب على المنطقة وظل له النصر بضع عشرة سنة ، ثم سار مسعود إلى اليمامة ، فتصدى له سفيان بن عمرو العقيلي واشتد بينها القتال ، فقتل مسعود وقتلت أخته ، واضطرب أمر الخوارج ، وقال الفرزدق في هذا اليوم :

لعمري لقد سلكت حنيئة سلة سبيوفا أبت يوم الوغى أن تغيرا
تركن لمسعود وزينب أخته ردعا وسربالا من الموت أحمرأ
أرين الحرورين يوم لقائهم ببرقان يوما يجعل الموت أشقرا

وقيل إن مسعودا غلب على البحرين واليمامة تسع عشرة سنة حتى قتله سفيان بن عمرو العقيلي (١) .

وبعد أن أوضحنا نشاط الخوارج في منطقة الخليج وأشهر قوادهم لابد أن نضع أمامنا الملاحظات التالية .

أولا : إن الخوارج في منطقة الخليج كانت لهم شوكة قوية في عهد بنى أمية ، وقد ساعدتهم على ذلك ظروف المنطقة المهيئة للفتن والاضطرابات كما أن المنطقة كانت ملائمة لحياة الخوارج البدو فنمت فيها قوتهم .

ثانيا : مما ساعد الخوارج على أن يسيطروا على معظم المنطقة ، اضطراب الأحوال في الأحجاز والشام والعراق ، وانتشغال الخلافة الأموية بالقضاء على ابن الزبير وثورات الخوارج في البصرة وما يابها .

ثالثا : كان ظهور الخوارج وتفوقهم في منطقة الخليج في عهد بنى أمية مقترنا بظهورهم وتفوقهم في منطقة العراق ، وظهور قيادات فذة لهم مثل نافع بن الأزرق وقطرى بن الفجاءة ، وفي مثل هذا الوقت

(١) راجع المرجع السابق ص ٩٠ .

استطاع نجدة أن يبيسط سلطانه على معظم منطقة الخليج ، فاستولى على اليمامة ، والبحرين ، والقطيف ، والخط ، وعمان ، ودانت له اليهودي وأخذ منها الصدقة ، واستولى على صنعاء وأخذ جبايتها ، كما أرسل أبا فديك إلى حضرموت فجبى صدقات أهلها ، وباعه أهل الطائف دون أن يدخلها ، وهكذا نرى أن نجدة كانت له قوة عظيمة في تلك الفترة ، فقد بايع الخوارج نجدة « فأقلقوا اليمامة والبحرين وأثخنوا في الناس » (١) ويقول اليعقوبي : « ووجه مصعب بن الزبير بخيل بعد خيل ، وجيش بعد جيش إلى نجدة ولم يستطع ابن الزبير القضاء على نجدة أو هزيمته » (٢) .

رابعاً : استطاعت قوات عبد الملك بن مروان أن تكسر شوكة الخوارج في العراق وتضعف شأنهم ، وحدث مثل ذلك في منطقة الخليج في عهد عبد الملك ، واستتب الأمر لبنى أمية ولم تقم للخوارج قائمة إلا سنة ١٠٥ كما تحدثنا من قبل حيث هب مسعود العبدى ولكن ثورته كانت قصيرة العمر .

البحرين في العصر العباسي

سيطر العباسيون على العالم الإسلامي الذي كان يحكمه الأمويون باستثناء الأندلس ، ومن هنا كان سلطان العباسيين سائداً على منطقة البحرين ، وكان عمال البحرين في العصر العباسي على النحو التالي :

السفاح : عين داود بن علي واليا على مكة والمدينة واليمن واليمامة والبحرين سنة ١٣٢ .

ثم عين سليمان بن عاي واليا على البصرة والبحرين وعمان سنة ١٣٣ .

(١) دائرة معارف البستاني ص ٤٩٤ مادة خوارج .

(٢) تاريخ اليعقوبي مجلد ٢ ص ٢٧٢ .

المنصور : عين السرى بن عبد الله الهاشمى واليا على اليمامة والبحرين سنة ١٣٦ ثم عين سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن أبى صفرة سنة ١٣٩ ، ثم ولى على البحرين خاصة قثم بن العباس بن عبد الله ابن على بن عبد الله بن العباس فى نفس العام ثم أضاف إليه اليمامة سنة ١٤٤ هـ .

وفى عهد المنصور ثار فى البحرين سليمان بن حكيم العبدى ، فوجه إليه المنصور عقبة بن مسلم من البصرة ، واستخلف عليها نافع بن عقبة ، وقد انتصر عقبة وقضى على الثورة وقتل سليمان بن حكيم وسبى الكثير من أتباعه وأرسلهم عقبة إلى المنصور ، فقتل بعض قادتهم ووهب الباقيين إلى ابنه المهدي فكساهم وأطلقهم .

ومن ولاية المنصور على البحرين فى سنيه الأخيرة تميم بن سعيد وقد ولاه سنة ١٥٧ ثم ولى عليها حمزة الكاتب .

المهدي : عبد الله بن مصعب .

• صالح بن داود بن محمد سنة ١٦٤ .

• مولاة العلى سنة ١٦٥ وقد ظل فى ولايته حتى عهد الرشيد .

الرشيد : فى عهد الرشيد خرج بالبحرين سيف بن بكر أحد بنى عبد القيس فوجه إليه الرشيد محمد بن يزيد بن مزيد فقتله ، ومن ولاية الرشيد محمد بن سليمان بن على وقد وليها مع اليمامة سنة ١٧٠ .

المتعصم : اسحق بن أبى خبيصة ويذكر البلاذرى (١) ان اسمه حميضة وأنه بنى مسجدا فى الحديقة التى قتل فيها مسيلمة فى عقرباء (٢) .

(١) فتوح البلدان ص ١٠٣ .

(٢) محمد بن عبد الله الانصارى . تحفة المستفيد ص ٧٩ - ٨١ .

وبنهاية العصر العباسي الأول ، وبانتقال سلطة الخلفاء الحقيقية إلى الأتراك تفككت الدولة وهبت بها ثورات عنيفة ، ولا عجب أن تجذب منطقة البحرين كثيرا من الحركات المدمرة القوية التي صارعت جيوش المسلمين والتي كان طابعها شديد الانحراف ، وأهم هذه الحركات التي عرفتها منطقة البحرين آنذاك حركة صاحب الزنج وحركة القرامطة ، والحركتان من أقصى الحركات التي هبت بالعالم الإسلامي واستنزفت كثيرا من جهد العباسيين ودماء المسلمين وقد تحدثنا بشيء من الإيجاز عن الزنج والقرامطة في الأجزاء السابقة من هذه الموسوعة ، ونعيد هنا الكلام عن هاتين الحركتين بمزيد من التفصيل ، فإن هذا المكان هو المكان الطبيعي للحديث عن هاتين الحركتين .

حركة الزنج

تنسب هذه الحركة إلى الزنج الذين كانوا يعيشون في البصرة والذين استغلهم على بن محمد (أو على بن عبد الله الملقب صاحب الزنج) في حركة كان يرمى بها إلى تحقيق أطماع وطموح في نفسه ، وقد سلك هذا الرجل عدة وسائل ، وقام بعدة محاولات لتحقيق هذه الأطماع كما سنرى فيما بعد ، ولكن محاولته مع الزنج كانت أنجح وأشهر وأخطر ، ولذلك اشتهر بها .

وصاحب الزنج هذا رجل فارسي ، ولد في إحدى قرى السرى ، ويصفه ابن طباطبا (١) بأنه كان فصيحاً ذكياً طموحاً ، وكان في الوقت نفسه فقيراً قليل المال والعتاد ، وعندما يجتمع الذكاء والطموح والفقر يصبح الإنسان خطراً على المجتمع الذي يعيش فيه ، وهكذا كان هذا الرجل الذي عبر عن طموحه بقوله يخاطب نفسه :

وإذا تنازعني أقولاً لها اطلبى موتاً يريحك أو صعود المنبر

تحقيق نسبه :

إن نسب هذا الرجل غير واضح ، فقد ادعى أنه ينحدر من آل البيت ، وأن اسمه على محمد بن أحمد من ولد على بن أبي طالب ، وقد اتجه أكثر المؤرخين إلى تشنيدها هذا الادعاء ، والحكم عليه بالكذب ، وأنه قد اتخذ هذا الادعاء وسيلة لتحقيق أطماعه كما سنرى فيما بعد ، ويرى الطبري أنه ينحدر من قبيلة عبد القيس وأن اسمه على بن محمد بن عبد الرحيم (٢) والذي نميل إليه إن نسبه العلوي ادعاء باطل بدليل أن أتباعه كانوا يلعبون الصلابة ، وفيهم على وعائشة ، وكان هذا يحدث أمامه فلا يغضب ، وبدليل أن نساء من العلويات قبضن عليهن واعتدى عليهن ، واستعبدن أمام عينه بأمره ، ولو كان فعلاً من آل البيت لما

(١) الفخرى في الاداب السلطانية ص ٢٤ .

(٢) تاريخ الطبري ج ١١ ص ١٧٤ .

سمح بهذه التصرفات ، ولعمل على حماية آل البيت من أتباعه الزنوج والعلوج (١) .

مطلع حياته :

اشتغل على بن محمد في مطلع حياته أجيرا ، ولكن هذا العمل لم يقنعه فأتجه لتعليم الصبيان ، بيد أن هذا العمل لم يكسب له ما تطلع إليه من مال وشهرة .

ومن هنا أخذ يتطلع إلى القصور ، وكانت لديه وسيلة يمكن أن تصله بالقصور وسكانها تلك هي إجادته للشعر ، فقد كان من الذين يجيدون قول الشعر المطبوع ومن يتصف بفصاحة اللهجة (٢) فمدح جماعة من حاشية الخليفة المنتصر (٢٤٧ هـ) واستمالهم بشعره ، وقد كسب عن هذا الطريق بعض المال ، ولكنه أيضا لم يقنع بما وصل إليه .

ومن أجل هذا اتجه اتجاهها آخر هو الاشتغال بالتنجيم والسحر ، ولكن ذلك كله لم يحقق للرجل أطماعه ، وكان لابد من جولة جديدة أو جولات جديدة لعلها تنيل الرجل مأربه .

وقد اتجه على بن عبد الله في هذه الفترة إلى (البحرين) وقد كانت البحرين كما ذكرنا من قبل جديرة باجتماع هذا اللون من الطموحين المنحرفين كما كانت ظروف العصر مواتية ، إذ كانت الخلافة العباسية تتجه للانحدار بعد العصر العباسي الأول ، بسبب استبداد المماليك بالسلطان ، وكانت هناك حركات استقلال تغمر العالم فتقطع من جسم الخلافة أجزاء ليستقل بها الطموحون هنا وهناك كما فعل الصفاريون والطولونيون ، فلماذا لا يحاول هذا الرجل مثل هذه المحاولة في البحرين ليجعل من نفسه سلطانا على هذا الجزء من العالم الإسلامي ؟ وقد دفعه عامل المكان (البحرين) وعامل الزمان (ضعف الخلافة) إلى أن يخطو طامعا أن يحقق مأربه .

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٤ ص ٢٠٨ .

(٢) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٨ ص ١٢٧ .

خطوات التأثير

لم تكن الطريقى سهلا أمام على بن محمد وبخاصة أنه كانت للرجل سمعة غير طيبة تلاحقه وتعارض أطماعه ، ولذلك كان عليه أن يصطنع الصبر ، وأن يغير خطته من حين إلى حين جريا وراء شعاع جديد كلما تحبب أمل سار عليه شوطا من الأثواط ، وسنثبت فيما يلي دراسة عن هذه المحاولات التى قام بها هذا الرجل فى تلك المرحلة :

١ - المهدي المنتظر :

كانت فكرة « المهديّة » شائعة عند بعض طوائف الشيعة وكان هؤلاء يستقدون أن المهدي سيظهر يوما فيملا الدنيا عدلا ، كما ملئت جورا ، ويزيل الباطل ، وقد رأى على بن عبد الله أن يجعل نفسه هذا المهدي المنتظر ، ومن هنا أعلن أنه ينحدر من آل البيت ، وأنه علوى النسب ليكون ذلك وسيلة لادعاء المهديّة ، وقد بدأ هذا الادعاء سنة ٢٤٩ هـ ، وكان هناك أناس يستجيبون لكل ناعق فاتبعه هؤلاء ، وجبوا له الخراج ولكن كان هناك ناس "آخرون امتنعوا عليه ، وكذبوه ، وبدأ بذلك صراع بين أتباعه وأعدائه ، ولم يكن أتباعه مخلصين له ، وإنما كانوا يتخذون هذه الحركة وسيلة لتحقيق أطماع خاصة بهم كما فعل الرجل نفسه ، وكان ذلك سببا في فشل هذه المحاولة ، إذ لم تكن هناك عقيدة ذات بال يجتمع حولها الثائرون * *

٢ - الانتداء للخراج :

اتجه على بن عبد الله اتجاهها جديدا تبنى فيه فكر الخوارج الذى يقرر المساواة والديمقراطية بين المسلمين جميعا ، والمساواة والديمقراطية هدفان تتطلبان لهما كل الطبقات الدنيا (١) ومن هنا رأى على بن محمد أن يصطنع هذا الاتجاه ليجذب جماهير الناس إلى دعوته *

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ٧ ص ٧٣ وابن العميد : تاريخ المسلمين ص ١٦٢ .

بيد أن الخوارج كانت قد دالت دولتهم ، وأصبح معروفا أن الدماء الغزيرة التي أسالها الخوارج لم تأت بأية غائدة ، ولهذا لم يكن لهذا الإدعاء صدق ذو بال ، وفشلت هذه المحاولة كما فشلت المحاولة الأولى

٣ — علم الغيب والآلهية :

لم ييأس الرجل الذكي الطموح ، وأخذ يبحث عن طريق جديد ، وكان اضطراب الخلافة العباسية يزداد فيزداد الرجل طموحا ، فأتجه في محاولته الثالثة إلى إدعاء أنه ظهرت له آيات عرف بها ضمائر أصحابه ، وقد استغل وسائل متعددة ليعرف عن طريقها أخبار بعض أصحابه وميولهم ، ثم أخذ يفاجئهم بهذه الأخبار على أنها من قدراته الخاصة ، وأنها يوحى بها إليه ، ثم تمادى في ذلك فادعى النبوة ، بل زاد في تماديه فأعلن أنه يستطيع أن يفعل ما ليس في قدرة البشر (١) .

ويذكر ابن أبي الحديد من إدعاءاته أنه رغب مرة في أن يعلم بعض أمور كان يريد معرفتها فسرعان مارآها مكتوبة على حائط أمامه دون أن يرى الكاتب الذي كتبها (٢) .

ومن الواضح أن هذا الادعاء كان عميقا في مجال الضلال ، ومن أجل ذلك انكمش عنه العقلاء ممن كانوا معه ، ولم يبق مؤيدا له إلا الأوغاد الذين لا يفكرون ولا يتدبرون ، وفشلت هذه المحاولة الثالثة .

٤ — زنج البصرة :

مرة أخرى لم ييأس الرجل ، وأخذ يبحث عن فرصة جديدة يندفع بها إلى أطماعه ، ولعله انتفع بتجاربه السابقة ، فأراد هذه المرة أن يسلك طريقا أقرب إلى النجاح ، وكانت البحرين قد أدركت انحرافات الرجل

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٧ ص ٧٣ وابن العميد . تاريخ المسلمين ص ١٦٢ .

(٢) شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ١٣١ .

فلهم تعدد مكانا صالحا لحركته ، فصعد إلى البصرة باحثا عن أمل جديد سنة ٢٥٤ هـ ، وفي البصرة وجد فتنة ناشبة بين بعض القبائل والبعض الآخر فاتجه إلى أن ينضم إلى أحد الفريقين أو أن يبنى له مجدا على أشلاء المتحاربين جميعا ، فبدأ يقوم بدعوة جديدة ، واتخذ من مسجد بالبصرة مركزا لهذه الدعوة ، ولكن عامل البصرة محمد بن رجاء كان صارما فأمر بالقبض عليه هو وأتباعه . كما أمر بالقبض على بعض زعماء القبائل المتصارعة ليقتضى على صراعهم ، ولكن على بن محمد استطاع أن ينجو بنفسه ، وسقط بعض أتباعه في يد رجال الموالي ، وألقى بهم في السجن مع من قبض عليهم من أفراد القبائل المتصارعة .

وبعد فترة عثر محمد بن رجاء عن البصرة ، فقام رؤساء القبائل التي كانت متصارعة بفتح السجن وإطلاق من كانوا بداخلها ، فعاد أتباع على إليه ، وعاد هو إلى البصرة ليبدأ نشاطا جديدا .

والتقى على بن عبد الله آنذاك بالخياط الذي سيقوده إلى الهدف الذي يطمع فيه ، التقى بجماعات الزنج التي كانت تموج بالبصرة بهم ، وكان هؤلاء يشغلون بالبصرة أحقر الأعمال ، كما كانوا يعدون طبقة دنيا تعمل لدى السادة ، وتعطى كل قواها ولا تأخذ شيئا ذا بال ، ومن هنا كانوا يحسون بأنهم مظلومون في هذا المجتمع ، وكانت في قلوبهم ثيرة مشتعلة ولكنها لا تصل إلى أفواههم ، ولا إلى أيديهم ، وكأنما كانوا يتطلعون إلى القائد الذي يقود جماعتهم ليخلصهم من الهوان ويقتضى على ظالمهم ، ويأخذ لهم حقوقهم ، وكان على بن عبد الله في الوقت نفسه قيادة كبرى تتطلع إلى الأتباع وتسعى للحصول عليهم بطريق أو بآخر ، وهكذا كانت لهؤلاء عنده حاجة وله عندهم حاجة ، وتصادف أن التقى على بن عبد الله بواحد من الزنوج مسموع الكلمة بينهم اسمه ربحان بن صالح ، وأدرك على بن محمد أن ربحان طالب مال وطالب جاه ، فأعقد عليه من المال وأصطفاه لنفسه ، ومن هنا أخلص ربحان لزعيمه كل الإخلاص ، وراح يجمع له وفود الزنوج ، وفي الوقت نفسه راح « على » يشبع شغف

ريحان بالمال والجاه ويزيد في إكرامه واستغلاله ، ولما جاءت سنة ٢٥٥ هـ كان قد اكتمل حوله ١٢ ألفا من الزنوج ، وفي يوم عيد الفطر من هذا العام صلى على بن عبد الله بأصحابه ثم خطب فيهم خطابا حافلا قال فيه : أيها الأحبة ، أن الآوان لتتحرروا من الفاقة والظلم ، وإن اجتماعكم سيضمن لكم خيرات الأرض ، وستصبحون سادة الأرض التي تعيشون فيها ، وسادة هؤلاء الجبابرة الذين يستغلونكم ويستعبدونكم ، وحلف لهم الأيمان الغلاظ ألا يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئا من الإحسان إلا أتى به إليهم ^(١) وادعى أنه رسول العناية الإلهية لتخليصهم من الظلم الذي يعانون ومن الرق الذي يكبل رقابهم •

ولما سمع الزنوج ذلك أقسموا له على الطاعة المطلقة ، وسار بهم يبطش ويهدم وينهب ويسلب ، وكان هؤلاء الغوغاء يزدادون به إيمانا كلما نالوا من الخيرات والنعم •

وقد حققت حركات الزنج انتصارات واسعة فاستولت على الآبلة واستسلمت لها عبادان ، ودخلت الأهواز وقتلت الكثير من أهلها ، ودمرت ما شاءت أن تدمر ، كما دخلت البصرة وخربتها واهتد نجالهم إلى واسط ثم انحدروا إلى منطقة الخليج فاستولوا عليها ، وامتد نشاطهم إلى عمان ، وأقام على بن عبد الله قاعدة حربية هائلة أسماها « المختارة » وكانت المختارة مدينة عظيمة بنيت لتكون عاصمة عسكرية ، واختار لها موقعا تحميها القنوات والمستنقعات التي تحيط بها ، وزودت بأعظم الأجهزة الحربية ، وكانت المختارة من أسباب صمود الزنج وطول مقاومتهم ، وكان من أسباب ما حققه الزنج من نجاح إخلاصهم لقائدهم واختيارهم المستنقعات والأدغال مكانا لحربهم ، وكان للزنج خبرة بالحياة في هذه المناطق أكثر من سواهم ، وانضم بعض البدو إليهم لينالوا بعض ما يستولى عليه

المجيش الزنجى من الغنائم ، ومن ناحية أخرى كانت الخلافة تعاني صراعا في إمكانية مختلفة مما قتل الجهد الذى اتجه للزنج في مطلع حركتهم •
على أن حركات المقاومة جديرة ببعض الدراسة التى سنقوم بها فيما يلى :

حركات المقاومة

أشرنا فيما سبق إلى أن الطريق أمام على بن عبد الله كان مليئا بالمشواك ، وفي الحق إن مقاومة عنيفة تصدت للرجل في جميع الخطوات التى خطاها ، وصارحته كل المراحل التى مر بها ، فلم يكده يعلن محاولته الأولى في البحرين ويذكر أنه المهدي المنتظر حتى هب أكثر الناس في وجهه وأرغموه على الفرار إلى البادية •

وعندما تبنى فكر الخوارج وأراد أن يجذب له الطبقات الدنيا صارعه الناس ولم يستجيبوا له ، وأرغموه على التخلي عن هذا الاتجاه •
وفي محاولته الثالثة التى ادعى فيها أنه يوحى إليه وأنه يعرف الغيب لم ينل إلا سخط الناس وسخريتهم ، بل تخلى عنه بعض من كانوا قد خدعوا به وأيدوه •

وإذا جئنا إلى حركته التى حققت نوعا من النجاح بالبصرة نجد أن حركات المقاومة ضده بهذه المدينة كانت أيضا قوية وصارمة فقد هب أهل البصرة يقاومونه منذ دخل هذا الرجل مدينتهم ، وكان الوالى محمد ابن رجاء مبكرا في الموقف في وجه هذا الرجل والتبض على بعض أتباعه وطرده الباقي •

وبعد محمد بن رجاء تجمع كثير من القبائل للموقف بحزم أمام أطماع على بن عبد الله ، وفي القمة من هؤلاء الهلالية والسعدية وكثير من الهاشميين والقرشيين ، فقد تجمع هؤلاء للقضاء على حركة على بن

ولما قوى أمر صاحب الزنج ، وأحسن أهل البصرة بعجزهم عن القضاء عليه طلبوا عون الخلافة العباسية ، وتدخلت الخلافة العباسية للقضاء على حركة الزنج ، وأعدت الجيوش أثر الجيوش لخوض معامع قاسية ضد هذا التجمع الأسود ، وكان من قواد الخلافة العباسية ضد حركة الزنج جعلان التركي ، وسعيد الحاجب ، والمنصور بن جعفر الخياط ، وقد بذل هؤلاء جهودا كبيرة ، ولكنها لم توفق في القضاء على حركة الزنج ، وكان ذلك سببا في إحداث تغير واسع في الحياة السياسية بالعاصمة ، فإن الأتراك الذين كان في يدهم السلطان أحسوا بفشلهم في حراسة دولة الخلافة ، فاتفق رأيهم على أن يعاد السلطان للعباسيين ليتولوا بأنفسهم حماية الديار ، ونتيجة لذلك أصبح الموفق أخو الخليفة المعتمد قائدا عاما للجيوش العباسية ، وصاحب السلطة العامة في الناحية السياسية ، وتحمل الموفق بذلك كل التبعيات السياسية والعسكرية باسمه واسم أخيه ، ووجه جهودا كبيرة ضد الثائرين على السلطان العباسي ، وبوجه خاص ضد حركات الزنج . *

وقاد الموفق الجيش ضد علي بن عبد الله ، ودارت بين القوتين معارك شرسة ، ولم يكن الموفق بالرجل الذي تقهره جماعات الزنج على الرغم من كل الاعتبارات ، فصبر وصابر حتى بدأ النصر يأخذ جانبه ، وبدأت الهزائم تحل بخصمه ، ثم انكمش سلطان صاحب الزنج ، وتقهر حتى حُصر في مدينة المختارة ، وأخذ يدافع عنها هو وجيشه بجسارة هائلة ولكن الموفق كان قد قرر ألا يخطو للخلف ، فبنى مدينة مقابلة للمختارة ليعمل بذلك عن إصراره على حصار دائم حول المختارة حتى تسقط ، وبدأت المختارة تفقد ذخائرها العسكرية والغذائية ، وعاد الزنج يعانون في المختارة الجوع الذي دفعهم للالتفاف حول علي بن عبد الله ، وكانت بطون هؤلاء الأوغاد تتحكم في عقولهم وفي حركاتهم ، فلما جاعت هذه البطون أخذت تتخلى عن الزعيم ، وفي معركة مريرة حول المختارة استطاعت

قوى الموفق أن تقتحم المدينة وأن تدمر جوانبها ، وأحس « على » بالنتيجة فولى هاربا ، وألقى بنفسه في أقرب نهر قابله ، ولكن جنود الخلافة التقطوه وقضوا عليه ، وحملوا رأسه إلى قائدهم وقضى الموفق على بعض أتباعه ، واستسلم له آخرون فعفا عنهم ، وكان ذلك سنة ٢٧٠ هـ ، وقد سقط في حركة الزنج عدد هائل من الفريقين يقدره ابن طباطبا ^(١) بمليون ونصف مليون ، وهو نفس العدد الذى يقدره السيوطى ^(٢) .

وقد خلفت حركة الزنج أضرارا هائلة ، وبخاصة في الناحية الاقتصادية بسبب ما دمرت من بلاد ، وما حرقت من مزارعات ، وما أكلت من ثمار ، وبسبب توقف النشاط التجارى الذى كان نتيجة لتدمير الطرق والفرع الذى شمل مختلف البقاع التى شملتها هذه الحركة .

ومن الناحية الاجتماعية عانى الناس كثيرا من المشقاء بسبب حركة الزنوج ، وعرفوا الجوع ، وأكلوا الجيف مما سبب انتشار الأمراض والأوبئة ومما عاناه الناس من الناحية الاجتماعية تلك التصرفات الجائرة التى قام بها الزنوج ضد الأحرار والحرائر ، ويوم يتحكم العبيد في الأحرار تكون الطامة الكبرى .

ومن الناحية السياسية كانت حركة الزنج من الأسباب التى مكنت لتفكك الدولة الإسلامية خلال العصر العباسى الثانى .

وكانت نهاية الزنج نهاية طبيعية إذ لم يكن هناك منهج ولا مبادئ لهذه الدعوة ، وكان الارتباط الذى يجمع بين أفرادها هو ارتباط المنفعة الذاتية والتترف المادى ، ومن هنا انهارت هذه الحركة عندما تخلفت المنفعة الذاتية وقل التترف ، فانفض الجمع وانحل العقد ، إذ ضاع الخيط المضيل الذى كان يربط بين هذه الجموع .

(١) الفخرى ص ٢٢١ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٤ .

وهكذا منى العالم الإسلامى بهذه النكبة التى استمرت خمسة عشر عاما (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ) وأكلت عشرات الألوف من الأنفس ، ودمرت صورا من الحضارة الإسلامية ، وبعثت الرعب فى النفوس والآفاق ، ولم يكن لها من هدف تسعى لتحقيقه ، ولا مأرب تعمل لنيله .

ومن الحق أن نقول إن ظلم كبار الملاك كان من أهم الدوافع التى أثارت عليهم الأرقاء والزنوج ، ولو أن هؤلاء المترفين أعطوا الزنوج حقوقهم التى فرضها عليهم الإسلام لكان من الممكن ألا تقع هذه المأساة التى دمرت الأغنياء والفقراء جميعا ، وأحرقت الأموال ، وقضت على الثروات .

وفى ختام هذه الدراسة نقرر أن حركات هذا الرجل بدأت فى هجر بالبحرين ثم انسابت على الخليج كله وكانت بذلك غير بعيدة عن الشاطئ الفارسى الذى كان يوحى بالكثير من الفتن .

القرامطة ودولتهم

التاريخ للقرامطة :

في مطلع حديثنا عن القرامطة نبرز نقطة مهمة نتصل بالتاريخ اهم ،
فهناك بعض الباحثين الذين يتعاطفون مع القرامطة مثل الأستاذ مصطفى
غالب الذي كتب عن القرامطة يقول : إن القرامطة في سلوكهم وفي
علاقاتهم بعضهم ببعض وعلاقاتهم مع غيرهم أقرب إلى النزهاء
والنسك منهم إلى الإباحية والخلاعة والمجون وغيرها من الصفات التي
تذاع عنهم (١) .

وفي اعتقادي أن هذا القول ليس باطلا كله فسنرى فيما بعد ألوانا
من النظم السياسية والعسكرية والاجتماعية التي اتبعتها القرامطة ، وكان
فيها ما يستحق التقدير ، ولكن بجانب هذه الأشياء هناك مثالب قرهطية
حفلت بها المصادر التاريخية وهي تبلغ الغاية في الانحراف والشذوذ .

هل يمكن أن يقال إن تاريخ القرامطة لم يدون بإنصاف ؟ لأن الذين
دونوا تاريخهم كانوا يعيشون في أرض الخلافة العباسية أو الخلافة
الفاطمية ؟ وكان العباسيون والفاطيون في عداء وصراع مع القرامطة
ومن أجل هذا كانوا يذيعون عن القرامطة ألوانا من الانحرافات فسجلها
هؤلاء المؤرخون دون أن يتعرفوا بطريق مباشر على القرامطة وأفكارهم ؟
ولو كان هناك مؤرخون عاشوا في البحرين إبّان عهد القرامطة لنقلوا لنا
حقيقة أمر هؤلاء .

والليس عجيبا أن دولة ينسب لها كل هذا الباطل تعيش حوالى قرنين
من الزمان ، وتحقق كل هذه الانتصارات ؟

وقد عاصر القرامطة عدة دول كالطولونيين والإخشيديين والحمدانيين

(١) الحركات الباطنية في الاسلام ص ١٦٨ .

والصفاريين ، وكان القرامطة أطول عمرا وأثقل وزنا من كل هؤلاء ، وهل يمكن أن يتوفر ذلك لدولة ضربت في المضلل إلى هذا المدى البعيد الذي يذاع عنها ؟ *

ثم إنه كان للقرامطة وزير ممتاز هو « كساجم » وكان ابنه أيضا جديرا بالتقدير ولهم تقاليد جديرة بالتقدير كذلك سنها فيما بعد .

هل يمكن أن يقال أن بعض الانحرافات التي تُنسب للقرامطة كانت من باب التحدى ، وكانت مواجهة لتصرفات ضدهم ، وستظهر في هذه الدراسة وجهة نظر القرامطة في بعض ما ارتكبوه مما يؤخذ عليهم .

وينبغي كذلك أن نتذكر موقف المستشرقين من التاريخ الإسلامى ، فإن المستشرقين يهتمهم أن يصوروا كثيرا من الفرق الإسلامية في أسوأ صورة ، ويرحبون بكل رواية تصف بعض الفرق أو بعض الأشخاص بما يشين ، فيلتقطون هذه الرواية ويبالغون في عرضها وإذاعتها ليمثلوا تاريخنا بما يدعو للنفرة والاشمئزاز .

وعلى كل حال فنحن شديدي الرغبة في إنصاف التاريخ لو وجدنا وسيلة لذلك ، ولكن كل ما أمامنا من المؤرخين الثقات يدين القرامطة ويسمهم بأبشع الصفات ، وقد عاصرهم الطبرى (٣١٠ هـ) وكتب عنهم ، وسنقتبس الكثير منه فيما بعد مما يدينهم ، وعاصرهم ثابت بن سفيان (٣٦٥ هـ) وكتب عنهم الكثير مما اقتبسناه منه ، وعاصرهم وعانى شذوذهم أديب ذائع الصيت هو أبو العلاء المعرى (٤٥٠ هـ) وكتب عنهم يقول : « قيل عن أبى طاهر سليمان بن أبى سعيد الجنابى : لو عوقب بلد بمن يسكنه لجاز أن تؤخذ به جنابه ، ولا يقبل لها إنابة ، ولكن حكم الكتاب المنزل أجدر وأحرى ، فلا تزر وزارة وزر أخرى » (١) .

وقد زارهم الرحالة الفارسى ناصرو خسرو وهو يقدم لنا وصفا

(١) رسالة الغفران ص ٣٨٤ و « جنابة » هى بلدة أبى سعيد الجنابى وسنتحدث عنها ص ٥٦١ .

بمشاهداته يدل على ما عانتها هذه البلاد تحت حكم القرامطة ، يقول
ناصر وخسرو : « دخلت الأحساء سنة ٣٤٢ هـ وكانت محاطة بأربعة
أسوار بين كل سورين فرسخ ، وفيها ينابيع المياه العظيمة ، ويوجد بها كل
ما يوجد في البلاد المتمدنة ، ولكن ليس فيها مسجد تقام فيه الصلاة ،
وتباع في الأحساء لحوم جميع الحيوانات حتى الحمير والكلاب ، ومن
عوائدهم القبيحة المشهورة ليلة « المشوش » وهي ليلة عيد يجتمع فيها
الرجال والنساء فيعبثون ويلعبون ويشربون الخمر ، وتدور رءوسهم
فيفعلون القبيح (١) .

ذلك مطلع حديثنا عن القرامطة نثير فيه مختلف الاحتمالات ، ولكننا
عندما نجىء لدراسة تاريخهم نجدنا ملتزمين باحترام التراث الذى
سطّره عنهم شيوخ الباحثين والمؤرخين ، والذى يوحى بانحراف القرامطة
عن الإسلام والبعد عن صراطه المستقيم ، فذلك هو الطريق الذى لا طريق
لنا سواه .

(١) ناصر وخسرو : سفر نامه ترجمه الدكتور يحيى الخشاب

الباطنية

مذهب تتحتم دراسته للتعرف على القرامطة

ما الباطنية ؟

تحدثنا عن الباطنية في الجزء الثاني من هذه الموسوعة (١) ، ووضحنا أن الباطنية تعنى أن كثيرا من آيات القرآن ، وكثيرا من الفرائض الإسلامية لها معنى ظاهر ومعنى باطن ، فمعنى الصيام في الظاهر الإمساك عن الطعام وعن المعاشرة من الفجر حتى غروب الشمس ولكن معناه في الباطن كتمان أسرار الأئمة ، ومعنى الحج في الباطن زيارة الشيوخ وهكذا (٢) ، والباطنية يظهرهم أمام العامة بالمظهر الإسلامي ، ولكنهم يستعملون الفكر الباطني أمام خاصتهم ، وعلى هذا فهم قوم يظهرهم الإسلام ولكن عقائدهم واتجاهاتهم الفكرية تخالف الإسلام في كل أسسه ، فهم لا يعترفون بالخالق ، وهم يبطلون النبوة ، وينكرون العبادات والبعث ، ولكنهم لا يظهرهم هذه الاتجاهات في أول أمرهم (٣) .

ومذهب الباطنية ينحدر من الفكر الفارسي ، وهو حيلة ابتكرها المجوس لينالوا من الإسلام دون مواجهة صريحة للمسلمين ، فقد كانوا يكرهون الإسلام ، ولكنهم لا يستطيعون إعلان كراهيتهم فلجأوا إلى تأويل آيات القرآن ، وسفن الرسول بما يفسد الإسلام ، ويرضى هواهم (٤) .

وكان الباطنية يقدمون أفكارهم بحذر ، وكانوا يخطون خطواتهم بالتدريج ، فهم أولا يختارون ضحاياهم من العوام والجهلة والمتشككين ، وهم ثانيا يبدؤون بإثارة شكوك حول الإسلام ، كأن يتساءلوا : لماذا

(١) ص ١٨٤ وما بعدها .

(٢) انظر أربع رسائل اسماعيلية لعارفا تامر ص ٩٢ - ٩٧ .

(٣) ابن الجوزي : تلبيس ابليس ص ١٠٢ .

(٤) انظر الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٣٨٥ .

اختلفت ركعات الصلوات ؟ ولماذا يقبل الناس الحجر الأسود مع أن الإسلام أبطل الأوثان ؟ وما معنى الغسل ؟ ولماذا يجب الغسل من نزول المنى وهو طاهر دون البول وهو نجس ؟ ... وهم ثالثا لا يسلكون بالجميع مسلكا واحدا ، ويحتّمون على الداعي عدم إفشاء أسرارهم إلا للخواص المستجيبين لدعوتهم ، وينقل الإمام الغزالي نصيحة زعماء الباطنية لدعاتهم ألا يسلكوا بالجميع مسلكا واحدا ، وأن يخاطب الدعاة الناس على قدر عقولهم واستجابتهم (١) .

وينبغي أن يتضح أنه مع الجهد الكبير الذي قام به الباطنية لم يستجب لهم إلا قلة دفعتهم دوافع العصبية أو الشعوبية أو الجهل إلى الانحراف بالإسلام إلى هذا الاتجاه .

والباطنية أساس حركتين كبيرتين إحداهما قامت على شطاطة الخليج العربي ، والأخرى قامت في الشمال الإفريقي ، وكان القرامطة ثمرة الأولى ، وكان الفاطميون ثمرة الثانية ، ومن هنا سارت الحركتان على نمط واحد تقريبا ، وحملتا فكريا يكاد يكون متفقا ، ويقول الشيخ محمد أبو زهرة : إن الإسماعيلية والقرامطة من الشيعة الغلاة الذين خالط مذهبهم بعض آراء من عقائد الفرس القديمة ، ومن الأفكار الهندية فانحرفوا تحت تأثير ذلك (٢) .

وجاء في كتاب « كلش خلفا » أن هذه الطائفة ظلت تخرج في كل زمان ومكان بأسماء مختلفة ، فكانت في مصر وحلب وأطرافهما تسمى الإسماعيلية ، وفي فارس وطبرستان السبعية ، وفي بغداد وما وراء النهر القرامطة ، وفي الأحساء والبحرين القرامطة أو الجنايبية ، وفي أصفهان الباطنية (٣) .

(١) فضائح الباطنية : ص ١٢٧ .

(٢) تاريخ المذاهب الاسلامية ج ١ ص ٦٤ .

(٣) نقل الشيخ ذلك عن كتاب كلشن خلفا تأليف نظمي مرتضى

تعريب موسى كاظم ص ٧٤ .

ولكن ينبغي أن يتضح أن هناك فرقاً كبيراً سرعان ما انبثق واتسع بين أفكار الباطنية هنا وهناك ، وقد نتج هذا الفرق عن سببين كبيرين هما :

الأول : نوع الدعاة الذين حملوا الفكر الباطنى بمنطقة الخليج كانوا غالباً ينحدرون من أصل فارسى ، وعلى هذا كانوا شديدي التمسك به والاخلاص له ، وقد وصل بهم الحال إلى اعتباره الفكر الصحيح ، ونسوا أنه كان فى الأصل وسيلة مزيفة للعدوان على الإسلام ، أما الدعاة الذين حملوا الفكر الباطنى بالشمال الإفريقى فلم يكونوا ينحدرون من أصل فارسى ، وبالتالي لم يكونوا أعداء للإسلام وكانوا طلاب سلطة فحسب ، ودعاة من الشيعة الذين يرون أن أبناء على أحق بالخلافة من العباسيين .

الثانى : مركز الدعوة : فالدعوة الباطنية التى قامت بمنطقة الخليج نشأت وترعرت فى منطقة حفل تاريخها بانحرافات متتالية إذ ظهرت بها الردة وحركات التنبؤ والخوارج المغلاة ، وغيرها من الحركات المعادية للإسلام ، ولم يكن ذلك مصادفة بل إن المنطقة كانت مهية لهذه الحركات للأسباب التى سبق أن شرحناها حول هذه المنطقة ، أما الدعوة الباطنية التى قامت بالشمال الإفريقى والتى سرعان ما انحدرت إلى مصر ، فقد قابلت بهذه المناطق وبخاصة بمصر شعوباً لها تاريخ حضارى عميق ، ولها بالإسلام إيمان ثابت ، وكانت مدرسة الدراسات الإسلامية بمصر مزدهرة منذ عهد الولاة ، وقد اشترط ممثلوا الشعب المصرى على جوهر الصقلى قائد الجيوش الفاطمية الزاحفة من الشمال الإفريقى ألا يتدخل فى عقائد المصريين الذين كانوا يتبعون المذهب السنى ويتمسكون به (١) .

وقد رأى الفاطميون أن من الأسلم لهم أن يستبعدوا المبالغات

والانحرافات بقدر الامكان لتثبيت دولتهم ، وقد شرحنا ذلك وأعطينا له نماذج في كتابنا « تاريخ التربية الإسلامية » .

ونعتقد أن الخلاف بين فرقتي الباطنية أو قل بين القرامطة والفاطميين كان من الأسباب التي أدت في النهاية إلى المواجهة العسكرية بين الطائفتين اللتين تتحدران من أصل واحد .

وبعد هذه الدراسة عن الباطنية نتجه للقرامطة وهم الفرع الذي اعتنق الفكر الباطني ، وسار فيه إلى أبعد الشوط ووقف من المسلمين موقفا شديدا القسوة والبعد .

تسمية القرامطة :

عندما ندرس تاريخ القرامطة نقابلنا قضية التسمية ، ونبحث فيها فتواجهنا آراء متعددة سنسردها فيما بعد ، ولكن تعدد الآراء يوحى للباحث بأن في القضية غموضا والتواء ، وهو شأن مثل هذه المذاهب التي تنشأ في الظلام ، وتلتوي أفكارها ، ولا تجتمع على شيء إلا على مناهضة الإسلام وعقيدته ومبادئه ، ولنسر مع الباحثين على كل حال لفرى ما يقولون حول هذه التسمية :

١- ترجع التسمية إلى رجل بإحدى القرى بسواد الكوفة اسمه جمدان بن الأشعث ويلقب « كرميته » لحمزة عينية ، وكرميته بالنبطية أحمر العينين ، وقد التقى هذا الرجل برجل من الباطنية وأخذ من الأهواز لبيبه جسين الأهوازي ، وكان هذا يتظاهر بالورع والزهد والتقشف وبكثرة الصلاة ، ويدعو للإمام من أهل البيت ، وكان هذا الرجل مريضا فحملته « كرميته » إلى منزله وعنى به ، وبدأ المذهب ينتشر من هذا البيت كما سنرى فيما بعد — ونسب المذهب إلى كرميته باعتباره الذي أوى الداعية ، وحث الناس على اتباع مذهبه ، أو نسب الداعية إلى كرميته

لأنه يعيش في حماه وينطلق بدعوته من بيته وعن طريق الجموع الذين جمعهم كرميته للالتقاء بالداعية (١) .

٢ — ينسب القرامطة إلى حمدان بن الأشعث نفسه ، وهو رجل كان يعيش بسواد الكوفة ولقب قرمطاً لأنه كان قصيراً ، وكانت رجلاه قصيرتين ، وكان خطوه بذلك متقارباً ، فنعت بالقرمطي لذلك ، وكان هذا الرجل قد أظهر الورع وأضمر المكيدة والخبث (٢) .

٣ — ذكر بعض العلماء أن لفظة قرامطة نسبة إلى مذهب يقال له القرامطة ، وهو مذهب خارج عن مذاهب الإسلام ، وهو بهذا نسبة إلى مذهب باطل وليس منسوباً إلى رجل (٣) .

٤ — يرى الدكتور فيليب حتى أن لفظ « قرمط » معناها المعلم السري (٤) وكانت دعوة القرامطة حافلة بالأسرار .

تلك خلاصة ما ذكرته أدق المراجع عن التسمية وأبرزها يدور حول داعية شيعي فارسي التقى بحمدان (قرمط) وكان هذا يظهر النسك ويضمر المكيدة والخبث ، وقد نثت كل من الرجلين في صاحبه ألوان الشر ، فكل منهما ساء العقيدة ذكى ، يعرف الطريق لنشر الفكر المنحرف ، والبيئة حولهما كانت مستعدة للاستجابة لهذا الانحراف .

من الأهوازي إلى حمدان :

والتقى الأهوازي بحمدان كما سبق القول ، وسأل الأهوازي حمدان عن الطريق إلى بلدة يقال لها « قس بهرام » فقال له حمدان : أنا قاصدها .

(١) انظر تاريخ أخبار القرامطة لثابت بن سنان ص ٨ و ٩ .
(٢،٣) ابن النديم : القرمطي صاحب الخال من كتاب « تاريخ أخبار القرامطة » ص ٧١ والمقریزی : الحسن الأعصم من الكتاب السابق ص ١٠٩ .

(٤) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ١٨٩ بالهامش .

فساراً معاً ، وأدرك الأهوازي من حديثه مع حمدان أن هذا يمكن استغلاله ، وأن به صفات من الخبث وضحالة العقيدة ترشحه لمزيد من التعاون ، وبعد شوط من الطريق عرض حمدان على الأهوازي أن يركب وراءه شوطاً من الطريق ، فرغض الأهوازي قائلاً : لم أؤمر بذلك . فعجب حمدان من هذه الإجابة وسأل الأهوازي : كأنك تعمل تبعاً لأوامر تقديم لك ؟ فقال الأهوازي : نعم . فسأل حمدان : ومن الذي يأمرك ؟ فأجاب الأهوازي : مالكي ومالكك ومن له الدنيا والآخرة . فبهت حمدان وقال : يا هذا ما يملك ما ذكرت إلا الله فقال الأهوازي : نعم ، والله يهب ملكه لمن يشاء .

وأدرك حمدان أن هذا الرجل ليس عادياً فسأله : ما تريد من القرية التي سألتني عنها ؟ وأدرك الأهوازي أن الزمام أصبح بيده ، وأنه يمكن أن يبدأ الشوط الثاني من التأثير بعد أن نجح في الشوط الأول فقال لحمدان : دافع إلى جراب فيه علم وسرٍّ أُمِّرت أن أغني به هذه البلدة وأملكم أعظم الثروات وإن أخرج أهلها من الجهل إلى العلم ، ومن الضلال إلى الهدى ، ومن الشقاء إلى السعادة (١) . وفتحت آمال حمدان أن يكون ضمن من يناله الغنى والثراء ، فتضرع إلى الأهوازي أن يضمه إليه ، وأن ينقذه مما به من بؤس وفاقية ، فقال الأهوازي : لا يجوز ذلك حتى آخذ عليك العهد والميثاق ، فوافق حمدان وأقسم على السمع والطاعة في السر والعلانية ، وطلب حمدان من الأهوازي أن ينزل بيته ، فقبل لأنه أصبح مريداً مخلصاً لدعوته ، وفي بيت حمدان تواجد إخوانه حيث أعطوا العهد والميثاق للأهوازي وبدأت دعوته في الانتشار ، وعندما حضرته الوفاة أوصى بعده لحمدان وقضى نحبه ، وكان حمدان أوفى خلف لهذه الدعوة الضالة (٢) .

(١) الامام الغزالي : فضائح الباطنية ص ١٤ .
(٢) المقرئزي : الحسن الأعصم من كتاب « أخبار القرامطة »

مصادفة خطيرة :

أصبح منزل حمدان مركزا خطيرا للدعوة الجديدة ، وقد اتبع حمدان سيرة سلفه فحث الناس على العبادة المتصلة والصدقة بكل أموالهم استعدادا لملك الأرض الذى سينساب لهم ، وقد تسبب عن تفرغ عدد كبير من الناس للعبادة أن قل العاملون في ضياع « الهيصم » فسأل عن سبب ذلك فأخبر بخبر حمدان ومريديه ، فألقى الهيصم القبض على حمدان وسأل عن مذهبه فأدرك انحرافه وضرره بالمجتمع ، فحكم عليه بالاعدام ، وحدد لتنفيذ ذلك صباح اليوم التالى ، فأودع حمدان في حجرة أحكم الهيصم قفلها ووضع المفتاح تحت وسادته ، واشتغل بالشراب ، وكان في بيت الهيصم جارية تتبع المذهب الشيعى فرقت لحال حمدان ، وانتظرت حتى نام سيدها ، فأخذت المفتاح وأخرجت حمدان وأعادت قفل الباب ووضعت المفتاح حيث كان .

وفي الصباح فتح الهيصم ليقفل حمدان فلم يجده ، فشاع ذلك في الناس ، وقال بعضهم : إنه (رُمِعَ) وظهر حمدان في ناحية أخرى ، وقال إن الإغلاق لا يمنعه ، فأصبح ذلك كرامة لدى الجماهير ، والتف حوله عدد أكبر من الأتباع ^(١) ولكن قرمط عنى باختيار مريديه فلم يكن يقبل في جماعته أحدا إلا بعد اختبارات طويلة ومراسم خاصة تؤكد له قبولهم التام لتعاليم المذهب ، وتفانيهم في سبيل قيادته دون تردد أو تفكير .

وادعى قرمط أنه الإمام ، واختار من مريديه اثنى عشر نقيبا أمرهم أن يحملوا الدعوة إلى الناس ، وبقي هو أسطورة يختفى فيتحدث عنه أتباعه ، ويظهر فيركعون له ، وهو في الحالين يأمر فيأثمرون بأمره .

وعن طريق ادعاء الشيخ نشر القرامطة ضلالاتهم واستقطبوا

(١) ابن الاثير : الكامل ج ٧ ص ١٤٨ . حسين النجفى : تاريخ الكوفة ص ٣٧٣ .

جماعات من الشيعة والمنحرفين وذوى الأطماع ، وقد ساعدتهم ذلك على أن يخطوا خطوة جديدة هى التحول إلى نشاط سياسى عسكرى كما سنرى فيما بعد •

عقائد القرامطة :

قلنا من قبل إن القرامطة ينحدرون من الباطنية ، واقتبسنا من الإمام الغزالى ومن غيره صورا من الفكر الباطنى ، ونريد هنا أن نقول إن القرامطة بحكم انتمائهم للفرس ، وبحكم البيئة التى نشروا بها مبادئهم وهى بيئة الخليج ، طوروا أفكار الباطنية وأضافوا الكثير إلى ضلالاتهم ، إذ كانت الاستجابة لهم مشجعة على المزيد من التطرف ، ومن أجل هذا نورد هنا تصويرا لعقائد القرامطة :

كان القرامطة بحكم انتمائهم للمذهب الباطنى يرون إن للقرآن والسنة معنى ظاهرا ومعنى باطنا ، وقد راح القرامطة يتوسعون فى هذا المعنى الباطن ، ويضيفون له الكثير مما يفسد الإسلام والمسلمين ، وبهذا قالوا بطل الخير ، وبأنه لا غسل من الجنابة ، وبأن الصلاة فى اليوم أربع ركعات ، ركعتان قبل الشروق وركعتان بعد الغروب ، وأن الصوم يكون يومين فى السنة : يوم المهرجان ويوم النيروز ، ثم حظ زعيم القرامطة عن مريديه الصوم والصلاة وجميع الفرائض وقال لهم : هذا كله موضوع عنكم ، ومعرفة الإمام تغنيكم عن كل شيء •

وكان القرامطة يرون أن دم مخالفينهم حلال ، وأن أموال مخالفينهم حلال كذلك (١) •

وكان القرامطة على دين المجوس ، ويستدل البغدادى على ذلك

(١) أبو الحسن الملقب : التنبيه والرد على أهل الاهواء والبدع ص ٢٨ •

بقوله : مما يؤكد ميل الباطنية إلى دين المجوس. أنا لا نجد على ظهر الأرض مجوسيا إلا وهو شديد الود لهم (١) .

وقال القرامطة بالشيوعية في النساء والأموال ، وكان مما استند إليه زعيم القرامطة في شيوعية الأموال قوله لرفاقه : ما حاجتكم إلى الأموال الآن ، وستنهال عليكم الثروات وتكون لكم كل الأرض بما عليها من نعيم ، وقال لهم : هذه محنتكم التي امتحنتم بها ليظهر مدى استجابتكم ، فاستجابوا له وجمعوا الأموال في موضع واحد من كل قرية ، وأقام في كل قرية رجلا من الثقات يرعى هذه الأموال من غنم وبقر وحلى ومقاع وغير ذلك ، ويقدم للناس جميعا الطعام والكساء بما يكفيهم ويسد حاجتهم حتى لم يبق فيهم فقير ولا محتاج (٢) .

من حركة دينية إلى مذهب سياسى :

ذكرنا فيما سبق أن حركة القرامطة بدأت في ثوب الدين بشكل مباىء أى بدأت بانتم إلى الإمام واسم المهدي ، ويقول الدكتور برنارد لويس « إن قرمط له صلة نسب بالإسماعيلية (٣) أو أنه في الحق كان ينسب نفسه آل البيت فيدعى أنه من نسل الإمام جعفر الصادق ، يقول ابن العديم عن القرمطي صاحب الخال إنه ادعى أن اسمه أحمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق (٤) وعن طريق التشيع جمع القرامطة حولهم كثيرين من الشيعة ، وكثيراً ممن كانوا يتدسون في المنيعة لإحداث اضطرابات في الدولة الإسلامية ممن أسميناهم « مدعى التشيع » (٥)

(١) الفرق بين الفرق : ص ٢٨٦ .

(٢) المقرئى : الحسن الأعصم من كتاب تاريخ القرامطة ص ٩٩ وابن الجوزى تلييس ابليس ص ١١٠ وابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٧٠٥ .

(٣) The Origin of Ismailism p. 122.

(٤) تاريخ أخبار القرامطة ص ٦٩ .

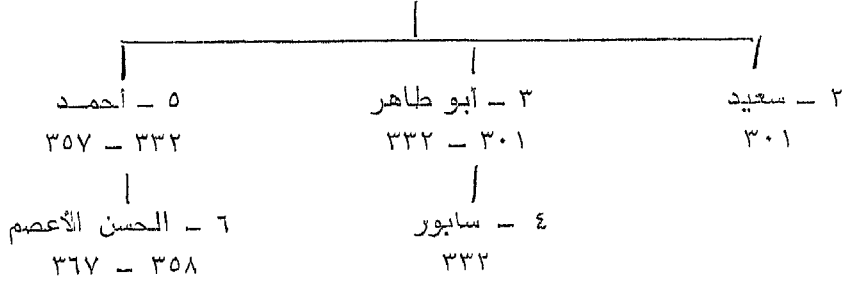
(٥) انظر الحديث عن مدعى التشيع في الجزء الثاني من موسوعة التاريخ الاسلامى للمؤلف .

وعندما كثر عدد القرامطة ، وقوى جانبهم وتخلصوا من التنافسات حول الأموال وتوقعوا خيرات الأرض تنهال عليهم بدأوا ينتجعون اتجاهها سياسيا يحققون به هذه الأحلام ، ويضربون الأمة الإسلامية التي كان الكثير منهم يطمح في تحطيمها ، ويبدو أن قوة القرامطة بلغت شأوها قبيل نهاية صاحب الزنج ، إذ يروى أن زعيم القرامطة قابل يوما صاحب الزنج ، وقال له : إني على مذهب ورأى ، ومعى مائة ألف ضارب سيف ، فتناظرنى فإن اتفقنا على المذهب ملت لك ، وإن تكن الأخرى انصرفت عنك ، فتناظرا فاختلفت آراؤهما فانصرف القرمطى عنه (١) ولكن يبدو أن زعيم القرامطة أدرك أن حركة الزنج كانت تميل للمغيب فلم يشأ أن يربط نفسه بها ولا شك أن هذا اللقاء يوحى بالروابط بين الحركتين الفاسدتين .

ومن معالم الوصول إلى الهدف السياسى وإقامة دولة أن اهتم القرامطة بالسلاح ، وسمح زعيم القرامطة لأتباعه — بعد أن تخلصوا من كل ممتلكاتهم — أن يمتلكوا ما يشاءون من السلاح ، ثم اتفقوا على بناء دار هجرة فأقاموا سورا في إحدى القرى بسواد الكوفة ، وجعلوا عرضه ثمانية أذرع ، ومن ورائه خندق عظيم ، وينوا داخل السور المباني الكثيرة ، وتحول الرجال والنساء إلى دار الهجرة سنة ٢٧٧ هـ كل ذلك والخليفة في بغداد مشغول بصاحب الزنج وكثرة الفتن ، وقد تسبب عن نمو قوة القرامطة أن الذين لم يتبعوا مذهبهم من الناس خافوهم وانضموا إليهم ، فلم تكن هناك قوة تحمى الناس منهم ، إذ أحل زعيم القرامطة دم المخالفين — كما ذكرنا من قبل — ولم يبق أمام القرامطة بذلك إلا أن يظهر القائد الذى يقود هذه الجحافل ليكون منهم دولة قوية ، وكان أبو سعيد الجنابى هو القائد القوى المتحمس الذى قدر له أن يقود هذه الجماعة ، وأن يؤسس دولة وراثية بمنطقة البحرين هي دولة القرامطة ، ورؤساء هذه الدولة كانوا ينعنون « السادة » وشجرة نسبهم كالآتى :

١ - أبو سعيد الجنابي

حوالى سنة ٢٨٦ - ٣٠١ هـ



ويلاحظ أن دولة القرامطة بدأت قبل الجنابي بأكثر من عشر سنوات واستمرت بعد الحسن الأعصم حتى سنة ٤٦٩ هـ أى أن عهدها كان حوالى قرنين .

وبعد الحسن الأعصم انتقلت السلطة إلى رجلين من القرامطة اسمهما جعفر وإسحق الهجريان ، أو إلى جماعة كما يقول زامبور (١) ، وسنذكر عن هؤلاء الحكام واحداً بعد الآخر .

أبو سعيد الجنابي

من حمدان إلى أبى سعيد :

قلنا من قبل ان حركة القرامطة بالبحرين ارتبطت في مطالعها برجل فارسي من الباطنية اسمه حسين الأهوازي ، وأن هذا التقى بحمدان بمنطقة الكوفة التي كانت حافلة بالسخط والثورة والتشيع والانحراف ، فألقى إليه فكره واتجاهاته ، ووجدت هذه في طبيعة حمدان أرضاً خصبة فنمت وترعرعت ، وأصبحت داره - كما قلنا من قبل - مركزاً يروج بالدعوة وبالمريدين ، وخطا حمدان خطوة أخرى لنشر الدعوة فاختار الدعاة والنقباء من بين أتباعه .

(١) معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامى ج ١

وكان من بين الدعاة رجل داهية طموح شديد الانحراف عن الإسلام هو أبو سعيد الجنابي ، وهو ينسب إلى بلدة « جنابة » وهي بلدة صغيرة على سواحل فارس بينها وبين سيراف أربعة وعشرون فرسخا (١) ويروى ثابت بن سنان أن هذا الزعيم قدم من خوزستان (٢) ولا خلاف بين الروایتين فالأولى تنسبه إلى القرية التي نشأ بها والثانية تنسبه إلى الإقليم ، وقد أحسن هذا استقبال دعوة حمدان وأصبح من أشد المتحمسين لها ، ولكن أبرز شيء نسبته إليه هو حسن اختيار المكان الذي ينشر فيه دعوته فقد اتجه دعاة حمدان ونقباؤه هنا وهناك فخفتت أصواتهم ، وقتلتها المقاومة التي كان يقوم بها المسلمون صادقوا الإسلام وحماته ، أما أبو سعيد فاختار منطقة البحرين على مقربة من بلاد فارس حيث الأرض المخصصة للدعوات الشاذة ، وانحدر أبو سعيد إلى القطيف ليغرس هذه الدعوة التي وجدت لها أخصب البقاع .

وهكذا نجدنا أمام تحوّل هائل للدعوة القرمطية ، تحوّل وضع حدًا للكوفة وبقاعها لتبرز بديلا عنها منطقة البحرين ، وتحوّل عن حمدان ودعائه إلى أبي سعيد الجنابي الذي أصبح محور الدعوة وأساس نجاحها .

أبو سعيد في القطيف :

نزل أبو سعيد القطيف حوالي سنة ٢٨٦ هـ وكانت القطيف آنذاك — كما يقول المقرئ (٣) — مدينة عظيمة واسعة ، وكان رجالها أشداء جهالا ، وفي القطيف جلس أبو سعيد يبيع الدقيق ، واصطنع حسن المعاملة مع الناس ، ليختار منهم من يقدم له دعوته ، واستطاع أن يعثر

(١) المقرئ : الحسن الأعصم ص ٩٥ من كتاب (تاريخ أخبار القرامطة) وياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ١٤٢ .
(٢) تاريخ أخبار القرامطة ص ٧ .
(٣) اتعاظ الحنفا : ص ٢١٢ .

بسهولة على طلبته ، وكان أول من استجاب له بنو سنبر (١) ويوما بعد يوم ذاعت دعوة أبى سعيد بين الناس ، ووجدت قبولا عند الكثيرين ، فتفرغ لها أبو سعيد ، وترك التجارة ، وأخذ ينفق على الدعوة مما كان عنده من مال ، ومما قدمه له الاطامعون من أتباعه .

وتقدم أبو سعيد خطوة أخرى فأتجه إلى الأعراب والنبطيين الذين يعيشون حول منطقة البحرين ومناهم بالغننى والجاه ، وكان الغنى والجاه أهم ما يسعى إليه هؤلاء الناس ، فاستجابوا بحماسة للدعوة الجديدة في انتظار أن يحققوا بذلك أحلامهم ، وقدم لهم أبو سعيد هدية انتفعت مع ميولهم هي إعفاؤهم من التكاليف الدينية ، وكان ذلك تبعا للفكر الذى يقرر أن معرفة الإمام تغنى عن التكاليف الدينية الأخرى .

وكان فى هذه المنطقة بقايا من الزنج الذين فشلت حركتهم فمادوا إلى العناء وشظف العيش ، وقد وجد هؤلاء فى دعوة أبى سعيد تجديدا لآمالهم وبخاصة أنه لم يكن لهؤلاء مبادئ ، وكان المال كل هدفهم ، وكان أبو سعيد يمتنى أتباعه بالجاه والمال — كما سبق — فانحاز إليه هؤلاء وأخلصوا لدعوته (٢) .

وأصبح لأبى سعيد بذلك أتباع كثيرون يرون فى انتصاره نصرا لهم ، فاستطاع أبو سعيد أن يستولى بهم على القطيف وعلى ما جاورها من مدن وقرى ، وترك الأتباعه أن يسلبوا من الأموال ما شاءت لهم نفوسهم ، وكان ذلك أعظم تشجيع يقدمه أبو سعيد لأتباعه فزاد هؤلاء له إخلاصا ولجأته تأييدا .

وأخذ أبو سعيد يضرب هنا وهناك ، وكان النصر حليفه فى أكثر

(١) المقرئى : الحسن الاعصم من كتاب تاريخ أخبار القرامطة

ص ١٠٣ .

(٢) انظر دول الاسلام الذهبى (عهد المعتمد العباسى) .

المعارك التى خاضها وقد استطاع بذلك أن يوسع دائرة نفوذه حتى شملت منطقة البحرين ، وامتدت امتدادا فسيحا على الخليج العربى وضمت بعض مناطق البدو المجاورة لمنطقة الخليج •

وقد اتجه أبو سعيد إلى مهاجمة مناطق متعددة فى العراق والشام وعمان والحجاز ومصر ، وربما لم يكن يطمع فى الاستيلاء على كل هذه المناطق ، ولكن كان على الأقل يرمى إلى السلب والنهب لإثباع مطامع أتباعه ، كما كان يرمى إلى تهديد الخلافة العباسية ، وكان بعض أتباعه من أمثال زكرويه اللعين يعشقون إراقة الدماء لاذاتها تنكيلا بالمسلمين ، وسعيا وراء إيقاف ما يستطيع إيقافه من مبادئ الإسلام كتعطيل الحج بانتهاك حرمة البيت الحرام ، والعدوان على الحجاج ، وتعطيل الصلاة بتدمير المساجد •

ويصف المؤرخون الفظائع التى ارتكبتها زكرويه مع الحجاج رجالا ونساء وأطفالا ، فيذكرون أنه كان يسد الآبار بجيف القتلى حتى يموت الحجاج عطشا ، وكان بعد المعارك يأمر نساء القرامطة أن يدرن بالماء بين الجرحى ليتعرفن بذلك على الجرحى الذين لم يموتوا بعد ليقتلهم (١) •

أما تنكيل القرامطة بالمسلمين فى البلاد التى دخلوها فيرويهما ثابت ابن سنان بقوله إن القرامطة دخلوا حماة ومعرة النعمان وغيرها فقتلوا أهلها ، وقتلوا النساء والأطفال ، ودخلوا بعلبك فقتلوا أهلها ولم يبقوا منهم إلا القليل ، وصالح أهل سلمية زعيم القرامطة بعد أن أمنهم فلما دخلها قتل جميع من فيها من بنى هاشم ولم يبق منهم أحدا ، وقتل النساء والصبيان والفقهاء والشيوخ والبهايم وخرج القرامطة منها وليس

(١) ثابت بن سنان : تاريخ اخبار القرامطة ص ٣٢ - ٣٣ •

بها عين تطرف ، ودخلوا في القرى المجاورة يسلبون ويقتلون وينهبون
ويأتون من المنكرات مالا عين رأت ولا أذن سمعت (١) .

وقد حاولت الخلافة العباسية إيقاف هذا الباطل بقدر طاقتها فخرجت
جيوشها لمواجهة اللعين زكرويه بعد الذي قام به ضد الحجيج ونشبت
معركة هائلة في ربيع الأول سنة ٢٩٤ هـ بين الفريقين وقد انتصر جنود
الخلافة انتصارا باهرا في هذه المعركة ، وسقط من القرامطة عدد لا
يحصى ، وضرب زكروية ضربة سقط منها يتلوى وحمل هو وآله أسرى ،
ومات بعد خمسة أيام (٢) .

وإذا كانت الخلافة العباسية حققت نصرا في هذه الموقعة فإن
القرامطة طالما حققوا انتصارات ضد الأمنين وضد الجيوش العباسية
على السواء .

وقد استطاع أبو سعيد بالدعاية تارة وبالحروب تارة أخرى أن يكون
دولة فسيحة في منطقة البحرين ، وفيما جاورها من مناطق الأعراب حكمها
هو وأولاده من بعده حوالي قرنين من الزمان .

نهاية أبي سعيد :

وفي سنة ٣٠١ هـ قتل الجنابي وكان قاتله خادما صقليا كان ضمن
الأسرى الذين حصل عليهم القرامطة في صراعهم ضد جيوش الخلافة
العباسية في البصرة ، وكان هذا الخادم يبدو عليه النشاط والذكاء ،
فاضطنعه أبو سعيد ، وجعله من المقربين إليه ، وبمرور الزمن تحقق
الخادم مما كان يشاع عن القرامطة من الانحراف الديني ، إذ لم
يشاهد سيده قائما للصلاة أو صائما في رمضان ، ومن هنا أسره الخادم

(١) ثابت بن سنان : تاريخ أخبار القرامطة ص ٢٠ - ٢١ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٥ .

في نفسه أمرا ، فانتهاز فرصة دخول سيده الحمام ، وكان هو حارس باب الحمام لسيده فاندفع الخادم نحو سيده ومعه خنجر حاد وقضى عليه ، ثم خرج الخادم وهمس في أذن قائد من خاصة أبي سعيد كأنما يطلبه لمقابلة الحاكم ، ولما خلا الخادم بهذا القائد قتله أيضا ، وفعل ذلك بأربعة آخرين من رؤساء القرامطة ، ولم يفتن للخطر إلا الخامس فقبض على الخادم وقتله (١) .

سعيد بن أبي سعيد

سعيد هو أكبر أبناء أبي سعيد ، وبه كان أبوه يكتنى ، وكان أبو سعيد قد عهد له بالأمر من بعده ، ولكن كفاءته لم تكن تملأ الفراغ ، فعجز عن القيام بالأمر ، وتقدم أخوه أبو طاهر سليمان فامتنك زمام الدولة وأصبح الحاكم الجديد لها .

أبو طاهر سليمان

إذا كان أبو سعيد الجنابي قد أقام دولة القرامطة بالبحرين ، فإن ابنه أبا طاهر سليمان اتجه لتثبيت الدولة ، ووضع نظمها السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي سنبحثها فيما بعد ، ولكن تثبيت الدولة لم يكن يسيرا ، فالخلافة العباسية لم تدع له فرصة للاستقرار ، وأرادت القضاء على انحرافه وانحراف دولته ، ومن ثم قام صراع مرير بين القرامطة والعباسيين ، وكان أبو طاهر فيما يبدو محبا للدماء ، فاتجه بشراسة إلى سفك الدماء ونهب الأموال ، والقتل والتدمير دون وازع أو ضمير ، ومما يروى من شعره في ذلك قوله :

أنا بالله وبالله أنا يخلق الخلق وأفنيهم أنا (٢)

(١) المرجع السابق ص ٣٦ والكامل لابن الأثير ج ٨ ص ٨٤ .

(٢) حسين أحمد النجفي : تاريخ الكوفة ص ٣٧٥ .

ومع أن اتجاهنا في هذه الدراسة لا يميل إلى تفاصيل الأحداث في الحروب ، فإن دراسة تاريخ القرامطة تحتم أن نتخطى هذا الاتجاه ، وأن نعطي بعض التفاصيل عن المعارك ، لأن تاريخ القرامطة ، وبخاصة في هذه الفترة ليس إلا تاريخ الدم المراق ، والقرى التي التهمت النيران ، والمال المسلوب ، وقد اتسع صراع أبي طاهر ، فشمل عدة مناطق ، ولكن البصرة والكوفة والحجاز نالت من العسف والعدوان أكثر مما حل بسواها ، ولذلك نتكلم عن كل من هذه البلاد كلمة بقدر ما يتسع المجال .

وقد ابتدأ أبو طاهر صراعه ضد البصرة سنة ٣٠٧ هـ حيث هاجمها بقواته واستباحها ثم رجع عنها ، أما الجولة العاتية التي عانتها البصرة من أبي طاهر فقد حدثت سنة ٣١١ هـ ويحكى ابن الأثير قصتها فيقول : سار أبو طاهر في قوة قوامها ١٧٠٠ رجل ، حيث تمكنوا من دخول المدينة بعد أن تسلقوا سورها ، ونجحوا في فتح بابها وقتلوا الموكلين به ، وعلم والى البصرة بما كان من القرامطة فتوجه إليهم في قوة من جنده ، واشتبك معهم في قتال عنيف ، تمكن القرامطة خلاله من قتله ، ووضع السيف في رقاب أهل البصرة ، وأسفرت الموقعة عن انتصار ساحق للقرامطة ، فقتل من أهل البصرة الخلق الكثير ، واندفع بعضهم إلى الماء فغرقوا فيه ، وظل أبو طاهر وجنده في البصرة سبعة عشر يوما جمعوا خلالها ما استطاعوا جمعه من المال والأمتعة والسبايا ، ثم عادوا إلى هجر (١) .

وبعد البصرة اتجه أبو طاهر إلى الكوفة سنة ٣١٢ هـ ، وقد استطاع أن ينتصر على جند الخلافة ، وكان يقودها جعفر بن ورقاء الشيباني ، ودخل أبو طاهر وجنده الكوفة وسلب منها ودمر كما شاء ، وعاد أبو طاهر للكوفة مرة أخرى سنة ٣١٥ هـ ، فأرسلت الخلافة العباسية جيشا لمقابلته بقيادة يوسف بن أبي الساج ، ولكن القرامطة دخلوا الكوفة قبل

أن يصل هذا الجيش ، وسلبوا ما كان بها من طعام وأموال ، ولما وصل جيش أبي الساج قابله القرامطة ، ودارت بين الفريقين معركة كبيرة انتصر فيها القرامطة ، وقتلوا ابن أبي الساج وأسروا عددا كبيرا من جنده (١) .

وإذا انتنينا إلى الحجاز وجدنا هجمات القرامطة متصلة وقاسية على مكة المكرمة ، وعلى الطرق المؤدية لها ، وعلى الحجاج الوافدين من مختلف البقاع ، ففي سنة ٣١٢ هـ اعترض أبو طاهر وأتباعه الحجاج ، وهم في طريق عودتهم من مكة ، وأنزلوا بهم السوء وأخذوا أموالهم وأمتعتهم وقتلوا منهم عددا يقدره (ابن تغرى بردى) بأكثر من ألفين ، وأسروا مثل هذا العدد ، وعاد أبو طاهر بالأموال والأسرى إلى هجر (٢) .

وفي سنة ٣١٧ هـ دخل أبو طاهر سليمان مكة ، فأوقع بأهلها وهاجم الحجاج وهم متعلقون بأستار الكعبة ، فقتل منهم وأسر ، واقتلع الحجر الأسود ، كما اقتلع أبواب الكعبة وجردها من كسوتها ، واستولى على ما كان بها من آثار وتحف ، كما استولى على أموال أهل مكة وعاد بكل ذلك إلى هجر (٣) .

وكان اقتلاع الحجر الأسود والعدوان على الحجاج فاجعة كبرى أثارت سخط المسلمين في كل جانب ، وضاعفت كراهية الناس للقرامطة ، وأكدت انحرافهم عن الإسلام ، وجهودهم لتدميره ، وتعطيل ركن مهم من أركانه .

هل قصد القرامطة من اقتلاع الأسود ومن العدوان على الحجاج أن يظهروا الخلافة العباسية بمظهر الضعف ليثبتوا بذلك مكانهم ؟

(١) المرجع السابق ص ١٦٢ .

(٢) النجوم الزهرة : ج ٣ ص ٢١٢ .

(٣) غريب بن سعد : صلة تاريخ الطبري ج ١٢ ص ٧٠ .

- هل قصدوا بذلك المساومة على الحجر لينالوا المال نظير إعادته ؟
- هل كان أبو طاهر يرمى إلى جذب الحجيج إلى هجر بدلا من مكة ؟

يمكن أن نجد في التاريخ إجابات مختلفة لهذه الأسئلة ، ولكن الذي نعتقد أن القرامطة في هذه الآونة كانوا يتصرفون بدون أهداف واضحة إلا هدف السلب والنهب والتدمير ، ليرضى الرعايا والغوغاء الذين كانوا يكونون الجزء الأكبر من القرامطة •

ومع أن الخلافة الفاطمية كانت قد قامت آنذاك في الشمال الإفريقي ، ومع أن هذه الخلافة كان يهملها تدمير سمعة العباسيين وتدمير هيبتهم ، ومع أنه كانت هناك صلات بين الفاطميين وبين القرامطة ، مع هذا فإن الفاطميين ساءهم أن يصل الأمر بالقرامطة إلى اقتلاع الحجر الأسود وأخذ من مكانه بالبيت الحرام إلى هجر ، فكتب الخليفة الفاطمي إلى أبي طاهر يلومه على فعلته ويأمره أن يرد الحجر الأسود إلى مكانه ويرد على أهل مكة ما أخذ من هجر • وختم الخليفة الفاطمي رسالته إلى أبي طاهر بقوله : وإن لم تفعل ذلك فأنا بريء منك في الدنيا والآخرة (١) •

ويبدو أن أبا طاهر كان قد اتجه للتمرد على كل القوى ، فاطمية كانت أو عباسية ، ولذلك لم يستجب لطلب الخليفة الفاطمي كله ، واقتنع بأن رد بعض الأموال إلى أصحابها ، ولم يرد الباقي مدعيا أنه أنفق على الجند ، كما لم يرد الحجر الأسود ، بل استبقاه ليهدد به • ولم يعد الحجر الأسود إلى مكانه إلا بعد وفاة أبي طاهر بسبع سنوات وكان ذلك في عهد أحمد أخيه سنة ٣٣٩ هـ ، وكان ذلك إجابة لطلب فاطمي جديد تقدم به الخليفة المنصور الفاطمي (٢) • وقال القرامطة أخذناه

(١) ابن الاثير : ج ٥ ص ٢٨٠ •

(٢) دكتور محمد جمال الدين سرور • سياسة الفاطميين الخارجية

بأمر ونعيده بأمر ، وقد بقى عندهم اثنين وعشرين عاما (١) .
بقى أن نذكر التعليك الذى يقوله القرامطة لعدوانهم على بيت الله
الحرام وعلى مساجد المسلمين ؟

يقول القرامطة إن سبب ذلك أننا وجدنا أن الحجاج يرنكبون الكثير
مما يخالف الإسلام ، وأن الأموال التى يحجون بها فيها الكثير من
السحت وأموال اليتامى ، وأن المساجد يدرس فيها الكثير من الأحاديث
المكذوبة على الرسول ، ويجلس للتدريس بها شيوخ فجرة يؤيدون كل
خليفة مهما جار أو غشم ، ولا يحفظون هبة العلم (٢) .

وفيما يلى كلمات أبى تظاهر سليمان يشرح فيها للخليفة الفاطمى
بإفريقية سبب ما أنكره عليه فى هذا الشأن : أما ما ذكرت من قتل
الحجيج ، فوالله ما فعلت ذلك إلا بعد وضوح الحجة كاتضح الشمس ،
فقد ادعى هؤلاء أنهم أبرار وعابنت فيهم أخلاق الفجار ، فحكمت عليهم
بحكم الله ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، وأما ما ذكرت
من إحراق المساجد ، فأى أماكن أحق بالخراب من مساجد إذا توسطتها
سمعت الكذب على الله تعالى وعلى رسوله بأسانيد عن مشايخ فجرة بما
أجمعوا عليه من الضلالة وابتدعوا من الجهالة (٣) .

وقد نظم الشاعر العيونى « ابن مقرب » قصيدة طويلة ذكر فيها
آثام القرامطة ، وذكر جهدهم أسرته « الأسرة العيونية » التى سنتكلم عنها
فيما بعد ، وفى هذه القصيدة يصف الشاعر موقف القرامطة من المساجد
بقوله :

- (١) انظر الكامل لابن الاثير ج ٧ ص ١٦٢ وما بعدها و ج ٨ ص ٤٥
وما بعدها .
(٢) انظر كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة للحمد اليماني
ص ١٤ .
(٣) على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى ص ٤٤٨ .

وما بنو مسجدا لله نعرفه بل كلما أدركوا قائما هُدِمَا

بقيت كلمة عن المعارك الدموية الأخرى التي خاضها القرامطة ، وفي هذا المجال نذكر ان أحاديثنا عن معارك البصرة والكوفة والحجاز ينبغي ألا تنسينا أن القرامطة هاجموا مناطق أخرى في الجزيرة العربية والعراق سالبين ومدمرين ، ومن هذه المناطق عين القمر والأنبار ، بل هددوا بغداد نفسها ، وأصبح اسمهم يثير الخوف والذعر في جميع الأنحاء .

القرامطة والفاطميون في عهد أبي طاهر :

مما يذكر عن أبي طاهر أن علاقة القرامطة في عهده بدأت تسوء مع الخلافة الفاطمية ، وقد سبق أن ذكرنا أن الإسماعيلية والقرامطة شعبتان من الباطنية ، وان المشعبتين كانتا تتفقان في محاولة النيل من الخلافة العباسية ، فلما قامت دولة القرامطة في البحرين ، والدولة الفاطمية في الشمال الإفريقي بدأت المنافسة بين الدولتين الجديديتين ، وكان الفاطميون يطمعون في ولاء القرامطة لهم ، ولكن القرامطة كان موقفهم متذبذبا بين الولاء والتمرد وكان إلى التمرد أقرب .

ولعلنا نسبق الأحداث فنقرر أنه عندما امتد نفوذ الفاطميين إلى مصر والشام ، وامتد نفوذ القرامطة عبر الحجاز إلى الشام كذلك ، بدأ صراع عسكري بين القوتين ، ولم يهدأ هذا الصراع إلا مع ضعف القرامطة ، بعد أن نزلت بهم بعض الهزائم التي جعلت نشاطهم ينكمش وقواتهم تتراجع .

هزائم القرامطة في عهد أبي طاهر :

لم تكن حياة أبي طاهر انتصارا كلها ، بل نزلت بالقرامطة في عهده هزائم قاصمة ، ومنها هزيمته سنة ٣١٦ هـ حيث اجتمع بسواد الكوفة حوالي عشرة آلاف من القرامطة بقيادة حريث بن مسعود ، واجتمع بعين

التمر جمع كبير منهم بقيادة عيسى بن موسى ، وقد أرسل الخليفة العباسي المقتدر هارون بن عريب إلى حريث ، وأرسل صافي البصري إلى عيسى واستطاع جيشا الخلافة أن يدمروا قوة القرامطة ، فقتل عددا كبيرا من محاربيهم ، وأسر أكثر من نجا من القتل ، ويقال ان خروج أبي طاهر سنة ٣١٧ هـ للعدوان على مكة كان محاولة للتأثر لجماعته التي هزها انهزام أتباعه .

بيد أن انتصار أبي طاهر في مكة لم يكتمل على النحو الذي أراده ، فإن جموعا من قبائل هذيل بن مدركة قابلوا جنود القرامطة وهم عائدون من مكة بالأسرى والأموال ، واشتبكوا معهم في قتال استطاعوا به أن يستولوا على كثير مما كان لدى القرامطة من مال مسلوب ومتاع منهوب ، كما هيأت هذه المعركة الفرصة لبعض الأسرى ليفروا من أسر القرامطة .

نهاية أبي طاهر :

في سنة ٣٣٣ هـ مات أبو طاهر ميته مزرية ، إذ أصيب بالجدرى ، فأكله هذا المرض يوما بعد يوم حتى قضى عليه .

سابور

قلنا من قبل أن أبا طاهر سلب السلطة من أخيه سعيد الذي كان أبوه قد عهد له بها ، ودار الزمن دورته وجاء أوان الانتقام بنفس الصورة التي فعلها أبو طاهر ، فإن أبا طاهر عهد بالأمر إلى ابنه سابور ، وتولى هذا فعلا بعد أبيه ، وأحس سابور أن عمه أحمد قد يحاول أن يغتصب الأمر منه ، فألقى القبض عليه وسجنه ، ولكن سابور لم يستطع أن يدير دفة الأمر ، كما أن حيلة قوية أطلقت أحمد بن أبي سعيد من سجنه ، ومكنته من الاستيلاء على السلطة من سابور ، ووضع أحمد ابن أخيه سابور في السجن الذي كان هو فيه من قبل ، ولاقى سابور نهايته في السجن ، فلم ير النور بعد ذلك ، وزيادة في الحرص نفى أحمد بن أبي سعيد أولاد أبي

طاهر (اخوة سابور) وأشيتاعهم إلى جزيرة (أوال) (البحرين الآن)
واستقر الأمر لأحمد بن أبي سعيد *

أحمد بن أبي سعيد

قلنا آنفا ان أحمد بن أبي سعيد استولى على الحكم بالقوة والحيالة
ومع هذا فقد سارع القائم بأمر الله الفاطمي في اصدار قرار بتولية أحمد
بن أبي سعيد أمر البحرين ، وكان القائم يرمى بذلك إلى خلق جو من
الود بين الحركتين المتحدتين الأصل بالشمال الإقريقى وبساحل البحرين ،
كما كان يرمى بطريق غير مباشر إلى ابراز سيادة الفاطميين على
القرامطة ، وأن القرامطة أتباع للقوى الفاطمية ، وقد سار الفكر
الفاطمي آنذاك على محاولة احتواء الفاطميين للقرامطة ، فجدد الفاطميون
الإصرار على ضرورة رد الحجر الأسود إلى مكانه ، وكتب الخليفة
المنصور الفاطمي بذلك إلى أحمد بن أبي سعيد — كما ذكرنا من قبل —
وقد استجاب هذا ورد الحجر إلى مكانه سنة ٣٣٩ هـ وكان الذى حمله
سنبر بن الحسين بن سنبر (١) *

وعلى العموم لقد كان عهد أحمد بن أبي سعيد عهد هدنة بالنسبة
للفاطميين ، وكان بالنسبة للعباسيين عهدا قليل الحركات العدائية ، ومن
ثم فآهم ما يمتاز به هذا العهد هو تنمية النظم السياسية والاقتصادية
والاجتماعية التى عنى بها القرامطة عناية كبيرة والتى سنتكلم عنها
فيما بعد *

الحسن بن أحمد (الحسن الأعصم)

جاء الحسن بن أحمد وهو المسمى الحسن الأعصم بعد أبيه ، وقد
شهد عهد الحسن الأعصم تحولا خطيرا فى علاقات القرامطة بالخلافة

(١) المقرئى : الحسن الأعصم ص ١٠٤ *

العباسية والخلافة الفاطمية ، وقد سبق أن ذكرنا أن القرامطة هاجموا الشام ضمن ما هاجموا من أقاليم تابعة للخلافة العباسية ، وثنى انتصاراتهم وتجنبوا لإراقة الدماء تعهد والى الشام التابع للخلافة العباسية أن يدفع لهم إتاوة سنوية ، وكانت هذه الإتاوة جزءا من الكسب المادى الذى كان القرامطة يحرصون عليه •

وفى مطلع عهد الحسن الأعصم مدّ الفاطميون سلطانهم إلى مصر والشام ، وبالتالي قطعت الإتاوة التى كانت الشام تدفعها للقرامطة ، وكان ذلك جانبا مما حول العلاقة بين القرامطة والفاطمين إلى الحدة والتوتر •

وهناك جانب آخر مهم هو أن الفاطمين كانوا يشجعون القرامطة فى صراعهم ضد العباسيين ويشجعونهم فى حركاتهم المدمرة بالمناطق المختلفة بالجزيرة العربية ، وكان هدف الفاطمين من ذلك أن يشغلوا العباسيين حتى يكونوا دولتهم فى الشمال الأفريقى وفى مصر والشام ، والخلافة العباسية فى شغل شاغل عنهم •

وهناك نقطة ثالثة كبيرة الأهمية أشرنا لها من قبل وهى أن الدعوة الفاطمية ودعوة القرامطة بينهما صلة مشتركة وأصل واحد ، وبالتالي كانا يقفان فى كفتى الميزان موقفا متعادلا ، ثم حقق الفاطميون انتصاراتهم الهائلة فى الشمال الأفريقى وفى مصر والشام ، وأعلنوا خلافتهم ، وفى الوقت نفسه كانت حركات القرامطة حركات تدميرية تشبه الثورات الطارئة التى لم يوضع لها أساس متين ، وبالتالي حاول الفاطميون احتواء القرامطة ، وجعلهم جزءا من خلافتهم وممتلكاتهم ، ولم يكن قبول ذلك الموضع هينا على القرامطة !

من أجل هذا اتجه القرامطة أن يحولوا سياستهم تجاه الفاطمين من تعاون وود إلى صراع وحروب ، وقد تم ذلك التحول فى عهد الحسن

الأعصم واستلزم ذلك التحول أن يحاول الحسن مهادنة العباسيين ، والانضمام لهم في صراعهم ضد الفاطميين ، ويروى في ذلك أن الحسن الأعصم سأل الخليفة المطيع الله على لسان عثر الدولة بختيار المبوبهي — أن يوليه أمر الشام ومصر ، أو يمهده بالمال والرجال ليحارب الفاطميين ، ويخرج المعز لدين الله من القاهرة ، فرض الخليفة ذلك ، قائلا : كلهم قرامطة وعلى دين واحد ، ولكن عز الدولة بختيار ساعد الحسن الأعصم بالمال والسلاح ليقوم بالصراع ضد الفاطميين ، وحينئذ كتب المعز لدين الله إلى الحسن الأعصم كتابا يذكر فيه فضل نفسه وأهل بيته ، وأن دعوة القرامطة كانت له وإلى آبائه من قبل ، ودعا القرامطة إلى الطاعة ، وتوعدهم وهددهم إن استمروا في عصيانهم ، وسيّر الكتاب إلى القرامطة ، فكتب إليه الحسن بن أحمد ردا نصه « وصل جوابك الذي كثر تفصيله وقل تحصيله ، ونحن سائرون إليك على أثره ٠٠٠ » (١) ، وهكذا أسفر العداء بين القرامطة وبين الفاطميين ، وأسقط الحسن بن أحمد اسم المعز لدين الله من الخطبة في بلاد البحرين وأقامها باسم الخليفة العباسي المطيع (٢) ، بل أمر الحسن بن أحمد بأن يثعن المعز لدين الله هو وأبوه على المنابر ، وكان يقول : هؤلاء من ولد القداح كذابون أعداء الإسلام ونحن أعلم بهم (٣) .

والمهم الآن أن نذكر أن صراعا طويلا مريرا قام بين القرامطة وبين الفاطميين في خلال عهد الحسن الأعصم ، وشهدت سنة ٣٦٠ هـ جولات هائلة في هذا الصراع كانت الشام الفاطمية مسرحا لها ، ولم يكتف القرامطة بالشام ، وإنما اندفعوا نحو مصر ، وانضم لهم كثيرون ممن كانوا يتبعون العباسيين من أهل الشام ، واتفق القرامطة إلى مصر التي

(١) دكتور محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية

ص ٤٩ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٤ .

(٣) تاريخ أخبار القرامطة ص ٥٩ - ٦٠ .

تحصن فيها جوهر الصقلي ، وأقام الاستحكامات اللازمة ، ثم التقى جوهر بالقرامطة في عدة وقعتات في منطقة عين شمس وغيرها ، حقق القرامطة النصر في بعضها ، ولكن نزلت بهم هزائم قاصمة في البعض الآخر ، وكانت هذه الهزائم مما أوقف خطر القرامطة إلى الأبد .

مصر تنقضي على القرامطة :

قامت مصر بدور كبير في الحروب الصليبية ، وفي الصراع ضد التتار ، واشتهر هذا الدور عند القراء والمفكرين ، ولكن مصر دورا كبيرا في حروب القرامطة لم يأخذ نصيبه من الشهرة ، وقد وضعه ثابت بن سنان في كتابه عن تاريخ القرامطة ، ونحن نقتبس منه بعض كلماته في هذا المجال :

— في شهر جمادى الأولى سنة ٢٩٠ حاصر القرمطي مدينة دمشق وضيق على أهلها وقتل أصحاب طنج بن جئف واليها ، وأشرف أهل دمشق على المهالك . فأمم المصريون أهل دمشق بمجموعة من الجنود والقادة فقاتلوا القرامطة وهزموهم أشد هزيمة وقتلوا زعيمهم الذي كان يزعم أنه إذا أشار بيده إلى الجهة التي فيها محاربوه انهزموا ، وكان يكنى « أبو يحيى : الشيخ » (١) .

— في شوال من السنة نفسها وقعت محاربة بين القرمطي وجيش مصر في عهد أحمد بن طولون ، فانهزم القرمطي ولم يقدر على المقاومة لشدة بأس جيوش مصر وجسارتهم وصبرهم على القتال وما أظهره من الشجاعة ، ففكوا بالقرامطة فككا ذريعا ومزقوهم كل ممزق (٢) .

— وصل القرامطة في مصر إلى مدينة تقرب من « عين شمس » سنة ٣٠٦ هـ فخرج لهم جند مصر وحملوا على القرامطة من الميمنة فانهزم

(١) المرجع السابق ص ١٩ .

(٢) تاريخ أخبار القرامطة ص ٢٣ .

من بها وتراجعوا إلى خيام القرامطة ، ولحق بهم جند مصر فدمروا خيامهم ، وكبسوهم فيها ، فاضطروا إلى الهزيمة وولوا الأدبار راحلين إلى الشام (١) .

ويذكر المؤرخون أن الجيوش الزاحفة من مصر ضد القرامطة قامت ببعض الحيل العسكرية التي يسرت انتصارها ، فقد استطاع جوهر أن يديس رجالا من عنده من الذين يثق فيهم بين جموع القرامطة ، وهناك تظاهر هؤلاء بالسخط على الفاطميين وعلى كراهيتهم ، ولكنهم كانوا يعملون في الخفاء على إحداث أنواع من الخلاف والنزاع بين جموع القرامطة ، كما أنهم كانوا عيونا لجوهر في صفوف القرامطة فنقلوا له — سرا — خطط هؤلاء وأحوالهم ، مما مكن لجوهر من إفساد خططهم والإيقاع بهم (٢) .

وهناك حيلة مماثلة قام بها المعز لدين الله بأن راسل حسان بن الجراح الطائي أمير العرب بالشام الذي كان قد انضم إلى القرامطة في هجومهم على مصر ، وقد استطاع المعز أن يستميل حسانا إلى جانبه سرا ، وقدم له عطايا مالية سخية — وتم الاتفاق بين الاثنين على أن يتظاهر حسان بتأييد القرامطة ثم ينهزم عنهم في اللحظة معينة ويتركهم هو ورجاله نهبا لجيش المعز ، وقد نفذ حسان هذا الاتفاق ، فاضطرب القرامطة وانهزم جيشهم هزيمة ساحقة ، وسقطوا بين قتيل وأسير (٣) .

ولما جاء العزيز بالله مال إلى سياسة المهادنة مع القرامطة وانهج لجذبهم لجانبه حتى لا يستمروا قوة هائلة في جانب أعدائه العباسيين ، ومن أجل هذا راسلهم ، واتفق معهم على العودة للعلاقات الطيبة مع

(١) المرجع السابق ص ٥٨ .

(٢) دكتور حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ٥٩ .

(٣) تاريخ أخبار القرامطة : ص ١٠٧ .

(م ٣٧ - التاريخ ج ٧)

الفاطميين ، على أن يكون هناك صفح شامل لكل ما ارتكبه القرامطة من مخالفات وما أسالوه من دماء ، وعلى أن يخلى القرامطة المشام ويعودوا إلى البحرين ويقدم الفاطميون للقرامطة مساعدة مالية تدرها ثلاثون ألف دينار ، وقد تم الاتفاق على ذلك ، وأمن العزيز بالله بذلك جانبهم ، وانحسرت قوات القرامطة في الإحساء (١) .

وعلى هذا فقد كان عهد الحسن الأعصم عهدا حافلا بالتحركات والاتجاهات ، ولكنه وضع القرامطة في مواجهةٍ لمصر ألحقت بهم أئده الهزائم مما جعل دولتهم تتجه للفتور ، وتميل نحو النهاية .

أدب الحسن الأعصم :

كان الحسن الأعصم شاعرا مجيدا ، يروى أنه لما نزل الرملة أحضر إليه الخدم في بعض الليالي شموعا ، فقال لكشاجم كاتبه : يا أبا نصر ، ما يحضرك في صفة هذه الشموع ؟ فقال كشاجم : إنما نحن في مجلس السيد لنسمع من كلامه ونستفيد من أدبه ، فقال الحسن بن أحمد في الحال مرتجلا :

ومجدولة مثل صدر الفتاة

تعرت وباطنها مكتسى

إذا غازلتها الصبا حركت

لساننا من الذهب الملمس

ومن شعره قوله :

إني امرؤ ليس من شأني ولا أربى

طبل يزن ولا ناي ولا عود

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠ .

ولا اعتكاف على خمر ومجمرة
وذاك دك لها سحر وتجديد
ولا أبيت* بطيّن البطن من شبع
ولى رفيق* خفيص* البطن مجهود
ولا تسامت بى الدنيا إلى طمع
يوما ولا غرنى فيها المواعيد

رمن مختار شعره أيضا :

له مقلّة صحت ولكن جفونها
بها مرض يسبى القلوب ويتلف
وخذ* كورد الروض يتجنّى بأعين
وقد عزّ حتى أنه ليس يتطف
وعطفة صدغ لو يعلم عطفها
لكان على عشاقه يتعطف (١)

بعد الحسن بن أحمد

ذكرنا من قبل أن أحمد بن أبى سعيد نفى أولاد أخيه أبى طاهر
سليمان إلى جزيرة أوال ، وكان ذلك العمل مطلع التقسام داخلى خطير
في جبهة القرامطة ، وقد اتضح ذلك إبان الصراع بين الحسن الأعصم
وبين الفاطميين ، فقد انتهز كثير من القرامطة الفرصة ليتجهوا نحو
إخراج الأمر عن أولاد أبى سعيد جميعا ، وأن يتمردوا على الحسن
الأعصم نفسه ، وبوفاة الحسن الأعصم نجح هذا الاتجاه ، إذ اختير
رجلان من هجر هما جعفر وأسحق الهجريان ، فقاما بأمر القرامطة ،
وعادا للموالء الشامل مع الفاطميين ، وبالتالي لمصارعة العباسيين •

(١) المقرئى : المرجع السابق ص ١١٠ - ١١١ .

وكان هذا الانقسام بين أبناء أبى سعيد الذين يعيشون فى الإحصاء والذين يعيشون فى أوال ، ثم كان التنافس بين القادة الجدد ، كان هذا وذلك بالإضافة إلى الهزائم التى منى بها القرامطة ، من أسباب الانحدار بهم نحو النهاية التى سنتحدث عنها فيما يلى :

نهاية القرامطة :

ليس هناك تاريخ محدد لنهاية القرامطة ، ويقولون إنه لا يزال هناك بعض القرامطة يعيشون فى الأحساء حتى العهد الحاضر ، أما دولة القرامطة فقد كانت نهايتها بطيئة ، ولم تسقط دفعة واحدة ، وإنما ظهرت عليها علامات الضعف ، واستمر الضعف يزداد والمشاكل تتجمع مدة طويلة حتى كانت النهاية الحاسمة ، وسنحاول فيما يلى السير مع دولة القرامطة ، وهى تضعف ثم تكبو ثم تختفى :

ولعل من أهم أسباب ضعف القرامطة وقوعهم بين أعظم قوتين فى العالم الإسلامى ، وهما القوة العباسية والقوة الفاطمية ، ولم يكن فى طوق القرامطة أن يقاوموا هاتين القوتين الكبيرتين .

ثم كان هناك الانقسام الذى حدث فى صفوف القرامطة ، ويذكر التاريخ أن صفوف القرامطة عرفت الانقسام فى عهد مبكر ، فى روى ابن الأثير أنه فى سنة ٣٢٦ هـ أوقع الله بين القرامطة فتحاربوا فقتل أشراؤهم كفارهم ، ولو يعودوا يخرجون من هجر للعدوان على الآخرين (١) .

ومن الواضح أن هذا الانقسام حدث فى السنين الأخيرة من عهد الطاغية أبى طاهر ، وكان ذلك مطلع انقسام لم تختف معاملة ، فبعد أبى طاهر استطاع أحمد أخوه أن يسلب السلطة من أولاد أخيه وأن ينفيهم إلى جزر (أوال) كما ذكرنا من قبل .

ومن ثم أصبحت هذه الجزر مركزا للمناوئة ضد القرامطة فى

(١) الكامل فى التاريخ : حوادث سنة ٣٢٦ هـ .

الأحساء ، ولما أسفر الحسن الأعصم عن عدائه للفاطميين أيد الفاطميون أحفاد أبي طاهر ضد الحسن الأعصم ، وانتهزت العناصر غير الشيعية بجزر أوال فرصة الانقسام بين جماعات القرامطة ، فأيدت أحفاد أبي طاهر الذين أبدوا نوعا من الابتعاد عن الانحراف القرمطي لينتسب لهم التعاون مع العناصر المعادية للحسن الأعصم .

ومن الانقسام كذلك ما حدث بين جعفر واسحق اللذين آلت لهما السلطة في الأحساء بعد الحسن الأعصم ، ومن الطبيعي أنه يوم تكون هناك سلطة لرئيسين أو عدد من الرؤساء في وقت واحد سرعان ما يبرز الانقسام واختلاف الرأي فالخصام .

ومن أسباب ضعف القرامطة صراعهم ضد مصر الذي تحدثنا عنه من قبل ، وما أنزلته بهم مصر من هزائم قصمت ظهورهم ، وجعلتهم إلى حد كبير يوقفون هجومهم على الآخرين .

وفي سنة ٣٧٨ هـ جمع رجل من بنى المنتفق يعرف بالأصفر جمعا كبيرا من الرجال ، وقصد بلاد القرامطة فخرج القرامطة للقاءه ، وكان بينه وبينهم وقعة شديدة قتل فيها قائد القرامطة وانهزم جيشه وأسر منه عدد كبير ، وسار الأصفر إلى الأحساء فتحصن منه القرامطة ولم يستطيعوا الخروج للقاءه ، فعدل إلى القطيف ، وأخذ ما كان فيها للقرامطة من الأموال والعبيد والمواشي ، وسار بهم إلى البصرة ، ويقول ابن الأثير بعد أن روى خبر هذه الموقعة : إن القرامطة بعد هذه الموقعة لم ينتصر لهم جيش ، ولزموا أراضيهم (١) .

وإذا كان القرامطة قد لزموا أراضيهم ولم يعودوا يستطيعون الخروج منها للغزو ، فإن ذلك فتح بابين كبيرين ساءدا في القضاء عليهم ، أما الباب الأول فهو تخلي البدو الغوغاء عنهم ، هؤلاء الذين كانوا يؤيدون القرامطة سعيا وراء مشاركتهم فيما يحصلون عليه من غنائم .

(١) الكامل في التاريخ : حوادث سنة ٣٧٨ هـ .

وأما الباب الثانى فهو إتاحة الفرصة لبعض البلاد التى كانت خاضعة لهم لتخرج عليهم ، وتعلن استقلالها عنهم وذلك مثل عثمان التى هب أهلها من الإباضية ومن الأزد معلنين ثورة عارمة ضد القرامطة حتى أخرجوهم من البلاد ، وأعادوا لبلادهم استقلالها (١) .

ومع مطلع القرن الخامس الهجرى كان الانقسام الذى أشرنا إليه من قبل بين أوال والأحساء قد اتجه بأوال إلى الاستقلال عن الأحساء ، وبنى بها سكانها مساجد ، وأقاموا خطب الجمعة باسم الخليفة العباسى ، وسرعان ما تحررت هذه الجزر من حكم القرامطة .

بل أصبحت أوال مركزا للصراع ضد الأحساء فقد أرسلت الخلافة العباسية جيشا ليساعد أوال فى الهجوم على الأحساء ووقعت موقعة خطيرة فى الأحساء سنة ٤٦٩ هـ بين جيش أوال ومؤيدا بجيش العباسيين وبين القرامطة ، ونزلت بالقرامطة فى هذه الموقعة هزيمة قاصمة كانت أساسا لنهاية دولة القرامطة ، وتسمى هذه الموقعة « موقعة الخندق » (٢) .

وقد وضعت (موقعة الخندق) الأساس لنهاية القرامطة الذى سنرويه فيما يلى :

عندما ضعف القرامطة تصدى قادة العرب فى منطقة البحرين للقضاء عليهم ، وقد اشترك فى ذلك ثلاث فرق عربية كبيرة :

— الفرقة الأولى بقيادة عبد الله بن على الثعيونى وهو رجل من بنى عبد القيس ، يسكن مشارف العيون بالأحساء واذلك يسمى العيونى : فطمع فى أخذ الأحساء من القرامطة ، وثار عليهم ، ودارت بينه وبينهم عدة معارك أذغنوا فى نهايتها وذلوا وسلموا الأحساء لعبد الله بن على العيونى .

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٩٣ .

(٢) دكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج ٤ ص ٢٥٠ .

— الفرقة الثانية بقيادة البهلول محمد بن يوسف ، وكان البهلول في جزر البحرين ضامنا لحوس هذه الجزر للقرامطة ، فلما ضعف شأن القرامطة بسبب الصراع بين أوال والأحساء طمع في الاستقلال بهذه الجزر عن هؤلاء وأوائك وأظهر العصيان ، فأرسل القرامطة إلى قبائل عبد القيس وقالوا لهم استرجعوا هذه الجزر لكم لا لنا ، ونحن نساعدكم في ذلك ، فخرج جيش من عبد القيس ومن القرامطة ، ولكن البهلول استطاع أن يقضى على هذا الجيش ، فاستقر له الأمر في هذه الجزر .

— الفرقة الثالثة بقيادة يحيى بن عياش ، وقد ثار في القطيف وطرد منها عمال القرامطة ، واستولى عليها وقويت شوكته وعجز القرامطة عن استرجاع القطيف منه .

وكان العالم الإسلامي قد انقسم إلى دويلات ، وكان المنتصر في أرض يستولى عليها ويعد أميرا لها ولا يربطه بالخلافة العباسية إلا خيط ضئيل . ومن هنا فإن هؤلاء المنتصرين لم يسلّموا الأرض التي خلصوها من القرامطة إلى الخلافة ، بل كون كل منهم لنفسه إمارة في منطقة ، وانتهت بذلك دولة القرامطة سنة ٤٦٩ هـ بعد حوالي قرنين من التدمير وسفك الدماء ، والبدء لليل من آخر .

نظم القرامطة

السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية

على الرغم مما عرف عن القرامطة من حب للتدمير وسفك الدماء ، كانت لهم نظم سياسية واقتصادية وعسكرية واجتماعية جديدة بالدراسة ، وأغلب الظن أن حركة التدمير التي قاموا بها كان جديرا بها أن تقضى على دولتهم في وقت قصير ، كما حدث للزنج ، لولا هذه النظم التي حمت الدولة ، وأطالت عمرها إلى حوالي القرنين (١) .

(١) انظر تحفة المستفيد لمحمد بن عبد الله الانصاري ج ١ ص ١٠٠ وملوك العرب للريحاني ج ٢ ص ٢٥٠ .

وفي ختام دراستنا عن القرامطة نعطي لمحة عن هذه النظم :

غفى مجال النظام السياسى كان هناك مجلس شورى هو الذى يدرس أمور الدولة السياسية والاقتصادية والعسكرية ، ويتخذ فيها القرارات التى يراها ، وكان هذا المجلس يسمى مجلس « القعدانية » ويتكون من أبرز الشخصيات فى النواحي السياسية والادارية ، وكان عدد أعضائه اثنى عشر عضوا (١) أو ستة فى بعض الروايات (٢) .

ومن الناحية الاقتصادية وضع القرامطة نظاما أقرب إلى ما يسمى الآن بالنظام الاشتراكى ، أو حتى النظام الشيوعى ، فقد جعلوا الدولة تملك كل شىء ، وتنفق على الرعايا حسب حاجتهم ، وقد سبق أن ذكرنا أن القرامطة جمعوا أموال كل قرية فى موضع واحد منها ، وأقاموا رجلا من الثقات ، يرعى هذه الأموال من غنم وبقر وحلى ومتاع وغير ذلك ، ويقدم للناس جميعا الطعام والكساء بما يكفيهم ويسد حاجتهم ، حتى لم يبق فى البلاد فقير ولا محتاج .

ويذكر عارف ثامر (٣) أن القرامطة لم يكن عندهم ضرائب ولا أعشار ، وإذا احتاج أحدهم إعانة أعانه الآخرون ، وكل غريب ينزل أرض القرامطة وله صناعة كان يعطى ما يكفيه من المال ليشتري ما يلزم لإنهاض صناعته من مال وآلات ، وكانت عندهم بيوت لسكنى الغرباء على حساب الجميع .

وفي الناحية العسكرية أدرك القرامطة أن إخلاص الجند يرتبط بمدى إغداق الأموال عليهم ، ومن هنا كان سخاؤهم الواسع على رجال جيئهم ، وعلى البدو الذين كانوا يساعدونهم فى الحروب .

(١) دكتور عبد العزيز الدروى : دراسات فى العصور العباسية المتأخرة

ص ٢٧ .

(٢) المقرئى : الحسن الاعصم ص ١٠٤ .

(٣) القرامطة ص ٧٧ .

أما الجيش القرمطى ، فقد عنى أبو سعيد بوضع الأسس التى توفر له جيشا يجمع بين الإخلاص والولاء وحسن التدريب ، وعلى هذا كان يختار من سن الرابعة من تبدو عليه الصحة والعافية ، ويجمعهم فى دور محصنة لذلك ، ويعين لهم المشرفين والمعلمين ، وكان يسمي هؤلاء الأطفال بسمة على الحدود حتى لا يختلطوا بغيرهم ، فإذا شبوا قدم لهم دراسات فى ركوب الخيل والطعان ، فكان هذا النظام أشبه بما أسماه الأتراك فيما بعد بالجيش الانكشارى ، ولم يكن جيش القرامطة على هذا النمط يعرف إلا الولاء الكامل للدولة وللزعيم (١) .

وفى الناحية الاجتماعية عرف المجتمع القرمطى نظام الطبقات ، وكان يتكون من طبقة الحكام ، ولهم السيطرة على النظم الادارية وقيادة الجيش ، وطبقة العرب وكانوا يكونون العنصر العسكرى فى الدولة ، وطبقة العمال والفلاحين ، وهؤلاء يزاولون التجارة وبعض الحرف ، ومن أهمها الزراعة .

وكان فى المجتمع القرمطى آلاف الزنوج يشتغلون بالزراعة وفلاحة البساتين (٢) .

وكان للمرأة نصيب موفور فى المجتمع القرمطى لا يقل عن نصيب الرجل لولا ما أبيع فى هذا المجتمع من شيوعية فى النساء ، مما خلق تدهورا واسعا فى نطاق الدولة .

كشاجم والقرامطة :

كان كشاجم (أبو الفتح حسن بن محمود) كاتب القرامطة وهو من أعلام الشعراء والأدباء ، وكان بغدادى المولد ، وقد ذكره الثعالبي فى بيتيمة الدهر ، والحصري فى زهر الآداب ، وبعده كتب لهم ابنه

(١) المقرئى : اتعاط الحنفا ٢١٦ .

(٢) عارف تامر : القرامطة ٧٧ .

أبو الفتح نصر ، ولقب كشاجم مثل أبيه ، وقد سبق أن ذكرناه عند حديثنا عن « أدب الحسن الأعصم » •

وكشاجم هو الذى ألف كتابا يعد من أروع الكتب فى بابيه وهو كتاب « أدب النديم » وقد اقتبسنا منه اقتباسات مهمة فى كتابنا « التربية الإسلامية ص ٧٤ وما بعدها » وفيه يقول : إن على الجليس أن يتعلم حسن الاستماع كما يتعلم حسن الكلام ، وحسن الاستماع إهمال المتحدث حتى ينقضى حديثه والإقبال عليه بالوجه والنظر ، والوعى لما يقول ، فلا يشغل السامع طرفه عن المتحدث بنظر ، ولا أطرافه بعمل ، ولا قلبه بفكر ، ولا يسابقه إلى حديث يبدأ به (١) •

وإذا كان هذا الكتاب قد ألف ليتبع فى بلاط القرامطة فإن ذلك يوحى بما كان لهذا البلاط من نظم وتقاليد عالية •

وبعد ، فهذه دراسة عن القرامطة نأمل أن تفتح الباب لدراسة أوسع ، والحق أن انحراف القرامطة الدينى جعل أكثر الكتاب يتدارسونهم كثورة أو حركة باطلة وقل من درس تاريخهم كدولة لها كيان داخلى ، ولها نظمها وقوتها ، ولعل هذه الدراسة تفتح الطريق لإحقاق الحق ، وإبراز دولة القرامطة فى وضعها الحقيقى بكل مآلها وما عليها •

(١) أدب النديم : ص ٣٢ وما بعدها •

العيونيون في البحرين

ينسب العيونيون — كما ذكرنا من قبل — إلى فرع من بنى عبد القيس كان يسكن مشارف العيون بالأحساء ، وكان من هذا الفرع عبد الله بن علي العيوني الذي ثار على القرامطة في الأحساء واستطاع أن يقضي عليهم فيها ، وقد ذكرنا من قبل كذلك أن أميرين آخرين من أمراء الحرب هما يحيى بن عياش والبهلول محمد بن يوسف قد قضيا على سلطان القرامطة في القطيف وجزر البحرين ، وأنهى هؤلاء بذلك دواة القرامطة .

ثم حدث تنافس قوى بين هؤلاء الزعماء انتهى بسيطرة العيونيين على المناطق الثلاث وكانت مراحلها كالآتي :

— حاول يحيى بن عياش أن يستولى على جزر البحرين ولكنه عجز عن ذلك ، ولما مات خلفه في الإمارة ابنه زكريا الذي استطاع أن يحقق الأمل الذي رسمه أبوه ، فقد زحف على جزر البحرين وظفر بالبهلول وقتله وضم هذه الجزر إلى ولايته بالقطيف .

— دفع هذا النصر صاحبه إلى طلب المزيد من التوسع ، فاتجه زكريا إلى مهاجمة الأحساء وجاء الظفر بها والقضاء على عبد الله العيوني فخرج بجيش عظيم ، ولكن عبد الله قابله بجيش جرار فهزمه في اللقاء الأول ، ثم عاود الكرة فقتله في اللقاء الثاني ، وضم العيوني منطقة القطيف وجزر البحرين إلى إمارته بالأحساء ، وتكون من هذه المنطقة الإمارة العيونية ، وهي إمارة وراثية دامت أكثر من قرن ونصف قرن (٤٧٠ — ٦٣٠ هـ) ويقول ابن مقرب شاعر آل العيوني في ذلك :

وصار ملك ابن عياش وملك أبي الـ

بهلول مع ملكنا عقدا لنا نطما (١)

(١) انظر تحفة المستفيد ص ١٠٠ وملوك العرب ج ٢ ص ٢٥٠ .

من أمراء الأسرة العيونية :

هناك مخطوط مجهول المؤلف بدار الكتب المصرية (المكتبة النيهورية) (رقم ٦٣٧ تاريخ) يتحدث عن أمراء العيونيين ، وقد نشر هذا المخطوط في ملاحق كتاب « تحفة المستفيد » وهو يتحدث عن عشرين أميراً ابتداءً حكمهم سنة ٤٦٧ وشمل هذا الحكم ثلاث مدن هي : هجر « الأحساء » وأوال « البحرين » والخط « القطيف » ونذكر فيما يلي أهم هؤلاء الأمراء بعد عبد الله بن علي :

الفضل بن عبد الله بن علي وكان شجاعاً كريماً ، بعيد الثمة ، كثير الأسفار والتنقلات والتجول في البراري لتعقب المفسدين والأخذ على أيدي الأعراب الذين يرتزقون من قطع الطرق ، فاستقرت البلاد في عهده وازدهرت .

ومنهم ابنه محمد بن الفضل وكنيته « أبو سنان » وكان يسكن جزيرة « أوال » وكان نائبه في الأحساء عمه علي بن عبد الله ونائبه في القطيف ابنه غرير — وكان الكرم من أبرز صفات محمد بن الفضل .

ولما مات أبو سنان حاول عمه أن يخلفه باعتباره أكبر أفراد الأسرة ، وحاول ابنه أن يخلفه باعتباره ابنه وقام صراع بين الاثنين عانى كل منهما من نتائجه ، وأخيراً قتل العم (علي بن عبد الله) ولكن « شكر » ابن علي بن عبد الله أخذ مكان أبيه وكان عالماً كريماً وفارساً شجاعاً فرجحت كفته .

وبعد شكر آل ملك العيونيين إلى محمد بن أحمد بن عبد الله بن علي وقد اتسع ملك العيونيين في عهده ، وامتد نفوذهم إلى نجد مما جعل الناصر لدين الله سلطان مصر يوكل لهذا الأمير خفارة الحجيج من بغداد إلى مكة .

وبعد ذلك وقعت خلافات وأحداث أضعفت الجبهة العربية وهيأت لتدخل الفرس في هذه البقاع (١) .

(١) تحفة المستفيد في تاريخ الاحساء القديم والجديد ص ١٠١-١٠٤ .

بعد أسرة العيونيين

فارس في البحرين :

عندما وقع الخلاف والضعف بين أمراء العيونيين انتهز ملك العجم الفرصة وتدخل في شئون البحرين ، فدخل هذا الملك جزيرة قيس واحتلها من العرب ، ثم اجتاز بجنوده البحر إلى جزيرة البحرين فأخذها ، واستولى بعدها على الأحساء والقطيف وغيرها من بلدان الخليج ، واضطر الأمير العربي أن يذعن للملك الفرس فوقع معه صلحا غير كريم أملت فيه ملك الفرس شروطه وقد ذكرها محمد بن عبد الله الأنصارى •

وكان ملك الفرس يولى على البحرين ولاية من العرب يحكمون باسمه •

والذى نريد أن نقوله بعد هذه الجولة أن منطقة البحرين الماسة قد بدأت في التفكك والانحلال منذ قامت بها الولايات الثلاث بعد القرامطة ، وكان ذلك أساس ما يوجد الآن في هذه المنطقة من دول ودويلات •

المغول في البحرين :

في القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) بدأ زحف المغول المدمر إلى أرض الإسلام ، وقد حارب المغول حضارة الإسلام ، وأراقوا دماء الآلاف من المسلمين ، وكانوا كالقارمطة قسوة وإذلالا للمسلمين ، وسيكون لنا معهم حديث في الجزء الثامن من هذه الموسوعة والمهم أن منطقة البحرين خضعت للموجة الثانية من موجات المغول ، وهى الموجة التى قادها هولاكو وكمل بها أعمال جده جنكيز خان البعيدة عن الإنسانية ،

-
- (١) أمين الريحانى : ملوك العرب ج ٢ ص ٢٥١ وانظر كذلك تاريخ البحرين للشيخ خليفة بن محمد النهيان •
(٢) تحفة المستفيد ج ١ ص ١٠٨ •

ونجا العالم العربى من سطوة المغول بالهزيمة الكبرى التى أنزلها
المصريون بهم فى عين جالوت سنة ١٢٦٠ م وفيما تتبعها من هزائم ، ولكن
البحرين بعد أن نجت من المغول عادت إلى الخلافات والتفكك التى
كانت قد بدأت عقب نهاية القرامطة ، وكثر الطامعون فى مناطقها ،
فظهرت قوى متعددة تحكم كل منها منطقة بالبحرين ، ومن حكم فى هذه
المنطقة آنذاك أولاد مانع بن عصفور ودارهم الأحساء والقطيف ، ومنهم
كذلك بنو الحسين وبنو عامر بن عوف وبنو مغامس .

نفوذ مصر فى البحرين :

وكان لمصر التى هزمت المغول نفوذ فى دول الخليج التى قاهت
بعد هزيمة المغول ، وفى ذلك يقول صاحب تحفة المستفيد : إن آل عامر
وفدوا على السلطان بيبرس بالديار المصرية ، وفى مقدمتهم محمد بن
أحمد العقدي ، فقرَّبوا بأثم الاكرام ، وأفاض عليهم سابع الانعام ،
ولوحظوا بعين الاعتناء ، قال فى مسالك الأبصار : وتوالت وفادتهم على
الأبواب العالية الناصرية ، وأغرقتهم الصدقات والمعطايا بديمها ،
فاستجلبت النائي منهم ، وبرز الأمر السلطانى إلى آل فضل رؤساء
بوايدى الشام بتسهيل الطريق لوفودهم ، وتأمينهم فى صدورهم
وورودهم .

وعلى هذا كان حكام هذه المناطق يعترفون بالولاء لمصر طيلة عهد
المماليك تقريبا حتى جاء القرن السادس عشر ومعه الزحف العثمانى
والزحف الأوروبى .

-
- (١) محمد الانصارى : تحفة المستفيد ج ١ ص ١١٩ - ١٢٠ .
(٢) ، حمد الانصارى : تحفة المستفيد ج ١ ص ١١٩ وهو ينقل بعض
الفقرات من مسالك الابصار ج ٤ ورقة ٣٠ مخطوط بدار الكتب .

صراع النفوذ

ابتداء من القرن السادس عشر

صورنا من قبل خطورة الخليج العربى وخطورة منطقته ، وذكرنا أهميتها السياسية والعسكرية والاقتصادية حتى قبل الكشف عن البترول ، ولا عجب إذن أن تجذب هذه المنطقة أنظار الطامعين ، وقد بدا ذلك مع دخول العثمانيين أرض العرب فى أوائل القرن السادس عشر وبدأ كذلك مع كشف طريق رأس الرجاء الصالح قبل ذلك بقليل . وبذلك اعتبرت منطقة الخليج العربى بالغة الأهمية بالنسبة لاستعمار الهند والهند الصينية والملايو وسنغافورة وإندونيسيا ، وعلى هذا اشترك فى الصراع عليها البرتغاليون والانجليز ، ورأت روسيا وهى مجاورة لإيران التى تطل على الخليج أن وجود الدول الأوروبية بالخليج يهدد سلامتها فتطلعت إلى مد نفوذها إليه ، وفى نفس الفترة تطلعت القوة العثمانية للمنطقة باسم الإسلام وبخاصة بعد أن دخلت العراق إذ اتصلت بالخليج عن طريق البصرة ، وأصبح وجود الأوروبيين به يهدد سلامتها ، ودخلت فرنسا حومة الصراع إذ كانت لها تطلعات فى الهند الصينية ، ثم كانت تحاول أن تدخل نفسها فى هذه المعركة لتساوم بها ، وانتهزت بلاد فارس فرصة هذا الصراع فزجت بنفسها فيه ، تحالف هذا أو ذاك كلما حانت لها فرصة لعلها تستعيد مكانها فى تلك المناطق .

العرب يواجهون قوى الاحتلال :

واجه سكان المنطقة من العرب هذا الصراع بجأش ثابت ، وخاضوا معامع هائلة ليحققوا النصر ، وحملوا العبء كله ليخلصوا بلادهم من الطامعين ، ويمكن القول بأدى ذى بدء أنهم طردوا البرتغاليين والهولنديين والعثمانيين والفرس . ولكن قناتهم لانت أمام الانجليز لقدرة الانجليز السياسية من جانب ، ومن جانب آخر كانت قناة العرب قد لانت من كثرة الصراع ومن التفتت كما سئرى فيما بعد .

ذلك موجز القول عن الصراعات التي حلت بالخليج ابتداء من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين ، وسنعطى فيما يلى بعض التفاصيل لهذا الإجمال :

البرتغاليون :

كان البرتغاليون أسبق الأوروبيين صلة بمنطقة الخليج ، فقد وغدوا إليه عقب انتصاراتهم ضد المسلمين فى الأندلس ، وقد بدأت صلاتهم بهذه المنطقة عقب نجاح رحلة فاسكودى جاما التى بدأت سنة ١٤٩٦ وطاق بها حول رأس الرجاء الصالح فكشف طريقاً للهند والشرق الأقصى دون المرور بالبحر الأبيض والبحر الأحمر .

وفى سنة ١٥٠٧ بدأ البرتغاليون زحفهم على جزيرة هرمز وأخضعوا حاكمها وألزموه بدفع جزية سنوية ، ولكنهم لم يقنعوا بهذا النصر ، بل احتلوا الجزيرة سنة ١٥١٥ ثم احتلوا « صحر » ومسقط وعبروا مضيق هرمز واحتلوا جزر البحرين ثم القطيف وقطر ، ولكنهم لم يتمكنوا من احتلال الأحساء لأن العثمانيين كانوا قد سبقوهم إليها ، وهكذا نزلت أقدام الأوروبيين لأول مرة بتلك المنطقة واستبدت بها ، ولكن أقدام البرتغاليين لم تثبت بها لأن قوى متعددة عارضتها كان فى قمتها العرب الذين هبوا يدافعون عن بلادهم ، وقاموا بعدة انتفاضات وحركات جريئة ، وفى إحدى هذه الحركات قتل أخو نائب ملك البرتغال بالهند سنة ١٥٢٨ ، وتقاتل الحركات طيلة القرن السادس عشر .

وكسفت هرمز تمثل أهم مركز برتغالى فى الخليج ، وقد استطاع العرب أن يواصلوا صراعهم ضدها دون انقطاع ، وعندما عمدت البرتغال لتعزير حاميتها سنة ١٥٨٥ قتل الحرب ٢٥٠ جندياً برتغالياً وهم يتجهون لتعزير هذه الحامية ، فلما جاء القرن السابع عشر أنزل العرب وبخاصة أهل عمان بالبرتغاليين هزائم خطيرة بمنطقة الخليج فقد طردوهم من البحرين سنة ١٦٠٢ واستولى سلطان عمان على « صحر »

ثم حاصر العرب مسقط واستولوا عليها ، وهكذا لم تأت سنة ١٦٢٢ حتى كان البرتغاليون قد فقدوا كل ممتلكاتهم بمنطقة الخليج العربي ، ثم فقدوا ممتلكاتهم بخليج عمان فلم تأت سنة ١٦٥٠ حتى كان نفوذهم قد زال من المنطقة نهائيا ، وقدمت انجلترا وغيرها بعض المساعدات للعرب في الصراع كما سنرى .

الفرس والانجليز والهولنديون :

في سنة ١٥٨٣ حمل ثلاثة من المغامرين الانجليز رسائل من الملكة اليزابث إلى ملك كمبوديا وإمبراطور الصين لإقامة علاقات تجارية وودية بين الانجليز ودول الشرق الأقصى ، وقد سار حملة هذه الرسائل براً إلى البصرة ثم أبحروا في الخليج إلى هرمز ، ومن هناك ذهبوا إلى الشرق الأقصى ، وعادت هذه البعثة فقدمت تقارير مشجعة للغاية عن الامكانيات التجارية العظيمة في تلك المناطق ، وبناء على هذه التقارير أنشئت شركة الهند الشرقية الانجليزية سنة ١٦٠٠ وبدأت ترسل أساطيلها التجارية إلى الخليج العربي والشرق الأقصى .

وكانت البرتغال قد سبقت إلى هذه المناطق كما قلنا آنفاً ، فحدث صراع بين القوتين الأوربيتين ، وانضم الفرس إلى الانجليز لما لاقوه من عناء مع البرتغاليين ، وبينما كان الصراع يدور ظهرت قوة الهولنديين في الخليج فتعاونت هذه أيضاً ضد البرتغاليين ، فكان هذا التحالف مؤيداً للنشاط العربي ووأضعا نهائية للوجود البرتغالي بالخليج كما ذكرنا من قبل .

ثم لعبت السياسة الانجليزية دورها ، فاتجهت إلى التخلص من قوة العرب الهائلة أو اضعافها ، واتخذت الفرس وسيلة لذلك ، فرمت العرب بالفرس ، ثم تحالفت مع الفرس لتكون عوناً لها في الصراع الذي توقعت

أن يدور في المنطقة لتحديد مستقبلها ، وللحصول على موافقة فارس جعلت لها السلطة على البحرين عقب خروج البرتغاليين منها سنة ١٦٠٢ •

وأصبح الخليج العربى به قوة العثمانيين ، وبه الهولنديون ، والفرس والانجليز ، بالإضافة إلى القوة العربية الأصلية ، التى تعمل بجد لحماية الديار والدفاع عن الوطن •

ولنعيش فيما يلى ما دار من صراع فى هذه المنطقة :

انصراف فى الأحساء :

لعل الأحساء عانت أشق أنواع الصراع وأطولها فى هذه الفترة ، وتعرضت لحركات وقوى كثيرة ، وسنكتفى بإعطاء قائمة بهذه الحركات القاسية فيما يلى :

— استولى العثمانيون على الأحساء أول مرة سنة ٩٦٣ هـ وولوا عليها على بن أحمد البريكى ، وجاء بعده ابنه محمد ثم ولى العثمانيون عمر باشا على الأحساء •

— استولى آل حميد على الأحساء بقيادة براك بن غرير سنة ١٠٨١ هـ وآل حميد بطن من بنى خالد الحجاز ، وسموا خالد الحجاز تمييزاً لهم عن بنى خالد حمص ، وكان استيلاء آل حميد فى فترة ضعف العثمانيين ، ومن ولاية آل حميد محمد بن براك وسعدون بن محمد بن براك وسليمان أخوه ، وعمر بن دجين بن سعدون بن محمد وسعدون ابن عمر •

— حصل صراع بين الإمام سعود الكبير وبين بنى خالد ونجح الإمام سعود فيه ودخل الأحساء وغيرها من المناطق التى كانت تابعة لبنى خالد ، ولكن انقلاباً سريعاً وقع ضده عقب رحيله من الأحساء وأصبحت أمور الأحساء مضطربة •

— غزا العثمانيون الأحساء مرة أخرى عن طريق العسراق لتثبيت سلطانهم وكان ذلك سنة ١٢١٣ •

— لما غزت مصر بلاد نجد انضم محمد وماجد أبناء عرعر إلى إبراهيم باشا في هذا الزحف ضد السعوديين ، وطلبوا من إبراهيم باشا بمساعدة استسلام الدرعية أن يولييهما الأحساء ففعل لسابق صلتهم بها •

— في عهد الإمام تركي استعاد السعوديون الأحساء من بنى خالد •

— لما زحف جيش مصر سنة ١٢٣٨ بقيادة خورشيد إلى نجد ودخل الرياض استولى أيضا على الأحساء وعين أحمد بن محمد السديري أميرا للأحساء •

— في سنة ١٢٨٧ استولى السعوديون على الأحساء وذلك في عهد سعود بن فيصل •

— صدرت أوامر القسطنطينية بزحف القوات العثمانية إلى الأحساء فمسارت واحتلتها سنة ١٢٨٨ هـ ، ومن ولاية الأحساء العثمانيين محمد نافذ باشا ومدحت باشا ثم صالح باشا •

— اقتحمها الملك عبد العزيز في الدولة السعودية الثانية واستسلم له العثمانيون كما ذكرنا عند الحديث عن المملكة العربية السعودية (١) وانقصر العرب في مساحة الأحساء بعد طول عناء وأصبحت الأحساء جزءا من المملكة العربية السعودية •

الصراع في البحرين :

قلنا من قبل إن الفرس عادوا للسيطرة على جزر البحرين عقب خروج

(١) اقرأ تحفة المستفيد ص ١٢٣ وما بعدها واقرأ الجسبرتي في الحملات المصرية تحت السنوات التي أشرنا لها •

البرتغاليين منها سنة ١٦٠٢ وأخذوا يعينون ولاية من العرب عليها ولكن الحكم الفارسي في البحرين تسرب له الخلل الذي اعترى الحكم في بلاد فارس نفسها ، حتى أن آخر عامل عربي للفرس بالبحرين ، وهو الشيخ نصر آل مدكور استنجد حكومة إيران في حملته على آل خليفة في الزبارة (وهي بلد على شاطئ قطر مواجهة لجزر البحرين) فلم تنجده إيران ، وعلى هذا هزم في المعركة سنة ١١٩٧ هـ (١٧٨٢) وفر هذا العامل إلى بوشهر ، ودخل آل خليفة جزر البحرين منتصرين (١) .

وانتصر العرب على الفرس في ساحة البحرين واستقلوا بها عنهم .

الصراع ضد هولندا :

حمل العرب نصيبهم وأفرا في الصراع ضد هولندا ، وربما يقال ان انجلترا ساعدت في هذا الصراع ، وهذا حق ، ولكن النصيب الأكبر حمله العرب ، أما الفرس فقد ارتبطوا بصدقة وطيدة مع انجلترا ولم يقوموا بجهد ذي بال في الدفاع عن الخليج ، وكانت هولندا تنافس انجلترا في الخليج منافسة حادة ، وكان لها التفوق التجاري خلال القرن السابع عشر ، ورأت هولندا أن تحذو حذو بريطانيا في التحالف مع إيران ضد العرب فساعدت إيران في حملة ضد عمان ، كما تطوعت هولندا لإخضاع البحارة العرب الذين تمردوا ضد قادتهم في اسطول إيران أيام نادر شاه (٢) ولكن الهولنديين لم يستطيعوا بذلك أن يكسبوا صداقة إيران التي كانت متجهة اتجاها تاما لانجلترا ، وزاد هذا التصرف من كراهية العرب للهولنديين فأشعلوا صراعا طويلا أذاقوا خلاله الهولنديين ألوانا من المتاعب ، وكان الصراع العربي بقيادة الأمير ناصر وابنه الأمير مهنا في « جزيرة خارج » صراعا مريرا وطويلا ومثابرا ،

(١) أمين الريحاني : ملوك العرب ج ٢ ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٢) من مقال عن « الأوروبيون في الخليج » للاستاذ أحمد العناني

٨٠ - ٨٢ بمجلد الدوحة عدد يناير سنة ١٩٧٧ .

وقد عين الهولنديون حاكما آخر لجزيرة « خارج » فبادر هذا بالهجوم على مهنا ، وهناك استدرجه العرب إلى مكان وجد نفسه فيه مطوقا ، وشب قتال دمر الهولنديين فسقط منهم من سقط وفرت فلولهم ، ولكن القائد العربى لحق بهم وما زال يهاجمهم حتى صفى وجودهم فى آخر مركز لهم بالخليج سنة ١٧٦٥ (١) .

إنجلترا :

فى خلال الصراع السابق كانت إنجلترا تتدخل أحيانا ، وتصارع القوى الاستعمارية الأخرى ليخلوا لها الجو ، ولكنها لم تكن قط صديقة للعرب ، بل كانت تعمل لمصالحها الخاصة بالتعاون مع الهولنديين ضد البرتغال ، وبالتعاون مع إيران فى أغلب الأحوال ، وعلى هذا حمل العرب عبء أكثر الصراع لإزالة القوى الأجنبية عن الخليج ، وبخاصة أن إنجلترا شغلت عن الخليج حينما من الزمن ، بسبب صراعها فى أوروبا ضد العثمانيين وضد أطماع نابليون التى نشطت فى أوروبا وفى الشرق ، فلما فرغت من ذلك فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر عادت للخليج لتستكمل فيه نفوذها ، ومما ساعدها على النجاح أن الدول العربية كانت قد ضعفت من طول الصراع ، وكان قد أصابها التفكك والتفتت ، وانتهاز الانجليز هذه الفرصة فمعدوا اتفاقات غير متكافئة مع قادة الدويلات التى أظهرها التفكك فى منطقة الخليج ، وقد ظلت هذه الاتفاقات سارية المفعول حتى أزيلت فى العقد السابع ومطلع العقد الثامن من القرن العشرين وحقت هذه الدول استقلالها ، وقد بدأ ذلك بتغير السياسة العالمية الذى قضى أن تنكمش بريطانيا ، ولم يسمح لها بالاستمرار فى السيطرة على الشعوب ونهب ثرواتها ، كما أن الثورات العربية بالمناطق المختلفة فى الخليج وفى الجنوب العربى وغيرها أبرزت أن تكاليف الاحتلال ستكون باهظة ، وظهرت القوى العالمية الأخرى التى جعلت بريطانيا تحس أنها لم يعد لها أن ترتع فى العالم كذئب كاسر مع

(١) المقال السابق بتصرف .

وجود الآساد ، وتجلت أسباب أخرى كثيرة جعلت بريطانيا تعلن سنة ١٩٦٨ اعتزامها الجلاء عن الخليج العربى قبل نهاية ١٩٧١ ، وقد فزع هذا الاعلان الباب لقوى أخرى لتحاول مد نفوذها بطريق أو بآخر لئلا هذا الفراغ ، ولكن حركة تجمع وبقظة ظهرت فى المنطقة فأوقفت محاولات الغزو الجديدة أمريكية كانت أو إيرانية ، وتتمثل حركة التجمع فى الاتجاه لتكوين دولة من إمارات ساحل عمان ، كما تتمثل حركة البقظة فى نشاط الدول العربية وتحركات الجامعة العربية •

ولنعد الآن للوراء قليلا لتتحدث عن الدول الجديدة التى نشأت فى هذه المنطقة ، ولنسر مع تاريخها حتى العهد الحاضر ، ومن الواضح أن الساحل العربى للخليج يشمل الآن الدول التالية :

- ١ — دولة البحرين •
- ٢ — دولة قطر •
- ٣ — دولة الإمارات العربية المتحدة •
- ٤ — دولة الكويت •

أما الأحساء — وهى أيضا من أهم مناطق الساحل — فقد تحدثنا عنها من قبل وقد دخلها الملك عبد العزيز آل سعود سنة ١٩١٣ وأصبحت جزءا من المملكة العربية السعودية •

وسنتكلم عن الدول الأربعة السابقة بترتيبها السابق ، فنبداً بدولة البحرين لنواصل حديثنا السابق عن البحرين ، ثم يجرى حديثنا عن قطر فقد كان قَدَرُها شديد الارتباط بقَدَرِ جزر البحرين ، وبعدها نتكلم عن دولة الإمارات ، فقد عانت هذه الإمارات صور الحياة التى عانتها البحرين وقطر مع الاستعمار والمستعمرين •

أما الكويت فينبغى أن يطول معها حديثنا بعض الشيء لأنها لسم ترد فى أحاديثنا السابقة ، ولأنها سبقت هذه الدول الثلاث فى دورها السياسى والحضارى فى العصر الحديث •

دولة البحرين

لقد تحدثنا عن البحرين فيما سبق حديثاً طويلاً ، ووضحنا أن كلمة « البحرين » كانت تطلق على إقليم ساحلى فسيح يشمل المساحة من قطر إلى البصرة ، ويضرب في الداخل مسافات يختلف عمقها باختلاف قوة الدولة التى تحكم الساحل ، ويشمل كذلك الجزر التى تسمى الآن « البحرين » وقد تتبعنا تاريخ البحرين الكبير من مطلع الإسلام حتى تفككت المنطقة وانحلت ، وأصبحت جزر البحرين دولة قائمة بذاتها ، وهنا يبدأ تاريخها الخاص ، أما بالنسبة للتاريخ العام فقد كانت « جزر البحرين » جزءاً من دولة البحرين الكبرى التى أوردنا تاريخها فيما سبق .

وسنقص فيما يلى تاريخ دولة البحرين :

تتكون دولة البحرين من مجموعة من الجزر تقع بين شبه جزيرة قطر وبين ساحل الأحساء السعودى ، ومساحة هذه الجزر حوالى ٢٣٠ ميلاً مربعاً ، وأهم جزر البحرين كانت تسمى (دلمون) ثم سميت (أوال) وأخيراً سميت البحرين لتكون امتداداً تاريخياً للقطر الكبير الذى تقلص وأصبح متمثلاً في هذه الجزر وبخاصة في جزيرة البحرين .

وطول جزيرة البحرين حوالى ٢٧ ميلاً وعرضها عشرة أميال وهى كثيرة العيون والنخيل والفاكهة ، وأشهر مدنها « المنامة » وهى عاصمة الدولة وتقع في الطرف الشمالى للجزيرة .

ومن جزر البحرين كذلك جزيرة « المحرق » ويصلها بجزيرة البحرين جسر طويل ، وبها مطار من أكبر مطارات الخليج ، ومنها كذلك جزيرة النبى صالح .

وسكان دولة البحرين حوالى ربع مليون نسمة ، والأكثرية الغالبة منهم عرب ، وهناك أقليات هندية وإيرانية .

تاريخ جزر البحرين :

ذكرنا فيما سبق أن الفرس استولوا على البحرين عقب إخراج البرتغاليين منها ، وأخذوا يعينون لحكمها ولاية من العرب يخضعون لهم

ولكن الحكم الفارسي لجزر البحرين لم يستقر ، فقد كانت الحشود العربية تندفع للبحرين من حين إلى آخر فتتغلب ، ثم يتصدى لها الفرس فيعودون لحكمها ، وممن انتزعها من الفرس في هذه الفترة الشيخ محمد الجبري من بنى عامر ، ولكن الصفويين سرعان ما استعادوها ، وبعد ذلك استولى عليها جبارة الهولوى ، ولكن الفرس عادوا لها أيضا بعد حين ، بيد أن الحكم الفارسي كان قد تدهور فلم يستطع أن يحمى جزر البحرين من قوة العرب ، ولم يقدم الحكم الفارسي للوالى التابع له وهو الشيخ نصر آل مدكور ما طلبه من قوة وتأيد في المعركة سنة ١١٩٧ هـ (١٨٧٢) وفر هذا العامل إلى بوشهر (١) كما ذكرنا من قبل ، ودخل آل خليفة من الزبارة بقطر إلى البحرين منتصرين ، ووضعت البحرين أقدامها نحو الاستقلال عن الفرس ، وأصبحت قطر تابعة للبحرين ، ولكن البحرين واجهت صورا من المتاعب حتى قدر لها النجاح ، وفيما يلي لمحات عن مراحل الحياة فيها بعد معركة الزبارة :

— انتقل آل خليفة إلى البحرين بعد معركة الزبارة — وجمع الشيخ أحمد بن محمد بن خليفة محارم الشيخ نصر وأولاده وأرسلهم إلى بوشهر ، وتوفي الشيخ أحمد سنة ١٢٠٩ هـ وخلفه في حكمها ابنه الشيخ سلمان •

— في سنة ١٢١٥ هـ غزا سلطان بن أحمد حاكم مسقط جزر البحرين وأخذها عنوة •

— في سنة ١٢٢٤ استنجد الشيخ سلمان بالقوة السعودية التي كانت قد أخذت تنساب في الجزيرة العربية والتي كانت قد فتحت الأحساء ، فقدم الإمام سعود للشيخ سلمان جيشا بقيادة ابراهيم بن عفيصان ، واستطاع هذا الجيش طرد العمانيين من البحرين ولكن ابن عفيصان بقى بالجزيرة ممثلا للسعوديين ولم يسلمها آل خليفة وذهب آل خليفة إلى نجد ليستظلوا الأمر فأكرمهم الإمام سعود ، ولكنه احتجزهم عنده •

(١) مدينة على الشاطئ الفارسي •

— قام جيل الشباب من آل خليفة بجمع الجموع من هنا وهناك واستنجدوا بأخوالهم واستطاعوا أن ينتصروا على ابن عقيصان ، فهرب إلى قطر ، ولما سئل الشيخ خليفة بن الشيخ سلمان عن تصرفه ذلك مع أن كبار الرجال من آل خليفة في حجز ابن سعود أجاب : لا حاجة لنا بآبائنا ، وقد سميننا بأسمائهم (إشارة عن عدم الأهل فيهم) (١) .

وتتسلسل الحكام من آل خليفة كالآتي :

توفي الشيخ سلمان سنة ١٢٣٦ •

خلفه الشيخ عبد الله بن أحمد وظل يحكم حتى توفي سنة ١٢٦٥ •

وخلفه الشيخ محمد بن خليفة بن سلمان وفي عهده أسفر الانجليز عن تدخلهم في شئون البحرين ، وكانت البحرين كما رأينا تتقاذفها الأيدي ولا تعرف الاستقرار ، ف وقعت اتفاقية بين القنصل الانجليزي وبين حاكم البحرين على أن يكف أسطول البحرين عن الصراع في الخليج العربي ومقابل ذلك تتعهد بريطانيا بحماية البحرين ، ولكن البحرين هوجمت من قطر بعد ذلك بمدة وجيزة • ولما دافعت عن نفسها اعتبر الانجليز ذلك خرقا للاتفاقية قام به الشيخ محمد فعزلوه كما عزلوا نائبه الشيخ علي بن خليفة ، وجاءوا إلى الحكم بالشاب عيسى ابن علي وعمره إحدى وعشرون سنة ، وظل يحكم حتى توفي سنة ١٣٥١ •

وجاء بعده ابنه الشيخ حمد بن عيسى إلى أن توفي سنة ١٣٦١ هـ (١٩٤٢ م) •

ثم الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة إلى سنة ١٣٨١ هـ (١٩٦١ م)

ثم ابنه الشيخ عيسى الذي يحكم البحرين حتى الآن (١٩٧٧ م) •

(١) أمين الريحاني : ملوك العرب ص ٢٦١ •

وفي عهده استقلت البحرين عن بريطانيا سنة ١٩٧١ وأصبحت
دولة ذات سيادة ، وانضمت لجامعة الدول العربية ولهيئة الأمم المتحدة ،
ومنذ ذلك التاريخ أخذت تلعب دورها كاملا في الساحة العربية والساحة
الدولية .

وكان هذا الاستقلال نتيجة لجهود كبيرة سبقته سندسجل فيما يلى
خلاصة لها :

الخطوات نحو الاستقلال

يمكن القول أن مجتمع البحرين كان أقرب مجتمعات الخليج إلى البيئة الصناعية ، وذلك بسبب الاهتمام بصناعة اللؤلؤ ، إذ أن البحرين كانت أخصب من سواها في الغوص على اللؤلؤ وفي صناعته ، وعندما يوجد مجتمع صناعي يوجد بالتالي جو من الحضارة والفهم السياسى ، وهذا ما نعت به البحرين إذا قيست بسواها من نواحي المنطقة .

ومن نتائج المجتمع الصناعى كذلك بالبحرين أن ضعفت العصبية القبلية ، فقد جمعت المصانع أفرادا من مختلف القبائل وتكونت في المصانع مجتمعات وروابط أخذت مكان القبيلة إلى حد كبير ، ولكن البحرين عرفت الطائفية الدينية إذ وجد بها شيعة وأهل سنة ، ولكن لم توجد خلافات طائفية تهدد مجتمع البحرين ، بدليل أن كثرة هائلة من شيعة البحرين لم يدفعهم التشيع لمحاولة الارتباط بإيران على حساب الوطن وانضمت جماهير الشيعة إلى أهل السنة في تأييد استقلال البحرين .

وفي مجتمع صناعى هدأت أو اختفت فيه الروح القبلية ظهرت المدارس ، وكان ظهورها طبيعيا لتمدد البيئة الصناعية بحاجتها من المثقفين ، وهكذا عرفت البحرين المدارس العصرية التى تخرج فيها مجموعة من المثقفين قادوا الحركة الوطنية وحملوا عبء الصراع والاستقلال .

وظهرت الصحافة كذلك في البحرين قبل ظهورها في المناطق المجاورة ، وحملت الصحافة مشعل النور إلى الشعب ، وتحدثت باسمه مهاجمة الاستعمار ومعاونية ، ومن أبرز الصحف مجلة « القافلة » ومجلة « صوت البحرين » التى اهتمت بالقضايا الاجتماعية ليس في نطاق

البحرين فحسب بل في النطاق العربي ، فهاجمت ألق وطالبت بإلغائه لأنه يتنافى مع الإسلام ، وهاجمت شركات النفط التي تستولى ظلما على الكثير من حقوق الشعب والتي تظلم الأيدي العاملة (١) .

تلك أبرز الأسباب التي دفعت البحرين لتفسير خطواتها نحو الاستقلال ، وقد بدأت الحركات الايجابية نحو هذا الهدف سنة ١٩٢٠ ، وكانت زعامة هذه الحركة للشيخ عبد الوهاب الزبياني الذي قاد وفدا إلى أمير البحرين الشيخ عيسى آل خليفة ، وطالبه بإسقاط القوانين المدنية والمجنازية التي كانت مطبقة بالبلاد منذ سنة ١٩١٤ بناء على قرار الحكومة البريطانية الذي لم يدع للتشريع الإسلامي إلا موضوع الأحوال الشخصية ، وطالب هذا الوفد أن يحل التشريع الإسلامي محل هذه القوانين الوضعية في جميع القضايا .

ويلاحظ في هذا المطلب أن الشيخ عبد الوهاب اتجه إلى أمير البلاد ليأخذ هذا جانبه في المطالبة بتطبيق الشرع الإسلامي ، ولم يتجه تفكير الشيخ إلى معارضة الأمير ، وإنما إلى معارضة الاستعمار ، وقد خلق هذا أنواعا من التعاون بين الأمير وبين الشعب ، مما دفع الانجليز إلى المطالبة بأن يتخلى الشيخ عيسى عن السلطة لابنه محمد سنة ١٩٣٣ ، وقد تم لهم ذلك .

وقد اهتمت النقابات والصحافة بموضوع عزل الأمير ، فأثارت الرأي العام ضد المستعمر ، واستمرت حركة المثقفين والصحافة والنوادي في نمط مطرد حتى جاءت ثورة سنة ١٩٥٢ بمصر التي كانت في مطلعها معبرة عن آمال الشعب المصري والشعب العربي كله نحو الاستقلال والحرية والتطور ، فظهر رجوع الصوت المصري في مناطق الخليج قويا واضحا ، ثم جاء الاعتداء الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦ ، فزاد النار

(١) انظر التيارات السياسية في الخليج العربي للدكتور صلاح العقاد

اشتعالا ، ولم تعد الكلمات كافية بل انطلقت القوى العربية في البحرين كما انطلقت في سواها تدمر أنابيب البترول ، وتمنع عن التعاون مع المستعمرين •

واتجهت السياسة الاستعمارية ناحية العنف في مواجهة هذه الحركات التحررية ، فنفت بعض القادة ، واعتقلت بعضهم ، وكان هذا التصرف دافعا لمزيد من الغليان •

وجاءت سنة ١٩٦٨ حيث أعلنت بريطانيا عزمها على الجلاء عن مناطق ما بعد السويس في أواخر سنة ١٩٧١ ، ومن هنا أصبح استقلال البحرين عن بريطانيا أملا متحقق الوقوع ، ولكن ظهرت في الجو الموجة التي ادعت أن البحرين جزء من إيران ، لكن صوت هذه الموجة اختفى بين قوة العدل والتاريخ •

وجرت مفاوضات متعددة ترمي إلى قيام اتحادات بين إمارات الخليج السبع وقطر والبحرين والكويت ، ولكن هذه المفاوضات سرعان ما اتجهت إلى إمارات ساحل الصلح وحدها لتبقى الإمارات الأخرى مستقلة •

وفي عهد الشيخ عيسى بن سلمان تم استقلال البلاد سنة ١٩٧١ كما ذكرنا من قبل وأعلن الأمير هذا الحادث العظيم ، ثم صدر دستور البحرين سنة ١٩٧٢ ، وهو ينص على قيام سلطة تنفيذية ، وسلطة تشريعية غير خاضعة لها ، وإن كان بعض أعضاء هذه السلطة تعيينهم السلطة التنفيذية •

والباحث المسلم العربي يدرك أن البحرين ، ورثت تراثا حافلا بالمشكلات من العصور السابقة ، ولذلك يرجو كل مخلص أن تتغلب البحرين على هذه المعوقات ، وأن تكمل مسيرتها نحو بناء الانسان العربي المسلم على خير وجه وأقوى •

إيران والبحرين :

في فترة ما من التاريخ قبل الميلاد وبعده كان لإيران امتدادات ومستعمرات على ساحل الخليج وفي مناطق أخرى من البلاد العربية ، وعلى عكس ذلك خضعت إيران نفسها كلها أو أجزاء منها إلى كثير من القوى الأجنبية عبر التاريخ كالميديين والفينيقيين واليونان والرومان والعرب والمغول والبرتغاليين والهولنديين والفرنسيين والانجليز والروس ، ثم انتهت إيران إلى وضعها الحالي ، وذلك شأن كثير من الدول عرفت الاتساع والانكماش ، والنصر والهزائم ، ولكن يؤخذ على إيران أنها تنسى هزائمها وانكماشها وتتطلع إلى عهد توشعت فيه فتطمع في استغلاله ، والبحرين بالنسبة لإيران مطمع من هذا النوع ، فقد أعلنت إيران احتجاجها على كل معاهدة عقدتها البحرين مع أية دولة ، وادعت إيران أن حكومة البحرين لا تملك هذا التصرف لأن البحرين جزء من إيران ، وتوالت حكومات إيران على هذا النمط ، بل بلغت الحكومة الإيرانية سنة ١٩٥٨ إذ أعلنت انضمام البحرين إلى أراضيها ، ولم يكن لهذا الإعلان من قيمة إلا تكدير العلاقات بين إيران وبين البحرين بوجه خاص ، وبينها وبين العالم العربي بوجه عام .

«حجج إيران كانت دائماً واهية ، فهي عبارة عن خضوع البحرين لإيران بعض فترات التاريخ ، وعبارة عن اعتراف وزير خارجية بريطانيا سنة ١٨٦٩ بتبعية البحرين لإيران ، ثم إن أكثر السكان من الشيعة والشيعة فرس قبل كل شيء .»

وهذه الحجج واهية جداً ، فإن الاستعمار فترة من الزمن لا يستلزم التملك والتبعية كما قلنا ، ولا وزير خارجية بريطانيا يملك السلطات على الأرض فيوزعها كما يشاء ، وليس مذهب الشيعة وقفا على إيران .

وقد أدرك أحد الكتاب الغربيين الدوافع الحقيقية لموقف إيران فقال إن إيران رأت عاصفة العروبة تجتاح الجو ، فخافت أن يطالب العراق

ببعض المناطق العربية الخاضعة حالياً لحكم إيران ، فأُسِّرت إيران تسبق الحوادث وتدعى المطالبة بالمزيد حتى تصرف النظر عن المناطق العربية النى تحت يدها وتوجه كل الاهتمام للبحرين (١) .

ولكن هذا الصراع حول البحرين توقف الآن بعد أن قام ممثل للأمم المتحدة بتقصي الحقائق ، فعاش فترة في البحرين وأتصل بالأفراد والهيئات ، فرأى ما يشبه الاجماع على عروبة البحرين ، وعلى الرغبة في الاستقلال ، واعتبرت إيران باستقلال البحرين خضوعاً لهذا الاجراء .

محاولات إيرانية جديدة للسيطرة على البحرين :

ولكن الذى يبدو من تتبع الأحداث أن إيران تدبر أمراً جديداً وتعمل بهمة لا تعرف التوالى ، فأكثر العرب قنعوا بهذه النتيجة واعتبروا المسألة منتهية ، ولكن إيران تفكر في المستقبل وتعمل له غيبى تدفع المتسلسلين بطريق أو بآخر ليصلوا إلى البحرين ، وهى تنشر هناك لغتها ، وتنشئ مدارس فارسية ، ومستشفيات ، وتقيم صحافة ، وتجذب لها العديد من الشباب العرب ليتعلموا في جامعاتها ، وتمنحهم كثيراً من التسهيلات ، وفى كلمة موجزة تتطلع إيران إلى استفتاء آخر يرجح كفتها ، وحينئذ ترى إيران أن العالم يجب أن يخضع لهذا الاستفتاء كما خضعت هى الاستفتاء الأول . واحتلال إيران للبحرين يعد خطراً بالغ الأهمية ضد العرب وضد الجزيرة العربية ، لأن البحرين تبعد عن الساحل العربى بحوالى ستة عشر ميلاً فى حين تبعد عن الساحل الفارسى بحوالى مائة وثمانين ميلاً ، واحتلال إيران للبحرين سيهدد الساحل العربى وشبه جزيرة قطر ودولة الامارات التى تكونت من إمارات ساحل الصالح ، وإذ ذلك ينبغى أن تنتيقظ البحرين ، وتنتيقظ الدول العربية نحو هذا الخطر ، وبخاصة أن الأنباء تقرر أن إيران تعد جيشاً هائلاً يخشى يوماً ما أن يتجه بالعداء تجاه الجيران العرب فى الخليج ، او فى الشمال

(١) جان جاك بيريبى : الخليج الفارسى ص ٢٢٨ .

(م ٣٩ - التاريخ ج ٧)

والغرب من الخليج ، وهذه صحيحة نرجو أن تدق أسماع من يعينهم
الأمر .

دريد من المعلومات عن « البحرين »

نسجل فيما يلي بعض معلومات حديثة ، وبالتالي لم تشملها الطبقات
السابقة لهذه الطبعة الرابعة :

١ - البحرين عبر العصور :

في سنة ١٩٨٥ نظمت حكومة البحرين مؤتمرا عالميا للمؤرخين استغرق
أسبوعا وقُدِّمَت فيه عشرات الأبحاث العلمية الموثقة في مختلف مراحل
تاريخ البحرين الذي يتوغل في الزمن قرابة الخمسة آلاف عام منذ عهد
رلمون التي تعاصر سومر في بلاد ما بين النهرين وعصر بناء الأهرام في
مصر ، فكان مؤتمر « البحرين عبر العصور » الذي حضره مئات العلماء
احتفالا علميا جليلا أضاف مزيدا من المهابة على هذا القطر وتاريخه .

٢ - من حضارة البادية إلى حضارة الكومبيوتر :

يقول الباحثون إن دولة البحرين خلال فترة الاستقلال القصيرة
استطاعت أن تنتقل البلاد من حضارة البادية إلى حضارة عصر الطائفة
النفائنة والكومبيوتر ، ومن جو العصور الوسطى إلى الجو الذي يناسب
استقبال القرن الحادي والعشرين .

٣ - النفط و ثراء البحرين :

كانت البحرين شديدة الحرص على عدم الارتباط الدائم
بالنفط ، وربط حياتها به ، فهو يتعرض لذبذبات الأسعار ، ولهذا فقد
اتجهت البحرين إلى خلق بعض الصناعات بها كصناعة الألومنيوم حيث
تستورد مواد الخام من استراليا وتصنعه بالداخل ثم تعرضه للبيع .
واهتمت البحرين كذلك بترشيد الإنفاق ووضع جدول الأولويات بحيث
تستطيع مواجهة أى انخفاض في أسعار البترول .

جسر الملك فهد وأثره :

نتكلمنا ضمن حديثنا عن المملكة العربية السعودية عن جسر الملك فهد الذى ربط بين السعودية بالبحرين ، وكان له أثر سياسى كبير ، فقد قضى على المحاولة الإيرانية التى كانت تدعى أن البحرين جزء منها ، فقد أصبحت البحرين — بهذا الجسر — شديدة الاتصال بالجزيرة العربية ، وقد ذكرنا هناك أن طول هذا الجزء حوالى ستة وعشرين كيلو مترا .

وكان لجسر الملك فهد آثار اقتصادية واجتماعية بالإضافة للآثار السياسية ، فهذا الجسر يمر عليه الآن آلاف السيارات من وإلى المملكة العربية السعودية والكويت وقطر والإمارات العربية المتحدة ، وهذا خلق رواجاً اقتصادياً بالبحرين ، كما قضى بخفض أسعار الخضراوات والفواكه واللحوم لإمكان الحصول عليها من تلك الدول ، ثم إن الفنادق شهدت نشاطاً ملحوظاً بأكثر مدن البحرين .

مدينة حمد :

يقول شاهد عيان عن مدينة حمد :

ومن أعظم المشروعات التى انجزتها البحرين فى السنوات الأخيرة انشاء مدينة « حمد » التى تحتل مساحة شاسعة جنوبى العاصمة « المنامة » ، وكانت هذه المساحة من قبل صحراء جرداء وهى الآن مدينة متسعة الأرجاء تضم آلاف المنازل البيضاء التى تتكون من طابق واحد أو طابقين ، على نمط متشابه تتخلله الحدائق والبيادين ، ويستطيع رب أسرة بحرينية الحصول على منزل مناسب من بين عدة نماذج مقابل قسط معتدل لا يتجاوز على أقصى تقدير ربع مرتبه ، بلا مقدم وبدون انتظار طويل .

وقد ساهمت مدينة « حمد » مع سابقتها مدينة « عيسى » فى حل أزمة الاسكان بالبحرين نهائياً تقريباً ، وأصبحت معظم الشقق الجديدة فى

المنامة والمحرق وكثير من الشقق القديمة خالية ، معتدلة الأسعار ، تحمل لافتات « للإيجار » .

جامعة الخليج العربى :

وقد كان من الذكاء والتوفيق أن اتفقت دول الخليج العربى (السعودية — قطر — البحرين — الإمارات — عمان — الكويت) على إنشاء جامعة الخليج العربى بالبحرين ، وهى خطوة أخرى لإبعاد أية شبهة قد تتعلل بها إيران لضم البحرين لها .

وقد اتخذ مجلس التعاون الخليجى قرارا بأن تكون البحرين مركزا لهذه الجامعة التى تسهم كل دول مجلس التعاون الخليجى فى نفقاتها ، وقد خصصت دولة البحرين مليونى متر مربع لإقامة الجامعة فى منطقة تبعد عن العاصمة (المنامة) حوالى خمسة وعشرين كيلو مترا .

ومبانى الجامعة تضم مبانى الكليات والادارة والمعامل ومسكن الأساتذة ، ومسكن الطلبة والطالبات والموظفين ، كما تضم سوقا مركزية وساحات رياضية ، وغير ذلك مما تحتاجه الجامعة .

ياتحق بجامعة الخليج العربى طلاب من مختلف الدول العربية

دَوْلَةُ قَطَرْ

دولة قطر

شبه جزيرة قطر قفزة هائلة داخل الخليج العربي كأنها معنّام عظيم يرفع راية العروبة وسط الخليج ، وفيها تقع دولة قطر وعاصمتها الدوحة ، ومن أشهر بلدانها الزبارة ، ودخان وهي منطقة حقول الزيت •

والى قطر تنسب الثياب القطرية وكانت تنسج فيها ، وتنسب لها كذلك النجائب القطريات التى تحدث عنها شعراء العرب •

أحة تاريخية :

إن حديثنا عن « البحرين » القديمة شمل قطر ، فقد كانت شبه جزيرة قطر جزءا من البحرين التاريخية ، وينبغى علينا الآن أن نذكر بعض ملامح من تاريخ قطر لنصل بتاريخها إلى العهد الحاضر ، ولا بأس من عودة سريعة إلى الوراء لنستعين بها على التسلسل التاريخى الذى يصلنا بالحاضر •

كانت قطر جزءا من البحرين أو الأحساء يحكمها حاكم خاص من قبل الخلافة ، وفى كثير من الأحوال كانت منطقة البحرين تابعة للبصرة أو اليمامة كما سبق القول •

وفى القرن الثامن الهجرى استولى بنو نبهان العمانيون على قطر ، ولم يطل مقامهم بها ، ومن بعدهم تناوب على قطر وغيرها من مناطق البحرين كثيرون من أهل البلاد •

وفى سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٧) استولى البرتغاليون على قطر مع • استولى عليه من مناطق الخليج •

وفى سنة ٩٤٣ هـ (١٥٣٧ م) أرسل السلطان سليمان القانونى أسطولا بقيادة سليمان باشا والى مصر لمحاربة البرتغال وطردها ،

ونجح هذا الأسطول في مهمته ، فطرد البرتغاليين من البحرين والمقطيف وقطر ، واستولى عليها كما استولى على الأحساء .

وعندما ضعفت الدولة العثمانية استطاع آل حميد من بني خالد أن يطردوا العثمانيين سنة ١٠٨٠ هـ ، ويصبحوا ملوك الأحساء .

وعندما ظهرت الدولة السعودية الأولى مدت سلطانها إلى قطر في عهد عبد العزيز بن محمد ، وأرسلت لذلك حملتين أحدهما سنة ١٢٠٢ بقيادة سليمان بن عفيصان ، والثانية سنة ١٢٠٨ هـ بقيادة إبراهيم بن عفيصان .

وبعد سقوط الدرعية مد آل خليفة أمراء البحرين سلطانهم إلى قطر .

ثم أعاد السعوديون غزوهم لقطر في عهد الإمام فيصل بن تركي سنة ١٢٦٧ هـ ، وقد استطاع جيشه أن يطرد آل خليفة من شبه الجزيرة ، ويستولى على قصورهم وذخائرهم بها ، وحينئذ طلب أهل قطر بزعامة آل ثاني الأمان من الأمير السعودي فأمنهم ، وعقب ذلك قام صراع بين عبد الله بن فيصل ، وبين أخيه سعود فاستدعى عبد الله بن فيصل العثمانيين لمساعدته ضد أخيه ، فاستجابوا له ، واستولوا على الأحساء وقطر وجعلوا قطر « قائم مقامية » تابعة للأحساء .

آل ثاني في قطر

كان الشيخ ثاني بن محمد مؤسس عائلة آل ثاني خير عون لآل خليفة أمراء البحرين الذين هدوا سلطانهم إلى قطر عقب سقوط الدرعية ، وعندما هبت حرب التحرير بين البحرين وبين بلاد فارس كان الشيخ ثاني بن محمد من خيرة قواد آل خليفة في هذه الحروب مما حقق انتصار البحرين على بلاد الفرس سنة ١٧٨٢ م ، وحدث عقب ذلك أن الشيخ سلمان آل خليفة نقل عاصمته من الزبارة بقطر إلى جزيرة المنامة بالبحرين ،

فلما انتقل آل خليفة إلى البحرين جعلوا آل ثاني حكاما لقطر ، يحكمونها باسمهم وهكذا أصبح آل ثاني هم زعماء الشعب في قطر ، وقد حافظوا على زعامتهم الشعبية منذ ذلك الحين ، وكان محمد بن ثاني حاكم قطر لا يمضى أمرا إلا بموافقة آل خليفة ، وكان ابنه الشيخ قاسم نائبا له في أثناء حياته ، ولكنه كان من عظماء السياسة ، ومن كبار الآمال ، فبدأ يستقل بالأمر دون أن يعود لاستشارة آل خليفة ، فطلب آل خليفة من والده الشيخ محمد أن يرسل لهم ابنه الشيخ قاسم (لتجديد الصحبة وإزالة الشبهة) (١) فاستجاب لهم ، وأرسل الشيخ قاسم ، وهناك ألقى آل خليفة القبض على الشيخ قاسم ، وقامت حروب بين آل ثاني وآل خليفة وتدخلت بريطانيا في الأمر ، وانتهت المشكلة بعقد اتفاق بضمها بريطانيا يحدد الروابط بين قطر والبحرين ، وقد وضع هذا الاتفاق أساس استقلال قطر عن البحرين ، وكان عليها فقط أن تدفع ضريبة لحاكم البحرين ، وكانت هذه الضريبة هي كل الالتزام ، ولم يرد لحاكم البحرين مندوب في قطر كما كانت الحال من قبل ، وعندما توفي الشيخ محمد بن ثاني سنة ١٢٩٥ هـ ، أصبح الشيخ قاسم أميرا لقطر .

قاسم بن محمد آل ثاني

١٢٩٠ هـ — ١٣٣١ (١٨٧٨ — ١٩١٣ م)

يعتبر الشيخ قاسم من عظماء السياسة وكبار القادة وهو مؤسس إمارة آل ثاني المستقلة بعد انتصاره على البحرين في الحرب التي أشرنا لها سابقا ، وسرعان ما اهتمت عن دفع الضريبة التي كان عليه أن يدفعها لحكام البحرين ، وبذلك دعم استقلاله (٢) .

وقد وحّد الشيخ قاسم قطر ، وقضى على مذائيه ، فتألف نجمه

(١) مصطفى كامل الدباغ : قطر ماضيها وحاضرها ص ١٧٧ .

(٢) أمين الريحاني : تاريخ نجد الحديث ص ١٢٣ .

وعلت مكانته ، ومن هنا خاف العثمانيون أن ينقض عليهم كما فعل مع آل خليفة ، فأرسلت الدولة العثمانية جيشا للقضاء عليه ، وطلبت الدولة من الكويت أن ترسل جيشا للمساعدة في هذا الغرض ، وسار الجيشان ، ولكن جيش الكويت توانى في المسير قصدا ، فقامت المعركة قبل وصوله ، وكتب النصر للشيخ قاسم ، وعندما عرف الجيش الكويتي ذلك عاد أدراجه واستقر الأمر للشيخ قاسم ، واضطر العثمانيون للتراجع ولتثبيتته في مكانه .

وكان الشيخ قاسم سىء العلاقة بالانجليز يعارض سياستهم ولا يسير في فلحهم ، وهو لكل هذه المواقف يتعد أعظم قطرى في النصف الأول من القرن العشرين . وتوفي الشيخ قاسم سنة ١٢٣١ هـ (١٩١٣ م) .

الشيخ عبد الله بن قاسم (١٩١٣ — ١٩٤٩)

وخلفاؤه حتى الآن

كانت الحكومة العثمانية مشغولة بتسوية علاقاتها مع دول البلقان سنة ١٩١٣ ، فرأت أن تتقرب من بريطانيا لعلها تساعد في ذلك الشأن فتنازلت لها عن حقوقها في قطر ، وكان ذلك ضمن الاتفاقية البريطانية العثمانية التي وقعت في العام الذي توفي فيه الشيخ قاسم ، وقد جاء في هذه الاتفاقية ما يلى « تتنازل الدولة العثمانية عن جميع حقوقها في شبه جزيرة قطر التي سيستمر في حكمها الشيخ قاسم بن ثانى وخلفاؤه من بعده ، وتعلن الحكومة البريطانية أنها لن تسمح بتدخل شيخ البحرين في أمور قطر الداخلية ، أو ضمها إلى أراضيها » .

ولم يكن الشيخ عبد الله في حزم أبيه ومكانته أو قل : إن النفوذ البريطانى أصبح غنيا في المنطقة في ذلك الحين ، ومن هنا اضطر الشيخ عبد الله إلى أن يعقد معاهدة مع بريطانيا كتلك المعاهدات التي أعطت

نفوذاً لبريطانيا في تلك المناطق ، وفي عهد الشيخ عبد الله اكتشف البترول فبدأ ثراء الذهب الأسود ينساب في شبه الجزيرة •

وتنازل الشيخ عبد الله للأسباب صحية إلى ابنه الشيخ على سنة ١٩٤٩ وقد ظل الشيخ على في الحكم حتى سنة ١٩٦٠ ، وفي عهده حدثت زيادة هائلة في البترول في قطر مما سبب زيادة في التعمير ، وارتفاعاً في مستوى المعيشة •

الشيخ أحمد والشيخ خليفة

وفي سنة ١٩٦٠ تنازل الشيخ على لابنه الشيخ أحمد ليصبح أميراً لقطر ، ونصت وثيقة التنازل على أن يكون الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني (ابن أخى الشيخ على) ولياً للعهد ونائباً للحاكم الجديد ، وقد ظل الأزواج قديماً حتى سنة ١٩٧٢ حيث عزل الشيخ أحمد ، وأصبح الشيخ « خليفة بن حمد » نائب الحاكم هو الأمير •

ويقول المطلعون : إن السر في الأزواجية أن الشيخ على بن عبد الله تنوّل الإمارة سنة ١٩٤٩ بعد وفاة شقيقه الأكبر الشيخ حمد بن عبد الله والد الشيخ خليفة الذى كان صغير السن عندما توفي والده ، ولذلك رأى أهل الحل والعقد في أسرة آل ثاني عندما تنازل الشيخ على عن الحكم لابنه أحمد سنة ١٩٦٠ ، أن تستند نيابة الحكم إلى الشيخ خليفة تعويضاً له عما فاتته من قبل ، ومنعاً لحدوث أى انقسام في الأسرة •

وقد عنى الشيخ على بتشديد قصور ضخمة له في قطر وسويسرا وبيروت وبلغ ثراؤه حداً كبيراً لدرجة أنه قدم للملك سعود عندما زاره عقب تنظيم الحدود بين البلدين هدية تبدو للقارىء سخية للغاية ، فقد كانت عبارة عن سيارة كاديلاك وسيارة أوستن صنعت بعض أجزائها من الذهب ، وعشر حقائب من المجوهرات الثمينة (١) •

(١) مصطفى كامل الدباغ : المرجع السابق ص ١٩٤ •

وحتى سنة ١٩٧٠ كان للحكومة البريطانية نفوذ كبير في قطر ،
وقد أذاع راديو لندن سنة ١٩٥٩ عقب زيارة الملك سعود لقطر التي أشهروا
لها آنفاً أن هذه الزيارة تمت بعد موافقة الحكومة البريطانية عليها (١) .

وفي خلال فترة الازدواجية وضح التناقض بين الرجلين * ويقول
الأستاذ نجيب الرئيس (٢) : إن الشيخ خليفة كان أميل لفهم التغييرات
التي طرأت على قطر وعلى المنطقة ، وإذ كان هناك صراع دائم مستتر
بين الزعيمين ، وقد برزت مواهب الشيخ خليفة في أمدته بين ١٩٦٨ و
١٩٧١ م في أثناء المباحثات لقيام دولة اتحاد الإمارات العربية ، فقد حاول
أن يحتفظ لبلاده بمركزها ، ثم أعلن استقلال قطر في سبتمبر سنة ١٩٧١ .

وتد وضحت الخلافات بين الشيخ أحمد وبين ولي عهده ونائبه ،
حينما عطل الشيخ أحمد تنفيذ النظام الأساسي للدولة على الرغم من
إصداره ، إذ كان يخشى من تنفيذه أن يفقده هو وأعوانه العصبية القبلية
التي كانوا يتمتعون بها في الحكم ، ومع ذلك فقد كان الشيخ أحمد
منصرفاً تماماً عن مهام الحكم ، إذ كان مغرمًا برحلات القنص التي كان
يثوم بها في إيران ، وكثيراً ما كان يقضى أشهر الصيف في قصره الذي
بناه في سويسرا حتى أنه لم يكلف نفسه عناء العودة من جنيف ليعلن
استقلال بلاده ، مما اضطر الأسير « جيفري ارثر » المقيم السياسي
البريطاني في الخليج إلى مقابيلته في جنيف ، ليوقع معه مراسيم إنهاء
معاهدة الحماية بين بريطانيا وقطر ، وكان ذلك موقفاً مفيداً للشيخ خليفة
الذي قام بإعلان استقلال بلاده ، فظهر بهظهر الحاكم الحقيقي لقطر (٣) .

ولعل قيامه بهذه الخطوة هو الذي مهد له الظروف لتنفيذ حركته

(١) المرجع السابق : ص ٧١ .

(٢) صراع الواحات والنفط . ص ٢٢٠ .

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .

الانقلابية في فبراير سنة ١٩٧٢ ، ليصل بها إلى الحكم ، واستطاع أن ينفرد بالسلطة ، وبالتالي ، ينهى عهداً من الأزردواجية في حكومة قطر ، استمر ما يقرب من اثني عشر عاماً . وقد تم هذا الانقلاب بينما كان الشيخ أحمد في رحلة قنص بين بندر عباس وشيراز ، واستطاع الشيخ خليفة أن يحظى بتأييد أعضاء الأسرة الحاكمة ، بالإضافة إلى قواد الجيش ، وبمجرد وصوله إلى السلطة استهدف بها تحديث الدولة وإقامة الحكومة على أسس عصرية .

ولا يزال الشيخ خليفة في مكانه حتى اليوم يمارس عمله بكل وعى وحكمة ، وتتطور البلاد في عهده تطوراً سريعاً عميقاً .

ولى عهد قطر :

وفي مايو سنة ١٩٧٧ أصدر الشيخ خليفة بن حمد مرسوماً بتعيين ابنه الشيخ حمد ولياً للعهد ووزيراً للدفاع ، وكان منصب ولي العهد شاغراً منذ فبراير سنة ١٩٧٢ ، وولى العهد في السابعة والعشرين من عمره ، وله ثقافة مدنية وعسكرية عالية .

أشهر المدن في قطر :

أشهر المدن في قطر هي الدوحة ، وتقع في منتصف الساحل الشرقي للجزيرة ، وهي مدينة عصرية الآن اتضحت بها معالم التقدم والرقى ، فطرقاتها واسعة مرصوفة وعلى جانبيها المتاجر العظيمة والفيلات الجميلة ، والدوحة مرفأ هام لقطر ومن أبرز معالم الدوحة مستشفاهما العظيم وبرج الساعة الذي يرتفع ٧٢ قدماً عن سطح البحر ، والقلعة التي بنى عليها قصر لكاكيب الحاكم ، وفي الدوحة عدة من المساجد العظيمة وكثير من المدارس الابتدائية والاعدادية والثانوية وبعض المعاهد الصناعية .

ومن أشهر المدن مدينة دخان ، وهي مدينة البترول ، وتقع على

مسافة ستين ميلا في الشمال الغربى للدوحة ، وقد شيدت فيها شركة البترول
المكتاب والمنازل والفيلات لموظفيها وعمالها على أحدث طراز .

ومن المدن الهامة مدينة أم سعيد ، وهى منطقة المخازن الرئيسية
للشركة ، وتقع بالجنوب الشرقى للدوحة على بعد ٢٥ ميلا ، وتوجد بها
مصبات البترول المنقول إليها بالأنابيب من آبارها في دخان ، وقد أقامت
فيها شركة بترول قطر بناياتها وفيلاتها للعمال والموظفين ، وأم سعيد
هى ميناء قطر منذ سنة ١٩٥٢ م .

ومن قرى قطر الريان والخور والخوير والوكرة وأم أصلال
وزكريت وميسمة والعريش .

ومن أشهر المدن بقطر الزبارة وكانت عاصمة البحرين ، نزل بها
آل خليفة والجلالمة وآل ابن على في النصف الثانى من القرن الثانى
عشر ، وقد ظلت الزبارة عاصمة آل خليفة حكام البحرين إلى أن حوّل
الشيخ سلمان بن أحمد آل خليفة (١٧٩٤ - ١٨٢٠ م) عاصمته لتكون في
جزر البحرين نفسها وبذلك أصبحت الزبارة مقاطعة تابعة للبحرين ثم
استولت عليها قطر .

قطرى بن الفجاءة :

ومن أشهر رجالات قطر قطرى بن الفجاءة أحد أبطال الخوارج ،
وقد ولد قطرى في الخوير بالمعدان واسمه جعونة بن مازن وأمه من بنى
شيبان ، وأخوه اسمه (الماحون) ولكن هذا كان من أهل السنة والجماعة
ومن أصحاب المذهب ، ولذلك حارب « الماحون » أخاه « قطرى » حربا
طويلة . ويروى ياقوت ^(١) أن « قطرى » قال لأخيه وكانا قد تقابلا في
صفين يحارب أحدهما الآخر : أرأيت إذ كنت أنا وأنت نتدافع على
ثدى أمننا بالمعدان ؟

(١) معجم البلدان : ج ١ ص ٢٢٠

ويقول ابن خلكان ^(١) : إن اسمه جعونة بن مازن ، وقطرى ليس باسم له ، ولكنه نسبة إلى قطر ، وقد اشتهرت النسبة وحات محل الاسم ، وأبوه كذلك فكَّد اسمه ، لأنه كان غائبا عن أهله باليمن وطالت غيبته ، ثم عاد فجأة فأطلق عليه فجاءة ، ومكانة قطرى بن الفجاءة في ميادين القتال مكانة رائعة ، فيحكى أنه خرج في بعض حروبه وهو على فرس أعجف وبيده عمود من الخشب ، فدعا إلى المبارزة ، فبرز إليه رجل استهان بفرسه وبعمود الخشب الذى بيده ولكن « قطرى » فاجأه بأن حسر اللثام عن وجهه ، فلما رآه الرجل ولى مدبرا ، فقال له قطرى : إلى أين ؟ فأجاب الرجل قائلا : لا يستحي الانسان أن يفر منك .

وقد تحدثنا بإفاضة عن قطرى بن الفجاءة في الجزء الثانى من هذه الموسوعة .

(١) وفيات الاعيان : ج ٢ ص ١٨٤ - ١٨٥ .

دولة الإمارات العربية المتحدة

(م ٤٠ - التاريخ ج ٧)

ذكرنا عند حديثنا عن عمان أن الإمارات التي تكونت منها دولة الإمارات العربية المتحدة كانت جزءاً من عمان ، وأنه في أثناء التفكك الذي انتاب عمان وأخضعها إلى عدد من الطموحين والقبائل ، ظهرت هذه الإمارات مع ما ظهر من مناطق مستقلة أو شبه مستقلة •

ويقول الدكتور سيد نوفل ^(١) : إن ساحل عمان أو إمارات ساحل عمان كما يسميه أهله العرب ، أو ساحل القرصنة أو الهدنة كما دعاه البريطانيون ، هو أحد الأقسام الثلاثة التي انقسمت لها عمان وهي عمان ومسقط وساحل عمان ، وكان هذا الساحل بعد فصله عن عمان يمارس فيه أهله الشجعان دورب النشاط البحري ، فلما جاء الاستعمار البريطاني جرده من قوته البحرية ، ثم انتهى به إلى سبع وحدات إمعانا في إضعافه ، ورغبة في تيسير التحكم فيه ، كما فعل الاستعمار في مناطق مختلفة من العالم ، وهذه الأقسام السبعة هي : أبو ظبي ، ودبي ، والشارقة ، وعجمان ، وأم القوين ، ورأس الخيمة ، والفجيرة •

ويقول الدكتور صلاح العقاد : إنه منذ قيام حكم البوسعيد في عمان انفصل القسم الشمالي من ساحل عمان عن التبعية لمسقط ، وأخذت نواة قبليّة جديدة تظهر هناك مثل بنى ياس والقواسم ، أما في عهد اليعاربة ، فكان من المتعارفة عليه أن عمان تمتد من إقليم ظفار المتاخم لحضرموت حتى قطر في وسط الخليج العربي ^(٢) •

ويمكننا أن نعطي مزيداً من الشرح لاستقلال منطقة الإمارات عن عمان ، فإن قبيلة القواسم نزلت ساحل عمان في القرن السابع عشر ، ووطدت أقدامها به في مطلع القرن الثامن عشر ، ثم أصبحت قوة بحرية هائلة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وفي مطلع القرن التاسع

(١) الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي ج ٢ ص ٤٥

(٢) التيارات السياسية في الخليج العربي ص ٥٢ •

عشر ، وهذه القبيلة وقفت قوية أمام الصراع الذى كان يدور فى المنطقة ،
والذى كان السعوديون والإباضية والانجليز أطرافا فيه ، واستطاع
القواسم أن تكون لهم السيطرة البحرية على هذه المنطقة ، وفى سنة
١٧٤١ أعلن رحمة بن مطر زعيم القواسم الاستقلال بهذه المنطقة ، واتخذ
رأس الخيمة قاعدة له ، واعترف له بالاستقلال أحمد بن سعيد مؤسس
دولة البوسعيديين •

وإذا كان القواسم قد أصبحوا قوة بحرية هائلة فى المنطقة ، فقد
ظهرت بالمنطقة قوة برية خطيرة هى قوة بنى ياس وحلفائهم الذين
يقتربونهم آل بو فلاح ، وكان مقرهم الطفرة والبريمي وجزيرة أبو ظبي •

ولما كانت هذه الإمارات فى الأصل جزءا من عمان ، فإن تاريخ
عمان هو تاريخ هذه الإمارات حتى تم انفصالها عن عمان ، ومن هنا فإن
الباحث عن تاريخ هذه الإمارات لا يبدأ رصد تاريخ مستقل لها إلا منذ
انفصالها عن عمان ، أما قبل ذلك فإن تاريخ عمان ينسحب عاينها وهو
تاريخها •

وقد بدأ استقلال هذه المنطقة فى منتصف القرن الثامن عشر كما
ذكرنا آنفا ، وكانت رأس الخيمة عاصمة المنطقة ، وفى عهد الشيخ سلطان
ابن صقر الأول نُقلت عاصمة القواسم من رأس الخيمة إلى الشارقة ، ثم
حدثت بعد ذلك أحداث سياسية كان الاستعمار أهم أطرافها ، وقد
خاضت بريطانيا حروبا طاحنة ضد هذه المنطقة ، وأذاعت على العالم أن
سكانها قراصنة ، وأن التجارة العالمية فى حاجة لإزالة القرصنة من المنطقة ،
وراحت تضرب بعنف حتى استطاعت أن تحتل أهم الموانئ فى المنطقة
فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر ، وعقدت مع الحكام راضين أو
كارهين معاهدات أخطرها معاهدة سنة ١٨٢٠ التى أدخلت المنطقة كلها
تحت السيطرة البريطانية ، ثم تجددت المعاهدات بعد ذلك مع الشيوخ
فى المنطقة مما وضع الأساس لقيام إمارات متعددة فى ساحل عمان ،

وكانت كل المعاهدات تسير على نمط واحد تقريبا ، إذ كانت عبارة عن التعهد بعدم عقد اتفاقيات إلا مع الحكومة البريطانية ، وكذلك عدم إرسال مراسلات لغير هذه الحكومة ، كما شملت تعهدات بعدم السماح لأية دولة غير بريطانية بأن تقيم لها تمثيلا بهذه الإمارات ، وكذلك التعهد بعدم التنازل عن أى جزء من أجزاء الإمارة لأية دولة غير الدولة البريطانية •

وهكذا انقسم ذلك الساحل إلى الإمارات السبع ، وأصبح السلطان الحقيقي فى يد المستعمر البريطانى •

مشكلات الإمارات :

إن قيام هذه الإمارات أبرز كثيرا من المشكلات التى توحى بصعوبة قيام هذه الإمارات منفصلة بعضها عن بعض ، فبعضها لا يبلغ تعداد سكانه أكثر من تعداد بلدة صغيرة ، وبعضها لا يملك موارد تيسر وسائل العيش ، وليست هناك حدود فاصلة بينها ، ومن هنا كان التنازع واسعا بين هذه المشيخات أو الإمارات بعضها والبعض ، فقد كانت هناك مناطق تتنازع عليها عمان ورأس الخيمة والفجيرة ، ومناطق تتنازع عليها عمان وعجمان وأبو ظبى ودبى والشارقة ، وليس فى استطاعة الانسان ان يصل من بلد « الشارقة » فى إمارة الشارقة إلى بلدة أخرى فى نفس الإمارة هى « خور فكان » دون أن يمر بأرض كثير من الإمارات الأخرى ، وذلك بسبب تداخل أقسام كل إمارة فى أراضى الإمارات الأخرى (١) •

ومن أجل هذا حاولت الإمارات أن تنظم الحدود بينها ، وأن تنظم وسائل التعايش ، ولكنها أخيرا وجدت أن أيسر طريقا لحياتها جميعا هو أن تتجمع لا أن تتفرق ، فاتخذ زعموها القرار التاريخى بإقامة دولة الإمارات العربية المتحدة لتشملها جميعا كما سنرى فيما بعد •

(١) دكتور سيد نوفل : الاوضاع السياسية لامارات الخليج العربى

تعريف بالإمارات

يمكن تقسيم الإمارات أو المشيخات من ناحية المساحة إلى أنواع ثلاثة : مشيخات كبيرة وهى أبو ظبى ودبى ، ومشيخات متوسطة وهى الشارقة ورأس الخيمة ، ومشيخات صغيرة وهى أم القوين والعجمان والفجيرة ، وسنورد فيما يلى كلمة عن كل مشيخة من هذه المشيخات •

أبو ظبى :

• إمارة أبو ظبى ^(١) أكبر إمارات ساحل عمان ، تبلغ مساحتها ٨٠ ألف كيلو متر ، وامتدادها على ساحل الخليج يصل إلى ٢٥٠ ميلا ، أما امتدادها فى الداخل فيتراوح بين مائة ومائة وخمسين ميلا ، وهى مساحة هائلة بالنسبة لإمارات ودول المنطقة ، وحدود الإمارة تبدأ من قطر فى الغرب إلى دبى فى الشرق ، وتتبعها جزر كثيرة فى الخليج وسكانها حوالى ربع مليون •

وحرارة الجو فى إمارة أبو ظبى رهيبه جدا ، وتحصل أحيانا إلى خمسين درجة مئوية فى الظل •

وقد تفجر البترول فى المناطق السابعة لأبو ظبى فى الخمسينات فملا الإمارة خيرا وبركة ، وهناك واحات تابعة لأبو ظبى تنتشر فيها الخضرة والمزارع مثل واحه ليوا والبورىمى ، وفيها عدا هاتين الواحتين ، فإن النباتات الصحراوية هى التى تظهر هنا وهناك فى مناطق الإمارة •

وكان اللؤلؤ والتمور من أهم محاصيل أبو ظبى ، ولكن انبثاق البترول جذب الأيدي العاملة ، فأتجه أكثر النشاط للذهب الأسود •

(١) آثرنا ان نذكرها هكذا (أبو ظبى) فى حالات الرفع والنصب والجسر •

لمحة تاريخية :

تذكر المصادر الأولى أنه بينما كانت القبيلة الكبيرة بنى ياس تتجول في ديرتها ، عثر أحد رجالها من آل بوفلاح عام ١٧٦١ على بئر ماء في جزيرة أبو ظبي . وقد دفع هذا بعض أفراد بنى ياس إلى أن يهاجروا إلى الجزيرة ، وأن يبنوا حول البئر بعض أكواخهم ، وسرعان ما انتشر نداء العثور على بئر في جزيرة أبو ظبي ، مما دفع موجة أخرى من بنى ياس إلى الهجرة إلى الجزيرة المطلة على مياه الخليج ، والقريبة من مغاصات اللؤلؤ ، وهكذا تم بناء عشرين كوخا من سعف النخيل . وأصبح لبنى ياس مستعمرة ساحلية .

في هذا الوقت — أواخر القرن الثامن عشر الميلادي — استطاع الشيخ عيسى بن نهيان أن يجمع بنى ياس تحت لوائه ، وهو ، بذلك يعتبر أول حكام آل نهيان . وخلفه دياب بن عيسى الذي يعتبر مؤسس المستعمرة الساحلية ، ولكنه ظل مقيما في الداخل ، وكان يزور بين الفينة والفينة رعاياه القليلين المستوطنين حديثا جزيرة أبو ظبي .

ومات دياب بن عيسى ، فتولى زعامة آل بو فلاح ابنه شخبوط الأول « ١٧٩٣ — ١٨١٦ » الذي كان من طراز الزعماء الواسعي الأفق ، وفي عهده تأكدت زعامة آل بو فلاح على بنى ياس (١) .

وفي عام ١٨١٦ عزله ابنه الأكبر محمد وتولى بدله مدة سنتين .

وفي عام ١٨١٨ استطاع طحنون بن شخبوط أن يعزل أخاه محمدا وأن يتولى أمر أبو ظبي متعاوناً مع أبيه ، أو منفردا بالسلطة بعد أن تنازل له الأب ، وقد امتد حكم الشيخ طحنون من سنة ١٨١٨ إلى ١٨٣٣ ،

(١) أبو ظبي : من مطبوعات دار الهلال للتعريف بالبلاد العربية
بتصرف .

وفي خلال هذا العهد زاد التدخل البريطاني ، وأرغم الشيخ شخبوط « وقت أن كان لا يزال يحكم مع ابنه طحنون » على قبول معاهدة يناير سنة ١٨٢٠ المتى وضعت القيود على نشاط أبو ظبي ، واتجه الانجليز كذلك إلى شيوخ المشيخات ليعقدوا معها معاهدات مماثلة •

وقد وضعت هذه المعاهدات ، وتلك التجزئة أساسا للمصارعة بين الشارقة مركز القواسم التي كانت تتطلع لزعامة المنطقة وبين أبو ظبي مركز بنى ياس ، وأعوانهم من المناصر ، ومما قرى هذا الصراع أن القواسم كانوا ينحدرون من (العافرية) وأن بنى ياس ينحدرون من (الهناوية) ، وقد سبق أن ذكرنا عند الحديث عن عمان كثرة الصراع والتنافس بين هاتين القوتين •

وشهد عهد الشيخ طحنون الصراع الذى دار بين القوة السعودية بالجزيرة وبين أبو ظبي حول واحة البوريمى ، تلك الواحة التى كانت محل أطماع السعوديين وعمان وأبو ظبي والانجليز ، والمتى انتهت لموضعها الطبيعي جزءا من أبو ظبي •

وبعد الشيخ طحنون قام صراع بين أخويه خليفة وساطان ، ثم استطاع خليفة أن ينفرد بالحكم وحده ، وقد ظل حاكما حتى توفى سنة ١٨٤٥ وشهد عهده كثيرا من الصراع بين مشيخات المنطقة •

بعد وفاة الشيخ خليفة بن شخبوط تولى الشيخ سعيد بن طحنون حتى سنة ١٨٥٥ ، وسعيد هذا هو الذى نازل السعوديين سنة ١٨٤٨ بعد أن استمال إلى جانبه قبائل الظواهر والنعيم والقبائل العمانية على الساحل •

وفي سنة ١٨٥٥ تولى الشيخ زايد بن خليفة مشيخة أبو ظبي بعد وفاة المشيخ سعيد ، وفي عهد الشيخ زايد أصبحت أبو ظبي من أكبر إمارات ساحل عمان من حيث المساحة والقوة السياسية ، وقد امتد حكم

الشيخ زايد حتى عام ١٩٠٩ ، ويعتبر عصره من أزهى عصور الإمارة ، وقد اجتمعت له الشجاعة والرأى وحسن التصرف ، وحالفه توفيق كبير في سياسته الداخلية والخارجية .

ويقول المصدر الذى أشرنا إليه آنفا (١) العبارة التالية التى توضح حالة البوريمى منذ ذلك التاريخ :

اتجه زايد بن خليفة ببصره نحو البوريمى التى سيطر عليها النفوذ السعودى فى أواخر عهد سعيد بن طحنون ، وقد استطاع زايد أن ينتصر على الحامية السعودية فى معركة كبيرة ، أجلى بعدها عن الواحة مَنْ بقى منهم على قيد الحياة ، ومنذ ذلك التاريخ عادت البوريمى إلى أبو ظبى .

وقد شهد عهد الشيخ زايد عقد اتفاقية بين أبو ظبى وبين بريطانيا سنة ١٨٨٧ وتسمى الاتفاقية (الاتفاقية المانعة) وتدور نصوصها فى نطاق النصوص التى تحدثنا عنها من قبل لمثل هذه الاتفاقيات .

وبعد الشيخ زايد بن خليفة توالى حكم أبو ظبى فى أسرة آل نهيان على النحو التالى :

١٩٠٩ — ١٩١٢	طحنون بن زايد
١٩١٢ — ١٩٢٢	حمدان بن زايد
١٩٢٢ — ١٩٢٧	سلطان بن زايد
١٩٢٧ — ١٩٢٨	صقر بن زايد
١٩٢٨ — ١٩٦٦ عزل	شخبوط بن سلطان بن زايد
١٩٦٦ — حتى العهد الحاضر	زايد بن سلطان

(١) أبو ظبى : ص ٥٧ ، ٥٨ .

وينبغي أن نذكر أن شخبوط بن سلطان تولى المشيخة وهي في مطلع الشباب ويمتاز عهده بالهدوء والسكينة بفضل القسم الذي أخذه أمراء أسرة آل نهيان على أنفسهم ، وكانت المشيخة المصونة (سلامة) والسدة شخبوط هي التي استطاعت أن تأخذ الأسرة بهذا القسم بعد فترة الاضطراب التي سبقت الشيخ شخبوط ، وفي عهد الشيخ شخبوط انبثق البترول في الإمارات ، وانبثق معه الخير الوفير ، ولكن الشيخ شخبوط انتصح بنصيحة الأجانب الذين باعدوا بينه وبين العرب ، وحذروه من التقدم ، وحببوا إليه اكتناز الأموال ، ولم يصنعوا من المشروعات العمرانية إلا بمقدار ما يخدم العاملين الأجانب في استغلال البترول وييسر لهم وسائل الإقامة والراحة (١) وكان هذا التزمت وسوء العلاقة مع بعض الجيران من أسباب عزل الشيخ شخبوط سنة ١٩٦٦ .

زايد بن سلطان :

كان الشيخ زايد خير عون لأخيه شخبوط إبان حكمه ، فقد تولى إدارة شئون المنطقة الشرقية منذ سنة ١٩٤٦ ، وفي خلال هذه المدة تفرس الشيخ زايد بالعمل السياسي والإداري بالإضافة إلى ما يمتاز به من ذكاء ، وشخصية ، وقوة واعتزاز بالنفس ، وحسن مكانة بين قبائل المنطقة .

ويمتاز الشيخ زايد بن سلطان كذلك بالحكمة البالغة ، وكان مجلسه للقضاء ينتهى بالتوفيق بين المتقاضين والمحبة بينهم ، وفي كل المشكلات التي خاضها الشيخ زايد كان يبدو نموذجا ممتازا بين الرجال وقُدوة صالحة بين المصلحين والحكام .

وقد استطاع الشيخ زايد أن يحقق لإمارته ألوانا من التقدم والنظام لأول مرة في تاريخ هذه الإمارات ، فقد نظم الإدارة الحكومية وعين

(١) دكتور سيد نوفل : الاوضاع السياسية ج ٢ ص ٥٠ .

الوزراء أو من يقوم مقامهم ونظم ديوان الحاكم ، وأنشأ مجلساً للتخطيط ، ودائرة للشئون الاجتماعية ، ونظم الشرطة والأمن والدفاع وشئون الصحة والعلم ، وفي كلمة مجملّة نقل الشيخ زايد الإمارة من عصر إلى عصر ، ودفع بها شوطاً هائلاً في مجالات التقدم والرقى ، ووجه ثروتها لخدمة أبنائها ، وفتح الأبواب للعرب من مختلف البلاد ليقدّموا خبرتهم وتجارتهم متعاونين مع الحاكم ورجاله لخير الإمارة وللخير العربي العام ^(١) ، واتجه زايد إلى التوسع في برامج الخدمات والإنشاءات ، لا بالنسبة لإمارته فقط بل امتد بهذه الخدمات إلى جيرانه ، وقدم المعونات لدول عربية أخرى ^(٢) .

دبي :

تقع دبي بين أبو ظبي والشارقة ، وتبلغ مساحتها ١٥٠٠ ميل مربع ، ويبلغ سكانها حوالي مائة ألف شخص ، ومشيجة دبي قاحلة بوجه عام وتوجد بها بعض القرى الخضراء والمزارع حول المعيون بالصحراء ، وتقع مدينة « دبي » على جانبي خور طوله عشرة أميال ، وأحد جانبي هذا الخور يعرف ببر ديره ، ويعرف الجانب الآخر ببر دبي ، وينتقل الناس بين البرين على جسر أقيم سنة ١٩٦١ أو بالمراكب الشراعية ، ومن هنا فإن هذا الموقع يسمى « فينسيا الخليج » وقد أقيم حديثاً نفق تحت الماء يربط بين البرين .

ودبي هي المركز التجاري لساحل عمان ، ومينائها أهم ميناء بالمنطقة ، وكذلك مطارها أعظم مطار بها ، وقد أنشئت بها مجموعة من المنازل ، والفنادق الحديثة ، ووصلت صادراتها أخيراً إلى مستوى رفيع .

(١) المرجع السابق ص ٥١ .

(٢) دكتور صلاح العقاد : التيارات في الخليج العربي ص ٢٨٩ .

وفي أثناء الحرب الداخلية بلبنان جذبت دبی أوجه النشاط التجارى والفنى الذى تعودت لبنان أن تحتضنه .

وقد شهدت دبی أولى المدارس العصرية فى المنطقة .

والحكم فى دبی فى أسرة آل مكتوم وهى فرع من فروع بنى یاس ، وهى بذلك تمت بصلة القرابة إلى الأسرة الحاكمة فى أبو ظبى ، ولو أن الصلات لم تكن طيبة بين الأسرتين فى العهود الماضية .

ويرجع الفضل فى تقدم دبی إلى الشيخ سعيد آل مكتوم الذى حكم المشيخة من سنة ١٩١٢ إلى سنة ١٩٥٨ فقد عنى الشيخ بتنظيم مشيخته وجعل دبی تمثلاً المنفذ الرئيسى لتجارة الساحل ، وبعد الشيخ سـعيد آل الحكم فى المشيخة للشيخ راشد بن سعيد ، وهو معروف بجده ونشاطه واقباله على العمل فى المشروعات العامة للإمارة ، وتربطه صلات مصاهرة وتعاون بحاكم قطر ، ولهذا تستثمر فى دبی أموال قطر فضلاً عن أموال الكويت وغيرها .

وقد تدفق البترول فى دبی ابتداء من سنة ١٩٦٨ فحمل للأهلين الخير والرخاء .

الشارقة :

تقع الشارقة شرقى دبی ، ومساحتها تقرب من مساحة دبی ، وعاصمتها مدينة « الشارقة » وهى تبعد عن دبی بحوالى عشرة أميال ، وتعتبر إمارة الشارقة أعرق مشيخات الساحل لأنها تعد نفسها وريثة لدولة القواسم القديمة .

وتنقسم الشارقة قسمين : القسم الغربى وهو الأكبر وفيه العاصمة وأماكن التقييب ، والقسم الشرقى وهو يقع شمالى سهل الباطنة الخصب وإذلك يمتاز هذا القسم بخصبه وكثرة فاكهته . ويشمل هذا القسم

حصن « دبا » و « خورفكان » وهناك مناطق متنازع عليها بين الشارقة والإمارات الأخرى ومسقط .

وقد ضعف شأن الشارقة منذ وفاة سلطان بن صقر الثاني سنة ١٨٦٦ ثم استعادت الإمارة مكانتها بعد حربها المظفر مع رأس الخيمة التي تنتمي أيضا إلى قبيلة المقواسم ، ثم زادت شهرة الشارقة عندهما أقامت بريطانيا بها قاعدة جوية سنة ١٩٣٧ اعتبرت من أكبر القواعد الحربية بالخليج .

ومن أمرائها المشاهير الشيخ صقر بن سلطان القاسمي (١٩٥١ - ١٩٦٥) وكان أدبيا وشاعرا وعمل على تطوير إماراته وربط نشاطه بالخط العربي مما أثار عليه بريطانيا فأدى ذلك إلى عزله سنة ١٩٦٥ ^(١) وتولى ابن عمه الشيخ خالد بن محمد القاسمي ولكن الأمير الجديد بذل جهدا واضحا لتطوير الإمارة فمهد الطرق واهتم بالأمن وأنشأ الموانئ ، وعمق صلته بالجامعة العربية ، ولذلك يمكن القول أن القوى العربية بالإمارة هي التي جاءت به إلى الحكم وليس بريطانيا لأنه لم يسر في فلكها .

ويتبع الشارقة جزيرتان تقابلان شاطئ الشارقة هما جزيرة أبو موسى وجزيرة صير بو نعين ، ويوجد بالجزيرة الأولى الماء العذب ، كما يوجد بالجزيرة الثانية الأوكسيد الأحمر .

عجمان :

استمرارا لمسيرتنا تجاه الشمال الشرقي نواجه عجمان بعد الشارقة ومشيخة عجمان أصغر الإمارات السبع ، وسكانها حوالي عشرة آلاف نسمة ، وتكثر المناطق التي تتنازع عليها عجمان مع بعض الإمارات

(١) دكتور سيد نوفل : الاوضاع السياسية لامارات الخليج العربي ج ٢ ص ٥٣ والخليج العربي للدكتور صلاح العقاد ص ٢٩١ .

الأخرى ، ويعتمد السكان على صيد السمك وعلى التجارة ، كما يعملون في بعض الإمارات الأخرى التي انبثق فيها البترول ، ومعظم سكان الإمارة من قبيلة النعيم آل بو مهير والسودان •

وحاكم عجمان من سنة ١٩٢٨ هو الشيخ راشد بن حميد الفعيمي وعاصمة الإمارة عجمان وبها أكثر سكان الإمارة •

أم القوين :

تقع أم القوين إلى الشمال الشرقي من الشارقة أيضا ، وهي مثل عجمان في المساحة وفي عدد السكان تقريبا ، ويقال أن اسمها تحريف من « أم القوتين » لشدة بأس أهلها وشجاعتهم التي عرفوا بها إبان الصراع ضد القوى المعتدية ، وأرض الإمارة ملحة وتتبعها جزيرة (السينية) حيث يكثر الغزلان التي تجذب الناس للصيد ، وحاكمها منذ سنة ١٩٢٩ هو الشيخ أحمد بن راشد المعلا من قبيلة آل علي •

رأس الخيمة :

تقع رأس الخيمة إلى الشمال الشرقي من أم القوين ، وتبلغ مساحتها مساحة عجمان وأم القوين جميعا ، ويقدر سكانها بحوالي أربعين ألف نسمة ، وتنقسم رأس الخيمة قسمين أحدهما يقع على الخليج العربي ، والثاني يقع في الجهة الشرقية ويفصله عن القسم الأول بعض الأراضي التابعة للشارقة وعجمان وعمان •

ومشيخة رأس الخيمة كثيرة المياه خصبة الثروة ، ومن هنا تكثر فيها الأشجار والحبوب والخضر ، ومن أخصب أراضيها وادي الجويلات ويعمل سكان رأس الخيمة في الزراعة والتجارة وصيد الأسماك ، والغوص

(١) د. سيد نوفل : الأوضاع السياسية : ج ٢ ص ٥١ وما بعدها
بتصرف •

لاستخراج اللؤلؤ ، ويذكرون أن سبب تسميتها رأس الخيمة أن أميرها كان يقيم في خيمة على مرتفع ، وكان المرتفع يمثل خيمة عربية تقع خيمة الأمير في قمته ، وكانت أضواء الخيمة تظهر للقادمين في البحر ، فأطلقوا عليها هذا الاسم ، وحاكمها منذ سنة ١٩٤٨ هو الشيخ صقر بن محمد بن سالم القاسمي .

وتمتاز رأس الخيمة ببعض الآثار التاريخية وأهمها « الصبرة » وهو حصن لاتزال آثاره موجودة و « جلفار » وهي مدينة شمالي رأس الخيمة ينسب إليها الملاح العربي الشهير شهاب الدين أحمد بن ماجد مرشد فاسكودي جاما في رحلته حول إفريقيا .

الفجيرة :

تقع مشيخة الفجيرة على ساحل خليج عمان ، وبذلك فهي تطل على سهل الباطنة ، وسكانها حوالي عشرين ألفا ، ومعظمهم يعيشون عيشة البدو فيشتغلون بالرعي وصيد الأسماك ، وقد ظلت في عزلة فلم يدخلها التعليم إلا منذ سنوات ، وحاكمها منذ سنة ١٩٤٠ هو الشيخ محمد بن حمد الشارقي (١) .

تلك لمحة قصيرة عن هذه الإمارات ، وهذه اللوحة ترينا أن من المستحيل أن تعيش كل إمارة مستقلة بصغر حجمها وقلة مواردها بعضها وقلة عدد سكانها ، وكانت بريطانيا تمثل الأم لكل هذه الإمارات ، وتحمل تفككها ، فلما أعلنت في مطلع سنة ١٩٦٨ قرارها بالجلء عن شرقى السويس قبل نهاية ١٩٧١ أى في ١٩ ديسمبر سنة ١٩٧١ أصبح من المحتم أن يوجد كيان جديد قوى بالمنطقة ، فبدأت المشاورات والمفاوضات لذلك كما سنرى فيما يلي :

(١) د . سيد نوفل : الأوضاع السياسية : ج ٢ ص ٥١ وما بعدها
بتصرف .

قيام دولة الإمارات

قلنا آنفا إن إعلان بريطانيا عن الجلاء هو الذى ألزم قيام نوع من الارتباط بين هذه الإمارات ، ولكن من الحق أن نقرر أن الرغبة فى الارتباط كانت حديث المثقفين من أبناء الخليج منذ أمد طويل ، فمن المعروف أن هذه الإمارات كانت جزءا من عمان ، وكانت أحوال عمان قبل السلطان قابوس لا تشجع المثقفين بهذه الإمارات أن يحاولوا العودة لربط إماراتهم بعمان ، ومن هنا اتجهوا لمحاولة الربط بين هذه الإمارات بعضها والبعض ، فهى فى الحقيقة أجزاء من وطن واحد .

وحاولت بريطانيا سنة ١٩٥٢ أن تقيم اتحادا بين هذه الإمارات ، ولكن المحاولة نظر إليها على أنها مشروع استعماري يرمى لخدمة بريطانيا بوضع القوى الموالية لها فى قمة الاتحاد الجديد ، كما فعلت بريطانيا فى الجنوب العربى (جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية) .

بيد أن إعلان بريطانيا الجلاء أزال الشبهة الاستعمارية ، ووضع هذه الإمارات أمام مسئوليتها لتواجه مستقبلها ، ومن هنا قامت مباحثات نشطة لخلق اتحاد بين هذه الإمارات ، وكانت هذه المباحثات ترمى فى كثير من الأحوال إلى ضم قطر والبحرين إلى إمارات الساحل العماني ليتكون من المناطق التسع اتحاد واحد ، ولكن يبدو أن العمق التاريخي لعب دوره ، فقطر والبحرين ينتميان إلى منطقة البحرين القديمة « الأحساء » وأما الإمارات السبع فتتنمى إلى عمان ، ومن هنا لم يتحقق النجاح للمفاوضات التى حاولت ضم الأجزاء المتباينة تاريخيا لتشملها دولة واحدة .

وسارت الخطوات حثيثة لتحقيق الاتحاد ، وقد قام الشيخ زايد بن سلطان أمير أبو ظبي بنشاط كبير فى هذا المجال يعاونه الشيخ راشد المكتوم أمير دبي ، وتعاقبت اللقاءات بين الأميرين ، ثم أعلن قيام

اتحاد بين الإماراتين فيما يسمى (اتفاق سميح) وهي القرية التي أعلن فيها اتفاق على إقامة اتحاد بين أبو ظبي ودبي ، ومن هذه البداية كان التحرك الواسع الذي شمل المنطقة كلها من أجل توسيع الاتحاد ليشمل الإمارات السبع ، وقد نجح هذا المسعى إلى حد كبير ، فأعلن قيام الاتحاد بين ست إمارات في ١٨ يوليو سنة ١٩٧١ ، وهذه الإمارات هي أبو ظبي ودبي والشارقة والفجيرة وأم القيوين وعجمان ورفضت رأس الخيمة الالتحاق بهذا الاتحاد آنذاك ، ولكنها عادت ففكرت الالتحاق به عندما أعلن قيام دولة الإمارات العربية المتحدة في الثاني من ديسمبر سنة ١٩٧١ ، وبذلك كمل اتحاد هذه الإمارات واختير الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان رئيسا للدولة الجديدة مدة خمس سنوات ، وعند نهاية سنة ١٩٧٦ جدد انتخابه مدة أخرى ، ثم تجدد انتخابه بعد ذلك حتى الآن (١٩٩١) .

وهكذا قامت دولة الإمارات العربية المتحدة لتضم هذه الإمارات جميعا ، ومنذ قيامها خطت للأمام خطوات واسعة لتحقيق الرخاء والتقدم للجميع ، بل لعبت دورها في الحقل العربي فسرعان ما أصبحت عضوا في جامعة الدول العربية ، وعندما جاءت حرب التحرير سنة ١٩٧٣ كانت هذه الدولة في العام الثاني من عمرها ، ولكنها بدت في أعظم مراحل الشباب والقوة فوقفت من مشكلات المعركة موقفا رائعا جعل العالم العربي والعالم كله يحس أن دولة الإمارات ولدت فتية ، وأنها منذ ولادتها كانت قوة هائلة للمجتمع العربي والمجتمع الانساني بوجه عام .

جهود دولة الإمارات :

كان العمل الذي أنجزته دولة الإمارات على الصعيدين الداخلي والخارجي أوسع جدا من سني عمرها ، وكان تجسيدا للقيم والمبادئ التي تؤمن بها وللمستقبل الزاهر الذي يشرف على منطقة الخليج على (م ٤١ - التاريخ ج ٧)

الرغم من الحقيقة التي وضحها الشيخ زايد بقوله : إننا نبدأ من لا شيء ، فنحن لا نقوم بإصلاحات معينة ، ولكننا نقوم بعملية بناء من العدم ، ولا نأخذ دورنا في بلادنا فحسب ، ولكننا نلتزم بالخير لدول الخليج ولدول الوطن العربي كله .

وقد وضعت دولة الإمارات ملامح دقيقة لسياستها الداخلية والخارجية نالت إعجاب الهيئات العربية والعالمية ، وأشادت بها الصحافة المصرية ، وفيما يلي تسجيل سريع لهذه الملامح :

في مجال السياسة الخارجية :

تؤمن دولة الإمارات أن الاتحاد الذي قامت على أساسه هو نقطة ابتداء وانطلاق نحو اتحاد أوسع وأشمل في المنطقة . . . ويؤكد هذا الإيمان دستور الدولة الذي ترك الباب مفتوحا لكل الأثقاء الراغبين في الانضمام إلى الاتحاد ، وتؤمن دولة الإمارات كذلك إيماننا عميقا بالوحدة العربية وتتوق إلى يوم تتحقق فيه الوحدة العربية الشاملة ، كما تؤمن بأنها — تاريخيا ونضاليا ومصريا — جزء لا يتجزأ من الوطن العربي الكبير ، ومن ثم فإنها تلتزم كلية بالمواقف المبدئية والأساسية التي تتخذها الدول العربية ، وتساند القضايا المصرية للأمة العربية بكل ما تملك من إمكانيات وطاقت ، وتؤيد النضال العادل للشعب الفلسطيني الشقيق وحقوقه المشروعة في تقرير مصيره واستعادة أرضه . . . وتؤمن دولة الإمارات بأن موقعها الجغرافي في منطقة الخليج يفرض عليها اهتماما خاصا بصيانة السلام العالمي واقراره ، وانطلاقا من هذا الإيمان عملت دولة الإمارات على توثيق علاقاتها مع جيرانها على أساس الاحترام متبادل لاستقلال كل دولة ووحدتها الإقليمية .

وبالنسبة لقضايا السلام العالمي رحبت دولة الإمارات بسياسة الموفاق بين القوتين الكبيرتين ، بشرط أن لا يأتي هذا الموفاق على حساب مصالح الدول الصغيرة .

وتتقف السياسة الخارجية لدولة الإمارات موقفا واضحا وحازما في محاربة الاستعمار بكل صوره القديم منه والجديد ، ومناهضة التفرقة العنصرية وحروب الإبادة ضد الشعوب الإفريقية .

السياسة البترولية والتنمية :

تدرك دولة الإمارات أن المشكلة التي تواجه الدول المنتجة والمصدرة للبترول تتركز في اعتمادها على مصدر واحد لدخلها القومي من « عوائد البترول » . وتتفرع عن هذه المشكلة مشكلة أخرى تتمثل في أن صادرات البترول تذهب كمادة خام غير مصنعة ، وذلك يؤدي إلى خفض قيمتها ويؤدي — بالتالي — إلى أن تذهب قيمتها الحقيقية بعد تصنيعها إلى الأقطار المتقدمة صناعيا ، وتتحرم الدول المنتجة والمصدرة من فوائد التصنيع الأخرى التي كان يمكن أن تحصل عليها لو تم تصنيع البترول في بلادها . والحل لهذه الخسارة يتمثل في ضرورة أن تعمل الدول المنتجة والمصدرة للبترول على تنويع مصادر دخلها القومي تحاشيا لأخطار الاعتماد على البترول وحده كمصدر قابل للنضوب . أو لتوقف عائدته في بعض الظروف . وكيف يتاح لهذه الدول أن تنوع في مصادر دخلها ؟ إن ذلك يعتمد في المقام الأول على الجهود التالية :

١ — تنمية الزراعة .

٢ — الاستفادة من الثروات الطبيعية الأخرى غير البترول .

٣ — العمل على بناء صناعة متطورة تتماشى مع امكانيات وطبيعة هذه البلاد .

نظرة إلى الجهود الداخلية بالدولة الجديدة :

إن الزائر لدولة الإمارات العربية المتحدة يستطيع أن يرى بعينه منذ الوهلة الأولى كيف تتضافر جهود أجهزة الدولة كلها في عزم وطموح من أجل بناء حياة جديدة لإنسان الخليج . كل ميدان من ميادين الحياة

في الدولة الفنية المساعدة يشهد جهدا مكثفا .. وعملا لا يتوقف ففي مجال التعليم مثلا يتمتع الطالب في دولة الإمارات بمزايا ومنح يؤمنها أي طالب علم في أي مكان من العالم ، وهناك أكثر من ١٠٠ مدرسة مختلف المراحل والتخصصات تفتح أبوابها لكل الراغبين في العلم من أبناء الدولة ، وبعثات" توفد إلى الجامعات والمعاهد العليا في الدول العربية الشقيقة وفي دول العالم الخارجي .. ومع نور العلم .. يأخذ نور الكهرباء أيضا طريقه اليوم إلى كل بيت في كافة أنحاء البلاد .. والمشروعات المائية تتوالى ، والمشروعات الصحية تأخذ طريقها إلى حيز الوجود تباعا ، فقد ضمنت الدولة الخدمات الصحية لكل المواطنين ، وعملت على رفع مستواها وزيادة عدد العاملين فيها من أطباء وممرضات ، مع مضاعفة طاقة المستشفيات ، وبناء مستشفيات وعيادات جديدة وتجهيزها بالمعدات الحديثة اللازمة ، وأعدت الدولة اهتماما فائقا بالطب الوقائي ومكافحة التدنر الرئوي ، وقامت بحملة تطعيم عامة لوقاية البلاد من الأوبئة .

وفي مجال الخدمة الاجتماعية تؤمن دولة الإمارات أن العدالة الاجتماعية هي إحدى الدعامات الرئيسية التي تصنع المجتمع القوي ، وأن من أول واجبات الدولة رعاية المجتمع والطفولة والأمومة والعاجزين عن رعاية أنفسهم بسبب المرض أو العجز أو الشيخوخة أو البطالة الإجبارية .

وفي مجال الزراعة هناك محاولات طموحة وناجحة لاستصلاح مساحات جديدة من الأراضي لزيادة الرقعة الزراعية ، وتحقيق نوع من الاكتفاء الذاتي من المحاصيل الزراعية .. وتقوم سياسة الدولة الزراعية على التوسع في تقديم الخدمات للمزارعين ، في صورة بذور ومبيدات حشرية ، وقيام فرق مكافحة المجانية برش المزروعات ، وتقديم القروض الزراعية ، وحفر الآبار وتطهير الموجود منها .. وهكذا .

وفي كل مجالات الحياة في الدولة الجديدة ، نشهد جهدا مكثفا ،
وسباقا مع الزمن لإقامة صروح الدولة العصرية ، وإعادة صياغة الحياة
على ضفافه الخليج ، وبناء الانسان الجديد في هذه المنطقة العربية
الاستراتيجية البالغة الأهمية .

تحية لدولة الإمارات العربية المتحدة مع أخلص الدعاء إلى الله أن
يكلل خطا رئيسها الشيخ زايد بن سلطان وخطا جميع الزعماء بالنجاح
والتوفيق ، لتحقيق كل الآمال التي يعقدها شعب الخليج ، وتعقدها الأمة
العربية كلها ؟

والباخرة تسير باسم الله مجريها ومرساها .

دولة الكويت

مقدمة :

في تقديري أن الحديث عن الكويت يستلزم أن نراجع ما كتبناه عن الدولة العثمانية ^(١) وعن علاقتها بالبلاد العربية ، وقد ذكرنا فيما سبق عند الحديث عن الجزيرة العربية أن العثمانيين عندما انتصروا على قوات المماليك بمصر في موقعتي مرج دابق والريدانية شمل نفوذهم سوريا ومصر وسرعان ما امتدوا من الناحية الرسمية على الحجاز حتى يحققوا أحلامهم بتكوين امبراطورية إسلامية ، وامتد نفوذهم من أجل هذا الحلم إلى العراق وإلى الشمال الإفريقي ، وقلنا كذلك إن زحفهم كان إسلاميا أو أخذ شكل الوحدة الإسلامية مما جعل الدول العربية لا ترى بأسا من الاندماج في هذه الوحدة ، بل تسعى لها راضية سعيدة .

وقلنا أيضا إن العثمانيين لم يهتموا بباقي الجزيرة العربية ، فلم تكن بها قوى تخيفهم ، أو ثراء يجتذبهم ، فتركوا هذه الأرض الفسيحة للقبائل تروح فيها وتغدو كما كانت قبل الإسلام ، وكما أصبحت بعد أن أدار لها الأمويون والعباسيون ظهورهم .

لقد كان موضع الكويت الحالية جزءا من هذه الفلاة الفسيحة ، فلم يرد لهذا الموضع ذكر في التاريخ ، ولا لفت هذا المكان الأنظار ، ولم يكن به سكان يقيمون ، بل كان العرب يضربون الخيام به عدة أشهر عندما يبدأ موسم هطول الأمطار بهذه المنطقة ، ويظلون بهذا المكان يشربون الماء ويرعون العشب الذي ينمو على أثر الأمطار ثم يرحلون ، وظل الحال كذلك حتى مطلع القرن الثامن عشر حيث بدأت تظهر الحياة المستقرة في هذا المكان ، ثم علت مكانته رويدا رويدا حتى أصبح من أهم الأماكن في العالم من ناحية الثروة ومن الناحية الاستراتيجية . ولنعد للكويت لنأخذ في الحديث عنها من البداية .

(١) انظر الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

معلومات عامة عن الكويت :

الكويت كلمة تعنى مجموعة من البيوت الصغيرة ، وإذا كانت مجموعة البيوت في هذه المنطقة بيوتا بسيطة بالإضافة إلى صغرها ، فقد استحققت أن يطلق عليها اللفظ المصغر وهو الكويت ، وبقي الاسم بعد ذلك مع زوال سبب التسمية ، فقد أصبحت هذه البقعة من العالم عامرة بأفخم القصور والعمائر الشاهقة ، ولكن التسمية بقيت وان فقدت مدلولها اللغوي .

وتقع الكويت في أقصى الخليج العربى في الزاوية الشمالية الغربية وهى على شكل مثلث تقريبا ، ويكوّن هذا الخليج الحد الشرقى في الدولة ، وتقع العراق إلى الشمال ، وفي الجنوب تقع المملكة العربية السعودية (اقليم الأحساء) والمنطقة المحايدة بين الكويت والمملكة العربية السعودية ، ومساحة المنطقة المحايدة تساوى ثلث مساحة الكويت (١) ، وقد حددت معاهدة العقير في ديسمبر سنة ١٩٢٢ حدود الكويت الحالية ، وحدود المنطقة المحايدة بين الكويت ونجد .

وهناك ذراع من الخليج العربى يمتد داخل الكويت ويأخذ شكل هلال ويسمى (جون الكويت) وتقع به جزيرة الشويخ بالقرب من الشاطئ .

وتوجد عدة جزر في مياه الكويت الإقليمية بالخليج العربى ، وأكثرها قليل السكان ، وبعضها يحيا به صيادو اللؤلؤ والأسماك حياة غير منتظمة ، وهناك قلة من هذه الجزر عامرة بالسكان ، وأكبر جزر الكويت جزيرة بوبيان ، ومساحتها ٤٨٠ كم مربع ، وهى خالية من السكان تقريبا إلا من بعض الصيادين الذين يفدون لها في فصل الصيف ، ولكن

(١) دكتور سيد نوفل : الاوضاع السياسية لامارات الخليج العربى وجنوب الجزيرة ج ١ ص ١٥٥ .

لها أهمية استراتيجية هي أنها تسيطر على مدخل (خور عبد الله) وهناك كذلك جزيرة مسكان وهي جزيرة صغيرة وأهميتها ترجع إلى وجود فنار بها لإرشاد السفن ، ومن أهم الجزر في الكويت جزيرة فيلكه وهي عامرة بالسكان الذين يشتغل بعضهم بزراعة الحبوب والخضروات ، ويشتغل آخرون بالصيد والتجارة ، وبها بعض المدارس وأنواع من المرافق الأخرى ، وأخيرا هناك جزيرة الشويخ مسافة الذكر .

وأعظم ميناء بالكويت هو ميناء الشويخ ، وتعد من أعظم الموانئ العالمية في الوقت الحالي ، إذ يمكن أن ترسو بها السفن الكبيرة .

مدن الكويت :

أشهر المدن في دولة الكويت هي مدينة الكويت ، وهي العاصمة والمدينة الكبرى بالدولة ، وتقع على بعد ثمانين ميلا جنوب شرق البصرة ، ومائتين وثمانين ميلا إلى الشمال الغربي من البحرين ، وهي تمتد على شاطئ الخليج مسافة خمسة أميال تقريبا .

وقد كانت مباني الكويت كما يصفها الشيخ حافظ وهبة (١) من الطين أو اللبن أو من الصخور ، وكان قصر الشيخ أحسن المباني مع أنه كان مبنيا من الآجر ، وكانت المدارس قليلة بالعاصمة ، كما كان بها بعض الكتاتيب .

ولكن الكويت الحديثة شيء آخر تماما ، فالعمائر الشاهقة تمتد امتدادات واسعة وتتقاطع السحاب أحيانا في ارتفاعها ، وتتقف هذه العمائر على حافتي الشوارع الفسيحة المشجرة .

وبالكويت مجموعة كبيرة من المساجد الضخمة التي تعلو مآذنها لتتنافس العمار في ارتفاعها ، وبالكويت أسواق غنية يعرض بها كل

(١) جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٩٤ .

مما يخطر بالبال من وسائل الترف والنعيم بالإضافة إلى ضروريات الحياة ، وفي العاصمة دور السينما والمسارح وتكثر المكتبات في جوانبها المختلفة كما تكثر بها الأندية والملاعب والحدائق ، وتتقف جامعة الكويت شامخة وحولها عشرات المدارس والمعاهد مختلفة المستويات والتخصصات .

والمدينة الثانية في الكويت هي السالمية ، وكان اسمها قبل سنة ١٩٥٣ « دمنة » ثم اطلق عليها اسم السالمية نسبة للشيخ سالم المبارك الصباح ، وقد أصبحت السالمية مدينة على أحسن طراز تخترقها شبكة من الشوارع المعبدة التي تتقف على جوانبها المباني الفخمة ، كما تكثر بها المرافق مختلفة الأنواع .

ومن مدن الكويت كذلك كاظمة ، والجهرة ، وأم الروس ومدينة الأحمدى التي أنشئت حديثا لتكون عاصمة النفط في منطقة البرقان وهي على بعد ثلاثين ميلا جنوبى العاصمة .

وسكان الكويت الآن حوالى نصف مليون منهم حوالى الربع ينحدرون من القبائل العربية التي سكنت الكويت منذ وقت مبكر ، والتي سنتكلم عنها فيما بعد ، والباقيون جذبهم العمل إلى الكويت من الأقطار العربية ومن بلاد فارس ومن بعض أقطار أوروبا .

والاتجاه السننى هو المنتشر بين مسلمى الكويت على مذهب الإمام مالك ، وهناك بعض الحنابلة ، وقلة من الشيعة ، وأكثر السكان يعيشون في مدينة الكويت وحول آبار النفط ومسؤولياته ، ولا يزال هناك بعض عرب العشائر يسكنون في داخل البلاد .

وتعانى الكويت من مشكلة رئيسية هي مشكلة المياه العذبة ، إذ لا يوجد بها إلا آبار قليلة لا تفى بحاجة السكان كما يقول عبد العزيز الرشيد (١) ، ولذلك كانت الكويت تحضر الماء بالسفن من شط العرب

(١) تاريخ الكويت ص ٥٢ - ٥٣ .

الذى يبعد عنها بحوالى مائة ميل ، كما تم الاتفاق بين حكومتى الكويت والعراق على جلب ماء شط العرب بواسطة الأنابيب ، وذلك بناء على اتفاق عقد فى فبراير سنة ١٩٦٤ ، ولم تكتف حكومة الكويت بذلك خوفاً من الاعتماد على هذه الاتفاقية التى قد تتأثر بسباب يمتد للعلاقات السياسية بين البلدين ، فأنشأت أجهزة لتقطير مياه البحر ، وقد أصبحت آلات التقطير تنتج ما يحتاجه السكان بوجه عام ، ولكن يبدو أن المياه العذبة لا يعدلها شيء ، وفى زيارتى لبعض منشآت أستخراج البترول فى مصر على البحر الأحمر رأيت المياه التى تنتجها آلات التقطير تستعمل فى الغسيل والاستحمام وليس فى الشرب ، فيبدو أن العملية الطبيعية من آبار أو سحب فأمطار فأنهار لا يعد لها شيء فسيحان من قسم الأرزاق .

تاريخ الكويت :

لعل أقرب الروايات دقة عن تاريخ الكويت هو ذلك الرأى الذى يرويه حاكم الكويت السابق الشيخ عبد الله السالم الصباح ، ولعل هذا الرأى رواية متسلسلة يحكيها الأحفاد عن الأجداد ، تقول الرواية إنه فى مطلع القرن الثامن عشر دفع قحط ظويل مجموعة من عائلات قبيلة عنزة (١) إلى الهجرة من وسط نجد بحثاً عن موطن أيسر حياة ، وأهم هذه العائلات آل الصباح وآل خليفة والجلهمة . وتحرك هؤلاء فى البداية نحو الجنوب إلى وادى الدواسر ، فوجدوه أقسى حالاً ، فارتحلوا إلى شبه جزيرة قطر ، فلم يجدوا بها ما يغرى بالاستقرار ، فتحركوا بهاشيتهم ومتاعهم حيث حطوا الرحال فى منطقة الكويت (٢) ، ويقال ان حكام

(١) قبيلة عنزة تنتمى اليها الاسرة الحاكمة بالسعودية والكويت والبحرين .

(٢) نقلا عن « الأوضاع السياسية لامارات الخليج العربى وجنوب الجزيرة » للدكتور سيد نوفل ص ١٦٥ .

قطر من آل مسلم خشوا سطوة آل الصباح وطموحهم فالتجئوا إليهم إلى الخروج (١) .

وبعد أن اتخذت هذه القبائل الثلاث الكويت موطناً لهم اتفقوا سنة ١٧١٦ على أن يتولى آل الصباح شئون الحكم ، وآل خليفة شئون التجارة ، والجاهلية العمل في البحر ، على أن يقتسم الجميع الأرباح بالتساوي (٢) .

ولم يكن بد من تأمين مقامهم لدى الأتراك الذين كان من المسلم به أنهم أصحاب السيادة على المناطق العربية كما قلنا ، ثم ان الأتراك كانوا يحتلون العراق ولهم في البصرة جيش كبير غير بعيد عن الكويت ، ومن ثم أجمع هؤلاء الذين حطوا بالكويت أمرهم أن يبعثوا رسولا منهم للبائسا التركي يبين لهم أنهم فقراء نزحوا في طلب العيش ولا يبتغون ضرا بأحد وأنهم يقدمون الولاء للدولة العلية ، واختير لذلك الشيخ صباح وكان ميمون النقيية فنجح في سفارته (٣) .

وهكذا بدأت الكويت الظهور . وفي سنة ١٧٥٠ قرر المقيمون في الكويت تعيين شيخ لتصريف شئونهم ، ولتمثيلهم في التعامل مع الخلفاء العثمانيين ، فوق الاختيار على صباح الثاني ليكون أميرا عليها ، وفي ظل سلالة آل الصباح ازدهرت الحياة واستقرت بهذه الجماعات (٤) .

وفي سنة ١٧٦٦ عرض زعيم آل خليفة على حلفائه أن ينفصلوا عن الحلف ويترك نصيبه من الربح على أن يسمح له بالاستقرار في الجزء المجاور لمخاض اللؤلؤ ، فوافق الحلفاء على ذلك ، فسار آل خليفة ونزلوا

(١) دكتور أحمد الشرباصي : أيام في الكويت ص ١٠ .

(٢) حافظ وهبة : نجيزة العرب في القرن العشرين ص ١١٥ .

(٣) Dicksen : Kuwait and her Neighbours .

(٤) تقويم البلدان الاسلامية ص ٣٦٣ .

« الزيادة » التى تحدثنا عنها من قبل ، وبعد فترة استقطاع آل الصباح أن يطردوا الجلاهمة من الكويت وبقية الكويت مقرا لهم وحدهم (١) .

ويتضح من هذا أنه حتى نهاية الربع الثالث من القرن الثامن عشر كانت علاقة الكويت علاقة تبعية واضحة للعثمانيين ، وقد رأينا أن أهل الكويت هم الذين بادروا بإعلان هذه التبعية ، حتى قبل أن تطلب منهم ، لأن هذا كان آنذاك وضعاً طبيعياً لا مفر منه ، وكان أسلوب العصر بالنسبة لهذه المناطق .

ومن مطلع الربع الأخير من القرن الثامن عشر دخل عنصر جديد على علاقات الكويت الخارجية ، ذلك العنصر هو بريطانيا التى كانت تحكم الهند ، وتتخذ لها طريقاً برياً تجارياً بين البحر المتوسط والبصرة فحسب العرب فالخليج العربى إلى الهند ، وكانت التجارة البريطانية تتصل عن هذا الطريق إلى بغداد ودمشق وحلب ، وحدث سنة ١٧٧٥ أن نشبت حرب بين الأتراك العثمانيين والفرس استولى فيها الفرس على البصرة مدة أربع سنوات فحاولت بريطانيا تجارتها إلى الكويت بدلاً البصرة للظلال فى حدود الدولة العلية ، واحتلت الكويت عند بريطانيا لذلك مكاناً مرموقاً وبدأت المنافسة بين القوتين الكبيرتين على الكويت .

وحوالى ذلك التاريخ أيضاً كانت دعوة التوحيد تنشر فى نجد على حدود الكويت ، وكانت لم تصل بعد إلى الحجاز ، وبالتالي لم تتحرك الدولة العلية لمقاومتها ، وخاف زعماء الكويت من زحف هذه الدعوة ، وأدركوا أن حاجة الانجليز إليهم ماسة بسبب أمن الخط التجارى السابق ، فتقدموا للانجليز سنة ١٨٠٥ يطلبون أن تكون الكويت فى حمايتهم ، ولم تكن بريطانيا تستطيع الموافقة على هذا حتى لا تغضب الدولة العلية التى

مكتبة جامعة الكويت - الكويت

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين ص ١١٥ وانظر

كذلك تاريخ الكويت السياسى لخزعل ج ١ ص ٤٦ .

يسير الخط التجارى مسافات طويلة فى الأراضى والبحار التابعة لها ،
ولكن ذلك على كل حال قوى العلاقات بين الكويت وبريطانيا •

وشهد القرن التاسع عشر صراعا يدور حول الكويت ، وعلاقات شد
وجذب من هنا ومن هناك ، فالأتراك انتبهوا إلى أهمية الكويت وأطماع
بريطانيا فيها ، وشكوا فى الوقت نفسه فى عمق ولاء أمراء الكويت ، فممنحوا
أمير الكويت لقب باشا ، ولقب « قائمقام » تابعا لوالى البصرة سنة ١٨٧١ ،
ومنحت تركيا العائلة المالكة بالكويت أراضى واسعة بالبصرة ومنطقة الفاو ،
وكان تمرد آل الصباح على العثمانيين معناه فقدان هذه الثروة ، واهتم
السلطان عبد الحميد بتثبيت النفوذ العثمانى فى مناطق الخليج (١) •

ولم تجد بريطانيا وسيلة لانكار تبعية الكويت للعثمانيين ، ولكنها
حاولت أن تحصل على نفوذ فى هذه المنطقة مقابل اعترافها بهذه
الحقيقة ، وكانت صلتها بأمراء الكويت ورقة مهمة فى يدها تعتمد عليها ،
فعرضت حكومة الهند سنة ١٨٧٨ أن تعترف الحكومة البريطانية بسيطرة
السلطان على الأراضى الواقعة جنوب البصرة على ساحل الخليج بشرط
أن تستثمر السيادة البريطانية على مياه ذلك الساحل (٢) ، ووافق اللورد
سوانديرى على هذه الفكرة •

ومعنى هذا أن اعتراف بريطانيا بحق الدولة العثمانية فى الكويت
لم يعد شيئا مسلما به ، ولا بد من ثمن غال مقابل هذا الاعتراف •

وفى سنة ١٨٩٦ أصبح الشيخ مبارك الصباح حاكما للكويت وسرعان
ما اتضح أنه ذو ميول بريطانية ، ولذلك لم تحسن السلطات العثمانية
استقباله ولم تعينه « قائمقام » إلا فى العام التالى مما جعله يخشى

(١) دكتور محمود على الداود : الخليج العربى والعلاقات الدولية
ص ١١٠ ، ١١٥ •

(٢) Government of India to Indian Office 17/9/1878. (٢)

جانب العثمانيين ، وقد حاول الشيخ مبارك أن يحصل من العثمانيين على اعتراف باستقلاله الذاتى ، ولكنه لم ينل ذلك الاعتراف ، فأعلن ميوليه البريطانية ، وأرسل برقية سنة ١٨٩٧ إلى الحكومة البريطانية يطلب منها أن تكون الكويت فى حماية بريطانيا ، وقد أرسلت وزارة الخارجية هذه البرقية إلى حكومة الهند ، ونصحت بعدم الاستجابة لمطلب الشيخ .

ولكن حكومة الهند كتبت لوزارة الخارجية البريطانية عقب ذلك تؤيد الاستجابة لمطلب الشيخ . وشرحت المزايا السياسية والاقتصادية لذلك ، وقالت إن مسألة مقاومة تجارة الرقيق يمكن أن تكون سلاحا فى يد بريطانيا تسترضى به رأى العام العالمى .

ونتيجة لذلك وافقت وزارة الخارجية فى ديسمبر سنة ١٨٩٨ على اقتراح حكومة الهند بشرط عدم اللجوء فى الوقت الحاضر إلى ترتيبات عسكرية وبوليسية جديدة .

وهكذا وجدت بريطانيا أن الأوان قد آن لقبول ما ترددت فى قبوله من قبل ، وحتى تأمن العواقب قنعت باتفاق مرن وجعلته فى الوقت نفسه سريا ، وينص هذا الاتفاق الذى عقد فى يناير سنة ١٨٩٩ على تعهد الشيخ مبارك ألا ينتازل عن أى جزء من مقاطعته لدولة أجنبية وألا يستقبل أى ممثل لدولة أجنبية بدون موافقة السلطات البريطانية ، وأن يحصل الشيخ مبارك مقابل هذا على وعد السلطات البريطانية بأن تكون الدوائر البريطانية فى الخليج على استعداد لخدمته وأن تدفع له خزينة دار الاعتماد البريطانى فى كل شهر مبلغ ١٥٠٠٠ روبية (١) ، وكان المندوب البريطانى الذى باشر هذا التعهد هو الليفتنانت كولونيل مالكولم جيون ميد Malcolm John Meade .

(١) O'Conar to Lord Salisbury, 1890.

وقد فاحت رائحة هذه الاتفاقية ، وحدثت كثيرا من الاضطراب ، ثم تعقدت قضية النزاع حول السيادة على الكويت عندما ظهرت الشركة الألمانية التي عهد لها بالاشراف على خط السكة الحديدية الممتد من الأناضول إلى بغداد ، فقد تقدمت هذه الشركة بطلب لبناء ميناء على خليج كاظمة بالكويت ، وقد أثارت هذه الأنباء خوف بريطانيا ، وبخاصة أن الشركة تجاهلت الشيخ مبارك واتصلت بالسلطان مباشرة ، ثم إن هذا المشروع سيجلب قوى متعددة إلى الخليج العربي الذي كانت بريطانيا تعد نفسها سيادة الوضع فيه . وفي ضوء ذلك بدأت بريطانيا تفكر في إعلان الحماية على الكويت بشكل واضح ، وشاع هذا الاتجاه ، فأبرق توفيق باشا رئيس وزراء تركيا إلى وزارة الخارجية البريطانية يستأهل عن حقيقة الإشاعة (١) وفي الوقت نفسه حشدت تركيا بعض قواتها في الفاو فاحتجت بريطانيا ضد هذا الاستعداد ، فرفضت تركيا هذا الاحتجاج مؤكدة أن الكويت جزء من ولاية البصرة ، وأن جميع الأدلة التاريخية والقانونية تؤكد هذا الحق .

وتدخلت ألمانيا في الأمر ، فقد تسلم السفير الألماني في استانبول معلومات من حكومته تؤكد وجوب قيامه بالاعلان عن وجهة نظر الحكومة الألمانية التي ترى أن اعلان الحماية البريطانية على الكويت أمر يتناقض مع مقررات مؤتمر برلين ، ونظرا للمصالح الألمانية في الكويت ، ومستقبل نهاية خط حديد الأناضول فإن الحكومة الألمانية سوف تعتبر مثل هذا خطوة غير ودية ، وكان الجواب الذي حمله السفير البريطاني للحكومة الألمانية يقرر أن حكومته لا تنوى اعلان الحماية على الكويت إلا إذا أجبرتها تركيا على ذلك بأعمالها تجاه الكويت (٢) .

وفي سنة ١٩٠٠ هجم الشيخ مبارك والأمير عبد الرحمن الفيصل آل

(١) Telegram no. 12 in 29 August 1901.

(٢) دكتور محمود داود : المرجع السابق ص ١٣٨ .

سعود على إمارة ابن رشيد بنجد ، وقامت معركة عنيفة خسر فيها المهاجمون خسارة فادحة ، وكان هجوم الكويت على ابن الرشيد يحمل معنى التحدي للسلطات التركية التي كانت تمتد حمايتها لابن الرشيد وتشمله بعنايتها .

وفي سنة ١٩٠١ بلغت العلاقات بين الكويت وتركيا غاية التوتر ، فقد وصلت البارجة التركية (زحاف) إلى الكويت منذرة بعزل الحاكم ان لم يسمح لجنود الأتراك بالنزول إلى الكويت ، كما أعدت للهجوم على الكويت حملة مشتركة من الترك ومن جنود ابن الرشيد انتهزا لفرصة الهزيمة السابقة ، وقد فشلت المحاولتان بسبب وقوف القوات البريطانية منذرة بالتدخل .

وانتهزت بريطانيا هذه الفرص ف تقدمت خطوة أثر خطوة لتمكن نفسها في الكويت كما يلي :

— زار اللواء كيرزوف الكويت في نوفمبر سنة ١٩٠٣ ، وكان يتولى منصب نائب الملك في الهند وبقى في ضيافة الشيخ مبارك يومين ، وقد مكنت هذه الزيارة العلاقات بين البلدين .

— في سنة ١٩٠٤ تم تعيين معتمد سياسي بريطاني في الكويت ، وكان هذا يعني الاعتراف باستقلال الكويت عن الامبراطورية العثمانية ، وقد احتجت تركيا عقب ذلك ف سحب هذا المعتمد ثم أعيد .

— في سنة ١٩٠٦ اقترحت حكومة الهند على الشيخ مبارك أن يرفع علم الكويت الخاص ، وذلك لأجل محاربة تجارة الأسلحة ففعل ، وكان وجود علم خاص للكويت له مغزى التمرد على تركيا .

— وفي سنة ١٩٠٧ وافق الشيخ مبارك على تأجير قطعة من الأرض جنوب بندر شويخ إلى بريطانيا نظير ٦٠٠,٠٠٠ روبية في العام ، وجعل الحق لبريطانيا في إنهاء هذا العقد وقتما تشاء .

— وفي سنة ١٩١١ تعهد الشيخ مبارك كتابة ألا يسمح لأحد بالبحث عن اللؤلؤ أو صيد الأسفنج في مياه الكويت الإقليمية إلا بعد مشورة المقيم السياسي البريطاني في الكويت .

وهكذا قويت العلاقة بالتدريج بين الكويت وبريطانيا ، ولم يعد في مقدور تركيا أن تتجاهل كل هذه العلاقات والمعاهدات ، ولذلك نراها تتراجع عن موقفها المتشدد وتقتنع بأن تصيد بقية من الارتباط بينها وبين الكويت بشكل يستر هذه النتيجة ، ولذلك توصلت بريطانيا وتركيا إلى مسودة معاهدة نصت المادة الأولى منها على اعتراف بريطانيا بأن الكويت جزء من الامبراطورية العثمانية ، ونصت المادة الثانية منها على التزام الامبراطورية العثمانية بعدم التدخل في الشؤون الداخلية للكويت بما في ذلك مسألة الوراثة ، على أن يرفع الكويت العلم العثماني ، وأن يكون الشيخ في وظيفة « قائم مقام » بالكويت لتكون له السلطة لحماية الرعايا العثمانيين في المنطقة .

وفي المادة الثالثة اعترفت الحكومة العثمانية بالاتفاقات البريطانية السابقة مع الكويت .

في المادة الرابعة تعهدت بريطانيا بالألا تقوم بإعلان الحماية على الكويت (١) .

ويلاحظ على هذه المسودة أنها لم يتم التصديق عليها وإن كانت اعتبرت نافذة من يوم الاتفاق عليها ، وفيما يتعلق بالمادة الرابعة فإن بريطانيا فسرتها بأن لها أن تباشر الحماية على الكويت وإن كانت لا تعلن ذلك .

وبعد ذلك بقليل طلب من الشيخ أن يقدم تعهدا بالألا يمنح حق

(١) دكتور محمود على الداود : المرجع السابق ص ٢٠٢ بتصرف .

استغلال البنزول في أراضيه إلا لمن تركيه الحكومة البريطانية ، فقدم الشيخ ذلك التعمد في تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩١٣ •

وقامت الحرب العالمية الأولى فأخذت الكويت جانب بريطانيا ضد تركيا ، وفي مقابل ذلك ضمنت بريطانيا الأمير الكويت حقوقه في حدائق الفاو ، وبعد الحرب وهزيمة تركيا تخلت هذه في معاهدة سيفر عن كل ما كان لها من حقوق أو ما ادعته من حقوق أو سيادة على المناطق العربية ومن بينها الكويت ، وأصبح لا يناقش بريطانيا منافع في مكانتها بالكويت •

وفي حديثنا عن السلطات بالكويت ينبغي أن نعود للوراء لنثبت أنه في سنة ١٨٣٨ عندما وصل الجيش المصري إلى شواطئ الخليج إبان حربه مع السعوديين ، وضعت مصر لها مندوبا في الكويت ، وكانت وظيفته سياسية ، وكان شيخ الكويت في ذلك الوقت هو الشيخ جابر بن عبد الله ثالث أمراء الكويت (١) •

أمراء الكويت :

وأمراء الكويت هم :

١٧٧٦ — ١٧١٨

صباح الأول

١٨١٤ — ١٧٧٦

عبد الله بن صباح

١٨٥٩ — ١٨١٤

جابر بن عبد الله

١٨٦٦ — ١٨٥٩

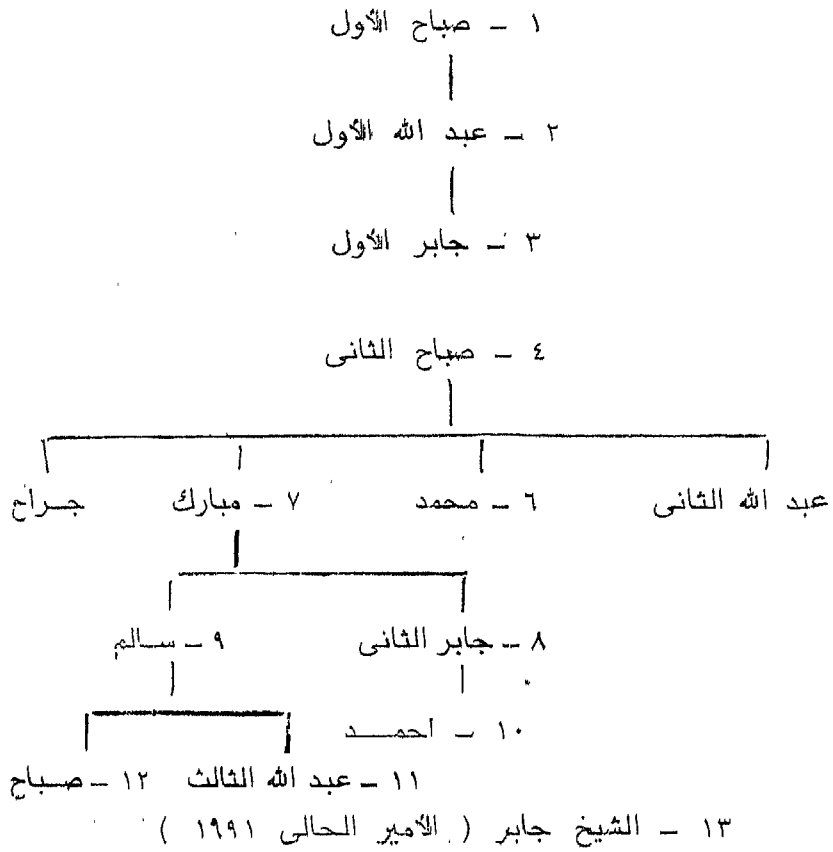
الصباح الثاني بن جابر

١٨٩٢ — ١٨٦٦

عبد الله الثاني

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٩٧ •

١٨٩٦ — ١٨٩٢	محمد الصباح
١٩١٥ — ١٨٩٦	مبارك الصباح
١٩١٧ — ١٩١٥	جابر بن مبارك
١٩٢١ — ١٩١٧	سالم بن مبارك
١٩٥٠ — ١٩٢١	أحمد بن جابر
١٩٦٥ — ١٩٥٠	عبد الله بن سالم
١٩٧٦ — ١٩٦٥	صباح بن سالم المبارك
١٩٧٦	الشيخ جابر الأمير الحالي (١٩٩١)



كلمة عن أمراء الكويت :

يمكن مما سبق أن نقول أن أساس دولة الكويت وُضع في عهد الشيخ مبارك ، وكان الشيخ يمتاز بالذكاء والطموح ، ولكنه لم يكن يبالى بالدم ليحقق طموحه ، فقد قتل أخوته محمدا وجراحا حتى يتخلص من منافساتهما ، وأرغم وجهاء الكويت على الخضوع له واستطاع أن يتصدى لأولئك الذين حاولوا أن يثأروا منه ، وكان في قمتهم يوسف بن عبد الله الذي لجأ له أبناء أخوى مبارك القتيلين ، ولكن هؤلاء لم يستطيعوا أن ينالوا منه منالا .

ويقول عبد العزيز الرشيد أن عهد الشيخ مبارك في تاريخ الكويت عهد حافل بالأحداث والأعمال ، بل يعتبر هذا العهد نقطة تحول في تاريخ البلاد ، فقد برزت الكويت إلى الوجود بفضلها ، وأصبح لها كيان معروف ليس فقط في منطقة الخليج بل على الصعيد الدولي (١) .

ولابد من وقفة أطول مع الشيخ مبارك وابنه جابر ، وعنهما نقف على من الشيخ حافظ وهبة الكاتب الثقة بضعة سطور ، يقول الشيخ حافظ وهبة :

في سنة ١٩١٥ كنت في حديث مع الشيخ جابر ولي عهد الكويت في فترة إمارة الشيخ مبارك ، وقلت له : إنني أنكر على الشيخ مبارك فداحة الضرائب وطريقة صرفها ، فإن الشيخ مبارك أخرج على كل مالوف من التقاليد الدينية والعربية ، وأخذ يستهتر بكل شيء ، كما أنه وضع ضرائب على البيوت تقضى بدفع ثلث قيمة كل بيت يباع مما لم يعرف من قبل في بلاد العرب ، وكنت أشرح للشيخ جابر حديث : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، وإنني في نفس الوقت لم أنس أن أذكر بعض الصفات الطيبة التي أمتاز بها الشيخ مبارك من غيرته على الكويت وأهلها ودفاعه عن مصالح أهلها والعمل لاستقرار الأمن وزيادة حركة التجارة فيها ، فقال :

الشيخ جابر : إن كلامك كلام مطاوعة (أهل الدين) ما هي ميزة الأمير على الباعة وأصحاب الدكاكين يا شيخ حافظ ؟ خذها كلمة جامعة : الرعية مثل الغنم كلما طال صوفها جذذناه ، فقلت له : ولكن الغنم يا حضرة الشيخ تحتاج إلى من يعنى بها كي يتكاثر نسلها ، وأنتم لا تكثفون بالصوف فإن المقص كثيرا ما يصيب الجلد . فقال : إن الحاكم يجب أن تكون يده مطلقة في كل شيء ؛ في المال وفي الأرواح (١) .

ومن الممكن أن نقفز أميرين من أمراء آل الصباح هما جابر الثاني بن مبارك (١٩١٥ — ١٩١٧) وسالم بن مبارك (١٩١٧ — ١٩٢١) لقصر عهدهما ، ولعدم وجود عناصر خطيرة في تاريخ الكويت خلال هذين العهدين ، ونصل بذلك إلى الأمير أحمد بن جابر الصباح (١٩٢١ — ١٩٥٠) الذي يوصف بأنه كان في غاية الذكاء ، وكان يميل إلى الأناة والتبصر في أعماله وفي عهده (سنة ١٩٤٠) عقدت ثلاثة اتفاقات بين الكويت والمملكة العربية السعودية ، وكان الشيخ حافظ وهبة ممثلاً للسعودية ، وهو يتحدث عنها في كتابه « جزيرة العرب في القرن العشرين » .

وهذه الاتفاقات هي :

- ١ — معاهدة صداقة وحسن جوار .
- ٢ — معاهدة تجارية .
- ٣ — اتفاقية لتسليم المجرمين .

وتبودلت الزيارات بين أمراء الكويت وملك السعودية ، وفي سنة ١٩٤٧ عقدت معاهدة الدفاع المشترك بين البلدين .

وبعد الأمير أحمد بن جابر تولى الشيخ عبد الله السالم الصباح سنة ١٩٥٠ ، وظل أميراً حتى توفي سنة ١٩٦٥ ، وإذا كان البترول قد بدأ يتدفق في الكويت قبل ذلك ، فإن نتائجه الحقيقية ظهرت في عهد الشيخ عبد الله ، وبالتالي بدأت الكويت تأخذ طابعها الجديد في ناحية السياسة

(١) جزيرة العرب في القرن العشرين : الشيخ حافظ وهبة ، ص ١٥٥

والاقتصاد والذخيرة الاجتماعية ، وفي عهد الشيخ عبد الله قضي على الجهل والفقر والمرض بالكويت ، وبدأ شعب الكويت يسير نحو التقدم الواضح .

وفي ١٩ يونيو ١٩٦١ ألغيت الحماية التي كانت مفروضة على الكويت تبعاً لاتفاقية ٢٣ يناير سنة ١٨٩١ ، وأعلنت الحكومة البريطانية إلغاء هذه الاتفاقية ، واعتراها بسيادة الكويت الكاملة ، وبأن حكومة الكويت تتحمل وحدها جميع مسئوليات تسيير شؤون الكويت الداخلية والخارجية .

وفي ١٦ يوليو سنة ١٩٦١ قرر مجلس جامعة الدول العربية الموافقة على طلب الكويت الانضمام لهذه الجامعة .

وفي ٧ أكتوبر من نفس العام صدر قانون إنشاء المجلس التأسيسي .
وفي ديسمبر من نفس العام أجريت انتخابات لاختيار عشرين عضواً للجمعية التأسيسية التي صنعت دستور البلاد .

وفي ٦ يناير سنة ١٩٦٢ صدر الدستور المؤقت لدولة الكويت .
وفي يناير سنة ١٩٦٣ أجريت انتخابات أول مجلس نيابي بالكويت ، وتم تكوين مجلس للوزراء في الشهر نفسه .
وفي مارس سنة ١٩٦٣ أصبحت الكويت عضواً في هيئة الأمم المتحدة .

وهكذا نجد أنه في عهد الشيخ عبد الله السالم الصباح أصبحت دولة الكويت دولة واضحة المعالم ، ليس فقط في عالم الاقتصاد ، بل في عالم السياسة .

وعندما نصل إلى أمين الكويت الشيخ صباح السالم الصباح نقرر حقيقة مهمة هي أنه كان أبرز القوى الفعالة في عهد أخيه الشيخ عبد الله ، وأن ما تحقق في عهد الشيخ عبد الله كان إلى حد كبير بيد

الشيخ صباح الذي كان يتولى أهم المناصب التنفيذية ، والذي حمل
المعبء لاقتراح هذه الانجازات وتحقيقها فقد كان أول وزير للخارجية في
أول وزارة تشكلت بالكويت سنة ١٩٦٢ ، وعين ولياً للعهد ونائب رئيس
الوزراء في أكتوبر سنة ١٩٦٤ وكانت رئاسة الوزراء للأمير ، وهكذا تجدد
واضع أساس الانجازات السابقة ، وهو بهذا أجدر من استطاع أن يعمل
لاستكمالها حين أصبح أميراً للكويت عقب وفاة أخيه في نوفمبر سنة
١٩٦٥ .

اقتصاد الكويت :

لقد غطى البترول بالكويت على كل مصادر الثروة وأصبحت كلمة
الكويت توشك أن تعادل كلمة النفط ، فإذا ذكرت الكويت امتلأ الجو
بصخب الماكينات وبرائحة البترول ، وعلى هذا حجب البترول سواء
من المصادر وأثر عليها ، بل أوشك أن يقضى عليها .

والحق ان للكويت مصادر ثروة كانت قبل البترول ذات بال ،
فموقع الكويت الاستراتيجي يجلب لها عديداً من الطائرات والبواخر كل
يوم ، وتعود على الكويت فوائد مالية عظيمة مباشرة بسبب هذا الموقع ،
وبسبب ما يجلبه من رسوم وأعمال لآلاف الأيدي العاملة .

وموقع الكويت دفع السكان منذ مدة طويلة إلى استغلال الخليج
العربي الذي يكثر فيه اللؤلؤ الطبيعي ، ويكثر فيه الاسفنج ، وكان اللؤلؤ
والاسفنج مصادر ثروة للكويتيين ، ولكن ظهور اللؤلؤ الصناعي قلل
من أهمية اللؤلؤ الطبيعي ، ثم إن تدفق النفط جذب الأيدي العاملة للثراء
السريع بدل الغوص خلف اللؤلؤ والاسفنج .

ومما اشتهرت به الكويت من قبل صناعة بناء السفن ، وكانت سفن
الكويت مشهورة بحسن شكلها وجودة صنعتها ، وهي على أنواع : فمنها
نوع للمبور والقتزه ، ومنها سفن الغوص ، ومنها السفن التجارية
الكبيرة التي كانت تنسق الأبواب إلى مدغشقر وزنجبار والهند . وهذا دفع

أهل الكويت إلى إجادة التجارة العالمية بالإضافة إلى عملهم للنقل بين العواصم التجارية المختلفة ويمكن للقارىء أن يتصور مدى ما كان للكويت من نشاط بحرى إذا لاحظ أن السكان عندما كان عددهم عشرة آلاف نسمة كانوا يملكون ٨٠٠ سفينة (١) تتباشر مختلف الأغراض السابقة .

ومن مصادر الثروة بالكويت كذلك صيد السمك ، وفي مياه الكويت أنواع مهمة من الأسماك كالسردين والطن والقرش والزبيدى ، وكانت صناعة صيد السمك تمثل مصدرا مهما من مصادر الثروة .

ولدى الكويت محاولات للزراعة وبخاصة لزراعة الخضر ، ولكن قلة الأمطار لا تساعد على الاتساع في الزراعة ، وعندما تهطل الأمطار تخضر الأرض وتكون مرعى طيبا لقطعان الماشية ببادية الكويت ، ولذلك كان صوف الماعز والجلود من بين الصادرات الكويتية للخارج .

على أن الذهب الأسود عندما تدفق غير مجرى الحياة ، وجذب الأيدي العاملة من المدن ومن الخيام والبادية كما سبق القول ، فقل الاهتمام بالصناعات الأخرى واتجه كل الاهتمام إلى المعدن الجديد الذى جاب الخير دون عناء كبير .

ولست أسترسل في الحديث عن كمية النفط الهائلة التى تنتجها آبار الكويت وآبار المنطقة المحايدة . وبتحول الكويت يمتاز بأنه قريب من سطح الأرض فلا يحتاج إلى عناء أو ضغط ليتدفق .

وإذا لوحظت النسبة بين عدد السكان وبين كميات النفط التى تتدفق بها أرض الكويت أدركنا أن الكويت دولة ترفيهية وأنها تصل إلى درجة عالية جدا من الفنى والثراء .

الحياة في الكويت :

ان أثر النفط واضح تمام الوضوح على حياة الكويت شعبا وحكومة ،

(١) تقويم العالم الاسلامي ص ١٦٣ .

فالتعليم في كل مستوياته بالمجان ، ويصرف للطلاب ما يحتاجونه من طعام وشراب ولباس وكتب .

وقد ازدهرت المدارس في الحضر والبادية ، ونالت المرأة نصيبها كاملاً من الثقافة بعد أن كانت محرومة من التعليم ، وفتحت جامعة الكويت في العقد السادس ، وسرعان ما علا شأنها وارتفع مستواها ، ولم تقنع بالدرجات الجامعية في حدود الليسانس بل تقدمت تجاه الدراسات العليا .

وقد منح التقدم العلمي للمرأة مجالاً واسعاً من التطور ، فبعد أن كانت المرأة الكويتية لا تخرج من بيتها إلا لملأ ولا تتعرض لمقابلة الرجال الأجانب ويقتصر خروجها من البيت على زيارة النساء من أقاربها (١) . أصبحت تقتحم ميادين العمل وتباشر مختلف الأعمال والوظائف ، فأصبحت طبيبة في المستشفيات ومدرسة في المدارس ، ومذيعة بالذيع والتليفزيون ، وصحفية ، وقلما بقي ميدان من ميادين العمل إلا اقتحمته ومن العادات الطيبة في الكويت عدم المغالاة في مظاهر الحزن عند الوفاة بل أنها إلى حد كبير تتبع الفكر الإسلامي عندما تحل هذه الأحداث .

وتمتاز الكويت باستتباب الأمن بها إلى درجة كبيرة وذلك يرجع إلى وفرة الرخاء ، فكثيراً ما يكون المال هو السبب فيما يحدث من صراع ، على أن طبيعة الرجل الكويتي نفسه كانت من أهم أسباب استتباب الأمن فهو بطبيعته ميال للهدوء وعدم الالتفات لما يعكر صفوه ، ولهذا يغلب في الحوادث التي تقع في الكويت أن تكون هناك أصعب أجنبية دفعت لوقوع هذه الحوادث .

وتتعم الكويت بنظام تأميم الطب ، والمستشفيات الكويتية أعدت

(١) ليس الطحاوي : المرأة في الكويت .

أعظم اعداد ، وبها أحدث الأجهزة العلمية ، وهي تقدم العلاج والوقاية المجانية للمقيمين في الكويت من المواطنين والوافدين (١) .

وفي الكويت حركة تعمير مزدهرة وهي تشمل اعداد أضخم المباني للحكومة ، وأضخم المباني للمؤسسات التي استلزمها التطور العام في جميع مجالاته ، فقصور الأمراء تعد من الفن الحديث ، وأبنية الحكومة شاهقة رفيعة العماد والأثاث .

والمستشفيات والمدارس والمساجد تتنافس في جلالها وجمالها .

الكويت والعرب :

اتجهت الكويت منذ وقت مبكر إلى التعاون مع شقيقتها الدول العربية في مجال التنمية الاقتصادية ، فأُسست « الصندوق الكويتي للتنمية الاقتصادية العربية » وكان تأسيس هذا الصندوق سنة ١٩٦١ وغرضه مساعدة الدول العربية في تطوير اقتصادياتها ، وفي مدها بالقروض اللازمة لتنفيذ برامج التنمية فيها .

وكان رأس مال الصندوق خمسين مليون دينار ، ثم زيد بعد ذلك وهو يقدم قروضا في حدود نصف تكاليف المشروع الذي يطلب القرض له وقدم هذا الصندوق بالفعل قروضا لبعض الدول العربية للمساهمة في بعض المشروعات الاقتصادية زراعية كانت أو صناعية ، وفي نفس العام تقدمت الكويت بعون ثقافي إلى إمارات ساحل الصالح التي كان التعليم فيها يسير على النمط القديم ، فأنشأت الكويت بها مدارس حديثة ، وأمدتها بالمدرسين والأدوات والكتب فرفعت بذلك مستوى التعليم في هذه الإمارات إلى درجة كبيرة . قبل أن يتدفق النفط في هذه الإمارات فيضمن لها استقلالاً اقتصادياً وحياة مترفة .

(١) دليل الكويت العام .

وفي سنة ١٩٦٣ أنشئ البنك العربي الافريقي برأسمال مشترك بين مصر والكويت ، والهدف منه ايجاد أسس للتعاون بين البلدين في مجال المال والتجارة ، والتعاون كذلك مع الدول الافريقية الصديقة لمواجهة المتسلل الإسرائيلي الذي يتخذ الاقتصاد أحد وسائله .

وافتتحت الكويت مدرسة في بومباي وأخرى في كراتشي لتعليم اللغة العربية والتاريخ الإسلامي لأبناء العرب المقيمين هناك ، ولأن شاء أن يتلقى هذه الثقافات من أبناء الهند والباكستان (١) .

ومع أن هذا النشاط جدير بالتقدير فإنني أرى أنه ما يزال بعيداً عما يجب أن يكون ، فليس من صالح الكويت أن تضع نفسها في حياة ترف وبذخ بسبب ما تدفق بها من النفط وبجوارها دول عربية لاتزال تعيش دون الوصول إلى الكفاية ، ودون تحقيق ضروريات الحياة .

وإذا كانت الكويت تنعم بالمال ، فلدى الدول العربية الاخرى مصادر ثراء تاريخي أو بشري ، ومن اللازم أن تتبادل هذه المصادر والمنح بشكل متناسب ، وتقل قيمة التعاون إذا ربطها القاموس العربي بكلمات قاسية ككلمة المنح والدعم ونحن نتطلع إلى عهد يقرّب بين الشعوب العربية في مختلف المجالات ، ويخلق شعوراً حقيقياً بأن من العيب أن يعيش عربي في ترف وآخر في حرمان ، فسلامة العرب في تعاونهم ، ولا يتم التعاون مع انتشار الترف في مكان والفاقة في مكان آخر .

الفنى والفقر

في الطبقات السابقة لهذا الكتاب كنا نختم حديثنا عن الكويت بالفقرة الذى رآها القارئ آنفاً ولا مانع من إعادتها مرة ثانية لنعلق عليها :

(١) دكتور ابراهيم عبده : دولة الكويت الحديثة ص ٥٥ - ٥٦ .

ليس من صالح الكويت أن تضع نفسها في حياة ترف
وبذخ بسبب ما تدفق بها من النفط ، وبجوارها دول عربية
لا تزال تعيش دون الوصول إلى الكفاية ودون تحقيق
ضرورات الحياة •

ذلك ما قلته في الطبعات السابقة ثم جاء الزحف العراقي الذي اجتاحت
الكويت ، وأعلن عودتها جزءا من لواء البصرة كما كانت من قبل كما يرى
ذلك الجانب العراقي •

وهذا الزحف سنخصص له دراسات كافية فيما بعد ، ولكننا هنا
نقرر أن الغنى والفقر كانا من الأسباب الحقيقية التي دعت لهذا الزحف
أو أيكده ، فقد ادعى العراقيون أن العراق مدينة للكويت بمبلغ يزيد عن
١٢ بليوناً (ملياراً) من الدولارات دفعتها للعراق إبان حربها مع إيران ،
ورفضت الكويت التنازل عن هذا المبلغ واعتبرته قرضاً ، وترى العراق
أنه إسهام في الحرب التي كان خطرها سيمتد بدون شك للكويت ولغيرها
من دول الخفة الغربية للخليج لو قدر لإيران أن تنتصر ، وانتهجت دول
ومؤسسات عربية لتأييد العراق ربما بدافع الغنى والفقر أيضاً •

ثم كشف الغزو العراقي للكويت عن ثراء خطير تتمتع به هذه الدولة
الصغيرة التي يصل تعداد سكانها من الكويتيين حوالى نصف مليون فقط ،
وهذا العدد القليل يملك أرقاما قياسية من الثراء وبخاصة
أمرأؤه وأثريائه ، فقد ذكرت الأنباء أن أمير الكويت الأمير جابر
يمتلك ٢٠٠ مليار من الدولارات ويمتلك أخوه وأسرته مثل ذلك أو أكثر
من ذلك ، وأن دولة الكويت لها استثمارات في دول العالم الغنية تصل
إلى أرقام خيالية •

وهناك الأمير الكويتي طلال الصباح الذي ذكرت الصحف أنه ينفق
على المهوين ١٥٠.٠٠٠ دولار كل يوم عدا البذخ الذي يعيش فيه ، وعدا

محاولته قتل المطرب « أحمد عدوية » تلك المحاولة التى نجا منها عدوية ،
ولكنها تركته أقرب للفقير والحطام .

ويقال إن الانسان المعادى فى الكويت عندهما يريد أن يتزوج يقدم لخطيبته
« حزام جابر » فى شكل « شبكة » وهذا الحزام يختلف ثقله ونسوع
الجواهر به باختلاف مستوى العريس والعروس ، وهو يحيط بخصر
الفتاة وتتدلى فيه الجواهر والجنبيات الذهبية ، ويتكرر « حزام جابر »
لو أنجبت العروس أبنا ذكرا لزوجها هذا بخلاف السيارات الفارهة
التي يصنع بعضها خصيصا لأمرء الكويت وأثريائه وبخلاف القصور التي
تنزوى أمامها قصور ألف ليلة وليلة .

وهناك ثراء كهذا أو قريب منه يوجد فى الولايات المتحدة وفى اليابان
وألمانيا ، ولكنه جاء نتيجة جهد وعرق ، أما ثراء الكويت فقد جاء من تدفق
النفط الذى يوشك أن يفوق مياه الخليج .

ومع هذا فإن الولايات المتحدة واليابان وألمانيا تقدم للدول المحتاجة
التي لا تربطها بها رابطة غير رابطة الانسانية قدرا كبيرا من العون ، أما
الكويت فإنها تحيط بها مجاعات قاتلة ، وتصحّر مهلك فى البلاد العربية
والإسلامية ، وتنظر الكويت لتقديم عون يوصف بأنه « بالقطارة » أى
أنه قدر زهيد ، وأنه محفوف بالمر والاذى .

ليس معنى هذا أننا نقرّ زحف العراق على الكويت ، فهذا شيء
نستنكره ، ولكننا فى الوقت نفسه نستنكر الحرص الشديد الذى تعيش
فيه الكويت مغمضة العين عن كل ما حولها ومن حولها .

وكلمة حق إنها ليست الكويت وحدها فى مكان النقد وإنما بعض دول
الخليج الأخرى تشترك مع الكويت فى هذا الوضع ، وإن كان ثراء الكويت
فيما يبدو أعظم وأخطر .

وقد تعرضت الكويت عام استقلالها سنة ١٩٦١ إلى نوع مما تعرضت سنة ١٩٩٠ فقد أعلن عبد الكريم قاسم رئيس العراق آنذاك أن الكويت جزء من العراق ، وبدأ يشعد العدة للزحف على الكويت ، فأرسل عبد الناصر رئيس مصر آنذاك إنذارا بأن مصر ستتدخل لحماية الكويت .

ماذا قدمت الكويت لمصر نظير ذلك ؟

إنها بالتأكيد لم تقدم شيئاً يتناسب مع موقف مصر منها وحمائيتها لها ، ونسيت الكويت أنها إن كانت تملك المال فهي في حاجة إلى ما يملكه الآخرون من قوة ومواهب .

ولا يزال يعيش في مصر شيخ تقدمت به السن ، وهو يروى أنه كان ناظر المدرسة الوحيدة التي كانت بالكويت ، وكانت مدرسة مصرية ، ويذكر هذا الشيخ أنه في مطلع العام الدراسي كان يرحل بالباخرة للكويت على حساب مصر ، ومعه المدرسون والطباشير والسبورات + + + + + ، فهل يذكر الكويتيون ذلك ؟

نحن لا نمن ولا نملك أن نمن ، فهو دورنا في الحياة ، ففتح أجدادنا الأزهر منذ أكثر من ألف عام وأنشئوا فيه الأروقة لكل الأقطار ، وقدموا العلم والسكن والطعام والكساء للطلاب ، ولا تزال الأروقة تؤدي نفس الدور حتى الآن .

إننا فقط نذكر هذه الأشياء ، لنذكر من قست قلوبهم فأصبحت كالحجارة أو أشد قسوة .

وأخيراً فإننا لو وضعنا ثراء الكويت في جانب وأطفال السودان الجياع في جانب آخر لسخطنا على من لم يؤد حق المال لمن حوله من المحتاجين .

وقد أجمع علماء الغرب على أن نظام الزكاة الإسلامى هو الذى
حرس العالم الإسلامى من ثورات الفقراء ضد الأغنياء ، فإذا بخل
أغنياء المسلمين بأموالهم فليستعدشوا لثورات لا تبقى ولا تذر ، وإننا
نرفع أصواتنا بذلك لينعم الأغنياء والفقراء جميعا بمال الله .

أما قضية الحرب بين العراق والكويت ونتائجها فلنا وقفة طويلة معها
بعد حديثنا عن العراق ، وستشمل هذه الدراسة تلك القضية من الألف
إلى الياء .

العراق

مقدمة

عندما نصل في دراستنا إلى العراق نجدنا واقفين أمام طريق طويل من الحضارة والمجد ، وأمام أحداث حفلت بالزهور والأشواك ، وفي الحق إنني كباحث يطيب لى أن أطيل وقفتي مع العراق ، ودراستي مع بغداد ، وحياتي مع البلاد التي عاش فيها المنصور والرشيد والمأمون ، والتي أنبتت خيرة المفكرين والباحثين والتي ازدهر فيها بيت الحكمة والنظامية والمستنصرية وغيرها من مراكز العلم والمعرفة .

لقد قام عصر صدر الإسلام بمهمته في تقديم الإسلام وشرحه والدفاع عنه ، وحكم العصر الأموي مسئولية اتساع الرقعة الإسلامية ، وجاء العصر العباسي ليقوم بدوره الحضاري العظيم بالنسبة للعالم الإسلامي الفسيح ، بل بالنسبة للجنس البشري كله .

وتخطيط هذه الموسوعة يضع العراق في مكانه الجغرافي بهذا الجزء السابع ، وربما كان من حق العراق أن يأخذ نصيبا كبيرا في هذا الجزء ، ولكن إيضاح التاريخ المجهم في الجزيرة العربية وفي منطقة الخليج التهم أكثر الصفحات .

وفي هذا الجزء (السابع) قد ادخرتُ قدراً مناسباً من الفراغ لأعرض تاريخ العراق مسالماً من مطلع الإسلام حتى الآن ، وأن أوضح ما غمض من هذا التاريخ ، وأعلق ولو بإيجاز على أحداثه ، وكتابة تاريخ العراق كله على هذا النمط عمل يحتاج لمساحة واسعة جداً ، ولكن مما ساعدني على الإيجاز هنا أدنى خصصت العراق بالجزء الثالث من هذه الموسوعة وكتبت عنه كثيراً في الأجزاء الأخرى منها .

ومراجع تاريخ العراق وفيرة ، وتوشك أن تكون كلها أو جلها بين يدي ، وقد قرأتها جميعاً واستوعبتها ، وكان من الممكن أن أكتب عن العراق كتابة مستفيضة ، ولكن نطاق الموسوعة لا يحتمل التفاصيل حتى

لا تزيد الأجزاء عن العشرة ، وحتى لا يزيد حجم كل جزء عن القدر المتعارف عليه •

وفي البدء والختام نرجو من الله العون والتوفيق •

تعريف سريع بالعراق

نبذة عن التاريخ القديم :

يُعتبر العراق من أعرق دول العالم ، فقد قامت به حضارات يرجع عمرها إلى حوالي ٥٠٠٠ ق.م ، ومن أشهرها حضارة السومريين في جنوبي العراق ، ثم حضارة الأكاديين ، ولا تزال لهم آثار جنوبي بغداد الحالية وبعدهم أسس البابليون دولتهم ، وكانت عاصمتهم تسمى بابل ، ولا تزال آثارها قريبة من مدينة الحلة ، ومن أشهر ملوكها حمورابي العظيم الذي عاش حوالي ١٩٤٠ ق.م وغلب الملوك الذين حوله وبسط نفوذ بابل على المنطقة الشمالية من بلاد ما بين النهرين ، فأسس بذلك امبراطورية كبيرة ، ويعتبر قانونه رائدا يدل على استنارة القائد ونضج عقله ، وهو عمل خالد له وللشرق ، وبعد البابليين قامت المملكة الآشورية ، وكانت نينوى التي تقع قريبا من مدينة الموصل عاصمتها الرئيسية ، وقد امتد سلطان الامبراطورية الآشورية امتدادا واسعا ، وأشهر ملوكها سرجون الثاني (٧٢٢ — ٧٠٥ ق.م) وسنحاريب (٧٠٥ — ٦٨١ ق.م) وآشور بانيبال ، (٦٦٩ — ٦٢٦ ق.م) وجاء الكلدانيون بعد الآشوريين ، وأشهر ملوكهم نبوخذ نصر الثاني (٦٠٥ — ٥٦٢ ق.م) ، الذي سيطر على مملكتي إسرائيل ويهوذا ودمر الهيكل وسبى أكثر السكان اليهود إلى بابل وبعد ذلك غزا الفرس بلاد العراق حتى طردهم الاسكندر ، وجاء بعد الاسكندر الفرثيون ، فالحكم الساساني الفارسي الذي قضى عليه المسلمون في موقعة القادسية كما سنرى فيما بعد •

موقع العراق :

يقع العراق بين خطي عرض ٣٠ و٣٧ درجة شمالا وخطي طول

٤٨٣٨ درجة شرقاً بوجه التقريب ، ويحد العراق من الشمال تركيا ومن الشرق إيران ، ومن الغرب سوريا والأردن والسعودية ، ومن الجنوب الخليج العربى والكويت والسعودية ، وتبلغ حدود العراق البرية ٣٥٥٠ كيلو مترا والحدود البحرية (على ساحل الخليج العربى) ٦٠ كيلو مترا تقريبا ، ومساحة العراق ٤٣٨٤٤٦ كيلو مترا مربعا ، وهى تشمل مساحة العراق البرية ومساحة المياه الاقليمية .

سطح العراق :

ينقسم سطح العراق ثلاثة أقسام كبرى : القسم الأول السهل الرسوبى الذى يتكون من سهل طولى يمتد فى جنوبى العراق ووسطه ويخترقه نهر دجلة والفرات وفروعهما ، وبه أكثر من ٦٠٪ من السكان ، وأرضه خصبة ، وبسبب وفرة المياه وخصوبة الأرض ازدهرت به الزراعة ، ونشأت على ضفاف الأنهار أعظم مدن العراق .

والقسم الثانى يمثل الهضبة الصحراوية التى تمتد فى غربى العراق ، وتوجد بها مجموعة من الوديان تجرى فيها المياه فى مواسم الأمطار وهذا القسم قليل السكان ، إذ لا يوجد به أكثر من ٣٪ من سكان العراق وأكثرهم من البدو الرحل .

والقسم الثالث المنطقة الجبلية التى تقع شمالى العراق وشمال شرقى العراق ، وتهطل أمطار تكفى للزراعة ، ومن أجل هذا تكثر بها زراعة القمح والتبغ والبنجر والكروم والزيتون ويقتطنها حوالى ثلث سكان العراق ، ومن المدن الهامة بهذا القسم الموصل وكركوك والسليمانية وأربيل وخانقين .

ومناخ العراق حار جاف فى الصيف بارد رطب فى الشتاء بوجه عام .

وبالنسبة لمياه الأمطار العراقية اهتمت الحكومات الوطنية ببناء السدود للتحكم في هذه المياه ولحسن الانتفاع بها ومنها سد الكوت الذى ينظم مياه دجلة ، وقد تم إنشاؤه سنة ١٩٣٩ ، وسد منصورية الجبل الذى تم إنشاؤه سنة ١٩٤٠ لتنظيم مياه نهر ديالى ، ومنها سدود تمت عقب ذلك أو مشاريع سدود لا يزال العمل جاريا فيها •

السكان في العراق :

يبلغ مجموع سكان العراق سنة ١٩٧٥ حوالى ١٢ مليوناً حسب ما تقوله النشرات الرسمية ، منهم ١٥٪ من الأكراد الذين يعيشون في الأقسام الجبلية الشمالية الشرقية ، وهم أكبر الأقليات ، وسنتكلم عنهم بعد قليل ، وهناك أقليات أخرى كالتركمان وهم بقايا العشائر التركمانية التى حكمت العراق بعد الجلائريين كما سنرى فيما بعد ، ويعيش التركمان في قرى ومدن تقع بين المناطق الكردية والعربية وهناك أقليات أخرى بالعراق من الفرس والزيدية والصابئة والآشوريين واليهود وغيرهم ، أما باقى السكان فهم عرب وفدوا على شكل هجرات متتالية منذ زمن طويل ، وقد استقر بعضهم في المدن والقرى ، ولا يزال بعضهم بدوا يعيشون رحلا من مكان إلى آخر ، وتبذل الحكومة العراقية جهودا كبرى لتوطين هؤلاء البدو •

كلمة عن الأكراد :

والأكراد بالعراق جديرون بكلمة خاصة ، وهم جزء من الأكراد الذين يعيشون في هضبة فسيحة هي هضبة كردستان ويقع بعضها الآن في تركيا وفي أرمينيا السوفيتية وشمال شرق العراق وشمال غرب إيران ، وفي العراق يتركز الكرد حول الموصل وكركوك والسليمانية ، وسكان السليمانية كلهم من الأكراد تقريبا ، والأكراد مسلمون سنيون ، وهم شعب قوى محارب يعمل للاستقلال بجده وقوة ، وقد منحتهم ثورة ١٧ يوليو ١٩٦٨ الحكم الذاتى ، وبعض الأكراد وصل إلى درجة عالية في الثقافة العربية ،

وفي هذا المجال لابد أن يذكّر العالم اللغوي الكبير محمد كرد علي مؤلف (خطط الشام) و (الإسلام والحضارة العربية) وغيرها ، وهو سوري الجنسية .

والزراعة هي الحرفة الرئيسية لمعظم العراقيين ، وأهم المزروعات بالعراق القطن والذرة والعدس والسمسم والخضروات والفواكه ، ويعتبر العراق من أهم الأقطار التي ينمو بها النخيل ، ولذلك يحتل العراق مرتبة عالية في إنتاج التمور ، وبعد الزراعة تجيء الصناعة . وأهم الصناعات بالعراق صناعة النفط ثم صناعة النسيج والصناعات الغذائية وصناعة التبغ والسجاير وحليج الأقطان والجلود .

نفط العراق :

يعتبر العراق في المرتبة السادسة بين الأقطار المنتجة للنفط في العالم ، ويوزع النفط في أرض العراق توزيعاً أقرب ما يكون للعدالة فهو يوجد في منطقة كركوك وفي منطقة الموصل وفي منطقة البصرة ، وسنرى أن الحكومات الوطنية حررت ثروات القطر النفطية من سيطرة الاحتكارات الدولية .

وبعد هذا التعريف السريع بالعراق نتجه لدراسة تاريخه وحضارته في جميع عصوره الإسلامية فيما يلي :

العراق في صدر الإسلام

تحدثنا في الجزء الأول من هذه الموسوعة ^(١) حديثاً مجملًا عن فتح العراق وفارس ، ونريد أن نعطي بعض التفاصيل عن فتح العراق ثم نواصل دراستنا عن تاريخه .

ويأيد ذلك بدء نقرر أن العراق الحالي يشمل مملكة الحيرة التي ذكرنا في الجزء الأول ^(٢) أنها كانت على حافة البادية غرب الفرات كما يشمل أرض السواد وهي التي كانت تسمى « العراق » والتي تضم الجزء الجنوبي من العراق الحالي ، ويشمل كذلك أرض الجزيرة أو ما يسميه اليونان ميسوبوتاميا Mesopotamia وهي جزء من المنطقة الشمالية الخصبة بين دجلة والفرات تجاور بادية الشام وقد فتح العراق على مراحل تتناسب مع هذه الأقسام الثلاثة :

كانت المرحلة الأولى في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ودارت رحاها في الغرب من الفرات ، وكانت في بادئ الأمر بقيادة المثنى بن حارثة الشيباني ، ولما شاهد أبو بكر نجاح المثنى مع قلة من معه أرسل جيشاً عظيماً بقيادة خالد بن الوليد ، وكتب أبو بكر للمثنى يأمره بتلقّي خالد والسمع والطاعة له ^(٣) وكان خالد آنذاك قد فرغ من حروبه ضد المرتدين والمتنبئين ومانعى الزكاة ، وعلى هذا فقد بدأ زحف خالد من الجنوب ، وإن كانت هناك رواية تتجه إلى أن خالد بن الوليد زحف إلى العراق من المدينة بعد عودته إليها ^(٤) ، ولما وصل خالد إلى أرض الحيرة بدأت تتساقط مواقعها بالصلح أو بعد بعض

(١) ص ٧٥٦ وما بعدها من الطبعة الرابعة عشرة

(٢) المرجع السابق ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٤٢ .

(٤) انظر حركة الفتح الاسلامي في القرن الاول للاستاذ شكرى فيصل

المناوشات ، ولذلك ثار الفرس وأعدّوا عدتهم حتى يقاوموا هذا الزحف الناجح ، والتقى بهم خالد عند « الأبلّة » حيث خاض معهم معركة هائلة تسمى معركة « ذات السلاسل » ^(١) لأن الفرس ربطوا جنودهم بالسلاسل حتى لا يفروا ، ولكن ذلك لم يغنهم شيئا ، فقد فر منهم من استطاع أن يفرّ ، وسقط الباقون صرعى ، واستولى الجيش الإسلامى على ميسناء « الأبلّة » على الخليج العربى ^(٢) ، وبعد ذلك صدرت أوامر أبى بكر لخالد أن يغادر العراق إلى الشام فاستخلف خالد المثنى بن حارثة وتراجعت الجيوش الإسلامية عن مواقعها المتقدمة ، وتحصنت بالمحاراء مكتفية ببعض الاغارات والمناوشات .

الفرس يحتلّون أرض السواد أكثر من ألف عام :

وكانت المرحلة الثانية في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد استعاد المسلمون في هذه المرحلة مملكة الحيرة ثم اندفعوا في أرض السواد ، وكانت أرض السواد قبل الفتح الإسلامى جزءا من بلاد فارس ، إذ كان الفرس قد احتلوها عقب سقوط الكلدانيين سنة ٥٣٧ ق م ، وظلّوا بها إلى الفتح الإسلامى سنة ٦٣٣ ميلادية أى أكثر من ألف سنة ، وفي تلك الفترة الطويلة استطاعت الحضارة الفارسية أن تغمر أرض السواد ، كما نزع لها عدد كبير من الفرس ، وقد أقام بها ملوك الفرس مدينة طيسفون التى تقع جنوب بغداد الحالية على ضفتى نهر دجلة ، وكانت العاصمة الشقوية للأكاسرة ، وفيها أنشأ كبرى إيوانه المشهور الذى كان يستقبل فيه زواره من العرب ومن غيرهم ، وقد سمي العرب هذه العاصمة « المدائن » لكثرة ضواحيها حتى بدت للعرب وكأنها مدائن متعددة .

وقد استغرق الصراع في هذه المنطقة عدة سنوات ، وتولى قيادة

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٢ ص ٣٦٣ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٨٩ .

جيوش المسلمين في هذه المرحلة عدد كبير من خيرة القادة والأبطال منهم ، المثنى بن حارثة وأبو عبيد بن عمر الثقفي : وجريز بن عبد الله ، وسعد بن أبي وقاص ، ويُنسب لسعد أنه فاتح أرض السواد لأن الذين سبقوه كانت جهودهم في هذه المنطقة محدودة ، وكان مع سعد صفوة من القادة المشاهير عاونوه في معاركه ، منهم : المغيرة بن شعبة ، وقيس بن هبيرة ، وطلحة بن خويلد الذي كان قد ادعى النبوة ثم تاب وأُنتاب . وقد خاض سعد أقصى المعارك ضد الفرس ومن أهمها معركة القادسية ومعركة المدائن وجلولاء ، وعقب الانتهاء من جلولاء دانت للمسلمين كل أرض السواد ، وكانت القادسية تُعرف عند العرب بأنها باب فارس ^(١) ، لأن الفرس حشدوا فيها كل قواهم ، وأثاروا المتاعب ضد المسلمين في كل البلاد التي كان المسلمون قد احتلوها ، وقد أحس المسلمون بأهمية اللقاء مع الفرس في معركة فاصلة فتراجعوا غُرب الفرات لتدور المعركة في الصحراء حيث تكون الطبيعة في جانب العرب ، وكان استعداد العرب للقادسية هائلا حتى ليرى أن العربي كان يعرض له الأمر المهم فيقول : لا أنظر فيه حتى نرى ما يكون من أمر القادسية ^(٢) وقد انتصر المسلمون في القادسية فاندفعوا يستعيدون الأرض التي كانوا قد أخذوها ويضمون لها أرضا جديدة من يوم إلى يوم ، وفي هذه المرحلة سقطت طيسفون فكان سقوطها ضربة شديدة أصابت الفرس ، إذ وضع المسلمون أيديهم على كنوزها وإيوانها وقصورها ، وكان الانتهاء من هذه المرحلة في السنة السادسة عشرة من الهجرة .

ويدخل في هذه المرحلة كذلك جهود المسلمين في جنوب العراق ، وكانت قبائل بكر بن وائل في الجنوب تواصل هجماتها على الفرس ، ولكن هذه الهجمات كانت غير منظمة ، فأرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه قائدا يقودها ويوجه هجماتها وهذا القائد هو شريح بن عامر وقد

(١) تاريخ الطبري : ج ١ ص ٢٢٢٨ .

(٢) الطبري : ج ١ ص ٢٣٦٤ .

سقط هذا القائد في إحدى المعارك ، فأرسل عمر جيشا بقيادة عتبة ابن غزوان ، وقد استطاع هذا الجيش أن يحقق انتصارات باهرة في هذه المنطقة .

وكانت المرحلة الثالثة في عهد عمر بن الخطاب أيضا ، وقد ضم المسلمون في هذه المرحلة أرض الجزيرة ، وكانت أرض الجزيرة موضع صراع بين الفرس والروم ، وقبيل الزحف الإسلامي إلى هذه المناطق كانت الجيوش البيزنطية تحتفظ فيها ببعض المواقع ، فلما سقطت أرض الشام في أيدي المسلمين وسقطت كذلك أرض السواد لم يكن بد أن ينتهي المسلمون الجيوب الفارسية والبيزنطية بأرض الجزيرة ، وليس بعيدا أن تكون الجيوش الإسلامية زحفت إلى الجزيرة من الشام ومن العراق ، وكان ذلك سنة ١٨ هـ كما جاء في رواية البلاذري^(١) أو في سنة ١٩ هـ كما جاء في رواية ابن الأثير^(٢) .

وكانت جيوش المسلمين بقيادة عياض بن غنم ، وقد استطاع أن يستولى على مدنها المهمة مثل : الرقة على الفرات ، وحران القديمة ، والرما (تسمى أيضا : أورفا أو إديسا) ، وقد اتخذت هذه مراكز تجمعت فيها الجيوش الإسلامية التي اندفعت فيما بعد إلى منطقة أرمينية وما حولها .

كلمة عن البصرة والكوفة والموصل :

ولنعد إلى أرض السواد لنقرر أن هذه المنطقة كانت شديدة الأهمية بالنسبة لبلاد فارس وللمنطقة الشرقية بوجه عام ولذلك ما إن حقق سعد ابن أبي وقاص انتصاراته فيها حتى كتب له عمر بن الخطاب يقول : اتخذ للمسلمين دار هجرة ، ومدينة يسكنونها بحيث لا يكون بيني وبينكم بحر ولا جسر فبنى مدينة الكوفة على الجانب الغربي لنهر الفرات إلى الجنوب

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ١٧٢ .

(٢) الكامل في التاريخ : ج ٢ ص ٣٩٤ .

من موقع بابل التي تقع على الجانب الشرقى ، وتقع الكوفة على أرض مرتفعة بحيث تصبح بمنجى من فيضان دجلة ، أما الجيوش الإسلامية التي كانت في جنوب العراق فقد بنى لها قائد جيوش المساميين بالمجنوب عتبة بن غزوان مدينة أسماها البصرة ، ويقال ان اسمها مأخوذ من « البصرة » وهو نوع من الحجر الأبيض الذي استعمل في بناء المدينة ، وهى أيضا على حافة الصحراء أى غرب شط العرب بمعنى أنه لا يفصل بينها وبين العاصمة الإسلامية « المدينة » نهر ولا جسر ، وقد بنيت الكوفة والبصرة سنة ١٦ هـ وعقب إنشائهما أوفد عمر العلماء المسلمين لتقديم الإسلام للمسلمين الجدد بها ، فكان أبو موسى الأشعرى مبعوثه إلى البصرة وعبد الله بن مسعود مبعوثه إلى الكوفة ، وقد حققت البصرة والكوفة الهدف الذى بنيتا من أجله ، فقد جذبتا عددا من الأبطال العرب ، واندفع هؤلاء يواصلون الفتوحات فى فارس وخراسان وبلاد ما وراء النهر فى عهد عمر وبعده .

وقد بنيت البصرة والكوفة على النسق الإسلامى أى كان المسجد مركز المدينة ، وبجواره مقر القائد ، ويحيط بهذين معسكرات الجيش ، وكان بناؤها أول الأمر متواضعا ، وكان هدفه إيواء المجاهدين ، وكانت المنازل من القصب ، فلما وفدت أسر المحاربين تحول البناء إلى اللبن وبخاصة أن حريقا شب فى بيوت القصب فأكل الكثير منها كما يذكر الطبرى (١) ، وبذلك تحول المعسكر إلى مدينة عامرة ، ثم خطا البناء خطوة مهمة ، فيروى أن سعد بن أبى وقاص ابتنى داره على شكل القصر الملكى فى المدائن ، ونقل إلى الكوفة أبواب المدائن (٢) وكان هذا من أسباب عزله سعد لبعده عن البساطة والزهد اللذين عثرف بهما الخليفة طيب الذكر ، وبعد عزله سعد عين عمر النعمان بن مقرن ثم حذيفة بن اليمان ،

(١) تاريخ الأمم والملوك ج٤ ص ٤٤ .

(٢) فيليب حنى : تاريخ العرب ج١ ص ٢١٣ .

وسرعان ما جذبت منطقة العراق أنظار القبائل وأنظار الشخصيات البارزة ، بل وصل الأمر بعلي بن أبي طالب رضى الله عنه أن نقل عاصمته من المدينة المنورة إلى الكوفة ليكون على مقربة من العالم الفسيح الذى امتد له الإسلام فى أواسط آسيا ، وقد ظلَّ الإمام على فى الكوفة حتى استشهد سنة ٤٠ هـ فى مسجدِها ، وكان قائما يصلى ، وبوفاته انتقلت الخلافة إلى دمشق •

وعندما انتقل مركز الخلافة بعد على إلى الشام اتجهت المدينتان للجانب الثقافى ، وهو اتجاه يجذبنا إلى أن نستطرد فى الحديث عنهما لأن نشاط هذه المدن كان متصلا وبعيد الأثر فى الحياة الإسلامية •

الثقافة فى الكوفة والبصرة :

وقد أصبحت البصرة والكوفة مهدا للدراسة اللغوية والنحوية والتقت فيهما حضارة الفرس بحضارة العرب ، ولم تفقد المدينتان أهميتهما الثقافية عندما أُنشئت بغداد بل حافظتا عليها حتى اجتاحتها الفتن والاضطرابات كما سنرى بعد قليل •

وقد وفد على البصرة كثيرون من أساطين العرب حتى سميت « خزانة العرب » وكان انتعاشها الاقتصادى الذى تسبب عن الحركة التجارية بها ، بالإضافة إلى انتعاشها الثقافى سببا فيما ارتبط بها من حياة لاهية ورد ذكرها فى قصص ألف ليلة وليلة •

وكانت البصرة مركزا مهما من مراكز العلم والأدب ، فكان يفد لها الطلاب الذين ينشدون العلوم والمعارف (١) •

ومن علماء البصرة المشاهير عمرو بن العلاء ، ويونس بن حبيب ، وعيسى بن عمرو ، والخليل بن أحمد : والأصمعى ، وسيبويه امام

(١) الغزالي : الاحياء ج٣ ص ٥٩ •

(م ٤٤ - التاريخ ج ٧)

النخاعة بالبصرة ، ومن مفكريها الحسن البصرى ، وواصل بن عطاء ، ومن شعرائها الفرزدق ، وبشار بن برد ، ومسلم بن الوليد ، وأبو نواس ، ويروى المرزبانى أن مسلم بن الوليد كان يجلس فى مسجد البصرة يملئ من شعره ، وفى إحدى الجلسات كان يملئ قصيدته الدالية التى مطلعها •

لا تدع بى الشوق إنى غير معمود * * *

إذ أقبل أبو نواس فاستشرف له القوم ، فدنا فسلم ، فقطع مسلم الإهلاء ورفعته فى المجلس ، وأقبل عليه يسأله أن ينشد من شعره ، وأبو نواس يأبى ذلك ، ثم سأله أبو نواس أن يبتدىء القصيدة من أولها ففعل *** (١) •

ومن أدبائها المشهورين الحريرى صاحب المقامات •

ويتحدث الجاحظ عن أن البصرة فى عهده كان بها رجالان ليس هناك من هو أدرى منهما بصنوف العلم وحسن البيان *** (٢) ويذكر أنه دخل البصرة مرة ثم خرج منها بثروة كبيرة بعد فترة قصيرة : فسأله ميهون ابن هارون : ألك بالبصرة ضيعة ؟ فتبسم وقال : أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى ابن أبى داود فأعطانى خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والنحل إلى إبراهيم ابن العباس الصولى فأعطانى خمسة آلاف دينار *** (٣) •

وكانت الكوفة تزدهر بمدرستها النحوية التى اشتهر من زعمائها الربواسى مؤسس المذهب النحوى بالكوفة ، والكسائى والفراء ، وشعلب ،

(١) الموشح ص ٢٨٩ - ٢٩٠ •

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١٤٠

(٣) معجم الأدباء ج ٢ ص ٧٥ - ٧٦ •

ومن أدباء الكوفة ابن المقفع والكميت بن زيد وحماد الراوية وكان الكميت وحماد يلتقيان في مسجد الكوفة ويتناظران ويتنافسان (١) .

وكانت البصرة والكوفة من ناحية أخرى مراكز للفتن والثورات وقد تحدثنا من قبل عن الزنج والقرامطة وعن حركة التشيع ، وكانت البصرة والكوفة أهم المراكز لهذه الحركات .

ولنصعد إلى الجزيرة التي فتحها عياض بن غنم لنعرف أنه بنى بها مدينة على الضفة اليمنى لنهر دجلة في سهل زراعي واسع ، وفي منطقة عامرة بالعرب والأكراد ، وهي مدينة الموصل ، وتقع في الضفة اليسرى أمامها أطلال مدينة نينوى التي كانت عاصمة الآشوريين ، وسميت الموصل لوقوعها في طريق المواصلات التجارية النشطة بين الشرق والغرب ، وتقع الموصل حالياً على السكة الحديدية التي تربط العراق بتركيا .

وتشتهر الموصل بنسج ثمين عرف باسمها وخرّف فأصبح « الموشلين » وفيها ضريح الشاعر المشهور أبي تمام الذي قضى أيامه الأخيرة في الموصل ومات بها .

واشتهرت الموصل بدار العلم التي أنشأها جعفر بن حمدان الموصل ، وجعل فيها خزانة للكتب من جميع العلوم وقفا على كل طلاب العلم لا يمتنع أحد من دخولها ، وإذا جاءها غريب يطلب العلم ، وكان معسرا أنفق عليه وكانت تفتح في كل يوم ، ويجلس فيها ، ويجتمع إليه الناس فيملئ عليهم من شعره وشعر غيره (٢) .

وكانت الموصل عاصمة الحمدانيين (٣١٧ — ٣٩٤ هـ) والعقيليين (٣٨٦ — ٤٨٩ هـ) ومركز أتابكية آل زنكي (٥٢١ — ٦٣١ هـ) ، وكانت سلاطات هذه العاصمة تمتد أحيانا إلى الغرب فتشمل حلب .

(١) الأغاني ج ١٥ ص ١١٣ — ١١٤ .

(٢) باقوت : معجم الأدباء ج ٢ ص ٤٢٠ .

وبعد هذه الكلمة عن العراق في صدر الإسلام وعن المدن التي أنشئت في هذا العصر المبكر ، ننتقل خطوة أخرى لنتحدث عن العراق في عصر آخر من عصوره .

العراق في العهد الأموي

كانت البصرة والكوفة في العصر الأموي (٤١ — ١٣٣ هـ) تمثيلان للعراق ، ولهذا كانتا تسميان العراقيين ، وفي الوقت نفسه نشأتا في أرض كانت أرضاً فارسية مدة أكثر من ألف عام كما ذكرنا من قبل ، وكان الفرس يسمون هذه المناطق ، ويذكر Wellhausen ^(١) أن الكوفة والبصرة كان يغمرهما عدد كبير من الأجانب وبخاصة جهاهير الإيرانيين الذين كانوا أسرى حرب ثم اعتنقوا الإسلام .

أثر الفرس على الإسلام واللغة العربية :

وكان الفرس جنساً آريا وليس ساميا ، وهذا كان من دواعي توسيع الخلاف بين الفرس والعرب ، ثم كان الفرس حضارة واسعة وامبراطورية فسيحة قبل الإسلام ، فأما سقطوا بسيوف العرب هالهم هذا الوضع ، وعزموا على الثأر لكرامتهم ، ولم يكن في مقدورهم أن يواجهوا العرب في ميدان حرب ، فأتجهوا إلى ميدان الفكر يصارعون فيه دين الإسلام ولغة العرب ، وانتهى الأمر بأن حققوا نصراً واضحاً في هذا الميدان : فأصبح الإسلام في بلاد فارس وفي كثير من مناطق العراق تنشيعاً ، وأصبحت اللغة العربية قواعد وقوانين وبعدت عن اللغة نفسها .

الصراع بين العراقيين والأمويين وسببه :

وبسبب تأثر العراق بفارس اتخذ العراقي جانب العداء ضد دولة الخلافة بدمشق ، وحملت البصرة والكوفة لواء التمرد ، واتجهت الدولة الأموية بالتالي

(1) Arab Kingdom and its Fall p : 71.

إلى ضرب العراق لتخضعه ولتذلل قياده ، وقد وضعنا في الجزء الثاني من هذه الموسوعة ألوان العصيان التي شنتها العراق ضد بنى أمية ، وألوان الضربات التي كالتها الأمويون للعراق ، وسنشير فيما يلي اشارات خاطفة لأبرز الحركات في العراق خلال العصر الأموي :

— دخل معاوية الكوفة سنة ٤١ هـ حيث التقى بالحسن والحسين ، وذلك بعد الصلح الذي تنازل فيه الحسن عن الخلافة لمعاوية ، وبإيع الناس معاوية ، وبإيع معهم الحسن والحسين .

— عين معاوية أهم رجاله ولاية على البصرة والكوفة ، فعين المغيرة بن شعبة واليا على الكوفة ، وزيايد بن أبيه واليا على البصرة : ولما مات المغيرة ضم معاوية الكوفة إلى زياد سنة ٥١ هـ ، وكان زياد أول من تولى البصرة والكوفة معا ، وامتد حكم زياد بذلك إلى نصف الامبراطورية الشرقى برمته ، ، إذ كانت العراق قاعدة للزحف الذى اتجه إلى الشرق ، ومن ثم كانت العراق خلال فترة طويلة عاصمة للنصف الشرقى للعالم الإسلامى .

— تولى عبيد الله بن زياد البصرة عقب وفاة أبيه ، وتولى النعمان بن بشير ولاية الكوفة ، ثم ضمت الكوفة إلى عبيد الله في عهد يزيد بن معاوية .

— في عهد يزيد بن معاوية قتل الإمام الحسين رضى الله عنه في كربلاء غير بعيد من الكوفة ، وكان أهل الكوفة قد طلبوا أن يحضر لهم الإمام الحسين ووعدوه بالعون ، ثم تطلوا عنه فسقط في معركة غير متكافئة .

— كانت الكوفة مثار ثورات تكاد تكون متصلة خلال العهد الأموى وقد رحبت بالمختار بن أبى عبيد ليقيود ثورتها دون أن تكون له أهداف واضحة ، وكان المختار عدوا لابن الزبير ولعبد الملك بن مروان زعيمى العصر ، وقد ولى ابن الزبير أخاه مصعبا على البصرة وأمره بالزحف على المختار بالكوفة ففعل ، وسقط المختار بسيوف مصعب ، ولكن عبد الملك سار في جيش كبير استطاع به القضاء على مصعب .

— تجددت الفتن بالعراق بعد ذلك ، فعين عبد الملك لولاية العراق
أخطر وأشهر الولاة الأمويين وهو الحجاج بن يوسف الثقفي •

— حدثت ثورة ابن الأئعث ضد الأمويين ، وكان الحجاج قد عين
ابن الأئعث قائدا لجيش كبير من البصرة والكوفة ليحارب في سجستان
باسم الأمويين ، ولكنه سرعان ما استدار ليضرب الحجاج ، وقد قضى
الحجاج على أشرف العراق عندما أصبح له النصر في هذه المعارك القاسية ،
وأشرف الحجاج على قتل الأسرى ، وكان ذلك مما أضعف حركات الفتن
بالعراق •

— وفي عهد يزيد بن عبد الملك حدث صراع بين يزيد بن المهلب وبين
جيوش الأمويين التي كان يقودها مسلمة بن عبد الملك ، وقد انتصر مسلمة
وقتل عددا كبيرا من أهل العراق في موقعة العقير •

— ومن ولاة العراق المشاهير خالد بن عبد الله القسري وهو من ولاة
هشام بن عبد الملك •

— في أثناء الصراع الذي دار بين حلفاء بني أمية المتأخرين بعضهم
والبعض نشطت الفتن بالعراق وخراسان وكان ذلك من أسباب سقوط
دولة بني أمية •

— اتخذ الشيعة ومدعو التشيع من البصرة والكوفة مركزين مهمين
لنشاطهما ليظل هؤلاء على مقربة من الجزيرة العربية لينفذوا فيها
سمومهم وانحرافاتهم •

• وكان للخوارج نشاط كبير في العراق خلال عهد الدولة الأموية •

ولهكذا حفل تاريخ العراق خلال العهد الأموي بصراع يكاد يكون
متصلا ، وكانت الفتن أبرز مظهر في العراق طيلة هذا العهد •

العراق في العهد العباسي

أصبح العراق عاصمة العالم الإسلامي خلال العصر العباسي ، فتد اتخذ العباسيون الكوفة عاصمة لهم عقب زحفهم الناجح من خراسان ، ومن الكوفة انتقلوا إلى الحيرة فالأنبار ، ثم بنوا العاصمة التليدة « بغداد » وفي هذه العاصمة تجمعت كل أفانين المجد والعظمة حتى أصبحت بغداد رمز الزهو والجلال في كثير من البقاع ، فاشتق من اسمها كلمات تحمل معاني الجلال والترف مثل « تبغدد » « البغدة » . وحر . بغداد قامت الكرخ والرثصافة حيث مظاهر البذخ والنعيم .

وقد خصصنا الجزء الثالث من هذه الموسوعة للحديث عن الخلافة العباسية ، فأتجه أكثر هذا الجزء بذلك للحديث عن العراق ، وقد وضعنا به أن العراق عرف في العصر العباسي الطويل (١٣٣ — ٦٥٦) صنوف المجد وألوان الشقاء ، عرف الغنى والترفة ومسه الضر والعوز ، وذلك تبعاً للحركات السياسية التي غمرت العراق خلال هذا العصر .

وكان العصر العباسي الأول (١٣٣ — ٢٣٢ هـ) قمة بين العصور الإسلامية ، فقد استكملت الدولة فيه استقرارها السياسي ، وامتدت حدودها امتداداً بعيداً ، حتى روى أن هارون الرشيد كان يرى السحابة تمرّ ، فيقول لها : اذهبي حيث شئت فسيأتيني خراجك . وقام العصر العباسي الأول بالدور الرئيسي في تحضير العالم الإسلامي ، ففي خلاله حدثت النهضة الثقافية الكبرى ، وكانت العراق مركز هذه النهضة ، وقد شملت النهضة جوانب ثلاثة مهمة هي :

١ — حركة التصنيف .

٢ — تنظيم العلوم الإسلامية وتدوينها .

٣ — الترجمة من اللغات الأجنبية .

وقد تحدثنا بإفاضة عن هذه الجوانب في الجزء الثالث سالف الذكر ، وازدان العصر العباسي الأول بكفاءة المنصور وإصلاحات المهدي ، وحزيم الهادي وأبهة الرشيد ، وثقافة المأمون ، وقوة المعتصم ، وفي خلال هذا العصر ازدهرت بغداد بأُسْرٍ كان لها نصيب وفير في حضارة العصر وكل عصر ، في قمته أسرة البرامكة وبنو سهل *

ودارت الأيام ، ولكل شيء في هذه الحياة نهاية ، وتجمعت ظروف متعددة لتحمل إلى العراق السحب الداكنة والحياة المكفورة والآلام والأشجان ، فبعد العصر العباسي الأول ظهرت قوى استطاعت أن تتحكم في الخلافة : وعندما سقطت هيئة الخلفاء انفرط العقد الذي كان يجعل من بغداد واسطته ومركزه ، فبليت بغداد بالأثرak (٢٣٢ — ٣٣٤ هـ) الذين كان الخليفة المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧) قد جلبهم إلى أرض الإسلام لأسباب ذكرناها في الجزء الثالث من هذه الموسوعة ^(١) ، وقد بدأ طغيان الأثرak يظهر في عهد المعتصم : فاعتدوا على كثيرين من الناس في بغداد ، واعتدى الناس عليهم ، ولما كثرت الشكوى منهم ، بنى المعتصم مدينة سامرا (سُرّ مَنْ رأى) وانتقل إليها ، ونقل إليها جيشه ، وظلت سامرا عاصمة الخلافة العباسية حتى عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩) فأعاد المعتمد الخلافة إلى بغداد *

ومنذ عهد المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) بدأ تمرد الأثرak يبرز ، واتسع سلطانهم وطغيانهم حتى شمل الخلفاء أنفسهم ، وكان الخليفة المتوكل ضحية من ضحاياهم ، فقد اغتالوه وعينوا خلفه ، وصار لهم السلطان يولون الخلفاء ويخلعونهم طيلة هذا العهد فيما عدا الفترة التي تسمى صحو الخلافة في عهدي المعتمد والمعتضد *

وفي عهد نفوذ الأثرak تدهورت الخلافة إلى مدى بعيد ، وصار

لنساء القصر ، وكلهن من أمهات الأولاد نفوذ واسع ، وتجمع ثراء الدولة في يد الأتراك ، وفي يد هؤلاء النساء ، فيزوي أن ثروة أم المعتز بالله بلغت مليون دينار وكان لها مع ذلك جواهر لا تقدر بثمن .

وعلى هذا الوجه كان تاريخ الخلافة المتدهور خلال هذا العصر ، فكان يعتلى العرش خلفاء بلا قوة تسندهم ، ويثعزكون أو يقتلون غير مأسوف عليهم ، ولم يكن هناك أمن الا في بعض المناطق البعيدة عن العاصمة التي كان يحكمها أحيانا حكام مستقلون تقريبا ، وفي هذا العصر اشتعلت ثورة الزنج في جنوب العراق ، وقد تحدثنا عنها من قبل ، وقد خلقت هذه الثورة أبشع دور في تاريخ العراق كله .

وقبيل نهاية حكم المالك بن الخليفة قائدا فارسيا هو أحمد بن بويه في منصب ظهر حديثا آنذاك هو منصب أمير الأمراء (١) ، وزحفت أسرته بعد ذلك على سلطة الخليفة ، ولم يبق للخلفاء خلال عهد البويهيين (٣٣٤ — ٤٤٧) إلا الاسم المجرد من السلطة ، وكان البويهيون شيعة فأسرفوا في امتحان الخلفاء لأنهم سنيون . وعلى هذا لم يكن لدى البويهيين باعث ديني يحثهم على طاعة الخليفة واحترامه (٢) وربما خطر ببال البويهيين أن يلغوا الخلافة العباسية تماما ولكنهم آثروا أن يثبخوا عليها لاعتبارات سياسية فقط ، وقد بلغ من امتحان البويهيين للخلفاء أن وصل الحال إلى أن اثنين من الديلم تقدموا من الخليفة المتكفي بالله وجذباه في حضرة معز الدولة وطرحاه على الأرض ووضعاه عمامته في عنقه ، وساقاه ماشيا إلى دار معز الدولة حيث اعتقل فيها ، ثم أحضر

(١) انظر الحديث عن هذا المنصب في الجزء الثالث من هذه الموسوعة ص ٤٠٨ — ٤١١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ح ٨ ص ١٧٧ .

معز الدولة الفضل بن المقتدر : وبإيعه بالخلافة ولقبه المطيع لله (١) والمراجع التاريخية تشمل العديد من الأمثلة التي تدور في هذا الإطار (٢) .

ولم يتوقف الطغيان البويهى إلا عندما ائتمد التنافس بين أمراء بنى بويه على السلطة وأساء بعضهم التصرف ، واشتغل باللهو واللعب وسماع الغناء ، كما كان حال بختيار بن معز الدولة الذى وصل من سوء تصرفه ولهوآه أن تعرضت خزانة الدولة للإفلاس أكثر من مرة مما اضطره إلى مصادرة أموال كبار الرجال فى الدولة بل صادر أموال الخليفة نفسه (٣) .

وقد أدى الاضطراب الاقتصادى ، والصراع الطويل بين أمراء بنى بويه إلى كثرة الثورات من الجنود والأهالى ، وبالتالي غلت الأسعار ، واختفت الأقوات ، وكثر السلب والنهب (٤) ، وكلّ هذا آذن بانهيأ بنى بويه ، وأعطى الفرصة لزحف جديد على العاصمة العراقية قام به السلاجقة سنة ٤٤٧ هـ كما سنرى بعد قليل .

ومع ما يؤخذ على البويهيين من مثالب فإن لهم بعض الإصلاحات فى بغداد ، فقد أنشأ ضد الدولة مستشفى كبيراً عيّن فيه أكثر من عشرين طبيباً ، كما أنشأ مدرسة ضمت خزانة كتبها عشرة آلاف مجلد ، وكان لكل نوع من الكتب فهرس خاصة فيها عناوين الكتب (٥) .

-
- (١) ابن الجوزى . المنتظم ج٦ ص ٣٤٢ - ٣٤٣ .
(٢) اقرأ فى ذلك الحياة السياسية ونظم الحكم فى العراق للدكتور فاضل الخالدى .
(٣) ابن مسكويه : تجارب الأمم ج٢ ، ص ٣٠٧ والسيوطى ، تاريخ الخلفاء ص ٢٧٦ .
(٤) أبو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزهرة ج٤ ص ١٠٨ .
(٥) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٤٤٩ .

وبعد البويهيين طرق السلاجقة بقيادة طغر بك أبواب بغداد ودخلوها سنة ٤٤٧ هـ كما أثرنا من قبل ، وقد أصبح السلطان منذ ذلك التاريخ للسلاجقة ، وكان هؤلاء السلاجقة أول من عمل على تنريك آسيا الصغرى التى نشأت بها فيما بعد دولة الأتراك العثمانيين .

وفى عهد السلاجقة أصبحت العراق تابعة لحكومة السلاجقة فى أصفهان ، ومع أن بغداد فقدت قدرها السياسى فقد استعاد الخلفاء فى هذه الفترة سلطتهم الروحية ، وقد نعمت العراق خلال عهد السلاجقة بكثير من الأمن والرفاهية ، وبخاصة فى عهد ملك شاه وكان ملك شاه نصيرا وحاميا للشاعر عمر الخيام ، ومما يرويه التاريخ أن عمر الخيام زامله فى أيام الدراسة اثنان من أعلام الرجال هما : نظام الملك ، والحسن الصباح ، وقد تماهد هؤلاء الثلاثة فيما بينهم وهم طلاب على أن من يسبق منهم إلى المجد يشارك معه صاحبيه فى رزقه وفى نعمته ، ولما أصبح نظام الملك وزيرا لملك شاه ذكره رفيقاه بعهدده ، فلم يتأخر عن الوفاء بما وعد ، ودفع لكل منهما حصة كبيرة من ماله ، فاتجه عمر الخيام إلى الانتفاع بما ناله من مال فى أن يحيا حياة هادئة ، وأن يشتغل بالشعر والفلك ، أما الحسن الصباح فقد استغل حصته من المال فى تنظيم فرقته التى عرفت بالاسماعيلية أو الحشاشين والتى ستمحدث عنها عند حديثنا عن المغول (١) .

وبعد عهد السلاجقة العظام بدأ النظام السلجوقى ينهار بسبب عوامل داخلية وعوامل خارجية أوضحناها فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة (٢) وكان من أهمها تمرد بعض الحكام الذين كانوا عبيدا لسلطين السلاجقة وولادة لبعض الولايات ثم تمردوا عليهم وأعلنوا استقلالهم كشاهات خوارزم وشاهات الغور والأتابكيات المتعددة .

(١) انظر الترجمة العربية لكتاب (الرافضان) تأليف سيتون لويد

ص ٢٢٧ .

(٢) ص ٤٣٥ - ٤٣٦ وانظر تاريخ آل سلجوق .

ووسط هذا التفكك أعلن الخليفة الناصر استقلاله ببغداد وما حولها وحاول إنعاش الخلافة (١) ، ولكن أطماع الدولة الخوارزمية هزمت كيان بغداد وآمالها الجديدة ، ثم جاء زحف المغول ففضى على الدولة الخوارزمية وعلى الخلافة العباسية ، كما سنشرح ذلك بعد قليل .

تلك كلمة سريعة جدا عن العراق في العصر العباسي ساعدنا على ايجازها أننا خصصنا الجزء الثالث لهذه الفترة من تاريخ العراق ، ففي هذا الجزء تفاصيل دقيقة لقضايا العصر ومشكلاته ، فليرجع إليه من يشاء ليجد صورة متكاملة أغنتنا عن العودة إلى التفاصيل .

(١) انظر تفاصيل مهمة لجهود الناصر في الجزء رقم ٦٣ من « المكتبة الإسلامية لكل الأعمار » للمؤلف .

المغول

سقطت الخلافة العباسية على أيدي المغول كما ذكرنا من قبل ، وهكمت العراق عقب ذلك بالمغول * ومن هنا كان لابد أن نتكلم عن المغول كلمة نتناول تاريخهم من جوانب متعددة :

التتار والمغول :

يمكننا أن نقول في إيجاز دقيق إن المغول جزء من شعوب التتار ، وإن جنكيز خان ، وهو أبرز قائد في جماعة المغول ، استطاع أن يرغم أكثر جماعات التتار على الاعتراف بسلطانه * ومن هنا برز اسم المغول حتى أصبح مرادفا لكلمة تتار ، وأصبح أكثر التتار يتسبون أنفسهم للمغول مما يجعل من الممكن أن نتحدث عن المغول أو التتار دون خلاف ذي بال *

أصل المغول :

والمغول قوم من الرعاة عاشوا في الهضبة الآسيوية ، الفسيحة التي تعرف باسم هضبة منغوليا التي تمتد من أواسط آسيا إلى جنوبى سيبيريا وشمالى التبت وغربى منشوريا وشرقى التركستان *

وكانت جماعات المغول متفرقة ، تعيش كل جماعة منها حياة تناسب المكان الذي تعيش فيه بهذه السهول الواسعة ، ففي القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) كان منهم جماعة الرعاة التي تعيش بجوار المراعى ، ومنهم صيادو السمك الذين يعيشون بجوار البحار والأنهار ، وصيادوا الحيوانات في الأدغال والغابات (١) *

وبينما كان المغول يعيشون هذه الحياة التي كان طابعها العنف والصراع ضد بعضهم البعض وضد من حولهم ، كانت تعيش بجوارهم

(١) دكتور فؤاد الصياد : المغول في التاريخ ص ٣٠ و ٣٢ .

حضارات وممالك لها شأن في التاريخ ، وكان المغول يهاجمون هذه الممالك كلما استطاعوا ذلك ، ثم يعودون أدراجهم إلى الفيا في الفسيحة •

ديانات المغول :

كان المغول من الوثنيين ومن عبدة قوى الشر كالجن والشياطين ، واعتنق بعضهم الديانة البوذية التي دخلت هذه الأصقاع من الهند عندما طردت من شبه القارة الهندية ^(١) ولكن هؤلاء كانوا قليلين ، أما الغالبية العظمى فكانت ترى أن الأديرة والمعابد تورث وداعة الأخلاق وتدعو إلى العطف والإنسانية ، وأن هذه الصفات لا تدفع للسيادة لأنه لن ييسود البشر غير المقاتل الشرس ، ومن هنا قلّ منهم من اعتنق الديانات السماوية •

أشهر زعماء المغول :

عاشت قبائل المغول حياة صراع داخلي مرير ، وكانت قبائلهم تغير على أطراف الممالك المجاورة لهم كما ذكرنا آنفاً ، ولكن هذه الغارات كانت ترمي للخطف والسلب دون أن تفكر في احتلال هذه الممالك أو القضاء عليها ، حتى ظهر جنكيز خان فغير من أهداف المغول ومن حياتهم تغييراً كبيراً كما سنرى فيما بعد •

وزعامات المغول التي ترتبط بالعالم الإسلامي هي :

١ — جنكيز خان : في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، وقد دمر الدولة الخوارزمية • وأوشك أن يبدق أبواب بغداد •

٢ — هولاكو : في القرن الثالث عشر ، وهو فاتح بغداد ، وقاتل آخر الخلفاء العباسيين ، وهدم الشمام •

(١) انظر أديان الهند الكبرى للمؤلف •

٣ — تيمورلنك : في القرن الرابع عشر ، وقد اكتسح بلاد فارس والعراق والشام وتركيا وقد تحدثنا عنه في الجزء الخامس من هذه الموسوعة •

٤ — بابر : في القرن الخامس عشر والسادس عشر ، وهو مؤسس امبراطورية المغول في الهند وقد ظلت هذه الامبراطورية من سنة ١٥٢٦ إلى سنة ١٨٥٧ م •

وفي حديثنا عن المغول وعلاقاتهم بالعراق يتجه بحثنا إلى الكلام عن جنكيز خان وهولاكو وهو ما سنسرع فيه :

جنكيز خان :

جنكيز خان هو الاسم الذي أطلق على تيموجين ابن أحد زعماء قبيلة « التمرجي » وقد مات الأب غدرا وكان الابن في سن الصبابة ، فانتقلت زعامة القبيلة إلى شخص آخر ، ولكن الصبي تيموجين تقدم نحو مرحلة الشباب ، وبدأ يجمع حوله الأنصار والأتراب ، غاتجه الزعماء له بالتحدي والנקاية مما ملأ نفس تيموجين ثورة وحنقا ، وانتقل الحنق إلى صراع نجح فيه تيموجين ، وأثبت في هذا الصراع أنه بطل الأبطال فخافه الزعماء وخضعوا له بعد سلسلة من الحروب والغارات ، والتف حوله شعب التتار معقدين أنه منقذهم من المذلة والفرقة ، وقائدهم إلى العزة والنصر ، وبدأت بذلك دولة جنكيز خان سنة ٦٠٠ هـ (١٢٠٣ م) ، وهدد جنكيز خان بالويل والثبور من تخلف عن الطاعة المطلقة له ، وبين الوعيد والتهديد التف أكثر المغول حوله وأعلنوا الطاعة له ، ووعدهم جنكيز خان بأنه سيفتح بهم الأرض ، ويملكهم الثراء الذي يحيط بهم ، وبدأ بذلك عهد جديد للمغول •

وفي سنة ٦٠٣ (١٢٠٦) أصدر جنكيز خان دستوره المشير المعروف

بالياسا وسنتكلم عنه فيما يلي ، فاستحق تيموجين لقب جنكيز خان أى السيد
الغالب وامبراطور البشر جميعا (١) .

الياسا :

كانت هناك آداب وتقاليد يتبعها المغول قبل عهد جنكيز خان ، فلما
جاء جنكيز خان وضع قوانين محددة ربط بها علاقة الفرد بالفرد ، وعلاقة
الفرد بالمجموع ، وعلاقة المجموع بالملك ، وسُمّيت هذه القوانين (ياسا)
أو (يساق) وقد أصدر جنكيز خان اليساق سنة ٦٠٣ هـ ، وقد أورد
المقريزى (٢) ملخصا للياسا نقتبس منه بعضه .

يقول المقريزى أخذاً عن نسخة من الياسا كانت فى خزانة المدرسة
المستنصرية ببغداد : إن مما شرعه جنكيز خان فى الياسا أن من سحر أو
تجسس أو كذب قتل ، ومن أعطى بضاعة للتجارة فخرس فيها ثلاث مرات
قتل فى الثالثة ، وأن ذبح الحيوان ممنوع ، ولكن يقتل الحيوان بطريقة
أخرى ، وأعفت الياسا الفقهاء والقراء والأطباء من الضرائب . وشرطت
الياسا تعظيم جميع الملل من غير تعصب ، وحذرت أن يأكل أحد من يده
أحد حتى يأكل المعطى أولاً من الطعام ، ولا يئتميز أحد على أصحابه
بالشبع ، ولا يجوز غسل الملابس ، بل تلبس حتى تبلى ، وعلى نساء العسكر
القيام بما على الرجال من أعمال فى غيبة أزواجهن .

وتقرر الياسا أن من سرق يقتل ، وتنتهى عن الإغراق فى شرب الخمر .

ويعلق الباحثون على أن ما جاء فى الياسا كان بالنسبة للعلاقات
الداخلية بين المغول بعضهم والبعض ، فالكذب فيما بينهم كان جريمة
عقابها القتل ، ولكن الكذب كان طبيعة المغول فى الحروب : فهم لم يعرفوا الوفاء

(١) دكتور فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ص ٤٩ .

(٢) الخطط : الجزء الأول ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

بمعهد ، وكانت طبيعتهم اللؤم والغدر ، ونقض الجهود ، وإراقة الدماء ، وسلب الأموال ، والعدوان على الأعراض (١) .

جنكيزخان وأرض الإسلام :

بعد أن استقر الأمر لجنكيزخان وخضعت له الغالبية العظمى من قبائل التتار ، راح يمد سلطانه ليشمل الممالك المجاورة ، وقد استطاع جنكيزخان أن يقيم امبراطورية واسعة تشمل الصين الشمالية ، وأواسط آسيا ، وإيران ، على أن أهم ما يعنينا من هذه الامبراطورية هو زحفه على الدولة الخوارزمية التي شملت بلاد ما وراء النهر ، وأكثرية بلاد إيران ، والتي كان بها المدن الإسلامية الشهيرة بعلمائها وفقهائها مثل : بخارى وغزنة وبلخ ونيسابور وسمرقند .

ولما كانت الدولة الخوارزمية شديدة الاتصال بالصراع المغولي الإسلامي فإنه ينبغى أن نتكلم عنها كلمة توضح لنا أسس هذا الصراع .

تعريف بالدولة الخوارزمية :

مؤسس الدولة الخوارزمية مملوك تركى من غزنة اسمه (أنوشكين) وكان قد التحق بخدمة ملكشاه (من سلاجقة خراسان) ثم عينه هذا حاكما على إقليم خوارزم سنة ٤٩٠ هـ — ١٠٩٦ م وبعد وفاته خلفه ولده قطب الدين الذى لقب بخوارزمشاه ، وجاء بعده (آتسز) الذى حاول الاستقلال بخوارزم عن السلاجقة وقد نجحت جهوده بعد صراع طويل ، واستطاع أن يمد نفوذه حتى مدينة (جند) على نهر سيحون سنة ٥٥٢ ، ولما آل الأمر إلى علاء الدين تكش (٥٦٨ — ٥٩٦) حقق نصرا عظيما حين قضى على ملك السلاجقة فى إيران وحل محلهم ، وهذا الانتصار وضع الدولة الخوارزمية فى مواجهة الخلافة ، فطالب خوارزمشاه بامتيازات

(١) دكتور فؤاد الصياد : المرجع السابق ص ٣٤٥ .

(م ٤٥ — التاريخ ج ٧)

السلالة في دولة الخلافة كذكر اسمه في الخطبة ، وفرض نفوذه السياسي على بغداد (١) شأن الأتراك والبويهيين والسلالة الذين حرصوا على هذه الامتيازات .

ومما يذكر أن الحكام في البلاد التي تقع غرب العراق وهي الشام ومصر لم يطالبوا بهذه الامتيازات ، إذ كان التعاطف العربي يتجه إلى الحفاظ على هيبة الخلافة (٢) .

ولما آل السلطان إلى أشهر سلاطين الدولة الخوارزمية وهو علاء الدين محمد (٥٩٦ — ٦١٧) استطاع أن يوسع رقعة مملكته بأن هزم ملوك ما وراء النهر وضم بلادهم إلى سلطنته سنة (٦٠٧) وفي سنة (٦١١) انتصر على المغوريين واحتل غزنة وضمها إلى مملكته فوصلت البلاد إلى أقصى اتساعها (٣) .

ويتجه كثير من المؤرخين إلى لوم علاء الدين لأنه قضى على ملوك ما وراء النهر ، فهدم بذلك السور الذي كان يحول بين المغول وبين البلاد الإسلامية (٤) ، ولكننا لا نوافق على هذا الاتجاه ، فإن بلاد ما وراء النهر التي لم تقو على صد خوارزمشاه ، ما كان يمكن أن تقف سورا أمام المغول ، والذي يمكن أن يقال هو أن علاء الدين لم يثبته تحالفا يستطيع به أن يقف في وجه المغول الذين تهيأوا بقيادة جنكيزخان للزحف في كل اتجاه ، وبدل إعداد تحالف كهذا راح علاء الدين يطالب بمزيد من القوة في العالم الإسلامي فطالب بما طالب به أسلافه بأن تكون له امتيازات السلالة في عاصمة الخلافة .

ولم يستجب الخليفة العباسي لمحاولات سلاطين الدولة الخوارزمية ،

(١) حافظ أحمد حمدي : الشرق الاسلامي ص ٤

(٢) دكتور بدوي محمد فهد : تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير .

(٣) انظر استانلي لين بول : تاريخ الدول الاسلامية ج ٢ ص ٣٧٥ .

(٤) دكتور جعفر حسين : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص ٥ ،

ودكتور ابراهيم العدوي : العرب والتتار ص ٤١ .

فقد كان يريد أن ينعم بالاستقلال بعد نهاية سلطان السلاجقة ، ولم يقنع سلاطين الدولة الخوارزمية بما وصلوا له من ملك فاندفعوا يصارعون الخلافة العباسية ، وفي سبيل ذلك استصدر علاء الدين فتوى بأن خلافة بنى العباسى غير صحيحة وأن أبناء الحسين أولى بها ، وأن من الخير الرجوع للصواب وإعادة الخلافة إلى هؤلاء ، وحاول عقب ذلك العثـور على خليفة علوى ^(١) ، ثم اتجه علاء الدين للصراع العسـكرى فزحف على رأس جيش كبير تجاه بغداد سنة ٦١٤ هـ ، ولكنه لم يحقق أهدافه بسبب العواصف التى واجهت جنده ، وبسبب القبائل الكردية التى اعترضت طريق الجيش الزاحف .

جنكيزخان يهاجم بلاد الإسلام :

فى هذا الجو من الخلافات والهزائم بدأ جنكيزخان يمد نشاطه إلى بلاد الإسلام ، وقد بدأ بأن أرسل إلى علاء الدين خوارزمشاه رسالة يطلب إليه فيها أن يفتح بلاده لعلاقات تجارية بين الدولة الخوارزمية والمغول ، وكان خطاب جنكيزخان شديد اللهجة ، وصف ملك خوارزم بأنه مثل ابن من أبنائه ولم يضمه فى مكان الأخ ، ولكن خوارزمشاه على كل حال خضع للأمر الواقع ووافق على قيام علاقات تجارية بين الدولتين .

بيد أن حاكم (أترار) أحد الشغور الواقعة على نهر سيحون أدرك أن تجار المغول يقومون بعمليات تجسس مريبة فمنعهم فى إحدى جولاتهم ، وصادر أموالهم وقتل بعضهم ، وقد كان ذلك الحادث فاتحة شرٍ وبيل على الدولة الخوارزمية ، فسرعان ما زحفت جمافل المغول سنة ٦١٦ هـ تدك الأرض دكا ، وتدمر وتحرق ، وكانت (أترار) أولى المدن التى اقتحمها المغول حاملين معهم خصائصهم التى امتازوا بها وهى سفك الدماء ، وتدمير البناء ، وحرق المزارع ، وإشاعة الذعر ، والقسوة البالغة .

وهناك قول يقرر أن الخليفة العباسي هو الذي أغرى المغول بالزحف على الدولة الخوارزمية لتمردهم عليه ، ولعل مصدر هذا الاتهام هو كلام منكبرتي الذي يقول عن الخليفة الناصر « إنه كان السبب في هلاك أبي ومجىء الكفار إلى البلاد ، وقد وجدنا كتبه إلى الخطا وتواقيعه إليهم بالبلاد والخيل والخلع ^(١) » . ومن الواضح ان هذا النص الذي اتخذ أساسا لهذا الاتهام على فرض صدقه يذكر أن الخليفة كتب للملوك الخطا وليس للمغول ، أي أنه كتب لهؤلاء الملوك قبل خضوعهم للمغول ، بدليل أن هذا الخليفة عرف « بموقفه الصريح المعادي للمغول ^(٢) » .

ويجمع المؤرخون الموثوق بهم على أن هذه الفرية إشاعة أطلقها جلال الدين منكبرتي ابن علاء الدين ليتخذها وسيلة للزحف الذي قام به على بغداد سنة ٦٢٣ هـ ^(٣) .

وبعد سقوط أترار اتجهت فيالق الجيش المغولي اتجاهاً متعددة في بلاد ما وراء النهر تقتحم المدن وتقتضي على الزرع والضرع ، وقد عانت بخارى المدينة الإسلامية ذائعة الصيت شر ما تعانيه مدينة مهزومة ، يروى الجويني ^(٤) . أن جنكيزخان دخل المدينة ليتفقد ما فيها بهمد أن استسلمت له بعد صمود شامخ ، ومقاومة طويلة ، فدخل المسجد الجامع وسأل عما إذا كان هذا هو قصر السلطان ، فقيل له إنه بيت الله ، فترجل عن حصانه وصعد المنبر وصاح قائلاً : كانت الصحراء خالية من العلف ، أما الآن فاملئوا بطون خيولكم ، وكان ذلك يفيد الإذن في السلب والنهب فلا يمكن أن تملأ بطون الخيل دون أن تملأ بطون الخيالة ،

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج ٢ ص ٦٣٤ .

(٢) دكتور جعفر حسين : العراق في عهد المغول الايلخانيين ص ١٤ .

(٣) انظر تغير هذا القول في « تاريخ العراق في العصر العباسي

الآخر » ص ٤٣ - ٧٤ .

(٤) تاريخ جهانكشاي : ج ١ ص ٨٠ - ٨١ نقلا عن المغول في التاريخ

ص ١١٦ .

وعلى الفور قام الجند بنهب المدينة ، ثم تحولوا للعبث بالمقدسات الإسلامية فحملوا إلى فناء المسجد عدة صناديق تحوى المصاحف التى كتب فيها القرآن الكريم بخطوط ممتازة ، وألقوا بها تحت حوافر الخيل ، ثم أحضروا كؤوس النبيذ والمغنيات ، وصاروا يشربون ويرقصون ويسمعون *

ويذكر ابن الأثير سقوط بخارى فيقرر أن المغول لم يتركوا بخارى ألا وهى خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس ، وأشعلوا النار فى البيوت وفى المدارس ، وقتلوا بعض الناس وعذبوا آخرين أشد العذاب (١) .

والذى حدث لبخارى حدث لسمرقند ولغيرها من بلاد ما وراء النهر ولما انتهى جنكيزخان من بلاد ما وراء النهر بقى بها يرعى فتوحاته الجديدة وعبرت جيوشه نهر جيحون ، وراحت تحرق وتدمر هنا وهناك داخل الدولة الخوارزمية ، وقد استولت على هراة وطوس والرى وغيرها وبعث فيلقا يتعقب السلطان علاء الدين الذى فر أمام هذا الزحف العاتى ، وقد أخذ هذا السلطان ينتقل من مكان إلى مكان حتى انتهى به المطاف إلى جزيرة صغيرة فى بحر قزوين ، وفيها وصلته الأنباء بأن أولاده الصغار قد قتلوا ، وأن نساءه قد وقعن فى الأسر ، فلم تهتمل صحته هذه الأنباء ، وأسلم الروح سنة ٦١٧ بعد أن عين ابنه جلال الدين منكبرتى وليا لعهد رجاء أن يستعيد مملكته *

وعادت الجيوش المغولية عقب ذلك التدمير إلى سمرقند حيث التقت بجنكيزخان الذى كان قد أحال منطقة ما وراء النهر إلى خرائب ينقع بها اليوم ، واحتفظ المغول بإقليم ما وراء النهر وأخلوا ما سوى ذلك من أملاك الدولة الخوارزمية مما أتاح لجلال الدين منكبرتى أن يستعيد سلطانه فى تلك البقاع ، كما سنرى فيما بعد *

وعندما التقى المغول بزعيمهم في بلاد ما وراء النهر ، لم يظل بقاء الزعيم بهذه المناطق ، بل انه سرعان ما أعد العدة للعودة إلى منغوليا إذ علم بقيام ثورات ضده في التبت وشمالي الصين ، وكانت رحلته إلى منغوليا بطيئة ، فلم يصل إليها إلا في سنة ٦٣٢ هـ وسرعان ما سقط مريضا ثم مات في رمضان سنة ٦٣٤ هـ ، وانتهى بذلك عهد الطاغية الأول الذي ملأ الأرض بالدماء البريئة ، ولم يترك الا أسوأ الذكريات كنهاية كل جبار أثيم .

جلال الدين منكبرتي :

انتهر جلال الدين منكبرتي فرصة عودة المغول وسقوط الطاغية ، فعاد من الهند سنة ٦٣٢ هـ وأخذ يلم شعبة ، ويؤلف جنده ، ويستعيد قوته ، وكان عليه فيما نعتقد أن يتعلم من الدرس الذي أهمله أبوه ، فيقوى ارتباطاته بجيرانه المسلمين وبالخليفة العباسي بوجه خاص ، ليستعد هؤلاء لمواجهة زحف جديد على تلك البقاع قد يقوم به المغول ، ولكن جلال الدين — للأسف — اتجه لمصارعة جيرانه لسبب أو لآخر ، فغزا أرض الخلافة ، وفتح بلدة « داقوقا » وأوقع السيف في أهلها ، وسبى حريمهم ، وأحرق بلادهم وهدم سورهم^(١) ، وضعفت بذلك قوة المسلمين ، كما أخذ يحارب فلول المغول ، ويهاجم المناطق المغولية المتصلة بمملكته ، وكان ذلك سببا في أن المغول أعدوا عدة كبيرة للهجوم على الدولة الخوارزمية مرة أخرى ، والقضاء عليها نهائيا ، وبخاصة أنهم قد استعادوا مكانتهم بعد الهزة التي حلت بهم بموت جنكيزخان ، فقد تم انتخاب (أوكتاي) خانا أعظم للمغول بعد فترة من وفاة جنكيزخان ، واندفع هذا يثار من جلال الدين الذي كان يتجه للعدوان ، وقد ساررت القوات المغولية تكتسح أرض الدولة الخوارزمية ، فاستولت على الري وهمدان حتى وصلت إلى حدود أذربيجان سنة ٦٣٨ هـ وعندما أحس

(١) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج ٨ قسم ٢ ص ٦٣٤ .

وبين يأجوج ومأجوج^(١) . وقد أثبتت الحوادث صحة قول الأشرف هـ
وبعد نظره ، فإن المغول بعد أن تمكنوا من إمارات فارس اتجهوا غربا
وحققوا بعض انتصارات في شمال العراق ، فاستولوا على ماردين ونصيبين
والموصل ، ثم أخذوا إربل ، وكانت تعد مفتاح العراق من الجهة الشمالية ،
ومن إربل واصلوا زحفهم تجاه سامرا سنة ٦٣٤ هـ وازاء هذا هب الخليفة
المستنصر يعد نفسه لمواجهة هذا الزحف المدمر ، وكان الخليفة على وشك
أن يقود حجاج المسلمين إلى الأرض المقدسة ، ولكنه استفتى العلماء
فيما إذا كان من الأفضل أن ينفق أموال الحج في الجهاد وصد العدو ،
ففضلوا له ذلك ، وهب العلماء والكبراء يستعدون لمواجهة الزحف المغولي ،
وكان الفقهاء يخرجون كل يوم من بغداد إلى معسكرات الجند ، لحث
الجنود على الجهاد ، وتشجيعهم ، والاشتراك معهم في التدريبات
العسكرية ، وقد استطاع جند الخلافة بذلك أن ينزلوا بالمغول هزيمة
شديدة عند جبل « حميرين » بالقرب من نهر دجلة^(٢) .

وفي حوالى سنة ٦٣٨ وما بعدها اتجه المغول لاستكمال الزحف الذى
كان جنكيزخان قد بدأه فى أوربا ، وقد أعد أوكتاي لهذا الزحف جيشا كبيرا
جعل على رأسه « سبوتاي » وقد استطاع هذا الجيش أن يستولى على
شبه جزيرة القرم ، وأحرق موسكو واستولى على البلاد الروسية عاما
بعد عام حتى أصبحت روسيا كلها تحت أيديهم وظلوا يحكمونها حوالى
قرنين ونصف قرن (٦٣٦ - ٨٨٦ هـ) وبعد أن تم لهم الاستيلاء على
روسيا زحفوا على بولندا والمجر وكانوا على وشك السيطرة على أوربا
كلها لولا توقف الحرب بسبب وفاة أوكتاي سنة ٦٣٩ هـ^(٣) .

ومع الزحف المغولى على أوربا كان هناك فيلق يزحف على أرمينية

(١) ابن الجوزى : مرآة الزمان ج٢ ص ٦٧١ .

(٢) ابن القوطى : الحوادث الجامعة ص ١٣٣ .

(٣) دكتور فؤاد الهبياد : المغول فى التاريخ ص ١٨٦ - ١٧٨ باختصار .

وآسيا الصغرى ويستولى على هذه البقاع (٦٤١ — ٦٤٢ هـ) ويسقوط آسيا الصغرى أصبح العراق مطوقا من الشرق والشمال ، ولكن المغول كانوا يحسبون للهجوم على عاصمة الخلافة حسابها ، ولذلك تجدهم يقومون بمحاولتين مهمتين رجاء تحقيق النصر ، وكانت المحاولة الأولى هى تعاونهم مع الصليبيين ، والثانية هى القضاء على دولة الاسماعيليه بشمال فارس ، وتستحق كل من هاتين المحاولتين أن نخصص لها كلمة موجزة :

التحالف مع الصليبيين :

توقع المغول أن يتجمع العالم الإسلامى ضدهم إذا هددوا الخلافة الإسلامية ، ومن هنا اتجهوا إلى التحالف مع الصليبيين الذين كانت لا تزال لهم بعض الجيوب والإمارات فى بلاد الشام ، وكان ذلك سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) وكانت زعامة المغول قد آلت إلى أوكتاي ، وكان الصليبيون آنذاك يتلقون عوناً جديداً بسبب زحف لويس التاسع لمساعدة الصليبيين فى مصر والشام ، ويقول الأستاذ براون أن الظاهر أن المسيحيين جميعاً كانوا على استعداد لأن يتغاضوا عن الشناعات التى ارتكبها المغول ليحطموا قوة العرب والإسلام ^(١) . ولكن هذا التحالف لم يكن ذا بالٍ ولم يثمر أية نتائج ، لأن مصر سرعان ما ضربت الصليبيين ضربة قاضية وأسرت لويس التاسع مما جعل المغول يتجهون للاعتماد على أنفسهم فى هذا السبيل .

المغول والإسماعيلية :

أما المحاولة الثانية التى اتجه لها المغول لضمان النصر فهى القضاء على طائفة الإسماعيلية حتى لا يكون الإسماعيلية شوكة فى ظهر المغول عند زحفهم إلى العراق ، وحتى لا يقع المغول وهم بالعراق بين عدوين أحدهما الإسماعيلية بالخلف والثانى جيش الخلافة إلى الأمام .

(١) تاريخ الأدب فى إيران من الفردوس إلى المبعدى ص ٥٧٥ .

وكان زحف المغول على الإسماعيلية بقيادة هولاكو الذي كان كجده جنكيزخان في بطشه وطغيانه وجبه لسفك الدماء .

وطائفة الإسماعيلية كانت تسمى النزارية نسبة إلى نزار بن المستنصر الفاطمي ، وقد رأى هؤلاء أنه أحق بالخلافة من أخيه المستعلى ، واستطاع أتباع نزار أن يكونوا لهم مملكة في بلاد فارس عمرت ١٧٠ سنة (١) ، وأشهر زعماء هذه الطائفة الحسن الصباح الذي تحدثنا عنه من قبل ، وكان الإسماعيلية يحرّفون بالحشاشين ، ويتخذون مركزهم قلعة «ألموت» جنوب بحر قزوين ، وكان نفوذهم قد امتد إلى الشام فلما بدأ المغول زحفهم على تلك المناطق وتوقعوا مقاومة الإسماعيلية الذين كانوا يرون أن مظالم المغول لا تنقف عند حد ، وأن فتوحاتهم في الصين وأوربا وخراسان وإيران ستمتد لهم وتقضى عليهم ، ومن هنا اتجه الإسماعيلية إلى جمع الجموع لمواجهة المغول ، بل أخذوا يرسلون رسلهم إلى إنجلترا وفرنسا طالبين معونة الأوربيين في هذا الشأن ، وكل ذلك أثار عليهم المغول فقرر هولاكو ضرورة التخلص منهم قبل أن يواصل زحفه إلى العراق ، وعلى هذا حاصر حصونهم بجيوشه الجرارة ثم استعمل معهم سلاح السياسة والخديعة واستطاع بذلك أن يقضى عليهم ويدمر حصونهم .

وقد نجا من المغول في قلاع الإسماعيلية الخواجه نصر الدين الطوسي الذي كان زعيم الإسماعيلية قد قبض عليه وأودعه السجن ، لأنه لم يكن يدين بالفكر الإسماعيلي .

وبالتخلص من الإسماعيلية لم يعد أمام هولاكو عقبات في طريقه إلى العراق .

هولاكو وسقوط بغداد :

عندما قضى هولاكو على كل العقبات في طريقه إلى العراق ،

(١) موسى كاظم نورس : كاش خلفا ص ١٣٨ .

وعندما أوشك أن يدق أبواب العراق أخذ يعد عدته لنجاح مهمته ، فجهز آلات الحرب أعظم تجهيز ، وهياً جنده ، أقوى تهيئة ، وساعده الحظ حينما تمكن من الاستيلاء على قافلة كانت متجهة إلى حران وهى تحمل ٦٠٠.٠٠٠ دينار من الذهب ، فساعده هذا المبلغ على تقوية الجيش وتوسعه العطاء لجنده وبعث الأطماع فيهم لدخول الأرض التى تخيلوها أرض الذهب والثراء ، وعندما تهيأ هولاء لدخول بغداد أرسل للخليفة خطابا سنورد موجزه فيما بعد ، وأهم ما يعنينا منه هنا أن المغول طمعوا فى السيطرة على الخلافة العباسية ، شأن حكام الشرق من بويهيين وسلاجقة وخوارزمية ، ولم يستجب الخليفة لهذه الأطماع ، بل رد ردا عنيفا ففتتح الباب لزحف ساحق ، وفيما يلى موجز خطاب هولاء والرد عليه .

يقول هولاء : لا بد أنه قد وصل إلى سمعك على لسان الخاص والعام ما حدث للعالم على أيدي الجيوش المغولية منذ جنكيزخان ، وعلمت أية مذلة لحقت بأسر الخوارزميين والسلاجقة وملوك الديلم والأتاكة وغيرهم ممن كانوا أرباب العظمة وأصحاب الشوكة . ومع ذلك لم يغلق باب بغداد قط ، فى وجه أية طائفة من تلك الطوائف التى تولت هنا السيادة ، فكيف يغلق هذا الباب فى وجوهنا رغم مالنا من قدرة وسلطان ؟ .

واعلم اننى إذا غضبت عليك وقدت الجيش إلى بغداد فسوف لا تنجو منى ، ولو صعدت إلى السماء ، واختفيت فى باطن الأرض .

أما رد الخليفة فقد جاء فيه قوله :

أيها الشاب الحدث الذى لم يخبر الأيام بعد ، والذى غرته مساعدة الظروف فتخيل نفسه مسيطرا على العالم ، وحسب أن أمره قضاء مبرم ... ألا تعلم أنه من الشرق إلى الغرب ، ومن الملوك إلى الشحاذين ، ومن الشيوخ إلى الشباب ممن يؤمنون بالله ويعتقون الأديان كلهم أتباع وجنود لى ، غير أنى لا أود الحق والخصام ، ولكنك إن كنت تريد الحرب

فإن لى ألوفا مؤلفة من الفرسان والرجالة ، هم على أهبة الاستعداد للقتال (١) .

ولم تجد هذه الرسائل ، فأرسل هولاء سنة ٦٥٥ هـ أحد جواسيسه إلى علاء الدين بن العلقمى ، وزير الخليفة العباسى المستعصم بالله ، وكان هذا الوزير شيعيا ، ويقال انه كان يستجيب لكل ما ينزل الضرر بأهل السنة ومن أجل هذا استجاب ابن العلقمى لدعوة التتار ، وقام بما يسمى فى العصر الحاضر بدور الطابور الخامس ، فأثار الفتنة فى العراق ، وحث الخليفة على التفاهم مع المغول (٢) .

ومما ينسب لابن العلقمى ما يذكره موسى كاظم من أن الخليفة عندما أراد أن يعد العدة لمواجهة التتار ثبطه الوزير ابن العلقمى وقال له : إن سلاطين الدنيا وخواتينها كلهم خدوم لمركز الخليفة ، وإنهم على استعداد للمجىء بأذننى إشارة من الخليفة ، على أن نساء بغداد وحدهن قدرات على رد الاعتداء (٣) .

ولعمري كيف جاز للخليفة أن يصدق هذا الكلام ؟

ويستمر موسى كاظم متحدثا عن خيانات ابن العلقمى ، فيذكر أنه أرسل إلى هولاء رسالة يشكو فيها من سوء الأحوال ببغداد ، ويبدى فيها إخلاصه له وطاعته ، ويرحب بمقدمه ويقول له : إنه قد دبّر الأمر بحيث إذا ما وصل سيجد بغداد مفتوحة الأبواب ، وسيولى أمورها ويحكمها بلا حرب ولا نزاع (٤) .

-
- (١) رشيد الدين : جامع التواريخ : الترجمة العربية ص ٢٦٧ وما بعدها ، وفى الأصل « عبيد » بدل « أتباع » .
(٢) دكتور ابراهيم العدوى : العرب والتتار ص ٨١ .
(٣) موسى كاظم نورم : كلشن خلفا ص ١٢٩ .
(٤) المرجع السابق ص ١٣٩ .

وانتفاعا بهذه الثمار تقدم هولاء نحو بغداد في جيش عرمرم لم يستطع جيش الخليفة أن يوقفه ، ولما انتصر جيش هولاء في الجولة الأولى حث ابن العلقمي الخليفة على أن يخرج للملاقاة ، والاتفاق معه على ما يصلح شأن الرعية : وفي جو من تأثير الهزيمة استجاب الخليفة لذلك فخرج إلى معسكر التتار ، وهناك نزل في خيمة منعزلة ، ثم عاد ابن العلقمي فاستدعى الفقهاء والأعيان للحاق بالخليفة ، وخلت بغداد بذلك من التادة والمدافعين ، فأذن هولاء لجنده باقتحام المدينة والتصرف فيها على ما يشتهون ، أما أولئك الذين وفدوا إليه فقد أعمل السيف في رقابهم ، ولما فرغ من الفقهاء والأعيان جاء دور الخليفة ، ولم يقو هولاء على القضاء عليه بسرعة بل يروى أنه تردد في ذلك ودعا إليه منجما ليسأله هل تثور الطبيعة إذا قتل الخليفة ؟ فأجاب المنجم بعد تدبر وإمعان : « لم يحدث شيء من ذلك عند ما قتل يوحنا المهدمان (يحيى بن زكريا) أو المسيح أو الإمام الحسين ^(١) ، وحينئذ أمر هولاء بقتل الخليفة وولده شر قتلة ، وكان ذلك سنة ٦٥٦ هـ ، وقد استمر القتل والسلب في بغداد حوالي أربعين يوما ، وبلغ عدد القتلى في هذه الحملة مليوناً وثمانمائة ألف (أي ما يقرب من مليونين كما ذكره بعض المؤرخين ^(٢)) وأشعلت النيران في المباني ، واستباح هولاء غنائم بغداد التي لا تحصى ، وكنوزها العظيمة ، ويقال ان حطى الذهب والفضة كُدست أمام خيمة هولاء حتى أصبحت كالثلج المرتفع ، وتحولت بغداد إلى خرائب ، وتحولت الكتب إلى رماد وتلال ، وخفّت صوت المدينة التي كان يملأ الأسماع ويغمر كلّ القلوب .

ومن الحق أن عوامل خطيرة ساعدت على سقوط العراق هي التفكك

(١) ستون لويد : الرافدان ص ٢٣٠ من الترجمة العربية وانظر التاريخ الغياثي ص ٤٢ ، ٤٣ .
(٢) انظر تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير للدكتور بدوي محمد فهد ص ٩٥ .

الذى شمل العالم الإسلامى آنذاك ، وحكم النساء ومراكز القوى ، وحرص أصحاب السلطان على جميع الأموال التى كدسوها ثم آلت للإفانحين ، وكم نتمنى أن نتعلم من التاريخ ، فالتاريخ درس لا يهمله إلا الجاهلون .

دفاع عن ابن العلقمى :

بين أيدينا كتاب يدافع عن ابن العلقمى دفاعا طويلا ، يبرئه من كل شيء ، تبرئة الذئب من دم ابن يعقوب كما يقولون : ذلك هو كتاب « العراق فى عهد المغول الإيلخانيين » للدكتور جعفر حسين فهو يمدد فصلا طويلا يورد فيه مناقب ابن العلقمى التى تضعه فى القمة بين الرجال ^(١) ، ثم يقتبس اقتباسات متعددة من المؤلفين الذين عاصروا الأحداث ، والذين أخذوا عنهم ، وهى كلها تدين ابن العلقمى ، وتقرر أن التتار استولوا على بغداد بمكيدة دبرت مع وزير الخليفة ^(٢) وهذه الخيانة التى أوجزها أبو شامة فصلها كثير من المؤرخين مثل : البعلبكي فى (ذيل مرآة الزمان) ، ومثل الذهبى فى (دول الإسلام) ومثل الشيرازى فى (تاريخ وصاف الحضرة) ومثل ابن شاکر الكتبى فى (فوات الوفیات) ومثل ابن خلدون فى (العبر) وغيرهم كثيرين . ولكن المؤلف لا يقنع بهذه الأقوال ويتجه للدفاع عن هذا الوزير ، ويورد فى دفاعه آراء ليس فيها فيما نرى ما يرجحها على الاتهام ، فهو كما سبق وصف الوزير بأعظم الصفات وأسمى السجايا ، ولكنه فى سبيل الدفاع عنه يصفه بأنه كان ضعيفا غير مسموع القول ، وليس له نفوذ على الخليفة ^(٣) .

ومن أهم الأسباب التى نتذكر لإدانة ابن العلقمى أنه كان شيعيا ، وأن الشيعة نجوا من التدمير بعد دخول التتار بسبب تعاون ابن العلقمى

(١) ص ٢٦

(٢) أبو شامة (ت ٦٦٥) تراجم رجال القرنين السادس والسابع ص ١٩٨ .

(٣) ص ٣٦ .

مع هؤلاء ، ويرد المؤلف هذا القول بأن المغول قتلوا العديد من العلويين مثل نقيب العلويين على بن النقيب ، وعمر بن عبد الله بن المختار وغيرهم . ولا نرى في ذلك دليلا حاسما ، إذ أن العلقمي لو صحت خيانتته لا يمكن أن يتبعه في هذه الخيانة جمهور الشيعة ، فكم في الشيعة من رجال سميت وطنيتهم وتفرغوا عن شبهة التعاون مع المغول ، فأوقع بهم المغول كما أوقعوا بسواهم .

على أن دفاع هذا المؤلف عن ابن العلقمي يمتد ليصبح تقريرا دفاعا عن المغول أنفسهم ، فهو يقول : (إن المغول بدأ غزوهم للعالم الإسلامي سنة ٦١٦ ، ولم يستولوا على العراق إلا بعد أربعين سنة ، نشأ خلالها منهم جيل جديد انهالت عليه الثروة من كل جانب ، واحتك بالذنيات القديمة في الصين وأواسط آسيا ، وإيران ، ولذلك فإنه (هذا الجيل) كان أخف من آباءه في معاملته للسكان المفتوحين (١) .

وهذا كلام خطير ، مردود بما ذكره كل المؤرخين دون استثناء ، فكأن المؤلف كان يتوقع لبغداد تدميرا أقسى من الذي حدث ، ولا نكاد نعرف في التاريخ تدميرا أشد قسوة ووحشية من ذاك الذي أنزله المغول بعاصمة الخلافة العباسية .

وعقب الانتهاء من العراق تقدم التتار فاستولوا على حلب ودمشق ، ولم يتوقف زحفهم ، ولا كلت عزيمتهم ، إلا بعد ما حققه المصريون من نصر عليهم في عين جالوت في ١٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) وقد تحدثنا عن هذا النصر عند حديثنا عن المماليك في الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

الإسلام يغلب المغول :

بقيت كلمة نقولها عن المغول قبل أن نتركهم لنتحدث عن تاريخ العراق من بدء عهدهم ، وهذه الكلمة نقتبسها من باحث مسيحي أشرنا

(١) مقدمة كتاب العراق في عهد المغول الايلخانيين .

إليه آنفا هو « سيتون لويد » الذى يقول : « وقد اعتنق المغول الإيلخانيون فيما بعد الإسلام ، فإذا بنا نشاهد حدثا عجبا لم يقتصر على جمع الذئب والحمل فى مكان واحد ، بل إن الذئب أفنى نفسه فى الحمل ، فإن المغول فى الواقع عملوا على هضم ما تبقى من المدنية التى دمروها ، واندمجوا فى جمع العالم الإسلامى ، ولم يبق لهم كيان قائم بنفسه بالمرّة » (١) .

العراق ابتداء من حكم المغول

مر العراق ابتداء من حكم المغول بعصور حافلة بالآلام والظلام ، وقرون مليئة بالجراح والأشجان ، وقد امتدت هذه العصور إلى القرن العشرين ، وكان العراق فى بعضها ولاية تابعة لقوة أعظم ، مغولية أو صفوية أو عثمانية ، وأحيانا كان يثحكم من الداخل كالعصر الجلائرى ولكن بحكام أقرب للفوضى أو الخيانة منهم إلى النظام أو المسؤولية ، ويمكن سرد هذه العصور فيما يلى :

- ١ — حكم المغول الإيلخانيين من سقوط بغداد ٦٥٦ — ٧٣٦ هـ
- ٢ — الجلائريون (ثم فترة صراع) ٧٣٦ — ٨١٣ هـ
- ٣ — حكم القرة قويىلو (التركمانية الأولى) ٨١٣ — ٨٧٢ هـ
- ٤ — حكم الآق قويىلو (التركمانية الثانية) ٨٧٣ — ٩٠٨ هـ
(بدأ تأسيس الأسرة بالموصل سنة ٨٠٦ هـ)
- ٥ — الصفويون ٩٠٨ — ٩٤١ هـ
- ٦ — العثمانيون ٩٤١ — ١٣٣٧ هـ
- ٧ — العراق الحديث من سنة ١٣٣٧ هـ

وستتكم عن كل من هذه العصور كلمة فيما يلى :

المقول الايلخانيون

تلقب هولاء عقب انتصاراته السابقة بلقب « إيلخان » أى الخان الكبير ، وصار هذا اللقب وراثيا ، وأصبحت العراق تحت حكم الإيلخانيين ولاية ضمن الولايات الكثيرة التى كانت خاضعة لهم ، وكانت أذربيجان عاصمة الإيلخانيين ، ولم تكن الامبراطورية الإيلخانية التى كانت العراق جزءا منها محبوبكة الفسيح ، بل كانت سيئة الإدارة ، كما كانت بعيدة عن الوثام ، فقد كان المغول بازعين فى الفتح ، ولكنهم كانوا متخلفين فى تأسيس الامبراطوريات وإداراتها ، ولذا طُبعت قوتهم العظيمة بطابع عدم الثبات وعدم الاستقرار ، وظهرت نقاط ضعفهم هذه بوضوح عند حكمهم فى العراق ، ففى حكومات بغداد والبصرة والجزيرة التى أصبحت وحدات متناثرة ، انتشرت بها الدسائس ، وبرز الجهل فى تسيير الأمور (١) .

وولاية بغداد فى هذه الفترة هم :

على بهادر	سنة ٦٥٦ هـ
علاء الدين عطا	» ٦٦١ (وتوفى سنة ٦٨١)
بيدو	» ٦٨٣
توجو	» ٦٩٤
على شاه	» ٧٣٦ (٢) (توفى بعد ستة شهور)

وكان الوالى يلقب بلقب « صدر » و « صاحب الديوان » ويعتبر الممثل الشخصى للسلطان الإيلخانى ، وكان يتمتع بسلطة واسعة تكاد تكون مطلقة ، كما كان مسئولا عن تقديم قدر من المال إلى خزانة السلطان

(١) لونكريك : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٢٦ .

(٢) زامباور : معجم الانساب ج ١ ص ٦١ .

(م ٤٦ - التاريخ ج ٧)

في أذربيجان ، وكان السلطان المغولي من حين إلى آخر يرسل موظفا كبيرا إلى صاحب الديوان ، ليتعَرَّف على أحوال البلاد ، وسيُمرِّ الحكم فيها ، وينقل للوالي تعليمات السلطان وأوامره ، ثم يعود للسلطان بصورة عما وجدته في البلاد ، ويقدم معها نصائحه وتعليقاته ، وكان هذا الموظف يسمى « المشرَّف » .

وتجمع المصادر التاريخية على أن الفساد وعدم الاستقرار وإهمال مصالح الرعية كانت أبرز مظاهر إدارة العراق الإيلخانية ، وقد امتد الإهمال إلى الديوان نفسه ، فقد دبت فيه الدسائس ، وانتشرت المؤامرات ولم يكن أحد من رجال الديوان آمنا على نفسه أو ماله ، بل كان كلٌّ منهم يتوقع السجن والتعذيب والقتل في أية فترة من الفترات ، وإذا كان هذا شأن الديوان ، فقد كان شأن البلاد أخطر وأشد سوادا .

ولم يكن هم سلاطين المغول متجها إلا إلى جمع المال ، فقد رأوا في البلاد التي فتحوها القصور الشامخة ، والحدائق الفينانية ، فطاب لهم أن يشيدوا مثلها ، ويعيشوا في حياة الرفاهية ، بعد ما عانوا من حياة الخسونة والتقتشف ، ومن أجل أن يحققوا هدفهم اتجهوا لجمع المال من الرعية بوسائل مختلفة ، كان منها فرض الضرائب والإلزام بسداد ديون يفرضها الوالي ، وكان فيها أيضا المصادرات في كثير من الأحوال .

وإذا كانت هذه صفة سلاطين المغول بوجه عام ، فإنه قد وجد منهم أحيانا من اتجه للإصلاح وتحسين الأحوال ، مثل السلطان محمود غازان (٦٩٥ — ٧٠٤ هـ) ، ويقول عنه الغياثي (١) : إنه شرَّفه الله بالإسلام والعدل ، وعظم المهابة ، فأحبه أهل الإسلام ، ووجدوا فيه «ظاهر البر وأعمال الخير ، ومن آثاره نهر شقته من الفرات إلى دجلة عند بغداد ، ويسمى بالنهر الغازاني ، وشق من الفرات نهرا يصل إلى مشهد الشيخ

(١) التاريخ الغياثي : ٥١ وما بعدها .

أبى الوفاء ، كما يتحدث الغياثي أيضا عن إصلاحات كثيرة قام بها السلطان غازان في نواحي الإمبراطورية : فقد أنشأ في تبريز مدرسة وخانقاه ، ودارا للحديث ، ودارا للقرآن ، وأنشأ في بغداد والحلة وتبريز وأصفهان وشيراز والموصل مكانا أسماه « دار السيادة » خصصه لآل البيت ، وجعل وقفه يصل إلى الفقراء والمساكين من العلويين .

ومما يذكر عن غازان أنه عندما كان واليا على خراسان في عهد خاقان التتر (بايدوخان) ابن طرغاي بن هولاكو ، أبطل غازان الاعتراف بالخاقان ، وعدل عن نقش اسمه على السكة لأنه كان يعتبره كافرا ، فأدى ذلك إلى هجوم التتر على خراسان ، ولكن غازان تمكن من طردهم وردهم إلى بلادهم (١) .

ويتحدث لونكريك (٢) عن العراق في عهد غازان وفي عهد المغول بوجه عام بقوله : كان غازان ممن أفادوا بغداد عن حب وإخلاص ، فإن إصلاحاته للقانون والحكومة ، وورعه الشيعي ، وتردده الكثير إلى العراق ، كانت كلها من الأمور التي تبعث الأمل في الإحياء والتجديد ، غير أن هذا الأمل كان صعب التحقيق لأن سطوة الايلخانيين لم تتعد حدود المدن : فلم يكن تأمين الطرق ممكنا ، مما أثر على النشاط التجاري ، وقلل الاهتمام بالزراعة لأن من زرع أرضا كان غير مطمئن إلى حصاد زرعه ، وقد ارتكب هولاكو تخريبا شاملا في المسدود والأنهار التي كان تشييدها المحكم منذ القدم هو المنبع الوحيد للثروة في البلاد ، وقد تعذر القيام بإصلاح تلك التخريبات بسبب استمرار الاضطراب في البلاد ، وفقدان روح العمل عند من بقوا على قيد الحياة من السكان بعد المذابح الرهيبة ، وهذا أدى إلى أن الأنهار أصبحت مظلومة بسبب تكاثر الطمي ، ولم يعد من الممكن ضبط الأنهار عند الفيضان ، مما سبب ضعف النشاط

(١) رزق الله الصدفى : تاريخ دول الاسلام : ج ٢ ص ٢٧٦ - ٢٨٧ .

(٢) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٢٦ - ٢٧ .

الزراعى ووضع العوائق دون أن تستعيد البلاد سابق مجدها الزراعى ،
وقد خلّفت هذه العصور للعراق الحديث تركة مثقلة ، تَبْذُل أقصى الجهود
للتغلب عليها .

وقد حاولت بغداد بعد أن أُلْفاقت من هولّ الدمار المغولى أن تستعيد
شعباً من مكانتها ففتحت المستنصرية أبوابها ، ونشطت بعض الجهود
الثقافية ، ولكن ذلك كان ضئيلاً ، وكانت اللغة الفارسية تنافس اللغة
العربية .

وهكذا عاشت العراق فترة حالكة كانت أشعة النور فيها ضئيلة خلال
هذا العهد الرهيب .

الجلالريون

فى سنة ٧٣٦ هـ توفى أبو سعيد بهادرخان : وهو الخاقان الثامن
من نسل هولاكو ، وآخر من حكم من أحفاده ، ولم يعقب أبو سعيد
ذرية ، ففتح ذلك الوضع الباباً لصراع بين طوائف الطامعين ، وبين هذا
الصراع استطاع الشيخ حسن بن حسين ابن عمه أبى سعيد أن يستقل
بملك العراق ، وجعل بغداد عاصمةً لملكه .

وحسن هذا أمير مغولى ليس من أحفاد هولاكو ، ويدعى بحسن
جلالري ، وقد أعاد للعراق استقلاله ، ولبغداد بعض جمالها .

وفى عهد ابنه ووارثه الشيخ أويس استطاع هذا أن يستولى على
أذربيجان وتبريز سنة ٧٥٩ وجعل تبريز عاصمةً صيفية له وبقيت بغداد
عاصمةً شتوية ، ثم ألحق بمملكته الموصل وديار بكر سنة ٧٦٦ هـ وحارب
خلفه حسين بن أويس المظفرين جيرانه بشرقى إيران ، كما حارب التركمان
(القرّة قوينلو) الذين كانوا يحكمون أرمينية حتى قبلوا سنة ٧٧٩ هـ أن

يكونوا تابعين للجلالريين ، وكان الجلالريون يتبعون المذهب الشيعي ،
وحكام آل جلائر هم :

الشيخ حسن بن حسين ٧٣٦

الشيخ أويس بن حسن ٧٥٧

حسين بن أويس ٧٧٦ (صراع بين الإخوة)

أحمد بن أويس ٧٨٤ (قتله قرم يوسف من القرية قوينلو)

شاه ولد ٨١٣ (اغتالته زوجته تاندو وحكمت فترة)

محمد بن ولد ٨١٤ (تحت وصاية أمه)

أويس بن ولد ٨١٨

محمد بن ولد ٨٢٤

حسين بن علاء الدولة ٨٢٧ (قتله اسكندر قره قوينلو سنة ٨٣٥^(١)) .

وكان حسين ثالث حكام السلالة أضعف ممن سبقه في الحكم ، ولذلك
لاقى المشاكل العظمى لامبراطورية كان يهددها أعداء طامعون ، وكان
في قمة أعدائه أخوه على الذي اغتصب الملك منه ، ولكن هذا سرعان ما سقط
تحت أقدام أخيه أحمد الذي أدمج ولاية العراق مع ولاية تبريز ، وكوّن
منهما حكومة واحدة^(٢) .

تيمورلنك وآل جلائر :

وفي عهد آل جلائر مرت بالعراق عاصفة مغولية جديدة ، كان
قائدُها هذه المرة تيمورلنك آخر عظماء المغول : وكان هذا يمر من فتح
إلى فتح على رأس جيوش جرارة من الشرق ، وفي سنة ٧٩٦ هـ (١٣٩٣ م)
ظهر على أبواب بغداد ، وقد حاول السلطان أحمد رده عنها ولكنه انهزم

(١) زامبار : معجم الأنساب ج٢ ص ٣٧٧ .

(٢) لونكريك : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٢٨ .

ففر من البلاد ، ثم انتهز أحمد الجلائرى فرصة بُعد تيمورلنك عن بغداد ، فعاد لها وطرد ممثل الحاكم التيمورى واسترد سلطانه ، ولكن فى سنة ٨٠٤ هـ (١٤٠١ م) عاد تيمورلنك من جديد ليعاقب أحمد الجلائرى على تصرفه ، فأوقع ببغداد كارثة مروعة ، ذبح الألوف من الناس ، وهدم المساجد والمدارس والمسكن ، وأعاد الخراب إلى العاصمة التى كانت قد استردت بعض نشاطها عقب الدمار الهولاكى ، ولم يستطع أحمد الجلائرى أن يقف فى وجه تيمورلنك ففر ولجأ إلى السلطان برقوق بمصر (١) .

الدولة الجلائرية بعد تيمورلنك :

لما توفى تيمورلنك سنة ٨٠٧ هـ (١٤٠٥ م) وتفككت امبراطوريته عاد أحمد الجلائرى إلى العراق ، ولكنه قطع علاقاته « بقره يوسف بن المقره + قوينلو » وغزا أذربيجان : ولكنه غلب وأمر فأعده القره قوينلو وأعدم معه ولده علاء الدين ، وبعض أولاده الآخرين سنة ٨١٣ هـ .

ويمكن القول بأن الدولة الجلائرية فقدت أهميتها بعد وفاة أحمد ، ولئن كان بعض أفراد الأسرة قد حكموا منفردين فى أماكن متفرقة بعد أحمد : فإن ما كان بينهم من خصومات ووقائع ، جعل إدارتهم بعيدة عن أن تكون إدارة دولة بالمعنى الحقيقى ، ويروى المؤرخون قصة الدولة الجلائرية فى اضمحلالها هذه روايات مختلفة ، ويمكن أن يستدل من الروايات باختصار على أنه بعد وفاة أحمد أجلس على العرش شاه محمد بن شاه ولد ، وهو لا يزال صبيا ، وحكم شاه محمد بغداد حتى ورود المقره قوينلو على بغداد سنة ٨١٤ ولذلك اعتبر هذا التاريخ هو تاريخ انقراض الدولة الجلائرية .

وقد حكمت (تانودوخاتون) أرملة شاه ولد — منطقة واسط

(١) سزى كاظم نورس : كلشن خلفا ص ١٦٧ وما بعدها .

والبصرة إلى أن توفيت سنة ٨١٩ هـ ، وجلس بعدها على العرش ولدان آخران من أولاد (شاه ولد) هما أويس ومحمد ، وبعد ذلك حكم حفيد أحمد الجلائري حسين بن علاء الدولة جزءا من العراق لم يشمل بغداد التي كانت تحت سلطان القرّة قيونلية ، وقد قضى عليه هؤلاء سنة ٨٣٥ هـ ، وبهذا لفظت دولة بنى جلائر آخر أنفاسها (١) .

ومن الواضح أن عهد الجلائريين بالعراق كان عهد صراع ودمار بسبب خلافاتهم الداخلية : وبسبب هجوم تيمورلنك ، وبسبب الصراع المدمر بينهم وبين القرّة قوينلو ، وقد تعرضت بغداد خلال هذا العهد لعدة أوبئة : وغرقت غرقا شديدا بسبب إهمال السدود والأنهار ، ولا يذكر بالخير من هذا العهد إلا (نخواجه مرجان) الذي ثار على بنى جلائر ، واستولى على الحكم فترة ، فقد أنشأ « جامع مرجان » وجعله مدرسة على غرار المدرسة النظامية .

القرّة قوينلو (ذوو الخراف السود)

أو الأسرة التركمانية الأولى

قرّة قوينلو معناها ذوو الخراف السود ، لأن هذه القبيلة كانت منذ عهد بعيد تشعنى بتربية هذا النوع من الخراف ، فسميت بذلك ، ثم لصقت بها هذه التسمية ، وهي قبيلة تركمانية جاءت في الأصل من تركستان الغربية ، وكان جد هذه القبيلة (بيرام خواجه) يعمل في خدمة السلطان أويس بن حسن الجلائري .

وبعد وفاة أويس سنة ٧٧٦ هـ استولى بيرام على الموصل ، وبغرض المناطق المجاورة لها ، وأصبح حاكما لها حتى وفاته سنة ٧٨٣ هـ ، وجاء بعده ابنه محمد الذي التحق بخدمة السلطان أحمد بن أويس وتزوج

(١) ستانلي لين بول : تاريخ الدول الإسلامية ج٢ ص ٥٢٣ .

بنته ، وأصبح رئيس العشيرة ومات سنة ٧٩٢ هـ ، وجاء بعده ابنه قره يوسف الذى عاصر الاضطراب العام إبان العهد التيمورى ، ولجأ مع أحمد الجلائرى إلى مصر •

وبعد تيمورلنك استعاد يوسف كل ممتلكاته سنة ٨٠٨ ثم غلب أباً بكر حفيد تيمور واستولى على أذربيجان ، وحدث خلاف بين قره يوسف وأحمد الجلائرى ، فقتل قره يوسف رفيق محنته أحمد الجلائرى واستبد بالأمر فى أكثر المناطق التى كانت خاضعة للجلائريين ، وكان ابن قره يوسف واسمه بير بوداق يحكم معه حتى توفى الابن سنة ٨١٧ ، فاستقل الأب حتى سنة ٨٢٣ هـ ثم توالى على حكم الملكة ولداه اسكندر فجيهان شاه ، ثم حسن على بن اسكندر ، وحسن على بن جيهان شاه •

أما بغداد فكان يحكمها شعبة من شعب العشيرة بدأت بابن قره يوسف « شاه محمد » ، ولما توفى سنة ٨٣٧ هـ خلفه أسبان ثم فولاد ابن أسبان بعد أبيه ٨٤٨ هـ •

وفى أيام حسن على استولى أوغورلى محمد بن أوزون حسن وهو من عشيرة الآق قوينلو (ذوى الخراف البيضاء) المعادية للقره قوينلو على أملاك حسن على ، وانقرضت دولة القره قوينلو •

وعلى هذا فحكام هذه العشيرة هم :

٧٨٢	قره محمد بن بيرام خواجه
٧٩٢	قره يوسف (للمرة الأولى)
٨٠٢	استيلاء تيمورلنك
٨٠٨	قره يوسف (للمرة الثانية)
٨١٠	قره يوسف وابنه بير بوداق معا
٨٢٣	اسكندر

٨٤١	جيهان شاه
٨٧٢	حسن على بن اسكندر
(١) ٨٧٢ — ٨٧٤	حسن على بن جيهان شاه

ولم يختلف هذا العهد عن العهد الجلائرى من الناحية الحضارية إلا قليلا ، وقد نعمت بغداد على أى حال بشيء من السلم بعد أيام عاصفة من الفزع والحيرة ، وقد اتسع ملك هذه العشيرة في عهد جيهان شاه باختفاء أسرة تيمورلنك ، فامتد ملك جيهان من تبريز إلى شط العرب وصار هذا الملك غير تابع للتيموريين : وأصبحت فارس وكرمان تابعة لهذه المملكة ، وبذلك أصبح للقرة قويونلو مملكة غنية مترامية الأطراف بعد أن كانت قبيلة مجهولة ، وكانت تبريز عاصمته الرئيسية ، أما بغداد فقد احتفظت بمركزها عاصمة للعراق الذى كان ولاية من الولايات التابعة لهذه العشيرة ، وللأسف ختم عهد جيهان شاه بصور من الصراع ، وضعت الأساس لنهاية هذه الدولة إلى الأبد (٢) .

الآق قويونلو (ذوو الخراف البيض)

أو الأسرة التركمانية الثانية

دولة تركمانية أخرى حكمت بالعراق أكثر من قرن ، ولم يعرف العراق الاستقرار خلال هذا العهد الأسود ، بل كان التتاحن مستمرا والصراع قاسيا بين أمراء الدولة بعضهم والبعض الآخر ، وبينهم وبين جيرانهم ، أما الجانب الحضارى فكان مهملًا تماما فجهل الحكام انعكس على الشعب ، وتنوسى تاريخ العراق العظيم ، وأصبحت ولاية ضمن الولايات الكثيرة التى امتد لها ملك هؤلاء التركمان .

(١) لين بول ج ٢ ص ٥٣٧ .

(٢) لونكريك : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٢٩ .

ونذكر فيما يلي حكام هذه الدولة لعل قائمة الأسماء تساعدنا على
تموير هذا العهد البغيض :

بهاء الدين عثمان ٨٠٦ هـ

جلال الدين على بن عثمان من سنة ٨٣٨ هـ
نور الدين حمزة بن عثمان من سنة ٨٣٨ منافس وثائر
معز الدين جهانكير بن على من سنة ٨٤٨
حسن أوزون (الطويل) بن على من سنة ٨٧١ أشهر حكام
الدولة اتخذ تبريز عاصمة له

خليل (حفيد جهانكير)	من سنة ٨٨٢	في ماردين وآمد
يعقوب (حفيد جهانكير)	من سنة ٨٨٣	في ماردين وآمد
بايسنقر ميرزا بن يعقوب	من سنة ٨٩٦	
رستم (حفيد أوزون)	من سنة ٨٩٧	

كودة أحمد بن أو غورلى (حفيد جهانكير) من سنة ٩٠٢ (كان أو غورلى
صهر محمد الفاتح وعلى هذا فإن كوده أحمد هذا كان حفيد محمد الفاتح
وكان حكمه في كود) *

الوند (حفيد أوزون)	من سنة ٩٠٣	في أذربيجان
محمدي ميرزا (حفيد أوزون)	من سنة ٩٠٣	في بزد
مراد (حفيد جهانكير)	من سنة ٩٠٣	في شيوان (١)

والعشيرة بوجه عام وافدة من تركستان إلى أذربيجان ، ثم إلى
ديار بكر ، ثم استقرت في آمد والموصل حيث بدعوا يكونون لهم دولة في
آخر القرن الثامن الهجرى *

(١) لين بول : تاريخ الدول الإسلامية ج٢ ص ٥٤٢ من الترجمة
العربية *

والمؤسس الحقيقي للدولة التركمانية الثانية هو بهاء الدين عثمان الذى أشتبك فى حروبه ضد قره يوسف من القره قويونلو ، وضد الشاضى برهان الدين سلطان سيواس ، وقد انتصر عثمان فى هذه الحروب فتتبعاً له بذلك أن يكون دولة فى منطقة الموصل ويصبح هو حاكمها .

وسرعان ما انتشر الآق قويونلو فى العراق وإيران ، وقاومت بغداد مدة من الزمن ، إذ كان حاكمها من القره قويونلو قد دحر القائد الذى بعث به أوزون حسن (حسن الطويل) لاختضاع بغداد ، واضطر حسن أن يحضر بنفسه إلى بغداد ، وبعد حصار وحروب استطاع أن يستولى على المدينة الجريحة ، فاختلفت بذلك عشيرة القره قويونلو إلى الأبد ، وامتد حكم الآق قويونلو فشمّل بلاد فارس والعراق وديار بكر وأذربيجان (١) ، ولكن هذه العشيرة لم تعرف الوئام والتعاون بل كانت حياتها صراعا متصل الحلقات بين أمير وأمير ، فشاع التفكك فى الدولة ، ووقف عدد من الأمراء حكاما لعدد من الإمارات ، وإذا أضفنا إلى ذلك موقف الآق قويونلو من القوى الخارجية تبين لنا أن عصر هذه الدولة كان حالكا للسواد وأن العراق قاسى إبان حكمها صور الحياة المرة التى عاشها قبلها وبعدها

علاقات الآق قويونلو مع القوى المجاورة

كانت هذه المنطقة عاصفة كثيرة الحروب فى تلك الآونة ، وكانت القوى المتصارعة فيها قوى كبيرة جبارة كالمغول فى موجتهم التيمورية ، والعثمانيين والصفويين ، وقد اجتذبت المعارك الآق قويونلو طائعين أو كارهين ، فانغمسوا فيها وكسبوا أحيانا ، ولكنهم أخيرا خسروا كل شيء ، وقد تحدثنا آنفا عن صراع الآق قويونلو ضد أبناء عمومتهم القره قويونلو وضد الجلائريين ، وهو صراع حقق فيه الآق قويونلو نجاحا ، وأن لنا بعد ذلك أن ندرس مواقفهم مع التيموريين والعثمانيين والصفويين وهو ما سنشرع فيه :

(١) لوكنريك : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٣٠ .

الآق قيونلو والتيموريون :

يمكن القول أن الآق قيونلو بنوا أمجادهم بالانضمام إلى التيموريين فإن تيمورلنك عندما دخل الأناضول في مطلع العام التاسع الهجري ، انحاز له قره عثمان وصحبه في معاركه بالشام والأناضول ، فكافأه تيمورلنك على حسن خدمته بأن أعطاه ولاية ديار بكر ، وقد اتسع ملك الآق قيونلو في كل اتجاه عقب ذلك حتى أصبحت لهم امبراطورية فسيحة ، ولكن التيموريين على كل حال هم الذين نقلوا الآق قيونلو من حكام المقاطعات إلى أصحاب الامبراطوريات •

الآق قوينلو والعثمانيون :

عرفت العلاقات بين الآق قوينلو وبين العثمانيين العداء القاسى ، كما عرفت الود والمصاهرة ، ومن الواضح أن انضمام الآق قوينلو إلى تيمورلنك في هجومه على الأناضول قد كان مرحلة من مراحل العداء بين هؤلاء وبين العثمانيين ، وكان العداء هو في الغالب أساس العلاقات بين الجماعتين ، ولكن الخلافات الطويلة والمستمرة بين أمراء الآق قوينلو وبعضهم والبعض أغرى بعضهم بالاستعانة بالعثمانيين ، ضد البعض الآخر ، كما دفع بعضهم للجوء للعثمانيين ، ويذكر « لين بول » إن جلال الدين على بن عثمان (والد حسن الطويل) لجأ هو وعائلته في عهد مراد الثانى إلى العثمانيين ، لأنه كان يخشى أخاه يعقوب ، أما حسن الطويل بن على بك سالف الذكر الذى كان معاصرا لمحمد الفاتح فقد كانت علاقته عدائية معه ، وقد خاض ضده ثلاث معارك كبرى ، ففي الأولى كان قائده ابن عمه يوسفجه ميرزا ، وقد أرسله إلى الأناضول فاستولى أول الأمر على توقات وسيواز سنة ٨٧٧ هـ ١٤٧٣ م ولكن المعركة انتهت بانتصار مصطفى جلبي ابن محمد الفاتح ، ووقوع يوسفجه في الأسر ، وفي الثانية توجه حسن الطويل نفسه عقب هزيمة ابن عمه إلى حدود ارزنجان ، وشنت الجيش العثمانى وأسر قائده وأعدمه ، وفي الثالثة كان لقاء القمة بين محمد الفاتح

وحسن أوزون ، وقد هُزم حسن أوزون هزيمة منكرة سنة ٨٧٨ هـ (١٤٧٣م) وتسمى هذه الموقعة موقعة ترجان لوقوعها في وادي ترجان بولاية أرضروم ، ولم تقم لدولة الآق قويونلو قائمة بعد هذه الهزيمة •

والعجيب أن محمد ناصر الدين الابن الأكبر لأوزون والذي كان واليا على أصفهان ، لجأ إلى محمد الفاتح عقب الهزيمة التي نزلت بأبيه في ترجان ، وقد رحب به محمد الفاتح وزوجه بنته (كهر خان سلطان) ، وعينه واليا على الأناضول ، وقد مات هذا الابن قتيلا سنة ٨٨٢ هـ وتختلف الآراء حول قتله ، فيتجه بعضها إلى أن محمد الفاتح خاف غدره بعد أن رآه قد غدر بأبيه ، وتتجه آراء أخرى إلى أن قتله كان بيد من بنى جنسه عقوبة له على غدره بأبيه • • •

وعند نهاية العقد الثامن ومطلع التاسع كان رستم (حفيد أوزون) هو سلطان الآق قويونلو : وقد ثار عليه بعض أمراء الأسرة والتمسوا من بايزيد الثاني أن يؤيد (كودة أحمد) عسكريا ليستولى على إيران من رستم ، واستجاب بايزيد الثاني لذلك ، ووقعت بين الاثنين معركتان انتصر رستم في الأولى ، ولكن الأمراء من آل بيته سرعان ما انفصوا من حوله ، فهزم في الثانية وقتل ، وتولى « كوده أحمد » عرش الآق قويونلو سنة ٩٠٣ هـ ولكن حكمه لم يطل لأن الأمراء ثاروا عليه وحاربوه في معركة بالقرب من أصفهان هزم فيها وسقط قتيلا (١) •

بقيت حلقة من حلقات الصلات بين الآق قويونلو والعثمانيين ، فإن مرادا (حفيد جهانكير) فر من وجه الصفويين ، ولجأ إلى مصر سنة ٩١٤ (١٥٠٨) وهو ما سنشرحه عند الكلام عن « الآق قويونلو والصفويون » ودخل العثمانيون مصر سنة ١٥١٧ ففكروا في مناوأة الصفويين ، وكان

(١) لين بول تاريخ الدول الإسلامية ج٢ ص ٣٥٩ وما بعدها من الترجمة العربية بتصرف واسع يشمل التقديم والتأخير وإعادة تنسيق الأحداث •

من أول مراحل هذه المناوأة أن يرسلوا مراداً هذا سنة ٩٢٠ على رأس فرقة عثمانية لاسترداد ديار بكر من الصفويين ، ولكن هذه الفرقة هزمت وقتل مراد هناك في رمضان سنة ٩٢٠ (١) .

الآق قوينلو والصفويون :

كانت العلاقات بين الآق قوينلو والصفويين الذين سننكلم عنهم فيما بعد علاقات عدائية ، فالصفويون قوة جديدة قامت في بلاد فارس ، واتجهت إلى الاستيلاء على ما كان بأيدي الآق قوينلو ببلاد فارس والعراق وقد بدأ الصراع بين القوتين منذ ظهور الصفويين ، وكانت كفة الصفويين ترجح دائماً ، وبخاصة أن ظهورهم بدأ في فترة كان الخلاف واضحاً بين أفراد أسرة الآق قوينلو ، وسننتبع مراحل هذا الصراع في الخطوات التاريخية التالية .

— سنة ٩٠٦ هـ عقب مقتل محمدى ميرزا عقدت معاهدة بين المنتصرين ألوند ومراد ، بمقتضاها أصبحت أذربيجان وديار بكر إلى ألوند وأصبحت العراق وفارس لمراد .

— سنة ٩٠٧ هـ انتهر الشاه اسماعيل الصفوى فرصة الخلاف والانشقاق فهاجم ألوند في أذربيجان واضطره للفرار إلى بغداد ثم إلى ديار بكر وتوفي سنة ٩١٠ هـ .

— سنة ٩٠٨ هـ انتهى الشاه اسماعيل إلى مراد فالتقى به في معركة بالقرب من همدان هزمه فيها شر هزيمة ، وأرغمه على الفرار إلى العراق .

— سنة ٩١٤ هـ هاجم الشاه اسماعيل بغداد فاضطر مراد هو وحاكم

بغداد (باديك) إلى الفرار إلى مصر كما سبق القول ، وسقطت بغداد في يد الصوفيين وتعتبر سنة ٩١٤ (١٥٠٨) تاريخاً لانقراض دولة الآق قوينلو ، وأصبحت العراق تابعة للصفيين الذين ستمحدث عنهم بعد قليل^(١) .

وإذا كان حكم التركمان للعراق قد انقضى منذ عدة قرون ، فإن العراق لا تزال به جماعات من التركمان تعيش في تلعفر ومنطقة كركوك ، ولا تزال محافظة على أصلها^(٢) .

وهكذا كان عصر الآق قوينلو عصراً حافلاً بالاضطراب والحروب والفساد ، فكثر فيه المجاعات وانحلت الإدارة ، وأذن ذلك بفاتح جديد سيكون موضع حديثنا فيما يلي :

الصفيون

ينسب الصفيون إلى جدهم الأعلى الشيخ صفى الدين الذى ينتسب فيما يقال إلى الإمام موسى الكاظم ، فالأسرة بذلك من أولاد الإمام الحسين ومن ذرية الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وقد اتجهت هذه الأسرة اتجاهها صوفياً فأصبح لها مريدون وأتباع في موطنهم الأصلي « الأردبيل » ولما كثر هؤلاء الأتباع خافهم حاكم المنطقة فطردهم ، فلجأوا إلى ديار بكر فأصبحوا في رعاية حسن أوزون ، وتزوج زعيمهم بنت حسن أوزون ، وقاد جيوشه ، وكان اسماعيل الصفوى (الشاه اسماعيل فيما بعد) ثمة هذا الزواج ، وقد استطاع اسماعيل أن يجمع أشتات أسرته وأن يجمع أشتات أتباعه ، وبعد أن كان رجل دين أصبح قائداً عسكرياً ، واستطاع

(١) المرجع السابق مع تصرف واسع .

(٢) سيتون لويدي : الرافدان ص ٢٣٨ من الترجمة العربية .

أن يعود إلى بلاده ، وأن يبدأ في تكوين مملكة كان لها شأن كبير في التاريخ .

وحدث الصراع بين أمراء الآق قوينلو الذي ذكرناه من قبل ، فانتهاز اسماعيل الصفوي هذه الفرصة وأخذ يكوّن له دولة على حساب هؤلاء المتصارعين ، وقد تحقق لإسماعيل الصفوي ما أراد ، فأسس الأسرة الصفوية ، ثم أخذ حكمه يتسع حتى امتد من جيحون إلى خليج البصرة ومن أفغانستان إلى الفرات ، واستولى على بغداد سنة ٩١٤ هـ كما ذكرنا من قبل ، وأصبحت العراق ولاية تابعة لملك الصفويين الفسيح .

وتبعية العراق لبلاد فارس حدث خطي من التناحية الحضارية ، فقد أصبح العراق بذلك تابعا لدولة مسلمة ، بعد أن ظل عدة قرون تحت حكم جماعات أقرب إلى الوثنية ، وبهذا بدأ الطابع الإسلامي الحقيقي يعود إلى العراق . وهذا الجانب طيب حقيقته الزحف الفارسي ، وهناك جانب آخر مضاد هو أن الفرس اتجهوا بالعراق اتجاها فارسيا ، وكان هذا الاتجاه على وشك أن يعيد العراق إلى ما كان عليه قبل الإسلام ، فارسي اللغة والتقاليد ، ولولا الزحف العثماني الذي أخذ العراق من الفرس لتحققت هذه الغاية الكريهة ولأصبح العراق فارسيا .

ولما كان الصفويون شيعة فقد اتجهوا باهتمامهم إلى مناصرة التشيع ونشره بالعراق ، وقد بدأ الشاه إسماعيل بذلك ، فإنه عقب فتح بغداد أسرع بزيارة العراق ، ووفد له شيعة العراق فأكرم وفادتهم . وزار كربلاء والنجف في إجلال ظاهر ، وشيد بناية فخمة على قبر موسى الكاظم : وانثنى إلى قبور أئمة السنة فهدمها وقتل جماعة من السنين . وبذلك أحيا الصراع الطائفي الذي عرفه العراق بين السنة والشيعة منذ العهد الأول للإسلام .

والولاة الصفويين لبغداد هم :

٩١٤ لا لا حسين (أول وال فارسى)

٩٢١ قنعرز سلطان

٩٣٠ ثورة ذى الفقار نخود الذى إنحاز للعثمانيين

محمد خان بن شرف الدين عقب قضاء الفرس على هذه الثورة ٩٣٦

٩٤٠ — ٩٤١ تكلو محمد خان

وكان هناك حاكم عربى للبصرة ، ولكنه كان يدفع إتاوة سنوية إلى الشاه : ونكذب الشاه أحد الخانات ليحكم الموصل .

وكان عهد الصفويين بالعراق عهد استقرار نسبى ، وقد تفاطر التجار الفرس إلى بغداد وسكنوها ، وبدأ النشاط الاقتصادي يأخذ طريقه ، ولكن فترة الصفويين بالعراق كانت قصيرة ، وكان الأتراك العثمانيون قد مكثوا لأنفسهم فى أوربا ، وامتدت حدودهم فى آسيا حتى تاخمت حدود الصفويين ، وكان الخلاف الطائفى بين أهل السنة والشيعة حادا فاستلزم صراعا بين القوتين الكبيرتين ، ورجحت فيه كفة الأتراك العثمانيين كما سنرى فيما يلى :

العثمانيون فى العراق

تحدثنا فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة حديثا مفصلا عن الامبراطورية العثمانية ومراحل تاريخها ، ونريد هنا أن نتحدث عن علاقة العثمانيين بالعراق ، وقد أشرنا آنفا إلى أن العراق كان يقع بين هاتين القوتين الكبيرتين ، وكان بموقعه وتاريخه وإمكاناته مطمع هؤلاء وأولئك ، ومن هنا امتد الصراع بين الصفويين والعثمانيين على العراق ، وكانت الدولة العثمانية قد وصلت بفتوحاتها بأوربا إلى مدى بعيد ، وواجهت قوى كبيرة رأت أن من العسير التغلب عليها فاتجهت نحو آسيا ، هذا من جانب ومن جانب آخر فقد أصبح للدولة العثمانية من جهة الشرق

جار واسع الرقعة ، قوى الشكيمة ، يمكن أن يهدد الحدود الشرقية للدولة العثمانية وهذا الجار هو الدولة الصفوية التي كانت تدين بالمذهب الشيعي وتتعصب ضد أهل السنة ، والتي دمرت قباب أئمة أهل السنة ، وقتلت الآلاف من العلماء السنيين ، وكل هذا اتجه بالدولة العثمانية إلى أن تنزل حومة الصراع ضد الصفويين •

وكان الشاه اسماعيل (١٥٠٠ — ١٥٢٤) منشئاً للدولة الصفوية كما ذكرنا من قبل ، وكان واسع الأطماع مما دعا السلطان العثماني ليكوّن جيشاً كبيراً ، ويزحف به لمهاجمة الدولة الصفوية سنة ١٥١٤ ، وقد اتخذ السلطان سليم تبريز عاصمة الصفويين هدفاً له ، وحاول الشاه اسماعيل تجنب مواجهة الجيش العثماني فانسحب أمامه ، وأتلف الطرق لتعرقل حركة السلطان سليم ، ولكن الجيش العثماني تخلى هذه العقبات وأشرف على تبريز ، وحدثت بين القسوتين معركة كبيرة في وادي (جالديران) انتصر فيها الجيش العثماني أعظم انتصار : وجرح الشاه وفر من المعركة ، ودخل العثمانيون تبريز ظافرين ، وعاد الجيش العثماني بعد هذا التهديد ماراً بشمال العراق دون أن يطيل بقاءه في بلاد فارس أو في العراق ، لأنه كان يتجه لفتح الشام ومصر قبل أن يتعمق في الساحة الشرقية ، ولما تم له فتح الشام سنة ١٥١٦ وفتح مصر سنة ١٥١٧ ، اتجه العثمانيون لضرب الصفويين مرة أخرى ، وقد استطاع سليمان القانوني أن يحتل بغداد على يد أحد أتباعه دون قتال ، ولكن الحكومة الصفوية لم تدع النفوذ العثماني يستقر في بغداد ، فزحف الشاه طهاسب على بغداد وحاصرها واستعادها ، وتأزمت العلاقات من جديد بين الصفويين والعثمانيين ، فزحف السلطان سليمان القانوني على الدولة الصفوية واستطاع أن يحتل المناطق الشمالية من بلاد فارس ، ثم اتجه إلى العراق عن طريق همدان وواصل زحفه حتى دخل بغداد سنة ١٥٣٤ •

وامتداداً للصراع بين الصفويين والعثمانيين على بغداد فذكر أن

الحكم الصفوي استطاع ان يعود مرة أخرى سنة ١٦٢٣ م ، وكان ذلك في عهد الشاه عباس الذي شجعته على أطماعه صور الضعف التي كانت تمر بها الدولة العثمانية في عهده ، وقد حاصر انتباه بغداد حصارا طويلا ، مما دفع أهلها الجائعين إلى أن يأكلوا لحوم البشر ، وفي وسط هذه الأزمة الطاحنة حدثت حوادث مفرقة بين أهل السنة والشيعة ، فقد صلب أهل بغداد الفرس الشيعيين وألقوا برعوسهم إلى المحاصرين وعلقوا أجسامهم على الأسوار ، وانتقاما لذلك قضى جنود الشاه عندما استولوا على بغداد على أهل السنة قضاء تاما ، ولم يدعوا أثرا لأبنية بغداد الشاهقة ، وحتى جامع أبي حنيفة وعبد القادر الجيلاني أصبحا أنقاضا (١) .

على أن عمر هذا النصر الصفوي كان قصيرا ، إذ استطاع السلطان العثماني مراد الرابع استعادة بغداد لآخر مرة سنة ١٦٣٨ وأوقع الجيش الزاحف بالشيعة مثل ما أوقعه الفرس بأهل السنة من دمار ، ثم تم صلح مع الصفويين ثبت الحدود بين الدولتين ، وأصبحت العراق جزءا من الامبراطورية العثمانية ، وقد ظلت كذلك مدى أربعة قرون تقريبا وقد اتجه العثمانيون لإعادة تشييد ما دمره الصفويون من قباب لأئمة أهل السنة ، وإعادة بناء جامع أبي حنيفة ، وفي الوقت نفسه أبدى السلاطين العثمانيين إجلالا للمعابد المقدسة الشيعية في مناطقها المختلفة .

الإدارة التركية بالعراق :

طبقت بالعراق نظم الإدارة التركية التي طبقت في مختلف الولايات تقريبا ، وقد شرحنا هذه النظم في الجزء الخامس من هذه الموسوعة (٢) ، فكان الباشا رأس الحكومة المحلية ، والقاضي رئيس السلطة القضائية ، والدفتردار رئيس الدوائر المالية ، وكان كل هؤلاء من الأتراك ، وكان

(١) سيتون لويد : الرافدان ص ٢٤٣ .

(٢) انظر ص ٢٥٤ وما بعدها .

قواد الجيش يعاونون الباشا في « مجلس شورى الباشا » الذي يعرف بالديوان .

ولكن الشيعة لم يبدوا ولاءهم للأتراك ، وقاوموا أحيانا حكمهم ، مما جعل المدن المقدسة الشيعية لا تخضع لنفوذ الأتراك ، وانتشر التمرد على الأتراك بين رجال القبائل في الأرياف ، وحاولت الولايات المختلفة أن تنفصل عن الحكومة المركزية ، ولم تستعد بغداد نفوذها على هذه المناطق إلا في عهد أحمد باشا الذي ربي جيلا من المماليك استعان به على استعادة سلطان بغداد على أكثر القبائل وعلى ولايات البصرة والموصل وكركوك وغيرها .

ولاية العراق في العهد التركي :

قلنا فيما سبق إن العراق أصبحت ولاية عثمانية ابتداء من سنة ٩٤١ هـ (١٥٣٤) ، وقد ظلت تابعة للعثمانيين حتى الحرب العالمية الأولى ، عندما احتلت بريطانيا البصرة سنة ١٩١٤ وبغداد سنة ١٩١٧ والموصل سنة ١٩١٨ ، وفي خلال الحكم العثماني كانت بغداد يحكمها الباشوات الذين يعينهم السلاطين فيما عدا الفترة التي استبد بها المماليك بالحكم تقريبا ، والتي تمتد اثنتين وثمانين سنة (من سنة ١٧٤٩ إلى ١٨٣١) ، وسنتحدث عن فترة المماليك فيما بعد ، ولكننا هنا نريد أن نتكلم عن الولاية العثمانية الذين كان السلاطين يعينونهم بطريق مباشر .

وباشوات بغداد الذين عينهم السلاطين يبلغ عددهم سبعة وستين واليا ، منهم ستة عثنيوا أكثر من مرة ، وقد أورد زامباور أكثر أسماء هؤلاء الولاة ، حتى ولاية مدحت باشا (من سنة ١٢٨٦ هـ إلى ١٢٨٩ هـ = ١٨٦٩ إلى ١٨٧٢ م) ^(١) وأورد لونكريك أسماء عشرة ولاية بعد مدحت باشا حتى قرب نهاية العصر العثماني بالعراق .

(١) الرافدين ص ٣٤١ ، ٢٤٧ .

وإذا استعرضنا باشوات بغداد نتضح لنا المعلومات التالية :

- يذكر زامباور أكثرهم باسم مفرد قليل الدلالة على شخصية الباشا كأن يقول : دلاوة ، أو عبد الرحمن ، أو على وهكذا •
- بعض الباشوات تولى مرتين مثل كوجك حسن ومرتضى وكيلاى مصطفى وبعضهم تولى ثلاث مرات مثل قرة مصطفى وعمر •
- ستة من الولاة شغلوا منصب الصدر الأعظم قبل أن يصبحوا باشوات بغداد أو بعد ذلك •
- هناك والٍ صدر قرار بتعيينه باشا لبغداد ، ولكنه لم يصل لمقر عمله واسمه قاسم •

— هناك ثائر أورد زامباور اسمه بين باشوات بغداد وهو أحمد طويل ويذكر عنه لونكريك أنه في سنة ١٠١٦ هـ (١٦٠٨ م) استأثر بالسلطة العليا في بغداد ، وكان أحد الرؤساء الانكشاريين في حامية المدينة ، وقد تم استيلاؤه على السلطة في ظروف غامضة ، فأرسلت الدولة إلى نصوح باشا حاكم ديار بكر والذي كان صدرا أعظم قبل ذلك ليسيير إلى بغداد ، ويخضع هذا الثائر • ومع أن نصوح باشا قد انهزم في أول معركة ، فإن الثائر خر صريعا بضربة خنجر من أحد أعدائه (١) •

وأكثر باشوات بغداد لم تكن لهم أهمية ذات بال في التاريخ ولذلك نكتفى بأن نعرف بأشهر هؤلاء الباشوات •

وأول من نتحدث عنه هو سليمان باشا بن قباد ، وهو أول حاكم عثماني لبغداد ، وكان عصره حافلا بالقلق بسبب القبائل نصف المتوطنة التي كانت لا تحتل الإذعان للحكومة المركزية ، كما عانى هذا الباشا حدة الصراع بين السنة والشيعة •

(١) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٥٢ - ٥٣ •

وبعد سليمان جاء إياس الذى وقع على عاتقه واجب أنعب باشوات بغداد من بعده مدة تمتد حتى القرن السابع عشر الميلادى ، ألا وهو واجب إخضاع البصرة ، وبقائلها المتمردة •

ومن باشوات بغداد الذين خلّدوا ذكرهم بها سنان باشا حيفا لزاده (٩٩٩ هـ) فهو الذى شيد خانة للمسافرين وبنائيات أخرى عرفت باسمه مدة طويلة ، ولهذا امتد الوقت الذى كان يقترن فيه اسم حيفا لزاده العظيم ببغداد ، وقد عثيّن هذا الباشا صدرا أعظم بعد ذلك ، وقد أصبح ابنه محمود واليا لبغداد بعد بعض الصراعات والثورات التى تلت عهد والده : ويرتبط باسم محمود بلدة المحمودية التى أسسها على بعد مرحلة جنوب بغداد •

ومن باشوات بغداد الذين يجدر ذكرهم ابراهيم باشا الذى عين فى خريف سنة ١٠٥٦ هـ (١٦٤٦) وكان جذابا بصباه وشكله ، ولكنه كان مغرورا وعنييدا فزادت القلاقل والفتن فى عهده ، ودب الخلاف بينه وبين أغوات الحامية ، وانتهت هذه القلاقل بإعدامه •

ومن باشوات بغداد أحمد باشا الذى كان ورعا ومحبوبا حتى أنه لقب بالملك ، والذى استمرت ولايته عاما واحدا (١٠٥٨ هـ) ثم ترك بغداد ليصبح صدرا أعظم ، وقد حاول وهو فى منصبه الجديد أن يقوم بإصلاحات فى بغداد لسابق معرفته بها ، ولكن الحال كان قد تعذر على الإصلاح •

ومن باشوات بغداد حسن باشا وهو شخصية مهمة جدية بشىء من التفصيل ، وقد حكم بغداد عشرين عاما ، وجاء بعده ابنه أحمد فحكم مدة مثل هذه تقريبا ، وجاء بعدهما المماليك الذين أشرنا إليهم من قبل وقد تكوّن من حسن باشا وابنه ومماليكه سلسلة من الحكام المتصلين كانوا أسبه بنظام الوراثة خلال مدة امتدت إلى مائة وثلاثين عاما ، وكان حسن

باشا ينتمى إلى أسرة عسكرية ، ونشأ في بيت أفراده من الموظفين الرسميين في استانبول ، ولهذا كان معلماً بما جرى عليه السلاطين من استخدام العبيد البيض في أعقد مشكلات الدولة ، وبذلك انتهى إلى هذا النظام ، فوضع أساس نظام المماليك بالعراق : وبذلك انتهى عهد تبديل الباشا وتعيينه من استانبول ، وأصبحت حكومة بغداد في أيدي سلالة مستقلة من الحكام ليس لها إلا الولاء الاسمي للعاصمة العثمانية ، وقد جب هذا النظام الاستقرار النسبي إلى بغداد ، ووسع دائرتها فشملت مناطق متعددة من العراق ، وأنقذت البلاد من التهديدات الفارسية المتكررة ، ومن ثورات القبائل الخطرة (١) .

وقد أتيه حسن باشا في أول عهده إلى تأديب اللصوص تأديباً صارماً ، كما أنه عثى بنشر الأمن في مختلف الربوع ، ووجه كثيراً من الحملات للقبائل المتمردة على حدود بغداد ، فغضى على الخزائل ومن انضم إليهم من قبائل شمر ، كما قضى على ثورة مغامس ، وبهذا مد حسن باشا نفوذه إلى البصرة ، وتسلم فرماناً من استانبول بضمها إلى ولايته ، واهتم حسن باشا بتشييد المساجد وتعيين الأوقاف عليها ، حتى عرف بلقب « أبو الخيرات » .

وقد استعان حسن باشا على تحقيق هذه الآثار بالمماليك الذين اشتراهم ورباهم لهذا الغرض تمشياً مع النظام الذى كان معمولاً به في القسطنطينية ، حتى أصبح هذا الكيان العسكرى يمثل الولاء الكامل للباشا ، والقوة الهائلة التى حسب الجميع حسابها ، ويقول ظريف الأعظمى : إن حسن باشا اعتمد على الكيان العسكرى الجيد في إصلاح القبائل ، وتوطيد الأمن في البلاد ، ونشر السلام والنسكينة في ربوع العراق (٢) .

(١) ستين لويد : الرافدين ص ٢٤٧ .

(٢) مختصر تاريخ بغداد ص ١٩٧ .

وتعرضت إيران في عهد حسن باشا لفترة ضعف شجعت الأفغان على غزوها ، وقد احتل الأفغان كرمان وروغوا إيران ، وأشاعوا المرعب فيها ، فانتهزت القسطنطينية هذه الفرصة ، وعهدت إلى حسن باشا أن يهاجم إيران أيضا ، فاستجاب لذلك وهاجم الأراضي الفارسية ، واستولى على همدان ، ولكنه مرض هناك سنة ١٧٢٣ وتوفي في بلاد فارس متأثرا بمرضه وتقدم سنه : وقد حُملت جثته إلى بغداد حيث دفن في جامع أبي حنيفة (١) ، وعين أحمد أبو حسن واليا لبغداد ، ولكن الباشا الجديد واجه يقظة فارسية استطاعت أن تصد الأفغان ، وأن ترد الجيش العراقي ، بل سارت القوات الفارسية بقيادة نادر شاه ، متخطية حدود العراق حتى حاصرت بغداد ، وأصبح العراقيون بين هجوم من الخارج وذعر من الإيرانيين بداخل بغداد أن يضربوهم من الخلف ، وفي هذا الموقف الحرج ظهر على مسرح العراق شخصية يسميها المؤرخون (رومانتيكية) هي شخصية عثمان باشا الأعرج ، فقد قاد جيشا كبيرا قاصدا إنقاذ بغداد ووصل بجيشه إلى الموصل ثم انحدر إلى بغداد ، وقام بعدة حيل عسكرية في طريقه ، ثم التقى بجيش الإيرانيين ، ودارت معركة رهيبة امتدت عدة ساعات ، وانتهت باندحار الجيش الإيراني وانتصار الباشا الأعرج ، وقد خسر الإيرانيون في هذه المعركة ثلاثين ألف قتيل : وثلاثة آلاف أسير ، وفر نادر شاه منسحبا إلى مملكته (٢) .

ويمكن القول إن نظام المماليك قد انتضح في عهد أحمد باشا ، إذ أنه اهتم بتربيتهم تربية علمية وعسكرية ، وكان يضعهم في المدارس حتى يبلغوا مبلغ الرجال ، ثم يستغلهم في المؤسسات الحكومية المدنية حسب قدراتهم ، وكان زعيم المماليك في عهد أحمد باشا مملوكا اسمه

(١) علاء نورس : حكم المماليك في العراق ص ١٨ .

(٢) الشيخ رسول الكركوكلي : دوحة الوزراء ص ٣٣ - ٣٤ .

سليمان ، وقد تدرج في المناصب الحكومية حتى أصبح (كتخدا) أى نائب الوالى ، وبلغ من تقدير أحمد باشا له أن زوجه بنته « عادلة خاتون » (١) سنة ١١٤٥ هـ ، وفى سنة ١١٦٠ زوج ابنته عائشة هانم من مملوك آخر هو أحمد أغا (٢) ، وكل هذا هياً لقيام دولة المماليك فى العراق عقب وفاة أحمد باشا سنة ١٧٤٧ ، إذ أن الباشا لم يعقب ابناً ولا حفيداً . ومن عجب أن أحمد باشا توفى بعد أيام من مقتل خصمه العنيد نادر شاه ، وترك أحمد باشا فى العراق أطيب الذكريات (٣) .

دولة المماليك فى العراق

حاولت القسطنطينية عقب وفاة أحمد باشا أن تستعيد سلطتها المباشرة على العراق ، وأن تتخلص من النظام الاستقلالى الذى وضع حسن باشا وابنه أحمد أساسه ، فأصدرت فرامانات بإناطة ولاية بغداد لوالى ديار بكر الحاج أحمد باشا ، وولاية البصرة للحاج أحمد الكسرية لى ، وعينت سليمان أغا والياً لولاية أهدنه كمحاولة لإبعاده عن العراق ، ولتقليص نفوذ المماليك الذين أصبحوا يشكلون قوة مرهوبة الجانب فى نظر الدولة العثمانية ، وبخاصة أن العراقيين كانوا ينظرون إلى سليمان أغا كوال مرتقب ، فقد خبروه خلال حكم سيده أحمد باشا (٤) .

ولكن تخطيط القسطنطينية فشل بسبب صرامة المماليك ، وثورات العشائر ، واضطراب الانكشارية ، وضعف كفاءة الباشوات الجدد الذين أرسلتهم القسطنطينية : فاضطر الباب العالى تحت وطأة هذه الظروف أن يصدر فرماناً بتعيين الكتخدا سليمان لباشوية بغداد سنة ١٧٤٩ ،

(١) المرجع السابق ص ٢٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٣ .

(٣) لونكريك : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ١٩٦ .

(٤) علاء موسى نورس : حكم المماليك فى العراق ص ٢٦ - ٢٧ .

وريتشارد كوك : بغداد مدينة السلام ج٢ ص ٨٦ .

واتجه الوالى الجديد إلى قطع الطريق على القسطنطينية حتى لا تعود لناوذة المماليك ، فاقتنى عددا كبيرا منهم أكثر مما فعل صهره ، وألف منهم جيشا دربه على الفنون العسكرية ، وجهزه بالأسلحة الحديثة ، فأصبح هذا الجيش دعامة قوية تثبت حكم المماليك في بغداد (١) .

ولم يقنع سليمان باشا بقوة المماليك العسكرية ، بل اتجه إلى وضعهم في المناصب الإدارية ، فاستبعد الموظفين العرب والأكراد من المناصب العالية ، وعين مكانهم بعض زعماء المماليك ، وبهذه السياسة ثبت حكم المماليك في العراق واستمر أكثر من ثمانين عاما (٢) .

وفيما يلي قائمة بأسماء الباشوات من المماليك كما أوردها زامباور (٣) .

١١٦٥ هـ	سليمان باشا أبو ليلة
١١٧٥	على باشا الأول (كيايا)
١١٧٧	عمر باشا (زوج الابنة الصغرى لأحمد بن حسن)
	عبد الله باشا الأول ؟
	حسن باشا ؟
١١٩٤	سليمان باشا الكبير
١٢١٧	على باشا الثانى
١٢٢٢	سليمان (ابن أخى على الثانى)
١٢٢٥	عبد الله باشا الثانى
١٢٢٧	سعيد باشا
١٢٣٢ — ١٢٤٧	داود باشا

ونقدم في الصفحات التالية تعريفا بأشهر هؤلاء المماليك :

- (١) أحمد الصوفى : المماليك في العراق ص ١٧ .
- (٢) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين ج ٦ ص ٣٣ .
- (٣) معجم الانساب والاسرات الحاكمة ج ٢ ص ٢٦٠ .

سليمان باشا أبو ليلة :

لقب سليمان بأبى ليلة لأنه كان يخرج بنفسه فى أثناء الليل ليطوف مع الحرس الذى كان يراقب الحالة فى بغداد ، وكانت حملاته الليلية كثيرة على العشائر المتمردة : وعرف كذلك بلقب (دواس الليل) و (أبو سمرة) و (سليمان الأسد)^(١) وقد واصل سليمان باشا سياسة صهره أحمد باشا فى إخماد ثورات القبائل فغزا عشيرة ربيعة والشيخ سعدون شيخ المنتفق وعشائر قشعم ، كما أرسل قوات عسكرية تأديبية إلى القرى والأرياف^(٢) وضرب على أيدي العابثين فشمّل الأمن البلاد ونشطت التجارة ، وأصبحت البصرة ميناء مهمة جذبت لها نشاط شركة الهند الشرقية البريطانية ، وكان ذلك من الأسباب التى جعلت السلطان العثمانى يهديه وساما تقديرا لنجاحه فى الداخل والخارج^(٣) .

وتوفى سليمان باشا ١٧٦١ م ، وعلى أثر وفاته حدث صراع بين المماليك الذين يرغبون فى أن يخلفوه ، وانتهزت استانبول هذه الفرصة فعيّنت سعد الدين باشا والى الرقة على بغداد ، فاضطر المماليك أن يعقدوا اجتماعا يتفقون فيه على ترشيح « على » وكتبوا بذلك الى الباب العالى فاستجاب لهم ، ولكن عهد « على » كان حافلا بالمؤامرات والاضطرابات ، وكثرت الثورات ضده ، وكانت « عادلة » أرملة سليمان باشا هى وأختها زوجة عمر تؤيدان هذه الثورات وقد استطاع الثوار اقتحام قصر الباشا ولكنه استطاع الهرب متغبرا بزى امرأة ، بيد أن الثوار عاموا بمقره فقبضوا عليه وقتلوه .

وأصبح عمر باشا واليا على بغداد بعد ذلك ، وليس هناك شىء

(١) رحلة إنبور الى العراق فى القرن الثامن عشر ص ٥٩ من الترجمة العربية عن الألمانية التى قام بها محمود حسين الامين .
(٢) الشيخ رسول الكركوكى : دوحة الوزراء ص ٤١ وما بعدها
(٣) علاء نورس حكم المماليك فى العراق ص ٣١ .

ذو بال يذكر عن عمر ولا عن الواليين بعده : عبد الله باشا الأول وحسن باشا ، الا الفجائع المتصلة والاضطرابات المتكررة ، وحركة البصرة الانفصالية العنيفة ، بالإضافة إلى الطاعون الشامل الذي أصاب البلاد في عهد عمر باشا *

سليمان باشا الكبير :

ثم آلت السلطة إلى سليمان باشا الكبير (١٧٨٠ — ١٨٠٢) وقد كان هذا واليا على البصرة ، وكانت إمارة بغداد إلى الحاج محمد باشا ، الذي عينته استانبول لتقطع سلسلة الوجود المملوكي ، ولكن الحاج محمد باشا لم يستطع القيام بالأمر فأصدر الباب العالي أوامره بعزل محمد باشا وتعيين سليمان باشا بدلا منه واليا على بغداد وعلى البصرة (١) وقد نال سليمان باشا لقب الكبير لما بذل من جهود مفضية لنشر الأمن في البلاد وإيقاف تمرد العشائر ، وإعادة النظام في كل الأرجاء ، وقد حقق سليمان باشا الكبير هذه المآثر بالجيش الكبير الذي أعده من المماليك ، وأجاد تدريبه *

وكان سليمان الكبير رفيع المواهب : جم الأدب ، نعيم العراق في عهده بالسلم والاطمئنان ، ولكن حادثة مهمة هزت أركانه هي الزحف الوهابي على كربلاء ، وقد تحدثنا عن هذا الزحف وعن نتائجه فيما سبق عند الكلام عن الحركة الوهابية بالجزيرة العربية (٢) *

ويمكننا أن نتخلى خلفه على باشا الثاني الذي شغل عهده بمقاومة الوهابيين وبمحاولة مهاجمة إيران ، وقد قتل على باشا وهو يصلي الصبح سنة ١٨٠٧ فآل الأمر إلى شخصية مملوكية أخرى هي سليمان باشا الصغير ، وسنتحدث عنه فيما يلي :

(١) الشيخ رسول الكركوكي : دوحة الوزراء ص ١٠٦ .

(٢) اقرأ في هذا الموضوع « لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث للدكتور علي الوردي ج١ ص ١٩٢ وما بعدها .

سليمان باشا الصغير :

كانت فترة حكم سليمان باشا الصغير قصيرة (١٨٠٧ — ١٨١٠) ولكنه اتجه خلالها إلى مقاومة كل نفوذ خارجي ليكوّن لبغداد شخصية استقلالية ، وتنفيذا لذلك اعترض على النفوذ البريطاني الذي كان يهيم في البلاد عن طريق المقيم البريطاني فيها ، ففرض الإقامة الجبرية على هذا المقيم في منزله ، ومنع الناس من زيارته ، حتى لا يتمكن من التدخل في الشؤون الداخلية للولاية ، وخافت حكومة الهند عاقبة ذلك ، فأجرت مفاوضات مع سليمان باشا الصغير ، وانتهت بعقد معاهدة تعهد فيها المقيم البريطاني بعدم التدخل في الشؤون الداخلية ، وتعهد سليمان باشا بحماية أموال الرعايا البريطانيين ومصالحهم ، وامتدادا للنزعة الاستقلالية في سليمان باشا الصغير أوقف إرسال الأموال التي كانت ترسل سنويا إلى الأستانة ، ونتيجة لذلك أرسل الباب العالي جيشا احتل بغداد وقضى على سليمان باشا الصغير .

وبعد سليمان باشا الصغير جاء عبد الله باشا الثاني ثم سعيد باشا ، ولا يستحقان وقفة معهما ، وينبغي أن نتخطاهما إلى شخصية شهيرة غدة هي شخصية داود باشا .

داود باشا :

كان داود باشا (١٨١٧ — ١٨٣١) آخر باشوات المماليك في العراق ، وكان يتمتع بموهبة أدبية ومقدرة إدارية ، وكفاءة عسكرية رائعة ، وقد واجه في مطلع عهده اضطرابات واسعة من العشائر التي كانت متهردة هنا وهناك ، ولكنه استطاع أن يتغلب عليها وأن يقضى على كل حركات التمرد .

وهناك إصلاحات مهمة قام بها داود باشا ، فقد أنشأ المدارس لنشر العلم والثقافة ، كما نشب له نشاط عمراني واسع النطاق ؛ وشمل نشاطه

استصلاح الأراضي ، والعناية بالرى ، وتأمين طرق المواصلات ، وإنشاء الأسواق والخانات •

وحاول الفرس أن يقتحموا العراق في عهده بقيادة الشاه فتح على ، ولكن الظروف ساعدت على هزيمة ذلك الجيش إذ تفشى فيه مـرض الطاعون وهو يحاصر بغداد ، فلم شعثه وعاد إلى بلاده ، واتجه داود باشا الاتجاه الاستقلالى الذى ابتدعه سليمان باشا الصغير : وكان هذا الاتجاه ذا شعبتين يرمى في إحداها إلى القضاء على النفوذ البريطانى ، ويرمى في الثانية إلى القضاء على التسلط العثمانى على البلاد ، وقد انتهز داود باشا اتجاهات الاستانة للقضاء على الجيش الانكشارى ، فوضع خطة محكمة للقضاء على الانكشارية في بغداد ، فأمر بإعداد استعراض لقواته في ساحة السراى ، ووضع الجيش الانكشارى في مركز الدائرة ، يحيط بهم جنود المماليك من أتباعه المخلصين له ، ثم قرأ مرسوم الباب العالى الذى يخير الانكشارية بين أمرين : الموت أو الانخراط في الفرق العسكرية الجديدة والتخلى عن الامتيازات الانكشارية ، وقد اضطر هؤلاء أن يعلنوا تخليهم عن امتيازاتهم ، وأن يقبلوا الاندماج في الخدمة العامة فراراً من الموت الذى يحيط بهم ، وكان التخلص من الانكشارية وسيلة من وسائل داود باشا ليقف من الباب العالى موقف الند للند ، غير خائف من طعنة من الخلف يقوم بها الانكشاريون ضده ، واستطاع داود باشا بذلك أن يقف حازماً في وجه بريطانيا ، وفي وجه الدولة العثمانية ، أما بريطانيا فقد رأى داود باشا المحاولات التى كان يقوم بها المقيم البريطانى للتقرب من القبائل ، وربطهم بالسياسة البريطانية ففرض عليه الإقامة الجبرية في بيته ، ومنع الناس من زيارته ثم طلب أن يستبدل به غيره ، فاستجابت حكومة الهند البريطانية لذلك وطأطأت للعاصفة •

أما عن علاقته مع الدولة العثمانية : فإن داود باشا رفض طلب الباب العالى ليساعد الدولة العثمانية في حربها ضد روسيا ، وهذا من

جانب ، ومن جانب آخر فقد أدرك السلطان محمود الثانى أن مماليك العراق يتخذون طابعا استقلاليا ، ويتطورون فى ذلك مما يهدد كيان الامبراطورية ، فاتخذ السلطان محمود قرارا بعزل داود باشا ، وأرسل جيشا بقيادة على رضا لينفذ هذا القرار ، وقد قاومت بغداد بصرامة ولكنها عجزت عن مواصلة المقاومة إذ تعرضت لصور مريعة من الكوارث شملت الطاعون والفيضان والمجاعات ، وسطو اللصوص ، وكل ذلك هيا لانتصار على رضا بعد جهد طويل ، وانتهى بذلك عهد الممالك بالعراق .

نهاية الممالك :

يقول سيتون لويدي : لقد استسلمت بغداد لجيش على رضا بعد أن فقدت كل وسائل الدفاع عن نفسها ، وعومل داود باشا بشفقة واحترام بالنسبة لما قام به من مقاومة ، إذ أرسل إلى استانبول يحمل توصية بالرأفة به ، وعاش بعد ذلك منتقدا كثيرا من المناصب المهمة منها دامي حرم المدينة حتى مات ، ولم تكن عاقبة أنصاره الممالك على هذا النوال ، فإن على رضا جمعهم فى ديوان عام وقرأ عليهم مرسوم السلطان القاضى بإلغاء امتيازاتهم ، وكان نهوضه لينترك المكان علامة اتفق عليها للبدء بالفتك بهم جميعا ، وهكذا فنى هؤلاء الممالك فى النهاية ، وانتصرت استانبول (١) وكانت نهاية ممالك العراق شديدة الشبه بنهاية ممالك مصر على يد محمد على قبل ذلك بعشرين عاما ، وهى على العموم نهاية كل المتسلقين الذين لا جذور لهم .

مصر ومصر ممالك العراق :

أصبح محمد على واليا على مصر باختيار شعب مصر سنة ١٨٠٥ ، واتجه محمد على اتجاهها استقلاليا منذ سنه الأولى ، وعمل على توسيع سلطانه فى آسيا وفى إفريقيا ، وكان هذا الاتجاه يزعج السلطات

(١) الرافدان ص ٢٥٤ .

الحاكمة في استانبول ، ووصل الأمر مداه حينما تطلع محمد على لتصبح له ولاية الشام مكافأة له على الجهد الذي بذله في حرب اليونان ، ولكن الباب العالي كان يعمل لهدم محمد على وانتقاص سلطانه ، لا لبنائه ومد ملكه ، فرفض ملتصقه • ولم يقبل محمد على هذا الرفض فراح يعمل لينال ما يريد معتمدا على القوة ، واكتسحت الجيوش المصرية سنة ١٨٣١ هـ غزة ويافا وحيفا وعكا • • وبعد أن أتمت فتح الشام اتجهت إلى آسيا الصغرى ، فدحرت جيشا كبيرا يقوده الصدر الأعظم رشيد باشا (١) •

والمهم هنا أننى أرى أن الباب العالي خاف أن توجد بالعراق قوة استقلالية تقلد الحركات التى قام بها محمد على في مصر ، وإذا كان الباب العالي يحتفل باستقلال مصر فإن الوضع يختلف بالنسبة للعراق ، لأن حدود العراق تتأخم حدود تركيا ، ولا يحتفل الباب العالي بقيام حكم استقلالى بالعراق •

وهذا يفسر لنا تحديد الوقت للقضاء على المماليك بالعراق ، وهو سنة ١٨٣١ أى نفس السنة التى بدأ فيها محمد على زحفه على الشام والأناضول ، ولم يشفع للماليك العراق أن الحكم كان في يد داود باشا الذى كان يعد من أحسن الباشوات ، وكان جهده لاستقرار الأحوال يفوق جهود كثير من الباشوات قبل المماليك وبعدهم •

وعلى كل حال فإن عهد المماليك بالعراق لم يضمن للبلاد استقرارا متصلا ، فقد كان بعض الباشوات يبذل الجهد للحصول على الأمن والتقدم ولكن سرعان ما كان يفلت الزمام من يده • ثم إن الباب العالي كان يتدخل باستمرار لوضع حد لحكم باشوات المماليك ، حتى يستعيد حكمه المباشر على البلاد ، وكان موقع العراق بين العشائر التى تتشدد حياة الاستقلال

(١) انظر الجزء الخامس من هذه الموسوعة ص ٣٦٥ وما بعدها •

وتكره السلطات المركزية ، وبين البدو ، والقبائل العربية المتاخمة ، وبين قوتى الفرس والعثمانيين المتصارعين ، كل هذا جلب للبلاد صورا من الكوارث ، فإذا أضيف لذلك الخلاف بين أهل السنة والشيعة ، والصراع بين الطامعين من المماليك فى السلطة يقيدين لنا أسباب ما أصاب العراق من جراح غائرة مدى عدة قرون .

إصلاحات المماليك :

عند الحديث عن باشوات المماليك أوردنا ما ينسب لكل منهم من إصلاحات ، ولا تزال هناك أشياء ، عنى بها مماليك العراق عناية كاملة تستحق أن تختتم بها دراستنا عن عهدهم .

قام سليمان أبو ليلة ، وسليمان الكبير وداود بمجهودات عظيمة استهدفت تحسين الاقتصاد فى العراق ، فقد عملوا على تنشيط التجارة بتأمين الطرق وتيسير المواصلات النهرية والبرية ، وأولى سليمان الكبير وداود الزراعة اهتماما كبيرا وذلك بإحياء بعض الأنهار المندثرة ، وتطهير القنوات والترع المهملة ، واستغلال خامات العراق الزراعية (١) .

وعنى سليمان الكبير بتشبيد الأسوار ، وتعمير ما خرب منها ، وإقامة الأسواق والخانات ، وشمل ذلك مدينة بغداد والبصرة والحلة ، وكانت عنايتهم أكبر بتشبيد المساجد ، فقد أقاموا منها عددا كبيرا ، وكان بعضها غاية فى الفخامة كمسجد الإمام الأعظم الذى ظلت منارته بالذهب فى عهد سليمان الكبير وكان اهتمام داود باشا بالمساجد وأتمتها وخطبائها اهتماما بالغاً (٢) .

واهتم المماليك بالنهضة الثقافية ، فأنشأوا عددا من المدارس

(١) علاء موسى نورس : حكم المماليك فى العراق ص ١٣٨ .

(٢) اللوسى : غرائب الاغتراب ونزهة الالباب ص ٤٠ وما بعدها .

(م ٤٨ - التاريخ ج ٧)

والمكتبات ، وكان بعضهم عالما تلقى العلم على مشايخ العصر ، ومن هؤلاء داود باشا الذي تلقى العلم عن مشاهير العلماء ونال منهم إجازات علمية ، فلا عجب أن يكون عهد داود باشا عهد علم وفكر ، وأن تكثر به المدارس والأوقاف عليها ، وتنتشر في بغداد والسليمانية وكركوك والموصل والنجف والحلة وكربلاء والكاظمية وسامرا والبصرة (١) .

وعرف عن داود باشا سخاؤه العظيم مع الشعراء والمؤلفين والنقباء وأرباب الطرق الصوفية ، وقد نال كل هؤلاء الجوائز السخية والهبات الوفيرة ، حتى اتجه شعراء هذا العصر إلى مدحه والثناء عليه (٢) .

باشوات بغداد بعد المماليك

كان على رضا أول باشوات بغداد بعد المماليك ، ويصف ريتشارد كوك الحياة في عهده بقوله (٣) .

في خلال سنين قلائل من حكم على رضا السمع — وإن شابه التسيب — أخذت الحياة تدب في المدينة عودا على بدء كما ينبثق الشجر الأجرد عن ورق أخضر ، وتتدفق العصارة الحية في الشجرة اليابسة ، وذلك كله على الرغم من استمرار الاضطراب في البلاد بوجه عام .

وبعد على رضا عينت استانبول عددا من الولاة ، وبسردهم لونكريك ساخرا من أكثرهم ، فيقول : ان منهم رديف باشا ، وكان نظاميا صارما ، وعبد الرحمن باشا وكان متعصبا ، وعاكف باشا وكان في غاية الفساد والتفشيخ (٤) ويغنيينا في الحديث عن الباشوات في هذه الحقبة أن نتكلم عن رجل بلغت شهرته الآفاق ، ولعب دورا كبيرا في حياة

(١) الغزالي : تاريخ العراق بين احتلالين ج٦ ص ٢٦٣ ، ٢٩٩ ، ٣٣٤ .

(٢) انظر حكم المماليك في العراق ص ١٤٣ ، ٢٤٤ .

(٣) بغداد مدينة السلام ج٢ ص ١٥٨ من الترجمة العربية .

(٤) أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص ٣٦١ .

الامبراطورية العثمانية وهو مدحت باشا ، الذي كان يلقب « أبا الدستور »
وقد تحدثنا عن مدحت باشا بشيء من التفصيل في الجزء الخامس من
هذه الموسوعة .

وقد جاء مدحت باشا إلى العراق سنة ١٨٦٩ ، وكان قبل ذلك واليا
في ولايات الدانوب ، فحقق فيها نوعا من التقدم والازدهار ، وحكمها
حكما نظيفا نزيها ، ونقل من ولايات الدانوب إلى استانبول فبغداد ،
وبقى في بغداد ثلاث سنوات بذل خلالها كثيرا من الجهود لإصلاح
أحوال العراق ، وتقول المصادر العراقية الرسمية إنه قام بالإصلاحات
التالية :

- ١ — أكمل الأبنية التي بدأ سلفه في تشييدها ، وأضاف إليها الشيء
الكثير .
- ٢ — أصدر جريدة الزوراء .
- ٣ — أسس معامل عسكرية لتزويد الجيش بما يلزمه من عتاد .
- ٤ — بنى المستشفيات ودورا للعجزة والأيتام .
- ٥ — شيد عددا من المدارس .
- ٦ — خطط وأنشأ مدينتي الرمادي والناصرية .
- ٧ — مد خط ترامواي بغداد — الكاظمية .
- ٨ — أسس البلديات لتقدم إلى الموظفين خدماتها في الإنارة والسقاية
والنظافة والحراسة .
- ٩ — أسس المجالس المحلية لإدارة شئون الولاية .
- ١٠ — فرض التجنيد الإلزامي .
- ١١ — قسم العراق إلى ثلاث ولايات هي بغداد والموصل والبصرة ،

وقسم الولاية إلى عدد من الألوية ، وكلّ لواء إلى عدة سناجق ، وكل سناجق إلى عدد من الفواحي .

١٢ — اهتم بتوطين القبائل وتوزيع الأرض عليها (١) .

ومن الواضح أن هذه إصلاحات عظيمة متنوعة ، ولكنها لم يكتب لها النجاح كل النجاح ، بسبب قصر مدة مدحت باشا ، وبسبب الفساد الذي تركته الأحداث السابقة في الإدارة ، مما عاق هذه الحركة التقدمية عن السير والازدهار .

من القرن التاسع عشر للقرن العشرين

يصور سبيتون لويد العراق سياسياً ، وهو ينتقل من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين فيقول عن تاريخ العراق السياسي : إن أهم ما وقع فيه في هذه الفترة هو المحافظة على التوازن الثقلي بين الوالي الذي كان يمثل نوعاً من حكومات القرون الوسطى المطلقة التي كانت تكافح لتصل إلى روح العصر الحديث ، وبين دار الإقامة البريطانية التي تمثل الطموح التجاري وما يلزمه من تدخل سياسي ، وذلك كان اتجاه الغرب آنذاك (٢) .

ويصور لونكريك العراق اجتماعياً في هذه الفترة بقوله : « إن العراق انتقل من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين والبلاد ما تزال متفسخة وفي حالة من الجهل وعدم الكفاية للحكم الذاتي ، ولم تكن بأقل فساداً عما كانت عليه عند حلول القرن السادس عشر ، كما أن أحوالها المادية لم تكن بأحسن من أحوالها العقلية والخلقية ، فقد بقيت مواردها غير مستثمرة بالرغم مما كان يدل عليه تاريخها طوال الأجيال الماضية ،

(١) انظر الجزء الثاني من كتاب « بغداد : مدينة السلام » تأليف

ريتشارد كوك ص ١٦٨ - ١٧٠ .

(٢) الرافدان ص ٢٥٤ .

ولم تهتم الحكومة بواجبها الأساسي في توجيه القبائل والمدن إلى طريق التقدم والارتقاء ، كما أن الحكومة فشلت في أوضح واجباتها وهو ضمان حرية الرعية وحقوقها على الرغم من أن كثيرا من هذه الأهداف تحققت في أوروبا وفي الهند ، وهي تعود على الشعب وعلى الحكومات بالفوائد المادية (١) .

بريطانيا والعراق

في القرن التاسع عشر تمكن الحكم البريطاني في الخليج العربي وأبدى اهتماما كبيرا بالبصرة ، وبالتالي كثرت المشروعات الأجنبية بالبلاد ، كالاتمام بالطرق النهرية وبأنواع المواصلات الأخرى كالتلغراف والسكة الحديدية .

وفي أواخر القرن التاسع عشر اتجهت أنظار إنجلترا إلى النفوذ بالعراق ، فتعددت مصالح بريطانيا بالعراق وحاولت فرض سيطرتها على القسم الجنوبي المتصل بالخليج العربي ، وبينما كانت بريطانيا تقدم رجلا وتؤخر أخرى حرصا على الاتجاهات الدولية ، اندلعت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) وانضمت الامبراطورية العثمانية لألمانيا ، وبهذا وضح العداء بين بريطانيا وبين الأتراك ، وأسرت بريطانيا بالزحف على العراق فأرسلت أولى حملاتها التي استطاعت أن تدخل الفاو سنة ١٩١٤ ثم دخلت مدينة البصرة ، وبعد عدة معارك استطاعت هذه القوات أن تستولي على لواء البصرة كله ، وواصلت زحفها شمالا محققة تقدما واضحا على الرغم من الخسائر التي خسرتها ، وفي سنة ١٩١٧ احتلت مدينة بغداد ، وأصدر القائد البريطاني منشورا يذكر فيه أن الإنجليز دخلوا بغداد محررين لا فاتحين ، وكان هذا القول زيفا استدعته الظروف ، ولذلك هب الشعب يناضل المحتل الأجنبي بقوة وإصرار .

(١) أ. ب. شولز ، من تاريخ العراق الحديث ، ٣٨٧ باغتلبار .

وتقدمت القوات البريطانية بعد بغداد فاحتلت سامرا ، وتكريت
ثم أعلنت المهنة في ١١/١١/١٩١٨ فاحتلت القوات البريطانية المرسى
بدون حرب ، وتم بذلك احتلال الانجاز للحراق ، ثم أمضيت معاهدة
سيفر بين تركيا وبين الحلفاء ، وبمقتضاها تخطى الأتراك عن كل البلاد
العربية (١) .

وعملت بريطانيا على أن تتمكن لنفسها في العراق فاستصدرت قرارا
من عصبة الأمم بانتدابها على العراق ، وكان معنى الانتداب نظريا أن تشرع
على العراق إشرافا مؤقتا يعد البلاد لحمل مسؤولية الاستقلال ، ولكن
المعنى الحقيقي للانتداب كان رعاية مصالح المستعمر على حساب الوطن
والمواطنين .

وإذا كان العراق أو غيره من الدول العربية احتل العلاقات مع
الامبراطورية العثمانية باسم الإسلام فإن أيا من الأقطار العربية لم ينخدع
بالتعبيرات المختلفة التي تربط الوطن العربي بالقوى الأوروبية ، ومن هنا
قامت في العراق كما قامت في سواه حركات وثورات هائلة ، وضحى
الشعب بأعلى ما يملك حتى استعاد الحرية وطرد الغاصب المحتل .

وفيما يلي موجز للأحداث الكبرى منذ ذلك الحين :

الاستعمار والملكية بالعراق :

عملت الحكومة الاستعمارية على تأليف حكومة مؤقتة عراقية ،
لتقوم هذه الحكومة بإجراء انتخاب عام ، لتأليف مجلس تأسيسي ليقرر
شكل الحكم بالعراق ، فتألفت هذه الحكومة برئاسة السيد عبد الرحمن
النقيب سنة ١٩٢٠ ولكن سرعان ما أدركت الحكومة البريطانية أن المجلس

(١) انظر الحديث عن هذه المعاهدة بالجزء الخامس من هذه

التأسيبي سيجتبه اتجاهها وطنيا خالصا ، يتنافى مع أطماع المستعمر ، فعملت على تأجيل الانتخاب ، وكبدل لذلك عملت الحكومة البريطانية على تعيين فيصل بن الحسين ملكا على البلاد * (وقد تحدثنا عنه ضمن حديثنا عن الأشراف فيما سبق) ، وكان قد عين قبل ذلك ملكا على سروريا ، ولكنه سرعان ما فقد عرشه ، وأجرى استفتاء شكلي حول هذا التعيين في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢١ أعلنت بمقتضاه موافقة الشعب على تعيين الملك ! !

واستكمالا للحديث عن الملكية بالعراق نذكر أن الملك فيصل بن الحسين مات سنة ١٩٣٣ ، خلفه ابنه الملك غازي الذي قتل في حادث سيارة غامض سنة ١٩٣٩ (١) فخلفه ابنه فيصل الثاني (ابن غازي) وكان يبلغ من العمر أربع سنوات فعين خاله عبد الإله وصيا على العرش حتى وصل سن الرشد سنة ١٩٥٣ فتوالت سلطاته الدستورية وعين خاله وليا للعهد ، وقد ظل الملك فيصل الثاني ملكا على العراق حتى قتل هو وخاله في ثورة ١٩٥٨ وبموته انتهت الأسرة المملوكية بالعراق ، وقام النظام الجمهوري .

ومن الواضح أن النظام الملكي كان هبة الانجليز لفيصل وأولاده ، ومن أجل هذا لم يكن معبرا عن آمال البلاد ، وكان يسبب في فاك الاستعمار ، وفي ظله وذلك الاستعمار كان لكل وزير عراقي واكل محافظ مستشار بريطاني يدير الشؤون ، فلم يكن الموظفون العراقيون إلا واجهة يعمل الاستعمار من خلفها ، وقد أثار هذا الوضع المواطنين ، وظهرت حركات سحق وتمرد وثورات سنحرض لها فيما بعد ، وقد اتجهت بريطانيا إلى عقد معاهدات مع العراق لتوهم المواطنين بأن إقامتها غير مستقرة ،

(١) انظر تفاصيل هذا الحادث واتهام الانجليز بتدبيره في « العراق في مذكرات الدبلوماسيين الأجانب » ص ١٣٥ وما بعدها (مذكرات وزير ألمانيا المفوض) .

وأنها ستجلبو عن العراق بعد مدة ، وقد توالى هذه المعاهدات على هذا النمط فأبرمت معاهدة سنة ١٩٢٢ ، ومعاهدة أخرى سنة ١٩٢٦ ، ولكنهما لم تحمقا آمال العراق ، وكانتا تدوران في فلك واحد هو تثبيت الملكية ، وإشراف بريطانيا على الشؤون الخارجية ، وتقديم المشورة في الشؤون الداخلية ، واحتلال بعض المناطق العراقية ، ثم جاءت معاهدة ١٩٣٠ التي تلزم العراق بتقديم تسهيلات واسعة للقوات البريطانية عند إقامتها أو مرورها في أراضيه ، وكانت هناك فائدة مظهرية لهذه المعاهدات فبسببها انتهى الانتداب البريطاني في أكتوبر سنة ١٩٣٢ ودخلت العراق في عصبة الأمم كدولة مستقلة ، ولكن العراقيين أدركوا أن الحرية الحقيقية لا تنال بالمفاوضات ، وأن الاستقلال يحتاج لثورات وتضحيات حتى تتحقق للشعب حريته وللمواطنين حقوقهم ، وقام الشعب العراقي بالثورات التالية حتى تحقق له ما أراد :

ثورات العراق

حفل تاريخ العراق الحديث — كما قلنا آنفاً — بالثورات ضد المستعمر وضد أعوانه ليتخلص العراق من النفوذ الخارجي وهن الذين ينفذون هذا النفوذ أو يدورون في فلكه ، ومن أجل هذا قامت بالعراق الثورات التالية :

ثورة سنة ١٩٢٠ :

كان اشتعال هذه الثورة مبكراً إذ لم يطل انتظار العراقيين عقب الاحتلال البريطاني ، بل سرعان ما اشتعلت الثورة في آخر يونيو سنة ١٩٢٠ ، وقد استطاعت هذه الثورة أن تبرهن على بسالة أهل العراق ، واستهانتهم بالتضحيات ، ويقول المؤرخون أنه ليس ثمة روز للحرية الوطنية في العراق الحديث أبداً وأروع من ثورة عام ١٩٢٠ ، وكان من أسباب قيام هذه الثورة انتشار الوعي القومي بين المواطنين ، وتضحيات

الحلفاء في أثناء الحرب العالمية الأولى وعند نهايتها بحق الشعوب في تقرير مصيرها ، ثم كان من أسبابها سوء الإدارة البريطانية ، وعملها على خدمة الأغراض الاستعمارية ، وإهمال مصالح الشعب العراقي ، وقد حملت الجمعيات الدينية مسؤولية كبرى في هذه الثورة ، فقد ألهمت أحاسيس الناس ودفعتهم لمقاومة المستعمر المسيحي الغريب .

وكان السبب المباشر لهذه الثورة قيام السلطات البريطانية في الرميصة باعتقال الشيخ شعلان أبو الجون ، وقد هبت عشيرة الشيخ عقب ذلك في ثورة هائلة ، فقامت بمحاصرة الحامية البريطانية واستطاعت إخراج الشيخ بالقوة ، ثم اندفعت الثورة تعرقل طرق المواصلات البريطانية بالعراق ، وفتحتى السلطات الاستعمارية ، وسرعان ما امتد صدى الثورة إلى جميع الأرجاء ، فقامت ثورات مماثلة في نواحي العراق المختلفة مما أوقع بقوات الاحتلال كثيرا من الخسائر ، ومما حرك الرأي العام الانجليزي إلى ضرورة الجلاء عن العراق حتى لا تكثر ضحايا الانجليز هناك .

وقد استطاعت قوات الاحتلال البريطاني أن تقضى على هذه الثورة ، ولكن روحها كمنت في نفوس أهل العراق ، وانتظرت الفرص لتنبعث من جديد .

ثورة ١٩٤١ :

خلقت بريطانيا في العراق تكتلات وأحزابا وعشائر ، ودفعتها لنضال داخلي مرير ، وكانت تؤيد جماعة على حساب أخرى ، ثم تتخلى عنها لتؤيد جماعة أخرى وهكذا ، وفي مثل هذا الجو كثرت الاضطرابات والفتن الداخلية ، وبالتالي هبت انتفاضات عسكرية قام بها الجيش ايزيل حكومة وبيتم أخرى ، ومن الحركات التي قام بها الجيش حركة بكر صدقي وكيك رئيس أركان الجيش سنة ١٩٣٦ الذي طلب من الملك اقامة

وزارة ياسين الهاشمي رئيس حزب الإخاء الوطني ، وتكليف حكمت سليمان بتشكيل وزارة جديدة ، وقد أرغم الملك على ذلك ولكن وزارة حكمت سليمان لم يطل عمرها وقد قتل بكر صدقي بعد وقت قصير من ثورته •

ويقول الدكتور فريتز غروبا القائم بأعمال ألمانيا بالعراق ثم وزيرها المفوض (١٩٣٢ — ١٩٤١) عن سبب مقتله ، إنه اتخذ جانب الأكراد وعمل سرا على تكوين دولة كردية مستقلة ، وقرب الضباط الأكراد وأهلهم محل العرب مما أثار الانتمة عليه من بعض القوميين العرب ، فدبرت مؤامرة لاغتياله في الموصل حيث كانت الحراسة عليه قليلة (١) •

واستقلت وزارة حكمت سليمان ، وأعقبتها وزارة جديدة يرأسها جميل المدفعي ، ثم وزارة أخرى يرأسها نوري السعيد سنة ١٩٣٨ ، وقد اتجه نوري السعيد اتجاهها واضحا للتعاون مع بريطانيا ودول الغرب ، وقدم كل التسهيلات اللازمة لبريطانيا في الحرب العالمية الثانية ، مما أساء إلى القاعدة الشعبية بالبلاد ، وحرك قوى المناضلين ضد نوري السعيد والاحتلال البريطاني ، وتحت ضغط هذه الأحداث استقلت حكومة نوري السعيد ، وشكل رشيد عالي الكيلاني وزارة جديدة سنة ١٩٤١ ، وكانت هذه الوزارة مؤيدة من الجيش والشعب ، إذ أنها عبرت عن أمانيه في حيدة العراق ، وفي مطالبة الانجليز بالجلاء ، وفي وضع برنامج شامل للإصلاحات الداخلية •

وكان واضحا أن كل هذه الاتجاهات مضادة للسياسة البريطانية فطالبت بريطانيا من عبد الإله الوصي على العرش آنذاك إقالة الحكومة ولكن الوصي أدرك أن ذلك بعيد عن استطاعته ، فغادر بغداد سرا إلى شرق الأردن واختارت الحكومة وصيا آخر على العرش ، وتأزمت

(١) نجدة فتحي صفوة : العراق في مذكرات الدبلوماسيين الاجانب ص ١٢٦ وما بعدها •

العلاقات بين العراق حكومة وشعبا وبين بريطانيا ، وأعلنت حكومة العراق رفض إنزال قوات بريطانية جديدة بالبلاد ، وتمسكت بريطانيا بمعاهدة ١٩٣٠ التي تلزم العراق بتقديم تسهيلات واسعة للقوات البريطانية عند إقامتها أو مرورها في أراضيها ، كما سبق القول . وهكذا تفاقمت الأمور حتى قامت معركة عسكرية بين العراقيين وبريطانيا خلال شهر مارس سنة ١٩٤١ ، وقد أبدى الجيش العراقي ألوانا من البطولة ، ولكن المعركة كانت غير متكافئة فتغلب الجانب البريطاني ، وعلى أثر ذلك عاد الأمير عبد الإله للعراق بولاء أكثر لبريطانيا ، وراحت القوى البريطانية والموالون لها تقتتل بعض العناصر الوطنية ، وتزج ببعضها في السجون والمعتقلات ، ومن شهداء هذه الفترة فيهم السيد صلاح الدين الصباغ ويونس السبعاءى وكامل شعيب ومحمود سلمان ، وقد استطاع رشيد علي الكيلاني أن يفر من البلاد .

بعد الثورة :

بعد أن فشلت ثورة ١٩٤١ ، عملت بريطانيا على تسخير كل القوى بالعراق لخدمة أغراضها ، وأبعدت خيرة الشباب عن الوظائف ، وخيرة الضباط عن الجيش ، فتأزمت الأمور بالبلاد ، وأدركت بريطانيا أن تغييرا كبيرا لابد أن يتم بالعراق ، وكانت الحرب العالمية الثانية قد وضعت أوزارها فسمحت بريطانيا بإجراء تغيير في سير الأمور بالبلاد ، وتشكلت وزارة برئاسة توفيق السويدي ، فأطلقت الحريات السياسية والاجتماعية ، مما بعث روحا جديدة بالبلاد ، فانطلقت الصحافة والأحزاب تطالب بإصلاحات في مختلف النواحي ، ولكن سرعان ما تراجع الحكومة في موقفها ، وسحبت خيط الحرية الذي أطلقتته ، وتسبب عن ذلك قيام انتفاضتين شعبيتين هما انتفاضة ١٩٤٨ و ١٩٥٢ ، وقد قامت الأولى عقب إعلان معاهدة ١٩٤٨ التي أجراها صالح جبر ، وأدرك الشعب أنها كالمعاهدات السابقة لا تحقق آماني الشعب فتثار الشعب ضدها ، ولم تجد الحكومة بدا من إعلان تجميد هذه المعاهدة ، وقامت انتفاضة سنة ١٩٥٢

في شكل مظاهرات صاخبة تصر على الاستقلال التام وتحقيق آمال البلاد في الداخل والخارج ، وأدرك القائمون بالأمر أنه ليس في مقدورهم إسكات ثورة الشعب ، فسلموا البلاد لحكم عسكري أعلن الأحكام العرفية ، وحاول تخفيف متاعب الشعب الاقتصادية ، ولكن هذا العلاج لم يكن حاسماً ، وبدلاً من أن تتجه الجهود للإصلاح اتجهت لربط العراق بعجلة الاستثمار فيما كان يسمى حلف بغداد سنة ١٩٥٥ ، وتلى ذلك العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦ ، وكل هذا هيباً للثورة الكبرى التي قام بها الشعب والجيش في ١٤ يولية سنة ١٩٥٨ م ، وسنتكلم عنها بعد قليل .
ومما يذكر عن حلف بغداد أنه كان يضم تركيا وبريطانيا وباكستان وإيران ، وأن بريطانيا عقب تكوين هذا الحلف وافقت على إنهاء معاهدة ١٩٣٠ ، وأخلت القواعد الجوية في الشامية والحبانية إذ أصبح الحلف الجديد يحل محل الاستعمار البريطاني الذي كانت تهتز أركانه .

وفي فبراير سنة ١٩٥٨ أعلن العراق والأردن الاتحاد العربي الذي أعطى الرئاسة للملك فيصل الثاني ، وكان ذلك رداً على الوحدة التي قامت بين مصر وسوريا .

ثورة سنة ١٩٥٨ * (نهاية الملكية وإعلان الجمهورية) :

كانت ثورة ١٩٥٨ حركة تاريخية كبرى وانتقالاً بالعراق من عهد إلى عهد ، من عهد التبعية إلى عهد الاستقلال ، ومن عهد الملكية إلى النظام الجمهوري ، ومن التخلف الاقتصادي إلى محاولة التطور والتقدم ومن الضعف الفكري والثقافي إلى وثبة هائلة في العلم والمعرفة ، وكل هذه الاتجاهات عبر عنها البيان الأول لهذه الثورة ، يقول البيان :

(*) في الحديث عن هذه الثورة وما بعدها اعتمدنا على المراجع الرسمية ، مع التصرف الكامل في الأسلوب وسرد الأحداث .

بعد الانتكال على الله ، ومؤازرة المخلصين من أبناء الشعب والقوات المسلحة أقدمنا على تحرير الوطن العزيز من سيطرة الطغمة الفاسدة التي نصبها الاستعمار لحكم الشعب ، والتلاعب بمقدراته لمصلحتهم وفي سبيل منافعهم الشخصية * *

ويتحدث البيان عن حيلولة الاستعمار دون تسليح الجيش العراقي ، وعن الحديد والنار ، والسجون والمعتقلات التي نصبها الاستعمار وأعوانه للأحرار ، وعن سرقة خيرات الشعب وحرمانه من الازدهار الثقافي والاقتصادي *

واستطاعت الثورة أن تقضى على أعوان الاستعمار ، فسقط فيها الملك فيصل الثانى وعبد الاله الذى كان وصيا على العرش فوليا للمعهد ونورى السعيد رئيس الوزارة آنذاك ، وأعلنت الثورة عن قيام جمهورية شعبية تتمسك بالوحدة العراقية الكاملة ، وبالتعاون الشامل مع الدول العربية والإسلامية ، كما أعلنت تمسكها بمبادئ الأمم المتحدة ، والتزامها بالعهود والمواثيق التي تخدم مصلحة الوطن ، والتزامها كذلك بمقررات باندونج *

وفي مجال السياسة الداخلية ألغت الثورة مجلس سيادة يتمتع بمسطة رئيس الجمهورية ، حتى يختار الشعب رئيسا له ، ثم أصدرت دستورا مؤقتا يعلن أن الدولة العراقية جمهورية مستقلة ذات سيادة ، وأن العراق جزء من الأمة العربية ، وأن حقوق المواطنين مكفولة ضمن الوحدة العراقية ، وأن الإسلام دين الدولة الرسمي *

وأصدر مجلس السيادة قانون الإصلاح الزراعى الذى ألغى نظام الإقطاع ، وأصدر قانون إلغاء نظام دعاوى العشائر ، وقوانين أخرى لتطهير أجهزة الدولة وحماية الفلاحين والعمال *

وفي المجال الخارجي أعاد العراق صلاته الطيبة بجمهورية مصر ،
كما أعاد العلاقات الدبلوماسية بالاتحاد السوفيتي واعترف بالصين
الشعبية ، ثم أعلن خروج العراق من ميثاق حلف بغداد ومن الكتلة
الاسترلينية .

وانحرف عبد الكريم قاسم رئيس الوزراء والقائد العام للشوات
المسلحة بهذه الثورة ، وتكرر لقادتها وأهدافها ، وأخذ يبتعد بالعراق
عن الخط العربي ، ونتيجة لذلك ثار ضده اللواء الخامس المرابط في
مدينة الموصل في ٨ مارس سنة ١٩٥٩ وكان العقيد عبد الوهاب الشواف
قائد هذه الثورة ، ولم تستطع هذه الثورة أن تحقق انتصارا على القوة
الكبرى التي زحفت من بغداد ، وعلى أثر فشلها حدثت مذابح رهيبة في
مدينة الموصل واعتقلت حكومة قاسم الألوف من المواطنين من مختلف
النواحي .

وفي احتفالات ١٤ يوليو سنة ١٩٥٩ حصلت مذبحة في كركوك ،
جاوزت في أهوالها مجازر التتر كما تقول المصادر العراقية ، وأقام
عبد الكريم قاسم محكمة عسكرية كان قاضيها يحكم بما يريده الزعيم
الأوحد كما سُمي قاسم آنذاك وكل هذه الانحرافات دفعت لقيام ثورة
١٩٦٣ لتضع حدا لهذه الانحرافات التي ناء بها الوطن والمواطنون .
وستحدث عن هذه الثورة فيما يلي :

ثورة فبراير ١٩٦٣ (١٤ رمضان ١٣٨٣) :

في فبراير سنة ١٩٦٣ اندلعت في بغداد ثورة اشترك فيها الجيش
والشعب ، وهاجمت عبد الكريم قاسم ، الذي كان يتخذ وزارة الدفاع
مقرا له ليعيش في حمى السلاح ، بعد أن انفض الشعب عنه ، وقد قاوم
عبد الكريم قاسم وأعوانه مقاومة عنيدة ، ولكنه هزم في النهاية ، وجرى
محكمة سريعة له ، أعدم بمقتضاها ، وأصبح رئيس الجمهورية عبد
السلام عارف ، وأعلنت الثورة أنها تهتم اهتماما حاسما بوحدة الشعب

الوطنية ، وبمشاركة الجماهير في توجيه الحكم ، كما أعلنت أنها تسعى لاستكمال الوحدة العربية ، وتحافظ على مكاسب الجماهير وفي مقدمتها قانون الإصلاح الزراعي ، وعلى العموم فقد اعتبرت هذه الثورة عودة لثورة ١٩٥٨ : وإزالة الانحرافات التي طرأت على هذه الثورة المجيدة .

وعنما توفي عبد السلام عارف في حادث سقوط طائرته في سنة ١٩٦٥ ، تولى أخوه عبد الرحمن عارف مقاليد الحكم فأصبح رئيساً للجمهورية ، وتقول المصادر العراقية إنه حدث في عهده أحداث تسمى إلى الشعب بالعراق وتمس اقتصاده ، كما أن الجيش أهمل ، وجمدت طاقاته العسكرية ، فلم يستطيع أن يقوم بدوره في حرب ١٩٦٧ ، وإزاء ذلك وسواه هبت ثورة جديدة ستكون موضع حديثنا التالي :

ثورة سنة ١٩٦٨ :

كانت هذه الثورة — كما قيل في سابقتها التي حدثت سنة ١٩٦٣ — تصحيحاً للأوضاع ، وتحقيقاً للأهداف التي أعلنتها الثورة الأم سنة ١٩٥٨ ، وكانت بقيادة مجموعة من القادة في قممهم :

أحمد حسن البكر وصدام حسين ، وقد حدثت هذه الثورة في ١٧ يوليو سنة ١٩٦٨ ، ولكن سرعان ما ظهرت « ملامح سود » كما تقول المراجع الرسمية وكانت هذه الملامح تنذر بالخطر ، ومن أجل هذا أبعد المندسبون على الثورة الذين أرادوا أن ينحرفوا بها ، وكان ذلك في يوم الثلاثين من نفس الشهر ، وتولى أحمد حسن البكر رئاسة الجمهورية وقيادات القوات المسلحة ، وكان صدام حسين نائباً له .

وهذه الثورة هي التي يعيش العراق معها حتى كتابة هذه السطور ولها منجزات تذكرها المراجع العراقية كالآتي :

في المجال السياسي : أطلقت سراح المعتقلين السياسيين : وأعادت

المفصولين إلى وظائفهم ، وأعلنت بيان ١١ مارس فتح المسألة الكردية حلا سليما ديمقراطيا ، ومنح الحقوق القومية للأكراد وكل الأقليات .

وفي المجال الزراعي : ألغت الثورة التعويض الممنوح للاقطاعيين ، وأسست المزارع التعاونية الجماعية ، وأنجزت العديد من مشروعات الري والصرف ، وأكملت عملية توزيع الأراضي ، وأعلنت عملية الاستزراع التي ترمى لزيادة الانتاج الزراعي .

وفي مجال الصناعة والنفط : طورت الثورة شركة النفط الوطنية ، واستثمرت النفط وطنيا ، وأصدرت قرارها بتأميم عمليات شركة نفط العراق في أول يونيو سنة ١٩٧٢ وبهذا أنهت السيطرة الأجنبية على موارد العراق الاقتصادية .

وفي المجال الصحي : أنشأت الثورة المستشفيات والمراكز الصحية ، ونشرت العيادات الشعبية التي تقدم العلاج والدواء بأقل التكاليف ، كما اهتمت الثورة بنشر الوعي الصحي .

وفي مجال التعليم : اهتمت الدولة بإنشاء العديد من المدارس والجامعات ، كما اهتمت بتأميم التعليم الخاص والأهلي وبمحو الأمية ، وأولت عنايتها لتعديل البرامج والمناهج لتناسب العهد الفكري الجديد .

صدام حسين رئيسا للجمهورية :

يمكن القول إنه في عهد أحمد حسن البكر كان الزمام الحقيقي في يد صدام حسين ، وكان أحمد حسن البكر واجهة فقط ، وربما جاز القول إن أحمد حسن البكر كان صمام أمان لأن السلطة الكاملة عندها انتقلت سنة ١٩٧٩ إلى صدام حسين بدأت الأعاصير تجتاح العراق والمنطقة كلها فقد سوت الأوامر لهذا الرجل أنه يستطيع أن يسيطر على المنطقة كلها ، وقد بدأ الصراع ضد مصر لإبعادها عن الصف العربي بحجة اتجاهها لعقد معاهدة مع إسرائيل ، وسخر المصريون بهذا الموقف لأن مصر ترفض بكل الشمم والإباء أن تكون تحت وصاية أحد ، فمصر لها تاريخها ومكانتها ولا تقبل أن تجلس مجلس التلميذ وتمسكت مصر باتجاهها في عهد البطل أنور السادات الذي حارب اليهود وانتصر عليهم ، وفأوضحهم وانتصر عليهم أيضا ، وإذا كانت مصر رفضت الموقف العربي الذي تزعمه صدام حسين في مؤتمر بغداد سنة ١٩٧٨ فإن الدول العربية الأخرى استجابت للأسف لاتجاه صدام بحكم الغيرة أو الخوف ، وقطعت علاقاتها بمصر بعد أن شملت المعاهدة مع إسرائيل وغلقت عضويتها بجامعة الدول العربية ، ونقل مقر الجامعة إلى تونس وتقرر وقف القروض والمساعدات إلى مصر من كل الدول العربية .

ويقرر زعماء العرب أن الهدف الرئيسي من نتائج مؤتمر بغداد كان إبعاد مصر عن دول الخليج لتصبح لقمة سائغة لصدام حسين ، فمصر هي التي هددت العراق في عهد عبد الكريم قاسم عندما فكر في اقتحام الكويت .

الحرب مع إيران :

في سنة ١٩٨٠ اصطنع صدام حسين أسباباً واهية ، وادّعى أن إيران هاجمت بلاده ، والحق أنه كان يطمع في ضم بعض المناطق من إيران متوهمًا أن إيران ضعفت بعد طرد الشاه وبعد الصراع الداخلي عقب ذلك ، وقد تكلمنا بإفاضة عن هذه الحرب في الجزء الثامن من هذه الموسوعة ، والمهم أنه في هذه الحرب لجأ إلى مصر فتناسست موقفه ضدها وقدمت له الأسلحة والذخائر والخبرات ، كما أخذ من عرب الخليج مليارات الدولارات ، وقد صرح الملك فهد ملك السعودية أن بلاده دفعت لصدام ٢٧ ملياراً من الدولارات ، فقد أوهمها صدام أنه الحارس لدول الخليج من زحفاً تتجه إيران لتقوم به عليها •

واستمرت هذه الحرب ثمانى سنوات (١٩٨٠ — ١٩٨٨) وسقط فيها مليون شهيد وجريح ودمرت مدن وأحرقت مزارع ونخيل ، ويئست العراق من النصر فاتجهت لاستجداء وقف إطلاق النار •

والعجيب أنه بعد أن توقفت الحرب سنة ١٩٨٨ وبعد أن اتجه صدام حسين إلى حرب مدمرة أخرى هي زحفه على الكويت ذلك الزحف الذي سنتكلم عنه فيما بعد ، بعد هذا عاد صدام حسين يعلن الموافقة على معاهدة الجزائر التي كان قد ألغها وأعلن الحرب بسببها ، كما أخلى كل المناطق الإيرانية التي كان قد استولى عليها •

والإنسان يتساءل : لماذا كانت إذن حرب الثمانى سنوات والمليون شهيد وجريح ، ولماذا كان التدمير الذي حل بالبلدين المسلمين

صراع صدام بعد إيران :

ولم تطل مدة السلام بالعراق بعد توقف الحرب مع إيران ، فإن

صدام سرعان ما خاصم مصر ، وتوقف عن دفع أجور المصريين الذين كانوا يساعدون العراق أيام محنتها ، بل أغرى بعض العراقيين بقتل بعض العمال المصريين ، فكم من إنسان مصرى عاد لمصر في تابوت الموتى ، ثم اتجه صدام للزحف على الكويت وتهديد دول الخليج وضرب السعودية ، وذلك ما سنشرحه في الدراسة التالية :

أحداث المراق والكوييت

١٩٩١ - ١٩٩٠

مقدمة :

عن أحداث العراق والكويت كتبت كتاباً مستقلاً عنوانه :

أحداث العراق والكويت

ماذا أبرزت من آلام ؟ وما السبيل لحلّها ؟

دراسة تاريخية نفسية محايدة

وتعاقدت مع الأستاذ أحمد رائف مدير مؤسسة الزهراء للإعلام العربي على نشره ، وكان ذلك في ١٩٩١/٦/١ ولأنه كتاب متصل بأحداث الحرب كان الواجب أن ينشر فوراً ، ولكن هذا الناشر نشر في ذلك الموضوع حوالي مائة كتاب ، ولم يكن كتابي هذا من بينها ، ولما حدثته في ذلك تبين أنه يعمل بعلاقة خاصة مع الكويت ، وبالتالي يريد حذف عدة صفحات من الكتاب ، ورفضت طبعا باسم الحيادة التي أدين بها دائما .

ولا تزال المشكلة بدون حلّ حتى الآن (أوائل سنة ١٩٩٢) وأنا هنا أكتب موجزا لأحداث العراق والكويت استكمالا لهذا الجزء السابع من « موسوعة التاريخ الإسلامي » الذي يشمل تاريخ هاتين الدولتين ضمن دولّ الجزيرة العربية .

وينبغي أن يتضح أن هذا الموجز لا يغنى عن الدراسة الشاملة بالكتاب الذي ذكرناه آنفاً ، ففي الكتاب دراسات تفصيلية مهمة ، وإحصائيات خطيرة ، وخرائط توضح الأمور ، وصور تكشف القاري ، وليس ما أكتبه هنا إلا إشارة سريعة لهذا الموضوع .

والخلاف بين العراق والكويت قديم نوعا ما ، وكان يثور ثم يهدأ ، ولكنه في هذه المرة ثار ولم يهدأ ، وكان مدمرا للعراق والكويت جميعا ، فما الأسباب الإجمالية لهذا الصراع ؟

في تقديرى إن أهم الدوافع لهذا الصراع هى كما يلى :

١ — **المنفذ على الخليج** : فمنفذ العراق للخليج ضيق جدا ، أما الكويت فكلها تقع فى قلب الخليج ، وبسبب ضيق منفذ العراق لم يحسب العراق من دول الخليج •

٢ — **الحق التاريخى** : تدعى العراق أن الكويت كانت جزءا من لواء البصرة ، ولم أر فى المصادر التاريخية ما يؤيد هذا الادعاء ، بل إن الكويت قد وجدت وشهدت الأنظار قبل أن يتكون العراق بألويته المختلفة •

٣ — **الثراء الكويتى** : وهو ثراء باهظ يسيل له اللعاب ، ولو كانت الكويت صحراء جرداء كما كانت قبل البترول ما اهتم العراق بها •

ولكن الحق أن ثراء الكويت لم يكسب مواطننا صالحا بالكويت فى الكثير الغالب ، وكثير ممن ينسبون للكويت اتجهوا للعبث واللهو فى الأقطار المختلفة خلال المحنة •

٤ — **الجشع العراقى** : العراق بلاد غنية جدا بمصادر ثراء متعددة ، ولكنها رأت أنها تحتاج لمزيد من الغنى فهاجمت الكويت لتضيف ثراء إلى ثراء •

وهكذا بدأت مشكلة العراق والكويت هذه المرة فى ١٨ يونيو حين أثار العراق هذه القضية ، وفجّر بعنف ذلك الموضوع لدى الجامعة العربية ، وقد حاولت هذه الجامعة كما حاول الزعماء العرب العثور على حل • ولكن فى الثانى من أغسطس سنة ١٩٩٠ فوجئ العالم بزحف العراق على الكويت ، وطارأت أسيرة الصباح إلى السعودية ، وسرعان ما ادعت العراق أن الكويت جزء من العراق ، ثم قامت بسلب ما غلا ثمنه وقلّ حمله أو قلّ ما غلا وما رخص ، ونقلته إلى العراق وقد قدم مندوب الكويت بالأمم المتحدة قائمة طويلة عن هذه المسلوبات سجلتها بكتابى عن هذه الحرب ، كما ارتكبت العراق كثيرا من الظلم والقسوة ضد شعب الكويت المهزوم •

وثار العالم كله تقريبا ضد العراق وضد قسوتها على الكويت ، وقرر مجلس الأمن إدانة العراق وطالب بالانسحاب الفوري ، وجرت محاولات عديدة لإقناع العراق بالانسحاب ولكن دون جدوى ، فإن العراق لم تسمع لأى نصح ، ولم تهتم بأى تهديد ، كأن الأمر لا يعنيتها ، أو كأن عندها قوة تهزم العالم •

الحرب :

ولم يبق ، إلا الحرب وسيلة لإخراج العراق ، وقد تزعمت الولايات المتحدة بحماسة هذا الموضوع ودعت العالم للمشاركة فيه : فاستجابت لها سبع وعشرون دولة بعضها من الدول العربية والإسلامية • ومنها إنجلترا وفرنسا وإيطاليا كما دفعت ألمانيا واليابان جزءا كبيرا من تكاليف المعركة •

وقد تحدد يوم ١٥ يناير ١٩٩١ موعدا لبدء المعركة إذا لم تخرج العراق من الكويت ، ولم تهتم العراق بهذا التحديد ، وجاء الموعد المحدد فاندفعت أسلحة الدمار تضرب العراق بقسوة كأنها كانت تنتظر هذه الفرصة لتقضى على العراق الذى هدد إسرائيل يوما من الأيام •

وقبل أن تبدأ المرحلة الأخيرة من مراحل الحرب وهى المرحلة البرية جرت محاولات جديدة لإقناع العراق بالخضوع لقرارات مجلس الأمن بعد ما نزل بها من دمار ولكنها رفضت ، فبدأت المعركة البرية التى استغرقت مائة ساعة جهات العراق تستسلم تماما لقرارات الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، وعلى هذا الأساس توقفت الحرب •

ضحايا الحرب :

كانت ضحايا هذه الحرب عنيفة وقاسية وأخطر ما بها ما يلى :

— تدمير شبه شامل للعراق ويقال انها عادت للوراء خمسين عاما •

- ١٠٠.٠٠٠ قتيل من الجيش العراقي *
- عشرات الآلاف من الأهالي العراقيين قتلوا من غارات جيوش التحالف *
- عدد هائل من الأسرى العراقيين سلموا أنفسهم *
- ومن الكويت سقط حوالي ثلث السكان بما يقدر بنحو ٤٠.٠٠٠ قتيل *
- تدمير شامل لحقوق البترول وإشعال النار في آبار البترول بالكويت ونجى هنا نقطة مهمة شرحتها بإفادضة في الكتاب المستقل عن هذه الحرب وهي : الإسلام والاستعانة بغير المسلمين في حالة العدوان *
- وهي دراسة فقهية شافية لا تحتل الإيجاز ولذلك أشير لها هنا ، وعلى الراغب في التعرف عليها أن يهود لذلك الكتاب ، وهي تشهل بوجه خاص الاستعانة بغير المسلمين ضد المسلمين *

صمود جيش العراق !!!

ظهرت كتابات تقرير أن جيش العراق صمد لكل دول التحالف حوالي شهر ، وفي تقديري إن هذه مغالطة ، لأن جيش العراق لم يظهر في أية معركة ، ولا قاوم الزحف العاتي بأية صورة من الصور ، ولذلك لا أستطيع أن أصفه بالصمود ، وإنما بالاستسلام للأقدار من أول ضربة إلى آخر ضربة *

تاريخ رجل :

الحديث عن هذه الحرب والحروب التي سبقتها ضد إيران والحروب الداخلية بعدها ضد الأكراد والشيعية التي أشعلها صدام حسين عقب إعلان الاستسلام لشروط دول التحالف ، هذه الحروب تحتم أن نتحدث عن الانطباع الذي تتركه هذه الحروب في ذهن المفكر والمؤلف : وهذا الانطباع استدعى أن يشمل الكتاب الذي أشرنا إليه دراسات عن تاريخ صدام حسين والوسائل التي يصطنعها لحمايته وأهمها :

- يستعين صدام حسين بأهله لحمايته من الجماهير *

- يحتفظ برهائن عنده حتى يضمن ولاء الأسير والقبائل •
- يحكم بالإعدام على منافسيه وينفذ الحكم •
- أعد لنفسه مخبأ أسطوريا •

تسلسل عدوان صدام :

- ضد مصر التي استبعدتها في مؤتمر بغداد سنة ١٩٧٩ من المحيط العربي •
- حرب قاسية ضد إيران استمرت ثمانية سنوات وسقط فيها حوالي مليون شهيد وجريح من الطرفين ، وقد تحدثنا عنها آنفا •
- بعد وقف الحرب مع إيران عاد لمشاغبة مصر وتهديدها بأن تُضرب بواسطة السودان من الجنوب •
- هاجم الكويت ، ذلك الهجوم المدمر والبعيد عن الخلق والشهامة — هدد السعودية ثم ضربها •
- وبعد فشل هذه الحروب اتجه لضرب العراقيين في الشمال والجنوب

عناوين مهمة في هذا الموضوع :

بعد هذا تجيء دراسات خطيرة ومهمة ، وأنا هنا أدوّن عناوينها فقط فهي لا تحتمل الإيجاز :

- العراق وما فعله في بترول الكويت •
- العراق والمباني الشاهقة بالكويت •
- العراق والدم : تسلسل المعارك الدموية طيلة تاريخ العراق بدءاً من حرب الجمل في البصرة حتى قتل عبد الكريم قاسم في التاريخ الحديث •
- العراق تُحكّم فترة طويلة بقوى ليست عربية ولا إسلامية •
- العراق وإسرائيل ، وقضية ضرب إسرائيل بالصواريخ •

- العراق وإيران .
- العراق ومنظمة التحرير .
- العراق ومصر .

كلمات ختامية :

تشمل هذه الكلمات اقتراحاتنا حول الوسائل التي يمكن أن نتقّى بها أمثال هذه الحروب والصراعات ، وفي تقديرى أن الوسائل هي :

١ — الديقراطية الحقيقية ، فلو كان بالعراق ديمقراطية حقيقية ما استبدَّ صدام حسين بالأمور بها .

٢ — القوة : يتحتم أن توجد عند العرب والمسلمين قسوة ذاتية لهمايتهم ، فالل بدون قوة تحديه لا قيمة له .

٣ — العدالة الاجتماعية : فلا يمكن في نظر الإسلام أن توجد دولة كالكويت تمتلك المايلات وسط محيط من الجائعين وسكان القبور .

واخيرا موضوع مهم هو :

مجرم حرب ٠٠٠ دن ؟

هل هو صدام حسين لأنه فعل ما شاهدناه في الكويت والعراق جميعا ؟

أو هو زعيم أمريكا الذى انتهز هذه الفرصة لتدمير دولة عربية إسلامية من أجل حماية إسرائيل كما صرح هو بذلك ؟

أو أن مجرم الحرب هو أسلوب الحياة في الكويت ، ذلك الأسلوب الذى عمّد لجمع مليار فوق مليار وإن جاع الناس جميعا حوله .

وعن هذا الموضوع سيجد القارئ في هذا الكتاب دراسة واسعة .

شذرات ختامية :

تحت هذا العنوان عرضت الأضرار الاقتصادية التي نزلت بـدول المنطقة .

وتكلمت كذلك عن أمريكا التي تكيل بهيكلين

ثم تكلمت عن الفكر الإسلامي في الموقف بعد الحرب ، ودعوت إلى عدم المبالغة في التعويضات ، فاليتامى الذين أوجدتهم هذه الحروب سيميلون إلى الرشد يوما ، ونخشى إن توجد في نفوسهم روح الثأر والانتقام إن لم نخفف الضغط عاينهم .

وبعد

كانت كلمة الختام لهذا الكتاب هي :

لقد كتبت هذا البحث بكل الصدق والإخلاص ، وكان قلبي يخفق مع الأحداث التي مرّت ببلادى العربية ، وكان يخفق مرة أخرى وأنا أدوّن هذه الأحداث وأعلّق عليها ، ولعله انتضح من هذا البحث أن المشكلات التي احتواها لم تبدأ فقط في الثاني من أغسطس سنة ١٩٩٠ بل بدأت قبل ذلك ، ولم تنته في فبراير سنة ١٩٩١ بل استمرت بعد ذلك ، إنه عرض لأحداث ومواقف خطيرة مرت ولا تزال تتوالى على عالمنا العربي والإسلامي .
إننى إذ أقدمه للأجيال الحاضرة وأجيال المستقبل أتمنى أن تنتفع به هذه الأجيال ، والخير أردت وما توفيقى إلا بالله .

وأخيرا أيها القارئ الكريم أذكر لك أن الناشر أحمد رائف لم يطبع الكتاب حتى الآن ، وكأنه اشتراه لا لينشره بل ليسجنه أو يقتله ، وقد كتبت إليه أقرر أن مال الأرض ما كان يكفينى لو كنت أعرف أنه أخذ الكتاب لسجنه ، وأنا الآن أحاول أن استعيد هذا الكتاب ، وقد توسّط الكثيرون لهذا ، ولعلنا ننجح ، وإلى اللقاء في الجزء الثامن والله المستعان .

ثبت المراجع

ملحوظتان :

١ - المصادر المذكورة هنا هي التي اعتمد عليها هذا الكتاب ووردت في ذيل صفحاته ، أما المراجع الأخرى التي أسهمت فيه بطريق غير مباشر فلم تذكر في هذه القائمة .

٢ - الطريقة التي اتبعت في تنظيم هذه القائمة سيء على عدم اعتبار المحطات (ابن وال) .

١ - مجموعة وثائق لدى وزارة الخارجية البريطانية والخارجية السعودية .

٢ - تقويم البلدان الإسلامية من عمل المؤتمر الإسلامي بكراتشي .

٣ - سلطنة عمان من مطبوعات وزارة الثقافة العمانية .

٤ - عمان الماضي والمستقبل من مطبوعات وزارة الثقافة العمانية .

٥ - عمال والساحل الجنوبي للخليج الفارسي من مطبوعات شركة الزيت العربية الأمريكية .

٦ - مشكلة البوري من مطبوعات سفارة المملكة العربية السعودية بجاكرتا .

٧ - دليل الكويت العام .

٨ - Encyclopaedia of ISLAM

٩ - Encyclopaedia Britannica

١٠ - معاهدات ووثائق .

١١ - صحف ومجلات ودوريات كثيرة .

١٢ - أحد علماء الإباضية كشف الغمة الجامع لأحكام الأئمة .

١٣ - مقابلات شخصية لزعماء أسهموا في صنع التاريخ .

١٤ - لقطات مما أذاعه الزعماء بالاذاعة والتليفزيون .

١٥ - أن بلنت رحلة إلى نجد .

- مرآة الحرمين
- ١٦ - ابراهيم رفعت
- ١٧ - ابراهيم بن صالح
- ابن عيسى
- ١٨ - ابراهيم عبده
- ١٩ - ابراهيم العدوى
- ٢٠ - ابن أبي الحديد
- ٢١ - ابن الأثير
- ٢٢ - ابن الأثير
- ٢٣ - أحمد أمين
- ٢٤ - أحمد حسين شرف الدين
- ٢٥ - أحمد الشرباصي
- ٢٦ - أحمد شلبي
- ٢٧ - » »
- ٢٨ - » »
- ٢٩ - » »
- ٣٠ - » »
- ٣١ - » »
- ٣٢ - أحمد عطية الله
- ٣٣ - الأزرقى
- ٣٤ - الاصطخرى
- ٣٥ - أمين الريحانى
- ٣٦ - أمين سعيد
- ٣٧ - ابن اياس
- ٣٨ - بدوى محمد فهد
- ٣٩ - Palgrane
- ٤٠ - Bad ger
- ٤١ - Bohen
- ٤٢ - Buckingham
- ٤٣ - برنارد لويس
- ٤٤ - البغدادى
- ٤٥ - أبو بكر بن العربى
- ٤٦ - البلاذرى
- ٤٧ - البلوى
- ٤٨ - Browne
- تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد
- دولة الكويت الحديثة
- العرب والتتار
- نهج البلاغة
- النهاية في غريب الحديث
- الكامل في التاريخ
- زعماء الاصلاح في العصر الحديث
- اليمن عبر التاريخ
- أيام في الكويت
- موسوعة التاريخ الإسلامى (الأجزاء الأخرى)
- موسوعة الحضارة الإسلامية (١٠ أجزاء)
- اليهودية من سلسلة مقارنة الأديان
- المسيحية » » » »
- الإسلام » » » »
- أديان الهند الكبرى
- القاموس الإسلامى
- أخبار مكة وما جاء فيها من آثار
- المسالك والممالك
- نجد الحديث وملحقاته
- اليمن
- بدائع الزهور
- تاريخ العراق في العصر العباسى الأخير
- Narrative of a year's journey :
- through Central and Eastern Africa
- History of Imam and Sayyids of Rman
- The persian Gulf :
- Travels in Assyria, Micca, and Persia
- The Origin of ISMAILISM
- الفرق بين الفرق
- العواصم من القواصم
- فتوح البلدان
- سيرة أحمد بن طولون
- تاريخ ايران الادبى

- ٤٩ - تاج الدين بن عبد المجيد اليماني بهجة الزمن في تاريخ اليمن
٥٠ - التبريزي شرح الفصائد العشر
٥١ - تريسون ظهور نمه صنعاء
٥٢ - ابن تيمية رسالة معراج الوصول
٥٣ - » » الفصيحة النواسطية
٥٤ - » » قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة
٥٥ - ثابت بن سنان تاريخ اخبار القرامطة
٥٦ - الجاحظ البيان والتبيين
٥٧ - جاد طه سياسة بريطانيا في الجنوب العربي
٥٨ - جان جاك بيرى الخليج الفارسي
٥٩ - الجبرتي تاريخ الجبرتي (عجائب الآثار)
٦٠ - جعفر حسين العراق في عهد المغول الايلخانيين
٦١ - جمال الدين الشعراني التاريخ السياسي للمملكة العربية السعودية
٦٢ - جمال الدين يوسف ابن يعقوب
٦٣ - جواد علي تاريخ العرب قبل الإسلام
٦٤ - جورجى زيدان التمدن الإسلامى
٦٥ - » » العرب قبل الإسلام
٦٦ - ابن الجوزي ثلبيس ابليس
٦٧ - » » المنتظم في أخبار الملوك والأمم
٦٨ - جون فيلبى دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية
٦٩ - Gerald de Gaury Rulers of Mecca :
٧٠ - Jovaini The History of world conquerers :
٧١ - حافظ أحمد حمدى الشرق لإسلامى
٧٢ - حافظ وهبه جزيرة العرب في القرن العشرين
٧٣ - ابن حجر العسقلانى الاصابة في تمييز الصحابة
٧٤ - ابن حزم الملل والنحل
٧٥ - حسن ابراهيم حسن تاريخ الإسلام
٧٦ - » » الفاطميون في مصر
٧٧ - أبو الحسن الملقى التشبيه والرد على أهل الأهواء والبدع
٧٨ - حسين بن أحمد بلوغ المرام
٧٩ - حسين بن غنام روضة الأفكار
٨٠ - » » تاريخ نجد
٨١ - حسين مؤنس الشرق الإسلامى في العصر الحديث
٨٢ - حسين محمد نصيف ماضى الحجاز وحاضره

- تاريخ الكوفة
كشف أسرار الباطنية
المسند
كتاب صورة الأرض
تاريخ الكويت السياسي
العسير
وفيات الأعيان
دول الإسلام
بغية المستفيد
قرة العيون
Said bin Sultan, Ruber of Oman and East Africa :
تاريخ دول الإسلام
جامع التواريخ
الخلافة
التعريفات الشافية
أشهر مشاهير الإسلام
The Golden Bubble, Arabian Gulf : Documentary.
ملوك العرب
معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في
التاريخ الإسلامي
تاريخ العروس
دولة بوسعيد
المستقصى من أمثال العرب
البلاد العربية والدولة العثمانية
العنوان في تاريخ عمان
تحفة الأعيان في تاريخ عمان
تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة
الرافدان
Concise Encyclopædia
of Arab civilization
الضوء اللامع
معالم تاريخ الجزيرة العربية
الهدية السنوية
تبرئة الشيخين
(م ٥٠ - التاريخ ج ٧)
٨٣ - حسين النجفي
٨٤ - حماد اليماني
٨٥ - ابن حنبل
٨٦ - ابن حوقل
٨٧ - خزرغل
٨٨ - ابن خلدون
٨٩ - ابن خلكان
٩٠ - الذهبي
٩١ - ابن الربيع
٩٢ - » »
٩٣ - Ruets
٩٤ - رزق الله الصديقي
٩٥ - رشيد الدين
٩٦ - رشيد رضا
٩٧ - رفاعة الطهطاوي
٩٨ - رفيق العظم
٩٩ - Radric Owel
١٠٠ - الريحاني
١٠١ - زامياور
١٠٢ - الزبيري
١٠٣ - زكريا قاسم
١٠٤ - الزمخشري
١٠٥ - ساطع الحصري
١٠٦ - سالم بن حمود
١٠٧ - الساملي
١٠٨ - ستانلي لين بول
١٠٩ - ستيون لويد
١١٠ - Stephen and :
Handy Ronart
١١١ - السخاوي
١١٢ - سعيد باوزير
١١٣ - سليمان بن سحمان
١١٤ - » » »

- طبقات فقهاء اليمن
الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربي
وجنوب الجزيرة
حسن المحاضرة
تاريخ الخلفاء
تراجم رجال القرنين السادس والسابع
حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول
حاضر العالم الإسلامي
اليمن الإنسان والحضارة
لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب
الملل والنحل
تاريخ حضرموت
دخول الإسلام الى حضرموت
مقتطفات من تاريخ حضرموت السياسي
جزيرة العرب في العصر الحديث
زنجبار
تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها
وحاضرها
فيصل بن عبدالعزيز من خلال أقواله وأفعاله
تاريخ حضرموت السياسي
الفخري
تاريخ الأمم والملوك
أربع رسائل اسماعيلية
الاستيعاب
الاصابة
فتوح مصر
السلوك في طبقات العلماء والملوك
الأمسوال
عصر محمد علي
البحرين في صدر الإسلام
قضية كينيا
المقتطف من تاريخ اليمن
تاريخ اليمن
عنوان المجد في تاريخ نجد
- ١١٥- ابن سمرة
١١٦- سيد نوفل
١١٧- السيوطي
١١٨- »
١١٩- أبو شامة
١٢٠- شكرى فيصل
١٢١- شكيب أرسلان
١٢٢- الشماخي
١٢٣- الشهاب
١٢٤- الشهرستاني
١٢٥- صالح بن حامد العلوي
١٢٦- صالح بن سعيد
١٢٧- صلاح البكري
١٢٨- صلاح العقاد
١٢٩- » » وجمال قاسم
١٣٠- صلاح الدين المختار
١٣١- صلاح الدين المنجد
١٣٢- صلاح الدين اليافعي
١٣٣- ابن طباطبا
١٣٤- الطبري
١٣٥- عارف تامر
١٣٦- ابن عبد البر
١٣٧- » »
١٣٨- ابن عبد الحكم
١٣٩- أبو عبدون الجندی
١٤٠- أبو عبيد
١٤١- عبد الرحمن الرافعي
١٤٢- عبد الرحمن النجم
١٤٣- عبد العزيز كامل
١٤٤- عبد الله الجعراي
١٤٥- عبد الواسع بن يحيى
الواسعي
١٤٦- عثمان بن بشر

- اليمن وحضارة العرب
الفرمطي صاحب الخال
صله تاريخ الطبري
رسالة العفران
الحليج الفارسي عبر الفرون والأعصار
العقود اللؤلؤية
نشأه الفكر الفلسفي
تاريخ اليمن
جغرافية شبه جزيرة العرب
عهد الجمان في تاريخ أهل الزمان (مصور
بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤)
فضائح الباطنية
الاحياء
تاريخ الغياثي
الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق
كتاب البلدان
مجموعة منشآت السلاطين
اتحاد الوري
تاريخ المخلاف السليماني
قلب جزيرة العرب
المغول في التاريخ
ثورة ظفار
الحوادث الجامعة
تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين
لبنان في التاريخ
History of the Arab Arabs
ذيل تاريخ دمشق
صبح الأعشى
زاد المعاد
المملكة العربية السعودية
Eastern Arabian Frontiers :
البداية والنهاية
كتاب الأصنام
تاريخ مصر وولاتها
المرأة في الكويت
- ١٤٧- عدنان ترميس
١٤٨- ابن العديم
١٤٩- عريب بن سعد
١٥٠- أبو العلا المعري
١٥١- علير ضارزا محمد
١٥٢- علي بن الحسن الخزرجي
١٥٣- علي سامي النشار
١٥٤- عمارة اليمني
١٥٥- عمر رضا كحالة
١٥٦- العيني
١٥٧- الغزالي
١٥٨- »
١٥٩- الغياثي
١٦٠- فاضل الخالدي
١٦١- أبو الفدا
١٦٢- فريدون باي
١٦٣- ابن فهد
١٦٤- فهد بن أحمد بن عيسى
١٦٥- فؤاد حمزة
١٦٦- فؤاد الصياد
١٦٧- فؤاد كرم
١٦٨- ابن الفوطي
١٦٩- فيليب حتى
١٧٠- فيليب حتى
١٧١- ph. Hitti
١٧٢- ابن القلانسي
١٧٣- القلقشندي
١٧٤- ابن القيم
١٧٥- كارل توتشل
١٧٦- Killy
١٧٧- ابن كثير
١٧٨- ابن الكلبي
١٧٩- الكندي
١٨٠- ليس الطحاوي

- ١٨١- لونكريك
١٨٢- لوريميل
١٨٣- الماوردي
١٨٤- أبو المحاسن بن تغري
بردي
١٨٥- محمد جمال الدين سرور
١٨٦- محمد حبيب أحمد
١٨٧- محمد أبو زهرة
١٨٨- » »
١٨٩- محمد صبيح
١٩٠- محمد طابق الافريقي
١٩١- محمد بن عبد القادر
بامطرف
١٩٢- محمد عبد الله الأنصاري
١٩٣- محمد بن عبد الوهاب
١٩٤- » » »
١٩٥- » » »
١٩٦- » » »
١٩٧- محمد عسه
١٩٨- محمد على الحضرمي
١٩٩- محمد فرج
٢٠٠- محمد بن منصور التميمي
٢٠١- محمود شكرى الألوسى
٢٠٢- محمود على الداود
٢٠٣- محمد كرد على
٢٠٤- أبو مخرمة
٢٠٥- مسعود الندوى
٢٠٦- المسعودى
٢٠٧- مصطفى الدباغ
٢٠٨- مصطفى غالب
٣٠٩- المقدسى
٢١٠- المقرئى
٢١١- »
- أربعة قرون فى تاريخ العراق الحديث
دليل الخليج
الاحكام السلطانية
النجوم الزاهرة
سياسة الفاطميين الخارجية
بهضة الشعوب الإسلامية
ابن تيمية
تاريخ المذاهب الإسلامية
مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية
المملكة العربية السعودية بين الأمس واليوم
فى سبيل الحكم
تحفة المستفيد
كتاب التوحيد
مختصر تفسير ابن كثير
كتاب المسائل التى خالف فيها رسول الله
أهل الجاهلية
مختصر زاد المعاد
معجزة فوق الرمال
بيان نشر فى مؤتمر المسجد بمكة المكرمة
سنة ١٣٩٥ هـ
الأمة العربية
افتتاح الدعوة الزهراء (مخطوط)
تاريخ نجد
الخليج العربى والعلاقات الدولية
الإسلام والحضار العربية
قلادة النحر
محمد بن عبد الوهاب
مروج الذهب
قطر ماضيها وحاضرها
الحركات الباطنية فى الإسلام
أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم
اتعاظ الحنفا
السلوك فى معرفة الدول والملوك

- الخطط ٢١٢- »
الحسن الأعصم ٢١٣- »
تاريخ المملكة العربية السعودية ٢١٤- منير عجلانى
مجمع الأمثال ٢١٥- الميبدانى
معجم الأنساب ٢١٦- »
سفر نامه ترجمة الخشاب ٢١٧- ناصر خسرو
كلشن خلفا ترجمة موسى كاظم ٢١٨- نظمى زاده مرتضى
جلاء العينين ٢١٩- نعمان خيرالدين الألوسى
نهاية الأرب فى فنون الأدب ٢٢٠- النوويرى
سيرة ابن هشام ٢٢١- ابن هشام
الإكليل ٢٢٢- الهمدانى
عقيدة الشيعة ٢٢٣- هوايت دونالدش
مفرج الكروب ٢٢٤- ابن واصل
جريدة العجائب ٢٢٥- ابن الوردى
اليمن الكبرى ٢٢٦- الويسى
Travels in Arabia ٢٢٧- Wellesled
معجم البلدان ٢٢٨- ياقوت
غاية الأمانى ٢٢٩- يحيى بن الحسين
تاريخ اليعقوبى ٢٣٠- اليعقوبى

فهرس الأعلام

ملاحظات :

- ١ - تحاشيا للاطالة لم أضمن هذه الفهارس أسماء المؤلفين اكتفاء بورودها في ذيل صفحات الكتاب وفي قائمة المراجع .
- ٢ - ولم أضمن هذه الفهارس الأسماء التي وردت في قوائم الأئمة خلال عهد آل نبهان وبعدهم بعمان ، ولا الأئمة العلويين باليمن اكتفاء بورود هذه الأسماء في هذه القوائم الطويلة .
- ٣ - رتب هذه الأسماء ترتيبا أبجديا مع عدم اعتبار الملحقات (ابن-ال) .

حرف الألف

- | | |
|--------------------------------------|----------------------------------|
| أبو حمزة الشاري : ٣٩٢ | أبان بن سعيد : ٥٢٥ |
| أبو ذر الغفاري : ٤٢٤ | ابراهيم بن أحمد المنقور : ٦٥ ، |
| أبو زيد الهلالي : ٥٠٧ | ٧٦ ، ١٤٩ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، |
| أبو السرايا بن المنصور : ٤٢٧ | ١٥٨ ، ١٥٧ |
| أبو سعيد الجنبلي : ٣١٣ ، ٥٦١ ، | ابراهيم بن تاج الدين : ٤٣٢ ، ٤٥٥ |
| ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٦ ، | ابراهيم الجزار : ٣٩٦ ، ٤٢٧ |
| ٥٨٥ | |
| أبو سعيد بهادرخان : ٧٢٤ | ابراهيم بن حمد الجاسر : ٨٠ |
| أبو طاهر سليمان : ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، | ابراهيم الحامدي : ٤٨٠ ، ٤٨١ |
| ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، | ابراهيم بن سليمان الباهلي : ٣٩٥ |
| ٥٧٩ | ابراهيم بن العباس : ٦٩٠ |
| أبو طالوت : ٥٣١ | ابراهيم بن عبد الله : ٣٥ |
| أبو العباس السفاح : ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، | ابراهيم بن عبد الله بن طلحة : |
| أبو العباس المبرد : ٣٦٠ | ٣٩٥ ، ٣٩٦ |
| أبو القاسم المنصور : ٤٢٦ | ابراهيم بن عفيصان : ٧٤ |
| أبو عبد الله المهدي (الامام) : ٤٤١ | ابراهيم بن صالح : ٦٨ ، ٧٢ |
| أبو عبد الله العيني : ٥٢٢ | ابراهيم بن محمد بن زياد : ٤٠٤ |
| أبو عبيدة بن الجراح : ٣٨٣ | ابراهيم محمد بن يعفر : ٤١٤ |
| أبو عبيدة السكوني : ٧٠ | ابراهيم بن موسى الطالبي : ٣٩٦ |
| أبو الفتح الديلمي : ٤٣١ | ابراهيم بن يحيى حميد الدين : ٤٧٧ |
| أبو فديك : ١٠٦ ، ٥٣١ ، ٥٣٣ ، | أبو تمام : ٦٩٠ |
| أبو القاسم بن حوشب : ٤٤١ | أبو بكر السقاف : ٥٠٣ ، ٥٠٤ |
| أبو محمد الفاتكي : ٣١٥ | |
| أبو العباس السفاح : ٣٣ | |

- أحمد بن محمد بن خليفة : ٦٠٢
أحمد بن محمد بن يحيى : ٥٨
أحمد بن محمد المنقور : ٦٥ ، ٦٦
أحمد بن محمد بن مبارك : ٦٥
أحمد بن محمد (آل بسام) : ٦٤
أحمد بن محمد السديري : ٥٩٥
أحمد ناصر بن معمر : ٦٦
أحمد نعمان : ٤٧٩
أحمد الوداعي : ٤٨٧
أحمد بن يحيى : ٥٧ ، ٤٣٦ ،
٤٧٣ ، ٤٧٥
أحمد بن يحيى المرتقى : ٤٣٣
أدريس بن شايح : ٧٢
أدريس بن عبد الله : ٤٥
أروى بنت أحمد الصليحي : ٤١٨ ،
٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٣٨
اسحق بن ابراهيم : ٤٠٤
اسحق بن بى خبيصة : ٥٣٦
اسحق بن العباس : ٤١٤
اسحق بن موسى بن عيسى : ٣٩٦
السرى بن منصور : ٣٠٣
أسعد بن ابراهيم بن جعفر : ٤١٤ ،
٤١٦
اسكندر : ٤٦٢ ، ٥١٥
أسماء بنت شهاب : ٤١٨
اسماعيل الصفوى : ٧٣٥ ، ٧٣٦
اسماعيل بن طغتكين : ٤٤٧
اسماعيل بن العباس : ٤٥١
أسيد بن الأخنس : ٥٢٦
الأسود العنسى : ٣٨٤ ، ٣٨٥
الأشرف بن المنصور : ٤٣٦
الأشعث بن الجاورد : ٥٢٦
الأشعث بن قيس : ٣٨١ ، ٣٨٥ ،
٣٨٦
آشور بانيبال : ٦٨٠
أبو الغارات بن المسعود : ٤٣٩
أبو موسى الأشعري : ٣٨٢ ، ٢٨
أبو نمى الأول بن قتادة : ١٨٩
أبو نمى الثانى بن قتادة : ١٨٩ ،
٤٠٣
أحمد بن اسماعيل الهاشمى : ٣٩٦
أحمد بن الأشرف بن رسول : ٤٥١
أحمد بن أويس : ٧٢٥
أحمد بن أبى سعيد الجنائى : ٥٧٢ ،
٥٧٣ ، ٥٧٩
أحمد باشا : ٥٨٦ ، ٥٩٠ ، ٥٩٢
أحمد بأناعمة : ٥٠٨
أحمد بن جابر : ٦٦٢ ، ٦٦٣ ،
٦٦٥
أحمد الجلائرى : ٧٢٦ ، ٧٢٧
أحمد حسن البكر : ٦٠٧ ، ٦٠٨
أحمد بن حسن : ٥٨٨ ، ٥٨٩
أحمد بن الحسين : ٤٥٥ ، ٤٥٦
أحمد بن الحسين بن القاسم : ٤٥١
أحمد بن دريد : ٣٦٠
أحمد بن راشد المعلا : ٦٣٨
أحمد بن سعيد : ١١٥ ، ١١٦ ،
١٤٠ ، ٢٠٨ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ،
٣٣٦ ، ٣٣٥
أحمد بن سليمان : ٤٠٨
أحمد الطويل : ٥٨٤
أحمد بن عبد الكريم : ٤٨٧
أحمد بن عبد الله ابن معمر : ٨٦
أحمد بن آل على ثانى : ٦١٩ ، ٦٢٠
أحمد بن آل على خليفة : ٦١٩
أحمد بن على بن مشرف : ٦٥
أحمد بن سعيد : ٢٦٧
أحمد بن صالح : ٦٠
أحمد بن ماجد : ٤٥٨ ، ٤٥٩
أحمد بن محمد الأشيقري : ٦٤

بكر صدقي : ٦٠٣
بكر بن وائل : ٥٢٣ ، ٦٨٦
بلعرب بن سلطان بن صدقي : ٢٨١
٣٢٧ ، ٣٢١
بلقيس : ٥٨١
بهاء الدين عثمان : ٧٣٠
البهلول محمد بن يوسف : ٥٨٣ ،
٥٨٧
بو سفنجة ميرزا : ٧٣٢
بيرام خواجه : ٧٢٧
بير بوداق : ٧٢٧

حرف التاء

تاوندو خاتون : ٧٢٦
تركي بن سعيد : ٣٣٤ ، ٣٣٥ ،
٣٣٧
تركي بن عبد الله : ٧٣ ، ٧٤ ،
١٤٥ ، ٩٦ ، ١١٨ ، ١٤٥
تميم بن سعيد : ٤٣٦
توبة بن تمر الحضرمي : ٥٠٨
توران شاه : ٤١٠ ، ٤٤٠ ، ٤٤٤
توفيق السويدي : ٦٠٥
تويني بن عبد الله : ١٤٤
تيمور لنك : ٧٠٣ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ،
٧٢٧
تيمور بن فيصل : ٣٣٤ ، ٣٣٥ ،
٣٤٠ ، ٣٣٩
توجو : ٧٢١
توفيق باشا : ٥٢٦
توجورت اوزال : ٤٨٢

حرف الثاء

ثاني بن محمد : ٦١٦

الاصمعي : ٦٨٩
أم فاتك : ٤٠٨
أنوشتكين : ٧٠٥
أنور السادات : ٢٢١ ، ٢٢٢
أنيش الفاتكي : ٤٠٧
أوس بن ضمج : ٣٩٢
أويس بن ولد : ٧٢٥
أوغورلي : ٧٣١
أوكتاي : ٧١٠ ، ٧١٣
اباس باشا : ٥٨٨
أيد بن ضريحة : ٩١
أيوب بن جعفر : ٣٩٥
أيوب بن يحيى الثقفي : ٣٩٠

حرف الباء

بايدوخان : ٧٢٣
بابر : ٧٠٣
باذان : ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢
بايسنقر ميرزا بن يعقوب : ٧٣٠
البدر بن أحمد : ٤٢٩ ، ٤٣٦ ،
٤٧٦ ، ٤٧٧
بدر الدين بن رسول : ٤٥٠
بدر الكثيري : ٤٩٠
بدر بن سيف بن أحمد : ٣٤٥ ، ٣٥٠
البراء بن عازب : ٣٨٨
براك بن غرير الخالدي : ١٠٨ ،
٥٩٤
برسبای : ٤٦٣
بركات (الشريف) : ١١١
بركات بن محمد بن اسماعيل : ٢٨٣
بسر بن أرطاه : ٣٨٨
بشر بن المغيرة : ٣٦٠
بطين بن عريعر : ٥٣
بغا الكبير : ٣٥

جوهـر الصقلى : ٤٢١ ، ٥٥٣ ،
٥٧٧ ، ٥٧٦

جوهـر المعظمى : ٤٣٩
الجوهرة بنت عبد الله بن جعفر :
٨٧ ، ١٢٥

جياش بن نجاح : ٤٠٦ ، ٤٠٧
جيـفر : ٢٦١ ، ٢٩٩
جيهان شاه : ٧٢٨ ، ٧٢٩

حرف الحاء

حابس بن سعيد الطائى : ٣٨٧
حاتم بن أحمد الهمدانى : ٤٢١ ،
٤٢٢

حاتم الهمدانى المغلس : ٤٢١
الحارث الحميرى : ٣٨١
حارثة بن قدامة السعدى : ٣٨٩
حازم بن خزيمة : ٣٠٧
حامد سعيد : ٣٣٦
الحجاج بن يوسف : ٣٠٣ ، ٣٠٤ ،
٦٩٤

حذيفة بن محض : ٢٥ ، ٣٠١
حذيفة بن اليمان : ٤٢٤
حريث بن مسعود : ٥٧١
حسام الدين التويريزى : ٤٥٢
حسان بن الجراح : ٥٧٧
حسن أوزون : ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٥
الحسن الادريسى : ١٨٤
الحسن الأعصم : ٥٧٣ ، ٥٧٤ ،
٥٧٥ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩
حسن باشا : ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩١
الحسن بن حوشب : ٤٤٢
الحسن بن سعيد : ٣١٦
الحسن الصباح : ٦٩٩ ، ٧١٤
حسن عبد الله بن عبد الله : ٦٦

ثنيان أبا الخيل : ٧٣
ثوينى بن سعيد : ٣٣٣ ، ٣٣٥

حرف الجسيم

جابر بن زيد : ٢٨٠
جابر بن عبد الله : ٤٢٤ ، ٦٦١
جابر بن المبارك : ٦٦١ ، ٦٦٢ ،
٦٦٤

الجارود بن بشر : ٥٢٧
جرير البجلي : ٢٨ ، ٦٨٦
جبلـة بن الأيهم : ٤٤٩
جلال الدين منكبرى : ٧٠٨ ، ٧١٠ ،
٧١١

جلال الدين على بن عثمان : ٧٣٢
جعفر بن ابراهيم : ٤٢٤
جعفر الحسنى : ١٨٧
جعفر الصادق : ٥٥٩
جعفر بن على الهاشمى : ٤١٣
جعفر بن عمر : ٤٩٠
جعفر الموصلى : ٦٩١
جعفر الهجرى : ٥٧٨ ، ٥٨٠
جعفر بن ورقاء الشيبانى : ٥٦٧
جعلان التركى : ٥٤٥
جلال الدين بن خوارزم شاه : ٧٠٨
جلال الدين على بن عثمان : ٧٣٠
جلندى بن سعيد : ٢٨٢ ، ٣٠٧
جلندى بن مسعود الجلندى : ٣٠٨ ،
٣١٠

جلوى بن تركى : ٧٥ ، ٧٧
جميل المدفعى : ٦٠٣
جندب بن عمر الروسنى : ٣٨٧
جنكيز خان : ٧٠١ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ،
٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨ ،
٧٠٩

حميدان بن تركي : ٦٦
 حمد بن ابراهيم : ٧٣
 حمد حسين بن طوق : ٨٥
 حمد بن خليفة : ٦٢١
 حمد السليمان : ٧٥
 حمد بن عبد الله آل ثاني : ٦١٩
 حمد العبد الله آل يحيى : ٧٧
 حمد بن عيسى بن خليفة : ٦٠٣
 حمد بن ناصر : ٦٦
 حمدوية بن عيسى : ٤٢٧
 الحميدى بن فيصل : ٧٥
 حماس بن القليب الهمداني : ٤٢٢
 حمورابي : ٣٦٣ ، ٦٨٠
 حمير بن الحارث : ٤١٣

حرف الخاء

خالد بن سعود : ١١٨ ، ١٦٣
 خالد بن سعيد : ٢٥ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥
 خالد بن العاص : ٣٠
 خالد بن عبد الله القسري : ٦٩٤
 خالد بن عبد العزيز : ١١٨ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥
 خالد بن الوليد : ٢٥ ، ١٢٧ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥
 خردلة بن سماعة : ٣١٨
 الخريب بن راشد : ٩١
 الخليل بن أحمد الفراهيدي :
 ٣٦٠ ، ٦٨٩
 خليل حفيد جهانكير : ٧٣٠
 خليل بن شاذان : ٢٨٣ ، ٣١٧
 خليفة بن حمد الثاني : ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١
 خليفة بن سليمان : ٦٠٣
 خليفة بن شخبوط : ٦٣٢

الحسن بن علي : ٣٤ ، ٦٩١ ، ٦٩٢
 حسن بن علي بن غائص : ١٨٥
 حسن علي بن جيهان شاه : ٧٢٩
 حسن بن الكثيري : ٥٠١
 حسن العمرى : ٤٧٩
 حسن بن محمد بن عبدالوهاب : ٨٩
 حسن بن مشعاب : ٧٢
 حسن بن مهنا : ٩٦ ، ٩٨ ، ٩٩
 حسين (الشريف) : ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤
 ١٩٥ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥
 حسين الاهوازي : ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٦١

حسين بن اويس : ٧٢٥
 الحسين بن سلامة النوبى : ٤٠٤ ، ٤٠٥

الحسين بن عبد القادر : ٤٣٠
 حسين بن علاء الدولة : ٧٢٥
 الحسين بن علي الطالبي : ٣٩٧
 الحسين علي بن اسكندر : ٥٧٧
 حسين بن القاسم : ٤٩٠
 حسين بن محمد بن عبدالوهاب : ٨٩

حسين محمد الكسبي : ٤٧٤
 الحصين بن نعيم : ٣٩٢
 الحطم : ٢٧ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨
 حفص بن الوليد : ٥٠٨
 حكمت سليمان : ٦٠٣
 حمد بن ابراهيم بن بسام : ٧٣
 حمدان بن الاشعث : ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧
 حماد البربرى : ٣٩٦

رجاء بن الجذامى : ٣٩٥
رحمة بن مطر : ٣٣٧ ، ٦٢٨
رديف : ٥٩٩
رستم : ٤٤٩
رستم حفيد أوزن : ٧٣٠
رشيد باشا : ٥٩٦
رشيد على الكيلانى : ٦٠٤
رشيد بن محمد : ٧٢
ريحان بن صالح : ٥٤٢ ، ٥٤٣

حرف الزاى

زائد بن معن : ٣٩٤
زامل السليم : ٩٨ ، ٩٩
زامل العبد الله : ٧٧
زايد بن خليفة : ٦٣٢ ، ٦٣٣
زايد بن سلطان : ٤٨٢ ، ٤٨٣
٦٣٦ ، ٦٣٥ ، ٦٣٤ ، ٦٣٣
٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٥

زبيدة : ٣٤
الزبير بن العوام : ٣٨٦
زكروية : ٥٦٤ ، ٥٦٥
زهري بن جراح الثورى : ٧٠
زياد بن ابراهيم : ٤٠٤
زياد بن الربيع : ٥٢٦
زياد بن عبد الله الحارثى : ٣٣
زياد بن لبيد : ٢٨ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥
زياد بن أبيه : ٦٩٣
زياد بن المهلب بن أبى صفرة : ٣٠٣
زيد بن الخطاب : ٦٤ ، ٨٤ ، ١٢٢
زيد على (الامام) : ٤٢٥ ، ٤٢٩
زيد بن كهلان بن سبأ : ٤٤٩
زيد بن على الوشكى : ٤٧٦
زيد بن محسن : ١١١
زيد بن مرجان : ٨٧

خليفة بن عبد الله : ٥٠١
خميس بن سعيد : ٢٨٥
خواجه مرجان : ٥٧٦
خوارزمشاه : ٧٠٦
خورشيد باشا : ١٦٣ ، ١٧٨
الخيزران : ٣٤
خير بن نعيم : ٥٠٨

حوف الدال

داود باشا : ٥٩١ ، ٥٩٣
داود بن على : ٣٩٤
داود بن يوسف بن رسول : ٤٥١
٤٥٢
دجين بن عريعر : ٥٣
داوس بن محمد بن عبد الله : ٨٦
دغيم بن فايز : ٨٧
دهام بن داوس : ١٣٨ ، ١٣٩
دياب بن نبهان : ٦٣١

حرف الراء

راشد بن حميد النعيمى : ٦٣٨
راشد الدريبي : ٧٣ ، ٩٤
راشد بن سالم الخروصى : ٣٨٥
٣٣٩
راشد بن سعيد : ٦٣٦
راشد الكبير : ٧٣
راشد المكتوم : ٦٤٠
الربيع بن حبيب الفراهيدى : ٣٦٠
الربيع بن زياد : ٥٢٩
الربيع العامرى : ٤٦٠
الربيع بن عبد الله الحارثى : ٣٩٥
٥٢٩
ربيعه بن مانع : ٥٢

حرف السين

سابور بن أبى طاهر : ٥٧٢ ، ٥٧٣ ،
سالم بن ثوينى : ٣٣٤ ، ٣٣٥ ،
٣٣٧

سالم بن حمود : ٣٣٩

سالم بن ربيع : ٤٨١ ، ٥٠٢

سالم بن السيهان : ٩٧ ، ٩٨ .

سالم بن سلطان : ٣٣٣

سالم الصباح : ٢١١ ، ٦٥٢

سالم الصارمى : ٣٢٧

سبا بن أبى السعود : ٤٣٩

سبا المصيلحى : ٤١٨ ، ٤١٩

سبوتاي : ٧١٢

سرجون : ٦٨٠

سرور (الشريف) : ١١٦ ، ١٩٠

سرور بن مساعد : ١١٦ ، ١٤٠

السرى بن عبد الله : ٥٣٦

سعد بن أبى وقاص : ٦٨٦ ، ٦٨٧

سعد بن زيد : ٩٦

سعد الدين باشا : ٥٩٢

سعدون بن غرير : ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٧

سعدون بن عريعر : ٥٩ ، ٥٩٤

سعدون بن محمد بن براك : ٥٩٤

سعود بن سعيد : ١١٥

سعود الثالث : ١١٨ ، ١٦٤

سعود بن عبد العزيز : ٧٤ ، ١١٨

١٣٩٠

سعود بن عبد العزيز (الملك) :

١٣٩ ، ١٨٥ ، ٢٦٣ ، ٥٩٤

٦٢١

سعود بن فيصل : ٩٦ ، ٢٤٤ ، ٥٩٥

سعود الكبير : ٧٣ ، ٧٤ ، ١١٨

١٥٠

سعود بن محمد بن مقرن : ١١٧ ،

١١٨

سعيد بن أبى سعيد الجنابى : ٥٦٠

٥٦٦

سعيد بن أحمد : ٢٦٦ ، ٢٦٧ ،

٣٣٣ ، ٣٣٥

سعيد باشا : ٥٩١

سعيد بن تيمور : ٢٧٤ ، ٣٣٤

سعيد بن دادوية : ٣٩٠

سعيد الحاجب : ٥٤٥

سعيد بن السرح الكنانى : ٣٩٦

سعيد بن سلطان : ٢٧٤ ، ٢٧٥

سيد بن طحنون : ٦٣٢ ، ٦٣٣

سعيد بن نجاح : ٤٠٦ ، ٤٠٧

سعيد بن الأحول : ٤١٨

سفيان بن عمرو العقيلى : ٥٣٤

سفيان بن المهلب : ٥٣٦

السلال (عبدالله) : ٢١٥ ، ٤٣٦ ،

٤٧٩

سلامة بن سويط : ١٠٨

سلامة شخبوط : ٦٣٤

سلطان بن أحمد : ٢٦٧ ، ٣٣٣ ،

٣٣٦ ، ٣٣٥

سلطان بن بجاد : ١٩٦

سلطان بن صقر : ٦٣٧

سلطان بن صقر آل ثانى : ٦٣٧

سلطان بن سيف : ٢٦٦ ، ٢٨٠ ،

٢٨٢ ، ٣٢١

سلطان بن سيف الثانى : ٢٦٦ ، ٣٢٢

سلطان بن مرشد : ٢٥٧ ، ٣٣٠ ،

٣٣١

سلطان بن أحمد : ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

سلمان بن حمد بن خليفة : ٦٠٢ ،

٦٠٣

حرف الشين

- شاه ولد : ٧٢٥
 شارخ الفوازن : ١٥٤
 شبرويه : ٣٨٠
 شخبوط بن سلطان بن زايد : ٦٣١ ، ٦٣٤ ، ٦٣٣ ، ٦٣٢
 شرحبيل بن يعفر : ٣٧٣
 شرف الدين بن محمد : ٤٣٤ ، ٤٦٢
 شريح بن عامر : ٦٨٦
 شعلان أبو الجون : ٦٠١
 شعيب البارقي : ٣٩٣
 شكيب أرسلان : ٤٧٢
 شمس المعالي : ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٠
 شهاب الدين أحمد بن يحيى : ٦٤
 شهاب الدين أحمد العسكري : ٦٤
 شهر بن باذان : ٣٨٢ ، ٣٨٥

حرف الصاد

- صالح جبر : ٦٠٤
 صالح بن داود : ٥٣٦
 صالح بن شريف : ٣٩٢
 صالح بن عثمان : ٨٠
 صالح بن علي : ١٤٥
 صالح بن قرناس : ٧٩
 صافي البصري : ٥٧٢
 الصباح بن جابر : ٦٥٤ ، ٦٦١
 صباح بن المبارك : ٦٥٤ ، ٦٦١
 صغار العبد : ٣٦٠
 صدام حسين : ٦٠٧
 صمصعة بن صوحان : ٣٦٠
 صفى الدين : ٥٨٣
 صقر بن زايد : ٦٣٣
 صقر محمد القاسمي : ٦٣٩

سلمان الفارسي : ٤٢٤

- سليم (السلطان) : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٣٢٠
 سليمان بن أبي سعيد الجنابي : ٥٤٩
 سليمان أغا (أبو ليلة) : ٥٩١ ، ٥٩٢
 سليمان باشا الصغير : ٥٩١ ، ٥٩٣
 سليمان بن طرف : ٤٠٤
 سليمان باشا الكبير : ٥٨٨ ، ٥٩١
 سليمان بن عبد الله الجميري : ٤١٧
 سليمان بن عبد الله بن زامل : ٧٩
 سليمان بن عبد الوهاب : ١٣٤
 سليمان بن عنتر التجيبي : ٣٩٢
 سليمان بن عفيصان : ٦١٦
 سليمان بن علي : ٩٠ ، ٤٩٠
 سليمان القانوني : ٦١٥ ، ٥٨٧
 سليمان بن موسى الباهلي : ٨٩
 سنان باشا : ٤٦٦
 سنجر الشعبي : ٤٥٥
 سيحاريب : ٦٨٠
 السمح بن مالك : ٣٨٩
 سميدع بن وعلة : ٣٨٧
 سنبر بن الحسين : ٥٧٣
 سوناي : ٥٦٥
 سويد بن مقرن : ٢٥
 سبيويه : ٦٨٩
 سيحان بن صوحان : ٣٠١
 سيف بن أحمد : ٤٤٦
 سيف بن بكر : ٥٣٦
 سيف بن ذي يزن : ٣٨٠
 سيف بن سلطان : ٢٦٦
 سيف بن عزار : ٧٩

عائشة خاتون : ٥٩٠
عائض : ١٩٧
عادلة خاتون : ٥٩٠ ، ٥٩٣
عاصم بن عروة : ٥٣٣
عامر بن داود : ٤٦٣ ، ٤٦٥ ، ٤٨٧
عامر بن طاهر : ٤٥٦ ، ٤٥٧
عامر بن عبد الوهاب : ٤٥٧ ، ٤٦٢
عامر الهمداني : ٣٨٢
عباد بن عباد الجلندي : ٣٠١
عباد بن عبد الله : ٥٣٢
العباس بن عمر الشهابي : ٤١٣
العباس العنوي : ٣١٣
العباس بن المجاهد : ٤٥١ ، ٤٥٢
العباس بن المكرم : ٤٣٨ ، ٤٣٩
عبد الاله : ١٩١
عبد الحميد (السلطان) : ٦٥٦
عبد الرحمن الايراني : ٤٧٩ ، ٤٨٠
عبد الرحمن بن زهلان : ٦٦
عبد الرحمن عارف : ٦٠٧
عبد الرحمن بن عبد الله خميس : ٦٥
عبد الرحمن الغافقي : ٣٨٩
عبد الرحمن بن فيصل : ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٦٤
عبد الرحمن بن محمد : ٧٥ ، ٧٨
عبد الرحمن النقيب : ٦٠٠
عبد الرحيم ابراهيم الحميري : ٤١٣
عبد السلام عارف : ٦٠٧
عبد العزيز (الامام) : ٧٤
عبد العزيز حسن الحضري : ٥٠٨
عبد العزيز الحصين : ١١٥ ، ١١٦
عبد العزيز بن حمد : ٧٩ ، ١٥٢
عبد العزيز بن حمد بن معمر : ٧٨

صلاح الدين الصباغ : ٦٠٤
صلاح الدين الايوبي : ٤١٠ ، ٤٢٠ ، ٤٤٠ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦
الصلت بن مالك الأزدي : ٣١٠ ، ٣١٢
الصلت بن مالك الخروصي : ٢٨٠

حرف الضاد

الضحاك بن مالك الأزدي : ٣٩٠

حرف الطاء

طاهر بن أبي هاله : ٣٨٢
طاهر بن الحسين : ٣٢
طاهر بن عامر : ٤٥٠
طاهر بن معوضه : ٤٥٦
طحنون بن زايد : ٦٣٣
طحنون بن شخبوط : ٦٣١ ، ٦٣٢
طرفه بن العبد : ٥٢٤
طريف بن حاجز : ٢٥
طغتكين الايوبي : ٤٤٦ ، ٤٤٧
طغرليك : ٦٩٩
ابن الطفيل : ٤١٧
طلال بن عبد الله بن رشيد : ١٧٩ ، ١٨١
طليحة بن خويلد : ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧
طنج بن جف : ٥٧٦
طهماسب : ٥٨٥
ابن طولون : ٣٧ ، ٣٨ ، ٥٧٦
طوسون بن محمد على : ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤

حرف العين

عائشة (ام المؤمنين) : ٣١ ، ٣٩٧ ، ٥٣٨

- عبد الله بن حاتم : ٤٢٢
عبد الله بن جحيلان : ١٥٣
عبد الله بن الحسن بن أحمد : ٤٣٦
عبد الله بن حسين : ١٩١ ، ١٩٣ ، ٢٠٠
عبد الله بن حسين العمري : ٤٧٥
عبد الله بن حمزة : ٤٣٢ ، ٤٤٩
عبد الله بن خاص الأزدي : ٣١٥
عبد الله بن راشد : ٤٩٠
عبد الله بن الربيع المدان : ٣٩٤
عبد الله بن رشيد : ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠
عبد الله بن الزبير : ٩٣ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٥ ، ٦٩٣
عبد الله بن زهران : ٦٥
عبد الله بن سالم : ٦٦٢ ، ٦٦٣
عبد الله بن سالم الصباح : ٦٥٣ ، ٦٦٢
عبد الله بن سعود بن عبد العزيز : ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٩
عبد الله بن سعود بن فيصل : ١٥٣
عبد الله بن سليمان النوفل : ٣٩٥
عبد الله شريف : ٥٢٦
عبد الله بن عائض : ٧٩
عبد الله بن العباس : ٥٣٣
عبد الله بن عبدالرحمن بن الوليد : ٣٩٠
عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل : ٨١
عبد الله بن عبد الوهاب المشرمي : ٦٥٠
عبد الله بن علي بن مهدي : ٤١٠
عبد الله بن علي بن الرشيد : ١٧٨
عبد الله بن عمير : ٤٢١
- عبد العزيز آل سعود : ٧٤ ، ٧٥ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧
عبد العزيز بن عبد الرحمن : ١٩٥
عبد العزيز بن عبد الله بابطين : ٨٤
عبد العزيز بن محمد بن رشيد : ٨٧
عبد العزيز بن محمد بن سعود : ٧٦ ، ٨٨ ، ١٠٠ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ٢١٠ ، ٢١٤
عبد الفتاح اسماعيل : ٥٠٢ ، ٥٠٣
عبد القادر العديلي : ٦٥
عبد القوى مكاوي : ٥٠٢
عبد العزيز بن مروان : ٣٩٢
عبد العزيز بن مساعد : ١٧٠
عبد الكريم قاسم : ٦٧٤
عبد الله بن أباض : ٣٠٤
عبد الله أبو بطين : ٧٩
عبد الله بن أبي ربيعة : ٣٨٦ ، ٣٨٧
عبد الله بن أبي سرح : ٣٩٢
عبد الله بن أحمد : ٤٧٤
عبد الله بن أحمد بن معمر : ٨٦
عبد الله بامصفر : ٥٠٨
عبد الله آل خليفة : ٦٠٤
عبد الله بن اسحق : ٤٠٤ ، ٤٠٥
عبد الله باشا الأول : ١١٨
عبد الله باشا الثاني : ١١٨ ، ٥٩٤
عبد الله الثالث : ١١٨
عبد الله بن ثنيان : ٧٤ ، ١١٨ ، ١٦٥
عبد الله بن ثور : ٢٨
عبد الله الجلندي : ٣٠٠
عبد الله جلوي : ١٧٠ ، ١٧١

عبد الله بن عون : ٤١٨
عبد الله بن العيونى : ٥٨٢ ، ٥٨٧
عبد الله الفائز أبو الخيل : ٧٨
عبد الله بن فيصل : ٧٥ ، ٩٧ ، ١٦٤
عبد الله بن قاسم بن ثانى : ٦١٨ ، ٦١٩
عبد الله بن لهيعة : ٥٠٨
عبد الله بن مالك الحارثى : ٣٦٢
عبد الله بن محمد بن ابراهيم : ٣٩٤
عبد الله بن محمد الأحسائى : ١٢٤
عبد الله بن محمد بن سعود : ١٥٢ ، ١٥٤
عبد الله بن محمد بن مسعود : ١٥٢
عبد الله بن محمد بن معمر : ٨٦ ، ١٠٣
عبد الله بن مصعب : ٣٩٥ ، ٥٣٦
عبد الله بن المقفع : ٦٩١
عبد الله بن المهدي : ٤٤٦
عبد الله بن المهدي بن القاسم : ٤٦٦
عبد الله بن ناعمة : ٥٠٨
عبد الله الهمداني : ٤١٧
عبد الله بن يحيى : ٣٢ ، ٤٧٦
عبد الله آل يحيى السليم : ٧٧
عبد الله بن يحيى الصالح : ٧٧
عبد الله يحيى الكندى : ٣١ ، ٣٩٣
عبد الله بن يوسف : ٧٨
عبد الملك بن مروان : ٣١ ، ٣٠٣
عبد المجيد (السلطان) : ٤٦٧ ، ٣٨٦
عبد الناصر (جمال) : ٤٧٧ ، ٤٧٨
عبد النبى بن على : ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤٢٢
عبد الوهاب الزيانى : ٦٠٦
عبد الوهاب بن سليمان بن على : ٩٠
عبد الوهاب الشواف : ٦٠٨
عبد الوهاب بن طاهر : ٤٥٧ ، ٤٥٨
عبد الوهاب طلعت : ٢٠١
عبيد الله بن رشيد : ٧٥
عبيد الله بن زياد : ٣٩٨
عبيد الله بن العباس : ٣٨٨ ، ٤٣٦
عبيد الله المهدي : ٤١٥ ، ٤١٧
عبيدة بن الزبير : ٣٩٠
عتاب بن أسيد : ٢٧
عتبة بن أبى سفيان : ٣٩٠
عتبة بن غزوان : ٦٨٧
عثمان باشا الأعرج : ٥٨٩
عثمان بن أبى العاص : ٣٠٠ ، ٥٢٩
عثمان بن حميد بن عبد الله بن معمر : ٨٨ ، ٨٩ ، ١٢٥
عثمان بن عبد الجبار : ٦٥
عثمان بن العاص : ٢٧ ، ٢٢٩
عجلان : ١٠٠ ، ١٧١ ، ١٧٢
عريعر بن دجين بن سعدون : ١٠٨ ، ٥٩٤
عرفجة بن هرثمة : ٢٥
عزان بن تميم الخروص : ٣٠٩ ، ٣١٠
عزان بن حجيلان : ١٥٣
عزان بن خضر : ٣١٠
عزان بن قيس : ٣٣٧
العزير بالله الفاطمى : ٥٧٧ ، ٥٧٨
عطية بن الأسود : ٥٣١ ، ٥٣٢
ابن عفالق : ٨٩
عقيل بن أبى طالب : ٤٤١
عقيل بن ابراهيم : ٧١

عبد الله بن عون : ٤١٨
عبد الله بن العيونى : ٥٨٢ ، ٥٨٧
عبد الله الفائز أبو الخيل : ٧٨
عبد الله بن فيصل : ٧٥ ، ٩٧ ، ١٦٤
عبد الله بن قاسم بن ثانى : ٦١٨ ، ٦١٩
عبد الله بن لهيعة : ٥٠٨
عبد الله بن مالك الحارثى : ٣٦٢
عبد الله بن محمد بن ابراهيم : ٣٩٤
عبد الله بن محمد الأحسائى : ١٢٤
عبد الله بن محمد بن سعود : ١٥٢ ، ١٥٤
عبد الله بن محمد بن مسعود : ١٥٢
عبد الله بن محمد بن معمر : ٨٦ ، ١٠٣
عبد الله بن مصعب : ٣٩٥ ، ٥٣٦
عبد الله بن المقفع : ٦٩١
عبد الله بن المهدي : ٤٤٦
عبد الله بن المهدي بن القاسم : ٤٦٦
عبد الله بن ناعمة : ٥٠٨
عبد الله الهمداني : ٤١٧
عبد الله بن يحيى : ٣٢ ، ٤٧٦
عبد الله آل يحيى السليم : ٧٧
عبد الله بن يحيى الصالح : ٧٧
عبد الله يحيى الكندى : ٣١ ، ٣٩٣
عبد الله بن يوسف : ٧٨
عبد الملك بن مروان : ٣١ ، ٣٠٣
عبد المجيد (السلطان) : ٤٦٧ ، ٣٨٦
عبد الناصر (جمال) : ٤٧٧ ، ٤٧٨
عبد النبى بن على : ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤٢٢

علاء الدين الجلائرى : ٧٢٦
 عكاشة بن ثور : ٣٨٢
 عكرمة بن أبى جهل : ٢٥ ، ٣٠١
 ٣٨٦
 علاء الدين خوارزمشاه : ٧٠٧
 علاء الدين بن تكش : ٧٠٥
 العلاء بن الحضرمى : ٢٧ ، ٢٨
 علاء الدين عطا : ٧٢١ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦
 علاء الدين بن العلقمى : ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧١٩
 على بن ابراهيم بن بخيت : ٤١٧
 على بن أحمد البريكى : ٥٩٤
 على بن الأسطل : ٦٣
 على باشا الأول : ٥٩١
 على بهادر : ٧٢١
 على بن حاتم الهمدانى : ٤٢٢
 على بن حسين : ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٤
 على بن حوشان : ٧٣
 على بن خليفة : ٦١٩
 على بن داود بن رسول : ٤٥١
 على الدفعى : ٤٦٧
 على بن الربيع بن المدان : ٣٩٤
 على رضا : ٢٩١
 على بن سليمان بن العباس : ٣٩٥
 على شاه : ٧٢١
 على بن عبد الله باناعمه : ٥٠٨
 على بن عبد الله آل ثانى : ٦١٩
 على بن عبد الله صالح : ٤٨٢ ، ٥٠٦
 على بن عبد الله العيونى : ٥٨٦ ، ٥٩٠
 على بن عمر بن نهيان : ٣١٦
 على بن الفضل : ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦
 على بن قطن : ٢٥٧

على بن محمد : ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩
 ٥٤٠ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣
 على بن محمد الادريسي : ١٨٤
 على بن محمد الصليحي : ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٣٨
 على بن مهدى : ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٣٥
 على ناصر : ٥٠٣ ، ٥٠٥
 عمار بن ياسر : ٣٨٢
 عمارة اليمنى : ٤٣٢
 عمر أحمد طويل : ٥٨٧
 عمر بن أبى الفضل الهمدانى : ٤١٩
 عمر بن الأسطل : ٦٣
 عمر بن حزم الانصارى : ٣٨٣
 عمر بن الخطاب اليعصبى : ٣١٨
 عمر الخيام : ٦٩٩
 عمر بن رسول : ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٣
 عمر بن عبد العزيز : ٣٠ ، ٣١ ، ٣٠٣
 عمر بن عبد الله الانصارى : ٣٨٣
 عمر بن عبد الله الحضرمى : ٣٠٣ ، ٣٩١
 عمر بن عبد المجيد : ٣٩٤
 عمرو بن العلاء : ٦٨٩
 عمر بن على : ٤٤٩
 عمر بن عوض القميصى : ٤٩٠
 عمر بن نيهان : ٢٨٥ ، ٣١٥ ، ٣١٩
 عمر باشا : ٩٢
 عمران بن محمد بن سبأ : ٤١٩
 عمرو بن العاص : ٢٥ ، ٣٠ ، ٢٦١
 عمرو بن العلاء : ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٦٨٩

الفرات بن سالم العيسى : ٣٩٤
فروة بن عمرو الجذامي : ٢٣
فروة بن مسيك المرادي : ٣٨١
الفضل بن عبد الله بن علي : ٥٨٨
فضل بن علي العبدلي : ٤٨٤ ، ٤٩١

الفضيل الورتلاني : ٤٧٤ ، ٤٧٥
الفلاح بن الحسن النبهان : ٣١٦
فهد بن سلطان : ٩٦
فهد بن سويلم : ٩٦
فهد بن عبد العزيز : ١١٨ ، ٢٢٥
٢٢٦ ، ٢٣٥ ، ٢٤٦ ، ٦١١

فهد بن غشيان : ٩٦
فؤاد (الملك) : ١٩٨ ، ٢٠١
فوزان بن حميدان : ٧١
فولاذ بن أسبان : ٧٢٨
فيصل (الثاني) : ٦٠١
فيصل بن تركي : ٧٤ ، ٧٥ ، ١٧٨
١٧٩ ، ٣٤٢ ، ٦١٦

فيصل الدرويش : ٢١٠ ، ٢١٢
فيصل بن سعود : ١١٨ ، ١٤٦
فيصل بن عبد العزيز : ١١٨ ، ٢١٨
٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢
٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣٥

فيصل بن علي : ٣٦٦
فيصل بن مساعد : ٢٢٣

حرف القاف

قابوس (السلطان) : ٢٧٥ ، ٢٧٧
٣٣٤ ، ٣٣٨ ، ٣٣٥ ، ٣٥٣
٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧
٣٥٨ ، ٣٦٧ ، ٣٧٠ ، ٦٤٠
قاسم باشا : ٥٧٧
القاسم بن عمر الثقفي : ٣٩٠

عياض بن غنم : ٦٨٧ ، ٦٩١
عيسى بن جعفر الحسيني : ١٨٨
عيسى بن سلمان : ٦٠٣ ، ٦٠٧
عيسى بن عبد الله بن شاذان : ٢٧٩
عيسى بن علي خليفة : ٦٠٣ ، ٦٠٦
عيسى بن عمرو : ٦٨٩
عيسى بن موسى : ٥٧٢
عيسى بن نهيان : ٦٣١

حرف الغين

غازي بن يفصل : ٦٠٠
غالب (الشريف) : ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٩٠
غالب بن علي : ٢٨٥ ، ٣٤٠ ، ٣٤١
غالب القعيطي : ٥٠١
غالب بن محسن الكثيري : ٥٠٩
غالب بن مساعد : ١١٢ ، ١٢١
غانم بن كاسر : ١١١
غريب بن علي العيوني : ٥٨٨
الغرور بن سويد : ٥٢٧
غسان بن عبد الله : ٢٨٦
الخطريف بن عطاء : ٣٩٤
غوثن بن سليمان : ٥٠٨

حرف الفاء

فاتك بن جياش : ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨
فاتك بن محمد : ٤٠٦
فاتك بن منصور : ٤٠٦
الفاثكي : ١٨٨
فاسكودي جاما : ٤٥٨ ، ٤٦١ ، ٥٩٢
فخر الدين بن علي : ٤٥٠
الفرعاء : ٦٩٥٠

كيلان مصطفى : ٥٨٧

كوهر خان : ٧٣٣

حرف السلام

للا حسين : ٥٨٤

لقيط بن مالك الأزدي : ٣٠١

لهيعة بن عيسى : ٥٠٨

لويس التاسع : ٧١٣

حرف الميم

مازن بن غضوبة : ٣٦٣ ، ٣٦٤ ،

٣٧٩ ، ٣٦٥

المأمون : ٤٢٨ ، ٤٢٩

ماجد بن عرعر : ٥٩٥

ماجد بن ختيلة : ٢١٢

ماجد بن سعيد : ٣٣٥ ، ٣٥٣

ماركوبول : ٢١٧

مالك بن الأشتر : ٣٨٨

مالك بن أيفع : ٣٨١

مالك بن حنظلة : ٨٠

مالك بن نويرة : ٢٥ ، ٢٧

مالكولم جون ميد : ٦٥٨

مانع بن عثمان : ٥٣

مانع بن عصفور : ٥٩١

مبارك بن صالح : ٧٦ ، ٦٥٦ ،

٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠

٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣

متعب بن الرشيد : ١٨١

المثنى بن حارثة : ٦٨٤ ، ٦٨٥ ،

٦٨٦

المحسن بن أحمد : ٤٦٧

محسن العيني : ٥٠٥

القاسم بن محمد : ٤٣٤ ، ٤٦٦

قاسم بن آل ثاني : ٦١٧ ، ٦١٨

القاسم بن يحيى : ٤٤٥

قانسوره الغوري : ٤٦١ ، ٤٦٢

قتادة (الشريف) : ١٨٨

قثم بن العباس : ٥٣٦

قدامة بن مظعون : ٥٢٦

قرة محمد بن بيرام : ٧٢٦ ، ٧٢٨

قرة يوسف : ٧٢٨

قطب الدين بن ملكشاه : ٧٠٥

قطري بن الفجاءة : ٣٠٤ ، ٦٢٢

٦٢٣

القعيطى اليافعى : ٥٠٩

قنعرز سلطان : ٥٨٤

قيس بن أحمد : ٣٥٠

قيس بن سعيد بن عبادة : ٣٨٨

قيس بن هبيرة : ٣٨٧ ، ٦٨٦

حرف الكاف

كافور الأخشيدي : ٤٠

كامل شبيب : ٦٠٤

كركوك : ٦٨٣

الكسائي : ٦٩٠

كسرى : ٣٨٥

كشاجم : ٥٤٩ ، ٥٧٨

كعب بن سوار : ٣٦٠

كمال التركي : ٤٦٣

الكميت بن زيد : ٣٧٤ ، ٦٩١

كنفير بن مالك : ٣٩١

كهلان : ٣٩١

كوجك حسن : ٥٨٧

كودة أحمد : ٧٣١ ، ٧٣٣

كيرال : ٣١٩

كيزروف : ٦٥٩

محمد بن خليفة : ٦٠٢
 محمد الديباج : ٣٤
 محمد بن راشد العرينى : ١٣٦
 محمد بن رجاء : ٥٤٢ ، ٥٤٤
 محمد بن زياد : ٣٩٧ ، ٤٨٩
 محمد بن زيد الحارثى : ٣٩٤
 محمد بن سبأ رزيق : ٤٤٠ ، ٤٤١
 محمد بن سعود : ١١٨ ، ١١٩ ،
 ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٢٧
 محمد بن سليمان بن على : ٧٠
 محمد بن سويلم العرينى : ١٢٦
 محمد بن سلوم الفرضى : ٦٥
 محمد بن سيرين : ٥٢٦
 محمد بن شخبوط : ٦٣١
 محمد بن شرف الدين : ٤٧٠ ، ٤٧٣
 محمد بن عائض : ١٨٥
 محمد بن العيد المحسن : ٨١
 محمد بن عبد الرحمن بن سعود :
 ١٧٠ ، ١٧١
 محمد بن عبد العزيز : ٨٠
 محمد بن عبد العزيز بن مانع : ٧٩
 محمد بن عبد الله الأنصارى : ١٠٨
 محمد بن عبد الله الخليلى : ٢٨٥ ،
 ٣٣٩ ، ٣٤٠
 محمد بن عبد الله الدوسرى : ٩٠
 محمد بن عبد الله بن رشيد : ٩٦
 ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٧٩
 محمد بن عبد الله بن الوزير : ٤٣٥
 محمد بن عبد الله بن زياد : ٤٠٤ ،
 ٤٣٤
 محمد بن عبد الله بن مالك : ٣٩٤
 محمد بن عبد الله بن مانع : ٧٩
 محمد بن عبد المحسن بن على :
 ١٧٨
 محمد بن عبد الملك الزيات : ٧٢٢

محسن بن فضل : ٤٩٦
 محمد بن ابراهيم الحضرمى : ٥٠٨
 محمد بن ابراهيم بن طباطبا : ٤٢٧
 محمد بن ابراهيم بن يعفر : ٤١٤
 محمد بن ابراهيم الهاشمى : ٣٩٥
 محمد بن ابراهيم أبو الخليل : ٧٨
 محمد بن أبى الغارات : ٤٣٧
 محمد بن أبى القاسم السلمى : ٣١٦
 محمد بن أحمد بن اسماعيل : ٦٥
 محمد بن أحمد بن عبد الله : ١٠٧
 محمد بن أحمد العيونى : ٥٨٨
 محمد بن أحمد العقدى : ٥٩٠
 محمد بن أحمد بن سعيد : ٢٨٠
 محمد بن أحمد بن معمر : ٨٦
 محمد بن اسماعيل بن القاسم : ٤٣٤
 محمد الادريسى : ١٨٤
 محمد بن براك : ٥٩٤
 محمد بن بيرام : ٧٢٩
 محمد بن ثان : ٦١٦ ، ٦١٧
 محمد الجابرى : ٦٠٢
 محمد بن جعفر الحسينى : ٤٠
 محمد بن جفير : ٢٥٧
 محمد بن جناح : ٣٠٦
 محمد بن حاتم الهمدانى : ٤٢٢
 محمد بن الحارث (الشريف) :
 ١١١
 محمد بن الحسن : ٣٠٧
 محمد بن حسن الجمل : ٧٦
 محمد بن حسين بن عثمان : ٥٣
 محمد بن (خرفاش) : ٨٧ ، ٨٩
 محمد بن حمد الشارق : ٦٣٩
 محمد بن حمد بن عبد الله : ٧٥
 محمد بن خالد بن برمك : ٥٠٥
 محمد خان شرف الدين : ٥٨٤

- محمد بن عبد الوهاب (الشيخ) :
٦٥ ، ٦٦ ، ١١٥ ، ١١٦ ،
١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٣١ ،
١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ،
١٣٧
- محمد عبد الوهاب بن عبد الله : ٨٩
محمد عبده (الامام) : ١٤٣
محمد بن عقالق : ٧٨
محمد بن عفان الأزدي : ٣١٠
محمد بن عفيصان : ٧٦
محمد على باشا : ٤١ ، ٦٩ ، ٧٤ ،
٧٥ ، ٧٩
- محمد بن علي بن عبيد : ٨٩
محمد بن علي الوشلي : ٤٣٣ ،
٤٥٨
- محمد بن علي بن عيسى : ٤٩٦
محمد على علوية : ٤٧٣
محمد بن علي بن رشيد : ٨٧
محمد بن علي الادريسي : ١٨٤
محمد بن عمر نيهان : ٣١٤
محمد بن عون : ١٩١
محمد الفاتح : ٤٦٤ ، ٧٣٣
محمد بن الفضل : ٥٨٨
محمد بن فضل : ١١٠
محمد بن القاسم : ٤٣٤
محمد المدني : ١٢٤
محمد المجموعي : ١٢٤
محمد مصطفى المراغي : ٢٠١
محمد ميرزا : ٧٣٠ ، ٧٣٣
محمد بن نافذ باشا : ٥٩٥
- محمد بن ناصر بن عامر : ٤٤٤
محمد بن الناصر : ٤٣٣
محمد بن ناصر بن معمر : ١٣٦
محمد ناصر الدين : ٧٣٣
- محمد يحيى حميد الدين : ٤٣٥ ،
٤٦٩
- محمد بن يعفر : ٤١٣
محمد بن يوسف : ١٠٦
محمد بن يوسف الثقفي : ٣٩٠
محمد بن يوسف بن وجيه : ٣١٥
محمود الثاني : ٥٩٥
محمود الجائفى : ٤٧٩
محمود سليمان : ٦٠٤
محمود غازان : ٧٢٢ ، ٧٢٣
محمود بن ولد : ٧٢٥
محمود بن شاه ولد : ٧٢٦
المختار بن أبى عبيد : ٦٩٣
المختار بن عوف الأزدي : ٣٢
مخزوم بن الفلاح : ٣١٦
مدحت باشا : ٥٩٥
مراد (حفيد جاهدكير) : ٧٣٠
مرعى بن حسين بن سرحان : ٥٠٩
مرة بن الوليد : ٣٦٠
مروان بن الحكم : ٣١ ، ٣٨٩ ،
٥٢٦
- مروان بن محمد : ٣٢ ، ٣٩٣
المسعود أبو القاسم بن رسول : ٤٥١
مسعود العبدى : ١٠٦ ، ٥٣٤ ،
٥٣٥
- مسعود بن عوف الكلبى : ٣٩٠
المسعود بن المكرم : ٤٣٨
مسعود بن يمانى الكنانى : ٤٩٠
المسعود يوسف بن الكامل : ٤٤٧ ،
٤٤٨
- مسلم بن عقبة المرى : ٣٠ ، ٣٩٢
مسلمة بن عبد الملك : ٦٩٤
مسيلم الكذاب : ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧
٨٣ ، ٨٤ ، ٣٠١

منصور بن فاتك : ٤٠٦ ، ٤٠٧
 المنصور بن المفضل : ٤١٩
 المنصور بن الناصر : ٤٣٢
 منصور بن يزيد الحميري : ٣٩٥
 المنصور بن يوسف بن رسول : ٤٥١
 منير الأسطل : ٥٧
 المهاجر بن أبي أمية : ٢٥ ، ٢٧ ،
 ٣٨٢ ، ٣٨٥
 المهدي بن الحسين : ٤٥٥
 مهدي بن علي : ٤٠٩
 المهلب بن أبي صفرة : ٣٦٠
 المهلهل بن ربيعة : ٧٠
 مهنا بن جعفر اليمامي : ٣١٠
 مهنا بن سلطان : ٣٢٢
 مهنا بن ناصر : ٥٩٦
 موسى بن ربيعة : ٥٢
 موسى بن عامر : ٨٩
 موسى بنت وطبان : ١٢٦ ، ١٢٧
 المؤيد الرسولي : ٤٥٤
 ميمون المبارك : ٤٤٢
 ميمون بن هارون : ٦٩٠
 ميمونة بنت الحارث : ١٢٢

حرف النون

نابليون : ٥٩٧
 الناخوذة : ٤٦٣
 نادر شاه : ٢٦٦
 الناصر بن طغتكين : ٤٤٧
 ناصر بن عبدالرحمن السحيمي : ٦٧
 ناصر بن عبد الله بن معمر : ٨٦
 الناصر بن محمد : ٤٣٣
 ناصر بن مرشد : ٢٥٧ ، ٢٦٢ ،
 ٢٦٦ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣
 ٣٢٥

مشاري بن سعود : ١١٨ ، ١٦٣
 مشاري بن معمر : ٧٨
 مصعب بن الزبير : ٥٣٢ ، ٥٣٥ ،
 ٦٩٣
 مصطفى جلبى : ٧٣٢
 مطهر بن علي : ٤٩٦
 المطهر بن محمد (الوزير) : ٣١٥
 مظفر الدين : ٤٤٦
 المظفر بن سليمان : ٣١٦
 المظفر بن عمر : ٤٥٣ ، ٤٥٤
 معاذ بن جبل : ٣٧٥
 معازة : ٣٦١
 معاوية : ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٠٢ ، ٣٨١
 ٣٨٢ ، ٤٢٤ ، ٦٩٣
 معز الدين جاهنكير علي : ٧٣٠
 معمر بن عمر بن نبهان : ٣١٥
 معن بن حاتم الهمداني : ٤٢٢
 معن بن زائدة الشيباني : ٣٩٤ ،
 ٤٨٨
 المغيرة بن أبي العاص : ٥٢٧
 المغيرة بن شعبة : ٣٨٦ ، ٣٨٨ ،
 ٦٨٦
 المفضل بن أبي البركات : ٤١٩
 المكرم الصليحي : ٤٠٧ ، ٤١٨
 المكعب : ٥٢٧
 ملكشاه : ٧٠٥
 من الله الفاتكى : ٤٠٧
 المنذر بن ساوى : ٥٢٤ ، ٥٢٥
 منصور الباهلي : ٦٤
 منصور البهوقي : ٧٩
 المنصور بن جعفر الخياط : ٥٤٥
 منصور (الشريف) : ١١٥
 المنصور بن الحسن بن زاذان : ٤١٥
 ٤١٧
 منصور أبو الخيل : ٧٣

هشام بن القبيص : ٤٢٢
 هشام بن عبد الملك : ٥٠٨ ، ٦٩٤
 هولكو : ٤٥٤ ، ٥٨٩ ، ٧٠٢ ،
 ٧١٤ ، ٧١٦ ، ٧١٧
 ٧٢١ ، ٧٢٣
 الهيصم بن عبد الرحمن الهمداني
 ٣٩٦ ، ٥٥٧

حرف الواو

وائل بن حجر الكندي : ٢٣ ، ٣٨١
 ٣٨٢ ، ٥٠٧
 الوارث بن كعب اليمحمدي : ٣١٠
 واصل بن عطاء : ٦٩٠
 وطبان بن موسى بن طوق : ٧٦
 الوليد بن عمر : ٣٩٠
 الوليد بن يزيد : ٥٠٨
 وهرز : ٣٨٠
 وهيب باشا : ١٩٢

حرف الياء

ياسر بن عمار : ٣٨٢
 ياسين الهاشمي : ٦٠٣
 ياقوت التغزي : ٤٤٦
 ابن يامن : ٥٢٥
 يحيى بن الأشرف بن رسول : ٤٥٠
 يحيى بن الحسين : ٤٢٨ ، ٤٣٠
 يحيى بن حسن سرحان : ٥٠٩
 يحيى بن خالد البرمكي : ٣٩٦
 يحيى بن زياد : ٥٢٦
 يحيى بن سلامة : ٧٦
 يحيى السليم : ٦٩
 يحيى بن عبد المحسن : ٤٣٢
 يحيى بن عياش : ٥٨٣ ، ٥٨٧

نافع بن الأزرق : ٣٠٤
 نافع بن عقبة : ٥٣٧
 نبهان بن عمر بن نبهان : ٣١٤
 نبوخذ نصر الثاني : ٦٨٠
 نجاح : ٤٠٦ ، ٤٠٧
 نجدة الخارجي : ١٠٦ ، ٤٣١ ،
 ٤٣٢
 نجدة بن عويمر : ٤٣١ ، ٥٣١
 نزار بن المستنصر : ٧١٤
 نصر آل مدكور : ٥٩٥ ، ٦٠٢
 نصر بن الأزد : ٢٩٧
 نصر الدين الطوسي : ٧١٤
 نصوح باشا : ٥٨٧
 نظام الملك : ٦٩٩
 النعمان بن بشير : ٣٩٠
 نعمان بن طلال : ٢٣
 نعمان بن عبد الله الحضرمي : ٥٠٨
 النعمان بن بشير : ٦٩٣
 النعمان بن المنذر : ٥٢٤
 نعيم بن طلال : ٢٣
 نعيم بن عيد كالل : ٣٧٧
 نعيم بن وضاح الأزدي : ٤١٢
 نفيس : ٤٠٥ ، ٤٠٦
 نور الدين زنكي : ٤٤٥
 نور الدين حمزة : ٧٣٠
 نور الدين السالمى : ٢٨٥ ، ٣٣٩
 نوري السعيد : ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٧

حرف الهاء

الهادي بن يحيى : ٤٢٥
 هارون الرشيد : ٣٤ ، ٤٣٠ ، ٦٩٥
 هارون بن غريب : ٥٧٢
 هذيل بن مدركة : ٥٧٢
 هرثمة : ٤٢٧

- | | |
|--------------------------------|-------------------------------|
| يعلى بن منيه : ٣٨٣ ، ٣٨٦ | يحيى بن محمد حميد الدين : ٤٦٩ |
| يعفر بن عبد الرحيم : ٤١٣ ، ٤١٤ | ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ |
| يعقوب (حفيد جاهنكير) : ٧٣١ | يحيى بن محمد السراجى : ٤٥٥ |
| يوحنا المعمدان : ٧١٧ | يحيى بن ميمون : ٥٠٨ |
| يوسف بن أبى الساج : ٥٦٩ | يزيد بن بوجير : ٣٩٠ |
| يوسف بن عبد الله : ٦٦٤ | يزيد بن جرير القسرى : ٣٩٠ ، |
| يوسف بن عمر الثقفى : ٢٩٠ | ٣٩٦ |
| يوسف بن عمر بن رسول : ٤٥١ ، | يزيد بن عبد الملك : ٥٠٨ ، ٦٩٤ |
| ٤٥٤ | يزيد بن مرخان : ٧٧ |
| يوسف بن محمد بن المتوكل | يزيد بن معاوية : ٣٨٨ ، ٣٩٠ ، |
| اسماعيل : ٤٣٠ | ٦٩٣ . |
| يوسف بن وجيه : ٣١٤ ، ٣١٥ | يزيد بن منصور الحميرى : ٣٩٥ |
| يونس بن حبيب : ٦٨٩ | يزيد بن المهلب : ٦٩٤ |
| يونس بن حسن بن سرحان : ٥٠٩ | يعرب بن بلعرب : ٣٢٢ |
| يونس بن عطية : ٣٩٢ ، ٥٠٨ | يعلى بن أمية : ٢٧ |

فهرست البلدان والأماكن

حذفنا من الكشاف البلدان التي عقدت لها فصول خاصة ، وكثر ورودها في كثير من صفحات الكتاب ، مما يجعل أيرادها هنا قليل الفائدة .
وهذه البلدان هي :

البحرين أو الأحساء - البصرة - بغداد - الحجاز - حضرموت -
صنعاء - عدن - العراق - عمان - الكويت - مصر - نجد - اليمن .

حرف الألف

أم الروس : ٦٥٢

أم سعيد : ٦٢٢

أم العصافير : ٩٦

أم القوين : ٦٢٧ ، ٦٣٨

الأخبار : ٥٧٢

أندونيسيا : ٣٧٨ ، ٣٩٢ ، ٥٠٩

أوال : ٤١١ ، ٥٧٨ ، ٥٨٠ ، ٥٧٣

أوغندا : ٢٧١

ايران : ٢٤٥ ، ٦٠٩ ، ٦١١

ايطاليا : ١٥٧ ، ٣٧٥

حرف الباء

باب المنذب : ٣٧٣ ، ٤٨٤

بابل : ٦٨٨

الباطنة : ٣١٢

باكستان : ٢٩٦

بيان : ٨٦

البحرين : ٢٨ ، ٣٠

بخارى : ٧٠٥ ، ٧٠٩

البرتغال : ٣٢٤ ، ٤٥٨ ، ٥٩٣

بريدة : ٥٠ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ،

١٠٨ ، ١٧٣

بريم : ٤٨٤

بريطانيا : ٣٢٣ ، ٣٢٤

البصرة : ٣٠ ، ٧٠

آمد : ٧٣٠

أبين : ٣٩٨ ، ٥٢٢

أبو ظبي : ٦٢٧

أبو عريش : ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٩٨

الأبلة : ٦٨٥

ابرا : ٢٥٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٣

أبها : ٢٣١

أترار : ٧٠٧ ، ٧٠٨

الأحمدى : ٦٥٢

الأخيضر : ٢٠٠

أذربيجان : ٧١٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٦ ،

٧٢٨

أربيل : ٧١٢

أردبيل : ٧٣٥

أرمينية : ٦٨٢ ، ٦٨٧

الأزبكية : ١٣٧

أزكى : ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨

استانبول : ٦٥٨

أشيقر : ٦٤ ، ٥٧ ، ٧٠ ، ٧١

أصفهان : ٥٥٢ ، ٧٩٩

أفغانستان : ٣٣٨ ، ٥١٩

الافلاق : ١٥٨

الاندلس : ٣٨٩ ، ٥٠٨ ، ٥٩٢

الموت : ٧١٤

تهامة : ٣٤ ، ٣٥ ، ٢٣١ ، ٢٣٢
٣٧٣
تهامة عسير : ٣٦ ، ٤٠٦
تيريم : ٤٩٠
تيماء : ٥١ ، ٩١ ، ١٤٠ ، ١٧٩
١٩٧
تونجي : ٣٤٧

حرف الثاء

ثرمدا : ١٣٨

حرف الجيم

جاكرتا : ٢٢٣
جالديران : ٥٨٥
جبل شمر : ٤٨ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٩٢ ، ٩١
الجبيلة : ٤٩ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ١٠٢
جدة : ٢٢٩ ، ٤٧٨
جرش : ٢٨
الجزائر : ٤٦٤
الجزيرة : ٦٨٤
جلالجل : ١٠٣
جلفار : ٢٦٢ ، ٦٣٩
جلولاء : ٦٨٦
جنابة : ٥٦٢
الجند : ٣٩٨ ، ٤٤٢ ، ٧٠٥
جعلان : ٥٩٢
جنيف : ٦٢٠
الجهرة : ٦٥٢
جواردور : ٣٥٢
جواثا : ٤١٨
جوداراما : ٨٠
الجوف : ٤٨ ، ٥٠ ، ١٥٣ ، ١٩٧
جيزان : ٢٣١ ، ٤٧٧

البكيرية ٦٢ ، ٦٥ ، ١٣١
بكين : ٣٧٦
بلحاف : ٤٨٤
بلخ : ٧٠٥
بلوخرستان : ٢٩٨ ، ٣٤٩
بليدة : ١٠٣
بمباي : ٣٠٦
بمئات : ٣٧٣
بندر عباس : ٦٢١
بهلاء : ٢١٧ ، ٢٤٥
بوييان : ٦٥٠
بهلاء : ٢٥٨
البوريمي : ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥
بوشهر : ٤٥٧ ، ٥٢٥
البوصير : ١٣٠
بولندا : ٧١٢
بئر أحمد : ٤٨٤
بيحان : ٤٨٤
بيروت : ٤٩٤
بيرديره : ٦٣٥

حرف التاء

تايلاند : ٥٠٩
تبريز : ٧٢٣ ، ٧٢٤
تدمر : ١٥٦
تربة : ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧
ترجان : ٧٣٣
تركستان : ٧٠١
تركيا : ١٧ ، ١٤٧ ، ١٦٢ ، ١٩٥ ، ٤٥٨
تعز : ٤٣٣
تكريت : ٦٠٠
تلعفر : ٧٣٥
تنجانيقا : ٢٥٩

حرف الحاء

خراسان : ٢٦٣ ، ٣٨٩ ، ٣٩٨ ،
٦٩٤ ، ٦٨٨
خربة : ١٩٦ ، ١٩٧
الخرج : ٤٨ ، ١٧٣
الخرطوم : ٤٧٨
الخط : ٩٥ ، ٥٣٥
خورفكان : ٦٢٩ ، ٦٣٧
خيبر : ٩٣ ، ١٤٠
الخور : ٦٢٢
الخوير : ٦٢٢
خولان : ٢٨ ، ٣٨٩

حرف الدال

داريا : ١١٧
داقوقا : ٧١٠
دامون : ٣٢٧
دبي : ٦٢٧ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦
دخان : ٦٣١
الدرعية : ٢٨ ، ٨١ ، ٨٨ ، ٩٠
١٠٣ ، ١٣٧ ، ١٥١
دعان : ٤٧٣
الدمام : ٢٢٨
دمشق : ١٧ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ١٩٣ ،
٧١١ ، ٧١٢ ، ٧١٥
دهلك : ٤١٨
الدوحة : ٦١٥
الدواسر : ٤٨
دوحة الجندل : ١٧٨
ديار بكر : ٧٣٠ ، ٧٣٥
ديار كنده : ٣٩٨ ، ٤٨٩
ديو : ٣٢٧

حائل : ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ،
٩٥ ، ٩٩ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ،
١٩٧ ، ٢١٨
الحديدة : ٤٠٣ ، ٤٧٠
حديقة الموت : ٢٨
حران : ٦٨٧ ، ٧١٥
حرض : ٣٧٥
حزمة : ٦٥ ، ١٢١
حريب : ٤٨٩
حريز : ٣٧٤
الحريق : ٤٨ ، ٧٢
حضر موت : ٢٨ ، ٣٧٣ ، ٣٧٦ ،
٣٩٨
حريملاء : ٨٨ ، ٤٣١
حلب : ١٩٣ ، ٥٥٢ ، ٧١٩
الحلة : ٦٨٠
حمادة : ٩٦
حملة : ١٩٣ ، ٥٦٤
حمص : ١٩٣ ، ٣٩١
حميرين : ٧١٢
الحنايكة : ١٥٠ ، ١٥٥
حوطة سدير : ٤٨٤
حوزان : ١٧٩
حيدر آباد : ٥٠٩
الحيرة : ٢٥٧ ، ٦٨٤
حيفا : ٥٩٦

حرف الخاء

الخابورة : ٢٥٩
الخبرا : ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ١٢٩ ،
١٣٠ ، ١٣١

حرف السين

السالمية : ٦٥٢
 سامراء : ٢٥٧ ، ٦٩٦
 سبيع : ٤٩
 سجستان : ٣٠٢ ، ٦٩٤
 سدير : ٤٨ ، ٥٤ ، ٨٢ ، ٩٦ ،
 ١٣٩ ، ١٧٣
 سرمد : ٨٨
 السروات : ٣٦
 سعد : ٢٥٧
 سفالة : ٣٤٧
 سلانيك : ١٦٥
 سمذ : ٣٠٩ ، ٣١٨ ، ٣٢٣
 سلمية : ٣٢٦
 السلمانية : ٦٨٢
 سمايل : ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٧ ،
 ٢٥٨ ، ٢٩٤
 سمرقند : ٧٠٥ ، ٧٠٦
 سميح : ٦٤١
 سنخافورة : ٥٠٩ ، ٥٩١
 السودان : ٦٧٤
 سوقطرة : ٤٨٤
 سومطرة : ٣٨٨
 السويس : ١٤٧ ، ٢٤١ ، ٤٦٥
 السوق : ٣٥٠
 سيراف : ٤٤٢
 السينية : ٦٣٨

حرف الشين

الشارقة : ٦٢٧ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧
 شيام : ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٤٢
 الشبيبة : ١٥١
 الشحر : ٣٩٨ ، ٤٨٩

حرف الذال

ذخار : ٤٤٢
 ذمار : ٤٣٠ ، ٤٣٣ ، ٤٥٧
 ذو المجار : ٥٥ ، ٥٣٢

حرف الراء

رأس تنوره : ١٩٥
 رأس الخيمة : ٢٦٢ ، ٣٠٧ ، ٣٢٥
 ٦٢٩
 رأس الرجاء الصالح : ٢٦١ ، ٥٩١
 رابغ : ٢٠١
 رداع : ٤٣٠
 الرس : ٥٠ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٤٢٨
 الرستاق : ٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ،
 ٢٥٨ ، ٢٦٣ ، ٣٢٣
 الرصافة : ٦٩٥
 الرقة : ٦٨٧
 الرمل : ٥٧٧
 الرها : ٦٨٧
 روديسيا : ٢٧١
 روسيا : ١٦٢ ، ٥١٩ ، ٥٩١
 روضة سدير : ٩٦ ، ١٠٣
 الرياض : ٤٩ ، ٨٣ ، ٩٦ ، ٩٧ ،
 ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ٢١٧
 ريدان : ٣٧٣
 الريان : ٦٢٢
 الري : ٧٠٩ ، ٧١٠

حرف الزاي

الزيارة : ٦١٦ ، ٦٢٢
 زبيد : ٢٨ ، ٣٩٧
 زنجبار : ٢٩٨ ، ٣٠٣ ، ٣٢٦ ،
 ٣٣٦

ظفير : ١١١	الشعرا : ١١٢
الظهران : ٢٢٨ ، ٢٤٠	شمر : ٤٩ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٩١ ، ٩٦ ، ١٣٩ ، ١٤٥
حرف العين	شقرا : ٦٩ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٥٥
العارض : ٤٨ ، ٤٩ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ١٠٨ ، ٨٩	شهباز : ٢٧٢
عبادان : ٤٣٢	الشويخ : ٦٥٠ ، ٦٥١
عبري : ٢١٨	شيراز : ٦٢١ ، ٧٢٣
العقرة : ٤٠٨	حرف الصاد
عتيبة : ٤٩ ، ٦٩ ، ٩٦	الصبرة : ٦٣٩
عجمان : ٦٣٠	الصبيحة : ٤٨٤
العريش : ٦٢٢	صبيا : ٢٣١
عسير : ١٤١ ، ١٦٢ ، ١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٩٧ ، ٤٢٣	صحار : ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٥٩٢
العقبة : ٢٠١	صعدة : ٣٦ ، ٤٣٣ ، ٤٢٦
عقدة : ٩١ ، ٩٧	صنعاء : ٣٦
العقارب : ٤٨٤	الصهبة : ١٤١
عقريا : ٨٧	صور : ٢٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦٢
العقير : ١٧٦ ، ١٧٧	الصومال : ٣٢٧ ، ٣٧٨ ، ٥٢٤
العقيلة : ٦٤ ، ٦٦	الصين : ٣٧٨
عكا : ٥٩٤	حرف الطاء
عكاظ : ٥٥	الطائف : ٣٣ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ٢٠١
العمارية : ٨٧	الطفرة : ٦٢٨
العنبرة : ٣١٥	الطور : ٤٨٤
عنيزة : ٤٩ ، ٥٠ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ١٧٩ ، ١٧٣	طوس : ٧٠٩
العوالق : ٤٨٤	طويق : ٨٣
عين بزاحة : ٢٤	طيسفون : ٦٨٥
عين التمر : ٥٧٢ ، ٥٧٣	حرف الظاء
عين جالوت : ٥٩٠ ، ٧١٩	ظفار : ٢٥٠ ، ٢٩٠ ، ٣٥٦
عين زبيدة : ٣٣ ، ٤٠	
عين شمس : ٥٧٦	
العيون : ٥٠ ، ٦٤ ، ٤٦٤	

القصيم : ٤٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ،
٩٨ ، ١٣٩ ، ١٥٣ ، ١٧٩

قطر : ٩٩

القطيف : ٨٧ ، ١٤٠ ، ٢٢٨ ،
٥٣١ ، ٥٦٢

قفار : ٩١

قلعة الحزم : ٢٦٨ ، ٢٦٩

قلعة خولان : ٣٨٩

قلعة همدان : ٣٨٩

قلعة يحصب : ٣٨٩

قلهات : ٢٥٦

قم : ١٠٧

قنا : ٩١

القنفذة : ١٥٠ ، ٢٠١

حرف الكاف

كاظمة : ٦٥٢

الكدراء : ٤٠٧ ، ٤٠٨

كراتشي : ٦٧١

الكرخ : ٦٩٥

كربلاء : ١٢٠ ، ٦٩٢

کردستان : ٣٣٨ ، ٦٨٢

كركوك : ٦٨٣ ، ٧٣٥

كرمان : ٣٠٢

كلكتا : ٢٢٣

كمران : ٤٦١

كندة : ٣٩١

كنيسة القليس : ٤١١

الكوفة : ٦٩٠ ، ٦٩٣ ، ٦٩٥

كوكبان : ٤٣٠

الكونغو : ٣١ ، ٢٧١

كوريا موريا : ٢٥٠

كوجرات : ٣٢٧

كيران : ٤٨٤

العبينة : ٥٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ،
٨٥ ، ٨٨ ، ١٠٣

حرف الغين

غزالة : ٨١

غزنة : ٧٠٥ ، ٧٠٦

الغطط : ٦٤ ، ٢١٢ ، ٢١٣

غمدان : ٤١١

حرف الفاء

الفجيرة : ٢٤٩ ، ٦٢٩ ، ٦٣٩

فخ : ٣٥

فدك : ٩١ ، ٩٣

فرنسا : ٢١٦ ، ٢٥٨

الفسطاط : ٢٥٧ ، ٣٩٢

القليين : ٥٠٩

فلسطين : ١٨٤

فيلكه : ٦٥١

فيد : ٨١

الفيوم : ٣٩٢

حرف القاف

القادسية : ٦٨٦

القاهرة : ٢٥٧ ، ٣٧٨ ، ٣٩٩

قبرص : ١٧٢

قتبان : ٣٧٥ ، ٣٧٦

قرطبة : ٣٨٩ ، ٤٠١

قريات الملح : ٤٨ ، ٢٦٢ ، ٢٥١

القرم : ٧١٢

القسطنطينية : ٣٩ ، ٣٠٩ ، ٤٦٤

قشم : ٢٧٢

قشعم : ٥٩٢

القصب : ٦٤

حرف اللام

لبنان : ٥٠٧
لحج : ٤٣٣ ، ٤٨٤
الliche : ٤٧٠
ملك : ٣٨٢
ليبيا : ٣٩٢
الليث : ٢٠١

حرف الميم

مارب : ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٤١١
ماردين : ٧١٢
المجر : ٧١٢
مجنة : ٥٥
المجمة : ٩٦
المحرق : ٦٠١
مخا : ٤٠٢
المختارة : ٥٤٥
الدائن : ٤٢٨
المذنب : ٦٨ ، ١٣٠
مرباط : ٣٩٨
المردة : ٥٢
مرج دابق : ٣٦٥
مرج راهط : ٣٨٩
المزاحمية : ٢١٣
المزينة : ٣٩٨ ، ٤١٦
المسيجة : ٨١
مسقط : ٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ،
٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦
٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١
٢٧٢ ، ٢٩٨
مسكان : ٦٥١
مسكة : ١٣٠
المصمك : ١٧٠ ، ١٧٢

مضيرة : ٢٥٠

مطرح : ٢٥٩ ، ٢٩٨
مطير : ٢١٢
المعافر : ٤٤٧
معرة النعمان : ٩٢ ، ٥٦٤
المعفر : ٤٠٥
معين : ٣٧٦ ، ٣٧٧
مقديشو : ٣٤٧
المقرانة : ٤٥٧
مكران : ٢٩٨ ، ٣٣٨
المكيلا : ٤٨٤
الملايو : ٤٩١
ملبار : ٣٦٠
ملهم : ٦٤
المليدات : ٨٧
المليحة : ٦٣ ، ٦٤
ممبسة : ٣٢٦ ، ٣٢٨
المنامة : ٦١٢
المنصورة : ٤٤٦
منغوليا : ٧٠١
منفلوط : ٣٩٢
منفوحة : ٨٢ ، ١٠٦ ، ١٩٤
مهرة : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢١٩ ، ٢٩٥
موسكو : ٧١٢
المويصل : ٥٣
الموصل : ٦٩١ ، ٧١٢
ميدى : ١٥٨ ، ١٩٨
ميلندى : ٤٥٨

حرف النون

نجران : ٢٥ ، ٢٨ ، ١٤١ ، ٣٨٢
٤٧١ ، ٣٨٤
النجف : ٣٤٣ ، ٥٩٨
نخل : ٢٥٦ ، ٢٥٧

واحة خرمة : ١٦٨ ، ١٩٦	نزوى : ٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨
وادي حنيقة : ٤٩ ، ٦٤ ، ٨٤ ، ٨٥	٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥
وادي الدواسر : ١٥٣ ، ١٧٩ ، ٦٥٣	النعيمية : ٥٣
وادي الدم : ٨٤	نصيبين : ٧١٢
وادي الصفراء : ١٤٩	النوبة : ٣٥ ، ٤٤٤
وادي فاطمة : ١٨٩	نياسا : ٢٧١
وادي القرى : ٩٣	نيس : ٢١٦
وادي النعمان : ٣٤	نيسابور : ٧٠٥
واسط : ٤٣٢	نينوى : ٥٨٠ ، ٦٩١
الوشم : ٤٥ ، ٦٩ ، ٩٦ ، ١٧٣ ، ٢٢٧	حرف الهاء
الوصيل : ٤٨	هجر : ٣٦ ، ١٠٧ ، ٢١٠ ، ٢١١
الوطية : ٨٨	٢٢٧ ، ٥٤٧ ، ٥٦٩
حرف الياء	هراة : ٧٠٩
اليابان : ٦٧٣	هرمز : ٢٤٩ ، ٢٦٢ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣
يافا : ٥٩٦	الهفوف : ١٧٦ ، ٢٢٨
يافع : ٤٤٢ ، ٤٨٤	الهلالية : ١٢٠
اليمامة : ٣٤ ، ٨٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧	همدان : ٣٤ ، ٤٢١ ، ٤٣٥ ، ٧١٠
٥٣٤ ، ٥٣٥	الهند : ٤٠٧
اليونان : ١٤٦ ، ٢٨٩	هولندا : ٣٢٣
	حرف الواو
	واحة تربة : ١٩٦

رقم الايداع ١٩٧٦ لسنة ١٩٩٢

مطابع سجل العرب

HISTORY and CIVILIZATION of ISLAM

A study, in Ten Volumes,
On History and Civilization of Islam
in All Muslim Ages and Lands



دكتور أحمد شلبى

7

ISLAM AND MUSLIM COUNTRIES
THE ARAB PENINSULA AND IN IRAQ,
FROM THE RISE OF ISLAM UP TO THE
PRESENT TIME .

By

AHMED SHALABY,

B.A. (Hon.) Cairo University,
Ph. D. Cambridge University,
Professor of Islamic History and
Civilization
Faculty of Dar El Ulum, Cairo University

Published by :

THE RENAISSANCE BOOKSHOP
9 Adly Street, Cairo.

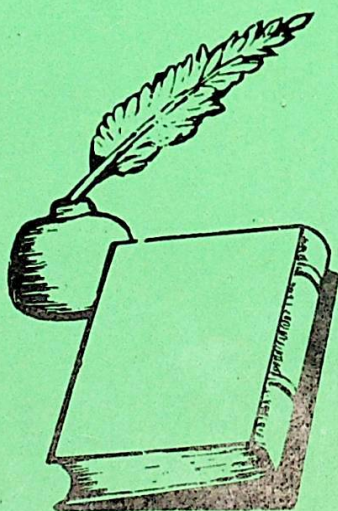
- تلقى دراساته في الأزهر وفي كلية دارالعلوم (جامعة القاهرة) وفي جامعة لندن وجامعة كمبودج .
- رار الولايات المتحدة الأمريكية كما رار أكثر دول أوروبا وآسيا وإفريقيا، ومثّل مصر في عدة مؤتمرات دولية .
- درس مجموعة من اللغات الأجنبية وبحيد الإنجليزية والاندونيسية .
- اشتغل بالتدريس بجامعة القاهرة حتى وصل الى درجة أستاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية . وقد حاصره مستندنا ورائرا ومعارا في جامعة الأزهر، وعين سمس . واندونيسيا، والسودان، وماليزيا، والمملكة العربية السعودية، وليبيا، وفي معهد الدراسات الاسلامية . ومعهد السحوت والدراسات العربية، ومعهد الدراسات الدبلوماسية .
- مؤلفاته تزيد عن خمسين كتابا ظهرت الطعة الثانية والعشرون من بعضها وأهم هذه المؤلفات :
- ١ — موسوعة التاريخ الاسلامى في عشرة مجلدات
- ٢ — موسوعة الحضارة الاسلامية في عشرة أجزاء .
- ٣ — مقارنة الأدبان في أربعة أجزاء .
- ٤ — كيف نكتب بحثا أو رسالة .
- ٥ — المكتبة الاسلامية لكل الاعمار : ١٠٠ جزء من السّير والتاريخ وقصص القرآن للأطفال والشبان والسيدات والرجال .
- ٦ — ISLAM: BELIEF, LEGISLATION, MORALS
- ٧ — HISTORY OF MUSLIM EDUCATION
- كتب بعض كتبه بالانجليزية والاندونيسية، وترجمت أكثر مؤلفاته الى الأوردية، والتركية، والاندونيسية، والماليزية والفرنسية، والعارسية .

مَوْسُوعَةُ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ وَالْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

٨

الإسلام والدّول الإسلاميّة غير العربيّة بآسيا
إيران - أفغانستان - الباكستان - بنجالاديش - ماليزيا - إندونيسيا
من مطلع الإسلام حتى الآن

الأقليات الإسلاميّة ومشكلاتها :
بأهند والاتحاد السوفييتي والصين والفيليبين وسنغافورة



تأليف
الدكتور أحمد شلبي
دكتوراه من جامعة كمبودج

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة



مع إضافات واسعة وتحقيقات جديدة

الطبعة الأولى ١٩٨٣

موسم النبوة

التاريخ الإسلامى

واحضارة الإسلاميه

دراسة تحليلية شاملة في عشرة أجزاء لتاريخ العالم الإسلامى كله ،
من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر ، مع دراسة الجوانب الحضارية
التي أسهم بها المسلمون في ترقية العمران وتطوير الفكر البشرى

٨

الإسلام والدول الإسلاميه غير العربيه بأسيا

إيران - أفغانستان - الباكستان - بنجلاديش - ماليزيا - اندونيسيا

من مطلع الإسلام حتى الآن

الأقليات الإسلاميه ومشكلاتها :

بالهند والاتحاد السوفييتى والصين والفيليبين وسنغافورة

تأليف

الدكتور أحمد شلبى

دكتوراه من جامعة كمبودج

أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلاميه
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

التاريخ

شعاع من الماضي ينير الحاضر والمستقبل

خطة البحث في هذه الموسوعة

ان خطة البحث التى اتبناها فى كتابة « التاريخ الاسلامى » خطة جديدة ومريحة ، ويسرنى أن أبرزها فى التخطيط التالى ، ليعرفها القارئ ، وليسهل عليه متابعتها :

ج ١	العرب قبل الاسلام — السيرة النبوية العطرة وجوانب من السيرة تدوّن لأول مرة — عصر الخلفاء الراشدين	دراسة زمنية فى هذه الأجزاء الثلاثة ، اذ أن العالم الاسلامى كان وحدة واحدة
ج ٢	الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية خلالها	
ج ٣	الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الأول ، وبدور المسلمين خلاله فى خدمة الدراسات الاسلامية والعالية (تفاصيل الدراسة عن العصور العباسية الأخرى ستأتى فى الأجزاء التالية)	

دراسة مكانية (قطاعات جغرافية) فى الأجزاء الخمسة التالية لأن العالم الاسلامى انقسم الى دويلات كثيرة ، ويشمل كل جزء من أجزاء الموسوعة قطاعا من العالم الاسلامى ، بحيث يتناول تاريخه من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر مبتدئين من الغرب ومتجهين الى الشرق كالتخطيط التالى :

الجزء الثامن	الجزء السابع	الجزء السادس	الجزء الخامس	الجزء الرابع
الاسلام والدول الاسلامية غير العربية بآسيا : إيران — أفغانستان — الباكستان — بنجالاديش — ماليزيا — اندونيسيا منذ دخولها الاسلام حتى الآن الاقليات الاسلامية بالهند والصين والاتحاد السوفيتى والقبليين وسنغافورة	مطلع الاسلام حتى الآن دول الجزيرة العربية : المملكة العربية السعودية — عمان — اليمن — جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية — دولة الإمارات العربية — قطر — البحرين — الكويت — ثم العراق	الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق ، من مطلع الاسلام حتى الآن دول الجزيرة العربية : المملكة العربية السعودية — عمان — اليمن — جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية — دولة الإمارات العربية — قطر — البحرين — الكويت — ثم العراق	الاسلام والدول الاسلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخولها الاسلام حتى الآن دراسة عن — وسائل انتشار الاسلام بقلب افريقية — الدول الاسلامية قبل الاستعمار الأوربى — الدول الاسلامية الحالية : موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيا — مالي — النيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال — جيبوتى	الاندلس الاسلامية وانتقال الحضارة الاسلامية منها الى أوروبا الغرب — الجزائر — تونس — ليبيا ، من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر السنوسية : مبادئها وتاريخها مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر الحروب الصليبية : دوافعها — أدواتها — نتائجها الابوطونية الفتحانية (تركيا — منذ ظهورها حتى الآن)

وتتضمن الموسوعة بدراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر :

الجزء العاشر : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : حويلات عصر محمد نجيب : الواجهة
حويلات عصر جمال عبد الناصر :

عصر المظالم والهزائم

الجزء التاسع : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر أنور السادات : نجاح فى
التشئون الخارجية واخفاق فى
التشئون الداخلية

كتب للمؤلف

أولا : موسوعة التاريخ الاسلامى

دراسة تحليلية شاملة في عشرة أجزاء لتاريخ العالم الاسلامى كله من مطلع الاسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى أسهم بها المسلمون في ترقية العمران ، وتطوير الفكر البشرى :

١ - الجزء الاول : (الطبعة الحادية عشرة)

— مقدمة الموسوعة : نطاق التاريخ الاسلامى — تفسير التاريخ — هل التاريخ علم ؟ .. فلسفة التاريخ — فائدة التاريخ — مراحل تدوين التاريخ — قضية الالتزام في كتابة التاريخ الاسلامى — علم التاريخ بين المسيحية والاسلام ...
— تاريخ العرب قبل الاسلام : البدو والحضر — حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

— السيرة النبوية العطرة : جوانب من السيرة تدون لأول مرة — الدعوة الاسلامية وفلسفتها — عصر الخلفاء الراشدين

٢ - الجزء الثانى : (الطبعة السادسة)

الدولة الاموية والحركات الفكرية والثورية في عهدها .

٣ - الجزء الثالث : (الطبعة السابعة)

الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الاول ، وبدور المسلمين في خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية .

٤ - الجزء الرابع : (الطبعة السادسة)

— الاندلس الاسلامية ، وانتقال الحضارة الاسلامية الى اوربا عن طريقها .

— المغرب — الجزائر — تونس — ليبيا (من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر) .
— السنوسية : مبادئها وتاريخها .

٥ - الجزء الخامس : (الطبعة السادسة)

— مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر .
— الحروب الصليبية : دوافعها — ادوارها — نتائجها .
— الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن .

٦ - الجزء السادس : (الطبعة الثالثة)

الاسلام والدول الاسلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخلها الاسلام حتى الآن :

- دراسة عن وسائل انتشار الاسلام :
- مراكز الشمال - هجرات عربية وغير عربية - التجار - الطرق الصوفية - مراكز داخلية .
- الدول الاسلامية قبل الاستعمار الاوربي :
- غانة - مالي - صنفى - دول الهوسا - برنو - باجـرمى - واداي - الفونج - مقدشو - مملكة الزنج .
- الدول الاسلامية الحالية :
- موريتانيا - السنغال - جامبيا - غينيا - مالي - النيجر -- نيجيريا - تشاد - السودان - الصومال - جيبوتى .

٧ - الجزء السابع : (الطبعة الثانية)

الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق :

- دول الجزيرة العربية من مطلع الاسلام حتى الآن :
- المملكة العربية السعودية - اليمن - جمهورية اليمن الجنوبية - عمان - دولة الامارات العربية - قطر - البحرين - الكويت .
- العراق من مطلع الاسلام حتى الآن .

٨ - الجزء الثامن :

الاسلام والدول الاسلامية غير العربية بآسيا من مطلع الاسلام حتى الآن :

- ايران - افغانستان - الباكستان - بنجلاديش - ماليزيا - اندونيسيا
- الاقليات الاسلامية في الهند والصين وروسيا والفيليبين ..

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر

٩ - الجزء التاسع : (الطبعة الثانية)

- ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم . عصر محمد نجيب وعصر جمال عبد الناصر (عصر المظالم والهزائم) .

١٠ - الجزء العاشر :

- ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم ، عصر انور السادات . (عصر النجاح في الشؤون الخارجية والفشل في الشؤون الداخلية) .
- (ترجمت أكثر أجزاء هذه الموسوعة لعدة لغات)

(و)

كتب للمؤلف

ثانيا : موسوعة النظم والحضارة الاسلامية

دراسة تحليلية شاملة في عشرة اجزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية التي جاء بها الاسلام لهداية البشرية في شئون العقيدة ، والسياسة ، والاقتصاد ، وفي مجال الحياة الاجتماعية والتربوية والعسكرية ، والتشريعية والقضائية ، كما تبرز جهود المسلمين في الحضارة التجريبية ، واجزاؤها هي :

١١ - الجزء الأول : تاريخ المناهج الاسلامية (الطبعة الثانية)

مناهج التعليم في صدر الاسلام - انحرافاتهما في عصور الظلام - وجوب تصحيحها .

١٢ - الجزء الثاني : الفكر الاسلامي : منابعه وآثاره (الطبعة السادسة)

١٣ - الجزء الثالث : السياسة (الطبعة الخامسة)

في التفكير الاسلامي

مع المقارنة بالنظم السياسية المعاصرة .

١٤ - الجزء الرابع : الاقتصاد (الطبعة الخامسة)

في التفكير الاسلامي

مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة . ومع دراسة شاملة للنقاط التالية :

١ - الاسلام والقضايا الاقتصادية الحديثة مثل شهادات الاستثمار والايذاع بالبنوك ...

٢ - النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور واثر الفكر الاسلامي فيها .

٣ - خطر الشيوعية على الاديان والانسان والدول .

(ز)

١٥ - الجزء الخامس : التربية الإسلامية (الطبعة السابعة)
نظمها - تاريخها - فلسفتها

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين ، ولناهج
التعليم وامكانته ، ولحالة المدرسين المالية والاجتماعية ، والجازات
العلمية ، والعقوبات ، والجوائز ، والمكافآت ، وملابس المدرسين ،
ونقابة المعلمين ، وتكافؤ الفرص بين التلاميذ ، وتوجيههم حسب
مواهبهم ..

١٦ - الجزء السادس : المجتمع الإسلامي (الطبعة السادسة)
أسس تكوينه .. أسباب ضعفه .. وسائل نهضته

١٧ - الجزء السابع : الحياة الاجتماعية (الطبعة الثالثة)
في التفكير الإسلامي

- في نطاق الأسرة : كالختان وتحديد النسل وعمل المرأة ...
- وفي نطاق المجتمع : كالأفراح والمآتم والموسيقى والفناء ...

١٨ - الجزء الثامن : تاريخ التشريع الإسلامي (الطبعة الثانية)
وتاريخ النظم القضائية في الإسلام
مع بحوث واسعة عن القرآن الكريم : المصدر الأول للتشريع
ومع دراسة شاملة لمصادر التشريع الأخرى

١٩ - الجزء التاسع : الجهاد والنظم العسكرية (الطبعة الثالثة)
في التفكير الإسلامي

بحث علمي يبرز موقف الإسلام من السلم والحرب ، كما يبرز اتجاهات
الإسلام في مشكلات الحرب كالاستعداد للجهاد ووسائله ، وأخلاق
المجاهد ، والخديعة في الحروب ، والثبات والفرار ، والرباط ،
والتجسس والخيانة ، والهبة والأسرى ..

٢٠ - الجزء العاشر : رحلة حياة (الطبعة الثالثة)
تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الإسلامية

(ح)

كتب للمؤلف

ثالثا : مقارنة الأديان

سلسلة من الكتب في مقارنة الأديان ، تعتمد على أدق المراجع
بمختلف اللغات ، وتمتاز دراستها بالحيطة والعمق وتشمل :

٢١ - الجزء الأول : اليهودية : (الطبعة السابعة)

— دراسة لشتى المسائل اليهودية : اليهود في التاريخ من عهد
ابراهيم حتى الآن : الصهيونية ، أنبياء بني اسرائيل ، عقيدة بني اسرائيل ،
يهوه اله بني اسرائيل ، التعدد والتوحيد في الفكر اليهودي ، التابوت والهيكل ،
الكنة والقرايين ...

— مصادر الفكر اليهودي : العهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء
صهيون .

— اليهود في الظلام : الماسونية ، والروتاري ، الاغتيال ، التجسس ،
البابية والبهائية .

— من صور التشريع في اليهودية .

٢٢ - الجزء الثاني : المسيحية : (الطبعة السابعة)

— المسيح والمسيحية في نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة .

— بولس واضع المسيحية الحالية ، التثليث ، صلب المسيح للتكفير عن
خطيئة البشر .

— شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، المجامع .
طبيعة المسيح والآراء فيها ، الطوائف المسيحية ، الرهبنة والاديرة ، خرافة
ظهور العذراء في كنيسة الزيتون ، حركة الاصلاح الديني ونتائجها ونقدتها .

٢٣ - الجزء الثالث : الاسلام : (الطبعة السابعة)

— الله في التفكير الاسلامي ، النبوة في التفكير الاسلامي ، غير المسلمين
في المجتمع الاسلامي ، الدين المعاملة ، المرأة في الاسلام ، الرق وموقف الاسلام
منه ، السياسة والاقتصاد في الاسلام .

٢٤ - الجزء الرابع : اديان الهند الكبرى : (الطبعة السادسة)

« الهندوسية — الجينية — البوذية »

— تقديم عن : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات في الهند ، الأديان
في الهند .

— دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا : مهابهارتا : يوجاواسستها ،
كيتسا .

— أهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الانطلاق والثرفاتا ، وحدة
الوجود .

— تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ واضعها .

كتب للمؤلف

رابعاً : كتب في الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

- ٢٥ - كيف تكتب بحثاً أو رسالة (الطبعة السادسة عشرة)
دراسة منهجية لكتابة البحوث واعداد رسائل الماجستير والدكتوراه
كتابان باللغة الانجليزية هما :

ISLAM : Belief - Legislation - Morals	— ٢٦
مكتبة النهضة المصرية History of Muslim Education	— ٢٧

وكتب باللغة الاندونيسية والماليزية :

Pustaka National (Singapore)	Negara dan Pemerintahan Dalam Islam	— ٢٨
	Masjarakat Islam	— ٢٩
	Hukum Islam	— ٣٠
	Sedjarah dan Kebudajaan Islam	1 — ٣١
	Sedjarah dan Kebudajaan Islam	11 — ٣٢
	Sedjarah dan Kebudajaan Islam	111 — ٣٣
	Perbandingan Agama (Jahudi)	— ٣٤
	Perbandingan Agama (Masihi)	— ٣٥
	Perbandingan Agama (Islam)	— ٣٦
	Perbandingan Agama (Agama2 yang	— ٣٧
	Terbeser di India : Hindu-Jaina-Buddha)	
	Sadjarah Pendidikan Islam	— ٣٨
	Politik dan Ekonomi Dalam Islam	— ٣٩
	Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam	— ٤٠
	Perkembangan Keagamaan Dalam Islam	— ٤١
	dan Masehi	
	Perang Salib	— ٤٢
	Kurikulum Islam Dalam	— ٤٣
	Perkembangan Sedjarah	
	Pengajian Al Quraan	— ٤٤
	Sedjarad Kehakiman Dalam Islam	— ٤٥

كتب للمؤلف

خامسا : تعليم اللغة العربية لغير العرب

وقواعد اللغة العربية

- برنامج شامل ميسر لتعليم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب .
- أول سلسلة من نوعها في المكتبة العربية تملا هذا الفراغ .
- دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف .
- تضم هذه السلسلة الكتابين التاليين :

٤٦ — تعليم اللغة العربية لغير العرب : (الطبعة الثالثة)

يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى : مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة ، والتعبير ، فالاملاء ، فالخط والنصوص ، ثم يقفز بالطالب الى مرحلة متقدمة في القراءة والحادثة والكتابة ، مستعملا في هذه المرحلة موضوعات جذابة من الفكر الاسلامي والعربي اختيرت من امهات الكتب العربية ثم صيغت في أسلوب مناسب ، مع أسئلة وتمريعات مفيدة .

٤٧ — قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها : (الطبعة الثالثة)

عرض لجميع أبواب النحو العربي بطريقة تربوية سهلة ودراسة واضحة لاهم أبواب الصرف

هذا الكتاب ضروري للمثقف العربي وغير العربي

كتب نفذت ولن يعاد طببعها

- ٤٨ — في قصور الخلفاء العباسيين :
- أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة .
- ٤٩ — مصر في حربين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) دراسة مقارنة :
- وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٩ من هذه القائمة .
- ٥٠ — الحكومة والدولة في الاسلام :
- وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٣ من هذه القائمة .
- ٥١ — الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحي :
- ٥٢ — النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور واثار الفكر الاسلامي فيها .
- وأكثر مادة هذين الكتابين تضمنها الكتاب رقم ١٤ من هذه القائمة .

كتب للمؤلف

سادسا : المكتبة الاسلامية المصورة

لكل الأعمار

١٠٠ جزء من سير عظماء الاسلام ومن التاريخ والحضارة وقصص القرآن
للأولاد والشباب والسيدات والرجال

ظهر منها الأجزاء التالية :

- ج ١ محمد قبل البعثة
- ج ٢ من غار حراء .. الى غار ثور (قصة الاسلام في مكة)
- ج ٣ الاسراء والمعراج : دراسة تصحيح للقضاء على الشطحات
- ج ٤ الهجرة للمدينة ووسائل الاستقرار بها
- ج ٥ الرسول الداعية ومربي الدعاة
- ج ٦ الرسول في بيته : ازواجه — اولاده واحفاده — خدمه
- ج ٧ الرسول في بيته : مشكلات الحياة في بيت الرسول وكيف عالجها
- ج ٨ الرسول بين اصحابه — الرسول يربي الفرد المسلم ويربى المجتمع الاسلامي
- ج ٩ الرسول يربي القضاة ، ويربى القوة العسكرية ، ويربى الولاة والحكام
- ج ١٠ الرسول والشباب — الرسول والعمل
- ج ١١ توجيهات طبية يقدمها الرسول — مكرامات للرسول — الرسول والمنافقون
- ج ١٢ الرسول والنصارى — الرسول واليهود
- ج ١٣ الاسلام والقتال ، وهل انتشر الاسلام بالقوة او بالدعوة — غزوة بدر ودراسات جديدة حولها — اهم أحداث غزوة بدر
- ج ١٤ غزوة احد والهزيمة التي اخافت المنتصر — غزوة الاحزاب وكلمة عن سلمان الفارسي
- ج ١٥ صلح الحديبية — كتب الرسول للملوك والرؤساء
- ج ١٦ فتح مكة — غزوة حنين والطائف — الصراع ضد الروم — الفترة الاخيرة في حياة الرسول
- ج ١٧ ابو بكر الصديق : حياته وعصره والمشكلات التي واجهها
- ج ١٨ عمر بن الخطاب والتوسع في عهده — عمر باني الدولة الاسلامية
- ج ١٩ عثمان بن عفان والفتنة في عهده
- ج ٢٠ علي بن ابي طالب : شخصيته وحياته والمشكلات التي واجهها
- ج ٢١ العشرة المبشرون بالجنة
- ج ٢٢ المرأة في الاسلام ونماذج من خبرة المسلمات
- ج ٢٣ الدولة الاموية : تاريخ يحتاج الى انصاف
- ج ٢٤ الدولة الاموية : مواهب فريدة : الوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز
- ج ٢٥ الدولة الاموية : التوسع الاسلامي العظيم في عهدها
- ج ٢٦ الدولة الاموية : نشاط الشيعة خلالها وقصة استشهاد الامام الحسين (الأجزاء التالية ستظهر تباعا ان شاء الله)

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
١٩ — ٢٠	مقدمة الجزء الثامن
٢٢	خطة الدراسة في هذا الجزء
٢٣ — ٢٤	تعريف بقارة آسيا

إيران

٢٧	المساحة والموقع
٢٩	السكان واللغات
٣٠	التسمية
٣١	الطبيعة
٣٢	أهم الأقاليم بإيران
٣٣	أشهر المدن بإيران
٣٦	مصادر الثروة في إيران

كلمة عن تاريخ إيران قبل الإسلام :

امبراطورية ميديا ٣٧ — العصر الاكمني ٣٧ —
قناة سيزوستريس ٣٩ — الاسكندر المقدوني
ثم العصر السلوقي ٤٠ — عصر البارثيين ٤١
الساسانيون ٤١ — الفرس والعرب قبل الاسلام
٤٤ — ديانة الفرس قبل الاسلام ٤٤ — الحياة
الاجتماعية والطبقات في ايران قبل الاسلام ٤٧

إيران والإسلام :

قبيل الزحف الاسلامي ٤٩ — تحركات الزحف
الاسلامي ٥٠ — من ايران الى المناطق التالية لها ٥٢

٥٤	إيران في ظل الإسلام
٥٧	الدولة الطاهرية بخراسان

الصفحة	الموضوع
٦٠	الزيدية فالزيارية في طبرستان
٦٤	الصفاريون
	صحوۃ الخلافة ٦٦
٧٠	الدولة السامانية
٨٠	الديلم (البويهيون)
• ٨٦	الغزنويون
	قيم فكرية في بلاط محمود الغزنوى ٩٠
٩٥	السلاجقة (التركمان أو الأتراك أو الغز)
	السلاجقة في بغداد ٩٧ — النهضة الفكرية في عهد السلاجقة ١٠٧
١١٠	الخوارزمية
١١١	مشاهير وقيم فارسية
١١٣	المغول :
	هولاكو وخلفاؤه ١١٥ — أفذاذ عصر هولاكو ١٢٦
	التيموريون ١٣٤ — أفذاذ العصر التيمورى ١٣٩
١٤١	الدولة الصفوية
	اهم ملامح عصر الصفويين ١٤٥
	من الصفويين الى القاجاريين :
	حكم نادر شاه ١٥٢ — أسرة الزنديين ١٥٣
١٥٤	القاجاريون :
	البابية والبهائية ١٥٥ — جمال الدين الافغانى ١٥٦

الصفحة

الموضوع

العصر البهلوى :

كلمة عن رضا بهلوى مؤسس الأسرة ١٦٠

١٦٢

عصر محمد رضا بهلوى :

عهد الدكتور مصدق ١٦٥ — الشاه واسرائيل ١٦٦ —

الشاه والاسلام ١٦٧ — حركة الشاه الاصلاحية ١٦٨ —

ثورة ودماء ١٦٩

١٧٠

الإمام الخومينى :

الشهور الأخيرة للشاه فى ايران ١٧٣ — رحلة عودة

الإمام ١٧٧ — نهاية الشاه ١٧٨ — طموح كاذب

واحتفالات برسوبوليس ١٧٩

الجمهورية بإيران :

يوميات الحياة فى ايران الجديدة ١٨٧ — الرهائن

الأمريكيون ١٨٨ — أبو الحسن بنى صدر ١٨٩ —

الحرب مع العراق وأدوارها ١٩٤ — أمل فى الختام ٢٠٧

أفغانستان

٢١١

المساحة والموقع والسكان

٢١٤

اللغات فى أفغانستان

٢١٥

جمال الطبيعة فى أفغانستان

تاريخ أفغانستان :

الدولة السامانية فى أفغانستان ٢١٩ — الدولة الغزنوية

٢٢٠ — المغول ٢٢٣ — الأسرة التيمورية ٢٢٤ —

الغوريون فى أفغانستان ٢٢٦ — أفغانستان الحديثة

٢٢٨ — الأسرة الباركرائية ٢٣١

٢٣٤

قاطع الطريق الذى حكم أفغانستان

٢٣٤

محمد نادر شاه

النظام الجمهورى فى أفغانستان :

محمد داود ٢٣٥ — نور تراقى ٢٣٦ — حفيظ الله

٢٣٧ — انقلاب سوفيتى باسم بابرالك ٢٣٩ — المقاومة

الأفغانية ٢٤١

الصفحة

الموضوع

شبه القارة الهندية

٢٤٧	لمحة عن جغرافية الهند
٢٥١	سكان الهند
٢٥٦	اللغات في الهند
٢٥٧	الأديان في الهند
٢٥٩	كلمة عن تاريخ الهند قبل الإسلام

الإسلام في الهند :

مرحلة الاتصالات التجارية ٢٦٠ — مرحلة الحركات العسكرية فالولايات ٢٦٢ — عصر الامارات الإسلامية في الهند ٢٦٨ — الغزنويون في الهند ٢٧٢ — الهنود في مجال الحضارة الإسلامية ٢٧٧ — الأفغان في الهند ٢٧٨

سلاطين دلهي :

سلاطين المالك في دلهي ٢٨١ — سلاطين الخليفة ٢٨٤ — الدولة الطغلقية ٢٨٦ — تيمورلنك في الهند ٢٨٨ — دولة السادات ٢٩٠ — اللوديون ٢٩٠

٢٩٢	إمبراطورية المغول في الهند ومؤسسها بابر
	همايون شاه ٢٩٥ — شير شاه ٢٩٦ — الفكر الشيعي بالهند ٢٩٧ — جلال الدين أكبر والدين الجديد ٢٨٩ — جهانكير ٣٠٢ — شاهجهان ٣٠٤ — أورنجزيب ٣٠٥ — بعد أورنجزيب ٣٠٦

٣١٠	الحضارة الإسلامية بالهند
٣١٧	الاستعمار الأوربي للهند
٣٣٠	ثورات الهند ضد الاستعمار
٣٣٢	مسلمو الهند تحت نير الاستعمار

ومضات إسلامية :

شاه ولي الله ٣٢٤ — المؤتمر الوطني والرابطة الإسلامية ٣٢٦ — سيد أحمد خان ٣٢٨ — المعاهد الإسلامية بالهند ٣٣١ — أغاخان ٣٣٣ — سيد أمير على ٣٣٤ — محمد اقبال ٣٣٥ — مولانا محمد علي ٣٣٨

الصفحة

الموضوع

٣٣٩

محمد على جناح وقيام دولة الباكستان

٣٤٢

خطوات قيام دولة الباكستان

باكستان

٣٤٩

اسم باكستان

٣٥١

مناطق الجمال في باكستان الغربية

٣٥٢

أقاليم باكستان

٣٥٤

أهم المدن في باكستان

٣٥٤

مشكلات التقسيم

٣٥٧

الأقلية الإسلامية بالهند ومشكلاتها

٣٦٢

جمشو وكشمير

٣٦٥

الباكستان والنظام الإسلامي

٣٦٧

الانقلابات العسكرية في الباكستان

٣٧٦

محاكمة على بوتو وإعدامه

بنجالاديش

٣٨٣

مقدمة

٣٨٦

الإسلام في البنغال

٣٨٧

عواصم البنغال وأنهارها

٣٨٨

أحزاب المعارضة في باكستان الشرقية

٣٨٩

الثورة والاستقلال لبنجالاديش

٣٩٠

الانقلابات العسكرية المتتالية في بنجالاديش

٣٩٣

الشيخ أو السك

٣٩٦

الإسلام والهند

الصفحة

الموضوع

الإسلام في جنوب شرقي آسيا

مقدمات مهمة عن المنطقة بين الزحف الصيني والزحف
الإسلامي

٤٠٣

إندونيسيا

تعريف بإندونيسيا

٤١٣

صورة من الطبيعة الإندونيسية

٤١٦

جزر إندونيسيا

٤١٧

سكان إندونيسيا

٤١٩

اللغات في إندونيسيا

٤٢١

الاتجاهات الدينية بإندونيسيا قبل الإسلام

٤٢٦

الأديان في إندونيسيا الآن

٤٢٩

ماليزيا

تعريف بماليزيا

٤٣٣

سكان ماليزيا

٤٣٥

الأديان في الملايو

٤٣٦

الممالك قبل الإسلام في إندونيسيا والملايو :

امبراطورية سري ويجايا ٤٣٧ — امبراطورية
ماجاييت ٤٣٩ — مملكة متارم ٤٤٣ — مملكة إيرلنجا
٤٤٤ — مملكة سنجوساري ٤٤٤

٤٤٥ دخول الإسلام الملايو وإندونيسيا وانتشاره بهما :

٤٤٩ دور العرب في نشر الإسلام بإندونيسيا والملايو

٤٥٧ دور الهنود في نشر الإسلام بإندونيسيا والملايو

٤٥٨ الحضارة في إندونيسيا

٤٥٩ نشاط المواطنين لنشر الإسلام

الصفحة	الموضوع
٤٦٥	مراكز إسلامية في الملايو وإندونيسيا
٤٦٤	تكوين الممالك الإسلامية بالملايو وإندونيسيا
٤٦٦	مملكة ملقا : قيامها ونظمها :
	البرتغال في ملقا والزحف الصليبي على المنطقة ٤٧٢
	المملكة الهندوكية تتعاون مع الاستعمار الغربي ٤٧٤
٤٧٥	مملكة آتشه
	الصراع بين هولندا وآتشه ٤٧٧ — من علماء آتشه
	٤٧٨ — صعود آتشه ووسائل الغرب للتغلب عليها ٤٨٠
٤٨١	مملكة ديماك
٤٨٣	مملكة بنتان
٤٨٤	مملكة متارم الإسلامية
٤٨٦	مملكة غووا
٤٨٧	ممالك شبه جزيرة الملايو
٤٨٨	الزحف الأوربي على الملايو وإندونيسيا
٤٩١	تاريخ الملايو من الاستعمار البرتغالي حتى الآن :
	البرتغال في الملايو ٤٩١ — هولندا في الملايو ٤٩٣
٤٩٦	التسوية الاستعمارية بين بريطانيا وهولندا
٤٩٦	بريطانيا في الملايو
٤٩٨	ثورات الملايو ضد الاستعمار البريطاني
٤٩٩	اليابان في الملايو
٥٠٠	بريطانيا في الملايو بعد هزيمة اليابان
٥٠١	استقلال الملايو ودستورها
٥٠٤	قيام اتحاد ماليزيا

الصفحة	الموضوع
٥٠٥	انفصال سنغافورة والأقلية الإسلامية بها
٥٠٧	الصراع الدامي بين الملايويين والصينيين بالملايو

ملحات حضارية عن ماليزيا :

٥١٢	النظام السياسي
٥١٤	التربية والتعليم
٥١٦	وقومية
٥١٣	اقتصادية
٥١٤	الاسلام في ماليزيا دين
٥١٦	رئيس وزراء جديد لماليزيا

٥١٧	تاريخ إندونيسيا من الزحف الغربى حتى الاستقلال
٥١٩	العلاقات التجارية بين آسيا وأوروبا
٥٢١	هولندا في إندونيسيا
٥٢١	بريطانيا في إندونيسيا
٥٢١	الصراع ضد الاستعمار بإندونيسيا
٥٢٢	القرن العشرون وحركات التحرر
٥٢٧	اليابان في إندونيسيا والصراع ضدها
٥٣١	إعلان استقلال إندونيسيا
٥٣٢	محاولة فاشلة لعودة الغرب لإندونيسيا

إندونيسيا المستقلة

عهد سوكارنو :

٥٣٦	الأحزاب باندونيسيا
٥٣٧	سوكارنو والحزب الشيوعى
٥٣٨	مؤامرات
٥٣٩	مؤامرة مديون
٥٤٠	ضد الجنرالات

٥٤٣	تعريف ببعض الشخصيات الإندونيسية المهمة
-----	--

من سوكارنو إلى سوهارتو :

٥٤٧	قرار نقل السلطة (تعليمات)
-----	-----------------------------

الصفحة	الموضوع
	عهد سوهارتو :
٥٤٩	تجمع الجولكار
٥٥١	الانتخابات الأخيرة في نظر المعلقين السياسيين
٥٥٣	بقايا الشيوعيين في إندونيسيا
	لمحات حضارية عن إندونيسيا
٥٥٤	مكانة إندونيسيا في جنوب شرقي آسيا
٥٥٤	البانشاسيلا
٥٥٥	إندونيسيا اقتصاديا
	الثقافة الإسلامية بإندونيسيا
٥٥٧	الجامعات الإسلامية وعلماء الإسلام
٥٥٩	الجمعية المحمدية في مواجهة النشاط المسيحي
٥٦٢	جمعية الإرشاد والجمعية العلوية
٥٦٣	المسيحية وإندونيسيا
	الحياة الاجتماعية في إندونيسيا
٥٦٤	بناء بيت
٥٦٤	الزواج وتكاليفه
٥٦٦	نظام الأسرة
٥٦٦	الرقص والموسيقى
٥٦٨	مراسم العزاء
٥٦٩	لمحات من الأخلاق والتقاليد في إندونيسيا وماليزيا

الأقليات الإسلامية في آسيا

٥٧٥	الأقليات الكبرى في آسيا
٥٧٩	الإسلام والمسلمون في الاتحاد السوفيتي
٥٨١	الموثنية في روسيا حتى نهاية القرن العاشر الميلادي
٥٨٧	زحف روسي على ممالك إسلامية
٥٨٨	سياسة « الترويس »
٥٩٠	الجمهوريات الإسلامية بالاتحاد السوفيتي
٥٩٣	موقف الشيوعية من مسلمي الاتحاد السوفيتي
٥٩٧	المسلمون بالاتحاد السوفيتي بين الماضي والحاضر والمستقبل
	الامبراطورية المتفجرة

الإسلام والمسلمون في الصين

١٠٣	مقدمة وتعداد المسلمين في الصين
٦٠٣	أديان الصين قبل الإسلام
٦٠٤	العلاقات بين الصين والعرب قبل الإسلام
٦٠٦	وصول الإسلام إلى الصين
٦٠٨	عصر المغول في الصين
٦٠٩	بعد عصر المغول
٦١١	ابن بطوطة في الصين
٦١١	المسلمون في تركستان الشرقية
٦١٢	المسلمون في الصين في عهد الجمهورية
٦١٣	حياة المسلمين في الصين في عهد الثورة
٦١٣	المسلمون بالصين في العهد الشيوعي
٦١٤	التبادل الثقافي بين العرب والصين
٦١٦	الصينيون والإسلام

الصفحة

الموضوع

الإسلام والمسلمون في الفيلبين

- ٦٢١ معلومات عامة عن الفيلبين
٦٢١ الإسلام والمسيحية في الفيلبين
٦٢٥ قبيل الزحف الأمريكي للفيلبين
٦٢٦ أمريكا في الفيلبين
٦٢٧ اليابان في الفيلبين ثم استقلال البلاد
٦٢٧ مسلمو الفيلبين بعد الاستقلال

٦٢٩ كلمة ختام

المخرائط والصور

- ٢١ خريطة البلاد التي ستشملها الدراسة بهذا الجزء
- ٢٨ إيران وأهم أقاليمها
- ١٤٦ جزيرة هرمز ومضيق هرمز
- ١٦٤ المشاء وزوجته الأخيرة
- ١٦٧ « المسافك » الذين درّبوا في إسرائيل
- ١٧٠ الإمام الخميني
- ١٧٣ إبراهيم يازدي
- ١٧٦ شاهبور بختيار
- ١٧٧ مهدي بازرجان
- ١٨١ البناء الشاهق لصريح الامبراطور قورش
- ١٨٢ استعراض للطالبات في الاحتفالات الاسطورية للامبراطورية
- ١٩٥ العراق وإيران ، وعمليات عسكرية بين دولتين مسلمتين
- ١٩٦ صدام حسين
- ٢١١ أفغانستان وأهم مدنها
- ٢٣٦ نور تراقي
- ٢٣٨ حفيظ الله السفاح
- ٢٤٠ بابرak كارميل
- ٢٤٩ شبه القارة الهندية
- ٣٤٠ القائد الأعظم محمد علي جناح
- ٣٥٣ باكستان
- ٣٧٥ الجنرال محمد ضياء الحق
- ٤٠٤ خريطة جنوب شرقي آسيا
- ٤١٤ جمهورية إندونيسيا
- ٤٢٢ نموذج للمرأة الإندونيسية
- ٤٢٧ عبّاد الأرواح في بالي

- ٤٣٥ ماليزيا الشرقية والغربية
 ٤٣٨ امبراطورية سرى ويجايا
 ٤٤٠ امبراطورية ماجابيت
 ٤٦٨ دولة ملقا في أقصى اتساعها
 ٤٧٩ مسجد شامخ من مساجد آتشه
 ٥٥٠ الرئيس سوهارتو
 ٥٥٨ بروفسور همكا
 ٥٦٠ مواكب المسلمين في بيوت الله بإندونيسيا
 ٥٦٥ العروسان في حفل زفاف
 ٥٦٧ راقصة إندونيسية تؤدي دورها في قصة اسطورية

مقدمة

الجزء الثامن من موسوعة التاريخ الاسلامى مهم للغاية ، لأنه يدرس تاريخ البلاد الاسلامية غير العربية بآسيا ، وهى منطقة فسيحة ضخمة ، لعب أهلها دورا كبيرا فى خدمة الاسلام ، ولكن لما كانت هذه البلاد غير عربية فان تاريخها لم يجد العناية من المؤرخين العرب الذين ألقى عليهم غالبا عبء الحديث عن الاسلام والمسلمين ، ومن الواضح أن هذه البلاد نشأ بها عدد كبير من الباحثين فى الدراسات الاسلامية ، وكتب هؤلاء فى العقيدة الاسلامية والفكر الاسلامى ، ولكن المؤرخين منهم كانوا قلائل ، وكانوا محليين بمعنى أنهم كتبوا عن تاريخ بلادهم ، أو على الأكثر كتبوا شيئا عن الخلافة الاسلامية فى عهدها المبكرة ، ولم يخطر لهم أن يربطوا تاريخ بلادهم بتاريخ العالم الاسلامى .

وعلى هذا يمكن القول إن هذه الموسوعة هى أول دراسة تضم الدول الإسلامية عربية وغير عربية فى نطاق واحد ، وتربط مصيرها بعضها ببعض ، وتوضح أنها عقد واحد يزدهى ويتلألأ طالما تماسك وتربط .

وهذه الموسوعة بذلك تصحح التعبير المعروف « التاريخ الاسلامى » فظالما سميت المادة المادة « التاريخ الاسلامى » ولكن الدراسة اتجهت فقط الى التاريخ العربى أى الى دراسة تاريخ الحجاز ودمشق وبغداد والقاهرة ، فاتجهت هذه الموسوعة الى دراسة تاريخ مئات الملايين من المسلمين عربا كانوا أو غير عرب ، فأمام الاسلام يتساوى الجميع ، ومن هنا يلتقى هذا الجزء بالجزء السادس من هذه الموسوعة فكلهما يدرس تاريخ البلاد الاسلامية غير العربية ، فالجزء السادس اتجه لدراسة البلاد الاسلامية غير العربية جنوب صحراء افريقية ، وهذا الجزء اتجه لدراسة تاريخ الاسلام والدول الاسلامية غير العربية بآسيا .

ومن الواضح أن هذا الجزء يدرس تاريخ دول لها حضارات عظيمة قبل الاسلام ، وقد كان للمسلمين نصيب كبير فى إحياء ما لا يتعارض مع الاسلام من حضارات الماضى التى كانت قد ذوت قبل الاسلام وشملها

الدبول ، وأصبحت هذه الحضارات بعد إحيائها حضارات يكتنفها ظل الاسلام .

ولهذا الجزء في نفسى مكانة خاصة فهو يشمل الحديث عن تاريخ بلاد أعدّها وطنى الثانى ، انها إندونيسيا التى عشت بها ست سنوات (١٩٥٥ - ١٩٦١) هى أجمل وأمتع سنوات العمر ، أقبلت على تلك البلاد خلالها وأقبلت عليها ، فمحتنى الحب والحنان الى أقصى الحدود ، ومنحتها من عقلى وقلبى وفكرى أسمى ما يستطيع معلم أو مفكر أن يمنح ، وبدأت منذ ذلك الحين أكتب تاريخ تلك البلاد ، ولم يتوقف جهدى فى هذا السبيل منذ ذلك الحين ، ولذلك تجدنى سعيدا كل السعادة أن أقدم هذا الجزء للقارئ المسلم بوجه خاص وللمثقف بوجه عام .

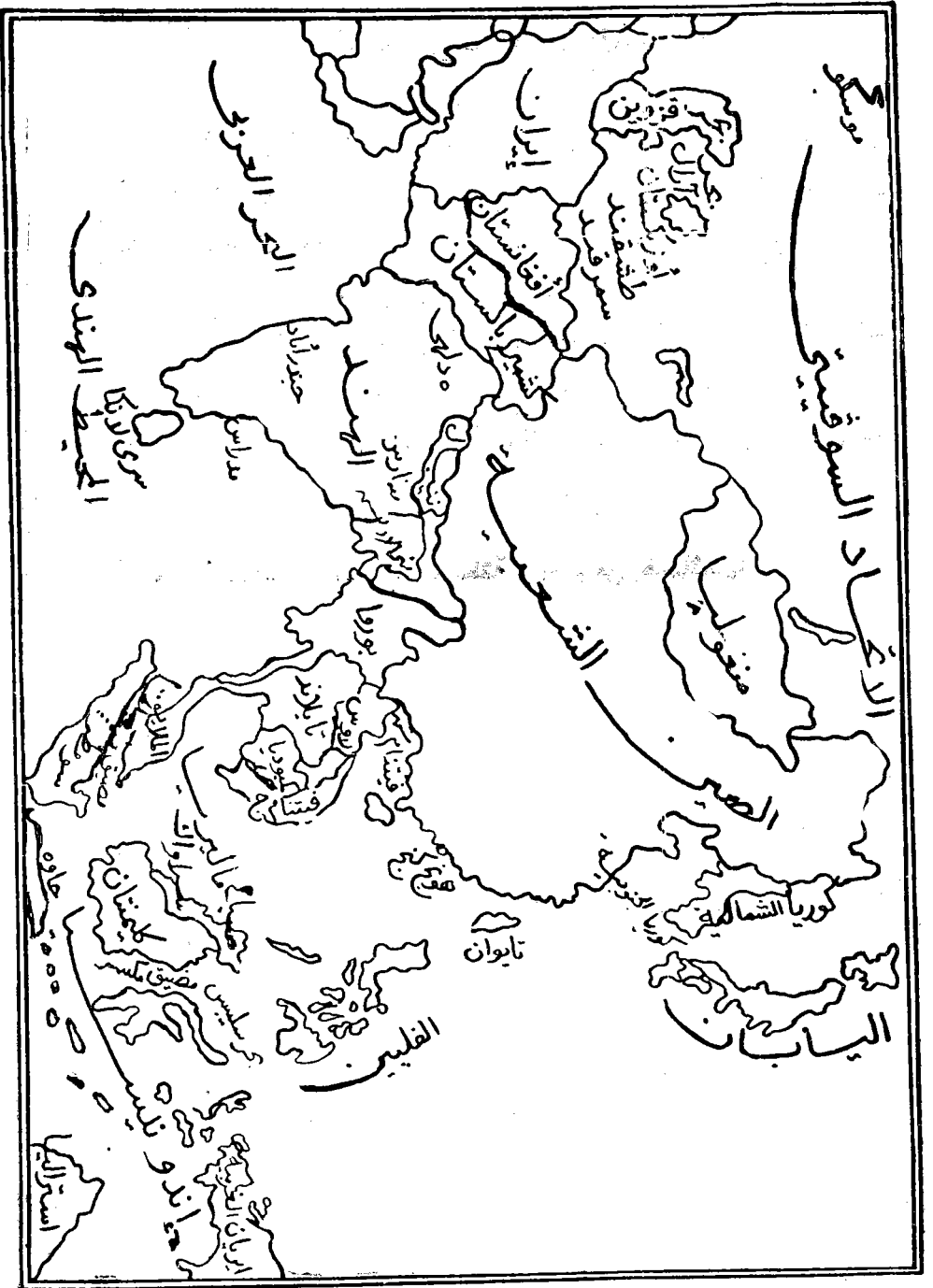
ويشمل هذا الجزء تاريخ ايران وأفغانستان والباكستان وبنجالاديش وماليزيا وأندونيسيا ، وتاريخ الأقليات الاسلامية فى الهند والاتحاد السوفييتى والصين والفلبين ، ومناطق جنوب شرقى آسيا ، وبهذا يتضح أن هذا الجزء يشمل تاريخ بعض البلاد التى لا يُعرف تاريخها للكثيرين ، وذلك ما يدفعنى لشكر الله العلى العظيم أن وفقنى لكتابة هذا الجزء الذى يملأ فراغا كبيرا فى الدراسات التاريخية والمكتبة العربية .

وستمتد دراستنا لتاريخ هذه المنطقة منذ دخولها الاسلام حتى العهد الحاضر ، وهى دراسة شاقة ولكنها لذيدة لأنها تيسر الاطلاع والمعرفة لطلاب العلم والمعرفة .

والله المسئول أن يمنحنا العون ، وأن ينفع بهذا العمل كاتبه وقارئه وهو المستعان .

دكتور أحمد شلبى

فى الثالث من يوليو سنة ١٩٨٢



خريطة البلاد التي تستعملها الدراسة بهذا الجزء

خطة الدراسة في هذا الجزء

سنتكلم عن الدول الاسلامية بهذا الجزء بترتيب موقعها الجغرافى من الغرب الى الشرق ، وعلى هذا فسنبدأ بالكلام عن إيران فأفغانستان فالهند التى يمتد الحديث عنها حتى تنقسم الى الهند وباكستان ، وحتى تستقل باكستان الشرقية وتسمى بنجالاديش ، وقبل أن نترك شبه القارة الهندية نتكلم عن المسلمين فى الهند الحالية ، ثم ننتقل من شبه القارة للحديث عن جنوب شرقى آسيا وبخاصة عن ماليزيا وإندونيسيا ، وبعد ذلك نتحدث عن الأقليات الاسلامية بالاتحاد السوفييتى والصين والفيليبين . .

ولنبداً بكلمة مجملة عن المنطقة كلها وعن خصائصها .

آسيا

آسيا من أكبر القارات في العالم وأكثرها سكانا ، وهى شديدة الاتصال بأوروبا ولا يفصلها عنها الا البسفور والدردنيل وبحر إيجة ، ومن أجل شدة الاتصال بين آسيا وأوروبا ، يطلق الجغرافيون كلمة (أوراسيا) على كتلة الأرض التى تشمل القارتين .

وآسيا مهد لكثير من الديانات الشهيرة كالبرهمية والبوذية والزرادشتية والكنفوشية واليهودية والمسيحية والاسلام ، وفى آسيا كذلك نشأت عدة حضارات عظيمة كحضارة آشور وبابل والفينيقيين ، والحضارة الهندية والصينية .

وتكثر فى آسيا الجزر الفسيحة الآهلة بالسكان ومن أشهر هذه الجزر جزر اليابان والفلبين وإندونيسيا ثم جزيرة فرموزا (تايوان) وهونج كونج ، كما تكثر بآسيا أشباه الجزر مثل كوريا وشبه جزيرة الهند الصينية وشبه جزيرة الملايو وشبه الجزيرة العربية وآسيا الصغرى .

وفى آسيا كثير من المضائق التى تتحكم فى الصلات العالمية ومن المضائق الاسلامية مكسر وملقا وهرمز وباب المندب والدردنيل والبوسفور . وهناك قناة صناعية لها أهمية كبيرة تقع بين آسيا وافريقية هى قناة السويس .

وآسيا بلاد خصبة تكثر بها الأنهار والمزارع الواسعة للحبوب والفاكهة .

وبها جبال شاهقة ومن أكثرها ارتفاعا جبال الهملايا التى تقع بها قمة ايفرست على ارتفاع حوالى تسعة آلاف متر .

وبها كذلك صحارى فسيحة يقع الكثير منها فى البلاد الاسلامية التى ستكون موضوع دراستنا المفصلة فيما بعد .

وكما أن آسيا غنية بمزارعها المسيحة فهي كذلك غنية بالبترول الذي انبثق في عدة أماكن منها ، وكان للبلاد الإسلامية منه نصيب موفور •

وآسيا مهد الدعوة الإسلامية ، فقد بدأت الدعوة الإسلامية في الحجاز الذي يقع في الطرف الغربي للقارة وسرعان ما امتد الإسلام من الحجاز فشمل شبه الجزيرة العربية كلها تقريبا في عهد الرسول صلوات الله عليه • ثم اندفع الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين فشمل الشام ومصر والعراق وفارس ، وتهاوت أمامه أكبر إمبراطوريتين عرفهما ذلك الزمان وهما إمبراطورية الروم وإمبراطورية الفرس ، ثم امتد الإسلام في آسيا فشمل أرمينيا والقوقاز وخوارزم وتركستان وخراسان وكل ذلك قبل نهاية القرن الهجري الأول ، وبهذا دخلت بلاد إيران وما وراء النهر وأفغانستان ... في الإسلام •

وفي أواخر القرن الهجري الأول وأوائل القرن الهجري الثاني عبر الإسلام حدود الهند واستقر المسلمون في السند ، وبلغوا حدود الصين • ثم انتشر الإسلام بعد ذلك في شبه القارة الهندية وتكونت في الهند إمبراطورية إسلامية كبرى هي إمبراطورية المغول وخلال هذا الوقت وقبله وبعده اندفع الإسلام إلى جزر الهند الشرقية وإلى الفلبين ووصل ساحل الصين الشرقي •

وسنندارس فيما يلي خطوات الإسلام وهو يزحف في آسيا قطرا
• اثر قطر •

والله المأمول أن يهبنا التوفيق •

السيران

المساحة والموقع :

مساحة ايران الحالية حوالى ١٦٢٨٠٠٠ كيلو متر مربع ، وقد حددت حدودها الحالية فى القرن التاسع عشر نتيجة لسلسلة من الحروب أدت الى هذا الانكماش وكانت حدودها فيما مضى تشمل أفغانستان وأجزاء من الهند وتركستان والقوقاز وآسيا الصغرى وبلاد الكلدان والآشوريين وسوريا ومصر ... حتى يقال انها كانت تحكم أكثر العالم المعروف آنذاك (١) وقد ظلت على ذلك حوالى قرنين من الزمان ثم سقطت فى يد الاسكندر الأكبر سنة ٣٣١ ق . م وهو أول أوربى وصل الى نهر الإندوس (٢) .

وتقع ايران غربى آسيا ، وتعدّها من الشمال بلاد القوقاز التابعة لروسيا السوفييتية وبحر قزوين ، ومن الجنوب خليج عمان والخليج الفارسى (العربى) ، ومن الغرب العراق وتركيا ، ومن الشرق أفغانستان وباكستان .

وأهم مناطقها خراسان وكرمان وفارس وأصفهان وكاشان وطهران (وفيها العاصمة) ومازندان وخوزستان (عربستان) وكورستان وهمدان وكردستان ، وجيلان وستتضح هذه المناطق من الخريطة التالية :

(١) القزوينى : آثار البلاد واخبار العباد ص ٢٣٣ وانظر كذلك صليق

نشأت ومصطفى حجازى صفحات عن ايران ص ١٣ .

(٢) بروهسور رومين : بقطة الملاق ص ١٤٠ من الترجمة العربية .

السكان واللغات :

ويسكن بلاد إيران أقوامٌ من أجناس متباينة تتعدى مواطن سكناهم أو تحركاتهم القبلية الحدود الفعلية للبلاد ، وبسبب تباين الأجناس تتعدد اللغات في إيران وإن كانت الفارسية أوسعها انتشارا .

وقد بقي تعدد اللغات حتى العهد الحاضر بسبب الحياة الانعزالية التي تعيشها طوائف الفلاحين في مناطق الوديان بين المرتفعات الشاهقة ، وكانت الروابط قليلة بين كل طائفة من هذه الطوائف وبين العالم ، وكانت الجماعة تسد حاجاتها بنفسها ، مما حافظ على سلالات بشرية متعددة ، وعلى لغات مختلفة (١) .

وإذا أردنا أن نورد مزيدا من الحديث عن اللغات بإيران نذكر انه كان في إيران قبل الاسلام خمس لغات مهمة هي الفهلوية والدرية والفارسية والخودية والسريانية وكان هذا التعدد يتبع المناطق أو الطوائف ، وكانت اللغة الفهلوية هي اللغة الرسمية الادارية والأدبية في عهد الساسانيين ، ولما دخل الاسلام بلاد فارس وانتشر ، انتشرت معه اللغة العربية ، وبدأت تحل محل اللغة الفهلوية وبخاصة للراغبين في الوظائف الادارية الجديدة ، أو المتجهين للثقافة والمعرفة الذين طمعوا في أن يكتبوا لا للفرس وحدهم بل للمسلمين جميعا .

ولكن اللغة الفهلوية لم تكن تماما بل بقيت تعيش مع اللغات الأخرى وإن كانت اللغة العربية أخذت المقام الأول خلال القرون الاسلامية الأولى ، وكان الاتجاه للترجمة للغة العربية خلال القرن الثاني والثالث سببا في دفع الكثيرين الى إجادة اللغة العربية ليعملوا في الترجمة .

(١) انظر : إيران : ماضيها وحاضرها لدونالد ولبر الترجمة العربية ص ١٤ .

ولم تكلف اللغة العربية بالتفوق ، بل أخذت تشغف على اللغات
الفارسية وتدخل فيها عن طريقين :

أولهما عن طريق المفردات العربية التي كانت أيسر من مرادفها
في اللغات الفارسية .

الثاني عن طريق الكلمات العربية التي تحمل معنى اسلاميا ليس له
مقابل في اللغات الفارسية .

وبهذا كثرت الكلمات العربية في اللغات الفارسية وبخاصة في المناطق
العربية من ايران حيث يكثر الامتزاج بالعرب الفاتحين وحيث كثرت
الهجرات العربية الى تلك المناطق .

ونتيجة لذلك ظهرت لغة جديدة في إيران بها من الفهلوية وبها من
العربية وتكتب من اليمين الى اليسار ، وقد أصبحت هذه اللغة هي لغة
كل الطوائف وكل المناطق تقريبا وبدأت هذه اللغة تحل محل اللغة العربية
بالتدريج وسميت هذه اللغة « اللغة الفارسية » .

وسيتضح لنا من الدراسة التالية عن ايران أن موقعها جعلها شديدة
الارتباط بأفغانستان وبالهند وبلاد ما وراء النهر ، وأن هذه الأقطار
جميعا طالما حكمت معا كما حدث في عهد السامانيين والغزنويين ، ومن
هنا فإن اللغة الفارسية الجديدة صحبت النشاط السياسي والعسكري الذي
زحف الى أفغانستان وإلى الهند وعرفت هذه اللغة في هذه المناطق وأصبحت
لغة الثقافة فيها كما سنرى فيما بعد (١) .

التسمية :

يطلق على هذه البلاد اسمان هما ايران وفارس ، حتى ليظن البعض
أنهما مرادفان ، ولكن النظرة الدقيقة تقرر أن ايران معناها موطن الآريين

(١) اقرأ تاريخ اللغات في الهند للدكتور عبد السلام فهمي ص ٥٤
وما بعدها بتصرف .

وقد أطلقت هذه التسمية على الهضبة المرتفعة الواقعة جنوب بحر قزوين ،
اذ نزل بها الآريون عند هجرتهم الى هذه المنطقة ، ثم أطلق اسم الجزء
على الكل ، فأصبحت البلاد كلها تسمى ايران .

أما « فارس » أو « بارسا » فاسم ولاية من ولايات البلاد وهي تقع
شمال شرقى الخليج الفارسى (الخليج العربى) وكانت هذه الولاية
تشمل عاصمة البلاد فى بعض فترات التاريخ مما سبب إطلاق اسم الولاية
على البلاد كلها تمجيذا للعاصمة .

وقد ظلت الازدواجية فى التسمية موجودة فى الأوساط المختلفة حتى
سنة ١٩٣٥ فأعلنت حكومة ايران أن الاسم الذى يتبع هو ايران وكتبت
بذلك الى الدول المختلفة .

أما لغة هذه البلاد والأدب الذى ينسب لها فقد بقى منسوباً لاقليم
فارس لأن هذه اللغة هى لغة هذا الاقليم (١) ، ويطلق العرب على هذه
البلاد « بلاد العجم » نسبة الى أجمشيد أحد ملوكها القدامى (٢) .

الطبيعة :

تعتبر ايران ربوة ضخمة كثيرة الشعب والسهول ، وبعض هضابها
بركانية الأصل ، وتكثر فيها الأقاليم الصحراوية الشاسعة ، وبعض هذه
الصحارى خالية من السكان ، وتربة الصحراء ملحية غالباً ، اذ يعلوها
طبقة من الملح وأشهر صحاريها صحراء « دشت لوت » أى الصحراء
الخالية ، و « دشت كوير » أى الصحراء الملحة ، وعلى العموم فتلاثة
أرباع البلاد بادية مجدبة أو صحراء قاحلة ، وينحصر وجود المياه فى
الجهات الشمالية والغربية مثل كردستان .

ويوجد فى ايران كثير من الأنهار الصغيرة وأغلبها يصب فى بحر

(١) دونالد ولبر : ايران ماضيها وحاضرها ترجمة عبد المنعم حسنين

ص ١١

(٢) شاهين مكاريوس : تلويخ ايران ص ١ .

قزوين مثل نهر « أرس » ونهر « سفيدرود » وبعضها يصب في الخليج الفارسي مثل نهر قارون ونهر كرخه ، وفي ايران عدد من البحيرات مثل بحيرة الملح وبحيرة تمك وأشهرها بحيرة قزوين (الخزر) وتسمى بحر قزوين وذلك لاتساعها الهائل ، مما جعلها أكبر بحيرة في العالم ، ودرجة الملوحة في بحر قزوين أقل من درجة الملوحة في البحار ولذلك توجد بها ثروة سمكية هائلة ، وبعد بحر قزوين تجيء بحيرة رزاي ، وهي أكبر البحيرات الداخلية بايران وتزيد مساحتها عن ١٦٠٠ ميل مربع ، وفي ايران بحيرات شديدة الملوحة لدرجة أنها ليست صالحة لحياة الأسماك . ومناخ ايران حار شديد الجفاف فيما عدا المرتفعات التي تكون باردة جدا ، وفيما عدا سواحل بحر قزوين اذ أن المناخ فيها حار رطب .

أهم الأقاليم بايران : (١)

تنقسم ايران الحالية الى أربعة عشر إقليما يعرف كل منها باسم « ستان » ، وأهم أقاليم ايران خراسان وهو الاقليم التاسع ، ويقع في الشرق والشمال الشرقي ، وسكان خراسان من المسلمين الا قلة ضئيلة ، وأكثرهم من الشيعة ، أما غير المسلمين فهم من المسيحيين الأرمن وهناك جالية يهودية .

ومساحة خراسان واسعة جدا تشمل بلاد فارس وأفغانستان والتركستان ومن هنا فقد نسبت الى خراسان البلدان التالية : بلخ ، وبخارى ، وخوارزم ، ومرو ، وهرات ، وغزنة . وكانت خراسان بذلك تشمل عدة مراكز ثقافية مهمة لعبت دورا كبيرا في خدمة الحضارة الاسلامية ، ومن علماء خراسان المشاهير الإمام البخارى والإمام مسلم والفيسابورى والبيرونى وابن سينا والغزالى والجوينى والخوارزمى والثعالبى ، ويقول المقدسى إن العرب كانوا يعتبرون خراسان وفارس شيئا واحدا (٢) .

(١) انظر الخريطة السابقة عن اقاليم ايران .

(٢) احسن التقاسيم ص ٣٥٣ .

ومن أقاليم ايران المهمة أذربيجان ، وفي هذا الإقليم نشأ زرادشت وترعرع ، وفيه أقيم أول بيت للنار المقدسة ، ومن هنا جاءت كلمة أذربيجان ومعناها « مهد النار المقدسة » وكان لأهل أذربيجان دور كبير في الحروب التي وقعت في عهد الاسكندر ، وفي حروب ايران ضد الروم ، وذلك لما عرفوا به من الشجاعة والاقدام .

ومن أقاليم ايران الشهيرة طبرستان ، ويقول ياقوت عن هذا الإقليم أن طبرستان بلاد واسعة ، خرج من نواحيها من لا يحصى كثرة من أهم العلم والأدب والفقه ومن أشهرهم الامام الطبرى صاحب تاريخ الطبرى وتفسير الطبرى (١) .

أشهر المدن في ايران :

وأشهر مدن ايران طهران العاصمة ، وهى أكبر المدن في هذه البلاد ، وكانت قرية صغيرة في عهد الشاه الصفوى طهماسب ، ثم أصبحت بعد ذلك عاصمة صاحبة حافلة بمظاهر الجمال والفن ، وعلى مقربة منها تقع أطلال مدينة الرى ذات التاريخ الشهير في الفكر الاسلامى .

ومن المدن الشهيرة بايران مدينة تبريز وهى من بلاد أذربيجان ، وهى مقر الحاكم العام لاقليم أذربيجان ، ولها شهرة فائقة في صناعة السجاد الذى ينسب لها ، ويقال انها سميت بهذا الاسم الذى معناه « مزيلة الأمراض » لأن زبيدة زوجة هارون الرشيد جاءت الى هذه البقعة لتستشفى من مرض بها ، فبرئت اثر وصولها ، ومن العلماء الأفاضال الذين نشأوا في تبريز الخطيب التبريزى الذى اشتهر بشرح المعلقات السبع وشرح ديوان الحماسة وديوان المتنبى ، وتبريز تتبع اداريا مدينة

(١) صادق نقيت ومصطفى حجازى : صفحات عن ايران ص ٢٢ وما بعدها .

أردبيل الوطن الأول لأجداد الأسرة الصفوية ، وفيها ضريح جدهم الكبير
الشيخ صفى الدين الأردبيلي ، وبجوار تبريز توجد مدينة مراغة ، حيث
يوجد المرصد التاريخى الذى شيده الخواجة نصير الدين الطوسى فى عهد
المغول .

ومن المدن الشهيرة فى ايران مدينة أصفهان ، ويذكر عنها القزوينى
أنها مدينة جامعة الأشتات الأوصاف الحميدة من طيب التربة وصحة
الهواء وعذوبة الماء وصفاء الجو وصحة الأبدان ولكن أهلها كانوا يوصفون
بالشح (١) ، وكانت عاصمة ايران فى عهد الدولة الصفوية ، وقد زارها
ابن بطوطة قبل عهد الصفويين وتحدث عنها طويلا . وتوجد بها بقايا
القصور الملكية للأسرة الصفوية ، وبعض المساجد العظيمة .

ومن مشاهير المفكرين الذين ترتبط اسمائهم بأصفهان الراغب
الأصفهانى ، وأبو الفرج الأصفهانى صاحب الأغانى ، والعماد الأصفهانى ،
والشيخ بهاء الدين العاملى صاحب المخلاة ، وأبو بكر فورك الأشعرى (٢) .

ومن المدن الشهيرة مدينة شیراز وتشتهر بطيب هوائها ووفرة
أنهارها وثمارها وهى التى قال فيها المتنبى قصيدته التى مطلعها :

مغانى الشَّعب طيِّباً فى المغانى
بمنزلة الربيع من الزمان

وتشتهر شیراز بالدهون ذات الرائحة الجميلة ، وكان الأكاسرة قبل
الاسلام يستوردون هذه الدهون منها ، ولأهلها يد باسطة فى صنع الثياب
الحريرية ، وكذلك فى عمل السكاكين والنصول والأقفال التى تباع فى سائر

(١) زكريا القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٩٦ — ٢٩٨ .
(٢) زكريا القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٩٧ .

البلاد وينسب لها أبو العباس أحمد بن سريج أحد المجتهدين على مذهب
الامام الشافعى ، كما ينسب لها أبو نصر الخياط وكان فقيها أصوليا
أديبا (١) .

ومن أشهر المدن فى ايران مدينة « قم » المقدسة ، وبها يوجد ضريح
السيدة فاطمة المعصومة أخت الامام على الرضا ، وهى العاصمة الدينية
لايران فى العهد الحاضر ، ويقول عنها القزوينى ان أهلها شيعة غالية جدا ،
ولهذا فهم لا يسمون أولادهم بأسماء الصحابة (٢) .

ومن المدن المقدسة كذلك مدينة مشهد ، وهى تقع فى شرقى ايران فى
منطقة شديدة الارتفاع ، وبها قباب المشهد المقدس للامام على الرضا ،
وكان عباس الصفوى يحج لهذا المشهد ، وقد دعا الشيعة الى الحج اليه
دون حاجة للرحيل الى مكة التى كانت تحت سلطة العثمانيين أعدائه ،
وآلاف الناس يؤمّون مشهد للتبرك والزيارة ، وتشتهر مشهد كذلك
بمجموعة كبيرة من الفاكهة الكريز والمشمش والخوخ واللوز .

ومشهد تقع فى المكان الذى كانت توجد فيه مدينة طوس التى
أنجبت مجموعة من أفذاذ العلماء كالامام الفزالى والفردوسى ونظام
الملك ، ونصير الدين الطوسى (٣) .

ووعندما اتخذ الملوك الصفويون المذهب الشيعى ديناً رسمياً للدولة
الفارسية فى بداية القرن السادس عشر الميلادى ، ازدادت أهمية
مدينتى « قم » و « مشهد » المقدستين وأحاط الشاه عباس بقبر فاطمة
المعصومة فى مدينة قم بآيات من المعمار تعتبر من روائع الفن الفارسى
كما أصبحت المدينة مركزاً للدراسات الدينية ، وملتقى لعلماء الدين

(١) آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢١١ - ٢١٢ للقزوينى .

(٢) آثار البلاد وأخبار العباد ص ٤٤٣ .

(٣) صفحات من تاريخ ايران ص ٣٦ وما بعدها .

وصارت العاصمة الدينية للبلاد ، وقد اتجه الملوك من جانب ورجال الدين من جانب آخر إلى خلق عاصمتين في بلاد فارس إحداهما سياسية والثانية دينية ، فالملوك آثروا أن يبعدوا عن عيون رجال الدين حتى لا يراقب هؤلاء أسلوب حياتهم ، وآثر رجال الدين أن يحافظوا على استقلالهم في « قم » حتى لا يكون للملوك سلطان عليهم (١) .

مصادر الثروة في إيران :

وفي إيران يزرع القمح والأرز والقطن في المناطق الصالحة للزراعة ، ولايزان شهرة واسعة في صناعة السجاد والطنافس الفاخرة ، وبايران كثير من المعادن مثل الفحم والكوبالت والنحاس وأكسيد الحديد والرصاص ، ولكن أهم مصدر للثراء في إيران هو البترول الذي تنتج إيران منه كمية هائلة جدا تضعها بين الصفوف الأولى للدول المنتجة للبترول .

(١) محمد حسنين هيكل : مدافع آية الله من ١٠١ - ١٠٢ بتصرف .

كلمة عن تاريخ ايران قبل الاسلام

امبراطورية ميديا :

دلت الكشوف الأركولوجية على أن لايران تاريخا قديما يمتد عدة آلاف من السنين قبل الميلاد ، ولكن الغزو الآري لايران الذي بدأ حوالي سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد بدأ يضع تاريخ إيران في الضوء ، وقد انقسم الآريون الوافدون الى ايران قسمين : الميديس وسكنوا في الشمال الغربي ، والأعجام وسكنوا في الجنوب ، وكان للميديس صلة بالامبراطورية الآشورية ، فلما سقطت هذه الامبراطورية في القرن السابع ق . م . أسس الميديس أول امبراطورياتهم ، وزحفوا على الأعجام بالجنوب فضموهم اليهم ثم بنوا لهم عاصمة في أكباتانا (همدان الآن) ، وكانت امبراطوريتهم تسمى امبراطورية ميديا .

العصر الأكمني (الاخميني) (٥٥٨ ق م - ٣٣٠ ق م) :

وفي منتصف القرن السادس قبل الميلاد ظهر قورش الأكبر ، ونصّب نفسه حاكما على ايران وقام بسلسلة من الفتوحات الواسعة كان من ضمنها أنه احتل بلاد بابل سنة ٥٣٨ قبل الميلاد ومن ثم أصبح له السلطان على أرض يهوذا التي كانت قد احتلها بختنصر ملك بابل سنة ٥٨٦ قبل الميلاد ، ولما كان بختنصر قد سبى أكثر اليهود وأخذهم الى بلاد بابل فيما يعرف بالأسر البابلي ، فان قورش سمح لهم بالعودة الى فلسطين ، واستئناف عهد الحرية في ظله ، ولكن كثيرين من اليهود آثروا البقاء في ظل قورش ، ببلاد بابل وفي فارس لينعموا في هذه المناطق بخصب العيش بعيدا عن صحارى فلسطين واضطرابها ، فلم يعد الى فلسطين الا الشيوخ والمتدينون (١) .

(١) انظر كتاب اليهودية من سلسلة هجرة الامم من المؤلف من ٨٨
وما بعدها .

وامتد زحف قورش فسيطر على أرمينية وآسيا الصغرى ، كما امتد الى خوارزم وبلخ وكان قورش بجانب قوته اداريا حازما وشديد التسامح مع الأجناس والعقائد الأخرى •

وقبل أن نترك قورش نذكر أن آخر أباطرة ايران « الشاه محمد رضا بهلوى » أقام سنة ١٩٧١ احتفالات وُصِفَتْ بأنها أسطورية لما كان بها من الفخامة والعظمة ، وذلك بمناسبة مرور ٢٥ قرنا على تأسيس الامبراطورية الايرانية على يد قورش ، وقد دُعِيَ لهذه الاحتفالات حشد من الملوك والرؤساء والشخصيات المهمة في العالم وحضرها عشرون ألفا من المدعوين ، وكانت الأطعمة تأتي للمدعوين من باريس ، وقد أقيم لهذا الحفل مؤسسات وخيام ومبان خيالية ، وتوصف الحفلات المساهرة بها والعروض على أنها أسطورية وكأن الشاه كان يحلم في أن يجدد هذه الامبراطورية ، ولكنه أقام الحفل فوق بركان كان هادئا ولكن سرعان ما تحرك ودوَّى فزلزل كل شيء حتى الشاه نفسه الذى قضى عليه الزلزال المروع • وسيأتى فيما بعد شيء من التعطيل عن هذه الاحتفالات العجيبة •

وجاء بعد قورش ابنه قمبيز الذى غزا مصر سنة ٥٢٥ ق • م • وانتهك حرمة المعابد المصرية ، ويقال ان رجلا يونانيا كان في بلاط الفراعنة أرشد قمبيز الى أسرار الجيش المصرى مما سبب هزيمة المصريين (١) •

وقد أراد قمبيز أن يمد فتوحاته بمصر الى الواحات ، فاعتمد فى ذلك على أحد المصريين الذى صمم على الثأر لمصر ، فخدع جيش قمبيز وسار به بعيدا عن مناهل المياه ، حتى هلك الجيش كله ، وتسبب عن ذلك أن جُنَّ قمبيز ، واضطربت أحواله ، ثم قامت ضده حركات فى بلاده فكر راجعا لإخمادها ، ولكنه انتحر فى طريق العودة •

(١) شاهين مكاريوس : تاريخ ايران ص ٢٧ •

وجاء من بعده دارا (داريوس) الذى نبع من فرع آخر من الأسرة الأكمنية .

ويذكر ولبر أن العصر الأكمنى كان غالبا عصرا مزدهرا فى ايران ، وأن ولايات الأكمنيين الفرس تفوقت على المدن اليونانية كثيرا فى ميادين الادارة والتنظيم والسياسة واستقرار الحكم والتسامح فيما يتصل بالجنس والعقيدة ، ومن مظاهر التسامح أنه سمح للجماعات البشرية المقيمة داخل الدولة الأكمنية أن تحتفظ بدياناتها الأصلية ، كما سمح لأسرها الحاكمة بالاستمرار فى حكمها .

وهناك صخرة بجبل بيستون نقشت عليها العبارة التالية التى تدل على أمجاد العصر الأكمنى وهى :

أنا دارا ابن هستاسيس الأكمنى الفارسى ابن الفارسى الآرى المنحدر من أصل آرى ... الملك العظيم ملك الملوك ، وملك البلاد المسكونة بجميع الأجناس ، ملك الأرض العظيمة المنبسطة منذ زمن طويل (١) .

وقد ظهر فى عهده زرادشت صاحب الديانة المنسوبة اليه « الزرادشتية » وسنتكلم عنها بعد قليل .

قناة سيزوستريس :

وينسب الى داريوس أنه اشترك فى مد القناة التى كانت تصل بين النيل والبحر الأحمر ولم يكن هذا العمل من اقتراحه ، وانما بدأ ذلك فى عهد الفراعنة السابقين الذين حفروا قناة « سيزوستريس » لتربط بين النيل وبحيرة التمساح التى كانت اذ ذاك تمثل الطرف الشمالى للبحر

(١) ايران ماضيها وحاضرها ص ٣١ .

الأحمر ، ولما انكمش البحر الأحمر وأصبحت هناك سسافة بين البحر وبين بحيرة التمساح حاول نخاو (٦٠٩ - ٥٩٢ ق م) أن يطهر القناة ويمدها للبحر المتراجع ، وفي هذه الأثناء جاء الغزو الفارسي فقام داريوس بهذا العمل ، وتمادى هذا فنسب العمل لنفسه ، وتوجد لوحة نقشت عليها العبارة التالية :

أنا داريوس الشاه أمرت أن تحفر هذه القناة من نهر « فرواده » (نهر النيل) لتسير السفن من مصر الى فارس . وبعد ثقب هذه القناة سارت السفن كما رغبت (١) .

وبعد ذلك قامت في مصر ثورة انتهت بطرد الفرس واستعادت مصر استقلالها وسرعان ما جاء زحف الاسكندر المقدوني الذي قضى على الامبراطورية الفارسية .

الاسكندر الأكبر ثم العصر السلوقي : (٣٢٠ ق م - ٢٤٨ ق م) :

في سلسلة الصراع بين فارس والروم كانت حملة الاسكندر الأكبر من أقى الحملات ، فقد أزال الدولة الأكمينية ، وأنزل الاغريق بقيادة الاسكندر الأكبر على الفرس هزيمة شديدة على نهر جرانيق سنة ٣٣٤ ق م . ، وقد أتبعها بهزيمة أخرى دحرم فيها في معركة جواجاميلا سنة ٣٣١ ق م ، وقضى بها على امبراطورية الفرس ، وكان الاسكندر يحلم بانشاء دولة عالمية تتحد فيها العناصر المقدونية والايرائية على أساس المساواة ، وكان صَبَّغُ الشرق بالمصبغة اليونانية (الهلينية) قد بدأ فعلا بانشاء المستعمرات اليونانية ، وتحقيقا لهذا الحلم تزوج الاسكندر ابنة دارا الثالث الكبرى ، وشجع جنوده على الزواج من الإيرانيات (٢) .

(١) دكتور عبد السلام عبد العزيز : دراسات إيرانية (تاريخ اللغات

الإيرانية) ص ٢٢ .

(٢) لورانس ماشها وحضرها ص ٢٢ .

ولم تطل حياة الاسكندر فقد مات وهو لم يكمل الثالثة والثلاثين من العمر ، واقتسم قواده دولته ، وتمكن أحد قواده واسمه « سلوكوس » أن يصبح ملكا على ايران ، وأسس بذلك امبراطورية دامت أكثر من نصف قرن أى حتى سنة ٢٤٨ ق ٠ م ، ويعرف هذا العهد بالعهد السلوقي أو السلوكى .

ومن آثار هذه الدولة « مدينة السلوقية » التى كانت تواجه مدينة « طيسفون » التى سماها العرب « المدائن » وتقع على نهر دجلة وكانت عاصمة الدولة .

عصر البارثيين : (٢٤٨ ق ٠ م — ٢٢٦ م) :

ولما سقط حكم السلوقيين قام حكم البارثيين ٠٠٠ وقد امتد حكم هؤلاء عدة قرون كانت حافلة بالصراع بين الفرس والروم ، وسقط حكم البارثيين حوالى سنة ٢٢٦ ، وتحول السلطان بذلك الى الأسرة الساسانية .

وتعرف الفترة بين حكم الاسكندر وحكم الساسانيين باسم « ملوك الطوائف » وذلك لكثرة الانقسامات فى البلاد وكثرة الحروب بين الطامعين فى السلطة .

الساسانيون (٢٢٦ م — ٦٥١ م) :

ان الساسانيين جديرون بكلمة فيها شئ من التفصيل ، لقوتهم ، وتوحيدهم البلاد ، ولأن سلطانهم ظل حتى دخل الاسلام هذه البلاد وفى عهدهم اتضحت حقيقة مهمة هى أن ايران كانت ضحية وضعها الجغرافى قبل كل شئ ٠٠ ذلك أن السياسة الايرانية كان من أهدافها تحقيق الطمأنينة للوطن الايرانى وحمايته من أعداء ثلاثة يحيطون به ، وهم البيزنطيون ، والقبائل العربية التى كانت لا تكف عن الاغارة على بادية العراق ، والترك ، وبذلك حارب الساسانيون فى ثلاثة

جبهات في وقت واحد ، حاربوا البيزنطيين في أرمينيا وآسيا الصغرى ، وحاربوا العرب في بادية العراق واقليم الجزيرة ، كما واجهوا الخطر التركي الذي كان قد بدأ يطل من وطن الأتراك ، ويغير على الحدود الايرانية ، وهذه الجبهات قدر لها أن تستنفد دم الساسانيين وأن تقضى على قوة المقاومة فيهم (١) .

وكان العرب يطلقون على الدولة الساسانية دولة الأكاسرة لأن بعض ملوكها كانوا يسمون أنفسهم خسرو ، وكان العرب ينطقون هذه الكلمة « كسرى » ، وأصبح اسم كسرى عندهم لقباً للملك هذه الدولة .

وملوك هذه الدولة يصل تعدادهم ٢٦ ملكاً منهم من حكم مدة طويلة ومنهم من حكم شهوراً قليلة ، ومنهم من كان في القمة بين الملوك ، ومنهم من انحدر للهاوية ، وأول ملوك الدولة الساسانية أردشير بابجان وقد استطاع هذا أن يضم تحت سلطانه كل المناطق التي كان يحكمها قورثس وداريوس الكبير ، وكان هذا الملك يحب العدالة ويتخذ دستور حكمه من جملة كان يعدها عنوان نجاحه ونجاح كل ملك وهي أن : « العدل أساس الملك » .

ومن أباطرة الدولة الساسانية الملك غباد ، وترجع شهرة هذا الملك الى أنه ظهر في عهده رجل اسمه مزدك ادعى الوحي والالهام ، وعلم أموراً تخالف عقيدة الايرانيين ، فأبطل احترام النار ، وقال بأن الانسان لا يحق له امتلاك المتاع أو الاختصاص بزوجة ، وسنتحدث عنه فيما بعد عند الحديث عن ديانة الفرس قبل الاسلام ، وقد استطاع مزدك أن يتغلب على عقل غباد ويجعله آلة في يده مما جعل الفوضى تنتشر في أيام هذا الملك .

(١) دكتور حسن محمود : الاسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى
ص ٢ .

وقد جاء بعده ابنه أنوشيروان وهو من أعظم أباطرة هذه الأسرة ،
فقد عنى عناية كبيرة باصلاح البلاد فعزل كل حاكم منحرف ، وأصلح
الطرق والجسور ، وكرم العلم والعلماء ، فأصبحت عاصمته « المدائن »
منارة يفد لها المفكرون والفلاسفة من كل صوب ، وفي أيامه كتبت الكتب
الشهيرة مثل كلية ودمنة وظهرت لعبة الشطرنج والفرد مرتبطة بوزيره
« بزور جمهر » وقسم المملكة أربعة أقسام أولها قسم خراسان وسستان
وكرمان ، وثانيها قسم قم وأصفهان ، وثالثهما فارس والأهواز ، ورابعها
قسم العراق والبلدان الغربية ، وامتد سلطانه الى سوريا وانطاكية مما
أشعل صراعا مريرا بينه وبين الروم ، حتى اضطر ملك الروم أن يدفع له
جزية سنوية .

ومن ملوك الساسانيين (برويز ٥٩٠ — ٦٢٨ م) ويقال ان أحداثا
خطيرة ظهرت في عهده أشار لها القرآن الكريم ، ففي سنة ٦١٤ م حارب
الروم وانتصر عليهم ، واستولى على دمشق وبيت المقدس وأخذ الصليب
المقدس ، وكان هذا الحادث الأليم بعد بعثة الرسول محمد صلوات الله
عليه ببضع سنوات ، وقد أحس المسلمون بالأسى لوقوع بيت المقدس
— مسرى الرسول ، والذي منه بدأ المعراج — في أيدي الفرس عبدة النار .
آنذاك ، وكانت مسيحية الروم بطبيعة الحال أقرب للإسلام من عبادة
النار ، وطمأن الله سبحانه وتعالى المسلمين فنزلت الآية الكريمة : **غَلِبَتِ**
الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بضع سنين « (١)
وقد تحققت الفكرة التي وردت في الآية الكريمة ففي سنة ٦٢٧ م انتصر الروم
على الفرس واستعادوا ما كان الفرس قد استولوا عليه (٢) وانحسر المد
الایرانی .

(١) سورة الروم الآية الاولى .

(٢) صادق نشأت ومصطفى حجازي : صفحات عن ايران ص ٥٤ .
واقرا « مع القرآن الكريم » العدد الخامس ص ٣٧ (سلسلة يصدرها
المقاولون العرب) ويشترك في تحريرها عدد من المفكرين المسلمين .

وآخر ملوك الدولة الساسانية هو يزدجرد الثالث بن شهريار وقد جاء الى السلطة بعد كثير من الصراع بين الطامعين في الحكم ، وليس ليزدجرد مكان في التاريخ الا أنه الملك الذي حاربه المسلمون وقضوا عليه .

وكان ملوك ايران بوجه عام يستمتعون بمكانة مقدسة ، وكانت دماؤهم تعد مختلفة عن دماء البشر .

ويلاحظ أن الصراع الطويل بين الفرس والروم أضعف الدولتين مما يسر الفتح الاسلامى عندما زحف الاسلام على هاتين الدولتين .

الفرس والعرب قبل الاسلام :

ذكرنا في الجزء الأول من موسوعة التاريخ أن الفرس كان لهم نفوذ في منطقة الحيرة ، وبالتالي كانت العلاقة بينهم وبين الحيرة طيبة في معظم الأحوال فقد كان الفرس يحتاجون لعرب الحيرة ليقفوا بينهم وبين هجوم البدو على المناطق الفارسية المجاورة للجزيرة العربية .

وقد انتقلت هذه العلاقة في أحوال كثيرة الى ود وولاء ، حتى أن الملك « يزدجرد الأول » أرسل ابنه وولى عهده بهرام الى الحيرة ، ليتولى النعمان ملك الحيرة تعليمه وتثقيفه ، ونشأ بهرام في قصور الحيرة ، وأجاد اللغة العربية ، كما أجاد فنون القتال والفروسية وعلوماً أخرى جلب النعمان أساتذتها وشيوخها ليقدموها الى الأمير الفارسي .

وأمد الفرس العرب بجيش يطرد الأقباش الذين كانوا يحتلون اليمن ، والذين حاولوا بقيادة أبرهة هدم الكعبة المشرفة .

ديانة الفرس قبل الاسلام :

كانت فارس حتى القرن السابع قبل الميلاد تتبع الفكر الطبيعي في

الأديان ، أى كان هناك من يعبد الشمس أو الأنهار أو الأشجار أو الأبطال ، وجاء « زرادشت » (٦٦٠ - ٥٨٣ ق م) فى العصر الأكمني مصلحا اجتماعيا ، اتجه فى تفكيره الى اصلاح اتجاهات مواطنيه الدينية ، فأدمج فى ديانته طائفة من المعبودات الفارسية القديمة بعد تهذيبها ، وانتهى به التفكير الدينى الى القول بإلهين أو مجموعتين من الآلهة ، المجموعة الأولى آلهة خيِّرة على رأسها « أهورا مازادا » والمجموعة الثانية مجموعة شريرة يتزعّمها « أهرمان » والنضال بين هاتين المجموعتين يمثل النضال بين الخير والشر فى الحياة ، ذلك النضال الذى لا ينقضى الا بعد آلاف السنين حيث ينتصر الخير ويَهْزِم « مازدا » « أهرمان » .

واتجاه زرادشت فيه تعدد آلهة ، وفيه ثنوية ، ولكن كثيرا من الباحثين يعدون الزرادشتية دين توحيد ، لأن مازدا سيكون وحده فى النهاية بعد أن ينتصر على آلهة الشر .

ويرمز زرادشت لمازدا ببعض المواد الصافية كالنار ، وقال بالبعث والحياة الأخرى والحساب حيث ينتهى المرء لنعيم دائم أو عذاب مقيم .

تلك هى الخطوط الرئيسية فى مذهب زرادشت ، ولكن تعاليم زرادشت انهارت بعده ، وأصبحت الثنائية أبرز مظاهرها ، كما اتجه الفرس الى النار يعبدونها ويرونها إلها ، ويستعملونها فى شعائرهم الدينية متناسين أنها كانت فقط رمزا للصفاء ، حتى أصبحوا يُعرِّفون بأنهم عبدة النار وقد أتاح هذا للكهنة المجوس الذين كان لهم السلطان الدينى قبل زرادشت أن يظهروا من جديد كواسطة بين الناس وبين الآلهة ، كمسيطرين على وسائل التطهير، وكوسائل لإرضاء الآلهة ، وسرعان ما أحيا الكهنة الطقوس التى كانت موجودة من قبل ، كعبادة الأصنام وتقديم القرابين وبخاصة للاله « مثرى » الذى أصبح أبرز الآلهة ، بعد أن كان فى الزرادشتية أقلها شأنًا .

ولما غزا الاسكندر المقدوني فارس في أواخر القرن الرابع ق . م اختفت الزرادشتية ، وظلت مختفية مدة خمسة قرون ، فلما قامت دولة الساسانيين حاول هؤلاء العودة الى الزرادشتية باعتبارها جزءا من تراث فارس المجيد ، ولكن الزرادشتية الساسانية كانت بعيدة كل البعد عن اتجاهات زرادشت ، وكانت تحقق أهداف الملوك وطغيان الكهنة .

وفي أواخر القرن الثالث المسيحى ظهر « مانى » في فارس ، وكان ظهوره في عصر سادت فيه الشهوة ، فاخترط طريقا يخارب به هذه الشهوة الجامحة ، فنادى بحياة العزوبية ، وحرّم النكاح رغبة في قطع النسل واستعجال الفناء ، وقد قتله بهرام سنة ٣٧٦ م قائلا : ان هذا خرج لتخريب العالم ، فالواجب أن يبدأ بتخريب نفسه ، وذهب مانى ولكن تعاليمه بقيت بعده الى ما بعد الفتح الاسلامى .

وظهر مزدك سنة ٤٨٧ م فأعلن أن الناس ولدوا سواء ، لا فرق بينهم ، فينبغى أن يعيشوا سواء ، ولما كان المال والنساء من أهم الأسباب التى تخلق الفوارق وتسبب الكراهية ، فقد قال مزدك بالشيوعية التامة فيهما ، يقول الشهرستانى (١) ، وأحل مزدك النساء وأباح الأموال وجعل النساء شركة بين الناس كاشتراكهم فى الماء والنار والكلا ، ولقيت هذه الدعوة قبولا لدى الشبان والمترفين الفجرة ، بل أيدھا القصر الامبراطورى ، ويقول الطبرى (٢) ، كانت السفلة مزدك فى دعوته وشايعوه ، فابتلى الناس بهم وقوى أمرهم ، حتى كانوا يدخلون على الرجل داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله ، لا يستطيع الامتناع منهم ، وحملوا قباز على تزيين ذلك ، وتوعّده إن رفض ، فلم يلبثوا الا قليلا حتى صاروا لا يعرف الرجل ولده ، ولا المولود أباه ، ولا يملك الرجل شيئا مما يتكسب به .

(١) الملل والنحل ج ١ : ص ٨٦ .

(٢) تاريخ الامم والملوك ج ٢ : ص ٨٨ .

وادعى ملوك فارس أن دما الهيا يجرى فى عروقهم ، وأن فى طبيعتهم عناصر علوية مقدسة وصدق الفرس هذه الدعوى فأنزلوهم منزلة الآلهة ، قدّموا لهم القرابين ، وأنشدوا لهم أناشيد الطاعة والعبودية ، واعتقدوا أنهم وحدهم الذين يجوز لهم أن يلبسوا التاج ، ويسيطروا على الناس أيا كانت سنهم أو كفاءتهم ، وفيما عدا الأسرة المالكة كان هناك المجتمع الايرانى بطبقاته الكثيرة التى تقوم هوة واسعة بين كل اثنتين منها ، وكان كل انسان فى طبقة لا يستطيع أن يتعداها الى سواها من الطبقات مهما أوتى كفاءة خاصة أو تجارب معينة (١) .

الحياة الاجتماعية والطبقات فى ايران قبل الاسلام :

كانت الحياة الاجتماعية عند الايرانيين تقوم على أساس الطبقة الجامدة على النسق الذى كان موجودا عند الهنود بوجه عام ، وكان ذلك الجمود يتخذ قداسته من الكتاب المقدس عند الايرانيين وهو كتاب « الأوفستا » ، وبناء على ما جاء فى هذا الكتاب ينقسم المجتمع الايرانى الى أربع طبقات هى :

١ — طبقة رجال الدين .

٢ — طبقة العظماء وتشمل رجال السياسة والقادة من رجال الحرب ، وهم فى الوقت نفسه أصحاب الاقطاعات .

٣ — طبقة الزراعة والصناع والجنود .

٤ — طبقة الخدم والعبيد (٢) .

(١) انظر كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٣٣ .
(٢) كريستنسن : ايران فى عهد الساسانيين ص ٧٥ وما بعدها .

وكانت الطبقتان الأخيرتان محرومتين من كثير من الحقوق ، وكانت الفروق حاسمة بين الطبقات ، وكان النبلاء تفصلهم عن عامة الشعب حدود لا يمكن تخطيها ، وكانوا يمتازون في المأكل والملبس والسكن والخدم ، وفي داخل كل طبقة كانت هناك درجات متفاوتة وكانت الشريعة تحفظ شرف النسب كما تحفظ أملاك الأشراف ، وتحول بين أفراد الشعب وبين شراء أملاك السادة ، وكان على كل طبقة أن تعمل فقط في الصناعة المحددة لها (١) .

وكان في إيران قبل الاسلام تعدد زوجات ولكن الزوجات لم يكن في مستوى واحد ، بل كان بين زوجات الرجل زوجة واحدة لها نصيب في الميراث ، وقد أباح القانون الذي كان قبل الاسلام الزواج من اللاتى سماهن الاسلام « المحارم » فكان للرجل أن يتزوج من أخته وأمه وابنته (٢) .

وكانت الطبقة القاسية في إيران من أهم الأسباب التى دفعت الطبقات المظلومة للاسراع فى اعتناق الاسلام .

(١) كريستوفر : إيران في عهد الساسانيين من ٢٠٧ وما بعدها .
(٢) المرجع السابق من ٢٠٦ والابريسي : وصف الهند من ٦٢ .

ايران والاسلام

قبيل الزحف الاسلامى :

من المعروف فى التاريخ الاسلامى أن الرسول عقب صلح الحديبية اتجه لتوسيع الدعوة للاسلام فى داخل الجزيرة العربية وخارجها فبعث الرسول كتبا يحملها مبعوثوه الى رؤساء القبائل والامارات بالجزيرة العربية ، وكان الرسول يدعو هؤلاء الرؤساء الى الاسلام هم وأتباعهم ، ويقرر فى كتبه أنهم ان تبعوا الاسلام كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، ويبقى الرؤساء فى أمكنتهم من الرياسة ماداموا يؤدون حق الرعية ، وتتخذ زكاة من أغنياء البلاد ترد على فقرائهم (١) . وإن رفض الملوك الدعوة الإسلامية كان عليهم وزرهم ووزر أتباعهم .

وكان كسرى فارس أحد الرؤساء الذين بعث الرسول كتابا لهم بذلك ، وقد أوردت المراجع الوثيقة نص هذا الكتاب وهو :

من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا اله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .
انى أدعوك بدعوة الاسلام فانى رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، فاسلم تسلم وان توليت فعليك اثم المجوس (٢) .

ويروى أن كسرى لما قرأ كتاب الرسول مزقه ورمى به الى الأرض ورفض دعوة الاسلام ، فلما عرف الرسول صلوات الله عليه ذلك قال :
ان الله سيمزق ملكه كما مزق كتابى .

وكان قيصر الروم ممن رفض قبول الدعوة كذلك ، فقد استهان

(١) انظر الحديث عن ذلك فى الجزء الاول من هذه الموسوعة .

(٢) أبو عبيد : الاموال ص ٢٤ .

كسرى وقيصر بالعرب ولم يخطر ببالهما أن دعوة جديدة خلقت العرب من جديد ، وجعلتهم قوة أعظم من كل القوى الموجودة آنذاك ، وقد وضع موقف الرفض والعنجهية من كسرى وقيصر قضية الفرس والروم في ميدان الحرب بعد أن فشل ميدان الدعوة والسلام .

وقد تحدثنا في الجزء الأول من هذه الموسوعة عن سير الفتوح ضد الروم وضد الفرس ، ونعود هنا للساحة الفارسية لنوجز سير المعارك .

بدأت المناوشات بين المسلمين والفرس في عهد أبى بكر ، وكانت أولا بقيادة المثنى بن حارثة ثم بقيادة خالد بن الوليد ، ولكن أبا بكر لاحظ أن جبهة الروم تحتاج الى مساعدة ، فحول خالد بن الوليد من منطقة فارس الى منطقة الروم وهذأت حركة الصراع في منطقة فارس بصفة مؤقتة .

وعندما اجتازت حملة الروم كل الصعوبات أصبح من الممكن العودة لجبهة الفرس ، وكانت الخلافة قد آلت الى عمر بن الخطاب فاتجه عمر بكل قوته الى استئناف القتال في ميدان الفرس وأهم معارك المسلمين في هذه الجبهة هي :

— يوم الجسر سنة ١٣ هـ بقيادة أبى عبيد الثقفى والد المختار بن أبى عبيد ومعه سليط بن قيس الأنصارى ، وقد هزم المسلمون في هذه المعركة وقتل القائدان .

— يوم مهران أو يوم النخيلة سنة ١٥ هـ وفيها ثار المسلمون ليوم الجسر وكانت قيادة المسلمين لجريز بن عبد الله ، والمثنى بن حارثة ، فقتل قائد الفرس « مهران » وكثير من أتباعه .

— القادسية سنة ١٦ هـ وهى من أهم المعارك وكانت بقيادة سعد بن أبى وقاص ومعه المغيرة بن شعبة وقيس بن هبيرة وطليحة بن خويلد وقد حقق فيها المسلمون انتصارا باهرا ، وقد استمرت موقعة القادسية

أربعة أيام وقتل فيها معظم قواد الفرس العظام ، واستسلمت فرقة حرس القائد الفارسي « رستم » ، وهم الجند المعروفون بجند شاهنشاه وكانوا أربعة آلاف رجل ، فانضموا الى المسلمين بعد أن استأمنوا سعدا على أن يحالفوا من أحبوا من القبائل العربية ، وأن يَفَرَضَ لهم العطاء أسوة بالمسلمين ، فأعطاهم سعد بن أبي وقاص ما سألوا . . . ثم لم يلبثوا أن اعتنقوا الاسلام وأصبحوا جزءا من الجيش الاسلامي ، وكان من نتيجة موقعة القادسية أيضا أن دان كثير من الفرس بالطاعة لسعد بن أبي وقاص مما سهل على الجيش الاسلامي التقدم الى المدائن حيث لم يلق مقاومة جديّة من الفرس ، أما الغنائم التي غنمها المسلمون فهي شيء كثير لا يعد ولا يحصى من أموال وسلاح (١) .

— المدائن سنة ١٦ هـ أيضا وكانت المدائن من أهم عواصم دولة الفرس ، وتقع على ضفتي نهر دجلة ، وكان اسمها « طيسفون » وأسمائها العرب المدائن لكثرة ضواحيها حتى بدت للعرب كأنها مدائن كثيرة وليست مدينة واحدة وسقطت المدائن بما تحويه من فنون وذخائر ، وكانت الجيوش الاسلامية بقيادة سعد أيضا .

— جلولاء سنة ١٦ أو ١٧ بقيادة سعد أيضا وحقق المسلمون فيها نصرا مؤزرا .

— نهاوند سنة ١٩ هـ بقيادة النعمان بن مقرن ثم حذيفة بن اليمان وتسمى هذه المعركة « فتح الفتوح » ، فقد قضى المسلمون فيها على جيوش الفرس قضاء شبه كامل وبعد نهاوند تهاوت قوى الفرس واستسلم كثير من جيوشها صلحا أو عنوة وقتل يزدجرد الثالث سنة ٣١ هـ وانتهت بموته دولة آل ساسان ، وأسقط المسلمون — كما يقول

(١) عبد القادر طليمات : سعد بن أبي وقاص ص ٩٤ — ٩٥ .

ولبر — الحكومات التي كانت في حالة من الفساد والانحيار ، وأوجدوا ثورة اجتماعية ودينية على أساس المساواة التامة والمعاملة الحسنة ، ومن الحقائق الثابتة أن العرب لم يقوموا بأى ضغط لارغام الناس على اعتناق الدين الاسلامي ، وأوجد الاسلام تغييرات جوهرية في النظام السياسى والاقتصادى والاجتماعى فحلت محلّ الأفكار الايرانية العتيقة عن الحق المقدس والحكم المطلق الاستبدادى ، روح "ديمقراطية مستمدة من الدين الجديد" (١) .

ولما كانت ايران شديدة الاتصال جغرافيا وشديدة الاتصال سياسيا خلال التاريخ القديم والوسيط بما يسمى الآن أفغانستان وما وراء النهر والهند فان دخول الاسلام ايران واستقراره بها فتح الطريق للمناطق المحيطة بها ، فسرعان ما تقدمت الجيوش الاسلامية في عهد عثمان ثم في عهد الدولة الأموية فضمت هرات وبلخ وكابول وغزنة (٢) ، ثم عبرت نهر جيحون وضمت بلخ وشومان وسمرقند وبخارى ، ثم عبرت نهر سيحون وضمت مملكة فرغانة ومملكة خوارزم ومملكة الشاش وضربت في أرض الترك حتى وصلت الى حدود الصين ، وكان قتيبة بن مسلم الباهلى أشهر القواد في هذه الفتوحات .

وانهال المهاجرون العرب الى خراسان ومناطق كبيرة من ايران وكثير التزاوج بين العرب والايرانيين ، وسرعان ما انتشر الاسلام في كل حى وفى كل بيت ثم أصبح دين الجميع تقريبا بعد فترة ليست طويلة .

ويقرر توماس أرنولد (٣) أن من أسباب سرعة انتشار الاسلام بابران كثرة المعتقدات الفارسية ، وكثرة الأديان والمذاهب فقد كان هناك

(١) ايران ماضيها وحاضرها ص ٤٩ — ٥١ (مقتطفات) .

(٢) النووى : تهذيب الاسماء القسم الاول ج ١ ص ٢٧٠ .

(٣) الدعوة الى الاسلام : ص ٢٣٥ — ٢٣٨ من الترجمة العربية .

زرادشتية ومسيحيون ويهود وصابئة وبوذيون ومانوية ، وكان الصراع على أشده بين أتباع الأديان والمذاهب ، وقد رحب الصناع وأهل الحرف بالاسلام ليتخلصوا من الطبقة التي كانت سائدة كما ذكرنا من قبل ، وعندما تزوج الحسين بن علي من شاهبانو إحدى بنات يزيدجرد أحس الفرس برباط وثيق يربطهم بالاسلام والمسلمين ، وكان دخول الاسلام دائما بالدعوة دون أى ضغط أو اكراه ، ومع ذبوع الاسلام ذاعت اللغة العربية وأصبحت اللغة الغالبة في البلاد (١) .

(١) دكتور عبد التظيم حسنين : ايران في ظل الاسلام ص ٦ .

ايران في ظل الاسلام

كان الحكم الاسلامى يسير على نظام يجمع بين المركزية واللامركزية، فالولاية كانوا يعينون غالبا من العاصمة الاسلامية ، من المدينة المنورة أو من دمشق أو بغداد ، ولكنهم كان لهم جانب كبير من الاستقلال فى ادارة شئون ولاياتهم ، وبخاصة اذا حظى الوالى بالسلطة الاقتصادية بجانب سلطاته السياسية .

وتبعاً لذلك كان لايران ولاية معينون من العاصمة الاسلامية ، وكان الوالى أحيانا يختار من أصفياء الخليفة ليكون واليا على المشرق كله ، وفى هذه الحال يتخذ من العراق مركزه ويعيّن مندوبين له فى خراسان ، وكان اقليم خراسان قد أصبح أكثر أجزاء ايران حيوية ونشاطا ، فيلاحظ أن خراسان منطقة كانت أوسع كثيرا جدا من الاقليم الحالى الايرانى الذى يعرف بهذا الاسم (١) . وأحيانا كان الوالى يعيّن لاقليم خراسان مباشرة من الخليفة .

ونذكر فيما يلى أشهر ولاية خراسان :

— قيس بن الهيثم فى عهد معاوية ، وقد أعاد فتح هراة وبلخ بعد أن نقض أهلها الصلح .

— زياد بن أبية فى عهد معاوية أيضا وكان واليا على المشرق كله .

— عبید الله بن زياد : بعد أبية وكان ذلك فى عهد معاوية ويزيد ، وفى عهد ولاية عبید الله وصل المسلمون الى بخارى وسمرقند .

(١) ولبر : ايران : ماضيها وحاضرها ص ٥١ من الترجمة العربية .

— الحجاج بن يوسف فى عهد عبد الملك بن مروان ومن قادته فى هذه المناطق المهلب بن أبى صفرة ثم ابنه يزيد ثم الفضل .

— قتيبة بن مسلم وفد ثبّت قتيبة أقدام المسلمين فى المناطق التى تقع على النهرين وبينهما ، ولم يكتف قتيبة بالفتح أو المعاهدات بل دعا الناس الى الاسلام وكسر الأصنام وحرّقها فاستقر الاسلام فى تلك المناطق .

— أسد بن عبد الله القسرى : فى عهد هشام بن عبد الملك .

— نصر بن سيار فى عهد هشام أيضا وبعد هشام حتى سقطت الدولة الأموية ونصر من خير القواد والأبطال ولكن عهد الدولة الأموية كان قد آذن بالزوال (١) .

— أبو مسلم الخراسانى عقب انتصاره باسم العباسيين على نصر ابن سيار .

— أبو داود خليفة أبى مسلم الخراسانى ، وقد ثبّته أبو جعفر المنصور ليأخذ جانب الخلافة ضد أبى مسلم الذى كان يريد العودة لخراسان بدون إذن الخليفة (٢) .

— الفضل بن يحيى الذى قلده الخليفة هرون الرشيد المشرق كله .

— منصور بن يزيد بن مزيد من قبل الرشيد سنة ١٧٩ عقب عودة الفضل ابن يحيى من خراسان .

(٢) انظر الحركات لقيام الدولة العباسية فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة .

(٢) انظر حديث ذلك فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة ص ١٠٦ .

وابتداء من عهد المأمون انتقلت خراسان من الولاية الى الامارة ،
وأصبح لها حكم وراثي •

وتاريخ ايران في خلال الدول الاسلامية التي قامت بها تاريخ معقد ،
فقد تقوم بها دولة في جزء من أجزائها ، ومثال ذلك العلويون الذين أقاموا
دولتهم في طبرستان جنوب بحر قزوين ومثلهم كذلك الزياريون
والاسماعيلية • وأحيانا تقوم دولة بايران ويمتد نفوذها الى أكثر ايران
ثم تتجه للخارج دون أن تستكمل باقى ايران كالبويهيين •

وأحيانا تشمل الدولة ايران كلها وتمتد للخارج كالصفاريين الذين
بدأوا دولتهم في سيستان ثم شملوا ايران الحالية كلها ثم امتد نشاطهم
الى مناطق واسعة في الشرق •

وأحيانا يجيء زحف من الخارج فيشمل ايران كلها كالسامانيين الذين
بدأوا في بلاد ما وراء النهر وكانت عاصمتهم بخارى ثم امتد سلطانهم
فشمل ايران كلها •

وستتحدث فيما يلي عن الدول التي قامت في ايران دولة اثر دولة ،
وقبل ذلك يتبقى أن نقرر أن حركات استقلالية حدثت في عهد الولاة ، ومن
أشهرها حركة محمد بن الأشعث في عهد عبد الملك بن مروان وحركة
أبي سلمة الخلال وأبي مسلم الخراساني في مطلع العهد العباسي ، وقد
تكلمنا عن هذه الحركات الاستقلالية في الجزء الثاني والثالث من هذه
الموسوعة •

الدولة الطاهرية بخراسان

٢٠٥ — ٢٥٩ هـ

ذكرنا في الجزء الثالث من هذه الموسوعة أن طاهر بن الحسين « الذي لقب ذا اليمينين » كان من خيرة رجال المأمون ، وإن جهوده اتضحت في الحرب بين الأُميين والمأمون وكان هو وهرثمة بن أعين فرسي رهان ، ولكن جهود طاهر كانت أوسع وأسرع لأن المقاومة التي كانت مع الأُميين اتجهت لمواجهة طاهر أكثر من اتجاهها لمواجهة هرثمة ، ولكن طاهرا استطاع أن يحقق النصر وأن يصل الى واسط ، فهرب عامل الأُميين فيها قائلا : انه طاهر ولا عار في الهرب منه ، وفي واسط تلقى طاهر البيعة للمأمون من أمير الكوفة ومن أمير البصرة ، ثم سار الى المدائن فبغداد . وسقط الأُميين قتيلا بسيوف طاهر ، وأصبح المأمون خليفة المسلمين (١) .

وعمل طاهر بن الحسين على توطيد الملك للمأمون فحارب الثورات التي هبت عليه ، وأبلى في ذلك بلاء حسنا هو وابنه عبد الله ، ومن أجل هذا عين المأمون طاهر بن الحسين واليا على خراسان مكافأة له على جهده ، ويقال ان المأمون لم يستطع رؤية قاتل أخيه (٢) ، ولم يستطع أن ينسى أفضاله فاقترح ذلك الحل الوسط لمكافأته ولابعاده عنه ، وبتولية طاهر على خراسان بدأت الأسرة الطاهرية في خراسان وأصبحت الولاية بالوراثة في هذه الأسرة حتى سنة ٢٥٩ هـ وكان الخليفة يصدر قرارا بتعيين من آلت له السلطة وكانت عاصمتهم نيشابور ، وحكام الطاهريين هم :

طاهر الأول « ذو اليمينين » ٢٠٥ — ٢٠٧ هـ

طلحة بن طاهر ٢٠٧ — ٢١٣ هـ

(١) انظر الجزء الثالث من ٣٢١ وما بعدها .

(٢) ابن طيفور : كتاب بغداد من ٢٣ .

عبد الله بن طاهر ٢١٣ — ٢٣٠ هـ

طاهر الثانى ٢٣٠ — ٢٤٨ هـ

محمد بن طاهر الثانى ٢٤٨ — ٢٥٩ هـ

ولم يستطع الطاهريون مقاومة الصفاريين فانقرضت دولتهم .

على أن الطاهريين استأنفوا سلطانهم عندما ضعف الصفاريون ، فقد استولى طاهر الثالث بن محمد (آخر حكامهم فى السلسلة السابقة) على قطعة من أرض أجداده وحكمها بمفرده حتى سنة ٢٨٢ هـ ويؤيد ذلك أن سكة مضروبة باسمه وجدت فى مرو وعليها تاريخ سنة ٢٨٢ هـ ^(١) .

وكانت الصلة بين الطاهريين وبين الخلفاء العباسيين تتمثل فى ولاء الطاهريين للخلافة ، ذلك الولاء الذى اتخذ مظهره من تقديم خراج سنوى لدار الخلافة ، ومن الدعاء للخليفة على المنبر وسك اسمه على النقود ، أما الخليفة فلم يكن يمارس أى نفوذ على الطاهريين ، وكان يصدر قراراته بتعيين ولى العهد دون أن يكون له حق اختياره .

مدى سلطة الخلفاء :

وكان هذا منشأ الصراع الذى ثار بين المفكرين فيما بعد عن مدى سلطة الخلفاء ، وهل تشمل الناحية الدينية والدنيوية جميعا ، كما كان لخلفاء العصر الأول ، أو أن لهم النفوذ الدينى فقط ويتولى الولاية شبة المستقلين كالطاهريين ومن جاء بعدهم كل السلطات الدنيوية ، وبخاصة ان هذه السلطات الدنيوية برزت فيما بعد على أيدي كثير من السلاطين شبة المستقلين وأحيانا بالغ هؤلاء فيها ، ووصلوا بها الى حد التمرد على

(١) تاريخ الدول الاسلامية والاسر الحاكمة ج ١ ص ٢٦٩ .

الخلفاء كما حدث من الصفاريين والطولونيين ثم من البويهيين والسلاجقة فيما بعد ، وعلى كل حال فقد ظل هذا الموضوع موضع خلاف ولم يحسمه الا سقوط الخلافة وانتقال السلطات كلها الى الملوك والسلاطين .

ويقول دونالد ولبر ان الطاهريين امتازوا بحب الكتابة والشعر ^(١) ، وكانت اللغة العربية هي لغة الحديث والأدب آنذاك .

وقد تعرضت أسرة الطاهريين الى زحف الصفاريين الذين اتسع ملكهم وسلطانهم كما سنرى بعد قليل ، وسقطت أسرة الطاهريين بيد 'اصفاريين ولكن بنى طاهر استعادوا شيئاً من سلطانهم في فترات اضطراب الصفاريين كما ذكرنا آنفاً واستأنفوا صراعهم معهم ، وظل الصراع بين الأسرتين حتى سقطتا معا على يد الأسرة السامانية .

وقبل أن نتحدث عن الصفاريين فالسامانيين نتكلم كلمة عن أسرتين قامتا في جزء من ايران هو « جنوب بحر قزوين » وبعد ذلك نتجه الى الصفاريين :

(١) ايران : ملخصها وحاضرها ص ٥١ من التوجمة العربية .

الزيدية ٢٥٠ - ٣١٦ فالزيارية ٣١٦ - ٤٧١

في طبرستان جنوب بحر قزوين

تعتبر الزيارية امتدادا للزيدية في المكان وفي الزمان ومن هنا لزم أن نتكلم عن هؤلاء وأولئك في دراسة واحدة .

ولنعد الى مطلع الاسلام فنقرر أنه عندما دخل الاسلام جنوب بحر قزوين (بحر الخزر) اعتنقه أكثر سكان الجنوب الشرقي لبحر قزوين حيث تقع بلاد طبرستان ^(١) ، أما سكان الجنوب الغربي حيث تقع بلاد الديلم أو بلاد جيلان (نسبة الى السكان الذين كانوا يعرفون بالديالمة أو الجيل) فقد خضعوا للحكم الاسلامي ولكنهم ظلوا على دينهم وآثروا دفع الجزية .

وكانت طبرستان على حدود خراسان حيث كان يقوم سلطان الطاهريين وقد حاول الطاهريون أن يمدوا سلطانهم الى طبرستان ، ولكن أهل طبرستان رفضوا ذلك وقاوموا الطاهريين ، ثم استدعوا من الرّعي رجلا علويا اسمه الحسن بن زيد ينحدر من نسل الحسن بن الامام عليّ ، وقد استطاع هذا أن يحقق النصر ضد الطاهريين الذين كانوا في أواخر أيامهم وأن يقيم دولة سميت بالعلوية أو الزيدية بطبرستان ، وكان قائده يسمى « ليلي بن النعمان » وقد حاول السامانيون الاستيلاء على الحكم في هذه البلاد ولكنهم فشلوا .

وفي هذه الحرب انضم أهل الديلم في الجنوب الغربي الى جيرانهم في الجنوب الشرقي لرد الزحف الطاهري ، وكان تعاون المنطقتين وسيلة لنشر الاسلام في بلاد الديلم ، ومما ساعد على انتشار الاسلام ببلاد

(١) اقرأ من بلاد طبرستان في آثار البلاد وأخبار العباد للقريني

الديلم كذلك أن داعية مسلما اسمه الحسن بن علي ولقبه الأطروش دخل هذه البلاد عقب ذلك ، وقد نجح في نشر الاسلام ببلاد الديلم بصورة أوضح .

ومع انتشار الاسلام ببلاد الديلم فقد حافظ سكان هذه المناطق على بعض العادات التي كانت منتشرة بينهم قبل الاسلام ، كعدم جواز أن يتم زواج بين الديالة وغيرهم ، ومن فعل ذلك استحق القتل ، وكعدم جواز خروج المرأة من البيت نهارا ، ويمكن أن تخرج النساء ليلا بعد أن ترتدين الأكسية السوداء ، وكعدم جواز أن تتزوج المرأة التي يموت زوجها ، فان فعلت ضرب الصبيان بابها بالخزف والطوب (١) .

ولنعد الى ليلي بن النعمان قائد زيد بن علي في صراعه ضد الطاهريين خان هذا القائد سقط في المعركة فتولى مكانه قائد من الديالة كان مشهودا له بالقدرة والكفاءة ، واسمه « ماكان بن كالى » (٢) ولكن أحد قواد « ماكان » واسمه « اسفار بن شيرويه » خرج عليه ، ولمع نجمه ، وكان يعاونه قائد آخر ديلمى اسمه « مرداويج بن زيار » ويقال إنه ينحدر من أسرة حاكمة قديمة ، وقد استطاع أسفار ومرداويج أن يحققا نصرا مؤزرا ضد « ماكان » ولكن سرعان ما قتل أسفار سنة ٣١٦ فآلت كل السلطات الى مرداويج بن زيار والى أخ له اسمه « وشمكير » وبدأت بذلك أسرة الزياريين التي حلت محل الزيديين العلويين في طبرستان (٣) ، وقد خضع مرداويج خضوعا اسميا للخلافة ، واضطر أخوه وشمكير الذى خلفه بعد قتله سنة ٣٢٣ هـ أن يبدي خضوعه للسامانيين ، وكان سلطان الزياريين محصورا في طبرستان وجرجان ، وقد تعرض الزياريون الى ضغط حربي من دول هذا العصر فقد قامت في عهدهم الدولة السامانية

(١) المقدسى : احسن التقاسيم ص ٣٩٨ .

(٢) في ابن مسكويه « ماكان بن كالى » : تجارب الأمم ج ٦ ص (١٦١) .

(٣) ابن مسكويه : تجارب الأمم ج ٥ ص ١٧١ .

والبويهية والغزنوية ، وكانت هذه الدول أعظم منهم قوة وأخطر شأنًا ، وقد استولى الحسن الصباح على قلعة الموت شمالي مدينة قزوين ثم استولى على بلاد الديلم واضعا لبنى زيار نهايتهم ^(١) .

وأمرء الزيديين والزياريين هم كما ورد في تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة (ج ١ ص ٢٦٨ ، ٢٨٥) كالاتى :

الزيديون الطويون :

٢٥٠ — ٢٧٠ هـ	الحسن بن زيد
٢٧٠ — ٢٨٧ هـ	محمد بن زيد
٢٨٧ — ٣٠١ هـ	فترة احتلال السامانيين
٣٠١ — ٣٠٤ هـ	الأطروش
٣٠٤ — ٣١٦ هـ	الحسن بن القاسم

الزياريون :

٣١٦ — ٣٢٣ هـ	مرداويج بن زيار
٣٢٣ — ٣٥٧ هـ	وشمكير بن زيار
٣٥٧ — ٣٦٦ هـ	ظاهر الدين بيستون
٣٦٦ — ٤٠٣ هـ	شمس المعالى قابوس
٤٠٣ — ٤٢٠ هـ	فلك المعالى منوجهر
٤٢٠ — ٤٤١ هـ	شرف المعالى أنوشروان
٤٤١ — ٤٦٢ هـ	كاوس بن اسكندر بن قابوس
٤٦٢ — ٤٧٠ هـ	كيلان شاه بن كاوس

ثم جاء الاسماعيليه .

(١) تاريخ الدول الإسلامية ج ١ ص ٢٨٤ — ٢٨٥ :

ولا ننسى في هذه الدراسة المقتضية أن نحى الجهود التي بذلها الحسن ابن زيد والحسن بن على (الأطروش) لنشر الاسلام في تلك البقاع ، فان هذه الجهود سرعان ما أثمرت أطيب الثمرات وزرعت الاسلام في تلك البقاع الى الأبد ، وقد كان للأطروش أثر حضارى كبير في بلاد الديلم وطبرستان فهو الذى نشر الاسلام على نطاق واسع في بلاد الهند ، وبنى المساجد (١) وأتاح للسكان أن يشاركوا في الأحداث التى تشكل تاريخ المنطقة ، كما أنه بعث الدولة الزيدية مرة أخرى ، وأتاح للمذهب الزيدى انتشارا أوسع مما كان عليه في عهد الحسن بن زيد ، وقد حرص الأطروش على اقامة دولته على أساس العدل والمساواة وحسن السيرة (٢)

وكان قابوس بن وشمكير شاعرا ومؤلفا ، ويعد قبره المشهور في الركن الجنوبي الشرقى لبحر قزوین أقدم أثر ذى كتابة مؤرخة في ايران الاسلامية ، ويقع القبر في قلعة عظيمة بناها وشمكير ، وقد كتب على مدخلها ما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم

بنيت هذه القلعة بواسطة الأمير بن الأمير قابوس بن وشمكير ، وقد أمر ببنائها في أثناء حياته سنة ٣٩٧ القمرية الموافقة ٣٧٥ الشمسية (١٠٠٧ م) ؟؟

وتصميم القبر يدل على تفوق معمارى فهو عبارة عن أسطوانة كبيرة مغطاة بسقف مخروطى الشكل ، والهيكل الدائرى تقطعه عشر حافات بارزة ، وقطر دائرته ٥٦ قدما وسمك الحيطان ١٧ قدما والارتفاع من الأرض حتى رأس الخريطة يبلغ ١٦٠ مترا ، وقد أدخل جثمان قابوس في صندوق زجاجى علق بالسلاسل داخل قبة البرج (١) .

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢١٤ .

(٢) الطبرى : ج ١٢ ص ٤٨٠ .

(١) دونالد ولبر : ايران : ماضيها وحاضرها ص ٥٣ من الترجمة العربية .

الصفاريون ٢٥٤ — ٢٩٦ هـ

إيران وهرات وما وراء النهر

١

الصفاريون من أصل فارسي ، وهم يزعمون أنهم من أولاد ملوك فارس ، ويعيدون نسبهم الى كسرى أنوشروان (١) .

ويرى آخرون أن هذا النسب غير صحيح ، وأنه ادعاء قصد به الصفاريون أن يقووا مركزهم ويرفعوا شأنهم أمام الجماهير التي كانت تقيم للأنساب قدرا كبيرا ، ويذكرون أن مؤسس هذه الدولة يعقوب ابن ليث كان يشتغل مع أبيه في صناعة النحاس ولذلك سمي الصفار ، وكان حانوته بولاية سجستان (تسمى أيضا سيستان وفيمروز) (٢) وينسب القزويني الصفاريين الى غزنة ، وفيما يلي كلماته : ومن عجائب غزنة أمر الصفاريين وكان يعقوب غلام صفار وكان أخوه عمرو مكاريا ثم صاروا ملوكا عظماء واستولوا على بلاد الفرس وكرمان وسجستان وخراسان (٣) .

وكان يعقوب مرحا بسيطا ذكيا ينفق كل ما يحصل عليه على رفاقه ، وقد أحبه رفاقه لذلك ، وأخلصوا له ، وزاده اخلاصهم والتفافهم حوله استعدادا لاسعادهم ، فاتفق معهم على أن يعملوا على قطع الطريق وأخذ أموال الأغنياء ، ولكن يعقوب كانت له مبادئ تختلف عن مبادئ من يعملون في قطع الطريق ، فقد كان يتجه لسلب أموال البخلاء ، وكان ينفق ما يحصل عليه على رفاقه المحتاجين والضعفاء ، وإذا حدث أن استولى على مال ثم عرف أن صاحبه كريم أو محتاج رده اليه ، ولم يتعرض أبدا

(١) إبراهيم باستاني باريزي : يعقوب بن الليث الترجمة العربية للدكتور

محمد فتحي الرئيس ص ٢٨ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٥ ص ٤٧٣ .

(٣) آثار البلاد وأخبار العباد ص ٤٢٨ .

لأعراض الناس أو الإساءة اليهم ، مما جعله محل رضا من الناس وجعل أتباعه يكثرون من يوم إلى يوم حتى أصبحوا قوة هائلة

وشاهد هذا العصر اضطراباً في بغداد بسبب تسلط الماليك على خلفاء العصر العباسي الثاني ، وبالتالي انعكس الاضطراب على أكثر المرموع الإسلامية ، وأخذت الولايات في الاستقلال عن مركز الخلافة أو على الأقل القرب من الاستقلال ، وكان سكان إيران من أكثر الشعوب اتجاهاً للاستقلال ليستعيدوا مجدهم القديم أيام كانوا إحدى دولتين كبيرتين على الأرض .

وفي وسط هذا الاضطراب حصل صراع بين والي خراسان ووالي سجستان ، فاستعان والي سجستان بـ يعقوب وأتباعه ، وجعل يعقوب قائد جيشه ، وبعد ذلك عزله يعقوب وأخذ مكانه هو واهق الخليفة العباسي المتوكل على هذا التغيير ، وبدأت بذلك خطوات يعقوب نحو الاتساع (١) .

كثيرون من الناس تهلكتهم أطماعهم ويقضى عليهم جشعهم ، ويعقوب ابن ليث الصفار واحد من هؤلاء ، فان نجاحه كان بدء توسع هائل وصراع مرير ثم نهاية حتمية .

لقد بدأ يعقوب يصارع الولاة الذين يحيطون به ، ربما لأنه طمع أن يستعيد ملك الأكاسرة الذين ادعى الانتساب لهم ، وكان يعقوب قوة ناشئة قوية فحقق الفوز في كثير من الجولات ، وكان كل نجاح في زحفه يقود لزحف جديد ، وكان جهل يعقوب بالسياسة وتقلب الأمور يصور له نفسه قوة لا تعدلها قوة ، وسلطاناً فوق السلاطين ، فتحدى الخليفة ، وانطلق يغزو الولايات المحيطة به ، فضم مناطق فارس وشيراز ، وطبرستان ، ثم استولى على خراسان وأسر محمد بن طاهر وأنهى ملك الطاهريين الذين

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٨٥ .

كانت لهم صلة طيبة بالخلافة العباسية ، ثم ضم بلخ وطخارستان وهرات واتسع بذلك ملكه اتساعا عظيما ، ويصور الطبرى ملك يعقوب الفسيح بقوله : امتلك فارس كلها وأشرف على حدود خراسان وحدود السند فرهبته الملوك وأذعن له ملك الملتان وملك السند ومكران وغيرهم .. (١) .

وكان مما حقق النجاح ليعقوب أنه بدأ نشاطه في بلاد ايران التى كانت تنفق الى الاستقلال التام عن الخلافة ونسى يعقوب لجهله أنه قضى على استقلال دول أخرى ترى في الخضوع اليه مذلة وهوانا ، وتؤثر أن تتبع الخليفة عن أن تتبع هذا المارق ، ثم ان يعقوب ان كان قد عرف عنه الكرم ، والزهد في المال ، والايثار ، وعدم العدوان على الضعفاء والفقراء ، فان أتباعه لا يمكن أن يكونوا جميعا على هذا النمط ، فقد وجِدَ منهم من طغى وجار في مختلف البقاع .

وإذا كان الايرانيون رحبوا بحاكم ادعى أنه من نسل كسرى أنوشروان ، فغير الايرانيين لم يخدعهم هذا النسب لأنهم لا يريدون تبعية لايران على أى حال .

وهناك نقطة مهمة بعثت القلق في مملكة يعقوب الواسعة ، هي أنه كان شيعيا ، وربما كان هذا المذهب مقبولا في ايران ، ولكن هذا المذهب لم يكن مرضيا عنه في كثير من المناطق الأخرى التى اقتحمها يعقوب ، فكان خضوعها اليه تحت ضغط القوة ، وكانت تتلمس الوسائل لتهد في وجهه وتكافح وجوده .

صحوة الخلافة :

على أن أخطر ما قابله يعقوب بن ليث هو مواجهة الخلافة في فترة صحوتها فقد كان مما أغرى يعقوب بالاستهانة بالخلافة أنه ابتدأ نشاطه

(١) تاريخ الامم والملوك ج ١١ ص ٢٣٣ .

في أواخر عهد المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧) وكان هذا مغلوبا على أمره ، وكان المماليك الأتراك هم أصحاب السلطان في العاصمة ، وقد استهان بهم الكثير من الولاة في ولايات مختلفة ، وجاء بعد المتوكل مجموعة من الخلفاء الضعاف ، ولكنهم كانوا قصيري العمر ، فالمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي وكانت مدتهم جميعا أقل من عشر سنوات ، وقد تسبب عن ضعف الخلافة أن طمع يعقوب في الزحف الى بغداد ، للسيطرة على الخلافة العباسية (١) .

ثم جاء المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩) وفي عهده تولى أخوه الموفق قيادة الجيش ، وكان هذا حازما قويا خضع له المماليك وأسلموا له الأمر ، فأعاد للخلافة صحتها وهيبتها وفي سنة ٢٦١ هـ جمع المعتمد حاج خراسان والرى وطبرستان وجرجان وقرأ عليهم منشورا بلعن يعقوب وتقييح أعماله (٢) وبدأ العداء سافرا بين الخلافة وبين يعقوب ، وراح الموفق يصارع كل المتمردين في الشرق والغرب ، وكان يعقوب بن ليث واحدا من هؤلاء وقد قلم الموفق أظفاره ، فانفلتت من يعقوب ولايات كثيرة كانت خاضعة اليه : ثم هزمه الموفق هزيمة قاضية ، ونزل المرض ببيعقوب ففقد على البقية الباقية منه وتوفي سنة ٢٦٥ هـ (٣) .

ويذكر التاريخ أنه بعد الهزيمة القاضية التي حلت ببيعقوب أرادت الخلافة أن تسترضيه حتى توقف الصراع معه وتتجه الى الميادين الأخرى التي كان الصراع لايزال شديدا فيها ، فيقال ان الخليفة المعتمد راسلة وأصدر كتابا بتوليته منطقة فارس ، وكان يعقوب آنذاك مريضا ، وكان لا يثق في وعود الخلافة نحوه ، ولذلك فانه لما دخل عليه رسول الخليفة جلس له يعقوب وهو على فراش المرض وأمامه سيف وخبز ويصل ، وقال

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٧ ص ٢٩٠ .
(٢) دكتور حسن ابراهيم ج ٣ ص ٦٦ .
(٣) الطبري ج ١١ ص ٤٥٦ وابن الجوزي : المنتظم ج ٥ ص ٣٣ .

له : قل للخليفة ابنى عليل فلن مت فقد استراح كل منا من الآخر ، ولن عوفيت فليس بينى وبينك الا هذا المسيف حتى آخذ بشارى أو تكسرنى ، وترغمنى الى أن أعود الى هذا القصر والبصل ، وما لبث يعقوب أن توفي في القسطنطينية من ثواله سنة ٢٦٥ هـ (١) .

على أن وفاة يعقوب لم تضع حدا للصقاريين فقد خلفه أخوه عمرو الذى كان وليا على خراسان في عهد أخيه ، ولم يكن عمرو هذا كأخيه في صفاته التى حققت له النجاح ، ولكنه مع ذلك كانت فيه بسالة ، وله صفة وجيش كبير انهدر له من أخيه ، فاستطاع بذلك أن يستعيد بعض السلطة والنفوذ في كثير من المناطق التى كانت خاضعة لأخيه ، وقد دبت سياسته الى الاتجاه لإرضاء الخلافة ، واتجهت الخلافة كذلك الى الشكاه والتقاضى معه ، ولكن الفتنة لم تكن موجودة في الطرفين ، وزحف عمرو الى بلاد ما وراء النهر ولكن هذه البلاد كانت آنذاك تحت يكم أسرة قوية ناشئة هي أسرة السامانيين وقام صراع بين السامانيين وبين عمرو ابن ليث ، وأيدت الخلافة السامانيين فكان لهم القصر ، وأسر عمرو وأرسل أسيرا الى بغداد وصرخ فيه المستبد : هذا نتيجة بنيتك يا عمرو ، وألفقه يشهر به ، وألقى به في السجن مدة عامين ثم قتل سنة ٢٨٩ هـ (٢) .

وقد بقيت سجستان المقر الأصلى للصقاريين في حكم أولاد الصقاريين فترة أخرى بعد ذلك ، ومن هؤلاء طاهر بن محمد حفيد عمرو ، ولكن هؤلاء لم يكونوا مطع رضا ففزع عليهم الناس وقبضوا على آخر ملوكهم ، وتبرك السامانيين حكم سجستان ودالت دولة الصقاريين ، وأهم أمراء الصقاريين هم :

٢٥٤ — ٢٦٥ هـ

يعقوب بن الليث

(١) ابن الاثير : للكمال في التاريخ ج ٧ ص ٢٤٥ ، وابن خلكان : وفيات

الاعيان ج ٥ ص ٤٦٣ .

(٢) ابن خلكان ج ٥ ص ٤٧١ .

عمرو بن الليث ٢٦٥ — ٢٨٧ *

طاهر بن محمد بن عمرو ٢٨٧ — ٢٩٦ *

ومما يرتبط بالأسرة الصغارية أنها وهي تنوع فرعة فارسية شجعت اللغة الفارسية ، فظهر فيها لأول مرة منذ دخول الاسلام شعر باللغة الفارسية ، وكان الشاعر هو محمد بن وصيف السجزي كاتب يعقوب ابن الليث .

ويروى أن عمرو بن ليث كان يحاول أن يبدو أمام رجاله الأشداء أنه ليس امسافا عاديا ، وأن له قهوة على الاطلاع على الغيب ، وكانت وسيلة لذلك أن يربى للعبيد وهم صغار ثم يهديهم الى وجاهه أو يتركهم يصلون الى قصور هؤلاء الرجال بطويق أو بأخر بعد أن يعلمهم أن يداوموا الاتصال به وقتل أسراو القصور اليه ويهدد منهم من يتوانى في ذلك أو من يذيع هذا السر ، وكان يخبر رجاله من حين لآخر بما يجرى في قصورهم ، فيحس كل واحد منهم أن عمرو بن الليث يعرف كل شيء عنه ، فلم يجرؤ أحد منهم على التأمر عليه أو الاهمال في تنفيذ تعليماته .

* ٢٨٧ : محمد بن طاهر بن عمرو : (١) ٢٨٧ : (٢)

(١) : ٢٨٧ : محمد بن طاهر بن عمرو : (٢) ٢٨٧ : (٢)

الدولة السامانية

٢٦١ — ٣٨٩ هـ = ٨٧٤ — ٩٩٩ م

في تركستان وما وراء النهر وخراسان وطبرستان

تنسب الدولة السامانية الى سامان الذى يروى أنه ينحدر من نسل الساسانيين ، وأن نسبه يرتفع الى الملك الساسانى بهرام الخامس أو بهرام جور الذى توفى سنة ٤٣٩ م وقد اعتنق سامان الاسلام حوالى سنة ١٢٠ هـ فى خلافة هشام بن عبد الملك وقد أسس سامان احدى القرى فى منطقة بلخ فسميت باسمه ^(١) وقد هاجر منها سامان تحت ضغط ألم به ، واتجه فى هجرته الى أسد بن عبد الله حاكم خراسان فى أيام الخليفة المهدى ليطلب عنده الحماية وهناك دخل سامان الاسلام ، ولما أنجب ابنا فى مهجره سماه أسدا ، تقديرا للحماية التى نالها فى ظل أسد بن عبد الله . ولم يكن أسد رجلا فيه مواهب ذات بال ، ومن هنا لم يدون عنه التاريخ شيئا اللهم الا مرتبطا باسم أبيه أو اسم أبنائه الأربعة الأنجاب ، وهؤلاء الأبناء هم الياش ونوح ويحيى وأحمد ، وقد شب هؤلاء فى ظل الخليفة هارون الرشيد ، وخدموه بحماسة واخلاص ، فقد تعاون هؤلاء مع هرثمة بن أعين ضد الثائر رافع بن ليث ، وتوصلوا لعقد هدنة معه ، فلما توفى الرشيد وجاء المأمون الى خراسان لعب هؤلاء دورا فى الصلح الذى تم بين المأمون وبين رافع ^(٢) .

وعندما تولى المأمون الخلافة أمر غسان بن عباد واليه على خراسان أن يعين هؤلاء الأبناء الأربعة فى وظائف عالية المستوى تقديرا لجهودهم ، وبناءً على هذا قام غسان بتعيينهم فى الوظائف التالية : الياش عين حاكما لهرات ، ونوح حاكما لسمرقند ، ويحيى حاكما على الشاش

(١) الترفعى : تاريخ بخارى ص ٨٦ .

(٢) انظر الجزء الثالث من هذه الموسوعة ص ٣٢٧ — ٣٢٨ .

وأشرونه ، وأحمد حاكما على فرغانة ، ويتضح من هذا أن السامانيين نالوا السلطة في مناطق ضمها حكم الطاهريين ، فلما جاء عهد الطاهريين ، أقر الطاهريون هؤلاء الأبناء في مناصبهم المذكورة آنفا .

ولنتتبع هؤلاء السامانيين الأربعة في سلطاتهم الجديدة :

أما هرات فلم يطل عهدها تحت حكم السامانيين فعندما مات الياص سنة ٢٤٢ هـ (٨٥٦ م) اختفى اسم السامانيين من هرات .

أما في بلاد ما وراء النهر فقد لمع اسم أحمد الذي — على الرغم من أنه أحدث الاخوة سنا — أصبح في مركز الدائرة بالنسبة لهم ، ولهذا عندما مات أخوه نوح سنة ٢٢٧ هـ (٨٤٢ م) امتد سلطان أحمد فشمّل سمرقند كما امتد سلطانه كذلك فشمّل المناطق التي كانت تحت حكم أخيه يحيى وهي الشاش وأشرونه عندما مات هذا سنة ٢٤١ هـ (٨٥٥ م) وأصبح أحمد بذلك حاكما على هذه المناطق كلها في ظل الطاهريين (١) .

وعندما سقط الطاهريون أمام زحف الصفاريين سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٢ م) بقى أحمد في مكانه خاضعا للصفاريين إذ أن الصفاريين لم يريدوا أن يكتروا أعداءهم وقنعوا بالصراع ضد الخلافة العباسية .

وبعد أحمد جاء ولداه اسماعيل الذي استطاع أن يضم بخارى الى منطقة نفوذه ، ونصر الذي أصبح حاكما على كل مناطق ما وراء النهر ابان خلافة المعتمد وكان ذلك حوالي سنة ٢٦١ هـ وهو التاريخ الذي يعتبر بدءا لقيام الدولة السامانية ، فان الخليفة أعطى سلطة للحاكم نصر جعلته يحكم جميع هذه المناطق بالوراثة ويباشر فيها نفوذا شبه مستقل (٢) .

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٧ ص ٢٧٦ وما بعدها .

(٢) المرجع السابق ص : ٢٨٠ .

ولكن سرعان ما شبع نزاع بين الأخوين اسماعيل ونجر كان النصر فيه لاسماعيل ، ولكنه وهو في حالة الانتصار أثر أن يعطى السلطة لأخيه نصر (١) وعمل اسماعيل تحت سلطة أخيه حتى مات نصر سنة ٢٧٩ هـ فألقت السلطة طبيعيا الى اسماعيل الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة السامانية ، وفي عهده تحولت الامارة السامانية الى مملكة وأصبحت بخارى عاصمة المملكة ، ولذلك يقول عنه النرشحي انه أول السلاطين السامانيين • وبدأ اسماعيل طريقه لتثبيت مملكته وتوسيعها ، وملوك السامانيين هم :

نصر (الأول) بن أحمد	٢٦١ هـ = ٨٧٤ م
اسماعيل بن أحمد	٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م
أحمد بن اسماعيل	٢٩٥ هـ = ٩٠٧ م
نصر (الثاني) بن أحمد بن اسماعيل	٣٠١ هـ = ٩١٣ م
نوح الأول بن نصر (الثاني)	٣٣١ هـ = ٩٤٣ م
عبد الملك الأول بن نوح	٣٤٣ هـ = ٩٥٤ م
منصور الأول بن نوح	٣٥٠ هـ = ٩٦١ م
نوح الثاني بن منصور	٣٦٦ هـ = ٩٧٧ م
منصور الثاني بن نوح الثاني	٣٨٧ هـ = ٩٩٧ م
عبد الملك الثاني بن نوح الثاني	٣٨٩ هـ = ٩٩٩ م
الى ٣٩٠ هـ = ١٠٠٠ م	

أما توسيع اسماعيل لمملكته وتثبيتها فقد اتخذ الخطوات التالية :

— قام اسماعيل بحملة عسكرية عظيمة يمكن أن تعد من الحروب المقدسة اذ كانت ضد جيرانه المسيحيين (تاروز) Terez الذين كانوا يهاجمون المناطق الاسلامية من حين الى آخر ، وقد نتج عن انتصاره

(١) للنرشحي : تاريخ بخارى ص ١١٥ .

في هذه الحروب أن اعتنق الاسلام كذلك كبار قادة هذه البلاد (١) .
وتبعتمهم الجماهير وحولت الكنيسة الكبرى الى مسجد وتليت الخطبة
باسم الخليفة العباسي (٢) .

— وحارب اسماعيل محمد بن زيد العلوي الذي كانت له السلطة في
طبرستان وانتصر عليه وضم مساحات واسعة من أرضه الى مملكته .
— وأعظم حروب اسماعيل كانت انتصاراته الماهرة ضد عمرو بن الليث
الصفاري الذي خلف أخاه يعقوب وقد استطاع اسماعيل أن يفتصر
في هذه الحروب وأن يقضى على عمرو ويرسله مكبلا الى بغداد حيث
قتله الخليفة .

— وقد كافأ الخليفة العباسي اسماعيل على ذلك وعينه حاكما على
خراسان بالإضافة الى ما كان تحت يده وبالإضافة كذلك الى تركستان
وجرجان وبعض المناطق الهندية ، وأصبح ملك السامانيين يشمل
ما وراء النهر وخراسان وسجستان وجرجان وطبرستان والري
وكرمان فبلغت الدولة بذلك قمة اتساعها ، وقد حافظ السامانيون على
علاقة طيبة بالخلافة العباسية ، ويقول الفرشحي عن اسماعيل
الساماني : « انه يظهر الطاعة دائما للخلفاء ويرى متابعتهم واجبة
لازمة » (٣) ولكن عندما استولى بنوبويه على السلطة في بغداد وأخذوا
يعزلون الخلفاء ويولونهم رفض السامانيون الخضوع لتصرفات
البويهيين (٤) .

ولم تقف مواهب اسماعيل عند الانتصارات العسكرية بل حقق
اسماعيل لدولته انتصارات اجتماعية هائلة حتى أصبح عهده ، عهد نهضة

Barthold : Turkstan down to the Mongol Invision P. 57. (١)

(٢) الفرشحي : تاريخ بخارى ص ١١٧ .

(٣) المرجع السابق ص ١٠٧ .

(٤) ابن مسكويه : تجارب الأمم ج ٦ ص ١٥٧ .

شاملة ، كما سنرى فيما بعد ، ومن أجل هذا يعتبر عهد اسماعيل عهد
القمة في العهود السامانية بالاضافة الى اعتباره المؤسس الحقيقي للدولة .

بعد اسماعيل :

كان اسماعيل قمة بين حكام السامانيين ، وهو الذى ثبت المملكة
ووسعها ، ثم جاء من بعده أولاده وأحفاده ، وكان بعضهم يحاول أن
يحاكى سيرة اسماعيل ، وكان بعضهم ضعيفا شأن كل الأسر الحاكمة التى
لا بد أن يكون فيها بعض الضعفاء .

وقد واجه خلفاء اسماعيل صورا من الصراع العسكرى نجحوا فى
أكثرها ، فنصر الثانى دخل فى صراع مع الدولة الزيارية انتهت بدخولها
فى طاعته ، ونوح الأول صارع بنى بويه واستطاع أن يسترد الرى وبلاد
الجبل منهم ، وأرغم ركن الدولة على أن يدفع له اتاوة سنوية .

ولكن أكبر ما عاناه السامانيون كان الصراع الداخلى بين الأمراء
الطامعين ، وكان كذلك الصراع ضد بعض القواد المتمردين مثل أبى على
ابن المحتاج وابن سيمجور ، وبالإضافة الى ذلك نشأت بجوارهم دولة من
أكبر الدول الاسلامية وهى الدولة الغزنوية التى أخذ نفوذها يمتد فى
عدة أمكنة ، وعندما هزم محمود الغزنوى جيش السامانيين عند مرو أزال
سلطان السامانيين من خراسان ، وفى بلاد ما وراء النهر حدثت معارك
بين عبد الملك الثانى آخر الحكام السامانيين وبين الأيلك خانات وسقط
عبد الملك أسيرا فى هذه الحرب سنة ٣٩٠ هـ وبذلك انقضت الدولة
للسامانية .

وفى وسط الاضطراب السياسى أو الاستقرار السياسى كانت
بخارى تموج بالتفوق الحضارى فى مختلف الاتجاهات كما سنرى بعد
قليل ، مما يجعلنا نؤكد أن بخارى تغلبت على كل الظروف لتظل فترة

طويلة واحدة من أعظم العواصم الإسلامية في مجال الحضارة والتقدم
وأشاعات المدنية .

الإدارة في عهد السامانيين :

وضع اسماعيل الساماني أسس الإدارة للدولة السامانية ، وقد
اتسعت هذه الأسس بعد عهده أحيانا ، وكانت سببا فيما حققتة الدولة
من نجاح .

ويمكن القول ان النظام الإداري عند السامانيين كان تقليدا للنظام
الإداري عند الخلفاء العباسيين ، فالأمير الساماني كان له النفوذ العام ،
وبجواره هيئة تنفيذية برياسته وهناك أمراء للمقاطعات التابعة للدولة
السامانية .

وكان العلماء في الدولة السامانية يتمتعون بنفوذ عظيم ومكانة
عالية ، وكانت نصائحهم موضع تقدير الأمراء واهتمامهم ، ومن الناحية
المالية كانت هناك خزانتان ، خزانة للنفقات في الظروف العادية ، وأخرى
كانت للطوارئ بحيث لا ينفق منها الا عند الضرورة ، وكان ما يؤخذ
منها يعد دينا ينبغي اعادته لهذه الخزانة بأسرع ما يمكن .

تلك هي الخطوط العريضة للنظم الإدارية التي وضعها اسماعيل ،
وفكن هذه النظم نالها كثير من التغيير بعد عهد اسماعيل ، فسلطة الأمراء
أخذت في الاضمحلال ، وتسرب السلطان الى أيدي الأتراك الذين كانوا
عبيدا وخداما في القصور ، وبدأ الجيش يتدخل في أمور السياسة ،
والخزانتان أصبحتا الى الفراغ أقرب ، فاضطر الأمير الى فرض ضرائب
جديدة وهذا أثار الشعب ضد الأمير ، فاتخذ الشعب جانب الثوار مما
وضع نهاية للدولة .

مظاهر الحضارة في العهد الساماني :

يقول الثعالبي في يتيمة الدهر ، كانت بخارى تحت حكم السامانيين موطن الجلال والفخر ، ومركز الزهو والعظمة ، وأفق الأدب والأدباء ، ومكانا لالتقاء العلماء والقادة وذوى الرأي .

ويقول القزويني : ان بخارى كانت دائما مجمع الفقهاء ، ومعدن الفضلاء ، ومنشأ علوم النظر ، وأكثر سكانها من نسل عمر بن عبد العزيز ، وقد توارثوا تربية العلم والعلماء كابرا عن كابر ، ولم تر مدينة كان أهلها أشد احتراما لأهل العلم من بخارى (١) .

وإذا لاحظنا أنه في عصر السامانيين كان هناك اضطراب فظيع يقوم به القرامطة في العراق وسوريا واليمن والحجاز فانتنا ندرك أن الدولة السامانية كانت منطقة أكثر أمنا ، وقد ساعد على الاستقرار والأمن ما كان يتحلى به اسماعيل من قدرات سياسية وعسكرية ، وقد جاء نصر الثاني ابن اسماعيل فاعتبر عصره عصر النهضة العلمية الذي يجيء بعد الاستقرار السياسي والهدوء العسكري ، ويعتبر نصر الثاني سببها بالأمون حتى أنه يسمى مأمون السامانيين ، وقد عاش الثعالبي في رحابه ، وقد شملت النهضة الفكرية في العهد الساماني جوانب علمية وجغرافية وتاريخية وأدبية .

ويكفي في الحديث عن النهضة العلمية أن نذكر أن العالم الكبير ابن سينا عاش في رحاب السامانيين ، وأسهم في وضع النظام لهذه الدولة ، وقد عاصر ابن سينا نوح الثاني ويقول ابن سينا مقدرا جهود السامانيين وعنايتهم بالكتبات ما يلي : لقد دخلت مكتبة السامانيين فوجدتها مقسمة الى حجرات فسيحة في كل حجرة مجموعة هائلة من

الكتب في فن من فنون المعرفة ، فهنا حجرة الكتب المشعر ، وأخرى لكتبه
الغانون ، وثالثة لكتب الشريعة وهكذا ، وبعد قُرأت بعض هذه الكتب
واستفادت منها استفادة عظيمة ، وبعض هذه الكتب نادر لم يُعرف اسمه
لدى كثير من الناس (١) .

وعن الحضارة السلطانية ومكان ابن سينا فيها ، يقول Donat Wilber :
« ان اسماعيل مؤسس هذه الدولة كان شخصا عريما ذكيا »
كما كان قائدا مظفرا ، وقد استطاع في السنوات الأخيرة من حكمه أن
يكرس كثيرا من وقته لتعمير عاصمته « بخاري » ولإزالة قبره قائما هو
وغيره من الآثار الأخرى ، وهو في صورة مكعب تام ، طول كل جانب منه
٣٥ قدما وتعلوه قبة نصف كروية ، وأسطح النضريح الداخلية والخارجية
مزينة بتزيينا بديعا ، والحيطان الخارجيتان مزينة بطرسة من المطوب في صور
مربعات مشقوشة كقطاع السمكة ، وفي صور نماذج من المربعات المفتوحة
المتقاطعة .

وفي بلاط السامانيين ازدهى رجال من عباقرة العلوم والفنون مثل
الفيلسوف الشهير ابي علي ابن سينا ، ومثله الشعراء الكبارين : الرودكي
والدقيقي اللذين تنسب لهما نشأة الشعر الهامسي الذي أحيا روح
الموطنية الإيرانية (٢) .

واين سينا هو الذي قال برأي جديد فيما يتعلق بنظرية النشوء
والارتقاء التي قال بها ابن مسكويه والرومي ، والتي تبنّاها دارون بعد
ذلك بعدة قرون ، ونظرية ابن سينا لا تتحدث عن تحولات في الكائن وانما
تذكر أن هناك تطورا ذاتيا من أجل الوصول الى الكمال ، فكل شيء في
العالم ناقص ، ولهذا فكل شيء يعمل للوصول للكمال ، والصراع من أجل
الكمال يسمى الحب ، والهدف النهائي هو الجمال ، وقمة الجمال توجد

(١) ابن الجي الحبيبة : عمون الإقبال ج ٢ ص ٤ .
(٢) ايران : ماضيها وحاضرها ص ٥٢ - ٥٣ من الترجمة العربية .

في الموجود الأعظم ، ويمر الانسان في طريقه للكمال — مدفوعا بالحب —
بمراحل تشبه الحجرية فالنباتية فالحيوانية فالانسانية ، وهناك من يقف
عند مرحلة من هذه المراحل ، وهناك قلة تتجاوزها فيصل الانسان فيها
الى الاتصال بالموجود الأعظم وهؤلاء هم الأنبياء والقديسون (١) .

وقد وجدت العلوم التاريخية والأدبية اهتماما كبيرا من السامانيين ،
وفيما يلي ذكر لعدد قليل من الأعلام الذين ينتسبون الى هذا العهد الزاهر :

— كان أبو علي بن أحمد البلعمي وزيرا لعبد الملك الأول وللمنصور
الأول ، وقد ترجم هذا العالم كتاب الطبري في التاريخ الى اللغة
الفارسية .

— عبد الله محمد بن أحمد الجهماني الذي عاش ابان حياة نصر الثاني ،
ألف عدة كتب في فنون مختلفة من بينها كتابه المسالك والممالك .

— وقد كتب تاريخ بخارى عاصمة السامانيين بواسطة عدد من المؤرخين
منهم أبو بكر بن جعفر الذي قدم تاريخه لبخارى الى نوح بن نصر ،
فكان هذا التاريخ مكتوبا بأسلوب عربي رائع ، وشمل لمحات عن جلال
بخارى وبهائها وجميع العلماء الذين عاشوا فيها ، وجميع العلماء
والنابغين في المناطق المحيطة بها ، وهناك تاريخ آخر لبخارى كتبه
ابن عبد الله الوراق ، وذلك التاريخ يشمل تاريخ السامانيين أنفسهم ،
وكتب الحاكم بن عبد الله النيشابوري تاريخ العلماء الذين عاشوا في
نيشابور ، وقد كان هؤلاء العلماء من الكثرة بحيث كان هذا الكتاب في
ثمانية أجزاء .

وعن الأدب نبرز أن اللغة الفارسية عادت للظهور في العهد

(١) انظر شرح هذه النظرية في كتاب : الفكر الاسلامي منابعه وآثاره
الذي ترجمه المؤلف عن الانجليزية .

الساماني ، وبدأ يظهر بها نثر رائع وشعر بديع ، وذلك بجانب ما كتب باللغة العربية في مجال الأدب وشعره ونثره ومن أبرز كتب الأدب في العصر الساماني يتيمة الدهر التي أشرنا إليها آنفا .

ومع أعظم الأدباء في ذلك العصر يقف الأمير منصور الثاني ، وكان الأمير شابا مملوءا بالحماسة والنشاط وقد حاول أن يمنح الدولة بعض شبابه ، ولكن الهرم كان قد سيطر على الدولة ، فاتجه الأمير الى الأدب والشعر يضع فيهما قدراته .

وشهدت الدولة السامانية نهضة صناعية طيبة وكان يقود الصناعة عدد السامانيين رجال من الصين ومن مصر ، وكانت الصناعة تشمل مصانع للحرير ومصانع للقطن ، وبعض المصانع للمعادن وبخاصة الأسلحة ، وقد ساعد على ذلك مناجم الفحم التي وجدت في فرغانة ، وقد عرفت سمرقند في ذلك العهد بصناعة الورق الذي يعد أساسا للحضارة .

وقد استرعت النهضة الصناعية اهتماما بالطرق لنقل البضائع من مكان الى آخر ، وكانت هناك طرق كثيرة أهمها الطريق الموصل من جورجاني شمالا الى خراسان جنوبا ، والثاني الطريق الموصل من البحر الأسود الى أوروبا .

وفي أواخر عهد السامانيين تحولت الدولة الى ولايات واقطاعات ، وصادف ذلك ميلاد قوتين عظيمتين في تلك البقاع هما البويهيون ، والغزنويون ، فكان لابد للسامانيين أن يخلوا الطريق للقوة الجديدة القوية .

تلك لحظة سريعة عن السامانيين الذين يمثلون أخطر دولة في ايران لعبت أهم دور في تاريخ هذه البلاد ، ووضعت الأساس لاعادة اللغة الفارسية الى الحياة ، كما أنها شجعت التشيع حتى أصبح فيما بعد المذهب الرسمي لايران .

الديلم (البويهيين) ٣٢٠ - ٤٤٧ هـ

في بلاد الديلم ووسط ايران وغربها وفي العراق

ان الحديث عن البويهيين يقتضي أن نعود الى ما أوجزناه من قبل عن الدولة الزيارية في طبرستان فقد تحدثنا هناك عن « ملكان بن كالي » الذي كان من القيادة الديالمة العظام ، وذكرنا أن آخر قواده واسميه أسفار بن شيويه خرج عليه يعاونه قائد ديلمى اسمه مرداويج بن زيار وأخوه وشمكير ، ثم قتل أسفار وآل الأمر كله الى مرداويج وأخيه .

وهنا يأتي الحديث عن بنى بويه ، ففي بلاد الديلم نشأت أسرة البويهيين وعاصرت هذه الأحداث ، فكان أبو شجاع بويه رجلاً فقيراً يشتغل بصيد السمك ، ويروى عن ابن طباطبا^(١) أن أبا شجاع بويه وأباه وجده كانوا كآحاد الرعية الفقراء ببلاد الديلم ، وكان بويه صياد سمك ، وكان معز الدولة بعد تملكه البلاد يعترف بنعمة الله تعالى ويقول : كنت أحتطب على رأسي ، ويروى ابن خلكان^(٢) عن أبي الفرج بن الجوزي أن معز الدولة كان في أول أمره يحمل الخطب على رأسه ثم ملك هو وإخوته البلاد .

على أن الأمجاد التي حصل عليها بنو بويه دفعت بعض الرواة والمؤرخين الى أن يتوهموا لهم نسبا رثيعة ، فنسبوههم أحياناً الى الملك الايراني القديم (بهرام كور) وأحياناً الى وزراء هؤلاء الملوك^(٣) .

وكان لبويه أبناء ثلاثة هم : على والحسن وأحمد وقد رأى هؤلاء الحرب وهي تدور في بلادهم ، فرأوا أن ينضموا اليها ليجدوا فيها

(١) الفخري ص ٢٤١ .

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٩ .

(٣) تاريخ الدولة الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة ج ١ ص ٢٨٧ .

وسيلة الى رغد العيش لا تحققها صناعة صيد السمك ، فالتحقوا بجيش « ماكان بن كالى » سالف الذكر ، وسرعان ما أبرزوا في عملهم براعة وتفوقا ، فاقترحوا الطريق الى الصفوف الأولى ، ويقال ان « بويه » نفسه هو الذى ترك صيد السمك وشارك في الحروب المشتعلة جنوب بحر قزوين ، فهو الذى فتح باب المجد لأولاده (١) .

وعلى كل حال فقد صار أبناء بويه من قادة « ماكان » فلما انهزم أمام مرداويج استأذنه هؤلاء لينضموا الى المنتصر قائلين الى « ماكان » : ان الأصلح لك أن نفارقك لتخف عنك مؤمنتنا فأذن لهم ، وذهبوا الى مرداويج فرحّب بهم وأكرمهم ، وقتل على بن بويه ولاية الكرج (أو النرج) كما استعان مرداويج بالحسن بن بويه وبأخيه أحمد في أعمال أخرى مهمة (٢) .

وخرج هؤلاء الولاة الجدد الى الرى وبها وشمكير بن زيار وأبو عبد الله العميد وزير مرداويج وأقاموا بالرى فترة ليخرجوا بعدها كل الى عمله ، وحدث في هذه الأثناء أن تدبر مرداويج أمره فأسف لأنه عقد هذه الولايات الى هؤلاء القواد ، فكتب الى أخيه وشمكير ليمنعهم من الخروج من الرى ، وان كان بعضهم خرج منع من بقي ، وكانت الكتب تصل أولا الى العميد فيقف عليها ثم يعرض على وشمكير جملتها ، فحين وقف على الكتب تقدم الى على بن بويه سرا أن يبادر الى عمله ، اذ كانت بينهما مودة ، فقد كان على بن بويه قبل ذلك أهداه بعله حسنة وأطافا كثيرة واحتجز العميد الكتب الى اليوم التالى ، فأطلع عليها وشمكير بعد أن صار على بن بويه على مسافة بعيدة ، ففاز بالولاية التى كانت سبب هلكته (٣) .

(١) وفيات الاعيان ج ١ ص ٣٦٤ .

(٢) ابن مسكويه : تجارب الامم ج ٥ ص ٢٧٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٧٧ — ٢٨٧ .

ووصل على بن بويه الى الكرج حيث استمال الزعماء والقادة اليه بإحسانه وسماحته ، وضاق مرداويج به وخافه على ملكه ، فاندفع على بن بويه يقوى نفسه ويعد عدته للوقوف في وجه سيده ، ووسع ملكه فاستولى على أصفهان ، ثم استولى بمعونة أخويه على شيراز سنة ٣٢٢ (٩٤٣) وجعلها مقر سلطانه ، ومع هذا فقد حاول ترضية مرداويج فاعترف له بالسيادة ووضع عنده أخاه كرهينة ، ولم تطل المناقسة بين بنى بويه ومرداويج ، فقد هجم بعض الجنود من الأتراك على مرداويج وقتلوه سنة ٣٢٣ وهو في الحمام ، وانتهر الحسن بن بويه فرصة الهرج الذي تلا مقتل مرداويج فهرب من بلاطه بعد ليلة من مقتله وعاد الى أخيه على (١) .

وفتح الباب عقب ذلك لانتصارات بنى بويه ، اذ استطاع أحمد أن يستولى على كرمان وزحف على الى بلاد الأهواز فاحتلها ، واحتل بعدها واسط ، واكمل لبنى بويه بذلك السلطان على مساحة كبيرة من أملاك الدولة العباسية ، فكتب على الى الخليفة العباسى يطلب الاعتراف به ، فاستجاب له الخليفة وكتب له بذلك .

ويقول ابن خلكان (٢) عن عماد الدولة : فكان عماء الدولة سبب سعادتهم التامة وانتشار صيتهم ، واستولوا على البلاد وملكوا العراقيين والأهواز وفارس وساسوا أمور للرعية أحسن سياسة .

وكانت الأحوال كما قلنا قد ساءت في بغداد ، وضعف الممالك وأمراء الأمراء عن تسيير دفة الأمور ، وفي سنة ٣٣٤ كتب قادة بغداد الى أحمد ابن بويه ليدخل بغداد ويتولى السلطان بها ، ففعل ، وقد رحب به الخليفة العباسى وعينه « أمير الأمراء » وخلق عليه ولقبه معز الدولة

(١) ابن مسكويه : تجارب الأمم ج ٥ ص ١٦٣ ، ٣١٤ - ٣١٥ .

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٦٤ .

ولقب أخاه عليا عماد الدولة والحسن ركن الدولة (١) وخضع خلفاء بني العباس حيناً من الزمن لبني بويه ، وأصبح مصر العالم الاسلامي مرتبطاً بهؤلاء السلاطين الجدد ، ولم يبق للخلفاء معهم نفوذ ولا سلطان ، وذهبت هيئة الخلافة طيلة هذا العهد (٢) .

نمروع بني بويه :

اقتسم بنو بويه على والحسن وأحمد المناطق التي تم لهم فتحها ، وتعاونوا على ادارتها والسيطرة عليها ، تاركين للأخ الأكبر علي بن بويه (عماد الدولة) السلطان العام والتوجيه في مهام الأمور ، ويروى لنا ابن مكسويه (٣) صورة توضح لنا سلطة عماد الدولة ومكانة أخويه منه ، قال :

وصل معز الدولة من العراق الى الأهواز ليلقي أخاه عماد الدولة ، فلما لقيه قبل الأرض بين يديه واجتهد به عماد الدولة أن يجلس بين يديه فلم يفعل ، وكان يتردد اليه كل يوم بالغداة والعشية فيقف ولا يجلس ... وكان عماد الدولة يقول عن الحسن وأحمد أخويه : أنهما أخوأي بالنسب ، وابناي بالتربية ، وصنيعتاي بالولايات .

وبجانب السلطان العام الذي ترك لعلي بن بويه ، كان له السلطان المباشر على الجزء الجنوبي من بلاد فارس (سجتان ومكران وكرمان) وكان للأخ الأوسط الحسن (ركن الدولة) الجزء الشمالي من بلاد فارس (بلاد الجبل والري وطبرستان) أما الأخ الأصغر أحمد (معز الدولة) فكان له العراق (الأهواز وواسط وبغداد) .

وقد ظل الحال كذلك طيلة عهد هؤلاء الثلاثة الكبار ، وهو نظام يحمل في طياته بذور الفرقة ولئن استطاع مؤسسو ملك البويهيين أن يتعاونوا فيما بينهم طيلة حياتهم فسرعان ما دب الشقاق بين أولادهم .

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٣٣٤ .

(٢) أبو الريحان البيروني : الآثار الباقية ص ١٣٢ .

(٣) تجارب الامم ج ٦ ص ١٣٢ .

الأجيال التالية من البويهيين :

إذا تركنا الثلاثة الكبار الذين أسسوا ملك البويهيين الفسيح وذهبنا الى الجيل التالي وجدنا ما يدعو للدهشة ، فعماد الدولة أبو الحسن علي الذي كان له السلطان العام والذي كان يرى نفسه أباً ومربياً لأخويه وصاحب النعمة عليهما ، لم يكن لنسله من السلطان شيء ولا ذكر ، ثم أن معز الدولة أحمد الذي زحف الى بغداد ، وكان له السلطان علي الخليفة ، والذي سمل غيني الخليفة المستكفي بعد أسابيع من دخوله بغداد وعزله وعين المطيع بديلاً منه ، هذا الرجل لم يصل الى الحكم من أولاده إلا شخص واحد هو ابنه عز الدولة بختيار ، أما الذي قبض علي زمام الحكم في بلاد البويهيين فهو عضد الدولة أبو شجاع بن ركن الدولة حسن الذي كانت له بلاد فارس ، وفي عهد عضد الدولة بلغ بنوبويه أقصى درجات قوتهم •

ولما توفي عضد الدولة سنة ٣٧٢ هـ قامت حروب بين أولاده الثلاثة شرف الدولة وصمام الدولة وبهاء الدولة ، وانتهت حروب الأخوة الثلاثة سنة ٣٨٠ هـ بانتصار بهاء الدولة فلما توفي بهاء الدولة سنة ٤٠٣ هـ اشتعلت الحروب بين أبنائه الأربعة سلطان الدولة ومشرف الدولة وقوام الدولة وجلال الدولة ، واستمرت الحروب بين أخلافهم حتى هدت كيانهم جميعاً وكان آخرهم السلطان الملقب « الملك الرحيم » الذي اقتحم السلاجقة بغداد في عهده سنة ٤٤٧ هـ وقبضوا عليه وأرسلوه أسيراً الى السجن ، وانتهى بذلك عهد البويهيين (١) •

بغداد تفقد أهميتها :

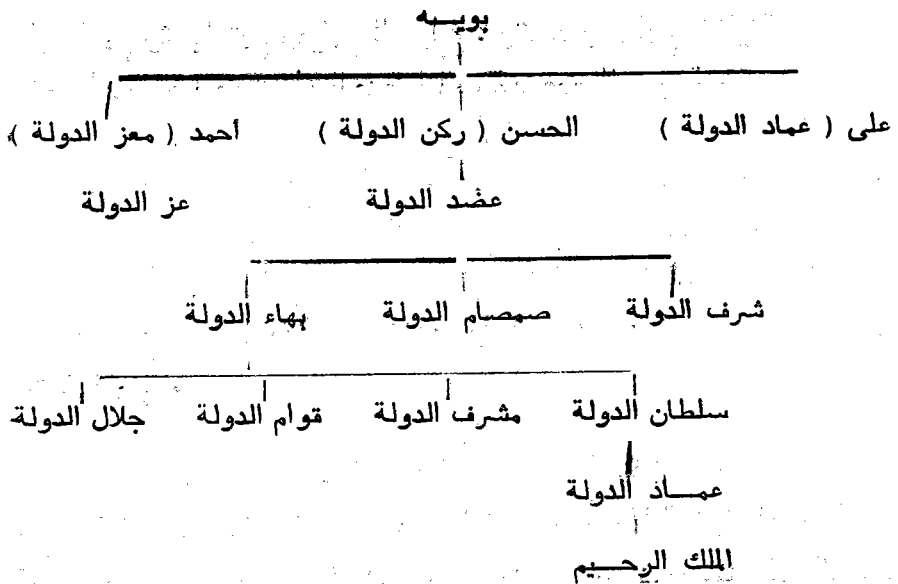
وعندما امتد نفوذ البويهيين الى بغداد وسيطروا على الخلافة العباسية فقدت بغداد أهميتها السياسية ، وانتقلت هذه الأهمية الى شيراز

(١) ابن الأثير : المعامل حوادث سنة ٤٤٧ هـ وعماد الدين الأصفهاني وتاريخ آل سلجوق ص ١٠ •

حيث كان يقيم على بن بويه عماد الدولة الذي كان له السلطان العام على دولة بنى بويه ، وبعد على لم تعد السلطة السياسية الى بغداد ، بل انتقلت الى أهم شخص بين البويهيين وهو عضد الدولة الذي اتخذ الري بعد أصفهان عاصمة له ، وعضد الدولة يستحق مزيدا من الحديث فقد تعلم على أحسن المعلمين ، وكان يحب العلم والعلماء ، ويرتب الجرايات للفقهاء والمحدثين وسائر أهل العلم (١) .

وكانت له مكتبة عظيمة تحدثنا عنها في كتابنا « التربية الإسلامية » وكان يقرض الشعروينشره (٢) وبهذا كان عهده نموذجا للقائل البيهقي . ولم يخرج بيت بنى بويه بعد عضد الدولة جيلا يصلح للحكم (٣) .

وأهم سلاطين البويهيين هم :



(١) مستر : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ج ١ ص ٣٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٧ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٢١ .

الغزنويون

٣٤٩ — ٥٧٩ هـ

في غزنة وأكثر ايران وما وراء النهر وبعض الهند

ان قيام الأسرة الغزنوية يرجع الى نشاط بعض القادة الأتراك في بلاط السامانيين ، فقد أصبح لهم سلطان واسع في الجيش الساماني ، وهم الذين دبروا قتل أحمد بن اسماعيل الساماني وسيطروا على نوح الثاني (١) .

وعلاقة الأتراك بايران قديمة ترجع الى عصر الدولة الأكمينية ، فقد اعتادت القبائل التركية أن تهاجر الى ايران لتعمل بها ، وكان من أهم الأعمال التي وكلت للأتراك الحراسة والاشتراك في الجيوش ، وذلك لصحة أجسامهم وشجاعتهم وميلهم للصراع ، وقد وكل لهم الخليفة المعتصم هذه الأعمال كما ذكرنا في الجزء الثالث من هذه الموسوعة .

واذا كان الأتراك قد قنعوا في بغداد بالنفوذ في ظل الخلافة العباسية ، وحرصوا على أن ينفذوا أوامرهم من خلال الخلفاء الذين كان هؤلاء الأتراك يضعونهم في دست الخلافة ، فان الأتراك ابتداء من الدولة الغزنوية لم يقنعوا بذلك بل اتجهوا لتكوين الدول والممالك بالعالم الاسلامي .

وكان من القادة الأتراك مملوك اسمه « البتكين » كان يقود جيش نوح الأول الساماني ، ثم ولاء عبد الملك بن نوح ولاية خراسان ، وأوصاه أن يكون الحكم من بعده لابنه ، ولكن منصور بن نوح قفز الى الحكم بعد وفاة أخيه عبد الملك ، وحرّم ابن عبد الملك من السلطة ، وهذا أثار ثائرة « البتكين » الذي كان حريصا على تنفيذ وصية سيده ولكنه عجز

(١) غرابية : العرب والأتراك ص ٢٧ .

عن ذلك ، وأحس كل من المنصور بن نوح والبتكين بخطر الثاني عليه ، فلهجأ البتكين الى مدينة « غزنة » حيث كان أبوه عاملا عليها ، وتبعه بعض رفاقه والساخطون على المنصور ، وأخفق المنصور في القضاء عليه ، فعظم شأن البتكين في هذه المنطقة ووسع ممتلكاته في بعض النواحي المجاورة لها .

ومات البتكين حوالي سنة ٣٥٢ فتولى مكانه ابنه اسحق الذي لم تطل مدته ولا علا شأنه ، وتوفي سنة ٣٥٥ ، وتلاه بعض الأتراك الذين ليس لهم ذكر من التاريخ والذين سرعان ما أدخلوا المكان الى المؤسس الحقيقي للأسرة الغزنوية وهو سبكتكين . . . ويقال ان سبكتكين ينحدر من نسل يزدجرد الثالث آخر أباطرة فارس (١) ، وما ان وصل سبكتكين الى الحكم سنة ٣٦٦ هـ حتى أخذ يثبت سلطانه في منطقة غزنة ثم انطلق منها الى البتجانب بالهند ، ثم استولى على خراسان ، وتقرب اليه نوح الثاني ابن منصور الساماني ، وعينه واليا على خراسان ، فامتسع ملكه وثبتت أركانه ، ولم يكن يربطه بالسامانيين الا خيط رفيع لا يقلل من مكانته ، فقد كان سلطانه أوسع من سلطان نوح (٢) . وأصبح له نفوذ في بلاط السامانيين الى درجة أنه أصبح له تعيين الوزراء في هذا البلاط (٣) .

وقبيل موت سبكتكين أوصى بالسلطة لابنه اسماعيل وتجاهل ابنه الأكبر محمود الذي كان في نيسابور آنذاك ، ولكن محمودا ثار لذلك عقب موت أبيه وحارب أخاه اسماعيل وانتصر عليه وبدأ بذلك أزهى عصور الغزنويين .

ويبدو أن السبب في اختيار اسماعيل لولاية العهد هو ارضاء أخواله الذين كانت لهم سلطة في الدولة ، أما أخوال محمود فلم يكن لهم سلطان

(١) المولوى : جامع الدول (مخطوط) .
(٢) العتبي : تاريخ اليميني ج ١ ص ١٨١ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٤١ .

مثل هؤلاء ، هذا بالإضافة الى أن محمودا كان بعيدا عن العاصمة قبيل وفاة أبيه ، فقد كان في نيسابور قائدا لجيوش أبيه هناك (١) .

وعلى كل حال فقد حقق محمود النصر على أخيه دون كبير عناء ، ثم أسرع فوضع نهاية للدولة السامانية التي كانت تتزحزح في أيامها الأخيرة .

وأتيحت لمحمود فرصة لمزيد من السلطان ، فقد ذكرنا من قبل أن السامانيين رفضوا تصرفت بنى بويه مع الخلفاء العباسيين عزلا وتعيينا وبالتالي لم يخطبوا للخليفة القادر الذي كان البويهيون قد وضعوه في دست الخلافة ، فاتخذ محمود ذلك ذريعة له وهاجم السامانيين وقضى عليهم ، وأرسل للخليفة رسالة يقول فيها : « وجريت على مادتي مع هذا الأخير » (يقصد عبد الملك بن نوح) « أوفد اليه مرة بعد أخرى ، وثانية عقب أولى من يدعوه إلى الرشاد فلم يزده ذلك إلا ما زاد أخاه (أي منصور بن نوح) استعصاء واستغواء ، فلما بُسِئت من شيء إلى واضح الجدد نهضت إليه بمن معه من أنصار مولانا أمير المؤمنين (٢) » .

وبذلك حقق محمود آماله وآمال أبيه في وراثة خراسان أهم ممتلكات آل سامان ، وولى عليها أخاه نصر بن سبكتكين الذي صار قائدا لجيوش خراسان وأصبح محمود أكبر قوة في شرق العالم الاسلامي فأعلن نفسه « سلطانا » وأرسل اليه خليفة بغداد الألقاب والخلع وأقره على ما في يديه ، واطاعه حكام الأطراف في خراسان وخطبوا له (٣) .

وحصل محمود بذلك من الخليفة العباسي بالاعتراف به وبسلطانه على الأرض التي يسيطر عليها ، ثم راخ يزيد من ممتلكاته ، وبخاصة في

(١) نظام الملك : سياسة نامه ص ١٢٥ .
(٢) تاريخ أبو هلال الصائبي — مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت سنة ١٩٠٤ ص ٣٧٤ .
(٣) العتبي = ج ١ ص ٣١٤ ، وابن الأثير ج ٩ ص ٥٤ و ٥٥ .

بلاد الهند ، وخطم الأصنام الملقى كانت في المعابد الهندية وبخاصة في المدينة المقدسة « سومنات » ولذلك سمي « معظم الأصنام » وأحضر إلى غزنة أجزاء هذا الصنم الكبير فجعل منها درجيات للصنم الملقى كان يصعد الناس عليه إلى مسجده العظيم بغزنة ، وفي العام التالي زحف إلى كشمير فأخضعها ودخل أكثر سكانها دين الاسلام ، ثم زحف محمود إلى بلاد ما وراء النهر فخضعت له سمرقند وبخارى ، ومد سلطانه إلى أصفهان وكانت في يد البويهيين ، ثم مد سلطانه إلى كل أجزاء ايران الأصلية الا كرمان وفارس .

وفي عهد محمود كانت قوة السلاجقة قد أخذت في الظهور ، ولكن قوة محمود كانت في قمة مجدها فأجنى له السلاجقة الرؤوس ، ودخلوا في طاعته .

وأصبح محمود بذلك يحكم مملكة واسعة جدا ، كما حصل على مال وغير من غزواته وبخاصة في بلاد الهند التي كانت مغابها عاقلة بالثروة ، ومن أجل هذا عاد محمود إلى غزنة ليجعل منها عاصمة أوسع مملكة آنذاك ، فاهتم ببناء القصور والمساجد والصروح ، واقتدى به رجاله في مجال البناء ، والتعمير حتى أصبحت غزنة ذرة العواصم ، وذاع خبرها في جميع الأرجاء ويقال ان السلطان محمود أنفق القناطير المقنطرة على بناء مسجده الذي لم يكن هناك آنذاك ما يضارعه (١) .

واشتهر محمود بالعدالة بين الرعية لا يفرق في ذلك بين أمير وحفير ، كما اشتهر برعاية العلماء وتقريبهم ، « فمما يلفت النظر أن محمودا كان حاميا للعلوم والآداب والفنون الجميلة بقدر ما كان قائدا ورجل سياحة ، وقد اجتمع في صالونه بغزنة من الشعراء غنمى وعسجدى وفروخى

(١) سنتكلم عن السلطان محمود وغزواته للهند في دراستنا عن « الاسلام في شبه القارة الهندية » بهذا الجزء ان شاء الله .

والفردوسى وغيرهم من أدباء العصر وعلمائه بحيث عجزت كل العواصم عن منافسته في ذلك ، وازدانت غزنة في ذلك العصر بما لا مثيل له في غيرها من القصور والمساجد والقنوات والمباني الفخمة والآثار النافعة لأن محمودا عرف كيف يفيد من آثار الهند العمرانية بنفس القدرة التى عرف بها كيف يغير عليها » (١) .

قمم فكرية في بلاط محمود :

يقول Wilber كان محمود يستدعى أشهر العلماء والشعراء الى غزنة ، فقد استدعى عنصرى الشاعر والبيرونى العالم المؤرخ والفردوسى الذى غاق الجميع ، وفي بلاط محمود بدأ الفردوسى ينظم ملحمة الشهيرة الشاهنامه أو كتاب الملوك وقد أتمها في ٦٠٠٠٠ بيت من المنظوم ، والملحمة تحتوى على أمجاد أربع دول اثنتان منها خرافيتان مأخوذتان من أساطير الاوفاستا واثنتان تاريخيتان هما البارثيون والساسانيون وان كانت الأساطير قد اقتحمت تاريخ هاتين الدولتين أيضا، وتهتم الملحمة بقصص البطولة والفروسية وكانت الشاهنامه مصدر الهام لكثير من شعراء الفرس المتأخرين ، كما كانت مصدر الهام لبعض الشعراء الغربيين وقد اشتهرت الشاهنامه في ايران فقل من لم يحفظ منها قليلا أو كثيرا حتى الآن ، ويذكر المؤرخون أن محمودا الغزنوى كان مشغولا بتوسيع مملكته وبالأمجاد الحربية ، ثم أن وشايات قامت بينه وبين الفردوسى اعتمدت على أن الفردوسى يببالغ في مدح قومه الفرس في الشاهنامه ويفضلهم على الأتراك الذين ينحدر منهم الغزنوى ، وكان ذلك من الأسباب التى جعلت هبة السلطان المالية للشاعر ضئيلة ، وبالتالي اندفع الشاعر يوزع هذه الهبة على الناس استخفافا بها ، فغضب عليه السلطان وطلبه ، ولكن الفردوسى هرب وراح شريدا يلجأ لهذا وذاك ولم يعرف الغزنوى قدره الا في أخريات حياته ولكن بعد فوات الأوان .

(١) دكتور احمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الاسلامية ج ٢ ص ٥٩٠

الشاهنامة إحياء للغة الفارسية :

كانت الشاهنامة مكتوبة باللغة الفارسية ، ومن ثم كانت أساسا لحياء هذه اللغة ، ويلاحظ أن بعض معاصري الفردوسي كتبوا كتبهم باللغة العربية لأن اللغة العربية بهرتهم بأساليبها ، كما أن الحروف العربية حلت تماما محل الحروف الفهلوية المعقدة ، وبعد الفردوسي جاء من انطماء من يكتب باللغتين العربية والفارسية كالسعدى ، ثم غلبت الفارسية ، ولكن بعد أن ثبتت الحروف العربية ، وأصبحت اللغة العربية هي اللغة الثانية للمثقفين من الفرس ، ووجد كذلك بين العرب من عرفوا اللغة الفارسية واهتموا بها (١) .

ومما يدل على اهتمام السلطان محمود بالفكر والثقافة ما يذكره Browne (٢) من أن السلطان محمودا كتب الى مأمون بن مأمون بن خوارزم كتابا يقول فيه ان جماعة من أهل العلم والفضل يعيشون عنده ، وانه يرغب في أن يرسلهم اليه لينتفع بعلمهم وفنهم ، وقد عرض مأمون ذلك على العلماء الذين طلبهم محمود وكان ابن سينا والبيرونى منهم ، فرفض ابن سينا أن يذهب اليه خوفا من تسلطه ، وأما البيرونى فقد وافق وذهب الى محمود .

ويذكر كذلك (٣) أن رعاة الأدب آنذاك كانوا كثيرين ، ويعد منهم السلطان محمود في غزنة ، وأخاه نصر في نيسابور ، وبخارى في عهد السامانيين ثم في عهد الغزنويين ، وقصور العلويين والزييريين في طبرستان ، وقصور ملوك خوارزم في مدينة خيوه ، بالإضافة الى قصر صاحب ابن عباد وزير البويهيين في أصفهان .

(١) ايران : ماضيها وحاضرها ص ٥٥ — ٥٦ بتصرف .

(٢) تاريخ الادب في ايران : الترجمة العربية ص ١١٢ .

(٣) المرجع السابق ص ١١٥ .

وكان أبو الريحان البيروني من مشاهير العلماء ، وقد عاش في كنف
أمراء خوارزم في خيوة ثم في كنف شمس المعالي قابوس في طبرستان
وأخيرا في كنف السلطان محمود وأفراد أسرته من بعده (١) .

الغزنويون في طريق الانحدار :

كان للسلطان محمود ابنان ، أكبرهما اسمه مسعود وكسان أبوه
يعتمد عليه في حروبه وفي إدارة مملكته ، والأصغر اسمه محمد وكان أقل
كفاءة من مسعود ولكنه كان حظيا عند أبيه ، وقد وقع محمود في السقطة
التي وقع فيها أبوه فعين ابنه الأصغر ليكون خلفا له ، وتجاهل الابن
الأكبر الذي كان أعظم شأنا وأعلى همة ، وسأل محمود " ابنك الأكبر عما
سيكون موقفه من أخيه الأصغر بعد أن يتول له السلطان ، فأجاب مسعود
اجابة جريئة كان حريا بها أن تجعل الأب يعود لتدبر أمره ، ولكنه لم
يفعل ، بل قال مسعود لأبيه : سأعامله كما عاملت أخاك الأصغر عندما
آثره أبوك عليك ، وكان تصرف محمود داغيا لصراع بين الأخوين سرعان
ما انتصر فيه مسعود .

وقد فسر مسعود موقف أبيه منه بقوله : ان والدنا قد رغب عنا
في أواخر أيامه ، وأساء الظن بنا ، ولم تكن هذه الظاهرة خاصة به ، بل
هي تظهر عند أكثر الملوك في أواخر أيامهم بالنسبة الى ولاية العهود إذ
يخسبون أن هؤلاء سيحلون محلهم (٢) .

وهكذا فان مسعود يرى الغيرة هي السبب في انصراف أبيه عنه ،
ولكن التاريخ يتجه اتجاها آخر في هذه القضية فيذكر أن الصلة بين
محمود وبين مسعود لم تكن طيبة . وأن الوشائيات ظهرت بينهما فأعرض

(١) تاريخ الادب في ايران : ص ١١٦ — ١١٧ .

(٢) تاريخ البيهقي : ص ٨٠ ترجمة الدكتور يحيى الخشاب .

عنه أبوه : كما أن مسعود عرف عنه نوع من المجون جهيل أباه يعرض عنه ، ويراه ليس كفتا لهذه المكانة (١) .

وقد انتهزت مناطق شتى من الهند فرصة النزاع بين الأخوين فثارت على الغزنويين ، كما بدأ السلاجقة في الظهور بعد وفاة محمود وقيام صراع داخلي بين خلفائه ، وقد حاربهم مسعود ولكن جنوده ثاروا عليه لكثرة ما خاضوا من حروب ، ونادى بعضهم بإعادة محمد بن محمود للسلطة وكان مسعود قد سمل عينيه وسجنه ، فأخرجوه من السجن وسلموه السلطة ، ووضعوا مسعودا في السجن ، ولكن أولاد محمد قتلوا عمهم مسعودا انتقاما لعزل أبيهم وسمل عينيه ، ويقال أن محمدا لم يكن راضيا عما أحدثه أبناؤه بأخيه فبعث يعزى فيه أبناءه ، ولكن هؤلاء لم يغفروا ما حدث لأبيهم فزحفوا للثأر . . واتجهت الدولة الغزنوية للضعف فاستولى السلاجقة في الفترة بين ٤٢٨ — ٤٣٧ على ما كان في قبضة الغزنوية من المناطق الإيرانية ومناطق ما وراء النهر ابتداء من بلخ وخوارزم إلى الري وأصفهان ، ثم استولى الغوريون على غزنة سنة ٥٥٣ ، فنقل الغزنويون عاصمتهم إلى ما تبقى لهم في الهند فجعلوا « لاهور » عاصمة لهم ، ولكن سرعان ما وقع « تاج الدولة خسرو » آخر حكام الغزنويين أسيرا في يد الغوريين ، فسيق إلى غزنة وهناك أعدم ، وآلت أملاك الغزنويين في غزنة وفي الهند إلى الغوريين .

وحكام الغزنويين هم :

٣٥٢ — ٣٥١

البتكين

٣٥٥ — ٣٥٢

اسحاق ابنه

٣٦٦ — ٣٥٥

حركات ثورية وقادة لا أهمية لهم

٣٨٧ — ٣٦٦

سبكتكين

٣٨٧ — ٣٨٧	ابنه اسماعيل
٤٢١ — ٣٨٧	محمود الغزنوى
٤٢١ — ٤٢١	محمد بن محمود (أول مرة)
٤٣٢ — ٤٢١	مسعود الأول
٤٣٢ — ٤٣٢	محمد (مرة ثانية)
٤٤١ — ٤٣٢	مودود بن مسعود الأول
٤٤١ — ٤٤١	مسعود الثانى (ابن مودود)
٤٤١ — ٤٤١	على بن مسعود الأول
٤٤٤ — ٤٤١	عبد الرشيد بن محمود
٤٥١ — ٤٤٤	فرخزاد بن مسعود الأول
٤٩٢ — ٤٥١	ابراهيم بن مسعود الأول
٥٠٨ — ٤٩٢	مسعود الثالث بن ابراهيم
٥٠٩ — ٥٠٨	شيرزاد بن مسعود الثالث
٥١٢ — ٥٠٩	أرسلان شاه بن مسعود الثالث
٥٤٧ — ٥١٢	بهرام شاه بن مسعود الثالث
٥٥٥ — ٥٤٧	خسرو شاه بن بهرام شاه
٥٧٩ — ٥٥٥	خسرو ملك بن خسرو شاه

ثم جاء بعدهم السلاجقة والغوريون وسلطين هنود •

السلاجقة (التركمان أو الأتراك أو الغز)

٤٣٢ — ٥٨٣ هـ

ما وراء النهر وخراسان وايران والعراق والشام والأناضول
(مكان السامانيين والغزنويين والبويهيين والروم)

نشأة السلاجقة :

شهد القرن الثانى الهجرى ، وكذلك القرن الثالث والرابع أفواجا من قبائل الأتراك (الغز) تهاجر من أقصى تركستان تحت ضغط سياسى أو اقتصادى أو كليهما ، متجهة نحو الغرب ، مصادولة الاستقرار فى اقليم ما وراء النهر واقليم خراسان ، ولم تكن هذه القبائل فى أول أمرها موحدة القيادة ، ولم تكن تنسب الى أصل تُعرَف به ، فلما ظهر سلجوق فى النصف الثانى من القرن الرابع جمع شمل هذه القبائل ، ووجدها تحت زعامته فنسبت اليه وخضعت لحكم أبنائه وأحفاده من بعده .

ونزل السلاجقة بالقرب من السامانيين والغزنويين ، فدخلوا الاسلام وتعمصوا للمذهب السنى الذى كان منتشرا بترك البقاع ، والذى هو أقرب الى العقل السلجوقى ، وكانت الحروب مشتعلة بين السامانيين والغزنويين ، فانضم السلاجقة للسامانيين وساعدوهم ، وكافأهم السامانيون على ذلك بأن سمحوا لهم بالاستقرار قريبا من شاطيء نهر سيحون ، وانهارت الدولة السامانية فى أواخر القرن الرابع (سنة ٣٨٩) أمام غنفوان الغزنويين ، فأتاح هذا للسلاجقة الفرصة للاستقلال بما تحت أيديهم من أملاك الدولة المنهارة .

ومات سلجوق وهو فى المائة من عمره أو تجاوزها ، فتولى رئاسة هذه القبائل ابنه اسرائيل ، وبدأ محمود الغزنوى يتوجس خيفة من هذه القوة الناشئة ، ولكنه تظاهر بالمسالة واستدعى اسرائيل لمفاوضته وقبض

عليه غدرا وألقاه في السجن ، فاختر السلاجقة أخاه ميكائيل بن سلجوق لقيادتهم ، فمال هذا لمسلطة محمود الغزنوي ، إذ أدرك أن قوتهم لا تسمح بمصارعة قوة الغزنويين ، ومع هذا فإن سياسة المسالمة لم تدم طويلا ، إذ هجم عليهم محمود الغزنوي وشنت عليهم سنة ٤١٨ ومات ميكائيل عقب ذلك ثم مات محمود الغزنوي ، وآلت أمور السلاجقة إلى ابني ميكائيل جفري بك وطغرل بك ، ومهد موت السلطان محمود الغزنوي الطريق لنجاح السلاجقة ، إذ لم يستطع ابنه مسعود أن يملأ الفراغ الكبير الذي كان يشغله أبوه ، فانهزم أمام السلاجقة في موقعة سرخس سنة ٤٢٩ وعاد إلى الهند تاركاً خراسان وما وراء النهر للقوة الجديدة ، وأعلن طغرل بك قيام دولة السلاجقة في هذه السنة ، وبعد أن تم الاستقرار لها اعترف بها الخليفة العباسي سنة ٤٣٢ (١) .

واستمر اتساع سلطان السلاجقة بعد ذلك فشمل بخارى سنة ٤٨٢ ثم سمرقند بعد حصار أسهم الأهالي في نجاحه بأن قدموا المؤن والذخائر لجيش السلاجقة كرمز للترحيب بهم ليخلصوهم من العنف الذي كان طابع الحكام الغزنويين في هذه الفترة (٢) .

ولنقتبس من ابن بططبا (٣) طرفاً مما ذكره عن نشأة السلاجقة ، قال : هم قوم أصلهم من الترك والخزر ، وكانوا يخضعون مع ملوك الترك ، ونشأ زعيمهم سلجوق وكانت إمارات النجابة لائحة عليه ودلائل السعادة ظاهرة على حركاته ، فقرر به ملك الترك واختص به ، ولقبه « شيلشن » ومعناه في لغتهم « قائد الجيش » فنبه سلجوق بعلو همته ، واستمال قلوب الرجال بكومه وعقله ، وانقادوا الأكابر إليه ، فيقال إن

Barthold : Turkestan Down to the Mongal Invasion pp. 302 - 303 (١)

Barthold : Ibid p. 136.

(٢)

وأقرأ كذلك السلاجقة في إيران والعراق للدكتور عبد المنعم حسنين ص ١٦ وما بعدها .

(٣) البخاري ص ٢٥٥ .

زوجة ملك الترك قالت لزوجها : إلى أتوسّم في سلجوق تغلبا عليك ، والرأى عندي أن ننقله فقد كثر ميل الناس إليه ، فقال لها : سأنظر في أمره ، ثم أحس سلجوق بشيء من ذلك العزم ، وظهر له التغير ، فجمع عشيرته ومن اتبعه أو حالفه ، واستجلب من أطاعه ، وبخاصه من الغزّ ، ونفر بهم من بلاد الترك الى بلاد المسلمين ، فلما دخلها أظهر الإسلام ليكون المسلمون عوناً له ، وليمكنوه من المراعى والمساكن ، فنزل في (جند) بدائر بخارى حيث يصبّ نهر سيحون في بحيرة خوارزم (آرال) وشرع سلجوق في غزو مَنْ قاربه من أمراء تلك المنطقة ، وكان لملك الترك اتاوة على تلك البلاد المتاخمة له فقطعها وطرد نوابه .

وبعد أن دخل السلاجقة بلاد الاسلام اشتهروا أيضا بلقب « المتركمان » وقد انحازوا الى مذهب أهل السنة الذي كان يتلاءم وعقولهم البسيطة ، فأقبلوا على هذا المذهب بكل ما في نفوسهم الفطنة من قوة وحماسة (١) .

ونشب بعد ذلك نزاع بين الغزنويين بعضهم البعض ، فانتهز السلاجقة هذه الفرصة واحتلوا خوارزم وطبرستان ، وقاموا بحملات ضموا فيها أذربيجان ، واستطاعوا بجهد يسير أن يقضوا على بقايا البويهيين في فارس ، ووقفوا بذلك على أبواب العراق .

السلاجقة في بغداد :

بينما كان نجم السلاجقة يتألق كان نجم البويهيين في طريقه الى الأفول ، وجذّت ظروف أسرع بالسلاجقة الى بغداد ، فقد كان السلطان البويهى (الملك الرحيم) ضعيفا ، وكان أحد قواده الأتراك واسمه للبساسيرى صاحب السلطان الحقيقى في بغداد ، وقد تمرد هذا القائد على سيده البويهى وعلى الخليفة ، وحاول أن يستبد بالأمر وأن يدعو للخليفة الفاطمى (المستنصر) فاستنجد الخليفة العباسى (القائم) بزعيم

(١) انظر تاريخ الشعوب الاسلامية ليرولمان ج ٢ ص ١٢٥ .
(م ٧ — الموسوعة التاريخية)

السلاجة (طغرل بك) وانتهر طغرل بك هذه الفرصة وسار بجيوشه حتى دخل بغداد سنة ٤٤٧ هـ وأحسن الخليفة استقباله ، ولقبه يمين أمير المؤمنين ، وخضع له الملك الرحيم ، واستقر الرأي على أن يذكر في الخطبة اسم القائد السلجوقي بعد اسم الخليفة ثم يليه اسم الملك الرحيم ، ولكن طغرل بك سرعان ما قبض على الملك الرحيم وأرسله أسيرا الى الري ، فألقى به في السجن ، وحذف اسم الملك الرحيم من الخطبة وانتهى بذلك عهد البويهيين وبدأ سلطان السلاجة (١) .

مشكلة البساسيري :

هرب البساسيري من وجه الجيش السلجوقي ، واتجه الى الشمال ، وهناك تحالف مع قريش بن بدران أحد أمراء الدولة العقيلية ، وهاجم الموصل ودخلها ، ودعا فيها للخليفة الفاطمي ، فقتبعه طغرل بك واقتحم عليه الموصل وتمكن من قمع فتنة البساسيري سنة ٤٤٩ هـ وبسط نفوذه على ديار بكر ، ثم عين أخاه لأمه ابراهيم ينال واليا على الموصل والجزيرة ، وقفل راجعا الى بغداد بينما فر البساسيري صوب الشام (٢) .

غير أن ابراهيم ينال تمرد على السلطان السلجوقي ، وغادر الموصل واتجه بجيشه مراغما الى همدان — وكان قد تمرد بها من قبل ثم استسلم وعفا عنه طغرل بك — فلحق به طغرل بك بجيشه ، وأوقع به هزيمة ساحقة بالقرب من الري ، وقبض عليه وقتله سنة ٤٥٠ هـ ، وخلت العراق من السلاجة آنذاك ، فانتهر البساسيري الفرصة وعاد الى بغداد ، واستولى على السلطة ، وأعلن تبعية بغداد للخليفة الفاطمي ، واستجار الخليفة العباسي بقريش بن بدران فأجاره ، ونجا بذلك من القتل ، وظلت بغداد تابعة للقاهرة أكثر من عام (٤٥٠ — ٤٥١) حتى انتصر طغرل بك على

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ حوادث سنة ٤٤٧ هـ والراوندي : راحة الصدور ص ١٠٦ نقلا عن عبد المنعم حسنين ص ٣٩ وعهاد الدين الاصفهاني : (٢) الراوندي : راحة الصدور ص ١٠٧ نقلا عن عبد المنعم حسنين ص ٤١ .
تاريخ آل سلجوق ص ١٠ .

أخيه ، وعاد الى بغداد حيث هزم البساسيري وقتله ، وأعاد الخليفة العباسي الى سلطانه واستقرت بذلك قدم السلاجقة في بغداد حيث بدأ عهد جديد على الخلافة العباسية (١) .

العلاقة بين الخلفاء وسلاطين السلاجقة :

كانت العلاقة بين خلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقة مغايرة للعلاقة التي كانت بين هؤلاء الخلفاء وسلاطين البويهيين ، ويذكر المؤرخون أن أهم سبب لذلك هو الاتفاق المذهبي ، فهؤلاء وأولئك يدينون بالمذهب السني ، مما يسرّ التعاون بين الجانبين ، ودفع السلاجقة الى اجلال الخلفاء واحترامهم احتراماً عميقاً ، ويبدو لي أنه بالإضافة الى هذا السبب كان البويهيون أجيالاً قساة ، ولم يكن السلاجقة كذلك ، فمن الممكن أن يكون هناك اختلاف في المذهب مع تبادل الاحترام ومع التعاون للخير المشترك والنفع العام .

ويقول الراوندي (٢) معللاً ولاء السلاجقة للخلفاء العباسيين مايلي :
أثّرت بدَاوة السلاجقة في تعصبهم الشديد للإسلام بعد اعتناقهم له ، كما أثّرت في ميلهم المفرط الى أهل السنة والجماعة بعد اعتناقهم المذهب السني ، ومن هنا ظهر تصرّفهم تجاه الخلفاء فكانوا يظهرون لهم الولاء
ويدينون لهم بالطاعة والاحترام وبسبب تعصب السلاجقة لمذهب أهل السنة طال صراعهم مع الحشاشين (الاسماعيلية) الذين كانوا من غلاة الشيعة .

العاصمة الدينية والعاصمة السياسية :

في خلال العهد السلجوقي استعادت بغداد بعض مكانتها فأصبحت العاصمة الروحية حيث يعيش الخليفة متمتعاً بسلطاته الدينية ، أما السلطة السياسية فكانت في عاصمة السلاجقة ، نيسابور أولاً ثم الري بعد

(١) عماد الدين الاصفهاني : تاريخ آل سلجوق ص ١٥ ، ١٧ وابن خلكان

ج ١ ص ٦١ - ٦٢ .

(٢) راحة الصدور ص ٩٨ نقلاً عن سلاجقة ايران والعراق ص ٢١ .

ذلك (١) . ولعل انفراد الخليفة ببغداد مع اجلال السلاطين واحترامهم له هياً له صورة من النفوذ ، وأعاد له ما كان قد فقد من هيبة وجلال .

فتح آسيا الصغرى ونتائجه :

لم يتقدم الفتح الاسلامى فى آسيا الصغرى طيلة العهود التى سبقت السلاجقة واكتفى المسلمون من جانب والبيزنطيون من جانب آخر ، بغارات لم يقصد بها الاقامة بقدر ما يقصد بها التخويف أو الاستيلاء على الغنائم والأمتعة ، ولكن السلاجقة دخلوا فى آسيا الصغرى معارك كان يقصد بها القضاء على البيزنطيين فى تلك البقاع وطرد سلطان الروم نهائيا ، وقد نجح السلاجقة فى ذلك فأوقعوا سنة ٤٦٤ هـ - ١٠٧١ م هزائم حاسمة بالجيوش البيزنطية ، واستولوا فى أثرها على معظم آسيا الصغرى التى لم يتح للعرب فتحها قط ، وجعلوها مقراً لنزول الأتراك فيها (٢) .

ومن المعارك التاريخية المهمة التى حدثت فى آسيا الصغرى معركة « ملاذكرد » وقد ألقى فيها الامبراطور الرومانى رومانوس ديوجينيس بقواته وبأخلاط من العسكر المسيحى الذى استتجد به ليقف فى وجه زحف السلاجقة بقيادة ألب أرسلان ، وقد حاول السلاجقة - استعظاما لجيش الروم - عقد صلح مع الامبراطور الرومانى ، ولكن الامبراطور رفض هذا العرض مدعيا أن الصلح سيتم فى الرى عاصمة السلاجقة .

وهذا الموقف دفع السلاجقة للاستماتة فى المعركة ، والى خوضها بإصرار وعناد لا كمهاجمين فقط بل كمدافعين عن أرضهم وأهلهم الذين هددهم الامبراطور بالتدمير والأسر ، ونجح السلاجقة فى هذه المعركة نجاحا ضخما فمزقوا شمل جيش الروم ، وفرشوا أرض المعركة بالضحايا ، وأسروا الامبراطور نفسه ، وتم صلح اعترف فيه رومانوس بما

(١) كانت اصفهان كذلك عاصمة لبعض سلاطين السلاجقة وكذلك مرو .

Kirk : A short history of the middle East p. 67.

(٢)

فتحه المسلمون من اجزاء آسيا الصغرى ، وتعهد بدفع جزية سنوية للمسلمين

وتعد هذه المعركة نقطة تحول في التاريخ الاسلامى بصفة عامة وتاريخ غربى آسيا بصفة خاصة لانها يسرت القضاء على نفوذ الروم في أكثر أجزاء آسيا الصغرى ، وفتحت الطريق لزحف جديد (١) .

وقد كان هذا التصرف مثيرا لأوروبا ، فكان من العوامل التى أدت للحروب الصليبية ، كما أن الأتراك العثمانيين كانوا ضمن الطوائف التى اشتركت فى المعارك ضد الروم ، وقد سمح لهم السلاجقة بالاستقرار فى بعض ما فتحه المسلمون فى آسيا الصغرى مما كان نواة لتكوين الامبراطورية العثمانية فيما بعد ، وبفتح آسيا الصغرى كان سلطان السلاجقة يمتد من بلاد ما وراء النهر الى البحر المتوسط ، وأصبحت البلاد الآسيوية الإسلامية كلها تحت حكم شخص واحد ، وكان امتداد هذه السلطة قد وصل مداه .

وقتلَ ألب أرسلان وهو فى قمة النصر ، وكان قتله على يد أسير من أسراه وهو يوسف الخوارزمى الذى حارب بجسارة ليدافع عن بلاده خوارزم عند زحف ألب أرسلان عليها ، ولما وقع يوسف فى الأسر أهانه ألب أرسلان فرد عليه يوسف ردًا غليظا غير مهتم بالأسر ونتائجه ، فحكم عليه ألب أرسلان بالاعدام ، وقرر أن يضربه بنفسه ، وحين وقف ليتلقى الضربة فاجأ الحاضرين بالانقضاض على ألب أرسلان وطعنه طعنة قاتلة ثم قتلَ بعدها ، وعندما كان ألب أرسلان فى اللحظات الاخيرة من عمره قال : **بالأمس كانت الأرض تهتز من تحتى بسبب ضخامة جيشى وكثرة جندى ، وكنت أقول لنفسى : أنا ملك العالم ، ولهذا أسقطنى الله القوى العظيم بيد واحد منفرد من أضعف خلقه ، فانا التمسى المغفرة منه وأندم على تفكيرى** (٢) وسرى فيما بعد ماذا حدث بعد اغتيال ألب أرسلان .

(١) Muir : The Roman Empire Val 3 p. 217.

(٢) إيران : ماضيها وحاضرها ص ٦٠ من الترجمة العربية .

وزراء السلاجقة :

في العهد السلجوقي أصبح هناك وزراء للخلفاء ، ووزراء لسلطين السلاجقة بعكس ما كان عليه الحال في عهد البويهيين اذ لم يكن هناك وزراء للخلفاء ، وكان وزراء سلطين السلاجقة الأول من طبقة عالية جدا جعلت مقاليد الامور في أيديهم أكثر مما كانت في أيدي السلطين ، وقد انحدر نفوذ هؤلاء الوزراء الى أبنائهم فأحفادهم ، وهذا النوع من الوزراء جعل السلطين قليلي الخبرة في شئون السياسة والدواوين ، ومن ثم كان لزاما عليهم أن يعتمدوا على الوزراء في حمل هذه الأعباء ، وقد استتبع هذا أن نعلم وزراء السلاجقة بنفوذ كبير وكان الوزير السلجوقي يلقب « خواجه بزرگ » أي السيد الاعظم ، وله الاشراف على جميع الدواوين •

وقد تولى وزارة السلاجقة مجموعة من الرجال الافذاذ ، ويوضع في قمتهم الوزير الايراني الشهير نظام الملك وسبع من أولاده وأحفاده ، ومن وزراء السلاجقة من غير أسرة نظام الملك نذكر الآتية أسماءهم :
تاج الدين أبو الغنائم وزيراً لألب أرسلان بعد اغتيال نظام الملك
على بن الحسن الطغرثائي وزير السلطان سنجر

سعد بن على بن عيسى وزير السلطان سنجر أيضا
شرف الدين القاشاني وزير السلطان محمود بالعراق
الاستاذ الطغرثائي وزير السلطان مسعود بن محمد بالعراق (١)

ونعود لنظام الملك لنذكر لمحة عنه (٢) ، فالكلام عن السلاجقة لا يتم دون تخصيص فراغ لنظام الملك ، فقد تمت سلطنة ألب أرسلان بعون نظام الملك وتأييده ، فقد كان طغرل بك قد أوصى بالأمر بعده لسليمان بن داود أخى ألب أرسلان لأبيه ، ولم يكن ذلك لكفاءة سليمان بل لأن أمه

(١) انظر وزراء السلاجقة في « معجم الانساب والاسرات الحاكمة »
لزامبورج ٤ ص ٣٣٨ - ٣٤٠ .
(٢) أوردت ترجمة وافية لنظام الملك في كتابي « التربية الاسلامية » .

كانت حظية عنده فتبع هواها في ولدها ، ولكن ألب أرسلان صارعه
بمعوونة نظام الملك وانتصر عليه ، وصحب نظام الملك السلطان ألب
أرسلان في معظم حروبه ، كما غزا مع الأمير الشاب ملكشاه عدة غزوات
استوليا فيها على كثير من حاميات الأعداء وحصونهم ، وقاد وحده
الجيوش عدة مرات وخاض بها معارك كسب له فيها النصر (١) .

ولما اغتيل ألب أرسلان ازدحم أولاده على الملك ، ومرة أخرى لعب
نظام الملك دورا هاما حتى وطد الملك لملكشاه ، وخاض في سبيل ذلك
كثيرا من المعارك ، ولذلك رد ملكشاه كل الامور اليه وقال له : أنت
الوالد . وحلف له ، ولقبه أتابك ، وأقطعه اقطاعا زائدا ، وخلا ملكشاه
لشبابه وملاذاته (٢)

ولم يكن نظام الملك سياسيا فقط ، بل كان قائدا عسكريا ، وكان
فيلسوفنا وعالما ، واسع الثقافة يحب العلماء ويقربهم ، وهو منشيء
المدارس النظامية ، وهى من أقدم الجامعات في العالم ، وهو مؤلف كتاب
« سياسة نامه » حيث رسم فيه الطريق لادارة شئون الولايات بما يكفل
نجاح الحكام وصلاح الرعية .

ويدل على مكانة نظام الملك ، ذلك الموقف الذى وقفه عندما أحس
بتغير ملكشاه عليه ونقده لسياسته ويروى لنا عماد الدين الاصفهاني (٣)
وابن الاثير (٤) هذا الموقف الذى نستطيع تلخيصه فيما يلى :

نُسِبَ تصرف خاطيء لأحد أحفاد نظام الملك ، فغضب لذلك ملكشاه
وأرسل يقول للوزير : ان كنت شريكى فى الملك ويدك مع يدى فى السلطة
فلذلك حكم ، وان كنت نائبي فيجب أن تلتزم حد التبعية والنيابة ...

-
- (١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ج ١٠ ص ٢٥ .
(٢) السبكي : طبقات الشافعية ج ٤ ص ١٣٩ وابن خلكان ج ١ ص ٢٠٢ .
(٣) تاريخ آل سلجوق ص ٥٧ — ٥٨ .
(٤) الكامل فى التاريخ ج ١٠ ص ١٣٨ .

فأجاب الوزير : قولوا له ان كنت ما علمت أنى شريكك فى الملك فاعلم
فإنك ما نلت هذا الأمر إلا بتدبيرى ورأى ٠٠٠٠ وإن ثبات تلك القلنسوة
(التاج) مرتبط بهذه الدواة ، ومتى أطبقت هذه زالت تلك (١) .

فروع السلاجقة :

قسم السلاجقة دولتهم منذ إنشائها إلى أقاليم ، وعيّنوا على كل
إقليم منها حاكما من أفراد البيت السلجوقى ، كانوا يطلقون عليه لقب
(شاه) أى ملك ، ثم اختاروا رئيسا على الدولة جميعها أطلقوا عليه
لقب (السلطان) كان بمثابة ملك الملوك ، يخضع لنفوذه حكام الأقاليم ،
وتنفذ كلمته فى جميع أنحاء الدولة .

وقد اتّبع السلاجقة هذا النظام منذ عهد طغرل بك ، وكان حاكم
كل إقليم مستقل بشئون إقليمه الداخلية ، كما كان له الحق فى فتح
ما يستطيع من المناطق المجاورة ، وضمها إلى حوزته ، وكانت سيطرة
السلطين شاملة على مختلف الأقاليم ، فى إبان قوة الدولة ، فلما ضعفت
الدولة فقد السلطين هذه السيطرة وأصبح حكام الأقاليم مستقلين
تماما فى جميع شئونهم (٢) .

وقد وضع هذا النظام بذور الانقسام الذى آلت له الدولة
السلجوقية ، ونشأ عن هذا الانقسام خمس فرق هم السلاجقة العظام ،
وسلاجقة كرمان ، وسلاجقة العراق وكردستان ، وسلاجقة سوريا
وسلاجقة الروم ، ومن الواضح أن بعضها تفرّعت عن السلاجقة العظام
كسلاجقة العراق ، وبعضها كان فى مناطق فتحت حديثا كسلاجقة الروم .

ومن أبرز سلطين السلاجقة طغرل بك مؤسس الدولة (توفى سنة
٤٥٥) وابن أخيه ألب أرسلان (توفى سنة ٤٦٥) ومكشاه بن ألب أرسلان
(توفى سنة ٤٨٥) وهم من السلاجقة العظام ، وعلى الرغم من بعض

(١) انظر كذلك المنتظم لابن الجوزى ج ٩ ص ٦٧ .

(٢) الدكتور عبد المنعم حسنين : سلاجقة ايران والعراق ١٦١ — ١٦٢ .

حركات الانحلال التي هبت خلال عهودهم فقد كانوا أقوى من هذه الحركات واستطاعوا أن يقضوا عليها ، ويحتفظوا بسلطانهم على جميع الولايات السلجوقية .

تدهور السلاجقة :

تجمعت عوامل متعددة على إضعاف السلاجقة ، بعضها خارجي وبعضها داخلي فالعوامل الخارجية تتمثل في الحروب الصليبية ، وقد أوردنا لها دراسة مستقلة في الجزء الخامس من هذه الموسوعة ، ومن العوامل الداخلية ثورة الاسماعيلية ممثلة في الحشاشين ، (قضى هولاكو على الحشاشين كما سنرى عند الحديث عن هولاكو) ومنها الانقسامات الداخلية التي كانت نتيجة طبيعية لاتساع ملك السلاجقة وبخاصة في عهد المواصلات البطيئة ، كما كانت نتيجة طبيعية لحياة السلاجقة القبلية ، ومن العوامل الداخلية كذلك تمرّد بعض الحكام الذين كانوا عبيداً لسلطين السلاجقة وولاء من قبلهم ثم تمرّدوا عليهم وأعلنوا استقلالهم ، وذلك كشاهات خوارزم وشاهات الغور ، على أن أهم عوامل الانحلال الداخلي تتمثل في قيام امارات الاتابك ، وفيما يلي كلمة عن قيام هذه الإمارات :

كانت نواة هذه الامارات تلك الاقطاعات التي أقطعها الوزير نظام الملك للقادة والمبرزين في الدولة بدل رواتبهم ، ويحدثنا عنها عماد الدين الاصفهاني (١) ، فيقول :

وكانت العادة جارية بجباية الأموال من البلاد ، وصرفها إلى الأجناد ، ولم يكن لأحد من إقطاع ، فرأى نظام الملك أن الأموال لا تحصّل من البلاد لاختلالها ، ولا يصح منها ارتفاع لاعتلالها ففرّقها على الأجناد إقطاعاً ، وجعلها لهم حصلاً وارتفاعاً .

ولم يكن في هذه الاقطاعات خطر على تماسك الدولة إبان قوتها

(١) تاريخ آل سلجوق ص ٥٥ .

فلما بدأ ضعفها ، عمد كل مالك إلى إقطاعه وعاش فيه سيدا وأميرا واستقل عن السلاجقة ، ومن هذه أتابكية دمشق ، وأتابكية الموصل وأتابكية الجزيرة وغيرها ، وقد استغل بعض الأتابك أفرادا من البيت السلجوقي ، وحركوهم كالدغمى وراح الأتابك باسم أمراء السلاجقة ينشرون سلطانهم ويوسعون نفوذهم (١) .

نهاية السلاجقة وظهور من خلفهم :

يقول : Wilber (٢) : عجز خلفاء ملكشاه عن الاحتفاظ بتماسك الدولة ، ولذلك سرعان ما فقدوا سوريا وآسيا الصغرى وحل محلهم فيها آل زنكي في الشام ، وملوك الطوائف ثم العثمانيون في آسيا الصغرى ، ثم كانت هزيمة سنجر بن ألب أرسلان أمام الأتراك الغز الوافدين من أقصى الصين سنة ٥٣٦ هـ فوضعت هذه الهزيمة نهاية لحكم السلاجقة في بلاد ما رواء النهر ، وسقط سنجر أسيرا في يد أعدائه ، وقد استطاع أن يفلت من الأسر ، ولكنه عندما عاد لبلاداه وجدها في أسوأ حال فمات كمدا ، وكان سنجر يُعرف بالسلطان العادل ، ولكن حظه كان عاثرا ، وعقب وفاة سنجر استولى شاهات الخوارزمية على أراضي الدولة السلجوقية بسرعة ، وكان أتسز أول سلاطين الدولة الخوارزمية ، وقد حكم فيما بين ٥٢٣ ، ٥٥١ هـ وكان في الأصل حاكما على خوارزم من قبل السلاجقة ، ولكنه تدرج الى الاستقلال فالفزو ، وقد بسط ابن حفيده السلطان محمد (٥٩٧ — ٦١٧) نفوذه وسطوته على ايران كلها ، وكان على وشك التقدم لبغداد لولا ظهور المغول ، ولكن سلطان السلاجقة كان قد انتهى من العراق واستبد الخليفة الناصر بالأمر بعد سقوط السلاجقة في ايران .

العمارة في العهد السلجوقي :

ان بداوة السلاجقة جعلتهم ينشغلون بالمباني الفخمة والنقوش الجميلة واللوحات المزخرفة ، فقد كانت مثل هذه الأشياء تبهر أنظارهم

(١) تاريخ آل سلجوق من ١٨٧ .

(٢) ايران : ماضيها وحاضرها من ٦١ — ٦٢ من الترجمة العربية .

وترضى أذواقهم ، وتشهد ما في نفوسهم من فراغ ، وقد أثر هذا في
الفنون فراجت رواجاً ملحوظاً في عصرهم فارتقت فنون النقش والتصوير
والصناعة والمعمار ^(١) ، واشتهر أن السلاجقة يعشقون الفنون الجميلة
ويرعونها ، وأن سلاطينهم يحمون الفنون ويشجعون عليها ^(٢) .

ومباني السلاجقة بأصفهان كانت خير دليل على عنايتهم بالعمارة ،
فقد شيّدوا فيها أبنية شاهقة ، ورفعوا العمارات الضخمة ، ويروى أن ألب
أرسلان كان إذا أمر ببناء أوعز أن يكون أسمى بنيان وأشرفه وكان ،
يقول : آثارنا هذه ستبقى بعدنا لتدل على علو هممتنا وموفور نعمتنا ^(٣) .

ويذكر Barthold أن فترة حكم ألب أرسلان امتازت بالتقدم
المعماري الهائل ، فقد أعاد تشييد قلعة بخارى وسور المدينة ، وبنى في
سمرقند مسجداً واسعاً وقصرين عظيمين تحوّل أحدهما بعد ذلك إلى
مدرسة ، كما أنه أكثر من المساجد والمنائر في المدن والقرى ^(٤) .

وأنشأ ملكشاه الذي تولى الحكم بعد ألب أرسلان المرصد الضخم
الذي اشتمل فيه عمر الخيام وغيره من العلماء لدراسة الفلك والتقويم ،
وزين ملكشاه عاصمة أصفهان بعدد من المباني الجميلة والحدائق ^(٥) .

النهضة الفكرية في عهد السلاجقة :

شهد العصر السلجوقي نهضة فكرية واسعة ، وضع أساسها نظام
الملك ^(٦) وزير ألب أرسلان وملكشاه ، فقد أنشأ هذا الوزير العالم ،
شبكة من المدارس التي أخذت اسمها من اسمه ، تسميت النظامية ،

(١) كريستى ويلسون : تاريخ صنایع ایران (ترجمة تریاد) نقلا عن
سلاجقة ایران والعراق .

(٢) M. S. Deland : A Hand book of Mohammadan's Art p. 113. (٢)

(٣) عماد الدين الأصفهاني : تاريخ آل سلجوق ص ٤٥ .

(٤) Turkeston down to the Mongal Invasion p. 319. (٤)

(٥) Wilber : ایران ماضيها وحاضرها ص ٦٠ .

(٦) اقرا ترجمة له في ابن خلکان ج ١ ص ١٤٢ — ١٤٤ .

وكانت في البلاد الآتية : بغداد — بلخ — نيسابور — هرات — أصفهان — البصرة — مرو — أمل — الموصل ^(١) ويقول السبكي انه كان لنظام الملك في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة ^(٢) .

وبالإضافة إلى ذلك رعى نظام الملك عباقرة عصره أمثال الغزالي الذي اشتهر في محيط العلوم الإسلامية والتصوف ، وكان من ألمع مدرسي النظامية ، وعمر الخيام الذي اشتهر في الدراسات الطبيعية والرياضية والتنجيم وعرف في أوروبا برباعياته ^(٣) .

وأعظم شعراء الصوفية في هذا العصر هو فريد الدين العطار ومن مؤلفاته الشهيرة « تذكرة الأولياء » وهي تاريخ للأولياء والمتصوفة ، ومنها كتاب « منطق الطير » وهو كتاب يصور الأرواح كأنها طيور تبحث عن الخالق الأعظم .

ومن أهم آثار هذا العصر ما كتبه نظامي الكنجوي وتعرف مؤلفاته بناسم « الخمسة » وتشمل المنظومات الرومانتيكية الأربعة هي :

- ١ — خسر وشيرين .
 - ٢ — ليلي والمجنون .
 - ٣ — العرائس السبع وحكاياتها مع بهرام كور .
 - ٤ — كتاب الاسكندر (اسكندرنامه) ويحوى القصص الخرافية المتعلقة بالاسكندر الأكبر .
- وأما المؤلف الخامس فهو « مخزن الأسرار » وهو منظومة صوفية .

(١) عن المدارس النظامية : اقرا كتاب التربية الإسلامية للمؤلف .
(٢) طبقات الشافعية ج ٣ ص ١٣٧ .
(٣) اقرا ما ورد عن الغزالي وعمر الخيام بكتاب « الفكر الإسلامى : منابعه وآثاره » للمؤلف .

ومن الشخصيات البارزة في المجال التاريخي في هذا العصر « ناصر خسرو » وكان شاعراً رحالة زار مصر في عصر المستنصر الفاطمي وأنه كتاب مشهور هو سفرنامه وبه وصف مشاهداته خلال رحلاته . ويمتاز عصر السلطان سنجر بنهضة علمية وأدبية رائعة ، وقد تم خلال هذا العصر تأليف عدد من أمهات الكتب العربية التي أخرجتها إيران ، وقد عاش خلال عهد سنجر عدد من كبار شعراء إيران ، ومن أهم المؤلفات المنشورة في هذا العصر ترجمة كتاب كلیلة ودمنة ، ويعتبر الامام انغزالي من أشهر كتاب العربية في هذا العصر ، ومن أهم الشخصيات التي ارتبطت بهذا العصر الكاتب المتصوف القشيري والحريري كاتب المقامات والزمخشري والميداني جامع الأمثال ، والشهرستاني مؤلف المال والنحل (١) .

(١) براون : تاريخ الأدب في إيران ص ٤٥٨ وما بعدها .

الخوارزمية

٥٨٢ — ٦٢٨ هـ

قلنا آنفا ونحن نتكلم عن « نهاية السلاجقة وظهور من خلفهم » انه بعد وفاة سنجر استولى شاهات الخوارزمية على أراضي الدولة السلجوقية في خوارزم بسرعة وكان اتسز أول سلاطين الدولة الخوارزمية ٠٠٠٠٠٠٠٠ وقد بسط ابن حفيده السلطان محمد (٥٩٧ — ٦١٧ هـ) نفوذه وسطوته على إيران كلها ، ولكن حكمه لإيران كان قصير العمر ، فقد داهم المغول بلاده ، ففر أمامهم ، وتوفي بائسا في إحدى الجزر سنة ٦١٧ هـ ولم يستطع أولاده استعادة سلطان الأسرة ، فالزحف المغولي كان أعظم من أن يصمد له هؤلاء الأولاد فانهمز علاء الدين منكبرتي سنة ٦٢٨ هـ وآل حكم إيران الى المغول .

تلك كلمة قصيرة عن الخوارزمية ، وهناك حديث أكثر تفصيلا عن هذه الأسرة سبق أن أوردناه في الجزء السابع من هذه الموسوعة ، وشاهات الخوارزمية هم :

٤٧٠ — ٤٩١	تقريبا	انوشتكين
٤٩١ — ٥٢٢		قطب الدين محمد
٥٢٢ — ٥٥١	؟؟	آتسز
٥٦٨ — ٥٦٨	(عزل وتوفي سنة ٥٨٩)	سلطان شاه محمود
٥٦٨ — ٥٩٦		علاء الدين تكش
		قطب الدين محمد (أخذ فيما بعد لقب أبيه
٥٩٦ — ٦١٧		علاء الدين)
٦١٧ — ٦٢٨		جلال الدين منكبرتي
		ثم جاء المغول

مشاهير وقمم فارسية :

قبل أن نتحدث عن المغول ، وما جلبوه من خراب ودمار للمناطق التي احتلوها ، يجدر بنا أن نقدم بعض الأسماء اللامعة التي اشتهرت في ميادين الفكر في القرون التي سبقت المغول ولعلنا ذكرنا بعضهم فيما سبق ، ولكننا نجتمع هنا كطاقة الزهر عندما تجتمع في وعاء واحد . فمن هؤلاء :

من الفقهاء : مجاهد وطاووس وقتادة وابن سيرين والطبري وأبو حنيفة النعمان وأحمد بن حنبل .

ومن المحدثين : البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه والنسائي .

ومن علماء اللغة : سيبويه والكسائي والزمخشري والفيروزابادي والتهالبي .

ومن الفلاسفة : ابن سينا والفارابي والغزالي والسهروردي والرازي

ومن الأدباء : بشار وأبو نواس وأبو العتاهية ومهيار وابن العميد والخوارزمي وأبو الفرج الأصفهاني .

ومن المؤرخين : ابن مسكويه والمسعودي والبيروني والبلاذري واليعقوبي وأبو حيان التوحيدى وأبو منصور الثعالبي والاصطخري ، وناصر و خسرو .

ومن أشهر الشعراء الذين ظهروا قبل المغول عمر الخيام (توفي سنة ٥١٧ هـ = ١١٢٣ م) وكان عمر الخيام رياضيا فلكيا بالإضافة إلى

ما اشتهر به من شعره الصوفي الذي استهدف فيه الحقيقة البشرية ،
والنفس الانسانية بكل خصائصها ومتناقضاتها ، ومن أجل هذا غلبت على
شعره الحكمة ، وكان شعره من الرباعيات غالبا ، فيه فلسفة وغزل صوفي .
وقد اشتهر شعره وموقفه في الرياضة والفلك شهرة واسعة في العالم
الاسلامى .

وعمر الخيام والقشيري ينتسبان إلى نيسابور^(١)

ومن الملاحظ أن أكثر هؤلاء أو كلهم عاشوا في بيئة عربية إسلامية
ونبغوا في ظلها وبتشجيع الخلفاء المسلمين في وقت لم تكن هناك
جنسيات مميزة في الدولة الإسلامية ، ولكننا لا ننكر أن العنصر كان له أثر
في استجابة هؤلاء للفكر الاسلامى ونبوغهم في معارفه ، وقد ظهر
نظائر لهم في الشام وفي مصر والمغرب واسبانيا ، وكانوا جميعا نبتا
إسلاميا في أرض إسلامية .

(١) القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ص ٤٧٦ .

المغول

٦١٧ - ٧٨٢ هـ = ١٢٢٠ - ١٢٨٠ م

في الصين وروسيا وشرق أوروبا وما وراء النهر وشرقي إيران (١).

تحدثنا عن المغول في الجزء السابع من هذه الموسوعة ، ولكننا نعود هنا للحديث عنهم لنعطى مزيدا من التفاصيل عن حياتهم بإيران :

ولد تيموجين حوالي سنة ٥٤٩ هـ ونشأته غامضة ككل العصامين ، وكان قومه من القبائل البدوية التي تسير باحثة عن الماء والعشب والصيد ، في مناطق منغوليا .

وكان غذاؤهم يتكون من اللحم ولبن الخيل ، ومساكنهم من الخيام ، واستطاع أبوه « يسخوكاي » أن يقوى سلطان قبيلته ، وأن ينال لها الاستقلال الذاتي مع الاعتراف بسلطة الحكومة الصينية .

وورث تيموجين عن أبيه السلطة على قبيلته ، وأخذ دون تردد يدعم وجوده في الداخل والخارج ، فأعدّ لنفسه جيشا أكسبه النصر في عدة مواقع ، فهيأه ذلك إلى توسيع نفوذه والسيطرة على قبائل أخرى رأت فيه القائد الذي يلجأ إليه وتعتمد عليه ، ثم جمع مجلس القبائل ليعلن رئيس المجلس أن السماء قد أضفت على تيموجين اسماً جديداً هو « جنكيزخان » أي ملك الملوك ، واستطاع جنكيزخان أن يحقق الفتوحات الآتية : -

- الاستيلاء على بلاد خوارزم وبلاد ما وراء النهر .
- الاستيلاء على خراسان وأجزاء من بلاد فارس والهند .
- الاستيلاء على جزء كبير من أراضي روسيا الجنوبية .

(١) سنتحدث فيما بعد عن امتدادات سلطان المغول الى العراق والشام .

(م ٨ - الموسوعة التاريخية)

وتوفي جنكيزخان سنة ٦٢٤ هـ بعد أن سيطر المغول على أرض تمتد من البحر الأصفر الى البحر الاسود وكانت تضم بلادا وقبائل تنتمى الى الصين والأفغان وايران والترك .

وقسمت الدولة بين أبناء جنكيزخان على الوضع الآتى تقريبا :

كان « توجى خان » الابن الأكبر لجنكيزخان قد مات فى حياة أبيه ، فأعطى لابنه « باتوخان » مملكة التتر الشمالية التى كان يحكمها أبوه بما فى ذلك الأقاليم الواقعة بين بحر آرال والخزر وعند وادى الدون والبحر الأسود ، وهذه الشعبة هى التى فتحت روسيا وبولندا والمجر ووصلت الى البحر الادرياتي وأبواب فينا .

وأما « أوكتاى » وهو الابن الأصغر لجنكيزخان فقد جعلت له القيادة العامة واختير ليكون القائد الأعظم .

وأما « جغتاي » وهو الابن الثانى لجنكيزخان — فقد صارت له بلاد ما وراء النهر وخوارزم وخراسان والتركستان ، وكان جغتاي فقيه المغول ، وصاحب القدرة على فهم دستورهم « الياسا » ولذلك منع من خوض الحروب حرصا عليه ، وعين رئيس مجلس الأمراء .

وقد توفى الأخوان اوكتاى وجغتاي سنة ١٢٤١ م ، وكان ابن أخيهما آنذاك يتوغل فى أوروبا ، وبعد وفاة الأخوين حدث صراع بين أمراء الجيل الثانى من المغول فأعطى ذلك الصراع فرصة للبلاد الاسلامية ولأوروبا أن تتنفس الصعداء .

بقى « تولوى خان » ابن جنكيزخان وكانت له خاقانية الصين وإيلخانية ايران ، وتلك الشعبة هى التى تهمنا هنا لأن منها هولاءكو وهو أحد أبناء أربعة لتولوى خان الذى سار إلى الغرب وقضى على الخلافة العباسية .

هولاكو وخلفاؤه

في إيران والعراق ٦٥٢ — ٧٤٤ هـ

كانت سلطة المغول قد وصلت من الجهة الغربية الى البحر الأسود كما ذكرنا آنفا ، ضامةً في هذه الجهة الجزء الشرقي من إيران وقد ورث هولاكو عن أبيه الجزء الغربي من إمبراطورية المغول ، وكتب له أخوه الخان الأكبر « منكوقا آن » نصيحة طويلة أوردتها رشيد الدين مؤرخ المغول وخلصتها هي :

إنك الآن على رأس جيش كبير وقوات لا حصر لها ، فينبغي أن تسير إلى إيران ، وحافظ على تقاليد جنكيزخان وتعاليمه ، وخص من يطيع أمرك من جيحون حتى مصر بلطفك وإنعامك ، أما من يعصيك فأغرقه في الذلة والدم هو وآله ، وتوجه الى العراق ، وأزل من طريقك كل عقبة ، وإذا بادر الخليفة بتقديم فروض الطاعة فلا تتعرض له ، أما إذا تكبر وعصى فألحقه بالآخرين .. (١) .

وقاد هولاكو جيشا هائلا لينفذ رغبة منكوقا آن ، وبدأت القلاع والإمارات تسقط تحت سلطانه ، وبخاصة القلاع الاسماعيلية العتيقة ، ثم زحف الى بغداد سنة ٦٥٥ هـ ، وقبل أن يصلها كتب للخليفة يقول : لقد أرسلنا اليك ونحن نتأهب لفتح قلاع الملاحدة نطلب مددا من الجند ولكنك أظهرت الطاعة ولم تبعث الجند ودارت الأحداث ذكرناها في الجزء السابع من هذه الموسوعة ، وقد دونها رشيد الدين مفصلة في صفحات كثيرة ، وانتهت بأن أعدم الخليفة وآله ودمرت بغداد ونهب كل ما كان بها (٢)

(١) جامع التواريخ المجلد الثاني ج ١ ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

(٢) جامع التواريخ المجلد الثاني ج ١ ص ٢٦٧ — ٢٩٤ .

ومن العراق زحف هولاكو الى الشام فدمر وسلب ، وأباح « حلب »
سبعة أيام وقتل خلقاً كثيرين .

ثم التقى المغول بالمصريين في عين جالوت بفلسطين فهزّم المغول
هزيمة قاصمة ، وكان هذا أول كبج لجناح القوات المغولية (١) .

ويورد رشيد الدين مؤرخ المغول نص المناقشات التي أدارها قطز
مع قواده وكيف أنهم انتهوا الى قرار الحرب - لأن المغول يدمرون من
استسلم لهم ، ولا يمكن مغادرة البلاد أو التقصير في الدفاع عن العالم
الاسلامى وقال قطز ان المغول يحققون النصر بالكر والخداع لا بالقوة
والشهادة والفروسية وقضى المصريون على جيش المغول كله بين
قتيل وأسير ، وقتلوا قائده ويذكر رشيد الدين أن انهزام المغول
أمام المصريين قد تكرر ، فقد هزم المغول هزيمة منكرة أخرى أمام
البندقدار حتى لم يَنْجُ من جيوشهم الجرارة الا عدد قليل ، وكان ذلك
سنة ٦٧٤ هـ ، وفي سنة ٦٨٠ هـ أوقع المصريون بالمغول هزيمة يقول
عنها رشيد الدين ، لقد تقهقر أمراء المغول وارتاع القادة وولوا الأدبار ،
فنهزم الجنود ، وهلك من جيش المغول خلق كثير ولم يجد المغول
وسيلة لتخفيف آثار هذه الهزائم إلا أن ادّعوا أن الرسول صلوات
الله عليه قد أعطى سيفه الى قائد جيش مصر ، وكان سيفه يُنْقَل
من قائد إلى قائد ليكون الأسيف مع من يقود المعارك ضد المغول (٢) .

وكان هذا السيف البتّار سبب الانتصار الذي لا يتخلف .

وانسحب المغول بعد أن يؤسوا من مصر ، واستقروا في العراق
وأيران ، واتخذ هولاكو لقب « ايل خان » أى تابع الخان وهو اللقب

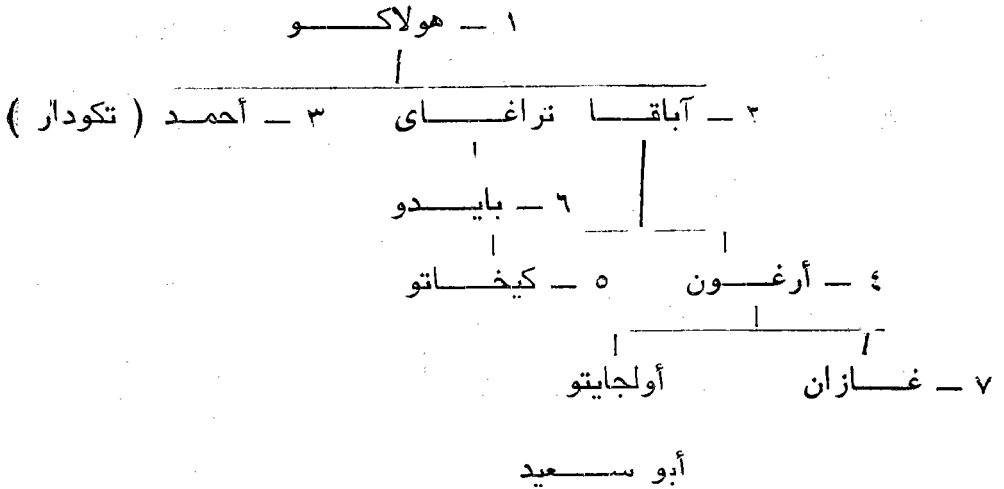
(١) Wilber : ايران : ماضيها وحاضرها ص ٦٦ من الترجمة العربية .

(٢) جامع التواريخ المجلد الثانى ج ٢ ص ٦٢ و ٦٤ و ٨٣ .

الذى عرفت به هذه الدولة اذ سميت « دولة الايلخانيين » وحكام
الايلخانيين هم : —

هـ ٦٥٤ — ٦٦٣ هـ	هولاكو
هـ ٦٦٣ — ٦٨٠ هـ	آباقا
هـ ٦٨٠ — ٦٨٣ هـ	أحمد تكودار بن هولاكو
هـ ٦٨٣ — ٦٩٠ هـ	أرغون بن آباقا
هـ ٦٩٠ — ٦٩٤ هـ	كيخاتو (تورجى) بن آباقا
هـ ٦٩٤ — ٦٩٤ هـ	بايدو بن آباقا
هـ ٦٩٤ — ٧٠٣ هـ	غازان محمود بن أرغون
هـ ٧٠٣ — ٧١٦ هـ	أولجايتو خدابنده بن أرغون
هـ ٧١٦ — ٧٣٦ هـ	أبو سعيد بهادر بن أولجايتو

ثم قامت منافسات بين أحفاد هولاكو حتى سقطت هذه الأسرة
سنة ٧٤٤ هـ .



ملاحع عصر هولاءو وخلفائه

كان عصر هولاءو وخلفه عصرأ حافلا بالاتجاهات والنزعات والإنشاءات ، وبين أيدينا أدق مرجع عن هذا العصر ، ذلك هو « جامع التواريخ » الذي ألفه رشيد الدين فضل الله الهمداني ووزير غازان ابن حفيد هولاءو ، والمطلع على هذا الكتاب يثنى ثناء عاطرا على المؤلف لدقته وعدم تحيزه ، فقد وصف حياة هولاءو وصفا شاملا دقيقا ، وأثبت ما له وما عليه ، وأثنى على جلد المصريين وقدرتهم في عين جالوت ، ومن هذا الكتاب ومن سواء سنقتبس بضع فقرات بقدر ما يتسع منهاج هذه الموسوعة :

أولا - الحشاشون (الاسماعيلية) ٤٨٣ - ٦٥٤ هـ في قلعة الموت وبلاد الديلم

من أهم الجماعات التي سيطرت على بعض مناطق إيران ونشرت الذعر في كثير من البلاد الاسلامية خلال عهد السلاجقة جماعة « الحشاشين » الذين اشتهروا بالتآمر والغدر والقتل حتى أصبحت الكلمة الانجليزية التي تحمل اسمهم Assassins تعنى الفتكة والسفاكين ويسمى هؤلاء في التاريخ الإسلامي : الباطنية والملاحدة والألموتية ، ويصفهم بعض المفكرين بأنهم تجمعات لعناصر آرية مغلوبة تستهدف « الدس » للعرب والكيد للإسلام حتى تتحقق مآربها (١) .

وزعيم الحشاشين هو الحسن بن الصباح ، وهو في الراجح فارسي من طوس (٢) وان ادعى غير ذلك ، وقد درس في صباه مذهب الباطنية واعتنقه ، وسافر إلى مصر سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨) لزيد من دراسة المذهب

(١) دكتور احمد كمال الدين حلمي : السلاجقة في التاريخ والحضارة

ص ١٧٠ .

(٢) حتى : تاريخ العرب ج ٢ ص ٥٣٦ .

الإسماعيلي ، وعاد سنة ٤٧٣ هـ (١٠٨٠) إلى فارس داعية للفاطميين ، فاستجاب لدعوته كثيرون استطاع بهم أن يستولى سنة ٤٨٣ هـ على قلعة حصينة هي قلعة الموت (عش النسر أو ملجأ العقبان) وهو حصن خطير في أعالي الجبال بالشمال الغربي من بحر قزوين ، وكانت هذه القلعة أحد حصون السلاجقة ، وقد ربح الحسن بن الصباح أتباعه على المذهب الباطني ، واتخذ لنفسه لقب « داعي الدعاة » وجعل أتباعه على درجات ، فالطبقة التي تليه هي طبقة الدعاة ، ويلها طبقة الفدائيين الذين كانوا دائماً على استعداد لتلبية أوامر داعي الدعاة دون أن يسألوا عن سبب الأوامر ، وقد أوقعوا الرعب في قلوب الناس وكانوا يقتلون غدرًا وسراً كل من عاداهم ، كما كانوا يبالغون في فرض الإتاوات على الناس ، وقد زار ماركو بولو سائح البندقية العالمى هذه البقاع في النصف الثاني من القرن الثالث عشر ووصف لنا الوسائل التي كان الحسن بن الصباح يستعملها في التأثير على أتباعه من طبقة الفدائيين ليحملهم على ما يريد ، وفيما يلي موجز لهذا الوصف (١) :

كان لداعي الدعاة بستان عظيم ، به مسابح ماء ، وطيور تغرد ، وزهور عاطرة وغابات كثيفة ، وأمكنة للاستراحة خلابة ، وكان على بابه قلعة عظيمة لا يستطيع أحد أن يتخطاها ، وكان داعي الدعاة يختار من الفدائيين أقواهم وأشدهم بأساً وأمثلهم للطاعة ، ويقدم لهم الخشيش وأقداحاً من الشراب المسكر حتى يناموا ، ثم يأمر بحملهم إلى البستان ووضعهم هناك وهم سكارى ، ويفيق الفدائيون ليجدوا حولهم صنوف البهجة ، وفتيات كالحور العين ، ويظل الفدائيون فترة في هذا النعيم ثم تسقيهم الغيد شراباً ينامون به ، وعندئذ يحملون مرة أخرى إلى قصر داعي الدعاة ، فإذا أفاقوا من نومهم حسبوا ما رأوه

حلمًا ، أو ظنوه زيارة إلى جنة الخلد . وكان داعى الدعاة يذكر لهم أن من أطاع أوامره أو قَتَلَ دونها ، حملته الملائكة إلى جنات النعيم ، التى رأوا بأنفسهم صورة منها .

وبعد قلعة أَلَموت استطاعت هذه الجماعة الاستيلاء على حصون أخرى فى فارس وسورية خلال فترة قصيرة من الزمن ، وأخفقت جميع محاولات الدولة السلجوقية فى القضاء عليهم ، حتى إذا كانت سنة ١٠٩٢ أنفذ الحشاشون حكم الموت فى نظام الملك ، وإن يكن ثمة مجال « للاعتقاد بأن السلطان نفسه كان على علم بالمؤامرة بعد أن تخطى سنّ الرعونة والملاذات ، وضاق ذرعا بنفوذ وزيره المتعاضم وسلطانته المطلق » ^(١) وقد تصدى لهم السلطان سنجر ولكنه فشل فى النيل منهم ، وتوفى الحسن الصباح سنة ٥١٨ هـ وخلفه بوصيته نائبه كيابرزك الذى تسلسل حكم الإسماعيلية فى ذريته ويذكر براون ^(٢) أن الحسن كان غليظ القلب خالفه ولداه فى بعض تعاليم مذهبه فأمر بقتلهما وعيّن أحد أتباعه خليفة له .

ومن الحصون التى استولى عليها الحشاشون فى سوريا حصن مصياد وحصن الكهف ^(٣) ومن أشهر دعائهم فى الشام راشد الدين سنان (المتوفى ١١٩٢) الذى كان مقيما فى مصياد ويلقب بشيخ الجبل ، وقد أبلى الحشاشون بلاء حسنا فى الحروب الصليبية ، ولكنهم حاولوا اغتيال صلاح الدين الأيوبي فرد على هذه المحاولة بأن حاصر قلعة مصياد ، وأوشك على الإيقاع بهم ، ولكن شيخ القلعة قطع على نفسه عهداً لصلاح الدين بالألا يتعرض له أحد من أتباعه ، فارتد عنهم صلاح الدين ، وبقي سلطانهم حتى اشترك فى القضاء عليهم المغول والسلطان بيبرس

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١٣٧ — ١٣٨ .

(٢) تاريخ الأدب فى ايران ص ٥٧٧ .

(٣) انظر ابن الاثير ج ١١ ص ٥٢ .

سلطان مصر والشام ، فاحتل هولاكو معانقلهم في فارس حوالى ١٢٦٠ واحتل السلطان بيبرس حصونهم بسوريا سنة ١٢٧٢ فتشتت شملهم منذ ذلك الحين ، ولا يزال أكثرهم بالهند يعرف الواحد منهم بالخوجة أو المولى ، ويدينون بالولاء إلى أغاخان الهند^(١) وينسبون أنفسهم للطائفة الإسماعيلية التى يرون نسبها ينتهى لإسماعيل بن جعفر الصادق^(٢) .

٥١٨ — ٤٨٣	وقادة الإسماعيلية هم : الحسن الصباح
٥٣٢ — ٥١٨	كيابزرك
٥٥٧ — ٥٣٢	محمد الأول بن كيابزرك
٥٦١ — ٥٥٧	حسن بن محمد الأول
٦٠٧ — ٥٦١	محمد الثانى بن حسن
٦١٨ — ٦٠٧	حسن الثانى بن محمد الثانى
٦٥٣ — ٦١٨	محمد الثالث
٦٥٤ — ٦٥٣	ركن الدين بن محمد الثالث
	ويلقب خورشاه

ثم حل المغول محلهم

ويعطى رشيد الدين الهمداني^(٣) تفاصيل مهمة عن نهاية قلاع الحشاشين بإيران نوجزها فيما يلى : إن الأطباء والعلماء الذين كانوا يعيشون مكرهين فى قلاع الحشاشين من أمثال نصير الدين الطوسى كانوا يدركون ما بهذه القلاع من جور وإلحاد وظلم ، ومن هنا اتجهوا بعواطفهم إلى هولاكو ، وحاولوا أن يحثوا أمير الحشاشين

(١) فيليب حتى : تاريخ العرب ج ٢ ص ٥٣٨ .
 (٢) عن الاسماعيلية ومعتقداتهم اقرأ الجزء الثانى من هذه الموسوعة .
 (٣) جامع التواريخ المجلد الثانى ج ١ ص ٢٥٠ وما بعدها .

بالتسليم مخافة سحق المغول للقلاع ومَنَ بها ، فاستجاب الأمير لنصحهم وأوفد أخاه الأصغر « شاهنشاه » مع طائفة من أعيان مملكته إلى هولاء لإظهار الخضوع والطاعة ، فطلب منهم هولاء أن يُثبِتَ الملك حسن نيته في الخضوع وذلك بتدمير القلاع ، فاستجاب الملك وأحدث ألوانا من التدمير ، ولكنه طلب مهلة عام يغادر بعدها القلعة الرئيسية ، فرفض هولاء هذا الطلب وعلن أن وقت النكبة قد حان ، فنزل الملك من القلعة في الحال ، وتوجه إلى هولاء وقبل الأرض بين يديه ، وترك بذلك هذا الحصن الذي ظلت أسرته تتخذ مقرأ لها مدة قرنين .

وأرسل هولاء بعض أتباعه ليتسلموا من الملك جميع الحصون والقلاع التي كان يملكها آباؤه وأجداده في قهستان وقومس وغيرهما والتي كانت مشحونة بالآلات والذخائر ، وقد بلغ عدد هذه القلاع نحو مائة قلعة ، وبعد إخراج السكان منها خربت جميعها ، ولم يبق من قلاع الإسماعيلية إلا قلعة « لبسر » التي اعتصم بها بعض أمراء الإسماعيلية ورفضوا التسليم ، وظلوا يقاومون مدة سنة ، ثم انتشر الوباء بينهم فأهلك الكثيرين منهم ، واستسلم الباقون .

وتسلم هولاء الخزائن والدفائن الموروثة والمكتسبة فوزعها على قواد جيشه .

ومن الملاحظ أن هولاء قضى على هذه القلاع بالرهبة والتخويف وليس بالكدح والصراع .

ثانيا - اتساع مملكة هولاء :

قضى هولاء على الحشاشين ثم قضى بغدر وقسوة على الخليفة العباسي المستعصم وعلى أسرته - وأنهى بذلك الخلافة العباسية ، ثم تقدم إلى سوريا دون أن تصادفه أية مقاومة ، فقد كانت سوريا عزلت نفسها عن مصر قبل ذلك على أثر قيام دولة المماليك بمصر ، واستسلمت

سوريا لهولاكو فأعمل فيها التدمير والتخريب ، وأرسل أعظم قواده « كيتوبوقا » بجيش جرّار إلى مصر ، ولكن المصريين حققوا نصراً هائلاً عليه في « عين جالوت » ودمروا الجيش تماماً ، وأسروا القائد وقتلوه ، وعلى كل حال فقد كانت الإمبراطورية التي أسسها هولاكو واسعة جداً تضم إمارات الجزيرة والأناضول والممالك المسيحية بجنوب قافقاسيا ، وهكذا امتدت مملكته من نهر جيحون إلى البحر الأبيض ومن قافقاسيا إلى المحيط الهندي (١) .

وكان هولاكو ومن خلفه حتى غازان يحكمون باسم القانات (الخانات) الذين كانوا يتخذون مركزهم في منغوليا ثم بعد ذلك في الصين (٢) ، أما غازان فإنه بعد أن دخل الإسلام أبطل الاعتراف بسيادة خاقان التتر وألغى وضع اسمه على النقود لأنه كان يعتبره لا يستحق ذلك لكفره ، وقد هاجمه الخاقان لذلك ، ولكن غازان نجح في رده .

ثالثاً : علاقة الحكام بالإسلام والمسلمين :

كانت علاقة هولاكو بالإسلام والمسلمين علاقة عداء وتدمير ، ولما جاء ابنه آباقا اتجه إلى المزيد من سوء العلاقة بالمسلمين وإلى محاولة المزيد من النيل منهم ، فاتصل بملوك أوربا ليعقد معهم تعاوناً ضد المسلمين ، واقترح عقد حلف عسكري بين الشرق والغرب ضد المصريين والمسلمين الذين أوقعوا الهزائم بالصلبيين وبالمغول ، ولكن الهزيمة التي كان المصريون قد أوقعوها بالمغول جعلت ملوك أوربا لا يهتمون بهذه الدعوة وبخاصة أن الحروب الصليبية قد استنفدت كثيراً من جهد الغرب فلم يروا أن يثيروا هذا النزاع من جديد .

وجاء تكودار إلى الحكم بعد أخيه آباقا ، وكان هذا قد عمّد في

(١) جامع التواريخ : المجلد الثاني ج ١ ص ٣١٢ وما بعدها .

(٢) د. أحمد السعيد سليمان : معجم الاسرات الحاكمة ج ٢ ص ٤٨٠ .

طفولته على المذهب الأرثوذكسى ولكنه وجد بعد استلام الملك أن الأحسن أن يعتنق الإسلام ، فأعلن ذلك وسمى نفسه أحمد ، وتظاهر بالكره لطوائف المسيحيين مما جعل هؤلاء يجأرون بالشكوى منه مما تسبب في خلعه .

وجاء أرغون أخوه إلى الحكم فاتجه بعطفه إلى المسيحيين النسطوريين الذين كانوا يعيشون في إيران والعراق .

وجاء غازان بعد ذلك فأعلن إسلامه وتبعه مائة ألف من جنوده فثبت الإسلام في عالم المغول ، إلى حد كبير ، وأصبح طابع البلاط إسلامياً . وبعد غازان جاء أخوه أولجايتو ، وكان هذا قد عمد نصرايا في طفولته ولكنه وجد أن الجو حوله إسلامى فاختار الإسلام وسمى « محمداً » ودرس كثيراً من المذاهب والفرق الإسلامية فعرف المذهب السنى والشيعى ، ومع حماسة غازان إلى الإسلام فقد قام بمحاولة في أواخر حياته لغزو سوريا ومصر فاستولى على حلب ، ولكن المصريين هزموه بالقرب من دمشق (١) .

واختمرت في ذهن أولجايتو فكرة إحضار رفات الإمام على والإمام الحسين وسواهم من الأئمة إلى إيران ، فعمل لذلك مقبرة هائلة جعل اسم الإمام على بارزاً فيها ، ولكنه عدل عن هذه الفكرة في النهاية ، ربما لأن بداوة المغول تيسر لهم فهم مذهب أهل السنة لبساطته أكثر من فهم مذهب الشيعة الحافل بالتعقيدات .

رابعاً : الحضارة الإيرانية تغلب البداوة المغولية :

قابل المغول في إيران حضارة لها جذور عميقة متشعبة سواء منها ما يرجع لما قبل الإسلام أو ما جاء به الإسلام ، ومع مر الزمن تأثر المغول بهذه الحضارات ولم يستطيعوا الاستمرار في مقاومتها ، فأخذوا لأنفسهم عادات جديدة لم يكونوا يعرفونها من قبل ، ودفعتهم

(١) Wilber : إيران : ماضيها وحاضرها ص ٦٨ .

المعتقدات الدينية التي كانت سائدة إلى أسلوب جديد في حياتهم العامة ، حتى قبل أن يدخلوا الإسلام إذ فرَّضَ عليهم المجتمع الذي كانوا يعيشون فيه أن يلبسوا ملابس خاصة ، وأن يتجهوا في عاداتهم إلى ما لا يثير الفائرة عليهم ، وبخاصة أنهم عيَّنوا في المناصب الإدارية كثيراً من الفرس •

وبعد جيل أو جيلين من هولاءو خفَّت روح القسوة والبطش ، وظهرت ملامح السماحة واللف ، كما خفت روح التدمير ليحل محلها اتجاه للبناء والعمران ، فيروى رشيد الدين أن أرغون حفيد هولاءو كان ملكاً عاقلاً له طبع لطيف وخاطر وقاد ، وكل من يتحدث معه في مقدمة عقلية أو مسألة ثقلية كان يعجب به ، وقد استراح الناس في ظل رأفته الظليل (١) •

ودخل المغول الإسلام بعد ذلك ملوكاً وجنوداً فأصبح خلق الإسلام هو خلقهم إلى حد كبير ، فيروى أن غازان — وهو حفيد المدمر الأكبر هولاءو — أصبح يعنى بالإدارة الرشيدة ، وبالرخاء الشامل لشعبه ، وأصبح فرض الضرائب يخضع لنظام عادل ، وأصبحت الدولة تخضع لقوانين منسقة إسلامية وقد قطعت علاقاتها بالقوانين المغولية التي كانت مدونة في « الياسا » •

وحفل عهد غازان بنهضة عمرانية هائلة ، فقد بنى مدينة السلطانية التي تقع على سهل فسيح بالقرب من قزوین ، فأصبحت هذه المدينة عاصمة جديدة بدل تبريز ، وقد تنافس السلطان والوزراء في تمويل بناء القصور والمباني العامة ، وشيد غازان بعض العمائر الفاخرة في مدينة تبريز ووقف على صيانتها حبوساً عقارية هائلة (٢) ، وبنى خلفه أولجايتو ضريحاً هائلاً لا يزال قائماً حتى الآن ، وإذا كان المغول قد

(١) جامع التواريخ : المجلد الثاني ج ٢ ١٦٦ بالهامش •

(٢) جامع التواريخ : المجلد الثاني ج ١ ص ١٨ •

دمروا إيران فإن حركة عمرانية كبيرة بدأت بهذه البلاد عقب انتهاء عملية الغزو واستقرار الدولة .

ولا يزال يوجد في إيران حتى الآن عدد كبير من المنشآت العمرانية المهمة التي شيدت في المدة من موت هولاكو إلى عصر أبي سعيد بل هناك بعض منشآت ترجع إلى هولاكو نفسه وهي مرصد المراغة ودار الخزانة ومقبرة هولاكو .

ومن الآثار البارزة لهذا العصر المسجد الذي بناه الوزير على شاه وزير أولجايتو في تبريز ، ويشتمل بناؤه الواسع على ساحة كبيرة مفتوحة وعلى حوض فيه نافورة في وسطه ، وصومعة ومدرسة دينية ... وكان هذا البناء حين تمّ يشبه القصر الساساني المسمى « طاق كسرى » في المدائن .

وقد عرّفَ هذا العصر - بالإضافة إلى المباني - أنواعا من الزخرفة على نماذج من الفخار (القاشاني) ويمتاز هذا العصر بالبراعة في فن « الميناء » وهو استعمال ألوان متعددة ببراعة على الفخار والذهب كما عرفت « المنمنمات » وهي الصور الصغيرة في شيراز وهرات ، وكثرت المنمنمات في الجلود التي يجلد بها القرآن الكريم .

خامسا : أفذاذ هذا العصر :

حفل هذا العصر بمجموعة عظيمة من رواد الفكر في ميادين مختلفة وقد عني الباحثون بالحديث عنهم والإشادة بذكورهم وبمؤلفاتهم ، وسنلم فيما يلي بأفراد منهم :

نصير الدين الطوسي :

يُنسب نصير الدين إلى طوس ، وهي مدينة شهيرة في التاريخ

الإسلامي أنجبت مجموعة من العباقرة والمشاهير مثل الوزير ، نظام الملك والإمام الغزالي ، وفيها مات الخليفة هارون الرشيد ^(١) ومكانها الآن مدينة « مشهد » .

ويقول رشيد الدين عن نصير الدين الطوسي : كان مولانا السعيد نصير الدين الطوسي أكمل وأعقل عالم ، وكان هو ومجموعة آخرون من الأطباء يقيمون لدى الإسماعيلية مكرهين ، وقد ملثوا اتجاهات الملاحدة ومالوا إلى هولاءكو خان ^(٢) ، ولما اقتنع الأمير هولاءكو خان أن هؤلاء الرجال الأجلاء لهم نوايا سليمة أمر بإخراجهم من القلعة ومعهم الأشخاص المتصلون بهم ، ثم ألحقهم بخدمته ^(٣) ، وشملهم بعطفه وإنعامه وأصبحوا مقربين للحضرة ، ومن خيرة رجال هولاءكو خان وأفراد أسرته ^(٤) وأصدر مولانا الأمير أوامر لأستاذ البشر سلطان الحكماء الخواجه نصير الدين الطوسي أن ينشئ مرصداً للكواكب في الموضع الذي يختاره فاختر مدينة مراغة لذلك وشيّد مرصداً عظيماً ^(٥) .

ونصير الدين الطوسي — بالإضافة إلى هذا — رجل واسع الاطلاع في جميع فروع الفلسفة وكان يدير جميع المؤسسات الدينية في البلاد الخاضعة للحكم المغولي ، وقد ألّف كتباً كثيرة في المنطق والطبيعة وما وراء الطبيعة ، كما كتب شروحات على كتب إقليدس وأفلاطون وأرسطو ، وتوفي نصير الدين الطوسي يوم الإثنين ١٧ من ذي الحجة سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٤ م) ^(٦) .

وقد ظلّت ذكرى الطوسي موضع التكريم حتى بعد وفاته ، إذ يروى رشيد الدين أن أباخان بن هولاءكو أفاض من إنعامه على

(١) القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ص ٤١٢ .

(٢) رشيد الدين : جامع التواريخ المجلد الثاني ج ١ ص ٢٤٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٩ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٥٧ .

(٥) المرجع السابق ص ٣٠٣ .

(٦) جامع التواريخ المجلد الثاني ج ٢ ص ٦٦ .

ما يقرب من مائة عالم كبير من تلاميذ العالم نصير الدين الطوسي تكريماً له ، رحمه الله (١) .

بقيت كلمة تشغني دائماً عن نصير الدين الطوسي ، هي أنه مع مكانته الكبيرة عند هولاء لم يستطع أو لم يرد أن يكبح رغبة هولاء الجامعة في الدم وفي التخريب والتدمير ، وبخاصة ما حصل في بغداد وحلب ودمشق للناس وللمباني ، فهل كان الطوسي عاجزاً عن ذلك ؟ أو كان راضياً عنه ؟ لست أدري ولكن العلماء على كل حال ملتزمون بنصح الأمراء ، فإن لم يفعلوا فإنهم يكونون قد قصّروا في واجباتهم .

ومما يذكر بالخير لنصير الدين الطوسي أنه استطاع أن يستغل الخرافات التي كان يؤمن بها هولاء وينقذ حياة علماء الدين الجويني وجماعة آخرين حكم عليهم بالإعدام (٢) .

الجويني :

كان الجويني أحد أفراد أسرة مشهورة من المواطنين الفرس في عهد المغول وكان هو نفسه حاكماً على بغداد سنوات كثيرة ، وقد اشتهر بكتابه الذي عنوانه « تاريخ جهان كشاي » الذي أتمه سنة ٦٥٩ ، وهو يشمل تاريخ جنكيزخان وحكام خوارزم والإسماعيلية ، وقد أتيح لكتاب الجويني فارسي آخر أكمل أحداثه إلى عهد غازان وذلك الفارسي هو عبد الله بن فضل الله وشهرته وصّاف ، ولذلك سمي كتابه « تاريخ وصّاف » .

جلال الدين الرومي : (٦٧٢ هـ) :

كان جلال الدين الرومي شاعراً صوفياً عظيماً ، ومؤسساً للفرقة التي تسمى الدراويش أو الراقصين ، وكان نفوذهم كبيراً في آسيا الصغرى طيلة عدة قرون ، وله منظومة طويلة تشغل ستة كتب

(١) المرجع السابق ص ١٢ .

(٢) براون : تاريخ الأندلس في إيران ص ٦١٦ .

اسمها « المثنوى » وهو اسم ضرب من الشعر يتكوّن من أبيات يكون البيت فيها مقفياً بين شطريّة « الرجز » وقد خصص الرومى أجزاء كثيرة من منظومته لخدمة الأخلاق والحقائق الصوفية ، ويعتبر الرومى من أشهر شعراء الصوفية المسلمين ، وأعمقهم فكراً ، ويسميه Hegel الشاعر العظيم ، ويعتبره إقبال أستاذه الرومى ، وقد ترجم نيكسون « المثنوى » إلى الإنجليزية ، وترجمت إلى العربية جزءاً منه في كتاب « الفكر الإسلامى » منابعه وآثاره ^(١) وتوفى الرومى سنة ٦٧٢ هـ .

وقد ارتبط هذا النوع من الشعر المسمى (المثنوى) بالرومى ولا يكاد يذكر المثنوى إلاّ تبادر إلى خاطر اسم جلال الدين الرومى صاحب المثنوى ^(٢) .

سعدى الشيرازى (٦٩١ هـ)

ولد سعدى سنة ٥٨٠ هـ فى شيراز ونسب إلىها ، وأمضى بها شبابه دارساً ، ثم قام برحلات طويلة للاستفادة والإفادة ، ويعدّ الشيرازى ألمع جوهرة بين جواهر الأدب الفارسى ، وقد أسره الصليبيون فى الشام وهو فى رحلة إليها ، ولكن صديقاً اقتداه وأعادته إلى شيراز حيث ظلّ ينعم بالتقدير والإجلال حتى وفاته سنة ٦٩١ هـ ، وله ديوان واسع يجمع آثاره اسمه « كلستان » « روضة الورد » وهو نموذج رفيع من النثر احتذاه الكتّاب فى العصور اللاحقة ، أما « البستان » ف شعر جميعه ، وهو يمجّد العدل والمساواة والتواضع والبساطة والتربية والعبادة وغيرها من القيم الطيبة ، وقد أوصى سعدى بالاعتدال على أنه الفضيلة الأولى ، وأوصى بأن نقنع بنصينا فى هذه الحياة ، وأن نعيش ما أمكن عيشة فاضلة عفيفة استعداداً للحياة الأبدية .

(١) انظر هذا الكتاب ص ١٦٨ ، ١٨٢ .

(٢) صادق نشأت ومصطفى حجازى : صفحات عن ايران ص ١٨٨ .

ومن حكم سعدى الشيرازى نقتطف ما يلى :

يا أخى إن الدنيا لا تبقى لإنسان
فحسبك أن تجعل قلبك متعلقاً بخالق الكون
ولا تركز إلى ملك فى الدنيا فتتخذ منه ظهيرا
وعندما يعتزم روحك الطاهر الرحيل
يستوى الملك على عرشه بالفقير على الثرى

وتعتبر منظومة « أسرار خورى » أى أسرار النفس للشاعر إقبال
من هذا النوع الذى ابتكره سعدى شيرازى للمنظومات الخلقية
التهذيبية •

وقد ترجم كلستان وبستان إلى كثير من لغات العالم (١) •

رشيد الدين الهمدانى :

هو مؤلف الكتاب الذى أشرنا له من قبل « جامع التواريخ » وكان
طبيباً ماهراً فأتاح له ذلك أن يدخل قصور السلاطين ويكسب ودّهم ،
وكانوا جميعاً يعاملونه بإجلال ، وقد نقلته صلته بالقصور إلى الاشتغال
بالتاريخ والسياسة فبرع فيهما كما برع فى الطب ، ومن أجل هذا
كان يُعَدُّ واحداً من العلماء الذين كرسوا حياتهم لتثقيف جيله والأجيال
التالية ، ويقول رشيد الدين عن نفسه : إن الأنوار التى تطلبها تأليف
كتبى كانت هبة من الله وأثراً من آثار رعاية رسوله ، وقد شمل كتابه
تاريخاً مفصلاً للمغول كما خصص جزءاً منه لتاريخ الهند ، وقد ساعده
راهب كشميرى على كتابة تاريخ الهند •

وكان رشيد الدين وزيراً لغازان ، وعقب وفاته وتولّى أولجايتو

(١) براون : تاريخ الأدب فى إيران ص ٦٦٨ •

(٢) مقدمة جامع التواريخ المجلد الثانى ج ١ ص ١٨ •

العرش بقى رشيد الدين فى منصب الوزارة بالاشتراك مع سعد الدين ، واحتفظ رشيد الدين لدى السلطان الجديد بنفس المكانة التى كانت له عند سلفه ، لدرجة أن أولجايتو عندما تزوج الأميرة « كتلكشاه » اختار رشيد الدين لحضور حفل الزواج باعتباره وكيلًا للأميرة (١) .

ولنعد لكتاب جامع التواريخ لنذكر أن نسخاً منه زينت بالصور ، وأن رشيد الدين كان حريصاً على هذا الكتاب فأتخذ كل الوسائل للمحافظة عليه ، فنسخ منه عدة نسخ وأرسلها الى عدة مكتبات ، كما جعل النسخ فى متناول الأيدى لكتابة مزيد من النسخ لمن يشاء (٢) .

وكما اهتم رشيد الدين بالتاريخ اهتم بالسياسة ، فأصبح المنظم الرئيسى لشئون الدولة فى عهدى غازان وأولجايتو ، كما أنشأ ضاحية خارج تبريز أسماها « الربع الرشيدى » وخصصها لترقية الفنون والعلوم فأسكن فيها رجال الدين والفقهاء والمحدثين ، وقراء القرآن والطلاب وأصحاب الحرف من كل نوع .

وللأسف أعيد رشيد الدين فى عهد الاضطرابات التى حلت بالبلاد إبان حكم أبى سعيد الذى تولى السلطة وهو صبى ، وكان إعدامه بتدبير من منافسيه وكان ذلك سنة ٧١٨ هـ (١٣١٨ م) .

ويعلق كاترمير فى مقدمة « كتاب جامع التواريخ » على المؤامرة التى أودت بحياة هذا الرجل بقوله : إن جميع من دبروا مؤامرة موته قد ماتوا كلهم فى نفس العام ، وكان موت بعضهم فى صورة تنكيل وتحقير (٣) .

وكان رشيد الدين يتوقع هجوم معاصريه عليه ، وقد نصحه السلطان أولجايتو أكثر من مرة بأنه ككل العلماء سيكون هدفاً لهجوم

(١) مقدمة جامع التواريخ ، المجلد الثانى ج ١ ص ١٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦٥ .

(٣) جامع التواريخ المجلد الثانى ج ١ ص ٥٧ . وقد ترجم الدكتور

محمّد التصاص هذه المقدمة .

الجاهلين والحاسدين ، فينبغي ألا يفتح لهؤلاء ثغرة للهجوم ، بأن يلتزم الدقة في كل ما يكتب ، ولكن رشيد الدين أجابه بأن الكاتب الفذ لا يمكن أن يَسلم من الحاسدين ، وقد لاقى الغزالي والفخر الرازي كثيراً من هجوم معاصريهم ، ولكن تبقى اسم الغزالي والفخر الرازي وفنيت أسماء حسّادهم ومهاجميهم (١٥) .

القزويني :

اسمه حمد الله مستوفى القزويني ، وكان من أحب أصدقاء رشيد الدين ، وقد كتب كتابين مهمين أحدهما جغرافي عنوانه « نزهة القلوب » والثاني منظومة تاريخية مطولة تسمى « ظفر نامه » أي كتاب الظفر (٢) .

سادسا : النقود الورقية في هذا العصر :

عقب وفاة أرغون أجمع أمراء المغول على اختيار كيخاتو ليكون سلطاناً ، وكان هذا حاكماً على بلاد الأناضول فأُسرع بالحضور إلى العاصمة تبريز وتسلّم السلطة ، وكان الإجماع عليه من واقع الأمل أن تسير الأمور دون اضطرابات أو خلل ، ولكن هذا الحاكم أصابه الطيش وتخطفت الفتيات قلبه فاتجه للإغراء والإنفاق على ملذاته بإسراف وخبل ، وسرعان ما فرغت خزائنه ، فاتجه إلى اقتباس اختراع كانت الصين قد سبقته إليه ، ذلك هو اللجوء للنقود الورقية ، وإذا كانت الصين تصدر النقود الورقية برصيد ولتيسير المعاملات فإن كيخاتو أصدر النقود الورقية بدون رصيد مما جعلها عديمة القيمة ، وأرغم الناس على التعامل بها ، فكرهه الناس ، وثار عليه بايدو حفيد هولوكو فأيده الناس ،

(١) المرجع السابق ص ١٥٩ .

(٢) انظر Wilber : ايران : ماضيها وحاضرها : في عدة صفحات .

واستطاع بايدو أن يأسر السلطان ويقتله ، وكان كيخاتو قد ألغى العملة الورقية قبل وفاته ولكن ذلك لم ينعنه شيئاً ، وقد كانت النفوس قد أغرقت عنه (١) .

نهاية أسرة هولاكو :

تولى أبو سعيد بن أولجايتو السلطة بعد أبيه وكان في الثانية عشرة من عمره ، وعيّن الأمير جوبان وصياً عليه ووزيراً له ، وتزوج الوزير أخت السلطان فقوى بذلك نفوذه ، وكان للوزير ابنة من أمراته الأولى فطلبها السلطان لنفسه ، ولكن الوزير رفض لأنها كانت مخطوبة للأمير مغولى اسمه الأمير حسين ، واشتد الصراع بين الاثنين ، وسقط فيه الوزير ، وتزوج أبو سعيد الفتاة .

ولكن هذا الصراع أسلم إلى صراع آخر ، فقد ثار أهل شروان ضد أبي سعيد ، فتوجه إليهم لمحاربتهم ، ولكنه مرض ومات في الطريق في ربيع الآخر سنة ٧٣٦ هـ ، تاركاً ثورات واضطرابات في المملكة ، وحدثت الأسرة الايلخانيين ما حدث للغزنويين والسلجقة ، وسواهم من صراع بين القواد والطامعين ، وحدثت أنواع من التولية والخلع ، وقد حققت جماعة تسمى « الجلائريون » بعض النجاح ، وكونوا أسرة تعرف باسم الأسرة الجلائرية ، ولكنها لم تستطع جمع الشمل الذي انفردت ، واستقل ولاية متعددون بولاياتهم ، حتى ظهر تيمور لنگ ، فبدأ بإيران عهد جديد .

(١) شاهين مكاريوس : تاريخ ايران ص ١٣٦ .

التيمنورون

في ما وراء النهر والهند وخراسان وإيران والعراق والشام والأناضول
٧٧١ - ٩٠٧ هـ (١٣٨٠ - ١٥٠٠ م)

تعدّ قفزة تيمور لك من أسرع القفزات في التاريخ ويشبّهها
المؤرخون بزحف الإسكندر المقدوني السريع •

وتيمور لك كان مغامراً تفوّق على أسلافه في سياسة الإرهاب ،
وهو معروف بأهرامات الرعوس التي كان يهتم بها وبالأعمال الوحشية
التي كانت تصل إلى دفن الحاميات والجيوش التي ينتصر عليها وهي
حياة (١) •

ونكسب تيمور لك ليس مقطوعاً به ، ويغلب أن يكون تركيا ، ولكنه
كان يدرك أن المغول لا ينفقون — كما يقول Lane Poole (٢) — لغير سلاطين
المغول ، فعمد إلى سيورغتمش من خانات جفتاي ومن أحفاد أوكتاي
فنصبه خاناً بالاسم ، ونصب بعده ابنه محموداً ووزر لهما وإن كان
النفوذ كله كان في يديه •

ويتجه بعض المؤرخين إلى الربط بين تيمور وبين المغول فيذكرون
أن تيمور ينحدر من « قاجولي بهادر » أخى قبلاي الجد الرابع
لجنكيزخان ، وعلى هذا فإن تيمور لك إذا صحت هذه الرواية مغولي
ولكنه ليس من نسل جنكيزخان •

وعلى كل حال فمثل تيمور لك لم يكن يهتم بالنسب ، وإنما كان يعتمد
على القوة والبطش وكان فيه من المغول الرغبة في التدمير والاستهانة
بالأرواح والدماء •

(١) جاد طه : إيران وحتمية التاريخ ص ٤٨ •
Muhammadan Dynasties p. 314. (١)

وأول ما يُعرف عن تيمور لنك أنه كان والياً على بعض مناطق ما وراء النهر للأمير المغولي « حسين » وكان ذلك حوالى سنة ٧٦١ هـ ، وتزوج تيمور لنك بنت الأمير « نوركان خاتون » ثم توغيت هذه الزوجة وقامت خصومه بين الأمير وتيمور لنك ، ودارت حروب انتصر فيها تيمور لنك ، وبدأ نجمه يسطع ، وقد لجأ — ليضمن النجاح — إلى سيور غتمش كما ذكرنا من قبل ليجعله واجهة يحارب باسمه ، وكانت هذه الحيلة نافعة فغتم انتصار تيمور لنك ، في هذه الحرب ، وتم له الاستيلاء على ما وراء النهر .

ومن هناك بدأ زحفا ناجحا استولى به على خراسان وجرجان ومازندان وسجستان وأفغانستان وفارس وأذربيجان وكردستان ، ثم زحف إلى بغداد فأخذها من الجلائريين سنة ٧٩٥ هـ ، واتجه إلى الشمال الشرقى فأخذ شمال الهند ودلهى وكشمير سنة ٨٠٠ هـ ، واتجه إلى الشام فالأناضول فهزم العثمانيين في موقعة « جوبوق » بجوار أنقره وأسر بايزيد الصاعقة سنة ٨٠٤ هـ وفتح أزمير ثم عاد إلى سمرقند مقر السلطة وعاصمة هذا الملك الفسيح . وحاول تيمور لنك أن يستولى على الصين ، ولكن المنية فاجأته في شعبان سنة ٨٠٧ هـ .

ونجح تيمور لنك في فتح هذه البلاد الواسعة ولكنه لم ينجح في خلق إدارة لها ، بل كانت تخضع لإدارة إرهابية ، ومن أجل هذا ما ان سقط هذا الفاتح الجبار حتى بدأت دولته في الانهيار .

وكان تيمور قد أوصى لابنه « بير محمد » بأن يخلفه ، وكان هذا في قندهار عند وفاة أبيه فانتهز « خليل سلطان » حفيد تيمور هذه الفرصة وأغرى القواد بالبيعة له ففعلوا ، وساعده الحظ إذ قتل « بير محمد » دون أن يصل إلى العاصمة ، ولكن « خليل » لم يمتد نفوذه لكل الدولة ، ثم إنه أساء التصرف وشغل باللهو والعبث فعزله الأمراء ، وولوا مكانه « شاه رخ » ابن تيمور لنك الذى كان قد استبد بخراسان وما وراء النهر بعد موت أبيه ، فزحف إلى ما كان تحت يد خليل وطالت حياة

هذا الحاكم وحسنت سيرته ، ويمكن القول أن الدولة التيمورية ارتكزت على تيمور لنك وعلى ابنه شاه رخ ، وأن من عداهما كانوا ضُعفاء ، وقد حكم « شاه رخ » من سنة ٨٠٧ الى سنة ٨٥٠ ولما مات خلفه ابنه « أولوغ بك » ولكن ابنه عبد اللطيف ثار عليه وقتله ، ولكن الزمن ثار للأب فسقط الابن ميتاً بعد فترة قصيرة ، واستسلمت الدولة بعد ذلك إلى صراع وفتن وقلال وكان عصر « أبو سعيد » الذي جاء قبيل النهاية حافلاً بالاضطرابات لكثرة أولاده ولصراعهم ضد بعضهم البعض ، وكانوا يقولون إن دولتي « هولاكو » و « تيمور لنك » سقطتا على يد رجلين كل منها اسمه « أبو سعيد » فكان هذا الاسم كان يضع نهاية لدولة قامت على الظلم وبُنيَت على الأَسْلاء ، واحتدمت الصراعات في إيران بعد « أبو سعيد » واستقل كثير من الولاة بما تحت أيديهم ، ولم تعد إيران للاستقرار إلا على يد الصفويين الذين سنتحدث عنهم فيما بعد .

ولكن الأسرة التيمورية لم تنقرض تماماً ، فقد رحل بابر شاه إلى الهند ، وهناك قام بتأسيس امبراطورية عظيمة سُميت « امبراطورية المغول الكبرى » ثم احتل أفغانستان حوالى سنة ٩١٣ هـ - ١٥٠٧ م ، وقد احتفظت هذه الإمبراطورية بكيانها حتى زحف الإنجليز على الهند ، وقام صراع كبير بين الأباطرة المتأخرين وبين الإنجليز ، ولم يتمكن الإنجليز من القضاء نهائياً على هذه الدولة إلا في النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأعلنت الملكة فيكتوريا إمبراطورة للهند سنة ١٢٩٤ هـ - ١٨٧٧ م .

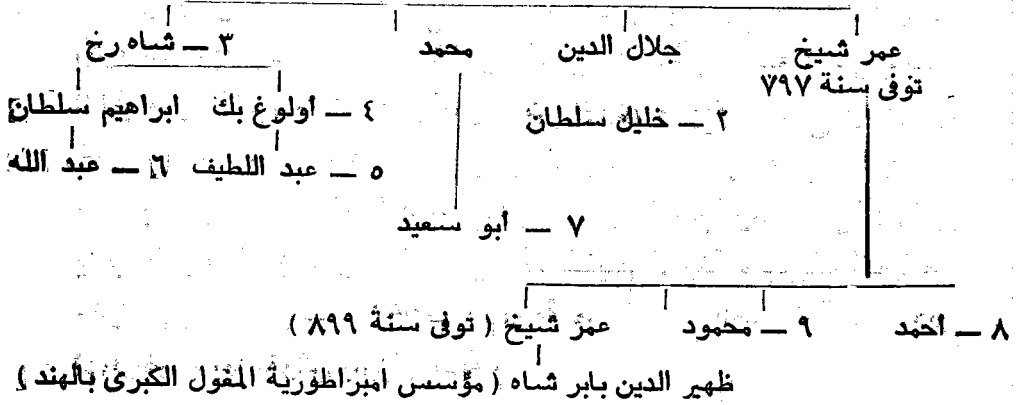
وحكام التيموريين هم :

تيمور لنك (مع الاستتار خلف اثنين من المغول في المدة من ٧٧١	
إلى ٨٠٠)	٧٧١ - ٨٠٧ هـ
خليل سلطان (فيما وراء النهر ٨٠٧ - ٨١٢ والرى ٨١٢ هـ)	
شاه رخ	٨٠٧ - ٨٥٠ هـ
أولوغ بك	٨٥٠ - ٨٥٣ هـ
عبد اللطيف	٨٥٣ - ٨٥٤ هـ

٨٥٤ — ٨٥٥ هـ	عبد الله
٨٧٣ — ٨٥٥ هـ	أبو سعيد
٨٧٣ — ٨٩٩ هـ	أحمد
٨٩٩ — ٩٠٠ هـ	محمود

قلائق وفتن حتى قام الصفويون سنة ٩٠٧ •

١ — نيمور لنك



ملامح العصر التيموري

صورة تيمور لنك :

إن أبرز صورة جثمانية لتيمور لنك هي ما روى من أنه كان طويل القدِّ ضخَم الرأس إلى درجة غير طبيعية ، وكان شعره أبيض طويلاً ، ويقال إن شعره كان أبيض منذ طفولته ، ثم إن أبرز ما يقابله الباحث في حياة تيمور لنك أنه كان سفاكاً محباً للدماء ، لا يعرف للعهود والوعود قيمة ، وهناك تقرير ينقله Wilber (١) ونصه :

(١) ايران : ماضيها وحاضرها ص ٥٤ .

..... وبمجرد أن هزموا وسلموا أسلحتهم ، جرّد سيفه ضدهم ، وسلّط عليهم جميع أسلحة الموت ، ثم ترك المدينة خراباً فلم يترك فيها شجراً ولا حائطاً إلا حطّمها تحطيماً تاماً ...

وليت شعري كيف يستقيم هذا الظلم مع ما يروى من أنه كان مسلماً غيوراً ، فالإسلام لا يعرف هذا الباطل ، وبمناسبة الحديث عن إسلام تيمور لنك نقرر أنه كان مسلماً شيعياً متعصباً •

وكان تيمور لنك ذا ملامح صارمة ، لا يحب المزاح والهزل ، ولهذا يكره الشعراء والندماء ، أما الناحية العلمية التي غلبت عليه ، فهي جبهه للأطباء والفلكيين والفقهاء والكتب التي تروى تاريخ الوقائع والحروب وكان يستمتع لروايتها لأنه ما كان يجيد القراءة أو الكتابة ، وإن كان قد تعلم بالممارسة ثلاث لغات هي التركية ، والفارسية والمغولية ، وكان يحب الهواء الطلق ، ويفضل الحياة في الخيام المترفة ، ووجهه كثيراً من عنايته إلى فن البناء فخائف مجموعة من المباني الضخمة متعددة الأغراض ، بها نقوش بارزة رائعة •

كلمة عن شاه رخ :

يقول Wilber ^(١) إن شاه رخ كان من أكثر الملوك الذين حكموا إيران ثقافة ، وقد جعل هراة المركز الثقافي لوسط آسيا ، وازداد الرخاء في ظل حكمه الرشيد ، وعلت مكانة المهندسين المعماريين والرسامين والشعراء والموسيقين ، فانتشرت الحركات الفنية والأدبية التي ظهرت في هذا العصر ، وامتدت غرباً حتى بلغت ذروتها في أصفهان بعد ذلك في عهد عباس الصفوى ، وكان لشاه رخ زوجة اسمها « كوهرشاد » وكانت شخصيتها قوية ، وتعاونت مع المهندس المعماري قوام الدين الشيرازي ، فنتج عن هذا التعاون مجموعة من المباني الضخمة التي لا يزال بعضها موجوداً حتى الآن كمسجد الإمام على الرضا •

كلمة عن أولوغ بك :

كانت مدة أولوغ بك قصيرة ولكنها كانت مدة مثمرة ، إذ كان هذا الحاكم محباً للفن والأدب ، ولكن أهم ناحية سيطرت عليه هي علم الفلك ، وقد بنى لذلك مرصداً في سمرقند لا يزال موجوداً حتى الآن •

من أهم أفذاذ هذا العصر :

حافظ شيرازي (ت ٧٩١ هـ) :

يقولون ان اللغة الفارسية لا تعترف بأى شاعر من شعرائها كما تعترف بحافظ شيرازي •

كان والد « حافظ تاجرا » ، ولكن « حافظ » عندما وُلِدَ كانت هذه التجارة قد كسدت ، وتوفي والده عقب ذلك فوجهته أمه الى حفظ القرآن الكريم ، ولعل تسميته بحافظ ترجع الى أنه أجاد حفظ القرآن وتفسيره ، وبعد ذلك قرأ كثيراً من الشعر العربي والفارسي حتى اكتملت مواهبه ، ثم بدأ ينظم الشعر وتطور به حتى وصل إلى درجة لم يصل لها سواه (١) •

وقد عاصر حافظ ألوانا من الاضطراب السياسى فى شيراز ، فأحيانا كان صديقى الوالى وأحيانا كان مطارداً منه ، وغرق حافظ فى شرب الخمر ، وكان يدافع عن الخمر ويهتف بمن يحاولون إغلاق الحانات بقوله : هم أوصدوا أبواب بيوت الصهباء ، فاللهم نعوذ بك أن يفتحوا أبواب التزوير والسلب والرياء (٢) •

وبالغ حافظ فى اهتمامه بالخمر وهجومه على أعداء الصهباء وانتهز رجال الدين والصوفية هذه الفرصة فهاجموه بقسوة وبخاصة أنه كان كثير السخرية منهم ، وقد رموه بأنه باطنى ملحد وترددوا فى الصلاة عليه عقب وفاته ، خلف حافظ أشعاراً كثيرة جمعت بعد وفاته فى

(١) الدكتور ابراهيم امين شواربى : اغانى شيراز فى امكنة متعددة •

(٢) عبد الرحمن صدقى : الشرق والاسلام ص ٧٢ •

ديوان كبير فيها المزدوج (المثنوى) والرباعيات والمقطوعات والقصائد (١) .

الجامى :

ومن الشخصيات البارزة كذلك « الجامى » الشاعر العظيم وهو من زعماء العلماء والشعراء والصوفية ويروى أنه ألف أكثر من أربعين كتاباً فى الشعر الغنائى والروائى والتصوف ، كما كان عالماً بالموسيقى وتفسير القرآن مما جعله وحيد عصره فى الفكر الصوفى والإلهى وفى الشعر والأدب وعلوم الدين .

إيران من المغول للصفويين

عندما اشتدت الحروب بين أبناء تيمور لنك وأحفاده بعضهم والبعض الآخر ، وعندما اشتدت الفتن فى هذه الفترة استفادت القبائل التركية من هذه الفتن وتمكنت قبائل (القره قيونلو) (أصحاب الخراف السوداء) من الاستيلاء على أذربيجان عام ٨١١ هـ (١٤٠٨ م) واتسع نفوذ القره قيونلو حتى بلغ بغداد ثم تمكنت قبائل الآق قيونلو (أصحاب الخراف البيضاء) من هزيمتهم والاستيلاء على الإقليم الغربى من إيران . بينما كان أبناء تيمور يحكمون الإقليم الشرقى حتى عام ٩١١ هـ .

وظلت الحالة مضطربة فى إيران الى أن استطاعت قبائل تركية أخرى تسمى القزلباشية (أصحاب القلنسوات الحمراء) من الانتصار على الآق قيونلو ودخول تبريز عام ٩٠٦ هـ (١٥٠٠ م) وكانت هذه القبائل تحت قيادة اسماعيل الصفوى (٢) فبدأت بذلك الدولة الصفوية التى سنتكلم عنها فيما يلى :

(١) تاريخ الأدب الفارسى للدكتور رضا زادة ترجمة الدكتور محمد موسى همدانى من ١٢٠ وما بعدها .

(٢) دكتور عبد النعيم حسنين : إيران فى ظل الإسلام من ٢١ .

الدولة الصفوية

٩٠٧ - ١١٤٨ هـ = ١٥٠٢ - ١٧٣٦ م

تنسب الأسرة الصفوية الى « صفى الدين الأردبيلي » (٦٥٠ - ٧٣٥ هـ) وهو من شيوخ الصوفية ، وكان الاتجاه الصوفي قد انتشر في ايران نتيجة للخلافات السياسية والاضطرابات والدماء التي كانت تغرق فيها البلاد ، فاتجه الشعب للناحية الدينية ، وتجمعوا هنا وهناك في جماعات كجماعات الدراويش حول شيخ من الشيوخ لعلمهم يجدون الملاذ في الاتجاه الصوفي بعد أن ضعف الأمل في الاستقرار في البلاد .

وكان الشيخ صفى الدين الأردبيلي واحداً من هؤلاء الشيوخ الذين اجتمع حولهم المريدون والأتباع الذين كانوا يأترون بأمره ولا يخالفون له أمراً .

وكان هذا الشيخ تقياً زاهداً يحترمه الملوك ويتقربون إليه وجاء أولاده وأحفاده على هذا النمط ، وحدث أن زار تيمور لنك أحد أبناء الشيخ وسأله تيمور لنك عن مطلبه ، فقال الشيخ : لا شيء إلا أن تطلق الأسرى وتحسن إلى الناس ، فاستجاب تيمور لنك لطلبه ، وعظم الشيخ في نفوس الناس عندما رأوا الحاكم الجبار يصدع لمطالبه .

ثم إن الأحداث التي كانت سائدة في إيران والعراق عقب وفاة شاه رخ دفعت أحفاد الشيخ صفى الدين إلى الصراع السياسى الذى اشتبك فيه المتصارعون على الملك ، والأحداث السياسية لاثبات لها ، ومن أجل هذا تقلب أحفاد الشيخ بين المعسكرات المتصارعة وعرفوا النصر والهزيمة ، ثم آلت رئاسة الأسرة الصفوية إلى إسماعيل وهو الابن الثالث لحيدر حفيد الشيخ صفى الدين ، فاستطاع إسماعيل أن يحقق النصر لأسرته وأتباعه وأن يؤسس الأسرة الصفوية سنة ٩٠٧ هـ (١٥٠٢ م) واتخذ تبريز عاصمة له ، ومنها خرج ليستكمل فتح

إيران كلها فخضع له التيموريون ثم خضع له المستبدون والغاصبون ، أو قهرهم بقوته ، فامتد ملكه من جيحون إلى البصرة ، وشمل خراسان وأفغانستان وبلاد الفرات ، وأصبح الصفويون يقفون على حدود مشتركة مع الامبراطورية العظيمة آنذاك وهي الامبراطورية العثمانية .

أسباب تشيع الصفويين :

وكانت إيران كما قلنا من قبل خاضعة للمغول عدة قرون ، وكان هؤلاء وثنيين ، كما أن بعضهم دخل النصرانية ، أو دخل الإسلام دون أن يعرف روحه وحضارته كما ذكرنا من قبل وغلب التشيع على من أسلم من حكام المغول ، أما الشعب فكان حائراً ضعيفاً ضاعفته الأحداث ، فلما جاء الصفويون ووقفوا أمام العثمانيين وجهاً لوجه أعلنوا تشيعهم ليكونوا جبهة يواجهون العثمانيين ، السنين ، ويبدو أن السياسة كانت من أهم العوامل التي دفعت بالصفويين إلى إعلان تشيع إيران فإن إيران بذلك وقفت بين جبهتين سنيتين هما منطقة الهند والأتراك في الشرق ومنطقة الشام ومصر والعثمانيين في الغرب ، ويقول Wilber (١) إن الضغط الخارجى على إيران كان عاملاً قوياً في توحيد جميع أجزائها وإخلاص أهلها للملوك الصفويين وللمذهب الشيعى .

وقد أثبت التاريخ القديم وقائع مدمرة بين الفرس والروم ، وعادت القوات للصراع بشكل أعنف وأقسى بعد دخولهما الإسلام متخذتين الاختلاف المذهبى سبباً لاقتال بعد أن اختلفت عبادة النار من فارس واختلفت المسيحية من الروم ، وهذا شئ يدعو للأسف الشديد .

وكانت بغداد هي منطقة الحدود التي عانت أشد المعاناة من الصراع بين القوتين ، ومن هنا عرفت التدمير والسحق ، وكان انتصار الصفويين يتيح لشيعية بغداد أن يذبحوا ويقتلوا السنين فيها ، كما أن انتصار العثمانيين يضع الزمام في أيدي أهل السنة في بغداد ، وقد تحدثنا عن ذلك عند حديثنا عن تاريخ العراق في الجزء السابع من هذه الموسوعة .

(١) إيران ماضيها وحاضرها ص ٨٧ .

ولعل من أسباب الصراع بين هاتين القوتين أن الصفويين جهدوا لنشر التشيع في الأناضول ، واعتبر العثمانيون أن ذلك سيمثل في بلادهم ما سمي فيما بعد « الطابور الخامس » وكان رد فعل النشاط المذهبي للصفوية في الأناضول أن قام السلطان سليم بقتل وحبس جميع الشيعة في بلاده ، ثم سار فلاقى الشاه إسماعيل في معركة « جالديران » سنة ٩٢٠ هـ التي حقق فيها العثمانيون أعظم نجاح فدخلوا تبريز وضموا ديار بكر وما حولها إلى ممتلكاتهم ، وكان سبب هذا الانتصار الساحق أن الأتراك العثمانيين كانوا يحاربون بالمدافع وكان الإيرانيون لا يزالون يستعملون السلاح القديم ، ويروى أن الشاه إسماعيل بعد أن هُزم في هذه المعركة ظلّ حزينا بقية عمره ، حتى أنه لم يضحك بعد ذلك أبدا ولم يخلع ملابس السواد (١) .

ومنذ ذلك الحين استمرت الحروب بين الجبهتين ، فكانت بلاد الكرج وأرمينية تلحق تارة بإيران ، وأخرى بالعثمانيين ، ولكن فتح بغداد في عهد مراد الرابع وإلحاق أرض الجزيرة بالعثمانيين سنة ١٠٤٨ هـ أثبتت حدود إيران الغربية ، فلم تتغير حتى الآن ، أما الحدود الشرقية فقد وقفت فيها أفغانستان تلحق تارة بالهند وتارة بإيران إلى أن أقام أحمد دراني حكومة مستقلة في أفغانستان فكان ذلك بالإضافة إلى ضم هرات لأفغانستان وضعا للحدود الشرقية الحديثة لإيران ، وأما الحدود الشمالية فقد ثبتت أيضا بعد أن استولت روسيا على المناطق الشمالية .

ويمكن القول إن هذه هي الحدود الإيرانية الجديدة ، ولم تتغير إلا باتفاقية الجزائر سنة ١٩٧٥ التي قضت بمد الحدود غربا إلى شط العرب ، تلك الاتفاقية التي كانت سببا في إشعال الحرب بين إيران والعراق سنة ١٩٨٠ والتي لا تزال دائرة حتى كتابة هذه السطور .

(١) شاهين مكاريوس : تاريخ إيران ص ١٤٩ .

(٢) د. أحمد السعيد سليمان : معجم الأسيرات الحاكمة ج ٢ ص ٥٤٥ .

وحكام الصفويين هم

٩٠٧ — ٩٣٠ هـ	الشاه اسماعيل الأول
٩٣٠ — ٩٨٤ هـ	طهماسب الأول
٩٨٤ — ٩٨٥ هـ	اسماعيل الثانى
٩٨٥ — ٩٩٥ هـ	محمد خدابنده
٩٩٥ — ١٠٣٧ هـ	الشاه عباس الأول
١٠٣٧ — ١٠٥٢ هـ	صفى الأول
١٠٥٢ — ١٠٧٧ هـ	عباس الثانى
	صفى الثانى (جلس على العرش باسم
١٠٧٧ — ١١٠٥ هـ	سليمان الأول)
١١٠٥ — ١١٣٥ هـ	سلطان حسين
١١٣٥ — ١١٤٤ هـ	طهماسب الثانى
١١٤٤ — ١١٤٨ هـ	عباس الثالث

١ — اسماعيل الأول

٢ — طهماسب الأول

٤ — محمد خدابنده

٣ — اسماعيل الثانى

٥ — عباس الأول

— صفى ميرزا

٦ — صفى الأول

٧ — عباس الثانى

٨ — صفى الثانى (سليمان الأول)

١٠ — طهماسب الثانى

٩ — سلطان حسين ١١ — عباس الثالث

أهم ملامح عصر الصفويين

أولاً — تحالف الشاه عباس الأول مع المسيحيين :

للشاه عباس أهمية خاصة في تاريخ الأسرة الصفوية وهو ينتمي إلى الفترة الزمنية المجيدة التي أنجبت سليمان القانوني ، وشاه أكبر حفيد بابر بالهند ، والمملكة اليبابات ، ومما يؤخذ عليه أنه اتصل بالإنجليز وأخلص لهم الإخلاص كله ، ويبدو أن ذلك كان ليضمن المساعدات الفنية والعسكرية ضد العثمانيين ، وهي سقطة طالما وقع فيها المسلمون أن يستعين بعضهم ضد بعض بأعداء الإسلام الذين يسعدهم أن يقدموا العون للفرق الإسلامية ليضرب بعضهم بعضاً •

ويروى شاهين مكاريوس ^(١) مطلع الصلة بين الإنجليز وبين الشاه عباس بقوله : وفد إلى إيران في عهد عباس اثنان من أكابر الإنجليز هما السير أنتوني شيرلي وأخوه روبرت ومعهما خمسون فارساً من أصحاب البسالة ، فأحسن الشاه استقبالهم ، واستشار السير أنتوني في أمر الحرب مع الأتراك فأشار عليه بتعليم جنوده مبادئ العسكرية الحديثة ، وبمحاربة دول أوربا ضد الأتراك فوافق الشاه على ذلك ، وفوضه في تنظيم العملية ، فبدأ بواسطة فرسانه تدريب الجنود الإيرانيين ، وسافر إلى أوربا لتقوية علاقة أوربا بالشاه ، وتنفيذاً لهذه السياسة المسالمة للمسيحيين أصدر الشاه منشوراً إلى رعاياه يقول فيه **إن النصرى أصدقاءه وحلفاء بلاده** ، وأنه يأمر كل الرعايا باحترامهم وإكرامهم أين حلوا ، واستطراداً لهذه السياسة فتح موانئ بلاده لتجار الإنرج وأوصى ألا تؤخذ الرسوم على بضاعتهم ، وألا يتعرض لهم أحد من الحكام أو من الأهالي بسوء ، ويختتم شاهين مكاريوس هذه التصرفات بقوله أن الشاه عباس كان أول من فعل هذا من سلاطين المسلمين في إيران •

(١) تاريخ إيران ص ١٥٤ •

عن المسلمين استقلالاً لهم وهم كانوا حريصين على هذا الاستقلال^(١) ، ولم يعط إسماعيل الصفوى فرصة للمعارضة في اعتناق هذا المذهب ، ويقول Wilber أن إسماعيل استعمل القوة القاشمة في تغيير مذهب رعاياه الى التشيع^(٢) ويعطى Wilber إشارة قوية لما حدث بعد ذلك من سلطة رجال الدين خلال حكم الشاه رضا بهلوى ، ويقول : إن الرحالة ورجال الإرساليات الذين زاروا إيران في فترة متأخرة من حكم الصفويين تركوا تقارير عن البلاط الملكى في إيران وعن الحياة في القرى والمدن وعن زمام الأمور الذى انتقل بمرور الزمن إلى أيدي كبار رجال الدين^(٣) .

وموقع إيران خلق انقساماً في الجبهة الإسلامية ، فإن إعلان التشيع والتعصب له في إيران جعلها حاجزاً بين المناطق السنية في الشرق حيث أفغانستان وباكستان وفي الغرب حيث العالم العربى وتركيا ، وقد ذكرنا ذلك من قبل .

ومع أن الصفويين ينتمون في الأصل إلى الطرق الصوفية ، فإنهم حوروا الفكر الصوفى ليلائم اتجاههم الشيعى ، وليجعل من التصوف سلاحاً لهم في حريهم ضد أهل السنة ، يقول الدكتور عبد النعيم حسنين :

« حارب الصفويون التصوف بمعنى الزهد والاعتكاف والانقطاع للخلوة والعبادة لأنهم وجدوه يتنافى مع أهداف الدولة التى أحاط بها أعداؤها من أهل السنة من الشرق والغرب ، وأخذ مفهوم التصوف يتطور ليتفق مع أهداف الدولة ، فراجت فكرة أن أسمى هدف ينبغى أن يصل إليه المتدين هو الجهاد المستمر للقضاء على الأعداء السنيين المخالفين ونشطت «الفتوة» وكثر أنصار الفرق الصوفية التى كانت تؤمن بهذه الفكرة

(١) شاهين مكاريوس : تاريخ ايران ص ١٤٨ .

(٢) ايران : ماضيها وحاضرها ص ٨٦ .

(٣) ايران : ماضيها وحاضرها ص ٩٠ .

وتروّجها وكانت هذه الفرقة تسمى « الأخية الفتيان » ثم زعم الشيعة أن أول من لقّب بها هو عليّ بن أبي طالب ، وأن لقب فتى نزل على لسان جبريل يوم بدر أو أحد ، وأطلق على عليّ بن أبي طالب لما أبلاه في القتال من ضروب القوة البسالة .

« واتجه الصفويون بإيران بعد اعتناق التشيع إلى إحياء بعض التقاليد الزرادشتية كالاقتداء بعودة الإمام الثاني عشر (محمد بن الحسن العسكري) إلى الحياة وتلك في الأصل فكرة زرادشتية وردت في كتاب « الأوستا » ومثل كثير من عادات الزرادشتية بالنسبة للموت ، فقد كانوا يعتقدون أن الروح تبقى ترفرف على بيت صاحبها أربعين يوماً ثم تصعد للسماء ومن هنا كانوا يحتفلون بيوم الأربعين بالنسبة للميت (١) .

عاصمة الصفويين :

قلنا فيما سبق إن الشاه اسماعيل عندما أقام الدولة الصفوية اتخذ تبريز عاصمة له ، ونقول هنا أن طهماسب الأول نقل عاصمته من تبريز إلى قزوین لينجو من التهديد التركي ، وقد ساعده ذلك البعد على الاهتمام بالعاصمة الجديدة وبخاصة أنه كان قد درس فن النقش وصار خطاطاً ماهراً ، ولكن عهد قزوین لم يكن طويلاً ، فإن الشاه عباس الأول نقل العاصمة مرة أخرى إلى أصفهان ، واختصها عباس بكل عنايته ، فسرعان ما أصبحت تموج بالنشاط في الفنون والصناعات .

العلاقات العائلية بين الصفويين :

مما يؤسف له أن هذه الأسرة التي نشأت نشأة صوفية ، وكانت لها جذور دينية ، وُجِدَ بها اتجاه عجيب ، هو قسوة بعض ملوكها ضد

(١) إيران في ظل الإسلام ص ٤٢ — ٤٣ .

أبنائهم وغلذات قلوبهم ، فقد قلنا من قبل إن عباس الأول كان من أعظم ملوك الصفيين ، وكان شديد التسامح مع المسيحيين ، ولكن هذا الرجل كان متبلد القلب تجاه أبنائه وذويه ، وفي هذا المجال يقول Wilber إن الجانب الأقل نبلاً وحكمة في الشاه عباس ظهر في علاقاته العائلية ، فقد قتل بعض أبنائه ، وأهمل تعليم الآخرين وتدريبهم على طريقة الحكم حسداً وخوفاً من أن يحل أحد محله في الحكم ، فقوض بذلك مستقبل الدولة الصوفية ، فقد خلفه على العرش سلسلة من الملوك غير اللائقين نسبياً حتى راج مثل إيراني هو « حينما توقف الأمير الكبير عن الحياة توقفت إيران عن السير في طريق الرخاء (١) » .

ويقولون إن السبب الذي دفع الشاه عباس لهذا التصرف الشائن أن أولاده وصلوا في حياته إلى درجة الشباب والنضرة ، وإن الشاه رأى أعوانه ورعيته يعظمونهم ويجلثونهم فداخلته الشكوك منهم ، أن يثور عليه أحدهم ، فسطا عليهم ما بين قتل وتدمير .

وقد ورث صفى الثانى عن جده عباس هذا الخلق الكريه ، فكان ظالماً عاتياً سفاكاً للدماء ولا هم له غير الاشتغال بقتل الأبرياء حتى لم يبق لكبير أو أمير في كل بلاد إيران أمان على نفسه في مدة هذا الظالم ، وقتل من أعضاء الأسرة المالكة ما بين رجال ونساء حوالى ثلاثين شخصاً بلا ذنب يُعرف غير الخوف من أن يثوروا عليه (٢) .

وهناك نقيصة كبرى عرفت في هذه الدولة ، وربما تكون هي التي دفعت الشاه عباس إلى ارتكابه المنكر الذى ذكرناه ، تلك النقيصة هي فرار بعض الأمراء ولجؤوهم إلى العثمانيين أعداء الدولة لتجلبسهم على كرسي الملك تحت سلطانها ، وقد بدأ ذلك منذ عهد طهماسب الأول بن اسماعيل فإن أخاه ميرزا لجأ إلى السلطان العثماني وكان له

(٢١) إيران : ماضيها وحاضرها ص ٨٩ — ٩٠ من الترجمة العربية .

(٢٢) شاهين مكاريوس : تاريخ إيران ص ١٥٧ .

أعوان كثيرون وقد تكرر هذا التصرف فإن اثنين من أبناء السلطان حسين لجأ للعثمانيين الواحد بعد الآخر ، ولا تعرف الأسر المالكة العريقة أمثال هذه الانحرافات التي أثّرت على وجه دولة الصفويين •

اتجاهات حضارية :

عظم النشاط المعماري خلال الدولة الصفوية ، فبنيت مجموعة من المزارات والقباب في هذا العصر ، ولا يزال الكثير منها موجوداً حتى الآن ، وقد امتازت مباني هذا العصر بالألوان المتعددة والفسيفساء الزاهية ، وكثرت الأبنية في الحدائق وعلى شواطئ البحيرات والأنهار « ويُعدُّ قبر محمد المحروق في نيسابور مثلاً نموذجياً حيث تضم الحديقة نفسها رفات عمر الخيام ، وقد بُنيت قُصور كثيرة بواسطة الشاه عباس وملوك آخرين من الأسرة الصفوية في الحدائق الملكية ، ولا يزال الإنسان يرى في أصفهان القصور العظيمة ويرى كذلك مجموعة من القصور قائمة على طول ساحل بحر قزوين •

وشملت الحضارة الإيرانية تقدماً هائلاً في صناعة السجاد والمنسوجات ، ولذلك أصبحت السجاجيد غالية غلاء شديداً لما يبذل فيها من جهد ليضفى عليها صورا من الجمال والقوة •

أما من ناحية التدوين والتأليف فقد انحط في هذا العصر غالباً ، إذ اتجهت الجهود إلى العناية بالألفاظ دون العناية بالموضوع ، فأصبحت أهم متعة للكتاب تتمثل في استعمال الأساليب المزينة كالتورية والجناس والسجع والطباق والألغاز والتواريخ وأمثال هذه الأشياء التي تنتشر في عصور الضعف والانحدار ، وكتبت رسالات فلسفية في هذا العصر ولكنها لم يكن فيها إلا ابتكار قليل ، واتجهت في الغالب إلى إعادة كتابة التفسيرات التي كتبها السابقون ، وفقد التصوف قوته

الموجّهة وأصبح عقيماً ، ووصلت الحال إلى القاع عندما ردد شعراء الصوفية اعتقادهم في أنه ليست هناك قيمة حقيقية للدنيا وللعمل والشجاعة والمثابرة ، وعندما كرروا دعوتهم إلى الخضوع والتسليم والهرب من متاعب الحياة الجدية في دنيا كلها أنانية وخداع (١) .

نهاية الصفويين :

اتجهت الدولة الصفوية نحو النهاية بعد عباس الأول ، كما ذكرنا من قبل ، ولكن هذا الانحدار زاد وضوحاً في عهد السلطان حسين إذ رفع محمود بن ويس الأفغانى راية العصيان واستولى على هراة ومشهد ، ثم استولى على أصفهان العاصمة سنة ١١٣٥ هـ (١٧٧٢ م) وبعد وفاة محمود سنة ١١٤٢ هـ (١٧٢٩ م) خلفه أخوه أشرف ، وتعرف هذه الحركة بالقفزة الأفغانية وفي هذه الأثناء تعرضت إيران لغزو روسي وغزو عثماني .

وحيث تقدم « نادر قلى » الذى ينتمى إلى قبيلة تركية هي أفشار أو أوشار كانت تسكن بلاد خراسان فطرد أشرف من إيران ووضع على كرسى الحكم طهماسب الثانى والد السلطان حسين الذى كان حاكماً قبله وحكم باسم هذه الأداة حوالى عشرة أعوام ، ثم خلعه ووضع مكانه ابنه عباس الثالث ، وتوفى عباس الثالث بعد فترة فقبط « نادر قلى » على الأمر باسم نادر شاه وانقرضت بذلك أسرة الصفويين .

من الصفويين إلى القاجاريين

شاهدت إيران خلال القرنين الهجريين الثاني عشر والثالث عشر (الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين) أقصى فترات الانحلال والضعف والقوضى ، فقد كان ملوك الصفويين يترنحون من الضعف ، فظهرت بالبلاد قوى طامعة ، وفي نفس الوقت تعرضت إيران لهجوم روسي ، كما تعرضت لزحف النفوذ البريطاني ، بل لحاولات من نابليون لينال في إيران بعض النفوذ ليصارع النفوذ البريطاني في الهند ، وسنلم فيما يلي بأهم الحركات في هذه الفترة :

حكم نادر شاه :

— لقد وقفنا آنفا عند نادر شاه الأفشاري الذي قضى على القفرة الأفغانية ، وأعلن نفسه في النهاية شاهاً لإيران ، وقد حقق نادر شاه كثيراً من الانتصارات فاستولى على أفغانستان وفتح دلهي واسترد أرمينية وجورجيا من الأتراك العثمانيين واعترفت بذلك معاهدة القسطنطينية سنة ١٧٣٦ م ، وأعلن نادر شاه المذهب السنّي مذهباً للبلاد ، واضطهد زعماء الشيعة ، ولكن التشيع لم يمت في إيران ، وضم نادر شاه جزر البحرين لإيران ، وفتح كثيراً من مدن العراق • ،

ولكن نادر شاه الذي كان في شبابه قاطع طريق اتجه للقسوة العنيفة مع رعيته ، فكانت النتيجة أن قتل بيد أحد ضباطه سنة ١٧٤٧ م وهوت البلاد من القمة إلى القاع ، وليس للحكام الأفشاريين بعده ما يستحق الذكر فقد تمزقت البلاد ، وعلا شأن القاجاريين وهي إحدى القبائل السبع التي ساعدت الشاه اسماعيل في جهوده لإقامة الدولة الصفوية •

أسرة الزنديين :

— استطاع كريم خان زعيم الزنديين أن ينتصر على ملوك الأفشاريين ويصبح ملكاً على إيران من سنة ١١٦٣ إلى ١١٩٣ هـ (١٧٥٠ — ١٧٧٩ م) ولكن هذه الأسرة لم تمتد سلطتها إلى خراسان حيث كان لا يزال للأفشاريين سلطان يمثلته شاه رخ الإفشاري ، وبعد كريم خان جاء ملوك من الزنديين لم يكن لهم شأن وإنما كانوا أطرافاً في نزاع متصل حتى انتهى نفوذ هذه الأسرة سنة ١٢٠٩ هـ (١٧٩٤ م) .

القاجاريون ١٧٧٩ - ١٩٢٥ م

جاء القاجاريون فحكموا بعد الزندين ، والقاجاريون جديرون بكلمة أوسع لطول عهدهم ولأنهم عاصروا الزحف الأجنبي وتقلصت البلاد في عهدهم وأخذت روسيا أكبر نصيب من الأرض التي كانت تعتبر جزءاً من إيران ، كما استقلت أفغانستان في عهدهم استقلالاً تاماً .

وزعيم القاجاريين هو آقا محمد خان ، وقد استطاع هذا أن يوحد فروع قبيلته ، كما استعمل العنف والقتل في القضاء على خصومه حتى دان له الأمر ، وقد آل له السلطان سنة ١١٩٣ هـ (١٧٧٩ م) وكان قاسياً عربيداً مع أعدائه ويقال إنه سحل عيون عشرين ألفاً من سكان كرمان لمحاربتهم له ، واستطاع آقا محمد أن يصبح ملكاً لكل إيران ، وضم لها بيجورجيا ، واتخذ طهران عاصمة له ، وقتل آقا محمد سنة ١٢١١ هـ (١٧٩٧ م) ، وجاء بعده فتح علي ابن أخيه وظل يحكم إيران من سنة ١٢١١ إلى سنة ١٢٥٠ (١٧٩٧ - ١٨٣٤ م) .

وتسلسل حكام إيران من أولاد فتح علي فجاء بعده حفيده محمد شاه ، ثم جاء الحكام من أبناء محمد شاه الابن بعد أبيه كالآتي :

آقا محمد ١١٩٣ - ١٢١١ = ١٧٧٩ - ١٧٩٧

فتح علي (بابا خان) ١٢١١ - ١٢٥٠ = ١٧٩٧ - ١٨٣٤

محمد شاه بن عباس ميرزا

ابن فتح علي ١٢٥٠ - ١٢٦٤ = ١٨٣٤ - ١٨٤٨

ناصر الدين شاه بن محمد شاه ١٢٦٤ - ١٣١٣ = ١٨٤٨ - ١٨٩٦

مظفر الدين شاه بن ناصر شاه ١٣١٣ - ١٣٢٤ = ١٨٩٦ - ١٩٠٧

محمد علي شاه بن مظفر الدين ١٣٢٤ - ١٣٢٦ = ١٩٠٧ - ١٩٠٩

أحمد شاه بن محمد علي ١٣٢٦ - ١٣٤٣ = ١٩٠٩ - ١٩٢٥

وكان فتح علي ميالاً للمسلم والهدوء ، ولكن باب إيران فتح ابتداء من عهده للنفوذ الأجنبي كالآتي :

- ١ — ضمت روسيا جورجيا سنة ١٨٠١ واضطرت إيران إلى الاعتراف بذلك في معاهدة كلستان التي عقدت بينها وبين روسيا سنة ١٨١٣ •
- ٢ — عقد معاهدة مع فرنسا (نابليون) سنة ١٨٠٧
- ٣ — أمضت إيران معاهدة تحالف دفاعي مع بريطانيا سنة ١٨١٤
- ٤ — تحاربت إيران وروسيا سنة ١٨٢٦ وحقت روسيا انتصارا واسعا وفي معاهدة تركمان جاي التي تلت ذلك وافقت إيران على إعطاء روسيا إقليمى أريوان ونخجوان •
- ٥ — وقع الخليج الفارسى (العربى) محل أطماع روسيا التي كانت تحاول أن يكون لها مرفأ على المياه الداخلة ، وكانت بريطانيا تمنع ذلك بكل القوى •
- ٦ — استطاعت روسيا أن تستولى على القوقاز وتركستان في عهد القاجارين •

البابيه والبهائية :

وفي عهد محمد شاه حدثت حركة دينية خطيرة في إيران تدل على عدم تغلغل الإسلام بعد ما عانت إيران من حكم المغول الوثنيين ، ومن حكم الصفويين الذين بالغوا في التشيع ، وهذه الحركة هى حركة البابية التي تحولت إلى البهائية ثم أصبحت خير مُعين للصهيونية •

وقد تحدثتُ عن هذه الحركة ضمن حديثي عن « اليهود في الظلام » بكتابي « اليهودية » : أحد أجزاء سلسلة مقارنة الأديان « ووضّحتُ » أن البهائية امتداد للبابية ، وكلاهما له جذور يهودية ، ولكن هذه الجذور التي اختفت حيناً أعلنت عن نفسها أخيراً إذ أصبح زعيم البهائية أحد حاخامات اليهود ، وقد استنفدت هذه الحركة جهداً كبيراً من الحكومة الإيرانية ، ولم تنته إلا بعد دماء غزيرة من الجانبين ، ولما سقطت هذه الحركة بإيران بعد هذا الجهد برزت في عكا وأسندت رياستها أخيراً إلى أحد الصهاينة (١) •

(١) اقرا كتاب اليهودية للمؤلف ص ٣٤٩ وما بعدها .

وفي عهد ناصر الدين شاه حاول هذا أن يستعيد أفغانستان ، وتحرك فعلا بجيشه واستولى على هرات ، ولكن بريطانيا تدخلت عسكرياً وأعلنت الحرب عليه من الهند فانسحب من هرات واعترفت إيران باستقلال أفغانستان بمقتضى معاهدة باريس التي عقدت سنة ١٨٥٧ .

وفي سنة ١٨٦٥ استولت روسيا على طشقند وسمرقند وبخارى وخيوه وفي سنة ١٨٨٢ استولت روسيا على مرو ، وأقرت معاهدة Akkal في نفس العام هذا الاستيلاء .

ناصر الدين وجمال الدين الأفغانى (١) :

وفي عهد ناصر الدين كذلك زادت سيطرة رجال الدين وظهر جمال الدين الأفغانى ، وأعلن اتجاهاته الإصلاحية ، فدعاه ناصر الدين لزيارة إيران ربما ليستعين به ضد رجال الدين الذين لم يكن الأفغانى يحترم طريقتهم في التفكير ، وحضر جمال الدين ، ولكن هذا كان عنيفا في دعوته ، شديد الرغبة في الحصول على نتائج سريعة ، ومثل هذا التفكير لا ينجح في الأمور السياسية التي تحتاج إلى تهينة النفوس ، فخاف الشاه منه وأعرض عنه ، فترك الأفغانى البلاد إلى روسيا القيصرية ، وهناك لم يعجب سلوكه القيصر فترك روسيا إلى المانيا ، وفيها تقابل مع ناصر الدين الذي اعتذر له ودعاه للعودة مرة أخرى إلى إيران فاستجاب ، ولكن هيهات أن تلتقى آراء ملك في عصر استبدادى وثائر يريد أن تصبح الشورى أساس الحكم بين لحظة وأخرى ، وظهر الخلاف من جديد ، ولكن الأفغانى لم يرد أن ينسحب كما فعل في المرة الأولى ، بل ذهب إلى ضريح مقدس في إيران هو ضريح الشيخ عبد العظيم ، واستجار به ، وفيه أخذ يلقي الخطب ويكتب البحوث الثائرة ، ويستقبل المريدين حتى جعله بؤرة ثورية ، فاضطرت

(١) إيراني الجنسية ينسب نفسه لأفغانستان أرض البطولات .

الحكومة للقبض عليه ونفيه ، ومن عجب أنه أقسم على أن ينتقم من الشاه ، وبعد فترة سفظ الشاه بطعنه من أحد مریدی الأفغانی وكان ذلك سنة ١٨٩٦ (١) .

وعندما اغتيل ناصر الدين شاه عام ١٨٩٦ كانت البلاد في حالة إفلاس تام ، وكانت تلك هي النهاية الطبيعية الأكثر من خمسة وعشرين عاما أمضاها الشاه في اللهو والاسراف الذي يصل إلى حد السفسه ، ويكفي أن نعرف مثلا أن نفقات رحلاته الترفيهية إلى الدول الأوروبية كبدت الدولة الإيرانية رهن المناجم والطرق الحديدية وخدمات التلغراف والغابات والأراضي البور بالإضافة إلى كل الانشاءات العامة وعائد الجمارك لمدة ٢٥ عاما إلى البريطانيين هذا فضلا عن منح الروس احتكار تجارة التبغ والأفيون التي كانت تدر أرباحا طائلة .

ومما يذكر أنه عقب إعطاء الروس امتيازات التبغ والدخان أصدر العالم الإيراني « ميرزا شيرازی » فتوى أعلن فيها أن استعمال المؤمن للدخان بأي شكل من الأشكال يعتبر رذيلة ، وقد أطاع الناس هذه الفتوى وراقب بعضهم بعضا مما قضى على هذا الامتياز . وما أحوالنا لعالم ذي نفوذ يستعمل نفوذه ضد الحكام الطغاة أو السلطات الأجنبية .

وجاء مظفر الدين شاه بعد والده ناصر الدين ، وقد سار على منوال والده ، الأمر الذي أدى به إلى منح الروس مزيدا من الامتيازات والتنازلات ، وكان ذلك دافعا للبريطانيين لإحراز مزيد من المكاسب في إيران ، فقد حصلوا على امتياز التنقيب عن البترول في جميع أنحاء البلاد مقابل مائتي ألف من الفرنكات الذهبية .

وفي عام ١٩٠٦ اضطر مظفر الدين شاه قبل اغتياله بأيام إلى قبول مبدأ الحكم الدستوري ، وأصدر في هذا العام دستورا عرف بدستور سنة ١٩٠٦ وكان ذلك تحت تأثير التطورات الدستورية في تركيا العثمانية

(١) انظر الجزء الخامس من هذه الموسوعة ، وانظر كذلك :

Richard N. : IRAN p. 67.

المجاورة ، ولكن خلفه على العرش محمد على شاه وسرعان ما عصف بالدستور ، ووضع معارضيه وراء القضبان ، وعلى الفور اندلعت الحرب الأهلية في تبريز وأذربيجان •

وهنا انتهز البريطانيون والروس والأتراك الفرصة ، فقسمت إيران إلى ثلاث مناطق : الأولى في الجنوب وهي منطقة نفوذ بريطاني ، والثانية في الشمال وأخذها الروس تحت لوائهم ، بينما عبرت القوات التركية الحدود غازية المناطق المتاخمة لها من إيران •

ولم يجد محمد على شاه بدا من الالتجاء إلى منطقة النفوذ الروسية مخلفا وراءه على العرش ابنه سلطان أحمد الذي لم يكن عمره يتجاوز الثانية عشرة ، وكان سلطان أحمد شاه هذا هو آخر ملوك أسرة قاجار في إيران (١) •

وقد خلّفت الأسرة القاجارية كثيراً من المتاعب والرواسب ، فإن الانقلاب الشيوعي في روسيا كان قد حدث قبل نهاية هذه الأسرة بعدة سنوات أي حدث سنة ١٩١٧ ، وأعلنت روسيا الشيوعية خروجها من الحرب العالمية الأولى ، وانسحب الضباط الروس من إيران تاركين السلطة في أيدي ضباط الصف الإيرانيين وكان من أكثر هؤلاء وعياً وذكاء الرقيب « رضا ميرزا » الذي سيصبح رئيساً لإيران فيما بعد

وبدأت روسيا آنذاك تتبع تخطيطاً طويل المدى لنشر مذهبها فأعلنت في يناير سنة ١٩١٨ تنازلها عن كل الامتيازات التي كانت لروسيا القيصريّة في إيران ، وأضافت أنها مستعدة لمساعدة إيران عسكرياً واقتصادياً للتخلص من القوى الأوربية ، وكان ذلك لتخلو إيران من قوى الغرب لتصبح لقمة سائغة للسوفييت وهي السياسة التي اتبعها السوفييت مع كل الدول الصغيرة وبخاصة بعد الحرب العالمية الثانية •

(١) الشاه : ما له وما عليه . تأليف جيرار دي فير ، وتلخيص عبد العظيم حماد •

وكان البترول قد انبثق في إيران فزادت أطماع الغرب فيها ،
وموقع إيران ضروري بالنسبة للأطماع الاستعمارية لبريطانيا وروسيا ، وكل
ذلك أحاط بإيران وجعلها تقف بين قوتين كبيرتين ، كل منهما تتسدد وتجذب ،
وكانت هناك نصوص معاهدة بين السوفييت وإيران ، ونصوص معاهدة
أخرى بين بريطانيا وإيران ، وكانت المعاهدتان تنتظران التوقيع عندما
بدأ زحف رضا بهلوى في ٢١ فبراير سنة ١٩٢١ بقواته وأسقط الحكومة
كخطوة في الطريق لإسقاط الأسرة القاجارية ، وقد آن لنا أن نتكلم عن
العصر البهلوى •

العصر البهلوى (١٩٢٥ - ١٩٧٩)

ينسب هذا العصر الى رضا خان بهلوى الذى ولد سنة ١٨٧٨ فى إقليم مازندران الذى يقع على بحر قزوين ، وهو من أسرة عسكرية ، فقد كان عمه وجدته ضابطين فى الجيش ، وقد التحق رضا بهلوى بفرقة القوزاق ، وسرعان ما أبدى كفاءة عالية دفعته ليصبح فى مركز القيادة .

رأى رضا بهلوى ما آلت إليه الأمور فى إيران فضمّم على التدخل بفرقته لإنقاذ البلاد التى كانت تترنّح ، ، وللقضاء على الأسرة المالكة التى كانت فى أيامها الأخيرة ، واتصل رضا بهلوى — — كما يفعل أكثر الثوار العسكريين — برجل سياسى شهير آنذاك هو ضياء الدين طباطبائى لتتوارى أهداف العسكريين الديكتاتورية ^(١) خلف رجال السياسة والدين ، وتنفيذاً لذلك زحف رضا بهلوى بفرقته فى ٢١ فبراير سنة ١٩٢١ وأسقط الوزارة ، وأسند رئاسة الوزارة لزميله السياسى ، وقنع هو بوزارة الخارجية ، وصدّق المجلس النيابى على المعاهدة الروسية فى ٢٦ فبراير ، ورفض المعاهدة الإنجليزية ، ثم أبعد رضا خان ضياء الدين عن رئاسة الوزارة بعد أن استغل اسمه فى الفترة الأولى ، وعندما جاءت سنة ١٩٢٣ جعل نفسه رئيساً للوزارة ، ثم خطا خطوته لإسقاط الأسرة القاجارية وليصبح ملكاً لإيران ، فكوّن جمعية وطنية أسقطت شاه إيران ونادت برضا خان ملكاً على إيران سنة ١٩٢٥ وتم تنصيبه فى ٢٥ ابريل سنة ١٩٢٦ وبهذا حقق رضا خان أعظم أطماعه ^(٢) ، واتخذ لقب « بهلوى » وهو اسم اللفّة « الفهوية » التى كانت موجودة قبل الإسلام ، وهو الذى غيّر اسم البلاد من « فارس » إلى إيران وكل ذلك ليربط نفسه بالماضى ، وليهتد عن الاتجاهات الإسلامية بطريق غير مباشر .

(١) نذكر القارئ بالثورة المصرية او عصاة سنة ١٩٥٢ التى توارت فى أيامها الأولى خلف على ماهر .
(٢) نهس الخطوات التى اتبعها عبد الناصر .

وفيما يلي أبرز خطوط الحياة الداخلية في عصر رضا بهلوى :

— ألغى نظام الامتيازات الأجنبية ، وأخذ حق إصدار العملة الإيرانية وكان هذا الحق ممنوحا للمصرف البريطانى .

— **ألغى استعمال الألقاب** .

— أنشأ جيشا عظيما وزوده بأحسن الأسلحة الحديثة .

— قلل من سلطة رجال الدين ، وسن القوانين الحديثة بدل القوانين الدينية وجعل الزى الدينى لا يلبس إلا بتصريح خاص واستبدل بالمدارس الدينية المدارس المدنية وألغى الاحتفالات الدينية ، ويقول Wilber إنه كان يقصد بذلك أن يقضى على المظاهر الكاذبة التى ربطها رجال الدين بالدين .

— كرّس بهلوى — للأسف — نفسه وجهده ليجمع المال لنفسه حتى أصبحت له ثروة هائلة ، وكان شرهه فى جمع المال أكثر من أسرة

— **القاجارين الذين سبقوه** .

— كانت روح الاستبداد العسكرية هى نهجه ، وكان برامته موجوداً لينفذ اقتراحاته وبالتالي لم توجد حرية حقيقية للمصافة أو الرأى العام (١) .

وفى المحيط الخارجى تتضح النقاط التالية :

— قام رضا بهلوى بزيارة كمال أتاتورك الذى كان ديكتاتوراً فى تركيا ، وكان موقف الاثنين متقارباً فى عدة مجالات .

— نظم الحدود مع العراق وتركيا وأفغانستان وعقد لذلك ميثاقاً سنة ١٩٣٧ .

— كان يدرك أطماع الروس والبريطانيين فى بلاده ، ومن أجل هذا اتجه لألمانيا يستعين بخبرائها فى الشؤون الفنية ، ثم قامت الحرب العالمية الثانية ، وهاجم النازيون الاتحاد السوفيتى فى يونيو سنة ١٩٤١ وقام حلف سوفيتى غربى ضد ألمانيا ، واستلزم ذلك أن تكون إيران طريقاً لنقل المعدات من الغرب إلى روسيا ، ورفض رضا بهلوى ذلك

(٢) نفس أسلوب عبد الناصر .

فزحف الروس واحتلوا شمال إيران وزحفوا انجلترا واحتلت الجنوب وأصبحت إيران منطقتي نفوذ للاتحاد السوفيتي وبريطانيا ، فسيطرت روسيا على الولايات الشمالية الخمس وهي أذربيجان وجيلان ومازندران وجورجان وخراسان ، وسيطرت بريطانيا على ولايات الجنوب واستسلم الجيش الإيراني بعد مقاومة واهية ولم ير رضا بهلوى بدءاً من أن يخلي الطريق بعد هذا الوضع فتنازل لابنه محمد رضا سنة ١٩٤١ ونقل إلى جنوب أفريقية حيث مات هناك سنة ١٩٤٤ وجيء بجثمانه فدفن بالقاهرة ثم نقل الجثمان بعد ذلك إلى إيران •

عصر محمد رضا بهلوى :

بدأ محمد رضا عصره والحرب العالمية الثانية على أشدها ، ولم يكن له خيار في اختيار المعسكر الذي يؤيده ، فإن قوات الحلفاء كانت تحتل بلاده ، ثم كانت رئاسة الوزارة لرجل عالم فيلسوف مؤلف هو « فردغى » وكان يدرك أن شرور بريطانيا أقلّ من شرور النازي ، ولذلك اتجه إلى عقد معاهدة مع الحلفاء لهذا المعنى ولنتيج له كذلك الترام الحلفاء بسجلاء عز. إيران بمجرد انتهاء الحرب • وقد وُقِّعت هذه المعاهدة الثلاثية (إيران - الاتحاد السوفيتي - بريطانيا) في يناير سنة ١٩٤٢ ويورد Wilber خلاصة لهذه المعاهدة ، هي تعهد بريطانيا وروسيا باحترام سيادة إيران واستقلالها السياسى ، والمحافظة على حدودها ، ورعاية الكيان الاقتصادى لها ، وتحديد التسهيلات المعطاة لبريطانيا وروسيا بمدة الحرب ، وتعهد الدولتين بالسجلاء عن إيران خلال مدة لا تزيد عن ستة أشهر بعد انتهاء هذه الحرب (١) •

وسارت إيران في هذا الخط ، فقطعت علاقاتها الدبلوماسية مع ألمانيا وإيطاليا واليابان ، وفي سبتمبر سنة ١٩٤٣ أعلنت إيران الحرب على ألمانيا •

وفي نوفمبر سنة ١٩٤٣ عقدَ بإيران أخطر مؤتمرات الحرب ، وقد حضره ستالين وروزفلت وتشيرشل ، واعترفوا بالجهود التي بذلتها إيران لقضية الحلفاء ، وتعاهدوا على تعويضها عما قدّمت من جهد ، وذلك لإصلاح مسارها الاقتصادي •

وبدأت اتجاهات "ديمقراطية تطلّ على الحياة في إيران بعد أن هدأت نار الحرب ، فظهرت الأحزاب ، ولكنها كانت قد صيغت بروح الاحتلال ، فالحزب الذي نشأ في أذربيجان وولايات الشمال اتجه للشيوعية وهو حزب « تودة » (أي الجماهير) وأحزاب الجنوب اتجهت اتجاهاً غربياً ، وقد حاول حزب تودة أن يظهر التمرد على الحكومة المركزية ، فأرسلت الحكومة بعض فرق الجيش والبوليس للقضاء على حركة هذا الحزب ، ولكن القوة السوفيتية لم تسمح لهذه الفرق بالمرور إلى مناطق الأحداث • وكان مما قوّى نفوذ الروس في المناطق التي احتلوها أن الروس أقاموا من صنعهم حكومات إيرانية تخدم مصالح السوفيت •

وعندما وضعت الحرب أوزارها خرجت قوات الغرب ، وتباطأت قوات الاتحاد السوفيتي في الخروج فشكّت إيران ذلك إلى مجلس الأمن ، ولم تخرج هذه القوات إلا في منتصف عام ١٩٤٦ بعد ضغط شديد •

وكان هناك حزب " آخر ألفه ضياء الدين طباطبائي يسمى « حزب مشيئة الأمة » ولكن الحكومة قبضت على ضياء الدين ، ثم ضعف حزب تودة بوسيلة أو بأخرى ولم يبق في الميدان إلا حزب واحد يؤيده الإمبراطور ، وكان ذلك عودةً إلى الديكتاتورية ، فتتابعت الوزارات دون استقرار ، وأصبح الإمبراطور أبرز شخصية على مسرح الحياة بإيران ، فتخطى مجلس الشعب ، وأخذ يؤلف الوزارات والأحزاب حسب هواه ، واتجه للحكم المطلق ، بدون أي أساس للشرعية القانونية وكان يلجأ للاستفتاءات من حين إلى آخر بدعوى الديمقراطية وكانت لإرادته تحدّد نتائج هذه الاستفتاءات (١) •

(٢) نفس اتجاهات أنور السادات في آخر أيامه .

زيجات الامبراطور وعقدة ولى العهد :

ومن الناحية الشخصية نجد أن الامبراطور سيطرت عليه عقدة ولى العهد فطلق زوجته الأولى الامبراطورة فوزية أخت الملك فاروق ، لأنها لم تنجب ولدا وربما لأسباب أخرى ، وقد تمّ الطلاق فى نوفمبر سنة ١٩٤٨ ، وتزوج الإمبراطورة ثريا سنة ١٩٥١ بعد حب اسطورى ولكنها لم تنجب على الاطلاق فطلقها سنة ١٩٥٨ وتزوج فرح ديبا سنة ١٩٥٩ التى أنجبت له الأولاد والبنات ولكن عندما شب ابنه الأكبر « رضا » كان العرش كله قد ضاع كما سنرى بعد قليل ، وكانت الامبراطورة فرح ديبا هى وأسرتها مركزا مهما من مراكز النفوذ والسلطة فى إيران منذ أنجبت أول أطفالها حتى نهاية عهدهما بإيران •



الشاه وزوجته الأخيرة

عصر الدكتور مصدق :

وفي مطلع الخمسينات آلت رئاسة الوزارة إلى رجل يمتاز بالإخلاص والوضوح وهو الدكتور محمد مصدق ، ولكنه مع إخلاصه لم يكن عميق السياسة ، فسرعان ما اصطدم بقوة لا يستطيع النجاح في معارضتها ، وبهرنا به آنذاك لأنه أوقف الامبراطور عند حده ، وأمم البترول الإيراني ، ولكنه لم يكن قد أعدّ للأمر عدته ، فقد قوطع البترول الإيراني بضغط الإنجليز فسبب للبلاد الكساد ، وكانت المدة من سنة ١٩٥١ إلى سنة ١٩٥٣ هي فترة الدكتور مصدق الذي كان يعبر عن آلام الشعب وثورته ضدّ حكامه وضد الاستعمار الغربي ، لا في إيران وحدها بل في الشرق كله .

ووصل مصدق إلى القمة ، ولم يجد أشاء من وسيلة إلا إقالته ، وكان بذلك يعبر عن شعور الغرب وبمساعده ، وعين فضل الله زاهدي رئيساً للوزارة ، ولكن مصدق رفض الإقالة وعاون الشعب أعظم معلونة ، ولم يقوَ زاهدي على مواجهة هذا الموج الهادر فاختر ، وهرب الامبراطور وزوجته إلى خارج البلاد ، وجار الشعب بإسقاط الملكية وإعلان الجمهورية وحطّم تماثيل الامبراطور ٠٠٠ ، ويبدو أن الغرب رأى أن آخر فرصة أوشكت أن تضيع من يده فساعد الجنرال زاهدي مساعدة عظيمة جعلت كفته ترجح ، وقبض على مصدق وعاد الامبراطور الهارب ، وعادت سمعة الشاه إلى الوراء لأنه جاء على أسلحة أعداء البلاد .

نتائج هزيمة مصدق :

وعقب هزيمة مصدق أصبحت طهران تُعطى انطباع المدينة المهزومة ، فقوات الجيش والبوليس الموالية للشاه كانت تعقد محاكمات فورية لأي شخص يُشكك في أنه من مؤيدي مصدق ، وقتل مئات من الطلبة واليساريين رمياً بالرصاص ، كما قتل حسين فاطمي وزير خارجية مصدق ، وهو مواطن مثالي ، كان عدواً للشيوعية ولنفوذ الغرب جميعاً ، وكانت سلطة إدارة هذه العمليات ضد الشعب الإيراني في يد السفارات

الغربية ، وبخاصة السفارة الأمريكية التي تولت الإعداد لانتصار الشاه وعودته •

ولاقت المدن الدينية التي ارتفعت فيها أصوات رجال الدين ضد الشاه كثيراً من الاضطهاد فكانت مدن قم وشيراز وتبريز واصفهان (مسقط رأس حسين فاطمي) مسرحاً لعمليات تفتيش واعتقال على نطاق واسع •

أما الدكتور مصدق فقد حُكِمَ عليه بالسجن ، ووضع في زنزانه بها مياه ، مما ألحق به كثيراً من الأمراض أدت إلى وفاته بعد قليل ، وقد أزيل بيته في طهران تماماً ، حتى لا يتحول الى رمز للمعارضة •

ومثلما تمَّ الأخذ بالثأر من أعداء الشاه كوفى أعوانه ، فكل رجال السياسة الذين اختفوا عن الأنواء في أثناء حكم مصدق ، والأثرياء الذين صودرت ممتلكاتهم ، والضباط الذين وقفوا مع الشاه كل هؤلاء حصلوا على تعويضات كبيرة ومكافآت واسعة ، أزيلت ما لحق بهم من أضرار ^(١) •

الشاه وإسرائيل :

واعترف هذا الشاه للأسف بإسرائيل وتبادل معها التجارة والمصالح متناسياً العلاقات التاريخية والدينية التي تربط إيران بالعرب ، وقام تعاون بين « السافاك » وهي هيئة المخابرات الإيرانية التي ائتمنت بها أعمال العسف والطغيان ، وبين « الموساد » وهي هيئة المخابرات الإسرائيلية ، وكان هذا التعاون لصالح الشاه ضد المواطنين •

وقد وصف الشاه علاقته بإسرائيل بقوله : إن تعاوننا مع إسرائيل لا يقتصر على المخابرات فقط ، بل إنه أوسع من هذا بكثير ، ولقد أرسلت مجموعاتٍ من كل أسلحة الجيش وفروع الإدارة للتدريب في إسرائيل •

(١) محمد حسنين هيكل : مدافع آية الله ص ٩٠ — ٩١ بتصرف •



« السافاك » الذين درّبوا في إسرائيل لم يسلم منهم حتى النساء

ومن الناحية الاقتصادية وصل ميزان التبادل التجارى بين إسرائيل وإيران ٤٠٠ مليون دولار سنوياً ، واشترى الشاه أسلحة من إسرائيل بمئات الملايين من الدولارات •

وللأسف الشديد لقد تعامل نظام الإمام الخميني أيضاً مع إسرائيل ، وأعاد فتح الباب ، ونطمع ألا يستطرد هذا النظام في التعامل مع هذه الدولة التى تبرز كل لحظة نياتها السيئة ضد الإسلام والمسلمين •

الشاه والاسلام :

وبمناسبة الحديث عن علاقات الشاه بأعداء الإسلام والمسلمين نعدد بسرعة بعض تصرفات الشاه التى تنم عن اتجاهه اللاإسلامية :

١ - ألغى الشاه استعمال التقويم الهجرى ووضع بدله التقويم

الامبراطورى المرتبط بالتقويم الاخمينى ولم يرجع عن ذلك إلا بالضغط العنيف الذى واجهه فى شهوره الأخيرة •

٢ — ذكرنا من قبل ظهور الفرقة المنحرفة عن الإسلام والمتجهة للصهيونية وهى فرقة البهائيين ، وقد احتضن الشاه بقايا هذه الفرقة ، ووضع فى أيديهم أخطر أعمال المخابرات ، ومن هنا لم يستجب هؤلاء أبداً للتعاون مع نظام الإمام الخمينى •

٣ — فى نصب الشاهيار الذى أقيم بمناسبة تتويج الشاه أقيمت شاشة بانورامية متحركة تعرض تاريخ إيران من عهد قورش الى أسرة بهلوى ، وتم فى هذا العرض تجاهل المراحل الأولى من العصر الإسلامى ، وأى شىء يربط بين إيران والعالم العربى ^(١) •

ثورة الشاه الإصلاحية :

وفى ٦ يناير سنة ١٩٦٣ أعلن الشاه ثورته الإصلاحية التى وضع لها مبادئ خمسة هى :

- الخبز للجميع
- المسكن للجميع
- اللبس للجميع
- الصحة للجميع
- التعليم للجميع

ونسى للأسف أن يجعل فى القمة منها أعظم مبدأ وهو الحرية للجميع •

وتنفيذاً لهذه الثورة الإصلاحية وزع الشاه ممتلكات واسعة على الفقراء ، وكان من بينها أراضي الموروثة ، كما أنشأ جيش المعرفة

(١) محمد حسنين هيكى : مدافع آية الله فى صفحات ١٤٣ — ١٦٠ —

لنشر التعليم بالقرى ، وقد نجح هذا نجاحا عظيما ، وأنشأ جيش الصحة وجيش التعمير ، ... وهذه اتجاهات طيبة ، ولكن يبدو أن الشاه كان يتجه ليفاخر بإيران ويخوِّف بها ولا يتجه لرفع شأن الانسان الإيراني في ذاته ، فذلك الانسان كان نصيبه الإذلال والحياة في خوف ، ولم يُعْطِ الشاه للإنسان الإيراني حقوقه الدستورية ، ولا سمح بالأحزاب الحرة ، وإنما أراد أن يسيطر على عقول الشعب نظير إطعامهم وإسكانهم وثقافتهم ، وكانت الثقافة تُبْرِز جيلا جديداً يتطلع للحرية ، وهذا الجيل غفل عنه الشاه كما غفل عنه أغلب حكام الشرق •

وقد هاجمت روسيا هذه الإصلاحات اتِّباعاً للفكر الماركسي الذي يرى الإصلاحات وسيلةً لتعطيل الثورات ، لذلك عمدت روسيا السوفيتية إلى مهاجمة هذه المشروعات مدَّعية أنها لصالح الاستعمار ومساعدته •

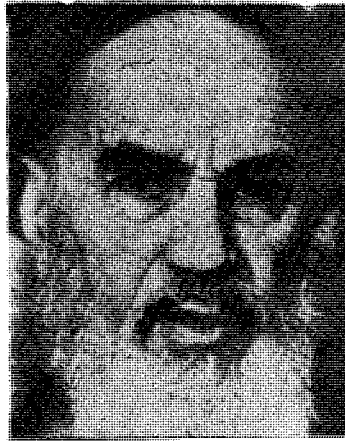
ثورة ودماء :

وفي يونيو سنة ١٩٦٣ هبَّت بإيران ثورة عارمة ، كان الاعتراف بإسرائيل من أهم أسبابها ، أما السبب المباشر فكان الخطاب الذي استعد لإلقائه « آية الله الخميني » في الذكرى السنوية لموت الإمام جعفر الصادق ، وكان الإمام الخميني معروفاً بعدائه للشاه وهجومه عليه ، ولذلك حاولت مؤسسة « السافاك » أن تمنعه ، وحصل تصادم بين أتباع الشاه وأتباع الإمام ، وقد أشعل المتظاهرون بعض الحرائق ونزل الجيش ليعيد الأمن ، ولكنه عجز ، فاستعمل الرصاص والأسلحة المختلفة مما تسبب في سقوط عدد من المواطنين ، وكانت هتافات المتظاهرين « تسقط إسرائيل » « تسقط الديكتاتورية » •

ورأى رجال الدين هذه الثورة فرصة لأن الحكم البهلوي أضعف امتيازاتهم أو أزال سلطانهم ، فإن الحكم البهلوي هو الذي ألغى دستور ١٩٠٦ الذي كان يعطي أئمة المذهب الشيعي حق الاعتراض على أي قانون

يرونه مخالفاً للشريعة الإسلامية ، ولأن قوانين الإصلاح حَرَمَتْ رجال الدين من سيطرتهم على النظام القضائي ، فانتهز رجال الدين فرصة هذه الثورة وأصدروا منشوراً يدعو للجهاد المقدس ضد الإمبراطور .

الامام الخميني :



آية الله العظمى الإمام الخميني

إن الإمام الخميني أعاد إلى الازدهار تاريخ الثورات الشعبية التي تنتصر بدون سلاحٍ على أقوى الأسلحة وعلى جيوش ومعدات كانت تهدد وتزمر ، فمن هو الإمام الخميني ؟

إنه في كلمات قصيرة رجل آمن بالفكرة ، ولم تكن له أطماع شخصية ، وهو يتجه للزهد اتجاهاً تاماً في طعامه ولباسه وسكنه ، لا يهتم بممتلكات ، ولا يسعى لمال ، وَهَبَ نفسه لأهداف أمته ، وذلك سر عظمته .

أما عن كفاءة الإمام الخميني فهي فوق الوصف ، فعلى الرغم من

سنّه واعتلال صحته نجده يحيط بالأمور ، ولا يخشى التهديد ، ويجيد توجيه أجهزة الإعلام واستغلالها أكثر مما يفعل أى متخصص فى الدعاية والإعلام ، ثم هو قلب ثابت عند الشدائد ، لا تروّعه الكوارث ولا تزلزله الآلام .

والإمام الخمينى يضع الهدف أمامه ويصّـر على بلوغه ، ولا يعرف اليأس ، ويتخذ من الاضطهاد الذى يتجـه ضده ، ومن دماء أتباعه التى تراق ظلما ، دوافع لمزيد من الحماسة والإصرار ، حتى دم ابنه « مصطفى » زاده تصميمًا ، وجعله يهتف بالمعزّين قائلا : كفى دموعا وهّيا بنا نعمل .

ان رجلا كهذا كان لابدّ ان ينتصر ، وليت الذين يطمعون فى الزعامة يتعلمون منه هذه الجوانب المضيئة من الأخلاق .

وكان الإمام الخمينى يهاجم رجال الدين الانتهازيين ، ويصفهم بأنهم « فقهاء السلطان » ويدعو رجال الدين للتعفف وعدم السير فى ركاب الآوك وعدم السعى للمال أو المنصب فذلك شئ أقل بكثير من جاه العلم الذى حصلوا عليه .

وقد كانت ثورة رجال الدين فى هذه الفترة بزعامة الإمام الخمينى الذى يلقب « آية الله » و « روح الله » وقد وقف هذا فى يوليو ١٩٦٤ فى أحد مساجد « قم » يدعو على الشاه وزوجته وأولاده وأسـرته الذين يملكون (مؤسسة بهلوى) التى تضم أكثر من مائتى بنك ومؤسسة فى إيران وفى أمريكا .

وفى أكتوبر ١٩٦٤ أصدر البرلمان الإيرانى قراراً بمنح الحصانة الدبلوماسية للخبراء الأمريكان ، فثار الخمينى وهاجم الأمريكان والأسرة الحاكمة والثورة البيضاء التى أعلنها الشاه ، وأعلن أن الشاه لم يحقق الاشتراكية الإسلامية ، وإنما حقق التسوّل للشعب الإيرانى .

ويعتمد الخميني على ١٨٠ ألفا من الخطباء في ثمانين ألف مسجد وعلى « الأسياد » أي رجال الدين وعددهم ٨٥٠ ألفا ، ويعتمد كذلك على طلبه المعاهد الدينية وعددهم مائتا ألف ، وكلهم قادرون على إثارة الناس ودفعهم إلى المظاهرات وإلى تعطيل العمل • وليس عجيبا طبعاً أن يؤيد الشيوعيون هذه المظاهرات فالعدو واحد وإن اختلفت الأهداف •

وعقب هذه التحركات من الإمام الخميني صدرت الأوامر باعتقاله ، ولكن آية الله محمد بهبهائي ترعّم رجال الدين ووالى المنشورات المعادية للحكومة وللشاه ، واشتركت الجامعات وبعض الهيئات في هذه المظاهرات ، وكانت ترمى إلى الهجوم على المكان الذى اعتقل فيه آية الله الخميني لإطلاقه حتى يقود الجماهير الثائرة •

وفي هذه الأثناء أجيّزت الرسالة العلمية التى تقدم بها الإمام الخميني وحصل بها على لقب « آية الله العظمى » وهذا اللقب يمنع اعتقاله ، ومن أجل هذا اتجهت الحكومة إلى نفي آية الله الخميني إلى خارج البلاد ، فذهب إلى النجف الأشرف بالعراق حيث بقى أربعة عشر عاماً كان نشاطه محددًا حيناً وواسعاً حيناً آخر ، واحتجت إيران على نشاط الخميني المنبعث من العراق ، فأخرجه العراق ، وحاول أن يذهب إلى الكويت فرفض الكويت دخوله ، فسافر إلى سوريا ومن سوريا انتقل إلى فرنسا في السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٨ ومن هناك لعبت أشرطة التسجيل دورها الهائل ، فإن خطب الزعيم ودروسه كانت تسجل على أشرطة ، وتصل إلى إيران بوسيلة أو بأخرى ، حتى كان صوت هذا الزعيم يدوّى في كل بيت •

ومع صوت الزعيم عن طريق الأشرطة كان في إيران مريدون متحمسون للإمام مثل إبراهيم يازدى وقطب زاده يحملون مع رجال الدين مسئولية ترويج أفكار الإمام في الداخل •



ابراهيم يازدى ٠٠ كان مع قطب زاده من أكبر
مروجى أفكار الخمينى فى الداخل

وخلال نفى الإمام حدثت ثورات (سنة ١٩٧٥ وسنة ١٩٧٦ وسنة ١٩٧٧) وسقط فيها مئات القتلى ، ودُفع إلى السجون والمعتقلات عشرات الآلاف وانتصر الشاه بالقسوة على هذه الثورات ، كما كان من وسائله للانتصار أن يكثر من الوعود والعهود بأنه سيعمل على القضاء على الفساد وأنه سيعيد دستور سنة ١٩٠٦ ، وأنه سيجرى انتخابات حرة ، ولكن الشاه كان ينسى هذه الوعود عندما تهدأ الأمور ، ولم تكن الثورات فى إيران فقط بل قام الطلبة بثورات صاخبة فى نيويورك وباريس

الشهور الثلاثة الأخيرة :

وجاءت الشهور الثلاثة الأخيرة فى حكم الشاه ، وهى الشهور التى بدأت من أكتوبر سنة ١٩٧٨ والتى قامت بها ثورات زعزعت نظاماً يقال إن عمره ٢٥٠٠ سنة ، وقد شهد شهر أكتوبر ذاك ثورات جارفة ومقاومة عنيفة من « السافاك » وسقط كثيرون قتلى وجرحى .

وشهد شهر نوفمبر التالى حركات مماثلة وقسوة هائلة من الشاه ، واتضح أن الرجل فقد الزمام ، وقد أقام الشاه حكومة عسكرية بقيادة جنرال « غلام رضا أزهرى » فى السادس من نوفمبر ولكن ذلك لم يَغنِ عنه شيئاً . وأعلن الشاه القبض على بعض ألعوانه ومحاكمتهم بتهمة الفساد ، وكان يحاول بذلك أن ينفذ نفسه عن طريق التضحية بهم . ولكن ذلك لم يخدع الثوار .

ثم أهلَّ شهر ديسمبر سنة ١٩٧٨ وكان يوافق شهر المحرم سنة ١٣٩٩ هـ وشهر المحرم شهر الحزن والمظاهرات فى المناطق الشيعية ، وفى العاشر منه سنة ٦١ هـ قتل الإمام الحسين ، وتسير فيه عادة مواكب الحزن والثورة ، وقد أدرك الشاه أن هذا الشهر لو مرَّ بسلام فإن الأزمة يمكن أن تنفرج ، ولكن هيهات أن يمر هذا الشهر بسلام ، لقد قامت به أعنف الثورات وسقط عدد عظيم من الضحايا .

وأحسَّ الشاه أن أيامه قد حانت فاتجه لتهريب الأموال للخارج وأشيع ذلك فتشجع الثائرون وانكمش أمل الشاه فى البقاء بإيران ، وبمناسبة الحديث عن ثروات الشاه نذكر أن الأسرة المالكة فى إيران ومؤسسة بهلوى كانتا تمتلكان ٨٠ ٪ من صناعة الأسمنت فى إيران و ٧٠ ٪ من الفنادق السياحية ، و ٦٢ ٪ من البنوك وشركات التأمين ، بالإضافة إلى نصيب كبير فى صناعة النسيج والسيارات وغيرها ، وكان للشاه ثروات هائلة خارج إيران ، منها مثلاً ٢٥ ٪ من أسهم مؤسسة كروب الألمانية ، وقد اشترها الشاه بمبلغ ٥٥٠ مليون مارك ألماني .

أما الجواهر التى كان يمتلكها الشاه فأعلى من الوصف ، وهى تشمل الكنوز المذهلة التى انحدرت إليه من العهود السابقة ، وتشمل عرش الطاووس وهى جوهرة مصنوعة من الذهب الخالص المرصع بالماس والأحجار الكريمة الأخرى الثمينة .

وقد حاول الشاه أن يأخذ معه ما يسمى « جواهر التاج » وهى

تشمل التيجان التي استخدمها في تتويج نفسه ، وتتويج الامبراطورة وولى العهد سنة ١٩٦٧ ، ولكن هذه الذخيرة الثمينة كانت مودعة في خزائن على بعد ٢٠ متراً تحت الأرض ، وكان مؤمناً عليها بمبلغ رهيب يصل إلى ٥٠٠ بليون دولار ، وقد أصرّ الشاه مغادرته لإيران يوم ١٦ يناير على أمل أن يحصل عليها ، ولكن الموظفين الذين كانوا يعرفون أسرار الوصول لها كانوا في إضراب مع باقى موظفى الدولة ، وغادر الشاه طهران في اليوم التالى دون أن يأخذها معه .

الأيام الأخيرة للشاه في إيران :

جاءت ثورات يناير سنة ١٩٧٩ وكانت من أعنف الثورات ، كانت تطالب بتنحية الشاه ونظام أسرته والسلطة البوليسية الخائفة التي يعتمد عليها (السافاك) وكذلك بإخراج النفوذ الأمريكى والإسرائيلى ، ويبدو أن الولايات المتحدة يئست من الشاه ومن نجاحه فأوعزت إلى الجيش الإيرانى بالألا يتعرض للثائرين ، وكان معنى هذا أن تصبح الثورات هائجة مائجة ، وفي نفس الوقت أشارت على الشاه أن يترك البلاد مؤقتاً ريثما تعالج الأمور ، فعيّن الشاه رئيساً للموزراء من زعماء المعارضة هو شاهبور بختيار ، وفي ١٦ يناير سنة ١٩٧٩ اقترح مجلس النواب بالثقة على حكومته ، فأطمأن الشاه لذلك وأخذ طائرته ومعه أسرته واتجه لمصر في اليوم التالى معتقداً أنه يوماً سيعود ، ولكنها كانت رحلة الوداع .

وفي مصر تلقى دعوة من المغرب فذهب إليها في ٢٢ يناير ، وكان ملك المغرب يعتقد أن الشاه سيعود لبلاده ، فأراد مجاملته بدعوته لزيارة المغرب ، وسرعان ما اتضح أن الشاه لن يعود ، مما جعل ملك المغرب يهمس للوسطاء بأن بقاء الشاه في أرضه شيء غير مرغوب فيه .

محاولات الدكتور شاهبور :

حاول الدكتور شاهبور بختيار أن يهدئ العاصفة الداخلية والخارجية ، فأعلن وقف مدِّ اسرائيل بالبتروال ، وأن عائدت البتروال الإيراني ستصرف لصالح الشعب والطبقة المتوسطة ، كما أعلن أنه لن يسير مع أحلام الشاه التي كانت بينها مبالغاة شديدة ، وحلَّ منظمة « المسافاك » ونقل العاملين بها إلى وظائف أخرى ، وطمأن جيران إيران بأن سياسة إيران الجديدة لا تضعها حارساً للخليج ، وتبعاً لذلك أوقف العقود المبرمة بين إيران وبين كل من أمريكا وألمانيا وبريطانيا لتسليح الجيش بمليارات الدولارات ، وحسب شاهبور أن هذه الاتجاهات ترضى الشعب الإيراني وتسكيت الثورة ، ولكن هيهات فان معنى هذه الإصلاحات هو أن يسحب شاهبور بختيار البساط من تحت أقدام الثورة ، ويقف دون الحصول على الأهداف الحقيقية للجهاد الطويل ، ولكن هيهات .



شاهبور بختيار : المعارض الذى حاول
أن يتعاون مع الشاه ويحرس عرشه

الإمام الخميني : رحلة العودة والانتصار :

أما عن الإمام الخميني فإنه لم يُضْعَ فرصة فقد أعلن أن شاهبور بختيار خائن لأنه قبل أن يتعاون مع الشاه وأن يحرس عرشه المنهار ، وركب الخوميني الطائرة وعاد إلى طهران عندما كان الشاه بالمغرب على الرغم من إرادة شاهبور بختيار الذي قفل مطارات طهران خمسة أيام من ٢٥ يناير إلى ٣٠ يناير ثم أرغم على فتحها ، وكانت طائرة الإمام من أولى الطائرات التي وصلت المطار في أوائل فبراير ، واستقبلته الجماهير استقبالا حافلا ، ومن الواضح أن شاهبور بختيار كان يعتمد على الجيش في بقائه بالحكم ، ولكن الجيش أعلن في ١١ / ٢ / ١٩٧٩ وقوفه على الحياد إزاء الصراع الدائر في البلاد ، وكان هذا استجابة لدعوة رجال الدين ، ونداءات الإمام ، ووجد شاهبور بختيار أنه لا يقدر على مواجهة قوة الشعب التي تهدر فاخفتى في ١٢ / ٢ / ١٩٧٩ ونشر استقالته وظهر بعد فترة بأوربا ، وأعلن الإمام الخميني أنه عين الدكتور



مهدى بازرگان

أول رئيس للوزراء بعد نجاح الثورة

(م ١١ — الموسوعة التاريخية)

مهدي بازرگان رئيسا لحكومة مؤقتة في نفس اليوم وصدر قرار بحل البرلمان ، وبدأ بإيران عهد جديد .

أما الجيش الذي كان مُعدّة الشاه ضد الشعب ، فقد أخذ ينحاز تماما للثورة وانضم الجنود وصغار الضباط إلى العهد الجديد ، أما كبار الضباط الذين كانوا قد تورطوا في أعمال غير إنسانية تبعا لأوامر الشاه فقد جاءت نهايتهم ، فبعضهم هرب واختفى من الميدان ، وبعضهم انتحر ، وبعضهم مُقبض عليه ولاقى جزاءه .

نهاية الشاه :

ولنعد إلى الشاه لنذكر أنه في هذه الأثناء أصيب بمرض خطير وأضيف المرض إلى التشرد ، وأخذ ينتقل من مكان إلى مكان للعلاج أو الإقامة دون أن يجد مكاناً للاستقرار . يالله لقد ضاقت الأرض كلها بهذه الأسرة التي كانت يوماً موضع كل الإجلال والتقدير ، والتي تمتلك أعظم القصور والفيلات في أكثر أرجاء الأرض ، ولم يكن انتقال الشاه وأسرته سهلاً ، فقد ألغت الحكومة الإيرانية الجديدة جوازات السفر الخاصة التي يحملها الشاه وأسرته ، ولم يجد النجدة إلا لدى الأمم المتحدة التي صرفت لهم جوازات سفر كلاجئين .

وأخذ الشاه ينتقل بأسرته من مكان إلى مكان ، يقذفه قطر ويتلقاه آخر فانتقل من مصر إلى المغرب ، فإلى جزر بهاما . فالملكسيك ، فالولايات المتحدة ، وأخيراً إلى بنما ، ولكن سرعان ما ضاقت بنما به ، بل طلع على العالم خبر في ٢٣ يناير سنة ١٩٨٠ يذكر أن كارتر حاول أن يجعل من الشاه ثمناً للافراج عن الرهائن الأمريكيين الذين كانت سلطات الخميني قد اعتقلتهم في ٤ / ١١ / ١٩٧٩ ، فاتفق كارتر مع حكومة بنما على أن توفّق مع إيران معاهدة تسليم المتهمين ، وتمت اتصالات كارتر بإيران ، وسافر إلى بنما ممثل إيران في التوقيع على هذه المعاهدة ، ولكن الجهود المخلصة أنقذت الشاه قبل التوقيع على هذه المعاهدة بوقت قصير ، فقد أعلن الرئيس السادات أن طائرة الرئاسة المصرية سوف

تنتقل فوراً إلى بنما لنقل الشاه وأسرته إلى مصر ، ولكن بحساب الوقت تبين أن وصول طائرة السادات سوف يتأخر ، واستطاع روكفلر وكيسنجر أن يستأجرا للشاه طائرة خاصة بثلاثمائة ألف دولار ، وكان الشاه متردداً في أن يدفع هذا المبلغ الكبير لنقل ثمانية أشخاص (وهو وأسرته) وكان يفضل انتظار طائرة السادات لولا أن الاثنين حذّراه بأن البقاء بضع ساعات معناه القبض عليه ثم تسليمه ، لأن ممثل إيران كان في الطريق ومعه توقيع المسؤولين في إيران على معاهدة تسليم المتهمين .

وهكذا عاد الشاه إلى مصر ، بعد اتفاق غير أخلاقي مع كارتر .

وفي الحقيقة كان موقف الرئيس السادات صدى لموقف مصر ذات التاريخ المجيد ، فقد رأت مصر أن واجبها الإنسانى يحتّم عليها استضافة الشاه ، وأعلنت أن حرصها على حسن الصلة بالشعب الإيراني لا يمنعها من هذا العمل الإنسانى ، فلابد لهذه الأسرة من إقامة ولا بد لهذا المريض من علاج ، ولم يكن للشاه خيار فإنه لم يبق أى بلد آخر يقبله ، فحضر إلى مصر في ٢٤ مارس سنة ١٩٨٠ ، وقدم له العلاج اللازم ، ولكنه كان يشفى من داء ليندفع له داء جديد ولذلك أسلم الروح في ٢٧ يوليو سنة ١٩٨٠ ودُفن في مصر حيث كان أبوه قد دفن من قبل .

وكانت هذه هي النهاية الأليمة لعرش الطاووس والشاه الذى جلس على هذا العرش ثمانية وثلاثين عاماً .

طموح كاذب واحتفالات برسوبوليس :

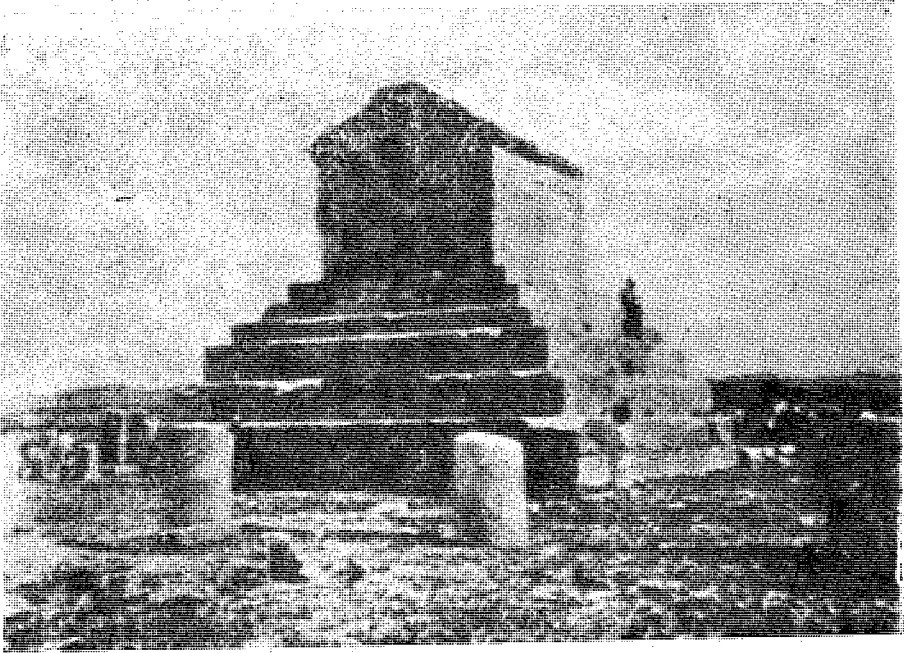
وقبل أن ندع الشاه نسجل موجزاً عن احتفالين باهرين قام بهما ، أحدهما سنة ١٩٦٧ والثانى سنة ١٩٧١ .

أما الاحتفال الأول فقد أقامه في عيد ميلاده الثامن والأربعين ، وفيه توجّج نفسه ، كما توجّج زوجته وابنه بتيجان بلغت الغاية في الجلال والعظمة ، وكانت التيجان الثلاثة حديثة الصنع ، رُصّع التاج

الملكى منها بجواهر نادرة بلغت ٣٣٨٠ جوهرة ، أما تاج زوجته وتاج ابنه ، فرُصَّعا بجواهر أقل قليلا من جواهر تاج الإمبراطور ، وفى هذا الاحتفال أطلق الإمبراطور على نفسه لقب (آريامهر) أى نور الآريين بالإضافة إلى لقب شاهنشاه أى ملك الملوك ، وهكذا نجد الرجل الذى ألغى أبوه الألقاب يخلق لنفسه ألقاباً جديدة ، ويجعل ألقابه سلسلة طويلة ، وهو نوع من الكذب على الشعوب تبناه بعض الثوريين فيما بعد .
وقد ذكرنا من قبل أن الشاه بذل أقصى الجهد ليأخذ هذه احتيجان معه قبل رحلته الأخيرة ولكنه فشل فى ذلك .

أما احتفالات برسوبوليس فيصفها الباحثون بأنها كانت احتفالات أسطورية ، وقد أقامها الامبراطور بمناسبة مرور ٢٥ قرناً على تأسيس الامبراطورية الإيرانية على يد قورش العظيم ، وقد أقيمت هذه الاحتفالات بين أطلال عاصمة الاخمينيين السابقة « برسوبوليس » وحضر هذه الاحتفالات عشرون ألف مدعوً يضمون ستة وثمانين ملكاً وأميراً ورئيس دولة ، كان من بينهم من ملوك أوروبا ملك النرويج والسويد والدانمرك وبلجيكا واليونان ، ومن ملوك آسيا الملك حسين وملك تايلاند ، ومن ملوك أفريقيا الامبراطور هيلاسلاسى ، ومن رؤساء الدول الرئيس بودجورنى من الاتحاد السوفييتى والرئيس فرنجية من لبنان والرئيس بورقية من تونس ، وكل حكام دول الخليج ، كما حضر الأمير فيليب زوج ملكة بريطانيا ، والأميرة آن ابنته وحضر عدد من رؤساء الوزراء .

وقد أقيمت فى « برسوبوليس » مدينة من خيام الترف فى عاصمة قورش ، ومع أن أمجاد قورش قد انتهت منذ عهد بعيد ، وحلَّتْ بيران ظروف من الآلام والمعاناة والانكماش كما رأينا من دراساتنا السابقة ، فإن الشاه فيما يبدو كان يحلم باسترجاع الماضى ، وقد بدأ بتخويف جيرانه وإعداد الجيوش التى ذكر أنها تفوق جيوش بريطانيا فى منطقة الخليج وأحيا اتجاهات قورش فى التعاون مع اليهود فكان ذلك الحفل الأسطورى له مغزى رهيب .



البناء الشاهق لضريح الامبراطور قورش
الذى شيده الشاه بمناسبة الاحتفالات الاسطورية



استعراض للطالبات
بشوارع ايران في الاحتفالات الاسطورية
بمناسبة مرور ٢٥ قرنا على تأسيس امپراطورية قورش

ولنعد الى الاحتفالات الأسطورية في مهرجان قورش لنذكر أنها تكلفت بليارات من الدولارات ، لأن الشاه أعاد الحياة إلى ذلك الماضي السحيق ، فالملابس والمظاهر كانت تحمل طابع ذلك العهد البعيد ، وقد صُنعت فرنسا أجمل الملابس للجنود وللمشتركين في العرض من المدنيين كما صُنعت الخيام الخلابة المكيفة الهواء ، وحملت الطائرات الطعام الساخن من مطعم مكسيم بباريس وأضاعت انجلترا شوارع طهران فجعلتها تموج بالبهجة ، وكان الشاهنشاه يستقبل ضيوفه وهو في قمة الأناقة والفخامة والأبهة ، كان ذهبي الألوان ماسي اللمعان ، ولم يكن يدري أنه سيسقط في نفس العقد الثامن من القرن العشرين ، ذلك العقد الذي شهد الأبهة وشهد النهاية . ولله في خلقه شؤون ، وسبحان الدائم .

وقد نشر الأستاذ مصطفى أمين (١) تحليلا لموقف الشاه قبيل نهايته ووضّح بعض أخطاء الشاه وقد ذكرنا الكثير منها في دراستنا السابقة ، ولكننا نقتبس فيما يلي قليلا من أفكار مصطفى أمين ، فلهذا الكاتب اتجاهاته القوية تجاه الديمقراطية واحترام حق الشعوب ، وهو لهذا ينال من المخلصين أعمق تقدير ، ويرى مصطفى أمين أن أخطر أخطاء الشاه هي ما يلي :

- ١ — كان سىء الاتجاه نحو جيرانه ، ويحاول بعث الخوف الدائم في حياتهم .
- ٢ — كان يَعدُّ ولا يفى ووعوده تجاه الديمقراطية ونزاهة الانتخابات كثيرة ولكنها لم تر النور .
- ٣ — اهتم بالمصانع والمباني ونسى الإنسان الإيراني ، وأول شرط في المدنية هو الاهتمام بالإنسان .
- ٤ — تجاهل أو جهل مولد طبقة جديدة من الناس في إيران لا تخضع كما خضعت الأجيال السابقة .

(١) أخبار اليوم : في ٦ يناير سنة ١٩٧٩ .

٥ — حمى عرشه بالحرس والجنود ، والعرش لا يجرسه إلا حب الشعب •

٦ — صدق تقارير رجاله الذين أوهموه أنه محبوب ، وكان مكروهاً ملعوناً •

وقد انتهى الرجل ، وخلف أسوأ الذكريات ، وترك لأولاده عبئاً ثقيلاً
لعلهم يستطيعون مواجهته بوجه غير وجه أبيهم ليعيشوا في شيء من الأمن
بعد ما لا قوة من عناء •

السفارتان : السوفيتية والأمريكية بإيران في عهد الشاه :

لعل مما يوضح نفوذ روسيا وأمريكا بإيران في عهد الشاه أن نور
وصفا لسفارتيهما في طهران في ذلك العهد نقلاً عن شاهد عيان :

تتكون السفارة السوفيتية من مجموعة من المباني يحيط بها سور مرتفع
توجد بداخله عدة قصور ، وعدة منازل صغيرة ، وعدة بيوت كل منها
من طابق واحد ، كما توجد عمارات سكنية ومستشفى ومحطة لتوليد
الكهرباء ، وتوجد أيضاً بحيرة فيها قوارب للتجديف ، وفيها كثير من البجع ،
كما توجد داخل هذه الأسوار أيضاً غابة بها قطع من الغزلان ، وفي
أحد الجوانب يوجد قصر اسمه قصر الأتابك ، وهو يشير إلى أنه في هذا
القصر كان أحد المماليك يتولى تربية ولي العهد حتى يبلغ سن الرشد ،
وقد تحول هذا القصر حالياً إلى متحف يعقد فيه السفير السوفيتي
حفلات استقبال كبيرتين مرتين في العام ، الأولى في احتفالات عيد العمال في
أول مايو ، والثانية في احتفالات ذكرى ثورة أكتوبر •

وفي هذه المستعمرة السوفيتية الواسعة دعا ستالين سنة ١٩٤٣ الرئيس
روزفلت ليقوم معه فيها خلال المؤتمر الذي حضره الثلاثة الكبار آنذاك
في طهران •

ومما يذكر أن السور المرتفع حول هذه السفارة سور مكهرب ، وأن جميع العاملين في هذا المجمع من السفير إلى الخدم مواطنون سوفيت •

أما السفارة الأمريكية فممنطقة غاية في الفخامة • تقع على مساحة شاسعة قدرها ٦٠ هكتارا (حوالى ١٤٣ فداناً) وتضم ثلاثين مبنى متعددة الأشكال ، أحدها مكتب رئيسى ضخم ، والثانى مقر السفير ، والثالث مركز قيادة البعثة العسكرية ، والرابع مركز الاستعلامات ثم القسم التجارى ، ومنازل الملحقين وغيرها (١) •

والسفارتان توحيان بالرهبة ، وكانتا في عهد الشاه توحيان بالسيطرة والاذلال •

الجمهورية بإيران

كان خروج الشاه من إيران وعودة الإمام الخميني إليها بمثابة انتهاء الملكية بإيران وبدء نظام جديد ، وكان الشاه قد كوّن مجلس وصاية للقيام بعمل الملك إلى أن يعود ، ولكن عودة الإمام الخميني قضت على آمال الشاه ، وقضت على نظام حكمه ، وبدأ العالم يتطلع إلى النظام الجديد وإلى الحكومة الإسلامية التي ستشرق في إيران .

وقبل أن نتتبع الأحداث في إيران العهد الجديد ، أقرر أنني رأيت الناس في مصر يستقبلون الثورة الإسلامية التي حققت النجاح بألوان من الغبطة والسرور ، وكان كل مصري يحس أن الثورة ثورته ، وأن نجاح الزحف الإسلامي نجاحاً له ، وعلى الرغم من موافقة الشعب المصري أو أكثره على استضافة الشاه لحمايته من التشرّد وتقديم العلاج له ، فإن الشعب المصري كلّّه كان فرّحاً بنهاية عهده الأسود ، ووقف أعمال المظالم التي حفل بها عهده ضد الإيرانيين ، وضد عرب الخليج والجزيرة العربية ، وضد المسلمين الذين اعترف بألد أعدائهم الصهاينة ، وتبادل معهم التمثيل الدبلوماسي ، دون حاجة تدعو إلى ذلك .

وفي وسط هذا الفيضان من السرور استجبتُ أنا واستجاب سواي من المفكرين المسلمين لنشر الاتجاهات الدينية للشيعة ، ولنوضح أن الدراسات الجديدة قرّبت الفروق بين أهل السنة وبين الشيعة ، وأن على المسلمين جميعاً أن يتعاونوا لخدمة أهدافهم المشتركة . وبدلنا جهوداً كثيرة لكشف عيوب نظام الشاه الذي اتجه للأفول ، ودعونا من الأعماق اقادة العهد الجديد بالتوفيق والسداد .

ذلك كان إحساسى كمسلم وكمصري ، وهو في الحق كان إحساس الجميع حولى ، وفي وسط هذا الإحساس بدأت الأمور تسير على نحوٍ توضحه الدراسات التالية التي نسجلها من يوم إلى يوم .

يوميات الحياة في إيران الجديدة

في ٣ فبراير سنة ١٩٧٩ أعلن الإمام الخميني أنه تمّ تعيين أعضاء المجلس الثوري الإسلامي الذي سيقوم رئيسه بتشكيل حكومة مؤقتة •

وأعلن أنه سيتم إجراء استفتاء شعبي حول اعلان جمهورية إسلامية بالبلاد عقب تشكيل الحكومة التي ستشرف على هذا الاستفتاء •

وطالب الإمام الخميني رجال الجيش بعدم إطلاق النار على الشعب والوقوف إلى جانبه ، فالجيش من الشعب وينبغي أن يكون موقفه أن يحمي الشعب لا أن يعاديه ، وذكر أن الذين فروا من كبار القواد سيقبض عليهم ، ويعاقبون على ما ارتكبوا ضد الشعب ، وكان ذلك بمثابة تهديد للآخرين •

وفي أوائل ابريل ١٩٧٩ : أجرى استفتاء عام لقيام الجمهورية وقد أجزّته حكومة مهدي بازرجان التي كانت قد تكونت كحكومة مؤقتة ، وقد ذكرت الأنباء أن أكثر من ٩٩٪ وافقوا على قيام الجمهورية الإسلامية بإيران •

واختير أبو الحسن بنى صدر رئيساً للجمهورية في انتخاب عام ، نال فيه ٧٥٪ من أصوات الناخبين ، وذلك لأن الإحساس الذي كان معروفا آنذاك أن الإمام الخميني يؤيده فهو رقيق المنفى في فرنسا •

وأعلن دستور سُمي « الدستور الإسلامي » وفيه كثير من نصوص دستور ١٩٠٦ ، وقد وضع فيه نص يقرر أنه في حالة وجود فقيه اكبر كالخميني فإنه يكون له السلطة العليا في الدولة ، وفي حالة غياب الفقيه تنتقل السلطة الى لجنة من الأمناء •

لنلاحظ للأسف الشديد أن روح الثأر كانت عاتية ، فقد قبض على بعض الناس بشكل تعسفي ، وأعدم ٣٥٠ شخصا في الشهور الثلاثة الأولى

واستمر تنفيذ أحكام الإعدام بعد ذاك لأوهى الأسباب ، وبعد محاكمات تعد ضرباً من السخرية بالعدالة ^(١) ، وكم كنا نتمنى أن يسود الإحساس بالرحمة والعدل وألا تسود الرغبة في الثأر ، وبخاصة أن المحاكمات التي عقدت كانت سريعة وجماعية أحياناً ، ولم تُعطَ ضمانات كافية ليدافع المتهمون عن أنفسهم ، ثم أن الشاء هو الذي يتحمل أكبر المسؤولية أو كلها ، وعلى كل حال فقد كنا نتمنى ألا تُصَبَّغ الثورة بالدم وأن تتخذ من الرسول نموذجاً لها حينما هتف بأهل مكة الذين طالما أسرفوا في تعذيبه وتعذيب المسلمين : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء ، وكان هذا هو كل الحساب بين المنتصرين والمستسلمين •

الرهائن الأمريكيون :

في ٤ من نوفمبر سنة ١٩٧٩ احتل الطلبة المواليون للإمام الخميني والعاملون بإرشاده السفارة الأمريكية بطهران واحتجزوا ستين موظفاً كرهائن لتسليم الشاء وأمواله ، وكان هذا عملاً استنكره الناس جميعاً تقريباً ، فلم يحدث له نظير في التاريخ ، وكان ذكر الطلاب مثيراً للاشمئزاز ، وكان على الثورة أن تواجه الأمور بوضوح فتقرر أن هذا التصرف بإرادتها • وقد صدرت قرارات بإطلاق هؤلاء الرهائن من محكمة العدل الدولية ومن مجلس الأمن ومن الهيئات المختلفة ولكن إيران لم تستمع لهذه النداءات •

وقد عجب العالم لأن إيران قررت إطلاق الأمريكان من أصل أفريقي ، وهذا التفريق لم تعرفه المدينيات ، وقد رفض هؤلاء أن يخرجوا دون إخراج الجميع ، ولكن تعليمات صدرت لهم من الولايات المتحدة بقبول ما عرض عليهم تقليلاً للمأساة •

وهدد الطلاب بأن الولايات المتحدة لو حاولت إطلاقهم بالقوة ، فإنهم سيقتلون الرهائن • •

(١) محمد حسنين هيكل : مدافع آية الله ص ٢٤٥ •

وقد ظل هؤلاء الرهائن حديث الناس جميعا أكثر من عام واعتبر هذا التصرف منافياً للاتجاه الحضارى ، ولم يطلق الرهائن إلا عشية انتهاء عهد كارتر وبدء عهد ريجان فى يوم ٢٠/١/١٩٨١ .

ولم تستفد إيران أى شىء من حجز هؤلاء الرهائن ، ومن العجيب أن أول رئيس لجمهورية إيران « أبو الحسن بنى صدر » صرّح بأن إيران هى التى أصبحت رهينة ، إذ توقف تصدير البترول منها ، وجمّدت أرصدها فى الخارج ، وعانت شرّ عناء من جراء هذا العمل الأهوج .

وقد استقال مهدى بازرجان بعد يومين من القبض على الرهائن أى فى يوم ٦ نوفمبر سنة ١٩٧٩ وذلك للصدام الذى ظهر بينه وبين العناصر المتطرفة التابعة للإمام الخمينى .

ويقول محمد حسين هيك أنه قال للإمام الخمينى إن القبض على الرهائن عمل يخالف القانون الدولى . فأجاب الإمام الخمينى :

هل منع القانون الدولى الشاه من وضع يده على ثروات البلاد ؟

هل منع القانون الدولى الحكومة الأمريكية من الاطاحة بحكومة إيرانية شرعية (حكومة مصدق) وقتل زعمائها ؟

إننا نرى أن القانون الدولى لم يُحتَرَم قط فى حالة إيران ، وبالتالي لا نرى أى مبرر يفرض علينا أن نحترمه الآن (١) .

أبو الحسن بنى صدر :

« أبو الحسن بنى صدر » هو الرئيس الأول للجمهورية الإيرانية الذى حمل أكبر أعباء الثورة سياسيا وعسكريا وهو قبل ذلك زميل الإمام الخمينى

في المنفى ولكنه أخيراً اعتبر خائناً ، وُطِلبَ القبض عليه فاستطاع الهرب
وظهر في فرنسا في شهر يونيو سنة ١٩٨١ •

وقد كان التناقض واضحاً منذ البداية بين الدكتور أبو الحسن بنى صدر
والتيار الذى يمثله داخل الثورة الإيرانية من ناحية ، وبين بقية العناصر
الأخرى التى شاركت فى صنع الثورة وبخاصة رجال الدين من ناحية أخرى •

وقد قيل إن من مصلحة أى ثورة أن تستوعب داخلها أكبر عدد ممكن
من الاتجاهات والأفكار السياسية فى حالة ما إذا كانت كلها متفقة على
ضرورة التغيير •• وقيل أيضاً أن بنى صدر بمثابة « الابن » لآية الله
الخميني •• ولذلك غربما يكون هو مستقبل الثورة الإيرانية •

وفى خضم الحماس الثورى الذى أحاط بسقوط الشاه اتضح الفرق
الكبير بين دعوة بنى صدر للاتجاه بكل قوة نحو المستقبل ، وبين ما تتمسك
به العناصر المتطرفة التى تطالب شعب إيران بأن يظل إلا ما لا نهاية ينظر
إلى الماضى فى غضب •

وفى يناير ١٩٨٠ تم انتخاب بنى صدر (٤٨ سنة) رئيساً للجمهورية
وَمِنِى (حسن آيات) مرشح المتطرفين بهزيمة ساحقة •• وهنا أدرك
« آيات الله » خطورة ذلك الرجل الهادى الذى يبتسم دائماً فى ثقة •
ومما زاد من خطورة بنى صدر بالنسبة للمتطرفين أنه كان يحظى بثقة
الخومينى نظراً لأنه عاش معه فى منفاه فى (نوفيل لوشتاتو) بفرنسا •

ولما تمَّ احتجاز الرهائن الأمريكان داخل السفارة الأمريكية فى طهران
انطلقت الخطب الحماسية التى حاول المتطرفون المزايدة بها على رئيس
الجمهورية الشرعى •

ووسط هذا الصخب الهادر كان بنى صدر هو الوحيد الذى طالب بأعداد
طائرة تقل الرهائن إلى بلادهم بعد أن أدرك مدى الخسارة التى لحقت
بإيران بسبب هذا العمل •

ورفضوا رأى بنى صدر وقال صادق خلخالى قاضى المحاكم الثورية
الشهير أن رئيس الجمهورية يمكن الإطاحة به .

والغريب أن جميع المتطرفين وافقوا بعد شهر على إطلاق سراح الرهائن
وبلا شروط تقريبا !!

ومن بين المواجهات التى شهدتها الصراع بين المتطرفين من أنصار حزب
الجمهورية الإسلامية وبنى صدر موقعة تعيين محمد على رجائى رئيساً
لوزراء إيران ، وكان بنى صدر يدرك أن رجائى شخصية غاية فى التطرف ،
وأنه قام بحملة تطهير ظالمة داخل وزارة التعليم عندما كان على رأس هذه
الوزارة . وطالب رئيس الجمهورية بأن يتولى هذا المنصب أحد الشباب
ذوو الكفاءة ليساعده فى تحقيق أهداف الثورة ورخاء الشعب الإيرانى .
ولكن البرلمان الذى يسيطر عليه المتطرفون أصدر قراراً بتعيين رجائى فى
هذا المنصب ، وأعلن « بنى صدر » أنه يرفض ذلك ولكنه يحنى هامته
لإرادة البرلمان .

وأخذ المتشددون يضيقون الحلقة على بنى صدر وقرروا ضرب
أحد الأعمدة القوية فى جناح رئيس الجمهورية ، ألا وهو صادق قطب زاده ،
الذى كان يشغل منصب وزير الخارجية ، وانتهزوا فرصة حديث أدلى به
للتليفزيون الإيرانى وقالوا إنه هاجم الثورة واعتقلوه . ولم يجد بنى صدر
ما يفعله سوى أن يتوجه إلى السجن الذى اعتُقل فيه قطب زاده ليعلن
أنه سيقبض عليه هو أيضاً ما لم يفرج عن وزير الخارجية .

وخرج قطب زاده من السجن ولكن بعد أن فقد منصبه (١) .

وتفجرت الحرب بين العراق وإيران وأصدر خومينى قراراً بأن يتولى
بنى صدر منصب القائد الأعلى للقوات المسلحة ورغم أن بنى صدر ليست

(١) قبض عليه عقب ذلك فى إبريل سنة ١٩٨٢ واتهم بمحاولة قلب نظام
الحكم والتخلص من الإمام وحكم عليه بالاعدام مع متهمين آخرين ونفذ فيه حكم
الاعدام فى سبتمبر ١٩٨٢ .

له خبرات عسكرية إلا أن جميع المراقبين أشادوا بحسن أداء الجيش الإيراني في هذه الحرب وبخاصة بعد الضغوط التي تعرض لها الجيش والمشكلات التي واجهته بسبب نقص الذخيرة وقطع الغيار ، وعاش بنى صدر معظم هذه الفترة في جبهة القتال بين الجنود وفي وسط الخطر .

وكانت الفرصة الذهبية لخصومه الذين بدأوا يشيرون إلى مسئوليته عن عدم نجاح الجيش الإيراني في شن هجوم مضاد لطرد العراقيين ، رغم أنهم كانوا أول من يعرف أن المسئول الحقيقي عن ذلك هو نقص الذخيرة ومعادة الغرب .

وهنا أدرك بنى صدر أن أسلوب المهادنة لم يعد صالحاً مع أمثال خلخالي وبهيشتي لتوجه إلى الشعب ليكشف له عما يحدث في إيران ، ففصح ما يفظله المتطرفون داخل السجون من تعذيب وحشى للمعتقلين . قال إن نفس أساليب الشاه تعود إلى إيران ، وإن الديمقراطية التي دفع الإيرانيون ثمنها من دمائهم في الشوارع وتصدوا بصدورهم لطلقات الرصاص من أجلها تداس بالأقدام .

وجن جنون « آيات الله » فيها هو رئيس الجمهورية يحاول أن يلقي القفز في وجوههم وأن يتخطاهم ويصل إلى الشعب ، وكان كل شيء معداً والاتهامات جاهزة . فهوجم « بنى صدر » أشد هجوم ، وأعدمت السلطات ١٥ من أقرب معاونيه وألقت القبض على زوجته « أزرا » (٣٦ سنة) وهي توزع المنشورات في الشوارع تدعو الشعب لإعلان موقفه تجاه ما يحدث لرئيسٍ انتخبه الشعب .

كذلك أعتقلت أيضاً السيدة (غازان قاربور) وهي زوجة عضو بالبرلمان وهي تصرخ في الناس « دَمُ بنى صدر سيكون في أعناقكم » واستطاع أبو الحسن الفرار (١) . وقد اختير بعده لرياسة الجمهورية محمد علي رجائي

(١) انظر تحقيقاً نشرته صحيفة الأخبار في ١٩٨١/٦/٢٣ .

الذى سنذكر مصرعه بعد قليل ، وبعد رجائي اختير على خاميني وهو رئيس الجمهورية حتى الآن (يوليو ١٩٨٢) •

حركات ضد الثورة :

حدثت — للأسف الشديد — حركات " مروعة ضد ثورة الإمام الخميني وكانت صدئى لحركات الثأر التى سبق الحديث عنها ، أو كانت بإيعاز شيوعى لتدمير هذه الثورة ، ومن أخطر هذه الحركات ما حدث فى ٢٩ يونيو سنة ١٩٨١ ، فقد أعلن فى طهران أن ٧٢ من الوزراء ونوابهم وأعضاء البرلمان وكبار المسئولين فى حكومة خوميني لقوا مصرعهم فى حادث الانفجار المروع بمقر حزب الجمهورية الإسلامية ، ومازال البحث مستمراً تحت الأنقاض عن ضحايا آخرين •

وقد تضمنت قائمة القتلى أية الله محمد بهيشتى زعيم حزب الجمهورية الإسلامية ورئيس المحكمة العليا وعضو مجلس الرئاسة الثلاثى الذى خلف بنى صدر •• كما أن بين القتلى ٤ وزراء و ٦ نواب وزراء و ٢٠ عضواً بالبرلمان الإيرانى و ٣٠ على الأقل من أفراد الحرس الجمهورى •

وقد أعدمت السلطات الإيرانية ٢٠ شخصاً رمياً بالرصاص بعد ساعات قليلة من الانفجار وبذلك بلغ مجموع من تمَّ إعدامهم خلال ثمانية أيام ٧٩ شخصاً •• وينتمى هؤلاء الأشخاص إلى منظمات المعارضة التى أيدت الرئيس الإيرانى السابق أبو الحسن بنى صدر التى أشار المسئولون الإيرانيون إلى مسئوليتها عن نصف مقر حزب الجمهورية الإسلامية •

وبعد شهرين من هذا الحادث الأليم ، وقع حادث آخر أشد إيلاماً ، ففى آخر أغسطس من نفس العام أذاعت طهران أن كلا من محمد على رجائى رئيس الجمهورية الذى انتخب بعد « أبو الحسن بنى صدر » وأن رئيس الوزراء « محمد جواد باهنوار » قد لقيا مصرعهما فى الحريق الهائل الذى شبَّ فى مبنى رئاسة الوزارة الإيرانية نتيجةً لانفجار شحنة ضخمة من القنابل الحارقة مما أسفر عن مصرع ٥ أشخاص آخرين وإصابة ١٥ من بين كبار المسئولين •

وأجمعت تحليلات المراقبين السياسيين في العواصم العالمية على أن نظام الإمام الخميني الذي نفذ عمليات الإعدام الجماعية فيما يزيد على ٧٥٠ شخصاً في غضون الشهرين الماضيين وحدهما ، يلاقى مقاومة شديدة من المعارضة الإيرانية ، ولكن الإمام الخميني كان أكثر تجلداً وشجاعة إزاء هذه الأحداث فقد تحدث إلى جماهير الشعب الإيراني التي كانت تردد أمام مبنى البرلمان الذي يضم جثمان الرئيس رجائي ورئيس الوزراء باهونار (احمنيا خميني حتى يعود لنا المهدي) ، فقال أن عمليات الاغتيال لن ترغم الثورة الإسلامية على التراجع عن مسيرتها كما أنها لن ترغم إيران على الاستسلام ، وقال أن طوابير من الشهداء مازالت على استعداد لأن تقتدي بالثورة الإسلامية بحياتها وأرواحها •

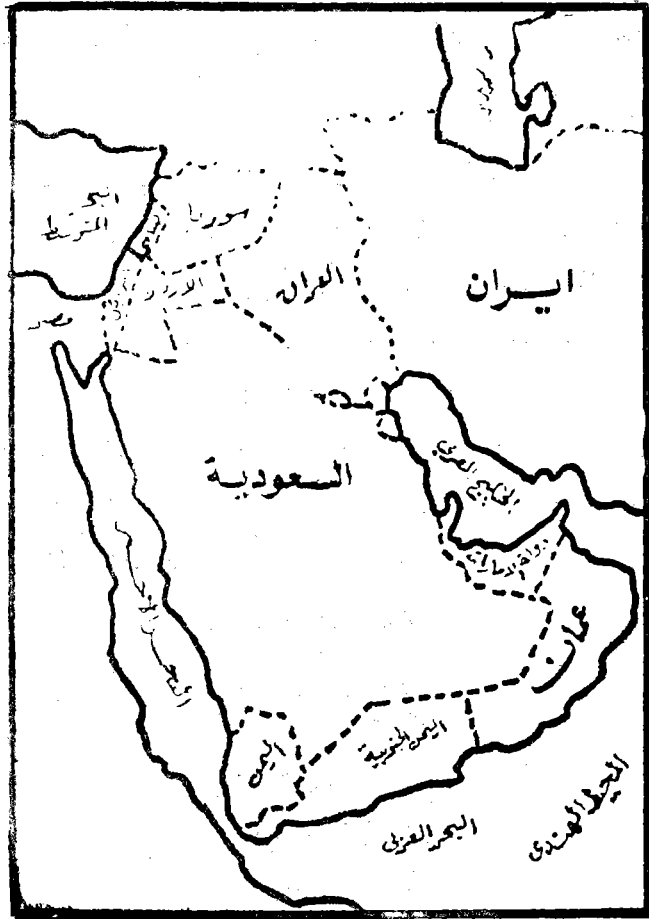
ودعا الخميني أبناء الشعب الإيراني الذين ظلوا يتوافدون على مقره الخاص في ضواحي العاصمة طهران إلى الاشتراك في الانتخابات القادمة التي تجرى في البلاد في غضون ٥٠ يوماً من الآن لتكون شاهداً على استمرار الثورة وتحدي أعدائها في الداخل والخارج •

الحرب مع العراق

في أوائل سبتمبر سنة ١٩٨٠ كانت العلاقات بين إيران والعراق قد وصلت إلى أقصى درجة من السوء لأسباب متعددة سنتحدث عنها فيما بعد ، وتقول المصادر العراقية إن الطائرات الإيرانية بدأت تقصف مدن العراق ابتداءً من الخامس من سبتمبر •

وفي ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٨٠ اجتازت قوات العراق حدود إيران ، واستولت على منطقة بجوار شط العرب رداً على عدوان إيران ، ولاسترداد منطقة كانت العراق قد تنازلت عنها لإيران طبقاً لمعاهدة الجزائر سنة ١٩٧٥ ، إذ أن إيران لم توفّ بتعهداتها في هذه المعاهدة تجاه العراق • ويقول محمد حسين هيكل إن الاتفاق الذي كان قد تمّ بين إيران والعراق

كان يضمن اعادة تخطيط كامل للحدود تحصل العراق من خلاله على مائة كيلو متر مربع من الأرض يستقيم بها خط الحدود العراقية وأقيمت لجان مشتركة لتحديد المناطق التي ستحصل عليها العراق .

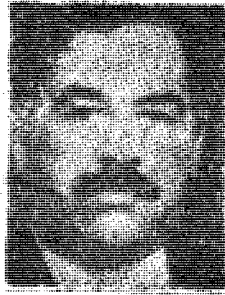


العراق وإيران وعمليات عسكرية بين دولتين مسلمتين

وعندما قامت الثورة بإيران توقفت أعمال اللجان فجأة ، وأحس العراقيون أنهم نفذوا الجزء الخاص بهم في اتفاقية الجزائر ، ولكنهم لم

يتسلمون الجزء المقابل الذي يستحقونه ، ولم يجدوا أى تشجيع من خلال كلمات « الخميني » أو أفعاله ، واضطرت العراق لذلك أن تستعيد الأرض التي كانت قد تركتها لإيران ^(١) ، وقد اعتبرت إيران هذا التصرف عدواناً عليها ، وأن هذه المنطقة أصبحت بحكم هذه المعاهدة التي وقّعها صدام حسين نفسه أرضاً إيرانية ، وستحارب حتى تستردها من العراق •

وفي أواخر ديسمبر سنة ١٩٨٠ حصل تطور جديد في هذه الحرب فقد قرر صدام حسين رئيس العراق أن تغزو قواته كردستان ، فتقدمت القوات العراقية في هذه المنطقة وتوغلت كما تقول الأنباء عشرات الكيلو مترات ، وأعلن الرئيس العراقي في البيان الرسمي الذي ألقاه آنذاك أمام مجلس قيادة الثورة في بغداد أن أوامره الجديدة للقوات العراقية بغزو إقليم كردستان قد وضعت القوات التابعة لبلادها على جبهة تمتد ١٩٣ كيلو متراً في مناطق الحدود العراقية الإيرانية التركية المشتركة حتى يتم إرغام النظام الإسلامي الحاكم في إيران على التخلّي عن عناده والاعتراف بحقوق السيادة العراقية على الممر المائي لشط العرب •



صدام حسين : وقفة بين الهجوم والدفاع

وهكذا بدأت الحرب وتطورت ، ولنقف هنا وقفة لنستذكر أن تقوم حرب بين دولتين إسلاميتين ، وأن يريق المسلم دم المسلم ، فالقاتل والمقتول خسارة كبيرة على الأمة الإسلامية ، والقرآن الكريم يقول « وان طائفتان

من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » وقد حاولت بعض الرياسات الإسلامية أن تثوقف المعركة ولكن المتحاربين لم يستجيبوا ، فقد كان كل من الجانبين يضع شروطا تعرقل الطريق للسلام ، واقترح بعض المفكرين أن يتولى عملية المصالحة فريق من العلماء ، إذ عجز رجال السياسة عن الوصول إلى حل ، ولكن أحدا لم يسمع لاقتراح العلماء فقد أضاع السياسة هيئة العلماء منذ أمد بعيد ، واستمرت الحرب بضراوة منذ ذلك التاريخ حتى كتابة هذه السطور في أواخر يوليو سنة ١٩٨٢ وإذا كنا قد عجزنا عن المصالحة فإننا نستتكر الحرب والدم .

ولهذه الحرب أسباب تاريخية ، ودوافع مباشرة ، وسنقوم بعرض هذه وتلك فيما يلي :

الأسباب التاريخية للحرب :

هناك أسباب تاريخية لهذه الحرب ، وهذه الأسباب تتلخص فيما يلي :

أولا : قضية الحدود :

في ٣١ مايو سنة ١٨٤٧ تم توقيع معاهدة « أرضروم » بين الدولة العثمانية والدولة الفارسية بعد صراع طويل ، وبناء على هذه المعاهدة أعطت الدولة العثمانية التي كانت العراق آنذاك جزءا منها مدينة « المحمرة » إلى الحكومة الفارسية ، وغيّرت الحكومة الفارسية اسم هذه المدينة فجعلته « خورم شهر » وأصبحت هذه المدينة شديدة الأهمية بالنسبة لإيران لأنها أشهر ميناء على شط العرب ، ومنها يصدر ٦٤٪ من صادرات إيران البترولية .

ومن التنازلات المهمة التي كسبتها إيران من العراق منطقة « جزيرة خضر » التي أسمتها إيران « عبدان » ومنها كذلك الأرض العراقية الواقعة على الضفة الشرقية لشط العرب وهي منطقة عربستان وقد أسمتها إيران

« خوزستان » أو « الأهواز » ، وفي مقابل ذلك تنازلت إيران للعراق عن بعض مناطق « السليمانية » التي تقع إلى الشمال من العراق .

وفي نوفمبر سنة ١٩١٣ حققت إيران مكاسب جديدة في معاهدة جديدة أجرتها مع الدولة العثمانية كذلك ، وبمقتضى هذه المعاهدة تنازلت الحكومة العثمانية لإيران عن جزء من مياه شط العرب وكان ذلك بضغط بريطانيا التي كانت تعادى الدولة العثمانية وكانت هذه الدولة تعرف آنذاك بالرجل المريض .

ونقضت إيران هذه المعاهدات من جانب واحد ، وبحكم القوة وبحكم أن العراق كان يكافح من أجل الاستقلال عن بريطانيا التي حلت في السيطرة عليه محل الدولة العثمانية ، استطاعت إيران أن تحصل على مزيد من التنازلات فيما يتعلق بمياه شط العرب وذلك في معاهدة ١٩٣٧ .

وفي سنة ١٩٦٩ ألغت إيران هذه المعاهدة من جانب واحد وبدأت تطلب تنازلات جديدة على أساس الأمر الواقع ، وهو اعتبار شط العرب مياهاً دولية ، بل في فترة من الفترات مياهاً إيرانية يتحتم أن ترفع السفن العابرة به علم إيران .

وفي سنة ١٩٧٥ تمت الموافقة في معاهدة الجزائر على حدود جديدة وقد ذكرنا من قبل ما أورده الأستاذ محمد حسنين هيكل من أن العراق وفي التزاماته في هذه المعاهدة ، ولكن الجانب الإيراني لم يقيم بالوفاء بالتزاماته لا في عهد الشاه ولا في عهد الثورة ، فاضطر العراق أن يسترجع ما تنازل عنه ، وأن يستعيد المنطقة التي كان قد تنازل عنها .

ويلاحظ أن اتفاقيات ١٨٤٧ و ١٩١٣ و ١٩٣٧ تمت دون أن يكون للعراق صوت ، فقد تمّ بعضها مع الحكومة العثمانية وبعضها مع بريطانيا .

ثانيا : قضية النفوذ في الخليج :

تعتبر هذه القضية من أخطر القضايا ، فإيران كان لها في التاريخ القديم وبعض مراحل التاريخ الوسيط نفوذ في منطقة الخليج ، وقد قام صراع طويل حول تسمية الخليج فرأت إيران أنه يسمى « الخليج الفارسي » وكان لها هدف السيطرة من وراء هذه التسمية واتجهت الدول العربية إلى تسمية « الخليج العربي » وقنعت عثمان بتسمية « الخليج » دون وصف ، وقد حققنا هذه التسمية وأهداف إيران من تسمية الخليج في الجزء السابع من هذه الموسوعة فليرجع لذلك من يشاء .

واتجه العراق أيضا لمد نفوذه إلى دول الخليج ومنطقة الخليج ، وقد جرى نزاع مبكر بين العراق في عهد عبد الكريم قاسم وبين الكويت ، وتطلعت العراق لفرض سيطرتها على الكويت بل ذكرت أن الكويت جزء من منطقة البصرة ولعل ذلك كان فاتحة لتطلعات أوسع في المنطقة ، ومن أجل الصراع على النفوذ بين إيران والعراق على الخليج أسرع إيران واحتلت الجزر العربية الثلاث عقب أن أخلاها البريطانيون سنة ١٩٧١ وهذه الجزر هي طنب الصغرى وطنب الكبرى وأبو موسى ، وقد قطعت العراق علاقاتها الدبلوماسية مع إيران عقب ذلك ولم تعد العلاقة إلا سنة ١٩٧٣ . (١)

أما الدول العربية بالخليج فيمكن القول إنها تقع بين أمرين أحلاهما مراً كما يقولون ، ولكنها كانت مرغمة إلى الوقوف بجانب العراق فذلك أنسب لها .

ثالثا : قضية الأقليات :

كانت قضية الأقليات ، وازدواج الولاء في كل من إيران والعراق ، عاملا من العوامل الأساسية لبداية النزاع بين العراق وإيران . .

(١) انظر موقع الجزر الثلاث على الخريطة التي أوردناها من قبل لمضيق هرمز والجزر الثلاث .

فهناك مسألة الأكراد بين العراق وإيران ومسألة العرب في إيران ، والمشيعة بالعراق الذين تطلعت إيران الى ولائهم لها معتبرة نفسها مركز التشيع . وفي شهر يونيو عام ١٩٧٩ ، ألى بعد أربعة شهور من قيام الثورة في إيران ، بدأت اتهامات إيران للعراق بأن طائراته تقصف مناطق في أذربيجان الكردية — الإيرانية في أثناء مطاردتها المتمردين الأكراد الذين نشطوا بعد الثورة الإيرانية .

كما اتهمت إيران شقيق صدام حسين (مدير المخابرات في العراق) بأنه يحصل على الأموال من عملاء الشاه في العراق ، والكويت لتهريب الأسلحة إلى الأقلية العربية في خوزستان (عربستان) . وكشف العراق بعد ذلك عن موقفه في عرب خوزستان ، وعبرت عن هذا الموقف صحيفة الثورة العراقية في ١٤ يونيو سنة ١٩٨٣ بقولها : من الطبيعي أن يتضامن العراق مع شعب عربستان « خوزستان » فهم أشقاؤنا . ويدافعون عن قضية عادلة ضد الظلم والقهر . وقالت الصحيفة : إن إيران اختارت سياسة حمام الدم في معالجة مشكلة عربستان ...

الدوافع المباشرة للحرب

بعد أن ذكرنا الأسباب التاريخية للخلافات بين إيران والعراق نجىء للدوافع المباشرة التي دفعت العراق لهذا الغزو الذي أثبتت الأيام أنه غزو أهوج لم يبن على تخطيط سليم ، ولم يكن فيه أى ضمان حقيقى للنصر .

وأول هذه الدوافع أن العراق انتهاز فرصة ما كانت تعانيه إيران من اضطرابات داخلية منذ رحيل الشاه ، تلك الاضطرابات التي شملت إقصاء عدد كبير من ضباط الجيش ومحاكمة عدد آخر ، والخلافات التي اتضحت بين آيات الله وبين رئيس الجمهورية الأول « أبو الحسن بنى صدر » والقتل بالجملة الذى جعل الدم لا يجف بإيران ، فحسبت العراق أن هذه فرصة ستجعل النصر مؤكداً وسريعاً .

وثانى هذه الدوافع حجز الرهائن الأمريكيين في ٤ / ١١ / ١٩٧٩

وقد استطاعت الدعاية الأمريكية والحق الشرعى لهؤلاء أن تجعل هذه القضية قضية عالمية ، وأن تثير سخط المجتمع الدولي ضد نظام الحكم الجديد في إيران •

ومن هذه الدوافع أن الرئيس صدام حسين تطلع إلى إثبات مجد له لو حقق للعراق ما كانت تأمل فيه •

ومن هذه الدوافع ما برز من بعض الأطراف الدولية ، من تحبيذ لأى عمل ضد إيران ، وبخاصة من المجالات الصهيونية ، إذ طردت إيران في عهدا الجديد ممثل إسرائيل وسحبت اعترافها بهذه الدولة • وظروف غامضة كثيرة وقعت العراق فريستها فزحفت إلى إيران في

٢٢ / ٩ / ١٩٨٠

دوران الحرب :

لقد مرت الحرب بين إيران والعراق بعدة مراحل هي :

المرحلة الأولى :

هجوم كاسح قامت به العراق واستعادت به الأماكن التي فقدتها في معاهدة الجزائر سنة ١٩٧٥ والتي ترى العراق أنها فقدتها تحت ضغط القوة وليس العدل ، كما أن العراق لم تحصل على ما نصت عليه هذه المعاهدة من امتيازات لها •

وكانت العراق تأمل أن تتم مفاوضات سريعة بينها وبين إيران تعترف إيران بمقتضاها بحقوق العراق في هذه المناطق ، ولكن ذلك لم يحدث •

المرحلة الثالثة :

اندفعت العراق للتقدم مرحلة أخرى فاحتلت منطقة « خورمشهر » التي ذكرناها من قبل وأوقفت بذلك دفع النفط الإيراني ، وكانت العراق تأمل أن تكون هذه الخطوة باعثة لإرغام إيران على طلب المفاوضة ، كما صرح بذلك صدام حسين ولكن ذلك لم يحدث •

المرحلة الثالثة ر

المرحلة الطويلة التي قصد بها التدمير والتخريب والدم ، وقد قامت الدولتان بأقصى الدرجات في هذه المرحلة مما جعلها تتسم بالفراغ العقلى والاجتماعى ، ونشطت كل دولة في هذا المجال أعظم نشاط ، فانطلقت الطائرات العراقية تدمر كل شىء إيرانى ، وتقضى على ما تستطيع أن تصل إليه من أهداف عسكرية أو مدنية ، وترى فيضان الدم هنا وهناك ، وانطلقت الطائرات الإيرانية تحقق نفس الهدف بقسوة وشراسة .

وخلال فترة طويلة كانت المعركة تدور طبقا لقانون « محاكك سر » فلم يحصل هناك تقدم يُذكر خلال هذه المرحلة من الإيرانيين أو العراقيين ، وقد لعبت بعض الدول دوراً هاماً ليستمر دمار هذه الحرب أطول مدة ممكنة ولتقضى على الدولتين جميعا ، وكان الإحساس العام هو رغبة غير المسلمين في أن يقضى بعض المسلمين على بعضهم الآخر ، بل إن بعض من ينسبون للإسلام أدلوا بدلائهم ليزداد فيضان الدم .

وخلال هذه المرحلة انقلبت اسرائيل التي كانت إيران قد أعلنت قطع العلاقات الدبلوماسية معها ، وطرد ممثلها من الأراضي الإيرانية ، وتسليم دار السفارة الإسرائيلية بطهران إلى ممثلى منظمة فتح الفلسطينية ، قامت إسرائيل بمساعدة إيران ضد العراق واتخذت مساعدتها جانبين مهمين ، في الجانب الأول انقضت طائرات اسرائيل في غفلة من العراق وقضت على المفاعل النووى الذى كانت العراق قد شيدته واعتقدت أنه من مفاخرها ، ولم تتركه الطائرات الإسرائيلية إلا وهو كومة من الرماد ، وعادت هذه الطائرات إلى قواعدها سليمة تماماً كأنها كانت في نزهة هادئة ، وكان ذلك في سنة ١٩٨١ .

أما المجال الثانى الذى قدمت فيه اسرائيل لإيران مساعداتها فهو الجانب العسكرى ، فقد حصلت إيران على أسلحة كثيرة من إسرائيل نشطت جهودها ، وهيأت لها صورا من الكسب الحربى وحصلت إيران كذلك على أسلحة من الاتحاد السوفيتى ، ومن ليبيا وسوريا للأسف الشديد وكذلك من بعض دول الغرب .

بل حصلت إيران على أكثر من ذلك ، على نوع من التدريب والخطط ، يقال أن بعض الدول التي سبق ذكرها قد قدمته للجيش الإيراني .

أما العراق فقد حصلت على أسلحة وذخائر من دول الغرب ، بل حصلت على أسلحة من كثير من الدول التي أمدّت إيران بالأسلحة والذخائر فيما عدا الاتحاد السوفيتي وإسرائيل وليبيا وسوريا وهكذا وُجِدَت دول تَمُدُّ المتحاربين جميعا بالأسلحة والذخائر ، ووجدت العراق في دول الخليج البترولية ملجأ هائلا لها من الناحية المالية ، فقد فتحت هذه الدولُ خزائنها للعراق ، حتى حصلت العراق على عشرات المليارات من الدولارات من هذه الدول ومن المملكة العربية السعودية .

وقامت مصر بدور هائل في نجدة العراق على الرغم من أن مقاطعة العرب لمصر أخذَ القرار بها في بغداد ، ولكن مصر تناست هذه الخطيئة وقَدَّمت العون للعراق في أخرج الأوقات ، وكان عون مصر أنواعا من الأسلحة والذخائر وقطع الغيار ، وقد قامت مصر بذلك وهي تعلن أنها لا تريد حربا بين مسلم ومسلم ، ولكنها في الوقت نفسه لا تريد انهيار دولة عربية إسلامية ، ومعنى هذا أنه لم يكن لمصر خيار فيما اختارته ، فإيران دولة إسلامية ولكن العراق دولة مسلمة وعربية .

وقد نشرت الأنباء أن عون مصر للعراق جاء في أخطر الأوقات وأخرجها حتى أن زعامات العراق بَكَتْ تَقْدِيرًا لهذا الدور المصري الكبير .

ومرة أخرى لقد أثبتت الحرب بين إيران والعراق أن العالم كله تقريبا كان يتوق للقضاء على الدولتين جميعاً وإن اختلفت أسباب هذا الاتجاه .

ما الخسائر التي منى بها الطرفان المسلمان في هذه الحرب ؟

إن الخسائر أعظم من الوصف ولو صدّقنا بيانات العراق لكانت إيران قد انتهت ناساً وممتعاً ، ولو صدّقنا بيانات إيران فإن معناها كذلك

إن العراق قد انتهت كذلك ناسا ومثاعا • والمطلعون يقررون أن الخسائر حتى الآن هي : —

— ٥٠٠ بليار من الدولارات (ويلاحظ أن الحديث عن الملايين لم يعد موجوداً ، وأن الأرقام أصبحت تذكر بالبلليارات لفداحة الخسائر) •

- ١٠٠.٠٠٠ ألف قتيل من الجانبين •
- ١٥٠.٠٠٠ ألفا من الجرحى والمشوّهين والمشردين •
- حقد وبغض يصعب على الزمان أن يزيله •

وفي هذه المرحلة الثالثة ذكرت الصحف والأنباء أن الزعيم الإمام آية الله خوميني أعلن أن الحرب العراقية الإيرانية أسفرت حتى أواخر سنة ١٩٨١ عن مقتل ٦٠.٠٠٠ إيراني ، وإصابة حوالي ١٠٠.٠٠٠ آخرين • بإصابات خطيرة أدت إلى تعويقهم ، وفقدان ٥٠.٠٠٠ أسرة إيرانية لعائلها فضلا عن تشريد أكثر من مليون ونصف مليون من المدنيين •

وهذا التصريح يوضح أن الأرقام التي ذكرناها آنفا عن الخسائر خالية من المبالغة •

مساعي الوساطات :

قامت في هذه الفترة محاولات من المساعي والوساطات عن طريق الأمم المتحدة ودول عدم الانحياز ، والمؤتمر الإسلامي ، ولكن إيران أعلنت أن انسحاب العراق يجب أن يتم أولا وأنه لا مفاوضات وأرض إيران عليها أقدام العراقيين ، وبهذا باءت كل محاولات الصلح بالفشل ، وقد أعلنت العراق أنها مستعدة للانسحاب بشرط أن تكون مطالبها موضع نظر ، ولكن إيران طالبت بانسحاب غير مشروط •

المرحلة الرابعة :

استطاعت إيران خلال الشهور الأخيرة من سنة ١٩٨١ والشهور

الأولى من سنة ١٩٨٢ أن تتغلب على مشكلاتها الداخلية • هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإن الخلافات الداخلية بإيران بدأت تنكمش في مواجهة العدوان الخارجي ، وهكذا قدّمت العراق لإيران أعظم خدمة لتكوين جبهة داخلية شبه موحدة لمواجهة الغزو ، وكانت الجبهة الداخلية شبه ممزقة عقب نهاية حكم الشاه • ؟

وبعد أن تغلبت إيران على مشكلاتها الداخلية ، وتكوّنت بها قوة موحدة ، وحصلت على تأييدات من هنا وهناك عسكرية وسياسية ، قامت إيران بهجوم كاسح على جيش العراق بالأرض الإيرانية ابتداء من أول مارس سنة ١٩٨٢ ، وقد حقق هذا الهجوم نجاحاً عظيماً لإيران فطرّد العراق من خوارمهر واستعاد الإيرانيون أخطر الأماكن التي كانوا قد فقدوها •

ويقال إن إيران في هذه الحرب حذت حذو الصين في دفع كتل بشرية لا عدّ لها لتكسب المعركة ، ولم تبال بالخسائر نظير طرد العراقيين من أرضها ، وقد قلبت هذه المعارك ميزان القوى وأصبح واضحاً أن كفة إيران رجحت في ميدان القتال •

المرحلة الخامسة :

قررت العراق أن تنسحب من إيران تماماً كإجراء من جانب واحد وبدأت الانسحاب فعلاً ، وفي أواخر يونيو أعلن صدام حسين أن قواته قد استكملت انسحابها من كافة الأراضي الإيرانية التي كانت قد احتلتها خلال حرب الخليج التي دامت حوالى عامين •

وقالت وكالة الأنباء العراقية أن القوات العراقية أعيد نشرها على امتداد الحدود الدولية بين البلدين وأنها وُضِعَتْ على أهبة الاستعداد • وحذّر بلاغ عسكري عراقي الإيرانيين من مواصلة القتال ، وأكد أن القوات العراقية على استعداد لتلقي المعتدين درساً قاسياً إذا حاولوا انتهاك السيادة العراقية •

وكان الرئيس العراقي صدام حسين قد أعلن قرار الانسحاب من الأراضي الإيرانية يوم ٢٠ يونيو ١٩٨٢ •

المرحلة السادسة :

في منتصف يوليو سنة ١٩٨٢ أعلنت وكالات الأنباء أن إيران بدأت تهاجم العراق في أرضه ، وقد ذكرت طهران وبغداد ما يلي عن هذه المرحلة :

اقتحمت القوات الإيرانية أراضي العراق أمس لأول مرة منذ اندلاع الحرب بين البلدين ، وتقدمت قوات الغزو الإيرانية مسافة عشرة كيلو مترات في قطاع ميناء البصرة على جبهة عرضها عشرة كيلو مترات • وأعلن العراق أن قواته أوقفت الهجوم الإيراني وأنها شنت هجوماً مضاداً ، وقال بيان للقيادة العراقية أن القوات الإيرانية تتقهقر مخلفة وراءها أعداداً كبيرة من القتلى والجرحى والأسرى • ؟

وأعلن بيان عسكري إيراني أن القوات الإيرانية تقدمت في الأراضي العراقية عدة أميال وأنها أبادت فرقتين وكتيبة عراقية • وقال أن الجنود العراقيين يقعون في الأسر أو يلقون مصرعهم بينما ترحف القوات الإيرانية في أراضي العراق • وكان بيان عسكري إيراني سابق قد ذكر أن مئات من الجنود العراقيين وقعوا في الأسر •

وأعلن المتحدث العسكري إيراني أن الطائرات العراقية شنت غارات متواصلة على ٣ مدن رئيسية في غرب إيران وأصابت أهدافاً مدنية • وقال المتحدث أن المدن الثلاث هي كيرمنشاه وخورم أباد وعيلام •

وأضاف أن المدن الإيرانية الثلاث تعرضت لقصف الطائرات العراقية بعد اقتحام القوات الإيرانية للأراضي العراقية في قطاع البصرة • وأضاف المتحدث أن ستة أشخاص لقوا مصرعهم وأصيب ٥٠ آخرون في الغارات العراقية على مدينة خورم أباد الواقعة على طريق الامدادات العسكرية للقوات الإيرانية التي تقاثل على الجبهتين الشمالية والجنوبية ، وقد استطاعت قوات العراق أن تطرد الإيرانيين خارج حدودها تماماً •

رسالة من الخميني الى الشعب العراقي :

ووجه الزعيم الديني الإيراني آية الله خوميني رسالة إلى الشعب العراقي يطالبه فيها بالإطاحة بحكومته • ودعا خوميني الجيش العراقي إلى تحويل نيران أسلحته إلى صدور قادته واسقاط الرئيس العراقي • وكانت التقارير قد ذكرت أن إيران حشدت ٨٠ ألف جندي على حدود العراق قبل الهجوم الإيراني الذي كان متوقعا في أوساط المراقبين • وقد أعلنت إيران أن قواتها بدأت هجوما واسع النطاق في الجبهة الجنوبية من القتال ضد العراق وأنها ستواصل الهجوم حتى تحقق المطالب التالية :

- ١ — إسقاط النظام الحاكم بالعراق •
- ٢ — أن تدفع العراق تعويضاً لإيران يصل إلى ١٥٠.٠٠٠ بليارا من الدولارات لتعويض الخسائر وإعادة بناء المدن التي دُمّرت وتعويض أسر القتلى •

أمل في الختام :

لا تزال المعارك دائرة ، وقلم المؤرخ يتجه بقوة إلى الحياد ، والدولتان مسلمتان وأعداء المسلمين كثيرون ، والعالم الإسلامي يخسر بخسارة الأرواح والثراء هنا وهناك ، من أجل هذا لا نمك إلا الدعاء من الأعماق أن يكون الله مع المسلمين حتى لا تتضاعف خسائرهم أو حتى يقف الشر عند هذا الحد •

وقد اندفعت إسرائيل إلى أرض لبنان لتقتل الجيوش الفلسطينية في جنوب لبنان ، وأيدت أمريكا للأسف هذا التصرف أو ربما أسهمت في التخطيط له ، والذي يهمننا هنا أنه مع تورط أمريكا في هذا العمل المشين ، اندفع الاتحاد السوفيتي لتحقيق نجاح في هذه الظروف يوازي نجاح أمريكا دون أن يصطدم بها ، فساعد إيران ضد العراق ودفع أثيوبيا لتهاجم الصومال ، والنضحايا من العرب في كل ميدان ؛ في ميدان لبنان وميدان العراق وميدان الصومال •

وتحاول مصر أن توحد جبهة العرب ، ولكن من حق مصر أن تتوحد جبهة واحدة-أولا ، وأن ينال شعبها كامل حريته السياسية ، وحينئذ فقط تستطيع مصر أن تتقدم لدعوة الوحدة ، وبدون ذلك لن يسمع لها صوت ، ففقد الشيء لا يعطيه ، ولن تتحد جبهة العرب اتحادا حقيقيا إلا بعد أن يتحقق لكل قطر عربى حريته الداخلية الكاملة .

وبعد :

في ختام حديثنا عن إيران وعن الجمهورية الإسلامية التى بزغت في هذا القطر الإسلامى الكبير ، نحب أن نسأل الأسئلة التالية :

— هل ستظل إيران تهدد جيرانها في عهد الجمهورية الإسلامية كما كان الحال في عهد الشاه أو أنها سترعى حق الجار كما أوصى بذلك الإسلام ؟

— هل ستظل تستعين بالصهاينة كما فعل الشاه من قبل ؟ أو أنها ستعادي من يعادى الإسلام وتصادق من يصادقه ؟

— ما موقف الجمهورية الإسلامية الإيرانية من دول الاستعمار التى تعادى الإسلام والمسلمين ؟ وهل ستقف هذه الجمهورية مؤيدة للدول الإسلامية أو أنها ستنتظر إلى نفسها فقط ، وتحاول تصدير الثورة وبعث القلق هنا وهناك ؟

— لقد سفك الشاه كثيراً من الدماء البريئة حتى سقط ، فمتى ستكف الثورة عن سفك الدماء وتتجه للعدالة بل للرحمة والحب ؟

— ما خطة الجمهورية الإسلامية بإيران تجاه التعاون بين السنة والشيعة ؟ إننا نطمح في قيام تعاون وثيق بين الطائفتين المسلمتين ، فعناصر الوثلم والتعاون أكثر جداً من عناصر الاختلاف الرأى .

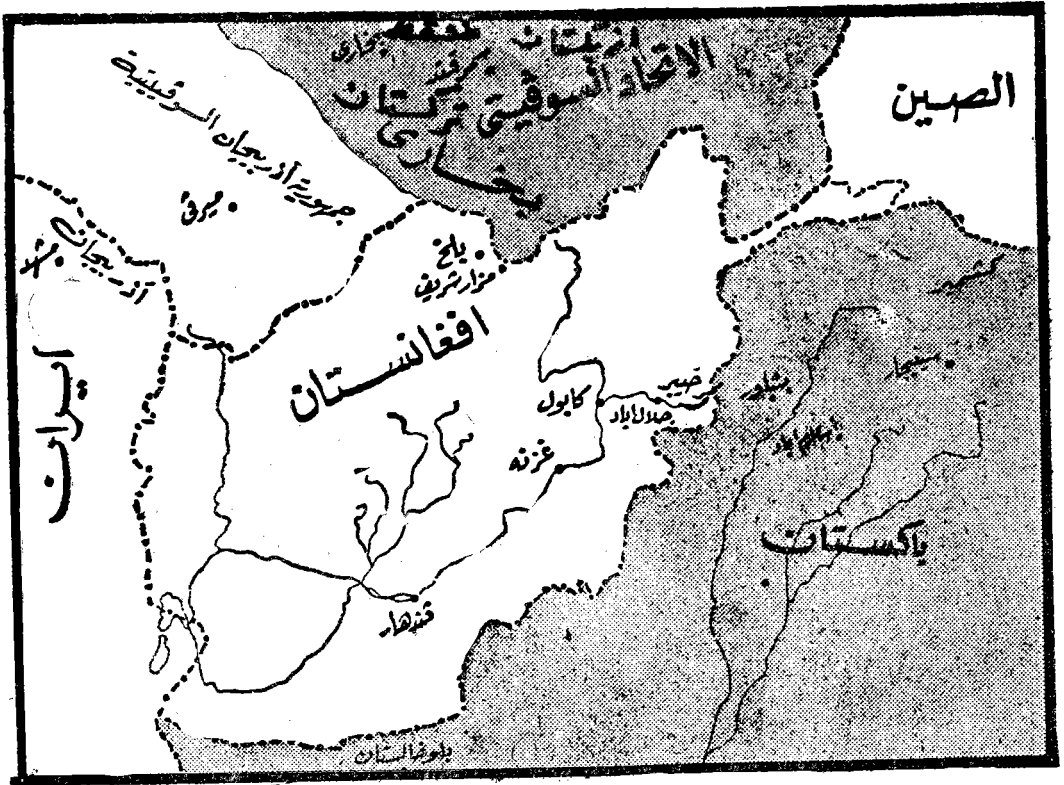
وأخيراً فإننا ندعو الله أن تكون إيران الجديدة عوناً للعرب والمسلمين وليست حرباً عليهم والله المستعان .

أفغانستان

المساحة والموقع والسكان :

أفغانستان قطر يقع في قلب آسيا ، ويتألف من بقعة غير منتظمة الشكل يُجدها من الشرق الهند ، ومن الغرب إيران ، ومن الشمال الاتحاد السوفيتي ، ومن الجنوب باكستان ،

وأفغانستان ليست متصلة ببهار ، ولكنها تسيطر على طرق برية مهمة عالمية كالطرق المؤدية إلى الهند وفارس وآسيا الوسطى .



ومساحة أفغانستان نحو ٢٧٠.٠٠٠ ميل مربع ، وعدد سكانها حوالى ١٥ مليون نسمة ، وهم يمتازون بالقوة والكرم والإباء ، فمن المؤكد أن الإسكندر فتح بلاد فارس بسهولة ولكنه قابل في أفغانستان مقاومة شديدة عنيدة ، وكذلك فتحت انجلترا أقطاراً متعددة في آسيا وأفريقية واستطاعت أن تستقر بها بسبب تفوقها الحربى ، ولكنها مُنيت بهزائم ساحقة على يد الأفغان عدة مرات ، سيأتى الحديث عنها •

وتكوّن أفغانستان القسم الشمالى الشرقى من هضبة إيران الكبرى ، وتقع إلى الشمال منها سلسلة جبال تفصل مقاطعات التركستان عن مقاطعات كابل وهرات وقندهار التى فى الجنوب ، والجزء الشرقى من هذه الجبال يسمى « هندوكش » والجزء الغربى يسمى « جبل بابا » ، وتكثر الأنهار فى أفغانستان كثرة عظيمة وأهمها نهر جيحون ، وهو الذى يفصل بين أفغانستان والاتحاد السوفييتى ويصب فى بحر أورال ، ثم نهر كابول وهو أعظم أنهار المنطقة الشرقية ويصب فى نهر السند ، ثم نهر هرى رود ، الذى يمر وسط هضاب أفغانستان الوسطى ، ونهر هيلمند الذى ينبع من جبال هندكوش ويصب فى صحراء سيستان •

وفى أفغانستان توجد أعلى درجات الحرارة فى المناطق المنخفضة فى الصيف ، وتوجد أعلى درجات البرودة فى المناطق العالية فى الشتاء حيث تكثر العواصف الثلجية ، ويذكر التاريخ أمثلة عديدة لجيوش قاست البرد الشديد فى هذه المناطق ، ويسمى جبل هندوكش « قاتل الجنود » لهذا السبب ، فقد هلكت به عدة جيوش مثل كتائب شاه جهان ، ومثل لجنة الحدود البريطانية سنة ١٨٨٥ ، والاختلاف اليومى لدرجة الحرارة كبير جداً ، وطقس الأودية العليا للنجد لطيف فى الربيع والخريف ، وهذا يساعد كثيراً على نمو الحبوب والفاكهة بأنواعها المختلفة كالبرقوق والمشمش والجوز والفسقنق مما جعل الرحالة المحدثين يذكرون أن المنطقة المحيطة بكابل تستحق الإطراء الذى ينسب قوله الى الملك بابر • وتكثر الغابات فى منحدرات جبال هندوكش •

وفي أعلى جبال « هندوكش » يوجد إقليم يشبه جبال الألب ،
وتسكنه قبائل تسمى « قبائل كافر » •

وتنقسم أفغانستان سياسياً إلى خمس كور وإلى مقاطعتين يقال إنهما
لم يَتِمَّ تنظيمهما بعد لتصبحا في عداد الكور (١) والكور هي كابل ،
وقندهار ، وهرات ، وتركستان ، وبذخشان ، والمقاطعتان هما كافرستان
ووخان ، وفيما يلي تعريف سريع بالكور والمقاطعات :

كابول : تشمل الأودية العليا التي تقع حول المجرى الأعلى لنهر
كابول وغزنة ، كما تشمل القسم الأسفل لوادي كابول قرب جلال آباد ،
وكانت غزنة أهم مدن هذه المقاطعة ، ولكن قامت مقامها كابول منذ حوالي
٤٠٠ سنة •

قندهار : تشمل هذه المقاطعة الأودية السفلى لمجموعة من الأنهار
وعاصمة هذه المقاطعة اسمها قندهار ، وتقع على نهر أوغنداب ، وقد
أخذت هذه العاصمة مكانة المدن الأقدم منها مثل كرشك وبست •

هرات : تحوى هذه المقاطعة منطقة مهمة من المناطق الخصبة وتسكن
بها قبائل هزارة وجهار ايماق ، وعاصمتها هي مدينة هرات وهي من أشهر
المدن في التاريخ الإسلامي ولكنها في العصر الحديث فقدت الكثير من
أهميتها •

والمنطقة التي تنسب لها قبائل هزارة تعرف بـ « هزارستان » وهي
منطقة جبلية يحدّها من الشرق « جبل بابا » ومن الغرب مقاطعة هرات
وكانت هذه المنطقة تعرف ببلاد الغور ، وبها آثار « فيروزكوه » وهي عاصمة
الملوك الغوريين في القرن الثاني عشر وليس في هذه المنطقة مدينة
ذات بال في الوقت الحاضر •

تركستان : وتتقع شمال « جبل بابا » حتى نهر جيحون وعاصمتها بلخ وكانت لها أهمية كبيرة في التاريخ ولكنها فقدت أهميتها في العصر الحديث وأهم مدينة بها الآن « مزار شريف » .

بخشان : تقع شمال هندوكش وشرق تركستان على الساحل الأيسر لنهر جيحون .

كافرستان : وهي منطقة جبلية من هندوكش في شمال وادي كابل ، وتسكنها قبائل « كافر » .

وخان : يطلق هذا الاسم على الوادي الطويل في الشرق إلى « بامير » .
وسكان أفغانستان يتكوّنون من أجناس أربعة هم :

١ — الأفغان ٢ — الفرس ٣ — الترك والمغول
٤ — سكان هندوكش الآريون .

ولكن هذه الأجناس قد تمّ بينها اختلاط وامتزاج يصعب معه الآن التمييز بينها .

اللغات في أفغانستان :

ولغة أكثر السكان هي اللغة الفارسية ويتكلم بها أهل كابول وهرات وهزاره ، وهناك كذلك لغة « البشتو » وتسمى لغة الأفغان وتنتشر في كل ربوع الدولة ، ويتكلم بها الأفغان الذين ضمت مناطقهم إلى أقطار أخرى كالمناطق الأفغانية التي ضمت للهند في عهد الاحتلال البريطاني .

ومع دخول الإسلام دخلت اللغة العربية أفغانستان ، وانتشرت خلال القرنين الأول والثاني مع انتشار الإسلام ، واستطاعت أن تزاحم لغة البشتو واللغة الفارسية ، ثم صارت اللغة الأكاديمية التي يسعى العلماء

والأدباء الأفغان إلى إتقانها ، وتُدرس الآن في جميع مدارس أفغانستان ، لا على أنها لغة أجنبية ، بل على أساس أنها جزء متمم لللغتين البشتو والفارسية ، إذ يوجد في هاتين اللغتين أكثر من ٤٠ ٪ من الكلمات العربية (١) .

الإسلام وعلماء الإسلام في أفغانستان :

والدين الإسلامي هو دين سكان أفغانستان جميعا ، وكانت قبائل كافرستان هي آخر القبائل التي دخلت الإسلام فأصبح الإسلام دين القطر كله ، ومعظم القبائل الأفغانية تتبع مذهب أهل السنة ، وتوجد بعض القبائل الشيعية مثل قبائل هزاره ومثل نسبة قليلة من القبائل الأخرى ، والأفغان متعصبون للإسلام جداً ، وهم كذلك يكرهون من ليس على دينهم ، ورجل العلم في بلاد الأفغان يسمى « ملا » وهو مسموع الكلمة ، ودعوته للجهاد في سبيل الدين تعتبر دعوة مقدسة يستجيب لها الجميع ، وللعلماء في تلك البلاد شأن عظيم ، وسلطة روحية تامة ، ونفوذ هائل بين الأهالي ، بحيث يخشاهم الكبراء والعظماء والأمراء ، لأن قلوب العوام في قبضتهم ، ولهم أن يثيروا الشعب على أي أمير أو كبير متى شاءوا ، والكثير منهم يستنكف أن يلاقى الأمراء ، ويتنزه عن قبول هداياهم وإن كان يقبل هدايا غيرهم من الناس (٢) وعلماء أفغانستان يحرمون التدخلين بجميع أنواعه (٣) .

والدراسات الإسلامية في أفغانستان ليست عالية المستوى في العهد الحاضر ، ولذلك ينتشر تقديس الأولياء والأدعية والتمايم .

جمال الطبيعة في أفغانستان :

لقد أطلق بعض الكتاب على أفغانستان اسم « سويسرا الآسيوية » وهي تسمية موفقة إلى حد كبير ، فأفغانستان من أجمل أقاصر آسيا

(١) فاروق حامد : تاريخ أفغانستان ص ٤١ .

(٢) جمال الدين الأفغاني : فتحة البيان في تاريخ أفغانستان ص ١٥٧ .

(٣) المرجع السابق ص ١٦٠ .

الوسطى ، وقد لا يدانيها في سحر مناظرها الطبيعية سوى مقاطعة كشمير في شمال باكستان ، وفي أفغانستان الشمالية والوسطى بوجه خاص تبدو الطبيعة أينما سرت ساحرة رائعة : فهناك الجبال الشامخة ، والغابات الظليلة ، والأحراش البرية الفسيحة ، تأوى إليها سلاسل عجيبة من الحيوان الوحشي والطيور البرية . وفي أفغانستان المراعى الواسعة النضرة تفرح في جنباتها قطعان السائمة في دعة وطمأنينة ، وأفغانستان هي بلاد الزهور العطرة ، والورود الفيحاء ، والحدائق الغناء ، والبساتين ذات الظلال الوارفة ، وهي بلاد تكثر في ربوعها جداول الماء الرقراقة العذبة ، والشلالات الهادرة ، والممرات الجبلية الشاهقة ، والمفاوز الوعرة ، والأخاديد السحيقة ، وتحتضن جبالها وهضابها مجموعة فريدة من البحيرات ذات الجمال الساحر الأخاذ ، ويستطيع المرء في أحضان الطبيعة الحانية في أفغانستان أن ينعم بجو معتدل لطيف وهواء صاف عليل في كل وقت من أوقات السنة (١) .

(١) حسن محمد جوهر وعبد الحميد بيومي : أفغانستان ص ٩١ - ٩٢ .

تاريخ أفغانستان

إن عرض تاريخ أفغانستان قبل الإسلام وبعده ليس صعبا بعد ما قدمنا من دراسات عن تاريخ إيران ، فإن دراستنا عن إيران فيما سبق شملت مناطق كثيرة محيطة بها ومن أهمها أفغانستان ، إذ لم تكن هناك حدود فاصلة كالحدود التي تفصل بين إيران وأفغانستان الآن، وتقول دائرة المعارف الإسلامية ان « البلاد المعروفة الآن باسم أفغانستان لم تحمل هذا الاسم الا منذ أواسط القرن الثامن عشر » .

وكانت المقاطعات المختلفة تحمل قبل ذلك أسماء متعددة ، ولم تكون وحدة سياسية خاصة ولم تكن الأقسام التي تتألف منها مربوطا بعضها ببعض بأى رباط جنسى أو لغوى ، وقبل القرن الثامن عشر كانت المناطق التي تتكون منها الآن بلاد الأفغان تابعة للشرق أو للغرب أى لإيران أو الهند ، وغالبا كانت تكون مع إيران دولة واحدة (١) .

وتبعنا لذلك نستطيع أن نقرر أن أفغانستان الحالية مرت بها قديما ظروف الحياة التي مرت بإيران من نصر وهزائم ، سواء كانت هذه الظروف تابعة من الداخل كملوك العصر الأكمينى (الاخمينى) أو وافدة من الخليج كالزحف الآرى أو زحف الإسكندر المقدونى ، وكانت ديانة زرادشت والديانة البوذية لهما نشاط واضح فى منطقة أفغانستان .

فإذا جئنا إلى أفغانستان الإسلامية وجدنا أن استجابة هذه البلاد للدين الإسلامى كانت سريعة وقوية منذ دخل الإسلام هذه البلاد فى عهد عمر ، لأن شعب هذه البلاد وجد فى الإسلام فرصة ليتخلص من الاضطهاد والظلم الذى كان أسلوب رؤساء هذه المناطق ، ومن هنا فقد رحب السكان بهذا الدين ، وأقبلوا عليه .

ولما ظهرت الأسر الإسلامية الحاكمة كانت أفغانستان جزءاً من الولايات التي حكمها الطاهريون والصفاريون والسامانيون والغزنويون والخوارزميون والمغول من أسرة هولاكو ، ومن التيموريين ، فلما قامت إمبراطورية المغول في الهند كانت أفغانستان تتبعهم أحياناً وتتبع شاهات إيران الصفويين أحياناً أخرى ، أو كانت تُقسَّم بين الدولتين ، وفي سنة ١١٥٠ (١٧٣٧) استولى حاكم إيران الأفشاري « نادر شاه » على كل مقاطعات أفغانستان وانقض على الهند (١) .

ويخلص بروفسور رومين تاريخ أفغانستان قبل الاستقلال بقوله :
« خضعت أفغانستان خلال قرون طويلة حتى القرن الثامن عشر مرة لحكم الأمراء الهنود » ، ومرة أخرى لحكم الفرس ، وثالثة لمملكة بخارى (جمهوريات تركستان وأزبكستان وتاجستان السوفيتية حالياً) .

« ومنذ بداية القرن الثامن عشر ظهرت حركة تعمل للاستقلال وقد نشأت هذه الحركة في قندهار وانتهت بالنصر بسبب ضعف الإمبراطوريات التي تحكم أفغانستان آنذاك . وقد امتدت حدود أفغانستان أحياناً فأخذت أجزاء من الهند ومن فارس ، وكان ذلك حوالي سنة ١٧٧٥ وفي مطلع القرن التاسع عشر بدأت تتقلص حدودها . وحدثت صراعات بين إيران وأفغانستان انتهت بمعاهدة باريس سنة ١٨٥٧ التي اعترفت فيها إيران باستقلال أفغانستان ونظمت الحدود بينهما عام ١٨٧٢ » (٢)

وسنتحدث فيما بعد عن أفغانستان المستقلة ، ولكننا هنا نريد أن نذكر بعض الدول التي ذكرناها آنفاً والتي حكمت مناطق أفغانستان ضمن ما حكمت من بلاد ، وكان لها في مناطق أفغانستان نشاط خاص يجعل الأفغان يحرصون عليه ويشيدون به ، ومن هنا لزم أن نعود لتصوير هذا النشاط قبل أن نواصل دراستنا عن أفغانستان المستقلة :

(١) معجم الأسر الحاكمة ج ٢ ص ٦٥٥ من الترجمة العربية .

(٢) آسيا المعاصرة : بقطة العملاق ص ١٣٥ — ١٣٦ .

مآثر أفغانية في الدولة السامانية :

وأول ما نذكره هو الدولة السامانية ، وقد ظهر خلالها في « بلخ » إحدى مناطق أفغانستان شاعر عظيم هو « دقيقي البلخي » وقد أعطى دفعة قوية للشعر الحماسي بتمجيده الأعمال البطولية الأمراء السامانيين ، كما أن هذه المدينة تتردهى بمسجد « حج بياده » ذي التسع قباب ، وهذه القباب شاهدة إلى اليوم على عظمة الفن المعماري في هذه الفترة .

الأسرة الغزنوية :

أما الأسرة الغزنوية التي تنسب إلى غزنة إحدى مدن أفغانستان وينسب لها حاكمها الأعظم محمود الغزنوي ، فقد حرص الأفغان على ربط صيتها ببلادهم ، على الرغم من أن الأسرة الحاكمة تركية الدم ، وعلى الرغم من اتساع مُلكها وبخاصة في عهد محمود الغزنوي ، ومن هنا يتحدث الأفغان عن هذه الأسرة على أنها من الأسر الإسلامية العظيمة المرتبطة ببلادهم ، ولهذا فمن الطبيعي أن نقتبس من كلامهم بعض ما يذكرون عن هذه الأسرة ، نقلا عن الدراسة التي نشرتها وزارة الاعلام الأفغانية : (١)

« تأسست الأسرة الغزنوية في سنة ٩٦٢ م في غزنة ، وهي من أهم الأسر في تاريخ أفغانستان والإمبراطور محمود من أعظم الأبطال شبه الأسطوريين ، جلس على عرش غزنة سنة ٩٩٣ م في الوقت الذي كانت فيه الإمبراطورية السامانية قد انهارت . وقد فتح محمود خراسان وسار شرقاً نحو الهند ، وكان عدوّه الرئيسي راجا البنجاب ، وقد هزمه محمود واستولى على ولاية ملتان في عام ١٠٠٠ م ، وبعد هذا النصر توجّ نفسه سلطاناً عليها وفي عام ١٠٠٨ م تكوّن حلف كبير يضم الرؤساء الإقطاعيين الهنود ضد محمود ، ولكنه تغلّب عليهم جميعاً بسهولة . ومن ثم كان نادراً ما يمر عام بدون حملة منتصرة في وادي إندوس في الحوض الغربي لنهر جنح أو في كجرات . وفي ١٠٢١ م حمل محمود مشعل الإسلام إلى كشمير ، وفي ١٠٢٦ م سقط معبد شيفا بين يديه .

وقد كانت أفغانستان أمانة في صفتها التاريخية ، فنقلت رسالة التوحيد المبشّرة بالإخاء والمساواة بين جميع الناس إلى الهند . وقد كان إسلام الهند بلا شك أكبر حدث عرفته شبه القارة الهندية منذ الغزو الآري .

وإن نشر دين قوى كالإسلام قد أدخل في البلاد قوة جديدة وأوجد ضرورة ملحة لرسالة التسامح الديني وللمجهودات الرامية الى التعايش السلمى بين الجماعات الدينية والثقافية المختلفة .

وإلى الشمال ذهب السلطان محمود بجيوشه إلى ما وراء النهر التى اعترفت به ملكاً عليها في ١٠٢٣ م ثم بعد ذلك بقليل استولى على العراق العجمى بانتزاعها من أسرة بويه ، ثم على أصفهان ، وبذلك وجد نفسه على رأس امبراطورية شاسعة الأطراف تمتد من أفغانستان وتضم في نفس الوقت أراضى إيران الحالية وشمال غرب الهند . وقد عمر السلطان محمود غزنة مدينة أفغانستان الجبلية التى أصبحت فجأة بفضلها إحدى عواصم آسيا الكبرى الجميلة .

هذا وقد أخرجت الحفريات إلى النور بقايا قصر مسعود الثالث الذى حكم من ١٠٩٩ م إلى ١١١٥ م . وإن أشعراً رائعة وجدت مكتوبة على حائط القصر الرئيسى بحروف كوفية قديمة يمتد طولها ٢٥٠ متراً . تمجد انتصارات الغزنويين في الهند ، وتدعو إلى التقاليد الحماسية وإلى التمسك بعقائد الإسلام ، ومن بين الاكتشافات الأخرى نجد فخاراً يلعب كالمعادن يشهد على ما كان عليه السكان العاديون من تقدم .

وعلى بعد ستة كيلو مترات من مدينة بست على الضفة الغربية من هلمند بنى محمود قصره الفخم ومدينة لشكر جاه (المعسكر) التى وسعها ابنه مسعود ، وإن هذه الآثار الباقية التى ظلت مجهولة مدة طويلة اكتشفت سنة ١٩٤٨ م ، وأخرجت إلى النور فيما بعد ذلك .

وإن منارتى أو مؤذنتى غزنة المدون عليهما آيات قرآنية بالحروف الكوفية أقيمتا في عهد حكم مسعود الثالث وبهرام شاه ، وكذلك يوجد نموذج جميل من المآذن المصنوعة من الآجر في منارة زاديان بالقرب من دولة آباد شمال شرقى بلخ ، أمر بتشييدها وزير من وزراء السلطان سنجر السلجوقى سنة ١١٠٨ م .

وأما اليوم فإن غزنة ولشكرجاه أصبحتا أنقاضاً • وقد دمرت هما نار الحروب التي أشعلها القادة الغوريون ، وإن مسجد غزنة الكبير والشهير قد اختفى ، ولكن بعض القبور والرسوم الباقية تظهر تطور الفن في الإمبراطورية الغزنوية • وإن الصور الفخمة في قاعة استقبال قصر محمود في لشكرجاه (الآن في متحف كابل) الممثلة للحرس الخاص للسلطان ، تبين كيف احترّم الحكّام المسلمون التقاليد المتوارثة لمدارس الفن البوذي الآري •

وفي أواسط القرن الثاني عشر عندما دُمر الغوريون غزنة كان الفن الغزنوي قد أصبح فناً هندياً مسلماً في الهند حيث استمر يزدهر مئات السنين •

وتحت حكم الأسرة الغزنوية أنتج بعض العلماء مثل ألبى ريجان البيرونى وحسن الميمندى (وهو من بلدة ميمند بالقرب من بست الحالية) أعمالاً أدبية عظيمة • كما أن فردوسى الطوسى كبير شعراء العصر أنشد الشاهنامة إحدى روائع الأدب العالمى وأهداها إلى السلطان محمود •

وسقطت الأسرة الغزنوية ، فقام على أعقابها كما ذكرنا من قبل السلاجقة في إيران وما وراء النهر والغوريون في أفغانستان والهند ، وكان الغوريون من القوى النازحة من جبال أواسط أفغانستان ولم تشملهم أحاديثنا السابقة ولذلك سنفرد لهم حديثاً فيما بعد •

المغول

المغول أو التتر قبائل من البدو الرحل استوطنوا سهول آسيا الوسطى المتراصة الأطراف منذ آلاف السنين ، وكانت غاراتهم على المناطق الزراعية المجاورة ذات الموارد الغنية تنقسم بطابع السلب والنهب ، على أن يعودوا إلى ديارهم بما سلبوا ، ولكن ما إن ظهر جنكيز خان على مسرح الأحداث حتى استطاع أن يجمع شتات هؤلاء ويوحد كلمتهم ، ويؤلف منهم قوة عسكرية هائلة .

ومدّ جنكيز خان سلطانه فشمّل بلاد الصين . وبعد ذلك تطلع الى الدولة الخوارزمية التي كانت تحكم تركستان وأفغانستان وغربي إيران ، وكانت تسمى بالخوارزمية نسبة إلى بحر خوارزم الذي يسمى الآن « بحر آرال » ويصب فيه نهرا سيحون وجيحون .

وقد أرسل جنكيز خان قافلة كبيرة للشاه علاء الدين سلطان الدولة الخوارزمية ، وكان مظهر القافلة يتجه للتجارة والصداقة ، ولكن أعماقها كانت تتجه للغزو ، فقتل حاكم إحدى المدن الخوارزمية رجالها وبذلك فتّح الباب لجنكيزخان ليزحف زحفاً مروّعاً على هذه البلاد ، ويشبهون زحفه بالأعاصير المدمرة ، وأرجال الجراد التي تأتي على الأخضر واليابس (١) .

وهكذا جاء المغول إلى هذه المناطق بما عرّف عنهم من تدمير وخراب فدّمر جنكيزخان مدن بخارى وسمرقند وجرجان ، كما دمّر بلخ وهرات وغزنة ونيسابور الجميلة ، وكان التخريب مروّعاً ومصحوباً بفظائع مرعبة ، فلما رجع جنكيزخان إلى وسط آسيا ترك وراءه أفغانستان وشمالى إيران رماداً . وبسبب تدمير القنوات والسدود وشبكة الري أصبحت الأرض

(١) حسن جوهر وعبد الحميد بيومى : أفغانستان ص ٦٨ — ٦٩ .

الخصبة صحارى ، ولم يعد أكثرها للخضرة حتى يومنا هذا ، وعانت مقاطعات أفغانستان من تيمور لنك بعد ذلك مثل ما عانت من جنكيزخان وهولاكو من قبل •

الأسرة التيمورية في أفغانستان :

أسس الأسرة التيمورية في هراة ابن من أصغر أبناء الإمبراطور المظفر شاه رخ (١٤٠٤ م) الذى كان من نصيبه خراسان عند تقسيم امبراطورية تيمور لنك ، وقد عاش في هرات وحكم فيها من ١٤٠٩ م ، إلى ١٤٤٦ م ، وقد أظهر قدرة فائقة كحاكم ، وأنشأ عاصمته في هراة ، وجعل من ابنه أولوغ بيك نائباً للملك في سمرقند • وتحت الإدارة الحكيمة لشاهرخ وابنه ضمدت خراسان وما وراء النهر جراحهما المتسببة من الحروب السابقة ووصلنا إلى درجة عالية من الأزدهار •

وكان السلطان حسين بايقرا أحد ملوك الأسرة التيمورية ملكاً ممتازاً جداً حكم في هراة من سنة ١٤٦٨ م إلى ١٥٠٥ م ، وكان وزيره على شيرنوابى راعياً للفنون وكاتباً من الكتاب الممتازين •

وإن تقدم فن التصوير في ذلك العهد كان ناحية هامة في النهضة الإسلامية وكان بهزاد الشهير رائداً لهذا الفن • وكان من كبار شخصيات هذا العصر في الفنون الأدبية المولوى عبد الرحمن جامى وصديقه الوزير على شيرنوابى وميرخاوند •

بعد الأسرة التيمورية :

ظهر بابر كما تحدثنا من قبل وزحف إلى الهند (١) وحكمها وأقام فيها « إمبراطورية المغول الكبرى » وحكم معها شرقى أفغانستان ، أما غربى

(١) سياتى فيما بعد حديث مفصل عن دولة المغول في الهند التى أسسها يابر •

أفغانستان فكان تابعاً للدولة الصفوية ، وقد استطاعت الأفغان تحت قيادة ميرويس الهوتكى أن يحرروا الجزء الشرقى لبعدها إمبراطورية المغول عنه ، وأن يحرروا الجزء الغربى من بلادهم من سلطان الصفويين عندما بدأت دولتهم تترنح ، ثم استولى الأفغان على إيران نفسها ماديين سلطاتهم من أفغانستان إلى إيران وذلك ما يعرف فى التاريخ « بالقفزة الأفغانية » ولكن نفوذ الأفغان فى أفغانستان وإيران كان قصير العمر لأن نادر شاه الأفشارى قفز إلى السلطة وسيطر على أفغانستان وإيران ومناطق أخرى واسعة فى الشرق والغرب كما ذكرنا من قبل عند الحديث عن الفترة التى جاءت بعد الصفويين ، وعندما قُتل نادر سنة ١٧٤٧ ظهرت أفغانستان الحديثة دولة مستقلة ، وتكونت من المقاطعات التى ذكرناها من قبل هذه التسمية ، ولم تعد أفغانستان تذوب فى غيرها ، بل استقرت دولة ذات سيادة ستكون موضع حديثنا فيما يلى ، ولكن تبلى أن نتحدث عن أفغانستان الحديثة يجدر بنا أن نتحدث عن الأسرة الغورية التى حكمت أفغانستان ولم يرد عنها حديث أوضح فيما سبق .

الغوريون في أفغانستان

٥٤٣ — ٦١١ هـ = ١١٤٨ — ١٢١٥ م

كان إقليم الغور — فيما يُظَنُّ — في مكان أفغانستان الحالية ، وكانت مناطقه الجبلية الواقعة بين هرات وغزنة مركزاً لدولة صغيرة مستقلة استقلالاً تاماً ، وكانت عاصمتها هي قلعة « فيروزكوه » (١) .

وفي عهد الغزنويين عيَّن مسعود الثالث ولاية من الغور على غزنة وما حولها ، وكان أول هؤلاء عز الدين حسين الذي يعرف بأنه مؤسس أسرة الغوريين ، وكان لعز الدين عدة أولاد ارتبط بهم تاريخ هذه المنطقة ، يهمننا منهم في منطقة أفغانستان أربعة هم سيف الدين سوري ، وقطب الدين محمد ، وعلاء الدين وبهاء الدين ، وقد تولى سيف الدين سوري بعد أبيه إمارة منطقة فيروزكوه ، كما أصبح قطب الدين محمد ملكاً على الجبال ولُقِّبَ بملك الجبال واتخذ من غزنة عاصمة له ، وعيَّن أخاه علاء الدين قائداً لجيشه .

وحدث أن بهرام شاه الخوارزمي قتل قطب الدين بالنسم غدرأ ، واستولى على غزنة ، فثار لذلك سيف الدين سوري وهاجم غزنة وأخذها ، ولكن بهرام انتصر عليه بعد ذلك وقتله ، وبهذا يكون بهرام شاه قد قتل الأخوين .

لهذا ثار الأخ الثالث علاء الدين ، وهاجم غزنة بوحشية شنيعة ودمرها تماماً حتى تركها كومة من الرماد ، ولذلك سمي « جهانسور » ، أي « محرِّق العالم » فكان غزنة كانت تساوى العالم كله في رأى أهلها .

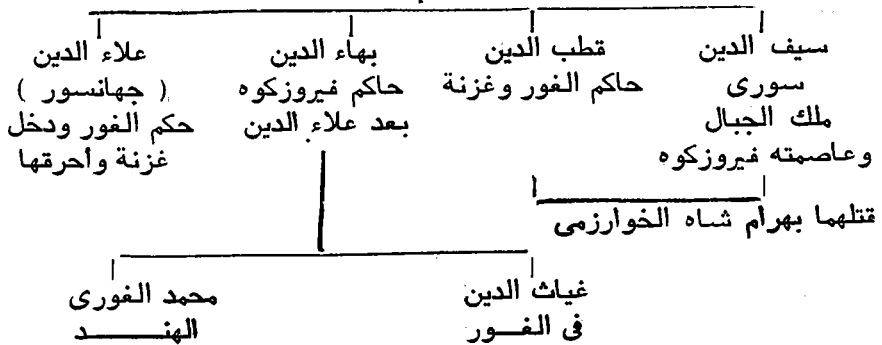
(١) معجم الاسرات الحاكمة ج ٢ ص ٥٦٤ .

وبدأت بعد ذلك أسيرة الغوريين في الضعف والتداعي ، فقد كرهها السكان لقسوتها وقامت حروب داخلية بين أمرائها وهاجمتها قبائل الغز ، وشاهات خوارزم الذين بدءوا زحفهم القصير الذي أعقبه الزحف الطاغى الذى قام به المغول ، فانتهت بذلك دولة الغوريين .

وعن نهاية الدولة الغورية تقول دائرة المعارف الإسلامية :

كان يمكن أن يُنتظر للملوك الغور عهد طويل من السلطان في أفغانستان ، ولكن قوات همج آسيا الوسطى المتزايدة أوقفت تقدمهم فجأة ، فقد أغار الغز وشاهات خوارزم والمغول بقيادة جنكيزخان على البلاد في تعاقب سريع ، ونتج من هذا أن الغور فقدوا كل قواهم في بلادهم الخاصة ولو أنهم فتحوا امبراطورية واسعة في الهند وأرثوها لسلسلة طويلة من خلفائهم الذين لم يكونوا من نسلهم وإنما كانوا من مماليكهم الترك (١) . وهناك أثر مهم في عاصمة الغور « فيروزكوه » وهو المنارة الرائعة في جام في هرات التى بُنيت في عهد الملك غياث الدين (١١٥٣ - ١٢٠٣) وهى ترتفع أكثر من ستين متراً . وفيما يلى رسم لأهم أمراء الغوريين :

عز الدين حسين (فى الغور) (٢) .



(١) دائرة المعارف الإسلامية : مادة أفغانستان .

(٢) خلاصة ما يرتبط بالغوريين فى أفغانستان من معجم الاسرات الحاكمة (اللوحة التى تقابل ص ٥٩٧) .

أفغانستان الحديثة

قلنا من قبل إن مقتل نادر شاه أعطى فرصة لانفصال أفغانستان عن إيران وبدء قيام أفغانستان الحديثة دولةً مستقلة ، وكان ذلك سنة ١٧٤٧ م ، فقد التفت الأفغان حول زعيم من زعماء القبائل الأفغانية هو أحمد خان رئيس قبيلة « أبدالى » التى كانت تسكن بجوار هرات خلال أيام الشاه عباس الصفوى ، وهو ابن محمد زمان خان الذى كانت له رئاسة هذه القبيلة ، وكان أحمد ملتحقاً بجيش نادر شاه ، وعندما اغتال الفرس نادر شاه سنة ١٧٤٧ كان أحمد خان فى فرقة قوية من الابدالية على مقربة من مكان الحادث ، فسار الى قندهار حيث نادى بنفسه ملكا ، وتلقب « در درانى » أى درة الدهر فأصبحت قبيلته تسمى « درانية » واتخذ قندهار عاصمة له ، واستولى على الجانب الشرقى من امبراطورية « نادر شاه » حتى نهر السند ، وامتد سلطانه الى هرات ، ثم مدّ سلطانه إلى وراء نهر السند وضمّ ولايات كشمير ولاهور وملتان .

وصار الملك فى أسرته فى المدة من ١٧٤٧ إلى ١٨٤٢ كالآتى :

۱ - احمد شاه ۱۷۴۷ - ۱۷۷۳

۲ - تیمور شاه ۱۷۷۳ - ۱۷۹۳

۷ - ایوب شاه
۱۸۱۸ - ۱۸۲۹

۶ - سلطان علی
۱۸۱۸ سستط في
نفس المـ
(في كابل فقط)

۵ - محمود شاه
تولى مرتين بين
۱۸۰۱ و ۱۸۱۸

۴ - شاه شجاع
تولى ثلاث مرات
بين
۱۸۰۰ - ۱۸۴۲

۳ - زمان شاه
۱۷۹۳ - ۱۸۰۰

۸ - کاکران
۱۸۲۹ - ۱۹۳۹

۹ - فتح جنك
۱۸۴۲ سستط في
نفس المـ

ويعتبر أحمد شاه مؤسس أفغانستان الحديثة واحداً من مشاهير التاريخ وقد كان قائداً حازماً وإدارياً ممتازاً ، وراعياً للأدب والفن ، وباعثاً لنهضة سياسية عظيمة ، وقد استطاع أن يجمع حوله القبائل ، وأن يعمّر البلاد ، ويرفع عن الناس المظالم حتى لقبه الأفغانيون بلقب « بابا » •

وعندما توفي أحمد سنة ١٧٧٣ ترك لولده تيمور ملكاً واسعاً ، وقد نقل تيمور عاصمة هذه المملكة من قندهار إلى كابول ، ولكن الاستعمار البريطاني في الهند كان قد بدأ وشجّع السيخ على الثورة على الحكم الأفغانى ، وكانت في إيران صهوة هدّدت استقلال أفغانستان ، وتطلع الروس لجارتهم أفغانستان بعين لا تعرف حسن الجوار ، وبخاصة أن أفغانستان كانت مطمع الإنجليز الرابضين في الهند ، فأثار ذلك رغبة روسيا في أن تمد نفوذها إلى هذه البلاد قبل أن تلتهمها أطماع الانجليز •

وليس هذا فقط هو ما عانته أفغانستان آنذاك ، فإن صراعاً داخلياً قد بدأ بين الأمراء من أولاد تيمور شاه بعضهم والبعض الآخر ، وبينهم وبين منافسيهم من أبناء قبيلة أخرى كانت تتولى الوزارة لهم هى قبيلة « باركزائى » ويقال إنها فرع من قبيلة الدارنى •

وجاء زمان شاه بعد أبيه وكثر انحرافه وارتكب كثيراً من الجرائم ، فعزله أخوه ولكن بعد أن قوى الأساس للقضاء على الأسرة •

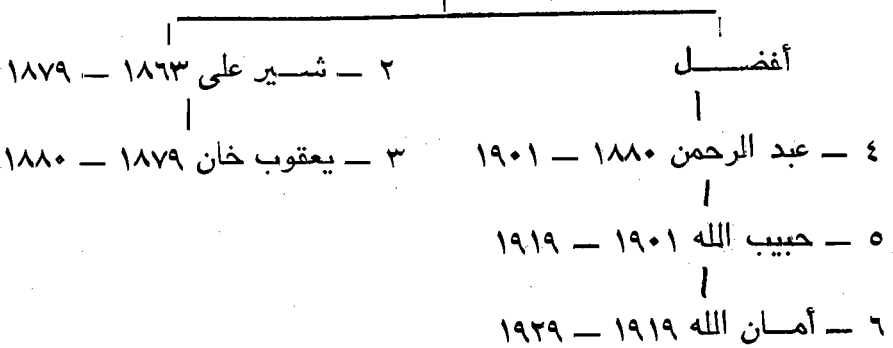
وبعد ذلك أصبح الشاه يتولى الحكم ثم يعزل ، وقد يعود مرة أخرى أو أكثر من مرة كما يتضح من التخطيط السابق ، وبعضهم كان يقنع بأن يصبح حاكماً على جزء يسير من الدولة مثل سلطان على الذى قفز على السلطة في كابول وحدها وسقط في نفس العام ، ومثل شاه شجاع الذى اعتلى العرش للمرة الثانية في بيشاور فقط ولم يستطع أن يوسع دائرة نفوذه ، وينسب له أنه استعان بالإنجليز لينصروه على دوست

محمد ، وقد ساعده الإنجليز وأجلسوه على العرش للمرة الثالثة سنة ١٨٣٩ ، ولكن ذلك أثار عليه مزيداً من سخط الشعب .

الأسرة الباركرائية : ١٨٢٦ — ١٩٧٣ م

وفي الصراع بين الأسرة الحاكمة « الأسرة الدرانيية » وأسرة « باركرائي » أعدم الوزير فتح خان الباركرائي بعد أن سُمِلَتْ عيناه ، وكان هذا التصرف من الأسباب التي دفعت الشعب للإعراض عن هؤلاء الحكام القساة ، واتجهت القوى الشعبية لتأييد الباركرائيين ، فاستولى على السلطة دوست محمد أخو الوزير القاتل سنة ١٨٢٧ م أى قبل أن تسقط نهائياً الأسرة الدرانية ، إذ أن بعض رجالها احتفظوا وقتاً ما ببعض الأمكنة حتى تفرغ لهم الحاكم الباركرائي الجديد وأقصاهم عنها ، وآل له ولأسرته الحكم في أفغانستان ، وحكام هذه الأسرة هم :

١ — دوست محمد ١٨٢٦ — ١٨٦٣ (مع تداخل مع الدارنيين)



وعندما جاء دوست محمد إلى الحكم كانت كل الولايات الخارجية قد استقلت عن أفغانستان ، وهذا ساعد دوست محمد أن يحكم دولة موحدة لا تكثر فيها الصراعات وقنع دوست محمد هو وخلفاؤه بقلب « أمير » ولم يضع لنفسه لقب الشاه أو الملك وعلى ذلك سار خلفاؤه من بعده .

وعلى الرغم من هذا فإن تاريخ هذه الأسرة يعتبر تاريخ الصراع بين

أفغانستان وبين القوى الغازية من الخارج ، وبخاصة أن بريطانيا — كعادة الاستعمار — اتخذت الخلافات الداخلية وسيلة للتدخل في شئون أفغانستان ، فأيدت الحكام الضعاف من أسرة الدارنية ، وعن هذا الطريق دخلت حامية "بريطانية" أفغانستان لتساعد الشاه شجاع ، وتمركزت في كابول وغزنة وقندهار ، ولكن أفغانستان ألحقت بهذه الحامية هزيمة ساحقة وأبادتها عن آخرها سنة ١٨٤١ عند ممر « خرد كابول » وسجل هذا الحدث في بريطانيا كأكبر مصيبة ألمت بها آنذاك .

وفتحت هذه الهزيمة معارك جديدة ليثار الإنجليز لجنودهم ، وليستعيدوا مكانتهم ، فقامت حروب متعددة بينهم وبين القوى الأفغانية وبخاصة أن الأمير شير على اتجه للتعاون مع روسيا ليردّ بهم زحف بريطانيا ، وقد زاد هذا التصرف اشتعال النيران ، فاستولت بريطانيا على كابول ، ففر شير على إلى مزار شريف ومات هناك سنة ١٨٧٩ ، وتولى بعده ابنه يعقوب خان ولكن بريطانيا أسرتّه وأرسلته إلى الهند ، ولكن ألخاء سردار أيوب قاد الأفغان وحقق بهم انتصارا جديداً على بريطانيا في معركة « ميوند » .

وبعد يعقوب خان جاء عبد الرحمن بن أفضل بن دوست محمد وكان هذا من فرع آخر من فروع الأسرة الحاكمة ، ورضى الإنجليز عنه نكابة في فرع شير على الذي قاد الصراع ضد البريطانيين وتقول المراجع الأفغانية أن عهد عبد الرحمن خان كان عهد تقوية السلطة المركزية وعهد هدوء نسبي .

حبیب الله :

وفي عهد حبیب الله : (١٩٠١ م ١٩١٩ م) الملقب بسراج الملة بدأت في أفغانستان خطوات التعليم الحديث لأن الأمير كان من أصحاب العقول المستنيرة ، كما كان حسن الصلة بجيرانه ، وقد عاش في هذا العصر الكاتب

الأفغانى محمود طرزى الذى عاش فى القسطنطينية ودمشق فترة ثم عاد لبلاده ليسهم فى حركة التطور السياسى والثقافى .

أمان الله :

وقتل حبيب الله فى مؤامرة سنة ١٩١٩ فخلفه ابنه أمان الله الذى لقّب « باد شاه » ويعتبر عهده من أزهى عصور أفغانستان فقد أعلنت بريطانيا انتهاء حمايتها لأفغانستان بعد ما لاقت من هزائم متعددة (١) ، واعترفت بكل حقوق الدولة الأفغانية ومن ضمنها إقامة علاقات دبلوماسية مع الدول ، وحققت أفغانستان فى هذا العهد إصلاحات عميقة فى مجال التعليم والتشريع والمالية والإدارة .

ومن الأحداث التى برزت فى عهد أمان الله خان أن الثورة الشيوعية فى روسيا التى نجحت سنة ١٩١٧ بدأت تتظاهر بعلاقة حسن الجوار بينها وبين أفغانستان ، مما أدى إلى توقيع معاهدة صداقة بين البلدين سنة ١٩٢١ ، وكان من بنودها اعتراف روسيا باستقلال بخارى ، ولكن الروس بعد أن هدأت الأمور حولهم نقضوا هذا الاتفاق واحتلوا بخارى سنة ١٩٢٣ .

وكان استقلال أفغانستان يحتاج من أمان الله إلى جهد لحماية هذا الاستقلال ولكن الملك انغمس فى حياة اللهو والترف ، ونقل أكفأ قادته العسكريين محمد نادر خان فوضعه سفيراً لبلاده فى باريس ، ثم إن هذا الملك استخف بالعلماء وسخر من بعضهم أحياناً ، مما جعلهم يعرّضون به فى أحاديثهم .

(١) نشبت حروب ثلاثة بين الانجليز فى الهند وبين الأفغانيين ، وقد حقق الأفغانيون النصر على الانجليز كالاتى :

(أ) فى حروب ١٨٣٨ — ١٨٤٨ فقد الانجليز جيشهم بأكمله .

(ب) فى حروب ١٨٧٨ — ١٨٨١ أنزل الأفغان بالقوات البريطانية الهندية هزائم متتالية ومروعة .

(ج) فى حروب ١٩١٩ — ١٩٢١ حقق الأفغان ألواناً من النصر على الانجليز واعترفت انجلترا على أثر هذه الحرب باستقلال بلاد الأفغان فى اتفاقية « رواليندى » .

وقام الملك برحلة خارج بلاده كلفت الدولة مبالغ كبيرة ، وفي نفس الوقت لم يخضع أمان الله لتقاليد بلاده وهو في الغرب ، فانغمس في مظاهر تثير رجال الدين ، وعندما عاد من رحلته أصدر أوامر بالسفور للنساء وأوامر ترغم العلماء بارتداء ملابس غير الملابس الدينية . وكان هذا من أسباب قيام ثورة عليه سنة ١٩٢٩ مما دفعه إلى الفرار من العاصمة بعد أن تنازل عن العرش لأخيه ، ولكن هذا الأخ لم يستطع أن يصمد في وجه الأحداث فسقطت كابول العاصمة في يد قاطع طريق حكم أفغانستان عدة شهور ذلك هو « باتشه سقا » .

قاطع الطريق الذي حكم أفغانستان ١٩٢٩ م :

وهكذا وقعت أفغانستان في يد « باتشه سقا » وهو رجل جاهل ، كان قاطع طريق فدفعته الفوضى في أفغانستان ليصبح حاكما لها ، وتصرف باتشه سقا في البلاد على النحو الذي يتوقعه الإنسان من رجل مثل هذا ، فألغى قوانين الإصلاح ، وأوقف العمل بالقانون ، وألقى القبض على أفراد الأسرة الحاكمة ، وألقى بهم في السجون .

محمد نادر شاه :

لم تستسلم أفغانستان لحكم باتشه سقا ، فإن واحدا من الأسرة الحاكمة هو محمد نادر شاه الذي كان سفيرا في باريس آنذاك أسرع لبلاده ، وقاد جيشا من أتباعه استطاع به أن يأخذ السلطة ويطرد هذا الغاصب ، فنودي به ملكا في أكتوبر سنة ١٩٢٩ ، وفي عهده استؤنفت الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية التي كانت الاضطرابات قد أوقفتها ، وقد اغتيل نادر شاه سنة ١٩٣٣ فخلفه ابنه محمد ظاهر شاه الذي ظل في الحكم حتى عزله محمد داود مؤسس النظام الجمهوري .

وفي عهد محمد ظاهر شاه أصبحت أفغانستان عضوا في ميثاق « سعد اباد » سنة ١٩٣٧ وانضمت لهيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٦ وفي خلال حكم ظاهر شاه كانت رئاسة الوزراء للشاه محمد هاشم ثم من بعده لأخيه الشاه محمود وهما من الأسرة المالكة .

النظام الجمهورى فى أفغانستان

النظام الجمهورى أو قل النظام الموالى للاتحاد السوفيتى الذى ظهر سنة ١٩٧٣ يرجع تاريخه الى حوالى ربع قرن قبل ذلك ، ففى سنة ١٩٥٠ ، وقعت أفغانستان اتفاقية تجارية مع الاتحاد السوفيتى ، وهذه الاتفاقية أدت الى روابط اقتصادية وثيقة بين أفغانستان والاتحاد السوفيتى ، وأصبحت أفغانستان بمقتضاها شديدة الاعتماد اقتصادياً على السوفيت ، وتبعاً لذلك تأثرت سياسة أفغانستان بالنفوذ الاقتصادى السوفيتى ، فظهرت جماعات يسارية ، وبدأ شأنها يقوى رويداً رويداً .

محمد داود رئيساً للوزراء :

وفى سبتمبر ١٩٥٣ قام الجنرال محمد داود ابن عم الملك « ظاهر شاه » وزوج شقيقته بانقلاب ضد عمه رئيس الوزراء « محمود شاه » ، واستولى على المنصب لنفسه ، واتجه محمد داود الى توطيد علاقاته بالاتحاد السوفيتى .

وفى سنة ١٩٦٦ أصدر « نور محمد تراقى » أول صحيفة يسارية فى أفغانستان ، وكانت هذه الصحيفة لسان حال حزب « خلق » أى الشعب الذى كان له اتجاه يسارى واضح وإن حاول ان يتظاهر بتمسكه بالإسلام .

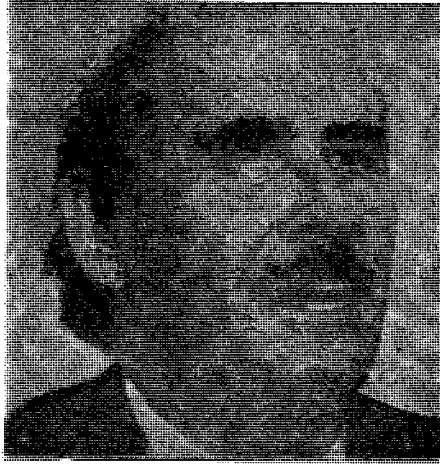
محمد داود رئيساً للجمهورية :

وكان محمد داود مضطرباً فى موقفه بين السياسة اليسارية أو اليمينية ، ولم يكن الملك ذا نفوذ يستطيع أن يرجح هذا الجانب أو ذاك ، وهذا الوضع شجع محمد داود فقام بانقلاب فى ١٧ يونيه سنة ١٩٧٣ عزل فيه الملك وأعلن النظام الجمهورى ، ورحل الملك السابق إلى أوروبا وأقام فى روما ، وأصبح محمد داود رئيساً للجمهورية .

وفتح النظام الجمهورى باباً أوسع للنشاط السوفييتى • ولم يكن النظام الجمهورى الذى خلقه محمد داود حريصاً على الديمقراطية لأن مؤسسه عضو الأسرة التى كانت مالكة للبلاد ، ولأنه هو كان رئيساً لوزراء الملك عدة سنوات •

انقلاب نور تراقى سنة ١٩٧٨ :

كان الانقلاب الذى قام به محمد داود فاتحة انقلابات متتالية فى أفغانستان ، والانقلابات كانت ذات طابع شيوعى إلهادى والشعب متمسك بالإسلام عدو للإلحاد ، ومن هنا توالى الانقلابات فقام انقلاب فى ابريل سنة ١٩٧٨ بزعامة نور محمد تراقى وحفيظ الله أمين •



نور الدين تراقى : أول انقلاب شيوعى سافر

وهما من زعماء حزب « خلق » أى الشعب وكان يؤيدهما حزب « بار تشام » أى الراية بزعامة بابرأك كارميل ، وأصبح تراقى رئيساً للدولة وحفيظ الله رئيساً للحكومة ، واتجه هذا الانقلاب بكل جهده إلى اليسار وفتح حفيظ الله أبواب السجون والمعتقلات لمن بقى فى البلاد من أفراد الأسرة التى كانت مالكة ، كما أُلقي فى السجن عدد كبير

من الفنيين والمثقفين الذين كانت تهمتهم أنهم عملوا في ظل النظام الملكي ، ولكن « حزب خلق » واجه حركتين قويتين متضادتين الحركة الأولى بزعامة بابر ك كارمل الذى انشق على الائتلاف الحاكم ، وأخذ يهاجم حزب « خلق » مما جعل الحكومة تتقف منه موقف عداء ساغر ، فهرب هذا الى أوربا الشرقية وواصل هجومه على حكومة بلاده ، فجردته الحكومة من الجنسية •

أما الحركة الثانية فقد كانت بحوافز إسلامية ، إذ ظهرت عدة جمعيات إسلامية تعلن عداها للنظام الأحمر ، وفي مقدمتها « الجمعية الإسلامية » بزعامة الشيخ إبراهيم المجددى ، و « الثورة الإسلامية » بقيادة الشيخ ابن محمدى ، و « الجماعة الإسلامية الأفغانية » بزعامة برهان الدين الربانى « وجماعة مجاهدى الثورة الإسلامية » بزعامة سيد أحمد جيلانى بالإضافة إلى جبهة وطنية اسمها « الجبهة الوطنية لتحرير أفغانستان » •

ولم يستطع تراقى أن يواجه هاتين الحركتين المتضادتين فاندفع الى الانحياز الكامل للاتحاد السوفييتى ليجد فى ذلك خلاصاً له مما يعانیه من هجمات يسارية وإسلامية •

وتنفيذا لهذا الاتجاه وقّع معاهدة صداقة مع موسكو فى ديسمبر سنة ١٩٧٨ كانت روحها تنم عن استسلام واضح •

وشهد عام ١٩٧٩ ثورات طاحنة ضد الحكومة الشيوعية فى أفغانستان ، وانضم الكثير من فرق الجيش إلى القوات الوطنية ، وقام اتحاد بين المنظمات الإسلامية المختلفة ، وواجه تراقى هذا الاتجاه بطلب المزيد من المعونة من الاتحاد السوفييتى ، كما قام زميله حفيظ الله باعتقال الآلاف من الأفغانين وزجهم فى السجون واغتيال الكثيرين منهم •

انقلاب حفيظ الله سنة ١٩٧٩ :

وفى وسط هذا الصراع قام خلاف صامت بين تراقى ورئيس الدولة

وحفيظ الله أمين رئيس الوزراء ، انتهى بقيام الأخير بحركة انقلاب مسلّح ضد تراقي في سبتمبر سنة ١٩٧٩ ، وفي هذه الحركة قُتِل تراقي وبعض وزرائه وأنصاره وَوَكَّعَ حفيظُ الله أمين نفسه رئيساً للدولة .

ويقال إن هذه الحركة كانت من خلف الاتحاد السوفييتي ، فاتجه السوفييت للانتقام لعميلهم تراقي والثأر له ، أو أنهم أيّدوا حفيظ الله سرّاً ليتخلصوا من تراقي ثم أعلنوا سخطهم على خلفه ليوقعوا به ، وعلى كل حال فقد شجعت الخلافات بين الزعماء اليساريين على مزيد من تحركات الوطنيين ، وفقد حفيظ الله أمين ثقة الكثيرين حتى من الشيوعيين ، فاتجه إلى القمع ، فأعدم الآلاف وسجن عشرات الآف من معارضيه ، وكلّ هذا أتاح فرصاً للسوفييت فزادوا تدخلهم في أفغانستان ، ونُقِلَ العديد من الخبراء ، والجنود السوفييت إلى أفغانستان لمساعدة النظام اليساري في البلاد .

عهد مصبوغ بالدم :

اتخذ حفيظ الله أمين سفك الدماء سياسة له طيلة عهده على مسرح السياسة قبل قضائه على تراقي وبعد ذلك .



حفيظ الله أمين : المسفاح

وفي أوائل نوفمبر سنة ١٩٧٩ أذاعت وزارة الداخلية الأفغانية قائمة تحوى ١٢ ألف اسم للأشخاص — أغلبهم من المعتقلين السياسيين — ماتوا خلال اعتقالهم في سجون كابول خلال الثمانية عشر شهراً التى مضت منذ تولى الحكومة الماركسية الموالية لموسكو السلطة هناك بعد انقلاب ابريل ١٩٧٨ .

ويقول تقرير تلقته المصادر المطلعة فى العاصمة الهندية من كابول إن حالة من الحزن والحداد تسود العاصمة الأفغانية ، حيث فقدت كل أسرة واحدا على الأقل من أفرادها ، ولا يشمل هذا الرقم عدد القتلى بسبب الحرب الأهلية المستمرة بين الثوار والحكومة .

وذكر التقرير أن مئات من النساء والأطفال ، أخذوا ينوحون ويبكون ويصفون الرئيس الحالى حفيظ الله أمين بأنه « قاتل » بعد قراءة القائمة التى أعلنتها وزارة الداخلية ، وقد عاملهم البوليس بقسوة وضرب بعضهم بكعوب البنادق .

وأغلب الذين لقوا حتفهم هم من الأشخاص المتعلمين ، كاساتذة الجامعات ، والمدرسين والطلبة ، والموظفين ، والزعماء الدينيين والتجار وأصحاب الحوانيت . وكانت منظمة العفو الدولية قد أذاعت تقريراً فى هذا الموضوع قالت فيه إن كثيرين من المعتقلين السياسيين أُعدِمُوا بعد محاكمات سريعة . ولا غرو فى ذلك فالشيوعية لا تعترف بحرمة الدم ولا بحرمة الانسان .

انقلاب سوفيتى فى أفغانستان باسم (بابرak) :

لم يقطع الاتحاد السوفيتى بالانقلابات السابقة ، وقرر أن يلقي بثقله مباشرة فى هذه البلاد ، فنقل عدداً هائلاً من الجنود السوفيت بمعداتهم إلى كابول وإلى قاعدة « باجرام » الجوية ، وفى ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٧٩ قام رجال المظلات السوفيت بهجوم على قصر الرئاسة ومحطة الإذاعة ، وأعلنت الإذاعة السوفيتية أن انقلاباً حدث فى أفغانستان

أطاح بحفيظ الله أمين ، وأن محاكمة جرت له تمّ على أثرها إعدامه ،
واسقذعت موسكو عميلها « بابرak كارمل » الذي كان آنذاك هارباً في
أوروبا الشرقية فجعلته رئيساً للدولة •



بابراك كازميل

باسمه تدفق الزحف السوفييتي على أفغانستان

وأعلن السوفييت أنهم تدخلوا تنفيذاً لطلب تقدمت به الحكومة
الأفغانية بزعامة « بابرak كارميل » ، وفي الأيام الأخيرة من ديسمبر ١٩٧٩
كانت القوات السوفييتية المنقولة جواً تسيطر على كابول ، كما أن
فرق الرماة السوفييت فرضوا سيطرتهم على هرات وبعض المدن
الأخرى •

وقد ثارت شعوب العالم ضد الاتحاد السوفييتي وتدخله في
أفغانستان ، وأعلن كارمل أنه امتداد لنظام تراقى وأنه ضد نظام
حفيظ الله أمين الذي قاد البلاد الى صراع دموي مرير •

القوى العالية وأثرها :

كانت أفغانستان تعاني هذه الانقلابات الطاحنة في نفس الوقت

الذى كانت الحياة في إيران تتغير ، فقد خرج الشاه من طهران في رحلته النهائية في يناير سنة ١٩٧٩ وترك البلاد تغلى ، وجاء نظام الخوميني فقبض على الرهائن الأمريكيين كما وضعنا من قبل ، واستطاعت أمريكا أن تجعل من مشكلة الرهائن الـ ٥٢ مشكلة عالمية ، فأتاحت بذلك الفرصة للقوات الروسية أن تتسلل في غفلة من الناس وأن تتوغل في أفغانستان وأن تشدد قبضتها على تلك البلاد الإسلامية .

ولم تبال موسكو بقرارات مجلس الأمن ، أو الجمعية العمومية للأمم المتحدة ، ولكن الشيء الذى صمد في وجه الاتحاد السوفيتي كان تلك المقاومة الشعبية الهائلة التي لم تضعف أمام نيران العدو ومعداته ، وقاومت وستظل تقاوم حتى يتم لها النصر إن شاء الله ، وسنعيش مع هذه المقاومة الإسلامية العنيدة في الصفحات التالية :

المقاومة الأفغانية :

ذكرنا من قبل أن أفغانستان صمدت في وجه الاسكندر قديماً ، وغزت مع محمود الغزنوي فحققت أطماعاً واسعة : وسيطرت على جزء كبير من العالم في العصر الوسيط ، وحققت هزائم ساحقة ضد الامبراطورية البريطانية في العصر الحديث ، وفي أيامنا الحالية يقوم حفدة الأفغان بدورهم الخالد الذى قام به أجدادهم من قبل ، ولذلك نجدهم يصارعون دون هوادة السوفييت الذين احتلوا بلادهم ، كما يصارعون الجماعات اليسارية التي تسير في ركاب كارمل أو غيره من الزعماء الأفغان الذين اعتنقوا الشيوعية .

وتتخذ المقاومة الأفغانية أغنية أفغانية قديمة دستوراً لها ، وكلمات الأغنية هي :

- خير لك أن تعود إلى منزلك مخضباً بالدماء
- بدلاً من أن تعود صحيحاً معافى مخضباً بأحوال العار

(م ١٦ — الموسوعة التاريخية)

1. $\lim_{x \rightarrow 0} \frac{1}{x} = \infty$ (The function $\frac{1}{x}$ grows without bound as x approaches 0 from either side.)
 2. $\lim_{x \rightarrow 0} \frac{1}{x^2} = \infty$ (The function $\frac{1}{x^2}$ grows without bound as x approaches 0 from either side.)
 3. $\lim_{x \rightarrow 0} \frac{1}{x^3} = \infty$ (The function $\frac{1}{x^3}$ grows without bound as x approaches 0 from either side.)
 4. $\lim_{x \rightarrow 0} \frac{1}{x^4} = \infty$ (The function $\frac{1}{x^4}$ grows without bound as x approaches 0 from either side.)
 5. $\lim_{x \rightarrow 0} \frac{1}{x^5} = \infty$ (The function $\frac{1}{x^5}$ grows without bound as x approaches 0 from either side.)
 6. $\lim_{x \rightarrow 0} \frac{1}{x^6} = \infty$ (The function $\frac{1}{x^6}$ grows without bound as x approaches 0 from either side.)
 7. $\lim_{x \rightarrow 0} \frac{1}{x^7} = \infty$ (The function $\frac{1}{x^7}$ grows without bound as x approaches 0 from either side.)
 8. $\lim_{x \rightarrow 0} \frac{1}{x^8} = \infty$ (The function $\frac{1}{x^8}$ grows without bound as x approaches 0 from either side.)
 9. $\lim_{x \rightarrow 0} \frac{1}{x^9} = \infty$ (The function $\frac{1}{x^9}$ grows without bound as x approaches 0 from either side.)
 10. $\lim_{x \rightarrow 0} \frac{1}{x^{10}} = \infty$ (The function $\frac{1}{x^{10}}$ grows without bound as x approaches 0 from either side.)

1. The company has a long history of providing high-quality products and services to its customers.

The first of these is the *Journal of the American Medical Association*,
 which is published weekly, except on Sundays, and is the largest
 medical journal in the United States. It is published by the
 American Medical Association, 535 North Dearborn Street, Chicago,
 Illinois.

شبه القارة الهندية

- تعريف بها وذكر نبذة عن تاريخها القديم .
- الإسلام في شبه القارة من رطلع الإسلام حتى نهاية
الامتلاك البريطاني .
- باكستان منذ قيامها - عقب نهاية الامتلاك - حتى الآن .
- بنجالاديش منذ قيامها حتى الآن .
- الأقلية الإسلامية في الهند بعد التقسيم .

Възможно ли е да се намери единъ общъ законъ, който да обхваща всички случаи на движение? Това е въпросъ, който е билъ предметъ на изследване на много философи и математици. Но до днесъ не е било възможно да се намери такъвъ общъ законъ, който да обхваща всички случаи на движение.

Възможно ли е да се намери единъ общъ законъ, който да обхваща всички случаи на движение? Това е въпросъ, който е билъ предметъ на изследване на много философи и математици. Но до днесъ не е било възможно да се намери такъвъ общъ законъ, който да обхваща всички случаи на движение.

Възможно ли е да се намери единъ общъ законъ, който да обхваща всички случаи на движение? Това е въпросъ, който е билъ предметъ на изследване на много философи и математици. Но до днесъ не е било възможно да се намери такъвъ общъ законъ, който да обхваща всички случаи на движение.

Възможно ли е да се намери единъ общъ законъ, който да обхваща всички случаи на движение? Това е въпросъ, който е билъ предметъ на изследване на много философи и математици. Но до днесъ не е било възможно да се намери такъвъ общъ законъ, който да обхваща всички случаи на движение.

Възможно ли е да се намери единъ общъ законъ, който да обхваща всички случаи на движение? Това е въпросъ, който е билъ предметъ на изследване на много философи и математици. Но до днесъ не е било възможно да се намери такъвъ общъ законъ, който да обхваща всички случаи на движение.

ويشق الهند عند منتصفها تقريباً سلسلة من الجبال والأدغال تبدأ من الغرب ، وتسير حتى قرب الساحل الشرقى ، وهذه السلسلة تنقسم الهند قسمين يختلف أحدهما عن الآخر فى طبيعته وفى سكانه وحضارته .

ومن نهر الإندوس (السند) اشتق اسم الهند ، وظهرت كلمة إند وهند ، ومعناها الأرض التى تقع فيما وراء الإندوس ، وسمى سكان هذه البلاد : الهنود أو الهندوس (١) .

وعن تسمية الهند يقول غوستاف لوبون (٢) : يرى الغربيون أن نهر السند أعار من اسمه اسماً للبلاد الحافلة بالأسرار الواقعة فيما وراءه . ولا يسكلم بهذا تماماً بل يحتمل اشتقاق اسم الهند من اسم الإله (اندرا) .

ويجاور الهند دول أفغانستان فى الشمال الغربى ، والتركستان فى الشمال ، والصين فى الشمال والشمال الشرقى ، وبورما فى الشمال الشرقى كذلك .

(١) حقائق عن الهند (من منشورات قلم الاستعلامات الهندى) .

(٢) غوستاف لوبون : حضارة الهند ص ٢٥ .

Handwritten text, likely a list or notes, starting with "1. ...".

Handwritten text, likely a list or notes, starting with "2. ...".

Handwritten text, likely a list or notes, starting with "3. ...".

فمن الباب الشرقي دخلت الشعوب الصفراء (التورانيين) أفواجا منذ آلاف السنين يضيق الزمن بينها أو يتسع ، وقد فرّ من وجهها بعض السكان الأصليين واعتصموا بقمم الجبال ، أما أغلب السكان الأصليين فقد ارتبطوا بالزاحفين وتم بين الجنسين ألوان من العلاقات أنتجت ما أصبح بعد حين يُعرف بالسكان الأصليين ، وكان هذا المجتمع الجديد يتكون من جماعتين : إحداهما يغلب فيها الدم التوراني ، والثانية يغلب فيها الدم الهندي أما الذين أوا إلى قمم الجبال فقد أطلق عليهم « زنوج الهند » .

ومن الباب الغربي اقتحم الآريون بلاد الهند وبهم ارتبط تاريخ الهند القديم وأصل الآريين (الجنس الأبيض) مشكوك فيه ، ف يرى بعض الباحثين أنهم نشأوا ببلاد الدانوب بأوربا ، ثم هاجروا إلى آسيا عندما ضاقت بهم الأرض ، متخذين طريق الشرق حتى بحر مرمرة ، ثم عبروا البسفور أو الدردنيل إلى آسيا الصغرى ، واستمروا في سيرهم شرقا متجنبين مناطق الحضارة المزدهرة التي كانت قد نشأت في طريقهم ، حتى نزلوا فارس بالقرب من تبريز ، ومن هناك انحدروا إلى الهند (١) .

ويرى الباحثون الآخرون — وهو الأرجح — أن الجنس الآري أسيوي الأصل ، كان يعيش في وسط آسيا في بلاد التركستان بالقرب من نهر جيحون ، ثم زحفت أفواج ضخمة من هذا الجنس في أزمنة غير واضحة ، واتجهت نحو إيران عبر الهند واتجهت كذلك نحو أوربا (٢) .

ويبدو أن الزحف الآري إلى الهند قد تمّ في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وقد حارب الآريون الممالك التي أقامها الجنس الأصفر بالهند

(١) الهجرات الآرية ص ٤ . من منشورات وزارة التربية والتعليم بالهند

René Sedillot : History of the world p. 32.

(٢)

G F. Allen : The Buddha's Philosophy p. 24-25. : وانظر كذلك

وانتصروا على الكثير منها ، وكونوا لهم بها مناطق نفوذ ، ولم يتصل الآريون بسكان الهند بطريق التزاوج ، بل حافظوا غالباً على سلالتهم البيضاء وساقوا سكان الهند إلى الغابات والجبال ، وأخذوهم أسرى ، وسماهم الأدب الآرى المبكر « أمة العبيد » واستنصر الآريون عليهم بإلههم اندرا ، ومن دعائهم فى ذلك : يا إلهنا إندرا ، إننا قد أحاط بنا قبائل داسيو (عبيد) من جميع الجهات ، وهم لا يقدمون الضحايا ، وليسوا بآدميين ، ولا يعتقدون فى شىء ، يا مهلك الأعداء أهلكهم وأهلك نسل داسا (العبيد) .

والسبب فى أن الآريين لم يتم التزاوج بينهم وبين الهنود ، هو أن الآريين دخلوا الهند كشعب مهاجر لا كجيش محارب ، والفرق كبير بين الحالتين ، فالجيش يكون عماده الرجال الذين سرعان ما يتصلون بنساء الشعب المغلوب ، أما الآريون فقد دخلوا بثرائهم ونسائهم وأطفالهم ، فلم يحتاجوا لنساء الهند للزواج بهن ، وكان عدم الحاجة للنساء مع الاستعلاء الذى يصحب النصر من دواعى نشأة الطبقات ، كما كان هذا من أسباب كثرة الألوان فى الهند (١) .

أما مدى نفوذ الشعوب الصفراء (التورانيين) والبيض (الآريين) على الهند فيوضحه غوستاف لوبون بقوله (٢) : والتورانيون أثمد الغزاة تحويلاً لعروق الهند من الناحية الجثمانية ، والآريون هم الذين تركوا أقوى الأثر فى عروق الهند من الناحية المدنية ، فمن التورانيين أخذ سكان الهند نسب أجسامهم وتقاطيع وجوههم ، وعن الآريين أخذ سكان الهند لغتهم ودينهم وقوانينهم وسجايهم وطبائعهم .

ولم يتوار الآريون بالامتزاج فى الهند بسرعة كما توارى العرب فى مصر ، لأن عدم التزاوج ، ثم نظام الطوائف الحاسم حال دون

Weech : The Peoples and Religions of India p. 311. (١)

(٢) حضارة الهند ص ١٠٤ .

اللغات في الهند

رأينا فيما سبق اختلاف عناصر السكان واختلاف ألوانهم ، ولكن اللغات في الهند كانت أكثر اختلافا وأكثر عدداً ، وكانت الحياة القبلية المنتشرة بالهند من أهم أسباب كثرة اللغات ، فقد كانت كل قبيلة تكاد تكون مستقلة ، تعزلها الجبال أو الغابات أو الأنهار عن سواها من القبائل ، ولها لغة خاصة بها لا يعرفها سواها من القبائل أيضاً ، وعلى هذا بلغت اللغات في الهند نحو ٢٤٠ لغة و ٣٠٠ لهجة إذا صح ما يقوله غوستاف لوبون ^(١) بالإضافة إلى الفارسية التي كانت لغة رسمية للقصور والمجتمعات الراقية في الهندوستان ، والبهلوية وهي لغة المجوس الذين رحلوا إلى الهند من إيران قبل الاسلام .

وعلى هذا لم يكن من الممكن التفاهم بين سكان المناطق المختلفة ، وهذا مئيد الطريق للغة الإنجليزية لتكون لغة عامة بجوار هذه اللغات المحلية .

وهناك لغة أخرى تكونت في القرن الخامس عشر الميلادي ، وأصلها آري ، ثم دخلت عليها كلمات كثيرة من اللغات الفارسية والعربية والهندية والتركية وتسمى الآن اللغة الأوردية نسبة إلى (الأوردو) وهو المعسكر إذ كانت لغة معسكرات المغول أولاً ، وانتشرت هذه اللغة بين المسلمين وغير المسلمين ، وشجعها الملوك والسلاطين حتى ضارعت اللغة الإنجليزية ، ولما تم تقسيم الهند إلى دولتي الهند والباكستان اعتبرت هذه اللغة لغة إسلامية ، فاحتضنتها الباكستان ، وترعرعت هذه اللغة في الدولة الإسلامية الكبرى ، أما في الهند فقد عانت الأوردية صوراً من الاضطهاد في بعض الولايات ، ولكن ولايات أخرى هندية اعترفت بها مثل بومباي وأندر ومدراس ، ومن

(١) حضارة الهند ص ٤٧٧ .

العجب أن الذين كانوا يهاجمون الأوردية من الهنود كانوا يهاجمونها بها كما قال البانديت نهرو (١) .

أما عن اللغات في الهند بعد التقسيم فقد اتخذ الدستور الهندي اللغة الهندية لغة رسمية للبلاد ، وهي لغة قامت على أنقاض السنسكريتية ، ولما كانت هذه اللغة غير شائعة فقد رأى الاستمرار في استعمال اللغة الانجليزية كلغة رسمية للبلاد حتى تصل اللغة الهندية إلى الانتشار الكافي ، وإلى جانب اللغة الهندية ، اعترف الدستور بثلاث عشرة لغة في مختلف ولايات الهند ، وكل منها لغة حية ذات ذخيرة وفيرة ، ولها أدب يانع مترعرع (٢) .

الأديان في الهند

نقلنا في « موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية » رأى مجموعة من علماء مقارنة الأديان مؤداه أن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية ، وأن الاهتمام بالمعنى الإلهى وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية ... كما ذكرنا أن هناك عوامل تقوّى هذه الغريزة ، من أهمها قوَى الطبيعة ، ومواجهة الإنسان لهذه القوى وجهاً لوجه ، وإحساسه بالضعف تجاهها (٣) .

والهند حقل رائع لتطبيق هذه المبادئ ، فقد نشطت قوى الطبيعة ، وواجهها الإنسان الهندي وجهاً لوجه ، وأحس بالضعف تجاهها ، فأصبح « متدينا بطبيعته يُشغف بالروحانيات ، ويسعى دائماً إلى معرفة الله ، ويتخذ الزهد وسيلة ليتخلص من دنيا المادة وينتظم في دنيا الروح (٤) » ، وهيهات أن تجد هندوسياً لا يعبد عدداً من الآلهة ، فالعالم عنده زاخر بها ،

(١) انظر تاريخ الإسلام في الهند ص ٢٢ — ٢٣ .

(٢) محيى الدين الألوانى : الأدب الهندي المعاصر ص ٥٩ .

(٣) انظر الجزء الأول ص ١٦٧ — ١٦٨ من الطبعة العاشرة .

(٤) أديان العالم الكبرى ص ٢٤ لخصه عن الانجليزية حبيب سعيد .

(م ١٧ — الموسوعة التاريخية)

جتى أنه يصلى للنمر الذى يفترس أنعامه ، ولجسر الخط الحديدى الذى يصنعه الأوربى ، وللأوربى نفسه عند الاقتضاء (١) •

وقد عرف الهنود القدماء عبادة الحيوانات وبخاصة البقرة ، كما عرفوا عبادة قوى الطبيعة ، وعرفوا كذلك عبادة عضو التلقيح معتقدين أنه سبب الخلق ، وكان هذا الإله يسمى عندهم Linga وهى من اشتقاق الكلمة الانجليزية Link أى صلة ورابطة ، وفى العصور الآرية اندمج هذا الإله فى الإله الذى تكون منه الثالوث الهندي (٢) •

وعبادة الهنود للحيوانات نشأت عن الفكر الطوطمى ، أو عن اعتقادهم بأن الله يتجلى فى بعض الأحياء فيحل فيها حلوله فى هذا الحيوان أو ذلك ، أو لأنهم آمنوا بالتناسخ فجاز عندهم أن يكون الحيوان جَدًّا قديماً أو صديقاً عائداً إلى الحياة (٣) •

وقد كان للبقرة — من بين الحيوانات — قدسية خاصة بين المعبودات سالفة الذكر فقد حظيت البقرة فى الهند بأسمى مكانة ، وهى من المعبودات الهندية التى لم تضعف قداستها مع كُرِّ السنين وتوالى القرون ، وفى الوبدا حديث عن قدسيتها والصلاة لها ، ولا تزال البقرة حتى الآن تحتفظ بهذه القدسية ، وقد أثبتنا فى كتابنا « أديان الهند الكبرى » لمحة أدبية تنسب للمهاتما غاندى تفسر ما حظيت به البقرة لقديمًا وحديثًا من نفوذ ديني (٤) •

(١) غوستاف لوبون : حضارة الهند ص ٣٦٨ •

(٢) Weech: The People and Religions of india p. 310

(٣) الأستاذ عباس العقاد : الله ص ٧٧ •

(٤) أديان الهند الكبرى للمؤلف من سلسلة « مقارنة الأديان » ص ٣٢ •

كلمة عن تاريخ الهند قبل الإسلام

في القرن الخامس ق م استولى الفرس على إقليم السند والقسم الشمالي الغربي من الهند ، وأقاموا به حوالي قرنين من الزمان ، واستخدموا إمكانيات الهند البشرية والحيوانية في حربهم ضد اليونان .

وفي القرن الرابع ق م غزا الإسكندر بلاد فارس ثم واصل سيره فوصل كابول فالسند ، وعبر الهند كوش ، وكان ذلك سنة ٣٢٦ ق م . وأخذ يتجول في البنجاب ، لكن جنوده توقفوا عن التعمق ببلاد الهند إذ غلبهم الحنين للوطن وضاقوا بحرارة الهند وطقسها .

وكان وصول الإسكندر برجاله وعلمائه إلى الهند من الأسباب التي ربطت بين حضارة اليونان وحضارة الهند .

وبعد عودة الإسكندر وضياغ إمبراطوريته ظهر بالهند في أواخر القرن الرابع ق م إمبراطورية الموريا الهندية التي اتخذت الطاووس شعاراً لها ، وكانت تمتد من الهندوكش إلى البنغال ، ومن ملوك هذه الدولة أزوكا (٢٧١ - ٢٣١ ق م) الذي قتل إخوته خوفاً من أن ينازعوه الملك ، ثم حزن لذلك وتبتل ، وأصبح داعية للبوذية ، وقد انتهت هذه الأسرة على يد أسرة « اندهانا » سنة ١٨٤ ق م (١) ، ثم تلتها أسر ملكية أخرى ليس في ذكرها غناء ، ولكن الذي يهمنا أن نذكره هنا هو إقليم السند الذي سيطر عليه ملك برهمي هو الملك « داهر » بعد أن انتزعه من القبائل الآرية التي كانت تحكمه ، ودخل الإسلام بلاد الهند في أثناء حكم هذا الملك على ما سنسجل في الصفحات التالية :

(١) انظر د أحمد الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ج ١ ص ٢٨ وأديان الهند الكبرى للمؤلف .

الإسلام في الهند

تاريخ الإسلام في الهند له مراحل :

- ١ — مرحلة الاتصالات التجارية •
 - ٢ — مرحلة الحركات العسكرية والولايات والإمارات الإسلامية بالهند •
 - ٣ — العهد الغزنوى وانتشار الإسلام في أكثر شبه القارة •
 - ٤ — عهد الغوريين الأفغان •
 - ٥ — سلاطين دلهى •
 - ٦ — امبراطورية المغول بالهند التى أسسها بابر •
- وسنتحدث عن هذه المراحل فيما يلى :

المرحلة الأولى :

الاتصالات التجارية

وجِدَت علاقات تجارية بين الهند والعرب قبل أن يظهر الإسلام فقد كانت الهند من المحطات التجارية المهمة لادى العرب ، كما كانت فى الطريق لتجارتهم مع ماليزيا وإندونيسيا والصين ، وكانت التجارة العربية مع الهند تسير براً من مصر والشام على ساحل البحر الأحمر إلى اليمن ، ثم تبدأ المرحلة البحرية عن طريق حضرموت وعمان والبحرين إلى كراتشى أو عن طريق المحيط الهندى إلى الموانئ المختلفة بالهند ، ويقول غوستان لوبون : إن التجارة كانت تصل مراكز الشرق كسمرقند وبغداد ودمشق ، بالهند مارة ببلاد فارس وكشمير (١) •

وقد ذكر ابن خرداذبة أن البضائع الهندية كانت توجد فى الأسواق العربية قبل الإسلام ، وهو فى ذلك يقول عن ميناء عدن إنه كان بها

العنبر والعود والمسك ، وغيرها من الهند والصين والحبشة (١) •

وعندما جاء الإسلام ظلَّت صلة الهند بالعرب قوية ، ويستدل على ذلك بوجود بعض كلمات من اللغة الهندية في القرآن الكريم مثل (٢) :

- مسك : يُسَقِّون من رحيق مختوم ختامه مسك (٣) •
- كافور: إن الأبرار يشربون من كأسٍ كان مزاجها كافورا (٤) •
- زنجبيل : وَيُسَقِّونَ فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا (٥) •

ويروى أن أحد ملوك الهند أرسل هدية للرسول محمد صلى الله عليه وسلم وكانت عبارة عن جرة فيها زنجبيل فأخذ الرسول يطعم أصحابه منها (٦) •

ويشير الجغرافيون العرب كثيراً إلى السند والبنغال وإلى جزيرة الياقوت (سرى لانكا) وهم يتحدثون عن الصلات التجارية بين المسلمين وشبه القارة الهندية ، وقد وجدت في حفائر بهارپور وغيرها من البقاع الهندية عملات معدنية إسلامية مبكرة (٧) •

وعن طريق هذه الصلات التجارية دخل عدد من الهنود الإسلام وبخاصة من طبقة المنبوذين وأمثالهم الذين كانوا يضيّقون بنظام الطبقات في الهند وفرحوا بما حقّقه الإسلام من مساواة بين أتباعه •

كما وجدت مراكز إسلامية نتيجة للتزواج بين العرب المسلمين والنساء

-
- (١) المسالك والممالك ص ٦١ •
 - (٢) محمد يوسف نجرامى : العلاقات السياسية والثقافية بين الهند والخلافة العباسية ص ١٨ (رسالة ماجستير باشرافى) •
 - (٣) سورة المطففون الآيتان ٢٥ — ٢٦ •
 - (٤) سورة الانسان الآية الخامسة •
 - (٥) سورة الانسان الآية ١٧ •
 - (٦) النجرامى : المرجع السابق ص ٢٩ •
 - (٧) باكستان : من مطبوعات سفارة الباكستان بالقاهرة ص ١٦ •

الهنديات وهذا النشاط يمثل المرحلة الأولى من مراحل الانسلاخ في الهند .

المرحلة الثانية :

الحركات العسكرية والولايات والإمارات الإسلامية بالهند

إن الدارس لمنطقة بلاد إيران وأفغانستان وغرب الهند يدرك أن صلات وثيقة قامت بين هذه المناطق قبل الإسلام وبعده مما يؤكد أن الحدود بينها لم تكن ثابتة ولا قوية ، وكانت القوة التي تنجح في منطقة منها يكثر أن تمتد إلى المناطق الأخرى ، ومن هنا فإن دخول المسلمين المبكر بلاد العراق وفارس كان خطوة نحو دخول الإسلام إلى الهند وبخاصة أنه في معركة القادسية سنة ١٦ هجرية ، استنجد ملك الفرس الذي كانت تتبعه العراق ببعض ملوك البلدان المجاورة ، ومنها مملكة السند ، وقد أمده ملك السند بالمال والرجال ، ولكن النصر تم للمسلمين ، وفتح هذا النصر الباب للمسلمين لهاجمة السند رداً على تدخلها ضدهم في معركة القادسية (١) .

ثم إن فتح المسلمين لبلاد فارس جعلهم يتطلعون إلى ماوراءها فامتدت فتوحاتهم إلى خراسان ثم أسلمتهم خراسان إلى بلاد السند ، وعلى هذا بدأت حملات المسلمين على بلاد السند مبكرة منذ عهد عمر بن الخطاب ، وكان الذي قام بذلك في عهد عمر عامله عثمان بن أبي العاصي عامل البحرين وعمان ، وكان هذا قد أرسل لها جيشاً بحرياً ولذلك تعرض للموم عمر الذي كان يكره أن يركب المسلمون البحر ، إذ كتب إليه عمر يقول : يا أخا ثقيف ، حملت دودا على عود ، واني أحلف بالله لئن أصيبوا لآخذن من قومك مثلهم (٢) .

(١) محمد يوسف النجرامى : المرجع السابق ص ٣٠ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٢٠ .

وفي عهد علي توجه الحارث بن مرة العبدى متطوعاً إلى بلاد السند ومعه جيش من المتطوعين وأذن لهم على ذلك ، وقد انتصرت الحملة وغنمت كثيراً من الغنائم ، ووخيل الحارث بجيشه إلى ممر قتيقان (ثلاث الآن) ثم وقعت معركة بين أهالي قتيقان والمسلمين وتم النصر فيها للمسلمين وكان ذلك سنة ٣٨ هـ (١) ولم تكن هذه الغزوات حتى الآن غزوات استقرار وإنما كانت للردع والتهديد .

وغزا معاوية كذلك هذه البلاد بواسطة قائده الشهير المهلب بن أبي صفرة (٢) . الذي أرسل عبد الرحمن بن سمرة ففتح بلاد السند واستقر بها .

وجاء عهد الوليد فجاء عهد الفتح المنظم لهذه البلاد الواسعة وكانت العراق وفارس وخراسان تحت سلطان الحجاج بن يوسف الثقفي . وحدث أن ساءت العلاقات بين المسلمين وبين داهر ملك السند مما استدعى صداماً مسلحاً ، أما سبب سوء العلاقات فهو أن الحجاج أرسل سعيد بن أسلم إلى مكران ، فخرج إليه معاوية ومحمد ابنا الحارث العلافى فقتلاه ، اذ كانا من الخارجين على سلطان الأمويين في هذه الجهات ، وكانا قد لقيا عند داهر ملك السند البرهمي كل ترحيب حين لجا إليه ومعهما رجالهما الخمسمائة ، وما لبثا — وقد نصرأه في بعض حروبه — أن صارا من أصحاب الحظوة عنده .

وبلغ الحجاج الخبر فسأل الخليفة أن يأذن له بمهاجمة السند ملجأ الخارجين على الدولة ، ولكن الخليفة لم يأذن له ، ثم بعد ذلك تعرّض قراصنة من ديبيل لسفن كانت قادمة من جزيرة الياقوت (سيلان) وفيها بنات وأرامل لتجار من المسلمين واغاهم الأجل هناك ، فأسر القراصنة هؤلاء النساء ، ولما طلب الحجاج من داهر تخليص نساء

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٠٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٢١ .

المسلمين من الأسر لم يستجب له ، وادعى أنه لا يسيطر على لصوص البحر هؤلاء (١) فكان هذا وسواه باعثاً للحجاج أن يلجأ على الخليفة ليثأر لهذا العدوان ، وليؤمّن طريق التجارة وحدود البلاد الإسلامية من غارات المعتدين ، ولما استجاب الخليفة لرغبة الحجاج أعدّ هذا حملة كبيرة لغزو بلاد السند ووضع على رأسها القائد الشاب محمد بن القاسم الثقفي وهو صهر الحجاج وابن أخيه ، وانقسمت الحملة قسمين ، سار قسم منها بطريق البحر ، وقاد محمد القسم البري ففتح في طريقه بعض البلاد حتى التقى بسفنه الحملة بالجنود عند ميناء الدييل ، واتجه محمد بجنوده إلى الشمال فخرت له الحصون والبلاد صلحاً أو عنوة ، وأخيراً التقى بملك السند (داهر) الذي كان يقود جيشاً كثيفاً واجه به جيش المسلمين ، وقد دارت بينه وبين المسلمين معركة كبيرة فرّ منها داهر وانهزم جنده ، ووقع كثيرون منهم أسرى في أيدي المسلمين ، وبالقضاء على هذا الجيش أصبح الطريق ممهداً لمحمد بن القاسم ليسيّطر على بلاد السند كلها دون كبير عناء حتى وصل إلى كشمير (٢) .

وكان مما ساعد المسلمين على تحقيق النصر السريع مالا قوه من عون من قبيلتي الميّد والجات (الزط) السنديتين اللتين انضمتا للجيش الإسلامية ، ووجهتهما إلى أيسر الطرق ، وبذلت عوناً واضحاً في مغارك القتال ، وكانت هاتان القبيلتان قد هاجر أكثر أفرادهما إلى خارج السند لفرط ما كانوا يعانونه من سوء معاملة الحكومة البرهمية ، إذ كانوا في عداد المنبوذين الذين يُجرّم عليهم امتطاء الدواب أو ارتداء غالي الثياب ، ولم يكن يُباح لهم من المهن والحرف إلا أحقرها .

وقد أفاد المسلمون من رجال الميّد والزط إلى جانب شجاعتهم في

(١) دكتور أحمد الساداتى : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ١ :

٥٧ — ٥٨ .

(٢) البلاذرى : فتح البلدان ص ٢٢٤ وما بعدها .

الحرب وشدة جلدتهم فيها ، معرفتهم بمسالك السند ودروبها وأحوال أهلها وأساليبهم في النزال (١) .

أما عن صلة المسلمين بأهل السند بعد فتحها فيحدثنا عنها مؤلف هندي بقوله :

وقد أكرم القائد المسلم رؤساء الهنادكة من رجال الدين ، وأطلق للناس حرية العبادة ، على أن يوالوا المسلمين ويدفعوا الجزية عن طيب نفس (٢) . وتكونت من فتوحات هذه المرحلة ولاية السند التي كانت يتبعها جزء من ملتان (البنجاب) .

ولم يتجه الخلفاء الأمويون المتأخرون للفتوحات لكثرة ما عانوا من الصراعات الداخلية ، فلما جاء العباسيون لم يحرصوا على فتح مزيد من البلاد ، ووجهوا اهتمامهم للمحافظة على المملكة الإسلامية التي كانت قد اتسعت في عهد الأمويين .

عصر الولاية :

وبفتح السند بدأ ما يعرف بعصر الولاية في السند ، وأهم هؤلاء الولاة الذين سيطروا على السند هم كما أوردتهم زامباور (٣) .

في العهد الأموي :

عبد الرحمن بن سمرة (الفاتح الأول) سنة ٤٢ هـ
عبد الله بن سوار العبدي (من قبل معاوية) سنة ٤٣ هـ
سنان بن سلمه الهذلي (فتح مكران) سنة ٤٨ هـ
راشد بن عمرو الجديدي الأزدي (توفي سنة ٤٩) سنة ٤٩ هـ

(١) دكتور أحمد الساداتي : المرجع السابق ص ٥٩ .

(٢) Passad : Medieval Muslim Rule in India. 29.

(٣) معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ج ٢ ص

المنذر بن الجارود العبدى ، أبو الأشعث (حتى سنة ٦١) سنة ٥١ هـ
 ابن حرّى الباهلى
 سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابى
 عبيد الله بن أبى بكره
 محمد بن القاسم الثقفى (صهر الحجاج بن يوسف) سنة ٨٩ هـ
 جبيب بن المهلب بن أبى صفرة
 عمرو بن مسلم الباهلى (أخو قتيبة) سنة ٩٩ هـ
 الجعيد بن عبد الرحمن المرى (نائب خالد بن عبد الله) سنة ١٠٧ هـ
 عمرو بن محمد بن القاسم (مؤسس المنصورة التى أصبحت عاصمة الولاية)
 سليمان بن هشام بن عبد الملك (أموى توفى سنة ١٣٢) (١)
 منصور بن جهور الكلبى (آخر عمال بنى أمية) سنة ١٣٢ هـ
فى العهد العباسى :

عبد الرحمن بن مسلم العبدى
 المسيب بن زهير
 موسى بن كعب بن سفيان الخثعمى (أمر بتوسيع مسجد
 المنصورة) (حتى سنة ١٤١) سنة ١٣٤ هـ
 أبو جعفر عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة المهلبى سنة ١٤٢ هـ

وفى عهد عمر بن حفص ظهر نشاط علوى فى إقليم السند إذ أنه
 فى ذلك الوقت قامت ثورة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم ، وقد
 أرسل هؤلاء عبد الله الأشر لى نشر الدعوة العلوية فى الهند ، وكان
 مجيء عبد الله الأشر إلى السند فى عهد عمر بن حفص فرصة مواتية
 لأن عمر كان ميالاً للفكر العلوى ، فسمح لعبد الله الأشر أن يباشر
 نشاطه ، فأخذ هذا يتجول هنا وهناك وينشر دعوته ، وكان دخول
 مذهب الشيعة إلى الهند مرتبطاً بهذا الحادث .

هشام بن عمرو التغلبى
 سنة ١٥١

(١) لم يذكر زامباد تاريخ تولية بعض الولاة واكتفى بذكر أسمائهم .

وكان هذا الواالى أيضا ميالا للاتجاه العلوى ولذلك توانى فى القبض على عبد الله بن الأشر ، بيد أن أخا له قتل عبد الله بناء على أوامر الخليفة ودون موافقة أخيه .

وفى عهد هشام هذا تم فتح كشمير وملتان فى البنجاب ، كما استولى هذا الواالى على كجرات وبنى بها مسجداً يعتبر من أهم مساجد الهند .

سنة ١٦٠	روح بن حاتم المهلبى
سنة ١٦١	نصر بن محمد بن الأشعث
سنة ١٧٤	إسحق بن سليمان بن على عبد الله العباسى
حتى سنة ١٧٧	
سنة ١٨٤	داود بن يزيد بن حاتم المهلبى
سنة ٢١٣	موسى بن يحيى البرمكى (نائباً عن غسان بن عياد) حكم البلاد بكفاءة بالغة
سنة ٢١٧	عمران بن موسى بن يحيى البرمكى
سنة ٢٢٣	حيدر بن كاووس الأفشين
سنة ٢٤٠	عمر بن عبد العزيز المهارى

كان عمر زعيم الحجازيين ، وقد استولى على السلطة بفضل جاء الحجازيين بالهند ، وكان ذلك فى عهد المتوكل على الله (٢٣٢ — ٢٤٧) ولم تقلد عمر بن العزيز تقاليد السلطة ، أرسل خطاباً إلى الخليفة المتوكل يطلب الاعتراف به حاكماً على السند ، فوافق الخليفة على ذلك وأصبح عمر يستمتع بسلطة واسعة فى المناطق الهندية الإسلامية ، ولا يرتبط بالخلافة العباسية إلا من الناحية الشكلية فقط ، شأن الولايات الإسلامية المتعددة التى استقلت داخليا عن الخلافة العباسية بسبب سيطرة الأتراك على الخلافة .

عصر الإمارات الإسلامية بالهند :

وبدأ بعمر بن عبد العزيز بالهند عهد جديد هو عهد الامارات المستقلة التي ظهر فيها توارث في الحكم ، ولم يعد للخليفة من السلطان إلا أن يُذكر اسمه في الخطبة أو ترسل له بعض الهدايا •

وكان قيام هذا العهد مرتبطاً بنقطتين مهمتين هما :

أولاً : امتداد الحكم الإسلامي في الهند بعد ضمّ كشمير وملتان وكجرات في عهد هشام بن عمرو التغلبي كما ذكرنا من قبل •

ثانياً : الصراع الذي دار بين المزيين والقحطانيين بالهند على نمط الصراع الذي دار بينهما في خراسان وغيرها ... فكانّ القبائل العربية أخذت معها الصراع أنشئ حكت ، وللأسف كانت نتائج هذا الصراع دائماً مصدر ضرر كبير على الإسلام والمسلمين •

والإمارات الإسلامية التي قامت بالهند كان بعضها تحت حكم مسلمين من عنصر هندي وبعضها تحت حكم مسلمين من العرب الذين استوطنوا الهند منذ عهد الفتوحات الأولى •

وقد قامت بعض هذه الإمارات قبل عهد المتوكل إذ أن نوعاً من الاستقلال حدث قبله هنا وهناك كاستقلال الأدارسة والأغالبة في عهد الرشيد ، واستقلال الدولة الطاهرية والزيادية في عهد المأمون (١) وقد كانت هذه الحركة الاستقلالية نموذجاً زاد نطاقه في عهد المتوكل لاستيلاء الأتراك على السلطة من يد الخليفة مما جعل مركز الخلافة قليل الهيبة •

(١) انظر الجزء الثالث من هذه الموسوعة ص ٢٥٦ •

وأشهر الإمارات الهندية التي وُجدت آنذاك هي :

الدولة الماهانية بالسند سنة ١٩٨ هـ :

وقد أسسها فضل بن ماهان في السند ، وهي منطقة بعيدة عن السند ، وتقع في أراضي كجرات ، وقد استطاع فضل بن ماهان أن يَدْخُل هذه المنطقة ، ويخضعها لسلطانه ، وأعلن اعترافه بالخلافة العباسية ، مع استقلاله التام في أمور الداخل .

يقول البلاذري : كان الفضل بن ماهان مولى بنى سامة قد فتح سندان وسيطر عليها وبعث إلى المأمون رحمه الله بفيل وبعض الهدايا ودعا له في مسجد جامع أقامه بها (١) .
ولما مات الفضل بن ماهان قام ابنه محمد مقامه ، وظل على صلة طيبة بالخليفة العباسي المعتصم بالله .

وبعد محمد بن الفضل جاء أخوه ماهان بن الفضل .

وانقطع ذكر هذه الدولة ، حتى جاء الغزنويون فاقتحموا هذه المناطق ضمن ما اقتحموه في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجري .

الدولة الهبارية بالسند سنة ٢٤٠ هـ :

وُتنسب هذه الدولة إلى عمر بن عبد العزيز الهباري الذي تحدّثنا عنه من قبل ، وقد استطاع هذا أن يقضى على العامل العباسي في السند ، وأن يضع نفسه أميراً على الولاية ، وكتب للخليفة المتوكل بذلك ، فأقره على ولايته وبدأت بذلك الإمارة الهبارية .

وبعد وفاة عمر بن عبد العزيز الهباري سنة ٢٧٠ هـ تولى ابنه عبد الله زمام الأمور في الإمارة .

وبعد وفاة عبد الله تولى موسى بن عمر الإمارة سنة ٢٧١ هـ ،

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٣٣ .

وقد بعث الأمير ببعض الهدايا الهندية إلى المعتمد على الله (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ) الخليفة العباسي .

وبعد موسى جاء جفيد عمر بن عهد العزيز واسمه عمر بن عبد الله ، وكان ذلك سنة ٣٠٣ هـ ، وعاصمة هذه الإمارات كانت تسمى « المنصورة » .
وقد عاشت هذه الإمارة حتى اقتحم السلطان محمود الغزنوي الهند وضمّ إماراتها لسلطانه حوالي سنة ٤١٦ هـ .

الدولة السامية بملتان سنة ٢٧٩ هـ

كان أميرها محمد بن القاسم السامي وقد انتهز فرصة ضعف الخلافة العباسية وأعلن هذا الوالي استقلاله الداخلي في الملتان .

ومن عيوب أمراء هذه الدولة أنهم أبقوا على صنم الملتان حرصاً على الثراء الضخم الذي كانوا يحصلون عليه عن طريق الذين يحجون لهذا الصنم من جميع أنحاء الهند (١) .

ويبدو أن هذه الدولة سقطت على يد النفوذ الإسماعيلي الذي كان قد قوى في هذه المنطقة عند ازدهار الخلافة الفاطمية بمصر وكان ذلك حوالي سنة ٣٧٥ هـ .

الدولة الإسماعيلية في ملتان حوالي سنة ٣٧٥ هـ :

ذكرنا من قبل أن الفكر الشيعي ظهر بالهند منذ مطلع الخلافة العباسية ، وكان ذلك على يد عبد الله الأستر ، وقد ضعف الفكر الشيعي عقب ذلك ، بسبب قضاء الخلفاء العباسيين الأول على قادة الشيعة « محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم ... »

(١) ابن رسته : الأعلام النفسية ص ١٣٥ .

واتخذ دعاة الشيعة عقب ذلك « التقيّة » وسيلة لهم فأخذوا ينشرون الدعوة سرّاً ، وكانت الملتان منطقة نشاطهم السرى ، حتى لقي الفكر الشيعى قبولا لدى الكثيرين ، وفى حوالى سنة ٣٧٥ هـ أصبحت الدعوة الشيعية علنية بغد أن قامت الدولة الفاطمية فى مصر ، وأيدت الدولة الفاطمية النشاط الشيعى فى اليمن وفى الهند ، ووجهت الدعوة الشيعية تجاه المذهب الفاطمى ، فأصبحت دعوة إسماعيلية واستطاعت هذه الدولة أن تسقط الدولة السامية ، وأن تقوم على إثرها ، واعترفت الدولة الإسماعيلية بالفاطميين ، وكانوا يخطبون باسم الخليفة الفاطمى ، ويقول المقدسى فى ذلك : وأما الملتان فيخطبون للفاطميين ويتبعون أمره ، وإليه تذهب هداياهم فى مصر ، وهو سلطان قوى . ويقول فى موضع آخر : وأهل ملتان شيعة يهوعلون فى الآذان (١) . أى يقولون حى على خير العمل .

ومن حكام الدولة الإسماعيلية جلم بن شيبان الذى لم يقبل أن تبقى أصنام الهند ومعابدهم فى إمارته فهدم المعبد وحوّله إلى مسجد يُخَطَّب فيه باسم الخليفة الفاطمى (٢) .

وسقطت دولة الإسماعيلية على يد الغزنويين ، ولكنها عادت للحياة مرة أخرى عقب ضعف الغزنويين ، وامتد نشاط الشيعة فشمل الملتان والمنصورة حتى جاء الغورى ففضى على هذا النشاط وكون الدولة الغورية .

الدولة المعدانية فى مكران سنة ٣٤٠ هـ :

تظهر مكران فى التاريخ الإسلامى فى القرن الرابع ويتزعمها رجل اسمه عيسى بن معدان ، ويُلقَّب « مهراج » ويقول عنه الإصطخرى : والمتغلب

(١) أحسن التقاسيم : ص ٤٨٠ .

(٢) المسالك والممالك : ص ١٧٧ .

على مكران رجل اسمه عيسى بن معدان ولقبه مهراج وذلك في سنة ٣٤٠ هـ (١) .

وتولى بعد عيسى ابنه معدان الذي توفي سنة ٤٢٢ هـ ، ثم حدث خلاف بين ولديه عيسى وأبى العساكر وكان النصر للأخير بمساعدة الغزنويين كما يقول ابن خلدون (٢) .

وقد انقرضت دولة بنى معدان على يد السلطان غياث الدين الغوري .

تلك كلمة سريعة عن عصر الولاة والأمراء بمناطق الهند وقد جاء عقب ذلك زحف الغزنويين الذي قضى على هذه الإمارات واتسع اتساعاً كبيراً في الهند كما سنرى فيما يلي :

الرحلة الثالثة :

العهد الغزنوي

تحدثنا من قبل عن قيام الغزنويين ، وجهود السلطان محمود بوجه خاص ، وفتوحاته الواسعة ، وكان ضمن هذه الفتوحات زحفه إلى الهند ، وقد غزا محمود الغزنوي الهند سبع عشرة مرة خلال حكمه الطويل ، فكانت كل سنة تقريباً تشهد إحدى غزواته لتلك البلاد حتى خضع له شمال شبه القارة الهندية من غزنه إلى بنارس ، ومن الهمالايا إلى الدكن (٣) ، وامتدت بذلك مملكة محمود الغزنوي من بلاد فارس إلى بهار في شرق الهند .

وهذا التوسع العظيم بشبه القارة الهندية يحتاج منا إلى بعض التفاصيل فقد كانت الهند قبل هذه الفتوح منقسمة إلى إمارات وممالك متعددة وكان الشمال بوجه خاص منقسماً بين أمراء كثيرين من الراجبوت يعترفون لراجا دلهي بالعلبة والتفوق ، وكان هناك راجا قنوج وهو يملك إمارة

(١) البيروني : تحقيق ما للهند من مقولة ص ٥٧٤ .

(٢) العبر : ج ٤ ص ٤٧٣ .

(٣) دكتور الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ج ١ ص ٨٧ .

أودها وإمارة وادي الكنج ، وكان آل بال يملكون البنغال وبهار ، أما جنوب الهند فكانت تسيطر عليه إمارات هندوسية ثلاث هي : جيرا وراجول ، وبيندرا ، وكانت هذه الإمارات متحاربة وفي صراع دائم (١) .

ويذكر المؤرخ الهندي باننيكار (٢) أن الأمراء الهنود لم يخطر ببالهم أن زحفاً إسلامياً سيندفع نحو بلادهم ، فقد كانوا يعيشون في طمأنينة كاذبة أفقدتهم الشعور بالخطر الذي كان يتجمع في شمال إيران ، ولهذا كانت الغزوات الإسلامية آخر القرن الرابع الهجري مفاجأة لهم .

وبينما كان شبه القارة الهندية يغط في نومه كانت القوة الغزنوية تغلي وتبحث عن منفذ لنشاطها بقيادة البطل محمود الغزنوي ، وكان شبه القارة الهندية هو المنفذ الوحيد المناسب آنذاك للقضاء على الوثنية بالهند ، وذلك بعد أن أسلم الأتراك الشرقيون ، وغلب الإسلام على آسيا الوسطى ، وأسلم الغور والخوارزمية ، وكل هذا جعل أنظار المجاهدين المسلمين تتجه إلى شبه القارة الهندية (٣) .

ويضيف الأستاذ محمد حبيب أحمد إلى هذه العوامل ، عوامل أخرى فيذكر أن السلطان محمود الغزنوي شهد خيرات الهند أيام حملات أبيه ، ورأى أن في الغرب أملاك الخليفة العباسي وهو لا يريد الزحف عليها ، وأن في الشمال قوة تركية دخلت الإسلام وهي أشد تماسكا مما يجعل من الصعب قهرها ، وكل هذا وجه نشاط محمود الغزنوي تجاه الهند (٤) .

وبوجه عام يذكر ابن خلكان أن السلطان محمود الغزنوي بعد أن

(١) غوستاف لوبون : حضارة الهند ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

(٢) A Survey of Indian History p. 112.

(٣) دكتور حسن محمود : الاسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى ص ٢٠٩ .

(٤) بين الهند وباكستان ص ٤٠ .

حارب في جبهات إسلامية متعددة ، وأراق الكثير من الدماء الإسلامية ،
اتجه للتكفير عن ذلك بمحاربة الوثنيين في الهند (١) .

أما عن غزوات محمود إلى الهند التي يسميها المؤرخون « حوليات »
فإننا نتجه بالحديث عن أشهرها وأهمها فيما يلي :

أولى غزوات محمود كانت في شهر المحرم سنة ٣٩٢ هـ (نوفمبر
ديسمبر ١٠٠١ م) وبهذا كانت هذه الغزوة في فصل الشتاء ، ولكن
شتاء الهند دافئ مما جعل غزوات محمود تتجه للشتاء بوجه خاص ليكون
موعداً لها ، وفي هذه الغزوة التقى محمود بجيوش الملك (جيبال) وأسرع
محمود بالهجوم قبل أن ينضم إلى الملك الهندي حلفاؤه الهنود ، وتمكن
محمود من إحراز النصر وأسر الملك وحصل على غنائم كثيرة ، وقد أطلق
محمود " الملك الأسير نظير ندية ، ولكن الملك خضع لتقاليد الهند فتخلّى عن
الملك وحلق شعر رأسه وانتحر (٢) .

وهناك غزوة أخرى مهمة حدثت سنة ٣٩٦ هـ واتجهت الى الملتان وكان
يحكمها والٍ من بقايا غزاة المسلمين الذين استوطنوا هناك ، ويسمى
أبا الفتوح ، وكان يعتنق مذهب الباطنية ويدعو الناس إليه ، وهذا
الاعتقاد الباطل دفع السلطان محمود أن يتجه إليه ، ولكن كانت هناك
مملكة تقع في الطريق إلى الملتان هي مملكة (إنديال) وقد طلب السلطان
محمود من حاكمها أن يسمح لجيوشه بالعبور إلى الملتان ، ولكنه رفض ،
وبهذا اتجه محمود إلى القضاء عليه أولاً ، فانتصر على المملكتين وغنم
غنائم كبيرة (٣) .

ومن غزوات محمود المهمة غزوته أمام تجمع هندي بزعامة الملك بيذا ،
وكان هذا الملك قد اتصل بالملوك الذين استسلموا موبخاً ومشجعاً ،

(١) وفيات الأعيان : ج ٢ ص ٨٥ .

(٢) محمد عبد الحميد رفاعي : الدولة الخوارزية ص ٨٤ (رسالة

دكتوراه باشرافي) .

(٣) العتبي : تاريخ اليميني ج ٢ ص ٧٢ وابن الأثير : ج ٩ ص ٧٠ .

فاجتمعوا حوله ، وقبلوا قيادته ووعدهم بإعادة أملاكهم ، بعد طرد الغزنويين وقد أسرع السلطان محمود لمواجهة هذا التجمع ، وكان على جيشه أن يعبر نهراً عميقاً لمواجهة المتحالفين الذين اتخذ جيشهم مواقعهم خلف النهر ، وقد استطاع جنود السلطان محمود أن يعبروا هذا النهر مستخدمين القرب المنفوخة أو متعلقين بأعناق الخيل ، وكان النبالة يحمونهم وقت العبور كما استطاع هؤلاء النبالة من إصابة كثير من أفيال العدو وبعد معركة حاسمة كتب النصر للسلطان محمود (١) .

ومن أشهر معارك السلطان محمود معركته في (سمنا) وكانت هذه الغزوة سنة ٤١٦ هـ وهى خاتمة غزواته في بلاد الهند ، وفي هذه الغزوة استولى محمود على عدة مدن وحصون ، ثم اقتحم المدينة المقدسة « سومنا » ودمر صنمها الهائل ، وقد حاول بعض الهنادكة أن يعرض على السلطان أموالاً طائلة على ألا يهدم هذا الصنم ، ولكنه رفض قائلاً : إنه يفضل أن ينعتقه الناس بأنه محطم الأصنام على أن يصفوه بأنه بائع الأصنام .

ويوضح القزويني أن هذا الصنم كان اسمه « سَوَ مَنَا » فقد سمي باسم البلدة أو سميت البلدة باسمه ، ويذكر القزويني أنه كان يوجد بهذه البلدة هيكل ضخم يوجد به هذا الصنم ، وكان الصنم معلقاً وسط الهيكل دون حامل يحماه من أعلى أو قائمة تحمله من أسفل مما يجعل من الممكن أن يسمى « الصنم الطائر » ، وكان يشاع أن الملائكة تحمله ، فكان الهنود يحملون له أعظم القرابين والهدايا ، فلما اقتحم السلطان محمود المدينة أخذ سكانها يتضرعون لهذا الصنم أن ينصرهم ولكن هيهات واستولى المسلمون على الحلى والجواهر التى كانت تزيّن الهيكل ، ووقف السلطان فى دهشة أمام الصنم المعلق ، وتأكد أنه ليس هناك حامل من أعلى ولا من أسفل ، وجمع السلطان حوله العلماء ليرأىهم قبل أن يهدم الصنم ، فقال أحد العلماء ان القبة من حجر المغناطيس والصنم من الحديد ،

(١) محمد عبد المجيد رفاعى : المرجع السابق ص ٩١ بتصرف .

والصانع بالغ في تدقيق صنعته ، وراعى تكافؤ قوة المضاطيس من كل الجوانب ، فوقف الصنم في الوسط يخدع الناس ، ويرهن على ذلك برفع بعض الحجارة من الهيكل ، فمال الصنم إلى أحد الجوانب ، ولما رفعت أحجار كثيرة من الهيكل سقط الصنم ثم تمّ تدميره (١) .

وقد تمكن خلفاء محمود الغزنوى من القيام بعدة غزوات أخرى ، ففتح مسعود الأول قلعة هانى سنة ٤٢٨ هـ ، وكانت تسمى « القلعة العذراء » إذ لم يتمكن أحد من فتحها قبل ذلك .

وتمكن ابراهيم بن مسعود من الاستيلاء على قلعة « أجودو » وكذلك على قلعة « رويال » التى كان بها بعض بقايا الآريين (٢) .
ويؤخذ على الغزنويين فى فتوحاتهم بالهند ما يلى :

أولا — لم تكن فيهم سماحة الجيل الأول من المسلمين ذلك الجيل من العرب الذى كان يتحاشى الدماء بقدر الإمكان . وذلك هو الفرق بين حملة الإسلام من العرب وحملته من الأتراك ، وكانت فلسفة الغزنويين تتجه كما يصفها توماس أرنولد إلى الدعوة للإسلام أولاً ، فلما كان الهندوس يرفضونها كان السلطان المسلم يرى أن الفتح فتح عنوة ، يستبيح الفاتحون ما يملكه المغلوبون من كنوز وثروات (٣) .

ثانيا — لم يستقر الغزنويون فى الهند ، وكانت حروبهم انتصاراً يعقبه عودة المنتصرين إلى غرنة التى مثلت دائماً حلمهم الجميل .

ومن أفضل الغزنويين على الهند أنهم وضعوا الأساس لقيام دولة موحدة بدل الدويلات والإمارات الكثيرة التى كان يحكمها حكام متعادون متصارعون ، وقد جعل الغزنويون من الهند ولاية واحدة تشمل الإمارات

(١) القزوينى : آثار البلاد واخبار العباد ص ٩٦ — ٩٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١ ص ٤٢ .

(٣) الدعوة الى الاسلام : ص ٢٨٨ .

الإسلامية التي كانت موجودة قبلهم ، كما تشمل المناطق الكثيرة التي فتحها الغزنويون ، وعيّن الغزنويون على هذه الولاية والياً من قبلهم ، كما وكلوا شئئون الخراج لعامل الخراج الذي جعلوه مستقلاً عن نفوذ الوالى (١) .

وقد اهتم الغزنويون اهتماماً كبيراً بنشر الإسلام بالهند ، وكان محمود الغزنوى يَعدّ نفسه داعية إسلامياً ، وعندما سأله مندوب أحد ملوك الهندوس السؤال التالى : أى رجل أنت ؟ كانت إجابته إني رجل أدعو إلى الله وأجاهد من خالف دين الإسلام من عبدة الأوثان ، وسأله المندوب : فماذا تريد منا ؟ أجاب : أن تتركوا عبادة الأصنام وتتعرفوا على دين الله . وكان الغزنويون يعينون معامرين ودعاة في كل منطقة يفتحونها ،

وكان مما سبب انتشار الإسلام في الهند أن الغزنويين شجعوا على التراجع بين الجيش الفاتح وبين الهنديّات ، فكونوا بذلك أسراً إسلامية بالهند ، كما قربوا لهم عدداً من الهنود وعينوهم في وظائف مناسبة ، مما قرب المسافة بين الفاتحين والبلاد المفتوحة .

الهند في مجال الحضارة الإسلامية :

وقد لعب عدد من الهنود أدواراً مهمة في الحضارة الإسلامية ومن هؤلاء أبو عطاء السندي الذي نبغ في الشعر نبوغاً عظيماً ومدح به خلفاء بنى أمية وأوائل الخلفاء العباسيين ، ومنهم كذلك ابن الأعرابي وكان من أعلام اللغة العربية ، وهو مؤلف كتاب أسماء الخيل ، ومنهم أبو معشر السندي صاحب المغازي ، ومنهم الفزارى الذي نبغ في علم الفلك ، ومنهم صالح بن بهلة الهندي وكان بارعاً في الطب (٢) .

وإذا كانت هذه الأسماء الملامعة ترجع إلى عصور الإسلام الأولى

(١) البيهقي : تاريخ البيهقي الترجمة العربية للدكتور يحيى الخشاب

(٢) الذهبي : سير أعلام الاسلام .

في الهند فإن العصر الغزنوي ضاعف الارتباط بين الهند وبين المسلمين ، وفتح الباب أمام الهنود ليبرعوا في الفكر الإسلامي ، وليكتبوا في مجالاته المتعددة حتى وجدت منافسة بين مدرسة الهند والمدارس العلمية في القاهرة وبغداد (١) .

المرحلة الرابعة :

الغوريون الأفغان :

تحدثنا من قبل عن الغوريين في أفغانستان ، وكان عصرهم هناك قصيرا ، أما الغوريون هنا في الهند فكان دورهم عريضا ، فإنه عندما ضعف الغزنويون في أواخر عهدهم ، قفز أمراء الهنادكة لسلب السلطة ، واستعادة النفوذ ، كما هبّ الإسماعيلية لإثارة الاضطرابات والفتن (٢) .

وكان الغوريون يَعتشدون أنفسهم الورثة الحقيقيين لهذه المناطق من العالم الإسلامي فهبوا للقضاء على بقايا الغزنويين الذين لم يُعد في طاقتهم حراسة الأرض الإسلامية ، وكذلك للقضاء على أمراء الهنادكة الذين انتهبوا فرصة ضعف الحكام المسلمين فتحركوا للنيل من الإسلام والمسلمين .

وكان الغوريون قد أقاموا سلطانهم في أفغانستان بزعامة السلطان غياث الدين ، بعد القضاء على الغزنويين بأفغانستان ، ثم أرسل غياث الدين أخاه شهاب الدين إلى الهند ليقتضى على آخر أمراء الغزنويين ، وليرد تمرد الهنادكة ، فزحف شهاب الدين إلى لاهور وكان بها تاج الدين خسرو آخر سلاطين الغزنويين الذي اتخذ منها عاصمة لبقايا ملك الغزنويين وقد استطاع شهاب الدين أن يقبض على خسرو وأن يبعث به إلى غزنة ، وانتهى بذلك ملك الغزنويين ، ثم اتجه شهاب الدين لتوطيد سلطان الغوريين في الهند فبذل لذلك جهداً كبيراً حتى تمّ له خضوع الهند الشمالية كلها من السند والبنجاب إلى البنغال ثم شملت سلطاته جميع

Majumbar and others : Advanced History of India p. 402. (١)

(٢) الدكتور الساداتى : المرجع السابق ص ٨٦ .

المناطق التي كانت خاضعة لمحمود الغزنوي بالهند ، ولما مات غياث الدين سنة ٥٩٩ هـ أخذ شهاب الدين (محمد الغوري) مكانه ، فأصبح ملكا لأفغانستان والهند ، وسار في الهند يكمل زحفه ونشاطه حتى أصبح شبيها بمحمود الغزنوي في نجاح فتوحاته بالهند وفي تحطيم أصنامها وجذب كثيرين من سكانها لدين الإسلام .

ومن علماء عصره الفخر الرازي صاحب التفسير القرآني المعروف ، وكان الفخر الرازي يعظ في دار شهاب الدين ، وكان هذا يجلس أمامه جلسة المرید ويبكي لعظاته وحكمه (١) .

وكان شهاب الدين ملكا عادلا حسن السيرة ، فكان يقعد مع القاضي حتى يفصل قاضيه في الخصومات بحضوره ، ومن مات من رعيته وعليه دين وفي عنه الدين أن عجزت ثروته عن الوفاء (٢) .

وقد وفد إلى الهند في عصره الصوفي الشهير بالهند « معين الدين شيبستي » واستقر في « آجمير » بعد تجوال طويل ويقال أنه دخل الإسلام على يده عدة ملايين من الهنود ، ولكن قبر معين الدين شيبستي أصبح لدى أتباعه ومريديه المتأخرين كعبة يحجون لها كما يحج المسلمون إلى البقاع المقدسة بالحجاز معتقدين أن من لم يستطع الحج إلى مكة المكرمة يكفيه أن يحج لهذا الضريح (٣) .

وعندما عاد شهاب الدين محمد الغوري إلى غزنة ترك بالهند قائده قطب الدين أيبك لإدارة تلك البلاد الشاسعة ، فاستطاع قطب الدين أن يملأ هذا الفراغ بقدره هائلة ، فزاد في الفتوحات كما هيأ مزيداً من الاستقرار بالبلاد .

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ٨٤ .

(٢) القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ص ٤٣٠ .

(٣) انظر ما كتبناه عنه أخذاً من الوثائق بكتابتنا المجتمع الإسلامي .

المرحلة الخامسة :

سلطين دلهى

لم يترك شهاب الدين محمد الغورى وريثاً للعرش ، ولذلك فإنه عندما مات سنة ٦٠٢ هـ أعلن قطب الدين نفسه سلطاناً على الهند وكان قطب الدين جديراً بذلك ، فقد عرفت فيه أسمى الخصال وأعظم السجايا قيادة وإدارة ، وكان فى حياة سيده محمد الغورى موضع الثقة والتقدير ولما عهد له الغورى بإدارة الهند قبل أن يغادرها الغورى ، عمل قطب الدين على مزيد من توسيع الرقعة الإسلامية كما قام ببعض المنشآت العمرانية ، ولذلك كان جديراً به أن يصبح السلطان المسلم عقب وفاة محمد الغورى ، وبدأت بذلك دولة المماليك فى الهند .

وبابتداء دولة المماليك ، بدأت أسر حاكمة فى الهند وحدها واستمر حكم الهند بواسطة هذه الأسر أكثر من ثلاثة قرون وبالضبط من سنة ٦٠٢ هـ (١٢٠٦ م) إلى سنة ٩٣٢ هـ (١٥٢٦ م) إلى أن قامت بالهند إمبراطورية المغول الكبرى سنة ٩٣٢ هـ (١٥٢٦ م) التى ظلت حتى استولى الإنجليز على الهند ، ثم أعانت الملكة فيكتوريا إلحاق الهند بالممالك البريطانية ، وكان ذلك سنة ١٢٧٤ (١٨٥٧) كما سنرى فيما بعد .

والأسر الخمس التى حكمت الهند فى الفترة من الغورين إلى المغول هى :

- ١ — المماليك ٦٠٢ — ٦٨٦ هـ (١٢٠٦ — ١٢٨٧ م)
- ٢ — الخليجون ٦٨٩ — ٧٢٠ (١٢٩٠ — ١٣٢٠)
- ٣ — التتلقيون ٧٢٠ — ٨١٥ (١٣٢٠ — ١٤١٢)
- ٤ — السادات (الخضرخانية) ٨١٧ — ٨٤٧ (١٤١٤ — ١٤٤٣)
- ٥ — اللوديون ٨٥٥ — ٩٣٢ (١٤٥١ — ١٥٢٦)

ويلاحظ على حكم هذه الأسر ما يلي :

أولا : كانت هناك فترات اضطراب وفراغ أحيانا بين سقوط أسرة وقيام أخرى •

ثانيا : اتخذت هذه الأسر الخمسة (دلهي) عاصمة لها ولذلك تسمى هذه الأسر بسلاطين دلهي •

ثالثا : خلال حكم هذه الأسر ظهرت فترات ضعف كثيرة أتاحت الفرصة لاستقلال بعض المناطق عن حكومة دلهي ، وقيام أسر حاكمة متعددة في تلك المناطق ، وكان يحدث أن يقوى سلاطين دلهي فيستردون سلطانهم على هذه المناطق التي كانت قد أعلنت استقلالها ولكن سرعان ما يظهر الضعف من جديد على سلاطين دلهي فتعود هذه المناطق إلى الاستقلال مرة أخرى •

وأشهر الدول التي قامت في الأقاليم الهندية هي : البنغال وجنوب ومالوه وكشمير وكجرات وخاندش والدكن •

وسنذكر فيما يلي سلاطين كل دولة من الدول الخمس الكبرى :
ثم نتحدث عقب ذكر قائمة سلاطين كل دولة عن أبرز الأحداث خلال حكمها •

١ - سلاطين الماليك

في دلهي

١٢٠٦ هـ = ١٢٠٢

١٢٢٠ هـ = ١٢٠٧

١٢٣٧ هـ = ١٢٣٣

قطب الدين أيبك

شمس الدين ايلتمش

رضيعة خاتون

معز الدين بهرام شاه	٦٣٧ =	١٢٤٢
ناصر الدين محمود شاه	٦٤٤ =	١٢٤٦
غياث الدين بلبان	٦٦٤ =	١٢٦٥
معز الدين كيقباد	٦٨٦ =	(١) ١٢٨٧

وفيما يلي بعض المعلومات عن دولة المماليك بالهند :

عهد المماليك هو بدء استقلال الهند الإسلامية ، فقبل المماليك كانت الهند تابعة لملك الغزنويين أو الغوريين ، ولكن المماليك استقلوا بالهند ولم يكن لهم وطن سواها وبهذا استقر ثراء الهند في الهند ، وأصبح الحاكم والمحكوم إنسانا هندية يعمل لرفعة شأن بلاده ويكدر لضمان ازدهارها .

وكان قطب الدين أول سلاطين المماليك بالهند مثالا للعدالة والشهامة والكرم ، وقد قام بكثير من الإصلاحات وبنى المسجد الكبير بدلهي الذي اشتهرت منارته باسم « قطب مینار » أي منارة قطب ، وتقع بجانبها بوابة علاء الدين المعروفة في الهند باسم « علائی دروازہ » (٢) وبنى كذلك مسجداً آخر في آجمير .

وقد اهتم قطب الدين بتحسين صلته بالهنداكة ، واستطاع بهيئته أن يجعل الأمن يعم البلاد .

وعندما توفي قطب الدين أيك سنة ٦٠٧ دون أن يكون له أبناء كان شمس الدين ايلتمش أجدر من يصبح خلفاً له ، فقد كان مملوكاً له وترعى تحت رعايته حتى أصبح أهم قواده ، وقد زوجه قطب الدين ابنته ، وكان طبيعياً أن يخلفه ، وقد اجتمع له الفقهاء وقاضى القضاة ونظروا له نظرة فهمها ايلتمش فأخرج لهم من تحت البساط

(١) لين بول : معجم الأسرات الحاكمة ج ٢ ص ٦٠٣ .

(٢) دكتور عبد المنعم النمر : تاريخ الاسلام في الهند ص ١٠٦ .

الذى يجلس عليه وثيقة عنقه ، فقرأها القاضى والفقهاء وبأيعوه عقب ذلك وبأيعه الناس واستقل بالملك ، وكانت مدته عشرين سنة ، وكان عادلا صالحا فاضلا ، ومن آثاره أنه اشتد في ردّ المظالم وإنصاف المظلومين (١) .

وقد استطاع أيلتمش أن يُخضع الذين ثاروا عليه في السند والبنغال كما قهر الهنادكية الذين طمعوا في الاستبداد ببعض المناطق ، وحصل على تصديق من الخليفة ببغداد بقيام أول دولة إسلامية بالهند ، وأن يكون حاكمها أيلتمش وقد وصل من العظمة أمدأ جعل الدولة تسمى باسمه (الدولة الأيلتمشية) (٢) .

وفي عهده أسقط المغول الدولة الخوارزمية ، وغرّ جلال الدين حاكمها يرجو العون من أيلتمش فتعرضت البنغال لذلك لهجوم كنكيزخان سنة ٦١٣ ولكن لم يطل مقام جنكيزخان في الهند وبخاصة أن أيلتمش لم يتورط في الدفاع عن حاكم الدولة الخوارزمية — ولئن نجت الهند من جنكيزخان فقد استمرت هدفاً للمغول يطرقون بابها ويدخلونها من حين إلى آخر حتى آل أمرها إليهم كما سنرى فيما بعد .

وعند وفاة شمس الدين كان له من الأبناء ثلاثة هم ركن الدين ومعر الدين وناصر الدين ، وكان له بنت اسمها « رضية » وقد تولى ركن الدين بعد أبيه ، وسرعان ما قتل أخاه معز الدين ، فاستنجدت رضية بالناس فقبضوا عليه وقتلوه قصاصا ، وكان الأخ الثالث صغيرا فبأيعها الناس بالسلطان ، وحكمت مدة أربع سنوات قادت خلالها حملات ناجحة ضد الأمراء الذين ثاروا عليها من مسلمين وهنادكة ، وكانت تجوب الأسواق وتستمع لشكاوى الناس ، ثم غلبت عليها أنوثتها ، فأجبت أحد عبيدها من الأعباش فثار عليها الزعماء وعزلها القواد (٣) .

(١) ابن بطوطة : تحفة النظار ج ٢ ص ٢٥ .

(٢) لين بول : المرجع السابق ص ٥٩٨ .

(٣) ابن بطوطة : المرجع السابق ص ٢٦ .

وبعد رضية حدثت ارتباكات ومنازعات ومناقشات انتهت بسلطة ناصر الدين محمود ، وكان حاكماً صالحاً يسير على نمط الخلفاء الراشدين وكان له وزير صالح هو غياث الدين بلبان وليس هذا من نسل أيلتمش وقد طال حكم ناصر الدين فبلغ عشرين عاماً ، وعقب وفاته استبد وزيره بالسلطة فأصبح سلطان البلاد وقد استطاع بلبان أن يرد غارات المغول عن الهند وأن يقضى على منافسيه واشتهر بلبان بحب الخير وحسن استقبال الأمراء الذين كانوا يفرون من المغول ، وكان يبنى لهم منازل مناسبة ويغدق عليهم •

وبعد بلبان حكم كيقيباد وهو حفيد بالبان وكان والده بفراخان حاكماً في البنغال ، وقد حدث صراع بين الوالد وأبيه ولكنه انتهى بالصلح •

وكان كيقيباد يميل للهو والشرب ففقد صحته ومكانته وانتهى الأمر بانتقال السلطة إلى أسرة الخلجي التي ستحدث عنها فيما يلي :

٢ - سلاطين الخلجية

أورد لين بول قائمة السلاطين الخلجية مترددا وبدون جزم ، وفيما يلي ما ذكره لين بول (١) :

١٢٩٠ هـ = ٦٨٩	جلال الدين غيروز شاه
١٢٩٦ هـ = ٦٩٥	ركن الدين ابراهيم شاه
١٢٩٦ هـ = ٦٩٥	علاء الدين محمد شاه
١٣١٦ هـ = ٧١٦	شهاب الدين عمر شاه
١٣١٦ هـ = ٧١٦	قطب الدين مبارك شاه
١٣٣١ هـ = ٧٢٠	ناصر الدين خسرو شاه

والخليجون هم مؤسسو الأسرة الإسلامية الثانية التي حكمت في
دلهي وقد وسع هؤلاء نطاق المنطقة الإسلامية بالهند فشملت الدكن فيما
وراء جبال ويندهيا وأصبحت الدكن ولاية مرتبطة بدولة دلهي كما امتد
سلطانهم إلى البنغال فقد فتح علاء الدين منطقة الكجرات سنة ٦٩٦ هـ
ومنطقة جيتور سنة ٧٠٣ هـ ، ثم استولى قواده على مدينتي (إديوكير)
و (رينكل) .

وكان قيام دولة السلاطين الخلجية على يد جلال الدين فيروز شاه
الذي كان نائباً لكيقباد إذ رفض تولية الطفل ابن « كيقباد » بعد أبيه
واستولى على السلطة لنفسه وبذلك انتقلت السلطة من أسرة إلى أسرة ،
وكان جلال الدين واسع الأفق مشهوراً بالحلم والكرم ، ومع هذا فقد
كانت نهايته أليمة إذ قتل غدرًا بمؤامرة دبرها ابن أخيه وزوج ابنته
علاء الدين الذي اشتهر باسم اسكندر الثاني وقد بذل هذا جهداً في
التنكيل بأسرة عمه ، وبخاصة بابن عمه ركن الدين الذي حاول أن يتولى
السلطة بعد أبيه ولكنه فشل ، وفي أيام علاء الدين زحف المغول على الهند ،
ولكن علاء الدين استطاع أن ينتصر على المغول وأن يقتل منهم عدداً كبيراً ،
ويلقى بهم تحت أرجل الفيلة ، وكان اتساع الدولة الإسلامية بالهند
في عهد علاء الدين ، وانتصاراته الحاسمة على المغول مما جعله يلقب
بالإسكندر الثاني .

وكان علاء الدين قاسياً في معاملة من تحوم الشبه حولهم من
الرعية ، وبخاصة من أسرته ، ولعل موقفه من عمه زرع في نفسه بذور
الشك نحو أقاربه .

وبعد علاء الدين قامت ألوان من الصراع بين أولاده فنكل بعضهم
ببعض ، ولم يكونوا جديرين بالسلطة ، مما جعل الدولة ينفك عقدها ،
فقفز للسلطة أحد القواد واسمه (خسروخان) وأخذ يقتل ويدمر ، مما دفع
سكان دلهي إلى الاستعانة بحاكم لاهور (طغلق) ، وقد انتهز هذا تلك
الفرصة فزحف إلى دلهي وقضى على خسروخان ، وأسس طغلق دولة
جديدة هي الدولة الطغلقية التي سنتحدث عنها فيما يلي :

٢ - الدولة الطغلقية

حكمت الدولة الطغلقية بلاد الهند حوالى مائة عام وسلاطينها هم :

غياث الدين طغلق شاه الأول (طغلق)	٧٢٠ هـ = ١٣٢٠ م
محمد بن طغلق	٧٢٥ هـ = ١٣٢٥ م
فيروز شاه	٧٥٢ هـ = ١٣٥٠ م
غياث الدين طغلق شاه الثانى	٧٩٠ = ١٣٨٨
أبو بكر شاه	٧٩١ = ١٣٨٩
محمد شاه	٧٩٢ = ١٣٩٠
اسكندر شاه	٧٩٦ = ١٣٩٤
محمود شاه	٧٩٧ = ١٣٩٤
خصرت شاه	٧٩٧ = ١٣٩٤
محمود شاه (المرة الثانية)	٨٠٢ = ١٣٩٩
دولت خان اللودى (١)	٨١٥ = ١٤١٢

وغياث الدين طغلق مؤسس هذه الدولة كان من الأتراك الذين يسكنون بين بلاد السند والترك ، وفد إلى السند مع جماعة من التجار ، والتحق بحاشية أمير السند ثم ترقى حتى وصل إلى منصب كبير بين رجال البلاط ، وقد ظهرت كفاءة طغلق فى الحروب ضد المغول حتى سُمى « الغازى » ويقول ابن بطوطة (٢) : إنه دخل المسجد الجامع بملتان • فوجد مكتوبا على مقصورته : إني قاتلت التتار تسعاً وعشرين مرة فهزمتهم ، وحينئذ سميت « الملك الغازى » وقد استطاع طغلق أن يقضى على خسرو آخر ملوك الدولة الخلجية كما ذكرنا من قبل •

(١) لين بول : معجم الاسرات الحاكمة ج ٢ ص ٦٠٦ •

(٢) ابن بطوطة : مختصر رحلة ابن بطوطة ج ٢ ص ٣٦ •

ولم يطل عهد غياث الدين إذ تأمر ابنه عليه ، وقضى عليه وجاء بعده هذا الابن الذي نقل عاصمة البلاد من دلهي إلى مدينة (ديوكير) وسماها (دولت آباد) ، ولكن الخلاف والتوتر كانا بارزين بين السلاطين وكانت حركات العصيان مستمرة مما قتل نفوذ العاصمة ، ودفع للتفكك واستقلال كثير من الولايات ، وهذا كله آذن بنهاية الدولة الطغلقية .

بقى أن نذكر أن ابن بطوطة زار هذه الدولة في عهد محمد بن طغلق شاه ، وسجل ما رآه من كرم خارق لهذا السلطان ، ومن قسوة بالغة ارتكبها كذلك ، ويقول عنه ابن بطوطة إنه أحب الناس في إسداء العطايا وإراقة الدماء ، فلا يخلو بابه من فقير يغتنى أوحى يقتل ، وقد اشتهرت في الناس حكاياته في الكرم والشجاعة ، وفي الفتك والبطش ، ويروى ابن بطوطة نماذج متعددة من الجانبين (١) .

ولعل هذا التصرف كان هو الذي وضع أساسا لاضمحلال هذه الدولة واتساع الاضطراب فيها ومن أخطر أعماله التي قام بها أنه أخلى مدينة دلهي من السكان ، وقضى عليها بالخراب والدمار ، مما يدل على حمق في الرجل ، واضطراب في عقله ، وقد حاول فيروز شاه أن يصلح مما فعله سلفه فواسى المنكوبين ، وخفف عن الرعية ما عانوه من ضغط محمد بن طغلق ، وقام بمشروعات عمرانية واسعة وغير ذلك من الأعمال الطيبة مما جعل الحياة تدب من جديد في الدولة الطغلقية ، وقد طالت مدته فبلغت حوالي الأربعين عاما وقد سجل التاريخ له صورة مشرفة .

وبعد فيروز شاه حدثت اضطرابات في خلفائه ، وماجت الهند بالخلافات ثم حدثت حادثة بعيدة الخطر في الدولة الطغلقية وفي تاريخ الهند بوجه عام ، وهي هجوم تيمور لك على الهند ، ذلك الهجوم الذي سنتحدث عنه بعد قليل .

(١) ابن بطوطة : تحفة النظار ج ٢ ص ٤٠ وما بعدها .

وأكثر سلاطين بنى طغلق كانوا يحرصون على توثيق صلتهم بالخلافة العباسية التي كانت القاهرة مركزها آنذاك بعد سقوط بغداد ، وكان سلاطين بنى طغلق يحرصون على توطيد سلطانهم بنيلهم اعتراف الخليفة العباسي ، وقد أرسل السلطان محمد بن طغلق رسالة إلى الخليفة بالقاهرة ومعها ألوان من الهدايا الثمينة ، وطلب منه إقراره على السلطان في بلاد السند والهند فوافقه الخليفة وأرسل له وثيقة بذلك مع أحد الشيوخ ، ولما قدم هذا الشيخ على السلطان محمد بن طغلق أكرمه السلطان إكراما عظيما وأعطاه أموالا طائلة وهدايا ثمينة وقد بلغ الأمر بسلاطين بنى طغلق إلى الاعتقاد بأن الحكم بدون إقرار الخليفة العباسي غير شرعي وأن الذي يحكم بدون موافقة الخليفة يكون مغتصبا ، وتنفيذا لهذا الاعتقاد أمر السلطان أن يزال اسمه من النقود ويكتب اسم الخليفة بدلا منه (١) .

تيمور لنك

في الهند

تدفق المغول من بلاد منغوليا واتجهوا إلى القضاء على الدولة الخوارزمية ، ثم الزحف على إيران فالعراق فالشام ، ومن جهة أخرى اتجهوا إلى الزحف على الهند وقد درسنا ذلك بتفصيل كاف في الجزء السابع من هذه الموسوعة ، وفيما سبق في هذا الجزء عند دراستنا عن المغول .

وعندما كان المغول يدمرون بلاد ما وراء النهر ، وبلاد إيران والعراق ، وبخاصة عند زحفهم الذي انتهى بتدمير العاصمة الإسلامية بغداد ، سنة ٦٥٦ هـ كان السكان يفرون من وجههم ويلجأون إلى الهند في عهد السلطان غياث الدين بلبان ، أو يلجأون إلى مصر في عهد السلطان بيبرس ، وكان المغول آنذاك من عباد الطبيعة ، أو ممن لا دين لهم .

(١) ضياء الدين برنى : تاريخ فيروز شاه ص ٤٩٢ نقلا عن رسالة الماجستير التي أعدها محمد يوسف النجراني بإشرافي ص ١٧١ .

وجاءت الجولة المغولية الثانية بقيادة تيمور لنك فاستولى على بلاد ما وراء النهر وأفغانستان وإيران والعراق والشام ، واصطدم بالدولة العثمانية ، وحقق عليها ألوانا من النصر ، وفي هذه الجولة دخل تيمور لنك الهند وكان ذلك في أواخر عهد الأسرة التغلقية أى حوالى نهاية القرن الثامن الهجرى ومطلع القرن التاسع •

وقد اتخذت هذه الجولة المغولية مظهراً جديداً إذ أعلن تيمور لنك أنه مسلم ، وأنه يزحف باسم الإسلام لمحاربة أعدائه الهنادكة ، وتطهير بلاد الهند من الأصنام والمعابد ، وتبعاً لذلك الادعاء كان تيمور لنك يزور قبور الأولياء والصالحين ويتظاهر بالتعبد فيها ، وينتقم من الهنادكة الذين نسب لهم العدوان على المسلمين •

وقد اكتسح تيمور لنك بلاد الهند ، ووصل إلى دلهى ، وقبض على آلاف الأسرى الهندوس كما جلب حشداً من الأموال والمتاع •

ولم يطل بقاء تيمور لنك بالهند ، بل سرعان ما خرج منها بعد فترة قصيرة قانعاً بالغنائم والأسلاب ، والحقى والمجوهرات التى حصل عليها متجهاً إلى البلاد الإسلامية التى أشرنا إليها وتاركاً بلاد الهند تعانى من التخريب والتدمير الذى نزل بها خلال هذا الزحف ، وبخاصة مدينة دلهى التى تعرضت لحملة طائشة من السلب والنهب والقتل قام بها جنود تيمور لنك •

وبعد خروج تيمور لنك حاول محمود شاه الثانى ومعه وزيره إقبال أن يستعيدوا سلطة الطغلقين ولكن هذه الأسرة كانت قد فقدت سلطانها ، مما لم يعط فرصة لانتعاشها من جديد ، ومما آذن بقيام دولة جديدة فى دلهى ستكون موضع حديثنا فيما يلى •

٤ - دولة السادات

لم تكن دولة السادات طويلة العمر في دلهي بل حكمت هذه المنطقة حوالي ثلاثين عاما فقط وكان نفوذ الدولة محدودا ، اذ استقلت أغلب الولايات ، وقد بدأت هذه الدولة بالسلطان (خضرخان) حاكم لاهور الذي زحف إلى دلهي سنة ٨١٧ هـ (١٤١٤ م) مدعياً أنه نائب عن تيمور لنگ ، ولعله كان بذلك يصانع المغول حتى لا يتعرض لبطشهم ، وسلاطين السادة الخضرخانية هم :

السيد خضرخان	٨١٧ هـ = ١٤١٤ م
السيد مبارك شاه بن خضرخان	٨٢٤ = ١٤٢١
السيد محمد شاه حفيد خضرخان	٨٣٧ = ١٤٣٤
السيد عالم شاه بن محمد شاه (١)	٨٤٧ = ١٤٤٣

وفي عهد عالم شاه كانت سلطة دلهي قد تقلصت فلم تعد تشمل إلا مدينة دلهي وحدها ، ويروى أن المؤرخين كانوا يتندرون بحكم هذه الدولة فيقولون (ملك شاه عالم من دلهي إلى بالم) (١) وبالأمكان من أطراف دلهي ، وقد سقطت هذه الأسرة في عهد عالم شاه واستولى على السلطة أسرة جديدة هي أسرة اللوديين التي كانت تحكم لاهور وسنتحدث عنها فيما يلي :

٥ - اللوديون

اللوديون أسرة كانت حاكمة في لاهور كما ذكرنا من قبل وملوكها في دلهي هم :

بهلول اللودی	٨٥٥ هـ = ١٤٥١ م
اسكندر بن بهلول	٨٩٤ = ١٤٨٨ م

(١) لين بول : معجم الأسرات الحاكمة ج ٢ ص ٦٠٧ .
(١) نقلا عن تاريخ الإسلام في الهند للدكتور عبد المنعم النمر ص ١٤٨ .

ابراهيم بن اسكندر

٩٢٣ = ١٥١٧
إلى ٩٣٢ = ١٥٢٦ (٢)

وكان نفوذ المسلمين قد تعرض للهوان في دلهي وكثرت الاضطرابات في عهد شاه عالم ، فزحف بهلول اللودي من لاهور إلى دلهي ، وأحسن الأفغان في دلهي استقباله وبايعوه زعيماً لهم ، وفراً شاه عالم من الميدان وأخلى الطريق للأسرة اللودية ، وقد اتسع نفوذ دلهي في عهده ، واستعاد لها مكانتها في الهند ، كما دفع نشاطه في ناحية الجنوب فوصل إلى أعماق الهند ووسطها وكان الرجل بجانب شجاعته محباً للعلم والعلماء ، وقد طال عهده مما هباً له نجاحاً عظيماً في مهمته ، وبعد وفاته وتولية ابنه اسكندر شاه قام صراع بين هذا الابن وبين أخيه (باريك) ولكن اسكندر حقق النصر على أخيه ، وكان اسكندر حريصاً على شرقى الهند حرصه على غربيتها ، فانتقل الى أكراتخاذها عاصمة له ، ونزل حياً من أحيائها لا يزال يحمل اسمه حتى الآن (اسكندره) .

وبعد اسكندر جاء ابنه ابراهيم ، ولكن عهده حفل بالثورات والاضطرابات والاعتقالات واستقلال الولايات فاستنجد بعض الزعماء بالحاكم التيموري بابر الذي كان يسيطر على أفغانستان ويتخذ من كابل عاصمة له .

وقد انتهز بابر هذه الفرصة فزحف إلى الهند ليكون بها امبراطورية المغول العظيمة التي دامت حوالي ثلاثة قرون ، وستكون هذه الإمبراطورية موضوع حديثنا التالي .

المرحلة السادسة :

امبراطورية المغول في الهند

ومؤسسها « بابر »

٩٣٢ - ١٢٧٥ هـ = ١٥٢٦ - ١٨٥٨ م

ولد بابر (مؤسس امبراطورية المغول في الهند) سنة ٨٨٨ هـ (١٤٨٣ م) ، وكان مولده في فرغانة ، وأمه قتلق نيكار خانيم (هانم) ، وسمى الوليد ظهير الدين محمد ، ثم أطلق المغول لقب « بابر » لسهولة عليهم في النطق ، وتمتزوج في بابر دماء الأتراك بدماء المغول ، فأبوه حفيد تيمور لك الذي يجري في عروقه دم الأتراك ، وأمه من أحفاد جغتاي ثاني أبناء جنكزخان ، وكان بابر يعتز بتركيته ، وينفر من المغولية التي عرفت بالتدمير ، ولكن شاع في الهند أن بابر زعيم المغول ، وأن امبراطورية المغول في الهند بدأت به ، إذ اتجه الهنود الى إطلاق كلمة « مغول » على الغزاة الأشرار ، كما كانت لفظة « مغول » تدل على الأبهة والعظمة (١) .

وقد فقد بابر أباه وهو في الثانية عشرة من عمره ، وحاول أعمامه الاستيلاء على ملك أبيه ، ولكنه قاومهم ، واستطاع أن يسيطر على مملكة ما وراء النهر ، ولكنه لم يلبث أن انهزم ، ففر هاربا إلى أفغانستان ، وفي كابول بدأ يوطد أقدامه من جديد ، وبخاصة أنه كان قد بلغ مبلغ الشباب حينذاك (سنة ٩١٠ هـ) ومن كابول بدأ يوسع مملكته ويدعم سلطانه .

واستنجد به في هذا الوقت حاكم لاهور من أسرة اللوديين ضد ابن عمه اللودي حاكم دلهي ، فهب بابر لنجدته متطعنا إلى السيطرة على الهند التي ملكها يوماً جدّه تيمور لك ، والتي كانت ذات شهرة فائقة ، وقد حارب بابر عدة وقائع في شبه القارة الهندية كتب له

(١) انظر تاريخ الاسلام في شبه القارة الهندية للدكتور أحمد الساداتي :

النصر فيها مع أن جيشه كان قليل العدد بالنسبة لجيوش خصومه ، وقد استولى سنة ٩٢٥ على السند سنة ٩٣٠ على لاهور . ثم كانت المعركة الفاصلة سنة ٩٣٢ ضد ابراهيم اللودى في معركة « بانى بت » فقتل اللودى وآلاف من جيشه ، وانتهت بذلك أسيرة اللوديين .

ومن دلهى أرسل بابر ابنه همايون فاستولى على أكرا ، وحصل على كنوزها الخلابة وبخاصة الماسة « كوه نور » أثمن جوهرة في العالم ، والتي آلت فيما بعد لتاج ملك بريطانيا باعتباره امبراطور الهند ، وكان نجاح بابر وابنه همايون مما أثار ملوك الهنادكة فاجتمعوا في تحالف ضده ، ولكنه استطاع أن ينتصر عليهم انتصاراً حاسماً في معركة « راناسنك » .

وطارد « بابر » « محمود اللودى » الذى تمرد على بابر بعد أن كان قد طلب نجده ، وغرّ عاصيا الى البنغال ، وقد استطاع بابر أن ينتصر عليه وأن يستولى على بيهار فى الشرق وتكوّنت بذلك امبراطورية بابر فى الهند واتخذ بابر مدينة أكرا عاصمة له .

وقد عنى بابر بالاصلاحات الداخلية فمهد الطرق وغرس الاشجار ونظم الضرائب والبريد .

وكان بابر — بالاضافة الى تفوقه العسكرى — أديبا شاعرا فقيها ، وقد كتب تاريخ حياته كتابةً دقيقة فى كتاب أسماه (بابر نامه) وهو فى صورة يوميات أو مذكرات ضمنها — بالاضافة الى ترجمة حياته — تاريخ عصره ، وذكرَ ما صادف من أحداث داخلية وخارجية ومن حروب وفتوحات وانتصارات وهزائم ، مع وصف أحوال البلاد التى عرفها ، مما جعل كتاب « بابر نامه » من عيون كتب التاريخ المفولى فى الهند ، وقد كتب باللغة « الجفتائية » وترجم الى الفارسية والى عدة لغات عالمية (١) .

(١) أحمد عطيه الله : القاموس الاسلامى ج ١ ص ٢٤٠ .

وكان بابر يحب الخمر لدرجة أنه صنع بحيرة من الخمر كان يجلس عليها ويشرب منها ويتفنن بالشعر ، وقد تاب عن الخمر عند مواجهة جيوش أعدائه ، ولكنه عاد لها بعد النصر ، وكان مواظبا على الصلوات والصيام حتى للنوافل .

وتوفي بابر سنة ٩٣٧ ودفن في كابول حسب وصيته بعد أن أوصى أن يكون ابنه « همايون » خليفة له .

وسلاطين المغول في الهند هم :

بابر	٩٣٢ هـ = ١٥٢٦ م
همايون (هومايون)	٩٣٧ = ١٥٣٠
جلال الدين أكبر	٩٦٣ = ١٥٥٦
جهانكير	١٠١٤ = ١٦٠٥
شاه جهان « الأول »	١٠٣٧ = ١٦٢٨
أورنجزيب « عالمكير الأول »	١٠٦٩ = ١٦٥٩
شاه عالم « الأول »	١١١٩ = ١٧٠٧
فرخ سير	١١٢٤ = ١٧١٣
شاه جهان « الثانى »	١١٣١ = ١٧١٩
ناصر الدين محمد	١١٣٢ = ١٧٢٠
أحمد	١١٦١ = ١٧٤٨
عالمكير الثانى	١١٦٧ = ١٧٥٤
شاه جهان « الثالث »	١١٧٤ = ١٧٦٠
شاه عالم « الثانى »	١١٧٤ = ١٧٦٠
محمد أكبر الثانى	١٢٢١ = ١٨٠٦
بهادر شاه	١٢٥٣ الى ١٢٧٥ = ١٨٣٧ الى ١٨٥٨
توفي سنة ١٢٧٩ هـ	

ملاحظات:

- ١ — الاباطرة الحقيقيون كانوا حتى عهد أورنجزيب •
- ٢ — هناك غاصبون كثيرون وثوار ظهوروا في خلال هذه القائمة ، بعضهم حكم في دلهي نفسها وبعضهم استقل بولاية أو أكثر من ولايات الهند •

وسنواصل حديثنا عن أهم الاباطرة المغول في الهند :

همايون شاه

تربى همايون تربية عسكرية ، وكان أحد قواد أبيه في حملاته بالهند ، فقد أرسله أبوه إلى البنجاب عندما استعاث به حاكم لاهور ، ولما نكت هذا الحاكم بعهدده سار بابر بنفسه الى الهند حتى وصل الى دلهي ، وأرسل ابنه الى أكرافاستولى عليها ، وظل قائدا مظفراً طيلة حياة أبيه ، ثم أوصى له أبوه ليصبح ولي عهده ، وقد أوصاه أبوه بإخوته ، فاستجاب همايون للوصية ولكن هؤلاء الاخوة كانوا غير مخلصين له وناصروه العداء (١) •

وبالإضافة الى عقوق الاخوة واجه همايون ثورات من الامراء الذين كان بابر قد أضعفهم ، ولم يستطع همايون أن يقاوم كل هذه المصاعب ففر من الهند ، بعد صراع غير ناجح ضد « شيرخان » حاكم بيهار والبنغال ، وكان « شيرخان » زعيماً أفغانياً التف حوله الأفغان مما رجح كفته ضد همايون والمغول الذين نصره •

وفي مسيرة همايون فاراً من دلهي سنة ٩٤٧ هـ وصل الى لاهور فالسند حيث وضعت زوجته ابنه « جلال أكبر » في قرية تدعى

(١) دكتور عبد المنعم النمر : تاريخ الاسلام في الهند من ١٨١ — ١٨٢ •

« عمر كوت » وقد تركها في إقتدهار وواصل هو هربه حيث لجأ الى
« طهماسب » امبراطور ايران الصفوى • وأصبحت الهند تحت سيادة
« شيرشاه » السورى الذى يستحق كلمة فيما يلى :

شيرشاه السورى :

ينسب الى قبيلة « سور » الأفغانية واسمه فريد ، وكان أبوه
حاكما على عمالة فى بلاد الأفغان ، وقد نشأ فريد محبا للعلم والمعرفة ،
وكانت له شخصية ممتازة ، ولما شب ظهرت فيه مواهب اجتماعية بارزة ،
فنادى بحق العمال والفلاحين ضد الذين يستأثرون بخيرات البلاد
ويظلمون بحق العمال والفلاحين وقد التف هؤلاء حوله وأحبوه ، واتصل
بابراهيم اللودى وأصبح حظيا عنده ، ثم قفز بابر الى الهند وأزال
ملك أسرة اللودى ، وقد عمل فريد فترة فى بلاط بابر ، ولكنه سرعان
ما تركه والتحق بوالى « بيهار » شيرخان ، وساعده حتى انتصر على
همايون ، وحدث أن مات شيرخان وتولى بعده ابنه وكان صبيا
فأصبح السلطان الفعلى فى يد فريد الذى أصبح يلقب « شيرشاه »
أى الاسد •

وقد برّ شيرشاه بوعده لأعمال والفلاحين ، بل برّ بوعده لكل
المحكومين ، فكان مثال الحاكم القانع الصالح الذى يعمل على رفع مستوى
شعبه وإزالة كل ما يمسهم ، كما اهتم بالإصلاحات العامة كتعبيد الطرق
وغرس الأشجار وتنظيم البريد ، كما أكثر من تشييد المساجد والأربطة ،
وكان يهتم بالتسامح الدينى مما أرضى عنه المسلمين والهندكة ، وكان
شديد الحطف على الفقراء والمرضى ، فكان يقدم لهم ما يحتاجون اليه
من خزانة الدولة ، وقد نمت أعمال شيرشاه المجيدة فى فترة قصيرة
هى خمس سنوات مع أن الحكومات تعجز فى آجال طويلة عن تحقيق

ما حققه في هذا المدى القصير ، أن هذا الرجل ثريد في العصور
والأمصار ، ويستحق أن يوضع في صف أعظم الرجال في العالم (١) .

عودة همايون :

على أن هذا الحاكم الصالح لم يكن له من الأولاد من يستطيعون
المحافظة على الملك الذي بناه ، ومن هنا فقد اتجهت دولته للانحيار
بعد موته وتهيأ لهمايون أن يعود من جديد فينتصر على دولة الأفغان سنة
٩٦٢ هـ بعد أن فقد ملكه حوالي خمسة عشر عاما .

ولكن القدر لم يمهل همايون طويلا فقد توفي في العام التالي ، ودفن
في مقبرة تعتبر قطعة فنية تزدهر بين آثار المغول بالهند .

الفكر الشيعي يجد طريقه للهند :

عاش همايون بعيدا عن ملكه حوالي خمسة عشر عاما ، وكانت إيران
هي الملجأ الذي وجد به الأمان ، وساعدته إيران ليسترد عرشه ، وكان
في الجيش الذي ساعده عدد كبير من القادة والجنود الشيعة ، وقد دخل
هؤلاء الهند واستقر بهاعدد كبير منهم حيث بثوا أفكارهم الشيعية في كثير من
أرجاء شبه القارة الهندية وكان لهمايون مستشار إيراني شيعي اسمه
« بيرم خان » وكان هذا شديد التشيع وشديد التأثير في توجيه همايون ،
وعلى هذا فأكثر ما نراه الآن من الأفكار الشيعية بالهند إنما هو وإيد
هذه الظروف .

وامتدادا لذلك نقرر أن رجال البلاط الشيعة كان لهم تأثير على
ولي العهد « جلال الدين أكبر » وقد عيّن همايون بيرم خان الشيعي
مستشارا لابنه « أكبر » عندما عيّن أبوه حاكما على البنجاب وكان لايزال
حدثا في الثانية عشرة من العمر ، ففرس بيرم خان في نفس ولي العهد الذي

(١) أبو الحسن على الندوي : المسلمون في الهند ص ٥٠ .

أصبح امبراطورا بعد ذلك بعام واحد كل ما يطمع فيه من مبادئ شيوعية كانت شديدة الأثر على تفكير « أكبر » وعلاقته بالاسلام ، وفيما يلي حديث أكثر تفصيلا عن هذا الامبراطور الشهير :

جلال الدين أكبر

رأينا فيما سبق بعض ملامح من حياة جلال الدين أكبر ونوجزها مرة أخرى فيما يلي :

— وضعته أمه في قندهار بعد فرارها مع زوجها همايون عقب هزيمة هذا الزوج .

— فرَّ همايون من قندهار وترك زوجته وابنه الطفل في كف أخيه ، ولم يكن همايون حسن الصلة بهذا الأخ مما يوضح أن أكبر تربى في بيت تفوح منه رائحة العدا .

— هذه الحياة لم تُنتجْ لأكبر ثقافة ودراسات يتحتم أن تقدم لأمثاله من ولادة اليهود ، فكان أكبر أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، ولكنه كان محبا للمعرفة فكان يجلس إلى قارئ ليقرأ له .

— لما نجح همايون في استرداد ملكه بمساعدة الصفويين وبخاصة بيرم خان الشيعي جعل ابنه الصبي « أكبر » حاكما على البنجاب وجعل بيرم خان مستشارا له فكان هذا هو الحاكم الحقيقي والموجه لأكبر .

— لما مات همايون في العام التالي أصبح « أكبر » امبراطوراً للهند ، وظل بيرم خان مستشارا له فواصل مكانته وتأثيره في أكبر .

وكل هذه العوامل كانت ذات تأثير كبير في الامبراطور الجديد كما سنرى ونحن نتابع حياته .

اتساع امبراطورية أكبر :

وقد قابل أكبر ثوراتٍ متعددةٍ من بعض الأقاليم فكان عليه أن يخوض حروبا صاخبة ليثبت سلطانه ، وقد نجح أكبر في حروبه حتى اتسعت امبراطوريته فشملت الهند الشمالية والوسطى والبنغال وأفغانستان بما في ذلك السند وكشمير وكجرات ، كما نجح أكبر في ضم كثير من امارات الجنوب ، وبهذا أصبحت الهند كلها تحت سلطانه فيما عدا بعض امارات الجنوب القليلة .

الهندوس في رعاية أكبر :

وكان أكبر يعامل الهندوس معاملة طيبة ويحسن جدا إليهم مما جعلهم يتعاونون معه وينضمون لنفوذه ، فقد كان حرصه على إرضاء الهندوس يفوق حرصه على تعاليم الدين الاسلامي ، فجعل منهم حكاما على بعض الامارات ، وعين بعضهم في بلاطه ، ورفع عنهم الجزية ، وبهذا أصبح حاكما هنديا أكثر من كونه حاكما اسلاميا ، واتخذ عاصمته في الهند وجعل كابول تابعة للهند بعد أن كانت الهند تابعة لكابول أو قندهار ، وزاد أكبر فصاهر الهندوس ، وكل هذا جعل كفتهم ترجح غالبا كفة المسلمين في الحكم والادارة .

ولم ينتهز أكبر حسن صلته بالهنداكة ليدعوهم للإسلام ، فقد كان هو غير متحمس للإسلام ولا فاهم له .

أعمال أكبر :

لعل أخطر اتجاهات أكبر أنه لم يقتنع بالمساواة بين الهندوس والمسلمين ، بل بالغ في إكرامه للهندوس فتنزوج هو وأولاده منهم ، وعين منهم حكاما على كثير من الأقاليم وجمع حوله كثيرا من علماء الهندوس ، مما جعل العلماء المسلمين يتحون عنه فلم يبق حوله الا قليل منهم .

وكان أكبر يفتح بابه للمظلومين ليسمع شكواهم ، وساعد أكبر
الزراع وجعل الأرض ملكا لهم ، وتجاوز عن ديونهم ، ومنع الزواج قبل
سن الرشد ، وأباح للأرامل من الهندوس أن يتزوجن وكن من قبل
ممنوعات من الزواج ، بل كن ملتزمات أن يتقدمن للنار التي يحرق
فيها جثمان الزوج ليحترقن معه ، فحاول منع هذه العادة •

واشتد « أكبر » ضد المجرمين وحاصرهم بالقوانين الصارمة وحاسب
عماله بدقة وكان شديد القسوة على من يرتشى منهم •

أكبر يتكر دينا جديدا :

دخل المغول الاسلام بعد أن أراقوا دماء مئات الآلاف من المسلمين ،
وقد غلبهم الإسلام وقرَّب إلى قلوبهم ، ولكن يمكن القول دون تحرج
أن روح الاسلام لم تغمر هذه القلوب ، وكانت معارف أكثرهم بالاسلام
سطحية أو لضرورة الحكم •

ثم كانت الثورات المتتالية التي أحاطت بهم تجعلهم يميلون للقسوة
واراقة الدماء بحق وبدون حق •

فاذا أضفنا الى ذلك ظروف أكبر التي أوردناها من قبل أدركنا أن
صلته بالإسلام لم تكن عميقة ، فلما تزوج من هندوسية زاد في الاسلام
سطحية ، واتجه « أكبر » الى الوسائل التي تعطي امبراطوريته استقرارا
أكثر من اتجاهه لنشر الاسلام أو خدمته ، وكان اتجاهه للهندوس
واعتماده عليهم يبعد عنه جماهير المسلمين وعوامهم كما ذكرنا ، وكان
كلما تخلص عنه المسلمون يزيد ارتباطا بالهندوس ليعوض ما فقده ،
ورغبة منه في أن يحكم الهند حكما قوميا يرضى به الجميع هداه تفكيره
الى اختراع دين جديد ، ليرضى الهندوس من جانب ويدفع نفسه إلى
مصاص الأنبياء من جانب آخر •

ويقول الدكتور عبد المتعم النمر (١) أن « أكبر » تحول بعد عشرين سنة الى انسان يملؤه الكبر والغرور ونفخ فيه من حوله من الشياطين فزينوا له أنه ظل الله في الأرض ، وأنه لذلك لا يصح أن يستمع للعلماء بل عليهم أن يستمعوا هم له ، فمرتبته باعتباره اماماً وخليفةً فوق مرتبة المجتهدين ، وهذه الفكرة قريبة من فكر الشيعة عن الامام وحقه في الافتاء ، وكان الذين زينوا له هذه الفكرة الشيخ مبارك وولده أبو الفيض وأبو الفضل وغيرهم ، وكان أكثرهم يُرْمَوْنَ بالزندقة والالحاد ...

وكل هذا دفع الامبراطور الى تطوير ما تلقاه من أفكار منحرفة فبدل أن يكون له اتجاه شاذ في الاسلام اتجه لابتكار دين جديد سماه « الدين الالهى » وأسس هذا الدين كانت كما يلي :

١ — الدين الاسلامى أدعى دوره وأصبح لا يتفق مع هذا الزمان وعلى هذا اكتفى أكبر بشهادة ألا اله الا الله ولم يلتزم بالشهادة الثانية التى تثبت أن محمدا رسول الله .

٢ — انكر الغيبات جميعا كالجن والملائكة والحشر ...

٣ — تحريم الاطلاع على العلوم العربية فيما عدا العلوم التى ليست اسلامية الجذور كالحساب والطب والفلسفة .

ومن الواضح أن جذور دين أكبر كانت معاداة الاسلام ، وقد اتضح ذلك من الدين الذى ابتكره والذى اتضح أنه يعتمد على أديان الهند ، وعلى المجوسية وعناصره هي :

١ — القول بالتناسخ .

٢ — تحريم ذبح البقرة .

٣ — القول بأن الخمر والميسر حلال .

٤ — العناية بيوم النيروز والسجود للشمس والنار في ذلك اليوم باعتبارهما رمزا للاله .

ولم يغفل أكبر وهو يحارب الاسلام أن يتقرب من المسيحية والمسيحيين ، فاتصل برهبان البرتغال الذين كانوا مبشرين في منطقة « جوا » ليقدّم عليه منهم من يشرح له المسيحية ، وتساهل مع البرتغاليين في تلك المنطقة ، كما سمح بتأليف شركة الهند الانجليزية سنة ١٦٠٠ (١٠٠٩ هـ) وأعطاه امتيازات واسعة فكانت هذه الشركة أساس استعمار بريطانيا للهند ، وعهد الى الرهبان اليسوعيين بتربية ابنه مراد ، واذن للجزويت بفتح مدارس في أكرا ولاهور .

وهكذا بعد « أكبر » عن الاسلام ، بعداً عظيماً واتجه الى الرجس والطاغوت .

وكلمة أخيرة عن أكبر ثبت فيها أنه اهتم بالفنون وشجع حركة الترجمة .

جهانكير (سليم)

كان جلال الدين أكبر لا يعيش له أولاد ، وكان شديد الأسى لذلك ، وكان يزور الأولياء ليدعو الله عندهم أن يعيش له ابن يرث ملكه وثرأه ، وقد ولد له جهانكير وسمى حين ولادته محمد سليم باسم أحد الشيوخ ، ثم سمي جهانكير عندما توجّج ومعنى جهانكير « مالك الدنيا » وعاش الأكبر ولدان بعد ذلك هما مراد ودانيال .

وقد وقع سليم وهو في شبابه في حب راقصة جميلة فارسية الأصل تحسن الرقص والغناء واسمها « نادرة » وكنيتها « أناركالي » أي زهرة الزمان ، ولما تأكد أبوه من ذلك حنق عليه أن يقع في حب فتاة ليس لها أصل في الأصول العريضة ، فحكم على الفتاة بالموت وعاقب ابنه بأن أرسله في حملة للقضاء على بعض الثوار .

وكعادة المغول حصل صراع بين الأكبر وابنه الذى كان يتمناه ، ودخل فى هذا الصراع « خسرو » بن جهانكير طامعا أن ينتهز الجفوة بين أبيه وجده ليتولى هو السلطة بعد جده ، وذلك داء ابتلى به كل سلاطين المغول تقريبا .

وهكذا عانى جهانكير من اضطهاد أبيه وعقوق ابنه ، فلا عجب أن تضطرب مملكته بعد توليته السلطة ، وأن يقوم هنا وهناك طامعون ومتمردون ، وقد مات « خسرو » غريقا وهو يحاول الفرار من والده عقب هزيمته فى حرب ضد الوالد .

وتزوج جهانكير أرملة أحد قواده الذين ثاروا عليه واسمها « مهر النساء » وأسماها « نور جيهان » أى نور الدنيا ، وكانت غاتنة الجمال قوية الشخصية واسعة العلم والمعرفة ، وأخذت نور جيهان تتدخل فى شئون المملكة ، وأتاح لها زوجها هذه الفرصة فكانت توقع القرارات مع الملك ، وكان اسمها يضرب على النقود بجانب اسمه ، ثم انها مهدت الطريق لذويها ليكون لهم سلطان فى الدولة ، فأصبح أبوها رئيسا للوزارة وأخوها من كبار الموظفين فى القصر .

ولعبت نور جيهان دوراً فى تولية العهد ، فكانت تفضل الابن الأصغر لجهانكير الذى زوجته من ابنتها وهى ابنة زوجها الأول الذى قتل ، ولكن الابن الأكبر لجهانكير كانت له مكانة شعبية واسعة ، وسطوة بين الجنود ، وكان بجانب ذلك متزوجا من ابنة أخ نور جيهان الذى ذكرنا آنفا أنه كان يعمل بالقصر ، وبهذا قام صراع بين نور جيهان وأخيها من أجل تحديد ولى العهد .

وفىما يتعلق بعقيدة جهانكير نذكر أنه كان سليم العقيدة ، ولم يسر فى الطريق الذى سار فيه أبوه ، وعلى هذا ألفى جهانكير « الدين الإلهى » وعاد لاحترام الإسلام وتقديره ولكنه مع ذلك كان مفرطاً فى شرب الخمر ، واستعمال المسكرات وقد كتب جهانكير « يومياته »

التي وصف فيها حياته أدقَّ وصف ، وقراءة هذه اليوميات توضح أنه كانت فيه شجاعة ، واتجاهات فنية عميقة ،
وكان جهانكير يعنى بالرسم والتصوير أكبر عناية •

وفي عهد جهانكير كُنت سلطنة الأوربيين في الهند ، وكان البرتغاليون والإنجليز والهولنديون يتنافسون في مجال التجارة بالهند وسنرى فيما بعد نتيجة هذا الزحف الأوروبي •

شاهجهان

شاهجهان هو ابن جهانكير وكان اسمه « خرم » وعندما توفي جهانكير هبت ثورة بين ولديه « خرم » و « شهريار » وظهرت أطماع بعض الأمراء الآخرين ، وقد انتصر شاهجهان في هذا الصراع بمساعدة صهره « آصف » الذي ذكرنا من قبل أنه كان ذا نفوذ في القصر الإمبراطوري •

وقد سبق أن ذكرنا أن شاهجهان تزوج وهو الأمير من ابنة آصف أخى نور جيهان والتي سميت « ممتاز محل » وكانت شهرتها « تاج محل » وكانت تضارع نور جيهان في الجمال والروعة •

وكان شاهجهان يوصف بأنه عابس الوجه دائماً ، ولم يشاهد مبتسماً أبداً ، ولم يكن من المستطاع قراءة وجهه •

وحفلت أيام شاهجهان بالصراع في مناطق مختلفة ضد الأمراء وضد الطامعين ، ومع هذا فإن الدولة في عهده كانت تجتاز فترة من الرخاء والترف •

وفي عهده انتهت سلطنة البرتغال في الهند تقريباً كما سنرى فيما بعد :

ويمتاز عصر شاهجهان بالفنون المعمارية الكبرى التي لا تزال تزدهر

بها الهند ، وتفتخر بها الأجيال ، ومن أهمها : القلعة الحمراء في دلهي « لال قلعة » وبداخلها مسجد يسمى مسجد اللؤلؤة ، ثم المسجد الجامع في دلهي أيضا والذي كسيت جدرانه بالمرمر ، وشيد منبره من المرمر الأبيض الناصع .

ومن آثار عصره كذلك مقبرة « تاج محل » في أكرا ، وهي أثر فني رائع شيده شاهجهان لتدفن فيه زوجته الحبيبة وكانت قد وكدت له عددا من الأولاد والبنات ، ثم توفيت على أثر الوضع ، فحزن عليها حزنا شديدا وبني لها هذه المقبرة المشاهقة التي دفنت فيها ، ثم دفن بها عقب وفاته .

وقد قضى شاهجهان تماما على بقايا دين جده ، بل زاد على ذلك بأن تنحى على عادة تقبيل الأرض أمامه تحية له كما كان معروفا في الهند ، وهرب إليه العلماء ، وشجع على التأليف ، وجعل اللغة الأوردية اللغة الرسمية في البلاد .

وفي آخر عهد شاهجهان قام صراع بين أولاده الأربعة انتهى بانتصار « أورنكزيب » الذي اعتقل أباه ، وحدد اقامته في القلعة لأنه كان يشجع أخاه « داراشكوه » وقد قضى شاهجهان في اعتقاله ثمان سنوات كان خلالها ينعم بكل جوانب التكريم فيما عدا السلطة وتوفي سنة ١٠٧٦ هـ .

أورنكزيب « عالمكير »

أورنكزيب « زينة العرش » أو « عالمكير » أي سيد العالم هو الإمبراطور المغولي الزاهد الذي كان شديد الحرص على الشريعة الإسلامية وآدابها ، وقد تلقى العلم على يد كبار العلماء ، وعمل بما علم فلم يشرب الخمر قط ، ولم يجلس للغناء على الرغم من موهبة موسيقية عالية كانت فيه ، ولم يستعمل الذهب أو القضة في آنية أو حلي .
(م ٢٠ - الموسوعة التاريخية)

وقد نفذ أورنكزيب تعليم الإسلام بدقة ، فأعاد الجزية على الهندوس ، مقابل الزكاة التي يدفعها المسلمون ، وكانت قد ألغيت منذ حوالي مائة عام ، ومن هنا كانت إعادتها صدمة أثارت الهندوس في طول البلاد وعرضها •

وقد حكم أورنكزيب حوالي خمسين عاما ، واجه خلالها — كعادة أباطرة المغول بالهند — صورا من المتاعب والثورات كان بعضها ضد القراصنة واللصوص ، وبعضها ضد قبائل الأفغان التي ثارت عليه ، والكثير منها ضد الهندوس الذين أعلنوا تمردهم بسبب فرض الجزية عليهم ، بل حارب بعض المناطق الإسلامية بالهند التي أظهرت التمرد عليه • وهكذا قضى الإمبراطور حياته في ميادين القتال حتى بلغ سن التسعين ، ومات كذلك في ميدان القتال ، ويعتبره المسلمون ولياً من أولياء الله الصالحين ، بسبب ورعه وتمسكه بالإسلام ودفاعه عنه •

ولأورنكزيب خصائص انفرد بها تقريبا ، كالتنظيمات الاقتصادية التي حمت الشعب من الضرائب الظالة ، وكجلوسه من حين إلى آخر كل يوم دون حجاب ليفد الناس إليه وليعرضوا شكواهم عليه ، وأنه أعلن خطأ النظرية التي كانت سائدة عن الإمبراطور بأنه فوق الطبيعة البشرية ، وأنه ظل الله في الأرض ، وأعلن أنه إنسان عادي ، وأن تحيته تكون تحية المسلمين وهي « السلام عليكم » وفي عهده كثرت المدارس والمساجد والأربطة ، ودور العجزة ، وشمل الأولياء والمتصوفة بعنايته ورعايته ، فكان بذلك إمبراطورا عالما عاملا بعلومه ، واسع المعرفة والفضل ، وهو الذي بنى مسجد بادشاه بلاهور الذي يعد أكبر مسجد في العالم الإسلامي وتوفي سنة ١١١٨ هـ — ١٧٠٧ م •

بعد أورنكزيب

اضطربت أحوال إمبراطورية المغول في الهند بعد أورنكزيب بسبب الثورات الداخلية من جانب ، وتسلسل الإنجليز من جانب ثان ، وزحف

الفرس والأفغان على الهند من جانب ثالث ، ولم يبق من أباطرة المغول بالهند من يستحق الذكر .

وقد حكم كبار المغول بلاد الهند حوالي قرنين من الزمان كانت الهند خلالهما تكون إمبراطورية واحدة عظيمة ، ولكنها كانت معرضة دائماً لألوان من الصراع والانشقاق ، ثم جاء القرن الثالث من حكم المغول وهو قرن شالت فيه كفتهم ، ورجحت كفة سواهم كما سنرى فيما يلي :

نادر شاه يغزو الهند

ذكرنا ونحن نتحدث عن تاريخ إيران أن نادر شاه أعاد الاستقلال إلى إيران بعد أن كانت تابعة لأفغانستان وجدد شباب الدولة الإيرانية ، وزحف من إيران على البلاد المجاورة له ، ثم اتجه إلى الهند حيث فرَّ بعض أعدائه من الأفغانيين ورفضت حكومة الهند تسليمهم إليه وسرعان ما حقق نادر شاه النصر فضم قندهار وكابل وهو في طريقه إلى الهند ، ثم دخل لاهور ، واحتل البنجاب سنة ١٧٣٨ م وقد حاول الإمبراطور المغولي في الهند (ناصر الدين محمد شاه) أن يرد نادر شاه عن غزو بلاده ، ولكنه فشل في ذلك ، واستطاع نادر شاه أن يصل إلى دلهي ، وأن يقضى على الإمبراطور المغولي بعد أن كان قد أمّنه ، وقد ثار المسلمون في الهند ضد نادر شاه لموقفه من إمبراطورهم ، ونتيجة لذلك أباح نادر شاه مدينة دلهي لجنوده ، فعاثوا فيها فساداً ، ودمروا وسلبوا ما استطاعوا ، وكان أبرز الأسلاب الجوهرة النادرة التي كانت في تاج شاهجهان وقد تنقلت هذه الماسة من يد إلى يد حتى استقرت في تاج ملك إنجلترا .

وعاد نادر شاه إلى إيران بعد أن ترك إمبراطورية المغول في الهند وهي تترنح من هول ما لاقت من الإيرانيين وهياً ذلك لأعدائها من

المسيح والهنداكة والإنجليز أن يضربوا ضرباتهم القوية في هذا الجسم المتداعى .

ويقول المؤرخون إن حادث تفريغ دلهي سنة ١٧٣٩ كان نذيرا بسقوط الدولة المغولية .

أحمد شاه الإبدالي يغزو الهند

ينحدر أحمد شاه من قبيلة أفغانية هي قبيلة الإبدال ، وكان أحد قواد نادر شاه ، فلما قُتل نادر شاه ، قام أحمد شاه للأخذ بثأره ، واستعان بأهله من الأفغان وأسس له ملكا ، جعل عاصمته كابول ومن كابول أراد أن يزحف إلى الهند على نمط ما فعل نادر شاه من قبل ، وقام صراع بين أحمد شاه وبين جيش الإمبراطور المغولي (ناصر الدين محمد) الذي كان يقوده ابن الإمبراطور (أحمد) وحقق المغول النصر ، بيد أن وفاة الإمبراطور ألزمت ابنه قائد الجيش أن يسرع إلى دلهي ليوطي سلطانه ، وليصبح ملك البلاد ، وقد انتهز أحمد شاه هذه الفرصة ، فعاد إلى الهند ، واستولى على لاهور سنة ١٧٤٨ م ، ومن لاهور امتد سلطانه إلى دلهي ، وبمخاصة أن ثورات متعددة كانت تعمرب بلاد الهند .

وفي وسط هذه الحروب التي كان مسلمو الهند ، ومسلمو الأفغان طرفين متصارعين فيها حقق الهنداكة بعض النصر على أجزاء متعددة بالهند ، كما حقق الإنجليز نصرا آخر في منطقة البنغال .

نهاية أباطرة المغول

أصبح شاهات المغول بعد ذلك يعيشون تحت سلطة الهندوس أو الإنجليز ، وعندما جاء « بهادور » شاه ، أعلن الحاكم الإنجليزي أن بهادور شاه آخر هندي يسكن القلعة ، وأنها ستكون بعده ثكنة عسكرية ، وأن المخصصات التي يأخذها منهم ستنتهي بانتهاء حياته .

وكان هذا التدخل الصريح من الإنجليز جرحاً أدمى نفوس الهنود جميعاً وبخاصة جماعات المسلمين ، فبهت ثورة في الهند ضد الإنجليز ، ووضعت الملك بهادور شاه قائداً لها ، ولكن الثوار لم يستطيعوا الصمود الطويل أمام أسلحة الإنجليز الحديثة فهُزِمُوا ، وقبض الإنجليز على بهادور شاه ونفوه مع زوجته « زينب محل » الى رانجون في بورما وظل هناك حتى مات ، وانتهى بموته ملك المغول في الهند .

وسيتحدث فيما بعد عن الاستعمار الإنجليزي في الهند وما عانتها هذه البلاد من عسف وطفيان على أيديهم .

الحضارة الإسلامية بالهند

ماذا كانت الهند قبل الإسلام ؟ وماذا قدم الإسلام والمسلمون للهند ؟ في الإجابة عن السؤال الأول نقرر أن الهند كان بها جوانب مهمة من الحضارة في العالم القديم ، وكانت حضارتها واضحة في علم الحساب والفلك والفلسفة ، وقد أخذ العرب عنهم الصفر والأرقام الهندية التي تعرف في الغرب بأنها « الأرقام العربية » لأن الغرب أخذها من العرب ، كما تُرجم للعربية كتاب في الفلك اسمه «Sidhanas» وهو عبارة عن الجداول الفلكية الهندية ، كما تُرجم للعربية كتاب « كيلة ودمنة » وكان أصلها قد وضع بالسنسكريتية وكان المقصود بهذا الكتاب تعليم بعض الآداب بواسطة أقاصص على أسنة الحيوانات .

هذه هي اتجاهات الفكر الهندي القديم ، ولكن إذا تدارسنا أحوال الهند قبيل الإسلام نجد صورة غير زاهية يصورها لنا الإمبراطور « بابر » في مذكراته بقوله : لا وجود للخيل العتاق ، ولا توجد أصفاف مهمة من الفاكهة مثل العنب والبطيخ ، والماء البارد قليل نادر ، والمدارس لا يعرفها أهل الهند ، والمشكاوات والشموع لا وجود لها ، ولا توجد الحقائق ولا الأبنية العظيمة التي تتمتع بالهواء والضوء ، وأكثر أفراد الشعب يمشون حفاة (١) .

وقد اعترف جواهر لال نهرو بأن منابع الإبداع والابتكار في أهل الهند قد نضبت (٢) .

وجاء الإسلام إلى الهند ولكن بعد أن نالت ثقافته أعظم عناية من المسلمين ، وبعد أن دُونت حضارته ، ويقول العلامة أبو الحسن على الندوي (٣) : دخل المسلمون الهند وهم أرقى أمة في الشرق بل في العالم

(١) مذكرات ظهير الدين بابر .

(٢) Discovery of India Vol 1 p. 510.

(٣) المسلمون في الهند ص ١٢ .

المتدين ، كانوا يحملون ديناً جديداً سائفاً معقولا وعلوماً اختمرت
وتوسعت ، وحضارة تهذبت ورقت حواشيها ، ويحملون معهم محصول
عقول كبيرة ونتاج حضارات متنوعة متعددة .

من أجل هذا حمل الإسلام للهند حضارة واسعة مختلفة
الاتجاهات ، وقد دُونها بإنصاف غوستاف لوبون ، وسنحاول فيما يلي
أن نعرف أثر الحضارة الإسلامية بالهند . وأول ما نشبته أن فكرة
التوحيد الإسلامية كانت شديدة الأثر على الفكر العالمى كله ، فأخذ
الاعتقاد بتعدد الآلهة يتراجع أمام فكرة التوحيد ، وكان من أبرز تراجمه
ما قال به المسيحيون من أنهم يعتقدون بوحدة في تثليث وتثليث في وحدة ،
ولم يكن ذلك إلا استجابة للفكر الإسلامى الحاسم الذى سخر من التعدد
وقال بالتوحيد المطلق ، فإذا جئنا إلى الهند وجدنا أثر التوحيد واضحاً
على الإنسان الهندى ، فقد كان الهنود كما ذكرنا من قبل يعبدون
ملايين الآلهة ، وكان كل شيء جميل أو نافع يعتبر عندهم الهاً يُعبد ،
فلما دخل الإسلام شبه القارة تراجع هذا التفكير و«هوت» آلهة
كثيرة وترقت الفكرة الدينية عند سكان الهند جميعاً ، ونتيجة للاتجاه
للتوحيد الذى حمله الإسلام لشبه القارة ظهر بالهند مفكرون قالوا
بالتوحيد على الرغم من عدم اعتناقهم للإسلام ومن هؤلاء : « رامانج »
الذى قال بعبادة « غشنو » إله الحياة و« حده » دون غيره وظهرت في
الهند كذلك جماعة « السيخ » وكان التوحيد عقيدة من عقائدها ويقول
الباحث الهندى Panikkar أن فكرة عبادة الله لدى الهندوس
مدينة للإسلام ، وأن الدعاة الهنود الذين قالوا بالتوحيد كانوا متأثرين
بالإسلام (١) .

ومن تأثير الإسلام الواضح في الهند الاتجاه للمساواة وبالتالى
الاتجاه للقضاء على نظام الطبقات الذى كان منتشراً بالهند ، والذى
كان من المستحيل تجاوزه ، وعن المساواة يقول جواهر لال نهرو :

إن دخول الإسلام الهند له أهمية كبيرة في تاريخ الهند ، إنه قد فُضح الفساد الذى كان منتشرًا في المجتمع الهندوسى الذى تفشى فيه انقسام الطبقات ، وإن نظرية الاخوة الإسلامية والمساواة أثّرت في أذهان الهندوس تأثيراً عميقاً (١) .

ومن تأثير الإسلام في الهند الاتجاه الى الحرية الفكرية ، فإن الهندوسية قبل الإسلام لم تسمح للبوذية بالبقاء في الهند ، وجهدت حتى أبعدت أكثر معتنقيها عن شبه القارة ، ولكن الهنود رأوا روح التسامح وحرية التدين في الإسلام فتأثروا بذلك ، ومن هنا سمحوا للشيخ في الحياة ، أما صراعهم ضد الإسلام والمسلمين فكان ناتجاً من أسباب سياسية في الغالب .

ومن الواضح أن انتشار الإسلام بالهند كان بالتعليم والدعوة دون استعمال أى لون من ألوان القوة غالباً ، أما القول بفرض الجزية أحياناً على غير المسلمين فليس ذلك من القهر فى شيء ، لأن الجزية إسهام من غير المسلمين في تكاليف المرافق المختلفة التى ينتفع بها المسلمون وغيرهم ، والتى يُنفق عليها من أموال الزكاة التى يدفعها المسلمون .

ومن تأثير الإسلام على الهنود أن دخلت اللغة الفارسية الهند مع الفاتحين الذين وغدوا من بلاد فارس وقد قدمت اللغة الفارسية للهند ألواناً من الأفكار الحضارية ، ولما كانت هذه اللغة هى لغة الحكام ورجال البلاط فقد اهتم بها العلماء والأدباء ، وبالتالي أصبحت ذات فائدة كبرى للشعب كله ، فقد ألّفت بها الكتب المفيدة في شتى الموضوعات .

ومن آثار الإسلام في الهند أن كوّن فيها دولة واحدة وكلنت قبل الإسلام تتكون من إمارات عديدة ، كما خلق الإسلام في هذه البلاد ديمقراطية الحكم .

ومن تأثير الإسلام في الهند الاتجاه إلى احترام المرأة والاعتراف بحقوقها واستقلال شخصيتها فقد كانت المرأة تابعة للرجل تعيش معه ، وتموت إذا مات ، وتحرق نفسها في عملية احتراق زوجها ، لأن المجتمع كان لا يرى لها حقاً في الحياة بعد زوجها ، وقد قاوم المسلمون هذا الاتجاه ، ولم يبق منه إلا القليل في المناطق التي لا نفوذ للإسلام فيها (١) .

ومن مآثر الإسلام على الهند إدخال علم التاريخ ، فقد كانت الهند فقيرة جداً في مجال التاريخ بالمعنى الصحيح ، وكل ما كانوا يعرفونه هو الأساطير والخرافات ، فقدم لهم المسلمون هذا العلم ويقول غوستاف لوبون ، إن الهند لم يكن بها تاريخ اطلاقاً ، ولم يعرفوا إلا القصص والأساطير ، وإن تاريخ الهند الحقيقي لم يظهر إلا في الدور الإسلامي بفضل مؤرخي المسلمين (٢) .

وكان من أهم آثار الإسلام بالهند المظاهر العمرانية المتعددة من إقامة المدن إلى العناية بالمساجد والقصور والقباب وكانت العناية بقباب الموتى لا تقل عن العناية بقصور الأحياء لأن الإسلام يرى أن الموت انتقال من حياة إلى حياة .

وقد ذكر المؤرخ الهندي SARKAR تلخيصاً لفضل المسلمين على الهند في مقال له نشر في مجلة كلكتا وخلاصة ما جاء فيه :

١ - وصل الإسلام الهند بالبلدان الخارجية فازدهرت فيها الملاحة والتجارة التي كانت مفقودة بها من قبل .

٢ - بسط الأمن جناحيه في أكثر بقاع الهند وبخاصة في الشمال ، وذلك لم يكن ميسراً قبل الإسلام .

٣ - تكونت وحدة سياسية في الهند وكانت من قبل تتكون من مئات الإمارات .

(١) رحلة دكتور برنير ج ٢ ص ١٧٢ .

(٢) حضارة الهند ص ٢٤٤ .

٤ — اختفى العري واتحدت الملابس بين الطبقات تقريبا .

٥ — ظهرت اللغة الأوردية التي أقبل عليها الهنود جميعا على اختلاف أديانهم ، وقد هاجمها بعض الهنود في عهد نهرو ولكن هذا صاح فيهم إنكم تهاجمونها بها فقد كانت لغة الأكثرين .

٦ — اتجه الاهتمام إلى كتابة التاريخ والاهتمام بالعلوم والمعارف .

٧ — اتجه الاهتمام إلى ترقية فنون الحرب وأدوات الحضارة والقلاع والحصون (١) .

ومن التبادل الثقافي الذي حدث بين الهنادة والمسلمين قدر كبير يلاحظ في مجال التصوف فبعض الإصطلاحات التي عرفت في التصوف الإسلامي وردت للتفكير الإسلامي من الثقافات الهندوكية والبوذية ، وذلك مثل الفناء والطريقة والكرامة ، ولكن التصوف الإسلامي — كما يقول جولد زيهر — كان أكثر تأثيراً في التصوف الهندي ويذكر راماسوامي سانسترا Rama Swami Sastra ذلك بقوله : ان تأثير التصوف الإسلامي في الفكر الهندي واسع ، وقد وصل ذلك التأثير إلى كل عقل واختلط بكل لب ، وحسبك أن تذكر الأخوة الانسانية والحب ، فهذان وأمثالهما هدية الفتح الإسلامي للثقافة الهندية والهنود (٢) .

وقد درس الدكتور Tara Chand موضوع تأثير الفكر الإسلامي على الهند دراسة واسعة ونقتبس منه بعض الاقتباسات القصيرة (٣) :

« ان الاتجاه للتوحيد الذي ظهر واضحا في الهند لم يكن إلا بقوة دفع قاهرة كان مصدرها التفكير الذي لا يقبل مساومة في مسألة وحدانية (الله) وهو التفكير الإسلامي . »

(١) نقلا عن المسلمون في الهند ص ٢٩ .

(٢) M. Sharif : Muslim Thought; its Origin and Achievements

p. 172 .

Influence of Islam on Indian Culture pp. 111-112.

(٣)

« ومن أبرز التأثير بقضية التوحيد موقف القديس SANKARA الذى نشأ فى مكان على شواطئ الهند حيث كانت ترسو السفن التجارية القادمة من بلاد الإسلام ، فقد عاش هذا القديس فى جو الوجدانية التى يلتزم بها المسلمون ، فتأثر بكلامهم وأفكارهم ، حتى أن شرحه للكتاب المقدس يبدو فيه هذا التأثير ، ويلزم فيه بالتوحيد المطلق . »

« وجاء تلاميذ Sankara من بعده فتأثروا به فى اتجاهه نحو الوجدانية ، وفى تلاوتهم للتراتيل الدينية حيث كانوا قريبى الشبه بالمتصوفة المسلمين فى تأملاتهم وأنغام ترتيلهم . »

• ويعتبر Ramanuja من أشهر تلاميذ Sankara .

وقد وضح Ramanuja رأيه حول الوجدانية ، فاعترف بإله واحد موصوف بأكرم الصفات يجب أن يُعبد بكل إيمان و إخلاص ، ولم يقف Ramanuja عند التأثير بالوجدانية بل تأثر كذلك بموقف الإسلام من المساواة ، ففتح أبواب الدين لكل الطبقات حتى الطبقة التى ما كانت تفتح لها أبواب الدين كالمجنودين . »

ويستمر Tara Chand فى دراساته عن مدى تأثير الفكر الإسلامى فى الهند فيقول : إن الحب الذى تكلم عنه الصوفية المسلمون ، وجد طريقه للفكر الهندى ، ولم يكن مقصورا على حب الإنسان لله ، بل امتد إلى حب الإنسان للإنسان ويذكر كذلك أن القديسين الهنود كانوا عندما يثيرون المناقشات الفعلية التى تتصل بطبيعة الآلهة يستعملون نفس الحوار الذى أثرَ عن النظم والأشعرى والغزالي ، ويقرر كذلك أنه من تأثير الفكر الإسلامى على زعماء الأديان الهندية بروز العاطفة والانفعال ، وتعليم احترام الشيوخ والمعلمين احتراماً يصل للعشق والتقديس . »

ويختتم Tara Chand هذه الدراسة بقوله إن نفوذ الإسلام

شطره جنوبي الهند وشمالها ، ووجد في البنجاب كما وجد في البنغال ،
وتأثر به رجال الدين والجماهير على السواء .

بقيت كلمة عن المصانع والمدارس والمستشفيات وغيرها من
المؤسسات المماثلة وهذه ازدهرت وكثرت في الهند الإسلامية كثرة بالغة
وكان الاتجاه لا إلى إنشائها فقط بل إلى تحسينها والمبالغة في تجميلها .

وقبل أن نطوي صفحة الكلام عن تأثير الإسلام في الهند نقتبس من
باحث هندي كلماته عن تأثير الصوفية في أخلاق الهندود : يقول الاستاذ
أبو الحسن علي الندوي : كان الصوفية يبايعون الناس على التوحيد ،
والإخلاص واتباع السنة والتوبة عن المعاصي ، ويحذرون من الفحشاء
والمنكر والأخلاق السيئة ، والظلم والقسوة ، ويرغبونهم في التحلّي
بالأخلاق الحسنة وتركية النفس وإصلاحها وكان الشيخ يُلَبِّس في مريديه
عاطفة الحب لله وللناس

وقد نتج عن هذه التعاليم شيء يدعو للفخر والرضا ، فقد كتب
مؤرخ هندي شهير هو القاضي ضياء الدين البرني يقول إنه نتج عن
تعاليم الشيوخ الصوفية أن كسدت سوق المنكرات من الخمر والغرام
والفسق والفجور والميسر والفحشاء بجميع أنواعها ، ولم تنطق الألسنة
بهذه الكلمات إلا قليلا ، وأصبحت الكبائر تشبه الكفر في أعين
الناس ، وظل الناس يستحيون من التعامل بالربا ، وندرت في السوق
حوادث الكذب والتطيف والغش (١) .

الاستعمار الأوربي للهند

يمكن القول إنه منذ قديم الزمان تطلعت أوروبا إلى شراء الهند واعتقدت أن شبه القارة الهندية حافلة بالغنى ، وبالمواد الخام التي يمكن أن تكون أساسا لثراء أوروبا ، وعندما اكتشف فاسكودى جاما طريق الدوران حول رأس الرجاء الصالح الذي ربط أوروبا بالهند بدون حاجة للبحر المتوسط والبحر الأحمر كان ذلك مؤشرا لزحف أوروبا تجاه الهند ، وقد بدأ ذلك الزحف بالبرتغال التي كانت بحريتها أسبق لهذه المناطق ، والتي سيطرت على شرقي أفريقيا وعلى عمان ليكون الطريق إلى الهند تحت سلطانها ، وكان البوكيرك أشهر القواد البرتغاليين الذين سيطروا على هذا الطريق ، وكان شديد التعصب لبلاده ولدينه ، وقد استطاع أن يستولى على جزيرة سقطرة ليكمل للبرتغال السيطرة على الطريق الموصل للهند ، وقد انضم للبرتغاليين بعض جماعات الهندوس بسبب كراهيتهم للمسلمين ، ولتخذوا منهم وسيلة لإضعاف السلطة الإسلامية بالبلاد ، وأنشأ البوكيرك قواعد برتغالية في الطريق الجديد في هرمز وسقطرة وجوا ثم امتد الطريق إلى ملقا

وظلت البرتغال سيدة الموقف في المنطقة حوالى قرن من الزمان ، ولم يُضعف كيانهم إلا وقوع البرتغال تحت سلطة الأسبان سنة ١٥٨٠ م ، مما أتاح لدول أوربية أخرى أن ترحف للمنطقة وتكون بها مستعمرات متنافسة وهذه الدول هي : هولندا وفرنسا وانجلترا .

وكانت البرتغال قد أساءت صلتها بالهنود مما دفع هؤلاء إلى حسن استقبال الجماعات الأخرى الأوربية الوافدة ، وجرى سباق بين دول أوروبا في الهند وجزر الهند الشرقية ، فسيطرت هولندا على بعض مناطق إندونيسيا والملايو ، واستولت على ملقا من البرتغاليين سنة ١٦٠٦ م وأسس الهولنديون عاصمة لهم في جاوة أسموها باتافيا كما ضمت سيلان ، وأنشأت هولندا كذلك بعض مراكز في الهند ولكن النشاط الواسع في الهند ترك لانجلترا التي توغلت في المناطق الهندية المختلفة .

أما فرنسا فقد قنعت ببعض مناطق على الساحل عند كاليكوت .
وأسفر الصراع الأوربي عن بعض التنازلات والمقايسات ، فأخذت
هولندا جزر الهند الشرقية وتركت أملاكها في الهند وفي شبه جزيرة الملايو
إلى انجلترا نظير استيلائها على سومطرة التي كانت تحت سلطة انجلترا .

وانكمش سلطان الأسبان الذين ورثوا البرتغال في الهند بعد أن
« هزم » الأسطول الإنجليزي سنة ١٥٨٨ أسطول أسبانيا . الذي كان
يسمى « الأرمادا » ، وقنعت أسبانيا بالفلبين .

أما فرنسا فقد كونت شركة فرنسية أسمتها شركة الهند الشرقية
الفرنسية ، وسارت في الهند بنجاح كبير ، واستطاعت أن تحصل على
بعض المراكز ، وأن تبني لها بعض القلاع والحصون ، ولكن انجلترا
استطاعت بأساليب دبلوماسية ملتوية أن تتخلص من فرنسا وأن تقضي
على نشاطها في شبه القارة الهندية . وقد هيأت انجلترا بذلك فرصة
طيبة لشركة الهند الشرقية أن تستقر بالبلاد ، وأن تبشر نشاطها
التجاري في حماية بريطانيا ، وقد بدأ نشاط هذه الشركة سنة ١٦٠٠ م ،
بعد أن حصلت على إذن من الملكة اليزابيث الأولى بمباشرة التجارة مع
شبه القارة ، وكانت أولى مستعمرات الانجليز في الهند هي تلك التي
أقاموها في سورات وبمباي ثم بعد مدة في مدراس وكلكتا . وفي سنة
١٦١٦ ، قدّم توماس رو الى بلاط جهانكير ممثلا لبريطانيا ، وحصل
على امتيازات كثيرة للشركة ، ولم يكن لدى الحكام المغول المانع من
إعطاء هذه التسهيلات ، لأن الشركة لم تكن ذات بال في نظرهم وكانوا
يعدونها ممثلة لجزر صغيرة فقيرة في الشمال .

بيد أن هذه الشركة استطاعت بمرور الزمن أن تحصل على قطع من
الأرض صغيرة لتبني عليها مراكزها التجارية ، وبعض المصانع
الإنتاجية .

وسرعان ما أصبحت هذه المناطق حصونا وقلاعا وامتدت على طول

شواطئ شبه القارة ، وصادف في ذلك الوقت أن الإمبراطورية المغولية أخذت في الازمحلال والضعف والتفكك ، فأخذت الشركة في تكوين فرق عسكرية صغيرة بحجة حماية مصانعها ومتاجرها ولم تكن هذه الفرق العسكرية ذات بال في أول الأمر ولكنها سرعان ما أصبحت جيوشا تعمل لحساب الشركة وتنفذ تعليماتها .

وقد هبأ التنافس بين حكام الأقاليم الهندية فرصة لتدخل الشركة في الشؤون الداخلية للبلاد ، وقد تدخل « روبرت كلايف » Clive وكان من موظفي شركة الهند الشرقية في المشاحنات التي دارت ببعض المناطق بشبه القارة وكان تدخله عسكريا مما نقل التجار إلى غزاة ، وامتد تدخل هذه الشركة في مناطق أخرى متعددة وبأساليب مختلفة ، فقد كانت الشركة تأخذ إذنا من الإمبراطور بإدارة بعض المناطق باسمه ، وتتعهد بالإبقاء على النظم القائمة ، ثم تبدأ الشركة في حركة واسعة في المنطقة باسم الملك فتعزل وتولى ، وكثيرا ما كانت تعزل المسلمين وتولى الهندوس أو الانجليز بدلا منهم ، ثم خطت الشركة خطوة كبيرة حينما أرغمت الإمبراطور المغولي « شاه علم » على التنازل للشركة عن إيرادات البنغال وبيهار ، واستمرت الشركة تخطو في هذا المجال فاستولت على مناطق أخرى .

ولكن الشركة البريطانية لم تحقق نجاحا اقتصاديا بسبب النفقات الكثيرة التي تحملتها في الدفاع عن الخطوات لاستعمارية التي قامت بها ، ومن أجل هذا قدمت بريطانيا قرضا كبيرا لها على أن تصبح الشركة تحت سيطرة الحكومة ، وأن يكون هناك حاكم يمثل الحكومة الانجليزية في شبه القارة الهندية .

وحُكمت الهند في هذه الفترة بأن مُقسّمت ثلاثة أقسام : قسم مستقل في الشمال في منطقتي نيبال وبوتان ، وسكانهما من الهندوس الأقوياء الشجعان ، والأراضي فيها وعرة ، وقد قنع الانجليز من هذا القسم بأن يكون لهم فيه مستشار فقط .

والقسم الثانى كان تحت الحماية البريطانية ويشمل مناطق حيدر آباد ، وميسور وكشمير ، ويدفع حكام هذه المناطق خراجا للإنجليز نظير حمايتها لهم •

والقسم الثالث تقوم إنجلترا بإدارته مباشرة ، وهو يشمل مناطق البنغال والبنجاب ومدراس وبمباى (١) •

ثورات الهند ضد الاستعمار

وعندما اتضح للهند أن الحركة التجارية البريطانية أصبحت استعمارا صارخا ، هبّت بالهند ثورات كثيرة نذكر منها الثورة التى قادها « فتح الله خان » المشهور بلقب « السلطان تيبو » وقد التف حوله المسلمون وكثير من الهنود ، وحارب الاستعمار حربا شرسة حتى سقط فى المعركة سنة ١٧٩٩ م ، وقد وقف القائد الانجليزى على جثته وقال : « اليوم ، الهند لنا » •

ثم جاءت بعد ذلك ثورة هندية عارمة فى مايو سنة ١٨٥٧ م ، اشترك فيها جنود الشركة وضباطهم الهنود مع كثير من طوائف الشعب المسلمين والهندوس ، واستطاعت الثورة أن ترحف إلى دلهى وأن تطلق سراح الإمبراطور المغولى الذى كانت الشركة قد حددت اقامته فى إحدى القلاع وأعلنت حربٌ سُميت حرب التحرير ، ولكن النجاح فيها لم يتحقق لاختلاف أهداف الثوار ، ولعدم وجود التماسق بين زعمائها ، وبسبب ظهور خيانات ودسائس دفع بها الاستعمار إلى صفوفها •

وكان المسلمون هم الذين قادوا هذه الحركة ، ومن أجل هذا أصبح المسلمون هدفا لانتقام الانجليز والإيقاع بهم •

ورأت إنجلترا ألا تترك شبه القارة ملكاً لشركة الهند الشرقية لاضطرابها الاقتصادى ، ولعدم استطاعتها السيطرة على البلاد ،

(١) دكتور عبد الحميد البطريق : باكستان فى ماضيها وحاضرها ص ١٨ •

فأعلنت تبعية الهند للتاج البريطانى فى سنة ١٨٥٨ م ، وأصبحت المواجهة الاستعمارية بارزةً بكل اتجاهاتها ، فقد حلت اللغة الإنجليزية محل اللغة الفارسية لغة البلاط ، وظهر نشاط التبشير الدينى لتحويل السكان إلى المسيحية ، وأخذت الثقافة الأجنبية تتسلل إلى ربوع شبه القارة (١) .

ويقول بروفيسور رومين إن الذى دفع الحكومة البريطانية لحل شركة الهند سببان ، أولهما طابعه مستمد من السياسة الخارجية ، فقد كانت بريطانيا تخشى طيلة القرن الثامن عشر من احتمال عودة فرنسا للهند ، فلما تبدد هذا الخوف بانتهاء إمبراطورية نابليون سنة ١٨١٥ حل محله من جديد الخوف من النفوذ الروسى .

أما السبب الثانى فقد كان داخليا وهو العامل المباشر وراء حل الشركة ، وذلك أن جيش الشركة كان يتألف أساسا من الجنود المسلمين الذين لم يعد من الممكن أن تترك لهم حراسة هذه الشركة (٢) .

ونختتم هذا الإيجاز عن الزحف الإنجليزى للهند بعبارة خطيرة ذكرها غوستاف لوبون هى : توصل الإنجليز لفتح الهند برجال الهند وأموالها ، وبعبارة أخرى بجنود غير جنود إنجلترا ونقود غير نقودهم ، فالحق أن الهند دانت للإنجليز بجيوش مؤلفة من الهندوس ، وبأموال أخذت من خزائن الهند « (٣) .

أما عن ثراء الهند والهنود فيحدثنا الإمبراطور جهانكير فى مذكراته قائلا : كان ملوك الهند يوزنون بالذهب فى الأعياد ويوزعون ما يساويها على الفقراء والمساكين ، وكنت أوزن فى السنة مرتين : مرة فى أول

(١) باكستان : من مطبوعات السفارة الباكستانية بالقاهرة ص ٢٨ وما بعدها .

(٢) آسيا المعاصرة : بقطة المعلق ص ١٠٤ من الترجمة العربية .

(٣) حضارة الهند ص ٢٥٠ .

السنة الشمسية ومرة في أول السنة القمرية ، وأنفق ما يساوى وزنى على الفقراء والمساكين ، وكان الملوك يخرجون للتنزه مساء كل يوم ، فيأخذ كل واحد منهم كيسين من المال ، فيهما آلاف الروبيات وفي الطريق يوزعون هذه الأموال على الفقراء ، فكان الشعب ينعم بالخيرات من كل ناحية ، وكان كل دخل الهند لأهلها لا يخرج منه شيء حتى تكدست الأموال عند كل الناس ، وصارت الهند مضرب الأمثال في الغنى ، وهذا ما أغرى الغرب بالاتجار مع الهند ، ولكنه اتجه لسلب الأموال بدل التجارة الحقيقية فانقلب ثراء الهند إلى انجلترا ، فأصبحت انجلترا تعيش في رغد من العيش في حين يموت الهنود جوعاً (١) .

وقد كتب « لورنس » الحاكم الإنجليزي للهند في ديسمبر سنة ١٨٥٧ يصور للقائد الإنجليزي مدى ما أوقعة رجاله بالشعب الهندي فقال : أعتقد أن الطريقة التي انتهبنا بها جميع الطبقات من غير تمييز ستصب علينا السخط العام ، وستصب علينا اللعنات إلى الأبد ، وإننا نستحق ذلك (٢)

مسلمو الهند تحت نير الاستعمار

اتجه الإنجليز عقب إعلان السيطرة المباشرة للتاج البريطاني على الهند ، اتجهوا بكل قواهم لمصارعة المسلمين بوجه خاص ، فالمسلمون ينتمون إلى هذا الدين الذي تحركت أوروبا كلها لمصارعته فيما يسمى « الحروب الصليبية » وكان لإنجلترا وملكها (ريتشارد قلب الأسد) دورهم الكبير في هذا الصراع ، وإذا كانت أوروبا قد فشلت في الحروب الصليبية بسوريا ومصر ، فإن الروح الصليبية كانت متأججة في نفوس الصليبيين ، وكانوا ينتهزون الفرص كلما حانت ليكشفوا ما بهم من غيظ وجنق ، وكان دخول الإنجليز الهند فرصة للإيقاع بمسلمي الهند ، فذلك امتداد لما يتطلعون إليه من محاولات للصراع ضد الدين الإسلامي الحنيف .

(١) نقلا عن تاريخ الاسلام في الهند للدكتور عبد المنعم النمر ص

ثم إن الحكم كان للمسلمين في الهند طيلة ثمانية قرون تقريبا ، ويستلزم استقرار الأحوال للإنجليز بالهند أن يقضوا على بقايا الحكم السابقين ، وأن يستعينوا بالهندوس الذين كان الحكم قد أفلت من أيديهم بالزحف الإسلامي ، ومن أجل هذا اتخذ الإنجليز كل الوسائل التي تضعف المسلمين ، ووضعوا قوانين جديدة لحكم البلاد ، وعينوا قضاة للحكم بهذه القوانين من الإنجليز أو من الهندوس ، واستولوا على أموال الأوقاف التي كانت ينفق منها على التعليم ومراكز العبادة .

واستبد الإنجليز بإقامة المدارس ، ولكن هذه المدارس عُنيت عناية كاملة بإبعاد الطلاب عن الإسلام ، وأحيانا بجذبهم إلى المسيحية ، واستُبعد المسلمون كذلك من قوات الأمن ومن إدارة الجيش والإدارة ومن المناصب الكبرى ، وكل هذا وضع حواجز ضخمة بين الإنجليز وبين المسلمين بوجه خاص .

وقد صور كاتب إنجليزي سياسة الاضطهاد التي قام بها الإنجليز ضد المسلمين بقوله : إنه لن يجدينا نفعا أن نصم آذاننا عن هذه الحقيقة الماثلة من أن المسلمين الهنود قد ارتكبنا ضدهم أمورا خطيرة لم ترتكبها حكومة من الحكومات ، إنهم يستطيعون مقاضاتنا عن هذه الأمور ، يقاضوننا عن إغلاق كل حياة كريمة في وجوههم ، ويقاضوننا عن نظام التعليم الذي دفعهم إلى الجهل ، وعن نظام الاقتصاد الذي حكم عليهم بالفقر ، لقد عاش ملايين المسلمين في الهند بعد سقوط دولة المغول في تناسل وشقاء بعد أن فقدوا كبرياءهم وأملهم وقوتهم (١) .

وكان من نتائج الاستيلاء على أموال الأوقاف أن أغلقت المدارس الإسلامية ، فإذا أضيف إلى ذلك أن المسلمين رغبوا أن يلحقوا بأبنائهم بالمدارس التي فتحتها المستعمر بالهند فإنه ينتج عن ذلك حقيقة مرة هي

أن الجهل أصبح شاملا في صفوف المسلمين ، ولم يبق للفكر سبيل إلا ما يقدمه « الملا » للطلاب ، والملا إنسان قليل البضاعة في هذا المجال ، وهكذا أصبح المسلمون يعانون الأعداء الثلاثة وهي : الجهل والفقر والمرض .

ومضات إسلاميه

وبينما كان الظلام الحالك يحيط بالمسلمين في شبه القارة الهندية ، وبينما تعاون الإنجليز مع الهندوس والسيخ وبعض الاسماعيلية ضد المسلمين ، بدأت تنبثق أشعة من النور لتضع أساساً للقضاء على المظالم التي كانت تنزل بالمسلمين ، ولإعطائهم الحق في حياة كريمة ، وقد بدأت هذه الومضات منذ ظهر سلطان الشركة البريطانية ، وقويت أشعة النور من يوم إلى يوم ، ومن قرن إلى قرن حتى ظهرت باكستان دولة إسلامية يعيش فيها المسلمون أحرارا ، ويباشرون سيادتهم دون تدخل من محتل أجنبي ، أو من الهندوس ، وفي الصفحات التالية سنسير مع مراحل الجهود التي انتهت إلى هذه النتيجة السعيدة :

شاه ولي الله الدهلوى :

عاصر شاه ولي الله أخرج فترة في تاريخ الإسلام في الهند فقد ولد سنة ١٧٠٤ م وتوفي سنة ١٧٦٣ م أى أنه عاصر في مطلع حياته عهد الإمبراطور العظيم أورانجزيب ، ثم عاصر من بعده الملوك الضعاف الذين انهارت السلطة من أيديهم ، وسلبت أخيرا الى الحكم الإنجليزي ، ولهذا كان دوره في الدفاع عن الإسلام والمسلمين عظيماً .

وقد تلقى شاه ولي الله ثقافته الأولى في الهند ، ثم حج إلى بيت الله الحرام وهناك التقى بمجموعة من المفكرين والباحثين ، فتلقى عنهم مزيدا من المعرفة ، كما اشتعل حماسة ضد أعداء الدين الذين كانوا يظهرون في بلاد مختلفة وظروف متعددة .

ولما علا شأن ولي الله أعطاه السلطان محمد شاه بناء كبيرا ليكون مدرسة له ، وأصبحت هذه المدرسة مركزا ممتازا تخرج منه عدد كبير من المفكرين والمجاهدين ، ساروا جميعا على نهج شيخهم ، واقتبسوا طريقته .

ولما سلب الإنجليز السلطة من الإمبراطور وتركوه ملكا لا يحكم ، هب تلاميذ هذه المدرسة بقيادة الشاه عبد العزيز بن شاه ولي الله ، وأعلنوا أن الجهاد أصبح هو الطريق الوحيد للمسلمين ، وأن الهند دار حرب ، وليست دار سلام ، وأن رئيس البلاد لم يعد في يده سلطة ، وإنما انتقلت السلطة إلى أعداء الدين الذين سلبوها بالقوة ، والواجب على المسلمين أن يهبوا للدفاع عن بلادهم ، وأخذ تلاميذ هذه المدرسة يطوفون البلاد بهذه الدعوة ، ويكوّنون الجيوش من أجلها ، ولم يكتفوا بالدعوة لمحاربة الإنجليز ، بل قالوا أيضا بمحاربة السيخ الذين آثروا من العدوان على مسلمي الهند .

وهكذا كانت مدرسة شاه ولي الله من أهم مدارس الفكر والجهاد في هذه الفترة المبكرة من تاريخ الاستعمار في الهند .

أما الدعوة التي حمل لواءها شاه ولي الله فتتلخص فيما يلي :

١ — كانت المناقشات الفقهية والكلامية هي مظهر الدين في عصر الانحطاط الفكري بالهند ، فهب الدهلوي ليضع أساسا صحيحا للبحث ، يرتكز على القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، وجمع حوله مجموعة من مريدية فأنشأ مدرسة « ديونية » وندوة العلماء ، وبمرور الزمن أصبح فكر الدهلوي هو الفكر السائد في الهند .

٢ — شرح الدهلوي فلسفة التشريع الإسلامي وأسراره في كتابه « حجة الله البالغة » فكان ذلك منارا للباحثين من بعده .

٣ — أيقظ الهمم بعد سقوط الحكومة الإسلامية فوضع نواة أولى لمقاومة الاستعمار .

وكان أسلوب الدهلوى يتجه للعلم والفكر لا للدم والصراع وهو بهذا يختلف عن معاصره « الإمام محمد بن عبد الوهاب » لأن الحياة البدوية بالجزيرة العربية كانت تحتاج للشدة والصلابة .

٤ — اتجه للتقريب بين التصوف من جانب والفقه والسنة من جانب آخر فظهرت مدرسة توفيقية في هذا المجال .

ونتوقف قليلا عن مواصلة الحديث عن الزعماء الذين يمثلون ومضات إسلامية مهمة ، لنحدث عن جماعتين مهمتين ضمنا زعامات إسلامية كثيرة ، لعبت دورا مهما في تاريخ الإسلام بالهند ، وهاتان الجماعتان هما :

المؤتمر الوطنى ، والرابطة الإسلامية :

وهما جماعتان مهمتان كان لهما دور كبير في استقلال شبه القارة الهندية وفي قيام دولة باكستان ، وقد ارتبط بالرابطة الإسلامية نشاط رواد السياسة والفكر من مسلمى الهند ، فعن طريق الرابطة أذيعت أفكار هؤلاء الرواد ، وأثمرت ، ومن أجل هذا يجدر بنا أن نتكلم كلمة عن هذين التجمعين وبخاصة عن الرابطة الإسلامية التى ستصبح مجالا يصب فيه القادة المسلمون بالهند أفكارهم واتجاهاتهم كما سنرى فيما بعد :

المؤتمر الوطنى :

منظمة سياسية هندية أسست سنة ١٨٨٥ من ممثلين للهندوس والمسلمين الهنود ، وكان أعضاؤها من المثقفين ، وكانت تعمل في بادئ الأمر على أن تنال الهند استقلالها الداخلى وكانت تتخذ الوسائل الدستورية لذلك .

وفي سنة ١٩١٧ غيّر المؤتمر اتجاهه فطالب بالاستقلال التام ، وذلك بتأثير الأعضاء المتشددين المكافحين بقيادة غاندى على الأعضاء المعتدلين ،

واتخذ المؤتمر المقاومة السلبية سياسة له ، وأعلن المؤتمر سنة ١٩٣٠ استقلال الهند ، فحاربت الحكومة الإنجليزية قاداته ، وقبضت على عدد منهم وألقته في السجون .

وقد حدث في هذه المنظمة تحول كبير عندما برزت الرابطة الإسلامية ، وهى مؤسسة كان أكثر أعضائها يشغلون كذلك عضوية المؤتمر في نفس الوقت ، ولكن الرابطة الإسلامية كانت تهتم بالتأكيد على حقوق المسلمين بالهند داخل الدولة الموحدة ، ثم تحولت للكفاح من أجل قيام دولة خاصة بهم كما سنرى فيما يلى :

الرابطة الإسلامية :

حزب سياسى تكون في الهند سنة ١٩٠٦ بدعوةٍ تقدّم بها « نواب سليم الله » في ٣٠ ديسمبر ١٩٠٦ ، واستجاب زعماء المسلمين لهذه الدعوة ، وقد عُقدَ الاجتماع الأول للرابطة بمدينة « دكا » واتجه الحزب في مراحله الأولى إلى حماية حقوق المسلمين في شبه القارة الهندية ، وكان أعضاء هذا الحزب يعملون جنبا إلى جنب مع أعضاء حزب المؤتمر من الهنود للمطالبة بالحكم الذاتى للهند ، ثم بالاستقلال التام على أن يكون للمسلمين حقوقهم الطبيعية في المجتمع الهندى .

وكانت الرابطة الإسلامية تعقد اجتماعات سنوية في المدن الهندية ، مثل دكا وبومباى وكلكتا والله أباد ولاهور ودلهى ، وكان الحزب يتخذ قرارات وتوصيات تخدم المصالح الإسلامية ، وترعى المجتمع الإسلامى بالهند .

وفي اجتماع الرابطة سنة ١٩٣٠ في « الله أباد » ألقى محمد إقبال بيانا اعتبر معبرا عن شعور المسلمين آنذاك وعن آمالهم ، فقد قال إن الوسيلة لتحقيق آمال المسلمين لا تكون إلا بتكوين دولة خاصة بهم في الهند وسنشرح فيما بعد رأيه عند الكلام عنه بعد قليل .

ومن الشخصيات الشهيرة التي ارتبطت بحزب الرابطة الإسلامية مولانا محمد علي ، وأخوة شوكت علي ، والشاعر محمد إقبال ، وسيد أمير علي ، ولياقت علي خان الذي أصبح أول رئيس لوزراء الباكستان ثم القائد الأعظم محمد علي جناح الذي كتب له أن يحقق بواسطة الرابطة آمال المسلمين في الهند .

وبعد هذا الحديث الموجز عن حزب المؤتمر وعن الرابطة الإسلامية نستأنف الكلام عن الرواد المسلمين الأوائل في الهند الذين أسهموا في خلق دولة « باكستان » .

سيد أحمد خان :

إذا كان « شاه ولي الله » قد عاصر مطلع الزحف الإنجليزي على الهند ، وعاش عمره في القرن الثامن عشر ، فإن السيد أحمد خان عاش عمره في القرن التاسع عشر ، فقد وُلِدَ سنة ١٨١٧ وتوفي سنة ١٨٩٨ ، وقد اتفق الرجلان في محاولة رفع شأن المسلمين بالهند ، وإن اختلفت طريقة هذا عن ذلك ، فقد رأينا « شاه ولي الله » يهتم بالعلم والجهاد ، ولكن السيد أحمد خان وجه أكثر جهده الى العلم وحده ، ربما لأنه رأى أن الجهاد أمل كان بعيداً بسبب تمكن السلطة الإنجليزية في عهده .

وكان السيد أحمد خان ينادي بأن الضرورة تقضي بمحاربة الجهل أولاً ، أما الجهاد والاستقلال فيكونان بعد ذلك ، فلا استقلال لجاهل ، ولا مخرف ، وإنما عماد الاستقلال هو العلم بشئون الدنيا والدين ، ونظم الإدارة والحكم ، وكان يصرّح بأن فهم الإسلام على أصوله كفيل بتحقيق المآرب كلها ، ولا بأس عنده من مسالة المستعمرين مؤقتاً للاتجاه بكل القوى إلى الثقافة والعلم ، ونشرهما بين جماعات المسلمين .

وهاجم السيد أحمد خان اتجاهات بعض الصوفية بتقديس الأولياء والأضرحة وعدّ ذلك زندقة لا تمثل الإسلام .

وقد علنى السيد أحمد خان من هذا الاتجاه شرّاً واعتبرت مهادنته للإنجليز خيانة وطنية ، ولكنه سار فى طريقه غير متردد ، واتجه إلى الإصلاح الاجتماعى والنهضة الثقافية ، إذ هاله أن سياسة العزلة أضرت بالمسلمين ، وانتهزها الهندوس فرصة ، فألحقوا أبناءهم بالمدارس ونالوا قسماً كبيراً من المعرفة ، وحُرم المسلمون منها ، وإذا كان المسلمون يخافون على أولادهم من مدارس الإنجليز ، فقد بادر هو بإنشاء المدارس التى لا يخاف المسلمون منها ، بل ترقى فى أفكاره فعمل على إنشاء جامعة تسير على نهج الجامعات الغربية ، وتنفيذا لهذه الفكرة أنشأ كلية فى « عليكره » بالغرب من دلهى أصبحت فيما بعد جامعة شهيرة ، وحدّد لها أغراضاً ثلاثة هى :

١ — أن تعلّم المسلمين الثقافة الغربية والشرقية دون تعصب أو جمود .

٢ — أن يُعنى فيها بحياة الطلبة الاجتماعية ، بحيث يجد الطلاب بها مساكن تقيهم شرور المدن ومفاسدها ، ليدرك الآباء أنهم يرسلون أبناءهم إلى بيئة صالحة .

٣ — أن يُعنى فى نظام الكلية بترقية العلم وتربية البدن وتهذيب الخلق ، وبعبارة أخرى يكون الغرض منها « التربية » وليس التعليم فقط (١) .

ونجحت الفكرة نجاحاً هائلاً ، وأقبل عليها المسلمون إقبالاً واسعاً ، وأصبح طابع الكلية التربوية وليس السياسة .

وأنشأ بجانب الكلية مجلة دورية سماها « تهذيب الأخلاق » حتى يرسل أشعة النور إلى الذين لا يلتحقون بكليته .

(١) أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ص ١٤٠ .

وصرخ السيد أحمد خان بأن النور أصبح يأتى من الغرب بعد أن كان يأتى من الشرق ، وكما تلقى الغرب دراساته عن الشرق أيام كان الشرق مبعث النور ، فيجب على الشرق الآن أن يتجه ليتلقى معارف الغرب ، وصرخ كذلك بأن التعليم كان فى الماضى دينيا محضا ، لا يعبا بالدينيا ، وقد تطرف فى الأولى وأخلّ فى الثانية ، فحبذا الجمع بين الدين والدنيا •

وأقبل كثير من مسلمى الهند على فكرة السيد أحمد خان ، وترك بذلك فى الهند آثارا رائعة فى الناحية العلمية والاجتماعية ، وتخرج فى كليته الرعيل الأول من سياسة الباكستان ، وقادة الفكر فى العالم الإسلامى من أمثال مولانا محمد على ، والخواجه نظام الدين ، ولياقت على خان الذى أصبح رئيسا لوزراء باكستان فيما بعد وكثيرون سواهم •

ومما أخذ على السيد أحمد خان أنه فى أكثر حياته كان يتجه إلى أن الهند أمة واحدة ، وأن الإسلام والهندوكية والنصرانية عقائد يجب ألا تؤثر فى الوطنية ، ولذلك كان يرى أن النزعة إلى تقسيم الهند فكر باطل (١) ، وكان ذلك مما أثار عليه كثيرين من المفكرين المسلمين •

ومن مزيد من المطالعات حول أفكار السيد أحمد خان يبرز لنا أنه فى آواخر أيامه اتجه إلى فكرة تقسيم الهند وهو فى ذلك يقول : إن الأغلبية سوف تتجاهل مصالح الأقلية ، وإن الرعاى سيحملون الحكومة على أن تقيس بمقاييسهم ، ومن ثمّ تتسع هوة الخلاف من ناحية الجنس ومن ناحية العقيدة •

وكان ذلك لتأثير السيد أمير على الذى أسس الجمعية الوطنية الإسلامية ودعا السيد أحمد خان للتعاون معه فيها للدفاع عن حقوق المسلمين (٢) •

(١) أحمد أمين : المرجع السابق ص ١٤١ •

(٢) أحمد أمين : قصص ١٤٩ •

ويعلق الدكتور البطريق على هذا التصريح بقوله : ومعنى هذا أن فكرة الانفصال عن الهند قد اختمرت في ذهن السيد أحمد خان ، فهو في هذا الحديث يضع حجر الزاوية في بناء الباكستان ، ويوجّه نظر المسلمين إلى أن يسلكوا سبيل العمل على إيجاد دولة خاصة بهم ، ويعترض على المؤتمر الوطنى الهندى الذى تألف سنة ١٨٨٥ م ، والذى كان يرى أن الهند وحدة واحدة ، ومن أقواله في الاعتراض ما يلي : إن مطالب المؤتمر غير ملائمة ألّبتة لقطر تقطنه أمتان مختلفتان (١) .

ويأخذ الباحثون المسلمون بالهند على السيد أحمد خان أن الناحية الإسلامية في دعوته كانت حافلة بالآخطار والمخاوف ، وذلك بسبب ضعفه في العلوم الإسلامية وعدم إلمامه بروح الإسلام وشريعته إلاما كافيا ، ومن أجل هذا قام زميله محمد شبلى النعمانى بمحاولة تصحيح أخطائه الضارة واتجاهاته الخطيرة كما قام بإحياء العلوم الإسلامية وعرضها بأسلوب حديث وفهم عسرى ، فكان الأول يتجه للتربية والتعليم أكثر من اتجاهه للإسلام وكان الغرب عنده هو القدوة بخلاف الثانى الذى جعل الإسلام أسمى هدف وأعظم غاية (٢) .

المعاهد الإسلامية بالهند :

ونتوقف قليلا عقب حديثنا عن السيد أحمد خان مؤسس كلية عليكره لنذكر المعاهد الإسلامية الشهيرة بالهند والتي أنشئت في القرن التاسع عشر استمرارا لجهود السيد أحمد خان ، ومن هذه المعاهد ما يلي :

(١) باكستان : ماضيها وحاضرها : ص ٢٦ .

(٢) دكتور محمد اسماعيل الندوي : نظرات جديدة في شعر اقبال ص

دار العلوم :

أنشئت في أواخر القرن التاسع عشر في « ديوباند » أنشأها مولانا محمد قاسم ويوحى اسمها وتاريخ إنشائها بعلاقتها بدار العلوم بالقاهرة التي أنشئت سنة ١٨٧١ م ، ويرتبط المعهدان كذلك في مجموعة الدراسات التي كانت تدرس بهما والتي شملت بالإضافة للعلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية وعلم الفلك والرياضة والكيمياء .

ومدينة « ديوباند » مدينة صغيرة تقع على مسافة ٩٠ ميلا شمالي دلهي .

الجامعة المليية الإسلامية :

أسسها الدكتور ذاكر حسين بدلهي سنة ١٩٢١ ، وكان التعليم بها باللغة الأردية ، بعد أن قاطع الهنود المسلمون المدارس الإنجليزية وقد أنشئت هذه الجامعة أساسا لتكون معهداً لتدريب المعلمين فكان بها قسم خاص بمحو الأمية للكبار ، سواء الأمية الخاصة بالقراءة والكتابة أو الأمية الفكرية التي تقدّم بعض الثقافة للذين فاتهم ركب الثقافة .

جمعية علماء الهند :

أسست هذه الجمعية خلال الحرب العالمية الأولى ، وكانت لها صحف ومجلات ونشاط ديني واجتماعي واسع ، وللجمعية مجلس مركزي وفروع في مختلف نواحي الهند ، وتُعنى بإنشاء المدارس الإسلامية وبمختلف نواحي النشاط التربوي والديني .

وبعد هذا الحديث الموجز عن أشهر المعاهد الإسلامية بالهند ، نعود لاستئناف الحديث عن أشهر الشخصيات الإسلامية بالهند في عصر ما قبل قيام باكستان :

أغاخان :

وُلِدَ أَاخان بكراتشى فى ٢ نوفمبر ١٨٧٧ وكان منذ أوائل القرن الحالى زعيما من زعماء الحركة الإسلامية • وكان على رأس الوفد التاريخى الذى كان يضم ممثلين عن كل المسلمين فى جميع أنحاء الهند والذى ذهب إلى سملا عام ١٩٠٦ ليقدم لنائب الملك لورد منتو العريضة التى ضمنوها مطالب المسلمين فى الاحتفاظ بدوائر انتخابية خاصة بهم ، وكفالة حقوقهم ، الأمر الذى يعد بحق أول خطوة اتخذت فى سبيل إقامة دولة خاصة بمسلمى الهند • والواقع أنه كان لهذا الاجتماع التاريخى أثره فى تأليف حزب الرابطة الإسلامية فى العام نفسه • وقد انضم أَاخان إلى الحزب الجديد وكان رئيساً له من سنة ١٩٠٩ إلى ١٩١٤ ، وأَاخان من أقدم الساسة المسلمين الذين ظهروا على مسرح الحوادث فى شبه القارة ، وكانت له صلات بالسيد أحمد خان الذى رَّحب به أول مرة زار فيها عليكره عام ١٨٩٦ حيث طلب منه المعونة فى تأسيس كليتها المشهورة •

وقد بذل أَا خان جهودا مشكورة فى هذا السبيل • وبعد موت السيد أحمد خان تولى قيادة حركة عليكره هذه وجمع لها مبالغ كبيرة أربت على ثلاثة ملايين روبية خصصت كلها لتأسيس الكلية • وفى عام ١٩٢٨ رأس أَا خان مؤتمر مسلمى عموم الهند كما رأس عام ١٩٣٠ - ١٩٣٣ الوفد المسلم لمؤتمر المائدة المستديرة بلندن • والواقع أن الجهود التى بذلها أَا خان أثمرت فى كفالة حقوق المسلمين وفى تخصيص دوائر انتخابية لهم •

وحين كان أَا خان رئيسا للجمعية العامة بعصبة الأمم كان له دور كبير فى الترحيب بعضوية مصر والعراق وتركيا وغيرها من الدول الإسلامية فيها ، وكان أَا خان شديد الإعجاب بالقائد الأعظم محمد على جناح ، وكان يؤيده فى كفاحه فى سبيل تحرير المسلمين (١) •

(١) محمود سامى : صفحات خالدة من تاريخ باكستان ص ٤٢ - ٤٣ •

السيد أمير على :

ولد السيد أمير على سنة ١٨٤٩ ، وتلقى دراساته الأولى في كلكتا في الهند ، ثم سافر إلى لندن حيث درس القانون ، ولما عاد اشتغل بالتدريس بجامعة كلكتا ، ثم عين كبيرا للقضاة بهذه المدينة ، ثم عميدا لكلية الحقوق بجامعة كلكتا .

وفي سنة ١٩٠٩ انتخب عضوا بالمجلس المخصوص البريطاني في لندن ، فكان أول هندي شغل هذا المنصب العظيم ، وأمير على كان مُحجَّجَة في الفقه والتاريخ والتشريع الإسلامي وقد ألف باللغة الإنجليزية كتبا مهمة يدافع فيها عن الفكر الإسلامي ومن أهمها :

روح الدين الإسلامي = The Spirit of Islam

مختصر تاريخ العرب = A Short History of the Saracens

وكان السيد أمير على ينتمي إلى أسرة النبوة ، كما كان واسع الثقافة ، ومن هنا كانت مكانته عالية عند الإنجليز .

وقد قاد حركة سياسية إسلامية في الهند ، ومن أجل ذلك اضطهده بعض المحافظين الإنجليز ، إذ كان الإنجليز في الهند يعادون بطبيعة الحال كل من يهاجم الاستعمار ، وقد بذل جهدا كبيرا لإصلاح الحياة الاجتماعية لمسلمي الهند ، ودعا إلى تربية البنات المسلمات ليصبحن على نمط أمهات المسلمين المؤمنين في العلم والمعرفة ، وكتب كثيرا من المراسلات إلى كبار السياسة الإنجليز يبرز حقوق المسلمين في الهند ، وضرورة الاعتراف بها ، كما كتب مقالات متعددة في الصحف الإنجليزية يشرح اتجاهاته ويدعو إلى إعطاء المسلمين حقوقهم في الهند .

وقد استطاع السيد أمير على أن يحقق كثيرا من أطماعه لمواطنيه المسلمين في شبه القارة الهندية فجمع شملهم وأعلى قدرهم ووجههم إلى

الاتجاه الاستقلالى الذى تحقق بقيام دولة باكستان فيما بعد ، وقد توفى السيد أمير على سنة ١٩٢٨ •

محمد إقبال :

محمد إقبال شاعر فيلسوف ينحدر من أسرة هندوكية من البراهمة كانت تعيش في كشمير ، ومنها ينحدر كذلك البانديت نهرو ، وقد دخلت هذه الأسرة الإسلام في القرن السادس عشر وانتقلت إلى سيالكوت حيث ولد إقبال سنة ١٨٧٣ ، وكان إقبال كثيراً ما يذكر كشمير في شعره ، ومن ذلك قوله :

وبلبل كشمير في الهند ناءً

عن الروض ناءً عن الموطن (١) •

وفي مدينة سيالكوت حفظ إقبال القرآن الكريم وتلقى مبادئ العلوم ثم انتقل إلى لاهور عاصمة البنجاب حيث التحق بكليتها ونال الليسانس والماجستير ، وبعد ذلك التحق بجامعة كمبردج بإنجلترا وجامعة ميونيخ بألمانيا ، وعاد إلى وطنه سنة ١٩٠٨ حيث اشتغل بالتعليم والمحاماة ، ونظم الشعر في الفلسفة والطبيعة ، وذاع صيته في الهند ، وكثر مريدوه ، وقد بنى دعوته على طرح التصوف العجمي الذى يتجه للاستكانة والاستسلام ، ودعا للتصوف العملى ، الذى يدعو للعمل والجهاد واتخذ من الرسول والخلفاء الراشدين نماذج له •

وكان إقبال شاعراً عالمياً ، وكان في شعره يحاول بعث الأمة الإسلامية كلها من أقصاها إلى أقصاها ، ومن شعره الإسلامى قوله :

إنما الكافر حيران له الآفاق تتيه
وأرى المؤمن كوناً تاهت الآفاق فيه

واتجه إقبال بثقافته اتجاهاً فلسفياً إصلاحياً وذلك في أخطر

كتاب له وهو « تجديد التفكير الدينى في الإسلام » •

ومن شعره في وصف الطبيعة قصيدته التي عنوانها
« الهملايا » ومنها :

أيها الهملايا أنت جدار مجد الهند وعظمتها الخالدة ،
ومن علو ارتفاعك نحو السماء نراها تريد أن تُقبَّلَ
جبينك ، أنت هنا منذ آلاف السنين ومع ذلك لا أرى فيك
أثر القدم والملل بل أنت في نضارة شبابك رغم اختلاف
الليل والنهار عليك عدة قرون ٠٠٠٠ إن صوت شلالاتك
تجذب قلوبنا للاستماع ، وأشجارك الصامتة غارقة في
التفكير ، والشفق في سمائك يبرز خديك وهما يتجملان
بالحمرة النقية ٠٠٠٠٠٠

وأخر شعر قاله إقبال وهو يحتضر هو :

آية المؤمن أن يلقي الردى باسم الثغر سرورا ورضا
وكان لإقبال فلسفة دينية بناها على أن الذات حق لا باطل ،
وهدف الإنسان إثبات ذاته لا نفيها ، والإنسان الكامل هو الأقرب
إلى الله ، ولكن ليس القصد بهذا القرب أن يفنى وجوده في وجود
الله ، كما تقول فكرة وحدة الوجود التي نادى بها ابن العربي
بل المقصود أن يرقى بأخلاقه ليتخلّق ببعض الصفات التي يوصف بها
الله كالكرم والحلم والقوة •

ويرى إقبال أن المادة ليست شراً بل هي مُعَيَّنَةٌ على الرقى ،
فإن قوى الذات الخفية تتجلى في مصادمة العقبات التي تضعها المادة ،
وإذا قهرت الذات هذه العقبات بلغت منزلة الاختيار (١) •

وقد أثرت هذه الفلسفة على حياة إقبال السياسية والاجتماعية ،
ومن أجل هذا دعا قومه إلى الأخذ بأساليب التعاليم الإسلامية الصحيحة

(١) مقتطفات من كتاب « نظرات جديدة في شعر إقبال » للدكتور محمد
اسماعيل الندوى •

ونبذ المادية الغربية الطاغية ، ومن هنا كان مسلماً في فلسفته واتجاهاته السياسية كما أثّرنا آنفاً ، ولهذا رجع بسرعة عن مبدأ الإيمان بوحدة الهند ، وقال بالانفصال وتكوين دولة خاصة بالمسلمين ، وهو يُعَدُّ أولَ من رسم حدود الدولة الجديدة دولة الباكستان ، فقد قال في خطاب له سنة ١٩٣٠ موجّه إلى أعضاء الرابطة الإسلامية ما يلي :

« إننى أحب أن أرى البنجاب ومقاطعة الحدود الشمالية الغربية والسند وبلوخستان قد اتحدت جميعها في دولة واحدة تحكم حكماً ذاتياً في داخل الإمبراطورية البريطانية أو خارجها . »

« وأرجو ألا تؤرق هذه الفكرة أجفان الهندوس أو الإنجليز ، وهذه رغبة تؤازرها اتجاهات المسلمين الصادقة في التقدم الحر ، والذي يستحيل إيجاده عملياً تحت الحكومة الهندية الموحدة ، التي ينادى بها قادة الهند بحجة تأمين السيطرة الدائمة على المجتمع في كل أنحاء الهند ، ولا يروّع الهندوس أن تقوم دولة إسلامية مستقلة بالهند ، فليس معنى هذا أن يكون ذلك مقدّمًا لنوع من الحكم الإسلامى الشامل في الهند ، بل المبدأ الذى ستقوم عليه هذه الدولة أن كل جماعة لها الحق في أن تعمل بوسائلها الخاصة على تقدم متحرر من غير أن تكون مدفوعة بإحساس اجتماعى ضيق . »

وإنى أصرح باحترامى العميق للعادات والقوانين والنظم الاجتماعية والعقائد الدينية في المجتمعات الأخرى . ومن واجبي حسب تعاليم القرآن أن أدافع إذا احتاج الأمر عن معابد الآخرين . »

ويعلق الرسمىون الباكستانيون على هذا الخطاب بقولهم : إن حل المشكلات المعقدة المرتبطة بالمسلمين بالهند جاء لا من قبل أحد الساسة ، ولكن من قبل أحد الشعراء المنكرين وهو الفيلسوف محمد إقبال ، ففي الدورة السنوية التى عقدها حزب الرابطة الإسلامية في « الله أباد » سنة ١٩٣٠ وكانت برياسة إقبال أوضح أن مستقبل (م ٢٢ — الموسوعة التاريخية)

المسلمين يكمن في استقلالهم السياسى ، وأن تأسيس وطن خاص بهم لا يحقق أمانهم وآمالهم فحسب ، بل إنه أمر يخدم مصالح شبه القارة بأسرها ، ومع أن المسلمين فكروا في هذه الخطوة من قبل إلا أن إقبال كان الرجل الذى رسم معالم الطريق لتحقيقها (١) .

وهذه الفكرة التى وضحها إقبال سارت في طريقها وتبناها زعماء الباكستان وتحمسوا لها يوما بعد يوم حتى أصبحت حقيقة واقعة على يد محمد على جناح الذى سنتكلم عنه فيما بعد :

مولانا محمد على :

ولد مولانا محمد على في مدينة رامبور سنة ١٨٧٨ وتوفي سنة ١٩٣١ في لندن ، ودفن بالقدس ، ومحمد على أحد مريدى جامعة عليكرة ، وقد التحق بعدها بجامعة أكسفورد ، وبعد نجاحه فيها عاد للهند وشغل بعض المناصب ثم استقال ليتفرغ للمسائل العامة وخدمة مسلمى الهند بوجه خاص ، والمسلمين في جميع الأرجاء بوجه عام ، وفي الهند اشترك في الحركة الوطنية ، وكان عضوا بارزا في حزب المؤتمر ، وانتخب رئيسا له وعندما قامت حركة الخلافة العثمانية بين سنتى ١٩١٨ و ١٩٢٤ دعا لمساعدة الدولة العثمانية التى كان يراها رمز وحدة للعالم الإسلامى ، وألف كتابه « الخلافة » واشترك معه في النضال لقضية الخلافة أخوه شوكت على .

وقد انفصل محمد على عن المؤتمر لتمسكه بالقضية الإسلامية ، وانضم الى الرابطة الإسلامية .

وقد اشتغل محمد على بالصحافة ، وهاجم الإنجليز مرارا فألقوا القبض عليه وحكم عليه بالسجن هو وأخوه وله ترجمة جيدة للقرآن الكريم .

(١) الباكستان : من مطبوعات السفارة الباكستانية بالقاهرة ص ٣٧ ، ولو ظل للعلماء والمفكرين نفوذ في العالم الإسلامى لحقق هؤلاء لأوطانهم ما حققه إقبال ، ولكن السياسة بذلوا كل جهودهم للقضاء على نفوذ العلماء فكانت الكارثة . (المؤلف)

محمد على جناح وقيام دولة الباكستان

منح مسلمو الهند لقب « القائد الأعظم » لمحمد على جناح اعترافا بجهوده الكبيرة لوضع آمال المسلمين بالهند موضع التنفيذ ولقيادتهم الرشيدة حتى تحقق الحلم الذى كانوا يتطلعون إليه ، وقامت دولة « باكستان » على يده •

ومن أجل هذا يستحق محمد على جناح تعريفا أطول لحياته وجهوده :

كان محمد على جناح شخصية بارزة فى المؤتمر الهندى ، وكان يقوم بدور السفير المسلم الذى يحمل آمال المسلمين للمؤتمر الهندى ، ولحرصه على أن يقوم بهذا الدور لم ينضم للرابطة عند تأليفها ، ربما لأنه أثر أن يحتفظ بثقة أعضاء حزب المؤتمر فيه حتى يستطيع أن ينال للمسلمين حقوقهم ، وقد ظل حتى سنة ١٩١٢ شديد الحرص على الوحدة بين المسلمين والهندوس •

وفى سنة ١٩١٢ انضم محمد على جناح للرابطة الإسلامية مع احتفاظه بعضويته ونشاطه فى حزب المؤتمر ، وكان حزب الرابطة آنذاك يعمل للمحافظة على حقوق المسلمين فى الدولة الموحدة فى شبه القارة الهندية ، ومن أجل المحافظة على هذه الحقوق كان جناح يطالب بثلاث عدد المقاعد فى المجلس النيابى للمسلمين ، كما كان يطالب بضمانات أخرى تحفظ للمسلمين حقوقهم ، وقد ظل الحال على ذلك حتى سنة ١٩٣٩ ، وفى هذه السنة بدأ جناح يقتنع بعد جهاد طويل أن الاتفاق بين أطماع الرابطة الإسلامية ، وبين اتجاهات المؤتمر الهندى مستحيلة ، ولهذا أعلن انسحابه من المؤتمر ، وأصبحت هناك مؤسستان تعمل إحداهما لصالح المسلمين والأخرى لصالح الهندوس ، إلى أن بدأ إقبال يصرح بضرورة التقسيم فى العالم التالى أى فى سنة ١٩٣٠ •



القائد الأعظم : محمد على جناح

وكان هذا الاتجاه نتيجة للفظائع والمجازر التي هبت بين المسلمين والهندوس والتي كان ضحايا المسلمين فيها كثيرين كثرة بالغة •

وكانت شخصية جناح شخصية قوية ، ويوصف بأن قسمات وجهه كانت حاسمة ، وكانت عيناه فولاذيتين وكانت له ابتسامه تجمع بين القوة

والسحر • ووصفه بعض الأجانب الذين عرفوه بأنه أهم رجل في آسيا ، كما اعتبره الباكستانيون منقذ الشعب ومحرر الأمة •

وكان محمد على جناح شيعياً ، ولكنه كان واسع الفكر لم يعرف التعصب للتشيع ، وكان يدعو إلى الوحدة الإسلامية وينهى عن التعصب المذهبي بين الشيعة والسنة (١) •

وفي سنة ١٩٣٠ أى في الفترة التي اتجه جناح بكل قوته للدفاع عن مصالح المسلمين ، عقدت الحكومة الإنجليزية بلندن مؤتمرا يجمع زعماء المسلمين والهندوس لمناقشة القضية الهندية ، وبعد نهاية المؤتمر بقي جناح في لندن فترة ، كأنما كان يحس أن مفتاح حل مشكلة المسلمين يوجد هناك ، ولكن غيابه عن الهند أضعف جانب الرابطة ، ولهذا أسرع بالعودة ، وكان من أعماله عقب عودته أن فتح باب عضوية الرابطة لجماهير المسلمين ، وكانت عضويتها من قبل مقصورة على الأغنياء بسبب الرسوم العالية التي كان يدفعها الأعضاء ولكن جناح جعل العضوية مفتوحة للجميع مقابل رسم ضئيل فاندفع المسلمون لعضويتها حتى أصبحت قوة هائلة •

ولبتداء من سنة ١٩٣٠ بدأ الاتجاه لتقسيم الهند يتصاعد يوماً بعد يوم ، بعد الخطاب الذي ألقاه الشاعر محمد إقبال والذي أشرنا له من قبل وفي سنة ١٩٣٧ أعلن « جناح » أن الاستقلال التام هو هدف المسلمين بالهند ، وصرخ قائلاً : إن المسلمين لن ينزعوا عن أعناقهم أغلال الإنجليز ليلبسوا أغلال عبودية الهندوس ، وبناء على ذلك اتخذت الرابطة الإسلامية في اجتماعها بلاهور سنة ١٩٤٠ قرارها بالتقسيم ، وأعلن جناح أن المسلمين والهندوس أمتان مختلفتان في الثقافة والحضارة واللغة والفن والتشريع والتراث وأن مائة مليون مسلم على الأقل لا يمكن أن ينتقلوا من عناء إلى عناء •

(١) محمد حسن الاعظمي : القائد الاعظم وقصة الباكستان •

وهكذا كان كفاح جناح من أجل قيام باكستان ممتدا من سنة ١٩٣٧ إلى سنة ١٩٤٧ ، وعندما نجحت فكرته وقامت باكستان أعلن جناح في هذه المناسبة التاريخية في خطابه أن تأسيس الباكستان الذي جاهدنا من أجله عشر سنوات أصبح بفضل الله حقيقة واقعة ونستطيع اليوم أن نكيّف حياتنا وفق مواهبنا وثقافتنا ، وأن نمكّن لتعاليم الإسلام في العدالة الاجتماعية أن تجد لها مكانا وأن تسود في دولتنا •

وعقب قيام باكستان أصبح محمد علي جناح حاكما للدولة الجديدة ، بالإضافة إلى كونه رئيسا لحزب الرابطة الإسلامية كما أصبح رئيسا للجمعية التأسيسية التي تعمل لوضع الدستور ولم تقو صحته على احتمال كل هذه الأعباء فمات في سبتمبر سنة ١٩٤٩ •

خطوات قيام باكستان

سنسجل فيما يلي قائمة تاريخية تتصل بانبثاق باكستان :

سنة ١٩٢٤ : عقد حزب الرابطة الإسلامية اجتماعاً بـلاهور عاصمة البنجاب برئاسة محمد علي جناح ، وفي هذا الاجتماع طالب الحزب بضمانات للمسلمين •

سنة ١٩٢٧ : ألقت الحكومة البريطانية « لجنة سيمون » لدراسة مشكلات الهند ، وأصر نهر في هذه اللجنة على وحدة تامة تقوم بالهند وأن تكون السلطة للأغلبية ، وهو بهذا يرفض إعطاء آية ضمانات للمسلمين •

سنة ١٩٢٩ : عقد المسلمون اجتماعا برئاسة آغا خان طالبوا فيه بضرورة تقديم ضمانات للمسلمين •

سنة ١٩٣٠ : اجتمعت الرابطة الإسلامية في « الله أباد » حيث ارتفع

صوت إقبال رئيس الدورة بضرورة تقسيم الهند واستقلال المسلمين السياسى ، وقد تحدثنا من قبل عن اتجاه إقبال ووضحنا أنه كان انقلابا فى تفكير المسلمين بالهند •

سنة ١٩٣٢ : ظهرت كلمة « باكستان » لأول مرة على لسان أحد الزعماء المسلمين واسمه (شوردى رحمة) وفى نفس العام قام مسلمو كشمير بنضال باسل ضد المظالم التى كان يلحقها بهم المهراجا غير المسلم الذى كان حاكما لبلادهم •

سنة ١٩٣٤ : عاد محمد على جناح الذى كان يقيم بلندن للدعاية للقضية الإسلامية وتولى بحزم قيادة حزب الرابطة الإسلامية بالهند •

سنة ١٩٣٥ : أصدر البرلمان البريطانى قانون حكومة الهند ، ثم أجريت الانتخابات بناء على هذا القانون سنة ١٩٣٧ ، ونال حزب المؤتمر أغلبية كبيرة فى هذه الانتخابات ، وألف حكومات فى طول البلاد وعرضها ، ولم تشترك فيها الرابطة الإسلامية ، فباشرت هذه الحكومات وسائل مختلفة لتضييق الخناق اقتصاديا على المسلمين والعمل على محو تراثهم الثقافى •

وقد دفع هذا الاتجاه إلى التمسك بتقسيم الهند وقيام دولة باكستان ، وقد اتضح هذا من رسائل إقبال التى بعث بها فى هذه الفترة (١٩٣٦ — ١٩٣٧) إلى محمد على جناح بضرورة تأسيس دولة إسلامية بالهند ، كما اتضح ذلك فى الاجتماع الذى عقده حزب الرابطة الإسلامية سنة ١٩٣٧ برئاسة محمد على جناح ، وقد أوضح هذا القائد فى الاجتماع أن الاستقلال التام هو الهدف الحقيقى والأخير وحول هذا الموضوع وحّد الطلبة المسلمون صفوفهم حول القائد ، وأطلقوا عليه القائد الأعظم وعاهدوه على التأييد الكامل لنجاح هذه الفكرة •

سنة ١٩٤٠ : عقدت الرابطة الإسلامية دورتها السنوية بـلاهور وفيها اتخذت القرار الذي عرف بقرار باكستان وتضمن وجوب تقسيم شبه القارة وتأسيس دولة إسلامية مستقلة ذات سيادة

وأحس محمد على جناح بأن بعض القوى الإسلامية العالمية تتجه لوحدة الهند اتباعا لسياسة الوحدة وعدم التفرق ، وسعيا للتجميع لا للتقسيم ، ولهذا قام محمد على جناح بزيارات لبعض البلاد التي لها ثقل في المجتمع العالمي ليشرح لزعمائها وجهة نظر الرابطة الإسلامية ومن أهم الزيارات التي قام بها زيارته لمصر والتقاؤه بالزعيم المصري مصطفى النحاس حيث شرح له أوجه الخلاف الخطيرة بين الهندوس والمسلمين ، تلك التي تحتم قيام دولة إسلامية بشبه القارة الهندية ، وقد نجحت هذه اللقاءات ، وحصل القائد الأعظم على ما كان يطمح فيه من تأييد المسلمين •

سنة ١٩٤٢ : أصبح الانجليز مهددين في الشرق الأقصى بانتفاضة اليابان ، وارتفع صوت الهنود مطالبين الانجليز بمغادرة البلاد فوراً • وكردهم فعل لعنف هذه الحركة اعتُقل عدد من زعماء الهند وأودعوا السجون •

سنة ١٩٤٤ : أطلق سراح المعتقلين ، وعقدت اجتماعات بين غاندى والقائد الأعظم ، وفي هذه الاجتماعات صرح أحد زعماء الهندوس المنتمين لحزب المؤتمر بأنه يرى منح المسلمين حقهم في تقرير مصيرهم ، وهكذا تسرب هذا الاتجاه إلى الهندوس أنفسهم بل إن غاندى زعيم الهند أعلن أن مسلمي الهند لو اتفقوا على تنفيذ مشروع التقسيم ، فلن توجد على هذه الأرض قوة تحول بينهم وبين ذلك •

سنة ١٩٤٥ : بعد انتهاء الحرب واتجاه بريطانيا إلى الحد من نشاطها الاستعماري أو القضاء عليه أرسلت تطلب من لورد ويفل نائب الملك بالهند أن يتدبر الأمر مع الهندوس والمسلمين ، وفي هذا الاجتماع تمسك الهندوس بالوحدة وتمسك المسلمون بالتقسيم ففشل المؤتمر ولكن انتخابات جرت عقب ذلك أيدت وجهة نظر المسلمين ، فقد أجمع المسلمون تقريبا على ضرورة التقسيم مؤكدين أن مائة وخمسين مليوناً لا يمكن أن يعدوا أقلية تُفرض عليهم اتجاهات الأغلبية الهندوسية .

أبريل

سنة ١٩٤٦ : اجتمع أعضاء المجالس التشريعية والمركزية والإقليمية التابعون لحزب الرابطة الإسلامية مع أعضاء اللجنة التنفيذية المركزية للرابطة الإسلامية لعموم الهند بدلهي ، واتخذوا قرار عززوا فيه القرار الصادر سنة ١٩٤٠ الخاص بوجوب تأسيس باكستان ، كما طالبوا الحكومة البريطانية بإصدار إعلان صريح عن قيام هذه الدولة .

أغسطس

سنة ١٩٤٦ : خرج المسلمون في شتى أنحاء شبه القارة في مظاهرات صاخبة ، وتنازل زعمائهم عن الألقاب والنياشين التي كان البريطانيون قد منحوها لهم وذلك دليلاً على احتجاجهم على بريطانيا واتهامهم لها بالتحيز مع الهندوس ضدهم .

مطلع

عام ١٩٤٧ : بدأت الرابطة الإسلامية حملة من العصيان المدني اشترك فيها الشباب والشيوخ والرجال والنساء .

مارس

عام ١٩٤٧ : أسفرت الاتجاهات السياسية والاجتماعية ومعها الإصرار

والعصيان ، عن الحقيقة التي أرادها مسلمو الهند ، فقد أرسلت حكومة بريطانيا لورد مونتباتن إلى الهند نائباً عن الملك حيث أعلن قرار الحكومة البريطانية الجلاء عن شبه القارة نهائياً قبل يوم ١٥ أغسطس ١٩٤٧ وتقسيمها إلى دولتين هما هندستان وباكستان •

أغسطس

عام ١٩٤٧ : زال الاحتلال البريطاني عن الهند ، وقامت دولة باكستان حرة مستقلة وعين محمد علي جناح حاكماً عاماً لباكستان حسب ما أوصت به الرابطة الإسلامية ، كما عين لورد مونتباتن حاكماً عاماً للهند بناء على توصية حزب المؤتمر •

وبدأت بذلك باكستان الدولة المسلمة الكبرى بعلمها الخفاق بين أعلام العالم الإسلامي ، وسنخصصها بحديث فيما يلي :

باكستان

تعريف بدولة الباكستان

اسم باكستان :

كان اسم « باكستان » جديدا ولهذا اتجه الناس للسؤال عن طريقة اختيار هذا الاسم وعن معناه أو عن مدلوله ، ويقال أن هذه الكلمة من اختيار المبعوثين المسلمين من شبه القارة الهندية الذين كانوا يدرسون بجامعة كمبردج بإنجلترا ، وقد صاغه الطلاب من كلمتين « باك » ومعناها طهر « وستان » ومعناها أرض أو دولة فالمعنى الكلى « أرض الطهر » أو « أرض الأطهار » أو « دولة الأطهار » .

ويقال كذلك إن حروف « باكستان » تشير إلى المناطق التي تكونت منها هذه الدولة كالاتى :

ب البنجاب

ا باثان على الحدود الشمالية الغربية .

ك كشمير

س السند

تان بلوختان

ويتضح من هذا أن خيال الطلاب لم يصل إلى أن البنغال ستكون جزءا من الدولة الإسلامية ، وهذا يلاحظ كذلك من التحديد الذي سبق أن ذكره الشاعر محمد إقبال .

تعريف بالدولة الجديدة :

عند قيام باكستان كانت تتكون من قسمين : باكستان الشرقية ومساحتها ٥٤٥٠٠ ميلا مربعا ، وباكستان الغربية ومساحتها ٣١٠٣٣٦

ميلا مربعا ، وهذا التقسيم كان يحمل في طياته بذور الاضطراب
للاسباب الآتية :

١ — المسافة بين القسمين حوالى ألف ميل فى أرض معادية هى
الهند •

٢ — كانت باكستان الشرقية غربية على باكستان الغربية من ناحية
عنصر السكان ومن ناحية اللغة ومن ناحية الطبيعة الجغرافية ولم يكن
يربط بينها إلا الدين •

٣ — وأخطر الأسباب أن الهند كانت تعزل باكستان الشرقية وتحيط
بها من الشمال ومن الغرب ومن الشرق حيث مقاطعة « أسا » ، وإذا
نظرت إلى الخريطة تجد أن الهند توشك أن تبتلع باكستان الشرقية ،
وقد تركتها الهند لتنضم لباكستان وهى واثقة أنها غريسة فى يدها ، وهذا
يظهر إذا قارنًا هذه المنطقة بكشمير التى رفضت الهند بإصرار ضمها
لباكستان الغربية فهى جارة لباكستان وانضمامها لها سيكون قوة
للمنطقتين ، وسيكون أبديا •

وسنعود فيما بعد إلى هذه الأسباب التى أثرت على مستقبل الدولة
الناشئة وقضت بأن تنقسم فيما بعد الى دولتين مستقلتين •

بقى أن نوضح شيئا من الفروق الطبيعية بين قسمى الباكستان :

فالباكستان الشرقية سهول عريضة وجداول وأنهار وغيث مدرار ،
وبالتالى خضرة وازدهار وتبعًا لذلك هدوء ولين عريكه وميل للمرح •

أما باكستان الغربية فيها الصحراء الوعرة كثيرا ، وبها الجفاف
ومن هنا تولد الصراع وقوة البأس للتغلب على الطبيعة •

وعند الحديث عن الجفاف فى الباكستان الغربية يجب ألا نغفل
مواطن السحر بها فى لاهور وفى هونزا ، وقد وُصِفَت هونزا بأنها جنة

وارفة الظلال ، أرض السلام والبساطة والهدوء ، والأمن والحب والتعاون ، وقد لخص أحد الرحالة الحياة في هونزا بقوله : لقد استطاع شعب هونزا أن يتقن الهندسة بدون حساب ، والأخلاق بدون وعظ ، وصحة البدن بدون أطباء وعندما كان علىّ أنا وزوجتي أن نغادرها تساءلنا : هل نحن عائدون إلى المدنية ؟ أو أننا سنترك المدنية إلى حياة الصراع ؟

• وتقع هونزا على حدود كل من الصين والأفغان (١) .

مناطق السحر في باكستان الغربية :

لقد اقتبست آتفا كلمات أحد الرحالة عن هونزا ، والحق أنني لست في حاجة للاقتباس من أحد حول هذا الموضوع فإن لى تجربة خاصة عشتها في باكستان الغربية ، أقصها فيما يلي :

دعيت لحضور مؤتمر عن التربية الإسلامية في باكستان في ربيع ١٩٨٠ وكان المؤتمر منعقدا في العاصمة الجديدة « إسلام آباد » وقد نعمنا بالاستقبال الحافل والرعاية الكريمة من الإخوة في باكستان ، وكان ضمن برنامج المؤتمر القيام ببعض الزيارات للأماكن الجبلية أملا في راحة الأعضاء الذين كانت جلساتهم للعمل تشمل طيلة النهار تقريبا وجزءا من الليل ، وفي هذه الزيارات رأينا أماكن مختلفة ذات جمال آخاذ فيها أجمل هواء وأعبق زهور وأرقى مناظر ، ويعجز قلم أى شاعر أن يصف ما بهذه الأمكنة من فتنة للناظرين وسحر للزائرين ، أنها في الحق جنة من جنات الدنيا •

ثم أتيح لى شيء جديد كنت وحدى الذى نعمت به من بين أعضاء

(١) حسين جوهر ومحمد موسى أبو الليل : باكستان ص ٦ — ٧ .

المؤتمر ، فقبيل نهاية المؤتمر سلمنا تذاكر السفر وجوازات السفر إلى مكتب التيسيرات ليحجز لنا أماكن للعودة ، كل إلى بلده ، ولكن سرعان ما جاءنى مندوب من هذا المكتب فى صحبته موظف كبير من وزارة التربية يعرض على رغبة الجامعات فى لاهور وببشاور وكراتشى أن أزورها قبل العودة إلى مصر ، واستجبت مرحبا بالفكرة وشاكرا هذه الدعوة الكريمة ، وأعدت لى رحلة إلى هذه المدن وإلى مدن تاريخية أخرى وإلى مناطق جبلية • ولقد نعمت فى هذه الرحلة بصور الود والترحاب فى الجامعات الباكستانية ، وبصور العظمة والجلال فى المناطق التاريخية ، ثم بصور الجمال الساحر فى لاهور وكراتشى والمناطق الجبلية المختلفة التى أتيت لى أن أزورها •

وإننى هنا ألسجل مزيداً من التقدير لهذه الفرصة الجميلة التى لم أستطع أن أطيلها بسبب ضرورة الإسراع بالعودة بمصر إذ كان العام الدراسى بجامعة القاهرة على وشك الانتهاء ، وكان لابد أن ألتقى بطلابى قبل انتهاء ذلك العام •

تحية وإعجابا بالإنسان الباكستانى وبالطبيعة الجميلة فى كثير من ربوع الباكستان •

أقاليم باكستان :

كانت باكستان الغربية تتألف من الأقاليم التالية :

١ — ولاية بلوختان وهى فى الجنوب الغربى لباكستان وأكبر الولايات مساحة •

٢ — ولاية السند وتقع إلى الشرق من بلوختان وعاصمتها حيدر أباد (ويلاحظ أن هناك إمارة اسمها « حيدر أباد الدكن » وهى وسط المنطقة الجنوبية بالهند) وفى السند تقع كراتشى العاصمة الأولى لباكستان •

٣ — ولاية البنجاب وعاصمتها لاهور التي تسمى باريس الشرق
وهي أجمل مدن باكستان •

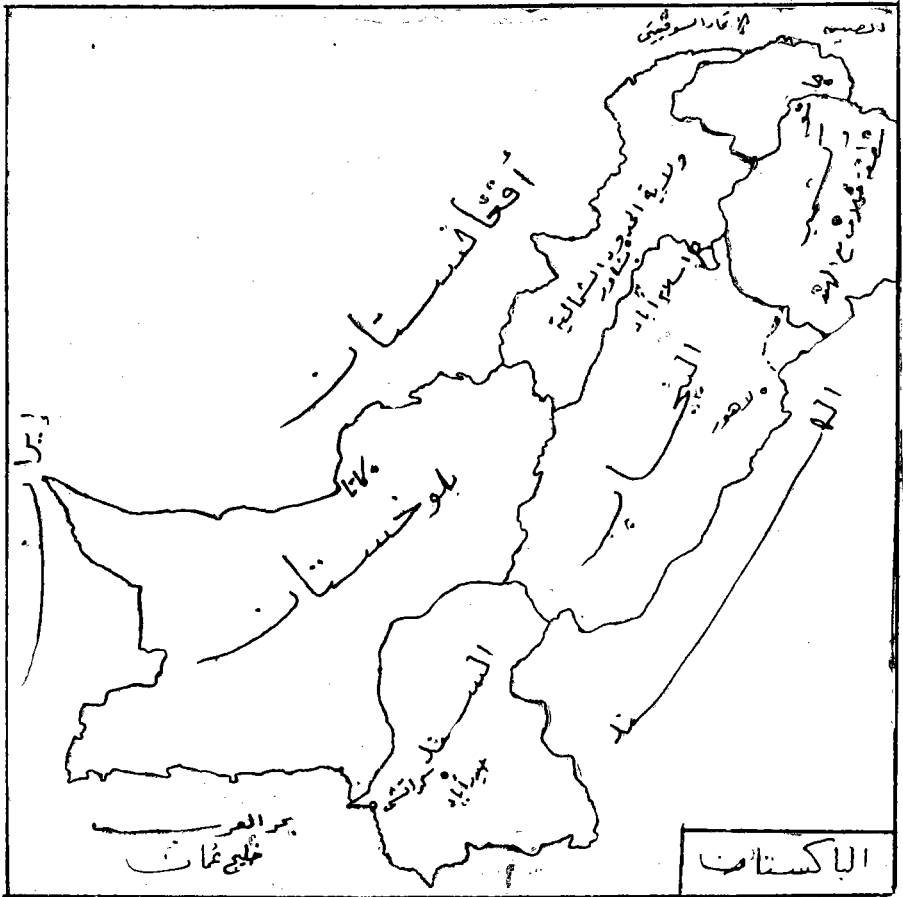
٤ — ولاية الحدود الشمالية وعاصمتها بشاور •

أما باكستان الشرقية فتتألف من الأقاليم التالية :

١ — دكا وبها عاصمة باكستان الشرقية •

٢ — شيتا جونج وعاصمة المنطقة تحمل نفس الاسم •

٣ — راجشاهي •



الباكستان بعد انفصال بنجالاديش

(م ٢٣ — الموسوعة التاريخية)

وأهم المدن الباكستانية هي :

- كراتشي العاصمة الأولى •
- عواصم الأقاليم التي تكلمنا عنها وهي بشاور وحيدر آباد ولاهور ودكا •
- روالبندي وهي التي اختيرت منطقتها لتقام بها العاصمة الدائمة التي سميت إسلام آباد •
- بيشاور ولها أهمية عسكرية كبيرة •
- شيتا جونج وهي ثانية الموانئ في باكستان ويصدر منها الجوت والشاي وهي في باكستان الشرقية •

من مشكلات التقسيم

على الرغم من أن التقسيم حل المشكلة الرئيسية وهي ترك أكثر من مائة وخمسين مليوناً من المسلمين في بحيرة زاهرة بأعدائهم الهندوس الذين استباحوا دماءهم وأموالهم ٠٠٠٠ على الرغم من ذلك فإن التقسيم خلق مشكلات جديدة وصعوبات جمة ، سنحاول أن نتناولها بإيجاز فيما يلي :

١ — العاصمة والموانئ :

قضى التقسيم الذي بُنى أساساً على وجود الأكثرية في كل منطقة أن تكون دلهي من نصيب الهندوس وكذلك أن يكون المرفآن الرئيسيان في الهند وهما كلكتا في الشرق وبمباي في الغرب من نصيب الهندوس ، والعاصمة بطبيعة الحال هي مركز البلاد ، بها الأبنية اللازمة للوزارات والمصالح وبها أموال الدولة وجوانب نشاطها ، وفي الموانئ توجد البواخر والتخزين والثراء ، وهكذا أصبحت باكستان دولة ولكنها لا تملك عناصر الحياة ، ولولا استعداد الباكستانيين للتضحية لانهارت

الدولة الجديدة ويعلق أحد الباحثين على ذلك بقوله : أخذت الهند معظم موارد الثروة والمصانع ، وكان من نصيبها العاصمة ، وما فيها من الدور الحكومية ، أما باكستان فلم تكن لها دور للحكومة أو مراكز للصناعة كما لم يكن لها رصيد يذكر من المال (١) .

٢ - الاقتصاد :

منى اقتصاد الباكستان عقب التقسيم بكثير من الخسائر ، فالمصانع كانت في جانب ومراكز انتاج المواد الخام كانت في جانب آخر وقد امتنعت الهند عن شراء القطن من باكستان ، وبالتالي امتنعت الباكستان عن بيع الجوت للهند ، وامتنعت الهند عن بيع القمح لباكستان ، وهكذا مرت فترة ليست قصيرة حتى استعادت باكستان أنفاسها وأحست بالاستقرار الاقتصادي .

ويدخل في هذا النطاق أن الإنجليز منذ سقوط الإمبراطورية المغولية عمدوا إلى مقاومة المسلمين وإنعاش الهنادكة ، فقد كان الإسلام يقلق مضاجعهم ، ومما فعلوه اقتصاديا بالهند أنهم قبل التقسيم ركزوا الصناعات والمدارس والجامعات وعمليات انشاء الطرق والسكك الحديدية في المناطق التي يقل فيها المسلمون وأهملوا المناطق التي بها اكثرية مسلمة مثل السند والبنجاب وبلوختان والبنغال الشرقية (٢) .

٣ - الجيش والأسطول :

كان على باكستان أن تسرع فتكوّن جيشا لحمايتها من أعدائها بالهند ، وكان تكوين جيش عملا صعبا لحاجته إلى ذخيرة وأسلحة كان أكثرها في مناطق هندية ، ومثل هذا يقال عن الأسطول ، ولكن عزيمة باكستان هزمت كل هذه الاحتياجات وتكون جيش عظيم في سرعة مذهلة .

(١) حسن جوهر ومحمد مرسى ابو الليث : باكستان ص ٦٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٠ .

٤ — الهجرات من وإلى باكستان :

كان المسلمون يعيشون في جميع بقاع شبه القارة تقريبا ، وكانوا بطبيعة الحال يتفاوتون كثافة من مكان إلى آخر ، وقد اقتضت القاعدة العامة التي وضعت للتقسيم أن تلاحظ الأكثرية من جانب ورغبة السكان من جانب آخر ، ولكن ظهرت عقبات رئيسية ، فمثلا قسمت البنغال إلى بنغال شرقية تبعت باكستان ، وبنغال غربية تبعت الهند ، ومثل ذلك يقال عن البنجاب فالبنجاب الغربية تبعت باكستان والبنجاب الشرقية تبعت الهند .

وكانت العاصمة « دلهي » تزخر بعدد هائل من المسلمين والهندوس ، وفيها بوجه خاص أثرياء التجار المسلمين وأثرياء الملاك .

ولما أعلن التقسيم قامت مجازر رهيبة في هذه المناطق لعب الهندوس فيها الدور الأكبر ، فهم أكثرية من جانب ، ومسلحون من جانب آخر ، وهناك جانب ثالث هو الفكر الإسلامي الذي كان يمنع كثيرين من عقلاء المسلمين أن يعتدوا على الأبرياء أو يحرقوا المنازل والمتاع .

وبعد جهد جهيد تمت هجرات بين الجانبين ، ولكنها تمت في ظروف أليمة . وأضافت على قادة الباكستان أعباء جديدة ينوء بها الأبطال ، ولن نكثر من الحديث عنها فأكثرها شائع بين الناس ، كسيوع ما لاقاه المسلمون من عسف الهندوس والإنجليز والسيخ قبل التقسيم .

الأقلية الإسلامية بالهند ومشكلاتها

لم يكن من الممكن أن يرحل لباكستان كل المسلمين في الهند ، ففي بعض نواحي الهند كانت تعيش جماعات إسلامية ، حريصة على البقاء في أماكنها ، وكان بهم من الجاه والسلطان ما يستطيعون به حماية أنفسهم بشكل أو آخر ، وهكذا بقى في الهند عدة ملايين (حوالى ثمانين مليوناً) من المسلمين أو يزيد ، وعندما كنت استأذا بجامعات أندونيسيا كان معنا زميل من الهند يعلم التاريخ الإسلامى فى الجامعة ، وقد حدث أن حضر للجامعة سفير الباكستان فى أندونيسيا وألقى خطاباً فى حفل أعد لذلك ، وأذكر أن الاستاذ المسلم الهندى اعترض بحماسة على كثير من النقاط التى أثارها السفير ورفض أى انتقاد لسياسة الهند تجاه مسلمى باكستان .

هل كان هذا الاستاذ يتحدث عن عقيدة وإيمان فى دفاعه عن الهند ولومه لباكستان ؟ أو كان يدارى ما يخافه من غضب حكومة الهند التى بعثته لهذه الوظيفة ؟ لست أدرى .

ويتجمع المسلمون فى الهند غالباً فى المنطقة التى كان بها إمارة حيدر إباد الدكن ويكثرون فى ولاية « اترابراديش » ففيها ١٤ مليوناً من المسلمين ويكثرون كذلك فى البنغال الغربية وفى البنجاب الشرقية ، وفى ميسور وكجرات ، ومسلمو الهند متدينون لهم نشاطهم السياسى والثقافى ، ولهم مؤسساتهم الدينية والتعليمية الكثيرة وتعتبر المؤسسات الإسلامية بالهند نشطة كثيرة الحيوية ، وتحتل الجماعات الإسلامية مكانة اجتماعية رفيعة بين جماعات الهندوس والبوذيين . (١)

وقد وصل بعض المسلمين فى الهند إلى أرقى المناصب فكان منهم

(١) دكتور عادل طه : المسلمون فى العالم ص ٦٦ — ٦٧ .

رئيس جمهورية الهند الدكتور ذاكر حسين ، وهو الذى أنشأ الجامعة
الملية الإسلامية فى دلهى ، ومنهم كذلك مولانا أبو الكلام آزاد الذى كان
فى الهند زعيما للمسلمين والهندوس ، والذى له جهد كبير فى تحرير الهند
من الاستعمار الإنجليزى ، وكان رئيس حزب المؤتمر أطول مدة حتى
استقلال الهند ثم تولى وزارة التعليم فى جمهورية الهند إلى أن توفى
سنة ١٩٥٨ وله تفسير للقرآن الكريم اسمه « ترجمان القرآن » وكان
من مريديه المرحوم الأستاذ أبو الأعلى المودودى رئيس حزب الجماعة
الإسلامية فى باكستان (١) .

وهناك كلمة جديرة بالذكر تنسب لمولانا « أبو الكلام آزاد » فقد
حدث أن اعترض بعض أعضاء البرلمان الهندى على مساعدات وزارة
التعليم الهندية للمؤسسات التربوية الإسلامية بالهند ، فقال أبو الكلام
فى رده على هؤلاء : إن هذه العقول الصغيرة هى التى كانت سببا فى
تقسيم الهند (٢) .

ولكن المسلمين بالهند لهم مشكلات صعبة يعانون منها ويحاولون
التغلب عليها بصبر وثبات ، وبقيادات رشيدة مترنة وأخطر هذه
المشكلات — كما يقول العلامة أبو الحسن على الندوى — مشكلة
الدعوة الإسلامية ، فقد سارت الدعوة الإسلامية فى الهند بنجاح كبير حتى
دخل الملايين من الهندود فى الإسلام ، بالإضافة إلى النازحين إلى الهند
من العرب والفرس وتركستان ، وبعض الهندود الذين دخلوا الإسلام ينتمون
إلى أسر هندوكية عريقة مثل مولانا عبيد الله السندى والعلامة
محمد إقبال ، ومولانا معين الدين الأجميرى وغيرهم كثيرون ، وينتمى
العلامة محمد إقبال إلى طائفة البراهمة الذين ينتمى لهم كذلك البلنديت
جواهر لال نهرو .

(١) الدكتور محمد اسماعيل الندوى : نظرات جديدة فى شعر
إقبال ص ٩٨ .
(٢) أبو الحسن الندوى : المسلمون فى الهند ص ١٨٨ .

وكانت تعاليم الإسلام من وحدانية ومساواة ومكانة المرأة من الأسباب التي حملت الإسلام إلى قلوب الكثيرين فلما نشب الخلاف بين المسلمين والهندوس في عهد الاستعمار ساءت العلاقة بين الجماعتين ، وزادت العلاقة سوءا عندما سقط ضحايا من هنا ومن هناك مما أثر على مسيرة الدعوة الإسلامية •

وقامت دولة الباكستان الإسلامية ولكن قيامها كان حاجزا كبيرا في سبيل انتشار الإسلام بالهند ، لأنه دين الدولة المنافسة ودين شعب قامت بينه وبين الشعب الهندي معارك سياسية وحروب طائفية •

ثم إن الباكستان لم تتمثل للأسف الإسلام كما ينبغي ، فقد قامت بها ديكتاتوريات سنتحدث عنها بعد قليل وهذه الديكتاتوريات بعيدة جداً عن نظام الحكم في الإسلام وقام صراع بين جزأى باكستان في الشرق والغرب انتهى باستقلال بنجالاديش وهذا يضعف عزيمة الداعية المسلم لأن الواقع كثيرا ما يكون مخالفا للنظرية مما يحدث ارتباكاً في الأذهان (١) •

وإذا كانت هذه المشكلات تقف عقبات في سبيل الدعوة للإسلام في الهند ، فهناك مشكلة كانت تهدد حياة المسلمين في الهند فترة طويلة ، تلك هي مشكلة المناهج الدراسية بالهند فقد عنيت هذه المناهج بالعتيدة الهندوكية وأساطيرها ومقدساتها ، وأبطالها ، وكانت تقدم هذه الدراسات لكل التلاميذ مما يمثل خطورة على الأطفال المسلمين الذين يحرمون من الفكر الإسلامي ومن سيرة أبطال المسلمين العرب والهنود ، وفي هذا خسارة كبيرة على التلاميذ المسلمين بوجه خاص وعلى الهنود بوجه عام ، « وقد بدأ الصغار السذج من أبناء المسلمين يتظاهرون بالشعائر البراهمية ويدينون ببعض عقائدها (١) » •

وعلى كل حال فقد صارح المسلمون في قضية المناهج صراعاً طويلاً حقق لهم بعض أهدافهم •

(١) العلامة أبو الحسن علي الندوي : المسلمون في الهند ص ١٩٩ •

وهناك مشكلة أخرى مماثلة عانى منها المسلمون في الهند تلك هي مشكلة اللغة ، فاللغة الإسلامية في الهند هي « اللغة الأوردية » وهي وليدة امتزاج اللغات الأربع القديمة : السنسكريتية والعربية والفارسية والتركية ، وقد صارت لغة الجماهير والثقافة والأدب والعلوم ، وهي اللغة الوحيدة التي يفهمها أكثر أهل الهند ، وكانت اللغة الثانية بعد الإنجليزية في عهد الاستعمار ، ولكن الاستعمار جعل من محاولاته لإثارة الخلافات بين سكان شبه القارة الهندية أن يعمل على إحياء اللغة الهندية ، وبذل الجهد حتى برزت هذه اللغة للواقع ، فلما جاء عهد الاستقلال اتجهت الهند للاهتمام باللغة الهندية وأغضت الطرف عن اللغة الأوردية وهي بهذا تضع حاجزا صلبا بين الأولاد المسلمين وبين المراجع العلمية الإسلامية المكتوبة باللغة الأوردية بل تفرق بين الأولاد وذويهم ، وقد بذلت جهود كثيرة لتعود اللغة الأوردية مكانتها لدى مسلمي الهند ولدى الراغبين في تعلمها ، ولكن نتائج هذه الجهود لم تحقق كل الأمانى •

ومن المشكلات التي يعانيها المسلمون في الهند أنهم لا يأخذون حقهم في الوظائف العامة ، فقد بدأت أعدادهم تقل بوضوح في الجيش والشرطة والوظائف الرئيسية •

على أن قوة المسلمين بالهند قوة هائلة ليس من السهل أن تنهار أو تستسلم ، وكفاح المسلمين لا بد يوما أن يكلل بنجاح لأنه كفاح لخدمة الدين والوطن ، ولأن القيادات الدينية والاجتماعية والسياسية بين مسلمي الهند قيادات رشيدة ، تسعى لأهدافها بخطط حصيفة وخطا ثابتة •

على أن هناك مشكلة بدأت تظهر بالهند في الثمانينات وهي إقبال المنبوذين بالهند على اعتناق الإسلام والمنبوذون بالهند حوالى مائة مليون ، وكان دستور الهند بعد الاستقلال قد منحهم حق المساواة مع الطبقات الأخرى لأن الدستور ألغى الطبقات ولكن من الناحية الواقعية لا يزال

المنبوذون يعانون من الفقر والجهل والحرمان من الوظائف المناسبة ولهذا
فهم يتجهون للإسلام اتجاها قويا يهدد حكومة الهند .

وهناك مشكلة هندية إسلامية وهي مشكلة أسام في الشمال الشرقي
على حدود بنجالاديش وإليها هاجر عدد كبير من مسلمي البنغال إبان
الصراع على الاستقلال بين الباكستان الشرقية والغربية ، وهي من الأمكنة
التي وضعت الباكستان الشرقية بين غكى الأسد ، مما تسبب في نجاح
انفصال بنجالاديش .

مشكلة كشمير

إذا كانت باكستان قد استطاعت مع الصبر والجهد من جانب ، ومع الزمن من جانب آخر أن تحل مشكلاتها التي نجمت عن التقسيم ، فإن هناك مشكلة لم تصل بعد الى حل حتى كتابة هذه السطور ، وهي مشكلة كشمير أو مشكلة جمشو وكشمير •

والحديث عن هذه المنطقة يسترعى أن نذكر أن الاستعمار الإنجليزي قسم الهند إلى مئات الولايات ، ووضع رئيسا لكل ولاية ، وأثار المنافسة والصراع بين كل ولاية وأخرى تبعا للخطوة الاستعمارية « فرق تسد » وكان من أعماله أحيانا أن يضع للولاية التي يكثر بها المسلمون واليا هندوسيا ، وللولاية التي يغلب فيها الهندوس واليا مسلما •

وعندما وضعت القواعد للتقسيم كان من أهمها أن الولايات لها الحق في اتباع الهند أو باكستان حسب رغبة شعبيها ، وأغلبية الهندوس أو المسلمين بها وموقعها الجغرافي ، ولها كذلك أن تبقى مستقلة ، وعند تطبيق هذه القاعدة برزت صعوبات شديدة في أماكن متعددة وبخاصة في حيدر إباد الدكن من جانب وجمشو وكشمير من جانب آخر وسنتحدث عن كل من هذين فيما يلي :

حيدر اباد :

تقع مقاطعة حيدر اباد في هضبة الدكن في أواسط النصف الجنوبي من شبه القارة الهندية ويبلغ سكانها ١٧ مليونا منهم مليونان من المسلمين وحاكمها هو « الأمير عثمان علي خالد » • المعروف باسم نظام حيدر إباد ، وكان من أغنى أغنياء العالم وقد اختار الوالى أن تبقى بلاده مستقلة ، ولكن الهند غضبت لهذه الرغبة ، وانتهزت فرصة وفاة

محمد على جناح وانشغال الباكستان بهذا الحدث الجلل ، واقتحمت حيدر إباد بجيشها وقد قاوم جيش حيدر اباد بضعة أيام ، ولكنه استسلم في النهاية وحملت الهند ثروة الزعيم في خمس قطارات أثقلها الذهب والفضة التي وجدت بقصوره والتي وجدت في أقبية خاصة ومعها صناديق حافلة بالؤلؤ والجوهر .

جمو وكشمير :

جمو وكشمير لهما بالنسبة للمسلمين نفس الظروف التي كانت لحيدر إباد ، فالمنطقة ملتصقة بالباكستان الغربية وتقع على قمة جبال الهملايا ، وتنحدر من كشمير المياه التي تغذى أنهار البنجاب والسند ، وسكان كشمير حوالى خمسة ملايين يمثل المسلمون منهم أكثر من ثمانين في المائة ، وكما عين الإنجليز حاكما مسلما على مقاطعة حيدر إباد ، التي كانت أغلبية السكان فيها من الهندوس فانهم عينوا حاكما هندوسيا على كشمير التي كانت الغالبية الساحقة فيها من المسلمين .

وفرح مسلمو كشمير بقضية التقسيم واتجهوا بكل قواهم للانضمام إلى الباكستان ، فهي الدولة الأم بالنسبة لهم ، والانضمام لها يحقق تخلصها من عسف الوالى الهندوسى الذى استبد بهم وأنزل بهم هو وأسلافه ألوانا من الاضطهاد .

ولم يكن الوالى يريد الانضمام للباكستان ، ولهذا أخذ يستقطب جماعات من الهندوس والشيخ من البنجاب الهندية إلى مقاطعته ليقوى بهم ضد المسلمين ، وازاء ذلك بدأ المسلمون يتذمرون على المهرجا الوالى ، وحدث صراع دام بين المهرجا ومساعديه وبين المسلمين ، وفى أعقاب ذلك فر المهرجا من كشمير ثم أعلن أنه يريد الانضمام إلى الهند ويطلب منها العون .

ولم تقبل الهند أن تعامل كشمير كما عومت حيدر إباد ، بل اندفعت

الهند بقواتها تجاه كشمير ، واضطرت الباكستان أن ترحف هي أيضا لمساعدة المسلمين وحمائيتهم وتحقيق آمالهم في الانضمام إليها ، واحتلت الهند الجزء الأكبر من كشمير ، واحتلت الباكستان جزءا منها ، ولا يزال الجيشان يقف كل منهما في وجه الآخر أما صوت شعب كشمير ، فان الهند لم تعره أى التفات وعاصمة كشمير مدينة « سرينجار » وهي مدينة ساحرة حبتها الطبيعة أروع ما تقدمه لعاصمة من العواصم •

أسد كشمير ونهايته :

وفي سبتمبر سنة ١٩٨٢ توفى الشيخ محمد عبد الله رئيس وزراء كشمير الذى كان يطلق عليه « أسد كشمير » وكان هذا الرجل يعتبر صمام أمن في المنطقة ، فقد كان زعيما روحيا وسياسيا لكشمير ، وقد استطاع أن يضمن لكشمير نوعا من الهدوء بين الدولتين المتصارعتين بشأنها ، ويخشى أن تؤدي وفاته إلى أن تحاول الهند دعم قبضتها على كشمير مما يؤدي إلى انفجار الصراع من جديد بين الهند والباكستان •

باكستان والنظام الإسلامى

انخلعت باكستان من الهند باسم الإسلام ، ومن ثم فقد كان اتجاهها إسلاميا فى جميع الوجوه بحكم هذه النشأة ، ولكن النظرية كثيرا ما اضطرب تطبيقها ، وسنسير مع باكستان فى مسيرتها الإسلامية وبخاصة من الناحية السياسية التى هى من أبرز العوامل فى الحياة ، والتى تؤثر فى مختلف وجوه الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية •

وقبل أن تضع باكستان دستورها أعلن مجموعة من العلماء والقادة ملامح الحياة كما يرونها وكما يجب أن تكون ، وكان ذلك فى وثيقة أذاعوها على الناس ، وخلاصتها :

- ١ — السلطة المطلقة على الطبيعة وعلى القوانين لله تعالى •
 - ٢ — قوانين البلاد يجب أن تبنى على القرآن والسنة ، وأن يحذف من القوانين المعمول بها ما يناقض القرآن والسنة •
 - ٣ — الدولة الإسلامية لا تبنى على الاعتبارات الجغرافية أو الجنسية أو اللغوية ولكن على المبادئ والغايات الإسلامية •
 - ٤ — رئيس الدولة يجب أن يكون رجلا مسلما يثق الشعب وممثلوه فى تقواه وقدرته •
 - ٥ — حكم رئيس الدولة لا يكون استبداداً بل شورى •
 - ٦ — لا يجوز لرئيس الدولة أن يوقف العمل بالدستور أو إحدى مواده •
 - ٧ — الهيئة التى تختار رئيس الدولة يجوز لها أن تخلعه (١) •
- وبناء على هذه القواعد التى تنقضى بأن يطبق الإسلام ديننا ودولة

صدرت القوانين بإبعاد كافة التشريعات التي ليس مصدرها الإسلام ،
فسبقت باكستان بذلك كثيرا من الدول الإسلامية التي مازالت تحكم بكثير
من القوانين الوضعية أو المستوردة •

وقد استطاعت باكستان أن تتغلب على مصاعبها السياسية
والاقتصادية وكونت جمعية تأسيسية لوضع الدستور الدائم ، وقد
أعلنت هذه الجمعية توحيد باكستان الغربية بدلا من انقسامها إلى عدد
من المقاطعات •

وفي سنة ١٩٥٦ أعلن الدستور الأول للباكستان الذى أوضح أن
الباكستان جمهورية إسلامية ، وأن الدولة الديمقراطية يزاوئ السلطات
فيها ممثلون يختارهم الشعب ، وتتجه الدولة بكل قوتها إلى توطيد
المبادئ الإسلامية ، وبخاصة العدالة الاجتماعية والمساواة بين الجميع ،
ونص الدستور على مراعاة تعاليم الإسلام كما نص على منح الأقليات
الحرية التامة لمزاولة مهنتهم وعبادتهم وفق تعاليم دينهم ، وأن تكون لهم
الحرية في النهوض بثقافتهم •

وبناء على هذا الدستور قُضى على ما كان متبعا من جعل باكستان
دولة من دول الدومنيون البريطانى لها حاكم عام تعينه بريطانيا ، فقد
أصبح رئيس الباكستان يختاره شعب باكستان وبقيت الباكستان عضوا
في دول الكومنولث •

وللأسف لم يطل عمر الدستور الباكستانى ففى سنة ١٩٥٦ قفز
الجنرال إسكندر ميرزا لمنصب رئيس الجمهورية ، وفى سنة ١٩٥٨ ألغى هذا
الدستور وحل البرلمان ، وفرض الأحكام العرفية ، وعين أيوب خان القائد
الأعلى للقوات المسلحة حاكما عسكريا عاما ، ثم سلك له رئاسة الدولة •

وقد وضع أيوب خان دستورا جديدا أعلن سنة ١٩٦٢ ينص على
إنشاء حكومة رياضية خلافا لما كان عليه دستور ١٩٥٦ •

ومنذ ذلك الوقت بُليتْ باكستان بالانقلابات العسكرية التي
سنتحدث عنها فيما بعد :

وينبغي أن نذكر أن لباكستان مواقف رائعة لخدمة المسلمين في
شتى البقاع ، والتاريخ يذكر وزير خارجيتها في سنيها الأولى ، السيد
ظفر الله خان الذي كان صوته عاليا في الأمم المتحدة وهو يدافع عن
قضية فلسطين ، ويؤيد استقلال ليبيا ، ويدعم جهاد المغرب
ضد الاستعمار الفرنسي ، ويتحمس لإندونيسيا ضد هولندا
وكان من أبرز جهود باكستان في هذا المجال أنها رفضت
منح هولندا تسهيلات النقل البحري والجوى إبان صراعها مع الوطنيين
في إندونيسيا ، وقد أنشئت سفارات باكستان الأولى في المراكز الإسلامية
الكبرى : أي في القاهرة وطهران وبغداد والرياض وكابول .

ولباكستان كذلك اهتمام كبير باللغة العربية لغة القرآن الكريم ،
فقد أصبحت اللغة العربية تدرس بشكل مهم في كثير من معاهدها وكتلياتها
بالإضافة إلى الكليات التي تخصصت في هذه اللغة وفي آدابها .

الانقلابات العسكرية في باكستان

يحبس الباحث المسلم وهو يكتب هذا الموضوع بكثير من الحيرة
والألم ، فلباكستان اقتطعت من الهند باسم الإسلام ، وأعلنت منذ
أيامها الأولى بأنها ستسير في موكب الفكر الإسلامي وتسترشد بهداه ،
وأصدر مفكروها الإعلان بالذي سبق أن أوجزنائه والذي ينص على ضرورة
الشورى وحق الشعب في اختيار رئيسه وحقه في عزله عند الضرورة ،
ثم صدر الدستور الإسلامى وكان ذلك الاتجاه من أهم بنوده ، ولكن
الأمر بعد ذلك سارت في غير هذا الطريق .

لقد قدم الإسلام للمجتمع البشرى نظام الشورى ولم يكن للمجتمع

البشرى علم بهذا النظام من قبل ، كانت الديكتاتورية المطلقة هي الفكر السائد في كل الربوع قبل الإسلام حتى جاء القرآن بالآيات الكريمة « وشاورهم في الأمر (١) » و « أمرهم شورى بينهم (٢) » ، وجاء ما أثر عن الرسول بأنه كان من أكثر الناس مشاورة لأصحابه ، وعرف عنه ما قاله لأبى بكر وعمر : لو اجتمعنا على أمر ما خالفتكما فيه .

وأخذ الشراح المسلمون يؤكدون ضرورة الشورى ، وقد وضعها ابن تيمية في أدق وضع عندما قدر أن العصمة من الخطأ تكون للأمة في مجموعها لا للفرد كائنا من كان ، فإذا أخطأ الإمام كان في الأمة من يرده إلى الصواب ، وإذا أخطأ أحد الرعية رده الإمام أو ممثله ، فالعصمة ثابتة للمجموع بحيث لا يحصل اتفاق على الخطأ (٣) .

وقد تلقى المجتمع البشرى هذا التفكير الإسلامى ، ويوما بعد يوم اتضح لأكثر الناس أنه أصلح الاتجاهات في الحكم ، وانساب هذا التفكير إلى أوربا وكانت الديكتاتورية أسلوب الحياة فيها .

وبينما كان كثير من غير المسلمين يلتقطون هذا التفكير الحكيم ويجعلونه أسلوب الحكم عندهم ، كان المسلمون للأسف يتخلون عنه ، ويعودون لجاهلية الديكتاتورية ، وتثبت الأحداث أن الديكتاتورية تمثل أكبر الخطر على الشعوب بل على الديكتاتور نفسه ولكن اللذة السريعة للديكتاتورية تعمى الأبصار ، فيهب للحكم ديكتاتور إثر ديكتاتور .

وإذا التمسنا العذر للديكتاتورية في مصر التى قبحناها رئيس مثل عبد الناصر ، ومن بعده السادات ، فإننا لا نلتمس عذراً لباكستان التى

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٦ .

(٢) سورة الشورى الآية ٢٨ .

(٣) المنتقى من منهاج الاعتدال ص ١١٠ .

قامت لتأخذ الفكر الإسلامى أساسا لكل تصرفاتها وقد دمرت ديكتاتورية عبد الناصر مصر ، وجلبت لها الفشل فى أمور الداخل والخارج ، وأخيرا قضت على الرجل نفسه ، ولكن السادات لم يفتنوا لذلك وأحب الديكتاتورية وتروير الانتخابات والاستفتاءات ليضمن لنفسه السلطان ، ثم سقط على المنصة ، واكتشف الناس بعده أن الاقتصاد المصرى قد هوى للقاع ، وأن سبب ذلك يرجع إلى السرقات التى باشرها لصوص من أسرته وبخاصة أخوه عصمت وزوجاته الأربع وأولاده الخمسة عشر الذين انتقل ثراؤهم من ميزانية وظيفة سائق أوتوبيس التى كان يشغلها هذا الأخ إلى مئات الملايين من التى استولى عليها بأوجه غير شرعية كإتاوات وعمولات ووساطات واستيلاءات على مرأى ومسمع من أخيه ، وباشرها كذلك لصوص " حول الرئيس وفى حزبه ، فى غيبة الديمقراطية والثورى وحرية الصحافة • وفرض أنور السادات بذلك على نفسه سوء الذكرى إلى الأبد •

عفوا أيها القارئ أن استرسلت مع ديكتاتورية مصر ونتائجها ، فالديكتاتورية مقيتة فى كل زمان ومكان ، ولنعد للباكستان •

يا لله للحاكم المسلم الذى ينسى الفكر الإسلامى ، وينسى حقوق شعبه ويستبد هو وأعوانه بالأمر دونهم ، وقد كنا دائما نقول فى الجامعة إن سرقة رأى الإنسان فى الانتخابات والاستفتاءات أشنع وأبشع من سرقة مال الإنسان ، ولن تستقيم أمور الشرق حتى نعود إلى حكم الله جل وعلا فى شئون السياسة وغير السياسة من الأمور •

وإذا عدنا إلى باكستان حيث عقدنا هذا البحث فأننا نقابلنا مقارنة مريرة جدا ، فالباكستان استقلت عن الهند باسم الإسلام ، وبينما نرى الانقلابات العسكرية ، وحكم الجيش يسود فى باكستان نجد الهند الهندوسية تتمسك بالديمقراطية إلى حد رائع فقد أجرت أنديرا غاندى الانتخابات ، وسقط فيها حزبها واستبعدت من رئاسة الوزارة وبعد فترة (م ٢٤ — الموسوعة التاريخية)

أجرى أعداؤها الانتخابات وسقطوا ونجح حزب أنديرا غاندى ، وعادت بالتالى الى السلطة والنفوذ فالديمقراطية لك ولغيرك ، والديكتاتورية عليك بالدمار وعلى غيرك •

وفي الهند لضمان الديمقراطية الحققة لجنة " محايدة تماما من كبار الرجال تُجرى الانتخابات وتُعد لها وتشرف عليها وتعلن نتائجها ولايجوز لأية حكومة أن تتدخل فى تكوين هذه اللجنة ، أو أن تُقصى بعض أعضائها أو تصيف اليها ، فاللجنة هى التى تباشر ذلك الإقصاء أو الاضافة بنفسها ومن هنا عاشت الهند فى استقرار ، وعاشت الباكستان فى قلق لا يُعرف مداه •

ولنعد الى باكستان لنصور انتقالات السلطة بها وأحداث الانقلابات :

١ — القائد الأعظم محمد على جناح بلقب الحاكم العام ١٤ أغسطس ١٩٤٧ حتى وفاته فى ١١ / ٩ / ١٩٤٨ وكان لياقت على خان رئيس الوزراء مع جناح ومع خلفه حتى اغتيل فى ١٦ / ١٠ / ١٩٥١ •

٢ — خواجه نظام الدين بلقب الحاكم العام من ١٤ / ٩ / ١٩٤٨ الى ١٧ / ١٠ / ١٩٥١ •

٣ — غلام محمد بلقب الحاكم العام من ١٧ / ١٠ / ١٩٥١ الى ٦ / ٨ / ١٩٥٥ (ترك خواجه نظام الدين رئاسة الدولة وأصبح رئيس الوزراء عقب اغتيال لياقت على خان) •

أقيل خواجه نظام الدين من رئاسة الوزراء فى ١٧ / ٤ / ١٩٥٣ ومُعيّن محمد على بوجرا رئيسا للوزراء •

٤ — تدخل سافر للجنرالات وللجيش بدأ بالجنرال اسكندر ميرزا كالاتى :

— حاكما عاما من ٧ / ٨ / ١٩٥٥ بعد استبعاد غلام محمد •

— أعلن الدستور الذى كان قد اكتمل إعداداه ، وكان إعلانه فى

٢٣ / ٣ / ١٩٥٦ •

- اختير رئيسا للجمهورية في ظل القوة العسكرية .
- في ١٧ / ١٠ / ١٩٥٨ ألغى الدستور وهو لا يزال في المهد .
- أعلن الأحكام العرفية .
- حلّ البرلمان الذي انتخب حديثا .
- اقال أعضاء الحكومتين المركزية والاقليمية .
- ألغى الأحزاب .
- عين محمد أيوب خان القائد العام للجيش حاكما عسكريا وسرعان ما استولى هذا على السلطة بانقلاب عسكري غير دموى .
- ٥ — الجنرال أيوب خان : قائما بأعمال رئاسة الجمهورية من ٢٨ / ١٠ / ١٩٥٨ .

رئيسا للجمهورية من فبراير ١٩٦٠ حتى ٢٣ / ٣ / ١٩٦٩ .
تخيل لبعض الباحثين أنه قام ببعض الإصلاحات ولكن الديكتاتورية تخفى خلفها أسس الانهيار ، والذي يقال عنه المستبد الصالح ينتهى صلاحه يوما ولو بموته ، ويبقى الاستبداد الذى يغلب أن يحصل عليه غير الصالح لأن عملية الانتقال من حاكم الى حاكم إن لم تكن بطريقة الشورى كان بطريقة القوة التى ينجح فيها وبها العناصر غير الصالحة .

وقد بقى الجنرال أيوب خان فى السلطة أكثر من عشر سنوات قضى فيها على الديمقراطية والشورى تماما واستبد بالبلاد فهوت الى القاع اقتصاديا وسياسيا ، ثم تخلى عن الحكم بعد أن عجز عن إدارة الدفة ، وبعد سيل من الدماء ، وفيما يلى نص ما نشرته جريدة الأهرام نقلا عن وكالات الأنباء فى ٢٤ / ٣ / ١٩٦٩ .

أيوب خان يستقيل ويسلم السلطة للجيش

كراتشي في ٢٥ — وكالات الأنباء — أعلن اليوم الرئيس الباكستاني أيوب خان استقالته من رئاسة الجمهورية وتنازل عن سلطاته الرئيسية وسلم إدارة البلاد إلى القوات المسلحة ، وقال أيوب خان في بيان أذاعة على الشعب الباكستاني — لم يستغرق أكثر من ١٠ دقائق — إنه تخطى عن منصب الرياسة بعد ١٠ سنوات من الحكم وأنه يسلم سلطاته إلى الجنرال يحيى خان قائد الجيش ، الذي يتمتع بتأييد الجيش والبحرية والسلاح الجوي •

وقال أيوب خان إن الأمة كلها يجب أن تضع ثقتها في الجنرال يحيى خان ، الذي تولى جميع المسؤوليات القانونية لإدارة البلاد ، وأضاف أنه لا توجد أية سلطة شرعية خارج سلطة الجيش ، ثم قال إنه وافق على طلبات المعارضة بادخال النظام البرلماني الفيدرالي في البلاد •

وقال أيوب خان إن حالة البلاد تتدهور يوماً بعد يوم ، كما أن اقتصاد البلاد تمزق ، وكانت تبدو في صوته رنة "من التأثير •

يحيى خان يعلن الأحكام العرفية :

وقد أعلن الجنرال يحيى خان بعد تسلمه السلطة الأحكام العرفية في جميع أنحاء البلاد • وأصدر بوصفه الحاكم العسكري العام بياناً بقواعد الأحكام العرفية ، ومنها إلغاء الدستور وإعفاء الوزراء •

وقال الجنرال يحيى خان في بيان إعلان الأحكام العرفية « لقد نشأ موقف في البلاد لا تستطيع معه الإدارة المدنية أن تعمل بفعالية • ولقد أصبح لصالح الأمن القومي وضع البلاد تحت الأحكام العرفية •

وأعلن راديو كراتشي أن الجنرال عبد الحميد خان ، نائب قائد الجيش ومارشال الجو مالك نور خان قائد سلاح الطيران ،

٦ — الجنرال يحيى خان : من جنرال الى جنرال

من ٢٣ / ٣ / ١٩٦٩ •

عجز شامل عن ادارة الأمور •

ثورات صاخبة وبخاصة في باكستان الشرقية ، فقد أجريت الانتخابات العامة في أول عهد يحيى خان وفاز مجيب الرحمن بالأغلبية الساحقة في باكستان الشرقية ، ولكن الجنرال رفض تعيينه رئيسا للوزارة بها فاشتد التوتر وساعدت الهند الباكستان الشرقية ، وتم استغلال هذه المنطقة باسم « بنجالادش » كما سئى فيما بعد وفي عهده سقطت هيبة باكستان وأسر وقتل عدد كبير من رجال الجيش الباكستاني ومن المدنيين الذين كانوا في الباكستان الشرقية وتحت وطأة هذه الخسائر في الأرواح والأموال أسلم الجيش السلطة للمدنيين •

٧ — فضل الله شودرى : رئيس جمهورية في العهد المدني بعد فشل يحيى خان وتسليمه السلطة للمدنيين • (توفي في يونيو سنة ١٩٨٢) وكان ذو الفقار على بوتو رئيس الوزراء ، وهو واحد من أكفأ الباكستانيين وأبعدهم صيتا •

٨ — انقلاب عسكري جديد في ٥ / ٧ / ١٩٧٧ بقيادة الجنرال محمد ضياء الحق الذى لا يزال في الحكم حتى كتابة هذه السطور في اكتوبر سنة ١٩٨٢ •

وقد ذكرت وكالات الأنباء أن الانقلاب حدث في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وأن الجيش استولى على السلطة واعتقل ذو الفقار على بوتو رئيس الوزراء وبعض الزعماء وكان ذلك بعد فشل المفاوضات التى بدأت بين الحكومة وزعماء المعارضة لتسوية الأزمة السياسية بين الحكومة والمعارضة •



الجنرال محمد ضياء الحق

وفرض الجنرال ضياء الحق الأحكام العرفية على البلاد وكان
ذو الفقار على بونو هو الذى اختار الجنرال ضياء الحق رئيساً لأركان
الحرب قبل ذلك بحوالى عام فى أول مارس سنة ١٩٧٦ •

وألحقت قوات الجيش تقوم بدوريات فى شوارع كراتشى وفى
المواسم الأخرى •

محاكمة على بوتو

جرت بعد ذلك محاكمة لذوالفقار على بوتو سنعرض تفاصيلها بعد قليل ، ولكننا نتخطى هذه المحاكمة التي أهدرت فيها العدالة لنذكر أن المحاكمة قضت بإعدام على بوتو وأربعة آخرين ، وقد تحرك العالم كله لانقاذ حياة الزعيم المسلم ، ولكن السلطات العسكرية غضت الطرف عن كل هذه المحاولات ، وفوجئ العالم في الرابع من أبريل سنة ١٩٧٩ بأن الزعيم المسلم قد مُنِّفَذَ فيه حكم الإعدام فجر أمس ، وأن ذلك تمَّ في سرية شاملة ، ولم تعلن الحكومة الباكستانية النبأ الا بعد دفن الزعيم ، خوفا من غضب الأعداء الضخمة التي كانت تؤيده ، فقد نقلت طائرة حربية جثمان الزعيم من روالبندي الى لاركانا ثم قامت سيارة بنقل الجثمان الى المقبرة ، ولم يحضر مراسم الدفن سوى اثنين من أعمامه وتليل جدا من أصدقائه .

والمتهمة التي وجهت اليه هي التحريض على اغتيال أحد معارضيه غير البارزين واسمه أحمد قصوري ، مع العلم بأن هذا الرجل لم يصب بسوء في العدوان الذي تم على سيارته في نوفمبر سنة ١٩٧٤ ولكن والده القى مصرعه في هذا العدوان .

ولم يصدر الحكم بالإعدام باجماع القضاة كما سنرى فيما بعد ولكن السلطات العسكرية نفذت الحكم . ومن العجيب أن الحكم نفذ في بوتو ، ولم ينفذ في الأربعة الآخرين الذين صدر عليهم الحكم بالإعدام في نفس القضية .

وعقب صدور الحكم أمضى على بوتو عاما كاملا في زنزانة الإعدام ، استنفذ خلالها محاموه جميع الإجراءات القانونية الممكنة لإنقاذ حياته كما فشلت جميع الجهود الدولية وجهود الزعماء السياسيين من جميع أنحاء العالم للعفو عنه .

وعقب إذاعة النبأ بإعدامه أعربت حكومات البلدان الإسلامية وكثير من الحكومات الأخرى عن أسفها لهذا التصرف ، وعدم اهتمام الحاكم العسكري الباكستاني بالمحاولات التي قامت بها هذه الدول •

وقد قامت بمدن باكستان صور من المظاهرات والنحيب لإعدام الزعيم بوتو ، ولكنها كلها قوبلت بالشدّة والقمع •

أما عن الجريمة التي نسبت الى بوتو والمحاكمة التي شكلت لمحاكمته فاننا نسجل هنا بعض الوقائع من التحقيقات التي حفلت بها الأنباء والصحف العالمية عقب تنفيذ الاعدام •

قصة اعدام البطل

الجريمة التي هزت ضمائر جميع زعماء العالم بلا استثناء

إذا كان بعض النابيهين في العالم قد سقطوا بضربات طائشة من أفراد أيسر ما يقال عنهم أنهم مخبولون ، فانه من الصعب أن تختلق قضية ومحاكمة وحكم اعدام لواحد من أعظم النابيهين والقادة ، فلقد سقط لنكون محرر العبيد بضربة طائشة من انسان يصعب أن يعد واحداً بين البشر ، وكذلك سقط غاندى بضربة من متعصب تافه ، وسقط فيصل بن عبد العزيز بطلقه أطلقها مخبول لا وزن له بين الرجال ، ومثل هذه الضربات الطائشة ستظل دائماً تروع الانسانية ، ولكن الشيء الذي أدهش العالم أن يسقط على بوتو بقصة موضوعة ومحاكمة جائرة ، وتنفيذ بغيض •

ما هذه القصة ؟

ان الصحف خرجت في اليوم التالي لاعدام البطل تشرح هذه القصة المتهافنة وعناصرها هي :

رجل سياسى مغمور اسمه (أحمد قصورى) تصفه الأنباء أنه مهتر

التفكير مضطرب العقل يسعى للشهرة بأية وسيلة ، وقد ثار هذا الرجل على الزعيم ذو الفقار على بوتو وكان هذا في أوج مجده ، وكان انشائر بذيئا في كلماته وحركاته ، فهاجم على بوتو بألفاظ جارحة مست الآباء والأمهات ، وفي إحدى جلسات المجلس الوطني خلع قميصه وصرخ في الزعيم يطلب أن يبارزه ، وسخر الأعضاء من هذا التصرف الأحمق ، ولما فشل الرجل في استثارة الزعيم عاد الى الكلمات البذيئة والسباب الذى لا ينبعث إلا من السوقة ، ويقال إن الزعيم تحت تأثير هذا العدوان المتكرر هدّده بالانتقام منه •

وكانت كلمة التهديد — إن صحت — هى كل الجرم الذى نسب لرئيس الوزراء وزعيم الأغلبية وقد حدث ذلك في يونيو سنة ١٩٧٤ •

وبعد ذلك بفترة أى في نوفمبر من نفس العام كان هذا الرجل يسير في سيارته ومعه أبوه فأطلق مجهولون الرصاص على السيارة فقتل الأب ، فقدم الرجل بلاغا يتهم على بوتو بالتدبير لقتله ، واتهم معه مجموعة من الأفراد ، وذكر أن قتل الأب حدث بطريق الخطأ وأنه هو الذى كان المقصود بهذا التدبير •

ولم يستطع الرجل أن يقدم أية أدلة على هذا الاتهام ، وسئل سؤالاً مهماً هو أن محاولات لقتله قد حدثت عدة مرات تزيد على أصابع اليد فلماذا في هذه المرة يتهم رئيس الوزراء ، ولماذا لا تكون هذه المحاولة هى واحدة من المحاولات السابقة ؟ ولم يستطع الرجل أن يقدم جواباً على هذه التساؤلات •

وحفظت القضية لعدم توافر الأدلة ، ومرت الأيام والشهور وعاد الرجل يعتذر للزعيم لاتهامه ، بل أرسل خطابات أشبه بقصائد مدح لهذا الزعيم يرجو أن يغفر له ما حدث منه ، ويصفه بأنه « مسيح » الباكستان ، وحسنت العلاقة نوعاً ما بين الرجل وبين رئيس الوزراء •

وجاء الانقلاب العسكرى ، وأدرك القادة العسكريون أنهم يواجهون عملاقا ضخما له فى قلوب الأغلبية الساحقة حب عميق وتقدير عظيم فلم يقنع الانقلاب العسكرى بالاطاحة به أو بسجنه ، وإنما أراد التخلص منه نهائيا ، فأوعز للرجل الهش أن يجدد دعواه ، واتجه الانقلاب العسكرى الى ما وصفته وكالات الأنباء بالانحياز الشائن فى تشكيل المحكمة التى تنتظر القضية ، وفى هذه المحكمة سئل الرجل عن الخطابات التى أرسلها للزعيم على بوتو ، وهى حافلة بالاعتذار والثناء ، وأخذ الدفاع يتلو هذه الخطابات ، وعندما كان يتلوها غاضت الدماء من وجه المدعى العام ومن صاحب الاتهام ، وتطلع الجميع الى المتهم الشامخ الذى كان يجلس فى القفص .

ولما سأل القضاة قصورى عن هذه الخطابات أجاب : لقد نصحتنى أمى الأرملة أن أقوم بذلك حتى أحافظ على حياتى .

ووضّح الدفاع أن المدعى مضطرب نفسيا ولا يستحق عناء قتله ، وأن الكلمة التى قيل إن على بوتو قائلها لم تكن — إن صحت — إلا فى لحظة غضب من اسفاف قصورى .

وأدانت المحكمة على بوتو ، وكان ذلك متوقعا منها ، فرفع الأمر الى المحكمة العليا وهى تتكون من ستة قضاة ورئيس يسمى كبير القضاة ، وتصف الأنباء كبير القضاة بأنه كان متحيزا تحيزا صارخا ضد على بوتو ، وكان وثيق الاتصال بمكتب الحاكم العسكرى العام حتى أن خطا تليفونيا مباشرا أقيم بين مكتب الحاكم العسكرى ومكتب كبير القضاة ، مما خلق احساسا بأن كبير القضاة كان يتلقى التعليمات من الحاكم العسكرى .

واستمرت المحاكمة عدة شهور ولم يستطع القضاة أن يتفقوا على قرار وانقسم القضاة الستة قسمين ، قال ثلاثة منهم بالادانة ، وحكم الإعدام ، ورفض الثلاثة الآخرون أن يوافقوا على حكم الإعدام ،

وانضم كبير القضاة الى الثلاثة الذين رأوا الاعدام ، وهو تصرف غير مألوف ، فقد جرت العادة أن ينضم كبير القضاة لصالح المتهم عند تعادل الأصوات وأصبح قرار الاعدام هزيلا ولذلك أرسلت المحكمة هذا القرار مع اضافةٍ تقرر أنها ليست واثقة تماما من كافة تفاصيل هذه القضية ولذلك تترك للجنرال الحاكم العسكري ، أن يزاول صلاحيات الأحكام العرفية المخولة له ، أى أن يعفو عن بوتو أو أن يتحمل هو مسئولية الموافقة على الحكم •

وهب العالم كله يطلب العفو عن الزعيم ، واشتركت في ذلك الشعوب والحكومات الاسلامية وغير الاسلامية ، كما اشترك عدد كبير من الملوك ورؤساء الجمهوريات ، وقد نسى هؤلاء جميعا أن الحكم العسكري كان شديد الحرص على التخلص من بوتو غير مكترث بقيم أو قوانين أو توسلات •

وأعدم على بوتو ولكن اسمه وجهوده ستبقى خالدة وستبقى الأجيال تتحدث عن ظلم الانسان للانسان •

والعجيب أن القاتل الحقيقي واسمه « مسعود » اعترف بجرمه ولكنه لم يعدم ، وكذلك لم يعدم الأربعة الآخرون الذين صدر الحكم عليهم بالاعدام مع بوتو •

بجبالاديش

مقدمة :

قلنا في الجزء التاسع من هذه الموسوعة (١) إن نهرو أثر على عبد الناصر وخدعه ، فجذبه الى ما يسمى « عدم الانحياز » وكان عدم الانحياز معناه مناهضة الغرب والحرب ضد ما سمي « امبريالية » وبالتالي التقرب من الاتحاد السوفيتي ، وكان نهرو يقصد بذلك أن يبعد مصر عن باكستان التي كانت تتجه للتعاون والتحالف مع أمريكا ومع بريطانيا .

وقد استطاع نهرو بذكائه وماضيه السياسي أن يكسب هذه الجولة ، وأن يخدع عبد الناصر الذي كان لا يزال تلميذا صغيرا في مدرسة السياسة والفكر السياسي ، وحتى يتم نهرو خطته دعا عبد الناصر لزيارة الهند في طريقه الى مؤتمر باندونج (ابريل ١٩٥٥) وهناك هيا له استقبالا رائعا ، ودعاه لالقاء كلمة في البرلمان الهندي وبعد باندونج حضر نهرو الى القاهرة في ١٢ يوليو ١٩٥٥ وأصدر مع عبد الناصر وثيقة خطيرة تنص على أن الاشتراك في مواثيق وأحلاف عسكرية مع الدول الكبرى يخلق جوا يؤدي الى الحرب ولا يخدم قضية السلام .

ووقع عبد الناصر في الفخ وبدأنا بذلك في حرب مع الغرب تسبب عنها سحب أمريكا لمساعدتها في بناء السد العالي ، فتأميم قناة السويس ، فحرب ١٩٥٦ ، فجلب الخبراء الروس ، فالاشتراكية وقوانينها على الرغم من أن أمريكا هي التي أمرت أقطاب العدوان الثلاثي بالجلاء عن مصر .

ودمر نهرو عبد الناصر دون أن يدرك أحد ذلك .

وفي بنجالاديش حديث خديعة قريية من هذا النوع حاكها ونفذها الرجل السياسي المحنك « نهرو » .

(١) حوليات عصر عبد الناصر : عصر المظالم والهزائم ص ٤٥٨ وما بعدها .

فقد رأينا أغلبية اسلامية ساحقة في كشمير ، وهي بجانب ذلك امتداد لباكستان سيكون البديا من ناحية وسيكون مفيدا من ناحية أخرى • ولم تكن كشمير الا تمثل مقاطعة مثل مقاطعات السند وبلوخرستان ، وحرص نهبو على ألا يتم انضمام كشمير لباكستان كما رأينا من قبل •

أما البنغال الشرقية التي تبعد عن الباكستان الغربية بحوالى ألف ميل والتي تختلف معها في جنس السكان والطبيعة الجغرافية فقد سمح نهبو بأن تصبح جزءا من باكستان ولم يكن ذلك الا إسفيناً وضعه السياسى المعجوز في قافلة الدولة الجديدة ، وقد كان من الممكن أن تعلن البنغال الشرقية رغبتها في الاستقلال عن الدولتين ، وكان ذلك في مصلحة باكستان ، ولكن نهبو بأساليب مختلفة خدع الزعماء المسلمين وأوهمهم أنه يمكن قيام دولة تضم ما سمي باكستان الشرقية وباكستان الغربية ، مع أنه لم يكن في خيال اقبال الذى رسم الاستقلال أن تنضم للدولة الجديدة منطقة البنغال •

وستبرز لنا الدراسات القادمة أن بعض زعماء البنغال كانوا يكرهون التقسيم أساسا ، وأن عواطفهم كانت مع الهند ، ولست أستبعد قيام تحالف سرى بين نهبو وابنته أنديرا غاندى من بعده ، وبين هؤلاء ليبدأ صراع مدمر في باكستان عقب قيامها ، وهذا ما حدث •

ونسجل فيما يلى بعض العبارات التي دونها التاريخ والتي رددتها وكالات الأنباء العالمية التي ارتبطت بتاريخ بنجالاديش وتاريخ الانقلابات بها :

— في سنة ١٩٥٤ صرح أحد زعماء الباكستان ، أن أعداء الهند هم الذين سموا في تقسيمها وأنه سوف يبذل كل ما في وسعه لاستقلال باكستان الشرقية (١) •

(١) دكتور مبد الحبيد البطريق : باكستان في ماضيها وحاضرها ص ٨٦ •

ومن هذه العبارة الخطيرة نستنتج ما يلي :

- ١ — زعماء باكستان الشرقية كان هواهم مع الهند •
- ٢ — هؤلاء الزعماء لم يكونوا راضين عن التقسيم •
- ٣ — اتجاههم المبكر لاستقلال باكستان الشرقية ذلك الاتجاه الذى تحقق سنة ١٩٧١ •

— اشتركت الهند عسكريا فى الصراع الذى دار سنة ١٩٧١ وأدى الى استقلال باكستان الشرقية عن باكستان الغربية ، وأخذت اسمها الجديد « بنجالاديش » وقد زحفت جيوش الهند فى الرابع من ديسمبر الى باكستان الشرقية مع ما أسمته « اللاجئين العسكريين » من بنجالاديش وهزمت جيش باكستان ، ثم أعلن انفصال بنجالاديش •

— عين الشيخ مجيب الرحمن أول رئيس للوزراء فى بنجالاديش ثم صار رئيسا للجمهورية وكان صديقا حميما لانديرا غاندى ، وكان يحظى بتأييدها الدائم •

— عقب الانقلاب الذى اغتيل فيه مجيب الرحمن لجأت ابنته « حسنية » وبعض أتباعها الى الهند ورحبت الهند بها وأخذت تدلى ببعض التصريحات المضادة للحكم الجديد فى بنجالاديش •

— توضح وكالات الأنباء أن الهند مارست ضغوطا شديدة على حكومة ضياء الرحمن الذى جاء به الانقلاب الذى أنهى حكم مجيب الرحمن وظهر تأييد الهند لمعارضى ضياء الرحمن •

— على الرغم من الديمقراطية الحققة التى تعيش فى الهند فان الهند شجعت الديكتاتورية فى بنجالاديش وسمحت أو أوعزت لمجيب الرحمن أن يأخذ كل السلطات فى يده ، وأن ينشئ نظام الحزب الواحد •

وذلك شأن الدول الاستعمارية الكبرى التى تنعم بالديمقراطية فى بلادها وتشجع النظام الديكتاتورى فى مستعمراتها لتخلق صراعا داخليا من جانب ، ولتبعد السلطة عن الشعب وتركزها فى أيدي قليلة تدين لها بالولاء •

وبعد هذه المقدمات الضرورية والمهمة نعود للحديث عن قضية منطقة البنغال من أولها :

الاسلام فى البنغال :

بدأ المسلمون صلتهم بالبنغال فى أوائل قرون الهجرة ، وكان الجغرافيون العرب يشارون كثيرا الى البنغال حينما كانوا يتحدثون عن التجارة ، وفى أيام الدولة العباسية زادت العلاقات التجارية بين البنغال وشبه جزيرة العرب ، وقد وجدت فى حفائر بهاربور ، وميناماتى ، عملات معدنية يرجع عهدها الى العباسيين (١) •

وقد استولى المسلمون على اقليم البنغال فى عهد محمد بختيار الخلقى قائد السلطان معز الدين محمد الغورى سنة ١٢٠٢ م ، وقد هرب الراجا الهندوكى أمام الفرسان المسلمين دون أدنى مقاومة مما يدل على أن البنغال كانت تعاني ضعفا سياسيا وعسكريا قبل الزحف الاسلامى ، ولما استولى المسلمون على البنغال أصبحت جزءا من للعالم الاسلامى ، وأخذت فى توثيق علاقاتها مع بقية المجتمعات الاسلامية ، ولما تفككت حكومة دلهى المركزية فى القرن الرابع عشر قامت فى البنغال أسر اسلامية حاكمة استقلت بالبلاد تقريبا ، ومن هؤلاء بنو الياىس (١٣٤٩ — ١٤٤٢ م) ثم بنو حبشى ، ثم بنو حسين شاه ، ثم بنو سور ، فبنو سليمان حتى استولى الامبراطور أكبر على البنغال! سنة ١٥٧٦ م ، وضمها الى امبراطوريته (٢) •

(١) باكستان : من مطبوعات السفارة الباكستانية بالقاهرة ص ١٦ .

(٢) المرجع السابق والقاموس الاسلامى الاستاذ أحمد عطية الله ج ١

عواصم البنغال وأنهارها :

اختلفت عواصم البنغال من عصر الى عصر فكانت العاصمة أحيانا بلدة كور أو راج محل ، أودكا ، أو مرشد آباد وعاصمتها الحالية هي دكا .

وتكثر الأنهار في البنغال حتى تبدو المنطقة كأنها شبكة ماء ، ويجري فيها نهر الجانج والبراهما بوترا ، ويعتبر النهران وفروعهما من أهم وسائل المواصلات في البنغال لصلاحيه هذه الأنهار للملاحة في أكثر الأمكنة .

المعوم والفنون في البنغال :

اهتم سلاطين المسلمين بالأدب البنغالى ، وبثثوا فيه الروح الاسلاميه ، وكانت اللغة البنغالية هي لغة المنطقة وقد اشتهرت هذه اللغة أصولها من اللغة السنسكريتية ، فلما دخل الحكم الاسلامى بلاد البنغال دخلت معه اللغة الفارسية وآدابها ، اذ كانت هذه اللغة هي لغة الثقافة والادارة بالبلاط الاسلامى بالهند كما دخلت مفردات كثيرة من اللغة العربية وقد عكف كثير من مفكرى البنغال على اللغة العربية وآدابها ، فأجادوها وألفوا بها كثيرا من المؤلفات .

واهتم سلاطين المسلمين بالفنون وأعمال النحت ، ولهذه الأعمال جذور في ثقافة البنغال ، وقد وجهت هذه الأعمال وجهة اسلامية وبرزت في المساجد والمدارس التى عنى بها المسلمون في هذه المناطق ، كما برزت في القباب والقصور التى ازدانت بألوان الفنون وصور زاهية من النحت .

البنغال جزء من الباكستان :

سبق أن أوضحنا أنه بعد صراع طويل اتفقت الآراء على تقسيم الهند الى دولتين هما الهندستان أو الهند والباكستان ، وأن التقسيم يجرى بناء على دين الأغلبية في أية منطقة من المناطق بالاضافة الى رغبة الشعب في المنطقة والى المواقع الجغرافية للمناطق .

وبناء على هذه القاعدة ، قامت الباكستان وقد أوضحنا آنفا أن أصابع الهند لعبت لتنضم البنغال الى الباكستان الغربية وليتكون من الجزأين دولة واحدة ، ولم يكن ذلك في مصلحة الباكستان الشرقية ولا الغربية ، ولكنه كان وسيلة لصراع كان طبيعيا أن يندفع لبعد الثسقة بين المنطقتين بعدا كبيرا ، ولاختلاف المنطقتين في كل شيء جنسا ولغة وتاريخا وظروفا جغرافية ، ومن أجل هذا كان ارتباط المنطقتين ارتباطا يحمل بذور الانفصال في طياته ، فسرعان ما قامت في الباكستان الشرقية الحركات التالية :

أولا : ثورة الطلبة في الباكستان الشرقية سنة ١٩٥٢ :

قام الطلبة في الباكستان الشرقية بمظاهرة في ٢١ فبراير سنة ١٩٥٢ للمطالبة بجعل اللغة البنغالية لغة رسمية ، وقد حدث احتكاك بين الطلبة وبين البوليس ، وسقط بعض الضحايا في هذا الاحتكاك ، وقد أخذت أحزاب المعارضة هذا الحادث لتشعل الثورة من حين الى آخر في نفوس الطلاب ، وأسمنت ذلك اليوم يوم الشهداء ، وأقامت نصبا تذكارية لشهداء الطلاب في هذا اليوم .

ثانيا : أحزاب للمعارضة في الباكستان الشرقية :

كانت « الرابطة الاسلامية » حزب المسلمين في جميع أنحاء الهند قبل الاستقلال ، وانقسمت الهند الى دولتين تمّ بجهود الرابطة الاسلامية ولكن سرعان ما قامت في الباكستان الشرقية أحزاب أخرى ، فظهر حزب رابطة الشعب (عوامي ليغ) ورابطة المسلمين (مسلم ليغ) وحزب الفلاحين ، ثم تكونت من هذه الأحزاب جبهة متحدة ضد الرابطة الاسلامية ، وقامت هذه الجبهة بجهود كبيرة في الباكستان الشرقية ، وقدمت وعودا براقية للأهالي لتخفيض ايجارات الأرض بالنسبة للفلاحين ، وتوزيع أراضي الحكومة عليهم والعناية

بالتعليم ، وجعل اللغة البنغالية لغة رسمية ، وانشاء مصانع في الباكستان الشرقية وغير ذلك من الوعود الخلافة التي كان لها تأثير ضخم على الشعب فاكتسحت الجبهة المتحدة الانتخابات وحققت نجاحا هائلا اذ حصلت على أكثر من تسعين في المائة من المقاعد ، وكان ذلك أساسا لفرقة لم يمكن رأب صدعها •

ثالثا : حركة التمرد والاستقلال لبنجالاديش :

استمرت الخلافات السابقة حتى أصبح أهل البنغال كلهم تقريبا في جانب وحكومة الباكستان الغربية في جانب آخر ثم جاءت انتخابات سنة ١٩٦٩ ، وفي هذه الانتخابات حصل حزب عوامي على أغلبية ساحقة وكان برياسة الشيخ مجيب الرحمن ، ولكن الجنرال يحيى خان رئيس جمهورية الباكستان آنذاك رفض تعيينه رئيسا للوزارة في باكستان الشرقية ، وتدخل الجيش الباكستاني في عملية تقول عنها وكالة الأنباء أنها كانت عملية قمع لشعور الأهالي ، وسقط في هذه العملية عدد من البنغاليين ، ولجأ مجيب الرحمن الى الهند ، وهناك أعلن قيام جمهورية بنجالاديش ، وشكل حكومة مؤقتة لها في الهند وتجمع حوله كثير من مؤيديه •

وفي ٤ ديسمبر سنة ١٩٧١ ، وبعد توتر شديد وطويل هاجمت القوات الهندية مع قوات جيش تحرير بنجالاديش اقليم البنغال ، ودار صراع بين هذه القوة ، وبين الجيش الباكستاني في بنجالاديش •

وفي ١٦ ديسمبر من نفس العام استسلم جيش باكستان وأعلن قيام دولة بنجالاديش دولة مستقلة •

الانقلابات العسكرية في بنجالاديش

هل ورثت بنجالاديش حركة الانقلابات من باكستان ؟
هل هو بلاء أن تحكم الدول الإسلامية بالنظام الديكتاتوري ؟
هل يدعى زعيم مسلم أنه مسلم وهو يستبيح الدماء التي حرمها الله ؟
هل الطموح وأطماع الدنيا تنسى بعض الزعماء المسلمين التزامات الدين والخلق ؟

هل وهل وهل

لقد قامت دولة بنجالاديش على فيض من الدماء وعلى رفات كثيرين من المسلمين من باكستان الشرقية والغربية على السواء ، والدماء يُقْتَصُّ لها باستمرار ، ومن كَتَلَ بالسيف فبالسيف يُقْتَل في المدى الطويل أو القصير ، لقد قامت دولة بنجالاديش نتيجة انقلاب دموى ، وفتح هذا الانقلاب للأسف أبواب الانقلابات الدموية المتتالية ، وحُكِمَت بنجالاديش منذ سنة ١٩٧١ على الوجه التالي :

— الثورة البنغالية التي استعانت بالهند ضد المسلمين ، ولسنا هنا نعيب البنغاليين وحدهم ، ولكننا كذلك نعيب الجنرال يحيى خان الذي استبد بالأمر أو قل لم يفهمه فأسلم البلاد الى صراع وسقط فيه عدد رهيب من المسلمين ، روى أرض المسلمين بدماء المسلمين •

وبنجاح هذا الانقلاب استقلت بنجالاديش وشكل مجيب الرحمن أول حكومة لها في ١٢ يناير سنة ١٩٧٢ •

ولكن للأسف نجد الرجل الذى حارب الديكتاتورية ممثلة في رؤساء جمهورية باكستان يتجه هو نفسه الى الديكتاتورية فعمل ليصبح رئيس الجمهورية ابتداء من يناير ١٩٧٥ على أن تكون جمهورية رياضية

ووضع كل السلطات في يده ، وفرض نظام الحزب الواحد • وهكذا فعل الرجل كل الخطوات التي حاربها زمنا طويلا •

— في ١٥ / ٨ / ١٩٧٥ اغتيل مجيب الرحمن هو وزوجته وثلاثة من أولاده ، وكان ذلك في انقلاب قاده « خونداكار مشتاق » الذي كان وزيرا للتجارة من قبل وساعده في انقلابه مجموعة من الضباط الطموحين وقد اتهم الجنرال ضياء الرحمن أنه يحميهم وسنتكلم عن ضياء الرحمن فيما بعد ، وبعد مقتل مجيب الرحمن عين خونداكار رئيسا للجمهورية •

— وعقب شهور قليلة وبالضبط في ٣ / ١١ / ١٩٧٥ حدث انقلاب جديد عُزل به خونداكار من رئاسة الجمهورية وقبض على الضباط الذين قادوا الانقلاب ضد مجيب الرحمن ، وعين « صايم » رئيس المحكمة العليا رئيسا للجمهورية •

— وبعد أيام قليلة أى في يوم ٧ / ١١ / ١٩٧٥ وقع انقلاب بقيادة الجنرال ضياء الرحمن وأصبح هذا بمقتضاه حاكما عسكريا ابتداء من ٢٩ من الشهر نفسه ، وبقي صايم رئيسا للجمهورية •

— في ابريل سنة ١٩٧٧ استقال صايم وأصبح ضياء الرحمن رئيسا للجمهورية ، ثم أجرى استفتاء في يونيو ليصبح ضياء الرحمن رئيسا بارادة الشعب (! !) وفي عهده حدثت محاولات انقلاب متعددة فاشلة •

— وفي آواخر يونيو سنة ١٩٨١ ضرب بالصواريخ المقر الذي كان ينزل به الرئيس ضياء الرحمن ضيفا في أثناء زيارته لمدينة شيتا جونج ، وكان الرئيس نائما آنذاك فقتل وقتل معه عدد ممن كانوا بمركز الضيافة ، وكانت القوات المتمردة بقيادة الجنرال منصور أحمد ، وقد استسلمت هذه القوات عقب ذلك •

ومما يذكر أن حسنية ابنة الزعيم مجيب الرحمن والتي كانت لاجئة

في الهند عقب مقتل والدها ، هذه الزعيمة كانت قد عادت حديثا من الهند إلى بنجالاديش ، وكان أتباعها قد اختاروها زعيمة لحزب عوامي ، وهي غائبة في الهند ، وقد ظهرت بعض الاتهامات التي توجه لها كمشاركة في الإعداد للانتقام من ضياء الرحمن •

— عبد الستار : تولى الرئاسة عقب مقتل ضياء الرحمن في يونيو ١٩٨١ وكان ضياء الرحمن قد عينه نائبا لرئيس الجمهورية سنة ١٩٧٧ ، وهو رجل متخصص في القانون والسياسة واشتغل بالمحاماة والقضاء وعرف بالاعتدال وحبه للقراءة ، وقد تم انتخابه لهذا المنصب •

— في أواخر مارس سنة ١٩٨٢ قام انقلاب جديد بزعامة الجنرال حسين ارشاد ، وأعلن قائد الانقلاب فرض الأحكام العرفية وتنصيب نفسه حاكما عسكريا عاما ورئيسا للجمهورية وأوقف العمل بالدستور ، وحل البرلمان ومجلس الوزراء •

وقد حددت اقامة الرئيس عبد الستار ، وتم اعفاء مساعده ، وقبض على عدد من الوزراء •

هيا الله الاستقرار لهذه البلاد ، ووفق زعماءها لما يرضى الله ويرضى الشعب ، وأبعد عنهم الطموح الذي يُبْنَى على غير أساس شرعى ، فهذا الطموح لا يجلب الا الدمار لهم وللناس •

السيخ أو السك

في أحاديثنا السابقة عن الهند وباكستان ورد ذكر « السيخ » كثيرا ، ولهذا نقول عنهم كلمة هنا للتعريف بهم وكلمة السيخ كلمة هندية معناها « نظام » ويطلق عليهم السك تبعا للحروف اللاتينية •

وقد نشأ هذا المذهب في القرن الخامس عشر الميلادي على يد معلم ديني اسمه « جودونانك » وقد ولد هذا الرجل في بلدة تقع غير بعيدة عن « لاهور » في البنجاب الباكستانية حيث يكثر المسلمون وينتشر الفكر الاسلامي وتوفي هذا الزعيم سنة ١٥٣٩ •

ومذهب السيخ كان نتيجة للظروف في مناطق نشأته وهو يرمى الى توحيد الديانات في الهند ، وقد انتشر هذا المذهب بين قبائل « الزط » الذين كانوا يكثر في البنجاب ، وهذا الدين يحمل بذورا هندوسية لأن صاحبه معلم ديني ، ويحمل بذور الاسلام لأنه نشأ في منطقة ازدهر فيها الاسلام منذ أمد طويل ، فالمذهب بذلك خليط من الهندوسية والاسلام ، فأخذ عن الاسلام القول بالتوحيد والبعد عن أصنام الهنادكة ، والغناء الطبقات وتحريم الخمر ، بل تحريم التدخين ، كما رفض السيخ نظام الكهنوتية والمراسم الهندوكية في الزواج ، ولكن السيخ احتفظوا من الهندوكية بعقيدة التناسخ وتقديس البقرة الى حد ما •

وكان يطلق على السيخ حملة « الكافات » الخمسة « جمع كاف » وهي :

كيس : ومعناها جمع الشعر دون قص ووضع تحت عمامة •

كناخ : الخنجر •

كارا : أسورة من حديد •

كريان : لباس قصير •

كانجا هو : المشط لتسريح الشعر الذى لا يقص أبدا •

وكثر أتباع هذا المذهب من يوم الى يوم ، ولكنهم وجدوا أنفسهم بين عدوين هما الهندوس والمسلمون فقوموا بأنفسهم عسكريا ، وساعدهم على ذلك ما استمتعوا به من صحة نتيجة لبعدهم عن الخمور والتدخين ، وما استمتعوا به من وحدة نتيجة لالغاء الطبقات وشيوع المساواة ، فى طائفتهم ، وأصبحوا يسمون « الخلاء » وكان الشيخ أقرب للمسلمين حتى سنة ١٦٧٥ حتى ساعد الشيخ ابن سلطان جهانكير على أبيه ، وزاد بعدهم عن المسلمين عقب موقف أورنجزيب ضد التسامح الدينى •

وعندما جاء الاستعمار الانجليزى وجد الشيخ أن القوة هى التى تحميهم من الانجليز الذين جاء بهم ضعف الهنادكة والمسلمين ، وقد عمد الشيخ الى التدريب العسكرى وكانوا يجلبون الضباط الأجانب لهذا الهدف •

ومن أشهر زعمائهم « رانجيت سنغ » الذى اشتهر بلقب « أسد البنجاب » الذى قادهم فى أوائل القرن التاسع عشر واحتل بهم لاهور وكون لهم دولة فى البنجاب وقد اعترف بها الانجليز ليضربوا بهم الهندوس والمسلمين وليتحاسوا الصدام معهم ، وعقد الانجليز معهم معاهدة سنة ١٨٠٩ وضعت حدا بين دولة الشيخ وبين المناطق الهندية التى يسيطر عليها الانجليز وقد توفى أسد البنجاب سنة ١٨٣٩ •

وفى سنة ١٨٣١ عقد اتفاق بين الشيخ والانجليز للتعاون ضد الأفغان ، وبناء على هذه المعاهدة زحف الانجليز ومعهم الشيخ على بلاد الأفغان وخلصوا ملكها ووضعوا ملكا غيره •

وفى سنة ١٨٤٥ بدأت العداوة بين الانجليز والشيخ فقد انتهت حاجة الانجليز لهم بعد أن ضربوا بهم المسلمين والهنود ، واشتعلت بين

الطرفين عداوة طويلة انتهت بخضوع الشيخ للانجليز حوالى سنة ١٨٥٠ ،
وأصبح الشيخ جنودا فى الجيش البريطانى •

وفى فترة الخلاف بين الهندوس والمسلمين على تقسيم الهند ، ثم فى
فترة التقسيم ، قامت حروب طويلة قاسية اشترك فيها الشيخ ضد المسلمين
وبخاصة فى البنجاب التى يكثر فيها الشيخ فان تقسيمها إلى شرقية وغربية
بين الهند وباكستان كان ضد رغبة الشيخ الذين كانوا ينتشرون فى البنجاب
كله ، وقد تحالف الشيخ مع الهند فى البنجاب الشرقية ضد المسلمين
وذبحوا عددا هائلا من المسلمين ، أما فى البنجاب الغربية حيث الأغلبية
المسلمة فقد خرج الشيخ الى الحدود وأخذوا يشنون حملات تدمير ضد
المسلمين •

وعدد الشيخ الآن حوالى عشرة ملايين ، ولذلك يطالبون حكومة الهند
أحيانا بولاية خاصة بهم •

الاسلام والهند

بعد هذه الجولة الطويلة مع الهند ، تلك الجولة التى رأينا فيها أن الاسلام دخل الهند منذ سنينه الأولى ، وأن دولا وامبراطوريات اسلامية قامت بالهند بعد هذا نتساءل سؤالا مهما هو : لماذا لم يغمر الاسلام الهند كما غمر كثيرا من البلدان الأخرى ؟

والاجابة عن هذا السؤال تكمن فى ثنايا البحوث التى أوردناها ، ولكن لاضير من ابرازها هنا •

لقد دخل الاسلام مصر مثلا وهناك صراع بين فرق المسيحيين وهناك كذلك المستعمر الرومانى الذى يعتنق المسيحية ولا يعرف آدابها وأخلاقها وانما يجعل من مصر مزرعة للقمح ثم إن الاسلام دخل مصر ومعه قمم من المفكرين المسلمين فحملوا للمصريين سماحة الاسلام وأخلاقه ، ومن أجل هذا دخل المصريون الاسلام طائفة بعد أخرى ، وما جرى بمصر جرى بغيرها من الأقطار المماثلة • ؟

ولكن الحالة بالنسبة للهند تختلف ، فقد دخل الاسلام أولا — كما رأينا — مع التجار وأغلب هؤلاء كانت بضاعتهم فى الفكر الاسلامى قليلة ، ولما جاءت الفتوح الاسلامية واجهت بالهند جماعات تدين بالهندوكية ، والهندوكية مزيج من العقائد والأخلاق والعادات والأساطير والسير والطقوس وهى متأصلة فى نفوس القوم منذ ولادتهم وعليها شبوا وباشروا طقوسها بعمق •

وعندما جاء الزحف الغزنوى كانت سمته العنف وتدمير الهندوكية وأخذ الغنائم والعودة بها الى أفغانستان •

وجاء بعد ذلك حكم المماليك ، وفى عهدهم هاجم جنكيز خان البنغال

ودمر فيها وسلب ، ولم يظل مقام المغول بها آنذاك ولكن الهند ظلت هدفا لغارات المغول وتدميرهم من حين الى حين •

ومن أعظم سلاطين المماليك أيلتمش التى سميت الدولة باسمه أحيانا فعرفت بأنها « الدولة الإيلنشمية » ولكن سرعان ما جاءت بعده ابننته « رضية » التى ورطت البلاد فى حروب قاسية بسبب انحراف عواطفها ووقوعها فى حب أحد عبيدها الأحباش •

أما باقى سلاطين دلهى فكانت مدد حكمهم قصيرة لم تتح فرصة لنشر الاسلام ورعايته وكان اتجاه هؤلاء السلاطين الى الحضارة المادية من عمران وقصور أكثر من اتجاههم للحضارة الاسلامية الأصيلة التى تشرح مبادئ الاسلام واتجاهاته فى مجالات السياسة والاقتصاد والتربية والأخلاق وغيرها •

وخلال عهد سلاطين دلهى كثرت - كما ذكرنا من قبل - فترات الاضطرابات والثورات والضعف مما لم يسمح بدعوة خالصة للدين الاسلامى •

ثم جاءت امبراطورية المغول بالهند وعاشت بالهند حوالى ثلاثة قرون ، والذى يدرس عصر هذه الامبراطورية بالهند لا يتوقع من انتشار الاسلام أكثر مما حصل ، فلم يكن المغول مؤهلين فى الغالب لحمل هذا العبء ، ولو حكمت الهند هذه المدة بدولة غير دولة المغول لكان من المتوقع أن يكون انتشار الاسلام أعظم وأشمل ، أما المغول فقد اتضح منهم أنهم ليسوا أكفاء لهذه المسئولية ، وذلك للأسباب التالية التى نوجزها بعد أن شرحناها من قبل بالكثير من التفصيل :

أولا - لم يتعمق الاسلام الصحيح فى نفوس المغول ، وكانوا بأكثر جهدهم يتجهون الى الانتصار أكثر من اتجاههم للإصلاح ، وقد ذكرنا من قبل عن « بابر » أنه عَنِى بالحصول على كنوز أكرأ وبخاصة

أثمن جوهرة في العالم ، كما كانت له بحيرة من الخمر يجلس عليها ويشرب منها •

ثانياً — بلى همايون بن بابر بهزيمة شديدة هرب على أثرها من الهند ولجأ الى ايران مدة خمسة عشر عاما ، ولما عاد الى الهند بواسطة الجيوش الايرانية كان معه وزير شيعى بذر فى الهند بذور التشيع المنصرف •

ثالثاً — جاء أكبر بن همايون الى الحكم فأعلن ثورة على الاسلام بدل أن يعلن ثورة من أجل الاسلام ، وقد شرحنا ذلك من قبل ، وجاء بعده أباطرة تعصبوا للاسلام ، وهذا الاتجاه وذاك كانا شديدى الضرر بالنسبة لانتشار الاسلام •

رابعا — كثرت الحروب والاضطرابات بين أعضاء الأسرة الحاكمة ، فلم يكن هناك وقت لخدمة الاسلام بل اتجه كل الجهد ليحافظ الامبراطور على نفسه ضد أعدائه الذين لم تهدأ ثوراتهم ، وكثر الغاصبون الذين حكموا حتى من العاصمة دلهى نفسها •

خامسا — بعد حوالى قرن واحد من حكم المغول وفد الاستعمار الى الهند وبذل أقصى جهده لاضعاف الحكم الاسلامى والدعوة الاسلامية •

سادسا — عندما تمكن الحكم الانجليزى من السلطة قبل نهاية المغول وبعدهم عمل على إنعاش الهنادكة والهندوكية وعمل على إذلال المسلمين ومحاربة الاسلام •

سابعا — اتجه الاهتمام — كما قلنا آنفاً — الى الحضارة المادية طيلة عهد المغول ، أما الفكر الاسلامى فقلَّ أن اتجهت له أية عناية •

ثامنا — ضعفت الروح الحربية عند المغول نتيجة لاتجاهاتهم نحو الترف والنعيم ، فهان شأنهم ، وبالتالي كان سلوكهم لا يشجع غير المسلمين على حب الاسلام والاقبال عليه •

الاسلام والقضاء على الطبقات بالهند :

من المفخر التي قدمها الإسلام للهند أنه قضى على نظام الطبقات الذي كان سائدا ومستقرا في الهند ، فالإسلام لا يعرف الطبقات ، والناس متساوون كأسنان المشط لا يمتاز واحد عن الآخرين إلا بالتقوى والعمل الصالح كما قال رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم •

ولكن الحكم الاسلامي قدم للهند نموذجا عمليا للقضاء على نظام الطبقات ، فإن أول مؤسس للدولة الاسلامية المستقلة بدهلي كان عبدا مملوكا ، أعنى قطب الدين أيبك الذي سعى بجِد وإخلاص وكفاءة متميزة لنشر نور الاسلام وتقوية دعائمه من الناحية السياسية والعسكرية والاخلاقية داخل الهند في القرن السابع الهجري — لقد كان أخص ما يمتاز به المجتمع الهندوكي ، هو نظام الطبقات المبني على أساس التمييز بين الناس من حيث السلالة والمولد ، بحيث يكون البراهمة في الطبقة العليا والمنبوذون في الطبقة السفلى ، وقد كتب للمنبوذين الاستسلام للرق والانخراط في المهن الوضيعة مؤبدا وحظر عليهم الاحتكاك بالطبقات العليا بأي شكل من الاشكال ، ولا يسمح لهم بالمؤاكلة أو المجالسة أو الاشراف مع غيرهم حتى في الاستسقاء من الآبار وعبادة الاوثان والاصنام ، فشاعت حكمة الله أن يرقى عرش دلهي مملوك من المماليك اياذنا بمجىء الحق وزهوق الباطل والغاء الفروق بين الناس حتى يرجعوا أحرارا كما ولدتهم أمهاتهم •

وقد نجح هذا النموذج العملي عند من استجاب لدعوة الإسلام ، أما الهنادكة الذين بقوا على دينهم فقد ظلوا يخضعون لنظام الطبقات تبعا لخضوعهم للهندوكية •

الإسلام وفتح أبواب الثقافة بالهند :

لقد كانت دولة المماليك بدلهي آية من آيات الله ، فانها مثلت مبادئ الاسلام السمحة خير تمثيل وأقامت مجتمعا يسوده العدل والمساواة

ورفعت منار العلم والتقوى في بلد كان البراهمة يستأثرون فيه لا بالسؤدد والحكم فقط ، بل بالعلم والعرفان أيضا ، فانهم كانوا قد حظروا على المستعبدین من عامة الناس حتى الاطلاع على الكتب المقدسة أو الاستماع لها ، فشاعت حكمة الله أن يكون المجتمع الاسلامی تحت رعاية دولة الممالیک انموذجا للديمقراطية المبنية على الشريعة الفراء — (١)

وأن تفتح باب العلم للجميع على السواء فظهر في الهند قمم فكرية في علوم مختلفة دون أن يكونوا من طبقة البراهمة •

ان الهنود المنصفين يذكرون هذه المفاخر التي قدمها الإسلام لبلادهم ويعترفون بالطفرة الهائلة التي أتتحت لهم مع دخول الإسلام بلادهم •

(١) مقتبسات من مقال للدكتور محمد يوسف نشر في مجلة « الوعد الحق »

الإسلام في جنوب شرق آسيا

الاسلام في جنوب شرقى آسيا

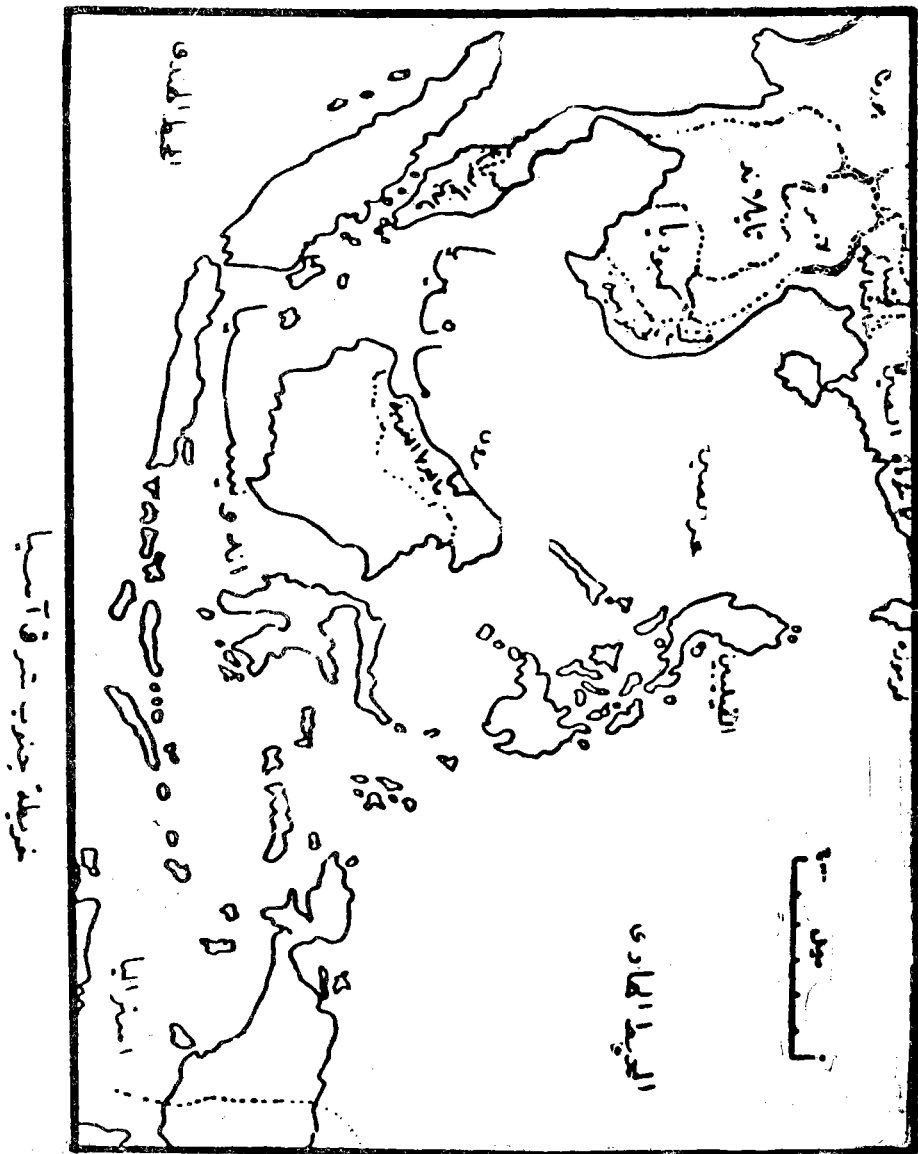
عندما نجتاز شبه القارة الهندية ونتجه الى الشرق تقابلنا منطقة جنوب شرقى آسيا ، التى تسرب لها الاسلام مع التجارة والدعاة ، وغمر أغلب السكان فى بعض المناطق وكوّن أقليات فى مناطق أخرى اما المناطق التى أصبح الاسلام فيها دين الأغلبية فهى ماليزيا واندونيسيا وأما الأقطار الأخرى بالمنطقة فقد كوّن الاسلام بها أقليات تتفاوت نسبتها ، وسنعيش مع اندونيسيا وماليزيا خلال دراسات واسعة متسلسلة تبدأ مع الشعاع الاسلامى الأول الذى انبثق فى هذين القطرين وتستمر حتى العهد الحاضر ، ولكن لابد قبل هذا الحديث المفصل أن نسجل بعض المقدمات : —

المقدمة الاولى : دول جنوب شرقى آسيا

دول هذه المنطقة هى : بورما — لاوس — فيتنام — كمبوديا — تايلاند (سيام) — الفلبين — ماليزيا — سنغافورة — اندونيسيا — بالإضافة الى منطقتين لم تستقرا بَعْدُهما منطقة « غطانى » التى تقع بين شبه جزيرة الملايو وبين تايلاند ، وهى الآن تابعة لتايلاند وترى ماليزيا أنها امتداد لأرضها وشعبها والمنطقة الثانية هى منطقة « برونى » وهى جزيرة صغيرة شمال جزيرة بورنيو ، وهى تحت الاحتلال البريطانى .

وأكثر هذه الأقطار امتداد " لأرض قارة آسيا كبورما وتايلاند وكمبوديا ولاوس وفيتنام والملايو ، والباقي جزر غير متصلة بأرض القارة وهى جزر أندونيسيا والفلبين وسنغافورة .

وقد عانت دول هذه المنطقة من الاستعمار الغربى أشد المعاناة ولم ينج من الاستعمار الا تايلاند التى تترك فيما يبدو كمنطقة محايدة



خريطة جغرافية الشرق الأوسط

لخدمة التسويات الاستعمارية في المنطقة وكان الاستعمار البريطاني مسيطرا على بورما والملايو (جزء من ماليزيا الآن) وسنغافورة والجزء الشمالي من بورنيو الذي ضُـمَّ أكثره الى الملايو فأصبح مكوِّنا لماليزيا الشرقية ولم يبق منه الا بروني التي لا تزال تابعة لبريطانيا ،

- وكان الاستعمار الفرنسي مسيطرا على لاوس وكمبوديا .
- وكان الاستعمار البرتغالي فالفرنسي مسيطرا على فيتنام .
- وكان الاستعمار الأمريكي مسيطرا على الفلبين .
- وكان الاستعمار الهولندي مسيطرا على اندونيسيا .

وقد تخلصت هذه الدول من الاستعمار الغربي ، ولكن النفوذ الشيوعي تسرب الى بعضها مثل : لاوس وفيتنام وكمبوديا ، وكانت فيتنام قد قُسمت إلى شمالية موالية للاتحاد السوفيتي وجنوبية موالية لأمريكا ولكن فيتنام الشمالية تمكنت من الزحف والسيطرة على فيتنام الجنوبية ، وتمت وحدة بين القسمين تحت النفوذ الروسي ، واستطاعت فيتنام كذلك ان تتسلط على كمبوديا ، وكانت كمبوديا يسارية ولكنها كانت موالية للصين ، فأصبحت فيتنام كلها وكمبوديا تدور في فلك الروس .

واتجه البعض الى التحالف مع الغرب مثل : تايلاند وماليزيا وسنغافورة والفلبين ووقف بعضها مع دول عدم الانحياز مثل : بورما واندونيسيا .

المقدمة الثانية : أثر الصين والهند في المنطقة

تعرضت دول هذه المنطقة الى هجرات صينية واسعة خلال العصور المختلفة ، وبخاصة خلال عصر الاستعمار الغربي ، فقد شجع هذا الاستعمار الصينيين على دخول هذه البلاد حتى يقوموا بدور الوسيط بين المستعمر وبين جماهير الشعوب ، وكان للصينيين حذق في مجال التجارة ، فثبتتوا أقدامهم في مجال الاقتصاد كما ثبتتوا جذورهم في كل

قطر نزلوا فيه ، مع استمرار المحافظة على صلتهم بالصين ومن العجيب أن انتقال الصين الى الشيوعية لم يغيّر من صلة الصينيين الرأسماليين في تلك البلاد بوطنهم الأصلي ، ولم يغير من نظرة الصين لهم والتزامها برعايتهم ، وقد وصل عدد الصينيين في بعض البلاد الى درجة تهدد المجتمع الأصلي ، فقد قاربوا في الملايو أن يصبحوا نصف السكان ، كما أصبحوا حوالى ثلاثة أرباع السكان في سنغافورة ووصلوا الى عدة ملايين في تايلاند واندونيسيا ، وسنتحدث عن هذا الموضوع بمزيد من التفصيل عند الحديث عن ماليزيا •

وقد تعرضت دول المنطقة الى زحف الحضارة الهندية في العصور السابقة ، فوجدت بها الهندوسية والبوذية ، ولا تزال البوذية ديناً لمعظم الأهالى في بورما وتايلاند وكمبوديا ولاوس وفيتنام وسنغافورة ، كما يدين بالهندوسية بعض الهنود الذين زحفوا الى المنطقة وكذلك بعض المواطنين الذين دخلوا دين الوافدين •

تلك هى نقاط الاتفاق بين هذه المجموعة من الدول ، وهناك نقاط خلاف أبرزها الاختلاف فى اللغة والاختلاف فى الدين والاختلافات التى أشرنا اليها فى الانتماء للمعسكر الشيوعى أو المعسكر الغربى أو الوقوف موقع الحيادة بين المعسكرين •

المقدمة الثالثة : الاسلام فى دول المنطقة

سندرس فيما بعد بالتفصيل موضوع انتشار الاسلام فى الملايو وفى اندونيسيا حتى أصبحتا دولتين اسلاميتين ، ولكننا هنا نريد أن نتعرف على مدى انتشار الاسلام فى الدول الأخرى بنفس المنطقة •

ومن الدراسة الطويلة التى قمت بها أستطيع أن أقسم دول هذه المنطقة ثلاثة أقسام :

القسم الأول :

الدول التى هى امتداد متصل لقارة آسيا فيما عدا شبه جزيرة

الملايو ، وهذه الدول هي بورما وتايلاند وكمبوديا ولاوس وفيتنام ، ويمكن القول إن هذا القسم تأثر تأثرا كبيرا بالفكر الصينى والهندي وبأديان الدولتين ، فقد انسابت له البوذية بكثرة ، والكونفوشية أحيانا ، وكان انسياب الفكر الصينى الى هذه الأرض المتصلة بالصين شيئا طبيعيا بحكم الجوار من جانب ، ونشاط الصين وعظمتها من جانب آخر ، ثم من جانب ثالث تدفق الهجرات الصينية على المنطقة بما تحمله من أفكار وعادات وأديان ، ومثل هذا يقال عن الهند ولكن نصيب الهند أقل من نصيب الصين لالتصاق الصين بدول المنطقة .

وينضم لهذا القسم جزيرة سنغافورة التى وصل عدد الصينيين الى حوالى ٧٥٪ من السكان وذلك لأنها امتداد طبيعى لشبه جزيرة الملايو التى هي ضمن الأرض المتصلة مباشرة بآسيا والصين ، ثم لان جزيرة سنغافورة لها موقع استراتيجى واقتصادى جذب لها رجال المال الصينيين .

ودول هذا القسم دخلها الاسلام وواجه بها البوذية والكونفوشية وانتشر بين بعض الجماعات ويكون المسلمون بها أقليات سنذكر تعدادها بعد قليل .

القسم الثانى :

الدول المتكونة من جزر غير متصلة بأرض آسيا أى بأرض الصين ، وهذه الدول أفلتت من الزحف الصينى العميق اذ ليست متصلة بالصين ، وبالتالي ليس الزحف سهلا . وعلى هذا لم يكن تأثرها بالصين وبالفكر الصينى عميقا وهذه الدول هي أندونيسيا والفلبين ، وهاتان الدولتان لم تزحف لهما أديان الصين بشكل قوى ، ثم انهما لم تنشأ بهما أديان من الداخل ، وكانتا لذلك مستعدتين لاستقبال أديان من الخارج .

فأما اندونيسيا فقد جاء لها دين الاسلام منذ مطلع الاسلام كما سنرى فيما بعد ، وانتشر فيها يوما بعد يوم كما سيجىء تفصيله ، وكانت

الدعوة هي وسيلة تقديم الإسلام إلى الناس ، حتى اعتنقته الجمة
العظمى من السكان ، وأصبحت اندونيسيا دولة اسلامية .

وأما الفلبين ، فقد دخلها الإسلام وانتشر بها وكان يمكن أن يعم
جزرها ويكوّن منها دولة اسلامية كما حدث بالنسبة لاندونيسيا ، ولكن
الفلبين طرأ بها في العصر الحديث طارئ غير مجرى الفكر الدينى بها ،
ذلك أن الفلبينيين تتكوّن من مجموعة من الجزر كانت تتبع امبراطورية ماجابيت
كالحال مع اندونيسيا ، فلما تفككت امبراطورية ماجابيت في أواخر القرن
الخامس عشر الميلادى بدأت جزر الفلبينيين تكوّن كل منها مملكة صغيرة
أو تتجمع بعضها مع بعض لتكوّن مملكة أكبر ، وكان الإسلام دين أكثرية
السكان بها واكثرية للمالك ، ولم يطل بها الزمن على هذا النحو حتى دهمها
للاستعمار الأوربى ابتداء من سنة ١٥٢١ ، واستولى عليها جزيرة أثر
أخرى ثم كوّن الاستعمار من هذه الجزر دولة أسماها « الفلبين »
نسبة الى الملك « فيليب الثانى » ملك أسبانيا ، ولأسبان تاريخ خاص في
الصراع الصليبي ، فقد حاربوا المسلمين في أسبانيا حتى قضوا عليهم
وعلى حضارتهم قبيل ذلك التاريخ أى سنة ١٤٩٢ ، وزحفوا الى الفلبين
ومعهم الفكر الصليبي ، فعملوا على نشر المسيحية فيها ، ومن هنا أصبحت
الفلبين هي الدولة الوحيدة المسيحية بين دول هذه المنطقة .

ويذكر الباحثون أن الأسبان حملوا الناس على اعتناق المسيحية
بالحديد والشار ، وأسسوا معاهدهم الكاثوليكية هناك ، وحاولوا القضاء
على كل المظاهر والمؤسسات الاسلامية وسنرى تفاصيل ذلك عند الحديث
عن الفلبين فيما بعد :

القسم الثالث : شبه جزيرة الملايو

وهذه الدولة متصلة بأرض آسيا من جانب ومن جانب آخر تقع
على مضيق ملقا الذى عرفته القوافل العربية قبل الإسلام ، وانتشر فيها
الإسلام منذ عهد مبكر ، ولكن اتصال الملايو بقارة آسيا جعلها تتعرض

لزحف صيني يهدد سكانها الأصليين من ناحية العدد ، فَوَجَدَت الملايو في الاسلام ملاذها الذي تتجمع حوله لتقاوم الزحف الذي يتجه ليستولى على رقعة الأرض وعلى الاقتصاد ، ويجعل أهل البلاد غرباء ، وبهذا كان انتشار الاسلام في الملايو واسعا إذ أصبح الاسلام للملايوين ديناً وقومية فإذا دخل أحد في الإسلام قيل إنه دخل في الملايوية ، لأن الملايوية والإسلام أصبحا شيئاً واحداً •

وخلاصة ذلك هي :

- ١ — انتشرت أديان الصين في الأقطار التي تعد امتداداً للأرضها •
- ٢ — انتشر الاسلام في الجزر التي لم تكن امتداداً للأرض الصين •
- ٣ — فرضت المسيحية على الفيلبين بسبب خضوعها المبكر للأسبانيا الصليبية •
- ٤ — أنقذ الاسلام الملايو قبل أن تذوب في الزحف الصيني ، وتجمع الملايويون حول الاسلام فأصبح الاسلام لهم ديناً وقومية •

وتعداد المسلمين بهذه الأقطار هو بوجه التقريب طبقاً لما حصلنا عليه من إحصائيات :

٦٠٠٠٠٠٠٠	حوالى	الفيلبين
٣٠٠٠٠٠٠٠	»	تايلاند (سيام)
٢٠٠٠٠٠٠٠	»	بورما
٥٠٠٠٠٠٠	»	كمبوديا
١٥٠٠٠٠٠	»	لاوس

أما فيتنام فالمسلمون فيها عدد قليل يصارع الشيوعية ، وأما اندونيسيا والملايو فلنا معها حديث طويل سنأخذ فيه بعد قليل ، ويلاحظ ان الإسلام ينتشر في الوقت الحاضر انتشاراً سريعاً في بلدان هذه المنطقة ، وقد نشطت المؤسسات الإسلامية بها بشكل ملحوظ •

اندونيسيا

تعريف باندونيسيا :

كلمة « اندونيسيا » ترجمة للاسم القديم الذى كان يطلق على هذه الجزر ، وهو « جزر الهند » ، وهناك أسماء أخرى كانت تطلق على هذه الجزر وهى أنسلند وأرخييل الملايو والأرخييل الهندى . واندونيسيا كلمة مركبة من كلمتين إحداهما « إندو » بمعنى الهند والثانية « نيسيا » بمعنى الجزر فاندونيسيا معناها « جزر الهند » وتسمى هذه الجزر « الأرض الخضراء » .

وقد بدأ ظهور كلمة « اندونيسيا » منذ سنة ١٨٥٠ م ويرى الكتاب الاندونيسيون أن هذه التسمية من اقتراح الاندونيسين ، ولكن شيوعها ارتبط ببعض الأساتذة الغربيين الذين أكثروا من الحديث عن هذه الكلمة معبرين بها عن الجزر التى كانت تابعة لهولندا . ومن هؤلاء العالم الأثنولوجى الأمريكى « Logan » الذى تحدث كثيرا عن إندونيسيا سنة ١٥٨٠ فى مجلة الأرخييل الهندى وآسيا الشرقية ، وكذلك العالم الانجليزى Earl عند كلامه عن أصل الشعوب فى المنطقة ، ثم العالم الألمانى « Bastian » سنة ١٨٨٤ كما وردت هذه التسمية فى دائرة المعارف البريطانية (الطبعة الرابعة عشرة) وتعتبر هذه التسمية دليل وحدة هذه الجزر ، فقد حرص الاندونيسيون على أن تكون هناك دولة واحدة لها السلطان على الجزر كلها ، ومن هنا لم يرحبوا باستعمال أسماء الجزر (جاوه — سومطرة ...) الا للحديث عن أجزاء الوطن الكبير . وفى العهد الهولندى كان يطلق على هذه الجزر « جزر الهند الهولندية » اذ كانت هولندا تتجه الى هذا التعبير الذى يوحى بالتفتت والتقسيم من جانب ، ويوحى بتبعية هذه الجزر لها من جانب آخر .

اندونيسيا على خريطة العالم :

نقع اندونيسيا بين محيطين عظيمين هما المحيط الهادى من الشرق والمحيط الهندى من الغرب ، وهى عبارة عن عدة آلاف من الجزر تصل الى ٧٩٠٠ جزيرة فى رأى بعض المؤلفين (١) يفصلها بعضها عن بعض

(1) Louis Fischer : The Story of Indonesia p. 6.



بحار كثيرة مثل بحر الصين الجنوبي وبحر جاوه وبحر بندا وبحر سلييس وغيرها ، وتتصل هذه البحار بعضها ببعض بعدة بوغازات ، فمن المحيط الهندي يمكننا أن ننفذ الى بحر الصين الجنوبي باجتياز بوغاز ملقا ، ومنه الى بحر جاوه باجتياز بوغاز كارمانا ، ومن المحيط الهندي أيضا يمكننا المرور ببوغاز سندنا أو ببوغاز بالي الى بحر جاوه ، ومنه ببوغاز مكاسر الى بحر سلييس •

وتقسم هذه المجموعة من الجزر عدة أقسام أشهرها :

- ١ — السندا الكبرى وتتكون من جزائر جاوه وسومطرة وبورنيو (كاليمنتان) وسلييس •
- ٢ — السندا الصغرى وتتكون من آلاف الجزر أهمها جزائر بالي ولومبوك وسمبادا وفلورس وتيمور وسمبا • والاندونيسيون يسمون هذه المجموعة من الجزر « نوساتجارا » •
- ٣ — جزائر الملوك وتشتمل على الجزر الواقعة بين سلييس وإيريان الغربية وتسمى جزر التوابل •
- ٤ — أريان الغربية •
- ٥ — جزر غير مسكونة أو أن سكانها قليلون جدا وهى عدة آلاف من الجزر متناثرة حول الجزر السابقة •

وهذه الجزر متسعة الأرجاء مترامية الأطراف ، يصل امتدادها من الغرب الى الشرق حوالى ثلاثة آلاف من الأميال ، ويصور الإندونيسيون طول هذه الجبهة أن الأرخبيل الإندونيسى لو فرش على خريطة أوربا وآسيا لكان طرف سومطرة الشمالى عند مدينة دبلن عاصمة إيرلندا ووصل الطرف الشرقى من إيريان الغربية الى مدينة طهران عاصمة إيران •

وتقع هذه الجزر فى المنطقة الاستوائية ، وبهذا فليس باندونيسيا فصولا السنة الأربعة ، الموجودة فى بلاد أخرى ، وجوها متماثلة طول العام تقريبا ، ومع وقوعها فى هذه المنطقة فان جوها ليس شديد الحرارة ، وذلك لأنها تتكون من جزر تتخللها البحار ، ثم لأن أرضها مكسوة بالخضرة والغابات مما جعلها تسمى « الأرض الخضراء » وبهذين السببين خففت

لفحة حرارة الشمس وأصبح جوها أقرب الى الاعتدال ، ولهذا يطلق على جو اندونيسيا « الجو لاستوائي المعتدل » ولكن سواحل اندونيسيا أشد حرارة وأعلى رطوبة لأنها مناطق منخفضة ، أما الجهات الداخلية المرتفعة فهي أقل حرارة ، ونسبة الرطوبة فيها منخفضة •

وتكثر الجبال في اندونيسيا ، وعلى قمم الجبال تنخفض درجة الحرارة انخفاضاً ملحوظاً ، ولكل مدينة كبيرة أو منطقة من مناطق اندونيسيا جبل يُهرع اليه السكان كما يهرع المصريون الى الساحل في حر الصيف ، وتنخفض درجة الحرارة رويداً رويداً مع صعود الجبل ، وبعض جبال إيريان الغربية تكسوها الثلوج دائماً ، لان ارتفاعها يصل الى ٥٠٠٠ متر وهو ارتفاع فوق مستوى الجليد •

صورة من الطبيعة الإندونيسية :

ويصف الأستاذ دى مارتون De Martonne (١) غابات إندونيسيا وحيواناتها وصفاً صادقاً فيقول : « إذا صرفنا النظر عن جزيرة جاوة — وقد قُطعت معظم غاباتها لتحل محلها الزراعة — فإن الجزائر الإندونيسية الأخرى مثل سومطرة وبورنيو وسليبيس وغنيا الجديدة تتجلى فيها الغابات الاستوائية في أجلى مظاهرها • فهناك تغطي الغابات مساحات شاسعة من الأرض ، وقد تزاхمت أشجارها الضخمة وتنوعت أشكالها وامتدت جذوعها امتداداً عظيماً في الفضاء ، وانتشرت فروعها وأوراقها وتشابكت حتى حجب ضوء الشمس تماماً في داخل الغابة ، حتى ليشعر المرء وهو يجتاز مفاوزها بالرهبة والخوف والوحشة • ويضاعف من مشقة السير فيها تلك النباتات المتسلقة التي لا حصر لها ، والتي تلتف حول جذوع الأشجار تحاول بدورها الوصول هي الأخرى إلى ضوء الشمس ، ناهيك بمختلف النباتات الأرضية القصيرة والمستقعات العديدة التي تجعل اختراق تلك الغابات يكاد يكون مستحيلاً ، وقد يصادف المرء ما يتراوح بين مائتين وثلثمائة نوع من مختلف الأشجار في مسافة لا تتجاوز بضعة كيلو مترات ، وفي بعض الحالات تتضخم الأشجار حتى يبلغ طوك قطر

ساقها أكثر من ستة أمتار ، وطول جذعها ستين متراً ، ومن خلال أوراق الأشجار الخضراء وفوق هذا « الدهليز » العظيم تبدو مجموعات شتى من الأزهار في ألوان زاهية جميلة ، منها الأبيض والأحمر والأصفر والبرتقالي والبنفسجي . وفي هذا الخضم الهائل تنتشر أنواع شتى من حيوانات الغابة ، وهي تمتاز بصغر جسمها وخفة حركتها وعظم قدرتها على القفز وتسلق الأغصان ، وهي تقتات من ثمار الأشجار وحبوبها ومنها القردة والنسائيس والغوريلا وشتى أنواع الطيور ذات الريش الملون البديع كالبيغاء والطاووس وصائد السمك ، والحمام البري والبط البري وطيور الجنة والسنجاب الطائر ، وغيرها من الطيور والحيوانات » .

وقد شاهدت هذه المناظر وعشت غترات طويلة على حافة هذه الغابات وعلى مقربة منها ورأيت ينابيع المياه التي تتفجر من قلب الصخور وتنساب في حركة بديعة من أعلى الى أسفل ، واستمعت الى أصوات الطيور وترجيع صداها ، ورأيت ألوانا من الحيوانات والزواحف تدعو أحيانا للسرور وأحيانا للرعب والخوف ، ولكن المتعة كانت تصاحبنا دائما .

تعريف سريع بجزر إندونيسيا :

نمر مروراً سريعاً بجزر إندونيسيا من الغرب إلى الشرق وأول ما يطلعنا من الجهة الغربية سومطرة ، وطولها يبلغ نحو ألف ميل ويفصلها عن شبه جزيرة الملايو مضيق ملقا ، وجزيرة سومطرة تبدأ من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي ، وجانبها الغربي تبرز فيه الجبال الشاهقة ثم تنحدر إلى الجانب الشرقي حيث تكثر الغابات والمستنقعات .

أما الجانب الجنوبي من الجزيرة فكثر فيه زراعة الأرز ، وتنتشر مزارع المطاط والسكر ، وسومطرة من أكبر مصادر البترول في إندونيسيا ، وعلى مقربة منها بعض الجزر الصغيرة التي يكثر بها القصدير .

وسكان سومطرة حوالى ٢٠ مليون نسمة ، وفي الطرف الشمالى توجد منطقة « آتشه » التي سنشاهدها فيما بعد من أولى الدول

الإسلامية في اندونيسيا ، وفي منتصف الجزيرة يوجد شعب مينكابو الذى يعد من أعظم الشعوب الاندونيسية وأكثرها امتيازاً .

وفي جنوب الجزيرة توجد منطقة بالمبانج ، وتعتبر من المناطق التى احتضنت الإسلام ، وتنتشر فيها المدارس الإسلامية كالحال فى منطقة « بدانج » فى منتصف الجزيرة .

أما جزيرة جاوه فتعتبر امتداداً لجزيرة سومطرة وهى أغنى جزر اندونيسيا وأكثرها سكاناً ، بل هى من أنضر بلاد الأرض ، وفى جاوه الغربية تقع مدينة جاكارتا عاصمة إندونيسيا ، وتقع كذلك مدينة باندونج الشهيرة التى عُقد بها مؤتمر باندونج ، وبالقرب من هذه المدينة توجد منطقة السندا حيث يعيش شعب السندا ، وفى وسط جاوة توجد العاصمة الثقافية وهى جوكجاكارتا ، وكانت عاصمة الجمهورية خلال الصراع بين جمهورية إندونيسيا الناشئة وبين هولندا .

وفى وسط جاوة كذلك توجد مدينة صولو التى يعيش بها عدد كبير من العرب الذين هاجر أجدادهم إلى إندونيسيا واستوطنوها ، منذ زمن بعيد ، وبها كثير من المدارس والمعاهد الإسلامية التى تقيمها السلالات العربية وتهتم بدراسة اللغة العربية ، بالإضافة إلى المناهج الاندونيسية .

وفى شرق جاوه توجد مدينة سورابايا ، وهى من المدن الكبرى بإندونيسيا ، وقد قدمت تضحيات هائلة إبان الصراع من أجل الاستقلال

وعن جاوه يتحدث المؤرخ الهندى رامايانا فى كتابه بالسنسكريتية الذى ألفه سنة ١٥٠ ميلادية فيقول « انظر جيداً إلى جاوة التى فيها سبعة ملوك ، فهى جزيرة الذهب والفضة » ويبدو أن الهنود جذبتهم هذه العبارة ، فاندفعوا منذ عهد سحيق إلى جاوة وحافظوا على عقيدتهم الهندوكية ، وربما دعوا لها بعض الجاويين .

وفى وسط جاوه معبدان هندوكيان كبيران هما معبد « برامبانان » ومعبد « بوروبودور » .

وإذا ذهبنا إلى الشرق من جاوه فإننا نصل إلى سلسلة جزر

سِيندا الصغرى ، ويسمىها الإندونيسيون « فوساتنجارا » وأهمها جزيرة « بالى » التى تعدّ قطعة من الجنة لجمال مناظرها ، وتسمى كذلك جزيرة الآلهة ، لكثرة المعبودات فيها ، ويكثر أن يعيش فيها جماعات يرتبطون بالديانة الهندية أو البوذية أحيانا ، وجزيرة بالى تعيش على الموسيقى والرقص والنحت والفنون ، مما يجذب لها كثيرا من السياح .

وهناك كذلك جزيرة « بورنيو » وتسمى أيضا كليمنتان ، وتعتبر من ناحية الحجم الجزيرة الثالثة فى العالم بعد جرين لاند ونيوجينى ، وفى الشمال منها منطقة لا تتبع إندونيسيا وهى صباح وسراوك ، وتتبعان ماليزيا حاليا .

وهناك كذلك جزر الملوك وكانت تسمى جزر التوابل وهى كثيرة العدد جدا .

أما مجموعة الجزر فى الركن الشمالى الشرقى من إندونيسيا فهى سلاويسى « اسلييس » وهى من أغرب الجزر فى ناحية شكلها ، فالناظر لها يرى أذرعا الممتدة ، كأنها كائن حي .

وأخيرا توجد جزيرة ايريان الغربية ، أما الجانب الشرقى لهذه الجزيرة فتابع لأستراليا ، وقد حاولت هولندا أن تتمسك بهذا الجزء من الأرخبيل الإندونيسى ، ولكنها لم تستطع ، وعاد هذا الجزء إلى الوطن الأم .

سكان أندونيسيا :

يبلغ عدد سكان أندونيسيا حوالى ١٤٠ مليوناً (١) ، وأكثرهم من جنس يدعى الآن الاندونيسى أو الملايوى وهو جنس وافد من الخارج منذ حوالى أربعة آلاف سنة ق م ، وكان يظن أنه وافد أساسا من الصين

(١) اندونيسيا سادسة بلاد العالم فى تعداد السكان بعد الصين والهند والاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة واليابان .

والهند الصينية ، ولكن البحوث الحديثة أثبتت أن المصريين والفينيقيين كانوا من الأجناس المبكرة التي نزلت اندونيسيا للتجارة واستوطنتها ولا تزال بافندونيسيا رموز نشأت وتطورت في مصر ونقلها هؤلاء الرحالة الى وطنهم الجديد بافندونيسيا ، وهذه الرموز تدل على أصول هذه المجموعة المهاجرة ويقول Harrison إن التجار من القطر المصري ومن بلاد العرب كانوا يأتون الى ملقا وإلى جزر التوابل ، وقد استقر هناك بعضهم (١) .

وسكان اندونيسيا موزعون توزيعا غير منتظم على الجزر الاندونيسية وبناء على تعداد سنة ١٩٧٨ يصل سكان اندونيسيا ١٤١٥٠٠٠٠٠ نسمة وهم موزعون بالجزر كالاتى :

الجزيرة	عدد السكان	المساحة
جاوه	٨٠ مليونا	٥١٢٠٠ ميل مربع
سومطرة	٢٢ »	١٨٢٠٠٠ » »
سولاويشى	١٠ ملايين	٧٣١٥٠ ميلامربع
كاليمنتان (بورينو)	٥ »	٢٠٨٨٠٠ ميلمربع
ايربان الغربية	١ مليون واحد	٦٢٠٠٠ » »

وباقى السكان يعيشون متناثرين فى الجزر الأخرى .

وبسبب كثرة السكان فى جزيرة جاوه مع ضيق مساحتها تحاول الحكومة تهجير بعض السكان الى الجزر الأخرى التى لاتزال بها مناطق خالية أو شبه خالية من السكان ، كما أن سكان جزيرة جاوه يبذلون أقصى الجهد لزراعة كل شبر فيها ليتناسب إنتاجها بشك ما مع أعدادهم الوفيرة .

ولون السكان يشبه لون السكان بالشرق الأوسط تقريبا ، والشعر أسود طويل ناعم ، والعيون سوداء وأحيانا فيها اللون العسلى ،

والمقامة أميل الى القصر مع هيف يقرب من النحول ، والأنف أفضس قليلا ، والقواطع بارزة نوعا ما أحيانا ، والأخلاق رضىة الى أبعد حد ، والشباب الأندونيسى ذكى ، محب للعلم ، يُجِلُّ المعلم الى درجة التقديس ، مثابر ، يحاول أن يعوّض ما فاتته من سبق فى مختلف الميادين . والمرأة الاندونيسية جميلة جذابة ، ولها نشاط كبير فى كل مجال ، وهى خير عون لزوجها ، وهى دعامة كبيرة من دعامات المجتمع . ويمتاز الاندونيسيون على العموم بالصبر والرضا والهدوء ،

ويتضح فى اندونيسيا أكثر مما يتضح فى أى قطر آخر الفرق بين طوائف السكان ، ففى اندونيسيا جماعات وصلت غاية رغبة من المدنية والتقدم ، تجيد لغات أجنبية وتحب الرقص والموسيقى ، وتجيد تنسيق الأثاث والزهور واختيار الأزياء ، وبجوارها جماعات بدائية تراها فتحسب أنك لا تزال تعيش فيما قبل التاريخ ، وهؤلاء البدائيون هم قبائل كوبولوبو بسومطرة وقبائل الدايك فى كلمنتان وقبائل توراجا فى سلاوىسى ..

وقد عشت فترة فى هذه المناطق البدائية حيث يكثر الشعرى أو ما يقرب من العرى ، وحيث يعيش الناس على الصيد ، فى بيوت من القش على أن المدنية ترحف على هؤلاء بنشاط عظيم وتطور واسع .

اللغات فى اندونيسيا :

تتكون اندونيسيا من آلاف الجزر كما ذكرنا من قبل ، وكانت لكل جزيرة لغتها الخاصة التى تختلف عن غيرها من لغات الجزر الأخرى . وفى بعض الأحيان تكونت ممالك ضمت مجموعة من الجزر ، ولكن لم توجهه عناية لتوحيد اللغة ، فقد اتجهت عناية الدول الى الوحدة السياسية والعسكرية وليس للوحدة الثقافية ، ثم إن توحيد اللغة كان عملا شاقا بعيد المنال .

ولم يقف الأمر عند اختلاف اللغات باختلاف الجزر ، بل أن الجزيرة



نموذج للمرأة الاندونيسية ، وقد كانت طالباتي هناك مثاليات في العلم والخلق والتعاون وكل الصفات الجميلة .

الواحدة كانت تعيش بها جماعات منفصلة بعضها عن بعض ، وتختلف اللغة في جماعة عنها في أخرى فالجبال الشامخة ، والبراكين الثائرة ، والغابات الكثيفة ، والبحيرات والواسعة ، والمستنقعات الفسيحة ، كانت كلها حواجز بين جماعة وأخرى ، وربما كانت الجماعة التي تعيش على حافة بركان أو بجانب أكمة تظن أنه ليس هناك جماعة أخرى خلف البركان الهائج أو وراء الأكمة الصاخبة ، وربما كان من المفيد أن أصوّر للقارئ صورة حديثة لهذا الوضع ، فبلدة صولو في وسط جاوه يقع بجانبها جبل شاهق اسمه «توانج مانجو» يصعد له السكان هرباً من موجات الحر، وعلى بعد حوالي مائة كيلو تقع مدينة مديون ، ولها جبل اسمه «سرانانج» يصعده سكان مديون من حين لآخر كذلك ومنذ حوالي منتصف القرن العشرين فقط اتضح أن جبل توانج مانجو هو نفسه جبل سرانانج وأن صولو تقع على سفحه من جانب ومديون على سفحه من جانب آخر ، وعلى طول التاريخ القديم قامت بصولو وبمديون جماعات كانت قليلة الصلة بالجماعات التي تقع على السفح الآخر ، وكانت هذه الجماعة وتلك تصل في الصعود الى قرب القمة حيث تواجه الغابات الكثيفة ، ثم تتوقف كل منها ظانة أنها وصلت إلى آخر الشوط ، وقد شق حديثاً طريق يخترق غابات القمة فربط بين الجانبين •

وقد سببت الجبال الشامخة والغابات الكثيفة عزلاً بين منطقة وأخرى ، فتعددت اللغات مع تعدد الجماعات التي تعيش في هذه المناطق ، وعلى هذا وُجِدَت لغات متعددة في الجزيرة الواحدة ، فهناك مثلاً في جاوه ثلاث لغات رئيسية تتبع الجماعات الرئيسية في الجزيرة وهذه الجماعات هي جماعات جاوه في وسط الجزيرة ولغتهم الجاوية ، وجماعات السوندا في جاوه الغربية ولغتهم لغة السوندا ، وجماعات مادورا في جاوه الشرقية ولهم لغة تسمى باسمهم كذلك ، ومرة أخرى لم يقف الأمر عند هذا الحد ، فإن اللغة الجاوية مثلاً لها أو بها درجات وطبقات ، فالطبقة الدنيا تسمى «نجوكو» وهي تستعمل بين الأصدقاء وفي داخل الأسرة ، والطبقة العليا وتسمى «كراما» وتستعمل مع الأكبر سناً أو الأعلى مركزاً

ومنزلة ، وهناك لغة جاوية أعلى شأنًا وهي تستعمل في القصور وبين رجال البلاط ، وكان المرحوم الاستاذ فريد معروف يجيد هذه اللغة لعمق صلته بسلطان جوكجا ، وكان الاستاذ فريد استاذًا معنا في الجامعة ، وكنا نسأله أن يتحدث بها أمامنا فنحس بأنها لغة فيها رهبة وموسيقى مع أننا لا نعرفها •

على هذا فليس من المبالغة أن يقال إنه كان باندونيسيا مئات اللغات قبل أن توجد اللغة الاندونيسية ، وكان هذا يسبب تعقيدا في العلاقات بين سكان هذه الجزر (١) •

وكان الإحساس قويا بمشكلة اختلاف اللغات في الوطن الواحد أو الذى اتجهت الجهود لتوحيده ، ولقوة هذا الإحساس تضافرت الجهود للحصول على حل لهذه المشكلة ، وكان الحل يكمن في اللغة الملايوية التى كانت متداولة بين التجار ، وأصحاب الأعمال وكثيرين من السكان في المنطقة بأسرها ، أى في جزر الفيلبين وفي شبه جزيرة الملايو ، وفي أكثر جزر إندونيسيا ، وكانت أشبه باللغة السواحيلية بإفريقية ، وكانت هذه اللغة تستمد أصولها من اللغات الأصلية بتلك البلاد وتقتبس من اللغات المختلفة كلمات سرعان ما تصبح أصيلة في هذه اللغة ، وقد ساعد تطور الاتصال التجارى والدينى والثقافى بين سكان هذه المنطقة وبين التجار الهنود والعرب والصينيين على تطور هذه اللغة وازدهارها •

ثم أسهمت اللغات الأسبانية والبرتغالية والهولندية عندما وفدت لهذه المنطقة في إثراء اللغة الملايوية (٢) •

ورغبة في جعل هذه اللغة هى اللغة العامة باندونيسيا وقف بطل إندونيسى اسمه جايا دنجرات سنة ١٩٢٤ في مجلس الشعب الذى كانت

(١) مجلة الشؤون الاندونيسية : العدد السادس — السنة الرابعة ص ٢١

(٢) انظر تاريخ اندونيسيا الادبى والتحريرى للدكتور فؤاد فخر الدين

هولندا قد أنشأته فألقى خطابه باللغة الملايوية متحدياً اللغة الهولندية .
وفي سنة ١٩٣٨ أصدر بعض الشباب الإندونيسيين مجلة باللغة
الملايوية (١) .

وفي سنة ١٩٣٠ قرر الشباب الإندونيسي الذي كان يتلقى ثقافته
بمدينة لاهاى بهولندا أن اندونيسيا وطن واحد الأمة واحدة تتكلم
لغة واحدة .

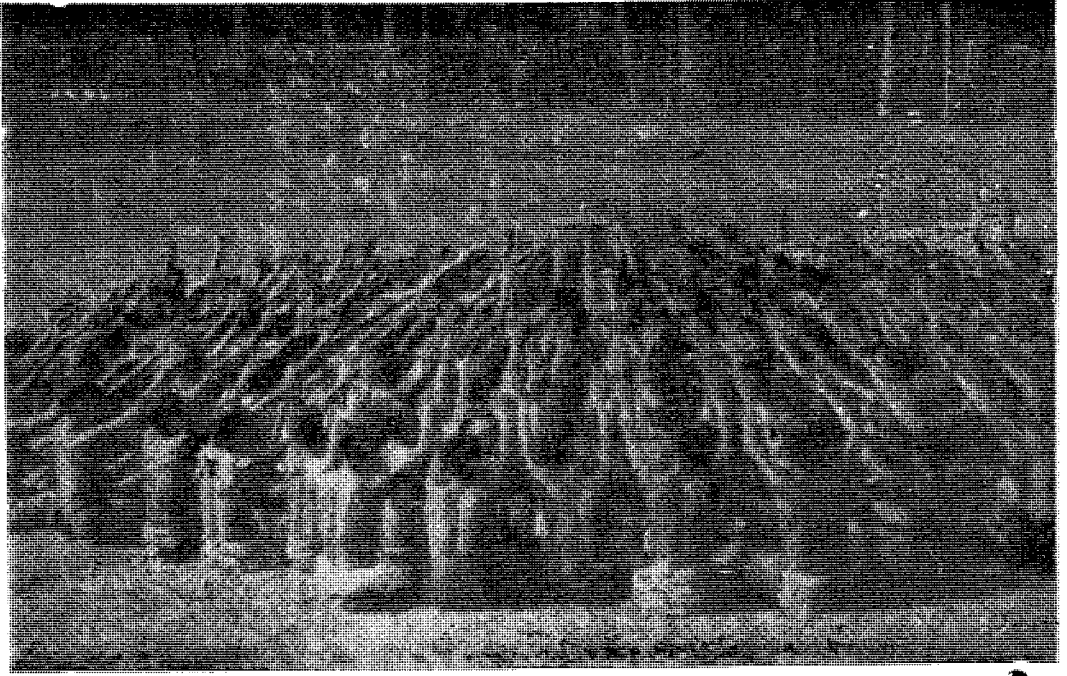
ثم صدر القرار بأن تكون « اللغة الإندونيسية » التي تتخذ جذورها
من اللغة الملايوية لغة لجمهورية اندونيسيا ، فساعد ذلك على إزالة فوارق
كانت موجودة ومنتشرة بالبلاد ، وقد ساعدت هذه الفوارق على الإصرار
على توحيد اللغة ، ومن مظاهر هذه الفوارق ما شاهدته ، فمثلا كان معنا
استاذ من جاوه الوسطى ترك بلاده « جاوه الوسطى » الى مصر والتحق
بالأزهر وكان ذلك في الثلاثينات ، وطالت إقامته في مصر حتى حصل على
أعلى الدرجات العلمية ، وعاد الى اندونيسيا في الخمسينات بعد أن أصبحت
اللغة الإندونيسية هي لغة الثقافة والتعليم ، ولكن هذا الاستاذ لم يكن
يعرف اللغة الإندونيسية ، لأنها لم تكن قد انتشرت في مطلع حياته وكان
هناك عدد كبير من الطلاب لا يعرفون اللغة الجاوية لانهم جاءوا من جزر
غير جاوة . فاضطر أن يتخذ اللغة العربية لغة يعلم بها ، ولم يكن كل
الطلاب يستطيعون التلقى باللغة العربية ، وكانت أزمة ، حلها الزمن
عندما اضطر صاحبنا أن يتعلم الإندونيسية يوما بعد يوم ، وعاما بعد عام .

وفي جوكتا كرنا المدينة الجامعية التقى طلاب من مختلف الجزر
يجيدون اللغة الإندونيسية مع اختلاف لغتهم الأصلية ، وتمت زيجات بين
الطلاب والطالبات ونشأ جيل جديد يعرف الإندونيسية ، ولكن عندما
كان هذا الجيل يذهب الى مسقط رأس الأب أو الأم كان يعجز عن الحديث
بلغة أهل الأب أو أهل الأم .

وأقد كان جهدا كبيرا بذلته اندونيسيا في عصرها الحاضر لتوحيد اللغة بين هذه الجزر المتعددة ، وقد استجاب الناس للغة الجديدة ، واستجابت اللغة الجديدة لكل فنون المعرفة ، وانتشرت بين الجزر المترامية الأطراف ، وأصبحت لغة الجميع ، ولا مانع أن تعيش معها اللغات المحلية •

الاتجاهات الدينية قبل الاسلام في اندونيسيا

في التاريخ القديم كان السكان في جزر اندونيسيا وفي الملايو يتجهون في عبادتهم اتجاهات بدائية كأكثر سكان العالم آنذاك ، فكانوا يعبدون الأرواح ، وكانوا يعتقدون أن هناك روحا لكل كائن ، ولو كان نباتا أو جمادا ، ومن هنا اتجهوا لعبادة بعض الأشجار التي كانت ذات نفع لهم (١) ، وكانوا يرون أن الانسان عندما يموت تبقى روحه ترغرف حول أسرته وكانوا يطلقون البخور تكريما للأرواح الموتى التي تتقدم لزيارة الأهالي ولا تزال هذه الاتجاهات تعيش في جزيرة بالي ، قد رأيتهم هناك يعنون بذلك أدق عناية ، ورأيت سكان الحى أو سكان الشارع يجتمعون حول المباخر ليلة من ليالى الأسبوع في شبه مهرجان يسجدون ويتعبدون ويتصايحون معتقدين أن أرواح السابقين معهم في هذا الحفل •



عُباد الأرواح في بالي

وبسبب هذه الاحجار التي كانت تستعمل مباخر ظهرت عبادة الأوثان في بعض الأحيان فقد أصبح الحجر في ذاته معظما ، ولو لم ينبعث منه البخور ، ويذكر بعض المؤرخين أن الاسلام عندما ظهر في بعض مناطق جاوه دفن السكان أصنامهم بعد أن دخلوا الاسلام ، ولهذا لا يزال الزراع يجدون هذه الأصنام وهم يحرثون الأرض في الحدود الفاصلة بين صولو وجوكجا (١) .

وقد أشرنا من قبل الى أن المصريين عرفوا الطريق الى جزر اندونيسيا • وأنهم أقاموا بها وباشروا بعض الأعمال الكبرى ، ويبدو أن المصريين أخذوا معهم عاداتهم التي كانت متبعة عند المصريين القدماء ، وهي وضع بعض الأطعمة مع الميت وبعض الأسلحة والحلى معه اعتقادا منهم أن الروح ستعود اليه من حين الى آخر ، وينبغي أن يُعَدَّ قبره

(١) السيد أحمد السقاف : تاريخ اندونيسيا قبل الاسلام ص ٧ .

اعدادا يناسب هذه العودة ٠٠٠٠ ، وقد وُجِدَ في اندونيسيا بعض هذه التصرفات وقد يكون ذلك تأثرا بمصر وقد يكون سمة العصر بوجه عام .

وفي بعض المناطق باندونيسيا كانوا يعبدون التماسيح والحيوانات المفترسة إجلالا لقوتها وخطرها ، وقد تحول هذا الاتجاه الى عبادة القوة أيما كان مصدرها ، فقد رأيت السكان في بعض مناطق إندونيسيا يصوِّرون الرجل الغربى صورة عليها هيئة فيجعلونه أحمر الوجه أزرق العينين كثيف الشارب حازم القسَمات ، ثم يعبدون هذا الرسم أو هذا التمثال .

ولعل اندونيسيا في ذلك متأثرة بالهند ومن الواضح أن الهند كانت عظيمة التأثير في اندونيسيا وما حولها ، وكانت المعبودات في الهند متعددة ، ويقول أبو الحسن الندوى : إن الآلهة في الهند وصلت الى عدة ملايين ، فقد أصبح كل شيء رائع ، وكل مرفق من مرافق الحياة آلهة يُعبد ، حتى جاوزت الأصنام والتمثيل والآلهة الحصر والعد ، ووصل الهنود الى عبادة خطوط السكك الحديدية ، بل عبادة الأوربي الذي صنع هذه الخطوط . (١) .

وانتقل تأثير الهند خطوة أخرى مباشرة ، هي أن البوذية التي وُلِدَت في الهند ونشأت بها لتقاوم الهندوكية ، ولتُحارب نظام الطبقات بها ، هذه البوذية لم يُكْتَب لها النجاح في هذا الصراع ، فاضطرت للهجرة من الهند واتجهت نحو الشرق من الهند ، وكان في الشرق فراغ فوجدت البوذية مجالا لها فانتشرت وتعمقت في هذه البقاع ، ومنها جزر اندونيسيا وشبه جزيرة الملايو وغيرها من أقطار المنطقة ، وقد تكونت في اندونيسيا امبراطورية بوذية هي امبراطورية « سيري ويجايا » من القرن الخامس وظلت حتى القرن الرابع عشر الميلادي ، وكانت عاصمتها في سومطرة ، وشملت جزرا متعددة في هذه المناطق كما سنرى فيما بعد .

وانتخذ تأثير الهند شكلا أقوى عندما زحفت الهندوكية نفسها الى اندونيسيا والملايو مع الوافدين من الهند تجارا أو رحالة ، واعتنقها

بعض المواطنين الاندونيسيين والملاويين وقد استطاعت هذه الديانة أن تصبح الدين الرسمي لاندونيسيا ، وأن تتكون في ظلها امبراطورية « ماجابيت » من سنة ١٢٩٣ م الى ١٤٧٨ م وسنتكلم عنها فيما بعد .

الاديان الان :

شرحنا آنفا أن البدائية والبوذية والهندوكية كانت هي الأديان السائدة باندونيسيا قبل الاسلام ، ونستمر لنتحدث عن الأديان بعد ذلك .
لقد دخل الإسلام اندونيسيا منذ عهوده المبكرة كما سنرى فيما بعد ، ثم دخلت المسيحية مع الزحف الأوربي ، وواجه الاندونيسيون هذا الزحف في حروب لا تنتقطع ، وكان زعماء المواجهة مسلمين ، وبخاصة أن بعض زعماء الهندوكية تعاونوا مع المستعمرين ، والتف المجاهدون الإندونيسيون حول الزعماء المسلمين وأصبح الاسلام دنيا وقومية (١) .

ومن ناحية أخرى عجز الأوروبيون عن نشر المسيحية عن طريق الدعاية والإعلان ، وكان عجزهم في ذلك تاما وأكيدا ، فلبثوا الى طرق ملتوية لينشروا المسيحية ، وهذه الطرق هي إنشاء المدارس والمستشفيات ومواجهة الأطفال في المدارس بهذا الدين وهم لا يستطيعون المقاومة ، ومواجهة المرضى كذلك وهم يحتاجون للعلاج ، وهناك طريق ثالث سلكه المستعمر وهو الوظائف التي كانت تقدم للمسيحيين .

والمهم أن الاسلام والمسيحية أصبحا من الأديان باندونيسيا ، ومن الواضح أن الإسلام كان واسع الانتشار ، ولكنه كان أحيانا إسلاماً غير عميق الفكر لأن الذين نقلوه الى المنطقة كانوا تجارا أو — على أحسن الأحوال — شيوخا إن عرفوا جانب العبادات في الإسلام فغالبا كانوا يجهلون جانب الحضارة في هذا الدين العظيم ، فليست لهم دراسة في اتجاهات الاسلام في السياسة والاقتصاد والتربية والتعليم والسلم والحرب ولو دخل الإسلام بفكره وحضارته لحقق نجاحا أعظم واستولى على القلوب كلها تقريبا .

(١) اندونيسيا الثائرة : من مطبوعات المركز العام لجمعيات استقلال اندونيسيا ص ٦٥ وسنتحدث من هذا الموضوع فيما بعد .

وينبغي أن نقرر كذلك أن ضعف البلاد العربية الذى ظهر فى فترات كثيرة من التاريخ قد انعكس على الدعوة الاسلامية باندونيسيا ، فكثير من الناس كانوا يُجْرئون مقارنة تقدم أوربا المسيحية وتخلف دول الشرق الاسلامية ، وكان هؤلاء يربطون ذلك بالدين وذلك جهل بحقائق الأشياء ، فلم تنتهز أوربا بسبب المسيحية ، بل إن نهضتها بدأت بعد أن استبعدت المسيحية من برنامجها وأصبحت دولها دولاً علمانية ، ولم يتخلف العرب بسبب الإسلام لأنهم فى ظل الإسلام حققوا أعظم انتصارات عسكرية وثقافية ، وإنما بدأ تخلفهم بعد أن أهملوا الإسلام ولم يلتزموا بأدابه وقيمه .

وعلى كل حال فالدراسات الموثوق بها تجعل السكان باندونيسيا موزعين على الأديان كالتالى :

٩٠ ٪ مسلمون ٤ ٪ يتبعون البوذية والهندوسية
٣ ٪ مسيحيون ٣ ٪ أديان بدائية أو لا أديان (١)

ومع هذا فإن اندونيسيا دولة زمنية (علمانية) أى أنها لا تنص فى دستورها على أن دين الدولة هو الاسلام ، ولعل ذلك كان اتباعا للتقليد الذى خلقه كمال أتاتورك فى تركيا ، وكان هذا شديد التأثير بما أصاب تركيا بسبب انحراف الكثيرين من الخلفاء العثمانيين (٢) ويقال إنه كان يعمل بتأثير الماسونية العالمية أو الفكر اليهودى ، ولذلك نرجو ألا يكون قدوة تُحتذى ، وقد ضعفت اتجاهاته المعادية للاسلام بعد نهايته ، وعادت تركيا الى الطريق السليم أو كادت .

وتبذل الآن مجهودات باندونيسيا لتصحيح الوضع حتى يتم النص على أن دين الدولة الرسمى هو الاسلام .

(١) يقرر Datus Snith فى كتابه : The Land and People of Indonesia ص ٢٧ أن أكثر من تسعة أعشار السكان باندونيسيا مسلمون ، يتبعون دين محمد النبى العربى ، والاحصائية التى أوردناها مأخوذة من كتاب « اندونيسيا بين شعوب العالم » للأستاذ حسن جوهر وعبد الحميد بيومى ص ٨٥ — ٨٦ ، ويقول الباحث الاندونيسى « دكتور فؤاد مخر الدين » أن المسلمين باندونيسيا أكثر من ٨٥ ٪ (تاريخ اندونيسيا الأدبى والاسلامى ص ٢٥) .
(٢) عن هذا الموضوع نوصى القارئ بالاطلاع على الجزء الخامس من هذه الموسوعة .

ماليزيا

تعريف بماليزيا :

بعد أن قدمنا تعريفا سريعا باندونيسيا ، نجىء إلى ماليزيا لنقدم تعريفا سريعا بها ، ثم نتحدث عن الدولتين بشيء من التفصيل .
وتتكون ماليزيا — كما سيأتى تفصيله فيما بعد — من جزأين رئيسين هما : ماليزيا الشرقية وماليزيا الغربية .

وماليزيا الشرقية بها ولايتان كانتا من قبل مستعمرتين بريطانيتين وهما تقعان فى شمال جزيرة كالنتان ، وهاتان الولايتان هما :

١ — صباح أوسابه Sabah ومساحتها ٢٩ ألف ميل مربع وعدد سكانها حوالى ٦٥٠ ألف نسمة ، وعاصمتها « كوتاكيئا بالو » وجبالها أعلى جبال فى ماليزيا .

٢ — سراوك : مساحتها ٤٨ ألف ميل مربع وعدد سكانها حوالى المليون وعاصمتها « كوشنج » وبها جبل « مورود » وهو من أعلى جبال العالم اذ يصل ارتفاعه الى ٨٠٠٠ قدم .

وماليزيا الغربية تشمل شبه جزيرة الملايو ، وبها عشر ولايات يضاف لها ولاية جزيرة بينانج . وكانت هناك ولاية سنغافورة التى كان يضمها اتحاد ماليزيا ولكن سنغافورة انفصلت عن الاتحاد كما سنرى فيما بعد وسكان ماليزيا الآن حوالى ١٢ مليون نسمة .

والجو فى ماليزيا قريب الشبه بجو اندونيسيا .

وولايات شبه جزيرة الملايو هى :

١ — جوهور ومساحتها ٧٣٣٠ ميلا مربعا وسكانها حوالى مليون وربع مليون نسمة وعاصمتها « جوهور بهارو » ويربطها بسنغافورة جسر صناعى ، وبها مبان جميلة منها « القصر الكبير » ومسجد أبى بكر ، وبها شلالات جميلة المنظر .

(م ٢٨ — الموسوعة التاريخية)

٢ — قدح : مساحتها ٣٦٣٩ ميلا مربعا وعدد سكانها حوالى المليون ، وعاصمتها « الورستار » وهى ولاية زراعية ، وتقع على بعد ٢٥ ميلا من شواطئها جزيرة « لنكاوى » التى يقصدها العظماء لقضاء الاجازات . .

٣ — ملقا : أو ملاكا : مساحتها ٦٣٧ ميلا مربعا وعدد سكانها حوالى نصف مليون نسمة ، وعاصمتها مدينة ملقا وهى أقدم مدن ماليزيا ، وبها آثار تاريخية ومخلفات لعهد الحكم البرتغالى والهولندى .

٤ — كلاتنن : مساحتها ٥٧٦٥ ميلا مربعا وعدد سكانها حوالى ٧٠٠.٠٠٠ نسمة وعاصمتها « كوتابارو » وتشتهر بأنها موطن الثقافات التقليدية كما تشتهر بصناعة الباتيك والصناعة الفضية .

٥ — نجرى سمبيلان : مساحتها ٢٥٦٥ ميلا مربعا وعدد سكانها حوالى نصف مليون وعاصمتها « سرمين » وبها منابع المياه المعدنية .

٦ — باهانج : ومساحتها ١٣٨٨٦ ميلا مربعا وعدد سكانها يزيد قليلا عن نصف مليون وعاصمتها « كوانتن » وهى أكبر ولاية فى شبه جزيرة الملايو ، وبها أماكن هامة منها هضبة كامبيرون ، وجبال غريزس .

٧ — بيراق : مساحتها ٨١١٠ أميال مربعة ، وعدد سكانها أكثر من مليون ونصف وعاصمتها « ايفو » وهى من أغنى الأمكنة فى انتاج معدن القصدير ، وتكثر بها المعابد الصينية المبنية فى الكهوف ، وتقع على بعد ٤٨ ميلا من شواطئها جزيرة « فانكور » وهى جزيرة سياحية .

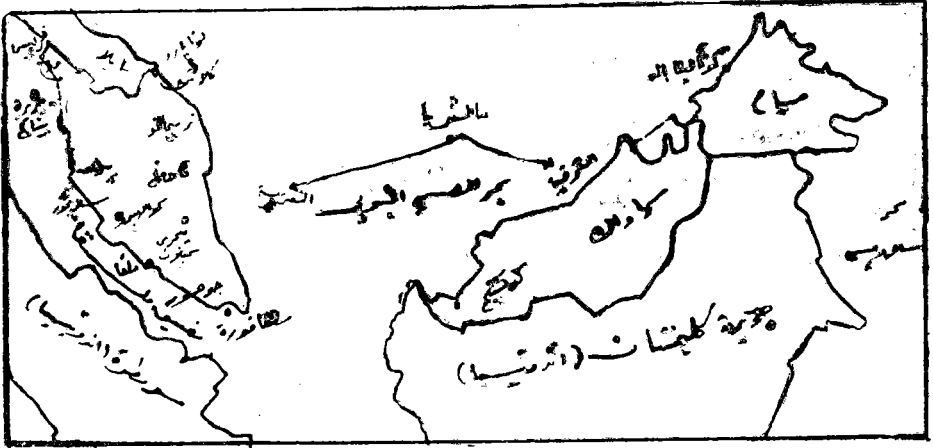
٨ — برليس : مساحتها ٣٠٧ من الأميال المربعة وعدد سكانها حوالى مليون وربع وعاصمتها « أراو » وهى متاخمة لحدود تايلاند ، وتوجد بها مدينة بادنج باسا وتقع فى أقصى الشمال وبها سوق شهيرة .

٩ — سلانجور : مساحتها ٣١٦٦ ميلا مربعا وعدد سكانها أكثر من مليون ونصف ، وعاصمتها « شاه عالم » وبها أكبر ميناء فى الملايو .

١٠ — ترنجانو مساحتها ٥٠٠٠ ميلا مربعا وعدد سكانها أقل من نصف مليون نسمة ، وعاصمتها « كوالا ترنجانو » وتشتهر بالحرف اليدوية .

١١ — جزيرة بينانج مساحتها ٤٠٠ ميل مربع وعدد سكانها ٤/٣ مليون ، وعاصمتها جورج تاون ، وتعرف الجزيرة بأنها لؤلؤة الشرق ، وبها معبد صيني كبير ، وجبال مرتفعة .

أما العاصمة فهي كوالالامبور ومساحتها ٩٤ ميلا مربعا وعدد سكانها نصف مليون نسمة وتقع في ولاية سلانجور ، ولكنها منذ فبراير ١٩٧٣ أصبحت ولاية فيدرالية تدار بواسطة محافظ يساعد مجلس استشاري .



ماليزيا الشرقية والغربية

سكان ماليزيا :

يتألف السكان من عناصر ثلاثة رئيسية هي : العنصر الملايوى والعنصر الصينى والعنصر الهندى .

والعنصر الملايوى يمثل حوالى نصف السكان والروابط وثيقة بين هذا العنصر بعضه والبعض الآخر ، والعنصر الصينى وافد من الصين الجنوبية وهم ينتمون الى اصول مختلفة ولا يربط بينهم الا الصين الفسيحة أما من ناحية الدين واللغة فهناك اختلافات واسعة بينهم .

والعنصر الهندي جاء به الاستعمار للعمل في صناعة المطاط التي ازدهرت في مطلع هذا القرن .

واللغات في ماليزيا متعددة بتعدد الأجناس والجماعات ، واللغة الرسمية هي اللغة الملايوية وهناك أيضا اللغة الانجليزية التي تستعمل في الدوائر التجارية والصناعية والعلمية ، وبجوار هاتين اللغتين هناك لغات متعددة صينية تتكلم بها طوائف الصينيين المهاجرين ، ولغات هندية تتكلم بها جماعات الهنود المهاجرة ، بالإضافة الى بعض اللهجات التي توجد لدى بعض السكان الملايويين .

الاديان في الملايو :

ان الحديث عن الأديان في شبه جزيرة الملايو ، وفي ولايتي صباح وسراواك شديد الشبه بالحديث عن الأديان في اندونيسيا ، فقد وجدت في هذه المناطق خلال فترات التاريخ القديم ، ألوان من الأديان البدائية ، وبخاصة في الغابات وعلى الجبال ، وعندما قامت امبراطورية سرى ويجايا ضمت أكثر مناطق جنوب شرقى آسيا ، وكانت البوذية دينا لها ، وقامت بعدها امبراطورية ماجابيت التي ضمت أكبر مناطق جنوب شرقى آسيا ، وكانت الهندوكية دينا لها .

ولما انتشر الاسلام في جنوب شرقى آسيا كان نصيب الملايو من الانتشار واسعا حتى أصبح الاسلام دين الدولة الرسمي ويتبعه كل الملايويين وعدد من الهنود والصينيين ، أما أكثرية الصينيين بماليزيا فيتبعون البوذية أو الكنفوشية ، وأغلب الهنود في ماليزيا يتبعون الهندوكية أو السيخية .

ولما كان الاسلام هو دين الملايويين جميعا ، فان سلطان كل ولاية له الرياسة الدينية فيها ، أما الولايات التي ليس بها سلطان فان الملك النعام الذى يختاره السلاطين من بينهم ليصبح رئيسا لماليزيا كلها تكون له الرياسة الدينية في هذه الولايات .

الممالك قبل الاسلام في إندونيسيا والملايو

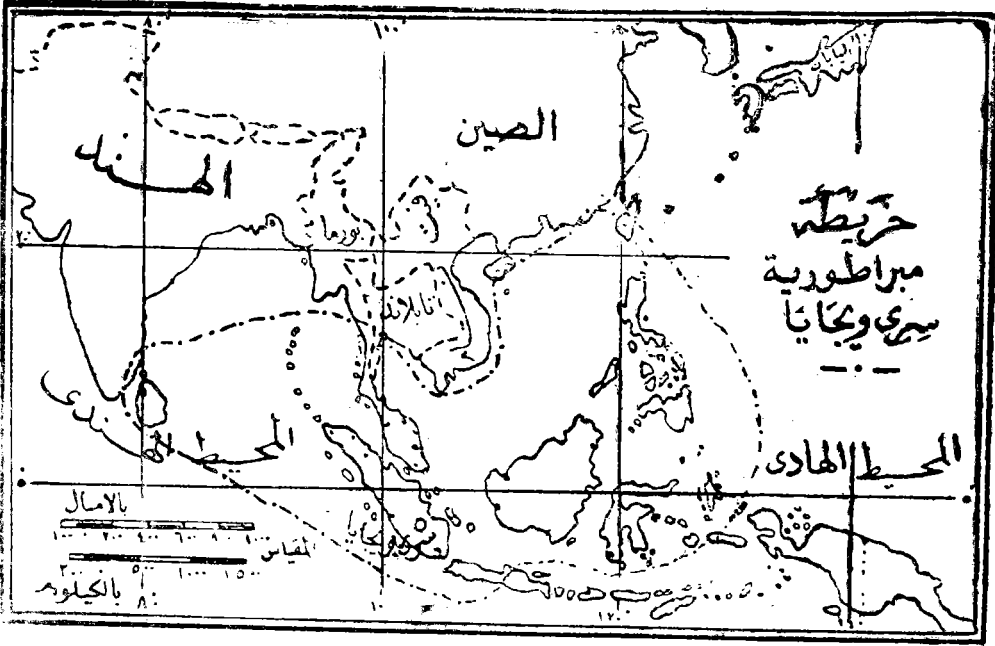
نتحدث عن اندونيسيا والملايو معا طالما كانت الدولتان تكوّنان دولة واحدة أو أجزاء من دولة كبرى واحدة ، وعندما أصبحت كل منهما لها كيان مستقل سيكون لكل منهما حديث مستقل .

وقد ذكرنا فيما سبق أن الجبال الشاهقة ، والأكمام الكثيفة قسمت البلاد هنا وهناك أقساما متعددة ، وفي كل قسم كانت تقوم مملكة أو دولة محلية ومن هنا كثرت الدول والممالك كثرة بالغة في اندونيسيا والملايو في الماضي ولا يزال ذلك واضحا في الملايو التي تتكوّن حتى الآن من إحدى عشرة ولاية لكل ولاية منها ملك شبه مستقل بولايته .

ومع هذا التفكك الذى فرضته ظروف الطبيعة فان بعض الممالك الكبرى ظهرت فشملت مجموعة من الولايات في المنطقة كلها ، وأهم هذه الممالك ما يلي :

أولا : امبراطورية سيري ويجايا (Sri wijaya)

بدأت هذه الامبراطورية في القرن الخامس واستمرت حتى القرن الرابع عشر الميلادى ، وكانت هذه الامبراطورية واسعة ضمت جزر اندونيسيا كما ضمت شبه جزيرة الملايو وغيرها من جزر المنطقة وكانت عاصمتها في سومطرة بالقرب من بالمبنج (١) وقد استطاعت امبراطورية سيري ويجايا أن تمتد سلطانها الى جزيرة سيلان سنة ٦٤٩ هـ (١٢٥١م) . ويقول الباحثون الاندونيسيون ان طبقة العظماء في سيلان حتى الآن ينحدرون من الجنس الملايوى الذى كان يمثل امبراطورية سيري ويجايا في الفترة التي استولت فيها هذه الامبراطورية على سيلان .



وكانت امبراطورية سري ويجايا دولة بحرية تسيطر على أكثر مضائق المنطقة وعلى بحر الصين الجنوبي (١) •

وتنسب هذه الامبراطورية إلى اسم مؤسسها الملك « سري ويجايا » ، وقد بدأ مملكته على نهر موسى في سومطرة الجنوبية بالقرب من مدينة بالمبايج الحالية ، ولما ازدهرت مملكته كوّن جيشا كبيرا وأساطيل قوية ، واستطاع أن يضم له جزر اندونيسيا وشبه جزيرة الملايو وبعض الجهات في الهند الصينية ، ويقال ان جزيرة جاوة لم تكن ضمن هذه الامبراطورية لصلات رحم بين سري ويجايا وبين ملوك ممالك جاوه •

وقد اهتمت امبراطورية سري ويجايا بالثقافة والمعارف ، كما اهتمت بالزراعة والتجارة (٢) •

Ibid p. 15. (١)

(٢) اندونيسيا الثائرة : من مطبوعات المركز العام الاندونيسى ص ٣٦—٣٨

وكانت هذه الامبراطورية دولة بوذية فساعدت على نشر البوذية بين أرجائها ، كما ساعدت على بناء المعابد البوذية الكبرى التى لاتزال موجودة حتى الآن ، وكان بناء هذه المعبد والهياكل فى أواخر القرن الثامن والنصف الأول من القرن التاسع الميلادى .

ويقول (Dr Arasaratnam) إن جذور الأسرة المالكة فى امبراطورية سرى ويجايا ليست معروفة ، ولا يعرف شئ عن الأجداد الأقدمين لهذه الأسرة ، وعلى كل حال فان الأباطرة ابتداء من القرن التاسع كانوا من جاوة (١) .

ثانيا : امبراطورية ماجابيت (Maja Pahit)

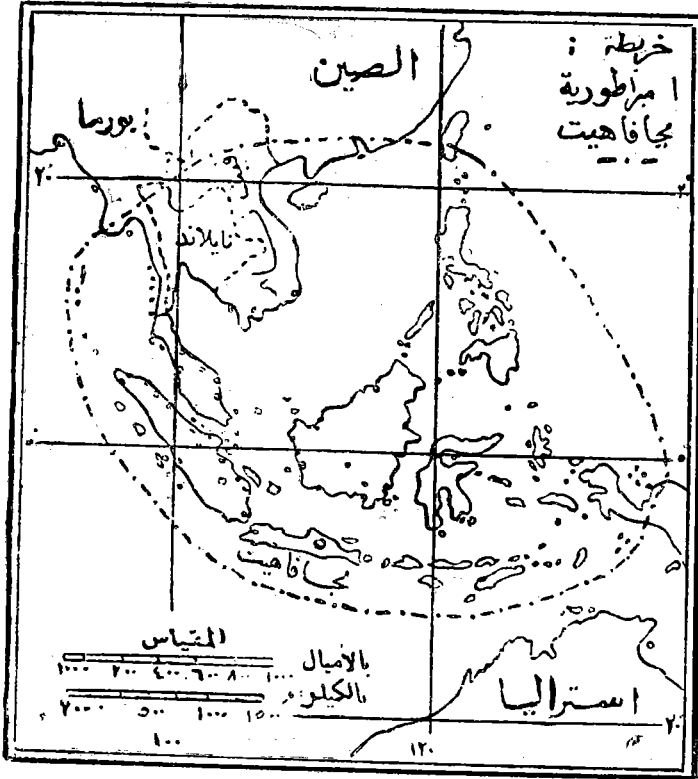
بدأت امبراطورية ماجابيت سنة ١٢٩٣ م واستمرت حتى سنة ١٤٧٨ م ، وكانت هذه الامبراطورية أكثر اتساعا من امبراطورية سرى وجايا ، وكانت تضم جزيرة جاوة وسيليس وجزائر الملوك وبورنيو وشبه جزيرة الملايو وسنغافورة ، وجزيرة لبوك والفلبين وغيرها من جزر جنوب شرقى آسيا .

وكان لامبراطورية ماجابيت عاصمة عظيمة بلغت غاية من الفخامة والجلال ، وكانت حافلة بالقصور والحدائق ، وكان يحيط بالمدينة سور بلغ ارتفاعه ثلاثين قدما ، وبلغ طول محيطه مائة كيلو متر ، وفى داخل المدينة سور آخر يحيط بقصر الملك وقصور خاصته ، وارتفاع هذا السور أربعون قدما ، وقصر الملك كان يسمى الاستانة وكان فسيحا جدا لدرجة أنه كان يكفى لاستضافة ثلاثمائة ضيف من العظماء ومعهم عائلاتهم وحرسهم وعبيدهم (٢) .

وكانت امبراطورية ماجابيت هندوكية لكثرة العناصر الهندية فى هيئة الحكم ولتنفشى الثقافة الهندوكية آنذاك .

(١) Glimpses of Malaysian History p. 14.

(٢) حكاية نانه انديا (الترجمة العربية) G. F. Biegman



وأعظم أباطرة ماجابيت الامبراطور هايم وورك (Hayam Wuruk) (١٣٥٠ — ١٣٨٩) وفي عهده وصلت الامبراطورية الى أقصى اتساعها والى أعظم درجات القوة والحضارة ، وأعظم وزير في امبراطورية ماجابيت كان اسمه كاجامادا وهو اسم مشهور بجاوة الآن وسميت به جامعة بجوكجاكرتا ، وهى من أعظم جامعات اندونيسيا ، وقد عاصر كاجامادا عهد الامبراطور جايانجارا ثم الامبراطور هايم ووروك ومات كاجامادا سنة ١٣٦٤ وكان موته بدءا لتراجع الامبراطورية وضعفها فلما مات هايم ووروك سنة ١٣٨٩ زادت الدولة ضعفا ٥٠٠٠

ويقرر المفكرون الاندونيسيون أن ما وصلت له امبراطورية ماجابيت من تقدم ورقى كان مرجعه للوزير العظيم « كاجامادا » وأن جهوده وإخلاصه لليكه كانت نموذجا نادرا بين الوزراء (١) .

(١) اندونيسيا الثائرة ص ٤٢ وما بعدها .

ويقول عنه (Datus Smith) إنه كان من أوائل السياسيين في اندونيسيا ، وكان يتصرف كأنه من أعلام العصر الحديث ، وقد استطاع أن يحقق حلمه بتكوين دولة واحدة من هذه الجزر وأن يدخل هذه الجزر تحت حكم مليكه (١) .

وكانت امبراطورية ماجاييت دولة بحرية لكثرة الجزر التي كانت تابعة لها . وكانت سفنها تبخر العباب بين الجزر بعضها والبعض الآخر ، كما كانت تمخر العباب الى الهند والصين حاملة البضائع والركاب من هنا وهناك (٢) .

نظم الحكم في امبراطورية ماجاييت :

كان الامبراطور في هذه الامبراطورية يُنظر اليه على أنه زعيم مقدس ، تجسدت فيه روح الله ، وهو ممثل الله على الأرض ، ومن هنا كانت علاقته بالدولة علاقة السمو والجلال ، وكان وزيره يباشر الأعمال الخاصة بالسيادة على الامبراطورية باسم الامبراطور ، ومن هنا فان شخصية الوزير كانت خطيرة للغاية .

وكانت الدولة مقسمة أقساما حسب المقاطعات وكل قسم كان يحكمه حاكم باسم الامبراطور ويكاد يكون الحاكم مستقلا في ادارة مقاطعته ولا يربطه بالامبراطورية الا جزية يقدمها كل عام ، والا استعداده للمساهمة عسكريا في أية حرب يشنها الامبراطور ، وكان هناك موظفون يعاونون الحاكم في ادارة مقاطعته ولم تكن هناك مرتبات لهؤلاء الموظفين ، وانما كانت تعطى لهم مساحات من الأراضي تتفاوت بتفاوت مكانتهم ، وهم يستغلونها لصالحهم نظير خدماتهم للدولة ، وكان معنى ذلك أن المقاطعات كانت تقسم داخليا أقساما صغيرة تبعا للموظفين كبارهم وصغارهم وكان لرؤساء المقاطعات والمدن والقرى ألقاب ومراتب محددة

The Land and People of Indonesia p. 51. (١)

R. Winstedt : A History of Malaya p. 39. (٢)

هذا فيما يتعلق بالادارة ، أما فيما يتعلق بالكتابة والسجلات فكان ذلك متروكا لقسس بوذيين اذ كانوا وحدهم هم الذين يستطيعون الكتابة •

وقد بلغت امبراطورية ماجابيت مدى طيبا في الجانب الحضارى ويدل على ذلك ما أثر عنها من صناعة النحت والعمارة ، ومن الزخارف الفنية الهائلة التى تدل على تقدم عظيم •

أسباب ضعف الامبراطورية ونهايتها :

ان النظام الادارى الذى وضع للامبراطورية قضى عليها بالتفكك ، اذ كان لكل رئيس مقاطعة "استقلال" يكاد يكون تاما ، ولم يكن هؤلاء الرؤساء يخضعون للعاصمة ويستمررون على الولاء لها إلا فى ظل الوزراء الكبار الذين كانوا يملكون الحول والطول للانتصار على كل من تسول له نفسه أن يتمرد على العاصمة ، ومعنى هذا أنه مع ضعف الوزراء كان رؤساء المقاطعات والجزر يعلنون استقلالهم أو يصبحون قريبين من الاستقلال ، ومن هنا فان وفاة الوزير كاجامادا كان كما قلنا مطلقا لتفكك الدولة •

ثم ان ضعف العاصمة أحدث خلا في التجارة والاقتصاد وهذا أضعف الدولة وجعلها عاجزة عن الانفاق على الجيش مما أثار ثائرة الجنود والضباط ، ثم ان الضعف الاقتصادى جاء من طريق آخر هو انقطاع الخراج الذى كان على الولايات أن تقدمه للعاصمة ، ونتيجة لكل هذه الأسباب حدث تفكك هنا وهناك ، وقامت حركات استقلالية جذبت الامبراطورية نحو الزوال •

وكان الإسلام قد انتشر فى كثير من ربوع اندونيسيا ، ولم يقنع المسلمون الاندونيسيون بالفكر الهندوكى عن الحاكم ، ولم يعودوا يرون فيه زعيما مقدسا وممثلا لله على الأرض ، ولا انسانا تجسدت فيه روح الله ، ومن هنا فان المسلمين الاندونيسيين ثاروا على هذا النظام البالى ، ليقيموا لأنفسهم دولة تؤمن بالله الواحد القهار ، وتقيم فى

الأرض العدالة والمساواة وهذا هو دور المسلمين الاندونيسيين في القضاء على هذه الامبراطورية التي كان نظامها يحمل في طياته بذور الفناء •

ويقول المفكرون الاندونيسيون أن امبراطور ماجابيت عندما أحس بعرشه يهتز تحتته للأسباب التي ذكرناها تقرب من البرتغاليين لمساعدته ضد المسلمين الذين خشى بأسهم ، وقد ثار المسلمون على الامبراطور لهذا التصرف فتمكن زعيم اندونيسى مسلم اسمه « بانيه يونس » من القضاء على ماجابيت ونقل شعارها إلى « ديماك » عاصمة الدولة الاسلامية بجاوة (١) •

ممالك أخرى في اندونيسيا قبل الإسلام

شهدت جزر اندونيسيا وبخاصة جزيرة جاوة الآلهة بالسكان قيام ممالك متعددة ابان عهد سيري وجاما وكانت أحيانا دولا لم تستطع الامبراطورية الكبيرة أو لم ترد أن تمد نفوذها اليها ، وهذه الممالك هي :

مملكة متارم :

من القرن الثامن الميلادي الى القرن العاشر الميلادي ، وكانت بجاوة الوسطى وفي مملكة متارم انتشرت الهندوسية بجانب البوذية ، وظهر الاله الهندي « شيوا » وأقيمت له معابد لاتزال آثارها باقية في جاوة الوسطى ومنها المعبد العظيم بوروبودور ، ومما يذكر أن هناك دولة أخرى باسم متارم ظهرت في العهد الاسلامي وكانت دولة اسلامية ، ومن هنا فيجب التفريق بين متارم الهندوكية و متارم الاسلامية • وأهم ملوك متارم الهندوسية الملك « سنجايا » وقد اتسعت هذه المملكة فضمت كثيرا من المناطق حولها ، بل ضمت شبه جزيرة الملايو في فترة من الفترات •

(١) اندونيسيا النائرة ص ٦٥ •

مملكة ايرلنجا :

من القرن الحادى عشر الى القرن الثالث عشر وشملت جاوة الشرقية وبعض « نوسنتارا » ، وقد حاول ملك هذه المملكة أن يحقق وُحدةً جاوة تحت قيادته ولكن ذلك لم يتم له • وقد سميت هذه المملكة باسم ملكها العظيم « ايرلنجا » ويروى الشعب الاندونيسى الأساطير عنه ، ويسميه الغربيون آرثر الاندونيسى (١) •

مملكة سنجوسارى :

من سنة ١٢٢٢ م الى ١٢٩٢ م ومن أعظم ملوكها كارتانجارا (١٢٦٨ — ١٢٩٢) وكان ذا سياسة توسعية طموحة فحاول أن يجمع تحت سلطاته جزيرة جاوة وغيرها من جزر اندونيسيا وجزر جنوب شرقى آسيا ، ولكن تصدى له كوبلاى خان امبراطور الصين الذى أرسل بحريته سنة ١٢٩١ م للصراع ضده كما تصدى له « جاياكتوانج » ملك « كديرى » بجاوة ، ولم يستطع كارتانجارا أن ينتصر على هذين الخصمين وسقط في هذه المعارك قتيلا ، وأعطى سقوطه الفرصة لقيام امبراطورية ماجابيت التى حققت الوحدة التى كان يطمح فيها « كارتانجارا » • (٢)

Datus Smith : The Land and People of Indonesia p. 51. (١)

DatusSmith : Ibid p. 52. (٢)

دخول الاسلام الملايو واندونيسيا وانتشاره بهما

موضوع دخول الاسلام شبه جزيرة الملايو وجزر اندونيسيا موضوع يشغل الأذهان ، ويحاول كثير من الباحثين أن يتكلم عنه ، وأن يلقي عليه مزيدا من الضوء ، ولو تخيلنا أن جيشا مسلحا زحف الى اندونيسيا والملايو ودخلهما كما دخلت الجيوش الاسلامية سوريا ومصر في عهد الخليفة الأول والثاني لكان في هذا وضع حد للتخمين والبحث حول دخول الاسلام لاندونيسيا والملايو .

واذا ثبت أنه كان هناك رحلات تجارية بين هذه الجزر وبين البلاد العربية قبل الاسلام وفي مطلع الاسلام ... فانه يثبت بالتالى دخول الاسلام هذين القطرين مع مشرق الاسلام ومع الوفود التجارية الصاعدة والمهابطة .

ان هناك نقطة يتناساها أو يجهلها الكثيرون هي أن دخول الجيش الاسلامى الى سوريا ومصر لم يكن معناه انتشار الاسلام في سوريا ومصر ، فان انتشار الاسلام لم يرتبط بدخول الجيش وانما ارتبط بالدعوة التى جاءت بعد ذلك ، وفي الجزء الأول من هذه الموسوعة اقتبسنا تحقيقا قدمه المؤرخ (Kirk) يثبت ان غالبية السوريين والمصريين كانوا لا يزالون على المسيحية في القرن الثالث الهجرى (١) وعلى هذا فهناك فرق كبير بين دخول الاسلام وبين انتشاره ، لقد دخل الاسلام مصر سنة ١٩ هـ ولكنه لم ينتشر الا بعد ذلك رويدا رويدا .

وفي ضوء هذا نستطيع أن نقرر أن الاسلام دخل الملايو واندونيسيا مع التجار والرحالة من عهد مبكر جدا ، أما انتشار الاسلام فقد مشى وتيدا مثل ما حدث بمصر ، أو بتحقيق أدق ببطء أكثر مما حدث بمصر

(١) A Short History of the Middle East p. 39. وانظر الجزء الاول من موسوعة التاريخ الاسلامى للمؤلف ص ٤٤٦ من الطبعة العاشرة .

بسبب بعد الملايو واندونيسيا عن موطن الاسلام الاول وبسبب قلة الدعاة الذين يشرحون هذا الدين للسكان •

ومن الواضح أن الحكم الاسلامى الذى بدأ فى مصر وسوريا مع زحف الجيش الإسلامى وانتصاره ، هذا الحكم استلزم تقديم دعاة ليقدموا الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة للسكان فى سوريا ومصر والشمال الافريقى وغيرها من البلاد التى دخلتها الجيوش الاسلامية ، ولكن الحكومات الاسلامية المبكرة غفلت عن إرسال الدعاة للبلاد التى لم تكن تابعة سياسيا لهذه الحكومات ، ومن هنا كان انتشار الاسلام فى البلاد التى حكمها المسلمون أسرع من انتشاره فى البلاد التى كانت بوزية الحكم أو هندوكية الحكم كما كان الحال فى الملايو وفى اندونيسيا •

وعلى هذا فإذا ثبت أنه كانت هناك رحلات ومراكز تجارية بين بعض بلاد الجزيرة العربية المسلمة وبين الملايو واندونيسيا من قبل الاسلام وفى صدر الاسلام ، فإن ذلك يستلزم بالتحقيق أن الاسلام دخل هذه البلاد من وقت مبكر جدا ، أما الانتشار بها فكان بطيئا بسبب قلة الدعاة وبعد الشئقة

ولا يزال هناك شئبه لهذا الأمر فى عهدنا الحاضر ، فإن الدول الاسلامية بها معاهد للدعاة لتعميق الاسلام فى نفوس المسلمين ، ولكن ليس هناك معهد واحد يخرج دعاة للاسلام يجيدون اللغات الأجنبية ليزاولوا عملهم فى أوروبا مثلا أو فى الولايات المتحدة ، لقد دخل الاسلام أوروبا والولايات المتحدة ولكن الانتشار بهما بطيء لقلة الدعاة وقلة الكتب التى تعرّف بالاسلام ، فما حدث فى الماضى لا يزال يحدث فى الحاضر •

وليس عندنا أبدا ما يحدد موعدا لدخول أول مصرى دين الاسلام ومتى كان ذلك ، ولسنا نحاول معرفة ذلك بوجه التحقيق ، ولكن الرغبة شديدة فى التعرف على موعد دخول الاسلام شبه جزيرة الملايو

وجزر اندونيسيا ، وفي ضوء ما تقدم سنحاول أن نبرز الحركة التجارية التي حملت الاسلام للملايو واندونيسيا ، كما حملته التجار والطرق الصوفية والهجرات الى دول جنوب الصحراء بافريقية •

وقبل ذلك نثبت بعض الاسس التي ستكون لنا عوناً في ايضاح أن الحركة التجارية حملت الإسلام ونشرته في هذه المناطق في وقت مبكر •

أولاً : عرفت الملايو واندونيسيا قبل الاسلام صوراً من التحركات الدينية ، من البدائية وعبادة قوى الطبيعة ، الى البوذية والهندوكية ، ومن المعروف في علم مقارنة الأديان أن من غيّر دينه مرة يسهل عليه تغيير دينه بعد ذلك ، ولما كان تغيير الدين أمراً تكرر في هذه البلاد ، فقد سهل على الجيل الذي عرف الاسلام أن يتحول اليه لسهولة الاسلام ولعدم وجود الطبقات فيه (١)

ثانياً : لم يكن في أندونيسيا والملايو دين ينبع من البلاد وتتمسك به كالهندوكية بالنسبة للهند ، بل أن الأديان التي دخل عليها الاسلام في تلك البلاد كانت أديانا وافدة كالبوذية والهندوكية ، وكانت البوذية فيها خلافاً كثيرة وعودة الى الأحجار والأصنام ، وكانت الهندوكية تحمل عادات الهند وتقاليداً مما جعل فيها فرض تقاليد شعب على شعب آخر ، ومن هنا لم تكن لدى الملايويين والاندونيسيين حماسة للتمسك بهذين الدينين •

ثالثاً : في سكان الملايو وأندونيسيا يُسرّ في الطباع وسماحة نفس ، ولا تعرف هذه الشعوب التعصب الديني ، ومن هنا كان من الممكن أن يدخل في الاسلام من يؤمن به وأن كان أبوه أو أمه أو أخوه يتبع ديناً آخر ، وقد رأيت في اندونيسيا هذه الظاهرة التي لم تكن تسبب صراعاً أو خلافاً مع أنها غير ممكنة على الإطلاق في مصر وعلى هذا تسرب

(١) انظر سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف ، وانظر كتاب :
The Story of Indonesia تاليف Louis Fisher •

الاسلام الى الأسر دون أن يقاومه مقاوم • ثم نما وازدهر من يوم الى يوم •

رابعا : في الاسلام بساطة وسماحة ، فيه خاق وفيه تنظيم للشرد وتنظيم للمجتمع ، وتقويم للمعاملة ، وما أن يدخل أحد الاسلام حتى تغفر أحواله فيعنى بالنظافة والطهارة ويرق قلبه بالصلاة ، وتعمر نفسه بالحب ، وأن تاجر كان أمينا ، وأن عمل أدي عمله بإتقان ، فالانسان المسلم الحق خير دعاية دين الاسلام ، ثم أن دخول الاسلام لا يحتاج الى طقوس ، ولا يرتبط المسلم بكاهن يقف بينه وبين الله ، يأخذ منه على ذلك أتاة ٠٠٠٠ بل أن المسلم مرتبط مباشرة بربه وبالمبادئ والأخلاق والآداب الاسلامية •

خامسا : العرب الذين حملوا الاسلام الى أندونيسيا والملايو كانت لهم نفس العادات التي لأهل البلاد ، نفس اللباس تقريبا ، والبساطة في الطعام وطريقة تناوله ، وقد اندمج الوافدون العرب مع أهل البلاد الأصلية ، فلم يقفوا منهم موقف الهنود والصينيين والغريبيين الذين بقوا جنسا متميزا حتى الآن ، وهذا الاختلاط والتشابه يسر نشر الاسلام ، ويدخل في ذلك أيضا أن العرب استطاعوا بسهولة أن يتعلموا اللغات المحلية بسرعة فوثقوا بذلك صلاتهم مع أهل البلاد الأصليين •

سادسا : ارتبط بالاسلام شيء يهم الطبقات الفقيرة ، ذلك أن الدين ارتبط بالاقتصاد ففي مال الغنى والتاجر نصيب يعطى للفقراء ، فاذا لاحظنا أن الأغلبية العظمى بالبلاد كانت فقيرة إذ كان الغنى في أيدي الكهنة والحكام ومعاونيهم فقط ، اذا لاحظنا ذلك أدركنا أن الكثيرين من جمهرة الشعب أقبلوا على هذا الدين الذي يعطيهم هذا الحق ، وقد كان الغنى المسلم يؤثر الفقير المسلم عندما يقدم زكاة ماله ، وارتبط بهذا الدين كذلك عدم الطبقات ، وهو شيء يسعد من كانوا في الطبقات الدنيا •

والآن بعد هذه المقدمات نستطيع أن نسير خطوة خطوة مع التحركات التي نقلت الاسلام الى الملايو واندونيسيا :

وبادىء ذى بدء ننقل فيما يلي خلاصة لندوة علمية عقدت في مارس سنة ١٩٦٣ في مدينة «ميدان» باندونيسيا حضرها عدد كبير من كبار المثقفين والمؤرخين الاندونيسيين ، وقد تدارسوا أمر دخول الاسلام اندونيسيا ووسائل انتشاره وكن° الذى حمله الى بلادهم ، وقررت الندوة بعد البحث والمناقشة ما يلي :

١ — فهنا من البحوث التى تدارسناها والمصادر التى اطلعنا عليها أن الاسلام دخل الى أندونيسيا أول مرة في القرن الأول الهجرى ، ومن بلاد العرب مباشرة .

٢ — وأن أول منطقة دخلها الاسلام هى سواحل سومطرة الشمالية وأنه بعد تكوين المجتمع الاسلامى وبعد حصوله على النفوذ السياسى تكونت أول مملكة اسلامية في « آتشه » .

٣ — وأن الاندونيسيين ساهموا في الدعوة الى الاسلام بعد أن دخل الاسلام بلادهم .

٤ — وأن الدعاة الأولين كان بعضهم من التجار .

٥ — والدعوة الاسلامية كانت سلمية .

٦ — وأن الاسلام قدم لاندونيسيا ثقافة وحضارة راقية أسهمت في تكون الشخصية الاندونيسية (١) .

وختمت الندوة قراراتها بأن طالبت بمزيد من الدراسة حول هذا الموضوع ، ودعت المفكرين والمؤرخين للعناية به ولعل المحاولة التى نقوم بها الآن استجابة لهذه الدعوة الكريمة .

ويذكر الاستاذ نجيب العطاس وهو من أهل المنطقة أن أقدم المخطوطات التى تحدثت عن استيطان العرب لاندونيسيا هى عبارة عن

(١) محمد ضياء شهاب وعبد الله بن نوح : الاسلام في اندونيسيا ص ٩ و ١٠ .

تقارير صينية تقول إنه كان للعرب مستوطنات في شمالي سومطرة منذ عام ٦٧٢ م (٥٢ هـ) .

ويذكر الاستاذ قدر الله غاطمى أن الاسلام وصل الى سواحل سومطرة في القرن السابع الميلادى (القرن الأول الهجرى) أما انتشار الاسلام فقد أصبح واضحاً في القرن الثالث عشر على يد الدعاة الذين اشتهروا بلقب « أولياء الله التسعة » وأكثرهم ينحدرون من أصلاب عربية (١) ،

والذى يدرس تاريخ التجارة في العالم يدرك بوضوح أهمية الصين ودول جنوب شرقى آسيا ودول الشرق الأوسط ثم أوربا في مجال التجارة ففى كل منطقة من هذه المناطق انتاج تحتاج له المناطق الأخرى ، ومنطقة جنوب شرقى آسيا بوجه خاص كان بها الأفاوية والتوابل والبن والبخور والجلود والأخشاب وجوز الهند ، وكانت هذه الأشياء مطلوبة وضرورية للكنائس والمعابد والقصور قبل الاسلام ، وكان الحرير الصينى مطلوباً كذلك في الشرق الأوسط كما كانت الصين سوقاً واسعة لاستهلاك منتجات الشرق الأوسط من نسيج وقمر وحبوب ، وهكذا أدرك العالم قبل الاسلام بعدة قرون ضرورة الصلة الاقتصادية والتجارية عبر هذا الخط الطويل من الجزيرة العربية الى جنوب الهند ، فشبه جزيرة الملايو ، وسومطرة والصين ، وكانت الرحلة بالراكب الشراعية بطبيعة الحال وتتبع الرياح الموسمية التى تهب من الغرب الى الشرق فتقل السفن من الجزيرة العربية الى الصين ، ثم تهب من الشرق الى الغرب فتعيد السفن الى الجزيرة العربية (٢) .

وكانت بعض السفن التى تحمل هذه التجارة تابعة الى الغرب وبعضها كان تابعا لاندونيسيا والصين وتذكر المراجع اليونانية أن التجار في لقاءات شخصية في المؤتمرات العالمية .

(٢) من الخطوط التجارية بين العرب والصين عبر الملايو واندونيسيا انظر : المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ١٦ ، ٧٤ ، ١٠٧ . وابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٦٦ وما بعدها . وجورج حوارنى : العرب والملاحة في المحيط الهندى ص ٢٢٠ من الترجمة العربية .

جنوب الجزيرة العربية كان لهم حذق واسع بفنون التجارة فكانوا يجلبون السلع من البلاد المختلفة لينقلوها الى البلاد التي تحتاج لها ، وكان هؤلاء التجار يحتفظون بأسرار تجارتهم ومصادر سلعهم ويجعلونه سرا من الأسرار ، بحيث كان المستهلكون يعتقدون أن جميع هذه الحاصلات من انتاج الجنوب العربى (١) .

وتؤكد البحوث العلمية أن التجار العرب عرفوا الملايو واندونيسيا منذ القرن الثالث الميلادى على الأقل ، وتعاملوا مع التجار المحليين في جاوة وجزائر الملوك وغيرها من جزائر المنطقة الغنية بالتوابل ، وذلك في أثناء رحلاتهم الى الصين ، وقد دونت السجلات الصينية القديمة ذلك وذكرت ما يفيد أن العرب قد اتخذوا لهم أماكن استيطان في هذه الجزر وفي كانتون وكان ذلك حوالي سنة ٣٠٠ م (٢) .

وأماكن الاستيطان التي تحدثت عنها الفقرة السابقة يقرها باحث آخر ويذكر أن العرب كانوا جاليات عربية في بعض ثغور الملايو واندونيسيا ، وأنه كانت لهم معرفة بالحد المهمة الواقعة على سواحل هذه الجزر (٣) .

ويقرر باحث عاش فترة من الزمن في الملايو هذا المعنى فيقول :
يحدثنا التاريخ عن وجود جماعات عربية كانت تقطن قبل الاسلام بعض موانئ الملايو واندونيسيا ، وكانت هذه الجماعات تعيش تحت حكم شريف عربى ، وتتبع النظام القبلى المعروف بشبه الجزيرة العربية (٤) .

(١) انظر Periplus of Erythraean Sea, Translated from Greek

وانظر الجزء الأول من هذه الموسوعة ص ٩٨ من الطبعة العاشرة .

(٢) بحث الدكتور Prof Zhang Who الاستاذ بجامعة بكين

عن العلاقات بين الصين والعرب ، القاه في مهرجان التراث العماني

بمسقط (نوفمبر ١٩٨٠) .

(٣) دكتور عبد المنعم النمر : تاريخ الاسلام في الهند ص ٦٠ .

(٤) دكتور محمد عبد الرؤوف : الوعي الاسلامي شهر محرم ١٣٨٠ هـ :

الملايو .

وكان لمصر دور كبير في هذه التجارة القديمة ، فقد كانت السفن المصرية تعمل بنشاط بين مصر واندونيسيا ، وقد وصل الحال الى أن بعض المصريين استوطنوا جزر أندونيسيا (١) كما سبق أن ذكرنا .

ويؤكد بعض الباحثين الغربيين أن العلاقة بين مصر وأندونيسيا انتجت تشابها في جوانب متعددة من الثقافة ، ومن هؤلاء الباحثين دكتور بيري Perry ودكتور اليوت Eliot اللذان أكدا أن البحار والمحيطات ربطت بين مصر وأندونيسيا من قديم الزمان (٢) .

ويقول السير توماس آرنولد : ان العرب زاولوا مع بلاد الشرق تجارة واسعة النطاق منذ عهد مبكر جدا ، فلما جاء القرن السابع الميلادي كانت التجارة مع سيلان كلها في أيديهم ، كما كانت تجارتهم مع الصين رائجة رواجاً عظيماً وكان لهم في كانتون في الصين مراكز تجارية مهمة ، ونزعم في شيء من التأكيد أنهم لابد أن يكونوا قد أسسوا مستعمراتهم التجارية في بعض جزائر أرخبيل الملايو في عهد يسبق الاسلام ، ومما يؤكد هذا الزعم أننا نجد في حوادث سنة ٦٨٤ م في الأخبار الصينية المدونة حسب السنين خبراً عن زعيم عربي يعتقد أنه كان زعيم مستعمرة عربية على ساحل سومطرة الغربي (٣) .

وننتهي من هذه البحوث والاقتباسات الى حقيقة لا يمكن تجاهلها هي أن الجزيرة العربية ومصر تاجرتا مع جزر جنوب شرقى آسيا ومع الصين قبل الاسلام بعدة قرون . وبسبب هذه التجارة قامت بهذه الجزر وبموانئ الصين مراكز عربية وجاليات عربية .

وننتقل الى الجانب الآخر من هذه العلاقات التجارية وهذا الجانب يؤكد أن اندونيسيا والملايو كانت لهما سفن يبلغ طول الواحدة منها مئات الأقدام ، وكانت تحمل البضائع ، وتقطع آلاف الأميال ، وهي تمخر

(١) غوردون كاتشيلد : ماذا حدث في التاريخ نقلا عن اندونيسيا المعاصرة

للاستاذ محمود الشرقاوى ص ١٥ .

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) الدعوة الى الاسلام ص ٤٠١ — ٤٠٢ .

عباب البحار والخلجان حتى مصر والجنوب العربى • ويقرر الدكتور همكا أن الاندونيسيين كان لهم نشاط ملاحى واسع الى الخارج شمل الصين والهند وسواحل مصر وجنوب الجزيرة العربية وقد أسسوا لهم مراكز هنا وهناك (١) •

وقد ذكرنا فى الجزء الأول من هذه الموسوعة أن اللغة العربية بجنوب الجزيرة العربية قد مسها كثير من الانحراف بسبب وفود الأجانب التى تصل لها وتعيش فيها أحيانا وتتاجر مع سكانها ، ولم يستطيع هؤلاء الأجانب أن يجيدوا اللغة العربية ، فكانوا ينطقون بها محرفة ، وتسرى الانحراف الى لغة الجنوب بسبب هذه اللقاءات وتلك المعاشية ، أما اللغة العربية فى الشمال فقد حافظت على نقائها اذ لم تجذب جهات الشمال وفود الأجانب كما حدث فى الجنوب (٢) •

وعلى هذا فما من شك فى أن علاقات وثيقة مزدوجة الاتجاه قامت بين جنوب الجزيرة العربية ومصر من جانب وبين الملايو واندونيسيا من جانب آخر ، وأن مراكز قامت فى الملايو واندونيسيا للعرب وللمصريين ، ومراكز قامت للملايو واندونيسيا فى جنوب الجزيرة العربية وفى مصر ، وذلك قبل الاسلام بزمان طويل •

فاذا خطونا بعد ذلك خطوة مع التاريخ نجد أن عمان التى كانت تقود جزءا كبيرا من هذه الحركة التجارية دخلت الاسلام من عهد الرسول صلوات الله عليه فى العام السابع للهجرة ، وكان مبعوث الرسول الى عمان هو عمرو بن العاص الذى أسلم على يديه جيفر وأخوه عبد ابن الجندى اللذان كانا يحكمان عمان ، وأسلم معهما سكان عمان ، فقد كانت سيرة الاسلام ومبادئه قد غطت الجزيرة العربية ، فما ان جاء مبعوث الرسول حتى كانت الاستجابة اليه سهلة وسريعة (٣) •

(١) الاسلام فى اندونيسيا : ص ١١ و ١٢ •

(٢) الجزء الأول ص ٨٩ — ٩٠ من الطبعة العاشرة •

(٣) موسوعة التاريخ الاسلامى ج ٧ ص ٢٩٤ وما بعدها •

وعلى هذا أصبحت السفن التجارية العربية يقودها ويتاجر عليها عرب مسلمون ، كما أصبحت بعض المراكز العربية التي كانت موجودة بجزر الملايو واندونيسيا مراكز اسلامية •

واذا كانت بعض الأديان عقيدة داخلية مستورة لا تظهر للرأى ، فإن الإسلام ليس كذلك فإن له شعائر ومبادئ تُعلن عن نفسها ، كالصلاة وطهارة اللبس والمكان وفيه إخراج الزكاة وصوم شهر رمضان ، ثم فيه مع ذلك التزامات خلقية دقيقة تجعل تطفيف الكيل والميزان جريمة ، وتجعل الغش والكذب خطيئة ، ومثلزم أن تكون الروابط العائلية قائمة على أسس شرعية سليمة ، ومعنى هذا أن الإسلام أعلن عن نفسه حتى على فرض أن التجار لم يعلنوا عنه ، لأن مظاهر الإسلام تعلن عن نفسها في كل اتجاه ثم إن بعض التجار كانوا يتمنون الهداية للناس ويرغبون في إبعادهم عن الأصنام والأحجار فبذلوا بعض جهودهم ووقتهم للدعوة للإسلام • ولا شك أنهم وجدوا بعض الاستجابة من أولئك الذين يتعاملون معهم ويبيعون لهم ويشترون منهم •

فإذا أضفنا إلى ذلك أن التاجر العربى كان يسير في تجارته إلى هذه الأماكن النائية دون أن يصحب زوجته معه ، وأن هذا التاجر الذى اتخذ له مركزاً في جزيرة من الجزر اتخذ له كذلك زوجة من الملايو أو من إندونيسيا أو من الصين مما يحتم القول بأن أسراً إسلامية نشأت في هذه الجزر منذ ذلك العهد المبكر للإسلام ، وأصبحت تلك البيوت الإسلامية المزدوجة الجنسية منارات يهتدى بها السكان • (١)

ونقلت وفود التجارة إلى الملايو وإندونيسيا أخبار أحداث وقعت في الشرق الأوسط مرتبطة بالإسلام ، فقد دخل الإسلام الشام ومصر وبلاد فارس وأن كثيرين من الأهلىن اعتنقوا هذه الديانة ليتخلصوا من عبادة الطاغوت ومن دكتاتورىة الحاكم ، ولا نزاع في أن بعض السكان

(١) Prof Zhang Who : البحث السابق في عدة امكنة .

في الملايو واندونيسيا تأثروا بهذه الأخبار وحذوا حذو الآخرين في الشرق الأوسط .

وعن دخول الإسلام جزيرة جاوة يقول W. Groeneveld

في كتابه «Historical Nates on Indonesia and Malaya» (١) نقلا عن مؤرخ صيني من أسرة تانج : كانت هناك دولة تسمى « كالينج » وكانت تحكمها ملكة اسمها « سيما » وكانت هذه المملكة تقع في جزر إندونيسيا ، وقد أراد ملك عربي أن يهاجمها وينشر الإسلام بها ، ولكنه أرسل مبعوثا يتحسس له أحوال هذه المملكة ولكن هذا المبعوث أهدى النصيح للملك بعدم الهجوم عليها ، ويقول العالم الإندونيسي همكا : إن هذا الملك العربي هو معاوية بن أبي سفيان ، وأن المبعوث العربي كانت له علاقة مع مستعمرة عربية في جنوب شرقي جزيرة سومطرة (٢) .

ويذكر Snouck Hurgrnje أن الإسلام دخل أرخبيل الهند الشرقية بدون أية قوة عسكرية ، وأن تحول السكان إلى الإسلام جرى تدريجيا في هذه الجزر بواسطة التجار المسلمين الذين جاءوا من دول في غرب الأرخبيل ثم استمر الأهالي الذين اعتنقوا الإسلام من سكان الأرخبيل ينشرونه بين مواطنيهم بحماسة وقوة (٣) .

ويذكر الدكتور محمد زكي (٤) « أن رحلات التجار العرب إلى الجزر الملايوية كانت موجودة قبل الإسلام بمدة طويلة وأن العرب افتحوا أماكن كثيرة عبر الطريق إلى مضيق ملقا ، وقد زاد عدد الذين يسافرون في هذا الطريق في الصدر الأول من الإسلام بعد أن وجد هذا الدين وخلق أتباعا له على أكثر سواحل الطريق .

pp. 37-38. (١)

Sejarah Ummat Islam p. 207. (٢)

Agama Islam di Hindu Belanda pp. 13-14. (٣)

(٤) أساس الحضارة الإسلامية لسكان الملايو : ص ٣٦ .

« وقد استمرت العلاقات التجارية في ازدياد متصل فلما كان عهد هارون الرشيد زار عدد من التجار الإندونيسيين بغداد ورأوا هناك الحضارة الإسلامية في أزهى مظاهرها فجذبتهم هذه الحضارة إلى دين الإسلام ، وعندما عادوا إلى إندونيسيا كانوا شديدي الحماسة في نشر هذا الدين وتقويه أصوله في بلادهم » •

فإذا قفزنا عدة قرون ووصلنا إلى عهد السلطان محمود الغزنوى (١) نجده قد اندفع في الهند يفتح البلاد ويدمر الأوثان والأصنام حتى ألقت « محطم الأصنام » وقد حقق نشر الإسلام في الهند نتائج مزدوجة ، فبعض الهنود الذين كانوا يشتغلون في التجارة أصبحوا مسلمين وأخذوا دورهم في نقل الإسلام إلى الجزر الملايوية والإندونيسية ، ثم إن سكان هذه الجزر الذين كانوا عبر عدة قرون يقتبسون دياناتهم من الهند رأوا الهند وقد أصبحت كلها أو أكثرها تابعة لدين الإسلام ، ومن ثم هذا الكثيرون من سكان هذه الجزر حذو الشعب الهندي ، مما ساعد على نشر الإسلام في هذه الجزر •

وفي القرن السابع الهجري كان ذلك الزحف الهمجى الذى قام به المغول على أرض الإسلام وكان زحفاً عنيفاً لا يعرف قيماً ولا مبادئ ، وقد نتج عن هذا الزحف أن عدداً كبيراً من سكان البلاد هرب متخذاً طريقه إلى جزر الملايو وإندونيسيا وكان دخول هذه الجزر في هذه المرة دخول إقامة استلزمت نشر الدعوة الإسلامية حول هؤلاء المهاجرين •

وعندما توقفت العلاقات التجارية بين العرب والصين في نهاية القرن التاسع الميلادى وعندما حاصر القائد أهوانج شاو مدينة كانتون ، وأعمل فيها يد السلب والنهب وقتل عدداً ضخماً من التجار الأجانب والصينيين عند ذلك أخذ التجار العرب والصينيون يتلاقون على الساحل

(١) انظر الحديث عنه وعن جهوده في نشر الاسلام في الهند في هذا الجزء من موسوعة التاريخ الاسلامى •

الغربي لشبه جزيرة الملايو بالقرب من ملقا ، وكانت آنذاك جزءا من إمبراطورية سيرى وجايا ، ومعنى هذا أن الرحلات التجارية لها ومنها لم تنقطع أبداً ، وأن الدعوة صاحبت هذه الرحلات على مرّ الزمن •

وعندما استولى البرتغاليون على مضيق ملقا ، لم تنقطع العلاقات أيضا بين العرب وبين هذه الجزر ، فإن الرحلات اتخذت طريقها جنوب سومطرة ، وعبرت إلى بحر الصين عبر مضيق « سندا » وهذا ساعد على نشر الإسلام بجزيرة جاوة •

دور الهنود في نشر الإسلام بإندونيسيا والملايو :

تكاد تكون هناك منافسة كريمة بين الهنود والعرب ، وكمنّ منهما صاحب الفضل في نشر الإسلام في جزر الملايو وإندونيسيا ، ونقول إنها منافسة كريمة لأنها ترمى لنيل هدف سامّ ، والذي أراه أن العرب والهنود والسكان الأصليين في الأرخبيل، كل هؤلاء اشتركوا في هذا العمل الجليل كما ذكرنا من قبل •

والذي لا نزاع فيه فيما أعتقد أن العرب أسبق هؤلاء لأن العرب هم الذين تلقوا الإسلام قبل غيرهم وهم الذين حملوه إلى الشام ومصر والشمال الإفريقي والأندلس وفارس ثم إلى الهند وإلى ما وراء النهر وإلى الملايو وإندونيسيا ، وقد وصل الإسلام إلى هذه الجزر أحيانا قبل أن يصل إلى الهند نفسها •

أما ما نراه من تأثيرات هندية على الاتجاهات الإسلامية بهذه الجزر فمرجعه إلى أن الفكر الهندي البوذي والهندوكي كان موجوداً في هذه الجزر مدةً عدّة قرون قبل الإسلام ، وكان من الطبيعي أن يترك بعض آثاره على المسلم في الملايو وإندونيسيا •

ومما يدل على أن الإسلام جاء لهذه الجزر بواسطة العرب ، أنه

ليس به تشيع الفرس ولا تشيع الهند ، وإنما به المذهب الشافعى الذى كان منتشراً فى حضرموت ومصر .

مرة أخرى لقد اشترك العرب والهنود والإندونيسيون فى هذا العمل العظيم وقد أدى الحضارمة فى القرون المتأخرة دوراً لم يؤده سواهم من المعاصرين ، وقد آن لنا أن نتكلم عنهم كلمة فى هذا المجال .

الحضارمة فى إندونيسيا :

هاجر الحضارمة فى الأزمنة المختلفة إلى بقاع شتى من العالم وكان لهم دور كبير فى نشر الإسلام فى كل مكان نزلوا فيه ، وأكثر مهاجرى الحضارمة بدعوا هجرتهم تجاراً ، ثم استقروا فى الأماكن التى نزلوا بها وهم من ناحية التجارة لهم مهارة فائقة ورثوها عن أسلافهم الذين احتكروا التجارة العالمية فى يوم من الأيام ، وهم من ناحية العلم فيهم علماء أفذاذ مشهود لهم بسعة الاطلاع وعمق الاجتهاد ، وهناك كتب (١) تتحدث عن العلماء الحضارمة الذين هاجروا إلى بلاد مختلفة ومن هؤلاء العلماء الأسرة التى ينتمى لها ابن خلدون وقد هاجرت إلى الأندلس ومنهم علماء هاجروا أيضاً إلى الأندلس وحلوا فى أشبيلية وقرطبة ، ومنهم كذلك من هاجر إلى مصر والحجاز والشمال الإفريقى والهند ، وفى هذه البلاد شغلوا أعظم المناصب فى القضاء والوزارة والسياسة والتجارة والجيش .

ولعل من أعظم هجراتهم التاريخية هجرتهم إلى الملايو وإندونيسيا فقد رحلوا إلى هذه البلاد تجاراً وعلماء ، وكانوا يعرفونها قبل الإسلام بمدى طويل ، واستطاعوا أن ينشروا الإسلام فى كثير من البلدان والأمكنة وأن يعاشروا السكان معاشرة أقرب إلى الامتزاج ، وأمسكوا بزمام

(١) انظر تاريخ حضرموت السياسى للاستاذ صلاح البكرى فى مواضع متعددة .

التجارة في البر والبحر وسيطروا على المواصلات البحرية ابتداء من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر ، وكانت مراكزهم تجوب جزائر إندونيسيا وتبحر إلى الهند ، وإلى سواحل الجزيرة العربية وهي تحمل في الذهاب والعودة ألوانا من البضائع والسلع تشتريها من هنا لتبيعها هناك على طول الطريق .

وكان لهم دور هائل في نشر الإسلام بإندونيسيا وبالجزر والبلاد المحيطة بها مثل تايلاند والفلبين وسنغافورة ولا يزالون يقومون بهذا الدور حتى كتابة هذه السطور وهم يرون في إندونيسيا وطناً لهم ، ويخلصون لهذا الوطن أعظم إخلاص وقد اشتركوا في حركات التحرير بهمة ونشاط وأسهموا في دفع عجلة التقدم والتطور بالبلاد .

نشاط المواطنين لنشر الإسلام :

ذكرنا من قبل ضمن قرارات المؤتمر الذي عقد في « ميدان » أن الإندونيسيين أسهموا بقوة في نشر الإسلام بإندونيسيا ، ونريد أن نقرر هنا أن هذه حقيقة مهمة ، وأن دور العرب والفرس والهنود كان تقديم الإسلام لهذه البلاد ، وكان تقديم الإسلام عملاً تابعاً للتجارة التي كانت أساس العلاقات ، أو كان بواسطة الدعاة الذين استفادهم التجار ، ولكن ما إن وُجد الإسلام في إندونيسيا والملايو حتى ظهر بين السكان الأصليين من يتعمق في دراسته وي بذل الجهد لخدمته ، وهكذا وجد العلماء الإندونيسيون والملايويون ووُجد بجانبهم الدعاة الذين ذكرنا أن التجار استفادوهم للدعوة إلى الإسلام ، وتعاون الدعاة العرب مع الدعاة الوطنيين في خدمة هذا الدين وتقديمه للناس وشرحه لهم . وهكذا لم يعد الدين تابعاً للتجارة ، وإنما أصبح عملاً قائماً بذاته ، ونوراً يستضاء به ، وسرعان ما وُجد من بين الإندونيسيين والملايويين علماء لهم باع طويل في الدراسات الإسلامية والعربية حصوا عليها من الدعاة العرب بإندونيسيا والملايو ، أو نالوها في رحلات ثقافية قاموا بها إلى المراكز الإسلامية بالأرض العربية .

ويعتبر هذا الوضع خطوة جديدة في تاريخ الإسلام بإندونيسيا والملايو ، فقد أصبح له معلوم ودعاة لا يشتغلون بشيء غير الدعوة والتعليم وكان أكثرهم من أهل البلاد الأصليين ، يجيدون لغتهم ، ويرتبطون بهم أشد ارتباط .

مراكز إسلامية في الملايو وإندونيسيا :

بدأ الإسلام في الملايو وإندونيسيا عن طريق أفراد ، ثم اتسع نطاقه فأصبحت هناك أسر إسلامية ، ثم اتسع النطاق مرة أخرى فتكونت مراكز إسلامية في مناطق متعددة بهذه الجزر ، وكانت هذه المراكز تحيط بداعية من الدعاة أو رجل ذي مكانة سياسية مرموقة ، وبعض الدعاة كان لا يقنع بمركز يستقر فيه معلما وهاديا ، بل كان يطوف البلدان ويعلم الناس في مناطق مختلفة فكان يشبه مدرسة متنقلة ومركزا إسلاميا متحركا ، وفيما يلي بعض هؤلاء الأعلام المشاهير :

اشتهرت آتشة بجزيرة سومطرة بنشاطها العظيم للدعوة الإسلامية وكانت في موقع جغرافي جعلها من المناطق التي تلقت الدعوة الإسلامية في وقت مبكر ، وقد ظهر فيها علماء مسلمون أجلاء قاموا بالدعوة للإسلام على خير وجه ولم يقف تأثيرهم عند آتشة وحدها بل انتقل بعضهم الى مناطق أخرى من إندونيسيا فتكونت لهم مراكز في أماكن مختلفة ، ومن هؤلاء الأعلام :

— الشيخ شمس الدين السمطرائي الصوفي ، وكانت له اتجاهات صوفية ، وكانت حضرته فيها جلال وخشوع وكانت مناجاته لله وذكره له تصبحها دموعه وآماله ، وقد التفت حوله الجموع تتعلم الإسلام ومبادئه وتأتّم به في ذكره وصلواته .

ومما يذكر عن التصوف بإندونيسيا أنه لم يعرف الخرافات والانحرافات ، وإنما كان زهدا في الدنيا ومحاولة للقرب من الله عن طريق ذكر الله ذكرا تكتمل فيه عناصر المناجاة وتبرز فيه كلمات الذكر ، وتكثر فيه قراءة السور القصيرة من القرآن الكريم .

— الشيخ عبد الرؤوف سنجل Singkel وجهود هذا الشيخ تجاوزت آتشته ، بل تجاوزت سومطرة ، إذ كان له مريدون كثيرون في جاوة ، كانوا يحضرون اليه ليتلقوا عنه ثم يعودون الى بلادهم حيث ينقلون أفكاره الى أهلهم ومواطنهم •

— الشيخ نور الدين الترانيرى ، وكان هذا الشيخ طموحا يريد أن يعلم في مناطق متعددة وأن يعيش علمه بعده فألف كتابا شهيرا كان مصدرا هداية للكثيرين واسمه « بستان السلاطين » •

— حمزة بنسورى وكانت له اتجاهات فلسفية •

وبسبب هؤلاء العلماء وغيرهم من علماء آتشة تكونت في آتشة مراكز اسلامية كثيرة حولهم ، ومن أهم المراكز التي ذكرها التاريخ مركز فرساي ومركز فرلاق وقد قاما بجهود كبير في خدمة الدعوة الاسلامية ولا ننسى أن نذكر أن نشاط العلماء استمر بعد أن تكونت الممالك الاندونيسية وبعض العلماء الذين سبق ذكرهم عاش في رحاب هذه الممالك •

— وهناك علماء آخرون عم ذكرهم مناطق مختلفة كان لهم مريدون في عدة أمكنة ومن الذين ذاعت أسماؤهم سوهومن أفيل وسوهونن جاتي وكثيرون سواهما •

— وعرفت جريسيك Gresik بمنطقة سورابايا بجاوة الشرقية في النصف الأخير من القرن ١٤ نشاطا ملحوظا لداعية اشتهر اسمه هو مولانا ملك ابراهيم ، وقد تكونت حوله حركة نشطة للدعوة الاسلامية نالت أعظم نجاح ، وتذكر الروايات أن نسب هذا الداعية ينحدر من الامام على زين العابدين ابن الامام الحسين رضى الله عنهم ، وقد نجح هذا الداعية نجاحا جعله يخطو لدعوة امبراطور ماجابيت ليجذبه من الهندوكية الى الاسلام ، وبخاصة أن الامبراطورية آنذاك كانت تترنح اذ انفض الاندونيسيون من حولها وادرك الكثير من ذوي

الأمر ان الاستمرار على الهندوكية شيء لم يعد يتفق مع اتجاهات العصر وتقدّم الزمن وظهور الاسلام ، ولو استجاب الامبراطور لكان أجدى له ، ولكنه كابر وتكبر فكانت العاقبة ان سقطت دولته .

ومن نتائج نشاط ملك ابراهيم ان بدأ الناس يفخرون بالاسلام ، ويوصون بأن توضع لوحات رخامية على قبورهم عند موتهم يُذكر فيها ما يثبت اسلام صاحب القبر ، وفي مدينة جريسيك وما حولها وجد عدد من هذه اللوحات وأكثرها مكتوب باللغة العربية مما يدل على أن الداعية كان عربيا ، أو يدل على انتشار اللغة العربية مع انتشار الاسلام في هذه البقاع ونحن الى الاتجاه الأول أميل ، وفيما يلي نص احدى هذه اللوحات :

بسم الله الرحمن الرحيم

كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام
هذا قبر الشهيذة فاطمة بنت ميمون بن هبة الله
توفيت في يوم الجمعة لمسبع خلون من رجب سنة خمس
وتسعين وأربعمائة هـ الى رحمة الله (١)

وهناك لوحات مماثلة كثيرة في هرية تيرالايا بجاوة الشرقية وتاريخ الوفاة يقع بين سنتي ١٣٧٦ م ، ١٤٧٥ م والأسماء المكتوبة عليها أسماء مسلمين وبعض آيات من القرآن الكريم وهذه اللوحات تصل بنا الى معنى مهم هو أن الاسلام كان منتشرًا ويقف موقف التحدي من امبراطورية ماجابيت حتى في فترة عنفوانها .

أما في الملايو فهناك لوحات أقدم عهدا ، منها لوحة كتب عليها : قبر الشيخ عبد القادر بن حسين شاه المتوفى سنة ٢٩١ هـ (٢) .

والحديث عن التحدي الاسلامي لامبراطورية ماجابيت يصل بنا الى

(١) Muh. Said : Sejarah Ummat Islam di Indonesia p. 196.

(٢) وان حسين : الدعوة الاسلامية في جنوب شرقى آسيا ص ١١٦ .

داعية اندونيسى مسلم أعلن هذا التحدى وحارب الامبراطور الهندوكى
وصرخ : مالنا والهندوكية « ان الهندوكية دين الهنود وتقاليدهم الهنود
وسمع هذا قد أطرحها الكثيرون من الهند واعتنقوا الاسلام ، فكيف نظل
نحن على الولاء لها ؟

ذلك الداعية هو « غاتى أونس » أى لفتى يونس ، وقد ترعّم هذا
الداعية الاندونيسى المسلم حشود الجماعات الاسلامية ، ووحد صفوفها ،
وحارب أباطرة ماجابيت وانتصر عليهم ، وسقطت الامبراطورية الهندوكية ،
وسلمت الزمام لقيام ممالك اسلامية فى اندونيسيا والملايو .

— الشيخ اسماعيل وكان هذا الشيخ على رأس بعثة اسلامية أرسلها
شريف مكة لنشر الاسلام فى هذه الجزر ، وقد كان له آثار كبيرة فى
الأمكنة التى نزلت بها بسومطرة ، ومن هذه الآثار أن دخلت مملكة كانت
تسمى مملكة سومطرة دين الاسلام ، وتزوج ملكها بابنة ملك
« برالاك الاسلامية » التى سنتكلم عنها فيما بعد (١) .

— وقد وجد فى الملايو أحجار رخامية كتلك التى تحدثنا عنها فى اندونيسيا ،
وقد كثرت هذه الأحجار فى ولاية ترنجالو ، وقد استخدمت الحروف
العربية فى أكثر هذه اللوحات ويرجع تاريخها الى مطلع القرن
الثامن (٢) .

وهناك لوحة وجدت فى ولاية ترنجالو أيضا ولكنها لم تكن على رأس
مقبرة من المقابر ، وإنما كانت أشبه بدستور مسجل كتبه حاكم ترنجالو
الى سكان مملكته ، يأمرهم فيه باعتناق الاسلام ويحدد فيه بعض الأحكام
الاسلامية وهذه اللوحة مكتوبة بالحروف العربية ، ولكن باللغة المالوية ،
وهى مؤرخة بعام ٧٠٢ هـ (٣) .

(١) أحمد عطية الله : القاموس الاسلامى ج ١ ص ٣٠٦ .

(٢) زعبا : اختصار تاريخ الملايو ص ٤٤ و ٤٥ .

(٣) محمد زين : تاريخ الملايو ص ٢٤ .

تكوين الممالك الإسلامية بالملايو واندونيسيا

ذكرنا فيما سبق ان الاسلام باندونيسيا والملايو اتخذ في مجال انتشاره عدة مراحل ، فقد بدأ بوجود أفراد مسلمين من العرب ، أو من أهل الجزر أنفسهم الذين اعتنقوا الاسلام على يد الوافدين العرب أو اعتنقوه في رحلاتهم الى البلاد العربية وعادوا به الى جزرهم .

وبجهود هؤلاء خطا انتشار الاسلام خطوة أخرى فوجدت في هذه الجزر بيوت إسلامية وأسر إسلامية تكونت عن طريق زواج المسلمين العرب من اندونيسيات أو عن طريق اعتناق الاسر الاندونيسية أو الملايوية للدين الذي اعتنقه فرد منها عائد من بلاد العرب ، وبمرور الزمن كثرت الأسر الإسلامية وانتشرت ، وأصبحت منارات هدى ، وبخاصة على السواحل التي كانت تزخر بحركة بحرية واسعة .

وخطا انتشار الاسلام خطوة ثالثة عندما تولى الدعوة له رجال متخصصون ألحضرهم التجار سالفو الذكر أو بعث بهم بعض الحكام العرب ، أو كانوا ذوى أصول ملايوية أو اندونيسية تعلموا الاسلام من الوافدين أو رحلوا لتعلمه للخارج وعادوا على معرفة به ، وعن طريق هؤلاء الدعاة تكونت مراكز إسلامية واسعة المدى قوية التأثير في مختلف النواحي بالبلاد ، واتصلت هذه المراكز بالملوك والزعماء ، فنالت قوة سياسية بالاضافة الى قوتها الروحية ، وكانت امبراطورية ماجابيت وتقاليدها غريبة عن السكان بالملايو واندونيسيا فسقطت بطروف متعددة أشرنا لها ، كان منها زحف الاسلام وارتفاع كلمة التوحيد .

وتجىء المرحلة الرابعة المهمة ، وفي هذه المرحلة تكونت الممالك الإسلامية في هذه الجزر ، فكان بعضها واسع المدى خطير الشأن ، وكان بعضها محليا وفي مناطق صغيرة ، ولكن لسوء حظ هذه الممالك أنها صادفت في مطلع حياتها دخول الزحف الأوربي الغاشم الذي جاء ليدمر كل شيء ،

يهدم الروح المعنوية والاتجاهات الاقتصادية ، والقوى السياسية ،
فبذلت هذه الممالك أقصى ما في وسعها للصراع ضده ، وأصبح الاسلام
يمثل القومية والوطنية ضد الزحف الأوربي الذي جاء يمثل النهب والسلب
وينشر المسيحية فقامت باندونيسيا والملايو حروب تعد جزءا من الحروب
الصليبية التي عرفها الشرق عدة مرات وفي عدة ميادين بسبب الزحف
الغربي الغاشم .

وأهم هذه الممالك ما يلي :

- مملكة ملقا ١٤٠٠ — ١٥١١ م
- مملكة آتشه ١٥١٤ — ١٩٠٤ م
- مملكة ديماك ١٥١٢ — ١٥٥٢
- مملكة بنتان ١٥٥٢ — ١٦٨٤
- مملكة غووا (مكشر) ١٦٦٧
- ممالك شبه جزيرة الملايو عقب سقوط ملقا

وسنطى فيما يلي فكرة عن الممالك الإسلامية ، ثم ننتقل الى الحديث
عن الزحف الغربي والصراع ضده ، الى أن نصل الى العصر الحديث
في الملايو واندونيسيا .

ملقا Malaka

١٤٠٠ - ١٥١١ م

ملقا مدينة ساحلية بناها نبيل اسمه « باراميسور » وكان أحد نبلاء إمبراطورية « ماجابيت » وقد اهتم هذا الأمير بتلك المدينة فأصبحت ميناء تجاريا مهما ، وازدهرت ازدهارا كبيرا يوما بعد يوم ، حتى صارت أهم مركز تجارى فى المنطقة .

ولم يكن هذا الأمير مسلماً ، لأنه كما قلنا كان أحد نبلاء الامبراطورية الهندوكية « ماجابيت (١) » ولكن الإسلام انتشر حول ملقا وبخاصة فى الميناء البحرى « فاساى » فأصبحت فاساى نقطة ارتكاز مهمة للإسلام فى الساحل الشمالى الشرقى بسومطرة ، وربما كانت أقدم نقطة ارتكاز إسلامى فى إندونيسيا (٢) .

ولما مات أمير ملقا الهندوسى خلفه ابنه اسكندر شاه ، وقد أراد هذا أن يتزوج أميرة مسلمة من فاساى ، ولكن الأميرة رفضت بطبيعة الحال أن تتزوج رجلا غير مسلم ، وكذلك رفض أهلها ، فاتجه اسكندر شاه للتعرف على الإسلام ودراسته ، وسرعان ما أعلن اعتناق الإسلام ، وتبعه قومه أو أكثرهم .

ومما يذكر مرتبطا بهذا الحدث ما يذكره Harrison (١) من أن التزاوج بين أفراد الأسرات المالكة أو بين الزعماء وأسرات التجار كان من أهم الأسباب لذيوع الاسلام وانتشاره فى هذه المناطق .

ولنعد° إلى السلطان اسكندر شاه لنقرر أنه أصبح شديد العناية بالإسلام ، ودعا رعاياه لاعتناق الإسلام أيضاً فاستجابوا له ومنذ ذلك

(1) Winsted : A, History of Malaya p. 45.

(2) B. Harrison : South East Asia p. 77.

(1) South East Asia p. 78.

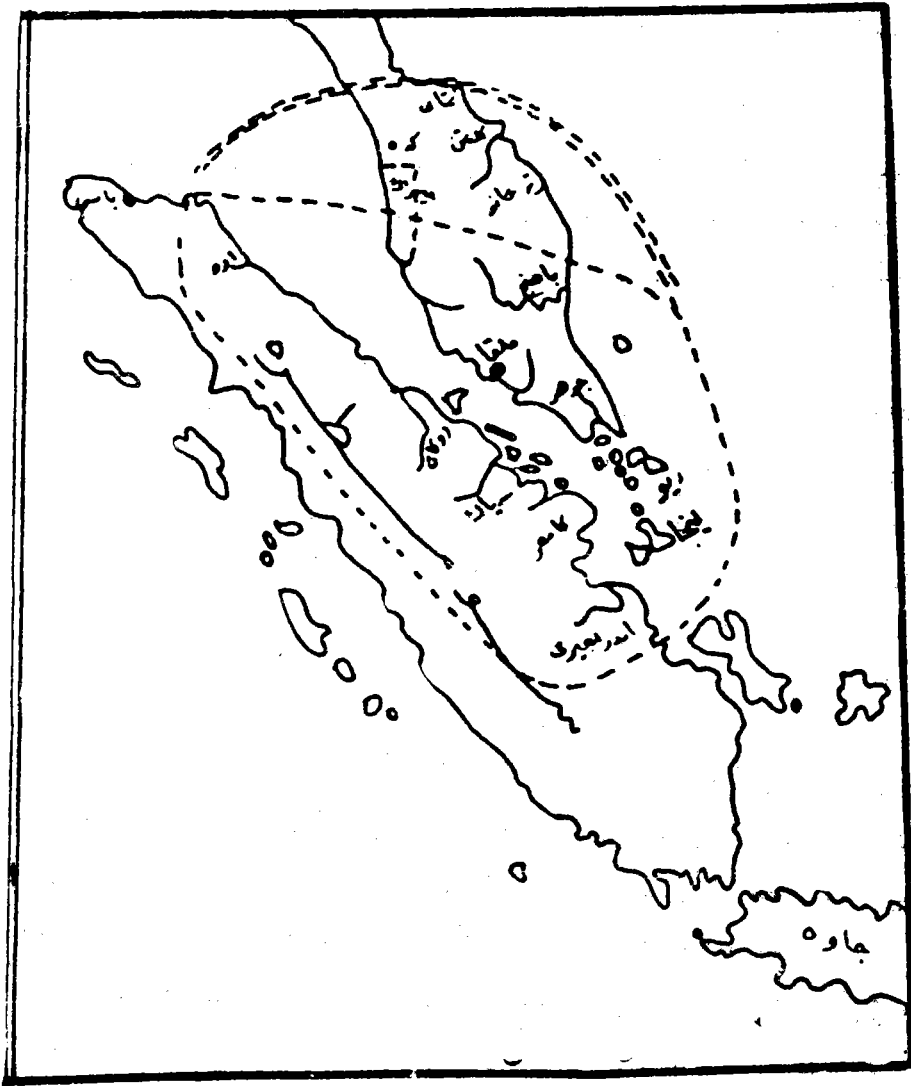
الحين أصبحت دولة ملقا مركزاً للدعوة الإسلامية ، بجانب كونها مركزاً تجارياً حافلاً ، وقد مات السلطان اسكندر شاه سنة ١٤٢٤ بعد أن تمكن الإسلام في ملقا .

وبسبب نشاط الدعوة الإسلامية في ملقا والنشاط التجاري بها توسعت رقعتها ، وضمت ولايات كثيرة تحيط بها في شبه جزيرة الملايو ، ومن هذه الولايات كده Kedah وترينجانو Trengano وباهانج Pahang ، وجامبيي Jambi ، وبننانج Bintang وغيرها ،

وامتدت علاقة دولة ملقا إلى سومطرة ، بسبب حاجة ملقا إلى المواد الغذائية التي لم تكن متوافرة بها ، واستلزمت هذه العلاقة الاقتصادية إرسال بعض العلماء لنشر الدين الإسلامي في المناطق التي ذهبت لها الوفود التجارية وتمكنت العلاقة بين ملقا وبين سومطرة تجارياً وإسلامياً واستطاعت ملقا أن تضم لها هذه المناطق من سومطرة ، وبهذا أصبحت مملكة ملقا امبراطورية واسعة الأرجاء تضم شبه جزيرة الملايو كلها ، كما تضم جزءاً كبيراً من سومطرة .

ومما ساعد دولة ملقا أن امبراطورية ماجابيت كانت تتجه للأفول ، وكانت هناك ممالك متعددة تقوم على انقراض هذه الامبراطورية ، وكانت ملقا أولى هذه الممالك وأهمها لتسلطها على المضيق الذي كان ممراً أساسياً للتجارة والفكر بين الغرب والشرق أي بين الدول العربية والصين .

وقد حظيت ملقا المدينة الساحلية بإعجاب الكتاب البرتغاليين ، وكانوا يصفونها أجمل وصف ، ومن هؤلاء Tome Pires الذي يقول : ملقا مدينة عظيمة الأهمية ، واسعة الثراء ، لدرجة أنه يبدو أنه لا نظير لها في العالم . ويقول عنها Duarte Barbosa : إن ملقا أغنى ميناء بحري في العالم ، ويؤمها كبار التجار وأعظم السفن مما لا ينافسها ميناء غيرها في العالم كله (١) .



دولة ملقا في أقصى اتساعها

وملوك مملكة ملقا المسلمون هم :

١٤٠٠ — ١٤٢٤ م	اسكندر شاه
١٤٢٤ — ١٤٤٤ م	محمد شاه (مهاراجا)
١٤٤٤ — ١٤٤٦ م	راجا ابراهيم
١٤٤٦ — ١٤٥٦ م	راجا قاسم
١٤٥٦ — ١٤٥٩ م	السلطان مظفر شاه
١٤٥٩ — ١٤٧٧ م	السلطان منصور شاه
١٤٧٧ — ١٤٨٨ م	السلطان علاء الدين رعاية شاه
١٤٨٨ — ١٥١١ م (١)	السلطان محمود شاه

ويقول Harrison (٢) وباعتلاء مظفر شاه للعرش أصبحت ملقا رأس حربة لتقدم الإسلام وراءها تقدماً أمكن الوصول إليه بالمقدرة التجارية المتزايدة ، ووطدت ملقا اتجاهاتها الإسلامية بالمصاهرات الملكية الحميمة ، ولقد اتخذ مظفر شاه لقب سلطان ، وضرب صفحاً عن لقب « راجا » الهندي الذي استعمله بعض ملوك ملقا قبله ، واستفاد هذا السلطان والذين جاءوا بعده بما كان لزواج أميرات ملقا من أهمية لنشر الإسلام صوب الشمال إلى حكام باهانج وكده ، وصوب الجنوب إلى حكام موانى سومطرة النهرية ، وأهمها كامبار وجامبي .

وبجانب أعمال الدعوة للإسلام التي كان يقوم بها البيت المالكي فإن ملقا بمكانتها التجارية حملت الاسلام للخارج ونشرته في جزر آسيا الجنوبية الشرقية ، وكانت تعكس العقيدة الإسلامية بما لها من مكانة مرموقة في موانى ساحل جاوة الشمالى ، ومنه امتدت بعيدا ناحية الشرق حتى جزر الملوك .

(١) في المراجع التى بين ايدينا يكثر ان يوجد خلافاً حول اسماء الملوك والسلطين والقابهم ، وكذلك حول تواريخ حكمهم ، وقد حاولنا ان نقرب من الصواب بقدر الامكان .

(٢) South East Asia pp. 85-86.

وكان تطور الحال تجاريا وإسلاميا في ملقا من الأسباب التي وضعت حدا لنفوذ امبراطورية ماجابيت ودفعتها للزوال •

ويضيف Harrison أن ميناء ملقا كان يدار على أحسن وجه ، وكان للميناء قوانين ونظم في غاية الدقة لدرجة أن الغربيين الذين زاروها في السنوات الأولى من القرن السادس عشر قد أبدوا إعجابهم بها ، وينقل في ذلك قول « بيرز » ونصه : لا يستطيع الناس أن يقدروا قيمة ملقا المستمدة من عظمتها و ثرائها ، إنها مدينة خلقت للتجارة ، وهي أصلح من أية مدينة أخرى في العالم • (١)

ويقول Datus Smith (٢) لم تأت نهاية القرن الرابع عشر حتى كانت مملكة ملقا قوية شامخة على شاطئ المضيق المسمى باسمها ، وكانت مؤمنة بالعقيدة الإسلامية كل الإيمان ، وانتشرت هذه العقيدة بسرعة مدهشة إلى كثير من الجزر في القرن الخامس عشر ومنذ ذلك الوقت صار الإسلام دين الغالبية العظمى لأهل تلك الجزر •

أحداث عن النظم بدولة ملقا

عنى السلطان محمد شاه بتنظيم البلاط ، وإعداد المراسم الخاصة بالحياة الملكية ، واقتبس ما كان شائعا آنذاك في البلاد الإسلامية من ألقاب ونظم ، ومن هنا زحف لقب شاه إلى سلاطين المملكة •

وكان قصر السلطان يتوسط دائرة العاصمة ، ويحيط بهذا القصر قصور كبار الحاشية والحرس ، ومع أنه لم يكن للسلطان مجلس شورى فقد كان له موظفون كبار يستشيرهم في مشكلات المجتمع (٣) •

(١) Ibid p. 95.

(٢) The Land and People of Indonesia p. 56.

(٣) Glimpses of Malaysian History p. 19.

مكانة الدعاة في بلاط ملقا :

وقد وفد إلى دولة ملقا كثير من الدعاة المسلمين من البلاد العربية ، وكانوا ينعمون بمكانة خاصة في الإمبراطورية ، ومما يدل على ذلك أن أحد معلمى السلطان محمود رفض أن يُلقى درسه على السلطان لأن السلطان جاء إلى بيته راجباً أحد الفيلة ، وصرخ المعلم قائلاً : إن طالب العلم ينبغي أن يجيء للمعلم راجلاً ، وكان هناك اتصال وثيق بين الأساتذة المسلمين في إمبراطورية ملقا ، وبين زملائهم في جزر كثيرة بجزر جنوب شرقى آسيا ، وكان يدور نقاش وتفاهم حول القضايا الإسلامية بالمنطقة (١) .

والدعوة إلى الإسلام التى اتخذت مركزها مدينة ملقا تشعبت إلى مناطق مختلفة بالإمبراطورية ، بل تعدت الإمبراطورية إلى جزر الفيلبين ، وإلى جزر أخرى بالمنطقة (٢) .

وقد تعرضت مملكة ملقا إلى هجوم من دولة سيام ولكن هذا الهجوم رُدد على أعقابهِ ، فقد كان جيش ملقا قادراً على حماية البلاد .

وقد كان وجود دولة ملقا من أسباب سقوط إمبراطورية ماجابيت لأن ملقا سيطرت على المضيق الرئيسى للتجارة بين الشرق والغرب فبدأت الإمبراطورية نحو الأفول اقتصادياً وسياسياً كما أن الإندونيسيين انفضوا من حول الإمبراطورية الهندوكية التى رأوا أنها لم تعد تمثلهم كما ذكرنا من قبل .

وعرفت دولة ملقا رئيس وزراء كان حاذقاً قوياً هو « تون بيراق » Tun Perak وكان هذا الرجل شديد الفطنة ، وظل رئيساً للوزراء تحت حكم أربعة سلاطين ، ونالت ملقا خلال هذه المدة نهضة عظيمة (٣)

Ibid p. 22. (١)

Ibid p. 25. (٢)

(٣) وان شمس الدين : تاريخ الملايو وما حولها ص ١٧ .

كما كان من نتائج جهوده أن زادت الدولة اتساعاً ، ويعتبر عهده عهداً ذهبياً •

وقد أتاح هذا العصر الذهبى الفرصة لتوسع إسلامى هائل فى جنوب شرقى آسيا ، كما كان فرصة لاقتباس كثير من التشريعات الإسلامية التى سرعان ما كوَّنت القانون الرئيسى لامبراطورية ملقا فى جميع الاتجاهات القانونية (١) •

وبعد وفاة تون بيراق تولى شقيقه تون بوتيه رئاسة الوزراء وواصل هذا نظام أخيه ، فاستمرت الدولة فى الاتساع والنفوذ •

اللغة الملايوية تنمو فى ملقا :

وفى دولة • ملقا نمت لغة الملايو التى أصبحت فيما بعد لغة الملايو واندونيسيا ذلك لأن ملقا كانت مملكة تجارية يَفِدُ الناس لها من مختلف الجزر ومن مختلف الأقطار فوُجِدَت بها هذه اللغة التى اعتبرت Lingua Franca « لينجوا فرانكا » أى لغة المجتمع المتشعب الأصمل •

البرتغال تقضى على ملقا :

بعد أن كشف فاسكودى جاما طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر ، بدأ الصراع التجارى بين السفن الغربية والسفن الشرقية ، وفى سنة ١٥٠٩ تغلبت البرتغال على السفن العربية والهندية فى معركة « ديو » ثم زار الأسطول البرتغالى سنة ١٥٠٩ مدينة ملقا بحجة التجارة معها ، واهتم المسلمون بتبصير قادة ملقا إلى خطر الاتصال بالبرتغاليين واتضح أن الزيارة التى قام بها الأسطول البرتغالى إلى ملقا ، لم تكن بهدف التجارة ، وإنما بهدف التعرف على قوى ملقا تمهيداً لمهاجمتها ، وتحريش كل فريق بالآخر ، ووقع بعض الأسرى

Abdaul Majid Muhamed : Legal Organization in Malaya (١)

البرتغاليين في أيدي سكان ملقا ، ولعب بعض الأسرى دوراً خطيراً ، إذ أرسلوا إلى القيادة البرتغالية وصفاً لقوة جيش ملقا ، وأكدوا أنه جيش ضعيف ويمكن الانتصار عليه بسهولة ، وتطورت الأمور ، فكتشفت البرتغال عن حقيقتها ، ودخلت السفن البرتغالية الحربية ميناء ملقا

وبدأت معارك انتهت بسقوط الدولة المسلمة ، وسيطرت البرتغال عليها في أغسطس سنة ١٥١١ م ، وُفتح الباب لصراع طويل بين الشرق والغرب في هذه اللبقة . (١)

قسوة صليبية في ملقا :

وقد دافع المسلمون عن ملقا بحرارة وحماسة ، ضد نيران المعتدى ، وأبلوا بلاءً حسناً في الدفاع الذي ظل ردحا طويلاً ، ولكن الأساحة الحديثة ومؤامرات الكفار الدخلاء من هندوكيين وأضرابهم أدت في النهاية إلى هزيمة الملايويين وفتح المدينة عنوة ، ثم سمح للبرتغاليون لمن ساعدوهم من أهل الكفر أن يخرجوا ببضائعهم وبثرواتهم في أمن وسلام ، ولما لم يبق بالمدينة إلا أهلها من بنى الإسلام صدرت الأوامر بإطلاق النار على جميع من في الشوارع دون استثناء للأطفال والنساء ، وأذن للمعتدين بسلب المدينة ونهبها ، وحلّت بالمسلمين نكبات وويلات يعجز القلم عن وصفها ، ثم صدرت الأوامر بهدم المساجد ونهب قبور السلاطين لتبنى من أنقاضها كنائس الفاتحين وقلاعهم ، فكانت حملة صليبية قاسية .

وعقب ذلك بدأ إكراه الناس على الدخول في المسيحية ، وإبادة من لا يستجيب لدعوة المستعمر (٢) .

ولم تنفق البرتغال أية نفقة لإصلاح المدينة أو تحسين الحياة فيها ، فالفرب المستعمر كان يأخذ ولا يعطى (٣) .

Glimpses of Malaysian History p. 37. (١)

(٢) دكتور محمد عبد الرؤوف : الملايو وصف وانطباعات ص ٨٥ .

Harrison : South East Asia p. 124. (٣)

ويهمنا أن نقول إن سقوط دولة ملقا الإسلامية على يد دولة غربية مسيحية أثار الذعر في نفوس الملايويين والاندونيسيين جميعاً ، فتكوهنت عدة ممالك إسلامية لتصارع الاستعمار الغربى ، وأصبح الإسلام كما قلنا من قبل قوة قومية يلتف حولها المواطنون ليدفعوا عن بلادهم ذلك الاستعمار الغاشم ، وهكذا كان سقوط ملقا على يد البرتغاليين دافعاً لسكان الملايو وجزر اندونيسيا على الدخول في الإسلام لتكوين قوة إسلامية تواجه الزحف المسيحى ، ودافعاً كذلك لتكوين ممالك تضم هذه القوى وتنظمها أمام العدو الأوروبى •

المملكة الهندوكية تتعاون مع الاستعمار الغربى :

ومما ألزم المسلمين بحمل أعباء الصراع ضد الغرب أن مملكة باجاجاران الهندية التى قامت فى جاوة الغربية بمنطقة « السندا » قد تعاونت مع البرتغاليين مما ألقى عبء الدفاع عن البلاد على المسلمين ، وجعلهم لا يدعون مستقبل بلادهم فى أيدي الهنادكة ، واضطر المسلمون إلى محاربة مملكة باجاجاران الهندية وهم يحاربون أعداء البلاد ، وقد تغلب عليها السلطان حسن الدين سلطان متارم سنة ١٥٧٩ •

وستحدث فيما يلى عن أهم الدول الإسلامية التى كان من أقدم ما اهتمت به أن تحارب الغزاة أعداء الإسلام وأعداء الوطن •

مملكة آتشة (١٥١٤ - ١٩٠٤)

تقع منطقة آتشة في شمالي سومطرة ، وإذا كانت مملكة آتشة قد بدأت سنة ١٥١٤ فليس معنى هذا أن الإسلام كان قد ظهر حديثاً في منطقة آتشة كما يظن البعض ، ففتتبع الحركة الإسلامية في تلك المناطق يوضح أن الإسلام ظهر وانتشر فيها قبل ذلك بعدة قرون ، وقد زار ابن بطوطة المتوفى سنة ١٣٧٨ م منطقة آتشة ، وأعجب بها وبالنشاط الإسلامي فيها ، وأثنى على ما لقي من ترحيب من علماء هذه المنطقة وسلاطينها .

وهو يقول إنه التقي بالسلطان وهو من فضلاء الملوك وكرمائم وكان شافعي المذهب ، محباً للفقهاء ، ولذلك كان يدعوهم كثيراً إلى مجلسه للقراءة والمذاكرة ، وهو كثير الجهاد والغزو ، ومتواضع يأتي إلى صلاة الجمعة ماشياً على قدميه ، وأهل بلاده شافعية يحبون الجهاد مثل سلطانهم ، ويخرجون معه تطوعاً ، وكان للسلطان لباسان ، لباس الفقهاء عندما يجلس معهم ، ويذاكرهم أو يفد إلى المسجد للصلاة ، ولباس الملوك وهو لباس كثير الزركشة واضح الفخامة (١) .

ويقول الباحثون إن مملكة آتشة الشهيرة التي بدأت سنة ١٥١٤ هي المملكة الإسلامية الثانية في آتشة ، فقد سبقتها في آتشة مملكة إسلامية أخرى تسمى مملكة « فاساي » Pasai أوبسي (٢) وهي التي تزوج ملك إحدى أميراتها ، وقد تحدثنا عن ذلك عند الحديث عن ملقا ، ولكن يبدو أن هذه الدولة كانت قليلة الحظ في كتابه المؤرخين ، إذ اتجهت عنايتهم إلى مملكة آتشة الثانية التي نتكلم عنها الآن .

(١) تحفة النظار د ٢ ص ١٨٥ وما بعدها .

(٢) تحدثنا عنها عند حديثنا عن ملقا ووصفناها بأنها كانت ميناء بحريا مهما ، ولكن بعض الباحثين يعدها في صفوف الممالك .

ولا يُعرَف على وجه الدقة تاريخ نشأة هذه الدولة ، وكل ما يذكره التاريخ أنها نشأت عقب سقوط ملقا ، وأن تطورها جاء سريعاً عقب نشأتها ، وأن اهتمامها اتجه لجانبين مهمين هما نشر الإسلام ومصارعة الغرب المحتل ، وهما هدفان التقيا حول هدف واحد فقد أصبح فهم الإسلام يشمل حماية الوطن من أعدائه ، إذ لا ينمو الفكر الإسلامى فى جو القهر الغربى ، والاهتمام بنشر المسيحية الغربية .

وأول سلاطين آتشة المشهورين سلطان على مogaith شاه ويقول الباحثون من أهل آتشة إن مogaith مأخوذة من كلمة مغيث بمعنى مُعين ، فالسلطان نذر نفسه ليعين الإسلام ويُعيد مجده .

وفى عهد هذا السلطان اقتحم البرتغاليون منطقة آتشة بشمال سومطرة ، ولكن السلطان استطاع أن يواجههم بحزم .

وتوالى السلاطين من نسل هذا السلطان كالاتى :

١٥٢٨ — ١٥١٤	على المغيث شاه
١٥٣٧ — ١٥٢٨	صلاح الدين بن على
١٥٦٨ — ١٥٣٧	علاء الدين رعاية شاه
١٥٧٥ — ١٥٦٨	على رعاية شاه
١٥٧٦ — ١٥٧٥	سرى عالم
١٥٨٦ — ١٥٧٧	سلطان منصور شاه بن أحمد
١٥٨٨ — ١٥٨٦	على رعاية شاه الثانى
١٦٠٤ — ١٥٨٨	علاء الدين رعاية شاه
١٦٠٧ — ١٦٠٤	سلطان مودا
١٦٣٧ — ١٦٠٧	سلطان اسكندر مودا

وبعد وفاة اسكندر مودا كملك زوج ابنته وتلقب سلطان اسكندر الثانى علاء الدين حتى سنة ١٦٤١ .

وبعد وفاة هذا السلطان تولت زوجته السلطة ، واسمها سلطانة

تاج العالم صفية الدين شاه من ١٦٤١ إلى ١٦٧٥ ، وبعدها تولّت السلطنة
عناية شاه زكية الدين ١٦٧٥ — ١٦٨٨ م ، ثم سلطنة كماله شاه ١٦٨٨ —
١٦٩٩ م ،

وخلال حكم سلطنة كماله شاه تغيّر مجتمع آتشه تغيراً عظيماً كما
يقول مؤرخو هذه المنطقة ، فقد دخل هذه المنطقة عدد كبير من العرب
تجاراً ومعلمين وكان الواحد منهم يُلقب « السيد » ، وتزوج كثير منهم
فتيات من آتشه ، وتزوج بعضهم بنات السلاطين ، وكان ابن السيد
من بنت السلطان يُلقب (شريف) .

وبعد وفاة سلطنة كماله شاه ساد في آتشه سلاطين من نسل العرب
الذين يلقب الواحد منهم « شريف » ومن هؤلاء .

١٦٩٩ — ١٧٠٢

سلطان بدر العالم شريف هاشم
وهو زوج بنت كماله شاه

١٧٠٢ — ١٧٠٣

سلطان فرکاسا عالم شريف

١٧٠٣ — ١٧٢٦

السلطان بدر العالم جمال بن شريف هاشم

ثم تحولت السلطة مرة أخرى إلى أبناء السلاطين الذين لا ينحدرون
من أصل عربي حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

الصراع بين هولندا وآتشه :

كانت السيادة الأوروبية على اندونيسيا قد آلت إلى هولندا ،
وعلى هذا ظهر صراع مرير بين هولندا وآتشه ، ووقفت آتشه موقفاً صلباً
تدافع عن نفسها ، وقام العلماء المسلمون بدور هائل في قيادة الجماهير
للدفاع عن أنفسهم ، ومن هنا لم يكن سهلاً على هولندا أن تحقق نصراً
سريعاً على آتشه التي ظّلت تكافح حتى مطلع القرن العشرين ، وأخذت
هولندا عقب ذلك تُدرّب أبناء السلاطين على الحياة الغربية وتربيهم

في بلادها حتى إذا ما عادوا كان سلوكهم غريباً ، وكان صراعهم ضد هولندا فاتراً ، ولكن هذه السياسة لم تأت بباطل ، فقد انضمت آتشه إلى ركب المجاهدين حتى تحقق لإندونيسيا النصر ، ومن الواضح أن صراع مملكة آتشه كان طويلاً ، ، وأنها قاومت مقاومة عنيدة ظلت حتى مطلع القرن العشرين كما ذكرنا من قبل .

أزهي عصور آتشه :

يمثل عصر اسكندر مودا أزهي عصور مملكة آتشه ، وقد دام سلطانه من سنة ١٦٠٧ إلى ١٦٣٧ ، وقد استطاع اسكندر مودا أن يستولى على أكثر جزيرة « آندلاس » ، كما استولى على « باريامن » في الساحل الغربي ، و « إندرابورا » في الساحل الشرقي ، وقد حقق كثيراً من النجاح في نشر الإسلام بسومطرة كلها تقريباً .

ومن أهم المناطق التي استولى عليها مملكة « جوهور » التي كان قد كونها ملك ملقا عقب انتصار البرتغاليين عليه ، وتوالى على حكمها أولاده وأحفاده من بعده ، وقد استطاع اسكندر مودا بذلك أن يحقق ألواناً من النصر ضد البرتغاليين (١) .

من علماء آتشه :

وقد أنجبت آتشه مجموعة هائلة من العلماء المسلمين الذين قاموا بدور كبير في شرح الإسلام وتقديمه لسكان المنطقة ، وقد ألّف بعضهم مجموعة من الكتب كانت مراجع عظيمة للباحثين والدارسين ومنهم الشيخ عبد الرؤوف الذي ترجم تفسير البيضاوي إلى لغة الملايو ، وكانت بلدته تسمى مكة الثانية ، وعقب وفاته كان الناس يذهبون لهذه البلدة لزيارة ضريحه وللجلوس إلى العلماء الذين كانوا يعلمون بها .

(١) اندونيسيا الثائرة : ص ٥٨ .

ومن علماء آتشة المشهورين الشيخ حمزة وهو من علماء الصوفية ،
والشيخ إبراهيم الشامي وهو من العلماء الشعراء ، ومنهم الشيخ
نور الدين بن علي بن صنهاجي ، وكان لا يميل للصوفية ولا للمتصوفين ،
وهو مؤلف كتاب تاج السلاطين ويشمل تاريخ سلاطين آتشة والملايو ،
ونصائح إلى السلاطين ، وهو الذي ألف أيضاً كتاب « ألف مسأله » وفيه
أحكام شريعة الإسلام في مختلف الشؤون ، ليكون دستوراً للمملكة .

وقد ذكرنا من قبل أن سلاطين آتشة اتخذوا لقب سلطان ولقب
شاه وذلك تأثراً بالحكام المسلمين ولم يظهر في ألقابهم تلك الألقاب
التي كانت تستعمل في إمبراطوريتي سري وجايا وماجابيت ، فالقبا
اللاوك في هاتين الإمبراطوريتين كانت ألقاباً تضع الملك في مكان الإله ،
وتراه ظل الله على الأرض وهو ما يعارضه التفكير الإسلامي .

ولا تزال منطقة آتشة حتى اليوم مركزاً مهماً للفكر الإسلامي ، وبها
مجموعة كبيرة من العلماء والباحثين المسلمين ، وطلابها يملؤهم الحماس
والحرص على خدمة الإسلام وإجادة علومه والتمسك بحضارته .



مسجد شامخ من مساجد آتشة يُعدّ داراً للعبادة ومركزاً فكرياً

أسباب تأخر آتشة :

تأخرت آتشة للأسباب التالية :

أولاً — كثرة الحروب التي قام بها اسكندر مودا وصهره اسكندر ثانى مما سبب أزمات اقتصادية للبلاد .

ثانياً — انتقال السلطان إلى الملكات كما أشرنا من قبل مدة ستين سنة تقريباً (١٦٤١ — ١٧٠٠) ولم يكن فى استطاعة الملكات أن يقدن البلاد كما قادها الرجال .

ثالثاً — فى عصر الملكات بوجه خاص علا قدر طبقة الأكابر والأعيان ، وكثيراً ما حدث صراع بين أفراد هذه الطبقة .

رابعاً — لم تستطع النظم بدولة آتشة أن تخلق مزجاً حقيقياً بين أجزاء المملكة ، وظلت أكثر هذه الأجزاء تتمتع بسلطات محلية وكان خضوعها للسلطان أحياناً خضوعاً نظرياً .

صمود آتشة ووسائل الغرب للتغلب عليها :

لقد عانى الغرب أشد المعاناة وهو يواجه آتشة ، فقد واجه فيها أبطالاً حملوا راية البلاد بعزم وصبر وكفاءة ممتازة ، وقد أحس الغرب أن انتصاره على هذه القوة بالوسائل العسكرية عسير ، ومن هنا لجأ إلى وسائل أخرى ساعدته فى تحقيق النصر ، وقد أشرنا إلى هذه الوسائل من قبل وهى توسيع الهوة بين المتنافسين فى الداخل ، ونشر الفتن والدسائس التى تثير بعض الجماعات على الأخرى ، وبذلك فقط استطاعت هولندا أن تنتصر على آتشة بعد صرع استمر إحدى وثلاثين عاماً من سنة ١٨٧٣ إلى ١٩٠٤ (١) .

(١) عبد الله عباس ناستيوم : تاريخ الملايو العظمى ج ١ ص ١٠٥ .

مملكة ديماك : (جاوة) ١٥١٢ — ١٥٥٢

كانت دولة ديماك من الدول الإسلامية التي قامت على أنقاض امبراطورية ماجابيت ، ومُقدّر لدولة ديماك أن تقود غزوة ضد بقايا تلك الامبراطورية ، وأن تحيلها قبيل نهاية القرن الخامس عشر إلى ولاية صغيرة تابعة لجاوة الشرقية (١) .

وعقب ذلك أسقط البرتغاليون دولة ملقا سنة ١٥١١ وأحست ديماك بمسئوليتها تجاه الصراع ضد أعداء الدين والوطن فتعاونت ديماك مع الدول الإسلامية الناشئة آنذاك في ردّ الغزاة ، ولكن هذا التعاون لم يأت بثمرة ذات بال لعدم وجود اتحاد قوى بين الدول الإسلامية ، ووحدّة بين صفوفها المجاهدة ، ثم لأن الدول الإسلامية كانت حديثة الظهور ولم يتح لها الاستقرار بعد .

ومن المعروف تاريخياً أنه بعد أن استولى البرتغاليون على مملكة ملقا تحوّل الطريق التجارى العربى إلى جنوب سومطرة متخذاً مضيق سندا بديلاً لمضيق ملقا ، وهذا نشط انتشار الإسلام في هذه المناطق .

ويذكر لديماك أنها حاولت تعويق البرتغاليين عن نشر سلطانهم بإندونيسيا عموماً وبجاوه بوجه خاص ؛ ففيمما يتعلق بإندونيسيا أنشأت ديماك صلات قوية مع أنثى وبالمنج وجوهور وسولاويسى . . . للوقوف في وجه الاستعمار الغربى ، ولقاطعة البرتغاليين تجارياً ، ولحصارعتهم عسكرياً ، كما بذلت ديماك جهوداً كبيرة لنشر الإسلام بجزر اندونيسيا المتعددة وبخاصة كاليمانتان وسولاويسى وجزر الملوك ، وجزر السوندا الصغرى وغيرها ، باعتبار الإسلام قوة تتجمع حولها البطولات للوقوف في جه الاستعمار .

(١) بريان هاريسون : جنوب شرقى آسيا ص ٨٦ من الترجمة العربية .
(م ٣١ — الموسوعة التاريخية)

وفيما يتعلق بجاوة أقامت ديماك اتحاداً مع ولاية جاوة الشرقية (جريسيك وسورابايا) كما اتصلت بساحل جاوة الغربية ، وضمت لها سونداكلابا وبننتان وشربون وغيرها بواسطة القائد العظيم « بلاتيهان »

ومملكة ديماك قصيرة العمر ، ولكن ملوكها كانوا من خيرة الأبطال والمجاهدين ، وأولهم « رادين فتاح » الذي استقلت الدولة في عهده وجاء بعده ابنه « باتيه يونس » وكان ذا مراس وخبرة فتمكن من توسيع مملكته ، ومن أعماله أنه وضع نهاية لامبراطورية ماجابيت التي كانت بقاياها تتعاون آنذاك مع البرتغاليين ، ولما توفي باتيه يونس سنة ١٥٣١ تولى أشهر مشاهير هذه المملكة وهو (رادين ترينجانو) الذي كان مشهوراً بلقب (سونين غوننج جاتي) وقد استمر حكمه من سنة ١٥٣١ إلى سنة ١٥٤٦ وكان يساعده قائده العظيم « بلاتيهان » سالف الذكر ، وكانت ثمرة عمله الخالدة دخول جاوة الغربية (بننتان وشربون) الإسلام (١) .

وبعد وفاة ترينجانو بدأت ديماك في الاضمحلال فاستقلت بننتان عنها بقيادة السلطان حسن الدين بن القائد سالف الذكر بلاتيهان .

(١) اندونيسيا النائرة ص ٦٥ .

مملكة بنتان (جاوة الغربية) ١٥٥٢ — ١٦٨٤

ذكرنا آنفاً أن مملكة بنتان استقلت عن مملكة ديماك عندما ضعفت هذه عقب وفاة ملكها العظيم ترينجانو ، وقد ازدهرت حالة مملكة بنتان خلال حكم حسن الدين أول ملك لها (١٥٥٢ — ١٥٧٠) وخلال حكم ابنه يوسف (١٥٧٠ — ١٥٨٠) ومن نتائج ازدهار هذه المملكة ما يلي :

أولاً — زيادة انتشار الإسلام في جاوة .

ثانياً — تزوج الملك حسن الدين من ابنة ملك (إندرابورا) بسومطرة فقامت الصلة بين جاوة وسومطرة في مواجهة الغزو الغربى .

ثالثاً — اهتم هذا الملك بجذب التجار المسلمين إلى مملكته مما جعلها بديلاً لمدينة ملقا التجارية .

وحقق يوسف بن حسن الدين الأهداف التالية :

أولاً — نظم الري مما سبب نهضة زراعية بالمملكة بالإضافة إلى مكانتها التجارية .

ثانياً — تغلب على المملكة الهندية باجاجاران التى كانت تتعاون مع الزحف الأوروبى ، ونتيجة لهذا النصر زحف الإسلام إلى مناطق السندا ودخل بريانن

• Pariangan

وإذا قفزنا عدة سنوات في تاريخ بنتان فأننا سنقابل ملكاً من أعظم ملوكها هو سلطان اجونج ترتاياسا ، وقد وصل هذا السلطان بمملكته إلى غاية المجد ، ولذلك ركز الهولنديون (الذين كانوا قد أخذوا السلطة من البرتغاليين سنة ١٦٤١) جهودهم الحربية ضد بنتان ، ولم يستطيعوا أن يهزموا هذا السلطان في ميدان الحرب ، فأعملوا الحيلة لهزيمته في ميدان الفتن ، فأوقعوا بينه وبين ابنه ، فقامت حروب داخلية انتهزتها هولندا لتساعد الابن ضد أبيه ، فلما تحقق النصر للابن أملت عليه هولندا شروطها ، وكان في ذلك نهاية لمجد بنتان سنة ١٦٨٤ .

مملكة متارم : ١٥٨٣ - ١٦٤٥ م

تحدثنا من قبل عن مملكة متارم الهندية وقد ظلت هذه المملكة على الوثنية حتى سنة ١٥٨٣ ، وفي هذا العام تولى أمرها رجل « مسلم هو (سنوفاتى) ، واتجه هذا القائد إلى نشر الإسلام في جاوة كلها ، كما اتجه إلى أن يكون منها مملكة واحدة ، بدل التمزق الذى تعانى به والذى لا يمكنها من الانتصار على العدو الزاحف على البلاد ، وفي سبيل تحقيق هذين الهدفين أرسل الدعاة إلى المناطق المختلفة ، كما أرسل الجيوش التى تقاوم اتجاه الوحدة التى كان يرمى إليه ، ومن أجل الحروب الكثيرة التى خاضها هذا القائد عُرف عصره بعصر الحروب والمعارك .

سلطان آجونج :

وأعظم ملوك متارم هو حفيد سنوفاتى مؤسس المملكة ، وقد ألقب هذا الحفيد « سلطان آجونج » أى السلطان العظيم وكان هدف هذا السلطان أن يجعل متارم الإسلامية وريثة لامبراطورية ماجابيت ، ومن هنا حارب كل الذين وقفوا في طريقه ، فتغلب على الساحل الشمالى لجاوة وحارب « سورابايا » وحقق عليها نصراً سنة ١٦٢٢ - ١٦٢٥ وتغلب على « مادورا » ،

ولما كثرت البلاد التابعة له جعل وسيلته أن يجمع في عاصمته السلاطين والعظماء القدماء ، وأن يرتبط بهم برباط المصاهرة حتى لا يثوروا ضده ، ولكن الهولنديين تصدوا له ولم يجعلوه يكمل النصر الذى بدأه ، وتوفي سلطان آجونج سنة ١٦٤٥ .

ومن أعظم أعمال سلطان آجونج في ميدان الثقافة أنه نشر الإسلام في جاوة الوسطى ، وجعل جذوره تتمكن في هذه المناطق ، ولما تم له ذلك طمع في أن يعترف له شريف مكة بلقب السلطان ، فقد كانت مكة تمثل

عندهم العاصمة الإسلامية ، وكان يحكمها آنذاك والٍ من قبل العثمانيين ، وإن كان نفوذ مصر لم ينقطع عن الحجاز منذ عهد الطولونيين (٨٦٨ — ٩٠٤ م) فقد كان ولاية مصر يحكمون مصر والحجاز جميعا حتى عهد محمد على الكبير في القرن التاسع عشر .

كما اهتم سلطان آجونج بتنقية الفكر الإسلامى من العناصر الهندوكية التى تسربت إليه خلال اللقاء بين الفكرين ، واتجه سلطان آجونج كذلك إلى استعمال التاريخ الهجرى وإلى العناية بالآداب عناية كبيرة .

وقد ضيقت العناصر الأوربية الزمام على الدولة الإسلامية العظيمة وحاربتها اقتصاديا ، ولكنها لم تستطع أن تتال من قوة الإنسان فيها .

ولما مات سلطان آجونج عاد الأمراء الذين كانوا قد احتجزهم ببلاطه إلى ممالكهم فقامت صراعات بين بعضهم والبعض الآخر ، وتدخلت هولندا فى هذا الصراع تدعم هذا الجانب أو ذاك حتى ضعفت كل القوى وتمكنت هولندا فى النهاية من النصر .

مملكة غووا (مكسر) سنة ١٦٦٧ م

إن الصراع ضد الزحف الأوربي اشتركت فيه كل الجزر الإندونيسية ، وكان لجزيرة « سلاويى » نصيب محمود ، فقد قامت فيها مملكة « غووا » التى أسهمت بنصيب كبير فى هذا الصراع ، فعقب سقوط ملقا فى يد البرتغاليين أصبحت « مكسر » ميناء مهماً للتجار المسلمين ، فانتشر الإسلام إنتشاراً واسعاً فى جزيرة سيلانيسى وبدأت هذه الجزيرة تأخذ نصيبها فى الصراع ضد هولندا التى كما قلنا من قبل كان السلطان قد انتقل إليها من البرتغال سنة ١٦٤١ م .

ودارت منازعات وصراع ثم حروب بين مكسر وهولندا مدة خمسين سنة تقريباً وكان يقود جيش مكسر ملكها حسن الدين الذى حقق انتصارات كبيرة وضم إلى مملكته جزر الملوك وغيرها من الجزر .

ومرة أخرى لم يتم النصر لهولندا إلاّ بواسطة الفتن التى أثارها بين سلطان مكسر وبين سلاطين الممالك التى ضمها حسن الدين إلى سلطانه .

ويقول التاريخ الإندونيسى إن دولة مكسر البحرية الشجاعة المسلمة تمثل جزءاً مهماً من تاريخ إندونيسيا الإسلامى ظل نابضا بالحياة على الرغم من الاستعمار حتى القرن التاسع عشر ، ثم تجددت به الحركات الاستقلالية فبدأ هذا الجزء من جديد فى عنفوانه وقوته وعظم آثاره .

ممالك شبه جزيرة الملايو :

عقب سقوط مملكة ملقا قامت في شبه جزيرة الملايو ممالك كثيرة مكان الولايات التي كانت تكوّن الجانب الملايوى في مملكة ملقا ، وقد أسهمت هذه الممالك الجديدة إسهاماً واضحاً في نشر الاسلام ومصارعة الاستعمار ، وكانت تتعاون مع بعضها البعض ، أو يتعاون بعضها مع بعض الممالك التي قامت في سومطرة ، وكان لجهودها أثر كبير في نشر الإسلام من جهة وإقلاق المستعمر من جهة أخرى ، ولكن — للأسف — استطاع الاستعمار أن يخدع بعض الممالك من شبه جزيرة الملايو كما فعل في إندونيسيا لتتعاون معه ضد ممالك أخرى وكان ذلك بدافع الفتن والدسائس التي هي من وسائل الاستعمار لإثارة بعض الزعماء ضد البعض من حين إلى آخر ، ولكن الجانب الوطنى كان يتغلب على المواطنين هنا وهناك ليعودوا إلى حمل المسؤولية في مقاومة الزحف الأوروبى الذى هو عدو الجميع •

وقد تحدثنا من قبل عن ممالك شبه جزيرة الملايو ، وسيرد فيما بعد مزيد من الحديث عن هذه الممالك •

الزحف الأوربي على الملايو وإندونيسيا

بدأ الزحف الأوربي على الملايو وإندونيسيا عقب نجاح فاسكودى جاما فى الالتفاف حول قارة إفريقيا والوصول إلى الهند دون المرور بالأرض العربية والبحار العربية ، واستغل الغرب هذا الكشف الجغرافى للسيطرة على الدول فى هذه المنطقة ، وكان البرتغاليون أسبق هذه الدول الأوربية فى الزحف إلى تلك البقاع ، فقد أسقطوا دولة ملقا كما قلنا من قبل سنة ١٥١١ ، واحتلوا ساحل الملايو الجنوبى وجوانب من ساحل سومطرة الشمالى ، وقبيل ذلك كانت امبراطورية ماجابيت قد تداعت وسقطت مؤذنة بقيام بعض الدول الإسلامية على أنقاضها ، وقد واجهت هذه الدول الإسلامية فى مطلع حياتها موجة الصراع مع الغرب ، بل إن دولاً إسلامية قامت لهذا الغرض نفسه ، إذ أقامتها تجمعات المسلمين للدفاع عن الدين والوطن ، وقد سرنا مع هذه الدول الإسلامية مسيرتنا فيما سبق ، نبرز أهم المعالم فى حياتها ، وبخاصة أنها كانت امتداداً للدعوة للإسلام ، وأنها بذلت الكثير من الجهد لنشر الإسلام وخدمته لتقاوم به الزحف الصليبي

وجاء الدور الآن للحديث عن الزحف الأوربي على جنوب شرقى آسيا ذلك الزحف الذى ابتدأ بغزو البرتغال ، ثم اشتركت فيه بريطانيا وهولندا وفرنسا ، وانتهى الأمر فيما يتعلق بالملايو وإندونيسيا إلى سيطرة بريطانيا على الملايو وسيطرت هولندا على إندونيسيا حتى الحرب العالمية الثانية ... وسنعطى فيما يلى بعض التفصيل لهذا الإجمال .

البرتغال تصل للملايو فى ثوب التجارة :

أشرنا من قبل إلى أن علاقات تجارية واسعة كانت قائمة منذ العصور القديمة بين آسيا وأوروبا ، وكانت منطقة الشرق الأوسط تقوم بدور الوسيط فى هذه التجارة ، كما كانت تُتسهم فيها بسلعها الخاصة ،

وكانت هذه المنطقة تحصل على امتيازات اقتصادية كبيرة نتيجة هذه الوساطة وتلك التجارة .

وكانت التجارة بين آسيا وأوروبا عبر الشرق الأوسط تسير في طريق من طريقين ، أحدهما يسمى الطريق البرى وذلك لأن البواخر تفرغ حمولتها على الشاطئ الشرقى للبحر المتوسط عند سوريا ثم تسير هذه الحمولة براً عن طريق صحراء سوريا إلى الخليج الفارسي لتتلقاها بواخر أخرى إلى آسيا ، أما الطريق الثانى فيسمى الطريق البحرى إذ ليس فيه إلا جزء برى يسير ، فقد كانت التجارة تصل إلى شمالي مصر عند المنطقة المعروفة الآن ببورسعيد وتحملها العربات إلى السويس لتستأنف بواخر أخرى حملها إلى المناطق البعيدة بآسيا ، إلى الهند وجزر جنوب شرقي آسيا فالصين .

وكانت منطقة الشرق الأوسط تتحكم في هذه التجارة ، وتحصل منها على فوائد كثيرة نتيجة النقل من البحر إلى البحر كما كانت تحصل على قدر كبير من المال كضرائب لعبور هذه السلع أرضها .

وفي العصور الوسطى حدثت أزمات صعبة بين أوروبا من جانب وبين المسلمين في الشرق الأوسط من جانب آخر ، فالحروب الصليبية كانت قد اجتاحت بعض المناطق في سوريا وفي مصر وفي الشمال الإفريقي ، ودار صراع دموى طويل استغرق حوالى قرنين من الزمان ، هزم الزحف الصليبي في نهايته ولكنه ترك جراحاً مريرة في نفوس أهل المنطقة ، وفي نفس الوقت تقريباً كانت البرتغال تقود حركة صليبية ضد المسلمين في كل مكان .

ولهذا الشعور بسوء العلاقة بين أوروبا وبين الشرق الأوسط اتجهت أوروبا وبخاصة البرتغال للبحث عن سوق جديدة تتعامل معها ، فالتجهت إلى التجارة مع دول غربى إفريقيا (موريتانيا والسنغال) وبدأت البرتغال

هذا الهدف ثم انتقلت التجارة الأوروبية مع طول الساحل الإفريقي الغربى حتى وصل « دياز » Dias « جنوب القارة عند رأس الرجاء الصالح •

وهذه النهاية شجعت فاسكودى جاما إلى مزيد من السير تجاه الشرق فوصل إلى الهند ، ثم إلى جزر الهند الشرقية ، وكان البرتغاليون بذلك أول الأوروبيين الذين يصلون إلى هذه الجزر •

وأحسّت مصر بخسارة هائلة لفقدانها دور الوسيط في التجارة العالمية ، فعملت بالتعاون مع موانئ البحر المتوسط والهند على محاربة البرتغال ، وبخاصة أن البرتغال بدأت تمنع السفن العربية من السير في طريقها إلى جزر الهند الشرقية والصين ، وقامت معركة بين مصر والبرتغال سنة ١٥٠٩ تعرف بمعركة (ديو) ولكن النصر في هذه المعركة كان للبرتغال فتهيا لها أن تسيطر على هذا الطريق حوالى مائة عام •

وحتى تضمن البرتغال مزيداً من الأمن لطريقها احتلت مسقط ومطرح في نفس الوقت تقريباً كما احتلت مناطق أخرى في عمان وفي ساحل الخليج العربى ، كما احتلت بعض المناطق في شرقى إفريقيا ، وهكذا تمكنت البرتغال في هذا الطريق •

وأصبحت البرتغال في ذلك سيدة التجارة في العالم تقريباً وصارت عاصمتها لشبونة محور الحركة التجارية في أوربا يفد لها التجار بائعين ومشتريين ، وبخاصة أن التجار الأوروبيين وجدوا من الأيسر أن يحصلوا على سلع جنوب شرقى آسيا من لشبونة ، فذلك أيسر لهم من حصولهم عليها من مناطق الشرق الأوسط •

تاريخ الملايو

من الاستعمار البرتغالي حتى الآن

تحدثنا فيما سبق عن الملايو وإندونيسيا معاً ، فلم تكن هناك حدود تفرّقت بين هذه وتلك وشملتها امبراطورية « سيرى وجايا » و« ماجابيت » وكانت بعض الدول تقوم في واحدة منهما أو في جزء من أجزائهما ، ثم تمتد إلى أجزاء أخرى كما ذكرنا من قبل ، وكان انتشار الإسلام هنا وهناك متماثلاً ،

أما ابتداء من الاستعمار الغربي ، فقد اختلفت الطرق مما يجعل من الأوفق أن نتحدث عن كل منهما على حدة .

البرتغال في الملايو :

بدأت البرتغال علاقاتها مع ملقا متخفية في ثوب الاقتصاد والتجارة عقب انتصارها في معركة ديو سنة ١٥٠٩ ، واتخذت لها بعض المخازن في دولة ملقا على نحو ما كان يفعل العرب والمسلمون ، ولكن البرتغال لم تستطع أن تظل صلاتها اقتصادية بحته مع ملقا ، فبدأت تتدخل في شؤون السياسة وتطالب بمطالب تتنافى مع احترام السلطة في البلاد ، كأن تطالب بمنع تجار العرب والهنود من التعامل مع أهل ملقا ، وكأن تطالب بامتيازات لتجارها ، وباحتكار شراء السلع من هذه المنطقة ، ولم يقف المسلمون سلبين أمام هذه الحركة الاستعمارية ، فأذاعوا أن حضور الغرب المسيحي إلى هذه المناطق ليس إلا وسيلة للقضاء على استقلالها ومحاربة الإسلام فيها ، واتضح ذلك فعلاً من تصرفات البرتغال التي بدأت تعمل لنشر المسيحية ومحاربة الإسلام امتداداً لموقف البرتغال من المسلمين بأسبانيا ، وهجبت بذلك في ملقا بوادر حرب مقدسة ، فقد هاجم الملايويون مخازن البرتغاليين على شاطئ

البحر بملقا بإذن من سلطان ملقا ، وأسر المسلمون بعض البرتغاليين ، ففرّ آخرون إلى جوا بالهند التي اعتبرت مركزاً برتغاليا مهما آنذاك ودارت اتصالات بين البرتغاليين وبين ملقا لإطلاق الأسرى على أن تدفع ملقا فدية نظير القبض عليهم أهمها الإذن ببناء مدينة بدولة ملقا تتحصن فيها التجارة البرتغالية ، ورفض ملك ملقا هذه المقترحات ، وفي الوقت نفسه أرسل الأسرى البرتغاليون إلى مركزهم في جوا تقريراً يوضح مدى قوة دولة ملقا وعجزها عن مواجهة القوة البرتغالية ، وكل هذا دفع البرتغال إلى الهجوم على الدولة الإسلامية في يوليو سنة ١٥١١ م وبعد صراع استمر حوالى الشهرين تمكنت البرتغال من السيطرة على المملكة الإسلامية .

وسرعان ما اتضح أن أهداف البرتغاليين لا ترمى فقط إلى الجانب التجارى والاقتصادى وإنما تهتم كذلك بمصارعة الاسلام ومحاولة القضاء عليه ، ولتحقيق هذين الهدفين حكم البرتغاليون ملقا حكماً عسكرياً ، وسيطروا على كل شؤونها برجالهم واهتموا اهتماماً كبيراً بالتبشير ونشر المسيحية وإنشاء الكنائس والمدارس المسيحية بهدف أن تكون ملقا مركزاً مسيحياً فى المنطقة كلها .

وقد نسى البرتغاليون أن سوء معاملتهم للأهالى كانت أبرز عنوان لأخلاقهم ، فانفضّ الأهالى عنهم ، وأعرضوا تماماً عن دعوتهم المسيحية ، وبعد حوالى قرن من الزمان اتجه نظام الحكم البرتغالى فى ملقا إلى الضعف ثم التدهور ، وأخيراً سقط سنة ١٦٤١ ، ومما ساعد على ذلك أن البرتغال كانت قد انهارت أمام اليعاربة فى عمان ، فقد هبّ اليعاربة يدافعون عن بلادهم ، وكتب لهم التوفيق ، فألزموا البرتغاليين بدفع جزية ثم ضيقوا عليهم حتى أخرجوهم من مسقط ومطرح ، وتتبعوهم فى افريقية فطردوهم منها واستولوا على الساحل الشرقى الذى كان البرتغاليون قد استولوا عليه (١) .

(١) تفصيل ذلك فى الجزء السابع من هذه الموسوعة .

وطرد البرتغاليون كذلك من الخليج العربي ، وكل هذا جعل نهايتهم ضرورية في الملايو ، فانتهى أمرهم ، ولكن هولندا — للأسف — أخذت مكانهم في الملايو ، ولم تنعم الملايو بالاستقلال الذي كانت تطمح فيه .

ولا شك أن التعصب الديني كان من أسباب النهاية السريعة للبرتغاليين ، كما أن البرتغال نفسها كانت قد سقطت في يد الأسبان سنة ١٥٨٠ م في عهد الملك فيليب الثاني ملك أسبانيا ، ولم يستطع الأسبان أن يحتفظوا بالسيطرة على المستعمرات التي كانت خاضعة للبرتغال . ثم إن المقاومة الملايوية للبرتغال كانت شديدة ومتجددة فزعزت أركان المستعمر وأقنصت مضجعه حتى أسلم الزمام واختفى .

هولندا في الملايو :

كانت هولندا جزءاً من مستعمرات الملك فيليب الثاني ملك أسبانيا ولكنها استقلت أما البرتغال فقد حدث لها عكس هذا فقد كانت مستقلة ولكنها سقطت تحت حكم الملك فيليب الثاني ملك أسبانيا ، وبهذا كان هناك عداء بين الملك فيليب وبين هولندا ، فاتجه الهولنديون يبحثون عن مصدر التوابل : إذ كانوا يحصلون عليها من لشبونة لاستعمالهم الخاص وللتجارة فيها ، فلما توقفت علاقاتهم بلشبونة راحوا يتطلعون إلى مصدر هذه السلع .

واستطاعت هولندا الحصول على اسرار هذه التجارة من خلال كتاب كتبه أحد الموظفين البرتغاليين الذي كان ينحدر من أصل هولندي ، وبناء على ذلك أرسلت هولندا سفناً تجارية في الطريق التجاري البرتغالي حتى وصلت هذه السفن إلى الملايو وشمال سومطرة وكان ذلك في فترة الصراع ضد البرتغال ، وأسس الهولنديون لهم مراكز تجارية في هذه

المنطقة ، وظنّ الأهالى فى الملايو وفى سومطرة انه يمكن أن يتحالفوا مع الهولنديين ، إذ كان الهولنديون معادين للبرتغاليين فجمعت العداوة بين أهل الملايو وأهل سومطرة من جانب والهولنديين من جانب آخر نصو الهدف المشترك ، وكان الملايويون يطمعون فى الحصول على أسلحة من هولندا تساعدهم فى الوقوف أمام أسلحة البرتغال التى كانت متطورة عن أسلحتهم (١) .

وحتى تدعم هولندا قوتها فى هذه المناطق الجديدة ألّفت شركة الهند الهولندية التجارية ، لتوحد بين تجارها الذين كانوا لا تجمعهم رابطة ، ونالت الشركة تأييد الحكومة الهولندية المادى والسياسى والعسكرى وأعلنت باسم هولندا عداها للبرتغال ، وكان هدف هولندا مخالفاً لهدف البرتغال ، فإن هولندا لم تكن شديدة الحرص على التبشير بالمسيحية ، وإنما كانت تمنى كل العناية بالاحتكار الاقتصادى ، ولهذا وثقت روابطها ببعض الولايات الملايوية مثل قدح وبيراق وغيرهما .

وفى سنة ١٦٤١ امتدت سيطرة هولندا إلى ملقا نفسها واضعة بذلك حداً لسيطرة البرتغال على الملايو .

الصراع بين الملايويين وهولندا :

لقد تعاون الملايويون مع هولندا للتخلص من الاستعمار البرتغالى ، وليس لاستبدال استعمار باستعمار ، فلما خرجت البرتغال ووضح أن هولندا تريد البقاء ، بدأ صراع ملايوى ضد هولندا ، فهدم الملايويون بعض المنشآت وهاجموا المراكز الهولندية ، ولكن هذه المقاومة كانت أقل من قوة المستعمر الذى يستعمل أحدث الأسلحة الحربية .

وكانت هولندا قبيل ذلك قد دخلت إندونيسيا وأقامت لها حاكماً

عاماً هناك كما سنرى فيما بعد ، فعينت على ملقا حاكماً هولندياً تابعاً للحاكم العام في (بتافيا = جاكرتا) .

نهاية هولندا في الملايو :

ولم يطل عصر الاستعمار الهولندي بالملايو ، فسرعان ما ظهرت خيانات الموظفين الهولنديين لشركة الهند الهولندية ، مما سبب خسارة لكثير من فروعها ثم إن منافساً خطيراً بدأ يظهر في الجو ذلك هو الانجليز الذين كانت لهم بحرية تعتبر الأولى في العالم ، واستطاع الانجليز أن يسيطروا على بعض المناطق في سومطرة وأن يحصلوا على سلع المنطقة بسعر رخيص جعلهم يعرضون هذه المنتجات في أسواق أوروبا بسعر أقل مما تعرضه شركة الهند الهولندية ، فكسبت انجلترا الأسواق من هولندا ، مما اضطر هولندا إلى إلغاء الشركة التجارية الهولندية سنة ١٨٠٠ ، وتحملت الديون التي كانت الشركة مدينة بها .

وقد نجحت بريطانيا في تمكين سلطانها من بعض جزر المنطقة وهي جزيرة سنغافورة سنة ١٨١٩ ، وكان اسمها « توماسك » وقد دفعت انجلترا نظير سيطرتها على هذه الجزيرة بعض الدراهم لسلطان ولاية جوهور . كما تمّ لها الاستيلاء على ملقا من هولنده واستولت كذلك على جزيرة « بينانج » من سلطان « قدح أو كده » وكوّن الإنجليز لهم من الموانئ الثلاثة « سنغافورة وملقا وبينانج » مستعمرة انجليزية أطلقوا عليها مستعمرة المضائق (١) .

ومما ساعد بريطانيا على الاستيلاء على جزيرة بينانج من سلطان « قدح » أن هذه الولاية كانت مهددة بهجوم تاييلاند ، فأرادت أن تحمي نفسها بالانعقاد مع بريطانيا ، ولكن اتضح أن بريطانيا لم تكن حريصة على الدفاع عن هذه الولاية ، ولهذا ضمّ سلطان قدح ولايته إلى ولايات

(١) دكتور محمد عبد الرؤوف : الملايو . . وصف وانطباعات ص ٨٩ .

ملايوية أخرى هي ولاية جوهور وترينجانو وغيرها لتكوين اتحاد يدافع عن نفسه ضد كل القوى الأوروبية ، وأدركت انجلترا أن هذه الولايات تتحول عنها فبدأت حركة عسكرية ضد ولاية قدح ، وألزمت حاكمها بمعاهدة تعمل لصالح الإنجليز ، وتنص هذه المعاهدة على تنازل هذه الولاية عن بعض مناطق بها نظير مبلغ يُدفع للسلطان .

ثم جاءت نهاية الحكم الهولندي للملايو سنة ١٧٩٥ بعد أن كانت هولندا قد هُزمت أمام جيوش نابليون بونابرت ، ولهذا اضطرت هولندا أن تعمل معاهدة مع بريطانيا لحماية مستعمراتها في شبه جزيرة الملايو من الاستعمار الفرنسي .

التسوية الاستعمارية بين بريطانيا وهولندا :

في سنة ١٨٢٤ عُدِّتْ معاهدة تسوية بين انجلترا وهولندا تسَلِّمت انجلترا بموجبها مستعمرات هولندا في الملايو وسَلِّمت انجلترا إلى هولندا مستعمراتها في جاوة . وجميع جزر إندونيسيا ، وركزت بريطانيا نشاطها البحري والتجاري في سنغافورة .

وفي سنة ١٨٤٠ قام مغامر بريطاني جرىء هو جيمس بروك الذي سَمِيَ فيما بعد « الراجا الأبيض » بمغامرة وضع يده بواسطتها على الطرف الشمالي لجزيرة بورنيو ، وقد قسَّمت بريطانيا تلك المساحة ثلاثة أقسام هي : سراوك وصباح وبروني (١) التي سرعان ما أصبحت مركزاً تجارياً وعسكرياً هاماً بالنسبة لبريطانيا .

بريطانيا في الملايو :

اتجهت بريطانيا إلى عقد معاهدات فردية مع سلاطين الممالك الملايوية ، وكانت هذه المعاهدات تُعقد بالإغراء المالي تارة وبالتهديد

مرة أخرى ، وبهاتين الوسيلتين تمت سيطرة انجلترا على كل الممالك في شبه الجزيرة وعلى سنغافورة وقد استنفدت هذه الجهود عدة سنوات حتى منتصف القرن التاسع عشر أو بعد ذلك .

وقد حكمت بريطانيا شبه الجزيرة بواسطة ما يسمى (المقيم) وهو يقوم بنصيحة السلطان في شئون الدولة إلا فيما يتعلق بتقاليد البلاد أو قوانين الدين الإسلامي وهناك مناطق كانت بريطانيا تسيطر عليها سيطرة مباشرة مثل سراوك وصباح اللتين تكوّن منهما فيما بعد الجزء الشرقي من ماليزيا .

وكان أكثر (المقيمين) يبذلون أقصى الجهد للتفريق بين السلطان وشعبه في كل سلطنة ، وكان هدف الإنجليز من ذلك أن يثيروا الفتن في الولايات ، وأن يقلّلوا من تعلق شعوب الممالك بسلطينها ، ذلك التعلق الذي كان سمة الشعوب في شبه الجزيرة .

ومع كل ما في المقيمين من مساوئ ، فقد دَوّن التاريخ لبعضهم بعض الحسنات ، ومن هؤلاء (هيوغ لو) Hugh Low الذي كان (مقيماً) في بيراك وكان عالماً في النبات وهو أول من زرع أشجار المطاط بالملايو ، وأقام مزارع تجريبية لزراعة الشاي والكيما ، واهتم اهتماماً كبيراً باستخراج القصدير من المناجم (١) .

ومن هؤلاء كذلك فرانك سويتن هام Frank Swettenham الذي وضع أساساً لاتحاد الولايات الملايوية فقد قام سنة ١٨٩٦ بتوحيد الولايات الملايوية التي كان في كل منها مقيم بريطاني ، وهي بيراك وسيلانجور ، ونجريسنبلان ، وباهانج في إدارة واحدة وكون منها ما سُمي باسم الولايات الملايوية المتحدة ، وأصبح لها مقيم عام واحد ، كما أنه وضع الأساس لاسترداد الولايات الملايوية التي كانت

(١) جوجندار سيغ جيسى : تاريخ الملايو ص ٢١٤ .

(م ٣٢ — الموسوعة التاريخية)

خاضعة إلى حكومة تايلاند وهى قداح وبرليس وكلانتون وترنجالو ،
وكان ذلك بناء على معاهدة عُقدت بين انجلترا وتايلاند سنة ١٩٠٩ •

سياسة التفريق :

كانت سياسة التجميع التى ذكرناها آنفاً ترمى إلى أن يُيسَّر
لبريطانيا حكم هذه البلاد ، ومع سياسة هذا التجميع كان هناك اتجاه
آخر للتفريق فقد قضى النظام البريطانى أن تُفَرَّق الملايو إلى
مجموعات ثلاثة :

المجموعة الأولى : سُميت مستعمرات المضائق ، وكانت تشمل ملقا
وسنغافورة وجزيرة بيتانج وقد تحدثنا عنها من قبل •

المجموعة الثانية : وتشمل الولايات الملايوية المتحدة التى تحدثنا
عنها آنفاً •

المجموعة الثالثة : وتشمل الولايات الملايوية التى استُثِرَّت من
تايلاند وسميت الولايات الملايوية غير المتحدة •

ثورات الملايو ضد الاستعمار البريطانى :

لم ينعم الاستعمار البريطانى بالاستقرار فى الملايو ، بل هبت ثورات
متعددة فى أمكنة مختلفة ، وفى أوقات متلاحقة ، وكانت هذه الثورات
إنذاراً لبريطانيا بأن الاستعمار لا يعيش هادئ البال فى هذه المناطق ،
وقد انضم بعض السلاطين إلى الشعب فى هذه الثورات ووقع آخرون
تحت الضغط البريطانى مما عزلهم عن شعوبهم ، وقد شهد
مطلع القرن العشرين ثورة عارمة قام بها عالم ملايوى اسمه الشيخ
الهادى ، أو لعله سُميَّ بهذا الاسم ، وكان هذا الشيخ قد تتلمذ فى مصر
على الشيخ محمد عبده ، وشهد اتجاهاته للتجديد فى الفكر الإسلامى ،
كما شهد اتجاهات النهضة فى مصر ، وعند عودته إلى الملايو أصدر مجلة
سُميت مجلة « الإمام » تيمناً بالإمام محمد عبده وكان لها أثر كبير فى

ربط حركات الاستقلال بالملايو بالنهضة الإسلامية في الشرق الأوسط (١) .
وقامت في الملايو اتحادات وتجمعات ثائرة أقضت مضجع
الاستعمار ، وفي موجة هذا الصراع زحفت اليابان إلى الملايو مع مطلع
الحرب العالمية الثانية كما سنرى فيما يلي :

اليابان في الملايو :

عندما قامت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ اتضح أن اليابان
تتطلع إلى مناطق كثيرة بالشرق الأقصى ، وكانت انجلترا مشغولة بصراعها
مع ألمانيا فلم تستطع أن تدافع عن الملايو ، وولت ذلك للملايويين
أنفسهم ، ولم يكن عند الملايويين من التدريب والسلاح ما يقف أمام قوة
اليابان ، ولذلك سرعان ما هاجمت اليابان « بيرل هاربر » في ٧ ديسمبر سنة
١٩٤١ ، واستولت عقب ذلك على فرموزا والهند الصينية والملايو
واندونيسيا وجزيرة هاواي وهونج كونج والفيليبين واستسلم القائم
بأعمال السلطة العليا للاستعمار البريطاني في المنطقة ومقره سنغافوره
للاستعمار الياباني ، وكان ذلك في ٨ فبراير سنة ١٩٤٢ ، وكانت اليابان
قد استولت على الملايو قبل ذلك بشهرين أي في ٨ ديسمبر سنة ١٩٤١ .

وسرعان ما اتضح أن الاستعمار الياباني كان أقسى وأعنف من
الاستعمار الانجليزي ، فقد أساء اليابانيون معاملة الأهالي وكان اليابانيون
قد اتخذوا شعاراً هو آسيا للأسويين ولكن سرعان ما اتضح أنهم
يقصدون « آسيا لليابانيين » .

وقد عملت اليابان على إحلال اللغة اليابانية محل اللغة الملايوية ،

(١) الأوضاع السياسية والحضارية للمسلمين في ماليزيا واندونيسيا في
القرن العشرين ، رسالة دكتوراة أعدها باشراف الباحث الماليزي وان أحمد
ص ٤٧١ .

(١) بيرل هاربر : قاعدة بحرية في جزر هاواي تابعة للولايات المتحدة
دمرتها اليابان في ٧/١٢/١٩٤١ واحتلت على أثر ذلك منطقة جنوب
شرقي آسيا .

كما اتجهت اليابان إلى سياسة التجسس والتعذيب مما كان له أسوأ الأثر في العلاقة بين الملايوين واليابانيين .

وقد عانت الملايو معاناة قاسية في الجانب الاقتصادي خلال العهد الياباني ذلك أن القوات البريطانية قامت بتخريب ما أمكنها تخريبه في الملايو قبل الاستسلام ، فهدمت كثيراً من الكبارى ودّمرت المباني ، وأتلفت الأسلحة والمطاط ومزارع الأرز ، كما أحترقت كميات هائلة من البترول .

فإذا أضفنا إلى هذا أن اليابان كانت حريصة على استغلال البلاد ، فإننا ندرك أن الشعب الملايو وقع فريسة بين الإستعماريين .

وقد هبت ثورات قوية في الملايو ضد اليابان وكانت اليابان تقمعها بعنف ، ولكنها في النهاية عندما أدركت أنها لا تقوى على مصارعة الحلفاء بعد أن رجحت كفتهم في الحرب ، شجعت الثوار وأمدتهم بالأسلحة ليحققوا الاستقلال بعد أن تجلو عنهم اليابان .

واستسلمت اليابان في ١٤ أغسطس سنة ١٩٤٥ عقب إلقاء القنبلتين الذريتين على هيروشيما ونجازاكي في ٦ و ٩ أغسطس سنة ١٩٤٥ ولكن جيش الحلفاء لم يصل إلى سنغافورة إلا في ١٥ نوفمبر من نفس العام ، وكانت الفترة بين هذين التاريخين فترة خلت فيها الملايو من السلطة ، فاشتدت فيها الحركات الاستقلالية ، وبخاصة تلك الحركات التي كانت مصبوغة بالصبغة اليسارية .

بريطانيا في الملايو بعد هزيمة اليابان :

عندما كانت بريطانيا منهزمة أمام اليابان أعلنت سنة ١٩٤٣ أن سياستها في الملايو في المستقبل ستكون إعدادها للاستقلال التام في حدود الكومنولث البريطاني ، فلما عادت بريطانيا إلى السلطة حثت في عهودها ، وراحت تقترح بنوداً جديدة لا تحقق للشعب أهدافه واستقلاله ، مما أثار

ثورة الشعب ضدها ، ومع هذا فقد سارت بريطانيا في سياستها الخاطئة ، وأعلنت قيام ما يسمى اتحاد الملايو الذى وضع الولايات كلها تحت إشراف حاكم بريطانى ، وجعل السلاطين مستشارين لهذا الحاكم ، ولقد أجمعت سلطات الشعب ومعهم السلاطين على استنكار هذا الاتحاد ومقاومته مما عدل بالأمر إلى تكوين الملايو المتحدة في ٢١ يناير سنة ١٩٤٨ وبمقتضاه صار الحاكم البريطانى مندوبا ساميا بالملايو ، وأصبح للسلاطين السلطة التى كانت لهم من قبل .

ومع هذا فقد كان شعب الملايو حريصاً على الاستقلال التام ، وإبعاد أى نفوذ لبريطانيا في بلادهم ، ومن أجل ذلك تكوّنت الأحزاب وكان من أهمها الحزب الوطنى الملايوى المتحد بقيادة تنكو عبد الرحمن ، وهو الحزب الذى ضم أكبر حزبين في الملايو وهما الحزب الوطنى والحزب الصينى ، وحصل هذا الحزب على أغلبية ساحقة بين جماهير الشعب قاربت من الإجماع العام ، وأصبح يتحدث بقوة بلسان الملايويين جميعاً ، وبخاصة عندما فاز في انتخابات المجلس التشريعى التى عُقدت في يوليو سنة ١٩٥٥ بـ ٥١ مقعداً من ٥٢ ، وعلى إثر ذلك شكّل تنكو عبد الرحمن وزارته وأكد أن هدف حزبه هو استقلال الملايو التام عن طريق سلمى وسرعان ما جرت مفاوضات بين تنكو عبد الرحمن وبين المندوب البريطانى ، وفي هذا الاجتماع أكد تنكو عبد الرحمن ألا مناص من الاستقلال التام للملايو .

موقف السلاطين من الحركة الاستقلالية :

تخوّف بعض السلاطين من مصائرهم بعد الحركة الاستقلالية التى تشمل كل الولايات ، وأدرك تنكو عبد الرحمن ما يساورهم من شكوك وخوف ، فأعلن أن الحزب يضمن سلامة السلاطين وسلامة عروشهم في ظل الاستقلال ، وأنهم سيكونون ملوكاً في ولاياتهم كما كانوا من قبل ، وبهذا لم يبق أى نصير للاستعمار البريطانى في البلاد ،

استقلال الملايو ودستورها :

بعد أن تمّ الاتفاق بين تنكو عبد الرحمن والسلاطين مُّهدّ الطريق

لإعلان الاستقلال التام ، فتمّ الاتفاق في ٨ فبراير سنة ١٩٥٦ على ذلك ، ثم وُضع دستور البلاد الذي كان من أهم ما ورد فيه أن الدين الإسلامي هو الدين الرسمي للدولة ، مع ضمان حرية الأديان الأخرى ، وأن اللغة الملايوية هي لغة الدولة ، مع جواز استعمال لغات أخرى ، وتقرر كذلك أن يختار السلاطين من بينهم واحداً منهم يكون ملكاً لدولة الملايو ، ويختارون سلطاناً آخر يكون نائباً له ، وتكون مدتهما ٥ سنوات ويستمر باقى السلاطين كل فى ولايته يباشّر سلطته عليها فى حدود دستورها المحلى ، والولايات التى شملتها الملايو المتحدة هى جوهور ، وملقا ، ونجری سمبلان ، وسلانجور (وبها العاصمة كوالا لامبور) ، وبيراق ، وقده ، وجزيرة بينانج ، وباهانج ، وترينجانو ، وكلنتانج ، وبرليس •

إعلان الاستقلال :

فى الصباح الباكر من يوم ٣١ أغسطس عام ١٩٥٧ اجتمع بإستاد الحرية بالعاصمة حشد كبير من المواطنين والضيوف ، ووقف عم ملكة انجلترا وناب عنها فى تسليم صك الاستقلال إلى تنكو عبد الرحمن ، وحينئذ آذن المؤذن الله أكبر الله أكبر ، وأعلن تنكو عبد الرحمن استقلال البلاد وحمد الله على عونه وتوفيقه ، وأصبح يوم ٣١ أغسطس عيداً وطنياً من كل عام •

تطورت الأمور عقب ذلك فى المنطقة كلها وأصبح وجود الاستعمار فيها غير ممكن ، كما أن ظهور بريطانيا ومثيلاتها من الدول فى مظهر المستبد القاهر آن له أن يختفى عندما برز للوجود الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية ، وكما نقول دائماً أنه لا مكان فى الغابة للذئب مع وجود الآساد ، ومن هنا فقد اتجهت بريطانيا إلى تسوية حالة مستعمراتها فى كل مكان بما فى ذلك الشرق الأقصى ، ووضع نهاية لهذا الاستعمار ، وكان لبريطانيا ثلاث مستعمرات فى هذه المنطقة هى : بورنيو الشمالية (صباح) وسراواك ، وبرونى ، والثلاثة تقع فى شمال جزيرة بورنيو ، فرأت بريطانيا أن تضم اثنين منها إلى الملايو التى نالت حديثاً استقلالها ،

وكونت من ولاياتها دولة مستقلة سميت الملايو المتحدة ، ولكن بريطانيا حرصت على أن تبقى واحدة من هذه المستعمرات تحت سلطانها المباشر وهي مستعمرة بروني ، وقد منحها بريطانيا استقلالاً داخلياً وأبقت لنفسها مسئولية إدارة الشؤون الخارجية ومسئولية الدفاع عنها .

وإذا تركنا بروني وعدنا إلى محاولات إنشاء الاتحاد الجديد الذي اقترح له اسم « اتحاد ماليزيا » نجد أن الاتجاه في الملايو وفي صباح وسراوك وسنغافورة كان نحو إقامة هذا الاتحاد باسم « ماليزيا » وقد تبني الفكر البريطاني هذا الاتجاه كما تنبأه تنكوب عبد الرحمن رئيس وزراء الملايو آنذاك .

بيد أن قيام مثل هذا الاتحاد لم يكن عملاً سهلاً بالنسبة لحكومات المنطقة أو بالنسبة للرأي العام العالمي ، ومن هنا جرت خطوات لإنجازه نتتبعها بإيجاز فيما يلي :

استطلاع الرأي العام :

تشكلت لجنة انجليزية ملايوية لاستطلاع رأي السكان في صباح وسراوك في موضوع قيام دولة ماليزيا ، وانتهت نتائج الاستطلاع إلى أن أغلبية كافية من الشعب تؤيد الانضمام إلى ماليزيا ، كما أجرى في سنغافورة استفتاء حول فكرة الاندماج في ماليزيا ، فأعرب ٧١ ٪ من الناخبين عن موافقتهم على الانضمام إلى الدولة الجديدة .

العمل على تنفيذ فكرة الاتحاد :

عقب ذلك شكلت لجنة تضامن مثلت فيها بريطانيا وحكومة الملايو وحكومات الدول التي ستتضم للاتحاد (سنغافورة — صباح — وسراوك) وقد بحثت اللجنة هذا الموضوع وقررت ما يلي :

١ — أن تقوم حكومات الولايات المختلفة باتخاذ قرارات نحو الموافقة على الانضمام للدولة الجديدة .

- ٢ — أن يتطور دستور الملايو ليصبح أساساً لدستور الاتحاد الجديد
- ٣ — أن يُنظر إلى مقاطعتي صباح وسراوك عند تمثيلهما في البرلمان الفيدرالي (المركزي) على أساس مساحتهما وامكانياتهما ، وليس فقط على أساس عدد سكانهما • وبدأت الجهود تتجه لتنفيذ هذه التوصيات •

تحقيق الأمم المتحدة :

قلنا آنفاً إن بعض حكومات دول المنطقة عارضت هذا الاتجاه ، وبخاصة اندونيسيا والفيلبين ، ومن هنا رُئِيَ أن تقوم الأمم المتحدة بإجراء تحقيق مباشر للتعرف على رغبة شعوب المنطقة ، وقد اختار السكرتير العام للأمم المتحدة ممثلين له من تسع دول هي : الولايات المتحدة الأمريكية ، وتشيكوسلوفاكيا ، والأرجنتين ، وسيلان ، وغانا ، والباكستان ، واليابان ، والأردن ، والبرازيل • وُعِيّن مندوبون من إندونيسيا والفلبين وبريطانيا لمراقبة أعمال الوفد ، وجاء في تقرير هذه البعثة أن الغالبية من سكان هذه المناطق توافق على الانضمام في الدولة الجديدة •

قيام اتحاد ماليزيا :

وبناء على ذلك أقيم اتحاد ماليزيا في ١٦ سبتمبر سنة ١٩٦٣ ، وهو يضم الملايو المكونة من ١١ إقليمًا كما يضم سنغافورة ، وكانت سنغافورة إحدى ولايات الملايو قديماً ، ولكنها انفصلت بسبب الاستعمار في المنطقة كما يضم صباح وسراوك وكلاهما من أجزاء جزيرة « كليمنتان » •

وقد عارضت الفيلبين وإندونيسيا قيام هذه الوحدة ولكن هذه المعارضة لم تأت بنتيجة ، وأعلن قيام الوحدة في التاريخ المذكور (١٦ سبتمبر ١٩٦٣) متأخراً عن الوقت الذي حُدِّد للإعلان بسبب المعارضة السابقة ، فقد كان قد حُدد لإعلانه يوم ٣١ أغسطس عام ١٩٦٣ حسب

اتفاق البلاد المعنية ليكون يوم عيد استقلال الملايو هو نفسه عيداً لتشكيل الدولة الجديدة .

وأصبحت صباح وسراوك تُعرفان بماليزيا الشرقية ، وولايات الملايو تعرف بماليزيا الغربية .

اتئصال سنغافورة :

في عام ١٩٦٥ انفصلت سنغافورة عن اتحاد ماليزيا ، والسبب الحقيقي لهذا الانفصال أن رئيس الحكومة المحلية في سنغافورة كان يطوف العالم ويتحدث باسم ماليزيا كلها ، وهو خطأ دستوري ، فالحديث عن ماليزيا كلها من حق رئيس الحكومة المركزية أما رؤساء الحكومات المحلية ، فيديرون الأمور الداخلية ويتقدمون بما يرون من اقتراحات للحكومة المركزية التي يوجد بها ممثلون لكل المقاطعات والمناطق .

ثم إن هناك صراعاً دموياً حدث في سنغافورة قبيل التاريخ السابق بين المسلمين الملايويين وبين الصينيين من سكان المنطقة ، وقد تم الاتفاق على خروج سنغافورة من الاتحاد لأن ذلك كان هو الذي يمثل الاتجاه العام في سنغافورة وفي ماليزيا جميعاً .

الأقلية الإسلامية في سنغافورة :

وقبل أن نترك سنغافورة يجدر بنا أن نسجل كلمة عنها ، فقد أصبحت بانفصالها عن ماليزيا قطراً غير إسلامي تعيش به أقلية إسلامية .

ويرى المطلعون أن انضمام سنغافورة لاتحاد ماليزيا كان الوسيلة الوحيدة لتصبح جزءاً من قطر إسلامي على الرغم من الأغلبية غير المسلمة التي تعيش بها ، فلما انفصلت أصبح المسلمون أقلية تتراوح بين ١٥ ٪ و ١٧ ٪ ؛ أما باقى السكان فمنهم حوالي ٦ ٪ من الهندوس و ٥ ٪ من المسيحيين ، أما الباقون وهم الأغلبية الساحقة فيعتقدون الديانات الصينية لأنهم ينحدرون من أصل صيني .

وسنغافورة بلاد مفتوحة ، بها كل الاتجاهات والحريات ، ونشاطها التجاري واسع ، وبها كذلك نشاط صناعى جيد ، وبسبب أنها بلاد مفتوحة ينشط بها التبشير المسيحى الذى يتخذ منها مركزا مهما تنتشر فروعها فى جميع دول المنطقة •

وفى سنغافورة جالية عربية لها نشاط تجارى ملحوظ ، وجمعيات إسلامية ومؤسسات خيرية تتبع هذه الجمعيات الإسلامية ، وتعمل كلها لخدمة الإسلام والمسلمين •

ولى شخصيا صلات قوية وواسعة مع إحدى دور النشر الكبيرة بسنغافورة هى "pustaka Nasional" وهى تقوم بنشر كتبى فى مقارنة الأديان والتاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية باللغة الملايوية لتوزيعها بين مسلمى المنطقة ، وأشهد لقد لاقيت من هذه المؤسسة ومن صاحبها السيد أحمد بن محمد بن سميت أحسن معاملة تصل الى القمة فى النشاط والأمانة •

وأغلب المسلمين فى سنغافورة ينحدرون من أصل ملايوى ، عاشوا فى سنغافورة فى فترات الاتصال الوثيقة بين شبه جزيرة الملايو وبين جزيرة سنغافورة •

وليت الدول الإسلامية الغنية تتجه إلى الإسلام فى سنغافورة بشئ من العناية ، فتفتح بها المعاهد الإسلامية ، وترسل الدعاة والمساعدات ، فسنغافورة مركز شديد التأثير فى المنطقة المحيطة به •

وسكان سنغافورة يزيدون عن المليونين ويكادون يصلون الى مليونين ونصف مليون •

الصراع الدامى فى ١٣ مايو سنة ١٩٦٩

بين الملايوين والصينيين بشبه جزيرة الملايو

فى شبه جزيرة الملايو مأساة شائكة شملت رائحتها ورمدت بوادرها وأنا فى إندونيسيا مدة ست سنوات (١٩٥٥ - ١٩٦١) ، ثم عشت طرفا منها عندما كنت أستاذًا زائرا مدة ثلاثة شهور فى الجامعة الملايوية فى كوالالمبور .

ما أسس هذه المأساة ؟

خيوط هذه المأساة أساسها الهجرة من بلد إلى بلد ، وبخاصة الهجرة من بلد مزدحم بالسكان إلى بلاد أقل منها ازدهاما ، والعالم كله يعرف الهجرات ولا يجد فيها غضاظة ، وفى مصر مثلا أسر كثيرة هاجرت إليها على مر الزمن ، ولا تزال ألقاب هذه الأسر تنشى بالجذور غير المصرية لهذه الأسر ، ففى مصر أسرة « الشامى » نسبة إلى الشام والطرابلسى والحجازى والحلبى واليمنى والنجدى والمغربى والجاوى والجبرتى نسبة إلى هذه الأقطار ، ولكن هؤلاء مصريون مائة فى المائة ولا أثر فى حياتهم للبلاد التى ينتسبون إليها ، وقد يكون لهم أقارب فى أقطار أخرى ولكن هذا لا يمكن أن يمس من قريب أو بعيد ولا يهم التام الشامل لمصر .

وفى غير مصر توجد هذه الهجرات وهى واضحة فى بريطانيا حيث يوجد بها ملايين من سكان البلاد التى كانت مستعمرات لها ، وهذه المسألة أكثر وضوحا فى الولايات المتحدة وكندا وأستراليا التى تتكون من مهاجرين جاءوا من مختلف الأقطار ، ولكن كل هؤلاء المهاجرين يتجهون بكل ولائهم إلى البلد الذى هاجروا إليه .

ولكن فى منطقة جنوب شرقى آسيا هجرات من نوع آخر ، تلك هى هجرات الصينيين إلى بلاد المنطقة ، فإن أعدادا هائلة صينية هاجرت إلى سنغافورة والملايو وإندونيسيا وغيرها من دول المنطقة ، وهؤلاء

المهاجرون دخلوا البلاد الجديدة بجنسيتهم ودينهم وعاداتهم ولغتهم وفكرهم ، وعاشوا فيها بنفس هذه الاتجاهات ، فلم يحدث أى اختلاط ذى بال بينهم وبين أهل البلاد الأصليين ، ولم يشتركوا معهم فى شأن ، أو يتعاونوا معهم فى قضية ، لقد جلب الاستعمار هؤلاء المهاجرين ليكونوا عوناً له ضد حركات المواطنين وليكونوا وسطاء فى عالم الاقتصاد ، ومن هنا كان الاستعمار خيراً وبركة لهؤلاء ، ولقد ضحى المواطنون بآلاف الضحايا ، وأراقوا دماءهم انهياراً من أجل الاستقلال ، فلما تم الاستقلال وجد المواطنون أن الصينيين قد امتلكوا كل شئ ، وإن ما بقى للمواطنين هو الفراغ والهباء .

لقد كان الاستعمار غريباً ، وكان لابد أن يختفى فى يوم من الأيام ، أما الصينيون فقد ثبتوا جذورهم وأقاموا مدارسهم ومصانعهم وأحزابهم وتجمعاتهم ، وهم يجنون الثمار إن كانت هناك ثمار ، ولا يدفعون غرمًا إن كان هناك غرم .

ومن العجيب كما أشرنا من قبل أن الصينيين يمثلون قمة الرأسمالية ولكنهم على أعماق العلاقات مع الدولة الأم حتى بعد أن صارت يسارية ، وبالتالي فإن الصين الأم تقضى على الرأسمالية فى الداخل ولكنها تحمى الرأسمالية لدى الصينيين المهاجرين .

كان هؤلاء كذلك فى إندونيسيا ، ولكن لحسن حظ اندونيسيا أن عدد الصينيين بها كان قليلاً بالنسبة لتعداد السكان ، كانوا حوالى ستة ملايين ، معهم عصب الاقتصاد والمال الوفير ، وكانوا يكونون دولة داخل الدولة ، كان يمكن أن يخفوا الأرز (خبز هذه البلاد) ففتقوم مجاعة وثورة ، وكان يمكن أن يدفعوا الرشاوى مبالغ هائلة تصل إلى عدة ملايين فيحدثون اضطرابات سياسية وهكذا ، وكان الريف الإندونيسى يكتوى بنارهم وبخاصة من المعاملات الربوية التى كانوا عن طريقها يستنزفون رزق البسطاء ، وقد أصدر الرئيس سوكارنو قراراً يقضى بأن غير الإندونيسيين لا يجوز لهم الحياة فى القرى الإندونيسية ، ولكن أين

يذهب هؤلاء ؟ لقد أقفلت المدن أبوابها في وجوههم وطردتهم القرى فهاموا على وجوههم ، وعرضوا ما معهم من بليارات الروبيات للبيع في السوق السوداء نظير عملات حرة ، وتسبب عن كثرة العرض انهيار قيمة العملة الإندونيسية انهياراً مروّعا ، وعاشت الدولة في دوار هذه القضية فترة طويلة .

أما في سنغافورة فقد تغلب العنصر الصيني وأصبح له حوالى ٧٥٪ من مجموع السكان ، وأصبحت سنغافورة بذلك قطراً صينياً ، وضعف العنصر الملايوى الأصل بـهذه البلاد .

أما الملايو فقد وقفت على حافة الهاوية ، فقد هاجر لها من الصينيين عدد يقرب من عدد السكان الأصليين كما يوجد بها حوالى ٦٪ من السكان ينحدرون من أصل هندي . ؟

ولكن هذه النسبة هى النسبة العددية فقط ، أما الثراء فإن ما يمتلكه السكان الأصليون قليل جداً بالنسبة لما يمتلكه المهاجرون الصينيون ، أما العاصمة نفسها (كوالالمبور) فمن المؤلم حقاً أن تكون نسبة الصينيين فيها ٦٢٪ وهم كبار التجار والملاك والعظماء ، وأن النسبة الباقية أكثرها إلى الفقر أقرب ، ومنها عدد كبير يعمل في متاجر الصينيين ومؤسساتهم ، وعلى هذا فالعاصمة الماليزية لا تمثل وجه ماليزيا بل لها وجه صينى سافر .

وكان حزب الاتحاد (الذى يضم الحزب الوطنى الملايوى ، والحزب الصينى بالملايو ، والحزب الهندى بالملايو) قد حصل فى الانتخابات العامة سنة ١٩٥٩ على أغلبية كثيرة ، إذ نال ٧٣ مقعداً من ١٠٤ مقاعد وحصلت أحزاب المعارضة على المقاعد الباقية . ثم تحسنت أحوال حزب الاتحاد فحصل فى الانتخابات العامة سنة ١٩٦٤ على الأغلبية المطلقة إذ نال ٨٩ مقعداً من ١٠٤ مقاعد ، ولم يبق لأحزاب

المعارضة إلا ١٥ مقعداً "تسع" منها حصل عليها الحزب الإسلامى الملايوى ولم يبق إلا ٦ مقاعد حصلت عليها الأحزاب الصينية التى لم تنضم إلى حزب الاتحاد .

فلما جاءت انتخابات العاشر من مايو سنة ١٩٦٩ تغير الوضع ، فلم يعمل حزب الاتحاد إلا على ٦٦ مقعداً ، ونالت الأحزاب الصينية التى لا تشترك فى حزب الاتحاد ٢٥ مقعداً ، بل انسحب الحزب الصينى الذى كان شريكاً فى حزب الاتحاد وحصل هذا الحزب على ١٤ مقعداً .

واتضح من هذا أن الأحزاب الصينية حصلت على ٣٩ مقعداً وانحدر ما حصل عليه حزب الاتحاد إلى ٤٢ مقعداً ، ورأت الأحزاب الصينية أن فى إمكانها أن تضم لها بعض الأصوات الأخرى لتكون لها الأغلبية ، ولتكون حكومة ماليزيا ، بيد أن الأمور لم تسر فى هذا الطريق الدستورى ، فما إن أهدت الأحزاب الصينية بهذا التفوق العددى الذى نالته حتى اندفعت صاحبة ثائرة تطلب لنفسها السيادة والسلطان على أهل البلاد .

لقد زرت ماليزيا فى يوليو سنة ١٩٧٣ أى بعد أربع سنوات تقريباً على أحداث مايو ١٩٦٩ ، وكنت قد قرأت عن هذه الأحداث قبل ذلك ، ولكن وجودى فى ماليزيا وضع الأمر أمامى فى صورة أدق كأنما كانت الأحداث على مرأى منى ومسمع ، فقد قصتها على عشرات الناس وكرروا روايتها ، وصحبونى إلى أماكن الصراع ، وأطلعونى على ما تبقى من آثار هذا اليوم الرهيب يوم الثالث عشر من مايو ١٩٦٩ .

ماذا رأيته ؟ وماذا سمعت ؟

لقد أحس الصينيون أنه آن الأوان لهم ليستقلوا بالملايو كالحال فى سنغافورة ، وأن يقضوا على العنصر الملايوى مستعملين النصر فى الانتخابات وما عندهم من أموال ، وما لهم من سلطان ، وما بأيديهم من

أسلحة وعتاد ، وسائل لتحقيق هذا الهدف ؛ لقد اندفعت جموعهم تهتف بالملايويين قائلة : عودوا إلى الغابة أيها الملايويون • وأطلقوا رصاصهم ، وساقوا أمامهم بعض الضعفاء الذين نالهم الذعر من الزحف الصيني العاتى ، ولكن سرعان ما أدرك الملايويون أن الاستشهاد أيسر من فقدان الوطن ، وأن الدفاع عن الديار والأهل واجب مقدس ، فهتف هاتفهم الله أكبر ، ورّد الملايين هذا الهتاف ، وظهرت أصداؤه فى كل مكان ، كأنما كان شجر المطاط ونخيل جوز الهند يرّد هذا الهتاف معهم ، وكان هذا التعبير سلاحاً بتاراً تجتمع حوله الملايين العزل بما يملكون من عصى أو حجارة أو مواد مختلفة وراحوا فى عزيمة رائعة يدافعون عن أنفسهم •

وظهر واضحاً أن الحياة بدون عزة وكرامة رخيصة عند الملايويين ، وأن الضيف لا يمكن أن يتحكم فى دار المضيف ، وأن عنجهية الصينيين لابد أن تقف عند حد ، وأن الاستشهاد فى الدفاع عن الوطن والأهل شرف ما بعده شرف •

ونادت المعركة أصناف الملايويين فاستجابوا دون تردد ، استجاب للزحف العاتى أمراء كانوا يعيشون قبل ذلك فى ترف واستلاء ، واستجاب لها الطبيب والكاتب والمهندس والعامل ، واستجابت المرأة فعضدت الرجال وشاركتهن الصراع •

وأحس الصينيون أنهم أمام قوة لا تقهر ، وكأنما كان تعبير « الله أكبر » يمثل قبلة أو صاروخاً يهد المتكبرين ويحطم الطغيان ، فانهار الصينيون الذين كانوا منذ لحظة يعربدون ويحسّون أن لهم السلطة العليا ، فهربوا لا يلوون على شيء ، وسقط فى أرض المارك من لم تحمله قدماه إلى جحر أو مكان حصين ، وأصبحت جموع الصينيين كالفران لا تتطلع إلا للهرب ، ومُخضبت الأرض بالدماء وحُرقت بعض المتاجر الصينية ودّمرت بعض المصانع ، ولولا أن الملايويين لم يطلقوا

العنان للتدمير والتخريب لإنهار الاقتصاد وأكلت النار كل ممتلكات الصينيين •

واستسلم الصينيون استسلاما تاما ، وأصبح الزمام في أيدي أصحاب البلاد •

من نتائج هذا الصراع :

أنتج هذا الصراع نجاحا سياسيا للعنصر الملايوى ، ولكن العنصر السياسى — للأسف — لم ينتهز الفرصة بفرض نظام اقتصادى يعيد للمواطن الملايوى حقه فى ثراء بلاده ، كما أن نظام الهجرة وحقوق المهاجرين لم تنظم التنظيم الكافى ، وقد كنت — كما قلت آنفا — أستاذًا زائرا بالكلية الإسلامية بجامعة الملايو ، ولكن أمورى الاقتصادية والاجتماعية بالجامعة كانت فى أيدي الصينيين الذين لا يهمهم إرضائى بل ربما اتجه اهتمامهم لإثارتى واغضابى حتى لا يطول هناك بقائى أو حتى لا أقبل أن أكرر هذه الزيارة ، وأشهد أنهم نجحوا فيما قصدوا إليه •

ليت الملايويين انتفعوا بهذه الثورة فى مجال الاقتصاد وفى مجال الحياة الاجتماعية •

لمحات حضارية عن ماليزيا

النظام السياسى :

تتكون ماليزيا من ماليزيا الشرقية وفيها ولايتان يحكم كلاهما حاكمٌ تعينه الحكومة المركزية ، ومن ماليزيا الغربية وفيها إحدى عشرة ولاية تسع منها تحكم بواسطة السلاطين الذين يتولون السلطة بالوراثة واثنان هما « جزيرة بينانج وملقا » تحكمان بواسطة حاكم وذلك مثل ماليزيا الشرقية •

ولكل ولاية حكومة محلية يرأسها السلطان أو الحاكم ، وبكل ولاية مجلس محلى له سلطات البرلمان فى حدود الولاية •

أما الحكومة المركزية فلها سلطة على جميع ولايات البلاد ، ورأس هذه الحكومة هو الملك الذى يُنتخب من بين السلاطين لمدة خمس سنوات ، وينتخبه السلاطين التسع من بين المرشحين لهذا المنصب منهم ، وطريقة ذلك أن يرشّح من أراد من السلاطين نفسه لمنصب الملك ، ويجرى انتخاب سرى يشترك فيه السلاطين التسع ويصبح ملكاً من حصل على أغلبية أصواتهم ، وينتخب هؤلاء كذلك نائب الملك من بينهم أيضاً ، وهذا يتولى أعمال الملك فى حال غيابة أو وفاته ، أو عجزه إلى أن تنتهى مدة الخمس سنوات .

ويكلّف الملكُ الزعيمَ الذى حصل على الأغلبية فى البرلمان بتأليف الحكومة المركزية .

لمحات اقتصادية :

ماليزيا هى أكبر بلد فى العالم ينتج المطاط الطبيعى فهى تنتج ٤٤ ٪ من مطاط العالم ، كما أنها تنتج أكثر من ثلث إنتاج القصدير العالمى ، وتعتبر الأخشاب كذلك من الصادرات المهمة التى تصدرها ماليزيا ، كما أنها الدولة الأولى التى تصدر زيت النخيل .

وتستورد ماليزيا الأرز والأغذية ووسائل المواصلات والمعدات الكهربائية وأمثالها ، ولكن ما تصدره ماليزيا يفوق ما تستورده ، ومن هنا فإن اقتصادها راسخ ومتين .

ولكن هذا الاقتصاد الذى تحدثنا عنه يُوجد أكثره فى أيدي الصينيين والهنود كما ذكرنا من قبل ، فمناجم القصدير ومزارع المطاط تكاد تكون أغلبها فى أيدي الأوربيين والصينيين والهنود ، فقد كان الاستعمارُ البريطانى قد أجبر الملايوين على بيع أرضهم للأجانب ، فتركزت الثروات فى أيدي هؤلاء الأجانب (١) .

(١) دكتور وان أحمد : الأوضاع السياسية والحضارية للمسلمين فى اندونيسيا وماليزيا فى القرن العشرين ص ٦٥٩ .
(م ٣٣ - الموسوعة التاريخية)

التربية والتعليم :

تتنوع المدارس في ماليزيا بتنوع أجناس السكان فهناك المدارس الصينية وتجري الدراسة فيها باللغة الصينية ، أما اللغة الملايوية فتدرس فيها كمادة من المواد ، ثم تجيء المدارس الهندية وتدرس فيها كل المواد باللغة الهندية ، وليس للغة الملايوية إلا أن تدرس كمادة من المواد كذلك ، وهناك نوع ثالث واسع الانتشار في الملايو وهو المدارس الانجليزية ، وكانت هذه المدارس تمثل غالبية دور التعليم في الملايو حتى سنة ١٩٥٧ عندما أخذت المدارس القومية تأخذ مكانتها بين دور العلم في عهد الاستقلال ، ولا يزال في ماليزيا عدد كبير من المدارس الانجليزية ، ثم تجيء المدارس القومية الملايوية ، وتدرس فيها جميع العلوم باللغة الملايوية ، وهي آخذة في الانتشار ، والحلول محل المدارس الانجليزية درجة إثر درجة ، أما الجاليات الصينية والهندية فتمسكة بمدارسها وقد انتشرت المدارس القومية عندما شجعت الحكومات الاستقلالية الشعب الملايوى على التعليم ، وفتحت له أبواب المعرفة .

وهناك المدارس الدينية ، وهي واسعة الانتشار في القرى ، وتهتم بالدراسات الإسلامية وباللغة العربية بالإضافة إلى العلوم القومية والعامة .

وفي ماليزيا عدة جامعات أنشئت بعد الاستقلال ، وجامعة واحدة أنشئت في عهد الاستعمار هي جامعة الملايو ، وكانت اللغة الإنجليزية هي لغة المحاضرات فلما جاء عهد الاستقلال بدأت اللغة الملايوية تأخذ مكانها وتصارع اللغة الإنجليزية .

وقد كان التعليم الجامعى يكاد يكون خاصا بغير الملايويين ، فقد كانت الوسائل تيسر للصينيين والهنود للالتحاق بالجامعة ، أما الملايويون، فكانوا بعيدين عن هذا النوع من التعليم ، ولكن عهد الاستقلال ساعد أهل البلاد على أخذ نصيبهم من الدراسات الجامعية ، وفيما يلي إحصائية تدل على مدى الظلم الذى كان واقعاً على الطلاب من أهل البلاد ، وعلى

المحاولات التي تدفعهم إلى الأخذ بنصيب في الثقافة الجامعية عام بعد عام ، ففي جامعة العلوم كانت نسبة الطلاب الملايويين بالنسبة لمجموع الطلاب بهذه الجامعة كالآتي :

سنة ١٩٦٩	٢ ٪ من الملايويين
» ١٩٧٠	٣٣ ٪ » »
» ١٩٧١	٣٤ ٪ » »
» ١٩٧٢	٣٦ ٪ » »
» ١٩٧٣	٣٨ ٪ » »
» ١٩٧٤	٣٩ ٪ » »
» ١٩٧٥	٤٩ ٪ » »

الإسلام في ماليزيا دين وقومية :

في كثير من الأقطار الاسلامية يوجد مع الاسلام دين أو أكثر بين المواطنين ، ولكن الإسلام في الملايو له وضع خاص ، إنه هو والقومية تعبير واحد ، فالإسلام هو الذي التفتت حوله جماهير المواطنين لتتقوى به ، ولتتقف في وجه الزحف الصيني الذي يهدد وجود أهل الملايو ، ويحاول أن يسلب ديارهم ، وقد كان الإسلام هو المركز الذي التف حوله الإندونيسيون في صراعهم ضد الاستعمار فلما انتهى الاستعمار وجدنا في اندونيسيا من يعتنق المسيحية أو يتجه للشيوعية ، ولكن الملايو بقيت على تمسكها بالإسلام حتى تتكفل أمام العدو الصيني الذي أراد أن يأخذ لنفسه كل شيء . وقد سبق أن ذكرنا أن الاسلام والقومية امتزجا في الملايو لدرجة أن الرجل الذي يعتنق الاسلام يقال عنه إنه دخل في الملايوية ، ويتحتم عليه عقب ذلك أن يرتدى في بعض المناسبات لباس الملايو ويعيش عيشتهم ، لقد كان الاسلام ولا يزال مركز الإنقاذ والأمل لسكان الملايو .

رئيس وزراء جديد لماليزيا يحمل فكراً جديداً

في مطلع عام ١٩٨٢ تولى رئاسة الوزراء في ماليزيا رئيس جديد هو الدكتور ماهيتو محمد ، ويقولون عنه إنه شخصية تثير الإعجاب كما تثير القلق والحذر ، و سر الإعجاب به انتمائه إلى الأغلبية المسلمة ذات الأصل الملايوى ، وأنه طبيب مثقف نشأ من أسرة عادية ، فهو بذلك لا ينتمى إلى الأسر الملكية مثل رؤساء الوزراء الأربعة السابقين .

ثم هو شديد الاعتداد بالكرامة القومية لماليزيا ، وبالتالي كان قبل توليه رئاسة الوزارة معروفاً بنقده لمكانة الأجناس غير الملايوية في الملايو ، وقد نشر في ذلك كتابين أحدهما بعنوان « العلاقات بين الأجناس » الذى هاجم فيه غير الملايويين في الملايو ، والثانى بعنوان « العضلة الماليزية » ويشرح فيه أن الاستثمارات الصينية ازدهرت على حساب الشعب الماليزى .

والرئيس ماهيتو فى وضعه الجديد يحاول أن يطمئن غير الملايويين فى الملايو ، ولذلك أعلن أن اتجاهه ذلك كان بهدف إيضاح خطورة عدم التوازن بين الأجناس المختلفة فى ماليزيا ، ووعد الدكتور ماهيتو بأنه سيعمل بكل جهده لإنعاش اقتصاد البلاد ، ومحاربة الفساد الحكومى ، كما أعلن تمسكه الشديد بالقيم الروحية

ومن الأشياء التى أعلنها دكتور ماهيتو أنه مستعد للإفراج عن مئات المعتقلين السياسيين ممن أدينوا فى حوادث عنصرية بشرط أن يغادروا البلاد متتازلين عن الجنسية الماليزية .

إن ماليزيا تواجه عصرأ جديداً مع الدكتور ماهيتو ونحن نرجو أن يكون عصرأ ميموناً ، وأن يحقق الرئيس الجديد لشعبه مزيداً من الثراء والرخاء .

تاريخ اندونيسيا من الزحف الغربى حتى الآن

العلاقات التجارية بين آسيا وأوروبا :

كانت هناك كما قلنا من قبل علاقات تجارية بين آسيا وأوروبا منذ زمن بعيد ، وكان الشرق الأوسط هو الوسيط التجارى بين الطرفين وهو بالإضافة إلى دور الوساطة كان يُسهم ببعض السلع فى هذه العملية التجارية .

وكانت التجارة بأوروبا وآسيا تسلك طريقاً من طريقين :

١ — الطريق البحرى عبر البحر المتوسط مروراً بمصر إلى البحر الأحمر ، فالخليج العربى فالمحيط الهندى وكان هذا الطريق يعود على مصر بفوائد جمة بسبب ما تدفعه التجارة من ضرائب ، وما تحتاجه من وسائل لنقل البضائع من البحر المتوسط إلى البحر الأحمر .

٢ — الطريق البرى وقد يجىء من الشمال إلى سوريا فصحرائها ، فالعراق إلى الهند ، أو يتخذ خطوة بحرية قصيرة عبر البحر المتوسط . إلى سوريا وسمى طريقاً برئياً لأن أكثر مراحلها برية .

وعندما ظهر نفوذ العثمانيين فى المنطقة بدأ تجار الشرق الأوسط يوسعون نفوذهم فى الطريقين التجاريين ، ولم يسمحوا لتجار أوروبا بالسير فى هذين الطريقين ، وألزموهم بممارسة التجارة مع آسيا عن طريقهم بحيث تبقى مراكز التجارة الأوربية فى جنوه والبنديقية ويمدهم تجار الشرق الأوسط بما يحتاجونه من سلع .

وفى نفس الوقت الذى كانت هذه الروح التجارية تظهر كان هناك صراع دينى تنفعل به نفوس الشرق والغرب جميعاً فى أعقاب نهاية الحروب الصليبية ونهاية المسلمين بالأندلس ، ولما كانت البرتغال هى التى قادت أبرز خطوات الحركة ضد المسلمين بالأندلس ، فإنها وضعت

نفسها حامية للعالم المسيحى ، ومُدافعة عن أهدافه واقتصادياته ،
كما اتجهت لمهاجمة ما تستطيع من المناطق الاسلامية دفاعا عن المسيحيين
ومصالحهم •

وكان من ضمن نشاط البرتغال البحث عن طريق جديد للوصول
إلى الشرق دون المرور بالمناطق الإسلامية في سوريا ومصر ، كما اتجهت
البرتغال إلى غرب إفريقيا للتجارة معها بدلا من شرق إفريقيا الذى كان
المسلمون لهم السيطرة فيه ، وقد بدأ هذا النشاط بواسطة الأمير
هنرى وهو ابن الملك يوحنا الذى طرد المسلمون من الأندلس فى عهده ،
والذى سُمى فيما بعد هنرى الملاح •

وفى الطريق الجديد أى فى غرب إفريقيا تطورت خطوات الملاحين
البرتغاليين : هنرى ثم دياز ثم فاسكودى جاما الذى وصل إلى الهند
سنة ١٤٩٨ م ومن الهند وصل البرتغاليون إلى الملايو واندونيسيا •

وبوصول البرتغاليين إلى هذه المناطق باسم التجارة حولوا وجهة
نظرهم من التجارة إلى الاستعمار ومحاولة الاستقرار بهذه الأماكن ،
وقد احتكر البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح حوالى مائة عام ،
وقبوا مركزهم باحتلال عمان وبعض مناطق الساحل الشرقى
لإفريقية ، وأصبحت البرتغال بذلك أكبر مركز تجارى لاوروبا •

ولم يدم الحال للبرتغاليين ، فسرعان ما زحف الأسبان على هذه
المناطق وبخاصة بعد أن استولت أسبانيا على البرتغال ، ثم زحف لها
الهولنديون فدفعوا أسبانيا إلى الفيلبين وأخذوا هم باقى ممتلكات البرتغال
ولكن سرعان ما اقتحم الانجليز والفرنسيون هذه الأماكن
أيضا ، وقامت منافسات شديدة بين الدول الأوروبية بعضها والبعض فى
محاولة السيطرة على اقتصاد مناطق الشرق الأقصى ، وقد انتهت هذه
المنافسات — كما ذكرنا من قبل — إلى تسوية استعمارية جعلت
اندونيسيا من نصيب هولندا •

وعلى العموم فقد كان الزحف الأوربي في مطلعته مصبوغاً بصبغة تجارية ، وقد بدأ وكأنه يعمل في مجال الاقتصاد وحده ، ولكن العمل التجارى انتقل إلى عهود ومواثيق بين الأوربيين وبعض زعماء مناطق الشرق الأقصى ، وانتقلت العهود إلى محاولات للاحتلال واستوجب الاحتلال صراعاً لطرد المستعمرين ... كما سنرى فيما بعد .

هولندا في إندونيسيا :

ولما كان حديثنا عن إندونيسيا وصراعها مع الاستعمار الغربى سيرتبط بوجه خاص بهولندا فإن من اللازم أن نتبع هولندا في إندونيسيا خطوة خطوة .

في شهر إبريل سنة ١٥٩٥ م تحركت أربع سفن هولندية تجارية من هولندا متجهة إلى إندونيسيا تحت قيادة De Houtman ووصلت إلى بانتم على ساحل جاوة الشمالى الغربى في ٥ يونيو ١٥٩٦ م ، ولم يحسن الأهالى استقبال الهولنديين ، اعتقاداً منهم أنهم كالبرتغاليين في أهدافهم الاستعمارية ، ولكن الهولنديين آنذاك كانوا في صراع مع البرتغاليين مما خلق روح تفاهم بين الإندونيسيين والهولنديين ، ومن أجل هذه الروح أحسن الإندونيسيون استقبال السفن الهولندية الأخرى التى جاءت إلى بلادهم عقب ذلك ، وبخاصة أن الهولنديين اتجهوا آنذاك إلى التجارة وحدها (١) .

وسرعان ما كشفت هولندا عن أنيابها الاستعمارية فأنشأت بسنة ١٦٠٢ م شركة الهند الشرقية الهولندية التى أخذت تحتكر التجارة ، وتفرض على السكان أن يزرعوا أنواعاً معينة من الزراعة ، وتجبى الضرائب على المنتجات الزراعية ، إذ احتكرت تصديرها ، وهذا بطبيعة الحال اتجاه استعمارى واضح .

(١) بريان هاريسون : ص ١٣٠ وقهر الدين يونس : هذه هى اندونيسيا ص ٨١ .

وبدأ صراع عسكري بين هولندا وبين السلطان أجونج سلطان
متارم الإسلامية (١٦١٣ - ١٦٤٥) وكان هذا السلطان أكبر عدو
للاستعمار الهولندي وقد حاول السلطان أجونج أن يمد نفوذه إلى
باتافيا (جاكرتا الآن) ولكن القوات الهولندية ردت قواته ، بيد أن قائد
القوات الهولندية سقط في هذا الصراع •

واتجهت هولندا إلى خدمة مصالحها فقط بإندونيسيا ، فأوقفت
نشاط إندونيسيا التجاري الذي تحدثنا عنه من قبل والذي كان يقوم
به التجار الإندونيسيون بين منطقة ومنطقة ، وبين إندونيسيا بوجه عام
والشرق الأوسط ، وألزمت هولندا السكان أن يقوموا بالزراعة فقط ، وبهذا
حكمت هولندا على إندونيسيا أن تصبح دولة زراعية فقط ، لا شأن لها
في التجارة •

ومما يتحتم ذكره هنا أن الهولنديين ككل المستعمرين الغربيين
اتجهوا بكل قوتهم إلى الحصول على التوابل لتجلب لهم الكسب
السريع ، ولم يتعرفوا على المهبة العظمى التي كان يمكن أن يحصلوا عليها
لو درسوا طبيعة البلاد ، واهتموا بأنواع من الزراعة والصناعة بها ،
وكان شأنهم في ذلك شأن الباحثين على الذهب في كاليفورنيا بأمريكا سنة
١٨٤٩ الذين لم يهتموا في ذلك الوقت بالثراء الحقيقي والأكبر والدائم
بكاليفورنيا عن طريق زراعة القطن والحبوب وإنتاج البرتقال •

ومن أخطاء الاستعمار كذلك أنه لم يتجه إلى التعرف على ثقافة
الشعب الإندونيسي وتراثه وحضارته ، ولو أنه فهم ذلك لكان من الممكن
إقامة علاقات أفضل بين الطرفين •

ومن هذه الأخطاء أيضا أن المستعمرين اتجهوا بكل قواهم للتعامل
مع الأمراء والملوك وتجاهلوا جماهير الشعب وقد فوجئوا بأن من بين
الملوك كان يوجد جماعة عمق فيهم الإخلاص والولاء لوطنهم

ولشعوبهم ، وممن برزت أسماؤهم في العصر الحاضر من هؤلاء سلطان « جوكجا كارتا » « هيمنجكوبومو التاسع » الذي كانت خدماته العامة قد جعلت منه بطلا وطنياً في فترة الأزمّة بين الاستعمار والاستقلال (١) .

وقد عرفت هذا السلطان ورأيت فيه مثالا رائعا للقائد الذي يتطلع للخلود .

الصراع ضد هولندا :

ولم يقف الإندونيسيون موقفاً سلبياً أمام هذا الاحتلال الهولندي للسافر ، فقامت حركات عسكرية هائلة ضد هولندا قادها السلطان حسن في « جوا » والأمير « ترونوجويو » وسلاطين جزر الملوك ، وقد حدثت هذه المعارك في القرن السابع عشر الميلادي ولكن النصر فيها كان لهولندا .

بريطانيا في إندونيسيا :

وفي مطلع القرن التاسع عشر احتلت فرنسا في عهد نابليون بونابرت هولندا ، وهذا أتاح الفرصة لإنجلترا لتمدد نفوذ إلى إندونيسيا من سنة ١٨١١ م إلى سنة ١٨١٤ م ولكن بريطانيا أعادت إندونيسيا إلى هولندا سنة ١٨١٥ م بعد سقوط نابليون .

هولندا بإندونيسيا مرة أخرى :

جاءت هولندا إلى إندونيسيا هذه المرة أكثر شراسة وقوة ، ربما لتعوض ما فقدته من كرامة واقتصاد أمام جيوش نابليون ، وأصبح الاحتلال سافراً في هذه المرة ، كما هبت حروب طاحنة ضد المحتل الغاصب وشملت هذه الحروب أكثر المناطق والبلدان في إندونيسيا ، ومن أشهر هذه الحروب ما يلي :

- ثورة جزائر الملوك بقيادة السلطان حسن (١٨١٦ — ١٨١٨)
- حرب جاوة بقيادة الامير ديبونوجورو (١٨٢٥ — ١٨٣٠)
- حرب بادري في غربى سومطرة بقيادة إمام بونجول (١٨٣٠ — ١٨٣٧)
- حرب آنتشه في شمالى سومطرة بقيادة تنكو عمر (١٨٧٣ — ١٩٠٣)
- حرب شمال سومطرة بقيادة مانجاراجا ملك باتاك سنة ١٩٠٧ وحروب الأخرى كثيرة في جوا بجزيرة سيليبس وفي جزيرة كاليمنتان وفي بالى وغيرها .

وكانت سياسة الحرب بالنسبة لهولنده ، هى ما يعبر عنه بانيكار
يقوله « ان التدمير وقوة الانتقام كانت تكونان القصة المتكررة في
هذه الحرب » (١)

وكان النصر في هذه الحروب لهولندا بسبب المعدات الحربية الحديثة
التي كان يتزود بها الجيش الهولندى ثم بسبب التفكك في إندونيسيا .

القرن العشرون وحركات التحرير

لم تضع الهزائم العسكرية حدًّا لنضال إندونيسيا ، بل على
العكس من ذلك فقد شحذت الحروب الهمم ، وحرّك الدم المزائم ،
وأصبحت كل بقعة من الأرض التي خضبتها الدماء تصرخ في الأحياء أن
يثأروا للشهداء ، ولذلك شهد القرن العشرون حركاتٍ صاخبة مدوية
ضد الاستعمار ، وقد تعددت هذه الحركات بسبب ما قدّمه هذا القرن من
تطور في الفكر للمجتمع الإنسانى ، فلم تعد الحركات ثورات فقط ،
بل أصبحت أكثر شمولاً ، وبالتالي أكثر نجاحاً ، فقد شملت
الحركات الاندونيسية جوانب السياسة والجانب الاجتماعى
والثقافى ، ولم يعد الصراع مقصوراً على الرجال ، بل قامت المرأة بدورٍ
خطير في هذا المجال معضّدة الرجال ، وفي مجال الحديث عن نشاط المرأة
في اندونيسيا يبرز اسم (كارتينى) (١٨٧٩ — ١٩٠٤) وهى ابنة حاكم

(١) آسيا والسيطرة الغربية ترجمة عبد العزيز توفيق جياويد ص ١١٤ .

جابارا وقد اتجه اهتمامها الى تعليم المرأة ، وكانت حركتها مطلع اتجياه الطبقة الاستقرائية لمشكلات الشعب (١) .

وقد حدث في مطلع القرن العشرين أن انتصرت اليابان على روسيا سنة ١٩٠٥ ، ثم جاءت ثورة الصين سنة ١٩١١ ، وهذا الانتصار وتلك الثورة أوحتا للشرقيين أن في إمكانهم أن ينتصروا على قوى العدوان وجحافل الغرب .

وكان مما سبب أن تتجه الحركات الإندونيسية هذه الاتجاهات الجديدة أن الممالك بإندونيسيا التي كان بها جيوش واستعدادات حربية قد سقطت ، ومن هنا اتجهت الحركات الاستقلالية وجهة أكثر تأثيرا وأعظم أثرا ، وسنتحدث عن كل من هذه الحركات فيما يلي حديثا قصيرا وافيا :

أولا — الاتجاهات السياسية :

اتجه الإندونيسيون منذ مطلع القرن العشرين إلى تكوين التجمعات السياسية بعد انتهاء التجمعات التي كانت تكون الممالك ، وكانت التجمعات السياسية أعظم جدوى لأنها اتجهت إلى تكوين وحدة واحدة لجميع الجزر ، بعد أن كانت الممالك تقسم الجزر إلى دول متعددة ، وعلى هذا فإن هذه التجمعات السياسية وضعت الجذور لوحدة إندونيسيا ، وكنتيجة لهذه التجمعات السياسية ظهرت الأحزاب المتعددة في إندونيسيا ، ومن أهم هذه الأحزاب :

١ — شركة إسلام التي ابتدا نشاطها سنة ١٩١١ م ، وكان من أبرز قادتها عمر شكرو أمينوتو وهو سليل العائلات المالكة ، وكان يميل للديمقراطية والحياة الشعبية ويَعْنى بسلامة الوطن ، وفي عام ١٩٣٤ توفي شكرو أمينوتو وتقسّم الحزب بعده عدة أقسام كان أهمها شعبة

(١) البروفسور رومين : آسيا المعاصرة ص ١١٨ من الترجمة العربية .

سُمِّيتْ نفسها « حزب الإنصاف » برياسة الحاح أجوز سالم ، وقد ظل هذا الحزب على صلة بالحزب الأصلي .

٢ — « حزب إنديسخ » وقد بدأ نشاطه سنة ١٩١٢ م . وأبرز رجاله « دوويس ديكار » والدكتور جفتو وكان هذا الحزب يُعلن أن من أهدافه توحيد السكان سواء كانوا من أصل إندونيسي أو وافدين على إندونيسيا ومستقرين بها .

٣ — الحزب الشيوعي الإندونيسي الذي بدأ نشاطه سنة ١٩٢٠ وأبرز رجاله سماعون الشيوعي الإندونيسي متعاوناً مع بعض الشيوعيين الهولنديين .

٤ — الحزب الوطني الإندونيسي وقد بدأ نشاطه سنة ١٩٢٧ وأبرز أعضائه سوكارنو وسوناريو وسارتونو .

وكان لهذه الأحزاب أعضاء من مختلف الجزر والنواحي بإندونيسيا ، وكانت لها أنشطة متعددة ومؤتمرات فعالة هزّت قوى المستعمر ، ومن أبرز الحركات الثورية التي نشأت عن الأحزاب ثورة ١٩٢٦ التي قام بها الشيوعيون الإندونيسيون ضد هولندا ودمروا فيها كثيراً من الممتلكات الخاصة بالأفراد وبالدولة .

ثانياً — الاتجاهات الاجتماعية :

كان هناك لقيف من زعماء الإندونيسيين وبخاصة من الشبان يرون أن الحرية والاستقلال لا بد أن يتخذا العلم أساساً لهما ، ومن هنا اتجه هؤلاء الزعماء الى تربية الشعب وتعليمه ، وستحدث فيما يلي عن زعماء هذا اللون من النشاط وعن الهيئات التي حملت هذا العبء :

١ — بودى أوتومو :

بودى أوتومو اسم مؤسسة ثقافية أنشأها وحيد الدين الذي بدأ

نشاطه مع مطلع القرن العشرين ، وقد قدم وحيد الدين أفكارا جديدة الى الشعب الإندونيسى اذ أعلن أن العلم مضافاً إلى القوة الحربية كفيل بطرد المستعمرين من أرض الوطن ، ووضع وحيد الدين أفكاره موضع التنفيذ عندما أصدر جريدة تحمل الفكر والعلم إلى الناس . وقام وحيد الدين بجولة في ربوع إندونيسيا ، ودعا إلى إنشاء صندوق لنشر الثقافة والتعليم ، وأنشأ سنة ١٩٠٨ جمعية ثقافية اسمها « بودى أوتومو » في جوكرتا وأصبح لها غروع في أربعين بلدا وآلاف الأعضاء في كل مكان (١) .

٢ — الجمعية الإندونيسية :

وكانت تتكون من الطلاب الإندونيسيين خارج إندونيسيا وفي هولندا نفسها بوجه خاص ، ثم امتد نشاطها إلى إندونيسيا وانضم لها كثير من الشبان الموظفين والمثقفين ، وأعلنت هذه الجمعية أن هدفها الأساسى هو استقلال إندونيسيا من الاستعمار وللوصول الى ذلك يتحتم توعية أبناء إندونيسيا وتوجيههم إلى الحركات القومية الإندونيسية ، ويُنسب لهذه الجمعية انها هى التى غيرت اسم البلاد من « جزر الهند الهولندية » إلى « إندونيسيا » (٢) .

٣ — جمعية شبان المسلمين :

قامت هذه الجمعية سنة ١٩٢٤ ومبدؤها الأساسى هو التجمع حول الدين الإسلامى للكفاح ضد الاستعمار الهولندى المسيحى ، وقد استلزم هذا أن حاول أعضاء هذه الجمعية تقديم الإسلام الصحيح إلى السكان ليلتفوا حوله ويعملوا حول رايته ومن أبرز أعضاء هذه الجمعية الدكتور محمد حتى ، وقد ابتكرت هذه الجمعية ما سُمى فيما بعد « يمين الشبان »

(١) وان احمد : الأوضاع السياسية والحضارة بإندونيسيا وماليزيا في القرن العشرين ص ٨٤ (رسالة دكتوراة باثرافى) .

(٢) دكتور انداس وزميله : تاريخ إندونيسيا د ٣ ص ٣٣ .

الذى اتخذ أساساً لحركات إندونيسيا وآمالها ، ويشمل هذا اليمين ثلاث نقاط مهمة هي : لغة واحدة — شعب واحد — وطن واحد •

وقد أقسم هؤلاء الشبان هذا اليمين يوم ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٢٨ ، ومنذ ذلك الحين أصبح ذلك اليوم عطلة رسمية للبلاد •

وقد تطورت هذه الجمعية فشملت كل الشبان ولو لم يكونوا مسلمين ، وإن بقى الفكر الإسلامى واضح السيطرة عليها •

ثالثا — الاتجاهات الثقافية :

لم يقنع الإندونيسيون وبخاصة المسلمون منهم بالمدارس التى أنشأها الاستعمار إذ كان واضحا أن هذه المدارس أنشئت لخدمة هولندا وتخريج الموظفين اللازمين للإدارة الحكومية ، ومن هنا اتجه المسلمون إلى إنشاء مؤسسة إسلامية ثقافية أسموها « الجمعية المحمدية » وقد أنشأها سنة ١٩١٢ كياى أحمد دجلان بجوكجاكرتا ، ومن أهم أهدافها : توسيع الثقافة الدينية الإسلامية لأبناء البلاد بكافة المستويات ، وتطوير هذه الثقافة ولاسيما بين الأعضاء فى الجمعية ، حتى يكون هناك أعضاء قادرين على ممارسة الشؤون الإسلامية ، كما أمرهم الإسلام وقادرون على إدارة شؤون الدولة فى المستقبل القريب لطرد الاستعمار وتحرير البلاد •

وللحصول على أهدافها أقيمت المدارس الدينية والإسلامية فانتشرت هذه المدارس فى ربوع البلاد فى وقت قصير ، ورغب أبناء البلاد بهذه المدارس ، وفى عام ١٩٢٥ م (١٣٤٣ هـ) كان هناك ٢٩ فرعاً لهذه الجمعية منتشرة فى أنحاء البلاد ثم ازدادت فروعها فى عام ١٩٢٩ إلى ٨٠ فرعاً واستمرت هذه الزيادة على مر السنين (١) •

وقامت بجانب المحمدية مراكز ثقافية مماثلة تخدم نفس الأغراض ،

(١) الدكتور انداس وزميله : تاريخ اندونيسيا ج ٢ ص ٣٩ •

وعندما أراد الإستعمار أن يتدخل في تحديد مناهج هذه المعاهد ثار
الرأى العام مؤيِّدا لها ، وأيدتها الأحزاب .

وقد تعاونت هذه الهيئات وتلك المؤسسات مع بعضها البعض في
مصارعة الاستعمار وإضعاف شأنه وكان الاستعمار يصارع هيئة منها
فتواجه هيئة أخرى ويقابل ثورة في مكان فما إن يطفئها حتى تهب ثورة
أخرى في مكان آخر ، وبين شدٍ وجذب جاءت الحرب العالمية الثانية
(سنة ١٩٣٩) التي ألزمت قوى الغرب أن تتطامن ، وأن تحسِّن مسلكها
أمام الشعوب المغلوبة مخافة أن تنضم هذه الشعوب لقوات المحور .
وفي هذا الجو المشحون بالخوف والقلق من جانب هولندا والأمل والرجاء
من جانب الإندونيسيين اندفعت اليابان لتحتل بلاد الشرق الأقصى التي
كانت تابعة لقوى الغرب ، واستسلمت القوات الغربية في تلك المناطق ،
وبدا بالنسبة لإندونيسيا عهد جديد آن لنا أن نتكلم عنه .

اليابان في إندونيسيا

كانت اليابان منذ زمن بعيد تتطلع إلى امتلاك بعض جزر
إندونيسيا ، وبخاصة جزيرة غينيا الجديدة التي كانت اليابان ترى فيها
أساساً مهماً لنشاطها الاقتصادي ، إذ أن الجزيرة تنتج المواد الخام
اللازمة لكثير من الصناعات اليابانية ، وسيراً وراء هذا الأمل كانت اليابان
تسمى غينيا الجديدة باسم اليابان الجديدة (١) .

ولما قامت الحرب العالمية الثانية انتهزت اليابان هذه الفرصة فأطلقت
تعبيراً خداعاً هو (آسيا للأسيويين) وكان المعنى الحقيقي في نظر اليابانيين
هو أن آسيا لليابانيين ، ولكن هذا المعنى الحقيقي ظل سراً في الذهن
اليابانى ، وتظاهرت اليابان بالتعاون مع الشعوب المغلوبة في الشرق
الأقصى ، وفي الوقت نفسه كانت اليابان تُعدُّ نفسها لدخول هذه

(١) قهر الدين يونس : هذه هي اندونيسيا ص ١٣٧ .

الحرب لتحقيق أطماعها بواسطة الانتصار على القوى الغربية في هذه المنطقة .

ورأت اليابان أن جانب المحور يرجح في سنة ١٩٤١ وكان ذلك فرصة لليابان ، فأعلنت الحرب على الحلفاء ، وانضمت إلى المحور في صراعه المرير ، وهاجمت جيوش الحلفاء في ١٨ ديسمبر ١٩٤١ ، وضربت أسطول الحلفاء في « بيرل هاربر » وواصلت هجماتها وانتصاراتها ، ولم تجد الحكومة الهولندية العون الغربي الذي كانت تعتمد عليه للسيطرة على إندونيسيا ، فاستسلمت في ٩ مارس سنة ١٩٤٢ ، وسلمت الشعب الإندونيسي إلى اليابان .

سياسة اليابان في إندونيسيا :

لعل بعض الإندونيسيين اعتقدوا أن اليابان في إندونيسيا ستكون أحسن من هولندا بها ، ولعلمهم اعتقدوا أن اليابان جاءت لتطرد هولندا ، ثم تدع البلاد لذويها ، ولكن سرعان ما تبين لهم أن اليابان جاءت لتستعمر بلادهم ، ولتسلب اقتصادهم على نحو ما كانت تفعل هولندا وربما على نحو أقسى .

واشتد عسف اليابانيين بكل من ظهرت منه مقاومة للاتجاهات اليابانية ، فكانوا يخلقون شعر التأثيرين ويضربونهم على رؤوسهم ، كما أصدروا الأوامر للإندونيسيين بالانحناء اجلالاً وتعظيماً لليابانيين (١) ،

واتخذت اليابان نظاماً إدارية واسعة في إندونيسيا فأحكمت بموجبها الموظفين اليابانيين محل كبار الموظفين الإندونيسيين ، وقسمت البلاد أقساماً لتضمن سيطرتها الكاملة عليها عن طريق السيطرة على كل قسم .

ومن الناحية الاقتصادية عملت اليابان على أخذ ما يمكن أخذه من

محصولات إندونيسيا إلى الجزر اليابانية ، وتركت كثيراً من بقاع إندونيسيا في شبه مجاعات .

ومن الناحية الثقافية أسرعت الحكومة اليابانية بإلغاء اللغة الهولندية من المدارس الإندونيسية وإحلال اللغة الملايوية محلها ، وكانت هذه المعاملة مما أَرْضَى الإندونيسيين في مطلع العهد الياباني ، كما غيَّرت اليابان اسم العاصمة من (بتافيا) إلى (جاكرتا) ، ولكن هذه المظاهر لم يطل أمدُها فسرعان ما فرضت اليابان لغتها على التعليم على أمل أن تصبح اللغة اليابانية هي اللغة الرسمية بعد قليل ، ولكن هذا الهدف لم يتحقق أبداً لليابان .

وقد كان التحول من اللغة الهولندية إلى اللغة الملايوية وسيلة للسير باللغة الإندونيسية نحو الكمال ، وقد اهتم الإندونيسيون بهذه الخطوة فابتكروا اصطلاحات جديدة في لغتهم ، وعملوا بكل الوسائل لاستكمال نضجها ، وأدخلوا تحسينات كبيرة في ألفاظها وطريقة تركيبها ، حتى تصبح بحق لغة دائمة للبلاد (١) .

واستمراراً لهذا الاتجاه في الرقي باللغة الإندونيسية أُلِّفَتْ في ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٤٢ لجنة من المفكرين الإندونيسيين لاقتراح ما تراه ضرورياً لإصلاح اللغة الإندونيسية وجعلها صالحة للاستعمال في كل المجالات ، وقد أَدَخَلَتْ هذه اللجنة آلاف الكلمات الجديدة على هذه اللغة (٢) .

الصراع ضد اليابان :

قلنا آنفاً إن الإندونيسيين كانوا يعتقدون أن اليابان جاءت لتطرد

(١) دكتور محمد فخر الدين : تاريخ اندونيسيا الأدبي والتحريري والاسلامي ص ٥٣ .

(٢) سوتان شهبانا : الثورة الاجتماعية والثقافية في اندونيسيا ص ٧٠ .
(م ٣٤ — الموسوعة التاريخية)

هولندا تمهيداً لاستقلال إندونيسيا ، وفي ظل هذا الاعتقاد حدثت لقاءات بين بعض الزعماء الإندونيسيين وفي مقدمتهم سوكارنو ومحمد حتى وكياي حاجي منصور للإعداد لاستقلال إندونيسيا ، ولكن سرعان ما تبين أن اليابان جاءت لتحتل البلاد ، ومن هنا بدأت تحركات ثورية ضد اليابان ، وقد بدأت هذه الحركات بواسطة الجيش الإندونيسي الذي كونته اليابان ليساعدها في الصراع ضد الغرب ، ولكن هذا الجيش عندما أحس بأن اليابان استعمار مكان استعمار أظهر التمرد ، واتجه للدفاع عن البلاد ضد الاستعمار أياً كان موطنه ، ولهذا حكت اليابان هذا الجيش ، ولكن حثله لم يكن نهاية الصراع ، بل ربما قوَّى الصراع ، فقد أدركت البلاد الموقف الحقيقي لليابان ، فالتجته اتجاهها ثورياً لتحقيق ما لم يتحقق بالطرق السياسية وقامت حركات سرية كان بعضها بقيادة كبار المثقفين مثل سوتان شهرير ، وآدم مالك ، وخير صالح ، وبعضها بقيادة الطلاب الذين هبوا يدافعون عن بلادهم بزعامة سوبانديرو ، وكونتو ، وغيرهما .

وبالإضافة إلى هذا قامت ثورات عارمة في مناطق متعددة بإندونيسيا وأهمها ثورة آتشة بقيادة تنكو عبد الجليل ، وثورة أمفيل بقيادة الحاج مادرياس وغيرهما من الثورات .

وكانت اليابان عنيفة في معاملة هذه الثورات فقد قتلت آلاف الناس دون رحمة ولا عدل ، وقد بلغ عدد الذين قتلوا في ثورة كلمنتان عشرين ألف نسمة (١)

اعتراف اليابان باستقلال إندونيسيا :

لم تطل مدة اليابان في إندونيسيا ، إذ سرعان ما أحسّت اليابان بمؤثرات الهزيمة في موقفها من الحلفاء وأدركت اليابان أنها على وشك أن تخسر الحرب ، وانكششت مطامعها في إندونيسيا وغيرها في بقاع

(١) دكتور انداس : تاريخ اندونيسيا ج ٣ ص ٥٩ .

المنطقة ، ولم يبق لها إلا أمل ضئيل هو أن تستقل هذه البلاد حتى لا تعود إلى حكم الغرب ، فعمل استقلالها يخلق جواً من التعاون بينها وبين اليابان ، ومن هنا اتجهت اليابان إلى الاستعداد لاستقلال إندونيسيا ، وكان ذلك في أوائل أغسطس سنة ١٩٤٥ ، فقد دعا الحاكم العسكري العام الياباني بجنوب شرقى آسيا ، زعيمى إندونيسيا لمقابلته فى (دالت) بالقرب من سيجون ببورما ، وذلك لتسليم استقلال إندونيسيا إليهما مع اعتراف اليابان بهذا الاستقلال ، وكان ذلك الاجتماع فى ١٢ أغسطس سنة ١٩٤٥ . وفى هذا الاجتماع أعلن الحاكم العسكرى ما يلى :

إن الحكومة اليابانية بطوكيو قد قررت إعطاء
الاستقلال لإندونيسيا واللجنة التمهيدية تحت قيادتكم
أن تعمل لتنفيذ هذا القرار . . (١)

إعلان الاستقلال :

وعاد سوكارنو وحتى من سايجون إلى جاكرتا فاستقبلهما الشعب بالترحاب والأمل ، واستقبلهما الحاكم اليابانى مهنتاً ، وتمّ الاتفاق على إعلان الاستقلال ، وكتبت وثيقة الاستقلال ونصها :

نحن الشعب الإندونيسى نقرر استقلال إندونيسيا ،
وشتون انتقال السلطات إلى الشعب ستتخذ بدقة فى
أسرع وقت ممكن

جاكرتا فى ١٧ أغسطس ١٩٤٥

عن الشعب الإندونيسى

سوكارنو — محمد حتى

وتبعاً لذلك اتفق أعضاء اللجنة التمهيدية لاستقلال إندونيسيا
بإجماع الآراء على تعيين سوكارنو رئيساً للدولة ومحمد حتى نائباً له ،

(١) دكتور محمد حتى : حول إعلان الاستقلال ص ١٠ — ٢١ .

واعتبار أن الاثنين واحد ، وهو شعار ذاع آنذاك لإيضاح أن الدولة تحتاج
للاتنين معاً لمكانهما من الجهاد من جانب ، ولأن سوكارنو يمثل العنصر
الجاوى ومحمد حتى يمثل العنصر السومطرى ، وجاوه وسومطرة تمثلان
الجمهرة العظمى من سكان إندونيسيا •

الغرب يحاول العودة لإندونيسيا

عندما أصبح واضحاً أن كفة الحلفاء رجحت في الحرب العالمية
الثانية ، وعندما اتجهت اليابان للاستسلام عقب إلقاء القنبلتين الذريتين
على هيروشيما وناجازاكي في ٦ و ٩ من أغسطس سنة ١٩٤٥ ، عندئذ
صدرت أوامر الحلفاء لليابان بعدم تسليم إندونيسيا للإندونيسيين ،
ولكن اليابان لم تنفذ هذه الأوامر ، وأعلنت استقلال إندونيسيا كما ذكرنا
من قبل ، ولذلك نجد أن هناك عملين متناقضين عقب استسلام اليابان ،
العمل الأول هو اتجاه الإندونيسيين إلى تكوين الوسائل لاستكمال
استقلال بلادهم ، والعمل الثانى محاولة الغرب تجاهل الاتجاه الإندونيسى
والزحف للعودة بالتاريخ إلى الوراء •

وفيما يتعلق بوسائل الإندونيسيين لاستكمال سيادتهم على بلادهم
اتجه الإندونيسيون إلى تكوين « اللجنة القومية » التى كانت تمثل
« مجلس الشعب » وكان أعضاؤها ٤٠٠ عضواً برياسة كاسمان ، كما
اتجهوا لتكوين الأحزاب القومية ، فظهر حزب الماشومى وهو حزب تجمعت
فيه العناصر الإسلامية ، والحزب الوطنى الإندونيسى ، والحزب الاشتراكى
وغيرها من الأحزاب ، وتكونت بذلك أول وزارة برياسة سوكارنو نفسه ،
وبعد شهرين تكونت وزارة جديدة برياسة سوتان شهير ، كما تكونت
القوات المسلحة الإندونيسية •

أما فيما يتعلق بمحاولة الغرب استعادة السيطرة على إندونيسيا ،
فقد تحالفت قوى الاستعمار على ضرب البلاد ، فنزل جيش الحلفاء

« بجاكارتا » في ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٤٥ ، وطلب من السكان تسليم أسلحتهم ، ولكن الإندونيسيين رفضوا هذا الطلب ، وقاوموا مقاومة ناجحة مما جعل جيوش الحلفاء تدرك صعوبة الأمر ، فأنزّلوا جيشاً كبيراً في « سورابايا » ، وكان هذا الجيش يتبع بريطانيا ، ولو أن أكثر عناصره كانت للأسف هندية ، ومما يدعو للفخر أن المسلمين من الهنود رفضوا أن يطلقوا النار على الإندونيسيين وكانت ضحايا « سورابايا » عالية جداً ، وأُنذر هذا الجيش البلاد بالاستسلام وطلب من الجيش الإندونيسي تسليم أسلحته ، ولكن الإندونيسيين رفضوا هذا الإنذار ودارت معارك قوية ، وحدثت خسائر كبيرة في الطرفين •

ونزلت القوات الإنجليزية في سمارنج في نوفمبر سنة ١٩٤٥ ، كما نزلت قوات الحلفاء في جزيرة سيليبس (سولاويسي) وقد ضحى الإندونيسيين في معارك سولاويسي بحوالي أربعين ألف نسمة ، مما جعل المذبحة تشحذ همم الإندونيسيين وتقوّى حماسهم في الصراع ، وألقى الهولنديون القنابل على جوكتا دون سابق إنذار (١) •

وكانت جوكتا آنذاك عاصمة الجمهورية التي أعلنها الإندونيسيون ، أما جاكارتا فقد كانت قوات الحلفاء تحتلها ، وبهذا كانت هناك حكومتان في إندونيسيا (٢) •

اعتراف الغرب باستقلال إندونيسيا

عندما اتضح عزم الإندونيسيين على الاستقلال التام مهما كانت الضحايا ، وعندما ألّمس الحلفاء بفداحة الخسائر من الجانبين بدأت المفاوضات والمعاهدات التي أدت إلى استقلال إندونيسيا وقد حاولت هولندا أن ترجع في تعهداتها في الاعتراف بالاستقلال ، ولكن موقف الإندونيسيين كان حاسماً ، مما جعل هولندا تخضع للأمر الواقع ، وبخاصة أن تقوى الغرب أخذت تنفض^٢ عن

Louis Fisher : The Story of Indonesia pp. 16, 23. (١)

Ibid p. 31. (٢)

مساعدة هولندا ، لأن هذه القوى اتجهت لمواجهة الاتحاد السوفيتي الذي أراد عقب الانتصار في الحرب أن يمد الفكر الشيوعي إلى مناطق متعددة ، وعندما مُرِكت هولندا وحدها التزمت بالخضوع ، واعترفت باستقلال إندونيسيا ، وكان ذلك في ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٤٩ ، وبمقتضى هذا الاتفاق سُلمت كل الجزر الإندونيسية إلى ممثلي إندونيسيا فيما عدا إيربان الغربية التي تقرر أن تتم مشاورة بين الدولتين بشأنها ، وقد انضمت إيربان الغربية إلى الوطن الأم بعد ذلك سنة ١٩٦٠ •

وكان اعتراف هولندا باستقلال اندونيسيا مرتبطاً بقيام ما سمي « بالاتحاد الهولندي الإندونيسي » ، وكان هذا آخر أحلام الاستعمار وقد وافق زعماء إندونيسيا على قيام هذا الاتحاد كخطوة نحو التحرر ، ولم يكن قيام مثل هذا الاتحاد طبيعياً لأوجه الخلافات الواسعة بين إندونيسيا وهولندا من ناحية الجنس والتاريخ واللغة والدين ، ولبعد المسافة بين البلدين ، وللذكريات التاريخية المريرة التي يرويها الإندونيسيون عن ظلم الرجل الهولندي •

ومن أجل هذا أعلنت إندونيسيا في ١٠ أغسطس سنة ١٩٥٤ حلّ هذا الاتحاد ، فانقطع بذلك آخر خيط بين البلدين (١) •

وكلمة حق مهمة نختم بها صراع إندونيسيا من أجل الاستقلال هي أن المسلمين لعبوا في هذا الصراع دوراً كبيراً ، وقدموا أعظم التضحيات في وقوفهم ضد البرتغال وهولندا وانجلترا واليابان ، ثم في وقوفهم ضد الحلفاء • وقدم المسلمون ضحايا كثيرة في صراع إندونيسيا ضد الشيوعيين بعد الاستقلال ، ومرة أخرى لقد كان الإسلام مركزاً تجتمع حوله المناضلون حتى كسبوا النصر •

وكان للإسلام دور آخر في هذا الصراع وذلك عن طريق التأييد

المتصل الذى قامت به الدول العربية والإسلامية لإندونيسيا الشقيقة
المجاهدة ، وقد أعدت هذه الدول دورها خير أداء ، فكانت مصر أول
دولة تعترف باستقلال إندونيسيا ، وترسل مندوبها إلى جوکجا كارتا
عاصمة الجمهورية ليعلن هذا الاعتراف وليكون أول سفير لدى الدولة
الجديدة ، كما رفضت الباكستان — كما ذكرنا من قبل — تقديم أية
تسهيلات للقوى الهولندية التى كانت تتجه عن طريقها إلى إندونيسيا •

عهد الاستقلال

برز في عهد الاستقلال قيام الأحزاب لإدارة شئون البلاد ، ومن أهم الأحزاب التي عرفها ذلك العهد :

- حزب الماشومي
 - حزب نهضة العلماء
 - الحزب الوطني
 - بعض الأحزاب المسيحية
 - الحزب الشيوعي الإندونيسي
- وينبغي أن نقول كلمة عن حزب الماشومي والحزب الشيوعي الإندونيسي •

وفيما يتعلق بالحزب الماشومي نذكر أن هذا الحزب امتداد أو بديل لما كان يسمى (مجلس شوري مسلمي إندونيسيا) وكان هذا المجلس يباشر الأعمال الدينية ولما تمَّ الاستقلال عقد المجلس مؤتمره في نوفمبر سنة ١٩٤٥ بمدينة جوكاكرتا واتخذ عدة قرارات من أهمها أن يصبح المجلس حزبا سياسيا يعبر عن آراء المسلمين بأندونيسيا ، وأصبح هذا الحزب قوة هائلة تمثل صوت إندونيسيا بوضوح وكان له لجان وممثلون في جميع نواحي إندونيسيا •

أما الحزب الشيوعي الإندونيسي فهو امتداد لحزب شيوعي بدأ في عهد الاستعمار الهولندي بتأييد هولندا وتخطيطها ، وسبب ذلك أن الإستعمار الهولندي لاحظ إقبال الناس على الاسلام وحماسهم لهذا الدين واهتمامهم بالعلماء والدعاة ونصح المستشارون الهولنديون حكومتهم بأن الوسيلة الوحيدة لتقابل حماس الإندونيسيين للإسلام هي بذل الشيوعية بينهم ، والحديث عن حق الشعوب في التطور ، وإشاعة الحركات الهدامة والشكوك ، وإثارة الجدل حول الخلافات المذهبية ،

وغير ذلك ، من الأمور ، ومن أبرز ما قدّمه المستشارون الهولنديون إبراز التيار القومي في مواجهة التيار الديني الذي قد يقود إلى أن تفقد إندونيسيا قوميتها وتتماع في الخلافة الإسلامية التركية التي كانت موجودة آنذاك .

وتأييداً لذلك لم تنفع السلطات الهولندية بالأفكار ، وإنما استقدمت بعض الشيوعيين الهولنديين لتكوين تجمع شيوعي في إندونيسيا وقدّمت لهم السلطات الهولندية تسهيلات واسعة (١) وبدأ بذلك الحزب الشيوعي .

سوكارنو وحزب الماشومي :

في كثير من الأحوال تتصارع قوتان عسكريتان أو سياسيتان وتكون النتيجة التي لا مفر منها أن تضعف القوتان ، وأحيانا تسقطان جميعاً ، وقد تنتصر واحدة على الأخرى ويخدعها النصر فتسير في زهوها ولكنها تسقط أيضاً بعد ذلك . ففي مصر قام صراع بين الملك فؤاد والملك فاروق من جانب وبين حزب الوفد من الجانب الآخر وخيل للملك أنه انتصر عندما كان يصدر الإقالة تلو الإقالة لحزب الأغلبية ، ولم يكن يدري أنه يحفر قبره بيده ، فسرعان ما سقطت الملكية أيضاً .

وهذا نفسه حدث في إندونيسيا ؛ فقد قام صراع بين سوكارنو وبين حزب الماشومي ، ولم يقبل سوكارنو أن يعترف للحزب الكبير بمكانته ، وأحس أن نجاح الحزب ضياع له ، ولم يقبل الحزب طبعاً أن يتنازل عن حقوق الشعب وأن يسلم الزمام لسوكارنو ، ففي ذلك ديكتاتورية سافرة ، وطال الصراع وامتد ، واحتضن سوكارنو الحزب الوطني الاندونيسي ليضرب حزب الماشومي ، وعارض سوكارنو توصيات نائبه الدكتور محمد كتيّ ، واتخذ قرارات لم يوافق عليها النائب ، فاستقال النائب في ديسمبر سنة ١٩٥٦ وأراد سوكارنو أن يتخذ له حليفاً أقوى من الحزب الوطني فلجأ إلى الحزب الشيوعي

(١) محمد أسد شهاب : صفحات من تاريخ اندونيسيا المعاصرة ص ٤٤ .

وناصره وانتصر به كما لجأ إلى أحزاب الأقلية وحقق سوكارنو بذلك نجاحاً مؤقتاً ولكن سوكارنو كان كملوك مصر المتأخرين يحفر قبره بيده ، فسرعان ما سقط هو أيضاً كما سنرى فيما بعد .

سوكارنو والحزب الشيوعي :

قلنا من قبل إن سوكارنو كان يخاف المسلمين على نفسه ، ويعتقد أن نجاحهم سقوط له ، وأنه استعان بالشيوعيين ليحقق بهم النصر ، وقد وصل الأمر بسوكارنو أن أسند إلى أحد الشيوعيين تأليف الوزارة وهو « أمير شريف الدين » فألف هذا الوزارة واحتفظ لنفسه — بالاضافة الى رئاسة الوزراء — بوزارة الدفاع ليتمكن من السيطرة على جيش البلاد ، وقد استمرت هذه الوزارة عدة شهور (من يونيو ١٩٤٧ إلى يناير ١٩٤٨) وقد ثارت الجماهير والصحافة عليها فلم يطل عهدها وأصدر محمد حتى نائب رئيس الجمهورية (وكان قائماً بعمل الرئيس آنذاك) قراراً بحل هذه الوزارة وقام هو بتشكيل الوزارة تحت رئاسته .

مؤامرات شيوعية :

وعندما فشل الشيوعيون في أملهم بحكم البلاد لجئوا إلى الاتجاهات السرية التي هي دأب الفكر الشيوعي ، وقد وصلوا إلى القمة في مؤامرتين خطيرتين : إحداهما في « ماديون » بجاوة الشرقية سنة ١٩٤٨ أى قبل ذهابي لإندونيسيا بعدة سنوات ، والأخرى في سنة ١٩٦٥ أى بعد عودتي ، ولكنني كنت حريصاً على التعرف على مدى النشاط الشيوعي بإندونيسيا ، وقد زرت ماديون عندما ذهبت إلى إندونيسيا ورأيت بعيني بعض آثار التخريب التي تركها الإندونيسيون تحكى قصة هذا العمل الإجرامى كما استمعت لعشرات من الناس يروون أحداث هذه الأيام الحالكة السواد .

أما الثورة الثانية فقد استمعت لحديث مفصل عنها من المرحوم الأستاذ عبد القهار مذكر ، وقد زارنى في القاهرة عقب هذه الأحداث ،

ورواها لى وقلبه يعتصر ، ودমেه يندفع ، وصوته يتهدج ، ثم استمعت
لقصتها التى لاتزال حية عندما زرت إندونيسيا سنة ١٩٨١ •

وأنا هنا أروى خلاصة هاتين المؤامرتين :

مؤامرة ماديون :

« ماديون » مدينة من مدن جاوه الشرقية ، كانت مركزا لنشاط
الشيوعيين ، وفى صبيحة ١٩ سبتمبر سنة ١٩٤٨ استولى الشيوعيون على
الإذاعة المحلية بهذه المدينة ، واذاعوا منها قرارات كانوا قد أعدوها
بليل ، وهى قرارات خطيرة تعلن عن قيام حكومة شيوعية بإندونيسيا تبدأ
من « ماديون » وحددت الإذاعة أسماء الوزراء برياسة أمير شريف الدين
سالف الذكر ، واتخذت شعارها « من ماديون يبدأ النصر » وألقى
أمير شريف الدين من الإذاعة برنامج وزارته فى القضاء على المعارضين
والإمبريالية وإقامة اتحاد مع الاتحاد السوفييتى •

واتجهت هذه الثورة الكافرة الى التدمير ، فكم أزهقت من أرواح
وسلبت من أموال ، فقد جعلت كل مال لا يملكه شيوعى حقا للشيوعيين
وأهدرت دماء غير الشيوعيين ، وقد ثبت أن قادة هذه المؤامرة الدموية
كانوا قد استولوا على مبالغ كبيرة من الأحزاب الشيوعية العالمية •

وحمل المسلمون عبء المقاومة وحماية البلاد والعباد من طغيان
من لا يراعون حرمة ولا يحافظون على قِيم ، وأمر نائب الرئيس محمد
حتى أن يتحرك الجيش الإندونيسى للمقاومة وإعادة الأمن للبلاد ،
وتحرك الجيش بقيادة القائد العظيم المسلم « الفريق أول عبد الحارس
ناسوتيون » ففضى على هذه الثورة الحمراء بعد أن قدمت هذه المنطقة
عددا هائلا من الضحايا من الرجال والنساء والأطفال ، وبعد أن أكلت
النيران مقدارا كبيرا من الثراء الإندونيسى ، وكان أكثر القتلى من علماء

المنطقة الذين كانت أفكارهم الإسلامية تزلزل حياة الباطل وتهز قاعدة
الشيوعيين •

ومما يسجله التاريخ أن سوكارنو ألقى بيانا عقب هذه الأحداث
نسب الاضطراب في ماديون إلى أسباب اقتصادية ، وحاول أن يدافع
بشكل غير مباشر عن هؤلاء القتلة والمخربين (١) •

مؤامرة الشيوعيين ضد الجنرالات :

حدثت هذه المؤامرة في سبتمبر سنة ١٩٦٥ ، والحديث عن هذه
المؤامرة يحتاج إلى بعض مقدمات ، فمنذ سنة ١٩٥٨ وسوكارنو يزيّد
اتجاهه للييسار ، يقرّب الشيوعيين ويستبعد المسلمين ، مما أدى إلى
اجتماع النائرين عليه فيما سُمي « ديوان الكفاح » برئاسة الضابط
أحمد حسين ، وطالب هذا الديوان أن تُسند الوزارة إلى محمد حتى ،
وأن تعود البلاد إلى حكم الدستور ، ولكن سوكارنو رفض هذه المطالب ،
وأصدر الأمر باعتقال زعماء هذه الحركة ، وترتب على ذلك أن أعلن أحمد
حسين وزملاؤه الثورة على سوكارنو في ١٥ فبراير ١٩٥٨ واتخذ الثوار
من « بادان » مركزاً لهم ، وألفت الثورة حكومة ثورية برئاسة
شفر الدين ، وكان رد سوكارنو على ذلك أن هاجم هذه المناطق بالطائرات
فسقط الكثيرون من المواطنين وارتفع الخلاف بذلك إلى القمة بين سوكارنو
والشيوعيين من جانب ، وبين المسلمين من جانب آخر ، ويعبر العالم
المسلم « همكا » عن إحساس سوكارنو بقوله : إن سوكارنو مستعد للتعاقد
مع الشياطين ليقهر المسلمين •

وفي هذا السبيل خطا سوكارنو خطوة أخرى هي أن أصدر سنة
١٩٦٠ قراراً بحل حزب الماشومي ، وعندما اختفى حزب الماشومي أصبح
الخطر الذي يواجه سوكارنو والشيوعيين متمثلاً في الجيش وبخاصة

(١) محمد اسد شهاب : صفحات من تاريخ اندونيسيا المعاصرة ص ٦٢ •

في قياداته التي وقفت موقفاً حاسماً ضد الزدياد نشاط الشيوعيين الذي اكتسح الساحة بعد اختفاء حزب الماشومي ، ولهذا اتجه الشيوعيون لتدبير مؤامرة للقضاء على جنرالات الجيش ، وبدأ بذلك الإعداد لهذه المؤامرة ، وتعاون سوكارنو مع الشيوعيين لإنجاح هذه الخطة ضد الجنرالات ، فعيّن كثيراً من الشيوعيين في القوات المسلحة وعلى رأسهم عمرواني الذي عين قائداً عاماً للقوات الجوية وألدركت القوات المسلحة هذا الخطر فوقفت برياسة الفريق أول عبد الحارس ناسوتيون ترقب بحذر هذا الاتجاه .

وبدأ الشيوعيون في مهاجمة القوات المسلحة في صحفهم ، واعتبروا هذه القوات غير مخلصة للبلاد وللزعيم ، فتصدت لها القوات المسلحة ، وأمرت بإلقاء القبض على زعماء الشيوعيين سنة ١٩٦٠ .

ووقف سوكارنو في حيرة ، فقد كانت هزيمة الشيوعيين معناها هزيمته هو ، ولذلك عارض أوامر الجيش ، واعتبر مثل هذه الأوامر من اختصاصه هو ، وتأزمت الأمور بين الجيش وبين سوكارنو ، وأصبح التخلص من الجنرالات هدفاً رئيسياً للشيوعيين .

واتخذ الحزب الشيوعي قراراً سرياً لانقلاب ضد هؤلاء الجنرالات والتخلص منهم ، وزاد نشاط « أيديت » الزعيم الشيوعي لتهيئة الجو للحركة المنتظرة .

حركة الاغتيالات :

وقد حدد لهذه الحركة فجر أول أكتوبر سنة ١٩٦٥ وقد وُضعت الخطة على أن يُغتال الجنرالات السبعة في بيوتهم ، وكان هؤلاء الجنرالات هم قادة القوات المسلحة ، وقد استطاع الشيوعيون النجاح في هذه الحركة فقتلوا ستة من الجنرالات السبعة ، ولم ينج إلا واحد فقط هو الجنرال عبد الحارس ناسوتيون القائد العام للقوات المسلحة الذي استطاع بحيلة باهرة أن ينجو من حصارهم حول بيته .

واندفع مع وحدة من وحدات الجيش المعارضة للشيوعية ، والتي كان يقودها سوهارتو إلى المقاومة ، وسرعان ما انتصر هذان الزعيمان ، وتمكنا من السيطرة على البلاد والقضاء على عدد كبير من الشيوعيين •

وأعلن سوكارنو انحيازه ضد قادة الجيش ، فحاول عزل سوهارتو ، ومنع تحريك القوات المسلحة إلاّ بأمر منه ، وهنا أعلنت القوات المسلحة عصيانها لأوامره ، وبدأت تتخذ قرارات ضد اتجاه سوكارنو ، بل اتجهت لحل الحزب الشيوعي سنة ١٩٦٦ ، كما اتجهت لتصفية الشيوعيين تصفية نهائية لخيانتهم ، فلقى معظم الشيوعيين حتفهم ومنهم قائدهم « ايديت » سالف الذكر •

وبانتهاء الشيوعيين بإندونيسيا اتجه نجم سوكارنو للأفول •

زيجات سوكارنو :

هناك كلمة ضرورية نقدم بها الحديث عن زيجات الرئيس سوكارنو ، تلك أنني أحرص على عدم ذكر الأمور الشخصية ، ولكن زواج سوكارنو الأخير كانت له علاقات بالحياة الاجتماعية والاقتصادية لإندونيسيا ، ومن هنا فإنني أتحدث عن هذا الموضوع مقتبسا أكثر ما ورد من : Datus Smith

تزوج سوكارنو خمس مرات ، وكانت أولى زوجاته تدعى (سيتين) وهي ابنة جوكرو امينوتو أحد كبار الإندونيسيين وانتهى هذا الزواج بالطلاق ، أما الزواج الثانى : فكان بأرملة غنية قابلها سوكارنو عندما كان يدرس في باندونج ، وعاش معها حياة سعيدة استمرت عشرين عاما دون أن ينجب منها أطفالا • وبعدها تزوج « فاطمة واتى » وكانت بنتا ريفية جميلة ذكية ، وقد أصبحت بعد الزواج امرأة كاملة ذات رشاقة وورزانة وخبرة سياسية ، وتفان في سبيل الواجبات الاجتماعية • ولكنها أهملت سوكارنو كزوج ، فلم تلاحظه ، ولم تدله كما فعلت هارتينى زوجته الرابعة وقد أدى ذلك إلى فتور حبه لها فطلبت منه الطلاق ، ولكنه

أبى . . . لانه لازال يحبها ويحتاج اليها . وقد انجب منها خمسة أولاد (١) .

وتزوج سوكارنو في أواخر أيامه زوجة يابانية اسمها (راتناديوى) وكانت في مطلع شبابها ، وهو يتجه للشيخوخة ، وقد جلبت عليه كثيرا من السخط لأن الرجل الشيخ حاول أن يسعد الزوجة الشابة ، وجعل المال وسيلة لذلك ، فأغدق عليها من مال الشعب الذى كان يواجه كثيرا من الحرمان .

تعريف ببعض الشخصيات الإندونيسية المهمة

وبمناسبة الحديث عن سوكارنو ينبغى أن نتكلم كلمة عن شخصيات إندونيسية عظيمة لعبت دوراً خطيراً لخدمة إندونيسيا وإعدادها للاستقلال .

وأول هذه الشخصيات هو الرئيس سوكارنو الذى سردنا بعض تصرفاته فيما سبق ، ولكن نقدنا له لا يجعلنا نغضى الطرف عن حسناته وجهوده لخدمة البلاد ، وبخاصة في فترة الصراع ، ويقول عنه Datus Smith (٢) ما يلى :

ان الرئيس سوكارنو له شهرة هو جدير بها بأنه من أعظم سحرة الجماهير في العالم الحديث ، وهو دائما أنيق الثياب ، عليه سيما القوة والاندفاع ، مع ابتسامة جذابه ، وله قوة تكاد تكون سحرية وتأثير عجيب في حديثه للجماهير ، وقد ولد ليكون أستاذاً للاجتماعات والحفلات ، وفي بهجة ونشاط يقبل أية فرصة ليكون منظماً لاجتماع أو حفلة غناء أو حفلة رقص شعبي أو ثورة . وهو — على أنه رئيس جمهورية — يفضل أن يدعى « بُنج كارنو » وكلمة « بُنج » معناها أخ ، وتستعمل لدعوة خدم المطاعم أو أمثالهم ، وصارت رمزاً للمساواة في أثناء الثورة .

وفي أثناء أطول زيارة له للولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٥٦ كانت شخصيته الجذابة تكسب الأصدقاء في كل مكان ،

The Land and Peoples of Indonesia p. 78. (١)

Ibid pp. 133-134. (٢)

ويقول خصومه انه كان مثيراً للغوغاء ، وباحثاً عن السلطة بالتأثير في الجماهير ، ويرى المعجبون به أنه عبّر حقاً عن آراء الشعب وآماله ، وأنصاره على كل حال هم جمهرة الشعب أكثر من الاندونيسيين الذين تثقفوا في الغرب ،

ومهما تكن نتائج السياسة التي اتبعها سوكارنو فيما بعد ، فيجب ألا ننسى أنه الرجل الذي عمل أكثر من أي إنسان آخر على ضم أجزاء الوطن ، وقاده في خطوب الثورة ، وأنه هزم المستعمرين الهولنديين ، وحافظ على إندونيسيا دولة مستقلة .

وفي كلمة موجزة يقول عنه أحد الصحفيين الاندونيسيين إن سوكارنو أعظم شخصية عندهم ، وهو مع ذلك أكبر مشاكلهم (١) .

وننتقل الآن إلى الدكتور محمد حتّي وهو مثال المتعلم المثقف ، منطقي في تفكيره ، وله تأثير كبير في المثقفين ، وكان شريك سوكارنو من مدة طويلة في الثورة ، وكان زميلاً متآلفاً معه ، وكانا معاً هما البطلين الأساسيين لحركة الاستقلال ، وقد عمل « حتّي » وهو طالب جامعي في هولندا على تأليف جمعية الاستقلال الإندونيسى ، وبعد اعتقال الهولنديين لسوكارنو عاد « حتّي » إلى جزر الهند في سنة ١٩٣٢ ، وتولى إدارة حركة الحرية وصار نشاطه رأس الحركة وقلبها ، واعتقل هو بعد ذلك بسنتين وظل معتقلاً ثمانى سنوات ، أولاً في مركز ناء من جزيرة غينيا الجديدة يقع في الغابة ، ثم في إحدى جزر باندا .

وكان سوكارنو وحتّي متزاملين في أثناء الثورة والأيام الأولى من الجمهورية حتى صار يجمع بين اسمها فقال « سوكارنو - حتّي » في التعبير ، حتى كأنهما اسم واحد كما ذكرنا من قبل ، وأصبح « حتّي » نائب رئيس الجمهورية ، وأحياناً رئيس الوزارة ، وكان العامل الأساسى في توجيه السياسة الوطنية في لحظات حرجة كثيرة ، وقد استقال من منصب نائب رئيس الجمهورية سنة ١٩٥٦ ، وانتقد سوكارنو علناً

في بعض الإجراءات في السنوات الأخيرة ، وهذه القطيعة بين الزعيمين
الكبيرين كانت مصدر حزن للكثيرين من الاندونيسيين •

ومن الزعماء كذلك حاجي عجوز سالم • ويسمونه أحيانا « أبا
الاستقلال الاندونيسي » وكان متيقظاً لكل اتجاه جديد في الدراسات
العالمية ، وقد ألقى محاضرات في عدد من الجامعات وكان الكثيرون من
الذين يعرفونه في العالم يلقبونه بالسيد « إندونيسيا » • وكان يجمع
بين الحضارة الحديثة والتقوى في موقفه نحو الديانة الإسلامية • وقد
ساعد على حماية الفرع الإسلامي من حركة الاستقلال من الوقوع
في الشيوعية ، فهو بجسده الضئيل ووجهه الذكي المرح كان يمثل صفات
الذكاء مع النزاهة ، وهي صفات يقدرها جميع الاندونيسيين ، وقد شغل
منصب وزير الخارجية عدة مرات ومثل بلاده خير تمثيل أمام العالم •

وقد عاشت بعض أفراد من أسرته ، ورأيت فيهم دماء الخلق
وسماحة النفس ، والذكاء والصفاء ، فكانوا من أهم الأسباب التي
يسرّت حياتي باندونيسيا ، وكانوا امتدادا ناصعا الأرومة عجوز سالم
الطيبة •

ومن الشخصيات العظيمة التي زادت عظمة وجلالا إبان حركة
الاستقلال سلطان جوكجاكرتا ، وقد عرفته عن قرب خلال عملي
بالجامعة الإسلامية بجوكجاكرتا ، وكان هو الذي مثّل الجمهورية في
الاحتفال بتسلم السيادة من هولندا واسمه الملكي هيمنجكوبونو التاسع ،
وكانت خدماته العامة قد جعلت منه بطلا وطنيا بالرغم من عدا
الجمهورية للملوك •

وهذا السلطان من نسل سلسلة طويلة من الملوك الاندونيسيين ،
ونشأ تحت تقاليد الحكم الاستبدادي (لا يخضع إلا لمواثقة الهولنديين

وحدهم) ، ولكنه برهن على تشبثه بقواعد الديمقراطية • وبينما كان بعض الملوك الآخرين في وقت ما يدبرون مع الهولنديين للقضاء على الثورة ليستعيدوا عروشهم كان سلطان جوجاكرتا يضع في شجاعة خطة مع الجمهورية ، ورفض أية مناقشة مع الهولنديين إلا في جلائهم عن البلاد •

وفي أثناء الحملات العسكرية للهولنديين كان السلطان يعمل بصفة كولونيل في الجيش الوطني الإندونيسي ، ثم عمل فيما بعد وزيراً للدفاع ونائب رئيس وزراء في وزارة أخرى ، وهو يهتم اهتماماً خاصاً بمشكلات الشباب ، ومن خدماته أنه زعيم لحركة الرواد ، وهو راعي الثقافة بمدينة الجامعات « جوكجاكرتا » وهو موضع تقدير كل الطوائف وبخاصة طوائف المفكرين •

ومن النساء الإندونيسيات اللاتي لعبن دوراً مهماً في تثقيف المرأة الإندونيسية ورفع مستواها الاجتماعي أميرة صغيرة جاوية اسمها كارتيني توفيت سنة ١٩٠٤ ولها من العمر خمس وعشرون سنة ، وقد بدأت في مطلع شبابها تنادي بحقوق المرأة ، فأشعلت بذلك ثورة حقيقية ، وكانت من أظرف وأتقى البطلات المثقفات وقد أرادت لنفسها وغيرها من نساء إندونيسيا الحق في أن يقمن بدور نشيط في الأعمال العالمية •

وقد تمكنت من أن تحصل على تعليم واف ، ثم بدأت افتتح مدرسة للبنات ، ثم تلتها فيما بعد بافتتاح مدرسة أخرى في بيتها الجديد عندما تزوجت أميراً في رمانج •

ونُشرت رسائل كارتيني باللغة الهولندية سنة ١٩١١ ، وصار الكتاب أساس الحركة النسائية في إندونيسيا ، وصدر الكتاب في طبعة أمريكية سنة ١٩٢٠ تحت عنوان « رسائل أميرة من جاوه » ، وافتتحت مدرسة للبنات سنة ١٩١٢ إحياء لذكرى كارتيني ، ويحتفل في ٢١ من أبريل من

كل سنة بيوم كارتينى وهو ذكرى مولدها فى جميع أنحاء البلاد ، ولقد صدقت صحيفة إندونيسية حين كتبت عنها سنة ١٩٦٠ تقول « بفضلها رأت النساء بإندونيسيا النور » (١) •

ولقد رأيت مئات الطالبات فى الجامعات والمعاهد الإندونيسية التى علّمت فيها ، وكنّ جميعاً جديرات بالثناء والتقدير لما امترن به من خلق وعلم وظرف وإقبال ، تلقينه عن جيل كارتينى •

من سوكارنو إلى سوهارتو

قرار نقل السلطة (تعليمات) :

أصبح واضحاً بعد المؤامرة التى تحدثنا عنها من قبل أن رئاسة سوكارنو للدولة لم تعد مرغوباً فيها ، كما أن سوكارنو قد فقد كل أعوانه بعد أن قضى الجيش على الشيوعيين بالبلاد ، وفى ضوء هذا الواقع اضطرّ سوكارنو أن يصدر قراراً فى رسالة سميت « تعليمات » بتاريخ ١١ مارس ١٩٦٦ ، وهذه الرسالة تحرك السلطة من يده إلى يد سوهارتو ، فقد تمّ بها تعيين سوهارتو وزيراً للدفاع وقائداً عاماً للقوات البرية ، وأعطى سوهارتو الحق فى اتخاذ الإجراءات اللازمة لتأمين السلامة والأمن والاستقرار للبلاد •

وبهذه الرسالة انتقلت السلطة الفعلية من يد سوكارنو إلى يد سوهارتو ، وبقي سوكارنو رئيساً بدون سلطة •

واتخذ سوهارتو قرارات سريعة أشرنا لأهمها فيما سبق وهو القضاء على الحزب الشيوعى ، ثم القبض على من تبقى من الشيوعيين وعلى أنصارهم من الوزراء والمسؤولين ، وكذلك القبض على مؤيدى سوكارنو ، وقد لقيت هذه الاتجاهات تأييداً واسعاً لدى الجماهير •

وفى ٢٧ مارس ١٩٦٨ أصدر المجلس الاستشارى المؤقت قراراً بتعيين سوهارتو رئيساً للجمهورية ، وحلف سوهارتو اليمين الدستورية ،

(١) اقتباسات بتصرف من عدة صفحات من كتاب :

وانزوى سوكارنو إلى الظل حتى مات في ٢١ يونيو سنة ١٩٧٠ •

وقد خُلف سوكارنو تاريخاً غير نقي* ؛ فقد أظهرت التحقيقات التي أعلنها المدعى العام أن سوكارنو رصد لحسابه في بنك طوكيو مبلغ مليونين ونصف مليون من الدولارات الأمريكية ، وأن «سوبندريو» الرجل الثاني بعده رصد لحسابه مبلغ ٩٢ ألف دولار في بنوك سويسرا ، وأن الوزير « خير صالح » رصد لنفسه مبلغ ١٦ مليون دولار ، وقد انتحر هذا في السجن قبل تقديمه للمحاكمة (١) ، ولم ينتفع هؤلاء بما سرقوا وإنما تركوا اللعنات مُصَبَّ عليهم من الشعب الذي عانى الحاجة وهم يكتزون الذهب والفضة ، بل إننا نصب اللعنات على كل من سار في هذا الطريق من الزعماء الذين يخونون شعوبهم •

وإذا كان هذا هو كل ما عرف عن الرصيد المسروق فإن الوثائق تقرر أن سوكارنو أنفق نفقات باهظة على رحلاته وبخاصة إلى اليابان حيث تزوج زوجته الأخيرة (راثنا ديوى) كما كانت هذه الزوجة تنفق عشرات الآلاف من الدولارات لرحلاتها التي تشتري فيها ملابسها وأدوات الزينة الخاصة بها من باريس (٢) •

وأمثال سوكارنو في العالم كثيرون ، ولكن كثيراً من أسرارهم لم يُكشَف بعد •

(١) محمد أسد شهاب : صفحات من تاريخ اندونيسيا المعاصرة ص ١٥٤ •

(٢) المرجع السابق ص ١٥٤ — ١٥٥ •

عهد سوهارتو

كانت القوات المسلحة وعلى رأسها القوات البرية قد أقامت تجمعا ضد اتجاهات سوكارنو ، وُسِمِيَّ هذا التجمع « جولكار » أي الفئة العاملة ، وبتحول السلطة إلى سوهارتو اعتبر هذا حزبا ينال تأييد الحكومة والسلطة ، وعندما أجريت الانتخابات سنة ١٩٧١ دخلتها أربعة أحزاب إسلامية كما دخلتها ستة أحزاب أخرى ، ومنها حزب جولكار ، وقد نال هذا الحزب الأغلبية الساحقة في هذه الانتخابات ، وجاءت الأحزاب الإسلامية تالية له ، ثم جاءت الأحزاب الأخرى ولم يدخل حزب الماشومي هذه الانتخابات إذ ظلّ محظورا منذ أن أوقف سوكارنو نشاطه سنة ١٩٦٥ .

وفي جلسة المجلس الاستشاري في المدة من ١٢ إلى ٢٤ مارس ١٩٧٣ قرر المجلس تعيين الفريق أول سوهارتو للمرة الثانية رئيسا للدولة مدة خمسة أعوام . ثم جدد تعيينه للمرة الثالثة عقب الانتخابات العامة التي تمت سنة ١٩٧٧ ، وفي هذه المرة تمّ تعيين آدم مالك نائبا لرئيس الجمهورية .

وفي الانتخابات التي أجريت في مايو سنة ١٩٨٢ حصل حزب « جولكار » على الأغلبية أيضا ، وُجِدَّ كذلك تعيين سوهارتو رئيسا للجمهورية .

وقد اتجهت الأحزاب الإسلامية إلى الاتحاد لتمكن لنفسها في هذه الانتخابات ، ولكن الحزب الإسلامي واسع النفوذ في إندونيسيا وهو حزب « الماشومي » لم يدخل الانتخابات لأنه لا يزال محظورا وجوؤه .

ويرى المطلعون أن التعاون بين الأحزاب الإسلامية وبين قوى الجيش هو الضمان الوحيد للاستقرار في إندونيسيا ، وقد وقف سوهارتو موقفا وطنيا يستحق الإعجاب والتقدير لنزاهته وكفائته ،



الرئيس سوهارتو

الرجل الذى انتقذ إندونيسيا من مخالب الشيوعية ، ونقل البلاد
من الفوضى إلى الاستقرار ، ومن الكساد إلى الرخاء •

ولأنه أتاح لإندونيسيا عهداً من الاستقرار لم تعرفه أكثر دول العالم الثالث ، وحقق — كما شهد بذلك البنك الدولي — منجزات اقتصادية واضحة .

الانتخابات الأخيرة في نظر المعلقين السياسيين :

وقد نشرت الصحف المصرية (١) تقريراً عن الجولة الانتخابية الأخيرة ، وقد جاء في هذا التقرير معلومات مهمة ، وعلى هذا فلا بأس من اقتباس بعض سطور من هذا التقرير .

هناك مثل انجليزى يقول « لا وطنية مع معدة خالية » وهذا صحيح فلا ينتظر حاكم ، أو حكومة ، أو حزب سياسى ، ولاءً أو وطنية من شعب يعانى من كساد اقتصادى أو اضطراب سياسى ، أما إذا استقرت الأوضاع السياسية ، وزاد الدخل القومى ، وارتفع مستوى المعيشة ، وتحقق الرخاء فى البلاد ، فعندئذ يتجه المواطنون إزاء هذا ليقولوا « نعم » للحزب الذى حقق كل هذا ، والرجل الذى يرأس هذا الحزب .

وهذا ما حدث فى إندونيسيا ، فقد كانت البلاد تعاني من فقر واضح واضطرابات سياسية فى مرحلة ما بعد الاستقلال ، وعندما تولى الرئيس سوهارتو السلطة استطاع حزبه (جولكار) على مدى خمسة عشر عاماً أن يحول الفوضى إلى استقرار ، والكساد إلى رخاء ، بل يعترف زعماء المعارضة أنفسهم بفضل سوهارتو ولذلك فاز فى الانتخابات الأخيرة التى كانت أشبه « بمهرجان ديمقراطى » على حد تعبير المتحدث باسم الحكومة : ويتضح هذا المهرجان من مشاهدة الملايين من الإندونيسيين الذين امتلأت بهم شوارع العاصمة الإندونيسية (جاكارتا) وهم فى طريقهم إلى صناديق الاقتراع .

كانت التكهانات تجمع على فوز حزب « جولكار » الحاكم وكان السؤال الوحيد الذى تردد هو كم عدد المقاعد البرلمانية التى سيحصل

(١) انظر صحيفة الاخبار فى ١٨/٥/١٩٨٢ .

عليها الحزب ، وعدد الأصوات التي سيفوز بها ؟ وجاء الجواب بعد إعلان النتائج إذ فاز حزب (جولكار) بـ ٦٤ ٪ من الأصوات الانتخابية وبذلك استطاع أنصار سوهارتو أن يسيطروا على البرلمان الذي كان أول ما فعله إعادة انتخابه رئيساً للفترة الرابعة •

وليس معنى هذا أن الحملة الانتخابية خلت من حوادث الغضب والعنف ، ولكن كانت هناك حقيقة أكيدة مؤيدة بالأرقام اعترف بها المؤيدون والمعارضون على السواء ، هذه الحقيقة هي أن الحزب الفائز حقق للبلاد قدراً لم يسبق له مثيل من الرخاء ، ففي عهد سوهارتو اختفت معالم الفقر الذي كان منتشرًا من قبل ، كما زاد إنتاج الأرز في بعض القرى بنسبة ٥٠ ٪ في السنوات الخمس الماضية ، وعملت النساء في المصانع ، وارتفعت أجور العمال الزراعيين ، وانخفضت نسبة التضخم ، وبلغ الدخل السنوي من البترول ١٧ بليون دولار ساعدت في مشروعات التنمية ؛ في تحسين الصحة والتعليم والرى والقوى الكهربائية ، ووسط هذا الازدهار والرخاء ضاعت أو ضعفت أصوات اليمينيين والمتطرفين ، وأثبت الرئيس سوهارتو أنه يحظى بتقدير شعبه ، بل إن بعض زعماء المعارضة أكدوا أن انتقاداتهم ليست موجهة إلى الرئيس وإنما « العيب في بعض المحيطين به » •

لقد بدت فرحة الفوز واضحة على وجه سوهارتو وهو يسير مع زوجته في شوارع جاكرتا •

لبيت زعماء الدول الإسلامية يتنافسون فيما يقدمون لشعوبهم من خدمات ، ففي بعض البلاد الإسلامية تمرُّ السنون دون تقدم ملموس في حياة الشعوب لأن الزعماء مشغولون بأنفسهم ، وحياة سوهارتو نموذج طيب في هذا المجال •

وفي زيارتي الأخيرة لإندونيسيا سنة ١٩٨١ لمست التطور الرائع الذي طرأ على البلاد في عهد سوهارتو ، ولا شك أن جهوداً عظيمة بذلت للوصول إلى هذه الغاية •

مع تقديرنا لهذا التطور ، والإشادة بالفرق الكبير بين عهد سوهارتو وعهد سوكارنو ، مع هذا فإننا نتطلع إلى أن ينال الإنسان الإندونيسي حقه كاملاً في إدارة شئون بلاده ، فيسمح بقيام الأحزاب الحرة ، ويسمح بالصحافة الحرة والانتخابات الحرة تماماً ، وذلك هو الطريق لزيد من السعادة والرخاء .

بقايا الشيوعيين في اندونيسيا :

قلنا من قبل إن الشيوعيين لاقوا جزاءهم عقب ثورتهم الدامية سنة ١٩٦٥ وأن عددا كبيرا منهم سقطوا إثر الثورة عليهم من الشعب والجيش ، تلك الثورة التي أريد بها الثأر للجنرالات الذين انقض عليهم الشيوعيون وقتلوهم في بيوتهم .

وسقط الزعماء الشيوعيون كلهم أو أكثرهم ، وألقى القبض على باقى الشيوعيين ، وأودعوا السجون ، ثم ناءت البلاد بتكاليف سجنهم وحراستهم ، غدفت بهم الحكومة إلى إحدى الجزر قليلة السكان بإندونيسيا ، وأطلقت الحكومة لهم العنان ليقيموا مجتمعهم الشيوعى في هذه الجزيرة كما يشاءون ، وبعثت لهم بزوجاتهم وأولادهم

ومرت الأيام وظهر الفشل واضحا في هذا التجمع الشيوعى ، فالشيوعيون بين برجوازيين يخدعون الناس ويعيشون عيشة الأباطرة وبين مجموعة من البسطاء السذج الذين يصدّقون ما يُقال لهم عن جنة الشيوعيين ، ولم يجد هؤلاء ولا أولئك جنة في هذه الجزيرة التى تحتاج الحياة فيها إلى الكدح وهم لا يريدون الكدح وانما يتجهون للحصول ببسر على حياة المترفين .

وعندما اتضح فشل هذا التجمع جأروا بالشكوى وقابوا وأنابوا حتى يسمح لهم بمغادرة هذا السجن الذى لم تكن له أسوار .

لمحات حضارية عن اندونيسيا

مكانة اندونيسيا في جنوب شرقى آسيا :

يشتهرون العالم الإسلامى بطائر ضخيم ، تمثل الجزيرة العربية جسمه ، وتمثل إيران وأفغانستان وباكستان وماليزيا واندونيسيا جناحه الأيمن ، وتمثل مصر ودول شمالى افريقية جناحه الأيسر ، ولا نزاع أن اندونيسيا بتعدادها وموقعها جزء مهم في الجناح الأيمن •

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فانه إذا كان الأزهر الشريف يجذب الطلاب المسلمين من مختلف أنحاء العالم الإسلامى للدراسة به ، فان المعاهد الاسلامية باندونيسيا هي «أزهر» جنوب شرقى آسيا، فالذى يعسر عليه أن يحضر لمصر من تايلاند وبورما وسنغافوره والفيليبين فانه يجد طريقه إلى اندونيسيا حيث لا يحس هؤلاء هناك بغربة وحيث يستطيعون أن ينالوا العلم والقوت بسهولة ويسر •

ومن هنا تتضح لنا أهمية إندونيسيا من الناحية الدينية

البائشاسيلا :

فإذا اتجهنا للتعرف على بعض الجوانب الحضارية في مجال السياسة ، فإننا تواجهنا (المبادئ الخمسة) التى تسمى باللغة الإندونيسية (البائشاسيلا) وتحتوى هذه المبادئ على الأسس الخمسة الرئيسية التى ينبغى أن تحكم بها الحياة في إندونيسيا ، وهى تشمل :

١ — الإيمان بالله الواحد الأحد •

٢ — الإيمان بالإنسانية والجانب الإنسانى •

٣ — الحرص على القومية الإندونيسية •

٤ — الديمقراطية •

٥ — العدالة الاجتماعية •

والمبادئ براقعة كما نرى ، ولكنها في كثير من الأحوال كانت اسماً بدون مسمى ، وكلمات تجاهل الرسميون مغزاها ومعناها •

ولم يقنع المسلمون بالمبدأ الأول دون أن يربطوه بالإسلام ، وبأن محمداً رسول الله ولذلك صدر بيان من كبار العلماء بأن المعنى المفهوم هو الزام المسلمين بالتمسك بقواعد الإسلام •

ومن أخطر ما عانت إندونيسيا فيما يتعلق بالنظام السياسى هو الاتجاه إلى جعل الرئيس (أى رئيس) يشغل منصبه مدى الحياة ، وقد اتخذ في عهد سوكارنو قراراً بذلك ، وتكررت مرات انتخاب الرئيس سوهارتو ، مما يوحى بالسير في هذا الاتجاه ، وهو للأسف اتجاه شائع في البلاد الإسلامية ، وفي كثير من الحالات لا يقنع الرئيس بذلك ، بل يعين باختياره نائباً للرئيس ، ويحل النائب محل الرئيس عند وفاته ، وبهذا يكون النائب بدلاً لخلفه وتسير الحياة على وتيرة واحدة ، دون إعطاء أية فرصة للاختيار الحر من جانب الشعب •

أما الديمقراطية وهى أن يحكم الشعب نفسه ويختار ممثليه فينتجه ولاية الامور في العالم الإسلامى كله إلى تفسيرها لخدمة اتجاهاتهم ، وكان جمال عبد الناصر يفسرها بأنها رغيف الخبز أو وظائف الخريجين ، وهى في إندونيسيا لم يكن لها مدلول حقيقى في عهد سوكارنو •

إندونيسيا اقتصاديا :

ومن الجانب الاقتصادى نذكر أن إندونيسيا بلد زراعى يعمل أكثر سكانه في الزراعة ، ولأن إندونيسيا تقع حول خط الاستواء ، ولأنها مجموعة من الجزر وسط المحيط ، فإن موسم الأمطار طويل فيها ، ومن هنا تمثل إندونيسيا خديقة خضراء يانعة ، وهذا يساعد الزراع في عملهم ، فقل أن تروى المزارع عن طريق الأنهار ، ويكثر أن تؤدى الأمطار دور المسقى والرى لما يزرعه الزارعون •

وأهم المحاصيل في إندونيسيا هي الأرز والمطاط والشاي ، وجوز الهند والتوابل ، والتبغ ، وتكثر في إندونيسيا أشجار الموز والمانجو والأناناس والدوريان والبابايا والرمبوثن وعدد هائل من الفواكه المتعددة الأصناف والأنواع والطعوم .

وغابات إندونيسيا تكثر فيها الأخشاب الجيدة والخيزران والثروة السمكية بإندونيسيا ثروة هائلة ، فعلى شواطئ الجزر وفي البحيرات والأنهار تكثر أنواع السمك ويكثر الصيادون .

وفي إندونيسيا أنواع من المعادن من أهمها البترول والقصدير والفضة .

وتبعاً لكثرة الفضة في إندونيسيا تكثر الصناعات الفضية التي تشمل الأواني والطلاء وأدوات الزينة .

ومن الصناعات التي تشتهر بها إندونيسيا صناعة (الباتيك) ويكثر في جاوة وهو تلوين للأقمشة بشكل معين ، وتنتج إندونيسيا منه صوراً متعددة من الأنواع ، وهو ذائع الاستعمال بدرجة كبيرة بين الرجال والسيدات من كل الطوائف والطبقات .

وتصدر إندونيسيا المطاط وجوز الهند والبن والتوابل والشاي والبترول والأخشاب .

وتستورد الحديد والمنتجات الكيماوية وبعض السلع الاستهلاكية ، والآلات الكهربائية وغيرها .

وقد تحسّن ميزان المدفوعات الإندونيسي خلال عهد سوهارتو ، وأصبحت الواردات أقل من الصادرات .

الثقافة الإسلامية في إندونيسيا

الجامعات الإسلامية وعلماء الإسلام :

تعنى إندونيسيا عناية كبرى بالثقافة الإسلامية ، ومن مطلع عهد الاستقلال أقامت حكومة إندونيسيا جامعة إسلامية في مدينة « جوكاكرتا » كان لى الشرف أن عملت بها أستاذاً ست سنوات ، وفى خلال هذه المدة وافقت وزارة الشؤون الدينية على إقامة جامعة أخرى في جاكارتا (العاصمة) وأمضيت عدة سنوات أستاذاً في الجامعتين ، فكنت أمضى أسبوعين هنا وأسبوعين هناك ، وقد تشرفت بأن أسهمت في إعداد المناهج وتنظيم جدول المحاضرات والمكتبة ، وكنت أدّرس التاريخ الإسلامى وكذلك الحضارة الإسلامية ، ومقارنة الأديان بالإضافة إلى اللغة العربية ، ومناهج البحث ، وأشهد أن هذه السنوات كانت من أحب السنوات إلى نفسى لما شاهدت من خلق رفيع لدى الإندونيسيين ولإقبالهم الشديد على العلم والعلماء .

وبجانب هاتين الجامعتين كانت هناك جامعات إسلامية أهلية منتشرة في كل ربوع إندونيسيا ومدارس إسلامية كثيرة جداً لا يحيط بها عددٌ تابعة لهيئات كثيرة بالإضافة إلى المدارس الحكومية التى كانت بها عناية بالدراسات والمبادئ الإسلامية .

ووقف العلماء في إندونيسيا يذودون عن الإسلام ويدافعون عنه ، وكانوا أشبه بالفرسان يقتحمون ميدان المعرفة والفكر ، فينشرون معارفهم بين الطلاب تارة وبين الجماهير تارة أخرى ، يستعملون الكلمة المكتوبة أو الكلمة المقولة في نشاط لا يهدأ ، وإخلاص لا يتراجع ، ويواجهون الانحراف بقوة تترزّل الانحراف وتهدّد كيانه ، ويقابلون التبشير بالمسيحية بتبصرة الناس وردهم عن الاستماع لهذا الباطل .

لقد كان العلماء في إندونيسيا وسيظلون أبداً إن شاء الله جيلاً بعد جيل صخرة تتحطم عندها كل القوى المناوئة للإسلام والمثل العليا .



بروفسور همكا
(الحاج عبد الكريم أمر الله)

أحد القمم الفكرية في إندونيسيا ، وهو الذى حمل لواء الإسلام
حوالى نصف قرن متحدثا ومؤلفا ، وقد توفى سنة ١٩٨١ م
وعندما نذكره لابد أن نذكر الأساتذة الأعلام الذين حملوا معه
علم المعرفة ، وتعاونوا معى أصدق تعاون إبان إقامتى بإندونيسيا ،
ومنهم الأساتذة الأجلاء : محمد عدنان — مختار يحيى — عبد القهار مذكر
— عبد المعطى على — محمود يونس — بسطامى عبد الغنى — محمد
رشيدى — طاهر عبد المجيد — طه يحيى — قهر الدين يونس — محمد
فريد معروف — محمد سالم فخرى — محمد حسبى الصديقى
ويجىء بعدهم الجيل الذى أسهمت فى إعدادة وقد انتقل بعض هؤلاء

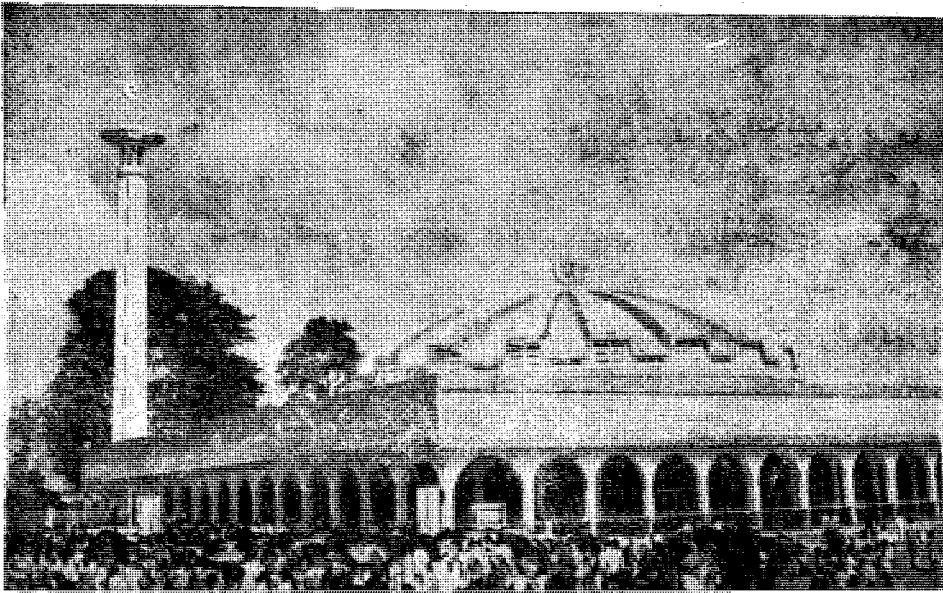
الأعلام إلى رحمة الله ، أحسن الله جزاءهم ، ولا يزال الآخرون يحملون علم المعرفة ، أطال الله في عمرهم •

الجمعية الحمديدية في مواجهة التبشير المسيحي :

منذ وضع الاستعمار الغربي أقدامه في إندونيسيا اتجه لغرس المسيحية بها ، واتخذ لذلك سبلاً متعددة أهمها الدعاية ونشر الفكر المسيحي ، ولكن الإسلام وقف حاسماً أمام انتشار المسيحية ، وتكتل المسلمون في وجه هذا الزحف الديني حتى أصبح الإسلام ديناً وقومية كما ذكرنا من قبل ، وعندما أحس المستعمار الغربي بأن النتائج التي رمى لها أصبحت عكسية ، وأن الإسلام يزيد انتشاراً في ربوع إندونيسيا لمواجهة الاستعمار والمستعمرين اتجه إلى وسيلته التي لا تتخلف ، وهي اللجوء للمدرسة والمستشفى حيث يقدم المسيحية للأطفال الذين لا وعى عندهم فيحولهم إلى المسيحية في غفلة من الآباء أو يقدم المسيحية للمرضى الذين ضعفوا عن المقاومة والذين يخشون بين المسيحية أو الطرد من المستشفى ، وعن طريق المدرسة والمستشفى ارتبط بعض الإندونيسيين بالمسيحية ، وقد ظل نشاط المسيحية حتى بعد زوال الاستعمار الغربي ، وتحقيق الاستقلال ، وربما جاز لنا أن نقول إن نشاط المسيحية زاد مع استقلال البلاد عما كان عليه قبل الاستقلال ، وذلك لأن الاستقلال أثار نوعاً من التفكك بين الجماعات الإسلامية التي كانت متجمعة لمصارعة الاستعمار ، كما أن الاستقلال أشاع نوعاً من التراخي عند بعض المسلمين الذين كانوا يتخذون الإسلام وسيلة لمصارعة المستعمار ، واتجهوا بعد الاستقلال إلى مشكلاتهم الخاصة في السياسة والاقتصاد وغيرها بعد أن رحل الاستعمار •

وعلى كل حال فإن مخالب التبشير في إندونيسيا قد وجدت منذ عهد الاستعمار ، وخلقت للمسيحية أنصاراً من بين الإندونيسيين ، ولا يزال هذا النشاط مثابراً وجاداً متخذاً من هذه البلاد الشاسعة ومن جزرها الكثيرة ومن الزعامات الإندونيسية غير المسلمة وسائل لتحركاته وأنشطته •

وفي مطلع العقد الثاني من القرن العشرين ظهر في إندونيسيا مصلح إسلامي كبير اشتهر باللين في غير ضعف ، وبالكياسة مع صدق العزيمة ، ذلك هو العلامة الشيخ أحمد دحلان ، وقد رأى هذا الرجل أن يناضل المسيحية من جانب ، والبدع والخرافات من جانب آخر بعمل علمي كبير يقوم به ، فأنشأ الجمعية المحمدية التي كان شعارها ولا يزال (قلة الكلام مع كثرة العمل) (١) وكان انشاؤها سنة ١٩١٢ (٢) .



مواكب المسلمين في بيوت الله بانودنيسيا

وكبرت الجمعية المحمدية من يوم إلى يوم ، وأصبحت لها آلاف المدارس والمعاهد والمستشفيات في القرى والمدن ، وارتبط الناس بها ارتباطاً عظيماً ، وتولى رعايتها نخبة ممتازة من المفكرين المسلمين في تخصصات مختلفة ، وقد كان إلى الشرف عندما كنتُ بإندونيسيا

-
- (١) على الطنطاوى : صورة من الشرق في أندونيسيا ص ١٦٤ .
(٢) محمود يونس : تاريخ التربية الإسلامية في أندونيسيا ص ٢٣٣ .

١٩٥٥ - ١٩٦١ أن أشرفتُ على كليات التربية بالجمعية المحمدية ، وعيننا أكبر عناية بتخريج المدرسين الذين نبعث بهم إلى مختلف المدارس ليحملوا الفكر الإسلامى إلى أبناء الشعب .

ومن أهم أهداف الجمعية المحمدية الدعوة للإسلام ورفع مستوى حياة المسلمين لإيجاد المجتمع الإسلامى الحديث ، ولهذا حددت الجمعية الأهداف التالية لنشاطها :

- ١ - القيام بالدعوة الإسلامية ونشر مكارم الأخلاق .
 - ٢ - الاهتمام بشئون التربية والتعليم .
 - ٣ - إحياء المجتمع وتنمية روحه على أساس التعاون والتضامن .
 - ٤ - القيام بإعداد أماكن للعبادة والاهتمام بالأوقاف الإسلامية التى يُنفق منها على المدارس والمساجد .
 - ٥ - القيام بتربية البنات وتهذيبهن على أسس الموعى الدينى .
 - ٦ - تربية الأبناء والشباب ليكونوا فى المستقبل رجالا نافعين للدين والوطن .
 - ٧ - المسعى لإصلاح الحياة ووسائلها لتحقيق التعاليم الإسلامية .
 - ٨ - بذل الجهود للوصول الى تنفيذ أوامر الله وأحكامه فى المجتمع (١)
- وقد عيّنت الجمعية المحمدية بإدخال العلوم العامة فى مدارسها فكان بهذه المدارس الهندسة والجبر والكيمياء والجغرافيا بالإضافة الى اللغة العربية واللغة الانجليزية .

(١) محمد نور سالم : النهضة الفكرية الإسلامية فى اندونيسيا والزعيم الحاج أحمد فحلان ص ٢١٤ - ٢١٥ .
(م ٣٦ - الموسوعة التاريخية)

كما عُنيَت هذه الجمعية بالمصحات والمساجد والمستشفيات والملاجئ
والكتبات ومنظمات الشباب والسيدات •

وهكذا أدت هذه الجمعية وتؤدى أعظم الأعمال باندونيسيا (١) •

جمعية الإرشاد والجمعية العلوية :

اهتم العرب الحضارمة المهاجرون إلى اندونيسيا بالمشاركة في خدمة
المجتمع الذى هاجروا إليه ، كما عُثِنوا بتقديم اللغة العربية لأبنائهم
ولن يريدوا من أبناء الإندونيسيين ، وتحقيقا لذلك أنشئت جمعية الإرشاد
والجمعية العلوية ، واهتمت كل منهما بإنشاء المدارس وبيوت الأيتام
 والمستشفيات ، وكانت هذه المؤسسات مزدهرة حينما كنت باندونيسيا ،
وكان نشاطها واضحا في جاكرتا وصولو وسورابايا وغيرها من البلاد
التي يكثر بها المهاجرون الحضارمة ، وطالما وقف كاتب هذه السطور في
هذه المؤسسات يلقى محاضرات عامة في ليالٍ مزدهرة ، وكان الآلاف
يحرصون على حضور هذه المحاضرات والانتفاع بها •

ومن أهم ما قمت به لترقية مستوى هذه المدارس أن جمع زعماء
الحضارمة لى كل مدرسى اللغة العربية والدين بمدارسهم وأهميت معهم
مدة اسبوعين في مصيف « توانج مانجو » وخلال هذه المدة ألقى عليهم
محاضرات أكثر ساعات النهار وبعض ساعات الليل في دورة تدريبية
لرفع مستواهم العلمى من جانب ولتعليمهم الوسائل التربوية الحديثة
لتوصيل الأفكار الى التلاميذ من جانب آخر ، وقد قدّمت هذه الدورة
فائدةً كبرى لهؤلاء المدرسين •

(١) المرجع السابق ص ١٦٧ وما بعدها •

المسيحية واندونيسيا :

قلنا آنفا إن التبشير المسيحي بإندونيسيا يزمجر ، ويتخذ من الجزر المتعددة ستارا له ، ويعتمد إلى بعض الجزر البعيدة عن الأنظار فيضغ بها مراكز له مثل سلاويشى الشمالية والوسطى وجزيرة تيمور وجزيرة فلوريس ، ولا يقنع التبشير المسيحي بذلك بل يعتمد الى بعض المناطق فى الجزر الكبرى فيقيم بها نشاطه ومراكزه ، وفى زيارتى الأخيرة لإندونيسيا (١٩٨١) أحسست بالألم والحسرة لتبجح هذا التبشير وتكالبه وشراسته ، وقد اتخذ من مدينة « صالاتيجا » مسرحا لنشاطه ، وقد زرت هذه المدينة فرأيتها كأنها معقل من معاقل الفاتيكان ، كلها كنائس وقباب وأجراس ومسوح ، وقد عنى القائمون بالتبشير بمعاهد التربية بوجه خاص ، لتخرج هذه المعاهد مدرسين مسيحيين متعصبين ينتشرون فى البلاد المختلفة حاملين سم التبشير فى أعطافهم ، وصرخت صرخة مزقت الأحشاء قائلا :

أين ملوك البترول المسلمون ؟

أين العلماء المسلمون ؟

أين الغيرة الاسلامية ؟

ولا تزال هذه الصرخات تنبعث من قلبى ومن وجدانى ومن قلمى ،
كما تنبعث من صدور الآخرين •

صحيح أن مسلمى اندونيسيا تصدوا لهذه الحركة بكل ما يستطيعون
ولكن قوتهم مغلوبة على أمرها ، أمام المال الغربى الجم والنشاط المنظم ،
والجهد المتصل •

ولكن الاسلام يمنحه الله دائما الغلبة والنصر ، فليهب المسلمون من
مختلف الأرجاء لمواجهة هذا الزحف حتى لا نقابل مرة أخرى ما حدث
فى الأندلس أو ما حدث فى فلسطين •
وأرجو ألا تضيع هذه الصيحة فى الهواء •

الحياة الاجتماعية في إندونيسيا

إذا جئنا للحياة الاجتماعية باندونيسيا نقرر بادىء ذى بدء أن أسلوب التعاون واضح تمام الوضوح في اندونيسيا ، فالإنسان هناك أيا كانت طبقته لا يعيش وحده ، بل يُحسّ دائما أنه جزء في مجتمع ، يرى مجتمعه ويرعاه المجتمع ، وسنسرّد فيما يلي لمحات من هذا التعاون :

بناء بيت :

فمن أسلوب التعاون ما يجرى عندما يريد شخص أن يبنى بيتا فإن كل السكان في القرية أو القرى القريبة يسهمون بالعمل معه ، كما يسهمون بالمؤن والذخائر اللازمة للبناء ، وسرعان ما يقوم هذا البيت ، أما صاحبه فيرد الجميل في مناسبات مماثلة .

الزواج وتكاليفه :

لا توجد في اندونيسيا مشكلة في المهور ؟ ويغلب أن يتم الاتفاق على أيسر المهور ، وفي الريف الاندونيسى يكون المهر نقدا أو أشياء عينية كعدد من الأغنام أو البقر .

وفي إعداد الجهاز نجد أصدقاء العروسين في حالات كثيرة يتحملون نصيبا بارزا في هذا المجال ، ويقدمون أجزاء واضحة من الجهاز في صورة هدايا ، ولكن هذه الهدايا لا تقدّم ارتجالا ، بل يتفق الأصدقاء على توزيع بعض الجهاز عليهم ليقوم كل فرد منهم أو كل مجموعة بتقديم شيء لازم ، ويتكون من مجوع الهدايا ما يكون أساسا لعش الزوجية ، بالإضافة إلى المدخرات التي تكون لدى العريس أو العروس ، وعلى هذا فالزواج في اندونيسيا ليس عبئا على الشباب .

وأكثر مناطق اندونيسيا الاسلامية تتبع التقاليد الشائعة في العالم الاسلامى حول الخطبة والزفاف ، ولكن بعض المناطق لها تقاليد موروثة جديدة بالتسجيل ، ففي منطقة السوندا يجيء العريس ليلحة الزفاف الى

حجرة ومعه بعض أصدقائه وأقاربه ، وتجلس العروس مع أصدقائها وأقاربها في حجرة مجاورة وبين الحجرتين باب مغلق ثم يغنى أصدقاء العريس أغنية يذكرون فيها أن العريس قد أهدى التراماته وقام بواجباته لاستقبال عروسه ، ويلتمسون فتح الباب ليدخل ، وتجييب صديقات العروس بأغنية يذكرن فيها مطالب جديدة ، ويسرع العريس وأصدقاؤه بتحقيق رغبة العروس ، وتجييب صديقات العروس بأن على العريس أن يتجمل بالصبر وبعد بعض المناقشات يفتح الباب ليلتقى العريس بعروسه ، ثم يمران على كبار الحاضرين لتقبل التهاني وطلب العفو والدعاء



العروسان في حفل الزفاف

نظام الأسرة :

في أكثر مناطق اندونيسيا يكون الرجل مركز الأسرة ، وعندما يتزوج تنتقل زوجته لداره ، ويكون هو المسئول عن توجيه الأولاد ورعايتهم .

ولكن في بعض مناطق سومطرة يتبع السكان هناك حتى المسلمون منهم نظام الأمومة ، وفي هذه المناطق تكون الأم هي كل شيء ، وهي المسئولة عن إدارة شئون الأسرة ولها الكلمة العليا ، وهي التي ترعى الأولاد وتتولى توجيههم .

ومحور القرابة في هذا النظام يعتمد على الأم وحدها فالرجل عقب زواجه يترك أسرته ويلحق بزوجه ، وبالتالي فإن أولاده يلتحقون بأسرة أمهم وليس بأسرة الأب وعشيرته (١) .

الرقص والموسيقى في اندونيسيا :

وتشتهر اندونيسيا بالرقص والموسيقى ، ويقل جدا أن يوجد في اندونيسيا فتى أو فتاة لا تجيد الرقص الإندونيسي وهو عندهم يشبه العبادة وفيه كثير من التحشيم ، وفي المدارس توجد حصص لهذا الرقص ، ويكثر أن يكون جماعيا ، وأحيانا يكون بين فتى وفتاة في حركات تمثل قصة تاريخية فيها خير وشر وتنتهي بانتصار الخير .

وكثير من الرقصات في إندونيسيا تتطلب ثيابا خاصة

(١) اسماعيل جوهان : نظام الأسرة الإندونيسية بين التشريع الإسلامي والقوانين الوضعية ص ٨ .



راقصة اندونيسية تؤدي دورها في قصة أسطورية

تبهـر الأنظار بجمالها وغناها ، وتلبس لبعض الرقصات أقنعة مختلفة ، ويستدعى العرض أحيانا استعمال المراوح والشماسى والشموع •

أما الموسيقى الإندونيسية فأشهرها « الجملان » وهو يمثل أوركسترا إندونيسية تتكون من عدة أشخاص ، وكلمة جملان معناها المطرقة ، ذلك لأن الطرق يبرز في أكثر الآلات الموسيقية الإندونيسية ، وهناك كذلك آلات وترية وآلات نفخ ومزمار (١) •

وآلات الجملان تكون عادة ملكا للمقرية أو الهيئة الاجتماعية ، ومن أشهرها الجملان المقدس في جوكجاكارتا وبعض الآلات الموسيقية فيه كبيرة جداً في الحجم ، ويرجع الجملان إلى عهد إمبراطورية ماجابيت ، ثم تولاه المسلمون بعد ذلك ، وأدخلوه في احتفالاتهم الدينية والاجتماعية •

مراسم العزاء :

وفي المراسم المتصلة بالوفاة نجد الإندونيسيين يتبعون شعائر الإسلام ، فلا يرتفع صوت ، ولا يشق ثوب ولا توجد مظاهر الحزن الكاذبة ، بل يتلقى الناس خبر الوفاة بالرضا ، ويتم تشييع الجنازة في هدوء ، مع الدعاء للمتوفى وطلب الغفران له والصفح عنه ، والصدقة على روحه •

لمحات من الأخلاق والتقاليد في اندونيسيا وماليزيا

يمتاز الشعب في اندونيسيا وماليزيا بـصور من الأخلاق والتقاليد الطيبة ، التي رسخت في نفوسهم واستقرت في كيانهم ؛ وهى تدعو للكثير من الإعجاب والتقدير ، وسأسرد من هذه التقاليد بعضها بقدر ما وعت الذاكرة من محاسن هذا الشعب الكريم •

وأول ما يواجهك في معاملتك لهذه الجماعة أن الإعطاء والأخذ لا يكون إلا باليد اليمنى ، فإذا قدّم اليك إنسان* شيئاً أو أخذ منك شيئاً فاليد اليمنى هى التى تستعمل ، وقد يخطئ طفل فيحاول استعمال اليد اليسرى ، ولكنه سرعان ما يتلقى توجيهاً حاسماً بأنه يلزم أن يستعمل يده اليمنى فيفعل ويعتذر •

وكلمة Bermesi أى بإذنك وكلمة Maaf أى عفوا من الكلمات كثيرة الاستعمال فى رقة وأدب جم •

وإذا كان هناك مجموعة من الناس فى جلسة سيتناولون شراباً أو طعاماً ، فإن الشراب أو الطعام يوزع عليهم ولكن لا يبدأ أحد فى الشرب أو الأكل حتى يتم التوزيع على الجميع ، ثم يطلب صاحب المنزل أو كبير القوم من الحاضرين أن يبدءوا فى تناول الشراب أو الطعام قائلاً :
Selahkan أى تفضلوا ، وفى حالات كثيرة كان يأتى لمنزلى باندونيسيا بعض المصريين الذين لا يعرفون هذه العادة ، فإذا وُزِعَ عليهم الشراب بدعوا يشربون قبل أن يتم التوزيع على الآخرين ، وكنت أسرع فأكلم الإندونيسيين الحاضرين بلغتهم ذاكراً أن العادة فى مصر لا تستلزم الانتظار حتى يتم التوزيع على الجميع ، وأحياناً كان يسألنى المصريون : ماذا تقولون ؟ فأشرح لهم الموضوع فيسرعون بوضع الأكواب على الموائد وتهب عاصفة من الضحك والمرح •

والأصوات فى اندونيسيا أشبه بالهمس ، ويقل جدا أن تسمع صوتا عاليا .

وكل انسان مشغول بنفسه ، فليس هناك من يبحث عن عورات الناس أو يحاول انتقادهم .

والمساواة طبيعة واضحة بين القوم ، فلباسهم ومظهرهم متقارب ولهذا يصعب أن تفرق بين سيده البيت وبين الخادمة ولا بين صاحب السيارة وسائقه ، والكل ينادى Tuan أى سيد و Mas أى الأخ .

أما العلماء فلهم فى اندونيسيا أسمى مكانة ، وقد كان المواطنون فى اندونيسيا يعتبروننى مجاهدا ترك أهله ووطنه ووفد إليهم ليعلمهم ويرشدهم ، وفى كثير من الأحوال كانت تجيء الوفود منهم لزيارتى فى بعض الأعياد والمناسبات ، وكانوا يقفون بحديقة المنزل ويتجهون للقبلة ويقرعون الفاتحة أن يحسن الله جزائى على رحلتى إليهم ، ويريدون عقب ذلك ان ينصرفوا دون أن يتم بينى وبينهم لقاء ، لأنهم كما يقولون لا يريدون إزعاجى أو تعطيل قراءاتى ومذاكرتى ، وكنت طبعاً أحرص على اللقاء بهم وأدعوهم لدخول البيت ، وكانوا يحاولون الإسراع فى الخروج لولا أنسى بهم ، ومحاولتى أن يطيلوا معى البقاء .

ووفود إندونيسيا تحضر للقاهرة لسبب أو لآخر ، وأكثر الوفود تحرص على زيارتى فى منزلى بالمعادى للتحية ، وحدث مرة أن جاءوا الى البيت وكان معهم عالم كبير من علماء اندونيسيا هو الأستاذ المرحوم عبد القهار مذكر ، ولم أكن موجودا بالمنزل ، ودعتهم أكرمتى للدخول ودخلوا ، وتصفهم زوجتى بأنهم ما إن دخلوا واتخذوا أمكنتهم فى حجرة الجلوس حتى تحولت جلستهم إلى جلسة أقرب ما تكون للصلاة ، وأخذ

قائدهم يرثل أدعية لى والباقي يردّ دون دعاءه فى صوت هامس وحركة
أشبه بحركة قرءاء القرآن الكريم ، وكانت الدموع على وشك أن تنساب
من عيونهم •

وقد حرص طلابى فى أثناء إقامتى باندونيسيا على بعث الأنس فى
نفسى ، والحاطتى بكل اتجاهات الود والعون ، وقد أحسست مرة ببعض
المرض فانتقلبوا جميعا إلى أطباء وممرضين وممرضات ، وحاول بعضهم
أن يبيت فى منزلى ليكونوا فى خدمتى طول الليل ، مع أن المرض كان خفيفا ،
وكان عندى من الخدم من يقومون بمهمة الخدمة والمساعدة •

والعرب فى اندونيسيا يكونون جالية تنال كل تقدير واحترام من
الاندونيسيين ، وذلك لإخلاصهم للبلاد وتقانيهم فى خدمتها ، واندماجهم
الكامل بالسكان الأصليين ، وقد قدم العرب لى أجمل عون الأودى عملى
على أحسن وجه ، وكانوا كثيرا ما يدعونى لأمضى معهم أيام الأعياد
وبعض أيام الاجازات ، وحدث مرة أن حل عيد الأضحى فوفد الطلاب
لى زراغات ووحدانا يوم عرفات للتحية والتهنئة ، واقترحت أن نحى
عيد الأضحى معا ، فوافقوا وبخاصة أن الكثيرين منهم جاءوا من جزر
نائية ولا يعودون لأسرهم فى الاجازات القصيرة مثل اجازات الأعياد ،
واتفقنا على أن أشتري خروفين وأقدم قدرا كافيا من الأرز وبعض
التوابل ، وفى صبيحة يوم العيد كان منزلى يعج بالطلاب والطالبات ، وقد
قاموا بالذبح والسلخ والطهو والخدمة ، وكان يوما بهيجا حقا يحسب من
أجمل أيام العمر •

وبعد ، تلك لحظة عن اندونيسيا التى لا أنساها ولا أنسى كل لحظة
أمضيتها هناك ، ولا كل وجه قابلته ، فتحتى لهذه البلاد الحبيبة ولأهلها ،
وقد كتبت تاريخها بصدق ممزوج بالوفاء ، ولعلنى بذلك أكون قد أدت
واجبا حبيبا الى نفسى تجاه هذه البلاد التى أحمل لها أطيب الذكريات •

الأقليات الإسلامية

في آسيا

Rebecca Long

1797

الأقليات الإسلامية الكبرى في آسيا

في الدول التي لا تدين بالإسلام في آسيا يوجد أحيانا عدد من المسلمين يصل في كثير من الحالات إلى عشرات الملايين ، ومن أجل هذا العدد الكبير يرى بعض الباحثين أن تسمية هؤلاء بالأقليات فيه إجحاف بهم ، ويفضل أن نطلق عليهم تعبيرا مثل « المسلمون في الدول غير الإسلامية » وفي تقديري أن النتيجة واحدة في التعبيرين لمائة مليون مسلم مثلا في الصين عدد في ذاته كبير ولكنه أقلية بالنسبة لدولة تجاوز تعدادها الألف مليون ... وهكذا •

وإذا تركنا التعبير وجئنا للواقع نقرر أن هناك مسلمين في بعض الدول غير الإسلامية بآسيا ، ولهؤلاء — بالإضافة إلى العدد الكبير — مكانة ملحوظة بين السكان ونشاط إسلامي جدير بالتقدير •

وقد تكلمنا عن المسلمين في الهند عند حديثنا عن الهند ، وتكلمنا عن المسلمين في الدول غير الإسلامية بجنوب شرقي آسيا عند حديثنا عن المقدمات التي سقناها في مطلع الحديث عن جنوب شرقي آسيا ، وتكلمنا عن المسلمين في سنغافورة عقب الحديث عن انفصال سنغافورة عن « ماليزيا » •

بقى أن نتكلم هنا عن المسلمين في الاتحاد السوفييتي وفي الصين وفي الفيلبين ، وهو ما سنشرع فيه :

الإسلام والمسلمون في الاتحاد السوفييتي

الوثنية في روسيا حتى نهاية القرن العاشر الميلادي :

إن الدارس للتاريخ الإسلامي في مختلف الأرجاء يقابل أمرا جاكلا فيما يتعلق بروسيا التي كانت أساسا لما يسمى الآن « الاتحاد السوفيتي » وذلك أن الباحث يجد الإسلام طرق الأبواب في مختلف النواحي ، ووجد له منفذا في كل الأقطار ، وبمرور الزمن أصبح الاسلام دين السكان جميعا دون استثناء ، كالحال في المملكة العربية السعودية ، أو باستثناء قليل كاللؤلؤ الاسلامي المتعددة ، أو انتشر الاسلام بين السكان انتشارا واسعا أو محدودا كما حدث في كثير من الأقطار بمختلف القارات .

ولكن الأمر الجلل فيما يتعلق بروسيا أن الإسلام لم يجد له منفذا ذا بال أو لم يجد له منفذا على الإطلاق في هذه الأرض سواء قبل النظام الشيعي أو بعده ، كأن هذه الأرض صلبة أمام دعوة الاسلام ، ولعلها بذلك تكون الأرض الوحيدة في العالم التي لم يدخلها شعاع الاسلام وهداية الله .

ولا يزال الاسلام حتى الآن ينتشر في كل القارات الا في الاتحاد السوفيتي .

ومرجع ذلك أن الروس ظلوا وثنيين حتى نهاية القرن العاشر الميلادي ، وكان البابطة متمسكين بعبادة الاوثان ، ولم يسمحوا للاديان أن تطرق أبوابهم ، وقد رأى الامبراطور فلاديمير أنه آن الاوان ليترك عبادة الاوثان ، وأخذ يتعرف على اديان عصره ليختار ديناً منها ، ولكنه رفض اليهودية عندما قال له أتباعها أن منطقة بيت المقدس أرضهم ولكن الله شئت شملهم ، فصاح فيهم قائلاً : لقد بؤتم بلعنة من الله ، فابعدوا عنا لأننا لا نريد أن نفقد وطننا ، كما فقدتم أنتم وطنكم ، ورفض بين الاسلام لان الاسلام يحرم الخمر ، ويلزم الرجال بالختان ، ولم يقبل المسيحية الكاثوليكية لان حفلاتها الدينية خالية من الأبهة والجلال .

أما الارثوذكسية فقد أعجبت له روعة ملابس القسيسين الكهنوتية
وزخارف المذابح ، ورائحة البخور ، وارتضى فلاديمير الارثوذكسية ديناً
سنة ٩٨٨ م وأصدر مرسوماً يقضى بأن يذعن الروس كافةً للديانة
المسيحية ، لكنيسة القسطنطينية (١) .

ومن هنا يتضح أن دخول الروس المسيحية كان متأخراً جداً من جانب
ولم يكن من جانب آخر نابعاً عن عمق في العقيدة أو فهم للديانة ، بل كان
متأثراً بالمظهر الكنسي في كنيسة أيا صوفيا ، وهذا يوضح أن المسيحية لم
تكن عميقة الجذور في الشعب الروسي .

وظل الروس تابعين للمسيحية لا يسمح لهم بسواها حتى سنة
١٩٠٥ م عندما صدر مرسوم ينص على التسامح الديني في كافة أرجاء
الامبراطورية الروسية ، وقد كان ذلك المرسوم تهدياً لنفوس المسلمين
في المناطق التي كان الروس قد استولوا عليها قبل ذلك ، وحاولوا فيها
قهر المسلمين على اتباع دين الدولة الرسمي الذي كان لا يسمح
الرعية بسواه .

وكان الروس عندما دخلوا المسيحية قد ارتبطوا برباط المصاهرة
مع البيزنطيين ، ثم قامت بعد ذلك الدولة العثمانية التي قضت على
الامبراطورية البيزنطية المسيحية ، ومدت فتوحاتها صوب البلقان والقرم
والقوقاز فأصبحت بذلك مواجهة للروس مُواجهةً عداءٍ ، ثم إن الروس
أحسوا بعد سقوط الامبراطورية البيزنطية أنهم المسئولون عن المسيحية ،
وهذه العوامل مجتمعة هي التي وضعت الروس منذ القرن العاشر الهجري
(السادس عشر الميلادي) في مواجهة الدول الإسلامية وبخاصة الدولة
العثمانية وإيران وممالك آسيا الوسطى وأصبحت روسيا بذلك العدو
الأول للإسلام .

(١) توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام : ص ٢٧٤ — ٢٧٥ .

ويتضح من التواريخ التي سبق أن ذكرناها أن التدين كان كما قلنا
أنفا حديثا على المناطق الروسية ومن هنا فان المسيحية نفسها ، لم تكن
عميقة الجذور فيها ، ولعل ذلك هو الذي يسرّ الاتجاه الى اللادينية في
العهد الشيوعي .

زحف روسي على ممالك إسلامية :

أما المسلمون في الاتحاد السوفيتي الآن فإنهم كانوا يعيشون في أرض
إسلامية مستقلة ، ثم زحف عليها الروس واحتلوها ، وجعلوها ضمن هذا
الاتحاد السوفيتي بالقسر والقوة كما سنرى فيما بعد .

وعلى هذا فدراستنا للإسلام في الاتحاد السوفيتي إنما هي "تَشْبَع"
لتاريخ هذه المناطق التي كانت يوما مزدهرة بالإسلام والفكر الإسلامي ،
ثم احتواها اخطبوط السيادة الروسية ، فجعلها على الرغم منها جزءا من
أرض تعادى الإسلام أشد عدا قبل سنة ١٩١٧ وبعبدها ، أي قبل قيام
النظام الشيوعي وبعده على السواء .

والذي رأيناه من قبل من زحف الجيوش السوفيتية على أفغانستان
إنما هو حلقة جديدة من سلسلة الزخوف الروسية الأثمة على أرض
الإسلام ، فلنحاول أن نتتبع خيوط العدوان الروسي على الأرض الإسلامية
لنعرف تاريخ المسلمين في الاتحاد السوفيتي وحالتهم .

ومن دراستنا السابقة لإيران عرفنا أن إيران كانت لها في كثير من
الفترات امتدادات واسعة شملت أفغانستان ، كما شملت ما وراء النهر
وتركستان أي المنطقة التي تعرف إجمالا بآسيا الوسطى :

وقد انتشر الإسلام في هذه المناطق ، وظهرت فيها مراكز إسلامية
خدمت العلوم الإسلامية والمعارف الإسلامية أجلّ الخدمات ، ثم سقطت
منطقة إثر أخرى في أيدي الروس كما سنرى فيما بعد .

وينبغي أن نبدأ بالتعريف بهذه المناطق ، وهي بوجه عام ترتبط

ببحر خوارزم (بحر أورال أو بحر الخزر) ويصب في هذا البحر نهران شهيران في المنطقة هما نهر جيحون (Amu-Darya) الى الجنوب وهو الذي يفصل الآن بين أفغانستان وبين الاتحاد السوفيتي ، والنهر الثاني هو نهر سيحون (Syr-Darya) الى الشمال ، والمنطقة التي تقع شمالي نهر جيحون تسمى ما وراء النهر ، ويسكنها جماعة من « الترك » وغدوا لهذه المنطقة في القرن السادس الميلادي أي قبل الاسلام ، وكونوا لهم عدة ولايات ، وانتشرت بينهم تيارات ثقافية إيرانية وصينية فظهرت بها الزرادشتية والكونفوشية ، وبرزت بها طبقة رجال الدين وكانوا يسمون « الدهاقين » وبسبب حياة الترك في هذه المناطق سميت « تركستان » وامتد نفوذ هذه الولايات أحيانا الى المناطق الواقعة الى الجنوب من نهر جيحون .

وقد تكونت في هذه المناطق الإمارات والممالك التالية التي أوردنا ذكرها في الجزء الثاني من هذه الموسوعة وهي :

• مملكة طخارستان على جانبي نهر جيحون وعاصمتها بلخ .

مملكة صغانيان ، وتقع شمال نهر جيحون ، وعاصمتها شومان
مملكة الصغد وهي تمتد من نهر جيحون الى سيحون وعاصمتها سمرقند
وأهم مدنها بخارى .

مملكة فرغانة على جانبي نهر سيحون وعاصمتها جخنده أو كاشان
أو اخسيكت ، وكان ملكها يلقب بالاخشيد وهو اللقب الذي أطلق على
الاخشيد مؤسس الدولة الاخشيدية بمصر لصلة نسبه بهذه البلاد .

• مملكة خوارزم بالقرب من بحر خوارزم وعاصمتها الجرجانية .

مملكة أشروسنة في الشرق من فرغانة ، ولقب ملكها الأفشين ومنها
انحدر بعض المماليك الذين آل لهم السلطان في عصر ضعف الخلافة العباسية
بعد الواثق ، وقصبتها بنجكث .

مملكة الشاش في شمال نهر سيحون وعاصمتها الطارنبذ أو بنكث (١) .
ولم تكن هناك حدود ثابتة لهذه الممالك ، بل كان العدوان بينها يكاد
يكون مستمرا ، وكذلك كانت هذه البلاد عرضة لعدوان من المناطق المجاورة
لها وبخاصة من الصين .

وقد بدأ احتكاك المسلمين بهذه المناطق عقب الانتهاء من فتح ايران
سنة ٣١ هـ وأسلم الاحتكاك الى غزو منذ عهد معاوية على يد قائده
قيس بن الهيثم الذي كانت له ولاية خراسان ، فقد روى أن أهل
بادغيس وهرات وبلخ قد نقضوا الصلح الذي كان بينهم وبين المسلمين منذ
فتوحها في عهد عثمان رضى الله عنه فسار الى بلخ فخرّب معبدها وعاد
أهلها يطلبون الصلح فوافق عليه قيس ، ولما علم أهل بادغيس وهرات بما
نزل بأهل بلخ طلبوا الصلح على الشروط التي نزل عليها أهل بلخ
فأجيبوا الى طلبهم (٢) .

وولى معاوية أيضا زياد بن أبيه بلاد العراق ، ومن بعد زياد تولى
ابنه عبيد الله فكان لهما قيادة هذه الجبهة ، وفي عهد عبيد الله وصل
المسلمون في تقدمهم الى بخارى وسمرقند (٣) .

وفي هذه الفترة تدفق العرب للحياة في هذه المنطقة ، فقد رحل لها
خمسون ألف أسرة من البصرة والكوفة واستوطنوها (٤) .

وتوقف نشاط المسلمين حول هذه البلاد بعد معاوية بسبب كثرة
الثورات في العالم الاسلامي ، ولما أخمّدت هذه الثورات ودبّ النشاط في
الجبهات الحربية كلها دب النشاط في هذه الجبهة أيضا ، وكانت ولاية

(١) انظر الدكتور عبد الهادي شعيرة : ممالك ما وراء النهر ص ٦ وما
بعدها ، وانظر كذلك البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٠٩ — ٤١٠ .

(٢) البلاذري ص ٣٩٩ — ٤٠٠ .

(٣) الطبري ج ٤ ص ٢٢١ والبلاذري ص ٤٠١ .

(٤) دكتور حسن محمود : الاسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى

العراق وخراسان قد أسندت للحجاج بن يوسف فأعدَّ القادة للهجوم على هذه المنطقة ، ومن قاداته فيها المهلب بن أبي صفرة الذي كانت له غارات ناجحة على هذه البلاد حتى فقت عينه (١) ، وتولى بعده ابنه يزيد بن المهلب الذي فتح قلعة نيزك ببادغيس سنة ٨٤ هـ (٢) ، وفي العام التالي عزل الحجاج يزيد وولى أخاه المفضل فمكَّن للمسلمين في بادغيس وشومان (٣) .

وهبت ثورة ابن الاشعث فشغلت الحجاج حيناً ، فلما انتهى منها عاد لهذه المنطقة بزحف أكثر نظاماً ونجاحاً ، وكان الزحف هذه المرة على يد القائد الشهير قتيبة بن مسلم .

ولم تكن حروب قتيبة بن مسلم غارات كتلك الغارات التي كانت طابع الحملات التي سبقت قتيبة في هذه الجبهة ، بل كانت فتوحاً منظماً ثابتاً ، وقد بدأت حملات قتيبة في أوائل عهد الوليد بن عبد الملك واستمرت حتى بدء عهد سليمان ، وقد استطاع قتيبة في هذه الفترة أن يُمَدَّ فتوحاته إلى كل البلاد التي تقع على النهرين أو بينهما تلك التي أوجزنا ذكرها آنفاً (٤) ، ولم يكتف قتيبة بالفتح ، بل دعا السكان إلى دخول الإسلام وترك عبادة الأصنام ، فأجابوه بأن لهم أصناماً من اعتدى عليها أو استخف بها هلك ، وهم لا يستطيعون الاستخفاف بها لذلك ، فدخّل قتيبة على الأصنام فأباح حُرَّاقَها لجنده ، وكبَّها على وجوهها بيده وحرَّقها ، ولم يصبه سوء بطبيعة الحال ، وكان ذلك مما سبب دخول كثير من سكان هذه البلاد في الإسلام (٥) .

وقد مرَّ نجاح قتيبة بمراحل ابتدأت من سنة ٨٦ هـ واستمرت حتى

(١) انظر ترجمة المهلب في وفيات الأعيان .

(٢) الطبري ج ٥ ص ١٨٦ .

(٣) المرجع السابق ص ١٩٤ .

(٤) انظر بعض تفاصيل هذه الفتوح في الطبري ج ٥ ص ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٧ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ .

واقرا كذلك البلاذري ص ٣٩١ ، ٤٠٩ — ٤١١ .

(٥) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤١١ .

سنة ٩٧ هـ ، واستطاع في هذه المراحل أن يسيطر على كل المنطقة ، بل إنه أوغل في غزواته حتى اقترب من حدود الصين (١) أو وصلها فعلا . ولم يقنع قتيبة بالزحف والانتصار بل انه — كما يقول بدر الدين الصيني — أنشأ في بخارى جامعا عظيما سمي جامع قتيبة ، وكان يَمْنَح عطاءً قدره درهمان لكل من دخل مصليا لأول مرة ، كما أرسل الفقهاء الى منازل الناس وبيوتهم ليعلموهم شعائر الاسلام ، وأجاز ترجمة القرآن الى اللغة المعروفة في هذه المنطقة (٢) .

ومن القادة البارزين في فتوحات هذه المنطقة بعد قتيبة نصر بن سيار آخر ولاية الأمويين في خراسان والذي استطاع أن يستولى سنة ١٢١ على مملكة « التركمى » التي اشتق منها اسم الترك .

آسيا الوسطى في مطلع عهد العباسيين :

استطاع العباسيون أن يوثقوا صلاتهم بمناطق الأتراك في آسيا الوسطى ، فقد كان أبو مسلم الذى ينسب الى خراسان يمثل العباسيين ، فجمع جموع المنطقة حوله لاحتضان الدعوة لآل البيت وقد عمل العباسيون على توثيق صلتهم بهذه المنطقة عن طريق دعائهم وقوادهم ، وعندما كان للمأمون مقيما في مرو انتهن الفرصة فدرس حالة المنطقة، ووثق بها صلاته .

الحركات الاستقلالية بإيران وصلتها بتركستان :

في دراساتنا السابقة عن إيران وضحنا الحقائق التاريخية التالية :
— عند كلامنا عن إيران من ناحية المساحة والموقع قبل الإسلام ذكرنا أنها كانت تشمل بلاد تركستان .
— وعند حديثنا عن إيران في عهد الفتح الإسلامى ذكرنا أن الفتوحات الإسلامية بإيران امتدت إلى بلاد ما وراء النهر .

(١) بدر الدين الصيني : العلاقات بين العرب والصين ص ٢٧ — ٢٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٦ .

— ولما قامت الدول الاستقلالية خلال العهد العباسي كانت منطقة تركستان تمثل جزءاً من مملكة الطاهريين ، والسامانيين ، والغزنويين ، والسلاجقة ، بل إن بعض هذه الدول كالسامانيين والسلاجقة بدءوا ملكهم فيما وراء النهر ثم امتد سلطانهم منها إلى مناطق إيران وغيرها من المناطق المحيطة .

— وقامت الدولة الخوارزمية في « خيوة » بمنطقة خوارزم ، ومدّت سلطانها إلى بعض مناطق إيران ، ولكن عمرها كان قصيراً .

— شمل الزحف المغولي مناطق تركستان ، فكانت هذه المناطق جزءاً من امبراطورية هولاكو وتيمورلنك .

الروس يزحفون على هذه المناطق :

كانت روسيا قبل النظام الشيوعي وبعده دولة عدوانية ، وقد تركّز زحفها على جيرانها ، وبخاصة ابتداء من القرن التاسع عشر ، ففي عهد القاجاريين ضمت روسيا منطقة جورجيا سنة ١٨٠١ واعتزفت بذلك معاهدة كلستان التي عقدت بين إيران وروسيا سنة ١٨١٣ وفي الحرب التي وقعت بين إيران وروسيا سنة ١٨٢٦ انتصرت روسيا وضمّت اليها مناطق تركستان التي لم تكن قد ضمتها من قبل ، كما ضمت لها سنة ١٨٦٤ منطقة الشركس والقوقاز التي تمتد من البحر الاسود الى قزوين بل ضمت كل المناطق التي تقع بين منغوليا وقزوين وكانت هذه المناطق اسلامية قبل استيلاء الروس عليها .

وخلال تاريخ المناطق الاسلامية التابعة لروسيا الآن هي أن المسلمين استولوا على هذه المناطق في القرن الأول والثاني الهجريين (القرن السابع والثامن الميلاديين) وظلت هذه المناطق تحت حكم الامويين فالعباسيين (مباشرة أو من خلال الدول المستقلة التابعة لهم حتى القرن الثاني عشر الميلادي) ثم استولى عليها المغول والتيموريون فيما بين القرن الثالث عشر والخامس عشر ، وبعد المغول آل السلطان

عليها إلى الأوزبك ، ثم انقسمت هذه المناطق إلى عدة إمارات ودويلات حتى استولت عليها روسيا في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، وجعلتها جمهوريات ضمن الجمهوريات السوفيتية •

• ويلاحظ أن الزحف الروسى اتجه للبلاد المجاورة ، ومن هنا كان قليل التكاليف ، وليس إلا عَبراً للحدود وسيطرةً على أرض الجيران ، وعلى مقاديرهم ، وذلك بخلاف الزحف الأوروبى الذى استأزم رحلات بعيدة المدى ، وتكاليف باهظة وحمل معه بذور فشله ، فالزحف الروسى سرعان ما يدعى أن الأرض التى احتلها ليست إلا جزءاً من دولتهم الكبرى ، أما الزحف الغربى فلم يستطع أن يقدم هذا الادعاء على الأرض التى احتلها وراء البحار •

سياسة الترويس :

وسلك الروس فى سياستهم تجاه المناطق المحكومة ما يسمى (الترويس) أى القضاء على القومية الإقليمية لغةً وشريعةً وجعل هذه المناطق جزءاً من روسيا •

ومن سياسة الترويس أن عملت الحكومة المركزية على خلخلة التركيز الإسلامى فى المناطق الإسلامية ، فدفعت أعداداً كبيرة من العناصر الروسية إلى المناطق الإسلامية ، كما هجرت عدداً كبيراً من المسلمين إلى مناطق أخرى بعيداً عن التجمع الإسلامى ، ويعتبر هذا التصرف أخطر ما قامت به الحكومة الشيوعية فى الاتحاد السوفيتى لإضعاف التجمع الإسلامى فى شتى المناطق الإسلامية (١) ،

ويتحدث الأستاذ محمد الغزالى عن هذه السياسة فيقول : لقد قرر الروس الحمر أن يغيروا البلاد الإسلامية ، ويحوّلوا تاريخها كله من مجرى إلى مجرى آخر ، فكانت الأوامر تصدر بهجرات جماعية واسعة المدى يتحول بها الناس من بلاد إلى بلاد ، وتطبيقاً لهذه السياسة نُقلت الحكومات الروسية جماهير المسلمين إلى برارى سيبيريا وأواسط آسيا ، كما نُقلت الألوف المؤلفة من الروس والسلاف وشحنت بهم أذربيجان

(١) دكتور عادل طه : المسلمون فى العالم ص ١١٢ •

وتركستان والقرم ، وعند تنفيذ هذا المخطط الرهيب قاوم المسلمون دفاعا عن أرضهم وبيوتهم ووطنهم ، فكان الفناء الذريع جزاءهم ، وأصبح تعداد الهالكين عند تنفيذ هذا البرنامج الرهيب تعدادا مخيفا ، وقد لوحظ أن هذا الترويس كان يُبعد المسلمين عن أرضهم الخصبة الغنية ويلقى بهم في أحضان الجهول والفقر (١) .

وأهم المناطق الاسلامية التي شملها الاتحاد السوفيتي أوزبكستان وتركمانستان وجورجيا وتادجكستان وأذربيجان وأرمينية وسنتكلم عن كل منها كلمة قصيرة .

جمهورية أوزبكستان :

مساحتها حوالى ٤١٠ كيلو مترات مربعة وتعداد سكانها ثمانية ملايين وهم خليط من المغول والتركمان وتنسب هذه الجمهورية الى قبائل الاوزبك التركمانية ، وتحيط ببحيرة أورال وكانت تسمى بلاد ما وراء النهر وعاصمتها طشقند ، وهى جمهورية متقدمة فى المجال الصناعى وبها البترول والفحم والنحاس وتنتج قدرا كبيرا من القطن الخام ومن أهم مدنها بخارى وسمرقند وخوقند ، ولهذه المدن تاريخ عريض فى الحضارة الاسلامية سبق أن أشرنا إليه ، وقد غزتها روسيا سنة ١٨٧٥ ثم أصبحت جمهورية تأسيسية سنة ١٩٢٤ .

جمهورية تركمانستان :

هى من الجمهوريات التأسيسية بالاتحاد السوفيتي ومساحتها حوالى ٣٨٦ كم^٢ ، وعدد سكانها مليون ونصف مليون نسمة ، ويحدها من الغرب بحر قزوين ومن الشرق (أفغانستان) وعاصمتها أشخاباد ، ومن مدنها الرئيسية (مرو) التى لها ذكر طويل فى التاريخ الاسلامى ، وقد دخلتها روسيا فى آواخر القرن التاسع عشر وأصبحت ولاية تأسيسية سنة ١٩٢٤ .

جمهورية جورجيا :

جمهورية جورجيا دخلها الاسلام فى القرن الأول الهجرى ، وتعرف

في المراجع العربية باسم بلاد الكرج ، وقد انتقل السلطان عليها في العهد العباسي الى السلاجقة وبعدهم جاء المغول فالصفويون فالعثمانيون ، وهي تطل على البحر الأسود وسكانها حوالي أربعة ملايين ، وتحوى أرض جورجيا أغنى مناجم المنجنيز في العالم ، وقد استولى عليها الروس سنة ١٨٠١ كما ذكرنا من قبل وأصبحت جمهورية ضمن جمهوريات الاتحاد السوفيتي بعد ذلك .

جمهورية تاجيكستان :

تقع في حوض نهر جيحون وسكانها حوالي مليونين وقد أخذت اسمها من شعب « التاجيك » وهم من المسلمين السنيين الذين وغدوا من إيران وسكنوا منطقة التركستان منذ أمد بعيد ، وهم يمثلون ٧٨ ٪ من السكان ، وتكثر بها المعادن المهمة كالذهب والفضة واليورانيوم ، وقد ضمها اتحاد الجمهوريات السوفيتية سنة ١٩٢٩ .

جمهورية أذربيجان :

جمهورية أذربيجان السوفيتية جزء من مناطق أذربيجان الفسيحة ، ويقع بها نهر أراس الذي يفصل بين أذربيجان التابعة لإيران وأذربيجان التابعة لروسيا .

ومنطقة أذربيجان كلها دخلها الاسلام في القرن الأول الهجري ، وقامت بها دول اسلامية هي دول الاتابك وشاهات خوارزم ، ثم امتد الزحف الروسي في أوائل القرن التاسع عشر الى جزء منها الذي يسمى الآن أذربيجان الروسية .

ومساحة أذربيجان الروسية فسيحة وسكانها حوالي ٤ ملايين ، وعاصمتها باكو ، وهي غنية بالبترول ، وينمو بها القطن والكروم والشاي ، وسكانها من المسلمين الشيعة .

جمهورية أرمينيا :

أرمينيا هضبة يصل ارتفاعها الى أكثر من ألفي متر تقع الى الغرب

من أذربيجان ، وتعدّ من مناطق آسيا الصغرى ، وقد دخلتها المسيحية مبكرة وخضعت للفرس قبل الاسلام فعانى سكانها ألوانا من الاضطهاد الفارسى ، ثم أعاد البيزنطيون الاستيلاء عليها ، ولكن الأتراك السلاجقة أخذوها من البيزنطيين خلال زحفهم تجاه الغرب فى آسيا الصغرى ، وبعد ذلك خضعت للتيموريين فالأتراك العثمانيين ثم احتلها الفرس ، وطردهم الروس منها ، وهذا يوضح العناء الذى قاساه الأرمن •

وأصبحت أرمينيا فى العهد الحاضر إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتى •

وتبلغ مساحة أرمينيا حوالى ٣٠ ألف كيلو متر مربع وسكانها حوالى مليونين ، ويطلق عليها اسم جمهورية أريفان ، وعاصمتها أريفان •
وتشتهر أرمينيا بالمرعى الجيدة ومن ثم بتربية الحيوان •

موقف الشيوعية من مسلمى الاتحاد السوفيتى :

رأينا فيما سبق أن روسيا القيصرية ضمت المناطق المتعددة التى ذكرناها آنفا والتى أصبحت فيما بعد جمهوريات فى اتحاد الجمهوريات السوفيتية ، وكانت روسيا القيصرية شديدة العنت مع المسلمين الذين كانوا سادة هذه المناطق ثم أعلنت الشيوعية فى روسيا سنة ١٩١٧ م ، ونريد أن نتتبع التحركات الشيوعية ضد مسلمى روسيا منذ ذلك التاريخ •

فى فبراير سنة ١٩١٧ أعلنت روسيا السوفيتية الحرية والمساواة والأخوة لجميع شعوب روسيا ، وكان هذا الإعلان خديعة لهذه الشعوب حتى لا يعارضوا الحكومة الشيوعية الجديدة ، وسكّمت الحكومة الاتحادية بمبدأ أن يكون للمسلمين هيئة تشريعية إسلامية •

وبعد قليل أحست الحكومة الشيوعية باستقرارها ، فهجّبت ثورة أكتوبر ١٩١٨ التى اتجه النظام الشيوعى فيها للقضاء على هذه المرحلة التى تركت فيها شيئا من الحرية للمسلمين •

ولكن الحكومة الشيوعية سرعان ما قابلت الحرب الأهلية المرؤعة سنة ١٩٢٢ ، فهدأت من صراعها ضد المسلمين ، وما إن انتصرت في هذه الحرب بحتى انطلقت بقسوة ووحشية أكثر من ذى قبل ضد الاسلام والمسلمين ، فشنّ الجيش الأحمر الحرب على المسلمين ، وكان يقبض عليهم ويقتلهم قتلا جماعيا ، كما صادر المحاصيل والماشية ، وسلب ونهب ، ويحكى « ريمون شارل » أعمال الشدة التى باثرها الحكم السوفيتي ضد المسلمين ودينهم فيقول : إنه في غضون عدة سنوات حوّلّت ألوف المساجد الى مواخير ونوادٍ واسطبلات ، كما حولت جامعة سمرقند الى ناد للملحدين ، وأغلقت المدارس الدينية (١) .

ثم أطلقت يدُ الشيوعيين القوميين في مسلمى آسيا الوسطى ، فأخذ هؤلاء الشيوعيون في ذبح المسلمين بالجملة وإحراق المنازل وقتل المواشى ، وارتكاب المجازر والفظائع ، والجرائم التى لم يعرف التاريخ لها مثيلا ، وقد قتل في هذه المجازر ما يزيد عن مليون ونصف مليون من رجال الدين ، وما يزيد عن أربعة ملايين مسلم من غير رجال الدين ، هذا عدا الذين هربوا الى البلدان المجاورة (٢) .

وقد تحدثت مجلة « ملى تركستان » في عدد ديسمبر سنة ١٩٥١ ومارس سنة ١٩٥٢ (٣) عن مراحل العدوان على المسلمين فجعلتها ست مراحل وفيما يلي إيجاز لهذه المراحل الست :

١ — ١٩١٨ — ١٩٢٤ وفى خلال هذه المدة قُتل عدد كبير من التركستان تحت ستار تمكين الحكم الروسى الجديد .

٢ — ١٩٢٤ — ١٩٢٨ كان القتل في هذه المرحلة تحت ستار إقامة الجمهوريات السوفيتية ، حيث قتل كل من يعارض هذا الاتجاه .

(١) La Loile Rouge Contre le Croissant. (١)

(٢) العوامل التى تنخر في الكيان الاسلامى لمجموعة من الاساتذة ص ٣٨ .

(٣) نقلا عن عالم حر جديد : للاستاذ محمد جميل بيهم ص ٦١ — ٦٢ .

٣ — ١٩٢٨ — ١٩٣٦ وفي هذه المرحلة ألغى نظام الإقطاع وأقيمت المزارع الجماعية ، وقتل في هذه المرحلة رجال الإقطاع وأعوانهم وألوف من الشخصيات الدينية التي خيف منها أن تدافع عن الملكيات الخاصة ، وفي هذه المرحلة كذلك تم القضاء على استعمال الحروف العربية ، وحلت محلها اللاتينية •

٤ — ١٩٣٦ — ١٩٣٨ ولعلها أخطر مرحلة في تاريخ الإبادة ، إذ قُتل فيها من مُعتنوا بأنهم أعداء الشعب ، وقد سقط في هذه المرحلة ألوف من الأساتذة والطلاب والصحفيين والكتاب السياسيين ، بل سقط كثير من أصحاب المناصب الرسمية الكبيرة •

٥ — ١٩٣٨ — ١٩٤٥ وفي هذه المرحلة انتشر سلاح الدفاع الداخلي ، وتعرض للإرهاب والطغيان والإبادة عدد كبير من الناس بحجة أنهم جواسيس •

٦ — المرحلة التي تلت ذلك وكان شعارها « الجبهة الايدولوجية » وهي ترمى الى القضاء على التاريخ والفكر والآداب التي لا تتناسب مع الماركسية •

وقد يلجأ بعض الشيوعيين للتظاهر بالتدين ، فيرتادون الكنائس أو المساجد ، وليس ذلك منهم إلا محاولة للسيطرة على المعامل الدينية ، والاتصال بما قد يجري بها من همس ضد الماركسية •

وقد أصبح الإسلام غريبا في مواطنه في الاتحاد السوفيتي لا يتبعه الا القلة القليلة من الشيوخ كبار السن ، أما الجيل الجديد فلم يسمع عن الإسلام إلا اسمه ، ولم يعرف شيئا عن شعائره ، بعد أن مُنعت دراسته ، وتهدمت معاقله •

ومما يدعو للخطر أن كثيرين من الباحثين يرون أن الشيوعية اضطهدت

الاسلام أكثر مما اضطهدت غيره من الأديان ، لان كثيرين من أعضاء اللجنة المركزية بالاتحاد السوفيتي هم من اليهود ، وهم بالتالى يجدون فى القضاء على المسلمين نصرا لليهود فى صراعهم ضد المسلمين ، وعند ما يبذلون الجهد لنشر الشيوعية فى الشرق الأوسط ، فانهم بذلك يخففون أو يزيلون الضغط عن اسرائيل ، (١) ولسنا ننسى أن الاتحاد السوفيتي كان منافسا للولايات المتحدة فى مساندة اسرائيل وفى سرعة اعتراغه بها سنة ١٩٤٨ .

بل ذكرت الأنباء أن جنودا شيوعيين كانوا يحملون أسلحة سوفيتية استتركوا فى الحرب سنة ١٩٤٨ لصالح اسرائيل .
المسلمون بالاتحاد السوفيتي بين الماضى والحاضر والمستقبل :

إذا نظرنا الى الماضى البعيد للمناطق الاسلامية التى زحف عليها الاتحاد السوفيتي نجده صفحة ناصعة ، فقد اشتركت مناطق تركستان مع الحواضر الإسلامية الأخرى فى خدمة الحضارة الاسلامية والانسانية ، ولقد سبق لنا أن اقتبسنا قول الثعالبي فى بيتمة الدهر إن بخارى كانت تحت السامانيين موطناً للجلال والفخر ومركزاً للزهو والعظمة ، وأفقاً للأدب والأدباء ، ومكاناً لالتقاء العلماء والقادة وذوى الرأى .

وقد عاش الثعالبي نفسه فى رحاب نصر الثانى السامانى الذى كان يشبهه بالمأمون بن هارون الرشيد ، وكان لذلك يسمى مأمون السامانيين .

وقبل الثعالبي أنجبت بخارى أشهر محدث عرفه الإسلام وهو الامام البخارى (٢٥٦ هـ) الذى كان له صيت وأسع ، ومكانة عالية فى جمع الأحاديث الشريفة ، وقد طاف عددا من البلدان لتحقيق الأحاديث التى يرويهها ، ثم عاد إلى بخارى فنصبت له القباب ونُشرت فى طريقه الدراهم والدنانير ، وجلس للحديث فى مسجد بخارى . وقد اشتهر بكتابه « الجامع »

(١) انظر المرجع السابق ص ٤١ .

الصحيح » وكان يَستَشرَطُ في اختيار الأحاديث أن يكون إسنادها متصلاً غير مقطوع .

واقْتَبَسْتَ كذلك قول القزويني إن بخارى كانت دائماً مجمع الفقهاء وموطن الفضلاء ومنشأ علوم النظر ، وأكثر سكانها كانوا ينحدرون من نسل عمر بن عبد العزيز ، وقد توارثوا تربية العلم والعلماء كابراً عن كابر ، ولم تُرَ مَدِينَةٌ كان أهلها أشد احتراماً لأهل العلم من مدينة بخارى .

وفي بخارى كذلك ازدهى العالم الكبير ابن سينا الذي اشتهر بأنه متعدد الجوانب الفكرية .

وإذا تركنا بخارى وعلماءها فإننا نواجه مدينة أخرى اشتهرت في التاريخ الاسلامي شهرة واسعة ثم أصبحت أيضاً خاضعة للاتحاد السوفيتي تلك هي مدينة « ترمذ » التي ينسب لها الامام المحدث الترمذي أبو عيسى محمد بن عيسى صاحب الجامع الصحيح (٢٨٩) وينسب لها كذلك الترمذي الفقيه الحنفي أبو عبد الله محمد بن علي صاحب توارد الأصول وعلال العبودية (٢٨٥) وينسب لها كذلك الترمذي الصوفي بهاء الدين حسين الذي توفي في منتصف القرن السابع الهجري ويُعَدُّ جلال الدين الرومي أحد مريديه .

وأنجبت هذه المناطق الجورجاني مؤلف الذخيرة وهي أول دائرة معارف طبية في التاريخ .

وأنجبت كذلك البيروني (٥٤٤٠ هـ) الرياضي الفلكي الطبيب الكيماوي المؤرخ الذي يوصف بأنه أكبر عقلية في تاريخ عصره .

ومن علماء تركستان الذين لا يمكن تجاهلهم النسائي والنسوي والزمخشري وعبد القاهر الجورجاني والتفتازاني والسكاكي وأبو زيد البلخي وسواهم من الأئمة الذين نعرف أفضالهم .

كلمة عن الماضي القريب لهذه المناطق :

أما الماضي القريب لهذه المناطق فهو على العكس من ماضيها البعيد ،

إنه عهد القسر والظلام والدمار ، ويستوى في ذلك النظام القيصري في جبروته والنظام الشيوعي في إلحاده وعدوانيته .

وقد ذكرنا من قبل أساليب الطغيان التي مُنِيَّ بها المسلمون في هذه المناطق ، وطبيعي أنه لا يمكن أن تعيش أمانة جماعة "متدينة" في مجتمع يحارب الأديان ويحارب الاسلام بوجه خاص ، وهذا يجعلنا ندرك مدى ما عانت هذه المناطق من طغيان وعسف .

لقد أغلقت المدارس الدينية تماما ، ودمرت المساجد ، وتحول بعضها الى مقار للحزب الشيوعي ، وأصبحت بخارى ذات التاريخ المجيد أطلالا وخرابا ، ولم يبق من بين المساجد الاسلامية الا مساجد قليلة جدا تفتّح لخديعة الزوار المسلمين الذين يفدون للاتحاد السوفيتي ليروى هؤلاء لذويهم عند عودتهم أن الاتحاد السوفيتي يسمح بقيام المساجد .

أما المسلمون في الاتحاد السوفيتي فلا يسمح لهم بمباشرة الشعائر الدينية في المساجد ، فان أرادوا الصلاة قاموا بها سرا في بيوتهم .

وكان إلغاء المدارس الدينية أمرا جلالا فان ذلك حرم الأجيال الجديدة من التعرف على الاسلام ، وليس أمام من يريد من المسلمين أن يعلم أبناءه شيئا عن الاسلام الا أن يقوم بذلك سرا في بيته ، وهو شيء بعيد المنال أو قليل النتائج .

أما المدارس في الاتحاد السوفيتي فتعلم الأولاد البنات أن الدين خرافة ووسيلة لتحكم الأغنياء في الفقراء .

أما عن حاضر المسلمين في الاتحاد السوفيتي ومستقبلهم ، فذلك فيما أعتقد يتصل بحاضر العالم الاسلامي ومستقبله ، فالعالم الاسلامي أوشك أن ينسى الملايين المسلمين الذين عاشوا و لايزالون يعيشون في

فى جحيم الالحاد والقسوة والظلم بالاتحاد السوفىيىتى ، وبفض الدول
الاسلامىة تقيم علاقات ود مع حكومة العسف فى موسكو ، ولا تتأثر بما
ينزل بالمسلمين هناك من ويلات •

وقد زار الباكستان حديثا أحد علماء تركستان هو الدكتور
يميرنا هاييت وأعلن فى « اسلام آباد » أن موسكو هدمت ١٦٠٠ مسجد
فى الجمهوريات الاسلامىة بروسيا ولم يبق الا مساجد قليلة ، وطالب
الدكتور هاييت المسلمين فى جميع أنحاء العالم أن يقفوا ضد المذابح التى
ترتكبها القوات السوفيتية ضد المسلمين فى تركستان •

وقال إن مسلمى تركستان يناضلون منذ زمن بعيد لتحقيق استقلالهم
عن الاتحاد السوفيتى الا أن نضالهم لم يقابل الا بالرصاص والقمع •

وأوضح أن مسلمى تركستان ليست لهم أية علاقات اجتماعية مع
سكان الجمهوريات السوفيتية الشيوعية الاخرى •• وأكد أن قلوب
مسلمى المنطقة السوفيتية مازالت تنبض بالاسلام مع كل مسلمى العالم •

وقال إنه كان يوجد فى منطقة كردستان السوفيتية حتى عام
١٩١٨ حوالى ١٧٠٠ مسجد لم يبق منها الآن سوى مائة مسجد وأبدى
الدكتور هاييت أسفه لان الدول الاسلامىة لم تتخذ حتى الآن أى موقف
إيجابى تجاه هذه القضية وقال ان مسلمى تركستان يشكلون نحو ٣٠٪
من الجيش السوفيتى •• وأهاب الدكتور هاييت بمنظمة المؤتمر
الاسلامى لتقديم المساعدات لمسلمى تركستان وعرض قضيتهم على
العالم وإيقاف المذابح التى يقوم بها السوفيت هناك •

ونرجو أن تجد هذه الصيحة قلوبا مفتوحة وآذاناً مصغية •

كلمة أخيرة عن المسلمين في الاتحاد السوفيتي :

تتبعنا فيما سبق المناطق الاسلامية التي تتبع الاتحاد السوفيتي الآن ، وتكوّن بعض جمهورياته وذكرنا تعداد السكان في هذه الجمهوريات اقتباسا من المراجع التي بين أيدينا عن كل منها ، ولكن هذا العدد قد تزايد وتذكر أحدث المراجع أن المسلمين في الاتحاد السوفيتي الآن يتراوح عددهم بين أربعين وخمسين مليونا ، ولذلك فهم يمثلون نسبة الخمس تقريبا بين السكان، وقد ذكر الاحصاء الرسمي للسكان عام ١٩٧٩م أن المسلمين في الاتحاد السوفيتي زادوا في السنوات التسع الأخيرة بنسبة ٣١ ٪ في حين أن زيادة السكان في المناطق الأخرى في الاتحاد السوفيتي كانت ٦ ٪ .

ومع زيادة عدد السكان المسلمين زاد وعيهم واتجاههم نحو العالم الإسلامي .

الامبراطورية المتفجرة

وقد أصدرت الكاتبة الفرنسية المتخصصة في الشؤون السوفيتية « هيلين كاريز » كتابا بعنوان « الامبراطورية المتفجرة » ذكرت فيه أن الثورة الروسية حاولت أن تثير عمال أوروبا لتشتعل الثورة العمالية في كل مكان بالقارة الأوروبية ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل ولم يستجب عمال أوروبا لبريق الشيوعية الكاذب ، فاتجهت الثورة الى شعوب الشرق وعقد مؤتمر في « باكو » في شهر سبتمبر سنة ١٩٢٠ ولكن شعوب الشرق رفضت أن تخرج من الاستعمار الاوربي لتدخل تحت سلطان الشيوعية .

وأوشكت الثورة الروسية أن تقنع بروسيا ولكن حاجتها للطعام والمواد الخام من حديد وفحم وبتترول وقطن وغيرها دفعها أن تتجه بالقوة بواسطة الجيش الأحمر إلى فرض معاهدة تقضى بتشكيل « اتحاد الجمهوريات السوفيتية » وهو ما يعرف الآن بالاتحاد السوفيتي .

وتضمن دستور هذا الاتحاد في البداية الاعتراف بالمساواة التامة بين الجمهوريات المختلفة فيما يتعلق بحق كل جمهورية في الاحتفاظ بثقافتها ولغتها الخاصة . وكان ذلك هو ما تمسكت به على وجه الخصوص الشعوب الاسلامية في القوقاز وآسيا الوسطى ، وهى الشعوب التى حاولت منذ مطلع القرن التجمع في أقاليمها ، والحفاظ على تقاليدها ، وعدم الامتزاج بالشعوب الأخرى ، وغبطن الزعماء الروس ، وخاصة بعد أن أصبح ستالين هو المسيطر ، الى أن إحياء الثقافات القومية ينطوى على خطر جسيم بالنسبة لوحدة الاتحاد السوفيتى ، فالتربية القومية البحتة لا يمكن إلا أن تدعّم المشاعر القومية ، وهو ما يتعارض مع الهدف المرسوم الذى يقوم على مَحْوِ كل شعور قومى أو وطنى .

وتوصل ستالين الى الاسلوب الذى يمكن به القضاء على هذا الخطر ، وهو فرض الثقافة واللغة الروسية على جميع الجمهوريات ، جنباً الى جنب مع ثقافتها ولغاتها الأصلية ، وجعل اختيار الزعامات في كل جمهورية من الذين تلقوا الثقافة الروسية وحدها .

وفضلاً عن ذلك ابتدع نظام إشراف الحزب الشيوعى الروسى على جميع أعمال الدول الاتحادية في كل جمهورية ، وقدم فيها المصالح الاتحادية على أية مصلحة محلية ، وخاصة في الثقافة والاقتصاد ، على أمل أن يؤدى ذلك الى تكوين مجتمع جديد مشترك ، وألّمة سوفيتية بروليتارية . تثبت أن التضامن الطبقي يمكن أن يتغلب على الشعور القومى .

ولكن الذى حدث كان على عكس ذلك ففى كل مكان برزت زعامات محلية ، أخذت تعمل على إشعال الاتجاهات القومية بدلاً من إخمدادها ، فكان ذلك بمثابة العبوات المتفجرة الاولى ، التى لم تلبث أن تنسف الامبراطورية من جذورها وكان أبرز هؤلاء الزعماء رجل مسلم من آسيا الوسطى يدعى (فضل الله خوجايف) . وصل الى قمة الحزب الشيوعى

في جمهوريته الإسلامية وراح يبذل قصارى جهده للحيلولة دون ذوبان الشخصية المحلية والاقتصاد الخاص بالمنطقة في الكيان السوفيتي .

ومع أن موسكو قد بعثت بقوات مركزية للإرهاب والتخلص من هذا الزعيم الاسلامي القومي ، الا أنها لم تتمكن من تنفيذ خطتها إذ اصطدمت قواتها بمجموعات من الرجال المسلحين تكونت منهم أول عناصر المقاومة الاسلامية ، التي لقيت كل تأييد من جموع الشعب .

وجن جنون ستالين ، ولجأ الى أقصى عمليات التطهير ، وألغى بالقوة استخدام الحروف العربية في الجمهوريات الاسلامية ، وفرض بدلا منها الحروف الروسية كما قاوم الثقافات الدينية التي كانت نشطة في المناطق الاسلامية .

ولكن ذلك لم يقض على القوميات والثقافات المختلفة ، مما يؤكد أن إعصاراً سينسف هذا الكيان المصطنع الذي يسمى « الاتحاد السوفيتي » وهو في الحق سيطرة الشيوعيين على مقدرات المناطق المختلفة .

ويوم تنجح هذه الحركات النافسة ستكون المناطق الاسلامية أول المناطق التي تستعيد حريتها وكيانها السياسي والاقتصادي والديني (١) .

(١) اقتباس بتصرف من تلخيص نشر في مجلة أكتوبر بتاريخ ١٩٧٩/٦/٢٣ .

الاسلام والمسلمون
في الصين

مقدمة :

ان الحديث عن المسلمين في الصين ليس صعبا ، فبين أيدينا مجموعة مراجع دقيقة كتبها أساتذة صينيون ثقات ، ومن أحدثها البحث العميق الذي كتبه أستاذ صيني هو بروفيسور « زانج » هو بعنوان المعاملات بين الصين والعرب في العصر الوسيط ، وقد نشر في المجلد السادس من مجلدات ندوة الدراسات العمانية .

وهناك كذلك كتابان نشرهما باحث صيني مسلم هو بدر الدين الصيني وأحدهما عنوانه « العلاقات بين العرب والصين » والثاني عنوانه « تاريخ المسلمين في الصين في الماضي والحاضر » وذلك بالإضافة الى مجموعة من البحوث والدراسات القديمة والحديثة .

تعداد المسلمين بالصين الآن تقريبا :

وأول ما نذكره أن تعداد المسلمين في الصين كان ٤٨ مليوناً يوم كانت الصين ٤٦٠ مليوناً كما ذكر الإحصاء الرسمي سنة ١٩٤٨ وإذا كانت الصين الآن قد زادت عن الألف مليون كما أعلنت إحصائيات سنة ١٩٨٢ ، وإذا افترضنا أن نسبة مواليد المسلمين هي نفس النسبة العامة للمواليد في الصين ، فإن عدد المسلمين في الصين يصبح أكثر من مائة مليون (١) .

أديان الصين قبل الاسلام :

شهدت الصين في القرن السادس قبل الميلاد حكيمن شهيرين هما (لاءوتسى) وينطق أحيانا (لوتس) أما الحكيم الثاني فهو (كونغ فوتسى) الذي ينطق كونفوشيوس ، وأولهما أسس بحوالى خمسين سنة تقريبا ، وكان يدعو للقناعة والزهدي والتسامح المطلق ، أما الثاني فكان يدعو إلى

(١) انظر تاريخ المسلمين في الصين لبدر الدين الصيني ص (هـ) من المقدمة و ص ١٠٢ من نفس الكتاب .

العدالة والاستقامة وكان باحثا في الحكمة وقد تناولت بحوثه الحكومة والسياسة والأخلاق والمرأة ، ولم يتجه في بحوثه الى الغيبيات ، وكان شديد التأثر بعبادات قومه وعقائدهم (١) ، كما كان سلوكه الشخصى نموذجيا ومثاليا .

ولهذا كلفه الامبراطور بتطبيق أفكاره فى السياسة والأخلاق فى سائر الولايات ، ومكنه من ذلك بأن جعله وزيرا ، وشهدت الصين على يديه تقدما ملحوظا فى المجالين الأخلاقى والعمرانى (٢) .

ومن نتائج العلاقة الطيبة بين كونفوشيوس والامبراطور أن أبقى كونفوشيوس على العادات الصينية التى تقضى بتقديس الامبراطور والسجود له ولصوره المعلقة فى الأماكن المختلفة ، وهو المنظر الذى بقى حتى القرن الرابع عشر وشهده ابن بطوطة عندما زار الصين ورأى صور الامبراطور معلقة هنا وهناك ، والناس يسجدون لها من حين الى آخر (٣) .

وبعد وفاة كونفوشيوس اتجه الصينيون لتمجيده ، وبناء الهياكل له ، ووضع صور الأباطرة فى هذه الهياكل ، فكان ذلك بمثابة الخضوع لسلطة الدين متمثلة فى كونفوشيوس ، والدنيا متمثلة فى الامبراطور .

وبمرور الزمن أصبحت هذه العقيدة راسخة عند الصينيين ، وأصبح هذا الاتجاه يمثل عندهم الأدين والقومية ، ولهذا كان من الصعب تحويل الصين عن هذه العقيدة الى أى عقيدة أخرى ، كما سنرى فيما بعد .

العلاقات بين الصين والعرب قبل الاسلام :

وتجتمع البحوث الصينية وغيرها على أنه كانت هناك علاقات ومعاملات بين العرب والصين قبل ظهور الاسلام ، فلقد ثبت أن الصين كانت تتعامل مع آسيا الوسطى والغربية قبل الميلاد وفى القرون الاولى للميلاد ، ويذكر

(١) انظر كتاب المجتمع الاسلامى للمؤلف ص ٣٠ .

(٢) محمد محمود زيتون : الصين والعرب عبر التاريخ ص ٤٨ .

(٣) رحلة ابن بطوطة : ج ٢ ص ٩٩ ، الطبعة الاولى سنة ١٣٢٢ هـ .

التاريخ الصينى أنه فى عام ١٣٨ قبل الميلاد أصدر الامبراطور (وو — دى) من أسرة هان الى (جانج كيان) أمرا بالذهاب الى غربى آسيا كسفير للامبراطور ، وذهب هذا الى فرغانة وما حولها ، وقد أرسله الامبراطور مرة أخرى فوصل الى الهند والى آسيا الوسطى (١) .

وفى مطلع الاسلام كان المسلمون يعرفون الصين وثقافتها ومكانها البعيد ولذلك نسب للرسول صلى الله عليه وسلم قوله : اطلبوا العلم ولو فى الصين .

وقد سبق أن وضحنا فى الحاديثنا عن تاريخ الإسلام فى جنوب شرقى آسيا أن الخطوط التجارية البحرية كانت تمتد عبر هذه المناطق الى الصين قبل الاسلام وبعده ، ولم يقتصر اتصال العالم العربى والاسلامى بالصين على الطريق البحرى ، بل كان هناك طريق برى كذلك يربط بين البلاد العربية وبين الصين ، فكان الطريق البحرى يبدأ من ميناء سيراف على الخليج ويمر بسواحل الهند وسيلان والملايو الى موانى الصين الجنوبية .

أما الطريق البرى فكان يبدأ من سواحل الشام مارا بالعراق وايران ثم يتجه فى أحد اتجاهين : الاتجاه الأول عبر تركستان مارا بسمرقند ويسمى هذا الطريق « طريق الحرير » أو عبر كشمير ويسمى « طريق التوابل » .

وكما أن السفن العربية وصلت موانى الصين ، فإن السفن التجارية الصينية زارت الخليج مرارا وتكرارا فى القرن السادس بعد الميلاد ، وتبادلت التجارة مع العرب ، وابتداءً من القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر كانت هذه الفترة تعتبر فترة رائعة فى العلاقات الصينية العربية (٢) ، وقد أصبح هذا الخط الملاهى شهيرا حتى استطاع العالم الصينى الجغرافى

(١) بروفيسور زانج هو : العلاقات بين الصين والعرب ص ٨ .

(٢) بروفيسور زانج هو : العلاقات بين الصين والعرب ص ١١ .

(جياوان) أن يؤلف كتابا عنوانه (الطريق الى البلدان الأجنبية عبر البحار) وقد وصف فيه (دا - شى) أى بلاد العرب وصفا مفصلا (١) •

وصول الاسلام الى الصين :

تذهب بعض الروايات الى أن سعد بن أبى وقاص ذهب الى الصين ونشر الاسلام هناك وتقرر أنه دخل الصين عن طريق البحر وتوفى في كانتون ، فبنى المسلمون ضريحا له إحياءً لذكراه ، ولا يزال الضريح حتى الآن يسمى باسم (ضريح وقاص) (٢) •

وتتجه الروايات الصحيحة الى نفى هذه الرواية والتأكيد على أن سعد بن أبى وقاص لم يزر الصين وأنه مات في المدينة المنورة ودفن في البقيع •

والذى يبدو لنا أن رجلا من أسرة سعد بن أبى وقاص أو أن رجلا اسمه وقاص قد ذهب الى الصين في عهد مبكر ، وقام بالدعوة للإسلام هناك ، فذهبت الظنون الى أن سعد بن أبى وقاص هو الذى ذهب الى الصين •

ويذكر توماس أرنولد أنه عندما توفى يزدجرد آخر ملوك الساسانيين الفرس استنجد ابنه فيروز بامبراطور الصين لينصره على العرب ، ولكن الامبراطور أجاب أن بعد الشقة يمنعه من الاستجابة لطلب الفرس ، وأرسل امبراطور الصين سفيرا الى الجزيرة العربية ليتعرف على مدى قوة الدولة الجديدة وكان ذلك في عهد الخليفة عثمان ، فأحسن الخليفة استقباله وأرسل معه الى امبراطور الصين سفيرا من العرب ، فأكرم الامبراطور وفادة أول سفير من المسلمين بُعِثَ اليه (٣) •

(١) المرجع السابق : ص ١٣ •

(٢) Chinese Muslims in Progress p. 16.

(من مطبوعات ادارة الاستعلامات بالصين الشعبية)

(٣) الدعوة الى الاسلام : ص ٣٣٢ •

ويورد بدر الدين الصينى اقتباسات تؤكد أن وفودا عربية من لابسى الملابس البيضاء (الأمويين) ولابسى الملابس السوداء (العباسيين) قد وصلوا إلى الصين ابان العهد الأموى والعباسى (١) .

وعلى هذا فان الاسلام وصل الى الصين فى عهد مبكر جدا .
وقد أقام المسلمون فى الصين مستوطنة عربية فى (خانقو) وهى إحدى المدن التى جذبت تجار العرب والإيرانيين منذ القرن الثامن الميلادى ، وكان لهم إمام يصلى بهم ويقضى بينهم .

وفى مدينة كانتون ، بوابة الصين البحرية ، والمركز التجارى الشهير عاش عدد كبير من المسلمين وأقاموا مسجدا كبيرا كان اسمه مسجد « ذكرى النبى » كما كَوَّن المسلمون جاليات فى تشو إن تشو ، وفى هانج تشو وغيرهما من المدن والمناطق .

وقد زار ابن بطوطة مدينة كانتون وغيرها من مراكز المسلمين بالصين كما سنرى فيما بعد .

وفى سنة ٧٥١ م ، استطاع جيش أبى مسلم الخراسانى أن يهزم جيش كسيان — سى القائد العام لمنطقة آن — كسى ، الخاضعة لاسرة تانج (٦١٨ — ٩٠٧) فى معركة الطلاس نتيجة للصراع على طشقند (٢) واستولى المسلمون على طشقند عقب هذه المعركة وأصبح لهم مكان رفيع فى هذه المناطق .

وفى سنة ٧٥٦ م أرسل الامبراطور (سوتشونج) رسولا إلى الولاة العرب الذين كانوا يتولون الأمر نيابة عن الخليفة فى آسيا الوسطى يطلب منهم أن يرفعوا للخليفة (أبى جعفر المنصور) رجاءه فى أن يرسل له الخليفة نجدة لمقاومة ثورة هبت ضده وهددت عرشه ، وكانت بقيادة

(١) المرجع السابق : ص ١٣ .

(٢) بدر الدين الصينى : تاريخ المسلمين فى الصين ص ١٦ — ١٧ .

(آن لو شان) وقد استجاب الخليفة لذلك وأرسل له جيشا قوامه عشرون الفا وقد نجح هؤلاء في مهمتهم خير نجاح ، وردوا للامبراطور مكانته ، وقد أشاد المؤرخ الصينى (تانج شو) فى تاريخه بهذه النجدة العربية التى قضت نهائيا على الفتن الداخلية ، وأشار اليها أيضا (بريتشنايدر) فى كتابه المعروف عن أقدم صلات الصين بالعرب فلما انتهوا من مهمتهم بنجاح طلب منهم الامبراطور البقاء فى (شانغ آن) والاستيطان بها .

وتزوج هؤلاء من صينيات وتكونت منهم جالية كبيرة قوية فى الشمال الغربى للصين ، وانتشروا فيما بعد فى أنحاء هذه المنطقة (١) .

وفى عصر أسرة (سونغ) ٩٥٠ إلى ١٢٧٧ كان المسلمون يعيشون فى محلة خاصة سميت محلة الأجانب ، وكانت مركزا لنشاطهم الدينى والاقتصادى .

ويبدو من كلام « زانج هو » أن هذه المحلة هى (كوانشو) وكان قد استقر فيها كثير من العرب وزوجاتهم وأولادهم حتى أصبح عددهم أكثر من عدد الصينيين بها ، وكان سكانها من العرب واسعى الثراء ويبدو أن أكثرهم جاء الى الصين من دمشق بدليل أنهم أقاموا مسجدهم على طراز الجامع الأموى فى دمشق (٢) .

عصر المغول فى الصين (١٢٧٧ — ١٣٦٧)

وخلال عصر المغول فى الصين والذى يسمى عصر (يوان) أخذ المسلمون ينهضون بسرعة كبيرة كما تدفق عدد من مسلمى آسيا الوسطى على الصين بعد أن أصبحت المنطقة كلها خاضعة للمغول ، وعندما اختار قبلاى خان امبراطور الصين (١٢٧١ — ١٢٩٤) بكين عاصمة لامبراطوريته عين عالما مسلما هو شمس الدين عمر فى وظيفة عالية أتاح له أن ينشر

(١) محمد محمود زيتون : الصين والعرب ص ٣٥ .

(٢) زانج هو : العلاقات بين الصين والعرب ص ٣٨ .

السلوك الاسلامى والاتجاهات الاسلامية فى المنطقة ، وكان شمس الدين عمر يلقب « السيد الأجل » وقد استطاع حفيده أن يحصل من امبراطور الصين المغولى سنة ١٣٣٥ على الاعتراف بأن الاسلام هو الدين الحق الخاص ، وقد تسبب ذلك فى انتشار الاسلام بين الكثيرين من الصينيين (١) .

وكان مما سبب انتشار الاسلام فى عهد المغول كذلك أن بعض أباطرة المغول الصينيين المسلمين وضعوا شرطين لتولى أهل الصين الوظائف ، وهذان الشرطان هما معرفة لغة المغول واعتناق الدين الاسلامى (٢) .

ويذكر رشيد الدين مؤرخ المغول أن الامبراطورية المغولية كانت منقسمة الى ١٢ ولاية ، وكان على ثمانية منها حكام مسلمون ، وهذا يوضح مدى نفوذ المسلمين فى الصين ابان هذا العصر .

بعد عصر المغول :

وبعد عصر المغول جاءت أسرة منغ (١٣٦٨ - ١٦٤٢ م) وبعدهم جاء عصر تسنغ (١٦٤٤ - ١٩١١ م) وفى خلال هذين العصرين وبخاصة العصر الثانى لاقى المسلمون بعض العنت من الحكم الصينى ، فان الصينيين عادوا لحاسيتهم تجاه الكنفوشية وعبادة الامبراطور ، وكان مما أشعل حماسهم لذلك تخلصهم من السلطة المغولية التى رجّحت كفة الاسلام .

ومن أمثلة الاضطهاد التى عاناها المسلمون ما يذكره التاريخ من أن بعض الولاة الصينيين كتب يستعدى امبراطور الصين على المسلمين ، فذكر أن المسلمين لا يعبدون معبودات الصينيين ، ولا يتبعون نظام التقويم الصينى ، ويستعملون تقويما خاصا بهم ، ويحتفلون برأس السنة

(١) توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٣٣٥ .

(٢) محمد محمود زيتون : الصين والعرب ص ٢٣ .

(م ٣٩ - الموسوعة التاريخية)

الجديدة حسب تقويمهم الخاص ، ويلبسون على رؤوسهم كوفيات بيضاء ، ويجتمعون في معابدهم التي يسمونها مساجد ، ولا أحد يعرف ما هي الأرواح التي يعبدونها ، وقد أقاموا نظاما للصوم في شهر خاص ، ولا يسجدون لصورة الامبراطور عندما يرونها ، ولا يشربون الخمر ولهم لغة خاصة بهم ونتيجة لذلك طلب هؤلاء الولاة إخراج المسلمين من دينهم ، وتعطيل مساجدهم اغلاقا أو تخريبا (١) •

ولحسن الحظ كان الامبراطور الذي تلقى هذا الكتاب واسع الفكر عميق النظر ، فكتب منشورا يقرر فيه أن المسلمين يؤدون واجبهم في المجتمع الصيني على خير ما يكون ، وأنهم من ناحية الدين يتبعون دين أجدادهم ، ومن ناحية اللغة فما أكثر اللغات في الصين ، وأما لباسهم وطعامهم فهي مسائل لا أهمية لها ، وينبغي أن تترك لهم الحريات ماداموا يؤدون واجباتهم على النحو الأمثل ، وقد ظهر منهم مدنيثون وعسكريون ارتقوا الى أعلى المناصب ، وهذا أقوى دليل على أنهم تطبعوا بطباعنا وتعودوا عاداتنا (٢) •

على أن المسلمين أخذوا حذرهم من أعدائهم وآثروا أن يقربوا من الصينيين فيما لا يخالف الاسلام حتى لا يتعرضوا لاضطهادات قد تكون شديدة الضرر بهم ، وسنذكر فيما بعد هذا التحول الذي لجأ له المسلمون في الصين ، حتى لا يمسهم السوء •

بقى أن نذكر أنه في هذا العصر ظهر بعض العظماء من صفوف المسلمين الصينيين ، مثل تشانج يوتشونج كما برز اسم بحار صيني مسلم في المراكز الحضارية بإدارات الفلك والنجوم واسم هذا البحار هو الحاج جيهان •

(١) فوتهونغ هسيان : ص ١١٨ نقلا عن تاريخ المسلمين في الصين
لبدر الدين الصيني ص ٤٨ •
(٢) توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام ص ٣٤٠ •

ابن بطوطة في الصين :

وقد زار ابن بطوطة مناطق متعددة بالصين ونزل ضيفا على التجمعات الإسلامية ، ووصف حياة المسلمين هناك وصفا دقيقا ، وهو يقول إن المسلمين يسكنون في مدن كثيرة من مدن الصين وينفردون في هذه المدن بأحياء خاصة بهم ، ولهم فيها المساجد لإقامة صلاة الجمعة ، ولإجراء اللقاءات المختلفة ، والمسلمون في الصين معظّمون محترّمون (١) .

ويقول في موضع آخر : ان المسلمين لهم في هذه المدينة مسجد جامع ، وعدد من الزوايا ولهم سوق رائجة ، ولهم قاض وشيخ يرجع له المسلمون في كل أمورهم (٢) .

ويتحدث ابن بطوطة عن مدينة اسمها الخنساء ويقول إنها على وزن الخنساء الشاعرة ، وأنها مدينة لم يرَ مثلها في الحجم ، وهي تنقسم الى ست مدن ، ويقول إنه عندما وصلها استقبله قاضيها وشيخ الاسلام بها ، وأولاد عثمان بن عفان المصري ، وهم كبار المسلمين بها ، ودخل ابن بطوطة في هذا الموكب وأخذ يتنقل من مدينة الى مدينة حتى دخل المدينة الثالثة التي يسكنها المسلمون ، ويقول ابن بطوطة انها مدينة حسنة ، وأسواق المسلمين بها مرتبة ترتبها جميلا ، وبها المساجد والمؤذنون ، وبها زوايا تعرف بالعثمانية نسبة الى عثمان المذكور آنفا ، وهي حسنة العمارة ، ولها أوقاف كثيرة ، وعدد المسلمين بهذه المدينة كثير ، ومكانتهم عالية ، ولهم جاه وحرمة (٣) .

المسلمون في تركستان الشرقية :

في حديثنا عن تركستان من قبل ذكرنا أنها تنقسم قسمين تركستان الغربية وهي التي استولى عليها الروس وتركستان الشرقية وهي التي

(١) رحلة ابن بطوطة : ج ٢ ص ١٩٤ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٩٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

نريد أن نتحدث عنها هنا ، ومساحة تركستان الشرقية حوالى ٦٠٠.٠٠٠ ميل مربع ، وسكانها حوالى تسعة ملايين ، والمسلمون منهم حوالى ٨٥٪ وهم من الايغوريين وهم جنس من الاتراك ، وكانت عاصمتها (أورومجى) « تيهوا » الآن ، وهذه المنطقة كانت ضمن المناطق التى فتحها قتيبة ابن مسلم ، ومنها أرسل مبعوثه هيرة بن المشمرد الى امبراطورية الصين فعاد محملا بالتحف والهدايا (١) .

وقد استولى الصينيون على هذه المنطقة سنة ١٧٥٩ م ، ولكنها رفعت علم الثورة عقب ذلك عدة مرات ضد الاحتلال الصينى ، وكان آخر هذه الثورات ثورة الاوزبك سنة ١٨٦٦ م . ولكن الصينيين تغلبوا على هذه الثورة بالمقهر والقوة سنة ١٨٧٨ ، وتم ضم هذه المنطقة الى الصين سنة ١٨٨١ م ، وسميت سينكيانج أى الأرض الجديدة .

وقد تجددت هذه الثورات فى القرن العشرين وكان آخرها بقيادة الجنرال عثمان باتو ، ولكنها فشلت ، وأعدم الجنرال البطل فى أبريل سنة ١٩٥١ (٢) .

وفى سنة ١٩٥٣ أعلنت حكومة الصين الشعبية أن سينكيانج دولة تتمتع بالحكم الذاتى وعين السيد سيف الدين رئيسا لحكومتها .

المسلمون فى الصين فى عهد الجمهورية : ١٩١١ — ١٩٤٩ م

تجمع المسلمون فى عصر الجمهورية فى الصين فى بلاد محددة تقريبا ، وذلك كنتيجة لما عانوه فى عصر تسنغ وكانوا يقصدون بهذا التجمع أن يضمنوا لأنفسهم نوعا من الحماية ، وكان تجمعهم فى ولايات الشمال مثل قانسو وننغ وتسى تفاى وسينكيانج ، كما وجد عدد من المسلمين فى ولايات أخرى وبخاصة فى شانتونج شمال النهر الاصفر .

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ص ٢٦٩ — ٢٧١ .

(٢) أحمد عطية الله : القاموس الإسلامى ج ٤ ص ٣٨٩ .

حياة المسلمين بالصين في عهد الثورة

كان المسلمون في الصين يشتغلون في التجارة امتدادا لجذورهم القديمة ، وكان عدد كبير منهم يشتغل بالزراعة والرعى وبخاصة سكان الشمال الغربى ، وهناك اغنية نقلها بدر الدين الصينى عن هؤلاء وكلماتها هى :

بين سمائنا ورمالنا
ومع القطعان من أغنامنا
نعيش سعداء فى أرضنا

ولمسلمى الصين مساجدهم التى تستعمل مراكز للعبادة والثقافة بالإضافة إلى كونها مراكز اجتماعية ، وقد عملوا فى عصر الجمهورية على توحيد صفوفهم وإقامة ألوان من الترابط فيما بينهم مهما ابتعدت مواطنهم أو اختلفت ديارهم ، ونتيجة لهذا الاتجاه أقاموا الجمعيات الآتية : —

- ١ — جمعيات لها صفة تعليمية •
- ٢ — جمعيات لها صفة اجتماعية تعاونية •
- ٣ — جمعية الأدب الاسلامى الصينى •
- ٤ — منظمات شبه سياسية •

وقد عملت هذه الجمعيات على رفع شأن المسلمين فى الصين فى مختلف المجالات •

المسلمون فى العهد الشيوعى (من سنة ١٩٤٩ إلى الآن) •

عندما قامت الشيوعية فى الصين هرب بعض المسلمين الى تايوان مع تشيانج كاي شيك ، وهرب آخرون الى الهند وباكستان والقاهرة والمملكة العربية السعودية ولكن الغالبية العظمى من المسلمين بقيت فى الصين ، فالصين موطنهم فى كل الاحوال يلاقون فيه ما يلاقيه باقى السكان والمواطنين •

وربما جاز لنا أن نقول ان الشيوعية عدوة للاسلام والمسلمين في كل زمان ومكان ، وان دماء المسلمين استباحها الشيوعيون دائما ، ولكن ربما جاز لنا أن نقول إن الصين كانت متأثرة بعراققتها الحضارية ، وبأهمجالاتها التاريخية فلم تكن عنيقة مع الأديان كما كانت روسيا ، ولهذا بقيت الكونفوشية في الصين وبقى الاسلام كذلك ، ولم ينزل بالمسلمين ذلك الضر الذي نزل بإخوانهم في روسيا •

فلما جاءت الثورة الثقافية في الصين في الستينات أنزلت بعض المتاعب بالمسلمين ، وحرمتهم من الامتيازات التي كانت مُتَمَنَح للمسلمين، ولكن في يوليو سنة ١٩٧٩ أصدرت حكومة الصين تعليماتها بالسماح للمسلمين أن يقوموا بتأدية شعائهم الدينية ، وإعادة فتح المساجد للعبادة ، بعد أن كانت قد تحولت إلى متاحف للزيارة ، وكان ذلك نتيجة لاتجاه الحكومة الصينية بعد ما وتسى نتج ، لتخفيف اجراءات ما سمي بالثورة الثقافية ، ومحاولاتها تحسين العلاقات مع الدول العربية والاسلامية (١) •

ونتيجة لهذا الاتجاه وللاخلاق الصينية بوجه عام أصبح للمسلمين مكانة طيبة في الصين ، وهم يشغلون وظائف كثيرة مرموقة ، ثم هم يتمتعون بالحكم الذاتي في ولايتى سينكيانج ولينسيا (٢) •

التبادل الثقافي بين العرب والصين :

يذكر بروفيسور « ذانج هو » أنه نتيجة للمبادلات التجارية المتكررة بين العرب والصين جرى تبادل بين الجانبين في النواحي الثقافية والتكنولوجية ، وأبرز هذه النواحي انتقال تكنولوجيا صناعة الورق إلى العرب ، ومنهم إلى الغرب ، وقد تمَّ ذلك الانتقال عقب المعركة التي أسهم الجيش العربى فيها لاختداد ثورة (آن لوشان) فقد استعان العرب

(١) دكتور عادل طه : المسلمون في العالم ص ١٠٥ •

(٢) Chinese Muslims in Progress p. 36. (٢)

ببعض الأسرى من الجنود الصينيين الذين حذقوا صناعة الورق في إنشاء أول مصنع للورق في سمرقند ولم يمض وقت طويل على ذلك حتى أصبح الورق السمرقندى مشهورا في جميع الأقاليم الخاضعة للخليفة العباسي ، وقد حل الورق السمرقندى محل الورق المصرى •

وفي أوائل عام ١٧٣ هـ ٧٩٣ م استخدم الخليفة العباسي هارون الرشيد بعض العمال الصينيين الذين اشتهروا بصناعة الورق في سمرقند في إنشاء مصنع آخر للورق في بغداد ، ثم انشئ مصنع الورق الثالث بعد ذلك في دمشق ، وكان مصنع دمشق يقوم بتزويد أوروبا بالورق مدة عدة قرون ، وبعد القرن الثانى عشر الميلادى تعلم الاوروبيون صناعة الورق من العرب تدريجيا •

ومن العلوم التى وردت الى العرب من الصين علم الاختزال ، ومن البلاد العربية انتقل هذا العلم أيضا الى أوروبا ، ويستمر بروفيسور « ذانج هو » في سرد الخبرات والعلوم التى اقتبسها العرب من الصين ونقلوها الى أوروبا وأن منها استخدام « البوصلة » والملاحه الفلكية التى كانت تعتمد على مراقبة النجوم (١) •

أما العلوم والتكنولوجيا التى اقتبستها الصين من العرب فكثيرة وعظيمة ، فان العرب كانوا قد قاموا بترجمة عدد كبير من المؤلفات القديمة واستوعبوا ما بها من علم وثقافة ، وأضافوا الكثير في حقول الرياضيات وعلم الفلك الجغرافيا والطب وغيرها •

ولما تم ارتباط بين الصين والعرب اقتبست الصين كثيرا من الفكر العربى وبخاصة خلال تاريخ أسرة « يوان » فعرفت الأدوات الفلكية ويقرر « ذانج هو » أن جنكيزخان عندما قام بحملته على سمرقند أسر

(١) ذانج هو : المرجع السابق : ص ٢٤ — ٢٩ باختصار •

ثلاثين ألفا من العمال المسلمين الذين كانوا يجيدون الصناعات المختلفة ووزعهم على العمل في الصين ، وقد استطاع هؤلاء أن ينقلوا الى الصين كثيرا من الصناعات العربية ، وبخاصة الصناعات الحربية (١) .

الصينيون والاسلام :

أوردنا في الصفحات السابقة أن أعدادا كبيرة من المسلمين دخلوا الصين تجارا أو جنودا أو مهاجرين وأقاموا بها وتزوجوا من نساء صينيات وكونوا بذلك أسرا اسلامية لم تلبث أن أصبحت مراكز إسلامية ، وأن تكونت منها تجمعات كبيرة لها مساجدها ومدارسها ومنظماتها ، كما أن الصين زحفت على تركستان الشرقية وضمتها لها .

والذي نريد أن نسأل عنه هنا هو مدى انتشار الإسلام بين الصينيين أنفسهم ؟ أو بلغة توماس أرنولد ما مدى نجاح الدعوة الاسلامية بين الصينيين ؟

والذي يظهر بادىء ذى بدء أن الصينيين اعتبروا الكنفوشية دينا ووطنية ، وتمسكوا بها تمسكا شديدا جعلهم يرفضون الانتقال لأى دين آخر ويرَوْن ذلك انحرافا شديدا ، بل انهم كما أثبتنا من قبل كانوا يتجهون لمحاربة المسلمين لأنهم لا يسجدون لصورة الامبراطور الصينى ، ولا يأكلون لحم الخنزير ، وليست لهم أصنام في معابدهم ، ولا يشربون الخمر ولولا أن الامبراطور اتجه للتسامح لكان من المحتمل أن يُوقعَ الصينيون بالمسلمين وأن يُنزلوا بهم ألوانا من الأذى .

وقد أحس المسلمون بما قد يصيبهم من جراء إثارة الصينيين ، فاتجهوا لإخفاء شعائرتهم الدينية كلما استطاعوا ذلك ، كما أنهم تبنوا بعض العادات الصينية التى لا تخالف الاسلام كاتخاذ ضفائر للشعر على الرأس ، ولبس الملابس الصينية وتجنبوا لبس العمامة في غير

المساجد ، كما أنهم لم يبنوا مآذن عالية ، وجعلوا مساجدهم قريبة الشبه بمعابد الصينيين ، وأعلن المسلمون كذلك أنهم يسيرون وفق تعاليم أجدادهم في قضايا الزواج وتحريم لحم الخنزير وتحريم الخمر ولعب الميسر (١) .

ولذلك كان عصر المغول بالصين هو أزهى عصور انتشار الاسلام في الصين كما ذكرنا من قبل ، فلم يحتاجوا خلاله إلى اخفاء عباداتهم .

على أن المسلمين في العصور الأخرى اتخذوا طرقا متعددة أكثرها سرى لدعوة بعض الصينيين إلى الاسلام دون اصطدام بالمجتمع الصيني ، وكان من نتيجة هذه الدعوة أن دخل الاسلام جماعة من اليهود الصينيين في نهاية القرن السابع عشر . كما أن أعدادا أخرى من الصينيين أقبلت على الاسلام واعتنقته لصلة جوار أو عمل مع المسلمين ، وقد ثبت أن أعدادا كبيرة من المسلمين الصينيين يستطيع الواحد منهم أن يعيّن اسم أول من أسلم من أجداده ، وهذا دليل على استمرار عملية التحول إلى الاسلام (٢) .

ومن الوسائل التي اتخذت لتحويل عدد من الصينيين إلى الاسلام ما يذكره توماس أرنولد من أن الضباط المسلمين في الجيوش الصينية وبخاصة في عهد المغول حولوا بالدعوة كثيرا من الجنود الذين كانوا يعملون تحت رياستهم إلى الاسلام ، كما أن كثيرين من أصحاب المناصب العالية المسلمين استعانوا بمناصبهم لتحويل عدد من رؤوسهم الصينيين إلى الاسلام (٣) .

ومن وسائل تحولات الصينيين إلى الاسلام ما تؤكد المراجع الموثوق بها من أن المسلمين بالصين كانوا ينتهزون فرصة المجاعات التي كانت

(١) توماس أرنولد : الدعوة للإسلام ص ٣٤٤ — ٣٤٥ .

(٢) المرجع السابق : ص ٣٤٦ .

(٣) المرجع السابق : ص ٣٤٧ .

كثيرة الوقوع والتي كانت تدفع الآباء لبيع أطفالهم لإنقاذهم من الجوع ، فكان المسلمون يشترون هؤلاء الأطفال ويحولونهم الى الاسلام ويربونهم تربية اسلامية •

ويروى توماس أرنولد أن عدد الذين يدخلون في الاسلام كل عام بهذه الطريقة يفوق الحصر والعد •

كما يذكر أن عادة شراء الأطفال أيام المجاعات ظلت منتشرة في الصين الى عهد قريب •

وهذه التحولات متعددة الأسباب دفعت كاتبها روسيا هو فاسيليف سنة ١٨٦٧ أن يؤلف كتابا عن الاسلام في الصين يذكر فيه أن الاسلام مهيباً لأن يصبح الدين القومي للامبراطورية الصينية وهذا سيقطب تباعاً الأوضاع السياسية في العالم الشرقى رأساً على عقب (١) •

ويعلق توماس أرنولد على هذه النبوءة بقوله إنه قد مرّ نصف قرن عليها ولكن شيئاً لم يحدث لتتحقق هذه النبوءة •

ورأى توماس أرنولد هو ما أشرنا اليه من قبل أن الكونفوشية أصبحت ديناً وقومية لدى أكثر الصينيين مما يجعل من الصعب أن تنصرف عنها جموع الصينيين وبخاصة أن الدعوة للاسلام قد أهملها المسلمون للأسف ، فلا تكاد توجد كتب عن الاسلام بلغات العالم ، وهو شيء نرجو أن يتداركه المسلمون لتصل دعوة الله الى الناس في مختلف البقاع •

الاسلام والمسلمون
في الفلبين

1902-1903

1904-1905

معلومات عامة عن الفيلبين :

الفيلبين إحدى دول جنوب شرقى آسيا ، وتتكون الفيلبين من عدة آلاف من الجزر تبلغ حوالى سبعة آلاف جزيرة ، وبعض الجزر لها أسماء مثل جزيرة لوزون فى الشمال وبها العاصمة (مانيلا) ومثل جزيرة منداناو فى الجنوب ، وهناك آلاف الجزر ليست لها أسماء خاصة وقد تعرف بأهم البلدان بها .

وتقع الفلبين فى المنطقة الاستوائية ، ومن هنا فالفصول الأربعة لا تُعرف فى كثير من مناطقها وانما يوجد بها فصل الأمطار وفصل الجفاف ، والجو فى الفيلبين معتدل غالبا ، لكثرة الأمطار ولأن البحار تحيط بالجزر ، فجوها قريب الشبه من جو إندونيسيا الذى ذكرناه من قبل .

وتعداد السكان يزيد عن أربعين مليونا ، منهم حوالى ستة ملايين يعتنقون الدين الاسلامى ، وقلة قليلة تتبع الكونفوشية والبوذية ، أما الأغلبية الباقية فمسيحيون يتبعون المذهب الكاثولى .

وكانت هذه الجزر قديما إحدى المناطق التى تكون امبراطورية سىرى ويجايا وامبراطورية ماجابيت ، ولما انتشر الاسلام فى جنوب شرقى آسيا ارتبطت هذه الجزر عند المسلمين بمنطقة الملايو ، ولذلك سميت « عذراء ماليزيا » ولما زحف لها الأسبان سميت « الفلبين » باسم فيليب الذى دفع لها الجيوش لاحتلالها فى نفس الفترة التى تعرضت فيها منطقة جنوب شرقى آسيا للاستعمار الغربى .

وسكان الفلبين هم من الجنس الإندونيسى الملايوى .

الإسلام والمسيحية فى الفيلبين :

قلنا فى مطلع الحديث عن دول جنوب شرقى آسيا إن فى هذه المنطقة دولا تتكون من جزر غير متصلة بأرض آسيا أى بأرض الصين ،

وهذه الدول أفلقت من الزحف الصينى العميق ، إذ ليست متصلة بالصين ، وبالتالي ليس الزحف سهلا ، وعلى هذا لم يكن تأثيرها بالصين وبالفكر الصينى عميقا ، وهذه الدول هى اندونيسيا والفلبين . وهاتان الدولتان لم تزحف لهما أديان الصين بشكل قوى ، ثم إنهما لم تَنشأ بهما أديان من الداخل ، وكانتا لذلك مستعدتين لاستقبال أديان من الخارج •

أما اندونيسيا فقد جاء لها دين الاسلام منذ مطلع الاسلام وانتشر فيها يوما بعد يوم ، وكانت الدعوة هى وسيلة تقديم الإسلام إلى الناس ، حتى اعتنقته الجُمهرة العظمى من السكان ، وأصبحت إندونيسيا دولة اسلامية •

أما الفلبين فقد دخلها الاسلام وانتشر فيها ، وكان يمكن أن يعم جزرها ويكوّن منها دولة إسلامية كما حدث بالنسبة لإندونيسيا ، ولكن الفلبين طرأ بها فى العصر الحديث طارئ غير مجرى الفكر الدينى بها ، وذلك أن الفلبين تتكون من مجموعة من الجزر كانت تتبع امبراطورية ماجابيت مثل إندونيسيا ، فلما تفككت امبراطورية ماجابيت فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى بدأت جزر الفلبين تكوّن كل منها مملكة صغيرة أو تتجمع بعضها لتكوّن مملكة أكبر ، وكان الاسلام دين أكثرية السكان بها وأكثرية الممالك ، ولم يطل بها الزمن على هذا النحو حتى دهمها الاستعمار الاسبانى ابتداء من سنة ١٥٢١ واستولى عليها جزيرة إثر أخرى وكون من هذه الجزر دولة أسماها الفلبين نسبة الى الملك « فيليب الثانى » ملك أسبانيا ، وللأسبان تاريخ خاص فى الصراع الصليبي ، فعملوا على نشر المسيحية فيها ، ومن هنا أصبحت الفلبين هى الدولة الوحيدة المسيحية بين دول هذه المنطقة •

ويذكر الباحثون أن الاسبان حملوا الناس على اعتناق المسيحية بالحديد والنار ، وأسسوا معاهدهم الكاثوليكية هناك ، وحاولوا القضاء على كل المظاهر والمؤسسات الاسلامية •

وهذه المعلومات تحتاج الى شىء من التفصيل ، ويمكن القول بشكل مؤكد ان الاسلام انتشر فى الجزر المسماة بجزر الفيلبين فى نفس الوقت وبنفس الطريقة التى انتشر بها الاسلام فى إندونيسيا ، ولما كان الإسلام قد وصل إلى شبه جزيرة الملايو وإلى جزيرة سومطرة أولا ثم امتد عقب ذلك إلى باقى جزر إندونيسيا أما الجزر التى سميت بجزر الفيلبين ، فإن بعض الباحثين يذكرون أن الاسلام جاء الى الفيلبين من سومطرة أو من شبه جزيرة الملايو ، والذى نراه أن الوسائط التى حملت الاسلام إلى شبه جزيرة الملايو وإلى سومطرة هى نفسها التى حملت الاسلام إلى الجزر التى سميت فيما بعد بجزر الفلبين •

وعقب انتشار الإسلام بهذه الجزر قامت بها سلطنات إسلامية متعددة ، وكان سلاطينها من العلماء الذين حملوا الاسلام لها ، أو كانوا من أهل البلاد الأصليين الذين اعتنقوا الاسلام •

وعندما سقطت دولة ملقا الإسلامية فى أيدي البرتغاليين ، وكانت هذه أكبر الدول الإسلامية بالمنطقة ، حدث شىء مهم بالنسبة للفيلبين ، فقد أحس كثير من زعماء المسلمين فى ملقا بأن الفيلبين يمكن أن تكون ملجأ لهم من الغرب المسيحى ، وأن تقوم بها دولة إسلامية كبرى بعيدا عن نفوذ البرتغاليين ، فهاجر عدد من الاسر المالكة فى ملقا الى الفيلبين ، وهناك أنشئوا ممالك كبيرة بجوار السلطنات التى كانت موزعة بالجزر ، ومن أهم الذين هاجروا الى الفيلبين من ملقا الشريف محمد كابولج الذى وصل الى ملا بانج فى العقد الثانى من القرن السادس •

وقد اهتم هذا الشريف بنشر الاسلام بين السكان من جماعات « الايرانوس » و « المارانوس » وسرعان ما انجذبت له أعداد هائلة من القبائل والجماعات الأخرى وأسس أسرة حاكمة قوية •

وعندما وصل الاسلام إلى الفيلبين كانت سلطنات سولو وماجينداناو وبويان تمثل إمارات مركزية يتبعها عدد من الجزر •

وقد مارست هذه السلطنة سيادتها على مجموعة جزر سولو بأكملها بما فيها تاجويما (جزيرة باسيلان حاليا) وأجزاء عديدة من شبه جزيرة زامبوانجا ، وكان راجا بويان يسيطر عندئذ على أكثر من ٢٥ مستعمرة كلها مسلمة عدا اثنتين فقط . وفي ذلك الوقت كان سلطان ماجينداناو يسيطر على جميع المستعمرات الواقعة على مصب نهر بولانجي فضلا عن عدة مستعمرات في مناطق الإيرانون .

وجدير بالذكر أنه كانت هناك بعض المستعمرات المسلمة في « منيدورو » يحكمها زعماء المسلمين عند وصول ليجاسبي ، وكانت مانिला في ذلك الوقت تحت حكم الراجا المسلمين الذين يرتبطون بصلة القربى بسلاطين بريوني وسطان سولو (١) .

وجاءت أسبانيا الى الفيليبين ولاسبانيا عداء عميق ضد الاسلام والمسلمين كما قلنا آنفا ، واذا كانت مدة سيادة البرتغال في هذه المنطقة قصيرة ، واذا كانت البرتغال قد اتجهت بأكثر اهتمامها للجانب الاقتصادي ، فان فرصة أسبانيا بالفيليبين كانت أوسع ، وقد كان موقف أسبانيا من الفيليبين امتداداً لموقفها الصليبي من مسلمي الاندلس ، وهكذا أفرغت أسبانيا بالفيليبين كل ألوان الحقد الذي كانت تحمله ضد المسلمين ، وطال بها الزمن في الفيليبين (١٥٢١ — ١٨٩٨) فهذه المدة التي قاربت أربعة قرون قضت فيها أسبانيا على أجيال متتالية من المسلمين بطريق الحروب الشرسة المتتالية ، وألزمت الكثيرين باعتناق المسيحية عن طريق المدارس التي تربي فيها النشء حيث لا يسمعون شيئا إلا عن المسيحية ، وعن طريق المستشفيات التي كان على المريض فيها أن يعتقد المسيحية ويؤدي طقوسها والا حُرِمَ العلاج والدواء ، وكذلك عن طريق الوظائف التي لم تكن تقدم الا للمسيحيين . هذا بالإضافة الى طرق الدعوة والإكراه .

وقد بذل شعب الفيليبين أقصى جهده ولكن قوة الحديد والنار كانت

(١) دكتور احمد الونتو : الاسلام والفيليبين ص ٧٧ .

أقوى منه ، فلم يبق متمسكا بالاسلام الا الجماعات الكبيرة التي دافعت عن نفسها واستعذبت التضحية بكل شيء في سبيل الاحتفاظ بالعقيدة ، وهكذا لم يبق في الفلبين الا حوالى ستة ملايين من المسلمين هم الذين تجمع أكثرهم في الجزر الجنوبية •

ومن الجدير بالذكر أن المسلمين دافعوا عن أنفسهم وأموالهم بقوة هائلة وصبر طويل ، ولكن الأسلحة الحديثة كانت أقوى منهم ، وكان هناك كذلك سلاح الخديعة الذى استعمله الأسبان مع بعض الطامعين في السلطان من المسلمين ، وللأسف وقع هؤلاء في حبال الخداع وساعدوا الأسبان ضد المسلمين على أمل أن يصير لهؤلاء السلطان على البلاد بمساعدة أسبانيا ، ولكن الأسبان لم يوفوا بعهدهم ولم ينل هؤلاء المخدعون إلا الخسران وسوء الذكرى •

قبيل الزحف الأمريكى للفلبين :

انتقلت السيادة على الفلبين من أسبانيا للولايات المتحدة في سنة ١٨٩٨ — ١٨٩٩ ومن الرائع أن نقتبس من المؤلف الفلبينى جملة مهمة تؤكد أن الأسبان على الرغم من قسوتهم وطول صراعهم في الفلبين لم يستطيعوا أن يقضوا على الإمارات الاسلامية ، بل ظلت كثير من الامارات يعيش فيها الحكم الاسلامى •

يقول الدكتور أحمد الونتو :

قبل وصول الحكم الأمريكى إلى الفلبين في نهاية القرن التاسع عشر كانت هناك عدة سلطنات وإمارات إسلامية في جنوب الفلبين ، وظلت هذه الإمارات مستقلة دون أن تهزمها أسبانيا ، وعلى وجه التحديد في جزيرة مينداناو ، ومجموعة جزر سولو ، وكانت أكبر سلطنة في ذلك الوقت هى سلطنة سولو التى جمعت جزيرة باسيلان وجزءا من شبه جزيرة زامبونجا ، وجميع جزر مينداناو ، وسولو ، وجزيرة بالاوان وجزءا من شمال بورنيو الذى يعرف حاليا باسم ولاية صباح في الاتحاد الماليزى (م ٤٠ — الموسوعة التاريخية)

ويلي هذه في الاهمية سلطنة ماجينداناو التي كانت تحكم الوادى الجنوبى من مقاطعة كوتا باتو والجزء الجنوبى من شبه جزيرة زامبونجا • ويلي هذه سلطنة بويان التي كانت أراضيها الواسعة تضم معظم الأجزاء الجنوبية في مينداناو ، وسلطنة كابونتا لان التي كانت تحكم السهول الوسطى في كوتاباتو (١) •

أمريكا في الفيليبين :

في القرن التاسع عشر ضعفت الامبراطورية الأسبانية ، وقد أتاح ذلك للمسلمين في الفيليبين أن يستردوا نفوذهم في كثير من المناطق كما أثّرنا آنفا ، وانتعشت روح الاستقلال ، وقامت حركات وطنية قوية للتخلص من أسبانيا ، وفي نفس الوقت كانت هناك الحرب الامريكية الأسبانية التي أرغمت أسبانيا على التخلي عن الفيليبين في نهاية القرن التاسع عشر وهكذا احتلت الولايات المتحدة جزر الفيليبين سنة ١٨٩٩ م واتخذت الولايات المتحدة أسلوبا جديدا في معاملة أهل البلاد كان ظاهره مختلفا عن باطنه ، ففي الظاهر أعلنت أنها لم تأت لتستعمر بل لتحرر ، وفي الباطن اتخذت طرقا متعددة لإضعاف شوكة المسلمين ونشر المسيحية بين المسلمين ، وقد تسبب عن هذا أن قام صراع بين الولايات المتحدة وبين المسلمين في الفيليبين استمر حوالى ثلاثين عاما ، وقد أبلى فيه المسلمون في جزيرة مانداناو وجزيرة سولو أعظم بلاء ، وقد ساعد المسيحيون الفيليبين الاستعمار الأمريكى في مصارعة المسلمين •

وأدركت أمريكا أن الحرب لن تؤدي الى نتيجة حاسمة فاتجهت للاتصال بالمسلمين ومحاولة عقد معاهدة معهم ، وقد تمت هذه المعاهدة التي ضمنت بعض الحقوق للمسلمين ، وقد اتجهت أمريكا الى هذا الاتجاه المسالم ، لأن الحرب العالمية الثانية كانت قد بدأت تهدد العالم •

اليابان في الفلبين :

في سنة ١٩٤٣ زحفت الجيوش اليابانية على جنوب شرقي آسيا وتهاوت أمامها جيوش الحلفاء في سرعة هائلة ، واحتلت اليابان جزر الفلبين مع ما احتلته من جزر وبقاع في المنطقة ، وقد قاومت الفلبين الزحف الياباني بشجاعة هائلة ، وكان للمسلمين دور بارز في هذه المقاومة .

استقلال الفلبين :

عندما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها سنة ١٩٤٥ كانت جزر الفلبين من أسرع بقاع العالم التي حصلت على الاستقلال ، فأعلنت الولايات المتحدة استقلال الفلبين سنة ١٩٤٦ .

مسلمو الفلبين بعد الاستقلال :

لم يَضعْ الاستقلال حدا للصراع الدائر بين المسلمين والمسيحيين في الفلبين فمسيحيو الفلبين ورثوا الفكر الصليبي عن الأسبان والامريكان ، ولم يخطر ببالهم الفكر الجديد الذي قدمه الاسلام للعالم عن حرية الأديان ، ولذلك اتجهت قوى المسيحيين للنيل من المسلمين ، وحرّق مزارعهم وهدم مساجدهم وتدمير منازلهم ، وانتهاك أعراضهم ، ووقف المسلمون يدافعون عن أنفسهم فكوّنوا جيشا كبيرا لردّ هذا العدوان الغادر ، وأصبحت مقاطعات المسلمين في جزيرة مانداناو الجنوبية ، ومقاطعاتهم حول بحيرة (لاناو) في المقاطعة الشمالية الغربية حصونا قوية لردّ عدوان المسيحيين ، وقد اتخذ رئيس الفلبين (فرديناند ماركوس) جانب قومه المسيحيين ، وشجع جيشه على مهاجمة المسلمين ، وبخاصة في المناطق الجنوبية ، ولكن المسلمين ردّوا هذا الكيد بكيد مثله ، وبخاصة أن المسلمين اكتشفوا قيام جماعة من المسيحيين الفلبينيين أسمت نفسها جماعة (ايلاجاس) أى الفئران ، وكانت هذه الجماعة تمثل تنظيما سريا يمارس صورا من تعذيب المسلمين ، والقضاء عليهم ، والاستيلاء على

أراضيهم ، ويؤكد زعماء المسلمين أن حكومة الفيلبين كانت وراء ذلك التنظيم . (١)

مفاوضات واتفاقات :

وفي وسط هذا البلاء أدرك المسيحيون أن انتصارهم بعيد المنال ، وضجت الصحافة الاسلامية بالشكوى ، وانتفض الاحرار في العالم ينشرون مآسى الحكم في الفيلبين ، ولهذا قامت مفاوضات بين حكومة الفيلبين وجبهة المسلمين ، وقد جرت هذه المفاوضات في ديسمبر سنة ١٩٧٦ م وممثل المسلمين الفيلبيين الزعيم « نور ميسوارى » وتم التوصل إلى اتفاق يقضى بوقف إطلاق النار ، ومنح الولايات الاسلامية الثلاث عشرة في جنوب البلاد حكما ذاتيا ، ويجرى فيها الاقتراع لاستفتاء عام يحدد مصير المنطقة بأكملها ، وتضمن الاتفاق إصدار عفو شامل لجميع الثوار المسلمين وإطلاق سراح المسجونين السياسيين .

ولم توضع هذه النتائج موضع التنفيذ مما هدد باثعال النار مرة أخرى .

ولكن الرئيس الفيليبينى سرعان ما وعد بوضع نتائج هذه المفاوضات موضع التنفيذ ، ولا يزال العالم يرقب تحقيق هذه الوعود .

هذا وينبغى أن نذكر أن مسلمى الفيلبين يبدون نشاطا واسعا في النواحي الدينية ليواجهوا إهمال الحكومة الفيليبينية لهذه النواحي ، ومن هنا فإن المسلمين يقيمون مدارسهم ومستشفياتهم ومؤسساتهم الاجتماعية حتى لا يتخلفوا عن ركب الحياة ، وقد برز منهم قادة وزعماء لهم جاه عريض في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ولولا أن هناك

(١) دكتور محمد عبد القادر أحمد : المسلمون في الفيلبين ص ٤٢ — ٤٣

خلافات بين طوائف المسلمين بعضهم والبعض لكان للمسلمين في الفلبين شأن أعلى ومجد أعظم .

ونطمح أن تتنبه الحكومات الاسلامية الى الملايين المسلمين الذين يعيشون في الفلبين ويلاقون العناء من أجل الاحتفاظ بدينهم ونظمهم ، فان هؤلاء أخوة في الدين ، ولا يطيب لأخ أن ينعم بالحياة ، وأخوه في أى مكان بالأرض يعانى من عسف التعصب الدينى الذى أعمى أبصار الكثيرين .

كلمة ختام

وفي ختام هذا المجلد أشكر الله العلى العظيم على عونه الكبير ، وإلهامه ، وحسن توجيهه ، وما كنت بدون ذلك بقادر على تحقيق هذا العمل الذى ينوء به الأشدء .

والله أسأل أن ينفع بهذا العمل مؤلفه وقارئه وهو المستعان فى البدء والختام .

مراجع الكتاب

ملاحظات :

١ — شاهدت بنفسى كثيرا من المواقع والأحداث بالمنطقة ، وتحدثت عنها حديث شاهد عيان لا يحتاج الى مصدر آخر .

٢ — التفتيت بكثير من المفكرين والمؤرخين الثقات بالمنطقة ، وسمعت منهم ، ودونت عنهم .

٣ — المصادر المذكورة هنا هى التى اعتمد عليها هذا الكتاب ووردت فى ذيل صفحاته ، أما المراجع الأخرى التى أسهمت بطريق غير مباشر فلم تذكر فى هذه القائمة .

٤ — رتبته هذه المصادر حسب الترتيب الأبجدي لأسماء مؤلفيها ، مع اعتبار الاسم المشهور للمؤلف (فمثلا وضع ابن خلدون فى حرف الخاء وليس فى حرف العين لأن اسمه عبد الرحمن بن محمد) ومع عدم اعتبار الملحقات (ابن — ال) .

موسوعة يصدرها المتأولون العرب
ويشترك فى تحريرها عدد من
المفكرين المسلمين .
(وردت أسماؤها فى الكتاب ومنها
مجلة دعوة الحق ومجلة ملي
تركستان ومجلة الشئون
الاندونيسية) .

١ — مع القرآن الكريم

٢ — صحف ومجلات ودوريات

٣ — Encyclopaedia Britannica

٤ — Encyclopaedia of Islam

٥ — مجموعة بحوث فى كتاب واحد

Glimpses of Malaysian History

من مطبوعات ادارة الاستعلامات
الصينية .

من مطبوعات وزارة الاعلام
الافغانىة .

من مطبوعات مكتب الاستعلام
الهندي .

من منشورات وزارة التربية بالهند .

من مطبوعات سفارة الباكستان
بالقاهرة .

٦ — Chinese Muslims in Progress

٧ — تاريخ افغانستان

٨ — حقائق عن الهند

٩ — الهجرات الآرية

١٠ — باكستان

- ١١ — اندونيسيا الثائرة
- ١٢ — Abdul Majid Muh.
- ١٣ — دكتور ابراهيم امين الشواربي
- ١٤ — ابراهيم باستاني باريزي
- ١٥ — أبو الحسن علي الحسنی
- ١٦ — أبو الحسن علي الحسنی
- ١٧ — أبو الريحان البيروني
- ١٨ — أبو عبيد
- ١٩ — ابن أبي أصيبعة
- ٢٠ — ابن الأثير
- ٢١ — أحمد الونتو
- ٢٢ — أحمد أمين
- ٢٣ — دكتور أحمد الساداتي
- ٢٤ — دكتور أحمد السعيد سليمان
- ٢٥ — أحمد السقايف (السيد)
- ٢٦ — دكتور أحمد شلبي
- ٢٧ — دكتور أحمد شلبي
- ٢٨ — دكتور أحمد شلبي
- ٢٩ — دكتور أحمد شلبي
- ٣٠ — دكتور أحمد شلبي
- ٣١ — دكتور أحمد شلبي
- ٣٢ — أحمد عطية الله
- ٣٣ — دكتور أحمد كمال الدين حلمي
- ٣٤ — الادريسي
- ٣٥ — آدم مقرر
- ٣٦ — اسماعيل جوهان
- ٣٧ — الاصطخري
- ٣٨ — G. Allen
- ٣٩ — دكتور انداس وآخرون
- من مطبوعات المركز العام لجمعيات
استقلال اندونيسيا .
- Legal Organisation in Malaya
- اغاني شيراز .
- يعقوب بن الليث (الترجمة
العربية) .
- ماذا خسر العالم باتحطاط المسلمين .
- المسلمون في الهند .
- الآثار الباقية .
- الأموال .
- عيون الأنباء .
- الكامل في التاريخ .
- الاسلام والفيلبين .
- زعماء الاصلاح في العصر الحديث .
- تاريخ المسلمين في شبه القارة
الهندية .
- تاريخ الدول الاسلامية والاسر
الحاكمة .
- تاريخ اندونيسيا .
- اليهودية من سلسلة مقارنة الأديان .
- موسوعة التاريخ الاسلامي (الأجزاء
السابقة) .
- الفكر الاسلامي : منابعه وآثاره
(مترجم عن الانجليزية) .
- التربية الاسلامية .
- أديان الهند الكبرى من سلسلة
مقارنة الأديان .
- المجتمع الاسلامي من موسوعة
الحضارة الاسلامية .
- القاموس الاسلامي .
- السلالة في التاريخ والحضارة .
- وصف الهند .
- الحضارة الاسلامية في القرن
الرابع .
- نظام الاسرة الاندونيسية بين
التشريع الاسلامي والقوانين
الوضعية .
- المسالك والممالك .
- The Bodha's Philosophy
- تاريخ اندونيسيا .

- مذكرات ظهير الدين بابر .
Turkstan Down to the Mongol
Invasion
Life of Lord Lowrance
آسيا والسيطرة الغربية (الترجمة
العربية) .
A Survey of Indian History
العلاقات بين العرب والصين .
تاريخ المسلمين في الصين .
رحلة دكتور برنير
تاريخ الشعوب الاسلامية .
A Literary History of Persia
تحفة النظار .
فتوح البلدان .
حكاية نامه انديا (الترجمة العربية) .
تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة
في العقل او مردولة .
تاريخ البيهقي ترجمة الدكتور ريحي
الخشاب .
Preaching of Islam
Influence of Islam on Indian Culture
المنتقى من منهاج الاعتدال .
ايران وحتمية التاريخ .
فاتحة البيان في تاريخ أفغانستان .
تاريخ الملايو .
العرب والملاحه في المحيط الهندي
(الترجمة العربية) .
المنتظم .
الشاه ما له وما عليه (الترجمة
العربية) .
اديان العالم الكبرى .
تاريخ الاسلام السياسي .
أفغانستان .
باكستان .
الاسلام والحضارة العربية في آسيا
الوسطى .
الممالك والممالك .
وفيات الاعيان .
- ٤٠ — بابر الامبراطور
Barthold — ٤١
Basworth Smith — ٤٢
بانيكار — ٤٣
Panikkar — ٤٤
بدر الدين الصيني — ٤٥
بدر الدين الصيني — ٤٦
دكتور برنير — ٤٧
بروكلمان — ٤٨
Browne — ٤٩
ابن بطوطة — ٥٠
البلاذري — ٥١
Biegman G. — ٥٢
البيروني — ٥٣
البيهقي — ٥٤
Thomas Arnold — ٥٥
Tara Chand — ٥٦
ابن تيمية — ٥٧
جاده — ٥٨
جمال الدين الافغاني — ٥٩
جو جندار سيغ — ٦٠
جورج حوراني — ٦١
ابن الجوزي — ٦٢
جيرار دي فيير — ٦٣
حبيب سعيد — ٦٤
دكتور حسن ابراهيم حسن — ٦٥
حسن محمد جوهر — ٦٦
وعبد الحميد بيومي
حسن محمد جوهر — ٦٧
ومحمد مرسى ابو الليل
دكتور حسن محمود — ٦٨
ابن خرداذبة — ٦٩
ابن خلكان — ٧٠

The Land and People of Indonesia
A Hand Book of Muhammadan's
Arts

- موجز الجغرافية التاريخية
(الترجمة العربية) .
سير اعلام الاسلام .
راحة الصدور .
الأعلاق النفسية .
جامع التواريخ .
تاريخ الادب الفارسي .
آسيا المعاصرة : يقظة الملاق .
La Laile Rouge Conltre le Craissant
(الترجمة العربية) .
History of the World
Relations between China and Arabs
معجم الانساب والأسرات الحاكمة
في التاريخ الاسلامي (الترجمة
العربية) .
اختصار تاريخ الملايو .
طبقات الشافعية .
Agama Islam di Hindu Belanda
Muhammadan Dynasties
الثورة الاجتماعية والثقافية في
اندونيسيا .
تاريخ ايران .
الملل والنحل .
صفحات عن ايران .
تاريخ حضرموت السياسي .
تاريخ فيروز شاه .
فرائد الفوائد .
الفخرى في الآداب السلطانية .
تاريخ الأمم والملوك .
كتاب بغداد .
المسلمون في العالم .
الله .
باكستان في ماضيها وحاضرها .
الشرق والاسلام .
اللغات في الهند .
دراسات ايرانية .
مسعد بن أبي وقاص .

Datus Smith — ٧١
Deland M. — ٧٢

DeMartenne — ٧٣

الذهبي — ٧٤
الراوندي — ٧٥
ابن رسته — ٧٦
رشيد الدين الهمداني — ٧٧
رضا زاده — ٧٨
برونسور رومين — ٧٩
ريمون شارل — ٨٠

Réne Sedillot — ٨١

Zhang Who — ٨٢

زامباور — ٨٣

زعبا — ٨٤

السبكي — ٨٥

Snouck H. — ٨٦

Stanly Lane - Poole — ٨٧

سوتان شهبانا — ٨٨

شاهين مكاريوس — ٨٩

الشهرستاني — ٩٠

صادق نشأت ومصطفى حجازي — ٩١

صلاح البكري — ٩٢

ضياء الدين برني — ٩٣

ضياء الدين برني — ٩٤

ابن طباطبا — ٩٥

الطبري — ٩٦

ابن طينفور — ٩٧

دكتور عادل طه — ٩٨

عباس العقاد — ٩٩

دكتور عبد الحميد البطريق — ١٠٠

عبد الرحمن صدقي — ١٠١

دكتور عبد السلام فهمي — ١٠٢

دكتور عبد السلام عبدالعزيز — ١٠٣

عبد القادر طليمات — ١٠٤

- تاريخ الملايو العظمى .
تاريخ الاسلام في الهند .
سلاجقة ايران والعراق .
ايران في ظل الاسلام .
محمد اقبال .
تاريخ اليميني .
صورة من الشرق في اندونيسيا .
تاريخ آل سلجوق .
باكستان دولة ستعيش .
العرب والأتراك .
ماذا حدث في التاريخ .
حضارة الهند (الترجمة العربية) .
تاريخ أفغانستان .
History of the Arabs
آثار البلاد واخبار العباد .
هذه هي اندونيسيا .
ايران في عهد الساسانيين .
تاريخ صنایع ايران .
A Short History of the Middle East
The Story of Indonesia
A Book of Ser Marco Polo
صفحات من تاريخ اندونيسيا
المعاصر .
نظرات جديدة في شمع اقبال .
Advance History of India
عالم حر جديد .
بين الهند وباكستان .
حول استقلال اندونيسيا .
القائد الاعظم وقصة الباكستان .
مدافع آية الله .
تاريخ الملايو .
اسس الحضارة الاسلامية لسكان
الملايو .
Sejarah Ummat Islam di Indonesia
الاسلام في اندونيسيا .
الدولة الخوارزمية .
الملايو : وصف وانطباعات .
المسلمون في الفيليبين .
الاسلام في وجه الزحف الاحمر .
عبد الله عباس فاسوتيوم — ١٠٥
دكتور عبد المنعم النمر — ١٠٦
دكتور عبد النعيم حسنين — ١٠٧
دكتور عبد النعيم حسنين — ١٠٨
دكتور عبد الوهاب عزام — ١٠٩
العتبي — ١١٠
على الطنطاوى — ١١١
عماد الدين الاصفهاني — ١١٢
دكتور عمر فروخ — ١١٣
غرابية — ١١٤
غوردون كاتشيلد — ١١٥
غوستاف لوبون — ١١٦
فاروق حامد — ١١٧
Philip Hitti — ١١٨
القزويني « زكريا » — ١١٩
دكتور قهر الدين يونس — ١٢٠
كريستنسن — ١٢١
كريستي ويلسون — ١٢٢
Kirk — ١٢٣
Lauis Fisher — ١٢٤
Marco Polo — ١٢٥
محمد أسد شهاب — ١٢٦
دكتور محمد اسماعيل الندوى — ١٢٧
Majurambar — ١٢٨
محمد جميل بيهم — ١٢٩
محمد حبيب أحمد — ١٣٠
دكتور محمد حتى — ١٣١
محمد حسن الاعظمى — ١٣٢
محمد حسنين هيكل — ١٣٣
محمد زين — ١٣٤
دكتور محمد زكى — ١٣٥
Muh. Said — ١٣٦
محمد ضياء الدين شهاب — ١٣٧
وعبد الله بن نوح
دكتور محمد عبد الحميد رفاعي — ١٣٨
دكتور محمد عبد الرزاق — ١٣٩
دكتور محمد عبد الحكيم أحمد — ١٤٠
الشيخ محمد التواتي — ١٤١

- ١٤٢ — دكتور محمد فؤاد فخر الدين
١٤٣ — محمد محمود زيتون
١٤٤ — محمد نور سالم
- ١٤٥ — محمد يوسف النجرامى
١٤٦ — محمود سامى
١٤٧ — محمود يونس
- ١٤٨ — محبى الدين الالوانى
١٤٩ — المسعودى
١٥٠ — ابن مسكويه
١٥١ — المقدسى
١٥٢ — المولوى
١٥٣ — Muir
١٥٤ — الترشى
١٥٥ — نظام الملك
١٥٦ — Nehro
١٥٧ — النووى
١٥٨ — Harrison
١٥٩ — (Prof) Hamka
١٦٠ — وان أحمد
- ١٦١ — وان حسين
١٦٢ — وان شمس الدين
١٦٣ — Wensell and Rylands
١٦٤ — ولبر « دونالد »
١٦٥ — William Hunter
١٦٦ — Winsted
١٦٧ — يوجى رامشاراكا
- تاريخ اندونيسيا الأدبى والتحريرى .
الصين والعرب عبر التاريخ .
النهضة الفكرية الاسلامية فى
اندونيسيا .
العلاقات السياسية والثقافية بين
الهند والخلافة العباسية .
صفحات بخالدة من تاريخ
الباكستان .
تاريخ التربية الاسلامية فى
اندونيسيا .
الأدب الهندى المعاصر .
مروج الذهب .
تجارب الأمم .
أحسن التقاسيم .
جامع الدول ،
The Roman Empire and its Fall
تاريخ بخارى .
سياسة نامه .
Discovery of India
تهذيب الاسماء .
South Fast Asia
Sejarah Ummat Islam di Indonesia
الأوضاع السياسية والحضارية
للمسلمين فى ماليزيا واندونيسيا فى
القرن العشرين (رسالة دكتوراه
بإشرافى) .
الدعوة الاسلامية فى جنوب شرقى
آسيا .
تاريخ الملايو وما حولها .
Peoples and Religions of India
ايران : ماضيها وحاضرها
(الترجمة العربية) .
Indian Muslims
History of Malaya
فلسفة البوچا (الترجمة العربية) .

فهرس الأعلام

١. — تحاشيا للاطالة لم اضمن هذه الفهارس أسماء المؤلفين اكتفاء بورودها في نيل صفحات الكتاب وفي قائمة المراجع .
٢. — ولم اضمن هذه الفهارس الأسماء التي وردت في قوائم خلال اليهود المختلفة .
٣. — رتبت هذه الأسماء ترتيبا ابجديا مع عدم اعتبار الملحقات (ابن — أبو — ال) .

حرف الألف

أزوكا ٢٥٩	أباقاخان ١٢٧
اسحق بن البتكين ٨٧	ابراهيم اللودى ٢٩٦
أسد بن عبد الله القسرى ٧٠ ، ٥٥	ابراهيم الشامى ٤٧٩
اسرائيل بن سلجوق ٩٥	ابراهيم المجددى ٢٣٧
أسفار بن شيرويه ٦١ ، ٨٠	ابراهيم بن مسعود ٢٧٦
الاسكندر الأكبر ٢٧ ، ٣٣ ، ٤٠ ، ٤١	ابراهيم يازدى ١٧٢ ، ١٧٣
٤٦ ، ١٣٤ ، ٢٥٩	ابراهيم ينال ٩٨
اسكندر الثانى (علاء الدين) ٢٨٥	أبرهه ٤٤
اسكندر شاه ٢٩١ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧	أبو الأعلى المودودى ٣٥٨
٤٦٩	آتسز الخوارزمى ١١٠
اسكندر مودا ٤٧٦ ، ٤٧٨ ، ٤٨٠	آجورج ترتا ياسا ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥
اسكندر ميرزا ٣٧٠ ، ٣٧٣	أحمد بن أسد القسرى ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢
اسماعيل بن أحمد القسرى (السامانى)	أحمد بن اسماعيل السامانى ٨٦ ، ٨٧
٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤	أحمد بن بويه ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥
٧٥ ، ٧٦	أحمد جيلانى ٢٣٧
اسماعيل بن جعفر الصادق ١٢١	أحمد حسين ٥٤٠
اسماعيل الصفوى ١٤٠ ، ١٤١	أحمد خان ٢٢٨
١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٤٨	أحمد دحلان ٥٢٦ ، ٥٦٠
١٥٢	أحمد درانى ١٤٣
أشرف بن ويس ١٥١	أحمد شاه الأبدالى ٣٠٨
ابن الأعرابى ٢٧٧	أحمد شاه الأفغانى ٢٣٠
أغا خان ١٢١ ، ٣٣٣ ، ٣٤٢	أحمد قصورى ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٩
آقا محمد خان ١٥٤	أحمد بن محمد بن سميظ ٥٠٦
ألب أرسلان ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣	أدم مالك ٥٣٠ ، ٥٤٩
١٠٤ ، ١٠٦	أرديشير بابجان ٤٢
اليباس القسرى ٧٠ ، ٧١	أرغون ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٢
امام بونجول ٥٢٢	أزرا بنى صدر ١١٩٢

بهاء الدين حسين ٥٩٤
 بهاء الدين العالمى ٣٤
 بهاء الدين ٢٢٦
 بهادور شاه ٣٠٨ ، ٣٠٩
 بهرام شاه ٢٢١
 بهرام كور ٤٥ ، ٤٦ ، ٧٠ ، ٨٠
 بهزاد ٢٢٤
 بهلول اللودى ٢٩١
 بودى اوتومو ٥٢٤ ، ٥٢٥
 بيبيرس ١٢٠ ، ١٢١
 بير محمد ١٣٥
 بيرم خان ٢٩٨
 البيرونى ٣٢

حرف التاء

تاج الدين خسرو ٢٧٨
 تاج الدين ابو الفنايم ١٢٠
 تاج العالم صفية الدين شاه ٤٧٧
 تاج شو ٦٠٨
 الترمذى (ابو عيسى محمد) ٥٩٤
 ترونوجويو ٥٢١
 تشانج يوتشونج ٦١٠
 تشرشل ١٦٣
 تكودار ١٢٣
 تنكو عبد الجليل ٥٣٠
 تنكو عبد الرحمن ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣
 تنكو عمر ٥٢٢
 توجى خان ١١٤
 تولوى خان ١١٤
 تون بوتيه ٤٧٢
 تون براق ٤٧١ ، ٤٧٢
 تيموجين ١١٣
 تيمور شاه ٢٣٠
 تيمور لك ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧
 ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦
 ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١

امان الله ٥٣٣
 امير شريف الدين ٥٣٨ ، ٥٣٩
 الامين ٥٧
 آن لوشان ٦٠٨ ، ٦١٤
 اناركالى (نادرة) ٣٠٢
 اندرا بورا ٤٨٣
 انديرا غاندى ٣٨٥
 انوشيروان ٤٣
 اهرمان ٤٥
 اهورا مازدا ٤٥
 اهوئنج شاو ٤٥٦
 اورنجزيب ٢٩٥ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٢٤

اوكتاي ١١٤ ، ١٣٤
 اولجايتو ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣١
 اولوغ بك ١٣٦ ، ١٣٩ ، ٢٢٤
 ايديت ٥٤١ ، ٥٤٢
 ايلتمش ٣٩٧

حرف الباء

بابر شاه ١٣٦ ، ١٣٧ ، ٢١٢ ، ٢٢٤ ، ٢٦٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦
 بابر كازميل ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١
 بابيدو ١٣٢ ، ١٣٣
 باتشه سقا ٢٣٤
 باتيه يونس ٤٤٣ ، ٤٨٢
 باريك بن بهلول ٢٩١
 البتكين ٨٦ ، ٨٧
 بختنصر ٣٧
 برويز ٤٣
 بريشنايدر ٦٠٨
 بزور جهر ٤٣
 البساسيرى ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩
 بسطامى عبد الفنى ٥٥٨
 ابو بكر فورك الاشعري ٣٤

حرف الثاء

الامبراطورة ثريا ١٦٤
الثعالبي ٣٢

حرف الجيم

جايا دنجرات ٤٢٤
جايا كتوانج ٤٤٤
جايا نجارا ٤٤٠
جيرير بن عبد الله ٥٠
أبو جعفر المنصور ٥٥ ، ٦٠٧
جفتاي ١١٤ ، ١٣٤
جفري بك ٩٦
دكتور جفتو ٥٢٤
جلال الدين أكبر ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨
٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢
٣٠٣
جلال الدين الرومي ١٢٩ ، ٥٩٤
جلال الدين فيروز شاه ٢٨٥
جلم بن شيبان ٢٧١
جمال الدين الأفغاني ١٥٦
جمال عبد الناصر ٣٦٨ ، ٣٦٩
٣٨٣ ، ٥٥٥
جنكيز خان ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥
١٢٨ ، ١٣٤ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧
جهانكير (سليم) ٣٠٢ ، ٣٠٣
٣٠٤ ، ٣٢١

جوبان ١٣٣

جودونانك ٣٩٣

جواهرلال نهرو ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٤

٣٣٥ ، ٣٥٨ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤

جوكروا مينوتو ٥٤٢

جيمس بروك ٤٩٦

الحاج جيهان البحار ٦١٠

حرف الحاء

حاجي اجوز سالم ٥٤٥
الحارث بن مره العبدى ٢٦٣
حافظ شیرازی ١٣٩

الحاكم بن عبد الله النيشابورى ٧٨
حبيب الله ٢٣٢ ، ٢٣٣
الحجاج بن يوسف ٥٥ ، ٢٦٣ ، ٥٨٤
حذيفة بن اليمان ٥١
حسن الدين ٤٧٤
الحسن بن بويه ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣

الحسن بن زيد ٦٠

الحسن الصباح ٦٢ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠

الحسن بن على ٦٠

الحسن بن على (الأطروش) ٦١ ، ٦٣

أبو الحسن بنى صدر ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٠٠

أبو الحسن على الندوى ٣٥٨

حسن الميندى ٢٢٢

السلطان حسين ١٥١

حسين ارشاد ٣٩٢

حسين بايقرا ٢٢٤

حسين فاطمى ١٦٥ ، ١٦٦

حسنية مجيب الرحمن ٣٨٥ ، ٣٩١

حفيظ الله أمين ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٣٩

حمزة بنسورى ٤٦١

حرف الخاء

خالد بن الوليد ٥٠

خسرو خان ٢٨٥

خضر خان ٢٩٠

الخطيب التبريزى ٣٣

خليل سلطان ١٣٥

الخوارزمى ٣٢

خوندا كار مشتاق ٣٩١

الامام الخومينى ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٧

١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٣

خير صالح ٥٣٠ ، ٥٤٨

حرف الدال

دارا (داریوسی) ۴۹ ، ۴۰ ، ۴۲ ،
دارون ۷۷
دانیال بن جهانگیر ۳۰۲
داهر ۲۵۹ ، ۲۶۲ ، ۲۶۴
ابو داود خليفة أبی مسلم الخراسانی
۵۵
الدقیقی ۷۷
دقیق البلخی ۲۱۹
دوست محمد ۲۳۱
دوویس دیکار ۵۲۴
دیونوچور ۵۲۲

حرف الذال

دكتور ذاکر حسین ۳۳۲ ، ۳۵۸
ذو الفقار علی بوتو ۳۷۴ ، ۳۷۵ ،
۳۷۶ ، ۳۷۷ ، ۳۷۸ ، ۳۷۹

حرف الراء

رائنادیوی ۵۴۳ ، ۵۴۸
راجابویان ۶۲۴
راشد الدین سنان ۱۲۰
الراغب الاصفهانی ۳۴
رانجیت سنغ ۵۹۴
رستم ۵۱
رشید الدین ۱۱۵ ، ۱۱۸
رضا میرزا بهلوی ۱۵۸ ، ۱۵۹ ،
۱۶۰ ، ۱۶۱
رضیة خاتون ۲۸۱ ، ۲۸۳ ، ۳۹۷
رکن الدین ۲۸۳
روزفلت ۱۶۳
رومانوسی دیوجینس ۱۰۰
الرودکی ۷۷
ریمون شارل ۵۹۱

حرف الزای

زبیده ۳۳
زرادشت ۳۳ ، ۳۹ ، ۴۵ ، ۴۶
زمان شاه ۲۳۰

زیاد بن أبیه ۵۴ ، ۵۸۳
أبو زید البلخی ۵۹۴
زید بن علی ۶۱
زینیب محل ۳۰۹

حرف السین

سارتون ۵۲۴
سبکتکین ۸۷
ستالین ۱۶۳ ، ۵۹۹
سردار ایوب ۲۳۲
سعد بن أبی وقاص ۵۰ ، ۶۰۶
سعد بن أسلم ۲۶۳
سعد بن علی بن عیسی ۱۰۲
أبو سعید بن أولجایتو ۱۲۶ ، ۱۳۳
سلجوق ۹۵ ، ۹۷
أبی سلمة الخلال ۵۶
سلیمان بن داود ۱۰۲
سلوکوس ۴۱
سلیط بن قیس الانصاری ۵۰
سماعون ۵۲۴
سنجر بن الب أرسلان ۱۰۶ ، ۱۰۷ ،
۱۱۰ ، ۱۰۹
سنجر السلجوقی ۲۲۱
سنجایا ۴۴۳
سنوفانی ۴۸۴
سوباندیو ۵۳۰ ، ۵۴۸
سوتان شهریر ۵۳۰ ، ۵۳۲
سوکارنو ۵۰۸ ، ۵۲۴ ، ۵۳۱ ،
۵۳۲ ، ۵۳۷ ، ۵۳۸ ، ۵۴۰ ،
۵۴۱ ، ۵۴۲ ، ۵۴۳ ، ۵۴۴ ،
۵۴۷ ، ۵۴۸ ، ۵۴۹ ، ۵۵۳
سوناریو ۵۲۴
سوهارتو ۵۴۲ ، ۵۴۷ ، ۵۴۹ ،
۵۵۰ ، ۵۵۱ ، ۵۵۳ ، ۵۵۵
۵۵۶
سوهونن جاتی ۴۶۱
سوهونن أفیل ۴۶۱
سید أحمد خان ۳۲۸ ، ۳۲۹ ، ۳۳۰ ،
۳۳۱

صالح بن بهلة ٢٧٧
صدام حسين ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ،
٢٠٥ ، ٢٠٦
صفي الدين الأردبيلي ١٤١
صلاح الدين الأيوبي ١٢٠

حرف الضاد

ضياء الدين طباطبائي ١٦٠ ، ١٦٣
ضياء الرحمن ٣٨٥

حرف الطاء

طاهر بن الحسين ٥٧
طاهر الثالث بن محمد ٨
الطبري ٣٣
طغرل بك ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٤
طليحة بن خويلد ٥٠
طهماسب ٣٣ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ،
١٥١ ، ٢٩٦
طه يحيى ٥٥٨

حرف الظاء

ظفر الله خان ٣٦٧

حرف العين

عباس الصفوي ١٣٨ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،
١٤٩ ، ٢٢٨
عبد الحارث ناسوتيون ٥٣٩ ، ٥٤١
عبد الحميد خان ٣٧٢
عبد الرحمن جامي ٢٢٤
عبد الرحمن بن فضل ٢٣٢
الشيخ عبد الرؤوف ٤٧٨
عبد الرؤوف سنجل ٤٦١
عبد الستار ٣٩٢
عبد العزيز بن شاه ولي الله ٣٢٥
عبد القادر الجورجاني ٥٩٤

سيد امير على ٣٣٠ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥
سيري ويجايا ٤٤٣
سيف الدين سوري ٢٢٦
ابن سيمجور ٧٤
ابن سينا ٣٢
سيور غتمش ٣٤ ، ١٣٥
الملكة سيما ٤٤٥
سيتين ٥٤٢

حرف الشين

شاه جيهان بن جهانكير ٢١٢ ، ٣٠٤ ،
٣٠٥ ، ٣٠٧
شاه رخ ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،
١٣٨ ، ١٤١ ، ٢٢٤
شاه شجاع ٢٣٠
شاه علم ٣١٩
شاه ولي الله الدهلوي ٣٢٤
شاهبور بختيار ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧
ابو شجاع بويه ٨٠
شرف الدين القاشاني ١٠٢
شفر الدين ٥٤٠
شمس الدين ايلتمش ٢٨٣
شمس الدين السمطرائي ٤٦٠
شمس الدين عمر ٦٠٨ ، ٦٠٩
شمن المعالي قابوس ٩٢
شهاب الدين ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠
شودري رحمة ٣٤٣
شوكت علي ٣٢٨
شيرخان ٢٩٥
شير شاه السوري ٢٩٦
شير علي ٢٣٢

حرف الصاد

صادق خلخالي ١٩١
صادق قطب زاده ١٧٢ ، ١٩١

عمر بن عبد العزيز الهباري ٢٦٧ ،
٢٦٨ ، ٢٦٩
عمرواتي ٥٤١
عمرو بن العاص ٤٥٣
عمرو بن الليث ٦٨ ، ٦٩
عناية شاه زكية الدين ٤٧٧
عيسى بن معدان ٢٧١

حرف الفين

غازان قابور ١٩٢
غازان حفيد هولاكو ١١٨ ، ١٢٣ ،
١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٣١
غاندى ٣٢٦ ، ٣٤٤ ، ٣٧٧
غباد ٤٢
الغزالي ٣٢ ، ٣٥
غسان بن عباد ٧٠
غلام رضا ازهرى ١٧٤
غلام محمد ٣٧٠
غياث الدين ٢٢٧
غياث الدين بلبان ٢٨٤ ، ٢٨٨
غياث الدين الغورى ٢٧٢ ، ٢٧٩

حرف الفاء

فاتى أونس (الفتى يونس) ٤٦٣
فاسيليف ٦١٨
فاطمة واتى ٥٤٢
فتح خان الباركرائى ٢٣١
فتح الله خان (تيبو) ٣٢٠
فتح على ١٥٤
فرانك سويتن هام ٤٩٧
أبو الفرج الأصفهاني ٣٤٠
فرح ديبا ١٦٤
فردغى ١٦٢
الفردوسى ٣٥
فريد الدين العطار ١٠٨

عبد القهار مذكر ٥٣٨ ، ٥٥٨
عبد الله بن الأستر ٢٦٧ ، ٢٧٠
عبد الله بن عمر ٢٦٩
عبد الله العميد ٨١
عبد الله محمد بن أحمد الجهياني ٧٨
عبد الله بن فضل الله ١٢٨
عبد الله محمد بن على ٥٩٤
عبد الله النيشابورى ٧٨
عبد المعطى على ٥٥٨
عبد الملك الأول ٧٨
عبد الملك بن مروان ٥٥
عبد الملك بن نوح ٨٦
عبيد الله بن زياد ٥٨٣
عبيد الله السندى ٥٧٧
عثمان باتو ٦١٢
عثمان بن أبى العاص ٢٦٢
عز الدولة بختيار ٨٤
عز الدين حسين ٢٢٦ ، ٢٢٧
عضد الدولة أبو شجاع ٨٤ ، ٨٥
علاء الدين جهانسون ٢٢٦ ، ٢٢٧
علاء الدين الجوينى ١٢٨
علاء الدين منكبرى ١١٠ ، ٢٢٣
على بن بويه ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ،
٨٣ ، ٨٥
على بن الحسن الطغرائى ١٠٢
على خامينى ١٩٣
على زين العابدين ٤٦١
على بن سينا ٧٧
على شير نوابى ٢٢٤
على بن المحتاج ٦٤
على موغاييث شاه ٤٧٦
عماد الدين الأصفهاني ١٠٥
عمر بن حفص ٢٦٦
عمر الخيام ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١١ ،
١١٢
عمر شكر وأمينوتو ٥٢٣
عمر بن عبد العزيز ٧٦

كارتيني ٥٢٢ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧
 كاسمان ٥٣٢
 كتلكشاه ١٣١
 كريم خان ١٥٣
 كسرى انوشروان ٤٩ ، ٦٦
 أبو الكلام آزاد ٣٥٨
 كماله شاه ٤٧٧
 كمال اثاتورك ٤٣٠
 كوبلاي خان ٤٤٤
 كوهر شاد ١٣٨
 كوفتو ٥٣٠

كيايزرك ١٢٠ ، ١٢١
 كيتوبوتا ١٢٣
 كيخاتو ١٣٢ ، ١٣٣
 كيسنجر ١٧٩
 كيقباد ٢٨٤

حرف اللام

ليلي بن النعمان ٦٠ ، ٦١
 لياقت على خان ٣٣٠

حرف الميم

المأمون بن هارون الرشيد ٥٦ ، ٥٧ ، ٢٩٣
 المأمون بن مأمون بن خوارزم ٩١
 ماني ٤٦
 الحاج مادرياس ٥٣٠
 ماکان بن کالی ٦١ ، ٨٠
 ماوتسي تنج ٦١٤
 مالك نور خان ٣٧٢
 مانجاراجا ملك باتاك ٥٢٢
 ماهان بن الفضل ٢٦٩
 ماهيتو محمد ٥١٦
 المثنى بن حارثة ٥٠
 مجيب الرحمن ٣٧٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٩
 ٣٩٠ ، ٣٩١
 محمد النفس الزكية ٢٧٠

فريد معروف ٤٢٤ ، ٥٥٨
 فضل الله زاهدي ١٦٥
 فضل الله خوجايف ٥٩٨
 فضل الله سودري ٣٧٤
 فضل بن ماهان ٢٦٩
 الفضل بن يحيى ٥٥
 فلاديمير (الامبراطور) ٥٧٩ ، ٥٨٠
 فوزية فؤاد ١٦٤
 فيصل بن عبد العزيز (الملك) ٣٧٧

حرف القاف

قابوس بن وشمكير ٦٣
 قاجولي بهادر ١٣٤
 قباد ٤٦
 قبلاي خان ١٣٤ ، ٦٠٨
 قتيبة بن مسلم الباهلي ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٨٤ ، ٦١٢
 قدر الله فاطمي ٤٥٠
 قريش بن بدران ٩٨
 قطب الدين ايبك ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٣٩٩
 قطب الدين محمد ٢٢٦
 قطز ١١٦
 قمبيز ٢٨
 قهر الدين يونس ٥٥٨
 قوام الدين الشيرازي ١٣٨
 قورش ٣٧ ، ٣٨ ، ١٦٨ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٢
 قيس بن مسلم الباهلي ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٨٤ ، ٦١٢
 قيس بن هبيرة ٥٠

حرف الكاف

كانترمير ١٣١
 كاجامادا ٤٤٠ ، ٤٤٢
 كارتانجارا ٤٤٤
 كارتر ١٧٨ ، ١٧٩

النعمان (ملك الحيرة) ٤٤
النعمان بن مقرن ٥١
نوح بن القسري ٧٠ ، ٧١
نور جيهان ٣٠٣ ، ٣٠٤
نور الدين الترانيري ٤٦١
نور الدين بن علي صنهاجي ٤٧٩
نور كان خاتون ١٣٥
نور محمد تراقي ٢٣٥ ، ٢٣٦ ،
٢٣٧ ، ٢٣٨
النيسابوري ٣٢

حرف الهاء

هارتيني ٥٤٢
هارون الرشيد ٣٣ ، ٥٥ ، ٧٠ ،
١٢٧ ، ٦١٥
هايم ووروق ٤٤٠
هيرة بن المشمرد ٦١٢
هرثمة بن أعين ٥٧ ، ٧٠
هشام بن عبد الملك ٥٥
همايون ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ،
٢٩٧ ، ٢٩٨
همكا (عبد الكريم أمر الله) ٥٤٠ ،
٥٥٨

هنري بن يوحنا ٥١٨
هولاكو ١٠٥ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ،
١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ،
١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،
١٣٣ ، ٢١٨ ، ٥٨٦
هيلين كاريز ٥٩٧
هينجكو بونو التاسع ٥٢١ ، ٥٤٥
هيوچ لو ٤٩٧

حرف الواو

وشمكير بن زيار ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ،
٨٠
الوليد بن عبد الملك ٢٦٣ ، ٥٨٤

ملكشاه ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،
ممتاز محل ٣٠٤
المنصور الاول ٧٨
المنصور الثاني ٧٩
منصور بن نوح ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨
منصور بن يزيد ٥٥
منكوتا آن ١١٥
مهدى بازرجان ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٧ ،
١٨٩

المهلب بن أبي صفرة ٥٥
موسى بن عمر ٢٦٩
مير خاوند ٢٢٤

ميرزا بن اسماعيل ١٤٩
ميرزا شيرازي ١٥٧
ميرويسي الهوتكي ٢٢٥
ميكايل بن سلجوق ٩٦

حرف النون

نادر شاه ١٥١
نادر شاه الافشاري ١٥٢ ، ٢١٨ ،
٢٢٥ ، ٢٢٨

نادر قلى ١٥١
ناصر خسرو ١٠٩
ناصر الدين شاه ١٥٦ ، ١٥٧
ناصر الدين محمد شاه ٣٠٧ ، ٣٠٨
ناصر الدين محمود ٢٨٤

نجيب العطاس ٤٤٩
أبو نصر الخياط ٣٥
نصر بن سبكتكين ٨٨
نصر الثاني الساماني ٥٩٣
نصر بن سيار ٥٥ ، ٥٨٥
نصير الدين الطوسي ٣٥ ، ١٢٦ ،
١٢٧ ، ١٢٨

نظام الملك ٣٥ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،
١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٢٧

خواجة نظام الدين ٣٣٠ ، ٣٧٠
نظامي الكنجوي ١٠٨

حرف الیاء

یزید بن المطلب ٥٨٤	
یسوکای ۱۱۳	
یعقوب بن لیث ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦	یحییٰ خان ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠
یمیرنا هاییت ٥٦٦	یزد جرد الاول ٤٤
یوسف بن حسن النعین ٤٨٣ ، ٤٨٦	یزد جرد الثالث بن شهریار ٤٤ ، ٥١ ، ٥٣
یوسف الخوارزمی ۱۰۱	

فهرس الأماكن

ملاحظة : لم نضمن هذه الفهارس أسماء الأقطار التي أورنا تاريخها في هذا الجزء لإورودها في أكثر الصفحات .

انطاكية ٤٣	حرف الألف
انقره ١٣٥	الأزهر الشريف ٥٥٤
ايرلنجا ٤٤٤	الأناضول ٩٥ ، ١٤٣
ايريان ٤١٥	الأنطلس ٤٥٧ ، ٤٥٨
أورمجي ٦١٢	الأهواز ٤٣ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٩٨
أوزبكستان ٢١٨ ، ٥٨٨	اترابراديش ٣٥٧
	آتشه ٤١٧ ، ٤٤٩ ، ٤٦٥ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨
	٥٣٠ ، ٤٨٠ ، ٤٧٩ ، ٤٧٨
	اجمير ٢٧٩
	اجودو ٢٧٦
	اذربيجان ٣٣ ، ٩٧ ، ١٤٠ ، ١٥٨ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩
	آرال ٩٧ ، ٢١٢
	اردبيل ٣٤
	ارضروم ١٩٧
	أرمينيا (أريفان) ٢٤ ، ٣٨ ، ١٥٢ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠
	أريوان ١٥٥
	ازمير ١٣٥
	أسام ٣٦١
	أسيانبا ١١٢ ، ٤٩١ ، ٤٩٣
	اسلام آباد ٣٥١ ، ٣٥٤ ، ٥٩٦
	أشبيلية ٤٥٨
	أشروسنه ٥٨٢
	أصفهان ٢٧ ، ٣٤ ، ٤٣ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٩٣ ، ١٠٧ ، ١٤٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢١
	أكرا ٢٩٣
	الموت ١١٩ ، ١٢٠
	أمفيل ٥٣٠
	أندرابورا ٤٧٨
	آندلاس ٤٧٨
	انديال ٢٧٤
حرف الباء	
باب المنذب ٢٣	
بابل ٣٧	
باتى بت ٢٩٣	
باجا جاران ٤٧٤	
باجرام ٢٣٩	
بادان ٥٤٠	
بادغيس ٥٨٤	
باراميسور ٤٦٦	
باريس ٢١٨	
باكو ٥٨٩ ، ٥٩٧	
بالمبانج ٤١٨ ، ٤٣٧ ، ٤٨١	
بالي ٤١٥ ، ٤١٩ ، ٤٢٦	
بانتمام ٥١٩	
باندونج ٣٨٣ ، ٤١٨	
باهانج ٤٣٤ ، ٤٦٧ ، ٤٦٩ ، ٤٩٧ ، ٥٠٢	
البحرين ١٥٦	
بخارى ٣٢ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٢١٨ ، ٥٩٣	
بذخشان ٢١٣ ، ٢١٤	
براها بوترا ٢٤٧	
برسوبوليس ١٧٩ ، ١٨٠	
برليس ٤٣٤ ، ٤٩٨ ، ٥٠٢	
برونى ٤٠٣ ، ٤٩٦ ، ٥٠٣	
بست ٢٢١	

توانج مانجو ٤٢٣
تيمور ٥٦٣

حرف الجيم

جاكارتا (باتافيا) ٥٢٠ ، ٥٢٩
٥٣١ ، ٥٣٣
جالديران ١٤٣
جامبي ٤٦٧ ، ٤٦٩
جاوجامبلا ٤٠
جاوه ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٢٣
٤٢٣ ، ٤٢٥ ، ٤٥١ ، ٤٦٩
٥٣٢
جخنده ٥٨٢
جرجان ٦٧ ، ٧٣ ، ١٣٥ ، ١٦٢
٥٨٢
جريسك ٦١
الجزائر ١٤٣
جزائر الملوك ٤٥١ ، ٤٦٩ ، ٤٨١
الجزيرة ٩٨
جلولاء ٥١
جنبور (٢٨)
جند ٩٧
جمو ٣٦٢
جوبوق ١٣٥
جورجيا ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ٥٨٦
٥٨٧

جوكجا كارتا ٤١٨ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥
٤٢٧ ، ٤٤٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٩
٥٣٣ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٤٥
٥٤٦

جوهور ٤٧٨ ، ٤٨١ ، ٤٩٦
جيحون ٥٢ ، ١١٥ ، ٥٨٣ ، ٥٨٩
جيرا ٢٧٣
جيلان ٢٧ ، ٦٠ ، ١٦٢

حرف الحاء

الحجاز ١٩
حلب ١١٦

بشاوړ ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤
البصرة ٥٦
بغداد ١٩ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٥
٩٨ ، ٩٩ ، ٣٦٧
بلخ ٣٢ ، ٣٨ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٦٦
٢١٩
بلوخستان ٣٣٧ ، ٣٥٢
بمباي ٢٥٦
بنارس ٢٧٢
بنتان ٤٦٥ ، ٤٨٣
البنجاب ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٩
٣٥٣ ، ٣٦٣ ، ٣٩٥
البنغال ٢٤٧ ، ٢٥١ ، ٢٥٩ ، ٢٦١
٢٧٣

بهار ٢٧٢ ، ٢٧٣
بهاربور ٢٨٦ ، ٥٦١
بورسعيد ٤٨٩
بورما ٢٤٨ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦
٤٠٧ ، ٥٥٤
بورنيو ٤٠٥ ، ٤١٩ ، ٤٩٦ ، ٥٠٢
البوسفور ٢٣ ، ٢٥٢
بمراق ٤٣٤ ، ٤٩٧ ، ٥٠٢
بميرل هاربر ٤٩٩ ، ٥٢٨
بيفانج ٤٣٣ ، ٤٣٥ ، ٤٩٨ ، ٥٠٢

حرف التاء

تاجستان ٢١٨
تاجكستان ٥٨٨ ، ٥٨٩
تايلاند ٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩
٤٩٨ ، ٥٥٤
تبريس ٣٣ ، ٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤٦
١٤١ ، ١٤٣ ، ٢٥٢
ترالايا ٤٦٢
تركستان ٢٤ ، ٢٧ ، ٩٥ ، ١٥٥
٢١٨ ، ٦١١ ، ٦١٢
تركمانيستان ٥٨٨
ترمز ٥٩٤
ترينجانو ٤٣٥ ، ٤٦٣ ، ٤٦٧
٤٩٦ ، ٤٩٨ ، ٥٠٢

حيدر آباد ٣٥٤ ، ٣٦٢
الحمرة ٤٤

حرف الخاء

خاندش ٢٨١
خاتقو ٦٠٧

خراسان ٢٤ ، ٢٧ ، ٤٣ ، ٥٧ ،
٦٠ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٩٦ ،
خوارزم ٢٤ ، ٣٢ ، ٣٨ ، ٩٣ ،
٥٨٦ ، ٩٧

بحر خوارزم (اورال) ٥٨٢
خورم آباد ٢٠٦
خور مشهر ١٩٧
خوزستان ٢٧ ، ١٩٨
خيوه ٩١ ، ١٥٦ ، ٥٨٦

حرف الدال

درنيل ٢٣ ، ٢٥٢
دكا ٢٢٧ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٨٧
دلمى ١٥٢ ، ٢٦٠ ، ٣٢٧ ، ٣٣٢
دمشق ١٩ ، ٤٣ ، ٥٤
ديار بكر ٩٨ ، ١٤٣
ديار ٤٩٠
الديلم ٦٠ ، ٦١
ديماك ٤٤٣ ، ٤٦٥ ، ٤٨١ ، ٤٨٢
٤٨٣
ديوبند ٣٣٢
ديو ٤٩٠ ، ٤٩١

حرف الزاء

راجشامى ٢٥٢
راج محل ٣٨٧
راجوله ٢٧٢
رافاسنك ٢٩٣
رانجون ٣٠٩
روالبندى ٣٥٤

الرياض ٣٦٧
الرى ٦٠ ، ٦٧
روسيا ١١٣ ، ٢٢٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ،
٢٤٠ ، ٢٤٧

حرف السين

سايجون ٥٣١
سجستان ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٨
سرانانج ٤٢٣
سراوك ٤١٩ ، ٤٣٦ ، ٤٩٧ ، ٥٠٢ ،
٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥
سرخس ٩٦
سرى لانكا ٢٦١
سرينجار ٣٦٤
السليمانيه ١٩٨
سليبيس ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٩ ،
٤٣٩

سمارنج ٥٣٣
سموقند ٥٢ ، ٥٤ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٨٩ ،
٩٦ ، ١٥٦ ، ٢٢٤
سمنات ٨٩ ، ٢٧٥
سندا ٤٥٧ ، ٤٨١
سنغافوره (توماسك) ٤٠٧ ، ٤٣٩ ،
٤٩٧ ، ٥٠٠ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ،
٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٥٤ ،
٥٧٥

سورابايا ٤١٨ ، ٤٨٤ ، ٥٣٣
سوريا ٢٧ ، ١٠٤ ، ٢٠٣ ، ٤٤٥ ،
٤٤٦

سولو ٦٢٣ ، ٦٢٤
سومطره ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ،
٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ،
٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٥٣٣

سيالكوت ٣٣٥
سيام ٤٧١
سيجون ٥٢ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٥٨٢
سرى ويجايا ٤٢٨ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ،
٤٣٩
سيستان ٤٣ ، ٥٦ ، ٢١٢

حرف الميم

ماجابيت (امبراطورية) ٤٠٨ ،
 ٤٤٣ ، ٤٤٢ ، ٤٤١ ، ٤٢٩
 ٥٦٨ ، ٤٨٩ ، ٤٨٤
 ماجينداناو ٦٢٣
 مادورا ٤٨٤
 ماديون ٤٢٣ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠
 مازندان ٢٧ ، ١٦٠
 مانيللا ٦٢١
 متارم ٤٤٣
 الحمرة ١٩٧
 المدائن ٤١ ، ٤٣ ، ٥١ ، ٥٧
 مدراس ٢٥٦
 المدينة النورة ٥٤
 مراغة ٣٤
 مرشد آباد ٣٨٧
 مرمرة ٢٥٢
 مرو ٣٢ ، ٧٤ ، ١٥٦ ، ٥٨٨
 مسقط ٤٩٠
 مشهد ٣٥
 مصر ٢٤ ، ٣٨ ، ١١٢ ، ٢٥١ ،
 ٣٨٣ ، ٤٢٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ،
 ٤٨٩
 مطرح ٤٩٠
 مكران ٦٦ ، ٢٦٣
 مكسر ٢٣ ، ٤١٥ ، ٤٨٦
 مكة المكرمة ٣٥ ، ٤٨٤
 ملابانج ٦٢٣
 ملاذکرد ١٠٠
 مليار ٢٥٠
 ملتان ٦٦
 ملقا ٢٣ ، ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٤٢٠ ،
 ٤٥٥ ، ٤٦٥ ، ٤٩١ ، ٤٩٨
 منداناو ٦٢١
 مندل ٢٥٠
 موسكو ٥٩٦
 الموصل ٩٨
 ميدان ٤٤٩ ، ٤٥٩
 ميسور ٣٥٧
 ميناماتي ٣٨٦

كاشان ٢٧ ، ٥٨٢
 كافرستان ٢١٤
 كامپار ٤٦٩
 كانتون ٤٥٦ ، ٦٠٧
 كجرات ٢٢٠ ، ٢٨١ ، ٣٥٧
 كده ٤٦٧
 كديري ٤٤٤
 كراتشي ٣٣٣
 الكرج ٨١ ، ١٤٣ ، ٥٨٩
 كردستان ٢٧ ، ١٠٤ ، ١٣٥ ، ١٩٦
 كرمان ٢٧ ، ٤٣ ، ٧٣ ، ٨٩ ، ١٠٤
 كشمير ٨٩ ، ١٣٥ ، ٢٢٠ ، ٣٣٥ ،
 ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٥٠
 كلانتون ٤٣٤ ، ٤٩٨
 كلكتا ٣٣٤
 كلنتانج ٥٠٢
 كليمنتان ٤١٥ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ،
 ٤٢١ ، ٤٨١ ، ٥٠٤
 كمبردج ٣٣٥ ، ٣٤٩
 كمبوديا ٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ،
 ٤٠٩
 كوانشو ٦٠٨
 كوالالمبور ٤٣٥ ، ٥٠٢ ، ٥٠٧ ، ٥٠٩
 كوريا ٢٣
 كور ٢٥٠
 الكوفة ٥٧
 الكويت ٢٠٠
 كيرمنشاه ٢٠٦

حرف اللام

لاهاي ٤٢٥
 لاهور ٩٣ ، ٣٩٣
 لاوس ٤٠٣ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩
 لشكرجاه ٢٢٢
 لبسر ١٢٢
 لبوك ٤٣٩
 ليبيا ٢٠٣

حرف الميم

ماجابيت (امبراطورية) ٤٠٨ ،
 ٤٤٣ ، ٤٤٢ ، ٤٤١ ، ٤٢٩
 ٤٨٤ ، ٤٨٩ ، ٥٦٨
 ماجينداناو ٦٣٣
 مادورا ٤٨٤
 ماديون ٤٢٣ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠
 مازندان ٢٧ ، ١٦٠
 مائلا ٦٢١
 مظرم ٤٤٣
 المحصرة ١٩٧
 المدائن ٤١ ، ٤٣ ، ٥١ ، ٥٧
 مدراس ٢٥٦
 المدينة المنورة ٥٤
 مراغة ٣٤
 مرشد آباد ٢٨٧
 مريرة ٢٥٢
 مرو ٣٢ ، ٧٤ ، ١٥٦ ، ٥٨٨
 مسقط ٤٩٠
 مشهد ٣٥
 مصر ٢٤ ، ٣٨ ، ١١٢ ، ٢٥١
 ٣٨٢ ، ٤٢٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧
 ٤٨٩
 ٤٩٠
 مكران ٦٦ ، ٢٣٣
 مكسر ٢٣ ، ٤١٥ ، ٤٨٦
 مكة المكرمة ٣٥ ، ٤٨٤
 ملايلاج ٦٢٣
 ملاذكرد ١٠٠
 ملبار ٢٥٠
 ملتان ٦٦
 ملقا ٢٣ ، ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٤٢٠
 ٤٥٥ ، ٤٦٥ ، ٤٩١ ، ٤٩٨
 منداناو ٦٢١
 منفلج ٢٥٠
 موسكو ٥٩٦
 الموصل ٩٨
 ميدان ٤٤٩ ، ٤٥٩
 ميسور ٣٥٧
 ميناماتي ٣٨٦

كاشان ٢٧ ، ٥٨٢

كافريستان ٢١٤

كاميار ٤٦٩

كانتون ٤٥٦ ، ٦٠٧

كجرات ٢٢٠ ، ٢٨١ ، ٣٥٧

كده ٤٦٧

كديري ٤٤٤

كراشي ٣٣٣

الكرج ٨١ ، ١٤٣ ، ٥٨٩

كرديستان ٢٧ ، ١٠٤ ، ١٣٥ ، ١٩٦

كرمان ٢٧ ، ٤٣ ، ٧٣ ، ٨٩ ، ١٠٤

كشمير ٨٩ ، ١٣٥ ، ٢٢٠ ، ٣٣٥

٣٥٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣

كلانتون ٤٣٤ ، ٤٩٨

كلانجا ٣٣٤

كلنتانج ٥٠٢

كليمنتان ٤١٥ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢٠

٤٢١ ، ٤٨١ ، ٥٠٤

كمبردج ٣٣٥ ، ٣٤٩

كمبوديا ٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧

٤٠٩

كوانشو ٦٠٨

كوالابور ٤٣٥ ، ٥٠٢ ، ٥٠٧ ، ٥٠٩

كوريا ٢٣

كور ٢٥٠

الكونة ٥٧

الكويت ٢٠٠

كيرمنشاه ٢٠٦

حرف اللام

لاهاي ٤٢٥

لاهور ٩٣ ، ٣٩٣

لاوس ٤٠٣ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩

لشكرجاء ٢٢٢

لبير ١٢٢

لبوك ٤٣٩

لبنيا ٢٠٣

میوند ۲۳۲

حرف النون

نجازاتی ۵۰۰ ، ۵۳۲

نجزیسیبلان ۴۹۷

النون ۲۷۲

نخجوان ۱۵۵

نهایند ۵۱

نوستقارا ۴۴۴

نونیل لوشنگو ۱۸۰

نیشابور ۵۷ ، ۸۷ ، ۸۸ ، ۹۱ ، ۱۰۰

۱۰۰

حرف الهاء

هاوی ۴۹۹

هزات ۳۲ ، ۵۲ ، ۵۴ ، ۶۹ ، ۳۱۴

هزمر ۱۴۹ ، ۳۳

هزارستان ۲۱۳

همدان ۲۷ ، ۲۷ ، ۶۸

هملیا ۲۴۷ ، ۳۳۹

هندوکش ۲۱۲ ، ۲۱۳ ، ۲۵۹

مولندا ۴۲۵ ، ۵۱۹ ، ۵۲۰ ، ۵۲۱ ، ۵۲۲

۵۴۴ ، ۵۴۲

هونج کونج ۲۳ ، ۴۹۹

هیروشیما ۵۰۰ ، ۵۳۲

حرف الواو

وخان ۲۱۴

حرف الیاء

الیابان ۲۳ ، ۴۹۹ ، ۵۰۰ ، ۵۰۱

۵۲۷ ، ۵۲۸ ، ۵۲۹

الیونان ۲۵۹

میوند ۲۲۲

حرف النون

نخجوان ۵۳۲ ، ۵۰۰

نجرشیمبلان ۴۹۷

النخف ۱۷۲

نخجوان ۱۵۵

نهاوند ۵۱

نوسنتارا ۴۴۴

نوفیل لوشافور ۱۹۰

نیشابور ۵۷ ، ۸۷ ، ۸۸ ، ۹۱

۱۵۰

حرف الهاء

هاوای ۴۹۹

هرات ۳۲ ، ۵۲ ، ۵۴ ، ۶۶ ، ۳۱۴

هرمز ۲۳ ، ۱۴۶

هزارستان ۲۱۳

همدان ۲۷ ، ۳۷ ، ۹۸

الهملیا ۲۴۷ ، ۳۳۶

هندوکش ۲۱۲ ، ۲۱۳ ، ۲۵۹

هولندا ۴۲۵ ، ۵۱۹ ، ۵۲۰ ، ۵۲۱

۵۴۴ ، ۵۲۲

هونج کونج ۲۳ ، ۴۹۹

هیروشیما ۵۰۰ ، ۵۳۲

حرف الواو

وخان ۲۱۴

حرف الیاء

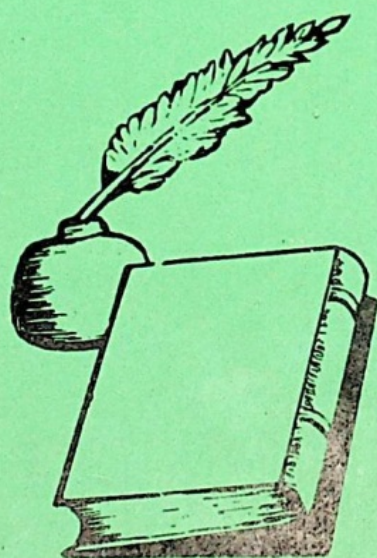
الیابان ۲۳ ، ۴۹۹ ، ۵۰۰ ، ۵۰۱

۵۲۹ ، ۵۴۸ ، ۵۴۷

الیونان ۲۵۹

✓

موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية



تأليف
الدكتور أحمد شلبى
دكتوراه من جامعة كامبردج

استاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى - القاهرة

مع إضافات واسعة وتحقيقات جديدة

موسوعة التاريخ الإسلامى

٩

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر
(ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم)

— حوليات عصر محمد نجيب : الواجهة
— حوليات عصر جمال عبد الناصر : عصر المظالم والهزائم

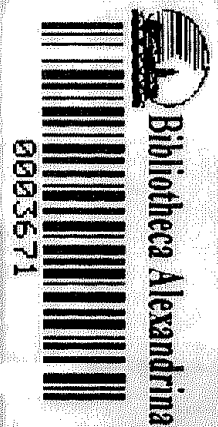
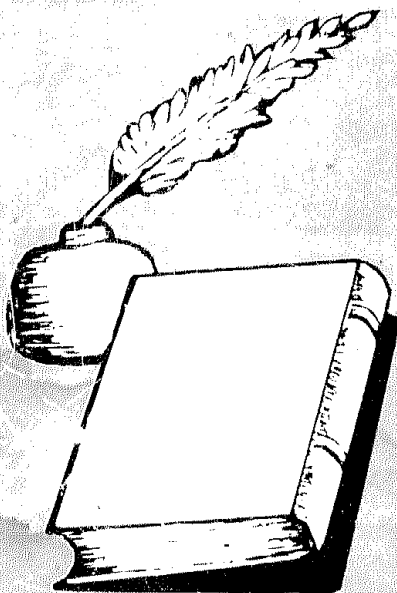
تأليف
الدكتور أحمد شلبى

دكتوراه من جامعة كمبريدج (انجلترا)

استاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
الحائز لوسام « العلوم والفنون » من الطبقة الأولى
لكتاباته فى السيرة النبوية والتاريخ الإسلامى



مكتبة المخطوطات المصرية
٩ شارع عدلى - القاهرة



إضافات واسعة وتحقيقات جديدة

الطبعة الرابعة ١٩٨٩

التاريخ الإسلامي
والحضارة الإسلامية

9

(ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم)

— حوليات عصر جمال عبد الناصر : عصر المظالم والفساد —

سابقہ

الدكتور أحمد مشلبي

استاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامى والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

[illegible]

الطبعة الثالثة. ١٩٩٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

التاريخ . . .
شعاع من الماضي ينير الحاضر والمستقبل

الطبعة الاولى ١٦٨٠

الطبعة الثانية ١٩٨٣

خطة البحث في هذه الموسوعة

إن خطة البحث التي أتبعها في كتابة التاريخ الاسلامي، خطة جديدة ومريحة ،
ويسرني أن أبرز هاهنا التخطيط التالي، ليعرف القارئ كتبها، وليسهل عليه متابعتها :

دراسة زمنية في هذه الأجزاء الثلاثة، إذ أن العالم الإسلامي وحدة واحدة	ج ١ ج ٢ ج ٣	العرب قبل الاسلام - السيرة النبوية المعطرة - عصر الخلفاء الراشدين الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية خلالها الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسي الأول ، ويدور المسلمين خلاله في خدمة للدراسات الاسلامية والحضارة العالمية
دراسة مكانية (قطاعات جغرافية) في الأجزاء الخمسة التالية لأن العالم الإسلامي انقسم إلى دويلات كثيرة، ويشمل كل جزء من اجزاء الموسوعة قطاعا من العالم الإسلامي ، بحيث يتناول تاريخه من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر مبتدئين من الغرب ومتجهين إلى الشرق كالتخطيط التالي :		
الجزء الثامن	الجزء السابع	الجزء السادس
التاريخ الإسلامي للدول الإسلامية غير العربية بأسيا : إيران - أفغانستان - باكستان - بنجلاديش - ماليزيا - اندونيسيا - الأقليات الإسلامية بالهند والصين والاتحاد السوفيتي واليابان .	الإسلام والدول الإسلامية بالجزيرة العربية والعراق من مطلع الإسلام حتى الآن دول الجزيرة العربية : المملكة العربية السعودية - عمان - اليمن - جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية - دولة الامارات العربية - قطر - البحرين - الكويت - ثم العراق	الاسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخلها الاسلام حتى الآن دراسة عن { وسائل انتشار الإسلام بقلب افريقية - الدول الإسلامية قبل الاستعمار الأوروبي - الدول الإسلامية الحالية : موريتانيا - السنغال - جامبيا - غينيا - مالي - النيجر - نيجيريا - تشاد - السودان - الصومال - جيبوتي
الجزء الرابع	الجزء الخامس	الجزء الرابع
الاندلس الإسلامية وانتقال الحضارة الاسلامية منها إلى أوروبا المغرب - الجزائر - تونس - ليبيا من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر السنوية : مبادئ وتاريخها	مصر وسوريا من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر الحروب الصليبية : فوائدها - أضرارها - نتائجها الإمبراطورية العثمانية (تركيا) منذ ظهورها حتى الآن	الجزء الرابع

وتختتم الموسوعة بدراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر :

الجزء التاسع : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد نجيب وعصر عبدالناصر

الجزء العاشر : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم . عصر أنور السادات

مقدمة

الطبعة الثانية

لك الحمد يارب على توفيقك وعونك ، والثناء عليك على ما أوليت من نعم ، وما أفضت من خير ، وأماي يارب قولك الكريم « إننا لا نضيع أجر من أحسن عملا » وقد تعلمت من هذه الآية أن أجود عملي ما وسعتني الطاقة ، وبالغالي جنيت ثمار تجويد العمل والإخلاص له جنيته في هذا الكتاب إقبالا من الناس ، وتقديراً من المنصفين .

وقد نفذت الطبعة الأولى منه على كثرة عـددها — في وقت قصير ويسعدني أن أقدم الطبعة الثانية ، وأقرر أن هذا الكتاب لعب دوراً كبيراً في تصحيح أفكار الناس في الداخل والخارج ، وأعاد الحقيقة إلى نورها وإشعاعها .

ولم يكن الهدف من هذا الكتاب أن تنقد عبـد الناصر فقط أو أن تصحيح التاريخ ، بل أن أعظم هدف سعيت إليه أن أوضح لرؤساء الحاضر والمستقبل أن عيون المؤرخين بالمرصاد ، وأن الحقيقة لا تـموت لعلمهم بذلك يحسنون الصنع فيما وضع في أهنأقهم من مسؤوليات .

وكتابة التاريخ المعاصر من أشق أنواع الكتابة في مجال التاريخ ولكن كل جهد يهون من أجل أداء الواجب وخدمة الدين والوطن .

يارب بارك هذا الجهد وانفع به قارئه ومؤلفه فأنت نعم المولى ونعم النصير

دكتور / أحمد شلبي

المعادي في ٢٢ يناير سنة ١٩٨٣

تاريخ الملوك والرؤساء

إن كتابة تاريخ الملوك والرؤساء ، لاتعنى فقط أننا نشرح تاريخ حقبة مضت ، بل إن الأهم من ذلك أننا بهذا نحافظ على الحاضر والمستقبل ، فالعقل من اتعظ بغيره ، ويوم يعرف أى رئيس أو أى مسئول ، أن أعماله محسوبة عليه ، وأنه هو وأسرته سيحاسبون عما يقترفون من أخطاء فلنهم لاتغريهم مظاهر الحياة ، ولا كلمات الملق المزيف ، ولا يخذلهم الحاضر القصير عن المستقبل الطويل ، وسنوضح هذا المعنى فيما يلى من دراسات ، ولكننا نبرزه هنا فى مطلع هذا العمل كاللناقوس الذى يدق للتنبيه والإنذار ، وصدق الله العظيم الذى يقول « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » .

على أن هذا الكتاب لن يتوقف عند كتابة تاريخ القادة والرؤساء ، وإنما سيصور الحركات الشعبية ، ونشاط الجماعات بمصر طيلة الفترة التى يتحدث عنها .

ومن الله نرجو العون والسداد

المؤرخ عندما يكتب تاريخ بلاده

هناك تاريخ يدونه المؤرخ :

وتاريخ يحسه ويتعاطف معه . . .

وتاريخ يعيشه ويتفاعل به، ومع هذا النوع من التاريخ كان حالي عندما كنت أكتب هذا المجلد ؛ كان التعذيب ينزل بالمواطن فأعاني أنا آلامه ، وكانت الحراسة تفرض على مال المصرى ليَجوع ، فأحس أنا معه بالحاجة والعوز وكانت الهزائم تنتاب البلاد فأجدنى مكلوماً كأنما غلبنى غالب .

ولما انكشفت الغُمة عن الناس عاودتنى الابتسامة .

إن المؤرخ عندما يسجل تاريخ بلاده تنعكس عليه أحداث الأحداث

طبيعة الحكم العسكري في مصر

(مقتنيات ستردُ موثقة داخل هذا الكتاب)

اتضح أن الجيش جماعة أنانية ، متلهفة على الاستمرار في السلطة ، وعلى زيادة امتيازاتها ، وهي بعيدة عن الطبقات العاملة ، وغير جديرة أن تهب نفسها لأهدافها .
ماكسيم رودنسون ص ١٠٤ .

التفكير في الطبقات العاملة لم يكن واردا في ذهن قادة الجيش وتعبير العسكريين عن أهداف هذه الطبقة كان تصوراً بعيداً عن الواقع والحقيقة .
أحمد حموش ص ١٠٤ - ١٠٥ .

تخلّى ثوار مصر عن مبادئهم التي كانوا يعلنونها قبل الثورة ؛ فقد كانوا يهاجمون الأحكام العرفية ، والرقابة على الصحف ، واعتقالات السياسيين ، وحلّ البرلمان ولكنهم في أقل من ستة شهور أصبحوا يزاولون هذه الأعمال بشراسة ، فقد استطابوا الحكم واستبدوا به ، واستبعدوا فكرة تسليم السلطة للشعب
Gourge Haddad :

Revolutions and Military Rule in the Middle East ص ١٠٢ - ١٠٣

وصل الوضع بعبد الناصر إلى أكثر مما وصل إليه فرعون في زمانه ،
أو اللورد كرومر في عصره .
عبد اللطيف البغدادي ص ٦٥٨

إن الجماعة فشلت تجربتهم في الحكم والحرب ، وينبغي أن يتركوا القيادة لسواهم .
الضابط البطل الوحيد في حرب ١٩٦٧ ص ٧٣٤

كتب للمؤلف

أولا . موسوعة التاريخ الاسلامى

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة أجزاء لتاريخ العالم الاسلامى كله من مطلع الاسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى أسهم بها المسلمون فى ترقية العمران ، وتطوير الفكر البشرى :

١ - الجزء الأول : (الطبعة العاشرة)

- مقدمة الموسوعة : نطلق التاريخ الاسلامى - تفسر التاريخ - هل التاريخ علم ؟ .. فلسفة التاريخ - فائدة التاريخ - مراحل تدوين التاريخ - قضية الالتزام فى كتابة التاريخ الاسلامى - علم التاريخ بين المسيحية والاسلام ...
- تاريخ العرب قبل الاسلام : البدو والحضر - حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية .
- السيرة النبوية العطرة : جوانب من السيرة تدون لأول مرة - الدعوة الاسلامة وفلسفتها - عصر الخلفاء الراشدين

٢ - الجزء الثانى : (الطبعة السادسة)

الدولة الاموية والحركات الفكرية والثورية فى عهدها .

٣ - الجزء الثالث : (الطبعة السابعة)

الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الاول ، وبدور المسلمين فى خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية .

٤ - الجزء الرابع : (الطبعة السادسة)

- الاندلس الاسلامية ، وانتقال الحضارة الاسلامية الى اوربا عن طريقها .
- المغرب - الجزائر - تونس - ليبيا (من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر) .
- السنوسية : مبادئها وتاريخها .

٥ - الجزء الخامس : (الطبعة السادسة)

- مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر .
- الحروب الصليبية : دوافعها - ادوارها - نتائجها .
- الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن .

الاسلام والدول الاسلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخلها الاسلام حتى الآن :

- دراسة عن وسائل انتشار الاسلام :
- مراكز الشمال - هجرات عربية وغير عربية - التجار - الطرق الصوفية - مراكز داخلية .
- الدول الاسلامية قبل الاستعمار الاوربي :
- غانة - مالي - صنفي - دول الهوسا - برنو - باجسرمين - واداي - الفونج - مقدشو - مملكة الزنج .
- الدول الاسلامية الحالية :
- موريتانيا - السنغال - جامبيا - غينيا - مالي - النيجر - نيجيريا - تشاد - السودان - الصومال - جيبوتي .

الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق :

- دول الجزيرة العربية من مطلع الاسلام حتى الآن :
- المملكة العربية السعودية - اليمن - جمهورية اليمن الجنوبية - عمان - دولة الامارات العربية - قطر - البحرين - الكويت .
- العراق من مطلع الاسلام حتى الآن .

الاسلام والدول الاسلامية غير العربية بآسيا من مطلع الاسلام حتى الآن :

- ابران - افغانستان - الباكستان - بنجلاديش - ماليزيا - اندونيسيا
- الاتحادات الاسلامية في الهند والصين وروسيا والفيليبين ..

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر

- نور ٢٣ يوليو من يوم الى يوم . عصر محمد نجيب وعصر جمال عبد الناصر (عصر المظالم والهزائم) .

- نور ٢٣ يوليو من يوم الى يوم ، عصر انور السادات .
- (ترجمت أكثر أجزاء هذه الموسوعة لعدة لغات)

كتب للمؤلف

ثانيا : موسوعة النظم والحضارة الاسلامية

دراسة تحليلية شاملة في عشرة اجزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية التي جاء بها الاسلام لهداية البشرية في شئون العقيدة ، والسياسة ، والاقتصاد ، وفي مجال الحياة الاجتماعية والتربوية والعسكرية ، والتشريعية والقضائية ، وتشمل :

١١ - الجزء الاول : تاريخ المذاهب الاسلامية (الطبعة الثانية)

مناهج التعليم في صدر الاسلام — انحرافها في عصور الظلام — وجوب تصحيحها .

١٢ - الجزء الثاني : الفكر الاسلامي : منابعه وآثاره (الطبعة السادسة)

١٣ - الجزء الثالث : السياسة (الطبعة الخامسة)

في التفكير الاسلامي

مع المقارنة بالنظم الحديثة المعاصرة .

١٤ - الجزء الرابع : الاقتصاد (الطبعة الخامسة)

في التفكير الاسلامي

مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة .

ومع دراسة شاملة للنقاط التالية :

١ - الاسلام والقضايا الاقتصادية الحديثة مثل شهادات الاستثمار والاداع بالبنوك ...

٢ - النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور واثار الفكر الاسلامي فيها .

٣ - خطر الشيوعية على الاديان والانسان والدول .

١٥ - الجزء الخامس : التربية الإسلامية (الطبعة السابعة)
نظمها - تاريخها - فلسفتها

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين ، وإنشاج
التعليم وامكنته ، وحالة المدرسين المالية والاجتماعية ، والإجازات
العلمية ، والعقوبات ، والجوائز ، والمكافآت ، وملابس المدرسين ،
ونقابة المعلمين ، وتكافؤ الفرص بين التلاميذ ، وتوجيههم حسب
مواهبهم ..

١٦ - الجزء السادس : المجتمع الإسلامي (الطبعة السادسة)
أسس تكوينه .. أسباب ضعفه .. وسائل نهضته

١٧ - الجزء السابع : الحياة الاجتماعية (الطبعة الثالثة)
في التفكير الإسلامي

- في نطاق الأسرة : كالختان وتحديد النسل وعمل المرأة ...

- وفي نطاق المجتمع : كالأفراح والمآتم والموسيقى والفناء ...

١٨ - الجزء الثامن : تاريخ التشريع الإسلامي (الطبعة الثانية)
وتاريخ النظم القضائية في الإسلام
مع بحوث واسعة عن القرآن الكريم : المصدر الأول للتشريع
ومع دراسة شاملة لمصادر التشريع الأخرى

١٩ - الجزء التاسع : الجهاد والنظم العسكرية (الطبعة الثالثة)
في التفكير الإسلامي

بحث على يبرر موقف الإسلام من السلم والحرب ، كما يبرز اتجاهات
الإسلام في مشكلات الحرب بالاستعداد للجهاد ووسائله ، وأخلاق
المجاهد ، والخديعة في الحروب ، والثبات والفرار ، والرباط ،
والتجسس والخيانة ، والهدنة والأسرى ..

٢٠ - الجزء العاشر : رحلة حياة (الطبعة الثالثة)
تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الإسلامية

كتب للمؤلف

ثالثاً - مقارنة الأديان

سلسلة من الكتب في مقارنة الأديان ، تعتمد على أدق المراجع بمختلف اللغات ، وتمتاز دراساتها بالحيدة والعمق وتشمل :

٢١ - الجزء الأول : اليهودية : (الطبعة السادسة)

دراسة لشتى المسائل اليهودية : اليهود في التاريخ من عهد إبراهيم حتى الآن : الصهيونية ؛ أنبياء بني إسرائيل ، عقيدة بني إسرائيل ، يهوه إله بني إسرائيل ؛ التعدد والتوحيد في الفكر اليهودي ، التابوت والهيكل ، الكهنة والقرايين - مصادر الفكر اليهودي : العهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء صهيون .
- اليهود في الظلام : الماسونية ، والروتاري ، الاغتيال ، التجسس ، البأية والبهائية .

- من صور التشريع في اليهودية .

٢٢ - الجزء الثاني : المسيحية : (الطبعة السادسة)

- المسيح والمسيحية في نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة - بولس واضع المسيحية الحالية ، التثليث ، صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر

- شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، المجامع ، طبيعة المسيح والآراء فيها ، الطوائف المسيحية ، الرهبنة والأديرة ، خرافة ظهور العذراء في كنيسة الزيتون ، حركة الإصلاح الديني ونتائجها ونقدها

٢٣ - الجزء الثالث : الاسلام : (الطبعة السادسة)

- الله في التفكير الإسلامي ، النبوة في التفكير الإسلامي ، الروح والمادة في التفكير الإسلامي ، فلسفة العبادات في الإسلام ، غير المسلمين في المجتمع الإسلامي ، الدين المعاملة ، المرأة في الإسلام ، الرق وموقف الإسلام منه ، السياسة والاقتصاد في الاسلام

٢٤ - الجزء الرابع : أديان الهند الكبرى :

« الهندوسية - الجينية - البوذية » (الطبعة الخامسة)

- تقديم عن : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات في الهند ، الأديان في الهند - دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا ، مها بهارتا : يوجا واسستها ، كيتا - أهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الانطلاق والزفانا ، وحدة الوجود - تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخها واضعها

كتب للمؤلف

رابعاً : كتب في الثقافة العامة وكتب بلغات اجنبية

- ٢٥ — كيف تكتب بحثاً او رسالة (الدبعة الخامسة عشرة)
دراسة منهجية لكتابة البحوث واعداد رسائل الماجستير والدكتوراه
باللغة الانجليزية :

- ٢٦ ISLAM : Belief - Legislation - Morals
— ٢٧ History of Muslim Education مكتبة النهضة المصرية

وباللغة الاندونيسية والماليزية :

- | | | |
|---------------------------------|--|------|
| | Negara dan Pemerintahan Dalam Islam | — ٢٨ |
| | Masyarakat Islam | — ٢٩ |
| | Hukum Islam | — ٣٠ |
| | Sedjarah dan Kebudayaan Islam 1 | — ٣١ |
| | Sedjarah dan Kebudayaan Islam 11 | — ٣٢ |
| | Sedjarah dan Kebudayaan Islam 111 | — ٣٣ |
| | Perbandingan Agama (Jahudi) | — ٣٤ |
| | Perbandingan Agama (Masihi) | — ٣٥ |
| | Perbandingan Agama (Islam) | — ٣٦ |
| Pustaka Nasional
(Singapore) | Perbandingan Agama (Agama2 yang
Terbesar di India - Hindu-Jaina-Buddha) | — ٣٧ |
| | Sedjarah Pendidikan Islam | — ٣٨ |
| | Politik dan Ekonomi Dalam Islam | — ٣٩ |
| | Kehidupan Sosial Dalam Pemikiran Islam | — ٤٠ |
| | Perkembangan Keamanan Dalam Islam
dan Masihi | — ٤١ |
| | Perang Salib | — ٤٢ |
| | Kurikulum Islam Dahulu | — ٤٣ |
| | Perkembangan Sedjarah | |
| | Pengajian Al Quraan | — ٤٤ |
| | Sedjarah Kehakiman Dalam Islam | — ٤٥ |

كتب للمؤلف

خامساً - تعليم اللغة العربية لغير العرب وقواعد اللغة العربية

- برنامج شامل ميسر لتعليم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب .
- أول سلسلة من نوعها في المكتبة العربية تملأ هذا الفراغ .
- دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف .
- تضم هذه السلسلة الكتابين التاليين :

- ٤٦ - تعليم اللغة العربية لغير العرب : (الطبعة الثانية)
يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى : مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة ،
فالتعبير ، فالإملاء ، فالخط والنصوص ، ثم يقفز بالتألف إلى مرحلة متقدمة
في القراءة والمحادثة والكتابة ، مستعملاً في هذه المرحلة موضوعات جذابة من
الفكر الإسلامي والعربي اختيرت من أمهات الكتب العربية ثم صيغت في
أسلوب مناسب ، مع أسئلة وتمارين مفيدة .
- ٤٧ - قواعد اللغة العربية : (الطبعة الثانية)

عرض لجميع أبواب النحو العربي بطريقة تربوية سهلة
ودراسة واضحة لأهم أبواب الصرف

هذا الكتاب ضروري للمثقف العربي وغير العربي

كتب نفذت ولن يعاد طبعتها

- ٤٨ - في قصور الخلفاء العباسيين :
أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة
- ٤٩ - مصر في حربين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) دراسة مقارنة :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٩ من هذه القائمة
- ٥٠ - الحكومة والدولة في الاسلام :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٣ من هذه القائمة
- ٥١ - الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحي :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٢٠ من هذه القائمة

كتب للمؤلف
سادسا : المكتبة الاسلامية المصورة
لكل الاعمار

١٠٠ جزء من سير عظماء الاسلام ومن التاريخ والحضارة وقصص القرآن
للأولاد والشباب والسيدات والرجال
ظهر منها الأجزاء التالية :

- ١ ج محمد قبل البعثة
- ٢ ج من غار حراء .. الى غار ثور (قصة الاسلام في مكة)
- ٣ ج الاسراء والمعراج : دراسة تصحيح للقضاء على الشطحات
- ٤ ج الهجرة للمدينة ووسائل الاستقرار بها
- ٥ ج الرسول الداعية ومربي الدعوة
- ٦ ج الرسول في بيته : أزواجه - أولاده وأحفاده - خدمه
- ٧ ج الرسول في بيته : مشكلات الحياة في بيت الرسول وكيف عالجها
- ٨ ج الرسول بين أصحابه - الرسول يربي الفرد المسلم ويربي المجتمع الاسلامي
- ٩ ج الرسول يربي القضاة ، ويربي القوة العسكرية ، ويربي الولاة والحكام
- ١٠ ج الرسول والشباب - الرسول والعمل
- ١١ ج توجيهات طبية يقدمها الرسول - مكرمات للرسول - الرسول والمتنافقون
- ١٢ ج الرسول والنصارى - الرسول واليهود
- ١٣ ج الاسلام والقتال ، وهل انتشر الاسلام بالقوة او بالدعوة - غزوة بدر ودراسات جديدة حولها - اهم أحداث غزوة بدر
- ١٤ ج غزوة احد والهزيمة التي أخافت المنتصر - غزوة الاحزاب وكلمة عن سلمان الفارسي
- ١٥ ج صلح الحديبية - كتب الرسول للملوك والرؤساء
- ١٦ ج فتح مكة - غزوة حنين والطائف - الصراع ضد الروم - الفترة الاخيرة في حياة الرسول
- ١٧ ج ابو بكر الصديق : حياته وعصره والمشكلات التي واجهها
- ١٨ ج عمر بن الخطاب والتوسع في عهده - عمر باني الدولة الاسلامية
- ١٩ ج عثمان بن عفان والفتنة في عهده
- ٢٠ ج علي بن ابي طالب : شخصيته وحياته والمشكلات التي واجهها
- ٢١ ج العشرة المبشرون بالجنة
- ٢٢ ج المرأة في الاسلام ونماذج من خيرة المسلمات
- ٢٣ ج الدولة الاموية : تاريخ يحتاج الى انصاف
- ٢٤ ج الدولة الاموية : مواهب فريدة : الوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز
- ٢٥ ج الدولة الاموية : التوسع الاسلامي العظيم في عهدها
- ٢٦ ج الدولة الاموية : نشاط الشيعة خلالها وقصة استشهاد الامام الحسين (الأجزاء التالية ستظهر تباعا ان شاء الله)

دراسات تمهيدية حول هذا الكتاب

مصادر هذا الكتاب

أكثر مصادر هذا الكتاب مصادر أصيلة مباشرة أو كما يقول الغربيون First Hand Information فهي عبارة عن رؤيتي كشاهد عيان ، أو عن سماعي سماعاً متواتراً من الثقات ، ثم تجيء قراءات في أدق المصادر وعلى هذا فإن مَنْ يقلب صفحات هذا الكتاب يتضح له ما يلي :

— استقبلت الثورة وأنا مدرس للتاريخ بجامعة القاهرة ، فكان من التزامي أن أدون تاريخها يوماً بعد يوم .

— عايشت مشكلات الضباط في صراعهم ضد بعضهم البعض ابتداء من سنة ١٩٥٣ وألقيت خطاباً حافلاً بالقاعة الكبرى بالجامعة في مارس سنة ١٩٥٤ ، اعتبر آنذاك معبراً عن رأى الأساتذة ، كما سئى فيما بعد .

— تابعت الاعتداء الثلاثي دقيقة إثر دقيقة .

— تابعت حركة الوحدة مع سوريا ، وما حصل في أثناء هذه الوحدة مما دعا إلى الانفصال .

— تحسرت على دخول معمة اليمن ، وكنت — كخورخ — أذكر أن العثمانيين سيطروا على أكثر البلاد العربية ، ولكثمت عجزوا عن السيطرة على اليمن لطبيعة الأرض والناس ، وتوقعت أنها معركة طويلة وفاشلة بدون ضرورة .

— رأيت بنى وطنى يعانون الجوع والحرمان ليقدم الزعيم طعام المصريين هدايا للآخرين ، وليبعث الجيوش المصرية بكل ما تحتاجه من نفقات باهظة إلى هنا وهناك .

— سمعت جمال عبد الناصر وهو يفخر بأنه قبض على ثلاثين ألفاً في نصف ساعة ، وسمعت بطريق متواتر ما نزل بهؤلاء من ضرر .

— رأيت اشتراكية عبد الناصر وعانيت منها وقد وصفها الرئيس أنور السادات أروع وصف حينما قال أنها اشتراكية الجوع واشتراكية الصنم .

— إجراءات عملية سنة ١٩٦٧ بكل جوانبها ؛ من عدم الاستعداد الحقيقى للمعركة ، ومن هزيمة جيشنا بلون معركة ، ومن قرار الانسحاب المشنوم ، ومن ضحاياها فى الرجال والعتاد... كل ذلك أعلنه جمال عبدالناصر بنفسه ، وسمعت منه ، وسمعه معى الناس .

— قرأت الصحافة المصرية ، والكثير من الصحافة العالمية ، واقتبست منها ، بعد عملية اختبار دقيقة ، ملاحظاً الفرق بين الآراء الشخصية للصحفى أو الكاتب وبين الأخبار التى ترتبط بالدعاية ، وتلك التى تحمل أنباء موضوعية حقيقية .

ومن أبرز ما نشرته الصحف تلك الوثيقة المهمة التى نشرها إبراهيم بقدادى عمارآه من أحداث وعسف بمحافضة المتوفية حينما كان محافظاً لهذه المحافظة ، وما نقله الأستاذ موسى صبرى إلى الصحافة عما دار بقاعة المحكمة عن عبد الحكيم^٩ عامر ومعاونيه الذين كانوا يحفرون أرض الحداثق لإخفاء الذهب وأوراق النقد الأجنبى يوم ٧ يونيو ١٩٦٧ ، وجث ضحاياهم تغطى أرض سيناء ولا تجد من يدفنها .

ومثل هذا. يقال عن موظفى وزارة الخارجية الذين تاجروا فى العملة المصرية عقب إلغاء الورقة ذات الخمسين جنيتها والورقة ذات المائة جنيه ، ويقال كذلك عن الأقوال التى أدلى بها المرحوم المشير أحمد إسماعيل عن أن الدفاع عن سيناء قبل معارك ١٩٦٧ كان قد ضعف بسبب سحب بعض قواتها المدربة تدريباً عالياً إلى اليمن ، وأن التعاون بين سوريا ومصر لم يكن حقيقياً ، وأن قرار الانسحاب كان مخاطرة ومجازفة غير محسوبة النتائج ، ضاعفت من حجم الخسائر ...

— حصلت على حشد من الوثائق والقرارات والمراسيم .

— قرأت الكتب التى تعد مصادر رئيسية لهذا التاريخ وفى قتها :

٩ — كلمتى للتاريخ ، لمحمد نجيب :

٢ — البحث عن الذات ؛ لأنور السادات :

٣ — مذكرات عبد اللطيف البغدادي .

٤ — الأجزاء الأربعة التي كتبها الأستاذ أحمد حمروش عن قصة الثورة وبخاصة الجزء الرابع الذي روى فيه أقوال العشرات من قادة الثورة والضباط الأحرار .

٥ — ما كتبه محمد حسين هيكل الذي كان يُعَدُّ طباح الفكر والقلم لجمال عبد الناصر ، وعشرات الكتب الأخرى التي كتبها مؤرخون وباحثون مصريون وغير مصريين .

وعلى هذا فإنني أطمئن القارئ إلى أن ما سيقروؤه في هذا الكتاب أشياء موثقة، وكل ما فعلته هو جمع المادة وعرضها بشيء من النقد والمعارنة تبعاً لطبيعة المؤرخ ، على ألا يغير النقد والمعارنة من الفكرة الحقيقية التي هي هدفنا والتي نحمل مسئوليتها أمام الله وأمام التاريخ .

وقد سبق أن نشرت جزءاً من هذا الكتاب باسم :

« مصر في حربين : دراسة مقارنة »

وقد نفذ بعد بضعة شهور ، فأعدت طبعه في نفس العام ، وعلّق عليه كثير من الباحثين ، وهذا أعطاني فرصة التعرف على آراء المؤرخين والنقاد ، فانتفعت بها في كتابة هذا الجزء من « موسوعة التاريخ الإسلامي »

ويسعدني أن أقرر بعض الحقائق المهمة المرتبطة بهذا الجزء وهي :

أولاً — هذا الكتاب جامع لقضايا العصر ، وقد ظهرت كتب كثيرة تتحدث عن بعض الجوانب أو بعض الأحداث ، كالكتب التي اتجهت لإبراز المظالم التي نزلت بالإخوان المسلمين والكتب التي تتحدث عن محامات عبد الناصر ، وعن أزمة مارس وغير ذلك ، ولكن هذا الكتاب يضم جميع مشكلات العصر من مطلع الثورة حتى نهاية عبد الناصر (١٩٧٠) .

ثانياً — اتخذ هذا الكتاب الحيدة التاريخية منهاجاً له ، وهذا فهو ليس من نمط ما كتبه أصدقاء عبد الناصر مثل حسين هيكل، والكتب الروس (أجاريشيف وبيلياييف وبريماكوف) فهؤلاء اتخذوا حبهام لعبد الناصر

مرجعاً لهم ودافعاً لكتابتهم عنه : وليس من الكتب التي اتجهت لجمع انحرافات ككتاب « سنوات العاز » وكتاب محمد نجيب « كلمتي للتاريخ » وإنما هو كتاب يدرس القضايا التاريخية لتقوده هذه القضايا إلى نتائجها أيا كانت ، فليس هناك هدف من الكتابة إلا إبراز الحقيقة التاريخية .

ثالثاً — كثيرون ممن ألقوا عن أحداث العصر اتخذوا صحف القاهرة مرجعاً لهم ، ومن هؤلاء George Haddad في كتابه :

Revolutions and Military Rule in the Middle East Vol 3,
فقد أخذ هذا الكتاب مادته عن عبد الناصر وعهده من صحف القاهرة ، ولم تكن صحف القاهرة آنذاك بعد إيقاف صحيفة «المصري» وصحيفة «الجمهور المصري» إلا نشرات يومية تحت رقابة صارمة تنشر فقط ما يريده عبد الناصر وجماعته ، ومن أجل هذا جاء كل كتاب اعتمد على الصحف حافلاً بالأخطاء ، فتد كانت الصحافة في واد وأحاسيس الناس في واد آخر .

ولهذا لم ألتجأ للصحف إلا في الأخبار التي تثبت صحتها ، ولم أعتمد على التعليقات والآراء التي كان أكثرها نابعاً عن الإغراء أو التخويف ، وعُنيت بالمراجع الكثيرة الأخرى التي ذكرتها آنفاً عند الحديث عن «مصادر هذا الكتاب» .

رابعاً — أوردت دراسات علمية واسعة حول القضايا التي عرضت لها ، فإذا تحدثت عما أسموه الإصلاح الزراعي تدارست عدة قضايا حول هذا الموضوع مثل :

— هل تسمى الملكيات الزراعية الكبيرة التي كانت بمصر إقطاعاً ؟ .
واستدعي هذا أن نعرف بالإقطاع .

— وما عدد الذين استفادوا من هذا الإصلاح ؟ .

— وما الأرض التي تم الاستيلاء عليها عقب إصدار القانون مباشرة ؟
وتلك التي أبيع لأصحابها أن يبيعوها بأنفسهم بالأسعار التي يرونها ؟ .

- وماذا عن الميخات الوهمية ؟ الى تتحدث عنها الوثائق ؟
- وما الأضرار التي حدثت عن تفتيت الأرض ؟
- وماذا كان يمكن أن يحصل لتحقيق التقارب بدون تأثير على الإنتاج الزراعى ؟ .

وعشرات أخرى من الموضوعات التي تتصل بهذا الإصلاح .
ومثل هذا حدث عنه ما تعرضت للحديث عن الدستور والاعتقالات
والمحاكمات والأحزاب فقد أوردت دراسات شاملة فيها عرض
تاريخي ، وفيها مقارنات واسعة .
وبعد ، فلإني أتجه إلى الله أن يهبنا التوفيق ، وأن يهيء لنا من أمرنا رشدا .
وعلى الله قصد السبيل

المعادي في الثالث من يوليو سنة ١٩٧٩

دكتور أحمد شلبي

صورة وصورة

لقد أصبحت الكتابة عن عبد الناصر سهلة إلى حد كبير ، بهاء . أن افكشفت القناع السميك . أو كاد ، ذلك القناع الذى كان يغير كل شيء ولا يدع للحق نصيباً ، ولكن إذا عدنا إلى الوراء ؛ إلى عهد عبد الناصر نفسه ، أو بعده بقليل ، وجدنا الكتابة عن عبد الناصر كانت تمثل عقبة كئوداً ، وكنت كمؤرخ أحس أن المادة العلمية التى معى تجعلنى فى واد ، وأن الجماهير تعيش فى واد آخر ، فالحقائق التى فى يدى . والتاريخ الذى أريد أن أدونه فى جانب ، وإحساس الكثيرين من الناس عن عبد الناصر وما يعتقدونه عنه فى جانب آخر بعد . وأشهد لقد تمثل سحر الكلمة المقولة والكلمة المكتوبة فى هذا الوضع الذى استطاع أن يقلب الأحوال .

لقد كانت الصورة القائمة تُبرز للباحثين من زوايا متعددة :
كان الإنسان مهيناً تماماً فى دولة عبد الناصر ، وقد ابتكر للنيل منه كل صنوف الهوان ؛ كمصادرة الأموال ، والجوع ، والإذلال ، والسجن ، وهتك العرض ، وكصور تقشع لها الأبدان من التعذيب انتهت بالكثيرين إلى العاهات المستديمة وإلى الموت .

ودخل عبد الناصر حروباً خاسرة متتالية دون أسباب توجبها ، ودون استعداد لها ، ودون قدرة على التخطيط أو الإدارة ، وسقط فيها فى ساعات عشرات الآلاف من الشبان . وضاعت أسلحة تقدر أثمانها بآلاف الملايين من الجنيهات ، وضاعت فى الكثير منها مساحات فسيحة من أرض الوطن ، وقبل ذلك وبعد ذلك أنهارت كرامة مصر وكرامة جيش مصر .

وعانت مصر انهاراً اقتصادياً بالغ المدى جعل الحياة تتوقف أو توشك أن تتوقف ، فأصبحت مصر فى ذيل القائمة بالنسبة لدول العالم فى مجال الإسكان والطرق والمواصلات والتليفونات والمستشفيات ودور العلم وغيرها ؛

وعُثم ضياع في كل شيء ، وفي كل المجالات ، في السياسة والاقتصاد والحياة الاجتماعية والأخلاق ، وإهمال بلغ الغاية في شئون القرية المصرية على الرغم من الطنين الزائف عن الخمسين في المائة من العمال والفلاحين ، وعن الإصلاح الزراعي ، وبسبب هذا الإهمال اندفع سكان القرى إلى النزوح إلى المدن ، كما سنرى من الدراسات القادمة :

هذه صورة قائمة عن عبد الناصر وعهده وكانت هذه الصورة شديدة على الإنسان المصري وقد عانت منها مصر بصورة لم يعرف التاريخ مثيلاً لها أما الصورة الأخرى فهي الأغاني باسم عبد الناصر التي كانت تنتشر في كل مكان ، وهي المدن والمؤسسات والمصانع التي سميت باسمه ، فمدينة ناصر ، وشركات النصر ، وألوان المشتقات من اسمه ، كانت تتويجاً لكل شيء ، وأعمدة الصحف المصرية أو المشتره بأموال مصرية ، وسيل المديح في الإذاعة والتلفزيون وكتب مصلحة الاستعلامات ، والمدرس المخدوع أو الجاهل أو المغلوب على أمره .

كل هذا صوّر صورة أخرى لعبد الناصر زاهية براقه . . . ولقد ظلت هذه الصورة تعيش عدة سنوات وكانت وسائلها أقوى من الهزائم والخسائر ، وتحدث عنها شاب من الشباب المخدوع اسمه عبد الرزاق ، وقد بعث برسالته من إيطاليا فنشرتها له الأخبار في ١٩٧٨/٢/٢١ وفيها يقول « لم أكن أسلم بغير الراحل زعيماً وقائداً لأنني لم أعرف سواه ؛ ولم أعاصر تجارب أخرى غير تجربته ، إنني شاب يحمل سنوات الثورة على كتفيه ؛ ترعرعت في كتفها . . . رددنا مبادئها في وقت مبكر من العمر ؛ حتى ولو لم نعرف معاني هذه المبادئ ، وكنا إذا سمعنا اسم الراحل تحركت أيدينا بالتصفيق والتهنؤ بحياته ، حتى أتهتاذ اللغة العربية لم يكن يعطينا الدرجة النهائية إذا لم نختم موضوعات الإنشاء بإسم الراحل العظيم .

« وكم سخرنا نحن الذئاب من الذين عاصروا فترة ما قبل الثورة ، واستهزأنا برؤيتهم مقتنعين تمام الاقتناع بأننا على حق دون نقاش وأنهم على باطل لا شك فيه . وكنا نقول أى ديمقراطية هذه التى يصدعون رؤوسنا بها وهل ستكون أفضل من هذه الشعارات المعلقة فى كل مكان : حرية اشتراكية وحدة ؟ ولماذا الأحزاب والاتحاد الاشتراكي يضم الجميع ؟ أليس هو تحالف قوى الشعب العاملة ؟ ورسب فى ذهني أن من يمس تلك المبادئ والشعارات ما هو - إلا مزاييد مزيف رجعي مستغل ، وهى الاصطلاحات التى سادت ذلك العصر والتي كانت تُطلق على من يتحدثون عن سياسات أخرى ، ولم نكن نعرف أننا مخلوعون وأنتا نحفر قبورنا بأيدينا » .

فى هذا الجو كتبتُ ورسمتُ صورة عبد الناصر الحقيقية بلا رتوش ولا أكاذيب ، وليصدقنى القارئ أن هذه الكتابة آنذاك كانت مغامرة ولكنى لم أتردد ، فأداء الواجب كان يحتم الصدق فى الأداء مهما كانت النتائج .

قد تقول لى إن الجندي يدخل المعركة غير هباب ، والمعركة أكثر من المغامرة التى كان على أن أخوضها ، والإجابة أن الجيش به عشرات الآلاف من الجنود ، ومن الطبيعى أن يسقط بعضهم فى المعركة ، أما ميدان كتابة التاريخ المعاصر ، فالذين يقفون به قليلون جداً ، وكنت أحس أن عندي معلومات إن لم أنشرها فقد لا تعرف النور أبداً ، ومن هنا فقد دخلت المغامرة راجياً النجاة لأكمل الشوط الذى أكتب اليوم حلقة من حلقاته .

* * *

وأخيراً فرحباً بالقارئ يحول فى صفحات هذا الكتاب ، الذى أرى أنه أهم كتاب كتبته ، لأنه سجل للجيل الحالى وللأجيال القادمة سمات العصر الذى عشناه . والله المستول أن ينفع بهذا الكتاب مؤلفه وقارئه ، وهو المستعان .

كتابان من كتاب واحد

هناك سرٌّ آن لى أن أكشف عنه ، فقد أخرجت كتابى «مصر فى حربين» ٦٧ - ٧٣ دراسة مقارنة ، وأخذت حرب ١٩٧٣ وسيلة لأتكلم عن حرب ١٩٦٧ وعن الأسباب الحقيقية التى قادت لهزيمة الجيش المصرى ، ولانهيار الاقتصاد المصرى. وكان يقال بعد مايو سنة ١٩٧١ إن الحرية انطلقت من عقالها ، وإن لكل إنسان أن يعبر عن نفسه كما يشاء فى حدود القانون ، ولكنى لم أكن أصدق هذا القول ، وكانت جماهير الشعب تخاف أن تتكلم بحشية التنكيل الذى عاناه شعبنا حوالى عشرين عاماً قبل ذلك ، فكتب عن حرب ١٩٧٣ شارحاً أمجادها ، وعظمة جيشنا فيها ، واتخذت ذلك طريقاً لأكتب عن المخازى التى صاحبت الحروب التى قبلها .

* * *

وعلى هذا ؛ فلانى أقرر أن الحديث عن حرب ١٩٧٣ فى الكتاب المذكور لم يكن مقصوداً لذاته بقدر ما كان وسيلة للحديث عن العهد المير الذى شهدته مصر فى العقد السادس والسابع من هذا القرن .

* * *

وأثبتت الأيام أن هناك حرية فعلاً ؛ إن لم تكن كاملة ، فهى كافية جداً لمثل أن يؤدى عمله ، وأن يقوم بواجبه كاستاذ للتاريخ ، وعلى هذا أصبح الكتاب كتابين ، فدخلت حرب ١٩٦٧ ضمن تاريخ عبد الناصر فى هذا الجزء (الجزء التاسع من موسوعة التاريخ) وأصبحت حرب ١٩٧٣ جزءاً من تاريخ أنور السادات الذى خصص له الجزء العاشر من هذه الموسوعة

قضايا مهمة حول هذا الكتاب

هذا الكتاب خطوة ثالثة على الطريق :

فى الحق لى أحب عملى ، وأعد التأليف متعتى ، وأبذل غاية الجهد حتى تخرج كتبى فى أعلى مستوى أستطيعه ، وأحشد كل الطاقات لىكون الكتاب صورة واضحة لما أريد أن أبرزه . ولهذا فإنى كنت أحس عندما يخرج كتاب من كتبى أنه ولد شابا فى الوضوح والفتاء ، وأحس تبعاً لذلك بالكثير من الراحة والسعادة ، وأدع الكتاب يشق طريقه بين العقول والأفكار ، ولكن كتابى عن عبد الناصر اتخذت طريقاً آخر ، إذ لم أكن أستطيع أن أواجه الناس بكل معارفى عنه من أول خطوة ، فقد جمعت تاريخه يوم بعد يوم بكل صبر ودقة ، ورأيت فى تاريخه المظالم الصارخة والمزائم المتوالية ، ونشره الرعب والجوع . وتلذذه بإفقار الأغنياء دون حرص على تحسين حال الفقراء ، وبهذا ظهر لى تاريخه أسود مريباً . ومع هذا فقد كانت هناك مؤامرة فكرية أشرنا لها من قبل تتجه لخداع الجماهير وتضليلهم ، إذ اتجهت أجهزة الإعلام لتنتشر غير الواقع ، فأدركت أن هناك خيانة ضد التاريخ ، وأننى المسئول بأن أرفع هذه الخيانة يوماً من الأيام ، ووضعت خطتى أن يكون ذلك على مراحل ، وكانت المرحلة الأولى سنة ١٩٧٢ حين أصدرت كتابى « رحلة حياة » وفيه كشفت النقاب عن بعض معارفى عن عبد الناصر ، إذ لم يكن الجو مهيناً لحديث صريح شامل عنه ، وإنما كنت أجس النبض وأبدأ بإرسال القليل من أشعة الضوء .

ثم حدثت معارك ١٩٧٣ : واستعاد جيشنا مكانته ، ورفعنا رؤوسنا بعد أن طال انحنائوها ، واتجه الرأى العام للتعرف على أسباب الهزائم المتتالية فى عهد عبد الناصر ، واتجه كذلك للتعرف على أسباب ما تعانيه البلاد من اضطراب اقتصادى واجتماعى ، فانتهزت الفرصة وأخرجت كتابى « مصر فى حربين : دراسة مقارنة » أدين فيه عبد الناصر ، وعهده البغيض الذى

حفل بكل ما يتنلف مع القيم الإنسانية ، وقد نفلت طبعته الأولى في بضعه أيام ، فأعدت طبعته بزيادات واسعة ، ووثائق أشمل ، وأهميت كلفه بنصيب كبير في كتابة المقالات الصحفية التي هزت العهد السابق وكشفت الكثير من آثامه ، وكان هذا وذاك يمثل الخطوة الثانية .

وجاء هذا الكتاب يمثل الخطوة الثالثة ، وهي خطوة الدراسة الشاملة المباشرة الدقيقة ، وهي وحدها التي أتاحت لي أن أجعل هذا الكتاب جزءاً من موسوعة التاريخ بعد أن اكتمل عوده وأصبح جديراً أن يكون ضمنه أجزاء هذه الموسوعة .

عبد الناصر وهؤلاء :

وساعدني في موقف من عبد الناصر أنني كنت من القلة التي لم تمدح الرجل في حياته ولم تتملقه ، وقد كان هذا الموقف مني مغامرة في عهد كان يحارب كل من لم يسر في الركب ، وعندما كتبت وكتب سواي عن عبد الناصر انبرى بعض اتباعه يراجعون الصحف والمجلات والكتب ليجمعوا منها كل كلمة مدح لعبد الناصر ، ليواجهوا بها الناقدين ، وأصدر هؤلاء الأتباع كتاباً عنوانه « عبد الناصر وهؤلاء » وطبعي أن اسمي لم يرد في هذا الكتاب على الرغم من أنه ضم عدداً كبيراً من أرباب الأقلام الذين مدحوا عبد الناصر في فترة ما ، طوعاً أو كرهاً ، فلما تبين لهم وجه الحق أو فلما استطاعوا أن يقولوا كلمة الحق انتقدوه بصراحة وقوة ، وبرئت بحمد الله من هذا الوضع ، إذ قد أتيح لي في عهد مبكر أن أعرف على الرجل : وعلى أسلوبه في الحياة ، فحان ذلك من مدحه أو الثناء عليه .

اسم عبد الناصر بصراحة :

وقد اتجهت في هذا الكتاب وفي كتابي « مصر في حربين » وكذلك في المقالات الصحفية اتجهاً جديداً ، ففي وقت كان الكتاب يتكلمون فيه

عن « مراكز القوى » أو « مراكز النفوذ » انجبت أنا بصراحة المؤرخ ومسئوليته لأنسب أخطاء عبد الناصر إليه هو ، ويمكن القول إن ذلك كان فتحاً جديداً وأن كثيرين من الناقدين لم يفعلوا ذلك حتى بعد مرور عدة سنوات على وفاته ، وهناك شخص تصدى للدفاع عن عبد الناصر ، ومارس تأليف الكتب للرد على الناقدين واسمه « حسين كروم » وهو يقول عن ذلك الموضوع ما يلي : . . . يعتبر الدكتور أحمد شلبي أول من هاجم عبد الناصر مباشرة ودون التواء ، وحدد اسمه صراحة لدرجة أنه كان يذكر الاسم ثلاثياً - جمال عبد الناصر حسين - وهذه شجاعة منه (١)

الدفاع عن أفكارى :

وكان ما كتبت بصراحة في كتابي « مصر في حربين » صدمة للكثيرين أشبه بشعلة ضوء قوية تفاجئ العيون فتحدث بها اضطراباً وذهولاً ، وقد ثار بعض الناس على ما كتبت ، وسخط آخرون ، ورضى العارفون ببواطن الأمور ، وقد وجهت جهدي لمواجهة الناشرين والساخطين ؛ فقد أرسل لى عديداً من الناس خطابات احتجاج وكنت أرد عليها بتؤدة وفكر ، وزارني بعض الناشرين فرحبت بهم وشرحت لهم وجهة نظري ، وكتب بعض الصحفيين مقالاتاً ضد كتابي وانجأهم ، فأبرعت بكتابة مقالات في نفس الصحف تناقشهم وتشرح ما غمض عليهم ، ويوماً بعد يوم كسبت الأنصار ، وفتحت مغاليت الأيوان للناس ، وضعف المعارضون لأن الحق كان أقوى وأعظم ، وأحمد الله أن خفت أصوات المهاجمين وعاد الحق أبلغ ، ووضع كل إنسان في مكانه ، وزالت الغشاوة عن العيون .

ويكفي هنا أن أشير إلى صحف دار التعاون التي هاجمت موقفي عندما كتبت عن عبد الناصر ، وكانت ردودها محمومة وقاسية ، واستعدت على وزير التعليم العالي ورئيس جامعة القاهرة ، ولكن سرعان ما أصبحت هذه الصحف مصدراً مهماً بنشر ما سبى عبد الناصر وانحرافات .

(١) عبد الناصر المقترى عليه ص ٨٥ وص ٩٣

وأحسست بفرحة هائلة فقد كنت كمؤرخ أعرف أن تاريخ الأمويين كان بعيداً عن الإنصاف لأنه كتب في عهد أعدائهم العباسيين ، وقد ظل الزيف عالقاً بتاريخ الأمويين أكثر من ألف عام ولم يتم بتصحيحه إلا جيلنا ، وقد حدث مثل ذلك مع غير الأمويين . أما الزيف الذي ارتبط بتاريخ عبد الناصر فقد صححناه في نفس الجيل ، ولم نسمح له بالانتقال إلى جيل آخر ، إذ أن هذا الجيل الآخر بلا شك سيصعب عليه أن يعرف الحق من الباطل ، وكان سيعاني ما عانىنا ونحن نبحث عن عناصر الصدق التي بنينا عليها إنصافنا لتاريخ الأمويين ولن يمثّلهم .

هذا الكتاب الآن :

وقد أدى كتاب « مصر في حربين » دوره في حينه ، ونجح في ذلك نجاحاً عظيماً ، وانتهت هذه الموجة التي كنا نرمى فيها إلى تصحيح التاريخ ، وأن نزيل الهالة الزائفة التي أحاطت بعبد الناصر ، وجاء دور جديد لهذا الكتاب هو أن يقدم بهدوء أحداث عهد ، وأن ينتقل من كتاب يمكن أن يدخل في عداد « الدراسات الموسمية » - التي تواجه حدثاً معيناً - إلى جزء من موسوعة التاريخ لا يركز على شخص ليرفع عنه الهالة الزائفة وإنما يركز على الحقائق وإيرادها متناسقة متتابعة ، لتؤرخ لعهد حتى يستقر هذا التاريخ بصفة دائمة بعد أن أنزلنا بصفة « الموسمية » ووضعنا مكانها صفة الدوام والثبوت .

سؤالان مهمان :

هناك سؤالان يترددان أو قد يترددان هما :

١ - لماذا نكتب عن الماضي ونثير الغبار ؟

٢ - وإذا كان الماضي يمس عبد الناصر ، فلماذا لم نكتبه في حياته ؟

ونجيب عن هذين السؤالين بدقة ووضوح .

فعن السؤال الأول نقرر أن هذا هو ضرورة التاريخ ، وليس هناك عاقل يريد أن يهدر التاريخ ويسدل عليها ستاراً من الكتمان ، وإذا كنا ندرس تاريخ الفراعنة أو العهد القبطي بمصر أو العهد الإسلامي ، وندرس تاريخ أوروبا والعالم كله ، فكيف لا نكتب تاريخ فترة عشناها ورأينا فيها الأحداث ؟ إن التاريخ أمانة أودعها الزمن في يد المؤرخ ، والذي يكتم أمانة التاريخ أو يخونها لا يقل ذنبه عن مخون أمانة المال .

ونكتب كذلك تاريخ الماضي لحماية الحاضر والمستقبل ، فإذا أدرك أى رئيس أن أعماله سيتبعها التاريخ ، وتتناقلها الأجيال ، وأن الزيف لن يقوى أمام الحياة والنقد ، إذا أدرك ذلك فإنه يحسن عمله ، فنخدم بدراسة الماضي إنسان الحاضر والمستقبل ، ويقول Hearnshow (١) فى ذلك : إن دراسة التاريخ كانت على مر الأجيال من أجل خدمة الحاضر وإلهامه سبل الرشاد .

ويقول Josiph Horse (٢) إن الحياة تعلم العيش ، وإن ملاحظة أعمال الناس فى الماضي ونتائجها تضيف خبرة إلى خبرتنا وتدفعنا إلى تصرف أحسن . أما السؤال الثانى ، وهو لماذا لم نكتب هذا الكلام فى حياة عبد الناصر ، فإن الإجابة عنه تحتاج أن ننبه السائل ، ونشد انتباهه إلى الماضي فيبدو أنه لا يعرف الماضي : فقد كتبنا تاريخ عبد الناصر فى حياته يوماً بعد يوم ، وصرخنا تنتقله بصراحة وقوة منذ أن أمسك الزمام وانحرف به ، وكانت النتيجة أن سلط علينا زبائنته ، واستعمل ضدنا كل سلاح بعيد عن الحق والإنسانية ، وكاتب هذه السطور كان نصيبه عند ما ألوه خطاباً بذلك فى قاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة فى مارس ١٩٥٤ أن فُصل من .

(١) علم التاريخ والترجمة العربية للاستاذ عبد الحميد العبادى ص ٢٤

(٢) The value of History p.p. 12-13

وانظر مقدمة موسوعة التاريخ الإسلامى بالجزء الأول من الموسوعة للمؤلف .

الجامعة فصلاً تعسفياً بقرار من مجلس قيادة الثورة، ومُنْع من العمل بالداخل كما منع من السفر للخارج ، وعانى الجوع والقلق فترة من الزمان .

والسنهوري أبو القانون ضُرب بمكتبه بمجلس الدولة حتى سقط مغشياً عليه ، ثم عزل من منصبه ...

وجميع الذين كتبوا أو تكلموا أو اتُّهموا بذلك مسهم الضرر ، فأتى بهم في غياهب السجون وصودرت أموالهم ، وانتَهكت أعراضهم وأعراض ذويهم .

وصحيفة « المصرى » التى كانت مفخرة الصحافة المصرية عارضت سياسته فصلدت القرارات بإغلاقها ، والحكم على أصحابها بالتشرد والسجون ومصادرة الأموال .

وتكلم القضاة فعزلوا ، وتكلم المحامون فهُددوا ، وقيل إن الدولة الاشتراكية لا تعرف المحامين .

يهيئ كل الطوائف تقريباً ، ولكن اليد القاسية كانت تضربه بدون رحمة ، فكُتبت بذلك الأفواه المصرية ، وقضت على كل كلمة معارضة . وأمسكتنا عن الكلام ، ولمكننا لم نملك أن نتنوين التاريخ يوماً بيوم راجين أن تنكشف الغمة يوماً لننشر على الناس كلمة الحق ، فلما انقضى عهد الرقابة ، وجاء عهد النور ، انطلقنا نعلن على الناس ما كان سرّاً ، لنؤدى بذلك واجبا نحو الحق ، ونجو التاريخ .

ونقطة مهمة تتصل بموقفى كؤرخ مسه الضر من عبد الناصر كما سبق للقول ، ثم جاء يكتب تاريخه ، فإن بعض الناس قد يعتقدون أننى أهاجم عبد الناصر ، لأنه فصلنى من الجامعة ، وفرض على الجوع والقلق ، والإجابة تبيء من نواح ثلاث :

أولا : من الخطأ أن يُعَدَّ نقد الظلم هجوماً ، لقد طغى عبد الناصر أكثر (٢٢ - التاريخ ج ٩)

مما طغى فرعون ، كما قال زميله كمال الدين حسن : فكيف يُعزّر سرد هذا الطغيان ونقده هجوما ؟

ثانيا : إن الدراسة التي نقوم بها موضوعية ، فهي تتخذ الوثائق والحقائق أساسا لها .

ثالثا : إنني لم أهاجم عبد الناصر لأنه فصلني ، بل الحق إنه فصلني لأنني هاجمته ، فقد انتقدته ، وحللت شخصيته ، وأنا مدرس بالجامعة ، كما قلت آنفا ، ثم فصلني لهذا الغرض ، وظللت بعد ذلك كما كنت قبل ذلك أدون تاريخه بإنصاف ، والتاريخ المنصف يدين الرجل .

عهد الناصر : حسناته وسيئاته :

لا أعتقد أنني عانيت صعوبات وأنا أكتب حلقات التاريخ الإسلامي ، كذلك التي عانيتُها وأنا أكتب تاريخ عبد الناصر ، وليس ذلك فقط بسبب تشويه الحقائق ، واختفاء الوثائق ، بل لأنني مع الاستقصاء وبذل الجهد ، والاستعانة بكل من يستطيع أن يعين ، كانت حسنات عبد الناصر التي حملتها وسائل الإعلام وجعلت منه - بطل الأبطال ، عبارة عن السد العالي ، وكسر احتكار السلاح ، ومقاومة الأحلاف ، وتأميم القناة ، ومحاربة الاستعمار بالجزائر والكونغو ، والتصنيع ، ولا تقوى هذه الأشياء على الصمود أمام البحث العميق ، وستندرسها جميعا فيما بعد بالكثير من الوثائق والبحوث ، ولكننا نسرع فنقرر أن كسر احتكار السلاح عبارة ماتت ، وعدنا أدراجنا إلى أسلحة الغرب بعد أن منع المعسكر الشرقي عنا الأسلحة في أخطر الأحوال ، وماتت كذلك مقاومة الأحلاف بإجراء مدة مع روهعاسيا نفسها ، وبإعطائها كثيرا من التسهيلات ، وجلب الخبراء منها ، ولم نوقف ذلك إلا في عهد أنور السادات ، وكان التصنيع طلاء لا أعماق له ، أما تأميم القناة ومحاربة الاستعمار في الجزائر والكونغو ... فلنا عنها دراسات أوضح وأوسع فيما بعد .

ولعل زميل عبد الناصر وخلفه الرئيس محمد أنور السادات خير من يتكلم عن هذا الموضوع ، فقد عرض سيادته في خطابه بمناسبة الذكرى الخامسة لوفاة عبد الناصر (٢٨-٩-١٩٧٥) لهذا الموضوع ، ولم يذكر من حسنات ثورة ٢٣ يوليو إلا أنها أنقذت مصر من حكم القصر والسفارة البريطانية وقضت على الاحتلال البريطاني ، وهذا صحيح ولكن الثورة في عهد عبد الناصر خلقت بدل القصر قصوراً تعيش فيها مراكز القوى وتباشر ضد الإنسان المصرى كل أنواع القسوة ، كما جلبت سياسة عبد الناصر الاحتلال اليهودى لسيناء والنفوذ الروسى للبلاد ، كما أثبتنا ذلك في عدة أمكنة من هذا الكتاب . ويستمر أنور السادات في حديثه ذاك ، فيقول :

« إن هذا العهد كان عهداً حافلاً بالانحرافات ، وكانت هناك سجون ومعتقلات ، وإذا كانت هناك إجراءات استثنائية تبررها أى ثورة ، فإن الإجراءات التى اتخذت في عهد عبد الناصر طالت أكثر مما يجب ، وامتدت إلى مجالات ما كان يجب أن تمتد إليها . . . وكانت هناك إجراءات وتصرفات لا تبررها الشرعية الثورية ، فقد نمت مراكز قوى ، واستفحل خطرهما » .

وفي محاضرة ألقيتها بنادى الطلبة البحرين بالقاهرة ، قلت هذا الكلام فقال لى طالب : إن عبد الناصر ساعد على استقلال دولة البحرين ، وربما كان ذلك صحيحاً ، وربما كان صحيحاً كذلك أنه ساعد على استقلال « الجزائر » ، وأرسل جيوش مصر للكونغو ضد تشومبي ، ولكنه قام بذلك من أجل نفسه ، وعلى حساب الشعب الذى كان يعاني الجوع والحرمان ليعتد عبد الناصر بمال مصر وجيش مصر إلى مختلف الجهات .

وإذا كانت هذه مآثر ، فإنى أضيف مآثرة أخرى من هذا النوع . فقد حدث مرة أن مصر كانت قد اشترت كمية من القمح من الاتحاد

السوفييتي ، وكان القمح في طريقه إلى مصر ، وحينئذ أشيع أن بالهند مجاعة ، فأمر عبد الناصر أن تتجه السفن التي تحمل القمح إلى الهند ، ولا شك أن الهند صفقت لهذه الأريحية ، ولكن شعب مصر جاع ؛ لأن رئيسه حقق لنفسه جاهاً عظيماً .

وسرى فيما بعد مآثر كثيرة من هذا النوع إن عدت هذه مآثر .

ومن الواضح أن الزعيم الحق يرعى شعبه أولاً وَيَكَلِّمُ جراحه ، ثم يلتفت للخارج ، وكانوا يقولون عن الاتحاد السوفييتي إنه يعيش خلف ستار حديدي ، وقد ظل كذلك حتى بنى نفسه ، وخرج قوياً صلب العود ، ولكن عبد الناصر بذل مال مصر وجهد مصر في الخارج على حساب تدمير المرافق والحريات ، وعلى حساب البطون الجائعة ، والاقتصاد الذي انهار ، فلما فكر - إن كان قد فكر - في العودة لإصلاح الداخل لم يجد المال ، لأن المال كان قد سُرق بعضه ، وأنفق بعضه الآخر على المظاهر التي أرادها الزعيم ، بل لم يجد الشعب ؛ لأن الشعب كان قد انصرف عنه ، فهاجر منه من هاجر ولجأ الباقون إلى اللامبالاة واليأس .

ومثل هذا يقال عن المصانع التي يقال إنه أقامها ، لقد قتل بها الزراعة تماماً ولم يمتنع الصناعة الحياة ، وكنا في عهده نبحث عن الإبرة من «المستورد» والإبرة رمز لكل شيء ، ليس ذلك إلا لأن المصانع كانت حلقة من حلقات الدعاية دون أن تبنى على أسس سليمة ، وأصبحت كلمت «المستورد» على كل لسان في عهده لعدم الثقة في الصناعات المحلية .

وعلى هذا تجدني أسطر تاريخ عبد الناصر كما تُسطّر ملحمة متصلة الهزائم ، وبذلك فإن تاريخ عبد الناصر سلسلة من الآلام ، وأشهد الله لقد حاولت جهدي أن أجعل للرجل مآثر فلم أنجح ، ولم يبق إلا هذه العبارات الجوفاء التي يقولها بعض أتباعه ومحبيه مثل ترك بصماته على وغير تاريخ مصر فإذا أردت أن تترجم هذه العبارات إلى حقائق تفيد شعب مصر عجزت عن ذلك كل العجز ،

وأنا لست صانع التاريخ وإنما أنا أدونه فقط ، فلا حول لى إن لم أجد مآثرة
لعبد الناصر أضعها فى كفة حسنته ، ومع هذا فساظل أحاول ذلك ما وسعتنى
الحيلة ، وأقرر أننى أشهد الله أن أتبع الحيدة فى عملى دون ذرة من التعنت
أو البعد عن الإنصاف ، فإن ذلك هو أمانة المؤرخ يؤديها لهذا الجيل ولما
يجىء من أجيال .

وبالله التوفيق . .

جيش مصر

الجيش عُدَّة البلاد وأملها، يقوى فتقوى البلاد ، ويضعف أو ينصرف إلى غير عمله فتنهار البلاد ، وتهوى إلى القاع ، ولهذا اتجهت جيوش العالم المتمدين كله لحراسة البلاد دون أن تتورط في الأمور الداخلية ، وقد أثر عن الزعيم مصطفى كامل أنه قال : من الحكمة ألا يدخل ضباط الجيش في حركتنا : وارتفع كذلك صوت الرئيس أنور السادات قائلاً : إن الجيش يحمي الشعب ولا يحكمه . وقال المشير محمد عبد الغنى الحمسى : إن جيش مصر يعرف واجبه مدافعاً عن الوطن ضد أعدائه ، وفي مايو ١٩٧١ عندما حاول الفريق محمد فوزى أن يهيج الجيش للتدخل لصالح أعداء الشعب ضد الرئيس أنور السادات صرخ فيه الفريق محمد صادق بأن هذا ليس من عمل الجيش ، ومنعه من محاولة تسخير الجيش لصالح فرد ، وعُدَّ ذلك عملاً مجيداً منه .

وفي لقاء المحامين بتونس (يناير ١٩٧٩) قال نقيب المحامين المصريين إن المحامين يرفضون أن تكون رسالة الجيش حماية الأنظمة وليست حماية الأوطان : واستنكر المحامون تخصيص جيوش للدفاع عن الحكام (١) .

وعندما تأزمت الأمور في إيران في فبراير ١٩٧٩ بين الحكومة التي تعتمد على الجيش وبين المعارضة ، أعلن الجيش الحياد ، وأنه لن يتدخل في الأمور الداخلية ، وأن مهمته حراسة البلاد من أى عدوان خارجى ، ولكنه لن ينصر جبهة فى الداخل على جبهة أخرى ، واهتزت بذلك كفة الحكومة التي كان يرأسها شهبور بختيار الذي عينه الشاه رئيساً للحكومة

قبل أن يغادر البلاد ؛ فاستقالت هذه الحكومة ، وأخلت الطريق
للاتجاه الشعبي .

وهذا الاتجاه السليم هو الذى دفعنى لأن أكتب هذه الكلمة وأتقدم بها
إلى جيشنا الذى طالما كان لبلادنا مفخرة ؛ ولوطننا درعاً ، ولكن
الانحراف مسه أحياناً ، أو أثر فيه فساعد هذا الجيشُ أعداءَ الحياة وأعداء
الحق، وأصبح سوطاً فى يد فؤاد وفاروق وعبد الناصر ، وطالما أنهال هذا
السوط على ظهور الشعب ونال من كرامتهم .

وكان انتصار الجيش المصرى فى حروبه ، أوهزيمته ، صدى دقيقاً
لموقفه من الشعب فعندما كان الجيش متفرغاً لعمله العسكرى ومتجهاً لتحقيق
أهداف وطنية استطاع أن يحقق أعظم الانتصارات فى الميادين والمعارك ،
وعندما كان الجيش ينغمس فى السياسة ، فيصبح أداة تنكيل بالشعب
كانت الهزائم تترى به ، ويمكنك أن ترى ذلك واضحاً إذا استعرضت
الثلاثين سنة الماضية ، فقد هزم جيشنا فى عهد فاروق سنة ١٩٤٨ ،
وفى عهد عبد الناصر سنة ١٩٥٦ وفى اليمن (١٩٦٢ - ١٩٦٧) وفى سنة ١٩٦٧ ،
وانتصر فى عهد أنور السادات فى حرب أكتوبر المجيدة سنة ١٩٧٣ ومن أجل
هذه الفكرة عقدت هذا الفصل فى هذا الكتاب أشرخ الماضى وأحاول أن
أرسم للمستقبل .

والذى دعانى إلى كتابة هذه الدراسة بهذا الوضوح أحساسى بأننى من
أكثر الكتاب الذين تغنوا بأمجاد الجيش المصرى ، وبإبراز بطولاته على مرّ
التاريخ ، فمن التاريخ القديم تحدثت بإفاضة فى كتابى « اليهودية »^(١) عن
انتصارات أحسن ورمسيس الثانى ، وعن التاريخ الوسيط تحدثت بإفاضة
كذلك عن انتصارات الجيش المصرى ضد الصليبيين ، والتتار ،

والقرامطة^(١) ، وعن التاريخ الحديث أبرزت النجاح الرائع الذى حققه جيشنا فى الأناضول ، وفى قلب إفريقيا ، وكيف كان مشعل نور فى القارة السوداء^(٢) ، ثم عشت انتصارات أكتوبر ودونت هذه الملحمة الناجحة بقطرات من القلب ، وأصبح كتابى عن هذه الحرب وثيقة من وثائق هذه الحرب المجيدة .

وإذا كنت قد أثبتت على هذا الجيش فى انتصاراته ، ووهبته عقلى وقلبي وقلمى لأشيد به ، وأسجل فى التاريخ أمجاده ، فإن من حقى ومن حق بلادى على أن أقرر حقيقة مؤلمة هى أن هذا الجيش انحرف أحياناً ، أو انحرف به قاداته فجعلوه أداة ظلم فى يد ملك غاشم أو رئيس مستبد ، والذى يستعرض تاريخ الملك فؤاد أو الملك فاروق يجد أن الواحد منهما كان يعلن إقالة الوزارة التى تمثل الشعب أدق تمثيل ، ولكن كتاب الإقالة كان يصدر فى نفس الوقت الذى يسرح فيه الجيش بدباباته ومعداته فى شوارع القاهرة ليحمى الملك من ثورة الشعب ضد هذه الإقالة الظالمة .

ومن أجل هذا يقول بيليايف وبريماكوف : كان الجيش موضوعاً تحت رقابة الملك الكاملة ، وكان الجيش فى خدمة الملك ، وبالتالى فى خدمة الإنجليز^(٣) .

وكانت الانتخابات المزورة تجرى فى مصر ويقوم الجيش بحراسة هذا التزوير وكبح أى صوت ينادى بالعدالة .

وما كان فؤاد أو فاروق يستطيع أبداً أن يعزل وزارة الوفد ، أو يستدعى صديق لتأليف وزارة أو تكوين حزب أو إجراء انتخابات ، لولا تأكده من أن الجيش سيحمى هذه الإرادة الغادرة .

(١) انظر الحديث عن الحروب الصليبية بالجزء الخامس ص ٥٤٧ - ٦٤٠ وعن حروب مصر ضد المغول بنفس الجزء ص ٢١٦ - ٢٢٢ من موسوعة التاريخ الإسلامى وعن الجيش المصرى ضد القرامطة ، انظر الجزء السابع ص ٧٠٣ وما بعدها .

(٢) انظر الحديث عن ذلك فى الجزء الخامس من موسوعة التاريخ الإسلامى .

(٣) مصر فى عهد عبد الناصر ص ٢٨ .

ويعصف الأستاذ محمد فؤاد سراج الدين السكرتير العام لحزب الوفد
ارتباط الجيش بالقصر بقوله .

« كان معروفاً أن السراى تعتبر الجيش والأزهر حصنين لها ، وقد استطعنا
التسرب إلى الأزهر ، أما الجيش فقد ظل مغلقاً علينا فى خدمة السراى .

« ومن المواقف المخجلة التى وقفها الجيش ضد زعيم الأمة ، ما حدث
عندما كان إسماعيل صدق رئيساً للوزارة ، إذ أرسل هذا جزءاً من الجيش
لمنع زيارة النحاس باشا للمنصورة ، وتحمل سينوت حنا بيده ضربة السونكى
الموجهة للنحاس ، وتكرر موقف الجيش ضد النحاس خلال سنة ١٩٣١
و ١٩٣٢ فى معظم المدن التى حاول النحاس باشا زيارتها .

« وفى سنة ١٩٣٨ أجريت الانتخابات فى الدلتا فى يوم ، وفى الصعيد
فى يوم آخر حتى يستطيع الجيش أن يوجد هنا وهناك ويؤثر على نتائجها .

« وفى مارس سنة ١٩٥٢ بعد إقالة الوفد ، حاصر الجيش البرلمان
خشية اجتماع النواب به فى اليوم المحدد لاجتماع المجلس » (١) .

ولولا هذا الموقف من الجيش ما ضاعت حقوق الأمة .

وكان تكرار موقف الجيش من الشعب على هذا النحو من أسباب
ضعف الشعب وتهاونيه فيما كان عليه ألا يتهاون فيه ، ويعصف الزعيم مصطفى
النحاس باشا ذلك بقوله : الجيش مثل وابور الظلطن ، لاشئ يقف أمامه
إلا ما هو أقوى منه ؛ وهذه القوة هى شعب مؤمن بالديمقراطية والدستور
وهو الأمر الذى اهتز كثيراً خلال حكم أحزاب الأقلية (٢) .

ويوضح مصطفى النحاس باشا رأيه تجاه الجيش بقوله : إنه يؤثر أن يكون

(١) احمد حمروش : شهود ثورة يوليو ص ٢٩٤ - ٢٩٥

(٢) المرجع السابق ص ٢٨

الجيش بعيداً عن السياسة ، وأن تكون الأمة مصدر السلطات ، ويتمنى أن يكون ولاء الضباط للوطن والشعب أكثر منه لشخص الملك (١) :

. ومن العجيب أن هذا الاتجاه من زعيم الأمة ، كان وهو في أمس الحاجة لمساعدة الجيش ، إذ حدث ذلك عندما عرض عليه مندوبو الجيش استعداد الجيش لمقاومة الإجراءات غير الدستورية التي يتركبها الملك . (٢) وهذا يدلنا على أن الرغبة في إبعاد الجيش عن السياسة كانت طبيعة الفكر السليم في جميع الأحوال .

وقد بالغ بعض ضباط الجيش في الخضوع للملك والارتباط به حتى إن أحد الضباط وقف في الحفلة التي أقامها الملك يوم حريق القاهرة وهدف « الجيش سيف الملك » (٣) .

* * *

وجاء عهد عبد الناصر فكان اعتماده على الجيش أضعاف اعتماد فؤاد وفاروق عليه ، فقد حلّ عبد الناصر الأحزاب ، وكتم الصحافة وقبض ظمناً على عدد كبير جداً من المصريين ، وأنزل بالناس ألوان الاضطهاد والعسف ، وفرض الحراسة بما شملته من توزيع الجوع والحرمان ، وقتل وعذب وشرذ ، وكانت عصابة من الجيش هي التي أنزلت بالناس كل هذه المظالم ، وأوقعت بهم هذا السوء .

ومن الواضح أن أفراد الجيش جنوداً وضباطاً هم من أبناء الشعب ، ولكن عبد الناصر أقام حاجزاً حصيناً بين الجيش والشعب ، وأصبح الجيش يمثل النمر ، والشعب يمثل الفريسة .

(١) محمد نجيب : كلمتي للتاريخ ص ١٧

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٣) عبد اللطيف البغدادي في مذكراته ص ٤٢

وما كان عبد الناصر يستطيع أن ينزل هذا الضرر بالشعب لو أن الجيش عرف مهامه ووقف عندها ، ورفض أن يكون سوطاً قاسية يمسك بها الجلاد ليعذب بها الظهور البريئة .

ويقول عبد اللطيف البغدادي إن تعيين عبد الحكيم عامراً قائداً عاماً للقوات المسلحة أبعد باقي أعضاء الجيش عن وحدتهم العسكرية تدريجياً ، كما أبعد عنا زملاءنا في الأسلحة بوسائل متعددة وصلت إلى التهديد، وبذلك جهود لتقريب الضباط من عبد الحكيم ومن عبد الناصر بخدمات تُقدّم اليهم ، حتى أصبح لاهتم الكثير من الضباط إلا التقرب من ناصر وعامر أو إلى من هم قريبون منهما طمعاً في منصب أفضل أو خدمة تؤدي لهم : ونتج عن هذه السياسة فساد الجيش مما ترتب عليه نتائج وخيمة عسكرية وسياسية (١) .

والعجيب أن عبد الناصر أنزل التعذيب أحياناً بالكثير من أفراد القوات المسلحة ، وكان زملاؤهم في السلاح هم الذين يقومون بهذا المنكر ، فانقلب المفترس ليصبح فريسة معتدى عليها ، أما الجلاد فهو ينشر الذعر بين الناس ، ويضرب بعضهم ببعض .

وسنرى في هذا الكتاب صوراً تقشع لها الأبدان مما نزل بأهل كرداسة وبأسرة الفتى بكشيش وبالإخوان المسلمين وبالساريين وبسلاح المدفعية والفرسان ، فأعوان عبد الحكيم هامر بعد كارثة ١٩٦٧، سنرى كل ذلك وسنسجله عتاباً مريراً لجيشنا الذي نسي واجبه أحياناً وراح يعمل لصالح مروضيه ضد المجتمع بأسره ، ولاشك أن ما خسرت مصر بسبب مواقف الجيش مع الحكام ضد الشعب كان خسارة هائلة في كل مجال ، ولولم يعتمد الحكام الطغاة على الجيش لبذلوا الجهد لإرضاء الشعب ولكسبت مصر الخير العميم .

(١) مذكرات عبد اللطيف البغدادي ص ٧٨ ف

تلك همسة تشير إلى الماضي المشين ، وتهتف بجيشنا العظيم أن يعرف واجبه وأن يقف دائماً درعاً يحمي الشعب ، وألا يكون سوط عذاب في يد أعداء الحق ، وأعداء الناس ، فإن استجاب جيشنا لهذا الهتاف أمددناه بأبنائنا وأيدناه بعقولنا ، وكنا خلفه بنياناً مرصوصاً، وقوة اقتصادية واجتماعية هائلة ، وفي ظل هذه الوحدة بين الجيش والشعب سيكسب جيشنا النصر ويحقق شعبنا أطيب الآمال .

الباب الأول
مصر قبل الثورة

مصر لم يبدأ تاريخها بالثورة :

كان من الأخطاء التي تبنتها الثورة ترويج فكرة مؤداها أن مصر بدأت بثورة ٢٣ يوليو ، وقد راح المنافقون يذكرون أن استقلال مصر لم يتحقق منذ عدة آلاف من السنين إلا في عهد الثورة وتلك أقوال خاطئة جاهلة ، وسيتضح خطأها وجهلها من الدراسات التي سنوردها عن مصر قبل الثورة ، وقد لاحظ قائد الثورة اللواء محمد نجيب ذلك ، فكتب يقول :

كان يؤلنى كثيراً أن يحاول بعض الكتاب تصوير الحياة في مصر وكأنها بدأت يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وكنت أدرك أن مثل هؤلاء لا يمكن أن يكونوا مخلصين لحركتنا ولا لمصر (١) .

وسنصف فيما يلي أهم ملامح الحياة بمصر قبل الثورة :

(١) كلمى لتاريخ ص ١١ .

الثورات المصرية في العصر الحديث وماحقته من أهداف

عمر مكرم والسادات والشرقاوى :

دخل العثمانيون مصر سنة ١٥١٧ ، وأصبحت مصر بذلك جزءاً من الإمبراطورية العثمانية الفسيحة ، والذي يدرس تاريخ مصر خلال العهد العثماني يدرك أن المصريين لم يروا في العثمانيين إبان عهودهم الأولى غزاة أو مستعمرين ، بل اعتبروهم قادة مسلمين يعملون على توحيد الصف الإسلامي وإعادة مجد الخلافة الإسلامية ، ومن هنا لم يحدث صراع بين المصريين والعثمانيين خلال فترة طويلة من هذا العهد ، وكان المصريون يفسرون انحراف بعض السلاطين العثمانيين على أنه انحراف شخص الخليفة ، ويتطلعون إلى خليفة يتعدى عن الانحراف :

وكان المماليك ينعمون بخيرات مصر ، ويستبدون بالأمر قبل العثمانيين ، وكان هؤلاء المماليك يُعدون مصريين ؛ إذ لم يكن لهم وطن سوى مصر ، ويسمى الجبرتي « الأمراء المصريين » .

وعاش المصريون ردحاً من الزمن يسلمون زمام السلطان للمماليك والعثمانيين في ضوء التفسير السابق .

وعند ما جاءت الحملة الفرنسية أنهار العثمانيون والمماليك أمامها ، وعقب انهيارهم تخلى هؤلاء وأولئك عن مصر ، ولم يشغلوا أنفسهم بإعادة الاستعداد للدفاع عنها ، فحمل المصريون وحدهم هذا العبء ، واثارت مدن مصر وقرراها من رشيد حتى أسوان ، وقدم المصريون الضحايا غير مبالين بشيء ؛ وأنزلوا بالعدو ضربات شديدة ، حتى قتلوا ديبو وكليبر وغيرهما .

وتحدثت الحملة الفرنسية هذا التصرف فبشطت ، واستعملت كل ضروب القسوة ، ولكن المصريين لم يلبثوا ولم يخضعوا ، وكان علماء الأزهر هم

قادة هذه الحركة وعلى رأسهم السيد عمر مكرم والشيخ الشرفاوى ،
والشيخ السادات . وكان هذا مبدءاً بروز الشخصية المصرية الحقيقية .

وخرجت الحملة الفرنسية من مصر ، واستمرت الشخصية المصرية في
حل مسئولياتها وفي مسيرتها ، وتحدثت تركيا وعزلت الوالى الذى عينته الأستانة
وهو خورشيد باشا، وعين المصريون محمد على والياً على مصر ، واضطرت
الأستانة أن تنحني أمام هذه الرغبة وتوافق على هذا التعيين .

وتعد حركة مضر بقيادة العلماء أولى الثورات المصرية في العصر الحديث،
فقد نجحت هذه الثورة ، إذ أبرزت الإرادة المصرية وأعلنت الشخصية
المصرية (١) . ونتيجة لهذه الحركة أصبحت مصر دولة مستقلة عن الإمبراطورية
العثمانية أو على حافة الاستقلال في حين كانت الدول العربية الأخرى مقسمة
إلى مقاطعات وتخضع خضوعاً تاماً للإمبراطورية العثمانية (٢) .

ثورة عرابي :

وقد حقق محمد على وابنه ابراهيم وحفيده إسماعيل كثيراً من الأجداد
الخارجية والداخلية تحدثنا عنها في الجزء الخامس والجزء السادس من موسوعة
التاريخ ، وانحرف أحد أبناء محمد على وهو الخديو توفيق ، وتآمر مع الشراكسة
والإنجليز ضد البلاد ، فجاءت ثورة جديدة بقيادة أحمد عرابي لتعيد مكانة
الشخصية المصرية ، ولكن ثورة أحمد عرابي لم يقدرها النجاح ، وانتصر
الإنجليز عليه ودخلوا مصر ، وبدأ الاحتلال البريطاني البغيض .

مصطفى كامل ومحمد فريد :

وجاءت الثورة الثالثة بقيادة مصطفى كامل وخليفته محمد فريد ،
وانتهت هذه الثورة بقوتها لمصارعة الاحتلال الإنجليزي ، واضطر مصطفى كامل

(١) انظر تاريخ مصر في الجزء الخامس من " موسوعة التاريخ الإسلامى " المؤلف .

(٢) George Haddad Revolutions and Military Rule in the Middle East vol 3 P. 19.

(٣) - التاريخ الإسلامى ج ٤

استعمال اللغة العربية في علاقات الأفراد والهيئات بالحكومة ومصالحها ،
ويوماً بعد يوم أخذ نفوذ اللغات الأجنبية بمصر يتقلص ، وظهر جيل
يتحدث العربية ولكنه يضع في حديثه بضع كلمات أوربية ، ولكن النزعة
الوطنية هاجت هؤلاء ، فبدأوا يتراجعون ويتمسكون بلغة الوطن التي برهنت
على قدرة فائقة في التعبير عن كل الأفكار والمشاعر .

وشهد عصر ما قبل الثورة نهضة واسعة في مجال التعليم ، فكثر
المدارس كثرة هائلة ابتداء من رياض الأطفال حتى التعليم الجامعي ،
ومن مفاخر هذه الفترة ، أنها قضت على الازدواج في التعليم الذي كان
موجوداً في المرحلة الأولى ، وفي عهد حكومة الوفد سنة ١٩٤٢ أصبح
التعليم الابتدائي مجانياً ، وفي حكومة الوفد سنة ١٩٥١ صدر قانون بعمل
التعليم الثانوي بالمجان كذلك ، ومن مفاخر هذا العصر أيضاً أن الجامعات
بدأت تكثر عدداً وكيفاً ، وإذا كانت الجامعة المصرية الأهلية قد أنشئت
في العقد الأول من القرن العشرين فلأنها أصبحت جامعة رسمية حكومية .
منذ سنة ١٩٢٥ ، ثم أنشأت حكومة الوفد سنة ١٩٤٢ جامعة فاروق
(الإسكندرية) ، كما أنشأت حكومة الوفد الأخيرة جامعة إبراهيم
(عين شمس) وجامعة محمد علي (أسيوط) (١) .

ونال الأزهر عناية كبرى بعد نجاح ثورة ١٩١٩ وبخاصة عندما صدر
قانون إصلاح الأزهر سنة ١٩٣٠ ، والقوانين المكملة له التي صدرت
سنة ١٩٣٦ و ١٩٣٧ و ١٩٣٨ وبمقتضاها أصبح للأزهر معاهد و كلياته
ودخلت إصلاحات كبيرة في مناهجه ، مما مكّنه من القيام بنهضة عظيمة
في مجال الدراسات الإسلامية واللغة العربية ، وذلك على عكس قانون
التطوير رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ ، وهو ما يعرف في الأوساط الإسلامية

(١) اقرأ ذكرياتي في عهدي لإصلاح الشاهد ص ١٥٦ .

يقانون « تدمير الأزهر » وقد تحدثت عنه بإفاضة في كتابي « تاريخ المناهج الإسلامية » وسنعرض له عند دراسة حوادث سنة ١٩٦١ .

وشهدت العقود التي تلت ثورة ١٩١٩ نهضة صحفية كبرى شملت الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية العامة والمتخصصة كما شملت المجلات الشهرية ، وكانت الصحافة مستقلة أحياناً وتابعة للأحزاب أحياناً أخرى ، وقد تنافست هذه الصحافة لرفع المستوى الفكري والسياسي بين الجماهير ، ويمكن القول إن مكانة الصحافة قبل ثورة ٢٣ يوليو أعظم بكثير من مكانتها بعد هذه الثورة سواء في ناحية العدد أو الحرية أو روعة التحرير والأداء ، ومن صحافة هذا العصر نذكر صحيفة السياسة وصحيفة الأخبار التي أصدرها أمين الرافعي ، وصحف الوفد الكثيرة المتعددة كالبلاغ والمصري والوفد المصري وكوكب الشرق وصحيفة الأساس التي كانت تابعة للحزب السعدي ، وصحيفة الكتلة الوفدية بالإضافة إلى الأهرام والمقطم ؛ وإلى عدد كبير من المجلات الثقافية والسياسية ، وفي ظل هذه النهضة الصحفية ظهرت أقلام عظيمة كانت تقوم بلور المعلم الجماهير الشعب ، وكان في الإسكندرية وحدها ما يزيد عن سبعين صحيفة ومجلة ، ومن مظاهر النهضة الثقافية التي برزت قبل الثورة النهضة الفنية التي تمثلت في السينما والمسرح والتي يمكن القول إنها منبكرة ورائدة في العالم العربي والإفريقي .

الحياة الاقتصادية :

رأت مصر أن النجاح السياسي الذي حققته بثورة ١٩١٩ لا يكتمل إلا بنجاح اقتصادي ، ومن هنا اتجهت إلى تأسيس بنك مصر وشركاته ، ثم تطورت بالنشاط الاقتصادي تطوراً هائلاً ، فصدر قانون الشركات ، كما قامت أنواع من الصناعات التي ارتقت في كثير من الأحوال ونافست الصناعات الأجنبية ، وقد ساعد إلغاء الامتيازات عام ١٩٣٧ الذي قامت به حكومة الوفد على مزيد من التطور في الجانب الاقتصادي .

وتدانا الاحصاءات الرسمية على التطور الهائل الذى حظى به الإنسان المصرى فى الجانب الاقتصادى بعد ثورة ١٩١٩ : ويتضح لنا هذا التطور من مقارنة ذلك العصر بعصر ما قبل هذه الثورة ، وتدل البيانات الرسمية على أنه قبل ثورة ١٩١٩ كان نصيب الأجانب من رأس المال المستثمر فى الاقتصاد المصرى ٩١ ٪ فلما ظهر نشاط المصريين بعد هذه الثورة أخذت النسبة المثوية لهم ترتفع من عام إلى عام ، فقد أصبح نصيب المصريين فى الشركات التى أسست بين عام ١٩٣٤ وعام ١٩٣٩ هو ٤٧ ٪ من رؤوس أموال تلك الشركات أما الشركات التى أسست بين عامى ١٩٤٠ و ١٩٤٥ فقد كان نصيب المصريين ٦٦ ٪ ثم صار نصيب المصريين ٨٤ / فى الشركات التى أسست فى الفترة بين ١٩٤٦ و ١٩٤٨ (١) .

وكان النشاط الاقتصادى فى يد شركات مساهمة غالباً ، وقد استطاعت هذه الشركات أن تجذب مدخرات الأفراد وأن تدفع بها إلى ميدان هذا النشاط ، فإن دعامة النشاط الاقتصادى بمصر فى هذه الفترة ، لم يكن فى نطاق ما عرف بالقطاع العام ، وإنما كان نشاطاً فردياً أو نشاط شركات ، وقد حقق هذا وذاك نجاحاً هائلاً للمستثمر وللشعب المصرى .

وزجفت النشاط المصرى فى مجال الشركات والاستثمار على حساب الأجانب حدث مثله أو أكثر منه بالنسبة للملكية الأراضى ، فقبل ثورة ١٩١٩ كان عدد الأجانب الذين يملكون أرضاً زراعية بمصر ٨٢٤٢ وكانوا يملكون أكثر من ٧٠٠.٠٠٠ فدان ، فلما أعلن استقلال البلاد سنة ١٩٢٢ بدأ عدد الملاك الأجانب يتناقصون وكذلك تناقصت مساحة ما يملكون ، وزاد ذلك الانكماش بتوقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ ثم بإلغاء الامتيازات الأجنبية فى العقد الخامس من هذا القرن أصبح عدد الملاك الأجانب ١٦٠٤ وأصبحت مساحة ما يمتلكونه ١٧٢.٣٦٨ فداناً ثم جاءت الضربة

(١) راشد البراوى : التطور الاقتصادى فى مصر ص ٤٤٩ وما بعدها .

القاضية التي أعلنتها حكومة الوفد سنة ١٩٥١ بإصدار القانون رقم ٣٧ لسنة ١٩٥١ ونصه « يحظر على غير المصريين سواء أكانوا أشخاصاً طبيعيين أو اعتباريين اكتساب ملكية الأراضي الزراعية والأراضي القابلة للزراعة والأراضي الصحراوية بمصر » .

وإذا كان امتلاك الأجانب للأرض الزراعية قد تقلص ، فإن مصر كان بها عدد من كبار الملاك المصريين الذين كانوا يمتلكون مساحات شاسعة مثلت خطراً على النظام الطبقي بمصر، وكان الملك والأسرة المالكة في قمة هؤلاء الملاك ، وقد علت صيحات متعددة قبل ثورة ١٩٥٢ بتحديد ملكية الأراضي الزراعية حمل لواءها محمد خطاب وغيره ، ولكن ما كان لها أن تنجح مع وجود الملك والأسرة المالكة .

وعلى كل حال ، فإن ملكية الأراضي بمصر لم تصل إلى حد الإقطاع بالمعنى العلمي للإقطاع ، فلم يكن لمالك الأرض من السلطة على الفلاحين قدرٌ يقارن بما كان لرجال الإقطاع في التاريخ^(١) . وسنشرح هذا الموضوع عند الكلام عن قانون الإصلاح الزراعي .

ومن المآثر التي حققها عصر ما قبل ثورة ٢٣ يوليو معالجة الديون المصرية التي كانت تسمى الدين العام، والدين العام كان يحتوى على وجهين ، الوجه الأول الدين نفسه ، والوجه الثاني هو الإدارة التي كانت الدول الدائنة تمارس بها إشرافها على المالية المصرية لصالح هذا الدين ، وهذه الإدارة هي التي كانت تسمى « صندوق الدين » ، وقد استطاعت حكومة الوفد في الفترات القصيرة التي تولت فيها الحكم أن تقضي على هاتين المشكلتين ، فقد دخلت عقب إلغاء الامتيازات في مفاوضات انتهت بإلغاء صندوق الدين ، أما بالنسبة للدين نفسه فقد أصدرت حكومة الوفد مشروع قرض وطني

(١) اقرأ عن الإقطاع كتاب النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور وأثر الفكر الإسلامي فيها للمؤلف .

سددت به هذا الدين ، وقضت بذلك على أثر خطير من آثار التدخل
الأجنبي في مصر .

ومن أبرز مزايا هذا العصر استصدار قانونى عقد العمل الفردى
ونقابات العمال .

الحياة الاجتماعية :

أبرز انتشار التعليم والحجانية في أكثر مراحلها حقيقة هامة من الناحية
الاجتماعية وهي كثرة الطبقة المتوسطة وقوتها ، كما أن هذه الطبقة برز
الاهتمام بها بسبب كثرة المصانع والعمال ، وأدخلت حكومة الوفد الأخيرة
مياه الشرب النقى للقرى ، وخففت الضريبة على صغار الملاك ، وكان لكل
هذا صداه في الحياة الاجتماعية .

• • •

وبينما كان المصريون يبرزون في محيط الحياة الاجتماعية من جميع النواحي
كان الأجانب يخفون ، فإن ربح الحرية لم تكن جواً مناسباً للأجانب ، فقد
كان هؤلاء ينعمون بحماية المستعمر ، وبالامتيازات الأجنبية ، فلما اختفى
هذا وذاك ، بدأ الأجانب يرحلون .

ولم يقف الأمر عند اختفاء الأجانب من محيط التجارة والصناعة
لتقاعسهم عن دفع الضرائب ومنافسة النشاط المصرى الزاحف ، بل بدأ
الأجانب يخفون كذلك من الوظائف والدواوين عقب تصريح ٢٨ فبراير
وقيام البرلمان ، وكان دور سعد زغلول في هذا المجال واسعاً ، ثم أكملت
معاهدة ١٩٣٦ الشوط ، فبناء على هذه المعاهدة كان من الممكن إلغاء الوجود
الأجنبي في الجيش والشرطة والقضاء .

وهكذا نمت المصالح الاجتماعية المصرية على حساب المصالح الأجنبية ،

الحياة السياسية :

أنحرنّا الحديث عن الحياة السياسية ليستمر حديثنا عن حركة ٢٣ يوليو ،
فن الواضح أن هذه الحركة كانت نتيجة عامة للتحوّلات الكبيرة التي حدثت
في المجال الثقافي والاقتصادي والاجتماعي ، وكانت نتيجة خاصة للتحوّلات التي
حدثت في المجال السياسي :

كان المستعمر يمد نفوذه في كل مجال ، ولم يكن للحدوي أو للحكومة
مع ممثل بريطانيا أي نفوذ ، فلما انكشف نفوذ المستعمر بتصريح ٢٨ فبراير ،
وزاد انكماشاً بمعاهدة ١٩٣٦ ظهر صراع مرييرين القصر ومعاونيه من جانب
وبين السلطة الشعبية ممثلة في حزب الوفد من جانب آخر ، وكان القصر يريد
أن يرث النفوذ الأجنبي ، ورأى ممثلو الشعب أنهم أصحاب الحق في السلطة ، وأن
الملك يملك ولا يحكم ، ووَجَدَ الملك كثيرين من أعوان السوء يؤيدونه في موقفه
الظالم ، واتخذ الجيش — كما ذكرنا من قبل — جانب الملك فرجحت كفته ،
وأبعد ممثلو الشعب عن السلطة إلا قليلاً ، وكانت الفترة من تصريح ٢٨ فبراير
سنة ١٩٢٢ إلى قيام ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ مسرحاً في الغالب لأحزاب
الأقليات ، ولم يتول حزب الأغلبية الحكم إلا فترات قصيرة ؛ وكان
أكثرها بدون رغبة الملك ، كما أوضحنا بدراسات إحصائية في الجزء الخامس
من هذه الموسوعة .

على أن حزب الأغلبية كانت لديه دائماً دراسات كاملة عن حالة مصر
واحتماجاتها في الشئون المختلفة ؛ ولذلك كان عندما تسند له الأمور يسرع
بالقيام بإصلاحات كبيرة في المجالات المختلفة ، وقد أشرنا آنفاً إلى بعض هذه
الإصلاحات كال توسع في التعليم وتقرير المجانية في أكثر مراحلها ، وصدور
قانون الشركات ، وخفض الضريبة على صغار الملاك ؛ ووضع مشروع
المجموعات الصحية ، واستصدار قانوني عقد العمل الفردي ونقابات العمال^(١).

وأخر وزارة وفدية تولى الحكم كانت سنة ١٩٥٠ وقد جاءت إلى الحكم رغم إرادة الملك عقب كارثة فلسطين (١٩٤٨) وما أشيع حولها من تجارة الأسلحة الفاسدة التي كانت سبباً في الهزيمة والتي كانت لصالح الملك وأعوانه من الخونة الذين أخفوا المال وخسروا كل شيء .

وقد بقيت حكومة الوفد هذه في الحكم حوالي سنتين قامت خلالها بأجل الأعمال ، ومن ذلك :

أولاً : نشر الحريات العامة واحترامها إلى أقصى حد ، وذلك بإلغاء الأحكام العرفية ، وإلغاء الرقابة على الصحف ، وقد استغل طلاب الجامعة هذه الفرصة ، فانطلقت المظاهرات تهتف بسقوط الملك ، وتمزق صورته ؛ كما انطلقت الصحف منددة ببعض المواقف الملكية ، ومن أجل هذا طالب القصر بإعادة فرض الأحكام العرفية ، ولكن وزارة الوفد رفضت ذلك تماماً .

ثانياً : مواقف للعدالة الاجتماعية : اتخذت حكومة الوفد إجراءات لتحقيق العدالة الاجتماعية تمثلت في الآتي :

١ - ضرائب تصاعدية وصلت إلى نسبة مئوية كبيرة ، ووصلت في ضرائب التراكات إلى ٩٠ / في الفئات العالية .

٢ - مجانية التعليم ، وكانت مجانية التعليم الابتدائي قد قررتها حكومة الوفد سنة ١٩٤٢ وقررت حكومة الوفد مجانية التعليم الثانوي سنة ١٩٥٠ (لم تكن هناك مرحلة إعدادية) وتوسعت حكومة الوفد في المجانية في التعليم العالي ، وكانت تتجه لتحقيق المجانية الشاملة به .

٣ - عمل مشروع لتعميم مياه الشرب في القرى خلال خمس سنوات .

٤ - مكافحة الغلاء وتحمل فروق الأسعار ، وإطلاق العلوات الموقوفة ، وعمل كادر جديد للموظفين .

وقد اتهمت حكومة الوفد بسبب هذا الاتجاه الاقتصادي بأنها حكومة

شيوعية ، وكان يُقصد بذلك إثارة الملك علي الوفد ليعود كعادته إلى أحزاب الأقلية .

ثالثاً ، كانت الجبهة الوطنية قد عقدت معاهدة ١٩٣٦ ، وكانت هذه الجبهة برئاسة النحاس باشا ، ولما جاءت إلى الحكم سنة ١٩٥٠ فاوضت الإنجليز لتعديل المعاهدة بما يضمن خروج الإنجليز تماماً من مصر ، وبما يضمن الوحدة بين مصر والسودان ، ولما تعثرت المفاوضات بسبب السودان ألغت حكومه الوفد هذه المعاهدة في أكتوبر سنة ١٩٥١ واتخذت إجراءات قوية لتنفيذ هذا الإلغاء ومن ذلك :

١ - إصدار تشريع بمعاقة كل عامل يعمل في القاعدة البريطانية ، وتعيين كل العمال المصريين في الوزارات ودفع مرتباتهم .

٢ - منع السكك الحديدية من نقل حاجات الجيش البريطاني ، وكذلك منع النقل النهري .

٣ - تشجيع حركة الفدائيين لاصطياد البريطانيين .

وبسبب ذلك ل أرسل الإنجليز يطلبون إيقاف حركة الفدائيين وذكروا أنهم مستعدون للعودة للمفاوضات بتيسير كبير ، ولكن أحداً لم يستجب لهم (١) .
حريق القاهرة :

ولهذه المواقف لم يستطع الملك أن يقلل الوزارة الوفدية هذه المرة خوفاً من الجماهير التي زادت ارتباطاً بالوفد وحاسة له ، ومن أجل هذا اتفق الإنجليز مع الملك على حريق القاهرة ليكون ذلك صدمة يمكن أن تقال بسببها حكومة الوفد ، وقد لجأ الإنجليز إلى ذلك بعد أن فشلت معركة الإنجليز ضد البوليس في ٢٥ يناير سنة ١٩٥٢ ، فقد أثبت البوليس المصرى قوة خارقة ، ووطنية

(١) أحد حروش : شهود ثورة يوليو ص ٢٩٥ - ٢٩٨ .

عظيمة، ووقف يدافع عن نفسه ببطولة رائعة ضد زحف الجيش الإنجليزي وسقط من المصريين ٧٠ جندياً وسقط من الإنجليز ٤٠ وهى نتيجة رائعة لصدام بين البوليس المصرى بأسلحته البسيطة ، وبين الجيش الإنجليزي بمعداته وأسلحته .

ولم يبق بعد ذلك إلا حريق القاهرة لإثارة الذعر والاضطراب حتى يمكن إقالة حكومة الوفد ، وكانت القاهرة تحترق والملك يعقل كبار رجال الجيش فى مأدبة أقامها لهم فى القصر حتى لا يجد وزير الداخلية الوفدى ضباطاً يطلب منهم إنقاذ العاصمة من الدمار . وعلى حطام القاهرة أقام فاروق حزب الأغلبية .

ويثبت الأستاذ فؤاد سراج الدين حديثاً يرتبط بهذه الكارثة نقله بحروفه ، ونصه كالتالى :

أثناء محاكمة كريم ثابت أمام محكمة الغدر استدعت هيئة المحكمة حافظ عفيفى ليكون شاهد إثبات فقال : "إن الملك أبلغه إنه يريد التخلص من حكومة الوفد ، فقال حافظ عفيفى له إن المعركة الآن مع الإنجليز ولا بد من حدوث حاجة مهمة لإخراجهم . وعلّق أحد القضاة على ذلك قائلاً : وأظن ياباشا وجدتم فى حريق القاهرة الحاجة المهمة (١) .

ويتضح من دراسة هذا الحدث الخطير أن تدبير الحرائق كان قد تمّ على مستوى عال ، فقد وجدت مضخة استعملت فى ضخ الغاز ثم إشعاله ليحترق المكان دفعة واحدة ، وقد أعطى ذلك انطباعاً بأن المسألة مدبرة تدبيراً دقيقاً وعلى مستوى عالٍ من الكفاءة (٢) .

(١) شهود ثورة يوليو ص ٢٩٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٩٨ .

ونقتبس فيما يلي تحقيقاً يُثبت اشتراك الملك والانجليز اشتراكاً فعلياً في هذه الكارثة التي أَلَمَت بعاصمتنا الحبيبة، ويثبت كذلك اشتراك ضباط الجيش والبوليس بموقفهم السلبي وخضوعهم للملك في إتاحة الفرصة للكارثة أن تمتد وتتعاظم ، وهذا التحقيق من كلمات ضباط وثيق الصلة بالأحداث، يقول الأستاذ أحمد حمروش :

كانت قبضة الملك على السلطة قد ضعفت، وأهينت كرامته ، وهتف المتظاهرون بسقوطه ، واتخذت الحكومة الوفدية قرارات وإجراءات دستورية لم يُفلح في مقاومتها إلا بالتآمر والتنسيق مع الاستعمار عن طريق تعيين حافظ عفيفي رئيساً للديوان ، ذلك الرجل الذي قالت عنه جريدة التايمز يوم تعيينه :

« أنه أول شعاع ضوء يبدد ظلام الجو الشامل في مصر »

وتنفيذاً للمؤامرة الملكية الإنجليزية أقام الملك يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ مأدبة تضم ٦٠٠ ضابط من قيادات الجيش والبوليس في اليوم والموعود المحدد لبدء الحريق وأبقاهم الملك في القصر شبه محتجزين أمام موائد الطعام إلى ما بعد الثالثة مساء ولم يتركهم إلا بعد أن كانت الحرائق قد ألهمت معظم الشوارع وسط القاهرة (١) .

وتعليقنا على هذا الحادث هو أنه إذا خان الملك والانجليز مصر ، فكيف جاز استئانة ضابط من قيادات الجيش والبوليس أن يقبلوا مثل هذه الدعوة وأن يجلسوا على موائد الطعام بعد ساعات معدودة من مذبحه البوليس المصرى في الاستماعيلية التي قام بها الانجليز في اليوم السابق ؟ ومن الواضح أنها جريمة كبرى من هؤلاء أن يجتمعوا في هذا الحفل والدماء هناك لم تجف بعد .

ثم إن ألسنة النيران بدأت تلتهم القاهرة قبل أن يتوافد هؤلاء الخونة إلى

الأمير الملكي وإلى لذائد الطعام ، ولاشك أن هؤلاء رأوا ذلك وسمعوا به ، ولكنهم آثروا الخيانة والطعام على أداء الواجب وحراسة الوطن ، فعليهم لعنة الله والناس .

ليت الأستاذ أحمد حمروش أو سواه من الضباط الذين لهم صلة بهذا الحادث ينشرون لنا أسماء هؤلاء الخونة الذين طاب لهم الطعام والعاصمة تحترق ، إن نشر أسمائهم في قائمة سوداء ، وما يترتب على ذلك من احتقار لهم وامتهان قد يخيف سواهم أن يشتركوا يوماً ما في أى موقف عدائى من الشعب والبلاد .

وعن ارتباط الإنجليز والقصر والضباط بحريق القاهرة نذكر أن الأستاذ صلاح الشاهد (١) روى أن « سفيرياً » يعمل عند مسئول انجليزى اتصل به تليفونيا وأبلغه أن المسئول الانجليزى يجرى اتصالات لاسلكية لدفع حركة الحريق ، وقد تأكد صلاح الشاهد من هذا فاتصل بحسن صبحى مدير الأمن العام ليعمل احتياطاته ، فرد عليه هذا بأنه لا يمكن عمل أى شئ لعدم وجود أى ضابط بوليس .

تحية لهذا السفيرجى النبيل وعلى الخونة لعنة الله والناس .

ويروى صلاح الشاهد شيئاً رآه بعينه ، فقد كان اليوزباشى عبدالهادى نجم الدين يقود بعض المتظاهرين من جنود البوليس ، وهؤلاء المتظاهرون هم الذين بدعوا التظاهر الذى انقلب تدميراً ، وقد كوفئ هذا الضابط الذى كان عميلاً للقصر بأن أصبح فى رتبة لواء ومديراً للأمن بمحافظة الغربية (٢) .

ومع هذا فقد حدث فى عدة مدن بالجمهورية حرائق أكثر بشاعة واتساعاً ، وكانت الخسارة فيها هائلة على الممتلكات والأموال ، وقد حدث ذلك فى ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ ، ولكن إقالة لم يتحدث لوزارة ممدوح سالم

(١) ذكرياتى فى مهدين ص ١٨٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧٩ .

التي كانت موجودة آنذاك ، وبقيت في دست الحكم مع أنه من المؤكد أن إهمالا قد حدث فأتاح الفرصة للغوغاء ليتصرفوا هذا التصرف الحقير .
وحسب الملك عندما حرق القاهرة أنه انتصر ، ولكنه كان يحفر قبره بيده ، فإن الأمور لم تستقر له بعد ذلك ، وكانت زفرات الناس أشد هيباً من النيران التي ألهمت العاصمة ، وكانت هذه الزفرات تسد عليه المسالك ، وتقطع ما تبقى من صلات بينه وبين الشعب .

وفي الشهور القليلة بين حريق القاهرة وثورة ٢٣ يوليو ، لم يستقر أحد في رئاسة الوزراء ، وتوالى عليها في خلال هذه الشهور على ماهر ، ونجيب الهلالي ، وحسين سرى ، ونجيب الهلالي مرة أخرى ، وهياً هذا الاضطراب إلى قفزة جديدة ، ودم جديد ، ظهر باسم القضاء على هذا الانحراف ، والتأثر من الملك الظالم .

تكوينات الضباط الأحرار :

تكلمنا من قبل عن الجيش وعن موقفه حامياً للملك بأمر كبار الضباط فيه ، وكان الملك يعيش في أحضان الانجليز وينفذ سياستهم ، ومعنى هذا أن الجيش كان يخضع للانجليز بطريق غير مباشر ، ومن أجل هذا تكونت جماعة « الضباط الأحرار » لمقاومة هذا الثلاث « الملك والانجليز وقادة الجيش » وكانت حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ هي الشرارة التي بدأ منها اللهب ، ففي هذه الحرب اتضح خيانة القصر والانجليز ، وبدأ هؤلاء الضباط يتمردون على القصر وعلى القادة الذين يسرون في ركابه ، وبذل الملك أقصى الجهد ليحافظ على استمرار ولاء الجيش له ، فعيّن اللواء محمد حيدر قائداً عاماً للقوات المسلحة ، وكان هذا أحد ضباط البوليس من ذوى الشهرة في ضرب المتظاهرين خلال ثورة ١٩١٩ وكان قد تدرج في المناصب حتى أصبح مديراً لمصلحة السجون (١) وفتح اختيار حيدر مرحلة جديدة في إبعاد الضباط عن الملك ، كما قوى من التشكيل الجديد .

(١) محمد نجيب : كلمتى للتاريخ ص ١٩ - ٢٠ ويذكر صلاح الشاهد عن حيدر أنه كان وهو برتبة (اليوزباشى) سوطاً في يد الانجليز المستعمرين وطالما تعرض الطلاب المتظاهرون لعنفه مطنفانه (انظر ذكرياتى في عهدي ص ١٨)

ثم جاء حريق القاهرة الذى تحدثنا عنه من قبل ، واتضح منه أن حرق العاصمة الحبيبة كان مكيدة ملكية إنجليزية ، فزاد بُعد الضباط المخلصين عن الملك .

وأقيمت حكومة الوفد ، وتوقف الكفاح المسلح ضد الإنجليز ، الذى كانت حكومة الوفد تدبره وتديره ، وتوقفت كذلك المفاوضات مع الإنجليز للجلء ، وجاء عدد من الوزارات دون أن يكسب أى منها ثقة الشعب (١) .

وفى وسط هذه المشكلات جاءت قضية كانت بمثابة إعلان عن انفصال الجيش عن الملك ، ما هذه القضية ؟ إنها قصة انتخابات نادى ضباط الجيش .

قصة انتخابات نادى الضباط :

كانت انتخابات النادى تتم قبل ذلك دون أن يحس بها أحد من الشعب ، ولكنها فى سنة ١٩٥٢ كانت حادة عنيفة ، فقد رشح محمد نجيب نفسه لرياسة مجلس إدارة النادى ، وكان هذا من الضباط المناوئين للقصر ، ورشح معه ضباط يقول محمد نجيب عنهم إنهم كانوا من القيادات التقليدية ، وأصر الملك على ترشيح حسين مرسى عامر مدير سلاح الحدود لمنصب رئيس مجلس الإدارة ، ولكن الجمعية العامة للضباط قررت عدم الموافقة على ترشيح حسين مرسى عامر لأنه من الحدود وهى لا تعتبر سلاحاً لأنها تضم ضباطاً من مختلف الأسلحة ، وجرت الانتخابات وأسفرت عن نجاح هائل لمحمد نجيب ؛ ونجح لعضوية مجلس الإدارة رشاد هنسا وزكريا محي الدين وحسن إبراهيم .

(١) المصدر السابق ص ٢٩

وغضب الملك لهذه النتيجة ، فأصدر أمره في ١٦ يوليو بحل مجلس إدارة النادى ، وتعيين مجلس مؤقت ، والعجيب أن على صبرى كان أحد أعضاء هذا المجلس المؤقت ، وهذا يرينا أن الكثيرين كانوا يستطيعون أن يجلسوا على عدة موائد ، فعلى صبرى هذا الذى كان حظيًّا عند الملك أصبح فى عهد عبد الناصر رئيس وزراء ثم الأمين العام للاتحاد الاشتراكي ، ونائب رئيس الجمهورية ، وعلى كل حال فقد كان موقف الجيش من إرادة الملك نوعاً من التحدى السافر ، وكان الملك يخاف أن يفقد سلطانه على الجيش ، وفى هذا كارثة له ، فحاول تعيين حسين سرى عامر وزيراً للحرية ليعزل العناصر المعادية للملك من الجيش ، وليعيد الجيش إلى الولاء للقصر ، وكانت هذه المحاولة من الملك سبباً فى التعجيل بالقيام بالثورة ، كما سنرى بعد قليل .

وعلى هذا ، كان تنظيم الضباط الأحرار يتجه بصراحة ضد الملك والإنجليز ، وكان جمال عبد الناصر وهو فى قمة هذا الجهاز يعلن هذا قبل الثورة ، استمع إليه يقول للبكباشى أحمد أنور « مهما كانت عقيدة الضباط الأحرار السياسية فإن أمامهم غرضاً واحداً ، هو إخراج الإنجليز ، وبعد تحقيق هذا الغرض يُصبح لكل منهم الحرية فى أن ينضم إلى الحزب الذى يراه » (١) وباسم هذا الاتجاه تجمع فى صفوف الضباط الأحرار أعداد من الممتنمين إلى الأحزاب والهيئات المختلفة كحزب الوفد والحزب الاشتراكي والحزب اليسارى والإخوان المسلمين وغيرهم .

وإذا جاز لنا أن نعلق على هذا التصريح بشيء ، فإننا نتساءل : هل حقيقة أصبح للضباط بعد إخراج الإنجليز الحرية فى أن ينضموا للأحزاب التى يرونها ؟ ؟

ليت هذه الوعود تحققت ولكن الحق أن الوعود عن الديمقراطية

(١) أحمد حروش : شهود ثورة ٢٣ يوليو ص ٣٠ .

(م.هـ - التاريخ الإسلامى ج ٩)

والدستور والانتخابات الحرة في عهد عبد الناصر كانت مجموعة من الخداع ، فالوفاء بالوعد والعهد كان بعيداً عن خلق هذا الرجل .

وقد مارس الضباط الأحرار طبع منشورات بآرائهم وأهدافهم . ويقول أحمد فؤاد إن جمال عبد الناصر كان يكتب القليل منها ، وأن اليساريين كانوا يكتبون أكثرها ، ويضيف أنه هو الذى قدم الأهداف الستة لجمال عبد الناصر ، ونزل بها منشور (١)

وإذا عدنا للضباط الأحرار نجد أن تنظيمهم قد اكتمل نجاحه ، وأن أكثر الضباط الشبان كانوا ثائرين على الملك والإنجليز ، ولم يبق إلا تحديد الموعد للقيام بالثورة والتخلص من الملك ، ولبدء الصراع مع الإنجليز ، فحدث عامل مهم عجّل بالثورة ، فقد اتصل الصحفي الوفدى أحمد أبو الفتح من الاسكندرية يوم ٢٠ يوليو بصهره الصباغ ثروت عكاشة ، وطلب منه أن يبلغ جمال عبد الناصر - وكان صديقاً شخصياً لأحمد أبو الفتح - بأن الملك يعزّم تغيير الوزارة ، وإسناد رياستها إلى نجيب الهلالي وأن وزير الحربية فى الوزارة الجديدة هو اللواء حسين سرى عامر الذى يعرف الكثير عن الضباط الأحرار ، والذى سوف يكون أول ما يفعله بالتأكيد هو أن يقضى عليهم لكي يُثبِتَ للملك قوته وولاءه (٢) ويدكر ثروت عكاشة أن أحمد أبو الفتح تعمّد فى أسلوب حديثه أن يشير تلميحاً إلى مدى الخطورة التى سوف تنزل بالضباط الأحرار إن لم يتحركوا بسرعة (٣) .

ونتيجة لذلك تم الاتفاق على أن تكون الثورة عند منتصف ليلة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

ويخطر بالبال سؤال ، هو : من كان الرئيس لتنظيم الضباط الأحرار ؟

(١) أحمد حروش : شهود ثورة يوليو ص ٥٣ .

(٢) أنور السادات : البحث عن الذات ص ١٣٩

(٣) كلماته فى شهود ثورة يوليو ص ١٠١ .

ولا تكاد ولا توجد اجابة متفق عليها ، ويقول أنور السادات إنه كان رئيس التنظيم حتى قبض عليه فتولاه جمال عبد الناصر^(١) ويرى محمد نجيب أن التنظيم كان في يده ويقرر أنه بعد حل مجلس إدارة النادي أصبح أمامنا ثلاثة طرق : الاحتجاج أو احتلال النادي بالقوة أو تجميع كبار الضباط واعتقالهم وفرض شروطنا على الملك ، وكان هذا الحل هو ما وافقت عليه وقررنا الأخذ به^(٢) لكن الدراسات المختلفة تبرز أن عبد الناصر كان الرئيس الفعلي للتنظيم ، وقد انتخب رئيساً أكثر من مرة قبل الثورة . وكان يحرص على الرياسة كل الحرص ، ولذلك عندما انضم زكريا يحيى الدين للتنظيم وهو أقدم من جمال عبد الناصر ، انتحى هذا بحسن إبراهيم والبغدادي ، وقال لهما إن الموضوع ليس موضوع أقدمية^(٣).

* * *

وقبل أن نتحرك إلى قيام الثورة نضيف إضافة قصيرة عن العلاقة بين القصر وحزب الوفد ، فإن بعض الكتاب يوردون كلاماً عاماً قد يؤدي إلى طمس الحقائق والوهم ، فالأستاذ أحمد حمروش يذكر أن حريق القاهرة كان بداية انهيار النظام الملكي الذي كان قائماً بمؤسساته وأحزابه ومقوماته^(٤) وقد يومهم هذا النص أن حزب الوفد كان ضمن الأحزاب الملكية ، وهو ما لم يقل به أحد ، ولم يكن خافياً على رجال ثورة ٢٣ يوليو ، ويقول اللواء محمد نجيب في وصف العلاقة بين الوفد والسراي : إنها كانت — كما كانت دائماً — صراعاً بين المحافظة على الحقوق الدستورية للشعب من جانب حكومة الوفد ، ومحاولة الاعتداء عليها من جانب السراي^(٥) .

(١) البحث عن الذات ص ٣٤ .

(٢) كلمتي للتاريخ ص ٢٩ .

(٣) أحمد حمروش : شهود ثورة يوليو ص ٢٢٢ .

(٤) قصة ثورة ٢٣ يوليو ص ٣١٧ .

(٥) كلمتي للتاريخ ص ٢٥ .

ويقرر أحمد أنور أحد الضباط الأحرار أنه التقى بفؤاد سراج الدين عندما كان وزيراً للداخلية لقاء استمر ثلاث ساعات ، وكان الحديث يجري عن احتمال قيام ثورة ضد الملك ، ويقول أحمد أنور إنني حدثت لفؤاد سراج الدين فضل صمته كجميل . فقد كان ممكناً له بعد هذه المقابلة أن يضربني ، وقد نقلت لجمال عبد الناصر ما دار في هذه المقابلة ، وفهم جمال عبد الناصر من ذلك أن الوفد لن يكون معادياً للحركة (١) .

وإذا كان هذا هو موقف الوفد من القصر ومن الحركات التي كانت متوقعة للقيام ضد الملك ، فإن هناك موقفاً آخر يقابل ذلك الموقف ، ذلك هو موقف أحد رؤساء وزارات الأقلية (حسين سرى) فقد كتب عنه أحد وزرائه (مصطفى مرعى) يقول : إنني خفضت حكماً بالسجن على الدكتور أحمد شكرى من سبع سنوات إلى ثلاث سنوات بعد مراجعة قانونية بصفتي الوزير-المستول ، وقد وافق حسين سرى رئيس الوزراء على ذلك ثم اعترضت السراى ، فكشط رئيس الوزراء كلمة (أوافق) بالمطواة ، فصورت المستند ، ورفضت العمل مع رئيس متهم بالتزوير ، وكتبت له خطاب استقالة (٢) .

* * *

والآن نستطيع أن نخطو لدراسة جديدة ، فنتحدث عن ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .

(١) أحمد حروش شهود ثورة ٢٣ يوليو ص ٣١ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٥٩ .

الباب الثاني

دراسات عن الثورة

قيام الثورة

تحدد موعد الثورة — كما ذكرنا آنفاً — ووضعت خطة الانقلاب على ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : العمل على السيطرة على القوات المسلحة بالاستيلاء على مبنى القيادة العسكرية بمنطقة كوبرى القبة ، واعتقال كبار ضباط الجيش حتى لا يحرك هؤلاء قوات ضد الحركة ، ثم السيطرة على مداخل القاهرة ، ويقوم سلاح الطيران بالتحليق فوق القاهرة والاسكندرية لمنع الملك فاروق من الحرب والمراقبة القوات البريطانية فى القناة ، وتتجه وحدات من المشاة للسيطرة على محطة الإذاعة وشبكة التليفونات ، ويبدأ ذلك فى منتصف الليل ٢٢ — ٢٣ يوليو :

المرحلة الثانية : السيطرة على الجهاز المدنى بتعيين وزارة مدنية تنال ثقة الشعب ، ويتضح ولاؤها للانقلاب .

المرحلة الثالثة : التخلص من الملك .

ويقول عبد اللطيف البغدادى : إن التخلص من الملك كان مرحلة سرية مخافة تدخل القوات البريطانية ، وهو شىء كنا نعمل بقدر استطاعتنا على تفاديه وتجنبه (١) .

تلك هى الخطة كما وضعت ولكن حدث شىء لم يكن متوقفاً ، وكان شديد الأهمية بالنسبة للحركة فإن البكباشى يوسف صديق سمع خطأ أن الحركة ستبدأ فى الساعه الحادية عشرة بدلا من منتصف الليل فتحرك بقواته بعد أن خطب فيهم قائلاً : إنكم ستفخرون بما تعملون هذه الليلة ، وسارت قواته من الماكستيب (خلف مطار القاهرة الدولى) متجهة

(١) مذكرات عبد اللطيف البغدادى ص ٥٥ - ٥٦ بإيجاز .

نحو رئاسة الجيش عند كوبرى القبة ، وفى الطريق عرف أن السراى علمت بالتحرك وأن هناك اجتماعاً بمركز قيادة الجيش للقيام بعمل مضاد فأجاب ، أنها فرصة للقبض عليهم هناك .

واقترح هذا البطل المكان وقبض عليهم ، ولولا تحركه المبكر لكان من الممكن أن يُصدّر قادة الجيش أوامر بحركات مضادة قبل البدء فى حركة الانقلاب .

ويقول يوسف صديق : بعد الانتهاء من احتلال القيادة جاء أحد الجنود يبلغنى أن هناك ضابطاً يطلب مقابلتى اسمه جمال عبد الناصر ، ودخل هو وعبد الحكيم عامر ، ثم توافد الضباط الآخرون بعد ذلك عندما بدأت القوات والوحدات الأخرى تتحرك (١).

ويقول محمد نجيب : إنه كان ساهراً قلقاً على نجاح الخطة ، وكان ينتظر فى البيت تبعاً للخطة الموضوعة ، فلما نجحت المرحلة الأولى اتصل به جمال حماد من القيادة العامة وهنأه بنجاح الحركة ، وقال : إنه سيرسل له ثلاث عربات مدرعة لإحضاره ، ولكن محمد نجيب قال له إنه سيحضر بعربته الخاصة توفيراً للوقت ، وعند كوبرى القبة تلقاه الضباط فرحين وركب عربة جيب دخل بها مركز القيادة (٢) .

صوت الثورة :

ومع إشراقة الصباح فى الثالث والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢ م كانت البلاد تهتز فى فرحة هائلة للوثبة التى قام بها الجيش المصرى ليضع حداً لفساد الملك ، وانطلق البيان الأول فى الإذاعة والصحافة بتوقيع اللواء أركان حرب محمد نجيب وصوت أنور السادات ، وإذا كان جمهور الناس لم يعرفوا فى اللحظات الأولى صاحب الصوت الذى حمل لهم هذه البشرى

(١) أحمد حروش : شهود ثورة يوليو ص ٤٧٦ . ٤٨٠ بإيجاز

(٢) كلمتى التاريخ : ص ٣٤ .

فإن الغالبية الساحقة من الشعب كانت تعرف اللواء أركان حرب محمد نجيب الذى لم يكن آنذاك غريباً عن الناس ، والذى كان عنصراً مشرفاً فى الجيش ولدى المثقفين ، والذى كانت وقفته بالنادى ضد الملك على كل لسان .

وكان البيان الأول يظهر فيه التحدى للملك والانضواء تحت راية الشعب ؛ والعمل على تحقيق الآمال التى كان يعث بها الملك ومعاونوه ، وكان البيان الأول يعلن النقاط الست وهى :

— القضاء على الاستعمار وأعوانه .

— القضاء على الإقطاع .

— القضاء على سيطرة رأس المال على الحكم .

— إقامة عدالة اجتماعية :

— إقامة جيش وطنى قوى .

— إقامة حياة ديمقراطية سليمة .

وسمع الشعب المصرى مع مطلع الصبح هذه الصيحة الحبيبة التى كان الناس فى مصر يتمنونها ، سمعوها فتخففت قلوبهم بالفرح والبشر ، وتركت كلمات البيان الأول سروراً هائلاً فى كل بيت وكل شارع وكل منتدى ، وسرعان ما أخذ الناس يهتف بعضهم بعضاً بالتقاء الجيش مع الشعب على طريق الأمل والبناء وقد شاهدت هذه المظاهر بنفسى وأسهمت فيها بالهتاف والدعاء .

وتدفقت الوفود إلى كل مكان فيه ضابط أو جندي من رجال الجيش . وانتهالت برقيات التأييد من كل اتجاه ، ويقول محمد نجيب : أردت أن ألمس أثر الحركة فى نفوس الجماهير ، فنزلت إلى الشارع ، واهتز قلبي فرحاً بما رأيت ، فقد رأيت الجماهير تهتف وتصفق ، فأحسست بالكثير من الاطمئنان مما جعلنى أبتهل إلى الله أن يجعل هذه الحركة لخير الشعب الذى طال به الذل والحرمان^(١).

(١) كلمتى للتاريخ ص ٢٥

وتحقق بذلك نجاح المرحلة الأولى من المراحل الثلاث لخطة الانقلاب ، وكانت هذه المرحلة أخطر المراحل كما ذكرنا من قبل .

ومن الحق علينا هنا أن نذكر أن جامعة الاسكندرية كانت من أسبق من أيد الثورة ، فقد كانت أول برقية تلقها الثورة وافدة صباح ٢٣ يوليو من الدكتور رشوان فهمى المدرس بكلية طب الاسكندرية ؛ وكانت تحمل تأييده وتأييد أعضاء هيئة التدريس للحركة ، ولكن الدكتور رشوان أدرك انحراف عبد الناصر بالثورة يوماً بعد يوم فانتقد تصرفاته ، وكان من نتائج ذلك أن أصدر جمال عبد الناصر قراراً جمهورياً في ٢١ أغسطس سنة ١٩٦٦ بفصله من العضوية العاملة بالاتحاد الاشتراكي ، وبالتالي أبعد عن المؤسسات التي كان من الضروري أن يكون المشترك فيها عضواً بهذا الاتحاد ، وفي نفس اليوم أصدر عبد الناصر قراراً آخر بفصله من الحلمة وفرض الحراسة عليه (١).

وقبل أن نخطو نحو المرحلة الثانية وهي تعيين رئيس للوزراء يكون ولاؤه للحركة والمرحلة الثالثة وهي طرد الملك ، ينبغي أن نقف وقفة مع عامل مهم من عوامل نجاح المرحلة الأولى وهو وجود محمد نجيب قائداً لحركة الجيش .

محمد نجيب وضرورته لنجاح الثورة

يتساءل كثير من الناس : هل كان من الممكن أن تظهر الثورة في هذا الموعد بدون محمد نجيب ؟

يقول الدكتور ابراهيم عبده (٢) . « لاشك أن الثورة ما كان لها أن تتم قبل عشر سنوات لو لم يكن محمد نجيب قائداً لها ، فبدون محمد نجيب كان لابد من الانتظار عشر سنوات حتى يصل واحد من الشبان النافرين إلى

(١) سامي جوهر : الصامتون يتكلمون ص ١٨٢ و ١٨٦

(٢) الوسواس الخامس ص ٤٠٨ .

رتبة عالية في الجيش ، وإلى مكانة مرموقة ، وصيت مشرف بين الضباط ، ولو غامر الثوار بدون محمد نجيب في هذه الليلة ما أنصت لهم أحد ، ولربما دارت معارك رهيبة بين فرق الجيش ، لأن حداثة سنهم كانت ستدفع الطبيعة البشرية لتلعب دورها بالغيرة والحسد فيما بينهم ، وكل ذلك كان من شأنه أن يفضي بالثورة إلى فشل محقق .

ولقد كان هناك بلا شك مجموعة من الضباط الأحرار الذين يعملون «لثورة في الخفاء» ، وقد هب هؤلاء لتنفيذ خططهم ، ولكن اسم محمد نجيب والهالة التي كانت حوله ضمننت النجاح للخطة ، فإن كثيرين اشتركوا بقوة في دعم الثورة في أخرج أوقاتها لاطمئنانهم إلى قيادتها مع أنهم لم يكونوا ضمن الضباط الأحرار ، ومن هؤلاء يوسف صديق الذي كان يقود الكتبية رقم ١٣ والتي يقول عنها محمد حسنين هيكل (١) : أنها قبضت على عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ثم تعرف عليهما يوسف صديق وأفرج عنهما ، وأن يوسف صديق «ضم» إلى مجلس قيادة الثورة بسبب هذا الموقف منه ومن كتيبته .

وقد بقيت مع محمد نجيب قوة هائلة من الجيش أعادت إلى السلطة بعد أن أقيمت في فبراير سنة ١٩٥٤ وسنرى ذلك مفصلاً فيما بعد ، ولكننا هنا نقول إن تجمعاً كبيراً من الجيش كان يحيط بالرجل الذي وقّع إعلان الثورة : باللواء محمد نجيب .

ومن ناحية أخرى فإن أخوف ما كان يخافه الثوار هو أن يتدخل الإنجليز (٢) ولكن كان واضحاً أن اسم محمد نجيب يعني وحدة الجيش ، فهو الذي اختاره ضباط الجيش بالأمس رئيساً لناديهم ، ولم يكن الإنجليز يستطيعون مصارعة الجيش والشعب ، فقد كان الشعب ثائراً ثورة عارمة

(١) بصراحة عن عبد الناصر ص ٢٥ - ٢٦

(٢) هكذا يقرر حسنين هيكل في كتابه السابق ص ٢٠

ضدهم منذ ألغى زعيم الشعب المعاهدة سنة ١٩٥١ ، وكان الملك في جانبه الإنجليز مؤيِّداً بزعماء الجيش ، فإذا تحول الجيش عنه وانضم للشعب فإن الإنجليز يترددون طويلاً في مقاومة هذه الثورة ، ولولا محمد نجيب لكان من الممكن ألا تستجيب فرقة من فرق الجيش لاتجاه الثورة ، ويذتھر القصر والإنجليز هذه الفرقة للتدخل .

وهكذا كان الأمل كبيراً في نجاح الثورة على هذا الوضع ، ومع هذا فينبغي أن نقرر ما ذكرناه في كتابنا « مصر في حربين » من أن محمد نجيب وأنور السادات هما اللذان كانا يمكن أن يقادا إلى المقصلة لو فشلت هذه الثورة ، فلم يكن قد برز من قادة الثورة سواهما ، ونجحت الثورة نجاحاً سريعاً ، فالشعب صفق لها وأيدها ، ووحدات الجيش في كل مكان أبرقت بالتأييد للاعتبارات التي أسلفنا ذكرها . . .

الثورة تختار رئيساً للوزراء

ولتعد الآن لندرس المرحلتين الثانية والثالثة ، ويقول أنور السادات لنا بعد أن رأينا الجماهير تلتف حول دباباتنا في كل مكان وهي ترقص وتغني ، انجهنا لاختيار رجل يصبح رئيساً للوزراء ، وبعد مناقشة قصيرة استقر الرأي على اختيار على ماهر لبعده عن الأحزاب ولأنه معروف بالحسم (١) .

وقد اتجه الجيش بعد نجاح المرحلة الأولى لإيهام الملك ألا شيء ضده « فقدم محمد نجيب طلبات الجيش إلى نجيب الهلالي وهي :

١ - تكليف على ماهر بتشكيل الوزارة .

٢ - تعيين محمد نجيب قائداً عاماً للقوات المسلحة

٣ — طرد محمد حسن وحلمى حسين وانطوان بوللى من حاشية الملك (١) وخُذع الملك بهذه المطالب فاستجاب لها ، ونجحت بذلك المرحلة الثانية ، ويقول Goarge Haddad إن فاروق طلب من كافرى أن يتصل بالقوات البريطانية بقناة السويس للتدخل لحماية الملك ، ولكن كافرى رفض ذلك ووعد بحماية حياة الملك (٢) .

التخلص من الملك :

فى خلال فترة تشكيل الوزارة أخذت قوات الجيش تتدفق على الاسكندرية وانزعج الملك وعلى ماهر لهذا ، وتساءل على ماهر عن سبب ذلك فأجيب : لأنها دواعى الأمن ؛ وبخاصة أن بالاسكندرية عدداً كبيراً من الأجانب : وفى الساعة التاسعة صباح يوم ٢٦ يوليو ذهب محمد نجيب وأنور السادات إلى بولكلى بالاسكندرية والتقىا بعلى ماهر ، وقدا لعلى ماهر إنذاراً ليقدمه إلى الملك ، وفيه طلب الثوار أن يتنازل الملك عن الملك لابنه ، وأن يغادر الأراضى المصرية فى الساعة السادسة من نفس اليوم، فإن لم يفعل فإن عليه أن يتحمل المسئولية كاملة ، وحمل على ماهر الإنذار للملك الذى قبله ، وكتبت وثيقة، التنازل لابنه الطفل أحمد المولود فى يناير من نفس العام ، ووقع الملك وثيقة التنازل ، ورحل على الباخرة المصرية المحروسة إلى إيطاليا على أن تعود الباخرة عقب الانتهاء من مهمتها .

وانتهت بذلك مراحل الثورة الثلاث بنجاح عظيم .

* * *

لقد كان الملك والانجليز أخطر وأهم خصوم السلطة الجديد (٣) ،

(١) كلمتى التاريخ ص ٣٥ .

(٢) Revolutions and Military Rule in the Middle East p. 23

(٣) دكتور بيلبايف ودكتور بير بماكوف : مصر فى عهد الناصر ص ٢٢٩

وقد خرج الملك ، وتضاءل سلطان الانجليز أمام التجمع الهائل للجيش .
والشعب كما ذكرنا من قبل بقيادة محمد نجيب الذى كان ولاء الجيش والشعب
له واضحاً ، وقد عانى الانجليز شرعنا من حركات الفدائيين أمام
حكومة الوفد فكيف يستطيعون مواجهة الجيش والشعب ؟ إن ذلك سيكون
مغامرة داخلية ودولية خطيرة ، وبخاصة أن اسم أمريكا بدا فى كل الخطوات
مرتبطاً بالثوار ، ولهذا تحقق النصر فى هذا الميدان فلم تستطع القوات
البريطانية ولا السياسة البريطانية أن تتدخل ، لقد كان الملك وسيلة تدخل
الانجليز فإذا كان الملك قد اختفى فبأية وسيلة يتدخل هؤلاء ؟

مجلس الوصاية ورشاد مهنا :

وبخروج الملك بدأ فراغ جديد كان لابد من ملئه وذلك بتكوين مجلس
وصاية على الملك الطفل الذى تنازل له فاروق ، وتكوين مجلس وصاية أبرز
مطلع الانحراف وما يمكن أن يسمى « الطبخ » فبناء على الأمر الملكى
رقم ٢٣ لسنة ١٩٢٢ يتكون مجلس وصاية من ثلاثة أعضاء على أن يكونوا
من الأسرة المالكة أو من الوزراء السابقين ، وقد اختير لذلك الأمير محمد
عبد المنعم والدكتور بهى الدين بركات باشا : ثم رأى التخلص من
القائم مقام رشاد مهنا لرتبته العالية ، ولأنه كما يقول عبد اللطيف البغدادى
كان معروفاً بطموحه وله شعبيته بين زملائه ضباط سلاح المدفعية ،
ولما كانت الشروط غير متوافرة فيه ، فقد احتيل على القانون بتعيينه وزيراً
للمواصلات مدة يوم واحد ثم نقل ليكون عضواً بلجنة الوصاية على
العرش (١)

ولم يهنا رشاد مهنا بمكانته ، فقد تدخل فى الأمور كأنه ملك يملك ويحكم
على حد قول عبد اللطيف البغدادى ، وانتهر مجلس قيادة الثورة هذه الفرصة
فأصدر فى ١٤ أكتوبر سنة ١٩٥٢ قراراً بفصله وتحديد إقامته .

(١) مذكرات عبد اللطيف البغدادى ص ٦٥

وواجه مجلس قيادة الثورة مشكلة مجلس الوصاية من جديد ، وبخاصة أن
بهي الدين بركات استقال من العضوية ، وظهر اقتراح بتعديل الأمر الملكي
السابق ليتمكن أن يكون هناك وصي واحد على العرش ، فقُبل هذا الاقتراح
وصدر قرار بالتعديل ، وأصبح الأمير محمد عبد المنعم هو الوصي الوحيد
على العرش .

وقبل أن نترك رشاد مهنا نذكر أمرين خطيرين يتصلان به .

الأمر الأول - أن تعيينه في لجنة الوصاية على العرش فتح الباب للضباط
ليوضعوا في المناصب الوثيرة ، يقول محمد نجيب : أن تعيين رشاد مهنا في منصب
كبير خارج الجيش كان فاتحة لتعيين ١٨ من اللواءات وكبار الضباط في مناصب
مماثلة أو قريبة ، وكانت وظائف السفراء من الوظائف التي دفع لها هؤلاء (١) .

الأمر الثاني . إن حركة قامت في سلاح المدفعية عقب عزل رشاد مهنا
وتحديد إقامته ، وقد استدعى ذلك إلقاء القبض على عدد من ضباط هذا
السلاح وعلى رشاد مهنا في ١٥ يناير سنة ١٩٥٣ ومحاكمتهم أمام مجلس الثورة ، وكان
الاتجاه يميل إلى الحكم على رشاد مهنا بالإعدام ، وبعد مداولات صدر الحكم عليه
بالسجن مدى الحياة ، كما صدرت عقوبات مختلفة على الضباط الآخرين (٢) .

* * *

وننتقل إلى نقطة مهمة نختم بها حديثنا عن الملك وعزله وهي مقتبسة
عن محمد حسنين هيكل نقلاً عن جمال عبد الناصر والنقطة هي :
هل كان إخراج الملك مقصوداً لذاته؟ أو أن المقصود كان الإصلاح بإخراج
الملك الذي كان عقبة في طريق الإصلاح السيامي والاقتصادي والاجتماعي؟

لقد أجاب عبد الناصر نفسه عن هذا التساؤل عندما رأى صور الانحراف
التي امتلأ بها عهده فقال : إذا كان ذلك يمكن أن يحدث في عهد الثورة

(١) كلمتي للتاريخ ص ٤٧

(٢) مذكرات البغدادي ص ٧٣

فالأشرف والله « نفصّها » ونعود إلى بيوتنا ، والله يصبح عهد فاروق أحسن (١) وتلك شهادة ذات بال . ويقول الأستاذ أحمد أبو الفتح في إحدى مقالاته : إن فرحتي بعزل الملك كانت كل أسبابها مستمدة من أن في زواله تمكيننا للحياة الدستورية واسترداد الشعب حقوقه . . . ولكن عزل الملك لم يعد الحياة الدستورية ولم يعد للشعب حقوقه .

بعد إتمام المراحل :

نجحت المراحل الثلاث في الأيام الثلاثة الأولى ؛ فقد سيطر الجيش على كل المرافق ، وتلقى تأييداً شاملاً من الشعب ، ولم يتدخل الإنجليز ، وألغيت وزارة مدنية برأى الجيش ، وخرج الملك ، وبذلك زالت كل الصعوبات ، وعاد الهدوء والاطمئنان لقادة الحركة ، فإذا فعلوا بعد ذلك ؟ الإجابة يقدمها عبد اللطيف البغدادى بقوله (٢) : كانت مشكلتنا أننا لم نكن قد أعددتنا لأنفسنا برنامج عمل قبل قيام الثورة ، خشية أن إعداد مثل هذا البرنامج ربما يترتب عليه خلافات حول تفصيلاته مما يتسبب عنه فُرقة بيننا

ومن أجل هذا كان التخطيط الذى حصل عقب نجاح الثورة ، التخطيط الذى سراه : دستور أو لا دستور ، أحزاب أو لأحزاب ، ديمقراطية أو ديكتاتورية ... وقد وصف الأستاذ أنيس منصور (٣) هذا الوضع بقوله : الثورة بلا صيغة فكرية حركة عمياء .

ولكن هناك شيئاً مهماً لم يغفل عنه قادة الثورة ، ذلك هو فصل كل الضباط من رتبة اللواء فما فوقها فيما عدا محمد نجيب الذى ترك ردها من الزمن ، ثم إحالة عدد كبير من رتبة القائمقام والأميرال إلى المعاش أو نقلهم إلى وظائف مدنية بعيدة عن تخصصهم ، وبهذا فقد الجيش قادة لهم مكانتهم في التدريب العسكرى ، ووضعوا في مصالح مدنية ليست لهم فيها خبرة ، فكان الضرر مزدوجاً (٤) .

(١) حسين هيكل : لمصر لا لعبد الناصر ص ٤٦ - ٤٧

(٢) مذكرات عبد اللطيف البغدادى ص ٦٣

(٣) مجلة أكتوبر العدد ١١٨ ص ٩

(٤) مذكرات البغدادى ص ٦٤ وشهود ثورة يوليو ص ٤٣٣

الأمريكان والثورة

إذا صح أن الثوار كانوا على صلة بأمريكا قبل الثورة ليستعينوا بها على نجاح أهدافهم الوطنية ، فإن لا أرى في ذلك بأساً ، فقد كان الاحتلال البريطاني جائحاً على البلاد ، وكان غاضباً بسبب أعمال الفدائيين بعد إلغاء المعاهدة ، ومن هنا كان يربص الوسائل لضرب الحركة الوطنية سواء أكانت بإدارة الوفد أو بإدارة الضباط الأحرار ، وعلى هذا فقد كان من الحكمة أن تتحصن الثورة ضد أى تدخل ممكن من القوات البريطانية .

وعلى هذا فدراستنا عن مدى العلاقة بين الأمريكان والثورة ليس للنقد بل لمحاولة إيضاح حقيقة تاريخية ، ولكن عدم النقد هذا مشروط بشرط حاسم هو ألا تكون العلاقة مع أمريكا على حساب الديمقراطية وحقوق الشعب ، وألا تنقلنا هذه العلاقة من سيد إلى سيد ، من التبعية لبريطانيا إلى التبعية لأمريكا ، فإذا لوحظ ذلك كانت علاقة مشبوهة جدية بالرفض .

والثابت تاريخياً أن الثورة قبل أن تقوم اتجهت لإرضاء أمريكا ، ويقول خالد محي الدين : إن الحذر من إغصاب الأمريكان بدأ من مارس سنة ١٩٥٢ م عندما بدأت ثور مناقشات حول استخدام التعبير الاستعماري الأنجلو أمريكي ، في المنشورات ، والرغبة في قصص الحديث على الاستعمار البريطاني (١) .

وبدأت الصلة بين رجال الثورة والمسؤولين الأمريكان منذ اللحظة الأولى للثورة ، ويقول محمد مجيب (٢) : في صبيحة ٢٣ يوليو أبلغت السفارة الأمريكية بواسطة علي صبري ضابط مخابرات الطيران آنذاك أن الحركة

(١) أحمد حمروش : شهود ثورة يوليو ص ١٥٠ :

(٢) كلمتي التاريخ : ص ٨٤ .

لا تستهدف التعرض للأجانب ، وكان على صبرى له صله بمداقة بالملحق
الجوى الأمريكى (إيفانز) .

ويذكر عبد اللطيف البغدادى مزيداً من التفصيل عن هذه التقلّة ،
فيقول : إن هذه الرسالة أبلغت للسفير الأمريكى ليبلغها للسفارة البريطانية ،
وأضيف لهذه الرسالة أن الحركة ترمى إلى مطالبة السلطات المصرية ببعض
المطالب الخاصة ، وأن أى تدخل من القوات البريطانية سيدفعنا للتصدى
لها ، وأبرزت الرسالة أن هناك منظمات وهيئات شعبية ستشارك مع الثورة
في هذا التصدى (١) .

وهذا القول يوضح نقطتين مهمتين :

١ - التّكبير بالاتصال بأمريكا .

٢ - تخويف السلطات البريطانية بالمنظمات والهيئات الشعبية ، تلك
التي أقضت مضجع القوات البريطانية عقب إلغاء المعاهدة ، وهي أيضاً
تلك التي بذلت الثورة أقصى الجهد وأقصى العنت للقضاء عليها .

وبعد ساعات من قيام الثورة ظهر برهان جديد على تعلق الثورة بأمريكا ،
فقد اقترح الدكتور عبد الرزاق السنهورى ليكون رئيساً للوزراء ، ولكن
على صبرى همس بكلمة في أذن جمال سالم فانطلق هذا يقول : إنه يجمل
السنهورى ولكن الأمريكان سوف يعترضون على الترشيح ، لأن
بعض الصحف الغربية نسبت إليه ميولا يساريه عندما وقّع على نداء للسلام ..
وكان هذا سبباً كافياً للعلول عن ترشيح الدكتور السنهورى (٢)

واستمرت صلة الأمريكان بواسطة مخابراتهم بجمال عبد الناصر وبعده
من أعضاء مجلس القيادة ، ويذكر محمد نجيب أنه عارض هذا الاتجاه ،

(١) مله كرات عبد اللطيف البغدادى ص ٥٦ .

(٢) محمد نجيب : كلمتي للتاريخ ص ٥١ - ٥٢ .

ولكن معارضته لم تمنع مداومة الاتصالات السرية وزيادتها ، وقد رأى مرة كيرمت روزفلت في مكتب جمال عبد الناصر بمجلس قيادة الثورة ، وحذر من وجود علاقة بين أعضاء مجلس القيادة وبين المخابرات الأمريكية ولكن العلاقة ظلت قائمة (١) .

ويذكر الضابط محمد أبو نار الذي كان مديراً لمكتب صلاح سالم أن زيارة هذا للجنوب السوداني أسهم في ترتيبها السفير الأمريكي كافري ، وضابط الاتصال سويني (٢) .

وهناك حديث يتصل بالبطل يوسف صديق ، وهو يوضح شدة اهتمام رجال الثورة بإرضاء أمريكا ولو على حساب الاتجاهات الوطنية ؛ فقد حاول يوسف صديق القيام بحركة تجميع للإخوان المسلمين والشيوعيين ليعملوا جبهة واحدة مع الثورة وبخاصة في الجامعة ، وفوجيء يوسف صديق بجمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر يحضران لمنزله في منتصف الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ليلغاه أن السفارة الأمريكية لم تنم قلقاً من اتحاد جبهة الطلاب في الجامعة ، وخطب يوسف صديق مرة في بني سويف فقال : إن الثورة لا شرقية ولا غربية ولكنها مصرية ، وحضر له جمال عبد الناصر ليلتها متسائلاً : « انت عملت إيه في بني سويف ؟ ؟ السفارة الأمريكية متضايقه » . ولم يسمح للإذاعة بإذاعة الخطاب ، وكانت قد سجلته حين إلقائه . وكان هذا من الأسباب التي جعلت يوسف صديق يحس — كما قال — أن هناك اتجاهاً معادياً للديمقراطية يستحيل توفيق الآراء معه فاعتزل (٣) .

واستمر أراء للاتجاه المعادى للديمقراطية الذي كانت أمريكا تبناه نشرت

(١) محمد نجيب : كلمتي للتاريخ ص ٨٤ - ٨٥ .

(٢) شهود ثورة يوليو ص ٣٨١ .

(٣) شهود ثورة يوليو ص ٤٨٢ - ٤٨٣ :

صحيفة الأخبار النص التالى : عند ما احتدم النزاع فى مارس سنة ١٩٥٤ بين الرئيس محمد نجيب وجمال عبد الناصر حول نظام الحكم ، وكان محمد نجيب يطالب بالحكم الديمقراطى صارت المخابرات الأمريكية وبتشجيع من السياسة الأمريكية إلى مساندة عبد الناصر ليضرب الدعوة للديمقراطية^(١).

وهذا يدل على تأييد ما سبق أن ذكرناه من أن المخابرات الأمريكية كانت على صلة وثيقة بجمال عبد الناصر ، وعلى أن الأمريكان الذين يحبون الديمقراطية فى بلادهم يسعون لقتل الديمقراطية فى الشرق ، ويحبون أن يحكموا الشعوب بالحديد والنار .

ومن أجل هذه الاتجاهات هاجم أحمد حسين الثورة وقال : لأنها تسير فى ركاب أمريكا . وقد دفع ثمن ذلك ضرباً قاسياً ، ونزل به تعذيب شديد حتى وصل إلى حالة سيئة جداً ، كما قال ذلك محمد رياض ياور محمد نجيب^(٢) .

(١) الأخبار فى ٢٨/١/١٩٧٩ م .

(٢) جهود ثورة يوليو ص ٤٠٠ .

ثورة أو انقلاب ؟

ماذا نسمى ما حدث في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ؟

هل كان ثورة أو انقلاباً ؟

في اعتقادي أننا في حاجة لتعريف كل من هذين النوعين لنستطيع أن نرى ما يناسب هذا التصرف الذي حدث في ٢٣ يوليو .

يقول محمد حسنين هيكل : إن الثورة في معناها الحقيقي نقل الثروة والسلطة إلى أوسع الجماهير (١) . ولكن هذا التعريف يشرح نتيجة الثورة وليس تحركها ، ولكي نقدم تعريفاً دقيقاً للثورة نذكر التعريف الدقيق لها وهو الذي يشرح الفرق بين الثورة والانقلاب وهو : الثورة يقوم بها الشعب نفسه ، ولكن الانقلاب يقوم به بعض رجال الحكم من الوزراء أو الجيش (٢) .

وطبيعي أن الشعب يقوم بالثورة ليسترد حقوقاً سلبها الطغاة فإذا نجحت الثورة انتقلت للثورة والسلطة كما يقول هيكل ، وقد عرفت مصر مجموعة من الثورات (الشعبية) أشربنا لها من قبل ، وكان في قمتها ثورة ١٩١٩ التي قامت بها الجماهير في كل مدينة وقرية لافرق بين غنى وفقير ؛ ولا بين رجل وامرأة .

أما الانقلاب فتقوم به جماعة من أصحاب السلطة ضد جماعة أخرى ، وينجاحه تأخذ الجماعة التي قامت بالانقلاب ما كان في أيدي الجماعة الأولى ، ولا ينال الشعب إلا الفتات .

في ضوء هذا التعريف يكون من الواضح أن ما حدث يوم ٢٣ يوليو

(١) بصراحة عن عبد الناصر ص ١٢٠ .

(٢) انظر الموسوعة العربية ص ٥٨٢ .

هو انقلاب لأن مجموعة من رجال الجيش قامت به ضد مجموعة أخرى وضد السلطات الأخرى ، ولعله بسبب ذلك يطلق عبد اللطيف البغدادي على ما حدث أنه انقلاب^(١) كما أن الكاتبين الروسيين ييلياييف وبيريماكوف يصفانه دائماً بأنه انقلاب^(٢) .

ولكن شيئاً طرأ على الوضع صبيحة الثالث والعشرين من يوليو ذلك أن الشعب أسعده أن يهب الجيش ضد الملك وينضم لصفوف الشعب ضد عدو الشعب ، كما سعد الشعب بالمبادئ التي أعلنها القائمون بالانقلاب لأن هذه المبادئ كانت تعبر عن آمال الشعب وأهدافه ، وقد اشترك في تأييد هذه الحركة كل الزعماء وأساتذة الجامعات ورجال القانون والعمال والفلاحون وجميع طبقات الشعب ، وبهذا أصبح الانقلاب ثورة .

وقد حاول أحمد عرابي عندما قام بحركته أن يكسبها طابع الثورة فأخذ يجمع توقعات من الشعب ليعلن أنه يتحدث باسمهم .

ثم طرأ شيء آخر على الوضع بعد نجاح الثورة ، ذلك أن قادة الثورة بعد أن تأكلوا من نجاح حركتهم ، وطرّدوا الملك تمسكوا بالسلطة وآثروا أنفسهم بقصور الملك ، وجواهر القصور ، وأداروا ظهورهم إلى الوعود التي أعلنوها عن الديمقراطية والدستور وإقامة العدالة الاجتماعية ، فعادت إلى الحركة صفة الانقلاب والاستيلاء على حقوق الشعب .

وتمشياً مع هذه التفسيرات والشروح القانونية اتجه بعض القانونيين إلى أن الثورة قد انتهت عندما حققت التغيير الذي أحدثته^(٣) ويقول أنور السادات في ذلك^(٤) : إننا لم نعد أنفسنا عند القيام بالثورة لتولى الحكم ، كانت أقصى

(١) انظر مذكرات البغدادي ص ٦٢ و ٦٣ .

(٢) مصر في عهد عبد الناصر ص ٢٢ .

(٣) ستين هيكل : بمرآة من عهد الناصر ص ٤٣ .

(٤) البحث عن الذات ص ١٩١ .

أمانينا أن تنجح الثورة ، وأن تقوم في مصر حياة ديمقراطية . . . أما نحن كجيش فنجلس في الخلفية نراقب سير الأمور إلى أن تبصل البلاد إلى بر الأمان ، وتوصل الحرية والاستقلال فلا ملك ولا مستعمر بعد الآن .

ذلك قول نوافق عليه تماما ، ولكننا لا نوافق على كلمات أخرى وردت في هذه الفقرة ، وهذه الكلمات تقول : « أن يتولى زمام البلد طاقم جديد يختلف عن الطاقم القديم » فإن الديمقراطية ترفض ذلك لأن الاختيار التام للشعب ، يختار القديم أو الجديد بدون وصاية من أحد ، وبدون أن يفرض أحد عليه ذلك ، وكان هذا هو الفرق الكبير بين الثورة الحقيقية وبين أى ظلام يدعى أنه ثورة .

ولجأ إلى الاتجاه الصحيح بطل الزحف المبكر ليلة ٢٣ يوليو وهو يوسف صديق، فقد أرسل برقية إلى الرئيس نجيب خلال أزمة مارس التي سنعرض لها في حينها ، واقترح في البرقية تأليف وزارة ائتلافية انتقالية من الوفد والإخوان والاشتراكيين والشيوعيين برياسة الدكتور وحيد رأفت لإجراء انتخابات للبرلمان الجديد (١) .

وعلى كل حال فإن هذه الفكرة أو الإعلان عن النوايا الحقيقية المنحرفة للانقلاب كانت سببا في انتفاضات متعددة ضد الانقلاب ، وقد قام بهذه الانتفاضات كثير من ضباط الجيش كما سنرى فيما بعد، كما قامت بها جماعات وهيئات مصرية كثيرة ، وفي قمتهم أساندة الجامعات ، ولكن حركة الجيش كانت قد تمكنت من السلطة فضربت بقسوة كل حركة هبت ضدها .

وقد عبر الأستاذ إحسان عبد القدوس عن الاتجاه الحقيقي بالنسبة للثورات بقوله : ليس هناك سبيل لاستعادة ثقة الناس إلا بتغيير الوضع وأن تنتهى

الثورة ، وإذا طالبتُ بإلغاء الثورة فلست مبالغا ، ولا متطرفا إنما هو الوضع الطبيعي ، فليس هناك بلد يستطيع أن يعيش في نظام ثوري إلى الأبد ، ولا حتى عاما أو عامين ، إنما الثورة تقوم لتقضى على نظام فاسد ، وتضع نظاما آخر بدلا منه ، فوراً ، نظاما آخر طبيعيا تستقر عليه البلاد ، ويحقق الأهداف التي قامت من أجلها الثورة (١) .

* * *

ذلك هو الوصف الدقيق للحالة الظاهرة ، فقد رأينا انقلابا أصبح ثورة ثم عاد انقلابا ، أما التعرف الدقيق لبواطن الأمور فيؤكد أنه بدأ انقلابا وظل انقلابا ، وأما المبادئ الستة ، والتظاهر بالقرب من الشعب ، ومحاولة تحقيق آماله في الديمقراطية والعدالة الاجتماعية ، فكانت طلاء خفيفا يخفى وراءه حقيقة الانقلاب ، والذي يتابع الأمور بدقة منذ اللحظات الأولى يتأكد أن الانقلاب كان حريصا على بقائه انقلابا ، وأنه اتخذ لذلك وسائل خفية حينما حتى اشتد عوده فأعلن ما كان قد أضمر ، والدليل على ذلك أن المادة ٥٢ من الدستور (دستور ٢٣ الذي كان معمولا به) تنص على أنه عند وفاة الملك (والمقصود خلوا العرش بشكل ما) (٢) يجتمع مجلس النواب بحكم القانون خلال عشرة أيام من الخلو ، فإن كان المجلس منحللا ، وكان الموعد المعين لاجتماعه بعد انتخاب أعضائه يجاوز اليوم العاشر وجب أن يعود المجلس المنحل للعمل حتى يجتمع المجلس الذي يخلفه (٣) .

وعلى هذا كان مفروضا أن يجتمع مجلس النواب الوفدي المنحل للانعقاد طبقا للدستور ، وقد قدم عدد من رجال القانون طلبا بذلك إلى على ماهر ، ولكن قادة الانقلاب راحوا يستفتون قسم الرأي في مجلس الدولة ، ومن المعروف

(١) روز اليوسف في ٢٢ مارس حنة ١٩٥٤

(٢) انظر فصول من ثورة يوليو للدكتور وحيد رافت ص ١٢٢

(٣) انظر دستور سنة ١٩٢٣

أنه لا استفتاء مع وجود النص الصريح ، واستطاعوا بذلك أن يفلتوا من احترام الدستور ، وتم الاحتياال لذلك بإضافة جديدة للأمر الملكي الخاص بالصاية على العرش تقول إنه فى حالة نزول الملك عن العرش وانتقال وصاية الملك إلى خلف قاصر يجوز لمجلس الوزراء إذا كان مجلس النواب منحل أن يؤلف هيئة للعرش من ثلاثة تتولى بعد حلف اليمين أمام مجلس الوزراء سلطة الملك إلى أن تتولاها هيئة الصاية الدائمة ،

ويلقى محمد نجيب على هذه الاتجاهات بأنه لم يكن فى أعماقه مستريحا لذلك دستوريا ، وكان أكثر ميلا للالتزام بأحكام الدستور (١) ولكن يبدو أن محمد نجيب لم يكن يعرف بواطن الأمور التى أفصحت عن نفسها وهى أن المسألة مسألة انقلاب بكل ما يعنيه ذلك من معان ، وأن التظاهر كان عملا مؤقتا .

وهذا الموضوع لا يزال محتاجا إلى مزيد من الدراسة لن نضن بها ، فإن الحكم ينحرف أحيانا فى أى بلد من البلاد ، ويشتد ضغط الحاكم على المحكوم ، فتهب ثورة تزيل الحاكم الظالم وتأخذ السلطان من يده ، وعلى الثورة أن تسرع عقب ذلك فتعيد الحق إلى نصابه ، فإذا كان الحاكم الظالم ديكتاتورا كان على الثورة أن تعيد السلطان للشعب ، وإذا كان إقطاعيا استبد بالثراء كان على الثورة أن تعيد الأموال لأصحابها ، وتستقر الأمور عقب ذلك التصحيح لتسير الحياة فى مسارها الطبيعى وتنتهى مهمة الثورة .

أما إذا بقيت الثورة وفرضت نفسها على الجماهير فإنها حينئذ تسلب سلطان الشعب وتستبد بالأمر دون تفويض من الناس ؛ وكأنها بذلك تدعو لقيام ثورات ضدها ، كما قامت هى ضد المنحرفين السابقين .

وثورة ٢٣ يوليو كانت ضرورية فى وقتها ، عملت لتخلص مصر من ملك .

(١) كلمته لتاريخ ص ٤٦ - ٤٧ .

انحرف وحاشية ضلّت ، وكان لها برنامج طموح صُنّف له الشعب ، وكان من الطبيعي أن تزيل كل العقبات التي تقف دون تحقيق هذا البرنامج كالاستعمار والملكية ثم أن تترك التفاصيل لمن يمثلون الشعب تمثيلاً حقيقياً ، ويعود المجلس إلى ثكناته ، يرقب الأمور عن كثب كما قال أنور السادات مما اقتبسناه آنفاً .

ذلك هو الوضع الطبيعي للثورات من الناحية العلمية ، ولم يكن هذا الوضع بعيداً عن فكر قادة الثورة ، يؤكد ذلك ما قاله محمد حسين هيكل الذي يسميه فؤاد مطر « كبير الطهارة في مطبخ السياسة المصرية في عصر عبد الناصر » (١) فإنه يروى أن بعض القانونيين أفتوا بأن الثورة انتهت عقب قيامها بوقت قصير ، وأن دورها انتهى بالتغيير الذي أحدثته ، وأن محمد نجيب بناء على ذلك أخذ يستبعد كلمة ثورة ، وأصدر تعليمات إلى الصحف باستعمال كلمة نهضة (٢) ويقرر هيكل كذلك أن رجال الثورة استدعوا مصطفى النحاس من أوروبا بصفته زعيم الأغلبية ، وأن مقابلات تمت بين عبد الناصر وبينه ، وبين عبد الناصر وفؤاد سراج الدين ، وكلمات هيكل

(١) كتاب « بصراحة عن عبد الناصر » ص ١٠ وفي هذا الكتاب يقرر محمد حسين هيكل ص (١٦٤) أنه كان يكتب خطاب عبد الناصر ، ورغبة في توفير وقت القارئ . وجهده أقرره أنه اتضح لي من قراءة هذا الكتاب أنه ليس إلا كإحدى الخطب التي كتبها هيكل ليلقيها عبد الناصر ، ولكن لما كان هذا قد مات فإن مؤلف هذه الخطبة طبعها في كتاب ، وقد اتجه هيكل في تأليف الكتاب عن كثير من أحداث التاريخ التي عاصرها واشترك فيها ، والذي يقرأ هيكل يدرك بوضوح أن الرجل لا يتحرق الحق ، وأنه يدافع عن نفسه كأنه يحس بأن المهد سيحاكمهما ، وهو يعد دفاعه من الآن ، وقد وصف الرئيس أنور السادات (صحف للقااهرة في ١ / ٦ / ١٩٧٥) ما قاله هيكل بأنه تزوير للتاريخ ، وعلقت صحيفه الاهرام بالقول: هل كبير ما كبه هيكل وليس تحريرها السابق وكبير الطهارة الذي طالما طها أطمه أودت بحياة طامسها .

هى . « حاول عبد الناصر إقناع فؤاد الدين بأنه مستعد لإعطائهم الحكم على شرط أن يوافقوا على تطبيق الإصلاح الزراعى (١) .

وهذا يوضح لنا بما لا يدع مجالا للشك طبيعة الثورات ، وانها تنتهى عقب تحقيق أهدافها الكبرى ، ولكن جمال عبد الناصر رأى أن يبقى فى الحكم ليحقق برنامجه كله ، وقد كان ما عرضه على مصطفى النحاس وعلى فؤاد سراج الدين بدافع الوضع الصحيح للثورات ، ولكنه كان عرضا مشروطا بقيود كان يعرف سلفا أن زعيم الأغلبية لا يمكن أن يقبلها ، فقبوله لها خضوع لسلطة غير سلطة الشعب ، وذلك مالا يرضيه زعيم الشعب ، وبناء على ذلك بقى جمال عبد الناصر فى الحكم فترة طويلة حتى يقم جيشا قويا ويحقق العدالة الاجتماعية .

وتنفذا لهذا الوضع أصبح قائد الثورة رئيسا للدولة ، وتكونت له بطبيعة الحال حاشية وأعوان لهم نفوذ وسلطان ؛ وظل اسم الثورة قائما فترة طويلة كان تأثيرها شديد الوقع على الناس بوجه عام ، وعلى المشتغلين بتدوين التاريخ بوجه خاص .

بقيت كلمة عن هذا الموضوع نلاحظها من كلام الأستاذ أحمد أبو الفتح والأستاذ مصطفى مرعى فالأستاذ أحمد أبو الفتح يستعمل كلمة « حركة » ويتحدث عن « حكم الضباط » (٢) والأستاذ مصطفى مرعى يستعمل كلمة حركة أيضا فيقول : إن على ماهر شكل وزارته بعد الحركة ولم يتم الانصاف برجال الحركة من الضباط ، (٣) فهل هناك مدلول عندهما لهذا الاستعمال ؟ من يلقى ؟

(١) ص ٤٦ ، ٥٠

(٢) التحدى ص ١٤٨ - ١٤٩

(٣) جهود ثورة يوليو ص ٤٦٠ - ٤٦١

الثوار يحكمون

ليسمح لنا الرئيس محمد أنور السادات أن نقبس منه هذا العنوان ، وأن نقبس منه بعد العنوان سطوراً قليلة جداً لها معنى كبير في سياق الأحداث ، وفي تصحيح المفاهيم في عقول الناس وهذه السطور هي :

وفي مساء ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٢ دعانا جمال عبد الناصر للاجتماع في القيادة ، وافتتح الاجتماع قائلاً إن مرحلة لإخراج الملك نجحت ، ونحن الآن المسئولون عن البلاد ، وأعلن الآن أنني أتنحى عن رئاسة الهيئة التأسيسية ، فقد انتهت هذه الهيئة بنجاح الخطوات السابقة ، ونحن من اليوم اسمنا « مجلس قيادة الثورة » (١) .

ومن هذه الكلمات تتضح النوايا على ما يلي :

١ - قادة الانقلاب باقون ويريدون أن يحكموا ، وقد حكموا خفية أولاً من خلف الوزراء المدنيين ، ثم استولوا على الوزارات بشكل سافر ، وأصبحوا وزراء ، وعلى هذا فَعَرَضُ الحكم على النحاس باشا والكلام عن الدستور والانتخابات كانت خديعة لكسب الوقت .

٢ - جمال عبد الناصر هو القيادة الحقيقية بعد نجاح الخطوات السابقة ، وقد أعيد انتخابه رئيساً للمجلس الجديد الذي اقترح اسمه وهو « مجلس قيادة الثورة » وكان انتخابه بالإجماع .

وكل من هاتين النقطتين نحتاج إلى مزيد من الشرح

فعن النقطة الأولى يقول محمد نجيب : اتخذ مجلس القيادة قراراً بتكليف أعضائه مباشرة الإشراف على الوزارات المختلفة فأصبح في كل وزارة مندوب للقيادة ، وقد عارضتُ هذا الرأي ولكن أغلبية مجلس

القيادة وافقت عليه (١) .

ويقول أنور السادات : لم نكن قد أعددنا أنفسنا للعمل الوزارى ولم نعد برنامج عمل معين ؛ ولكن رغم هذا كله حدث أننا فى أحد اجتماعاتنا قلنا : لقد آن الأوان لكى نوزع أنفسنا لمتابعة أعمال الوزارات بمعنى أن يصبح كل واحد مسئولاً عن وزارة أو مجموعة وزارات و وأخذ كل واحد يتكلم ويستعرض قدراته بالنسبة لهذه الوزارة أو تلك (٢) .

وقد واجه على ماهر تدخل الضباط فى الوزارة ، وقال لوزرائه وكانوا من المدنيين : إن السياسة فن الممكن وإن الوزراء يستطيعون أن يوجهوا ضباط الاتصالات المنتشرين فى كل الوزارات ، ويعلق الأستاذ مصطفى مرعى على ذلك بقوله : كان ذلك خطأ حيث أصبحت هناك ازدواجية فى المسئولية وما كان لنا أن ندع المرونة نجربنا إلى الميعة (٣) .

أما عن النقطة الثانية وهى أن القيادة الحقيقية كانت لعبد الناصر فنذكر أن محمد نجيب - كما أشرنا من قبل - كان ضرورياً لتنجاح الثورة ، ولكنه بعد أن نجحت ، دُفِعَ به إلى الظل ، وكان دفعه مصحوباً بقسوة عنيفة فى أكثر الأحوال ، وقد كتب محمد حسين هيكل عن « ١٨ سنة تحت حكم عبد الناصر » ومعنى هذا أنه لم يدع لمحمد نجيب فترة يحسب لها حساب ، وأنه جعل حكم عبد الناصر يمتد من مطلع الثورة حتى وفاته سنة ١٩٧٠ وعلى هذا فإننا نؤيد ما يتجه له الباحثون ، وما يتجه له هيكل من أن رئاسة محمد نجيب الحقيقية كانت خلال الخطر الذى كان يمكن أن يمتد إلى الثورة والثوار ، وهى المدة التى لا تتجاوز أسبوعاً ، فلما ريمخت أقدام الثورة بدأ الاتجاه للاستغناء عن نجيب ، ولم تبق إلا الوسيلة التى تقض عليه دون عناء ليفسح الطريق

(١) محمد نجيب : كلمتى للتاريخ ص ٥٦

(٢) البحث عن الذات ص ١٦١ .

(٣) شهود ثورة يوليو ص ٨٦ .

لعبد الناصر الذى كان يعمل من خلف الستار ، بيد أن بعض الآراء اتجهت إلى الإبقاء على محمد نجيب فترة أخرى من الزمن لاستغلال اسمه فى اتخاذ بعض القرارات التى رأى أن فيها كثيراً من الخطورة .

وعلى هذا فكلام هيكىل قريب من الصواب إذ جعل عهد عبد الناصر يتناع عهد محمد نجيب ، بل إن عهد عبد الناصر حاول أن يتناع عهد أنور السادات أيضاً ، ولكن أنور السادات كان حاسماً وكان أقوى من أن يتناعه أحد فبدأ غصّة فى الحلق المريرة حتى قضى عليها وحى عهده .

وعلى هذا فعهد محمد نجيب الحقيقى كان قصيراً ، ولم يطل بعض الشئ إلا للمدارة السودان فى المفاوضات التى كانت تدور حول مستقبل السودان ، إذ كان السودان شديد الارتباط بمحمد نجيب ، ولكن جمال عبد الناصر استغنى عن السودان إذا كان ارتباط مصر بالسودان سيقف حائلاً أمام القفزة التى كان يتطلع إليها عبد الناصر ليسيطر على الحكم فى الظاهر والباطن .

وستحدث فيما بعد بشئ من التفصيل عن الأحداث التى تمت فى عهد محمد نجيب ثم فى عهد جمال عبد الناصر ، ولكننا نرى — وقد اندفع الضباط إلى الحكم والمستولية — أن نتعرف عليهم من جميع الوجوه ، وللرغبة فى الإنصاف والدقة تتجه دراستنا عنهم إلى الاقتباس منهم ، فهم أدرى الناس بعضهم ببعض ، ولعلنا من كلامهم نستطيع أن نقدم صورة حقيقية لكل منهم ، وذلك ما سنحاوله فى الباب التالى

الباب الثالث
فتادة الثورة
تعريف بهم من كلامهم

التعريف بقادة الثورة

سواء أسميناها ثورة أو انقلاباً ، أو أطلقنا عليها « حركة بعض الضباط » ، على أى حال ، فقد كان لها قادة ، والقادة الذين نتحدث عنهم فى هذا الجزء حكموا حوالى عشرين عاماً ، وهذه الفترة تتميز فى تاريخ البشرية بتقديم هائل جداً ؛ غزا الإنسان خلالها الفضاء ، ووصل إلى سطح القمر ومشى عليه ، وحقق تقدماً عظيماً فى مختلف الميادين ، وخطت الدول المتوسطة خطوات طيبة نحو رفاهية شعوبها ، فإذا فعل هؤلاء القادة بمصر والمصريين ؟ ولماذا كانت ثورتهم مخيبة للآمال ؟ ولماذا تراجعت مصر والعالم يتقدم للأمام ؟

الإجابة عن ذلك تكمن فى شخصيات هؤلاء القادة ، ومن هنا كان من حق القارئ أن يتعرف عليهم ، فإن طبيعتهم كانت لابد أن تصل بنا إلى هذه النتيجة . ووسيلتنا للتعرف عليهم هو كلامهم هم ، فذلك أقرب إلى الدقة ، وقد نفتيس مزيداً من التعريف بهم من أقرب الناس لهم ، وأعرفهم بهم لتكتمل الصورة أمامنا ، ولنعرف حقيقة من حكمونا من أهم مصدر ممكن أن يقود لهذه المعرفة .

على أن هناك شيئاً مهماً لاحظته ولاحظه سواى عندما نقرأ ما كتبه هؤلاء ، ذلك أن الذاتية مسيطرة على كتاباتهم ، فكل منهم معجب بنفسه ، لا يرى فى تصرفاته أى لون من ألوان الخطأ ، وهو يغمز أو يثبت الاتهامات على الآخرين ، وهو اتجاه يدركه القارئ من كلماتهم جميعاً ، ولكن هذه الذاتية على أى حال لن تستطيع أن تعمى علينا الطريق ، ونرجو أن يلهمنا الله الصواب فيما نعرض من آراء فى هذا الكتاب لنصل إلى صورة دقيقة هؤلاء الذين أمسكوا بزمام مصر فى أخطر فترة من فترات التاريخ البشرى .

وهناك شخص واحد من قادة الثورة سوف نؤجل الحديث عنه في هذا الجزء ذلك هو الرئيس محمد أنور السادات ، وسبب تأجيل الحديث عنه يرجع إلى العاملين التاليين .

أولاً : لا يزال أنور السادات في الحكم حتى كتابة هذه السطور ، ومعنى ذلك أن شخصيته لا تزال تتكشف بها بعض النواحي الجديدة من حين لآخر ، فمن الطبيعي أن نؤجل الحديث عنه ريثما تتكامل أمامنا اتجاهات شخصيته .

ثانياً : خصصنا الجزء العاشر من هذه الموسوعة للحديث عن عصر أنور السادات ، وستكون هناك فرصة لعرض شخصيته عرضاً كاملاً .

وقبل أن نورد ما قاله قادة الثورة بعضهم عن بعض نورد حقيقة مهمة

هى أن القارئ قد يظن أنى جمعت المساوىء وتركت الحسنات ، وأحب أن أذكر فى رد هذا الظن أن الكتب التى كتبها نجيب وعبد الناصر

والسادات والبغدادى والعشرات من القادة الذين جمع أحمد حمروش كلامهم

والثلاثة الذين جمع سامى جوهر تصريحاتهم . . . هذه الكتب موجودة

فى كل مكان ، ولن يستطيع أى قارئ أن يجد كلمة مدح واحدة فيما كتبه

واحد من هؤلاء عن الآخرين ، إن الذى سيجده القارئ فى هذا الكتاب

هو الصورة التى يرسمها كل منهم لرفاقه إذا جاز أن نسميهم « رفاقاً » .

وأعضاء مجلس الثورة هم :

- ١ - محمد نجيب
- ٢ - جمال عبد الناصر
- ٣ - عبد الحكيم عامر .
- ٤ - عبد اللطيف البغدادى .
- ٥ - كمال الدين حسين .
- ٦ - حسن إبراهيم .
- ٧ - زكريا محيي الدين .
- ٨ - خالد محيي الدين .
- ٩ - أنور السادات .
- ١٠ - جمال سالم .
- ١١ - صلاح سالم .
- ١٢ - حسين الشافعى :

١٣ - يوسف صديق . ١٤ - عبد المنعم أمين .

١٥ - رشاد مهنا .

وستحدث أولاً عن قادة الثورة إجمالاً ، ثم نفرد لكل منهم حديثاً خاصاً .

لثقافتهم :

وأول ما نتعرض له هو ثقافتهم ، ويذكر محمد نجيب (١) أنه - بالإضافة إلى دراساته العسكرية - كان حاصلاً على ليسانس الحقوق ، وأن خالد محيي الدين حصل على بكالوريوس كلية التجارة سنة ١٩٥١ ، أما باقي الأعضاء فكانت دراستهم عسكرية فقط ، فقد تخرجوا من الكلية الحربية أو كلية أركان الحرب . أما دراستهم المدنية فكانت الثانوية العامة ، ومن المعروف أن الذين يلتحقون بالكليات العسكرية يكونون في الغالب من الذين حصلوا في الثانوية العامة على درجات لا تؤهلهم للالتحاق بكليات الدرجة الأولى كالطب والهندسة .

وسنرى فيما بعد أن محمد نجيب استبعد عن السلطة والنفوذ بعد وقت قصير من قيام الثورة ، وأن تكتلاً هائلاً قام ضده منذ الشهور الأولى ، وسنرى كذلك أن خالد محيي الدين هو الوحيد الذي لم تسند له أية وزارة ، من بين أعضاء مجلس القيادة الذين أصبحوا ١٢ بعد استبعاد يوسف صديق وعبد المنعم أمين ورشاد مهنا قبل زحف الثوار على الوزارات .

هل كانت هناك عقدة أبعدت الجامعيين عن مكانهم في القيادة ؟ أو أن إبعاد الجامعيين كان مجرد صدفة ؟ ربما .

ولا شك أن مصر عانت من الثقافة الضحلة التي كانت زاد الحكام

الثورين وأكبر دليل على ذلك هو الإجابة العجيبة التي قدمها جمال عبد الناصر للسؤال الذي عرضه الصحفيون الأجانب عليه في المؤتمر الصحفي الذي عقد في ٢٨ مايو سنة ١٩٦٧ . فقد سأله هؤلاء الصحفيون عما إذا كان الاقتصاد المصري يحتمل حرباً أخرى بعد حرب ١٩٥٦ وحرب اليمن ؟ فأجاب . نعم ، ألا تأكلون الكباب والكفتة في بلادنا ؟

وهكذا كان أكل الكباب والكفتة دليل قوة الاقتصاد المصري في رأى رئيس جمهورية مصر . يالله !!!

وقد سئل مرة عن سياسته تجاه الولايات المتحدة ، فأجاب أنا لأعرف في السياسة أنا (دوغرى) .

وهكذا كانت سياسة مصر في يد مَنْ يعترف أنه لايعرف السياسة . وهناك حادث يثير الضحك والاشمئزاز معاً ، ومبعثه الجهل باللغات الأجنبية ، والجهل بالتقاليد وما يسمى « الإتيكيت » وهذا الحادث كان من الممكن أن يثير أزمة بين مصر وبين الولايات المتحدة الأمريكية ، إذ وُضِعَ سفير الولايات المتحدة في دورة المياه بمجلس قيادة الثورة حوالى الساعة ، لأن الضابط لم يفهم لغة السفير عندما قابله ، فاعتقد أنه يريد أن يدخل دورة المياه قبل مقابلة جمال عبد الناصر فقاده السكرتير العسكري محمود الجيار إلى دورة المياه وأدخله فيها ، ولم يعرف السفير سر هذا التصرف ، وقبل أن ننقل كلمات الأستاذ صلاح الشاهد في هذا الموضوع نذكر أن المسألة لم تكن جهلاً باللغة فقط وإنما كانت كذلك جهلاً بالتقاليد ، إذ لا يمكن أن يحىء سفيرٌ بناء على طلبه لمقابلة رئيس الدولة ، ثم يطلب دخوله دورة المياه قبل المقابلة مع أنه ترك بيته منذ دقائق قليلة ، ولنعُد إلى كلمات صلاح الشاهد حول هذا الموضوع .

في أثناء الاعتداء الثلاثي على مصر طلب السفير الأمريكى مستر بادو مقابلة الرئيس مقابلة عاجلة ، وتحددت المقابلة في الحال بالقيادة العامة بمنشية البكرى ، ووصل السفير الأمريكى في الموعد المحدد ، واستقبله سكرتير

الرئيس العسكرى محمود الجيار ، ويبدو أن هذا فهم - على سبيل الخطأ - أن السفير يريد الذهاب إلى دورة المياه قبل أن يقابل الرئيس ؛ فقاده السكرتير العسكرى إليها ؛ وأدخله وأغلق عليه الباب .

ومر الوقت على السفير وهو واقف بدورة المياه ، عشر دقائق : ، ربيع ساعة ... ثلاثة أرباع الساعة ... والسفير رهين دورة المياه ، ولما طال الوقت عل احتجاج السفير بدورة المياه ، وخشى السكرتير العسكرى أن يكون قد أصاب السفير الأمريكى مكروه دق الباب عليه ، وفتحه ، فوجد السفير واقفاً مذهولاً ! ! .

ويقول صلاح الشاهد أنه بدون كلام صحب السكرتير العسكرى السفير الأمريكى إلى مكتب الرئيس ، وقص السفير على مسامع الرئيس ما حدث . وقال : لئننى قد تصورت أن الأوامر قد صدرت بإلقاء القبض على ، واحتجازى بدورة المياه فاستسلمت لذلك : ولما عرف جمال عبد الناصر أن الجهل هو السبب لم يزد عن أن أغرق فى الضحك واعتذر للسفير عن سوء الفهم (١) .

- خططهم ومبادئهم .

لم يكن أحد من الضباط الأحرار حين قاموا بالانقلاب يدرك مدى الأبعاد الواقعية للعمل الذى بدأوه ، ولم يكن لديهم برنامج عمل - كما اقتبسنا ذلك منهم من قبل - وقد حاول جمال عبد الناصر أن يدفع بنفسه لقيادة الثورة منذ الأشهر الأولى لقيامها ، فألف كتاب فلسفة الثورة ، ولكنه جاء أقرب ما يكون للوجدان منه إلى الإدراك (٢) . ومن هنا تخبط البلاد وسارت فى حياة ارتجالية طويلة هذا العصر .

(١) صلاح الشاهد : ذكر يأتى فى مهدين ص ٢١٦

(٢) دكتور بيليايف ودكتور بريماكوف : سر فى عهد عبد الناصر ص ٣ و ٣٣

وعلى فرض أنه كانت هناك خطط فإنه يبدو أن الاتجاه العام بعد نجاح الثورة لم يكن لتنفيذ خطة سابقة ، أو تحقيق وعد أعلن قبل الثورة أو في مطلعها ويحدثنا يوسف صديق عن ذلك فيقول ؛ عند ما دخلت مجلس قيادة الثورة سرعان ما لاحظت انحراف أعضائه ، وعندما ذكرتهم بما كان يكتب في منشورات الضباط الأحرار قال بعضهم « انس المنشورات . . . الظروف تغيرت » (١) .

فإذا انتقلنا من الحديث عن الخطط إلى الحديث عن المبادئ نجد عجباً . فبعضهم كان من الإخوان المسلمين ، ثم أصبح عدواً لهم ، ويقولون عنه عبد الناصر إنه انتقل إلى اليسار بعد معركة ١٩٥٦ ، وقد سبق أن ذكرنا عن علي صبري أنه كان وثيق الصلة بالأمريكان ، وعن طريقه توثقت العلاقات بين الثورة وبين أمريكا ، ولكن على صبري هذا كان ينشر في الجمهورية مقالات تبرزه في مظهر اليساري ، فبدأت موجة من الدعاية تصفه بأنه أصبح شيوعى النزعة ، وقد ذكر له الضابط محمد علي بشير أن القراء أصبحوا في حالة قلق من هذه المقالات ، فأجابه على صبري بقوله ؛ « أعمل إيه ؟ المقالات تحضر لى وأنا أوقعها » (٢) .

وهكذا كان الواحد منهم ينتقل من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين بإرادته أو بدون إرادته كما يحلو للذى يحرك القطع في لعبة الشطرنج .

ويتحدث George Haddad عن مبادئ الثوار بالنسبة للمحكومين فيقول : تخلى الثوار عن مبادئهم التي كانوا يعلنونها قبل الثورة وفي مطلع الثورة ، فقد كانوا يهاجمون الأحكام العرفية ، والرقابة على الصحف ، والاعتقالات للسياسيين ، وحل البرلمان . . . ولكنهم في أقل من ستة شهور

(١) شهود ثورة يوليو ص ٤٨

(٢) أحمد حمروش : مجتمع جمال عبد الناصر ص ٢٧٧ .

أصبحوا يزاولون هذه الأعمال بشراسة ، فقد استطابوا الحكم ، واستبدوا به ، واستبدلوا فكرة تسليم السلطة للشعب (١).

الضباط الأحرار والسلطة :

لقد اتضح منذ اللحظة الأولى لنجاح الثورة أن شهية الضباط للسلطة برزت ، وأنها دفعتهم إلى إزالة العقبات التي اعترضتهم ليحكموا (٢) فمن أجل تعيين رشاد مهنا في مجلس الوصاية عين أولاً وزيراً عدة ساعات لينقل إلى مجلس الوصاية الذي كان يشترط على أعضائه أن يكونوا من الوزراء السابقين ، وقد فتح هذا باباً واسعاً لأعضاء مجلس قيادة الثورة ليمدوا أرجلهم إلى السلطة ، وقد بدأوا بالإشراف على الوزارات ، وأبلغه أخرى بالحكم من الخلف كما حدثنا بذلك مصطفى مرعى من قبل ، ولكنهم سرعان ما اندفعوا نحو السلطة الكاملة فأرادوا أن يصبحوا وزراء ويقول خالد محي الدين (٣) إن محمد نجيب قاوم دخول أعضاء مجلس الثورة لمناصب الوزارة ، فوقع تحت تهديدهم ، فرفض ، وعندما أعلنت الجمهورية وعين محمد نجيب رئيساً للجمهورية أعيد تشكيل الوزارة وخرج منها سليمان حافظ الذي كان خلال فترة من الزمن المستشار والمسموع الكلمة كما خرج مراد فهمي وزير الأشغال وحسين أبو زيد وزير المواصلات وفؤاد جلال وزير الارشاد وصبرى منصور وزير التموين ، ودخلها جمال عبد الناصر نائباً لرئيس الوزراء وصلاح سالم وزيراً للإرشاد وعبد اللطيف البغدادى وزيراً للحربية ، ثم جمال سالم وزيراً للمواصلات ، وذكريا محي الدين وزيراً للداخلية ، وكال الدين حسين وزيراً للشئون الاجتماعية ثم وزيراً للتربية والتعليم ، وقبل أن تنتهى سنة ١٩٥٣ م كان

Revlutions and Military Rule in the Middle East vol 3 p. 30 (١)

(٢) محمد نجيب : كلمتى للتاريخ ص ٦٥ .

(٣) شهود ثورة يوليو ص ١٥٢ .

جميع الثوار يحكون ماعدا أنور السادات ، وهكذا اتضحت حقيقة مهمة هي أن للحكم بريقاً خلّب لب الثوار ولعب برءوسهم (١).

وعندما جلس أعضاء مجلس قيادة الثورة في كراسي الوزارة كان لابد أن يفتحوا أبواب الوظائف المريحة والدسمة لزملائهم من الضباط الآخرين ، وإلا فقد كان من الممكن أن يواجهوا ثورات منافسة قاسية ، ولهذا فتحت الثورة الباب للضباط ليصبحوا في كل موقع بمصر ؛ أصبحوا محافظين ، ورؤساء مجالس إدارات ، وسفراء ، وكلما ظهر خلل بأي مرفق عُهد به إلى القوات المسلحة ، أو البوليس الحربي ، ويقول الرئيس السادات (٢) : إنه عندما اتضح أن النقل العام أصبح في حالة سيئة ألحق بالقوات المسلحة لإصلاحه ، كما أشرفت القوات المسلحة على الثروة السمكية ، وعلى الكثير من المراكز الحساسة ، ومن المؤكد أن هذه المرافق كانت تزداد سوءاً بالصيانة الجديدة كما كانت العناصر الطيبة بالجيش يحرم منها الجيش ، فلا هي بقيت في مواقعها ، ولا هي أفادت في المواقع الجديدة التي تختلف في طبيعتها عن ثقافة الضباط وكفاءاتهم ، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل .

ويقول مكسيم رودنسون : اتضح أن الجيش جماعة أنانية متلهفة إلى الاستمرار في السلطة ، وإلى زيادة امتيازاتها ، وأنها بعيدة عن الطبقات العاملة ، وغير جديرة أن تهب نفسها لأهدافها ، ويعلق أحد ضباط الجيش على هذا الكلام الخطير بقوله :

التفكير في الطبقات العاملة لم يكن وارداً في ذهن قادة الجيش وتعبير العسكريين عن أهداف هذه الطبقة كان تصوراً بعيداً عن الواقع والحقيقة ، وكان الجيش هو السند الرئيسي للنظام ، وفي سبيل ذلك مُنح ضباطه كثير

(١) أنور السادات : البحث عن الذات ص ١٦٧ - ١٧٥

(٢) البحث عن الذات ص ٢١٠ و ٢١٥

من الامتيازات . فقد تقرر للضباط بدلات جديدة مثل بدل التمثيل ، وارتفعت قيمة بدل السكن وبدل الإقامة في محافظات أسوان والبحر الأحمر . وقنا وسوهاج ، وُمُنَحَ مرتب امتياز للخدمة برياسة الجمهورية ، وزادت العلاوات عدداً وقيمة (١) .

وأصبح الجيش هو المصدر الرئيسي لتوريد الوزراء والمحافظين ورؤساء مجالس الإدارة ، وكلاء الوزارات والسفراء . . . (٢) مع ملاحظة ظاهرة مهمة هي أن معظم الضباط الذين دُفِعَ بهم إلى مناصب السلطة العليا كانوا من ضباط المخابرات العامة أو المخابرات الحربية مثل : على صبرى وكمال رفعت وطلعت خيرى وثروت عكاشة وعبد القادر حاتم وشعراوى جمعة وأمين هويدى وتوفيق عبد الفتاح وعبد المحسن أبو النور ، وقد انعكست هذه النوعية على أسلوبهم فى الحكم فاعتمدوا على السرية والانغلاق والتقارير ولم يفتحوا على الجماهير (٣) .

وفى سنة ١٩٥٦ أى بعد نهاية فترة الانتقال تدفق عدد كبير من ضباط الجيش على الوظائف المدنية ، ويقول الأستاذ أحمد حمروش فى ذلك : صدر قرار من مجلس القيادة بخروج الضباط الأحرار من الجيش بعد فترة الانتقال ، على اعتبار أن ذلك سوف يكون حداً فاصلاً لخروج الضباط للحياة المدنية وكنت واحداً من الذين ضمتهم آخر نشرة صدرت فى يوليو سنة ١٩٥٦ ، ولكن هذه النشرة لم تكن سداً يحول دون تسرب الضباط إلى الحياة المدنية بعد ذلك إذ استمر تدفقهم على الوزارات المختلفة وبخاصة وزارة الخارجية والشركات وذلك تحت ضغط الرغبة فى التخلص من البعض ومكافأة الآخرين (٤) .

(١) أحمد حمروش : مجتمع جمال عبد الناصر ص ١٢٨

(٢) المرجع السابق ص ١٣٩

(٣) المرجع السابق ص ٢٣٣

(٤) شهود أورة يوليو ص ٤٩

وعندما جاءت حرب اليمن اتجهت للأسف - كما يقول أنور السادات إلى أن تصبح عملية انتفاع واستغلال ، وتمادى عبد الحكيم عامر ليثبت أقدامه في جميع المجالات ، فعهد بالمؤسسات المدنية إلى الضباط ، فكان منهم رؤساء هذه المؤسسات ، وكان منهم كذلك رؤساء المدن وجميع المراكز الحساسة في البلد ، حتى الشقق عندما تكون خالية يتدخل الجيش في توزيعها (١) .

وقد وصل حرص الضباط على السلطة إلى نوع من الفوضى أحياناً ، فقد حدث أن اختار بعض الضباط لأنفسهم المناصب التي يريدونها ، وباشروا فيها كل مسؤولياتها دون أن يصدر لهم تعيين بذلك ، ويروى فتحى رضوان أن ضابطين ذهبا إلى وزارة الداخلية وسيطرا على كل كبيرة وصغيرة في الوزارة المذكورة ، وتوليا أكبر السلطات دون أن يقدموا إلى أى إنسان ما يدل على أنهما مكلفان رسمياً بهذا الإشراف الذى ألغى كل اختصاصات الوزير ، وكل صلاحياته ، وقد عرف عبد الناصر ذلك بطريق المصادفة عندما تقدم له الصحفي حلمى سلام يستنجزه أوراقاً معينة من مكتبتهما ، فسأله جمال عبد الناصر عنهما ، فتبين له أنهما وضعا نفسيهما في هذا المنصب دون أى قرار .

ويروى فتحى رضوان قصة مماثلة : هى أن ضابطاً مهندساً ذهب إلى رئيس مجلس الإدارة في شركة مصر الجديدة وذكر أنه مندوب القيادة ليصبح عضواً منتدباً بالشركة ، وعلى الفور هيأت الشركة للضابط المهندس مكتباً مناسباً ، وأقبل على ممارسة عمله ، فأخذ يصدر القرارات ويوقع الأوراق ، وقد اكتشف عبد اللطيف البغدادى ذلك بمحض المصادفة (٢) .

(١) البحث عن الذات ص ٢٠٩ - ٢١٠

(٢) أسرار حكومة يوليو ص ١٢٨ - ١٢٩

وقصة ثالثة عن فوزى الوظائف يرويه فتحي رضوان ترتبط بموقف الحموى صديق عبد الناصر ، وكان هذا ثائراً لأن زملاءه الضباط أصبحوا وزراء وكان فتحي رضوان يضمن عليه بالدرجة الأولى ، وقد وضعوه مشرفاً على الرقابة على الصحف ، ولكن عقب إلغاء الأحكام العرفية توقفت هذه الوظيفة ونقل موفق إلى وزارة الإرشاد ، ويقول فتحي رضوان إننا فكرنا في أن ننشئ له « مصلحة » باسم مصلحة الصحافة فنسزع اختصاصاتها من مصلحة الاستعلامات ؛ ولكن توجسنا خلافاً بين الضباطين موفق الحموى وعبد القادر حاتم ، فاتجهنا إلى تعيين موفق في وظيفة إدارية كبيرة بالوزارة (١) ولكن هذا رفض وشكا لعبد الناصر فأحاله إلى عبد الحكيم عامر ؛ وأحاله عامر إلى أحمد حسنى وزير العدل ليكلم فتحي رضوان ، وقال أحمد حسنى لفتحي رضوان : أنت مجنون ، الناس تجرى وراء سائق عبد الناصر ، وراء العسكرى الذى يقف أمام بيته ، وأنت تغضب زميله وصديقه . . (٢)

العاطلون بالرياسة :

وأصبح القصر الجمهورى كذلك مكانا يحشر فيه عدد من الضباط في وظائف من درجة رئيس وزراء ، ونائب رئيس وزراء ، ومن درجة وزير أو نائب وزير ولم يكن هؤلاء يباشرون عملاً ، وإنما يباشرون سلطات ويقبضون مرتبات وبدلات ، وقد كان بعض هؤلاء شجعاناً فقالوا عن أنفسهم أنهم أصبحوا عاطلين بالرياسة ومن هؤلاء حسين عرفه الذى قاد العصاة التى اعتدت على الدكتور السنهورى (٣) (وقد أورد الأستاذ أحمد حمروش أسماء بعض هؤلاء (٤)) .

امتيازات قضائية للضباط :

صدر القانون رقم ٢٥ (سنة ١٩٦٦) وهو يقضى بجعل الاختصاص

(١) أسرار حكومة يوليو ص ١٩٨

(٢) المرجع السابق ٢٠٠ (٣) شهد ثورة يوليو ص ١٤٣

(٤) انظر صفحات ١٤، ٢٩، ٩٢، ٩٨، ٢٩ من شهد ثورة يوليو

للنيابة والقضاء العسكري في كافة الجرائم التي يرتكبها العسكريون ، إذا ارتبطت بوظائفهم ، وكذلك إذا لم ترتبط بوظائفهم إذا انفردوا بالانهاهم فيها دون أشخاص آخرين من المدنيين وذلك عمل شائن وامتيار لا يليق ، وبخاصة في ميدان العدالة .

استعراض العضلات وتعطيل القرارات :

هذا عنوان آخر نقتبسه من كلمات أنور السادات ، ونقتبس ما تحته من آراء لنين مدى قدرة الضباط على العمل النافع ، يقول أنور السادات (١) : في المجلس المشترك بين مجلس قيادة الثورة ومجلس الوزراء كانت المناقشات تطول وتشعب ... كل واحد من المجتمعين كان يستعرض عضلاته ، وفي أغلب الأحيان كان الخلاف يتسع فلا نصل إلى قرارات ، وهكذا كانت تعطل الأمور . . . ، وقد دعاني هذا الوضع الغريب أن أطلب الكلمة في أحد الاجتماعات وأشير صراحة إلى المناورات المستديمة التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من المؤتمر المشترك ، والتي تعطل العمل مما يستلزم سرعة تغيير هذا الأسلوب المعوق ، والبحث عن أسلوب آخر .

انحرافات وامتيارات مالية :

حرص قادة الثورة من وقت مبكر على أن يحصلوا على امتيازات مالية رفيعة ، فقد تقرر لهم مرتب الوزراء ، وأعلن ذلك في يونيو سنة ١٩٥٣ (٢) فإذا أحيل الواحد منهم إلى المعاش تقرر له الامتيارات التالية :

٥٠٠ جنيه في الشهر .

سيارة خاصة من رئاسة الجمهورية .

خط تليفوني .

حق العلاج المجاني في مستشفيات القوات المسلحة .

جواز سفر دبلوماسي .

وبهذه المبالغ العظيمة ، وبواسطة امتيازات عينية أخرى أصبح بعضهم في عداد أصحاب الملايين بما عنده من تجارات واسعة أو مزارع وحدائق ، وقد صدر قرار جمهورى نشرته الدقائق المصرية يقضى بمنح الضباط الذين اشتركوا في حركة الثورة ليلة قيامها معاش الوزير ، أما زوجة جمال عبد الناصر فقد كان في خلعها بعد وفاة زوجها سبع عشرة سيارة لكل منها سائقان ولما كتب موسى صبرى ينتقد ذلك غضبت وأعادت السيارات إلى الدولة ، ولكن اعتذاراً قدّم لها وأعيدت لها السيارات ، هذا بالإضافة إلى مرتبات عبد الناصر ومخصصاته التي تصرف لها بدون ضرائب ، ويقال أنها تكلف الشعب حوالى مليوناً من الجنيهات في العام^(١) ، وأثار الأستاذ صلاح أبو اسماعيل هذا الموضوع بمجلس الشعب لإيقاف هذا الفيضان الظالم الذى يُغدق على الأثرياء ويحرم الفقراء ، ولكن صوته لم يجد أى صدى ، وهامت فكرته بين خوف الخائفين وأطاع الانتهازيين .

وعند نهاية فترة الانتقال وحلّ مجلس الثورة ، منح كل عضو من أعضاء هذا المجلس وسام الجمهورية الذى يحقق لحامله فوائد كثيرة . ويقول اللواء محمد نجيب^(٢) كلاماً كثيراً عن هذا الموضوع نقتبس منه بضع جمل :

— كانت تصرفات بعض الضباط الذين انطلقوا في أنحاء المجتمع مندوبين للقيادة أو ممثلين لهيئة التحرير قد أساءت إلى الثورة ولوثت ثوبها ببقع سوداء مشينة .
— خسر أحد الضباط على مائدة الميسر عدة مئات من الجنيهات في ليلة واحدة .

— ذهبت لزيارة أحد أعضاء مجلس القيادة في منزله فوجدت فنانا يصنع

(١) أقول للسلطان الدكتور ابراهيم عبه من ٦٣ - ٦٤

(٢) كلمتى للتاريخ من ١١٠ - ١١١

له تمثالا يكلف مئات من الجنيهات، وكنت أعرف أن حالته المالية لا تسمح
بذلك ، فغفته وخرجت غاضبا

— قال لي جمال عبد الناصر مرة في مطلع الثورة إنى أريد أن أعرض
عليك أمراً ناقشته مع بعض الزملاء وهو أن يأخذ كل عضو عشرة آلاف
جنيه، وتأخذ أنت أربعة عشر ألفاً فيكون المجموع ١٣٤ ألف جنيه وقد طلبت
من زكريا أن يحجزهم (هكذا) لنا نقوداً جديدة (ويلاحظ أن هذا المبلغ
الذى يبدو متواضعا الآن كان كبيراً جداً آنذاك بالنسبة لقيمة العملة والنسبة
لسن الضباط) .

— عندما صدر قرار عزلى وذهبوا بي إلى المرح وأزولوني في منزل
السيدة حرم الزعيم مصطفى النحاس رأيت ضباط الحراسة يبدؤون حملة سلب
ونهب ، يرفعون الأثاث وينزعون الستائر ويخلعون مشايات السلام، ويحملون
السجاجيد ، يأخذون الثلاثجات حتى تركوا المنزل خالياً، جدراناً وأرضيات
مقطعة ولما طالبتُ بأثاث منزلى لنضعه بدل الأثاث الذى سُلب
ونهب تكررت المأساة مرة أخرى فوصل أثاث المنزل على دفعات ، علب
النياشين والقلادات فارغة ، صودرت كل الكتب التى كانت بالمنزل ، ولم
يصل أى شئ ثمين من ساعات أو حلى أو سجاجيد (١) .

ويقول محمد أبو نار الذى كان مديراً لمكتب صلاح سالم إن جمال عبد
الناصر حاول جذبى بعيداً عن صلاح سالم وأحضر لى هدية من باندونج
كما أمر بإعطائى نقوداً لإصلاح شقتى (٢) .

ويذكر أنور السادات أن هذا لم يكن مقصوريا على أعضاء مجلس القيادة
بل تعداهم إلى ذويهم ، وهو يقول فى ذلك : لقد لعبت نشوة الحكم برءوس
الحكام فقسموا البلاد إلى مناطق نفوذ لهم ولمن يلتف حولهم من أقارب

(١) كلمتى للتاريخ ص ١٥٠

(٢) شهود ثورة يوليو ص ٢٨٣

وأصدقاء ه . . . وعلى هذا المنوال سارت الأمور في كل اتجاه فليست العبرة بما يفيد البلاد ، بل العبرة بمن سوف يستفيد من أقارب وأصدقاء وأتباع الحكام (١) .

وفي محاكمة شمس الدين بدران وزملائه في قضية محاولة الانقلاب التي كانوا يعدون لها لصالح عبد الحكيم عامر كشفت المحاكمة عن تهريب المشير لكليات من الذهب ، والعجيب أن عبدالناصر دافع عن هذا التصرف ذاكرة أن ذلك كان تصرفاً سياسياً وليس تصرفاً مالياً لأن التهريب قصد به الاستعانة بالمال للدفاع عن مبدأ سياسى (٢) .

ولا شك أن هذا الدفاع معناه بوضوح أن عبد الناصر كان يستيح لنفسه تهريب المال ضماناً للتقلبات السياسية وصيانة للمستقبل إذا ما اضطرت التقلبات أن يبعد عن السلطة ، فإذا كان يبيع ذلك لعامر إبان ثورته عليه فمن المؤكد أن يستبيحه لنفسه .

ولنعد للمشير وأعوانه لننقل عنهم بعض المخازى المالية التي تجاوبت أصدائها رسمياً في قاعات المحاكم مرتبطة بالتعذيب الوحشى لأعضاء مكتب المشير الذى اتهم به شمس الدين بدران وآخرون ، وفقتبس هنا كلمات محامى وزارة الدفاع ونصها :

إن المشير عامر الذى كان وزيراً للحرية ترك خزائنه مفتوحة لشمس بدران وعلى شفيق وأعوانهما يأخذون منها ما شاءوا ، بغير رقيب أو حسيب وكان بعضهم يستعملون طائرة المشير الخاصة في نقل البضائع التي يتجرون فيها ، والمليون جنيه التي وجدت في شقة على شفيق بعد قتله في لندن هي من هذه

(١) البحث عن الذات ص ١٨٣ .

(٢) جلال الدين الهامى : حوار وراء الأسوار ص ١٧٠ و ٢٠٥ - ٢٠٦ .

الأموال . . كما أترى بعض الخبى عليهم ثراء فأحشأ من أموال الدولة (١).

ويقول الاستاذ جلال الدين الحامصى أنه شاهد إحدى الوقائع بنفسه فى لندن إذ رأى مجموعة من أطباق الفضة النادرة التى صودرت بمصر معروضة للبيع فى مزادات لندن (٢).

ويقرر أن عدة صحف نشرت أن مجوهرات الأسرة المالكة ومجوهرات الأثرياء التى صادرتها الدولة كانت تعرض للبيع فى أسواق أوروبا (٣).

وهناك انحرافات مالية رهيبة جاءت عن طريق الموظفين الذين وُضعوا فى مناصب غريبة عليهم ليكونوا أدوات للكسب الزائف الدنىء ، ويرتبط هؤلاء بالمبدأ الذى ساد فى هذا العهد الأسود ، وهو تفضيل أهل الثقة على أهل الكفاءة ، وهو مبدأ نندارسه فيما يلى :

الثقة لا الكفاءة

لايستطيع ملك أورئيس أن يحكم وحده ، ولابدء له من أعوان يشيرون عليه ويحكمون باسمه ، وعلى ولى الأمر أن يحسن اختيار أعوانه فهم امتداد له ، ويقول صلى الله عليه وسلم : من قلَّد رجلاً عملاً على جماعة وهو يجد فى تلك الجماعة من هو أرضى منه ، فقد خان الله ، وخان رسوله ، وخان جماعة المسلمين :

فإذا نرى فى أعوان جمال عبد الناصر ؟

وما المقياس الذى ألتخذ لاختيار هؤلاء ؟

(١) صحيفة الأخبار فى ٥ - ٤ - ١٩٧٩

(٢) حوار وراء الأسوار ص ١٧٢

(٣) المرجع السابق ونفس الصفحة .

لقد وضع هذا العهد أساماً عجيباً لاختيار الأعوان ، ذلك هو الثقة لا الكفاءة ، فاستبعد أهل الخبرة لأنهم لم يكونوا موضع ثقة (١) وأسندت المناصب الحساسة لمن يوثق بهم ولو لم يكونوا ذوى كفاءه لحمل هذا النوع من المسؤوليات ، وغاب الرجل الكفء عن المكان الذى يناسبه ، وحُشد الأتباع فى أدق الأمكنة ، حتى وُجد فى المؤسسات الإسلامية من لا يجيد قراءة الفاتحة ، ووجد فى المناصب الإدارية الكبرى بالجامعات من لم يسبق له أن التحق بالجامعات ، وأسندت أكبر الأعمال فى أعظم مشروع للإصلاح الزراعى لمن لم يدرس الهندسة ولا الزراعة ، وعندما كنت مديراً للمركز الثقافى المصرى بإندونيسيا وهى قطر غير عربى أرسل لى عدد من الموظفين الذين لا يعرفون كلمة واحدة من اللغات الأجنبية ، فكان وجودهم عبئاً على المركز لا عوناً لتيسير شؤنه .

وكان السلك الدبلوماسى من أهم الوظائف التى اهتم بها ولاية الأمور ، فاختاروا لهذا السلك أنصارهم حتى لا يذيع هؤلاء بالخارج مخازى العهد ، فازدحت وزارة الخارجية بهم ، وكان هؤلاء وسائل لذوى النفوذ ، يتاجرون باسمهم ، ويستوردون لهم مطالبهم .

وقد نشرت صحيفة أخبار اليوم فى ٢٣/٣/٧٤ صفحة كاملة عن هذه المخازى فقد اشتغل هؤلاء تجاراً ، وعاشوا لأنفسهم ولم يتذكروا بلادهم ، بل عرضوها للمآسى ، وتقول الصحيفة إنه عندما ألغيت أوراق النقد المصرى ذات الخمسين جنيها وذات المائة جنية ، اتجه هؤلاء الدبلوماسيون لشراء هذه الأوراق بأرخص الأسعار ، وتوافدوا على مصر ليستبدلوا بها عملات لم يشملها الإلغاء من البنوك المصرية فى المدة المقررة ، وقد وصل إلى القاهرة منهم خلال هذه المدة القصيرة ٧٥٪ من تعدادهم ، وضبطت

(١) انظر هيكل : بصراحة عن عبد الناصر ص ١٨٧

حقائب بعضهم وبها عشرات الآلاف من الجنيهات ، ولكن سرعان ما صدرت الأوامر بتسليمهم الحقائب بما فيها ، وكأن شيئاً لم يكن .

وحكاية أخرى : كان هناك إصرار من مراكز القوى على الاحتفاظ لأعوانهم بمناصب معينة في سفارتنا في عاصمة إحدى الدول ، وكانت حركة التقلات والتعيينات الخاصة بهذه السفارة تصدر من مكاتب مراكز القوى ، وترسل إلى وزارة الخارجية للاعتماد والتنفيذ .

وفي سنة ١٩٧٠ اكتشفت سلطات الأمن المصرية السر وراء إصرار مراكز القوى على إرسال رجالها إلى هذه السفارة بالذات ، إذ اتضح أن الذهب يباع في البلد الذي به هذه السفارة بأسعار خيالية ، وأن رجال سفارتنا يهربون الذهب من مصر ويبيعونه في تلك الدولة ، ويحققون بذلك أرباحاً طائلة ، وفي سجلات إدارة مكافحة التهريب بمديرية أمن القاهرة ، وفي ملفات البوليس الحربى ما يثبت إلقاء القبض على موظف صغير قبل دقائق معدودة من إقلاع طائرته إلى عاصمة هذه الدولة ، إذ كان يحمل حقيبة بها ٥٠ كيلو جراماً من سبائك الذهب عيار ٢٤ .

واعترف الموظف بكل شيء : إنه مجرد (شغال) ، مجرد وسيط بين مراكز القوى في القاهرة التي تمول وبين أعوانها في السفارة الذين يتولون « التسويق » وهو - أى الموظف - لا يعرف محتويات الحقائب التي يرافقها من القاهرة إلى الجهة التي يحمل بها . فهذا هو عمله الوحيد ، وسيط أبكم أصم أعمى .

ونتيجة لهذه الفئات الفاشلة التي ألحقت بالخارجية وبالوظائف الدبلوماسية دون كفاءات ، وجد بالخارج ممثلون لمصر كانوا لا يعرفون لغة أجنبية ، واضطروا أن يعيشوا متقوقعين لا يتصلون بأحد ، وقد وصل بعضهم إلى درجة السفراء ، ولكنهم كانوا لا يعرفون عن هذا المنصب

إلا مزاياء المادية ، بل العجيب أن بعض السفراء وضع في أخطر السفارات ، لا لشيء إلا لإبعاده عن مصر ، حتى وُجد خليط لا يربطه رابط إلا الجهل والمرارة ؛ وكانت بلادنا ضحية هذا العبث المشين . ضحية مبدأ الاعتماد على الثقة وإهمال الكفاءة .

صورة لنائب الرئيس في ذلك العهد :

وفي الحديث عن الثقة والكفاءة نقفز إلى قمة من قمم الحكم في العهد الماضي ، إلى واحد من أكبر أعوان رئيس الجمهورية هو نائبه « على صبرى » وقد شاهدنا هذا النائب يسافر إلى الخارج ويعود بطائرة خاصة تحمل ما عظم قدره وغلا ثمنه ، وكانت هناك سيارات ضخمة تنتظره في المطار لتحمل هذه الثروة الهائلة وأدوات البذخ إلى قصره المنيف ، ولكن الستار كُشِفَ عن هذا التصرف ، فنشرت جريدة الأهرام أن الدولة وضعت يدها على كل هذه الأشياء ، ووصفت الصحيفة هذه المصادرة بأنها « ظاهرة صحفية » ولكن نائب رئيس الجمهورية ظل في جبروته وسلطانه ، حتى لقد ائتمر بعد وفاة الرئيس ، ليجمع في يده كل القوى والنفوذ . ويقف الإنسان حائراً ؛ هل كان هذا الرجل موضع ثقة وجديراً بها ؟ أو أنه قد انحرف وينبغي أن يعاقب ؟ ولكننا لا نجد جواباً شافياً ، فالمصادرة تتم ، والصحف تهاجم وتغمز ، ولكن الرجل يبقى في نفوذه ، بل يحاول أن يزحف ليضم نفوذاً جديداً .

المشير والذهب :

بل نقفز إلى الشخص الثاني في الدولة ، إلى المشير عبد الحكيم عامر الذى كان نائباً أول لرئيس الجمهورية ، ونائباً للقائد الأعلى للقوات المسلحة ، وكان يحرص إذا ذكر اسمه في الإذاعة أو الصحافة أن يُتَّبَعَ بهذه الألقاب ، ولن نتحدث عنه في ظرف من الظروف العادية ، بل

سنقصّر كلامنا على فجيعة مرة حدثت في أحلك الأوقات ؛ في اليوم السابع من يونيو الحزين ، وقد نشرت جريدة الأخبار مقالا طويلا للأستاذ موسى صبرى تعليقاً على المحاكمات التي أجريت في مطلع عام ١٩٦٨ بسبب تجمع أعوان المشير حوله في مؤامرة تستهدف استعادة السلطان له ولهم ؛ وكان دستورهم « لا ناصر بدون عامر » وفي هذه المحاكمات كُشِفَ القناع عن شناعة كبرى لا يغفرها التاريخ بحال من الأحوال ؛ ففي خلال الانسحاب المشؤم الذي تم بشكل غير منظم ، والذي قضى على كثير من رجال الجيش بأن يتساقطوا دون مقاومة ، وأن تزهق أرواح الآلاف منهم ويقع في الأسر عدد كبير من الجنود والضباط ، ويهيم المئات ضالين في سيناء ، في نفس هذا الوقت كان كبار قادة الجيش يحفرون أرض الحداثق ليُخَفُّوا حقائب مليئة بالذهب والعملات الأجنبية ، يا لله !! لقد باعوا بلادهم رخيصة ، وبلغت الأنانية مداها عندهم ، ولكن الله أنقذ البلاد ، وأوقع بهم .

ولا يمكن أن تمر هذه الحادثة المريرة دون أن نقبس بعض كلمات للأستاذ موسى صبرى مما نشره بجريدة الأخبار يوم ٧-٢-١٩٦٨ مع تعليق بسيط ، هو أن هذه المحاكمة لم تكن لتتم ، وهذه الأسرار لم تكن لتذاع ، لولا أن هذا النفر بقيادة المشير كانوا قد وضعوا خطة للاستيلاء على الحكم ، ومن هنا قدّموا للمحاكمة .

وعن هذه المحاكمة يقول الأستاذ موسى صبرى :

إنها تكتب فصلا حزيناً من أيام تاريخنا ، تاريخنا الذي كنا نجهل الكثير من أسرارهِ حتى جاءت هذه القضية لتغلطنا بأعلى صوت : أفيقوا أيها الجماهير ، وتنبهوا ، واسمعوا بكل الانتذان ، كيف كان نفر من قادتكُم يحكمون مصركم .

ويستمر موسى صبرى فيسأل : ماذا قال عباس رضوان ؟

قال عباس رضوان إن صلاح نصر سلمنى حقيبتين بهما ٦٠ ألف جنيه لأحفظهما فى مكان أمين ، ثم علمت أن هذا المبلغ يخص المشير ، لأن المشير قال لى بعد ذلك : « أنا كنت طلبت من صلاح تدبير حاجة .. » ويقول عباس رضوان لى سأل صلاح نصر عن هذه الحاجة ، فقال لى : إنها المبلغ الذى أعطيته لك . .

ومتى حدث هذا ؟ . .

يوم ٧ يونيو ١٩٦٧ .

يوم النكسة ، أسود الأيام ، ساعات استشهد آلاف الأبطال من رجالنا ، يوم النفوس المحطمة فى كل بيت وكوخ وشارع وزقاق ، يوم وصول الأعداء إلى ضفة القنال .

هل كنتُ أستطيع أن أغالب الدمع وأنا أفكر فى قائد الجيش الذى تنبه وسط الحطام والأنقاض ليطلب من صلاح نصر تدبير مبلغ ؟ . فبعد له هذا على الفور ستين ألفاً من الجنيهات ويعد لها نجباً أميناً ، وينتقل عباس رضوان فى سيارته ومعه (الأمانة) ، ليسترها تحت التراب فى حديقة منزل القرية .

وماذا قال أيضاً عباس رضوان ؟ . .

قال : المشير عامر قال لى .. فيه حاجة عاوز أشيلها عندك يا عباس .

— حاضر يا أفندم . .

— هاتها يا طنطاوى . .

ويحضرها طنطاوى على الفور . . وطنطاوى هذا هو السكيتير

العسكري للمشير الذى صحبه إلى منزله ، وكان يقيم به مستمراً فى أداء
وظيفته حتى بعد رفع كل السلطات من المشير . ويتسلمها عباس رضوان ،
ويحتفظ بها فى منزله .

وما هى ؟ ..

حقيبة بها خمسة أكياس .. وكل كيس به ألف من الجنيهات الذهبية ،
خمسـة آلاف جنيه من الذهب ، أى خمسون ألف جنيه من العملة المصرية .

وأين كانت ؟ ..

كانت فى مكتب المشير . ثم انتقلت من مكتبه إلى منزله .

ومتى ؟ ..

وقت أن كان المشير غاضباً من أجل الديمقراطية .. : الديمقراطية
أكياس الذهب .

وقت أن كان المشير يتصل بعدد من الضباط ، ويعقد الاجتماعات السرية
فى حجرة نومه ، وفيلا الدق ، وشقة الشربتلى ، ويدرس الخرائط ويحدد
العمليات .. من أجل ماذا ؟ .. ليعود إلى الجيش ويستولى على الحكم
ويُهْدَى أحكام البراءة لكل المسئولين عن الكارثة ..

* * *

وماذا قال أيضاً عباس رضوان ؟ ..

قال : فى يوم القبض على الضباط المختصين فى منزل المشير .. سلمنى
جلال هريدى مبلغ ٩٠٠ جنيه وقال لى : دول بتوع المشير و ٦٠٠ جنيه

بتوعه هو . . وشمس بدران سلم لى مظروفاً فيه عملة أجنبية . . وصندوقاً به عملة أجنبية أيضاً . .

ويقول رئيس المحكمة إن شمس بدران قرر أن العملات الأجنبية كانت ألى جنيه إسترليني و ٨ آلاف دولار . .

نعم آلاف العملات الأجنبية يحتفظ بها أشخاص كانوا فى موضع المسئولية . . ومصانع الكادحين العارفين محتاج إلى قطع الغيار . ونداءات الكتّاب تطالب بربط الأحزمة على البطون لأن البلاد فى حاجة إلى كل ملهم من العملة الصعبة لزيادة الإنتاج .

ومتى كان المتهمون يحتفظون بهذه الآلاف ؟ . . كان ذلك وهم يجتمعون ساخطين غاضبين : من أجل الديمقراطية ؟ . . الديمقراطية فى توزيع أسلاب العملات الصعبة على من كان ييدهم كثير من سلطات الحكم .

من منا يستطيع أن يقوى على عينه فلا تذرف الدمع الحزين على هذا البلاء .. ؟ ؟

هذا ما ظهر .. وما خفى لا بد أنه أعظم ؟ ..

والعجيب أن الأستاذ موسى صبرى مسه الضرر بسبب هذا المقال لأنه كشف بعض أسرار الماضى ، فأبعد عن الكتابة ردىاً من الزمن ، لأنه كشف القناع عن جماعات كان يجب أن تظل مسدولة القناع ، ولأن كشف القناع عن هذه القمم يضع مؤشرات تهز كيان الحاكين جميعاً .

الاستيلاء على أكياس الذهب باليمن :

واحتجزت العناصر الفاسدة من الضباط بعض أكياس الذهب باليمن ، تلك الأكياس التى كانت توزّع على القبائل لتؤيد مصر ، ونحن هنا نعانى

الحاجة والحرمان ، ويقول محمد حسين هيكل وهو شاهد عيان عن هذه القيادات المنحرفة : لقد تسببت بعض القيادات العسكرية باليمن ، وبدأت تستفيد من الحرب هناك^(١) ، وسنورد تفاصيل هذا الموضوع عن اليمن . ضمن حوادث سنة ١٩٦٢ .

الاستيلاء على جواهر القصور

وأُسند إلى الضباط المقرَّبين جَرَد القصور الملكية التي صودرت وبُيِّع محتوياتها .. وامتدت الأيدي فسلبت ما استطاعت الحصول عليه من تحف هذه القصور وجواهرها ، ويقول الأستاذ سعيد سنبل في ذلك ما يلي :

« عندما قامت الثورة الفرنسية احتفظت بقصور الملوك والأمراء والنبلاء ، واحتفظت بكل ما تحويه هذه القصور من كنوز ، ومن تراث تاريخي لا يقدر بثمن ، واهتم الشعب الفرنسي بحماية القصور ، فلم يهدمها انتقاماً من الملوك الذين ظلموه ، ولم ينهبها ، ولم يبددها ، وإنما حولها إلى متاحف تحكي تاريخ فرنسا ... »

« وتحولت هذه المتاحف بدورها إلى مصدر دخل للشعب الفرنسي ، لا ينضب ولا ينقطع .. ففي كل يوم يتوجه الألوف من زوار باريس إلى هذه القصور لزيارتها ومشاهدة ما في داخلها .. ويدفع الزوار في كل يوم ألوف الجنيهات ثمناً لهذه الزيارات .. تدخل جيب الشعب الفرنسي .. »

« وعندما قامت الثورة في ٢٣ يوليو .. وأطاحت بالملكية ، وصادرت أموالها .. كان المفروض أن تحتفظ بالقصور الملكية ، وأن تحتفظ بقصور الأمراء والنبلاء ، وأن تحولها إلى متاحف تحكي تاريخ مصر ، وأن تجعل منها مصدر دخل للشعب لا ينضب ولا ينقطع ، كما فعل غيرنا من الدول . ولكننا للأسف لم نفعل ذلك ؛ بددنا هذه الثروة ، وألقينا بها في التراب . »

(١) بمراحة عن عبد الناصر ص ١٠٢ .

« بيعت محتويات القصور بأبخس الأثمان والأسعار ، واختفت من هذه القصور أندر التحف والقطع الفنية التى صنعها أكبر المثالين والرسامين والفنانين تلك التى لا تقدر بثمن . . فنهبت ، وهربت إلى الخارج فى ظل قوانين الحراسة والمصادرة » (١) .

ونرجو أن يجيء اليوم الذى نعرف فيه أين اختفت جواهر الأسرة المالكة ومحتويات القصور المصادرة ، والقصور التى فرضت عليها الحراسة .

ولاشك أن مثل هذا الانحراف كان له أسوأ العواقب على جيشنا وعلى المعارك التى خاضها ، فالتطلع إلى مباحج الحياة والرغبة فى الانغماس فيها ، كل ذلك يتنافى مع التضحية التى هى الأساس الأول لانتصار الجيش ونحن نتذكر الحكمة التى تقول « اطلب الموت توهب لك الحياة » ، ولكن هؤلاء طلبوا متع الحياة ، فقضوا بالموت على كثير من الشباب الأبرياء .

وبعد ، يتحدث بعض الناس عن فقر مصر ، وأنا أعجب كيف استطاع اقتصاد مصر أن يتحمل هذه السرقات ، وتلك الانحرافات الباهظة ، ولا أعتقد أن دولة أخرى تستطيع أن تعيش وهى تخسر مئآت الملايين فى الحروب المتعددة ، ومئآت الملايين فى الأطلاع باليمن والكونغو . . ومئآت الملايين فى المشروعات الفاشلة ، ومئآت الملايين فى وحدة أساس ، ومئآت الملايين بنهبها الناهبون ، ومئآت الملايين فى إقامة مصانع تلف قبل أن تُشاد ، ولا يعرف لها إنتاج .

كيف استطاعت مصر أن تعيش مع كل هذا ، ومع ما هو أكثر من هذا ؟

الإجابة : أنه عون الله الذى حمى هذا البلد الأمين من الانهيار .

(١) أخبار اليوم فى ١٩٧٥/٦/٢١ بتصرف .

خوفهم من الديمقراطية :

بعد هذه الجولة عن الانحرافات المالية نتجة إلى صفة أخرى كانت بارزة عند هؤلاء الذين حكمونا، وهى خوفهم من الديمقراطية ، ويقول محمد نجيب : إن قرارات ٥ مارس سنة ١٩٥٤ التى قضت بإلغاء الرقابة على الصحف وإلغاء الأحكام العرفية ، والعمل على إقامة برلمان يمثل الأمة تمثيلاً صحيحاً . . . هذه القرارات الديمقراطية أدت الى توافر قدر كبير من الحرية استغلته بعض الصحف مثل « الجمهور المصرى » فى مهاجمة سلوك ضباط البوليس الحربى وهذا بذور الخوف فى نفوس الضباط ، وجعلهم يعتقدون أن العودة للديمقراطية تعنى الأضرار بهم ومحاسبتهم على أخطائهم (١) :

ويعترف إبراهيم الطحاوى بنفس النتيجة ، فهو يذكر أن حسين الشافعى حضر له ليبلغه أن مجلس الثورة قرر الانسحاب والعودة للشركات ، فاعترض إبراهيم الطحاوى على ذلك وقال : إن الانسحاب معناه دخول السجن . ولذلك يقول الطحاوى إنه قرر المقاومة فى وقت كانت الجماهير تهتف : إلى السجن يا جمال . إلى السجن يا صلاح . لا ثورة بلا نجيب (٢) :

ويروى الأستاذ صلاح الشاهد صورة من صور معارضة العسكريين للديمقراطية فيقول : فى ليلة من ليالى رمضان عقد مجلس الوزراء جلسة واستدانعقادها إلى بعد منتصف الليل ؛ ثم خرج جمال سالم وكان نائباً لرئيس مجلس الوزراء ، وقابله الصحفيون وسأله أحدهم عن حقيقة ما أشيع حول ترشيحه لرياسة المجلس النيابى المزمع انتخابه ، فصرخ فيه جمال سالم قائلاً :

هل تظن أن هذا الشعب يحكم حكماً ديمقراطياً ؟ يجب أن يحكم بالحديد والنار . فقال له أحد الصحفيين : ولكن الرئيس جمال عبد الناصر صرح

(١) جهود ثورة يوليو ص ٤٤٢ . (٢) المرجع السابق : ص ١٢

في خطاب له بأن الانتخابات على الأبواب ، وأن المجلس النيابي سوف يعقد قريباً .

فثار جمال سالم وقال : هذا كلام فارغ ، لا لمجلس نيابي ولا حاجة أبداً . ويستمر صلاح الشاهد في ذكر بعض التفاصيل عن هذه القصة فيقول إن الصحفيين دهشوا لهذا التناقض ؛ وأظهروا دهشهم لجمال سالم ، وكان رده على ذلك أن أقسم بأنهم لن يغادروا الرئاسة قبل طلوع الشمس ، وجلس هو معهم حتى بزغت الشمس ، وصام من صام منهم دون تناول السحور (١) .

ويذكر محمد نجيب السبب في بعد الضباط عن الديمقراطية بقوله : يبدو أن قدرة العسكريين على استيعاب المعاني السامية للديمقراطية أمر شديد الصعوبة نتيجة لطبيعة حياتهم داخل الجيش ، حيث تنفذ الأوامر بلا تردد ، ولا مجال للشورى وتبادل الرأي ، ومثل هذه الحياة قد تكون طبيعية في الجيش ، لأن الانضباط أساس القتال ، ولكن السياسة أمر يختلف عن ذلك تماماً ، فهي يجب أن تكون تفاعلاً حياً وفهماً لآراء الجماهير ومعتقداتها (٢) .

سوء العلاقة بين بعضهم والبعض :

يقول محمد رياض : إنه عندما كان يعمل (ياور) محمد نجيب اتصل به بعض الضباط ليكون جاسوساً على محمد نجيب ، ويقول محمد رياض أنه رفض ذلك (٣) .

وكان مجدى حسنين يعمل مديراً لمكتب محمد نجيب ؛ ومع هذا فقد

(١) ذكرياتي في عهدي : ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٢) كلمتي للتاريخ ص ١٦٠ .

(٣) كلماته في ثورة يوليو ص ٤٠٣ .

كان هو المحرك للمظاهرات التي حدثت في ٩ مارس سنة ١٩٥٤ ، وكان بيده مكبر للصوت يصدر به أوامره للمتظاهرين بالحماس للهتاف ضد محمد نجيب ، وقد حاول المتظاهرون الاندفاع إلى مكتب محمد نجيب ، فوقف بعض حراسه أمامهم ، ومنهم الضابط البحري لطفى السيد ولـسكن أحد ضباط الشرطة العسكرية وهو خال لطفى السيد تقدم منه وصفعه على وجهه وهدده بالقتل ، ومن أجل هذا لجأ لطفى السيد إلى الملك سعود طالباً أن يكون في حمايته ، وقال الملك : سوف آخذه معي إلى السعودية فأنا ملك عربي لا أتخلى عن طلب حمايتي (١) ٥

وكان محمد نجيب يحاول أيضاً أن يتجسس على أعضاء مجلس قيادة الثورة فإن الضابط محمد توفيق عبد الفتاح يذكر أنه وهو يعمل في مكتب محمد نجيب مع حافظ إسماعيل ، طلب منه محمد نجيب أن يراقب الآخرين مراقبة سياسية (٢) .

وعند عودة عبد الناصر من باندونج رأى عبد الحكيم عامر ، وذكريا محي الدين ، وكمال رفعت ، وأحمد لطفى واكد أن يدفعوا الشعب لاستقبال العائد استقبالا شعبياً ، ولكن جمال سالم الذى كان يقوم بأعمال رئيس الجمهورية رفض ذلك ، ولكن الأولين أصروا على موقفهم ونفذوه (٣) .

وقد وصلت سوء العلاقة إلى قمتها عندما هاجم صلاح سالم أعضاء مجلس الثورة ، واتهمهم بالخيانة ، وأنه يجب محاكمتهم ، وأخذ بتهمهم على البعض ثم صرخ : « تنازلوا عن السلطة ، وجيبوا هيئة تأسيسية لتحكم البلد » (٤) .

(١) صلاح الشاهد : ذكريات في عهدى ص ٢٨٠ .

(٢) شهود ثورة يوليو ص ٣٦٤ .

(٣) - شهود ثورة يوليو ص ٧٤

(٤) مذكرات عبد الطيف البغدادي ص ٢٩١

ويضع محمد نجيب أقصى تعبير عن سوء العلاقة بينه وبين ناصر وعامر
عندما يقول : « لم أعد أستطيع النظر في وجه جمال وعبد الحكيم . . .
كنت أرى على وجهيهما قناع إبليس ، ومن أيديهما تقطر الدماء » (١) .

أما ألوان الصراع والتلاحم بالأيدي ، واعتقالات الضباط بعضهم
لبعض والتعذيب الذي قام به بعضهم ضد البعض ، وتدابير القتل التي
نظمت شباكها من بعضهم ضد البعض الآخر . . . فلنا معها حديث آخر
فيما بعد تحت عنوان « الثورة تأكل نفسها » .

وسنكون كعادتنا مقتبسين من كلامهم ليكون كل منهم حجة صدق
على الآخرين .

وهكذا كان عدمُ التعاون ، وكانت الشكوك والصراع والمؤامرات
وسائل استنفدت جهود الثوار ، فلم تتحقق للبلاذ مصلحة ولا قُضي
لها مطلب .

عزلة بين قادة الثورة وبين الجيش والشعب :

إن قادة الثورة يعترفون بوضوح بأنه كانت هناك هوة ساحقة بينهم
وبين الشعب ، وأن هوة ساحقة أخرى قامت بينهم وبين الجيش ، وأن
المظاهر الكاذبة لم تُخَفِ هذه الهوة . ويقرر الكاتبان الروسيان بيلياف
وبريماكوف أن الطبقة المتوسطة لم تحاشد خلف القادة ، ولم تلتف بهم ،
وكان ذلك واضحاً حتى بعد أعوام كثيرة من وقوع الانقلاب (٢)

وقد اعترف جمال عبد الناصر بهذه النتيجة اعترافاً واضحاً حين قال :
إن هذه الثورة ليست لها قاعدة شعبية تعتمد عليها ، وليس لها من يؤيدها

(١) كلفتى للتاريخ ص ١٤٤

(٢) مصر في عهد عبد الناصر ص ٣٣ - ٣٤

لا من الشعب ولا من الجيش ، وإن الذين قاموا بها تسعون ضابطاً فقط ،
ولهم في تناقص حتى أصبح عددهم خمسين ضابطاً لا غير (١) .
ويقول محمد نجيب : كانت تصرفات أعضاء المجلس تحاصرهم في عزلة
من الضباط ومن الشعب ، وقد أسدلت ممارسة السلطة عليهم ستاراً
لا يشهدون معه إلا عواطف الانتهازين والمتقربين (٢) .

ونعود إلى عبد اللطيف البغدادي الذي يقول إنه اتصل بعبد الحكيم
عامر وبطلعه مالمسه وسمعه من ضباط القوات الجوية وخلاصته أنهم فقدوا
الثقة في قيادتهم نتيجة للأخطاء التي حدثت (٣) .

والعجيب أن قادة الثورة بعد أن أدركوا بُعد الشعب والجيش عنهم
وبخاصة في مارس سنة ١٩٤٥ لم يتخلوا عن الحكم ، بل قرروا أن يعودوا
للكينات ليقوموا بثورة أخرى كما قال حسين الشافعي لإبراهيم الطحاوي
في اللقاء الذي أشرنا له آنفاً . ونفس الجملة تقريباً قالها عبد الناصر في
التلفزيون المصري وسمعتها منه مع الملايين الذين سمعوها ، وكانت قوله
تهديداً لا اعتراض على اقتراح تقدم هو به ولم يُقبل هذا الاقتراح ، فصرخ
في السامعين : « سألبس الكاكي وأعود لكم بثورة أخرى أنفذها ما أريد » .

ويثبت عبد اللطيف البغدادي هذا التهديد فيروى أن عبد الناصر تقدم
مرة باقتراح إلى مجلس قيادة الثورة يقضي بطرد أفراد أسرة محمد علي خارج
البلاد وبمحاكمة الطلبة والأخوان المسلمين أمام محكمة عسكرية ، واتجه محمد
نجيب إلى تأجيل الاجتماع ريثما تهدأ النفوس ثم يُدْرَس هذا الاقتراح بعيداً
عن الانفعال ، ولكن عبد الناصر طالب بإعفائه من عضوية المجلس ، وأعلن

(١) مذكرات عبد اللطيف البغدادي ص ١٧٢

(٢) كلمتي للتاريخ ص ١١٧

(٣) مذكرات عبد اللطيف البغدادي ص ٣٦٠

أنه سيجتفى ويعمل بصورة سرية ثم يظهر في يوم من الأيام ويقوم بثورة جديدة (١) .

وقد عبّر سليمان حافظ عن مدى الكراهية بين الشعب وبين قادة الثورة بقوله لعبد اللطيف البغدادى عقب الاعتداء الثلاثى : أنا أقول لكم الحقيقة والناس لاتصارعكم بها ، وهى أن جمال مكروه وغير محبوب ، فسأله عبد الحكيم عامر : وكيف تفسر نتيجة الاستفتاءات التى تثبت عكس ما تقول ؟ غرد سليمان حافظ : إننا نعلم جميعاً كيف تجرى مثل هذه الأمور ، وبخاصة إذا كان الشخص المستفتى عليه يتولى زمام الحكم فى البلاد . (٢)

ويعترف الكاتبان الروسيان بيليايف وبريماكوف بأن عبد الناصر وقادة الثورة الآخرين سرعان ما واجهوا الخوف من جماهير الشعب ؛ من العمال والفلاحين الذين قال أولئك القادة من قبل إنهم يفكرون بهم (٣) .

مجتمع حقد :

ونختتم حديثنا الإجمالى عن قادة الثورة بمقتبسات من كلمات أنور السادات صوّر فيها المجتمع الذى خلقه الثوار ، بأنه مجتمع حقد ، وفيما يلى كلماته :

« فى الثمانية عشر عاماً السابقة على رئاستى للجمهورية ، حاولوا أن يجعلوا من مصر مجتمع حقد . . . ومن نتائج مجتمع الحقد هذا وُجدت حالة الضياع عند الشباب فى مصر لأن المجتمع كان خالياً من أى قيم . وأنا شخصياً عندما دخلت مجلس قيادة الثورة ، شعرت أن هناك خللاً فى

(١) مذكرات عبد اللطيف البغدادى ص ١٣٨

(٢) المرجع السابق ص ٣٧٤

(٣) مصر فى عهد عبد الناصر ص ٢٨٣

توازنى الداخلى ، وأنى فى الطريق إلى أن أفقد سلامى الروحى . (١)

وفى جو الحقد والصراع الذى سيطر بشكل واضح على مجلس قيادة الثورة انصرف الاهتمام عن مصالح الشعب ، بل أصبح الإنسان المصرى ضحية هذا الحقد فكان يؤخذ بجرم غيره ، أو بدون جرم على الإطلاق . وكانت الإشاعات وحدها كافية للقضاء على أى إنسان ، وكان يساند هذا الجو الرهيب اعتقاد القادة بأن لهم الحق فى أن يفرضوا على البلد ما يشاءون .

تلك كلمة عن قادة الثورة أبرزنا فيها ثقافتهم وصفاتهم وانتقل بعد ذلك خطوة لتحدث عن صراعاتهم ضد بعضهم البعض ، ذلك الصراع الذى وصل إلى التشابك بالأيدى وتدبير المؤامرات ، وعندما تنتهى من هذه المرحلة نخطو لمرحلة أخرى نتحدث فيها عن كل واحد منهم على حدة ، ولعل كل هذه الخطوات توضح صورة هؤلاء القادة الذين سيطروا على مصر فى أدق مرحلة من مراحل تاريخها ؛ وبالتالي تبرز الأسباب التى حملت لمصر الهزائم والتخلف عن ركب المجتمع العالمى الذى يسير إلى الأمام .

الثورة تاكل نفسها

إن الذى يسجل حياة ثورة ٢٣ يوليو يرى بوضوح أن ما أنزله الضباط بعضهم ببعض أقسى مما أنزله الضباط بالشعب ، لقد كان كل منهم يعيش فى قلق ، ويصارع سرّاً أو جهراً للبقاء ولو على حساب الآخرين وسرى ذلك من كلامهم فيما بعد ، ولكن الذى نسرع فنقرره حرصاً على الاجيال القادمة أن من واجب المواطنين أن يحرموا على تجنب البلاد حكم العسكريين ، ففى حكمهم دمار للعسكريين ، وللمدنيين ، وللبلاد .

وفى الحديث عن هذا الموضوع نذكر أن هذا العنوان الذى وضعناه أعلى هذه الكلمات ليس من صنعنا ، وإنما هو تقريباً من كلمات الرئيس محمد نجيب ، فهو يقول : إنه منذ وقت مبكر أصبحنا كما يقول المثل البلدى « مثل السمك تأكل بعضنا » (١) ويقول اللواء حسنى عبد المجيد : إننى رأيت الأخ يطعن أخاه فأثرت البعد عن هذه الخلافات ، (٢) . . .

والذى يتتبع الثورة وهى تأكل نفسها يرى صوراً تقشعر لها أبدان من خيانات الأصدقاء ، ومن الصراع بين الجبهات المتعددة ، ويرى التلاحم بالإيدى ، ويرى المؤامرات والانقلابات ، ويرى الاعتقالات الجائرة ، بل يرى أحياناً اعتقالاً يقوم به ضابط أو ضابطان دون أوامر من السلطات العليا ، ويرى عزل الضباط وضربهم وتعذيبهم إلى درجة الموت أحياناً ، ويرى التهديد بالقتل والاغتيال . . .

كل هذا يراه من عاش مع المراجع التى كتبها الضباط أنفسهم ،

(١) كلفتى للتاريخ ص ٥٩ .

(٢) تهود ثورة يوليو ص ١٢٨ .

وهي نتيجة تخفف أسى المدنيين ، فإن ما أنزله الضباط بعضهم ببعض لم يكن أقل مما أنزله الضباط بالمدنيين ، كما قلنا آنفاً .

وسنقتبس فيما يلي صوراً قليلة مما لدينا حول هذا الموضوع :

بدأ الحقد بين جماعات الثوار مبكراً جداً ، ويحدثنا أنور السادات عن ذلك بقوله : « إن مواجهتي للأحداث من مطلع الثورة تسببت في خلق حساسيات كثيرة بيني وبين الزملاء في مجلس قيادة الثورة ، ولم أتنبه إلى هذه الحساسيات في بادئ الأمر ، ولكنني بعد ذلك عانيت الكثير منها » (١) .

ومن الحساسيات ننتقل إلى التجسس وخيانات الأصدقاء ، وقد شاع ذلك شيوعاً كبيراً ، ويقول حسنى عبد المجيد : إن حمدى عاشور وهو زميل في التخرج طلب منى التجسس على اثنين من زملاء الدفعة هما أحمد حمروش ومحمود الغراب ، وكان الأول قد اعتُقل مدة خمسين يوماً في يناير سنة ١٩٥٣ ، وعُرف بأنه يسارى ، والثانى كان معروفاً بأنه من الإخوان المسلمين (٢) .

ومن الخيانات ما يذكره حسنى الدمهورى من أن ضابطين هما فؤاد الشاهد وصنى الدين حسين نقلوا بعض أخباره إلى بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة ، وسُجلت أقوالهما على شريط ليواجه به حسنى الدمهورى عند محاكمته (٣) .

وننتقل من الحساسيات والتجسس إلى الصراع ، وقد بدأ الصراع في مجلس قيادة الثورة — كما يقول أنور السادات — في وقت مبكر جداً ، وفيما

(١) البحث عن الذات ص ١٤٧ .

(٢) شهود ثورة يوليو ص ١٢٨ .

(٣) شهود ثورة يوليو ص ١٢٥ .

بلى كلماته : كان زملائي من أعضاء مجلس قيادة الثورة مجموعة من الضباط الشباب ، كانوا منذ ثلاثة أيام فقط يجلسون إلى مكاتبهم في القاهرة كما يجلس الكثيرون ، وبعد ثلاثة أيام من إعلان الثورة وجدوا أنفسهم ينتقلون فجأة إلى مركز السيادة ، ومن ثم كان الصراع على السلطة . . . وبعد ثلاثة أسابيع من قيام الثورة كانت الصراعات داخل مجلس القيادة قد بلغت حداً يحتم ضم عناصر جديدة ، ومحايده إلى المجلس عسى أن يخفف ذلك من حدة الصراع^(١) .

وكان صلاح سالم شديد الهجوم على محمد نجيب في مطلع الثورة ، وكان هو وأخوه جمال سالم - كما سنرى فيما بعد - أذاه طيبة في يدي جمال عبد الناصر للتخلص من محمد نجيب ، وهاجم صلاح سالم أكثر الأعضاء ، ثم هوجم بعنف داخل المجلس حتى اضطر للاستقالة ، وهوجم خارج المجلس بقسوه من الطحاوى وطعيمة^(٢) :

وقد وصل الصراع إلى التلاحم بالأيدى بين جمال سالم ومجدى حسنين ، وكان جمال سالم قد حاول ضرب أحد الحاضرين في النقاش الذى دار حول مشروع مديرية التحرير^(٣) .

أما الصراع الذى دار بين عبد الناصر وأتباعه من جانب ، وبين المشير ورجاله من جانب آخر ، فقد كان صراعاً مدمراً لكل القيم والآمال ، وقد شمل صوراً من التهديد والأعمال الخلقية ، ومن ذلك ما يرويه حسين عرفة بقوله : إن مبنى المباحث العسكرية قد حوصرت بقوات من البوليس الحزبي تحت قياده القائمقام عبد العزيز سليمان ، فقلت له : لماذا تفعل هذا

(١) البحث عن ائذات ١٥٧ - ١٦١ : بإيجاز

(٢) كلمات محمد أبو بار في شهود ثوره يوليه ص ٢٨٣ :

(٣) كلمات مجدى حسنين في المرجع السابق ص ٣٦٢ :

ونحن نخدم الرئيس جمال عبد الناصر . فأجاب : ونحن ننفذ أوامر المشير عبد الحكيم عامر^(١) ، وكان عبد الناصر يقول عن عامر : إن الطفل المدلل أصبحت له أنياب وأظافر^(٢) :

ولنتقل إلى المؤامرات والانقلابات التي حدثت من بعض الضباط ضد آخرين ، وهي سلسلة متصلة يمكن القول إنها شملت العصر كله ، وسنرى فيما بعد صراع مارس سنة ١٩٥٤ وما دار فيه ، ولكفنا هنا ننقل عن عبد اللطيف البغدادي قوله : لم يكن قد مضى شهر على تسوية الخلاف مع محمد نجيب حتى واجهنا مشكلة أخرى جديدة يوم ٢٧ إبريل سنة ١٩٥٤ ، ففي هذا التاريخ اجتمع بعض من ضباط سلاح الفرسان بمبنى السينا داخل معسكرهم بالعباسية ، وقرروا القيام بانقلاب عسكري على أن يبدأ صباح اليوم التالي ، وقرروا كذلك مهاجمة منزل جمال عبد الناصر ، ومبنى القيادة العسكرية بكوبرى القبة ، وكذلك مبنى قيادة الثورة بالجزيرة ، وقد تم القبض على ستة وعشرين ضابطاً وعلى المدنيين الذين قيل لأنهم يتعاونون معهم^(٣) .

وكان عبد اللطيف البغدادي حريصاً على إدانة مجدى حسنين في قضايا مديرية التحرير ، فأوغز - وهو رئيس مجلس الأمة - إلى وجيه أباظه بجمع توقيعات من نواب الشرقية لإسقاط عضوية مجدى حسنين ، ولما عرف جمال عبد الناصر ذلك قال : إن البغدادي عمل هذا الموضوع (من ورايا) ، وتراجع النواب الذين كانوا قد تكتلوا ضد مجدى حسنين عندما وقف عبد الناصر معه ضد اتجاهات رئيس مجلس الأمة^(٤) وسنرى ذلك مفصلاً فيما بعد .

أما الاعتقالات التي أنزلها الضباط بعضهم ببعض فكبيرة ومتتابعة ،

(١) شهود ثورة يوليو ص ١٤٣

(٢) أحمد حمروش : مجتمع جمال عبد الناصر ص ٢١٤ :

(٣) مذكرات عبد اللطيف البغدادي ص ٢١٨ - ٢١٩

(٤) كلمات أحمد لطفي واكد في شهود ثورة يوليو ص ٧٨ .

وقد بدأت باعتقال رشاد مهنا وضباط المدفعية بعد شهر قليلة من قيام الثورة ، واستمرت الاعتقالات دون توقف حتى سنة ١٩٦٨ عندما جرت الاعتقالات الشهيرة لأعوان عبد الحكيم عامر . وإذا تفاضينا عن هذه الاعتقالات لكثرتها ، فإننا لا نغض الطرف عن اعتقال وحيد في نوعه ، ذلك هو ما يرويه عبد اللطيف البغدادي من أن اليوزباشي كمال رفعت ؛ واليوزباشي حسن التهامي ، قاما من تلقاء أنفسهما بإلقاء القبض على محمد نجيب رئيس الجمهورية ، ونقلاه أسيراً إلى « ميس » سلاح المدفعية (١) .

وكان عزل الضباط عملاً عادياً بذنب أو بدون ذنب . وقد بدأ ذلك مبكراً منذ عمدت الثورة إلى عزل كبار الضباط ؛ ولكن الأمر وصل إلى مدى يثير السخرية ، فقد اقترح جمال سالم التخلص من كل ضابط في الجيش غير موال للثورة ، والإبقاء فقط على الموالين لها حتى لو أصبح عددهم ثلاثمائة ضابط فقط (٢) .

وهناك نموذج يثير الشجن يرويه الضابط آمال المرصني الذي يقول :
لأنه لم يلق القبض عليه في إبريل سنة ١٩٥٤ ، ثم عزل عن الجيش وكان عمره لا يتجاوز ستة وعشرين عاماً (٣) .

فإذا وصلنا إلى الضرب والتعذيب الذي أنزله بعض الضباط ببعضهم الآخر فإننا نشاهد قهقرياً بالغة ، ينفر العقل السليم من حدوثها عند المهزمين وقطاع الطرق ، فما بالك أن تحدث من ضابط ضد ضابط ، وفي هذا المجال يقفز إلى الذهن اسم البكباشي حسني الدمنهوري ، وهو أكبر سنّاً وأقدم رتبة من أكثر أعضاء مجلس قيادة الثورة ، أو قل بوجه الدقة أقدمهم جميعاً إذا استثنينا محمد نجيب ويوسف صديق ، وكان مطلع غضب حسني

(١) مذكرات عبد اللطيف البغدادي ص ١٠٩

(٢) المرجع السابق ص ١٨٢

(٣) كلمات آمال المرصني في شهود ثورة يوليو ص ٨٤ .

الدمهورى كلمة قالها اللواء صلاح حتاته فى اجتماع بسينما هاكستيب ضله الضباط الثائرين على مجلس قيادة الثورة ، إذ قال اللواء صلاح حتاته : « الضابط اللى ما يعجبوش حنضربه بالجزمة » ، وعقب ذلك انسحب حسنى الدمهورى ، وانسحب ضباط اللواء الرابع ، واستدعاه محمد نجيب فى أول يناير سنة ١٩٥٣ لمساءلته عما حدث منه ، وكان يقف جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر خلف محمد نجيب ، فأبدى الدمهورى احتجاجه على وقوف اثنين من الضباط أحدث منه رتبة فى أثناء التحقيق .

ولم يكن حسنى الدمهورى يدرك أن الثورة قد قفزت بهذين الاثنين إلى مكانة تبيح لهما كل شىء ، وقد دفع ثمن ذلك غالياً ، وبخاصة عندما تم اعتقال رشاد مهنا وعدد من ضباط المدفعية فى ١٥ يناير سنة ١٩٥٣ ، واحتج حسنى الدمهورى على ذلك ، ولم يكن قادة الثورة يحملون كلمة الاحتجاج ، وكان عقابه ما يرويه هو عن نفسه قائلاً : فى يوم ١٧ يناير فوجئت بحضور أحمد أنور ومجدى حسنين وأحمد طعيمة وإبراهيم الطحطاوى ومحمد أبو نار إلى منزلى ليلاً بالمدافع الرشاشة حيث اعتقلونى ، وذهبوا بى إلى معسكر قصر النيل حيث وجدت لجنة يرأسها عبد اللطيف البغدادى ، وأعضاؤها : عبد الحكيم عامر وزكريا محيى الدين وصلاح سالم ، ووقف خلفى حرس من كمال رفعت وحسن التهامى ومحمد أبو نار وهم يحملون المسدسات ، وقبل المحاكمة فوجئ حسنى الدمهورى بهم يخلعون علامات الرتبة ، وكأنهم يصندرون الحكم قبل التحقيق ، ويواصل حسنى الدمهورى كلامه فيقول : انطلق صلاح سالم يقذف فى وجهى كلمات قبيحة ، وتبادلنا السباب والاتهامات ، ولكنى تعرضت لضرب شديد قاس من ضباط الحرس الثلاثة الذين ذكرتهم آنفاً ، واستمر الضرب من الرابعة فجراً حتى الرابعة مساءً ، ولم يقدم لى طعام ولا شراب طيلة هذه المدة . . . وقد حكم عليه بالإعدام ، ونقل إلى السجن الحربى مقيد اليدين والرجلين (١) .

(١) شهود ثورة يوليو ص ١٢٥ ، ١٢٦

ويروى محمد نجيب أنه علم من زوجة المرحوم الأميرالاي وصفي مدير الحدود الأسبق أن ابنها الضابط محمد وصفي ضابط مخابرات مطروح قد تعرض للضرب والتعذيب من صلاح سالم الذي ركله برجله في صدره حتى نزف الدم من فمه ، ثم توفي عقب ذلك (١) :

بقي من سلسلة المآسي التي تروى أن الثورة أخذت تأكل نفسها أن نذكر صورا من التهديد بالقتل والاغتيال ، ومن محاولات القتل والاغتيال ، ففي مطلع عام ١٩٥٣ وصلت إلى مجلس قيادة الثورة معلومات عن أن هناك عملية مدبرة لاغتيال أعضاء مجلس قيادة الثورة ، وكان جزاء من اتهموا بذلك أن قبض عليهم ونالوا أشد العقوبات كما يقول محمد نجيب وقد طلب عبد الحكيم عامر من محمد أحمد رياض قائد حرس محمد نجيب أن يسافر إلى أمريكا لأنه مريض ، ورفض محمد أحمد رياض ذاكرة أنه لا يحس بأي مرض ، ولكن محمد نجيب طلب منه السفر لأنه علم أن هناك تفكيراً في اغتياله (٢) .

وفي أثناء أزمة مارس سنة ١٩٥٤ اتفق عدد من ضباط السوارى على توجيه إنذار للقيادة بضربها بنيران الدبابات (٣) .

وهناك مؤامرة قام بها أربعة عشر ضابطاً كانت خططهم تقضي بالاعتداء على أعضاء المجلس في أثناء حضورهم لحفلة في صالة السينا الصيني في حديقة الأزيكية ، وكانت الخطة تنجح أساساً للقضاء على جمال عبد ناصر وزكريا محيي الدين (٤) .

ويروى محمد رياض أنه في أثناء أزمة مارس سنة ١٩٥٤ عرض على محمد نجيب التخلص من أعضاء مجلس الثورة بناء على خطة سبق أن تم

(١) كلمتي للتاريخ ص ١١٧

(٢) كلمتي للتاريخ ص ١١٦

(٣) رواية توفيق عبده اسماعيل في شهود ثورة يوليو ص ٩٧ .

(٤) المرجع السابق ص ١٣٧ .

وضعها بالهجوم على مبنى البرلمان أثناء انعقاد مجلس الثورة به ، فوافق عليها أولاً ثم عاد وطلب استشارة خالد نجيب الدين . . . (١)

ويقول الضابط حسين عرفه إنه اكتشف أن اثنين من ضباط الطيران كانا قد كُلفا بوضع قنبلة في طائرة كان يستقها عبد الحكيم عامر ، كما أن جماعة من المهندسين كانت تعد خطة لقتل أعضاء مجلس القيادة (٢) .

أما محمد نجيب ، فقد تعرض أكثر من مرة لتدبير مؤامرات للقضاء عليه ، ويقول الضابط محمد رياض ياور محمد نجيب إن مجلس الثورة قرر التخلص من محمد نجيب بقتله ، وعندما حدثت مناقشة في ذلك رُفِض الاقتراح بأغلبية ضئيلة (٣) ، وهذه الحادثة يرويها عبد اللطيف البغدادي محدداً أن جمال سالم اقترح أن يقوم بالاعتداء على محمد نجيب ذاكرراً أنه (مير ابو الثورة) ، وللمجلس أن يحاكمه عقب ذلك .

أما الصراع الذي دار بين العسكريين عقب هزيمة ١٩٦٧ فهو صراع نقشعرله الأبدان ، وقد استعملت فيه أخط الحيل من جانب للإيقاع بالجانب الآخر ، وعلت فيه صبيحات « لناصر بدون عامر » ، وفي يوم ١٠ يونيو عندما ظهر الأمل في عودة عبد الحكيم للسلطة « وزع القوم الشرابات (٤) » ، ولعل هذا الشراب كان أحمر اللون قانياً كالدماء التي كانت لاتزال تنزف في سيناء ، وعلى ضفتي القناة ، وسقط عبد الحكيم عامر في معمرة هذه الصراع .

* * *

تلك صور قليلة نرويها مما بين أيدينا مما يدل على أن الثورات العسكرية لاتعرف الأصدقاء ، ولا تعرف الاستقرار ، ولا تعرف القيم .

(١) شهود ثورة يوليو ص ٣٠٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١٣٨

(٣) المرجع السابق ٤٠٣

(٤) شهود ثورة يوليو ص ٢٦٨

أعضاء مجلس القيادة

في مطلع حديثنا عن « قادة الثورة » تعريف بهم من كلامهم ، ذكرنا أننا سنتحدث إجمالاً عن القادة ثم نعود للحديث عن كل منهم على حدة ، وجاء الآن دور الحديث عن كل فرد من هؤلاء الأفراد :

محمد نجيب

إن الحديث عن محمد نجيب ليس طويلاً وليس صعباً ، فالرجل يصور نفسه تصويراً واضحاً في كتابه « كلمتي للتاريخ » والذي يقرأ هذا الكتاب بدقة يجد أنه أمام إنسان تعبر عنه الجملة المصرية « على نيته » فقد قالوا له تعال لترأس الثورة فأقدم ، ووضع نفسه في الخطر ، بحيث كان أول اثنين يمكن أن يقادا للمقصلة لو فشلت الثورة ، وطالما فشلت الثورات .

وقالوا له إنك رئيس مجلس القيادة ، وصدق ؛ وليس هناك ولاء يضمه أو يعلنه أى واحد من الأعضاء له فيما عدا خالد محيي الدين ويوسف صديق ، كما يقول في كتابه ، ولكنه كذلك مخطيء في اعتقاده فيهما ، فهما رجلان لها مبادئ واتجاهات خاصة ، ولم يجمعهما به إلا وقوف الآخرين ضدهم :

وأسنلوا إليه منصب رئيس الوزراء لينخلصوا من على ماهر ، وليفتحوا لأنفسهم باباً سهلاً ليصبحوا وزراء ؛ وفرح الرجل بذلك ، وعينوا أنفسهم وزراء دون أخذ رأيه .

وشكل مجلساً عسكرياً لحاكمة عمال كفر الدوار ؛ وصدر الحكم بإعدام عاملين هما مصطفى خميس ومحمد البقرى ، واندفع ليصدق على حكم الإعدام وهو غير مقتنع به .

وأصدر قوانين الأحزاب ؛ وألغى الدستور ، وهو يعتقد أن الأحزاب مستعود وأن دستوراً جديداً سيوضع ، ولكنه كان مخدوعاً وواهماً ، وكان اسمه يُستغل وهو لا يدري .

وأغروه بيوسف صديق ، وهو يقول : إن همساتهم كانت تلاحق هذا الرجل البطل ، وأن جمال عبد الناصر كان يحذر محمد نجيب منه ، ويقول إن يوسف شيوعى يريد أن ينحرف بالثورة ، ووقع محمد نجيب فى الفخ ، فكان يلقبهُ « الرقيق يوسف ستالين » .

ولعله فرح عندما عين رئيساً للجمهورية ؛ وكان أول قرار وقَّع عليه فى هذا المنصب ، هو ترقية عبد الحكيم عامر من درجة صاغ إلى درجة لواء . وتعيينه قائداً عاماً للقوات المسلحة ، وهو بهذا كان يحفر قبره بيده ، وقد ذكر هو أن هذه غلطة كبيرة وقع فيها .

وقيض عليه اثنان برتبة يوزباشى من تلقاء أنفسهما ، وهو رئيس جمهورية كما ذكرنا من قبل ، ومع هذا وافق أن يبقى فى هذا المنصب بعد ذلك ، ولم ينزل بأى من هذين اليوزباشيين أى عقاب .

وسلبوا منه كل سلطة ، وأهملوه ومع هذا بقى يتردد على القصر الجمهورى حتى قبضوا عليه فيه ذليلاً ، وقادوه إلى المعتقل .

• • •

لأننى أرثى لحال هذا الرجل ، واعتقادى أنه ظلم نفسه وظلم الشعب معه ، وقد كان عليه أن يستقيل منذ اللحظة التى اتضح له فيها أنه أداة فقط لتنفيذ أغراض الأعضاء وأن أحداً منهم لا يَكُنُّ له أى احترام .

هل هى الرغبة فى البقاء فى هذا المنصب ، مع كل ألوان المهانات ؟

هل هى الغفلة ؟

لست أدرى ، ولكنى كمصرى أدين هذا التصرف وأسخر منه .

بقيت كلمة عن شخصية محمد نجيب هى نزاهته المطلقة ، وعدم انتفاعه بالمناصب الكبرى التى شغلها ، فقد بقى فى داره المتواضعة حتى بعد انتخابه رئيساً للجمهورية ، ويروى فتحى رضوان أن ذلك ذُكرَ لعبد الناصر فقال « احنا بنبالغ بدون لازمة » (١) مما يفيد أن عبد الناصر كان يتجه للمتعة التى ترتبط بالمنصب

(١) أسرار حكومة يوليو ص ٩٣

جمال عبد الناصر

عند الحديث عن جمال عبد الناصر ، ينبغي أن يكون الصبر رائدنا ، لأننا أمام فارس الميدان الذي لعب بالجميع بأعلى مهارة ، وأوقع بهم فرداً فرداً دون أن يثور عليه أحد ، وسنعرف من كلامه ومن كلام رفاقه ، أنه جنى على البلاد وعلى العباد ، وأوقع بمصر وبالمصريين ما لم يوقعه حاكم مصرى ولا مغتصب ، ويؤسفني أن أبدأ بهذه النتيجة ، وذلك لصلتي بالانتقاسات التي أمامي ، ومعرفتي بها ، أما القارئ فيمكن أن يرى رأيه بعد أن يطلع على هذه الانتقاسات ، ولنبدأ الدراسة بشيء من التنسيق والتتابع .

أسرة عبد الناصر وثقافته الأولى :

وأول ما نبدأ به كلمة مقتبسة من مؤلف رومى اعتمد على ملف عبد الناصر وكان وثيق الصلة بحاتم صادق (زوج ابنة عبد الناصر) الذي قدّم له ما شاء من معلومات ويورد هذا المؤلف كلاماً قد يساعدنا على التعرف على عقيدة جمال عبد الناصر الدينية ومدى عمقها ، وفيما يلي كلماته :

تلقى عبد الناصر (والد الرئيس جمال) علومه في أسسوط بلحدي المدارس المسيحية ، وكان معلموه من المبشرين ، ويبدو من سياق الكلام أن المبشرين ترددوا في قبول طالب مسلم بين المسيحيين آنذاك ، ولكن رغبة أبيه جعلتهم لا يرفضون طلبه .

ومن متابعة الحديث عن أسرة عبد الناصر نجد المؤلف الرومى يجعلنا نحس بأن والد جمال عبد الناصر قد تأثر عقائدياً بالتحاقه بالمدرسة المسيحية ، وبسبب هذا التأثر رفض أن يُدخِلَ ابنه (جمال) في مدرسة الخطاطبة التي أنشئت لأبناء موظفي هذه المنطقة التي كان يعمل بها عبد الناصر حينئذ ، وسبب الرفض أن المدرسة كانت تحفظ الطلاب بعض سور القرآن ويقول المؤلف : إن هذا لم يكن التعليم الذي يريده عبد الناصر لولده (١) .

(١) أجاريشيف : ناصر ص ٩ و ١٢

وترية جمال عبد الناصر في بيئة غير اسلامية ستفسر لنا مواقفه المضادة للاسلام فيما بعد كحل هيئة كبار العلماء وإصدار القانون المسمى « تطوير الأزهر » وهو الذي يسميه المفكرون الأزهريون « قانون تدمير الأزهر » والقسوة البالغة على الإخوان المسلمين ، وتسليم الكثير من وسائل الإعلام للشيعيين الذين اتخذوا مواقعهم وسيلة لمهاجمة الاسلام ، ومثل سماحه لبعض الانتهازين بمقارنته بالرسول صلوات الله عليه كما سترى بعد قليل ،

ونواصل كلامنا عن جمال عبد الناصر فنذكر أن الكثيرين يعتبرون أن عصره يبدأ من قيام الثورة إلى وفاته سنة ١٩٧٠ ، فهيكلي يجعل الفصل الخامس من كتابه « بصراحة عن عبد الناصر » بعنوان : علامات استفهام في ١٨ سنة ، ويتحدث في الكتاب كله بهذا المعنى ، فلا يدع لمحمد نجيب وجوداً حقيقياً (١) ، وقد نشرت مجلة « لايف » الأمريكية خمس صفحات عن عبد الناصر باعتباره الزعيم الحقيقي للثورة ، وقالت إنه حكم مصر بالفعل منذ عزل فاروق من خلال الشخصية التي اختارها لتقف في الصف الأول ، وهي شخصية اللواء محمد نجيب (٢) ثم استمر يحكم مصر بعد عزل نجيب .

ونحن نوافق تماماً على أن عبد الناصر كان الرأس الأول للتدبير للثورة ، ونوافق كذلك أنه كان الحاكم المطلق بطريقة مباشرة أو من خلف نجيب فيما عدا الأيام الثلاثة الأولى للثورة ، فقد كان عبد الناصر أميل للاختفاء كما شرحنا من قبل وكما سترى فيما بعد ، والذي نريده الآن هو أن نسأل لماذا كان عبد الناصر حريصاً على القيام بثورة في مصر ؟ .

والإجابة نأخذها من كلام عبد الناصر نفسه ، وهي إجابة غير متوقعة ، ففي يوم ٢٠ يوليو زار عبد الناصر وكمال الدين حسين البكباشي عبد المنعم أمين بمسكنه الذي يطل على النيل للاتفاق على تحديد موعد الثورة ، وقد انتحى جمال عبد الناصر بكمال الدين حسين وأطال على النيل من شقة

(١) انظر كتاب هيكل « بصراحة عن عبد الناصر » .

(٢) دكتور عبد العظيم رمضان : الصراع الاجتماعي والسياسي في مصر ص ١٠٤

عبد المنعم أمين ، وقال : هو عاوز ثورة ليه ماهو عنده كل حاجه (١) ؟ .

وهكذا لم يكن الهدف من الثورة عنده تحرير البلاد من المستعمر أو القضاء على الملك الفاسد . . . بل كان الدافع الحقيقي هو الحصول على مثل هذا المسكن في موقعه وفي محتوياته .

مقارنة عبد الناصر بمحمد صلى الله عليه وسلم :

ولنفقز قفزة تحملنا إلى مدى بعيد حول عبد الناصر ، فقد وصلت الجراءة بأعوانه أن يعقدوا مقارنة بينه وبين الرسول الكريم صلوات الله عليه ، بل أن يجعلوا المقارنة في صالحه ، إذ قال سعد زايد محافظ أسيوط في خطاب ألقاه أمام جمال عبد الناصر : إن رسالة محمد كانت من وحى السماء أما رسالة عبد الناصر فهي من عبقرية إنسان له هذا التفوق الذي تجاوز به الإمكانات العقلية التي للبشر ، وهو بذلك أفضل من الأنبياء ، وأتى من المعجزات ما لم يأت به هؤلاء (٢) ومثل هذا ما قاله الدكتور سليمان حزين رئيس جامعة أسيوط في المؤتمر الأول للاتحاد القومي أمام لجنة التوجيه القومي ، وأمام مجموعة كبيرة من رجال الفكر (٣) :

وربما يسأل القارئ : ما ذنب عبد الناصر في ملق هؤلاء الرجال ؟ والإجابة هي أن عبد الناصر قليل هذا الكلام وكافأ عليه قائله ، فانتقل، الأول ليصبح محافظ القاهرة ، وعين الثاني وزيراً للثقافة .

وذنب عبد الناصر كذلك أنه هو الذي كان يوحى بهذه المقارنة ، فقد أعلن يوم ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٦١ في اللجنة التحضيرية للاتحاد القومي قوله : لم يكن مطلوباً مني في يوم ٢٣ يوليو أن أطلع ومعى كتاب مطبوع وأقول إن هذا الكتاب هو نظريتي ، فإن محمداً أعلن في مطلع الإسلام همتين هما أساس الإسلام وهما الشهادتان ثم جاء بعد ذلك القرآن (٤) .

(١) جهود ثورة يوليو ص ٢٤٦

(٢) شوكت التوفى : محاكمات الدجوى ص ٢٥٤

(٣) عبد الصمد محمد عبد الصمد : المشاء الأخير لمشير ص ٥٨

(٤) انظر مجتمع جمال عبد الناصر لأحمد حمروش ص ١٧٤ .

وفى خطاب اتجه به قائله لعبد الناصر وصف الخطيب زعيمه بلفظ « نبي » وانفعل عبد الناصر بهذا الوصف حتى يروى أنه بكى طربا ، ويروى صلاح الشاهد هذا الموقف فيقول إن سامى الدروبي أول سفير لسوريا في مصر بعد الانفصال وقف أمام عبد الناصر وهو يقدم أوراق اعتماده وألقى خطابا قال فيه : إنك ياسيادة الرئيس تطل على التاريخ فترى مسيرته رؤية نبي . . . (١) ولعل هذا الانحراف من الاثنين هو السبب في تدهور العلاقات في أكثر الأوقات بين مصر وسوريا .

والعجيب أنه بعد أن مات الرجل وذهب للدار الآخرة بقي يخيف بأعوانه كما كان يخيف بنفسه ، ومن هنا عاش بعده هذا الاتجاه المنحرف الذى يدفعه ظلماً لصفوف الأنبياء ، وآية ذلك ما جاء فى كتاب « القراءة الإعدادية » وهو كتاب المطالعة المقرر على الفرقة الثالثة الإعدادية تحت عنوان « حياة خالدة » فقد كتب مؤلفو الكتاب ، غفر الله لهم ، ما يلى :

فُجِعت أمتنا العربية بوفاة بطل من خيرة أبطالها . . . وهو ينهض بتيعة شاقه شاء القدر أن ينجزها فى يوم كأنه يوم حجة الوداع .

وجاء فى المناقشة التى وضعها هؤلاء المعلمون السؤال التالى :

لماذا كان يوم وفاة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر يشبه يوم حجة الوداع ؟

ومعاذ الله أن يوجد يوم يشبه حجة الوداع ، ومعاذ الله أن يوجد شبه بين محمد الذى عاش للناس ولم ينل لنفسه شيئاً ، والذى كانت الحكمة وحسن الصلة والإيثار سبيله فى الحياة ، وبين سواه ممن تتلاطم الأفكار حولهم وتلاحقهم الشبهات والانتهاكات .

ولن ينال هؤلاء المؤلفون إلا سخط الجماهير على مر الزمن .

ولست أحب أن أضيع وقتاً مع هذه المقارنة العمياء ، ولكنني فقط
يخطر ببالي خاطر لا بدّ من تلوينه، فكتب السيرة تذكر أن الرسول بعد آيات
سورة العلق كان يتمنى أن يرى مرة أخرى ذاك الذي ضمه وأطلقه ثم ضمه
وأطلقه ، وكان الرسول يترقبه في الغار وخارج الغار ، فسمع مرة وهو
يمشي صوت جلجلة ، فرفع رأسه إلى السماء فرأى الملك الذي رآه من قبل
في الغار ، فهاب المنظر وارتعد ؛ ورجع إلى بيته في حالة من الخشية ، وقال
لأهله دثروني دثروني ، فجاءه جبريل وألقى إليه نداء ربه « يا أيها المدثر ،
قم فأنذر . . . » فهبّ الرسول ، فطلبت منه زوجته خديجة عندما
رأته يرتجف من شدة ما يبذل عليه من الجهد أن يستريح قليلاً ، فقال
لها : يا خديجة ، لم يعد هناك وقت للراحة ، ونهض ليحمل هذا العبء
الكبير (١) .

الذي خطر ببالي مرتبطاً بالمقارنة البلهاء السابقة أن هذا هو حال الرسول ؛
جهد وعناء لحمل العبء كاملاً بدون راحة ، أما عبد الناصر فكان - كما يقول
هيكل حواريت - يشاهد ثلاثة أفلام سينمائية في الليلة الواحدة . اهتم لفكرة
بالأفلام الأمريكية ، ثم استهوت الأفلام الإيطالية والأفلام الهندية (٢) .

وفي ضوء هذا الملق خرجت مجلة الأزهر يوماً ومقالة رئيس تحريرها
كانت مقارنة بين الدعوة المحمدية ، والدعوة الصلاحية (نسبة إلى صلاح
الدين الأيوبي) ، والدعوة الناصرية ، واتجه المقال لترجيح الدعوة الناصرية
ولكن الأزهرين حرسهم الله هبوا ثائرين على رئيس التحرير الذي تنطبق
عليه وعلى أمثاله الآية الكريمة :

« كبرت كامة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً »

(١) انظر الجزء الأول ، من موسوعة التاريخ الإسلامي المؤلف من ١٨٩

(٢) بصراحة عن عبد الناصر من ١٨١

والوطن أيضا :

ولم يكن الدين فقط هو الذى مسه الضر من طموح عبد الناصر ، بل امتد الضر كذلك للوطن ، ويذكر ابراهيم الطحاوى أحد مريدى جمال عبد الناصر ، أنه فى أثناء خطبة جمال عبد الناصر فى الاسكندرية لاحظ أن هتافات الحرس الوطنى كانت « نحميا مصر » وكان الاتفاق أن تكون الهتافات « يعيش جمال عبد الناصر » ولم يقبل ابراهيم الطحاوى أن يرتفع الهتاف لمصر ويهمل ولى النعم ، فماذا فعل ؟ استمع إليه يقول : قطعت سلك الكهرباء عن ميكروفون الحرس الوطنى ، ولم أقنع بذلك ، بل انتهرت فرصة وصول الوفد السودانى للسراى ، فطردت الحرس الوطنى من مكانه وقدمت مكانه للجماهير العادية (١) .

وكوفى ابراهيم الطحاوى على هذا الموقف وأمثاله فمنح الدكتوراه ، وأصبح وزيراً لرياسة الجمهورية ، ورئيساً عاماً لجمعية الشبان المسلمين ، وكان عبد الناصر يقول عنه فيما يرويه ابراهيم الطحاوى « أنا كفاية على ابراهيم الطحاوى أحكم به مصر » (٢) .

صفات عبد الناصر :

نورد فيما يلى مجموعة من صفات عبد الناصر لولا أنها مستقاة من كلماته ومن كلمات رفاقه لكان تصديقها صعباً ، وليس لنا من دورٍ فى تسجيلها إلا الجمع والتنسيق .

حبه للرياسة وسعيه لها :

كان جمال عبد الناصر يسعى لأن يكون رئيساً منذ كان فى مطلع الشباب عقب حصوله على الشهادة الثانوية سنة ١٩٣٦ وقد رأى فى الجيش أقرب وسيلة لذلك ، فحاول الالتحاق بالكلية الحربية التى كانت حكومة الوفد قد

(١) ابراهيم الطحاوى فى شهود ثورة يوليو ص ١٨/١٩

(٢) المرجع السابق

فتحتها « لغير الارستقراطيين » ولكن عبد الناصر فشل في دخولها في هذا العام، ثم جدد سعيه في العام القادم وساعده بعض المحسنين فدخل الكلية الحربية سنة ١٩٣٧ ، ولأن الحرب العالمية كانت على الأبواب تخرج جمال عبد الناصر بعد عام واحد ، وأصبح ضابطاً من سنة ١٩٣٨ (١) وقد هيا له هذا الوضع أن يفكر في تكوين هيئة يصبح لها زعيماً ، وإذا نجحت أصبح زعيم ثورة ، وهو يقول في ذلك : لست أدري لماذا أذكر دائماً قصة مشهورة للشاعر الايطالي : يويجي بيميراندلو أسماها « ست شخصيات تبحث عن ممثلين » ؟ إن ظروف التاريخ مليئة بالأبطال الذين حققوا لأنفسهم أدوار بطولة مجيدة قاموا بها في ظروف حاسمة على مسرحه ، وإن ظروف التاريخ أيضاً مليئة بأدوار البطولة المحيطة التي لم تجد الأبطال الذين يقومون بها على مسرحه ، ولست أدري لماذا يخيّل إلى دائماً أن في هذه المنطقة التي نعيش فيها دوراً هائلاً على وجهته يبحث عن البطل (٢) .

وتكونت جماعة الضباط الأحرار ، ولكن عبد الناصر كان يهتم أن تكون له الرياسة ، ويقول عبد اللطيف البغدادي إننا اجتمعنا قبل الثورة في منزل خالد محي الدين ، وكان زكريا يقرأ علينا خطة الحركة ولاحظت أن جمال عبد الناصر قد انتحى في جانب مع حسن ابراهيم وقال : إن الموضوع ليس موضوع أقدمية وذلك لأن زكريا محي الدين كان أقدم من جمال عبد الناصر (٣) ، وسنرى فيما بعد أن عبد الناصر تغلب على زملائه ، وجعل وجودهم تابعاً لوجوده . ولم يبق الا عبد الحكيم عامر ينافسه ويقاسمه السلطان ، وله أتباع وحواريون ، فهتف عبد الناصر يقول لأنور السادات « يا أنور البلد تحكمها عصابة . . . طيب أنا أخرج وأروح أقعد في الاتحاد الاشتراكي ويتولى هو رئاسة الجمهورية . » (٤) وفي هذه الكلمات نرى اعترافاً

(١) انظر مصر في عهد عبد الناصر ص ٢٣٧

(٢) فلسفة الثورة ص ٢٤

(٣) كلمات البغدادي في شهود ثورة يوليو ص ٢٢٢

(٤) كلمات عبد الناصر في « البحث عن الذات » ص ٢٧٠

(١٠٢ - التاريخ الإسلامي ج ٩)

صريحاً بأن البلاد تحكمها عصابة ، ونرى إصرار عبد الناصر على الرياسة من أى نوع ، فإذا غلب على أمره فى رياسة الجمهورية فليتحول إلى رياسة الاتحاد الاشتراكى .

وفى الحق أننا نرى أن زملاء عبد الناصر هم الذين أسلموا الزمام إليه وجعلوا منه الحاكم بأمره ، ولو راجعنا أقوالهم لرأيناها سلسلة من التسليم والتبريك والغناء بمجده ، فى مطلع الثورة بعد ظهور بشائر النجاح جمع عبد الناصر زملاءه مساء ٢٧ يوليو وقال لهم : إنه يتنحى عن رياسة الهيئة التأسيسية فقد أتمت عملها بنجاح ، وذكر أنهم من الآن اسمهم « مجلس قيادة الثورة » وطلب اختيار رئيس للمجلس الجديد .

ومن الواضح أنه هنا يعلن قيام هيئة جديدة ويتطلع لرياستها كما كان رئيسا لهيئة الضباط الأحرار ، وأسرع أنور السادات يبارك الرياسة الجديدة . وهو يقول : لماذا يستقيل عبد الناصر؟ وما الفرق بين رئيس الهيئة التأسيسية ورئيس مجلس قيادة الثورة ؟ ووافق الباقون (١) وبدأت رياسة جديدة وتحققت أحلام الرجل .

عنف الحصومة :

ولنتنقل إلى صفة أخرى برزت فى عبد الناصر بروزا واضحا هى أنه كان يعاقب بالسجن أو بالفصل من الوظائف ، أو بالحراسة ومصادرة الأموال ، ويفرى بالتعذيب ، وبتجويد من لم يحظوا برضاه ، ثم ينسى هؤلاء فى مخنتهم ، ومن هنا عاش كثيرون من المصريين فى ظلام السجون والمعتقلات ، وفى عناء التشرد والفاقة ، ولم تنته مخنتهم إلا بعد انتهاء عهده .

ويقول أنور السادات (٢) : كان عبد الناصر عنيفا فى خصوماته لا يعرف لها حداً . وعندما فصلنا من الجامعة سنة ١٩٥٤م توقعنا أن نعود بعد شهور

(١) البحث عن الذات ص ١٥٥

(٢) البحث عن الذات ص ٢١٧

على نحو ما حدث لطفه حسين في عهد إسماعيل صدقي ، ولكن أبواب الجامعة لم تفتح لنا إلا بعد عهده المقيت ، وكان أكثرنا قد وصل سن المعاش فلم يعد للجامعة .

ولم يدخل خلق الوفاء قاموس عبد الناصر فطالما نكّل بمن أحسن إليه ، وقد سبق أن ذكرنا أن الأستاذ أحمد أبو الفتح هو الذي نبه الضباط الأحرار إلى الخطر الذي أوشك أن يبتلعهم بواسطة تعيين حسين سرى عامر وزيرا للحريية ، وكانت أسرة أبو الفتح أسرة حبيبة وصديقه لجمال عبد الناصر ، والذي يطالع صحيفة المصرى يرى اللقاءات المتكررة التي كانت تتم بين عبد الناصر وبين أسرة أبو الفتح ، وفي عدد ٢١ مارس ١٩٥٣ م نشرت الصحيفة صورة كبيرة على صفحتها الأولى لجمال عبد الناصر والاستاذ حسين أبو الفتح نقيب الصحفيين ، والأستاذ محمود أبو الفتح صاحب المصرى ، وذكرت أنها كانت جلسة عائلية .

ولكن سرعان ما انقلب عبد الناصر لهيبا متأججا على هؤلاء ؛ صادر أموالهم ، وأغلق صحيفة المصرى ، وفرّ هؤلاء من البلاد هاربين ، مات منهم من مات بعيدا عن الوطن ، ولم يعد الآخرون إلا بعد نهاية عصره .

الحقد والحسد والريية :

ويتحدث أنور السادات عن صفة أخرى من صفات عبد الناصر هي الحقد والحسد والريية ولنعمد إلى أنور السادات نقطف بعض ما قاله في هذا المجال :

— كان عبد الناصر يؤمن بالتقارير ويميل بطبعه إلى الإصغاء للقليل والقال (١)

— مات عبد الناصر دون أن يستمتع بحياته كما يستمتع الآخرون فقد قضى حياته كلها بين انفعال وانفعال . . . القلق يأكله أكلاً . . . كان يفترض الشك في كل إنسان مسبقاً . . . وكانت النتيجة الطبيعية أن خُلّف عبد الناصر

وراءه تركة رهيبة من الحقد سواء بين زملائه أو داخل البلد نفسها بجميع طبقاتها (١) .

— لم يكن من السهل على عبد الناصر أن ينشئ علاقة صداقة بمعنى الكلمة مع أى إنسان ، فهو المتشكك دائماً ، الحذر ، المليء بالمرارة ، العصبي المزاج (٢) .

— كنت أحادثه مرة حديثاً هادئاً أخذ فيه جانبه فى خلافه مع الزملاء ؛ ولكنه قاطعنى محتداً ، محتجاً ، غاضباً ، ساخراً ، وكأننى أقف ضده لا معه ، كانت يده كلها مليئة بالمرارة التى انفجرت فجأة وكأنها حمم البركان يقذفها فى ثورة طائشة المرمى ، تلهب وتؤذى بلا سبب ، ودون أى اعتبار (٣) .

— كان عبد الناصر يشك فى كل إنسان ، وفى كل شيء ، إلى أن يثبت العكس . وفى ظروف حياتنا المعقدة قليلاً ما يثبت العكس (٤) .

— فى الستينات بدأت الثورة فترة المعاناة ، والآلام ، والهزائم ، والنكسات ، والأخطاء البشعة من جانبنا ، ومع طول صلتى بعبد الناصر لم أستطع أن أدرك لما إذا كان يترك خلفه كمية رهيبة من الأحقاد مما دفع كلاً من الآخرين إلى أن يحمل فى نفسه كمية هائلة من الحقد على عبد الناصر حتى عبد الحكيم عامر صديق العمر الوحيد لعبد الناصر انتهت علاقته به إلى عملية حقد رهيبة (٥) .

تلك نماذج قليلة مما كتبه أنور السادات عن حقد عبد الناصر وكرهه للناس ، ولا تزال أمامنا نماذج كثيرة متناثرة فى كتابات أنور السادات ، ولكننا نقنع بما دوناه هنا ، وننتقل إلى عبد اللطيف البغدادى الذى يذكر أن عبد الناصر

(١) المرجع السابق ص ١٠٦ ، ١٠٧

(٢) المرجع السابق ص ١٣٥

(٣) المرجع السابق ص ١٣٦

(٤) البحث عن الذات ص ١٦٣

(٥) المرجع السابق ص ٢٠٢

كان يحقد عليه نجاحه في وزارة البلديات ، ثم تنتقل إلى صلاح سالم الذي يقول إنه لم يكن يعتقد أن يصل الأمر إلى تمنى الفشل لمن نال النجاح من أعضاء المجلس ، وإنه لم يكن يتصور أن يحدث هذا في يوم من الأيام (١) .

السجان :

كان الأستاذ حسن عشاوى صديقاً لجمال عبد الناصر في مطلع الثورة ، وسنتحدث عن ذلك عند الحديث عن الإخوان المسلمين ، ولكني أريد أن أقول هنا إن عبد الناصر عندما قبض في الأيام الأولى للثورة على الزعماء السياسيين وكان عددهم ثلاثة وسبعين قال له حسن عشاوى : من غير المعقول أن يقوم حكم على أساس اعتقال الخصوم . . . فأجابه عبد الناصر قائلاً : أنت تستكثر ثلاثة وسبعين معتقلاً ؛ ليت لي سجناء يحتوى على اثنين وعشرين مليون سرير للشعب كله (٢) .

خوفه وإنشغاله بأمنه :

وقد ترتب على حقد عبد الناصر وشكوكه أنه كان دائماً خائفاً ، ومن هنا انشغل بأمنه ، وكثيراً ما كان ذلك على حساب الإنسان المصري ، للذى اندفع جمال عبد الناصر يستجته ويعذبه ويبيعه حتى يأمن عدواناً قد يجيء منه ، ويصنف أنور السادات هذه المسألة بقوله : في غمرة شكوك عبد الناصر وإنشغاله بأمنه حدثت في مصر للأسف أخطاء جسيمة ضد أخطروا أهم ما كان يجب أن يحرص عليه وهو آدمية الإنسان وإنسانيته (٣) .

وجما يتصللي بحرص عبد الناصر على أمنه أن راح الرجل بقيم في جميع الطرق التي يسير بها محطات إنذار بحيث تكون هناك قوة تسبق ركبه ،

(١) مذكرات البغدادى ص ٢٣٨

(٢) حسن عشاوى : الإخوان والثورة ص ٩٠ - ٩١

(٣) البحث عن الذات ص ٢٣٠

فإذا صادفت خطراً استعملت هذه المحطات في إيقاف الركب حتى لا يمسه سوء ، وقد تكلفت هذه المحطات ملايين الجنيهات ولم تستعمل قط ، ولكن مجرد الحيلة دفعته ليكلف خزانة الدولة هذه التكاليف على حساب البطون المجاعة والألسنة الشاكية .

التزوير :

وينسب محمد نجيب خلق التزوير إلى جمال عبد الناصر ؛ فقد قدم له مرة كشفاً بإسقاط الجنسية المصرية عن ستة من الإخوان المسلمين ، ورفض محمد نجيب التوقيع عليه ، ولكن القرار نشر في الوقائع المصرية ونفذ زوراً ، ويكرر محمد نجيب وصف « التزوير » في معاملات أخرى كثيرة نسبها لجمال عبد الناصر (١) ؛

الانفعالية :

ومن صفات عبد الناصر التي كانت شديدة البروز فيه الانفعالية بلون تقدير النتائج ، ومن أخطر صور الانفعالية ما يذكره صلاح نصر « أن صحباً قوات الطوارئ الدولية من شرم الشيخ وما ترتب على ذلك من أخطار ، كان نتيجة لدعاية ضد عبد الناصر كانت صادرة من السعودية والأردن تذكر أنه يحتذى وراء هذه القوات ، وتهمه أن أقواله أكثر من أفعاله (٢) » . وقد كلفتنا هذه الانفعالية أرواح الآلاف ، وفقدان الأرض ، ومئات الملايين من الجنيهات ثمناً للسلاح الذي خلفناه عقب الفرار . ومن الانفعالية أنه اندفع بسبب أو بدون سبب لطرد سفير تركيا وسفير إيران ، وأوقف علاقاتنا الدبلوماسية بالدولتين الإسلاميتين الكبيرتين ، وسفّاد في دراساته كثيراً من الجوانب الانفعالية التي كانت أداة في تدمير البلاد والعباد .

ملهم ؟ ؟ ؟

كان يطيب للحواريين أن يصفوا عبد الناصر بأنه ملهم ، ولكن تتبع تاريخه يرينا أن نظراته كانت بعيدة عن الصواب في أغلب الأحيان ، فهو

(١) انظر كلمتي للتاريخ ص ٦٩ .

(٢) كلمات صلاح نصر في شهود ثورة يوليو ص ١٩٤ .

يقول ثروت عكاشة : إنه لم يكن يصدق إمكان حدوث العدوان الثلاثي على الرغم من التحذير الذي بعث به ثروت عكاشة إليه ، ويرى أن كل الحسابات كانت تؤدي إلى استحالة حدوث العدوان (١) .

وعقب كارثة سنة ١٩٦٧ صرح بأنه كان يتوقع العدو من الشمال فجاء من الغرب ، وقد سمعنا هذا التصريح من كلماته بالإذاعة والتلفزيون .

يدير الوزارات من خلف الوزراء :

وكان جمال عبد الناصر يدير الوزارات من خلف الوزراء ، وقد اشتكى صلاح سالم من أن وزارة الإرشاد التي هو مسئول عنها أصبح وزيرها الحقيقي جمال عبد الناصر ، وأن ما حدث لوزارة الإرشاد القوي حدث مثله في وزارة الخارجية والداخلية والقوات المسلحة ، وغيرها من أجهزة الدولة (٢) .

وهناك حادثة ترتبط بشخصياً لم تتضح لي خباياها إلا بعد فترة طويلة ، و خلاصة هذه الحادثة أنني عند ما كنت مديراً للمركز الثقافي المصري بإندونيسيا طلبت مقابلة الوزير المختص (كمال الدين حسين) وأبدى سيادته اهتماماً بهذه المقابلة ، فطلب أن تكون بعد نهاية العمل اليومي بالوزارة ، والتقيت به في منتصف الساعة الثالثة من شهر سبتمبر سنة ١٩٦٠ وكان آنذاك يشغل أخطر المناصب في الدولة بالإضافة إلى الوزارة ، وكنت قد أعددت عدتي لهذا اللقاء لعمق صلتى بإندونيسيا وطول معاشرتي لأهلها هناك ، فشرحت له المشكلات واحدة إثر واحدة واقترحت الحلول ، ووجدت قبولاً هائلاً منه ، واستجابة تامة لكل ما طلبته تقريباً ، وأصدر تعليماته إلى مدير مكتبه وكان موجوداً معنا لينفذ هذه المطالب ، وعدت لإندونيسيا فخوراً

(١) كلمات عبد الناصر في شهود ثورة يوليو ص ١٠٦ .

(٢) مذكرات عبد اللطيف البغدادي ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

بما حققته من أمل ، وحملت البشري للناس هناك بأن ما ينتظرون إليه أصبح في الطريق إليهم ؛ سيفد المدرسون والدعاة تبعاً ، وترسل الكتب والصحف والمجلات لراغبي الشراء والاطلاع ، وستفتح الأبواب في مصر لبعض المبعوثين الإندونيسيين ، وسيزود المركز الثقافي بالكفاءات الضرورية ووو ، ولم ينفذ أى شيء من ذلك كأن المقابلة لم تحدث . وقد عرفت فيما بعد أن ذلك الموقف نُقل إلى رجال عبد الناصر أو إلى عبد الناصر نفسه ، ولم يكن هؤلاء يريدون لكمال الدين حسين مزيداً من النجاح في الأعمال التي كانت منوطة به ، فصدرت الأوامر بالتغاضي عن هذه المطالب.

عبد الناصر وموقفه من الديمقراطية :

قلنا فيما سبق إنه بعد نجاح الحركة أسرع عبد الناصر فجمع الهيئة التأسيسية ليقرر أموراً خطيرة ، وكان ذلك يوم ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وفي هذا الاجتماع قرر عبد الناصر بالمجلس الأمور التالية :

١ - ذكر أن اسم الجماعة أصبح « مجلس قيادة الثورة » بعد أن كان «سماها» الهيئة التأسيسية» ، ومن الواضح أن التسمية الجديدة تفيد الرغبة في الاستمرار ، وأن كل ما قيل عن الأحزاب والانتخابات كان تمويهاً .

٢ - طلب عبد الناصر من الأعضاء اختيار رئيس لمجلس القيادة بعد أن أعلن استقالته من رئاسة الهيئة التأسيسية ، وطبيعى أنه اختير رئيساً لهذا المجلس الجديد .

٣ - عرّضَ على المجلس طريق المستقبل ، وهل سيتجهون للديمقراطية أو للدكتاتورية ؟ ويقول أنور السادات : إن جميع الأعضاء اتجهوا لاعتناق نظام الدكتاتورية معتقدين أن ماينجزونه بالطريق الديمقراطي في سنة يمكن إنجازه عن طريق الدكتاتورية في يوم ، ووقف عبد الناصر وحده متشبهاً بالديمقراطية ، ولما تمسك الأعضاء بموقفهم أعلن عبد الناصر استقالته وغادر

المجلس ، ولكن الآخرين تراجعوا ونزلوا على رأى عبد الناصر ليعود لاستئناف نشاطه .

ويعلق أنور السادات على موقف عبد الناصر بأن هذه الخطوة كانت أولى خطوات الدكتاتورية من جمال عبد الناصر ، إذ أراد أن يفرض رأيه على المجلس كله ، وفيما يلي كلمات أنور السادات :

« لم يخطر ببالي في تلك اللحظات أن المسألة ليست إلا اختباراً للقوة من جانب عبد الناصر ، فهو يهدف في بداية رياسته للمجلس إلى أن يثبت للجميع أنه يستطيع أن يتخذ القرار الذى يريده مهما كان رأى الآخرين » (١).

وهكذا كان هذا المظهر الديمقراطي يخفى خلفه دكتاتورية قاسية ، وقد قال في تعليقه لاتجاهه الذى ألبسه زيفاً لباس الديمقراطية ما يلي :

إن الدكتاتورية طريق الدم ، والعمل الذى يبدأ بدم لابد أن ينتهى بدم ، وإنه يفضل ألف مرة إعادة البرلمان الحزبى القديم ، وتسليم مقاليد الأمور للأحزاب برغم الرفض المطلق لها من جانب الشعب !!! على أن يلجأ إلى أسلوب الدكتاتورية ، فكيف نخرج البلاد من دكتاتورية الأحزاب لتدخلها في دكتاتوريتنا (٢).

وهذا الكلام مزيج من الحق الباطل ، أما جانب الحق فيه فهو أن الدكتاتورية التى تبدأ بالدم لابد أن تنتهى بالدم ، وقد بدأت الدكتاتورية بهذا القرار ، وبدأ الدم بعد ذلك ينزف ولم يتوقف طيلة هذا العهد الفاسد .

أما جوانب الباطل في هذا الكلام فكثيرة ، فلم يكن البرلمان الذى

(١) البحث عن الذات ص ١٥٨

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

يشير إليه إلا برلمان الأمة ، اختير بواسطة وزارة محايدة ، ولم يكن هناك رفض مطلق من الشعب للأحزاب ، إنما كان هناك رفض من الشعب للانحراف الملك وطيغانه ، وخلق أحزاباً من القش تقف معه ضد رغبة الأمة ، وقد بقيت الغالبية الساحقة على موقفها من حزبها حتى بعد مرور أكثر من ربع قرن على الثورة .

وعلى كل حال فقد بدأت بهذا المجلس دكتاتورية عبد الناصر وظلت طيلة حياته دون توقف . وسنطى فيما يلي مزيداً من النماذج لهذه الدكتاتورية التي كانت سبباً في دمار الإنسان ، ودمار الاقتصاد ، وضياع الأرض :

في سنة ١٩٥٣ كان جمال عبد الناصر يتناول الغداء في منزل حسين أبو الفتح ، وقال جمال مصوراً ما في نفسه من دكتاتورية : أتمنى أن يأتي اليوم الذي أستطيع فيه أن أضغط على زر كزر الكهرباء فينام كل الشعب ، ثم أضغط عليه مرة أخرى فيستيقظ الشعب . ويعلق الأستاذ أحمد أبو الفتح على ذلك بقوله : بطبيعة الحال لم يصل عبد الناصر إلى مثل هذا الزر ، ولكنه استطاع عن طريق الإرهاب والدكتاتورية الصارمة ، والبطش الوحشي أن يشيع الفرع بين الناس ، واستطاع عن طريق تجميع الرزق في يده أن يخضع الناس لإرادته ، واستطاع عن طريق الدعاية الجارفة أن يفرس معتقدات كاذبة في رءوس النشء ولدى بعض الطوائف من الشعب ، وحتى عند ما اهتز اهتزازاً عنيفاً بهزيمة سنة ١٩٦٧ بأدر الذين كانوا يحرسون على بقائه لتدوم لهم امتيازاتهم إلى بذل جهود خارقة لإبقاء عبد الناصر في مكانه (١) .

ويذكر عبد اللطيف البغدادي أن جمال عبد الناصر ذكر في إحدى اجتماعات مجلس قيادة الثورة قصة فحواها أن « لنكون ، رئيس الولايات

(١) أحمد أبو الفتح : التحدي ص ٢٥٤

المتحدة عرض مرة على زملائه موضوعاً من الموضوعات المهمة ، ولكنهم لم يوافقوا جميعاً عليه ، بيد أن « لنكولن » كتب القرار بالموافقة . وعقب جمال سالم على ذلك بقوله « بس فيه هنا تسعة لنكولن » فصمت جمال عبد الناصر وهلة ثم قال : لا لنكولن واحد . ويعلق عبد اللطيف البغدادى على ذلك بقوله : أصبحت الدكتاتورية فى رأى والعمل واضحة لا غموض فيها ، وأصبحتنا نخشى الاعتراض والمناقشة ، وكان ما خشيته هو السبب الذى جلب البلاء للبلاد فى المستقبل (١) .

ويقول فتحى رضوان إن مجلس الوزراء عند ما أصبح عبد الناصر رئيساً له أصبح جلسة استماع يكون فيها عبد الناصر هو المتحدث وحده ، والوزراء منصتون ويأخذون الملاحظات ويتلقون التوجيهات ، ولا يتكلم أحد منهم إلا بإذن ، وفى إحدى الجلسات قال فتحى رضوان للرئيس إن أمينى الاتحاد القومى (الطحاوى وطعيمة) أذاعا أن أعضاء التنظيم السياسى يمكنهم الحضور للقاهرة فى عيد الثورة بتخفيض قدره ٧٥٪ من أجور السكك الحديدية مستعملين بطاقة الدعوة فقط ، وأضاف فتحى رضوان أن السكك الحديدية استغاثت بالوزير (فتحى رضوان) من هذا القرار . فثار جمال عبد الناصر على فتحى رضوان عند ما سمع كلامه وصرخ فيه : « انت عايز تخرجنى » هل تريد أن تعرض هذا الموضوع على مجلس الوزراء لأخذ رأى فيه ، اتفضل اعرض وخذ رأى» وكرر هذه الجملة عشر مرات ، ثم قام وغادر قاعة الاجتماعات (٢) وابتلع فتحى رضوان هذه الثورة واستمر فى الوزارة .

ويقول أنور السادات : كان عبد الناصر بطبيعته الدكتاتورية يتطلب من رئيس وزرائه أن يكون مجرد مدير مكتب ينفذ أوامره فحسب (٣) .

(١) مذكرات عبد اللطيف البغدادى ص ٢٢٤ .

(٢) أسرار حكومة يوايو ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٣) البحث عن الذات ص ٢١٣ .

وهناك حكام كانت الدكتاتورية طبيعتهم ، وأظهروا هذه الطبيعة في أقوالهم وأفعالهم ، ولكن عبد الناصر مارس أقصى أنواع الدكتاتورية ، ولكنه لم يتوقف لحظة عن التغنى بكلمة ديمقراطية ، فخلق لديمقراطيته التنظيمات الزائفة ، وكون البرلمانات الضعيفة المتهافنة .

وقد عرف التاريخ صوراً من الدكتاتوريات سلبت الحرية ، واجتاحت جلبت الغنى والقوة ، ولكن دكتاتورية عبد الناصر كانت محاطة بالجهل وانعدام المعرفة ، فأضاعت كل جوانب الخير وجلبت جميع أنواع الشر .

كانت كلمة دكتاتورية كلمة يخاف عبد الناصر أن يوصف بها ، ولهذا كانت نقطة الهجوم التي لجأ إليها عبد الحكيم عامر ليضرب صديق صباه إذ أحس أنها الجرح الذي تؤلم الضربات فيه . وهذا المعنى يبرزه أنور السادات بقوله (١) : كان عبد الحكيم عامر يعرف جيداً أن لا شيء يغيب عبد الناصر مثل الحديث عن الديمقراطية ، وأنه دكتاتور ، فلجأ إلى طبع الاستقالة التي كان قد قدمها لعبد الناصر سنة ١٩٦١ في شكل كتيب ، ووزعها على أوسع نطاق ليعلن فيها أنه لا يؤمن بحكم الفرد ، وأن لا بد من إعادة الأحزاب ، ولم يكن عامر يؤمن بذلك ، ولا يطرأ هذا على فكره ، ولكنه أراد أن يوقع عبد الناصر ليتراجع هذا عن موقفه من عبد الحكيم عامر ، ونجح عامر فيما قصد إليه ؛ فترجع عبد الناصر عن قبول الاستقالة ، وأبقى الجيش تحت سلطان عامر ، ليبقى هو دكتاتوراً ، ولتتحمل البلاد أى نتائج لذلك ما دام الفارسان ينعمان بالمكان الرفيع .

بقيت كلمة تتصل بالبرلمانات التي كونها عبد الناصر ، وهذه الكلمة مأخوذة منه شخصياً ، وهى : « أعضاء البرلمان فاكرين لإنهم سندئ لى ؟ الحقيقة أنى أنا سندلم (٢) » . وهذه جملة واضحة الدلالة على أن عبد الناصر كان يجلب لبرلماناته من يشاء بواسطة منع بعض المرشحين من خوض المعركة الانتخابية ، وبواسطة التزوير فى الانتخابات ، وبفرض خمسين فى المائة على

(١) البحث عن الذات ص ٢٤٨

(٢) جهود ثروة يوليو ص ٣٥

الأقل من الأعضاء للعمال والفلاحين ليجلب للمجلس جماعات لا يمثلون العمال والفلاحين ، وإنما يجيدون التصفيق والهتاف للدكتاتور العظيم .

تلك هي ديمقراطية عبد الناصر ، ويل هذه الكلمة ، إن أشد أعدائها طالما أطلقوا لها البخور أمام الناس ، وهي عندهم كربة سجيئة ، يذبلون أقصى الجهد للقضاء عليها ، والعجيب أن الناس يدركون ذلك ، فليست الديمقراطية كلاماً ، وإنما هي تصرفات وأعمال ، والذين يتشدقون بها ولا يستعملونها يكذبون على أنفسهم ، ولا يُخدع بأكاذيبهم إلا البلهاء .

الغدر بالأصدقاء وعدم الوفاء :

الذى يقرأ ما كتبه عبد اللطيف البغدادي ، وما كتبه أنور السادات يدرك أنه كانت هناك خطة دقيقة وضعها عبد الناصر ليقضى على كل رفاقه ، وليستبد بالأمر دونهم ، ولعل أول خطوة غنى بها هي أنه وضع عبد الحكيم عامر على رأس الجيش ، ليسحب السلطة على الجيش من نجيب ، وليضمن ولاء الجيش له عن طريق صديق صباه عبد الحكيم عامر ، ودعم صلاته به بالمصاهرة ، فزوج أخاه حسين من بنت عبد الحكيم ، وسعى أحد أبنائه عبد الحكيم إبرازاً للعلاقات بينهما .

وراح عبد الناصر يكوّن له أتباعاً في الجيش من ضباط الطبقة الثانية ، وعزل قادة الثورة تماماً عن أسلحتهم ، وأبعد أصدقائهم أو احتوهم :

وعندما اطمأن للجيش بذلك ، احتضن جمال سالم وصلاح سالم ليتنفعا بما كان فيهما من تسرع وحمق في مهاجمة نجيب وفي الحملة المسعورة عليه ، والتي وصلت إلى أن يهدده جمال سالم بقتله ، ولما انتهى من نجيب واجه صلاح سالم وأبرز إخفاقه في قضية السودان ، وقرب إليه محمد أبو نار مدير مكتب صلاح سالم كما ذكرنا من قبل ، وانتهى صلاح سالم ، ولحق به جمال سالم الذي بدأ يواجه عبد الناصر بعد القضاء على محمد نجيب ، ولم يصمد جمال سالم

في هذه المواجهة فاستُبعد^(١) وجاء دور عبد اللطيف البغدادي فقام بينه وبين عبد الناصر خلاف أو ضحه البغدادي في مذكراته ، ولكن البغدادي كان شديد الحرص على البقاء في السلطة فابتلع المتاعب التي وضعها عبد الناصر حوله ، وتركه عبد الناصر بعد أن أصبح سلس القياد حتى استغنى عنه في الستينات^(٢) ولحق به حسن إبراهيم ثم كمال الدين حسين الذي أبعده بعد أن كان يتولى تسع مناصب مختلفة ؛ وجاء أخيراً دور عبد الحكيم عامر فطوّقه عبد الناصر بطوق فولاذي عقب هزيمة ١٩٦٧ ومحاولة عامر أن يعود للجيش كما عاد عبد الناصر إلى ساحة السياسة والرياسة بعد تمثيلية التنحي ، وانتهى عامر داخل هذا الطوق الفولاذي بالانتحار أو بسواه مما ستحدث عنه فيما بعد ، ولم يبق إلا أنور السادات ولعل كتاب « يا ولدي هذا عمك جمال » كان سنداً له حتى لا تهب الأعاصير ضده ، وساعده كذلك بعده عن السلطة التنفيذية ، وحياته في مجلس الشعب ، وهندوء وسياسة كامنة فيه ، وبقي كذلك حسين الشافعي الذي كان يستمتع بالمنصب الذي يسند له دون محاولة الحصول على أي نفوذ أو بروز ، ومع هذا لم ينج أنور السادات وحسين الشافعي من هجمات عبد الناصر ومحاولته التصغير من شأنهما ، فعندما دعى أنور السادات لزيارة أمريكا بصفته رئيساً لمجلس الأمة رحب عبد الناصر بذلك ووجد فيها فرصة للتقريب بين مصر وبين أمريكا ، وسافر أنور السادات وزوجته واستقبل هناك استقبالا رائعاً ، وعمل أنور السادات على تحسين العلاقة بين مصر وأمريكا ، ولكن عبد الناصر هاجم أمريكا بأعنف الألفاظ والسادات لا يزال بها ، وخلق بذلك حرجاً شديداً لأنور السادات. ويتساءل أنور السادات : إذا كان هذا قصد عبد الناصر فلماذا وافق على الزيارة^(٣).

أما حسين الشافعي فقد هوجم عدة مرات ، وفي إحداها كان الهجوم

(١) أقرأ مذكرات عبد اللطيف البغدادي ص ٢١٩ وما بعدها

(٢) المرجع السابق ص ١٨٤ وما بعدها

(٣) البحث عن الذات ص ٢١٢ - ٢١٨

بألفاظ قاسية على مرأى ومسمع من الناس ، ولم يستطع هذه المرة أن يحتمل الإهانة فوقع مغشياً عليه :

ويعبر الأستاذ أحمد حمروش عن ذلك بقوله : أصبح الزعيم في قمة مجده ، يمارس تشكيل المجتمع بإرادته ، ومجلس الثورة لم يعد كياناً تنظيمياً ، وأصبح أعضاؤه يستمدون وجودهم من علاقتهم به (١) .

وهناك جمع حاشد من الضباط ساندوا عبد الناصر في أزمة مارس سنة ١٩٥٤ ، لسبب أو لآخر ، ولكن عبد الناصر مرعان ماتخلص منهم أيضاً ، ويقول محمد نجيب في ذلك : لقد عمل جمال عبد الناصر على حل تنظيم الضباط الأحرار بعد ذلك ، ولم يبق أحد منهم في الجيش أو في مراكز السلطة ، إلا عدد لا يتجاوز أصابع اليد ، وكان جمال عبد الناصر كان يطبق ما كتبه ميكافيللي من أن الحاكم يجب أن يتخلص من الذين ساعدوه على الوصول إلى الحكم ، واستبدل بالضباط الذين ساعدوه في أزمة مارس سنة ١٩٥٤ أتباعاً جديداً يدينون له شخصياً فقط بوجودهم ، وتبارى الأتباع الجدد في الحصول على رضاه .

ويستمر محمد نجيب فيقول : لقد قهر الجيش الشعب مصدر السلطات ،

وقهر مجلس من الضباط الجيش ، وقهر هذا المجلس واحد منهم (٢) .

وهكذا استطاع عبد الناصر بذلك أن يُخرج بعض رفاقه ، وأن يطوِّع الآخرين ليكونوا رهن إشارته ، فأصبحوا يتسابقون لرضائته ، ويدعون له الأمر كله ، ويقنعون بأن يكونوا أعواناً مخلصين له ، وكان هذا نهاية المطاف بهم ، فبعد الزمالة أصبحوا تابعين وأصبحوا يسارعون بإعلان حايريضيه (٣) .

(١) مجتمع جمال عبد الناصر ص ٧٨٢ -

(٢) كلمتي لتاريخ ص ١٦١

(٣) إقرأ عن ذلك مذكرات البغدادي ص ٢٥٣ وما بعدها فلنأخذ تفصيل خطير قوشيرة .

عبد الناصر عند الشدائد :

معدن الإنسان يبرز عند الشدة ، وقد نال عبد الناصر ألواناً من الرخاء في سنيه الأولى ، قضى على الملك ، وعلى الأجزاء ، وقهر الدستور ، واستبد بالأمر ، ووقع اتفاقية الجلاء وحضر مؤتمر باندونج حيث ظهر بين قادة ذلك العصر كنجم لامع ، ثم واجهته أولى الشدائد في أكتوبر سنة ١٩٥٦م فيما يسمى « العدوان الثلاثي » فكيف تطرأ في عيد الناصر آنذاك ؟

إن عبد اللطيف البغدادي يصور لنا عهد الناصر الذي قتل فلم يرحم ، وقتل دون أن يتردد ، واضطهد وعذب ، وأجاع من غير أن يتراجع . هل كان قلب عهد الناصر قوياً جريئاً يحتمل الشدائد ويصارعها ؟ ويجاهد ضد العدوان لينجح أو يموت ، أو - على الأقل - ينهزم هزيمة مشرفة ؟ أو كان يعبثاً بضطرب عند الشدائد ويحفل عند المحن ؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة نستلزم منا كلمات زميله عبد اللطيف البغدادي الذي يقول :

«... عندما بدأت الغارات الجوية على القاهرة نزلنا الخبأ الموجود بمبنى القيادة ، ثم بلغنا أن هناك عملية إنزال جنود مظلات في أرض السباق بمصر الجديدة ... ولقد حدث على إثر اجتماع هذا الخبر ما لم أكن أتوقعه من الأتفاك والعصبية ، فقد اضطرب الناصر ، وفكر في أولاده وطلب العمل على نقلهم فوراً إلى القنصلية الخيرية ، ولكنه عاد وطلب نقلهم إلى امترالته ومظ القاهرة خوفاً من أكلام الناس حتى لا يقال إنه هرب أولاده ، وترك الناصر معرضين للخطر (١) »

- دخلت على جمال عبد الناصر يوم الأحد ٤ نوفمبر سنة ١٩٥٦ وهو يتناول الإفطار فربت على ظهره وسألته :

كيف الحال ؟ فقال إنه لم يتم طول الليل ، وإنه بكى ، وإنه أضاع البلد^(١).

— اقترح جمال عبد الناصر أن ينتحر أعضاء مجلس القيادة جميعاً ، وطلب من زكريا إحضار عدد من زجاجات السم « سيانور البوتاسيوم » تكفى لعدد الأعضاء ، وأكد كلامه بقوله : إننى جاد فيما أقول^(٢).

— قال جمال عبد الناصر لى : إننى قررت الذهاب إلى بور سعيد الليلة حتى أرى ماذا سيفعل الجيش عندما يحس جنوده أننى بينهم
وقى الطريق وجدنا الدبابات المحطمة ، والسيارات المحترقة ، فقال جمال إنها بقايا جيش محطم ، وأخذ يتحسر على المبالغ التى أنفقت على تسليح الجيش قائلاً : إن مائة وثلاثة وثلاثين مليوناً من الجنيهات قد ضاعت هباء (كان هذا المبلغ هائلاً سنة ١٩٥٦ وهذه هى الأسلحة التى جاءت فيما يسمونه كسر احتكار السلاح) وانهار عبد الناصر وبدأ أنه أصبح ضعيفاً لاحول له ولا قوة^(٣).

— وصلنا الإسماعيلية ، ووجدنا هناك كمال الدين حسين الذى كانت روحه المعنوية عالية غير ما كنا نحن عليه ، وفى المساء قال لى : أنا تعب . وكان فى حالة يأس شديد وفى الإسماعيلية عرفنا أن العدو بدأ يُنزل قوات فى بور سعيد ، فأمر بإعداد سيارته للعودة للقاهرة قائلاً : إنها كانت غلطة كبيرة منا أن نحاول الذهاب إلى بور سعيد . فقلت إن الدافع لذلك كان أن نضرب المثل بالتضحية للدفاع عن الوطن . وعدنا حتى دون أن نمر على القوات التى بالإسماعيلية^(٤).

(١) المرجع السابق ص ٣٥٢

(٢) المرجع السابق ص ٣٤٥

(٣) مذكرات عبد الحليم البغدادي ص ٣٥٣ - ٣٥٤

(٤) نفس المرجع السابق ص ٣٥٤ - ٣٥٦

ويروى عبد اللطيف بغدادى أن سليمان حافظ الذى مهد الطريق للقضاء على الأحزاب والدستور والتمكين للشوار ، جاء إلى مجلس القيادة ليعلن :
- على جمال أن يعود إلى الكتبية السادسة مشاة ، لأن الناس تقول عنه إنه يخلط بين مجده الشخصى وبين مستقبل البلاد .

- أقول لكم الحق الذى لا يصارحكم الناس به ، جمال مكروه وغير محبوب .

- إن الأرقام التى حصل بها جمال عبد الناصر فى الاستفتاءات خيالية ولا تعبر عن حقيقة مشاعر الجماهير^(١).

ونقف هنا وقفة لنذكر أن عبد الناصر تحدث مرة عن ثورة ١٩١٩ فذكر أن البلاد كلها اشتركت فيها ثم جاء سعد زغلول فركب الموجة ، وهو بذلك يقلل من جهود سعد زغلول ، ويذكر أن سعدا انتفع بجهود الناس ، وهذه القصة تعبير دقيق عن حالة عبد الناصر ، فبعد هذا الانهيار الذى أوجزناه والذى نقلناه من رفيقه البغدادى ، تدخلت أمريكا واضطر المعتدون للانسحاب ، فركب عبد الناصر الموجة حقاً ، وغنى له المغنون بالنصر ، وظهر بطلا مغواراً هزم الأعداء وحقق أعظم انتصار ، ولم يذكر لأمريكا أى فضل كما سنرى فيما بعد ، وكان لهذا التذكر الجميل أسمى العواقب .

وقبيل الانسحاب ، وبعد إيقاف القتال بأمر أمريكا اهتم عبد الناصر بسحب السلاح من المواطنين كما قال أحمد لطفى واكد ، ويضيف : لقد زرت فى القناطر الخيرية بعد ذلك وكان عنده ثروت عكاشه وقدم كشفاً بخسائر قواتنا المسلحة فى سيناء التى تركها بدون حرب ، وكان شديد الاستياء من كثرة الخسائر ويومها وجه كلمات عنيفة ضد عبد الحكيم عامر

وصلاح سالم ، وصلاح نصر ؛ وصلاح دسوقي ، لأنهم كانوا من دعاة
الهرطقة والاستسلام (١).

يحمي مساويء أسرته :

كان عبد الناصر شديد الحساسية بالنسبة لأسرته ، فلم يكن يحتمل أن
يذكر عن أى واحد منهم أى انحراف ، وقد شدتهم جميعاً إلى ميدان السياسة
والاقتصاد فأصبح منهم النواب والرؤساء الأقليميون للاتحاد الاشتراكي ،
وأصبح بعضهم مدير مدارس حرة . . . وما كان أحد يستطيع أن ينتقد أياً
منهم أو يذكر عنهم أى شيء بشين ، إذ - كما يقول أنور السادات -
« كان لدى عبد الناصر حساسية شديدة من ناحية أهله ، فكان يكتفى أن
يلغيه أن أحداً من الناس قال شيئاً ما عن أحد أقاربه حتى يضعه على الفور
في المعتقل ، ويتخذ ضده من الإجراءات ما يحلو له » (٢) وفي ظل هذه
الحماية المطلقة كان يمكن لأى فرد من هذه الأسرة أن يتصرف كما يشاء آمناً
على كل شيء ومن كل شيء ، ويضيف أنور السادات أن هذه الحساسية
طالما استغلت ضد الشعب ، فقد كان أى واحد من مراكز القوى ينتهز هذه
الحساسية ليقع بأعدائه بأن ينسب لهم أنهم يتكلمون عن أقارب عبد الناصر (٣)
وقد حدث في أثناء وجود عبد الناصر في مؤتمر باندونج أنه اتهم حسين
خليل عبد الناصر عم جمال بالتدخل لصالح إحدى الشركات ، ولما عرف
ذلك جمال سالم الذى كان رئيساً للجمهورية بالنيابة آنذاك أمر بالتحقيق مع
هذا المتهم ، وكانت ثورة عنيفة من جمال عبد الناصر ، واعتذارات من
من الآخرين (٤) ولكن المهم أن أحداً لم يستطع بعد ذلك أن يتكلم كلمة

(١) شهود ثورة يوليو ص ٧٧ - ٧٨

(٢) البحث عن الذات ص ١٣٠

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة

(٤) مذكرات عبد الحفيظ البغدادي ص ٢٢٥ وما بعدها

واحدة عن أى شخص يمت بصلة للرئيس ، وأصبح كل فرد من الأسرة ذاتاً مصونة لا تمسّس^١ ؛ وفى ظل هذا جفت الأقلام ، ولا يعلم إلا الله ما ارتكب هؤلاء من انحرافات .

انحرافات عبد الناصر المالية :

فى الحديث عن عبد الناصر والانحرافات المالية نرجو القارئ أن يطالع على دراسته المفصلة الموثقة التى قدمها الأستاذ جلال الدين الحامصى عن هذا الموضوع الخطير فى كتابه « حوار وراء الأسوار » صفحة ١٧٠ وما بعدها ومنه نقتطف بضعة سطور :

— بدأ عبد الناصر فقيراً ولكن سرعان ما أصبح لكل فرد فى أسرته « فيلا » أو قصر صغير مشيد له خصيصاً ، فمن أين جاء المال لبناء هذه القصور ؟ وأين قانون الكسب غير المشروع^(١).

— كان شقيق عبد الناصر رجلاً بسيطاً فى مستوى معيشته ، ثم سمح له أكثر من مرة أن يسافر للخارج بحقيبة واحدة ويعود إلى مصر بحقائب لاتعد ولا تحصى بها بضائع تغمر الأسواق وتحقق ربحاً يكون تلالاً من الثراء^(٢).

— كان الأستاذ سعد فخرى عبد النور المحامى وأحد رجال الأعمال يتناول العشاء مع أصحاب الأعمال ورؤساء البنوك السويسرية ، وسأله واحد منهم : هل تدري كم بلغ حساب عبد الناصر فى بنك سويسرا ؟ وأجاب الأستاذ سعد أنه سمع أنه وصل عشرات الملايين من الجنيهات الأسترلينية ، فقال له رئيس البنك إنها بلغت أكثر من ذلك ، وأضاف قائلاً : ما كان لى

(١) جلال الدين الحامصى : حوار وراء الأسوار ص ١٧٠

(٢) المرجع السابق ص ١٧١

كرئيس للبنك أن أتكلم في مثل هذا الموضوع ولكن ذلك لم يعد سرّاً فحكومة مصر تحاول استرداد بعض هذه الأموال ، ويضيف الأستاذ الحامصي قوله إنه عقب ذلك في مارس ١٩٧٤ نشرت جريدة « أخبار اليوم » أن مصر استردت بعض أموال مصر من الأرصدّة السرية بسويسرة^(١).

— في فترة الخماس قبيل حرب سنة ١٩٦٧ تقدم الكثيرون من الأثرياء بالعرب بهبات للمساعدة في الجهود للحرب ، ومن ضمن هذه الهبات ما قدمه الملك سعود فقد كتب في ٢٨ مايو سنة ١٩٦٧ شيكين أحدهما بمبلغ ثلاثة ملايين من الدولارات الأمريكية باسم جمال عبد الناصر والثاني بمبلغ مليونين باسم صلاح نصر ، وذلك تبرعاً منه لدعم الجهود الحربى ، وقد حوّل الشيكان لحساب خاص للرئيس جمال عبد الناصر ، وصدق على التوقيع بالتحويل الأستاذ أحمد فؤاد رئيس مجلس إدارة بنك مصر^(٢).

— وخلال النكسة ، وفي يوم ٧ يونيو بالضبط أى في الوقت الذى كان عبد الناصر يُعيد نفسه فيه للانسحاب من الحياة العامة ، أصدر قراراً جمهورياً رقم ١٣٥٠ لعام ١٩٦٧ بالإذن لوزير الاقتصاد المصرى نيابة عن حكومة الجمهورية العربية المتحدة بأن يقترض من الملك سعود مبلغ عشرة ملايين من الدولارات على أن يقوم البنك المركزى المصرى برد هذه السلفة على ثلاثة أقساط خلال عام (من ٧ يونيو ١٩٦٧ إلى ٦ يونيو ١٩٦٨) وقد أصدر الملك سعود بناء على ذلك شيكاً بهذا المبلغ ، باسم جمال عبد الناصر ووقع عليه جمال عبد الناصر بالاستلام ، وصدق محمود صدق مراد نائب البنك المركزى آنذاك على التوقيع ، وتم تحصيله وأودع في حساب الرئيس جمال عبد الناصر في بنك باريس والبلاد الواطية^(٣) .

(١) المرجع السابق ص ١٧٢ - ١٧٤

(٢) المرجع السابق ص ١٨٩ - ١٩٠

(٣) المرجع السابق ص ١٩١ - ١٩٢ و ٢١٢

وبعد وفاة الملك سعود في فبراير سنة ١٩٦٩ طالب ورثته بهذا الدين ، وقابل الشيخ حسين شكرى مندوب الورثة الدكتور فؤاد الصواف وكيل وزارة الاقتصاد لشئون النقد لهذا الغرض ، فقال له الدكتور الصواف إن هذا المبلغ دين على تركة الرئيس عبد الناصر ، ولكن مندوب الورثة أحضر القرار رقم ١٣٥٠ الذى يفيد التزام الحكومة المصرية بالسداد وكان ذلك فى حياة عبد الناصر وبالضبط فى ١٢ فبراير سنة ١٩٧٠ . وقامت الحكومة بسداد هذا الدين .

ويلاحظ أن القرار رقم ١٣٥٠ لم ينشر فى الوقائع الرسمية وقد نشرت القرارات التى سبقتة والقرارات التى جاءت بعده .

والعجيب أن البنك المركزى قام بإضافة المبلغ المعادل لقيمة هذا القرض بالعملة المحلية ، ولا يدرى الإنسان كيف نقترض عملة صعبة وتحصل لحساب جمال عبد الناصر ، ثم نخوف الفضيحة يضاف ما يعادلها بالعملة المحلية ، ويرز الأستاذ جلال الحامصى هنا عدة أسئلة :

١ - كيف نقترض بالعملة الصعبة ونسدد القرض بعملة صعبة - كذلك ، ولا نحصل مصر على هذه العملة بل نضاف عملة محلية بدلها ؟ وألا يدخل ذلك فى نطاق تهريب العملة ؟ .

٢ - من أين لجمال عبد الناصر بهذه الملايين من العملة المحلية حتى يحتفظ لنفسه بالعملة الصعبة ويسددها بالعملة المحلية ؟ .

٣ - لماذا لم ينشر قرار القرض فى الوقائع المصرية ؟ وقد عوقب الدكتور جمال العطينى عقاباً صارماً عندما نشر مقالا بالصحف ينتقد فيه عدم نشر القرار ، وكان عقابه بحجة أن تصرفه مضاد للشورى ، وأنه استخدم الصحافة التى هى ملك للشعب ضد مصالح الشعب^(١) .

٤ - هل كان الوقت ملائماً لمثل هذا القرض في ساعات يكتب عبدالناصر خلالها استقالته ؟ أو أنه كان يدبّر لمستقبل حياته بعد التخلي عن الحكم الذى أعلنه بعد ذلك بساعات (١) ؟

٥ - وهل كان الوقت مناسباً لقرض كهذا يسدد خلال عام على الرغم مما ستقبل عليه البلاد من ضائقات مالية عقب الهزيمة المدمرة وما تستلزمه من نفقات .

ولكن يبدو أن عبد الناصر لم ينس نفسه وأولاده أبداً في أحلك الظروف ، وكأنه كان يهتف : النجاة لى ولأولادى وليتلع الطوفان كل الناس .

ويبقى أن يتضح أن الملايين الخمسة التى قدمت هبة ومساعدة للمجهود الحربى والتى حصلت لحساب عبد الناصر لم يطالب بها الورثة لكونها هبة ، ولم تعلم الحكومة المصرية شيئاً عن هذين المبلغين (٢) .

- عند ما رشح الليثى عبد الناصر بالإسكندرية لمجلس الأمة سنة ١٩٥٧ دفع له أخوه جمال عبد الناصر مبلغ ٣٠٠٠ ر.جنيه من المصروفات السرية وحملها الضابط سعيد حلیم سكرتير زكريا محيى الدين وزير الداخلية آنذاك وسلمها إليه بنفسه ليصرف منها على المعركة الانتخابية (٣) .

وإذا كان لى أن أعلق بكلمة على هذا التصرف فهى أن شقيق عبد الناصر لم يحتج وما كان له أن يحتاج لنفقات المعركة الانتخابية ، فما كان أحد يستطيع أن يواجهه أو يعارضه :

- يقول الأستاذ جلال الدين الحامصى : وهناك واقعة مؤكدة هى أن

(١) المرجع السابق ص ٢٠٧ .

(٢) نفس المرجع ص ١٩٣

(٣) نفس المرجع ص ٢٠٤

واحدة من بنات عبد الناصر طلبت من الإصلاح الزراعى عام ١٩٧٥ أن يبيعها قطعة من الأرض بالقرب من فندق مينا هاوس مساحتها ٢١ فدانا وأبدت استعدادها لدفع الثمن المبدئى للقطعة وهو مائتا ألف جنيه ، ولكن الإصلاح الزراعى أفاد أن هذا الثمن المبدئى تحدد فى عهد كانت الأرض رخيصة الثمن ويتوقع أن يتضاعف ثمنها الآن . فتوقفت عن السير فى المزاد الخاص بهذه القطعة ويتساءل الأستاذ الحامصى : من أين لابنة الرئيس الفقير هذا المبلغ الضخم؟ (١) .

وقد ظهرت هذه الحادثة فى (مانشيتات) حمراء بصحف دار التعاون ثم أسدل عليها وعلى نظيراتها الستار .

رأى الأفارقة والأسويين فى عبد الناصر :

هناك رأى انتهى له باحث عاش فترة طويلة يتدارس شخصية عبد الناصر ، وهذا رأى هو أن الأفارقة والأسويين كانت سياستهم عن عبد الناصر تلخص فى جملة واحدة قصيرة هى « الله يسعده ويبعده » أى الله يسعده بشرط أن يظل بعيداً عنا (٢) .

رغبته فى إذلال الأعزاء :

عن هذا الموضوع ننقل سطوراً خطيرة من كتاب مهم ، وهذه السطور هى : « ما من شك فى أن الرئيس الراحل كان يمارس متعة ظاهرة وباطنة فى أن يضع أبناء كبار الرجال قبل الثورة ليكونوا فى وظائف «الشماشجية» (٣) وكثيرون من أصحاب النفوذ والمكانة السياسية قبل الثورة رفضوا أن يصبحوا عبيداً لعبد الناصر فنزل بهم الهوان وصودرت أموالهم ليعانوا

(١) المرجع السابق ص ٢٠٦ - ٢٠٧

(٢) ضياء الدين يبيرس : أسرار حكومة يوليو كما يرويها فتحي رضوان ص ١٠١

(٣) المرجع السابق ص ٥٦ - ٥٧

الجلوع ، وهذا الخلق يفسر لنا كثيراً من التصرفات التي ارتبطت بالأسر التي كان لها مجد قبل الثورة .

تاريخ بلا وثائق :

هذا العنوان هو عنوان كتاب أصدره الدكتور إبراهيم عبده وصف فيه تاريخ مصر في عهد عبد الناصر ، وأنا أقتبس هنا هذا العنوان لأروى حادثة خطيرة تتصل بعهد عبد الناصر للوثائق التاريخية ، وقد سمعت هذه الحادثة من صاحبها مباشرة وهو المؤرخ الأستاذ أحمد عطية الله الذي كان في مطلع الثورة يشرف على إدارة المطبوعات وكان قريب الصلة بقيادة الثورة ، يقول الأستاذ أحمد عطية الله :

حرصت على أن أجمع أخبار الثورة من قادتها قبل أن تزدحم الأحداث في أذهانهم فينسوا أدوارهم التي قاموا بها في الإعداد للثورة وفي تنفيذها وفي برنامج الحكم بعد نجاحها ، وقابلت عدداً وفيراً منهم وسألتهم وأجابوا ودونت هذه الإجابات التي جمعت لدى ثروة تاريخية مهمة فيها ما لا يعرف الناس ، وسمع جمال عبد الناصر عن هذا العمل ودبر شيئاً ، وفي يوم تلقيت محادثة تليفونية من مدير مكتبه (أمين شاكر) وزير السياحة فيما بعد ، ونقل إلى عتاب الرئيس جمال عبد الناصر لأنني لم أقابله لأدون رأيه ودوره في هذا الموضوع . فقلت له إن هذا شرف كبير ، وهو يثرى الهدف التاريخي الذي أعمل له ، فدعاني لمقابلة الرئيس جمال عبد الناصر وطلب مني أن أحضر (كشاكيل) الأقوال فربما أراد الرئيس أن يطلع على بعض الآراء ، وحددت موعداً للمقابلة ، وبالحق بأن طلب مني أن أتفرغ زمناً طويلاً لأن مثل هذه المقابلة قد تطول .

وقبيل الموعد المحدد كنت هناك مع أمين شاكر الذي أحسن استقبالي ورحب بي ، وطلب إلى مشروباً سريعاً ، ودق الجرس في مكتب أمين شاكر ، وكان الذي يدق الجرس هو الرئيس جمال عبد الناصر ، فاستعد

أمين شاعر للمثول بين يديه ، وطلب منى حقيية (الكشاكيل) ليوصلها للرئيس وليخلى الحجرة للقاء التاريخي .

وسلمته (الكشاكيل) ، ودخل وخرج ليقول لى لحظة قصيرة لأن الرئيس مشغول بـ ومراً الوقت وطلب لى مشروباً آخر ، ودخل ثانياً ثم خرج لينقل لى أن لقاء عاجلاً حدث مع سفير أو وزير وأخيراً طلب منى تأجيل اللقاء ليحدثه سريعاً لأن الرئيس قد تعب هذا اليوم .

ومرت الشهور والسنون والموعد لم يحدد ، واختفت (الكشاكيل) إلى الأبد ، والعجيب أن بعض الذين تحدثوا لى ووقعوا بامضاءاتهم على أحاديثهم انطلقوا فيما بعد يتكلمون كلاماً جديداً هو إلى الاختراع و (الفبركة) أقرب وهذا هو السر فى صعوبة كتابة تاريخ هذا العهد لأن قادة العهد حرصوا على إخفاء هذا التاريخ .

الداهية :

فى القاموس كلمة « الداهية » لها معنيان تقول : رجل داهية أى ذو حيلة وسياسة ، وتقول نَزَلَتْ بِالرَّجُلِ دَاهِيَةٌ أى نكبة ومصيبة ونحن هنا نتكلم عن « الداهية » بمعنى نكبة ومصيبة ، والكلمة مأخوذة من تعبير لشمس الدين بدران ، يقول فؤاد المهداوى محافظ الصحراء الغربية سابقاً إنه عند ما حدثت هزيمة يونيو ١٩٦٧ تم الاتفاق بين الرئيس والمشير على التنحي وترشيح شمس بدران لرياسة الجمهورية (وفى بيان التنحي رشح جمال عبد الناصر زكريا محيى الدين ، فقد كان عبد الناصر متمسكاً بالحكم العسكرى ، ولم يُرَدِّ له الغروب بعد ما أنزله بمصر من أوجاع ونكبات) . ثم فوجئ شمس بدران بجمال عبد الناصر يتصل به يوم ١٠ يونيو ويبلغه بقبوله العودة عن التنحي ، وأنه سيرسل إلى مجلس الأمة خطاباً بذلك ، وقد ردَّ عليه شمس بدران بقوله « يادى الداهية » (١) .

تلك لقطات عن عبد الناصر الذى لقبوه « بالزعيم الخالد » ولكن الذى يتحتم أن نذكره هنا هو أن المسئولية لا تقع عليه وحده وإنما تقع على هذه الجماعة التى حكمت البلاد ، لا لصالح البلاد ، ولا لصالح الشعب ، وإنما لتستمتع هى بأكثر مما استمتع به الملوك والأباطرة على حساب الشعب المسكين والوطن الجريح .

إن الدراسة التى نثبتها هنا مستقاة من كلام هؤلاء القادة ، ونقصدها أن نوضح أن ما أوقعه العسكريون بالبلاد شئ طبيعى ، وما كان من الممكن أن يحدث غيره لقلّة الثقافة وقلّة التجربة ، وبطبيعة الدكتاتورية التى يحتملها النظام العسكرى ، ونحذر كل الشعوب من الحكم العسكرى فهو يحمل الدمار أئى سار ، وأبسط مثال لذلك ما يتحتم أن يقع للهندسة والطب من كوارث إذا قام الطبيب بعمل المهندس وقام المهندس بعمل الطبيب ، وإن حماية البلاد أسمى ما تتطلبه الأوطان ، فليعكف رجال الجيش عليها ، فهم يؤدّون مهمة عظيمة ، فإن تجاوزوا هذه المهمة فسد الجيش وفسدت السياسة ، وبالتالي تنزل بالبلاد أقصى أنواع النكبات .

الناصرية

كلمة مهمة صكت آذاننا فترةً طويلة ، ويجدر بنا أن نتناولها بالعرض في ختام تعريفنا بعبد الناصر، ومن الواضح أن هناك بعض المذاهب الإسلامية التي تُنسب لأصحابها كالحنفية والشافعية . . . وهذه تدل على اتجاهات محددة لأصحابها في الفروع التشريعية في الإسلام . . .

وهناك في الاقتصاد العام مذاهب محددة كالرأسمالية والماركسية التي تتكلم عن قانون فائض القيمة ، وعن المادية التاريخية ، والصراع بين الطبقات . . .

فهل كان لعبد الناصر فكر مرسوم يعمل في ضوئه ؟

هل كان له خط واضح قطع فيه شوطاً وترك لتلاميذه ومريديه أن يكملوا الشوط ؟

هل كان له منهج محدد في مشكلات الداخل والخارج يسير فيه ويتابع المسيرة ؟

هذه أسئلة مهمة إذا أجيب عليها بالإيجاب كان من الممكن أن توجد « الناصرية » وأن يستمر لها أتباع وأشباع .

والذي يستعرض بتؤدة حياة عبد الناصر في الداخل والخارج يجد أنه فعل الشيء وضده في أكثر الأحوال ، وصادق أفراداً وجماعات ثم عاداهم ، وأمر بشيء ثم نهى عنه ، وكانت حياته أشبه بمقياس حرارة يوضع في ماء ساخن ثم بارد ثم ساخن . . . فلا يستقر ارتفاعاً وانخفاضاً .

وستقدم نماذج من تصرفات عبد الناصر لتقيس بها مبادئه :

— عندما بدأ في إقامة أسطورة السد العالى أذاع وأشاع أنه سيسيل شهداء ولبناء ، وأن ملايين الأفدنة ستزرع وتحتاج لأيد عاملة ، وهتف بالناس ألا يسمعوا لمن يقول بتحديد النسل أو تنظيمه ، فإن مصر تحتاج للملايين كثيرة من البشر .

ثم عُنِيَّ في الستينات بتنظيم النسل ، وأطلق وزراءه وكل وسائل الإعلام للحد من التكاثر ، وسُخر من أن يتولى وزارة الشئون الإجتماعية وزير (حافظ بدوى) عنده ١١ ولدا .

وبهذه المناسبة نذكر القارئ بمئات الملايين من سكان الصين ولكن الثورة الرشيدة عندهم ، لم تقنع بأن تقدم لهم الزاد والكساء بل حققت قبرا هائلا من الفائض في الأطعمة والأكسية غمرت به جوانب الأرض .

ونذكر القارئ كذلك أن كوريا التي عانت الدمار في الحروب استطاعت في مدى وجيز أن تحقق المعجزات في ميادين التقدم والتطور ، واندفعت بتقدمها ورجالها وإنتاجها إلى أقطار كثيرة .

— في مطلع الثورة ارتبط بأمريكا ارتباطاً وثيقاً جعل السفير الأمريكي بمصر يحضر وحده من بين السفراء مغادرة الملك فاروق للبلاد ، ويقال إن أمريكا كان لها تدبير في قيام الثورة وفي حمايتها من تدخل بريطانيا ، كما ذكرنا من قبل .

وبعد فترة وجيزة هاجم أمريكا أشد هجوم ، وكال لها اللعنات ، وأعلن عليها العداء كما يقول كاتب وحيه محمد حسين هيكل^(١) .

— وقف من الملك سعود ومن الملك فيصل مواقف عجيبة؛ ففي خلال

(١) بصراحة عبد الناصر من ١١٩ و ١٢١

حكم الملك سعود هاجمه وعاداه للدرجة أنه كما يقول هيكل دخل حرب اليمن حتى لا يعطى الملك سعود فرصة لتحقيق انتصار آخر بعد الانتصار الذى حققه بعملية انفصال سوريا عن مصر (١) وكان فى هذه الأثناء شديد القرب من فيصل ، فلما عُرِّل الملك سعود وجاء الملك فيصل هاجمه أشد هجوم وأقساه ، واحتضن الملك سعود وأحسن استقباله .

- ومواقف عبد الناصر من الملك حسين مشهورة معروفة وصلت فى عدائها إلى المساس بأمه ، وهو موقف بعيد كل البعد عن الشهامة العربية ، ثم كان إليه صديقاً فى كثير من المواقف أهمها موقفه منه قبيل حرب سنة ١٩٦٧ هـ .

- وللإخوان المسلمين مع عبدالناصر حديث بالغ العجب ؛ فقد احتضنهم دون بقية الأحزاب ، وحل الأحزاب وأبقاهم ، واختار منهم بعض وزرائه ، وأمضى معهم بعض سهراته ، ثم انقلب عليهم وحشاً كاسراً ، قتل ودمر وعذب ، وسجن دون حق ودون هوادة .

- ولعبد الناصر نفس الموقف مع الشيوعيين لقد غضب عليهم فحشدهم فى السجون ، ووضعهم تحت عذابه المهين ، ثم رضى عنهم فأسلمهم زمام الأمور فى البلاد ، فى الصحافة والتخطيط ، واتحاده الاشتراكى ، وكل أركان الدولة .

- وروسيا تقرّب إليها وتباعد عنها ، وكان فى الحالى مغالياً ، فهو مرة يهدد ويزجر ، وهو أخرى يلين ويرحب ويعقد الاتفاقات ويجلس مع الخبراء ويسلم زمام الأمور للسوفيت ليتحدثوا عن مصر ، ويعلن أنه يقبل ما يقبله لنا هؤلاء الأوصياء .

وبهذه المناسبة نذكر أنه طالما صرخ فى الجماهير بأن ما أخذ بالقوة لا يسترد

إلا بالقوة ، وكان في نفس الوقت يسلم الأمور للاتحاد السوفيتي ويعلم لهم أنه يقبل ما يرتضونه كما سبق القول .

— وهو يتطلع إلى توسيع نفوذه في العالم فينشر المراكز الثقافية في أمكنة متعددة في الدنيا ، ويخترع من كلية دار العلوم وحدها أربعة أساتذة ليتولوا إدارة هذه المراكز ويعملوا مستشارين ثقافيين ، وكان كاتب هذه السطور واحداً من هؤلاء وكنت بلندنيسيا ، وكان الآخرون في هولندا ، والعراق ، ونيجيريا ، وبعد سنوات قليلة انكمش هذا النشاط وقفلت هذه المراكز وعاد كل الموظفين ، ويقال إن إسرائيل استأجرت بعض الأمكنة التي كانت مراكز ثقافية مصرية ، وأخذت تدبرها ضد مصر وضد العرب .

وبهذه المناسبة نقرر أن آلاف الكتب التي كانت بالمراكز الثقافية قد اختفت أو احتوتها الصناديق ، وأسلمت للضياع .

— والعرب نال زعمائهم من عبد الناصر كل هوان وتخدير ، وكان يتكلم عن هؤلاء الزعماء واصفاً إياهم بأحط الصفات ، وقل من نجا من عدوانه ومؤمراته ، مع أنه كان يصبح بأنه راعي العروبة وحبيب العرب .

— ورفاقه في مجلس الثورة الذين ارتبط مصيره بمصيرهم في أخطر عمل يقوم جماعة ، هؤلاء الرفاق سقطوا بضربانه واحداً بعد واحد ، وعرفوا العزل والاعتقال وتحديد الإقامة ، كما عرفوا صوراً من الهوان ، كان بعضها أمام الجماهير بل سقط واحد منهم صريع سم قضى عليه .

وأمثلة أخرى كثيرة تذبذب فيها عبد الناصر ، هي وقائع يصعب حصرها لكثرتها ، ولاشك أن فيما أوردناه كثيراً من الغناء .

فهل يمكن بعد ذلك أن نقول إن عبد الناصر كانت له مبادئ تمسك بها وعمل لتحقيقها .

إنها كلمة حق قوية وواضحة لقد عاش عبد الناصر لنفسه وذويه ، قشيد أفخم المبادئ وكون أعظم الثروات لأسرته ، وكان مستعداً أن ينتقل من اليمن اليسار ومن اليسار لليمن إذا كان هذا سيحقق له منفعة خاصة .

وقد أدركت الجماهير ذلك فانفضت عن أولئك الذين أسموا أنفسهم ناصريين ، ولم يستطع « كمال رفعت » الذى رشح ناصرياً فى انتخابات سنة ١٩٧٦ أن يحصل على التأمين الذى دفعه لأن أصوات الناس أعرضت عنه .

والعجب أن الحزب اليسارى اتخذ من عبد الناصر زعيماً له ، ولا يجهل أحد ما كان من عداء بين خالد محيى الدين زعيم هذا الحزب وبين عبد الناصر ، ويتخذ هذا الحزب شعاراً له تلك الكلمات الجوفاء التى كان يطلقها عبد الناصر ، وهى « حرية - اشتراكية - وحدة » ومن الواضح أن عبد الناصر لم يؤمن بالحرية ولا بالاشتراكية ولا بالوحدة ، وأن كل تصرفاته كانت ضد هذه الاتجاهات ، فلم تعرف البلاد الحرية فى عهده ، وغمرتها عبودية قاسية ، وكان القتل والتعذيب هما البديلان لكل من انتفض يطالب بالحرية له وللناس ، أما اشتراكية عبد الناصر فقد وصفها أنور السادات بأنها اشتراكية الصنم الذى صنعه ووقفوا يعبدونه ، اشتراكية توزيع الفقر على الناس ، أما الوحدة فلا مدلول لها إلا التفكك الشامل الذى نمر البلاد العربية طيلة العهد الناصرى البغيض .

ومن هنا يتحتم أن تختفى كلمة « الناصرية » مع اختفاء الإنسان الذى اشتقت من اسمه حروف هذه الكلمة .

أول حاكم مصرى منذ ألفى عام !! :

كان عبد الناصر - كما قلنا من قبل - أول حاكم حقيقى فى عهد الثورة .
وبهذه المناسبة شاع ادعاء بأن الثورة جلبت لمصر حكاماً مصريين بعد
أن «حِكِمَتْ» بالأجانب منذ عهد طويل يقدِّره بعضهم بألاف السنين^(١) .
ولعل هذه الفكرة الجاهلة انحدرت من كلمات أنتونى ناتنج ونصها :
« بعد عزل فاروق تولى حاكم مصرى حكم مصر ، وذلك لأول مرة منذ الغزو
الفارسى من ٢٥٠٠ سنة تقريباً » وفى تقديرى أن كلام أنتونى ناتنج كلام
مستعمر يهيمه طعن الشعوب التى تحاول طرد الاستعمار ليُضعف من قوتها ،
وفى مناقشتنا لهذا الادعاء الذى يرى أن جمال عبد الناصر أول حاكم مصرى
منذ حوالى ألفى عام نسأل سؤالين مهمين .
- إلى أى مدى يصح هذا الادعاء ؟

- ولماذا تحرص الأوطان على أن يحكمها مواطنون منها ؟

فى تقديرى ينبغى أن نجيب عن السؤال الثانى قبل الأول ، فى الإجابة
عن هذا السؤال تمهيد للإجابة عن السؤال الأول ، ومن الواضح أن كل
وطن يحرص على أن يحكمه أحد أبنائه ليكون هذا عميق الصلة بآمال الوطن
شديد الإخلاص له ولأبنائه ، وليكون نابعاً من البيئة ، ونبت الأرض ، وليكون
للمواطنين ابناً وأخاً وصديقاً ، يبدل أقصى الجهد لخدمة بلاده ، وخدمة مواطنيه ؛
بل تتجه كثير من الدساتير فى العالم لاختيار الرئيس لمدة واحدة كما هو
الحال فى لبنان (فالمدة ست سنوات) أو مدتين على الأكثر كما فى الولايات
المتحدة (ومجموع المدينتين ثمانى سنوات) . ويقولون عن سبب هذا التحديد
إن الرئيس ينبغى أن ينبع من الشعب وأن يكون عميق الصلة به ، ويُخشى
أن ينسى الرئيس نبضات الشعب بسبب حياته فى القصور ، ولهذا تلزم العودة

(١) انظر كتاب « مصر فى عهد عبد الناصر » ص ٢٣٦ .

للشعب من حين إلى آخر لاختيار من تتمثل فيه آمال الشعب ومعاناته وآلامه .
وعلى هذا فاختيار الرئيس من الشعب يقصد به خير الشعب وتحقيق
آماله ، فإذا لم يستطع أى رئيس أن يكون مصدر خير لشعبه فإنه يصبح كارثة
لا تقل أثراً عن الحاكم الأجنبي الذى يحكم البلاد لصالح دولته فى عهود
الاستعمار المقيت .

هذه هى الإجابة عن السؤال الثانى ، فلنعد للإجابة عن السؤال
الأول وهو :

إلى أى مدى يصح القول بأن حكام مصر قبل الثورة كانوا غرباء .
والحق أن القول بهذا قولٌ عجيب جداً ، ولا يستند إلى أى أساس ، وإذا ركزنا
إجابتنا على العصور الإسلامية التى خصصنا لها هذه الموسوعة فإننا نقرر أنه
لا يصح القول إطلاقاً بأن مصر حكمها أجنبي خلال هذه العصور ، ويعتبر
هذا القول دليل جهل بالفكر الإسلامى الذى يرى أن الأمة الإسلامية أمة
واحدة ، قال تعالى : « إن هذه أمتكم أمة واحدة » (١) .

وعلى هذا فقد كانت مصر جزءاً من العالم الإسلامى ، وكانت تابعة
لمقر الخلافة ، وكان كل مسلم يعد مواطناً فى ذلك العالم الإسلامى ، وكان
الخليفة يعيّن والياً على مصر كما يعيّن الولاة على مختلف الأقاليم ، وكان الحكيم -
كما ينبغي أن يكون دائماً - مسئولية عظمى ، يختار له الخليفة أنقى رجاله ويتابع
أعمالهم وإخلاصهم ، فإذا أهمل الخليفة أو والى فذاك نكوص بالعهد والالتزام
فى الإسلام .

وإذا وصلنا إلى عصور التفكك واستقلال المناطق وجدنا الذين حكموا
مصر كان يتوافر فيهم الشرطان اللذان يفصلان بين الحاكم المصرى والحاكم
الأجنبي ، وهذان الشرطان هما :

(١) سورة الأنبياء الآية ٩٢

١ — يحكمون البلاد بفكر نابع من الداخل وليس تبعاً لتعاليم وأوامر صادرة من الخارج .

٢ — يحكمون البلاد لصالح البلاد ، أى أن ثروات البلاد تبقى بها ولا يبعث بها الحاكم للخارج ، كما يفعل ممثل الاستعمار الذى يجمع الثروات ليرسل بها إلى الدول المستعمرة .

وهذا الوصف ينطبق إلى حد كبير على أحمد بن طولون والإخشيديين والأيوبيين ، وينطبق انطباقاً تاماً على الفاطميين والمماليك وأسرة محمد على ، والفرق بين الطولونيين والإخشيديين والأيوبيين من جانب وبين الفاطميين والمماليك وأسرة محمد على من جانب آخر أن المجموعة الأولى كانت ترسل بعض الهبات لعاصمة الخلافة ، ولكن هذه الهبات لم تعد دليل تبعية ، وإنما كانت دليل ارتباط إسلامي كان الجميع يحرصون عليه ، ولم يكن للخليفة آنذاك سلطان يستطيع به أن يعين وأن يعزل ، فقد أصبحت الوراثة سائدة ، أما المجموعة الثانية فكان استقلالها تاماً ، وكان الخليفة فاطمياً أو عباسياً يقيم في القاهرة ، وسرعان ما تمرد محمد على على العثمانيين وهاجمهم .

ومن الواضح أنه لم يبق لابن طولون وطن غير مصر ، وأن جهوده كانت كلها لخدمة هذه البلاد ، أما الفاطميون فلأنهم عند انتقالم لمصر من الشمال الإفريقي نقلوا معهم ثرواتهم وحرسهم بل نقلوا جثث آبائهم ، وهذا أبلغ دليل على ارتباطهم بمصر ، ونشأ سلطان الأيوبيين بمصر ثم مد صلاح الدين سلطانه إلى الشام ، أما المماليك فقد أصبحوا مصريين تماماً ولا وطن لهم إلا مصر ، ويسمى الجبرتي « الأمراء المصريين » وتحكى الروايات قصة شقيقين من القوقاز يبعث في عهد الصبا أحدهما إلى ثرى فرنسي والآخر إلى ثرى مصرى وتقدمت السن بالصبيين فأصبحا شابين ، ودفعتهما العبقريّة إلى مكان الصدارة في الجيش وفي الحملة الفرنسية التي الأخوان أحدهما مهاجم في الجيش الفرنسي ، والثاني مدافع عن مصر ، وعرف كل منهما شقيقه وقبلة ، ثم انتزع كل

منهما نفسه من أخيه ليدافع ببسالة عن وطنه وخرّ أحدهما صريعاً بسيف
الثاني ، فقد أصبحت الوطنية هي كل شيء عنده .

وعلى هذا كان أحمد بن طولون عندما استقل بمصر مصرياً بدون شك ،
وكذلك كان الفاطميون والأيوبيون والمماليك وأسرة محمد علي ، والدستور
المصري الجديد (دستور سنة ١٩٧١) يتفق مع هذا تماماً ، فهو يشترط
في المادة ٧٥ منه أن يكون رئيس الجمهورية مصرياً من أبوين مصريين ،
ومعنى هذا أن الدستور لم يحتم عراقة في المصرية أو تسلسلاً مصرياً في
الأجداد ، وهذا وضع سليم فإن نقاء العنصر وصفاء الجنس شيء غير ممكن
فأكثر المصريين تجرّ في عروقهم دماء عربية أو دماء تركية أو شركسية أو
سودانية وهذا لا يتناقض أبداً مع مصريتهم ، وكثير من المصريين
لهم أولاد أعمام في الشام وفي تركيا ، ومن المستحيل أن يقلل هذا من صديق
في المواطنة لكل منهم تجاه بلاده ، وهذا يتكرر كثيراً في عشرات الأسر
العربية التي يوزّع أفرادها بين دول الشام ، بل يوجد بعض الأسر في دول
المغرب وفروع منها في أسبانيا والبرتغال..

وبناء على ذلك فن الخطأ التاريخي أن يعد فاروق غريباً عن مصر مهما
كان فيه من الأخطاء ، ففاروق مصري ولا وطن له إلا مصر ، وقد طردته
مصر ، لأنه خان الأمانة ، ولكن المصرية بقيت في دمه حتى كتب في
وصيته أن يدفن جثمانه بمصر بعد وفاته ، وجيء بهذا الجثمان ليوارى في
تراب مصر الذي حرم منه فاروق في حياته ، أما عن خيانة الأمانة فشيء
يحدث كثيراً من الحكام ومن غير الحكام ، وقد تُكشِف الخيانة في حينها
وقد لا تُكشِف ، وتنزل بالخائن عقوبات في حياته أو يفلت من العقوبة في الدنيا
لسبب أو لآخر ، ولكنه لا يفلت من عقوبة الآخرة .

وقد كان جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية العربية المتحدة (مصر
وسوريا) في المدة من ١٩٥٨ إلى ١٩٦١ ولا يمكن أن نقول أن هذا عصر

احتلال بالنسبة إلى سوريا أو أن الحاكم غريب ؛ ولو قد حسنت سياسة الحاكم لطال هذا العهد ، ولأمكن تحقيق مزيد من التجمع العربى ، وسنتحدث عن عهد الوحدة فيما بعد .

وقد عرفنا فى العصر الحديث جنسية تخلق كالجنسية السعودية التى تشمل أقاليم نجد والحجاز والملحقات ، وجنسية تفكك كالجنسية اليمنية التى أصبحت شمالية وجنوبية مع ما بين الاثنين من خلاف ومشكلات .

وبهذه الدراسة نصل إلى رفض الادعاء بأنحكام الثورة كانوا أولحكام مصريين لمصر منذ أمد بعيد ، فهو ادعاء قىل للذ قادة الثورة ، ولكنه كان طعنة فى مصر ، ما أجدرنا أن نردها ونستنكرها ، إن مصر قد نعمت باستقلالها التام خلال الفترة الإسلامية كلها ، وامتد سلطانها فى أكثر العصور الإسلامية فشمل الشام وأحياناً شمل السودان ، ولكن ذلك أيضاً لم يكن قط استعماراً للشام أو السودان ، وكانت تبعية مصر للعثمانيين تمشى فى نطاق التجمع الإسلامى ، ولم تتمرد مصر عليه إلا عند ما ظهر انحراف الخلفاء العثمانيين عن جادة الصواب ، وعندما عجزوا عن مقاومة الحملة الفرنسية ، فحينئذ حمل المصريون عبء الدفاع عن بلادهم ، وظلوا يحملونه بعد خروج الفرنسيين ، وقد اختار المصريون محمد على ؛ وما كانوا آنذاك يختارون أجنبياً لحكم بلادهم ، وقد برهن محمد على على إخلاصه لمصر فانتقل بها خطوات عظيمة إلى الأمام ، ولولا ضعف بعض أحفاده وخيانتهم ، ولولا سعار الاستعمار الأوروبى الذى تحدى محمد على فى حياته ، وتحدى الشرق كله من بعده لكان لمصر شأن أعظم .

وعند ما وُجِدَ الحاكم الأجنبى فعلا فى مصر منذ عهد الاحتلال سنة ١٨٨٢ فإن مصر ريفها ومدنها هبت فى ثورات متعاقبة حتى حمل الاستعمار عصاه ورحل .

ذلك فى تقديرى ما يجب أن يعرفه الناس من كل حذب ، وما يجب أن يعرفه هذا الجيل والأجيال التالية من المصريين .

محمد أنور السادات

لقد ذكرنا من قبل أن أنور السادات سنخصص له الجزء العاشر من هذه الموسوعة ، ولكن هذه السطور تكتب في مارس سنة ١٩٧٩ ومصر تمر بفرحة هائلة نتيجة للجهود التي بذلها السادات لوضع حد للمعاناة التي خلقها جمال عبد الناصر ، ولاسترداد الأرض التي أضاعها العهد الأسود السابق ، ومن هنا أحسست أن من الوفاء أن نتعجل بذكر كلمة عن أنور السادات على أن تكون كلمة مجملة نعود لها إن شاء الله في الجزء العاشر بالشرح والتفصيل .

وفي هذه العجالة عن أنور السادات نريد أن نسأل سؤالاً مهماً هو : هل يُعتبر أنور السادات مسئولاً عن عهد سلفه عبد الناصر ؟ .

قال أنور السادات في عدة مناسبات إنه مسئول عن عهد سلفه ، ونحن نعارض هذا الاتجاه ، فهو يخالف المقاييس الدينية والتاريخية التي يتحتم أن نخضع لها ، وفي قمة هذه المقاييس قوله تعالى : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » (١) وهي تضع على كل لسان مسئولية أعماله ، ثم إن أنور السادات لم تسند له أية وزارة عند ما تراحم أعضاء مجلس قيادة الثورة على الوزارات في عهد الثورة المبكر ، وسرعان ما بعد عن السلطة التنفيذية تماماً فأصبح سكرتيراً عاماً للمؤتمر الإسلامي ، ومشرفاً على دار التحرير للصحافة ، ووكيلاً لمجلس الشعب ثم رئيساً لهذا المجلس ، ولا يمكن بهذا أن يعد مسئولاً عن قرارات اتخذتها السلطة التنفيذية .

كما أننا سنرى فيما بعد أنه ألغى كثيراً من القرارات الجائرة التي اتخذت في عهد سلفه ، مما يدل على عدم رضاه عنها .

ونقطة ثانية نريد أن نتحدث عنها هنا هي هذه الجهود الكبيرة في السياسة

الخارجية التي نعتقد أنه عبّر بها عن اتجاه الجماهير العريضة في الشعب المصري ، ووفق في التعبير أعظم توفيق في حالتي الحرب والسلام ، فقد خطط للحرب ١٩٧٣ ، وباشرها بكفاءة هائلة رفعت رأس مصر ، وأعادت للمصريين ما فقدوه من كرامتهم في العهد السابق ، ثم دخل معمعة الصراع سلمياً ، ولقي من التوفيق في ميدان السياسة والمفاوضة مثل ما لقيه في ميدان الحرب والصراع ، ولم يتأثر بالشعارات الباطلة التي تصرخ بها حناجر ليس معها سلاح إلا سلاح المتنافات والأبواق ، وفي الحق إن شعب مصر كان خلفه كما رأيته بعيني وعقلي ، وكان يطمع أن يصل إلى اتفاق إن لم يحقق كل الأمل ، فإنه يحقق أكثره ، وذلك هو حكم التاريخ في كل قضايا المفاوضات ، وأشهد أن قلوبنا كانت معه ، ودعواتنا كانت تتصاعد لتأييده .

هذا هو التفكير العام حيال اتجاهات السادات الخارجية ، تفكير أحسست به ورأيتُه وسمعتُه ودونته ، أما الشئون الداخلية فشكلايتها تحتاج إلى تفاصيل ودراسات سيحفل بها الجزء العاشر إن شاء الله .

عبد الحكيم عامر

إن الذى يدرس حياة عبد الحكيم عامر مع عبد الناصر يدرك بوضوح أن عبد الناصر بنى عبد الحكيم عامر ليكون عوناً له ، فقد كانا صديقين من قبل الثورة ، وكانا متلازمين تقريباً ، ولكن الصداقة بين الاثنين لم تكن لله ولا للوطن ، وإنما كانت لمصلحة خاصة ، فقد حسب عبد الناصر أنه يصطنع عبد الحكيم عامر لنفسه ويسخره لتحقيق أطماعه ، وحقّق عامر ذلك لعبد الناصر فترة من الزمن ، ثم اتجه لبناء نفسه وتحقيق أطماعه هو ، وكان عبد الناصر يريد أن يحصل على ولاء الجيش عن طريق عامر ، ولكن عامر حصل على ولاء الجيش له هو لا لسواه ، فدبّ الخلاف بين الاثنين ، وحقّت البغضاء محل الحب ، وتمّ بين الاثنين اتفاق واضح جلى على أن ينعم كل منهما بسلطات هائلة على حساب الشعب المظلوم المكلولم ، وقد وقعت هزيمة إثر هزيمة بالجيش ، وكان ذلك يحتم التغيير فى قيادة الجيش ، ولكن هذه القيادة صرخت بأن دكتاتورية الحكم يجب أيضاً أن تختفى لأنها سبب الكوارث ، فتنازل الدكتاتور عن رأيه ، وأبقى القيادة فى اليد المرتعشة لينعم هو بالحكم المطلق ، ولمّا ضاق الدكتاتور بالقائد الذى هزّ الدكتاتورية وضع له نهاية ، ولكن أفول الزعيمين كان قد حان بعد الخسارة الهائلة التى نزلت بالبلاد والعباد .

تلك خلاصة حياة عامر ، نعود لها بشيء من التفصيل :

فى مطلع الثورة عندما وُضِعَ محمد نجيب رئيساً لها ، عينَ عبد الناصر عبد الحكيم عامر مديراً لمكتب نجيب ، ليكون لعبد الناصر عن طريق عامر تقدير حياة محمد نجيب ، وتنظيم اتصالاته ، وليعترف على كل حركاته .

ثم أعلنت الجمهورية ، وخلع محمد نجيب بمنصب رئيس الجمهورية

وأبعد عن الجيش ، ورُقّي عبد الحكيم أربع رتب مرة واحدة ، فانتقل من رتبة « صاغ » إلى رتبة « لواء » ، وعين قائداً عاماً للجيش ، وكان قرار تعيين عبد الحكيم عامر في هذا المنصب أول أمر يصدره محمد نجيب بعد إعلان الجمهورية^(١) ويقول محمد نجيب : إني أعترف أن هذا كان خطأ كبيراً وقعت فيه ، فقد شعرت بعد قليل أنني أصبحت في مركز أقل قوة بعد أن تركت قيادة الجيش^(٢) .

وخطا عبد الناصر بعامر خطوة أخرى ، فأبعد أعضاء مجلس القيادة عن وحداتهم العسكرية ، وقطع صلاتهم بالجيش ، وبهذا اعتقد أن الجيش أصبح له وحده عن طريق عامر .

ويقرر عبد اللطيف البغدادى نفس المعانى التى أوردناها بقوله : كنت أعتقد أن جمال عبد الناصر لم يرشح عبد الحكيم لقيادة الجيش إلا لتصبح له السيطرة السياسية على الجيش دون باقى المجلس ، وكان فى ذلك معتمداً على الصداقة المتينة بينه وبين عبد الحكيم ، وكنت أخشى عندما تولى عبد الحكيم أمر الجيش أن يصبح الجيش فى المستقبل أداة تدخل فى السياسة ، ومن الواضح أن الجيش إذا تدخل فى السياسة فسد الجيش وفسدت السياسة ، وأن هذه محصلة تجارب على مدى التاريخ ، واقترحت أن يتولى أمر الجيش ضباط محترفون بعيدون عن السياسة ، ولكن حالة عبد الناصر تمسك برأيه^(٣) .

وعندما عُيّن عبد الحكيم عامر قائداً عاماً للجيش استقال بعض كبار الضباط الذين كانوا قد بقوا فى مناصبهم لكفاءة عالية كانت بارزة فيهم ، وأعلنوا إن استقالاتهم احترام للرتب التى يحملونها ، ويعلق الأستاذ أحمد

(١) الأهرام فى ١٩ يونيو سنة ١٩٥٣ .

(٢) كلمتى التاريخ ص ٦٧

(٣) مذكرات عبد اللطيف البغدادى ص ٧٧ ، ٧٨

أبو الفتح على ذلك بقوله : إن تعيين عبد الحكيم عامر نصف تقليداً عسكرياً هو احترام الأقدميات ، وكان لهذا التعيين أعمق الآثار على النظام ، ليس في الجيش وحده ، بل في كل أجهزة الدولة (١)

وعلى الرغم من الهزيمة الساحقة التي منى بها عامر وجيشه سنة ١٩٥٦ فقد أصبح قوة يتحتم على عبد الناصر أن يوادعه ويخادعه ، ومن أجل هذا توالت عليه الألقاب والرتب ، فعين قائداً عاماً للجيش السوري والمصري خلال الوحدة ، وُرُقِيَ إلى رتبة « مشير » وخلع عليه عبد الناصر لقب « نائب رئيس الجمهورية » ثم أصبح بعد ذلك « النائب الأول لرئيس الجمهورية » (٢) ،

صفات عبد الحكيم عامر :

وهنا يتحتم علينا أن نعود إلى المراجع التي بين أيدينا لتعرف على صفات هذا الرجل الذي دفعه عبد الناصر إلى المحد دفعة إثر دفعة :

يقول أنور السادات :

— كان لعبد الحكيم عامر أخطاؤه بطبيعة الحال ، ولكن الأهم من ذلك أنه كان يسيء اختيار معاونيه بشكل فاضح ، وكان من أبرز ملامح شخصيته روح القبيلة ، فهو يساند معاونيه بالحق أو الباطل .

— عقب الانفصال قلنا لعبد الناصر إن عزل عبد الحكيم عامر كان يجب أن يتم سنة ١٩٥٦ ، لا في ١٩٦١ فقط ، لأنه لا يصلح من ناحية العمل العسكري (٣) .

(١) التحلى ص ٢٥٢

(٢) البحث عن الذات ص ٢٠٤ - ٢٠٥

(٣) البحث عن الذات ص ٢٠٥ و ٢٠٧

ويقول محمد حسنين هيكل :

إن عبد الحكيم عامر كان نصف فنان ، ونصف بوهيمي ، ولطيفاً جداً ، ولكنه من الناحية العسكرية توقف عند رتبة صاغ ، أى أنه يستطيع أن يقود كتيبة ، لكنه لا يستطيع أن يقود جيشاً ، لقد أصبح عبد الحكيم عامر ضابطاً سياسياً ، ولكن الضابط السياسى لا يمكن أن يكون مسئولاً عن الجيش (١)

ويورد الضابط أحمد حمروش مجموعة من الصفات الدقيقة لعبد الحكيم عامر فيقول :

— أحاط المشيرُ نفسهَ بحاشية سرعان ما عرفت فيه أسوأ الصفات فتمادت في سلوكها اللاأخلاقى واستغلت أموال الدولة أسوأ استغلال ، وكان الذين يقتربون من رجال مكتبه الذين يقودهم الصاغ على شفيق تأخذهم الدهشة من الجموح المكشوف في مجال اللهو والبذخ المبالغ فيه ، الأمر الذى أثر تأثيراً شديداً على قمة القيادة العسكرية وانعكس على بقية مستويات الضباط (٢) .

— عند ما عُيِّنَ على صبرى رئيساً للوزارة سنة ١٩٦٤ أصبح المشير عامر والمحيطون به يتصرفون أحياناً وكأنهم وحدهم فى الساحة لا يقيمون وزناً للوزارة فكانت التعيينات الكبرى تتم بترشيح من عامر ، وكان كثيرون ممن أدانتهم الرقابة الإدارية مستمرين فى مناصبهم بسبب مساندة المشير .

— كانت المتعة الشخصية هى الفلك الذى يعيش فيه عامر ، وأصبح

(١) بصراحة عن عبد الناصر ص ١٠١

(٢) مجتمع جمال عبد الناصر ص ١٣٩

ذلك معروفاً ومتداولاً، وكانت هذه المتعة تشغل تدخين الحشيش، والاتصال ببعض الفئات، والبدخ، الذي وصل إلى حد السفه، ونتيجة لعلاقة الضباط بالفئات تزوج المشير من برلتى عبد الحميد، وعلى شقيق من مها صبرى، وعبد المنعم أبوزيد من سهر فخرى^(١).

— كانت هناك عصابات فى مكتب المشير تشغل بالتهريب وبخاصة فى الأجهزة والآلات والدخان التى كانت تستورد من اليمن، وكانت تلك العصابة بقيادة الصاغ عبد المنعم أبوزيد وقد أداتهم المحكمة العسكرية^(٢)، ومن الحق أن نقرر أن عبد الناصر حاول أكثر من مرة أن يستبعد عامر على الأقل ليخلو له الجو تماماً، ولكن هذا كان قد مكّن لنفسه فى الجيش، وكان كلما أحس بغمزة من عبد الناصر يصبح ضد الدكتاتورية فيترجع عبد الناصر، ويتظاهر العدوان بالوفاق، كما أشرنا من قبل.

ولم يكن عبد الحكيم عامر قانعاً بالمناصب الكبرى التى يشغلها فى الجيش وفى السياسة، بل مدّ نفوذه فى عدة مجالات، فأخذ مسؤوليات عبد الحكيم السراج فى سوريا، وصارع زكريا محيى الدين حتى أبعده عن رئاسة الوزارة ليتولاها أحد معاونيه كما يقول أنور السادات^(٣) وأصبح رئيس لجنة تصفية الإقطاع، ورئيس لجنة مراجعة الترشيح لمجلس الأمة، وأصبح اسمه أو اسم أحد معاونيه موجوداً فى كل مجال.

ولم يدرك عبد الحكيم عامر مسئولية الرجل العام، فالرجل العام يتحتم أن يظهر أمام الجماهير على الأقل بمظهر لائق، ولو كان فى ذلك بعض الحرسان مما يشتهيه، ونتج عن الجهل بهذه المسئولية أن تزوج عبد الحكيم عامر

(١) مجتمع عبد الناصر ٢٢٢

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة

(٣) البحث عن الذات ص ٢١٥

من الفنانة « برلنتى عبد الحميد » فكان ذلك من أسباب الابتعاد النسبي
فى علاقاته بعبد الناصر (١) .

القائد المهزوم :

لا نعرف قط قائداً شنَّ الهجوم وجلب الهزائم المتكررة المريرة على
جيشه وأمته ثم بقى طامعاً فى الحكم مثلما فعل عبد الحكيم عامر وعبد الناصر ،
وهذا عمل عجيب يستحق أن نقف معه وقفة نعود فيها إلى تراثنا الفكرى
بإفريقية لنرى أن قبيلة اليوروبا كان من تقاليدها أنه إذا أرسل الملك حملة
عسكرية ثم فشلت ، فإنه يقتل نفسه قبل أن تعود حملته المهزومة إلى أرض
الوطن ، وإذا لم يقتل الملك نفسه ، فإن الشعب يرى أن تنفيذ القانون أمر
لا مفر منه فيتولى بنفسه قتل الملك ، وهكذا كان حق الهجوم أو إثارة
الحرب معناه النصر أو الموت بالنسبة للملك (٢) .

أين هذا مما أحدثه ناصر وعامر ، فقد دفعا مصر عدة مرات إلى
الحروب سنة ١٩٥٦ ، وخمس سنوات باليمن وسنة ١٩٦٧ ، وقدموا آلاف
الضحايا من الشباب وبلايين الجنيهات من الخسائر بسبب اضطراب الاستعداد
وسوء إدارة المعارك ، ثم ظلت رغبتهما فى الحكم شرسة وقوية غير مبالين
بالدماء والأرواح التى قضيا عليها ، ولم ينتحرا عامر - إذا كان قد انتحرا -
إلا عندما لم يجد وسيلة للحكم بعد أن ضيق عليه الخناق صديق الأمتس .

على أن أنور السادات بمتدح التقليد الذى كانت تسير عليه قبيلة اليوروبا
هقد قال للجمال عبد الناصر تليفونياً عندما أبلغه هذا أن عبد الحكيم عامر
انتحرا « والله إذا كان ده حصل فعلاً يبقى ده أحسن قرار اتخذه عبد الحكيم
كقائد خسر المعركة لأنى لو كنت مكانه كنت عملت كده يوم ٥ يونيه ،
فى التقليد العسكرية أى قائد ينهزم يعمل كده » (٣) .

(١) كلمات فؤاد المهداوى فى شهود ثورة يوليو ص ٢٦٨ .

(٢) فجر التاريخ الأفريقى ترجمة عبد الواحد الإيبابى ص ٩٠

(٣) البحث عن الذات ص ٢٥٢

ونختلف مع أنور السادات تاريخياً في نقطتين :

الأولى : أن عبد الحكيم عامر لم ينتحر لأنه انهزم ، بل انتحر - إن كان قد انتحر - لأنه لم يستطع أن يعود لأبنة الحكم وسلطانه كما فعل عقب الهزائم السابقة سنة ١٩٥٦ ، وفي سوريا سنة ١٩٦١ ، وفي اليمن طيلة خمس سنوات ، ولا حتى عقب هزيمة يونيو في الأيام الأولى من هذه الهزيمة ؛ بل إنه وزع الشربات يوم ١٠ يونيو عند ما ظهر الأمل في عودته لمركزه بالبحيش ، كما ذكرنا من قبل وكما سنروى بعد قليل .

الثانية : أن عبد الناصر كان شريكاً لعامر أو سابقاً له في تحمل أسباب الهزيمة ونتائجها ، ولذلك هزته كلمات السادات كما يتضح من عباراته بكتاب « البحث عن الذات » (١) ، ولو أن أنور السادات لم يكن يقصد أن يذكر جمال عبد الناصر بالتزامه ، فقد كان يعرف حرصه على الحياة .

فترة صراع :

ولنعد إلى الفترة التي سبقت نهاية عبد الحكيم ، فإنه عقب الهزيمة اتفق ناصر وعامر على الاستقالة ، وعلى تعيين شمس بدران رئيساً مؤقتاً للجمهورية وكان شمس من أعوان عبد الحكيم ، ولذلك تراجع عبد الناصر عن هذا الاتفاق وأعلن تعيين زكريا محيي الدين نكابة في عامر ، وحتى لا يهين شمس الدين أي أمر لصالح عامر ، وقنع عامر بذلك ، ولكن سرعان ما قامت تمثيلية ٩ ، ١٠ يونيو وسرعان ما استجاب ناصر للعودة إلى السلطة ، فثار عبد الحكيم لذلك ، وثار جماعته هاتفة « لا ناصر بدون عامر » وانتقلت المسألة إلى صراع بين صديق الأمل ، والذي يقرأ كتاب « البحث عن الذات » (٢) . في هذا الموضوع يحس بالم قاتل لأن الزعيمين .

(١) راجع رد الفعل على جمال عبد الناصر عندما سمع كلام السادات عن ضرورة انتحار القائد المنهزم في الصفحة المذكورة (٢٥٢)

(٢) اقرأ ص ٢٤٦ وما بعدها .

نسيا تماماً الدماء التي لم تجف بعد في سيناء ، ونسيا الجزء الغالى من الوطن الذى استولى عليه العدو ، ونسيا توقف قناة السويس ، والخراب الذى حل بمنطقة القناة ، ومئات الملايين التي كسبها العدو أسلحة ومالاً في سيناء ، نسيا كل هذا وراحا يتصارعان للحصول على مجد شخصي لهما ، وكان عبد الناصر لا يريد شريكاً بعد ذلك ، فألقى القبض على عامر ، ثم قبض على معاونيه ، ولم يجد عامر طريقاً للمجد فأثر الفرار بالانتحار .

ونختم هذه المأساة بعبارة مريرة أشرنا لها من قبل هي أنه لما عاد عبد الناصر عن التنحي في ١٠ يونيو توجه الضباط الموالون لعبد الحكيم عامر طالبين منه عودته أيضاً وذهابه إلى مكتبه في اليوم التالى مباشرة ، وقد وافقهم المشير على ذلك فوزعوا الشربات (١) .

ولئن أتصور أن هذا « الشربات » لم يكن أحمر حتى لا يذكرهم بالدماء القانية التي كانت لا تزال تتدفق في سيناء وعلى ساحل القناة ، لقد نسي هؤلاء كل واجب ولم يبق أمامهم إلا الأناية المفرطة ، ولا بد من حساب على هذه الخيانة إن لم يكن في الدنيا فليكن يوم المعاد .

(١) كلمات الضابط فؤاد المهداوى محافظ الصحراء الغربية سابقاً في شهود ثورة يوليو

زكريا محي الدين

زكريا محي الدين من بيت غنيّ ولهذا كان عبد الناصر يغمزه من حين إلى آخر بما عنده من ثراء ، وكان أقدم من عبد الناصر في الرتبة ، ولذلك كان عبد الناصر يؤكد - كما رأينا من قبل - أن المسألة ليست مسألة أقدمية ، وذلك لكي يستبعد زكريا محي الدين .

ويروى في ذلك أنه في يوم ٢٢ يوليو سنة ١٩٥٢ كان الثوار مجتمعين وقد أعدوا خطة التحرك ، فحضر زكريا وأعطاه عبد الناصر الخطة ليقرأها بصفته المسئول عن التحركات ، فقرأها وقال : حسن ، على بركة الله . ووضع الورقة وانصرف . وهنا التفت عبد الناصر وقال للحاضرين : عايز يبقى ريس والا إيه ؟ (١) .

وعندما استقر الأمر لعبد الناصر كان شديد الرغبة في الاستهانة بزكريا محي الدين ، ويروى عبد اللطيف البغدادي أنه كان دائماً يصفه بأنه «الأصفرأوى» وأن عبد الناصر بلغه أن زكريا مرة اقترح على البغدادي أن «يشيلوا» جمال عبد الناصر فطلب عبد الناصر البغدادي وقال له عن زكريا «هو يقدر يشيل غفير؟ أما يشيل رئيس الجمهورية (٢)؟» .

ويروى عبد اللطيف البغدادي أن عبد الناصر لما ذهب إلى يوغسلافيا وعين زكريا محي الدين نائباً عنه عاتبه عبد الحكيم عامر لأنه تخطأ ، وقال إن الضباط لا يعترفون بزكريا (٣) .

(١) الصائون يتكلمون ص ١٣

(٢) المرجع السابق ص ٤٢

(٣) مذكرات البغدادي ص ٣٦٤

وعندما ساءت علاقة عبد الناصر بعامر قدم عبد الناصر زكريا محي الدين. ليضرب به صديق صباه ، فعين زكريا رئيساً للوزارة سنة ١٩٦٥ ، ولكن زكريا لم يمكث في منصبه إلا شهوراً قليلة ، إذ سرعان ما اختلف مع عبد الناصر ، ولو أن عبد الحكيم عامر كان وراء هذا الخلاف لأنه كان يكره زكريا ويريد أن تسند الوزارة إلى أحد رجاله ، وانتصر في ذلك فعين صديق سليمان رئيساً للوزارة ، وخرج زكريا من الوزارة وفي حلقه غصة ، ولكنه من النوع الكتوم لا يتكلم كثيراً (١) .

ويتكلم الكاتبان الروسيان بيلياف وبريماكوف عن زكريا محي الدين كلاماً يناسب اتجاهاتهما الشيوعية فيقولان : لم يؤيد إطلاقاً الأفكار الخاصة بتطور البلاد على الطريق المعادى للرأسمالية ، وهو من مؤيدي النهج القومي المتطرف ، غربي الميول ، روج رجاله لشعار (مصر - النيل - الوطن) . أثناء أحداث ٩ يونيو ١٩٦٧ ، كان ضد الإجراءات اللارأسمالية ، وكان يعمل لمناصرة القطاع الخاص (٢) .

تلك كانت عيوبه في نظر الاتجاهات الشيوعية ، ومهما يكن الرأي في زكريا محي الدين فلا يمكن أن نغفيه من تحمل مسؤولية التعاون مع هذه الجماعة التي جلبت أكبر الخسائر للبلاد ، وأصاب الإنسان المصري في كرامته وعرضه وماله ، وأغرقت في الخوف والقلق ، ولا ندرى متى يستطيع الإنسان المصري أن يتخلص من النكبات التي ألحقها به هؤلاء النفر .

(٤) البحث عن الذات ص ٢١٥

(٥) مصر في عهد عبد الناصر ٣٤

خالد محي الدين

من أسرة تستمتع بقسط وافر من الثراء كما ذكر عن نفسه في كتاب «شهود ثورة يوليو» ومع هذا فله اتجاهات يسارية ، وتلك واحدة من المفارقات التي نجدها فيه ، وهي في الوقت نفسه ظاهرة كثيرة الشيوخ ، وربما جاز القول إنها كثيرة الغموض ، فبعض أثرياء اليهود أو بعض كبار البورجوازيين يتجهون أحيانا إلى اليسار أو قل يتظاهرون بذلك لأسباب متعددة ليس هنا مجال ذكرها .

ونسير مع مفارقات خالد محي الدين لنرى ما يلي :

تربى سيادته تربية روحية ، فقد كان جده شيخا من مشايخ الطرق الصوفية ، ونشأ في تكية النقشبندية ، وقوى عنده الجانب الروحي ، وانضم للاخوان المسلمين ، وكان ضمن الجهاز السري بهذه الجماعة^(١) . ومع هذه التربية الدينية والاتجاهات الروحية ينتهى به المطاف ليكون يساريا ، وليكون سكرتير المجلس المصرى للسلام ، وعضو رياسة مجلس السلام الدولى ، ومن المعروف أن هذا السلام هو السلام الشيوعى ، وهى كلمة اصطلاحية ، ليست خاضعة للمدلول اللغوى للكلمة ، ولت خالد محي الدين يعود أدراجه للاتجاه الروحي ، ويقرأ من جديد عن الإسلام وحضارته فى ذلك نفع له ولنا كبير ، وبعدئذ عن الإلحاد الذى هو الطابع الحقيقى للشيوعية .

وتنبعث هذه الأمنية فى نفسى لأننى أحس أن يسارية خالد محي الدين بوجه خاص لم تبعد به عن الإسلام ورحابته ، ولكن الإسلام يحتاج لجهود خالد محي الدين كلها ، ولا يقبل الإسلام أى انحراف فى رجل له هذا الماضى ، وله وطنية لا يمكن تجاهلها .

(١) كلماته فى شهود ثورة يوليو ص ١٤٥.

ومن المفارقات في خالد محيي الدين أنه كما يقول عنه محمد نجيب^(١) كان دائماً من أنصار الحرية والديمقراطية ومع هذا فإن له ارتباطاً بالقوى الشيوعية في الاتحاد السوفيتي ، وهي قوى البطش والطغيان الذي لا يعرف الحرية ولا الديمقراطية ، ولا يغيب عن ذهنه موقف هؤلاء من تشيكوسلوفاكيا والمجر ، فالحرية عندهم هي حريتهم في القضاء على معارضيهم ، وعلى الذين يفكرون بغير تفكيرهم .

ومن المفارقات في خالد محيي الدين التي تدعو للحيرة أنه ناصري مع أنه لاقى صور العنف من عبد الناصر ، وعبد الناصر هو الذي عمل على إبعاده عن مجلس قيادة الثورة وعن مصر .

ومن المفارقات في حياة خالد محيي الدين أنه جاءت عليه فترة ابتدأت من ٢٦ فبراير سنة ١٩٥٤ كان مرشحاً لرياسة الوزارة ، وقد صلب بذلك قرار من مجلس قيادة الثورة في ذلك التاريخ ، ومع هذا لم يتحقق له ذلك ، بل كان الشخص الوحيد بين أعضاء مجلس القيادة الذي لم يشغل منصب الوزير .

وعلى كل حال فإن نشاطه في سلاح الفرسان ، ومكانته في هذا السلاح الذي كان على وشك أن ينجح في فرض الديمقراطية وإعادة قادة الثورة إلى مكانتهم في الجيش كل هذه الأشياء كانت من الأسباب التي وسّعت الهوة بين خالد محيي الدين وبين باقي الأعضاء الذين طابت لهم حياة السلطة : فكتب استقالته من مجلس قيادة الثورة عقب أزمة مارس والقضاء على الأمل في الديمقراطية ، وخلاصة هذه الاستقالة أنه ذكر أن موقفه من الديمقراطية والحياة النيابية اتضح للرأى العام في الفترة الأخيرة بسبب تصريحاته على صفحات الجرائد ، وأنه بعد إلغاء القرارات الديمقراطية سيصبح الأمر

مخرجاً له لو بقي واستمر عضواً بالمجلس (يقصد أن المجلس اتجه بقرارته للديكتاتورية) ولذلك فهو يقدم استقالته من المجلس^(١) .

وألزمه جمال عبد الناصر عقب ذلك بالسفر للخارج ، وقال له : أنت تسافر للخارج في بعثة مجلس الإنتاج ثم نعيّنك سفيراً . ويقول خالد محي الدين : تعطل تعييني سفيراً بسبب المحاولة الانقلابية التي قادها أحمد المصري في سلاح الفرسان ، وطلبوا مني البقاء بالخارج في غير فرنسا وإيطاليا ، واتجه مجلس قيادة الثورة إلى تثبيت مركزه بأى ثمن ، إذ اتصل جمال عبد الناصر وأعضاء المجلس بالمستولين في السفارتين الإنجليزية والأمريكية وأبلغوهم الموافقة على اتفاقية الحلاء ، وإدخال الهجوم على تركيا أيضاً مبرراً لعودة القوات البريطانية إلى القاعدة ، وحدثت اتصالات سرية مع بعض المستولين في إسرائيل قام بها عبد الرحمن صادق المستشار الصحفي ومؤداها تطمين إسرائيل بأنه عند جلاء الإنجليز يمكن حل المشكلة^(٢) ، وسنرى هذه الأشياء عند كلامنا عن التسهيلات التي قدمها الجانب المصري للوصول إلى اتفاقية الحلاء .

(٣) مذكرات عبد الحليم البغدادي ص ١٧٤

(٢) كلمات خالد محي الدين في شهود ثورة يوليو ص ١٥٧ ، ١٦٠ .

صلاح سالم

كان الشارع بالقاهرة يتحدث في مطلع الثورة عن صاحبي المنظار والمنخار
(الأنف) يقصدون بذلك صلاح سالم وجمال عبد الناصر ، فقد كان الأول
لسان الثورة ، وكان الثاني داهيتها .

وهناك نقطتان مهمتان ارتبط بهما اسم صلاح سالم ، وفشل فيهما
أعظم فشل ، ودل على ضحالة في الفكر وسطحية في تناول الأشياء ،
وهاتان القضيتان هما :

١ - مسألة السودان .

٢ - الصراع ضد محمد نجيب .

مسألة السودان :

وقد عُهد إلى صلاح سالم ، الشاب قليل التجربة ، الذي كانت سنه
حوالي ثلاثين عاماً بأخطر قضية كانت تتحطم عليها المفاوضات بين مصر
وانجلترا ، وهي قضية السودان ، وقد أعلن المفكرون آنذاك أن السودان
ستنخلع عن مصر إذا تولت هذه اليد الضعيفة ، وذكر بعض المعلقين أن
جمال عبد الناصر أراد أن يقضى على صلاح سالم ، فوكل له هذه المشكلة ،
وجعل السودان ضحية موقفاً أنه سيفضي ، ولكنه سيزيل صلاح سالم
من الأضواء .

وكانت سياسة صلاح سالم في السودان تركز على دعمتين جليتا
نتائج على عكس ما توقع ، الدعامة الأولى : نثر الذهب هنا وهناك ،
ومصرعان ما انفص عن الارتباط بمصر أقوى الناس صلة بها ، إذ أصبح
مفهوماً أن مَنْ يتأدى بالارتباط بمصر هو المرتشي الذي دفعه ذهب صلاح
سالم إلى هذا التصرف ، وفي الوقت نفسه أصبح شائعاً أن الارتباط بمصر

يشترى بالمال ، وليس وضعاً طبيعياً ، وهكذا فقدنا المال وفقدنا السودان .

الدعامة الثانية التي اصطنعها صلاح سالم بالسودان هي الرقص ، فقد رقص مع قبائل الدنكا بالجنوب وهو عاري ، وسمى لذلك « الصباغ الراقص » (١) .

ولعل الرقص أَرْضَى بعض قبائل الدنكا ، ولكن الكثيرين في السودان ومصر سخروا من هذه الوسيلة ، لأن زعماء السودان يسافرون للجنوب بوقار وجلال ، ولا يمارسون الرقص مع الراقصين ، وقد اعترف صلاح سالم بأنه أصبح « كرتاً محروقاً » (٢) .

ويتحدث الأستاذ صلاح الشاهد عن رحلة الصباغ المشثومة إلى السودان ونائجها فيقول : في ٣١ أغسطس سنة ١٩٥٥ استقال صلاح سالم ، وقُبِلت استقالته ، وترجع ظروف هذه الاستقالة إلى سياسة الصباغ في السودان ، فقد قام برحلة إلى جنوب السودان ، ولما عاد عرض نتيجة السياسة التي انتهجها هناك ، وكان جمال عبد الناصر قد عرف شيئاً عن تصرفات الصباغ وغضب منها لأنها أغضبت السودانيين ، وأدّت إلى الفرقة بين صفوف المؤيدين للوحدة مع مصر ، بل كانت هذه السياسة من شأنها إلغاء الاتفاقيات التي أبرمت بشأن السودان من قبل .

وقد تخللت هذه الرحلة بعض الحوادث المثيرة وسُجِلت أحداثها في فيلم سينمائي ظهر فيه الوزير المصري عارياً كيوم ولدته أمه في غابات جنوب السودان (نيمولي) .

وناقشه عبد الناصر بشدة في تصرفاته هناك ، فأجاب صلاح سالم بأنه ، كان يعمل ماني وسعه لإرضاء السودانيين تارة بالتنازل عن ممتلكات مصر ، وتارة بتوزيع الملايين من الجنيهات على بعض رجال الأحزاب وزعماء القبائل

(١) جهود ثورة يوليو ص ٢٨

(٢) مذكرات عبد الحفيظ البنداءى ص ٢٨٦ .

لكى « بملأ عيونهم » وقارة بالرقص معهم على نحو ما يفعلون .

ولكن عبد الناصر انتقد بعض هذه الأساليب ، وشعر صلاح سالم بعدم الثقة به فقال : لئننى أعتبر نفسى مستقيلا ، ورد عبد الناصر فى التواء واللمحة قائلا : لقد قبلت استقالتك . وفى الحق لم تكن هناك استقالة وإنما إعفاء وإقالة (١) .

وإذا جاز لنا أن نعلق بكلمة قصيرة على هذه الاستقالة أو الإقالة فإننا نكرر ما سبق أن ذكرناه ، وهو أن صلاح سالم كان قد أدى دوره فى التصدى بنخسونة لمحمد نجيب ، فلما انتهى محمد نجيب جاء دور صلاح سالم ، وكان هذا الوقت أنسب الأوقات للتخلص من الصاغ الراقص لأن أخاه جمال سالم كان آنذاك فى زيارة لإندونيسيا ، وبهذا كان صلاح سالم يقف وحده فى مجلس القيادة لغيبة أخيه ولأنه مكروه من الجميع .

بقى أن نقول إن صلاح سالم توفى بعد ذلك وأهدى جمال عبد الناصر إلى اسمه قلادة النيل ، وسمى باسمه أهم طريق بالقاهرة هو طريق صلاح سالم . وهذا يذكرنا بقول الشاعر :

ولا إخالك بعد الموت تندبى وفى حياى ما زودنى زادا

الصراع ضد محمد نجيب :

تلك هى القضية الثانية التى ارتبطت بصلاح سالم ، وقد ذكرنا من قبل أن صلاح سالم وأخاه جمال كانا شديدى القسوة على محمد نجيب ، وأن عبد الناصر قدمهما لبخوض بهما معركة ضد نجيب ، فلما انتصر عبد الناصر بهما فى صراعه ضد نجيب التفت بسرعة بعد شهور قليلة ليقضى على صلاح سالم ، واتخذ لذلك عدة طرق ، فقد اجتذب عبد الناصر محمد أبونار مدير مكتب

(١) ذكرياتى فى مهدين ص ٣٠٦ - ٣٠٧

صلاح سالم، واصطحب جمال عبد الناصر إلى باندونج صلاح سالم، ويصف عبد اللطيف البغدادي عودتهما بقوله : شعرنا من أول لحظة أن صلاح غير مرتاح لما جرى في أثناء الرحلة، واشتكى صلاح أن جمال لم يشركه معه هناك ، لا في اللجان ولا في المؤتمر ، وأنه لم يطلعه على المذكرات وعلى الخطط... (١)

وقدم صلاح سالم استقائه ، وقبلت الاستقالة . وقد أسند له عقب ذلك منصب صحفي ، ولكنه أصبح لا حول له ولا قوة ، لذلك تلقى في ٦ يناير سنة ١٩٥٧ خطاباً من جمال عبد الناصر ذكر له فيه أن عدم إمكانية التعاون معه تستلزم إبعاده عن رئاسة الجريدة التي يتولاها (٢) .

بقي في التعريف بصلاح سالم أن نذكر بعض صفاته من كلامه أو من كلام رفاقه ، وأول هذه الصفات ، ولعلها من أبرز صفاته ، ما يذكره عنه أنور السادات من أنه كان معروفاً بحب الظهور والتهجم (٣) .

وصفة التهجم كانت بارزة فيه ، فهو مرة يشتم الشعب المصري ويصوره بأنه شعب جمود ينكر كل جميل ، ومرة يصف مصر بأنها (مفعوصة) ومرة يطلب إعفاء الوزراء العسكريين من مناصبهم لعدم قدرتهم على تحمل مسئولياتهم ، ويواجه مجلس قيادة الثورة مرة ، ويتهم أعضائه بالخيانة ، ويقول إنه يجب محاكمتهم ، ويتجه إلى التهم على بعض الأعضاء ويهددهم بقوله : (تنازلوا عن السلطة وجيبوا هيئة تأسيسية لتحكم البلد) ، وفي مقابل ذلك وصفه جمال عبد الناصر مرة بالخيانة ، وقال إنه يجب أن يحاسب على ذلك (٤) .

ويذكر أحمد أنور أنه في حركة مارس سنة ١٩٥٤ حضر له صلاح

(١) مذكرات عبد اللطيف البغدادي ص ٢٨٦ .

(٢) المرجع السابق ٣٦٦

(٣) البحث عن الذات ١٦٢

(٤) هذه الشائعات مأخوذة من مذكرات عبد اللطيف البغدادي في الصفحات الآتية بالتعالي

سالم في مكتبه بالبوليس الحربى وقال له : اعتبرنى معتقلاً هنا إذا لم يخرج محمد نجيب من الحكم . وهو كلام لا يصدر عن عاقل حكيم .

وقد كان صلاح سالم شديد الأمل في وحدة مصر بالسودان وكان يقرر أنه لو فشل هذا الهدف ، فإن مصيره سيكون (راعى غم) ، ولكنه بعد أن فشل لم يصدق في وعده ، وليته فعل .

بقيت كلمة ترتبط بصلاح سالم يذكرها محمد مجيب هي أنه كان له أخ طبع بطاقة عليها اسمه وتحت الاسم العبارة التالية (شقيق جمال سالم وصلاح سالم) وكان هذا يستخدم تلك البطاقة في الوساطة وتسهيل الأمور (١).

جمال سالم

إن الباحث يجد دون عناء صفات مشتركة بين جمال سالم وأخيه ، وهو وضع طبيعي أن يتشابه الأخوان ، على أنه يحدث العكس أحياناً ، أى يوجد أخوان يختلفان في أكثر الصفات أو في كلها ، وأنا أقرر هذه الحقيقة بمناسبة حديثنا عن صلاح سالم وأخيه جمال ، فإن لهما أخاً أعرفه يسكن معنا ضاحية المعادى هو محب الدين سالم وهو بحق إنسان أقرب إلى الكمال ، نجد به أسمى الصفات ، وأروع الخصال ، وتبرز فيه عفة اليد وعفة اللسان ، وتتضح به موهبة الكفاءة والإخلاص ، والحب ، وكل ما يخطر بالبال من خلال طيبة ؛ فسبحان الله العظيم الذى يقول « يستقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل » (١) .

ولنعد إلى جمال سالم لئلا نرى ماذا يقول عنه رفاقه :

يقول أنور السادات : كان جمال سالم رحمه الله حاد المزاج عصياً إلى حد غير طبيعي ، غير متزن في جميع نواحي شخصيته ، فلما وجد الناس منصرفه عنه لسوء معاملته بدأ يشير المعارك هنا وهناك وفي كل مجال (٢) .

وكان جمال سالم لا يهاب الدم ويهدد بالقتل ويحث عليه ، وقد اندفع مرة متأثراً بجمال عبد الناصر ضد نجيب ، فأعلن جمال سالم أنه سيقوم بقتل محمد نجيب وتخليص المجلس منه ، وعلى المجلس أن يقوم بمحاكمته على فعلته . وعند ما اعترض ضباط المدفعية على تصرفات مجلس الثورة في يناير سنة ١٩٥٣ اقترح جمال سالم أن يحاكموا محاكمة صورية ويتم إعدامهم فوراً (٣) .

(١) سورة الرعد الآية الرابعة

(٢) البحث عن الذات ص ١٥٠

(٣) مذكرات عبد الحفيظ البغدادي ص ٩٤

وإذا كان هؤلاء قد نجوا لسبب أو لآخر من القتل ، فإن جمال سالم استطاع في موقف آخر أن يحكم بالإعدام وأن يتخذ حكمه ، فقد كان رئيساً لمحكمة الشعب التي أصدرت حكمها في ٤ ديسمبر سنة ١٩٥٤ بعقوبة الإعدام شنعاً حتى الموت على كل من المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين المستشار حسن الهضيبي ، ومحمود عبد اللطيف ، وعبد القادر عودة ، ويوسف طلعت ؛ وإبراهيم الطيب ، وهنداوى دوير ، ومحمد فرغلى ، ولم ينج من هؤلاء إلا الأول الذى تخففت عقوبته إلى الأشغال الشاقة المؤبدة ، أما الستة الآخرون فقد نفذ فيهم حكم الإعدام .

ولم تتسع الظروف لإراقة الدماء التى كان يهوى جمال سالم أن تراق ، ولذلك اتجه بوعيده اتجاهاً أخف من إراقة الدماء ، وإن كانت خطورته بالغة الحدة ، فقد اقترح عزل كل ضابط في الجيش غير موال للمجلس . ولو اقتضى الحال ألا يبقى من الموالين إلا ٣٠٠ ضابط فقط ، أما فيما يتعلق بالشعب وموقفه من الثورة ، فقد اقترح عزل جميع الذين لا يتعاونون مع الثورة ، مهما بلغ عددهم ، ووضعهم في الواحات (١) .

ومن شلوث جمال سالم ما يرويه الأستاذ صلاح الشاهد ، وكان هذا كبيراً للأمناء بالقصر ، ونقل بحكم عمله إلى جمال عبد الناصر تصريحات لجمال سالم ضد الديمقراطية كان هذا قد أعلنها للصحفيين ، وكانت الصحافة على وشك أن تنشر هذه التصريحات ، فطلب منه جمال عبد الناصر أن يبلغ جمال سالم أن الرئيس عبد الناصر يريد مقابله ، فقابلته ، ثم خرج من المقابلة ، وهنا نقل كلمات صلاح الشاهد « خرج هائجاً ، ودخل حجرى ، وأمسك بخنأقى ، وحاول الاعتداء على ، لولا دخول الرئيس عبد الناصر بنفسه

ففض المعركة ، ونهر نائب الرئيس ، وطلب منى أن أذهب لمنزلى للاستراحة هذا اليوم ، (١) •

ومتابعة تاريخ جمال سالم تبرز أن جمال عبد الناصر حرص على أن يضمه إليه في معاداة محمد نجيب ، وكان جمال عبد الناصر في ذلك ذكياً ، لأن جمال سالم كانت به صفات الانفعالية والثورة والعنف ، وهى صفات كان يحتاجها جمال عبد الناصر في هذا الموقف ، وقد سبق أن أشرنا لها ، ونذكر منها هنا أنه اقترح أن يفوض المجلس جمال عبد الناصر السلطة في اتخاذ القرارات الضرورية دون الاجتماع في هيئة مجلس ، وذلك تجنباً للاجتماع بمحمد نجيب (٢) : وفي إحدى المرات حضر إلى مجلس الثورة اسماعيل فريد ياور محمد نجيب وقال : سيادة اللواء فوق في انتظاركم ، فثار عليه جمال سالم ، وشتمه هو واللواء ، فخرج مهزولاً (٣) . ويقول البغدادي إن انضمام جمال سالم إلى جمال عبد الناصر أدخل بتوازن القوى الذي كان موجوداً بالمجلس ، بل وضع نهاية لهذا التوازن ، وكنا ندهش لموقف جمال سالم وانحيازه لجمال عبد الناصر (٤) .

وجاءت نهاية محمد نجيب ، وانتهى جمال عبد الناصر إلى رفيق الأمس الذي خدع فيه ، ويورد لنا عبد اللطيف البغدادي صور الإعراض والتجاهل والهجوم التي قام بها جمال عبد الناصر ضد جمال سالم ، ليقضي عليه بعد أن استعان به في القضاء على نجيب ، يقول عبد اللطيف البغدادي : كان جمال عبد الناصر قد سافر يوم السبت ٩ إبريل سنة ١٩٥٥ إلى الهند في طريقه إلى مؤتمر باندونج وكان جمال سالم ينوب عنه في رئاسة الوزارة ،

(١) ذكرياتي في عهدي ص ٢٨٩

(٢) مذكرات البغدادي ص ٨٧

(٣) سامي جوهر : الصامتون يتكلمون ص ١٧

(٤) مذكرات البغدادي ص ٩٤

وتحدثت إلى ذاكراً أن مسئوليته كنائب لرئيس الوزراء غير محددة ، وأن جمال عبد الناصر لم يطلعه على اتجاهنا في بعض المسائل الخارجية الهامة ، حتى تصبح الصورة واضحة له رغم أنه قد طالبه بذلك عدة مرات قبل سفره ، ولكن دون فائدة .

ولما عاد جمال عبد الناصر شكاً منه صلاح سالم الذي كان يرافقه في هذه الرحلة كما قلنا من قبل ، لأن جمال عبد الناصر أهمله خلالها ولم يطلعه على شيء من أمورها وكان ذلك سبباً في أن نهاية صلاح سالم وجمال سالم من المجلس أصبحت وشيكة ، وحدث اجتماع عقب ذلك لهذا المجلس تكلم فيه جمال عبد الناصر عن علاقة أعضاء المجلس بعضهم ببعض ذاكراً أن روح الجماعة أصبحت غير متوافرة بينهم ، واعتقد جمال سالم أن الحديث موجه إليه : وعمل جمال عبد الناصر على أن يحدد من اختصاصات جمال سالم ويكثر من مضايقته ، وبخاصة بعد أن استقال صلاح سالم عندما كان أخوه جمال في زيارة لإنдонيسيا ، فلما عاد هذا من إنдонيسيا وجد نفسه غريباً ، وقد سحب كل شيء من تحته^(١) .

ويرتبط برحلة جمال سالم إلى إنдонيسيا حدث رأيته بنفسى ، فقد كنت باندونيسيا آنذاك ، وكنت بحكم عملي قريباً من هذه البعثة الرسمية التي كان يرأسها جمال سالم ، وكان ضمن أعضائها الضابط وحيد رمضان ، وسرعان ما حدث خلاف بين جمال سالم والضابط وحيد رمضان ، وأحسن جمال سالم أن وحيد رمضان يتخطى حدوده أو يعمل جاسوساً عليه كما قال ، فطلب استبعاده من البعثة ؛ ولكن هذا أعلن أن عضويته ثابتة بقرار رئيس الدولة ، ويتحتم أن يمارس حقوقه كعضو في البعثة ، وكانت ورطة وقفنا معشر المسئولين المصريين حياري لإزاءها ، واضطرت السفارة أن تتصل بالقاهرة في هذا الشأن ، وجاء الرد بأن يبقى

(١) مذكرات عبد الحليم البندقي في الصفحات ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣

وحيد رمضان عضواً في البعثة ، ولا يصحب جمال سالم في تنقلاته ، فخابت بذلك آمال جمال سالم الذي كان يطمح في أن يسحب هذا من إندونيسيا : ونتيجة لكل ذلك كان جمال سالم يعلن أسفه لما حدث منه من تأييد مطلق لجمال عبد الناصر ، ذلك التأييد الذي أدخل بالتوازن في المجلس ، ثم كان هو من ضحاياه . وهو يقول في ذلك كنت أثق ثقة عمياء في جمال عبد الناصر ، ولم أكن أظن أنه رسم لنفسه خطة تجميع كل السلطات بين يديه (٢) .

نهايته :

يروى لنا محمد نجيب صورة من الأيام الأخيرة لجمال سالم ويقول : اختطف القدر صلاح سالم فأت دون أن أراه ، فذهبت لتعزية شقيقه جمال سالم الذي كان قد ترك السلطة ، وفوجيء جمال سالم بحضورى ، فقال مندهشاً : هل أنت الرئيس محمد نجيب ؟ هل تعزى في صلاح ؟ وتعزىنى ؟ بعد كل الإساءات التى ألحقناها بك ؟ فأجبت : الواجب أولاً يا جمال .

ومرّض جمال سالم بعد ذلك ، فذهبت لزيارته ، وهو على فراش الموت ، فأجهش بالبكاء وقال : سامحني يا نجيب ، فقد دفعنا الشيطان الرجيم ضدك .

ومات جمال سالم بعد ذلك بأيام ، ويقول محمد نجيب : لم أملك إلا السماح . ولكن هل يسامح التاريخ (٢) .

وأغلب الظن أن التاريخ لا يسامح ، والله سبحانه يقول « يوم تجزى كل نفس بما عملت » ويقول « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

(١) المرجع السابق ٢٢٧

(٢) كلمتى التاريخ ص ١٤٦

عبد اللطيف البغدادي

كتب عبد اللطيف البغدادي مذكراته ونشرها ، وهي ذات فائدة كبيرة للباحثين ، إذ كشفت القناع عن كثير من أسرار هذه الجماعة التي حكمت مصر وهوت بها إلى القاع في ميدان الحرب والاقتصاد ، ولولا تاريخ مصر ، الراسخ وانتصارات أكتوبر المجيده لكان حال مصر أسوء حال .

وقد أثبت البغدادي عيوب رفاقه ومؤامراتهم ، ولم ينس أن يظهر نفسه مكافحاً بطلا لا عيب فيه ، ولكن القارئ يدرك بسهولة حرصه على السلطة ورغبته في التمسك بأي قدر ممكن من النفوذ ، فلقد كان عضواً في مجلس القيادة على قدم المساواة مع الآخرين ، ولكن جبال عبد الناصر سحب البساط من تحتهم جميعاً ، ولقد حاول البغدادي أن يدافع عن مكانته ، ولكنه عجز ، ففقدت مجاولته بعد فوات الأوان . واستسلم البغدادي ليقى له قدر من السلطة على أية حال ؛ وعندما اشتدت الأمور بالبغدادي وطعنه عبد الناصر بأنه انفصالي ، وأسند له عدة صفات معيبة ، كتب البغدادي استقالته ، ولكنها استقالة من يتمسك بالسلطة ، فقد قدمها في مجلس القيادة لتقرأ في حضوره ، وهو يسميها كتاب استقالة ، ولكن من يقرأ هذا الكتاب المؤرخ في ١٤/٤/١٩٥٤ يحسب أنه يستجدي العطف والرضا ولا يستقيل^(١) ولم يمنحه عبد الناصر هذا الرضا بل ترك الجلسة صارخاً « هو إحننا جاين هنا علشان تلقحوا علينا بالكلام » ولم يجد البغدادي بداً من أن يتطامن ويخني الرأس ليظل له جانب من النفوذ عشر سنوات أخرى إلى أن استقال حقيقة في مارس سنة ١٩٦٤^(٢) وسنعود لهذه.

(١) اقرأ هذا في مذكرات البغدادي ص ١٨٤ - ١٧٦

(٢) سامي جوهر : الصامتون يتكلمون ص ٥٦

الاستقالة بعد حين ، فلنواصل الآن تفصيل ما أجملناه ، متخذين من مذكرات البغدادي مرجعنا .

والذي يبدو للباحث أن البغدادي لم يساعد عبد الناصر في صراعه ضد نجيب ، فلما تخلص عبد الناصر من نجيب ، ثم عاد فتخلص من صلاح سالم وجمال سالم ،^(١) اتجه إلى البغدادي الذي لم يمد يد العون إليه في حلبة هذا الصراع . والذي يقرأ مذكرات البغدادي يجد سلسلة من المؤامرات والحقدها والمتاعب يقيمها عبد الناصر ضد البغدادي ، ونحن نقتبس بعض ذلك ، واعتقادنا أن كلام البغدادي صحيح لأن مثل هذا السلوك شاع وذاع عن عبد الناصر ، وفيما يلي هذه اللقطات :

— في سنة ١٩٥٥ كان جمال عبد الناصر يذكر أن هناك اتفاقاً بين البغدادي وجمال سالم ، وأن جمال سالم طيب ، ومستخدّم في هذه العملية ، ويقرر أنه سبق أن دخل معارك عدة ، فلتكن هناك معركة أخرى ضد محور جمال سالم والبغدادي ، ورفض جمال عبد الناصر تعيين جمال سالم رئيساً لمجلس الإنتاج ، والبغدادي رئيساً لمجلس الخدمات قائلا : سيكون هناك بذلك ثلاثة رؤساء وزارات^(١) .

— أبعد البغدادي عن وزارة الحرية لإبعاده عن الجيش ، وأسندت إليه وزارة الشؤون البلدية والقروية على أمل أن يفشل فيها لما يشاع عن فساد جهازها^(٢) .

— كان جمال عبد الناصر يتمنى الفشل للبغدادي ويضيق بما يحققه من نجاح ، وقد اعتبر عبد الناصر نجاح البغدادي في وزارة الشؤون البلدية والقروية محاولة للحصول على شعبية له ، ليفرض وجوده على المجلس . ومن هنا

(١) مذكرات عبد الطيف البغدادي ص ٢٣٧

(٢) المرجع السابق ص ١٨٨

أثار عليه حملة تشكيك ، ويقول البغدادي إن اختياره لهذه الوزارة كان للرجبة في إظهار فشله فلما نجح اشتد الحق عليه^(١) . وكثرت حوله الشائعات ، وكان وجهه أباظة يتطوع بتوصيلها إليه .

— عقب عودة جمال عبد الناصر من باندونج قال صلاح سالم للبغدادي إن جمال عبد الناصر غاضب عليك بسبب التحقيق الذي جرى مع عمه (وقد ذكرنا ذلك من قبل عند الحديث عن حساسية عبد الناصر تجاه أسرته) وأن عبد الناصر يأخذ عليك عدم زيارتك له ، وعدم عرضك مشروعات وزارتك عليه ، وأن ما يذكر في الصحف عن العصا السحرية التي يستعملها البغدادي لا ينسب إلى عبد الناصر ، وحذر صلاح سالم البغدادي من شائعات مستطلق ضده لتكون مبرراً للتخلص منه^(٢) .

— عقب الاعتداء الثلاثي قال جمال عبد الناصر للبغدادي ، إن ما حدث بيننا من سوء تفاهم فيما مضى كان السبب فيه صديقك جمال سالم ، فقد لحق إلى مكتبي عقب أن تركتكم على إثر قراءتي كتاب استقالتك ، ونى مكتبي أعطاني عنك صورة منفرة . ويقول البغدادي : وقد فاتحتُ جمال سالم في ذلك في صيف ١٩٥٨ عقب تقديمي استقالة أخرى ، فقام جمال سالم وصلى ثم أخرج مصحفاً شريفاً وأقسم عليه أن ذلك لم يحدث منه^(٣) .

وتعليقنا على ذلك هو : أيهما الكاذب ؟ .

وتطامن البغدادي كما قلنا من قبل ، ووجد ألا مناص من إرضاء جمال عبد الناصر ، فوقف بجواره حانياً إبان الاعتداء الثلاثي ، ولعله كان من القلة الذين وقفوا هذا الموقف من الذي ضيع البلاد وقتل العباد ، ولكن البغدادي

(١) مذكرات البغدادي ص ١٨٩ ، ٢٣٨ - ٢٣٩

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٧

(٣) المرجع السابق ٣٥٨ - ٣٥٩

— على كل حال — نال جزاء هذه الوقفة الحانية من جمال عبد الناصر إذ قال له آنذاك : أنا لم أكن أعرفك جيداً من قبل ، ولم أعرفك على حقيقتك إلا من يوم ٢٩ أكتوبر الماضى . وكان هذا الحديث يجرى يوم ٨ نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، ومنذ ذلك التاريخ قنع البغدady بأن يعمل فى ظل الحاكم المستبد ، حتى قدم استقالته الأخيرة فى ١٦ مارس سنة ١٩٦٤ ، وكان آنذاك لا يشغل منصباً ذا بال .

التنكيل بالبغدady بسبب الاستقالة :

يقول سامى جوهر إن عبد الناصر انتقم من البغدady لتجرؤه على الاستقالة ، فبدأ يتخذ خطوات للتنكيل بأفراد أسرته ، ففي يوم ٢٤ مارس سنة ١٩٦٤ أصدر أمره بفرض الحراسة على سعد البغدady شقيق عبد اللطيف البغدady ، ولكن كيف تُفترض الحراسة فى ٢٤ مارس مع أنه قد صدر قرار فى ٢١ مارس بعدم فرض حراسة جديدة ؟ :

إن عبد الناصر لم يعدم وسيلة لذلك ، فقد أصدر قراراً آخر بفرض الحراسة على سعد البغدady ، وجعل تاريخه ١٣ مارس ، ولا يزال فى ملفات الحراسة قراران مختلفا التاريخ حول سعد البغدady . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل انتهز عبد الناصر فرصة عودة المهندس محمد نصير زوج ابنة البغدady فى إجازة مع زوجته من لندن حيث كان يعد رسالة للدكتورة ، فصدر قرار بمنعها من مغادرة البلاد رغم أن الاثنين كانا قد تركا خادمتها المصرية لدى محسن عبد الخالق المستشار التجارى لسفارة مصر بلندن ، واتخذت إجراءات لحصار البغدady والتقليل من زواره ، ومُنِعَ من السفر إلى الحجاز هو ووالداه لأداء فريضة الحج ، وكان قد تقدم بطلب بهذا فى مطلع عام ١٩٦٥ .

وفى مارس سنة ١٩٦٥ كان الاستفتاء على الدستور وعلى رئيس

الجمهورية ، ويقول صامى جوهر إن عبد الناصر أرسل عيونَه إلى لجان الانتخابات المفيد بها زملاؤه القدامى ليعرف موقفهم من الاستفتاء .

وقد قلنا من قبل إن البغدادي كان أميل إلى النظام والانعناء أمام العواصف ، ولذلك ذهب إلى صندوق الانتخاب ووافق على الدستور وعلى اختيار جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية متجاهلاً كل ما عمله فيه وفي البلاد والشعب . ونال البغدادي ثمن هذه الانعناء ، فقد أصدر جمال عبد الناصر قراراً في اليوم التالي للانتخاب برفع الحراسة عن سعد البغدادي وأعاد له كافة ممتلكاته وجاء في القرار العبارة التالية (كأن شيئاً لم يحدث) (١).

وهذا مثال آخر للقيم التي كان عبد الناصر يدبر بها البلاد .

* * *

وقنع عبد اللطيف البغدادي منذ استقالته بالحياة في قصره الشاهق بمدينة نصر بعد أن اكتوى بنار طالما رآها تحرق الآخرين دون أن يعرف أنها ستمتد يوماً إليه .

كمال الدين حسين

نحن الآن مع رجل كان في يوم من الأيام نجماً لامعاً ، تجمعت في يده عدة مناصب يقولون إنها تجاوزت العشرة ، وكان من بينها منصب نائب رئيس الجمهورية ، والمشرف على الاتحاد القوي ، والوزير المركزي للتربية والتعليم إبان الوحدة ، ورئيس المجلس الأعلى للعلوم ، ورئيس المجلس الأعلى للفنون والآداب ، ورئيس المجلس القومي للبحوث ، ونقيب المعلمين ، ورئيس المجلس الأعلى للجامعات . . . ومع هذا لم يسلم من العناء والتعذيب من عبد الناصر الذي كان لا يحتمل أن يواجهه أحد ، أو ينتقده أحد .

وكمال للدين حسين رجل عرفته من قرب ، وأتيح لي أن أجلس معه ، كما ذكرت من قبل ، وأقرر أنه كان شديد الحساسية لخدمة الدين والوطن ، متأثراً أشد التأثير بماضيه مع جماعة الإخوان المسلمين ، وكانت اتجاهات عبد الناصر فيما يسمى بالقوانين الاشتراكية سبب نفور كمال الدين حسين من الحكم ، ولكن ذلك النفور جاء متأخراً بعد أن قسد الاقتصاد وفسدت معه السياسة ، ولذلك ، فمع كل التقدير الشخصي للرجل ، لا نغفیه من المسئولية التي وصلت لها الحال وهو يتعاون مع عبد الناصر أكثر من عشر سنوات حتى شرب من الكأس التي تجرعها الكثيرون من المصريين .

وقد بدأت المضايقات ضد كمال الدين حسين مبكرة ، ولكنه احتملها حتى لا يفقد النفوذ الكبير الذي كان يستمتع به ، فإن كمال الدين حسين قد عين قائداً لجيش التحرير عقب حرب سنة ١٩٥٦ وقد تم هذا بالاتفاق مع عبد الحكيم عامر ، فلما انكشفت الغمة وخرج المعتدون بأمر أمريكا حورب كمال بواسطة اللواء عبد الفتاح فؤاد وضباط آخرين من الجيش بتعليمات من عبد الحكيم ، وطبعاً لم يحاول عبد الحكيم إيقافهم عند حدهم ، بل ذهب إلى

جمال عبد الناصر وقال له : « الضباط يقولون هل فيه قيادتان عسكريتان في البلد ، أو أن كمال هو القائد العام المنتظر ؟ » وخضع جمال عبد الناصر لرغبة عبد الحكيم عامر ، وطلب من كمال الدين ترك جيش التحرير (١) .

وقد كتب كمال الدين حسين مذكرات نشرها سامي جوهر في كتاب أسماه « الصامتون يتكلمون » ونقتبس منه نصاً يوضح موقف عبد الناصر من كمال الدين حسين ومن عبد اللطيف البغدادي ، وفيما يلي هذا النص :

كان جمال عبد الناصر يشعر أن الاثنين يكونان جبهة ضده ، وأنهما يعوقان تحركه في تحقيق أغراضه ، وكان الاثنين موضع احترام المواطنين ، وكانت الصحف المحلية والعربية تسعى للحصول على أحاديث منهما ؛ فثار عبد الناصر لذلك ، إذ كان لا يريد أن تتحدث أجهزة الإعلام عن أحد غيره ، فأرسل خطاباً دورياً إلى جميع نوابه وإلى الوزراء يوم ٢١ أغسطس عام ١٩٥٨ جاء فيه : إنني لاحظت بكل أسف في الأيام الأخيرة الجري وراء الصحف والصحفيين ، وتوزيع نشرات عليهم ترمي للدعاية الشخصية وتتسابق في نسبة الأعمال للأشخاص . .

وقد أحس كمال الدين حسين والبغدادي بأنهما المقصودان بهذا الاتهام ، وأن الخطاب أرسل في هيئة نشرة دورية تخفيفاً للأمر ، وقد استقال البغدادي عقب ذلك ، ولكن جمال عبد الناصر لم يقبل استقالته ، وذهب كمال الدين حسين إلى عبد الناصر في استراحة برج العرب ، وأبدى اعتراضه على هذا الخطاب ، ولكن جمال عبد الناصر تراجع ، وقبل الاثنين منه هذا التراجع وواصل عملهما (٢) .

ولكن الصاع قد طغى ، وأحس كمال الدين حسين في وقت متأخر

(٢) الصامتون يتكلمون ص ٤٥ - ٤٦

(١) مذكرات البغدادي ص ٣٦٤

للأسف بأنه لا يستطيع أن يستمر في التعاون مع عبد الناصر ، وكان ذلك مرتبطاً بانفراد جمال عبد الناصر بالسلطة وعدم الاهتمام بمجلس الرياسة ، فتوقف كمال الدين حسين عن الذهاب إلى مكتبه بمجلس الرياسة من أغسطس ١٩٦٣ ، وقدم استقالته ولكنها لم تعلن .

وفي مارس سنة ١٩٦٤ حاول عبد الناصر أن يسترضيه ، ولكن أسس الرضا لم تكن سليمة ، فلم يتم التقاء بين وجهتي نظرهما ، وفي ١٢ أكتوبر سنة ١٩٦٥ أثناء فترة اعتقالات الإخوان ومحاكماتهم ، أرسل كمال الدين حسين خطاباً إلى عبد الناصر يقول له فيه «اتق الله» ، ويذكر له بعض آيات من القرآن الكريم لتحثه على التقوى ، وتوضح أن النصيح واجب من المسلم للمسلم^(١) .

ويقول كمال الدين حسين إن عبد الناصر فقد أعصابه بعد تلقى هذه الرسالة ، ونسى كل معاني الصداقة والوفاء ، ولم يدفعني لرسالتى إلا أنى وجدت الفساد يستشري في البلاد ، والحريات أصبحت شعارات ، والمحاكم الاستثنائية ، والتلفيقات ، والزج بالأبرياء في السجون ، أصبحت دستور البلاد الذى يحكم به .

وما إن أرسلت هذا الخطاب إلى جمال عبد الناصر حتى ماجت الأرض من تحتي وزلزلت حولي ، بسبب الأعمال التي قام بها عبد الناصر ضدي ، ويسرد كمال الدين حسين تلك الأعمال سرداً يهز الوجدان ، ونحن نلتقط منه موجزاً لهذه التصرفات :

- في اليوم التالي لإرسال الخطاب تلقى زوج شقيقتي أنور أبو العطا

(١) أقرأ هذا الخطاب ضمن مكتبه كمال الدين حسين في شهبه ثورة يوليو ص ٣٤٢ وما بعدها .

رئيس مجلس مدينة القناطر محادثة من حمدى عبيد وزير الحكم المحلى أبلغه فيها إحالته للمهاش فوراً ، على أن يترك مسكنه الحكومى فى الحال .

— من العجيب أن عبدالناصر استطاع أن يمزج الأفراح بالقسوة والتنكيل ، فى نفس اليوم الذى كان يستعد فيه لزفاف ابنته (١٤ أكتوبر ١٩٦٥) استدعى اللواء هلال عبد الله مدير سلاح المدفعية والعقيد حسن خليل مدير المباحث الجنائية العسكرية ، وأعطاهما أمراً باعتقالى فى الحال .

— وبينما كنت جالساً مع عدد من الضيوف يوم ١٤ أكتوبر استدعيت خارج الحجرة التى كنا نجلس فيها حيث قابلنى اللواء هلال والعقيد حسن خليل ، وتم اعتقالى ، ولم يسمح لى بالعودة لضيوفى .

— صحبتنى حرمى فى هذه الرحلة المشتومة إلى فيلا الهرم التى كانت قد تحولت إلى معتقل تحيط به الأسلاك الشائكة والتحصينات . وقف حوله وحدات الحراسة فى خطوط متتالية ، وعندما دخلنا الفيلا ، وجدنا كل أجهزة التليفونات قد رفعت .

— عقب أن خرجنا من منزلنا للمعتقل اقتحم رجال المباحث البيت ، وقتلوا كل شئ ، وأخذوا كل ما طاب لهم ، وقبضوا على كل الضيوف وأخذوهم إلى السجن الحربى .

— فى ١٥ أكتوبر ذهب حكمدار القليوبية ومعه بعض الضباط إلى منزل أبى وهاجموه ، وكان مريضاً ، وأقاموا حول البيت خياماً وحراسة .

— مرضت زوجتى ونحن فى المعتقل ، وطلبنا طبيباً لفحص حالتها ، ومرة يوم واثنان وثلاثة ، والطبيب لم يحضر على الرغم من سوء الحالة ، ولم ينجى إلا بعد ١١ يوماً ، وقد أثر عليها ذلك فأتت متأثرة بعلتها .

- ممحوا لى بأن أحضر تشييع الجنازة وأتلقى العزاء ، ولكن من العجيب أن عبد الناصر لم يستطع أن يحضر للعزاء أو أن ينيب عنه مندوباً ، بل إن بعض الزملاء من أعضاء مجلس الثورة لم يحضروا للعزاء^(١) .
وهذه صورة من صور حياة عبد الناصر مع من كانوا بالأمس أقرب الناس إليه .

(١) الصائون يتكلمون ص ٦٨ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ١٠١

حسين الشافعي

نحن الآن مع واحد طال عمره مع عبد الناصر ، وكان الوحيد الذي امتد وجوده بعد عبد الناصر فعاش عدة سنوات مع أنور السادات ، ويطرأ بالخطر سؤال مهم عن سبب ذلك ، فكيف استطاع حسين الشافعي أن يبقى داخل الجهاز التنفيذي أكثر من عشرين عاماً ؟ .

والجواب سهل ، هو أنه كان يقنع بأبهة المنظر وزيراً أو نائباً لرئيس الجمهورية ، أو عضو مجلس الرياسة ، أو اللجنة المركزية وهذا أو ذاك يتيح له هيئة مكتب ، وسكرتارية ، ومستشاراً صحفياً ، وما يتبع ذلك من منسيارات ومرتبآت وحرس ، وكان هذا يكفيه دون تدخل في أمر أو زج نفسه في مشكلات ، إلا إذا طُلب منه أن يرأس محكمة ؛ أو أن يكون عضواً فيها ، فإنه كان مستعداً أن ينفذ ما يراود منه ، وأن يصدر الأحكام التي تُعده له ، وكان - للأسف - عضواً فيما سمي « محكمة الشعب » التي حكمت في ٤ ديسمبر سنة ١٩٦٤ بعقوبة الإعدام شنقاً حتى الموت على كل من المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين المستشار حسن الهضيبي ، ومحمود عبد اللطيف والعلامة عبد القادر عوده ، ويوسف طلعت ، وإبراهيم الطيب ، وهنداوي دوير ، ومحمد فرغلي ، وقد خفف الحكم على الهضيبي إلى الأشغال الشاقة المؤبدة لسنته ، ومرضه ، ونفذ الحكم في الستة الباقين . كما كان قاضياً في محاكم أخرى كما ذكرنا من قبل .

وكان حسين الشافعي يعاني البطالة أحياناً ؛ وبحس برغبته في الحركة والكلام ، وكان يجد وسيلة لذلك أن يخطب الجمعة ، أو يوحى بأن يُدعى لحفل ديني ليخطب فيه ، وقد تكررت فيه هذه العادة ، فقد نشرت الأهرام (١) أنه خطب الجمعة في الإسماعيلية ، وقال في خطبته : إن لنا

دوراً كبيراً بعد تحرير القنال في سائر بلاد المسلمين والعرب ، وهو كلام كما يبدو إلى اللغو أو إلى الأحلام أقرب .

واتجه مرة لتنظيم جماعة تعمل على خدمة القرآن الكريم والدراسات القرآنية ، واتخذ - للأسف - جمعيات الشبان المسلمين وسيلة لذلك ، ووقع على الاختيار لأكون عضواً باللجنة التي تخطط لذلك ، واعتزضت على ارتباط هذا النشاط بالمركز العام لجمعيات الشبان المسلمين ، ذاكرة أن هذا المركز يعد جيل صالح حرب انغمس في السياسة الثورية بواسطة إبراهيم الطحاوي ، وفقد نفوذه الديني ، وذكرت أن ارتباطنا بهذا المركز سيكون بمثابة حكم الإعدام على الجماعة الناشئة ، ولم يؤخذ برأيي على كل حال ، فماتت هذه الجماعة ، ومات نشاطها ، ربما قبل أن تولد :

وفي أحد الاجتماعات ذكر حسين الشافعي أنه يرأس هذه اللجنة بصفته مسلماً وليس بصفته نائباً لرئيس الجمهورية ، ولعل بعض الحاضرين صفقوا لهذا ، ولكنني علقت على ذلك بقولي إنني كنت أتمنى أن تكون رئاسة السيد حسين الشافعي بصفته نائباً لرئيس الجمهورية فذلك يمنح القوة لهذه اللجنة ، وسيجعل من الممكن مطالبة الوزارات الخاصة بالتعليم أن تنفذ أو تبحث قرارات هذه اللجنة ، ولكن حسين الشافعي كان يدرك ما لا أدركه أنا من أن نفوذه لا يصل لهذا القوة ، فتمسك برأيه .

ولعلنا بذلك ندرك السبب الذي من أجله طال عمر حسين الشافعي وامتد في الكرسي أكثر من عشرين عاماً ، وكان يطمع في المزيد ، وكان حسين الشافعي مستعداً لأية تضحية من أجل الحفاظ على هذا الكرسي ولو كان خالياً من النفوذ تماماً ، ويقال إن جمال عبد الناصر هاجمه مرة في حضرة عدد من الضيوف هجوماً قاسياً فخر مغشياً عليه ، ولما أفاق عاد إلى عمله ، ربما بعد أن اعتلر وأتاب .

حسن إبراهيم

حسن إبراهيم مثل زميائه حسين الشافعي في أنه كان قانعاً بالمناصب اللامعة دون نفوذ يذكر، ولكن حسن إبراهيم لم تطل مدته كما طالت مدة حسين الشافعي ، إذ لم يكن حسن إبراهيم خطيب مساجد يتفُس بذلك عن كبت داخلي كما كان يفعل حسين الشافعي .

وقد سعدت عند ما صدر كتاب « الصامتون يتكلمون » الذي أخرجه سامي نجوهر ، وعلى غلافه صور البغدادي وكمال الدين حسين وحسن إبراهيم ، وحسبت أنني سأجد به شيئاً ينطقه الصامت حسن إبراهيم ويطلعني على بعض الأسرار ، ولكنني وجدت الكتاب خالياً تقريباً من أى شيء يتصل به ويثرى معلوماتنا عنه .

وهناك شبه آخر بين حسن إبراهيم وحسين الشافعي ، ذلك أنه كان مستعداً أن يجلس مجلس القاضي وأن يُصدر الأحكام التي توضع له ؛ فقد كان عضواً محكمة الثورة التي أنشئت مبكرة (١٦ سبتمبر ١٩٥٣) التي تقرر أن تظل قائمة طيلة فترة الانتقال . لتطهير البلاد من الخونة والمفسدين^(١) والتي راحت توزع الرعب بين الناس . وواضح من قرارها سالف الذكر أنها تهدد من تسول له نفسه أن يعارض النظام الحاضر ، ومن هنا تقرر أن تبقى طيلة فترة الانتقال ، فهي لانتحاك من انحرف في الماضي ، ولكن من قد ينحرف في المستقبل ، وكان معنى الانحراف معارضة الثورة .

رشاد مهنا

فى عدد من مجلة الدعوة ، الصادر فى ابريل سنة ١٩٧٩ ظهر اسم رشاد مهنا كاتباً لإحدى المقالات ، وهو مظهر تكرر كثيراً إذ يلجأ الناس إلى الإسلام كلما أُسِّدت فى وجوههم الطرق .

وقد رأينا من قبل كيف عُيِّن رشاد مهنا وزيراً مدة ساعات ، لتحقيق فيه الشروط اللازمة لمن يكون عضواً فى مجلس الوصاية على الملك ، وكيف عُيِّن عضواً فى هذا المجلس ، وكيف أنه قال إننى أملك وأحكم ، وكيف أن عبد الناصر اتخذ ذلك وسيلة للتخلص منه والقبض عليه تنفيذاً لمخططة الذى كان يقضى بالتخلص من كل من هم فى رتبة أعلى منه .

وكان رشاد مهنا أقدم رتبة من يوسف صديق الذى كان مسئولاً عن منطقة العريش التى تضم الاثنين ، وقد سأل يوسف صديق مرة جمال عبد الناصر عما إذا كان ينبغى عليه أن يسلم السلطة لرشاد مهنا لأن رشاد أعلى منه رتبة ؛ فطلب منه جمال عبد الناصر ألا يسلمه قيادة التنظيم ، وألا يطلعه على سير العمل ، ولكن على ألا يعاديه ، ومن هنا كان يوسف صديق يخفى اجتماعات أعضاء التنظيم على رشاد مهنا . (١)

وكان رشاد مهنا يتجه إلى الإصلاح فى ظل الملكية وعهد ما قبل الثورة ، دون الثورة على ذلك . (٢)

واختفى رشاد مهنا بعد ذلك ، اظهر فى العصر الحاضر كاتباً فى مجلة الدعوة الغراء .

(١) كلمات يوسف صديق فى شهود ثورة يوليو ص ٤٧٥ - ٤٧٦

(٢) المرجع السابق

يوسف صديق

نحن الآن مع بطل من أبطال مصر ، يبدو من قراءة تاريخه أنه كان يعشق الحرية ، ويسعى بكل جهده لخدمة بلاده ، ومن هنا تعاون مع الثورة بنشاط جم حتى كان من أقوى أسباب نجاحها ، وعارض الثورة علانية حتى دُفِعَ به إلى السجن هو وزوجته ، وارتبط بالساريين دون أن يبعد عن الإسلام ، وإنما - كما يبدو من كلامه - لأنه كان يتوهم في الاتحاد السوفيتي الخير في فترة من الفترات ، ولأنه كان معجباً بصفات رآها في المجتمع الشيوعي كما سئرى فيما بعد .

والذي نريد أن نسجله بادىء ذي بدء أن يوسف صديق هو الوحيد الذي استقال من مجلس قيادة الثورة عندما رأى انحراف هذا المجلس وبُعْدَهُ عن الخطوة التي كان الثوار قد رسموها في منشوراتهم قبل الثورة .

ولنعد لهذا البطل لنصفه ، معتمدين على ما كتبه بيده ، ولئن يجرنا الاعتماد على كتابته إلى البعد عن الحقيقة لأن ما كتبه يتفق تماماً مع ما كتبه محمد نجيب وعبد اللطيف البغدادي .

يوسف صديق والتجمعات :

يقول يوسف صديق : « إنني بدأت من مطلع شبّابى أبحث عن تنظيم أرتبط به ، وأصُبُّ فيه طاقتي وأفكارى ، فاتصلت بالإخوان المسلمين ، ولكنى انشقت عليهم لجمودهم العقائدى بعد أن ظلت معهم بضعة شهور ، واتصلت عقب ذلك بالشيوعيين في النصف الثانى من الأربعينات ، وكنت مقدراً لدور الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية ، وما أبرزه من صلابة في المقاومة ، وقد رأيت في الشيوعية أنها تغرس حب العدل في النفوس وتعمل لتحقيق السلام على الأرض ، وإقامة المحبة والتعاون بين

الناس ، وهى لا تفرق بين الناس بسبب الأنساب والأحساب كما أنها تعمل على إلغاء استغلال الإنسان للإنسان . (١)

ولا يمكن أن يمر هذا الكلام دون تعليق ، بل إن يوسف صديق نفسه علّق عليه بأنه لم يشعر فى تطبيق هذه المبادئ بما يتعارض مع عقيدته الدينية والذى يبدو لى أن كثيرين من الناس خدعوا فى بعض المظاهر التى أعلنها الاتحاد السوفيتى عن نفسه دون أن يأخذ بها ، فانضموا إليه . وأنا أقول ذلك لأنى لا أجد أية صفة من هذه الصفات تتوفر فى هذا المعسكر الذى خضّب أرض الحجر وتشيكوسلوفاكيا بالدماء الغزيرة ، وحرم أهلها من الحرية ، والذى يقتل دون وازع جماهير المسلمين فى داخل بلادهم بالاتحاد السوفيتى .

وعلى كل فقد مُخدع يوسف صديق فى هذا ، كما مُخدع كثيرون ممن حاولوا التوفيق بين الشيوعية والإسلام ، متناسين إلحاد الشيوعية ودكتاتوريتها وحجها للدماء والفتن .

وعلى كل حال فإن جمهوراً كبيراً من الشرقيين الذين اصطَلوا بنيران الاستعمار الغربى فى القرن التاسع عشر وفى النصف الأول من القرن العشرين كانوا مستعدين إلى الانضمام إلى أى معسكر ، ولو كان معسكر الشيطان ليقاوموا الاستعمار الغربى .

يوسف صديق وثورة يوليو :

فى أكتوبر سنة ١٩٥١ عرف يوسف صديق أن جمال عبد الناصر قائد الضباط الأحرار ، فتوجه لزيارته ، وبدأ التعاون بينهما ، وأصبح يوسف صديق مسئولاً عن منطقة العريش ، وقد أوصاه جمال عبد الناصر بالجلوس من رشاد

(١) كلماته فى شهود ثورة يوليو ص ٤٧٤

مهنّا دون أن يعاديه كما ذكرنا ، وانتقلت كتيبة يوسف صديق إلى القاهرة « الهاكستب » يوم ١٣ يوليو ٥٢ في طريقها إلى السودان ، وعرف يوسف صديق أن ساعة الصفر ستكون في الساعة الحادية عشرة مساء ٢٢ يوليو ؛ وكان موعدنا الحقيقي منتصف الليل ، وعلى هذا تحرك يوسف صديق بكتيبته قبل تحرك الآخرين بساعة ، وكان هذا التعجل من أهم أسباب نجاح الحركة كما شرحنا ذلك من قبل ، ويتحدث يوسف صديق عن زحفه إلى رئاسة الجيش ، وعن الصراع الذي دار في مقر الرئاسة ، وعن اعتقاله لزعما الجيش السابقين ، وحديثه في ذلك مثير يدل على جرأة وثبات جأش وقدره على تصريف الأمور والمعضلات (١) ويحتم يوسف صديق هذا الوصف المثير بقوله : « وبعد أن انتهت من احتلال القيادة جاء أحد الجنود يبلغني أن هناك ضابطاً اسمه جمال عبد الناصر يطلب مقابلي ، فسمحت له بالدخول ، وتوافد الضباط الآخرون على مركز القيادة للتهنئة » .

ومن هنا يتضح الدور الضخم الذي قام به يوسف صديق في إنجاح حركة الانقلاب :

في مجلس القيادة :

يقول يوسف صديق إنه بعد انتصار الحركة ، لم أكن أدعى لاجتماعات مجلس القيادة ، ولم يكن ذلك يهمني لأنني لم أتحرك لهدف شخصي ، ولكن سرعان ما دعيت لأكون عضواً في هذا المجلس بعد أن وجدت الاتفاق قد تم على أن يكون جمال عبد الناصر رئيساً له ، وكان جمال أحدث مني رتبة ، وأصغر عمراً ، ولكن ذلك أيضاً لم يكن ذا بال عندي لأنني كنت مهنماً بتحقيق ما نصبو إليه .

(١) انظر هذه التفاصيل في المرجع السابق ص ٤٧٨ ، ٤٧٩

وفي مجلس القيادة لاحظت من الأيام الأولى بداية الانحراف ، كما لاحظت الرغبة في الدم عندما تم إعدام خيس والبقرى ، رغم عدم الموافقة الجماعية في المجلس على ذلك ، ولاحظت كذلك أن أعضاء المجلس نسوا وعودهم السابقة التي كانوا يذيعونها في منشوراتهم : ولما ذكرتهم بهذا قالوا : انس المنشورات ، الظروف تغيرت . ولاحظت كذلك أن اجتماعات جانبية تعقد يتفق فيها على تفاصيل نفاجا بها ، كما أن أعضاء المجلس وزعوا أنفسهم على الوزارات بطريقة ارتجالية ، واندفع محمد نجيب بناديني « يوسف استالين » خالطاً الجدل بالدعاية ، وبدأت تتنافر وجهات نظري مع أعضاء القيادة حول أسلوب الحكم بسبب صدور قوانين تنظيم الأحزاب ثم حل الأحزاب ، وإلغاء الدستور ، والرقابة على الصحف ، واعتقال الضباط ... فقررت الاستقالة ، إذ لم يكن ممكناً لضميري تمثيل وزر الإجراءات المرتجلة غير الديمقراطية ، وقرر المجلس قبول استقالتى وبعثى إلى الخارج ، وأرسلوا إلى زوجتى وأولادى ، وكان ذلك فى مارس سنة ١٩٥٣ ، ولما عدت فجأة إلى بلدى فى أغسطس ١٩٥٣ حددوا إقامتى حتى اعتقلت فى أبريل سنة ١٩٥٤ بعد فترة حرية نسبية خلال أزمة مارس ، وهى التى كتبت خلالها فى جريدة المصرى مطالباً بتشكيل وزارة مشتركة برياسة وحيد رافت ، وعندما اعتقلت ، أعتقلت زوجتى فى نفس الشهر ، وعشت بين سجن الأجانب والسجن الحربى مع مجموعة من الضباط منهم عبد المنعم عبد الرؤوف الذى كان عضواً فى الهيئة التنفيذية للضباط الأحرار .

وقد سئل يوسف صديق السؤال التالى : ألم يكن من الممكن الصبر والنضال من أجل أهدافك فى مجلس القيادة ؟ فأجاب : لا . لم يكن ذلك ممكناً ، لأنى لاحظت أن هناك انهماكاً معادياً للديمقراطية يستحيل الاتفاق معه ؛ وخشيت أن يسجل التاريخ أنى كنت عضواً فى مجلس يهدد الحريات ويعتقل الأحرار^(١).

(١) المرجع السابق ص ٤٨٢ - ٤٨٣

وتوفى يوسف صديق في ٣١ مارس سنة ١٩٧٥ ، وقد انطلق الكثيرون آنذاك يتحدثون عنه ويبرزون أفضاله وحفلت صحف الأيام الأولى من أبريل ١٩٧٥ بأحاديث طيبة عنه .

ويوسف صديق هو الشخص الوحيد بين أعضاء مجلس القيادة الذي رفض أن يتحمل الوزر في هذا المجلس فاستقال منه ، وكان يعرف أن استقالته ستجلب عليه كثيراً من الضرر ، ولكنه احتمل الضرر حتى لا يثقل ضميره بمسئوليات خطيرة ضد مصر والمصريين . وفي اعتقادي أنه لو تضامن مع يوسف صديق عدد من أعضاء القيادة في اتجاهه وعدم قبوله المشاركة في الانحراف لكان من الممكن أن يتغير وجه التاريخ ، ولكن الكثرة الغالبة قنعت بالنعم الذي جلبته لهم عضوية مجلس القيادة مهما كان في ذلك من الضرر على البلاد والعباد ، أعمق الرحمت على روح هذا البطل الذي أقام الثورة بجهده ، ثم أنف أن ينعم بثمارها على حساب سواه .

عبد المنعم أمين

شخصية قصيرة العمر في مجلس قيادة الثورة ، فقد اقترح جمال عبد الناصر ضمه للمجلس في ١٥ أغسطس سنة ١٩٥٢ بسبب ما قدمه من عون لنجاح الحركة ، وكان الاقتراح يشمل زكريا محيي الدين وحسين الشافعي . ويوسف صديق مع عبد المنعم أمين .

وقد سبق أن ذكرنا أن عبد المنعم أمين كان يسكن شقة فاخرة على النيل ، ولما رآها عبد الناصر قبيل الثورة همس في أذن كمال الدين حسين قائلاً « هو عاوز ثورة له ؟ ما هو عنده كل حاجة » فيبدو أن الثورة عند عبد الناصر كانت للحصول على الترف والنعيم .

وفي ليلة الثورة احتل بقواته مدخل طريق السويس ، وبعد نجاح الحركة كان ضمن الضباط الذين سافروا إلى الإسكندرية لبحثوا قضية نهاية الملك ، وقد تولى قيادة القوات التي حاصرت قصر رأس التين حتى خرج الملك .

وتولى رئاسة المجلس العسكري الذي حاكم ثوار كفر الدوار ، وكان معه في المجلس حسن إبراهيم ، وعبد العظيم شحاتة الذي أصبح الأمين العام للجامعة القاهرة فترة طويلة من الزمن ليسيطر على الجامعة من خلال وظيفته . وحكم هذا المجلس في أغسطس ١٩٥٢ بالإعدام على قائدين من قادة العمال هما خيس والبقرى ، وكان ذلك اتجاهاً مبكراً لسفك الدماء بواسطة حركة الانقلاب .

ومن مطلع يناير سنة ١٩٥٣ ظهرت الغيوم في حياة عبد المنعم أمين ، وهاجمه بعنف صلاح سالم وأبعد عن المجلس ، ثم عين سفيراً لمصر في ألمانيا الاتحادية ، وبقي هناك حتى مايو ١٩٥٦ حيث استقال وانقطعت صلته بالأعمال الحكومية (١) .

(١) شهود ثورة يوليو ص ٢٥٢ وما بعدها ومذكرات البغدادي ص ٣٥

الأوصياء

بعد أن تحدثنا عن أعضاء مجلس قيادة الثورة، وتعرفنا على ثقافتهم ومذاهبهم، وأخلاقهم، ينبغي أن نوضح أن الكثيرين منهم بعد أن تركوا السلطة ظلوا يحسبون أنفسهم المنقذين لهذا الوطن، والحماة الوحيدين لأجاده، ولست أدرى كيف بقيت هذه الصورة الزائفة في أذهانهم بعد ما نزل بالوطن من هوان في عهدهم، وقد أسماهم الرئيس السادات «الأوصياء» سخريّة من اتجاههم، وقد بدأ اتجاههم هذا في عهد عبد الناصر، ففي حرب ١٩٥٦ هرع إليه صلاح سالم - وكان قد استقال من مجلس الثورة - بحسب نفسه نجدة من السماء، وممرعان ما أصبح رعيدياً يشير على عبد الناصر بأن يسلم نفسه للسفير البريطاني كما سئى فيما بعد، وعاود هؤلاء الكرة كذلك في عهد عبد الناصر إبان أزمة سنة ١٩٦٧ فاتصل به حسن إبراهيم وجرى بينهما الحديث الآتي :

حسن إبراهيم : ياريس عاوزين نشوفك .

عبد الناصر : طيب تعال بكره .

- : وبغدادى وكمال الدين حسين كان عاوزين يشوفوك .

نحب تتصل بهما ليحضرا ؟ .

- : لا أنا مش فاضى اتصل بتم أنت وتعالوا سوا (١) .

وذهب ركب الأوصياء إليه ، وبعد حديث قصير قام واقفاً معلناً انتهاء الزيارة ، وهو يردد لهم قوله : أنا متشكر على مشاعركم (٢) .

...

(١) الصامتون يتكلمون ص ١٢٧

(٢) المرجع السابق ص ١٢٩

وفي عهد السادات كان عدد الأوصياء قد كبر ، إذ أبعدهم أنور السادات جميعاً فاجتمعوا في موكب المتقاعدين ، وأرادوا العودة للنفوذ بعد التخلّص من مراكر القوى ، ثم في حرب ١٩٧٣ ولكن أنور السادات سخر منهم وأعلن أن مصر ليست في حاجة لهؤلاء الأوصياء ، ومن هنا اتجهوا اتجاهاً آخر ، فالتحدوا في حزمة معارضة وأعلنوا رفضهم مع الراضين لمعاهدة السلام بين مصر وإسرائيل .

لقد كان عهدهم عهد هوان وظلم ، وهزائم ، ولست أدري بأي وجه يريدون العودة للنفوذ ، ولو كنت مكانهم لاختفيت على استحياء ، وشكرت أنور السادات لأنه لم يسمح بعد بنشر كل المخازي التي حفل بها هذا العهد الكريه .

إنهم فتية :

بقيت كلمة تتصل بهؤلاء الأوصياء فإنهم عند ما سلبوا السلطة وجلسوا في مقاعد النفوذ كانوا شبانا ، أعمارهم بين ٣٠ و ٣٥ سنة ، وكانوا يفخرون بهذه الأعمار ، واتخلوا شعارهم الآية الكريمة « إنهم فتية آمنوا بربهم » فكانت هذه الآية توضع في مكانهم ومنتدياتهم ، وكان رأيهم في من يكبرهم سناً أنهم رجعيون مرتجفوا الأفكار . وأريد أن أقول لهؤلاء الذين كانوا فتية أنهم أصبحوا شيوخاً ، وإن كلاً منهم الآن في الستين من عمره أو تجاوزها ، فهل يرون أن يتركوا الأمر لفتية اليوم ؟ .

كلمة الفتية اليوم بشباب في رتبة النقيب أو الرائد ورأيت معلوماتهم الضحلة وتجاربهم المحدودة ، أقشع ، إذ أتصور أن قادة الأمم كانوا في مثل هذه الحال وحكموا مصر ، ويبرز لي أن ما حدث لمصر في عهدهم كان طبعياً ومنتشياً مع قذرات هؤلاء .

ضباط الثورة

من حالٍ إلى حال

بعد أن تدارسنا شخصيات القادة من أقوالهم ، نريد أن نضع أمام القارئ قائمة سريعة بأسماء مجموعة من الضباط ، ليرى كيف انتقلوا من حال إلى حال ، وليدرك أن هذا الانقلاب كان فرصة للترقي والكسب بوسيلة أو بأخرى ، كان أنانية لا تعرف الإيثار ، وأخذاً لا يعرف العطاء ، وهذه الأسماء نموذج موجز لذلك ، وما خفي من ألوان الكسب أكثر جداً مما تظهره هذه القائمة :

أعضاء مجلس قيادة الثورة :

الاسم	الرتبة عند قيام الثورة	ما وصل إليه
١ - محمد نجيب	لواء	رئيس الجمهورية
٢ - جمال عبد الناصر	بكباشى	
٣ - زكريا محيى الدين	بكباشى	رئيس وزراء ونائب رئيس الجمهورية
٤ - عبد اللطيف البغدادى	بكباشى	نائب رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الأمة
٥ - جمال سالم	بكباشى	وزير ونائب رئيس الجمهورية
٦ - حسين الشافعى	بكباشى	وزير وأمين الاتحاد الاشتراكي ونائب رئيس الجمهورية
٧ - عبد المنعم أمين	بكباشى	سفير

الاسم الرتبة عند قيام الثورة ما وصل إليه

- ٨ - نهاد محيي الدين صاغ رئيس مجلس إدارة دار أخبار اليوم
٩ - عبد الحكيم عامر صاغ مشير والنائب الأول لرئيس الجمهورية
١٠ - حسن إبراهيم صاغ وزير ونائب رئيس الجمهورية
١١ - صلاح سالم صاغ وزير
١٢ - كمال الدين حسين صاغ وزير ونائب رئيس الجمهورية
- من الضباط الأحرار :

الاسم الرتبة عند قيام الثورة ما وصل إليه

- ١ - زكريا العادلي إمام أمير الإي سفير بالهند
٢ - صدق سليمان قائم مقام مهندس رئيس وزراء ثم رئيس الجهاز المركزي للمحاسبات
٣ - أحمد أنور بكباشي وزير برئاسة الجمهورية
٤ - عبد الحميد صبور بكباشي سفير
٥ - عبد المنعم النجار بكباشي سفير
٦ - علي صبري بكباشي رئيس وزراء
٧ - محمد التابعي بكباشي سفير
٨ - إبراهيم الطحاري صاغ وزير برئاسة الجمهورية
٩ - أمين هويدي صاغ وزير ورئيس منظمات
١٠ - ثروت عكاشة صاغ وزير وسفير ومساعد رئيس الجمهورية
١١ - حسن خليل صاغ قائد المباحث الجنائية

الاسم	الرتبة عند قيام الثورة	ما وصل إليه
١٢ - حسن فهمى عبدالمجيد صاغ	صاغ	سفير
١٣ - صلاح نصر	صاغ	رئيس المخابرات العامة - وزير مفوض
١٤ - عبد الحليم الأعسر	صاغ	مدير شركة مصر للحرير الصناعى
١٥ - فريد طولان	صاغ	نائب مدير المخابرات العامة
١٦ - مجدى حسنين	صاغ	سفير
١٧ - محمد توفيق عبدالفتاح	صاغ	وزير الشؤون الاجتماعية وسفير
١٨ - محمد على بشير	صاغ	رئيس مجلس إدارة الشركة الشرقية للبترول
١٩ - محمد وجيه أباطة	قائد جناح	محافظ القاهرة
٢٠ - مصطفى بهجت بدوى	صاغ	رئيس مجلس إدارة التحرير
٢١ - ممدوح جبة	صاغ	سفير
٢٢ - وفاء حجازى	صاغ	سفير
٢٣ - إبراهيم بغدادى	يوزباشى	محافظ القاهرة
٢٤ - أحمد كامل	يوزباشى	رئيس المخابرات العامة
٢٥ - أحمد اطفى واكد	يوزباشى	رئيس تحرير جريدة الشعب
٢٦ - أمين شاكر	يوزباشى	وزير سياحة
٢٧ - توفيق عبده إسماعيل	يوزباشى	وكيل وزارة برياسة الجمهورية
٢٨ - حامد محمود	يوزباشى	محافظ البحيرة
٢٩ - حسين عرفة	يوزباشى	مدير مكتب وزير الداخلية

الاسم	الرتبة عند قيام الثورة	ما وصل إليه
٣٠ - سعيد حلیم	يوزباشى	مدير مكتب وزير الداخلية
٣١ - فتح الله رفعت	يوزباشى	رئيس هيئة الاثنتان الزراعى
٣٢ - فؤاد هلال	يوزباشى	سفير بالخارجية
٣٣ - كمال رفعت	يوزباشى	نائب رئيس وزراء وسفير بلندن
٣٤ - محسن عبد الخالق	يوزباشى	سفير
٣٥ - محمد أبو نار	يوزباشى	رئيس شركة الأخشاب
٣٦ - طلعت حسين	ملازم أول	وكيل وزارة فى الإدارة المحلية ورئيس مجلس مدينة الجيزة
٣٧ - فؤاد المهداوى	ملازم أول	سفير بالخارجية
٣٨ - أحمد قدرى	ملازم ثان	وكيل وزارة الثقافة
٣٩ - آمال المرصفى	ملازم ثان	مدير المسرح القومى

الباب الرابع
عصر محمد نجيب: الواجهة

حوادث سنة ١٩٥٢

إن الدراسة التي قمنا بها آنفاً عن قادة الثورة تبرز لنا سرٌ ما نزل بمصر من هزائم وويلات ، وما عاناه الشعب من مرارة وآلام ، وعلى هذا فإننا عندما نبدأ في دراسة الأحداث في عهد عبد الناصر سيتضح لنا أن كل مساوئ هذا العصر نبتت من الأصل الذي توقفنا عنده طويلاً وهو إعطاء السلطة لمن ليست له كفاءة للسير بالسلطة وحمل التبعات .

وقد قلنا من قبل إن العهد من مطلع الثورة إلى وفاة عبد الناصر كان عهد عبد الناصر ، وإذا تتبعنا الأحداث بدقة فإننا نجد أن عهد محمد نجيب الحقيقي لا يتجاوز بضعة أيام ، فعندما أظهر الشعب تأييده للثورة ، والتف الجيش كله خلف محمد نجيب ، وبالتالي لم تتدخل بريطانيا ، واضطر الملك للثنازل عن العرش ومغادرة البلاد ، عندئذ استقرت الثورة ، وأن لنجم محمد نجيب أن يتجه للأفول ، ولنجم عبد الناصر أن يرتفع بوسائط هائلة قام بها لذلك ، ولكن محمد نجيب لم يدرك هذه الحقيقة فقاوم دون مهارة في المقاومة ، وبسبب عدم المهارة في المقاومة تهاوى في النهاية واستسلم ، ولكنه كان — على كل حال — الرئيس الظاهري للسلطة سواء أكان رئيساً في منصب القائد الأعلى للقوات المسلحة التي قامت بالانقلاب ، أو كان رئيساً للوزراء ، أو رئيساً للجمهورية عقب إسقاط النظام الملكي ، وقد امتدت عهود محمد نجيب هذه مدة تزيد عن السنتين ، ويمكن القول إنه استغل لفصل باسمه أخطر القوانين ، وتقوم أشنع المؤسسات الخبيثة التحرير ، فقد أعلن بافتخار قيامها ، ولكنها بذلت أقصى الجهد لهدمه ، وهدم كل القيم . وتلك غفلة من محمد نجيب جنى ثمارها المرة ، وجنتها معه مصر ، وعلى كل حال فالسلطة الحقيقية كانت في يد عبد الناصر ، وكانت عليه مسؤولية هذه الأعمال أما محمد نجيب فكان واجهة فقط .

بقيت كلمة عن المدنيين الذين اعتمد عليهم زعماء الانقلاب ، وقد كان في القمة من هؤلاء على ماهر وسليمان حافظ والسنهوري وثلاثتهم من أكثر

أعداء حزب الأغلبية ، وكان ذلك لإرهاصاً بتلمس السبيل لمحاربة حزب الوفد^(١) .

والخطة التي تتبعها في عرض الأحداث هي مزيج بين نظام الحوليات ونظام الدراسة الموضوعية ، فستكلم عن الأحداث بتسلسلها التاريخي ، ولكننا عندما نبدأ الحديث عن حدث سنظل معه غالباً حتى ننهي من عرضه خلال الفترة كلها ، فالإصلاح الزراعي مثلاً صدر به قانون سنة ٥٢ ، ثم عدّل بقانون آخر سنة ١٩٦١ ، ثم صدر تعديل ثالث سنة ١٩٦٩ وعندما نتكلم عن الإصلاح الزراعي سنتكلم عنه مرة واحدة .

وهناك كذلك قضية « الإخوان المسلمون والثورة » وهي قضية متشعبة بدأت من مطلع الثورة عندما اشترك بعض زعماء الإخوان في الوزارة ، ثم تقلبت الأحوال بين الإخوان المسلمين وعبد الناصر ، ودراسة هذه القضية متشابكة ينبغي عندما نتكلم عنها أن نجمع أطرافها بقدر الامكان .

وحرب اليمن التي استمرت خمس سنوات نورد الحديث عنها في مكان^٢ واحد . . . وهكذا .

أما فيما عدا ذلك نشيظل نظام الحوليات هو النسق الذي تتبعه .

ومن الواضح أن عهد محمد نجيب حافل بالأحداث الكبرى التي قام أكثرها باسمه ، والتي وقف هو يدافع عنها أحياناً وهو لا يدري ما تخبئته له الأيام : ومن هذه الأحداث الإصلاح الزراعي وإلغاء الدستور وإنشاء عاظم القسوة والقهر ، وحل الأحزاب ، وإنشاء هيئة التحرير . . . وغير هذه من الأحداث التي كانت شديدة الخطر على البلاد ، وسنبداً فيما يلي بمداخلة هذه الأحداث

(١) George Haddad : Revolutions and Military Rule: in the Middle East Vol 3 P. 30.

على ماهر

أول رئيس للوزراء في عهد الثورة

لعل أول حدث مهم في عهد محمد نجيب، هو اختيار على ماهر لرياسة الوزارة ، وقد قلنا من قبل إن الثورة أرادت أن تفرض نفسها على الملك. فاقترحت أن تسند الوزارة لعلى ماهر ، وخضع الملك لهذا الاقتراح ، وبخاصة أن على ماهر كان دائماً سلاحاً في يد الملك يلجأ له في الأزمات ، وكان على ماهر يكره الدستور والحياة الديمقراطية التي تبعده عن الحكم ، وتجلب الوفد للسلطة ، ولكنه كان لا يعلن هذا العداء ولا يقوى على إعلانه *

وتاريخ على ماهر يبرز - كما يقول أحمد حمروش - أنه اتخذ طول حياته السياسية مواقف تعادى الدستور وتتناقض معه ، فقد اشترك في وزارات أحمد زيور ومحمد محمود وإسماعيل صدقي التي أهدرت سلطة الأمة وعطلت الدستور ، ثم ألغته ، والتي كانت حرباً على الحريات والكرامات ، كما كانت وسيلة لدعم سلطان الملك ونظريته التي ترى أنه يملك ويحكم . وعندما عين على ماهر رئيساً للديوان الملكي بعد تولية فاروق سلطته الدستورية عام ١٩٣٧ استهل عهده بقرار أصدره الملك بإقالة الوزارة الوفدية .

ومن أجل هذه المواقف المعادية للدستور انتهز على ماهر وجود الثورة. ليحكم بسلطتها العسكرية ، واتجه من أول لحظة لمعاداة الدستور ورفض دعوة البرلمان المنحل^(١) ، وكان في كل خطواته يتجه ليأخذ من الثورة.

(١) أحمد حمروش : قصة ثورة ٢٣ يوليو ٢٣٧ .

وسيلة له ليحكم ، ولم يكن يدري أن هناك قوة تسعى لنفس الهدف ، وأنها اتخذته مطية فترة قصيرة من الزمن ، ثم ألقت به بعيداً لتجلب محمد نجيب لرياسة الوزارة ، فهو باب أفسح لدخول عبد الناصر والعسكريين للحكم :

تتابع السلطات :

وبهذه المناسبة نذكر أنه في مطلع الثورة كانت القوانين تصدر بتوقيع «محمد نجيب القائد العام للقوات المسلحة» ، وكان على ماهر يصدر القرارات التنفيذية .

ثم دُفِعَ محمد نجيب لتولى رياسة الوزارة فاجتمعت في يده السلطان ، وكان ذلك باباً جديداً لتدفع العسكريين على السلطة ، فلم يكن محمد نجيب إلا ساتراً ضئيلاً :

وكان عبد الناصر قد جمع زملاءه في مساء ٢٧ يوليو ١٩٥٢ - كما قلنا من قبل - وأعلن لهم أن مجلسهم بعد نجاح الثورة لم يعد الهيئة التأسيسية ، بل أصبح اسمه «مجلس قيادة الثورة» واختير عبد الناصر في هذا الاجتماع رئيساً لهذا المجلس ، ولم يكن محمد نجيب قد دعى لهذا الاجتماع .

وفي يونيو سنة ١٩٥٣ اكتمل تقريباً إبعاد محمد نجيب عند ما سُحِبَ منه لقب القائد العام للقوات المسلحة ، وأعطى لعبد الحكيم عامر ، واكتفى بنجيب بالرياسة الاسمية للجمهورية التي أعلنت آنذاك .

١

وبدأت تظهر قرارات مجلس قيادة الثورة باسم عبد الناصر ، ولكنه مع الزمن لم يقنع بذلك ، بل أوقف جلسات المجلس ، واستبد بالسلطة ، ثم ألغى هذا المجلس نهائياً .

إننا نعلن أنها كانت براعة فائقة في التخطيط الاستبدادي من عبد الناصر ،
ولو كان الرجل في مثل هذه البراعة بالنسبة لقضايا البلاد لحقق الخير الكثير
لها ، ولكن عبد الناصر ما كان يفكر إلا في نفسه وذويه ، وكانت البلاد
بالنسبة له في ذيل القائمة .

• • •

ولنتابع الآن دراسة أحداث عصر محمد نجيب :

الأحزاب

توجد هيئات ونقابات لخدمة المعلمين والأطباء ورجال الصحافة ، ولكن أعظم التجمعات في العالم المتحضر هي تلك التي يطلق عليها «أحزاب» لأنها ترعى مختلف الشئون التي تهتم البلاد ، وفي قمتها شئون السياسة والحكم ، وعن طريق الأحزاب التي تنبثق حقيقة من الشعب ، وعن طريق صحافتها الحرة مؤيدة ومعارضة تبجى حماية البلاد ورعاية مصالحها . وقد تحدثنا عن الأحزاب بمصر حديثاً طويلاً في الجزء الخامس من هذه الموسوعة ، ونحدث هنا عن موقف حركة الجيش من الأحزاب .

وقد كانت قضية الأحزاب هي أولى القضايا التي واجهت الثورة ، ذلك لأن حزب الوفد حسب أن سقوط الملك سيؤدي حتماً إلى القضاء على الوسيلة التي كانت تبعده عن حقه في تولي زمام الحكم ، وقوى هذا الاتجاه عند الوفد أنه كان ضمن مبادئ الثورة إقامة حياة ديمقراطية سليمة ، وتأثراً بهذا الاتجاه أسرع مصطفى النحاس زعيم الأمة آنذاك ، وفؤاد سراج الدين السكرتير العام لحزب الوفد بالعودة من أوروبا إلى مصر ، وكانا قد سافرا إليها منذ أيام قليلة للاستراحة والاستشفاء ، وفي المطار ألقى النحاس باشا كلمة قال فيها : الحمد لله أن تطهرت مصر من الفساد على أيدي رجال الجيش المخلصين ، وانحدر الرئيس والسكرتير من المطار إلى مقر زعماء الحركة معتقدين أن زمام الأمر سيتجه لهما ، باعتبار الوفد هو الممثل الحقيقي للأمة .

وقضية الأحزاب التي نتكلم عنها الآن ستتسع ، ويتصل بها إسقاط الدستور وخلق المحاكم العسكرية لتشويه مكانة زعماء الأحزاب ، وخلق دستور مؤقت تخضعكم به الثورة العسكرية ، ثم إنشاء هيئة التحرير لتكون

بديلاً للأحزاب ، وقد بدأت هذه الحركات في عهد وزارة علي ماهر ، وأسهم هوفيا ، فقد كان عدواً لحزب الأغلبية كما قلنا من قبل ، ولكن السلطات العسكرية سرعان ما استبدت بالأمر ، فلم تكن في حاجة إلى المواربة التي كانت خلق على ماهر في معالجة الأمور ؛ فعين محمد نجيب رئيساً للوزارة في ٩/٧ ، ووضعت حركة الجيش سليمان حافظ نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للداخلية ، وكان سليمان حافظ من ألد أعداء حزب الوفد ، وهو الحزب الذي اتجهت الجهود لأبعاده خوفاً من شعبيته .

ورغبة في القضاء على الوفد بوجه خاص ، والقضاء على الأحزاب كلها بوجه عام ، والاستبداد بالسلطة في غيبة ممثلي الأمة ، اتخذت الحركة خطوات متتالية ستندارسها فيما يلي :

أولاً : تطهير الأحزاب :

انتشر هذا التعبير بدءاً من ١٩٥٢/٧/٣١ ، وكان وسيلة مهمة للإيقاع بين أتباع الأحزاب بعضهم البعض ، ولكن يبدو أن التماسك بين أتباع كل حزب كان أقوى من أن يتأثر بهذا التعبير ، ولذلك جاء قانون تنظيم الأحزاب ثم قانون حل الأحزاب بعد ذلك .

ولتتبع خطوات القول بتطهير الأحزاب :

في ٣١ يوليو صدر بيان من القيادة العامة يقول : « والجيش وقد كان أول الهيئات العاملة على تطهير صفوفه وتسليم قيادته لأيدٍ أمينة صالحة نزيهة (!!!) يرى أن يقوم الجميع بهذا العمل ، كل في صفوفه على أن يكون التطهير كاملاً يتناول الأداة الحكومية والأحزاب والهيئات دون أى تأخير أو تسويق ؛ كما يرى الجيش أن تعلن الأحزاب والهيئات يرناجماً واضح المعالم للشعب » .

وفي ٢ أغسطس اجتمع الإخوان المسلمون وطالبوا بالتطهير الشامل الكامل لكل من أعان الملك السابق على الشر ويسر له سبل الفساد والظغيان ، وكان أسرع صدى لذلك أن اجتمعت مجموعة من شبان الحزب الوطني وقررت بالإجماع إعفاء اللجنة الإدارية للحزب من سبب العمل فيه ، واختيار الأستاذ فتحى رضوان رئيساً للحزب الوطنى ، ونشر البرنامج الجديد للحزب خلال ثلاثة أيام .

وتوقف الصدى تقريباً عند هذا الحد ، ويبدو أن ذلك كان خدعة لشبان الأحزاب الأخرى ليقوموا بنفس التصرف ، ولكن ذلك لم يتم ، فزعامة الوفد الممثلة فى مصطفى النحاس ، وزعامة الأحرار الدستوريين الممثلة فى الدكتور محمد حسين هيكل كانت موضع إجلال الشبان وتقديرهم .

وعندما فشلت هذه المحاولة بدأت الأصوات الرسمية تتكلم منسترة خلف توقيعات بالأحرف بدل الأسماء ، أو معلنة أسماءها وصفقتها الرسمية : فى ١٥ أغسطس نشر بالأهرام مقال بتوقيع مجهول يرمز له بالحرفين ا . ا . تحت عنوان « تطهير الأحزاب » جاء فيه : « إننا نبالغ فى حسن الظن بالأحزاب وزعمائها حين نطالبها بتطهير نفسها ، وليس محتاجاً إلى دليل أن الفساد الذى تغلغل فى كل مرافق البلاد وعانت منه مصر كل ما عانت إنما كان مبعثه أولئك الزعماء أنفسهم ، والبارزون فى الصفوف الأولى من الأحزاب ، ثم طالب كاتبه فيه بأن يقوم الشرفاء من الوفدين والسعديين والدستوريين بتأليف حزب جديد على مبادئ جديدة تتفق ومتطلبات للعهد الجديد .

وفى نفس اليوم ذكر على ماهر فى بيان أعلنه على الأمة أن البرلمانات المناهضة لم تقف فى وجه الباطل والظغيان ، وأنها عجزت عن مناهضة الفساد رغم كل السلطات التى منحها لها الدستور ، ولهذا فإن الحكومة

تعمل جاهدة لإنقاذ الحياة النيابية من هذا الخزي ، والتمهيد لحياة دستورية سليمة مطهرة نزجة ، ومن أجل هذا تصر الحكومة والجيش على أن تظهر الأحزاب نفسها من العناصر غير الصالحة قبل الانتخابات القادمة .

ثم خطا الاتجاه الرسمي خطوة تهديد ، فقد كانت قد ظهرت « لجان التطهير الحكومية » التي بدأ تكوينها لمحاسبة من اعتبروا منحرفين من الموظفين ، وهددت الحكومة بأن الأحزاب إذا لم تطهر نفسها فإن لجان التطهير ستولى ذلك وبدأت مقابلات واتصالات عقب ذلك بين محمد نجيب وزعماء الأحزاب للتعرف أو للاتفاق على العناصر المنحرفة لإبعادها ، وكان عبد السلام فهمي جمعة هو ممثل الوفد الذي التقى باللواء محمد نجيب في ٢٢ أغسطس ، وبناء على ذلك تقرر فصل بعض أعضاء من الهيئة الوفدية .

وكان هناك لغط كبير حول إبراهيم عبد الهادي رئيس الهيئة السعدية وبخاصة لاتهامه في حادث مقتل الأستاذ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين ، ومن أجل هذا أعاد الحزب السعدى تكوين رئاسته في ٢٩ أغسطس فتنحى إبراهيم عبد الهادي وحامد جودة .

وعقدت اجتماعات في حزب الأحرار الدستوريين لتنفيذ مبدأ التطهير من الداخل ، وكان الزمن يمر وسلطان الثورة يقوى ويستقر ، والدعاية لها تتسع ، ومن أجل هذا لم تقنع بما حدث ، فتكررت التهديدات والإنذارات ؛ ففي ٣٠ أغسطس أُنذِر على ماهر الأحزاب بأن الحكومة ستفرض على الأحزاب القواعد الصحيحة للتطهير ، لإهمالها في إصلاح نفسها ، وعلى ماهر كان دائماً كما قلنا من قبل عدواً للأحزاب وعبداً للقصر ، وقد جرب مرة تكوين حزب أسماه « جبهة مصر » ولكنه فشل فشلاً تاماً ، لأنه لم تكن له أعراق شعبية وقد حدث مرة أو أكثر من مرة أن أجرى انتخابات حرة جاء الوفد على أثرها ، ولكن ذلك كان لأن الموجة كانت شديدة فلم

يستطع إلا أن يطأطأ لها الرأس ، وطالما رحب بالتقاط الرئاسة عقب
طرد أصحاب الشأن ٥

والمهم أنه بدأ ينلر الأحزاب بنفسه أو بالإيعاز إلى الصحفيين الذين
يسبرون في ركاب كل حاكم ، ففي ٥ سبتمبر كتب أحمد الصاوى بالأهرام
يقول : لا يزال التطهير في الأحزاب حسراً على ورق ، فلتستيقظ
الأحزاب لتطهر نفسها بنفسها وإلا رأت نفسها مطهرة على رغمها لأن هذه
هى إرادة الشعب : ومسكين هذا الشعب الذى يبدعى الكثيرون أنهم
يتكلمون باسمه حتى أحمد الصاوى .

وفى نفس التاريخ أدلى على ماهر بمحدث قال فيه : إن تطهير الأحزاب
يعجل بالعودة إلى الحياة النيابية الصحيحة ، ولكن على ماهر لا يكتفى
بهذا بل راح يتكلم عن إصلاح أداة الحكم ، وأن هذا هو رائد
الحكومة الأول .

وكان الحديث عن إصلاح أداة الحكم مؤشراً واضحاً على أن الثورة
تريد الاستمرار والبقاء ، وأن الكلام عن تطهير الأحزاب « كـشغل »
لوقت ، وموضوع « غير مقصود » مهما بلغ هذا التطهير ، وكان من
نتائج ذلك أن أقبل على ماهر فى ٨ سبتمبر « وألف قائد الثورة محمد نجيب
الوزارة الجديدة .

ومن الواضح أن تركيزاً شديداً اتجه لإبراز مساوىء الأحزاب ،
ويلاحظ فى هذا الشأن شيثان :

أولاً : تُنسب تماماً جسنت الأحزاب ومزاياها ، فإن للحياة الحزبية
بمصر مآثر مشرقة ، أهمها ذلك الكفاح المرير لتحقيق الأهداف القومية

في استقلال البلاد وطرده المستعمر وترسيخ أسس الحياة النيابية^(١) والتطور بالبلاد اقتصادياً وثقافياً واجتماعياً كما ذكرنا من قبل .

ثانياً : إن الكلام عن مساواة الأحزاب كان عاماً دون تحديد الحزب أو الأحزاب التي كانت تسير في ركاب الانجليز أو الملك ، وهذا يدل على أن الاتجاه كان يرمى إلى التخلص من الحياة النيابية كلها دون تمييز الصالح من القاسد ،

وينبغي هنا أن نعطي صورة توضح لنا تفكير جمال عبد الناصر تجاه المقياس الذي قاس به زعماء الأحزاب ، ونأخذ هذه الصورة من كبير الطهارة في مطبخ السياسة المصرية محمد حسنين هيكل^(٢) يقول كبير الطهارة :

— استدعى رجال الثورة النحاس من أوروبا ، وسرعان ما حضر وقابل محمد نجيب وكان جمال عبد الناصر ورفاقه متبیین أمام الرجل الذي استدعوه من أوروبا ، وكانت أفكارهم تجاهه طيبة ، ولم يتكلموا تركوه يتكلم مع محمد نجيب ، لكنه بمجرد أن بدأ الكلام أصيبوا بشيء من الذهول .

كأن النحاس كان غريباً عنهم ، وصموده ربع قرن زعيماً للأمة لم يكن معزوقاً لهم ، ولما رأوه ، وسموا كلامه أصيبوا بالذهول !!

وفي لقاء النحاس مع محمد نجيب قال له نجيب إن الثورة قامت ، ومن أهدافها تحقيق الإصلاح الزراعي ... ورد النحاس على الفور لا . لا . لا .

وموقف النحاس باشا واضح فهو زعيم شعبي وله برنامجه الإصلاحى الطويل ، ولا يتلقى تعليماته من أحد إلا من الشعب ، لقد عانى عمره كله من

(١) دكتور وحيد رافت : فصول من ثورة يوليو ص ٥٧

(٢) بصراحة عن عبد الناصر ص ٤٩ - ٥٠

الملكية ، وهو لا يريد أن يبدأ عهداً جديداً يعانى فيه من سلطات أخرى ، كما أنه يرى أن من صالح الاقتصاد القومى اللجوء إلى الضرائب التصاعدية بدل القضاة المباشر على الملكيات الكبيرة .

ويستمر هيكمل قائلاً : والواقع أن جمال عبد الناصر صدم بالنحاس ، فإذا كان زعيم الأغلبية هكذا فكيف إذاً بقية الأحزاب ، وصدم أيضاً بالسياسيين القدامى مثل ما صُدم بالنحاس ، صدم جمال عبد الناصر بالنحاس لأنهم عندما حدثوه عن الإصلاح الزراعى كان يتكلم كأنه فى ملكوت آخر ، وصدم أيضاً لأن القوى السياسية والأحزاب عموماً لم تكن عندها فكرة عن أى عمل إصلاحى أو تغيير .

وحدث اجتماع بين عبد الناصر وفؤاد سراج الدين ، وتكررت الاجتماعات بينهما ، وحاول عبد الناصر إقناع فؤاد سراج الدين بأنه مستعد لإعطائه الحكم على شرط أن يوافقوا على تطبيق الإصلاح الزراعى ، وكما رفض مصطفى النحاس الشروط رفض أيضاً فؤاد سراج الدين .

وقى تعليقاً على ذلك نذكر أن هذه الأحداث لو صحت تبين لنا أن تفكير عبد الناصر رسا ورسخ على ما أسماه الإصلاح الزراعى ، فلما رُفِضَ هذا الاقتراح لأسباب فنية ودستورية ، اتخذَ الرفض أساساً لاستمرار الثورة واستبعاد الأحزاب .

ذلك كان المقياس الذى قيست به كفاءة مصطفى النحاس ، وكفاءة زعماء الأحزاب ، مقياس الاستلطاف والإحساس أولاً ، والادعاء ثانياً بأن هؤلاء لم تكن عندهم فكرة لأى عمل إصلاحى !!!

يا لله ، لقد عاش النحاس باشا من سنة ١٩٢٧ إلى قيام الثورة زعيماً

شعبياً هائلاً ، وله مواقف عظيمة جماعته مهيباً عند قادة الثورة كما يقول هيكل ، وكان سراج المهين عقاية نخسبة ناذرة لم تستطع محاكم الثورة أن تنال منه ، أو تثبت عليه أى انحراف ، وكان الدكتور محمد حسين هيكل من عباقرة الجيل وأستاذة العصر ، وكل هذا يتهاوى ويضيع في لحظات ، لأن جمال عبد الناصر لم يستلطف هؤلاء الرعاء ، ولم يجد عندهم أية فكرة عن أى عمل إصلاحي أو تغيير ١١

ويهمنا هنا أن نوضح شيئاً مهماً هو أن زعماء الثورة اتخذوا فكرة تطهير الأحزاب لعجم عودها وللتعرف على قواها ، فلما اطمأن زعماء الثورة إلى أن هؤلاء الزعماء لن يثوروا ضدهم خطراً في طريقهم الذى رسموه وهو إبعاد على ماهر والتقدم للحكم المباشر خطوة جديدة ، وقاموا بإجراء حملة اعتقالات للسياسيين ، وقد تم ذلك في اليوم الأخير لوزارة على ماهر .

وقامت الثورة في اليوم التالى لتولية محمد نجيب رئاسة الوزارة بإعلان قانون الإصلاح الزراعى (١٩٥٢/٨/٩) واعتبر ذلك تقرباً للجماهير ليكون وسيلة مساعدة في القضاء على الأحزاب وتثبيت أقدام الثوار ، وسنتكلم عن الإصلاح الزراعى فيما بعد .

ثانياً : قانون تنظيم الأحزاب :

ثم أصدرت الثورة قانون تنظيم الأحزاب في ٩ سبتمبر ، وبمقتضاه كان على الأحزاب أن تقدم لإخطارات جديدة بتكوينها ، وأن تقدم برامج شاملة لها ، وقال سليمان حافظ في الدفاع عن هذا القانون إن له نظائر في العراق وفي ألمانيا الغربية (لم يكن لها نفوذ آنذاك ، وكانت قوى الحلفاء تخشى قيام حزب نازى) .

ومن عجب أن يتجه الاهتمام إلى البرامج ، مع أن كتابة البرامج شيء

يسير ، ولكن المهم هو الإخلاص لهذه البرامج والكفاءة التي تعمل على تنفيذها .

ويقول الأستاذ صلاح الشاهد : إنه كان من الواضح أن القانون لم يكن يستهدف سوى ضرب الوفد باعتباره حزب الأغلبية الذي يتمتع بتأثير شعبي واسع ؛ والذي كان دائماً صاحب الأغلبية الساحقة في كل برلمان انتخب انتخاباً حراً^(١)

وتنفيذاً لهذا القانون تقدمت الأحزاب بإخطارات لإعادة تكوينها ، وأصدر حزب الوفد برنامجاً حافلاً في ٩/٢١ ، ومن أهم ما جاء في هذا البرنامج ما يلي :

- ١ - الوفد هيئة سياسية ديمقراطية اشتراكية
- ٢ - يعمل الوفد لتحقيق الاستقلال والوحدة .
- ٣ - يرفض الوفد جميع صور الدفاع المشترك .
- ٤ - التمسك بعروبة فلسطين .
- ٥ - إصدار مجموعة من القوانين لصالح العمال والفلاحين والنظم الإدارية .
- ٦ - إعادة بناء القرى المصرية خلال عشرين عاماً (ابتداء من سنة ١٩٥٢) .
- ٧ - الانتهاء من تعميم المياه الصالحة للشرب خلال خمس سنوات طبقاً لمشروع الوفد الذي بدأ فيه سنة ١٩٥١ .

(١) ذكريات في عهدين ص ٢٦٥

٨ - جعل التعليم الديني إجبارياً .

٩ - تحريم الخمر والميسر .

١٠ - الموافقة على مشروع تحديد الملكية .

وحسبت الأحزاب أنها بذلك تستجيب لرغبة هذا القانون ، ولكن سرعان ما اعترض سليمان حافظ على أنظف رجال الأحزاب ، على الزعيم مصطفى النحاس وعلى الأستاذ دسوقي أباطة السكرتير العام لحزب الأحرار الدستوريين ، وقد هز الاعتراض على مصطفى النحاس شعور الجماهير ، وتمسك النحاس باشا في بادئ الأمر بحقه كرئيس للوفد ، ولكن النحاس تراجع عن موقفه ، وأبدى استعداداً بأن يضحى بنفسه إذا كان في ذلك ما يفسح الطريق لقيام حزب الوفد من جديد ، ونشر مقالا في ٦ أكتوبر يفيد هذا الاتجاه ، وأعلن فؤاد سراج الدين أنه لا يمكن أن يتنحى زعيم الأمة ، فصاح النحاس فيه : اقبل ما أردته وهذا آخر أمر مني لك ، وعليك أن تنفذه ، وكان ذلك في ٧ أكتوبر ٥

وكانت الثورة تتخذ من اعتراضها على النحاس باشا وسيلة ليتخلى الوفد عن الظهور ، فلما وقف النحاس باشا هذا الموقف بدأت الثورة تبحث عن حل جديد فأعلنت في ٢٩ نوفمبر أن الأحزاب لن تعود إلى نشاطها قريبا ، ثم لجأ الثوار إلى حل آخر يبعد عنهم شبح القوى الحزبية ، وذلك هو إلغاء الدستور ، وقد صلب بذلك قرار قائد الحركة في ١٠ ديسمبر سنة ١٩٥٢ وستكلم عن الدستور فيما بعد .

ثالثاً - حل الأحزاب :

أتاح إلغاء الدستور الفرصة لحل الأحزاب التي كانت تستمد وجودها من وجوده فصدر في ١٧ يناير سنة ١٩٥٣ قرار من القائد العام للقوات

المسلحة يعلن فيه حل جميع الأحزاب السياسية ، ومصادرة جميع أموالها لمصلحة الشعب ، وأعلن فيه أيضاً قيام فترة انتقال مدتها ثلاث سنوات .

وختم هذا البيان بعبارات تهديد ، فقد جاء فيه « حتى تتمكن من إقامة حكم ديمقراطى دستورى سايم ومنذ اليوم لن أسمح بأى عبث أو إضرار بمصالح الوطن ، وسأضرب بمنتهى الشدة على من يقف فى طريق أهدافنا التى صنعها آلامكم الطويلة » .

وكان قائل هذا الكلام هو محمد نجيب ، وقد مهد الأرض لسواه ونزل أشرس هوان ، فلا تأخذك رحمة به أبها القارىء .

ويعلق الأستاذ أحمد حمروش على هذه الإجراءات بقوله : وكشرت الحركة بذلك عن أنيابها (١) .

وعندما أثرت الشكوك حول دستورية القرارات والمراسيم التى اتخذتها الحركة ، أصدرت هذه الحركة مراسيم تقضى باعتبار كل تدبير اتخذته أو يتخذها القائد العام للقوات المسلحة بوظيفة رئيس الحركة الجيش . . . من أعمال السادة التى لا يجوز الطعن فيها .

بقيت كلمة نعلق بها على موقف الثورة من الأحزاب ، هى أن صحيفة المصرى قامت ببلور عظيم للدفاع عن الدستور والنظام الحزبى ، وأن الجماهير كانت تؤيد هذا الاتجاه ، وأعلن الطلبة سخطهم على موقف الثورة من الديمقراطية والدستور والأحزاب ، وقاموا ببعض التحركات فى ١٢/١/٥٣ ووصلت حركات التذمر إلى الجيش ، فقد قام بعض الضباط بعمليات إثارة ضد زعماء الحركة ، مما دعا محمد نجيب أن يضمن بيانه الذى ألقى به الأحزاب فى ١٧/١/١٩٥٣ تحذيراً يهدد فيه ويخوف ، وعلى العموم فقد

كان موقف الثورة من الأحزاب ومن الدستور أساس الانزال الذى قام
بفتح الثورة وبيدها هزيمة الملك ، إنما يكمن على مر الأحداث .

ويتهمون الأحزاب بالتعفن والفساد لأنها ارتفعت في أحضان الملك
والإنجليز ، ولا شك أن الارتقاء في أحضان الملك والإنجليز تعفن وفساد ،
ولكن إطلاق هذا التعبير هو خطأ تاريخي عظيم ، فمن المعروف أن القصر
خلق مجموعة من الأحزاب لتدور في فلكه وتكون رهن إشارته ، أما حزب
الوفد ، الذى كان الممثل الحقيقي للشعب ، فكان منذ نشأته وعلى مر تاريخه
علواً للإنجليز والملك ، ومن هنا حُرم من حقه في تولي الوزارة ، ولم يظفر
بها إلا فترات قليلة جداً^(١) وكان الغم كله للأحزاب الفاسدة التي لم تكن
لها جلوس شعبية على الإطلاق ، وعندما كانت تجري انتخابات حرة كان الوفد
يحصل دائماً على الأغلبية الساحقة ، ولكن الملك الطاغية كان سرهان ما يُقبل
حزب الأغلبية ، وقد أقبل الوفد خمس مرات في عهدي فؤاد وفاروق^(٢)
وكان ذلك يتم دائماً بإيعاز الإنجليز أو موافقتهم على الأقل ، فما كان الملك
يستطيع أن يقوى على هذا العمل بدون رضائهم ، وكان هذا التصرف
من الملك من أهم الأسباب التي أدت لسخط الشعب عليه ولحسن استقبال
الشعب للثورة التي قامت منظاراً بأنها أساساً ضد الملك .

وقد ذكر الأستاذ أحمد حمروش وهو ضابط يسارى صورياً من جهود
الوفد ضد الإنجليز ، وهي تشمل براعة فؤاد سراج الدين الذي عرف من
السفير البريطاني مزايا قاعدة السويس فعمل على القضاء على هذه المزايا بأن
منع وسائل المواصلات الداخلية من نقل مهمات الإنجليز ، ومنع الأيدي
المصرية من العمل عندهم ، وقامت وزارة الوفد بتعيين جميع هؤلاء

(١) انظر الإحصائية التاريخية في الجزء الخامس من هذه الموسوعة

(٢) في السنوات ١٩٢٨ و ١٩٣٠ و ١٩٤٧ و ١٩٤٤ و ١٩٥٢

العمال ، وسمحت الوزارة لبعض الجنود في التخفي بالملابس المدنية للاشتراك في أعمال المقاومة .. (١)

ومن العجيب أن زعماء الثورة كانوا دائماً يفرضون آراءهم على الشعب ويقولون لن نسمح ولن نترك ... وسنقضي على ... وهذا خطأ فقد كان عليهم أن يرفعوا وصايتهم عن الشعب وأن يتركوا له أن يختار ، وكان لهم أن يقوموا بأساليب الدعاية والترشيد ما استطاعوا ، وأن يتركوا للجانب الآخر أن يدافع عن نفسه ، ثم يكون للشعب الكلمة الأخيرة ، فذلك هو النظام المعروف لمن أراد الديمقراطية الحققة ، وقليل هؤلاء ، لقد كان الملك يحرم الشعب من حقه في الاختيار ، فكان من أبرز أعمال الثورة أنها تبنت سياسة الملك وحرمت الشعب من الاختيار .

إلغاء الألقاب المدنية

إذا كان الحديث عن الأحزاب قد بدأ يوم ٣١ يوليو ، فاحتلت الأحزاب بذلك المكان الأول في أحاديثنا عن أحداث عصر محمد نجيب ، فإن الحدث الثاني هو إلغاء الألقاب المدنية الذى صدر به قرار القائد العام للقوات المسلحة في ٢ أغسطس من الشهر التالى للثورة .

والألقاب المدنية التى ألغيت هى فى الأصل ألقاب تركية (باشا - بك) وتعربت فأصبح معمولاً بها بعد الانفصال عن تركيا ، وهى فى الغالب دلالة على تقديم شيء ذى بال للوطن فى أى مجال من المجالات ، ومن هنا كانت من قبل مرتبطة بالألقاب العسكرية ، فالضباط فى رتبة الأميرالاي كان يأخذ لقب بك ، وفى رتبة اللواء كان يأخذ لقب باشا ، كما كانت مرتبطة بالعلماء ورجال السياسة والفكر ، وقد كافأت الإمبراطورية العثمانية مصطفى كامل لتحمسه لعلاقة مصر بتركيا وصراعه ضد الإنجليز فأنعم الخليفة العثماني عليه بلقب باشا ، وهو فى سن الشباب (حوالى ٣٠ عاماً) ولا شك أنه أسىء استعمال هذه الألقاب أحياناً فقُدمت لمن لا يستحقها .

لماذا ألغيت الألقاب المدنية ؟

للتعرف على السبب الذى ذُكر عن إلغاء الألقاب المدنية نلجأ إلى محمد نجيب الذى يقول : كان إصدار قانون الإصلاح الزراعى وقانون إلغاء الألقاب المدنية قد خلق شعوراً عاماً بين المواطنين بأن تحولاً اجتماعياً يحدث فى مصر (١) .

أما محمد حسنين هيكل فيتحدث عن إلغاء الألقاب ، ويوضح لنا أن

(١) كلمتى لتاريخ ص ١٠٨

جمال عبد الناصر كان يستعجل إلغاء هذه الألقاب ، وأن اهتمام عبد الناصر بإصدار قانون الإصلاح الزراعى وتعجله لإصدار قانون إلغاء الألقاب ، هذه الأمور وغيرها كانت فى الواقع إيماءات وإشارات إلى نزعات فى نفس عبد الناصر (١) .

وكلام هيكىل صحيح ويتمشى مع « التأثير النفسى على التاريخ » ، الذى أوضحناه فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة . وحقيقة كان عبد الناصر من أسرة ليست لها أملاك زراعية ولا تحمل الألقاب المدنية ، وكان الرجل ذكياً يحسد هؤلاء الذين يملكون الأرض والذين يحملون الألقاب ، فلما أتاحت له الفرصة أسرع فى التنفيس عن نفسه ، وفى الحقيقة لم يكن إلغاء الألقاب شيئاً خطراً يستحق أن يكون من أول الأعمال أو قل أول الأعمال التى تقوم بها الثورة ، ثم إن الجماهير العريضة وجماعات المثقفين لا يزالون يستعملون هذه الألقاب ، ولا تزال الصحف تذكر هذه الألقاب عندما يموت أحد هؤلاء الذين كانوا يحملونها .

والباحث فى التاريخ الاجتماعى لمصر فى عهد الثورة يرى أن هذا العصر شهد اهتماماً كبيراً بالألقاب لم تشهده مصر من قبل ، فالمحافظ فى درجة وزير ولكنه بطبيعة الحال ليس وزيراً ، ولكنه يعلن عن نفسه ويتأدى فى كل الأوساط بأنه سيادة الوزير المحافظ ، وفضيلة المفتى يقال عنه « الوزير المفتى » ومئات الوظائف فى درجة وكيل وزارة ، ولكن أصحابها ينتحلون اللقب فيقال وكيل وزارة لشئون المعاهد الدينية مثلاً وليست هناك وزارة ليكون هذا الموظف وكيلاً لها ، فهو فقط يدير هذه الإدارة فى درجة مالية واجتماعية تماثل درجة وكيل الوزارة ، وألغيت مع الألقاب المدنية كلمة مثل « سعادة » ووضع بدلها كلمة « سيادة » والآخرى أسمى وأخطر من الأولى . ووجد فى القصر الجمهورى عشرات الوظائف ، فى درجة نائب رئيس وزراء ، ووزير ،

ونائب وزير ، ووكيل وزارة ، وكلهم ينادون بهذه الألقاب مع عدم
صحتها ، فهم في درجتها ولكنهم ليسوا وزراء
وعندما شغل العسكريون مناصب الوزراء كانت ألقاب « معاليك »
و « معالي الوزير » تتردد عشرات المرات لهم وأمامهم كل يوم ، وهذا
شيء عرفته شخصياً وعاينته .

وسار الأزهر الشريف في تيار الرغبة في الألقاب فحرص كل شيوخه
أو أكثرهم على حمل لقب « الدكتوراه » ، وكانوا من قبل يسعدون بلقب
« العالم » و « العالمية » .

وانطلق لقب « الرئيس » في مجالات متعددة دون ذكر الأسماء : سيادة
الرئيس - الرئيس جاء ، والرئيس يقول ، ولم يكن هذا لرئيس الدولة
فحسب ، بل لرئيس التحرير ولرئيس مجلس الإدارة ، وحتى لرئيس
المدينة أو القرية .

لقد قتلوا الزنبور وأطلقوا العقارب والثعابين .

العمال في كفر الدوار

قلنا في الباب الثاني إن الثورة كانت لها صبغة أمريكية ، ومن هنا نستطيع أن ندرك الأسباب الحتمية لموقف الثوار من حركة كفر الدوار :

وبخلاصة هذه الحركة أن مظاهرة قامت في كفر الدوار في ١٢ ، ١٣ أغسطس تطالب بإبعاد بعض ذوى النفوذ في الشركة ، وإجراء إنتخابات حرة لنقابة العمال ، وأن يكون مقر هذه النقابة بعيداً عن مكان العمل ، ومساواتهم في المنح التي تمنح للموظفين ؛ وزيادة الأجور ، وإبعاد محامي الشركة الظالم ... (١)

وقد تعرض البوليس للمتظاهرين ، فحدث اشتباك بين الجماعتين ، وتدخلت قوات الجيش فزاد الصراع ، وانتهى بمصرع ثلاثة من الجنود وثلاثة من العمال وجرح ٢٨ شخصاً بالإضافة إلى الخرائق والحسائر في الأموال ، وقبض على ٥٦٧ عاملاً قدموا للمحاكمة .

لماذا لم تقابل طلبات هؤلاء العمال بالمناقشة والدراسة قبل الاستعانة بالبوليس والجيش ؟

الإجابة أن الاتجاه العام تصور أن هذه الحركة حركة شيوعية هاتية ، فتصرف الحكام إزاءها تصرفاً قاسياً ليحافظوا على أنفسهم من جانب وليرضوا أمريكا من جانب آخر .

وعندما أخذت الحركة تصرف قادة الثورة إزاءها — كما يقول الأستاذ

(١) يقول الدكتور عبد العظيم رمضان (الصراع الاجتماعي والسياسي في مصر ص ٥٢) إن هذه المطالب هي التي كانت مكتوبة على سبورة في الصالة .

أحمد حمروش^(١) — برعونة شديدة تحت وهم أن هذه المظاهرات هي بداية أعمال مضادة ضا الجيش ، وتشكل مجلس عسكري نطوخ لرياسة- عبد المنعم أمين الذى كان وثيق الصلة بالأمريكان . وقد المحكمة الى أقامها كروور لحاكمة المصريين فى دنشواى ، فاقترح عقد المحكمة فى موقع الحادث ، وكان أعضاء المحكمة هم حسن إبراهيم والبكباشى عبد العظيم شحاتة (الذى أصبح فيما بعد أميناً عاماً لجامعة القاهرة عدة أعوام كما ذكرنا من قبل) والبكباشى أحمد وحيد الدين حلمى ، والصاغ محمد بدوى الخولى ، واليوزباشى فتح الله رفعت واليوزباشى جمال القاضى .

ويقول الأستاذ أحمد حمروش إن المحاكمة كانت سافرة العدوان على حقوق المتهمين ، فلم تنجح لهم فرصة الاعتماد على انخامين : لدرجة أن عبد المنعم أمين طالب الصحفي موسى صبرى الذى كان يمثل جريدة الأخبار للدفاع عن العامل محمد مصطفى خميس ، باعتبار موسى صبرى حاصلًا على ليسانس الحقوق ، ويقول عبد المنعم أمين إن موسى صبرى (غرّق) مصطفى خميس^(٢) وإن مصطفى خميس ترفع عن نفسه مرافعة عظيمة ٠٠٠

ولكن الحكم صدر بإعدام مصطفى خميس ومحمد حسن البقرى وبالأشغال الشاقة على إحد عشر عاملا ، ووقف محمد نجيب موقفاً متردداً فهو فى جانب يتشكك فى التقارير التى رفعت عن المظاهرات والتى كتبها المباحث العامة ، ويرى أن العمال لم تُعط لهم الفرصة فى الدفاع عن أنفسهم ٠٠٠ وهو فى جانب آخر منلوب على أمره^(٣) ، فصدق على هذا الحكم على

(١) قصة ثورة ٢٣ يوليو ص ٢٨٩ .

(٢) شهود ثورة يوليو ص ٢٥١

(٣) كلمتى للتاريخ ص ٤٨ - ٤٩

الرغم من أن الحكم لم يصدر بالإجماع مما يتعارض مع قانون الأحكام العسكرية، ولم يصدق عليه مجلس القيادة بالإجماع^(١) وقد صاح خميس قبل إعدامه قائلاً : أنا برىء ومظلوم، أريد إعادة محاكمتى . ولكن هذه الصيحة ضاعت وتبددت في الهواء كما يقول حمروش^(٢) .

وقد فتحت دماء هذين العاملين الباب لدماء كثيرة طاهرة ؛ أراقها هذه الثورة تحت مجموعة من الاتهامات كما سنرى فيما بعد .

(١) شهود ثورة يوليو ص ٢٥١

(٢) قصة ثورة ٢٣ يوليو ص ٢٨٩ - ٢٩٠

الاصلاح الزراعى

كانت مصر قبل الانقلاب تعاني حقيقة من سوء توزيع الأرض الزراعية ،
فقد كان هناك الملاك الكبار الذين تمتد أملاكهم فتصل إلى آلاف الأفدنة ،
والفقراء الذين لا يملكون شبراً ولا بيتاً وإنما يعيشون في عزب الملاك أو يهيمون
على وجوههم فيما يعرف « بالتراحيل » .

ولم تكن مصر وحدها في هذا الأمر آنذاك ، وإنما كان ذلك هو النموذج
الواسع الانتشار في العالم نتيجة العصور الوسطى التي كانت تركز المال
والسلطان في أيدي قليلة ، ونتيجة الاستعمار الذي كان شديد الحرص على
إضعاف الروح الوطنية عند المواطنين بجعلهم لا يملكون في أوطانهم
ما يحرسون على الدفاع عنه .

وقد كانت الأسرة المالكة من أهم الأسباب التي نشرت بمصر الفوارق
الكبيرة في الملكية الزراعية ، ومن أهم الأسباب التي حالت دون القضاء
على هذه الفوارق ، فلما انتهى نفوذ الاستعمار وطُرد الملك كان ذلك إيذاناً
بالقضاء على هذا التفاوت الجسم في الملكية الزراعية .

وإذا أردنا أن نذكر لحظة عن تاريخ امتلاك الأرض بمصر ذكرنا أن نظام
الالتزام كان هو النظام المتبع في العهد العثماني ، وبناء على هذا النظام كان الملتزم
يدير مساحة كبيرة من الأرض ، ويدفع للدولة قدرأ من المال نظير ذلك ،
فالغنى محمد على هذا النظام وأعطى للملتزمين مرتبات شهرية ، وتولى هو إدارة
الأرض فوزع منها قدرأ على الفلاحين بحيث يأخذ كل فلاح مساحة قدرها
بأرواح بين فدانين وخمسة أفدنة ، ويقدم الفلاح للدولة إيجاراً لهذه المساحة ،
وفي الثلاثينات من القرن التاسع عشر وزع محمد على مساحات كبيرة من
الأرض على كبار الأعيان والموظفين والضباط ، وفي عهد سعيد أصدا هذا

اللائحة السعيدية التي تبيح امتلاك الأرض ، وكان من يثول له حكم البلاد يحرص على توسيع رقعة الأرض التي يمتلكها فالخديوى اسماعيل كان يملك يوم تولى الأمر ١٥ ألف فدان فارتفع بها إلى ٩٠ ألفاً استولت عليها الحكومة بعد عزله ، وكان فؤاد يملك يوم تولى السلطة ٨٠٠ فدان فارتفع بها إلى ٢٨ ألفاً وورث فاروق من أبيه ١٥ ألف فدان فارتفع بها إلى ٤٨ ألفاً .

وبجوار هؤلاء الملوك كان أفراد من الأسرة المالكة يملكون مئات الألوف من الأفدنة . كما كانت هناك أسر أخرى اتسع نطاق ممتلكاتها الزراعية اتساعاً كبيراً وظالماً .

ويثبت التاريخ أن حركات ثائرة قام بها الفلاحون المصريون من حين لآخر ضد الملاك الظالمين ، ولكن هذه الحركات كانت تقمع بشدة وقسوة لأنها كانت تحدث في ضياع أفراد الأسرة المالكة أو في ضياع أصحاب النوذ من الأسر المصرية ، وقد شهدت « كفور نجم » و « بهوت » وغيرهما صوراً من هذه الانتفاضات .

وبالإضافة إلى سوء توزيع الأرض كان هناك تأثير اقتصادى خطير على الثروة القومية بسبب هذا التوزيع ، فإن كبار الملاك كانوا يحصلون على ليد ادات ضخمة أكثر جداً من نفقاتهم ، وكانوا يتجهون إلى البدخ أو إلى شراء مزيد من الأراضي ، وقلما اتجهوا إلى المشاركة في التنمية الصناعية الى لم يكونوا في حاجة للمساهمة فيها .

الإقطاع :

ومع إيماننا العميق بأن توزيع الأراضي كان بعيداً جداً عن العدالة ، وأن العلاقات بين كبار الملاك وبين الفلاحين كانت ظالمة وغير إنسانية ،
مع هذا فإننا ينبغي أن نؤسس تعبيراً شحيحاً مرتبطاً بهذه الملكية وهر أنها
إقطاع ونسأل : هل كان هذا إقطاعاً ؟ .

إن الإجابة عن هذا السؤال تحتاج إلى التعرف على المعنى الحقيقي للإقطاع ، ومن مراجعة المصادر الدقيقة عن نشأة الإقطاع نجد أنه وجد في أوربا عقب انهيار الأسطمة الرومانية نتيجة اعتداءات القبائل الجرمانية واستيطانها جهات مختلفة من ممتلكات هذه الإمبراطورية مكونة ما يسمى إقطاعاً ، وكان جمهور الزارعين يكوّنون في الإقطاع طبقة رقيق الأرض ، وهناك في الإقطاع طبقة أعلى من هؤلاء وهي حاشية صاحب الإقطاع ثم يجرى الإقطاعي نفسه وهو في الغالب أمير أو نبيل أو فارس حرب أو رجل دين ، وهذا بدوره يخصص للملك أو لإقطاعي أكبر منه ، وكان الفلاحون وعمل الإقطاع مرتبطين بالضريبة ارتباطاً تاماً ، وليس لهم أن يغادروا إقطاع سيدهم إلى إقطاع آخر ، وكان صاحب الإقطاع يتصرف مع هؤلاء كما شاء فيما عدا القتل ، وكان هذا هو الفارق الأساسي بين التابع في العصر الإقطاعي وبين العبد في عصر الرق (١) . وكان على رقيق الأرض واجبات إقطاعية متعددة لصاحب الإقطاع (٢) .

وعلى هذا فإن الملكيات الكبيرة بمصر لم تكن إقطاعاً ، وكان هذا التعبير يطاق عليها تجاوزاً ، ويقول الأستاذ أحمد حروش مؤيداً لهذا الاتجاه : إن الطبقة الإقطاعية لم تكن ضاربة الجذور في أعماق التاريخ المصري ، ولم تكن لها تقاليد العائلات الإقطاعية الأوربية التي ما زالت قائمة حتى الآن في إسبانيا مثلاً (٣) .

وهناك نقطة مهمة نرى أن خطورة هذه الملكيات الكبيرة لم تكن تتناسب مع الدعايات التي انتشرت مع مشروع الإصلاح الزراعي ، فالأرض التي يملكها ملاك تزيد أطيافهم عن مائتي فدان مساحتها ١٤٦٣ ١٥٤ ١١ فداناً

(١) Niklin ; Fundamentals of Political Economy p. 20.

(٢) انظر كتابنا « النظم الاقتصادية في العالم عبر العصور وأثر الفكر الإسلامي فيها »

ص ٣٦ . ما يندع.

(٣) قصة ثورة يوليو ص ٢٥٤

خصصنا أملاك الأسرة المالكة ، ثم لاحظنا أن ما سمع بامتلاكه للأسرة ذات الأولاد في قانون سنة ١٩٥٢ كان ثلثائة فدان وليس مائتين فدان ، ما يطبق عليه هذا القانون ينخفض إلى حوالى نصف مليون فدان (٥٦٠ ألف فدان بالضبط) وهو قدر لا يستحق هذا الضخيم إذا نسب إلى الأرض الزراعية بمصر ، التى تبلغ مساحتها ٦ ملايين فدان (بالضبط ٩٦٢٦٦٢ رة فداناً) وإذا لاحظنا كذلك أن المقادير التى أخذت من كبار الملاك لم تسلم كلها للمزارعين ، ولم تثبت ملكيتها للفلاحين إلا فى عهد أنور السادات بعد حوالى عشرين سنة من هذا القانون أدر كنا أن قانون الإصلاح الزراعى كان هدفه الدعاية وإفقار بعض الأغنياء وليس إغناء الفقراء .

الإصلاح الزراعى والحرية السياسية :

بقيت نقطة مهمة ذكرت كثيراً كسبب من أسباب قانون الإصلاح الزراعى ، تلك هى ما يقال عن النفوذ السياسى للأغنياء وسيطرتهم فى الانتخابات على فلاحهم ، وعن هذه النقطة يقول جمال عبد الناصر فى خطابه فى ١٥ أبريل سنة ١٩٥٤ : إن طلبنا الرئيسى لم يكن اقتصادياً وإنما هو تحرير الفلاح من سيطرة السيد . وقد كرر جمال عبد الناصر هذا المعنى فى خطاب آخر بعد أيام من الخطاب الأول فقال : إن أهم شئ فى تحديد الملكية هو الحرية السياسية ، والتخلص من الاستبداد السياسى (١) وفى هذا المعنى يقول المكاتبان الروسيان بيلياييف وبريماكوف : ولقد بدت أهمية تنفيذ الإصلاح الزراعى فى البلاد كبيرة جداً فى المجال السياسى ، فقد تم نتيجة له تقويض نفوذ كبار الإقطاعيين (٢) ولم يبق أى مجال للشك فى أن حرمان كبار ملاك الأراضى من السلطة السياسية ومن نفوذهم الخطير على سياسة البلاد الداخلية والخارجية قد بدأ منذ إصدار

(١) انظر خطاب الرئيس فى شهر إبريل سنة ١٩٥٤ (مصلحة الاستعلامات) .

(٢) مصر فى عهد عبد الناصر ص ٦٦

قانون الإصلاح الزراعى فى سبتمبر سنة ١٩٥٢ (١).

وعن هذا الموضوع يقول الأستاذ أحمد حمروش (٢) : إن قانون الإصلاح الزراعى لم يكن يستهدف ضرب الإقطاع بلزالة مصدر ثرائه فقط بل كان يستهدف تحرير الفلاح الذى يعيش فوق الأرض تابعاً لصاحبها ، الأمر الذى كان يخلق قوة سياسية للإقطاعيين بنفوذهم على الفلاحين .

وتساءل برفق سؤالين هما : ١ - هل كان هناك فعلاً استبعاد سياسى ؟

٢ - وهل تحزب الفلاح بعد الإصلاح الزراعى ؟

نحن السؤال الأول نقرر أن تاريخ الانتخابات الحرة فى مصر يرد هذه الفقرة . فى أول انتخابات أجريت لمجلس الأمة بسنة ١٩٢٣ شهدت دائرة الصنافين شرقية صراعاً بين اثنين من المرشحين أحدهما يحيى إبراهيم رئيس الوزراء الذى كان يُجرى الانتخابات والذى كان يملك هو وأهله آلاف الأقدنة ، وكان فى الوقت نفسه وزيراً للداخلية ، والمرشح الثانى شاب صغير اسمه أحمد مرعى وكان مرشح الوفد ، ودارت الانتخابات بنزاهة ، فقد كانت الأيدى لم تلوث بعد ، فتنجح مرشح الوفد ورسب رئيس الوزراء بسلطانه وماله وجاهه .

وفى العام الثانى أعيد الانتخاب ، وأجراه هذه المرة رئيس وزراء جديد هو أحمد زيو ، وكان من ألد أعداء الوفد ، ولكن النتيجة جاءت على غير ما يهوى ، فقد نال حزب الوفد الأغلبية الساحقة أيضاً كما حدث فى الانتخاب الأول ، ويعلق الأستاذ مصطفى أمين على هذه النتيجة بقوله ، أخبار اليوم :

(١) المرجع السابق ص ٦٧

(٢) قصة ثورة يوليو ص ٢٥٨

« كان سعة مبهجاً بهذه النتيجة المائلة التي لم يتوقعها لأنها أثبتت أنه كان على حق في إيمانه بهذا الشعب ؛ هذا الإيمان الذي لم يتزعزع أمام الخطوب والأهوال وكان يقول : إن الذين لم يخافوا من الإنجليز لا يمكن أن يخافوا من الباشوات ، وإن الفقراء الذين لم تستطيع أن تشتريهم أغنى أمة في العالم لا يمكن أن يشتريهم أصحاب الضياع في مصر .

« وأذهلت النتيجة خصوم الوفد ، لم يتوقعوا مطلقاً أن خدمهم سيصوتون ضدهم ، وأن عبيدهم سيثيرون عليهم ، وأن مئات الألوف من الفلاحين الذين يعملون في أراضيهم سيصغون لصوت ضباطهم لا إلى صوت بطونهم .

« لقد أنفق كثير من خصوم الوفد عشرات الألوف من الجنيهات في معركة الانتخابات وسقطوا ، باع أحد أعيان الصعيد ثلثائة فدان من أجود الأطيان وأنفق ثمنها في الانتخابات وفشل أمام مرشح الوفد الذي لم يكن يملك فداناً واحداً ، أنفق الدكتور أحمد ماهر أربعة جنيهات وأصبح نائباً للدرج الأحمر .

« صرف محمود فهمى النقراشى جنيهين ونصف جنيه وأصبح نائباً للجمرك ، وصرف إسماعيل صدق باشا خمسة عشر ألف جنيه في دائرة فرسيس حيث كان يملك هو وإخوته ألف فدان وكانت أسرة زوجته تملك فيها عدة آلاف من الأفدنة ، ورشح الوفد محمد نجيب الغرابي في هذه الدائرة وهو لا يملك فيها قيراطاً واحداً ، وليس له فيها أقارب ولا أصهار وسقط إسماعيل صدق باشا ، ونجح محمد نجيب الغرابي أفندى ،

ذلك نموذج تكرر دائماً عندما كانت الحكومات ترفع أيديها عن الضغط وتزوير الانتخابات ، فالمسألة تاريخياً لم تكن سطوة المال ونفوذ الغنى على الإطلاق ، وإنما العبث بالانتخابات الذي اتجهت الأقليات إليه بتشجيع الملك وحماية الجيش .

أما الإجابة عن السؤال الثانى فواضحة كذلك ، وهى أن أحداً لم يتحرر فى عهد عبد الناصر ، وكانت الانتخابات عملية متصلة من التزوير ، وقد أثبتت التقارير صوراً من الفضائح التى كانت تجرى فى انتخابات عهده ، ولم يجد الناس حيلة إلا السلييا ، فامتنع الكثيرون عن الانتخابات ولكن أصواتهم سجلت على أنهم حاضرون ومؤيدون لمرشح السلطة ، حتى الأصوات فُعلِل بأصواتهم مثل ذلك .

لقد كانوا يقولون إن الفلاح كان مسلوب الإرادة ، ولكن عهدهم جعل الشعب جميعه مسلوب الإرادة تحت صور الضغط والإكراه .

محاولات تحديد الملكية قبل الثورة :

إن التغيرات التى استهجنها فى الملكية الزراعية كان موضع هجوم متصل من المفكرين المصريين ، وقد ارتفعت بذلك الأصوات على صفحات الصحف وداخل البرلمان فى عهد فاروق ، ونُشرت عن ذلك بعض الكتب ، ومن أشهر من اشتركوا فى ذلك محمد خطاب عضو مجلس الشيوخ ، وكان صوته عالياً ، وكان يرى تحديد الملكية بحد أقصى قدره خمسون فدناً على أن يتم ذلك دون تأميم أو مصادرة ، وإنما يتم على مدى الأجيال عن طريق الميراث ، وعن طريق عدم السماح بإضافة جديدة تزيد عن هذا القدر من وقت لإقرار القانون .

واهتم بهذا الموضوع كذلك صادق سعد ، فأصدر كتاباً باسم « مشكلة الفلاح » ، طالب فيه بتحديد الملكية بخمسين فدناً وتوزيع مازاد عن ذلك على الفلاحين ... كما تحدث الدكتور أحمد حسين عن الإصلاح الزراعى وطالب أن يتنازل الملك عن نصف أملاكه للشعب ليكون قنوة للآخرين ، وكتب إحسان عبد القدوس فى روز اليوسف يؤيد هذا الاتجاه .

ولكن هذه الأصوات كانت تخفت بسبب الملكيات المائلة التى كانت

الأسرة المالكة تنعم بها ، ولذلك فإن طرد الملك وضعف النفوذ الاستعماري
كانا أهم دعامة لقانون الإصلاح الزراعي الذي آن لنا أن نعرضه :

ملخص القانون :

صد القانون رقم ١٧٨ لسنة ١٩٥٢ في ٩ سبتمبر ، المسمى بقانون
الإصلاح الزراعي وشمل أموراً ثلاثة هي :

١ - تحديد الملكية .

٢ - تحديد القيمة الإيجارية .

٣ - تعيين حد أدنى للأجرة اليومية لعمال الزراعة ،

وعن تحديد الملكية قرر القانون ألا يزيد ما يملكه الشخص عن مائتي
فدان لمن لا أولاد له ، وثلاثمائة لمن له أولاد ، ويمنح من تستولي الدولة على
أرضه تعويضاً يعادل عشرة أمثال القيمة الإيجارية للفدان ، وأجاز القانون
للملاك أن يبيعوا ما زاد عن الحد الأقصى ، بادامت الحكومة لم تستول
فعلا عليه ، على أن يقسم هذا الزائد قطعاً لا تزيد مساحة كل منها عن
خمس أفدنة ، وأن يكون المشترون ممن لا تتجاوز أملاكهم عشرة فدادين
مع إضافة القدر الجديد . ويقول المهندس سليم مرعي إن ما يبيع طبقاً لهذا
وصل ١٤٥ ألف فدان^(١) وقد سمح بأن تكون أثمان هذه الأطنان خرة
لا تقيد بعشرة أمثال الإيجار التي جددت ثمتاً للفدان إذا استولت عليه
الدولة .

وقضى هذا القانون بأن يأخذ المالك من الدولة « بونات » بالتمن
تستهلك خلال ثلاثين عاماً ، ويدفع عنها ربح قدره ٤٠٪ ، وكان

(١) بيانه في مجلس الأمة في ١٩٥٧/٨/٥

الحاصل على الأرض يلتزم بدفع ١٤ جنيهاً مصرياً في المتوسط عن كل فدان بأخذها ، ويستمر ذلك مدة ثلاثين عاماً (١) .

وفيما يتعلق بالأرض المؤجرة قضى القانون أن تكون قيمة الإيجار لا تزيد عن سبعة أمثال الضريبة الزراعية ، وإذا دفعت القيمة الإيجارية من المحاصيل الزراعية فيجب ألا تزيد عن ٥٠٪ من المحصول على أن تكون تكاليف الزراعة على حساب المؤجر والمستأجر ، وقضى القانون كذلك أن المالك ليس من حقه أن يحول الأرض من الإيجار إلى المزارعة ، وليس من حقه أن يسرد الأرض من زارعها .

وفيما يتعلق بالحد الأدنى لأجر العامل الزراعي فقد حدده القانون بمبلغ لا يقل عن ١٨ قرشاً يومياً للرجال ، وعشرة قروش للنساء والأطفال .

تعديلات في القانون :

في سنة ١٩٦١ عدل هذا القانون فيما يختص بانتهاء القسوى التي يسمح بامتلاكها ، فجعلت مائة فدان بدلاً من مائتين ، كما صدر قانون يقضي بأن يكون الاستيلاء على الأرض الزائدة عن هذا القدر بنون ثمن ، ويطبق هذا على الأرض التي أخذت منذ سنة ١٩٥٢ .

وفي سنة ١٩٦٩ صدر قانون الإصلاح الزراعي الثالث ويقضي بالآتي :
الملكية عن خمسين فداناً ، وأن ما يترك للأولاد لا يزيد عن خمسين فداناً
ذلك :

قوانين الإصلاح الزراعي في ميزان النقد :

في مطلع حديثنا عن نقد هذه القوانين نذكر أن قادة الثورة انخلوا من الصين نموذجاً لهم فيما يتعلق بالإصلاح الزراعي ، وفي ذلك يقول :

(١) سيد مرعي : الإصلاح الزراعي ومشكلة السكان في القطر المصري ص ٥٢، ٥١

أنور السادات : إن الإصلاح الزراعى كان المحو الرئيسى للثورة الديمقراطية الجديدة فى الصين ، وإن الصين كانت مثل بلادنا عندما قامت ثورتها ، كان فيها خونة وإقطاع واحتكار وذل وحفاة وعراة وجياع ، وقد قضى الإصلاح الزراعى فى الصين على هذا التخلف (١) ، ونحن نوافق تمام الموافقة على أن الإصلاح الزراعى فى الصين أدى دوره خير أداء ، ودبر لألف مليون صينى ما يحتاجونه من طعام وكساء ، وخلق فائضاً هائلاً اندفع فى شكل معلبات وملابس لأكثر دول الأرض ، وكما كنا نتمنى أن نرسل بعثة للصين لتتعرف على خططها فى الاستيلاء على هذه الأرض وإدارتها ، ولكن الفرق كبير جداً بين ما حدث هناك وما حدث هنا ، فالإصلاح الزراعى هناك جلب الخير للمجموع ، ولكنه هنا جلب الدمار والجوع .

والرئيس المغلوب على أمره محمد نجيب الذى أصدر هذا القانون ينتقده من النقد ، ولما يلى مقتطفات من كلامه ترينا الأهداف المنحرفة لهذا المشروع الذى كان ينبغى أن يكون وطنياً ، وليس للقهر والتشكيل ، يقول محمد نجيب (٢) :

— عارضت المشروع ولكن مجلس الثورة أبده .

— كان رأى المؤيدين أن سرعة الاستيلاء على الأراضى ستدعم مركزهم حيث سيجرد أصحاب الأراضى من أموالهم وسلطتهم وهم الذين كانوا يعارضونهم (وتلك هى النكبة الكبرى لقد كان المشروع للتشكيل وليس للإصلاح) .

— كنت لا أريد الطفرة ، وأرى أن يتم توزيع الأرض تدريجياً

(١) الدكتور عبد العظيم رمضان : المراع الاجتماعى والسياسى فى مصر ص ٤٦

(٢) كلمتى للتاريخ ص ١٠٦ - ١٠٧

بفرض ضرائب تصاعدية ، وتزيد الضرائب زيادة كبيرة على الأراضى.
التي تزيد مساحتها عن ٢٠٠ فدان ليسرع أصحابها بيعها .

— كنت أرى أن المشروع كما قدم سيستلزم إنشاء وزارة للإصلاح
الزراعى ، وأجهزة إدارية كثيرة مما سيكلف الدولة أموالا هائلة ، مع أن
الضرائب التصاعدية ستزيد من دخل الخزانة العامة .

— وكنت أخصى على الفلاح من بيروقراطية الموظفين الجدد الذين
سيصبحون السادة الجدد (هكذا ١١)

— وكان رأيي عدم إثارة العداوة بين أصحاب الأراضى القدامى والفلاحين
المالكين الجدد مما سيثير حدة الصراع الطبقي فى بلادنا .

— كنت أعتقد أن تفتيت الملكية بهذه الطريقة المتسارعة سيجعل
الإنتاج ينخفض .

— كان على ماهر من أصحاب الرأى المعارض للقانون ، وقد دعا أثناء فترة
رياسته للوزارة إلى مؤتمر موسع لمناقشة مشروع القانون ، وقد وقف هو
وبهى الدين بركات ورشاد مهنا فى الجانب المعارض .

— ويختم محمد نجيب كلامه بقوله : وكان قانون الإصلاح الزراعى
أول قانون يصدر بعد أن أصبحت رئيساً للوزراء .

فى اعتقادي أن محمد نجيب لابد أن يحاكم على أنه أصدر قانوناً كهذا
دون اقتناع ومع معرفته بتلك العيوب ، و دان عليه أن يستقبل حتى لا يتحمل
وزر عمل يعارضه ويعرف عيوبه ، وإذا لم يحاكم محمد نجيب ، فإن
التاريخ سيجاسبه دون رحمة ، فلقد آثر المظهر الخادع على الخلود ، ولم يخرج
من هذا المنصب إلا على أسنة الرلح .

عيوب في الإعداد :

من الواضح أن فكرة القضاء على ما يسمى « الإقطاع » كانت ثابتة في أذهان قادة الثورة حتى قبل البدء بالثورة ، ومن هنا كانت ضمن المبادئ الستة التي جاءت في البيان الأول للحركة ، ومن الواضح كما قلنا من قبل أنهم عندما نجحت حركتهم وجدوا أنفسهم في فراغ لأنهم لم تكن لهم خطة سبق إعدادها لمواجهة الموقف ، وما كان يتوقع من جماعة في سنهم وثقافتهم أن يحيطوا بهذه القضية القومية الكبيرة ، ومن هنا كان كلامهم عن الإقطاع عاما وليس مدروسا ، ويقول الأستاذ أحمد حروش^(١) : إن حركة الجيش لم تكن قد أعدت لذلك مشروعاً أو خطة متكاملة ، وعندما نجحت الخطوات الأولى للحركة ، واتجه الضباط إلى الاستقرار في السلطة بعد خروج الملك قائلهم أطماع الأحزاب ، وبخاصة حزب الوفد الذي كان يرى أن طرد الملك وإقامة الحياة الديمقراطية السليمة ستحملة إلى السلطة ، ومن هنا حدث الصراع المبكر بين قادة الجيش ورجال الأحزاب ، واتجه قادة الجيش لترجيح كفتهم إلى القبض على رجال السياسة عشية إقالة وزارة على ماهر ، ثم إلى إصدار قانون الإصلاح الزراعي بعد ذلك يوم أو يومين دود أي إعداد سليم لتنفيذ هذا القانون الخطير .

ومما يدل دلالة واضحة على أن هدف القانون كان ضرب الطامعين في أخذ السلطة منهم ، ما رويناه آنفاً من كلمات محمد نجيب الذي وضح أن فتيت الملكية سيدعم مركز قادة الجيش ، ويجرد أعداءهم من أموالهم وسلطانهم ، على أن المهندس سيد مرعي^(٢) يوضح لنا ذلك بدليل قاطع ، إذ يبين أن الاستيلاء على الأرض الزائدة لم يتم دفعة واحدة ، وإنما في عدة

(١) قصة ثورة ٢٣ يوليو من ٢٥٧ وما بعدها .

(٢) أوراق سياسية ج ١ ص ٢٤١

سنوات ، فكان الاستيلاء الأول متجهاً إلى الطامعين في الحكم ورجال الأحزاب وأسرهم ، وكان هذا مبكراً ، (أكتوبر ١٩٥٢) أما الاستيلاء الثاني فقد جاء في نوفمبر ١٩٥٤ ، والاستيلاء الثالث في نوفمبر ١٩٥٥ ، والاستيلاء الرابع سنة ١٩٥٦ ، مما يدل على أن فرصة أتاحت لبعض الملاك لبيعوا أملاكهم بأثمان عالية ومقبوضة ، أما الذين اضطهدتهم الثورة فقد استولت على أرضهم في وقت مبكر ، ومقابل « بونات » إبطلت قيمتها بعد حين كما رأينا من قبل .

وهكذا فقدت مصر مصدر ثرائها الأول لأن تقسيم الأرض إلى مساحات صغيرة جعل الإنتاج ينخفض لحاجة الفلاح الاستهلاكية ولا ينخفض لحاجة الدولة التي تعمل على ضرورة توفير بعض الإنتاج لاستهلاك المدن وللتصدير خارج القطر ، وتقسم الأرض إلى مساحات صغيرة قتل إنتاجها ، لأن الفلاح لا يجيد فن الزراعة كما يجيده المهندسون والخبراء الذين كانوا يشرفون على المساحات الكبيرة ، ولأن الفلاح كذلك لا يستطيع أن يقدم للأرض السهاد كما ينبغي أن يكون ولا أن يجدد في البنور ويختار أجودها وأكثرها إنتاجاً ، وتقسم الأرض إلى مساحات صغيرة يؤدي إلى استمرار الزراعة على النهج اليلوى الذى يستعمل المحراث والساقية . . . لأن المساحات الصغيرة لاتقوى على الميكنة والطرق الحديثة ، وأخيراً فتقسم الأرض إلى مساحات صغيرة قضى على الثروة الحيوانية التى كانت موضع عناية كبار الملاك. ولا يمكن أن يقوم بها هؤلاء الملاك الجدد .

وقد عمدت الحكومة إلى « التحويض » أى أن تفرض على الملاك الجدد أن يزرعوا نوعاً واحداً في « حوض » واحد من الأرض ، ولكن ذلك لم يحل المشكلة لشكوة الحيل من جانب ، ولأن تعدد الملاك لايجعل الزراعة تتم في وقت واحد مما يسهل خدمتها في شكل جماعى ، ولأن قدرات الزراع مختلفة مما جعل الحوض الواحد به عدة مستويات زراعية .

وعلى هذا فالإصلاح الزراعى كان للدعاية من جانب ، وللرغبة فى تدمير المعارضين من جانب آخر ولو كان ذلك على حساب الصالح العام . وفقدت مصر مصدر تراثها الزراعى والحيوانى ليتاح للثوار أن يتربعوا فى مراكز الحكم .

عيوب فى التطبيق :

إن كتاب «مصر فى عهد عبدالناصر» الذى أشرنا إليه من قبل يسرد مجموعة من الانحرافات والعيوب التى حدثت فى تطبيق القانون على الرغم من أن مؤلفيه روسيان يتصران دائماً للجمال عبد الناصر .

يقول هذا الكتاب :

— استطاع كثير من ملاك الأراضى — باستغلال صلاتهم بالجهاز الحكومى والإدارة المحلية — أن يسجلوا الأراضى الزائدة عن حد المصادرة بأسماء أقاربهم ، وعلى ذلك ظلت هذه العائلات على حالها كما كانت سابقاً نتيجة لهذا التلاعب والاحتيال (١) .

— وُضع فى القانون بند خاص بالأراضى البكر يُبيح أى قدر من الملكية فيها خلال مدة تمتد إلى ثلاثين عاماً ، وقد انتهز أصحاب الثوار هذه الفرصة فحصلوا على مساحات واسعة تصل إلى آلاف الأفدنة من هذه الأرض . (٢)

— استثنى القانون الأراضى التابعة للشركات الصناعية ، وقد انتهزت بعض الشركات التى لها صلات بالسلطات المنفلة للإصلاح هذه الفرصة

فطالبت بإعفاؤها من تطبيق القانون وحصلت على موافقة ، وأظهرت التجربة العملية أن الحصول على مثل هذه الموافقة لم يكن صعباً (١) .

— وفقاً لقانون ٥٢ لم تخضع للاستيلاء الأراضي التي بيعت للأبناء والأحفاد قبل ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ، وقد وجد كثير من المرضى عنهم الفرصة لإثبات حالات بيع على أنها تمت قبل ذلك التاريخ ، وكان يكفي لتوثيق صحة عملية البيع ختم وتوقيع من أحد الموظفين ، الأمر الذي فتح الباب على مصراعيه أمام التلاعبات (٢) .

— كان القانون كما قلنا يبيح لكبار الملاك أن يقسموا أملاكهم قطعاً صغيرة يبيعونها لمن ليست لهم أملاك تتجاوز بعد هذه القطعة عشرة فدادين ، وكانت هذه فرصة أناحت كثيراً من عمليات البيع الوهمية (٣) .

وهناك نوع وهمية عاشرت نموذجاً منها ، وقصة ذلك أننا نعرف سيدة فاضلة تعمل في حقل التعليم ، وكانت في مطلع حياتها مدرّسة بالمدارس الابتدائية ، وقامت حينذاك بإعطاء بعض الدروس الخاصة لصبيان أسرة ذات تاريخ وثراء ، وعاماً بعد عام توثقت صلات مودة بين هذه السيدة وبين الأسرة الكبيرة ، وقد استطاعت هذه الأسرة بطريق ما أن تبيع للسيدة المدرسة قطعة أرض من أملاكها مساحتها خمسون فداناً ، وكان البيع وهمياً ، وسُجِّل هذا البيع ، ولم تعرف المدرسة موقع الأرض ولا رأتها ، وإنما كان عملاً صورياً ، ولا شك أن نظائر كثيرة لهذا البيع قد حصلت ، ولعل البائعين كانوا يأخذون مقابل ذلك صكوكاً بديون ، ورهن للأرض لهم نظير هذه الديون .

(١) ص ٥٩

(٢) ص ٥٩

(٣) ص ٦٠

وهكذا لم يكن القانون مدروساً ، ولم ينفذ تنفيذاً عادلاً ، ومن عيوب التطبيق ما ذكره المهندس سيد مرعى عن المشكلات التى ارتبطت بالاستيلاء على هذه الأرض ، فإن المندوبين الذين خرجوا من القاهرة لتسليم هذه المساحات كان كل منهم يحمل مبلغاً قدره خمسون جنيهاً ليستعين به على المشكلات التى تواجهه ، وإذا قسم هذا المبلغ على الأرض المطلوب الاستيلاء عليها ، فإن ما يخص الفدان الواحد كان ستة مليات ، ومعنى هذا أن عملية الاستيلاء كانت صعبة جداً ، وأن الحكومة لم تخصص لها التكاليف اللازمة (١) ، ومع هذا انطلق المندوبون للاستيلاء على الأرض ، ولكنهم حينما وصلوا إليها وجدوا أمامهم أكواماً من المشكلات ، ماكينات رى توقفت لعدم وجود بنزين لها ، آلاف من الفلاحين يطالبون بالسماح بالبذور ونفقات الحرث والرى ، ولم يستجب بنك التسليف الزراعى للهيئة التنفيذية التى طلبت منه المساعدة ، بل إن الهيئة التنفيذية لجأت إلى مصلحة الوقود لتمد ماكينات الرى بحاجاتها فرفضت هذه المصلحة لعدم إرسال تفاصيل الاستهلاك السابق واللاحق ، وماركات الماكينات ، وعمرها ، بما لم يكن سهلاً الحصول عليه ، ولم تستطع الهيئة التنفيذية للإصلاح الزراعى كذلك أن تحصل على قطع الغيار ، ولا أن تُعين الموظفين اللازمين ، ولا حتى أن تحصل على الأوراق والمساطر وأقلام الرصاص ، وعقبات أخرى لاحدود لها قامت فى وجه المشروع (٢) .

ويذكر المهندس سيد مرعى بالثناء بعض كبار الملاك الذين انتزعوا أملاكهم ومع هذا استجابوا للجنة العليا التى طلبت عونهم ، فتغلب فيهم الدافع الوطنى وأنفقوا على الأرض المستولى عليها ، مع أن إيراداتها كانت

(١) أوراق سياسية ١٩٤١ هـ - ١٣٦٠ هـ -

(٢) المرجع السابق ص ٢٤١ ، ٢٤٤

مستؤول للحكومة ، ويقول سيد مرعى إن التكاليف التى دفعها بعض الملاك وصلت إلى ١٨٠,٠٠٠ جنيه (١)

الجمعيات التعاونية :

رغبة فى التغلب على المشكلات السابقة أنشئت وزارة سميت وزارة الإصلاح الزراعى ، كما أنشئت جمعيات تعاونية بالقرى لإمداد الفلاحين بحاجاتهم من السلف والبذور والسماد ، وبدأت بذلك مشكلات جديدة ترتبط بالإصلاح الزراعى ليس فقط من ناحية التكاليف الباهظة التى استلزمها قيام هذه المؤسسات ، بل أيضاً من ناحية الانحرافات الكثيرة التى سرعان ما برزت فى تلك الجمعيات التعاونية ، ويسوق الباحثان الروسيان اللذان أشرنا إليهما من قبل أمثلة على ذلك نقفيس منها ما يلى :

محفود أبو يوسف كان مشرفاً على الجمعية التعاونية لمشجى البطاطا ، وقد تمكن من زيادة الأراضى التابعة له شخصياً من ٣٠ فدانا عام ١٩٥٢ إلى ٣٠٤ فدانا عام ١٩٦٦ ، كما أنشأ ثلاثة ضخمة لحفظ البطاطا المستغلها لاستخدامه الشخصى .

عبد القادر المسكينى : كان سنة ١٩٥٤ جائراً على ٦٠ فدانا فى منطقة كفين الدوار ، وفى سنة ١٩٦١ أصبح يملك ١٣٧ فدانا باسمه و ٥٤٩ فدانا بأسماء أبنائه وأحفاده ، كما استغل سلطته فى مجلس إدارة الأسواق التعاونية للفاكهة فحصل على قروض قدرها ١٢٥ ألف جنيه ، وذلك كله عن طريق استغلال نفوذه فى الجمعية التعاونية الزراعية (٢) .

وبينما كانت الجمعيات التعاونية بالقرى والمدن نهياً للاستغلال والسرقة

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٥

(٢) مصر فى عهد عبد الناصر ص ١٩

صدرت لها التعليمات في الخمسينات أن تزود كل منها بشيء مهم بحيث تعاقب الجمعية التي لم تزود به ، ما هو هذا الشيء المهم ؟ إنه لا يجب تمثال ضخم لعبد الناصر يوضع في نافذة الحجرة الضيقة التي كانت تدار منها أمور الجمعية التعاونية في كل قرية ، وقد رأيت في قرينتنا الصغيرة ، وفي القرى المجاورة ، وكان المفتشون على الجمعيات يقدمون الشناء لمن استطاع أن يحصل على تمثال أضخم حجماً وأعلى قيمة ، وقد اختفت هذه التماثيل تماماً ، ولكن بعد الخسارة الهائلة التي تحملتها الجمعيات ما بين أثمان لها ، وعمولات ، وأرباح للوسطاء :

كيف كان يمكن تحاشي عيوب الإصلاح الزراعي ؟

لقد انتضحت لنا عيوب كثيرة فيما يختص بالاستيلاء على الأرض وفتيتها مما أنزل أكبر الضرر بالثروة الزراعية ، فمن الواضح أن هذا القانون أثار ألواناً من المشكلات وخلق ملكيات صغيرة انقلبت بعد جيل واحد إلى تفكك أصغر ، مما هدد الاقتصاد الزراعي بمصر الذي كان رائعا على مر التاريخ ، ويمكن هنا أن أقرر من المشاهدات المباشرة أن ضيعة من الفسياع الكبيرة كانت مجاورة لقرينتنا ، وكان المئات من العمال ينحدرون لهذه الضيعة كل صباح من القرى المجاورة فيجلون بها عملاً دون انقطاع ، كما كانت تنتج أعظم إنتاج من القطن وأنواع الحبوب والفاكهة ، بل الدواجن والحمام ، وكنا نرى عشرات اللوريات تخرج طيلة العام تحمل الأرز والقمح والبقول والبطيخ ... إلى جهات مختلفة من القطر ، ثم وزعت هذه الأرض على الفلاحين ، وعاماً بعد عام أصبحنا نشهد الكثيرين من سكان هذه الضيعة يغشون الأسواق ليحصلوا على القمح والليرة بعد أن أصبحت الضيعة لا تكتفي حاجاتهم ، صحيح أن أصحاب الضيعة لم يكونوا يعامون الفلاح معاملة عادلة ، لكن العلاج الذي أحدثته الثورة كان قضاء على

الثروة القومية ؛ وفي ظله أصبح الزارعون يعانون ما كانوا يعانونه من حاجة وعوز .

إن الإصلاح الزراعى شئء تؤيده ، ولكن على أن يقوم بعد دراسات دقيقة يقوم بها الأكفاء المخلصون ، ليحقق الإصلاح الزراعى أمل البلاد فى الثروة القومية وليرفع فى الوقت نفسه الظلم عن المظلومين .

حفظ ومفارقات :

وقد نشأ عن قانون الإصلاح الزراعى أنواع من الحظوظ والمفارقات كان يمكن تحاشيها لو كانت هناك دراسة عميقة عن المشروع ، ومن هذه الحظوظ والمفارقات ما يلى :

— قرى بها ضياع كبيرة وزعت على الفلاحين ، وآلاف القرى لا توجد بها ضياع ، فلم ينل أصحابها شيئاً من هذا القانون ، فكانت المسألة مسألة حظوظ لا غير ، وينبغى ألا تخضع القضايا القومية إلى الحظوظ ، ومن أجل هذا يقول المؤلفان الروسيان : إن قانون الإصلاح الزراعى بعيد عن الكمال لكثرة القرى التى لم توجد فيها أراض للاستيلاء عليها وتوزيعها على الفلاحين (١) .

— أخذ الأغنياء مات قبل ٢٣ يوليو بقليل واقتسم أولاده ثروته ، فلما جاء القانون كان ما يملكه كل واحد من الورثة لا يتجاوز مائتى فدان أو ثلاثمائة مع ذوى الأولاد ، وثرى آخر مات بعد صدور القانون أى بعد أن تم الاستيلاء على مازاد عن مائتى فدان أو ثلاثمائة فدان ، ولم يبق للورثة إلا هذا المقدار ، مجرد حظ !

(١) مضر. فى عهد الناصر ص ٥٨ .

- رجل باع قبل الثورة أرضه لشراء عمارة أو عمائر بالمدين ، وآخر فعل عكس ذلك ، باع عمائره لشراء أرض زراعية ، مجرد حفظ أيضاً ، وليست هذه الحالات من خيال الباحث ، وإنما هي وقائع معروفة ومحددة ، وقد كان من الممكن لو درس الموضوع بعمق أن نحافظ على الثروة القومية ، وأن تكون العدالة الاجتماعية أكثر شمولاً ووضوحاً .

تحديد الإيجار :

ونجىء الآن للنقطة التالية التي شملها قانون الإصلاح الزراعي ، وهي تحديد الإيجار بسبعة أمثال الضريبة ، وعدم جواز إخراج التوراع من الأرض .

وهذه نقطة خطيرة جداً ، خلقت بالريف ألواناً من المشكلات وصوراً من الحقد والكراهية ، فضريبة الأرض التي اتخذت أساساً لتحديد الإيجار لم تكن قط أساساً صالحاً لذلك ، فكثيراً ما تدخلت عوامل جعلت الضريبة لا تناسب مع قيمة الأرض ، فالضريبة مثلاً تدفع على الحقول الزراعية ككله ، وفي الحقول مستويات مختلفة من الأطنان ، والمحظوظون في القرى كانوا يتصلون بلجان تقدير الضرائب على أطنانهم ، ولكن الفقراء لم يكونوا يستطيعون ذلك ، ولم يكونوا يستطيعون الشكوى من المظالم التي تقع عليهم .

ثم إن السبعة أمثال قدرت سنة ١٩٥٢ ، وكانت اثمان المحاصيل رخيصة ، وقد ارتفعت اثمان المحاصيل إلى خمسة أضعاف ، وعشرة أضعاف والسبعة أمثال لا تزال كما هي ، ولم يُنَظَر فيها النظر إلا سنة ١٩٧٨ بعد أكثر من ربع قرن عانى فيه صغار الملاك شر عناء ، وعندما أُعيد كان ذلك شيئاً قاصراً أيضاً ، ولم يحقق العدالة المطلوبة على الإطلاق .

وعدم إخراج الزراع من الأرض مهما كانت مساحتها كان عملا أخطئ ، ففي كثير من الحالات كان الملاك أطفالا صغاراً ، وقد شب هؤلاء عن الطوق وأرادوا زراعة أرضهم بأنفسهم ولكن القانون حرمهم من استردادها من الزارع الذى كان يزرعها لهم وهم أطفال ، وطالما تسبب هذا فى صراع وعراك بالقرى الصغيرة ، وفى هذا يقول الأستاذ أحمد أبو الفتوح : حرمت هذه القوانين استرداد الأرض ليزرعها صاحبها لحسابه ، وورثت الأرض لورثة المستأجر ، وبذلك أصبح المالك ليس مالكا ، فهو لا يستطيع أن يزرع أرضه ولا أن يبيعها ، وهو يدفع الضرائب التى ترتفع ولا يرتفع معها الإيجار ، وقد تسبب عن ذلك أن غرقت عشرات من الأسر المتوسطة فى الفقر نتيجة هذه القوانين الارتجالية مع أن هناك كثيرين من الأراذل واليتامى يعيشين على إيجار الأرض (١)

الحل الذى لا يجز عمال اليومية :

بقيت النقطة الثالثة من الإصلاح الزراعى التى حددت أجرة العامل الزراعى بحيث لا تقل عن ١٨ قرشاً فى اليوم ، وكانت هذه القيمة حبراً على ورق ، فقد ظل العامل يعمل بنصف هذه القيمة فترة طويلة ، ثم ارتفع الأجر من تلقاء نفسه نتيجة لعامل العرض والطلب ، وتجاوز أجره اليومى جنباً الآن ، وهذا يشير إلى أن كل اتجاهات القانون كانت متسارعة وغير مدروسة

الفقرية المصرية :

لقد كان الإصلاح الزراعى أغنية لم يحسن تلحينها وأداؤها ، وكان وسيلة للقضاء على الغنى وليس لرفع مستوى الفلاحين ، بدليل

(١) أحمد أبو الفتوح : المحدث ص ٧١

الإهمال التام للقرية المصرية التي تُركت ترزح تحت هموم القرون والسنين ولو كان القصد خدمة الفلاحين لا توجهت العناية للقرية المصرية ، وقد كان من أهم برامج حزب الوفد التي ذكرها سنة ١٩٥٢ تجديد القرية المصرية خلال عشرين عاماً ، وقد مرت حتى كتابة هذه السطور سبعة وعشرون عاماً ، والقرية المصرية هي هي إن لم تكن قد زادت تخلفاً . ويقول هواة الأرقام إن النفقات التي دفعناها في اليمن وحدها كانت كافية لإعادة بناء كل القرى المصرية ، ونحن هنا نصرخ بأن القرية المصرية هي التي أخرجت أكثر العلماء والضباط والجنود ، وهي التي تنتج الطعام والخضروات والفاكهة ، ومع هذا فهي محرومة من كل شيء ؛ إنها تستحق في عهد التور تخطيطاً منظماً لإعادة بنائها وضمان المياه الصالحة للشرب لها ، وضمان النور والنظافة والطب والمدارس ، والأندية ، والطرق الداخلية بها ، والطرق التي تربطها بسواها ، وحرام أن نضيّف يوماً واحداً إلى العهد الماضي ، نهمل فيه القرية المصرية التي تمنح كل شيء ولا تقال شيئاً .

حرام أن يبقى فيها الحفاء والجوع والأسمال والأكواخ والجهل والانتزالية والأمراض ، فلندفع بقريتنا إلى النور في عهد الأمل والعبور .

ويقولون إن سكان الريف يتدفقون إلى المدن وبخاصة إلى القاهرة حتى أصبحت المدن تضيق بالسكان ، وأصبحت القاهرة توشك على الانفجار ، ونقول لهم إن الوسيلة الحقة لإيقاف الهجرة هو محاولة الرقي بالريف وبدون ذلك ستستمر الهجرة كما حدث على ر التاريخ .

إن العناية بالريف لن توقف الهجرة فحسب ، ولكنها يؤمل أن تقوم بعمل مضاد ، أي أن تجذب بعض الناس الذين تقل مصالحهم بالمدن إلى اللجوء للريف حيث الخضرة والطبيعة الجميلة والمهدوء الرائع

ويقول الأستاذ أحمد أبو الفتح (١) عن ذلك :

الأرض الزراعية قلّت مساحتها ، والإنتاج لم يتقدم ، والتطوير الحديث لم يتحقق ، وتدهورَ إنتاج اللحوم والألبان والبيض تدهوراً شديداً ، واتجهت سلطات الدولة لاستيراد وبيع كل ما يلزم للزراعة من سماد وبذور ومبيدات ، فخفضت هذه الأشياء لتلاعب الموظفين وشَرَه الطامعين كما فُرض نظام التسويق التعاوني ، وفرضت أسعار جبرية لا توزاى في كثير من الأحوال نصف الثمن الفعلي للمحاصيل ، وبدأ بسبب ذلك اختفاء كل صور الخير من الريف ، بل بدأت هجرة الريفيين إلى المدن ، وضاع ربع قرن من الزمان ولم تتطور الزراعة بمصر ، ولم تزد رقعة الأرض الزراعية بل نقصت ، ولم تتوسع في إنتاج اللحوم ومنتجات الألبان ، فأصبحت عائلة على الدول الأخرى في طعامنا وكسائنا ، والمخزن أن الذين ينعمون بالمحابة يبيعون في السوق السوداء بالريف ما يحصلون عليه من علف للمواشي ، ومن سماد وبذور ، وبذلك يمتصون دماء الفلاحين الصغار الذين يُقال إن الثورة قد قامت لتحميمهم وتوفير لهم الحياة الكريمة وترفع دخلهم ، وكانت نتيجة ذلك أن هَجَرَ ملايين الفلاحين قراهم ، واندفعوا إلى المدن ، وأصبح صعباً أن نجد اليد العاملة في الريف حتى في جنى المحصولات . ومن الواضح أن الريفيين الذين هَجَرُوا الريف إلى المدن لم يجدوا بالمدن حاجاتهم ، بل عاشوا في بطالة أو شبه بطالة ، يباشرون أتعس الأعمال دون مأوى ، ودون رعاية .

الإصلاح الزراعي كما ينبغي أن يكون :

أوضحنا فيما سبق اتجاه الثورة نحو ما سمتة الإصلاح الزراعي ، ولكن

(١) التحدي ص ٧٠ وما بعدها .

إذا أردنا أن نبحث عن الإصلاح الزراعي الحقيقي ذكرنا أن المفهوم العلمي للإصلاح الزراعي يسعى لتحقيق الأهداف الآتية :

— العمل الكادح المثابر لاستصلاح مزيد من الأراضي ، لغضم مساحات جديدة من الأراضي البور إلى الأراضي المنزرعة .

— رعاية التربة في الأراضي المنزرعة بتحسين الصرف وإنتاج المخصبات بأرخص الأسعار .

— تنظيم البورات الزراعية ، ومحاولة الإكثار منها بدون إرهاق للتربة .

— حسن اختيار البذور ذات المحصول الجيد والوفير .

— الرق بوسائل الفلاحة ، وذلك بالقضاء على المحراث والطمبور والشادوف والساقية التي انحدرت من عهد خوفو إلى الوسائل الزراعية الحديثة التي أنتجها العقل البشري فوفرت جهد الإنسان والحيوان وضاعفت دخل الأرض .

ذلك هو نوع الإصلاح الزراعي الذي ابتكرته الحضارات الحديثة ، أما عن تحديد الملكية فيمكن اللجوء للضرائب التصاعدية مع إصدار تشريع يقضى بأن من يملك مائتي فدان فأكثر لا يجوز له شراء أرض جديدة ، وسيكفل نظام الميراث بتفتيت هذه الملكية دون عناء خلال جيل أو جيلين .

عدلى لموم :

من الأحداث المتصلة بالإصلاح الزراعي ثورة عدلى لموم ضد القانون بعد صدوره بثلاثة أيام ، وكان عدلى لموم من كبار الملاك من منشأة لموم التي تقع على بعد سبعة كيلومترات من مغاغة ، ويقال إنه اعترض هو وبعض رجاله على صدور هذا القانون وتجمع حوله الناس في مدينة مغاغة فخطب فيهم ضد القانون ، وسرعان ما تصدت له الحكومة وألقت القبض عليه وعلى جماعته ، وقدّم لمحكمة عسكرية عليا عقدت في بلدته يرأسها

حسّين الشافعى وكان من أعضائها عبد المحسن أبو النور والصاغ أحمد عبد الله طعيمة ، واليوزباشى فتح الله رفعت ، وقد حكم عليه هذا المجلس بالأشغال الشاقة المؤبدة (١) .

واختفت بعد ذلك الأصوات المعارضة للقانون أمام جبروت الثورة التى لم تكن تطيق المعارضة فى أى اتجاه من اتجاهاتها .

(١) جريدة المصرى : فى ١٧ ، ١٩ سبتمبر ١٩٥٢ ، ويقول عبد اللطيف البندادى إن المحكمة العسكرية التى حاكت الممال فى كفر الدوار هى نفس المحكمة التى حاكت عدل للموم ، فقد طارت إلى مكان الحادث كما فعلت مع الممال (مذكرات عبد اللطيف البندادى ص ٦٩) .

الرقابة على الصحف وفتح المعتقلات

ذكرنا من قبل أن حركة اعتقالات للزعماء السياسيين بدأت مع تشكيل وزارة محمد نجيب ، ويتحدث الضابط أحمد حمروش عن هذه المعركة وعن الاتجاهات الدكتاتورية التي تعتبر هذه المعركة مطلعها بقوله :

كان تركيز السلطة في يد قادة الثورة إعلاناً عن قيام نظام يستند إلى الدكتاتورية العسكرية ، ولا يجيد التخفي في ثياب الديمقراطية ، واتباعاً لهذا الفهم الدكتاتوري صرّح صلاح سالم للصحف بقوله : قبل أن تعود الحياة الألمانية يجب أن نستأصل جميع أسباب الفساد من الأمة ، ويعلق الأستاذ حمروش على هذه العبارة بقوله : كأنّ استئصال الفساد يمكن أن يتم بعملية جراحية كاستئصال « اللوز » مثلاً ، وقد ترتب على هذا الاتجاه الذي قام به الجيش خروج الجيش عن نطاق « اجباته المحددة » ، وظهوره في مظهر قوة سياسية ، وذلك ابتعاداً عن إطار القوات المسلحة ، واستناد إلى قوة يصعب إزالتها بدون ضغط ظروف شديدة .

ويواصل الأستاذ حمروش كلامه فيقول : وقد أثارت حركة الاعتقالات وما تبعها من حل الأحزاب السياسية نوعاً من الفزع بين الجماهير ، فاتجهت القيادات السياسية إلى السلبية حتى لاتقع في مواجهة مع الجيش ، وظهرت ألوان من التناقضات ، فمن حديث عن الانتخابات ، وتحديد موعد لها ، إلى تأجيلها إلى أجل غير مسمى ، ومن كلام عن الحرص على التمسك بالدستور إلى إلغاء هذا الدستور ، ومن بيان بقبول مبدأ وجود الأحزاب إلى مرسوم بحل الأحزاب وينهى دورها نهائياً ، ومن حديث عن ضمانات الحريات إلى هجمة اعتقالات واسعة لكبار السياسيين ،

ومن حديث عن حرية الصحافة إلى رقابة صارمة على كل كلمة تنشر بها ،
وكانت النهاية هي السفور عن ملأمة الجيش ، وعودة الرقابة على الصحف ،
وفتح المعتقلات .

وهكذا إذا كان الجيش أنهى ديكتاتورية الملك فقد استبدل بها ديكتاتورية
عسكرية كانت أشد قسوة وأوسع نطاقاً (١).

(١) قصة ثورة ٢٣ يوليو ص ٢٧٦ وما بعدها .

الثورة ورجال الدين

في أواخر أغسطس سنة ١٩٥٢ دعا رئيس الوزراء جماعة كبار العلماء للقائه وأبلغهم أن الحكومة ترى أن يُختار شيخ الأزهر بطريق الانتخاب من بين جماعة كبار العلماء تحقيقاً للمطلب الذي أثير منذ سنة ١٩١١ ، ونتيجة لذلك استقال شيخ الأزهر الشيخ عبد المجيد سليم في ٢ سبتمبر ليفسح الطريق لهذا الاختيار .

ولكن الانتخاب لم يتم أبداً بل عين شيخ للأزهر في ١٦ سبتمبر هو الشيخ محمد الخضر حسين ، ولا يزال شيخ الأزهر يُعين حتى الآن ، ولم تكن وقفة رئيس الوزراء من شيخ الأزهر إلا مطالعاً لطعن رجال الدين والتسلط على الشؤون الإسلامية .

وفي ٢١ سبتمبر أصدر قائد حركة الجيش قراراً بحل جماعة كبار العلماء نفسها ، وكان ذلك بعد قانون الإصلاح الزراعي باثني عشر يوماً ، وذلك موقف يثير الدهشة والعجب ، ويتساءل الإنسان : هل كان حل مثل هذه الجماعة عاجلاً إلى هذا الحد ؟ حتى يرتبط بالقضاء على ما أسموه إقطاعاً ؟ إن الباحث المدقق يرى في ذلك إرهاصاً بإذلال رجال الدين والتسلط على أعرق معهد إسلامي وهو الأزهر الشريف .

واكتمل لعبد الناصر التسلط على الأزهر وإضعاف الدراسات الإسلامية به بما يسمى تطوير الأزهر ، وهو القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ ويسميه الأزهريون والباحثون المسلمون (قانون التدمير) وسنقوم بعرض هذا القانون ، وبيان عيوبه ، ورأى الأزهريين والباحثين فيه عند الكلام عن أحداث سنة ١٩٦١ .

الدستور

كان إلغاء دستور مصر خاتمة الأعمال التي قامت بها ثورة ٢٣ يوليو في عامها الأول ، وذلك يوضح خطورة الاتجاهات الثورية التي أملت بالبلاد في الشهور الستة التي حكمتها الثورة في هذا العام ، وقد أُعلن إلغاء هذا الدستور في ١٠/١٢/١٩٥٢م وسنورد فيما يلي دراسة عن الدستور الذي ألغى وعن الحياة الدستورية بوجه عام .

والدستور الذي كان موجوداً عند قيام الثورة هو الدستور الذي صدر في ١٩ بريل سنة ١٩٢٣ وكان في هذا الدستور بعض العيوب والثغرات التي خلقت الاضطراب في الحياة السياسية قبل الثورة ، وأول نقد يوجه لهذا الدستور أنه كان من صنع لجنة اختيرت لهذا العمل ، ومعنى هذا أنه لم يأت وليد جمعية وطنية تعبر عن رأى الأمة ، بل كان من صنع لجنة حكومية ، أو شبه حكومية ، ويفرق فقهاء القانون بين دستور تضعه لجنة وطنية تُنتخب انتخاباً حراً لهذا الغرض وبين دستور تضعه لجنة يشكلها الحاكم أو الحكومة لتقوم بإعداد اقتراح للدستور ثم يستفتى عليه ، ويرى فقهاء القانون أن الجمعية التأسيسية هي أصلح الحاليين ، فالشعب يستطيع أن يختار من يستحقون ثقته لهذا العمل الكبير ، أما الاستفتاء على الدستور فلا يأتي بباطل لأنه يتطلب درجة من الوعي والنضج السياسى لا يصل إليها إلا قلة من الشعوب ، ثم إن الاستفتاء حتى مع النضج الفكرى والسياسى لا يأتي بباطل أيضاً لأنه لا يبيح إلا الرفض أو القبول دون نقاش أو جدل في مواد الدستور (١) .

وللأسف فإن هذا العيب الذى ارتبط بدستور ١٩٢٣ ظل هو النمط بالنسبة للدساتير التي صدرت بمصر بعد ذلك .

(١) دكتور وحيد رافت : فصول من ثورة يوليو ص ٢٨ و ٤٢

(٢ م ١٩ التاريخ ج : ٩)

ومن عيوب هذا الدستور أنه أعطى للملك حق حل مجلس النواب ،
وحتى تأجيل انعقاده ، وكان ذلك وسيلة اتبعت عدة مرات منذ مطلع الحياة
النيابية في مصر ضد حزب الأغلبية ، مما دعا بعض الناس إلى وصف الدستور
بأنه ثوب فضفاض .

وبجانب هذه العيوب كان في نصوص دستور ١٩٢٣ مزايا مهمة ، وقد
سأل قادة الثورة الأستاذ فتحى رضوان عن رأيه في هذا الدستور فأجابهم :
إنه يعد دستوراً نموذجياً ، فهو يقرر أن الأمة مصدر السلطات ، وأن الملك
يملك ولا يحكم ، وأن أوامره المكتوبة والشفوية لاتعنى الوزارة من المسئولية ،
وأن المجلس التشريعى يملك إسقاط الوزارة ويملك مساءلة الوزير ، ويملك
محاكمة الوزراء ، ولكن الدستور هو الشعب ، فالشعب الذى يفرط فى حقوق
نفسه لا ينفعه أى دستور مهما كانت الضمانات الموجودة فيه (١) .

ومع ما فى هذا الدستور من عيوب وحسنات فإن الحكومات المختلفة
بمصر تصارعت معه ، وبدأ صراعها بعد فترة قصيرة من صدوره ، فقد
عطل من أول نوفمبر سنة ١٩٢٤ حتى عام ١٩٢٦ ثم عطل فى يونيو سنة
١٩٢٨ على يد وزارة محمد محمود التى تسمى « اليد الحديدية » ، وظل معطلا
حتى أواخر عام ١٩٢٩ ثم ألغى عام ١٩٣٠ واستبدل به دستور إسماعيل صدقى
وعاد سنة ١٩٣٥ م ثم اتجه الملك بعد ذلك إلى إبقاء الدستور على أن يكون
حجراً على ورق دون ماقيمة أو اعتبار ، فأخذ يُقِيلُ الوزارات ، ويوعز
بتزييف الانتخابات ، ويحل مجلس النواب ، حتى قامت الثورة .

وقد كان من الممكن أن يملأ هذا الدستور الفراغ بحسن استعماله من جانب
أو بإصلاحه وتعديله من جانب آخر ، ولهذا اتجه بعض المفكرين إلى الإبقاء

عليه وتعديل ما يلزم تعديله فيه ، ولكن اتجاه الثوار كان الراجح وهو ما سننبرسه فيما يلي :

الثوار والدستور :

عن دراستنا لموقف الثوار من الدستور نضع أمامنا مجموعة من صحافة ذلك العهد فهي تحمل اتجاهات هؤلاء الثوار :

- في يوم ٢٤ يوليو سنة ١٩٥٢ نشرت الصحافة المصرية قول محمد نجيب إلى أؤكد للشعب المصري أن الجيش كله أصبح من الآن يعمل لصالح الوطن في ظل الدستور مجرداً من أية غاية .

- وتكرر حديث الثوار عن احترام الدستور في مناسبات متعددة ، ومن أجل هذا نجد أنه عندما برزت الاتجاهات للهجوم على الدستور كتب الأستاذ أحمد أبو الفتح في صحيفة المصري في سبتمبر ١٩٥٢ م يعلن أن فرحته بالثورة لم يكن منبعها عزل الملك ، وإنما كان منبعها ما أذاعة القائمون بالحركة عن عزمهم على المحافظة على الدستور ، وأضاف قائلاً : أستطيع أن أقرر أن فرحتي بعزل الملك استمدت أسبابها من أن في زواله تمكينا للحياة الدستورية ، واسترداد الشعب لحقوقه .

- حفلت الصحافة منذ أن تولى محمد نجيب رئاسة الوزارة بأقوال تحمل إلحاح سليمان حافظ وشهوته الجارحة ضد الوفد والدستور والأحزاب ، وكان هذا الاتجاه يوافق هوى واضحا في نفوس أكثر الثوار .

- نشرت صحيفة المصري في صفحتها الأولى يوم ١٤ سبتمبر ١٩٥٢ م صورة تمثل جنديا بجوار قبة البرلمان ، وتحتها عبارة « نحن نحمل الدستور » وكانت هذه الصورة قد أصلرتها مجلة التحرير ، ولصقت على جدران المباني بمناطق كثيرة بمصر ، وفي منتصف نوفمبر ١٩٥٢ م نزع هذه الصورة من أمكنتها ، وكان ذلك دليلا على شيء يراود بالدستور .

- في ١٥ نوفمبر سنة ١٩٥٢ نشرت الصحف المصرية أجزاء من محاضرة ألقاها على ماهر جاء فيها قوله : إنه يرجو أن نواجه حياتنا السياسية بدستور يعجّنّب تخلف دستور ١٩٢٣ م عن مسابرة الديمقراطية الحرة في تطورها .

: - في ٢ ديسمبر ١٩٥٢ نشرت صحيفة الأهرام خبراً يقول : إن هناك اتجاهاً إلى وضع دستور جديد تقوم به لجنة من الإخصائيين ، ويستفتى فيه الشعب .

- كان مانشرته صحيفة الأهرام عن الاتجاه لوضع دستور جديد وسيلة للقضاء على الدستور القائم وإعطاء فرصة للشوار ليحكموا بدون دستور ، إذ كانت كلمة الدستور قد أصبحت - كما يقول محمد نجيب - شكّة الدبوس بالنسبة لأعضاء مجلس القيادة ، تثير غضبهم وثورتهم ، وتصور الأمور كأنها نهاية حكمهم (١).

ونتيجة لكل هذه الأحداث صدر قرار إلغاء الدستور في ١٠/١٢/١٩٥٢ ، وقد أعلن محمد نجيب هذا القرار في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل وفيه يقول : كان الملك يتخذ من الدستور مطية لأهوائه ، ويجد فيه من الثغرات ما يمكنه من ذلك بمعاونة أولئك الذين كانوا يقومون بحكم البلاد . . . والآن أصبح إلزاماً أن نغيّر الأوضاع التي كادت تُودي بالبلاد ، والتي كان يسندها ذلك الدستور المليء بالثغرات . . . ولهذا لامناص من أن نستبدل بذلك الدستور دستوراً آخر . . . وها أنذا أعلن باسم الشعب سقوط ذلك الدستور .

وعاشت البلاد فترة بلا دستور ، وفي أثناءها كانت هناك صور من التخدير تُنشر من حين إلى آخر عن الدستور الذي يؤمل أن يجيء ، وفيها يلي نماذج من هذا التخدير :

— نشرت صحيفة المصري في ٢٣/٧/١٩٥٣ كلاماً للصاغ خالد مجي الدين يقول فيه : أهدافنا الداخلية هي عودة الحياة الدستورية • وتحقيق العدالة الاجتماعية .

— ونشرت صحيفة المصري في ٨/٨/١٩٥٣ تصريحاً لعلی ماهر يقول فيه : أرجو أن تتمكن لجنة الدستور من وضع مشروعه هذا العام .

— ونشرت صحيفة المصري في ٢٧/١١/١٩٥٣ خطاباً لعبد الناصر بالاسكتلرية جاء فيه :

إننا لم نفكر لحظة واحدة في الديكتاتورية لأننا لانؤمن بها .

— ونشرت صحيفة المصري في ٢٣/١٢/١٩٥٣ تصريحاً للبكباشي جمال عبد الناصر يقول : هدفنا إعادة الحياة النيابية .

— ونشرت صحيفة الأهرام في ٢١/٩/١٩٥٤ حديثاً لجمال عبد الناصر يذكر أن الثورة ما قامت إلا لتحقيق حياة ديمقراطية على أساس متين .

لجنة لوضع الدستور الجديد :

في ١٣ يناير سنة ١٩٥٣ صدر مرسوم بتأليف لجنة من خمسين عضواً يمثلون مختلف الاتجاهات والأحزاب والطوائف لوضع مشروع دستور جديد ، ومن بين أعضائه أربعة من الوفديين واثنان من الأحرار الدستوريين ، واثنان من السعديين ، وثلاثة من الإخوان المسلمين ، وثلاثة من الحزب الوطني ، وثلاثة من رجال القضاء ، وثلاثة من العسكريين ، وبعض أساتذة الجامعات ، وكان من أعضائها كذلك على ماهر ومحمد على علوبة ، ويقول الدكتور وحيد رأفت ، إنه سُئِلَ عن استعداده لقبول عضوية هذه اللجنة فوافق ، ولكن سليمان حافظ استبعده ، ويقرر الدكتور وحيد رأفت « أنه لم يندم على ذلك لاعتقاده أنه مهما بذلت اللجنة من جهد

وأصاب من توفيق فإنه لن يكتب لمشروع الدستور الذى تعده أى نجاح
مالم تصادف هوى لدى الحكام الجدد ، وإلا فإنه سوف يوضع على الرف
وقد تحقق هذا الظن فيما بعد «(١).

وقد طال عمر هذه اللجنة وامتد عملها أكثر من سنتين ونصف سنة فلم
تقدم اللجنة مشروع الدستور إلا فى الرابع من أغسطس سنة ١٩٥٤ (٢)
وكانت لجنة الثلاثين التى أعدت مشروع الدستور سنة ١٩٢٣ قد انتهت منه
فى ستة شهور ، وهذا دعا الأستاذ عبد الرحمن الرافعى أن يجرى مقارنة
بين اللجنتين يبرز فيها أن لجنة دستور ١٩٢٣ كانت أقل عددا وأثقل عبئا
لأنها تنشئ دستورا جديدا ، أما لجنة الخمسين فقد كان أمامها الدستور السابق ،
وكل ما كانت تحتاجه هو إجراء تعديل فيه ليصبح أقرب إلى الكمال ، ومع
هذا فلم تقدم مشروعها إلا بعد مضي عامين ونصف عام من تأليفها (٣) .

وبسبب الاتجاه إلى عدم الحرص على الدستور وعدم الرغبة فى تنشيط
اللجنة صدر إعلان دستورى يوضح أن يتولى قادة الثورة أعمال
السيادة العليا ، ويتولى قائد الثورة التدابير التى يراها ضرورية لحماية
هذه الثورة ، ويمارس حق تعيين الوزراء وعزلهم ، ويتولى مجلس الوزراء
السلطة التشريعية كما يتولى مجلس الوزراء والوزراء كل فيما يخصه أعمال
السلطة التنفيذية ويتألف من مجلس قيادة الثورة ومجلس الوزراء مؤتمر ينظر
فى السياسة العامة للدولة ، وتكون هناك فترة انتقالية مدتها ثلاث سنوات .

وعاشت البلاد هذه الفترة الانتقالية على هذا البيان الدستورى من
١٦ / ١ / ١٩٥٣ إلى ١٦ / ١ / ١٩٥٦ حيث صدر الدستور المؤقت ،

(١) فصول من ثورة يوليو ص ٤٩ .

(٢) الأهرام فى ١٩٥٤/٨/٥

(٣) عبد الرحمن الرافعى : ثورة ٢٣ يوليو ص ٧٢

ويقول أنور السادات لا أعرف لماذا اخترنا أن يكون مؤقتا (١) وقد شمل الدستور الجديد ١٩٦١ مادة وطرح للاستفتاء الشعبي فوافق عليه الشعب في ٢٣ يونيو سنة ١٩٥٦ وعندما قامت الجمهورية العربية المتحدة في فبراير ١٩٥٨ أعلن الدستور المؤقت لهذه الجمهورية في ٥ مارس سنة ١٩٥٨ م ولما حدث الانفصال صدر إعلان دستوري جديد في ٢٧ سبتمبر ١٩٦٢ حكمت به البلاد حوالى العامين ، وفي مارس ١٩٦٤ أعلن دستور آخر ألغى بعض ما جاء في الإعلان الدستوري السابق ، وأدخلت تعديلات على مواد ، ولم يصدر الدستور الدائم لجمهورية مصر العربية إلا في عهد أنور السادات في ٧١/٩/١١ .

وهكذا يتضح أن الثورات العسكرية لا تحب الدساتير ولا تعلمها إلا لتلغيها ، فالتقاليد العسكرية تتنافى مع الديمقراطية ، ومع الدساتير التي تحكم الديمقراطية .

مطالبات في الدساتير المصرية :

يجدر بنا بعد أن تحدثنا بإيجاز عن الدساتير المصرية التي تعاقبت من دستور ١٩٢٣ إلى الآن أن نورد بعض الملاحظات عن هذه الدساتير من مطالعائنا لها ، وأول ما نعرض له هو العودة لما سبق أن أوردناه عن عيوب دستور سنة ١٩٢٣ ، فقد ذكرنا في مطالع كلامنا في هذا البحث أنه كان من صنع لجنة حكومية ، وليس من صنع جمعية تأسيسية اختارها الشعب ، وأنه أعطى للملك حق حل مجلس النواب وحق تأجيل انعقاده ، وحق إقالة الوزارة ، وقد سببت هذه العيوب اضطراباً في الحياة السياسية بمصر ، لأن الملك كان يسمى استعمال هذه الحقوق ليعارض الاتجاهات الشعبية وحكومة الأغلبية ، ومن أجل هذا ذكر القرار الذي صدر بإلغاء الدستور أن الثورة منضمة دستوراً منزهاً عن عيوب الدستور الزائل ، وجاء في الإعلان الدستوري

(١) البحث عن الذات ص ١٦٥ .

أن الثورة ستضع نظاماً دستورياً كامل الأركان . فهل صدق هذا الوعد ؟
تعال بنا لنرى ، وسنعرض دساتير الثورة للدراسة من الزوايا التالية :

أولاً : النصوص والواقع :

تقرر المادة الأولى من الإعلان الدستوري الصادر في ١٠ فبراير سنة ١٩٥٣ أن « جميع السلطات مصدرها الأمة » وقد وردت هذه العبارة أو ما يحمل معناها في دساتير عبد الناصر ، ولكن لم يكن لها من الناحية الواقعية أى معنى ، فإن دساتير هذا العهد مهما ورد منها من نصوص كانت فى جانب ، وكانت الحياة الواقعية فى جانب مختلف تماماً ، كانت الدساتير تتحدث بشكل ما عن الديمقراطية ، وكان هناك مجلس أمة ، واتحاد قومى أو اشتراكى قيل إن به تتجمع قوى الشعب العامل . . . ولكن كل هذا كان مظهراً وستاراً لا يخفى الدكتاتورية الفردية الظالمة ، وقد تحدث الرئيس أنور السادات عدة مرات فاعترف بأن النقطة الخاصة بإقامة حكم ديمقراطى سليم بمصر لم تتحقق أبداً قبل عهده .

ثانياً : النظام الرئاسى :

فى دستور ١٩٥٦ وهو أول دستور أصدرته الثورة ترد النصوص التالية :

المادة ١١٩ : يتولى رئيس الجمهورية السلطة التنفيذية .

المادة ١٣٩ : رئيس الجمهورية هو القائد الأعلى للقوات المسلحة .

المادة ١٤٣ : رئيس الجمهورية يبرم المعاهدات ويبلغها لمجلس الأمة .

وقد احتفظت جميع الدساتير التى صدرت بعد ذلك بهذا الاتجاه ، وهو اتجاه خطير لأنه يعطى السلطة لرئيس الجمهورية . وهو بمنأى عن الرقابة والمساءلة البرلمانية ، مما يجعل الرقابة غير ممكنة لقيام الرئيس غير المسئول بوضع الخطة والتنفيذ أو لاشتراكه فى ذلك ، ويتحدث الدكتور وحيد

رأفت عن هذا الاتجاه فيقول (١) . إن جمال عبد الناصر بعد أن تخلص نهائياً من محمد نجيب في نوفمبر سنة ١٩٥٤ أخذ يتطلع إلى النظام الجمهورى الرئاسى دون سائر الأنظمة ليضمن دستورياً أن تظل السلطة كلها مركزة في يديه ، وانطلاقاً من هذا الفهم والتخطيط صدر أول دستور لجمهورية مصر في ١٦ يناير سنة ١٩٥٦ معلناً النظام الجمهورى الرئاسى ، ويلاحظ من مواد هذا الدستور أن نصوصه وأحكامه مُصِّلت على حجم جمال عبد الناصر وظموحه ، وزاد هذا النظام رسوخاً في الدساتير المؤقتة التى جاءت بعد ذلك ؛ فى دستور الوحدة مع سوريا سنة ١٩٥٨ ، ثم فى الاعلان الدستورى الصادر فى سبتمبر سنة ١٩٦٢ بعد كارثة الانفصال ، وكذلك فى دستور سنة ١٩٦٤ ، واستمر النظام الجمهورى الرئاسى ، فأخذ به الدستور الدائم الصادر فى سبتمبر ١٩٧١ .

وقد أثبتت التجربة أن نظام الجمهورية الرئاسية فى البلاد الشرقية نظام خطير على الديمقراطية والحريات عموماً ، وأن النظام الجمهورى البرلمانى هو النظام المناسب لمثل هذه الدول ، إذ تكون فيه السلطة التنفيذية قسمة بين رئيسين ، رئيس الدولة الذى يسود ولا يحكم ، وهو بالتالى غير مسئول ، ورئيس الوزراء المسئول سياسياً عن الحكم أمام البرلمان أو المجلس النيابى . وفى مثل هذا النظام يمكن تحريك المسئولية السياسية دون خرج ، ولكن النظام الرئاسى لا يتيح القدرة على تحريكها ، ما لم يرتكب الرئيس ما يؤخذ عليه جنائياً .

ونجاح النظام الرئاسى فى الولايات الأمريكية لا يشجع على إقامة هذا النظام فى الدول النامية ، فهناك شعب واع وانتخابات حرة تماماً تقدّم لمجلس النواب ومجلس الشيوخ كفاءات عالية ، وتتيح لمجلس الشيوخ أن يشارك

رئيس الجمهورية في بعض صلاحياته التنفيذية . وهناك كذلك صحافة حرة ليس للدولة عليها تأثير ونظام فيدرالى لامركزى يجعل سلطان الحكومة المركزية محدوداً .

وينبغى أن نتذكر القوى الهائلة التى عزلت الرئيس نيكسون وعزلت نائبه قبله ، وأوشكت أن تلقى بالرئيس نيكسون في غياهب المحاكمات ، لولا قرار العفو الذى أصدره الرئيس فورد ، ومن هنا فالنظام الرئاسى إن صلح في الولايات المتحدة فإنه لا يصلح في الدول النامية .

ثالثاً — استبعاد الاتجاهات الديمقراطية :

وننتقل من النظام الرئاسى إلى نقطة أخرى في نقد دساتير الثورة ، فقد لوحظ في هذه الدساتير بوجه عام أنها حرصت على إبقاء السلطة في أيدي الثوار ، ومن هنا استبعدت الاتجاهات الديمقراطية العامة مثل :

١ — تكوين الأحزاب تكويناً حقيقياً نابعاً من رغبة الجماهير .

٢ — انتخابات حرة مباشرة على أن يتولى حزب الأغلبية الحكم :

٣ — صحافة حرة تماماً .

٤ — إطلاق الحريات العامة .

ويقول الأستاذ طارق البشرى^(١) : إن التنظيم الدستورى الحقيقى كان شأنه أن يقضى على حركة ٢٣ يوليو ، ولا يبقى شيئاً للضباط الأحرار ، وبخاصة أن محاولة قيام تنظيم شعبى تابع للضباط الأحرار بتكوين هيئة التحرير كانت محاولة فاشلة من أساسها ، لأن القوى الشعبية تبعد عن أى

(١) الديمقراطية والناصرية : ص ١٦

تنظيم سياسى ينشأ فى أحضان السلطة ، وعلى هذا جاءت دساتير الثورة على نحو يضمن السلطة للثوار ، وإن خالف ذلك النظم الديمقراطية المعروفة .

رابعاً - الترشيح للرئاسة والاستفتاء :

فى دستور سنة ١٩٥٦ ورد ما يلى :

المادة ١٢١ : يرشح مجلس الأمة بالأغلبية المطلقة لعدد أعضائه رئيس الجمهورية ، ويعرض الترشيح على المواطنين لاستفتائهم فيه ، وورد هذا النص كذلك فى المادة ١٠٢ للدستور سنة ١٩٦٤ .

وهذه الفكرة موضع اعتراض قوى من الوجهة الديمقراطية ، إذ ليس هناك حق الترشيح المطلق والانتخاب المباشر للرئيس ، ثم إن الاستفتاءات تتم بشكل لا يعطى على الإطلاق نتيجة دقيقة ، وقد تكلم الرئيس السادات عن ذلك فوصم الاستفتاءات بأبشع الوصمات :

وإذا أضفنا إلى ذلك أن مدة مجلس الشعب خمس سنوات أى أقصر من مدة رئيس الجمهورية اتضح لنا ما يقوله الأستاذ طارق البشرى^(١) من أن « إطالة مدة رئيس الجمهورية ذات أثر لا يمتنع فى التأثير على اتجاهات الانتخابات » وقد عبر عبد الناصر عن ذلك أصدق تعبير عندما قال : يرى أعضاء مجلس الأمة أنهم هم الذين أتوا بى للرئاسة ، وهذا غير صحيح فلانى أنا الذى أتيبتُ بهم لمجلس الأمة . وقد اقتبسنا هذه الكلمات منه فيما سبق ٥

خامساً - تعيين أعضاء مجلس الشعب :

فى دستور ١٩٥٦ ورد النص التالى :

المادة ١٩٢ : يكون المواطنون اتحاداً قومياً . . . وهو يتولى الترشيح

لعضوية مجلس الأمة ، يكون وتكوين هذا الاتحاد بقرار من رئيس الجمهورية .

واستمرار لهذا النظام جاء في الإعلان الدستوري الصادر في يناير ١٩٦٩ ما يلي : يشترط فيمن يرشح لعضوية مجلس الأمة أن يكون عضواً عاملاً بالاتحاد الاشتراكي ، وتنقضى العضوية بالنسبة لعضو مجلس الأمة الذي يفقد صفة العضو العامل بالاتحاد الاشتراكي .

وقبل ذلك جاء في دستور مارس ١٩٥٨ النص التالي :

المادة ١٣ يحدد رئيس الجمهورية عدد أعضاء مجلس الشعب ويتم اختيارهم بقرار من رئيس الجمهورية ، ويشترط أن يكون نصفهم على الأقل من بين أعضاء مجلس النواب السوري ومجلس الأمة المصري .

ويعتبر ذلك غاية التحكم في عضو مجلس الشعب ، فهو تارة يعين ، وتارة يعزل إذا فقد عضوية الاتحاد الاشتراكي .

سادساً - جميع السلطات في يد رئيس الجمهورية :

ذكرت المادة الأولى من الإعلان الدستوري الصادر في فبراير ٥٣ أن جميع السلطات مصدرها الأمة ثم يعود في المواد التالية فيضع كل السلطات التشريعية والتنفيذية في يد مجلس الوزراء ، بل يسحب السلطات القضائية في كثير من الأحوال بتكوين محاكم عسكرية وبخاصة أن الأحكام العرفية سادت البلاد منذ حريق القاهرة في يناير سنة ١٩٥٢ ، ولم ترفع هذه الأحكام إلا في يوليو سنة ١٩٥٦ ، وسرعان ما أعيدت في أكتوبر من نفس العام ، وظلت حتى صدر الدستور المؤقت سنة ١٩٦٤ فرفعت ، وحل محلها قانون تدابير أمن الدولة (رقم ١١٩ لسنة ١٩٦٤) الذي يمنح رئيس الجمهورية في الظروف العادية سلطات استثنائية ، ثم أعيدت الأحكام العرفية مع حرب يونيو سنة ١٩٦٧ ، وهكذا كانت السلطات التشريعية والتنفيذية

والقضائية تقريباً في يد رئيس الجمهورية ، كما كان في يده تكوين (التنظيم الشعبي) وهو تركيز لم يعرفه أى دستور من الدساتير الحقيقية .

الدستور الذى نريده :

وبعد ، إن الدستور الذى نريده ينبغى أن تتوافر فيه الركائز التالية .

١ - يقوم بوضع الدستور جمعية تأسيسية تنتخب انتخاباً مباشراً .

٢ - تنبئ فيه الحياة الديمقراطية على أحزاب متعددة نابعة من الشعب ، ولها صحافتها الحرة التى تعبر عن رأيها وتدافع عن اتجاهاتها .

٣ - الحرية المطلقة للكلمة المنقولة والكلمة المكتوبة والاجتماعات فى حدود القانون .

٤ - النظام الجمهورى البرلمانى الذى تلقى فيه المسئولية على الحكومة أمام البرلمان ولا يحكم فيه رئيس الجمهورية وبالتالى لا يكون مسئولاً .

٥ - ينتخب رئيس الجمهورية بالانتخابات المباشرة من بين من ترشحهم الأحزاب أو يرشحون أنفسهم لهذا المنصب ، وكذلك ينتخب نائب رئيس الجمهورية .

٦ - لا يجدد انتخاب رئيس الجمهورية ما دامت مدة رياسته ست سنوات ، ويمكن جعل مدة الرئاسة أربع سنوات وفى هذه الحالة يمكن أن يُجَدِّدَ انتخابه مرة واحدة أخرى . وقد سبق أن ذكرنا أن الرئيس إذا طال مقامه فى مقر الرئاسة كان من الممكن أن ينسب زفراء الجاهل وحاجاتهم ، ومن أجل هذا يتحتم تغيير الرئيس من حين إلى آخر ليظل ممثلاً لآمال الجماهير وحاجات الشعب .

٧ - لا يجوز لرئيس الجمهورية إقالة حكومة تتمتع بالأغلبية فى مجلس الشعب ولا يجوز له حل مجلس الشعب أو إيقاف جلساته .

٨ - المصريون متساوون تماماً في استحقاقهم لعضوية مجلس الشعب سواء كانوا رجالاً أو نساء ، عمالاً أو فلاحين ، أو معلمين أو أطباء ولكل منهم أن يرشح نفسه حسب القانون وللشعب أن يختار ، ويمكن للجماهير الناحيين في مناطق الريف أن يختاروا فلاحاً ، ولجماهير العمال في المناطق الصناعية أن يختاروا عمالاً ، وهكذا ، فالأمر مترك للشعب دون تحديد أية نسبة أو أى عدد لأى طائفة .

كلمات ختامية عن سنة ١٩٥٢

لقد رأينا في الصفحات السابقة أن الشهور الستة الأولى من حياة الانقلاب كانت شهوراً خطيرة ، ازدحمت بالأعمال والحركات ، ومع هذا لاتزال هناك نقاط حدثت في هذه الشهور تستحق التدوين ، ومنقوم فيما يلي بالحديث عنها :

قيود على الصحافة :

تعجّل قادة الثورة في فرض قيود على الصحافة والتدخل في حريتها ، وكانت وقفهم المبكرة جداً مع صحيفة الأهرام المحافظة إنذاراً للجميع ، فقد أُنذر الرقيب العسكري هذه الجريدة في ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٢ بأنه في حالة تكرار مخالفة تعليمات الرقابة سيكون الجزاء الحتمى تعطيل الجريدة .

ويبدو أن الأهرام استجابت للإنذار منذ ذلك التاريخ ، أما الصحف التي قاومت بشكل ما فقد عُطلت فعلاً وإلى الأبد كصحيفة القاهرة وصحيفة المصرى وغيرهما من الصحف والمجلات .

قانون التطهير :

في ٤ أغسطس سنة ١٩٥٢ أى بعد حوالى أسبوع من الثورة ، صدر مرسوم بقانون سُمّي « قانون التطهير » ونَصَّ على إنشاء لجان لتطهير الوزارات والمصالح العامة والهيئات التي للحكومة إشراف عليها ، وتكون مهمة هذه اللجان البحث عن الجرائم والمخالفات التي وقعت ، ومحاكمة مرتكبيها ، كما نص على أن الطعون في قرارات هذه اللجان لاتقبل ..

وقد فتح هذا القانون أبواباً للقلق والمؤامرات والوساطات والمظالم ، وكان شره أضعاف محاسنه إن كانت له محاسن .

فصل الموظفين بغير الطريق التأديبي :

صدر مرسوم في ١٥ سبتمبر بفصل مجموعة من الموظفين بدون الطريق التأديبي ، وفي ٢٥ سبتمبر أصدر مجلس الوزراء قراراً بفصل عدد كبير من الموظفين .

رئيس وزراء عسكري :

يقول محمد نجيب عن هذا الحدث : كانت الوزارة التي توليت رئاستها هي أول وزارة يتولاها رجل عسكري بعد محمود سامي البارودي وأحمد عرابي في عهد الخديوي توفيق ، وكان هذا يعني تحولاً في طبيعة الحكم كنت حريصاً في أعماقي على ألا يستمر ، فلإني لم أفكر لحظة في أن يسحب الجيش السلطة من الشعب (١).

وحديث محمد نجيب السابق فيه دليل على أن الرجل كان مغلوباً على أمره ، وكانت تُسيره القوى المستترة ، وللأسف عاشت رئاسة الوزارة منذ ذلك الوقت حتى نهاية عهد عبد الناصر ، وهي تنتقل من رجل عسكري إلى آخر في أغلب الأحوال ، فقد تولاها جمال عبد الناصر ، وعلى صبري ، وزكريا محيي الدين ، وصادق سليمان ، وطمع فيها عبد الحكيم عامر كما رأينا من قبل ، وعندما يوضع في كفة الميزان واحد من هؤلاء ، ويوضع في الكفة الأخرى واحد من العالقة الذين كان يُسند لهم هذا المنصب من قبل نحس بالخاطر الذي يحمق بالحياة في مصر نتيجة هذا التصرف الأحمق .

ويصور الأستاذ فتحى رضوان رأيه حول تأليف وزارة عسكرية بقوله :

قابلي سليمان حافظ وطلب مني أن أحضر إلى مجلس القيادة عشية ذلك اليوم الذي ألفت فيه وزارة محمد نجيب ، وقال لي : إن الوزارة الجديدة يجري تشكيلها ، وأنت مدعو للمشاركة فيها ، وقد طلبوا مني أن أتولى رئاسة الوزارة ، ولكنني ذكرت لهم أن الوزارة تحتاج شخصية دولية لاشخصية قانونية ، واقترحت محمد نجيب ليكون رئيساً للوزارة .

ويقول فتحي رضوان إنني عندما سمعت ذلك من سليمان حافظ صرخت فيه قائلاً : لماذا رشحت محمد نجيب ؟ ألا تزال عند فكرة إدخال الضباط الحكومة ؟ فأجاب سليمان حافظ بقوله : محمد نجيب رجل مدني لماذا تحسبه على العسكريين ؟ ويعلق فتحي رضوان على ذلك بقوله : شعرت بهم كغير وكنت لا ألبى الدعوة (١) .

ولكن بريق الوزارة يبدو أنه جذب فتحي رضوان إليها ، وجذب هذا معه بعض رفاقه الذين رشحهم هو للوزارة ، وقد ظل فتحي رضوان يتمتع ببريق الوزارة ست سنوات ، فاحتمل مسئولية كل ما جرى خلالها أمام الله وأمام التاريخ .

سليمان حافظ :

أعترف أننا كنا سذجاً عندما فرحنا بعلي ماهر رئيساً للوزارة في مطلع الانقلاب ، لقد كنا نعتقد أن على ماهر سيجري انتخاباً كما كان يحدث في عهد الملك ، وكان هذا لا يقوى على تزييف الانتخاب ، وبهذا كانت نتيجة الانتخاب العادل أن يصير الحكم للشعب ولحزب الأغلبية ، ولكن فائنا أن قادة الانقلاب يريدون أن يحكموا ولهذا عزلوا على ماهر ونجحوا إلى شخص يضم إلى حقد على ماهر شراسة وعنفاً ضد حزب الأغلبية ، وبعداً عن

(١) أسرار حكومة يوليو ص ١٤٤ - ١٤٥

(م ٢٠ التاريخ ج ٩)

طموح على ماهر ، وقد عثروا على سليمان حافظ ، الذى يقول عنه محمد نجيب بعد أن اختير واجهةً لرياسة الوزارة : إننى لم أرشح أحداً لتولى الوزارة ولكننا أخذنا سليمان حافظ نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للداخلية ، وكان مرتبطاً بأفكار الحزب الوطنى فرشح معظم الوزراء الذين ضمتهم الوزارة ، ولم تضم الوزارة أحداً من رجال الأحزاب القديمة ، وإنما ضمت عدداً من الممتنمين لمبادئ الحزب الوطنى وعدداً من المستقلين واثنتين من الإخوان المسلمين (١) .

ولنسر خطوات مع سليمان حافظ لنرى اتجاهات الرجل الذى كان وسيلة شر ، ولكن الشر بعد أن تمكن انقلب عليه :

رجل قانون يصبح نائباً لرئيس الوزراء العسكرى ووزيراً للداخلية ، فتصبح له بحكم هذه المناصب سلطات ضخمة ، إذ يستطيع - بحكم تخصصه القانونى - أن يقترح على رئيس الوزراء العسكرى ما يشاء من قوانين ، ثم - بحكم أنه وزير داخلية - يستطيع أن يباشر تنفيذ هذه القوانين ، وبهذا أصبح سليمان حافظ سلطة هائلة ، وإننا لهذا نتساءل : هل كان هذا الرجل جديراً بحمل هذه الأمانة ؟ تعالى بنا نرى ما يقوله عنه أعرف الناس به : يقول محمد نجيب :

- اقترح سليمان حافظ قانون تنظيم الأحزاب ، وعارضه السهوى معارضة شديدة ، ولكن سليمان حافظ أوضح له أن الأحزاب قد فسدت مما يفسد المعنى الحقيقى للديمقراطية ؟

- أوجد سليمان حافظ مخرجاً لإخراج الإخوان المسلمين من أن ينطبق عليهم قانون الأحزاب .

- اعترض سليمان حافظ على شخص النحاس باشا ، ومن الذى يستطيع أن يتزعج النحاس باشا من قلوب الناس ؟

- أعد سليمان حافظ عدة تشريعات منافية للديمقراطية ؛ إذ قرر حق إقالة الموظفين من غير الطريق التأديبي ، وحرمان رجال القضاء المعزولين من معاشهم أو مكافأاتهم ، وإحالة جرائم الإصلاح الزراعى للمحاكم العسكرية ، ورفع عقوبة الإشاعات من جنحة إلى جناية^(١) وقد عُرِفَت هذه الأشياء آنذاك بأنها تقنين للمظالم .

ويقول الأستاذ أحمد حروش^(٢):

قام سليمان حافظ بدور تخريبى لهدم الوفد ، واعترض على الرئاسة الشرفية للنحاس باشا ، وكان هذا - مع إغراء السلطة - سبباً فى التحول إلى الحكم العسكرى .

وعندما مكن سليمان حافظ الأمر لقادة الانقلاب انقلبوا عليه ، فاستقال من مناصبه الوزارية فى ١٩/٦/١٩٥٣ ولكن عرفانهم بصنائه دفعهم لتعيينه فى نفس التاريخ مستشاراً قانونياً لرئيس الجمهورية بمرتبة قلده ٣٠٠٠ جنيه سنوياً^(٣) ، ولكن مجلس الوزراء العسكرى برئاسة عبد الناصر قرر إقالته فى ١٧/٤/١٩٥٤^(٤).

وذهب الرجل غير مأسوف عليه ، وقد ظهر له فيما بعد أنه خدع فى عبد الناصر ، فراح يعلن إبان حرب ١٩٥٦ أن العلاج فى أن يخنق

(١) كلفى لتاريخ ص ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٢

(٢) قصة ثورة ٢٣ يوليو ص ٢٧٠ - ٢٧١

(٣) الأهرام فى ١٩ يونيو سنة ١٩٥٣ .

(٤) صحيفة المصرى ١٨ - ٤ - ١٩٥٤

جمال عبد الناصر من الساحة لأنه مكروه من الشعب ، وقد سبق أن اقتبسنا كلامه ونحن نتكلم عن قادة الانقلاب ، ولكنه الآن كان يتكلم ولا نفوذ له ، فكان كلامه صبيحة في واد .

أخبار اليوم والوقعة بين الجيش والوفد :

لقد كان لإبعاد الوفد ضرورياً ليتمكن قادة الانقلاب من السلطة ، ولذلك اتخذ هؤلاء وسائل أكثر بمراحل من تلك التي اتخذها الملك من قبل لإبعاد الوفد ، وقد صرح الرئيس أنور السادات عدة مرات بأن الديمقراطية لم تباشر قط طيلة السنوات التي سبقت عهده ، وبانعدام الديمقراطية والقبض على زعماء الوفد ، وحل الأحزاب ونهاية الدستور . . . كانت العلاقة قد وصلت بين الوفد وبين الثوار إلى نهاية السوء .

وقد كان الوفد هو الممثل الحقيقي للشعب ، وكان أقرب الأحزاب للعدالة الاجتماعية فهو الذي قرر مبدأ الضريبة التصاعدية ، وفي الوزارة الوفدية الأخيرة ضاعف الضرائب على كبار الملاك بما فيها الضرائب العقارية لتزيد ١٠٠٪ ووصل في ضرائب الشركات إلى فرض ضريبة تصل إلى ٩٠٪ من الأرباح في الشرائح المرتفعة (١).

ولكن طمع قادة الانقلاب في السلطة جعلهم يحاولون الهجوم على الوفد فهو أكبر عقبة في طريقهم ، وقد اعتمدوا في ذلك اعتماداً كبيراً على صحافة أخبار اليوم التي كانت تمثل صحافة الإثارة ، وقد حاربت هذه الصحافة الوفد قبل الثورة واتخذت جانب الملك ، فلما سقط الملك اتخذت هذه الصحافة جانب الضباط لتثيرهم على الوفد ، ذلك الحزب الذي ينتمي إليه معظم أبناء الطبقة الوسطى التي انبثقت منها الضباط الأحرار كما يقول أحمد حنوش (٢) .

(١) انظر قصة ثورة ٢٣ يوليو للأستاذ أحمد حنوش ص ٢٦١

(٢) الموجع السابق ص ٢٦٢

ومن المواقف التي تذكر في هذا المجال أن فؤاد سراج الدين السكرتير العام لحزب الوفد كان قد اجتمع ذات مساء بقيادة الثورة للمناقشة في الأمور الوطنية ، وقد طال الاجتماع من الخامسة مساء حتى بعد منتصف الليل ، وانفض الاجتماع وطلب صلاح سالم من فؤاد سراج الدين أن يجتمع بهم مرة كل أسبوع ، وطلب منه جمال عبد الناصر أن يبيت بالقاهرة ليكون على مقربة منهم ، وحدد موعد للقاء التالي بعد أسبوع ، وفي اليوم المحدد للقاء نشر مصطفى أمين في « آخر لحظة » أن فؤاد سراج الدين صرح بأنه وضع ضباط القيادة في جيبه . وكانت هذه العبارة مفتراة ، ولكن ما إن نشرت هذه العبارة حتى صدرت الأوامر بإلغاء اجتماع ضباط القيادة بسراج الدين^(١)

على أن هذه الواقعة إن باعدت بين قادة الانقلاب وبين الوفد ، فإن ما لاقاه مصطفى أمين من قادة الانقلاب كان أقسى وأمرًا مما لاقاه سواه ، والعدالة الإلهية تثار للناس إذا عجز المظلوم أن يقتص لنفسه .

سيد مرعى والثورة :

كان أحمد مرعى والد المهندس سيد مرعى وفدياً قريب الصلة بالزعيم سعد زغلول ، وانتقل ابنه المهندس سيد مرعى ليصبح من أقطاب الحزب السعدى ولكن عندما جاءت الثورة سرعان ما استدار ليصبح بطلاً يعتمد عليه قادتها ، فقد كان في قمة الجهاز التنفيذي لقانون الإصلاح الزراعى منذ سنة ١٩٥٢ ثم أصبح وزيراً للزراعة ، فنائباً لرئيس الوزراء ، فالمستول عن

(١) صلاح الشاهد : ذكرياتي في عهدين ص ١٥٠ - ١٥١

التنمية الزراعية بمصر ، فأميناً عاماً للاتحاد الاشتراكي ، فرئيساً لمجلس الشعب .
وأمثاله كثيرون وبخاصة من الحزب الوطني ؛ وهي قدرة عظيمة أن
يغير الإنسان جلده تبعاً للظروف :

حكاية النصف في المائة :

هناك تعبير سمعناه مئات المرات من جمال عبد الناصر ، وكان يتغنى
به ، وهو أن عهد ما قبل الثورة كان عهد النصف في المائة ، أى كان هناك
أغنياء قلائل وكثرة جائعة ، فماذا حدث بعد الثورة ؟

الإجابة نأخذها من كلام عبد الناصر نفسه ، فقد سئل عن السبب
في اهتمامه بالتأميم وتحديد الحد الأقصى للدخل فقال : لأبد من ذلك ،
فقد كان عندي ١٠ أو ١٢ مليونيراً فأصبحوا الآن ٣٠٠ أو ٤٠٠ (١) .

ربما تسألني : من هم هؤلاء المليونيرات الجدد ؟

وأقول إنهم أمثال على شفيق زوج الفنانة مها صبرى الذى وجدوا معه
مليون جنيه نقداً سائلاً في شقته التى وجد قتيلاً بها بلندن ، بخلاف الملايين
التي كانت مودعة في البنوك ؛ وعلى شفيق ضابط من الدرجة الثالثة
أو الرابعة ، فما بالك بسواه ؟

ويقول محمد حسنين هيكل إن تقرير الخبراء يذكر أن في مصر الآن
خمسة مليونير ، وأن هذه الطبقة الجديدة تضغط ضغطاً فاحشاً على الاستهلاك
إلى حد البذاعة ، وهذه الطبقة لا يمكن اثباتها على قضية من قضايا العمل
الوطني ولا على التراب الوطني ، ولا مؤتمنة على قضية التحول الاجتماعي ،
وليست لها في مصر إلا أنابيب تتسرب منها الثروة وتتدفق أولاً بأول خارج
مصر ، بل إن هذه الطبقة في معظم الأحيان واجهة أو وكالة لمصالح أجنبية

(١) أحمد حمروش : عبد الناصر والعرب ص ٧٥ :

تعمل خارج مصر ، وليس لها هم* إلا أن تشفط ما تستطيع أن تصل إليه في مصر (١).

وهذا هو الـ ١/٢ في المائة زاد زيادة كبيرة في عهد الثورة ، أما الفقر المدقع فلا زال يسيطر على الغالبية العظمى في القرى وفي الأحياء التي يسمونها « الأحياء الوطنية » بالملس ، وهذه وتلك لم تر النور ولا الإصلاح طيلة عهد عبد الناصر .

المحاكم والمحاكمات :

عَرَفَ عهد الثورة محاكمات ابتدأت من عام ١٩٥٢ واستمرت بما تحمل من إرهاب وذعر حتى نهاية عهد عبد الناصر ، وكانت أسماؤها مختلفة مثل محكمة الغدر ، ومحكمة الثورة ، ومحكمة الشعب ، ومحاكم الدجوى ، ولنا مع المحاكم دراسات في عهد عبد الناصر ، لأن ارتباطها بعهد عبد الناصر أقوى من ارتباطها بعهد نجيب .

عبد الرحمن عزام :

في ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٢ أُبعد عبد الرحمن عزام عن منصب الأمين العام للجامعة الدول العربية ، وخسرت مصر شخصية عظيمة ، واسعة الفكر ، عميقة الجهاد ، لها مكانتها في العالم العربي كله :

ولعبد الرحمن عزام مكان مرموق في خدمة الحركات العربية والحركات الإسلامية ، فقد التحق بالجيش العثماني في حرب البلقان سنة ١٩١٣ واشترك في المعارك ضد الطليان بالصحرَاء الغربية (١٩١٥ - ١٩١٧) وانضم للحركة الوطنية بزعامة سعد زغلول ، ودافع بقوة عن قضية فلسطين :

(١) محمد حسين هيكل : مصر لا لعبد الناصر ص ٥٤ - ٥٥ .

وبعد إبعاده عن جامعة الدول العربية عمل مستشارا سياسيا للمملكة العربية السعودية .

الضباط والدراسات العليا :

وصل طموح الضباط إلى أن يحصلوا على درجات الدكتوراه ، ليستطيعوا بها أن يدخلوا ضمن هيئات التدريس بالجامعات وهي الهيئات التي استعصت عليهم لعدم حصولهم على هذه الدرجات العلمية ، وتيسيرا لهذا الهدف تقرر في ٧ نوفمبر سنة ١٩٥٢ قبول ضباط أركان الحرب للدراسة بمعهد فتح -حديثا هو معهد العلوم السياسية .

وبطريق أو بآخر حصل بعض الضباط على درجة الدكتوراه ، وكان لهم أن يدخلوا هيئات التدريس بالجامعات ، ولكن كيف لهم أن يقنعوا بالمرتب الهزيل الذي يتقاضاه المدرسون بالجامعة وبالجهد المستمر في إلقاء المحاضرات وكتابة البحوث حيث لا يرقى أحد إلى الدرجة الأعلى في هيئات التدريس إلا بالانتاج العلمي .

وآثر هؤلاء الدكاترة أن يصبحوا وزراء أو في درجة الوزراء وكان لهم ما أرادوا .

الضباط وسن الإحالة إلى المعاش :

في ١٨ ديسمبر ١٩٥٢ صدر قانون باستثناء السفراء من سن الإحالة إلى المعاش وكان واضحا من ذلك القانون أن "يُيسر لبعض الضباط الذين نقلوا لوزارة الخارجية أن ينعموا بهذا المنصب دون الخضوع للسن .

معونة الشتاء وقطار الرحمة :

شهدت سنة ١٩٥٢ والسنون التالية لها بدعة سميت « معونة الشتاء » وبدعة أخرى سميت « قطار الرحمة » والعجيب أن دار الرئاسة وجدت وقتاً

لتشرف على هذا العمل ، ولتلقى دفعات الملابس والأغطية التي كان المواطنون يتبرعون بها ، كما قُبلت سيارات الجيش يجمع تبرعات من الأحياء .

وقد التصقت بهذه الفكرة شبهات مريرة تكلم عنها محمد نجيب نفسه فقد كانت المصانع تُترغَم على التبرع ثم تختفي هذه التبرعات ، وكانت الفنانات ضمن من يركب قطار الرحمة باسم الاستجداء فاختلط بذلك الخير بالشر (١) .

(١) انظر صحافة ١٩/١١/٥٢ و ٢٥/١١ و ٢٩/١١ و ٧/١٢/١٩٤٢

حوادث سنة ١٩٥٣

مقدمة

دخلت سنة ١٩٥٣ والبلاد غارقة في الأحداث التي خلفها العام السابق ، وتحفل مذكراتي التي دونتها في عام ١٩٥٣ بمجموعة من الأحداث الضخمة ، ولكن بعضها أحداث امتدت إلى عصر عبد الناصر وكانت أكثر ارتباطا به ، ولهذا سنؤجل دراستنا لها إلى عهد عبد الناصر ، وهذه الأحداث هي :

١ - المحاكمات ، والمعتقلات ، والقهر ، والإذلال ، وصدام زعماء الانقلاب مع القوى الوطنية ، فقد كانت هذه الإجراءات هي طابع عبد الناصر وأخلاقه كما ذكرنا من قبل .

٢ - الإخوان المسلمون ومشكلاتهم مع الثورة ، فهذه المشكلات أكثر ارتباطاً بشخصية عبد الناصر وعهده .

٣ - ظهور كتاب فلسفة الثورة ، وهو كتاب يوضح أطباع عبد الناصر واتجاهاته .

٤ - قيام هيئة التحرير . وهي مؤسسة سياسية ناصرية مائة في المائة أما الأحداث التي وقعت سنة ١٩٥٣ ويمكن أن نتحدث عنها هنا ، فهي :

١ - اتفاقية السودان .

٢ - نهاية الملكية وإعلان الجمهورية .

وسنتحدث عن كل منهما فيما يلي :

اتفاقية السودان

عند الحديث عن اتفاقية السودان التي وقعت في ١٢/١/١٩٥٣ يجدر بنا أن نتمهد لهذا الحديث بالكلام عن نقطتين مهمتين هما :

أولاً : صلة مصر بالسودان طبيعياً وسياسياً وحضارياً .

ثانياً : الاتجاهات قبل الثورة عن الصخرة التي كانت تتحطم عليها المفاوضات بين مصر وبريطانيا .

مصر والسودان :

إن الحديث عن مصر والسودان قد أوردت جانبه التاريخي والحضاري في الجزء السادس من هذه الموسوعة ، كما تحدثت عن الروابط النفسية والعاطفية في الجزء التاسع من موسوعة الحضارة الإسلامية « رحلة حياة » . وخلاصة ما ذكرته أن السودان بمساحته الحالية التي تشمل السودان الشامي ومنطقة كسلا ، والنيل الأزرق ، والنيل الأبيض ، وكردفان ، ودارفور وأعلى النيل ، وبحر الغزال ، ومديرية خط الاستواء ، هذا السودان بهذه المساحة وهذا التجمع هو من صنع مصر ، فقد كانت دولة الفونج (دولة سنار) أول دولة إسلامية تحل سنة ١٥٠٥ محل الدولتين المسيحييتين : مقرة وعلوة ، واستطاعت دولة الفونج أن تمتد نفوذها فقط إلى البجة وإلى كردفان أحياناً ، ثم إن دولة الفونج تغلبت عليها قوى (الهمج) الذين أخذوا هذه التسمية بسبب كثرة انقسامهم على أنفسهم ، واستعان كل فريق منهم ضد الآخر بأعداء يكرهون المستعدي والمستعدي عليه ، فتفككت البلاد واضطرب أمرها ، وفي هذا الجو زحف محمد علي إلى السودان سنة ١٨٢١ م .

وكان زحف محمد على إلى السودان إعادة للرباط المقدس بين مصر والسودان ، ذلك الرباط الذى حرص عليه حكام مصر جميعاً قبل الإسلام وبعده ، لاعتقادهم أن حوض النيل يكون وحدة ذات عناصر مشتركة اقتصادياً وجغرافياً ، ولأن سكان الوادى يكونون وحدة سكانية لا تختلف فى شيء إلا بتطور طبيعى فى اللون يبرز للباحث من شقرة تقريباً عند رشيد ودمياط واتجاه بطيء للسمره حتى أعلى النيل ولكن الدم كان واحداً ، كما كان التأثير اللغوى والدينى واحداً هنا وهناك ، والذى يقرأ كتاب تاريخ ملوك السودان للشيخ أحمد كاتب الشونة وزملائه يجد به فضل القول عن الحفاوة والترحيب اللذين لاقاهما الزحف المصرى من الأمراء والعلماء والقبائل بالسودان (١) فكأنما كان الزحف عودة غريب إلى داره .

وقد استطاع الزحف الذى بدأ فى عهد محمد على أن يضم بلاد القونج حتى بربر وشندى وسنار ، ثم استطاع محمد الدفتردار أن يفتح كردفان ، وكانت آنذاك تدين بالطاعة للملك دارفور فى الغرب .

وفى عهد الخديوى اسماعيل تم فتح دارفور وضمها إلى السودان ، واستمر الزحف المصرى فضم منطقة بحر الغزال ومنطقة خط الاستواء ، ورغبةً فى أن يتم اتصال بين مناطق خط الاستواء وبين مصر عن طريق البحر الأحمر تمت مفاوضات مع ملك أوغندا الذى قبل أن يرفع علم مصر على مملكته ؛ وأن يعلن تبعيته لمصر ، كما أبدى رغبته فى تعلم الدين الإسلامى (٢) .

وهذا يوضح أن امتدادات السودان من الشمال إلى هذه المناطق التى سبق الحديث عنها تم فى عهد اسماعيل فأصبح السودان وحدة سياسية ضخمة

(١) تاريخ ملوك السودان ص ٢٢

(٢) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل - ١ ص ١١٤ وما بعدها

تمتد من ساحل البحر الأحمر إلى وادى وتمتد جنوباً فتشمل منطقة خط الاستواء وأصبح السودان مع مصر يكوّنان إمبراطورية ضخمة في إفريقيا ، وقد أجريت بهذه الإمبراطورية تحسينات واسعة في المواصلات البرقية لربط أجزائها بعضها ببعض .

ويصور مؤرخ السودان الشيخ أحمد كاتب الشونة وزملاؤه ما قدمته مصر للسودان تصويراً دقيقاً ، فيتحدث بالثناء والتقدير عن بعض الأعمال المصرية بالسودان كبناء المساجد وحسن السيرة ونشر العلم وتقريب العلماء ، وزيادة العارة ، وحسن السياسة ، ونشر الأمن ، وإزالة الفتن ، والمشورة (١) .

بريطانيا والسودان والصخرة أمام المفاوضات :

عندما احتلت بريطانيا مصر ١٨٨٢ بذلت جهداً كبيراً لتسحب مصر جيوشها من السودان ، ولم تكن مصر تحت الاحتلال بقادرة على رفض الخضوع للرغبة البريطانية ، وما إن تم سحب الجيوش المصرية من السودان حتى وضعت بريطانيا الخطط من جديد لتعود إلى السودان باسم مصر ، وما إن تم ذلك سنة ١٨٩٩ حتى أعلنت أنها شريكة في الفتح ، فأصبح السودان تابعاً لحكم ثنائى من الناحية القانونية ولحكم بريطانى من الناحية الواقعية ، وانتهزت بريطانيا فرصة قتل السير لى سناك بالقاهرة سنة ١٩٢٤ فطالبت بإجلاء القوات المصرية عن السودان ، وإجلاء المدرسين والإداريين المصريين ، وتمّ لها ما أردت .

وأعادت معاهدة سنة ١٩٣٦ لمصر بعض حقوقها في السودان ، ومنذ هذه المعاهدة دارت مفاوضات بين الجانب المصرى والجانب البريطانى لتحديد العلاقات السياسية بين الدولتين ، وكان السودان يعتبر الصخرة

التي تتحطم عليها هذه المفاوضات إذ اهتم المفاوضون المصريون على اختلاف أحزابهم بالوحدة بين مصر والسودان ، وكانت بريطانيا تعارض هذه الوحدة دائماً ، وتنادى بأن يكون للسودانيين « حق تقرير المصير » وكان الاتجاه المصرى يرى أن الوحدة هي رأى السودانين والمصريين إذا بعدت المؤثرات الأجنبية عنهم ، فليس السودان وليست مصر إلا جزءاً من دولة واحدة ، وكل محاولة لفرض التفريق باسم تقرير المصير لابد أن تكون مرفوضة (١) ، وكان الاتجاه المصرى يرى أن الوحدة بين مصر والسودان كالوحدة بين السودان الشمالى والسودان الجنوبى ، فكما لا يقبل السودان الشمالى نزعات التجزئة ، ويقاوم كل اتجاه لعزل جنوب السودان عن شماله ، فكذلك كانت مصر ترى الوحدة بينها وبين السودان ، ويقول الدكتور وحيد رأفت إن المفاوض المصرى كان لا يجد أن من حقه أن يفرض فى الحقوق التاريخية والقانونية التي تربط مصر بالسودان ، ولا كان شعوره الدفين المرتبط بأعمق التاريخ والمغلف بالحجج والأسانيد القانونية يطاوعه على مثل هذا التفريط (٢) .

وعلى هذا تأخر استقلال مصر بسبب قضية السودان ، فلم تكن بريطانيا إلا طارئاً دخل على حياة دولة وادى النيل بسبب الزحف الاستعماري الذي بدأ بمصر ، ثم امتد إلى السودان ، وعليها أن ترحل دون أن تتخذ تعبيراً مثل « تقرير المصير » وسيلة لمد نفوذها فى السودان .

ضباط ٢٣ يوليو والسودان :

جاءت ثورة ٢٣ يوليو ، وسرعان ما أعلنت عن منهج جديد فى قضية السودان ، ذلك هو المنهج الذى كانت تقول به بريطانيا وتبني له ، وهو

(١) اقرأ تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية لشفيق غربال

(٢) فصول من ثورة يوليو ص ٢١٦

حق تقرير المصير وتُخدع الضباط بمظهر كان واضحاً وهو الارتباط الطبيعي بين شعب وادى النيل في الشمال والجنوب ، فعند ما يُطلب للسودانيين أن يقرروا مصيرهم سيعلمون الارتباط بمصر بصورة من الصور ، وقد اتضحت هذه الحقيقة من بعض الاتصالات والاختبارات ، ولكن فات الذين خُدعوا بها أن الحكم البريطاني الذي بدأ بالسودان سنة ١٨٩٩ كان قد كَوّن له أنصاراً ودعاة يواجه بهم الارتباط بمصر ، وكان من الذكاء أن نشاط هؤلاء اختفى حتى قبلت مصر مبدأ تقرير المصير ، ثم أعلن هؤلاء عن هويتهم بصراحة ، وساعدتهم ظروف مختلفة فتقرر استقلال السودان عن مصر ، ولنعد للمساءلة من أولها :

يقول عبد اللطيف البغدادي (١) : رأى المجلس قبل أن يبدأ المفاوضات مع بريطانيا من أجل إجلاء قواتهم عن مصر ، أن يفصل أولاً مشكلة السودان عن مشكلة الجلاء ، وأن يوافق على حق الشعب السوداني في تقرير مصيره إما بالاستقلال وإما بالاتحاد مع مصر ، وبدأ المجلس بإجراء اتصالات مع الزعماء السودانيين للاتفاق معهم على هذا الأساس ، وكان طبيعياً أن يقبل جميع الزعماء هذا الاقتراح أساساً للمفاوضة مع بريطانيا .

وهناك خطوة أخرى في هذا المجال توصلت لها حركة الضباط ، وهي توحيد الأحزاب السودانية (فيما عدا حزب الأمة) ليشكل منها حزب واحد هو الحزب الوطني الاتحادي ، على أن يكون اسماعيل الأزهري رئيساً له ، ومحمد نور الدين نائباً للرئيس ، وتم ذلك الاتفاق في ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٥٢ ، وفي ضوءه وبعد موافقة حزب الأمة على أساس المفاوضات مع بريطانيا ، بدأت هذه المفاوضات في يناير سنة ١٩٥٣ ، وسرعان ما تم الاتفاق بين مصر وبريطانيا ، لاتحاد وجهتي النظر المصرية والبريطانية حول

مستقبل السودان ، ف وقعت المعاهدة في ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣ بعد أقصر مفاوضات في هذا المجال .

خلاصة الاتفاقية :

تشمل هذه الاتفاقية خمس عشرة مادة ، ومن أهم موادها ما يلي :

— الاحتفاظ بوحدة السودان شماله وجنوبه بوصفه إقليماً واحداً ويحظر على الحاكم العام ممارسة السلطات المخولة له على أية صورة تعارض مع هذا المبدأ .

— تحديد فترة انتقال مدتها ثلاث سنوات لإنهاء الإدارة الثنائية ، وفي خلال هذه الفترة يمارس الحاكم العام البريطاني سلطاته الدستورية ولكن بمعاونة لجنة خماسية تشكل من اثنين من السودانيين يتم تعيينهما من البرلمان السوداني عند انتخابه ، وعضو مصري ، وعضو بريطاني ، وعضو باكستاني ، ترشح كلا منهم حكومته .

— يتم انتخاب برلمان سوداني تشرف على انتخابه لجنة من سبعة أعضاء ثلاثة منهم من السودانيين يعينهم الحاكم العام بموافقة لجنته الخماسية وعضو مصري وعضو بريطاني وعضو أمريكي وعضو هندي تكون له الرئاسة .

— تشكيل لجنة للسودنة لتهيئة الجو الحر المحايد اللازم لتقرير المصير ، وتؤلف من مصري وبريطاني ترشح كلا منهما حكومته ومن ثلاثة من السودانيين يختارهم الحاكم العام ولجنته من قائمة تتضمن خمسة أسماء يرشحهم رئيس وزراء السودان .

— عند البدء في اتخاذ التدابير الخاصة بتقرير المصير تضع الحكومة السودانية مشروعاً بقانون لانتخاب جمعية تأسيسية كما تطلب انسحاب القوات العسكرية المصرية والبريطانية من السودان تمهيداً لتقرير المصير ، وتختار الجمعية التأسيسية الارتباط بمصر أو الاستقلال .

صلاح سالم والسودان :

كان صلاح سالم بطل هذه الاتفاقية ، وهذا يدعونا للتساؤل :
ما المؤهلات التي وضعت صلاح سالم لممارسة هذا العمل الخطير ؟ وماذا
كانت النتائج لذلك ؟

قد يخطر بالبال أن صلاح سالم كانت له صلة فكرية بالسودان ومشكلاته
وشعبه ، ولكنه يجيب عن هذا السؤال بقوله :

لم أقرأ في حياتي قبل ٢٣ يوليو عن السودان سوى النزر اليسير ،
لم أقرأ سوى كتابين أحدهما استخفني عنوانه عن الصيد والمغامرات ، والثاني
عنوانه (حب النهر) ، ولم يكن لي صديق سوداني واحد يتحدثني وأتحدث
معه في شئون بلاده وأهله .

وارتبط صلاح سالم بقضية السودان مصادفة وعن غير قصد ، فقد كان
مكلفاً بشئون الجيش في بداية الثورة هو والصاغ عبد الحكيم عامر بجوار
محمد نجيب ، وتصادف أن تلقى صلاح سالم مكالمة من البكباشي عبد الفتاح
حسن الياور المصري للحاكم العام في الخرطوم يبلغه فيها أن بعض الجنود
السودانيين الذين كانوا جنوداً بمصر وسرّحوا ، يشكون من عدم صرف
مكافأة ترك الخدمة لهم . ولم يكن لهم حق قانوني في مكافأة ، ولكن صلاح
سالم أصدر قراره بصرفها (١)

وكانت هذه المصادفة كافية ليتولى صلاح سالم شئون السودان !!!

مراحل التنفيذ ومراحل الأخطاء :

خطت المرحلة الأولى بنجاح ، فعندما أجريت الانتخابات البرلمانية في
السودان وأعلنت نتائجها يوم ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٥٣ ظهر أن الحزب

(١) أحمد حمروش : عبد الناصر والعرب ص ٣٠٤

الاتحادى قد فاز فوزاً عظيماً على سواه ، إذ حصل على ٥٤ مقعداً وحصل حزب الأمة على عشرين مقعداً وحصل المستقلون على ١٢ مقعداً ، وحصل الحزب الجمهورى على ٤ مقاعد ، وسرعان ما أعلن الحزب الجمهورى انضمامه إلى الحزب الاتحادى ، وألف إسماعيل الأزهرى أول وزارة بالسودان وافتتح البرلمان فى مارس سنة ١٩٥٤ . ومن الواضح أن النجاح فى هذه الخطوة كان بدافع الارتباط العام التاريخى بين مصر والسودان .

وبدأت مراحل الأخطاء وتسلسلت فرجحت كفة الانفصال وأصبح الحزب الاتحادى نفسه فى قائمة الأحزاب التى تنادى بالاستقلال . وفيما يلي خطوات هذه الأخطاء التى أدت إلى الفصل بين مصر والسودان .

١ - كان نجاح الحزب الوطنى الاتحادى فى أواخر نوفمبر سنة ١٩٥٣ كما ذكرنا آنفاً ، وما إن فرحت البلاد بهذا الحدث حتى ظهر ما كان خافياً من صراع فى مجلس الثورة ضد محمد نجيب ، ذلك الصراع المعروف بأزمة فبراير ومارس سنة ١٩٥٤ والذى سنتحدث عنه فى حينه ؛ وكان محمد نجيب عاملاً مهماً من عوامل الربط بين مصر والسودان لعمق صلته بالسودانيين ولطول عمله هناك ، ومن هنا كان الصراع ضده قضاء على الوحدة التى كان هو رمزاً من رموزها ، وهو يقول فى ذلك « كان توقيع قرار تنحيته من رئاسة الجمهورية يساوى تماماً توقيع القرار لانفصال السودان عن مصر » (١) .

وينقل محمد نجيب عن كثير من السودانيين سئلوا عن سبب تدهور العلاقات مع مصر فأجابوا فى كلمة واحدة إن السبب هو « نجيب » ولما قيل لهم إن نجيب فرد زائل ورابطة السودان بمصر خالدة ، كان الجواب إن شعب السودان قد جعل من محمد نجيب فى هذه الفترة رمزاً للوحدة ، وقد

حطمت القيادة هذا الرمز^(١). واعتقادي أن محمد نجيب بالغ في تقدير نفسه ، وأنه لم يكن إلا سبباً واحداً من أسباب عديدة ستظهر فيما يلي .

٢ - كان صلاح سالم - كما يقول أحمد حمروش^(٢) - قد اتبع في سياسته بالسودان أسلوباً يخرب علاقات القوى السياسية ، ويمزق صلابة الأفراد ، إذ استخدم الأموال والرشوة وسيلة للإقناع واجتذاب زعماء القبائل والطوائف والأحزاب ، وهي وسيلة شديدة الخطر .

ويوضح عبد اللطيف البغدادي خطر الرشوة التي قدمها صلاح سالم بقوله : إن قيام مصر برشوة كثير من السياسيين السودانيين والمشتغلين هناك كان له أثر سيئ على أغلبية أفراد الشعب السوداني ، حتى أصبح الشك يتناول كل شخص يتعاون مع مصر لاعتقادهم أن وراء هذا التعاون رشوة حصل عليها من مصر ، وهذه الصورة السيئة جعلت الكثيرين ممن يؤمنون بالانحداد مع مصر يتعدون عن التعاون معها درءاً لهذا الشك^(٣) .

٣ - كانت حركة الضباط قد أقدمت على إلغاء الدستور وحل الأحزاب واعتقالات ضباط المدفعية والسياسيين ، وأقدمت على ما يسمى الإصلاح الزراعي ، وكل هذا وسواه انعكس على السودان انعكاساً رهيباً ، ومن الواضح أنه من الناحية السياسية كان اسماعيل الأزهري مقرباً من الوفد ومرتبطاً بزعمائه ، وكان للوفد أعضاء كثيرون في السودان ، وأحس السودانيون أنهم سينزل بهم من العنت ما نزل بمصر والمصريين ، فسقطت هيئة النظام في مصر أمام السودانيين ، وفتحت الأبواب أمام المؤامرات المعادية لوجدة الشعبين^(٤) .

(١) المرجع السابق ونفس الصفحة

(٢) عبد الناصر والعرب ص ٣١٥

(٣) مذكرات عبد اللطيف البغدادي ص ٢٧٢

(٤) أحمد حمروش . عبد الناصر والعرب ص ٣٠٩ و ٣١١

٤ — ووصل الأمر بصلاح سالم إلى إعلان عداء سافر ضد إسماعيل الأزهرى، فألَّـب بعض أعوانه ضده، ووقف الأزهرى يدافع عن نفسه، وفى هذا الدفاع صرَّح فى إحدى خطبة قائلاً: إن لحم أكتافى من مصر، وقد دخلتها لابساً حذاء من الكاوتش وهناك وجدت كل عون وتكريم، ولكن هل يرضيكم أن يحكمنا صلاح سالم والعسكريون فى مصر ؟؟ وتجب الجماهير فى قوة: لا . لا (١).

ومما يوضح موقف السودانين من حكم العسكريين أن الشعب السودانى تصدى سنة ١٩٦٤ للحكم العسكرى الذى كان يقوده إبراهيم عبود، وأرغمه على الانهيار، وكانت صرخة الشعب ضد الحكم العسكرى تدوى: إلى الثكنات يا حشرات (٢).

٥ — من الأخطاء العنيفة التى وقع فيها صلاح سالم والعسكريون بمصر أنهم اتصلوا بالحزب الشيوعى السودانى لكسب جانبه ضد الأزهرى، وبالتالي اتصلوا بزعماء الشيوعية فى مصر ليكونوا وسيلة للتقريب بين العسكريين بمصر والشيوعيين فى السودان، والسودان يكره الشيوعية ويتمسك بالدين، فأنت هذه المحاولة بعكس المطلوب.

٦ — استعان صلاح سالم ضد الأزهرى بمحمد نور الدين، ولكن هذا لم يكن له وزن يذكر فى السودان آنذاك.

٧ — كان محمد نجيب قد تم إبعاده فى ١٩٥٤ وجاء الدور على صلاح سالم، وقد وجد جمال عبد الناصر فى فشل صلاح فرصة ليتخلص منه، ومن هنا تركه يغرق فى أخطائه دون إرشاد أو عون، فلتضع السودان لبيبى جمال عبد الناصر حاكماً أوحد فى مصر.

(١) المرجع السابق ص ٣١٦

(٢) المرجع السابق ص ٣٤٩

الصحافة المصرية وأحداث السودان :

كانت الأحداث بالسودان تتجه إلى الانفصال ، ولكن هذا كان بعيداً عن الإنسان المصرى الذى حجب عنه هذه الأحداث لأن الصحافة المصرية كانت تعيش فى ظلام ، وقد زار الأستاذ أحمد قاسم جودة الصحفى بجريدة الجمهورية السودان آنذاك ، وعندها عاد قدم لمجلس الثورة تقريراً قال فيه إن سمعة مصر هناك أصبحت سيئة للغاية بسبب الرشوة التى تعطى وتبذل لكل إنسان حتى فى الشارع ، وإن المسئولين بالسودان يهاجمون مصر بأقسى الكلمات فى الحفلات الرسمية ، وحتى فى البرلمان السودانى نفسه ، وإن كل المسئولين فى السودان قد ساءت سمعتهم مهاجمة مضر لإسماعيل الأزهرى فى الصحافة والإذاعة المصرية ، وقد أضر ذلك بالعلاقة بين البلدين ، وإن الاعتماد على نور الدين هو اعتماد على شخص ضعيف لا شخصية له ، وإن الدعوة التى يقوم بها نور الدين للاتحاد مع مصر تسمى إلى مصر لأنها ترتبط بما قبض من رشاوى . وقال قاسم أمين جودة إن الصورة التى تعطىها الصحافة المصرية عن الموقف فى السودان تختلف تمام الاختلاف عن الحقيقة هناك ، وإن هذا ليس من الحكمة فى شيء ولا بد أن تعطى صحافتنا الصورة الحقيقية للموقف ، وذلك لإشراك الشعب فى تلك المشاكل والتعرف عليها حتى لا يفاجأ مستقبلاً بالحقيقة وتكون صدمة له (١) .

إعلان الانفصال :

أحب الجماهير العام ررجاله دوراً هائلاً فى إثارة الناس ضد الحكم العسكرى بمصر ، فكان هذا بالإضافة إلى الأسباب التى ذكرناها من قبل حافزاً لأن يعلن البرلمان السودانى بالإجماع عدم الحاجة للسير فى الإجراءات التى نصت عليها الاتفاقية لأن الجميع متفقون على استقلال البلاد ، وتم ذلك فى يناير سنة ١٩٥٥ وقبلت مصر هذا الاتجاه ، فلم يكن لها إلا أن تقبل ، وأما بريطانيا فقد سعدت به لأنه كان أعز أمانيتها .

إنهاء الملكية وإعلان الجمهورية

إن الصراع بين قوتين كبيرتين ينتهى بضعف القوتين جميعاً ، ذلك هو قانون الحياة غالباً ، وتسبق لإحدى القوتين فى الانهيار ، ويحس المنتصر بشيء من النشوة ، ولكنه فى الواقع يكون قد تأثر من طول الصراع فلا يلبث أن يهوى من عليائه .

وقد دار صراع طويل بين الملكين فؤاد وفاروق وبين الأمة متمثلة فى حزب الأغلبية ، ووقف الجيش فى جانب الملك يقهر حزب الأغلبية ، وطال الصراع وامتد ، وحقق الملك ألواناً من الانتصارات على الأمة ، ولكن هذه الانتصارات كانت لهيباً فى النفوس ، وسرى اللهب من طبقة إلى طبقة ، وهب الجيش مندفعاً بإحساس الأمة فأسقط الملك .

ولللأسف لم يُعبدُ سقوطُ الملك السلطةَ إلى الأمة ، فقد كانت الأمة قد أنهكتها الصراع ، ولذلك عندما سلب عبد الناصر السلطة لنفسه وأهمل حق الشعب لم يثر الشعب ضده ، لأن أظفار الشعب كانت قد كُتت من طول الصراع ضد الملك ، ولأن الجيش للأسف عاد ينصر عبد الناصر على الأمة كما كان ينصر الملك عليها من قبل .

وستتوطد الملك حدث يحمل فؤاد وفاروق مسئوليته ، وهو يضع نهاية لأمره امتد حكمها من سنة ١٨٠٥ إلى سنة ١٩٥٣ وخلال هذه المدة عرفت مصر ألواناً من النجاح قام بها بعض القادة من هذه الأسرة ، كما عرفت ألواناً من الانحرافات والخطايا ، وكراهيتنا لتوفيق وفؤاد وفاروق يجب ألا تنسينا الأجداد التى حققها محمد على وإبراهيم وإسماعيل ، فلقد كان هؤلاء أسبق من عصرهم بمراحل ، وخطوا بمصر إلى الأمام خطوات واسعة فى مجال المعرفة والعمران والتقدم، فقهروا أعمالهم ظلام العهد العثمانى، وحققوا لمصر سبقاً هائلاً بالنسبة للدول العربية الأخرى التى ظلت ترزح تحت الحكم العثمانى أكثر من قرن بعد استقلال محمد على بمصر .

إننا دائماً باسم الدين والوطن يطيب لنا أن نكرر الثناء والعرفان بالأيدى
لمن خدموا البلاد ورفعوا شأن الإنسان المصرى ، كما نلتزم أن نهاجم من خان
الأمانة وعبث بحقوق الناس .

وقد قامت الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وطردت الملك فى السادس
والعشرين من نفس الشهر، وظلت البلاد تحكم باسم الملك الطفل أحمد بن فاروق
حتى يوم ١٨ يونيو سنة ١٩٥٣ حيث أصدر مجلس قيادة الثورة قراراً بإلغاء
النظام الملكى وإعلان النظام الجمهورى بمصر ، وذلك ببيان طويل وصفه
الدكتور وحيد رافت (١) بأنه ركيز الأسلوب حافل بالقسوة على أسرة
محمد على ، إذ وصف تاريخها بأنه سلسلة من الخيانات ، كما تحدث عن
العبودية وعدم احترام الدستور وختم هذا البيان الذى وقعه محمد نجيب
وأعضاء مجلس القيادة بما يلى :

أولاً : نعلن اليوم باسم الشعب إلغاء النظام الملكى ، وحكم أسرة
محمد على ، مع إلغاء الألقاب من أفراد هذه الأسرة .

ثانياً : إعلان الجمهورية وتولى اللواء محمد نجيب قائد الثورة رئاسة
الجمهورية مع احتفاظه بسلطاته الحالية فى ظل الدستور المؤقت الصادر فى ١٠
فبراير سنة ١٩٥٣ .

ثالثاً : يستمر هذا النظام طوال فترة الانتقال ، ويكون للشعب الكلمة
الأخيرة فى تحديد نوع الجمهورية واختيار شخص الرئيس عند إقرار
الدستور الجديد، وارتبط بإعلان الجمهورية قسم مبايعة تلاه عبد الناصر ورده
معه أعضاء مجلس القيادة ، وقد نشرته صحف القاهرة فى ٢٤ يونيو سنة
١٩٥٣ ونص القسم هو :

اللهم إنا نشهدك وأنت السميع العليم أننا قد بايعنا اللواء أركان حرب

محمد نجيب قائد الثورة رئيساً لجمهورية مصر ، كما أننا نقسم أن نحمي الجمهورية بكل ما نملك من قوة وعزم ، وأن نحرر الوطن بأرواحنا وأموالنا وأن يكون شعارنا دائماً الاتحاد والنظام والعمل ، والله على ما نقول شهيد .

وقد برهنت الأيام على سوء نية الذين أقسموا ، وعلى أنهم حثثوا في كل فكرة في هذا العهد ، فلا البيعة احتراموها ، ولا الوطن دافعوا عنه بالأرواح والأموال ، ولا الاتحاد والنظام والعمل كان شعاراً صادقا .

واعتقادی أن الملك فاروق بنزواته واعتدائه على الدستور وضع حداً لأسرته ، ولكن هل يجلب النظام الجمهوري الديمقراطية دائماً ؟

الإجابة واضحة جداً هي أن النظام الملكي ليس دائماً عدواً للديمقراطية ، والنظام الجمهوري ليس دائماً صديق الديمقراطية ، ونعرف بعض الأنظمة الملكية التي تحترم الدستور تمام الاحترام كالذي نراه في المملكة المتحدة وفي السويد وغيرهما ، ونعرف كثيراً من النظم الجمهورية التي وصل الاستبداد فيها أقصاه ، وحرمت الشعب من جميع حقوقه .

وكان قرار إلغاء الملكية وإعلان الجمهورية نتيجة للدراسات سبقت تاريخ إعلانه ، فإن لجنة الدستور كانت قد شكلت لجنا فرعية كان منها « لجنة الخطوط الرئيسية » وقد قررت هذه اللجنة يوم ٢٤ مارس سنة ١٩٥٣ أن يكون نظام الحكم بمصر جمهورياً .

وارتبط بإعلان الجمهورية أحداث خطيرة حفلت بها صحف اليوم التالي (١٩/٦/١٩٥٣) ومن هذه الأحداث ما يلي :

أولاً : التخلّص من الوزراء المدنيين (صليان حافظ ، وراة فزهي ، وحسين أبو زيد ، وفؤاد جلال ، ومحمد صبري) ليخلوا الطريق لرحلت ضباط القيادة وبخاصة جمال عبد الناصر الذي أصبح نائب رئيس الوزراء

ووزيراً للداخلية ، كما عين مجلس القيادة عبد اللطيف البغدادي وزيراً للحربية ، وصالح سالم وزيراً للإرشاد ووزير دولة للشئون السودانية ، وبعد قليل عين مجلس القيادة جمال سالم وزيراً للمواصلات ، وزكريا محيي الدين وزيراً للداخلية بعد أن تفرغ عبد الناصر لمنصب نائب رئيس الوزراء ، ثم عين كمال الدين حسين وزيراً للشئون الاجتماعية فوزيراً للتربية والتعليم .

ثانياً : كانت هذه التعيينات تصدر من مجلس القيادة ، لامن رئيس الجمهورية ، وبعض الوزراء رفضوا أن يقسموا اليمين أمامه ، وكان هذا واضحاً في زحزحة محمد نجيب عن السلطة .

ثالثاً : وُضِعَ جمال عبد الناصر نائباً لرئيس الوزراء بجانب محمد نجيب الذي كان يشغل وظيفتي رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ، أتاح لجمال عبد الناصر الزحف الشامل على السلطة الحقيقية لرياسة الوزارة .

رابعاً : كان أول قرار أصدره رئيس الجمهورية هو تعيين عبد الحكيم عامر قائداً عاماً للقوات المسلحة وترقيته من رتبة صاغ إلى رتبة لواء ، وهو قرار يعترف محمد نجيب بأنه عزله عن الجيش وأبعده عن مصدر السلطة الحقيقي بالبلاد آنذاك ، وهو قرار ضَمَّنَ السلطة لجمال عبد الناصر بحكم صلته الوثيقة آنذاك بعبد الحكيم عامر .

خامساً : في صحيفة الأهرام بنفس التاريخ خبر يوضح مركز السلطة الحقيقي ، يقول الخبر : « على أثر إعلان الجمهورية توجه الرئيس محمد نجيب وأعضاء مجلس القيادة جميعاً إلى منزل البكباشي جمال عبد الناصر للتهنئة والتبريك » .

ويصف محمد نجيب وقع هذه الأحداث عليه وعلى الأمة فيقول :

— عارضتُ ترقية عبد الحكيم عامر وتعيينه قائداً عاماً للقوات المسلحة ؛

لأنه لم يكن مهيباً لذلك ، ولكنني خدعت وقيلت ، وأعترف أن هذا كان خطئي الكبير :

— عندما زحف الضباط للمناصب الوزارية والمدنية لم يرحب الرأي العام بذلك إذ تبددت أحلامهم في مشاركة شعبية ديمقراطية ، وكانت ردود فعل المجلس حيال هذا الجول العام اتخاذ خطوات أكثر شدة وعنفاً فتقرر اعتقال عدد من الزعماء السياسيين ، وظهر اتجاه تكوين محاكم الثورة بجوار محاكم القتل .

— كان عبد الناصر قد خطب أمامي في بني مر ووصفني بأنني حررت الفلاحين من الفزع والخوف ، ولكن تبين لي أن الفزع والخوف انتقل إلى سائر المصريين (١) .

أسباب ونتائج تعيين عبد الحكيم عامر :

يقول عبد اللطيف البغدادي : إن جمال عبد الناصر رشح عبد الحكيم عامر لتولي منصب قيادة الجيش لتصبح له السيطرة على الجيش بسبب صداقته لعامر ، وكنت أرى أن يترك الجيش لقيادة ضباط محترفين ، وأن نبعده عن السياسة فاعتقادي أنه إذا تدخل الجيش في السياسة فسد الجيش وفسدت السياسة ، ولكن عبد الناصر تمسك باقترأحه ، وقد استقال على أثر ذلك قائد سلاح الطيران اللواء حسن محمود لأنه لم يقبل أن يصبح عامر رئيساً له ، فعين بدله صدق محمود الذي حوكم فيما بعد بسبب موقفه في حرب يونيو المشنومة . وكان من نتائج تعيين عبد الحكيم أن أبعد باقي أعضاء المجلس عن وحداتهم العسكرية تدريجياً بحجة أن ترك لعامر حرية العمل على مسئوليته . . . وأصبح الجيش أداة قوة في يد عبد الناصر . ويد عبد الحكيم عامر وانعزلنا نحن نهائياً (٢) .

(١) كلمتي للتاريخ ص ٦٦ - ٦٨ بتصرف

(٢) ملكرات عبد اللطيف البغدادي ص ٧٨ .

مصادرات الأسرة المالكة :

اتصل بإلغاء النظام الملكي إجراءات مالية اتخذها مجلس قيادة الثورة ضد الملك السابق فاروق وضد أفراد أسرة محمد على ، ففي ٢٧ سبتمبر ١٩٥٣ قرر هذا المجلس مصادرة أموال فاروق ، وكانت هذه الأموال قد وضعت تحت الحراسة ، وتشمل أموال الملك ٢٤ قصرًا وآلاف الأفدنة ، وملايين الجنيهات وقدرًا هائلًا من التحف والمجوهرات ، وفي ٨ نوفمبر صدر قرار آخر بمصادرة أموال وممتلكات أسرة محمد على ، وكذلك الأموال والممتلكات التي آلت عنهم إلى غيرهم بطريق الوراثة أو المصاهرة أو القرابة مع ترتيب معاش لمن يستحقون منهم .

ويعلق الدكتور وحيد رأفت على هذا القرار بإبراز نقاط خطيرة هي (١).

١- إن أكثر أموال أسرة محمد على ومجوهراتها لم يذهب إلى الشعب كما ادعى قرار المصادرة بل اتخذ سبيله إلى جيوب بعض ذوى النفوذ والسلطة من المتجرين بثورة يوليو .

٢- معظم أفراد أسرة محمد على لم ينل معاشاً يحفظ عليه كرامته وأدميته .

ويروى صلاح الشاهد (٢) أن أحد أمراء الأسرة المالكة ذهب إليه يطلب إذنا لعمل أى عمل ليعيش منه لأن المعاش الذى يُصرف له ضئيل جدا ، وذكر الأخير أنه يعرف عدة لغات ، وقد رفع صلاح الشاهد هذا الرجاء إلى جمال عبد الناصر ولكن هذا نفر من رجاء الأمير. وقال : « ما يشوف

(١) فصول من ثورة يوليو ص ١٥٢ - ١٥٣ .

(٢) ذكرياتى فى عهدى ص ٣٥٧ - ٣٥٨ .

له أى شغلة يا أخى ، وقد تُسبِت إلى عبد الناصر قصص مماثلة بالنسبة
لكرايم الأسر اللاتي لجأن إليه شاكيات .

٣- كثير من القصور التي صودرت احتلها الطامعون لتصبح مساكن
أو مكاتب للترف ، وكثير منها هدم ودمر لعدم الرعاية حتى أصبحت
شبه خرابات .

وقد تحدثنا من قبل عن نهب أموال الأسرة المالكة وممتلكاتها ،
وقد نشر الأستاذ جميل عارف مقالا خطيراً بمجلة أكتوبر (ديسمبر سنة
١٩٧٦) ذكر فيه حقائق عجيبة ، وعجيب أن نسكت عنها حتى الآن ،
وفيما يلي مقتطفات من هذا المقال :

- لم يُذكر أى تقدير فنى للمجوهرات .
- الجواهر دخلت البنك فى صناديق وبلون قوائم منظمة .
- عبد الناصر كان يتصرف فيها كأنها أملاكه الخاصة .
- أمر عبد الناصر باختيار بعض قطع نادرة من هذه الجواهر ليقدمها
هدية لنكروما :
- قدّم عبد الناصر عقد الملكة نازلى ، لفتحية زوجة نكروما .
- هناك شطب حدث كثيراً لقطع من الجواهر الثمينة دون ذكر السبب
وبلون توقيع من أحدث هذا الشطب .
- كان هناك اتجاه لعمل متحف للمجوهرات ولكن السرقات جعلت
هذا المتحف لا يبرر له .
- وسنظل نصرخ مطالبين بالتحقيق فى هذه الخيانات الى مست مال
الشعب وسمعة البلاد .

هواوت سنه ١٩٥٤ و نراية محمد نجيب

(م ٢٢ - التاريخ ج - ٩)

أحداث سنة ١٩٥٤ تُعتبر أخطر أحداث في تاريخ مصر الداخلي ، فقد حدث بها صراع خطير بين الديمقراطية والديكتاتورية ، وللأسف الشديد انتصرت الديكتاتورية في الصراع ، وقدمت الديمقراطية ضحايا غالية تتمثل في الدماء التي أريقَت ، والحريات التي كُبلت ، والعناء الذي تحمله المدافعون عنها ، وخُفَّتْ بعد ذلك صوت الديمقراطية فلم يظهر إلا بعد هزيمة يونيو ، ولكنه كان ضعيفاً فسرعان ما احتوته الديكتاتورية ببيان مارس ، أو بوظائف باهرة لبعض الذين قادوا تلك الحركة سنة ١٩٦٨ ، ولنعد للصراع الذي حدث سنة ١٩٥٤ بالدراسة والإيضاح :

أحداث فبراير ومارس ١٩٥٤

إن أحداث فبراير ومارس كانت امتداداً طبيعياً للأحداث التي سبقت هذين الشهرين ، كانت خطوة من خطوات عبد الناصر للاستئثار بالسلطة ، ولكن هذه الخطوة كانت واسعة ، فأثارت المعارضة ، بيد أن تخطيط عبد الناصر كان أقوى من المعارضة فانتصر وحصل على السلطة التي أرادها في نهاية المطاف ، ولنعد للقصة من أولها بكل الدقة والعمق :

ذكرنا من قبل أنه بعد أن ثبتت أقدام الثورة في الأسبوع الأول منها بتأييد الشعب وزعمائه ، وبعدم تدخل القوات البريطانية ، وبخروج الملك ، بدأ عبد الناصر يظل يعمل في الخفاء تارة وفي العلانية أخرى ليزيح كل القوى من أمامه ليخلص له الأمر ، فبعد أسبوع واحد من الثورة ، وبالتحديد يوم ٣١ يوليو بدأ الحديث عن تطهير الأحزاب ثم تنظيم الأحزاب ثم حل الأحزاب ، وبدأ كذلك القبض على الزعماء وفتح المعتقلات ، وتبع ذلك إقامة محاكم التتكيل مثل محاكم الغدر والثورة والشعب : وصدر القانون المسمى بالإصلاح الزراعي ، الذي رأيناه وسيلة للتتكيل ببعض الناس ، كما صدر قانون بإلغاء الدستور وفرض الرقابة على الصحف والنشر ،

وطارت الشائعات عن السرقات التي ارتبطت بجواهر القصور وتحفها ، وعن المصاريف السرية التي توزع على الأصدقاء والأنصار ، وتفسد ذمم الضباط ونظامهم ، وعن ذلولة المخابرات التي يتم إنشاؤها وتعزيزها ويشرف عليها بعض ضباط المخابرات الأمريكية وكذلك بعض الضباط الألمان الذين كانوا من الجستابو (١) .

وكان الشعب يغلى من العدوان على ممتلكاته وآماله وأمواله ، وكان ينتظر الفرصة ضد الذين سرقوا حقوقه وجلسوا منه في مكان الرياسة دون إرادته ، ووضح للجميع أن الضباط ينوون البقاء في الحكم وبخاصة لأنهم أعلنوا في يناير سنة ١٩٥٣ بدء فترة انتقال مدتها ثلاث سنوات ، وثقلت هذه السنوات على الناس ، فقد كان كل يوم فيها طويلاً وحافلاً بالمرارة ، وكانوا يتطلعون للفرصة ليثوروا على هذا الباطل وليستعيد الشعب حقوقه .

ذلك كان موقف الانقلاب من الجاهل وموقف الجاهل من الانقلاب .

ولعد إلى صسورة أخرى لنوضح موقف ضباط الانقلاب بعضهم من بعض :

لقد رأينا سابقاً تعيين محمد نجيب رئيساً للجمهورية مع بقائه رئيساً للوزراء وتعيين عبد الناصر نائباً لرئيس الوزراء وتعيين عبد الحكيم عامر قائداً عاماً للقوات المسلحة وترقيته من رتبة صاغ إلى رتبة لواء وتعيين ضباط الانقلاب وزراء لأكثر الوزارات ، وكان تعيين عبد الناصر في منصب نائب رئيس الوزراء بمثابة سيطرة على الجهاز التنفيذي بعد شغل محمد نجيب بمظاهر رئاسة الجمهورية ، وكان تعيين عبد الحكيم عامر قائداً عاماً للقوات

المسلحة بمثابة سيطرة عبد الناصر على الجيش عن طريق صديقه عبد الحكيم عامر ، وقد بالغ عبد الناصر في إحكام قبضته على الجيش بوسيلتين :

أولاً : إبعاد أعضاء مجلس قيادة الثورة عن وحداتهم العسكرية ، وإبعاد زملائهم عنهم بواسطة تهديدات تخيفهم أو بواسطة وعود تقدم لهم وقد ذكرنا من قبل كلمات عبد اللطيف البغدادي التي ختمها بقوله : « وانزلنا نحن نهائياً عن الجيش » .

ثانياً : كون جمال عبد الناصر له مجموعة من الأنصار من ضباط الصف الثاني وأعطاهم نفوذاً واسعاً ، وأخذ يحكم الجيش بهم ، ومن هؤلاء طهيمه والطحاوي ووجيه أباطة ، وأحمد أنور وكثيرون من أندادهم .

وبسيطرة عبد الناصر على السلطة التنفيذية وعلى الجيش ، وبإلقاء القبض على الزعماء والقضاة على الدستور . . . لم يبق أمام عبد الناصر إلا محمد نجيب ، وما يدعو للدهشة أن يضيق عبد الناصر مع كل هذا النفوذ برجل كان يرضى بالقليل ، رجل كان يقنع بحجرة في القصر الجمهوري هي « حجرة رئيس الجمهورية » ولكن عبد الناصر كان لا يريد أن يترك أحداً في القمة ولو كانت هذه القمة مظهرية فقط ، ومن هنا اندفع عبد الناصر بأعماله وإيجاعاته ليقضي على محمد نجيب ، ماذا فعل ؟ نقبس كلمات قليلة من عبد اللطيف البغدادي توضح هذا الموقف : يقول عبد اللطيف البغدادي :

— في صيف سنة ١٩٥٣ كانت مظاهر الخلاف بين محمد نجيب وجمال عبد الناصر قد أخذت تظهر على السطح ، وذلك على أثر إبراز بعض الصحف لجمال عبد الناصر على أنه الرجل الأقوى ، وكان جمال نفسه يحاول إبراز هذه الصورة لتأكيد هذا المعنى (١) :

— كان جمال يقوم بدعوة مجلس الثورة للانعقاد ولا يدعو محمد نجيب ، وتؤخذ بعض القرارات وتنشر في الصحف وكان في ذلك كثير من التحدي (١) .

— اتجه جمال عبد الناصر إلى صلاح سالم ليُعيّنه في القضاء على نجيب ، واستجاب صلاح ، فأمر بالآ تداع خطب محمد نجيب ولا اتصالاته إلا بالقدر الذي يوافق هو عليه باعتباره وزيراً للإرشاد ومسيطرّاً على وسائل الإعلام .

— أعلن جمال حملته على محمد نجيب بعد أن كان يُسرّها ، وكان إعلانها بصيغة غوغائية ، يقصها البغدادى بقوله : في مؤتمر شعبي بالاسكندرية حضره محمد نجيب وعبد الناصر وآخرون ألقى عبد الناصر خطاباً أشار فيه إلى الديمقراطية (١!) وحمل على الطغيان والاستبداد ، كما طلب من المستمعين ألا يسمّحوا لأى منافق أو مخادع أن يخدعهم أو يغشهم ، ويقول البغدادى : ولم يكن جمال يقصد بهذه الكلمات إلا محمد نجيب نفسه .

— أطلق عبد الناصر أعوانه لتكرار هذا المعنى ، فقد تكلم في هذا المؤتمر صلاح سالم والشيخ الباقورى (١!) فتناولا في كلمتهما هذا المعنى وهذا الاتجاه ، وفهم نجيب أنه المقصود بالذات من هذه الكلمات (٢) : وكان الباقورى مستعداً دائماً للسير مع الأقوى لتظل له الوزارة .

— أصدر عبد الناصر أوامر للصحافة بعدم نشر أحاديث وصور لمحمد نجيب إلا في أضيق الحدود .

— اقترح جمال أن يكون اجتماع المجلس في يوم غير يوم الأحد الذى يحضره نجيب ويتخذ الأعضاء ما يشاءون من قرارات حتى يكون اجتماع الأحد صورياً ، وبذلك يمكنه شل وعزل محمد نجيب ، وتحمس لهذا

(١) المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٢) المرجع السابق ص ٨٦

الرأى جمال سالم الذى بالغ فاقتراح إعطاء عبد الناصر السلطة فى اتخاذ القرارات
الضرورية دون دعوة المجلس^(١) .

— أمر عبد الناصر أن يستبعد نجيب بعض أعوانه المخلصين له ، ورفض
نجيب لأن هؤلاء لم يذنبوا قط ، فقال له جمال : إنك تأبى أن تمنحنى معنا
لنحقيق أهداف الثورة ، وأن لكل منا طريقة ، وعلى القدر أن يحكم^(٢) ،
ومع هذا فقد أصدر عبد الحكيم عامر أمراً لأحد هؤلاء الأعوان (محمد
أحمد رياض) بالسفر لأمريكا بحجة أنه مريض ، ولما قال هذا إنه ليس
مريضاً هُدد بالاعتقال فاضطر للسفر^(٣) .

— وأخيراً أعلن عبد الناصر أنه عاصم ولا يمكن أن يتعاون مع نجيب ،
واتصل عبد الناصر بياور محمد نجيب (اسماعيل فريد) وسب ولعن محمد
نجيب وطلب من الياور إبلاغ نجيب بهذه الشتائم ، ووصلت المسألة قمتها
عندما أعلن جمال سالم بأنه سيقتل نجيب ولهم أن يحاكموه على ذلك^(٤) .

تلك كانت أخلاق الذين حكمونا ، وهى مقتبسة من مذكرات أحدهم ،
ولولا أن البغدادى نفسه هو الذى دونها ما كان الإنسان يصدق أن يصل
الأمر هؤلاء إلى هذا الدرك الأسفل من الخلق ، ربما تسألنى : كيف رضى
أعضاء مجلس الثورة بهذه التصرفات ؟ وأجيب أنهم ارتضوا ذلك مع علم
بعضهم بانحرافه وإثارة لمتاع الدنيا من جانب ، ومن جانب آخر كان عبد الناصر
يحكم الجيش بواسطة ضباط الصف الثانى كما ذكرنا ، مما جعل أعضاء مجلس
القيادة لا نفوذ لهم ولا صلة لهم بوحداتهم فأثروا الخضوع .

(١) المرجع السابق ص ٧٨

(٢) المرجع السابق ص ٩٠

(٣) كلمتى لتاريخ ص ١١٦

(٤) مذكرات البغدادى ص ٩٢ - ٩٤

استقالة محمد نجيب ونتاجها :

وإزاء هذه التصرفات البعيدة عن الخلق والكرامة قدم محمد نجيب في ٢٢ فبراير سنة ١٩٥٤ استقالته من الوظائف التي كان يشغلها وكان الشعب - كما قلنا - يغلي آنذاك ضد قادة الانقلاب الذين استبدوا بالسلطة في غيبة الدستور وفي ظل المعتقلات والقهر ، وبخاصة أن جماعة الإخوان المسلمين كان قد صدر قرار بحلها في ١٢ يناير سنة ١٩٥٤ فاجتمعت بذلك جموع الشعب ضد قادة الانقلاب الذين قد أصبحوا بعيدين كل البعد عن الجماهير .

قبول الاستقالة والمظاهرات عقب ذلك :

في يوم ٢٥ فبراير صدر قرار مجلس قيادة الثورة بقبول استقالة نجيب على أن يقوم جمال عبد الناصر بكافة سلطاته حتى تحقق الثورة أهدافها بحل المستعمر . وبعد صدور هذا البيان اندلعت المظاهرات لتأييد محمد نجيب وللهتاف ضد خصومه ، وقد ظلت هذه المظاهرات حوالى شهر من قبول استقالة نجيب حتى المؤامرة الكبرى التي دمرت الديمقراطية في أواخر مارس ، وكانت هذه المظاهرات تشتت أو تهدأ حسب تحركات قادة الانقلاب على ما سنرى ، وقد اشتركت في هذه المظاهرات كل طوائف الأمة ، وكان لكثير من فرق الجيش نصيب واضح في الاتجاه للديمقراطية ، وفي لزوم أن يعود الجيش إلى ثكناته ، ومن أبرز الأصوات التي ظهرت آنذاك صوت الفاتمقام أحمد شوقي وهو من الضباط الأحرار ، وأكبرهم رتبة بعد محمد نجيب ، فقد كتب يقول : هل كان من أهداف الثورة أن تحكم البلاد ؟ هل كان من أهداف الثورة أن تكسّم الأفواه وتقيّد الحريات ؟ هل كان من أهداف الثورة أن يُزجّ بالمواطنين الجاني منهم والبريء في السجون وأن تملأ بهم المعتقلات ؟ هل كان من أهداف الثورة أن تُقمّم الجيش في السياسة وفي كل مرفق من مرفق البلاد ؟ وأليس من أبناء مصر من يستطيع القيام بالأعمال المعهود بها الآن لبعض ضباط الجيش حتى يتفرغ هؤلاء

الضباط إلى النهوض بجيشنا المصرى لكى يتمكن من القيام برسائلته . . . إذن
عودوا إلى صفوفكم فى الجيش .

وانطلقت الجامعات تنادى بالديمقراطية وبعودة الجيش إلى ثكناته ، وفى
القاعة الكبرى بجامعة القاهرة تجمع عشرات الآلاف من الطلاب وأكثر
أعضاء هيئات التدريس أوكلهم ووقف خطباء الجامعة يقررون أن نجاح
البلاد وتحقيق أهدافها لا يمكن أن يتم عن طريق قادة الانقلاب ، وأن
للجيش مهام ينبغى أن يتفرغ لها ، وأن تدار شئون الدولة بالنظام
الديمقراطى .

وكاتب هذه السطور كان ضمن الخطباء آنذاك ، فقد ألقى خطاباً طويلاً
وضحت فيه أن دخول الجيش فى السياسة يبعد الحياة عن الديمقراطية تمام
البعد فترية الجيش تقضى بالطاعة الشاملة ، والديمقراطية فيها اختلاف الآراء
ونحنى الاعتراض ، وذكرت أن الخطر يهدد جيشنا من اندماجه فى السياسة
وسيتترك الضباط أمكتهم فى صفوف الدفاع عن البلاد ليشغلوا أموراً لا يجيدونها
بعد أن تركوا ما يجيدون ، وإن حاجتنا إلى الجندى الباسل أهم بكثير من
حاجتنا إلى أن يجلس هذا الجندى فى مقاعد الوزراء ، وأوضح أن الجيش
فى التاريخ يفسد إذا اشتغل بالسياسة حتى فى ساعات انتصاره ، فقد قتل
قطر بعد أن قاد أشرف معركة فى تاريخ مصر ، واعتدى أعوان على بك
الكبير عليه وهو فى قمة انتصاراته للاستقلال بمصر ضد العثمانيين ، ولهذا
يتحتم علينا أن نبعد الجيش عن السياسة ، فمن الخطأ الواضح أن تنجح
السياسة بزعامة الجيش أو أن ينجح الجيش إن باشر السياسة .

وكانت صيحة الجامعات عالية بأن يُصنّف ذلك الكائن الهزيل الذى
يسمى ثورة وهو ليس الا مجموعة من الحماقات والأنانيات .

وانخذت الهيئات القضائية ونقابة الصحفيين ونقابة المعلمين قرارات
مماثلة ، وهتف الجميع بضرورة الإفراج عن المعتقلين والعودة بالبلاد بسرعة
إلى الحياة المدنية السليمة .

مؤامرة ناصرية للتصفية الجسدية :

في أثناء هذه الأزمة تقدم جمال عبد الناصر إلى مجلس قيادة الثورة
يقترح انسحاب مجلس الثورة من الحياة العامة على أن يعمل كل فرد من
أعضائه على تكوين فريق من عشرة أفراد ساهمته العمل على التخلص من
العناصر الرجعية والأفراد الذين يناهضون الثورة والذين يقفون في طريقها
كزعماء الأحزاب القديمة ، وكالأخوان المسلمين والشيوعيين . ولكن
اقتراحه لم يقبل (١) .

وفيما يلي خطوات التراجع ثم خطوات السطو والانقضاض :

كمال رفعت وتراجع كامل يوم ٢٦ فبراير لم يعلن :

يعتبر كمال رفعت من أخطر الأشخاص الذين لعبوا دوراً خطيراً في
أزمة فبراير وكان آنذاك في رتبة يوزباشى (نقيب) وقد قبض على محمد
نجيب رئيس الجمهورية بدون إذن من أعضاء مجلس القيادة . : كما سترى
دوره مفصلاً من روايته فيما بعد ، ولكننا هنا نسرع بالقول بأن كمال
رفعت نال جزاءه وفاقاً من قادة الثورة ومن الشعب ، فقادة الثورة أغدقوا
عليه فأصبح وزيراً ونائباً لرئيس الوزراء وعضو مجلس رئاسة وسفير مصر
في بريطانيا ، وأما الشعب فقد ثار منه ولقنه درساً قاسياً هو أنه عندما رشح
نفسه لمجلس الشعب في دائرة الدقى انصرف الناس عنه جميعاً فلم ينل إلا أصواتاً
قليلة ، وكان من القلائل الذين فقدوا تأمينهم لعدم حصولهم على عشر
الأصوات ، وكان ذلك هو وسيلة الشعب للقصاص ممن خانوه .

ولنعد إليه لنرى ما قاله عن أحداث فبراير سنة ١٩٥٤ ، وفيما يلي
كلماته :

(١) مذكرات عبد الحليم البندادى ص ١١٩

« كنت عند بدء مشكلة فبراير أعمل في منطقة القناة ، وكنت أحضر إلى القاهرة من حين إلى آخر لأكون على اتصال بالأحداث ، وكنت دائماً ألتقي بعبد الناصر عندما أحضر وكانت إحدى زياراتي للقاهرة في أواخر فبراير سنة ١٩٥٤ فاتصلت بعبد الناصر الذي طلب منى البقاء في القاهرة بعض الوقت ، وفي يوم ٢٦ فبراير اتصل بي زكريا محي الدين بالمنزل ، وطلب منى الحضور إليه بمبنى القيادة العامة في كوبري القبة لأمر هام ، فذهبت إليه وهناك أخبرني بأن جمال عبد الناصر موجود بسلاح الفرسان منذ فترة وطلب منى أن أسرع إليه لأتعرّف على ما يحدث هناك .

« وفي سلاح الفرسان وجدت مناقشة حامية بين عبد الناصرو بين جمع كبير من الضباط ، وكانت المناقشة تدور بعيداً عن قواعد اللياقة ، أو الضبط والربط ، وكان فيها كثير من التهجم على مجلس قيادة الثورة والضباط الأحرار ، خصوصاً من صغار الضباط ، وكان ضباط الفرسان يرددون كلمة « الديمقراطية » ومعظمهم لا يعرف معناها أو أبعادها ، وكانوا يطالبون بعودة محمد نجيب إلى رئاسة الجمهورية وعودة الضباط إلى ثكناتهم ، فعدت إلى زكريا محي الدين وبلغته ذلك ، ووجدت عنده عدداً من الضباط الأحرار من مختلف الأسلحة ، ورجعت مرة أخرى إلى سلاح الفرسان في الساعة الواحدة من صباح ٢٧ فبراير وكانت المناقشات ما زالت مستمرة ، وبعد ذلك عاد جمال عبد الناصر إلى مبنى القيادة واجتمع مع أعضاء المجلس ، واتخذ المجلس قراراً بحل مجلس قيادة الثورة ، وعودة محمد نجيب رئيساً للجمهورية ، وأن يشكل خالد محي الدين حكومة انتقالية مدة ستة أشهر ، وتجري الحكومة انتخابات لجمعية تأسيسية لتصنع دستوراً دائماً ، ويعود أعضاء مجلس قيادة الثورة إلى وحداتهم .

« وفي نفس هذا الوقت عقدت جماعتنا اجتماعاً في نفس مبنى القيادة وحضره معي صلاح نصر وسعد زايد ومجدي حسنين وحسن تهاى ووجيه أباطه وأحمد أنور وآخرون واتخذنا قرارات تعارض فيها القرارات التي

اتخذها مجلس قيادة الثورة ، كما وضعنا ترتيبات للقضاء على الخطوة التي كان يريدتها خالد محيي الدين بأن يذهب في الصباح في مظاهرة عسكرية من ضباط الفرسان إلى منزل محمد نجيب لاصطحابه إلى قصر عابدين . وشملت خطتنا لمقاومة خالد محيي الدين ومقاومة قرارات مجلس الثورة النقاط التالية :

أولاً : أن يقوم سلاح الطيران بالتحليق فوق سلاح الفرسان في أول ضوء لمنعه من الحركة .

ثانياً : أن يقوم البوليس الحربي باعتقال الضباط الذين يزعمون الحركة في سلاح الفرسان .

ثالثاً : أن نقوم بالقبض على محمد نجيب وتحديد إقامته في « ميس » سلاح المدفعية بالملاحظة ، ومنع أى اتصال به .

وقت أنا ومعى اليوزباشى داود عويس بعملية القبض على محمد نجيب ، وأخبرناه بأن كل ما اتفق عليه حول إعادته رئيساً للجمهورية ، وتشكيل وزارة برياسة خالد محيي الدين قد ألغى تماماً ، وطلبت منه اصطحابي حالاً إلى حيث أشاء ، وعرفته أن سلاح الفرسان محاصر ، وتأكد كلامي عندما بدأت طائرات سلاح الطيران ترمجر في الجو ، وقد حاول محمد نجيب أن يتردد أو يتصل بصلاح سالم ، ولكنى منعت ، وأخذناه إلى « ميس المدفعية » حيث وضعناه تحت حراسة مشددة بإحدى الغرف (١) . . .

وفي ضوء هذه التصرفات اتخذ مجلس قيادة الثورة قرارات جديدة ليس فيها حل مجلس قيادة الثورة أو عودة الضباط إلى ثكناتها ، وليس فيها وزارة يشكّلها خالد محيي الدين ، وإنما هي قرارات مطاطة لإرضاء الجماهير ولعبور هذه الأزمة ، وسنتحدث عنها فيما يلي :

(١) كلماته في شهود ثورة يوليو ص ٣٢٢ إلى ٣٢٦

قرارات ٢٧ فبراير وتراجع خفيف :

اجتمع مجلس قيادة الثورة في ٢٧ فبراير سنة ١٩٥٤ وقرر التراجع عن قراراته التي أصدرها في ٢٥ فبراير ودعوة اللواء محمد نجيب للعودة إلى رئاسة الجمهورية على أساس التحولات الآتية :

١ - تحويل جمهورية مصر إلى جمهورية برلمانية باسم الجمهورية البرلمانية المصرية .

٢ - تأليف جمعية تأسيسية تمثل كافة هيئات الشعب المختلفة تؤدي وظيفة البرلمان مؤقتاً ، وتراجع نصوص الدستور بعد أن يتم وضعها •

٣ - إجراء انتخابات بعد ذلك لإعادة الحياة النيابية في مدى أقصاه نهاية فترة الانتقال .

وقد قبل محمد نجيب أن يعود إلى رئاسة الجمهورية على هذا الأساس واستمرت المظاهرات تعلن فرحتها بالانتصار واندفعت إلى ميدان عابدين في أول مارس يحيي محمد نجيب ، وصعد له بالشرقة الأستاذ عبد القادر عودة أحد زعماء الإخوان ، وسرى فيما بعد أن محكمة الشعب حكمت على عبد القادر عودة بالإعدام ، ونفذت الحكم ، وأياً ما قيل عن أسباب هذا الحكم الجائر فالذي أراه أن وقفة عبد القادر عودة بجوار محمد نجيب في شرفة قصر عابدين آنذاك كانت هي السبب الحقيقي في هذا الحكم .

ونعود لقرارات ٢٧ فبراير لتساءل : هل كانت هذه القرارات نتيجة تراجع أمام صيحة الشعب أو كانت للتخدير ولإطفاء الثورة الشعبية ؟

إن جمال عبد الناصر نفسه يجيب عن هذا السؤال فيما يرويهِ البغدادي فيقول : نقبل جميع شروط محمد نجيب الآن حتى تفوت عليه الفرصة وبعد شهر نتخلص منه (١) وسارت الظروف في ضوء هذه المؤامرة كالآتي :

(١) مذكرات البعثات ٩٨

قرارات ٥ مارس الديمقراطية :

في ٥ مارس ١٩٥٤ اجتمع مجلس قيادة الثورة وقرر إجراءات تحمل مزيداً من الديمقراطية ، فقد قرّر أن تنتخب الجمعية التأسيسية بطريق الاقتراع المباشر ، وكانت في قرارات ٢٧ فبراير « تؤلف » كما قرر أن تلغى الأحكام العرفية قبل إجراء انتخاب الجمعية التأسيسية بشهر ، وأن تلغى الرقابة على الصحافة والنشر ابتداء من ٦ مارس فيما عدا شئون الدفاع الوطني ، وأن تعقد الجمعية التأسيسية في ٢٣ يوليو ١٩٥٤ .

قرارات ٨ مارس للعودة لما قبل الأزمة :

وفي ٨ مارس ١٩٥٤ اجتمع المؤتمر المشترك المكون من مجلس قيادة الثورة ومجلس الوزراء ، ورأى أن التعديلات التي طرأت على منصب كل من رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الوزراء يجب أن تزال ، وبذلك عاد محمد نجيب ليكون رئيساً للجمهورية ، ورئيساً لمجلس قيادة الثورة ، ورئيساً لمجلس الوزراء ، وتراجع جمال عبد الناصر إلى منصبه القديم وهو نائب رئيس الوزراء .

وقد تركت هذه الخطوات نتائج طيبة عند المطالبين بالديمقراطية فهدأت أكثر الأصوات وتراجعت القبضة ، وخدع الناس . وكان عبد الناصر يعد عدته لينقض على هذه المكاسب ، وكانت وسيلته لذلك تنحصر في خطوتين هما :

١ - الإعداد الدقيق لمقاومة الاتجاه للديمقراطية .

٢ - إعادة الإعلان عن إجراءات الديمقراطية بمزيد من التوسع لتبدأ حركات المقاومة .

وستنكلم عن كل من هاتين الخطوتين كلمة تفصيلية :

خطوات مقاومة الديمقراطية :

اتخذت خطوات المقاومة عدة وسائل لتنتصر على الاتجاه الديمقراطي ، وأهم هذه الوسائل ما يلي :

أولاً : الاعتماد على الجيش وإثارته باعتبار أن الثورة ثورته ، وأن المقاومة اتجاه رجعي يعارض الثورة والجيش ، ومن ذلك كلمات جمال عبد الناصر التي ألقاها في مؤتمر القوات المسلحة في ٩ مارس ، وقد جاء فيها : يارجال الجيش إنكم تؤمنون إيماناً قوياً بأهداف الثورة ولن تستطيع الرجعية أن تتغلب عليكم مادمتم مؤمنين بالثورة ومبادئها . . . (١)

ثانياً : ترويج إشاعات وبخاصة بين الضباط المستغلين بأن إنهاء الثورة معناه دخولهم السجن ، وقد صرح بذلك إبراهيم الطحاوي عندما بلغه أن مجلس الثورة قرر الانسحاب والعودة إلى الثكنات ، يقول إبراهيم الطحاوي : اعترضت على ذلك لأن الانسحاب معناه دخول السجن وقررنا المقاومة (٢) وشاع آنذاك أن ضباط البوليس الحربي أصبحوا يعيشون في خوف وقلق إذ أحسوا أن العودة للديمقراطية تعني الإضرار بهم ومحاسبتهم على ما ارتكبوا من مخالفات إلى جانب فقدانهم الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها (٣) .

ثالثاً : كان عبد الباصر وعبد الحكيم عامر قد تعرفوا خلال الأزمة على أعوان محمد نجيب ، وقد تم التخلص من كثيرين منهم ، بنقلهم إلى وظائف مدنية أو بالقبض عليهم ، أو بإعطائهم إجازات مفتوحة ، أو بإرسالهم خارج البلاد في مهمات مختلفة .

رابعاً : أوعز عبد الناصر إلى بعض أتباعه بإحداث انفجارات في

(١) المصري في ١٠ مارس سنة ١٩٥٤

(٢) كلماته في شهود ثورة يوليو ص ١٧

(٣) محمد نجيب : تكملة لتاريخ ص ١٢٨

أماكن مختلفة بالقاهرة ، واحد منها في محطة السكة الحديد ، واثنان بالجامعة ورابع بمحل جروبي ، واستشهد عبد الناصر بهذه الانفجارات على أنها نتيجة لسياسة الدين والميوعة في موقف الحكومة .

خامساً : أخذ صلاح سالم يهدد ويثير الذعر ليخيف الناس ، ومن ذلك خطابه بإحدى قرى المحلة الكبرى في ١٣ مارس ١٩٥٤ وقد جاء فيه : قد يظن ظان أنه لو عاد الفساد مرة أخرى وعاد الطغيان أن الجيش سيعخرج من ثكناته ليحمي هذا الطغيان ، لا ، إنه في هذا الوقت سيكون مع الشعب في صف واحد ، ولن تكون هناك محكمة ثورة ، بل ستكون ثورة أخرى من نوع جديد ، نحن نعرفها ولكن لا نتحدث عنها الآن ، ولكننا ننذر الطغيان والظغاة أن يفكروا قبل السطو على حقوق الشعب ، فلن تكون هناك ثورة بيضاء بل ستكون ثورة حمراء (١) .

سادساً : جاء الملك سعود لزيارة القاهرة ابتداء من ٢١ مارس ويبدو أن تحديد هذا الموعد كان مقصوداً لشغل محمد نجيب .

سابعاً : انتهر جمال عبد الناصر وأغوانه فرصة وجود الملك سعود وشفاعته للإخوان المسلمين فأصدروا قراراً بإعادة جماعة الإخوان المسلمين وزوال كل أثر لقرار حل الجماعة الذي كان قد صدر في يناير السابق ، وكان هذا التصرف بالنسبة للإخوان سبباً في تراجع الكثيرين منهم في معارضة الانقلاب ، فضعفت الحملة الشعبية على قادة الثورة .

ثامناً : أهد عبد الناصر مجموعة من أنصاره لتقوم بحركات محددة على إثر إعلان الخطوة الثانية التي أشرنا لها من قبل ، والتي تعلن مزيداً من الإجراءات الديمقراطية ، وسنرى بعد قليل تحركات هذه المجموعات بعد أن نرى الخطوة التي أثارت هذه التحركات .

(١) جريدة المصري في ١٤ مارس ١٩٥٤ .

قرارات ٢٥ مارس ١٩٥٤ المثيرة :

بعد أن أظأن عبد الناصر على الحطط التي أعدها لمقاومة الاتجاه الديمقراطي تقدم لمجلس قيادة الثورة في اجتماعه الذي تم في ٢٥ مارس باقتراح مثير وافق عليه المجلس ، وهو :

- ١ - يُسمح بقيام الأحزاب .
- ٢ - مجلس الثورة لا يؤلف حزباً .
- ٣ - لاحرمان من الحقوق السياسية .
- ٤ - تنتخب الجمعية التأسيسية انتخاباً حراً مباشراً ، وتكون لها سلطة السيادة وسلطة البرلمان .
- ٥ - حل مجلس قيادة الثورة يوم ٢٤ يوليو باعتبار أن الثورة قد انتهت .

٦ - تـُنتخب الجمعية التأسيسية رئيس الجمهورية بمجرد انعقادها .
ومن الواضح أن هذه القرارات كانت فيها إثارة للجيش ، ثم إن الجهود كانت - كما ذكرنا آنفاً - قد أُعدت لمقاومتها ، فبدأت حركات المقاومة عقب إعلانها على النحو التالي :

(١) تأهب إبراهيم الطحاوي للعمل ، واستقبل صاوى أحمد صاوى رئيس اتحاد نقابات عمال النقل المشترك ، واتفق معه على إعلان الإضراب العام للمواصلات ، ونُفذت الفكرة ، ودُفِع إلى صاوى المذكور عدة آلاف من الجنيهات للقيام بهذا الإضراب^(١) .

(١) دكتور عبد العظيم رمضان : الصراع السياسى والاجتماعى في مصر ص ١١١
ومذكرات البغدادي ص ١٨١

(ب) أنزل مجدى حسنين بعض عمال مديرية التحرير إلى القاهرة وهم يتفرون بسقوط نجيب وحياة الثورة (١) .

(ج) اشترك عمال مديرية التحرير مع جنود من البوليس الحربى يرتدون ملابس مدنية تحت قيادة الصاغ حسين عرفة الضابط بالمخابرات فى الهجوم على مجلس الدولة الذى كان قد أصدر قراراً بتأييد الديمقراطية والحياة النيابية وقرارات ٥ و ٢٥ مارس ، فاقترح هؤلاء مبنى مجلس الدولة الذى سميت الحراسة من حوله ليتمكن المتظاهرون من تنفيذ عدوانهم ، واعتدوا عدواناً فاحشاً على الدكتور عبد الرزاق السنهورى رئيس المجلس وعلى باقى الأعضاء . وتم إجبارهم على توقيع بيان بتأييد مجلس الثورة (٢) .

ويروى حسين عرفة بنفسه رواية هذا العدوان فى « شهود ثورة يوليو » (٣) فيقول : أعددت خطة بالتعاون مع إبراهيم الطحاوى وأحمد طعيمة . وتوجهت بعربة بوليس حربى وفى ملابس مدنية إلى مقر مجلس الدولة بالجيزة . وذكرت هناك لسكرتير رئيس المجلس أننى أخشى من حدوث مظاهرات عنالية ضد المجلس ، ولكن الدكتور السنهورى رفض مقابلتى ، وذكر أن المجلس لا يخاف أحداً فى سبيل القيام بواجبه ، وعندئذ أرسلت إلى طعيمة والطحاوى لإرسال جمهور من المتظاهرين من عمال مديرية التحرير وجنود المباحث الجنائية بملابس مدنية ، واقتحمنا المجلس ، وهجم المتظاهرون على أعضاء الجمعية العمومية وهم يهتفون بالموت للخونة - تحيا الثورة - تسقط الرجعية ، واعتدى المتظاهرون على السنهورى (٤)

(١) كلمات مجدى حسنين فى شهود ثورة يوليو ص ٣٦٤ .

(٢) محمد نجيب : كلتى لتاريخ ص ٢٢٥

(٣) ص ١٣٥ - ١٣٦

(٤) تؤكد المعلومات أن حادث ضرب السنهورى كان مديراً أسهمت فيه أجهزة عبد الناصر (انظر فصول من ثورة يوليو للدكتور وحيد رافت ص ١٨٧ بالماش) .

وأعضاء المجلس اعتداءً عنيفاً ، وتظاهرت بالتدخل لإيقاف العدوان ، وطلبت من أعضاء المجلس كتابة بيان تذييعه الإذاعة فكتبوا بياناً ضد الثورة ، فزقناه في وجوههم وأرغمناهم على كتابة بيان جديد حسبنا نشاء .

ويذكر حسين عرفة هذا أن العدوان على مجلس الدولة أخاف الآخرين فتوقف نشاط الذين كانوا يهاجمون الثورة ، وقد كان مفروضاً أن يعقد اجتماع بعد ظهر نفس اليوم في نقابة الصحفيين ، ولكن أحداً لم يحضر .

وعن العدوان على مجلس الدولة نورد رواية أخرى مقتبسة من رجل قريب الصلة بالأحداث ، يقول الأستاذ صلاح الشاهد : في خلال أزمة مارس سنة ١٩٥٤ نشرت الأخبار أن الجمعية العمومية لمجلس الدولة سوف تجتمع اليوم بدعوة من رئيس المجلس لإصدار بيان يرتبط بالحالة الحاضرة فانجبت مظاهرة مدبرة بدأت سيرها من مبنى هيئة التحرير بجاردن سيتي ، وكانت مكونة من عمال من مديرية التحرير ، وجنود من البوليس الحربي بقيادة الصاغ حسين عرفة وعدد آخر من ضباط البوليس الحربي وكلهم بملابس مدنية ، واقتحم المتظاهرون مبنى مجلس الدولة الذي كانت الحراسة قد سُحبت من حوله ، ودخل المتظاهرون قاعة الاجتماع ، وكان المجتمعون قد انتهوا من إعداد قرار بتأييد الديمقراطية والحياة النيابية ، فاعتدى المتظاهرون على الدكتور عبد الرازق السنهوري وعلى باقي الأعضاء بالضرب الشديد ، ومزقوا القرار الذي تمّ إعداده ، كما حبسوا مستشاري مجلس الدولة في قاعة الاجتماعات ، وأجبروهم على توقيع بيان ببقاء مجلس الثورة . وقد اتهم السنهوري أمام النيابة العامة جمال عبد الناصر بتدبير الحادث ، كما أنه رفض مقابلته عندما زاره بعد الاعتداء عليه ليعوده ، وعقب ذلك صدر قانون بمنع الوزراء الحزبيين من ممارسة العمل ، وكان الهدف من هذا القانون إسقاط السنهوري من رئاسة مجلس الدولة ، وظل السنهوري

بعيداً عن الأحداث بمصر إلى أن وافاه الأجل سنة ١٩٧٢ (١).

طائرة الملك سعود :

كانت نهاية محمد نجيب تقرب ، وذهب يوم ٢٨ مارس مع أعضاء مجلس القيادة إلى المطار لتوديع الملك سعود ، وصعد محمد نجيب سلم الطائرة مبالغاً في تحية الملك ، ولكن ظن بعض أعضاء مجلس القيادة أن نجيب ينوى مغادرة البلاد في معية الملك ، فجذبوه بشدة جذبة أوقعته مغمى عليه ، وادعى بعد ذلك أن الإغماء كانت نتيجة الجهد . بالله (٢).

ويذكر فتحي رضوان أن ذلك لم يكن العدوان الوحيد باليد الذي حدث لمحمد نجيب ، فقد وقع عليه عدوان آخر في الصحراء بواسطة ضباط ذكر محمد نجيب منهم أحمد أنور ، ويقول فتحي رضوان إنه عند ما سمع هذه القصة انسحب من المجلس الذي كانت تروى فيه الحادثة ، وانقبضت نفسه غاية الانقباض من ذلك (٣) .

وأد القرارات الديمقراطية :

نجحت هذه الخطوة التي فرضت الثورة بالقوة على الجماهير الثائرة ضدها ، وهيات المظاهرات المفتعلة لمجلس الثورة أن يتعقد في ٢٩ مارس ليقرر القرارات التالية :

١- بإجراء تنفيذ القرارات التي صدرت في ٥ مارس و ٢٥ مارس حتى نهاية فترة الانتقال .

(١) أفكرماني في عهدين : ص ٢٥٣ و ٢٥٤

(٢) ديكور وحيد رافت : فصول من ثورة يوليو ص ١٨٨

(٣) أسرار حكومة يوليو ص ١٩٤

٢ - تشكيل مجلس وطنى استشارى يراعى فيه تمثيل الطوائف والهيئات والمناطق المختلفة .

حادث المنشية ونهاية محمد نجيب :

قضى على محمد نجيب بالأحداث السابقة قضاء يكاد يكون تاماً ، ولم يبق له إلا ظل باهت يتمثل فى رئاسة الجمهورية بدون أية سلطات ، وقد ظل ذلك حتى حادث المنشية فى نوفمبر سنة ١٩٥٤ ، الذى سنتحدث عنه فيما بعد ، والمهم هنا أن اسم محمد نجيب أُشير إليه كواحد ممن اشتركوا فى هذا الحادث ، واتخذ ذلك وسيلة لوضع نهاية تامة لمحمد نجيب ، والقبض عليه ووضعه فى المنزل الذى كانت تملكه السيدة زينب الوكيل بالمرج تحت حراسة مشددة ومؤلفة ، وخلا الجو بذلك لعبد الناصر بعد هذا الصراع الطويل ، ومما يذكر أن قرار ٢٩ مارس الخاص بتشكيل مجلس وطنى لم ير النور بعد ذلك .

ولم يكن إدراج اسم محمد نجيب فى حادث المنشية إلا وسيلة للتخلص منه ، فحادث المنشية نفسه مشكوك فيه كما سنرى عند الحديث عنه ، وإدراج اسم محمد نجيب فكرة ساذجة لوضع نهاية لهذا الرجل ، ويروى فتحى رضوان ما يؤيد هذا الاتجاه بقوله كان عبد الناصر أكبر المتحمسين لإقالة محمد نجيب فى أكتوبر ١٩٥٤ ، وكلمات عبد الناصر فى هذا الموضوع هى : « فى فبراير كان نجيب أقوى منا ، فكان فى إقالته ضرر ، أما الآن فقد أصبحنا أقوى منه ، وعلى هذا فى تأخير إقالته نفس الضرر (١) » ويتضح من هذه الكلمات أن الإقالة مقصودة لئلاها دون ربط بالتأمر الذى ادعى فى حادث المنشية ، ولو كان هناك تأمر فعلاً ما احتاج عبد الناصر ليقول هذا القول .

(١) أسرار حكومة يوليو ص ٩٢

بعد نجاح الاتجاه الديكتاتورى :

كان لنجاح الاتجاه الديكتاتورى نتائج خطيرة على مصر والمصريين
نوردها فيما يلى :

١ - كان نجاح الديكتاتورية فى هذا الصراع بدءاً لعصر انتهت فيه
سيادة القانون ، وبدءاً لعصر حكم الغاب (١).

٢ - فى ١٢ ابريل أصدر مجلس قيادة الثورة قراراً بحرمان كل شخص
تولى الوزارة فى الفترة من عام ٣٦ إلى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ من تولى
الوظائف العامة لمدة خمس سنوات ، وأوضح جمال عبد الناصر للمجلس
بصراحة أن الغرض من هذا القانون هو التخلص من السهنورى بطريق غير
مباشر لأنه سبق أن تولى الوزارة ، وهذا دليل واضح على إخضاع القرارات
للأغراض الشخصية (٢) ، وقد أشرنا لهذا القانون آنفا .

٣ - اتفق جمال عبد الناصر وصلاح سالم على ما أسمياه القائمة السوداء
للتنكيل بمؤيدى الديمقراطية ، والقائمة البيضاء لمكافأة مؤيدى الديكتاتورية
وقد شملت القائمة السوداء ما يلى :

(أ) تطهير الصحافة ووضع قانون وشروط لمن يعملون بها ، ومحاكمة
محمود أبو الفتح ومصادرة جريدة المصرى وإيقاف صدورها

(ب) فصل بعض الطلبة نهائياً من الجامعات وحرمان البعض من دخول
الامتحان ذلك العام .

(ح) الفصل والإحالة للمعاش لعدد من أساتذة الجامعات ومدرسيها ،
لتحريضهم الطلبة وإثارتهم (وكان كاتب هذه السطور ضمن المفصولين) .

(١) كلمتى التاريخ ص ١٤٥

(٢) مذكرات عبد اللطيف البنادى ص ١٨٢

(د) طرد أفراد أسرة محمد على من البلاد .

(هـ) محاكمة السياسيين القدامى أمام محكمة الثورة وحرمان البعض من حقوقهم السياسية بقرار من مجلس القيادة .

(و) العمل على تطهير نقابة المحامين بوسائل مختلفة .

وهكذا كان هناك سوط عذاب لكل من اشترك في النداء بالديمقراطية وحق الشعب في حكم نفسه .

أما القائمة البيضاء فكانت مكافأة العمال والفلاحين وتقرير الاستفادة بهم في الجمعية التأسيسية ، وكانت كذلك العناية بالدعاية لصالح الهيئة الحاكمة .

٤ — استقال الوزراء المدنيين ، إذ اتضح لهم أن العمل مع العسكريين غير ممكن ، وهم على بهجت بدوى وعبد الحليل العمرى ووليم سليم حنا وحسن بغدادى وعباس عمار وعلى الجريثلى وعبد الرازق صدق .

٥ — اقناع محمد نجيب بالاكثفاء برياسة الجمهورية على أن يتولى جمال عبد الناصر رياسة مجلس الثورة ورياسة الوزارة ، وكان ذلك فى ١٧ ابريل . وقد وافق محمد نجيب على ذلك بسهولة ، فلم تعد له قدرة على المعارضة .

٦ — إنهاء علاقة خالد محيى الدين بمجلس الثورة وتعيينه سفيراً (على الورق) .

٧ — أثرت هذه الحركة على علاقة مصر بالسودان ، وكانت من أسباب انفصال السودان عن مصر ، لأن الحكم العسكرى لايناسب السودانين . وقد سبق أن تحدثنا عن ذلك .

صور من وزراء ذلك العهد :

ذكرنا آنفا أن الوزراء المدنيين استقالوا عقب أزمة مارس ، ويذكر

لنا فتحى رضوان بعض الصور المخجلة التى ترتبط بهؤلاء الوزراء (١) ، وأولها صورة رجل اسمه « دكتور عبد الرازق صدق » ويقول فتحى رضوان إن الدكتور عبد الرازق أسرع بعد الاستقالة فطلب مقابلة جمال عبد الناصر ، وقد روى جمال عبد الناصر لفتحى رضوان ما دار فى هذه المقابلة فقال وهو يضحك - ضحكة ساخرة - : إن الدكتور عبد الرازق صدق طلب منى ألا أقبل استقالته ، فسألته عن سبب الاستقالة ثم عن سبب العدول عنها فأجاب : طلب منى زملائى أن أستقيل لأن الدنيا ستقلب رأساً على عقب فاستجبت لهم ، ثم رأيت أن الدنيا بقيت على حالها فرأيت أن الأفضل أن أعود للوزارة .

وقصة أخرى ترتبط بالدكتور عباس عمار ، فإنه بعد تقديم استقالته ذهب إلى فتحى رضوان وطلب منه أن يساعده للحصول على مقابلة مع جمال عبد الناصر ، ولم يكن من رأى فتحى رضوان أن يتصرف عباس عمار على هذا النحو ، ولكنه استجاب له واتصل بصلاح الشاهد ليحدد موعداً للمقابلة وظل عباس عمار ينتظر الموعد إلى ما بعد الظهر ولم يتلق رداً فانسحب بأذial الحيلة .

خطب نجيب بعد عزله :

بعد أقل من ساعة واحدة من إقالة محمد نجيب واعتقاله ، ذهب جمال عبد الناصر شخصياً إلى مبنى الإذاعة القديم بشارع الشرفيين ، ومعه صلاح سالم وطلباً أن يتسلما كل الأشرطة التى تتضمن خطب محمد نجيب ، وقادة ثورة ٢٣ يوليو ، ووزراء الفترة من أول الثورة إلى عزل محمد نجيب .

وتسلم الاثنان كل الأشرطة التى طلباها وصحبها الإذاعى الأستاذ حسنى الحديدى إلى مجلس الثورة ، وعكف هذا تحت رقابة شديدة على فرز تلك

الأشرطة ، ليقضى قضاء تاماً على خطب محمد نجيب وكلماته ، وكذلك على جميع الخطب التي تحدث فيها قادة الثورة أو الوزراء بمجدون محمد نجيب أو يعترفون بأبوتهم الروحية للثورة وبقيادته لها ، وكان ضمن هذه الخطب نصوص مملته بالمشاعر الجياشة التي كانت توشك أن ترتقي إلى مرتبة الكلام المنظوم في التغزل في اللواء محمد نجيب .

وهكذا فإنه كما يحى من أرشيف الإذاعة كل إذاعات الملك السابق وكل خطب زعماء ما قبل الثورة وبخاصة الزعيم مصطفى النحاس . : : دارت دائرة المحو على ما قاله محمد نجيب وعلى ما قيل فيه (١) :

عظات :

ترتبط بهذه الأزمة عظات ينبغي أن نتذكرها. ونحن نطوى صفحاتها السوداء :

أولاً : السهوى الذي طالما أيد وجهه لخدمة الباطل كانت نتيجته أن ضرب في مجلس الدولة وفصل من هذا المجلس بقانون خاص ، وأعضاء مجلس الدولة الذي خالفوا الدستور ورفضوا إعادة البرلمان المنحل كان نصيبهم الضرب أيضاً من الغوغاء والسوقة مع رئيسهم .

ثانياً : هذا (الصاوى) اللعين الذى قُدِّر له أن يسهم في إدارة مستقبل مصر ، تواتى مرة في تلبية طلب لأحمد أنور ، ويقول أحمد أنور : إننى آنذاك (لهفته قلمين) وقد سبق أن ذكرنا ذلك .

ثالثاً : على ماهر وسليمان حافظ وأعداد من الوزراء والمستوزرين المدنيين الذى حملوا إثم التعاون مع العسكريين ضد مصالح الأمة التي هم

العسكريون بعيداً بعد أن استغلوهم ، لقد كان هؤلاء يكيّدون لزعماء الأمة ويبحثون لأنفسهم عن مكان عندما خلت الساحة من الزعماء الحقيقيين ، ولكن الكارثة شملت الجميع ، وكان نصيب هؤلاء منها كبيراً .

رابعاً : انضم الإخوان للشعب في الثورات التي قامت عقب قبول استقالة محمد نجيب وبخاصة أن الإخوان كان قد صدر قرار بحل جماعتهم قبل ذلك ، فلما صدر قرار آخر بإلغاء قرار الحل خُدِع الإخوان وانسحبوا من ميدان معارضة العسكريين ، وأصدروا قراراً بأنهم يعارضون عودة الأحزاب ويطالبون المصريين جميعاً بالسير خلفهم !!!^(١) وعادت الدائرة مرة أخرى على الإخوان ونزلت بهم كل النوائب بعد أن نصروا عبد الناصر في أزمته .

خامساً : في خلال الأزمة بين الديمقراطية والديكتاتورية كانت صحيفة الأخبار تعنى بموضوعات إثارة غير وطنية ، ومن ذلك ما نشرته يوم ٢٢ مارس عن فتاة مصرية تتحول إلى رجل ، وذلك تهرباً من العمل الوطني ، ولكن الدائرة دارت على أصحابها ، فنزل بهم كل الضيم عقاباً من السماء^(٢) .

وانتهى بذلك عهد جمال عبد الناصر المستر ، ليبدأ عهده البارز ،
فلإلى هذا العهد :

(١) محمد نجيب كلمتي التاريخ ص ١٣٨

(٢) المرجع السابق ص ١٣٣

الباب الخامس

عصر جمال عبد الناصر:
عصر المظالم والهزائم

نحن الآن أمام اللغز الذى حير الناس ردىاً من الزمن ، اللغز الذى أطلق
الألسنة والأقلام تبى له صرحاً من المديح ، وفى الوقت نفسه أطلق مختلف
الآلات والأدوات لتتقضى على الإنسان المصرى وعلى مصر ، وقد أجّلنا
من قبل مجموعة من الموضوعات بدأت فى عهد محمد نجيب بتوجيه عبد الناصر
واستمرت وتعاظمت فى عهد عبد الناصر ، وقد آن لنا أن نعرض هذه
الموضوعات ثم نواصل الحديث عن تاريخ مصر فى عهد عبد الناصر عاماً
بعد عام .

الاعتقالات

ذكرنا من قبل أن المفكرين اصططحوا على أن عهد عبد الناصر امتد
من مطلع الثورة حتى وفاته سنة ١٩٧٠ ، وكانت الاعتقالات والتعذيب
والاضطهادات والسجون سمة هذا العهد كله ، وقد شملت هذه المحن جميع
الأحزاب والهيئات والجماعات ، وعدداً كبيراً من الأفراد ، أما القلق
والخوف والفرع فكان نصيب الناس جميعاً ، وكان كل واحد يتوقع الشر
لأوهى الأسباب ، أو لسبب مختلف ، أو بدون سبب .

وإذا عدنا إلى الصحافة المصرية وإلى الوثائق وجدنا الأخبار التالية عن
الاعتقالات :

— المصرى فى ٣١ / ٧ / ١٩٥٢ : (بعد الثورة بأسبوع واحد) .
قبض على عدد من الشبان بتهمة الشيوعية .

— أغسطس سنة ١٩٥٢ : صدر الأمر باعتقال فؤاد سراج الدين .
عقب قصة (الجيب) التى ذكرناها من قبل .

— ٧ سبتمبر سنة ١٩٥٢ : تم اعتقال الآتية أسماؤهم : إبراهيم عبد
المهادى ، أحمد نجيب الهلالى ، نجيب سالم ، أحمد عبد الغفار ، إلهامى .

حسين ، رضى المراهى ، فؤاد أباطة ، محمود سليمان غنام ، عثمان محرم
حافظ عفيفى ، محمود غزالى ، صلاح الدين مرتجى ، إمام الشيمى ،
الدكتور يوسف رشاد ، النبيل عباس حلم ، اللواء أحمد طلعت ، اللواء
عمر حسن ، عبد العزيز البدرأوى ، ادجار جلاد ، عبد الحميد سراج
الدين ، يس سراج الدين ، اللواء وحيد شوقى ، على الرجال ، على
الحشخانى ، محمود الدينى ، الدكتور أحمد النقيب ، عبد الحميد الوكيل
خليل الحزار ، كمال عبد الرازق ، حافظ شبيحة ، كمال رياض ، السيد سالم ،
محمود طلعت ، يوسف حبيب ، سعد الدين السنباطى ، مصطفى صادق ،
عبد الوهاب حسنى ، على الزمر ، ممدوح رياض ، حسن يوسف ،
مصطفى فهمى (١) .

— فى مطلع سنة ١٩٥٣ : بدأ الصدام بين حركة الجيش والقوى الوطنية ،
وانجهدت أجهزة الأمن للقبض على عناصر كثيرة من هذه القوى الوطنية (٢) .

— الأهرام فى ٨ / ٦ / ١٩٥٣ : المعتقلون الآن ٢٥٥ شخصاً .

— الأهرام فى ١٠ / ٩ / ١٩٥٣ : اعتقال مروجى الإشاعات .

— الأهرام فى ٢١ / ٩ / ١٩٥٣ : تحديد إقامة مصطفى النحاس وزوجته
السيدة زينب الوكيل واعتقال إبراهيم فرج وكريم ثابت وإسماعيل المليجى ،
وكمال القاويش .

— وفى سنة ١٩٥٤ عقب أزمة مارس وعقب حادث المنشية جاء الزحف
الطاغى فى الاعتقالات حتى لم يبق بيت دون أن يعتقل واحد أو أكثر من
أفراده ، وضاعت المعتقلات بالمعتقلين ، ودفع بأعداد كبيرة من هؤلاء إلى

(١) صلاح الشاهد : ذكرياتى فى عهدى ص ٢٧١ .

(٢) أحمد حمروش : مجتمع جمال عبد الناصر ص ٢٨٠ .

الواحات والصحارى لتتسع لهم ، وقد شملت الاعتقالات أشخاصاً مختلفين .
هويتهم ، كما شملت جماعات تتعارض مبادئهم كالإخوان المسلمين والشيوعيين ،
وكان الاعتقال الناصري بالغ القسوة ، وحتى يتبين لنا الفرق بين اعتقاله
واعتقال مجدر بنا أن نتعرف على طبيعة الاعتقالات قبل الثورة :

اعتقالات قبل الثورة :

شهدت مصر اعتقالات قبل الثورة ، وفي ظروف مختلفة ، ولكن
اعتقالات ما قبل الثورة كانت تنسم بالجانب الإنساني ، ويحدثنا عنها الرئيس
أنور السادات فيقول :

— كان أهلى يأتون لزيارتي بمعتقل (ماقوصة) كل شهر ، وكنت أنا
وزملائي فى المعتقل نتمارض أحياناً ، فكانوا يرسلوننا إلى المستشفى بالمنيا ،
وفى إحدى هذه المرات التقيت بأحد زملاء الكفاح (وجيه خليل) الذى
ذكر لى أن زملاءنا قد قرروا دفع عشرة جنيهات شهرياً لأسرتى بالقاهرة^(١).

— وانتقلنا إلى معتقل الزيتون ، وكان فى هذا المعتقل عدة مزايا
لسهولة زيارتنا من جانب ، ولأن المعتقل كان (فيلا كبيرة) تتيح لنا فرصة
الحركة ، وكان لها حديقة أكبر من حديقة (ماقوصة الصغيرة) ، وقد
اشتغلنا بزراعة البرسيم وتربية الأرانب^(٢) .

— استدعيت للتحقيق مرةً فى الثانية بعد منتصف الليل فصرخت فى
المحققين قائلاً : إنكم أيقظتمونى من النوم ، وهذا أصابنى بهزة عصبية ،
فأطلب منكم إثبات ذلك فى المحضر ، وأثبتوه ، ولم يعودوا لذلك بعد
هذه المرة^(٣) .

(١) البحث عن الذات ص ٦٩

(٢) المرجع السابق ص ٧٢

(٣) المرجع السابق ص ٨٨ .

ويضع أنور السادات مقارنة بين آدمية المصري التي استمتع بها وهو معتقل قبل الثورة ، وبين المصري الذي أفقدته الثورة آدميته فيقول إن النجاح لم نحالفنا بعد الثورة لأسباب مهمة أشدها عدم وضوح الرؤية بالقدر الكافي لافي وقت مجلس الثورة ، ولا بعد أن أصبح جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية ، فقد كان بطبعه كثير الشك ، ولذلك انشغل بأمنه عن الرؤية البعيدة ، وعن أهم وأثمن ما في الوجود وهو الإنسان ، ففي غمرة شكوك عبد الناصر وانشغاله بأمنه حدثت في مصر أخطاء جسيمة ضد أخطر وأهم ما كان يجب أن نحرص عليه وهو آدمية المصري وإنسانيته (١) .

ويصف فتحى رضوان معتقلات ما قبل الثورة فيقول : كان الأكثرية من المعتقلين وأنا منهم يستضيفون أولادهم الصغار ، فيصبحون أعضاء في المعتقل بالأيام والليالي ، بل الأسابيع والشهور ، وطالما استضفت أولادى عصام وعمرو وعزة ، وكانوا يشتركون في مباريات الكرة التي كانت تجري على ملعب المعتقل وللقارىء أن يتصور بذلك مدى الحرية التي كنا نستمتع بها داخل المعتقل (٢) .

ولنعد إلى اعتقالات عبد الناصر لنضيف مزيداً من صورها ، فنذكر أن من الذين ألقى عبد الناصر القبض عليهم أفراداً رضى عنهم عبد الناصر فيما بعد ، وعينهم في منصب الوزراء .

ومن الذين ألقى عبد الناصر القبض عليهم الأستاذ عبد اللطيف المزدنلي الذي كان عضواً بمجلس النواب قبل الثورة ، وكانت جريمته أنه اشترك في تشييع جنازة الزعيم مصطفى النحاس ، وقد اعتُقل معه لنفس السبب عدداً كبير من قاموا بنفس العمل ، وقد استمر المزدنلي معتقلاً أكثر من خمس

(١) المربع السابق ص ١٢٠

(٢) أسرار حكومة يوليو ص ٩٦ .

سنوات ، ولم توجه إليه أية تهمة ، ولم يُدْعَ للتحقيق طوال مدة اعتقاله حتى مات في سجن ليان طره .

وقد سبق أن ذكرنا أن بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة اعتقلوا ، ومن هؤلاء يوسف صديق ، ومحمد نجيب ، وكمال الدين حسين ، وعبد الحكيم عامر ، وكثير من عائلات هؤلاء ، ولم ينج الأعضاء الآخرون من مجلس قيادة الثورة من الاعتقال إلا بالطاعة المطلقة أو السلبية .

وقد سمعنا جميعاً خطاب عبد الناصر الذي افتخر فيه بأنه قبض على ثلاثين ألفاً في نصف ساعة .

ووصلت شهوة عبد الناصر في الاعتقال إلى درجة خطيرة أبرزها الأستاذ حسن عشاوى بقوله إنه طلب في مطلع الثورة من عبد الناصر أن يطلق المسجونين السياسيين الذين كانوا قد اعتقلوا في الثانوية العسكرية ، وكان عددهم ٧٣ فرداً ، وقد أجابه عبد الناصر بقوله : أنت تستكثر ٧٣ سريراً في الثانوية العسكرية ؟ ليت لي فيها ٢٢ مليون سرير لهذا الشعب كله (١) : (٢٢ مليون هو تعداد الشعب آنذاك)

أما الذين لم يعتقلهم عبد الناصر فلنا عنهم هنا حديث أيضاً ، فإن الناس جميعاً دون استثناء عاشوا في رعب وفزع ، واضطراب وقلق ، وكان كل واحد يرتجف إذا دق أحد بابَه خوفاً من زوار الليل الذين كانوا كالقنبر المحموم ينقضون على البيوت فيسلبون الرجال ويلقون بهم في المج هول . ويرتبط باعتقالات عبد الناصر شيء رهيب هو التعذيب آن لنا أن نتكلم عنه كلمة .

(١) الإخوان والثورة ص ٩١

التعذيب

ماذا أكتب عن التعذيب ؟

إن ما قرأته عن التعذيب شيء يثير الشجون ، ويجعل الجسم يقشعر من أهوال ما لاقى المصريون من الشيطان الأكبر ، ومن زبائنه ، لقد اختار عبد الناصر لهذا العمل الإجرامى مجموعة من المخلوقات ماتت آدميتهم ، ودرّبهم أدق تدريب أكثر مما درّب جيشه ، وكانت البراعة فى التعذيب وسيلة ترفع صاحبها درجات ودرجات ، وقد دوّنت الأقلام صورا من التعذيب بعيدة عن الإنسانية ، ولا بد يوماً من قصاص عادل من أولئك الذين استباحوا كل محرم واستحلوا ما حرم الله .

ولن أستطيع هنا أن أصوّر كل هذه المآسى المريرة ، ولكنى أورد فيما يلى قائمة قصيرة مما لدى من كتب كثيرة تحدثت عن هذا العار ، فقد يجد القارئ من وقته وجهده ما يسمح له بالاطلاع عليها ، وفيما يلى هذه القائمة :

- | | |
|-----------------------------------|----------------------------------|
| سنوات عصية | : المستشار محمد عبد السلام . |
| شهداء وقتلة فى ظل الطغيان | : عادل سليمان وعصام سليمان . |
| ملابيح الإخوان فى سجون عبد الناصر | : جابر وزق . |
| أيام من حياتى | : السيدة زينب الغزالى . |
| قضية التعذيب الكبرى | : الأستاذ محمد شوكت التونى . |
| فى معتقل أبو زعبل | : الهام سيف النصر . |
| عندما يحكم الطغاة | : المستشار على جريشة . |
| فى الزنزانة | :))) |
| ويل لهؤلاء من محكمة التاريخ | : الأستاذ محمد عبد الرحيم عنبر . |

محاكمة جمال عبد الناصر : الأستاذ محمد عبد الرحيم عنبر .

القابضون على الجمر : محمد أنور رياض .

ويبدو أن زبانية عبد الناصر لم يكتفوا بالتدريب العملي للجلادين ، بل راح واحد من أعوان عبد الناصر يضع المذكرات ويؤلف الكتب ليشرح لمريديه وتلاميذه طرق التعذيب والتنكيل حتى يحققوا لسيدهم ما يتمناه من إيقاع بهذا الشعب وتدمير له ، وبين يدي كتاب صلاح نصر « الحرب النفسية » الذى تدارس فيه وسائل التعذيب فى الجماعات المختلفة^(١) ليقبض أفساسها ، وليضيف إليها من ابتكاره ما يُشعر سيدة يعقريته فى الإيذاء ، وقد نجح صلاح نصر ، وشمس بدران، وحمزة بسيوفى ، ورجالهم فى تحقيق أمل سيدهم فيهم ، وسنورد فيما يلى صوراً من التعذيب ، ثم نعطي نماذج لمن نزل بهم هذا العناء .

صور من التعذيب :

يتحدث إلهام سيف النصر^(٢) عن التعذيب الذى نزل بالشويعيين ، فيذكر أن تاريخ مصر سجّل حدثاً فريداً فى وحشيته وقسوته ، وأيضاً فى غدره ، ويشرح لنا اصطلاحاً جديداً فى دنيا التعذيب هو « التشريفة » والتشريفة كانت مجموعة من التعذيب تُنزل بالمعتقلين من حين إلى آخر ، فعندما يُنقلون من مكان إلى مكان أو عندما يُطْلَبون من الزنانات كانت تستقبلهم « التشريفة » بكل ما بها من قسوة وُبعد عن الإنسانية ، وكان ممن ذاقوا التشريفة عدة مرات مجموعة من أساطين المفكرين مثل الدكتور فؤاد مرسى الأستاذ بجامعة الإسكندرية ، ومحمد سيد أحمد المهندس ،

(١) الحرب النفسية فى عدة صفحات ، وانظر بوجه خاص ص ١٩٠ وما بعدها .

(٢) فى مقتل أبو زعبل ص ١٢ ، ٢١

ومحمود أمين العالم المثقف المعروف ، وسعد زهران أستاذ الرياضيات ، والدكتور عبد العظيم أنيس أستاذ الرياضة البحتة وكثيرون سواهم .

ومع أننا نختلف في العقيدة مع الشيوعيين فإننا لا نوافق على معاملة الإنسان بغير القانون ، أو بطبيعة الغاب ، ثم إن هؤلاء الشيوعيين الذين لا قوا العنت أسلحت لهم أزمّة الأمور فيما بعد فصار منهم الوزراء ، ورؤساء مجالس الإدارات ، وكبار المسئولين في وسائل الإعلام المختلفة ، مما يدل على أن الأمور كانت تسير بالمصادفة .

ومؤلفا « شهداء وقتلة » يبرزان فكرة مهمة هي أن هزيمة الشعب المصري تأتيه على مدار التاريخ من الداخل ، ويهيء ذلك لسقوطه أمام العدو الخارجي ، فكان الشعب المصري ينهزم بالداخل أمام الطغاة فيتيح هذا الوضع الفرصة لهزيمة مصر أمام الغزاة من الخارج (١) .

ويذكر هذان المؤلفان أن شمس بدران قال لصفوت الروبي : الواد ده (يقصد الأستاذ شمس الدين الشناوى) مصروف له ألف كروباچ ، ويقول الأستاذ الشناوى إنهم أدخلوه فعلاً وعلقوه فى « فلقه » وضربوه حتى أغمى عليه ، ولما أفاق استأنفوا الضرب ، وهكذا ليكملوا الألف كما أمرهم سيدهم ، وكانوا يطفثون السجائر فى جسده ، وأرغموه على أن يأكل ما تناثر من جلده بتأثير الضرب (٢) .

ويذكر المستشار على جريشة أن صور التعذيب التى تعرض لها وشاهدها كانت الكى بالنار ، والصعق بالكهرباء ، ونهش الكلاب المتوحشة وسط جو لقتل والتمثيل بالقتل ، وهتك أعراض كرائم السيدات (٣)

(١) شهداء وقتلة ص ٤

(٢) المرجع السابق ص ٣١

(٣) عندما يحكم الطغاة ص ١١٢

ويعطى المستشار على جريشة تفاصيل عن التعذيب في كتابه « في الزنانة »
فيقول :

هنا جحيم . . . من صنع البشر . . . !

ألوان لا تخطر على بال . . .

جثث معلقة من أرجلها . . مسلوخة من جلدها . . تماماً كاللبائح . .
تتصاعد منها صرخات ثم تخفت إلى أنات . . : ثم تخفت الأنات إلى أنفاس .
تتردد . . حتى تتوقف الأنفاس . . طبعاً السليخ يتم بطريقة مؤلمة . . هي
الضرب بالسياط . . ثلاثة أو أربعة على واحد حتى ينسلخ جلده ويتركوه
بين الحياة والموت . . !

كلاب . . متوحشة . . تعوى وتهاجم . . وتقتطع أجزاء جبهة من
الأجساد . . !

أسلاك الكهرباء . . تسرى في الأجساد وتصبها برعدة شديدة ،
وتتركها كذلك بين الحياة والموت . . . !

نزع الشعور ، واقتلاع الأظافر . . . !

ولحمزة البسيوني هواية غريبة . . . ينزع نصف الشارب من ناحية ،
ونصف الذقن من ناحية أخرى . . ليسخر من « خلقه الله » . .

الحرمات من الطعام . . ومن الشراب . . في عز الحر . .

العلاج . . . !

زنزانة لها عتبة عالية تملأ بماء بارد .. ويقذف فيها الملعوب % يومين
أو ثلاثة بلا نوم .. بلا راحة .. بلا جلوس ..

المبيت مع الكلاب ..

فعلوها مع الشيخ الأودن « فوق الثمانين » ، ومع المستشار الهضبي
« فوق السبعين » !

نساء ومنهن فتيات في عمر الزهور ١٧ أو ١٨ سنة ، وأطفال وبينهم من
هو في السابعة أو الثامنة ، وتعلق النساء من أرجلهن ويضربن بالسياط ويفعل
بالأطفال كذلك .

ملحمة حزينة من البكاء والصراخ ، من الآهات والأنثات ، يستنجدون
الله ويستغيثون به فيتناول الجلادون على ذات الله ويتوعدونه إن جاء ،
وأقل نسب عندهم هو سب الدين (١) .

وكثيراً ما يُسَطَّمُ نور السجن الحربي لتثقل جثة أحد المعتذرين لتدفن
في الجبل ثم يكتب في دفاتر السجن أنه هرب ، ويأتري متى يكتب اسمي في
سجل المهربين .

ويتحدث أنور السادات عما أترله هذا العصر المظلم بالإنسان المصري
فيقول : لاحظت أن أكبر خطأ ارتكب في حق الإنسان المصري كان هو
زرع الخوف ، فبدلاً من أن نبني الإنسان أصبح كل همة أن نخيفه ،
والخوف هو أخطر ما يهدم كيان الفرد أو الشعب ، فلقد كانت أرزاق
الناس كلها ملكاً للحاكم ، إن شاء منح ، وإن شاء منع ، وكان المنع مصحوباً
في أغلب الأحيان بمصادرة حرية الفرد واعتقاله ، ثم فصل جميع أهله من
وظائفهم مع اتخاذ إجراءات ضدهم (٢) .

وايحقق عبد الناصر أقصى درجات الخوف لدى الشعب سرّب للناس بعض
المعلومات عن صور التعذيب داخل السجون والمعتقلات ليخاف الناس ويخضعوا (٣) .

(١) في الزنزاة ص ١٥ - ١٦ ، ١٧

(٢) صحيفة الأهرام في ١٦/١٠/١٩٧٥

(٣) جابر رزق : مذابح الاغوان في سجون فاسر ص ٢٧

وكانت قسوة هؤلاء الوحوش على المرأة مثل قسوتهم على الرجل، وتقول السيدة زينب الغزالي : ضربت بالسياط عدة مرات ، وكانت السياط بقسوتها تشق في جسمي مجارى الألم والدم ، وكان الضرب يستمر حتى أسقط جثة هامدة ، وقد تغير جسمي تماماً من الضرب والكلاب والإجهاد والجوع والعطش والتمزق في جسدي ، فكان الذي يراني لا يعرفني (١) .

وكان الجلادون لا يعرفون الله ولا يؤمنون به ، فعندما سمع شمس بدران هذه السيدة تهتف : « يارب » قال لها أين هذا الرب ؟ ادعيه لينقذك من يدي ، وكان يضيف : نادى عبد الناصر يسرع لك العفو والغفران ، وتقول السيدة زينب ، إني كنت لا أرد عليه حتى لا يستمر في جاهليته . (٢)

ووصل الإعدام غايته حينما دخل صفوت الروبي على هذه السيدة المسلمة ومعه مارداً أسود ، وألقى صفوت تعليقاته إلى هذا المارداً بأن يرتكب مع هذه السيدة أبشع جريمة ، وترك صفوت السوط للمارداً الأسود وهو يقول : إذا لم تستجب لك فالسوط معك ، ولكن المارداً الأسود كان فيه بقية من حياء ، فضعف أمام انكسار المرأة ودعواتها ، وقال لها : لا تخافى يا خالة لن أفعل بك ما يريدون ولو قطعوني إرباً (٣) .

ويصف محمد أنور رياض شاباً مقبوضاً عليه نقلته سيارة من مكان إلى مكان ، وعندما وقفت السيارة دُفع الشاب إلى الأرض ، وحينذاك دفنوه فجأة داخل غابة من العصى تنهال بها أيدي آثمة على رأسه وجسده . (٤)

ويصف جمال فوزى ملاقاه من شمس بدران وصلاح نصر فيقول : علقوني من ذراعي ، ثم ربطوا قدمي ، في اتجاهين مختلفين ، ثم بدأت عملية

(١) أيام من حياتي ص ٩٠ - ٩١

(٢) المرجع السابق ص ٦١

(٣) المرجع السابق ص ٩٦ - ٩٧

(٤) القابضون على الجمر ص ٩٦

(الفسخ) بشعة رهبة قاسية ، صرت أتمزق : وأحسست آلاماً فوق طاقة البشر من صنع أناس ليسوا من البشر ، ومن صور التعذيب التي مارسوها معي تهشيم الجسد بالعصى ، والكلمات والضرب ، على أن أقسى ما عانيتهُ جسمانياً ونفسياً هو ما أسموه (الخابور أو الخازوق) فقد انتزعوا ملابسى المزقة وجاءوا بجسم صلب يخزوني به في الموضع الحساس ، وشعرت بالتمزق ثم رحت في غيوبة . (١)

وكثيرون من الناس ماتوا تحت التعذيب وكان شمس بدران يقول مهدداً المعتقلين (أنتم مش داخلين علينا بعدد ، ومش لازم تخرجوا من عندنا بعدد) والعجيب أنهم يقتلون الشهيد ، ويدفنونه في صحراء ما يسمى مدينة نصر ، ثم بذيعون أنه هرب ويُجرون محاكمة صورية لحراسه ؛ ويقبضون على أهله بتهمة أنهم اشتركوا في إخفائه .

وبمناسبة الحديث عن تعذيب الأهل يذكر المستشار على جريشة أنه شاهد طفلاً صغيراً يعذب ليعترف أبوه بما يريدون ، وشاهد بنات أحد الإخوان وزوجته يهددن في أعراضهن حتى يعترف الأب . (٢)

وقد وصلت العناية بوسائل التعذيب إلى أن ترسل طائرة خاصة لجلب الكرايبج السودانية ، ولكن هذه تأخرت فترة عن الوصول بحمولتها ، فاستعمل (الشوم) بدل الكرايبج ، فترتب على ذلك ألوان من الكسر في العظام ، وإحداث كدمات مفزعة في الجسم ، ومن هنا كثر أن نرى أذرعاً معلقة في الرقبة ، أو نرى رجالاً يزحفون على مقاعدهم . (٣)

(١) مذابح الاخوان في سجون ناصر ص ٩٣

(٢) عندما يحكم الطغاة ص ١٧

(٣) مذابح الاخوان في سجون ناصر ص ٢٣ ، وتاريخ بلا وثائق للدكتور إبراهيم عبده

وننتقل الآن لإعطاء نماذج قليلة للذين وقع عليهم هذا التعذيب :

ونبدأ في حسرة لنقرر أن صوراً من هذا التعذيب نزلت بالرجل الذي قاد الثورة ، وخرج في الثالث والعشرين من يوليو ليعلنها ، ولو فشلت الثورة - وكثيراً ما تفشل الثورات - لدفع رأسه ثمناً لهذا الموقف؛ ويصف محمد نجيب ما نزل به من تعذيب فيقول : إنه وضع في غرفة مغلقة النوافذ طيلة ٥٩ يوماً ؛ لم تدخل الشمس بها خلال هذه المدة ، ولم يصرح له بالخروج منها ، وشاركه في النوم بها ضابط وصول وشاويش ، ويقول الرجل : حتى حرية النوم وحدي فقدتها . . وكان في معتقله بالمرج يعيش في بيت تحيط به جنود الحراسة ، كما كان عدد من الحراس يعيشون فوق الأسطح ، وكانت هناك (داورية) فوق الغرفة التي ينام فيها ، وصوت أقدم الجنود لا يهدأ طول الليل ، وكانت العرببة المخصصة لنقل أولادى إلى المدرسة تصل في الصباح متأخرة بعد بدء الدراسة ، ولا تصل إلى المدرسة لإعادتهم إلا بعد انصراف المدارس بمدة طويلة ، فيعودون إلى البيت مرهقين جائعين لا يجدون وقتاً للمذاكرة . . . ووصلت الحال إلى قتها عندما هجم على جفلى محاولاً الإعتداء على (١) .

وننتهى للحديث عن عالم فاضل هو الشيخ الأودن ، وهو أستاذ لأجيال من المفكرين المسلمين ، وقد قبض عليه زبانية عبد الناصر ، وكانت سنه تتجاوز الثمانين ، وقبضوا معه على أولاده الأربعة ، وصلبوه وعذبوه ، وأشركوا معه في زنارته عشرة كلاب تسرع إلى الطعام عندما يقدم إليه فلا ينال الشيخ الفاني منه شيئاً ، ومع هذا يقول الشيخ الأودن إن هذه الكلاب كانت أكثر إنسانية من أصحابها . (٢)

وننتقل إلى نموذج ثالث من مشاهير الرجال الذين وقع عليهم التعذيب ؛

(١) كلمتى لتاريخ ص ١٥٨ - ١٥٩

(٢) مجلة المصور في ١٩٧٦/١/٢٤

ذلك هو الأستاذ مصطفى أمين ، ويصف الأستاذ أنور زغلول صور التعذيب التي وقعت للأستاذ مصطفى أمين فيقول : أخذوني إلى غرفة وجدت فيها الصحفي مصطفى أمين عارياً تماماً مثلي ، وقضييه مربوط بسلك كهربائي ، وكان يلهث من العطش ، فأراقو أمامه بعض الماء على الأرض ، فزحف وهو مكبل ليلقى الماء ، ولكن الزبانية كانوا يجذبونه كلما قرب من الماء ، وعلقوه من يديه في كلبشات ، وانهالوا عليه بالضرب ، فصرخ مصطفى أمين ليردد (يارب) فقال له صلاح نصر : (خلى ربك يحىء بنفعلك) (١) .

عبد الناصر كان يأمر بالتعذيب ويشاهده :

ونجىء إلى نقطة مهمة يتحتم أن نبرزها ، هي أن كل هذه الصور من التعذيب كانت بأمر عبد الناصر وتديره ، وكان كثيراً ما يذهب إلى المعتقلات بنفسه ليتلذذ برؤيتها ، ولما بعد عنه المعتقلون إلى الواحات ، وأصبح عسيراً عليه أن يستمتع بمشاهدة تعذيبهم ابتكر له زبانيته دوائر تليفزيونية يستطيع بواسطتها أن يشاهد ضحاياه وهم يتعرضون لعدوان وحوشه الكاسرة ، ومن هنا فينبغي أن نحذف من الألسنة والسطور والعقول تلك العبارة الكاذبة وهي « مراكز القوى أو مراكز النفوذ » فإن عبد الناصر أمر ورأى وبأشر كل النكبات والأهوال التي نزلت بمصر وبالمصريين في عهده ، ويقول الأستاذ معروف الحضرى : أشهد الله أن جمال عبد الناصر كان يحضر شخصياً إلى السجن الحربى ، وكذلك جمال سالم وعلى صبرى ليتلذذوا بالتعذيب الذى كان يقع على جماعة الإخوان المسلمين . (٢)

وتقول السيدة زينب انغزالى : إننى كنت ملقاة على الأرض جثة هامدة عقب وجبة من الضرب والإيذاء ، وأحسست حولى بحركة غير عادية ، ففتحت

(١) محمد شوكت التوفى : قضية التعذيب الكبرى ص ١٤٤ وانظر صوراً بشعة فى « سنة أولى سجن وسنة ثانية سجن »

(٢) جابر رزق : مذابح الإخوان فى سجون ناصر ص ٢٦

عيني بصعوبة فوجدت أمانى جمال عبد الناصر يتكىء على كتف عبد الحكيم عامر ، وعمسك في يده نظارة سوداء . (١)

ويقول المستشار على جريشة إنه شاهد الطاغوت ونائبه يشهدان صور التعذيب وهما في غرفة حمزه البسيوني ، ويعلق المستشار على ذلك بقوله : كان يجد سعادة في تعذيب الناس ، إنه إنسان غريب ، بل لا يصح أن نقول عنه إنه إنسان . (٢)

وقد تسربت اللذة في رؤية التعذيب من عبد الناصر إلى رجاله ، ويقرر الأستاذ إلهام سيف النصر أن عناصر من قادة الثورة اشتركوا في وضع الخطط لتعذيب الشيوعيين ، ومن هؤلاء زكريا محيي الدين وعبد اللطيف البغدادى (٣) فالكل كانوا يتسابقون لإرضاء عبد الناصر .

ولسنا نستبعد ذلك ، فقد استطاع عبد الناصر أن يجعل من أعضاء مجلس الثورة عبيداً له ينفذون ما يريد بعدة طرق منها طريق المحاكم التي كان يضعهم فيها ليشاركوا في حمل المسئولية ، وليلوث تاريخهم أمام الجماهير ، ومنها المشاركة في الاعتقالات ، أو في التعذيب ، أو - على الأقل - في مشاهدة التعذيب .

ومن شركاء عبد الناصر في هذه الجرائم شمس بدران ، وتقول السيدة زينب الغزالي : إنه وحش غريب عن الإنسانية ، وأكثر وحشية من وحوش الغاب ، إنه أسطورة في التعذيب والقسوة ، كان ينطلق في لذة غريبة ليضرب الموحدين بأعنف ما يمكن أن يتصوره العقل البشرى (٤) ، ومن أجل هذا كان شمس بدران يعد أحد « ملوك التعذيب الناصري » وقد حكمت عليه المحاكم بتعويضات مالية كبيرة ستجىء الإشارة إليها فيما بعد .

(١) أيام من حياتي ص ١٤٣

(٢) عندما يحكم الطغاة ص ١٧ : ١٨

(٣) في مقتل أبو زعبل ص ٤٢

(٤) أيام من حياتي ص ٨٦

وكان هناك رجل آخر تفنن في أساليب التعذيب ، واستورد بعض صورها وبعض أجهزتها من الخارج حتى سُمي أيضاً « ملك التعذيب » ذلك هو حمزة بسيوني ، الذي كان يُذكر فتشعر الأبدان لذكره . وكانت له كلاب مدربة يأمرها فتمزق الملابس وتنهش الأجسام .

وقد كُتب الكثير جداً عن قسوة حمزة البسيوني ورجاله ، وسمعنا الكثير من ذلك ممن لا يملكون وسائل الكتابة ، ويكفي أن نقرر أن أسرى الصهاينة كانت تأخذهم الشفقة بالمصريين من قسوة ما يعانون من التعذيب ، وقد تحدثت السيدة زينب الغزالي عن ذلك (١) .

ولى مع حمزة بسيوني تجربة قاسية ، فقد استدعاني يوماً للقاءه سنة ١٩٦٥ بالاتحاد الاشتراكي ، وكانت المرة الوحيدة التي رأيته فيها ، وأشهد أن منظره كان يبعث الخوف والرعدة ، وهناك ذُكر لي أنه وقع على الاختيار لألقى محاضرة إلى المثقفين المقبوض عليهم . ولم يكن لي خيار ، خوف أن أصبح واحداً منهم ، فقلت له إن هذه المحاضرة من أقسى ما تعرضت له من محاضرات ، فأنت لانتق بي ، وستعدُّ على الكلمات عدداً ، والسامعون سيعتبرونني أجيراً أو عميلاً لكم ، وعلى كلِّ فلأني لا أملك إلا القول ، وأسأل الله العون ، وفي الوقت المحدد حضرت لي سيارة ركبها ، واخترقنا بنا شوارع القاهرة حتى أطراف المدينة ، ثم أسدلت ستائر على جوانبها ، وراحت تشق طريقها وسط الفراغ والسكون الشامل ، وبعد أكثر من ساعين وقفت في مكان لا أعرفه ، ونزلتُ منها لأجد عدداً من المتخصصين في الاختزال يكتبون كل كلمة ويدونون كل حركة ، وجلس أمامي عدد كبير جداً من المثقفين في طوابير منتظمة ، وبدأتُ محاضرتي ، واتخذتُ طريقاً لحمايتي من الشبهات ، فتكلمت عن الحضارة الإسلامية ، وما قدمه الإسلام للجنس البشري من أفضال ووسائل هداية وبعون الله أرضيت الجانين .

وكانت هذه المحاضرة وعَزَمُ حِزَّة البسوي على أن أكرر هذا اللقاء من الأسباب التي دفعتني لقبول الإغارة لجامعة أم درمان الإسلامية بالسودان حتى لا يتكرر لقائي مع هذا الرجل الذي كان يخيف بمنظره ويخيف بسلطانه :

وفي عهد الحرية الذي أطلُّ علينا مع انتصارات أكتوبر حكمت المحاكم المصرية بتعويضات هائلة على هذا الرجل لصالح بعض الضحايا الذين طالبوا بهذه التعويضات ، واستنكرت المحاكم هذه القسوة الوحشية التي أثبتتها التقارير ضد هذا الرجل وأعوانه ومشجعيه •

تلك عجالة عن التعذيب الناصري ، وسنعود لهذا الموضوع عند الحديث عن الهيئات والجماعات التي نزل بها العسف والظلم .

المحاكمات

عرفت مصر في عهد الثورة صوراً كثيرة من المحاكم والمحاكمات أوشكت أن تستنفذ الكلمات التي يمكن أن تسمى المحاكم بها ، فكان منها :

- المحاكم العسكرية

- محكمة الغدر

- محكمة الثورة

- محكمة الشعب

- ومحاكم أخرى عرفت باسم محاكم الدجوى

مقارنة بين محاكم ما قبل الثورة ومحاكم الثورة :

قبل أن نتحدث عن محاكم الثورة نقتبس من أنور السادات كلمة عن محاكمات ما قبل الثورة ، يقول أنور السادات (١) .

استغرقت محاكمتنا في قضية مقتل أمين عثمان ثمانية شهور ، وأذكر أنه عندما أتى البوليس ليأخذنا إلى المحكمة حاولوا وضع « الكلابشات » في أيدينا ، فرفضنا ، وقلنا إذا حُكِم علينا فافعلوا ما تشاءون ، ولكن قبل الحكم لا يمكن أن تفعلوا بنا هذا . فاكتمى البوليس بأن وضعنا في « لوري » إلى المحكمة ، وفي المحكمة حكم لنا بالبراءة ، وصدر الحكم في الظهر ، وعدنا إلى السجن لإتمام الإجراءات ، وفي الساعة الخامسة مساء نفس اليوم أطلقوا سراحنا .

ماذا لو قارنا ذلك بمحاكمات عهد عبد الناصر ؟

الإجابة عن ذلك نأخذها من كلمات أحد قضاة هذه المحاكم وهو الفريق فؤاد الدجوى الذى يقول : إن الحكم لك أو عليك يتوقف على رأى ولاية الأمور ، فإذا رضى عنك ولاية الأمور لسبب أو لآخر فإنه يسعدنى أن أبرئك ، وإذا كنت مغضوباً عليك فيؤسفنى أننى سوف أحكم بقطع رقبتك ٠٠٠٠ إننى لم أدرس القانون ، وولى الأمر عندى كل شيء ، هو الدولة والوطن والدين ، ومن يخرج عليه أو يغضبه فقد خرج على الدولة وخان الوطن وكفر بالله^(١) .

ولم تكن المحاكمات مقصودة لذاتها ، وإنما كان المقصود تدمير كل قوى المعارضة ، وتخويف من تخول له نفسه أن يقف فى طريق أطماع الثوار .

وفى بعض الأحوال حكمت المحكمة ببراءة متهم ، كما حدث فى حالة الأستاذ محمد أمين سوكة الوزير المفوض بوزارة الخارجية ، واسكنه لم يخرج من الاعتقال لأن قراراً جديداً صدر باعتقاله بدون اتهام .

وستعطى فيما يلى كلمة عن محاكم عبد الناصر :

محاكمة البكباشى حسنى الدمنهورى

إن الحديث عن محاكمة حسنى الدمنهورى نقتبسه من كلام أحد الضباط الذين كانوا قريبين من الأحداث وهو الضابط محمد رياض ياور الرئيس محمد نجيب ، وهو فى ذلك يقول :

كان أول خلاف حدث بمجلس الثورة مرتبطاً بالبكباشى حسنى الدمنهورى وكان ذلك فى يناير سنة ١٩٥٣ ، وقد شاهدت بطريق الصدفة عملية تعذيبه بنفسى ، وكانت صور التعذيب هذه أول عمل من نوعه تقوم به

(١) محمد شوكت التونى : محاكمات الدجوى ص ١٥

الثورة ، وأشهد أنه كان شجاعاً ، فإنه على الرغم من قسوة التعذيب لم يُدَلَّ بأى اعتراف على غيره ، (نرجو أن يتنبه القارئ إلى أن التعذيب بدأ من يناير سنة ١٩٥٣) .

وقد شكلت في اليوم التالى محكمة من أعضاء مجلس الثورة « فيما عدا محمد نجيب » وكانت برئاسة جمال عبد الناصر ، وحكمت هذه المحكمة بإعدام حسنى الدمنهورى ، وقد نقلت ذلك إلى محمد نجيب ، ووضحت له ما نزل بالبكباشى حسنى الدمنهورى من تعذيب ، كما وضحت له أنه لم يمنح الفرصة المناسبة للدفاع عن نفسه .

ويواصل محمد رياض كلامه فيقول إن محمد نجيب - وكانت السلطة لم تسحب تماماً منه بعد - استدعى جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وأغلظ لهما القول ، ورفض الموافقة على حكم الإعدام ، فخفف الحكم إلى السجن المؤبد^(١) .

محكمة الغدر

اسم الغدر تقشعر منه الأبدان ، ويحس الإنسان من هذا الاسم أن الذين سيحاكون أمام هذه المحكمة خانوا أمانة الوطن ، وغدروا بالتزاماتهم ، ولكن التسمية لم تكن ذات معنى عند رجال الثورة ، فالذى يهمهم هو قطع ألسنة المعارضين وتشويه سمعتهم .

ويلاحظ في محكمة الغدر شيء مهم هو أن المحكمة أعلن عنها في ديسمبر سنة ١٩٥٢ ولكنها لم تشكل إلا في إبريل سنة ١٩٥٣ ويحس الإنسان أن الإعلان عنها كان للتخويف حتى يتراجع المعارضون أو بعضهم ، ثم يقدم للمحاكمة إليها أولئك الذين لم يريدوا التراجع .

(١) كلماته في شهود ثورة يوليو ص ٤١

وهناك جانب يستحق التقدير ، ويرتبط بمحكمة الغدر ، وهذا الجانب يبرزه الدكتور وحيد رأفت بقوله : لعل محكمة الغدر هي المحكمة الوحيدة من محاكم الثورة التي غلب على قضائتها الطابع القضائي ، ولذلك لم تعمر طويلا (١) .

ولنسر مع صحافة تلك الأيام لننقل أخبار هذه المحكمة :

— في أهرام ٥٢/١٢/٢٢ ذكر متحدث باسم مجلس قيادة الثورة أن محكمة ستنشأ باسم « محكمة الغدر » يحاكم أمامها كل من استغلوا نفوذهم ، وأفسدوا الحياة السياسية .

— وفي أهرام ١٩٥٣/٢/١١ صرح هذا المتحدث بأن محكمة للغدر ستباشر عملها في أوائل مارس .

— وفي جريدة المصرى الصادرة في ١٩٥٣/٣/٢١ ورد بالصفحة الأولى أن المؤتمر المشترك بحث كثيراً من المسائل الهامة، وكان في مقدمتها تكوين محكمة الغدر ، وعلم مندوب المصرى أن المحكمة ستكون من مستشار بالنقض واثنتين بالاستئناف وأربعة من ضباط الجيش ، وصرح أحد أعضاء مجلس الثورة لمندوب المصرى بأن المحكمة ستحاكم كل الذين استغلوا نفوذهم من رجال الأحزاب ورجال الحاشية ، وسيقتص من كل الذين أضروا بمصالح البلاد .

— وفي جريدة المصرى الصادرة في ١٩٥٣/٤/٤ يتحدث مصدر رسمي مسئول عن الذين سيقدمون إلى محكمة الغدر ، فيذكر أنهم لم يحددوا بعد ، وأنهم بوجه الإجمال الذين أفسدوا الحياة السياسية أو الاقتصادية ، وبثوا الطغيان ، وحصلوا على مغنم بغير وجه حق .

وفي ١٩٥٣/٤/١٢ أصدر أحمد حسنى وزير العدل قراراً بتأليف محكمة

(١) فصول من ثورة يوليو ص ٣١

الغدر على الوجه التالى : المستشار إبراهيم خليل بالنقض ، والمستشار محمد على جمال الدين والمستشار حسن جلال بالاستئناف ، ومن العسكريين صلاح الدين حناته ، وفريد عبد الله ، ومحمد عادل لطفى ، وسعد الدين الشريف .

وأول الذين أحيلوا لهذه المحكمة مجموعة وفدية فيها السيدة زينب الوكيل زوجة الزعيم مصطفى النحاس ، والمهندس عثمان محرم ، ثم أحيل للمحاكمة أمام هذه المحكمة أحمد شعير ، وحافظ عفيفى ، وناهد رشاد :

وفى ١٩٥٣/٨/٣ نشرت صحيفة المصرى أحكام محكمة الغدر ، وكانت تقضى ببراءة عثمان محرم فى قضيتى المرج والمرسى ، وبراءة السيدة زينب الوكيل فى قضية المرمى وتغريمها ١١٤٣ جنيا فى قضية المرج .

ويبدو أن اتجاه هذه المحكمة لهذا النوع من الأحكام الذى يمنح البراءة أحيانا ويدين بإدانة خفيفة أحيانا أخرى ، لم يعجب قادة الثورة على نحو ما ذكر الدكتور وحيد رافت آنفاً ، فاتجهوا لتشكيل محكمة يكونون هم قضاتها ، وهى محكمة الثورة التى سنتحدث عنها بعد قليل ، وهى محكمة قست أحكامها ، فقد كان المدعى فيها هو القاضى وهو الهيئة التنفيذية ، فأصبح مجلس قيادة الثورة هو المدعى والمشرع والقاضى والمنفذ ، وهذا اللون من المحاكم هو الذى يلائم رغبات الثوار كما سنرى فيما يلى :

محكمة الثورة

هناك بعض المقدمات عن محكمة الثورة نقتطفها من الكاتب الضابط الأستاذ أحمد حمروش الذى يقول عنها :

— شكلت المحكمة دون معرفة لقواعدها أو تحديد لأهدافها ، واقترح صلاح سالم عقدها فى ميدان التحرير ، مدعياً فى خطبة عامة أن هناك وثيقة تدين بعض السياسيين باتصالاتهم بجهات أجنبية ، ومن عجب أن هذه

الجهات الأجنبية ظهر أنها هي نهرو رئيس وزراء الهند الذى كان قد أصر على مقابلة النحاس باشا عند زيارته لمصر، وأن زيارة نهرو لمصر لن تتم إذا لم يكن ضمن برنامج الزيارة مقابلته للنحاس باشا، وقد وافق رجال الثورة على ذلك .

— كانت محكمة الثورة تعقد خلف باب رُفعت عليه الآية الكريمة « واقتلوهم حيث ثقتموهم » وهو سوء فهم لكتاب الله .

— كانت جلسات محكمة الثورة تعقد سرية لا يحضرها إلا أعضاؤها والمتهم ، وزكريا محيي الدين رئيس مكتب الادعاء . ومن الواضح أن السرية وسيلة غير مشروعة في المحاكمات .

— كان المتهمون يواجهون المحكمة بلا تحقيق ، ويوجه الادعاءُ التهمةَ اليهم بنوع من المفاجأة .

— بدأت جلسات محكمة الثورة أول أكتوبر ١٩٥٣ وانتهت في سنة ١٩٥٤ وكان هدفها الأساسى التنكيل بأعضاء حزب الوفد ، وبقايا الأحزاب والتنظيمات الأخرى ، وقد حوكم من الوفد كل الأعضاء الذين لم يبلغوا الخامسة والستين من العمر ، وكانت محاكمة فؤاد سراج الدين أطول محاكمة ، إذ استمرت ٤٥ جلسة وبانتهاء جلسات محكمة الثورة كانت قيادات الوفد قد أصبحت خلف قضبان السجون .

— حاكمت محكمة الثورة ٣٤ شخصاً منهم ستة من الوفد هم إبراهيم فرج ومحمود سليمان غنام وفؤاد سراج الدين والسيدة زينب الوكيل ومحمود أبو الفتح وحسين أبو الفتح ، وثلاثة من رجال السراى هم كريم ثابت ، وأحمد النقيب ، ومحمد حلمى حسين ، والنائب العام السابق كامل القاويش ، وسعدى واحد هو إبراهيم عبد الهادى ودستورى واحد هو أحمد عبد الغفار ، وضابطان هما عبد الغفار عثمان وأحمد شوقى ، و ١٣ جاسوساً ، وثلاثة من مروجى الإشاعات واثنان بتهمة التستر على الاتصال بالجهات الأجنبية ، وأصدرت

المحكمة ستة أحكام بالإعدام "نفَّذ منها أربعة على الجواسيس ، وعدّل اثنان إلى السجن المؤبد أحدهما بالنسبة إلى إبراهيم عبد الهادي والثاني بالنسبة إلى شخص اسمه أحمد محمد عوض (١) .

ومحاكمة أحمد محمد عوض تستحق وقفة لننقل من كتاب « محكمة الثورة » ما دار من نقاش بينه وبين رئيس المحكمة :

س : لك محامى ؟

ج : لا ما عنديش فلوس أجيب محامى ، هاتوالى محامى .

الرئيس : احنا هنا مانجيش محامين ، دافع عن نفسك .

المتهم : عن أية ؟ أدافع عن أية ؛ ما تقولولى أنا متهم بإيه .

الرئيس : بالخيانة العظمى

المتهم : خيانة أية ؟

الرئيس : مش هاتدافع عن نفسك ؟

المتهم : ما انا مش عارف حاجه .

الرئيس : تمت أقواله والحكم بعد المداولة .

ورُفعت الجلسة مدة ١٥ ساعة وعادت لينطق الرئيس بالحكم وهو بالإعدام شنعاً (٢) .

ويعلق الأستاذ محمد شوكت التوفى على هذه المحاكمة بأن المحكمة هدمت أعظم حق للمتهم وهو الدفاع ، ويقول عن المتهم إننا حتى الآن لا نعرف من هو ، ولا ماذا كانت تهمة (٣) .

تلك مقدمات مهمة ترينا طبيعة هذه المحكمة ، وبعدها نعود إلى مذكراتنا فنستعرض ما بها من اقتباسات من الصحف حول هذه المحكمة هـ

(١) قصة ثورة ٢٣ يوليو ص ٢٨٣ - ٢٨٥

(٢) كتاب محكمة الثورة التى نشرته مصلحة الاستعلامات

(٣) قضية التعذيب الكبرى ص ٤٦ - ٤٧

- في ١٦ سبتمبر أعلن تشكيل محكمة الثورة من ثلاثة من أعضاء مجلس قيادة الثورة هم عبد اللطيف البغدادي رئيساً وأنور السادات وحسن إبراهيم عضوين ، وأعلن في قرار تشكيلها أنها لمحاكمة كل من عمل ويعمل ضد الوطن . ، وذكر متحدث بلسان مجلس قيادة الثورة أن هذه المحكمة ستظل قائمة طوال فترة الانتقال لإعداد البلاد للحياة النيابية وتطهيرها من الخونة .

ومن الفوارق التي تستلفت النظر أن قضايا تعذيب الإخوان المسلمين قبل الثورة سُحبت من محكمة الجنايات لتنظرها محكمة الثورة (١) ، تكريماً للإخوان المسلمين ، ثم لم يمض عام واحد بعد ذلك حتى كانت محكمة أخرى قد انبثقت من مجلس قيادة الثورة لتتولى بالإخوان المسلمين ، ولتنزل بهم أقصى الأحكام ، تلك هي محكمة الشعب التي ستحدث عنها فيما بعد .

وكان فيما نشر عن بقاء محكمة الثورة طول فترة الانتقال تهديد وإنذار لكل من يرفع رأسه معارضاً ، أو يطلق لسانه متكلماً بما لا تريده الثورة .

وبالنسبة للحكم الذي أصدرته هذه المحكمة على إبراهيم عبدالمهدي بالإعدام شنقاً وبمصادرة أمواله ، يقول محمد رياض ياور محمد نجيب كان محمد نجيب قد كلفني بمراقبة محاكمة إبراهيم عبدالمهدي ، ولهذا قبلت للرئيس تقريراً عن المحاكمة ذكرت فيه أن المحكمة لم تتمكن من الدفاع عن نفسه ، وكان ذلك سبباً في رفضه التصديق على الحكم ، وبخاصة أن احتجاجات كثيرة من الخارج وردت عن انحراف طبيعة المحكمة (٢) .

وفي أهرام ٧/١٠/١٩٥٣ نشر الحكم على إبراهيم فرج بالأشغال الشاقة المؤبدة . ونشرت بعد ذلك الأحكام الأخرى .

(١) الأهرام في ٤/١٠/١٩٥٣

(٢) كلماته في شهود ثورة يوليو ص ٤٠١

ومما يذكر أن محكمة الثورة انتهت من دورتها الأولى وتوقفت جلساتها عقب محاكمة فؤاد سراج الدين ، ولكن هذه المحكمة عقدت دورة ثانية لمحاكمة متهمين جدد ، ومن حوكموا أمامها في هذه الدورة أبو الخير نجيب رئيس تحرير مجلة « الجمهور المصري » وقد حكم عليه بالسجن ١٥ سنة مع الأشغال الشاقة ومع التجريد من شرف المواطن .

وهكذا قامت هذه المحكمة بنشر الذعر وتوزيع الأحكام الظالمة على المواطنين .

محكمة الشعب

تحدثنا من قبل حديثاً موجزاً عن حادث المنشية الذى أتهم فيه الإخوان المسلمون بالاعتداء على الرئيس جمال عبد الناصر ، وقد قبض على الآلاف منهم عقب هذا الحادث ، وشكلت محكمة الشعب فى آخر أكتوبر ١٩٥٤ برئاسة جمال سالم وعضوية أنور السادات وحسين الشافعى ، وذكر فى قرار تشكيلها أنها ستنظر فى الأفعال التى تعتبر خيانة للوطن أو ضد سلامته فى الداخل والخارج ، وفى كل ما يعتبر موجهاً ضد نظام الحكم الحالى والأسس التى قامت عليها الثورة ، (١) وقد حكمت هذه المحكمة فى ٤ ديسمبر سنة ١٩٥٤ بعقوبة الإعدام شنقاً على كل من مرشد الإخوان المسلمين المستشار حسن الهضبي ، ومحمود عبد اللطيف ، وعبد القادر عودة ، ويوسف طلعت ، وإبراهيم الطيب ، وهنداوى دوير ، ومحمد فرغلى ، وقد رأى مجلس قياده الثورة تخفيف الحكم على الهضبي لسنة ومرضه إلى السجن المؤبد ، وصدق على الحكم بالنسبة للآخرين ، فنفذ فيهم حكم الإعدام .

(١) الأوامر فى ٢ نوفمبر سنة ١٩٥٤

وقد شكلت ثلاث دوائر فرعية من محكمة الشعب ؛ الأولى برئاسة اللواء صلاح حتاتة ، والثانية برئاسة قائد الجناح عبد الرحمن عنان ؛ والثالثة برئاسة القائم مقام بسن محفوظ ندا ، وقد قدم لهذه المحاكم آلاف المتهمين من الإخوان المسلمين ؛ وبلغ عدد الذين حكمت عليهم محاكم الشعب ٨٦٧ شخصاً.

تلك لحظة سريعة عن محكمة الشعب ، وسنعود فيما بعد لدراسة أشمل وأوسع عن علاقة الإخوان المسلمين بالثورة ، وما اتصل بها من خير وشر ومن إقبال وضرر .

المحاكم العسكرية

حاولت الثورة أن تتخلص من القضاء العادي لسبب أو لآخر ؛ وانجذبت إلى المحاكم العسكرية لسرعتها ، ولعدم تقيدها بالتشريع والقانون ، وكثرت المحاكم العسكرية التي ارتبطت بعهد عبد الناصر ، ولعل مطالعها كان تلك المحاكمة التي أشرنا إليها من قبل ، والتي قام فيها مجلس الثورة مجتمعاً بمحاكمة البكباشي حسني الدمنهوري ، وجاءت بعد ذلك محاكم أشرنا لها أيضاً ، وهي تلك التي اختير لها ثلاثة من أعضاء مجلس قيادة الثورة ، وبعد هذا اتجه قادة الثورة إلى تأليف المحاكم العسكرية لمحاكمة حركات عسكرية قامت ضدهم في صفوف الجيش ، ولحاكمة من اتهموا بالشيوعية ، ومن الطريف أن نذكر أن محكمة عسكرية عليا شكلت في يوليو سنة ١٩٥٣ برئاسة القائم مقام أحمد شوقي قائد قسم القاهرة للنظر في قضيتين شيوعيتين ، ولكن أحمد شوقي هذا سرعان ما أصبح - بعد أقل من عام - مهتماً ، وحوكم أمام محكمة الثورة التي أعيدت جلساتها بعد أن كانت قد توقفت عقب محاكمة فؤاد سراج الدين ، وصدر الحكم على أحمد شوقي بالسجن عشر سنوات .

ومن المحاكم العسكرية التي شكلت في السنين الأولى للثورة محكمة خاصة برئاسة اللواء محمد حسين مدير المدفعية ، وقد شكلت هذه المحكمة

للحكم في محاولة الانقلاب التي قام بها مجموعة من الضباط في إبريل سنة ١٩٥٤ وكانت هذه المحاولة تأخذ شكل حركة الانقلاب التي قامت في ٢٣ يوليو ، مع احتمال تصادم مسلح مع بعض قوات الجيش ، وقد انكشفت هذه المحاولة لأن أحد أتباعها واسمه عفت عبد الحليم اعترف على زملائه ، فقامت حركة اعتقالات واسعة قبيل الموعد الذي حُدد للتحرك ، وحقت معهم لجنة بإشراف زكريا محيي الدين ، وكان من أعضاء هذه اللجنة الضباط المشهور في دنيا المحاكمات العسكرية وهو محمد فؤاد الدجوى . ولنا معه أحاديث أخرى عن مجلسه كقاض في المحاكم العسكرية في الحوليات ابتداء من سنة ١٩٥٧ وقد حكمت هذه المحكمة (محكمة اللواء محمد حسين) على اليوزباشي أحمد المصري بالسجن ١٥ سنة ، والصاغ حسني الصاوي واليوزباشي عزت الألفي ١٠ سنوات ، واليوزباشي فاروق الأنصاري بالسجن ثلاث سنوات (١) .

محاكم عسكرية لمحاكمة الشيوعيين :

كانت حركة كفر الدوار المبكرة فاتحة لنشاط قام به بعض اليساريين ، ومن هنا بدأ اضطهاد الثوار للشيوعيين ، وتم اعتقال عدد منهم في ١٦ يناير سنة ١٩٥٣ : وقد نشرت الصحف أنه تم اعتقال ١٠١ من الأشخاص بينهم ٤٨ شيوعياً ، وتزايد عدد المعتقلين من الشيوعيين الذين كانوا ضباطاً ، أو الذين ينتمون للحزب اليساري من غير الضباط ، وقد شكلت لهم محكمة عسكرية عليا برئاسة القانام أحمد شوقي كما قلنا من قبل ، وحكمت المحكمة بالسجن على بعض المتهمين مدداً مختلفة ، وتعرض مئات منهم إلى الاعتقالات بدون محاكمة وإلى صور من التعذيب في المعتقلات .

تلك كلمة عن المحاكم التي شهدتها مصر في السنين الأولى للثورة ، ولم

(١) أحمد حمروش : قصة ثورة ٢٣ يوليو ص ٣٥٤ - ٣٥٥

تكن في الحقيقة محاكم ، وإنما وسائل لتوقيع العقوبات على الخصوم
السياسيين ، وسنرى صوراً أخرى من محاكم عبد الناصر في دراساتنا عن
تاريخ السنوات القادمة .

نرى ماذا يكون الأمر لو حوكم جمال عبد الناصر وأعوانه على ما
ارتكبوا في حق الوطن والمواطنين ؟ نرى ما العقوبة الكافية نظير دفعهم
لعشرات الآلاف من الشباب الذين سقطوا في الحروب الخاسرة ؟ ولمئات
الملايين من الجنهات التي سُرقت أوضاعاً في هذه الحروب ؟ وما العقوبة
الكافية لما أنزله هؤلاء بالشعب من تنكيل وتعذيب وإذلال ؟

مديرية التحرير

قطعة من الأرض تبلغ مساحتها ٣٠٠٠٠ فدان ، تقع غرب الرياح البحرى بمحافظه البحيرة ، وكان الهدف منها القيام باستصلاح الأرض وبناء قرى نموذجية ، ومراكز حديثة لتربية الماشية ومصانع لتعبئة وحفظ المأكولات تمهيداً لنشر ذلك فى القطر كله .

ومن الواضح أنها أهداف عظيمة لو اتجهت خطوات التخطيط والتنفيذ اتجاهاً علمياً مع توافر الوطنية الصادقة والإخلاص فى العمل ، ولكن الريية والشك ارتبطا بهذا المشروع من أول يوم ، ولنسمع إلى مجدى حسين مدير هذه المديرية يعرض لنا خطواتها الأولى :

« وضع مشروع مديرية التحرير على مائدة البحث أمام مجلس الثورة وأثناء المناقشة اعترض جمال سالم وغادر القاعة بعد محاولته ضرب أحد الحاضرين ، ومن هنا بدأت الاتجاهات لمعارضة المشروع قبل أن يولد ، وقد وصل الخلاف بينى وبين جمال سالم إلى حد التلاحم بالأيدى .

« ثم بدأ المشروع فى نوفمبر سنة ١٩٥٢ بميزانية بسيطة جداً قدرها ٧٠٠٠٠ جنيه كانت مدرجة فى ميزانية تفتيش رى الصحارى حيث شقت بها التربة الأولى وشكلت لجنة للمشروع كنت فيها العضو المنتدب » (١) .

ماذا حدث لهذا المشروع بعد ذلك ؟ .

الإجابة نجدها عند الكاتب الروسى الذى سخر قلمه للده عبد الناصر ومع هذا أورد معلومات مخجلة عن هذا المشروع ، يقول إيفور بيليايف : فكّر بعض الضباط الأحرار فى الاتجاه لإعادة بناء القرية المصرية ، وأرادوا

(١) كلماته فى شهود ثورة يوليو ص ٣٦٢

أن يأخذوا من منطقة مديرية التحرير مجالا لبناء قرى جديدة تكون نموذجاً يحتذى فيها بعد ، ولكن هذا المشروع لم يضع في اعتباره ظروفاً كثيرة أهمها عدم توافر المتخصصين الأوفياء لقضايا الثورة ، وكانت هذه الظروف هي السبب في فشل الموضوع ، إذ أصبحت مديرية التحرير كالأوزة التي تبيض الذهب ، فقد تطلبت اعتمادات سنوية بلغت ١٨ مليون جنيه (البيانات من محافظة مديرية التحرير سنة ١٩٦٢) وعجزت مساحة الأرض عن الوفاء بالعائد المطلوب لتغطية نفقات المديرية ، ولكن أقسى مآلاته مديرية التحرير هو الفساد الذى أخذ يتفشى في المديرية على غرار الأورام الخبيثة ، فأتت فكرة مشروع القرى الجديدة (١) .

وبعد عشرين سنة من قيام مديرية التحرير أعلن سيد مرعى بصراحة مايلي « لئننى يجب أن أعلنها صريحة ، نحن لازلنا بعد عشرين سنة نصرف على مديرية التحرير دون أن نأخذ منها أى شيء عائداً ، وهو خطأ يجب أن نعترف به (٢) .

وظلت أمور الفساد في مديرية التحرير سرّاً لا يظهر منه إلا القليل حتى قام بمصر أول برلمان في عهد الثورة سنة ١٩٥٧ وكان من بين أعضائه الأستاذ سيد جلال فتقدم بسؤال لوزير الزراعة يطالبه فيه بموافاة المجلس بتكاليف استصلاح القدان بهذه المديرية ، وعدد الموظفين التابعين لها بكل من القاهرة والإسكندرية ، وعدد السيارات التي تقوم باستخدامها ، وتكاليف تشغيلها وصيانتها .

وكان هذا فاتحة التعرف على ألوان الفساد بهذه المديرية ، وسنعود

(١) مصر في عهد عبد الناصر ص ١٠٦ .

(٢) عبد الرحمن الببغاوي : نكبة الشعارات على الأمة العربية ص ٩٢ .

للحديث عر ذلك عند الكلام عن أول برلمان للثورة سنة ١٩٥٧ حيث سئرى أن عبد الناصر حمى هذا الفساد وأحاطه برعايته .

ولى مع مديرية التحرير تجربة مهمة توضيح مدى العناء الذى وُجِدَ بهذه المديرية منذ عهد مبكر ، فى سنة ١٩٥٥ عملت - عقب فصلى من الجامعة - محرراً بصحيفة الأهرام ، وجاء وفد من الصحفيين السوريين لزيارة مصر ، وكانت مديرية التحرير ضمن المناطق المحددة ليزورها هذا الوفد ، وقد صحبتُ الوفد فى هذه الزيارة ، وما إن نزلنا أرض المديرية حتى استقبلنا مجدى حسنين ومعاونوه ، ووجدنا حشداً من العمال جاء يهتف لعبد الناصر ومجدى حسنين فى صيحة دعاية مدوية ، ولكن هذه الصيحة لم يطل مداها ، فسرعان ماصمت حشد العمال ، ثم انطلقوا بصيحات جديدة صاخبة يطالبون فيها بأجورهم ، ويهتفون ضد من يستغلون عرقهم ويسرقون حقوقهم ، وكانت أزمة ، اضطر مجدى حسنين فيها أن يذكر أن بعض أعداء الثورة اندسوا بين العمال . . . ولكن الحق أن أصوات الاحتجاج كانت تنبع من الجميع دون استثناء .

ومما أفسد مديرية التحرير أن عمالها أصبحوا يقومون بدور سياسى ، فأهملوا الدور الزراعى الذى أقيمت المديرية لأجله ، وقد رأينا عمال مديرية التحرير يشتركون فى حركة مارس لصالح جمال عبد الناصر ، ورأيانهم يعتدون على السهورى بالضرب ، وفى كثير من الحالات تفد عشرات من السيارات محملة بعمال مديرية التحرير للاستقبال والتوديع ، وهكذا أجاد هؤلاء العمال الهتاف ، وتخلوا خطوة بعد خطوة عن الهدف الرئيسى لهم وهو إصلاح الأرض ، وبناء القرى ، وتكوين مجتمع زراعى جديد ..

وقد فصل مجدى حسنين من مديرية التحرير يوم ٣ نوفمبر سنة ١٩٥٧ وحاول عبد اللطيف البغدادى رئيس مجلس الأمة آنذاك طرد مجدى حسنين من المجلس لإفساده الحياة النيابية ، فأوعز إلى عشرة من الأعضاء أن يقدموا

طلباً بذلك ، ففعلوا ، ولكن عبد الناصر حماه ، فراجع النواب ، مع أن حماسهم ضد مجدى حسنين كانت حماسة شديدة كما سنرى عند ذكر حوادث سنة ١٩٥٧ ، وعُيِّن مجدى حسنين بعد ذلك سفيراً لمصر في تشيكوسلوفاكيا .

وضاع الأمل في هذا المشروع الكبير ، ومرت السنون والقرى المصرية تبليت في ظلام القرون الوسطى ، وكان في برنامج حزب الوفد الذى صدر سنة ١٩٥٢ إعادة بناء القرى المصرية في عشرين عاماً ، وأبعد الوفد عن الحكم لأن الثوار تحدّثوا عن برنامج أوسع وأسرع ، ولكن برامج الثوار كانت كلاماً غير قابل للتنفيذ .

كتاب فلسفة الثورة

ذكرنا من قبل (١) أن عبد الناصر أعلن في اللجنة التحضيرية للاتحاد القومي قوله : لم يكن مطلوباً مني في يوم ٢٣ يوليو أن أطلع ومعى كتاب مطبوع وأقول إن هذا الكتاب هو نظريتي ، فإن محمداً أعلن في مطلع الإسلام جملتين هما أساس الإسلام وهما الشهادتان ، ثم جاء بعد ذلك القرآن ،

وبناء على ذلك أعلن عبد الناصر المبادئ الستة يوم ٢٣ يوليو ثم وضع بعد ذلك كتابه « فلسفة الثورة » يشرح ما أوجز من تعاليم وأفكاره وظهر هذا الكتاب في يناير سنة ١٩٥٣ .

ومع أن هذا الكتاب كان سريع الزوال ، وسرعان ما ماتت أفكاره في حياة كاتبه ، مع هذا فإننا نتكلم عنه كلمة سريعة .

كان العسكريون قد وثبوا إلى معظم المراكز الرئيسية في المجالات المختلفة ؛ الوزارة ، والتنظيم السياسي ، والمؤسسات ، والشركات الاقتصادية والصناعية ، ووزارة الخارجية ، واستكان لهم عبد الناصر على نظام الأخذ والعطاء ، ولكن لم تكن هناك أيديولوجية معينة تضيء الطريق ، فإن الأهداف الستة كانت مجرد شعارات تحتاج إلى تفسير وبرامج ، ومن هنا أخرج عبد الناصر كتابه « فلسفة الثورة » . وكان الضباط في الأصل يرون أنهم يقومون فقط بدور الحراس ، ولكن الحراس أصبحوا حكاماً ، فاحتاجوا إلى منهج ؛ وكان فلسفة الثورة هو منهج عبد الناصر (٢) .

وفيما يلي مقتطفات من هذا الكتاب ؛ يقول عبد الناصر .

(١) عند الكلام عن : قادة الثورة والتعريف بهم من كلاهم

(٢) أحمد حروش : مجتمع جمال عبد الناصر ص ١٦٤

إننا نعيش في مجتمع لم يتبلور بعد ، وما زال يفور ويتحرك ولم يهدأ حتى الآن ؛ ولم يتخذ وضعه ويستقر ، ليواصل تطوره التدريجي مع باقي الشعوب التي سبقتنا على الطريق .

ولكن ما هو الطريق ؟ وما هو دورنا على هذا الطريق ؟

إن الطريق هو الحرية السياسية والاقتصادية ، والحرية السياسية تستلزم التصادم ضد الاستعمار ، والحرية الاقتصادية تستلزم الثورة الاجتماعية ضد الاستغلال .

ويلحق محمد حسنين هيكل على هذا الاتجاه بقوله : لم يكن عبد الناصر أول من اكتشف هذا التصادم فقد سبقه إليه مكرم عبيد في بيانه عن الميزانية حيث قال : يجب أن نخلص المصري من استعمار الأجنبي ثم نخلص المصري من استغلال المصري (١) .

واهتم كتاب فلسفة الثورة بما يسمى الدوائر حيث تحدث جمال عبدالناصر عن الدائرة العربية ، والدائرة الإسلامية ، والدائرة الإفريقية ، وكان حديثه عن الدائرة العربية ينتهي باقتناعه أن العالم العربي وحدة واحدة، ولعل هذا كان مطلع الاتجاه لما يسمى الوحدة العربية ، وأصبحت الوحدة بعد ذلك ركناً من أركان شعار الثورة : حرية ، اشتراكية ، وحدة .

ويتحدث هذا الكتاب أيضاً عن الدائرة الإسلامية وأن هناك رباطاً متيناً يربط بين أقطار هذه الدائرة .

وعن الدائرة الإفريقية يقرر عبد الناصر أن مصر تقع في قارة إفريقيا ويجري بها نهر النيل الذي ينبع من قلب القارة ، وبحكم النيل والحضارة والتاريخ ترتبط مصر ارتباطاً عميقاً بالقارة الإفريقية .

(١) محمد حسنين هيكل : مصر لا لعبد الناصر ص ٦١ - ٦٢ .

وعلى كل حال فقد كان واضعو هذا الكتاب فيهم قدرة على الإنشاء
ومعرفة بالبلاغة العربية ، ولكن ما ورد في الكتاب كان مثار الخوف
أكثر من أن يكون مثار الأمل ، لأن بعض الدول هنا وهناك أحست
بالأطماع الناصرية تتجه نحوها ، فبدأت تنكمش عن مصر وتحتاط لنفسها ،
والحق يقال إننا في كثير من الأحوال في العهد الحاضر لانزال نعاني من هذا
الوضع ، وإن كان العهد الحاضر قد تخلى عن أى اتجاه نحو النفوذ ، واتخذ من
التعاون شعاره ودستوره .

ولى بهذا الكتاب صاة خاصة ، فقد ورد بالطبعة الأولى منه اسم « على
النشار » كصديق لعبد الناصر ، وأنا أعرف على النشار معرفة زمالة في
الداخل والخارج . . . وقد رُفِع اسمه من الطبقات التالية ، وأثار وضع
هذا الاسم ورفع أقاويل وأحاديث واسعة ، لا أرانى في حل من ذكرها :

هيئة التحرير

يرتبط قيام هيئة التحرير بالقضاء على الأحزاب السياسية التي كانت موجودة بمصر قبل الثورة ، وقد ذكرنا عند حديثنا عن الأحزاب أن الثورة تنكرت لها بعد أيام من ٢٣ يوليو ، واتخذ هذا التنكر مراحل هي التطهير ثم التنظيم ثم الحل ؛ وذلك لأن الأحزاب وبخاصة حزب الوفد الذي يمثل تجمعا حقيقيا شعبيا كان يرى أن الثورة أدت مهمتها بعزل الملك ، وأنه ينبغي أن تسلم الأمور للشعب ليمارسها بالديمقراطية الصحيحة ، وكان هذا الاتجاه من حزب الوفد مصدر الصراع الذي قام بين الحزب وبين الثورة ، واتخذت الثورة طريقها لتشيويه سمعة زعماء الوفد من جانب ، كما عمدت من جانب آخر إلى اعتقالهم ومحاكمتهم أمام محكمة الثورة كما ذكرنا من قبل ، واتجهت في نفس الوقت إلى تكوين حزب بديل كانت تعتقد أنه سيكون سندها الشعبي ليضمن لها البقاء في السلطة :

وترجع أول فكرة لقيام هيئة التحرير إلى شهر أكتوبر سنة ١٩٥٢ وعن ذلك يتحدث الصاغ إبراهيم الطحاوي فيقول : في يوم من أيام أكتوبر سنة ١٩٥٢ استدعاني الأخ جمال عبد الناصر وقال لي لقد يشئت من أن تصلح الأحزاب نفسها وتسير في ركاب الأحرار ، ولذا فلا بد من إيجاد هيئة جديدة تضم العناصر الصالحة ، وسألتني ما رأيك في ذلك ؟ فوعدته بدراسة القضية ، وذهبت أبحث عن المخلصين لمعاونتي في هذه المهمة ، فبرز لي اسم الأخ عبدالله طعيمة ، وبدأنا اتصالاتنا بالمواطنين وبأهل الرأي والفكر ورجال الصحافة والسياسة الذين لم تلوّثهم الحزبية ، ووضعنا لقيام الهيئة مراحل أربعة : هي مرحلة الدراسة ، ومرحلة الدعوة ، ومرحلة التنظيم ، ومرحلة التنفيذ ، وذهبت لأعرض على الأخ جمال هذا التخطيط ، ولكنه

قال لى : إن هذه الخطوة ضعيفة ، وطلب أن أمهله بعض الوقت للدراسة ، وفى الصباح التالى استدعانى ووضع أمامى خطوط قيام الهيئة ابتداء من تسميتها واستمراراً إلى أهدافها وطريقة عملها ، وكان من الأهداف التى ذكرها عبد الناصر هى إجلاء القوات الأجنبية عن وادى النيل ، وتمكين السودان من أجل أن يقرر مصيره ، وحرية الشعب فى إقامة مجتمعه كما يريد وفقاً للدستور ، وتعزيز ميثاق جامعة الدول العربية ، والتمسك بميثاق الأمم المتحدة ...

وهكذا قامت الهيئة الجديدة إملاءً من فكر الزعيم ، على أن يبدأ بها أخلص تلاميذه إليه ممثلين فى الطحاوى وطعيمة ، وأذاعت أول بيان لها فى ١٥ يناير سنة ١٩٥٣ ثم أعلن عن تكوينها فى ٢٣ يناير سنة ١٩٥٢ بمناسبة الاحتفال بمرور ستة شهور على قيام الثورة .

ويصف الأستاذ كرم شلبى نوع التنظيم الذى يلائم فكر عبد الناصر بقوله (١) : إن عبد الناصر لم يكن مؤمناً إلا بنوع واحد من التنظيم ، ذلك هو التنظيم « السلطوى » الذى يُشكّل جماعة تؤمن بالحاكم ، وتنفذ ما يشير به وتسعى جهدها لتقود الجماهير إلى حيث يشير ، على ألا يكون لهذه الجماهير هدف آخر أو عقيدة أو نظرية تختلف مع اتجاه الحاكم ، ولقد كان ذلك واضحاً كل الوضوح فيما يُسمى هيئة التحرير .

ويلاحظ أن هيئة التحرير أعلنت أول بيان لها قبل إلغاء الأحزاب يوم واحد ، وذلك على أمل أن تستقبل الهيئة أتباع الأحزاب التى سينفرد عقدها فى اليوم التالى .

وإذا رجعنا إلى صحافة ذلك العهد وجدنا جريدة الأهرام تعلن فى أول يناير عن قيام الهيئة ، وتذكر أن أغراض الهيئة هى :

(١) بصراحة عن هيكل ص ٨٠ - ٨١

أولاً : بناء المجتمع المصرى على أسس من الإيمان بالله والوطن ، والثقة بالنفس ، والتحرر من كل استعمار سياسى أو اقتصادى أو اجتماعى .

ثانياً : كفالة الحقوق والحريات الأساسية للإنسان ، فى مجتمع شعاره الاتحاد والنظام والعمل .

ثالثاً : تهئية الشعب ، وإعداده ثقافياً وخلقياً ورياضياً ، للقيام بتبعات الوثبة التحررية والنهضة الجديدة :

. وذكرت الصحيفة أن الهيئة تدعو المواطنين للانضمام إليها .

وما كاد إعلان الهيئة يتم يوم ٢٣ يناير حتى سُخِّرَت الصحف المصرية للدعاية لها ، وفى أهرام ٢٤ يناير سنة ١٩٥٣ وهو اليوم التالى لإعلانها برزت العناوين الكبيرة « المانشات » الآتية :

هيئة التحرير تعمر كل شبر فى أرض البلد الطيب .

المصريون جميعاً ينضون تحت لوائها ، لأنها تدعو إلى الخير وتغرس مبادئه .

مراسلو الأهرام فى أنحاء الأقاليم يكتبون عن إيمان الشعب برسالة الهيئة .

وتحت هذه العناوين الكبرى تجيء كلمات طنانة كاذبة ساذجة ، تنقل

فيما يلى سطوراً منها :

مصر قد آمنت بهيئة التحرير ورسالتها ، لأن مصر أرادت أن تتحرر من القيود والأغلال التى قيدتها فى الماضى ، وتحرر من فساد الأحزاب وانحرافاتهما ، وهاهى ذى هيئة التحرير تغزو كل شبر فى أرض الوطن ، وتغرس فيه مبدأ الخير ، وقد فتح المواطنون لها قلوبهم قبل بيوتهم .

ثم تجيء بعد ذلك أحاديث فياضة عن مهرجانات واحتفالات شعبية فى حى الباطنية ، وحى الأزهر ، وفى شياخة الحمزاوى ، وفى القنطرة ، وفى الفؤادية ، وفى المطرية دقهلية ، وفى مدينة دمهور ، وأحاديث متتالية عن

مراكز شملت القطر كله فتحت هيئة التحرير ، كأنها عملية سحرت الجميع بين عشية وضحاها ١ .

ومع قيام هيئة التحرير أعان أن عبد الناصر هو السكرتير العام لها ، ووقف محمد نجيب يتحدث عن الهيئة ويثنى عليها ، ويدعو الناس للانضمام إليها لتحقيق آمالهم السياسية والاقتصادية ، ولم يكن محمد نجيب يدري أن أهم عمل ستقوم به الهيئة هو القضاء عليه ، أما جمال عبد الناصر فقد مهدت الهيئة له ليلتقى بالشعب في مقارها ليتحدث عن النعمة التي لم تفارقه طيلة عمره وهي الرجعية والانتهازية المتعاونة مع الاستعمار ومع الملك السابق ، وكان دائماً يعلن أن الرجعية متحفزة ، ويتخذ ذلك وسيلة لضرب الأبرياء (١)

هل نجحت هيئة التحرير في سد الفراغ وفي جذب الناس ؟ .

في الإجابة عن هذا السؤال نقرر أن تاريخ هذه الهيئة كان حافلاً بالتمنازى على الرغم من قصر عهدها ، فهذه الهيئة هي التي نفذت الإضراب العام في ٢٦ مارس سنة ١٩٥٤ ذلك الإضراب الشهير الذي نسب ظلاماً إلى العمال ولم يكن منظموه غير أعضاء هذا التنظيم السلطوى بالاشتراك مع جنود البوليس الحربي الذين ارتدوا ملابس العمال (٢) .

وقام المنتسبون لهذه الهيئة مع جنود البوليس الحربي بالاعتداء على مجلس الدولة ، وضرب رئيسه ضرباً مبرحاً مما أتاح الفرصة لإلغاء القرارات الديمقراطية ، ولتهيئة الجو لعبد الناصر ليتربع في دست الحكم .

وهيئة التحرير هي التي أحرق أتباعها المركز العام للإخوان المسلمين ، واستولوا على المقار المختلفة لهذه الجماعة (٣) .

(١) انظر خطابه في هيئة التحرير المنشور بجريدة المصري في ٢٦/٨/١٩٦٣

(٢) كرم شابي : بصراحة عن هيكل ص ٨٢

(٣) كلمات إبراهيم الطحاوي في شهود ثورة يوليو ص ١٩

ومن جوانب الفشل التي أحاطت بهيئة التحرير أنها ولدت من فكر الحاكم ، وكان هدفها الرئيسي أن تنقل فكره إلى الجماهير ، وتلزمهم باعتناق هذا الفكر والتصفيق له ، وهذا عكس ما عُرف عن الأحزاب السياسية التي تنبع من الشعب وتختار رئيسها ، وتكون شديدة التأثير على سير الأحداث بنقل رغبات المحكومين إلى الحكام .

وفشلت هيئة التحرير عند ما بدأ أعضاء مجلس القيادة يتقضون على الهيئة ، ويسبئون إلى سمعتها ، ويهاجمونها ، ويروى إبراهيم الطحاوى أن صلاح سالم قال له : كنت أهاجلك وأشنع عليك (١) .

وهناك أسباب فشل أخرى يرويها زعماء الانقلاب ، فإن هيئة التحرير عيّن لها حسن إبراهيم مراقباً عاماً ، ولكن الطحاوى وطعيمة استبدّوا بالأمر ، ولم يكونا يتصلان به . فشكا حسن إبراهيم ذلك إلى جمال عبد الناصر فأجابه هذا قائلاً كما يروى أحمد حمروش : « في بساطة صريحة إنهما يقومان بأعمال غير نظيفة ، لا تستطيع أنت القيام بها » (٢) .

ويقول محمد نجيب عنها إنها تكونت في ظروف لا تسمح بخلق تنظيم سياسى قوى لأنها اعتمدت على العسكريين الذين لا يحسنون فهم العقلية الشعبية ، ولا يجيدون المرونة السياسية ، وانتشر هؤلاء الضباط في تنظيمات الهيئة على امتداد الجمهورية ، وكانت الحساسية قد بدأت تظهر بين المدنيين والعسكريين بعد أن أساء عدد من العسكريين التصرف في مجالات مختلفة ، ومن هنا خلّت تنظيمات هيئة التحرير من انشغالات السياسة النظيفة ، وعفّت عن الانتساب إليها العناصر الطيبة ، ولم يعد يتهافت عليها إلا نوع جديد من المتسلقين والانهازيين (٣) .

(١) شهود ثورة يوليو ص ١٨

(٢) مجتمع جمال عبد الناصر ص ١٦٠

(٣) كلى التاريخ ص ٨٩

ويقول أنور السادات : إنه بعد حل الأحزاب نشأ فراغ ، وكان علينا أن نملأ الفراغ ، فأشأنا ما يسمى بهيئة التحرير ، ثم الاتحاد القومى ، ثم الاتحاد الاشتراكى ، وهى صيغ مستعارة من يوغسلافيا ، بعد أن توطدت علاقة عبد الناصر الشخصية بتيتو ، وكان عبد الناصر يمضى وقتاً طويلاً معه فى المناقشة ، ويُعجب بآرائه (٢) .

وطبىعى أن استعارة هذه النظم من شعب إلى شعب مع الاختلاف العميق بين الشعبين وبين الرئيسين ، عمل يحمل جذور الفشل .

لكل هذه الأسباب أسرع الوقت لزوال هذا الكائن الهزيل ، فتقرر حلها سنة ١٩٥٧ ، وزالت دون أن تترك إلا أمراً الذكريات أما الكائن الهزيل الآخر الذى سيحل محلها ، فلنا حديث معه فى حينه .

اتفاقية الجلاء

وُقِّعت اتفاقية الجلاء بين مصر وبريطانيا بالأحرف الأولى في ٢٧/٧/١٩٥٤ ثم وقَّع النص النهائي في ١١/١٠/١٩٥٤ ، وكان ذلك تنوُّجاً لجهود بدأت منذ الاحتلال ، واستمرت طيلة عهده البغيض . ومن الحق أن نقرر أن الخديوى توفيق كان من أسباب الاحتلال ، وأن سلوك فاروق كان من أسباب إطالته ؛ فقد كان من الممكن أن تنجح المفاوضات في الأربعينات ، وبخاصة عقب الحرب العالمية الثانية ، ولكن الملك كان يرى في وجود الانجليز حماية له ، ولهذا كان يستبعد حزب الأغلبية كلما خطا هذا الحزب خطوات حاسمة ضد الانجليز ، ومن أجل هذا كان القضاء على الملكية مؤذناً بنجاح المفاوضات وخروج المحتل الأجنبي .

ويلزم أن يكون واضحاً أن اتفاقية الجلاء سالفة الذكر كانت خطوة نهائية على طريق طويل خطت فيه مصر عدة خطوات قبل هذه الخطوة ؛ فن الثابت أنه منذ بدأ الاحتلال سنة ١٨٨٢ لم يهدأ للمصريين بال ، وتوالت حركاتهم من حين إلى آخر ، واشتركت في مصارعة الاستعمار أجيال وأجيال ، وواجه الانجليز مجموعة من الثورات المادرة ، كما واجهوا مجموعة من الزعماء كانت صرخاتهم قوية وأصواتهم مدوية ضد الاحتلال ، ومن هؤلاء مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ورفاهه ومصطفى النحاس وأحمد ماهر والنقراشي واسماعيل صدق ومحمد محمود ، وقد كسبت مصر الجولة إثر الجولة حسب الظروف العالمية والامكانات الداخلية ، وهناك معالم واضحة لهذا الكسب ، تحدثنا عنها في مطلع هذا الكتاب، وهى بإيجاز:

١ - تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، وقد جاء هذا التصريح من جانب واحد ، وكان نتيجة للجهود الوفيرة التى سبقته ، وبخاصة ثورة ١٩١٩ ، وفيه اعترفت بريطانيا باستقلال مصر ، واحتفظت بنقاط أربع يتم التفاهم عنها

فما بعد وهى : تأييد مواصلاتها ، وحماية مصالح الأجانب فى مصر ، وقضية السودان ، والدفاع عن مصر ضد الاعتداء الخارجى ، وبناء على إعلان استقلال مصر الذى نص عليه هذا التصريح ، خطت مصر خطوات مهمة فى المجال السياسى والاجتماعى والاقتصادى تحدثنا عنها فى الباب الأول من هذا الكتاب :

٢ - معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وقد استطاعت هذه المعاهدة أن تحل بعض الموضوعات المتعلقة ، بأن جعلت الرابطة بين مصر وبريطانيا رابطة تحالف أى أن القوات البريطانية أصبحت قوات تحالف لقوات احتلال ؛ وتركزت حماية مصالح الأجانب إلى مصر ، ونتج عن هذا إلغاء الامتيازات وتحديد إمكانية معينة للقوات البريطانية ، والعودة لقضية السودان إلى اتفاقيتي سنة ١٨٩٩ . . .

٣ - إلغاء هذه المعاهدة فى أكتوبر سنة ١٩٥١ على يد النحاس باشا ، الذى وقعها ، وكما أعلنت بريطانيا تصريح ٢٨ فبراير من جانبها ، فإن النحاس باشا قد استطاع باسم مصر لإنهاء باقى المشكلات التى كانت لا تزال معلقة بين مصر وبريطانيا ، وأعلن استرداد علاقات مصر الثامنة بالسودان ؛ وأن يسمى الملك ملك مصر والسودان ، وأعلن ضرورة جلاء الجيش المحتل دون قيد ولا شرط ، واتخذت الوزارة الوفدية الوسائل لذلك ؛ فنفعت العمال المصريين من العمل مع القوات البريطانية ، ومنعت وصول الزاد والماء إلى قوات الاحتلال ، وحرمت هذه القوات مما ألفته من ترف بهذه المنطقة ، وأحلت مكان ذلك ذعراً بدأ الفدائيون القيام به .

ولاشك أن هذه الأشياء بالإضافة إلى الاتجاه العالمى للتحرر بعد الحرب العالمية الثانية ، جعل إمكان توقيع اتفاقية مع بريطانيا أمراً سهلاً المنال .

وجاءت ثورة ٢٣ يوليو ، وكن من نقاطها الست التى أعلنها بيانها الأول القضاء على الاستعمار وأعوانه ، ولكن هذه الثورة انشغلت بتوطيد أقدامها ، وبذلت جهداً مضمناً فى هذا المجال للقضاء على الأحزاب ، ولإلغاء الدستور

ولما سُمي الإصلاح الزراعى ، ولاعتقال أعدائها ومنافسيها ، ثم لأنها فصلت قضية السودان عن قضية الجلاء ، فوقعت اتفاقية السودان فى ١٢ / ٢ / ١٩٥٣ كما ذكرنا من قبل ، وآن الأوان بعد ذلك لبدء المفاوضات مع بريطانيا .

ولعل أول خبر نشر حول هذه المفاوضات هو ما أذاعته صحيفة المصرى فى ١٥ / ٤ / ١٩٥٣ عن أن محادثات الجلاء ستبدأ بين الجانبين المصرى والبريطانى فى هذا الأسبوع ، وذكرت أن الرئيس اللواء محمد نجيب سيجتمع بسير رالف ستيفنسون السفير البريطانى لبدء المباحثات ، وقد بدأت الاجتماعات فعلا فى ٢٧ إبريل ، ولكنها سرعان ما تعثرت وأعلن الجانب المصرى لإيقافها فى ٨ مايو ١٩٥٣ ، وحدثت بعد ذلك أحداث خطيرة على الصعيد المصرى أهمها أحداث فبراير ومارس التى اتضح فيها الصراع بين جمال عبد الناصر ومحمد نجيب ، ثم إنضمام الإخوان المسلمين إلى بقية الأحزاب فى الصراع ضد الثورة ، ويبدو أن الجانب المصرى تساهل فى وقفته وقلل من طموحه ، حتى لا يواجه مشكلات بالداخل والخارج ، ويوضح خالد محي الدين هذه النقطة بقوله : عندما اشتدت المعركة بين المجلس ونجيب قابلت الصحفي الفرنسى (روجيه استيفانو) مراسل (نوفيل أوبزرفاتور) فقال لى : إن جمال عبد الناصر سيكسب المعركة لأنه (الصحفي الفرنسى) علم ذلك خلال صلاته بالسفارتين الانجليزية والأمريكية ، بسبب أن جمال عبد الناصر وأعضاء المجلس قد أبلغوهم الموافقة على اتفاقية الجلاء وإدخال تركيا أيضاً مبرراً لعودة القوات البريطانية إلى القاهرة (١).

ومن ألوان التساهل كذلك ما ذكره أيضاً خالد محي الدين من أن الثورة أرادت أن ترضى إسرائيل بالألا تجعلها تعمل على عرقلة الاتفاقية ، فأجرت اتصالات سرية مع بعض المسئولين فى إسرائيل مؤداها تطمين

(١) كلمات خالد محي الدين فى شهود ثورة يوليو ص ١٥٧

إسرائيل بأنه عند جلاء الإنجليز يمكن حل المشكلة ، ويقول خالد محي الدين إن هذه الاتصالات مع إسرائيل قام بها عبد الرحمن صادق المستشار الصحفي (١) .

وكل هذا يسر المشكلات التي كانت قائمة بين الطرفين ، فمن طريق المباحثات غير الرسمية تم حل ما كان متعثراً في المفاوضات السابقة ، ولاشك أن العمل الفدائي الذي قام به الفدائيون بقيادة كمال الدين حسين كان له أثر عند الإنجليز في ضرورة حل هذه المشكلة ، وعلى هذا أعيدت المباحثات في يوليو ١٩٥٤ ، وسرعان ما تم الاتفاق على بنود المعاهدة ، ووقعت بالأحرف الأولى في ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٤ ، ثم وقع النص النهائي في ١١ أكتوبر من نفس العام ، كما ذكرنا من قبل ، وقد تم التوقيع في البهو الفرعوني بالبرلمان ، وصدر عقب ذلك البلاغ المشترك الثاني (٢) :

وقع اليوم في القاهرة رئيس وزراء جمهورية مصر وزملاؤه أعضاء الجانب المصري ، ومستروناتج وزير الدولة بوزارة الخارجية البريطانية والسفير البريطاني ، وميجور جنرال بنسون اتفاقاً بشأن منطقة قاعدة السويس ، الغرض منه إقامة العلاقات المصرية الإنجليزية على أساس جديد من التعاون ، ولقد بذل الجانبان جهداً كبيراً للوصول إلى اتفاق واضح شامل ، يكون أداة بناءة لقضية السلام .

ملخص الاتفاقية :

أبرز ما تنص عليه هذه الاتفاقية النقاط التالية :

- انقضاء معاهدة سنة ١٩٣٦ التي كانت مصر قد ألغتها كما ذكرنا آنفاً .

(١) كلماته في المراجع السابق ص ١٦٠

(٢) صحف القاهرة في ١٢/١٠/١٩٥٤

— جلاء القوات البريطانية جلاء تاماً عن الأراضي المصرية في مدة أقصاها عشرون شهراً من توقيع الاتفاقية .

— حق القوات البريطانية في العودة لهذه القاعدة في حالة تعرض مصر أو إحدى الدول العربية المنضمة إلى معاهدة الضمان الجماعي أو تركيا إلى هجوم مسلح من الخارج ، ومن أجل هذا تبقى القاعدة في حالة صلاحة للاستعمال ومعدة للاستخدام فوراً ، ويقوم بالإشراف عليها خبراء مدنيون بريطانيون لا يتجاوز عددهم ألف خبير .

— إذا حدث ما يستدعي العودة للقاعدة فإن الجيوش البريطانية تجلو عنها بمجرد وقف القتال الذي استدعي عودتها لها .

— في حالة التهديد بحرب بالمنطقة السابقة تجرى اتصالات بين مصر وبريطانيا لتقرير ما يلزم :

— مدة هذه الاتفاقية سبع سنوات ، ويتشاور الطرفان خلال السنة الأخيرة منها لتقرير ما يلزم من تدابير .

وكان عبد الناصر هو رئيس الجانب المصري الذي وقع الاتفاقية بعد أن استُبعد محمد نجيب من المجموعة المصرية عقب أحداث مارس :

وبناء على هذه الاتفاقية تمّ جلاء القوات البريطانية عن مصر في ١٨ يونيو سنة ١٩٥٦ .

خطاب عبد الناصر عقب الاتفاقية :

ألقى عبد الناصر خطاباً أذيع بالراديو عقب توقيع هذه الاتفاقية ، وهذا الخطاب يحمل عبارات جميلة المعنى ، ولو كان صادراً من قلب مخلص لأصبح فاتحة عهد جديد ، وفيما يلي نص هذا الخطاب :

أيها المواطنون ، إن مرحلة من كفاحنا قد انتهت ، ومرحلة جديدة

توشك أن تبدأ ، هاتوا أيديكم وخذوا أيدينا ، وتعالوا نبني وطننا من جديد بالحب والتسامح والفهم المتبادل ، اللهم أعطنا العمل الذي يجعلنا نحلم بما سوف نحققه في الغد أكثر مما يجعلنا نفاخر بما حققناه في الأمس واليوم ، اللهم أعطنا الشجاعة لنستطيع أن نتحمل المسئوليات التي لا بد أن نتحملها فلا نستعين ولا نهرب منها ، اللهم أعطنا القدرة على أن نواجه أنفسنا ونتقبل أن يواجهنا الآخرون بالحق والعدل ، اللهم أعطنا القوة بقدرتك فإن الخائفين لا يصنعون الحرية ، والضعفاء لا يخلقون الكرامة ، والمترددون لن تقوى أيديهم المرتعشة على البناء . . .

نقد الاتفاقية :

قامت عاصفة نقد عقب إذاعة نصوص هذه الاتفاقية ، وكانت العاصفة مكتومة أحياناً بسبب الأحكام العرفية التي كانت معلقة على الشعب وعلى الصحف ، وكانت العاصفة واضحة أحياناً في صفوف بعض المثقفين ، ونقاط النقد تتلخص في التصريح لبريطانيا بأن تبقى لها قاعدة في بلادنا ، وفي إمكان عودة بريطانيا عند حدوث هجوم مسلح على مصر وبعض الدول العربية أو على تركيا ، وكان إدخال تركيا في هذا الأمر من الأمور المثيرة للخوف بسبب التزامات تركيا وموقعها .

والحق أنني كنت آنذاك أحس باقتناع بصلاحيّة الاتفاقية ، ولست ممن يتوقعون من الاتفاقيات أن تحقق كل الآمال ، فالاتفاقية صراع بين جانبيين ، ولا بد من التسليم ببعض المطالب لنحصل على أكثر ما نريد ، ولهذا فلأني أثبت هنا موافقتي آنذاك وموافقتي الآن على هذه الاتفاقية مع ما بها من قصور في بعض النقاط ، لقد وضعت هذه الاتفاقية نهاية لاحتلال امتد أكثر من سبعين عاماً ، وتطهرت البلاد من أقدام المحتلين ، وهذا يدفعنا لتقديم التحية لكل الزعماء وكل المناضلين الذين أسهموا في الوصول لهذه الغاية مهما اختلفت أزماتهم أو مواقعهم .

عبد الناصر والجلاء :

أترى يُعَدُّ من مكاسب مصر على يد عبد الناصر أن الاحتلال البريطاني انتهى في عهده ؟

لقد كان يطيب لنا أن نصفق لهذا المكسب ، ولكن حقائق مرة تمسك الأيدي عن التصفيق ، فإن سياسة عبد الناصر جابت لمصر اوتاً من الاحتلال أقسى من الاحتلال الأوربي ، ذلك هو الاحتلال الصهيوني بقسوته وجبروته ، الاحتلال الذي قضى على عشرات الآلاف من شبابنا في حرب بدون استعداد وبدون قيادة حكيمة ، الاحتلال الذي دمّر عدداً كبيراً من مدننا وسلب معدات حربية بمئات الملايين من الجنيهات ، واستولى على بترول سيناء وحطم اقتصادنا ، ثم إن هذا الاحتلال يعتبر سيناء أرضه ، ولا يعد نفسه دخيلاً عليها ، وعلى هذا فإنخراجه منها أشق بكثير من إخراج المحتل الأوربي .

وقد شمل الاحتلال الصهيوني شبه جزيرة سيناء ، ومد نفوذه وجبروته إلى مدن القناة ، فأخلاها من السكان ، ثم إن هذا العدو الأثيم جعلها ركازاً وخرائب ينشق فيها البوم وتعيش في فراغ مرير ، حتى أنقلها من هذا الدمار زحفُ العاشر من رمضان المجيد (٦ أكتوبر ١٩٧٣) .

وسياسة عبد الناصر لم تجلب فقط الاحتلال اليهودي إلى سيناء ، والنفوذ اليهودي إلى مدن القناة ، بل إن هذه السياسة العرجاء تعدّت ذلك بالنسبة للقطر كله ، وفي ذلك يقول الأستاذ أحمد أبو الفتح ، « إن سياسة العهد الماضي حطمت استقلال مصر ، عندما أعطت تفويضاً تاماً للاتحاد السوفيتي ليتصرف بمقتضاه كيفما شاء في قضايانا » .

وكان الرئيس أنور السادات قد كشف القناع عن ذلك في حديثه لحجة الحوادث اللبنانية الذي نشرته الأخبار في ٢٠/٣/١٩٧٥ وفيه يقول : « عام ١٩٦٧ بعد الهزيمة الأليمة المريرة التي نعرف كلنا أبعادها ، فوّضت

مصر السوفيت في الاتصال بالأمريكان والتحدث باسمنا ، وكان هذا التفويض بلا تحفظ ، فقد قالت السلطة لهم اتفقوا مع الأمريكان وما تتفقون عليه فنحن سلفاً نرتضيه ، بل خطت هذه السلطة أكثر من ذلك فطلبت قائداً سوفيتياً للطيران ليتولى قيادة سلاح الطيران المصرى ، وقائداً ليتسلم الدفاع الجوى المصرى .

ويستمر أنور السادات فيقول : لقد أحسستُ أن الاتحاد السوفيتي أصبح ولى أمرنا ، وهذا هو ما أدى إلى أن أتخذ قرارى بإخراج الخبراء السوفيت في يوليو ١٩٧٢ وكنت بذلك أقول للسوفيت إننا أولياء أمر أنفسنا ، ولسنا فى حاجة إلى تفويض أحد بعد اليوم ، وأنهيت بذلك الوكالة لنعود بعلاقتنا إلى ما قبلها ، ولتثبت أنه لا ولاية لأحد علينا ، وأتأنا أحرار فى إرادتنا وفى قرارنا (١) .

وهكذا يتضح أن سياسة عبد الناصر جلبت الاحتلال اليهودى إلى سيناء ، وجلبت النفوذ اليهودى إلى منطقة القناة ، كما جلبت النفوذ السوفيتى إلى باقى البلاد . والعجيب أن عبد الناصر كان يتحدث من حين إلى آخر عن « الاستعمار الروسى » فلم تكن رغبة السوفيت فى النفوذ والتوغل غائبة عن فكره (٢) ومع هذا فقد فتح لهم الطريق ، ولم يقفله إلا أنور السادات فى عهد النور والعبور .

فلماذا نجثنا للحديث عن جلاء البريطانيين عن مصر ، فلإننا ينبغي أن نقرر أن حدوثه كان غاية عظمى بذلت الأجيال من أجله أعظم الجهد وأغلى الدماء ، ولا يمكن أن تقلل من أهمية وقوع هذا الحدث على يد عبد الناصر مهما كان خلافتنا مع سياسته ، ولكن لا بد أن نهتم بما ذكرناه من قبل من تقدير لكل خطوات الأجيال السابقة من أجل هذا الهدف ،

(١) صحيفة الأخبار الصادرة فى ٢٠/٣/١٩٧٥

(٢) هيكل : بصرامة عن عبد الناصر ص ٦٩ و ٧٠

ولا بد أن نذكر كذلك أن عبد الناصر قبل الشرطين اللذين كانا دائماً عقبة تتحطم عليها المفاوضات بين مصر وبريطانيا ، والشرط الأول هو قبول عودة بريطانيا لاحتلال القناة إذا تعرضت مصر لخطر ، والشرط الثانى عزل مشكلة السودان عن مشكلة مصر ، وقد علق الزعيم مصطفى النحاس على المعاهدة بقوله : « إن الصخرة التى كانت تتحطم عليها المفاوضات المصرية دائماً من أجل إجلاء الإنجليز من السودان ، ولو طرحنا مسألة السودان جانباً لثم الجلاء منذ عشرينات هذا القرن (١) » .

بقى أن نذكر نقطة مهمة ترتبط بجلاء إنجلترا عن مصر ، تلك النقطة هى أن العصر عصر جلاء ، وأن الدول الأوروبية جَلَّتْ عن كل الأقطار التى كانت محتلة تقريباً ، سواء كانت بعيدة فى أقصى آسيا ، أو كانت تعيش معنا فى إفريقيا .

ولعل من الخير أن نمنح هذه النقطة مزيداً من الشرح بأن نتدارس العصرين جميعاً : عصر الاحتلال وعصر الجلاء ، لنرى كيف كانت الدول الكبرى تخلق الوسائل وتضطنع السبل لاحتلال الدول الصغرى فى العصر الماضى ، وكيف جَلَّتْ فى العصر الحاضر شأناً ولم تشأ عن كل الدول المستعمرة ، وفيما يلى نعطى بعض النماذج لخلق الوسائل فى الماضى للاحتلال :

١ — فى يونيو سنة ١٨٣٠ احتلت فرنسا بلاد الجزائر العربية ، لأن الداي سأل قنصل فرنسا عن السبب فى عدم رد ملك فرنسا على رسالته ، فأساء القنصل الجواب ، فصرخ الداي فى وجهه ملوحاً بمروحه ليخرج من حضرته ، وعدت فرنسا ذلك إهانة لها وللشعب الفرنسى وجرت الأحداث المتلاحقة التى انتهت باحتلال الجزائر .

٢ — فى ابريل سنة ١٨٨١ كانت جيوش فرنسا تقف على الحدود

(١) نقلاً عن عودة الوعى للأستاذ توفيق الحكيم ص ٥٠

الجزائرية التونسية ؛ وأشيع أن بعض القبائل التونسية اعتدت على دورية فرنسية فأمرت فرنسا جيشها بالزحف على تونس لمجرد هذه الإشاعة .

٣ - في يوليو سنة ١٨٨٢ حدث بالاسكندرية شجار بين رجل مالطي ورجل مصري ، وكان عرابي يقوم بتحسين قلاع المدينة ، فاتخذ ذلك وسيلة لاحتلال بريطانيا لمصر .

تلك هي نماذج سريعة من مظاهر عصر الاحتلال ؛ اختلاق للأسباب ليعتدى القوى على الضعيف .

فإذا نرى لو ذهبنا إلى عصر الجلاء ؟

في خلال الحرب العالمية الثانية تغيرت الأوضاع في العالم ؛ فالدول الأوروبية سقطت تحت أقدام النازي ، ودمرت قنابل هتلر مدن بريطانيا ، ونجت أوروبا من النهاية الأليمة على يد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، وانتهت هذه الحرب تاركة جراحاً غائرة في أوروبا ، وواضعة في القمة الدولتين العظيمتين ، وإذا كانت دول أوروبا لسيبت في الماضي دور الأسد ، فقد أصبحت الآن تمثل الذئب فحسب ، واحتلت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي عرش الأسود ، ومن الطبيعي أن الأسود لا تسمح للذئب بأن تمرح في الغابة وتستبد بها ، ويضاف إلى ذلك ظهور أسلحة جديدة فتاكة تقلل من قيمة الاحتلال العسكري ، كل ذلك جعل العصر الحاضر عصر جلاء ، فقد جلت بريطانيا عن دول صغيرة وضعيفة جداً أحيانا ، وجلت عن دول كانت - لظروف خاصة - ترى من صالحها أن يستمر الاحتلال ، وعندما حاولت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل احتلال منطقة القناة سنة ١٩٥٦ زجرت أمريكا وأرغمت المعتدين على الانسحاب السريع .

مرة أخرى إن هذا العصر عصر جلاء ، وقد نجحت فيه القوى الوطنية التي طالما هُزمت أمام قوات الاحتلال في العصور الماضية ، وهذا التفكير يجب أن يوضع في الميزان عند الكلام عن اتفاقية الجلاء وقيمتها .

فصل بعض أساتذة الجامعات

اشتركت الجامعات اشتراكاً تاماً في أحداث فبراير ومارس مطالبة بالدستور والديمقراطية وعودة الجيش إلى الثكنات ، وأن تحكم البلاد حكومة مدنية ، ووقفت الجامعات في هذا الشأن وقفة صارمة وشاملة ، فلم يكن هناك تردد في هذه المطالب ولا مساومة فيها ، ولم يتخلف عنها أستاذ أو طالب ، وقد شهدت جامعة القاهرة اجتماعاً حافلاً أشرنا له عند الكلام عن أحداث فبراير ومارس ، وفي هذا الاجتماع الذي حضره الألوف من الأساتذة والطلاب تحدث نخبة من الحاضرين يعلنون مطالب مصر ، وكان كاتب هذه السطور أحد المتحدثين كما أشرنا من قبل ، وكانت هناك اجتماعات مماثلة في الجامعات الأخرى .

وقامت المؤامرة التي دُمّرت الآمال واعتدت على خيرة رجالات مصر ، كما اعتدت على حقوق الشعب وطموحه ، وكانت هذه المؤامرة بتدبير جمال عبد الناصر ، وأشرف على التنفيذ صلاح سالم وحسين عرفة وإبراهيم الطحاوي وأحمد طعيمة ، وصاوى اللعين وآخرون ، وانتصر الزحف الأسود للأسف الشديد .

ومرت الأيام . . . وأوشك العام الدراسي الجديد أن يبدأ ، وكان عبد الناصر لا يقبل معارضة ، ولا يحتمل أن يسمع رأياً غير رأيه ، كما كان يعتبر ذلك معارضة ، ويحرص كل الحرص على التأييد من خلفه ، ولذلك أصدر قراراً باسم مجلس قيادة الثورة في ٢١ / ٩ / ١٩٥٤ بفصل ١٨ من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات كان بعضهم من جامعة القاهرة والبعض الآخر من جامعة عين شمس وجامعة الاسكندرية ، وكنت واحداً من هؤلاء ، وكانت هذه القائمة تشمل الأستاذ الدكتور عبد المنعم الشرقاوي والأستاذ الدكتور (٢٧م - التاريخ ج : ٩)

توفيق الشاوي والأستاذ الدكتور لويس عوض والأستاذ الدكتور
عبد العظيم أنيس .

ورفعنا شكوى إلى مجلس الدولة لطلب بطلان هذا القرار الظالم ، فأصدر
عبد الناصر قراراً بأن مجلس الدولة لا يجوز له النظر في قرارات مجلس قيادة
الثورة .

وانجهنا للعمل بالداخل كل في مجال تخصصه ، ولكن راعنا أن وجدنا
الرعب يملأ النفوس ، فليست هناك مؤسسة أو شركة أو مدرسة تقبل أن
تفتح أبوابها لمن فصله مجلس قيادة الثورة ، وأجمع الكل أن هذا نوع من
التحدى لا يطيقونه ، وخافوا أن يتعرضوا لخطط مجلس الثورة الذي كان
لا يعدل ولا يرحم .

وظهر شعاع من النور إذ أوفدت جامعة العراق مندوباً من جامعتها
ليعرض حاجة الجامعة إلى جميع الذين استغنت عنهم حكومة مصر ، وذكر
هذا أن بالعراق جامعة وطلاباً وأنهم في أمس الحاجة إلى الأساتذة من
مختلف التخصصات ، وأنها تتعهد أن تمنع هؤلاء الأساتذة من الاشتغال
بالسياسة ، وفرحنا بهذا الخبر الذي يضمن لنا العيش ويبعدنا عن حياة
القلق في مصر ، واتصلنا بالأستاذ المرحوم محمد فريد أبو حديد وكان
يومها مستشاراً فنياً لوزارة التربية والتعليم ليؤيد هذا الطلب لدى الوزير
المصري ، فحمل سيادته - رحمه الله وأثابه - هذا الخبر إلى وزير التربية
والتعليم وكان جمال سالم قائماً بعمل تلك الوزارة آنذاك ، وأيد الأستاذ فريد
أبو حديد هذا الطلب وزكاه ، وسأله القائم بعمل الوزير عن المرتبات التي
ستصرف لنا ، فنقل له رأى حكومة العراق بأنها تعطى المعارين حوالى
أربعة أمثال مرتباتهم في مصر ، فصاح جمال سالم فيه قائلاً : هل كان فصلهم
عقوبة أو مكافأة ؟ ورفض الساجح لنا بالسفر ، وخبا هذا الشعاع .

ربما تسألنى كيف استطعنا أن نعيش نحن وأسرتنا فى هذه الفترة ؟

وأجيب عن نفسى بأن المدخرات القليلة التى كانت معى سرعان ما نفدت ، وأن جميع أبواب العمل قد سدها الذعر من مجلس القيادة المرعب ، وانكشف عنا أصدقاؤنا وأقاربنا خوفاً من أن ينالهم مكروه إذا قربوا منا ، فقد كان الذعر يصور للناس أن المفصول مغضوب عليه ، وأن التعاون معه قد يجزى مزيداً من المصائب ، واتجهت لبيع قطعة من الأرض الزراعية القليلة التى ورثتها عن أبى ، ولكن الشائعات ملأت الجو صدقاً أو خوفاً بأن من يشترى أرضنا سوف ينزل به ما نزل بنا .

وأحسست أنها مؤامرة محبوكة لتجوعنا ، فاستسلمت أنا وأسرتى لها ، ورضينا بشظف العيش أو قل رضينا بالجوع ، وكنت أمسك بقوة على أحاسيسى وعواطفى وأرسم على شفتى ابتسامة رضا أقابل بها الناس حتى لا يئلم صديق أو يشمت عدو (١) .

(١) راجع دراسات تفصيلية حول هذا الحادث فى كتابنا « رحلة حياة » ص ١٤٧ وما بعدها .

حادث المنشية

أبجل هنا أن الحيرة لازمتني فترة طويلة وأنا أفكر في هذا الموضوع . وفي طريقة كتابته ، هل سأكتبه كما سمعته في حينه وكما قرأت عنه آنذاك ؟ أى أنه مؤامرة مدبّرة لاغتيال جمال عبد الناصر ؟ وهذه الصورة عاشت في ذهني طيلة عهد عبد الناصر ، وكنت أستنكرها لأنى أمقت الاغتيال وأكره الحياة في الظلام ، وعلى الرغم من وجود شبهات في نفسى عما أذيع عن خطوات القضية ، فإنه لم تتضح لى فكرة أخرى حول هذا الحادث لأن الأقلام كانت قد جفّت ، والنشر كان محرما .

هذا وجه للحادث ، ووجه آخر ظهر بعد عهد عبد الناصر يؤكد أن الحادث مفتعل ، وأنه مسرحية أُريد بها القضاء على الإخوان المسلمين ، وبالتالي على محمد نجيب في نفس الحزمة ، فهل أكتب هذا الحادث من هذه المصادر ؟

وهناك محاولاتي وفكرى ودراساتي حول هذا الموضوع طيلة عدة سنوات ، فهل أكتب هذا الموضوع من وحي عقيدتي ؟

وسر الحيرة أن الموضوع يتصل بأحكام لإعدام صدرت ونُفذت ، وأرواح أزهقت ، بل ربما كان الموت أيسر من صور التعذيب التي وقعت على الألوف من الرجال والنساء الذين أُجمعوا دون دليل ، وربما دون شبهة ، وسيقوا إلى الجحيم في أعداد هائلة ، وكثيرون منهم لم يعودوا إلى ذويهم ، وآخرون عادوا بعد أن انتهكت أعراضهم أو كادت ، وبعد عاهات تعيش معهم ماداموا أحياء .

إذا فالكتابة عن هذا الموضوع شائكة ، ولكنى مع هذا أحزم أمرى ولا أفرّ من الميدان ، وأرى أن أدوّن بصوّره المتعددة ، فأكتبه كما سمعته

وقرأت عنه في حينه ، ثم أدونه من المراجع التي ترى أنه حادث مصنوع مزيف ، وأخيراً أدون فكري مبرزاً الدعائم التي أقت عليها هذا الفكر ، ولعل ذلك أسلم طريق لنرضى الله ونرضى التاريخ :

في مساء ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٥٤ أقيم لعبد الناصر ولرفاقه حفل تكريم في حي المنشية بالإسكندرية بمناسبة توقيع المعاهدة مع بريطانيا ، وأقيم الاحتفال في سرادق ضخم ، ودُعيت للاحتفال طوائف معينة ، ونظم استعمال السرادق أدق تنظيم بحيث تجلس كل جماعة من جماعات المدعوين في مكان محدد، ذلك هو كلام إبراهيم الطحاوي ونصه : « وأثناء خطاب جمال عبد الناصر في المنشية في أكتوبر كانت هناك ثلاث هيئات بارزة مكلفة باحتلال مقاعد السرادق هي هيئة التحرير ، ومديرية التحرير ، والحرس الوطني . : »
ويومها ضرب محمود عبد اللطيف ضربته وأطلق ثمانى رصاصات على جمال عبد الناصر (١)

وكنت أستمع للخطاب بالمذيع ، وسمعت طلقات الرصاص وما حدث من هرج خفيف ، ثم استمعت لجمال عبد الناصر يستأنف الكلام ، وخرجت صحف القاهرة في اليوم التالي تتحدث عن الحادث وتدينه طبعاً ، وفيما يلي ما كتبه صحيفة الأهرام في ٢٧ / ١٠ / ١٩٥٤ :

محاولة أليمة لاغتيال الرئيس عبد الناصر

« أطلق عامل ينتمى إلى جماعة الإخوان ثمانى رصاصات على الرئيس جمال عبد الناصر في ميدان المنشية بالإسكندرية أمس . وكان الرئيس قد بدأ بخطب في الحفل الذي أقامته هيئة التحرير لتكريم الرئيس وزملائه من قادة الثورة . ولم يبلغ الجاني مأربه ، إذ نجح الرئيس من الرصاصات الغادرة ، وقد أصيب وزير المعارف بالسودان والسكرتير المساعد لهيئة التحرير بعدة جراح من شظايا ألواح من الزجاج تناثرت على أثر إطلاق الرصاص ».

(١) كلماته في جهود ثورة يوليو ص ١٨ - ١٩

« وعقب الرئيس عبد الناصر على الفور على محاولة اغتياله ، وكان تعقيبه هائلا رائعاً فذاً ، أقوى من الرصاص الذى أطلق عليه ، إذ صاح وصوته يدوى كالرعد فى الميدان انفسيح » :

دمى فداؤكم وفداء مصر ، سأعيش من أجلكم وسأموت من أجل حريتكم وكرامتكم ، فليقتلوني ، لست أبالى ما دمت قد غرست فيكم العزة والكرامة والحرية ، وإذا مات جمال عبد الناصر ؛ فليكن كل منكم جمال عبد الناصر .

وجاء فى نفس العدد : « الجماهير تقبض على الجاني وتكاد تفتك به ، ويخلصه البوليس منهم - اسم الجاني محمود عبد اللطيف محمد ، يعمل سباً فى شارع السلام بإمبابة وهو فى الثلاثين من عمره متزوج وله ثلاثة بنين وأخت ووالداه أحياء ، وقد اعتقلهم البوليس جميعاً فى مركز إمبابة للتحقيق . وكان المتهم ينتمى إلى الإخوان ، ولكنه فى المدة الأخيرة كان يذيع أنه تركهم » .

وجاء فى صحيفة الأهرام الصادرة فى ١٠/٢٩ الخبر التالى :

محمود عبد اللطيف يعترف بأن الجهاز السرى لجماعة الإخوان المسلمين سَلَّمه المسدس الذى استخدمه فى ارتكاب الجريمة ، وأعطاه جنينين للإنفاق على أسرته أثناء غيابه لارتكاب الحادث فى الإسكندرية ، وأن الأستاذ هندوى دوير المحامى فى إمبابة هو الذى حرضه وأعطاه المسدس .

ونشرت الصحف المصرية عقب الحادث أن نوبياً اسمه آدم خديوى عثر على المسدس الذى استعمل فى الجريمة وذهب به سيراً على الأقدام من الإسكندرية إلى القاهرة .

وقامت عقب ذلك حملة اعتقالات واسعة شملت آلاف أو عشرات الآلاف من الإخوان المسلمين الذين أسلموا للهلك والعناء كما رأينا عند الكلام عن

التعذيب وإحرقته هيئة التحرير المركز العام للإخوان المسلمين بالقاهرة ، واستولت الهيئة على المراكز الأخرى بالأقاليم ، ثم ألفت « محكمة الشعب » وفروعها لمحاكمتهم ، وحكمت محكمة الشعب الرئيسية التي كان يرأسها جمال سالم ويقوم بالعضوية فيها أنور السادات وحسين الشافعي بالإعدام على المرشد العام وستة آخرين من الإخوان المسلمين ذكرنا أسماءهم عن الحديث عن محكمة الشعب ، وقد خُفِّفَ الحكم على المرشد العام لكبر سنه ومرضه ، ونُفذ الحكم في الستة الآخرين ، وحكمت محاكم الشعب الأخرى بأحكام مختلفة على ٨٦٧ شخصاً ، أما من اعتقلوا ولم يقدموا للمحاكمة وتركوا للجلادين فكان عددهم يربو على الإحصاء .

وأرسل محمد نجيب برقية لجمال عبد الناصر يستنكر فيها الحادث ويتمنى لجمال الصحة والسلامة ، ثم أرسل له مندوباً للاطمئنان عليه ولتبلغه تحياته وتمنياته ، ولكن الصحف لم تشر لهذا ولا لذلك ، فذهب لزيارته عقب عودته وسأل : لماذا لم تشر الصحف إلى برقيتي ومندوبي ؟ وأجيب بأنها كثرة الأعمال والمستويات (١) .

وبعد قليل أشيع أن لمحمد نجيب صلةً بالحادث وتديره ، فتقرر تقديمه للمحاكمة ، ولكن تدخل بعض زعماء السودان فقتل الثوار بعزل محمد نجيب وتحديد إقامة وإعفائه من المحاكمة مع حرمانه من الحقوق السياسية مدة عشر سنوات (٢) .

ذلك هو الحادث كما وصفته الصحافة والإذاعة ، أو قل إن ذلك هو وصف الحادث من الزاوية الحكومية التي كانت وحدها تتكلم آنذاك . فلنتنقل إلى وصف آخر من مراجع كتبها الإخوان المسلمين .

(١) كلمتي تاريخ ص ١٤٧ - ١٤٨

(٢) أجاريشيف : ناصر ١٨٣ ومذكرات البغدادي ص ١٩١ والأهرام

يقول أ. هـ الكتاب من الإخوان : « إن المرشد العام قال لجمال عبدالناصر عندما تأزمت الأمور بين الإخوان وبين الثورة : يا جمال في الوقت الذي تشعر فيه بغضيق من الإخوان أبلغني وأنا أسلم لك مفتاح المركز العام ونقفلها حتى لا تقع فتنة ، وكان رأى الأستاذ الهضيبي واضحاً في أن أى عنف داخلي سينعكس على الإخوان بالضرر . . . ذلك هو موقف الإخوان ضد العنف ، ولو فرض وأراد الإخوان اغتيال جمال عبد الناصر لكان من الإيسر إطلاق الرصاص عليه وهو يركب عربة مكشوفة بشارع سعد ، وقد أعلن من قبل عن خطط سير الموكب . . . ومن أجل هذا ينبغي ألا تنطلي على الشعب تلك المسرحية المكشوفة ، ولكن هل تُترك للشعب أن يفكر ؟ الجواب لا ، فقد انطلقت الإذاعة والصحافة وزبانية السجون ومرترقة كل عهد فسدوا على الناس أبواب التفكير (١) » .

ويقول الأستاذ حسن عشاوى إنه فوجيء بالحادث ، وفوجيء بإستأذنه إلى الإخوان ، وقد سأل في ذلك يوسف طلعت رئيس الجهاز السرى ، فأكد أنه لا يعرف شيئاً عن ذلك ، والمفروض أنه المسئول عن الحركات السرية ، ووضح يوسف طلعت أن الخطة الموضوعة كانت تقتضى أن تجتمع اللجنة التأسيسية بعد غد ، وأنه ستعقبها مظاهرة لإعلان قراراتها ، كما أكد يوسف طلعت أنه أيقن أن الأستاذ إبراهيم الطيب المسئول عن الجهاز السرى في القاهرة لم يكلف الأستاذ هندأوى دوير بأن يعمل لاغتيال جمال عبدالناصر ، ويستنتج الأستاذ حسن عشاوى من ذلك كله أن الحادث على هذا النحو فردى بحاسب عليه فاعله .

ثم يعود الأستاذ حسن عشاوى ليذكر أنه يؤيد اتجاه الأستاذ يوسف طلعت الذى كان إيمانه يصل إلى أن الحادث ملفق . . . لأن المسافة بين مطابق النار وموقف عبد الناصر ٣٠٠ متر ، وللميل الشديد في الاتجاه ،

لإذ كان عبد الناصر يقف على منصة عالية ، ثم لوقوف عبد الناصر وراء حاجز من البشر، وذهابُ المتهم وحده دون شريك يسنده، واستعمال مسدس وهو أداة ضعيفة في مثل هذه الحال ، وعدم إصابة المدف من شخص معروف جيداً بالمهارة الفائقة ، ومعروف كذلك بأنه لا يطلق النار بغير تأكيد من الإصابة . . . كل ذلك يوحي أن الحادث غير معقول .

ويوسف طلعت كان دائماً يتساءل : أمن الممكن أن يرسل هنداوى دوير شخصاً واحداً لهذا الحادث مع أنه يستطيع أن يرسل عدة أشخاص؟ وهل يمكن أن يرسل مسدساً واحداً بدلاً من عدة مسدسات وعدة قنابل ؟

ويذكر الأستاذ حسن العشماوى أنه سمع من موظف عاين مكان الحادث رسمياً أن الحائط المواجه لإطلاق النار ليس به أى أثر لارصاص ، وأنه يعتقد أن المسدس الذى سمعت طلقاته كان محشواً بالبارود فقط دون رصاص ، وأن عبد الناصر كان يعلم سلفاً لحظة الإطلاق (١) .

ذلك هو الحادث كما يراه الإخوان المسلمون ، أما رأى الذى أدين به والذى كوّنته من دراسات وتفكير خلال ربع قرن منذ وقع الحادث حتى كتابة هذه السطور ، هذا الرأى يتخذ دعائمه من الأحداث والأقوال التالية :

أولاً : الدقة الشاملة في إعداد السرداق وتنظيم الذين يحتلون مقاعده ، وقد سبق أن اقتبسنا كلمات إبراهيم الطحاوى الذى يقرر أن هيئات ثلاثاً كانت مكلفة باحتلال مقاعد السرداق ، هى هيئة التحرير ، وعمال مديرية التحرير ، والحرس الوطنى ، وهذا يوضح أنه لم يكن هناك متعمد يمكن أن يتسلل

إليه مغامر ليعتدى على جمال عبد الناصر ، فما كان الوصول إلى المقاعد أمراً ميسوراً ، ولم يترك للجواهر إلا المقاعد الخلفية النائية .

ثانياً : قصة الجنين اللذين تحدثت عنهما الصحف المصرية وقالت إنها أعطيا لمحمود عبد اللطيف لينفق منهما على أولاده وأسرته هي في تقديري أسطورة لم يُجَدَّ حبكها ، فالمبلغ الذى يقدم لمن هو فقير ويُطلب منه أن يُقدم على هذه المغامرة لا بد أن يكون مبلغاً ضخماً ، يغرى بالإقدام على هذا الجرم .

ثالثاً : ثمانى رصاصات تنطلق من مسدس يمسك به رجل مشهود له بالدقة فى إصابة الهدف ، ولا تنجح واحدة من هذه الرصاصات فى إصابة الهدف أو إصابة أى شخص من الذين يحيطون بجمال عبد الناصر ، أو إصابة أى إنسان على الإطلاق . هذا فى تقديري مستحيل .

ثم إن المشرفين على السراق سرعان ما طمأنوا الناس ودفعوهم للهدوء ، ولو كانت هناك مؤامرة فعلاً لانفضَّ الحفل مخافة ألف يكون هناك مزيد من الرصاص .

ومما يتصل بالإصابات نذكر أن الإصابات القليلة التى حدثت كانت من زجاج انكسر ، ربما من الزجاج والجموع التى تحركت عقب الحادث ، ولم تكن هناك إصابات من المسدس على الإطلاق :

رابعاً : كانت المسافة بين المكان الذى قيل إن محمود عبد اللطيف أطلق منه النار وبين جمال عبد الناصر ٣٠٠ متر ، وكان عبد الناصر على منصة عالية ، وهذه المسافة وارتفاع الهدف يجعلان من المستحيل نجاح الخطوة وإصابة الهدف ، وبالتالي لا يقدم على هذا العمل جماعة لهم خبرات بالتخطيط والأمور العسكرية .

خامساً : من المعروف أن الإخوان المسلمين كانت عندهم ذخائر ومدمرات هائلة ، ولو اتجهوا للاغتيال لكان هناك وسائل أخرى لتحقيق هدفهم ، ومن المستحيل أن يقدموا على هذا العمل بمسدس لا يستعمل عادة إلا عند المسافات التى لا تتجاوز أصابع اليدين من الأمتار ،

وقد تحدثت الصحف آنذاك عن أسلحة ومفرقات ضبطت لدى بعض الإخوان بالاسكندرية كانت تكفى لنسف المدينة كلها^(١).

سادساً : حكاية النوبى الذى حمل المسدس سيراً على الأقدام من الاسكندرية إلى القاهرة حكاية ساذجة نقدها من النقاط التالية :

١ - كيف أتتهم محمود عبد اللطيف قبل العثور على هذا المسدس ؟ مع ملاحظة أن المسدس الذى قيل إنه وجد معه لم يستعمل ذلك المساء ؟

٢ - كيف أفلت المسدس المستعمل من الذين قبضوا على محمود عبد اللطيف ؟

٣ - لماذا لم يسلم النوبى المسدس لنيابة الاسكندرية ؟

٤ - لماذا جاء هذا الرجل سيراً على الأقدام طيلة هذه المسافة التى لا تقطع عادة سيراً على الأقدام .

سابعاً : يروى صلاح الشاهد^(٢) أنه كان يقود سيارته مساء يوم ٢٦ وسمع جزءاً من خطاب الرئيس من مذياع بالسيارة ثم سمع الطلقات ، فأسرع نحو بيت الرئيس ليكون مع أولاده فى هذه الأزمة ، ولم يجد صلاح الشاهد بالبيت اضطراباً أو ذعراً وأخذ يداعب أولاد الرئيس الذين كانوا يلعبون ، وهذا يوحى لى أن أمرة الرئيس كان تعلم سلفاً بما سيجرى ، وقد شاهد هذا الاطمئنان قبل أن يتصل بهم عبد الناصر من الاسكندرية .

(١) الأهرام فى ٨ نوفمبر سنة ١٩٥٤

(٢) ذكرى فى عهدين ص ٢٨٣

ثامناً : يروى فتحى رضوان^(٢) أن عبد الناصر كان أكبر المتحمسين لإقالة محمد نجيب فى أكتوبر سنة ١٩٥٤ ، وكان يقول : فى فبراير كان نجيب أقوى منا فكان فى إقالته ضرر للثورة ، أما الآن فقد أصبحنا أقوى منه ، وفى تأخير إقالته نفس الضرر .

وتعليقنا على ذلك أن العبارة توضح أن إقالة محمد نجيب لم تكن لانتقامه بالمشاركة فى محاولة الاغتيال ، بل للرغبة فى إقالته لأن عبد الناصر أصبح أقوى منه ، ولو كانت هناك « محاولة للاغتيال ومشاركة » من محمد نجيب فيها للزمت إقالته دون هذا التعليل الذى ذكره عبد الناصر ، وقد أشرنا لذلك من قبل .

وبناء على هذه الأشياء أعتقد أن الحادث مختلف ، وأسطورة مصنوعة ، لم يستطع مؤلفوها أن يجيدوا حبكها ، فجاءت بها هذه الثغرات التى كشفت عن حقيقتها ، ولكن ذلك كان بعد لإراقة الدماء البريئة ، وبعد تعذيب عدد هائل من أصفياء المسلمين ، وإذا كان الظلام قد أحاط بهذا الحادث فى حينه فندرج أن تكون أشعة الضوء التى دونناها كافية لإبراز الحقيقة ولإنصاف المظلومين ومعاقبة الآثمين .

واختلاق هذا الحادث يقرره محمد نجيب فى مقال له بمجلة الرأى الكويتية ، وفيه يقول : إن فكرة إطلاق الرصاص على عبد الناصر فى الاسكندرية نتجت عن مؤامرة وهمية من أولها إلى آخرها ، وكانت مرتبة بواسطة رجل من أجهزة المباحث العامة ، وقد كوفىء هذا بمنصب كبير أسند إليه ، وقد استطاع هذا الرجل استئجار شاب مصاب بجنون العظمة ، وأغراه بأنه لو اعترف بأنه حاول قتل عبد الناصر فسيتال مكافأة ضخمة ويسمح له بالهجرة خارج البلاد فلما وقع هذا فى الفخ

(١) أسرار حكومة يوليو ص ٩٢

واعترف ، صدر الحكم بإعدامه حتى يموت ويموت معه السر^(١) .

بقيت كلمة عن حادث المنشية هي أن هذا الحادث كان ضمن مجموعة من الأحداث تغلب بها عبد الناصر على ما كان يعانيه من كراهية الشعب ، وكانت هذه المجموعة من الأحداث وسائل استُغِلَّت أوسع استغلال لخلق ما يمكن أن يسمى شعبية لعبد الناصر ، وستحدث فيما بعد عن هذه الأحداث وطريقة استغلالها .

لقد كان تدبير حادث المنشية عملاً بشعاً مملوءاً بالظلم والقسوة والاستبداد ، وبه فُصِّمَت العلاقات بين الإخوان وبين الثورة ، أما الحديث عن سلسلة العلاقات كلها ، وتَتَبَّعُهَا في مراحلها المختلفة فسنعالجها في الموضوع التالي :

الإخوان المسلمون والثورة

لا يكاد الإنسان يعرف علاقات تأرجحت من أعمق الود إلى أقصى العداء ، ومن روابط التعاون إلى القطيعة والتنكيل والقتل ، كالذى حدث بين الثورة وبين الإخوان المسلمين . لقد كان للإخوان المسلمين الخطوة لدى قادة الثورة ، ويوماً بعد يوم تبدلت الأحوال وأصبحت زفرات الضباط ضد الإخوان هيباً وناراً متأججة ، وأصبح قادة الثورة يرون الإخوان ألد أعدائهم ، ولينبدأ قصة هذه العلاقات ينبغى أن نذكر كلمة عن الإخوان المسلمين ، نتعرف فيها على جهود هذه الجماعة في الميادين الدينية والاجتماعية ، ولنتكّن هذه الكلمة سطوراً نفتيسها من كتابي « رحلة حياة » في هذا الكتاب وصفهم أدق وصف حينما قلت الكلمات التالية :

لعبت هذه الجماعة دوراً إسلامياً رائعاً في حياة الصبيان والشباب والرجال ، وغرست أخلاق الإسلام في الملايين ، وجعلت الانتساب للإسلام مفخرة يعزّز بها الكثيرون ، وربطت بين جماعات المسلمين في مختلف الأنحاء ، وكوّنت من المسلمين قوة هائلة هزت غطرسة الاستعمار وقوى الغرب ، وطلّعت الصهيونية ، ودفعت إلى المكاتب والمصانع والوظائف جماعات تعرف الله وتخافه ، وبالتالي تنتج بجدّ ، وتعمل بدون رقيب من الناس ، ولا تمتد لها الشبهات ، ولا يمسها الانحراف ، وكانت كلمة من « الإخوان المسلمين » طابعاً للتنزّه عن الصغائر والبعد عن الرشوة وعن الإهمال ، ومؤشراً للحرص على أداء الواجب ، وحينما رأيت الآن رجلاً يبرز فيه هذا الطابع ، فاعرف أنه غالباً كان منتسباً لهذه الجماعة .

لو سارت جماعة الإخوان المسلمين في طريقها الإسلامي ونهجها التربوي ، لكان للمسلمين الآن شأن آخر ، ولما استطاعت قوى الشر أن تنال من المسلمين أو تعتدى عليهم ، فكم من لسان أخرسته هذه الجماعة ، وكم من

عدو توارى خوفاً من الإخوان المسلمين ، فلما اختفت هذه الجماعة ،
ظهرت أنياب الأعداء ، وأخذت تهاجم المسلمين بشراسة ، وكانت هذه
الأنياب من قبل كليله هزيمة^(١).

والنهج التربوي الذي ذكرناه آنفاً هو النهج الذي دعا إليه الإمام
محمد عبده ، والذي كان أمله لإنشاء جيل جديد فيه خلق الإسلام وروح
الوطنية . وقد ملأ الإخوان المسلمون هذا الاتجاه كما يتمناه الإمام .

ولكن ، هل يخطر بالبال أن الإخوان المسلمين كان عليهم أن يبعدوا
عن السياسة ؟

الإجابة عن هذا السؤال تقرر أن السياسة جزء من الدين ، وأن الرجل
الذي يربى تربية دينية يعرف حق الوطن والمواطن وحق الحاكم وواجباته ، وحق
المحكوم على الحاكم ، ومن هنا دخل الإخوان المسلمون ميدان السياسة ، ثم لأنهم
دخلوا ميدان الصراع ضد القوى البريطانية التي كانت تحتل بلادنا ، ولهذا
كانت لهم خبرات عسكرية ، وكان لديهم كثير من أدوات الحرب والتدمير .
ومع ما في هذا من خير ، فإن السيطرة على جماعة كبرت ، وأصبح
لها تطلعات سياسية وقدرات عسكرية لم تكن يسيرة ، فانفلت الزمام
بعض الشيء وأثهم بعض الإخوان باغتيالات سياسية واشترالك في بعض
أعمال العنف والتدمير^(٢) .

وقد قابلت الأستاذ حسن البنا أكثر من مرة ، وتحدثت إليه ، وفي حياته
وبعده قابلت كثيرين من أعضاء هذه الجماعة ، والحق أن الكثيرين ممن

(١) رحلة حياة المؤلف ص ١٣٧

(٢) اقرأ عن ذلك كتاب « لماذا اغتيل الشهيد حسن البنا » للأستاذ عبد المعال الجبري .

قابليت كان لم نهج لا يرقى لنهج المرشد العام ، فلم يكن لهم اتساع أفقه ، ولا عمق ثقافته ، ومن أبرز الأمور التي استوقفتني أن بعض أعضاء الجماعة الذين لم يتشربوا فكر المرشد العام كان الواحد منهم لا يرى في الدنيا سوى الإخوان المسلمين ، ولا يتعلم من سواهم ، ويعدُّ غيرهم فراغاً أو ضلالاً ، لدرجة أن بعض شبابهم قاطعوا وناو حسبوا أن الحديث مع غير أبناء جماعتهم خروج عما يجب أن يكون . قديكون ذلك انحرافاً من بعضهم ، ولكن ذلك كان شائعاً على كل حال ، ويدخل في نطاق ذلك صحفهم ومجلاتهم التي كثيراً ما كانت سلسلة متصلة من النقد اللاذع للمسلمين ، وكان ينبغي أن يكون الإخوان معلّمين يأخذون بيد المسلمين بالحكمة لجذبهم للطريق الصواب كما كان المرشد العام يفعل ، بدلاً من أن يقفوا وحدهم في جانب وبقية المسلمين في جانب آخر .

تلك لمحة من الدراسة العامة عن الإخوان المسلمين لم يكن منها بد ، وبعدها نعود للدراسة مراحل العلاقات بين الإخوان وقادة الثورة :

قبل الثورة :

ترجع العلاقة بين الإخوان المسلمين وبين قادة الثورة إلى فترة ما قبل الثورة ، ولعل هذه العلاقة بدأت في حرب ١٩٤٨ على رمال فلسطين حيث صارع الجيش المصري ومعه أبطال من الإخوان المسلمين ضد الصهيونية الزاحفة ، وبعده هذه الحرب اجتمع الفريقان ضد الإنجليز في القناة سنة ١٩٥١ عقب إلغاء المعاهدة ، ويتحدث الأستاذ حسن العشماوي عن هذه الصلة فيقول :

عرفت جمال عبد الناصر بحكم صلتى بالإخوان حين كان يعتبر نفسه واحداً منهم ؛ بدرب شبابهم على إطلاق النار وأعمال النسف في مركز الصف ، ويشترك مع جهازهم السرى القديم في تخطيط بعض الحوادث ، وعرفته سنة ١٩٥١ عقب أن ألغى الرئيس مصطفى النحاس معاهدة ١٩٣٦ وكان

الإخوان يشاركون في معارك السويس ، وأراد جماعة الضباط الأحرار أن يتعاونوا مع الإخوان في المعركة ، وعرفت عن عبد الناصر الشيء الكثير ، وتوثقت بيننا العلاقات بسرعة ، وشكالي كثيراً من جهالة زملائه وضيق أفقهم ، وطلب منا العون في تعليم هؤلاء الزملاء ، وكانت جماعة الضباط الأحرار أصلاً مجموعة من مجموعات الإخوان المسلمين في الجيش ، ولكنها انفصلت بفعل جمال عبد الناصر بحجة أن الشروط الخلقية المطلوبة للانضمام للإخوان تعوق أغلب الضباط عن الانضمام ، وقد ورد لنا جمال عبد الناصر وبعض رفاقه أسلحة ومعدات حربية يغلب أنها كانت مسروقة من الجيش المصري ، وطلبوا منا ثمناً رأيناه مناسباً ، وكان ما وردوه لنا بضع مدافع رشاشة ثمنها مائة وعشرة جنيهات ، أضيفت إليها خمسة جنيهات للتاجر الذي نقلها ، وخمسة أخرى كأتعاب للصاغ صلاح سالم ، وبقي عند عبد الناصر إلى اليوم ٣٨٠ جنيهاً من الخمسمائة جنيه التي سلمتها له لحساب تلك الصفقة (١) .

ويتحدث أنور السادات حديثاً طويلاً عن الإمام حسن البنا وعن الإخوان المسلمين . ويصف الإمام بأنه كان ممتزاً في اختيلره موضوعات أحاديثه ، وفي فهمه للدين ، وأنه كان مؤهلاً للزعامة الدينية ، ويقرر أنه كان يتكلم عن الدين والدنيا معاً بأسلوب جديد لم يعرفه رجال الدين ، ويقرر أنور السادات ، أنه أعجب به أيما إعجاب ، وكان يداوم على حضور درس الثلاثاء معه ، وأنه ذكر له أن هناك تديراً في الجيش لقلب نظام الحكم ، وأن تعاوناً قام بين الإخوان المسلمين وجماعة الضباط لهذا الهدف ، وانضم عبد المنعم عبد الرؤوف لتنظيم الضباط مثلاً للإخوان المسلمين (١) .

(١) حسن المشاوي : الإخوان والثورة ص ١٣ - ١٤ باختصار

(٢) البحث عن الذات ص ٣٥ وما بعدها

ويذكر أنور السادات أن الشيخ البنا اتصل بشقيقه طلعت وأخبره أن جماعة الإخوان المسلمين خصصت عشرة جنهات شهرياً لأسرة أنور السادات طيلة سجنه^(١).

ويقرر عبد اللطيف البغدادى أن تنظيم الضباط الأحرار اتصل بالإخوان المسلمين ، وبطلاب الجامعات للتنسيق بين هذه الجماعات ضد الوجود الإنجليزي بالبلاد ، وأن الشيخ حسن البنا رحب بالفكرة قائلاً : نحن ندعو إلى الدين لغرض سياسى نأمل تحقيقه ، ولنا مشايخ طرق ... وتم تعاون بين هذه الجماعات لنفس الهدف^(٢).

ويتضح من هذا أنه كانت هناك علاقة وثيقة بين الإخوان المسلمين وبين الذين أصبحوا قادة للثورة ، فلا عجب إذن إذا ظهر التعاون بين الجماعتين بعد الثورة ، ولئن كان هناك سببان مهمان باعداء بين الجماعتين وبين الوفاق التام ، وهذان السببان هما .

١ - كان الإخوان المسلمين قاعدة عسكرية مدربة مستعدة للتضحية ، وهذا أخاف قادة الثورة منهم وبخاصة عبد الناصر .

٢ - أحس ضباط الجيش أن الإخوان المسلمين يعملون لاستيعاب الضباط ، وجعل نتائج الثورة تتبع مبادئهم وتنظيماتهم ، وقد سبب هذا حساسية كانت تخفى وتظهر ثم أعلنت عن نفسها بالعداء السافر المريع ، كما سنرى في الخطوات التالية :

في مطلع الثورة :

قلنا آنفاً إنه كان هناك سببان ياعدان بين الإخوان المسلمين وبين الثوار ،

(١) البحث عن الذات ص ٩٩

(٢) مذكرات البغدادى ص ١٣ - ١٤

ولكن كانت هناك أسباب أخرى تدفع لضرورة التعاون بين الجماعتين ؛ كان عبد الناصر يُظهر التقرب منهم ليضرب بهم الأحزاب ، ومن أجل هذا اتصل بالأستاذ حسن الهضيبي طالباً ترشيح اثنين من الإخوان للوزارة ، فرشح الشيخ أحمد الباقوري وأحد اثنين من أصدقاء الإخوان هما الأستاذ أحمد حسنى أو محمد كمال الدين ، وبعد قليل حضر الأستاذ حسن العشماوى ومدير الدلة وذكر أنهما مرشحا الإخوان للوزارة ؛ كان الترشيح الأول من الأستاذ الهضيبي شخصياً ، وكان الترشيح الثانى من مكتب الإرشاد ، وقد رجّح الثوار الترشيح الأول إذ كان قد تمّ اتصال بين الثوار وبين مرشحي الأستاذ الهضيبي ، ولهذا اعتنر مكتب الإرشاد باسم الإخوان المسلمين عن الاشتراك فى الوزارة ، مما دعا الشيخ الباقورى إلى الاستقالة من مكتب الإرشاد ليصبح وزيراً للأوقاف (١)

ومن مظاهر التقرب للإخوان ما نشرته صحف القاهرة حول إعادة النظر فى قضية اغتيال المغفور له الشيخ حسن البنا ، وكانت هذه القضية قد حفظت لعدم ثبوت الاتهام ضد أحد (٢) .

ومن جهة الإخوان المسلمين كانت هناك دوافع تضطرم لتعاون مع الثوار ؛ إذ كان الإخوان المسلمون كما يصفهم الأستاذ كرم شلبي ، قوة غير انتخابية ، أى أنهم قوة مرموقة فى حقن المظاهرات والاجتماعات وتنظيم الصفوف ، ولكن جماهيرهم لا تكون نسبة من الناخبين تعطيهم الأغلبية أو ما يقرب منها ، وهم لا يرتبطون فى أذهان الناخبين ببرنامج واقعى واضح ، ولا أقصد بالبرامج البرامج المكتوبة ، بل السلوك الفعال ، وكان طابع دعوتهم العام فى ذهن الناخبين أنها دعوة أخلاقية يُعجَبُ بها الناخب ،

(١) محمد نجيب : كلمتى للتاريخ ص ٥٢

(٢) صحيفة المصرى فى ٥٢/٣/٢٦

ولكنه لا يعطيها صوته . . . تماماً كما يقبل المسلم يد إمام المسجد لكنه لا يختاره وزيراً ، فالناخب قد يذكر الإخوان عندما يفكر في الصلاة والصيام ، ولكنه لا يذكرهم عندما يفكر في أسعار القطن والمساحة المزروعة قحاً ، وفي الكساد والرواج (١) .

ونتيجة لهذا الإحساس اتجه الإخوان المسلمون ليحكموا عن طريق الثورة ، إذ إنهم فقدوا الأمل في أن يحكموا عن طريق برلمان حر يضمن لهم الأغلبية ، ونتيجة لهذا أيضاً أغرى الإخوان المسلمون حكومة على ماهر بما يسمى (التطهير) لكل من أعان الملك وأفسد الحياة السياسية ، وقد بكروا بهذا الموقف إذ أعلنوه في أول أغسطس سنة ١٩٥٢ وكانوا بذلك يحاولون القضاء على الأحزاب ليخلو لهم الجو . وفي هذا النطاق يعترف إبراهيم الطيب أن الإخوان طالبوا رجال الثورة باستمرار الحكم العسكري عشر سنوات تحت وصايتهم (٢) .

وهكذا كانت هناك منافع متبادلة بين الإخوان المسلمين من جانب وبين قادة الثورة من جانب آخر ، لتعاون المجموعتان ضد جميع المتطلعين للحياة الديمقراطية الحقيقية ، والمنادين باحترام رأى الأغلبية ، ونتيجة لاتجاه التعاون شمل المرسوم بقانون رقم ١٧٩ لسنة ١٩٥٢ الخاص بتنظيم الأحزاب السياسية بمصر عبارة تعنى الإخوان المسلمين من أن ينطبق عليهم هذا المرسوم بقانون ، وتلك العبارة هي : « ولا يعتبر حزباً سياسياً الجماعة التي تقوم على محض أغراض علمية أو اجتماعية أو ثقافية أو دينية » .

وسارت الأمور سيرتها في مظهر تعاوني ، فكانت الاجتماعات تعقد بين أعضاء مجلس الثورة وبين الإخوان المسلمين من حين إلى آخر ، وقد

(١) عشرون يوماً هزت مصر من ١٠١

(٢) الأوامر في ١٠/١١/١٩٥٤

نشرت الأهرام ان صلاح سالم سئل عن موقف رجبك الثورة من الإخوان وعن الاجتماعات التي تعقد بين الإخوان وزعماء الثورة فقال إن اجتماعاتنا بقيادة الإخوان المسلمين تقع ضمن سلسلة الاتصالات التي نقوم بها مع ذوى الرأى من السياسيين القدامى الذين لم تشبهم شائبة لتتدارس معهم القضايا المتصلة بحاضر البلاد ومستقبلها (١) .

وفي صحف القاهرة الصادرة في ٢٤/١١/٥٣ نُشر أن أعضاء مجلس الثورة تناولوا العشاء مع المرشد العام للإخوان المسلمين وظلوا يتحدثون بعد العشاء حتى منتصف الليل ، ونشرت الصحف مع هذا الخبر صوراً للزعماء من الجانبين .

ويبدو أنه بينما كانت العلاقات على هذا النحو كان الإخوان المسلمون يحاولون احتواء الثورة ، ويقول الأستاذ صلاح الشاهد إن الإخوان حاولوا احتواء الثورة منذ بدئها (٢) ويقرر محمد حسين هيكمل نفس هذا المعنى (٣) ولعله بسبب هذا الإحساس كان هناك حَدَرٌ من قادة الثورة تجاه الإخوان ، ولم يتوقف الحال عند الحذر ، بل ظهرت شائعات في سبتمبر سنة ١٩٥٣ عن حل جماعة الإخوان المسلمين ، وكان مصدر هذه الإشاعات راديو إسرائيل الذي ذكر أن الجهات المسئولة بمصر قررت حل جماعة الإخوان المسلمين ، وقد مثل جمال عبد الناصر عن ذلك فأدلى بالتصريح التالى : إن هذا النبأ ليس له أى نصيب من الصحة ؛ فلم يحدث لأحد من المسئولين أن فكر فى اتخاذ مثل هذا الإجراء مع هذه الجماعة ، وقال : إن جماعة الإخوان

(٢) صحيفة الأهرام في ٢٨/١٠/١٩٥٣

(٢) ذكرياتى فى عهدي ص ٢٤٧

(٣) بصراحة عن عبد الناصر ص ١١٩

المسلمين تقوم بنشاطها العادى فى نشر رسالتها فى خدمة البلاد وخدمة الدين ، ولم يتعرض أحد لهذا النشاط (١) .

إعلان الخلاف وحل جماعة الإخوان :

اتفق لنا مما سبق أن التعاون بين الإخوان والثورة لم يكن عميق الأسس ، ولم يكن صادراً عن حب بل عن منفعة ، ومن هنا لم يكن من الممكن أن يدوم ، وقد بدأت الخلافات تظهر خلال عام ١٩٥٣ ، ولكن الطرفين حاولا إخفاء هوة الخلافات والتظاهر باستمرار التعاون ، بيد أن حل الأحزاب والتخلص منها من جانب ، وقيام هيئة التحرير من جانب آخر كان مؤشراً لإعلان الخلافات ، إذ أراد عبد الناصر أن يوجه كل جهوده لبناء هيئة التحرير لينبئ عليها أطماعه وآماله ؛ ولم يعد فى حاجة إلى جماعة الإخوان المسلمين التى لا يمكن أن تكون أساساً سليماً لطموحه ، ويقول الأستاذ حسن المشاوى (٢) إن هيئة التحرير كانت منذ إنشائها نقطة خلاف بين عبد الناصر والإخوان ، ذلك لأن الإخوان المسلمين حاولوا عقب حل الأحزاب فى يناير ١٩٥٣ أن يوسعوا دائرة نفوذهم على حساب هذه الأحزاب ، ولكن هيئة التحرير كانت قد ظهرت قبل حل الأحزاب مباشرة لنفس الغرض .

واحتدم النزاع يوماً بعد يوم حتى ظهر على سطح الأحداث ، وكان ما أذاعته الإذاعة الإسرائيلية له جذور من الحقيقة ، ومر عام ١٩٥٣ والصراع يبرز ويخفى ، فلما أهل عام ١٩٥٤ كان السيل قد بلغ الرُبْع كما يقولون ، فصدر فى ١٢/١/١٩٥٤ قرار بحل الجماعة وكان ذلك كما يقول عبد اللطيف البغدادى على أثر الصدام الذى حدث فى الجامعة بين طلبة الإخوان والطلبة المنتمين لهيئة التحرير أى المنظمة السياسية التابعة للثورة ، وكان قرار الحل يشتمل أيضاً على اعتقال المصطفى وابنه وعدد آخر من أعضاء الجماعة ، وكذلك أفراد القسم

(١) الأهرام فى ١٣/٩/٥٣

(٢) الإخوان والثورة ص ٣٢

الخاص بالجمعية ، وكان عدد المعتقلين يربو على ٤٥٠ معتقلاً بالإضافة إلى فصل بعض الطلبة والموظفين المضمين للجمعية ، وإحالة ضباط البوليس المتتسبين إليها إلى المعاش والقبض عليهم (١) .

ولم تشأ الثورة أن تذكر العيب الحقيقي لحل الجماعة ، بل أصدر مجلس قيادة الثورة بياناً طويلاً يتهم الإخوان بأن لهم اتصلاً بالانجليز عن طريق الدكتور محمد سالم الموظف في شركة النقل والهندسة ، والذي هيا فرصة لقاء في شهر إبريل سنة ١٩٥٣ بين المستر إيفانز المستشار الشرقي بالسفارة البريطانية وبين منير الدلة وصالح أبو رفيع من الإخوان ، كما اتهم البيان المرشد حسن الهضيبي بأنه يعد جهازاً سرياً جديداً لمقاومة الثورة ومهاجمة نظام الحكم (٢) .

إعادة الجماعة في مارس سنة ١٩٥٤ :

وفي حركة فبراير وأوائل مارس سنة ١٩٥٤ كان الإخوان المسلمون منضمين إلى الجماعات المصرية المختلفة في الاحتجاج على إبعاد محمد نجيب كما ذكرنا من قبل ، وقد رأى عبد الناصر أن يبعد الإخوان عن الجموع الهادرة ضده ، فأصدر قراراً بإعادتهم قبل إصدار قرارات ٢٥ مارس التي كان قد أعد العدة للإثارة بها ، وأعد حركات إضراب ضدها كما ذكرنا من قبل ، ونشرت صحيفة الجمهورية ، وهي جريدة الثورة ، خبراً جاء فيه أنه تقرر إعادة جماعة الإخوان المسلمين وأن كل أثر لقرار حل الجماعة الصادر في يناير قد زال .

وانطَلَكَتُ الخديعة على الإخوان ، فحسبوا أن الرضا قد عاد لهم ، وتحلوا عن مقاومة الديكتاتورية العسكرية ، واتجهت جهودهم من جديد

(٢) مذكرات عبد اللطيف البغدادي ص ٩٢

(٢) محمد نجيب : كلفتى لتاريخ ص ٢١٩

لمقاومة الأحزاب السياسية والمهجوم عليها ، فكانوا بذلك يسرون في فلك الثورة ، وصدر لهم تصريح في ٢٧ مارس يقول : فيما يختص بعودة الأحزاب السياسية أملنا ألا يعود الفساد أدراجه مرة أخرى ، فإننا لن نسكت على هذا الفساد ، بل نؤيد بقوة حرية الشعب كاملة ، ولن نطلب تأليف أحزاب سياسية لسبب بسيط هو أننا ندعو المصريين جميعاً لأن يسيروا وراءنا ويقتفوا أثرنا في قضية الاسلام^(١)

وصرح الأستاذ الهضيبي بأن الجماعة قائمة وأنها أقوى مما كانت .

وقيل إنه كان للملك سعود الذي كان يزور القاهرة من يوم ٢١ مارس دور كبير في التسوية ، ففي حديث لعبد الرحمن عزام لجريدة المصري في يوم ٢٥ مارس صرح بأن الملك سعود هو الذي تكلم مع البكباشي جمال عبد الناصر شخصياً وقال له : إن مصر وهي زعيمة الدول العربية والإسلامية لا يجدر أن يكون الإخوان المسلمون فيها في المعتقلات وألا يباشروا نشاطهم^(٢) .

واعتقادی الذي تؤيده كل البراهين أن جمال عبد الناصر هو الذي أوعز بوسيلة من وسائله للملك سعود ليتوسط في الإفراج عن الإخوان المسلمين في هذه الفترة ، بدليل أن الملك سعود نفسه رفض في نوفمبر طلباً تقدم به مصطفى السباعي مراقب الإخوان في سوريا للتوسط لدى السلطات المصرية لتخفيف قبضتها على الإخوان ، وعلل الملك سعود ذلك بأنه قد يفهم منه أنه يتدخل في شئون مصر الداخلية^(٣) .

وهكذا عاد الإخوان المسلمون إلى الوجود على كل حال قبل إعلان قرارات ٢٥ مارس ، ومن أجل هذا تخلوا عن الحركات الشعبية الديمقراطية وتركوا الحركات المفتعلة تنجح وتؤيد النظام الديكتاتوري :

(١) صحف ٢٧ مارس وأحد حمروش : شهود ثورة يوليو ص ٤٤٣

(٢) المصري في ٢٦ / ٣ / ١٩٥٤

(٣) الأهرام في ١٢ / ٥ / ١٩٢٤

ولكن عمر هذه الفترة كان قصيرا ؛ فما كاد عبد الناصر يتخطى العاصفة حتى عاد للإخوان يواجههم ويطحنهم ، وكان تاريخه معهم في هذه الفترة منقسما قسمين : أحدهما قبل « حادث المنشية » والثاني يعد هذا الحادث ، وسنتحدث عن هذين القسمين فيما يلي :

قبل المنشية :

نجح عبد الناصر في فرض النظام الديكتاتوري بواسطة الذين سُخِّروا لأغراضه من عمال مديرية التحرير ، والحرس الوطني ؛ وضأوى أحمد صاوى لعنه الله ، كما ذكرنا من قبل ، وخرج عبد الناصر من الأزمة التي كان من الممكن أن تطيح به ، وبذلك لم يعد في حاجة إلى مسالة الإخوان المسلمين ، ورأى ضرورة القضاء عليهم ليخلو له الجو تماما ، ولتقطع كل السنة المعارضة ، ومن هنا بدأ يهاجم الإخوان المسلمين ، وقد أصبح الهجوم علنا ابتداء من شهر يوليو سنة ١٩٥٤ ، ولنعد إلى صحف القاهرة لتقتبس منها صورا قليلة من هذا الهجوم .

— نشرت صحيفة الأهرام الصادرة في ٢٢ / ٨ / ٥٤ أن عبد الناصر ألقى خطابا خطيرا في بعض الوفود التي كانت تزوره ، هاجم فيه المعارضين للثورة وحدد لهم بأنهم الشيوعيون والإخوان المسلمون .

— ونشرت صحيفة الأهرام الصادرة في ٦ / ٩ / ٥٤ نص خطاب جمال عبد الناصر لألوف العمال الذين التقى بهم في هيئة التحرير ، وقد تحدثهم عبد الناصر في هذا الخطاب عن أعداء الوطن وطالب الشعب بأن يؤدي واجبه ضدهم ، وروى في حديث وصفه بأنه أخوى ما يبغته الإخوان المسلمون للثورة من تنظيمات سرية مسلحة .

— ونشرت الأهرام في ٢١ / ٩ / ٥٤ حديثا لجمال عبد الناصر أعلن فيه أن الثورة ما قامت إلا لتحقيق حياة ديمقراطية على أساس متين بدون جمعيات سرية أو إرهاب أو استبداد ، وذكر أنه لن يقف أمام الثورة أى مخادع

أو مفضل من جماعة الإخوان المسلمين ، وقال إنه أبلغ زعماء سوريا بعد اجتماعهم بهم أول أمس أن الإخوان يتبعون سياسة ظاهرها الارتكاز على الدين ليستغلوا البسطاء والسذج بذلك ، أما سياستهم الخفية فهدفها تحقيق السيطرة على القوات المسلحة وقوات البوليس ، ليحققوا مصالحهم الشخصية وهي الوصول إلى الحكم :

وانتقلت العلاقة من الهجوم بالكلمة إلى الصراع والاشتباك بين أنصار جمال عبدالناصر وبين جماعة الإخوان المسلمين ، فقد نشرت الأهرام في ١١/٩/٥٤ أن اشتباكا حصل بجامع عزيز فهمي بطنطا بين الإخوان المسلمين وبين فريق من الحرس الوطني وأن إصابات حدثت ونقل المصابون إلى المستشفى .

ونشرت الأهرام في ١٥ / ٩ / ٥٤ أن عبد الحكيم عابدين والسعيد رمضان اشتركا في مؤتمر الإخوان المسلمين الذي عقد في دمشق في نفس الوقت والذي اتخذ قرارات ضد جمال عبد الناصر تتحدث عن انحرافاته في الداخل والخارج .

وفي نفس اليوم هاجم صلاح سالم الإخوان المسلمين هجوماً عنيفاً .
نشرت صحيفة الأهرام في ١٩/٩/٥٤ أن الإخوان المسلمين في مصر قرروا نقل مقرهم الرئيسي من القاهرة إلى دمشق .

وانتقلت العلاقات مرحلة أخرى من الهجوم إلى العقوبة القاسية ، فقد نشرت الأهرام في ٢٤/٩/٥٤ أن مجلس قيادة الثورة قرر حرمان بعض المواطنين وأكثرهم من الإخوان من شرف المواطن وإسقاط الجنسية المصرية عنهم وهم :

- | | |
|-----------------------|-------------------|
| — عبد الحكيم عابدين | — السعيد رمضان |
| — سعد الدين الوائلي | — محمد نجيب جويقل |
| — كامل إسماعيل الشريف | — محمود أبو الفتح |

المنشية والقضاء على الإخوان المسلمين نهائياً :

وجاء حادث المنشية في ٢٦/١٩/٥٤ الذي تحدثنا عنه من قبل ، وكان تدبيراً للقضاء على الإخوان المسلمين نهائياً ، فقد شُكِّلت محكمة الشعب لمحاكمة الإخوان المسلمين الذين اتهموا بمحاولة اغتيال جمال عبد الناصر ، وكانت نتيجة هذا الاتهام أن حكمت هذه المحكمة على بعض هؤلاء الإخوان بالإعدام وأعدموا فعلاً ، وحكمت على مئات منهم بالسجن مدداً مختلفة . ومن نتائج حادث المنشية كذلك أن اعتقل جمال عبد الناصر آلافاً تربو على الحصر من الإخوان المسلمين وعائلاتهم ، وأنزل بهم صوراً من التعذيب بعيدة كل البعد عن الإنسانية ؛ حتى كانوا يتمنون الموت ، وقد تحدثنا عن التعذيب من قبل .

وأصدرت محكمة الشعب - كما ذكرنا من قبل - قراراً يوصي بحل جماعة الإخوان المسلمين ، فُحِلَّت هذه الجماعة منذ ذلك التاريخ .

بقي معنا نقطتان جديرتان بالتسجيل هنا :

النقطة الأولى : أن بعض الممتنعين لحزب الوفد اقترح على الزعيم مصطفى النحاس أن يثور الوفديون على حركة ٢٣ يوليو عندما اتضح انحرافها وبعدها عن الدستور والديمقراطية ، ولكن الزعيم نجبرته ونفضجه رفض هذا الاقتراح وقال قولته المشهورة : إن الجيش مثل وابلور الزلط لا يقف أمامه إلا شعب مؤمن بالديمقراطية ، وقد اهتز هذا الشعب بسبب حكومات القصر والأقليات التي حكمت مصر مدداً طويلة ، ولا أوافق أبداً أن أعرض الوفديين لصدام مع جيش مصر .

ولكن الإخوان المسلمين صارعوا الجيش ، وكانت نتيجة الصراع ما رأيناه من أرواح أزهقت ، ودماء أريقت ، وأجساد عذبت ، وأعراض هتكت ، وعقائد اهتزت .

النقطة الثانية : أن الضربة الأولى التي نزلت بالإخوان المسلمين من جمال عبد الناصر وقعت كما ذكرنا آنفا سنة ١٩٥٤ ، وبالقضاء على الإخوان المسلمين اكتمل لعبد الناصر السيطرة الكاملة على البلاد دون معارضة ، فقد كانت الأحزاب السياسية قد قُضِيََ عليها من قبل ، وخلا لعبد الناصر الجو ، ومر الزمن وأمضى المسجونون من الإخوان المسلمين مدة العقوبة ، وبدأ أكثرهم يخرجون من السجن في النصف الثاني من سنة ١٩٦٤ ، ولم تطل لهم الحرية ، فسرعان مادبر عبد الناصر ضربة قاصمة أخرى للإخوان المسلمين في منتصف عام ١٩٦٥ ولنا مع هذه الضربة حديث في حينها .

ونختم كلامنا عن الإخوان المسلمين بما بدأنا به من أن الدور الذي قام به الإخوان المسلمين دور عظيم ، خلق جيلاً من المسلمين الحقيقيين ، وباختفاء الإخوان المسلمين خسرت مصر جنوداً أبطالاً في كل ميدان ، وخسر الفكر الإسلامى دعاة من أمهر وأطهر الدعاة .

حوادث سنة ١٩٥٥

عام التحول

يعتبر عام ١٩٥٥ عام تحولٍ خطيرٍ في تفكير الناس تجاه عبد الناصر ،
كان الناس جميعاً في الداخل وربما في الخارج أيضاً يكرهونه ويرونه سالماً
للسلطة ، شديد العدوان على الناس ، لا يعرف الوفاء للصديق ، ولا العدالة
مع العدو

وشهد عام ١٩٥٥ تحولاً خطيراً في هذا الموضوع اختفت فيه كراهية
الكثيرين ، وأخذ حب الناس له يغمر الجماهير وبخاصة جبل الصبيان آنذاك ،
الذي شبّ لا يرى غيره زعيماً ولم يسمع بغيره قائداً :

ماذا حدث حتى حصل هذا التحول الخطير ؟

إن الذي يدرس بوعي تاريخ هذا العام يدرك أن التحول كان طبيعياً ،
بل كان ضرورياً . لماذا ؟

لقد قضى عبد الناصر بشدة على كل القوى التي كانت تعوقه ، وتعرف
حقيقته ، وبالتالي تحول بينه وبين الانفراد بالسلطة :

قضى على الأحزاب وبخاصة حزب الوفد، ووضع زعماءه خلف القضبان ،

وألقي القبض على الشيوعيين ونفاهم بعيداً في الواحات ونكل بهم ، وتخلص من

محمد نجيب ومن كل أعوانه كما تخلص من أعوان الديمقراطية بالجيش ، وأصبح

هؤلاء بين معتقل ، وبين أسير مال ، أو أسير وظيفة ، وتعرض بعنف إلى الإخوان

المسلمين أصدقاء الأئمة ، فقتل منهم ، وعذب ، وسجن ، واعتقل ، حتى أسكت

أصواتهم تماماً ، واتجه للصحافة الوطنية التي لعبت أعظم دور في خدمة مصر

وخدمة العروبة والإسلام فأغلقها ، وسحب رخصتها ، وصادر ممتلكاتها ،

وشتت محريها ، فأصبحوا بين سجين ، ومحروم من الجنسية ، وبين هارب

هائم على وجهه ، وبين عامل في المطاحن أو في مصانع باتا للأحذية ، وأغرى بعضهم بالمال ، فانضم هؤلاء إلى صحف الثورة ، ومن الصحف التي أغلقها صحيفة المصري ، وصحيفة « الإخوان المسلمون » ، وصحيفة الجمهور المصري وغيرها ، هذا بالإضافة إلى صحف ومجلات أخرى توقفت عن الظهور لعدة أسباب أهمها أن الجولم يعد ملائماً لحرية الكلمة ، ويدخل في هذا النطاق صحيفة البلاغ التي كانت تصدر من سنة ١٩٢٣ وتوقفت في ديسمبر سنة ١٩٥٣ ، وصحيفة الأساس ، والوفد المصري ، والكتلة الوفدية ، وغيرها كثير .

وأسكت صوت الجامعات بأن فصل عدداً من خيرة الأساتذة ، وفصل وسجن عدداً من الطلاب ، وهدد الكثيرين من الأساتذة والطلاب بالفصل والتعذيب .

وأخفت صوت القضاة والمحامين عند ما أرسل زبانيته فضربوا رئيس مجلس الدولة وأعضاء المجلس وعند ما سجن وهدد سواهم من رجال العدالة . وطفى صوته واتجاهه على أصوات أعضاء مجلس القيادة واتجاهاتهم ، منذ قطع الصلة بينهم وبين وحداتهم ، وشتت أصدقاءهم ، وعاب عليهم في خطاب مكتوب ما ينشر عنهم بالصحف كما ذكرنا من قبل ، فاستكان هؤلاء ولم يعد بقاؤهم إلا ظلاً له ؛ يعينهم قضاة لمحاكمة ليحكموا بما يشاء حتى يكوّث سيرتهم ، أو يأمرهم بأى شيء فيأتمرون .

ووثق صلته بمجموعة من ضباط الصف الثاني ، ووضعهم في مراكز خطيرة بالدولة على أن يسبحوا بحمده ويحاربوا أعداءه ، وعلى أن تكون العلاقة علاقة عداة سافر وخفي معاً بالنسبة لبعضهم البعض ، وهذا يتمثل في مجدى حسنين بمديرية التحرير ، والطحاوى بهيئة التحرير ، وحسين عرفة في البوليس الحربي ، وحاتم وأمين شاكر في قطاع الصحافة

وهكذا خَفَّتْ كل صوت ينتقد عبد الناصر أو حتى يناقشه ، فلم يعد الناس يعرفون عنه أى شىء يقلل من قدره أو يسيء لاسمه .

• • •

ذلك جانب من الجانبين اللذين سبباً التحول الخطير حول عبد الناصر وهو جانب أَسْكَتْ أصوات الحق ، أما الجانب الثانى فجانب أنشَطَقَ الباطل فراح يصرخ دون هوادة باسم ناصر ، وأجاد ناصر ، وطموح ناصر ، ويحول هزائمه إلى أغنية بالنصر ، والجوع الذى ينشره إلى الثراء المأمول ، والسرقاات إلى تقديمية ، ماذا شمل هذا الجانب الإيجابي من عوامل ضللت الناس ، وجعلتهم لا يرون النور ولا الحق ، بل لا يستطيعون أن يفتحوا قلوبهم للنور أو الحق ؟ .

أول شىء عمله هو الانفراد بالظهور ، فلم يعد فى الأفق غيره ، ولا فى الهالة سواه .

وخلق هيئة التحرير ، فكانت مراكزها المختلفة تسبح دائماً بتمجيد ناصر وبطولة ناصر والآمال التى تعقد عليه .

وأخرج صحافة لا عمل لها إلا الحديث عنه والإجلال له ، ومنها جريدة الجمهورية ، ومجلة بناء الوطن ، وأخذت الإذاعة دورها كاملاً فى هذا المجال .

وألزم المعلمين بالمدارس أن يجعلوا اسمه مركز الدائرة فى كل نشاط مدرسى ، وأن يقودوا جحافل التلاميذ لترفع أصواتهم من حين إلى حين كل يوم بالأغنية المشهورة :

كلنا بنحبك ناصر وحنفضل جنبك ناصر
ونعيش ونقولك ناصر يا حبيب الكل يا ناصر

وفي ١١ حلة الإعدادية يجد التلاميذ تاريخاً مزيّفاً يملأ عليهم حياتهم ،
ويقرر فهم مجد عبد الناصر في كل علم يطرقونه ، ففي مواد اللغة العربية
أصبح عبد الناصر موصوفاً بالمحاذرة والمطالعة والإنشاء ، وفي التاريخ ظهر
عبد الناصر الخالق الأوحى لتاريخ مصر ، وفي العلوم ظهر عبد الناصر مصنّع
البلاد ، وازدانت المدارس بتأثيله وصوره في كل مكان وكل اتجاه ،
فلماذا وصل هؤلاء إلى المدارس الثانوية وإلى الجامعة وجدوا أمامهم المواد
التي توثق بنفوسهم حب عبد الناصر ، ومن هذه المواد :

— المجتمع العربي الذي كان يُدرس بالفرقة الأولى ، ويبنى كله على أن
عبد الناصر هو باني هذا المجتمع .

— ثورة يوليو وأجنادها ، وهو رائدها وعمادها ، وتدرس في
الصف الثاني .

— الاشتراكية كطريق وحيد للخير منحه عبد الناصر للناس ، وتدرس
بالصف الثالث .

وأقصى عبد الناصر معاهدة الجلاء ، وركز فضل ذلك عليه متناسيا
الجهود الجبارة والخطوات الكبيرة التي حققتها الأجيال السابقة .

ثم جاء حادث المنشية وهو حادثٌ صوّر على أنه عدوان على حياته ،
فاندفع الكثيرون للمتعاطف معه والإقبال عليه ، ربما لكرهية الناس
للاغتياي ، وربما تشفياً في الإخوان المسلمين الذين انضموا للثورة ضد الأحزاب
وضد الاتجاهات الديمقراطية ، ثم راحوا يطعنون رئيسها من الخلف ، ورجعت
أم كلثوم عن هذا الحادث أغنيتها التي مطلعها : يا جمال يا مثال الوطنية .

تلك الأغنية التي كانت « ورداً » يردّده المسجونون والمعتقلون إن أرادوا أن يخفف عنهم العذاب .

وكان صوت حادث المنشية من جانب واحد : صحف عبد الناصر والإذاعة ومحاكم عبد الناصر تتحدث كلها وباستمرار وتكرار عن جماعة الإخوان المسلمين وتصفهم بأنهم متآمرون ، خونة ، سفاكون للدماء . متعاونون مع الاستعمار ، وتتحدث عن أسلحة عثروا عليها ولقاءات تمت للتدمير والعدوان ، ولم يكن للإخوان المسلمين صوت يدافعون به عن أنفسهم أو يرددون ما ينسب إليهم ، ومن هنا فللناس العذر إن صدقوا ما تقوله أجهزة عبد الناصر .

وأنشأ المؤتمر الإسلامي وعلى أنقاضه أنشأ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية موهماً أنه يخدم الإسلام ويرعى المسلمين .

وفي سنة ١٩٥٥ جاء مؤتمر بالندونج ، وموضوع كسر احتكار السلاح ، ومعركة عبد الناصر ضد الأحلاف ، وما استلزمه ذلك من هجوم على الغرب وعلى الاستعمار ، وتأثر الغرب من عبد الناصر ، فسحبت أمريكا عرضها لتمويل السد العالي ، فاتفعل عبد الناصر وأمم القناة ، وأعلن صراعاً ضد الغرب المستعمر الذي يعادى الاستقلال والدول الحديثة الاستقلال ، وكل ذلك أسعد الشبان الذين يكرهون الاستعمار والمستعمرين ، وستكلم عن هذه القضايا في حينها ، ولكننا هنا نقول إنها كانت دعائم بُنى عليها ذلك التحول الكبير من كراهية لعبد الناصر ، إلى حبه والولاء له .

وانطلقت المؤسسات تحمل اسمه ، فبنك ناصر ، ومدينة ناصر ، وشركة النصر للسيارات . . .

وهناك وسيلة أخرى مهمة في هذا الجانب يتحدث عنها الأستاذ إبراهيم

سعد به قوله : كان عبد الناصر مكروهاً من الصحف العالمية الكبيرة ، فتولى محمد حسين هيكل تقديمه إلى كبار الكتاب بهذه الصحف ، وكان تحت يد محمد حسين هيكل ميزانية حددتها بعضهم بمليونين من الجنيهات الاسترلينية لينفق منها على عالمية عبد الناصر ، فهو الذى يختار الكتاب الأجانب ويوجه إليهم الدعوة لزيارة مصر ، وإجراء مقابلة مع عبد الناصر ؛ وهو الذى يعطى الخبر الحيد لهذه الصحيفة ، والرأى الموجه لتلك المحلة ، والخط السياسى القادم لهذا الكاتب أو ذاك^(١).

ووقع الناس فى الفخ وبخاصة صبيان ذلك العهد وشبابه ؛ واتجهت هذه القلوب البريئة إلى حب عبد الناصر ، وأصحاب هذه القلوب هم الذين يعانون الآن مشاكل الاسكان والمواصلات والتعليم والطعام وغيرها من المرافق التى دمرها الرجل الذى سبّحوا بحمده حيناً وهم لا يفقهون ، وهم الذين احتُلت بلادهم فى عهده ، وانهزم جيشهم أكثر من مرة فى عهده وقتل ذووهم ، وقبض عليهم ، وعذبوا فى عهده ، واختُلست الأموال سرّاً .وعلانية فى عهده .

إن عام ١٩٥٥ هـ عام خطير شهد هذا التحول العجيب ، وجاءت الأعوام بعده تضيف خدعة إلى خدعة ، وأكذوبة إلى أكذوبة حتى صدق الناس هذا الوهم الذى يبذل المؤرخون أقصى الجهد لإزالته .

ربما تسألنى عن دور البيت فى إرشاد التلاميذ والطلاب ، وأقول لك هو الألم يملأ نفسى إن الآباء كانوا يخافون إن تكلموا لأولادهم ضد عبد الناصر أن ينقل الأولاد لزملائهم فى سداجة هذا الاتجاه ، فيكون فى ذلك تدمير

(١) الروس قادمون ص ٢١٩

الأسرة وتعذيب عائلها ، وقد حدثت نماذج من ذلك جعلت الآباء يكتفون
عن الحديث عن عبد الناصر أمام أولادهم مسلمين أمرهم وأمر أولادهم لله .

وهكذا أصبح على المؤرخين الآن عبءٌ إحقاق الحق وإزالة
الوهم عن القلوب البريئة ، وهو ما نحاوله في هذه الدراسة :

ولنعد لرصد أحداث هذا العام •

المؤتمر الاسلامى

سبق أن ذكرنا أن كتاب فلسفة الثورة يتحدث عن دوائر ثلاث يتجه لها اهتمام « مفجر الثورة » وهى الدائرة العربية ، والدائرة الإفريقية ، والدائرة الإسلامية .

وذكرنا كذلك كلمة حسين الشافعى التى تذكر أن للثورة دوراً ستقوم به خارج الحدود فى البلاد العربية والإفريقية والإسلامية ، وهى كلمة يرجع فيها حسين الشافعى كلام عبد الناصر ، فما كان له أن يبتكر هذا الكلام من عنده .

ووضحنا آنفاً أن عبد الناصر بعد أن قضى على كل أعدائه وعلى كل المطالبين بالدستور والديمقراطية بدأ يخطط ليمسح صرحاً من الدعاية ، مهما كلفت هذه الدعاية مصر من تكاليف ، وحرمت شعب مصر من ضرورات الحياة ، فالهم أن يصبح الزعيم نجماً عالمياً لامعاً ، ولئلا يتحمل الشعب الجوع والهوان ليصل الزعيم إلى هذا الهدف .

ومن أعمال الدعاية إنشاء « المؤتمر الإسلامى » ويتحدث عنه أنور السادات فيقول فى يناير سنة ١٩٥٥ تم إعلان قيام المؤتمر الإسلامى ، وتوليت منصب السكرتير العام له ، وقد أتاح هذا لى زيارة بلاد المنطقة (١) .

وكان أمين شاكر يشغل منصب السكرتير العام المساعد ، وكان — مع آخرين — يرافقون أنور السادات فى رحلاته ، وكان مقر المجلس فى أحد القصور المصادرة بشارع حسن صبرى بالزمالك ، واجتمع به حشد من

الموطنين المصريين ، وكنت واحداً منهم فترة قصيرة من ايام كسنا
ذكرت ذلك منفصلاً في كتابي « راحة حياة » (١) .

وبسبب عملي بالمؤتمر الإسلامي ثم رحاى إلى إندونيسيا عقب ذلك أرانى
أستطيع أن أسجل بعض الحقائق التى شاهدها بنسبى :

أولاً : لم تكن العلاقة طيبة بين أنور السادات وبين أمين شاكى ،
ولم تكن طبيعتهما متماثلة ، وكان الاختلاف واضحاً فى كثير من الأمور ،
وأرجو أن يقنع القارئ بذلك القول الإجمالى . فلانى لا أستطيع أن أذكر
الأسباب التى قادتني لهذه الحقيقة ، وكان يذاع أن أمين شاكى « عين »
لعبد الناصر فى المؤتمر وصدقت ذلك عندما رأيت بنفسى أمين شاكى
وهو يوقع على بعض الأوراق باسم جمال عبد الناصر نفسه ، وسألته وأنا
مذعور عن ذلك ، فتكلم بما يفيد أنه مخول هذا التصرف .

ثانياً : طلب أمين شاكى - وكان أيضاً يشرف على مجلة بناء الوطن -
أن يتدب معه بعض أساتذة الجامعات ، وأجيب إلى طلبه ، ولكن هؤلاء
لاقوا العناء فى عملهم معه ، وكانت صرخاتهم مكتومة بعد ما حل بالجامعة
من هوان ، فكانوا يعملون ساعات طويلة بالليل والنهار ولم تصرف لهم إلا مكافأة
لا تتجاوز ١٠ ٪ شهرياً من مرتباتهم ، وهو مبلغ كان حوالى خمسة جنيهات لأكثرهم .

ثالثاً : كنت أعمل غير بعيد من رجال الصف الأول للثورة ، وجنباً
إلى جنب ، مع رجال الصف الثانى ، وقد لاحظت ملاحظة كانت تؤكد
ضرورة فشل الثوار ، ولشرح ذلك أذكر أن معرفتى بالأحزاب السياسية
كانت تفيد أن الحزب يتكوّن من قوة متماسكة متعاونة ، قد يحصل خلاف
فى داخلها ، ولكن سرعان ما يزول هذا الخلاف بالفهم أو بتر المجموعة

المتعمدة ليعود التماسك والتعاون إلى جماعة الحزب ورجاله ، ولكن الحال بالنسبة لرجال الصف الثاني كانت غير ذلك . كانت ما أشرنا إليه آنفاً من تكوين مراكز متجافية ، يكره بعضها بعضاً ، ويحقد بعضها على بعض ، ويتمنى كل فريق للفريق الآخر كل جوانب الويل والفشل ، ومع هذا فلم أستطرد بذكر شيء من الحشد الزاخر الذى امتلأت به الذاكرة من أحداث هذه الفترة (١) .

رابعا : كانت هناك بطبيعة الحال تكاليف باهظة للرحلات التى تكلم عنها أنور السادات والتى امتدت إلى أقصى الأرض ، وأستطيع أن أقرر أنه لم توجد أبداً أية فائدة لهذا المؤتمر ، ولم تكن المسألة إلا دعاية ودعوة أو تألقاً يزدهى به اسم جمال عبد الناصر بدون أية فائدة لمصر أو للعالم الإسلامى .

خامساً : عندما ذهبتُ إلى إندونيسيا معاراً للجامعة الإسلامية تنفيذاً لقرار صدر من جامعة القاهرة قبل أن أفصل منها ، وجدت من آثار رحلة أنور السادات وأمين شاكر مجموعة ضخمة من أوراق الطباعة (لفات كبيرة) أرسلت هدية من المؤتمر لإندونيسيا ، وتلقها السفارة المصرية بجاكرتا ، وإلقيت فى فئتها ، ولم نكن نعرف كيف نتصرف فى هذه الهدية ؟ وإلى من تصرف ؟ ولماذا الورق بوجه خاص ؟ وطبيعى أن هذه الهدية لم تتكرر لما اتضح عنها من جوانب الفشل .

وهناك هدية أخرى أرسلت لى بإندونيسيا لأوزعها هناك ، وهى عبارة عن بقايا مطبوعات كانت تزدحم بها مخازن وزارة التربية والتعليم ، ولم يكن سهلاً أن تجد من يأخذ هذه الهدية .

أما حاجات إندونيسيا الحقيقية ، فلم تعرف الطريق لهذا البلد الإسلامى

(١) يراجع كتابنا « رحلة حياة » ففيه بعض التفاصيل .

الكبير . كانت إندونيسيا تطلب المدرسين ، والدعاة ، والكتب الإسلامية ،
والصحف ، والمجلات ، وزيارات العلماء في كل مجال ، وكانت إندونيسيا
تطالب بمنح دراسية لبعض الطلاب الإندونيسيين طبقاً للمعاهدة الثقافية
التي وقّعت مبكرة بين مصر وإندونيسيا ، ولكن شيئاً من ذلك لم يتم ،
ولولا الأزهر الشريف الذي واصل رسالته في فتح أبوابه لطلاب العالم ،
لكانت العلاقة الثقافية بين البلدين صفرأ ، ولكن الأزهر لم يكن وحده
ما يتطلع له الإندونيسيون .

ولم يكن المؤتمر الإسلامي طويل العمر ، فقد أغلقت أبوابه في مطلع
الستينات ، وحل محله « المجلس الأعلى للشئون الإسلامية » وكان الأمين العام
له السيد محمد توفيق عويضة ، وسنتحدث عنه في حينه :

مؤتمر باندونج

عُقد مؤتمر باندونج في المدة من ١٨ إلى ٢٤ إبريل سنة ١٩٥٥ واشتركت فيه ٢٩ دولة هي الدول المستقلة في آسيا وأفريقيا آنذاك ، مما أكسب المؤتمر صفة رسمية .

وكان من بين هذه الدول تسع دول عربية هي مصر وسوريا ولبنان والسودان والعراق والأردن والسعودية وليبيا واليمن ، وقد استُبعدت إسرائيل لرفض الدول العربية حضور المؤتمر إذا حضرته إسرائيل ، كما استُبعدت دولة اتحاد جنوب إفريقيا لاتباعها العنصرية ضد الأفارقة ، ودُعيت الصين الشعبية ، ولم تدع فرموزا ، ومن هنا كان جو المؤتمر يوحى بالعداء للغرب .

ومدينة باندونج هي عاصمة جاوة الغربية ، وهي مدينة رائعة الجمال ، كستها الطبيعة مظهراً خلاباً فجعلتها تفوق أحمل مناظر سويسرا .

ورحلة جمال عبد الناصر إلى مؤتمر باندونج كانت أول رحلة له خارج البلاد ، وقد سبق هذه الرحلة عدة لقاءات بين عبد الناصر ونهرو ، ثم بين عبد الناصر وتيتو ، مما دفع عبد الناصر إلى الانغماس في السياسة العالمية .

وكان وفد مصر برئاسة عبد الناصر ، ومعه صلاح سالم ومحمود فوزي وعلى صبري مدير مكتب جمال عبد الناصر والشيخ الباقوري ، ومن الواضح أن أعضاء الوفد لم يكونوا ثقلاً يُذكر . وكان عبد الناصر هو كل شيء وقد تحدثنا من قبل عن شكوى صلاح سالم من عبد الناصر الذي أهمله خلال هذه الرحلة ولم يستشره في شيء ، ولم يعينه في اللجان المختلفة في المؤتمر ، أما الباقوري فلم يكن إلا ملائذ دينياً يظهر إذا ظهرت الحاجة الدينية إليه ، وكان محمود فوزي مشتركاً بحكم عمله وزيراً للخارجية ، أما على صبري فكان تكتة أو ظلاً لعبد الناصر .

واستغل عبده الناصر الرحلة لنفسه أحسن استغلال ، فقد غادر مصر قبل انعقاد المؤتمر بعشرة أيام زار خلالها الباكستان ، ثم زار الهند ، وأمضى بالهند عدة أيام ، وأحسن نهرو استقباله لينتفع به ضد الباكستان ، وأتاح له نهرو أن يُلقى خطاباً أمام البرلمان الهندي .

ووصل عبد الناصر إلى إندونيسيا ، وكانت أخبار استقباله في الهند قد وصلت إلى سوكارنو ، فأعدّ هذا استقبالاً حافلاً لزعيم مصر لمنافسة الهند ، وللإعتراف بجميل مصر التي كانت أول دولة اعترفت باستقلال إندونيسيا ؛ وأرسلت إليها مندوباً يحمل هذا الاعتراف ، وكان ذلك قبل ثورة ٢٣ يوليو .

وفي إندونيسيا مئات الألوف من العرب الحضارة الذين كان أجدادهم قد هاجروا إلى إندونيسيا من حضر موت ، ويشتهر هؤلاء بالكرم الرفيع وبالحفاوة البالغة بأي عربي ينزل إندونيسيا ، وقد طوقوني أنا شخصياً عندما نزلت إندونيسيا معاراً للجامعة الإسلامية ، طوقوني بكل وسائل الإكرام والإجلال ؛ وساعدوني في مهمتي أكمل مساعدة ، فمن الطبعي أن يحتفلوا بالزعماء العرب وبخاصة الزعيم الشاب الذي حرر بلاده ووقع معاهدة الاستقلال وصرخ ضد المستعمرين ، وقد بدأت إعازتي لإندونيسيا بعد شهرين من مؤتمر باندونج ، فسمعت هناك أفاصيص حية عن تكريم العرب لعبد الناصر ذلك التكريم الذي كان جارفاً وهادراً .

وتحدث المؤتمر عن التعاون الضروري بين الدول المشتركة فيه في المجالات المختلفة ، كما أبرز سياسة عدم الانحياز لأى من المعسكرين الكبيرين ؛ ويقول محمد حسين هيكل : إن دالاس كان يعتبر كلمة عدم الانحياز كلمة قدرة^(١).

(١) عبد الناصر ، العالم من ٦٨

ولما كان مؤتمر باندونج متجهاً في روحه لعداء الغرب ولماهضة الاستعمار ، فإن روسيا رحبت به باعتباره حركة ضد الإمبريالية ، ومن نتائج مؤتمر باندونج أن الاستعمار فقد قدرته على دعم أحلافه العسكرية بالوطن العربي ، وعندما انضمت العراق للأحلاف العسكرية الغربية أصبحت تعاني عزلة داخل الوطن العربي .

وفي طريق العودة من إندونيسيا زار جمال عبد الناصر أفغانستان ولقي هناك ترحيباً حاراً كان خطوة أخرى في السمعة العالمية لعبد الناصر ، ووصل عبد الناصر إلى القاهرة في ٢ مايو، وقد تحدثنا من قبل عن رفض جمال سالم الذي كان بمصر رئيساً بالنيابة أن يعقد استقبال شعبي لعبد الناصر عند عودته ولكن القوى الأخرى عارضت هذا الاتجاه وأعدت استقبالا شعبياً حافلاً فوجيء به جمال سالم عند وصوله إلى المطار ، وفي هذا الاستقبال حشدت الجماهير ، وأقيمت أنفاس النصر ، وكان خطوة مهمة من الخطوات التي أكسبت عبد الناصر شعبية واسعة .

ويقول أنور السادات: إن هذا المؤتمر أضاف الكثير إلى شعبية عبد الناصر الذي استطاع أن يقف جنباً إلى جنب مع بعض الشخصيات العالمية أمثال نهرو وشو إن لاي^(١) .

وقد سبق أن قلنا إن الروس أرضاهم هذا المؤتمر لاتجاهه لمقاومة الغرب ومقاومة الأحلاف العسكرية التي يشترك فيها الغرب ، ومن أجل ذلك أرسل خالد محيي الدين عقب هذا المؤتمر خطاباً لعبد الناصر يقول له فيه : إن شقة الخلاف بيننا تضيق ، وإحساساً بضيق الشقة أرسل عبد الناصر لخالد محيي الدين في نوفمبر سنة ١٩٥٥ يقول له : إنه يستطيع العودة لمصر ، فعاد خالد محيي الدين في ٤ ديسمبر ١٩٥٥ وكان قد أبعد عن مصر في إبريل

سنة ١٩٥٤ ، وعند ما عاد قابل جمال عبدالناصر ، وبدأ التعاون بين عبدالناصر وبين اليساريين .

باندونج مؤتمر المخاطر بالنسبة لمصر :

يقول محمد حسنين هيكل : إن عبد الناصر اتجه إلى اليسار بعد حرب السويس^(١) ، ولسنا نوافق على هذا القول ، واعتقادي أن مؤتمر باندونج هو الذي يمثل المنحنى الخطير في حياة عبد الناصر وفي حياة مصر في عهده ، وأن هذا المؤتمر كان مطلع متاعب ومخاطر عانها مصر ، وعانها إندونيسيا أيضاً ، وسنبداً القصة من أولها :

نهر و رئيس وزراء الهند والزعيم العالمي العظيم ، الذي يقود دولة تعتبر الثانية من ناحية العدد بين دول العالم ، والرجل ذو الماضي الطويل العريق في الصراع ضد الاستعمار ، هذا الرجل كان مركز الدائرة في التحول الذي حدث لعبد الناصر وللمصر ، واتخذ مؤتمر باندونج وسيلة لتحقيق هذا الهدف .

ويبغى أن نتذكر أن الباكستان كانت قد اقترعت من الهند قبل باندونج بسنوات لا تتجاوز كثيراً أصابع اليد الواحدة ، وأن الباكستان كانت تتجه للأحلاف العسكرية التي تشترك فيها دول الغرب ، فكانت عضواً في حلف بغداد ، وكان نهر و حريصاً على مقاومة هذا الحلف لصالح بلاده .

وقبل أن نسير مع الموكب المعادي للأحلاف ، ومع دور نهر و في ذلك نذكر عن هذا الزعيم أنه زار مصر في مطلع الثورة ، ولكنه كان قد اشترط قبل الزيارة أن يكون ضمن برنامج الزيارة التقاؤه بالزعيم مصطفى النحاس وحقق له ما أراد ، واعتقادي أن نهر و كان مغدوعاً بما يقوله رجال الثورة آنذاك عن الدستور والديمقراطية والانتخابات الحرة ، وكان يدرك تماماً أن.

(١) بمصرحة من عبد الناصر ص ١١٩

معنى هذا هو عوده النحاس باشا للحكم ، فأراد نهرو أن يجامله لتكون هذه يبدأ بحفظها للنحاس باشا نهرو عند ما تضعه الأغلبية في دست الحكم ، ولكن الأيام مرت واتضح أن الثوار يريدون أن يحكموا ، وأنه ليست هناك عودة للنحاس باشا ، ومن هنا اتجه نهرو إلى عبد الناصر ليحقق آماله عن طريقه في محاربة الأحلاف وفي جعل العلاقة بين مصر وباكستان فائرة .

ولنتتبع خطوات نهرو في التأثير على عبد الناصر فنجده يقف بجوار عبد الناصر معارضاً دعوة إسرائيل إلى المؤتمر مع أنها إحدى الدول الآسيوية ، وقد استطاعت إسرائيل أن تقنع مجموعة دول كولو ميو الخمس ، ولكن نهرو أيد موقف جمال عبد الناصر في ضرورة التخلي عن دعوة إسرائيل .

وخطوة ثانية خطاها نهرو للتأثير على عبد الناصر هي أنه دعاه لزيارة الهند وهو في طريقه إلى المؤتمر ، وأعد نهرو خطة استقبال لعبد الناصر تتفق مع رغبات عبد الناصر في الاهتمام بالمظاهر الشعبية ، وفي الهند هي نهرو - كما ذكرنا من قبل - الفرصة لعبد الناصر ليلقي خطاباً أمام برلمان الهند .

وخذوا سوكتارو حذو نهرو في استقبال عبد الناصر - من بين القيوف - استقبالا شعبياً حافلاً بالحماسة والقوة .

واتجه المؤتمر بكل قوته إلى دعم سياسة الحياد بين المعسكرين ، وكانت هذه النقطة أبرز النقاط التي عني بها المؤتمر ، وعاشت بعده أمنا ما قبل عن تعاون اقتصادي أو ثقافي أو سياسي فلم يكذ إلا طلاء غير مقصود ولم يظهر للوجود .

وسياسة الحياد بين المعسكرين ، ومعارضة الأحلاف العسكرية التي يشترك فيها الغرب سياسة ترضى الاتحاد الدوفتي وتغضب دول الغرب كما ذكرنا آنفاً ، وهذا جعل روسيا ترحب بالمؤتمر ، كما جعل دول الغرب تعارضه

ثما جعل السمير الأمريكى بالقاهره يعمل على ألا يشترك سمراء دول الغرب
فى استقبال عبد الناصر عند عودته من المؤتمر . ومما دفع دالاس إلى اعتبار
أن كلمة عدم الاحتراز كلمة « قلرة » .

وهكذا تحقق لهره ما أراد من هذا المؤتمر حتى يتخذ من مصر سهماً
يطعن به الباكستان ، ولم يضع نهرو هذه الفرصة ؛ بل واظب على
استخدامها ، ولذلك حضر إلى القاهرة فى ١٢ يوليو من نفس العام ليصدر
مع عبد الناصر وثيقة خطيرة جاء فيها نص على أن الاشتراك فى موائيق
وأحلاف عسكرية مع الدول الكبرى يخلق جواً يؤدي إلى الحرب ولا يندم
قضية السلام .

وانسياقاً فى هذا الاتجاه بدأت مصر جولة عنيفة فى محاربة حلف بغداد ،
وفى الهجوم على الاستعمار والمستعمرين . وجلب ذلك لعبد الناصر مزيداً
من الشهرة فى البلاد المستعمرة والتي تصارع الاستعمار . فاندفع عبد الناصر
خطوات أخرى فى هذا المجال حتى كسب شهرة عالمية بالإضافة إلى الشعبية
المصرية التي بدأت تتسع وتعمق كما ذكرنا من قبل .

ويعبر الأستاذ أحمد حروش عن تحول عبد الناصر السياسى والاقتصادى
بسبب مؤتمر باندونج بقوله : وبعد أن دخل جمال عبد الناصر نادى رؤساء
الدول المؤثرة فى السياسة الدولية بعد مؤتمر باندونج أخذ يستخدم تعبيرات
جديدة لم تكن فى قاموسه من قبل ، فاستخدم كلمة « الاشتراكية » وأعلن
أن سياسة مصر لا شرقية ولا غربية بل مصرية صميمة ، وهى الألفاظ التي
اعترض على يوسف صديق لأنه نادى بها فى خطاب بمدينة بنى سويف عام
١٩٥٢ - كما ذكرنا من قبل - وهو تغير كبير حدث فى سياسة مصر بعد
توقيع اتفاقية الجلاء وعقد مؤتمر باندونج^(١) .

(١) أحمد حروش : مجتمع جمال عبد الناصر ص ٥٦ - ٥٧

وهكذا بدأ الاتجاه لليسار وانسقنا في هذا الاتجاه ، إذ تبعه سحب أمريكا لمساعدتها في بناء السد العالي ، فتأميم قناة السويس ووصل الأمر إلى جلب الخبراء الروس ، وإلى كثير من التصرفات التي دفعتنا إلى تبعية كاملة لإحدى الدول الكبرى ، وتنويع تعبیر « عدم الانحياز » ولكن بعد خسارة كبيرة في الأرواح والعناد والأرض والزمن كما سنرى في دراستنا القادمة .

لقد سعد عبد الناصر بالجاء والصيت والاستقبالات ؛ ولكن مصر دفعت ثمن ذلك غالياً ، ويمكن القول إن إندونيسيا أيضاً خُذعت وسارت في نفس الطريق فعانت نفس الحسائر ، وأضاعت - كما أضعنا - جيلاً من الحياة ، حتى أذن الله للدولتين بالعودة إلى الطريق الصواب بعد جهد جهيد .

نتائج رشوة السودانين

سبق أن تحدثنا عن قضية السودان ، وأبرزنا الدور المحجل الذي قام به الصاغ الراقص صلاح سالم ، والذي قضى على أمل الوحدة بين مصر والسودان ، وبقيت كلمة قصيرة سبق أن أوردناها ، ولكنا نعيدها هنا لأنها من أحداث هذا العام ، وهى كلمة نفتبسها مما كتبه البغدادي ، ونصها :
فى ٢٥ أغسطس سنة ١٩٥٥ انعقد مجلس قيادة الثورة ليعرض عليه صلاح سالم موقف مصر من الاتحاد مع السودان ، ودعى لهذا الاجتماع اللواء صالح حرب ، والأستاذ خليل إبراهيم ، لإعطائنا صورة عن الموقف بالسودان ، ولقد قاما بشرح الموقف موضحين أن قيام مصر برشوة كثير من السياسيين كان له أثر مئى على أغلبية أفراد الشعب السودانى ، حتى أصبح الشك يتناول كل شخص يتعاون مع مصر لاعتقادهم أن وراء هذا التعاون رشوة حصل عليها . ثم إن مهاجمة صلاح سالم لإسماعيل الأزهري ، والاعتماد على نور الدين أضعف موقف مصر أيضاً ، لأن نور الدين رجل ضعيف ، وليس له شخصية ، والمثقفون حوله قلة لا تذكر ، وقد خلصنا إلى القول بأن الأمل فى اتحاد مصر مع السودان أصبح ضعيفاً للغاية ، وليس هناك من حل غير إعلان استقلال السودان .

ثم بدأ صلاح سالم يتكلم ، فأعطانا صورة سوداء عما يجرى بالسودان وعن الدم الذى أريق بين السودانين الشماليين والسودانيين الجنوبيين ، وبين أن ما حدث من إراقة للدماء قد التصق به على أنه هو المتسبب فيه ، وهو يخشى أن يقوم السودانيون الشماليون بالانتقام من المصريين الموجودين بالسودان لهذا السبب (١) .

وهذه هى النتيجة الطبيعية إذا اشتغل بالسياسة من لا يعرف السياسة .

كسر احتكار السلاح

كسر احتكار السلاح أغنية من أغاني عبد الناصر كان يطرب لها ويلعبها لأنه حصل على السلاح من المعسكر الشرقي ، وقد عاش عبد الناصر حتى أغلق المعسكر الشرقي باب السلاح في وجهه في أخرج الأوقات ، وبذلك كسر احتكار السلاح قُفِّلَتْ كل مصادر السلاح حتى جاء أنور السادات فأعادنا إلى المعسكر الذي كنا نتعامل معه من قبل .

عشرون عاماً ضاعت من حياتنا ثم عدنا أدرجنا كما كنا ، من المسئول عن هذا التخطيط؟ وهذه الحسارة ؟ .

ثم إن هذا التعبير غير صحيح ، فلم تكن المسألة « كسراً لاحتكار السلاح » وإنما كانت تحولاً من معسكر نشترى منه السلاح إلى معسكر آخر .

وكانت الحجة في جلب السلاح هي أن نستطيع مواجهة إسرائيل ، وإسرائيل مرض مرير غرسه الغرب أولاً والشرق ثانياً في قلب العالم العربي ، ولكن جلب السلاح من روسيا دفع الولايات المتحدة إلى أن تقدم لإسرائيل حشداً هائلاً ومتطوراً من السلاح ، وأن تكون معها في موقفها ، وعلى هذا فجلب السلاح لم يجلب النصر وبخاصة في عهد عبد الناصر الذي كان الجيش في عهده بعيداً عن العسكرية والتفوق ، مما جعل جلب السلاح ليس إلا وسيلة لتحصيل إسرائيل على السلاح الروسي عن طريق هزائم أوقعتها بعيد الناصردون حرب في سنتي ١٩٥٦ و١٩٦٧ بالإضافة إلى السلاح الغربي الذي كانت تحصل عليه أمريكا .

ثم إن الاتجاه لكسر احتكار السلاح لم يكن من ابتكار الثوار ، فإن وزارة الوفد الأخيرة أرسلت بعثة إلى أوروبا في سبتمبر سنة ١٩٥١ لمحاولة التعاقد مع شركات أسلحة فرنسية وبلجيكية وهولندية وألمانية لتسليح الجيش المصري ، وقد كتب مصطفى نصرت وزير الحربية ورئيس البعثة

عدة تقارير عن إنجازات البعثة في هذه البلدان ، وإذا تمكنت البعثة من إتمام عقد بعض الصفقات مع الشركات السويدية والسويدية والفرنسية ، كما حصلت على عروض لتوريد عربات وجارات للمدافع من شركات ألمانية وفرنسية وإيطالية ، كما تقدمت لها عروض من الحكومة التشيكوسلوفاكية بتوريد معدات حربية أخرى^(١).

ذلك هو كسر احتكار السلاح الحقيقي ، أما ما عرفناه في عهد عبد الناصر فلم يكن إلا تحولا من مكان إلى مكان كما ذكرنا .

وإذا عدنا إلى صفقة الأسلحة التي عقدها مصر في عهد عبد الناصر مع تشيكوسلوفاكيا نجد أنها كانت متصلة بصراع عبد الناصر ضد الأحلاف الذي شرحناه من قبل ، يقول أنور السادات :

لم تقتصر مقاومتنا لحلف بغداد على رفض الانضمام إليه ، بل شملت جهوداً مكثفة من جانبنا لمنع بعض بلاد المنطقة العربية من دخوله كالأردن ولبنان ، وفعلنا نجحنا في ذلك مما أوغر صدر بريطانيا وأمريكا فأوعزتا إلى إسرائيل بالانتقام منا ، وكانت النتيجة غارة مفاجئة على غزة في ٢٨ فبراير سنة ١٩٥٥ ، وهو تاريخ يمكن اعتباره نقطة تحول في تاريخ مصر والثورة والمنطقة ، لأننا شعرنا بحاجتنا إلى السلاح مما أدى في النهاية إلى عقد أول صفقة أسلحة مع السوفييت بعد تدخل نهر وشواين لاي لإقناع روسيا بذلك^(٢) .

وتفاقت نتائج هذه الصفقة يوماً بعد يوم ، فقطع عبد الناصر علاقاته بأمریکا والغرب والعرب وإيران ، ولم يبق له إلا السوفييت ، وانتزح هؤلاء فرصة انفرادهم به فعاماوه معاملة أبعد ما تكون عن الكرم والكرامة لدرجة أن

(١) صلاح الشاهد : ذكرياتي في عهدي من ص ٢٦٠

(٢) البحث عن الذات ١٧٨

شواين لاي يرى أن السوفيت هم الذين قتلوا عبد الناصر كدأ ، ويوافقه على ذلك أنور السادات (١) .

وهكذا جاءت نتيجة هذه الصفقة المشتومة أو قل إن سلسلة الشؤم بدأت من مؤتمر باندونج الذى سخره نهرو ليحقق غرضه فى عزل الباكستان عن مصر وعن العرب وليقضى على عبد الناصر الذى ظن أن فى إمكانه أن يقف على قدم المساواة بين زعماء العصر .

وكسب عبد الناصر هالة عالمية ذات بريق لامع ، ولكن مصر خسرت الكثير من وراء هذا البريق .

حوادث سنة ١٩٥٦

شهدت سنة ١٩٥٦ أحداثاً خطيرة جداً تركت آثارها على مصر طيلة عهد طويل وأهم هذه الأحداث مايلي :

١ - تحول عبد الناصر إلى اليسار .

٢ - ظهور دستور عبد الناصر واتجاهات عبد الناصر في الانتخابات والاستفتاءات .

٣ - العدوان الثلاثي .

وستنكلم فيما يلي عن أحداث هذا العام :

عبد الناصر والشيوعية

ذكرنا من قبل أن عبد الناصر اندفع وراء نهرو لمهاجمة الأحلاف ، وبالتالي لمهاجمة الغرب ، ووضحنا أن هلف نهرو من ذلك كان خدمة بلاده ضد الباكستان التي كانت عضواً في الأحلاف الغربية ، ولكن عبد الناصر لم يدرك هذه السياسة وسقط ضحية أطماعه في أن يكون له شعبية عربية ، ومكانة عالمية بين أساطين العصر ، وطبعاً أن الغرب بدأ يصارع عبد الناصر ، وهذا دفع عبد الناصر إلى خطوات أخرى في مصارعة الغرب ، وبالتالي إلى مزيد من التقرب من الشيوعيين والماركسيين .

« وبين أيدينا كتاب كتبه باحثان من الاتحاد السوفيتي يوضحان به تطور الاتجاه الناصري نحو الشيوعية ، يقول هذان الكاتبان :

« استقبل الشيوعيون بمصر بدهشة وأمل عظيمين خطوات عبد الناصر على المسرح الدولي ، وبخاصة توقيع المعاهدات مع الاتحاد السوفيتي لتوريد الأسلحة ، وعقد كثير منهم الأمل على أن هذا سيحطى دفعة جديدة للتقدم المستمر ،

والتطور الواسع لحركة التحرر الوطني المناوئة للامبريالية في سائر البلدان العربية ؛ واشتد داخل البلاد الإيمان بأن النظام سوف يطمح باطراداً للتصادم مع الشيوعيين والماركسيين بل للتعاون معهم ، ومنذ أواسط الخمسينات كف الشيوعيون عن نقد السياسة الخارجية والداخلية للسلطات الحاكمة .

« وبعد مؤتمر باندونج أخذ دور مصر في حركة مناوئة للامبريالية — وبخاصة في السنوات العاصفة للنضال ضد حلف بغداد — يحظى بالامتنان الواسع ، وتحول الشيوعيون إلى القوة السياسية المرموقة في البلاد التي تدافع عن مصالح وطنها ، وعن البلدان العربية الأخرى بصلافة ، وبصورة مستدرة ، ورفعت مصر شعار الحياد الإيجابي ، وترتب على ذلك أن أيد الاتحاد السوفيتي هذا الاتجاه ، وبالتالي نشأت إمكانية قوية لتوحيد كل القوى الحقيقية المناوئة للاستعمار^(١) » .

وقبل أن نستطرد في الاقتباس من هذين الكاتبين نقف هنا وقفة لنعلق على الفقرة الأخيرة التي تعترف بأن شعار الحياد الإيجابي كان معناه توحيد دول عدم الانحياز مع الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية الأخرى ، فكان موقف دول آسيا وأفريقيا لم يكن حياداً ، وإنما كان انتقالاً وتعاوناً مع الاتجاه الشرقي الشيوعي .

ويستمر الكاتبان الروسيان في وصف اتجاه عبد الناصر نحو الشيوعية فيقولان : في سنة ١٩٥٦ حصل الشيوعيون المصريون على كل فرص تنشيط عملهم ، فقد نشطوا في النقابات والمنظمات الطلابية والفلاحية ، ووفقاً لتوجيهات عبد الناصر ظهر الشيوعيون وذوو الميول التقدمية في إدارات

(١) دكتور إيفورييلياف ودكتور افيني بريماكوف : مصر في عهد عبد الناصر

تحرير الصحف المصرية ابتداء من عام ٥٦ . وهُيئت لهم إمكانيات طيبة في جريدة المساء القاهرية ، وجدد المجلس الوطني لأنصار السلام نشاطه في مصر ، ودخل الماركسيون ومشاهير الشخصيات التقدمية في البلاد إلى وحدانه التقدمية ، وأتيحت الظروف الحقيقية لأعمال النضال السياسي الفعال للعاصر الماركسية (١) .

بين المومية والشيعية :

وإذا أردنا أن نستطرد لتتعرّف على سير الحركة الماركسية بمصر بعد ذلك فإننا نقرر أن هذه الحركة استمرت في تقدمها وسيطرتها على مؤسسات كثيرة بالدولة وبخاصة وسائل الإعلام فقد غزا الشيوعيون جهاز الإذاعة والتلفزيون وغيرهما ، ثم حدثت فترة تراجع للذكر الماركسي بمصر خلال الوحدة بين مصر وسوريا إذ اتجه عبد الناصر إلى شعار جديد هو شعار (القومية العربية) وكان يطمح عن طريق هذا الشعار أن يوسع سلطانه في بلاد عربية متعددة ؛ ومن المعروف أن النظام الشيوعي يتعارض مع فكرة القومية : فكل اتجاه للناحية القومية ضربة إلى الشيوعية التي تهدف إلى القضاء على القوميات والأديان والوطنية ليقى شعار واحد هو الشيوعية .

وبينما كانت (القومية العربية) تتحدث حركة تباعد بين عبد الناصر والشيوعيين كان العرض السوفيتي لإنشاء السد العالي يقرب بين عبد الناصر والشيوعية ، وعاش هذا التآرجح حتى سنة ١٩٦٤ حيث اتخذ جمال عبد الناصر قراراً بالإفراج عن كل الشيوعيين الذين كانوا قد اعتقلوا في الفترة السابقة ، فكان لهذا القرار تأثير بالغ على تطور الوضع السياسي الداخلي بمصر ، ويقول الكاتبان الروسيان إن هذا القرار كان شاهداً على التطور الكبير الذي حدث لعبد الناصر نفسه ، وللبعض المحيطين به من الشخصيات السياسية ورجال الدولة ،

إد نُبئت اذِيات الحائِة بِمصر شعارات الشيوعيين ونَفذت الكثير منها ، وقد مهد هذا التعاون بين السلطة الحاكمة بِمصر وبين الشيوعيين لقرار حاسم اتخذته الجماعات الشيوعية بمصر في صيف ١٩٦٤ هو أن اجتمع ممثلو هذه الجماعات واتخذوا قراراً بحلها إذ لم يعد هناك سبب للازدواج بعد أن أصبح عبد الناصر وحكومته يتبنون الشعارات الشيوعية وينفذونها (١) .

وبسط الماركسيون بذلك مزيداً من النفوذ للتأثير على الجماهير بواسطة المجلات النظرية للاتحاد الاشتراكي العربي (الطليعة) و (الكاتب) وكذلك بواسطة معهد البحوث الاشتراكية الذي كانت له شبكة واسعة من الفروع الدراسية في أنحاء البلاد ، وكذلك في البرامج المعدة للدورات المختلفة لمنفذى وظائف الاتحاد الاشتراكي العربي ، ومنظمة الشباب ، وكان هناك انطباع واضح بأن نفوذ الشيوعيين كان من سياسة عبد الناصر نفسه ، بل إنه طالما لجأ إلى معونة العناصر الماركسية لإعداد وتنفيذ العماليات المختلفة الموجهة ضد الرجعية المصرية والعربية ، وكان عبد الناصر يقتبس في خطبه كثيراً مما تنشره المجلات الشيوعية (٢) .

واتجه عبد الناصر وهو يبني نظامه الاشتراكي بمصر إلى الانتفاع بالبناء الاشتراكي في الاتحاد السوفيتي ، وبالماركسية اللينينية بوجه عام ، وهكذا كان إطلاق سراح جميع الشيوعيين المصريين من معتقلاتهم عام ١٩٦٤ خطوة محسوبة من جانب السلطات المصرية ، وقد ضمنت هذه الخطوة لعبد الناصر أن أصبح له مناصرون ومؤيدون في كل البلدان العربية من الشيوعيين والشخصيات التقدمية ، وبهذا أصبح على صلة بالأحزاب الشيوعية والمنظمات

(١) مصرفي عهد عبد الناصر ص ٢٣٠

(٢) المرجع السابق ص ٢٣١

الديمقراطية بالسودان والأردن ولبنان والبلدان العربية الأخرى (١) .

وإذا كان عبد الناصر قد ارتبط بالشيوخين بالبلاد العربية فإن علاقته قد انفصلت مع الغالبية العظمى بمصر وبالبلاد العربية ، فقد كانت هذه الغالبية تكره الشيوعية ، وترى فيها خطراً على القيم والأديان والأوطان . وجاءت حرب ١٩٦٧ وهزأتها المدمرة والبلاد تعاني من هذا الاضطراب الذى ظل حتى اختفى عبد الناصر .

(١) المرجع السابق ص ٢٣٤

إتمام الجلاء

سبق أن تحدثنا عن اتفاقية الجلاء ، ووضحت أنني أؤيد هذه الاتفاقية ولا أوافق على الهجوم الذي حصل سرّاً أو علانية عليها ، وكل ما أذكره مرتبطاً بها أنها كانت الحلقة الأخيرة من حلقات السير بالعلاقات المصرية البريطانية كما أوضحْتُ ذلك عند شرح العلاقات المصرية البريطانية بالجزء الخامس من هذه الموسوعة ، وأنه عند الحديث عنها يتحتم أن نذكر بالثناء والإجلال كل القوى التي سبقتها وساعدت على الوصول لها .

وبناء على هذه المعاهدة تمّ سحب القوات البريطانية من مصر في يوم ١٣ يونيو سنة ١٩٥٦ ، وفي يوم ١٨ يونيو أقيم حفل في بورسعيد لرفع العلم المصري على سارية مبنى البحرية الذي كانت تشغله القيادة البريطانية ، وقد رفع جمال عبد الناصر هذا العلم بعد أن قبّله هو وأعضاء مجلس القيادة ، وانتهى بذلك الاحتلال المقيت الذي دام أربعة وسبعين عاماً ، واعتبر ذلك اليوم عيداً قومياً لمصر منذ ذلك التاريخ .

الدستور ونهاية فترة الانتقال

قلنا من قبل إن عبد الناصر قرر قيام فترة انتقال مدتها ثلاث سنوات تبدأ من ١٧ يناير ١٩٥٣ ، ولهذا تأجلت الانتخابات وتأجل الكلام عن الدستور والديمقراطية .

وأوشكت السنوات الثلاث على الانقضاء ، وكان جمال عبد الناصر قد تخلص خلالها من كل أعدائه ، وبدأ يطلق الأبواق لمدحجه ، ووثق صلته بالشيوخ ، فلما حُلَّ يناير سنة ١٩٥٦ بدأ عبد الناصر يُعِدُّ لرحلة جديدة من استبداده حتى على أقرب الناس إليه ، وفي هذا المجال نلجأ إلى صديقه عبد اللطيف البغدادي لننقل ألفاظه حول هذه المرحلة (١) .

— لم يَدْعُ جمال عبد الناصر مجلس الثورة للانعقاد من ٧ أغسطس ١٩٥٥ حتى أول يناير سنة ١٩٥٦ حينما دعى المجلس لمناقشة مشروع الدستور الجديد الذى سيحل محل الإعلان الدستوري الذى أعلن بعد إلغاء دستور ١٩٢٣ (ويلاحظ من هذا الكلام أن عبد الناصر استبد بالأمر قبل انتهاء فترة الانتقال مع أن مجلس قيادة الثورة كان هو الحاكم من الناحية الدستورية) .

— كان عبد الناصر قد شكل لجنة قانونية من عدد محدود من بعض القانونيين لاعداد هذا الدستور ، وكان يرأسهم مستشاره القانوني الأستاذ محمد فهمي السيد (معنى هذا إهمال لجنة الدستور التي ألفت من قبل برئاسة علي ماهر) .

— أهم ما لوحظ على المشروع المقترح هو أن الجمهورية المصرية لا هي

جمهورية رئاسية . ولا هي برلمانية ، ورئيس الجمهورية هو رئيس السلطة التنفيذية ، وقد تركت له سلطات واسعة .

— يرشح مجلس الثورة جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية في الفترة الأولى ، وذلك لضمان استمرار النظام والثورة (يلاحظ الحرص على أن يفرض جمال عبد الناصر نفسه على الشعب) .

— أعطى الحق لمجلس الأمة في أن يقوم بانتخاب رئيس الجمهورية بأغلبية الأصوات ثم يقوم بترشيحه إلى الشعب للاستفتاء عليه (يلاحظ الرغبة في الاستمرار في الحكم عن طريق مجلس الأمة الذي سئى أن عبد الناصر سيعينه تقريباً ، ومعنى هذا تبادل التعيين) .

— انتظام الأمة في اتحاد قومي كت تنظيم سياسي ، وهذا الاتحاد هو الذى يتولى الترشيح لعضوية مجلس الأمة ، ورئيس الجمهورية هو رئيس الاتحاد القومى (يلاحظ ما ذكرناه آنفاً عن تبادل التعيين ، وسيجىء مزيد من الايضاح عندما نتكلم عن انتخابات مجلس الأمة) .

— لا يسمح بقيام الأحزاب إلا بعد أن يصدر القانون المنظم لها (ولم يصدر عبد الناصر هذا القانون أبداً) .

— فى الاستفتاء على هذا الدستور وعلى ترشيح جمال عبد الناصر الذى تم فى ٢٥ يونيو سنة ٥٦ نال جمال عبد الناصر أكثر من ٩٨٪ من أصوات الناخبين (كانت هذه النسبة هى طابع الانتخابات بعد ذلك طيلة عهد الثورة ، فكل استفتاء أو انتخابات يعلن عن موافقة إجماعية تقريباً ، وكان هذا الإجماع يمثل إرادة المشرفين على الانتخاب وليس إرادة جمهور الناخبين) .

— انتهى بذلك عهد مجلس قيادة الثورة ، وبدأ عهد جمال عبد الناصر

الذى أصبح بحكم رياسته للسلطة التنفيذية له حرية الاختيار معاونه .
وأصبحت مسئولية مسئولية فردية وليست تضامنية كما كان الوضع في
أثناء وجود مجلس قيادة الثورة (من الواضح أن عبد الناصر فرض قيادته
على مجلس قيادة الثورة منذ جلسته الأولى ، وفي كثير من الحالات كان
لا يدعو المجلس للانعقاد كما ذكرنا من قبل ، وكان يحكم بطريق
مباشر) .

العدوان الثلاثي

إن معركة ١٩٥٦ التي ضاعت فيها سيناء ، وتوقفت قناة السويس ، وسقط فيها عدد كبير من المصريين قتلى وجرحى ، وضاعت أسلحة بمئات الملايين من الجنيهات ، والتي دمرت أحياء واسعة بمدن القناة ، هذه المعركة ترتبط بالسد العالي وبقصة تمويله ، أو قل إنها امتداد للخديعة الكبرى التي وقع فيها عبد الناصر في أتباعه لسياسة نهرو ، وتحمله لهذه السياسة التي تهاجم الأحلاف ليكسب مزيداً من الشعبية التي كان يهواها ويفعل بها ، وستحدث عن السد العالي في حينه ، ولكننا هنا نكتفي بأن نذكر أن انسحاب أمريكا من مشروع تمويل السد ، ومهاجمة دالاس للاقتصاد المصري ، دفعا عبد الناصر لتأمين القناة .

وقبل أن نسير في حديث التأميم ونتأمله يجدر بنا أن نخصص بعض الفراغ للحديث عن تاريخ القناة :

كلمة عن تاريخ القناة :

كانت هناك محاولات طويلة للربط بين البحر الأبيض والبحر الأحمر ، وكان من هذه المحاولات أن يُتخذ نهر النيل وسيلة لذلك ، ولعل أقدم محاولة هي تلك التي تمت في القرن التاسع عشر قبل الميلاد حينما حفرت قناة تربط النيل ببحيرة التمساح التي كانت تمثل الطرف الشمالي للبحر الأحمر ، وسميت تلك القناة ؛ (قناة سيزوستريس) ، وقد حرص حكام مصر على استمرار هذه القناة فكلما كان البحر الأحمر يتراجع كان هؤلاء الحكام يمدون القناة من بحيرة التمساح إلى البحر الأحمر ، وقد ردمت هذه القناة قبل دخول الاسلام مصر ، ولذلك عمل عمرو بن العاص على إعادة حفرها ، فتمكن من ذلك ، وسميت القناة (خليج أمير المؤمنين) ولا يزال شارع

الخليج (بور سعيد الآن) يرمز لهذه القناة . وقد رأى الخليفة أبو جعفر المنصور أن هذه القناة قد تستعمل ضد الدولة العباسية التي أنشأها هو وأخوه أبو العباس السفاح فردها .

وفي العصر الحديث اتجهت الجهود للربط المباشر بين البحر الأبيض والبحر الأحمر ، دون اتخاذ نهج النيل وسيلة لذلك ، وقد أخطأ العلماء الفرنسيون الذين صحبوا الحملة الفرنسية : فاعتقدوا أن مستوى المياه في البحر الأبيض والبحر الأحمر ليس متساوياً ، وأن هناك ارتفاعاً قدره تسعة أمتار بين المستويين ، فلم يعملوا على حفر قناة للربط بين البحرين . وكان تصحيح هذا الخطأ عملاً سهلاً إذ أنه قد سبق الربط بين البحرين بواسطة نهر النيل ، مما يدل على أن مستوى المياه في البحرين متقارب بحيث لا يشكل خطراً على محاولة الربط بينهما . وقد ظهر هذا التصحيح في عهد محمد علي . ولكنه رفض حفر القناة قائلاً إنه لا يريد بمصر « بسفوراً جديداً » . ثم نفذه سعيد ، وافتتح إسماعيل باشا هذه القناة سنة ١٨٦٩ . وكان امتيازها ٩٩ سنة تنتهي سنة ١٩٦٨ .

ومن الواضح أن الشروط التي منحها سعيد لشق القناة كانت شروطاً مجحفة بمصر ، وكان يُقال دائماً إن قناة السويس سلاح ذو حدين ، فإذا استطاعت مصر حمايتها واستغلالها كانت لمصر خيراً وبركة . أما إذا لم تستطع مصر حمايتها واستغلالها فإنها تصبح وسيلة للاستعمار والسيطرة على مصر ، وقد أعطت مصر للقناة كل شيء : الأرض والمال والرجال نظير ١٥٪ من الأرباح ، ولكن سرعان ما فقدت مصر هذه الأرباح أيضاً بسبب الديون . كما أن مصر باعت الأسهم التي كانت تملكها منها لبريطانيا . فأصبحت القناة شراً كلها تقريباً ، وكانت القناة باباً ففتح ديلبس لبريطانيا لتحتل مصر ، ثم تمسكت بريطانيا بالقناة إذ كانت الطريق بينها وبين ممتلكات التاج بشبه القارة الهندية ، ومن أجل هذا دفع بطرس غالى (٢١ م - التاريخ ج : ٩)

رئيس وزراء مصر رأسه سنة ١٩١٠ ثمناً لمبدأ قبوله مد امتياز شركة قناة السويس ، وأصبح هناك شعور عام في مصر ضد هذه القناة ، وكان المصريون يعدّون الليالي والأيام ليصلوا إلى سنة ١٩٦٨ ليطردوا الأجانب من القناة ، وليستعيدوا لصالحهم هذا الجزء المهم من أرض الوطن .

اتضح مما سبق أن المصريين كانوا يتطلعون بلهفة إلى استعادة قناة السويس ، ولكن الحكماء منهم لم يكونوا يريدون أن تصبح عملية استرداد القناة ثغرة جديدة تجلب الخسائر على مصر أكثر مما تجلب المنافع ، فلنخطط للأمام لنرى كيف أتم عبد الناصر القناة ، وقبل أن نشرح خطوات عبدالناصر نذكر أن محمد حسين هيكل يلفت نظرنا إلى شخص آخر اشترك مع نهرو في جذب عبد الناصر إلى المعسكر الشرقي ، ذلك هو « تيتو » زعيم يوغسلافيا ، ويذكر هيكل أن نهرو وعبد الناصر كانا عثدين معاً في طائرة عبد الناصر من بريوني بيوغسلافيا إلى القاهرة حيث كان نهرو سينزل ضيفاً على عبد الناصر مدة أربعة أيام ، وفي الطائرة جاء الخبر بأن أمريكا سحبت عرض المساهمة في تمويل السد العالي ، وخيّم القلق على ركاب الطائرة (١) .

التأميم حركة عناد وانفعالية :

في ١٩ يوليو سنة ١٩٥٦ أشهر دالاس وزير خارجية أمريكا إفلاس الاقتصاد المصري (٢) وتراجع أمريكا والبنك الدولي عن تمويل السد العالي ، وفي ٢٣ يوليو أى بعد ذلك بأربعة أيام حضر وزير خارجية الاتحاد السوفيتي ليشارك في أعياد الثورة ، وأعلن استعداد الاتحاد السوفيتي لتنفيذ السد العالي ، وأثرت هذه الأحداث على جمال عبد الناصر ، فأعلن في ٢٦ يوليو تأميم قناة السويس (٣) .

(١) بصراحة عن عبد الناصر ص ١٢٥

(٢) قبل الثورة كان الاقتصاد المصري دائماً ، وكان الجنيه الاسترليني أقل من الجنيه المصري ، ولكن سوء التصرف في الأموال في عهد الثورة هو الذي أفلس الاقتصاد المصري (اقرأ « التحدي » للأستاذ أحمد أبو الفتح) .

(٣) أنور السادات : البحث عن الذات ص ١٨٧

واستعادة مصر لقناة السويس أمل يتعمناه كل مصري ، ولكن على أن يكون ذلك عن دراسة وبحث ، وليس عن انفعال . وعلى أن تكون المكاسب من استعادة مصر للقناة أكثر من المضار التي تترتب على الانتظار حتى استعادتها سنة ١٩٦٨ ، والذي يدرس أحداث تأميم القناة يدرك أن التأميم كان نتيجة تحرك انفعالي عاطفي لم يتحكم فيه العقل . ويرى البغدادي أن عبد الناصر ألقى خطاباً في ٢٤ يوليو سنة ١٩٥٦ قال فيه : إننا سنقوم ببناء السد وسنعمد على أنفسنا في ذلك ، وقال كلمته المشهورة «موتوا بغيظكم» ، وقد أخذت محطة صوت العرب تردد هذه الكلمة في حملتها الإذاعية على دول الغرب (١) .

ولم يستشر عبد الناصر زملاءه في مسألة التأميم ، ويحكي أنور السادات أنه لم يصحب عبد الناصر إلى الاسكندرية في ذلك اليوم بسبب نزلة معوية ألمت به ، فطلب عبد الناصر منه أن يستمع للخطاب الذي سيلقيه هناك ، واستمع أنور السادات فإذا عبد الناصر يعلن تأميم قناة السويس رداً على جون فوستر دالاس وعندما التقى أنور السادات بعبد الناصر في اليوم التالي قال له : لو سألتني لقلت لك : حاسب لأن هذه الخطوة معناها الحرب ، ونحن غير مستعدين . . . (٢)

وليس أنور السادات فقط هو الذي تجاهله عبد الناصر بل إن عبد الناصر تجاهل عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة ، ولم يخبره بأمر التأميم إلا وهما في طريقهما إلى الاسكندرية بالقطار يوم ٢٥ يوليو ؛ فقال له عبد الحكيم : إنني القائد العام للقوات المسلحة ؛ وكان ينبغي قبل اتخاذ هذا القرار أن تستشيرني لتعرف مدى قدرة القوات المسلحة على حماية هذا القرار (٣)

(١) مذكرات عبد اللطيف البغدادي ص ٢٢١

(٢) البحث عن الذات ص ١٨٨

(٣) رواية صلاح نصر في شهود ثورة يوليو ص ١٨٨

وتجاهل عبد الناصر كذلك وزرائه ، فلم يعرفوا خبر التأمين إلا قبل إلقاء الخطاب بقليل ، فقد جمعهم عبد الناصر بالإسكندرية مدة ساعتين قبل إلقاء الخطاب ، وذكر لهم ما ينوي عمله ، فأبدى البعض تخوفه ، ولكن عبد الناصر أعلن أنه يتحمل مسئولية التأمين ، وانتهى الاجتماع بدون اتخاذ قرار رسمي (١) .

المسئول :

ونقف قليلا عند جملة « يتحمل مسئولية هذا العمل » ، وقد قال عبد الناصر عقب هزيمة ١٩٦٧ إنه مسئول عن نتيجة هذه الهزيمة ، وأنا هنا أسأل كل الناس : ما معنى « مسئول » ؟

إذا ذهبتَ تقترض مائة جنيه من رجل ، وتقدمتُ أنا لصاحب المال أقول له : أعطه هذا المبلغ وأنا مسئول ، فالمعنى واضح ؛ إنني أدفع الدين إذا لم يدفعه المدين .

ونخسائر حرب ١٩٥٦ و ١٩٦٧ كثيرة جداً ، تفوق التصور ، إنها ضياع الأرض بثرواتها ، وتوقف القناة عدة سنوات ، وقتل عشرات الآلاف من المصريين ، وتدمير مدن القناة وتشريد سكانها ، وضياع أسلحة وأموال تقدر بآلاف الملايين من الجنيهات ، وقبل ذلك ضياع هيئة مصر ، وكسر شوكتها ، ووضعها في مكان الهوان بسبب هذه الهزائم الساحقة ، والرجل يقول إنه مسئول ، ولا بد أن يجيء يوم نساخه ونلزمه بالمسئولية إن لم تكن مادية فلتكن أدبية ترتبط بسيرته ما بقى التاريخ .

والعجيب أن عبد الناصر أجرى التأمين وهو يعلم أن ذلك سيجر للحرب ، ولم يأخذ فيه رأى عبد الحكيم عامر باعتباره المسئول عن مواجهة القوات التي ستعتدى على مصر ، وهذا التصرف في غاية الاستهانة بالمسئولية .

(١) أجاريفيشيف : ناصر ص ٢٢١

والعجيب كذلك أن الثورة حاكمت فؤاد سراج الذين بسبب معركة السويس التي هاجم فيها الجيش البريطاني مجموعة من رجال الشرطة المصريين ، وطلب قائد الجيش البريطاني منهم الاستسلام فرفضوا ودافعوا عن أنفسهم حتى آخر طاقة ، وقُتلوا ٤٠ جندياً بريطانياً ، وقُتل من المصريين ٧٠ جندياً ، فمن الذى يحاكم عبد الناصر على أرواح الآلاف الذين دفع بهم إلى الموت دون استعداد ودون نظام ؟

ويروى الأستاذ أحمد حروش (١) أن عبد الناصر استدعى الدكتور مصطفى الحفناوى الذى كان متحمساً لتأميم القناة ، وأخبره عبد الناصر أنه سيحقق فكرته ويؤمم القناة ، ولكن الدكتور الحفناوى أصابه الهلع ، وطلب تأجيل التنفيذ عدة شهور ، وقال : إنى أكاد أسمع أزيز الطائرات التى ستهجم علينا !! ! ولم يعتد عبد الناصر بكلامه ، وأمم القناة فوراً .

بعد التأميم :

كان لتأميم القناة صدى عالمى قوى جداً ؛ بعض الناس أشفقوا على مصر ، وآخرون فرحوا إذ رأوا دولة لم يَمُض على تخلصها من الاستعمار إلا حوالى شهر تُقَدِّم على هذه الخطوة الجبارة ، ولكن القناة أُمِّت فعلاً واستولى المصريون عليها وبدءوا إدارتها ، والشئء المؤكد أن شعبية عبد الناصر ارتفعت ارتفاعاً عظيماً بهذا الحدث الجليل ، وقد ظهرت هذه الشعبية فى الاستقبال الجارف الذى استقبلت به الجماهيرُ عبدَ الناصر فى طريقه من الاسكندرية إلى القاهرة ثم فى شوارع القاهرة ، وقد مرت ثلاثة شهور بين قرار التأميم وبين الحرب ، وحدثت فى هذه الشهور أحداث نجملها فيما يلى :

— بذلت الإدارة المصرية لقناة السويس جهوداً جبارة لإدارة القناة ،

(١) مجتمع جمال عبد الناصر ص ٩٢

وقد واجهت الإدارة الجديدة تحايلاً كبيراً من الإدارة القديمة ، فقد كان بالقناة ٢٠٥ مرشدين كان من بينهم أربعون مرشداً مصرياً ، والباقي من الأجانب ، وقد أرسل المدير السابق للقناة خطابات إلى المرشدين الأجانب يطلب منهم عدم العمل مع الإدارة المصرية الجديدة ، ويهددهم إن فعلوا ، ويعددهم إن استجابوا له ، وقد استجاب هؤلاء له ، فانسحبوا جميعاً عدا سبعة من اليونانيين أمرتهم حكومتهم بالبقاء ، وسرعان ما ملأت الإدارة الجديدة الفراغ بمرشدين مصريين ، وبمرشدين من الهند ويوغوسلافيا ، بل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، وأديرت القناة بكفاءة عظيمة .

— وضعت مصر يدها على أموال الشركة التي كانت مودعة في البنك العثماني وقدرها خمسة ملايين جنيه .

— قابلت بريطانيا وفرنسا موضوع تأمين القناة والاستيلاء على أموال الشركة المودعة في البنك العثماني بثورة اقتصادية عارمة ، فقد جمّدت بريطانيا الحساب الجاري لمصر من العملة الاسترلينية ، وكانت حملة هذا الحساب ١١٢ مليون جنيه ، وفرضت بريطانيا الحماية على أموال وممتلكات شركة قناة السويس في لندن ، وكذلك جمّدت فرنسا أرصدة مصر التي كانت مودعة في بنوكها ، وتبعها أمريكا فجمّدت ٦٠ مليون دولار كانت لمصر في بنوكها .

— رفضت السفن البريطانية والفرنسية التي تعبر القناة أن تدفع الرسوم المستحقة على مرورها للهيئة الجديدة ، وكانت تقوم بدفع الرسوم للشركة القديمة باندن وباريس .

— قررت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا عقد مؤتمر للدول البحرية في ١٦ أغسطس ويتكون هذا المؤتمر من الدول الثماني التي وقعت معاهدة القسطنطينية ، ومن ست عشرة دولة أخرى من الدول المنتفعة بالقناة ،

وقد اختيرت هذه الدول بحيث تكون هناك أغلبية مع اتجاهات الغرب ؛
وقد اجتمع هذا المؤتمر في لندن ، وقرر إنشاء هيئة دولية لإدارة القناة مع
مصر تسمى « هيئة المتفعين » مع الاعتراف بحق السيادة المصرية عليها ،
وضمان دخل عادل لمصر منها ، وأرسل لجنة إلى مصر برئاسة روبرت
منزيس رئيس وزراء استراليا ، ومعه ممثلون للقرارات الأربع الباقية (مندوبو
إيران والسعودية واثيوبيا والولايات المتحدة) وقد رفضت مصر هذا القرار .

— عدلت أمريكا موقفها المتشدد في أوائل سبتمبر ، فقد أعان دالاس
أن قناة السويس لا تمثل مركزاً رئيسياً من اهتمام الولايات المتحدة ، وذكر
لندن رئيس وزراء بريطانيا أن دالاس قد غير رأيه عقب عودته من عطلة
نهاية الأسبوع .

— عرضت بريطانيا وفرنسا المشكلة على مجلس الأمن في ٥ أكتوبر
وتقرر بعد المناقشة السرية والعلنية ما يلي :

١ — أن تكون الملاحة في القناة حرة ومفتوحة للجميع دون تمييز .

٢ — أن تحترم سيادة مصر عليها .

٣ — أن تكون إدارة القناة منفصلة عن سياسات كل الدول .

٤ — أن تحدّد رسوم القناة بالاتفاق بين مصر وبين المتفعين ؛

٥ — أن تخصص نسبة عادلة للتحسينات والتطوير .

٦ — في حالات النزاع يسوى الأمر بالتحكيم .

وقد وافقت مصر على هذه القرارات التي سميت (المبادئ الستة)
ولكن بريطانيا وفرنسا لم تقنعا بها، وظللتا تصران على قرارات (هيئة المتفعين).

-- في هذه الأثناء كانت بريطانيا وفرنسا تقومان بتحركات عسكرية

توحى بشئ ، ولكن الجانب المصرى لم يظن لما توحى به هذه التحركات ، ووقع القادة المصريون فى الفخ حينما تم الاتفاق على أن يجتمع الدكتور محمود فوزى وزير الخارجية آنذاك مع سلوين لويد وزير خارجية بريطانيا ، وبينو وزير خارجية فرنسا يوم ٢٩ أكتوبر ليضعوا الحل السلمى بناء على المبادئ الستة ، ولينظموا دفع التعويضات ، وقد فرح الجانب المصرى آنذاك واعتقد أن المسألة قد انتهت ، ولكن ذلك كانت خديعة أعلى من مستوى قادة مصر ، فاستكانوا لها ، وكان هذا اليوم هو الموعد الذى حددته إنجلترا وفرنسا وإسرائيل لبدء الزحف العسكرى ه

النذر العسكرية وتفكير قادة الثورة :

يقول الأستاذ أحمد حروش إن كل المعلومات كانت تشير إلى استعدادات عسكرية تدبّر لمهاجمة مصر ، ولكن هذا كان مستبعداً فى تفكير عبد الناصر (١) .

وتعليقنا على هذا هو الحسرة البالغة من ألا يجيد العسكريون الأمور العسكرية ، ولو كانت قيادة مصر آنذاك فى أيدٍ مدنية لكان من المحتمل أن نلتبس لها العذر ، ولكن أى عذر لأولئك العسكريين ؟ وقد كان مريدو عبد الناصر يصفونه بالملهم ، وسنعيش فيما يلى مع هذا الملهم لندرى كيف أن أفكاره وأفكار رفاقه جلبت العار والدمار لمصر :

— فى اجتماع جمال عبد الناصر بوزرائه قبيل إلقاء خطابه يوم ٢٦ يوليو قال عبد الناصر للوزراء : إن نجاح التأميم وسيطرة مصر على القناة تتأكد إذا مضى شهر دون تدخل من البريطانيين ، وكان عبد الناصر يضع خططه كأنها التنزيل ، ويصفق له رجاله ، ثم يقع الخطر على مصر والمصريين ، كان يقول : الأسبوع الثانى من أغسطس الخطورة ٠.٦٠ / ، والأسبوع الثالث ٠.٥٠ / .

(١) مجتمع جمال عبد الناصر ص ٩٩

والرابع ٤٠/٠٠ - نهاية سبتمبر ٢٠/٠٠ . تم بالتالى تحتفى المخطورة فى آخر أكتوبر (١) .

— سأل أحد الوزراء عبد الناصر عن احتمال التعاون بين إسرائيل وبين بريطانيا وفرنسا فى حرب مصر ، فاستبعد عبد الناصر ذلك .

— أرسل ثروت عكاشة الملاحق العسكرى بفرنسا خطاباً شخصياً إلى جمال عبد الناصر يحمله الملاحق الصحفى عبد الرحمن صادق ذكر فيه ثروت عكاشة أنه وصلته خطة تحركات القوات الفرنسية للهجوم على مصر .

— عرف زكريا العادلى الملاحق العسكرى بتركيا أسرار الحشد العسكرى فى قبرص وإسرائيل عن طريق بعض المندوبين الأتراك الذين يتعاطفون مع مصر ، وأرسل بذلك برقية إلى مصر نصها : ستوجه إنجلترا وفرنسا إنذاراً نهائياً إلى مصر يعقبه عدوان منهما بالتعاون مع إسرائيل ، وكل الظواهر تدل على أن العدوان سيكون قبل آخر أكتوبر ، ولكن زكريا العادلى أحسّ بالاستهانة بهذه المعلومات ، فدفعه إخلاصه لبلاده إلى أن يحضر شخصياً لمصر ، وطلب أن يلتقى بجمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ، وتمت المقابلة مع عبد الحكيم عامر ، ولم يجد منه صدى شافياً ، ولم تتح له مقابلة عبد الناصر ، رغم إصراره على ذلك .

— سرب الأمريكيون معلومات إلى سفيرة نا فى واشنطن تؤكّد أن الجنرال كيتلى قد اختير لقيادة غزو مصر ، وأنه يُدرب رجائه فى قبرص (٢) .

ويعترف عبد اللطيف البغدادي بخفض رأيه ورأى زملائه قادة الثورة فى تقديرهم الأمور ، استمع إليه يقول :

(١) أجاربيشيف : ناصر من ٢٢٠

(٢) انظر عن هذه المعلومات كتاب مجتمع عبد الناصر للاستاذ أحمد حمروش

— كما: تقديرنا أن الوقت لابد سيكون في صالحنا إذا اقتنع الرأي العام الدولي بحقنا في التأميم .

— كنا نرى أن بريطانيا ستحتاج إلى فترة من الوقت حتى يمكنها تعبئة القوات التي ستكون في حاجة لاستخدامها .

— لم يكن يخطر بذهننا أن بريطانيا يمكن أن تتعاون مع إسرائيل في الاعتداء علينا .

— كانت القيادة العسكرية المصرية ترى أن بريطانيا في حالة استخدامها القوة العسكرية مستقدم من ناحية الاسكندرية ورشيد، ولذلك بنت القيادة الخطة على أساس هذا الاحتمال ، وعند ما نقل خالد محيي الدين للجبال عبد الناصر معلومات سمعها من أصدقائه بباريس عن التعاون بين فرنسا وإسرائيل لمهاجمتنا ، لم يأخذ عبد الناصر هذه المعلومات مأخذ الجد (١) .

وهكذا كانت قدرات العسكريين الذين حكموا مصر في فهم الأمور العسكرية ، ولابد أن يجيء يوم يحاسب فيه هؤلاء الناس ، لا على جهلهم بأمور السياسة والاقتصاد والإدارة فحسب ، بل على جهلهم بالأمور العسكرية التي أوهمونا أنهم فيها متخصصون .

الحرب :

هل نسميها حرباً ؟ أو صراعاً ؟ أو زحفاً ؟ .

في الحق ينبغي أن تُسمى زحفاً ، لأن العملية كانت من جانب واحد هو إسرائيل متعاونة مع بريطانيا وفرنسا ، أما القوة المصرية فكانت للأسف لا شيء ؛ لا شيء في فكرها ، ولا في قدرتها على تحليل المقتضيات ، ولا في التعاون بين أجهزتها ، ولا في إدارتها للمعركة ، ومن هنا كانت المسألة

زجاً ببحشنا دون إعداد ، ودون رعاية ، ودون توجيهات سليمة . فأصبح
 بذلك جيشنا وأرضنا وأموالنا نهباً للقوات المعتدية بسبب جهل القوات الحاكمة
 بمصر ، وللأسف مرةً أكثر من عقدين من الزمن دون أن يحاسب أحدٌ على
 هذا التهاون الذى تسبب فى إراقة الدم ، وضياع الأرض ، وفقدان المال ،
 وسقوط الكرامة .

إن دراسة هذا الزحف شديدة التأثير على الكاتب عند ما يرى أقدار
 بلاده وشرف وطنه ، وأمجاد جيشه توضع فى أيدي مهتزة وعقول فجئة ،
 وأخلاق منهارة .

ذلك هو حكم التاريخ نسجله إذا تواتى حكم القضاء على هذه العصابة
 التى حكمت مصر آنذاك فظلمت البلاد والعباد :

لقد رأينا آنفاً قصور فهم القادة للأحداث ، وأخطاءهم الفادحة فى
 التصور لكل الأمور التى سبقت الزحف ، وسنرى الآن أخطاءهم الأكثر
 فداحة عند ما بدأ هذا الزحف الذى نسجله يوماً بعد يوم فيما يلى :

مساء الاثنين ٢٩ أكتوبر :

قامت إسرائيل بالهجوم على سيناء وأسقطت بعض جنود المظلات عند
 حمير متلا ، واتضح لقادة مصر أن إنزال قوات المظلات عند هذا الممر يدل
 على أن العملية أكبر من أن تكون غارة من قوات عسكرية إسرائيلية على
 موقع من مواقعنا ، كما كانت العادة قد جرت من قبل . واستدعى
 صدقي محمود رئيس هيئة أركان حرب القوات الجوية ، وصدرت له
 الأوامر بأن يضرب هذه القوات الإسرائيلية ، ولكنه أجاب بصعوبة ذلك
 بحجة عدم توافر الوقود اللازم لها عنده !!! وأدرك جمال عبد الناصر أن
 صدقي محمود ليس كفى لمواجهة هذه الحالة ، فطلب من عبد اللطيف البغدادى
 أن يساعد عبد الحكيم عامر فى الإشراف على التحركات الجوية ، ولكن

عامر لم يسترح لذلك ، وقال للبغدادي « اعمل على أنك رأيت أن تمر بالقوات الجوية كزيارة لهم عند ذهابك إلى منزلك » ويقول البغدادي : فضلت ألا أخرج نفسي ، وبخاصة أنه ليس هناك قرار بتكليف بشيء (١) .

ويقول صلاح نصر رئيس هيئة المخابرات العامة : إن المعركة كانت تدار بطريقة بعيدة عن الأسلوب العسكري العلمي الصحيح ، فقد احتشد أعضاء مجلس الثورة في مكتب عبد الحكيم عامر الذي كان مفروضاً أنه يدير المعركة ، وكان تعدد وجهات النظر يسبب ارتباكاً للقائد الذي كان مفروضاً أن يستلهم قراره من الدراسة وتقدير موقف هيئة عمليات المعركة ، ومن الاضطراب أن القيادة انتقلت من كوبرى القبة إلى نادى مصر بالجزيرة المجاورة لفندق عمر الخيام ، ثم عادت إلى كوبرى القبة (٢) .

الثلاثاء ٣٠ أكتوبر والإنذار :

وفى مساء ٣٠ أكتوبر قدمت بريطانيا وفرنسا إنذاراً إلى كل من مصر وإسرائيل بإيقاف القتال برأ ومحراً وجواً ، وسحب كل منهما قواته بعيداً عن قناة السويس بمسافة لا تقل عن عشرة أميال عن كلا الجانبين ، أى أنه على مصر أن توقف قواتها على مسافة عشرة أميال غرب القناة ، وإسرائيل أيضاً نفس المسافة شرق القناة ، وتحتل القوات البريطانية والفرنسية النقاط الرئيسية فى كل من بزر سعيد والإسماعيلية والسويس لضمان حرية الملاحة بالقناة لجميع سفن العالم ، وذكر الإنذار أن هذا إذا لم ينفذ خلال ١٢ ساعة. فإن بريطانيا وفرنسا ستضطران للتدخل العسكرى .

ويقول البغدادي إن عبد الناصر لم يأخذ الإنذار مأخذ الجد ، ثم إنه استبعد إنزال الإنجليز والفرنسيين لقواتهما فى منطقة القناة (٣) ، وهو

(١) مذكرات البغدادي ص ٣٣٦ - ٣٣٧

(٢) كلماته فى شهود ثورة يوليو ص ١٨٧ - ١٨٩

(٣) مذكرات البغدادي ص ٣٣٧ - ٣٣٩ بإيجاز

تصرف جديد يفيد بُعد عبد الناصر تماماً عن الموهبة السياسية والموهبة العسكرية ، اقد كان فكره في وادٍ ، وكان كل شيء في وادٍ آخر .

الأربعاء ٢١ أكتوبر والانسحاب المصري :

ولم يستطع هؤلاء العسكريون الدفاع عن البلاد ولا لمدة يوم واحد ، وانهاروا جميعاً كالثلوج تحت أشعة الشمس المحرقة ، وصدرت الأوامر بالانسحاب الشامل مساء ٣١ أكتوبر من كل سيناء ومن غزة ورفح والعريش وشرم الشيخ ، وظهر القادة على حقيقتهم كالقثران تختفي في الجحور ، وليس تعبير الاختفاء من عندنا ، وإنما هو تعبير عبد الحكيم عامر الذي قال لهم : اختفوا جميعاً واتركوني مع الجيش واضطرب جمال عبد الناصر ، ولم يبد رأياً ، وكثرت الغارات على القاهرة ، ولم تقابل بأي دفاع .

الخميس أول نوفمبر :

الغارات مستمرة ، وجمال عبد الناصر يلقي بياناً يجندع الشعب ويذكر الأسباب التي يبرر بها الانسحاب السريع من سيناء دون دفاع ، وأسرة عبد الناصر نقلت من منزله إلى مكان أمين فقد كان كل اهتمام عبد الناصر بأسرته ، وعبد الناصر يستبقى البغدادى ليبيت معه في منزله ، وفي حجرة واحدة ، كالطفل الذي يخاف الوحدة (١) .

الجمعة ٢ نوفمبر :

أصوات انفجارات تملأ الجو في القاهرة ، وغارات متصلة ، وبعض أصوات المدافع المضادة للطائرات ، أما طائراتنا فيقول أنور السادات إنها كانت قد دمرت بضربة واحدة وهي ما تزال على الأرض ، وكنا قد اشتريناها منذ أقل من سنة (٢) .

(١) ملكرات البغدادى ص ٣٤٠ وما بعدها

(٢) أنور السادات البحث عن الذات ص ١٩٠

ويقول البغدادي إن جمال طلب من عامر في هذا اليوم أن يذهب إلى الإسماعيلية لرفع الروح المعنوية للجنود الذين انسحبوا من سياء ، فوعد بأنه سيقوم بهذه الزيارة بعد يومين ، وسأله عن رأيه في أن يذهب كمال الدين حسين ليقود الدفاع عن الإسماعيلية فوافق فوراً ، وسافر كمال الدين في الحال . ولكن عندما توقفت المعركة تعرض كمال الدين حسين لمضايقات من عامر حتى اضطر لترك الإسماعيلية مع أنه هو الذي غامر وقت الشدة وأقدم على ما لم يستطعه قائد الجيش .

انهيار القائد :

وشهد هذا اليوم عملية انهيار تامة أصيب بها عبد الناصر ورفاقه ، وأكبر مظهر لذلك هو حديث عبد الحكيم عامر المسئول الأول عن الجانب العسكري إلى قادة الثورة ، ونصه كما رواه البغدادي : إن الاستمرار في المعركة سترتب عليه تدمير البلاد ، وقتل الكثيرين من المدنيين ، والشعب سيكره النظام والقائمين عليه ، وأنه يفضل أن نطلب إيقاف القتال وردّ البغدادي بأن هذا الاستسلام سينتج عنه احتقار الشعب لنا ، ولم يشترك جمال في النقاش ، وكان صامتاً مقطب الجبين ، ودخل القاعة صلاح سالم الذي ذكر أنه يقترح أن يعانون وقف القتال والاستسلام ، واستمر يقول : ونقوم ونسلم أنفسنا للسفير الإنجليزي ، وردّ البغدادي عليه بأن الانتحار أحسن من هذا ، واستحسن جمال عبد الناصر فكرة الانتحار فطلب من زكريا محيي الدين إحضار زجاجات من السم تكفي الجميع (١) .

ويقول المثل الإنجليزي « الأقوياء فقط هم الذين يتحملون المسئولية

وكانوا ظهيراً طيباً لأهالى بورسعيد ، ويقول الشاب محمد أبو نار إن عدداً كبيراً من الشيوعيين واليساريين اشتركوا فى المقاومة الشعبية ببور سعيد مثل عبد المنعم شاتىلا ، وأحمد الرفاعى ، وإبراهيم أجوج ، وسعد رحمى ، ويوسف ادريس ، وأحمد عباس صالح ، وحسن فؤاد ، وأحمد مجاهد ، وعلى الشلقاى وزوجته نانا ، ومحسن لطفى ، ومنير موافى ، وقد لعب الشيوعيون دوراً بارزاً فى المقاومة فى الوقت الذى هرب فيه مدير المباحث العامة حسين رشدى من المدينة ، وسلم البوليس أسلحته ، وأعطى البريطانيين كشف الشيوعيين والإخوان لاعتقالهم فى أثناء فترة منع التجول التى كانت تبدأ من الساعة الخامسة مساء (١) .

ومع تقديرنا للدور الذى قام به الشيوعيون فى هذا الصراع نذكر أن الشيوعيون ما كانوا يشتركون فى الصراع لو كان الصراع يدور ضد الاتحاد السوفيتى ، أو ضد رغبته ، فحماسهم كانت غالباً لتنفيذ مخطط الاتحاد السوفيتى أكثر منها لخدمة مصر .

ولم يكن للإخوان المسلمين دور كبير فى هذا الصراع لأن الأغلبية العظمى منهم كانت آنذاك خلف القضبان منذ حادث المنشية .

دور أمريكا وروسيا فى وقف القتال :

يوضح أنور السادات دور أمريكا وروسيا فى وقف القتال فيقول (٢): إن شكرى القوتلى رئيس جمهورية سوريا كان خلال المعركة فى زيارة للاتحاد السوفيتى ، وطلب من الزعماء هناك مدد المساعدة لمصر فلم يستجيبوا ، فطلب منهم مساعدة معنوية لمصر ولو بإصدار بيان ، فكان جوابهم الرفض أيضاً ، وعلى هذا أرسل شكرى القوتلى ينصحننا ألا نعتمد بتاتا على الاتحاد السوفيتى ،

(١) شهود ثورة يوليو ص ٣٨٤

(٢) البحث من الذات ص ١٩١

وفي مساء هذا اليوم تم لقاء عسكري اتضح فيه أن القاهرة خارج منطقة الدفاع ، وأن خطة الدفاع عن منطقة القناة ضعيفة . وأن الحالة بوجه عام هي - كما وصفها البغدادي - شلل تام^(١) .

الأحد ٤ نوفمبر :

أصبح الموقف عصيباً في هذا اليوم ، وقد سجل البغدادي أدق وصف لعبد الناصر من كلام عبد الناصر نفسه ، فقد سأل البغدادي عبد الناصر : كيف الحال اليوم ؟ فأجاب : إني لم أتم طوال الليل ، وقد بكيت كثيراً ، ويبدو أنني قد أضعت البلد ، وقد هزمني جيشي^(٢) .

وفي هذا اليوم اقترح عبد الناصر أن يذهب إلى بورسعيد هو وعبد اللطيف البغدادي لرفع الروح المعنوية لسكانها ، وبدأت الرحلة ، وعلى الطريق شاهد جمال عبد الناصر عربات عسكرية كثيرة مدمرة أو مقلوبة ، ودبابات متروكة ، منها المحروق ، ومنها المعطل ، ومنها السليم ، وكان جمال عبد الناصر طوال الرحلة كأنه في عالم آخر غارقاً في التفكير ،

وكان يتحدث عن الدبابات والعربات المحطمة على جانبي الطريق بقوله :

إنها بقايا جيش محطم ، وأخذ يتحسر على المبالغ التي أنفقت على تسليح

الجيش قائلاً : إن مائة وثلاثة ملايين من الجنيهات قد ضاعت هباء ،

ويصفه البغدادي آنذاك بأنه انهار وانتهى ، وأصبح ضعيفاً لا حول له

ولا قوة ، وفي حالة يأس شديد ، وبتنا معاً في غرفة واحدة بالإسماعيلية ،

وعندما انفردنا في الغرفة قال لي وهو يتناب في فراشة : « أنا تعبان »^(٣)

(١) المرجع السابق ص ٣٥١ (مقتطفات)

(٢) المرجع السابق ص ٣٥٢

(٣) المرجع السابق ص ٣٥٣ وما بعدها (مقتطفات) .

الأثنين ٥ نوفمبر والانسحاب من بورسعيد :

أخذ العدو ينزل جنود المظلات في بورسعيد بتدفق هائل . وعرف عبد الناصر ذلك فقرر العودة إلى القاهرة دون مواصلة الرحلة إلى بورسعيد ، بل إنه عاد دون أن يمر على القوات المصرية بالإسماعيلية إذ كان متسرعاً يتعجل النجاة لنفسه ، وفي الطريق قال للبغدادى : إنها كانت غلطة كبيرة أن نحاول الذهاب إلى بورسعيد . وقد بلغ عدد الطلعات الجوية التي قامت بها بريطانيا وفرنسا في هذا اليوم فوق بورسعيد ٤٧٣ طلعة ، وأعطى عبد الناصر أمراً للقوات المصرية بالانسحاب من بورسعيد دون معركة .

الرئيس ليننهور يتدخل :

وفي هذا اليوم تدخل الرئيس ليننهور ، وأمر بوقف القتال فوراً ، فالضرب في الميت حرام كما قالوا آنذاك ، واضطرت القوات المعتدية للرضوخ لهذا الأمر .

الثلاثاء ٦ نوفمبر :

أعلن هرشالد السكرتير انعام الأمم المتحدة أن بريطانيا وفرنسا قد وافقتا على وقف القتال بمصر ابتداء من منتصف الليل حسب توقيت جرينتش (الثانية صباح الأربعاء ٧ نوفمبر) .

المقاومة الشعبية الحيدة :

أدرك أهالي بورسعيد أنهم يتحتم عليهم أن يدافعوا عن أنفسهم وعن بلدتهم . وقد قاموا بدور مجيد في هذا المجال ، وتصدوا بأسلحتهم البسيطة للقوى المهاجمة ، وأنزلوا بها ألواناً من الخسائر ، كما حاولت القوات المعتدية أن تحصن نفسها وألا توقف القتال إلا بعد ضمان الأمن لقواتها ، ولكن ذلك لم يتحقق لها مع أنها أنزلت عن طريق الأسطول بعض الجنود بمنطقة البلاح ، وتقدم عدد كبير من الشيوعيين للاشتراك في الصراع ضد المعتدين ، (٢ - ٣٢ التاريخ ج : ٩)

وقت الأزمات ، ويتضح مما أوردناه آنفاً أنه لم يكن هناك بين هؤلاء الزعماء شخص واحد مسئول بوضع نطاق الأقوياء .

موقف المصريين من القيادة العسكرية المصرية :

أدرك بعض المفكرين بمصر ، وبخاصة أولئك الذين كانت لهم صلة بقيادة الثورة في مطلع الثورة أن من الخطر ترك البلاد تحت هذه القيادة الفاشلة ، فطلب سليمان حافظ أن يلتقى بقيادة الثورة ، والتقى بهم وسألهم ماذا تنوون بعد هذه الهزائم ؟ فتلقى الجواب التالى : المقاومة الشعبية ، فقال سليمان حافظ : إن المقاومة الشعبية تحتاج إلى تنظيم ، والتنظيم يحتاج إلى وقت طويل ، وأنتم لم تقوموا بعمل هذا التنظيم ، ومعنويات الشعب تحتاج إلى قائد محبوب ، وأنا أقول لكم الحقيقة التى لا يصرحكم بها الناس وهى إن جمال عبد الناصر مكروه وغير محبوب ، وإن عليه أن يعود حيث كان بالجيش بالكتيبة السادسة مشاه (١) .

السبت ٣ نوفمبر :

صحا سكان القاهرة مبكرين على أصوات هائلة من الطائرات المهاجمة ، وهى تقوم بضرب مطار ألماتة وقشلاقاتها العسكرية بالقنابل والمدافع الرشاشة ، وكانت الغارات الجوية فى هذا اليوم شديدة ومركزة ، ويقول البغدادى إنه ذهب لجمال عبد الناصر عقب ذلك وذكر له أن مدفعيتنا تصدت لهذه الطائرات وأسقطت إحداها ، وكان البغدادى - كما يقرر هو - يكذب فى روايته لعبد الناصر لرفع معنوياته ، وقد سُـرَّ جمال عبد الناصر بهذا الخبر الكاذب ، وقبَّل وجه عبد اللطيف البغدادى (٢) .

(١) كررنا هنا بعض ما سبق أن ذكرناه فى الباب الثالث لتوضيح سير الأحداث ، ورغبة فى إزالة الغشاوة عن أولئك الذين صفقوا لهذا العصر المظلم .

(٢) مذكرات البغدادى ص ٣٤٩ .

ويعلق أنور السادات على ذلك بقوله إن من يتخطى بالاتحاد السوفيتي . فهو دائماً مكشوف . وعندما تدخل إيزنهاور وأمر بإيقاف القتال فوراً ، واستجاب المعتدون . فطرين للاستجابة ، أرسل خروشوف وبلغاتين الإنذار المعروف والذي لم يكن إلا مجرد استعراض عضلات ، ومحاولة للظهور بمظهر المنتد .

ويقول الدكتور هنري كيسنجر في مذكراته « سنوات البيت الأبيض » التي نُشرت ترجمة أجزاء منها بزيادة الأخبار (١) إن السوفييت في عام ١٩٥٦ تطلقوا بصورة هامشية على دبلوماسية أزمة السويس ، ووجهوا تهديدات غامضة بالتدخل العسكري بعد أن أدّى الضغط الذي مارسناه على بريطانيا وفرنسا إلى جعل هذه التهديدات السوفيتية لا تعني أية مخاطرة .

صلاح سالم قهوجي ،

كان بين قادة الثورة رجل واسع النفوذ ، كثير الكلام ، حتى كان لسان الثورة ، وأسندت إليه أخطر المناصب ، فكان وزير الإرشاد ، وكان وزير شئون السودان ، وكان المهاجم الأعظم ضد محمد نجيب ، وكان رفيق عبد الناصر في رحلته لمؤتمر باندونج ، وكان كثير التهديد والتعذيب للمصريين .

ولكن كان داخل إهاب هذا الرجل أسطورة خالية من الفكر ومن القيم ، وقت رأيناه مرة يلجأ إلى السجن الحربي ويقول لأحمد أنور اعتبرني مقبوضاً على ، ونراه مرة يهاجم زملاءه في مجلس الثورة ويخرجهم ، وهو أعلم الناس بهم قائلًا : هاتوا جمعية تأسيسية تحكم البلد ، وأخيراً أضاع السودان بخطئه ، واستقال ، ثم وجد في العدوان الثلاثي وسيلة ليعود إلى الضوء فعاد ، وأخذ يقدم مشورته ويتعصب لها حتى فكر عبد الناصر وصلاح

(١) الأخبار في ١٩٧٦/١١/٢

دسوقي في !تبض عليه (١) ، وأخيراً حدّد صلاح سالم بنفسه مكانه الحقيقي في المجتمع عندما قام ولبس ملابس جندي المراسلة الذي يقدم « القهوة » (٢) .

أسد علي* وفي الحروب نعامسة :

لقد نقلنا فيما سبق مجموعة من الأوصاف التي أطلقها عبد الناصر على نفسه ، أو اتضحت عليه وقت الشدة ، وهذه الأوصاف هي في كلمات : بقايا جيش محطم — بكاء — ضياع البلد — لم يواصل رحلته لبورسعيد ليقوّى الروح المعنوية للجنود — انتهى — انهيار — لاحول ولا قوة — في حالة يأس شديد —

وكانت هذه هي صفات عبد الناصر عندما تصدى لقوى من الخارج ، ولكنه عندما أحس بأن هناك تحركاً ضده قام به بعض المصريين لصالح مصر أسرع فأرسل في طلب كتيبة ضرب نار من الحرس الجمهوري ، ووقف في ساحة مجلس الوزراء ، وأقسم أن يُعْدم رمية بالرصاص أي إنسان يهدد مركزه . وهكذا كتيبة ضرب نار لتطلق الرصاص على المصريين ، أما غير المصريين فكانوا في مأمن من جنوده ومن رصاصه ، يا لله ! ! !

خسائر الحرب :

سبق أن ذكرنا نماذج من خسائر هذه الحرب ، ويقول أحمد لطفي واكد : بعد العدوان مباشرة زرت جمال عبد الناصر في النقناطر الخيرية ، وكان عنده ثروت عكاشة ، وأطلعني على كشفٍ بخسائر قواتنا المسلحة في سيناء التي تركتها بغير حرب وكان شديد الاستياء من كثرة الخسائر ، كما كان يتحدث عن عبد الحكيم عامر وصلاح سالم ، وصلاح نصر ، وصلاح دسوقي ، على أنهم كانوا من دعاة المزعمة والاستسلام (٣) .

(١) مذكرات البغدادي ص ٢٥٠

(٢) أحمد حمروش : مجتمع جمال عبد الناصر ص ١٠٦

(٣) كلماته في شهود ثورة يوليو ص ٧٨ - ٧٨

وقد سبق أن نقلنا عن عبد الناصر أنه قال عند ما شاهد العربات والدبابات المحطمة على جنبي الطريق إلى الإسماعيلية : إن مائة وثلاثة ملايين من الجنيتات قد ضاعت هباء (١) .

ويقول أنور السادات : إن الانسحاب من ميناء كلفنا في قواتنا المسلحة وإن جميع طائراتنا قد دمرتها فرنسا وإنجلترا بضربة واحدة وهي ما تزال رابضة على الأرض ، وكنا قد اشتريناها من الاتحاد السوفيتي منذ أقل من سنة ، ونعزبها غاية الاعتزاز (٢) . ويستمر أنور السادات قائلاً كلاماً لا نوافقه عليه وهو :

— إن عبد الناصر أو غيره لم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً .

— باغتتنا إنجلترا وفرنسا بالعدوان .

واعتقادنا أن أى قائد ناجح كان يستطيع أن يفعل الكثير والكثير ، وقد استطاع جنود الشرطة المصريون بالسويس أن يسجلوا أمجاداً وهم يواجهون جيشاً بأسره ، ثم إنه ليست هناك مباغته على الإطلاق ، فقد أوردنا سابقاً صوراً من الأدلة المتتابة التي كانت تشير إلى أن العدوان في طريقه إلى مصر ، ولكن عبد الناصر لم يفعل شيئاً لمواجهة .

انسحاب المعتدين ، وما بعد الانسحاب :

قلنا فيما سبق إن الرئيس ايزنهاور أصدر أوامره بوقف القتال وبالانسحاب فوراً ، وقد أوقف القتال بناء على هذا الأمر ، وبخاصة أن الحرب لم تكن ضد جيش ، فالجيش قد أصابه الشلل كما ذكرنا ، وإنما كانت ضد شعب أعزل يستमित في الدفاع عن بلاده .

(١) مذكرات البغدادي : ٣٥٣

(٢) البحث عن الذات ص ١٩٠

وبدأت إجراءات الانسحاب فوراً ، وتم الانسحاب الإنجليزى والفرنسى فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٥٦ ، وتم انسحاب إسرائيل فى مارس ١٩٥٧ بعد أن كانت جولدا مائير وزيرة خارجية إسرائيل ، فى ذلك الوقت قد أعلنت رسمياً فى الكنيست ضم سيناء لإسرائيل ، وإعطاء اسم جديد لشرم الشيخ . وعلق بن جوريون على أوامر أيزنهاور التى لم يكن بد من تنفيذها فقال « لابد من الخوف مما يتحتم الخوف منه » أى من أمريكا ، فلم يكن فى استطاعة إسرائيل أن تتجاهل أمريكا (١) .

ومع أن الانسحاب قد تم ، فقد بقيت فى شرم الشيخ قوة دولية حتى تستطيع إسرائيل أن تستعمل خليج العقبة . وقد كانت هذه القوة الدولية من أسباب حرب ١٩٦٧ ، فلن عبد الناصر أخرجها وأغلق المضائق فبدأت حرب ٦٧ ، ومعنى هذا هو أن الحرب ١٩٥٦ وخسائرها امتداداً حدث سنة ١٩٦٧ كما سترى ذلك مفصلاً فى حينه .

وبعد أن تم الانسحاب لبس عبد الناصر ثوب الأسود مرة أخرى وسمى يوم ١٢/٢٣ عيد النصر ، ونمى نفسه فيما أسماه أنور السادات : « خرافة كبيرة جداً تصوره البطل الذى حقق النصر على امبراطوريتين هما بريطانيا وفرنسا وعلى إسرائيل أيضاً ، وللأسف صدق عبد الناصر نفسه فى هذا الادعاء » (٢)

وبرزت أسطورة جديدة ترتبط بهذا النصر المزعوم ، فأخذ هيكىل يذكر تعابير حديثه فى مجال اللغة ، مثل إن مصر ضربت ولم تهزم ، واستجاب عبد الناصر لهذا الوضع ، فأخذ يتحدث عنه فى خطبه وفى لقاءاته ، ثم ألهم به مغنى مصر آنذاك « عبد الحليم حافظ » فراح يشلو بأغنية يردد فيها

(١) للبحث عن اللغات ص ١٩١

(٢) المرجع السابق ص ١٩٤

« وانتصرنا .. وانتصرنا » وهكذا ذاب الفرق بين الهزيمة والنصر عند هؤلاء الذين ذابت عندهم كل القيم وكل الآمال .

وكان من الضروري لعبد الناصر بعد أن نسب الانسحاب إلى انتصاراته المزعومة أن يُغْفِل دور الرئيس ايزنهاور ، لأنه تخيل أن إبراز هذا الدور سيسلب منه الضجة الكبرى عن انتصاراته المزعومة ، ثم إن عبد الناصر لم يغفل مثل ذلك بالنسبة للإنذار الروسى ، بل راح يشد به ، وينسب إلى السوفيت كل شيء ، ويهمل الإشارة إلى موقف ايزنهاور ، ولو اعترف عبد الناصر بالواقع ، وانتهر فرصة مساعدة أمريكا ليعيد توطيد علاقات مصر بها لضرب استراتيجية إسرائيل في مقتل ، ولكن جهل عبد الناصر بالسياسة لم يكن أقل من جهله بالأمور العسكرية والاجتماعية .

وكانت إسرائيل قد أسرّت مجموعة من الضباط المصريين ، ولما عاد هؤلاء من الأمر صرح لهم عبد الناصر بتقديم أسئلة والتقدم بطلبات خاصة ، ويقول الوزير يبرى في كتابه : « ضباط الجيش في السياسة والمجتمع » : إن أغلبية الضباط طالبت بتحسين ظروفهم المعيشية ، وتساءل الضباط عن زملائهم وماذا حدث لهم في هذه المعارك ، ولكن أحداً من الضباط لم يسأل عن جنوده ، وعلى كل حال فإن حرب ١٩٥٦ لم تغير الواقع العسكرى إلا في أضيق الحدود ، وغطى النصر السياسى على العيوب التى آثرت القيادة السياسية تغطيتها حتى لا تشوه صورة النصر المقتعل^(١) .

وكان من نتائج حرب ١٩٥٦ أن انحسرت علاقة الود بين ناصر وعامر ، وبدأت الكراهية تدب بين الاثنين ، وفي هذه الحرب اتضح لعبد الناصر أنه ليس مسموع الكلمة في الجيش ، فأنجبه لاحد من سلطات عامر ، ولعل عامر كان هو الشخص الذى كانت له سلطة يحسب حسابها

(١) نقلا عن مجتمع جمال عبد الناصر ص ١٤٧

بعد وضع -هايه لجلس قيادة الثورة ، ولما أحس عامر بمحاولات ناصر زاد تشبته بموقعه . وبدأ يخطط نفسه بالأنصار ووقف حائلاً دون امتداد سلطة عبد الناصر للجيش ، وأغلق على الضباط ، فكان ذلك أساس الصراع الذى سيشتد من يوم إلى يوم كما سرى فيما بعد :

إحصائيات :

استكمالاً لحديث خسائر الحرب التى ترتبت على تأميم القناة نورد فيما يلى دراسة تعتمد على الأرقام لرى خسائر أخرى تضاف إلى الخسائر التى أوردناها ، فقد كان امتياز القناة سينتهى سنة ١٩٦٨ ، فأهمها عبد الناصر سنة ١٩٥٦ ليكسب لمصر ١٢ سنة ، ولكن الدراسات الإحصائية توضح لنا أن حركة الملاحة فى القناة أوقفت مرتين بسبب عملية التأميم ، المرة الأولى عقب حرب ١٩٥٦ ، مدة عام تقريباً ، والمرة الثانية عقب حرب ١٩٦٧ التى ترتبت على حرب ١٩٥٦ وكانت مدة توقف الملاحة بالقناة هذه المرة ثمانى سنوات من يونيو ١٩٦٧ إلى يونيو ١٩٧٥ وعند ما أعيد فتحها فى الحاليتين كانت الملاحة تسير فيها ببطء حوالى سنة فى كل مرة ، ومعنى هذا أن المدة التى اعتقد عبد الناصر أنه قد كسبها قد ضاعت تماماً فى الحربين ، بالإضافة إلى ما أوردناه من خسائر فى الأرواح والعتاد والكرامة ، وقد ذكر الرئيس أنور السادات أننا صرفنا حتى عام ٧٣ مبلغ عشرة آلاف مليون جنيه ، وأنا سنصرف فى هذا العام (١٩٧٥) ألف مليون أخرى^(١) وتلك أرقام تفوق بمراحل أى تقدير لإيراد القناة . فإذا أضيف إلى ذلك خسائرها من نزيف البترول الذى أخذته إسرائيل من سيناء منذ سنة ١٩٦٧ حتى كتابة هذه السطور فى أكتوبر سنة ١٩٧٩ أدركنا الخسارة الفادحة التى خسرتها من تأميم القناة دون استعداد كامل لهذا التأميم .

(١) الأخبار فى ١٣/٣/٧٤

وربما جاز لنا أن نقول : إن سياسة عبد الناصر كانت ستقضى نهائياً على القناة . فإن إغلاق القناة مدة ثمانى سنوات عقب حرب ١٩٦٧ جعل العالم يتجه لبناء عابرات المحيطات العملاقة ، وقد أخذت هذه فعلاً تملأ الفراغ أو أكثره ، ومن أجل هذا اتجهت مصر بعد إعادة فتح القناة سنة ١٩٧٥ إلى مزيد من التعميق والتحسين فيها لتجلب لها هذه العارات أو أكثرها حتى تستعيد القناة حالتها الطبيعية .

وعند الحديث عن عودة الملاحة في القناة يتحتم علينا أن ننشئ أعمق النشاء على الجهود التى أعادت الحياة إلى هذا المرفق العظيم، ولكن ثناء خاصاً يتحتم أن نوجهه لأنور السادات الذى اختار يوم الخامس من يونيو لإعادة فتح القناة فوضع ابتسامة على كل فم فى هذا اليوم الذى كان يمر ثقيلًا مريراً ، فحوله

أنور السادات إلى يوم بهيج .

ولا ننسى أن نذكر من الخسائر تلك التعويضات الباهظة التى دفعها مصر بسبب التأميم لحملة أسهم شركة قناة السويس ، فقد تمّ في ١٣ يولية ١٩٥٨ توقيع اتفاقية بين مصر وبين حملة الأسهم ، دفعت لهم مصر بمقتضاها تعويضاً قدره ٣٤ مليون جنيه ، ولو انتظرنا إلى موعد نهاية الامتياز لما كان علينا أن ندفع شيئاً . وهكذا كان تأميم القناة على هذا النمط الذى تمّ به عملاً جلب الخسارة في كل اتجاه .

بقيت كلمة أخيرة تتصل بأحداث القناة ، فإن إيدن في إنجلترا وجى موليه في فرنسا لم يستطيعا البقاء في منصبيهما لدخولهما معركة دون التأكد من نجاحها سياسياً كما تأكدنا من نجاحها عسكرياً ، وقد اتخذ جمال عبد الناصر من سقوط رئيسى الوزارة بإنجلترا وفرنسا وسيلة للدعاية ، فظهر على أنه زعيم عالمى انتصر على أعظم قوى أوروبا و ونجحت الدعاية المصرية في تغطية المفزعة العسكرية أمام الانتصار السياسى الذى جاء عفواً وبدون أى إعداد من عبد الناصر (١) .

هواوت سنة ١٩٥٧

مقدمة :

في مطلع الحديث عن أحداث سنة ١٩٥٧ هناك مقدمات ضرورية أسجلها فيما يلي :

أولاً : لاحظ القارئ في ذكر حوادث سنة ١٩٥٦ أن مذكرات عبد اللطيف البغدادي كانت ضمن مراجعي المهمة لأنها كانت تشمل حديث شخص رافق عبد الناصر في محنة هذا العام ، وسجل أحداث هذه المحنة ، ووصف شخصية عبد الناصر أدق وصف ، وقد انتهى الجزء الأول من هذه المذكرات مع نهاية سنة ١٩٥٦ .

وحرصتُ على الحصول على الجزء الثاني من مذكرات البغدادي الذي يبدأ بأحداث سنة ١٩٦٧ ، وكنت أعتقد أنه سيكون رقيقاً مهماً للراستي عن هذا العام وما بعده ، وحصلت على الكتاب ، ولكن سرعان ما قابلتني به أخطاء لغوية ونحوية تنتشر في أكثر سطوره ، وفي كثير من الأحوال كادت الفكرة تصبح غامضة بسبب هذه الأخطاء، ويبدو لي أن الجزء الأول نال شيئاً من العناية، وأن بعض المثقفين قرأه قبل أن يطبع بخلاف الجزء الثاني .

ثم إن الجزء الثاني يكاد يكون تكراراً عملاً للحديث عن العلاقة السيئة التي كانت بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ، والتي استمرت من سنة ١٩٥٦ إلى سنة ١٩٦٧ ، حتى إن أكثر من نصف الكتاب قد خصص لهذه العلاقة المريرة التي تتبعت التفاصيل الدقيقة والمريرة بأسلوب غير طلي ولا مستساغ .

وبينما أطلال البغدادي في ذلك إطالة مملة لم يذكر شيئاً عن أحداث اليمن ، وقد حدثت وهو لا يزال في السلطة ، ولم يحلل عما كانت الثورة ، ولا يتحدث عن القوانين الاشتراكية ، ولا عن التشكيل الظالم بالإخوان المسلمين .

ويُختم هذا الجزء بصورٍ بغدادية لا بد أن عبد اللطيف البغدادي سعيد

بها وينشرها . ولكنها أثارت عندى لرايح الألم ، إنها صُوِّره مع فهم العالم ، وخاصة قادة ألمانيا الغربية ، أولئك الذين بنوا بلادهم بعد خرابها الشامل إبان الحرب العالمية الثانية ، فصارعوا حتى رفعوها إلى أعلى المستويات ، فستان بين قيادة وقيادة .

ثانياً : فى الحديث عن سوء العلاقة بين عبد الناصر وبين عامر يتحتم أن أبدى دهشتى بل عجزى عن التعرف على الأسباب الحقيقية التى أرغمت عبد الناصر على احتمال عامر احتمالاً يصل إلى حد التدليل ، على الرغم من صور العجز والهزائم التى صاحبت عبد الحكيم عامر ، قد يظن بغض الناس أن عامر مكّن لنفسه فى الجيش فلم يقو عبد الناصر على مواجهته ، ومن الواضح أن عامر مكّن نفسه فعلاً ، ولكن المواجهة كانت ممكنة بالتأكيد ، بل لعل أنها تمت فعلاً عقب هزيمة ١٩٦٧ ، وكان يمكن أن تتم عقب هزيمة ١٩٥٦ ، أو عقب الانفصال السورى ، أو هزائم اليمن ، وكلها من أسباب فشل النظام كله بوجه عام ، وفشل عامر بوجه خاص ، وكلها كانت من أسباب النفور والكراهية بين الاثنين ، وعندما أراد ناصر أن يقضى على عامر قضى عليه ، دعاه إلى بيته ، وعندما دخل مجلس عبد الناصر سحِب السلاح من أتباعه الذين رافقوه إلى ساحة القصر ، وذهبت قوة إلى منزل عامر فقبضت على أتباعه الذين كانوا هناك ، وانتهى عامر متحرراً أو مقتولاً .

السؤال هو : لماذا لم يحصل ذلك من قبل مع كثرة تمرد عامر ؟ وعشيانه ؟ واختفائه ؟ ومع وجود وسائل للقضاء عليه ؟

لأنه لغز عجزت عن فهمه ، فلعل غيرى أقدر أو أعرف بما غاب عني ، وقد غيّر موسى صبرى عن هذه العلاقة بأنها علاقة غريبة كما جاء فى مكان آخر بهذا الكتاب .

والآن نتابع أحداث هذا العام .

تمصير البنوك

فى أول يناير سنة ١٩٥٧ أعلن عبد الناصر قراراً بتمصير الاقتصاد المصرى ، ويصف أنور السادات هذا القرار بأنه كان ضربة كبرى ؛ إذ كانت جميع شركات التأمين والبنوك والبيوت التجارية الكبرى بصورة أو بأخرى إما فرنسية أو إنجليزية أو بلجيكية أو أوربية بوجه عام^(١) .

والعجيب أن أنور السادات الذى يمتدح هذا القرار ، ويصفه بأنه ضربة كبرى ، عاد فسمح للبنوك الأجنبية أن تفتح أبوابها من جديد ، وسمح لها أن تزاوّل نشاطاً ربما كان أوسع من النشاط الذى كانت تزاوّل من قبل .

ولست فى مكانى ضليعا فى الاقتصاد ، ولا أعرف بالضبط أى النظامين أمثل ، ولكنى أعرف أن أغلب دول العالم تسمح لبنوك مختلفة الجنسيات بمزاولة النشاط الاقتصادى بها ، وعلى كل حال فقد أضعنا عشرين عاماً فى التجربة بين قفل البنوك ثم العودة إلى فتحها ، بل وفتح بنوك بأسماء جديدة لم تكن موجودة من قبل ، وما أكثر ما عانينا من تجارب ثبت فسادها فى عدة مجالات .

الاتحاد القومى

الاتحاد القومى هيئة سياسية شعبية قامت بمصر على أنقاض هيئة التحرير التى سبق الكلام عنها ، وقد ورد النص فى دستور سنة ١٩٥٦ على أن هذا الاتحاد يعمل على تحقيق الأهداف التى قامت من أجلها ثورة ١٩٥٢ ، ثم أعيد هذا النص فى دستور الجمهورية العربية المتحدة سنة ١٩٥٨ ، ومن أبرز مناصب عليه دستور الاتحاد القومى أن يتولى رئيس الجمهورية رئاسة هذا الاتحاد ، ومن هنا كان الفشل الذى صاحب هذه المؤسسة لأنها بدل أن تبدأ من القاع بدأت من القمة ، فعبد الناصر كان حريصاً على الرياستين جميعاً ، فوضع بذلك نهاية المؤسسات الشعبية التى ابتكرها ، لأن الحاكم إذا استطاع أن يصل إلى الحكم بالقوة ، فإنه لا يستطيع أن يجمع بالقوة قلوب الناس حوله ، ومن هنا كانت المؤسسات الحزبية الحقيقية تبدأ من حركة جماهيرية ، وتختار رئيسها بمعرفتها .

وفكرة الاتحاد القومى استوردها عبد الناصر من البرتغال حيث كان سالازار الدكتاتور الذى حكم البرتغال ٣٤ عاماً حكماً مطلقاً ، معتمداً على تنظيمه (الاتحاد القومى) ، وقد أرسل على صبرى لدراسة التنظيمات هناك ، وعاد ليطبقه عبد الناصر فى مصر ، ولم يكن الاتحاد القومى تنظيمياً مستقلاً عن الدولة ، إذ كانت نفقاته من الخزانة العامة ، ولم يكن مفتوحاً للجميع ، إذ منع من دخوله الشيوعيون والإخوان المسلمون ، والكثيرون من أتباع الأحزاب التى كانت موجودة قبل الثورة ، واتجه عبد الناصر بالاتحاد القومى اتجاهاً يجعله حركة بين يديه وحده لا يشاركه فى إدارته غيره (١) .

وقد أعلن قيام الاتحاد القومى فى ٢٨ مايو سنة ١٩٥٧ ، وتولى

(١) أحمد حروتس : مجتمع جمال عبد الناصر ص ١٥٨ - ١٥٩ .

أنور السادات منصب السكرتير العام له . ثم أصدر جمال عبد الناصر قراراً بتعيين كمال الدين حسين مشرفاً عاماً يمارس أعمال السكرتير العام ، وقد وقف هذا في مؤتمر الاتحاد القومي لإعلان قوله « اشتراكيتنا اشتراكية تمليك ، وإيست اشتراكية مصادرة » ، وكانت كلمة الاشتراكية جديدة على القاموس السياسي بمصر ، برزت به بعد مؤتمر باندونج كما ذكرنا من قبل . ولذلك لم يعترض عليها جمال عبد الناصر ، ولكنه اعترض على وصفها بأنها اشتراكية تمليك لا مصادرة ، وعاتب كمال الدين حسين قائلاً : « إننا لا نعرف ظروف المستقبل . وما قد تدفعنا إليه هذه الظروف لتطبيق قد يقتضى المصادرة (١) » .

وعجز الاتحاد القومي عن أن يملأ الفراغ السياسي في مصر وفي سوريا ، وارتبطت ببعض القاعمين عليه ألوان من الانحرافات ، وصور من الاستغلال ، فزاد انقضاؤ الجهاير عنه ، وبخاصة أن العسكريين كان لهم السلطان الأكبر عليه وعلى قياداته ، وكان الشعب دائماً يحس بفجوة واسعة بينه وبين العسكريين ، فهو قد يخضع لهم تحت تأثير القوة ، ولكنه لا يتعاون معهم ، ويوماً بعد يوم أصبح الاتحاد القومي جسداً بدون روح ، وأصبح من المحتم أن يلاقى نفس المصير الذي لاقته هيئة التحرير من قبل ، إنهما هيكلا واحد بأسماء مختلفة ، ولا يُجدي تعدد الأسماء إذا كان الهيكل مريضاً لا أمل فيه .

(١) مجتمع جمال عبد الناصر ص ١٥٥

أول برلمان للثورة

نتحدث هنا عن أول برلمان للثورة ، وفي حوادث سنة ١٩٦٠ سنتحدث عن البرلمان الثاني للثورة ، ويقول الأستاذ سامى جوهر متهمكاً بديمقراطية عبد الناصر ما يلي : صدر الدستور عام ١٩٥٦ ليعود الحكم إلى الشعب ، وقيل إن الشعب سيختب ممثلية فى أول مجلس للأمة بعد قيام الثورة ، ليكون هذا المجلس مسئولاً عن حماية الشعب ، وستكون الانتخابات حرة مائة فى المائة ؛ وسيستطيع كل مواطن أن يدلى بصوته بدون خوف أو إرهاب ، فقد حررت الثورة الفلاح من الإقطاع ، فأصبح صوته حراً يعطيه لمن يشاء ، ورفعت الثورة مستوى معيشة الفرد فأصبح ليس فى حاجة لأن يبيع صوته لمن يدفع الثمن .

تلك كانت الآمال العريضة التى سمع الشعب عنها ، فلما جاء وقت تحقيقها ظهر أنها هباء فى هباء (١) .

وكانت انتخابات مجلس الشعب قد تأجلت بسبب حركة تأميم القناة وما تسبب عن ذلك من حرب وعدوان ، فلما جلا المعتدون عن مصر ، واحتفلت مصر بما سموه « عيد النصر » بدأ الاستعداد لانتخاب مجلس الأمة ، وقد خدع كثير من المواطنين بعبارات الحرية التى سبق الكلام عنها ، فتقدموا لترشيح أنفسهم ، ولكن الثورة سرعان ما أسفرت عن نياتها تجاه هذه الانتخابات ، فاستباحت لنفسها إبعاد العناصر التى تريدها الأمة ويُقْبَل عليها الناخب المصرى ، وذلك بالاعتراض على ترشيح هؤلاء ، وكذلك بإغلاق بعض الدوائر على الضباط الأحرار ، وكان هذا دليل فشل الثورة ، فلو أنها كانت ثورة ناجحة لاستطاعت خلال السنوات الخمس التى انقضت

(١) سامى جوهر : الصامتون يتكلمون ص ٢٩ - ٣٠

فيها بالسلطة أن تجمع حولها الشعب ، ولكنها بدلاً من ذلك نفّرت الناس وأبعثتهم عن رحابها ، ويذكر أنور السادات تدخل 'الثورة' في الانتخابات بقوله : راعينا في انتخابات مجلس الأمة شيتين ، أولها حقّ اعتراض مجلس الثورة على الترشيح . وفعلاً بعد أن تمت الترشيحات اعترضنا على أعداد كبيرة ، أما الإجراء الثاني فكان إغلاق بعض الدوائر على الضباط الأحرار الذين تركوا الجيش وخرجوا إلى الحياة السياسية والمدنية ، وفعلاً أغلقنا ستين دائرة (١) .

ويزيد مجدى حسنين هذا الموضوع وضوحاً ، فقد سأله الأستاذ أحمد حروش السؤال التالى :

هل تدخلت الثورة في تشكيل مجلس الأمة عام ١٩٥٧ ؟

وينيب مجدى حسنين بقوله : نعم تدخلت الثورة ، فقد كانت هناك لجنة سرية لتحديد أسماء الأعضاء الذين تسمح ببقائهم كمرشحين بناء على لأئحة الاتحاد القومى ، تلك اللائحة التى تُقرّر أن الاتحاد هو الذى يرشح لمجلس الأمة ، وكانت اللجنة السرية مشكلة تحت إشراف زكريا محيى الدين ، وكانت مكونة منى ومن على صبرى وأحمد طعيمة ، وإبراهيم الطحاوى ، وصلاح دسوقى وكمال الحناوى وعباس رضوان ومصطفى المستكاوى ، وهى التى قدمت اقتراحات الاعتراض على بعض الأسماء ، وأخلت الدوائر لمرشحين محددين ، وفرضت على بعض الضباط أن يرشحوا أنفسهم (٢) .

والعجيب أن هذا التدخل كان يجيزه الدستور المريض الذى أعلن سنة ١٩٥٦ إذ نصت المادة ١٩٢ منه على أن يتولى الاتحاد القومى الترشيح لعضوية مجلس الأمة .

(١) البحث عن الذات ص ١٩٥

(٢) كلماته في شهود ثورة يوليو ص ٣٦٥

وجاء مجلس الأمة على نسق لا يربط بين أعضائه رباط سياسى ، ولم تكن هناك وحدة فكر متوافرة بين الأعضاء ، ثم جاء دور اختيار رئيس المجلس ، وكان عبد الناصر قد طلب من أنور السادات أن يستعد لرئاسة المجلس ، ولكنه قبل بدء المجلس بيوم واحد رشح عبد اللطيف البغدادى لهذا المنصب ، ويقول أنور السادات إنه لم يدرك السبب الذى جعل عبد الناصر يغيّر رأيه، وإن كان تغيير عبد الناصر لرأيه شيئاً كان متوقّعا دائماً، واعتقادى أن ارتباط عبد الناصر بعبد اللطيف البغدادى زاد زيادة كبيرة خلال هزيمة ١٩٥٦ ، فقد رافق البغدادى عبد الناصر فى كثير من ليالى هذه الحقبة ، وبات معه فى حجرة واحدة أكثر من مرة ، وأشفق عليه وهو يعانى الانهيار ، مما جعل عبد الناصر يقول له - كما ذكرنا من قبل - لم أعرفك على حقيقتك إلا الآن ، ومن أجل هذا أراد عبد الناصر أن يكافئ البغدادى على هذا التصرف ، وعلى كل حال فإننا نثبت هنا أن عبد الناصر ، وليس مجلس الأمة ، هو الذى اختار رئيس مجلس الأمة ، وهذا يساعدنا على فهم الموضوع التالى :

عبد الناصر هو البرلمان :

إن الذى يطالع الباب الأول من الجزء الثانى من مذكرات عبد اللطيف البغدادى يدرك أن عبد الناصر كان هو وحده البرلمان ، فهو الذى يختار أعضائه باسم الاتحاد القومى ، وهو الذى يختار رئيسه ، وهو الذى يسيّر الأمور فيه ، ويورد البغدادى قضية مجدى حسنين الذى أساء سلطاته فى مديرية التحرير ، والذى عين أربعة من أعضاء مجلس الأمة موظفين عنده بالمديرية ، مع أن القانون يمنع الجمع بين عضوية مجلس الأمة وبين الوظائف بالدولة ، وهؤلاء هم : الدكتور محمود القاضى ، وإسماعيل نجم ، وأحمد أبو عوف ، وحيرم الغمراوى ، وقد إثار أعضاء مجلس الأمة لذلك ، وشبهوا الصلة بين مجدى حسنين وبين هؤلاء الأعضاء كالعلاقة بين الراشى والمرتشى ، وضرورة محاسبة كليهما باعتبار أن مجدى هو الراشى بغرض دفع هؤلاء الأعضاء إلى الدفاع عن موضوع مديرية التحرير بالمجلس .

ويقول البغدادي إنه لما رأى ثورة الأعضاء على مجدى وموظفيه ، واتجاههم إلى إسقاط العضوية عنهم اتصل بنجال عبد الناصر وأبلغه اتجاه المجلس ، فوافق جمال على هذا الاتجاه ، وضرورة التخلص من هؤلاء الأعضاء ومن مجدى أيضاً ، لأنه على حد قوله قد أثر عليه الشيوعيون ، وأصبح ينفذ سياستهم . وكان ذلك في يوم ٢ نوفمبر ١٩٥٧ ، ولكن في يوم ٤ نوفمبر اتصل عبد الناصر بالبغدادي ، وأبلغه أن مجدى حسنين ذهب إليه وأخذ يكي ويقول : لماذا تعمل هذا في ؟ لماذا تقتلني ؟ كما أبلغه أن زوجته ووالده في حالة انهيار عصبي ، ولما رأى جمال ذلك قام بالاتصال بهما وطمأنهما ، ولهذا فإنه (جمال عبد الناصر) يطلب من البغدادي إسقاط عضوية الأعضاء الآخرين دون إسقاط عضوية مجدى حسنين ، وأجاب البغدادي بأن الأمر للمجلس يفعل ما يشاء .

ويبدو أن عدم استجابة البغدادي لتعليات عبد الناصر أثارت الزعيم الذى كان يرى أن رغباته أوامر لا بد من الاستجابة لها ، فالتف من خلف البغدادي يستدعى بعض الأعضاء إلى منزله ويوحى للأعضاء أنه لا يريد أن يُفصل أحد ، وأن البغدادي تصرف بدون رأيه ، وأن مديرية التحرير مؤسسة خاصة ، وصوت المجلس ، لصالح اتجاهات الزعيم ، وقهر عبد اللطيف البغدادي ، وحاول أن يستقيل من رئاسة المجلس ، كما استقال فعلاً كمال الدين حسين ، ولكن عبد الناصر كان يحب أن يُقيل ، ولا يرضى أن يستقيل أحد باختياره ، فرفض الاستقالة وأرضاهما مؤقتاً ، ولكنه أسرها في نفسه ، فانتهاز فرصة تكوين مجلس جديد بمناسبة الوحدة وعين أنور السادات رئيساً له .

نهاية مجلس الأمة :

كان مجلس الأمة الأول قصير العمر ، فقد انعقد في ١٩٥٧/٧/٢٢ ، وحل في فبراير سنة ١٩٥٨ بمناسبة الوحدة كما سنرى فيما بعد ، فلم يتجاوز عمره بضعة شهور ليعود الحكم إلى الدكتاتورية الصريحة .

حديث عن مؤامرة ضد نظام الحكم

لمع في سنة ١٩٥٧ إنسان عجيب هو محمد فؤاد الدجوى ، الذى ارتبط اسمه بمحاكمات عسكرية أكثر من عشر سنوات كان فيها القاضى الذى يعترف بأنه لا يعرف القانون ، وإنما يعمل لحماية النظام ، وأن مهمته هى أن ينطق بالحكم الذى يضعه له قصر الرئيس .

وينبغى أن نتعرف على هذا الدجوى لنترك المواهب التى رشحته ليكون القاضى الذى جلس على منصة القضاء عدة مرات ووزع أحكام الإعدام والسجن على أطيب الناس وأطهر الناس .

كان اللواء فؤاد الدجوى حاكم غزة عند العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ ، وعندما دَخَلَت القوات الإسرائيلية غزة أسرع فؤاد الدجوى فسلم المدينة للغزاة ، وكانت زوجة اللواء الدجوى عندها كيس دهن يحتاج إلى عملية بسيطة ، وكان فى غزة مستشفى مصرى به استعدادات طبية هائلة ، وأطباء مصريون مهرة ، وقد عرضوا استعدادهم لإجراء العملية الجراحية لها ، ولكن اللواء الدجوى رفض ذلك ، فلما استسلم للجيش الإسرائيلى طلب من ضابط إسرائيلى أن تجرى العملية الجراحية لزوجته فى تل أبيب ، ووجدها الإسرائيليون فرصة لهم فاستجابوا ، ونقلوا زوجة اللواء الدجوى إلى مستشفياتهم وأجروا لها العملية الجراحية ، وكافأهم اللواء الدجوى على ذلك بأن وقف أمام غلدسات التليفزيون الإسرائيلى يعلن ثناءه على الجيش الإسرائيلى وعلى شجاعته ومروءته ، ويسجل شكره على ما قدمه الإسرائيليون لزوجته .

وانتهزت إسرائيل هذه الفرصة فأرسلت الفيلم إلى تليفزيونات العالم وإذاعته ، وكان الناس يعجبون لقائد يقف هذه الوقفة المهينة ويثنى على قاتلى أهله ومحتلى أرضه ، وقد سمع جمال عبد الناصر كلمات فؤاد الدجوى.

من الإدعاءات المختلفة ، وقرر أن الدجوى سيحاكم عقب عودته من الأسر من إسرائيل ، وأنه سيعدم رمياً بالرصاص على هذه الخيانة .

ولكن شيئاً آخر حدث للدجوى ، فبدلاً من أن يعدم كثرّم ، فلم يكذب يعود من إسرائيل حتى اختير في يوليو سنة ١٩٥٧ ليكون رئيساً للمحكمة العسكرية العليا التي شكلت لمحاكمة الدكتور محمد صلاح الدين وزير خارجية مصر قبل الثورة ، والأستاذ عبد الفتاح حسن وزير الشؤون الاجتماعية في نفس الوزارة ، ويقول الأستاذ مصطفى أمين إنه ذعر لهذا الاختيار لأنه يضع رجلاً خائناً جباناً في منصب القاضي الذي يحاكم رجلين قاما بدور وطني مشهور سنة ١٩٥١ على أثر إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ فقد حرّضا العمال المصريين على الانسحاب من المعسكرات البريطانية ، وعينهم عبد الفتاح حسن في وظائف بديلة ، واشتركا في دفع قوات الفدائيين لتورق القوات البريطانية المحتلة ، وخاف مصطفى أمين من المقارنة التي ستبرز أمام عقول الناس عندما تضع الثورة خائناً ليحاكم صفوة من المواطنين ، وكانت هناك صلة بين مصطفى أمين وعبد الناصر آنذاك أتاحت له أن يذكر له وجهة نظره تلك ، فوعده عبد الناصر بأنه سيفكر في الموضوع ، ولكن مصطفى أمين فوجيء بإعلان الدجوى رئيساً لهذه المحكمة .

وقد شرح زكريا محيي الدين سبب هذا الاختيار ، فقال إن القضية ملفقة ، وأى قاض آخر سوف يحكم فيها بالبراءة ، واللواء الدجوى هو الضابط الوحيد في الجيش الذي كان مستعداً أن يتلقى دائماً الأحكام على المتهمين ، وأن بنطق بها كالبيغاء ، وكان يفخر دائماً بأنه قادر على إدانة الأبرياء .

وأصبح الدجوى بسبب هذه الموهبة قاضياً في أية محاكمة يرى عبدالناصر أن أدلتها ضعيفة ، أو لا أساس لها .

وكان الدجوى يعتقد أن هناك ميكروفوناً بين قاعة المحكمة وبين مكتب

رئيس الجمهورية ، وفيل له أن الرئيس يستمع إلى محاكماته . ولهذا كان يعتمد أن يشتم كل محام يفضح التعذيب أو يتحدث عن الإرهاب ، ويهين المتهمين ، ويقاطع الشهود ، ويهدد بالحبس والسجن ، حتى يسمع الرئيس ما يقوله ويعتقد أن الدجوى رجل مخلص للنظام .

وكان عبد الحكيم عامر يقول : إن الدجوى لا يصلح إلا أن يكون جزاءً .

وقد اختير الدجوى لمحاكمة مصطفى أمين ، ويقول مصطفى أمين : إن هذا الاختيار وضَّح لي أن جمال عبد الناصر يعتقد براءتي ، وأنه لذلك اختار الدجوى ليحاكمني ويدينني ، فلم يكن هناك قاض آخر يستطيع إدانتني إذ لم أرتكب جريمة أعاقب عليها .

وكان الدجوى - كما ذكرنا من قبل - يفخر بأنه لا يحمل شهادة الليسانس ، وأنه لم يدرس الحقوق ولا يعرف القانون ، ولكنه فقط محل ثقة النظام وكان لا يهتمه ما في أوراق القضية ، وإنما يهتمه ما يريده ولاية الأمور فيها ، وكان من وأيه أن ولي الأمر هو كل شيء ، هو الدولة والوطن والدين ، ومن يخرج عليه أو يغضبه ، فقد خرج على الدولة ، وخان الوطن ، وكفر بالله (١) .

ذلك هو الدجوى ، الرجل الحقير الذي حكم على أعظم الرجال بالإعدام والسجن ، ولكنه ليس المستول ، وإنما المستول من وضعه في هذا المكان وأوحى له أو كتب له العقوبات ثم صدق عليها ونفذها .

وعندما عفا عبد الناصر عن الدجوى ولم يحاكمه لخيانته كان يدرك أنه ثروة هائلة في مجال الباطل ، إذ كان هذا رئيساً لمحكمة عسكرية خاصة سنة

(١) مقدمة الأستاذ مصطفى أمين لكتاب محاكمات الدجوى للاستاذ شوكت البوني .

١٩٥٤ نظرت « قضية الجبهة الوطنية الديمقراطية » وكانت هذه المحكمة تحكم مجموعة من المصريين لعدم تأييدهم اتفاقية الجلاء ، وكان الدجوى يطلب من المتهمين أن يعلنوا تأييدهم للاتفاقية ليحكم لهم بالبراءة ، فكانوا يرفضون ، ولهذا حكم عليهم بالسجن عدة سنوات (١) ، وقد شفع له هذا الموقف ، فلم يحاكمه جمال عبد الناصر وهياه ليحكم الأشراف في سنة ١٩٥٧ وما بعدها

وقضية سنة ١٩٥٧ اتُّهم فيها عاطف نصار الملقب بالسكري بالهند بالتعاون مع خمسة من المدنيين منهم الدكتور محمد صلاح الدين والأستاذ عبد الفتاح حسن وستة من ضباط الجيش بالاسكندرية ، وقد حكم الدجوى على عاطف نصار بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وحكم على الدكتور محمد صلاح الدين بالسجن ١٥ سنة ، وعلى عبد الفتاح حسن بالسجن ١٢ سنة ، وبأحكام مختلفة على الباقين .

وستقابل الدجوى مرات أخرى وهو يقضى بالباطل ، ليرضى عبد الناصر وإن أغضب الله :

حوادث سنة ١٩٥٨

الوحدة بين مصر وسوريا

قامت الوحدة بين مصر وسوريا في ٢٢ فبراير سنة ١٩٥٨ ، وانفصمت هذه الوحدة في ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٦١ ، وفيما بين هذين التاريخين اتجه كل النشاط لدعم هذه الوحدة ، ولإغراء الدول العربية الأخرى لتنضم لهذا الكائن الجديد الذي سمي « الجمهورية العربية المتحدة » وقد كان واضحاً من التسمية شدة الرغبة في أن تستقبل هذه الجمهورية دولة عربية اثر دولة ، وصُمِّمَ عَلمُ الجمهورية على هذا الأساس ، فقد جُعِلَ وسطه مستطيلٌ أبيض رسمت فيه نجمتان إشارة لدولتي الوحدة وترك به فراغ كبير لمزيد من النجوم تمثل الدول المرتقبة (١) .

والعجيب أن الصحف المصرية نشرت آنذاك تعليق بن جوريون على الجمهورية الجديدة ، إذ قال : إنها ليست جمهورية ، وليست عربية ، وليست متحدة ، واندھشنا ونحن نقرأ هذا التعليق بالصحف فكيف أجاز الرقيب هذا التعليق ؟

ويكاد يدور تاريخ عبد الناصر طيلة هذه السنوات الثلاث في فلك هذه الوحدة وفي أطماع التوسع ، وُسخرت موارد مصر بل وديونها لهذا الغرض ، وأهمل تماماً كل إصلاح بها ، ويلاحظ أن أمور الوحدة خلال هذه السنوات كانت تدور بعيداً عن المصريين ، فلم نكن نعرف ما يتم في سوريا من حركات وقلق ، ومن أجل هذا يتجه المؤرخون إلى أن تاريخ هذه السنوات تاريخ غامض ، وسيتضح لنا بعد قليل إن هذه الوحدة ولدت ولادة غير صحيحة ، فكانت بذلك مولوداً عليلاً ، وظلت الوحدة تعاني العلة والآلام حتى ماتت : ولنبدأ القصة من أولها :

جهل عبد الناصر بشتون العرب :

يعترف محمد حسنين هيكل أن معرفة عبد الناصر بأوضاع الدول العربية كانت قليلة ، وأن الأوضاع المصرية شغلته ، ولما بدأ يطل على العالم العربي بعد مقاومة حلف بغداد ، كانت إطلائته متواضعة ، ومن هنا كانت الصورة الحقيقية عن الأوضاع الداخلية في سوريا لم تكن واضحة بالنسبة إليه (١) :

وسوريا بوجه خاص لغز صعب من ناحية تركيب المجتمع السوري ، وقد اقتبست في الجزء الخامس من هذه الموسوعة فقرات من دراسة قام بها عالم سوري عن « تركيب المجتمع السوري » ذكر فيها أن سوريا من ناحية الجنس تتكون من عرب وأكراد وجركس وتركان وأرمن وسوريان وكلدان وآشوريين

ومن ناحية اللغة توجد لغة لكل جنس من هذه الأجناس ، وقد تُعرف اللغة العربية بجانبها ، ولكنها شبه رطانة غالباً ؛ ولغته الأصيلة عنده هي اللغة القومية ؛ وبعضهم صحافة خاصة كالأرمن .

ومن ناحية الأديان والمذاهب نجد في سوريا عدداً كبيراً منها له أثر عميق في المجتمع ، والتوزيع الطائفي حسب إحصائية ١٩٥٦ يدل على أن المساحين هناك ينقسمون إلى سنيين وعلويين (فرقة يكثر فيها الغلو في التشيع وتنتشر الخرافات) وإسماعيليين وجعفرين ودروز ، وأن المسيحيين فيهم الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت بالإضافة إلى الكلدان والنسطوريين ، وفيها كذلك عدد من اليهود وعدد من اليزيدية الذين يقدسون الشيطان .

وأقاليم سوريا تكاد كل منها تمتاز باتجاه استقلالاً ، فدمشق لها اتجاه فكري ، ولحلب اتجاه فكري آخر ، ومثل ذلك يقال عن اللاذقية ،

(١) بصراحة عن عبد الناصر ص ١٣٧

وقد تعمّنت الفروق بين هذه الأقاليم لأن التاريخ شهد بعضها وهو يتبع دولة غير الدولة التي يتبعها إقليم آخر ، كما أن المسافات الشاسعة التي تفصل بين حلب ودهشني مثلاً تؤثر على العلاقات بين البلدين .

ولو كان عبد الناصر يعرف هذه المشكلات في سوريا أقدم بسهولة على الوحدة معها ، فسوريا محتاجة إلى وحدة داخلية قبل أن تتحد مع غيرها من الدول العربية ، وليتها تستطيع أن تصل إلى هذه الوحدة الداخلية .

القلق في سوريا :

تعرضت سوريا لاضطرابات شبه متصلة منذ استقلالها عقب الحرب العالمية الثانية فقد قامت بها عدة انقلابات عسكرية ، بدأت بانقلاب حسني الزعيم في مارس سنة ١٩٤٦ ثم انقلاب سامي الحناوي في أغسطس من نفس العام ، فانقلاب أديب الشيشيكي في ديسمبر من نفس العام أيضاً ، وقد طال عهد الشيشيكي بعض الشيء حتى سنة ١٩٥٤ وأخيراً ثار عليه الجيش فغادر البلاد ، وظهر نوع من الديمقراطية انتخب فيه شكري القوتلي رئيساً للجمهورية سنة ١٩٥٥ .

وتعرضت سوريا - بجانب هذا الاضطراب الداخلي - إلى هجوم إسرائيلي على بعض مواقعها ، فاتجه قادة البلاد إلى شراء الأسلحة من المعسكر الشرقي مقلدين اتجاه مصر ، وفتح هذا الباب مشكلات جديدة على سوريا ، فاعتقدت أمريكا وحلفاؤها أن سوريا متجهة للشيوعية ، فتعرضت سوريا بذلك إلى ضغط تركيا والعراق ، وغضب عبد الناصر لذلك فأرسل إلى سوريا في أغسطس سنة ١٩٥٧ وحدات عسكرية نزلت فجأة بميناء اللاذقية ليرد عن سوريا أي عدوان ، وكان للتحرك المصري نتائج ، فانسحبت القوات التركية من الأماكن التي كانت تعسكر بها على الحدود مع سوريا ، وغمرت السوريين موجة فرح بتدخل مصر السريع لصالح بلادهم ، وبدأ في الجو أن أمن سوريا الداخلي والخارجي مرتبط بمصر .

الاتصالات وقيام الوحدة :

في نوفمبر سنة ١٩٥٧ دار وفد برلمانى مصرى سوريا ، واسمُـه قبل هـمـاك استقبالا شعبيّاً هائلاً وكان برأسه أنور السادات وكيل مجلس الأمة آنـاك ، وقد عقد الوفد المصرى جلسة مشتركة مع النواب السوريين في مبنى البرلمان ، وأصدر المجتـهـمون بياناً مشتركاً دعياً فيه إلى قيام اتحاد بين مصر وسوريا ، وسرعان ما استجاب البرلمان المصرى لهذه الرغبة ، فأصدر بالتالى بياناً يؤيد هذا الإتـجـاه .

واتجه العسكريون بسوريانفس الإتـجـاه . فقد وفـد وفـدٌ عسـكـرى سـورى إلى مصر في يناير سنة ١٩٥٨ ، وقابلوا عبد الحكيم عامر ، وأبلغوه قرارهم بضرورة قيام وحدة بين مصر وسوريا ، وقد اضطرت الحكومة السورية إلى الخضوع إلى الإتـجـاه العسـكـرى الذى كان صارماً وحاسماً ، وتقول كل المصادر الرسمية إن عبد الناصر كان يريد اتحاداً فيدرالياً وليس وحدة اندماجية ، وأن عفيف البزرى رئيس الأركان السورى طالب بالوحدة الاندماجية وهو يعلم أن عبد الناصر لا يريد لها ، وكان يرمى بذلك إلى أن يرفضها عبد الناصر فيتخذ البزرى ذلك حجة ضد عبد الناصر ، وأدرك عبد الناصر ذلك ، فقبل الوحدة الاندماجية دون إيمان بها ، ومع المعرفة الكاملة بصعوبتها ومشكلاتها (١) .

وكلمات هيكل هي : قبل عبد الناصر الوحدة ، وهو مقتنع بأنه مقدم على مغامرة ، قبلها وهو متنبه لمصاعبها .

وكلمات أنور السادات هي : حاول عبد الناصر أن يثنى الوفد السورى عن عزمه ، إذ لا يمكن أن تتم الوحدة فجأة وبدون تمهيد ، وبخاصة أن البلدين مختلفان في أوجه كثيرة . . . ولكنه في النهاية وافق عاياً كارهاً (٢) .

(١) محمد حنين هيكل : بـصـراحة عن عبد الناصر ص ١٣٩

(٢) أنور السادات : البـحـث عن الذات ص ١٩٨

وكلمات البغدادي هي: لما علم جمال باتجاه عفيف البزري أراد أن يفوت على الشيوعيين غرضهم ، فقام بتغيير اتجاهه، وأعلن موافقته على قيام الوحدة الاندماجية ، وفوجئ البزري بذلك فراجع ، واقترح أن يُكْتَفَى بالتحاد فيدرالى إلى حين ، ولكن جمال أصر على رأيه بقيام الوحدة الاندماجية^(١) .

وتعليقنا على ذلك أن من الخطأ الكبير، ومن الخيانة أن ينساق رئيس خلف

العناد إلى ما يعتقد فساده ، ولم تجنب مصر من هذه المغامرة التي قام بها عبد الناصر إلا الخسارة الهائلة كما سنرى فيما بعد .

ويذكر أمين هويدى أن المستشارين المصريين قدموا لعبد الناصر تقريراً ضد إتمام الوحدة بعد جس نبض الموقف في كافة أنحاء سوريا، وعلى مختلف المستويات ، ولكن عبد الناصر لم يهتم بهذا التقرير^(٢) .

وقد حذر الملك فيصل ، وكان آنذاك ولياً للعهد، حذر من قيام الوحدة، وذكر لأنور السادات أن سوريا عشائر ، وأن الوحدة لن تستمر ، وأنها ستكون ضربة لمصر^(٣) ، ولكن كل ذلك لم يجحد اهتماما من عبد الناصر .

إعلان الوحدة :

أُعلن أول بيان عن الوحدة في أول فبراير سنة ١٩٥٨ ثم أُجرى استفتاء على الوحدة وعلى رئاسة جمال عبد الناصر للجمهورية الجديدة ، فجاءت النتيجة على النمط الذى فرضه عبد الناصر في استفتاءات عصره ، وعقب الاستفتاء أعلنت الوحدة يوم ٢٢ فبراير، وهكذا تمت الوحدة في عجلة شديدة ، وبدأ بذلك عهد من المتاعب كان يدور في الخفاء عن جماهير مصر

(١) مذكرات البغدادي ج ٢ ، ص ٣٦

(٢) كلماته في شهود ثورة يوليو ص ٨٨

(٣) البحث عن الذات ص ١٩٨

وسوريا ، بالضبط كأحداث السودان التي أبعدت المواطن السوداني عن مصر دون أن يعرف المصريون ما كان يجري .

وأطلق على دولة الوحدة « الجمهورية العربية المتحدة » وأصبحت مصر تسمى « الإقليم الجنوبي » وفقدت اسمها الحبيب « مصر » الذي ملأ الدنيا ؛ ورعى الحضارة وهى فى مهدها ؛ وشرف بأن ورد ذكره فى القرآن الكريم عدة مرات .

عبد الناصر تلميذ البعث :

من العجيب أن يصبح عبد الناصر تلميذاً لحزب البعث ، ينفذ اتجاهاته ويدور فى فلكه تماماً أو بتغيير بسيط لا يخفى حقيقة التبعية ، وهذه القضية مقتبسة من هيكل نفسه الذى يقول : طرح حزب البعث فكرة الوحدة فجاء عبد الناصر وطبقها ، ووضع حزب البعث شعاره (الوحدة والحرية والاشتراكية) وجاء عبد الناصر فتبنى هذا الشعار وكل ما عمله فيه لإعادة ترتيبه فأصبح (حرية - اشتراكية - وحدة) واقترح حزب البعث صيغة التنظيم الواحد الذى يجرى الحوار داخله ، وأسماء تحالف قوى الشعب ، فالتقط عبد الناصر هذه الفكرة ، وأصبح تنظيمه يسمى تحالف قوى الشعب العاملة ، وكان حزب البعث قد طرح الاشتراكية ، ولكنه لم يطبقها ، وجاء عبد الناصر فطبقها عن طريق إقامة القطاع العام الذى صادر به كثيراً من ممتلكات الأفراد^(١).

بعد قيام الوحدة :

لقد كان قيام الوحدة يعتبر بمثابة بدء دوامة من الصراع فى الداخل والخارج ، فقد تعرضت هذه الوحدة لهجوم من معظم البلاد العربية ، إذ بدأ الخوف يتزايد خشية أن يقضى عبد الناصر على العناصر الحاكمة فى البلاد

(١) بصراحة عن عبد الناصر : ١٥٤ - ١٥٥

الأخرى، فاتجهت السعودية والعراق والأردن ولبنان إلى مناهضة هذه الوحدة بكل الوسائل ، ووصل الأمر إلى أن ينحصر الملك سعود مليونين من الجنيهات حتى لا تنجح هذه الوحدة، ولكن أقسى ما عانته الوحدة كان نابعاً من الداخل ، والمادة العلمية وفيرة جداً في هذا المجال ، ولكننا نلتقط لقطات قصيرة تشرح هذا الموضوع ، وسنحاول توزيع هذه اللقطات مع تواريخها على أعوام الوحدة .

— تكونت أول وزارة للوحدة في ٦ مارس ١٩٥٨ وضمت أربعة نواب لرئيس الجمهورية اثنان مصريان هما البغدادي وعامر ، واثنان سوريان هما أكرم الحوراني وصبري العسلي وكان عدد الوزراء ٣٤ منهم ١٤ سورياً ، ويلاحظ في هذه الوزارة أن العسكريين السوريين قد وجدوا طريقهم إلى الوزارة ، وهو الاتجاه الذي كان موجوداً بمصر قبل ذلك ، وهو كذلك الاتجاه الذي يجلب الفشل دائماً ، ويقول أحمد حمروش . إن الموقف في سوريا أصبح امتداداً للموقف في مصر ، فاختير العسكريون لممارسة أعمال سياسية وإدارية ليسوا مؤهلين لها^(١) ومن أجل هذا كانت هذه الوزارة قصيرة العمر ، وتعدلت في ٧ أكتوبر من نفس العام مشتملة على ثلاثة نواب لرئيس الجمهورية بإبعاد صبري العسلي الذي اتهم بتقاضي أموال من مصير غير سليم ، وضممت هذه الوزارة ثلاث وزارات هي :

١ — الحكومة المركزية في القاهرة وعدد أعضائها ٢٤ عضواً من بينهم ١٢ ضابطاً .

٢ — المجلس التنفيذي في مصر وعدد وزرائه ١٥ وزيراً منهم خمسة ضباط .

٣ — المجلس التنفيذي في سوريا وعدد وزرائه ١٤ وزيراً منهم ستة ضباط .

ويلاحظ الاتجاه الخطير لكثرة الوزراء مما لا يعرفه أي قطر من الأقطار ، [فإذا أضيف هؤلاء نواب الوزراء ، وكلاء الوزارات ، أوشك أن يوجد في كل بيت واحد من هؤلاء .

(١) عبد الناصر والعرب ص ٥٩

ثم أعيد تشكيل الوزارة مرة أخرى في ٦ أغسطس سنة ١٩٦١ فأصبح هناك سبعة نواب لرئيس الجمهورية من بينهم عبد الحميد السراج الذي استدعى من دمشق ليشغل منصبه بالقاهرة، أوبلغة أوضح ليُبتعد عن سوريا وكانت العناصر العسكرية واضحة في هذه الوزارة ، مما أدى إلى فشلها أيضاً .

- حاول فتحى رضوان أن يعتذر عن عدم دخول وزارة الوحدة ولكن المشير عامر أطلق ضحكة عالية وقال له : لقد اخترناك حتى (تتمكن) على صلاح البيطار ، ومن الذى يعكّن عليه سواك (١) ؟

- اتجه جمال عبد الناصر فى سوريا الاتجاه الذى عاشه فى مصر ، فأصدر نشرة إثر نشرة يفصل بها بعض الضباط السوريين ، وكان تسريحهم بدوافع من اتجاهات الوزراء القريبين من عبد الناصر ، فحزب البعث كان يتجه للتخلص من الضباط غير البعثيين ، وقد اتجه مصطفى حمدون بوجه خاص إلى تقسيم الضباط إلى بعثيين وشيوعيين وإخوان مسلمين وشوام (دمشقيين) وحلبيين وعلويين ، ولم يكن تسريح الضباط فى سوريا باليسر الذى كان به فى مصر لانتفاء الضباط إلى أقاليم وعشائر وهيئات كانت تعد نفسها مستولة عن ضباطها ومثلها .

- عفيف البزرى الذى كان قائداً للجيش السورى أصدر نشرة بحركة تنقلات فاعترض عليها المشير ، وحصل صدام انتهى بخروج البزرى من سوريا واتجاهه إلى العراق .

- اتجهت سياسة عبد الناصر إلى اعتقال بعض السوريين على النمط الذى كان يتبعه فى مصر ، ولم يكن ذلك فى سوريا باليسر الذى كان به فى مصر . أصدر عبد الناصر قراراً بحل الأحزاب فى سوريا امتداداً لسياسته التى

(١) فتحى رضوان ١ أصرار حكومة يوليو من ٢١

اتبعها في مصر ، ولكن حل الأحزاب هناك كان عملاً قاسياً على الشعب السوري .

-- كان عبد الحميد السراج في سوريا عدواً للبعثيين ، وله سلطات واسعة باشرها باستبداد عنيد ، حتى أطلقوا عليه « السلطان عبد الحميد » ، تشبيهاً بالسلطان عبد الحميد العثماني الذي عرف باستبداده وقسوته . ويحكى أحمد حمروش إحدى تصرفاته الوحشية ، فيذكر أن بعض رجاله قتلوا رجلاً شيعياً اسمه فرج الله الحلو ، ثم أخرجوه من قبره ، وأذابوا جثته في حامض حتى لا يبقى له أثر (١) .

وبعد ، فتلك هي أعظم الملامح التي عرفها عام ١٩٥٨ والتي لعبت دورها في التأثير على هذا الكائن الهزيل ، وسنعود لعرض ملامح أخرى في الأعوام التالية

حديث عن مؤامرة ضد النظام

شهد عام ١٩٥٨ حدثاً ليس مرتبطاً بالوحدة مع سوريا ، وهذا الحدث هو اتهام ضابط سابق اسمه حسين خيرى بأنه اتصل بأحد ضباط الطيران واسمه عصام خليل ، وقدم له مبالغ كبيرة ليقوم بثورة على الحكم ، واتهم في هذه القضية مرتضى المراغي وآخرون ، وقد ألفت محكمة عسكرية لمحاكمة هؤلاء وأصدرت هذه المحكمة حكمها في ٢٨ إبريل سنة ١٩٥٨ وهو يقضى بالأشغال الشاقة المؤبدة على مرتضى المراغي وحسين خيرى ، والأشغال الشاقة مدة ١٥ سنة على محمود ناموق :

مصادرات سنة ١٩٥٩

مشكلات الوحدة

يكاد يكون هذا العام كسابقة حافلاً بالأحداث التي ترتبط بالوحدة بين مصر وسوريا ، تلك الأحداث التي غطت على كل شيء وسلبت نشاط الزعيم ونشاط رجاله .

ومن هذه الأحداث تبرز المشكلات الآتية :

— حصلت سوريا على مميزات تجارية لم تحصل عليها مصر ، فقد أعطيت تسهيلات كبيرة للسوريين ليعملوا بمصر ، وانتهر التجار السوريون فرصة إلغاء الجمارك فغزوا أسواق القاهرة وقد وصل الأمر في ذلك إلى أن اشتكى أصحاب المصانع المصريون مطالبين بتكافؤ الفرص في التعامل بأن يحصلوا على التسهيلات الممنوحة للسوريين . وبينما غزا السوريون القاهرة ببضائعهم نجد السوريين يَشْكُون للمشير عبد الحكيم عامر وجود بعض المصريين الذين يزاولون بعض التجارات على أرصفة الشوارع بدمشق ، وقد استجاب عامر لرغبة هؤلاء ، وألقى القبض على المصريين في سوريا وشحنهم إلى القاهرة .

— كان من سوء الحظ أن الطبيعة حاربت الوحدة ، فانقطع المطر أكثر سنوات الوحدة ، فلم تخلص الأرض ، ولم ينبت الحب ، وكان السوريون قد تعودوا من عبد الناصر أن يلبي كل رغباتهم ، وكان الزعيم يسرع بالاستجابة لهم حتى توقفت المشروعات بمصر ، ونشطت المشروعات بسوريا ، وقد طلب السوريون شيئاً عجز عبد الناصر عن الاستجابة له ، إذ قالوا له : نريد المطر يا جمال ويحكى شاهد عيان^(١) أن عبد الناصر تنهد تنهيدة طويلة ، وقال : حتى الطبيعة ذاتها تحاربنا ؟ تحارب الوحدة ، وهل يبدى أن أسقط المطر ؟

(١) زهير الشايب : مقال في مجلة أكتوبر عدد ١١٢ (١٧ / ١٢ / ١٩٧٨)

ويضيف شاهد العيان قائلاً : لقد طالبوا الرجل بما يريدون فأبرأوا بذلك ذمتهم ، ولكنه لم يستجب لهم ، وهذا عندهم تقصير كبير ، واتجهت الوحدة بذلك لتعاني من حشجة الموت ، فإن الذين فرضوها بدأوا يملئونها ، وبدأت الوحدة وقد استنفدت أغراضها .

— حدثت حركة انتقالات بين الضباط بالجيش انشذب فيها عدد من الضباط المصريين للعمل بسوريا ، ولكن اتضح ان الانتداب لم يكن يهتم بالكفاءات ولكنه اتجه لأن يكون مساعدة مالية لبعض الضباط ، وقد شرح أحمد كامل ذلك ، فذكر أن الرائد المصرى بسوريا كان يأخذ ١٥٠٠ ليرة شهرياً ، والرائد السورى بمصر كان يتقاضى ٢٠٠ جنيه ، وذلك مرتب كبير كلف الميزانيات شططاً ولم يتجه لكفاءات يُستفاد منها ، ووُضعت علامات خاصة على سيارات الضباط المصريين مما جعل حركتهم مرصودة من المجتمع .

— عُيِّنَ المشير عامر حاكماً لسوريا في أكتوبر سنة ١٩٥٩ ويصفه أحمد حمروش في منصبه هذا فيقول : إنه لم يكن عسكرياً من الطراز القادر على إحداث تغيير ثورى في صفوف الجيش ، وقد أحاط نفسه بعدد من الضباط الذين استمرأوا الفساد فوغلوا في الأموال العامة بلا حساب ، وانجرفوا في الحياة الناعمة اللاهية التي يسهل توافرها في سوريا^(١) .

— من أعمال على شفيق الضابط الحظي لدى المشير أن كل شيء كان متوافراً عنده من لهو ومتع ومن عربات تنقل كل شيء مطلوب وغير مطلوب من بيروت : . . ومن طائرات حربية تحمل شحنات خاصة من التلاجات والسخانات وغيرها إلى حيث يريد . . .^(٢)

(١) عبد الناصر والعرب ص ٦٦ ، ٦٧

(٢) المرجع السابق ص ٨٠

- ويتحدث البغدادي عن انتشار الخوف وعدم الأمان بسوريا ، وأن الناس هناك كانوا يعيشون في قلق ، ويذكر أن تدمراً انتشر في الجيش السوري (١) .

- كان عبد الناصر قد أصدر في سبتمبر سنة ١٩٥٨ قانوناً للإصلاح الزراعي ليطبق فيما يسمى « الإقليم الشمالي » وكان هذا القانون كبير الشبه بقانون الإصلاح الزراعي الذي طبق بالإقليم الجنوبي من سنة ١٩٥٢ ولم يلاحظ عبد الناصر اختلاف الأوضاع والظروف الزراعية بين الإقليمين ، وصمم على ضرورة ألا تكون هناك تفرقة في المعاملة ، ويقول البغدادي إنه لاحظ التدمير من هذا القانون الذي كان يؤدي العائلات الكبيرة ، ولا يفيد أحداً ، وعندما ظهر تدمير من هذا القانون سنة ١٩٥٩ قابله السراج بقسوة واعتقل عدداً من أفراد الأسر الكبيرة (٢) .

• • •

هذه بعض مشكلات الوحدة التي ظهرت عام ١٩٥٩ ، وسنواصل عرض مشكلات أخرى عندما نعرض أحداث سنة ١٩٦٠ .

(١) مذكرات عبد اللطيف البغدادي ص ٥٩ ، ٦١

(٢) مذكرات عبد اللطيف البغدادي ج ٢ ص ٥٧ - ٥٩

وقفه بين الحسينيات والستينات

نحن الآن نطوى عام ١٩٥٩ ونوشك أن نبدأ حديثاً عن ما يسمى الستينات ،
وللرئيس أنور السادات دراسة مقارنة عن الحسينيات والستينات نقتبسها
فيما يلي ثم نعلق عليها :

يقول في حديث له نشر بصحيفة الأخبار يوم ٢٦/٧/١٩٧٧ ما يلي :

ازدهار الثورة هو الحسينيات بأكملها ، وانحسار الثورة هو الستينات
بأكملها ، ولم يكن انحساراً فقط ، بل انحسار ، وهزائم ، ومرارة ، وألم ،
وتمزق ، وعصف بكيان المواطن ، وإهدار لكرامة الإنسان . . .
لقد كانت ثورة ٢٣ يوليو عملاقة في انتصاراتها وإنجازاتها ، وعملاقة في
انحرافات وأخطائها للأسف .

ويعود أنور السادات لتكرار نفس الكلمات تقريباً في كتابه البحث
عن الذات فيقول : ياتيهام الحسينيات ودخول الستينات بدأت الثورة
فترة المعاناة والآلام والهزائم والنكبات والأخطاء البشعة من جانبنا . . .
وكما أقول دائماً : كما كانت ثورة ٢٣ يوليو عملاقة في إنجازاتها في
الحسينيات ، فإنها كانت عملاقة في أخطائها في الستينات (١) .

ولسنا نرى وصفاً لهذه الثورة والنكبات التي نزلت بالبلاد بسببها أدق
من هذا الوصف فيما يتعلق بالستينات ، لأن أنور السادات وضع أشنع
الأوصاف لهذه الثورة حينما قال : انحسار ، وهزائم ، ومرارة ، وألم ،
وتمزق ، وعصف بكيان المواطن ، وإهدار لكرامة الإنسان ، ولا يوجد

وصف أبشع لثورة من هذه الأوصاف التي يسردها أحد أبنائها ، فإذا عدنا إلى الخمسينات نتحسس أمجاد الثورة ، فإننا نرى أنور السادات لا يذكر من هذه الأمجاد إلا تأمين قناة السويس ، وقد ناقشنا هذا التصرف في دراستنا السابقة وللقارئ أن يحكم هل كان تصرفاً عملاقاً ؟ أو حركة انفعالية ضررها أعظم بكثير من فوائدها ، وليت أنور السادات ذكر لنا أشياء أخرى تستحق أن توصف لنا هذه الثورة بسببها بأنها عملاقة ، وقد تدارسنا أحداث الخمسينات فيما سبق ، ورأيناها مجموعة من الآلام ، والدماء ، والقهر ، والمحاکمات الظالمة ، وذعر أ من القادة إبان الهجوم الثلاثي ، وألواناً أخرى من المخازي أوردناها فيما سبق ، ولم نجد من عمل نثنى عليه إلا الخطوة الخاصة بمعاهدة الجلاء ، وقد أثبتنا عليها بإفاضة لأننا نتحسس مواقف تستحق الثناء ، ولو قد وجدنا هذه المواقف لطال عليها ثنائنا وتقديرنا ، ولكن هيهات .

وإننا نخطط لدراسة الحوادث في الستينات ، ونحن لانتوقع إلا مواجهة هذه القضايا التي وصفها أنور السادات فيما سبق أدق وصف . ومن أجل هذا فإننا نقرر أننا نقدم على عِقدٍ حافل بالآلام ، ترك آثاره على كل النفوس الوطنية المخلصة بمصر ، وبالعالم العربي وبالعالم الإسلامي .

وعلى كل حال فإننا نحمد الله أن هذا العصر الكئيب لم يسطر فواجع أخرى في العقد التالي ، وتوقف سنة ١٩٧٠ ليفسح الطريق إلى الأمل .

هوارى سنة ١٩٦٠

مرة أخرى نسرد في هذا العام والأعوام التالية صوراً عن الستينات التي يصنعها أنور السادات بأنها فترة المعاناة ، والآلام ، والحزائم ، والنكسات ، والأخطاء البشعة من جانبنا ، ونكرر أن هذه الأوصاف تنسحب في رأينا على الخمسينات أيضاً ، ثم إنها أوصاف تغني عن التفاصيل الواسعة في الستينات ، وكان يمكن أن تغنيها عن دراسة الأحداث في هذه الستينات لولا أننا نحتاج إلى رسم صورة لهذه الفترة عاماً بعد عام .

الوحدة في الطريق إلى الانهيار

شهدت سنة ١٩٦٠ الوحدة وهي تتجه للانهار ، فقد استقال من الحكومة الأعضاء المنتمون لحزب البعث ، وأطلقت يد عبد الحميد السراج في سوريا ، فأخذ يضرب في قسوة ، وزاد هناك عدد المعتقلين ، وفي اجتماع الحكومة المركزية صرخ جمال عبد الناصر قائلاً إنه هو وحده المسئول أمام الشعب وأنه هو الذي يختار الوزراء ليتعاونوا معه في حدود السلطة التي يمنحها هو لهم وختم كلامه قائلاً بلغته العامية « اللي مش عاجبه يمشي » (١) وكان هذا نذيراً لانهيار طبيعي ، وقد توالى الاستقالات عقب ذلك من السوريين ، فليس هناك وزير يحترم نفسه يقبل أن يعمل في هذه الحدود التي تجعل منصب الوزير بعيداً عن احترام النفس والكرامة .

واتجهت الوحدة بذلك نحو الأفول ، كما سنرى في العام التالي .

(١) مذكرات البغدادي ج ٢ ص ٦٧

البرلمان الثاني للثورة

سبق أن تحدثنا عن البرلمان الأول للثورة الذي عُقد في منتصف سنة ١٩٥٧ ووضحنا أن عبد الناصر اختار أعضائه وعاقبهم ووجَّههم ، ومع هذا لم يطل صبره على هذا البرلمان ، فأصدر قراراً بحله بعد ثمانية شهور من انعقاده . ونجىء الآن للحديث عن البرلمان الثاني للثورة ، وهو أكثر بُعْداً عن الديمقراطية من سابقه ؛ لأن البرلمان الأول كان فيه نوع من الانتخاب ، وقد حدث هذا الانتخاب بعد قفل بعض الدوائر على بعض الضباط ، وبعد منع كثير من المواطنين من ترشيح أنفسهم . أما البرلمان الثاني فلم يكن فيه ترشيح ولا انتخابات على الإطلاق ، وإنما أصدر عبد الناصر قراراً بتعيين أعضائه سنة ١٩٦٠ ، وللأسف سُمي مجلس الأمة ، وهو ليس من الأمة في شيء ، ورفع عبد الناصر عدد أعضائه ليُرَضَّى الطامعين ، فأصبح مكوناً من ٦٠٠ عضو ٤٠٠ عضو من المصريين ، و ٢٠٠ من السوريين ، وانتُخب أنور السادات رئيساً له ، وقد عُقد هذا المجلس في يونيو سنة ١٩٦٠ ، أى بعد أكثر من سنتين على قيام الوحدة ، وهذا يدل بوضوح على أن الرغبة في إيجاد برلمان لم تكن موجودة مع توافر كل الظروف لدى عبد الناصر لجعل البرلمان امتداداً لصوته ومنادياً بأفكاره ، ولكنه على كل حال كان يخشى أن يوجد فيه صوت واحد يتجه إلى الحرية، وهذا ما كان يُمقته الزعيم ، ومن أجل هذا كان التجاؤه لهذا النوع من السلطة ضعيفاً وبطيئاً .

وكان عمر هذا البرلمان قصيراً أيضاً ، فقد حُلَّ عقب الانفصال في العام التالي ، وتحدد موعد لقيام البرلمان الثالث للثورة في مايو سنة ١٩٦٢ عقب أن أقر المؤتمر العام للاتحاد الوطني « الميثاق » ، ولكن انتخاب ذلك المجلس أجُلَّ عدة مرات حتى يتم تنظيم الاتحاد الاشتراكي العربي الذي حل محل تنظيم الاتحاد القري ، وقد أجُلَّ لذلك إلى يناير سنة

١٩٦٣ ، ثم إلى يوليو من نفس العام التالي ، ولم يعقد البرلمان الثالث إلا في ٢٦ مارس سنة ١٩٦٤ .

ويتحدث عبد اللطيف البغدادي عن مجلس الأمة الأول والثاني فيذكر أنه كان أضحوكة الجميع ، ولم يكن يباشر صلاحياته ، ولم يكن صوته مسموعاً على الإطلاق ، ويستمر عبد اللطيف البغدادي فيذكر أن مجلس الأمة لم يكن وحده الكم المهمل ، بل إن الشعب كله لم يكن له دور في السياسة التي يعيشها ، فتنظيم الاتحاد القومي كان تنظيماً فاشلاً ، ولا يشارك في وضع السياسة للبلاد ، ولم تكن قراراته ملزمة لأحد ، والصحافة لم تكن تقوم بدورها الطبيعي في إبداء الرأي الحر ، ومناقشة ما كان يجري من أخطاء ، واقتصر دورها في الغالب على التمجيد للحاكم ، وكانت هناك محاباة زائدة لضباط الجيش الذين تركوا خدمته ، فقد أصبح لهم الأولوية في شغل المناصب الرئيسية في الشركات أو التعيين في السفارات في الخارج (١) .

ومن أسف أن يقول البغدادي هذا القول تجاه عصر اشترك في كل مساوئه ومحاماته ، ولم يقل هذا القول إلا بعد أن توقّف الغنم الذي نعم به اثني عشر عاماً .

(١) مذكرات البغدادي ج ٢ ص ١٢١ - ١٢٢

السد العالى

السد العالى حدث من الأحداث التى بدأت فى هذا العام ، فقد وضع جمال عبد الناصر الحجر الأساسى للمشروع فى ١٩٦٠/١/٩ وانتهت المرحلة الأولى منه فى سنة ١٩٦٤ والثانية فى سنة ١٩٧١ .

وطالما تغنى عبد الناصر بالسد العالى وجعله أسطورة الزمان ، حتى توقع الناس أن النيل سيسيل ذهباً وفضة ، وتوقف العمران فى البلاد لأن كل الحديد والأسمنت والعمال والمهندسين انجهوا للسد العالى الذى بلغت نفقاته ٣٢٠ مليوناً من الجنيهات .

وقد قيل لنا يوماً إن السد العالى سيجقق الأهداف التالية :

- ١ - إضافة مليون فدان من الأرض ، إلى الأرض الزراعية .
 - ٢ - تعميم الرى المستديم لأرض الحياض ، وقدرها ٧٠٠ ألف فدان
 - ٣ - ضمان زراعة الأرز سنوياً فى مساحة لا تقل عن ٧٠٠ ألف فدان
 - ٤ - توليد طاقة كهربائية مقدارها ١٠ مليارات كيلووات سنوياً تستخدم فى الأغراض الصناعية .
 - ٥ - خفض منسوب المياه الجوفية ، وخاصة فى الوجه البحرى ، مما يحسن وسائل الصرف فى الأراضى الزراعية ، ويضاعف إنتاجها .
 - ٦ - زيادة الثروة السمكية نتيجة تكوين بحيرة ناصر .
- ويحق لنا أن نتساءل : ماذا تحقق من هذه الأهداف ؟
- وما الأضرار الجانبية التى أصابت بلادنا بسبب السد العالى ؟
- فى الحق أن الدولة لاتزال تبخل عاينا بوثائق رسمية تُظهر الحق حول

ما يذاع عن السد العالى ، وإحقاقاً للحق الذى نسعى للوصول إليه سأنقل وجهتى النظر حول هذا الموضوع تاركاً القول الفصل للمستقبل :

ينسب الذين يدافعون عن السد العالى إليه أنه الذى حمى بلادنا من الفيضان العالى سنة ١٩٦٨ ، وأنه الذى ادخر المياه خلفه فحمانا من القحط سنة ١٩٧٢^(١) وأنه هياً أو يهياً لإضافة أرض جديدة للأرض المزروعة ، وزراعة بعض الأرض بالوجه القبلى أكثر من مرة فى العام بعد أن كانت تزرع مرة واحدة ، ولا يسلم هؤلاء تسليماً مطلقاً بالعيوب التى تنسب لهذه المؤسسة ، وإن كانوا يعترفون ببعض الأضرار الجانبية ، ويدعون لعلاجها كإنتاج البدائل التى تعوض الأرض الزراعية عما فقدته من الطمى ، وكتنشيط تكاثر السمك فى بحيرة ناصر ، وتوفير سبل صيده ونقله ، ومواجهة مشاكل النحر ، وإقامة المزارع حول بحيرة ناصر ، وتعمير المنطقة بمشروعات للسياحة والتشجير^(٢) .

وإذا كنا قد ذكرنا رأى من يدافعون عن السد العالى ، فإن باحثين آخرين يبدون منه تخوفاً واسعاً ، وهم يتساءلون :

- لماذا لم تقم عمليات إصلاح الأرض يوماً بيوم مع العمل فى السد العالى ؟
- وأين أسماك بحيرة ناصر ؟
- وماذا عن الأرض التى « طبئت » بسبب كثرة المياه الجوفية ورداءة الصرف ؟

— أما عن كهربة السد العالى ، فإن أدق تعليق نورده هو قول وزير مسئول نشرته صحيفة أخبار اليوم الصادرة فى ١٩٧٤/٧/٢٧ ؛ ونصه :

إن البيانات والأرقام التى كانت تعطى للناس وتقدم لأجهزة الإعلام عن نتائج السد العالى فيما يتعلق بالكهرباء غير سليمة ، بل وخيالية .

(١) فى حديث الرئيس أنور السادات للمصريين فى ندوة مصر حتى سنة ٢٠٠٠ لم يذكر سيادته من فوائد السد العالى غير هذه الحسنة .

(٢) هذا موجز واف لبحث نشرته الأهرام فى ١٩٧٤/١٢/٢٠ للدفاع عن السد العالى .

وقد كثرت التصريحات الرسمية خلال شهر يوليو ١٩٧٤ بأن رصيد الكهرباء بمصر ينتهى فى سنة ١٩٧٥ ، وعلينا أن نسرّع فى تدبير مصادر جديدة للكهرباء ، وإلا توقفت مصانعنا وتراجعت خطا بلادنا ، وعلى هذا تتساءل : أين المصانع التى نشأت على كهرباء السد ؟

— وُحرمت بسبب السد العالى أرض مصر من الغرين الذى كان سماداً لا ثمن له ، وحرمت مصر الطوب الأحمر الذى كان يصنع من الغرين ، وزحف الماء على الشواطىء فتآكلت ، وانبثقت المستنقعات بسبب إرتفاع منسوب المياه ، ويقرر بعض الأطباء أن السد العالى من الأسباب التى أدت إلى تلوث مياه الشرب لأن تجمُّع المياه فى البحيرة خلف السد وركودها مدة طويلة يؤثر فيها تأثيراً ضاراً .

— ويسخر العقلاء من الدعاية الواسعة للسد العالى، كأن النيل لم يعرف السدود والقناطر على مر التاريخ ، مع أن القناطر الخيرية وخزان أسوان وجبل الأولياء ، نماذج للجهود الهادئة التى نفعت ولم تضر ، والتى تنوسيت كأنها لم ترتفع شاهقة .

وقد نشرت أخبار اليوم صباح ٢٣/١١/١٩٧٤ أنباء عن ندوة علمية عقدتها هيئة التدريس بجامعة الإسكندرية عن الآثار الجانبية للسد العالى ، وقد تحدث فى هذه الندوة ١٩ متخصصاً فى أعمال الرى ، والاستثمارات ، والصرف ، والكهرباء ، والصحة العامة والهندسة الصحية ، وأصدر المجتمعون قرارات هامة بالنسبة لهذا الموضوع ، وقررت الندوة تشكيل لجنة من المختصين لمقابلة رئيس الوزراء ، وشرح وجهة نظر المجتمعين وتوصياتهم دون النظر إلا للنتائج القومية المترتبة على السد العالى .

ولم تُنشر بعد هذه البحوث ، وإن كان هذا الذى نشر عنها يشير إلى خطورة هذه الأسطورة التى سموها السد العالى .

وقد قام المجلس القومى للإنتاج بدراسة عن السد العالى ولم ينشرها بعد مما دفع

رئيس مجلس الشعب (الأخبار في ١٨/٣/١٩٧٥) إلى طلب هذه الوثيقة ليستفيد بها المجلس في الرقابة على متابعة الآثار الجانبية للسد .

ومن الطبيعي أنه لو كانت الشكوك ضد السد باطلة لأسرع المجلس القومى للإنتاج بنشر هذه الوثيقة على الجاهير المتشككة

ولإذا كانت هذه الوثائق قد حُجِبَتْ عنا لسبب أو لآخر فإن بعض المقالات قد نشرت فعلاً ، وأشاع ما نُشِرَ هلعاً في النفوس للخسارة الكبيرة التي لحقت أو ستلحق " بمصر بسبب السد العالى ، ونقتطف فيما يلى بعض ما جاء في هذه الوثائق :

جاء في مقال نشرته مجلة أكتوبر في ٢٨/١/٧٩ تصوير لبعض الخسائر التي نجمت عن السد العالى وهى خسائر تتصل بمنطقة النوبة ، وقد جاء في هذا المقال أن بحيرة السد العالى ابتلعت البيوت والمقابر والأرض والزرع والأمل ، وأصبح السد العالى عند النوبيين بمثابة اللعنة التي حلت بهم وحكمت عليهم بالضياح وعدم الاستقرار ، وقد تشبث أهل النوبة بأرضهم وديارهم ، ولكنهم أُجبروا على تركها بالقوة الغاشمة ، وكان مع القوة الغاشمة وعدٌ يقول لهم : اتركوا بيوتكم وسوف نعطيكم في كوم امبو خمسة أفدنة لكل أسرة ومعها بقرة وجاموسة ، وأذاعت الميكروفونات في القرى هذه الوعود والآمال فصديق الأهالى ما سمعوه ، وذهبوا إلى كوم امبو ، ولكنهم لم يجدوا إلا بيوتاً رفضوا أن يسكنوها ، وستة قرارات لكل أسرة ، وهى غير صالحة للزراعة .

ثم إن منطقة النوبة القديمة قبل غرقها في بحيرة السد كانت مصدراً لإنتاج البلح في مصر كلها ، وكانت مليون نخلة في المنطقة كافية لكي تفي بحاجة مصر من البلح ، وأن ارتفاع سعر البلح قد زاد بصورة ملحوظة عقب قيام السد بسبب الحرمان من غابة النخيل بالنوبة .

وجاء في مقال نشره الدكتور على فتحى الأستاذ بجامعة الإسكندرية بصحيفة الأخبار في ٤/٧/٧٧ ما يلى :

« وقد كان من ضمن الآثار الجانبية المتوقعة للسد ، النحر في مجرى النيل والذي ينشأ عن مرور المياه به بصفة دائمة وهي مجردة من حمليها الطبيعي من الطمي ، وقد سبق أن وجّهت هيئة الخبراء العالمية التي استُدعيت عام ١٩٥٤ لفحص مشروع السد تحذيراً قوياً للهيئة للحكومة المصرية بشأن خطر النحر ، ولكن مضي نيف وعشرون عاماً من ذلك الحين قضيناها بين الجمود والتردد إلى أن أصبح الخطر الآن وشيك الوقوع . »

« وهناك أثر آخر هو التدهور في خصوبة الأرض الزراعية التي أصبحت محرومة الآن من عملية الغسيل السنوية التي كانت تجري لها أيام الفيضان . »

« وانتشرت أعراض التشبع بالمياه وتزايد الملوحة في الطبقة العليا من الأرض الزراعية ، كما انتشرت ظواهر الطفح في ييارات صرف المجارى ، وسقوط المنازل في القرى ، وكل هذا يشير بوضوح إلى أن طبقة صماء قد أخذت تتكون في باطن الأرض . »

« وقد نتج عن هذه العملية تدهور كبير في الإنتاج الزراعى ربما كان هو السبب فيما أصاب بنيان البلاد الاقتصادى من تصدع في الآونة الأخيرة . »

« ولو استمرت هذه العملية فإنها قد تؤدي في النهاية إلى بوار أراضي القطر كلها . »

وجاء في تحقيق أجراه محرر بصحيفة الأخبار ونشر في العدد السابق حديث خطير عن مشكلة النحر بسبب السد العالى وعنوانه :

٢٠ سنة وبعدها تفرق القناطر في النيل

وبما ورد في هذا الحديث قوله :

والنحر هو عملية الحفر التي تقوم بها المياه في قاع النهر وجوانبه أثناء اندفاعها ، وقد زادت عملية النحر بعد إقامة السد العالى ، ذلك أن خزان المياه

فى بحيرة ناصر أمام السد قد أدى إلى ترسيب ما تحمله من طمي ، ونتج عن ذلك أن أصبحت المياه راتقة فزادت سرعتها عند اندفاعها فى مجرى النهر .

وبزيادة سرعة المياه وقلة ما تحمله من طمي زادت قدرتها على الحفر فى قاع النهر وجوانبه ، وأصبح النحر مشكلة تهدد القناطر المقامة على نهر النيل ، حيث زادت عمليات الحفر فى قواعد هذه القناطر مما يشكل خطراً عليها . وقد كانت زيادة النحر كنتيجة لبناء السد العالى معلومة للمسؤولين فى وزارة الري حتى قبل إقامته .

وقد ظهرت أخيراً بحوث تتحدث عن خطر أصاب واحداً من أعظم الآثار المصرية مثل « أبو الهول » وأعادت البحوث إلى السد العالى مسئولية هذه الأخطار .

وبعد ، فإن من حقنا أن نقلق على التربة المصرية التى كانت معروفة بالخصب والخير والتى غمرها النيل بفيضه عبر مئات القرون ، قبل أن تسعى لتعظيم الفرد على حساب الشعب الذى أصبح مهدداً فى أعلى ما يمتلك .

نهاية الوحدة

ذكرنا من قبل أن الوحدة كانت عملاً ارتجالياً أساسه العناد والانفعالية، ومن أجل هذا جاءت نهاية الوحدة سريعة كما كان يتوقع المفكرون .

وقد ذكرنا مجموعة من العيوب التي أسرعت بنهاية الوحدة ، وهناك عيوب أخرى ينبغي أن نشير لها لأنها كانت أسباباً مباشرة لهذه النهاية، ومن أهم هذه الأسباب كثرة الضباط المصريين في سوريا مما اتخذته البعض وسيلة لتصوير هذه الكثرة على أنها نوع من الاحتلال ، وفي نفس الوقت كان هناك ضباط سوريون كثيرون في مصر ، وكان هذا يصور على أنه إبعاد هؤلاء الضباط عن سوريا ، لأن قرارات إرسالهم لمصر كانت تصدر من السلطة المصرية .

وقد سبق أن ذكرنا أن عبد الحميد السراج كان يمثل سلطة مطلقة في سوريا معادية لحزب البعث ، وقد كثرت الشكوى منه حتى أصبح يسمى «السلطان عبد الحميد» وحينئذ استدعاه جمال عبد الناصر إلى القاهرة ، وعينه نائباً لرئيس الجمهورية ، وعين رئيس الجمهورية عبد الحكيم عامر للإشراف على سوريا بسلطات رئيس الجمهورية ، وهذا فتح الباب لصراع مرير بين عبد الحميد السراج وبين عبد الحكيم عامر ، فإن أعوان السراج لم يدينوا بالولاء للمشير :

وصدرت القوانين المسماة بالقوانين الاشتراكية في المدة من ١٩ إلى ٢٣ يوليو سنة ١٩٦١ وأريد لها أولبعضها أن تطبق في سوريا كما تطبق في مصر، ولكن ظروف سوريا كانت مختلفة ، فكانت هذه القوانين من أسباب الثورة على الوحدة ، ومن الأسباب التي قادت إلى الانفصال .

وبدأت النذر تتتابع بأن تمرداً سيقع ، ولكن القيادة المصرية لم تعبأ

بهذه النذر وسخرت منها ، ويقول أحمد كامل رئيس المخابرات العامة آنذاك إنه صارح عبد الحكيم عامر بأنه في الجو: إعلانات تنذر بالخطر ، ولكن المشير قال له : يبدو أن أعصابك مرهقة وتحتاج لراحة ، وعينه ملحقاً عسكرياً في الباكستان^(١) .

ويقول أمين شاكر إنه كان في سوريا بصفته رئيساً لجمعية الأمن القومي ، وهناك سمع ما يثير السوريين ضد مصر والمصريين ، فأبلغ ذلك للمشير عامر في دمشق ، فهاج عليه المشير ، وهدده بالضرب ، وأخرجه من مكنته ، فاستدعاه جمال عبد الناصر وسمع منه ما قاله للمشير ، وكان الصمت هو التعليق الوحيد .

واستشر مكتب الاتصال المصري في دمشق الخطر قبل وقوعه ، فقد سمع ضابط مصري من ضابط سوري متحمس للوحدة أن هناك مؤامرة تدبر للانفصال بتحريك القوات من معسكر (قطنية) واعتقال المشير كرهينة لفرض إرادتهم وتنفيذ أغراضهم ، وقد حمل العقيد محمود الحمزاوي والرائد أحمد رشدي هذه الأخبار إلى المشير في استراحته حوالي منتصف الليل ، وقابلهما على شفيق وأحمد علوي ، وتسلما المعلومات منهما ، فأظهرا استخفافاً بها ، وسألتهما عن المصدر الذي تنسب له هذه المعلومات ، ولم يكن الضباط المصريون في حل^٢ من ذكر المصدر لأنهما وعداه بعدم ذكر اسمه حماية له ، وعندما انتقلت المعلومات إلى المشير ، عادت وعليها تأشيرة نصها « من هو المصدر ؟ » وهي تأشيرة تدل على مكانة على شفيق من نفس المشير^(٢) .

ونقف وقفة قصيرة قبل أن نتابع حديثنا لنقول إن حال القادة لم يتغير

(١) كلمات أحمد كامل في شهود ثورة يوليو ص ٦٧

(٢) أحمد حمروش : مجتمع جمال عبد الناصر ص ٨٠ - ٨١

تطوير الأزهر أو تدميره ؟

في أحداث سنة ١٩٦٠ تكلمنا عن البرلمان الثاني للثورة الذي صدر قرار عبد الناصر بتعيين أعضائه ، ونريد هنا أن نتكلم عن حدث خطير جرى في هذا البرلمان ، وهو ما يُسمى تطوير الأزهر ، أو كما اصطلح المفكرون على تسميته « تدمير الأزهر » ومن العجيب أن برلمان الوحدة لم ينتج شيئاً غير هذه المأساة .

والأزهر كما هو معروف أبر المعاهد الإسلامية كلها ، وهو مشعل النور الذي حافظ على الدراسات الإسلامية أكثر من ألف عام ، وفي أروقة الأزهر وقاعاته عاش الطلاب وتعلموا من جميع أقطاب الأرض ، وعاد الغرباء إلى بلادهم يحملون معهم مشاعل الهدى ، ولولا الأزهر وجهوده لكان من الممكن أن يضعف شأن الإسلام والمسلمين .

وقد عمد عبد الناصر في برلمانه المعين إلى استصدار قانون سُمي بتطوير

الأزهر وهو القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ وهو أشبه بكنز أسود أعدّه

عبد الناصر بليل ليلف به معهدنا الحبيب ويدفنه إلى غير رجعة .

ماذا قال الأزهريون وغير الأزهرين عن هذا القانون ؟

قال الدكتور محمد البهي عن هذا القانون :

إن قانون تطوير الأزهر كان يقضى بإغلاق كلياته الثلاثة (اللغة العربية وأصول الدين والشريعة) وأن محلَّ محل هذه الكليات كائنٌ ميت هو « كلية الدراسات الإسلامية » التي أنشئت فعلاً لهذا الغرض ، ولتعود للدرس على حصير المسجد ، ولكن ولي الأمر لم يستطع تنفيذ مخططة إلى النهاية خوفاً من الجاهير المسلمة بمصر وبالعالم^(١) .

(١) حديث بنووة العلماء سمعته بنفسى مع جماهير السامعين وهو لا يزال مسجلاً

وقال فضيلة الأستاذ محمد متولى الشعراوى وزير الأوقاف وشئون الأزهر السابق فى مجلس الشعب^(١): إن قانون تطوير الأزهر لم يكن لرجال الأزهر رأى فيه ، وقد نزل هذا القانون على الأزهر بالبراشوت ، وإننا مسوقون إلى المحاذير نتيجة لهذا التطوير ، ولولا العناية الإلهية لما بقى الأزهر بعد هذا التطوير حتى الآن .

وقال الأستاذ الشيخ صلاح أبو اسماعيل رئيس اللجنة الدينية بمجلس الشعب : إن قانون تطوير الأزهر الصادر فى يونيو سنة ١٩٦١ صدر فى ليلة ظلماء ، ناقشه المجلس وأقره فى ليلة واحدة ، والقانون ليس تطويراً ، ولكنه تدمير ، وهو جناية فى حق الأزهر^(٢) .

ويقول المستشار أنور أبوسحلى وزير العدل عند طبع هذا الكتاب مايلى عن تطوير الأزهر : عندما صدر قانون تطوير الأزهر فى مطلع الستينات ، كان صدمة لكل من عرف قدر الأزهر وقيمته العلمية ، . . . وإن هذا القانون أريد به شل حركة الأزهر ووضع القيود فى قدميه ويديه^(٣) .

ويقول الأستاذ فتحى رضوان أحد وزراء ذلك العهد فى مقال عنوانه « الأزهر بين التطور والمسخ » : « إن الكثيرين حاولوا أن يحولوا دون صدور هذا القانون الذى فاجأهم وكأنه البلاء النازل ، فلما لم ينجحوا بقوا مؤمنين أن الزمن سيثبت أن مصلحة الأزهر وماضيه الطويل واسمه المضى ومصلحة المسلمين . . . تقضى كلها بإلغاء هذا القانون .

« وقد كان أول الحوافز على معارضة هذا القانون أنه لم يكن ثمة وقت

(١) الأخبار فى ١٥/٣/١٩٧٧

(٢) الأخبار فى ١٥/٣/١٩٧٧

(٣) الأهرام فى ٧/١٢/٧٩

متاح لمناقشته ، وقد كان هذا شيئاً يدعو للعجب ، ثم كيف يُعَدُّ مشروع
يتصل بهذا المعهد العريق دون أن يُرجع بشأنه إلى علماء الأزهر ورجال
الفكر ؟ وكيف تحدد لمناقشته خمس ساعات أوست فقط ؟ ويختار لمناقشته اليوم
الآخر في دورة مجلس الأمة ، مما جعل من المستحيل مدارس القانون ،
وأن يقال فيه كلمة الحق ؟ بل لم يكن هناك وقت لقراءة النصوص ، وأخذ
الرأى فيها ، فكان يُكتفى بتلاوة أرقامها فقط للموافقة على المادة دون معرفة
نصها^(١) .

والعجيب أن هذا القانون اللعين الذى اشترك فى الهجوم عليه أربعة
وزراء ورئيس اللجنة الدينية بمجلس الشعب لم تمتد يدُ لإصلاحه ، كأن
الناس لا يزالون يخافون جبروت عبد الناصر الذى أصدر هذا القانون
دون أن يرعى الله أو العلم أو التاريخ ، وعلى هذا فإن اللوم لا يتجه
لعبد الناصروحدته ، وإنما يشمل كل من رضى عنه ولم يعمل على القضاء على
هذا القانون الجائر .

والآن نجد من حق القارئ أن نبرز له بعض مثالب هذا القانون الظالم
على الأزهر وعلى الإسلام ، فربما لم تنح قراءته للكثيرين :

١ - أنشأ هذا القانون كليات طب وهندسة وزراعة وتجارة . . .
والصقها بالأزهر ، وأخذ طلابها أو أكثرهم من الحاصلين على الثانوية العامة
دون اعتبار لمقدار ثقافتهم الإسلامية أو حفظ القرآن الكريم أو أجزاء منه ،
أو قدراتهم فى اللغة العربية ، ولهذا فهم غرباء فى الأزهر لا تربطهم
به رابطة ذات بال .

٢ - يمضى الحاصلون على ثانوية العامة سنة تمهيدية قبل أن يلتحقوا بالكليات العملية التي سبق ذكرها ، وهذه السنة الضائعة كانت سبباً في أن الطلاب الذين حصلوا على مجاميع كبيرة في الثانوية العامة أحجموا عن الالتحاق بكليات الأزهر حتى لا يُضيعوا عاماً من أعمارهم ، وبهذا قضى هذا القانون بأن يكون مستوى كلية طب الأزهر أقل بكثير من مستوى كلية طب القاهرة مثلاً ، لأنه لا يذهب لطب الأزهر إلا الطالب الذي لم يمكنه مجموعه من الالتحاق بكليات الطب الأخرى ٥

٣ - ليست هناك دراسة إسلامية ذات بال بهذه السنة التمهيدية ، ولا يحضر الطلاب محاضرات ، وإنما هناك مذكرات يشتريها الطلاب ليمتحنوا فيها وهم ينجحون غالباً بعد ضياع عام في بيوتهم ، وأشهد الله أن المغفور له الدكتور عبد الحليم محمود طلب مني أن أشارك معه في إلقاء محاضرات مبكرة في السابعة من صباح كل يوم لطلاب السنة التمهيدية إحساساً منه بأن الدراسة في هذه السنة التمهيدية فاشلة ، وقد وافقت على المبدأ ، واقترحت موعداً مناسباً (التاسعة صباحاً مثلاً) حتى يستطيع الطلاب أن يحضروا إلينا ، ولم يتم الأمر على كل حال .

٤ - الدراسات الإسلامية التي تدرس بالكليات العملية لا تستهوى للطلاب أبداً ، وهي بعيدة كل البعد عن مطالبهم الفكرية والدينية وليست فيها علم مقارنة الأديان ، أو الحضارة الإسلامية ، أو الفقه المقارن ، تلك العاوم التي تستهوى الطلاب في هذه المرحلة من العمر ، وتقدم لهم ما يربطهم بالدراسات الإسلامية ويحبهم فيها .

٥ - كان هذا القانون على وشك أن يقضى قضاء تاماً على كليات الأزهر الأصيلة ، ولكن الله سلم كما قال الدكتور محمد البهى .

٦ - لم يمس التطوير أو الإصلاح عاوم الكليات الأزهرية الأصيلة ، بل - في ظله - قسمت كلية اللغة العربية أقساماً للصحافة والتاريخ . . .

وتقلصت بها علوم اللغة العربية ، وازدخمت كلية الشريعة والقانون بمنهاجى كلية الشريعة وكلية الحقوق ، فناء الطلاب بهذا العبء ، وعجزوا عن إجادة هذا المنهج أو ذاك .

٧ -- قضى هذا القانون اللعين بإحداث ازدواجية فى مناهج المعاهد الإعدادية والثانوية ، والمناهج الواحد يعي الطلاب فكيف بمنهاجين ؟ وكانت النتيجة أن الطلاب لم يجيدوا هذا المنهج ولا ذاك .

٨ - عند خلق الازدواجية فى التعليم لم يضمن هذا القانون لمعاهد الأزهر ما يلزم من وسائل لتدريس علوم المدارس الإعدادية والثانوية ، فلا توجد بالمعاهد معامل كافية ، ولا مدرسون للغات أو العلوم أو الرياضة من مستوى مناسب ، ثم إن المعاهد الثانوية الأزهرية تفتح أبوابها لكثيرين من التلاميذ والتلميذات الذين حصلوا على الشهادة الإعدادية من المدارس الحكومية ولم تؤهلهم درجاتهم للالتحاق بالمدارس الثانوية العامة ، وعلى هذا فهناك فرق كبير فى مستوى الطلاب إذا قورن طلاب المدارس الثانوية الحكومية بطلاب المعاهد الأزهرية ، ويدخل الحاصلون على ثانوية الأزهر الكليات العملية بالأزهر وهم فى مستوى أقل من زملائهم فى المدارس الثانوية الحكومية ، وكل هذا أضعف الأزهر وحط من قيمته .

٩ - أصبحت الدراسة فى المعاهد الأزهرية الثانوية تنقسم قسمين : علمية وأدبية ، وفتح الباب لطلاب القسم العلمى ليدخلوا كلية طب الأزهر ، أو الهندسة أو الصيدلة وانهاى أحسن الطلاب الأزهرين على هذه الكليات ، وحُرمت منهم الكليات الأزهرية الحقيقية ، ولم يبق لهذه الكليات إلا الفتات مما قضى على مستوى هذه الكليات بالتخلف الفكرى ، وهذه جريمة كبرى فى حق الإسلام والمسلمين ، ونتيجتها أننا لن نجد إنساناً ممتازاً يتخصص فى علوم الإسلام ، لأن الممتازين تسويهم الكليات العملية (٢٦ م - التاريخ : ج ٩)

ببريقها ليصبحوا أطباء أو مهندسين ، وطالما كنت أقول إن جيلنا لو وجد وسيلة لكلية طب أو هندسة لاندفعنا لها، ولَمَّا وُجِد الآن بين المفكرين المسلمين تلك الأسماء اللامعة في مجال الدراسات الإسلامية .

١٠ - على أن الأزهريين الذين التحقوا بالكليات العملية بالأزهر لاقوا عنتاً شديداً ، لأنهم ضعاف في اللغة الإنجليزية ، وهذه الكليات تدرس بهذه اللغة ، وقد كانت نتيجة كلية الصيدلة لذلك صفرأ في المائة في بعض الأعوام .

وهناك عيوب أخرى كثيرة جداً في هذا القانون ، ومن أجل هذا ، فلننا نصرخ بأن بقاء هذا القانون جريمة في حق الإسلام والأزهر ، وأن اليد التي خلقتة ، واليد التي تُبقي عليه ، تشركان في هذا الإثم ، ونطمح أن تمتد يد الإصلاح لهذا القانون لتزيل منه ما يعوق هذا المعهد

التليد عن أداء رسالته على خير وجه :

مسئولي الأزهر خارج مصر :

احتذت المعاهد الإسلامية بالعالم حذو الأزهر في أكثر خطواته ؛ فمناهج الأزهر تُقتبس لجميع المعاهد الإسلامية ، بل اقتبست أسماء كلياته ، وإمير شيوخه للتدريس في كل مكان ، وعلى هذا فالأزهر يحمل عبء الدراسات الإسلامية بالعالم كله ، ومن هنا كانت سلامة المناهج الإسلامية بالأزهر سلامة للإسلام والمسلمين ، وكان انحراف هذه المناهج ضربة للفكر الإسلامي وهائلاً دون الانتفاع بالإسلام .

التطوير كما ينبغي أن يكون :

وليس صرختنا ضد قانون عبد الناصر تفيد أن الأزهر غير محتاج إلى تطوير ، لا ، فإن الأزهر في حاجة ماسة إلى التطوير ، ولكنه التطوير الذي ينفع ولا يضر ، التطوير الذي يقترحه المتخصصون ويدرس بعق ؛ ويمكن أن يكون هذا التطوير من عدة نواحٍ ، بأن تضاف علوم جديدة للمناهج

الإسلامية كمقارنة الأديان ذلك العلم الذى يبرز جملة الإسلام ويؤيد به باعتباره الدين الأخير الذى حوى أجمل ما فى الأديان السماوية وأضاف لها ما تحتاجه البشرية إلى يوم الدين ، وكالحضارة الإسلامية التى تشرح وجهة الإسلام فى مجال السياسة ، والاقتصاد ، والتربية ، والسلم والحرب ، والحياة الاجتماعية ، وغيرها ، وكالفقه المقارن الذى يبرز مكانة التشريع الإسلامى بالنسبة للتشريعات الأخرى ، وكملحظة الصورة الشعرية فى الأدب ، ودراسة قضية الالتزام فى الأدب والتاريخ ...

ويمكن أن يكون التجديد من ناحية إضافة أسباب الفكرة وأهدافها ، فلا يدرس الفكر الإسلامى وحده ، وإنما تدرس أهدافه .

ويمكن أن يكون التطوير بحذف بعض الفروع التى لم يعد الفكر الحديث يتطلبها كالفروض المبالغ فيها التى أوردتها كتب الفقه فى باب الطلاق أو الطهارة ، وكذلك بحذف ما ازدحت به كتب التفسير من إسرائيات .

ويمكن أن يكون التطوير بأن تعاد كتابة الدراسات الإسلامية بأسلوب العصر وصفاته مع روعة فى الطباعة والإخراج .

وهناك وسائل أخرى كثيرة للتطوير يمكن أن يقدمها المتخصصون .

ولسنا نرى مانعاً من أن توجد فى جامعة الأزهر كليات للطب والهندسة والصيدلة وغيرها ، ولكن على أن يختار لها طلاب ينافسون زملاءهم فى الجامعات الأخرى من حيث المجموع ، وعلى أن تكون لهم رغبة فى الدراسات الإسلامية يبرهنون عليها بحفظهم القرآن الكريم أو أجزاء منه ، وبالتعرف على الفكر الإسلامى ، وتعتقد لهم امتحانات للاستدلال بها على ذلك ، بعلوم المستوى الرفيع المعمول بها فى الثانوية العامة ، وعندما يقبلون فى هذه الكليات الأزهرية تقدم لهم دراسات إسلامية تستهويهم ويفخرون بها .

إن الأزهر أمانة أسلمتها لنا الأجيال الكثيرة السابقة ؛ ومن العيب أن يمسه السوء فى جيلنا ، ولهذا فنحن ندعو أن تتجه الجهود لتخليص الأزهر من « قانون التدمير » والاتجاه إلى التطوير الحقيقى الذى يراد به الخير للإسلام والمسلمين .
واللهم قد بلغت فاشهد .

شيء كان يراد بالإسلام :

في صفحة ١٤١ من هذا الكتاب رأينا عبد الناصر يطرب لمن يقارنه بالرسول صلوات الله عليه ويكافئ على ذلك ، وبخاصة إذا كانت المقارنة في صالح عبد الناصر .

وفي صفحة ٢٨٧ حديث عن إقالة شيخ الأزهر ، بحجة أن اختيار شيخ الأزهر سيكون بالانتخاب من بين كبار العلماء ، ولم يهتم اختيار شيخ الأزهر بالانتخاب حتى الآن مما جعل الإقالة عدواناً سافراً .

وفي نفس الصفحة رأينا قراراً يصدر بحل هيئة كبار العلماء .

وفي سنة ١٩٥٤ و ١٩٦٥ نكّل عبد الناصر بالإخوان المسلمين أبشع تنكيل ، سجنهم طيلة عهده تقريباً ، وأخفّت صوت هؤلاء الدعاة ، وعذبهم ، وصادر أموالهم ، وحاول أن يدفع أولادهم ونساءهم إلى الانحراف ، وقتل صفوة من زعمائهم .

ثم جاء تدمير الأزهر الذي أسلفنا الحديث عنه .

وتسلسل هذه الأمور يجعلنا نعتقد أن شيئاً كان يراد بالإسلام وبشيوخ الفكر الإسلامي ، وإذا كان المسلمون قد تغلبوا على المساوئ الأخرى فإن مشكلة الأزهر لا تزال باقية ، وقد سكت قادة الأزهر خلال السنوات السابقة عن التعرض للقانون الذي يعترف للجميع بخطره على الأزهر وعلى الدراسات الإسلامية ، فما موقف الأستاذ الدكتور محمد عبد الرحمن بيسار شيخ الأزهر والأستاذ الدكتور عبد المنعم النمر وزير الأوقاف من هذا القانون ؟

لإننا نطمح أن يبدأ هذان العالمان فوراً في تصحيح الوضع دون تأخير ، وبخاصة أن عهد محاربة الإسلام والمسلمين قد اختفى إلى غير رجعة ، وبودي كمؤرخ ألا أضم اسمي هذين العالمين الصديقين إلى الأسماء التي انشغلت عن الباقي بالفاني .

ونحن في الانتظار .

حوادث سنة ١٩٦١

عما كان عليه من قبل ، فقد جاءتهم النذر قبيل العدوان الثلاثي بأن عدواناً في الطريق فلم يكثرثوا بهذه النذر وسخروا منها، وعاشوا مع إلهاماتهم الخاصة حتى جاء الزحف الذي لم يستعدوا أى استعداد له ، ومرت السنون وجاءتهم النذر بأن حركة انفصالية تُدبّر ، ولكنهم سخروا منها أيضاً ولم يستعدوا لمواجهةها ، ويبدو أن قادتنا لم يكونوا مستعدين للتطور الفكري أو للتعلم من أحداث الزمن .

الحركة الانفصالية :

من العجيب أن ضباط الانقلاب كان بينهم عبد الكريم النحلاوى مدير مكتب المشير وموضع ثقته ، ومثل هذا حدث في مصر فوزير الدولة لشئون رئاسة الجمهورية « سامى شرف » كان جاسوساً على عبد الناصر ومن أشد النكبات ألا يحسن الزعماء اختيار معاونيهم وموضع أسرهم ، وأن يتكرر ذلك ، وكان في قياده الانفصال كذلك حيدر الكزبرى وهو شاويش سابق في الجيش الفرنسى ترقى من غير طريق الكلية الحربية ، وكان فيها كذلك عبدالغنى الدهمان وموفق عصاصة من القوات الجوية ، وقد استغل عبد الكريم النحلاوى مكانه من المشير فأبْعَدَ عن دمشق كل الضباط المخلصين للوحدة ، واستدعى إلى دمشق أعداء الوحدة ، والمشير يغط في نومه كالعادة ، ثم ضرب النحلاوى ضربته .

ويلخص أنور السادات أسباب الانفصال وخطواته تلخيصاً دقيقاً فيقول : « كان لإرسال عبد الحكيم عامر حاكماً لسوريا خطأ فاحشاً ، لأن السراج كان يعتبر نفسه أحق من عامر بحكم سوريا ، وفي سوريا برزت أخطاء عبد الحكيم عامر ، ولكن الأهم من ذلك أنه كان يسىء اختيار معاونيه بشكل فاضح ، وكان من أبرز ملامح شخصيته روح القبيلة ، فهو يساند هؤلاء المعاونين سواء كانوا على حق أو باطل .

« وتصاعدت مساوئ عامر في سوريا، وأصبحت معروفة لرجل الشارع ،

وكان عبد الناصر كمعادته يؤيد عامر في كل تصرفاته ظالماً أو مظلوماً ، فإذا أضفنا إلى هذا أن الملك سعود دفع سبعة ملايين من الجنيهات أوصالها للملك حسين ملك الأردن للمتذمرين والمتآمرين في سوريا ، وإذا أضفنا القوانين الاشتراكية التي أصدرها عبد الناصر في يوليو سنة ١٩٦١ ، وكيف كانت سيئة الأثر على المجتمع السوري لأدركنا مدى سخط الشعب السوري على عبد الناصر وعلى الوحدة وهو سخط حقيق ثماره عند ما صها الناس في دمشق يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ على وحدات من الجيش السوري وهي تحاصر القيادة العسكرية هناك ، وكان عبد الحكيم عامر يعيش في فيلا ملاصقة للقيادة ، فلما عرف أنباء الحركة أسرع إلى القيادة ولكن الجيش السوري ضيق الحصار عليه ، وبدءوا يكلمونه عن طريق الميكرفون مهددين متوعدين ، ثم بدءوا في إصدار بلاغات حربية كأن البلاد في حالة حرب وألقى الجيش السوري القبض على عامر وشحنوه في طائرة إلى مصر ، وتم بذلك الانفصال ، وذهبت الوحدة بين مصر وسوريا كأنها لم تكن (١) .

ويضيف أحمد حمروش على هذا الوصف أن المشير استنجد بأكرم ديري وهو من مؤيدي الوحدة ، وقد تصدى هذا لضباط الانفصال ذا كراً أنه ليس من حق هؤلاء الضباط قسّم الوحدة بالدبابات ، فرد المتمردون عليه بأنهم ضد ضغط الضباط المصريين وتسلطهم في سوريا ، وفي هذه الأثناء كان عبد الحكيم عامر في مكتبه كالأسد الحبيس لا يتوقف عن التدخين ، ولا عن الحركة ، وسرعان ما وصل حيدر الكزبري ، وأوقف المناقشة بإطلاق نيران مدفعه ، فخرج رجل أكرم ديري ، ولم يبق مكان للكلام (٢) .

محاولة القضاء على الحركة الانفصالية :

اتجه جمال عبد الناصر فور علمه بالحركة الانفصالية إلى مقاومتها وبخاصة

(١) البحث عن الذات ص ٢٠٥

(٢) عبد الناصر والعرب ص ٨٧

أن أخباراً جاءت به بأن الوحدات باللاذقية تمسك بالوحدة ، ولذلك سرعان ما أرسل حشداً من قوات الصاعقة ، كما أعدت قوات البحرية للتوجه إلى اللاذقية ، ولكن حدث شيء مهم هو أن صديق محمود - صاحب الهزائم في سنة ١٩٥٦ - لم يكن بقادر على مواجهة الموقف فتأخر في إرسال القوات اللازمة ، وكان الزمن يحسب بالثواني لا بالدقائق فقط ، وفي أثناء هذا التأخر استطاع ضباط الانفصال أن يتغلبوا على مخالفيهم، وأن ينشروا أفكارهم، فلما وصلت قوات الصاعقة إلى سوريا لحقتها أوامر عبد الناصر بأن تستسلم إلى أي قوات سورية تصادفها ، وهكذا كانت كلمة الاستسلام هيئة على عبد الناصر في كل حرب عاصرها وقد قبض عبد الكريم النحلاوي على هؤلاء الرجال واعتبرهم أسرى حرب .

ومما جعل عبد الناصر يتجه للتراجع ، أن عبد الحكيم تمّ شحنه إلى مصر وعاد فعلاً ، ويقول المطلعون إن حماس عبد الناصر للمقاومة الانفصال لم يكن إلا لإنقاذ عبد الحكيم عامر ، فلما وصل هذا رجحت فكرة عدم المقاومة (١) .

ويذكر أحمد حمروش رأيه في قادة الضعف والهزيمة فيقول : إن قيادة صديق محمود للقوات الجوية أدت إلى تعطيل وصول قوات الصاعقة عدة ساعات حتى نزل فوج وأعيد الباقي بعد انتهاء المقاومة وانتصار القوات ، وكان مفروضاً أن يخرج صديق محمود وأن يحاسب المشير ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث (٢) .

الانفصال في رأى قادة الانفصال

لم يعد لراديو دمشق من عمل بعد الانفصال إلا أن يسبّ عبد الناصر الذي

(١) انظر بصرحة عن عبد الناصر ص ١٤٠ - ١٤٧

(٢) شهود ثورة يوليو ص ٣٢٨

قال فيه من قبل ما لم يقله بشر عن بشر ، ثم جاء مؤتمر شتورة محاصره فذه في فن الشتائم ، ولفترة طويلة حفل قاموس النضال السياسى العربى بكلمات يقشعر البدن من مجرد سماعها .

وكان الانفصال عند قادة الانفصال وعند الذين أضرخوا من الوحدة عملية تصحيح ، وإعادة بناء ، وكانوا يرون الوحدة في ظل فكر عبد الناصر وانحراف المشير عملاً شائناً كفاهم الله شره بعد أن عانوا منه شر عناء (١) .

خسائر مصر في الوحدة :

أعلن عبد الناصر عقب الانفصال أنه عطّل مشروعات كثيرة في مصر لتحظى بها سوريا ، وأن مصر قدمت لسوريا فور الوحدة ١٣ و ٥ مليون ليرة سورية لمواجهة عجز الميزانية السورية ، وأنها كانت تقدم لسوريا ثلاثة ملايين جنيه سنوياً ، كما قدمت تحويلات نقدية قيمتها ٩ ملايين جنيه استرليني ، واعترف أن قوات المظلات التي هبطت في اللاذقية كانت تحمل آلاف الليرات وليس كما أشيع ملايين الليرات المزيفة .

ونحن نتساءل : من المسئول عن ثروات مصر التي كان الزعيم يبعثها لأجاده الخاصة ؟ ومن المسئول عن توقف مشروعات التنمية بمصر ؟ ومن المسئول عن ديون استدانها مصر وأنفقت في سوريا ؟ لا بد يوماً من حساب على هذا العبث .

ويقول الأستاذ سيد نوفل : إن سنوات الوحدة أثقلت كاهل مصر ، وعطلت مسيرة التنمية فيها ، بسبب الأزمات السورية المتلاحقة والابتزازات التي كانت تتصاعد ، وقد بنت مصر الحى الجديد بدمشق الذى لم تشهد العاصمة السورية مثله لا قبل الوحدة ولا بعدها ، كما شيدت مصر مبنى القيادة

العسكرية الذى جرت فيه أحداث الانفصال ، وأقامت المؤسسات العامة التى خلقت سوريا خلقاً جديداً (١) .

بعد الانفصال :

بعد نجاح الانفصال مرت بمصر أحداث خطيرة تتعلق بالانفصال ، وهى أحداث تدعو للحسرة والدهشة ، وسنلم بها فيما يلى :

١ — تحدثنا من قبل عن عبد الكريم النحلاوى مدير مكتب المشير وموضع ثقته الذى خطط للانقلاب ، وتحدث هنا عن ضابط مضربى كان أقرب الضباط إلى قلب المشير وهو الرائد جلال هريدى الذى عينه المشير قائداً لفرقة الصاعقة ، فقد كان هذا أول المتجهجين على عبد الناصر فى الإذاعة السورية ، وقد سجلوا له أحاديث فى جلسات خاصة فيها إساءة لعبد الناصر شخصياً ، وهذا مثل من المساوىء التى لم يكن الشعب يعرفها ، وانطلق بالحديث عنها بعض العارفين فى ظروف خاصة دفعتهم لعرض هذا النقد .

وقد طلب المشير من الأستاذ سيد نوفل الأمين العام المساعد للجامعة الدول العربية أن يبذل جهده لاستعادة جلال هريدى ، وأصر على أن يذهب عبد القادر عيد مع سيد نوفل إلى دمشق لهذا الغرض ، وقد ناقشة سيد نوفل فى صعوبة هذا الوضع لأن عبد القادر عيد لا صلة له بالجامعة العربية ، ويقول الأستاذ سيد نوفل : إن عبد المحيد فريد عجب من موقفى لأنى أناقش أمراً أصدره المشير ، والعهد بالمشير ألا يناقشه أحد فيما يرى (١) .

٢ — اتجه عبد الناصر إلى مزيد من تركيز السلطة فى يده ، فأسند رياسته

(١) مجلة أكتوبر فى ١٣ مايو سنة ١٩٧٩

(٢) مجلة أكتوبر العدد ١٣٣

الوزارة إلى على صبرى وعلل ذلك بقوله لذكرى محي الدين إن زملاءه السابقين في مجلس الثورة سيئون التصرف ، ولذلك فقد رأى تركيز السلطة في يده عن طريق على صبرى .

٣ - أراد جمال عبد الناصر أن يقلل من نفوذ عبد الحكيم عامر بالجيش على أن يكون ذلك من طرف خفي حتى لا يغضب المشير ، فكوّن مجلس رئاسة يتولى القيادة الجماعية ، واتجه ليجعل من حتموق هذا المجلس أن يصبح المسئول عن التعيينات في الوظائف الكبرى بالقوات المسلحة ، وقد ثار عبد الحكيم عامر على هذا ، فعنده أن الهزائم لا يمكن أن تقلل من مكانته ، وسافر عامر إلى مرسى مطروح غاضباً ، وانهارت البرقيات تؤيده ، ورضخ عبد الناصر لإرادة عامر .

٤ - أراد عبد الناصر أن يصرف الشعب المصرى عن السخط ، فلأ السوق بالحاجات التي كان الشعب محروماً منها عدة سنوات ، والتي لم تكن تعرف طريقها إلا للقصور ، وما أن فرح الشعب بهذه التوسعة حتى بدأت مشكلة اليمن - كما سنرى فيما بعد - فتحوّلت كل السلع التي بها نوع من الترف إلى اليمن السعيد ، وعادت حياة الشظف للجمهور المصرى .

وبهذه المناسبة نذكر أن شعب مصر عاش على الخبز الأسود طيلة عهد عبد الناصر ، وعانى الحرمان وشظف العيش ، وكان المصريون الذين يعملون بالخارج أو يسافرون سفراً مؤقتاً يحرصون على شراء ما يستطيعون شراءه من ملابس وأدوية بل من الشاي والفاكهة وأنواع الطعام الأخرى لقد كان بالقاهرة أعظم الأطباء ولكن صيدليات القاهرة كانت خالية من أكثر الأدوية الضرورية ، وكان بالقاهرة أعظم الخياطين ولكن القماش الجيد لم يكن موجوداً ، وكان في القاهرة أعظم المدرسين ولكن المدارس كانت قليلة وضيقة وتهاوى أحياناً لقلة الترميمات ، وقُلْ مثل هذا في مختلف الشئون .

إن الحديث عن المجتمع المصري في عهد عبد الناصر حديث يدعو للحسرة ولا بد يوماً من حساب من ظلموا الشعب وسرقوا أمواله .

٥ — (أسد على وفي الحروب نعمة) اقتبسنا هذا الشطر من قبل ، ونعود فنقتبسه الآن ، ويمكن أن نقتبسه عدة مرات ، فإنه ينطبق تماماً على عبدالناصر ، فقد كان كلما ضرب من الخارج وعجز عن مواجهة من يضربه يعود إلى المصريين العزل فينكل بهم ، فعل ذلك عقب انهياره سنة ١٩٥٦ ، وفعله بعد أن انتصرت عليه القوات الانفصالية ، وسخرت منه وهاجمته أشنع هجوم ، وفعله عقب هزائمه في اليمن وكذلك بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ ، فعبد الناصر لم يكن درعاً يحمي مصر والمصريين كما تعود الزعماء أن يفعلوا ، ولكنه كان وبالا ودماراً لكل القيم بالداخل ، ويقول أحمد حمروش إنه لما كان الانفصال قد انطلق من معقل رجب في سوريا فلن وزارة الداخلية في مصر بادرت باعتقال ٤٥ من السياسيين القدامى مثل فؤاد سراج الدين وإبراهيم فرج وسليمان غنام^(١) ...

٦ — يعترف عبد الناصر بأنه المسئول عن هذه الكارثة كما اعترف بأنه مسئول عن الكوارث الأخرى ، وهو يقول للبغدادى إنه يعلم كل العيوب ، وأن هناك أخطاء كثيرة ، وأنه هو المسئول الأول عنها ، وأنه قد فكر في أن يتنحى عن الرئاسة ولكنه رأى أن هذا سيعتبر تخلياً عن المسئولية ، وهو لا يرضى لنفسه هذه الصورة^(٢) .

والحق أنه ما كان يتنازل عن أمجاده لحظة ، فالرئاسة تحقق له الأجداد على الرغم من كل الخسائر .

٧ — يقابلنا الدجوى هنا مرة أخرى ؛ وهو في هذه الحالة يحاكم مجموعة

(١) عبد الناصر والعرب ص ٩٧ .

(٢) مذكرات البغدادى ص ١٢٤

من العسكريين (وحيد رمضان سفير مصر في الجبر ، وأحمد لطفى واكد الذى كان مدير مكتب جمال عبد الناصر فى مطلع الثورة . وداود عويس أحد الضباط العاملين فى مكتب المشير) وقد كتب هؤلاء عقب الانفصال بياناً يهاجم سطوة المخابرات والإرهاب والاعتقالات وأخلاقيات النظام ، وقد حكم الدجوى على كل منهم بالسجن ١٥ عاماً مع الأشغال الشاقة بعد محاكمة بلا محام ولا دفاع (١) .

٨ - أنزل عبد الناصر سخطه على الشعب المصرى كله أو أكثره عن طريق ما يعرف بالتأميم . فبعد قوانين يوليو سنة ١٩٦١ اتجه بعد الانفصال للتوسع فى نطاق التأميمات ، كما سئرى فيما بعد .

٩ - بعد الانفصال انطلق عبد الناصر بشدة يهاجم الدول العربية ، فقد اعتقد أنها فرحت لنجاح هذه الحركة الانفصالية ، وعلت صرخته التى قال فيها : « لن نهادن الرجعية بعد اليوم » وقد تسبب عن ذلك قطيعة بين مصر وبين العرب جميعاً .

١٠ - وأكبر المشكلات التى نجمت عن الانفصال كانت معركة اليمن ، وهى موجة جديدة من موجات الانفصالية عند عبد الناصر ، فقد اعتقد عبد الناصر - كما يقول هيكل - أن ضرب ثورة السلال يعنى إعطاء الملك سعود فرصة لتحقيق انتصار آخر بعد الانتصار الذى حققه فى عملية الانفصال ، ولم يكن عبد الناصر مستعداً لإعطاء الملك سعود مثل هذه الفرصة ، وقرر أن يساعد ثورة اليمن (٢) .

وهكذا للعناد فقط وللرغبة فى الثأر الشخصى من الملك سعود أدخل عيد الناصر مصر فى هذه الدوامة العنيفة الجديدة التى سنشرحها فيما بعد .

وقتهى بذلك الوحدة التى كانت حماقة فى أولها وخسارة جسيمة فى كل خطواتها .

(١) عبد الناصر والعرب ص ٩٩

(٢) بصراحة عن عبد الناصر ص ١٥٨

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

ذكرنا فيما سبق أن عبد الناصر عين في منتصف سنة ١٩٦٠ أعضاء البرلمان الثاني للثورة واختير أنور السادات رئيساً لهذا المجلس ، ومن هنا قلّ نشاطه في المؤتمر الإسلامى الذى سبق أن تحدثنا عنه ، واتجه المؤتمر الإسلامى للأقول .

وعلى أثر أقول المؤتمر الإسلامى ظهر كائن جديد انتسب أيضاً إلى الإسلام وكان اسمه « المجلس الأعلى للشئون الإسلامية » ، وأصدر جمال عبد الناصر قراراً بتعيين محمد توفيق عويضة سكرتيراً عاماً لهذا المجلس ، وكان هذا آنذاك في مطلع الشباب إذ كان في حوالى الثلاثين من العمر ، كما كان في أوائل درجات السلم بالنسبة لرتب الضباط .

وعندما أريد أن أكتب عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية أرى أمامي مصدرين مهمين يمدّاننى بالكثير من المعلومات ، وهذان المصدران هما :

١ - كتابى « رحلة حياة »

٢ - كتاب « سنوات عصيبة » للمستشار محمد عبد السلام ، الذى كان نائباً عاماً ، وباشر بعض القضايا ومن ضمنها قضية عن هذا المجلس .

وقبل أن اقتبس من هذين المصدرين أقرر أن لدى معلومات أخرى لا أستطيع أن أذكرها ، وأرجو ألا يلومنى القارىء ، ويكنى أن أذكر أن القارىء لو كان مكانى لاتبه اتجاهى فى الغالب ، فطالما قهرتنا الظروف التى لا مناص من الخضوع لها طوعاً أو كرهاً ، ويكنى أن أقول إن ما كتبتة عن المجلس فى كتابى « رحلة حياة » سبّب لى كثيراً من المتاعب مع أن ما كتبتة كان خفيفاً جداً وكنت فيه فى أقصى درجات التحفظ ،

وحتى أبه من على أن ما كتبه هالك كان نقداً خفيفاً ، فلمنى أسيد هنا تلك الكلمات ، وهى فى الوقت نفسه شرح وتعريف بهذا المجلس نوره هنا :

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

لا شك أن هذا العنوان يهزك هزاً ، ولا شك أن الصورة التى ترسمها له كبيرة ومثيرة ، ومن أجل هذا كنت سعيداً كل السعادة عند ما تلقيت خطاباً فى مطلع حياة المجلس (سنة ١٩٦١) باختيارى عضواً فى « لجنة التعريف بالإسلام » وهى لجنة مهمة من لجان المجلس كما يبنى بذلك اسمها ، ولكن يبدو أن الأسماء بهذا المجلس ليس لها مدلول دقيق ، ولهذا فلمنى أريد أن أعرفك بهذا المجلس .

سلطات هذا المجلس فى يد السيد الأستاذ محمد توفيق عويضة ، وهو شاب مهذب رقيق ، كان من قبل أحد الضباط بالجيش ، وهو يتولى السلطات الكاملة بالمجلس كسكرتير عام له يعاونه بعض الإداريين .

وبالمجلس لجان تحمل عدة أسماء : الخبراء - الحديث - التعريف بالإسلام . . . ويختار الأعضاء لهذه اللجان بمعرفة السكرتير العام نفسه أو من وزراء الأوقاف ، وفى لجنة التعريف بالإسلام التى أشرف بالانتساب إليها مجموعة من صفوة الأساتذة والمفكرين ، وقد هزنى اسمها عندما وقع على الاختيار لعضويتها ، وكنت من أسبق الأعضاء بها ، وكان عددنا لا يتجاوز أصابع اليدين ، وطلب الأعضاء منى أن أعيد تقريراً لتسير عليه اللجنة فى عملها ، فرحت أبحث وأدرس ، ووضعت تقريراً حافلاً ، فقد أخذت الأمر مأخذ الجد ، وقلت إن التعريف بالإسلام يكون بالكلمة المقولة والكلمة المكتوبة ، واقترحت اللغات التى تكتب بها الكلمة أو تقال ، والأشخاص الذين يكتبون عن الإسلام أو يتحدثون عنه ، كما اقترحت

الموضوعات والأماكن التي ينبغي أن تغمرها هذه الأحاديث والكتب بالداخل والخارج . . وعُرض هذا التقرير الحافل على اللجنة ، فتدارسته في عدة جلسات ؛ حذفت منه وأضافت إليه ، ثم أقرته .

تسألني : ماذا حدث له بعد ذلك ؟ فأقول في إيجاز : غمره النسيان ، ولم نعرف عنه أى شئ ، كأنه كان هدفاً وصلنا إليه ، وآثرنا السلامة بعد ذلك ، وأصبح هذا النسق هو خط العمل بهذه اللجنة ، فموضوعات تثار ، وتقارير توضع ، ومناقشات تدور ، وقرارات – أو لتكن تسميتها اقتراحات – تُحدّد ، وترفع للسكرتير العام ويطوبها النسيان بعد ذلك تماماً . لا متابعة ، ولا مراجعة ، ولا نتائج ، وقد أصبح عدد أعضاء هذه اللجنة بعد حوالى عشر سنوات خمسين عضواً تقريباً ؛ وأصبحت تضيق بهم الحجرة الرحبة غنية الأثاث التي يجتمعون بها ، ومع هذا فالعمل هو العمل ، أو قل إن عدم العمل المنتج ، هو طبيعة العمل بها .

ومن أعمال هذه اللجنة فحص بعض الكتب التي يتقدم بها أصحابها لطبع على حساب المجلس ، ويحوّل كل كتاب (والأجمل أن نسميه مشروع كتاب) إلى لجنة لفحصه وكتابة تقارير عنه ، وتُتلى التقارير في اجتماع اللجنة ، ويدور نقاش طويل قد يستغرق جلسة أو جلسيتين ، وتقبّل اللجنة الكتاب بعد ذلك أو ترفضه ، ولو قارنا الجهد الذى يبذل والمكافآت التي تصرف للأعضاء عن هذه الجلسات لأدركنا أن ذلك يفوق الكتاب بكثير ، ثم إن الكتاب الذى يُقبل يأخذ دوره بين قائمة الكتب التي يطبعها المجلس تبعاً لإمكانياته ، وتجربتي في الكتاب الوحيد الذى طبعه المجلس لى باللغة الفرنسية أنه صدر بعد خمس سنوات من إقراره ، وكنت خلالها غيرت رأيي في كثير مما كتبت به منذ سنوات .

ومن أجل إحساسى هذا نحو المجلس وأعماله، ترقفت عن حضور الجلسات، فلم أجد جدوى في مواصلة الجهد لغير طائل ، ولكن أملى في مستقبل أنضر
(م ٣٧ - التذييل : ج ٩)

لهذا المجلس ، وحرصى على لقاء رفاق العدل فى لجنة التعريف بالإسلام جعلنى أحضر الجلسات مرة كل شهر أو كل شهرين بدل الحضور كل أسبوع ، فالجهد الضائع عمل لا يرضى الله ولا يرضى الفمير .

وهناك مؤتمرات إسلامية يدعى لها المجلس الأعلى، ويمثل السيد السكرتير العام وقد مصر فى هذه المؤتمرات ومعه بعض الإداريين ، وقاما صحب معه بعض العلماء ، ولا شك أنه من الأجدر أن يكون وفد مصر من الباحثين المسلمين الذين يستطيعون أن يتكلموا بعمق فى الدراسات الإسلامية، ولا بأس أن يكون معهم الأستاذ محمد توفيق عويضة رئيساً للوفد لياشر بعض المهام السياسية أو التنظيمية .

ويصدر المجلس مجلة « منبر الإسلام » كل شهر ، ومن الممكن أن تصبح أكثر عمقاً وأصاله ، ويقدم مجموعات مما يطبعه من كتب لبعض البلاد الإسلامية وبعض المكتبات الإسلامية ، وليست هذه هى البضاعة التى ترجى من المجلس ، ولو رأى المجلس صناديق الكتب التى يرسلها ثم لم تفتح فترة طويلة ؛ واسطوانات الصلاة التى لا يصلى أحد تبعاً لها ، لو رأى المجلس ما يعمل وما يمكن أن يعمل لوقف وقفة تصحيح ووقفة إصلاح ، ولو قارن المجلس أعماله بأعمال المجالس المماثلة التابعة للأديان الأخرى لأحدث حركة تغيير شاملة ، وليته يفعل .

تلك هى كلمتى عن المجلس فى كتابى « رحلة حياة » ومن الواضح أننى عُنيت فيها بالجانب الفكرى فهو ما أهتم به ، وأنا هنا أكتفى بها أما كلمة المستشار محمد عبد السلام فأتجهت للجوانب الإدارية والمالية والقضائية . وفيما يلى لقطات قصيرة مما كتبه الأستاذ محمد عبد السلام .

— تقدم مراقب شعبة الجهاز المركزى للمحاسبات بوزارة الأوقاف بتقرير إلى رئيس الجهاز جاء فيه أن مبالغ كبيرة صُرفت من وزارة الأوقاف للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية يُصرف منها على مدينة ناصر للبعوث

الإسلامية ومضى على صرفها زمن طويل دون تسوية ، وأنه طَلَبَ مستندات صرف هذه المبالغ فلم تُقدِّم إليه ، ولما أصر على طلبها فوجيء بنقله إلى محافظة أسيوط .

— شكل رئيس الجهاز المركزى لجنة قامت بفحص الموضوع وانتهت بوضع تقرير رجّحت فيه وقوع تزويرات واختلاسات قدرتها مبدئياً بما يزيد عن ٢٠ ألف جنيه (١) .

— تقدم السكرتير العام وهو فى الدرجة السادسة من سلم العاملين بالدولة إلى وزير الأوقاف بمذكرتين مؤرختين ٢٠ / ٨ / و ٢٠ / ١٢ سنة ١٩٦٤ لتفويضه فى إجراء التعيينات ومنح الأجور الإضافية والمكافآت بأنواعها بالنسبة إلى موظفى المجلس الأعلى ومدينة ناصر للبعوث الإسلامية ؛ وهو أمر من اختصاص الوزير ، ولا يجوز التفويض فيه إلا لوكيل الوزارة أو الوكيل المساعد طبقاً للقانون ، وقد وافق وزير الأوقاف على هاتين المذكرتين ، وإذ تمّ له أمر التفويض على النحو المخالف للقانون ، أخذ يغترف من أموال الدولة ، ويغدقها على مرءوسيه (٢) . .

واستطرد المستشار يورد قضايا كثيرة مماثلة ، وعلق عليها بالآتى :

أولاً — من العجيب والغفلة أن يُسمح بمثل هذه الانحرافات فى مؤسسة إسلامية ، كان يتحتم أن تظهر أمام الرأى العالمى الإسلامى بعيادة عن الانحرافات ، وكان على مراكز النفوذ أن تختار مكاناً آخر لمثلها غير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

ثانياً — كيف يوضع شاب فى مثل هذه السن وتلك الثقافة بحيث يتحكم

(١) المستشار محمد عبد السلام : سنوات عصية ص ٩٠

(٢) المرجع السابق ص ٩٢

فى رجال الدين عن طريق اختيارهم أعضاء بالجلس بمكافآت تصرف لهم نظير حضور الجلسات ، ولا شك أن الكثيرين بلعوا ألسنتهم لذلك .

ثالثاً -- كان هذا الشاب يسيطر على الوزراء الذين يُفترض أنه يعمل تحت رياستهم ، وعندما رفض أحد وزراء الأوقاف أن يوافق على رغبته أعفى من منصبه بعد بضعة أشهر .

ولا عجب فى ذلك ، فإن ذلك كان دستور العصر ، وهذا مثال من أمثلة مراكز النفوذ ، وهو تنفيذ للسياسة التى شرحناها من قبل عن إثارة أهل الثقة على أهل الكفاءة .

القوانين الاشتراكية والقطاع العام

تحدثنا في حوادث سنة ١٩٥٢ عما سمي الإصلاح الزراعي الذي حدد ملكية الأرض الزراعية بحيث لا تتجاوز ملكية الزوج والزوجة ٢٠٠ فدان يضاف لها مائة للأولاد .

وقد سمي هذا التصرف آنذاك « الإصلاح الزراعي » لأن كلمة « الاشتراكية » لم تكن قد ظهرت في قاموس عبد الناصر ، وذكرنا أن كلمة الاشتراكية ظهرت بعد علاقاتنا بالاتحاد السوفيتي ، وبعد ما سُمي بكسر احتكار السلاح ، كما ذكرنا أن كمال الدين حسين وصف هذه الاشتراكية بأنها لا تعرف المصادرة ، وأن جمال عبد الناصر لأمه على ذلك ذاكرًا أنه قد يحدث ما يدفع إلى المصادرة والتأميم .

وبعد حرب السويس أمّمت البنوك الأجنبية كما ذكرنا من قبل ، وكل ذلك مهّدا لما يسمى القوانين الاشتراكية التي صدرت في يوليو سنة ١٩٦١ ، وأصبحت الاشتراكية عقب ذلك مادة تدرس في المدارس والجامعات ؛ وأغنية يتغنى بها الناس ، وفتحت لها معاهد في نواحي القطر كانت لها امتيازات ليست لغيرها من المعاهد ، وقد اندفع عبد الناصر في التأميمات في الأعوام التالية حتى شملت التأميمات ٨٥٪ من المصانع والمتاجر والأشهر والسندات والأموال .

وأهم القوانين الاشتراكية ما يلي :

- قانون رقم ١١٧ لسنة ١٩٦١ بتأميم ١٤٩ شركة تشمل جميع البنوك وشركات التأمين .
- قانون رقم ١١٨ لسنة ١٩٦١ باشتراك القطاع العام في ٩١ شركة .
- قانون رقم ١١٩ لسنة ١٩٦١ بتحديد ملكية الفرد في ١٥٩ شركة .

- قانون رقم ١٢٠ لسنة ١٩٦١ بتنظيم منشآت تصدير القطن .
- قانون رقم ١٢١ لسنة ١٩٦١ بنقل ملكيات منشآت مكابس القطن للدولة .
- قانون رقم ١٢٢ لسنة ١٩٦١ بإسقاط الالتزام عن شركة ليبون بالاسكندرية .
- قانون رقم ١٢٣ لسنة ١٩٦١ بإسقاط الالتزام عن مرفق مياه القاهرة .
- قانون رقم ١٢٧ لسنة ١٩٦١ يجعل الحد الأقصى للملكية الزراعية مائة فدان :

وفي يناير سنة ١٩٦٢ أمم عبد الناصر ٧٧ مشروعاً خاصاً للمخابز ، كما أصدر قوانين تجعل الحكومة شريكة بنسبة ٥٠٪ في ٢٤٣ مشروعاً خاصاً لطحن الغلال وضرب الأرز وهكذا اتسعت عمليات التأميم حتى تناولت المشروعات المتوسطة للصناعة المصرية ، وانتقل بمقتضى هذه التأميمات إلى أيدي الدولة ٨٥٪ من الوسائل الرئيسية للإنتاج في الصناعة ، وكل وسائل النقل بالكامل (١) :

وخلق تبعاً لذلك ماسمى « القطاع العام » لإدارة وسائل الإنتاج المؤتممة ، وسنعود للقطاع العام بعد قليل ، ولكننا هنا نستمر في الحديث عن اشتراكية عبد الناصر :

اشتراكية عبد الناصر في رأى المفكرين المصريين :

وصف أنور السادات اشتراكية عبد الناصر أبلغ وصف حينما قال : إنها اشتراكية الصنم ؛ واشتراكية توزيع الفقر ، وقد اقتبسنا ذلك من قبل .

(١) ايغور بيليايف وبريماكوف : مصر في عهد عبد الناصر ص ١٣١ ، ١٣٧

ويقول الأستاذ توفيق الحكيم إن اشتراكية ذلك العهد كانت مجرد
التأديم والاستيلاء على أموال وقصور ، لتحل فيها طبقة أخرى باسم
آخر ، تماثلها في الثراء وتنشبه بها في الترف (١) .

ويقول الأستاذ إحسان عيد القدوس : إنه لم يحدث شيء في المجتمع
المصري بعد الثورة ، وكل ما حدث أن أشخاص وأسماء وعائلات الطبقة
الراقية وأولاد الذوات قد تغيرت (٢) .

ويتحدث الأستاذ صالح جودت عن اشتراكية عهد الناصر فيقول إنه
نظام ظاهره العدالة الاجتماعية ، ولكنه انتهى إلى إفقار الأغنياء
وتجويع الفقراء (٣) .

وما بالك باشتراكية يتزعمها على صبرى بعد جمال عبد الناصر ، وألف
فيها على صبرى كتابا عرض فيه نظريات شيوعية تفرض حياة التقشف ،
وتدعو لربط الأحزمة على البطون ، وتوجب القضاء على التطلعات الرأسمالية
التي تبيح القصور ومتاع القصور ، ولكن هذا الزعيم الاشتراكي كان له قصران
أحدهما بالقاهرة والثاني بالاسكندرية ، وقد ازدحما بالرياش الفاخر وبأحدث
الأجهزة مما لا يوجد إلا في قصور أصحاب الملايين من الأمريكان ، وكانت
ملابسه وملابساته تجلب من لندن وباريس ، كما تجلب له الفاكهة
الذائرة والعطور الفاخرة (٤) .

(١) عودة الوعي ص ٧٢

(٢) جريدة الأهرام في ١٩٧٤/٨/٢

(٣) مجلة المصور في ١٩٧٤/٣/٧

(٤) رسائل من نفاستان ص ٥٦

ويذكر الدكتور إبراهيم عبده^(١) عن رئيس جهاز الاشتراكية أنه كان عندما يصل إلى مقر جهازه ، يسرع موظف خاص إلى المصعد فيطلق فيه نوعاً ممتازاً من العطور الزكية ، وينطلق سعاة آخرون يطلقون العطور في حجرة مكتبه ، وهو بذلك يفعل ما يفعله الأباطرة والملوك في العصور الوسطى .

وإذا كانت الثورة قد حددت الملكية الزراعية ، فإن ملكيات كبرى قد امتلكها أناس لم يكن لهم عهد بالثراء من قبل ، كالعائلة الشاهقة ، والحدائق الغناء ، وملايين الجنيمات بالداخل والخارج ، وشئون الاستيراد والتصدير التي تُخيل أرقاماً خيالية من الثراء ، بل وصلت ممتلكات بعضهم إلى مئات الأفدنة عن طريق صور متعددة من التهريب .

وهل يعد من الاشتراكية أن يوجد في القصر الجمهوري مئات من الأفراد في درجة وزير يتقاضون مرتب الوزراء ومخصصاتهم دون أن تكون لهم وزارات أو أعباء الوزراء ؟

ويقال إن عدد وزراء هذا النوع فاق كل مبالغة ، وطالما قابلت بعض الناس ورأيت من يناديهم « معالي الوزير » فإذا سألت عن وزارته قيل لي إنه وزير بالقصر .

ويقول الدكتور محمود القاضي في مناقشات مجلس الشعب في ١١/١٢/٧٤ إن عدد هؤلاء في القصر وخارجه بلغ سبعمائة وزير وفائب وزير ، وتلك مخالفة دستورية ، وعبء ثقیل على الميزانية .

وهل يعد من الاشتراكية أن تزدحم وزارة الخارجية بسفراء مقعدين ينالون حظ السفراء ولا يعرفون معارفهم ؟

وهل يعد من الاشتراكية أن تُخلق الأقارب والأصهار حديثي التخرج وظائف رفيعة في صحيفة الأهرام وأمثالها من المؤسسات بمرئيات تعد بمئات الجنيهات بينما يعاني زملاؤهم البطالة حيناً ، حتى تُلتقى بهم القوى العاملة بمكان ما ، بمرتب لا يفي بأجر السكن أو لقوت الضروري ؟

وهل يعد من الاشتراكية أن تقدم المنح بالآلاف للمرتزقة من المؤلفين الأجانب ليكتبوا كتباً يمجدون فيها عبد الناصر ؟ أوللصحفيين في لبنان وغيره ليكتبوا عن زعيم الشرق بعض المقالات .

وهل يعد من الاشتراكية ما ورد في ص ٢٠٧ من التحقيق الذي أجرى بعد تصحيح مايو مع أحد وزراء القصر في عهد جمال عبد الناصر من أنه اشترى لزوجته وبنته ملابس من الخارج بعملة أجنبية بلغت اثني عشر ألف جنيه في عام واحد ، دفعت من المصروفات السرية ، في نفس الوقت الذي تقف فيه طوابير طويلة من المصريين أمام المحال التجارية في انتظار القليل من الكستور والدمور .

إن اشتراكية عبد الناصر كانت نمطاً وحدها ، ولذلك قُدِّر لها أن تكون قصيرة العمر ، وأن تعود الدولة إلى سياسة تقضي بها على استعمال الكلمات بدون مدلول .

القطاع العام :

تبعاً لحركة التأميم الواسعة التي ذكرنا أنها وَضَعَتْ في يد الدولة ٨٥ / من المؤسسات أقام عبد الناصر ما سُمي « القطاع العام » وقال عنه : « إن القطاع العام سيقود التقدم في جميع المجالات ، ويتحمل المسؤولية الرئيسية في خطة التنمية^(١) » ، وعين عبد الناصر موظفي القطاع العام من أهل الثقة

(١) الباب السادس من الميثاق الذي يتحدث عن « حماية الحل الاشتراكي » .

لا من أهل الكفاءة ، فقد كانت الثقة عنده هي كل شيء ، ولم تكن الكفاءة شيئاً ، وما ينبغي إيضاحه أن أهل الكفاءة كانوا في الغالب بعيدين عن السلطة ، إذ برز لهم ما في الحياة السياسية من انحراف ، فاعتمدوا على أنفسهم وكفاءتهم في صراع الحياة ، وآثروا البعد عن مترك السياسة ، وهكذا لم يوجد في محيط عبد الناصر مواطن يجمع بين الثقة والكفاءة إلا القليلون جداً .

وعانى للقطاع العام أشد المعاناة من أهل الثقة الذين كانوا يتصفون بالجهل وسوء السيرة ، وسنورد فيما يلي نماذج من انحراف هؤلاء ، وسنقتبسها من رجل مسئول هو المستشار محمد عبد السلام الذي كان نائباً عاماً من أغسطس ١٩٦٣ إلى أغسطس ١٩٦٩ وقد كتب كتاباً عنوانه « سنوات عصيبة » يقول في مقدمته « ظلت خلال هذه السنوات أقوم بالمحاولة بعد الأخرى لمقاومة الانحرافات التي كان يزعّمها الكبار من أصحاب السلطان سواء في الجهاز الحكومي أو في جهاز القطاع العام ، كما حاولت قدر استطاعتي أن أرسى مبادئ العدالة وسيادة القانون ، وأن أقلل ما أمكن من طغيان السلطات على العدالة والقانون ، وعلى الحريات ، وكنت في خلال هذه المحاولات أصطدم بالمنحرفين من أصحاب مراكز النفوذ ، وأخذ الصدام يتصاعد المرة بعد المرة حتى وصل إلى ذروته عندما أطيح بي مع الخيرة من زملائي فيما أوصّطح الرأي العام على تسميته « مذبحه القضاء (١) » .

وفما يلي بعض اقتباسات من هذا الكتاب :

١ - وقائع اختلاس ورشوة واستغلال نفوذ في الشركة العقارية المصرية وهي شركة من شركات القطاع العام وشمل الاتهام فيها رئيس

(١) المستشار محمد عبد السلام : سنوات عصيبة ص ٥ .

مجلس إدارة الشركة ومديرها العام وعدداً من المهندسين والمديرين الماليين والإداريين ، وقد تواطأ هؤلاء مع عصابة من المقاولين على اختلاس أموال الشعب معتمدين على صفاتهم السياسية وانتمائهم إلى الاتحاد الاشتراكي وصلاتهم بالحكام ، وقد اختلس أفراد هذه العصابة من الموظفين والمقاولين من أموال الشركة مبالغ مختلفة على دفعات تصل إلى مئات الألوف (حدد المؤلف أرقامها) وقد حققت هذه القضية وأخذت رقم ٢٦٠٣ لسنة ١٩٦٥ قضية جنائية باب شرق (١) .

٢ - شركة النصر لصناعة الزجاج والبلور ، وكان يملكها عصاى مصرى اسمه سيد ياسين وأممها جمال عبد الناصر ، فسُلمت - كما يقول المؤلف - إلى عصابة من الموظفين لاغتيال أموالها بالاتفاق مع أحد التجار ، وشمل قرار الاتهام رئيس مجلس إدارة الشركة ورئيس حساباتها ومدير مبيعاتها ورئيس خزائنها ومديرها المالى ، وحققت النيابة هذه القضية وكانت تحقيقاتها رقم ٤٨٨٠ لسنة ١٩٦٥ (٢) .

٣ - شركة النصر للهندسة والتبريد : فى يوم ١٠ ديسمبر سنة ١٩٦٥ شبت النار فى حجرة الأرشيف الخاصة بحفظ مستندات الشركة واتضح من التحقيق أن النار مصطنعة لإخفاء وثائق تدل على اختلاسات واسعة وانحراف كبير . ورقم التحقيق ٧٢٩ لسنة ١٩٦٥ ، وشمل تسليم آلاف الكيلوجرامات من الألومونيوم إلى بعض التجار دون مقابل ، وبيع بضاعة بأثمان زهيدة دون ممارسة أو مزايده ، وشراء بضائع بأسعار مرتفعة بدون مناقصة ، مع وجود عروض بأسعار أقل ، وغير ذلك من الانحرافات (٣) .

(١) المتشار محمد عبد السلام : سنوات عصية ص ٤٧ - ٤٨

(٢) المرجع السابق ص ٥٥

(٣) المرجع السابق ص ٥٦ - ٥٧

وقد أصبحت هناك مواسم للحريق تجيء كل عام في الموعد الذي يسمى
موعد الجرد تخلصاً من الوثائق ومن السلع أيضاً .

٤ - شركة المحلات الصناعية للحريز والقطن (إسكو) أثبت التحقيق
رقم ٧ لسنة ١٩٦٦ أن ٢٩ شخصاً من المقاولين والعمال وكبار الموظفين
بالشركة قد كونوا عصابة اختلست عشرات الآلاف من أموالها (١) .

٥ - أثبت التحقيق رقم ٣٣٨٨ لسنة ١٩٦٤ أن العمل في هيئة النقل
العام كان طابعه الاختلاس والرشوة، كما كان يتسم بالإهمال الجسيم، ففقط
الغيار تشتري بأسعار خيالية دون أن تكون مطابقة للمواصفات الفنية،
ودون حاجة إليها، ثم تدخل المخازن وتخرج منها دون قيد مما يسر عملية
الاختلاسات (٢) .

٦ - مدير إحدى الشركات قُدم إلى محكمة الجنايات في ٦ جنبايات
عن وقائع انحراف واختلاس وإهمال جسيم، وعلى الرغم من هذا الاتهام
فقد رُوى إسناد منصب وكيل وزارة الصناعة إليه (٣) .

٧ - سرت عدوى الفساد إلى الهيئات الخيرية فقد تبين أن المشرف
على هيئة معونة الشتاء قد اختلس من أموالها ما يربو على المائة ألف جنيه .

٨ - وفي مصلحة الجمارك تبين من تحقيق الجناية رقم ١٥٥ لسنة
١٩٦٦ أن عصابة من موظفي المصلحة دأبت على تزوير شهادات بدفع رسوم
الجمارك على السيارات المستوردة وتزوير خطابات لإدارات المرور للحصول
على الرخص اللازمة (٤) .

(١) المرجع السابق ص ٥٨

(٢) المرجع السابق ص ٥٩

(٣) المستشار محمد عبد السلام : سنوات عصية ص ٦٠

(٤) المرجع السابق ص ٦١

٩ - وامتد الاختلاس إلى التبرعات التي قدمها المواطنون للمجهود الحربي ، فقد تبين أن أحد أبناء الاتحاد الاشتراكي ، حافظ المنوفية ، وهو في الوقت نفسه عضواً في مجلس الأمة قد استولى على جانب من هذه التبرعات.

١٠ - أثبتت التحقيقات في اللجنة رقم ١٧٠٧٨ لسنة ١٩٦٦ أن عصابة تضم عدداً من موظفي الشركة العامة للتجارة والكيمويات وشركة مصر للاستيراد والتصدير قد تواطأ أفرادها على اختلاس أموال هاتين الشركتين ، وهما من شركات القطاع العام ، وقد قدرت الأموال التي اختلست بمئات الألوف من الجنيهات (١) .

وهكذا كان القطاع العام مجالاً خصباً للصوص والمحتالين ، وكانت العيوف لا تنجيه لهم لأن حماية ضخمة كانت تسدل عليهم ، ولم تفضح حوادث كذلك التي أوردناها إلا لظرف خاص ، كالمبالغة في الاختلاس ، أو وقوع خلاف بين المختلسين ، أو غضبة تقع على واحد منهم من السلطات العليا التي تحميمهم وتغريهم .

الصناعة والتصنيع :

وهناك مؤسسات أخرى جرى عليها ماجرى على القطاع العام ففسدت ، وتلك هي المؤسسات الصناعية ، ولا شك أن كل مصري يتمنى أن تصبح بلاده بلداً صناعية ، ولسكننا كنا نتمنى ، كذلك أن يكون التصنيع مبنياً على أسس علمية دقيقة ، كصناعة النسيج التي قام بها طلعت حرب فحقق معجزة ومفخرة ، أما أن نصنع من الإبرة إلى الصاروخ فهذا هو الخطأ الفادح ، فلا الإبرة المصرية نجحت ، ولا ينطبع أحد أن يخطط بها شبراً واحداً ، وهي والدبابيس ترتد للبد التي تستعملها بدل أن تحترق القماش أو الورق ،

أما الصارون المصرى فقد ظل فى حرب ١٩٦٧ صامتا هادئاً بدون حركة أو نشاط .

قالوا لنا إن عندنا مصانع للتليفزيون والراديو ، ولكن الأمر انكشف عند ما قطع عبد الناصر علاقاتنا بألمانيا الغربية ، فإن هذا المصنع قد توقف تماماً ، واتضح أن كل ما كنا نقوم به هو تركيب الأجزاء التى نستوردها من ألمانيا ، فلما توقفت العلاقات وانقطع استيراد الأجزاء توقف المصنع ، وكان الموظفون يحضرون أول الشهر ليقبض مرتبهم ثم يذهبون إلى حيث يريدون .

وقالوا لنا إن عندنا صناعة سيارات ، ولكننا جميعاً نرى لوريات ضخمة تحمل سيارات (فيات) قادمة من إيطاليا عن طريق الإسكندرية ، وتحملها اللوريات من الإسكندرية إلى المصانع المزعومة بحلول ، لتخرج هذه السيارات بعد قليل وقد كتب عليها « سيارة نصر » والمسألة ليست إلا خداعاً فى خداع ، ويقولون إن كلمة « نصر » التى تكتب على هذه السيارات مستوردة أيضاً من إيطاليا .

بل إنى أرى ويرى معى الناس سيارات كبيرة كتب عليها « مصانع الطائرات » ولا بد أن فى هذه المصانع مهندسين ومجلس إدارة ورئيساً لهذا المجلس ، ولكننا لم نر طائرات مصرية ، وربما لن نراها فى المستقبل القريب ، وعلى هذا فأغلب ما يقال عن الصناعة زيف فى زيف .

وكانت عندنا بعض الصناعات فعلاً ، ولكن الإنسان المصرى غنياً أو فقيراً كان يبحث عن « الساعة المستوردة » فى كل شيء .

ما السبب فى هذا مع ما عرفنا من عمق فى الوطنية وحب فى السير . ببلادنا إلى مستوى أرفع ؟ .

الإجابة هى سوء إنتاج هذه المصانع بسبب سوء الإدارة وسوء التنظيم ، ومن هذا وذاك كان يشكو المهندس والعامل والمستهلك .

إنه عصر ظلام فى كل شيء ، وقل أن تجد فيه شعاعاً من الضوء .

النفاق

لعب النفاق دوراً خطيراً في تدمير حياتنا خلال الخمسينات والستينات . فقد كان جمال عبد الناصر يستطيب المدح ، وربما جاز القول بأنه كان يصدقه ويثبت عليه ، وتبعاً لذلك وجدت حوله جماعات تخطط للنفاق ، وتنظم لاصطناع الإكبار له والإجلال ، ولى تجربة في هذا المجال ؛ ففي سنة ١٩٦١ كنت مديراً مساعداً للإدارة العامة للوافدين والمبعوثين ، وتُشرف هذه الإدارة على الوافدين لطلب العلم من مختلف الأقطار ، وكانوا في ذلك العهد عدداً كبيراً قبل أن تنتشر المدارس والجامعات بالأقطار التي استقلت حوالى ذلك التاريخ ، وكان معي موظف دهشت عندما عرفت الوظيفة المخصصة له ، كانت وظيفته قيادة فيلق المنافقين ، فكان إذا استضاف عبد الناصر ضيفاً كبيراً .

أو إذا كان عبد الناصر مسافراً أو عائداً تحرك فيلق المنافقين من هنا وهناك ليردد التهافتات للرجل الملهم ، قائد العروبة ، وزعيم إفريقية ، وكان موظف إدارتنا يأخذ عدداً من السيارات ليشحنها بالطلاب الوافدين الذين كانت تُقدّم لهم المنح بشرط أن تكون حناجرهم قوية ، وإخلاصهم للذات الناصرية

إخلاصاً مطلقاً وعميقاً .

وراح النفاق يتسع نطاقه ويتطور ، فشمّل الرسم والتصوير والنحت ، وأصبحت رسوم جمال عبد الناصر توضع مع صور الخمس وتحتّمس وصلاح الدين ، وكان النعت المحب للمنافقين أن يوصف بأنه رسول السلام .

ومن صور النفاق أن ملأ أعوان عبد الناصر البلاد بتائيله ، فأنى تسير تجد تمثالا له في الوزارات والإدارات والمحافظات ومراكز البوليس والمدارس . ومفارق الطرق ، بل دخلت تماثيله القرى الصغيرة في الجمعيات التعاونية . الصغيرة بأوامر إدارتها العامة كما سبق القول .

وقد ظهرت فكرة إقامة تمثال كبير لعبد الناصر ، ويقول توفيق الحكيم :
إنه تلقى خطاباً في هذا الشأن يقول فيه صاحبه إنه موافق على إقامة التمثال ،
ولكنه يرى أن يكون مكانه في تل أبيب ، لأن إسرائيل لم تحلم يوماً بأن
تبلغ ما بلغته من النصر ، ولا تظهر أمام العالم بهذا التفوق الحضارى إلا بفضل
عبد الناصر (١).

والمعجب أن النفاق استمر مرتبطاً بعبد الناصر حتى عندما كان جثمانه يُحمل
إلى مقره الأخير بعد موته ، فقد كان المنافقون يحملون رسم الحرم النبوى
الشريف ، ومن وراء قبة الحرم تظهر صورة الفقيـد ، وتحته الآية الكريمة
: وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين (٢) :

بل يمكن القول بأن النفاق لا يزال موجوداً حتى كتابة هذه السطور بعد
عدة سنوات من موت عبد الناصر ، فهؤلاء الذين تعودوا مدحه خوفاً أو
نفاقاً لا يستطيعون أن يعودوا للحق ، كأن الباطل أصبح طبيعة الحياة ،
فلا تزال صورته في كثير من الإدارات والمكاتب ، ولا يقوى أحد على
إزالتها ، واكتفى هؤلاء الناس بأن وضعوا صورة الرئيس محمد أنور
السادات بجوار صورة جمال عبد الناصر ، مع أن صورة الرئيس رمز
للبلاء ، ولا يمكن أن يكون هناك إلا رمز واحد ، وعلى هذا فليس بقاء
صورة جمال عبد الناصر إلا استمراراً لنفاق تعودته الناس .

ولعل الدراسة العلمية الصادقة التى ظهرت بعد عصر النفاق والمزائيم ،
توحى للمخلصين أن ينزلوا هذه الصور ، وأن يزيلوا هذه التماثيل ،
فلا يستحق هذا الإجلال إلا من عاش لوطنه وأدبى واجبه على أحسن وجه ،

(١) عودة الوعى ص ٦٠

(٢) رسائل من نفاقستان للدكتور إبراهيم عيـد ص ٤٤ و ١٢٥

هوامد سنة ١٩٦٢

(م ٣٨ - التاريخ ج : ١)

هناك أحداثاً كثيرة حدثت سنة ١٩٦٢ ، وكان لها خطر عظيم على الحياة في مصر ، وسنتناول هذه الأحداث بالدراسة فيما يلي :

الميثاق

ما الميثاق بوجه عام ؟

في المراجع الوثيقة يَرد النص التالي في تعريف الميثاق : « هو وثيقة يصدرها ملك إلى الشعب يمنحهم حقوقاً إدارية أو قضائية أو تشريعية ، ويستخدم هذا الاصطلاح على نحو عام للمنع التي كان يصدرها الملوك في العصور الوسطى بشأن بعض الحقوق ، وأشهر الموائيق التاريخية الميثاق الأعظم - أو ماجنا كارتا - الذي أصدره الملك يوحنا سنة ١٢١٥ ، وكان هذا معروفاً بابتزازه المتكرر للمال العام ومخالفته للتقاليد ، فتصدى له البارونات ، وأرغم على إصدار هذا الميثاق » (١) .

ويبدو أن جمال عبد الناصر أراد أن يعيد مصر إلى العصور الوسطى ، ففكر في إصدار ميثاق على نحو ما كان يفعل ملوك تلك العصور ، ومع هذا ، فليت عبد الناصر خضع للميثاق كما خضع له الملك السارق المستبد يوحنا في مطلع القرن الثالث عشر .

وهناك فرق كبير يلحظه الدارسون بين الميثاق الأعظم وميثاق جمال عبد الناصر ، فالميثاق الأعظم من عمل البارونات وأعوانهم ، وأرغم الملك يوحنا على إصداره ، ولكن ميثاق عبد الناصر من عمله هو ، وكان زوبعة في فتجان ، فلم يعرف التطبيق .

(١) انظر الموسوعة العربية ص ١٦٠٩ ، ١٧٩٦ .

وإذا رجعنا إلى زملاء عبد الناصر نجد البغدادي ينقل كلمات عبد الناصر عن الميثاق ، وهي : لابد أن ندفع الجماهير إلى التحمس والتسابق في الاشتراك فيما نحن مقدمون عليه ، حتى ننصي على هذه السلبية ، والحل هو أن نعلن أننا سنعمل من أجل قوى الشعب الوطنية وسنغزل الرجعيين ، وسأعمل منشوراً أو ميثاقاً أحدد فيه أهدافنا وبرنامحننا ، ويُدعى مؤتمر لمناقشة هذا المنشور وإصدار قرار فيه (١) .

وهكذا أعلن عبد الناصر في هذه العبارة الحقائق التالية :

- ١ - يريد دفع الجماهير لما هو مقدم عليه ، فالهدف الدفع وليس الوصول للاعتقاد والاندفاع .
- ٢ - اعتراف عبد الناصر بسلبية الشعب تجاه أغراضه .
- ٣ - يعلن أنه سيعمل من أجل الجماهير ، مجرد إعلان ولو بدون عمل .
- ٤ - تكرار الهجوم على من أسماهم الرجعيين ، وهو اتهام يرى به من يشاء .
- ٥ - أعلن أنه سيعمل هو هذا الميثاق .

وعمل عبد الناصر المنشور أو الميثاق وعرضه للمناقشة ، وقد كنت أحد الذين اشتركوا في المناقشة ، واقترحنا تعديلات معينة ، ولكن صدر الميثاق كما أعده عبد الناصر دون أى تغيير ولو في جملة واحدة ، وقيل إن ملاحظات الهيئات تراعى عند التطبيق ، ولكن كلام الزعيم لا يُغيّر ، وبالتأكيد لم تراعى هذه الملاحظات ، بل لم يراع الميثاق نفسه في قليل أو كثير ، ولعل هذا هو الذى جعل أنور السادات يتحدث عن الميثاق بصيغة

التهكم أو الاستخفاف حين يقول . . . وبعد الانفصال ، والنكسة التي سبها في مصر والتي حفزت الشعب على النقد العلى العنيف ، عدل عبد الناصر الاتحاد القوى بحمله الاتحاد الاشتراكى الذى يقوم على تحالف قوى الشعب العامل ، وكان ذلك عن طريق المؤتمر عندما تقدم له عبد الناصر بما سمي الميثاق (١) .

وقد قدم عبد الناصر الميثاق إلى المؤتمر يوم ٢١ مايو سنة ١٩٦٢ ، وصدق عليه في الرابع من الشهر التالى (٤/٦/١٩٦٢) .

وفي مقدمة هذا الميثاق يهاجم جمال عبد الناصر ثورة ١٩١٩ ويذكر أنها فشلت في الحصول على نتائج ملموسة لعدم إدراك قياداتها أهمية الإصلاح الاجتماعى في البلاد . . . ولذلك حصل المصريون على دستور يعتبر « مجرد مظهر » . ولت جمال عبد الناصر فهم ما لم يفهمه السابقون وحقق ما عجزوا عن تحقيقه ، ولكن هيات . . .

وقد شمل الميثاق بعد المقدمة التاريخية عشرة أبواب هى :

- ١ - ضرورة الثورة
- ٢ - جذور النضال المصرى
- ٣ - الديمقراطية السليمة
- ٤ - حتمية الحل الاشتراكى
- ٥ - الإنتاج والمجتمع .
- ٦ - مفهوم الوحدة العربية

٧ - توحيد الهدف في أثناء مرحلة الثورة السياسية إلى مرحلة الثورة الاجتماعية .

٨ - السياسة الخارجية التي تعتمد على الحرب ضد الاستعمار .

٩ - العمل من أجل السلام .

١٠ - التعاون الدولي من أجل الرخاء .

وما إن صدر الميثاق حتى ألزم الجميع بالحديث عنه ، وأصبح ضمن المقررات العلمية في المدارس والجامعات ، « وأعلن بعض فقهاء القانون الدستوري الذين كانوا يسرون في الركب أن الميثاق أسمى رتبة من الدساتير (١) » وراح بعض الناس يحفظون الكثير من نصوصه ويرتلونها عن ظهر قلب ، فكان ذلك مفخرة لهم نالوا من أجلها أسمى الوظائف ، وقد سمعت الأستاذ حافظ بدوى الذى شغل منصب الوزارة عدة مرات ، ورأس مجلس الشعب ، يلقي من الذاكرة عبارات كثيرة من نصوص الميثاق . ولعل ذلك كان من الأبحاد التى ساعدت على علو مكانته .

وفي معرض للكتب بدار المعارض بالجزيرة دخلت مرة ، فواجهني في مدخل المعرض كتاب ضخم مفتوح ، اتساع صفحاته يزيد عن المتر ارتفاعاً ٣ المتر عرضاً وأوراقه مصقولة جداً ، وقد كتب بخط يد بارعة في تحسين الخطوط ، وحسبت من بُعد أنه القرآن الكريم ، فلما اقتربت منه وجدته ذلك الشيء الذى سمي الميثاق :

وعمر الميثاق كان قصيراً ؛ إذ لم تكن له جذور عميقة ، وإنما كان خداعاً في خداع ، فسرعان ما نسي عندما جاء شيء آخر مماثل اسمه « بيان ٣٠ مارس » (سنة ١٩٦٨) ، وهذا وذاك كان هباءً وضياعاً .

(١) دكتور وحيد رافت : فصول من ثورة يوليو ص ٩٤

الاتحاد الاشتراكي

جاء في الموسوعة العربية عن الاتحاد الاشتراكي ما يلي : هو تنظيم سياسي أعلنه الرئيس جمال عبد الناصر في ٤ يوليو سنة ١٩٦٢ ، ويعتبر خلفاً لهيئة التحرير وللاتحاد القومي ، يقوم أساساً على الالتزام بمبادئ الميثاق ، والغرض منه أن يجعل المواطنين جميعاً وبخاصة العامل والفلاح كتلة قوية . . . ويطلب من عضو الاتحاد الاشتراكي أن يكون ثورياً مؤمناً بالميثاق ، ولهذا فأهم شروط العضوية كانت :

- ١ - أن يدرس العضو الميثاق ويشرحه باستمرار .
- ٢ - يحافظ العضو على وحدة الاتحاد الاشتراكي .
- ٣ - يطبق قانونه الأساسي .
- ٤ - يتصرف كقدوة فلا يطالب بمميزات أو استثناء .
- ٥ - يعمل بقوة حتى لا يترك فرصة لأعداء الاشتراكية وأعداء الثورة (١) .

ويعتبر الاتحاد الاشتراكي مرحلة من المراحل التي كانت تتظاهر بربط الثورة بالجماهير ، وكان واضحاً للشعب كله أن هذا التظاهر لون من الخداع ، فإن الثورة اتخذت الجيش والمحاسيب أعمدة لها ، وكان ارتباطها بالشعب ارتباطاً صورياً فقط ، كما ذكرنا من قبل .

معلومات عن الاتحاد الاشتراكي :

شغل الاتحاد الاشتراكي مئات المراكز في المناطق المختلفة بالعواصم

والأقاليم ، وكان المبنى الرئيسى أضخم هذه المراكز بطبيعة الحال ، فهذا المبنى الذى خصص للجنة المركزية أقامه محافظ القاهرة صلاح دسوقى على مساحة قدرها ١٠ آلاف متر على كورنيش النيل ، وبلغت تكاليف البناء حوالى ٢ مليون جنيه ، والمبنى مكون من ١٣ طابقاً ، بكل طابق ٣٦ حجرة ومبنى اللجنة المركزية به ٣٠٠ خط تليفونى مباشر بجانب مئات الخطوط المخصصة للاتصال الداخلى ، وبه غرفة عمليات ضخمة يتم عن طريقها الاتصال الفورى بجميع المحافظات ، وبه جهازان أحدهما للتكس والثانى للتليوير ، وبالمبنى تكييف مركزى للمكاتب الرئيسية والقاعات ، وعدد من أجهزة التكييف فى المكاتب الأخرى .

وفى اكتوبر سنة ١٩٦٥ جدد هذا البناء ، وقام الاتحاد الاشتراكى بإعادة تجهيزه باعتباره المركز الرئيسى للتنظيم السياسى الوحيد فى الدولة ، وقد تكلف ذلك مبالغ طائلة ، وعلى سبيل المثال ، بلغت تكاليف تأثيث الدور الثانى عشر ١/٤ مليون جنيه ، وبلغت مصاريف إصلاح دورات المياه ١٦ ألف جنيه ، وبلغت مصاريف طلاء الجدران بالزيت ٣٠ ألف جنيه .

وكانت مراكز الاتحاد الاشتراكى تتبارى فى الترف على حساب الدولة ، إذ لم يكن هناك ميزانية خاصة له ، وإنما كان يُنفق من خزانة الدولة بواسطة شبكات يصدرها جمال عبد الناصر من حين إلى آخر ، وتفرغ عدد كبير من الشخصيات للعمل فى الاتحاد الاشتراكى بالمركز العام ، وبالمراكز الأخرى المختلفة ، وكان هؤلاء امتيازات إدارية ومالية واسعة ، وحتى تعطى نموذجاً بسيطاً لتكاليف مراكز الاتحاد الاشتراكى نذكر أن المكالمات التليفونية بمقر الاتحاد الاشتراكى بسوهاج فى عام واحد كانت تكاليفها ١٥ ألف جنيه (١) . فما بالك بغير سوهاج من العواصم ؟ وما بالك بغير التليفونات من التكاليف والتنفقات ؟

(١) هذه المعلومات مستقاة من قصة الاتحاد الاشتراكى كما نشرتها صحيفة الأخبار فى ٧٧/٩/٢٢ وشهود ثورة يوليو ص ٣٣٢ وجريدة الأخبار فى ٧٦/١٠/٥ بالتوالى

الاتحاد الاشتراكي في الطريق للنهابة :

كان فشل الاتحاد الاشتراكي أكيداً ، لأنه امتداد لهيئة التحرير فالاتحاد القومى ، ولم تكن المسألة إلا مسألة تغيير الأسماء مع ثبات المقر والأعضاء والاتجاه ، وفى مقال نشرته لى الصحف ذكرت أن صاحبتنا (المعادى) بها مقر فى مكان بارز (عمارة الزينى) رأيت فى مطلع الثورة لافتة ضخمة تعلو مدخل المقر كُتِبَ عليها «هيئة التحرير» ثم أنزلت هذه اللافتة لترتفع مكانها لافتة أخرى رأيتها أيضاً وكان مكتوباً عليها « الاتحاد القومى » ثم نزلت تلك لتحل محلها لافتة تحمل « الاتحاد الاشتراكي العربى » فحزب مصر العربى الاشتراكي ، وذكرت أن هذا التغيير كان صورياً لأن الذين بداخل المقر هم لم يتغيروا فى شيء ، ومن هنا فإن نهاية الاتحاد الاشتراكي كانت أكيدة وسريعة .

ويذكر الأستاذ أحمد حمروش أن من أسباب ضعف الاتحاد الاشتراكي سيطرة العسكريين عليه ، وشيوع المبادئ الشيوعية فيه ، والإغراءات المالية التى جلبت إليه مجموعة من الرجال يسعون للمال ، ولا يهتمون بالقيم ، وفيما يلى كلماته :

بقى الاتحاد الاشتراكي هيكلاً بعيداً عن القدرة على تحريك الجماهير أو إقناعها بوجوده ، وكان العسكريون فيه بطبيعتهم التى لا تتفاعل مع الجماهير ، وكان كل حرصها يتجه إلى امتصاص النشاط العام أو إسكاته ، وكانت المجموعة العسكرية تقنع دائماً فى تناقض شديد بين الرغبة فى اكتساب ثقة الجماهير ، وبين إضعاف الجماهير وشل فاعليتهم ، إنها معضلة لم تجد حلاً : الحرص على سلطة الدكتاتورية مع الرغبة فى ليس ثياب الديمقراطية (١) .

وكان انتقال على صبرى من منصب رئيس الوزراء إلى منصب الأمين

العام للاتحاد الاشتراكي عاملاً يؤكد أهمية الجهاز السياسي ، ومحاولة لبعث الحياة فيه ، وقد بدأ على صبرى عمله في الاتحاد الاشتراكي بإقرار مبدأ التفرغ للعمل السياسي ، وتكوين المكاتب التنفيذية التي كان معظم أعضائها من طليعة الاشتراكيين ، كما قرر مرتب نائب وزير للأمن العام في كل محافظة ، وانتدب مجموعة من الموظفين للعمل في الاتحاد الاشتراكي بإضافات واسعة على مرتباتهم ، وقد عمل على صبرى على اختيار عناصر قيادية بالاتحاد الاشتراكي من الذين يتبعونه ويرتبطون بشخصه مما جعله صاحب نفوذ خاص عند هذه الطبقة ، ولكن نفوذه لم يصبح نفوذاً جماهيرياً لأن طبيعة شخصيته المنطوية كانت تتنافر مع ذلك^(١) .

وعن طريق الاتحاد الاشتراكي فتحت الأبواب للماركسيين ، وتولى عدد منهم أجهزة الإعلام ، فأصبح خالد محيي الدين صاحب السلطة في أخبار اليوم ، وسعد كامل وصلاح حافظ في آخر ساعة ، وأحمد فؤاد في روز اليوسف ، ولطفي الخولي في الطليعة^(٢) .

ملاحظات عن الاتحاد الاشتراكي :

وقبل أن نترك الاتحاد الاشتراكي ينبغي أن ندون بعض ملاحظات كانت دائماً تخطر ببالي كلما استدعت ظروف القاهرة أن أدخل هذا البناء ، أو أمر قريباً منه .

وأولى هذه الملاحظات هي أن رجال المباحث والمخابرات يطوفون حوله دون انقطاع ، ولا يسمحون لأحد بالوقوف بجواره أو بارتياده دون صك المرور ، وكنت دائماً أسأل نفسي : هل يمكن أن يكون هذا البناء يمثل قوى الشعب العامل مع أن قوى الشعب العامل لا تقرب منه ولا تدخله ؟

(١) مجمع جمال عبد الناصر ص ٢٥٦ - ٢٥٧

(٢) المرجع السابق ص ٢٨٨

ومن يخاف أولئك الذين يعيشون به حتى أحاطه بهذا السياج من
المباحث والحرس مع أنهم يدعون أنهم يمثلون هذا الشعب ؟

وملاحظة أخرى كانت تراودني كلما دخلت هذا البناء ، هي أن صمتاً
رهيباً يعيش فيه ، وأنه نظيف جداً ، وليست به ذبابة واحدة ، والسجاد
الفاخر الملقى بطرقه وممراته وحجراته لم تخطُ فوقه قدم ، وكنت كلما رأيت
ذلك انطلقت صرخة في جواني تقول : إن هذا البناء غريب في بلادنا ،
ولا يعكس حياة قوى الشعب العامل ، وكيف يقال إنه يمثل الشعب العامل
مع أنه بعيد في جميع سماته عن هذا الشعب وعن حياته ؟ !

ولوقارنا هذا بأبنية الأحزاب كما رأيناها لكان الفرق شاسعاً ؛ فراكز
الأحزاب كانت مفتوحة للجميع ، وكانت متتدي وملتقى للشباب والشيوخ
والمعلمين والعمال والفلاحين .

وفي مطلع حياتي كنت أرتاد هذه المراكز فأجدها تعج بالزائرين
والوافدين حتى كانت كأنها معاهد للسياسة والوطنية .

في اعتقادي أن الاتحاد الاشتراكي عاش عمره في عزلة ، ومات دون أن
يجد شخصاً واحداً يؤبّنه إلا أولئك الذين استغلوه أو استغلوا الشعب
عن طريقه .

حرب اليمن

شمل الجزء السابع من هذه الموسوعة حديثاً طويلاً عن اليمن ممتداً من قبل الإسلام حتى العهد الحاضر ، وشاملاً الدول التي قامت في أقاليم اليمن الرئيسية وهي زبيد وصنعاء وصعدة وعدن ، ثم الدول التي امتد نفوذها فشمل أكثر أقاليم اليمن وهي دولة الأيوبيين وبنو رسول وبنو طاهر والمماليك المصريين ، كما تحدثنا عن محاولات العثمانيين لضم اليمن ، تلك المحاولات التي باءت بالفشل وكانت دائماً قصيرة العمر .

وبعد العثمانيين استقل الأئمة الزيديون باليمن الشمالية ، وبرزت القبلية فالاستعمار باليمن الجنوبية ، وقد ظلت الإمامة الزيدية باليمن حتى ثورة اليمن التي حدثت في ١٩٦٢/٩/٢٦ وكان اليمن في عصر الإمامة يعاني كثيراً من التخلف والبدائية (١) .

ونعود بعد ذلك لشيء من التفصيل مهيئاً للمعركة التي خاضتها مصر في اليمن .

عقب قيام الوحدة بين مصر وسوريا في فبراير سنة ١٩٥٨ كانت الدول العربية تعيش في قلق متقددة أن هذه الوحدة سوف تبتلعها طوعاً أو كرهاً ، وقد رأى الإمام أحمد إمام اليمن آنذاك بدهائه أن يتغلب على هذا القلق ، فعقد ميثاق اتحاد مع الجمهورية العربية المتحدة ، وأصبح هناك اتحاد بين الجمهورية وبين اليمن ، وتبعاً لذلك ظهر كائن اسمه « حكومة الاتحاد » ولكنه كان كائناً هامداً لا حقيقة له ، ولم يكن إلا خدعة احتمى بها الإمام حتى لا يكون هدفاً لعبد الناصر .

(١) انظر الجزء السابع من موسوعة التاريخ الاسلامي للمؤلف ص ٣٧١ - ٥٣٠

وعندما أصدر عبد الناصر ما يسمى القوانين الاشتراكية في يوليو سنة ١٩٦٠ تغلست عاطفة الإمام على عقله ، فنظم قصيدة شعرية يهاجم فيها مصر والاشتراكية .

ولما حدث الانفصال بين مصر وسوريا عقب ذلك ، أدرك عبد الناصر الخديعة التي أوقعه فيها الإمام الذكي ، فأعلن حل الاتحاد في خطاب ببور سعيد في ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٦١ فكان هذا الإعلان تحصيل حاصل كما يقولون ، ولكن لإعلان حل الاتحاد كان معناه أن مصر تخلت عن الإمام ، وكان في اليمين مجموعة من الأحرار الذين يتوقون للثورة ضد الإمام ، ولكنهم كانوا يخشون مواجهة مصر المتحالفة مع راعي اليمين ، فلما انفصمت عرى التحالف بين مصر وبين اليمين هياً ذلك لجماعة الأحرار باليمين أن يخططوا لتنفيذ ثورتهم .

والعجيب أن عبد الناصر الذي حمى الإمام وتعاون معه وأصدر معه ميثاق الاتحاد اتجه بعد شهور قلائل لمحاربة الإمام ، وقد اتخذت هذه الحرب وسائل مختلفة بدأت بإذاعات يقوم بها أعداء الإمام وبخاصة الدكتور عبدالرحمن البضافي عبر إذاعة «صوت العرب» ثم بمقالات تنشر في الصحف والمجلات المصرية ، وكان من نتائج ذلك أن تحرك الطلبة اليمنيين وتحرك العسكريون والمدنيون ضد الإمام ، ويذكر الأستاذ أحمد حمروش^(١) أن الأسلحة المصرية الصغيرة تدفقت سراً إلى اليمن لتساعد الحركات الثورية ضد الإمام ، وهكذا أصبح حليف الأمس عدو اليوم وهو سلوك تكرر من عبد الناصر في عدة أحوال .

ولم يمتد العمر بالإمام ليشهد الثورة التي كانت على وشك أن تندلع ضده فمات في ١٩ سبتمبر سنة ١٩٦٢ وأصبح ابنه وولي عهده « البدر » إماماً بعد أبيه ، وكان هذا التحول من عوامل الإسراع بالثورة ، فقبل أن يمهد الإمام البدر لنفسه في الحكم اشتعلت الثورة بعد أسبوع من قيام إمامته (أى في ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٦٢) .

(١) عبد الناصر والعرب ص ٢٠٨

الثورة :

بدأت الثورة في منتصف ليلة ٢٥ - ٢٦ سبتمبر ، وانحى الهجوم لقصر
البر ، وقد دافع البدر عن قصره دفاعاً مجيداً ، ولكن قوة الثورة كانت أعنى
وأشد ، فهرب البدر ونجحت الثورة ، وصدر بيان الثورة الأول ونصه :

باسم الله ، وباسم الشعب ، تعلن قيادة الجيش سقوط الملكية
في اليمن وقيام الجمهورية العربية اليمنية ابتداء من الساعة الخامسة
صباح يوم ٢٦ سبتمبر (١٩٦٢) .

وعقب نجاح الثورة عين عبد الله السلال قائداً لها ، وتوالت الأحداث
على النحو الآتي :

— في صباح ٢٧ سبتمبر أصدرت مصر بياناً تؤيد الثورة وتحذر من تدخل
أية قوات أجنبية .

— في ٢٨ سبتمبر وصل البيضاوي من مصر إلى اليمن وأعلن أن مصر
لن تساعد اليمن إلا إذا عين نائباً لرئيس مجلس الثورة ، ووافق ثوار اليمن على
ذاك طائعين أو كارهين .

— في ٥ أكتوبر وصلت طلائع القوى المصرية إلى اليمن ، وكانت مكونة
من طائرات حربية ومن قوات من الصاعقة .

— بعد ذلك بأيام وصل أنور السادات إلى اليمن وعقد باسم مصر معاهدة
دفاع مشترك مع اليمن .

وأصبح واضحاً أن ثورة اليمن قامت بعون مصر ، وستسمر بتأييد مصر ،
وأن مصر سيكون لها وجود كبير باليمن ، ومن الواضح أن وجود عبدالناصر
وأفكاره باليمن كان تهديداً للسعودية ، ومن هنا واجهت ثورة اليمن
عداء السعودية ، وواجهت كذلك عداء بريطانيا في الجنوب العربي ، وبدأت

دوامة جديدة دارت فيها مصر ، وفقدت مصر في هذه الدوامة توازنها ، ومالها ، ورجالها ، لتقاوم السعودية ، وبريطانيا ، والأردن ، وأنصار الإمام ، بل وأنصار الثورة الذين استغلوا مصر واستغلوها .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن العراق تدخلت بدهاء لتزيد خسارة مصر ، وأُخذ عبد الناصر بحيلة العراق ، فاندفع في مجال هذه الخسائر ، وقصة ذلك أن أحمد المروني وزير الإعلام اليمني زار العراق وأعلن عقب عودته أن عبد الكريم قاسم مستعد لإرسال ١٠ و ١٠٠٠ جندي عراقي بالذخيرة والسلاح للدفاع عن الجمهورية ، وسافر وفد يمني إلى مصر برئاسة البيضاني يحمل هذه الأنباء ، وتورط عبد الناصر وانفعل معلنا أن مصر ستحمل المسؤولية ، وبدأت الجيوش المصرية في التدفق على اليمن .

ولم يعد البيضاني إلى اليمن فقد وردت برقية من السلال إلى عبد الناصر تطلب إبقاء البيضاني بمصر ك مطلب قومي يطالب به اليمنيون .

الصراع والدماء باليمن أكثر من خمس سنوات :

لدراسة هذا الموضوع نبدأ بالأسئلة التالية :

- ١ — لماذا أرسلت مصر قوات عسكرية إلى اليمن ؟
- ٢ — وهل كانت كل الآراء تؤيد الذهاب إلى اليمن ؟
- ٣ — وما تعداد القوات التي أرسلتها مصر إلى اليمن ؟
- ٤ — وما الأخطاء التي ارتكبها العسكريون باليمن ؟
- ٥ — وما حجم الخسائر التي وقعت على مصر بسبب هذه الحرب ؟

والإجابة عن هذه الأسئلة لن تقف عند أحداث سنة ١٩٦٢ بل ستشمل أحداثاً وقعت طيلة سني الحرب في اليمن التي امتدت من مطلع ثورة اليمن سنة ١٩٦٢ إلى ما بعد الهزيمة التي أوقعها بنا الصهاينة سنة ١٩٦٧ ، ونحن

في هذا نحقق المبدأ الذي أبررناه من قبل من أن الدراسة في هذا الكتاب ستجمع بين نظام الحوليات ونظام الدراسة الموضوعية .
وسنعمد في الإجابة على الأسئلة السابقة على أدق الباحثين وأقربهم من الأحداث ومراكز التفكير بمصر .

١ - لماذا أرسل مصر قوات عسكرية لليمن ؟ :

في الإجابة عن هذا السؤال نعتمد أساساً على وحي عبد الناصر وصفه محمد حسين هيكل الذي يرينا أن إرسال القوات العسكرية لليمن لم يكن إلا عناداً شخصياً ضد الملك سعود ، وأن التسبب كان هائلاً مما جعل الخسارة المالية والبشرية فوق الاحتمال ، وفيما يلي كلماته :

لم يُرد عبد الناصر أن يعطى للملك سعود فرصة لضرب ثورة اليمن لأن ذلك سيكون انتصاراً آخر بعد الانتصار الذي حققه الملك في عملية الانفصال ، ولم يكن عبد الناصر مستعداً لإعطاء الملك سعود مثل هذه الفرصة ، وقرّر أن يساعد ثورة اليمن ، وفي البداية أرسل مستشارين وكتيبة ، ثم أرسل فرقتين لمساندة الكتيبة ، فأصبح لمصر في اليمن ٥٠٠٠ عسكري ، وأما عن السليبات في اليمن فتبرز في أن مصر أبعدت الثوار وحلّت محلهم ، ومن هنا طالت إقامة المصريين باليمن ، ثم كانت سلبات كثيرة أخرى في استعمال الأسلحة وفي مصارعة اليمنيين (١) .

ويشرح الفريق صلاح الدين الحديدي سبب دخول مصر في اليمن بقوله :

عقب الانفصال قدمت سوريا شكوى للجامعة العربية ضد مصر ، وعقد مجلس الجامعة جلسة في « شتورة » ببلنات للنظر في هذه الشكوى ، وكانت جلسة ساخنة ، وصاخبة ، حافلة بالسباب والانتهاكات ، وزاد الطين بلة ، أنه في أعقاب هذه الاجتماعات هرب المقدم زغلول عبد الرحمن ، وهو أصلاً

(١) بصراحة عن عبد الناصر ص ١٥٥ - ١٥٦

من الضباط الأحرار هرب، من سفارة مصر بلبنان حيث كان يعمل ملحقةً عسكرياً ولجأ إلى سوريا ، ووقف موقفاً عدائياً ضد الحاكمين في مصر ، وضد أعمالهم ، وعقد مؤتمرات صحفية في دمشق هاجم فيها الأوضاع في مصر والسياسة المصرية تجاه الدول العربية ولهذا الأسباب اتجهت مصر إلى اليمن ليسترد عبد الناصر مكانته التي هزها الانفصال ، وهزها ما يقوله زغلول عبد الرحمن عنه ، وكان يقصد بذلك أن يثبت الأرض التي تمهدت تحت رجله (١) .

ويتحدث حسن إبراهيم عن ظروف دخول مصر في اليمن فيذكر أن عبد الناصر وقع في خديعة ، فقد بلغه أن البدر قد قُتل ، وأن القبائل كلها تؤيد الثورة ، وأن السلال يسيطر تماماً على الموقف ، وليس المطلوب من مصر إلا تأييداً عسكرياً رمزياً ، وخدع عبد الناصر بهذه المعلومات وكانت كلها كاذبة ، ولكن عبد الناصر لم يتراجع ، فقد بدأ يرسل الجيوش إلى اليمن ، واتجهت السعودية لمساعدة البدر ، وأحس عبد الناصر أن زعامته ستتهز لو تراجع ، وأن ذلك يمس كرامته الشخصية ، فأصدر أوامره بنقل جيشه بأكمله إلى اليمن ، وسقط آلاف الضحايا وخسرت مصر مئات الملايين ، ورفض عبد الناصر وساطة كيندي بالانسحاب التام من اليمن على أن تتوقف السعودية عن معاونة البدر ، فأضاع كل الفرص للحفاظ على مال مصر وشباب مصر (٢) .

٢ - آراء ضد دخول اليمن :

كانت هناك آراء جريئة صرخت بخطورة دخول مصر في اليمن ، ومن هذه الآراء رأى أمين هويدى رئيس المخابرات العامة ، وقد أعلن أنه

(١) شاهد على حرب ١٩٦٧ ص ٣٩ - ٤٠

(٢) الصامتون يتكلمون ص ٥٩ - ٦١

رى ألا تتدخل مصر فى مشاكل اليمن سواء بقت الإمام أو خلع أو قتل ،
فليس من مصلحة مصر أن تقوم بهذا التدخل (١) .

وكان كمال الدين حسين ضد التدخل فى اليمن ، وفى اجتماع مجلس
الوزراء المصرى آنذاك كان جمال عبد الناصر يتحدث بنشوة عن التدخل
العسكرى باليمن ، وكان كمال الدين حسين ينظر فى الأوراق التى أمامه دون
أن يُعير انتباهها لما يقوله عبد الناصر ، فأنجحه له عبد الناصر ، وقال له : تكلم
باكمال ، سمعتُ أنك تعارض دخولنا فى اليمن . فأجاب كمال الدين حسين :
أيوه يا ريس أنا رأي ولم يتركه عبد الناصر ليكمل حديثه ،
فقاطعه قائلاً : ومتى كان لك رأى ؟

فقال كمال الدين حسين بصبر : « أنا شايف إن البلد بتغرق ، وأنا محسوب
ممن يقودون هذا البلد » .

فصرخ عبد الناصر قائلاً : اسمع يا كمال روح شوف إنت عملت إيه فى
التعليم وبعدين تعال اعترض . إنت يظهر تعبان . . . أنا رأي إنك تستريح شوية .

فقال كمال الدين حسين أنا فعلاً تعبان ، فقد أعددتنا الجيش لنحارب
اليهود وليس اليمن ، وصرفنا دم قلبنا فى سوريا وسرعان ما جاء الانفصال ،
ولا يجوز أن نهدر دم أبنائنا على جبال اليمن .

فقال عبد الناصر أنت أصبحت تعرف فى السياسة ، وأصبحت زعيماً
. واتجه إلى عامر يقول له : الرجل ده تعب ، ومن حقه يستريح شوية ،
. وأنهى عبد الناصر الاجتماع ، وصدرت الأوامر لكمال الدين حسين
للسفر إلى الاسكندرية وحددت إقامته هناك ، وانتهت كل معارضة
للزعيم (٢) .

(١) كلماته فى شهود ثورة يوليو ص ٨٩

(٢) انظر الحوار كله فى كتاب « الزهور تدفن فى اليمن » للاستاذ وجيه أبو ذكرى

ص ٧١ وما بعدها

ومع تدخل مصر السفير في اليمن ، أصبحت هناك مواجهة صريحة مع السعودية ففُطعت العلاقات الدبلوماسية معها في ٦ نوفمبر سنة ١٩٦٢ .

٣ - حجم القوات المصرية باليمن :

يقول الرئيس أنور السادات أصبحت حرب اليمن تجارة ومنفعة ، وتورطنا في المعونة العسكرية من لواء إلى لواءين إلى أن أصبح لنا هناك ٧٠.٠٠٠ جندي لم يتم سحبهم إلا بعد هزيمة سنة ١٩٦٧ (١) :

ويقول جمال عبد الناصر : يوم ٥ أكتوبر كان لنا في اليمن مائة صف ضابط وعسكري ، ويوم ٩ أكتوبر أصبحوا ٥٠٠ جندي ، ويوم ١٦ أكتوبر أصبحوا ٢٠٠٠ وبعد ذلك وصل العدد إلى ٧٠.٠٠٠ جندي .

وبين الشتاء والتاريخ يقرر عبد الناصر في ديسمبر سنة ١٩٦٢ أن القوات المصرية خسرت حتى ذلك الوقت ٢١ ضابطاً و ١١٥ جندياً كل منهم جزمته أشرف من تاج الملك سعود والملك حسين (٢) .

وتوالت بعد ذلك الخسائر وبخاصة أنه لم تكن هناك خرائط طبوغرافية لطبيعة الأرض ، ولم تكن هناك مطارات ولا طرق ، ولا معلومات يمكن الاسترشاد بها مما جعل اليمن أرضاً غريبة تماماً على المصريين ، وكل هذا يدل على أن دخول اليمن ارتبط بعوامل لم تكن محسوبة ولا مدروسة ، وكان من نتائج ذلك مثلاً أن وحدة من قوات المظلات إسقطت في صرواح ، ثم اختفت تماماً ولم يعثر لها على أثر (٣) .

وتدخل الرئيس الأمريكي كيندي كما أشرنا من قبل فأرسل في.

(١) البحث عن الذات ص ٢١١

(٢) عبد الناصر والعرب للاستاذ أحمد حمروش ص ٢٢٩ ، ٢٢٤

(٣) المرجع السابق ص ٢٢٨ ، ٢٢٩

١٧/١٠/١٩٦٢ رسائل إلى عبد الناصر والملك حسين والأمير فيصل ،
واقترح ما يلي :

١ - الإجلاء المرحلى السريع للقوات الأجنبية عن اليمن .

٢ - إنهاء العون الخارجى للملكيين .

ولكن عبد الناصر أساء النية بالرئيس كيندى فرفض أن تخرج
القوات المصرية كلها من اليمن ، وضاعت هذه الفرصة المبكرة التي كان
يمكن أن تحمى مصر وتحمى دماء المصريين وأموالهم ، ومما يدل على حسن
نية كيندى أن الولايات المتحدة اعترفت بالثورة اليمنية في ١٩/١٢/١٩٦٢
وكانت ألمانيا الغربية قد اعترفت بها من قبل في ٢٢/١٠/١٩٦٢ ولا بد أن
يكون للولايات المتحدة دور في اعتراف ألمانيا المبكر ، ولكن كل ذلك
لم يوقف رغبة جمال عبد الناصر في الاستمرار في مسيرة الدماء والدمار .

ويقول وجيه أبو ذكرى إن وساطة كيندى فشلت بسبب أطراف
ثلاثة : الطرف الأول الجمهوريون في اليمن ، الطرف الثاني أتباع الإمام
البدر ، الطرف الثالث القيادات المصرية باليمن ، وذلك لأن حرب اليمن
كانت كنزاً للجميع ، وكانت هذه الأطراف الثلاثة تبتلع بطرق مختلفة مال
مصر باسم هذه الحرب ، ويضرب وجيه أبو ذكرى مثلاً لضابط مصرى في
رتبة لواء سُمع بمحاولة الاتفاق ، فضرب كفاً على كف وقال : وكيف
أكمل بناء الفيلا ؟ لقد كانت الحرب في اليمن وسيلة لسيل من الذهب
والفضة يفيضان من السعودية ومن مصر (١) .

ويقال إن اغتيال كيندى ليلة ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٦٣ كان مؤامرة
صهيونية ترمى إلى القضاء على محاولة إيقاف القتال ، لينضب معين الثراء

(١) الزهور تنفخ في اليمن ص ٥٧

المصري في اليمن ، ولتسيل دماء الآلاف من الضباط والجنود المصريين هناك ، ولتعرف الحياة طريقها إلى صفوف بعض الضباط المصريين :

٤ - التسبب في اليمن :

وعن الأخطاء التي ارتكبها العسكريون باليمن يقول محمد حسنين هيكل :
إن بعض القبادات العسكرية تسببت في اليمن ، واتخذت من الحرب هناك وسيلة للاستفادة (١) .

ويقول أنور السادات : إن الجيش في حرب اليمن لم يتجه للانتفاع بهذه الحرب كوسيلة للتدريب وتجهيز قواتنا المسلحة ، بل أصبحت هذه الحرب عملية انتفاع واستغلال (٢) .

ويذكر أحمد حمروش أن عبد الناصر لا حظ أن عملية اليمن أصبحت عملية استنزاف ، فقد زادت المرتبات والعلاوات والبدلات والمعاشات ، وقلت العمليات الحربية ، وأصبح الضباط يرغبون في الذهاب إلى اليمن للفوائد المادية التي يحصلون عليها ، واتجه الضباط إلى حياة الترف هناك لدرجة أن طعامهم كان يُستورد لهم من محلات جروبي بالقاهرة ، في حين كان الجنود يعانون ظروفًا شديدة القسوة (٣) .

ويشرح الفريق صلاح الدين الحديدي الامتيازات التي منحت للعاملين في اليمن بقوله (٤) :

أصبح الذهاب إلى اليمن يخضع للوساطة لدى القيادات والرياسات ،

(١) بصراحة عن عبد الناصر ص ١٠٢

(٢) البحث عن الذات ص ٢٠٩

(٣) عبد الناصر والعرب ص ٢٤١ ، ٢٤٢

(٤) شاهد على حرب ١٩٦٧ ص ٤٧ - ٤٨

واستجابت الرياضات للوساطات ، فقبلت معظم الرغبات حتى أصبح حجم القوات المشتركة في القتال في وقت من الأوقات أكثر من حجم القوات الموجودة داخل الجمهورية ، ومُنحت هؤلاء امتيازات ضخمة كانت مغرية إلى حد بعيد لجميع الرتب ، فنشطت أسواق صنعاء وتعز وعدن في بيع البضائع الأمريكية والأوربية الصنع للعاملين بالجيش المصري ؛ وكانت هذه البضائع ترسل إلى مصر معفاة من الرسوم الجمركية ، بل معفاة من أجر شحنها ، إذ قد تكفلت وسائل النقل العسكرية من طائرات وسفن بنقل هذه الأطنان من البضائع ، وإلى جانب هذه الامتيازات كانت هناك مزايا أخرى مغرية ، كأولوية استئجار الشقق، وتركيب التليفونات ، وشراء سيارات نصر ، ونقل الأقارب الموظفين إلى الأماكن التي يرغبون فيها ، وما إلى ذلك من الامتيازات التي تُشعر الجندي في اليمن بتفوقه على باقي زملائه من المواطنين .

تآمر يمني ضد مصر :

كان وجود السلال في قمة السلطة باليمن يسيء إلى بعض اليمنيين الذين يربطون الولاء بالوضع الاجتماعي، وكان هؤلاء يتجهون إلى عداء مصر باعتبارها تحمي السلال ، ويحاولون التشهير بها على الرغم من ولائهم للجمهورية وثورتهم ضد الإمامة ، وكان بعض حكام اليمن من أنصار الثورة يتآمرون ضد مصر مع السعوديين ، حتى وصل بهم الحال إلى الاستعداد للسفر إلى مقر الأمم المتحدة ليطالبوا بخروج القوات المصرية من اليمن ، أما العداء الذي واجهته مصر من أنصار الإمامة ، فكان عداء قاسياً مدبراً ، وأما اليمنيون الذين لم يكونوا في هذا الجانب أو ذاك ، فقد اتجهوا إلى أخذ أكياس الذهب من ممثلي مصر لمساعدة القوات المصرية ، ولكنهم في نفس الوقت كانوا يأخذون ذهب البدر والسعودية لنفس الغرض (١) .

(١) أحمد حروش : عبد الناصر والعرب ص ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٦

حرب اليمن فاتحة فساد كبير :

قلنا آنفاً إن مصر كانت تقدم أكياس الذهب لبعض القبائل لنال عونها ، ولكن كثيرين من الضباط المصريين الذين كانوا يقدمون هذه الأكياس طمعوا في بعضها فاحتجزوها لأنفسهم، وبدأ بذلك ثراء عريض غير مشروع ، فتح نطاقاً من الانحراف الأدبي والاقتصادى بمصر لم يكن من السهل القضاء عليه .

ويقول الأستاذ توفيق الحكيم عن أكياس الذهب : إن غطاء الذهب الذى تملكه ضاع بأكمله فى هذه الحرب الضائعة، وأن كثيراً من القبائل كانت تأخذ ذهبنا بالنهار وترصد لضباطنا وجنودنا بالليل ، فتصطادهم وتقطع رؤوسهم ، أو تسلمهم للطرف الآخر . وانهى الأمر باليمن إلى أن صارت مخالفة لمصر فى كل انجاء (١) .

٥ - خسائر مصر فى اليمن :

أشرنا من قبل إلى بعض خسائر مصر فى حرب اليمن طيلة أكثر من خمس سنوات هناك ، وفيما يلى دراسات وإحصائيات عن هذه الخسائر :
يقول الكاتبان الروسيان بيلياف وبريماكوف : تحولت الحرب فى اليمن إلى ملحمة عسيرة لا نهاية لها، وكلفت هذه الحرب مصر ثمناً باهظاً دمر الاقتصاد المصرى ، فقد كانت نفقات الجنود والضباط المصريين على حساب الخزانة المصرية، وكذلك مرتباتهم وبدلاتهم والديات والمعاشات ، وقد تكلف الجسر الجوى بين القاهرة وصنعاء عشرات الملايين من الجنيهات (٢).

ويورد الأستاذ أحمد حمروش معلومات عن هذه الخسائر ، فيذكر أن ميزانية القبائل وصلت وحدها إلى ٦٠ مليون جنيه استرليني فى العام ،

(١) توفيق الحكيم : عودة الومى ص ٥٨

(٢) مصر فى عهد عبد الناصر ص ٣٠٤

وبلغت التكاليف اليومية أرقاماً باهظة ، وسقط في اليمن حوالى ١٠,٠٠٠ جندى مصرى ، وكانت ميزانية بدل السفر تحمل الميزانية المصرية عبئاً كبيراً... (١) ومن أجل هذا توقف كل إصلاح للمرافق بمصر وبدأت الحياة الاجتماعية يزيد انتكاسها .

وقد أدرك زكريا محيى الدين هذه الخسارة ، فذكر سنة ١٩٦٥ أن المحافظة على حكومة صنعاء وعلى جمهورية اليمن سوف يجرى على حساب حكومة القاهرة وشعب مصر بسبب الاستنزاف المستمر لموارد مصر الذى يقود فى النهاية لتحقيق أهداف العدو فى إضعاف مصر (٢) .

وقد وزعت القوات المصرية ١٠٠ و ١٠٠٠ جهاز راديو ترانزستور على رجال القبائل باليمن ، وقام الكثيرون منهم ببيع هذا الجهاز بالتالى للمصريين العاملين هناك (٣) .

ومن أخطر الخسائر التى نتجت عن حرب اليمن أن هذه الحرب كانت من أسباب هزيمة ١٩٦٧ ، فقد أصبحت مصر بسبب جهل قادتها تحارب فى ميدانين : ميدان سيناء وميدان اليمن ، وكُتِّحَ ميدانين فى عُرْفِ العسكريين بدءاً للهزيمة .

وهناك نقطة أخرى تتصل كذلك بهزيمة حرب ١٩٦٧ يحكيها المشير أحمد اسماعيل بقوله : كنت قائداً لجهة سيناء فى أثناء حرب اليمن ، وكانت فرقتي (الثامنة مشاة) هى المسئولة عن تأمين سيناء ، ولكن سمعت منها لليمن بعض القوات التى كانت مدربة تدريباً عالياً ، فضعفت بذلك الجهة التى كنت أتولى قيادتها فى سيناء .

(١) عبد الناصر والعرب ص ٢٢٩ ، ٢٦١

(٢) أحمد حروش : المربع السابق ص ١ ٢٦٢

(٣) أحمد حروش : عبد الناصر والعرب ص ٢٢٩

هل كانت هناك نتائج طيبة لحرب اليمن ؟

يرى أنور السادات ذلك فيذكر أن عدن نالت استقلالها كنتيجة لمعركتنا باليمن ، وأن التدخل في اليمن كان من العوامل التي كبحت جماح الملك سعود وهزت مكانته . . . (١)

هل نوافق أنور السادات في ذلك ؟ الإجابة : لا ، فإن مصر ضعفت وأنهكت قواها ، وليس هناك شيء يسبق مصر عند المصريين ، فصر يجب أن تكون أولاً كما هو الحال عند جميع الدول ، فكل دولة تهتم بساحتها قبل كل شيء ، ويمكن أن تساعد في نطاق الفائض بعد حاجتها ، ولكن مصر أعطت طعامها وجاعت ، عمرت في اليمن ولكن الخراب شملها ، وفي نفس الصفحة التي يعدد أنور السادات فيها ما ذكره من النتائج الطيبة يقرر أن هذه الحرب استنفدت جزءاً كبيراً من رصيدنا من العملات الصعبة ، وأنها عاقت فرقتين من أكفأ الفرق العسكرية عندنا عن الاشتراك في حرب ١٩٦٧ ، ونضيف أن « عدن » قد استقلت وخرج منها الانجليز ، ولكن الشيوعيين الحمر بها ، سرعان ما فتحوا أبواب عدن لاروس ، فاتخذ هؤلاء من عدن مركزاً لضرب العرب والمسلمين والأفارقة أكثر خطراً مما كان في عهد البريطانيين .

خـداع :

صوّر قادتنا لنا هذه الحرب على أنها حققت أعظم الأجداد لمصر والمصريين ، ولا زلت أذكر « فيلماً » مثل فيه أمين الهندي ومها صبرى ، وكان يروى بطولات عن جندي عاد من اليمن ليتزوج على أن يسرع بالعودة لليمن ، وغنت فيه مها صبرى أشهر أغانيها ، ربما لأن حرب اليمن كانت من وسائل زوجها على شفيق الضابط بمكتب المشير عامر لينمّي ثراءه وماله على حساب الإنسان المصري الذي نمرته هذه الحرب بأقصى الأضرار .

ومن سور الحداع كذلك أن دعت وسائل الإعلام بجمهور المصريين أن يرسلوا رسائل للضباط والجنود المصريين في اليمن يباركون خطوهم ، ويتمزون تأييدهم لهم ، وكانت هذه الرسائل ترسل بدون طوابع يريد تشجيعاً للناس .

الجزائر واليمن في وقت واحد :

في أواخر سنة ١٩٦٢ ومطلع سنة ١٩٦٣ كانت الأسلحة والمعدات والرجال تندفق من مصر إلى اليمن ، وتصادف في نفس الوقت وقوع خلاف بين المغرب والجزائر حول الحدود في الصحراء ، وأرسل أحمد بن بيلا يطلب المساعدة من جمال عبد الناصر ، فبادر هذا بإرسال كتية من المدرعات الثقيلة وصلت إليه في الوقت المناسب ، فكانت القوات المصرية آنذاك منتشرة بين الجزائر واليمن وسيناء .

وفي نفس الوقت احتاجت الجزائر إلى سكر ، ولم يكن السكر متوافراً في مصر ، وعلى الرغم من ذلك أمر عبد الناصر بإرسال سكر فوراً إلى الجزائر فأرسلنا حوالي ٢٠٠ و ٢٠٠ طن إلى جانب تقديم الإنتاج المصري من أحذية وبطاطين وملابس (١) .

ألست معي أيها العارء في أنه من العجب أن وجد المصريون الحبز الأسود آنذاك ، مع البذخ الهائل الذي قدمه الزعيم إلى جميع الأرجاء ؟

شاهد عيان :

في ختام حديثنا عن اليمن نلتقى بكتاب مهم عنوانه الزهور تدفن في اليمن « ألفه الأستاذ وجيه أبو ذكرى ، وقد اقتبسنا من هذا الكتاب آنفاً ؛ ومؤلفه من الذين أوفدوا إلى اليمن على أول طائرة قامت من مصر لنجدة

(١) كلمات أمين مريدي في شهوة ثورة يوليو ص ٨٩

الثورة اليمنية ، وقد كتب الأستاذ وجيه أبو ذكرى كتابه في صورة رسائل يبعث بها من اليمن إلى زوجته بالقاهرة ، وإجابات من زوجته بالقاهرة إليه في اليمن .

ونقتبس من هذا الكتاب لقطات قصيرة تطلعنا على بعض الحقائق من جانب ، وترينا من جانب آخر مقارنة عن الأحوال في مصر واليمن .

— وأول ما نقتبسه من هذا الكتاب سطور إهدائه ، ونصها : إلى عشرين ألف زهرة مصرية دفنت في سهول وجبال ورمال اليمن ، إلى عشرين ألف أرملة مصرية عشن وما زلن يعشن بقسوة في سبيل اليمن ، إلى الملايين من الشعب الصبور الذي يأكل الخبز الأسود ، ويشرب ماء ممزوجاً بالهارسيا ، ويعيش في نهاية القرن العشرين على لمبات الغاز ، إلى هؤلاء أهلى هذه الرسائل .

— كان رأى كمال الدين حسين وبعض أعضاء مجلس الثورة عدم التدخل عسكرياً في اليمن ، لأن جراح الانفصال كانت مازالت تدمى في جسد الشعب المصري ، ولأن التدخل في اليمن لا تحمد عقباه ، وسوف يُفسد كل خطط التنمية في الداخل ، ولكن الاتحاد السوفيتي كان يرى ضرورة التدخل ، فرجع رأيه (١) .

— أقلطنا إلى اليمن طائرة سوفيتية غريبة الشكل عبارة عن كراسر حديدية بجانب جدار الطائرة ، وفي الوسط مستودع البنزين ، ومن السقف تدلت أنابيب الأكسجين ، شكل خشن جداً ، وعند ما ركبنا الطائرة ، وقف رجل رومى يعلمنا طريقة استخدام أنابيب الأكسجين ، ثم طلب وضع كمامات الأكسجين على الأنوف طوال الرحلة ، وهكذا أصبحنا كالسجناء طيلة خمس ساعات ؛ لا حركة ، ولا حديث لأننا نضع هذه الكمامات فوق وجوهنا

(١) الزدور تدفن في اليمن ص ١٠ .

أما كابينة "تيادة" ، فكانت مجهزة بشكل يختلف تماماً عن بقية الطائفة ،
ونحن بدأنا أول رحلة سوداء إلى اليمن^(١) .

— وبعد ذلك أقيم جسر جوى وجسر بحرى بين مصر واليمن ، وكان
هذا الجسر يحمل الجنود ، والبزوين ، والمأكولات ، والمعدات العسكرية ،
ويبدو من نشاط هذا الجسر أن شركة الملاحة البحرية قد توقفت تماماً عن
الأعمال المدنية وسُخِّرَت سفنها كلها للجسر البحرى بين القاهرة وصنعاء ،
ومثل ذلك ما فعلته الطائرات العسكرية المصرية^(٢) .

— وفى اليمن بدأنا صراعاً لم نتعده ضد القبائل المعادية للثورة ، وفى أرض
لا نعرفها ، وظروف حرب لا مواجهة فيها ، فكثرت فيها خسائرها من
أول يوم .

ونضيف إلى ذلك ما يذكره الفريق صلاح الحديدى من أن اليمن كانت
تموج بخلافات طائفية وقبلية وإقليمية لم تكن معلوماتنا عنها واضحة على
الإطلاق ، فلم ندرك أن الهوة سميكة بين الشافعية والزيدية ، وكذلك بين حاشد
وبكيل ، ثم بين الشماليين والجنوبيين ، وقد خلقت هذه الخلافات متاهات عشنا
فيها أكثر من خمس سنوات ، فكان دخولنا اليمن كمن دخل اختباراً لم يستعد له
أو كمن صعد إلى حلقة الملاكمة وهو لا يعرف خصمه^(٣) .

— ويكتب وجيه أبوزكرى على لسان زوجته التى تقول له متعجبة : كيف
تذكر أن هناك حرباً فى اليمن بينما صحف القاهرة حافلة بأنباء انتصارات الزعيم
والبهجة لحراسة ثورة كان من الممكن أن تموت ، وتهمس الزوجة فى أذن
زوجها قائلة : إن من يقول « ما لنا ومال اليمن » يزار فى الفجر ، ويؤخذ من بيته

(١) المرجع السابق ص ١١

(٢) المرجع السابق ص ١٥ - ١٦

(٣) شاهد على حرب ١٩٦٧ ص ٤١

ولأحد يعرف طريقه بعد ذلك ، وإن أحد أقربائك قد اعترض في جلسة خاصة على إرسال قوات إلى اليمن ، وجاء رجال المخابرات في الصباح وأخذوه . إلى أين ؟ لا أحد يدري .

ووردت لي معلومات من أحد أقربائي في القصر الجمهوري يذكر أن نفقات حرب اليمن تصل إلى عدة ملايين من الجنيهات كل يوم ، أتدرك يا زوجي العزيز معنى هذا ؟ وهل في إمكانية شعبنا أن يقدم كل شيء حتى الدم من أجل بهجة الزعيم (١) .

— أصبح لنا يا زوجتي العزيزة ثلاث قيادات في اليمن : قيادة للطيران ، وقيادة للجيش ، وقيادة للبحرية ، ولا أخفيك سرأ فقد أمضيت ليالي سوداء في مدينة صنعاء ، كنا خلالها نتوقع الموت بين لحظة وأخرى ، فقد دخلت مجموعات من العدو هذه المدينة متخفية في ملابس البدو ، واكتشفنا في صباح يوم تعيس أن عدداً كبيراً من رجالنا أصبحوا بلا رءوس ، لقد ذبحهم العدو بالخناجر وأخذ رءوسهم (٢) .

— إن شبكة الاتصالات التي نعتمد عليها رديئة مما جعل بعض قواتنا منعزلة لا ندرى عنها شيئاً ، وذلك بسبب أن أجهزة اللاسلكي التي اشتريناها من الاتحاد السوفييتي أجهزة رديئة كثيرة العطل ، فهل حوصرت هذه القوات أو دُفنت في أرض اليمن ؟ لا أحد يدري (٣) .

ومن ناحية الرخاء فقد حمل العائدون من اليمن أنباء متواترة تفيد أن أسواق اليمن حافلة بخيرات مصر ، وإنتاج مصر من المأكولات والمصنوعات

(١) الزهور تدن في اليمن ص ٢١

(٢) المرجع السابق ص ٢٦

(٣) المرجع السابق ص ٣١

وهي تُقدم إلى الناس بأرخص الأسعار ، بل توجد في الأسواق سلع كثيرة
اشترتها مصر من دول العالم وقدمتها لأسواق اليمن لتباع بأسعار شبه رمزية
لتجذب السكان لتأييد الثورة .

كيف كانت حال السوق في مصر آنذاك ؟ الإجابة نأخذها من رد الزوجة
على زوجها فيما يلي:

— الحبز اشتد سواداً في مصر كأيامنا ، والأرز لانجده في الأسواق حتى
لو كنت تملك ثمنه . وقد قال الرئيس جمال عبد الناصر حلاً لهذه المشكلة أن
سكان الصعيد عليهم أن يأكلوا الفريك ، وسكان وجه بحرى يأكلون
المكرونه ، ويبيع لنا « تراب الشاي » في أكياس قدرة وبأسعار خيالية (١).

خيانة بعض زعماء اليمن للقضية :

هل كان قادة اليمن أمناء في حراسة الثورة والبلاد ؟

الإجابة نأخذها من خطاب أرسله الأستاذ وجيه إلى زوجته في أول إبريل
سنة ١٩٦٣ ، وفيه يقول :

— أرسلت إحدى الدول الاشتراكية مستشفى هدية منها لحكومة الجمهورية
اليمنية ، ووصل المستشفى إلى ميناء عدن ، وحضر الوزير المسئول ليتسلم المستشفى ،
وما إن تسلمه حتى جمع تجار عدن وأعلن عن بيعه في المزاد العلني ، وتم البيع ،
وقبض الوزير ثمن المستشفى ، وعاد إلى صنعاء قائلاً: إنها كانت هدية خاصة له (٢)

— في مأدبة حضرها السلال في القاعدة الجوية المصرية أعطى السلال

(١) المرح السابق ص ٣٤

(٢) الزهور تدفن و اليمن ص ٤٣

أوامره للطيارين المصريين بمسح بعض القرى اليمنية من الوجود ، واقشعر الطيارون من هذه الأوامر ورفضوا التنفيذ ، ولكن بعد يومين أصدر الفريق صدق محمود أمراً بتنفيذ أوامر السلال دون مناقشة ، وما يذكر عن الطعام بهذه القاعدة أنه كان يزد يومياً من محلات جروبي بالقاهرة ، وكان يشمل أعظم ما يصل له الخيال وأرق ما تنتجه هذه المحلات (١) .

— جلست مع أحد خبراء السد العالى الذى انتهى العمل فيه واسمه الدكتور أحمد كمال وهو خبير الكهرباء فى السد العالى وأخبرني بخبر هزني بعنف ، قال إن الكهرباء التي تستخرج من السد تضيع هباء لأن حرب اليمن أوقفت إقامة المصانع التي كنا قررنا إقامتها لتعمل بالطاقة الكهربائية ، وخطه بناء المدارس الحديدية تعطلت بسبب إنفاقات حرب اليمن ، وكهربية الريف المصرى توقفت بسبب هذه الإنفاقات ، وفي كل بيت مآتم لأن أكثر بيوت مصر قدمت قرابين لحرب اليمن (٢) .

— كانت الفضة المصرية معبأة في أكياس ثقيلة حجمها كحجم أكياس الأسمنت وكانت تحمل هذه الأكياس لتتقدم إلى شيوخ القبائل باليمن ، وفي قمتهم شيخ شهير اسمه الغادر ، وكانت أكياس الفضة تحمل في سيارة كبيرة تحرسها مدرعة ويسير بها ضابط مصرى اسمه اللواء عثمان نصار ليسلمها إلى شيوخ القبائل ، ويبدو أن مصر قدمت ما عندها من الفضة بعد ما نضب معين الذهب الذى تحدثنا عنه من قبل (٣) .

— وصلت إلى اليمن قوات الطوارئ الدولية ، وتحملت مصر نفقات هذه القوات بالإضافة إلى الإنفاق على القوات المصرية ، وبالإضافة إلى الإنفاق على

(١) المرجع السابق ص ٤٦

(٢) المرجع السابق ص ٥٣

(٣) انظر كتاب الزهور تلغى في اليمن ص ٧٦ وما بعدها

القوات اليمنية ، وكان إحساس العالم كله ألتَّحَلَّ مشكلة اليمن ، فالكل يريد أن تستمر مصر في التورط حتى تنتهى تماماً (١) ٥

ما أتعس البلاد التي يقودها الجهلة المخدوعون ٥

خروجنا من اليمن :

لم تخرج مصر من اليمن إلا بعد الهزيمة المدمرة في حرب ١٩٦٧ عندما تم الاتفاق على ذلك في مؤتمر الخرطوم بين الملك فيصل وجمال عبدالناصر(٢) ٥

(١) المرجع السابق ص ٦٥

(٢) البحث عن الذات ص ٢٤١

مجلس الرياسة

بعد هزيمة الجيش المصري في حرب ١٩٥٦ ، وبعد فضيحة الانفصال وما أبرزته من ضعف وتهاون في قيادة الجيش ، اتجه عبد الناصر إلى إحداث تغيير كبير في هذه القيادة ، وكان يرى إلى عزل المشير نفسه ، ولكن سرعان ما ضعف ناصر أمام عامر ، وظهر له أن أنصار عامر في الجيش لن يسمحوا بالقضاء عليه ، فاتجه لإخراج بعض القادة من الجيش وبخاصة ضيق محمود ، ولكن عامر أعلن قوله : «صدق مش مشول وحده» ، أنا المستول الأول ، وأنا كمان أمشي^(١) ، وكان هذا تهديداً لا يقوى عبد الناصر على مواجهته ، فراجع .

واتخذ عبد الناصر طريقاً آخر ليحد من سلطات عامر ، فاقترح أن يشكل مجلس الرياسة تكون في يده السلطة العليا في البلاد ، يرسم السياسة العامة ، ويصدر القرارات ، ويراقب التنفيذ ، واقترح أن يشكل هذا المجلس من الباقين على قيد الحياة من أعضاء مجلس الثورة ، ومن الدكتور نور الدين طراف ، والمهندس أحمد عبده الشرباصي ، وعلى صبري ، وكمال الدين رفعت ، وصدر الإعلان الدستوري في ١٩٦٢/٩/٢٧ بتشكيل هذا المجلس ، وبأن تكون له السلطة العليا في البلاد ، واستبشر الناس بهذا الاتجاه ، وبدأ المجلس جلساته .

ولكن هدف عبد الناصر من هذا المجلس لم يكن أبداً أن يتنازل عن سلطاته أو عن بعضها ، وإنما كان هدفه أن يتخذ وسيلة للحد من سلطات المشير عامر ، وتبعاً لذلك سرعان ما تقدم عبد الناصر بمشروع قرار

(١) سامي جوهر : الصامتون يتكلمون ص ٤٥

للمجلس لجعل تعيين قادة الأسلحة وعزلهم من اختصاصات مجلس الرياسة بصفتهم السلطة العليا للبلاد ، ولم يحضر عبد الناصر الجلسة التي نوقش فيها مشروع هذا القرار ، ورأس البغدادى الجلسة ، وعارض المشير مشروع القرار معارضة شديدة ، وكانت حرب اليمن قد ابتدأت فقوى جانب المشير ، واتجه عبد الناصر لمصانعته ، فأهمل التحمس لهذا المشروع .

وبفضل عبد الناصر في اتخاذ قرار لتحديد سلطة المشير عامر أصبح مجلس الرياسة عبئاً على عبد الناصر وتحديداً لسلطاته هو ، ومن هنا بدأ عبد الناصر يضيق بالمناقشات في المجلس لإحساسه بأنه قيد عليه ، فعمد إلى ألا يدهوه للانعقاد إلا على فترات متباعدة ، وكان لا يعرض عليه إلا توافه الأمور ، ووجد أعضاء المجلس أنفسهم قيادة جماعية من ناحية الشكل فقط دون أن يكون لهم أى نفوذ في واقع الأمر ، ومن هنا بدأت الاستقلالات تتوالى منهم . كما أخذ يندوى عوده ، وتنتهى فاعليته ، وسنرى عبد الناصر فيما بعد يتخذ بنفسه قرارات خطيرة باسم هذا المجلس دون أن يعرضها عليه^(١).

ويقول أحمد حروش إن مجلس الرياسة كان قيادة شكلية بعد التراجع عن اتخاذ القرار الذي أراده جمال عبد الناصر للحد من سلطة المشير ، وينقل أحمد حروش عن زكريا محيي الدين قوله : إن مجلس الرياسة كان تشكيلاً يرمى إلى إبعادهم عن السلطة التنفيذية الفعلية ، فإن كل أعضائه تفرغوا للعمل به ، وتركوا وظائفهم الأخرى ، ولم يعد في أيدهم أى سلطان ، ويضيف زكريا محيي الدين إلى هذا قوله إن المجلس لم يتحول أبداً إلى قيادة جماعية^(٢).

(١) سامى جوهر : الصامتون يتكلمون ص ٥٦

(٢) مجتمع جمال عبد الناصر ص ٢٢٠

نشأة مراكز القوى

ما هي مراكز القوى ؟ ومتى نشأت ؟

في اعتقادي أن الأستاذ حسين الريحاني المحافظ السابق كان يتحدث عن خبرة بالأمور في مصر عندما حدد مراكز القوى بقوله (١) :

« مراكز القوى ما هم إلا أشخاص شغلوا مناصب في الدولة ذات تأثير كبير ، وتجاوزت سلطاتهم الفعلية حدود واختصاصات مناصبهم الأصلية ، ولم يخضعوا لأي رقابة وحساب ، حتى أصبح في مقدورهم إرغام السلطة العليا الشرعية على السكوت عن أعمالهم وتصرفاتهم ، وبحيث لا يمكنها إبعادهم أو زحزحتهم عن مناصبهم التي يمارسون من خلالها أبشع أنواع القهر والطغيان.

« أما الانحراف والفساد ، واستغلال النفوذ فهي رذائل أخرى قد يقع في برائتها أصحاب المناصب وأقاربهم وأصهارهم وكل من يلوذ بهم ، ولكن هذه الرذائل رغم جسامتها لا تبلغ بمن هوى في دركها الأسفل درجة مراكز القوى . . ويمكن أن نسمي هؤلاء لصوصاً ومرتشين ونصابين وسماسرة ، أما اسم مراكز قوى فهو لا ينطبق عليهم .

« ولا تنشأ مراكز القوى ويشند ساعدها ويستفحل شرها إلا في ظل حكم

ديكتاتوري فردي مطلق ، ولا تقوم لها أية قائمة في ظل الحرية والديمقراطية ،

ذلك لأن الديكتاتور يجمع عادة بين يديه جميع السلطات ، وهو مضطر في جميع الأحوال لأن يحشد حوله عدداً وافراً من كلاب الحراسة الشرسة كي

يحمي نفسه ويمد في أجل حكمه وسيطرته ، وبعد مدة يجد نفسه وقد ثققلت عليه الأعباء وازدادت تبعاته وتراكت أمامه المهام والمشكلات ، فيشعر بأنه

غير قادر على البت في كل الأمور ، فيمنح بعضاً من هذه الكلاب تفويضاً للتصرف في عدد من المسائل والأمور فيقوى تدريجياً نفوذ هؤلاء وسلطانهم .

« تلك هي مراكز القوى ، أما زمان نشأتها ، فإنه يرتبط — في تقديرى — بمطلع الثورة ، لأن مراكز القوى تنشأ مع الدكتاتورية ، والثورة كانت دكتاتورية من أول يوم كما اتضح من دراساتها السابقة ، ويمكن فقط أن نقول إن مراكز القوى ظهر خطرهما بعد حرب ١٩٥٦ وزاد خطرهما بعد الانفصال ثم بعد هزائم اليمن ، ووصلت إلى قمة مجدها بعد حرب ١٩٦٧ لأن مراكز القوى تتخذ من هزائم الدكتاتور فرصاً لتضاعف نفوذها وسلطانها » .

وقريب من هذا ما يذكره محمد حسنين هيكل بقوله : مراكز القوى بمصر كانت دائماً موجودة ، إذ إن الثورة اعتمدت على التنظيم الواحد ، فأتيحت بذلك الفرصة لعناصر معينة أن تحتل مراكز قوة لهدف شخصي ، في غيبة من مراقبة القيادة ، وفي غيبة من مشاركة الجماهير (١) .

ويستجده هيكل بعد هذا لبيان أن مراكز القوى استفحل أمرها بعد حرب ١٩٦٧ لأن عبد الناصر تفرغ لثلاث قضايا أساسية هي :

- ١ - تصحيح آثار الهزيمة وإعادة بناء الجيش المصري .
 - ٢ - تنظيم العلاقات مع الاتحاد السوفيتي .
 - ٣ - موضوع الموقف العربي .
- وترك عبد الناصر باقى الأمور لأتباعه فاستفحل نفوذهم (٢) .

أما أنور السادات ، فبرى أن نشأة مراكز القوى بدأت بسبب الصراع بين عبد الناصر وعامر ، الذى اتضح بعد الانفصال ، وفي هذا الصراع

(١) بصراحة عن عبد الناصر ص ١٠٢

(٢) المرجع السابق ص ١٠٣

حاول عبد الناصر إبعاد عامر أو تقليل سلطاته ، وأدرك عامر هذا فعمل على أن يمكن لنفسه بزرع أعوان كثيرين له ، ليس في الجيش وحده ، بل في الاتحاد الاشتراكي ، والمؤسسات المدنية ، وجميع المراكز الحساسة في البلد ، ونشأت بذلك مراكز القوى التي نسب لها الكثير من المساوئ والآلام التي أصابت مصر في هذا العهد البغيض .

وفي مجال الحديث عن مراكز القوى ، وعن المسئول عن الكوارث التي نزلت بمصر يتحتم أن أرفض الرأي الذي نادى به عبد الناصر والذي يلقي المسئولية على عاتق أشخاص آخرين غيره ، فالتفكير الإسلامي لا يتيح نسبة ما وقعنا فيه من كوارث إلى تعبير مبهم مثل « مراكز نفوذ » أو « مراكز قوى » ، ولعل من الخير أن نورد رأى النهج الإسلامي في تحمل المسئولية .

يضع الإسلام المسئولية على ولي الأمر ، فهو المسئول عما يقوم به مباشرة ، وعما يقوم به معاونوه ، لأنه الذي يختارهم وعليه مراقبتهم ، ومتابعتهم بعد الاختيار ، وقد روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله : من ولي من أمر المسلمين شيئاً ، فولى رجلاً وهو يجد من هو أصلح منه للمسلمين ، فقد خان الله ورسوله . ورى عنه كذلك : من قلد رجلاً عملاً على جماعة ، وهو يجد في تلك الجماعة من هو أفضل منه ، فقد خان الله ، وخان رسوله ، وخان جماعة المسلمين (١) .

وبناء على ذلك كان الخلفاء الراشدون يعدّون أنفسهم مسئولين عن أخطاء مساعديهم ، حتى بعد أن يحسنوا اختيارهم ، وكان عمر رضي الله عنه إذا أراد أن يختار والياً ذكر الشروط التي يراها ضرورية فيه ، ثم يترك للحاضرين مساعدته في تحديد من تنطبق عليه هذه الشروط (٢) .

(١) الشوكاني : نيل الأوطار

(٢) عباس العقاد : الديمقراطية في الإسلام ص ٧٩

وعن مسئولية الرئيس في اختيار ولاته ، ومسئوليته في تتبع أحوالهم بعد الاختيار يقول الإمام عليّ كرم الله وجهه : على وليّ الأمر أن يختار للحكم أفضل الرعية ممن لا تضيق به الأمور ، ولا يتأدى في الزلة ، ولا تشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفى بأدنى فهم دون أقصاه ، وينبغي أن يكون اختيارهم بالاختبار لا بالحباة والآثرة ، وعليه أن يتفقد أعمالهم ، ويبعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم ، فإن تتبعه لأموالهم حثّ لهم على استعمال الأمانة والعدل مع الرعية (١) .

وتنفيذاً لهذا الاتجاه الإسلامي نذكر أن الخليفة طيب الذكر عمر بن الخطاب عزل القائد الذي أبلى في خدمة الإسلام أعظم البلاء ، خالد بن الوليد ، عندما أحس بافتتان الناس به مما يوشك أن يكون مركز قوة (٢) .

وفي القصة الشهيرة التي حدثت بين عمر وامرأة ، تقول الرواية : إن عمر خرج في ليلة شديدة البرد كثيرة العواصف فرأى من بُعِدِ ناراً ، فهرول لها ليتعرف خبر أصحاب النار ، فوجد امرأة ومعها أطفال ، ورأى قدراً منصوبة على النار ، وسمع الأطفال ييكون ، فتقدم عمر نحو المرأة ، ودار حوار بينهما وضّحت فيه المرأة ما يعانيه أطفالها من جوع ، وكيف أنها تخدعهم بِقَنَدٍ بها ماء حتى يناموا ، وصرخت في وجه عمر : الله بيننا وبين عمر ، فاهتز عمر لهذه الصرخة ، وقال لها : وما يدري

عمر بكم ؟ فأجابت المرأة : يتولى أمورنا ويغفل عنا . وهكذا شكت المرأة

ما اعتقدته غفلة من عمر ، وعمر لم يكن غافلاً عنها وإنما كان بجوارها .

وتستمر القصة لتروى أن عمر أسرع لبيت المال وأحضر الدقيق واشترك في الطهو وإطعام الأطفال

(١) نهج البلاغة ص ٣٣٩ - ٣٤٠

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٢ - ص ٢٧٦

وقد وضح عمر بن عبد العزيز مدى مسئولية الحاكم ؛ فيروى أنه عقب تولّيه الخلافة رآه موله « مزاحم مغتماً كثيراً ، فسأله : ما لي أراك مغتماً ؟ فأجاب عمر : لمثل ما أنا فيه يُغتمُّ ، ليس أحد من الأمة إلا وأنا ملزم أن أوصول إليه حقه ؛ غير كاتب إلى فيه ولا طالبه مني (١) .

فانظر مدى إدراك عمر بن عبد العزيز للمسئولية منذ اللحظة الأولى .

ويروى أن زوجته دخلت عليه عقب توليته الخلافة ، فوجدته يبكي ، فقالت له : ألتشيء حدث ؟ قال : لقد توليت أمر أمة محمد ، ففكرت في الفقير ، والمريض ، والمقهور ، والمظلوم ، والغريب ، والأسير ، والشيخ الكبير ، وعرفت أن ربي سألني عنهم جميعاً ، فخشيت ألا تثبت لي حجة فبكيت (٢) .

واستكمالاً لعرض الفكر الإسلامى فى هذا الموضوع ، نسأل سؤالاً قد يخطر بالبال ، وهو : ماذا لو عظم مركز من مراكز القوى بحيث أحس ولى الأمر أنه لا يستطيع عزله ؟

والإجابة قوية واضحة هى أن الرئيس إذا لم يكن كامل السيطرة على مساعديه ، التزم أن يحل مكانه فى الحال ، ويرد الأمانة إلى الشعب الذى اختاره ، وإلا تحمل المسئولية كاملة ، لكل ما يرتكبه هؤلاء المساعدون .

وبناء على التفكير الإسلامى الذى أوردنا عناصره ، نقرر أننا كما تنسب للرئيس السابق جمال عبد الناصر حسين مفاخر عهده مثل جعل سياسة

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٣١

(٢) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٢٩

مصر تُرسم في مصر ولا تفد لها أو تفرض عليها من الخارج^(١) فلأننا ننسب له أخطاء عهده كلها لأنه الشخص المسئول عن أحداث عصره وأخطاء معاونه .

ومن ناحية أخرى لا يمكن أن نعرف أن الأحداث الكبرى خلال هذه الفترة كانت تجرى من خلف جمال عبد الناصر حسين ، فقد كان شخصياً واضحاً في فرض الحراسة ، وفي فصل القضاة ، وفي القبض على بعض الجماعات ، وفي المحاكمات والعقوبات ، وفي الخلاف بيننا وبين الدول العربية ؛ وفي الخلافات بيننا وبين أمريكا وألمانيا وغيرهما . وفي التحرك إلى اليمن ، وفي التحركات التي ارتبطت بمعركة يونيو الحاسرة .

ويقول الأستاذ حلمي سلام أحد الصحفيين الذين كانوا قريبين من عبد الناصر ما يلي : عبد الناصر هو الذي يملك ، ويحكم ، لا أحد فوقه ، ولا أحد معه ، ولا أحد بجانبه^(٢) .

ويروى الأستاذ حسين الريحاني المحافظ السابق مايلي : كنت يوماً مع شعراوي جمعه بوزارة الداخلية ، فدق جرس تليفونه ، فرد شعراوي ، وسرعان ماظهر في كلامه الاحترام الكبير والأدب الجمل مع المتحدث على الطرف

(١) كانت هذه هي سياسة مصر فترة ، ثم فوض عبد الناصر الاتحاد السوفيتي في أن يتكلم باسم مصر ، وقرر أن مصر تعطى هذا التفويض بدون حدود ، وقد شرحنا ذلك بإفاضة عند كلامنا عن نهاية الاحتلال البريطاني ، وكان من نتائج الوجود السوفيتي في مصر الذي تسكلم عنه الرئيس السادات في ١٩٧٥/٩/٢٨ هذه الحقيقة المرة التي نشرتها الأهرام في ١٩٧٥/١٠/٣ وهي أن الاتحاد السوفيتي استغل وجوده على الأرض المصرية وسيطرته على المطارات المصرية وأخذ ينقل الأسلحة والمعدات عبر هذه المطارات إلى الهند ، في حربها ضد الباكستان ، ورغم أن الاتحاد السوفيتي يعلم أن ليس لمصر صالح في هذه العملية ، ويعلم أنها لا يمكن أن تسهم في الإضرار بالشعوب الإسلامية ، ثم رغم أن تحركات الاتحاد السوفيتي تعتبر مساساً باستقلال مصر أو على الأصح اعتداء على هذا الاستقلال .

(٢) مجلة الفجر القطرية عدد ١٩٧٥/٦/٢٢

الآ- ر . وهذا لم أكن في حاجة لأن أدرك أن المتحدث هو رئيس الجمهورية فهمت بأن أبارح المكتب ، لأن ذلك هو الشيء الطبيعي في مثل ذلك الموقف ، ولكنه أشار لي بأن أبقى في مقعدى فبقيت وسمعت . .

أملى عليه الرئيس الراحل أسماء ثلاثة أشخاص وصناعتهم فكتبها في ورقة أمامه ، ولما انتهت المحادثة عاد فرفع سماعة تليفونه من جديد وتكلم مع مدير المباحث العامة وأملى عليه ذات الأسماء وطلب منه سرعة القبض عليهم وزجهم في معتقل القلعة على أن يتم ذلك فوراً ، وأن يحيطه علماً بالنتيجة حتى يطمئن ويقوم بدوره بإعطاء « تمام » للأمر بالاعتقال ليطمئن أيضاً ويرتاح باله^(١) .

ونقطة أخرى وقع فيها أكثر الكتاب سيراً وراء جمال عبد الناصر حسين ، فقد كان هو أول من نسب الأخطاء والخطايا التي نزلت بمصر إلى مصدر أسماء « مراكز القوى » أو « مراكز النفوذ » ولم يحدد شخصاً أو أشخاصاً ينطبق عليهم هذا التعبير ، ونحن نسأل : لمصلحة من نسب ما عايناه من كوارث إلى مصدر مبهم ؟ ونقرر أننا نستنكر أن نتستر على مجرم في حق الوطن ، وندعو الكتاب إلى الكف عن هذا التعبير الزائف .

وسؤال آخر هو : أين نضع جمال عبد الناصر إذا تصورنا خاتمه في يد غيره ؟ وأن الدنيا تدار من حوله بدون رأيه ؟ في اعتقادي أن من يقول بذلك ينتقص الرجل من حيث لا يدري .

وسؤال ثالث هو : أين مراكز القوى الآن أي بعد جمال عبدالناصر ؟

والإجابة أنها انهارت أو على الأقل ضعفت في عهد أنور السادات : ومعنى هذه الإجابة أن مراكز القوى كانت معروفة ، وأن القضاء عليها أو

(١) صحيفة الأخبار في ١٩٧٧/٥/٢٥ .

تقليم أظافرهما كان ممكناً ، ولذلك نسأل . لماذا لم يفعل جمال عبد الناصر ما فعله أنور السادات ليتخلص من أعوان السوء ؟

ولا يبقى بعد هذا إلا الاعتقاد بأنها كانت تعبيراً عن هواه ، وامتداداً لنفوذ .

وقد أوردنا من قبل معلومات محددة وصلت مباشرة إلى أذن جمال عبد الناصر حسين وبطريق محافظ من المحافظين الذين عينهم جمال عبد الناصر وهو إبراهيم بغدادى ولكن هذا الرئيس بدل أن يكشف الغمة عن المظلومين في كمشيش صاح في المحافظ قائلا : إنك لا تعرف ما يجري في محافظتك .

وقد أعلن جمال عبد الناصر بوضوح أنه المسئول عن هزيمة يونيو ١٩٦٧ وعن غيرها من المشكلات ، ولست أدري بعد ذلك لماذا يلف بعض الباحثين ويلدرون دون أن يسيروا في الطريق الواضح المستقيم ؛ ودون أن يحددوا المسئول عن الخير وعن الشر ، وهو واضح لكل عين ترى وعقل يفكر ، أما مراكز القوى التي يتحدثون عنها فقد كانت تدور في فلكه ، وتعمل بتوجيهه ، وعند ما أراد كشف مفاسد بعضهم كشف ذلك ، ولم تستطع هذه المراكز أن تفعل شيئاً .

فلنقلها كلمة صريحة لوجه الله والتاريخ : إن جمال عبد الناصر حسين هو المسئول عن أحداث عهده ، وهذه الفكرة هي التي تحمى حاضرتنا ومستقبلنا ، وهي التي نضعها أمام كل رئيس في كل زمان وفي كل مكان ، دون أن نخلق تعبيرات زائفة تعطى فرصة للانحراف ، وبالتالي للرزايا والكوارث ، وإنه لمن العجب أن يعيش هذا الشعب في فقر ، وفي قلق ، وأن يعاني الهزيمة في كل حرب خاضها عبد الناصر ، ومع هذا يقف مدافعاً عنه ، إنها أبواق الدعاية ، وصور الخوف التي قلبت الحق باطلا ربحاً من الزمن .

رعى الله بلادنا ، وعاون قادتها فيما يبذلون من جهد لتصحيح مسار الحياة.

مراكز القوى كانت متصارعة :

بقيت كلمة عن مراكز القوى هي أن هذه المراكز كانت متشعبة ومتطاحنة وكان يدور بينها صراع مرير ، وقد كشفت مذكرات الرئيس أنور السادات عن صور من هذا التطاحن ، وقد بلغ المدى بأحد هذه المراكز أن حاول إطلاق الرصاص على مركز آخر ، فكل منهم كان يرى البلاد غنيمة ، ويريد أن ينال منها لنفسه وأشياعه أكبر نصيب .

إهمال المرافق

في الحقيقة إن مرافق البلاد أهملت منذ مطلع الثورة ، بسبب الاتجاه إلى مشروعات وهمية مثل مديرية التحرير وهيئة التحرير ، وبسبب الصراع بين قادة الثورة بعضهم والبعض ، ثم بسبب الحروب والنكبات التي حلت بالبلاد ، ولكن إهمال المرافق زاد سوءاً امتداداً من سنة ١٩٦٢ ، ويقول أنور السادات أن مشاكل الخدمات بدءاً من التليفونات والمواصلات والإسكان وغيرها أخذت تؤجل ابتداء من سنة ١٩٦٢ مما جعل هذه المشاكل تزداد وتتراكم سنة بعد أخرى ، بحيث أصبح من العسير حلها (١) .

وبجانب إهمال المرافق الموجودة لم تنشأ مرافق جديدة ، فلم تمهد طرق ، ولا أقيمت قناطر ، ولا شيدت مستشفيات ، ولا مساكن ولا مدارس ، وكيف نشيّد الجديد مع أننا عجزنا عن المحافظة على القديم .
إنه عهد دمار ، عانينا منه في الماضي ، ولا نزال نعاني منه أشدّ عناء .

الهجرة من الريف للمدن وأسطورة الإصلاح

لقد قالوا إن هناك إصلاحاً زراعياً وإنصافاً للقرية والريف ، وتلك أسطورة ينقضها زحف الريفيين إلى المدن ، حتى أوشك الريف أن يخلو من الأيادي العاملة ، واتجهت جحافل الريفيين إلى المدن لعلها تجد بها وسائل للرزق ؛ لقد ترك عبد الناصر الريف يسبح في الظلام ، واتجه إلى سوريا واليمن ؛ فهُرع الريفيون إلى المدن وإلى القاهرة بوجه خاص ، لعل عبد الناصر يراهم فيداوى جراحهم ، ويهتم بالريف الذي كان من قبل يسكنه أكثر من ٧٥ ٪ ، فلما شمله الظلام والإهمال لم يبق به إلا حوالي نصف سكانه ، وتكدس النصف الباقي في المدن المصرية القليلة (٢) إنها نتيجة طبيعية ، ولكن عبد الناصر كان دائماً في شغل عن الفلاحين وعن سواهم ، ومتجهاً فقط إلى نفسه وذويه .

(١) البحث عن الدات ص ٢١٣ (٢) أنظر كتاب مصر في عهد عبد الناصر ص ١٩٨

حوادث سنة ١٩٦٢

اليمن تشغل أيام العام

ماذا في سنة ١٩٦٣ من أحداث ؟ .

لقد خلت مذكراتي في هذا العام من الأحداث المهمة ، لأن الدولة كلها كانت تدور في أحداث اليمن ؛ نزيف هائل منيت به البلاد ، شمل الدم والمال والعرق والجهد ، دون أن يقنع . صحافة العهد تتحدث عن اليمن ، وإذاعة الدولة ، المسموعة والمرئية ، تعرض مفعرة التدخل في اليمن ، ودور العلم تتحدث عن حماية اليمن من الأعداء ، وعن تحضير اليمن ، وحتى الأفلام يتجه إنتاجها لتضليل الشعب حول قضية اليمن ، والحسائر تتوالى ، والأمور تتعقد ، والعدو الأصيل الذي بنينا له جيشنا يمرح في إسرائيل لأن جيش مصر ومال مصر وجهد مصر ينضب على جبال اليمن ، والوحدة العربية التي كانت واقعا وأملا حل محلها فرقة وحرب بين الدول العربية بعضها والبعض .

وفي هذا العام امتدت حرب اليمن إلى المناطق السعودية المجاورة لليمن ، ويقول الدكتور صلاح الدين المنجد في كتاب ألفه عن الملك فيصل : في أول يناير سنة ١٩٦٣ صدر بيان رسمي سعودي يعلن أن قاذفات قنابل من طراز « اليوشن » تابعة لمصر ، تعمل في اليمن ، قامت بغارتين على مدينة نجران السعودية في ١٢/٣١/١٩٦٢^(١) .

تلك هي أحداث سنة ١٩٦٣ ، وهي أيضاً الأحداث التي امتدت خلال بعض السنوات التالية ، وليس من جديد إلا السعار في الاعتقالات والتعذيب لكل من يعارض رغبة الزعيم الاندفاعية اليمنية .

إضافة قليلة عشتها متصلة بحرب اليمن ، هي أن أحد معارفي وهو

(١) دكتور صلاح الدين المنجد : الملك فيصل ص ٥٩

ضابط بالجيش ، كان ينوى الزواج ، ووجد اليمن فرصة ليحصل على المال ، فأعد عدته للسفر ، وتحدد موعد الرحلة ، وذهبت لأودعه ، وجاءت سيارة الجيش لنقله إلى المطار ، وصافحته وقبّلناه ودعونا له بالسلامة ، ومن المطار حادث أهله تليفونيا وهو على وشك أن يركب الطائرة .

وفي اليوم التالى اتصل بي تليفونيا فصرخت فيه : من أين تتكلم ؟ من صنعاء ؟ فأجاب لا ، إن الطائرة لم تستطع أن تنزل في اليمن لسوء الأحوال الجوية ، فعادت أدراجها إلى القاهرة ، فسألته : ومتى ستسافر؟ فقال غداً .

وودعناه مرة أخرى ، وعرفنا بعد بضعة أيام أن الطائرة عادت مرة أخرى ، ولكنه هو وزملاؤه خجلوا من أن يعودوا لمنازلم مرة ثانية ، فبقوا ضيوفاً على الجيش حتى تحسنت الأحوال الجوية فسافروا .

هذا نموذج عشته من الاستهتار بمال مصر ، فرحلة الطائرة من مصر إلى اليمن تتكلف آلاف الجنيهات أو عشرات الآلاف ، وتقوم الرحلات كل يوم إلى مختلف بلدان العالم بما في ذلك بلاد الشمال والشرق الأقصى حيث الأمطار المتصلة وسوء الأحوال الجوية دائم تقريبا ، ولاتعود الطائرات بحمولتها أبداً مثل هذه المسافة ، لقد كان الاستهتار والاستهانة بمال الشعب من أسباب تفاقم الزيادة في الخسائر باليمن .

أزمة المثقفين

حفلت صحافة هذا العام بوجه خاص والأعوام السابقة له بوجه عام بمقالات تحمل هذا العنوان : « أزمة المثقفين » ومن عجب أن يصبح المثقفون أزمة ، ولاشك أن محمد حسنين هيكل يظلم جماعات المثقفين حين يصفهم في هذه المقالات بأنهم كانوا نوعين : النوع الأول ينتمى إلى الطبقة القديمة ، وهؤلاء اتخذوا موقفاً من الثورة إن لم يكن عدائياً فقد كان موقفاً يتسم بالتحفظ ، والنوع الثانى يضم المثقفين الماركسيين ، وهؤلاء كانوا ينظرون إلى الثورة على أنها حركة فاشيستية واعتبروا ما حدث انقلاباً وليس ثورة^(١).

هذا كلام كله ظلم وافتراء ، والحقيقة أن المثقفين جميعاً مهّدوا بجهود كثيرة لقيام الثورة ، فلما قامت أحسنوا استقبالها ، وصفقوا لها ، وأعلنوا عن تأييدهم الشامل بكل الطرق ، ولا نزال نذكر برقية جامعة الإسكندرية التى عبرت عن اتجاهات هيئة التدريس وترحيبهم بالثورة ، والتى كانت أولى البرقيات التى تلقاها الثوار ، وتلتها برقيات مماثلة من الجامعات الأخرى ومن هيئات القضاء والصحافة والمحامين والمهندسين والمعلمين وغيرهم مما مكّن للثورة ووضّح أنها تعبير عن كل طبقات المجتمع المصرى وتبشيراً لها بذلك سبيل للنجاح .

ولكن المثقفين كانوا يتطلعون إلى ثورة تصحح الأوضاع وتزيل عسف القصر ، وتقضى على موقف الاستعمار والملك من الدستور ومن الحرية ومن حق الشعب ، ولكن سرعان ما اتضح للمثقفين أن الثورة أزلت القصر لتخلق قصوراً أكثر من أن تُعدّ ، لها شراسة وأنياب أعنف جداً من قصور فاروق ، واتضح للمثقفين أن الحرب

(٢) بصراحة من عبد الناصر ص ١١٢

(١م- التاريخ : ج ٩)

ضد الدستور وضد الحياة البرلمانية وضد الحريات هي نهج الثوار ، وبرز لكل الناس أن هؤلاء الفتية قاموا بالثورة ليستولوا على كل شيء ، وليحكموا بأهوائهم وأطماعهم ، وصرخ المثقفون في وجه الثوار وأعلنوا اعتراضهم على هذا المسلك المشين ، وكان من نتيجة ذلك أن تصدى الثوار للمشتفين بقسوة ؛ فصلوا عدداً كبيراً منهم من الوظائف ، واعتقلوا آخرين ، وأطلقوا زبانياتهم على القمم الفكرية بين المثقفين تضربهم ، وتوقع بهم ، وتسخر منهم ، وكانت نتيجة هذا التصرف أن انكمش الباقون من المثقفين حتى لا يقع بهم ما وقع للدكتور السنهوري ولأساتذة الجامعات الذين فصلوا واعتقلوا ، وقام حاجز حصين بين الثورة وبين المثقفين ، وظهر ذلك الاصطلاح الذي سبق أن تكلمنا عنه ، وهو الاعتماد على أهل الثقة وعدم الاهتمام بأهل الكفاءة أو الخبرة .

وانجهدت الثورة لتتزو كل مجال بالضباط كما ذكرنا من قبل ، فأصبح منهم أكثر المحافظين ، وأكثر الوزراء ، وأكثر السفراء ، فكان العسكريون يشغلون ٧٢٪ من الوظائف الكبرى بوزارة الخارجية سنة ١٩٦٢ ، وكان جميع سفراء أوروبا ذلك العام من العسكريين ، فيما عدا ثلاثة كانوا من المدنيين ، وتطلع العسكريون حتى إلى المناصب الرياضية ، بل إلى الطرق الصوفية ، فأصبح عبد الحكيم عامر مشرفاً على الطرق الصوفية ، ورئيساً لاتحاد كرة القدم ، وعين حسين الشافعي رئيساً لاتحاد القروسية ، وعلى صبرى رئيساً لاتحاد السباحة ، ومجدي حسنين رئيساً لاتحاد التنس ، وعلى شفيق رئيساً لاتحاد الملاكمة ؛ وأصبح رؤساء الأندية من الضباط ، وأكثر أمناء الجامعات منهم ، وأصبح منهم الأمين العام للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، والمشرف على مديرية التحرير ، وأصبح منهم المشرفون على الصحافة والإعلام ، وبعبارة قصيرة : أصبحت المناصب الكبرى في أيديهم سواء عرفوا التزاماتها وتخصصاتها أو لم يعرفوا .

وأحس المثقفون أنهم أغراب في بلادهم وفي الهيئات التي يعملون بها ،

فهاجر منهم من هاجر ، وانكش الآخرون يؤدون عملهم في جو من اليأس والحسرة .

تلك هي حقيقة المشكلة بين الثورة وبين المثقفين ، أما كلام محمد حسين هيكل فكلام وحي فاسد اشترك في الجريمة ويحاول أن يدافع عن نفسه أمام الجماهير .

وجاءت نتائج إبعاد المثقفين ، وكانت نتائج تدعو للحسرة والألم ، كانت فشلاً في كل ميدان ، وهزائم في كل معركة ، وتراجعاً في كل مجال ، وكان الثوار يحسون أحياناً بفراغ هائل بسبب بُعد المثقفين عنهم ، وكان المثقفون دائماً مستعدين للعودة للمشاركة في الجهد ، ولكن بشروط بسيطة طبيعية هي :

١ - المطالبة بعودة الجيش إلى الثكنات، وأن يرتبط الجيش بمهمته العسكرية قبل كل شيء .

٢ - المطالبة بعودة الحياة النيابية والأحزاب السياسية التي تعبر عن اتجاهات الجماهير .

٣ - الاعتماد على أهل الكفاءة في كل الأمور التي تحتاج لكفاءة ، وإيضاح أن تسمية « أهل الثقة » تسمية باطلة فكل المصريين ينبغي أن يكون موثقاً بهم ، وأن يوضع كل منهم في المجال الذي يناسبه .

وقد وضع محمد حسين هيكل هذه الشروط بصيغة ملتوية في مقالته التي نشرها في صحيفة الأهرام بعنوان « أزمة المثقفين » وكان يشير إلى هذه الشروط على أنها رجعية من المثقفين ، وتناول منهم ، وقد انصم له في هذه الحملة على المثقفين ضابط اسمه صلاح دسوقي كان يرى أن المثقفين عبء على الحياة المصرية ، وأن دولا ب الحياة يمكن أن يسير بدونهم ، دون أدنى حرج .

وإذا أدنا أن نتعرف على صلاح دسوق الذى هاجم المثقفين ، فإننا نعود إلى محمد نجيب الذى يقول عنه : كان صلاح دسوق ضابط شرطة مقرباً من جمال عبد الناصر ، وقد عينه فى وزارة الداخلية أركان حرب الوزارة ، وأعطاه صلاحيات الوزير لكى لا يترك زكريا محيى الدين ينفرد بوزارة الداخلية ، وظل صلاح دسوق مقرباً من جمال عبد الناصر حتى أصبح محافظاً للقاهرة ثم سفيراً ، وفجأة فصله جمال عبد الناصر من وظيفته ، وقال إنه تأكد من أنه من عملاء الأمريكان ، وأن المخابرات المركزية الأمريكية جندته عميلاً لها ، وقد رفض صلاح دسوق العودة إلى مصر بعد فصله من وظيفة السفير ، ثم تمّ تعيينه فى منصب كبير بالأمم المتحدة دون موافقة مصر وبمساعدة أمريكا ، وما زال صلاح دسوق مقبياً خارج مصر حتى الآن^(١).

ما أجهل النظام الذى يعتبر المثقفين أئمة ، وهم أشعة الضوء التى تحمل للبلاد الهداية والرشاد .

(١) كلمتى التاريخ ص ٧٠

قضية الاستيراد الكبرى

يتحدث المستشار محمد عبد السلام عن قضية انحراف مالى خطيرة ، عرفها هذا العام (١٩٦٣) وتسمى قضية الاستيراد (الجناية ٣٨١/١٩٦٣) وفيما يلي كلماته عنها :

اتُّهم في هذه القضية عشرون شخصاً من كبار العاملين في إدارتي التصدير والاستيراد ، وشركات القطاع العام ، ومن كبار التجار المسيطرين على السوق الداخلية والخارجية ؛ وقد اتُّهم هؤلاء بتهمة الرشوة والتربُّح واستغلال النفوذ ، ووصل رقم المبالغ موضوع الاتهام إلى عشرات الألوف من الجنيهات ، وكان من بين المتهمين جمال فؤاد صهر على صبرى رئيس الوزراء آنذاك ، وكان هذا المتهم يشغل منصب رئيس مجلس إدارة شركة من شركات القطاع العام ، وكان من بين التهم المسندة إليه حصوله من أحد كبار التجار على رشوة قدرها ١٣٠٠٠ جنيه في مقابل استعمال نفوذه للحصول لهذا التاجر على تنازل عن تراخيص استيراد قيمتها ١٠٠٠٠٠ جنيه ، وذلك على الرغم من حظر مباشرة عمليات الاستيراد بواسطة القطاع الخاص .

وبمُحِّث هذه القضية مع وجود رئيس الوزراء في منصبه حامياً لصهره كان مشكلة كبرى ، ولعل هذا هو السبب في أن الحكم صدر بإدانة ثلاثة من المتهمين وببراءة الباقين ومنهم صهر رئيس الوزراء .

ويقول المستشار محمد عبد السلام إنه اتجه إلى الطعن في الحكم إذ ظهر له بعد دراسته عدم سلامته ، ولم يخبر وزير العدل باتجاهه في الطعن في الحكم ، إذ لم يتوقع من الوزير أن يقف ضد رغبة رئيس الوزراء ، ولهذا سار النائب العام على مسئوليته ليطعن في الحكم ، وكانت الأدلة قوية عنده ، ويقول إنه كان يتجه إلى ضرب كبار المنحرفين والقضاء على موجة الفساد ، وقد نُشِرَ أسباب الطعن في الصحف فجأة ، مما أثار الوزير عليه ، ولكن

مكتب رئيس الوزراء حرص بطبيعة الحال على تحرير رد^١ على أسباب الطعن ثم فوجيء النائب العام برئيس الجمهورية يصدّق على الحكم الذى طعن النائب العام فيه ، وكان معنى هذا بطبيعة الحال إلغاء الطعن (١) .

وتعليقنا على هذه القضية يبرز عدة وجوه :

١ - نُظرت هذه القضية ، ورئيس الوزراء فى منصبه ، وصهره كذلك فى منصبه .

٢ - أجمعت النيابة العامة على أن الحكم ليس عادلاً ، وأنه يجب الطعن فيه .

٣ - عمد مكتب رئيس الوزراء بتحرير رد مسهب يعارض عناصر الطعن .

٤ - وقف رئيس الجمهورية مؤيداً جانب المنحرفين ، وكان ينبغى أن يؤيد جانب النائب العام .

ذلك نموذج قصير لقضايا الانحراف التى كانت شديدة الانتشار ، وكانت نجد حوثاً من أصحاب السلطان .

(١) المستشار محمد عبد السلام : سنوات عصية ص ٩ و ١٠ بعدها .

حوادث سنة ١٩٦٤

اليمن

ما تزال اليمن هى الشغل الشاغل للدولة ، وما تزال الصحافة مسخرة للحديث عن قضية اليمن ، والانتصارات هناك ، وذكرُ المعارك التى حققت النصر ، وما زالت تروى قصص بطولة قام بها المصريون ضد رجال اليمن !! ولا تزال تحقيقات صحفية تنشر للقادة عن البطولات الحارقة التى حققها أبطالنا هناك .

أما فى مصر فكل إصلاح تأجل ، وقد بدأت نتائج إهمال المرافق تظهر فى شكل طفح للمجارى يغمر الشوارع حتى فى أرقى الأحياء ، وفى شكل مطبات فى الطرق حتى فى شوارع الدرجة الأولى ، وفى شكل قلة سيارات الأتوبيس وكثرة العطب فيها ، ثم فى شكل الحبز الذى ازداد سواداً ، والأسواق التى ازدادت اختناقاً ، والسلع التى ازدادت اختفاءً ، وأصبح مصدر نعيمنا أن يعود جندي من اليمن يحمل معه بعض الشاي: وبعض الهدايا وراديو ترانزستور، ويقول إن هذه الخيرات تكتظبها أسواق اليمن وشوارعه، فكانت وحدها التى تخفف آلام الشعب الصبور .

مؤتمرات قمة

بين الجماعة التي كانت تعانيها مصر ، وبين إهمال المرافق الذي تحدث عنه أنور السادات كما رويننا من قبل ، بين هذا وذاك شهدت مصر أربعة مؤتمرات قمة خلال عام ١٩٦٤ ومن الواضح أن مؤتمرات القمة نوع رفيع من البدخ والترف ، وقد قدم عبد الناصر هذا البدخ لضيوفه ربما ليرد على الشتمات التي كانت شائعة عن الأزمة الاقتصادية المصرية ، وربما ليظهر بمظهر المضيف العظيم معتمداً على ما حياه الله مصر من طبيعة ممتازة وشعب أصيل ، وهذه المؤتمرات هي :

- ١ - مؤتمر القمة العربي الأول وقد عقد في القاهرة في يناير سنة ١٩٦٤
- ٢ - مؤتمر قمة للدول الإفريقية وقد عقد في مايو ١٩٦٤ ويفخر محمد حسنين هيكل بهذا المؤتمر ونتائجه فيذكر أن إفريقيا كلها اجتمعت في مصر واتخذت قراراً خطيراً إذ اعتبرت إسرائيل مثل روديسيا استعماراً استيطانياً^(١).
- ٣ - مؤتمر القمة العربي الثاني ، وقد عقد في الإسكندرية في سبتمبر سنة ١٩٦٤

- ٤ - مؤتمر قمة للدول عدم الانحياز ، وقد عقد بالقاهرة في أكتوبر سنة ١٩٦٤ .

ويقول محمد حسنين هيكل^(٢) إن مؤتمر القمة العربي الأول والثاني لم يحلا المتناقضات العربية . . . وهذا اعتراف واضح بفشلهما ، ومن المؤكد أن أهم القضايا العربية آنذاك كان إيقاف الحرب في اليمن ، وسحب الجيوش الأجنبية من اليمن ، وترك اليمنيين ليقرروا مستقبلهم كما يريدون ، بعد

(١) بصراحة عن عبد الناصر ص ١٧٤

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة .

إبعاد الإمام الذى كان فى الحق حارساً للتخلف والبدائية ، ولكن المؤتمرين لم يحققوا للناس شيئاً ، فظل جيشنا باليمن كوسيلة لاستنفاد الجهد والدم والمال ، بل سحب من سيناء مزيد من الجيوش لدعم الجيش فى اليمن .

وكانت جلسات مؤتمر القمة العربى بالقاهرة تعقد فى مقر جامعة الدول العربية على كورنيش النيل ، وكانت الوفود العربية تقيم بفندق هيلتون على النيل أيضاً ، وقد استدعى المظهر الناصرى أن يُشيدَ معبراً فاخراً يربط بين الفندق ومقر الجلسات حتى لا ينزل الضيوف إلى الشارع ليصلوا إلى هذا المقر ، إنها مظاهر السيادة التى لا تتطلع إلا إلى المجد الشخصى مُشبهةً الوجه عن الشعب البائس .

وإذا كانت مؤتمرات القمة العربية لم تأت بباطل ، فإن مؤتمر قمة عدم الانحياز كان أجدر بالبعد عن الفائدة ، وقد ظلت مؤتمرات عدم الانحياز تتدحرج حتى هوت إلى أحضان كاسترو فى كوبا ، واتخذت قرارات ضد مصر فى اجتماعها بهافانا سنة ١٩٧٩ .

إن هذه المؤتمرات بتكاليفها ومظاهرها تؤكد أن الرئيس الحليل ، كان يعيش فى عالم غير العالم الذى يعيش فيه شعبه .

الدستور المؤقت

تحدثنا من قبل عن الدستور ، وأوردنا « مطالعات » في الدساتير المصرية ، وأما الآن نص الدستور المؤقت الذي نشرته الصحف المصرية في ٢٤/٣/١٩٦٤ ، ومن الخير أن نقتبس منه بضعة سطور :

في مقدمة الدستور حديث عن ثورة ٢٣ يوليو المجيدة ، وحديث عن الميثاق الذي تم استخلاصه من قلب معارك النضال ليكون دليلاً فكرياً يقود خطاً المستقبل وحديث عن التقدم المأمول إلى مرحلة الانطلاق العظيم التي بدأت مصر الزحف نحوه ، وحديث عن الاتحاد الاشتراكي وعن تنظيماته العظيمة .

ويتكون هذا الدستور من ١٦٩ مادة تجيء بعد هذه المقدمة نقتبس فيما يلي بعض المواد :

مادة ١ — الجمهورية العربية المتحدة دولة ديمقراطية اشتراكية تقوم على تحالف قوى الشعب العاملة .

مادة ٣ — الوحدة الوطنية يصنعها تحالف قوى الشعب من فلاحين ، وعمال ، وجنود ، ومثقفين ، ورأسمالية وطنية ، ومن هذه القوى يتكون الاتحاد الاشتراكي .

مادة ٢٣ — القوات المسلحة في الجمهورية العربية المتحدة ملك للشعب ومهمتها حماية مكاسب النضال الشعبي في الاشتراكية ، وحماية البلاد ، وسلامة أراضيها وسلامة أمنها .

مادة ٢٥ — لا جريمة ولا عقوبة إلا بناء على قانون .

مادة ٢٧ — لا يجوز القبض على أحد أو حبسه إلا وفق أحكام القانون .

- مادة ٢٨ - حق الدفاع أصالة أو بالوكالة يكفله القانون .
- مادة ٢٩ - كل متهم في جناية يجب أن يكون له من يدافع عنه .
- مادة ٣٠ - لا يجوز إبعاد مصرى عن البلاد أو منعه من العودة إليها .
- مادة ٣١ - لا يجوز أن يحظر على أى مصرى أن يقيم حيث يريد ، ولا يلزم الإقامة في مكان معين إلا في الأحوال المبينة في القانون .
- مادة ٣٣ - للمنازل حرمة ، فلا يجوز دخولها إلا في الأحوال المبينة في القانون ، وبالكيفية المنصوص عليها فيه .
- مادة ٣٥ - حرية الرأي والبحث العلمى مكفولة ، ولكل إنسان حق التعبير عن رأيه ونشره بالقول أو بالكتابة أو بالتصوير أو غير ذلك^٣ في حدود القانون .
- مادة ٣٦ - حرية الصحافة والطباعة والنشر مكفولة في حدود القانون .
- مادة ٣٧ - للمصريين حق الاجتماع في هدوء غير حاملين سلاحاً ، ودون حاجة إلى إخطار سابق ، والاجتماعات العامة والمواكب والتجمعات مباحة في حدود القانون .
- مادة ٤٨ - يتولى مجلس الأمة مراقبة أعمال السلطة التنفيذية .
- مادة ٤٩ - يتألف مجلس الأمة من أعضاء يُختارون بطريق الانتخاب السرى العام ويكون نصف أعضاء المجلس على الأقل من العمال والفلاحين .
- مادة ٨٣ - يراقب مجلس الأمة الحكومة وأعمالها ، وتعتبر الحكومة مسئولة أمام مجلس الأمة .
- مادة ٨٤ - لمجلس الأمة حق سحب الثقة من الحكومة أو من بعض أعضائها .
- مادة ٩٦ - لا يجوز الجمع بين عضوية مجلس الأمة وتولى الوظائف العامة في الحكومة ووحدات الإدارة المحلية .

مادة ٩٧ - لا يجوز لأى عضو من أعضاء مجلس الأمة أن يُعيّن في مؤسسة أو شركة خلال مدة عضويته .

مادة ٩٨ - لا يجوز لأى عضو من أعضاء مجلس الأمة في أثناء عضويته أن يشتري أو يستأجر من أموال الدولة ، أو يؤجرها أو يبيعها شيئاً من أملاكه أو أن يقايضها عليها .

مادة ١٠٠ - يتولى رئيس الجمهورية السلطة التنفيذية ويمارسها على الوجه المبين في الدستور .

مادة ١٠٢ - يرشح مجلس الأمة رئيس الجمهورية ويعرض التشريع على المواطنين لاستفتائهم عليه .

مادة ١١٩ - إذا حدث فيما بين أدوار انعقاد مجلس الأمة أو فترة حله ما يوجب الإسراع في اتخاذ تدابير لا تحتمل التأخير ، جاز لرئيس الجمهورية أن يصدر في شأنها قرارات لها قوة القانون .

مادة ١٢٠ - لرئيس الجمهورية في الأحوال الاستثنائية بناء على تفويض من مجلس الأمة أن يصدر قرارات لها قوة القانون .

مادة ١٣٤ - رئيس الجمهورية هو الذى يعلن الحرب بعد موافقة مجلس الأمة .

مادة ٢٢٥ - رئيس الجمهورية يبرم المعاهدات ويبلغها مجلس الأمة .

تلك هي أهم المواد التى احتواها دستور ١٩٦٤ ، وقد سبق لنا عند الحديث عن الدستور أن تكلمنا عن عنوان فرعى هو « النصوص والواقع » ونحن هنا نوجه النظر إلى ما فى هذا الدستور من نصوص لتقارن بالحياة الواقعية ، وستبدو بعض النصوص وهى حبر على ورق ، وستبدو نصوص أخرى وهى تعطى سلطاناً واسع المدى لرئيس الجمهورية ، والشعب هو الضحية فى الحالين .

برلمان ما بعد الوحدة

تحدثنا فيما سبق عن برلمان الوحدة الذي تم دون انتخاب بلق'ام عبدالناصر بتعيين أعضائه ، واجتمع لأول مرة في يونيو سنة ١٩٦٠ ؛ أى بعد بدء الوحدة بأكثر من عامين ، وقد انتهى هذا المجلس بانتهاء الوحدة في سبتمبر سنة ١٩٦١ .

وبعملية حساية بسيطة نجد أن المدة التي حظيت فيها مصر ببرلمان من أول الثورة حتى سنة ١٩٦٤ لا تصل عامين، وهذا يدل على أن الثورات العسكرية لا ترغب في البرلمانات ولا تطبيق النقد ، ومع أن برلمانات عبد الناصر كانت صامته ولا تجيد إلا التصفيق فإن عبد الناصر كان لا يريد لها على أى حال .

وكان نصف البرلمان الذي انعقد في سنة ١٩٦٤ من العمال والفلاحين لأول مرة ، ويعترف عبد الناصر بأنه « ما زالت الحكومة تضع نفسها فوق مساءلة الشعب » (١) .

مجلس الرياسة وقرار مزيف

في حوادث سنة ١٩٦٢ تحدثنا عن مجلس الرياسة الذى كان ظاهره جعل القيادة جماعية وباطنه الحد من سلطات المشير ، وقلنا إن المجلس فشل في تحديد سلطات المشير ، فاتجه عبد الناصر إلى إهمال هذا المجلس وعدم دعوته إلا بعد فترات طويلة ولأمر تافهة .

وفي هذا العام (١٩٦٤) حدث شيء خطير يرتبط بهذا المجلس، وقد كُشِفَ الستار عن هذا الشيء الخطير بعد عشر سنوات ، فقد أصدر جمال عبد الناصر قراراً بقانون رقم ١١٩ لسنة ١٩٦٤ بشأن تدابير أمن الدولة العليا ، ونحوّل هذا القرار بقانون لرئيس الجمهورية - بدون إبداء الأسباب - أن يقبض على المواطنين ، وأن يحتجزهم ، وأن يفرض الحراسة على أموالهم وممتلكاتهم ... كما نحوّل هذا القرار بقانون لرئيس الجمهورية الحق في أن يأمر بتشكيل محاكم استثنائية من العنصر العسكرى الخالص لمحاكمة المواطنين عما هو منسوب إليهم من إجراءات ، وجاء في مقدمة هذا القرار بقانون أنه صدر بموافقة مجلس الرياسة ، وقد قرر البغدادى وكمال الدين حسين بالمحكمة أن هذا القرار بقانون لم يعرض على مجلس الرياسة ، وأن هذا القول تزوير للواقع والتاريخ وقرر ذلك أيضاً نور الدين طراف .

وقد أصدر جمال عبد الناصر قراراً رقم ١ لسنة ١٩٧٥ بتشكيل محكمة عسكرية خاصة برياسة الدجوى لمحاكمة الإخوان المسلمين ؛ وذكر في قرار تشكيلها أنها شكاك بناء على القرار بقانون رقم ١١٩ لسنة ١٩٦٤ ، ولما كان هذا القرار بقانون غير سليم من الناحية الدستورية لأنه لم يصدر عن

مجلس الرياسة، فإن القرار بتشكيل محكمة عسكرية يصبح غير دستوري كذلك وبالتالي تصبح الأحكام الصادرة من هذه المحكمة غير دستورية، وليت شعري ماذا يجدي هذا القول بعد أن حكمت هذه المحكمة بإعدام بعض الناس، ونُفذ الإعدام فيهم، وبعد أن سُجِن آخرون وضودرت أموالهم ؟

وهذه المعلومات التي أوردناها مستقاة من شهادة عبد اللطيف البغدادي وكمال الدين حسين ونور الدين طراف ، وقد أدلى هؤلاء بشهاداتهم في غرفة المشورة بمحكمة جنوب القاهرة يوم ١٩٧٥/٦/٢٦ وظهر ذلك بصحف القاهرة في اليوم التالي ، ولا بد أن نقتبس بعض العبارات مما دار حول هذا الموضوع لنرى كيف كان عبد الناصر يستهين بأرواح الناس وحقوقهم .

قالت صحيفة الجمهورية في ١٩٧٥/٦/٣٠ :

إن القرار بقانون رقم ١١٩ لسنة ١٩٦٤ بشأن تدابير أمن الدولة الذي استند إليه جمال عبد الناصر في تشكيل المحكمة العسكرية لم يسبق لإصداره موافقة عليه من مجلس الرياسة ، عملاً بما كان يوجبه الإعلان الدستوري في ١٩٦٢/٩/٢٧ ، ومن ثم فهو قانون معدوم من الوجهة الدستورية؛ فضلاً عن أنه مزور ، إذ أثبت عبد الناصر في ديباجته أنه صدر بناء على موافقة مجلس الرياسة ، خلافاً للحقيقة .

وقرر عبد اللطيف البغدادي النقاط التالية :

— إنه كان عضواً بهذا المجلس منذ إنشائه حتى ٢٦ مارس ١٩٦٢ وهذا القرار بقانون صدر يوم ٢٤ مارس ١٩٦٤ وهو لم يعرض على مجلس الرياسة خلال وجودي به .

— مجلس الرياسة باشر أعماله في الشهور الثلاثة الأولى سنة ٦٢ ، ثم بدأ عبد الناصر يعمل على تجميد نشاط المجلس بعدم دعوته للانعقاد، أو أن تعرض (٢٢ - التاريخ . ج ٩)

عليه مسائل فرعية بالتمرير ، ولم يتم تنفيذ تكوين الجهاز الفني الخاص به ، وكان من أسباب ذلك أن اعتزلت الحياة السياسية ، وقد صدرت عدة قرارات ، وأعلنت في الصحف دون عرضها على المجلس .

— عند ما كان المجلس يباشر اختصاصاته في فترة الشهور الثلاثة الأولى

أحس جمال عبد الناصر بفقده لقوته ، فألغى انعقاد المجلس ، ووصل الوضع به إلى أكثر مما وصل إليه فرعون في زمانه أو اللورد كرومر في عصره .

وقال كمال الدين حسين ما يلي :

— خلال الوحدة مع سوريا وبعد انفصام الوحدة انتشرت القرارات الفردية التي سببت كثيراً من الكوارث ، فتم الاتفاق على تعيين مجلس رياسته ليكون وسيلة للقيادة الجماعية التي تحمل محل القيادة الفردية ، ولم يُعرض القرار رقم ١١٩ سنة ١٩٦٤ على مجلس الرياسة طيلة وجودي به وكانت تقطع يدي لو وقعت عليه ، لأنني أعلم الآثار التي تترتب على إطلاق السلطة لعبد الناصر .

— إن فرعون نفسه وفي عصره لم يكن يتمتع بمثل السلطة التي ذكرها

هذا القانون .

— أرسلت خطاباً إلى عبد الناصر قلت له فيه « اتق الله » فكان جزائي

أن اعتقلت مدة ثلاثة أشهر .

— في الفترة الأولى عند ما كان مجلس الرياسة يباشر مسئولياته حدثت مشادات كثيرة بشأن الحريات والأوضاع الاقتصادية ، ولكن جمال عبد الناصر بصفته رئيس المجلس كان يفضي الاجتماع ، وينصرف ، ولا يعبا بشيء .

وعند ما سئل كمال الدين حسين باحتمال عرض هذا القرار بقانون على مجلس الرياسة بعد استقالته ، روى أنه كان حديثاً في زيارة حسين الشافعي الذي ظل في عمله بمجلس الرياسة حتى انتهت مدة هذا المجلس ، وسأله عن

عرض هذا القرار بقانون على مجلس الرياسة ، فقال حسين الشافعي إنه لم يعلم بالقرار ، ولم يسبق عرضه عليه ، كما أنه لم يوافق على إصداره .

أقوال نور الدين طراف بالمحكمة :

وسئل نور الدين طراف عما إذا كان هذا القرار بقانون قد عرض على المجلس فأجاب بأنه يرجح أنه لم يعرض ، لأن مثل هذا القانون كان سيثير نقاشاً لخطورة ما يتضمنه من قواعد كانت ستعلق قطعاً بذكري ، وكوني لا أذكر شيئاً من هذا القانون يجعلني أرجح أنه لم يعرض .

وسئل نور الدين طراف : ألم يصدر تفويض لجمال عبد الناصر ببعض اختصاصات المجلس ، فأجاب بالنفي .

وسئل عما إذا كان جمال عبد الناصر عرض على المجلس استقالته كمال الدين حسين والبغدادى ، فأجاب بالنفي كذلك ، وذكر أن المجلس هو صاحب الاختصاص في قبول الاستقالات أو عدم قبولها .

وبعد ، لقد اتضح أن هذا القانون الذي أصدره عبد الناصر غير دستوري وأنه تزوير ، وقد ترتب عليه إزهاق الأرواح وتشريد المواطنين ، ومصادرة الأموال ، ومن حق كل مظلوم أن يطالب بالتعويض اللازم ولكن يتحتم أن تؤخذ التعويضات من مال المسئول عن هذا التزوير وذلك الخيف ، حتى

ينضب ذلك المال (١) ...

إن السكوت عن فرعون قد يبعث فراعين آخرين ، فيجب أن يحس كل واحد أنه مسئول إن لم يكن اليوم فغداً ، وبذلك فقط نحملنا حاضرننا ومستقبلنا ...

(١) كان من توافق المجرم أن اتجه المظلومون هذا الاتجاه فقد نشرت أخبار اليوم في ١٩٧٥/٧/٥ الخبر التالي :

رفع محمد شمس الدين الشناوى ، المحامى ، دعوى تعويض ضد ورثة المسئولين السابقين عن حكم مصر ، طلب تعويضاً قدره مليون جنيه مقابل الأضرار المادية والأدبية التي أصابته هو وأسرته نتيجة لاعتقاله وتعميده مدة ٦ سنوات بدون سبب قانوني .

إنشاء التنظيم الطليعى

التنظيم الطليعى واحد من المنشآت الخطيرة التى كوَّنها جناح من مراكز القوى لمواجهة جناح آخر منها ، وقد كُؤن هذا التنظيم مرأ سنة ١٩٦٤ وله أمانة عامة أعضاؤها هم : شعراوى جمعة ، وسعد زايد ، وحلمى السعيد ، ومحمد فايق ، وسامى شرف ، وأحمد كامل ، ويوسف غزولى ، ومحمود عروق ، ومحمود أمين العالم ، وُعِين أسعد خليل سكرتير للتنظيم (١) .

وارتبط التنظيم الطليعى الذى يمثل حكومة عبد الناصر بالهيئات اليسارية ، وقام تحالف بين الجماعتين أعقبه إعلان الهيئات اليسارية حل منظماتها والاندماج فى التنظيم الجديد والعمل من خلاله — وقد أشرنا لذلك من قبل — وارتبط هذا التنظيم بجماعات الشباب ، ودرَّب هؤلاء تدريباً دقيقاً ليكونوا مع التنظيم أداة للسيطرة على مراكز الإنتاج ، ومراكز الإعلام ، ثم الانتقال إلى مرحلة أخرى هى تحكم الفرد والحزب الواحد والطبقة الواحدة ، وهى كلها اتجاهات يسارية كما هو واضح ، ثم محاربة الشرفاء تحت ستار « محاربة الثورة المضادة » .

ويقول أنور السادات (٢) فى ذلك : وكالعادة كان عبد الناصر يعتبر أى احتجاج أو اعتراض أو نقد أو حتى محاولة تقصُّى الحقائق ومناقشتها أو مجرد التنفيس عما بالصدر ، ثورة مضادة ، ولا بد من إجراءات لمواجهةها .

وعنى التنظيم الطليعى بوسائل الإعلام ، فأشرف كثير من أعضائه على

(١) موسى صبرى وثائق ١٥ مايو ص ٢٠٩

(٢) البحث عن الذات ص ٢١٥

المصحافة والإذاعة ، وصدرت له مجلات خاصة أهمها مجلة الطليعة ، وقد جاء في باكورة أعدادها ما يلي :

« حجر الزاوية في نجاح هذه المرحلة ، هو جهاز سياسي قائد وواع بقوانين الاشتراكية العلمية ، وبوحدته الفكرية ، وصلابته التنظيمية ، ثم تنظيم من كادر ثوري قيادي ، منبث في كل مجالات النشاط السياسي والاجتماعي والثقافي ، ونوايا صلبة منتشرة في كافة مجالات الإنتاج^(١) .

ثم صدرت نشرة « الاشتراكي » ، وظهر المعهد العالي للدراسات الاشتراكية الذي جُنِّد فيه مجموعة من الأساتذة اليساريين أو الطامعين .

وانتجبه التنظيم الطليعي إلى أن يعمل بالتجسس ليصبح مصدراً للمعلومات ومنفذاً للتوجيهات^(٢) . والعجيب أن هيئة من أعظم الهيئات وجد منها من يقع في الشرك فيعمل جاسوساً على زملائه بل جاسوساً عاماً ، تلك الهيئة هي للأسف هيئة القضاء ، فإنها مع ترفعها عن الدنيا ، زل بعض أعضائها فعملوا في خدمة هذا التنظيم ، ويقول المستشار مختار نصار :

« بعض أفراد التنظيم السري من القضاة لم يكتف بمراقبة القضاة من زملائهم وإعداد التقارير عنهم ، بل راحوا يتلمسون الحصول على تقارير عن المواطنين من أفراد الشعب ، فقد حدث أن ارتدى أحد أفراد التنظيم السري في القضاء جلباباً وتعقب مواطنين أبرياء كانوا يتحدثون في شئون عامة لا علاقة لها بالقضاء ، وسجل أحاديثهم ورفعها إلى ذوى الشأن^(٣) .

ويذكر الأستاذ موسى صبري أن على صبري أراد أن يثبت ولاءه

(١) مجلة الطليعة عدد فبراير ١٩٦٥

(٢) موسى صبري : وثائق ١٥ مايو ص ٢٠٧

(٣) المستشار مختار : نصار مذكرات المدالة في مصر ص ٩٠ . ٩١ وانظر مقالاً للاستاذ لمي

الطليعي في صحيفة الأخبار (١٩٧٨/٧/٢٧) .

للجلال عبد الناصر ، فعمل على أن يكون مركز قوة مضاداً لعبد الحكيم عامر ، وابتكر في هذا أسلوباً خطيراً هو إنشاء منظمات الشباب وربطها بالتنظيم الطليعي ، وفي وقت ما أصدر تعليمات إلى هذه المنظمات بأن تكون جاهزة ، وأن تعد نفسها لمواجهة القوات المسلحة إذا ما قامت هذه القوات مؤيدة عامر ضد عبد الناصر (١) .

وهكذا كان مظهر الحكام ، كلٌّ يحاول تدمير الآخر وإن تظاهروا بالوفاق والوثام .

وفي الجزء العاشر من هذه الموسوعة سنرى - إن شاء الله - محاولة هذا التنظيم الوقوف ضد الرئيس محمد أنور السادات وإلقاء ببعض المظاهرات ، ولكن الرئيس قضى على هذه العصاة بمهارة في حركة ١٥ مايو سنة ١٩٧١ .

(١) موسى صبرى : وثائق ١٥ مايو ص ١٨

الحراسة

لعبت الحراسة دوراً مهماً في تمزيق الوطن المصرى وتهديده ، وإضعاف الجبهة الداخلية ، وزوال الثقة بين الحاكم والمحكوم .

والحراسة كلمة أبرزها قاموس السياسة المصرية في الستينات ، ومدلوها الواقعى يختلف تماماً عن مدلوها اللغوى ، فإذا كانت في اللغة تفيد أن نحرس شيئاً وترعاه ، فإن مدلوها الواقعى كان مختلفاً ، فقد كانت تقريباً تفيد المصادرة ، وحرمان الملاك من أملاكهم بدون أسباب عادلة ، وكانت تفرض بقرارات من رئيس الجمهورية .

وقد وافق مجلس الشعب في أوائل يوليو سنة ١٩٧٤ على قانون بتصفية الحراسات وإعادة الأموال إلى أصحابها ، وحدد تعويضات عادلة للذين بيعت ممتلكاتهم ، وأتاح الفرصة لمن كانوا تحت الحراسة ولم يقنعوا بالتعويضات أن يتظلموا أمام المحاكم .

وبهذه المناسبة نشرت « أخبار اليوم » الصادرة في ١٩٧٤/٧/٦ تحقيقاً تحدث فيه بعض المسئولين عن صور من المآسى والعنت التي كانت طابع ذلك النظام الجائر ، ونحن نقتبس بتصرف من هذا التحقيق بعض الفقرات :

أنواع الحراسة :

الحراسة التي فرضت على بعض المواطنين المصريين والتي كان موضوعها مثار مناقشات طويلة ، وصدرت بشأنها قوانين في المدة الأخيرة كانت ثلاثة أنواع :

١ - الحراسة التي فرضت في أعقاب القوانين الاشتراكية في أكتوبر سنة ١٩٦١ وانتهت بعد دستور مارس ١٩٦٤ وصدر القانون ١٥٠ الذى

قرر أيلولة الأموال التي خضعت للحراسة إلى الدولة وتعويض أصحابها بما لا يجاوز ٣٠ ألف جنيه من قيمة المال ، وأن يكون التعويض على شكل سندات ومن الواضح أن ذلك قمة الظلم .

٢ — هناك الحراسات التي وقعت طبقاً لقانون أمن الدولة وهو القانون رقم ١١٩ لسنة ١٩٦٤ ، وكان يجيز فرض الحراسة في حالة وجود دلائل على قيام الشخص بأى نشاط ضار ، وكانت بذلك أشبه بالعقوبة . ولولى الأمر وحده أن يصف أى إنسان بأن نشاطه ضار بدون أى مقياس آخر ، ويصادر أملاكه بناء على ذلك .

والقانون رقم ١١٩ لسنة ١٩٦٤ هو القانون المزور الذى أشرنا إليه منذ قليل .

٣ — الحراسة التي عرفت بحراسة تصفية الإقطاع بعد حوادث كميشن في مايو ١٩٦٦ . وصدرت على بعض الأشخاص باعتبارهم من أصحاب النفوذ والسيطرة .

لا ضابط للحراسة :

ويعلق الدكتور جمال العطيني وكيل مجلس الشعب ورئيس اللجنة التشريعية على قانون الحراسات بقوله :

نلاحظ أنه بمراجعة حالات الحراسة التي فرضها النظام الماضى لا نجد ضابطاً أو معياراً لفرضها أو رفعها أو الاستثناء منها ؛ فالحراسات انى فرضت عام ١٩٦١ بحجة أنها وسيلة للحد من الثروات الكبيرة لم تشمل أفراداً كثيرين كانوا يمتلكون ثروات طائلة ، كما أنها لم تشمل الثروات الجديدة الهائلة التي نشأت ما دام أصحابها ممن يتمتعون بالرضا ، ولم تمتد لهذه الثروات الرقابة أو الخداسة ، وشملت أناساً لا يملك الواحد منهم سوى بضعة مئات من الجنيهات وأحياناً لا يملك شيئاً على الإطلاق .

وفى بعض الحالات كان يُستثنى شخص وثرَدُ إليه أمواله بالكامل وأحيانا تفسخ عقود البيع التى عقدها الدولة مع المشترين . . وفى أحوال أخرى ترفع الحراسة دون رد الأملاك . وقد استسهلت السلطة فى الماضى إجراء الحراسة ، فكانت تفرضها فى حالات اعتقالات أحد المواطنين حتى أنها فرضت الحراسة مرة على خفير إحدى الشركات لاتهامه فى إحدى القضايا الجنائية . وكل هذا فتح الباب للتحكم والانحراف .

ويضيف الدكتور العتيبي : لذلك تم وضع قانون لتصفية الحراسات باعتبارها إجراء انحراف عن الطريق السليم .

وبعد الآن لن نفرض حراسات إلا عن طريق المدعى العام الاشتراكى ، ومحكمة الحراسات وبضمانات حددها القانون كما ورد فى دستور ١٩٧١ - وأهمها أن يواجه الخاضع للحراسة بما هو منسوب إليه ويُسمع دفاعه ، ثم يحقق فيه ، وهذه الضمانات الأساسية لم تكن موجودة من قبل ، وعلى هذا فإن رئيس الجمهورية ليس له الحق بعد الآن فى فرض الحراسة ، وإنما يفرضها المدعى العام الاشتراكى عند الضرورة . . والمدعى العام يمكن مساءلته أمام مجلس الشعب وأمام الرأى العام . . أما رئيس الجمهورية فإنه بحكم الدستور لايسأل سياسياً أمام مجلس الشعب ، وقد احتمت مراكر القوى السابقة خلف هذا الوضع الاستورى . كما أن الحراسة لايفرضها قرار المدعى العام الاشتراكى بل يقتصر قراره على التحفظ على الأموال تحفظاً مؤقتاً ويحيل الموضوع إلى محكمة الحراسة وهى التى تفرض الحراسة أو لاتفرضها. ومن هنا فإن الحراسة أصبحت تفرض بحكم قضائى بعد ضمانات أكيدة فى حالات محددة .

من فضائح الحراسة :

وقد حدثت فضائح ومهازل فى أعقاب فرض الحراسة بأنواعها فى عهد

عبد الناصر ويعلق على هذا الدكتور يوسف أمين والى المستشار السابق للإصلاح الزراعى ورئيس قسم البساتين بزراعة عين شمس حالياً فيقول : إن فرض الحراسة كان إجراء قصدت به السلطة أحياناً التنكيل ببعض العناصر التى افترض فيها عدم الولاء للسلطة ، وكانت الحراسة خسارة على الدولة أكثر منها مكسباً . . فقد أدت إلى ضعف الإنتاج بصورة مخجلة. فى أثناء إدارة الحراسة مقارناً بالإنتاج قبلها ، كما شأب تصرفات الحراسة عيوباً من حيث الإدارة ، ومن حيث الاستغلال . وفيما يلى مثال لذلك :

عائلة فرضت عليها الحراسة فى الفترة من سبتمبر ١٩٦٦ إلى يوليو ١٩٦٧ على مائة فدان كانت تعطى إيراداً سنوياً قدره ١٥ ألف جنيه بالإضافة إلى أربع ماكينات للطحن تعطى إيراداً قدره ثلاثة آلاف جنيه سنوياً وماشية تقدر قيمتها بحوالى خمسة آلاف جنيه . . وبعد رفع الحراسة قدّمت الحراسة لأصحاب الأرض كشوفاً بديون ومصروفات على الأرض قدرها ١٥ ألف جنيه . . أما الماشية فقد باعوها . . وأصبح على أصحاب الأرض أن يدفعوا ديوناً بدلاً من أن يحصلوا على إيراد . .

وبعد ، هذه لمحة عن الحراسة التى عانى الجوع بسببها كثير من الأسر بدون ذنب ارتكبه هذه الأسر. وكان الدافع الوحيد لفرض الحراسة هو التشقى ، وبسبب هذا التشقى جاع أطفال ونساء أبرياء ، ومسهم الصر ، وقد نشرت أخبار اليوم صورة زنكوغرافية لشيخ بمبلغ ١٩٥ قرشاً ، كان المرتب الشهرى لسيدة من سيدات هذه الأسر هى سعدية مصطفى الشلقانى ، وكانت الحراسة تدفع هذا الشيخ لسيدة مصرية فى نفس الوقت الذى تقدّر لنفقات حمار -- تمتلكه الأسرة -- مبلغاً يزيد عن عشرين جنيهاً شهرياً

وكان المبلغ الذى يصرف إلى أحمد عبد الغفار (باشا) وزير الزراعة سابقاً هو ١٤٥ قرشاً شهرياً .

إنها الحق فترة مريرة بالنسبة لبلادنا ، فترة السنينات نذكرها لاجئين إلى الله أن ينتقم ممن أنزلوا بأهلينا الضر ، وممن كانوا حرباً شرسة على المواطنين ، وقُوى تجيد التخطيط للنيل منهم ، وفي نفس الوقت كانوا ينهارون أما خطط أعداء الله اليهود .

التلاعب بالناس وإجاعتهم :

كانت الحراسة وسيلة جديدة لجأ لها هؤلاء الزبانية لإجاعة الناس وتعذيبهم ، وقد سبقتها في هذا المجال « محكمة الثورة » التي حكمت بمصادرة أموال كثيرين ممن مثلوا أمامها ، ومن هؤلاء الدكتور أحمد النقيب وأولاده ثم صدر قرار جمهوري في عام ١٩٦٠ بإلغاء هذه الأحكام بالنسبة لبعض الذين حكم عليهم ، ورد الأموال لأصحابها ، ولكن من عجب أن هذا القرار اختفى ، فالزبانية كانوا ينقلون قرارات زعيمهم إذا كانت تُنزل الضرر بالناس ، ويخفونها إذا كان فيها بعض الإنصاف .

وقد نشرت أخبار اليوم نص هذا القرار الذي اختفى ورفع المحكوم عليهم قضايا يطلبون تنفيذ هذا القرار ف قضى لهم مجلس الدولة بذلك .

كم من المآسى حدثت للعائلات المصرية نتيجة قانون الحراسة الذي كان بعيداً كل البعد عن كل القيم والأديان ، وسيجيئ مزيد من الحديث عن الحراسة عند الكلام عن « تصفية الإقطاع » ضمن حوادث سنة ١٩٦٥ .

حوادث سنة ١٩٦٥

إطلاق يد الشيوعيين فى البلاد

قلنا فيما سبق إن وفاقاً تم بين الأحزاب الشيوعية وبين نظام الحكم الذى كان قائماً فى مصر ، وقد شهد عام ١٩٦٥ نتائج هذا الوفاق ، فى أبريل سنة ١٩٦٥ صدر القرار الجمهورى بالعفو الشامل عن جميع العقوبات الأصلية والتبعية ضد الشيوعيين ، وعقب ذلك فَرَضَت القيادة السياسية جماعات الماركسيين على المجتمع فى جميع المجالات ؛ فى أمانة الاتحاد الاشتراكي وبخاصة (أمانة الدعوة والفكر) ومعهد الدراسات الاشتراكية ، ورئاسة مجالس إدارات مؤسسات الكتاب ، والمسرح ، والسينما ، والمؤسسات الصحفية ، ونقابات الصحفيين ، والمحامين ، والنقابات العمالية ، واللجنة المركزية ، والبرامج الإذاعية ، وبخاصة صوت العرب ، والتليفزيون ، وجعلت لهم السيطرة تحريرياً وإدارياً على أخبار اليوم ، ودار الهلال ، وروز اليوسف ، وصحفات الرأى والفكر فى الجمهورية والمساء والأهرام ، هذا بالإضافة إلى ثلاث دور للنشر منحت للماركسيين واستغل الماركسيون هذه الفرص أسوأ استغلال ضد الأديان ، وضد الحريات ، وضد القيم .

لجنة تصفية الإقطاع

عجيب أن تظهر هذه التسمية سنة ١٩٦٥ فإن ما يسمى الإصلاح الزراعي قد قضى على الإقطاع قبل ذلك بثلاث عشرة سنة ، ولكن يبدو أن الأسماء التي استعملت للعسف كانت قد استُنفِدت كلها ، فلم يجد الطغاة إلا اسما كان قد اختفى تماماً ليصبح أداة للتنكيل بالشرفاء ، وبالذين لا يسرون في الركاب ، وهذا المعنى يقرره أنور السادات حين يقول : وقد صغفنا الإقطاع ، ووزعت الأرض على الفلاحين قبل هذا التاريخ بسنوات طويلة (١) .

ونستمر مع أنور السادات فنذكر أنه وصف هذه اللجنة أدق وصف وأحكم حين قال : إنها أقسى وأعنف ما شهدته مصر في تاريخها ، ولإنها كانت تمثل قمة الإرهاب والكبت والإذلال ، وامتهان الكرامة (٢) ولإنها اتجهت بشراسة ضد السياسيين القدامى باعتبارهم يقومون بثورة مضادة (٣) .

ووصفها موسى صبرى بقوله : كانت أعمال هذه اللجنة قمة السيطرة بلا حدود ، وبلا قانون وبالتحدى الكامل المستهتر لكل القيم والتقاليد ، ولم يجبر عملها على أية أسس ديمقراطية ، ومع هذا فقد كانت قراراتها لها قوة القانون ، وقد استباحَت أبشع الآثام ، كطرد السيدات من بيوت الأسر ليلاً وبملايس النوم ، فأصبحت بذلك جرحاً دائماً لأبسط التقاليد (٤) .

وكانت هذه اللجنة برئاسة عبد الحكيم عامر ، وكان له الحكم المطلق فيها دون بحث عن أسباب الحكم ، فهو بخياله المريض ، و بأعوان السوء

(١) البحث عن الذات ص ٢٢٢

(٢) البحث عن الذات ص ٢١٦

(٣) المرجع السابق ص ٢١٠

(٤) وثائق مايو ص ٧٩ ، ٨١

ين كل بالناس ، ويحقق فيهم مدلول الكلمات التي اقتبسناها آنفاً من أنور السادات وهي القسوة، والعنف، والإرهاب، والإذلال، وبدون رادع من خلق أو دين ، وبدون إحساس بأية مسئولية عما يرتكب من آثام .

ولنقتبس الآن صوراً من الهوى الذي كان يحكم في الناس ، وأول من نقتبس منه أنور السادات الذي يورد نماذج محددة من أعمال هذه اللجنة الدينية ، يقول سيادته :

في يوم وأنا في زيارة لقريتي « ميت أبو الكوم » التقيت بأحد أبناء القرية ، وهو مهندس زراعي فسألني عما إذا كنت قد اطلعت على قرار لجنة الإقطاع لمركز تلا ، فقلت : لالم أقرأ ، فأطلعني على إحدى الصحف اليومية فرأيت عدداً من العمدة ومن أهالي المنطقة وضموا تحت الحراسة وعزلوا من مراكزهم ، وكنت أعرفهم واحداً واحداً ، وكنت أعلم علم اليقين أنهم من خيرة الناس ، وأنهم جميعاً يؤيدون الثورة ما في ذلك شك ، فعدت بسيارتي للقاهرة ، وأنا غاضب وبحشت عن عبد الحكيم عامر حتى عرفت مكان وجوده ، فاتصلت به تليفونياً ، وسألته وأنا غاضب : كيف يحدث هذا ؟ إنه عبث بمقادير الناس ... فرد في هدوء قائلاً : وفيم الغضب ؟ نلغى القرار . وألغى القرار فعلاً ؛ وكان هذا هو القرار الوحيد الذي ألغى في نفس اليوم ، وبقي سواه من القرارات نافذة المفعول ، وهذه هي تجربتي الوحيدة مع لجنة تصفية الإقطاع ولكنني سمعت بعد ذلك قصصاً رهيبية تدل على مدى امتحان السلطة للإنسان المصري ، والقيم التي نشأ عليها ، فقد كانوا يقتحمون البيوت بالليل ، ويطردون النساء فيخرجن مع أطفالهن في الطرقات والأزقة يبحثن عن مأوى يسترن (١) .

ويستمر أنور السادات فيقول :

تطورت الأمور في لجنة الإقطاع فبلغت أقصى الضراوة في مارس ولابريل

(١) البحث عن الذات ص ٢١٦

ومايو سنة ١٩٦٧ ، وكانت اللجنة متجهة في تلك الفترة بالذات إلى تصفية العائلات ، وفي تقديري كان مستشارو جمال عبد الناصر يغذون في نفسه هذا الاتجاه ، وبخاصة مستشاره الصحفي الذي كان يمتد العائلات ويتحين الفرصة للشتم فيها ، ولذلك كان يطيب له ضرب العائلات وإذلال وامتهان كرامة الإنسان ، وقد استمر الحال على ذلك النمط إلى منتصف مايو حيث كان من المقرر أن يتم القضاء على العائلات جميعاً ، ولكن دخلت علينا السحابة الرهيبة القائمة في أواخر مايو ، وأوائل يونيو فأوقفت تلك الإجراءات ، فكل كارثة لها جانب آخر ، ويقول المثل الإنجليزي : « كل سيابة داكنة لها شريط فضي يبرق وسط العتمة » ولم تنعقد لجنة الإقطاع بعد ١٥ مايو إذ ابتداء من ٢٠ و ٢١ و ٢٢ مايو دخلنا معركة التمهيد لكارثة ٥ يونيو (١) .

ومثال آخر نأخذه من رجل قريب الصلة بالأحداث هو الأستاذ حسين الريحاني المحافظ السابق ، ولنستمع إلى كلامه (٢) :

« كان من حظي وقد خدمت سنوات طويلة بـجهاز الأمن في وزارة الداخلية أن أرى وأرقب بعض المشاهد المثيرة لمراكز القوى السابقة في المجموعتين : مجموعة عبد الحكيم عامر التي نشأت في عام ١٩٦٢ وسقطت بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، ومجموعة علي صبري التي أقامت بعدها مباشرة وأسقطها الرئيس أنور السادات في ١٥ مايو ١٩٧١ م

وفي عام ١٩٦٦ كنت حاكماً لبلوليس بورسعيد ، وحضرت نيابة عن المحافظ جلسة للجنة تصفية الإقطاع التي يرأسها المشير عبد الحكيم عامر لأعرض على اللجنة المعلومات عن الثروات التي جمعها أصحاب مكاتب وبنوك تغيير العملات الأجنبية ، فقد اعتبرت اللجنة هؤلاء الأشخاص من عتاة المحرّمين وأعداء الثورة لأنهم كانوا ثروات كبيرة عن طريق تغيير العملات للسياح وقباطنة السفن وبجارتها والمسافرين في البحر .

(١) المرجع السابق ص ٢٢٢ - ٢٢٣ (٢) الأخبار في ٢٥/٥/١٩٧٧ م .

وكان تاريخ انعقاد اللجنة في اليوم التالي لإجازة عيد الفطر، وحضرها مندوبون عن المخابرات، والمباحث العامة، والرقابة الإدارية، والمباحث الجنائية العسكرية، والاتحاد الاشتراكي. : وهي الأجهزة المركزية التي تبدى رأيها ومعلوماتها أيضاً في نفس الموضوعات المعروضة على اللجنة التي يقدمها مندوبو المحافظات، وبدأت الجلسة بالاستماع إلى معلومات مندوب محافظة الدقهلية عن أحد الأثرياء من أبناء محافظته، وقال المندوب عن هذا الرجل: إنه حسن السمعة، وتقى، وصالح، ومحبوب من الأهالي، لأنه محسن وكريم، ويعاون الفقراء والمحتاجين، وأقام ببلده مسجداً كبيراً، وأنه لم يعارض الثورة بل تعاون معها تعاوناً وثيقاً، وقدم تبرعات سخية في عدة مناسبات عند ما طُلب إليه ذلك.

« ولما انتهى من كلامه زمّ عبد الحكيم عامر شفّتيه في استياء وأشار برأسه إلى مندوب المخابرات دون أن يتكلم فأبّد المندوب هذه المعلومات، وبعد ذلك أدار رأسه وأشار بها إلى مندوب المباحث العامة ثم الرقابة الإدارية، والشرطة العسكرية، والاتحاد الاشتراكي، واحداً بعد الآخر فأكد كل منهم صحتها، وأنها تتطابق تماماً مع معلوماتهم ».

وهنا كان صبر المشير قد نفذ وبدأ يتكلم بسخرية وغضب بلسنته المعروفة، فقد خيل إلى أنه «يعض» الكلمات أثناء حديثه عضاً، وبمضغها قبل أن يلفظها. قال :

« الظاهر أنكم كلكم مغفلين والرجل ده ضحكك عليكم، ولازم شهر رمضان أثر فيكم. . صمتم وصليتم، والرحمة والتساهل تغلبوا عليكم ففقدت تفكيركم وتلف رأيكم !!! »

ثم رفع صوته عالياً وهويدور ببصره في وجوه جميع المندوبين، وأكمل حديثه وهو يقول : هذا الرجل ثرى جداً كما تقولون فهل من المعقول أن يتصور أحدكم أنه مؤمن بالاشتراكية والعدالة الاجتماعية وتحديد الملكية وتنصيب القوارق بين الطبقات ؟؟ ؟ الرجل ده منافق كبير وضحكك عليكم، كلكم -

ثم ارتفع صوته أكثر وأكثر وهو يسأل الجميع : معقول الراجل ده
بيبقى اشتراكي ، ويمشي معنا بإخلاص في خطنا الاشتراكي ؟ ؟

فأجاب الجميع وكأنهم ثابوا إلى رشدهم ، وندموا على هذا الخطأ
الجسيم الذي وقعوا فيه : مش معقول ! إنه منافق كبير ! !

وأسرع المشير بإصدار حكم اللجنة دون أن يسأل أحداً من أعضائها
الجالسين حوله ، وكأنهم أصنام لا رأى لهم ولا مشاركة ، وقال : توضع
أموال وممتلكات هذا الثرى وجميع أفراد عائلته تحت الحراسة ، ويبعدون عن
الريف ، ويصرح لهم معاش قنبره خمسون جنيهاً في الشهر .

وهكذا تعلمت في الجلسة الوحيدة التي حضرتها مع المشير مدلول العيادة
عنده ، ولم تمض سوى أشهر معلودات حتى وقعت الهزيمة المروعة ، وكان
ما كان ، وإبعد المشير عن كل مناصبه ، ثم مال بث أن أبعد عن الدنيا كلها (هـ).

والعجيب أن هذه الحراسة القاسية التي تحكم على الناس بالجوع ، وبالطرد
من المنزل ، وبالحرمان من الأمتعة والملابس كانت تفرض أحياناً
بالكتابة على ظهر علبة بمبائر كما حدث بالنسبة للأستاذ محمد شوكت التوني
ولأسرته وأشقائه شيء ، ويقول الأستاذ محمد شوكت التوني : إن الحراسة
بعد أن قُرِضت على هذا النحو استكبتني أتباع المشير لإصلاً يقرر أن المفارش
والشوك والملاعق الموجودة في البيت هي وللإستعمال الداخلي بحيث لو فقد
شيء منها أقدم إلى محكمة الجنايات بتهمة التبيد (١) .

وفي الوقت الذي كان المشير يصنى الإقطاع ، ويفرض الحراسات على

هذا النحو كان أفراد من عائلته يستغلون مركزه ومنهم من استولى على ثروة

بأكملها لأجنبي اسمه « براملي » (٢) .

(١) قصة التهديب الكبرى ص ٣٤

(٢) شوكت التوني : محاکات للذجوى ص ٢٤٦

وهكذا كانت تصفية الإقطاع جرحاً دائماً لا يعرف العداة ، ولكنه
يجد التنكيل بالناس والإيقاع بهم .

سباق ومنافسة :

شهد عام ١٩٦٥ العام الذى يليه قوى ثلاثاً كانت تتسابق وتنافس في
الإيقاع بالشعب المصرى ، والنيل منه ، وإذلاله ؛ كان على صبرى وجماعته
يمثلون القوة الأولى ، وقد نكّلت هذه القوة بالقيم والمبادئ إذ كان « التنظيم
الطليعى » مصدر إضرار بالكثيرين من الأبرياء .

أما القوة الثانية فكان يزعّمها عبد الحكيم عامر الذى لقب بالمشير وعن
طريق « لجنة تصفية الإقطاع » كم أجاع وشوّه وسجن وعسف ، وقد
تكلمنا عن هذين القوتين من قبل .

أما القوة الثالثة فكانت قوة عبد الناصر وقد اتجه هذا بكل القسوة
والعنف ضد الإخوان المسلمين ، اعتقلهم جميعاً وعذبهم جميعاً ، وبأمره هُتكت
أعراض النساء ، وديست كرامة الرجال . كما سترى بعد قليل .

ويبدو أن التنكيل بالناس كان هواية هؤلاء الثلاثة ، فاقسموا المجتمع
المصرى لتحقيق هواياتهم ، وترك كلٌ منهم الآخرين لممارسة هذا الباطل نظير
أن يسكتوا عنه وهو أيضاً يمارس باطله .

ولم يُنمّذ الشعب المصرى من هذه العصا إلا بالهزيمة الساحقة التى
نزّلت بالبلاد سنة ١٩٦٧ ، وقد ضحى الشعب المصرى بالدم والجهد في
حرب ١٩٦٧ ولكن الذين بقوا على قيد الحياة بعدها عاشوا إلى حد كبير
بمأمن من عصابات السوء .

مزید من القطیعة بیننا و بین الغرب

شهد عام ١٩٦٥ اكتمال القطیعة بیننا و بین الدول الغربية ، والمتتبع لتاریخ العلاقات بین مصر و بین الغرب یرى أن عدوان ١٩٥٦ خلق بطیعة الحال حدةً عنیفة فی العلاقات بین مصر و بین إنجلترا وفرنسا ، ومع أن العلاقات ساءت مع المعتدین فقد ساءت كذلك مع أمريكا وهی الدولة التي انتصر رئیسها إیزنهاور لمصر وأمر المعتدین بالجللاء العاجل ، ولكن عبد الناصر راح یشید بالإنذار الروسي وینسب إلى السوفیت كل شیء ، ویهمل الإشارة إلى موقف إیزنهاور رغم ما فی ذلك من مجافاة للحقیقة (١) .

والعجیب أن عبد الناصر كان یعرف الحق ویقول الباطل ، وقد أعلن هو نفسه فی ٢٢ مارس ١٩٥٩ فی خطاب له من دمشق أن السوفیت لم یتدخلوا فی معركة ١٩٥٦ وأن إنذارهم جاء بعد أن اتضح أن القتال توقف بعد تدخل الأمريكان (٢) .

وهكذا دخل الروس أيضاً فی نطاق الدول التي هاجمها عبد الناصر ، وعندما وصل الجيش المصری إلى جنوب الجزيرة العربية باليمن وقرباً من منابع البترول بدأت قوى عالمیه ضخمة تعمل بهدف تحویل التفاعلات الاجتماعیة العربیة إلى حرب أهلیة عربیة ، وقام الأمريكان والفرنسیون والألمان والإنجلیز بدفع مبالغ كبیرة لمহারبة الجيش المصری (٣) .

وفی سنة ١٩٦٥ قطع جونسون رئیس الولايات المتحدة المعونة عن مصر ، فوضعنا فی موقف حرج ، إذ كشف بهذا خططنا فقد كنا معتمدين على أمريكا فی القمح الذي نستورده منها بالجنييه المصری فنوفر

(١) أنور السادات البعث عن الذات ١٩٢

(٢) مذكرات البغدادی ج ٢ ص ٩٩

(٣) هیکل : بصرحة عن عبد الناصر ص ١٧٣

حوالى ٨٠ مليون جنيه إسترليني نستفيد بها فى مشاريعنا (١) .

ودخلت سنة ١٩٦٦ وقد أصبحنا فى حالة مواجهة كاملة مع أمريكا ، وكان عبد الناصر عنيفا فى خصوماته فاندفع فى هذه الحصومة إلى نقطة اللاعودة ، وقال قوله الشهيرة : فلتشرب أمريكا من البحر الأبيض وإذا كان هذا لا يكفيها فهناك البحر الأحمر (٢) .

وقطعنا علاقاتنا مع ألمانيا الغربية فتوقفت مصانع عديدة ببلادنا ، فكان موظفوها يذهبون فى أول الشهر ليتسلموا مرتباتهم ثم يعودون للضياع والفراغ باقى أيام الشهر .

ويذكر الأستاذ صالح جودت رئيس تحرير مجلة المصور أنه حدث فى إحدى الحفلات الدبلوماسية فى الخارج أن التفت أحد الدبلوماسيين الأجانب إلى السفير المصرى وقال له : لم تبق إلا دولة واحدة لكم معها علاقات طيبة بعد أن توقفت علاقاتكم مع سائر الدول، ففى ستصفعونها كما صفعتم الآخرين ؟ (٣) .

وفى الخطاب الذى ألقاه عبد الناصر فى ٢٢ فبراير سنة ١٩٦٧ يقول عبد الناصر : « اللى يضغط علينا ضغط اقتصادى ما ندفعش له الديون اللى

علينا ونخليه يجرى ورائنا ، وعملنا كده وسيناهم ولم نسأل عنهم » (٤) وتلك

هى قصة الجهل والخيانة التى لا تليق بأى مسئول .

أما عن علاقاتنا بالعرب والمسلمين فقد كانت أشد سوءا — كما سنرى فيما بعد — والمهم أننا أصبحنا وحدنا فى عصر يُعَدُّ التجمع فيه أساس النصر ، وأصبح عدم دفع الديون مفخرة نباهى بها دون وعى بما يتبع ذلك من نتائج .

(١) أنور السادات : البحث عن الذات ص ٢١٣

(٢) المرجع السابق ص ٢١٧

(٣) مجلة المصور فى ١٩٧٤/٨/٣ م

(٤) نشرة الوثائق العدد الثانى من السنة الخامسة (يناير - يونيو سنة ١٩٦٧ م

قصة مصطفى أمين

يستحق الأستاذ مصطفى أمين أن نخصه بكلمة بمناسبة اعتقاله سنة ١٩٦٥ ثم الحكم بإدانته ومصطفى أمين جدير بهذه الكلمة فهو الصحفي الذى كان يحظى بالمقام الأول لدى عبد الناصر ، وكان وثيق الصلة به ، وهو الذى أخذ بصحفه جانب عبد الناصر فى كل المشكلات التى خاضها ضد الأحزاب والانتخابات والحياة الدستورية ، وهو الذى أبرز مكانة عبد الناصر قمة بين الثوار ، كما سئرى بعد قليل .

ومصطفى أمين مع أخيه على أمين مدرسة صحفية عالية المستوى ، جاءت بنمط جديد فى التحرير الصحفي والإخراج الصحفي ، وله موضوعاته المختارة وأسلوبه المنساب ، وكان الأستاذ على أمين ينشر «فكرة» كل صباح واستمر فى نشرها وهو فى المنفى فى الصحف التى عمل بها فى الخارج ، فلما توفى أخذ مصطفى مسئولية كتابة «فكرة» بالإضافة إلى أعماله ، وربما أشفقت شخصيا عليه آنذاك ، ولكنه سرعان ما شملت مواهبه هذا الموضوع كما شملت سواه ويمكن القول إنها من أروع الأركان التى ينشرها الصحفيون كل يوم .

وقد أتبع لى أن أقابل الأستاذ مصطفى أمين سنة ١٩٧٥ عقب العرض الرائع الذى خصصت له «أخبار اليوم» صفحة من صفحاتها لكتاتى «مصر فى حربين» وفى هذا اللقاء ذكرت بصراحة للأستاذ مصطفى أمين أننا فى الجامعة غالبا أعرضنا عن الثورة مبكرين عندما تبين لنا أن قادة الثورة اتجهوا للبقاء فى الحكم ، وأنهم ضد الدستور والحياة البرلمانية ، فهم فى ذلك يسرون فى خط فاروق أو أسوأ منه ، وأن جمال عبد الناصر بعيد عن الزعامة الوطنية الشعبية الشريفة ، وأضفت أن هذا الموقف لم يكن موقف الأستاذ مصطفى أمين الذى الذى انجبه للتأييد على طول الخط فأعلن لى مصطفى أمين أنه خدع وكان هذا الرد كافيا لقتل الموضوع .

ما هى بإيجاز قصة مصطفى أمين ؟

وكيف انتقل مصطفى أمين من صفوف الأصدقاء المقربين إلى صفوف الأعداء الذين ينگل بهم ؟ .

الإجابة عن السؤال الثاني سهلة فإن طبيعة الغدر بالأصدقاء كانت واضحة عند عبد الناصر ، وكم من أصدقائه انتهى بهم المطاف إلى الزنزانة وإلى التشرد ، وقد رأينا نماذج من هؤلاء فيما سبق .

أما قصة مصطفى أمين فهي كما يرويها المستشار محمد عبد السلام^(١) والأستاذ موسى صبرى^(٢) تتلخص فيما يلي :

— كان مصطفى أمين يحب جمال عبد الناصر ويصارحه برأيه ، وكان عبد الناصر يعتمد عليه في مهام كثيرة ، ويستريح للحديث معه ساعات طويلة ، وكان عبد الناصر متأثراً بالمقال الذي كتبه مصطفى أمين قبل الثورة بعنوان « البحث عن زعيم » وقد دخل مصطفى كل معارك جمال عبد الناصر ضد البعث ، وضد حلف بغداد ، ووقف معه في أزمة ١٩٥٤ وسافر على طائرة خاصة بتكليف من جمال عبد الناصر بعد عدوان سنة ١٩٥٦ ليتصل بالبيت الأبيض ، ويتفاوض مع أمريكا باسم جمال عبد الناصر^(٣) .

— وبينما كان مصطفى أمين يتمتع بهذه المسكنة عند عبد الناصر كان هناك شخص آخر يرى أن مصطفى أمين يقف حاجزاً بينه وبين قلب الزعيم ، هذا الشخص هو محمد حسين هيكل ، ثم إن هيكل كانت في نفسه خفيضة ضد مصطفى أمين لأنه فصله من أخبار اليوم مرتين قبل الثورة ، ولم يعد هيكل إلى عمله إلا بواسطة علي أمين ، ومن أجل هذا كان هيكل يتحين الفرص للإيقاع بـ«مصطفى أمين» ، ليثأر منه ، ثم ليخلو له الجو بعد إبعاد هذه الشخصية الكبيرة عن مجال الصحافة مما يتيح الفرصة إلى هيكل ليصبح إمبراطور الصحافة^(٤) .

ولفُتَّت تهمة لمصطفى أمين بواسطة رجال المخابرات فحواها أنه أمدّ ملحق السفارة الأمريكية سنة ١٩٦٥ بمعلومات فيها لإضرار بمركز البلاد الحربي

(١) سنوات عصية ص ٤٠ - ٤١ (٢) وثائق ١٥ مايو ص ٣٧٩ وما بعدها

(٣) موسى صبرى : وثائق ١٥ مايو ص ٣٨١

(٤) شوكت التوني : قضية التلمذ الكبير ص ٤٨

والسياسي والاقتصادي ، وقبض على مصطفى أمين بالإسكندرية لهذا السبب وأشاع أنه قبض عليه وهو يتسلم آلاف الدولارات من رجل المخابرات الأمريكية ، وأنه اعترف اعترافاً كاملاً بأنه عميل أمريكي ، وتولت النيابة التحقيق في هذه التهم ، ويقول الأستاذ محمد عبد السلام إنه بعد انتهاء التحقيق ظهر له أن المعلومات التي نُسِبت إلى مصطفى أمين أنه ذكرها لرجال المخابرات الأمريكية بعيدة كل البعد عن السرية ، وأنها لا تنطوي على أى إغهار بالبلاد ، ويقول الأستاذ محمد عبد السلام ، إنه صارح بذلك صلاح نصر مدير المخابرات العامة وبلوى حموده وزير العدل ، وأكد أن عرض هذه القضية على القضاء سينتهى الأمر فيها بالبراءة ، وتبعاً لذلك قرر رئيس الجمهورية ألا تقدم الدعوى إلى القضاء العادى ، وأن تقدم إلى محكمة عسكرية ، وأنه إذا صدر فيها حكم سيكون حكماً رمزياً (١) .

ونقلت القضية بذلك إلى محاكم الجوى وكان الحكم فيها بالأشغال الشاقة المؤبدة .

وأسلم مصطفى أمين وهو فى العقد السادس من عمره إلى الزبانية الذين عذبوه عذاباً يجل عن الوصف ، وقد وصفه الأستاذ مصطفى أمين وصفاً يدعو للحسرة والألم فى كتبه غن سنى السجن وشهد بذلك شهود كثيرون حتى لجنة تقصى الحقائق التى ألفتها مجلس الشعب ، وقد سبق أن أوردنا بعض صور تعذيبه عند حديثنا عن التعذيب فى الصفحات السابقة .

وتقرر الحقائق الواضحة فى الوثائق التى أمامنا أن جمال عبد الناصر كان يعرف جيداً أن الاتهام ظلم فى ظلم ، وأن اتصال مصطفى أمين بالأمريكان كان بناء على طلب الرئيس ، وقد اعترف جمال عبد الناصر بذلك للأستاذ محمد أحمد محبوب رئيس وزراء السودان سابقاً فقال له : لقد كلفت مصطفى أمين بأن يتصل بالمخابرات الأمريكية ليخبر لنا أخبارهم . فقال له

(١) سنوات صعبة ص ٤٠ - ٤١ .

محجوب : ولكنك تعلم ياسيدى الرئيس أنه لا يمكن أن يعرف أخبار الأمريكان إلا إذا قدم بعض أخبار مصر ، فقال جمال عبد الناصر : إننى أعلم ذلك جيداً ، ولكن مصطفى « زودها حبتين » . فسأله محجوب : وهل لذلك يُعتَبر مصطفى جاسوساً ؟ فقال جمال عبد الناصر : كان بودى أن أطلق سراحه الآن ، وأن تراه اليوم فى منزله ، ولكن أخشى أن يقال إن الأمريكان طلبوا منى ذلك فى الوقت الذى أحاكم فيه الإخوان المسلمين ، وإذا أفرجت عنه قد يقتضى ذلك أن أفرج عن الإخوان المسلمين ولكنى مُصرٌّ على محاكمتهم ، وأعدك أنى سأفرج عنه بعد وقت قصير (١) .

ولم يفرج عن مصطفى أمين طيلة عهد عبد الناصر ، ولم يتم الإفراج عنه إلا بعد حوالى أربع سنوات من قيام حكم السادات بالضغط فى ١٨ مايو سنة ١٩٧٤ ، ويورد موسى صبرى تعليلاً لتأخر صدور أمر العفو عن مصطفى أمين ، وهذا التعليل يتصل بمؤامرة جديدة ضد مصطفى أمين ، فقد أبلغ هيكل الجهات الرسمية فى عهد السادات أنه تلقى معلومات مؤكدة تفيد أن مصطفى أمين يجتمع بعلى صبرى وسامى شرف بطريقة ما فى السجن ، وأنه يكتب كتاباً ضد أنور السادات ، ويقول موسى صبرى : إن الجهات الرسمية صدقت إلى حين هذه المعلومات الكاذبة من أساسها (٢) .

أما على أمين فقد كتب فى « فكرة » عقب صدور عفو الرئيس أنور السادات عن مصطفى أمين يُعلن تأخير الإفراج عن أخيه بأن أنور السادات كان مشغولاً بكل جهده للإعداد لمعركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ ولما أنجزها بنجاح عاد للمشكلات الفردية بالبحث والإنصاف

وهكذا حوكم مصطفى أمين لمجرد العناد والمقارنة بالإخوان المسلمين ، ولو كانت هناك بقية من عدالة لما حوكم الجميع .

(١) أقوال الأستاذ محجوب فى وثائق ١٥ مايو من ٢٩٩

(٢) وثائق ١٥ مايو من ٢٨٨

حسين توفيق

يعترف أنه حاول قتل عبد الناصر

اتهم حسين توفيق في مايو سنة ١٩٦٥م بأنه حاول قتل جمال عبد الناصر وأحيل إلى محكمة الدجوى ، وفي المحكمة حاول حسين توفيق أن يسأل المحكمة : لماذا لانكشف المحكمة علينا ونحاول التعرف عما حل بنا من تعذيب ؟ ولكن الفريق الدجوى أجاب قائلاً :

إحنا هنا بنسألك مش أنت اللي تسألنا . . . أنت حاولت قلب نظام الحكم وعقدت اتفاقاً جنائياً ، وشرعت في قتل رئيس الجمهورية ؟

فأجاب حسين توفيق في هدوء قائلاً : نعم أنا فكرت في قتل جمال عبد الناصر ، لقد كان جمال عبد الناصر أكثر الناس فضلاً عليّ ، فقد حُكِمَ علي بالإعدام في قضية الشيشكلي فتوسط عبد الناصر حتى عُدِّلَ الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة ، ثم عمل على نقلى من سجن المزة بعد أن اضمحلَّت صحتي ، ثم ساعد على تهريبى إلى مصر ، وأمر بتعيينى في وظيفة بشركة مصر للبترول بمقرب قدره مائة وخمسون جنياً .

وقد استمع الدجوى لكل هذا المدح برضا وسعادة ، ولكن حسين توفيق واصل كلامه فقال : ولكننى إن كنت قد أحببته لأنه طوَّقَ عنقى بهذه الأفعال فلئننى وجدت أننى أحب مصر أكثر منه وأكثر من أهلى وأكثر من نفسى ، وقد أضاع البلد ، وأفقدنا جزءاً من بلادنا هو السودان ، وراح . . .

وهنا تدخل الدجوى ليحول دون ذكر مثالب عبد الناصر فقال لحسين توفيق : هل لك في الموضوع كلام غير الإقرار ؟

وأجاب حسين توفيق أريد أن أبين للرأى العام سبب إقدامى على محاولة قتل جمال عبد الناصر . فأجاب الدجوى : أنت هنا لكي تخاطب المحكمة لا الرأى العام^(١) .

وحكمت المحكمة على حسين توفيق بالأشغال الشاقة وخرج من السجن .
بعفوانور السادات .

(١) شوكت التونى : محاكمات الدجوى ص ٢١٤ وما بعدها .

المذبحة الثانية للإخوان المسلمين

شرحنا في « حوادث سنة ١٩٥٤ » الجولة الأولى لعبد الناصر ضد الإخوان المسلمين ، ووضحنا أنها ارتبطت بحادث المنشية الذي كان ملفقاً مائة في المائة، وقد أقيمت « محكمة الشعب » لمحكمة الإخوان التي صال فيها جمال سالم وجمال وهو لا يدري أن الدائرة ستدور عليه قريباً ، وقد حكمت هذه المحكمة بإعدام ستة فيهم العالم الشهيد عبد القادر عودة ، وحكمت بالسجن على عدد كبير من الإخوان •

وجاء عام ١٩٦٥ وقد وُفي أكثر هؤلاء السجناء المدد المقدرة عليهم ، وبدأت وفودهم تخرج من السجون ، فخافهم عبد الناصر على نفسه أن يتآمروا للانتقام منه .

وفي نفس الوقت كان هناك وثام بين عبد الناصر وبين الشيوعيين ، والإخوان المسلمون من ألد الأعداء للشيوعيين ، ثم إن الوقت كان ملائماً لضرب عبد الناصر الإخوان المسلمين لأن عبد الحكيم عامر كان متسلطاً بحماقة على العائلات باسم تصفية الإقطاع ، فإذا يمنع عبد الناصر من انتهاز هذه الفرصة ليتخلص من أعدائه الذين يعرف أنه ظلمهم وأنهم يكرهون الضيم ؟

وبالإضافة إلى هذا فإن إحدى المجلات الأمريكية نشرت تحليلاً لكتاب « جاهلية القرن العشرين » الذي ألفه الأستاذ محمد قطب وكتاب « معالم في الطريق » الذي ألفه الشهيد سيد قطب وقد كتبت المجلة الأمريكية تحذراً من الكتابين والكاتبين ووصفتها بالتعصب (١) .

لكل هذا كان عام ١٩٦٥ عاماً مناسباً عند عبد الناصر ليجول جولته الثانية ضد الإخوان المسلمين ، وقد بدأت هذه الجولة بالقبض على الأستاذ محمد قطب يوم ٣٠ يوليو سنة ١٩٦٥ ثم القبض على الأستاذ سيد قطب في ٩ أغسطس التالى ، وانطلقت بعد ذلك جحافل عبد الناصر تلقى القبض على آلاف الإخوان ، واقتصر عبد الناصر فيما بعد بأنه قبض على ثلاثين ألفاً في نصف ساعة

وكان القبض على الإخوان المسلمين بتهمة أنهم يدبرون مؤامرة للعدوان على عبد الناصر وقتله ، ويذكر الأستاذ موسى صبرى - وهو كسيحي - لا يمكن أن يكون ضالماً مع الإخوان - أن كل الثقات يؤكدون أن قضية الإخوان التى أعدم فيها سيد قطب كانت من اختراع شمس بدران وزبانية البوليس الحربى ، وأنها مؤامرة وهمية ، وأن التعذيب فى هذه القضية هو قطة لأساة(١) .

ويقرر محمد حسنين هيكل أن المعتقلين فى هذه القضية وصلوا إلى عدة آلاف ، وأن زوار الفجر كانوا يجمعونهم بغير رحمة ، وقد تعرض الكثيرون منهم للتعذيب ، وكان عبد الناصر يعرف ذلك ، وقد أشرت إلى ما كتبت فى الأهرام آنذاك إلى زوار الفجر ، وانتقدت أعمالهم ، فاستاء عبد الناصر مما كتبت فى هذا الشأن، واتصل بي ليذكر أننى كنت قاسياً فيما كتبت ، وأن شمس الدين بدران الذى كان يشرف على تحقيقات الإخوان المسلمين وقتها غضب وقدّم استقالته(٢) .

ويتحدث أنور السادات عما أصاب الإخوان المسلمين فى هذا العام فيقول : هُيء للسيطرة الحاكمة فى ذلك الوقت أن الإخوان يتآمرون ليقوموا بثورة مضاده ، وقد ذهب ضحية هذا التصور الكثيرون ممن يحصون

(١) وثائق ١٥ مايو ص ٣٢١

(٢) لمصر لا لعبد الناصر ص ٤٣

بالألوف ، وصدرت ضد الكثيرين منهم أحكام ، وظل الجميع في المعتقلات أو السجون إلى أن صفيّت العملية كلها فأغلقت المعتقلات مباشرة بعد القضاء على مراكز القوى في سنة ١٩٧١ أما المحكوم عليهم سواء من الإخوان أو أية قضية سياسية أخرى فقد أطلقت سراحهم مباشرة بعد معركة أكتوبر سنة ١٩٧٣ (١).

ويورد سامي جوهر تفاصيل أوسع عن هذه الحركة الوهمية وعن التعذيب الذي ارتبط بها فيقول : في سبتمبر سنة ١٩٦٥ كانت أجهزة المباحث الجنائية العسكرية التابعة للمشير عامر وعلى رأسها أحد أعوان شمس الدين بدران وهو العقيد حسين خليل ادعت أنها كشفت مؤامرة يدبرها الإخوان المسلمين برئاسة المرحوم الشهيد سيد قطب لقلب نظام الحكم بعد القيام بعمليات تخريب وتدمير في مختلف أنحاء البلاد ، وتم القبض على الآلاف وزُج بهم في السجون ، وبدأت عمليات تعذيب بشع لهم ليعترفوا بكل ما يملئ عليهم (٢).

ويعمل موسى صبرى تلك المظاهر التي دفعت مخابرات المشير إلى الاهتمام بعبد الناصر بأنها كانت ترمى إلى أن توحى لعبد الناصر بمدى اهتمامهم به ، وبالتالي تفرض حمايتها عليه ، وتبرز له أن حياته تساوي حياة الملايين ، وأنه أمل العالم العربي كله ، وأن التآمر ضده تأمر ضد مستقبل الأمة العربية جمعاء ، فإذا عذب بعض المتآمرين حتى الموت فذلك ليس إلا شيئاً لا حساب له في سبيل الحفاظ على كيان الأمة العربية متمثلة في عبد الناصر (٣) واستطاب عبد الناصر هذا التصرف فقد كان شديد الحفيظة على الإخوان المسلمين وشديد الحب لنفسه

(١) البحث عن الذات ص ١٧٩

(٢) الصامتون يتكلمون ص ٧٧

(٣) وثائق ١٥ مايو ص ٣٢١ - ٣٢٢

وتأكيداً لما نقلناه عن هيكمل بأن عبد الناصر كان يعرف ما يجري من صور التعذيب ، يؤكد موسى صبرى أن عبد الناصر كان يعلم بصور التعذيب قبل وقوعها وبعد وقوعها ، وكان يحاط علماً بأن البعض مات في خلال التعذيب ، وينقل موسى صبرى عن صلاح الشاهد واقعة نقلها صلاح الشاهد إلى جمال عبد الناصر . وخلاصتها أن سيدة فاضلة وقع عليها تعذيب مرير ، وجيء لها بوحش في صورة إنسان ليهتك عرضها ... ويقول صلاح الشاهد إن عبد الناصر لما سمع منه تلك الشكوى نظر إليه بضيق شديد وقال له : مالكش دعوة بالحاجات دى . هو حد من أقاربك اتعذب . الحاجات دى يشوفها سامى شرف (١) .

وأمام الضعف الذى ينتاب الكثيرين وقت الشدائد العنيفة والطويلة اهتزت عقيدة بعض الإخوان المسلمين اهتزازاً حقيقياً ، أو على الأقل تظاهروا بذلك ، وأعرف شخصياً أسرة فاضلة من سكان المعادى كانت مآثرهم تفوق الوصف ، وكان المحتاجون يجدون عندهم ملجأ حصيناً ينالون منهم الكساء والطعام والدواء ونفقات المدارس وحاجات أبنائهم التلاميذ ، وفى كلمة موجزة كانت أفضالهم سيلاً لا ينقطع وأبوابهم مفتوحة لا تغلق ... ونزل بهؤلاء ضررٌ لآخر ضررٌ ، وكانوا يتوقعون الشر من أن إلى آخر بسبب أنهم فى يوم من الأيام انضموا إلى الإخوان المسلمين أو أنهم قدموا بعض العون للأسر التى قبض على عائلتها ، وفى قسوة المعاناة والخوف والألم أحرق هؤلاء كتاب الله والتفاسير المختلفة وكتب الصحاح التى كانت فى دارهم ، وكانوا بذلك يحاولون أن يتقوا صولة الحاكم الغاشم ، ولكن الحاكم الغاشم لم تتوقف صولته عليهم .

(١) وثائق ١٥ مايو ٣١٧ - ٣١٨

محاكمة الإخوان :

أعدت أربع دوائر عسكرية لمحاكمة الإخوان المسلمين في هذا العام ، وكان للدجوى الدائرة الرئيسية فيها وكانت الدوائر الأخرى يرأسها لواءات من الجيش ، وقد تعددت الدوائر بسبب كثرة المتهمين ، وأحيلت إلى الدجوى أسماء الذين كان يراد لهم مزيد من التنكيل والعسف ، لأنه كان دائماً مستعداً أن يصدر الحكم الذى يُطلَب منه إصداره .

تمهيلية لإعدام الشهيد سيد قطب :

وهناك أمر عجيب في محاكمة الدجوى ، ذلك أن شمس بدران وحسن خليل مدير المباحث الجنائية عرضا على عبد الناصر خلال محاكمة الشهيد سيد قطب الأحكام التى سيصدرها الدجوى ومن بينها حكم الإعدام على سيد قطب ، واتفقوا مع عبد الناصر على تخفيف حكم الإعدام عليه إلى السجن ، أو العفو مع تحديد إقامة ، أو بنحو ذلك لينال عبد الناصر كسبا شعبيا يغطى كل ما قيل عن التعذيب وما سيُقال عن العقوبات التى ستعرض على الآخرين . ولكنهم فوجئوا بعبد الناصر يصدق على حكم الإعدام وينفذه (١).

وأعدم المفكر الإسلامى سيد قطب شتقاً كالقتلة وقطاع الطرق ، وهو الذى أغنى المكتبة العربية والإسلامية بثروة هائلة من إنتاجه ومؤلفاته ، وفى قتها « فى ظلال القرآن » الذى أخرجه فى ثلاثين جزءاً ، جمع فيه أروع ما دوَّنه من سبقوه ، وأضاف لذلك فيضاً هائلاً من فكره .

والعجيب أن الأوامر صدرت بمصادرة كل كتبه وإخراجها من كل المكتبات ، بل صدرت بأن تُقطع ورقات من كتب المطالعة المقررة على التلاميذ.

(١) عبد الصمد محمد عبد الصمد : العشاء الأخير المشير ص ١٥٠

فى المدارس الابتدائية أو الإعدادية ، لأن بها قصائد للاستاذ سيد قطب يتحدث فيها عن فكرة خلقية أو وطنية ، أو تحمل وصفاً لائيل أو الطبيعة ، وكأن هؤلاء أرادوا أن يزيلوا اسمه من الوجود ، ولكن ذلك كان جهلاً بأقدار العلماء ، لأن العالم الإسلامى اعتبره شهيداً ، وتنافست دور النشر فى فى عدة أقطار فى طبع مؤلفاته ، وأصبحت كتبه مبعث نور وهداية فى كل بيت بالعالم الإسلامى إلا بيوت مصر التى كان يمكن أن تتعرض للعمار لو وُجِدَتْ بها هذه المؤلفات .

ولا يمكن أن يمر موضوع شتى مفكر مسلم ممتاز دون وقفة عادلة ، ولهذا فإننا نطالب بإعادة المحاكمة فى ظل العدالة والنور لئلا نرى إدانته أو براءته حتى نحمل قاتليه مسئولية هذا الجرم إذا ثبتت براءته للناس ، وبراءته لا بد ستثبت .

إن سيد قطب قمة فكرية وإن الخسارة فيه كبيرة ، وقد ترك لها الكثير من نتاج عقله وجهده ، ولكنه غاب قبل أن يُفرغ كل ما عنده . فمن المسئول عن هذه الخسارة ؟؟ .

والعجيب أن شخصيات عالمية وهيئات كبيرة تقدمت بالرجاء أن يُحَقَّن دمه ، ولكن روح الغيل عجلت بتنفيذ الإعدام . يا لله !! •

مطاردة الزوجات والأولاد :

بعد قتل العائيل أو سجنه اتجهت العصابة الأثيمة إلى الزوجات والأولاد تجمع وتهدد ، وتمنع كل عون من الحسين ، وبالتالي تجر إلى الانحراف إلا من عصم الله ، وبين يديّ مثال من آلاف الأمثلة على ذلك . مدرس اسمه محمد على عبد الله قبضوا عليه فى ١٩٥٤/١١/٢٣ لاتماه إلى الإخوان المسلمين ، وصدر قرار بفصله من عمله بعد أسبوع، وخرج من الاعتقال فى

٥٦/١١/٢٣ وظل مفضولا حتى سنة ١٩٦٠، وخلال هذه المدة عانت أسرته في غيبتة كما عانى هو بعد إطلاق سراحه كل ألوان الجوع والسؤال والحرمان، وما إن استقر في عمله سنة ١٩٦٠ حتى عادوا للقبض عليه سنة ١٩٦٥ بتهمة محاولة قلب نظام الحكم بالقوة والعدوان على رئيس الدولة، وتعرض منزله لتفتيش يصفه كاتب القصة بأنه « حملة بربرية مغولية » ولم تعرف أسرته بعد ذلك مكانه ولا شيئا عنه سوى قرار فصله الذي صدر في ١٠/١٠/١٩٦٥ ولما قرص الجوع الزوجة (فتحية عيد إبراهيم حمودة) وقرص أولادها اتجهت إلى محافظ القليوبية (محمد كمال أبو الفتوح) تستجديه، وتسأله ماذا تفعل، وكان المحافظ رحيا فقرر لها معاشا، ولكن العصابة الأثيمة لم تنفذ القرار ولامت المحافظ... وتفاصيل أخرى مريرة ومماثلة توردتها جميع المصادر^(١).

وثيقة التخلص من الإخوان ومن أفكارهم :

قدم المستشار على جريشة لمحكمة جنوب القاهرة الابتدائية (الدائرة ٦ مدني كلى) صورة وثيقة خطيرة عن تقرير عنوانه :

« تقرير اللجنة المؤلفة برئاسة السيد زكريا محي الدين رئيس الوزراء بشأن القضاء على تفكير الإخوان المسلمين » .

وخلاصة هذا التقرير ما يلي :

- شكلت لجنة عليا بأمر جمال عبد الناصر لمكافحة الإخوان المسلمين، والقضاء عليهم وعلى أفكارهم، حتى لا تنتقل عدوى أفكارهم إلى غيرهم.
- تدارست اللجنة الموضوع ورأت أن الداء يكمن في :

- ١ - تدريس التاريخ الإسلامى على حالته الراهنة بالمدارس بربط الدين بالسياسة مما ينمى الشعور بالمبادئ الإخوانية .

(١) انظر كتاب شهداء وقطة للاستاذين عادل سليمان وعصام سليمان ص ١١٢ وما بعدها .

- ٢ — أكثر الإخوان المسلمين « خام » عاشوا على طهاره
- ٣ — لهم تفوق علمى وخلقى .
- ٤ — تأثيرهم شديد على من يرتبطون به .
- ٥ — لم تفلح محاولات إبعادهم عن الناس .
- ٦ — مكاباتهم فى حرب ١٩٤٨ وحرب ١٩٥١ خلقت لهم مكانة طيبة فى نفوس الناس .
- ٧ — نفورهم من المبادئ المخالفة لاتجاههم يوحى بأنهم ليسوا عملاء لأحد .
واقترحت اللجنة ما يلى :
أولاً : محور فكرة ارتباط السياسة بالدين فى تدريس التاريخ .
ثانياً : إبادة تدريجية بطيئة مادية ومعنوية وفكرية للجيل القائم فعلاً الذى يعتنق هذه المبادئ ، وللوصول إلى ذلك وضعت اللجنة النظام التالى :
١ — ربط دراسة التاريخ الإسلامى بالمعتقدات الاشتراكية .
٢ — مصادرة كل كتب الإخوان ورسائلهم ، وتوجيههم وتوجيه الناس إلى كتابات إسلامية أخرى .
٣ — عدم قبول أولادهم فى الكليات العسكرية .
٤ — منع فرص العمل أمام المتدينين عموماً ، وعزل هؤلاء من جميع التنظيمات الحكومية .
٥ — عدم إرسالهم فى بعثات للخارج .
٦ — محاولة إشاعة ربط الهضبي بالإنجليز والادعاء أن الإخوان عملاء للقوى الخارجية .
٧ — القضاء التام مادياً عليهم بوضعهم تحت الحراسة وفصلهم من الوظائف ، وهذا سيجعل الأبناء يبعدون عن مذاهب آبائهم ، كما أن الجوع سيدفع الأبناء إلى العمل اليدوى أو إلى الانحراف فيبعدون عن الاتجاهات الدينية

٨ - إعدام من تظهر فيه صفة الصلابة منهم .

وقد وقع على هذا التقرير أعضاء اللجنة ، ووقعه بعدهم جمال عبد الناصر قائلا : أوافق على اقتراحات اللجنة (١) .

ذلك موجز التقرير وأرجو ألا يكون إيجاز غلظاً ، ولكننا للأمانة العلمية نذكر أن المحكمة ذكرت في حكمها أن هذا التقرير صورة عرفية لادليل على وجود أصلها أو صلوره بالفعل

ولكن التاريخ يؤكد أن المقترحات أو أكثرها تميل بها فعلا ، وقد أوردنا نماذج كثيرة لذلك مما يوحى بوجود دستور سار عليه ولاه الأمر آنذاك .

أخوان الشيطان :

أصدرت مجلة منبر الاسلام التي كان يصدرها « المجلس الأعلى للشئون الاسلامية » ويقوم الضابط محمد توفيق عويضة برئاسة تحريرها ملاحقا خاصا لعدد من أعدادها عام ١٩٦٥ أسمته « رأى الدين في إخوان الشيطان » وربما كان ذلك تنفيذاً للتقرير السابق في محاربة الإخوان المسلمين بواسطة رجال الدين أنفسهم ، وغلاف هذا الملحق عليه صورة دعوية شيطانية تناسب الموضوع الذي خصص له الملحق ، وختم بمجموعات من الصور الكاريكاتيرية البذيئة التي تصور الإخوان في ضور شيطانية .

وفي هذا الملحق كتب مجموعة من الكتاب يهاجمون الإخوان المسلمين ، وربما يكون هناك بعض العنبر لهؤلاء ، فإ كان أحد يستطيع أن يرفض طلب توفيق عويضة في الكتابة ، فإن من يفعل ذلك سيلقى به في المجهول ، ثم إن وسائل الإعلام كلها كانت قد صوّرت الإخوان المسلمين للناس في

(١) انظر التقرير كله في كتاب « في الزنزانة » المستشار على جريشة ص ١٣١-١٣٩

صورة المتآمرين القتلة السفاكين ، ونشرت صوراً لحشود من الأسلحة قيل إنه عثر عليها في مكانين إخوانيه كما نشرت اعترافات نسبتها إليهم ، ولم يكن هناك رد أو تعليق من أى جانب آخر ، فوقع الكثيرون في الفخ ، وصدقوا الادعاء ، وعارضوا الإخوان أو هاجمهم ، وعلى هذا فيمكن التماس العذر بشكل ما لمن كتبوا تحت العناوين الآتية :

الإخوان المفسدون-احلروا إخوان الشياطين-الإخوان المسلمون يفسدون في الأرض- رسل الخيانة - الباغون المارقون - خروج الإخوان على الاسلام - مؤامرة عصابة الإخوان الإرهابيين . . . وأمثال هذه الموضوعات .

ومع أننى قد التمت العذر لهؤلاء فلما كنت أطمع في المفكرين المسلمين أن يثبتوا قبل الهجوم ، وبخاصة إذا كان منهم من تطوع بالكتابة دون أن يطلب منه ذلك ، فلأتم هؤلاء أكبر وأعظم .

ماذا كان موقعي من هذا الموضوع ؟

لقد كتبت موضوعاً استدعيت بعده للتحقيق أمام أحد الضباط بوزارة الداخلية ، كان موضوعي بعنوان « الإسلام وحركات الارهاب » (١) وابتدأته بقولي « عرف التاريخ الإسلامى جماعة دأبت على التشكيك وإثارة الفتن ، وعاشت حياتها ولا تزال تعيش في ظلام وخفاء تلك هى جماعة بنى إسرائيل . . . » وذهبت اتحدث عن حركات الإرهاب التى قام بها بنو اسرائيل في تاريخهم الطويل ، ثم اتجهت لرأى الإسلام في المفسدين في الأرض الذين يقتلون الناس ظلماً ويغتالون الآمنين ، وأوردت مجموعة كبيرة من الآيات والأحاديث التى تهاجم هؤلاء وتتوعدهم بأشنع عقاب في الدنيا والآخرة ، وكان موضوعها علمياً لطيفاً فيما أعتقد ، وظننت أننى خرجت بذلك من المأزق ، فأنا لم أرفض الكتابة من جانب ، ومن جانب آخر لم أتعرض للإخوان المسلمين ولا بكلمة واحدة .

والكنى استدعيت للتحقيق عقب ذلك وجرى بيني وبين المحقق الحديث التالي :

- هل كتبتَ هذا الموضوع ؟

- نعم .

- أنت فيه لم تتعرض للإخوان المسلمين ولا بكلمة مع أنك لست من الإخوان المسلمين وكان من الطيبي أن تهاجمهم كما فعل باقي كتّاب العدد ؟

- تعرضتُ بدراسة وافية وقوية للمفسدين في الأرض والمعتدين على الناس ، فإذا كان الإخوان المسلمون منهم فإن الموضوع "يكون منصّباً عليهم .

وانتهزت فرصة أن الضابط كان مهذباً جداً ، وكان من قرأني فأخذت أنا حق الاستجواب وسألته :

- كم موضوعاً في هذا العدد قرأت أنت ؟

- بصدق ، قرأت سطوراً قليلة في كل موضوع وكنت أدرك اتجاه الكاتب لتجريح الإخوان من أول سطر فأكتفى بذلك وأدع الموضوع إلى سواه ، ولكني قرأت موضوعك كله ، وقرأناه جميعاً ، ثم تقرر أن نسألك .

فقلت : كل الناس أو أكثرهم فعلوا مثلك ، وجدوا فيما كتبت فكرة نخدم الإسلام والمسلمين فقرأوه ، وتركوا الموضوعات الأخرى لأن أكثرها دار في نطاق السباب ، والقارئ لا يجب هذا النوع من الكتابة .

ثم عاد الضابط يسألني :

- لو أردنا أن نكتب من جديد عدداً آخر ماموقفك بعد هذا التساؤل ؟

- نفس الموقف لخدمة الدين والوطن ، ولو عرف الكتاب هذا التساؤل لانبج أكثرهم أو كلهم إلى رأيي .

كرداسة :

حادثة كرداسة وثيقة الارتباط بدراسنا هنا عن الإخوان المسلمين ، وتميز بنقطة مهمة هي الانتقال في تدمير الإخوان من الهجوم على الفرد والإسرة إلى الهجوم على قرية بأكملها ، وحادثة كرداسة شديدة الشبه بحادثة دنشواي ، بيد أن العسف في دنشواي اتجه ضد أفراد ولكن العسف في كرداسة اتجه ضد القرية بأكملها ، ولو كان المجرم على كرداسة حدث من الاحتلال البريطاني لهاجت الدنيا كلها وماجت ، ولكن الهجوم كان مصرياً ، وكانت الصحافة وجميع وسائل الإعلام الأخرى في يد المهاجم فرسم للناس صوراً غريبة كاذبة استحل بها دماء الأبرياء .

ولى مع كرداسة موقف خاص ؛ فبعض طلابي من الجامعة كانوا من كرداسة وجاءني هؤلاء ومعهم بعض أهلهم يدعونني ، لزيارة القرية المنكوبة والتعرف على المشكلة في مكانها ، وأشهد لقد كنت شديد الرغبة في تلبية هذه الدعوة ، وكان جزءاً من واجبي أن ألبها ، ولكنني أحجمت باسم بقايا الخوف التي كانت راسبة في نفسي ونفوس أمثالي ، بيد أنني جلست مع هؤلاء ، وأخذت المعلومات الدقيقة التي تصور هذه القضية أوضح تصوير وهو ما سأنقله فيما يلي :

شاب من البلدة اسمه سيد عويضة ، وظيفته إخصائي اجتماعي كان اسمه ضمن كشوف الإخوان المسلمين ، وفي موجة القبض على الإخوان توجهت سيارة « جيب » بها بعض رجال المباحث في ملابس مدنية للقبض عليه في منتصف ليلة ١٩٦٥/٨/٢١ وترك رجال المباحث السيارة خارج القرية وذهبوا إلى البيت ودقوا بابه ، ففتحت زوجته ، فاندفع رجال المباحث داخل البيت ، وحسبت المرأة أن لصوصاً دهموا البيت فصرخت مستغيثة ، وعلى صوت الصراخ حضر الجيران ، وقامت معركة بالأيدي بين رجال

المباحث وبين الأهالي ، وهدأت المعركة حينما علم الأهالي أن المشكلة مع رجال المباحث ، ولم يقتل أحد في هذه المعركة .

تلك هي الخطوط الأولى لمشكلة كرداسة ، وشهد صباح اليوم التالي أمراً عجيباً ، فقد صوّرت المسألة على أنها محاولة انقلاب يقوم بها حشد من الإخوان المسلمين اتخذوا من كرداسة مركزاً لهم ، ومعهم فيض من الأسلحة مختلفة الأنواع ، وتبعاً لذلك تم حصار سريع للقرية المسكينة ، ومنع التجول فيها ثلاثة أيام ، وأبيحت القرية وجميع أنواع الخير فيها للقوة المهاجمة التي لم تترك شيئاً له قيمة إلا سلبته .

وألقي القبض على عدد كبير من أهالي البلدة ، وأودعوا في وحدة كرداسة الصحية ، وفي المدرسة الإعدادية ، وفي نقطة البوليس ، دون رعاية ودون طعام .

وأُسرة مكاوي من أهم الأسر في القرية أُلقي القبض على أفرادها وعلى زوجاتهم وأولادهم وحشروا في سيارة جيب إلى السجن الحربي ، وبقوا فيه عدة أيام لاقوا خلالها ألواناً من الإهانة والعدوان ، وبقيت القرية تطوف بها سيارات مصفحة حوالى عام .

ونزلت العقوبات على هؤلاء المساكين :

بسطامى السيد بسطامى حجز ست سنوات دون أن يسأل . وكذلك الدكتور إبراهيم عزاز ، وسجن عدد كبير لمدد مختلفة ، أما سيد عويضة فحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة ولم يخرج من السجن إلا بعفو السادات .

ولا تزال كرداسة تتناقل هذه الأخبار جيلاً عن جيل .

وشهد شاهد من أهلها :

وهذا الشاهد هنا هو كمال الدين حسين الذى كان في يوم من الأيام يشغل أخطر المناصب في رحاب الثورة ، ثم أخذ نفوذه يضعف شيئاً

فثبتاً وعلاقته بالثورة فتكشف كما ذكرنا عند التعريف به ، والمهم هنا أنه في أثناء فترة اعتقال الإخوان ومحاكمتهم أرسل في ١٢/١٠/١٩٦٥ خطاباً طويلاً إلى عبد الناصر يقول له فيه : اتق الله كما أرسل إلى المشير خطاباً مماثلاً ، وكانت النتيجة قاسية بالنسبة لكamal الدين حسين ، فقد اعتُقل وأودى بسبب هذين الخطابين كما ذكرنا من قبل .

وتعليقنا على موقف كمال الدين حسين تعليق بسيط هو أن صحة الضمير التي ظهرت فيه جاءت متأخرة جداً ، أو قل جاءت بعد فوات الأوان ، فأين كان كمال الدين حسين في أثناء المجازر التي نزلت بالإخوان المسلمين في الجولة الأولى ، وفي أثناء العسف الذي أنزلته الثورة بالسياسيين القدامى ، وأنزله عبد الحكيم عامر بالعائلات ليت ضمير كمال الدين حسين وضمائر زملائه صحت في الوقت المناسب ، ولو قد حدث هذا لكان من الممكن ضمان الأمان للشعب قبل فوات الأوان .

حوادث سنة ١٩٦٦

استمرار الجور والإذلال

كان عام ١٩٦٦ م استمرارا لتعاون الشيوعيين وعبد الحكيم عامر وجمال عبد الناصر ضد الشعب ، فالقبض على الأبرياء ، وصور التعذيب ، والمحاكمات العسكرية ، لا تزال تسير على النمط الذى كان متبعاً في العام الماضى ، ومن أجل هذا يعتبر عام ١٩٦٦ والشهور الأولى من عام ١٩٦٧ امتدادا للإذلال الذى عاناه الشعب من الشيوعيين ، ومن لجنة تصفية الإقطاع ، ومن المتآمرين ضد الإخوان المسلمين .

ومن الخطوات التى اتخذها جمال عبد الناصر آنذاك لتقوية جماعة طليعة الاشتراكيين « أن عين شعراوى جمعة وزيرا للداخلية وهو أمين التنظيم بالاتحاد الاشتراكى ، وأمين أمانة طليعة الاشتراكيين ، فكان ذلك تقوية للاتجاه الشيوعى ، إذ أصبحت الوزارة الخطيرة منفذة لهذا الاتجاه . وانطلق شعراوى جمعة يحقق رغبة العناصر الشيوعية التى اتهمت الإخوان المسلمين آنذاك باتهامات باطلة ، ومن أهم أدلة بطلانها أن عبد العظيم فهمى وزير الداخلية السابق - وكان من قبل مديرا للمباحث العامة - أنكر مرتين وجود حركات مضادة للحكومة ، مؤكدا أن أعضاء طليعة الاشتراكيين ليسوا على حق فى هذا الاتهام (١) وقد أبعاد عبد العظيم فهمى عن الوزارة لموقفه هذا ، وجيء بشعراوى جمعة ليسير على هوى طليعة الاشتراكيين ضد الإخوان المسلمين .

(١) أحمد مروش : مجتمع جمال عبد الناصر ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

مأساة كمشيش

مأساة كمشيش مأساة موهلة في الظلم والفهر والإجرام ، وقد سماها أحمد حمروش « زلزال كمشيش » (١) تصويراً للمدى الظلم فيها الذى هز الشعب كله هزاً عنيفاً ، وقد وصف أنور السادات الجماعة التى دفعت عبد الناصر لهذا التصرف بقوله : « إنهم كانوا شيوعيين ماركسيين يريدون أن يتوصلوا عن هذا الطريق إلى تطبيق الماركسية ، وفى هذا السبيل لم يتورعوا عن امتحان كرامة المواطنين بأسوأ مما كانت تفعله لجنة تصفية الإقطاع » (٢) .

وكلام أنور السادات دقيق جداً فى تصوير أصل المسألة ، فإن القضية الحقيقية كانت نشاطاً شيوعياً جارفاً أدّى إلى مشاجرة قُتِلَ فيها مؤجّج هذا النشاط واسمه صلاح حسين ، وكان هذا أمين لجنة الدعوة والفكر بقرية كمشيش مركز تلا محافظة المنوفية ، وهو ماركسى فاقع اللون كما يصفه الأستاذ محمد عبد الرحيم عنبر (٣) ، وبتاريخ ١٩٦٦/٣/٢١ أرسل هذا تقريراً إلى السيد/ عبد الفتاح أبو الفضل أمين أمانة شئون الأعضاء بالاتحاد الاشتراكى جاء فيه الفقرات التالية :

١ - أسرعوا باعتقال كل الإقطاعيين والرأسماليين السابقين للذين أضبروا بقوانين الثورة ، وإلا فانقلاب رجعى فى الطريق ٥

٢ - الحكومات الرجعية تحاول إضفاء الشرعية على الجيب الاستعماري فى إسرائيل كما تحاول إقامة حلف رجعى تحت ستار من الزيف الدينى .

(١) مجمع جبال عبد الناصر ص ٢٦٠

(١) للبحث عن الذات ص ٢٢٣

(٢) محاكمات جمال عبد الناصر ج ١ ص ٥٩

٣ - باسم الثقة التي منحكم إياها شعبنا أطلبكم باعتقال كل الإقطاعيين والرأسماليين المضروبين وأتباعهم في معسكرات خاصة للعمل كعمال وفلاحين عاديين .

وواضح من هذه الفقرات عدوانية هذا الرجل للقيم الدينية ، وللأسر التي كان لها ثراء ، بل ولأتباع هذه الأسر كما سماهم هو في تقريره :

وواضح أيضاً أن هذا الإنسان الصغير وضع نفسه موضع المشرع والامر الذي يأمر بالقبض على الناس وإذلالهم ، وذلك كان جائزاً دائماً في دولة عبد الناصر ، فكل إنسان كان يستطيع أن يذل الشعب ويقترح الإيذاء ويستجاب له ، ولكن الإحسان إلى الناس ، ورفع المعاناة عنهم لم تكن تشغل أحداً من أعوان عبد الناصر ، ولا كان هذا مستعداً لاستماع النصيح فيها .

وواضح كذلك أن هذا الرجل كان كثير الشغب ، ويثير المشاكل والخلافات في البلدة التي يعيش فيها ، وفي إحدى مرات الخلاف قامت بينه وبين أعدائه مشاجرة قتل فيها هذا الرجل الذي كان مصدر شغب مستمر ، وكان شقيق القاتل زميلاً وصديقاً لحسين عبد الناصر (وحسين عبد الناصر هذا هو شقيق جمال عبد الناصر ، وزوج بنت المشير عبد الحكيم عامر) واستعمل حسين عبد الناصر نفوذه لدى أخيه الرئيس وصهره المشير للانتقام لصديقه ، وصور المشاجرة العادية في صورة حركة من أسرة الفتى ضد القانون وضد الدولة ، ولُفِّت الأحداث ضد أسرة كبيرة بالمنوفية هي أسرة « الفتى » وعانت الأسرة رجالاً ونساء وأطفالاً أشق ما يعانيه بشر ، ولترفع القلم لنورد سلسلة من الوثائق في هذا الموضوع :

رأى محافظ المنوفية في مأساة كمشيش :

نشر إبراهيم بغدادى الذى كان محافظاً للمنوفية إبان هذه المأساة في صحيفة أخبار اليوم الصادرة في ١٦/١١/١٩٧٤ بياناً مهماً هذا نصه :

(٤٥ م - التاريخ : ج ٩)

تعليقاً على ما نشر بجريدة أخبار اليوم عن قضية كمشيش ، أود أن أوضح للتاريخ بعض الوقائع المتعلقة بهذه القضية ، التي عاصرت أحداثها خلال عملي كمحافظ للمنوفية من نوفمبر ١٩٦٥ إلى أغسطس سنة ١٩٦٧م :

١ - قضية مقتل صلاح حسين في كمشيش كانت أصلاً مشاجرة عادية يحدث أمثلها كل يوم في مصر ، وانتهت بمقتله ، وليس لها أى خلفية سياسية ، وكل ما قيل غير ذلك مخالف للحقيقة ، وقد اتخذتها السلطات ذريعة ومبرراً لما استتبعها من إجراءات بدعوى تصفية الإقطاع .

٢ - تدخل المباحث الجنائية العسكرية في التحقيق كان بناء على تعليمات من المرحوم المشير عبد الحكيم عامر ، الذى كان زوج ابنته الطيار حسين عبد الناصر شقيق الرئيس جمال عبد الناصر ، زميلاً لشقيق القتل في القوات الجوية ، وتربطه به صداقة قوية .

٣ - المباحث الجنائية العسكرية كانت تتولى توجيه التحقيق ، حتى أن الطبيب الشرعى أثبت في تقريره على غير الحقيقة - أن الطلقات التى قُدمت له من ضباط المباحث الجنائية العسكرية هى نفس عيار المسدس الذى أطلق منه النار على القتل .

وكان أفراد المباحث الجنائية العسكرية ومعاونوهم يتولون جمع الأدلة والقبض على بعض الناس والتنكيل بهم في شوارع القرية ، حتى قبل أن يوجه إليهم الاتهام .

٤ - أسهمت أجهزة الإعلام ومختلف وسائل الاتصال في الحملة التي وُجّهت ضد أعداد كثيرة من المواطنين الأبرياء الذين حكم القضاء العادى ببراءتهم بعد أن أُهينت كرامتهم واغتصبت أموالهم واتهمت أعراضهم ، وشوهت سمعتهم على صفحات الجرائد .

٥ - تحت ستار تصفية الإقطاع نهبت منازل ، واختفت أموال ، وسلبَ الحلى ، وكانت السلطة العليا هي المباحث الجنائية العسكرية التي كانت تتولى عمليات القبض والتفتيش .

٦ - قمتُ بإثارة هذه الموضوعات وغيرها في اجتماع برئاسة المرحوم المشير عبد الحكيم عامر ١٩٦٦ حضره أعضاء اللجنة العليا لتصفية الإقطاع والمحافظون ، وأمناء الاتحاد الاشتراكي ، ورفض المشير أن تثار مثل هذه الموضوعات في اجتماع عام ، وطلب مني أن أشرحها له في مقابلة خاصة خارج الاجتماع ، ولم تتم هذه المقابلة .

٧ - كتبت تقريراً عن حقيقة ما حدث ورفعته للمرحوم الرئيس جمال عبد الناصر شخصياً ، ولم يقتنع بما جاء فيه مما أثبتته بعد ذلك القضاء المصرى النزبه ، وكان تعليقه وقتها : يظهر أنك مش عارف اللي بيحجرى في محافظتك .

٨ - صنفت الدولة المواطنين الذين يجوز اعتبارهم إقطاعيين إلى فئات ؛ منها الإقطاعى الزراعى ، والإقطاعى الإجرامى ، وإقطاع النفوذ ، وتدخلت الحزازت الشخصية فى وضع مواطنين تحت الحراسة وهم لا يملكون شيئاً ، وتركت مواطنين كانوا يستغلون آلاف الأفدنة لصلاتهم ببعض ذوى النفوذ .

٩ - استغلّت جهات أجنبية حادث كمشيش ، وعرفت سيارات السلك السياسى طريقها إلى القرية ، ولم يقتنع المسئولون بتحذيرى لهم من عواقب ذلك .

١٠ - تطورت الأحداث كما كنت أتوقع حتى احتلت بعض العناصر نقطة البوليس فى القرية ، وأخلوا أفرادها رهائن ، وضاعت هبة الحكومة ، وبعد اتصالات على أعلى المستويات ، ومع الرئيس عبد الناصر

شخصياً ، حضر وزير الداخلية ومعه ثلاثة آلاف من قوات الأمن المركزى بسياراتهم المصفحة لتحرير نقطة الشرطة واعتقال الذين احتلوها .

١١ - نتيجة لتصرفات المباحث الجنائية العسكرية وإهانتهم للمواطنين ورجال الدين ، شكوا المرحوم الإمام حسن مأمون شيخ الجامع الأزهر للرئيس من إهدار كرامة الدين ممثلاً في أحد رجال الأزهر - الذى لا يربطه بالإقطاع صلة - مما أدى إلى تشكيل مجلس عسكرى عال برئاسة الفريق أول عبد المحسن مرتجى عقد فى مكتب محافظ المنوفية بعد منتصف الليل ، وحكم بإدانة ثلاثة من أفراد المباحث الجنائية العسكرية فى عملية الإرهاب والبطش التى قاموا بها ضد مواطنين أبرياء .

١٢ - حضرت مع آخرين - فى مكتب السيد/محمد أبو نصير وكان وقتها وزيراً للعدل - مناقشة حول إبعاد أحد المحامين العامين عند التحقيق فى قضية معينة ، وكان تفسير الوزير لإبعاده أن هذا المحامى قانونى «ودغرى» أكثر من اللازم ، والمطلوب فى بعض القضايا السياسية شيء من المرونة ، وكان هذا المحامى العام من بين ضحايا مذبحه القضاة .

١٣ - أثبت القضاء العادل - بتبرئته للمتهمين فى قضية كمشيس رغم كل الضغوط - صحة هذه الوقائع ، وصدق الرئيس محمد أنور السادات على رفع الحراسات بصورة عامة - بعد ثورة التصحيح - وأمر بإعادة الحقوق إلى أصحابها وإعادة القضاء إلى مناصبهم .

إبراهيم بغدادى

حيثيات الحكم بالبراءة بعد الإدانة :

وننشر فيما يلي وثيقة خطيرة هي حيثيات الحكم بالبراءة في قضية كميش ، وقد نشرت هذه حيثيات في ١٩٧٤/١١/٩ وتوضح هذه حيثيات أن الزبانية من رجال التنظيم السرى والمباحث ارتكبوا أقسى الإجراءات ضد المتهمين لينزعوا منهم اعترافات عن أحداث لم تقع منهم ، ولعل ذلك كان تنفيلاً لتدخل حسين عبد الناصر - شقيق الرئيس ، وصهر المشير - الذى كان له هوى في هذا الموضوع ، وفيما يلي هذه الوثيقة :

إن جميع المتهمين وجميع الشهود قد لحقهم من التعذيب ما لا يطيقه أحد من البشر ، بعضه تعذيب مادي جسائى ، وبعضه تعذيب نفسى أشد إبلاماً من التعذيب الجسائى ، وقد أجمعوا على أن ضباط المباحث الجنائية العسكرية ، وجنودها هم الذين ألحقوا بهم تلك الوسائل من التعذيب ، وأن التعذيب وصل ببعضهم فعلاً إلى الموت ، ولقد قرروا جميعاً أنهم اعترفوا بهذه الأقوال التى انتُزعت منهم خوفاً وإجباراً لا طوعاً واختياراً تحت تأثير هذا التعذيب ، بل إنهم بعد نقلهم إلى السجن الحربى وفى أثناء تولى نيابة أمن الدولة العليا للتحقيق معهم كان التعذيب مستمراً ومتوالياً ، لأنهم كانوا فى السجن الحربى بين أيدي ضباط المباحث الجنائية العسكرية وضباط السجن الحربى .

ومن صنوف التعذيب النفسى ما قرره محمود عيسى أنهم أحضروا زوجته وبناته وأمروا زوجته بخلع ملابسها وسرواها وهددوه بهتك عرضها . ثم أحرقوا شاربه - وأوسعوه ضرباً بالكراييج فاضطر إلى الاعتراف على نفسه وعلى عائلة الفتى بأنهم حرضوه على القتل .

ومن صنوف التعذيب ما قرره صلاح الفتى أنهم أوسعوه ضرباً بالكراييج والأحذية ، وكانوا يسمحون للكلاب المتوحشة أن تنام معه

في الزنزانة رقم ٨ بالسجن الحربي ، وكان الكلب يسبقه إلى الأكل والشرب
ووصل التعذيب به وبأهله إلى أنهم كانوا يشربون بولهم .
ولقد ثَبِتَ التعذيبُ من تقارير الطبيب الشرعي الذي كشف على كافة
المتهمين والشهود .

فبالنسبة لمحمود عيسى قد خلعت بعض أسنانه ، وبه ٢٣ إصابة من
ضرب الكراييج وتحلّفت لديه عاهة مستديمة بيده وبأذنه .
وثبت من الكشف الطبي على عبد الوهاب الهادي من الطبيب الشرعي
أنه علق بالفلقة ؛ ووجدت به ١٤ إصابة من الكراييج .

وأن صلاح الفقي أضحى مريضاً هزيلاً من التعذيب حيث كان ينام
معه الكلب المتوحش في زنزانتة وكشف عليه الطبيب الشرعي فوجد أن
سَنَيْن قد خُلِعَتَا من فمه ، وكذلك به ٢٠ إصابة من ضرب الكراييج ١١ .
والمتهم بسيوني الفقي أثبت الكشف عليه الضرب بالكراييج ، ونزع
بعض أظافره ، ومثله المتهم محمد عرفة عمارة .

وقد أثبت كشف الطبيب الشرعي على السيد عبد الله رمضان الفقي
وجود كسر بالأسنان ، وخلع ضربين وكسر بالناب العلوي ، وكذلك ٢٥
إصابة على الساقين ، والفخذين ، والركبتين ، والمعدة ، وجميعها من الكراييج
والضرب . . وكذلك الحال بالنسبة للسيد فراج . . . وهاشم مكاوي الذي
فقد أسنانه وضروسه جميعها وضرب بالكراييج .

وكذلك الحال بالنسبة لعبد القادر حافظ الوكيل ومحمد عبد الرازق العربي
اللذين وُجِدَ بهما نزع بالأظافر . . ، وإصابات عديدة من الضرب بالكراييج ،
وكذلك الحال بالنسبة لأحمد عبد الرحمن رزق . وأما السيد إبراهيم صالح
قد ثبت وجود ورم بخصيته وخمس إصابات من الضرب بالكراييج . . .
وأما محمود غازي فقد ثبت ضربه بالكراييج ووجود كسر بيده .

وقبل أن تثبت الفقرة التالية من فقرات هذه الوثيقة نهتف بضرورة.

معاقبة من ارتكبوا هذه الأعمال الوحشية ، ومن تسببوا فيها . أما الفقرة التالية من الوثيقة فتقول :

وحيث أن جميع المتهمين وجميع الشهود قد عدلوا - في التحقيقات التي أجرتها المحكمة - عن أقوالهم الأولى التي ذكروها من قبل أمام المباحث الجنائية العسكرية ونيابة أمن الدولة ، والتي تتضمن اعترافاً بارتكاب تلك الحوادث بتحريض عائلة الفقي ، ونسبوا هذه الاعترافات إلى صنف التعذيب سالف الذكر ، فهي التي دفعتهم إلى أن يعترفوا طلباً للنجاة من الموت والتعذيب . . ذلك

التعذيب الذي أودى بحياة آخرين غيرهم .

وليس أدل على كذب الاعترافات وعدم صدقها من أن المحكمة أمرت بضم اعتقال المتهم عبد الجليل شحاته العربي الذي نسب له مقابلة صلاح الفقي في منزله ، وأن صلاح الفقي سلمه سلاحاً ليرتكب به حادث القتل ، ثم اتضح أنه يوم الحادث كان معتقلاً وفي صميم المعتقل ، وكان من المستحيل أن يرتكب القتل .

وحيث أن الدفاع عن المتهمين جميعاً ممثلاً في السيد الأستاذ عبد العزيز الشوربجي نقيب المحامين السابق وانضم معه كل من السادة : علي منصور والطاهر حسن ، ومحمد مسعود وآخرون . . . قد طلبوا من المحكمة عدة مطالب أساسية هي :

١ - الحكم بإعلان إجراءات المباحث الجنائية وتحقيقاتها لأن كل تصرفاتها تصرفات باطلة .

٢ - طلب الحكم ببراءة المتهمين استناداً إلى ما ثبت من تحقق التعذيب الذي وقع عليهم .

٣ - محاكمة من أجروا هذا التعذيب من ضباط المباحث العسكرية وسؤال وكلاء نيابة أمن الدولة عن موقفهم من هذا التعذيب .

وحيث أنه ثبت لدى هذه المحكمة أن ملحق المتهمين والشهود من التعذيب

مع استثناء المتهم الأول كفيل بأن يؤكد عدم الأخذ بأى أقوال صدرت منهم ، ولقد أكد ذلك واقعة ضم اعتقال المتهم عبد الجليل شحاته العربى ، والذي شمله الاعتراف بارتكاب حادث قتل وقع فى ١٢/٤/١٩٦٢ بينما ظهر أن المتهم كان فى المعتقل من ٢٨/١١/١٩٦١ حتى ٢٢/٣/١٩٦٣ .

ومن ثم فإن كافة الأقوال التى مُبديت قد جاءت نتيجة لإكراه أُعْدِم إرادتهم تماماً ، فجاءت أقوالهم لتروى قصة ملفقة لإرضاء للقائمين على التعذيب .. الذين ظنوا خاطئين أن الأدلة يمكن أن تأتى عن هذا الطريق فضلوا وضل معهم محققو نيابة أمن الدولة العليا فتأهوا فى مناهات اعترافات خيالية ، وظهرت محاولة اصطناع الدليل الذى كشفته تحقيقات المحكمة والأوراق الرسمية التى أمرت بضمها .

- يضاف لما تقدم ما ثبت فى القضايا المضمومة أن السلاح المستعمل والموصوف على لسان المتهمين والشهود لا ينطبق على الطلقات المستخرجة من الجثث ، ومن أن تقارير الأطباء الشرعيين فى القضايا المضمومة تؤكد أن اتجاه الأعيرة يخالف ما قرره المتهمون والشهود . لكل هذا وافقت المحكمة على طلبات الدفاع .

بقى عن هذه القضية أن ننقل كلمات المستشار محمد عبد السلام تلقى مزيداً من الضوء على هذه القضية ، يقول سيادته :

اتصل بنى المشير عبد الحكيم عامر بمنزلى وأبلغنى بقتل صلاح محمد حسين ، مبدئياً اهتمامه بالموضوع وذكر من أسباب اهتمامه أن القتيل كان صديقاً شخصياً لأحد أصحابه المشير ، وأن قاتليه هم إقطاعيون من عائلة الفقى ، وانتقلت بنفسى لأشرف على التحقيق . وتبين أن القتل وقع لدوافع شخصية بحتة . وأنه لا صلة له بالإقطاع (١) .

وهكذا كان قتل شخص منحرف ، شيوعى متطرف ، عدوانى ، سبياً فى أحداث هذا الزلزال العنيف الذى أصاب عشرات الرجال والنساء والأطفال .

مستشفى الأمراض العقلية للمخالفين

شهد عام ١٩٦٦ نوعاً جديداً من جور نظام عبد الناصر فقد وصلت القسوة والوحشية مداها حين اتجهت القلوب الجاحدة إلى اتخاذ مستشفى الأمراض العقلية مكاناً يلتق فيه الأبرياء عندما يحتجّون على شيء أو يعترضون على تصرف ، وعندما أثارت مجلة آخر ساعة هذا الموضوع في مطلع عام ١٩٧٤ اتجهت العدالة إلى هذا المستشفى وأخرجت منه مجموعة من الأبرياء بعد أن مسهم الضيم الشديد ، وبعد أن عدوا مجانين عدة سنوات ، وقد تألفت لجنة من أعضاء مجلس الشعب لبحث هذه المأساة ، وتقول صحيفة الأخبار الصادرة في ١٨/٤/١٩٧٤ أن موسيقيا بهيئة السينما والمسرح تقدم عام ١٩٦٦ بشكوى يطلب تثبيت زملائه العاملين بعقود مؤقتة ففصلته الهيئة ، وعندما تظلم أدخلته مراكز القوى مستشفى الأمراض العقلية حيث أمضى خمس سنوات.

الإنسان بضاعة في طرد

وشهد عام ١٩٦٦ شيئا عجبا ، فإن عصابة السوء بمصر لم تكن تستطيع أن تحتل أى نقد أو اعتراض ، وكانت مستعدة أن ترتكب أفسى الجرائم للتغلب على المعارضين ، ولكن ما العمل إذا كان المعارض قد استطاع أن يفلت من قبضتهم ويترك مصر ليعيش في قطر آخر ؟

إن ولاية الأمر في مصر آنذاك كدحوا فكريا ، واستعملوا كل مواهبهم للقبض على هذا الذى خدعته نفسه فظن أنه بمنجى من قبضة الأشرار أعداء الإنسانية .

وللقبض على مصرى بإيطاليا مثلا بهذه التهمة يتحتم إنفاق أموال الشعب المصرى بسخاء وبذخ ، فالزبانية يُرْسَلون إن إيطاليا ، ويتنكرون أو يتصلون بوسيلة ما بأصدقاء هذا المصرى ، ويرتكبون حماقات متعددة ، وحيل كثيرة يستطيعون بها أخيرا أن يلتقوا بهذا الإنسان بمنأى من الناس ، وهناك يَسْقُونه دواء مخدرا أو يعطونه بعض الحقن المخدرة طويلة المفعول ، فإذا تم لهم ذلك وضعوه في صندوق على أنه بضاعة ديبلوماسية تابعة للسفارة يراد إرسالها إلى مصر بطريق السرعة ويدفعون أغلى الأجور لأسرع طائرة تقوم من هناك أو يسخرونها لذلك طائرة مصرية ، وتقول الأنباء إنه حدث مرة أن زال تأثير المخدر قبل الوصول إلى الهدف فتحركت البضاعة وكانت فضيحة .

إننا باسم الإنسانية نطالب بالتحقيق في هذه الأمور ، ولا يمكن أن يكون كل الذين ارتكبوا كل هذه الجرائم قد ماتوا جميعا ، فلا بد من مساءلة الأحياء ؛ ولا بد أن ينسب للأموات ما ارتكبوه من خير أو شر فذلك هو دستور السماء « كل نفس بما كسبت رهينة » صدق الله العظيم .

وبعد ، إن مؤلفي الأفلام والمسرحيات التى تصف معاناته الشعوب من ظلم المستعمرين والمستبدين سيجدون في هذه الفترة مادة خصبة قل أن وجدت في عهد من العهود .

حوادث سنة ١٩٦٧

عام ١٩٦٧ عام الخسارة الفادحة التي حلت بمصر بسبب جهل الحكام وانصرافهم عن الواجب إلى الباطل ، وبسبب أنهم بدل أن يستعملوا لمقاومة العدو الرابض على الحدود وجهوا كل جهودهم لقتل الشعب الآمن الأعزل داخل البلاد :

صحيح أن حرب ١٩٦٧ أنقذت البلاد من حكم للطغيان الذي انهار في دقائق أمام زحف العدو ، ولكن الشعب هزته المزيمة وأحزنته ، فبلادنا عندنا أغلى من أشخاصنا ، ولهذا كنا نرجو أن ينتصر أعداء الشعب على أعداء الوطن ، ولكن ساعة هؤلاء الطغاة كانت قد حانت فدمرهم الله في هذه الحرب وكتب انتصارنا على يد أخرى بعيدة عن أن تدنسها دماء المواطنين الأبرياء .

على أن هناك بعض موضوعات ارتبطت بعام ١٩٦٧ وسبقت في حدوثها تلك الغارة الإسرائيلية التي حرقت القش الذي كان يسمى نفسه نظاما ، وسلم أولا بهذه الموضوعات ثم نتججه للحديث عن حرب سنة ١٩٦٧ •

عبد الناصر وملوك العرب

لا نجد أوضح من كلام عبد الناصر نفسه دليلاً على موقفه من ملوك العرب ورؤسائهم ، ولا نجد وثيقة أدق في تسجيل هذا الكلام من « نشرة الوثائق » وهي نشرة رسمية يصدرها مركز الوثائق والبحوث بمصلحة الاستعلامات بانقاهرة ، وبين يديّ عددٌ من هذه النشرة وهو العدد الثاني من السنة الخامسة عشرة ، ويحمل وثائق الفترة من يناير إلى يونيو سنة ١٩٦٧ وعلى هذا شمل هذا العدد خطاب جمال عبد الناصر الذي ألقاه في عيد الوحدة (٢٢ فبراير سنة ١٩٦٧) ونُشر بهذه النشرة (صفحة ٢٢ - ٣٧) ولست أستطيع أن أنقل ما جاء في هذا الخطاب ضد الزعامات العربية ورؤساء العرب وملوكهم لقسوة الكلمات التي استعملها عبد الناصر ضد هؤلاء الملوك والرؤساء ، ولخروجها تماماً عن المألوف وعن الآداب العامة ، ليس فقط بالنسبة للملوك والرؤساء ، وإنما أيضاً بالنسبة للطبقات الأخرى في الجماهير ، وكل ما أستطيع أن أورد هنا هو لقطات سريعة مقتبسة من هذا الخطاب فصلّها جمال عبد الناصر تفصيلاً واسعاً :

- رجعية في الأردن ورجعية في العراق .
- الوحدة التي تمت بين العراق والأردن كانت زيفاً خلقها الاستعمار .
- ثورة اليمن هزت الرجعية السعودية ولحبطت كيانها .
- الحكم الأردني العميل والحكم السعودي الرجعي .
- العملاء يحاولون ضرب المبادئ الثورية التقدمية التحررية .
- الخواجة بورقبة عميل استعماري ، وهو ملحوس ، وساعات تجيء له لحسة .
- شتمنا عملاء أمريكا فقطعت أمريكا عنا معونة القمح التي كانت تقدمها لنا كل عام بما قيمته ستون مليون جنيه .

- غضب الأمريكان علينا لأننا شتمنا أبو ذقن (فيصل) .
- فيصل وحسين خدموا لأمريكا وانجلترا ، وخدموا للاستعمار .
- الملك حسين لا يخدم الإسلام ولا المسلمين ولا العرب ولكن يخدم أمريكا ويناسب إنجلترا .
- سلاطين المحميات رضوا بالخضوع والاستسلام .
- ملك الأردن وملك السعودية والخواجة بورقيبة ماشيين لتحقيق أهداف الاستعمار ، والمخابرات الأمريكية بتشتغل معاهم هم الثلاثة .
- القوى الرجعية والانجليز محروقين علشان هايسيوا عدن ، وهايسيوا الجنوب العربي واحنا وراهم لغاية ما نطلعهم .
- الملك حسين فاجر عاذر خائن بالوراثة .
- الملك فيصل يدفع الملايين لوكالات الأنباء لتدافع عنه ، هو يدافع عن رقبته ، حايخسر المعركة ، حايخسر رقبته ، حايخسر كل حاجة .
- يقولوا إن عبد الناصر أعطى قاعدة السلوم للروس . . يتفلقوا ما بهمناش كلامهم .
- إذاعة السعودية بتقول إن المصريين جاعوا في عهد الاشتراكية وهو كذب .

الظروف التي ضللت بعض الإخوة العرب

هناك موضوع مهم يرتبط بموقف عبد الناصر من ملوك العرب ورؤسائهم وذلك الموضوع هو إعجاب الكثيرين من العرب بعبد الناصر ، وقد زرت كثيراً من البلاد العربية ، واستقبلت في القاهرة أعداداً وفيرة من العرب الوافدين على العاصمة المصرية ، ورأيت وسمعت هنا وهناك تصفيقاً وتقديراً وإعجاباً بعبد الناصر ، مع أنهم كانوا يرون ما تعاني ، ويرون تهافت شبابنا

على الهجرة الدائمة أو الهجرة للعمل في بلادهم ، ويرون الفارق الكبير بين حياة الحرمان التي نعيشها وحياة الترف التي تشمل كل البلاد العربية تقريباً ، حتى كان بعضهم يعيّرنا بأننا أكلةُ القول والطعمية ، وهم أكلة مالذ وطاب ، ومع أنهم سمعوا عن كبت الحريات ، وعن السجون والمعتقلات .

ما الظروف التي ضلّلت هؤلاء الأخوة العرب ؟

ولماذا تخلّوا عنا في محنتنا الداخلية وصفقوا لمن عذبنا ؟

هذا ما سنجيب عليه فيما يلي :

أولاً : الهجوم على الملوك والرؤساء العرب :

من الأسباب التي كانت شديدة التأثير على الإخوة العرب أن عبد الناصر هاجم أكثر الملوك ، والرؤساء العرب كما رأينا آنفاً، وطبيعي أن كثيرين من الناس في البلاد العربية ارتاحوا لهذا الهجوم لأنه كان تنقيساً عن أشياء في نفوسهم ضد هؤلاء الملوك والرؤساء .

وتعليقنا على موقف عبد الناصر أنه أضعف الجبهة العربية ، وكان من أسباب الهزيمة ، وقد تخلى عنه عبد الناصر بعد هزيمة ١٩٦٧ ، وبعد تقديم الدعم الذي تطوعت بعض الدول العربية بدفعه ؛ ومعنى هذا أن الهجوم على الملوك والرؤساء للعرب لم يكن له أساس صحيح ، وأنه كان من الممكن أن يُشتَرى بالمال .

ثانياً : الهجوم على الاستعمار ودراسة حوله :

وهناك سبب آخر كان شديد التأثير في الإخوة العرب كذلك ، ووثّق الصلة بينهم وبين جمال عبد الناصر ، وهو أن عبد الناصر أطلق لسانه بحدة ضد الدول الغربية وكان هناك خوف وكَبَتْ لدى الجماهير العربية في هذا المجال فلما انطلق عبد الناصر يسخر من أمريكا ، ويلعن إنجلترا ، ويقلل من شأن ألمانيا ، ولما انطلق يدعو هؤلاء وأولئك ليشربوا من البحر الأبيض أو الأحمر ،

كان عبد الناصر بذلك بنفس عن الجماهير ، ويعبر عما في نفوسهم ، فأصبح بذلك لسانهم الناطق وكلمتهم المعلنة .

وفي هذا المجال نذكر الذين أعجبوا بهذا الموقف من عبد الناصر بحقيقتين هامتين :

أولاهما : أن كثيرين من الزعماء المصريين سبقوا عبد الناصر في الهجوم على الاستعمار ، ولكنه كان هجوماً منظماً مهذباً ، ومن هؤلاء المرحوم محمود فهمى النقراشي الذي صرخ في مجلس الأمن في الأربعينات قائلاً عن الإنجليز إنهم قراصنة ، ومن هؤلاء الزعيم مصطفى النحاس الذى ألغى معاهدة سنة ١٩٣٦ قائلاً « لقد أمضيت هذه المعاهدة ويقتضى واجب أن ألغىها » وأوقف كل عون وكل يد عاملة عن الجيش الإنجليزى ، ووظف كل عمال القناة ليجدوا لهم بديلاً عن العمل لدى قوات بريطانيا ، وأطلق الفدائيين يهاجمون جنود الاحتلال ، فزعزع وجود الإنجليز فى القناة .

ثانيهما : أننا دفعنا الثمن غالياً لموقف عبد الناصر وهجومه الهجوى على الدول الكبيرة ، وكان من ذلك تلك الحروب التى دمرت حياتنا ، وكان منها توقف كثير من المصانع لعدم ورود أجهزتها من ألمانيا وغيرها .

ثالثاً : قسوة عبد الناصر كانت على الشعب المصرى :

ومن الأسباب التى كانت شديدة التأثير على الإخوة العرب أنهم لم يمسهم سوء من عبد الناصر ، وربما مس الخير بعضهم ، فلقد كان عبد الناصر قاسياً على المصريين ومدمراً لحياتهم ، ولكن نفوذه فى هذا المجال لم يتخط حدود مصر ، وفى نفس الوقت أنفقت مصر بسخاء على كثيرين من الوافدين العرب وبخاصة أولئك الذين لهم صلة بالإعلام والدعاية لشترى للرئيس بعض الأقلام .

ولاشك أن الإخوة العرب سيعودون إلى الحتى يوم يتعرفون على عبد الناصر بفكر محايد وبصيرة نافذة .

(٦٢ ، التاريخ ، ج ١)

كارثة يونيو

كارثة يونيو سماها عبد الناصر نكسة، ثم شاع هذا الاسم بعد ذلك، ولكن الحق إنها كارثة وفجيعة ومأساة لم نعرف لها في تاريخ الحروب مثيلاً ، وأنا كباحث في التاريخ أعرف أن الهزيمة والنصر محتملان، ولكني لأعرف أبداً زعيماً دفع جيشه إلى معركة لتستمر ثلاث دقائق بالضبط ثم ينتهي جيشه ، ويصبح الطريق إلى العاصمة مفتوحاً دون جندي واحد يزود عنها كما اعترف هو بنفسه ، هذا ما لم يعرفه التاريخ على الإطلاق .

لماذا اندفع عبد الناصر إلى المعركة ودفع جيشه لها ؟

لماذا ضحى بكل شيء بدون استعداد ومقدرة على إدارة المعركة ؟

لماذا كرر الاندفاع ثم الانسحاب كما حدث سنة ١٩٥٦ ؟

لقد اعترف عبد الناصر أنه المسئول ، ولكنه اعترف بالكلمة فقط فهو لم يقيم بمسئوليته على الإطلاق .

وهناك نقطة أخرى نغفل عنها هي أن الدعاية التي أشاعها عبد الناصر قبل يونيو عن قدرته على ضرب إسرائيل والثأر لهجماتها السابقة علينا ، هذه الدعاية كانت شديدة التأثير على المصريين ، مما جعل جميع المواطنين بلا استثناء تقريباً يلتفون حول عبد الناصر حتى أولئك الذين مسهم الضر منه ، إنه شعور نبيل من هذا الشعب أن ينسب جراحه وآلامه من أجل بلاده ، ولنعد لهذه الحرب لنروى أحداثها كما سجلتها دقيقة إثر دقيقة .

يوميات حرب يونيو ١٩٦٧

في شهر مايو سنة ١٩٦٧ وخلال الأيام التالية له من شهر يونيو الحزين ، حدثت تلك الكارثة الكبرى ، وتلك الهزيمة القاسية ، التي لا تزال حديث الناس ، وفي يوميات محدّدة يمكن أن نستعرض أبرز هذه الأحداث :

الجمعة ٧ إبريل :

قامت إسرائيل بغارة على سوريا انتقاماً لما أنزله بها الفدائيون العرب القادمون من الأرض السورية ، ثم أبلغ السوفيت عبد الناصر أن إسرائيل حشدت عشر لواءات على حدود سوريا لغزوها وكان الاتحاد السوفيتي يقصد من ذلك توريط جمال عبد الناصر ودفعه إلى المصير الأسود ، وقد وقع عبد الناصر في الفخ وتورط كما سنرى ، كأنما كان ينتظر ذلك العمل الأحمق من إسرائيل ليقضى عليها قضاء تاماً كما فهم من تصرفاته وتصريحاته آنذاك .

الاحد ١٤ مايو :

أصدر جمال عبد الناصر أوامره لقوات مصر أن ترحل لسيناء ؛ وكانت سيناء منزوعة السلاح تقريباً منذ ١٩٥٦ كما يقول الدكتور هنري كيسنجر في مذكراته « سنوات البيت الأبيض » التي نشرتها صحيفة الأخبار في نوفمبر سنة ١٩٧٩ ، ومن العجيب أن عبد الناصر سمح لأجهزة التلفزيون أن تصور الجيش ومعداته عند الزحف ، وأن هذا « الفيلم » يبع لدول كثيرة ، وهذا مقبى الجهل ، الزحف كان ينبغي أن يكون خفية بقدر الإمكان .

الاثنين ١٥ مايو :

طلب عبد الناصر من السكرتير العام للأمم المتحدة إنهاء عمل قوات الطوارئ الدولية في الأرض المصرية ؛ تلك القوات التي اتخذت أمكنتها منذ سنة ١٩٥٦ ، ولم يكن أكثر المصريين يعرفون أن قوات دولية تعيش على أرضهم ، وقد استجاب السكرتير العام للأمم المتحدة لهذا الطلب ، وبمب قوات الطوارئ الدولية ، إذ أن قبول الدولة المضيفة شرطاً لبقاء هذه القوات .

— وما أن سُحبت هذه القوات حتى أخذت القوات المصرية تحتل مواقعها، ومن ضمنها موقع شرم الشيخ الذى يشرف على مضيق تيران، ويسيطر على الملاحة فى خليج العقبة وتأزمت الأمور بذلك تأزماً شديداً .

السبت ٢٠ مايو :

أعلن يوثانت السكرتير العام للأمم المتحدة أنه سيحضر للقاهرة لمحاولة الوصول بالأمم المتحدة إلى تسوية .

الثلاثاء ٢٣ مايو :

قطع جمال عبد الناصر خيط الأمل ، ولم ينتظر وصول السكرتير العام ، وأصدر قراراً بإغلاق خليج العقبة أمام الملاحة الإسرائيلية ، وأمام البضائع الاستراتيجية المتجهة إلى إسرائيل ، حتى لو كانت على ظهر بواخر غير إسرائيلية ، وأعلن أن ذلك عودة لما كانت عليه الأمور قبل عدوان ١٩٥٦ .

— أحدثت هذه التصرفات هلعاً في العالم ، وتمّ اجتماع عاجل بين ويلسون رئيس وزراء بريطانيا وجونسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، واتضح من الاجتماع إصرارهما على مناصرة إسرائيل علناً ، وفتح خليج العقبة ولو بالقوة أمام الملاحة الإسرائيلية ، وقد علق جمال عبد الناصر على موقف أمريكا وبريطانيا بقوله : أمريكا هي إسرائيل ، وإسرائيل هي أمريكا ، وبريطانيا تابعة لأمريكا .

وفي تعليق موجز على هذه النقطة نقرر الدهشة لمن يدرك هذه الحقيقة ثم يتصدى لصراع ضد هذه الدول ، وليس من يفعل ذلك إلا كمن يرى أن من الشجاعة أن يتصدى لأسد هصور فيفتك به الأسد :

ونذكر القارئ بأن الاتحاد السوفيتي بمكانته وقوته وجبروته تراجع أمام أمريكا في قضية الصواريخ في كوبا ، ولم يقبل مواجهة أمريكا ، وفكّ الصواريخ بإشراف أمريكا وعاد بها أدراجها ، ولكن جمال عبد الناصر لم يشأ أن يتراجع ولم يعط فرصة للوساطة ، مما جعلنا نظن أن في يده عصا سحرية يحقق بها ما يشاء دون تردد أو خوف .

الأربعاء ٢٤ مايو :

وصل يوثانت إلى القاهرة ، والتقى بجبال عبد الناصر التقاء طويلاً مساء ذلك اليوم ، حيث شرح الرئيس للسكرتير العام أسباب ما قام به من تصرف ، ولكن اللقاء لم يكن مثمراً لأن الرئيس لم يدع فرصة لتحقيق حل وسط . ثم أذاع يوثانت تقريره ، وهو تقرير عادل إلى حد كبير ، وردّ بوضوح على الذين اعتقدوا أنه تسرع في الاستجابة لمصر عند ما سحب قوات الطوارئ ، وأعاد جذور الخلاف إلى مدى أبعد من سحب قوة الطوارئ وقفل خليج العقبة ، فتحدث عن أعمال التخريب وحقوق الزراعة في المناطق المتنازع عليها في المنطقة المنزوعة السلاح بين سوريا وإسرائيل ، وذكر أن جذور الخلاف أبعد جداً من هذا المدى أيضاً ، إنها ترجع إلى قيام إسرائيل ، وطرد العرب ، وعدم الاستماع لقرارات الأمم المتحدة الخاصة بعودة اللاجئين ، وكثرة الاعتداءات الإسرائيلية على كل جيرانها العرب .

الخميس ٢٥ مايو :

وصل شمس بدران وزير الحرية المصري إلى موسكو في مهمة سرية ، أشعلت الاتجاه للحرب ، فأذاعت إسرائيل أن الحرب أصبحت وشيكة الوقوع ، وأمرت أمريكا رعاياها بالرحيل عن مصر وإسرائيل فوراً ، وفي الاتحاد السوفيتي سئل شمس بدران عن موقف مصر من الاسطول السادس الأمريكي ، فأجاب لدينا ما يدمره !!!

الجمعة ٢٦ مايو :

أعلن عبد الناصر في خطاب له أمام قادة العمال العرب قوله « إننا سندمر إسرائيل إذا بدأت بالعدوان » وأضاف « إننا كنا نستعد بحيث إذا دخلنا معركة نكون واثقين من النصر ، ونحن نشعر الآن بأن قوتنا كافية ، وأننا إذا خضنا معركة مع إسرائيل فإننا نستطيع أن نتصر ، وأعلن أن عنده تفويضاً من اللجنة التنفيذية العليا بتنفيذ هذه الخطة حسب الوقت المناسب » .

الاحد ٢٨ مايو والمؤتمر الصحفي :

- في هذا اليوم عقد الرئيس جمال عبد الناصر مؤتمراً صحفياً حضره عدد كبير من الصحفيين من مختلف بقاع العالم ، وقد استهله الرئيس ببيان تهديدى وضح فيه أن المشكلة التي يعيشها العالم ليست مشكلة مضايق تيران ، وليست مشكلة سحب قوات الطوارئ الدولية ، فهذه عوارض طارئة لمشكلة أكبر وأخطر ، هي مشكلة العدوان الذي وقع ولا يزال واقعاً على وطن من أوطان شعوب الأمة العربية في فلسطين ، وما يعنيه ذلك من تهديد قائم باستمرار ضد أوطانها جميعاً ، وذكر الرئيس أن الاستعمار خلق لإسرائيل ودعمها وشجع عدوانها حتى ضد مبادئ وقرارات الأمم المتحدة ، واستعملها أداة للعدوان في عدة مناسبات ، وأضاف أنه الآن مستعد لاسترداد حقوق العرب .

وبعد البيان التهديدي سئل الرئيس عن احتمال مساعدة الولايات المتحدة لإسرائيل بسبب إغلاق مصر للمضائق ، فكانت إجاباته مثيرة وبعيدة عن الدبلوماسية ، وفيما يلي خلاصتها :

- إذا قامت حرب بين إسرائيل وحدها وبيننا وحدنا فلإنها يمكن أن تكون مقصورة على الشرق الأوسط وحده .

- الدول الكبرى لا تقرر لنا مصيرنا ولسنا تحت وصاية أحد .

- إن أمريكا انحازت انحيازاً كاملاً لإسرائيل ضد العرب ، ولقد قرأت اليوم تصريح نائب الرئيس الأمريكي الذي يتحدث فيه عن إسرائيل « كمنارة للعالم » وكل ذلك في سبيل الأصوات وعلى حساب المبادئ .

- كنا نتصور يوماً أن أمريكا سوف تكون سنداً لحركات التحرير ، ولكنها تحولت إلى قوة راغبة في السيطرة والحكم ، وتتصور أنها تستطيع أن تخط أقدار الشعوب ، وهي تقف ضد الأمة العربية مائة في المائة .

- إن الضجة التي تثار الآن حول سحب قوات الطوارئ وإغلاق خليج

العقبة أمام إسرائيل ضجة مصطنعة تثيرها الولايات المتحدة الأمريكية تشجيعاً ودعماً للعدوان الإسرائيلي . . . وهذه الأشياء كلها من آثار مؤامرة السويس صحنها وأعدناها إلى وضعها السليم ونحن نستطيع ذلك اليوم .

— إن مضيق تيران عرضه ثلاثة أميال أو أربعة ، والقسم الصالح للملاحة في عرضه ميل واحد ، ومصر على جانبي مضيق (تيران — شرم الشيخ) فمياهه مصرية مائة مائة في المائة :

— لا يمكن أن يبقى العدوان الصهيوني على أرضنا ، لقد ذهب الاستعمار الصليبي ، ولم يبق منه إلا أطلال أثرية يزورها السياح .

— إننا لا نقيم حساباتنا على احتمال التدخل الأمريكي عسكرياً ، وإذا وقع ذلك فإننا ستقاوم وندافع عن حقوقنا وسيادتنا ، ونحن لا نخاف جنرالات أمريكا ، ولا نخضع لتهديد أمريكا ، لأن ذلك معناه التخلي عن حقوقنا .

— نحن لا نريد أن تحدث مواجهة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية ، فإن مثل هذه المواجهة سوف تكون حرباً نووية وذلك أمر لا نتصوره ولا نتمناه .

وتعليق قصير هنا يتحتم علينا أن نثبتته وهو أن هذا الكلام يمكن أن يصدر عن إنسان يملك إحداث هذه المواجهة ، فإذا لم يملك ذلك فإن هذا الكلام يصبح لا مدلول له ، وقد هاجمتنا إسرائيل وأيدتها أمريكا ولم يتحرك الاتحاد السوفيتي مما يدل على أن هذا الفكر كان لغوا .

— نحن متأثرون من موقف كندا وموقف رئيس وزرائها الذي حصل على جائزة نوبل للسلام ، وهو الآن يؤيد العدوان ويتحيز ضدنا ، ويتواطأ مع السياسة الأمريكية .

— إذا كانت الحرب مع إسرائيل وحدها فسوف تظل قناة السويس مفتوحة ، وأما إذا كانت الحرب مع غير إسرائيل فلن يستطيع المعتدون أن يمروا من قناة السويس .

— لا أوافق على تدمير المصالح والمنشآت الأمريكية بالبلاد العربية في حالة العدوان ، ولقد رحبت باقتراح وزير خارجية الكويت الذي أكد فيه أن الكويت سوف توقف تدفق البترول إذا حدث شيء ، ونحن في انتظار موقف السعودية ، وعلى أية حال فإن أى بلد عربي تتأخر حكومته عن أداء دورها فإن المسؤولية تنقل إلى الشعب فتتصرف جماهيره بوحى ضميرها القوي .

وهنا أيضاً مكان لتعليق ضرورى هو :

هل كان عبد الناصر يملك تدمير المصالح والمنشآت الأمريكية بالبلاد العربية ؟

وهل كانت الشعوب العربية تتخطى حكامها لتأتمر بأمره ؟

واليس فى هذا الكلام ما يفيد إثارة الشعوب العربية ضد حكامها ؟

وبعد ذلك سئل جمال عبد الناصر عما إذا كانت صحته تسمح له بحوض معركة جديدة بالإضافة إلى معاناة من معارك ؟ فأجاب بأنه يستطيع ذلك ، وأنه ليس « خرع » مثل إيدن رئيس وزراء بريطانيا أيام العدوان الثلاثى الذى لم يحصل نتيجة الحرب التى أعلنها .

وسئل عما إذا كان الاقتصاد المصرى يحتمل الصمود لمعركة ؟ فأجاب : إن اقتصادنا متين ، والصحفيون الأجانب يمكن أن يشاهدوا آثار ذلك فى حياتنا اليومية : وقال : ألا يأكل هؤلاء الكباب والكفتة فى بلادنا ؟

الاثنين ٢٩ مايو :

بدأت جلسات مجلس الأمن بعد تقرير أوثانت ، وقد طلبت مصر من المجلس ألا يقصر بحثه على مضيق تيران ، وأن يبحث المشكلات الأخرى حول فلسطين وأن يبحث كذلك اعتداءات إسرائيل المتعددة .

الثلاثاء ٣٠ مايو :

حضر الملك حسين ملك المملكة الأردنية الهاشمية إلى القاهرة ، ووقع مع الرئيس جمال عبد الناصر اتفاقية للدفاع المشترك .

الاحد ٤ يونيو :

انضمت جمهورية العراق لاتفاقية الدفاع المشترك بين الجمهورية العربية المتحدة والأردن .

مشاعر الناس حتى الرابع من يونيو :

وقبل أن أصل إلى الخامس من يونيو لا بد أن أقف وقفة أصور فيها مشاعري ومشاعر الناس حتى الرابع من هذا الشهر .

والحق أن وسائل الإعلام هوّنت علينا كل شيء ، وكان تأثيرنا باتجاهاتها شديداً ، حتى أننا أحسنا أن جمال عبد الناصر في يده أقدار الأرض ، فقد استهان بجنرالات أمريكا وبقوة بريطانيا ، وسخر من كندا ، فلا بد أنه واثق من قوته وكان هو يعلن هذه الثقة بنفسه ، وكانت « تل أبيب » على كل لسان كهدف يسعى له الناثرون ، ويلتقي فيه المناضلون ، وقد أطمعنا في ذلك أن الرئيس رجل عسكري ومعه نائبه ومشيريه وهو عسكري كذلك ، وكانت القوة المصرية تُستعرض في المناسبات فيمتلئ الجوبأزيز الطائرات وجلجلة الدبابات ، وكان قادتنا يكررون أننا نملك الصواريخ ، وأن لدينا أعظم قوة ضاربة في الشرق .

وحتى أولئك الذين مسهم الضر من حكم عبد الناصر صققوا له قبل الخامس من يونيو ، فإذا كان عبد الناصر سيثار لنا من إسرائيل ، وسيد جبروت إسرائيل ، فإن كل خطيئة له تُغفر ، وكل ذلة تنسى .

وأشهد لقد رأيت الشبان يتهافتون على السفر إلى سيناء ليكون لهم شرف الزحف إلى تل أبيب ، ورأيت الكهول والشيوخ وقد تجدد فيهم الشباب ، وراحوا يصفقون للرجل الذى بعثته الأقدار ليقود نضال العرب ، وارتبط فى أذهان المثقفين اسم الناصر صلاح الدين باسم ناصر الحديد ، ولم يكن الشعب وحده هو الذى خُدع بالضجيج ووسائل الإعلام ، بل إن كثيراً من الدول وقعت فى هذه الهوة كذلك ، فلم يكن الملك حسين ليغامر بدولته وجيشه لولا أنه خُدع فى قوتنا الصاربة كما خُدعت الجماهير .

الخامس الحزين والمعركة الخاسرة :

ومرت الأيام قبل الخامس من يونيو ونحن فى فرح وبهجة وأمل عميق ، ليطلع علينا يوم الاثنين الخامس الحزين بتحول مريع ، فى صبيحة ذلك اليوم ، استيقظ الناس على أنباء ببدء الحرب ، وكانت إسرائيل قد قامت فى الصباح الباكر بهجوم سريع بالطائرات ، واتخذت المطارات المصرية هدفاً لها ، ويقال إن رجال الطيران كانوا فى حفل راقص مساء هذا اليوم بإنشاص امتد بهم حتى خيوط الفجر ، فلما أووا للفراش انطلقت إسرائيل فدمرت المطارات والطائرات وهى رابضة فى أمكتها ، وقد تم ذلك فى سرعة مذهشة ، وكان نذير سوء ترك البلاد تحت رحمة العدو .

وعندما تعطل سلاح الطيران المصرى أصبح الزحف الإسرائيلى على مصر آمناً فاجتاحت جيوش العدو سيناء ، وكان من الممكن أن تدور معارك رهيبية بين الجيش المصرى بسيناء وبين المهاجمين ، ومن المعروف أن قوة الطيران تضعف فى حالة الاشتباك ، ولكن جمال عبد الناصر لم يكلف جيش

إسرائيل مثونة الاشتباك وتناحجه ، إذ أصدر أمراً لجيوشنا في سيناء بالانسحاب فكان ذلك فرصة انتهزها العدو ، فراح يضرب المستحسين دون رحمة ، وانهارت الجبهة المصرية في سرعة عجيبة وحُسبت تلك هزيمة على جيشنا مع أن هذا الجيش لم يدخل معركة حقيقية ولم يقابل العدو في صراع ، ولكنه كان ضحية القيادة التي جانبها التوفيق تماماً ، وقد قال موسى ديان تعليقاً على النصر الذي أحرزه دون قتال : إن ما حققناه من نصر كان أكثر جداً مما تمنيناه ، ولو أن أكثر أعداء مصر قد وضع تخطيطاً لسحق جيش مصر ما استطاع أن يحقق ما حققته سياسة جمال عبد الناصر .

ويتسائل الناس : هل كان زحفنا إلى سيناء تخطيطاً مدروساً أو كان مجرد مظاهرة ؟

إن تصرف جمال عبد الناصر عقب تأميم القناة في سنة ١٩٥٦ يشبه تصرفه في مايو ١٩٦٧ ، فكلاهما اندفاع بدون خطة ، ودفع للجنود والمعدات بدون نظام ، وبشكل يسميه الأستاذ نوفيق الحكيم « التهويش »^(١) ، وفي كلتا الحالتين لم يُجند التهويش شيئاً ، وأسرع جمال عبد الناصر يصدر أوامره بالانسحاب الجيش ، ولكن الانسحاب سنة ١٩٥٦ حماء الأمر الذي أصدرته أمريكا ضد المعتدين ، فسرعان ما أصدرت أوامر لأمريكا وفرنسا وإسرائيل بالانسحاب العاجل ، واستسلمت القوى المعتدية أمام زجاجة أمريكا ، وما إن انسحب المعتدون تحت ضغط أمريكا حتى انطلقت أبواق الدعاية عندنا تهتف بانتصار مزعوم حققناه ، ويبدو أن قادتنا وقعوا في شبكة الخديعة التي نصبوها للجماهير فاعتقدوا فعلاً أنهم انتصروا ، وحاولوا تكرار التهويش سنة ١٩٦٧ ولكن الحال هنا كان مختلفاً ، فإن بخيرية جمال عبد الناصر بأمريكا

وجنرالات أمريكا جعل هذه الدولة تهادى في تأييد إسرائيل وبالتالي يطول بقاء إسرائيل في بلادنا الحبيبة .

لقد كان قرار عبد الناصر بالانسحاب قراراً بالهزيمة ، وقراراً كذلك بتسليم الأسلحة الضخمة إلى العدو ، وبسبب الزحف بدون نظام والانسحاب بدون نظام ضاعت أسلحتنا وسقط رجالنا بعامل الجوع والجهد والعطش ، كما سقطوا برشاش العدو والمواد الحارقة التي ألقتها العدو على المنسحبين والعائدين .
والعجيب أن الهزائم في سيناء كانت تتم ، وإذاعات مصر سادرة في ضلالها ، بناء على تعليقات القيادة الخداعة ، وفي مرة قال عبد الناصر لعامر : اذكر أي شيء للشعب لأنه متلهف على الاخبار فقال عامر : قولوا للصحافة

إننا أسقطنا ٢٠٠ طائرة إسرائيلية. فقال عبد الناصر : خليم ١٠٠، وهكذا كانت القوة المصرية تنهار بينما تذيع الإذاعة أننا أسقطنا المئات من طائرات إسرائيل وأن انتصارنا حق لا شك فيه ، ويقول الرئيس أنور السادات في مذكراته بلاغاتنا العسكرية سنة ١٩٧٣ كانت في غاية الدقة ، ولم تكن مثل بلاغات سنة ١٩٦٧ التي لم تكن سوى ادعاءات باطلة تشغل الرأي العام عن الحقيقة المرة أطول فترة ممكنة .

ويقولون عن هذه الحرب إنها حرب الأيام الستة ، والواقع أن الجبهة المصرية انهارت في ساعات ، وسرعان ما احتل العدو سيناء وغزة ، ثم راح بعد ذلك يزحف على الضفة الغربية للأردن فاستولى عليها ، كما استولى على مرتفعات الجولان جنوبي سوريا ، وكان انهيار مصر من أهم ما قضى على جبهة الأردن والجولان .

ويتحدث كينسنجر في مذكراته (سنوات البيت الأبيض) عن هذه الحرب ودور السوفييت في إشعالها ، وظن عبد الناصر أنه يستطيع أن يحقق دوراً بطولياً بالكلمات لا بالحرب ، وفيما يلي كلمات كينسنجر :

« تحذير كاذب : في الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ ، تمديد لإسرائيل عبر حدودها في ذروة من سلسلة أحداث متعاقبة ضاعت فيها الأهداف العربية على مذبح اللغة الطنانة البلاغية العربية .

« في شهر مايو عام ١٩٦٧ قام الاتحاد السوفيتي بتحذير مصر من هجوم لإسرائيل يوشك أن يقع على سوريا ؛ وكان الزعم السوفيتي غير صحيح ، وبصرف النظر عما إذا كان ذلك التحذير كاذباً عن قصد وتعمد بهدف إثارة التوتر وإحراز مكسب رخيص أو كان ذلك التحذير ناتجاً عن سوء فهم معجود عن الغرض . . فقد دفع الأحداث في مسارٍ مشثوم ، فقد أمر الرئيس جمال عبد الناصر بطريقة متهورة بأن يتحرك جيشه إلى سيناء التي كانت من الناحية

العملية منزوعة السلاح منذ عام ١٩٥٦ وأعلن إغلاق مضيق تيران الذي يتحكم في طريق الوصول إلى ميناء لإيلات الإسرائيلي من البحر الأحمر . وطلب من أوثانت السكرتير العام للأمم المتحدة سحب قوات الطوارئ الدولية التي كانت تفصل بين القوات الإسرائيلية والمصرية على طول الحدود الدولية .

« ومن المشكوك فيه أن عبد الناصر كان يسعى وراء صدام عسكري بل يحتمل أن يكون قد أصيب بدعشة من السرعة التي استجاب لها أوثانت لطلبه وربما لم يكن عبد الناصر أن يفعل شيئاً يتجاوز إطار اتخاذ موقف بطولي^(١) . »

صمدى الهزيمة :

وقد وقفت الدول العربية وقفة موحدة أمام هذه النتيجة المريرة ، فقد أصدرت كل الدول المنتجة للبترول قرارات بوقف ضخ البترول ، ووقف تصديره إلى أمريكا وبريطانيا ، وقطعت أكثر الدول العربية علاقاتها مع أمريكا وبريطانيا ، وتعطلت قناة السويس ، وقررت حكومة السودان الدخول

(١) دكتور هنري كينجر : سنوات البيت الأبيض (الترجمة العربية)

في معاهدة للدفاع المشترك مع مصر ، وإقفلت كل المطارات والموانئ العربية في وجه وسائل المواصلات الأمريكية والبريطانية .

وفي أثناء المعركة قرر مجلس الأمن وقف الحرب ، ولكن المعركة كانت مُتحدِّد في الميدان ، وقد أعلنت أكثر الدول العربية وإسرائيل قبولها لهذا القرار ، ولكن إسرائيل ظلت تعتدى وتزحف ، ولم يتوقف عدوانها حتى يوم السبت العاشر من يونيو حين تم لها احتلال المناطق التي أشرنا إليها .

وفي ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٦٧ اتخذ مجلس الأمن قراراً بضرورة انسحاب إسرائيل إلى حدود الرابع من يونيو ، ولكن إسرائيل لم تنفذ هذا القرار .

لقد كانت الدول العربية تتطلع إلى انتصار أكيد ، ولذلك كانت الهزيمة قاسية إلى أبغ حدود القسوة وزاد من قسوتها هذا الانهيار السريع الذي أصابنا ، فنزلت علينا الضربات دون أن نقاوم بطريق أو بآخر ، حتى أخذ للعالم في الشرق والغرب يعلن - كما ذكر ذلك الرئيس أنور السادات بعد ذلك - أننا شعب غير مقاتل .

الضابط البطل الذي كوفي ثم عوقب :

وهناك ضابط مصري وحيد لم ينسحب واستطاع أن يخترق حدود إسرائيل ، وأن يصمد فترة طويلة ويوقع الذعر هناك ، وقد كافأه عبد الناصر على ذلك بأن أعطاه وساماً وترقية استثنائية ، ونشرت الصحف صورته وعبد الناصر يصفحه ، وبعد شهر من هذا الحادث كان هذا الضابط يجلس مع زملائه فقال : « ان الجماعة فشلت تجربتهم في الحكم والحرب ، وينبغي أن يتركوا القيادة لسواهم ، وسرعان ما قبض عليه واعتبر قائد مؤامرة ، ونزل به تعذيب أليم وكان ضمن الذين دافع عنهم الأستاذ محمد شوكت التوتى (١) »

(١) محمد شوكت التوتى : قضية التعذيب الكبرى ص ٢٦ ويذكر عبد الصمد محمد الصمد أن ضابطين قاما بعمليات تخريب وتدمير في إسرائيل آنذاك وهما جلال هريدى وآخر اسمه حمدي ولعل الضابط البطل الذي تحدث عنه الأستاذ شوكت التوتى ولم يذكر اسمه هو أحد هذين الضابطين (انظر المشاء الأخير للمشير ص ١٢١ وما بعدها) .

خسارة مصر الفادحة في هذه الحرب :

في نوفمبر ١٩٦٧ أعلن عبد الناصر أن الطريق إلى القاهرة كان مفقوحاً أمام إسرائيل، ولم يكن هناك جندي مصري واحد يعرقل أى تقدم لإسرائيل، وأنه هو المسئول عن النتيجة .

كما أعلن أرقاماً فادحة عن خسارة مصر في هذه المعركة المشنومة ، فذكر أن مصر خسرت في هذه الحرب ٨٠٪ من سلاحها و ١٠٠٠٠ جندي و ١٥٠٠ ضابط ، وأسروا ٥٠٠٠ جندي و ٥٠٠ ضابط لم يعد أكثرهم ، وتذكر المراجع أن ضحايا هذه الحرب يبلغون ٣٥٠٠٠ جندي قتل أكثرهم (١) في ساعات ، وبخاصة في الممرات لأن شارون مجرم الحرب الإسرائيلي كان يسحقهم بالدبابات في الممرات (٢) .

لما التدمير الذى حل بمدن القناة فخسارته أعظم من التقدير .

وعند ما نرى هذه الأرقام الهائلة مع أنها أقل من الواقع بكثير ، ونربطها بقول عبد الناصر إنه المسئول ، يحق لنا أن نتساءل : ما معنى المسئولية ؟ وكيف وقى بها هذا المسئول ؟ .

أسباب الهزيمة

ونجى الآن إلى عرض سريع للأسباب التى كتبت على جيشنا هذه الهزيمة المريرة ، وأراقت الدماء البريئة ، ولا شك أن هناك أسباباً متعددة لهذا العار ونحن نوجز ذلك فيما يلي :

الأسباب الاجتماعية والإدارية :

من أهم أسباب الهزيمة أن عبد الناصر والمشير عامر وجهها كل اهتمامهما

(١) حديث عبد الناصر سمعناه جميعاً .

(٢) محمد شوكت التوفى : قضية التلبيب الكبرى ص ٧٠

في السنوات السابقة للحرب إلى تلميع الشعب وتحطيم الجبهة الداخلية كما رأينا آنفا ، وأهملا العناية بالجيش ؛ وتركوا الإشراف عليه إلى الجهل والنزق والقسوة متمثلة في شمس بدران الذي نقلنا عنه قوله إن لديه ما يدمر الأسطول السادس الأمريكي ، فقل هذا القول لا يصدر إلا من مكابر جاهل قليل الخبرة بالاستعدادات الحربية .

الاسباب السياسية :

وهناك أسباب سياسية مهمة أدت إلى هذه الهزيمة النكراء ، وفي مقدمتها الثقة بالاتحاد السوفيتي الذي كان يبذل أقصى الجهد للقضاء علينا ، وهو يتظاهر بالتعاون معنا ، فقد ثبت بوضوح أن الاتحاد السوفيتي هو الذي نقل لمصر أن إسرائيل تحشد جيوشها لحرب سوريا ، ولم يكن ذلك صحيحا كما ذكر كسينجر فيما نقلناه عنه آنفا ، وهو الذي قدم بعض السلاح ليدفع مصر لدخول حرب به ، ثم توقف عن الاستمرار في الإمداد أو العون .

ومن هذه الأسباب أن المخابرات المصرية كانت شديدة الجهل بتطور جيش إسرائيل ، وبالعلاقة الخاصة آنذاك بين إسرائيل والولايات المتحدة ، علاقه الاهتمام بضرب عبد الناصر في مصر ، وليس جهل المخابرات المصرية بدعا ، لأنها قد تورطت مع المشير والرئيس في أمور الداخل ، ووجهت كل نشاطها للإيقاع ظلما بالناس ، وقد ظلت طيلة سنوات عديدة تتبع كشوفا خاصة عن الإخوان المسلمين والشيوعيين ، غير محيطة بالأعداء الجدد ، أو بمن تخلى عن اتجاهاته من الذين كانت أسماؤهم مدرجة بالكشوف .

الاسباب العسكرية :

ونجىء الآن إلى الأسباب العسكرية ، ونستمد الحديث عنها من أعلى الخبرات العسكرية ؛ من الرئيس أنور السادات ، ومن المشير أحمد اسماعيل ، ومن المشير محمد عبد الغنى الجمسى .

أنور السادات يحكى أسباب الهزيمة :

يقول الرئيس أنور السادات لقد سبقت الأمة العربية إلى الحرب مع إسرائيل عدة مرات خلال ربع قرن من الزمان دون أن يكون هناك إلمام بعشرات من العناصر العسكرية والاقتصادية والسياسية والنفسية المحلّية منها والدّولى على السواء ، ودون تحديد سابق لهدف الحرب وغايتها ، وكل الاحتمالات التي تصاحبها (١) .

ونحن نصرخ : كيف يستبدُّ بأمر هذه الأمة من يجهل أساليب السياسة والقيادة؟

ويقول سيادته في مذكراته التي نشرها سنة ١٩٧٥ إن سلاح الطيران المصرى استرد في ٦ أكتوبر كرامته التي جرح في معركتي عام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٧ نتيجة لإهمال القيادة في المعركتين، وهكذا حُسيبت هذه المعركة هزيمة على الجيش ، وهى في الحق هزيمة للقيادة وليست هزيمة للجيش .

المشير أحمد إسماعيل يروى أسباب النكسة :

- كنت قائدا للجبهة سيناء في أثناء حرب اليمن ، وكانت فرقتي (الثانية مشاة) هى المسئولة عن تأمين سيناء ، ولكن سميت منها لليمن بعض القوات التي كانت مدربة تدريباً عالياً ، فضعفت بذلك الجبهة التي كنت أتولى قيادتها في سيناء .

- ولم يكن التنسيق بين مصر وسوريا في حرب ١٩٦٧ صادقا من الطرفين : فقد كانت سوريا تخفى عن مصر خططها الحقيقية ، وكانت مصر تخفى عن سوريا خططها الحقيقية كذلك ، وكان الشك متبادلا ، ولا يمكن أن يتعاون جانبان في معركة واحدة بغير مكاشفة كاملة بكل الأسرار والخطط ، وبغير التنسيق الكامل لكل تحرك من الجانبين .

(١) ورقة أكتوبر

ونستمر مع المشير أحمد إسماعيل الذى يروى النتائج المريرة للانسحاب الذى صدرت به أوامر القيادة العليا وهو فى ذلك يقول :

كان الانسحاب قاسياً . . فالقوات كثيرة العدد والعتاد ، وخاصة أعداد الدبابات ، وكان عليها أن تنسحب غرب القناة على ثلاثة محاور رئيسية فى منطقة المضائق ، تحت السيطرة الجوية الكاملة للعدو . . لقد كان الانسحاب مخاطرة ومجازفة غير محسوبة النتائج ضاعفت من حجم الخسائر .

وبعد الهزيمة يصف المشير أحمد إسماعيل الموقف على الجبهة بأنه كان رهيباً ومثيراً للذعر ، وهو فى ذلك يقول : كانت الجبهة عبارة عن جنود متفرقين على الشاطئ الغربى بلا وحدات تجمعهم ، وكان هناك عدد من الدبابات من مختلف الأنواع ، بدون قيادات ، كانت مبعثرة هنا وهناك ، المعنويات هابطة بعد الانسحاب ، وبعد تفوق العدو الرابض على الضفة الشرقية بزهو الانتصار ، ولا يفصلنا عنه أكثر من مائتى متر (١) .

حسنى مبارك يشير للمستول :

فى حديث نشر فى ١٩٧٥/٩/٢٧ لנائب رئيس الجمهورية حسنى مبارك سأل الصحفيون : ماذا أفدنا من دروس ٦٧ فى الإعداد لقتال ٦ أكتوبر ؟ قال : باختصار فى ٦٧ . . لا تخطيط . . لا إعداد : ٥٥ لا تدريب . . لا تنسيق بين العمل السياسى والعمل العسكرى .

الجمسى يبرز أسباب الهزيمة :

وإذا ذهبنا إلى المشير محمد عبد الغنى الجمسى فإنه يعطينا معلومات مهمة عن أسباب هزيمة ٦٧ النكراء ، وبالتالي يعطينا مؤشراً عن المستول عن هذه الهزيمة ، يقول سيادته (٢) :

(١) الأهرام فى ١٢/٢٧/١٩٧٤

(٢) لقطات من حديث له مع الأستاذ موسى صبرى نشر فى ٢٩/٥/١٩٧٥

- إن القيادة السياسية حين تضع استراتيجيتها يجب أن تربط وتوازن بين القوة العسكرية والقوة الاقتصادية والعمل السياسي . وهذا لم يحدث في سنة ١٩٦٧ ، ووجود هذه الاستراتيجية هو سبب انتصار أكتوبر :

- يوم الخامس من يونيو كان يسمى في القوات المسلحة «اليوم الحزين» وكانت تصدر الأوامر فيه للقوات المسلحة بعدم الحركة أو النزول إلى شوارع المدن :

- وفي رأي أن اليوم الحزين بدأ يوم ١٤ مايو سنة ١٩٦٧ في ذلك اليوم فوجئت القوات المسلحة بالأمر برفع استعدادها إلى الحالة الكاملة للقتال ، وتنفيذ التعبئة ، وبدء حشد القوات في سيناء فجأة دون سابق إخطار ، ولهذا وقعت الكارثة في ٥ يونيو :

- كنا نمثل القيادة العامة في سيناء ، ولكننا في الحق لم نكن قيادة لأن العملية كانت تدار مباشرة من القاهرة .

- وفي يوم ١٥ مايو ١٩٦٧ فوجئت القوات المسلحة بقرار سياسي آخر وهو سحب القوات الدولية . . . ثم صدر قرار سياسي آخر مفاجئ بقتل مضيق تيران وكان على القوات المسلحة إرسال قوات لتأمين شرم الشيخ لمنع العدو من السيطرة عليها .

- لقد كانت القوات المسلحة المصرية ضحية الخامس من يونيو ولم تكن أحد أسبابها ، وهذه شهادة الرئيس أنور السادات في خطابه بمجلس الشعب في ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ .

من المسئول ؟

تلك كلمات الدين قادوا النصر في أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، وهي كلمات ، تبين بوضوح أن الهزيمة لم تكن مصادفة وإنما كانت لسوء التخطيط وإضعاف الجبهة بوسائل متعددة وسوء العلاقة بين الرئيس والمشير ، واتخاذ قرارات تتصل بالجبهة العسكرية دون إشراك قادة هذه الجبهة ، ودون التنسيق بين الأهداف السياسية والقوى العسكرية . . وراح ضحية ذلك عشرات الآلاف .

من الجنود والضباط ، وحلت بنا هزيمة قاسية ، وفقدنا جزءاً عزيزاً من أرضنا لا نزال نصارع لاستعادته ، وهوى اقتصادنا إلى القاع .

ولم يستطع جمال عبد الناصر أن يخفى مسئوليته عن هذه النكبات فأعلن في نوفمبر سنة ١٩٦٧ أنه المسئول عن هذه النتائج :

فهل يمر كل ذلك بدون حساب ؟؟

جماهير ١٠ و ٩ يونيو :

وفي أثناء الساعات الخالكة استقال المشير عبد الحكيم عامر المسئول عن القوات المسلحة ، ثم أعلن جمال عبد الناصر مساء الجمعة التاسع من يونيو صورةً لنتائج المعركة ، وتلمس عبد الناصر الوسائل للدفاع عن هزيمته ، فأعلن أنه كان ينتظر العدو من الشمال فجاء من الغرب ، ويعلق الزعيم الحبيب بورقيبة على هذا التعليل بقوله : الزعيم الذي يقول إنه كان ينتظر أعداءه من الشمال فإذا بهم يجيئون من الغرب لا يصح أن يكون زعيماً ، ولا يصح أن يبقى في مكانه لحظة واحدة (١) .

وختم عبد الناصر حديثه بأن أعلن قراره بأن يتخلى عن السلطة .

ولكن سيارات نقل كانت قد أعدت ليركبها بعض العمال من المصانع الحكومية ، وبعض الفلاحين من أتباع الاتحاد الاشتراكي ومن مديرية التحرير ، وأخذت هذه اللوريات تطوف شوارع القاهرة في التاسع والعاشر من يونيو لتزق بتمسكها بالرئيس المنهزم ليكمل الشوط (٢) ١١١

وتعبير « يكمل الشوط » تعبیر خداع لأن عبد الناصر في الحق لم يسير في الشوط خطوة ، وإنما تراجع بالجيش والبلاد أشواطاً ، ولكن أبواقه كانت دائماً تحاول أن تجعل الباطل حقاً ، وترغم الناس على السير في الباطل . ويقول الأستاذ الدكتور إبراهيم عبده (٣) : « لقد حُشِر المأجورون

(١) مجلة الفجر القطرية الصادرة في ١٩٧٥/٦/٢١

(٢) سبى بعد قليل شهادات صدق عن تمثيلية ٩ و ١٠ يونيو

(٣) رسائل من نفاستان ص ١٧٥

في القطر والسيارات ليزحوا العاصمة مقبلين من كل فج عميق ليجيوا
الهزيمة صامحين صارخين : ..

وقد نَقَلَتِ الأنباء أنه عندما كانت جماهير التاسع والعاشر من يونيو
تهتف ويدوي هتافها في العاصمة الجريحة كان جنود إسرائيل المنتصرة
يقبّلون تراب سيناء في جلال مهيب !!!

يا لله لقد ظل أكثر المصريين مغدوعين حتى في هذه الأوقات العصيبة
وبعد هذه الضربات الاثمة .

واستجاب عبد الناصر لهذه الهتافات المصنوعة ، وقرر أن يبقى في منصبه
ليعمل على القضاء على آثار العدوان وإعادة بناء الحياة العسكرية والسياسية ١١
وموضوع ٩ و ١٠ يونيو يحتاج إلى مزيد من الإيضاح ، وقد ضالني
بعض طلابي عنه وقالوا إنهم انضموا إلى هذه المسيرة من تلقاء أنفسهم .
وأجبت هؤلاء : بأن مظهر حشر العمال آنفاً رأيته بعيني وراه ممي
الكثيرون ، فقد رأينا - ونحن نسكن في المعادي - سيارات نقل قادمة
من حلوان تحمل حشوداً من عمال المصانع ، متجهة إلى القاهرة لهذا
الغرض ، وسمعنا العمال بها يصرخون .

وعندما كنت أجيب هؤلاء بتلك الإجابة طلب طلاب آخرون الكلمة
وأقسموا في جمع حاشد من زملائهم أنهم كانوا ضمن من دُفع بهم لسيارات
النقل من قراهم ليقوموا بهذه المهمة .

والذي أعتقد أنه هناك جماعات دُفعوا لهذه المسيرة وأعدت لهم
سيارات هذا الغرض ، وجماعات أخرى اندفعت من تلقاء نفسها بوحى من
الرغبة التي كانت تشمل الجميع ، أو بحكم أنهم من الجيل المضلل الذي
صوروا له الباطل حقاً والهزيمة انتصاراً .

ويذكر عبد اللطيف البغدادي أنه ذهب إلى منزل حسن إبراهيم مساء
٩ يونيو ، وسرعان ما حضر إلى هناك الدكتور رشوان قهني ، وقال البغدادي
لها إنه يتوقع أن يتنحى عبد الناصر عن رئاسة الجمهورية ، ويقوم رئيس

مجلس الأمة بسلطة رئيس الجمهورية مؤقتاً طبقاً للدستور ، ولكن رشوان فهمي أكد أن عبد الناصر لن يتنحى بصفة جدئية بخافة الخطر الذي سوف يحدث به لو تنحى فعلاً عن السلطة ، ويذكر البغدادي أنه ومنعه حسن إبراهيم والدكتور رشوان ركبوا سيارة حسن إبراهيم عقب إعلان التنحي مباشرة ليروا رد الفعل ، ومروا بمنزل جمال عبد الناصر وهو قريب من منزل حسن إبراهيم فوجدوا عدداً ضخماً من شباب الاتحاد الاشتراكي يركبون أوتوبيسات متجمعة حول منزل عبد الناصر على الرغم من حظر التجول ، مما يدل على أن استعداداً هائلاً لنزول بلنج هؤلاء قبل إعلان التنحي (١).

وهذا هو المظهر الحقيقي للأجندوية التي سميت « بجاهيز ١٠٠٩ يونيو » والتي بمقتضاها عاش هذا النظام فترة أخرى .

عبد الناصر ومولد الرسول صلوات الله عليه

في ١٩ يونيو سنة ١٩٦٧ حلّ موعد مولد الرسول صلوات الله عليه ، وكالعادة أقيم احتفال بهذه المناسبة بمسجد سيدنا الحسين ، وحضر عبد الناصر هذا الاحتفال ، ويعلق البغدادي على ذلك بقوله « لم يسبق لعبد الناصر أن حضر هذا الاحتفال من قبل (١) » .

مؤتمر القمة بالخرطوم

وفي أغسطس سنة ١٩٦٧ اجتمع مجلس قمة للملوك والرؤساء العرب في الخرطوم ، وعمل على تصفية المشكلات الداخلية بين الدول العربية لتتحد في مواجهة العدو المشترك ، وفي هذا الاجتماع أعلنت المملكة العربية السعودية وليبيا والكويت استعدادها لتعويض بعض الخسائر المادية لمصر والأردن ، فقرر أن تدفع هذه الدول دعماً مالياً لها حتى إزالة آثار

(١) مذكرات عبد الطيف البغدادي ج ٢ ص ٢٠٠ - ٣٠١ .

(٢) مذكرات البغدادي ص ٣٠٦

العدوان^(١) ، وكانت الدول العربية في هذا الاجتماع تصدر عن فكر عربي رائع متناسية الخلافات التي بينها ، تلك الخلافات التي كانت عميقة التأثير في الحياة العربية ، ولكن الملوك والرؤساء كانوا أسمى من التشقى والانتقام ، فنسوا أو تناسوا كل شيء ، واتجهوا للتعاون للصالح العربي العام بقدر الإمكان .

وقد كنت بالخرطوم قبل هذا الاجتماع وخلال له ، وأستطيع هنا أن أترجم بعض المشاعر حول هذا المؤتمر :

أولاً : شاهدت الجهود الكبيرة التي بذلها الرئيس السوداني الراحل إسماعيل الأزهرى ورئيس الوزراء محمد أحمد محمود ليم انعقاد هذا المؤتمر في ذلك الوقت ، ولينجح في اتخاذ قرارات منيدة ، وما من شك أن هذا المؤتمر ما كان لينعقد لولا جهد السودان وجهه قاداته .

ثانياً : كان عبد الناصر قبل الهزيمة يهاجم بقسوة الحكومات الملكية وينعتها بالرجعية ، ولكن الدول التي حملت العبء المالى في هذا المؤتمر كانت من هذا النوع (المملكة العربية السعودية ، المملكة الليبية ، دولة الكويت) .

ثالثاً : بعد فترة قصيرة من هذا المؤتمر هبت ثورتان في الدول التي كان لها نصيب كبير في نجاح هذا المؤتمر هما السودان وليبيا ، ومن المؤسف أن جمال عبد الناصر نسي الدور الذى قام به رؤساء هذه وتلك في إنقاذ مصر في أخرج الأوقات ، وكان - كما يقول محمد حسين هيكل - سعيداً جداً بالثورة في السودان ، فلما قامت ثورة ليبيا كان تقديره أن دورها أضعف وأهم ، وقد فرح جداً عندما شرح له هيكل استنتاجه بالنسبة لانتجاء الثورة^(٢) .

أترى كان من الوفاء أن ينسى عبد الناصر بهذه السرعة عون الذين وقفوا بجانبه وقت الضيق والشدة ؟

(١) توقفت ليبيا عن دفع نصيبها من الدم عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣ وتوقفت السعودية والكويت عقب معاهدة السلام (سنة ١٩٧٩)
(٢) بصراحة عن عبد الناصر ص ١٧٢

وليس معنى هذا أنني أعارض الوضع الجديد هنا أو هناك ، ولكنى كنت أؤثر أن يصمت عبد الناصر ، ويترك كل قطر عربى يباشر مسئولياته الداخلية على النحو الذى يراه .

نتائج هزيمة ١٩٦٧

كانت هزيمة ١٩٦٧ ضربة قاسية متعددة النتائج ؛ وسلم^١ هنا إلمامة سريعة بالنتائج المريرة التى عاينناها خلال سنوات الهزيمة الحافلة بالكآبة والعناء. أولاً - النتائج السياسية والوطنية :

هذا الجانب من النتائج نقتبسه من كلام الرئيس محمد أنور السادات ، ونصه : عام ١٩٦٧ بعد الهزيمة الأليمة المريرة التى نعرف جميعاً أبعادها ، فوضت مصر الاتحاد السوفيتى فى الاتصال بالأمريكان والتحدث باسمنا ،

وكان هذا التفويض بلاتحفظ ، فقد قالت السلطة لهم اتفقوا مع الأمريكان وما تتفقون عاياه فنحن سلفاً نرتضيه ؛ بل خطأ زعماء مصر آنذاك أكثر من ذلك ، فطلبوا قائداً سوفيتياً للطيران ليتولى قيادة سلاح الطيران المصرى ، وقائداً ليتسلم الدفاع الجوى عن مصر ، وأصبح الاتحاد السوفيتى بذلك ولى أمرنا (١) . وقد سبق أن ذكرنا ذلك عند الحديث عن نقد اتفاقية الجلاء ، وذكرنا هناك أن عبد الناصر لم يجلب لمصر الجلاء ، بل جلب احتلالاً أقسى وأمر من الاحتلال الانجليزى ، وهو الاحتلال اليهودى والسوفيتى .

ثانياً - النتائج العسكرية :

أثارت هذه الهزيمة الشكوك حول جيشنا ، وأحاطت مستقبلنا العسكرى بضباب كثيف ؛ فقد كان قادة عصر الهزيمة يفخرون بالجيش ويهددون به ، فلما انهار فى ساعات قصار ، قلّ الأمل فى إعادة بنائه ، وبالتالي قلّ الأمل فى النصر ، لأننا لم نعرف أسباب الهزيمة حتى نتحاشاها ، وتحت ضغط الرأى

(١) أنور السادات : صحيفة الأخبار فى الصادرة فى ١٩٧٥/٣/٢٠

العام المكبوت ؛ وثورة طلاب الجامعات سنة ١٩٦٨ ؛ أجريت محاكمات ولكنها كانت سرية ، وكانت الأحكام التي صدرت يشاع عنها الكثير مما يوحي بأنها ليست أحكاماً جادة وليست إلا وسائل لتخدير الناس .

وأصبح الناس يخافون أن يرسلوا أولادهم إلى الجيش حتى لا يساقوا إلى الموت دون إعداد أو رعاية أو نظام ، وذلك أقصى ما يمكن أن يتعرض له بلد من هوان ، وقد رأيت بعض الطلاب بالفرق النهائية بالجامعة يتخلفون عن الامتحان في بعض المواد أو يصططعون الرسوب حتى لا يتخرجوا فَيُبدِّعَ بهم إلى حياة عسكرية لا يعرفون مصيرها ، وأشهد أنني رأيت الطلاب سنة ١٩٥٦ ، ورأيتهم حينما جدَّ الجدد سنة ١٩٧٣ يتزاحمون على الالتحاق بالجيش والاستمتاع بشرف الجندية .

وأصبحت بلادنا مفتوحة أمام العدو يسرح فيها ويمرح ، يضرب في العمق ويصيب منطقة حلوان ومصانع أبي زعبل ، ومدرسة بحر البقر ، وتلعب طائراته في أجوائنا ، ولا نملك إلا الصراخ لمجلس الأمن الذي يزداد منا مصرية كلما شكونا إليه .

وحتى الكليات العسكرية لم نستطع حمايتها فبعثنا بطلابها إلى الأقطار العربية ، وفتحنا هذه الكليات هناك ، وتندُّر بعض الناس بهذا التصرف فقالوا : لماذا لا نرسل جيشنا للخارج لنحميه من غارات إسرائيل ؟

وكان جيشنا يدعى أنه يحمل عبء الدفاع عن العرب أجمعين ، ويهدد من يعتدى عليهم ، فلما انهار هذا الجيش ، انطلق العدو إلى أرض العرب بغطسة وعجرفة شديديتين ، فهو يدخل أرض لبنان كأنما يذهب إلى نزهة ، ويقتحم الأردن بدون مبالاة ؛ ويضرب طائرة ليبية مدنية على حافة سيناء فيقتضى على عدد من المدنيين الأبرياء ، وقد اضطرت بعض الدول العربية أن تعمل على القضاء على المقاومة الفلسطينية حتى لا تتعرض لهجوم إسرائيل .

ثالثاً - الأضرار الأدبية :

كانت الأضرار الأدبية التي ألقت بنا مريه جدا ، فقد أصبح العالم كله يستهين بنا ، ويتجاهل تاريخنا ، وينسى ما أحرزناه من انتصارات عسكرية عبر التاريخ ، وما حققناه من أدوار حضارية بعيدة الشأن في تقدم العالم ، ووصل الحال في تدهور سمعة مصر أن حكومات الكثير من دول أوروبا كانت تتجاهل مصر ، وتقول السيدة زوجة الأستاذ إسماعيل فهمي وزير الخارجية السابق : إن اسم مصر قد هبط في نظر المجتمعات الأوروبية لدرجة أن بلغ من تجاهلهم لنا أنهم كانوا يغفلون اسم مصر في كل الدعوات الرسمية ، وتجاهلوا دعوة السفير وحرمة ، وفقاً للبروتوكول والعرف الدبلوماسي المتبع (١) .

وليست أوروبا فقط هي التي استهانت بمصر ، بل إن مصر عانت الكثير من العالم العربي نفسه ، وواجهت صورا من الإهمال وعدم التقدير ، بل وصل الأمر أحيانا إلى نوع من العدوان ، وكم روى الأساتذة المصريون الذين يعملون بالبلاد العربية من مواقف مريه تعرضوا لها كأنهم هم الذين تسببوا في هذه الهزيمة النكراء :

رابعاً - الأضرار الاقتصادية :

ونزل بنا ضرر اقتصادي بالغ المدى ، وخسرنا خسارة فادحة في هذه الحرب حدها وزير المالية في بيانه أمام مجلس الشعب في ١٩/١٢/١٩٧٥ بأنها ٤٠٠٠٠٠٠٠٠ (أربعون مليارا) من الدولارات وقرر أن هذه الخسارة الفادحة انعكس أثرها على انخفاض معدل التنمية ، وسوء المرافق ، والخدمات ، وزيادة التضخم ، وابتلاع كل الجهود التي بذلت

(١) مجلة صباح الخير في ١٤ مارس ١٩٧٤

لتحسين معيشة المواطنين ، وبسبب هذه الحرب الخاسرة توقفت قناة السويس ،
وقلت أو انقطعت وفود السياح ، وضاعت منابع البترول التي كانت تتدفق
من سيناء ، ودمر العدو محطات تكرير البترول بالسويس ، كما دمر الحياة في مدن
القناة ، وهُرع الملايين مهجرين من هذه المدن هائمين على وجوههم .
وفي الداخل عانى الشعب أزمة اقتصادية طاحنة ، فالأجور والمرتبات
كانت ضئيلة بالنسبة لنفقات المعيشة التي ارتفعت ارتفاعاً باهظاً ، وانهارت
أسعار عملتنا انهياراً شنيعاً ، واختفت أكثر السلع الضرورية من السوق
وعاش شعبنا في جحيم لم يشهده في أقسى فترات التاريخ ، وشهدت مصر
حقبة وصفتها في كتابي « رحلة حياة » بحقبة المفارقات العجيبة ، فقد كانت
مصر - كالعهد بها - حافلة بالمفكرين والمؤلفين في مختلف فروع المعرفة ،
ولكن ورق الطباعة وماكينات الطباعة الحديثة قليلة بها أو قل غير موجودة ،
وفي مصر أطباء من أرق المستويات ولكن صيدليات القاهرة خلت من
الأدوية الضرورية ، وفي مصر أعظم المهندسين المعماريين ولكن أدوات
البناء ومعداته نادرة ، وفي مصر يوجد الحياطون المهرة للرجال وللنساء ،
ولكن القماش اللازم غير موجود .

وبينما كانت أسواق القاهرة وحياة القاهرة على هذا النحو كانت أسواق
« دبي » و « أبو ظبي » و « الكويت » تزخر بأحدث ما أنتجه العقل
البشري من وسائل الترف والنعيم .

خامساً - الأضرار النفسية والاجتماعية :

وانعكست هذه الهزيمة على المجتمع فظهر فيه الفساد والانحراف ،
واضطرب الناس نفسياً واجتماعياً ، فأخلاق انهارت ، واللامبالاة ظهرت ،
والسخط قد انتشر ، بل بدا المستقبل مظلماً قائماً ، وباسم الاستعداد
للمعركة كسرت الحريات ، وأخفقت الأصوات ، وكان هناك سيف مصبى
ضد من نعتوا بأنهم « قوى مضادة » أو « أصوات تعلو على صوت المعركة

مع أن المعركة كانت دائماً ولا تزال كل شيء بالنسبة للجسيع ، وقد يوجد خلاف حول وسائل الاستعداد لها وإدارتها ، ولكن لم يوجد خلاف على الإطلاق حول ضرورتها ، وأنها قمة ما نحرص عليه .

وانخذ الآثمون فرصة كبت الحريات وعدم إباحة النقد فعاثوا في الظلام ، وانتشرت الاختلاسات والسرقات ، وكثرت الحرائق التي يصبطنها الآثمون لتغطية هذا المنكر ، بل أذيعت أخبار عن ملايين الجنيئات الاسترليزية كان أعلى القمم من أصحاب النفوذ قد حولوها إلى بنوك سويسرا ، وأودعوها هناك تحت أرقام سرية (١).

ونحن هنا ننتهز هذه الفرصة لنطالب بإيضاح شامل حول هذه النقطة ، ونسأل :

— من هم الذين أودعوا هذه النقود ؟

— وما مقدارها ؟

— ما موقف الحكومة منها ؟

ونؤكد أن الجماهير يمزقها أن يشاع ذلك عن قادة كانوا موضع ثقتها يوماً ما ، وتريد أن تعرف وجه الحقيقة فيه :

تلك لحظة سريعة ، وخطوط عريضة ، عن نتائج هذه المزيمة النكراء التي ظن بعض الأغرار أنهم أهالوا عليها التراب وأخفوا معالمها ، وقد ظلت هذه النتائج تفرض نفسها علينا حتى غسلت حرب ١٩٧٣ آلامنا وداوت جراحنا .

كلمات شهود الحرب

دونت الحقائق السابقة من تتبعي للأحداث ، ولكن ظهرت عقب ذلك معلومات شاهدها من هم أقرب منى للقيادة ، وهذه المعلومات تُرى الموضوع ، ونحن هنا نقتبس ما يفيدنا منها :

من كلام أنور السادات :

— جمع عبد الناصر صفوة رجاله في أواخر مايو ١٩٦٧ وقال لهم : إن حشودنا تجعل الحرب محتملة ٥٠٪ ، أما إذا أغلقنا المضائق فالحرب مؤكدة ١٠٠٪ ، ثم التفت إلى عامر وقال له : هل القوات المسلحة جاهزة يا عبد الحكيم ؟ فأجاب عبد الحكيم : رقبتي ياريس كل شيء على أتم استعداد . وكان عبد الناصر متجهاً إلى إغلاق المضائق حتى يوقف مزایدات العرب عليه ، وحتى يحتفظ بمكانته الكبيرة في الأمة العربية (١) .

وفي يوم الجمعة ٢ يونيو صدق عبد الناصر على الخطة .

— أرسل السوفييت يطلبون أحد الكبراء للتفاهم معه حول الحالة ، فسافر لهم شمس بدران وزير الحربية ، وفي الكرملين سأله : كيف ستصرف مصر لو تدخل الأسطول السادس الأمريكي ؟ فأجاب بلا تردد : عندنا ما يدمره (٢) .

— كانت شوارع القاهرة إبان المعركة مزدخمة بجهاير الشعب ، وبأعداد كبيرة من اللوريات قادمة من مديرية التحرير وكانت تسير متراصة ، والجميع يهتفون ويهللون ويرقصون فرحاً بالنصر المزعوم الذي تذيعه عليهم وسائل الإعلام ساعة بعد ساعة (٣) .

(١) البحث عن الذات ص ٢٢٥

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٦

(٣) المرجع السابق ص ٢٢٨

- في ٩ يونيو أذاعت القيادة العامة بياناً كله استخذاء واستسلام ومهانة،
إذ يشكو إلى العالم أن اليهود عبروا الضفة الشرقية للقناة إلى الضفة الغربية (١).
من كلام عبد اللطيف البغدادي :

- كان سمب قوات الطوارئ وقفل خليج العقبة أمام إسرائيل معناه إعلان
الحرب، وذلك لتوقف جزء كبير من تجارة إسرائيل والقضاء على ميناء إيلات (٢).

- سأل عبد اللطيف البغدادي جمال عبد الناصر في ١٨ مايو عن مدى
استعداداتنا في سيناء ، ويقول البغدادي إن عبد الناصر أجاب باعتزاز بأن لنا
خمس فرق منها فرقتان مدرعتان وثلاثة مشاة ، وعاد البغدادي يسأله عن
تقديره لموقف إسرائيل ، وعن مدى إمكان تحركها عسكرياً ، فأجاب
عبد الناصر بأنه يستبعد تحرك إسرائيل ، وذكر أنها إن تحركت فلن يكون
ذلك قبل ستة أو سبعة شهور ، ويسأله البغدادي سؤالاً ثالثاً عن موقف
السوفييت من مساعدتنا : فأجاب عبد الناصر : إنهم مستعدون لمساعدتنا إلى
آخر درجة ، وقال جمال عبد الناصر مبيناً الأسباب التي دعت له هذه الحركات
العسكرية « لقيت العالم العربي نايم فحييت أحميه (٣) » .

- في ٤ يونيو انضم العراق إلى اتفاقية الدفاع المشترك بين مصر
والأردن ، والتي جمال كلمة بعد توقيع الاتفاقية جا. فيم : إننا ننتظر
المعركة على أحر من الجمر (٤) .

- بعد دقائق من المعركة كان سلاحنا الجوي قد انتهى ، وطلب

(١) البحث عن الذات ص ٢٣٠

(٢) مذكرات البغدادي ص ٢٠٣ - ٢٦٤

(٣) مذكرات البغدادي ص ٢٠٣ - ٢٧٥

(٤) المرجع السابق ص ٢٨٢ و ٢٨٦

عبد الحكيم عامر من جمال عبد الناصر أن يبحث عن حل سياسي، وانتهار العملاقان في دقائق وأعلن عبد الناصر أن القيادة حصل لها شلل (١).

— كان قرار الانسحاب فضيحة وعاراً ، وكان العدو قد دمر فرقتين من الجيش المصري ، وطلب عبد الناصر أن يكون الانسحاب ليلاً أو أن يترك المنسحبون أسلحتهم الثقيلة وأن يسيروا في مجموعات صغيرة متفرقة ، وقد قامر عبد الناصر بمستقبل أمة بأكملها في سبيل مجده الشخصي (٢) .

— وسط هذه المأساة كان جمال يتسم ، وكان محمد الجيار يفغر فاه بالابتسام . وكنا نحن نرى أنه لا بد أن ينتحر هو وعبد الحكيم (٣) ويروى البغدادى تكرار ضحك جمال عبد الناصر أكثر من مرة ، كما يروى أن عبد الحكيم كان يبيت في سرير واحد هو وشمس بدران (٤) .

— عقب انتهاء خطاب عبد الناصر بالتنحي يوم ٩ يونيو سمعنا مباشرة الهتافات ورأينا تحركات شباب الاتحاد الاشتراكي في الأوتوبيسات واللوارى رغم حظر المرور ، واستنتجنا أن الأمر مدبر ومرتب من قبل ، بأن تتحرك المنظمات وتطالب ببقائه (٥) .

من أقوال الفريق صلاح الدين الحديدي :

— كانت هزيمة ١٩٦٧ أقسى هزيمة للقوات المسلحة وأبعدها عن شرف الجندية وتقاليدها (٥).

(١) مذكرات البغدادى ج ٢ ص ٢٨٢ ٢٨٦

(٢) المرجع السابق ص ٢٨٩ - ٢٩٠

(٣) المرجع السابق ص ٣٠١

(٤) المرجع السابق ص ٢٩٦

(٥) المرجع السابق ص ٣٩١

— ينقل عن كليمنصو السياسى الفرنسى الشهير قوله منذ أكثر من نصف قرن : الحرب موضوع خطير ، أخطر من أن نتركه للعسكريين وحدهم (١) .

ويثبت ريتشارد ديكون أن انسحاب إسرائيل وفرنسا وانجلترا بعد زحف سنة ١٩٥٦ جعل إسرائيل تبدأ دون تأخير فى الإعداد لمعركة أخرى تتحاشى فيها الأسباب التى جعلت حرب ١٩٥٦ لم تحقق ماكانت إسرائيل تطمع فيه : وكانت إسرائيل تفعل ذلك فى نفس الوقت الذى انصرف عبد الناصر فيه للدعاية التى لم تقم على أى أساس صحيح بأنه انتصر سنة ١٩٥٦ وانصرف كذلك إلى تشتيت جيشه فى اليمن وغيرها من الميادين وإلى تعذيب شعبه ، وشاركه فى ذلك الرجل الذى كان مسئولاً عن الجيش وهو عبد الحليم عامر الذى كان كل همه تحقيق انتصارات داخلية على الشعب الأعزل (٢) .

وبعد ، لا تزال لدينا مادة واسعة عن هذه المأساة ، ولكننا نتوقف مكتفين بما ذكرناه ، ومؤكدين أن أرواح الشهداء لن تستقر حتى يحاكم هؤلاء العابثون .

(١) شاهد على حرب ١٩٦٧ ص ٣١

(٢) Richard Deacon : The Israel Secret Service

نهاية المشير

لا يهمننا أبداً أن يكون المشير مات مسموماً أو مات منتحراً ، فقد كان لابد أن تأتي نهايته ، فذلك التزام القائد الذي شن الحرب وانهزم :

ونحن هنا فقط نقرر حقيقة تاريخية ، فالمشير بعد أن أعلن تمرداً على عبد الناصر ، وتجمع حول المشير أعوانه الكثيرون يهتفون « لاناصر بدون عامر » أدرك عبد الناصر أنه لا مناص من تصرف حازم مع رفيق العمر الذي بلغ في دلاله مكانة لا تحتل .

وقد نُصِّح المشير وسط هذا الخلاف أن يسافر إلى بلدته (اسطال) ليهذا الصراع ، وسافر فعلاً ، ولكن عبد الناصر اتصل به تليفونيا وحادثه بحادثة طيبة ، ثم أرسل إليه صلاح نصر يستدعيه ، كما أرسل إليه هيكل ، وهكذا يعيش الإنسان في حيرة وهو يتصور العلاقات بين الاثنين ، هل كانت حقداً وكرهية أو وداً وهياماً ، ولهذا فإن موسى صبرى يصف هذه العلاقة بأنها « علاقة غريبة » (١) .

وعاد عامر فعلاً ، ولكن سرعان ما التف حوله أنصاره وأصبح بيته قلعة مشحونة بالأسلحة والرجال ، وهنا وجد عبد الناصر أن لابد من موقف متشدد وأمره إلى الله .

استدعى عبد الناصر المشير لمقابلته للتفاهم ، وفي أثناء المقابلة صدرت الأوامر بسحب سيارته وسيارات الحرس التي كانت تحميه ، وأرسل عبد الناصر قوة من مؤيديه إلى بيت المشير ، وأصدرت هذه القوة أوامرها لمن في البيت بالاستسلام وإلا تعرضوا لدق البيت بمن فيه ، فاستسلموا ، ونزل المشير من اجتماعه بعبد الناصر ، فلم يجد سيارته ولا حرسه ، فاستسلم للاعتقال .

(١) وثائق ١٥ مايو ص ٨١

وانتهى المشير وأذيع أنه انتحر ولكن خير السموم الدكتور على محمد
دياب أعلن في تقرير له نشرته أنخبار اليوم في ٢٧ / ٩ / ١٩٧٥ أن المشير لم
ينتحر ، وإنما دُسَّ له سم « لاكو نتين » في كوب من عصير الجوافة
قُدِّم إليه .

السم أداة لقتل المعارضين :

وبمناسبة الحديث عن قتل المشير بالسم ننقل حوارا عجيبا دار بين المستشار
محمد عبد السلام النائب العام وبين صلاح نصر رئيس المخابرات ، ونصه :

النائب العام : أنتم عندكم سموم ؟

صلاح نصر : نعم عندنا سموم .

النائب العام : في أى شيء تستعملونها ؟

صلاح نصر : يعنى بنستعملها في إيه ؟ بنستعملها في قتل الخونة من
أعداء البلاد في الداخل والخارج .

النائب العام : بأمر من تستعملونها ؟

صلاح نصر : في المسائل المهمة بأمر رئيس الجمهورية ، والمسائل الأقل
أهمية بأمرى أنا .

النائب العام : هل تتم الأوامر بإجراء شفوى أو مكتوب ؟

صلاح نصر : فيه شفوى وفيه مكتوب .

والحوار كله بملف قضية المشير ، ولكن هذا القدر هو ما نقله الأستاذ
محمد شوكت التونى (١) ولا نعرف عدد الذين قتلوا بالسم ولا كيف ثبت
جرمهم ليستحقوا هذا العقاب الذى لاتعرفه شريعة ولا قانون .

(١) قضية التعذيب الكبرى ص ٣٧ - ٣٨

حوادث سنة ١٩٦٨

الترنح من هول الهزيمة

دخل عام ١٩٦٨ ومصر تترنح من هول الهزيمة ، وزعيم مصر الذى كان يتطلع لزعامة شاملة عربية أو عالمية قابض يستجدى الطعام لشعبه من الدعم . بعد أن أفنى ثراء مصر وشباب مصر ، وأصبح جيشه الذى كان يهدد به ويرسله إلى هنا وهناك يعيش فى أعقاب هزيمة ساحقة ، وانكسار مروّع ، وصار يعانى من جرح فى شرفه أليم ، ويعانى كذلك من تخبّط داخلى إذ أصبح يضرب بعضه بعضاً باسم الرئيس والمشير ، فبأسه بينه شديد ، ولا بأمن له على العدو الرابض فى أرض الوطن .

ووقف الجيش يحاكم بعض أفراده بعد أن كان يحاكم الشعب ، وبرزت للرأى العام مأساة الأموال التى حفر لها بعض قادة الجيش فى الأرض عقب الهزيمة فى وقت لم يكن هناك من يحفر فى سيناء ليوارى جثث القتلى أو يضمّد الجراح ، فكم من آلاف كان يمكن إنقاذهم جرحى أو مشوّهين ، ولكن القادة كانوا عن هؤلاء فى شغل شاغل ، كان عبد الناصر يعقد سلفة باسم مصر قدرها عشرة ملايين من الجنيهات يوم السابع من يونيو ، وكان المشير يحفر له أتباعه أرض الحدائق ليخفوا بها عملات أجنبية ليواصلوا ترفهم بعد ضياع البلاد .

لا بد من وقفة حساب عندما تستكمل مصر استقرارها ، ليعرف الناس حقائق الأمور التى غطّتها الأوهام ردىاً من الزمن ، وإذا كان بعض الأفراد أفلتوا من الحساب بالموت ، فيجب أن يعرف أولادهم أن آباءهم خانوا الأمانة التى كانت فى أيديهم ، فإذا نكسروا وعوسهم بسبب ذلك كان هذا رادعاً للأجيال القادمة .

وعلى هذا فعام ١٩٦٨ كان استمراراً للنكبة العسكرية ، ولم يحدث به فيما عدا نتائج النكبة إلا أحداث قليلة منعرضها فيما يلى :

على الباغي تدور الدوائر

على الرغم من الحقد الدفين بين عبد الناصر وعامر ، ذلك الحقد الذى رأيناه يبرز ويتأجج عدة مرات ، ثم رأيناه ينكمش ويضعف ثم يختفى ، على الرغم من ذلك الحقد فقد كان المشير مستعداً دائماً لتسخير الجيش لضرب الشعب لصالح الرئيس ، فالتعاون بين الاثنين ضد الشعب كان هدفاً لم يختلف الزعميان فيه ، فلما سقط المشير واختفى بالسم أو بالانتحار أصبح عبد الناصر وحده فى الساحة ، فاتجه بكل عفوانه ضد أولئك الذين ساعدوا المشير ضده ، وتنادوا بذلك النداء الشهير : « لناصر بدون عامر » فقبض عبد الناصر على هؤلاء ، وأنزل بهم من العذاب مثل ما أنزله هؤلاء بطبقات الشعب باسم تصفية الإقطاع ، أو باسم القضاء على الإخوان المسلمين الذين وُصفوا ظلماً بالتآمر والاتصال بقوى أجنبية ، وهكذا دارت الدائرة على الطغاة البغاة .

القضاء يصف مظالم هذا العهد :

ولعل أدق وصف لعهد عبد الناصر فى مجال الظلم هو كلمات المحكمة العسكرية العليا التى نظرت قضية التعذيب الذى عاناه أنصار المشير ليعترفوا بأنهم كانوا يدبرون مؤامرة لقلب نظام الحكم لصالح المشير ، فقد قالت المحكمة فى حكمها الصادر فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٧٦ ما يلى :

إن هذه الحقبة من تاريخ مصر كانت حقبة ساد فيها الظلام ، وتضاءلت فيها سمعة معين الباستيل الفرنسى أمام سمعة السجن الحربى بمصر ، وقد أعادت هذه الحقبة للأذهان ذكرى محاكم التفتيش ، وإن جرائم التعذيب التى ارتكبت لخلالها سبة عار فى جبين الحكم المصرى فى ذلك العهد (١) .

أترى يمر هذا كله دون محاسبة القائمين على الحكم المصري آنذاك أحياء
وأموئاً ؟ فالأحياء يجازون بما فعلوا ، والأموات يصحح الناس معارفهم
عنهم حتى لا يعيش الخلداع أكثر مما عاش .

في اعتقادي أنه لا بد من محاسبة في العاجل أو الآجل ، وإذا سكت
سجلنا فإن الأجيال النادمة لن تسكت على هذا الطغيان وستنشره للعالمين .

وهكذا يتضح لنا أن الهزيمة لم توقف التنكيل بالناس كما ظن أنور السادات
فيما نقلناه عنه من قبل ، بل ظلت وقائع الاعتقالات والتعذيب على نحو
ما كانت ، أو أكثر مما كانت ، ويضيف المستشار محمد عبد السلام^(١)
أن بعض الأشخاص قد اعتُقلوا دون أوامر اعتقال أو أحكام أو أوامر
قضائية ، وأن عدداً من المواطنين كان قد صدر قرار جمهوري في أغسطس
سنة ١٩٦٧ أى بعد الهزيمة بالإفراج عنهم ، ولكن هذا القرار لم ينفذ ، وظل
هؤلاء في المعتقلات ، ولما احتج على ذلك النائب العام أجابه وزير الداخلية
بأن رئيس الجمهورية يصدر أحياناً أوامر اعتقال شفوية ، ومعنى ذلك أن أوامر
بالإفراج قد تصدر رسمياً ، ثم تصدر أوامر شفوية أخرى مضادة فيبقى المعتقلون
في الاعتقال . وهذا هو الجو الذي كان موجوداً في عام ١٩٦٨ .

(١) سنوات عصيبة ص ١٣١ وما بعدها .

مظاهرات يناير وبيان ٣٠ مارس

بجانب المحاكمات القاسية التي تعرض لها أنصار المشير ، والتي تحدثنا عنها آنفاً ، كانت هناك محاكمات أخرى هيئة لينة لقادة الجيش الذين لم يودوا واجباتهم خلال المعركة المشثومة ، كانت محاكمة هؤلاء رقيقة رفيقة ، وكانت الأحكام يسيرة سهلة ، يقول عنها أنور السادات : إنها كانت أحكاماً مخففة صدرت على قادة الطيران الذين يعتبرهم الشعب من أقوى أسباب الهزيمة المهينة (١) .

من أجل هذا ، ومن أجل المطالبة بحرية الرأي وسيادة القانون وإلغاء القوانين الاستثنائية . . . اندلعت خلال شهرى يناير وفبراير مظاهرات صاخبة قام بها الشباب الواعى مطالبين بالتغيير الشامل ، والقضاء على الفساد، وتوقيع العقاب المناسب على كبار العسكريين الذين تسببوا فى هزيمة يونيو الساحقة ، وأنزلوا الضرر أشد الضرر بالوطن العزيز .

واهتز عرش عبد الناصر ، وأسرع الحواريون للبحث عن وسيلة يمتصون بها غضبة الشعب ، وكان بيان ٣٠ مارس هو وسيلتهم لذلك ، وهذا البيان هو تكرارٌ للأفكار التي وردت بالميثاق ، تلك الأفكار التي يقول عنها أنور السادات إنها لم تكن إلا لامتنصاص نكسة الانفصال بين مصر وسوريا ، فجاء بيان ٣٠ مارس بنفس اللهجة ، ونفس الغرض ، أى لامتنصاص غضبة جديدة عبر عنها الشعب بسبب هزيمة يونيو وعدم محاسبة المسؤولين عنها (٢) .

وبيان ٣٠ مارس جاء فى صورة خطاب ألقاه عبد الناصر فى حلوان فى هذا التاريخ ، وفيه يتحدث عن ضرورة تعبئة كل إمكانيات البلاد العسكرية

(١) للبحث عن الذات ص ١٧٤

(٢) نفس المرجع ونفس الصفحة .

والاقتصادية والروحية من أجل تحرير الأرض العربية وبناء المجتمع الاشتراكي في البلاد ، وتنشيط جماهير الكادحين على أساس ديمقراطي ، كما يذكر أن مركز الثقل يجب أن ينتقل من هيئات الإدارة في الدولة إلى الاتحاد الاشتراكي العربي الذي يجب إعادة بنائه على أساس انتخابي من القاعدة إلى القمة ، ويصبح المؤتمر القومي العام أعلى هيئة سياسية في مصر ، ويعتبر هذا المؤتمر الهيئة التوجيهية حتى نهاية النضال ضد العدو الإسرائيلي ، ومن الناحية الاقتصادية نتجه إلى التنمية الشاملة للزراعة والصناعة ، وضمان العمالة الكاملة بين السكان ، ورفع المستوى المادي والروحي للشعب ، وتعميق التعاون بين الشعب والجيش ، وتشجيع الحركة العمالية وحركة الشباب (١) .

وعلى العموم فيان ٣٠ مارس صورة من الوعود التي اعتاد عبد الناصر أن يطلقها ، وقد فتح الباب لنشاط استنفذ الجهود والأموال ، فقد أُجرى استفتاء عليه في ٢ مايو ، كما أُجريت انتخابات الاتحاد الاشتراكي العربي من القاعدة إلى القمة وعقد المؤتمر القومي ، ولم يكن ذلك كله إلا حركاتٍ لا نتائج لها ولا هدف منها إلا امتصاص غضبة الجماهير كما ذكرنا من قبل ، وسنرى بعد قليل ما حدث للشيخ عاشور في المؤتمر القومي ، فيبدو أن الشيخ قد خُدع ، وظن أن هناك ديمقراطية حققة فتكلم بما في نفسه ونفوس الملايين ، ولاقى جزاء كلماته مالاقي مما سذكّره فيما يلي :

قصة الشيخ عاشور

الشيخ عاشور أحد الشيوخ الذين نالوا قسطاً من التعليم بالأزهر ، وكان موظفاً بأحد المساجد التابعة لوزارة الأوقاف بالإسكندرية ، وقد اختارته دائرته الانتخابية عضواً بالمؤتمر القوي الذي أشرنا له آنفاً ، وأرادت مراكز القوى أن تجعل من هذا المؤتمر متنفساً ظاهرياً ، وأعلنت أن النقاش يدور على الهواء مباشرة ، فوقف الشيخ عاشور ، وكانت مراكز القوى قد لقنته ما يقوله ، ولكنه ترمد على النص وصاح في المجتمعين الذين كان يرأسهم جمال عبد الناصر حسين قائلاً : إن جماعة يأتون إلينا ليتحدثوا عن الاشتراكية ، ويطلبون منا أن نربط الأحزمة على البطون لنبنى أمتنا ، ولكنهم يركبون سيارات فارغة ، طول كل منها ستة أمتار أو أكثر ، ويحملون أصابعهم بخواتم السوليتير والأحجار الكريمة .

وكانت هذه الجمل مثار غضب عليه ، فسرعان ما التقطته مراكز القوى من الاجتماع على مرأى ومسمع من المشاهدين ، وأودعته زنزانة ضيقة قلدة رطبة عدة أيام ، ويقول الشيخ في حديث له إنه لم يقدم له أى طعام ولا أى شراب طيلة بقاءه في الزنزانة التي استمرت عدة أيام ، ولكن الشيخ كان حسن الحظ لأن برقيات عدة وردت من داخل الجمهورية وخارجها تسأل عن مصيره بعد أن اختفى ، فاضطرت مراكز القوى إلى إطلاق سراحه ، ويقول الشيخ عاشور في حديثه المشار إليه إنه استندعى لمقابلة شخصية كبيرة قالت له : ستخرج الآن ، وحذار أن يعرف أحد ما حصل لك ، ولا زوجتك ، قل إنك كنت في زيارة لبعض أقاربك ، وأضافت هذه الشخصية

قائلة للشيخ : سأكلمك تبعاً لمعلوماتك ، أنت تقول إن الله يعلم الغيب ،
فلتعرف أنني أيضاً أعلم الغيب ، وسأعرف كل همسة تهمس بها ، وتأكد
أنك إن عدت إلى هنا فلن ترى النور بعد ذلك ه

وكان هذا هو جو المؤتمر القوي الذي انعقد نتيجة لبيان ٣٠ مارس ،
ومن هنا فما أصدق قول أنور السادات : لم يغير هذا ألبان من القبضة
الدكتاتورية شيئاً ، وقد أرجأ الدستور الدائم إلى ما بعد إزالة آثار العدوان ،
وكرس حق الاعتقال (١) .

(١) البحث عن الذات ص ١٧٤

حوادث سنة ١٩٦٩

شهد عام ١٩٦٩ فجائع أملت بمصر كلها ، وفجائع أخرى أملت بعبد الناصر شخصياً ، فقد حدثت في هذا العام زحفة « الزعرانة » حيث عبرت الدبابات الإسرائيلية البحر ومعها جيش إسرائيل ، وحلّت هذه القوة بالجانب الغربي لقناة السويس ، ثم عادت عندما شاءت ومعها حشد من الأري ، وكان معنى هذا واضحاً ؛ إذ أصبحنا تحت رحمة العدو ، ولا نملك الدفاع عن أنفسنا أو حماية أرضنا ؛ وسنتحدث عن هذا الموضوع فيما بعد .

وفي هذا العام انهارت صحة عبد الناصر ، واضطر أن يستسلم للمرض ، ويسلم نفسه للروس للعلاج :

والمهم أنه مع هذه الخطوب فإن الاتجاه الدكتاتوري بقي كما هو ، وكانت الدكتاتورية سبباً لكل ما عانينا من آلام ، ولم ينفذ الدكتاتور بالتجربة ، ولم يتحول عن طبيعته حتى بعد أن كبا وكبت معه البلاد .

وسواصل فيما يلي دراسة أحداث هذا العام بالتفصيل :

القانون فى إجازة

عاش عهد عبد الناصر بلا قانون وبلا عدالة ، ووُصِفَ القانون خلال العهد بأنه تخلف ورجعية ، وقد كان هذا الاتجاه هو سمة العهد كله ، ولكن الذى يدعو إلى الدهشة أن هذا الاتجاه استمر بعد الهزيمة التى وقعت على الجيش والحكام ، ولم يرددوا بها ليعودوا إلى الهدى والرشاد ، وستقتبس فيما يلى بعض العبارات والأحداث التى تدل على أنهم استهانوا بالقانون قولاً وفعلاً .

يقول أنور السادات : فى العشرين سنة الأولى للثورة عطّلت سيادة القانون ، ولم يصبح هناك مجال للمحاسبة أو للقضاء (١) .

ويروى الأستاذ محمد شوكت التونى أن المشير طلب مرة القبض على بعض الصحفيين ولكن وزير العدل لم ينفذ هذا الطلب ؛ فاتصل به المشير تليفونياً وسأل بلهجة شاذة قائلاً : لماذا لم تقبض على الصحفيين ؟ فأجاب الوزير : القانون يافندم . فقال له المشير : قانون ايه ؟ بلاش تخلف (٢) :

واستمراراً لتعطيل القانون ، وعدم الحرص على العدالة مُنِع محمد أبو نار من أداء الشهادة ، وهو يقول فى ذلك : لقد لعب الشيوعيون دوراً مهماً فى الدفاع عن البلاد خلال حرب ١٩٥٦ ولما قُدموا للمحاكمة سنة ١٩٥٩ طُلبت لأداء الشهادة فى تهمة « العالة » التى وجهت لآبائهم ، ولكن حسن المصيلحى رئيس قسم مكافحة الشيوعية فى المباحث حاول

(١) البحث عن الذات ص ١٠٢

(٢) قضية التعتيب الكبرى ص ٢٨٤

إقناعى بعدم الشهادة ، واستدعانى عباس رضوان وزير الداخلية وطلب منى عدم الذهاب (١) .

وفى يوم ٢٣ يونيو ١٩٦٦ أعلن شعراوى جمعة أنه ضد تدخل النيابة فى التحريات والتحقيقات ، لأنه فى كل الموضوعات التى نجملها إليها تنتهى بالبراءة ، لأن النيابة ببساطة تسير الأمور فيها بالطرق القانونية ، ولهذا ينبغى أن نجمل أمثال هذه الموضوعات إلى جهات ثورية للتحقيق فيها مثل المخابرات العامة ، والمخابرات العسكرية ، والمباحث الجنائية ، والعسكرية ، بدلا من الدخول فى دوامة القوانين التى تنتهى دائماً بالبراءة (٢) .

وتبعاً لهذا الاتجاه كان لدى سعد زايد محافظ القاهرة « فلة » يحتفظ بها فى مكتبه ، وهو يقول إنها وسيلته لحل المشكلات (٣)

ويعلق المستشار محمد عبدالسلام على ذلك بقوله : ياله من شعار عجيب يتخذه محافظ القاهرة عاصمة مصر ، وقبله الدول العربية والإسلامية والإفريقية ، وحاملة مشعل الحضارة والحرية ، وقد كان محافظ القاهرة فى قوله هذه أشبه بحاكم أجنبي يتفاخر بأن وسيلته فى حكم المواطنين هى « الفلة والعصا » ، وهى صورة غير مقبولة ، فيها إهدار لكرامة المواطنين واستهتار بالغ بأحكام القانون (٤) .

ومن إهدار القانون ما يذكره الأستاذ جلال الحامصى بقوله : وقد

(١) أحمد حمروشى : شهود ثورة يوليو ص ٢٨٤

(٢) محمد عبد الرحيم عنبر : محاكمة جمال عبد الناصر - ص ١ ص ٧٦

(٣) المستشار محمد عبد السلام : سنوات عصيبة ص ٨٦

(٤) المرجع السابق ص ٨٦ - ٨٧

تكررت ظاهرة إغفال نشر بعض القوانين ، أو التراخي في نشرها ، أو إعطاء تاريخ للنشر مغاير للتاريخ الحقيقي ، أو النشر في عدد رمزي من الوقائع المصرية لا تطبع منه إلا نسخ قليلة جداً وفي هذا مخاطرة بحقوق المواطنين وإهدار لسيادة القانون ومخافة لروح بيان ٣٠ مارس (١) .

وهكذا كان وضع القانون على الرف مصدر المآسى التي عاناها شعبنا طيلة عشرين عاماً ، ولم يكن للمواطن ملاذ يلجأ إليه أو تشريع يعتمد عليه .

مذنبية القضاء

مأساة القضاء ، أو مذنبية القضاء كما اصطُلح على تسميتها امتداد للعسف الذى بدأ بالعدوان على السنهورى باشا رئيس مجلس الدولة ، وشيخ فقهاء القانون فى العصر الحديث ، وامتداد كذلك لوضع القانون على الرف الذى تحدثنا عنه آنفاً .

وقد كان واضحاً أن هناك جفوة هائلة بين رجال القانون من جانب ورجال الثورة من جانب آخر ، وقد سار رجال القانون غالباً سيرتهم العادلة ، فحكموا فى القضايا بنزاهة وإنصاف على الرغم من أن تيار الانحراف جرف بعض هؤلاء فعملوا جواسيس على زملائهم وعلى سواهم كما ذكرنا من قبل ، ولكن بوجه عام كان رجال القضاء نموذجاً طيباً للعدالة وللتمسك بالحق ، وترتب على ذلك أن أُلْفَ الثوار محاكم عسكرية ولجأوا إليها ليتخلصوا من القضاء العادى ، كما لجأوا إلى المباحث بأنواعها ليتخلصوا من النيابة العامة .

وقد كتب المستشار محمد عبد السلام تفاصيل طويلة عن هذا الموضوع (١) بعنوان : «الأستاذ محمد أبو نصير وأعدائه والتمهيد للمذنبية» ونحن نقتطف من هذا الحديث الطويل بضعة سطور لإيضاح هذه المذنبية :

« المفروض أن المهمة الأولى لوزير العدل هى تثبيت دعائم استقلال القضاء ، وإشاعة روح الطمأنينة بين القضاة ، ولكن وزير هذه الحقبة الأستاذ محمد أبو نصير كان بعيداً كل البعد عن هذا الاتجاه ، وكانت له سياسة مرسومة هدفها هدم القضاء واحتواؤه سياسياً ، وكان يعتبر النقد

الذى يسمه حملة موجهة ضد الحكومة ، بل يعطيها الشعار الذى كان شائعاً وهو « ثورة مضادة » ، ومن هنا يتجه عبد الناصر لمقاومتها والقضاء عليها .

« ووافق اتجاه الوزير هوى لدى حكومة عبد الناصر التى لم تكن راضية عن اتجاهات القضاء والنيابة كما ذكرنا . من قبل ، ثم إن الوزير قرَّب إليه بعض العناصر التى كان بها جانب من الانحراف ، فعمل هؤلاء ضد الكثرة الصالحة .

« وعقدت الجمعية العمومية للقضاة فى ٢٨ مارس سنة ١٩٦٨ لتجديد انتخاب ثلث الأعضاء ، فأصدرت الجمعية بياناً تحدث عن وجوب سيادة القانون ، واستقلال السلطة القضائية ، والبعد بالقضاة عن كافة التنظيمات السياسية ، كما تحدث عن وجوب تخصُّص القضاة وتفرُّغهم ، وأن النيابة العامة جزء لا يتجزأ من القضاء ، وجاء فى البيان ردُّ عما يُقال عن الالتجاء للقضاء الشعبى فى بعض القضايا .

« وقد واجه على صبرى هذا البيان بمقالات نشرتها جريدة الجمهورية تتقدُّد بالقضاة ، وتطلب إشراكهم فى تنظيمات الاتحاد الاشتراكي ، وتسخر من القاعدة التى اتفقت عليها الشرائع الدنيوية والسمائية والتى ترى درء الحدود بالشبهات ، وتفسر الشك لصالح المتهم ، ثم طلب على صبرى تعيين ثمانية من شبان الاتحاد الاشتراكي فى وظائف معاونى نيابة دون مراعاة أسبقيتهم فى ترتيب التخرج ، فلما اعترضتُ على ذلك أصدر قراراً جمهورياً بتعيينهم .

« وعندما جاء موعد انتخاب نادى القضاة سقط أتباع الوزير الذين كانوا يسمون « مرشحي الحكومة » ، فجاء دور الإنتقام ممثلاً فيها سُمى « ملبحة القضاء » فى ٣١ أغسطس سنة ١٩٦٩ ، وقضت هذه الملبحة

بوقف العمل بقانون السلطة القضائية ، وبمحاصرة القضاة كبرهم وصغيرهم ،

وفُصِّلَ جميع أعضاء مجلس نادى القضاة ، وعدد كبير من القضاة ورجال

النيابة ، ولتغطية هذا التصرف الشاذ صدر قرار بفصل جميع رجال القضاء ،
ثم أعيد منهم من لم يشترك في إغضاب الحكومة ، وكانت هذه مأساة
تُعَدُّ الأولى من نوعها ، فهي من مبتكرات هذا العهد ، وظل رجال
القضاء المفصولين بعيدين عن وظائفهم حتى أعادتهم ثورة التصحيح ،
وأزالت الظلم عن المظلومين .

ويعترف محمد حسين هيكل أن هذه الإجراءات أثارت ردود فعل
كان يمكن أن يسمعها جمال عبد الناصر ويستجيب لها ، ولكن الثورة في
ليبيا قامت يوم أول سبتمبر وشدت الانتباه كله إلى ناحية أخرى (١) .

ومن عجب أن تستغرق ثورة ليبيا كل انتباه الزعيم واهتمامه فلا يجد
من وقته لحظة فراغ لينصف القضاة الذين يتجهون بكل جهدهم ووقتهم
لإنصاف المظلومين ، وعندما يقع الظلم الصارخ على عمد العدالة فإن كل
بغى يصبح قريب الوقوع .

ثورة السودان وثورة ليبيا

في ٢٥ مايو سنة ١٩٦٩ قامت بالسودان ثورة عسكرية بقيادة اللواء جعفر محمد نميري ففضت على مجلس السيادة برياسة الأستاذ إسماعيل الأزهرى ، وكان هذا المجلس قد اختير عقب سقوط النظام العسكرى برياسة الفريق إبراهيم عبود فى أكتوبر سنة ١٩٦٤ (١) .

وفى أول سبتمبر أو الفاتح من سبتمبر كما يحلو لسلطات ليبيا أن تسميه قامت ثورة فى ليبيا بقيادة العقيد معمر القذافى ضد النظام الملكى فى البلاد ، ويقول محمد حسنين هيكل متحدثاً عن الثورتين :

بالنسبة إلى الثورة التى قامت فى السودان أتذكر أن عبد الناصر كان سعيداً جداً بها ، واعتبر أنها تحول أساسى بعد هزيمة ١٩٦٧ ، وأنها نوع من إعادة الاعتبار إلى حركة القومية العربية التى كانت مضروبة ، ثم قامت الثورة فى ليبيا ، وكان تقديره أن دورها أضخم وأهم . . . وقد فرح جداً عندما شرحت له استنتاجى بالنسبة إلى الاتجاه الحقيقى للثورة ، هذا الاتجاه الذى تتمثل فى الشعارات التى أطلقتها الثورة منذ الساعات الأولى لها ؛ وهى :
الحرية — الاشتراكية — الوحدة (٢) .

ولنا تعليق على هذا الكلام من عدة اتجاهات :

أولاً : أن يسعد عبد الناصر جداً ، ويفرح جداً لقيام ثورات دون أن يعرف القائمين بها واتجاهاتها ، فهذا أمر عجب ، ويدل على روح شر كامنة ، وسرور بالهدم دون ثقة بالقدرة على البناء .

(١) اقرأ عن ذلك الجزء السادس من هذه الموسوعة ص ٦٤٢

(٢) بصراحة عن عبد الناصر ص ١٧٢

ثانياً ؛ لست أفهم أبداً معنى لجعل ثورة السودان إعادة لحركة القومية العربية التي كانت مضروبة ، وكيف فهم عبد الناصر هذا عنها من أول لحظة ؟ وكيف نستطيع أن نطعن العمالقة الذين كان الحكم بأيديهم في السودان قبل هذه الثورة ؟ وفي مقدمتهم إسماعيل الأزهرى ومحمد أحمد محبوب ؟

ثالثاً : كيف تعد ثورة ليبيا ذات دوراً أضخم وأهم من ثورة السودان؟ ولا تعرف مصر دوراً أهم من تحركات السودان الذى يكون مع مصر طبيعة واحدة يغلبها تاريخ طويل ، ودم يجرى في العروق ، ومياه النيل ، ذلك للشرىء الأبدى العظيم .

رابعاً : هزت الشعارات الليبية عواطف عبد الناصر ؛ وكم من شعارات كانت بعيدة كل البعد عما يتفعل فى النفوس وعن الحقائق الأكيدة .

خامساً ؛ حدثت هاتان الثورتان بعد فترة قصيرة من مؤتمر الخرطوم الذى انعقد بمجهود محبوب والأزهرى عقب الهزيمة المريرة ، وقد كان هذا المؤتمر دواء لبعض جراح هذه الحرب ، وقامت حكومة السودان بأعظم دور فيه ، ويمكن القول أنه لولا السودان لكان انعقاد هذا مؤتمر غير ممكن آنذاك ، وأسهمت ليبيا بنصيب كبير فى تحمل التبعات المالية . كيف نسى عبد الناصر هذه السرعة دور الحكام الذين كان الأمر فى يدهم قبل قيام الثورتين ؟ وهل كان من الوفاء أن ينسى عبد الناصر عون الذين وقفوا بجانبه وقت الشدة ؟

وليس معنى هذا أننى أعارض الوضع الجديد هنا أو هناك ، ولكن كنت أؤثر أن يصمت عبد الناصر ويترك كل قطر عربى يباشر مسئولياته الداخلية على النحو الذى يراه .

ومن عجب كذلك أن ثورة ليبيا شغلته عن « مذبحه القضاء » كما قال هيكىل فيما اقتبسناه منه آنفاً ، وهذا دليل جديد على أن الرجل كان يعين للخارج ولا يصيخ لمشكلات الداخل ومتاعب الشعب المصرى .

إسرائيل في الزعفرانة

غرب خليج السويس

تقع الزعفرانة على الساحل الغربي لخليج السويس؛ وفي يوم ١٠ سبتمبر سنة ١٩٦٩ قامت إسرائيل بعملية إن دلت على شئ فهى تدل على استهانة كاملة بقواتنا وبالمخابرات المصرية ، وتوضّح حقيقة مهمة هى أن نشاط القوات المصرية والمخابرات المصرية كان ضد شعب مصر ، ولا دور لهذا النشاط ضد العدو الإسرائيلى .

فقد قامت إسرائيل فى هذا اليوم بزحف قوامه ١٦ دبابة برمائية وعدد من القوات الإسرائيلية ، وعبرت خليج السويس واحتلت منطقة الزعفرانة فى غرب الخليج وكَبَّستْ أقدامها ومدّت سيطرتها وخبوطها حول المنطقة ، ويصف محمد حسنين هيكل هذا الغزو بقوله : إن الأنباء الصادرة من تل أبيب ومن بعض العواصم الدولية صوّرت المسألة على أنها غزو لمصر ، وأخذت وكالات الأنباء تبعث رسائل صحفية تقول فيها إنها من « مصر المحتلة (١) » .

أين كان جيش مصر ليرد هذا الاعتداء ولا بمكّنه من العبور ؟ وأين كانت المخابرات لتعرف هذه الأنباء قبل حدوثها أو فى أثناء حدوثها أو على الأقل عقب حدوثها ؟

يبدو أنه لم يكن عندنا جيش ولا مخابرات ، ولذلك اعتمد عبد الناصر على هيكل ليعرف منه الأنباء ، فاتصل به هاتفياً وطلب منه أن يقرأ له ماتقوله وكالات الأنباء عن العملية ، وقرأ هيكل للزعيم ما لدى صحيفة الأهرام من

تلك الأنباء ، ويضيف هيكل قوله : إن عبد الناصر اعتمد على الأهرام لأن المعلومات التي توافرت لدى المخابرات المصرية عن العملية لم تكن كافية ، أو لم تكن مكتملة وواضحة ، ويتساءل هيكل : من المسئول عن ذلك ؟ وعن الارتباك في المعلومات الرسمية ؟ ولكن هيكل لا يعطى جواباً عن هذا التساؤل (١) .

والمهم — لحسن الحظ — أن إسرائيل لم تكن تريد احتلال هذه المنطقة احتلالاً طويلاً خوفاً من الرأي العام العالمى ، ولكنها أرادت أن تهز النظام وتسخر منه ، كما أرادت أن تستولى على أجهزة الرادار التي كانت مصر قد ثبتتها في هذا المكان ، وبعد أن حققت إسرائيل ذلك كما تشبى ، وبدون أن تلقى أية مقاومة انسحبت ومعها الأجهزة وعدد من الأمري المدينين والعاملين بهذه الأجهزة .

يا قد ! ! لقد كانت هذه هى النهاية الأليمة للزعيم الذى كان يهدد بجيشه دولاً كثيرة .

وقد كانت هذه الحادثة — كما يقول هيكل — من الأسباب التي زرعت المرض الخطير في جسم الرجل ونفسه ، ذلك الرجل الذى طالما دمر أجسام الرجال ونفوسهم .

أسرار مهمة يعلنها كيسنجر

نشر هنري كيسنجر مستشار الرئيس الأمريكي نيكسون للأمن القومي ، ثم وزير خارجية أمريكا مذكراته بعنوان « سنوات البيت الأبيض » وقد نقلت صحيفة الأخبار في شهرى أكتوبر ونوفبر سنة ١٩٧٩ أجزاء من هذه المذكرات تتصل بالمحادثات التي جرت في سنة ١٩٦٩ بين أمريكا والاتحاد السوفيتي عن قضية الشرق الأوسط ، وكان عبد الناصر كما ذكر أنور السادات فيما اقتبسناه من قبل قد طلب أن يمثلنا الاتحاد السوفيتي في المفاوضات ذاكرة أن مصر تقبل ما يقبله الاتحاد السوفيتي ، ودخلنا بذلك متاهات لاحدود لها يُعلنها هنري كيسنجر في مذكراته ، فهو يقول : إن روجرز وزير خارجية أمريكا كان يتفاوض لمحاولة الوصول إلى حل ، ولكنه « كيسنجر » كان يعرقل هذا المسعى ، ويرى أن الطريق مسدود ، لأن آراء الطرفين المتنازعين مختلفة تمام الاختلاف حول معنى الحدود الآمنة ، وَرَجَحَ اتجاهُ كيسنجر باعتباره شديد التأثير على نيكسون ، وكان نيكسون يدهش — كما قال للسفير السوفيتي — لأن مصر خسرت الحرب وخسرت الأرض ، ومع ذلك تتقدم بمطالب المنتصرين .

وأحسَّ عبد الناصر بفشل محاولة الوساطة ولم يكن يستطيع أن يدخل تجربة حرب أخرى ، ومن هنا كان الطريق مسدوداً أمامه ، فلا المفاوضات يحتمل نجاحها ، ولا الاستعداد العسكري يمكن أن يصل إلى درجة تكسب الحرب ، ولذلك اضطروا هو يطلب أسلحة من السوفييت أن يُبدي استعداداه بأن يمنح قواعد عسكرية للسوفييت ، وأن يجعل قيادة سلاح الطيران المصري في أيدي صوفيتية (١) .

(١) البحث عن الذات ١٩٣ ص ٢٥٧ ، ومذكرات كيسنجر التي نشرت بالأخبار يوم ١٩ نوفمبر سنة ١٩٧٩ .

ويواصل كيسنجر كلامه فيقول : بينما كانت هذه هي الحقيقة التي يعيشها عبد الناصر نجده يظهر أمام الشعب بمظهر آخر ، فيلقى خطاباً ملتهباً في مجلس الشعب في ٦/١١/٦٩ يعلن فيه أنه سوف يستعيد الأرض المحتلة بالنار والدم ، ولن يقنع بأنصاف الحلول السياسية .

وقد جاء في مذكرات كيسنجر كذلك أن عبد الناصر كان يقبل أراً ويذيع على الناس غيره . ففي شهر مايو سنة ١٩٦٩ أدلى بمحديث للجنة « تايم » قال فيه إنه يقبل حقيقة « وجود إسرائيل » ولكنه أمر بحذف هذه العبارة من حديثه عند نشره وإذاعته في وسائل الإعلام القاهرية .

ويذكر كيسنجر جملة يقتبسها من سيسكو وكيل وزارة الخارجية الأمريكية الذي كان مختصاً بشئون الشرق الأوسط ، هي أن سيسكو قال للرئيس نيكسون إنه لم يجد دليلاً على أن السوفييت مستعدون للضغط على عبد الناصر لأنهم ينظرون إليه باعتباره أداثهم الرئيسية في الشرق الأوسط ، ولذلك فإنهم غير راغبين في المخاطرة بوضعه السياسي .

وهكذا كان عبد الناصر يتكلم بصوت القادة ويتصرف في السر تصرف التابعين :

ونقطة أخرى من مذكرات كيسنجر نُشرت في صحيفة الأخبار بتاريخ ٢٦/١١/١٩٧٩ تقول إن الاتحاد السوفيتي يتحدث عن وجوده العسكري بمصر سنة ١٩٦٩ وكأن مصر ولاية سوفيتية لا رأى لها ، ويتقل رأى وزير خارجية الاتحاد السوفيتي وهو أن موسكو تملك تحديد عدد قواتها بمصر دون الرجوع إلى أحد ! !

السادات نائبا لرئيس الجمهورية

من أحداث هذا العام حَدَثُ كان شديد التأثير على مستقبل مصر ، ذلك هو تعيين أنور السادات نائبا لرئيس الجمهورية ، وعبد الناصر يستحق الثناء على هذا التصرف ، فقد اختار رجلا يستطيع أن يحمل العبء ، وإذا قارنا هذا الاختيار باختيار رجل آخر حصل عقب هزيمة يونيو نجد أن توفيق عبد الناصر كان عن مصادفة لا عن فكر ، فعقب الهزيمة كانت الكارثة ستمتد أو تنضاعف لو آل أمر مصر إلى زكريا محيى الدين أو شمس بدران ، ولكن الله سلم أرضنا المباركة ، وألهم عبد الناصر الصواب فى هذه الخطوة ، فاختار أنور السادات قائداً ورائداً لمصر ، وله من ثقافته العسكرية ، وثقافته المدنية ، وبيئته الطيبة ما ضمن له عناصر النجاح :

وكان اختيار أنور السادات مفاجأة ، يتحدث عنها بقوله :

فى ساعة صفاء وإلهام قال لى عبد الناصر يوم ١٩ ديسمبر سنة ١٩٦٩ :
يا أنور أنا مسافر لحضور مؤتمر القمة العربى فى المغرب غداً ، وزى ما أنت شايف المؤامرات حولى كثيرة . . . ومش عايز أسيب البلد فى فراغ ، ولذلك قررت أن أعينك نائبا لرئيس الجمهورية ، وتحلف اليمين قبل أن أسافر :

وسأله أنور السادات : هل فكرت جيداً فى هذا الموضوع ؟ أنا مستعد أن أكل معك المسيرة ولو بلقب مستشار .

فأجاب عبد الناصر : لا . : بكره تفوت على وتحلف اليمين ، وذهب أنور السادات وحلف اليمين فى اليوم التالى ، ولم يعلن هذا النبأ إلا فى المطار أعلنه عبد الناصر على المودعين (١) :

حوادث سنة ١٩٧٠

حرب الاستنزاف ونتائجها

ماذا تعنى كلمة الاستنزاف التى أطلقها عبد الناصر على المناوشات التى حدثت فى بعض الفترات بعد حرب ١٩٦٧ ؟ .

إن كلمة الاستنزاف فى القاموس اللغوى تعنى نزيف الدم والمال من العدو ، فهل استطعنا من هذه المناوشات أن نجعل لإسرائيل تنزف الدم والجهد والمال ؟ أو أن هذه كلمة أسىء استعمالها كما أسىء استعمال كلمة «حراسة» و«ديمقراطية» و « حرية » وغيرها من الكلمات ؟ .

إن الإجابة عن هذا السؤال تأخذها من شخص مهم هو أنور السادات ، ومن كلامه يتضح أننا نحن الذين نزفنا ، وأضفنا إلى الخسارة خسارة جديدة ، وفيما يلى كلماته^(١) :

بدأنا هذه الحرب فى سبتمبر سنة ١٩٦٨ فردت علينا إسرائيل بضرب المحولات فى نجع حمادى وقناطر نجع حمادى وكوبرى قنا ، فاضطرونا إلى التوقف من سبتمبر سنة ١٩٦٨ إلى مارس سنة ١٩٦٩ حيث استأنفنا هذه الهجمات ، وكان رد إسرائيل على ذلك رداً مهجياً فضربت مدرسة ببحر البقر ضربة راح ضحيتها عشرات من الأطفال الأبرياء ، ثم ضربت مصنع أبو زعبل وقتل فيه أكثر من سبعين عاملاً ، ودمر المصنع تدميراً تاماً ، ولا تزال أنقاض من معداته ملقاة بالقرب من المصنع تشكو همجية المهاجم وضعف الحماية .

ويقول الدكتور هنرى كيسنجر فى مذكراته « سنوات البيت الأبيض » التى نشرت الأخبار ترجمة أجزاء منها : « فى يناير عام ١٩٧٠ بدأت

(١) البحث عن الذات ص ٢٥٥ و ٢٥٧ .

إسرائيل غارات العمق في مصر ، وشنت هجمات جوية حول القاهرة ودلتا نهر النيل ، وكان الهدف من هذه الغارات هو إظهار عجز عبد الناصر ، وإرغامه على وقف ما يسمى بحرب الاستنزاف (١) .

وكان من نتائج هذه الضربات الجوية الإسرائيلية في العمق أن طلب عبد الناصر من الاتحاد السوفيتي أن يتولى قائد سوفيتي قيادة الدفاع الجوي عن مصر (٢) .

وكان من نتائج هذه الضربات التي لم يستطع عبد الناصر ردها أن قبل مبادرة روجز بإيقاف الهجمات مدة تستعين يوماً لإعطاء فرصة لحركات الحل السلمي ، وقد تعرض عبد الناصر لحملة شرسة من الفلسطينيين بسبب قبول هذه المبادرة ، ولم تسفر التحركات السلمية عن أية نتائج ، ولم تستأنف مصر الصراع ضد إسرائيل بعد ذلك في حياة عبد الناصر .

أترى من الذي كان ينزف في هذه الحرب ، وإلى من كان الاستنزاف موجهاً ؟

(١) صحيفة الأخبار في ١١/٦/١٩٧٩

(٢) أنور السادات : البحث عن الذات

أيلول الأسود ومؤتمر القمة

كان الملك حسين قد ضاق بالفلسطينيين الذين كانوا يعيشون في بلاده، ويقومون بغارات فدائية على إسرائيل تعقبها عمليات انتقامية عنيفة تقوم بها إسرائيل على تجمعات الفلسطينيين في المملكة الأردنية ، وكثيراً ما كانت هذه العمليات الانتقامية تدمر الممتلكات والرجال بالمملكة .

وكان الذين يقومون بالغارات الفدائية من الفلسطينيين لا يخضعون لإشراف الملك ، ومن هنا قرر الملك تصفية المقاومة الفلسطينية ببلاده ، فهاجمها هجومًا عنيفًا في سبتمبر سنة ١٩٧٠ مما أدى إلى مذبحه بين أفرادها بالمعنى الكامل لهذه الكلمة :

ودعا عبد الناصر الملوك والرؤساء للاجتماع في مؤتمر قمة بالقاهرة في سبتمبر سنة ١٩٧٠ وحضر الملوك والرؤساء ، ودار نقاش ثنائي حول دعوة الملك حسين أو عدم دعوته ، واتفق أخيراً على دعوته ، وما إن حضر حتى أصبح المؤتمر يروج بالمتناقضات .

كان ياسر عرفات يفعل ويبدأ سلسلة من الانفجارات لانهاية لها ، وكان القذافي ظاهرة تلفت النظر بالطبقة التي لا تفارق حزام مترته كما كان دائماً السباب للملك حسين ، وكان يصفه بأنه رجل مجنون ولا بد له من دخول مستشفى المجاذيب (١) .

وكانت الجلسات ثنائية، والاجتماع الوحيد الذي ضم كل الحاضرين كان هو الجلسة الختامية ، وقد حضره القذافي بعد تمتع ، وعند ما حضر وضع رجليه على منضدة الاجتماع وصوره المصورون على هذه الصورة ، ولكن

(١) البحث عن الذات ص ٢٩٢

عبد الناصر أمر بإتلاف الأفلام ، وكان ياسر عرفات في قاعة الاجتماع يحمل متريوز . وكان الملك حسين يلبس بدلة عسكرية ، ويحمل مسدساً ، مما يخالف المراسم المتبعة^(١) .

وعن نتائج هذه الاجتماعات يقول أنور السادات^(٢) : انتهى المؤتمر بالاتفاق على ما اتفقوا عليه : وهذا يدل على غموض الاتفاق ، وعاد الملوك والرؤساء إلى بلادهم وتركوا جمال عبد الناصر في غاية الإجهاد كما سئرى بعد قليل هند الكلام عن نهاية عبد الناصر .

(١) صلاح الشاهد : ذكرياتي في عهدي من ٣٦٢

(٢) البحث عن الذات من ٢٦٣

نهاية عبد الناصر

لكل شيء في الحياة نهاية ، وكل من عليها فان ، وقد يُخَدَع الإنسان فيظن أنه طويل العمر ولكن العمر يكون قد نفذ أو كاد ، وكان عبد الناصر يصارع المرض وهو يودع ضيوفه في مؤتمر القمة الذي تحدثنا عنه آنفاً ، وما إن رحل آخر رئيس عربي (أمير الكويت) حتى كان الإعياء قد وصل غايته من عبد الناصر فلم يستطع أن يسير في المطار ليصل إلى سيارته ، ووقف حيث هو وطلب أن تجيء له السيارة عند موقفه ، وركب السيارة إلى البيت ، ولم تمض فترة حتى كان قد أسلم روحه إلى الله ، ومع نهاية العمر لم ينفع طب ولا علاج ، وانتهى الرجل فأصبح رهين عمله لا ينفعه مدح ولا يضره هجوم ، ولكنه فقط مسئول عما فعل في دنياه .

وكانت وفاة عبد الناصر يوم الإثنين ٢٨ من سبتمبر سنة ١٩٧٠ .

جنازة عبد الناصر :

حمل جثمان عبد الناصر من منزله إلى قصر القبة وبقى به إلى يوم الخميس الذي تمحدد للدفن ، فنقل الجثمان إلى مجلس قيادة الثورة حيث تقرر أن يبدأ سير الجنازة ، وفي خلال المدة بين موته وتشيع جنازته حضر عدد كبير من الرؤساء والملوك والزعماء لحضور هذه الجنازة ، وعند تشيع جنازته ازدحمت الطرقات بالآلاف من الجماهير المصرية ، وحدث في الجنازة هرج ومرج ، ويقول الأستاذ صلاح الشاهد أنه بين الاضطراب الذي حدث في الجنازة تمكن بعض الأشخاص من اختطاف الصليب الذهبي من فوق صدر مكاريوس كما خطفوا بعض الأوسمة من فوق صدر بوكاسا رئيس جمهورية أفريقية الوسطى آنذاك (١) .

ماذا لو قارننا هذا بما كان قد وصَّى به الزعيم العظيم ديمول الذي مات بعد عبد الناصر بفترة قصيرة (٩ نوفمبر سنة ١٩٧٠) بأن تكون جنازته بلا

مراسم غير المراسم الدينية ، وأن يقتصر تشييع جثمانه على أهله الأقربين ؟

سرقة تركية رخامية لمقبرة عبد الناصر :

ذُفِنَ جمال عبد الناصر في مسجد بشارع الخليفة المأمون بعد أن أعدت له مقبرة رخامية سُْرِقَ رخامها من المقبرة أو التركية للرخامية التي كان الأمير محمد علي توفيق أعدها لنفسه موازيةً لمقبرة أخيه الخديوي عباس الثاني ، وقد أُجْرِيتُ تحقيقاً في الموقع عن هذه المسألة وكتبت في مذكراتي ما يلي :

المكان : مقبرة الخديوي توفيق العففي على بعد مئات من الأمتار من طريق صلاح سالم على الطريق المتفرع منه إلى مدينة نصر :

نظام المقبرة : نظام المقبرة هو كالشكل الآتي :

المدخل



مقبرة والدته باشا (بمة قادن)

(والدته عباس الأول)



مقبرة الخديوي توفيق



مقبرة كانت معدة ليدفن

مقبرة عباس الثاني → { مقبرة أم الحسين (بها الأمير محمد علي توفيق)
(زوجة الخديوي توفيق) ← (أخو عباس الثاني)
وهي التي سُْرِقَ رخامها

وقد زرت هذه المقبرة بنفسى ، وقادنى لها أصدقاء أصفاء ، والمقبرة فخمة للغاية تناسب الملوك والسلاطين ، ويمكن أن تكون مزاراً هائلاً للسائحين لما بها من نقوش غاية في الروعة ، وقد ظهر لى ما كنت أشك فيه ، وهو الاستيلاء على هذه التركية الرخامية الفخمة ، وظهر لى ما هو أكثر من ذلك ، ظهر لى غباء الدين استولوا على هذه التركية ، فقد تركوا مكانها

حفرة تدل على أن شيئاً قد برق من هذا المكان ، وحرص نخدم الضريح على أن يبقى هذا دليلاً على السطو ، فلم يضعوا بعض البلاطات مكان التركيبة وهم يقصدون أن يبقى المنظر دليلاً على أن شيئاً أخذ من هذا المكان ؛ وهكذا كان من حظ عبد الناصر أن يلزمه السطو والاستيلاء على حقوق الغير حتى بعد وفاته .

لم ينعم في حياته :

تدل كل الدراسات على أن عبد الناصر لم ينعم في حياته ، وكان دائماً مهدداً شديد الشك ، يعتقد أن حياته مهددة بالاغتيال في كل لحظة ، وكان حبيس بيته قليل النزهة ، ويقول موسى صبرى إن عبد الناصر كان يعتبر ركوبه السيارة بجوار سائقه من منزله إلى شارع الهرم لزيارة أنور السادات نزهة العمر التي يرى فيها حرته^(١) .

وهكذا فإن الرجل الذي سلب الحرية من الآلاف فقد أيضاً حرته في عالم الشكوك والقلق والأوهام الذي خلقه حول نفسه .

لم أكتب كل شيء :

أحب أن أعترف وأنا على وشك أن أرفع القلم عن عبد الناصر أنني

لم أكتب كل شيء ، فإن أمانى حشودا من الأفكار اكتشيت بأن وضعت

نماذج منها فيما دونت عن الرجل وعن عصره .

عبد الناصر في الميزان

في ختام هذه الدراسة نحاول أن نعطي كلمة إجمالية عن حسنات عبد الناصر ومساوئه :

حسنات عبد الناصر الخارجية :

عن حسنات عبد الناصر الخارجية أحب أن أوضح أنني هنا أكتب تاريخ مصر ، ولهذا فإن اهتمامي يتجه أساسا إلى ما قدم رئيس مصر إليها وإلى شعبها ، ولأنها الجريمة لانعرف لها نظيرا في التاريخ أن يدفع رئيس دولة قوت شعبه للدولة أخرى فيترتب على ذلك أن يجوع شعبه ؛ وأن يرسل قوات من قواته المسلحة لتساعد على تحرير الآخرين فيضعف جيشه ويترتب على هذا احتلال بلاده : . . . هذا هوقة الخطل والظلم وسوء التدبير ، ومع هذا فإننا نسر د مواقف عبد الناصر في هذا المجال التي يراها البعض حسنات ، وللقارىء أن يرى فيها رأيه .

— أرسل قمحا إلى الهند إبان مجاعتها وكان القمح في طريقه إلى مصر ، اشترته مصر بما لها حاجة البطون إليه .

— أرسل مصانع للجزائر وكانت مصر قد اشترتها لتعمل بها .

— أرسل أسلحة كثيرة للجزائر ليساعدها في حركة التحرير كما أرسل لها أفرادا من القوات المسلحة ومساعدات عينية أخرى :

ويعترف محمد حسنين هيكل بأن مساعدات عبد الناصر للجزائر كانت من أهم الأسباب التي دفعت فرنسا للاشتراك في علوان سنة ١٩٥٦ .

— قاوم حلف بغداد مقاومة عنيدة ، وأنفق على ذلك ملايين الجنيهات ونجح في هز هذا الحلف .

— أرسل أسلحة وجيرشا إلى الكونغو .

— ساعد قبرص مساعدة مادية وعسكرية .

- في خلال الوحدة مع سوريا أنفقت مصر على سوريا مئات الملايين من الجنيهات ، كما ذكرنا بالتفصيل من قبل .
- أيدّ لبنان في صراعاته الداخلية حتى لا يُعاد اختيار كميل شمعون لرئاسة الجمهورية ، وقد سخر لذلك مال مصر ووسائل الإعلام المصرية .
- واستمرت مساعداته إلى صحف لبنان بعد ذلك لتظل هذه الصحف تمجده ، وقد اتضح أن بعض الصحف اللبنانية كانت تطبع عددا محدودا من النسخ يتحدث باسم عبد الناصر ، ولا تجده هذه النسخ وسيلة للتوزيع ، وإنما كانت ترسل للقاهرة لتعلن عن ولاء المحررين بها
- وفي اليمن كانت له هذه الوقفة الطويلة التي قضت على رصيد الذهب والفضة في مصر ، كما دفعت للموت عشرين ألفاً من الشبان المصريين ، حتى تتحرر اليمن من حكم الأئمة الرجعي والبدائي .
- ساعد القضية الفلسطينية أكبر مساعدة ، عاش لها ومات فيها ، ويقول الملك فيصل : إن المزايدين كانوا يعملون ليحارب العرب حتى آخر جندي مصري (١) ويمكن القول إنه الزعيم الذي ضحى بمصر من أجل فلسطين .
- وأسهم في هز الاستعمار البريطاني في الخليج العربي وفي اليمن الجنوبية
- أوى كثيرًا من زعماء الحركات التحررية بأفريقيا وأنفق عليهم بسخاء ، وهم يقومون بجهدهم ضد الاستعمار .
- وجد اللاجئون السياسيون العرب وغير العرب في رحابة كل سخاء ، وكل ترحيب . وقد شاهدت وأنا أعمل في المؤتمر الإسلامي نشاطاً لإعداد مساكن رائعة لبعض هؤلاء ، وما يذكر أن كثيرين من هؤلاء كانوا يحرثون هذا العمل ليعيشوا في رخاء دون نشاط يذكر في مجال خدمة بلادهم .

ونظائر أخرى لهذه الأيادي والمنح يمكن أن تراها في خط حياته الطويل ،
وللقارىء - إن شاء - أن يُعجب بها وأن يراها حسنات عظيمة ، ولكنى
بحكم التزامى التاريخى أقرر نقطتين مهمتين تتصلان بهذا الموضوع :

أولاً : ليس من حق رئيس دولة أن يأخذ قوت شعبه لحاجة
شعب آخر أياً كان هذا الشعب ، صحيح إن المساعدات العامة مطلوبة ،
ولكن على أن تكون من الفائض بعد سد الحاجة فى الداخل ، ورئيس أى
بلد مسئول عن بلده أولاً مسئولية تشمل قضاء الحاجة والتعمير ، وبعد ذلك فقط
يمكن أن يساعد الآخرين ، ولكن الذى فعله عبد الناصر كان لصالح الآخرين
على حساب المصريين ، فالقمح كنا فى أمس الحاجة له ، وكذلك المصانع
ورصيد الذهب والرئيس أمين على مال الأمة وشعبها ، ولا يجوز
له أن يتصرف فى الدماء والأموال إلا لصالحها أولاً وقبل كل شيء .

ثانياً : ما يقال عن مساهمة عبد الناصر فى تحرير الشعوب يجب - فى
رأى - أن يؤخذ بحسره ؛ فيلزم أن نتذكر ما وضحنه من قبل - عند
الكلام عن المعاهدة التى وقعها عبد الناصر مع بريطانيا - أن العصر
عصر جلاء ، وأن الاستعمار الأوروبى كان قد آن الأوان لنهايته بعد ظهور
القوتين الكبيرتين بالساحة العالمية (أمريكا وروسيا) وبعد ظهور الأسلحة
الحديثة التى جعلت الاستعمار العسكرى قليل القيمة .

ومن أجل هذه الحسنات كان يقال ؛ إن بصمات عبد الناصر واضحة فى
المنطقة ، وأمثال هذا من التعبيرات الفجة الزائفة التى لامداول لها .

حسنته الداخلية :

لعل هدى عبد الناصر ابنة جمال عبد الناصر تعتبر أحسن مصدر يمكن
أن نعتمد عليه فى ذكر حسنته الداخلية ، فقد سلت عن إنجازاته فأجابت :

السد العالى - الاشتراكية - القطاع العام - صيغة قوى التحالف (١) .

وقد تكلمنا عن السد العالى كلاما طويلا فلا نعود هنا إليه .

ووصَفَ أنور السادات اشتراكية عبد الناصر بأنها اشتراكية الصنم الذى ينوه ثم وقعوا يعبدونه ، وإنها اشتراكية توزيع الفقر .

أما القطاع العام فحسبنا ما ذكرناه عنه من انحرافات سطرها المستشار محمد عبد السلام النائب العام فيما اقتبسناه منه من قبل .

وأما صيغة قوى التحالف فهراء مات مع موت الاتحاد الاشتراكي .

ونلجأ إلى حوارى جمال عبد الناصر ، إلى محمد حسنين هيكل لتعرف منه على إنجازات عبد الناصر وهو يعددها قائلا ، الإصلاح الزراعي - إعلان الجمهورية - كسر احتكار السلاح - معركة مقاومة الأحلاف - حروب تصفيه الاستعمار - تأميم قناة السويس - حرب السويس المنظمة - التصنيع - التحويل الاشتراكي - التصدي لمسئولية الوحدة العربية - بناء السد العالى - قيادة حركة الثورة الوطنية وتيار عدم الانحياز وإنشاء منظمة الوحدة الأفريقية ، وعودة بترول العرب للعرب (٢) .

وقد ذكرنا من قبل هذه الإنجازات وناقشناها وبيننا أن :

- الإصلاح الزراعي كان مأساة اقتصادية ، ولم ينفذ إلا ضد المعارضين .

- الجمهورية : ليست هدفاً في ذاتها ، وإنما الهدف كان في القضاء على القصر المستبد ، وقد جاءت الجمهورية بعدة قصور وبصورٍ بشعة من الاستبداد .

- تأميم قناة السويس : أرجو العودة إلى الإحصائية التي ذكرتها عند تأميمها ، كما أرجو العودة للتعرف على دعر عبد الناصر وأتانيته عند الهجوم الثلاثي .

(١) محمود مراد : حوار مع هدى عبد الناصر ص ١٦

(٢) لمصر لالعبد الناصر ص ٢٧

— كسر احتكار السلاح : خرافة أضرت بناواتهت وعدنا أدراجنا إلى حيث كنا .

— الوحدة العربية : ترك عبد الناصر للعرب وهم في فرقة أشد وأقوى من أى وقت ، بسبب كلامه عنهم وهجومه عليهم .

ولم تجد هدى عبد الناصر ولا محمد حسنين هيكل في الزعيم مكرمة قدمها للشعب الذي عرف كل صور العناء إبان هذه الفترة المرسرة مساوىء عبد الناصر :

إذا كنا قد اصطنعنا الصبر ونحن نعدد ما قيل عن حسنات لعبد الناصر فإننا يجب أن نضع في الكفة الأخرى هذه المساوىء التالية :

— حروب خاسرة متلاحقة ومتعددة كان يمكن تجنبها (حرب ١٩٥٦-الصراع في سوريا - حرب اليمن - نكبة ١٩٦٧) .

— خسائر في الأرواح : ٢٠,٠٠٠ شاب في اليمن -

٣٥,٠٠٠ شاب في حرب ١٩٦٧ هـ

ولا نعرف عدد الآلاف الذين سقطوا في المعارك الأخرى .

— خسائر في الأموال والمعدات : أربعون بلياراً من الجنيهات (٤٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) .

— ضياع ميناء مرتين في عهده ، وتخريب منطقة القناة مرتين .

— ثروة مصر للخارج .

— انتهاك الحرمات وهتك الأعراض .

— الاعتقالات التي شملت عشرات الآلاف .

— التعذيب في المعتقلات للرجال والسيدات والأطفال .

— مآسى ما مسمى تصفية الإقطاع .

— فصل مئات الموظفين من وظائفهم بدون تحقيق .

— الخبز الأسود والحرامان التام .

— القطاع العام ومساوئه (يُقْرَأُ في هذا كتاب «التحدى» للأستاذ أحمد أبو الفتوح ففيه تفاصيل مهمة) .

— المحاكمات الظالمة للزعماء السياسيين ، وللإخوان المسلمين ، والأحكام الجائرة عليهم بواسطة زملائه وزبانيته .

— الحراسة والمصادرات .

— إهمال المرافق بمصر إهمالا تاما حتى توقف الإسكان وضاعت المدارس بالتلاميذ ، وانخرست التليفونات ، وطفحت البحارى ، وانهارت الطرق ، فأصبح التدمير سمة العصر .

— انحرافات مالية تحدثنا عنها ، وقصور للأبناء وقد ذكرت مجلة الطلبة الصادرة في ٨ فبراير سنة ١٩٧٦ بالعناوين الكبيرة وبالخط الأحمر مايلي :

منى عبد الناصر عرضت ١٦٠ ألف جنيه لشراء ٢١ فدانا من أراضي

الإصلاح بمنطقة الهرم ، والمبلغ يزيد عن مجموع مرتبات رئيس الجمهورية مدة

٢٠ عاما ومرتبات السيده منى وزجها ، وتساءلت المجلة : من أين هذا المبلغ ؟

— زوار الليل .

— شركات للنقل تتبع المخبرات ؛ ويشترك في رأس المال عبد الناصر والمشير كما اعترف بذلك صلاح نصر (١) .

— ٥٠ جرسونيرة يديرها أعوان عبد الناصر في عهده (٢) .

— كجلب الاستعمار الروسى لبلادنا .

— الضعف عن حماية البلاد من العدو الصهيونى .

— القضاء على حرية الصحافة ، وحرية الرأى ، وحرية الإنسان .

— وبالإجمال فقد توقفت الحضارة توقفا تاما في جميع مجالاتها ، وأسلمت

البلاد إلى الضياع ؛ ناسها وأرضها ، ولم يبق لها ملاذ إلا أن يرحمها الله .

(١) وثائق ١٥ مايو ص ٢٣٥

(٢) محمد شوكت التونى : قضية التمييز الكبرى ص ٧٠

في هذه الخاتمة نعرض أموراً ثلاثة مهمة هي :

— عبد الناصر وأسرته بعد وفاته

— مخاطر الانقلابات العسكرية .

— بين عهدين

وستكلم عن كل من هذه الأمور كلمة فيما يلي :

عبد الناصر وأسرته بعد وفاته

ونبدأ بالحديث عن أسرة عبد الناصر فتسأل : ماذا عن مسئولية أسرة عبد الناصر وامتيازاتها ؟

أما عن مسئوليتها عما فعل الرجل فإننا بمن نخضعون للفكر الإسلامى الذى تمثله الآية للكرامة « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ومن هنا فلا نرى أن ينزل أى عقاب بأسرة جمال عبد الناصر نتيجة ما اقترفه الرجل من آثام فى حق الوطن والمواطنين ، ومحاسبه الله على ما عمل .

وأما عن امتيازات هذه الأسرة فإننا نرى من الظلم الفاضح أن تنال هذه الأسرة امتيازات باهظة من مال للشعب الفقير وقوله ، ونذكرولى الأمر أن أعظم زعيمين عالميين عرفهما العصر الحديث ، وأنقذا بلديهما من خطر محقق وهما تشرشل وديجول لم تنل أسرتهما عشر معشار ما قُرِصَ لأسرة عبد الناصر ، فبعد موت تشرشل اضطرت زوجته أن تبيع لوحات الفنية وبعض التحف التى كان يملكها لتعيش بثمنها ، ورفضت أن تقدم لها الدولة معونة خاصة حتى لا تسمى إلى سمعة زوجها ، وبعد موت ديجول اضطرت أرملته أن تقفل المنزل الرينى الضخم الذى كانت تعيش فيه مع زوجها لعدم استطاعتها الإنفاق عليه ؛ وانتقلت لتعيش فى بيت للمسنين تديره كنيسة .

ولهذا فإننا نعلن أن إعطاء مال الشعب لأسرة عبد الناصر تصرفٌ فى مال الشعب لا يرضاه الله ولا الوطن ، وبخاصة مع ما تنعم به هذه الأسرة من ترف وثراء ، ولو كانت أسرة حريصة على سمعته لرفضت هذا العطاء كما

رفضته أسرة تشرشل وديجول ، وبخاصة بعد أن انتهى الأولاد جميعاً من دراستهم ونالوا وظائف مرموقة تعد مرتباتها بالملئات ، ومن أجل هذا فنحن نصرخ :

— بأى حق يُمنَح قصران شاسعان لأسرة عبد الناصر ؟

ومن العجب أن كثيرين من العظماء يمنحون منازلهم للدولة لتصبح متاحف عامة أو مدارس : . . . أما في حالة مصر فالدولة تهب لأسرة الزعيم .

— بأى حق منحت أسرة عبد الناصر مرتباته ومخصصاته بدون ضرائب ؟

— لماذا تقف ١٧ سيارة بسائقها في خدمة هذه الأسرة ؟ (تحديد عدد السيارات من كلام موسى صبرى) .

— ونجىء للحديث عن عبد الناصر بعد وفاته فنذكر أنه إذا كان قد نكّل بمصر وبالمصريين وترك البلاد محتلة كثيرة فلأننا نصرخ .

— لماذا ترفع صورته في الوزارات والمؤسسات مع صور رئيس الجمهورية ؟

— إلى متى تظل تماثيله تملأ الميادين والمؤسسات ؟

— إلى متى تظل كثير من المؤسسات تحمل اسمه أو مشتقات هذا الاسم : مدينة نصر . شركة النصر

لابدٌ في رأى العدل أن تعيش أسرة عبد الناصر في مسكن مناسب ، أما القصر الفسيح في منشية البكرى بمطاراته وملاعبه ومخابئه فيعود للدولة ، ويعود لها كذلك قصر الإسكندرية وتسترد الدولة من أسرة عبد الناصر كل ما أدخلوه زيادة عن المعاش الرسمي لهم .

لابدٌ أن تنزل صُورُهُ وتنزل تماثيله من كل مكان ، ويختفى اسمه ومشتقات هذا الاسم من المؤسسات والمعالم .

وذلك حق الشعب ، وأى تفريط فيه سيكون حسابه عند الله ، وسيكون خلطاً بين جزاء من أحسن وجزاء من أساء .

مخاطر الانقلابات العسكرية

أجمع الباحثون على أن من أهم فوائد علم التاريخ أن نتخذ من الماضي عظةً نخدم حاضرتنا ومستقبلنا ، وقد برهنت الأحداث التاريخية المتعددة على أن الحكم العسكري يُلحق الضرر أبلغ الضرر بالمجتمع ، ويبدأ الضرر بالعسكريين الذين يقومون بالانقلاب ، إذ سرعان ما يضرب بعضهم بعضاً ، مما يؤكد أن الصعوبة بينهم قصيرة العمر ، فشركاء حركة الانقلاب تقفز العداوة بينهم بمجرد نجاح الانقلاب ، ثم يتجه الضرر للمدنيين فالبلاد ، وهذه النتيجة لم تتخلف عن الإطلاق فأنسى وجد الحكم العسكري يحل البلاء والدمار بالشعب والبلاد ، لقد حدث هذا بوضوح في أمريكا اللاتينية وحدث في بعض البلاد العربية ومن بينها مصر ، وحدث في الباكستان وأفغانستان وأوغندا وأفريقية الوسطى واليونان . . .

ومن أجل هذا فنحن نضع هذه النتيجة أمام الناس في كل مكان، حتى لا تخدعهم أية وعود براقة من العسكريين ، فكما أن الطبيب يبذل جهده في المستشفى ، والمهندس يتشجع بكل حماسه لخدمة الأغراض الهندسية ، والأستاذ يفنى حياته بين إعداد دروس أو إلقاء محاضرة . . . فكذلك الجيش يقف في الميدان يحرس البلاد ويدافع عنها ، وذلك هو الهدف الأسمى لكل هؤلاء ، وليس لأحد أن يتخطى مكانه ، أما السياسة فلها رجالها الذين تعلموا فنونها كما تعلم سواهم الطب والهندسة والفلسفة وهم الذين يمارسون الحكم في البلاد تحت المراقبة الصارمة من الجماهير وبخاصة من المعارضة التريهة والصحافة الحرة ، ويمكن لأى ضابط أو أى طبيب . . . أى يخل مكانه في الجيش أو في المستشفى ، ويدرس السياسة وفن الحكم في كليات العلوم السياسية أو في الأحزاب ، ويمارس بعد ذلك الأمور السياسية كما فعل أيزنهاور وديجول .

وإذا انحرف الساسة بالحكم انحرافا تعجز المعارضة البرلمانية عن إصلاحه
هبت ثورة شعبية في وجه المنحرفين ، ولا مانع من أن يمثل الجيش في هذه
الثورة ليسقط زعماء الانحراف ، وعقب ذلك مباشرة يسلم زمام الأمر بالبلاد
إلى جماعة محايدة من أساتذة الجامعات والأطباء والمهندسين .. ويعود الناثرون
كل منهم إلى مقره وعمله ، ويمجى هؤلاء المحايدون استفتاء شعبيا حرا يتجه
بالبلاد إلى حيث يريد الشعب .

ذلك هو الطريق الأمثل ، ولا خير على الإطلاق يرجى من حكم العسكريين ،
وقد عبر عن هذا ماكسيم رودنسون حين قال : الجيش جماعة أنانية ،
متلهفة على الاستمرار في السلطة ، وعلى زيادة امتيازاتها ، وهي بعيدة عن
الطبقات العاملة ، وغير جديرة أن تهب نفسها لأهدافها .

ومثل هذا ما اقتبسناه من قبل من كلمات الأستاذ أحمد مخروش وهو
يصف قادة الثورة المصريين ، مؤكدا أنهم كانوا بعيدين عن الشعب من جانب
وعن الكفاءة من جانب آخر .

تلك صيحة تؤدى بها حق الله والوطن ، ونحمي بها البلاد والعباد من
من الفتن والدمار .

بين عهدين

إننى عندما أتصبرر ما كنا قيه وأقارنه بما نحن فيه ، أجدنى أنطق بالشكر والثناء ، وعميق الدعاء ، للرجل الذى نقلنا من الضعف إلى القوة ، ومن الهزيمة إلى النصر ؛ ومن تنكيس الرؤوس إلى رفع القامة ، ومن عالم الخراب إلى دنيا العمران ، الرجل الذى استعاد لنا الحرية ، والكرامة ، والأرض السليبية ، وجعل خيرات مصر للمصريين .

وعندما أرى الجهود لإصلاح الأرض الزراعية وغزو الصحراء ، وعندما أشاهد النشاط الضخم فى عالم البناء والتعمير ، وعندما أرى شبكة التليفونات يصاد بناؤها بتكاليف تقرب من مليارين من الجنيهات بعد أن خُسرست تماماً ، وعندما أرى إصلاح الطرق ، وتحسين المواصلات ، وإزالة عشش التريجان أدعو الله من كل قلبي أن يهب الرئيس محمد أنور السادات كل تأييد وقوة ، وأن يزيد الخير على يديه ، حتى يعم كل الناس بهذا البلد الأمين ، ويمتد لكل القرى والأقاليم ؛ كما أدعوه أن يجعل هذا العهد مطلقاً لعهود نور وخير وبركة .

قد نختلف فى بعض الأمور ، وقد لا تكون أطاعتنا كلها قد تحققت ، ولكن هذا لا يمكن أن يحجب أباى أنور السادات ومآثره عن عيوننا ، فهذه المآثر ضوء وهاج يصل إلى كل عين وكل قلب .

تحية من الأعماق الرئيس محمد أنور السادات ، ودعاء أن يزيده الله توفيقاً ونجاحاً ، وأن يلهمه الخير والرشاد لهذا البلد الذى نجه كل الحب ، ونعمل لخدمته بكل الولاء والإخلاص .

المحنة شكر لله

في ختام هذا العمل المضني أتجه إلى الله العلي العظيم بالمحنة الذي
الشكر ، الذي يدرك أنه لولا عون الله وتوفيقه ما اكتمل هذا العمل الذي
استغرق الجهد فيه ثمانية وعشرين عاما من مطلع الثورة إلى نهاية عام ١٩٧٩ ،
فأقبل يارب شكري وثنائي ، فالعبد لا يملك تجاه سيده إلا الشكران ، إنه بك
يارب اتضح المبهمة ، وانبتقت المعارف ، فأنت مصدر كل خير وكل فكر ،
أما ما يمكن أن يكون في هذا الكتاب من تقصير ، فذلك راجع إلى القوة
البشرية التي لا تستطيع أن تصل إلى الكمال مهما حاولت ذلك ، ولا أملك
تجاه هذا التقصير إلا الاعتذار .

وإلى اللقاء في الجزء العاشر والأخير من هذه الموسوعة إن شاء الله ، وهو
الجزء المخصص لعهد أنور السادات .

مصادر الكتاب

المصادر الأصلية التي اعتمد عليها هذا الكتاب هي الصلة المباشرة بالأحداث ؛ رؤية بالعين أو سماعاً بالأذن من صانعي التاريخ ، أو سماعاً متواتراً من شهود العيان ، وإلى جانب ذلك هنالك مصادر وردت في ذيل صفحات الكتاب نذكرها فيما يلي مرتبة ترتيباً أبجدياً حسب أنواعها :

أولاً - الصحف والمجلات :

- ١ - صحيفة الأخبار
- ٢ - » أخبار اليوم
- ٣ - » الأحرار
- ٤ - » للجمهورية
- ٥ - » المصري
- ٦ - مجلة آخر ساعة
- ٧ - » لكتوبر
- ٩ - » روز اليوسف
- ١٠ - » صباح الخير
- ١١ - » الطليعة
- ١٢ - » للفجر للتطرية
- ١٣ - » المحصور
- ١٤ - » منبر الإسلام

ثانياً - وثائق وصحية :

- ١٥ - بيانات من مجلس الشعب
- ١٦ - بيانات وزارية
- ١٧ - بيان ٣٠ مارس
- ١٨ - بيانات وأحاديث للرئيس انور السادات
- ١٩ - المناشير المصرية من دستور ١٩٢٣ الى دستور ١٩٧١
- ٢٠ - كتاب من « محكمة للثورة » نشرته مصلحة الاستعلامات »
- ٢١ - الميثاق
- ٢٢ - نشرة للوثائق « تصدرها مصلحة الاستعلامات »

٢٣ - ورقه أكتوبر

٢٤ - الوقائع المصرية

ثالثاً : كتاب لم يذكر اسم مؤلفه :

٢٥ - عبدالناصر ومؤلاه

رابعاً : كتب مطبوعة :

- | | |
|--------------------------------|---|
| ٢٦ - دكتور ابراهيم عبده | أقول للسلطان |
| ٢٧ - دكتور ابراهيم عبده | تاريخ بلا وثائق |
| ٢٨ - دكتور ابراهيم عبده | رسائل من نفاستان |
| ٢٩ - دكتور ابراهيم عبده | الوسواس الخناس |
| ٣٠ - ابراهيم سمعه | الروس قادمون |
| ٣١ - ابن الأثير | الكامل فى التاريخ |
| ٣٢ - ابن عبد الحكم | سيرة عمر بن عبد العزيز |
| ٣٣ - أجاريشيف | ناصر |
| ٣٤ - أحمد أبو الفتوح | للتحدى |
| ٣٥ - أحمد حمروش | شهود ثورة يوليو |
| ٣٦ - أحمد حمروش | عبد الناصر والعرب |
| ٣٧ - أحمد حمروش | قصة ثورة ٢٣ يوليو |
| ٣٨ - أحمد حمروش | مجتمع جمال عبد الناصر |
| ٣٩ - دكتور أحمد شلبي | موسوعة التاريخ الإسلامى « الأجزاء السابقة » |
| ٤٠ - دكتور أحمد شلبي | اليهودية (من سلسلة مقارنة الأديان) |
| ٤١ - دكتور أحمد شلبي | موسوعة الحضارة الإسلامية (عشرة أجزاء) |
| ٤٢ - دكتور أحمد شلبي | مصر فى حربين ١٩٦٧ - ١٩٧٣ دراسة مقارنة |
| ٤٣ - الشيخ أحمد كاتب الشونة | تاريخ ملوك السودان |
| ٤٤ - الهام سيف النصر | فى معتقل أبو زعبل |
| ٤٥ - أنور السادات | البحث عن الذات |
| ٤٦ - اينور بيليا ييف وبزيماكوف | مصر فى عهد عبد الناصر |
| ٤٧ - توفيق الحكيم | عودة الوعي |
| ٤٨ - jesiph Horse | The Value of Hitstory |
| ٤٩ - Gourage Haddad | Revolutions and Military |
| | Ruloe in the Middle East |
| ٥٠ - جابر الحاج | للفراغة الصغير |

- ٥١ - جابر رزق
٥٢ - جلال الدين الحمامصي
٥٣ - جمال عبد الناصر
٥٤ - حسن عشاوى
٥٥ - حسين كروم
٥٦ - راشد البرادى
٥٧ - Richard Deacon
٥٨ - زهير الشايب
٥٩ - زينب الغزالى
٦٠ - سامى جوهى
٦١ - سيد مرمى
٦٢ - سيد مرمى
٦٣ - السيوطى (جلال الدين)
٦٤ - شفيق غربال
٦٥ - الشوكانى
٦٦ - الفريق صلاح الدين الحيدى
٦٧ - الدكتور صلاح الدين المنجد
٦٨ - صلاح الشاهد
٦٩ - صلاح نصر
٧٠ - طارق البشرى
٧١ - عادل سليمان وعصام سليمان
٧٢ - عباس العقاد
٧٣ - عبد الحميد العبادى
٧٤ - الدكتور عبد الرحمن البيضاوى
٧٥ - عبد الرحمن الرافعى
٧٦ - عبد الرحمن الرافعى
٧٧ - عبد الصمد محمد عبد الصمد
٧٨ - دكتور عبد العظيم رمضان
٧٩ - عبد اللطيف البغدادى
٨٠ - عبد المتعال الجبرى
٨١ - عبد الواحد الامببى
- مذابح الاخوان فى سجون ناصر
حوار وراء الاسوار
فلسفة الثورة
الاخوان والثورة
عبد الناصر المفترى عليه
التطور الاقتصادى فى مصر
The Israel Secret Service
مشاكل الوحدة مع سوريا (مقالات بمجلة اكتوبر)،
ايام من حياتى
الصامتون يتكلمون
الاصلاح الزراعى ومشكلة التسيان فى مصر
اوراق سياسية
تاريخ الخلفاء
تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية،
نيل الاوطار
شاهد على حرب ١٩٦٧
الملك فيصل
تكرياتى فى عهدين
الحرب النفسية
الديمقراطية والناصرية
شهداء وقتلة فى ظل الطغيان
الديمقراطية فى الاسلام
علم للتاريخ
نكبة الشعارات على الامة للعربية
عصر اسماعيل
ثورة ٢٣ يوليو
العشاء الاخير للعشير
الصراع الاجتماعى والسياسى فى مصر
مذكرات البغدادى
لماذا اغتيل الشهيد حسن البنا
فجر التاريخ الامريقى

- عندما ينجم الطغاة
فى الزنزانة
اسرار حكومة يوليو
بصرحة عن ميكل
عشرون يوما هزت مصر
القابضون على الجمر
بصرحة عن عبد الناصر
لمصر لا لعبد الناصر
عبد الناصر والعالم
محاكمات الجوى
تفسيحة التعذيب الكبرى
محاكمة جمال عبد الناصر
وبل لهؤلاء من محكمة التاريخ
سنوات عصيبة
مصر بين ثورتين
كلفتى للتاريخ
حوار مع هدى عبد الناصر
معركة العدالة فى مصر
سنة اول سجن
سنة ثانية سجن
وثائق ١٥ مايو
Fundamentals of Political Economy
سنوات البيت الابيض (الترجمة العربية)
الزهور تدفن فى الليل
فصول من ثورة يوليو
- ٨٢ - المستشار على جريشة
٨٣ - المستشار على جريشة
٨٤ - فتحى رضوان
٨٥ - كرم شلبى
٨٦ - كرم شلبى
٨٧ - محمد انور رياض
٨٨ - محمد حسنين ميكل
٨٩ - محمد حسنين ميكل
٩٠ - محمد حسنين ميكل
٩١ - محمد شوكت التونى
٩٢ - محمد شوكت التونى
٩٣ - محمد عبد الرحيم عنبر
٩٤ - محمد عبد الرحيم عنبر
٩٥ - المستشار محمد عبد السلام
٩٦ - محمد مصطفى عطا
٩٧ - محمد نجيب
٩٨ - محمود مراد
٩٩ - مختار نصار
١٠٠ - مصطفى امين
١٠١ - مصطفى امين
١٠٢ - موسى صبرى
١٠٣ - NIKTIN
١٠٤ - دكتور هنرى كيسنجر
١٠٥ - دكتور وجيه ابو ذكرى
١٠٦ - دكتور وحيد رافت

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
٥	خطة البحث في موسوعة التاريخ
٧	تاريخ الملوك والرؤساء
٨	المؤرخ عندما يكتب تاريخ بلاده
٩	طبيعة الحكم العسكري في مصر

دراسات تمهيدية عن هذا الكتاب

١٧ - ٤٤

١٩	مصادر هذا الكتاب
٢٤	صورة وصورة
٢٧	كتابان من كتاب واحد
	قضايا مهمة حول هذا الكتاب :

هذا الكتاب خطوة ثالثة على الطريق ٢٨ - عبد الناصر ومؤلاه ٢٩ -
اسم عبد الناصر بصراحة ٢٩ - الدفاع عن أفكارى ٣٠ - هذا الكتاب
الآن ٣١ - سؤالان مهمان :
١ - لماذا نكتب عن الماضى ونثير الغبار ؟ ٣٢
٢ - لماذا لم نكتب تاريخ عبد الناصر فى حياته ؟ ٣٢
عبد الناصر : حسناته وسبائته ٣٤ .

جيش مصر

الباب الأول

مصر قبل الثورة

٤٥ - ٦٨

٤٧	مصر لم يبدأ تاريخها بالثورة
----	-----------------------------

الثورات المصرية في العصر الحديث وماحقته من أهداف :

عمر مكرم والسادات والشرقاوى ٤٨ - ثورة عربى ٤٩ - مصطفى كامل
ومحمد فريد ٤٩ - ثورة ١٩١٩ وسعد زغلول ٥٠ - للزعماء الثلاثة في
الميزان ٥٠ - الزعيم مصطفى النحاس ٥١ .

صورة الحياة بمصر قبل الثورة :

الحياة الثقافية ٥١ - الحياة الاقتصادية ٥٣ -
الحياة الاجتماعية ٥٦ - الحياة السياسية ٥٧ -
حريق القاهرة ٥٩ - تكوينات الضباط الأحرار ٦٣ -
قصة انتخابات ندى الضباط ٦٤ .

الباب الثانى

دراسات عن الثورة

٦٩ - ٩٤

٧١	قيام الثورة
٧٢	صوت الثورة
٧٤	محمد نجيب وضرورته لنجاح الثورة
٧٦	الثورة تختار رئيساً للوزراء
٧٧	التخلص من الملك
٧٨	مجلس الوصاية ورشاد مهنا
٨١	الأمريكان والثورة
٨٥	ثورة أو انقلاب ؟
٩٢	الثوار يحكمون

الباب الثالث

قادة الثورة : تعريف بهم من كلامهم

٩٥ - ٢٣٢

التعريف بقادة الثورة إجمالاً :

ثقافتهم ٩٩ - خططهم ومبادئهم ١٠١ - الضباط الأحرار والسلطة ١٠٣ -
العاطلون بالرياسة ١٠٧ - امتيازات قضائية للضباط ١٠٧ - استعراض
العضلات وتعطيل القرارات ١٠٨ - انحرافات وامتيازات مالية ١٠٨ -
الثقة لا للكفاءة ومنتج عن ذلك ١١٢ - خوفهم من الديمقراطية ١٢٢ -
سوء العلاقة بين بعضهم والبيض ١٢٣ - عزلة بين قادة الثورة وبين
الجيش والشعب ١٢٥ - مجتمع حقد ١٢٧ .

الثورة تأكل نفسها ١٢٩

التعريف بقادة الثورة تفصيلاً :

محمد نجيب ١٣٧
جمال عبد الناصر :

أسرة عبد الناصر وثقافته الأول ١٣٩ - مقارنة عبد الناصر بالرسول
١٤١ - حبه للرياسة وسعيه لها ١٤٤ - عنف الخصومة ١٤٦ - الحقد
والحسد والريبة ١٤٧ - السجن ١٤٩ - خوفه وانشغاله بأمنه ١٤٩ -
التزوير ١٥٠ - اللهم ١١ ١٥٠ - موقفه من الديمقراطية ١٥٢ - الغدر
بالأصدقاء ١٥٧ - عبد الناصر عند الشدائد ١٦٠ يحى مساويه أسرته
١٦٣ - انحرافات المالية ١٦٤ - رأى الانفارقة فيه ١٦٨ - رغبته فى
اذلال الأعداء ١٦٨ - تاريخ بلا وثائق ١٦٩ للداهية ١٧٠ .

الناصرية ١٧٢

أول حاكم مصرى منذ ألى عام !! ١٧٧

محمد أنور السادات ١٨٢

عبد الحكيم عامر ١٨٤

زكريا محيى الدين ١٩٢

خالد محيى الدين ١٩٤

صلاح سالم ١٩٧

٢٠٢	جمال سالم
٢٠٧	عبد اللطيف البغدادي
٢١٢	كمال الدين حسين
٢١٧	حسين الشافعي
٢١٩	حسن إبراهيم
٢٢٠	رشاد مهنا
٢٢١	يوسف صديق
٢٢٦	عبد المنعم أمين

٢٢٧	الأوصياء
٢٢٩	ضباط الثورة من حال إلى حال

الباب الرابع

عصر محمد نجيب : الواجهة

٢٣٣ — ٣٣٥

حوادث سنة ١٩٥٢

٢٣٩	على ماهر أول رئيس للوزراء في عهد الثورة
٢٤٢	الأحزاب
٢٥٥	إلغاء الألقاب المدنية
٢٥٨	العمال في كفر الدوار
٢٦١	الإصلاح الزراعي : دراسة ونقد
٢٨٦	الرقابة على الصحف وفتح المعتقلات
٢٨٨	الثورة ورجال الدين
٢٨٩	للنستور وموقف الثورة منه

كلمات ختامية عن سنة ١٩٥٢ :

قيود على الصحافة ٣٠٣ - قانون التطهير ٣٠٣ - فصل الموقوفين بغير الطريق للتأديبي ٣٠٤ - رئيس وزراء عسكري ٣٠٤ - سليمان حانظ ٣٠٥ - اخيار لليوم والوقية بين الجيش والوفد ٣٠٨ سيد مرعى والثورة ٣٠٩ - حكاية ال لم ٪ ٣١٠ - المحاكم والمحاكمات ٣١١ - عبد الرحمن عزلم ٣١١ - الضباط والدراسات العليا ٣١٢ - الضباط ومن الاحالة ال المعاش ٣١٢ - معونة للشقاء وقطار للرحمة ٣١٢ .

حوادث سنة ١٩٥٣

٣١٧ مقدمة
٣١٨ اتفاقية السودان
٣٢٤ إصلاح سالم والسودان
٣٢٩ إنهاء الملكية وإعلان الجمهورية

حوادث سنة ١٩٥٤ ونهاية محمد نجيب

٣٣٩ أحداث فبراير ومارس ١٩٥٤
٣٥٧ حادث المنشية ونهاية محمد نجيب

الباب الخامس

عصر جمال عبد الناصر : عصر المظالم والهزائم

٣٩٣ - ٨٠٤

٣٦٥ الاعتقالات
٣٧٠ التعذيب
٣٧٨ عبد الناصر يأمر بالتعذيب ويشاهده
٣٨٢ المحاكمات :

محكمة حسنى المنهورى ٣٨٣ - محكمة القدر ٣٨٤ - محكمة للثورة ٣٨٦

- محكمة للشعب ٣٩٠ - المحاكم العسكرية ٣٩١ .

٣٩٤ مديرية التحرير

٣٩٨	كتاب « فلسفة الثورة »
٤٠١	هيئة التحرير
٤٠٧	اتفاقية الجلاء
٤١٧	فصل بعض أساتذة الجامعات
٤٢٠	حادث المنشية
٤٣٠	الإخوان المسلمون والثورة

حوادث سنة ١٩٥٥

٤٤٧	عام التحول
٤٥٤	المؤتمر الإسلامي
٤٥٨	مؤتمر باندونج
٤٦٥	نتائج الرشوة في السودان
٤٦٦	كسر احتكار السلاح

حوادث سنة ١٩٥٦

٤٧١	عبد الناصر والشيوعية
٤٧٦	إتمام الجلاء
٤٧٧	الاستور ونهاية فترة الانتقال
٤٨٠	والعدوان الثلاثي

تأميم القناة

كلمة عن تاريخ قناة السويس ٤٨٠ - التأميم حركة عناد وانفصالية ٤٨٢
- المسئول ٤٨٤ - النذر العسكرية وتفكير قادة الثورة ٤٨٨ - الحرب
ويومياتها ٤٩٠ - انهيار عبد الناصر ورفاقه ٤٩٤ - دور أمريكا وروسيا
في وقف القتال ٤٩٨ - أسد علي وفي الحروب نعامه ٥٠٠ - خسائر
الحرب ٥٠٠

حوادث سنة ١٩٥٧

٥٠٩	مقدمة
٥١١	تمصير البنوك
٥١٢	الاتحاد القوي

- أول برلمان للنزرة ٥١٤
عبد الناصر هو البرلمان ٥١٦
حديث عن مؤامرة ضد نظام الحكم ٥١٨

حوادث سنة ١٩٥٨

- الوحدة بين مصر وسوريا ؟ ٥٢٥
جهل عبدالناصر بشئون العرب ٥٢٦ - الاتصالات
وقيام الوحدة نتيجة عناد عبد الناصر ٥٢٨
حديث عن مؤامرة ضد النظام ٥٣٣

حوادث سنة ١٩٥٩

- مشكلات الوحدة ٥٣٧
وقفه بين الحمصينات والستينات ٥٤٠

حوادث سنة ١٩٦٠

- الوحدة في الطريق إلى الانهيار ٥٤٥
البرلمان الثاني للثورة ٥٤٦
السد العالي ٥٤٨

حوادث سنة ١٩٦١

- تطوير الأزهر أو تدميره ؟ ٥٥٧
التطوير كما ينبغي أن يكون ٥٦٢
شيء كان يراد بالإسلام ٥٦٤
نهاية الوحدة :

اسباب النهاية ٥٦٥ - الحركة الانفصالية ٥٦٧ - محاولة القضاء على
الحركة الانفصالية ٥٦٨ - الانفصال في رأى قادة الانفصال ٥٦٩ -
خسائر مصر بسبب الوحدة ٥٧٠ - بعد الانفصال ٥٧١ .

- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ٥٧٥

٥٨١ القوانين الاشتراكية والقطاع العام

اشتراكية عبد الناصر في رأى المفكرين المصريين ٥٨٢

القطاع للام والسرققات ٥٨٥ .

الصناعة والتصنيع ٥٨٩ .

٥٩١ اتفاق

حوادث سنة ١٩٦٢

٥٩٥ الميثاق

٥٩٩ الاتحاد الاشتراكي

حرب اليمن :

عبد الناصر حى الامامة ثم هاجمها ٦٠٥ - عبد الناصر اشعل للثورة

باليمن ثم ايدىها ٦٠٦ - لماذا ارسلت مصر قوات عسكرية الى اليمن ؟ ٦٠٨

آراء ضد دخول اليمن ٦٠٩ - حجم القوات المصرية باليمن ٦١١ - التسبيب

فى اليمن ٦١٣ - تأثر اليمنى ضد مصر ٦١٤ - حرب اليمن فماتحة فسلد

كبير ٦١٥ - خسائر مصر فى اليمن ٦١٥ - الجزائر واليمن فى وقت واحد

٦١٨ شامد عيان باليمن ٦١٨ - خروجنا من اليمن ٦٢٤ .

٦٢٥ مجلس الرئاسة

٦٢٧ نشأة مراكز القوى

الاسلام وما يسمى مراكز القوى ٦٢٩

مراكز للقوى كانت متصارعة ٦٣٥

٦٣٦ إهمال المرافق

٦٣٦ الهجرة من الريف وأسطورة الإصلاح

حوادث سنة ١٩٦٣

٦٣٩ اليمن تشغل أيام العام

٦٤١ أزمة المثقفين

٦٤٥ قضية الاستيراد الكبرى

حوادث سنة ١٩٦٤

٦٤٩ اليمن أيضاً

٦٥٠		مؤتمرات قمة وتكالييفها
٦٥٢		الدستور المؤقت
٦٥٥		برلمان مابعد الوحدة
٦٥٦		مجلس الرئاسة وقرار مزيف
٦٦٠		إنشاء التنظيم الطليعى
٦٦٣		الحراسة

حوادث سنة ١٩٦٦

٦٧١		إطلاق يد الشيوعيين فى البلاد
٦٧٢		لجنة تصفية الإقطاع
٦٧٧		سباق ومنافسة فى تعذيب الشعب
٦٧٨		مزيد من القطيعة بيننا وبين الغرب
٦٨٠		قصة مصطفى أمين
٦٨٤		حسين توفيق ومحاولة قتل عبد الناصر وأسباب ذلك
٦٨٦		المنذبة الثانية للإخوان المسلمين

تمثيلية لإعدام الشهيد سيد قطب ٦٩٠

مطاردة زوجات الإخوان وأولادهم ٦٩١

وثيقة للتخلص من الإخوان ومن أفكارهم ٦٩٢

إخوان للشيطان !! ٦٩٤

كرداسة ٦٩٧

وشهد شاحد من أهلها ٦٩٩

حوادث سنة ١٩٦٦

٧٠٣		استمرار الجور والإذلال
٧٠٤		مأساة كشيش

راى محافظ المنوفية فى مأساة كشيش ٧٠٥

٧١٣		مستشفى الأمراض العقلية للمعارضين
٧١٤		الإنسان بضاعة فى طرد

(م ٥٢ التاريخ : ج ٩)

حوادث سنة ١٩٦٧

- ٧١٨ عبد الناصر وملوك العرب ..
٧١٩ الظروف التي ضللت بعض الإخوة العرب ...
كارثة يونيو :

يوميات حرب يونيو ٧٢٢ - الخامس الحزين والمركة الخاسرة ٧٣٠ -
صدى الهزيمة ٧٣٣ - الضابط البطل الذي كوفئ ثم عوقب ٧٣٤ -
خسارة مصر الفاحشة في هذه الحرب ٧٣٥ - أسباب الهزيمة ٧٣٥ -
من المسئول عن الهزيمة ؟ ٧٣٩ - جماهير ١٠ ، ٩ يونيو ٧٤٠ - عبدالناصر
ومولد الرسول ٧٤٢

- ٧٤٢ مؤتمر القمة بالخرطوم
نتائج هزيمة ١٩٦٧ :

النتائج السياسية والوطنية ٧٤٤ - النتائج العسكرية ٧٤٤ -
الاعتزاز الأدبية ٧٤٦ - الاضرار الاقتصادية ٧٤٦ -
الاضرار النفسية والاجتماعية ٧٤٧

- ٧٤٩ كلمات شهود الحرب
٧٥٣ نهاية المشير عامر ..
٧٥٤ السم أداة لقتل المعارضين ..

حوادث سنة ١٩٦٨

- ٧٥٧ الترنش من هول الهزيمة
٧٦٨ على الباغي تدور الدوائر ..

القضاء يصف عهد عبد الناصر ٧٥٨

- ٧٦٠ مظاهرات يناير وبيان ٣٠ مارس ..
٧٦٢ قصة الشيخ عاشور ..

حوادث سنة ١٩٦٩

- القانون في إجازة ٧٦٨
مذبحة القضاء ٧٧١
ثورة السودان وثورة ليبيا ٧٧٤
إسرائيل في الزعفرانة غرب خليج الدويس ٧٧٦
أسرار مهمة يعلنها كيسنجر عن نفوذ روسيا في مصر ٧٧٨
السادات نائباً لرئيس الجمهورية ٧٨٠

حوادث سنة ١٩٧٠

- حرب الاستنزاف ونتائجها ٧٨٣
أيلول الأسود ومؤتمر القمة ٧٨٥
نهاية عبد الناصر ٧٨٧
جنازته وإحداثها ٧٨٧ - سرقة تركيبة رخامية لمقبرته ٧٨٨
عبد الناصر في الميزان ٧٩٠

ملاحمة

- عبد الناصر وأسرته بعد وفاته ٧٩٩
— مخاطر الانقلابات العسكرية ٨٠١
— بين عهدين ٨٠٣

٨٠٤ انحناء شكر لله

٨٠٥ مراجع الكتاب

رقم الايداع ١٩٨٠/٥١٦٥

مطابع الدجوى - القاهرة - مابدين

HISTORY and CIVILIZATION of ISLAM

A study, in Ten Volumes,
on History and Civilization of Islam
in All Muslim Ages and Lands



دكتور أحمد شلبي

9

THE HISTORY OF CONTEMPORARY EGYPT
(A Day By Day History of the 23rd July Revolution)
- THE TIME OF MUHAMMAD NAGEEB
- ABD EL NASSER'S AGE

By

AHMED SHALABY,

B.A. (Hon.) Cairo University,
Ph.D. Cambridge University,
Professor of Islamic History and
Civilization

Faculty of Dar El Ulum, Cairo University

FOURTH EDITION (1989)

Published by :

THE RENAISSANCE BOOKSHOP

9 Adly Street, Cairo.

طبع الغلاف بالمطبعة الفنية

— تملق دارالعلوم
(جامعة القاهرة) وفي جامعة لندن وجامعة كامبردج .
— زار الولايات المتحدة الأمريكية كما زار أكثر دول أوروبا
وآسيا وأفريقيا، ومثل مصر في عدة مؤتمرات دولية .
— درس مجموعة من اللغات الأجنبية وعلم الإنجليزية
والاندونيسية .

— اشتغل بالتدريس بجامعة القاهرة حتى وصل إلى درجة أستاذ
ورئيس قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، وقد
حاضر في منتديات وزائرا ومُعاضرا في جامعة الأزهر،
وعين شمس، وأندونيسيا، والسودان، وماليزيا، والمملكة
العربية السعودية، وليبيا، وفي معهد الدراسات الإسلامية،
ومعهد البحوث والدراسات العربية، ومعهد الدراسات
الدبلوماسية .

مؤلفاته تزيد عن خمسين كتاباً ظهرت الطبعة العشرون من بعضها
وأهم هذه المؤلفات :

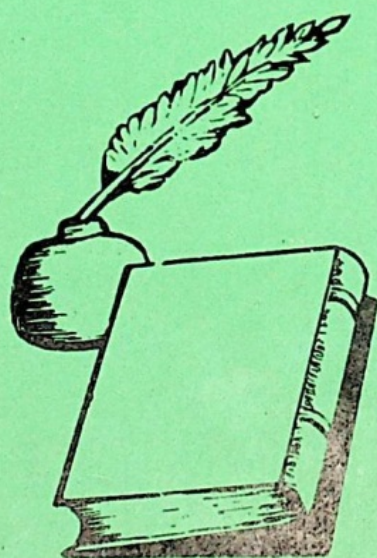
- ١ — موسوعة التاريخ الإسلامي في عشرة أجزاء .
- ٢ — موسوعة الحضارة الإسلامية في عشرة أجزاء .
- ٣ — مقارنة الأديان في أربعة أجزاء .
- ٤ — كيف تكتب بحثاً أو رسالة .
- ٥ — المكتبة الإسلامية المصوّرة لكل الأعمار (١٠٠ جزء
من السّير والتاريخ وقصص القرآن للأطفال
والشباب والسيدات والرجال) .

٦ — ISLAM: BELIEF, LEGISLATION, MORALS

٧ — HISTORY OF MUSLIM EDUCATION

— كتب بعض كتبه بالإنجليزية والاندونيسية، وترجم أكثر
مؤلفاته إلى الأردية، والتركية، والاندونيسية، والماليزية
والفردية، والفارسية .

موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية



تأليف
الدكتور أحمد شلبى
دكتوراه من جامعة كامبردج

استاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى - القاهرة

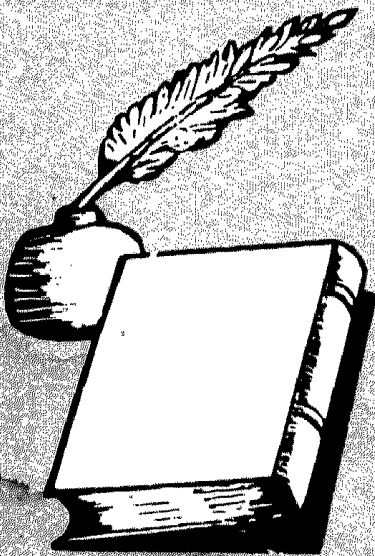
مع إضافات واسعة وتحقيقات جديدة

مَوْسُوعَةُ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ

١٠

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر
(ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم)

أنور السادات : شخصيته وعصره
دراسة محايدة

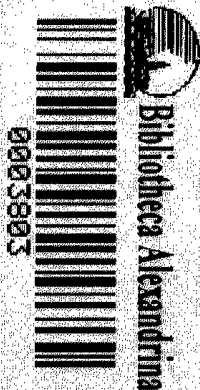


تأليف
الدكتور أحمد شلبي
دكتوراه من جامعة كمبودج

استاذ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
والعائز لوسام العلوم والفنون - من الطبعة الاولى
لكتابات في التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية

مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع مدني - القاهرة

الطبعة الاولى ١٩٩٠



مَوْئِدٌ مُبَوَّعٌ

التاريخ الإسلامى

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة مجلدات لتاريخ العالم الإسلامى
كله من مطلع الإسلام حتى العهد الحاضر ، مع دراسة الجوانب الحضارية
التي أسهم بها المسلمون فى ترقية العمران وتطوير الفكر البشرى .

١٠

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر
(ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم)
أنور السادات : شخصيته وعصره
دراسة محايدة

تأليف

الدكتور أحمد شلبى

دكتوراه من جامعة كمبردج (إنجلترا) .
أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

والحائز لوسام « العلوم والفنون » من الطبقة الأولى
لكتاباته فى التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
الطبعة الأولى (١٩٩٠)



مكتبة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
أصحابها حسنى محمد وأزواجه
١ - شارع سيدى باخا بالقاهرة

التاريخ * * * *

شعاع "هن الماضي يثير الحاضر والمستقبل *

خطة البحث في هذه الموسوعة

ان خطة البحث التي اتبعتها في كتابة « التاريخ الاسلامى » خطة جديدة ومريحة ، ويسرنى ان ابرزها في التخطيط التالى ليعرف القارىء كتبها ، وليسهل عليه متابعتها :

دراسة زمنية في هذه	ج ١	العرب قبل الاسلام — السيرة النبوية العطرة — عصر الخلفاء الراشدين
الأجزاء الثلاثة اذ	ج ٢	الدولة الاموية والحركات الفكرية والثورية خلالها
ان العالم الاسلامى	ج ٣	الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الاول ودور المسلمين خلاله في خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية
وحدة واحدة .		

ثم دراسة مكانية (قطاعات جغرافية) في الأجزاء الخمسة التالية لان العالم الاسلامى انقسم الى دويلات كثيرة ، ويشمل كل جزء من هذه الأجزاء قطاعا من العالم الاسلامى ، بحيث يتناول تاريخه من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر مبتدئين من الغرب ومتجهين الى الشرق كالتخطيط التالى :

الجزء الثامن	الجزء السابع	الجزء السادس	الجزء الخامس	الجزء الرابع
التاريخ الاسلامى للدول الاسلامية غير العربية بآسيا : — إيران — أفغانستان — باكستان — بنجلاديش — ماليزيا — اندونيسيا — الأطلنات الاسلامية بالصين والاتحاد السوفيتى والهند والفلبين وسنغافورة .	الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق من مطلع الاسلام حتى الآن . دول الجزيرة العربية : المملكة العربية السعودية — عمان اليمن — جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، دولة الإمارات العربية — قطر — البحرين — الكويت — العراق	الاسلام والدول الاسلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخلها الاسلام حتى الآن : — دراسة عن — الدول الاسلامية قبل الاستعمار الأوروبى . — وسائل انتشار الاسلام بقلب افريقية . موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيا — مالي — النيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال	مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر — الحروب الصليبية : دوافعها — ادوارها — نتائجها — الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ ظهورها حتى الآن	الاندلس الاسلامية وانتقال الحضارة الاسلامية منها الى أوروبا — المغرب — الجزائر — تونس — ليبيا ، من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر — السنوسية : مبادئها وتاريخها

وتختتم الموسوعة بدراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر :

الجزء التاسع : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد نجيب وعصر عبد الناصر
عصر المظالم والهزائم

الجزء العاشر : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : أنور السادات : شخصيته وعصره

تاريخ الملوك والرؤساء

كثير من الملوك والرؤساء يندمجون في ترف الحياة وأبهة السلطة ، وينسون أن ذلك إلى نهاية ، وأن تاريخهم يَدَوُّ من يوم إلى يوم ، وأن هذا التاريخ سيعيش بعدهم أحقاباً طويلة ، يحكى حياتهم ، ويصور أعمالهم ، ويجلب لهم الرحمات ، أو يستنزل عليهم اللعنات .

وهذا الكتاب تذكير لمن نسي ، حتى لا يغترَّ رئيس بحاضره ، وحتى يدرك كل رئيس مسؤوليته أمام الله وأمام الناس ، في رعاية العهد الذى قطعه على نفسه ، واليمين التى أقسمها أن يحكم بالعدل والقسطاس ، وأن يعطى بقدر ما يأخذ أو أكثر مما يأخذ ، وكم من رؤساء نعموا بضع سنوات ، ثم جلبوا على أنفسهم وأهليهم السخط عدة قرون .

وها قد أنذرت ، فاللهم اشهد .

آراء بعض المفكرين في طبيعة الحكم العسكري بمصر

انتُضح أن الجيش جماعة أنانية ، مثلهذمة على
الاستمرار في السلطة ، تعيش في ترفٍ على حساب
الآخرين ، حريضة" على زيادة امتيازاتها ، وهي بعيدة
عن الطبقات العاملة بعدا شاسعا .

(Macseem Rodenson)

تخلّى ثوار مصر عن مبادئهم التي كانوا يعلنونها
قبل الثورة ، فقد كانوا يهاجمون الأحكام العرفية ، وتزييف
الانتخابات ، والرقابة على الصحف ، واعتقالات
السياسيين ولكنهم سرعان ما أصبحوا يزاولون هذه
الأعمال وأكثر منها بشراسة ، فقد استنطابوا الحكم ،
واستبعدوا فكرة تسليم السلطة للشعب .

(Gourage Haddad)

أثبتت التجارب أن من العيب أن تطلب الديمقراطية
الحققة من العسكريين ؛ فالإنسان العسكري ألف
الديكتاتورية ، يعامل بها من دونه ، ويقتلها ممن
فوقه ، ومقياس الديمقراطية ليس فقط حرية الكلمة ،
بل البعد تماما عن تزييف الانتخابات حتى تحكم البلاد
بالممثلين الحقيقيين للشعب .

(الدكتور أحمد شاذلي)

(و)

كتب للمؤلف

أولا : موسوعة التاريخ الاسلامى :

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة مجلدات لتاريخ العالم الاسلامى كله من مطلع الاسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى حققتها الدول الاسلامية عبر التاريخ .

(ظهرت الطبعة الرابعة عشرة منها)

ثانيا : موسوعة الحضارة الاسلامية :

دراسة تحليلية فى عشرة أجزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية ، التى جاء بها الاسلام لهداية البشرية فى شئون الفكر ، والسياسة ، والاقتصاد ، والعلاقات الدولية ، وفى مجال الحياة الاجتماعية والتربوية ، كما تبرز نشاط المسلمين لإحياء الحضارة التجريبية كالطب والرياضة والفلك ...

(ظهرت الطبعة التاسعة منها)

ثالثا : مقارنة الأديان :

سلسلة من الكتب فى أربعة مجلدات ، تعتمد على أدق المراجع بمختلف اللغات ، وتمتاز دراساتها بالحيطة والعمق .

(ظهرت الطبعة التاسعة منها)

رابعا : كتب فى الثقافة العامة :

— كيف تكتب بحثا أو رسالة :

دراسة منهجية لكتابة البحوث واعداد رسائل الماجستير والدكتوراه . (ظهرت طبعته الحادية والعشرون) .

— الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الاسلام واستمرارها حتى الآن .

— حركات فارسية ضد الاسلام والمسلمين عبر العصور :

الشعبوية — القرامطة — الباطنية — الزنج — البابية والبهائية .

خامسا : كتب بلغات أجنبية :

1 — ISLAM : Belief - Legislation - Morals.

2 — History of Muslim Education.

وعشرون كتابا باللغة الاندونيسية والماليزية .

سادسا : كتابان لخدمة اللغة العربية هما :

1 — تعليم اللغة العربية لغير العرب .

2 — قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها .

سابعا : التفسير الميسر للقرآن الكريم :

تفسير موجز وواضح يهدف لأن تفهم القرآن الكريم اذا قرأته أو سمعته ، مع وقفات تفصيلية عند بعض القضايا القرآنية المهمة .

(ز)

المكتبة الاسلامية لكل الاعمار

تخطيط يشمل ١٠٠ جزء ظهر منها ٦٠ جزءا في مجموعات أحيانا ، وفي أجزاء مستقلة أحيانا أخرى كالآتي :

المجموعة الأولى : السيرة النبوية العطرة : (١٦ جزء)

وتشمل سيرة الرسول كلها وجوانب منها 'تدوّن لأول مرة .

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة : (٧ أجزاء)

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية : (٥ أجزاء)

نزول القرآن وتدوينه - اعجاز القرآن - الأخلاق الاسلامية من القرآن الكريم .

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم : (٧ أجزاء)

المجموعة الخامسة : الدولة الاموية : تاريخ يحتاج الى انصاف (٥ أجزاء)

لماذا انحرف تدوين التاريخ الاموي ؟ ماذا عن محاسن الامويين ؟
مدعو التشيع وسمومهم - قمم في التاريخ الاموي : معاوية -
عبد الملك بن مروان - الوليد بن عبد الملك - عمر بن عبد العزيز -
التوسع الاسلامي في العهد الاموي - قصة استشهاد الامام الحسين
والمسئول عنها .

المجموعة السادسة : صراع وشهداء وانتصارات : (٦ أجزاء)

- من شهداء الاسلام .

- الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الاسلام واستمرارها حتى
الآن .

- شهر رمضان وانتصارات المسلمين فيه .

المجموعة السابعة : الاسلام والمرأة : (٦ أجزاء)

حالة المرأة في الحضارات غير الاسلامية - ماذا قدم الاسلام للمرأة ؟
نماذج من السيدات المسلمات : من بيت النبوة (السيدة زينب
والسيدة سكينة) ونماذج في السياسة والاداب والعلوم والفنون -
زيجات شهيرة في التاريخ : (زبيدة - بوران - قطر الندى) .

المجموعة الثامنة : انتصارات المسلمين عبر العصور :

٣٠ معركة انتصر فيها المسلمون بدءا من معركة بدر سنة ٢ هـ الى
معركة « الفاو » سنة ١٤١٠ هـ .

الميراث في الشريعة الاسلامية : دراسة شاملة .

- تطوير دراسة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ودور دار
العلوم في هذا المجال .

- تاريخ الطب في الإسلام .

(ج)

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
١٧	عبد الناصر والسادات وصلتهما بالتاريخ الإسلامي مقدمات :
٢٣	١ - مؤرخ التاريخ الحديث بين الحقائق من جانب ، والإعلام الزائف من جانب آخر
٣١	٢ - ثورة ٢٣ يوليو وأثرها على العسكريين والمدنيين
٣٢	الثورة أفرزت وحوشا بشرية
٣٤	٣ - الثورة ومصر
٣٩	ماذا فعلت الثورة بمصر وبالإنسان المصري ؟
٤٣	محاكمة الثورة
٤٦	٤ - الثورة والديمقراطية
٤٩	٥ - الثورة والاستعمار

عصر أنور السادات

الباب الأول

السادات قبل الثورة

٥٧	جذور السادات ونشأته
٥٨	السادات والساداتى
٥٩	أسرة أنور السادات
٦٠	التشابه بين طفولة ناصر والسادات
٦١	لعبة الحظ في العالم الثالث (الكليات العسكرية)
	السادات بعد التخرج :

زواجه من بنت العمدة ٦٥ - اتصاله بالألمان واعجابه بهتلر
٦٦ - طرده من الجيش واعتقاله ٦٨ - بعد الطرد من
الجيش ٦٩ .

الموضوع	الصفحة
حزب الوفد والقصر الملكي وأنور السادات	٧١
الحرس الحديدي وصلته بالقصر	٧٤
وقفه للمقارنة : (الاعتقالات بين عهدى فاروق والثورة)	٧٦
من البراءة للعودة للجيش :	
أولاً : أعماله في هذه الفترة	٧٨
ثانياً : زواجه من السيدة جيهان	٧٩
خرافة ٨١ - الجذور مرة أخرى ٨٢ - جيهان ومظهر	
أسرتها ٨٤ .	
ثالثاً : الإخوان المسلمون : علاقة ومرتب للسادات	٨٥
رابعاً : السادات وسيط بين حسن البنا والقصر	٨٦
خامساً : "للقصر وعودة السادات للجيش	٨٧
من العودة للجيش حتى الثورة	٨٩

الباب الثانى

السادات من مطلع الثورة إلى أن تولى رئاسة الجمهورية

السادات ليلة قيام الثورة	٩٣
أمريكا والثورة :	٩٤
ثورة ٢٣ يوليو كانت إجهاضاً لثورة شعبية	٩٤
الثورة والملك	٩٦
عبد الحكيم عامر ملاذ السادات	٩٨
الوظائف التى شغلها السادات فى عهد عبد الناصر :	
١ - رئيس تحرير جريدة الجمهورية	٩٩
٢ - السادات سكرتيراً عاماً للمؤتمر الإسلامى	١٠٠
صورة عامة عن المؤتمر والخيال الذى لعب برعوس الثوار	
١٠٠ - ١٠٨ من البذخ الى الاستجداء ١٠٨ - مقر المؤتمر	
مخبأ لعبد الناصر ١٠٩ - خراب بورسعيد وسوء الدعاية	
١١٠ - سوء استخدام الحقائق الديبلوماسية ١١١ .	
(م - ١ التاريخ الإسلامى)	

الصفحة	الموضوع
١١٣	٣ - أنور السادات وكيلا ثم رئيسا لمجلس الأمة
١١٥	الوحدة مع سوريا ثم الانفصال
١١٦	حرب اليمن
١١٧	٤ - السادات نائبا لرئيس الجمهورية
١١٩	نهاية عبد الناصر وشكوك حول سبب الوفاة
١٢٣	تحركات حول وراثة عبد الناصر السياسية

الباب الثالث

السادات رئيسا للجمهورية

١٣١	تاريخ فرد أو تاريخ أمة ؟
١٣٣	السادات والتركة التي ورثها
	الثوار ١٣٤ - المال وتأثيره على الثوار :
	أنور السادات يصف الثوار ١٣٤ - عبد المنعم أمين يصف
	جواهر أسرة محمد على ١٣٦ - نصيب لبنان من ثراء مصر
	١٣٨ - عبد الناصر سبب الحرب في لبنان ١٣٩ - أسرة
	عبد الناصر والماس الثمين ١٣٩ - ثراء أسرة عبد الناصر
	١٤٠ - عبد الناصر هو طريق الثراء لأهله ١٤١ - وثائق
	ينشرها الأستاذ الحمامصي ١٤٢ - تجارة المشير وثراؤه
	١٤٣ - منى عبد الناصر تشتري الأرض من الفلاحين
	بالضغط ١٤٤ - عثمان أحمد عثمان وفيلات لبنتي
	عبد الناصر وآخرين ١٤٥ -
١٤٦	عبد الناصر وإفقار الأغنياء وإذلال الشرفاء
١٤٧	المصادرة الارتجالية
١٤٧	الملكة فريدة والجسوع
١٤٨	قضية كمشيش : نموذج للطغيان الذي أدّى للانهايار
١٥١	الهجرة لإسرائيل أهون من تعذيب الثوار للمواطنين
١٥٢	قرار جمهوري ناصري باعتقال صلاح محروس وآخرين !! دون تحديد
١٥٢	أعوان عبد الناصر الذين سلبوا مال الشعب

مواقف ضد الإسلام والمسلمين :

- اعداد الاخوان وتحية للهاخام في يوم واحد ١٥٤ -
القباضون على الجمر ١٥٥ - المقارنة بالرسول عليه
الصلاة والسلام ١٥٥ - عدوان على السلام والدعوة
الاسلامية ١٥٦ -
- ١٥٦ أسس الاضطرابات الاقتصادية بمصر « اختفاء الرصيد الذهبى »
- ١٥٧ لم تكن ثورة بل غزوة
- ١٥٨ تناقض الحياة العسكرية مع الحريات العامة
- ١٥٩ عبد الناصر والإلهام المزيف
- ١٦٣ مدى المهزيمة سنة ١٩٥٦
- ١٦٤ طموحات عبد الناصر ونتائجها المدمرة
- ١٦٥ إهمال الثوار للمرافق الداخلية
- ١٦٦ هزيمة يونيو ١٩٦٧ المدمرة ونتائجها :
- ميزانية سرية للمشير كميزانية عبد الناصر ١٧١ - المعركة
وقرارات عسكرية متضاربة ١٧٢ - جاسوس يهودى يخدع
الثوار ١٧٧ - جهل القادة بخطورة الأسطول السادس
١٧٨ - جوع قاتل للجنود على الجبهة ١٧٩ - المواصلات
السلكية واللاسلكية مقطوعة بسيما ١٨٠ -
- ١٨١ قادة مصر يتنازعون حول الجبهة المتداعية
- ١٨٢ معركة ١٩٦٧ تصوّر انتصار الحضارة على التخلف
- ١٨٢ رأى موسى ديان فى سياسة عبد الناصر
- من نتائج حرب ١٩٦٧ :
- مجزرة الأبرياء ١٨٤ - أمراض نفسية نتيجة الحرب ١٨٤ -
وأضرار اجتماعية ١٨٥ - حركة الاستنزاف ونتائجها
١٨٥ - مصر فى حماية السوفييت ١٨٥ - عصاة ومساخيط
١٨٨ - أخطاء الثورة وقعت فى طول عهدها ١٨٩ -
- ١٩١ تطوّر فى العالم الثالث وجمود فى مصر
- فى الهند ١٩٣ - فى سلطنة عمان ١٩٥ - فى اندونيسيا
١٩٦ - فى زيمبابوى ١٩٦ -

الموضوع	الصفحة
موسى صبرى يقول : ليس بالهند سيارة مستوردة	١٩٤
قصة حفيد أحمد عرابى والخديعة لإحضاره من المغرب	١٩٩
ختام عهد (مصر عندما تسلمها عبد الناصر وعند وفاته)	٢٠٠
حوليات عصر السادات :	

أحداث سنة ١٩٧٠

حلف اليمين الدستورية وأهمية الأيمان عند حالفها	٢٠٩
السادات وبرنامج عبد الناصر	٢١٠
الانحناء أمام تمثال عبد الناصر	٢١٠
الأخراسات وتنظيم فرضها	٢١١

أحداث سنة ١٩٧١

ثورة التصحيح ودراسات عنها	٢١٥
تعليقات مهمة على ثورة التصحيح	٢٢٨
ثقافة زعماء عصر عبد الناصر	٢٣٣
عام الحسم	٢٣٧
محاولات لحلول سلمية مع إسرائيل	٢٣٩
معاهدة صداقة مع السوفييت	٢٤٠
دستور السادات : عرض ونقد	٢٤٣

أحداث سنة ١٩٧٢

لمرد الخبراء السوفييت	٢٥٣
عزل بعض الصحفيين والكتّاب	٢٥٥
إقالة الفريق محمد صادق	٢٥٥

أحداث سنة ١٩٧٣

حدّث الحرب غطّى على كل الأحداث	٢٥٩
مقارنة بين جيش مصر سنة ١٩٦٧ وجيشها سنة ١٩٧٣	٢٦٢

الصفحة	الموضوع
٢٦٥	هدف المعركة مع إسرائيل
٢٦٦	قرار رئيس الجمهورية ببدء المعركة
٢٦٧	التمويه والخداع
٢٦٨	اختيار أنسب وقت للهجوم
٢٦٩	استعدادات إسرائيل قبل أكتوبر
٢٧١	الإعداد لإذاعة بيان العبور
٢٧١	مع حرب أكتوبر من يوم إلى يوم
٢٧٢	المشير أحمد اسماعيل يصف الزحف وسقوط خط بارليف
٢٧٥	مشكلات العبور والتغلب عليها
٢٨٢	مع جيش إسرائيل وساسة إسرائيل
٢٨٣	جولدا مائير تستغيث : الزلزال أنقذونا
٢٨٨	يوم طويل ميمون
٢٩٠	معركة الدبابات
٢٩١	أمريكا ثم الثغرة
٢٩٥	إنقاذ سوريا عرض مصر للخطر
٢٩٨	خطاب السادات لحافظ الأسد
٢٩٩	وقفات مع الثغرة
٣٠٧	معركة السويس وبطولة ابن السويس
٣٠٩	شاهد عيان إسرائيلي يصف بطولات السويس
٣١٠	معركة بورسعيد وأهداف إسرائيل
٣١١	التداخل بين الجيش المصري والإسرائيلي
٣١٢	فك الاشتباك في الجبهة المصرية
٣١٤	فك الاشتباك في الجولان
٣١٤	فك اشتباك آخر ! ! على الجبهة المصرية
٣١٧	هل أضاع السادات أية فرصة عسكرية أو سياسية

الموضوع	الصفحة
لماذا أقبل السادات على الولايات المتحدة ؟	٣١٧
نتائج معارك أكتوبر	٣١٩
خسائر إسرائيل في المعركة	٣٢٤
اعترافات بالبطولات المصرية	٣٢٦
العرب والمعركة	٣٢٧
نماذج من بطولات أكتوبر	٣٢٨
من كلمات الكتاب المصريين عن أكتوبر والسادات (كى لا ننسى)	٣٣٣
مصطفى أمين - توفيق الحكيم - يوسف ادريس - عبد الرحمن الشرقاوى - انيس منصور - مصطفى محمود - نجيب محفوظ - محمد حسنين هيكل - أحمد بهاء الدين - ابراهيم راشد - عبد العظيم رمضان .	
من أقوال زعماء العالم عن حرب أكتوبر	٣٤٠
هنرى كيسنجر - ريتشارد نيكسون	
اعترافات إسرائيلية	٣٤٠
المؤرخ يعقوب تلمون - جولدا مائير - موسى ديان	
من كلمات مراسلى الصحافة الغربية	٣٤١
الأوبزرفر - يونيتدبرس - واشنطنون ستار نيوز - نيويورك تايمز	
أمريكا والقنبلة الذرية لإنقاذ إسرائيل	٣٤٣
هيلموت شميت : السادات أعظم شخصية في هذا القرن	٣٤٤
المفاوضة واستعادة سيناء	٣٤٥
هل كان صلحا منفردا ؟ ورأى الإسلام في الصلح مع إسرائيل	٣٤٦
الولايات المتحدة هى عدونا الأول	٣٤٨
كلمة أخيرة عن أنور السادات والمعركة	٣٤٨

أحداث سنة ١٩٧٤

- ٣٥٣ الارتباط بأمريكا وإعادة العلاقات معها
٣٥٤ إطلاق سراح الأستاذ مصطفى أمين
٣٥٧ اضطرابات صحفية
٣٥٩ ورقة أكتوبر ومحاولات الديمقراطية
٣٦٢ المنابر ثم الأحزاب
٣٦٣ السادات يعين الأحزاب ورؤساءها آنذاك
٣٦٤ نهاية الاتحاد الاشتراكي للعين
٣٦٤ قانون الأحزاب وقيام حزب الوفد ثم تجميد نشاطه
٣٦٦ الإنفتاح الاقتصادي : عرض ونقد
٣٧٠ الاستيراد بدون تحويل عملة
٣٧١ آلاف المليونيرات بمصر ومصادر ثرائهم
٣٧٢ قوانين الاسكان الجائرة ونتائجها
٣٧٣ شركات توظيف الأموال
نماذج من لصوص الانفتاح :
٣٧٥ رشاد عثمان
٣٧٦ فكري عازر
٣٧٧ التشجيع على الهجرة
٣٨٠ إلغاء زيارة بريجنيف لمصر

أحداث سنة ١٩٧٥

- ٣٨٣ تعمير مدن القناة وإعادة افتتاح القناة
٣٨٤ نهاية الملك فيصل بيد أئيمة

أحداث سنة ١٩٧٦

- ٣٩١ إلغاء المعاهدة مع السوفييت
٣٩٤ مصر بين نار السوفييت ونار أمريكا

الموضوع ————— الصفحة

أحداث سنة ١٩٧٧

٣٩٩	انتفاضة ١٨ و ١٩ يناير
٤٠٢	القوانين الاستثنائية
٤٠٣	هزب ليبيا
٤٠٤	رحلة القدس وخطاب السادات بالكنيسة
٤١٦	ضدى خطاب السادات على زعماء اسرائيل
٤١٨	نظرة لهذه الرحلة

أحداث سنة ١٩٧٨

٤٢٣	اغتيال الأستاذ يوسف السباعي
٤٢٣	١٨ شهيدا من رجال الصاعقة في قبرص
٤٢٤	استفتاء ١٤ مايو واختفاء حزب الوفد
٤٢٥	في الطريق الى كامب ديفيد
	اجتماعات الاسماعيلية — اجتماعات القدس — ليدز
٤٣٠	فشل الاجتماعات شجع على التقارب العربى مع مصر
٤٣١	اجتماعات كامب ديفيد ونتائجها (اتفاقيتان)
٤٣٣	نقد الاتفاقية الأولى
	لقطات حول أطراف النزاع :
	لقطات ترتبط بمصر ٤٣٤ — لقطات ترتبط باسرائيل ٤٣٦ —
	لقطات ترتبط بأمريكا ٤٣٨ — لقطات ترتبط بالعرب ٤٣٩ —
٤٤٠	مؤتمر بغداد وقراراته
٤٤٤	وفاة كامب ديفيد
٤٤٧	جائزة نوبل

أحداث سنة ١٩٧٩

٤٥١	في الطريق لمعاهدة السلام
٤٥١	المعاهدة بين مصر واسرائيل وخلاصتها

الصفحة	الموضوع
٤٥٥	اتفاق أمريكي إسرائيلي
٤٥٦	معاهدة السلام في الميزان
٤٥٧	قضية طابا وامتدادها الى عهد حسنى مبارك
٤٦٤	قانون الأحوال الشخصية ونهايته
٤٦٨	٣٠ مقعداً للمرأة في مجلس الشعب
أحداث سنة ١٩٨٠	
٤٧٣	إلغاء الأحكام العرفية وإعلان قرارات الرخاء
٤٧٣	طائرة أحمد بدوى
٤٧٣	مع شاه إيران
٤٧٦	إسرائيل تعلن القدس مدينة موحدة وعاصمة لإسرائيل
أحداث سنة ١٩٨١	
٤٨١	عام هموم
٤٨١	ميت أبو الكوم في سيناء
٤٨١	صحيفة ولدت ميتة (صحيفة مايو)
٤٨١	اليهود يثيرون شبهة بقصف المفاعل النووى العراقى
٤٨٢	أحداث الزاوية الحمراء
٤٨٥	مساعدات للعراق في حربه ضد إيران
٤٨٦	قرارات سبتمبر المشؤومة
٤٩١	مقارنة بين اعتقالات عبد الناصر والسادات
٤٩٢	الاعتقالات والرأى العام المصرى والعالى
٤٩٣	غرور السادات بالاستقبالات الشعبية !
٤٩٤	من كلمات الأستاذ عمر التلمسانى عن الاعتقالات
٤٩٥	دكتور حلمى مراد يصف بعض حالات الاعتقالات

الموضوع الصفحة

حادث المنصة

- ٤٩٦ الأسباب غير المباشرة لحادث المنصة
٤٩٨ الأسباب المباشرة
٤٩٩ وصف الحادث
٥٠٠ رقم « ٦ » في حياة السادات
٥٠٩ ضحايا الحادث
٥١١ جنازة السادات
٥١٢ اغتيال السادات يحتّم إعادة النظر
٥١٢ بعد النهاية (قصور ومخصصات لجيهان وأولادها)
٥١٥ أولاد السادات في نظره نوعان
٥١٦ قانون بمنح القصور والمعاشات الاستثنائية للرؤساء دائما
٥١٦ محاكمة القتل
٥١٩ نقابة المحامين وموقفها من رئيس المحكمة
٥٢٠ سقوط النظام كلمه
٥٢٠ قوانين يجب أن تسقط

أحداث ليست من الحوليات

الحاكم وأسرته

- ٥٢٥ أنور السادات ولماذا اختاره ناصر نائبا له
٥٢٥ نفاقي السادات (مع فاروق ومع الضباط الأحرار)
٥٢٦ مع عبد الناصر وضده
٥٢٧ كتاب السادات « يا ولدى هذا عمك جمال »
٥٢٧ أدنى الصفات ينسبها السادات لزعيمه
٥٢٩ أخطأ الصفات ينسبها السادات لزعيمه في كتابه « البحث عن الذات »
٥٣٢

جيهان السادات

- ٥٣٦ نمط جديد من زوجات الرؤساء
- ٥٣٧ سيدة مصر الأولى ! !
- ٥٣٨ جمال السادات يخطب بنتا أمها المسيحية لبنانية
- ٥٤٠ جيهان من أصحاب الأعمال
- ٥٤١ موقف الإسلام من تجارة الحاكم وذويه
- ٥٤١ نشاط وشبهات (الوفاء والأمل و)
- ٥٤٣ ٣٠ مقعدا للمرأة في مجلس الشعب
- ٥٤٣ قناون (جيهان) للأحوال الشخصية ! !
- ٥٤٤ دعوتها لزوجات رؤساء الدول لزيارة مصر ! !
- ٥٤٥ ثورتها على الشهاب المسلم !!
- ٥٤٧ إعجابها هي وابنتها بشعب إسرائيل ! !
- ٥٤٨ ثقافة جيهان والدرجات الجامعية
- ٥٥١ جيهان ومحنة الدكتور عبد العزيز سليمان
- ٥٥١ هل تزوجت جيهان بعد أنور السادات ؟
- ٥٥٢ ثروة جيهان الآن
- ٥٥٤ أين أسرة عبد الناصر وأسرة السادات الآن ؟
- ٥٥٥ أولاد الحكام الاشتراكيين وتطلعاتهم
- ٥٥٨ إخوة السادات
- ٥٦١ طلعت السادات وعلى شفيق والمخدرات
- ٥٦١ نفيسة السادات
- ٥٦٢ سكينه السادات
- ٥٦٢ على رعوف (أخو جيهان) وعصمت السادات
- ٥٦٤ الديكتاتورية عند السادات
- ٥٧٠ فصله خيرة الأعضاء من مجلس الشعب
- ٥٧٠ كمال الدين حسين ومكانته

الموضوع	الصفحة
الأشيوخ عاشور وفضيلة الشيخ الشعراوي	٥٧٢
الأستاذ عبد الفتاح حسن	٥٧٥
التعرف ومظاهره ووسائله	٥٧٧
الديون : متى بدأت وأين أنفقت	٥٨٧
محاولة تسديد الديون وفشلها	٥٩٥
ثورات ومواجهات	٥٩٧
الانتفاضة الطلابية	٦٠٠
صالح سرية ومأساة الفنية العسكرية	٦٠١
الدكتور محمد حسين الذهبي	٦٠٣
تنظيم الجهاد	٦٠٧
الزاوية الحمراء	٦٠٩
عصر السادات بين المساوىء والحسنات	
مقدمة	٦١١
حسنات ومزايا للسادات	
حرب ١٩٧٣ وما حققته من مكاسب	٦١١
استبعاد الشيوعية	٦١٢
إعادة الصلة بالعرب	٦١٣
تصفية الحراسات	٦١٤
نهاية مراكز القوى	٦١٤
شيء من الديمقراطية	٦١٥
جانب من الثقافة	٦١٥
إحياء الرافق	٦١٦
منشآت جديدة مهمة	٦١٧
إنقاذ البلاد من الاتحاد الاشتراكي	٦١٧
مساعدة العراق في حربها مع إيران	٦١٨

الصفحة	الموضوع
٦١٨	معاش السادات
٦١٨	إسقاط الضرائب عن النشاط الفكرى
٦١٩	علوى حافظ وحسنات السادات
٦١٩	د • حسين مؤنس وحسنات السادات
	أخطاء ومثالب لآسادات
٦٢٠	ديمقراطية لها أنياب
٦٢١	يصدق الاستفتاءات الزائفة
٦٢١	ويصدق الاستقبالات
٦٢٢	هدايا من الآثار المصرية والجواهر المصادرة
٦٢٢	الجامعة الإسلامية
٦٢٣	مصادرة الأصدقاء
٦٢٣	مقاومة ما نسب لعبد الناصر وأسرته من اتهامات مالية
٦٢٤	لم ينصف المظلومين من ظلم عبد الناصر والمشير
٦٢٤	تاريخ الثورة وأسباب هزيمة ١٩٦٧ ! !
٦٢٤	أسرة السادات والشراسة
٦٢٥	غرور السادات
٦٢٩	مطار لارناكا و ١٨ شهيدا من الصاعقة
٦٣١	هضبة الأهرام
٦٣٣	مياه النيل لإسرائيل ؟ ؟
٦٣٦	السادات يحمى الطغاة والمخترفين
	(صلاح نصر وأشرف مروان)
٦٤٣	خاتمة
٦٤٦	مصادر الكتاب ومراجعته

صور وخرائط ورسوم

الصفحة	الموضوع
٢٤	عبد الناصر : القسوة والوحشية
٨٠	العروسان
١٥٣	قرار جمهورى عجيب لعبد الناصر
١٦٧	الادعاء الأبله بنصر مزيف
١٧٠	الصديقان اللدودان : رمزان للهزائم
٢٢٣	الفريق أول محمد فوزى
٢٢٤	الفريق أول محمد صادق
٢٢٦	السادات ومحمد صادق : الصداقة عند الضرورة
٢٧٣	رفع العلم المصرى على سيناء
٢٨٧	نهاية الخديعة : ظن أن اسرائيل لا تهزّم ثم رأى الهزيمة المدمرة
٢٨٩	هموم الأسير
٢٩٣	السيدة جيهان السادات تشترك فى تمريض جرحى الحرب
٣١٣	مع البطل الذى نذكره بخير دائما
٣٢١	مع البطل أحمد اسماعيل
٤٠٥	رحلة القدس
٤١٣	الصلاة فى بيت المقدس
٤٥٤	المعاهدة (خطوات الانسحاب)
٤٥٨	موقع طابا
٤٦٠	نموذج للصراع الذى أصاب العدو عند الانسحاب من طابا
٤٦١	بكاء صهيونى مزير للخروج من طابا
٥٠١	قبل الكارثة

الموضوع	الصفحة
مجموع	٥٠٣
لحظات النهاية	٥٠٥
حساد	٥٠٧
المقتلة خلف القضبان	٥١٧
كان من وظائف السادات أن يثُصِّحَ الزعيم	٥٢٨
تurf	٥٣٨
السيدة جيهان تداعب نسناسا	٥٧٨
« البايب » دليلا للجاء	٥٨٣
جلسة اعتداد أقرب للغرور	٦٢٦
وقع في غرام سماع صوته ورؤية صورته	٦٢٨

عبد الناصر والسادات وصلتهما بالتاريخ الإسلامى

دُهِش كثير من الناس عندما رأوا جُزءاً من اجزاء موسوعة التاريخ الإسلامى يُخصَّص للحديث عن محمد نجيب وعبد الناصر ، ففى تقدير هؤلاء أن التاريخ الإسلامى لا علاقة له بهذين الرئيسين وأمثالهما ، وأنه خاصٌ بحياة الرسول صلوات الله عليه والخلفاء الراشدين ، وقد يتَّسع للحديث عن عصر الدولتين : الأموية والعباسية لا غير •

وتصححاً لهذا الفكر نذكر أن المنهج التاريخى السليم يرى أن التاريخ الإسلامى يشمل :

أولاً : تاريخ العالم الإسلامى كلّه عرباً وغيرَ عرب •

ثانياً : يهتدء التاريخ الإسلامى من مطلع الإسلام حتى الآن •

وفى ضوء هذا يكون تاريخ مصر فى عهد محمد نجيب وعبد الناصر جزءاً من التاريخ الإسلامى ، ونحن بهذا نصحِّح وضعاً كان يقف بالتاريخ الإسلامى عند سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٤٨ م) وهذا الوضع ظاهرٌ الخطأ :

فإذا كانت بغداد قد سقطت فغيرها من العواصم الإسلامية لم يسقط وظل مزدهراً •

وإذا كانت بغداد قد سقطت فقد أفاقت بعد حين •

وإذا كانت الخلافة العباسية قد انتهت فى العراق بعد تحشولات بين الكوفة والأنبار وبغداد وسامراء ، فإن الخلافة العباسية قامت فى مصر بعد أن قَتَلَ المغول الخليفة المستعصم كما قَتَلَ الأتراك المتوكلَ والمعترَء بالله والمقتدر من قبل •

ثم إن زحف المغول استمر بعد سقوط بغداد ، فوصلوا إلى دمشق

(م ٢ - التاريخ الإسلامى)

وحلب وأنزلوا الدمار بكل مدينة نزلوا بها ، ثم التقى بهم المصريون في « عين جالوت » وهزموهم هزيمة قاصمة • وبعد « عين جالوت » جدّد المغول جيشهم وزحفوا إلى الشام فالتقى بهم السلطان بيبرس وقضى عليهم ، وفي عهد السلطان قلاوون انتصر هذا عليهم في حمص كما انتصر عليهم السلطان الناصر في دمشق ، وكل هذه الانتصارات كانت بعد سقوط بغداد فكيف نقف بالتاريخ الإسلامى عند سقوط بغداد بواسطة المغول مع أن جولات المغول استمرت بعد سقوط بغداد عدة سنوات •

وعلى هذا فلا معنى إطلاقاً للوقوف بالتاريخ الإسلامى عند سقوط بغداد أو قتل المستعصم ، فالخلافة الإسلامية لم ترتبط ببغداد وإنّما تنقلت بين عواصم كثيرة من المدينة المنورة إلى الكوفة فدمشق فالكوفة مرة أخرى فالأنبار ببغداد فسامراء ، ببغداد مرة أخرى ، وقد قامت الخلافة الإسلامية بالقاهرة بعد سقوط بغداد •

قد نقول إن الخلافة في القاهرة كانت صورية لا نفوذ لها ، ونجيب بأن الخلافة العباسية فقدت نفوذها قبل ذلك بوقت طويل أى بعد العصر العباسى الأول •

ثم إن المستعصم لم يكن أول من قتل من الخلفاء ، فقد قتل قبله المتوكل والمعتز • • • كما ذكرنا آنفا •

ونتساءل إذا كنا عددنا المماليك جزءا من التاريخ الإسلامى وهم جهال أميل إلى الكفر كما ثبت عن الأفشين وأئسناس ؟ وعددنا البويهيين جزءا من التاريخ الإسلامى وهم فرس طغاة • • • فكيف لا نعدّ تاريخ مصر في عهد عبد الناصر والسادات جزءا من هذا التاريخ •

مرة أخرى إن التاريخ الإسلامى عام الزمان والمكان يشمل كل المسلمين في مختلف الأنحاء ومختلف الأوقات •

وإذا كان الجزء التاسع من موسوعة التاريخ الإسلامى قد خصّص

للحديث عن محمد نجيب وعبد الناصر ، فإن هذا الجزء العاشر قد خُصص
للحديث عن أنور السادات ، وتاريخ هذه الحقبة حافل بأحداث الصراع
ضد إسرائيل ، تلك الأحداث التي هزمت العالم الإسلامي كله ، مما
يثبت أن هذا التاريخ جزء من تاريخ المسلمين وتاريخ حياتهم •

وبعد هذا التصحيح والتوضيح نسير في عرض تاريخ هذه الفترة
مؤكدین أن تاریخ مصر خلالها هو جزء من التاريخ الإسلامی الفسیح ذلك
التاريخ الذى يتسع ليشمل العالم الإسلامی كله ، ويمتد مع امتداد
الإسلام عبر الزمان •

مَقَدِّمَات

١ - مؤرخ التاريخ الحديث بين الحقائق من جانب والإعلام الزائف من جانب آخر :

مسكين ذلك المؤرخ الذى يكتب التاريخ الحديث فى بلد كمصر ، إنه يرى الأحداث ويعايش الحقائق أحيانا ، ويجمع ما يستطيع جمعه من الوثائق ، ثم ينظّم ذلك وينقده ويدوّنه ، ويعلق عليه ، ولكنه كثيرا ما يحس بأنه فى جانب والعالم حوله فى جانب آخر ، فهو مشدود بالحقائق المأسوية والوثائق القوية إلى اعتقاد ، وكثيرون من الناس حوله مشدودون خلف اعتقاد آخر ، مخدوعين بوسائل إعلام كاذبة أو مضلّلين بطريقة أو أخرى .

لقد حدث هذا عندما كنت أكتب الجزء التاسع من هذه الموسوعة عن عهد عبد الناصر ، كنت أجمع ما أستطيع من وثائق ، وأتبع الأحداث بيقظة وانتباه ، فأرى ظالما وجوّرا وتدميرا لبلادى ، وأرى نبلا من ذرمة الإنسان المصرى وعدوانا على آدميته ، وأرى عبد الناصر وهو يتّلى الشعب ويحارب الديمقراطية ، وأراه وهو يشكّل المحاكم العسكرية التى تحكم بما يريد بصرف النظر عن موضوع النقاضى ، وتصل الأحكام إلى إعدام الأبرياء لأنهم لم يسيروا فى ركابته ، وأراه وهو يبتكر قانونا يدمّر الأزهر ثم يسمّى هذا التدبير تطويرا .

ثم رأيت هزائمه التى تكررت والتى راح ضحيتها عشرات الآلاف من الشبان ، واحتل العدو أرضنا وسلب معدّات دفعنا دم القلب منها لها ، ولم تكن الهزائم عن ضعف وإنما عن سوء تدبير ، وعن خلاف بين الرئيس ومشرّبه .

ورأيت أنه وهو يبعث الجند والسلاح الكونفو ويوزع الملايين من الجنيهات ليكسب صحافة لبنان وصداقة الانتهازيين هناك .



القسوة والظلم والهزائم

ورأيت نوافذ تؤكد وجود انحرافات مالية خطيرة ثبتت فيما بعد ،
وظهرت في الشراء الفاحش الذي برز مرتبطا بأولاده وأزواج بناته •

كنت أرى هذا كله وأدوِّته ، فأسخط على الرجل الذي خان
الأمانة ، الرجل الذي برز من بين الأطلال ، وقاد جماعة بدعوى إصلاح
الأحوال ، فإذا بالجماعة تصبح عصابة كما سماها عبد الناصر نفسه
عندما امتدت أساليب العصابة يوما لمواجهة ، إنها فعلا كانت عصابة
كما قال ، ولكنه هو كان رئيس هذه العصابة ومكوِّنها ، ثم أفلتت من نفوذه
عندما اشتد عودها •

وانقضى أفراد العصابة بعضهم على بعض حتى انهاروا جميعا
وكُتِبَ عليهم الفناء ، ولكن بعد أن دمَّروا البلاد وسرقوا ثرائها وأذلَّوها
ابناءها •

وبينما كنت أعيش هذه الأحوال وتلك الماراة كان الناس من حولي
يهتفون لعبد الناصر ويتفنَّون باسمه ، فقد استطاعت وسائل الإعلام
التي يمتلكها جميعا أن تفضِّل الشعب ، بل أن تصوِّر الهزائم كأنها
انتصارات عظيمة ، ولا شك أن بعض المصريين المخدوعين ردِّدوا مع
عبد الحليم حافظ أغنيته عقب حرب ١٩٥٦ التي يقول فيها :

وانتصرنا وانتصرنا

أي نصرٍ هذا بعد الانسحاب من سيناء وتركها لإسرائيل ؟ وبعد
سقوط الآلاف قتلى بأسلحة الصهاينة واستيلاء إسرائيل على سلاح
المنسحبين ومعدَّاتهم ، وبعد توقف قناة السويس وتدمير مدن القناة ،
والاستيلاء على بترول سيناء ومعادنها •

وحتى هزيمة الساعات الست المريعة سنة ١٩٦٧ قنعوا بأن آسَمَوْها
نكسة ، مع أنها هزيمة قاصمة •

وهناك كُتَّاب كانوا مخدوعين ، أو ماجورين ، أو طامعين في سلطان ونفوذ ، أو متورطين في أسباب الهزائم ، هؤلاء كتبوا يسيِّحون بحمد عبد الناصر ، وتحدثوا عما أسموه إجابيات وفصائل ، فساعدوا بذلك وسائل الإعلام على تضليل الشعب •

ويسألني بعض السذج : لماذا لم أكتب عن عبد الناصر في حياته ؟

والذي يسأل هذا السؤال هو من السذج البسطاء ، لقد تكلم بعض المفكرين كلمة أو كتبوا سطورا ، وسرعان ما حكَّم عليهم بالإعدام شنقا كما يَحْكَم على القتلة والمفكرين ، وفي هذا المجال لا يمكن أن ننسى العالميين الكبار عبد القادر عودة وسيد قطب وغيرهما من الأفاض ، فإذا نجا من القتل بعض المعارضين فإن السجن والتعذيب والجوع وهتك الأعراض تكون في انتظاره •

على أنني أصحح قضية حول كتابتي لتاريخ عبد الناصر ، تلك أنني كتبت تاريخه في حياته يوما بيوم ، ولكني لم أبرز ما كتبتُه إلا بعد أن مات ، ولو برز من ذلك شيء ، لحكَّم الظلم القلم وصاحبه ، ومع هذه الحيطة فإنني لم أنج من ظلم عبد الناصر ، لأنني لم أسِر في الركاب ، ففُصِّلَت من الجامعة ، وعانيتُ القيد والمراقبة والجوع فترة من الزمن ، لأنني اشتركت مع الذين طالبوا بعودة الجيش إلى ثكناته وترك أمور السياسة لرجال السياسة •

وبهذه المناسبة يرى بعض البسطاء أنني أنقصد عبد الناصر لأنه فصلني ، وهذا خطأ والصحيح أنني انتقدته أولا ثم فصلني لذلك •

وعلى كل حال فقد احتفظت بأسرار عملي حتى مات الرجل ، فاستطعنا أن نَظْهر ما كنا نخفي ، ونشرت ما عندي ، فصفَّق لي المعتدلون وأثنوا على عملي ، ولكن جماهير الشعب لم تستطع بسهولة أن تتحمل نقد عبد الناصر والتحوُّل من جبه إلى السخط عليه ، ومن الإيمان به إلى سماع طعون في ذمته ، وصرت خلال فترة من الزمن

هدفا لمهجوم بعض الذين يعبدون الأشخاص دون تمحيص ، ولكنى دافعت عن رأيى بإصرار ، فأخذ الناس يتحولون إلى الحق من يوم إلى يوم ، وأخذ تأثير وسائل الإعلام ينكمش ، وبدأ الحق يتضح ، وبخاصة عندما عُرِفَت خسائر حرب ١٩٥٦ وخسائر حرب اليمن (١٩٦٢ — ١٩٦٧) وخسائر حرب ١٩٦٧ وعندما اتضح أنه لم يكن من الممكن أن نفتتح حربا ضد إسرائيل سنة ١٩٦٧ وجيوشنا هناك فى اليمن ، فالحرب فى جبهتين شئ يتحاشاه العقلاء ، ثم ظهرت بليارات الجنيهات عند أولاده وأصهاره ، وأصبح لكل منهم طائرة خاصة يطير بها من قطر إلى قطر ليرعى مصالحه المالية التى انتشرت فى مختلف الأنحاء .

ما أقسى ما عانيت من تاريخ عبد الناصر ، ولكنى فى النهاية حققت آمالى وقمت بواجبى وأبرزت ما كان خافيا ، وما كان من الممكن أن يظل خافيا ، وانصرفت الكثرة الغالبة عن الرجل الذى خان الأمانة .

وهكذا كنت فى يوم من الأيام وحدى أو مع قلة من المثقفين بالنسبة لنظرتنا لعبد الناصر ، ثم أخذتُ الجموع تتجذب لجانبى ، وبخاصة عندما عُرِفَت عن الرجل ما لم تكن تعرف .

وأنا الآن فى خطواتى الأولى للتأريخ لأنور السادات ، وأرانى فى هذه المرة على عكس الأحوال عندما كنت أؤرخ لعبد الناصر ، لقد كنت أكتب تاريخ عبد الناصر بين حشد من المصريين والعرب يحبونه ويمجّدونه ، وكانت الأحداث والوثائق التاريخية تؤكد أنه لا يستحق الحب والتهجد ، وأنا الآن أكتب تاريخ أنور السادات ، وأرى فيه أشمة من انور وبخاصة انتصاراته الخارقة على إسرائيل ، ولكن الناس كلهم تقريبا يبغضونه حتى لا تكاد تجد إلا قلة قليلة تتعاطف معه .

وتحتفل الدولة رسميا بيوم وفاة عبد الناصر ، أما نهاية السادات فلا تكاد تذكر إلا لأنها يوم النصر (السادس من أكتوبر)

لم يكن الرجل في تقديري في مجال السوء مثل عبد الناصر ، لم يكن سفاحا ، ولم يكن فاشلا في إدارة المعارك التي خطط لها ونفذها ، ولم يكن مغلوبا على أمره من مشير جاهل ورفاق سوء كما كان عبد الناصر ، ولم توجد في عصره مأساة كشميش ولا مأساة كرداسة ومع هذا فالناس ييغضونه وينصرفون عنه .

وتعجب أنه مازال هناك حزب ناصري وإن كان هزيلا ضئيلا ، ولكن ليس هناك حزب ساداتي ، حتى أن الحزب الذي أنشأه السادات والذي هُزِعَ له الأعضاء من حزب مصر أصبح ولاؤه لعبد الناصر أكثر من ولائه للسادات ، والدنيا حظوظ كما يقولون .

ليس معنى هذا أنني أدافع عن السادات ، فإن التاريخ الذي سندونه هو الذي سيقدر المدح أو الهجوم أو المؤاخذة ، ولكن الذي أدونته هو إبداء العجب من اتجاهات الناس ، فالرجل الذي دمر البلاد ، وسفك الدماء ، وتسبب في هزائم قاصمة جلبت العار والفقر ، الرجل الذي أضاع بسوء إدارته سيئا مرتين ، وأوقف سير القناة مرتين ، وخسر المعدات وعرض الآلاف للفناء ، الرجل الذي أساء ولم يحسن يوجد له أنصار وأتباع ومحشون ، والرجل الذي فعل الخير والشر ، وأساء وأحسن واستعاد سيئا ، وأعاد فتح القناة ، وعمّر مدنها ، ليس له أتباع ولا أنصار . . لماذا ؟

إن الإجابة كما استخلصتها من الناس أن لعنة عبد الناصر نزلت على السادات ، فالناس بعد أن اكتشفوا أنهم خُدعوا في عبد الناصر أساءوا الظن بكل الزعماء وبخاصة العسكريون ، ولم يعودوا يستطيعون أن يمنحوا الحب بسهولة لأي زعيم عسكري .

ومن هنا يجيء فضل التاريخ الصادق الذي يعيد فكر الناس إلى الرشاد إذا جذبتهم الأكاذيب إلى تاريخ مزيف .

وفي هذا الجو أبدأ دراساتي عن أنور السادات غير متأثر بشعور الناس وأهوائهم ، وإنما سأعرض الأحداث وأعلق عليها بكل الحيدة والدقة ، فأنا لست حاقدا على السادات كالأستاذ محمد حسنين هيكل الذي ينفث كل سطر من سطور كتابه « خريف الغضب » لهيبا ونارا ، ولست مواليا كالأستاذ موسى صبرى الذي يعلن في كتابه « السادات : الحقيقة والأسطورة » أنه يكتب عن شخصية السادات بقلم مؤيد^(١) . ولست كالفريق أول محمد فوزى الذي تأثر بما وقع له ضمن مراكز القوى سنة ١٩٧١ فاتجه في كتابه « استراتيجية المصالحة » إلى الهجوم على السادات^(٢) وهناك كتاب طبّلوا وزمّروا مثل كتاب « السادات بلا رتوش » ومثل هذه الكتب لا تستحق غير هذه الإشارة^(٣) .

إننى مؤرخ ، أجمع المادة من الوثائق ، وانقدما ، وأقارن بينها ، وأدون التاريخ منها ، وأعلق عليها بكل الحيدة والعدالة .

وبعد ، إن التاريخ لا يرحم ، وويل للزعماء إذا نسوا عين التاريخ ، تلك العين البصيرة التى تنفذ خلف الحجب ، وتبرز الحقائق ولو بعد حين .

وويل للحكام إذا خدعتهم أضواء حكمهم القصير ، وغفلوا عن التاريخ الطويل الذى سيحكى سيرتهم طوال الأجيال والقرون ، يمدح أو يذم ، يدعو أو يلعن ، وويل لهم إذا اغتروا بحفاوات يقابكون بها هنا وهناك ، فهى مصنعة وماجورة ، أو هى من أعمال السذج الماطلين الذين يطيب لهم أن يروا المشاهير ويصفقون لهم كما يصفقون للحواة

(١) السادات : الحقيقة والاسطورة ص ٨ .

(٢) استراتيجية المصالح فى عدة أمكنة .

(٣) اسماعيل عبد التواب : السادات بلا رتوش .

والبهلوانات ، ونرى عددا كبيرا من هؤلاء يقفون على مداخل المتحفزيون
العربي لعلهم يحفظون برؤية الفنانات والمذيعات والممثلين •

فاللهم أسألك العون فيدا أنا مقبل عليه ، وأسألك أن تنير قلبي ،
وتمدني بالرشاد لتظهر الحق وتنير الطريق •

وبعد ، لعلى قد أطلت في هذه المقدمة الأبرز ما يعانيه المؤرخ وهو يعيش
في جو من الوثائق يختلف عن الجو الذي يعيش به سواء تحت تأثير الإعلام
المزيف ، ولعلى قد وضحت هذه النقطة ، فلننتقل الى مقدمة أخرى •

٢ — ثورة ٢٣ يوليو ؟؟ وأثرها على العسكريين والمدنيين :

هذه هي المقدمة الثانية للكلام عن عصر السادات ، فقد عاش يتغنى بأنه أول من كوّن تجمّعا في الجيش ليقود إلى ثورة ، ويتغنّى بأنه الذى قرأ البيان الأول للثورة صبيحة إعلانها (يوم ٢٣ يوليو) وحتى الحركة التى قام بها فى مايو سنة ١٩٧١ سماها ثورة التصحيح .

ما حقيقة هذه الثورات ؟

لقد كتبت دراسة علمية دقيقة عن هذا الموضوع فى الجزء التاسع من هذه الموسوعة (ص ٨٥ — ٩١) ووضحت أن الذى حصل صباح الثالث والعشرين من يوليو كان انقلابا قام به الجيش ، فالفكر العلمى يقرّر أن الثورة يقوم بها الشعب كالثورة الفرنسية أو كالذى حدث فى ثورة ١٩١٩. ١٩١٩ له الانقلاب فيقوم به بعض رجال الحكم من الوزراء أو الجيش ، ولكن انقلاب ٢٣ يوليو كان ضد ذلك كرية للشعب ، يتمنى الجميع القضاء عليه ، ووضع هذا الانقلاب برنامجا خدّعا يعبر عن آمال الشعب وأهدافه ، فانضمّ الشعب للجيش عقب قيامه بالحركة ، فأصبح الانقلاب ثورة ، وفى غضون أيام قليلة مكّن عبد الناصر ورجاله لأنفسهم وقضّوا على الرتب العليا فى الجيش والفوّا الدستور ، وبدعوا يتظاهرون ما كانوا يتصهرون من تمسكهم بالسلطة وتَهَرُّ كل من خالفهم ، وخلقوا بذلك عددا كبيرا من الملوك لهم مساوىء الملك فاروق أو فاقوه فى مساوئهم ، وأهدلوا المبادئ التى خدعوا بها الشعب عندما قاموا بحركتهم ، وعادت الثورة انقلابا ، وقامت حركات وانتفاضات ضدها ، ولكن النضال الشبان الذين استعذبوا الحكم ضربوا بقسوة كل من عارضهم .

وقهر الانقلاب أعداءه بسيل من الدماء والتعذيب والاعتقالات ، ولكن هذه الثورة سرعان ما اتّجهت لتأكل نفسها ، وأصبح رجال الجيش كالسماك الذى يأكل بعضه بعضا ، وقد نبهت فى الجزء التاسع إلى خطورة

الحكم العسكري ، ففي حكم العسكريين دمار للعسكريين وللمدنيين
والبلاد ، وقامت بين ضباط الجيش بعضهم والبعض فتن وخيانات وهزات
وانقلابات وتلاحم بالأيدي أحيانا ثم عزل وتهذيب أدى للموت أحيانا
(اقرأ الجزء التاسع ص ١٢٩ وما بعدها) .

ووصل الصراع إلى قادة الثورة أنفسهم ، فهاجم صلاح سالم
أكثر الأعضاء ، ووصل الأمر إلى تلاحم بالأيدي بين أعضاء مجلس الثورة ،
ثم استطاع عبد الناصر أن يعزلهم الواحد بعد الآخر ، ولم يبق معه إلا
عبد الحكيم عامر ، ثم حدثت مواجهة بين الاثنين انتهت بتقل عامر
بالسم وادعاء أنه انتحر .

ونذكر كلمة عن كمال الدين حسين ، فقد كان في وقت ما يشغل
أسمى مركز بعد عبد الناصر ، ثم غضب هذا عليه وانزل به وبذويه ألوانا
من الأضرار والعدوان يشيب لهولها الولدان (اقرأ هذه التفاصيل في
الجزء التاسع ص ٢١٢ وما بعدها) .

والعجيب أن كمال الدين حسين عانى من السادات كما عانى من
عبد الناصر ، فمجلس الشعب في عهد السادات أصدر قرارا بهزل
كمال الدين حسين من عضوية هذا المجلس ، ولما أراد كمال الدين
حسين أن يرشح نفسه بعد ذلك أسرع السادات فأصدر تشريعا يحرم
عودته للمجلس .

لم تكن أبدا صداقة تلك التي كان الحق والإرهاب يعيش في جنورها .

الثورة أفرزت وحوشا بشرية :

يقول الدكتور عبد العظيم رمضان ^(١) : إن ثورة ٢٣ يوليو حاكت

(١) مصر في عهد السادات ص ٣٥٤ .

كثيرين ممن أساءوا استخدام السلطة ، وعذبوا الأحرار في عهد فاروق ، ولكنها أفرزت من هم أسوأ منهم ، بل من لا سبيل إلى مقارنتهم بهم في السادية والوحشية ، وعلى يد عتالة الإرهاب والتعذيب الذين أبرزتهم هذه الثورة تعرض الوطنيون الأحرار من إخوان مسلمين واشتراكيين وشيوعيين وأحرار ، بل تعرض كثيرون من أبناء الثورة أنفسهم الأبرار ما توصم به ثورة من الثورات •

ويقول الدكتور حسين مؤنس ^(١) إن عبد الناصر كان يعرف ما عاناه المصريون من الضباط ، وكان يشجع على ذلك ويؤيده ، ويعرف أن العدوان والإيذاء وصل إلى زوجات المعتقلين وبناتهم ، وقد وصل الأمر إلى شذوذ يتوقفه القلم عن تدوينه •

بقي موضوع مهم يتصل بقيام هذه الثورة وهو : هل كانت هذه الثورة إجهاضاً لثورة شعبية بدأت تباثيها في أواخر عهد فاروق ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال ستجىء مفصلة في مطلع الباب الثانى من هذه الدراسة عند حديثنا عن : أمريكا والثورة •

٣ - الثورة ومصر :

هذه هي المقدمة الثالثة عن عصر السادات الذى كان امتدادا لعصر عبد الناصر والذى كان جزءا من ثورة ٢٣ يوليو ، وفى هذه المقدمة نسأل :

ماذا قدمت الثورة لمصر ؟

وأنا مع الأستاذ جلال الدين الحمامسى الذى يقول :

إن الذين فجَّروا الثورة أعدوا لها وخطَّطوا ، ولكنهم لم يعدُّوها أو يخطَّطوا لما بعد نجاحها ، وهذا يرجِّح القول بأن هؤلاء لم يخططوا لها بأنفسهم ، وإنما ساعدتهم آخرون فى التخطيط ، فلما نجحت الثورة واجهت الارتجال من هؤلاء الشبان الذين كانت خبرتهم قليلة جدا فى الحكم والإدارة ، فراحوا يتخبطون ، ووصل بهم الأمر إلى إثارة العداوة حولهم فى الداخل والخارج مما أنك القوى المصرية تماما (١) .

ولم يكن الأمر جهلا بالحكم والإدارة فحسب ، بل إن أمور مصر أصبحت فى يد من يسميهم الدكتور حسين مؤنس « فئران السياسة » فارتكبوا أعمالا عدوانية شنيعة ضد هذا الشعب وأمواله وقِيَمَه ، ونهبوا الأموال بلا حساب ، ولم تقتصر عمليات القبض والمصادرات ونهب الأموال على الخصوم السياسيين ، بل امتدت الأيدي الجشعة إلى كل مالك وكل شخصية لامعة أو مستورة ، فانتقلت القصور والأموال والضِّياع إلى باشوات بلا ألقاب ، وأشراف بلا شرف ، وناس بلا إنسانية ، ومواطنين بلا وطنية ، وليت ما نهبه الثوار العسكريون بقى بمصر ، فكل الدلائل توضح أن أموالا بلا حدود ألقوا بها وراء الحدود (٢) .

(١) انظر كتاب « حوار وراء الاسوار » للأستاذ جلال الدين الحمامسى

ص ٩٢ .

(٢) دكتور حسين مؤنس : باشوات وسوبر باشوات صفحات

المقدمة ب ، د .

ولنترك المفكرين والمؤرخين ولنذهب إلى رجال السياسة لنرى رأيهم فيما فعلته الثورة بمصر .

والحق أننى كنت دائما حريصا كل الحرص على أن أتعرف على مآثر هذه الثورة ، وكنت أقرأ باهتمام وأستمع باهتمام لكل كلمة وحديثٍ يمتدح هذه الثورة ، لعلى أجد بعض مزايا لها ، ولعل آخر ما سمعته وقرأته هو خطاب الرئيس حسنى مبارك عن هذه الثورة فى يوليو ١٩٨٨ بمناسبة مرور ٣٦ سنة على قيامها .

ماذا قال حسنى مبارك عنها ؟

إن حسنى مبارك قال كلاما مجملا كذلك الذى يقوله أتباع هذه الثورة ، وأمامى الآن خطابه ، وخلاصته هى :

إن الثورة قامت تعبيرا عن إرادة شعبية عارمة ، تريد حياة ديمقراطية سليمة بعد أن عمّ الفساد ، وتطالب بأن يكون حكم مصر للأبناء مصر .

وقال الرئيس حسنى مبارك إن الثورة جاءت تعبيرا عن إصرار الشعب المصرى على إعادة بناء قواته المسلحة بعد أن فرض المستعمر على الحكومات المصرية المتعاقبة أن تقيّد حركتها خاصة بعد دور مصر فى حرب ١٩٤٨ رغم كل المؤامرات الخارجية التى أرادت أن تضرب الأمة العربية فى مقتل ، ورغم الظروف الصعبة التى كانت القوات المسلحة تؤدى رسالتها فى ظلها .

وأشار إلى ظروف ثورة ٢٣ يوليو الرائدة فى قضايا تحرير الشعوب والدفاع عن حقوق الإنسان فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية . وأكد دور ثورة يوليو فى مساندة الثورات العربية والإفريقية بكافة الوسائل ، مشيرا إلى أن التحديات التى واجهتها الثورة لم تكن هينة .

ثم أشار إلى أخطائه ثورة يوليو وعثراتها وقال إن الأمجاد لا بد أن تقابلها عقبات وأخطاء •

وأضاف أنه ليس هناك شك في أن ثورة ٢٣ يوليو حدث بالغ الضخامة لا يمكن تجنب تناوله بالبحث والتنقيب والتحليل ، وقال إن علينا التزاما بأن نكون في مستوى المسؤولية الوطنية عند تصديقنا لهذا العمل مشيرا إلى أن الواجب الوطنى يتطلب أن نكون موضوعيين بعيدا عن الشبهة والرغبة في تمجيد الذات والتهجم على الآخرين •

وتحدث الرئيس مبارك عن دور القوات المسلحة في حماية البلاد اليوم ، كما تحدث عن عملية التنمية التى تجرى الآن ، ومناخ الديمقراطية الذى يسود البلاد •

وقال إن الحكم اليوم حكم ديمقراطى يؤمن بحرية التعبير على أوسع نطاق ، وأكد الرئيس مبارك أنه لا غنى عن الديمقراطية الاجتماعية ، وعن الديمقراطية السياسية ، مؤكدا أن حق المواطن فى المشاركة فى اتخاذ القرار يوازى حقه على مجتمعه فى توفير الحياة الكريمة طالما كان يؤدي عمله بإخلاص ، كما أكد حق الشعب فى أن يعلم ، وضرورة مصارحة الشعب بالحكم مشيرا إلى أن هذا هو منهج الحكومة فى مصارحة الشعب بكل شئ لكى يشارك فى إصدار القرار بالنسبة لكل القضايا المصرية ، وأشار الرئيس مبارك إلى أن المشكلة الاقتصادية هى من أصعب المشكلات التى تواجه مصر ، موضحا أن هذه المشكلات ليست داخلية ولكنها تتأثر بالأوضاع الدولية •

ذلك موجز دقيق لكلام الرئيس حسنى مبارك ، وهو كما يبدو كلام عام ، لا يشبع نهما ولا يروى غلطة ، وهو نفس الكلام الذى يقوله أتباع هذه الثورة مما لا ينفع فى مقاييس الحكم وموازن الفكر ، وإذا أردنا أن نتتبع كلام حسنى مبارك جملة إثر جملة عن هذه الثورة فإننا نقول :

أولا : يقول حسنى مبارك إن الثورة قامت تعبيرا عن إرادة شعبية تريد حياة ديمقراطية سليمة وهذا الكلام صحيح تماما ، فالإرادة الشعبية كانت تريد حياة ديمقراطية سليمة ، ولكن الثورة كانت في دكتاتوريتها أشنع وأقسى آلاف المرات من دكتاتورية ما قبل الثورة ، ولم تستجب الثورة إطلاقا لهذا المطلب الشعبى ، وقد كرر أنور السادات الحديث عن طبيعة عبد الناصر الدكتاتورية (١) ولهذا لم تعرف البلاد الديمقراطية الحقيقية التى تبنى على الانتخاب الحر ، وإنما فى عهد حسنى مبارك عرفنا ديمقراطية الكلمة ، أما أن تنتقل الكلمة إلى عمل ، وينتقل الصوت فى الانتخابات إلى ممثلين حقيقيين بمجلس الشعب ، فهذا هو ما يتمناه كل مصرى ، وسنتكلم فيما بعد عن الثورة والديمقراطية .

ثانيا : النقطة الثانية التى أكّدها حسنى مبارك هى إصرار الشعب على بناء قواته المسلحة ، والذى حدث فى عهد عبد الناصر الطويل هو تدمير القوات المسلحة عسكريا فى المعارك التى أساء الزعيم ورفاقه التخطيط لها وإدارتها ، وتدمير القوات اجتماعيا من كثرة المحاكمات والعزل ، ومن اشتراكها فى العدوان على الإنسان المصرى ونهب أموال الدولة .

ثالثا : تحدث الرئيس عن دور ثورة ٢٣ يوليو الرائد فى قضايا تحرير الشعوب فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ، وهذا كلام عجيب ، لأن الذى نتساءل عنه أولا هو مصر نفسها ، والإنسان المصرى ، وسنتحدث عن موقف الثورة من مصر والإنسان المصرى بعد قليل ، وجهيعُ الزعماء فى العالم يوجهون اهتمامهم الأول لبلادهم وشعوبهم ، فإن بقى بعد ذلك جهد أو مال فلا مانع من مساعدة الآخرين ، على أن يكون ذلك للأقرب فالأقرب .

(١) البحث عن الذات ص ٢١٣ و ٢٤١ وغيرها .

والعجيب أن بعض الناس أخذوا ما يقال عن مساعدة عبد الناصر لآسيا وإفريقية وأمريكا اللاتينية قاعداً مسلماً ، والحق أن الصراع التحرر سبق عبد الناصر بزمان طويل ، وقد وصلت بلدان كثيرة إلى الحرية قبل أن يصل عبد الناصر إلى عالم الضوء بعدة سنوات ، فاندونيسيا تحررت سنة ١٩٤٥ والهند وباكستان جبلت عنهما القوات البريطانية سنة ١٩٤٧ بعد جهاد طويل .

وتحررت أكثر الدول بسبب ظهور الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي في المجال الدولي ، فأنحسرت قوة الدول الأوربية المستعمرة كما سنرى بعد قليل عند كلامنا عن « الثورة وطرد الاستعمار » وظلت دول خاضعة للاستعمار حتى تحررت حديثاً كدولة « بروني » أو لانزال تصارع من أجل الحرية حتى العهد الحاضر مثل ناميبيا ، وهذا يثبت أن من الخطأ ربط التحرر في هذه البلاد بثورة عبد الناصر .

قد يكون عبد الناصر صرّخ من أجل تحرير الشعوب ، ولكنها كانت صرخة الجريح الذي طعن وانهار في أول عهده سنة ١٩٥٦ فقل أن حُسِبَ لصرخته أي حساب .

إنها إشاعة أن يقال إن عبد الناصر حرّر الشعوب ، وتلك الإشاعة لا تقوى على البقاء أمام البحث العلمي الدقيق .

وربما كانت الحقائق التاريخية تثبت العكس ، فهذه الدول هي التي ساعدت مصر ، فإن ما أنزله المعتدون بمصر من ضحايا ودمار أثار الشعوب العربية والإسلامية والإفريقية ، فأدانت العدوان وتصدت للمصالح الغربية الحيوية ، فكان ذلك عاملاً مهماً في تحديد مصير العدوان على مصر (١) فالشعوب في آسيا وإفريقية هي التي ساعدت مصر أكثر من مساعدة مصر لهذه الشعوب .

(١) انظر « أمن مصر القومي في عصر التحدييات » للواء محمد حافظ اسماعيل ص ٦٣ .

رابعاً : يقول الرئيس حسنى مبارك ان ثورة يوليو لها اخطاء وعثرات ، والحق أن لها كبوات مهلكات فى كل المجالات ، وسنعرض فيما بعد نماذج من هذه الكبوات بالاضافة لما ذكرناه فى الجزء التاسع من هذه الموسوعة .

خامساً : يقول الرئيس إن ثورة ٢٣ يوليو حدث بالغ الضخامة . وذلك مثل قولهم إنها غيرت خريطة المجتمع ، وهو كلام أشبه بقصيدة شعرية حسنة الأوزان لا تحمل أية حقيقة من الحقائق .

سادساً : يتحدث الرئيس عن أن الحكم اليوم حكم ديمقراطى يؤمن بحرية التعبير ، وهذا صحيح تماماً ، فإننا فى هذه الأيام نتكلم بحرية ، ونقف عند حدود الكلمة ، أما حرية الانتخابات وحرية تكوين الأحزاب ، وحرية إنشاء الصحف ، وحرية الاجتماعات ، فلا وجود لها ، وأظن أن الرئيس يوافقنى على ذلك .

سابعاً : يتحدث الرئيس عن المشكلة الاقتصادية بأنها أصعب المشكلات التى تواجه مصر وأقول للرئيس إن الرئيس موجابى رئيس دولة زيمبابوى نشرت عنه وسائل الإعلام المصرية قوله إن الإنتاج الزراعى تضاعف عشر مرات ببلاده فى ست سنوات فماذا حدث فى بلادك يا سيادة الرئيس خلال ست وثلاثين سنة هى عمر الثورة التى نتحدث عنها ؟

هذا تعليق سريع على كلمة الرئيس فى ذكرى هذه الثورة التى كلما ذكرناها ارتسمت أمامنا صور الشقاء ، والقهر ، والسجن ، وأحكام الإعدام ، والاضطهادات ، والسرقات ، والإهمال ، والجهود ، ومن هنا نسأل هذا السؤال العميق :

ماذا فعلت الثورة بمصر وبالإنسان المصرى ؟

والإجابة مرة الطعم جدا ، فمصر قد انهارت تماماً بسبب الثورة ، وأصبحت تعيش على القروض وتمر بها شهور لا يكون عندها طعام إلا

لأيام قليلة ، ونجدد السعى لنحصل على الطعام ، والحصول عليه دائما من أعدائنا أو من أصدقاء أعدائنا ، ولا ثمن معنا نقدمه مقابل هذا الطعام •

ويحدث هذا في مصر حين استطاعت الصين (١١٠٩ مليون نسمة) أن تنتج طعامها وأن تصدر الطعام والمعلبات والملابس لدول كثيرة •

واستطاعت الهند (٨٠٠ مليون نسمة) أن تنتج ما يكفي هذه الأقوام من الطعام وعندها فائض ، واستطاعت الباكستان واندونيسيا وكوريا وتركيا والسعودية أن تحقق هذا الأمل وسيجيء فيما بعد مزيد من الكلام عن الهند في هذا النطاق ، أما مصر فهي واقفة : محطك سرّ أو تراجعك القهقري على الرغم من تزايد السكان ، وسنعود للحديث عما حققته الهند وغيرها من دول العالم الثالث فيما بعد عند الحديث عن « التطور والجهود » •

كيف نفخر بأن الثورة ساعدت آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وننسى أن الثورة دمرت مصر وأعادتها للوراء ؟

والذى يقال عن الطعام يقال عن الصناعات ، فقد حققت أكثر دول العالم الثالث صورا من التقدم في مجال الصناعات ، وأصبح في ماليزيا وفي تركيا سيارة محلية مائة في المائة ، وقد نقلت الصحافة المصرية الصادرة في ٢٠/٧/١٩٨٩ عن صحيفة التايمز البريطانية أن بريطانيا قد تعاقدت على شراء خمسين ألف سيارة من ماليزيا كدفعة أولى ، وطالبت الصحيفة جميع الشركات البريطانية بضرورة رفع كفاءتها حتى لا تقضى عليها صناعة السيارات في الدول النامية •

وفي يوم من الأيام سمعنا عبد الناصر يتباهى بأن مصر تنتج من الإبرة للصاروخ ، والحق أننا لم ننتج لا الإبرة ولا الصاروخ وإنما أنتجنا التعذيب والمعتقلات وسهر الليالي الحمراء في رحاب عام وصلاح نصر •

أما سمعة مصر ومكانتها فقد انهارت إلى القاع في الحروب الخاسرة .

هذا ما فعلته الثورة بمصر ، أما الإنسان المصرى فقد عانى الويلات خلال هذه السنوات السود ، بين قتل وحبس وتعذيب ، وفصل من الوظائف ، وعلى الأقل بين الخوف والقلق .

ولم يجد الإنسان المصرى حاجته بالأسواق في فترة الانغلاق التى فرضها عبد الناصر ، فلما جاء الانفتاح الذى رعاه السادات ظهرت السرقات والانحرافات وأصبح الإنسان المصرى يرى سلع الترف ولا يستطيع لضيق اليد أن يحصل عليها .

ولنعد لصحيفة الأخبار الصادرة في ٢٠/٧/١٩٨٨ وقد خصصت صفحة كاملة هي الصفحة الرابعة لتتحدث عن ثورة ٢٣ يوليو ، ووضعت بها عنوانا ضخما هو :

ثورة يوليو في عيدها الـ ٣٦ بين الايجابيات والسلبيات

وزمنت الصفحة بمجموعة من صور القادة والزعماء ، وفرحت بهذه الصفحة لعلى أجد إيجابيات للثورة ، فأنا دائما أبحث عن هذه الإيجابيات .

ماذا قالت الصحيفة الحكومية في هذا المجال ؟

يبدو أن الكاتب ذكى جدا فلم يكتب تحت هذا العنوان إلا موضوعا من موضوعات الإنشاء ، وهو قليل الكلمات وليس فيه حقيقة واحدة ، فهو أشبه بموضوع كتبه تلميذ في المدرسة الإعدادية ، وبالضبط قالت : إن ثورة ٢٣ يوليو تمثل في تاريخنا سواء في إطار مصر أو الأمة العربية أو المستوى العالمى أهمية قصوى ، واكتفى الكاتب بذلك دون إعطاء أية تفاصيل .

ولو رأى هذا الكاتب ما رأيناه من احتقار الناس لنا ، وشماتتهم بنا في هزائنا المتكررة لتوقف عن هذا الكلام العام ، ولقال كلمة الحق ليس من أجل الماضي بل من أجل المستقبل ، فالزعيم إذا عرف أنه سيأخذ حقه فقط ، فإنه يخاف ويعمل ليكون ذكره عطرا ، أما إذا عرف أن الأقدام ستمدحه أحسن أو أساء ، فإنه قد لا يرى ضرورة للإحسان والإجادة .

ولقد ذكرت جيهان السادات في كتابها « سيدة من مصر » أنه بعد عشرين عاما من قيام الثورة كان معظم الفلاحين لا يزالون يستعملون المحراث الذى كان مستعملا من عهد الفراعنة ، ولا تزال الجواميس المعصبة الأعين تدور في السواقي ، ولا تزال الأمية منتشرة بنسبة عالية تصل إلى ٤٩٪ بين الذكور و ٦٠٪ للنساء ولا يزال الشعب في قاع الفقر (١) .

الإسلام وعلاج المشكلات الاقتصادية :

وفي خطاب الرئيس بمناسبة العيد الذى نتحدث عنه أشار إلى الأزمة الاقتصادية التى نعانيها ، والتقط المحررون بالصحف هذا الخيط ليسألوا المفكرين المسلمين عن دور الإسلام في معالجة الأزمات الاقتصادية ، وكنت واحداً من الذين سألتهم محرر بصحيفة الاهرام ، وأجبت بكلام نشرت الصحيفة منه يوم ٢٩/٧/١٩٨٨ ما يناسبها كصحيفة حكومية ، وتركت الباقي ؛ لقد قلت إن الاضطرابات الاقتصادية يعالجها الإسلام بوسيلتين : إحداهما إيقاف وسائل النزيف الذى يكون قد أدنى لهذه المشكلة الاقتصادية ، وضربت أمثلة كثيرة لذلك ، كالسفارات الكثيرة بالخارج التى لا تحتاجها بلادنا ، والرحلات التى تقوم بها الوفود دون ضرورة ، وكاستقدام الضيوف للمؤتمرات التى لا تدعو الحاجة الماسة لها ، وكآلاف الجنود مما يسمى (الأمن المركزى) وقد كان ضرر هؤلاء فادحا ولا نعرف لهم فائدة على الإطلاق ، وكالسرقات والغنائم التى يحصل

عليها المحظوظون ، والمجالس النيابية الواسعة ومجلس الشورى والمجالس المحلية التى تضم أعضاء كثيرين يأخذون ولا يعطون ، فالكثيرون منهم يجيدون الأخذ والكسب ولكنهم ليسوا مؤهلين للعطاء ، كالخمسين فى المائة من العمال والفلاحين الذين لا يجيد أكثرهم إلا التصفيق والموافقة .

ولم تنتشر الأهرام من حديثى عن هذه الوسيلة إلا كلمات تمد على أصابع اليد الواحدة على الرغم من أننى ضربت الأمثال بما فعله « عمر » رضى الله عنه من مصادرة نصف ما عاد به أبو هريرة من ثراء عندما كان عاملاً على بعض مناطق الخليج .

أما الوسيلة الثانية فتكون بإخراج الزكاة ، والزكاة التى يلتزم بها الأغنياء كفيلاً بتخفيف الضرر أو إلزاقه ، ونشرت صحيفة الأهرام بالتفصيل ما ذكرته عن موقف عمر بن الخطاب فى عام المجاعة حيث تعاون الجميع بصدق للقضاء على المشكلة الاقتصادية ، وكان الخليفة فى الطليعة بين من تحملوا العبء حتى جاء الفرج .

محاكمة الثورة :

وبمناسبة مرور ٣٦ عاماً على هذه الثورة المشؤمة كتب واحد من أبرز الكتاب موضوعات بصحيفة الوفد بعنوان « محاكمة الثورة » واتجاهه أنه اكتوى بنارها لا كشفها ولكن كمصرى ، ولسنا نقف عند المثالب التى ذكرها لها غمى شهيرة ومدمرة ، ولكننا نقف عند الحسنات التى أوردها ، وهى الآتى :

١ — تحرير الأرض المبللة بعرق الفلاح من وطأة الإقطاع .

وقد نسى هذا الكاتب الخراب الذى جره نظام ما سسمى « الإصلاح الزراعى » على مصر ، ونسى أن الجميع يشكون من الظلم الذى دمر مالك

الأطيان بالنسبة لزراع الأطنان ، وأن تفتت الأرض الذى لم يفعل مثله أحد (ولا الاتحاد السوفيتى) حرم مصر من صبور من الإنتاج الزراعى ومن تربية الحيوانات ، ونحن الآن نعانى من ذلك ، وقد كانت هناك وسائل متعددة للقضاء على الإقطاع إن كان هذا إقطاعا ، بدون إجاعة الناس وفرض الحرمان عليهم ، وبدون أن تخسر مصر المزارع الكبيرة التى كانت تقدم حاجتنا الغذائية ، ومما يدعوا الحسرة أن التفتت كان يجرى بالنسبة للشعب ، ولكن تجميع الثروات كان يتم فى نفس الوقت بالنسبة لزعماء الثورة وأولادهم كما سنرى فيما بعد •

٢ — مجانية التعليم يراها الكاتب من مصادم الثورة ، ونسى أن مجانية التعليم لها جذور قبل الثورة ، وأن المجانية التى خلقتها الثورة جعلت اليد العاملة تختفى ، وولدت ملايين الماطلين الذين يحملون شهادات ولا يجدون عملا ، أو يلتحقون بعد الليسانس بمعاهد لتدريبهم ليتعلموا الميكانيكا أو السباكة أو نحوها ، وتجاهد الدولة حاليا لتنظيم هذه المجانية التى خلقت أسرابا من الفساد ، هذا بالإضافة للدروس الخصوصية التى تتكلف أضعاف ما كان الطلاب يدفعون من مصروفات •

٣ — المصانع المبتوثة هنا وهناك ، وأنا أسأله أين هى ؟ وماذا أنتجت ؟ وهناك اعلانات ولوحات كثيرة كتب تحتها صنع فى مصر وأنا دائما أحاول أن أتعرف على مصنوعات بلادى الحقيقية المرتبطة بعصر الثورة فأجدها غالبا لا ترضى النفس الطموحة •

— تأميم قناة السويس : والذى أمم القناة سنة ١٩٥٦ فى حركة انفعالية تسبب فى إغلاقها حوالى عشر سنوات ، وكانت على وشك أن تفقد مكانتها لولا جهود أنور السادات ، وكانت القناة ستعود لنا بعد فترة ليست طويلة ، وقد تسبب تأميمها فى حرب خسرها فيها من الأرواح والعتاد أضعاف ما كسبنا ، ثم إننا دفعنا تعويضات باهظة كنا سنغنى منها لو انتظرنا عودة القناة سنة ١٩٦٨ •

ليت الكتاب يتعمقون في الفكرة قبل أن يطلقوا العنان للأسلوب
والإداء .

وللأستاذ جلال الدين الحمامي رأى فيما يسمى إنجازات الثورة
نشبه هنا للإنصاف والحيدة ، يقول سيادته :

لست أنكر أن محاولات ما بذلت لتوفير الدواء ، وتوسيع مجانية
التعليم ، وتوزيع الأراضي الزراعية ، ولكن هذه المحاولات امتزجت بعوامل
معينة أشككت على فاعليتها ، أولها وأهمها عامل الارتجال وعدم التخطيط ،
وثانيها عامل العنف في التطبيق ومفاجأة الناس بإجراءات غير مدروسة مما
اغرقهم في تشريعات سمحت لذوى النفوس الضعيفة باستغلال الدواء
والعلاج والتعليم والجمعيات التعاونية لفتح أبواب الرشوة والفساد
على مصاريعها (١) .

(١) جلال الدين الحمامي : حوار وراء الاسوار ص ١٣٠ .

٤ — الثورة والديمقراطية :

هذه هي المقدمة الرابعة الأحاديثنا عن عصر السادات الذى كان جزءا من ثورة الجيش ، وقد كان من بين النقاط الست التى أعلنتها الثورة على أنها مبادئ تسعى لتحقيقها : إقامة حياة ديمقراطية •

وأكثر ما يدعو للسخرية ويجلب غضب الله والناس أن تزيّف الكلمات والمعانى ، فالحاكم المستبد يستطيع أن يحكم بلده بدكتاتورية حاسمة واستبداد واضح ، وبالحديد والفار ، وقد عرف التاريخ المصرى صورا من الحكام المستبدّين ، وكان بعضهم عادلا مع الاستبداد ، وبعضهم جائرا مع الاستبداد ، ولكن الشيء الجديد الذى ابتدعه ثورة يوليو هو أن الحاكم المستبد يتغنى بالديمقراطية ، وقد ظهر فى ظل هذه الثورة حكام عيّنوا المجالس النيابية ، وحكام زيّفوا الانتخابات زيفا مضحكا ، وحكام أهملوا أحكام القضاء ، ومع هذا كانوا يعلنون من حين إلى حين أنهم يحكمون حكما ديمقراطيا ، وقد استعمل هؤلاء الحكام وزراء للداخلية كانوا يجرون الانتخابات والاستفتاءات ويعلنون نتائجها بطريق التسعات ٩ : ٩٩/ وعندى أنه من الخير للحاكم المستبد أن يعلن استبداده بدل أن يتمسح بديمقراطية لا يتبعها ، وذلك نوع من الكذب يثير السخط والاحتقار ، فعيون الناس مفتوحة ولا تخفى هذه الأرقام الحقيقية عن الناس ، وقد اضطر جمال عبد الناصر أن يفسر الديمقراطية بأنها تقديم رغيف الخبز للشعب وتعيين أولادهم فى وظائف •

إن الديمقراطية الحقيقية فى عالمنا الثالث عملية سهلة لمن أرادها ، هيئة مستقلة تجرى الانتخابات وتشرف عليها ، وهناك فى الهند هيئة مستقلة أجرت الانتخابات عندما كانت أنديرا غاندى رئيسة الوزراء ، فسقطت أنديرا غاندى ، ثم أجرت هذه الهيئة الانتخابات وأنديرا غاندى بعيدة عن الحكم فنجحت أنديرا غاندى •

من شاء أن يفعل هذا فليفعله ، ومن أراد أن يخون حق الوطن

والإنسان المصرى فلم يرتكب هذه الخيانة بوضوح ، فلن ينجيه الخداع من حساب التاريخ ١٠

وقد وَضَعَ عبد الناصر أُنسُس الديكتاتورية التى سار عليها أتباعه من بعده ، ويقرر المرحوم الدكتور القيسونى نائب رئيس الوزراء أنه مرة اقترح فى مجلس الوزراء — وكان منعقداً برئاسة عبد الناصر — أن يُتَّوَجَد نوع من الديمقراطية ومسئولية الوزارة ، فصرخ فيه عبد الناصر : هل يعنى حديثك أن تجعل منى ساراجات آخر ؟

وكان ساراجات فى ذلك الوقت رئيساً لجمهورية إيطاليا • ونظام الحكم فى إيطاليا كما هو معروف يشبه إلى حد ما نظام الحكم فى إنجلترا ، ورئيس الدولة يملك ولا يحكم ، وتتولى الوزارة السلطة الحقيقية فى الدولة ، وتكون مسئولة أمام البرلمان مسئولية تامة •

فقال القيسونى له : إبنى إنما أردت أن أبعدك عن النفذ الشعبى ، فكل تصرف عندنا الآن ينسب إلى رئيس الجمهورية سواء قرره هو أو نم يقرره •• كما أردت أن أجعل هناك وزارة مسئولة ، وأن أعطيك حق التغيير الوزارى كلما فكَّدت الوزارة ثقة الشعب •

فقال عبد الناصر : إنه غير معتاد على القيام بمثل هذا الدور •

ويواصل الدكتور القيسونى قوله : وفى أول تعديل وزارى تم بعد ذلك وكان فى ٢٠ مارس سنة ١٩٦٨ ، أى بعد تسعة أشهر من اشتراكى فى الوزارة وجدت نفسى خارج الوزارة (١) •

تسقط الديمقراطية ، تسقط الحرية :

والحق أن أصدق تعبير عن اتجاهات الثوار هو تلك المظاهرات التى

(١) حديث بالاطخبار القاهرية فى ١٦/١/١٩٨٧ •

حشد الثوار لها طبقة من الفوغاء يوم السبت ٢٧ مارس سنة ١٩٥٤ جىء بهم من مديرية التحرير ، ومن قوات الحرس الوطنى ، ومن القيادات العمالية ، وراح هؤلاء يهتفون : نسقط الديمقراطية — تسقط الحرية — يسقط المتعلمون • وكان ذلك فى الحق هو التعبير الحقيقى لاتجاهات قادة ثورة ٢٣ يوليو ، ولابد أن نذكر أن العمال الذين اشتركوا فى هذه المأساة كانوا بقيادة : صاوى أحمد صاوى الذى عُرِف فى التاريخ المصرى بصاوى صاوى على وزن اللورد هاو هاو أشهر خائن فى تاريخ بريطانيا (١) • وقد قنع هؤلاء الفوغاء بقروش ضئيلة نظير هذا الموقف الأثيم •

والعجيب أن أنور السادات يتغنى فى كتابه « وصيتى » بالديمقراطية ويذكر أن الثورة أهملت المبدأ السادس من المبادئ التى أعلنتها بعد قيامها ، وأنه هو تدارك الأمر ، ونحن نوافقه على أن الثوار جميعا بما فيهم أنور السادات أهملوا الديمقراطية وحاربوها ، ونوافقه على قوله « إنه فى ظل الثورة تحول الإنسان المصرى إلى مجرد أداة فى خدمة النظام الثورى مما أدى إلى كل السلبيات والنكبات ، وأن الإنسان المصرى قد تمزق وكان ذلك نتيجة لتطبيق النظام الاشتراكى فى مصر ، فقد أصبحت الاشتراكية مرادفا لفرض الحراسات ، ومصادرة الممتلكات ، وفتح المعتقلات ، وغياب القانون ، وأوشكت هذه الموجة الطاغية أن تطمس معالم شخصيتنا الأصيلة مع ضياع المثل والقيم والتقاليد ، وبذلك فقد الإنسان المصرى إحساسه بالانتماء إلى وطنه لأنه أدرك أن هذا الوطن أصبح ملكا لفئة قليلة تجلس على قمة السلطة الثورية » (٢) •

تلك كلمات صادقة تصف العهد الثورى أدق وصف ، ولكن الديمقراطية لم تعرف طريقا للنور منذ قامت الثورة ، فحرية الانتخابات هى من أهم أسس الديمقراطية ، وهى شئ كرهه جدا للفكر العسكرى سواء كانت القيادة فى يد عبد الناصر أو السادات •

(١) دكتور حسين مؤنس : باشوات وسوبر باشوات ص ٢٣٤ •

(٢) أنور السادات : وصيتى ص ١٢ - ١٣ •

٥ — الثورة وطرد الاستعمار :

في هذه المقدمة الخامسة نذكر أن بعض أتباع الثورة يقولون إنها طردت الاستعمار • وهذه مغالطة جاهلة ، فالاستعمار الأوربي قد انتهى من العالم كله بعد أن ظهر العملاقان : الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، فيبدون هذين العملاقين ما كانت أوربا تستطيع أن تنقصر على هتلر وموسوليني واليابان ، ومن ثم فهذان العملاقان يمثلان في غابة الحياة جماعات الأسود ، وعندما تظهر الأسود لابد أن تختفى الذئب والثعلب ، وعلى هذا قد اختفى الاستعمار الأوربي من العالم كله حتى من أقطار كانت ترحب به لظروف خاصة ولم تطالب بطرده ، وبدأ اختفاؤه من دول كثيرة قبل أن تظهر هذه الثورة بعدة أعوام كما ذكرنا من قبل •

فإذا جئنا إلى مصر وجدنا الثورة جلبت عليها أقدر استعمار عرفته البشرية وهو الاستعمار الصهيوني ، الذي ادّعى أن البلاد بلاده ، وعمل على الاستقرار بها ، وعندما أبعد هذا العدو بالحرب والمفاوضات لم يقبل أن يمنحنا حرية الحياة في المناطق التي كان يحتلها ، بل اشترط شروطا تنتقص من سيادتنا على هذه الأرض الغالية بسيناء •

ما أقسى ما عانت مصر وعانى الشعب المصري من هذه الثورة اللعينة •

وبعد هذه المقدمات الضرورية نتجه لعرض تاريخ أنور السادات •

عصر أنور السادات

خطة العمل بهذا الجزء « العاشر »

عندما كنت أكتب تاريخ محمد نجيب وتاريخ جمال عبد الناصر في الجزء التاسع من موسوعة التاريخ الإسلامى اتبعت نظام الحوليات ، فسجلت الأحداث من عام إلى عام ، وكان هذا منهجا مناسباً هناك إذ لم يكن لمحمد نجيب ولا لعبد الناصر تاريخ " قبل الثورة ، اللهم إلا وقفة قصيرة لمحمد نجيب في انتخابات نادى الضباط قبيل قيام الثورة •

وفي هذا الجزء المخصص لدراسة عصر أنور السادات أرانى مضطرا لاتباع منهج مخالف ، وذلك بسبب الوجود السياسى لأنور السادات قبل الثورة ، ثم قبل أن يصبح رئيسا للدولة ، ومن هنا فإنى سأعرض تاريخه في ثلاثة أبواب هي :

الباب الأول : أنور السادات قبل الثورة •

الباب الثانى : أنور السادات من مطلع الثورة إلى أن تولّى رئاسة الجمهورية •

الباب الثالث : أنور السادات رئيسا للجمهورية •

وفي حدود هذا التخطيط نرجو بعون الله أن نرسم صورة للرجل في أدق ملامحها ومميزاتها ، وأن نبرز جوانب شخصيته ومراحل حياته •

والله الموفق

الباب الأول
السادات قبل الثورة

جذور السادات ونشأته :

هناك صراع يتحدث عنه المربون بين الجذور والميراث من جانب والتربية من جانب آخر ، ومع أن التربية بلا شك تنقل الإنسان من حال إلى حال فإن آثار الجذور والميراث لا تختفى ، ويتفاوت القدر الذى يظهر منه حسب الظروف ، وقد بذل الإنسان جهدا كبيرا لترويض بعض الحيوانات وبخاصة المفترسة ، ونتيجة لنجاح الإنسان فى هذا المجال ظهر الأسد والفيل يقدمان للجماهير بعض الألعاب تبعا لأوامر الإنسان ، ولكننا نشاهد من حين إلى آخر ثورة الوحش على هذا التدريب ، وعودته فجأة لطبيعته وجذوره ، وهذا يؤكد لنا الصراع بين الجذور وبين التربية، وقد وضع الأعرشي الشاعر هذا المعنى فى بيت من الشعر قليل الكلمات فقال :

فجَرَّوْا على ما عَوَّدُوا ولكلَّ عِيدانٍ عصارة

وقد وصف الربيع بن يونس إلى أسمى المناصب فى بلاط العباسيين الأموال ، ولكن الربيع كان ينحدر من أصلٍ حقير ، وفى مرة كان يجلس فى مجلس المنصور وكان بالمجلس رجل ينتمى للأسر العريقة ، وكان هذا الرجل يروى بعضا من مفاخر أبيه ، وكلما روى قصة أتبعها بالترحم على أبيه ، فقال له الربيع : كم تكرر ذكر أبيك وتترحم عليه ؟

فقال له الرجل : إنك معذور لأنك لم تذوق حلاوة الآباء •

وعلى هذا فالتربية — بلا شك كما قلنا من قبل — تنقل الإنسان من حال إلى حال ، ولكن أثر الجذور لا يختفى ، بل يحاول أن يندفع إلى المسطح ، وتكبحه التربية ، فتتصر أحيانا ، وتضعف أحيانا أخرى ، ومن هنا كان من الضروري أن ندرس جذور السادات ونشأته لنرى مدى تأثير هذه الفترة عليه عندما أصبح فى القمة •

وقد كتب السادات عن جذوره ونشأته ، واعتقاده أنه لم يتخف الكثير من عناصر حياته الأولى ، وكتب عنه الآخرون بروح الصداقة

والقسوة وإن كان ذلك أيضا مع الصدق غالبا ، ومن كل هذه المصادر نستطيع أن نرسم للرجل صورة أقرب للحقيقة •

السادات والساداتى :

كان من بين زعماء مصر فى مطلع القرن التاسع عشر زعيم شهير اسمه « السادات » وكان ضمن الزعماء الذين تحدّثوا السلطان العثمانى وقرروا عزل خورشيد باشا واختيار « محمد على باشا » واليا على مصر ، واضطر السلطان العثمانى أن يخضع لاتجاه هؤلاء الزعماء ورغبتهم •

هل ينحدر أنور السادات من سلالة هذا الزعيم ؟

إن أنور السادات لم يذكر ذلك فى الكتاب الذى يُعتبر قصة حياته وهو كتاب « البحث عن الذات » وقد أورد فى هذا الكتاب طرفا من الحديث عن أجداده ، ولكنه لم ينسب نفسه للزعيم « السادات » •

ولكن أنور السادات فى كتابه « يا ولدى هذا عمك جمال » نسب نفسه للشيخ الزعيم السادات واعتبر ابنه جمال حفيد أولياء الله الصالحين ^(١) ثم أن هذا الاسم « السادات » يوحى بذلك ومن هنا أنبرى بعض المؤلفين يرفضون هذه التسمية ويقولون ان الاسم الحقيقى هو « الساداتى » ^(٢) والفرق كبير بين السادات والساداتى فالسادات يوحى بالارتباط نسبا بهذا الزعيم الكبير ، والساداتى توحى بالتبعية لهذا الزعيم والالتحاق به فى مجال الخدمة والمساعدة • أو أنه انتماء لأسرة أخرى غير أسرة الزعيم « السادات » •

وقد اهتم الأستاذ عبد الله امام بهذه التسمية اهتماما كبيرا فقدم

(١) أحمد طلعت : السادات قبل الرئاسة ص ٢٩ •

(٢) محمد حسنين هيكل : خريف الغضب ص ٢٨ بالهامش وأحمد

طلعت : السادات قبل الرئاسة ص ٢٦ •

لنا صورة زنكرافية لوثائق في ملف خدمة أنور السادات تؤكد أن اسمه
« الساداتى » (١) .

وهذا الموضوع يوضح أهمية الجذور في بلادنا ، فالأستاذ محمد
حسين هيكل والأستاذ أحمد طلعت لا يقبلان أن يرتبط أنور السادات
بنسب شريف ، غير مؤكّد من الناحية التاريخية ، وقد أعلن ورثة الزعيم
السادات أن أنور السادات لا يرتبط معهم بنسب (٢) .

أسرة أنور السادات :

هل كان أنور السادات نفسه هو الذى كتب قصة حياته « البحث
عن الذات » ؟

لو كان هو الذى كتبها فإن قدراته فى هذا الموضوع رائعة ، فقد
أثبت لقطات تثير الابتسام مثل « العسل وصل » حيث تحدث عن
المركب التى كانت تحمل العسل ويهرع الناس لها للشراء منها ، وأثبت
لقطات توحى بجلال أسرته كحديثه عن جدته التى كانت ملجأ الناس
لحل مشكلاتهم ، وأنها كانت تسمى « أم الافندى » وهو لقب يحمل
التقدير لها ولابنها والد أنور السادات .

وتحدث أنور السادات عن صور من الفقر عاناها ، والحديث عن
الفقر ليس عيبا ، فكثير من الزعماء كان آباؤهم وأجدادهم من الفقراء .
فإذا تركنا كتاب « البحث عن الذات » وذهبنا إلى ما دونه هيكل
وأحمد طلعت نجدهما يذكران أن أنور السادات تماشى قصدا الحديث
عن أمه « ست البرين » وركز فى الحديث عن جدته ، لأن الأم كانت
شخصية يصفانها بأنها لا تستحق الذكر ، ولكن كاميليا ابنة للرئيس
السادات تتحدث عن جدتها هذامفيما نشرته من بحوث بكل حب وتقدير .

(١) عبد الله امام : محاكمة عصر ص ٢٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٣ .

وكان والد أنور السادات حاصلا على الشهادة الابتدائية ، وكانت آنذاك شهادة لها قيمة لا بأس بها ، وكان موظفا في حدود هذه الشهادة ، وقد تعددت زوجاته وكثر أولاده مما جعل حياته الاقتصادية أقرب إلى الضنك ، وانعكس ذلك على أسرته ، ولذلك اضطر أن يعمل بالسودان رجاء الحصول على مرتب أفضل •

التشابه بين طفولة ناصر والسادات :

هناك تشابه واضح في بؤس النشأة التي عاناها كل من السادات وعبد الناصر ، وقد ذكرنا آنفا شيئا من ملامح نشأة السادات ، فماذا عن عبد الناصر ؟

يقول التاريخ :

طفولة عبد الناصر المبكرة كانت في قرية بنى مر بمحافظة أسيوط ، ثم انتقل أبوه عبد الناصر حسين خليل من محافظة أسيوط إلى الاسكندرية ، وعندما كان « جمال » في السادسة من عمره انتقلت الأسرة إلى الخطاطية ، وعندما أصبح « جمال » في الثامنة من عمره انتقل ليعيش مع عمه خليل بحارة اليهود في حي الموسكى بالقاهرة ، وفي التاسعة من عمره توفيت والدته التي كانت الأمل الوحيد له ، وعاد « جمال » من القاهرة إلى الاسكندرية بعد وفاة والدته ليعيش مع جديه لوالدته وألحقه أسرة والدته بمدرسة المطارين الابتدائية ، وعاد مرة أخرى وهو في الثانية عشرة من عمره ليعيش مع عمه « خليل » في القاهرة ، ثم ترك بيت عمه خليل الذى انتقل إلى المحلة الكبرى وعاش مع والده الذى كان قد نقل للعمل بالقاهرة ، وعام ١٩٣٦ أجبره والده على أن يعيش مع عمه خليل في المحلة الكبرى ، وبعد قليل عاد إلى القاهرة لينتقل بالكلية الحربية . إنها حياة قاسية أسرياً ووجدانيا وعاطفيا وماديا ، ثمانية عشرة عاما منذ ميلاده في ١٥ يناير ١٩١٨ لم يذق فيها حنانا أو راحة •

ذلك هو عبد الناصر ، وتلك هي حياته التي خلّفت فيه عقدة كئيبة ،
وهذا هو الرجل الذى حكّم مصر والمصريين عدة سنوات •

عودة للسادات فى حياته الأولى :

أمضى أنور السادات حياته الأولى فى قرية ميت أبو الكوم بمحافظة
المنوفية وحديث أنور السادات عن نفسه فى هذه الفترة حديث ذكى ،
فيه كثير من الخيال ، فهو يتحدث عن أعمال جماعية بالقرية كان يشترك
فيها غير منتظر أجرا ١ ١ ويتحدث عن الزرع والأشجار حديث شاعر
لا يتناسب مع طفولة أنور السادات وصباه (١) •

والتحق أنور السادات بالكتاب شأن كل الأطفال فى ذلك الوقت ،
وفى الكتاب حفظ بعض القرآن وتعلم القراءة والكتابة وبعض الحساب ،
ثم التحق بالمدارس الابتدائية ثم بمدرسة فؤاد الأول الثانوية •
وانتهى من دراسته الثانوية ووقف على باب الحياة الجامعية أو
الكليات العسكرية •

لعبة الحظ فى العالم الثالث (الكليات العسكرية) :

إذا تركنا دول العالم الثالث التى يحكمها ملوك كالمملكة العربية
السعودية وسلطنة عمان •• ونظرنا للدول الكثيرة الباقية نجد أن أكثرها
يحكمه العسكريون وهذه فى تقديرى حقيقة تدعو للخجل ، فرجال الجيش
آثروا المتع وهدوء البال ، والحجرات والسيارات مكيفة الهواء ••••
وتركوا خشونة الحياة العسكرية وصلابتها ، وعندما ظهر أن ذلك يحدث
قلقا ونفوراً بينهم وبين القابعين فى الخنادق ، أغدق العسكريون الذين
بيدهم السلطة على زملائهم بالجيش ، فيسّروا لهم المساكن ، وأفخم
الاندية ، ووسائل العلاج ، والرحلات ، والمصايف ، وابتكروا الملحقين

(١) البحث عن الذات ص ١٢ •

العسكريين بالسفارات لإرضاء بعض الطموح ، أما المرتبات والبدلات
فحُدَّت عنها ولا خرج .

وفي مجال امتيازات الجيش نقتبس سطورا قليلة كتبها الأستاذ
الدكتور محمد عصفور في عموده اليومي بصحيفة الوفد في ١٠/١٠/١٩٨٨
عن مساكن الضباط يقول فيه :

أعلن المشير أبو غزالة أن المدن العسكرية السكنية الكثيرة قد
لبَّت حاجة جميع أبنائنا الضباط للسكن . . . وأنها قريبا ستلبّي كذلك
حاجة جميع أبنائنا صف الضباط . وهكذا نجا الضباط من متاعب الحصول
على مسكن كما نجوا من السكنى بالمقابر والأكواخ والمخابىء .

ونقتبس في مجال هذه الامتيازات سطورا أخرى من كلمات الأستاذ
جمال بدوي نشرها أيضا بصحيفة الوفد وهذه الكلمات ترتبط بالخبز
الخاص بالضباط ، قال سيادته :

« في الجولة التي قام بها السيد رئيس الجمهورية في معسكر
الهاكستب ، ظهر الرئيس في الصورة التي نشرتها الأهرام ومعه المشير
أبو غزالة وهما يتفحصان رغيفا غريب الشان . . . »

« كان الرغيف منتفخ الأوداج . . مستدير الوجه . . ناضج القلب
مليح القسما . . متورد الوجنت . . يثير لعاب الجوعى ، حتى كدت
من فرط نهيم أن ألتهم الورقة التي تحتوى على صورة الرغيف . . .
ولكنى تراجع . . وقلت لنفسي حرام أن يكون الأكل مصير هذا الرغيف ،
إنه يستحق التمجيد ولا أقل من أن يوضع داخل بروز ويشعلق على
الجدران ليتفحرج عليه العامة . . أو يسان في « فقريئة » زجاجية بالمتحف
ليشهد السائح كدليل على رقينا الحضارى واهتمامنا بحقوق الإنسان
المصرى . . . وتوقعت أن تجعل منه وزارة الثقافة موضوعا لمسابقة بين

المشعراء ليتغزلوا في جماله ويدبجوا فيه القصائد الملاح كما كان يفعل ابن الرومي والشريف الرضي وحافظ إبراهيم •

« والسؤال الذي يلح على أمثالي من العامة كيف السبيل إلى الحصول على نسخة من هذا الرغبة ؟ هل نعثر عليه في الصيدليات ؟ أو في البنوك الحرة ؟ وما هي المسوغات المطلوبة لاقتنائه •• هل تكفى البطاقة العائلية •• أو جواز السفر •• أو شهادة فقر موقع عليها من اثنين موظفين لا يقل مرتب كل منهما عن ستين جنيها ؟

« دلوني يا أهل الذكر على طريق الوصول إلى هذا الرغبة المدهش ••• ولكم الأجر والثواب من الله » •

ونقتبس من حسن عزت ^(١) وهو ضابط زميل للسادات وصديق له يقول بأن هناك حوالي ٣٠٠ ضابط يحصلون على المعاش المخصص للضباط الأحرار على الرغم من أن ٩٠٪ منهم لم يشتركوا في الثورة ، وهكذا كان للضباط الأحرار ومن دخل في زمرتهم معاش خاص ممتاز •

وهكذا يعيش الضباط بالعالم الثالث في طبقة اسمى وأرفع من طبقة الآخرين •

قد تقول إنهم يعرضون أنفسهم للأخطار من أجل حرية الوطن ، وهذا صحيح ، ولكني أقول إن أخطار الحرب الآن لا تقف عند ميدان الحرب ، بل تصل إلى الناس في بيوتهم ، ثم إن كثيرين من الأساندة والأطباء والمهندسين يسقطون وهم يؤدون أعمالهم ، ولا مكان لبلاد يخلو من العقول المفكرة التي تجلب الرخاء والجاه للبلاد •

وأخيرا فالطبقات المثقفة ترى أن العدالة والمساواة لابد أن يعمما
الناس دون تفريق بسبب اللون أو الدين أو المهنة •

وقد وصل الحال إلى أن الدكتور عبد المنعم القيسوني نائب رئيس
الوزراء يذكر أن مرتبه لم يكن يكفي ضرورات الحياة ؟ ولذلك استبدل
بعض معاشه ، أما ابنه الضابط برتبة ملازم فكان مرتبه وبدلاته تضعه
في مصاف المترفين (١) •

لهذا أوشكت جيوش العالم الثالث أن تنهار في جو التزاحم
على الترف والملاذ •

على أن الكليات العسكرية كانت لها دائما امتيازات قبل الثورة
وبعدها ، وهذه الامتيازات جذبت لها شبابا مثل أنور السادات وجمال
عبد الناصر ، ومن امتيازاتها أن الدراسة فيها محدودة الأعوام ، فليس
فيها رسوب تقريبا ، وهي داخلية فتوفر على الطالب إيجار المسكن
وتكاليف الطعام والملابس •

ولم تكن الكلية الحربية مفتوحة بيسر للناس جميعا ، بل كانت
ولاتزال تحتاج لبعض الوساطات ، وقد استطاع جمال عبد الناصر
وأنور السادات أن يجدا من السادة (٢) من يدفعهما للكلية الحربية حيث
مهّد لهما الحظّ حياة تقودهما ليصبحا رئيسين للدولة الواحد بعد
الآخر •

رجل له جذور السادات أو جذور عبد الناصر ، تربى تربية عسكرية
بعد نشأة كنيّة لا يمكن أن نتوقع منه اتجاها للديمقراطية ، فطفولته

(١) حديث نشر بالاخبار في ١٦/١/١٩٨٧ •

(٢) البحث عن الذات ص ٢٦ •

كانت صراعا ، والكليات العسكرية تُعَلِّمُ الطاعة الشاملة واحترام كل رتبة لما فوقها ، وهيات أن نطمح في ديمقراطية من هؤلاء •

قد يخطر ببالك أن تشرشل أو أيزنهاور كانا عسكريين ، ونلفت النظر إلى أن هذين وأمثالهما لم يقفرا من الجندية للرياسة كما فعل عبد الناصر ، وإنما دخلا الحياة السياسية فتعلما منها الكثير قبل أن يصلا إلى القمة ، هذا بالاضافة إلى أن البيئة غير البيئية ، فما كان تشرشل أو أيزنهاور يفكر في تزوير الانتخابات ، ولو حاول لوجد قوًى هائلة توقفه عند حده •

وهكذا كانت لعبة الحظ في العالم الثالث لعبةً ضمنت الترف للعسكريين وفرضت العسف على المواطنين •

وكانت الكلية الحربية تزدهم أساسا بأولاد الأعيان وفتيان من الطبقات العليا بالمجتمع ، ودخلها أمثال عبد الناصر والسادات ، فانتصحت الفوارق في هذا المجتمع ، كان بعضهم عند الإجازات تنتظره السيارات الفارهة في وقت قلت فيه السيارات ، وبعضهم كان يقف في انتظار الترام ، وانبثق الحقد في هذا الجو ، وترتب الضغائن التي اندفعت يوما فدمرت كل شيء •

وتخرّج هذا وذاك وأمثالهما من الكلية الحربية ، ولهيب الحقد والطموح يملأ الأفئدة ، وقد استطاع عبد الناصر أن يعمل في صمت وعن طريق تكوين ما سمي « الضباط الأحرار » أما السادات فلم يستطع في شبابه كبح جماح نفسه ، فانطلق يتأرجح في معمة الحياة كما سنرى •

السادات بعد التخرج

زواجه من ابنة العمدة :

تخرج السادات من الكلية الحربية وأصبح ضابطا بالجيش ، وللضباط

(م ٥ - التاريخ الاسلامي)

زى^١ خاص كانت له في تلك الأيام جاذبية كبيرة ، وانتقل السادات بهذه الوظيفة وذلك الزى نكتلة واسعة ، واتخذ من هذا وذاك وسيلة لإرضاء طموحه ، وكان طموحه آنذاك ذا شقين ، الشق الأول هو تثبيت مركزه في القرية ، وهذا حققه عن طريق الزواج من بنت العمدة (السيدة إقبال ماضى) ويقول محمد حسنين هيكل^(١) ان الزواج من ابنة عمدة ميت أبو الكوم كان أقصى ما كانت تحلم به أم محمد لحفيدها أنور .

اتصاله بالألمان وإعجابه بهتلر :

أما الشق الثانى فكان محفوفاً بالمخاطر الجسيمة ، فقد كانت الحرب العالمية الثانية تمرُّ بفترة دقيقة ، وهى فترة زحف الألمان بقيادة روميل من ليبيا إلى مصر ، وانبهار بعض الشبان العرب بالألمان ، واعتقادهم أن انتصار الألمان سيخلصهم من حكم الإنجليز ، ولذلك هتف بعضهم : تقدم يا روميل .

ولنتوقف قليلا عند هذه النقطة ، لقد كان هؤلاء الشبان مخدوعين بالألمان ، وظنوا أن هؤلاء أخف وطأة من الإنجليز ، والحق أن الجميع فى السوء سواء ، وأنهم لا يتفاضلون فى هذا المضمار ، وربما كان الألمان أسوأ من سواهم ، وقد أدرك الألمان اتجاه بعض المصريين نحوهم فراحوا يعززون هذا الاتجاه بأكاذيب واختلاعات ، ويبدو هذا واضحا من مقارنة الترجمة العربية لكتاب هتلر « كفاحى » بالأصل الألمانى أو بالترجمة الإنجليزية ، فالنسخة العربية خلت من المطاعن فى العرب ، تلك المطاعن التى انبثت فى صفحات الكتاب باللغات الأخرى^(٢) .

وقد كان هتلر وأعوانه يعتقدون النظرية التى تقرّر « أن كل ما

(١) خريف الغضب ص ٤١ .

(٢) انظر كتاب « كفاحى » بالعربية والانجليزية .

في الكون من حضارة إنسانية وفنون وعلوم هي تقريبا خلاصة القريحة الآريّة» ^(١) وأن وجهة النظر العالمية للجنس تعترف بأهمية انقسام الإنسانية إلى عناصر جنسية متفاوتة ، ولا تعتقد في المساواة ، بل ترى أن هناك جنسية عليا وجنسية دنيا ، ويمقتضى الإرادة الأزلية التي تسيطر على الكون لا بد أن يسمو الجنس الأعلى ، وأن يخضع له الجنس الأدنى» ^(٢) .

هل كان أنور السادات يجهل هذه الحقائق ؟

أغلب الظن أنه كان لا يجهلها ، لكنه كان يريد المغامرة ، فالمغامرة كانت لديه هدفا لذاتها ، مع الألمان ، أو الإنجليز ، أو القصر ، فالهدف يبرّر الوسيلة عنده ، وقد بالغ السادات في إعجابه بالألمان فحذا حذوهم حتى في تضيق الزى كما كانوا يفعلون ^(٣) .

وأُتيحت لأنور السادات فرصة ليلتقى بالفريق عزيز المصري المفتش العام للجيش المصري ، وكان لقاؤهما في منقباد ، وعزيز المصري شخصية أسطورية شاركت في الثورة التركية مع أتاتورك قبل أن يظهر انحراف هذا الزعيم ، وكان عزيز المصري من مؤسسي جمعية تحرير الأمة العربية ، وله تاريخه الطويل المليء بالكفاح ، مع ولع بالثقافة والدعوة إليها» ^(٤) .

ومن الشخصيات المهمة التي التقى بها أنور السادات في هذه الفترة حسن عزت وهو ضابط في سلاح الطيران جاء إلى سلاح الإشارة

(١) حامد المليجي : كشف الستار عن نظرية امتياز بعض الاجناس

ص ٢٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٧ .

(٣) جيهان السادات : سيدة من مصر ص ١٨ .

(٤) انظر : البحث عن الذات ص ٣١ .

بالمعادى فى دورة تدريبيية؁ وكان أنور السادات يعمل فى سلاح الإشارة ؁ وبدأت علاقة بين حسن عزت وأنور السادات كان لها تأثير على الأخير فى حياته الخاصة والعامة كما سنرى •

وكان لعزیز المصرى علاقة بالألمان ؁ وقد حاول أن يهرب إلى صفوفهم إبان الحرب العالمية الثانية ولكن المحاولة فشلت فسقطت طائرته ؁ وكانت هناك خلية سرية فى الجيش المصرى بقيادة عزيز المصرى ينتمى إليها مجموعة من الضباط الشبان منهم السادات ؁ وهذا قوئى فى السادات ميوله للألمان ؁ ثم إنه عن طريق حسن عزت تعرف أنور السادات على اثنين من رجال المخابرات الألمانية هما « أبلد » و « ساندى » وكان هذان قد استطاعا الوصول إلى القاهرة وعاشا بها متخفيين فى عوامة المراقبة حكمت فهمى (١) وقد ساعدهما أنور السادات فى إصلاح جهاز التخابر الذى كانا يملكانه •

طرده من الجيش :

وانكشف أمر الجاسوسين الألمانين فقبض عليهما ؁ ثم قبض على أنور السادات وحسن عزت ؁ وتكون مجلس عسكرى لحاكمتهما ؁ فقرر طردهما من الجيش فى ٨ أكتوبر سنة ١٩٤٢ بعد خدمة لا تزيد عن أربع سنوات •

هل كان أنور السادات مؤمنا بالمبادئ النازية وفاشستى التكوين كما يقول الأستاذ أحمد بهاء الدين (٢) •

الحقيقة أننى لا أرى ذلك ؁ وإنما أرى أنها انتهازية ؁ وطموح ؁

(١) أنور السادات : صفحات مجهولة ص ٩٠ وما بعدها •

(٢) محاضراته مع السادات ص ٨ •

والحقائق التاريخية توضح لنا أن أنور السادات كان حريصا على « الوصول » عن أى طريق ، وسنراه فيما بعد عضوا فى الحرس الحديدي الذى أنشأه فاروق ، فالهم عند أنور السادات هو « الوصول » إلى الهدف أيا كانت الوسيلة .

وهذه الأخلاق يمكن أن تنمو مع شخص فى مثل ظروف السادات ، عاش مقهورا ، ثم أصبح طالبا بالكلية العسكرية حيث الطاعة الشاملة ، ثم خرج إلى الحياة ضابطا فى الجيش يحس بأن له كيانا ومكانة مرموقة فى المجتمع ، ومثل هذه الحياة المتقلبة تدفع للحقد والثورة وانتهاز الفرص .

السادات بعد الطرد من الجيش :

عقب طرد السادات وحسن عزت من الجيش ألقت السلطات المدنية القبض عليهما بحكم قانون الطوارئ الذى كان معمولا به آنذاك ، وأودعا « سجن الأجانب » وظلا به حتى ديسمبر سنة ٤٢ .

ويصف حسن عزت حالة السادات آنذاك ، ويظهر من الوصف مدى الخشونة التى كان السادات يعيش فيها ، يقول حسن عزت : وصل السادات السجن ومعه حقيبة صغيرة من الورق المضغوط كالتى يستعملها تلاميذ المدارس الابتدائية ، ولما فتحها رأيت فيها بنطلونا وبيجامة وفوطة وسجادة قديمة ومصحفا ممزق الغلاف ، وسألت أنور : هل هذا كل متاعك ؟

فأجاب باستغراب : وهو ده شوية ؟

فقلت له : على كل حال يا أنور أنا معى (هدوم) كثير وأدوات تسلية وكلها تحت أمرك (١) .

(١) حسن عزت : العمالة والاقزام ص ٤٤ .

وبعد ذلك نُقل السادات وحسن عزت إلى معتقل « ماقوسة » بالقرب من المنيا ، وقد استطاع حسن عزت أن يهرب من معتقل ماقوسة ، أما السادات فقد بقى به حتى ديسمبر سنة ١٩٤٣ ثم نُقل إلى معتقل الزيتون بالقرب من القاهرة حيث استطاع هو أيضا أن يهرب من المعتقل في أكتوبر سنة ١٩٤٤ وكان ذلك بمساعدة حسن عزت ، وتكرر الاثنان حتى لا تتعرف عليهما أجهزة وزارة الداخلية ، ويقال إن هذه الأجهزة أغضت الطرف عنهما بإشارة من القصر .

وكان السادات يلبس البدلة العسكرية بعد طرده من الجيش مع تحريمها عليه (١) .

وعمل السادات خلال فترة التنكر « حمّالا » على عربة لورى يملكها حسن عزت ، وعمل في بلدة أبو كبير بالشرقية في مشروع الترع ، وبهذه المناسبة نذكر أن أنور السادات يقرر أنه كان من عادة مصلحة الرى في ذلك الوقت أن تشق ترعة جديدة كل سنة (٢) .

وللأسف توقفت ثورة عبد الناصر والسادات عن هذا المنهج الوطنى العظيم .

وعمل أنور السادات بالقرب من مدينة بنى سويف في مناجم الرخام الألباستر .

وهذا المنجم يدفعنا لنروى كلمات أنور السادات ونعلق عليها فهو يقول : كان هذا المنجم يعمل أيام الفراغة ، ثم أهمل إلى أن أتى « محمد على » فأعادته إلى العمل ، وبنى منه مسجد القلعة ، ولما كان هذا المنجم يبعد عن النيل بمقدار ٥١ كيلو مترا فقد أقام محمد على

(١) جيهان السادات : امرأة من مصر ص ١٨ .

(٢) البحث عن الذات ص ٧٦ .

استراحات بالطريق لتسهيل نقل الرخام إلى البواخر النيلية ، وبقايا هذه الاستراحات قائمة وموجودة حتى الآن (١) .

بالتأكيد لم يكن أنور السادات يقصد امتداح محمد على أو الثناء على أولاده الذين كانت الترع تحفر في عهدهم واحدة في كل عام ، والذين أعاد مؤسس أسرته الحياة لنجم الرخام الذى أهمل من عهد الفراعنة ، ولكن هذه المزايا انزلت دون قصد في كتاب السادات ، وأنا كمؤرخ أقول ذلك لأن الثورة بذلت أقصى الجهد لتحريف تاريخ أسرة محمد على وطمس معالم الخير فيها كما وضحت ذلك في المصادر المناسبة (٢) .

ولما كان اعتقال حسن عزت وأنور السادات قد جاء نقيجة للأحكام العرفية التى كانت مفروضة على البلاد خلال الحرب العالمية الثانية فقد تحققت الحرية لهما عندما ألغيت الأحكام العرفية في سبتمبر سنة ١٩٤٥ ، ولم يعودا في حاجة إلى التكرار والعمل خفية ، وظهرا في المجتمع في صورتها الحقيقية .

حزب الوفد والقصر الملكى وأنور السادات :

كان القصر الملكى في عدااء سافر مع حزب الوفد الذى كان ولا يزال يمثل القوة الشعبية ، والذى كان يضم الأغلبية الساحقة من المثقفين ورجال المال والأعمال والتجار والفلاحين ، والذى تحققت فيه الوحدة الوطنية ، في أجلى أعماقها ومعانيها .

ومنذ قام هذا الحزب عقب الثورة الشعبية سنة ١٩١٨ اندفع القصر الملكى إلى الصراع معه وكون القصر مجموعة من الأحزاب لمنافسة حزب الوفد ، ولكنها كانت أحزابا بلا جذور شعبية ، وكانت كالبقش قصيرة

(١) البحث عن الذات ص ٨٠ .

(٢) انظر ذلك في الجزء الخامس والتاسع من هذه الموسوعة .

العمر ، ولكن هذه الأحزاب كانت بقوة الملك وتأييد الإنجليز تحظى بفترات حكم طويلة ، أما حزب الوفد وهو الحزب الحقيقي في البلاد فكان مستبعدا ولا يجيء للحكم إلا إذا قامت انتخابات حرة وهو شيء نادر بمصر للأسف ، وإذا جاءت انتخابات حرة لسبب من الأسباب (١) فإن عهد حكومة الوفد في الحكم يكون قصيرا دائما ، فالإقالات كانت متعددة في ذهن الملك وأعوانه ، يدفعونها للواقع عندما تحين فرصة ، وكان الجيش المصري للأسف يحمي هذه القرارات الظالمة (٢) .

ومن الواضح أن الإنجليز كانوا يؤيدون هذه السياسة ، فحكومات الأقلية تخضع لتعليمات الملك والإنجليز ، فبدون الملك والإنجليز كانت هذه الأحزاب لن ترى النور ولن تحصل على السلطة ، أما الوفد فكان يقف دائما بجانب الشعب ويستمد منه سلطته ، وعندما توجد حكومة وفدية في السلطة تتقلص سلطة الملك وتتوارى ، كما تتقلص كذلك سلطة الإنجليز .

والمهم أنه في أثناء الحرب العالمية الثانية مرت أزمة بالحلفاء ، وجاءت فترة ازدهار للجيش الألماني الذي دق أبواب مصر ، وصاح الكثيرون من المصريين يهتفون لروميل قائد الجيش الألماني الزاحف من ليبيا :
تقدم يا روميل تقدم يا روميل

وقد وجد الإنجليز من الضروري أن يتقربوا من الشعب المصري خلال هذه الأزمة ، فأشاروا على الملك فاروق أن يخضع لرأى الأغلبية وأن يدعو الزعيم مصطفى النحاس ليؤلف الوزارة ، وعندما رفض الملك تلبية هذه الرغبة زحفت قوة من الجيش الانجليزي وأحاطت بالقصر

(١) أنظر الجزء الخامس من هذه الموسوعة حيث وضحنا الأسباب التي فرضت الانتخابات الحرة أحيانا .

(٢) أنظر تفاصيل ذلك في الجزء الخامس من هذه الموسوعة وهو عن تاريخ مصر .

الملكى وهددت الإنسان الفاسد الذى كان يجلس على عرش مصر ،
وانهار هذا الرجل واستسلم ، ودعا النحاس باشا لإنقاذه بعد أن لاحت
نهايته •

وجاء النحاس باشا الى الحكم ، وقد بقى فيه من سنة ١٩٤٢ إلى
سنة ١٩٤٤ أى إلى أن بدأت كفة الحلفاء فى الرجحان ، فاستعمل الملك
سلطاته الجائرة وأقال حكومة الوفد •

لم يغفر فاروق للنحاس باشا أنه جاء على غير هواه ، مع أن مجيء
النحاس كان برجاء عميق من الملك ثبتت فى كتاب تكليفه بتأليف الوزارة ،
وفى كتاب التأليف الذى رده به الزعيم على الملك •
ولجأ الملك إلى أعمال السوق وقطاع الطرق فى مجاهدة زعيم الأمة
النحاس باشا فالتف ما يسمى « الحرس الحديدى » ليقوم بأعمال
تصفية جسدية لمن اعتبرهم أعداء للقصر •

وبدون مجيء النحاس كان فاروق سيواجه نهايته ، ولذلك يرى
بعض المفكرين أن النحاس باشا كان عليه أن يرفض تأليف الوزارة ليتم
القضاء على الملك عدو الأمة والوفد ، ولكن الزعيم العظيم لم يكن من
هذا النوع الذى يستغل الفرص للثأر •

ومن عجب أن أحزاب الأقليات أو أحزاب القش انتهرت فرصة
قيام حكومة الوفد فى هذه الظروف فأطلقت الأبواق بأن النحاس باشا
جاء على أسنة الرماح الإنجليزية ، مع أن هذه الأحزاب عاشت عمرها
كله قابضة على السلطة تحت حماية هذه الرماح وبدون أى تأييد شعبى ،
وليت شعرى كيف يجيء الحق لصاحبه ثم يرفضه ؟

إن بعض القصور تراول حتى الآن أعمال التصفيات الجسدية
لمعارضيه ، وربما كان الحرس الحديدى فى مصر أستاذاً لهؤلاء فى هذا
المجال ، إنها وصمة العمر أن تتدهور أخلاق سكان القصور لتصل إلى
هذا المدى الإجرامى الحقيق •

ولنعد بحديثنا إلى الحرس الحديدى بقصور فاروق •

الحرس الحديدى :

اعتمد فاروق فى تكوين الحرس الحديدى على ضابط طبيب ، اسمه « يوسف رشاد » كان طبيب الملك وموضع سرّه ، وكانت زوجة هذا الطبيب واسمها « ناهد » وصيفة الملكة ، وأعطيت الإشارة لهذا الطبيب ليباشر عمله فى تكوين هيئة أطلق عليها « الحرس الحديدى » تكون مهمتها التخلص من أعداء الملك ، وحتى يأخذ هذا العمل الإجرامى لمحة كاذبة من الشرعية ذكر المشرفون على تكوين هذه الهيئة أن الملك رمز البلاد ، وأن الاعتداء عليه اعتداء على شرف البلاد وكيانها ، ولم يكن ذلك فى الحق إلا بريقا كاذبا ، فهذا الملك كان منبوذا ، ولم يكن بخلقه وديكتاتوريته يمثل رمزا للبلاد ولا كان جديرا بالاحترام .

وبدأ على كل حال تكوين الحرس الحديدى ، وكان من أبرز أعضائه الذين استطاع يوسف رشاد ضمّهم لهذه الهيئة حسن التهامى وأنور السادات وحسين توفيق ، والأخير شاب متحمس كان يصطاد الجنود الإنجليز الذين يدخلون القاهرة فى إجازاتهم ليوقع بأفراد منهم ، وتقول الرواية إن أنور السادات أقنّع حسين توفيق بعدم جدوى جهده فى القضاء على بعض الجنود الإنجليز ، وأن من الأجدى الإيقاع بكبار المصريين الذين يتعاونون مع الإنجليز ، وبدأ بذلك تكوين « الحرس الحديدى » ووضع أهدافه .

وكان من أعضاء « الحرس الحديدى » كذلك اثنان من كبار رجال الشرطة اعتبرا معاوينيّن ليوسف رشاد ، وتسعة من ضباط الجيش الشبان الذين كانت لهم تطلّعات وأطماع شخصية ، وينسب للحرس الحديدى أنهم هم الذين قاموا بحريق القاهرة للتخلص من حكومة الوفد .

ومن أعضاء الحرس الحديدى الذين ذكرهم حسن عزت الضباط الآتية أسمائهم : عبد الرؤوف نور الدين ، وسيد حماد ، ومصطفى صدقى ، وحسن فهمى عبد المجيد وخالد فوزى وعبد الله صادق ، وكان كل ضابط من رجال الحرس الحديدى يتقاضى من القصر مرتبا شهريا

قدره ثمانون جنيها ، (وهو مرتب كان عظيما آنذاك) كما كان لكل منهم سيارة صغيرة (١) .

ويذكر الدكتور عبد الحميد سلطان (٢) أن السادات عندما كان معتقلا في الزيتون كان يخرج ليلا للاشتراك في العدوان على زعيم الأمة ، وكان يرجع بعد ذلك للمعتقل في هدوء .

ولعل من الخير أن نذكر أن هناك ما يشير إلى أن اختيار أنور السادات لهذا الغرض تمّ وهو في سجن ماقوسة ، وأن هذا الاختيار يسّر له أن ينتقل إلى سجن الزيتون ، ثم يسّر له الخروج منه والعودة له ، وأخيرا يسّر له الهروب نهائيا منه ، وإنّ أصبح القصر كانت وراء ذلك وبدأ الحرس الحديدي يزاوّل نشاطه ووجهه جهده أساسا إلى قتل زعيم الأمة مصطفى النحاس وقتل أمين عثمان الذي اعتبروه شديد الولاء للسلطة الإنجليزية .

ونجح الحرس الحديدي في قتل أمين عثمان ، وفشل الحرس الحديدي في قتل النحاس باثنا على الرغم من المحاولات المتعددة لذلك ، فقد حرصته يد الله ، ويصورّ حسنين هيكل إحدى هذه المحاولات بقوله : إن حسنين توفيق ألقى قنبلة على سيارة النحاس باثنا ، ولكن سائق السيارة أسرع بها ليتفادى تراما اعترض الطريق بدل أن يتوقف ليمر التزام ، وكانت نجاة الزعيم نتيجة لذلك (٣) . وتلك عناية الله .

بل يذكر حسنين هيكل محاولات عدة لذلك هيأ القصر وسائلها ، وكان السادات أداة لها ولكنها فشلت أيضا ، وقُبض على السادات ضمن المتهمين بهذه الأفعال .

ومن شواهد تورط القصر في هذه الأفعال أن المقبوض عليهم لم

(١) حسن عزت : العمالقة والأقزام ص ١٥٨ .

(٢) مقال بصحيفة الوفد ١٩٨٧/١٢/٢٤ .

(٣) خريف الغضب ص ٧٠٧ .

بجاءكموا جدًّا ، وأن محاكمتهم تأخرت سنتين بعد وقوع الأحداث
من سنة ٤٦ إلى ١٩٤٨ •

ثم أن محاولة جرّت لسرقة ملف القضية ، وقد نجحت هذه المحاولة
وفى ذلك يقول حسن عزت : كان هناك ساعٍ يحمل هذه الملفات فوق
دراجة ، ودخل شارع محمد على ، فاندفعنا خلفه بسيارة مسرعة ،
وصدمت السيارة دراجته فتطايرت الأوراق ، وأخذنا نجمها بسرعة
ونضعها في السيارة ولذنا بالفرار (١) •

ومن الشواهد كذلك أن حسين توفيق هُيئَ له أن يهرب من
السجن وأن يسافر للخارج •

ثم كان الحكم بالبراءة على أكثر المتهمين ، وحكم على حسين توفيق
ثيابيا بالسجن عشر سنوات (٢) •

ما أقسى ما عانت مصر من انحراف الملك ، والذي يهمننا هنا هو
أن السادات جُنِّد ليكون عضواً في الحرس الحديدي الذي أنشأه القصر •
واشتبك في بعض الأعمال ، ثم قبض عليه ، وحُكِمَ ببراءته في ظل
الظروف السابقة ، وقد صدر حكم البراءة في أغسطس سنة ١٩٤٨ •

وقفّة للمقارنة :

إن الدارس لكتاب السادات « البحث عن الذات » وللمراجع
المختلفة التي تتكلم عنه وعن عصره يطيب له أن يجرى مقارنة عن بعض
الأحداث المتماثلة التي حدثت للسادات ، وتلك التي حدثت منه ومن
رفاقه بعد الثورة :

١ — وأول ما نقدّمه من المقارنات مثال " قدّمه أنور السادات
نفسه قال : كان الذين يترافعون عنا أكبر المحامين بمصر ، وكانوا
يترافعون دون أجر مع أنهم في القضايا العادية كانوا يتقاضون آلاف

(١) حسن عزت : العمالقّة والأقزم ص ٨٢ •

(٢) المرجع السابق ص ٥٥ وما بعدها •

الجنيهاً ، ولكن للأسف لم تكن هكذا حالتهم في العشرين سنة الأولى للثورة بعد أن عُطِّلت سيادة القانون ، فلم يصبح هناك أى مجال للمحاماة أو القضاء ، وأفلس الكثيرون من المحامين أو كادوا (١) .

٢ — يذكر أنور السادات أنه طلب أن يعالج أسنانه عند طبيب خاص فسمحوا له بذلك ، وأنه أوصى الطبيب ألا يعالج الضرس المريض حتى تمتد الرحلة وتكرر ، ويقول : كان الطبيب يتناول أسناني كلها بما يشبه العلاج ما عدا الضرس موضع الداء ، وكنت أحياناً أزور والذى وأشرب معه الشاي في الطريق إلى الطبيب أو في طريق العودة (٢) .

٣ — عندما كان أنور السادات في سجن الأجانب عقب القبض عليه إثر اغتيال أمين عثمان استدعته النيابة مرة للتحقيق معه ، وكان الاستدعاء في الثانية بعد منتصف الليل ، وهناك أثبت في محضر الجلسة أن إيقاظه بعد منتصف الليل للاستجواب يمثل عملية تعذيب ، ويقول أنور السادات إنهم أثبتوا ذلك في المحضر ، وبعد ذلك كانوا يرسلون في طلبه خلال النهار (٣) .

٤ — يقول حسن عزت : كنت أنا والسادات نباشر ونحن في السجن بعض الأعمال الحرة ، فقد اشترينا بالمكافآت التى حصلنا عليها من وزارة الدفاع سيارتين قديمتين وحوّلنا كلا منهما إلى تاكسى ، وكان ذلك عملاً مَرَبِحاً .

وافتحنا مكتباً لتجارة الحاصلات الزراعية وعيّننا لإدارته أحمد أصهار أنور ، وكان يزورنا في المعتقل فنوجّهه ونحاسبه (٤) .

(١) البحث عن الذات ص ١٠٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٣ - ١٢٣ .

(٣) البحث عن الذات ص ٨٨ .

(٤) حسن عزت : العمالقة والأقزام ص ٥٤ .

ماذا لو قارنا ذلك بالآلاف الذين ألقى عبد الناصر والسادات القبض عليهم دون اتهام ، وفيهم الشيوخ والمرضى ؟ وألقى بهم في السجن دون رعاية صحية أو اجتماعية ؟

ثم ماذا نقول إذا أثبتنا كلمات السادات عن الشيخ المحلاوى أحد هؤلاء المسجونين ؟ فقد قال عنه السادات : أين الآن المحلاوى الذى كان يتكلم فى السياسة ، إنه مرمى فى السجن مثل الكلب !!

يا لها من شماعة رخيصة أن يقول رئيس دولة معه الجيش والشرطة مثل هذا الكلام عن رجل مغلوب على أمره ليس معه إلا فكره وعقيدته ؟ ولكن الله دائما ينتقم من الظالمين .

من البراءة للعودة إلى الجيش :

صدر الحكم ببراءة السادات فى أغسطس سنة ١٩٤٨ وعاد السادات للجيش فى ١٥/١/١٩٥١ وخلال هذه المدة (سنتان ونصف سنة تقريبا) حدثت للسادات أحداث ذات بال نروى فيما يلى موجزا لها :

أولا : أعماله فى هذه الفترة :

كان حسن عزت هو الباب الذى يجد السادات العمل عن طريقه ، ويقول السادات إن حسن عزت أنقذه من الفقر والعوز ، وإنه هبط عليه وقد جفنت كل نقوده ، وتهالكت ملابسه وإنه أخذ من الحجرة البالية التى كان يعيش بها فى حلوان ، إلى حياة النور ، فمن حلوان صاحبه للقاهرة حيث اشترى له بدلتين وعددا من القمصان والجوارب ... وعمل السادات مع حسن عزت فى أمور المقاولات ، ولكن السادات بعد سطور من ذلك يهاجم حسن عزت بقوة ويصوره على أنه مستغل ظالم ،

وأنه حرمه بعض استحقاقاته ، والباحث المدقق في كتابات السادات بهذه الفترة يَحس بتجنّي السادات على حسن عزت ، فقد اعتزل السادات حسن عزت واشتغل (معيدا للصياغة) بدار الهلال ولكنه استقال من دار الهلال وعاد يعمل مع حسن عزت على الرغم من المرتب المناسب الذي كان يتقاضاه من دار الهلال ، وهذا يدل على ثقته في حسن عزت ، وعلى أنّ هذا لم يكن يستحق أن يهاجمه السادات أو يطعن في ذمته (١) .

ويعلق حسن عزت على كلام أنور السادات فيذكر أن ذلك الكلام محض افتراء ، فلا يمكن أن تكون الشركة ربحت هذا الربح الهائل في الشهور القليلة التي مرت بها هذه الشركة ، ويذكر السادات بالديون التي استدانها من الشركة (٢) .

وعلى كل حال فإن أعمال السادات خلال هذه الفترة كانت بين مشاركة أو مساعدة لحسن عزت وبين العمل بدار الهلال .

ثانيا : زواجه من جيهان :

التقى أنور السادات بجيهان لأول مرة في بيت حسن عزت بالسويس ، وكانت في زيارة لابنة عمته زوجة حسن عزت ، وأعجب بها أنور السادات من اللحظة الأولى وكانت في السادسة عشرة من عمرها ، جميلة مملوءة بالحيوية ، وإذا كان الإعجاب هو كل ما ذكره أنور السادات عن جيهان ، فإن جيهان قد بالغت مبالغة شديدة في وصفها لإقبالها على السادات مما لا تتحملة البيئة ، ومما لم يكن لنا به عهد وبخاصة من ثتاة في مثل هذه السن ، فهي تصفه بأنه بطل قومي ، وبأن ثمار المانجو سقطت من يدها عندما عرفت أنه موجود بمنزل حسن عزت حيث كانت هي هناك ، وكيف

(١) انظر « البحث عن الذات » ص ١٢٧ وما بعدها .

(٢) العمالة والأقزام ص ١٧٣ .



المروسان

أنها طلبت من أبيها أن تبقى في السويس مدة أطول لأن الجو يناسبها ، وكانت تقصد أن تبقى في بيت يتردد عليه السادات ، وكانت تلح على حسن عزت أن يحدثها عن فترة اخنباؤه .

خرافة :

ووصل خيالها إلى قمة السذاجة والسخف عندما دوت أنها في تلك الفترة كسرت ثمرة من ثمار الجوز وعندها أنشطرت نصفين بدت التعاريج على أحد النصفين كما لو كان مكتوبا في ثناياها اسم « أنور » بحروف عربية جميلة ، بينما استطاعت أن تقرأ بوضوح على النصف الآخر كلمة « الله » (١) .

وكان أنور السادات آنذاك ثلاث بنات من زوجته الأولى هن « رقية وراوية وكاميليا » ومن الممكن أن نلاحظ أن الزواج الأول لم تكن به عناصر السعادة ، فالاختيار قد بثنى كما ذكرنا من قبل على الرغبة في الارتباط بعمدة القرية ، فهذا شرف حرص عليه السادات وآله آنذاك ، ومثل هذا السبب يكون قصير العمر ، وربما كانت هناك أسباب أخرى تنفض للباحث أو تختفى ، والمهم أننا ينبغي أن نذكر أن السيدة إقبال ماضى أدت دورها مع السادات أداء طيبا ، وقد ذكرت كاميليا السادات (٢) أن أمها كانت وفيقة لزوجها في المحن التي مر بها ، وأنها باعت بعض حليها لمساعدته ولزياراته وهو في المعتقلات ، ولكن أنور السادات لم يشر لذلك في كتابه « البحث عن الذات » .

وتذكر كاميليا السادات أن جدتها لأمها ماتت وأبوها (أنور) يحاكم في التهم التي نسبت له ، ولما كانت السيدة إقبال قد ورثت

(١) جيهان السادات « سيدة من مصر » ص ٨٧ وما بعدها الى ٩٢ .

(٢) مقالات نشرت في الوفد مقتبسة عن كتابها « أبى وأنا » .

(م ٦ - التاريخ الإسلامى)

من أمها بضعة أفدنة ، فقد بدأت تباع منها لاستئجار محامين للدفاع عن زوجها .

وتذكر كاميليا أنها عندما ولدت ظهرت أمارات الهلع على السيدات اللاتي حضرن الولادة ، وأن الأم عندما رأت ابنتها قالت إنها قرد صغير ، وتقول كاميليا : كنت أنا الطفلة الوحيدة بين أولاد أبي التي حملت لونه الأسود .

وتقول كاميليا إنها خرجت مع أبيها يوما وهي طفلة وطلبت أن يحملها على كتفه فحملها وهو يقول : كم تشبهين القرد الصغير .

ونعود للحديث عن السيدة جيهان فنذكر أن والدها هو « صفوت رؤوف » وله جذور تركية وأمها « جلاديس » من مالطة .

الجذور مرة أخرى :

قلنا آنفا إن الجذور لها أهمية كبيرة في عالمنا الشرقى ، فهل أنور السادات هو الساداتى أو السادات ؟ ومع السيدة جيهان تتضح هذه المسألة مرة أخرى فهي تقول : كان والدى صفوت رؤوف قد قابل والدتى « جلاديس تشارلز كوتريل » فى عام ١٩٢٣ بمدينة شفيلد بإنجلترا حيث كان يدرس الطب فى جامعة شفيلد وكانت هى مدرسة موسيقى (١) .

ولكن الاستاذ محمد حسنين هيكل يقول : إن جلاديس كانت مالطية ، وإنه عندما أصبح أنور السادات رئيسا للجمهورية تصوّرت جيهان السادات من معلومات متناثرة سمعتها أن أمها تنتمى لعائلة إنجليزية من شفيلد ، وعندما قامت مرة بزيارة إنجلترا فإن عملية بحث

(١) سيدة من مصر ص ٤٦ .

واسعة النطاق جرت للبحث عن أصول « جلاديس » ولم يعثر لها على أثر هناك (١) .

أما الوالد الذى قيل إنه كان يدرس الطب فى شفىلد فقد ذكر الأستاذ أحمد طلعت — كما سنرى بعد قليل — أنه كان يشغل وظيفة « مبخّر » بوزارة الصحة .

إن الإنسان الذى يحاول أن ينتكر لجذوره هو إنسان يحس بأنه مرتبط بأقدار هذه الجذور ، ويحاول التظاهر بغير ذلك ، أما الإنسان الذى سيطر على نفسه واستجاب للتربية المثلى فإنه لا يخاف الجذور .

وتقدّم أنور السادات لخطبة جيهان ، ولكن وجود زوجة له وعدم دخّل ثابت كانا كأنهما عقبتان ، ولكن سرعان ما ذللت هاتان العقبتان ، وقد ذكر أنور السادات الأسرة جيهان أنه متّجه للانفصال من زوجته الأولى ، وقد بدأ هذه الخطوة فعلا ، وذكر أنه يستطيع أن يعود للجيش بعد أن حكمت المحكمة ببراءته مما اتّهم فيه ، وسيحاول ذلك وأمله كبير فى النجاح ، وهذا الأمل الواسع يؤكّد صلته بالقصر وبالحرص الحديدي .

طلاق وزواج :

وقنعت أسرة جيهان بذلك وتم الزواج فى مايو سنة ١٩٤٩ بعد أن تمّ الانفصال عن الزوجة الأولى بحوالى شهرين ، وعطّل أنور السادات طلاقه لزوجته الأولى بقوله لحسن عزت « إنها أدارت ظهرها لأمى وأهلى » (٢) .

وقد قلنا من قبل إن أنور السادات تزوج بنت العمدة لأن ذلك كان أقصى أمانيه ليرفع بهذه المصاهرة قدره ، ولكن العقدة بينها وبينه لم

(١) خريف الغضب ص ٧٠ .

(٢) العمالة والأقزام ص ١٦٩ .

تَزَل ، فعندما اختفى في السجن ، وواجهت بنت العمدة أم زوجها وأهله عادت لكبرياتها وأدارت للأسرة ظهرها .

وامضى أنور السادات شهر العسل لزواجه الجديد بين فندق بوريفاج بالإسكندرية وبين مدينة الزقازيق عاصمة محافظة الشرقية .

أما عن مهر جيهان فقد يكون أنور السادات دفعه من كسبه ، ولكن في هذا المضمار يورد الأستاذ محمد حسنين هيكل (١) رواية تقول : إن كشف حساب وُجِدَ بعد ذلك في مكتب « يوسف رشاد » بالقصر ورد به أن يوسف رشاد قدّم لأنور السادات مبلغ ألف جنيه في هذه الفترة ليؤسس بيتا ، وألف جنيه في ذلك الوقت كان مبلغا هائلا .

ويقول حسن عزت إن أنور السادات بعد أن أصبح رئيسا للجمهورية ظل على اتصال بأسرة يوسف رشاد ، وقدم هدية لابنة يوسف عندما تزوجت ، وكان هو وزوجته السيدة جيهان دائمي الصلة بعائلة يوسف (٢) .

أما عن مصروفات الزواج فيذكر حسن عزت أن السادات اقترض من رأس مال الشركة ١٠٠٠ جنيه لذلك ، وكانت جيهان تحرق كل الحرص على قمة الأناقة ، وزادت اهتماما بنفسها في هذا المضمار بعد الثورة حيث أصبح لها عيون من السيدات يرتدن لها المحال ليعرفن أهم المعروضات التي تليق بها ، لتكون هذه المعروضات موضع اختيارها (٣) .

جيهان ومظهر أسرتها :

وكانت جيهان السادات كذلك حريصة على مظهر أسرتها ، ولذلك

(١) خريف الغضب ص ٧١ .

(٢) العمالقة والأقزام ص ١٧٠ .

(٣) أحمد طلعت : السادات قبل الرئاسة ص ٦٠ - ٦١ .

فعندما أصبح أنور السادات سكرتيرا عاما للمؤتمر الإسلامى بعد الثورة وأحيل والد جيهان إلى التقاعد حيث كان يشغل وظيفة « مبخّر » فى وزارة الصحة ، التقط أحمد عبد الغفار السكرتير العام المساعد للمؤتمر الإسلامى هذا الخيط وعيّن صفوت رؤوف فى وظيفة مناسبة بالبنك العقارى العربى الذى كان أحمد عبد الغفار يشغل وظيفة العضو المنتدب به ، وكانت الوظيفة الجديدة لوالد جيهان تناسب صهر أنور السادات ، وكان مرتبها عاليا يساعد الأسرة على حياة تتناسب مع مكانها الاجتماعى ويقول أحمد طلعت : إن هذا التصرف من أحمد عبد الغفار ضمن له أن يحتفظ بموقعه فى المؤتمر الإسلامى مدعى طويلا بالنسبة لمن شغلوا هذا المنصب (١) .

ثالثا : الاخوان المسلمون : علاقة ومرتب :

تعود صلة السادات بالإخوان المسلمين إلى سنة ١٩٤٠ وكان السادات آنذاك ضابطا بالجيش ، وحضر أنور السادات محاضرة للمرشد العام الشيخ حسن البنا فى مناسبة المولد النبوى الشريف وأعجب السادات به ، وبطريقة تناوله للموضوع ، وحسن أدائه ، وقوة تأثيره ، ودعاه حسن البنا لحضور درس الثلاثاء الذى كان يليه يوم الثلاثاء بعد صلاة المغرب فى مقر المركز بالحلمية الجديدة (٢) .

ويقرر أنور السادات أن قوة حسن البنا كانت هائلة ، فلقد أراد مرة أن يشتري « فيلا » فخمة لتكون مقرا جديدا للجماعة وطرح ثمنها للاكتتاب ، فغطى المريدون ثمنها فى يوم واحد .

وتوثقت الصلات بين الاثنين وكشّف كل منهما للآخر عن آماله فى إنقاذ مصر مما كانت تعانيه ، وقررا التعاون .

(١) أحمد طلعت : السادات قبل الرئاسة ص ٦٨ - ٦٩ .

(٢) البحث عن الذات ص ٣٥ وما بعدها .

ويذكر أنور السادات مقارنة بين العون المادى الذى تلقاه من الإخوان المسلمين وذلك الذى تلقاه من إخوانه الضباط فيقول :

فى يوم ما اتصل الشيخ حسن البنا مرشد الإخوان المسلمين بشقيقى طلعت ، وأخبره أن الجمعية قد خصصت عشرة جنيهات شهريا لأسرتى ... تماما كما سبق أن فعل إخوانى الضباط وأنا فى معتقل ماقوسة بالمنيا ، ولكن توقفت معونة الضباط بعد أن انتهى الاعتقال وظلت متوقفة طوال فترة هربى ، ربما نسوا سامحهم الله ، ويذكر أنور السادات أنه هو وأسرتة كانوا فى أمس الحاجة لهذا العون آنذاك (١) .

رابعاً : السادات وسيط بين حسن البنا والقصر :

فى كتاب « صفحات مجهولة » لأنور السادات حديث عجيب عن دور وساطة بين القصر وحسن البنا ، وهو حديث ينبىء عن صلة أنور السادات بالقصر من جانب وصلته بالإخوان المسلمين من جانب آخر .

يروى أنور السادات (٢) أن المرشد العام قابله مرة ، وبعد أن تبسط فى الحديث معه كشف عن بعض أسرارهِ فقال : إن الخوف على حركة الإخوان يجىء من ناحيتين : هما الملك والأجانب ، والملك يسمع عن رأى الإخوان فى الخلافة أو الملك ، وأنه بالمبايعة وليس بالوراثة ، والأجانب يخافون من تطبيق الشريعة الإسلامية وما قد ينال حريتهم وأموالهم من آثار لهذا التطبيق ، واجتماع الملك والأجانب ضد الحركة الإخوانية فيه خطر على الحركة التى لم يكتمل نموها لتواجه هذا الخطر .

ثم قفز المرشد العام ليقول للسادات : لو قابلتُ الملك ولو مرة واحدة فإننى سأقضى على مخاوفه ، ووجه حديثه باهتمام لأنور السادات

(١) البحث عن الذات ص ٩٩ .

(٢) صفحات مجهولة ص ٩٩ وما بعدها .

قائلاً : أنت تعرف يوسف رشاد ولو توسطت لديه لتحقيق هذه المقابلة فإنك تقدم خدمة عظيمة للحركة الإخوانية .

وقبيل أنور السادات أن يقوم بهذا الدور ، وكلم فيه يوسف رشاد ، ونقل يوسف رشاد هذا الرأي للملك ، وطلب الملك من يوسف رشاد أن يقابل هو حسن البنا أولاً ، وينقل حديثه للملك ليرى إن كان من الممكن أن يقابله .

ويقول أنور السادات : وكدنا نحدد موعداً للمقابلة بين حسن البنا ويوسف رشاد ، وفي أحد الأيام كنت في منزل يوسف رشاد فدق جرس التليفون وكان الملك هو المتكلم ، واستمع يوسف لحظات قصيرة ثم قال « حاضر » وانتهت المكالمة ، ونظر إلى يوسف وقال لى : إن الملك يقول أبلغ كل ما قلت لك بشأن حسن البنا .

خامساً : القصر وعودة السادات للجيش :

إن الصلات التي ذكرناها بين السادات والقصر كانت تهيء لعودة أنور السادات للجيش في الوقت المناسب ، وإذا كان في إمكان السادات أن يهيء للصالح بين القصر والإخوان المسلمين وإذا كان السادات قد اعتُبر من رجال القصر الذين يَعتَمِدُ عليهم القصر في أخطر الأحداث ، والذين يطلقون بعض المعونات من القصر ، فإن عودة السادات للجيش لم تكن عملاً صعباً ، وإنما كانت فقط تنتظر الوقت الملائم .

وبدخول الخمسينات تخلّى القصر عن قيادة حركات الإرهاب بعد أن تلقى إشارة من لندن بأنه لا يليق به أن يتبنى هذه الحركات ، فلم يعد لأنور السادات وأمثاله مكان في هذا المجال ، ولكن لا يتخلّى القصر عن رجاله الذين استجابوا لدعوته وحملوا السلاح والقنابل لينفذوا أوامره .

ومن هنا لجأ أنور السادات إلى صديقه يوسف رشاد ليهيئ له الوسيلة للعودة للجيش ويروى محمد حسنين هيكل (١) رواية يقول إنها موثوق بها ، فقد نصّح السادات بأن يلقى بنفسه أمام الملك يوم الجمعة عقب صلاة الملك في مسجد الإمام الحسين ، فيقبل بيده ويطلب منه الصفح .

وكان هذا العمل أمام الجماهير كان متفقا عليه ، فالحرص لا يسمح لأحد باختراقه والاندفاع إلى الملك .

أما تكملة الرواية فنقتبسها من أنور السادات نفسه ، يقول : اتصل بى يوسف رشاد يوم ١٠/١/١٩٥٠ وطلب منى أن أذهب الأقابل حيدر باشا القائد العام للقوات المسلحة ، فذهبت ووجدت حيدر باشا فى انتظارى ، وما إن رآنى حتى انهال على بالسباب — أنت ولد مجرم . . . تاريخك أسود . . . و . . . و . . .

ويقول أنور السادات — حاولت أن أتكلم ولكن الباشا قال : لا داعى للكلام ، لا تفتح فمك على الإطلاق ، ودقّ الجرس فدخل كاتم أسرار الجيش ، فقال له حيدر باشا : الواد ده ترجعه للجيش اليوم .

وصدرت النشرة العسكرية بعودتى للقوات المسلحة اعتبارا من ١٥/١/١٩٥١ برتبة يوزباشى ، وسرعان ما سُوّيت حالة السادات ورتبى بكباشى فى وقت قصير وهى الرتبة التى كان زملاؤه قد وصلوا اليها .

وانتقلت بذلك حالة أنور السادات وجيهان نقلة كبيرة ، وتصف جيهان

(١) خريف الغضب ص ٧١ .

(٢) البحث عن الذات ص ١٣٩ .

الفرق الواسع بين أرباح زوجها من العمل في المقاولات وبين المرتب الذى أصبح يصرف له بعد العودة للجيش فتقول (١) : « يا لراحة البال ، أصبح مرتب أنور عاليا ، ولم يكن علينا أن ندفع أية إيجارات أو فواتير كهرباء أو حتى فواتير الطعام ، فكل المستحقات كان الجيش مسئولا عن سدادها وأصبحنا نوفر جزءا من المرتب » واحتفالا بهذا الرخاء قررنا شراء سيارة ٠٠٠٠

من العودة للجيش حتى قيام الثورة :

كانت الفترة بين عودة السادات للجيش وقيام الثورة عاما ونصف عام تقريبا ، وكان تنظيم الضباط الأحرار بزعامة عبد الناصر يضع الخطط للثورة ، وضم عبد الناصر السادات للجنة التأسيسية للتنظيم ، وعارض كثير من الأعضاء ضم أنور السادات لمعرفتهم بماضيه ، ويذكر محمد حسنين هيكل أسبابا متعددة لموقف عبد الناصر وإصراره على ضم أنور السادات للجنة التأسيسية ، ولكن هذه الأسباب لم تبد لى مستساغة ، واعتقادى أن عبد الناصر كان له ولع بأن يضع فى المواضع الحساسة أولئك الرجال الذين تظهر فى تاريخهم شوائب وانحرافات ليهدهم بتاريخهم ، وليكونوا فى منتهى الطاعة له على ما توحى به بروتوكولات حكماء صهيون (٢) ، ولا شك أن أنور السادات من هؤلاء ، وهذا هو سبب خضوع السادات التام وطاعته الشاملة لعبد الناصر فى الخير والشر ، واستعداداه ليكون عضو المحاكم التى ألفها عبد الناصر على أن يحكم فيها بالأحكام التى يريدتها قائد الثورة ، وهذا هو السر كذلك فى صيحات السادات التى لم تتوقف طيلة حياة عبد الناصر ، بأن عبد الناصر هو المعلم والزعيم والمعلم .

(١) جيهان السادات : سيدة من مصر ص ١٣٩ .
(٢) اقرأ عن بروتوكولات حكماء صهيون فى كتاب « اليهودية » للمؤلف .

وعلى هذا فانضمامه لهذا التنظيم كان فوزاً له لما حقق له
من أعباء ، وفوزاً كذلك لعبد الناصر ، فقد كان لساناً يمدح ، ويدأ
تصفق ، وقتلما يسجل ما يطيب للزعيم ، لم يعرف لسانه النقد ،
ولا تجراً ليطلب شيئاً لنفسه ، بل كان يقنع بما يلقيه إليه الزعيم ، وكان
الزعيم يضعه في الأماكن الحساسة اعتقاداً منه أن ولاء أنور السادات
لا حدود له ، وكانت كل أعمال عبد الناصر في نظر السادات أعمالاً
أسمى من مستوى الشبهات ، وعلى هذا فقد كان ضم أنور السادات
للجنة التنظيم فوزاً لعبد الناصر والسادات ، كان الأول يعمل أى شيء ،
والثاني يثنى على هذا العمل ويدعو له ويباركه ، فلما رحل عبد الناصر
ظهر السادات على حقيقته ليفضح زعيمه ويصفه بالحقْد والأنانية وكل
صفات السوء ، كما جاء في كتابه « البحث عن الذات » .

يا أبا من صلة تسمى صداقة وهى فى الحق نفعية وأنانية ،
وخالام قائم .

الباب الثاني

أنور السادات من مطلع الثورة ..
إلى أن تولى رئاسة الجمهورية

نتابع هنا هذه المرحلة الطويلة الجافلة بالآلام والهزائم ، مرحلة عهد عبد الناصر ، تلك التي ضُرب فيها الشعب المصرى فى مقتل ، نتابعها هنا من زاوية واحدة هى : زاوية أنور السادات ، أما تتبع أحداثها فى ذاتها فقد وفيناه دراسة فى الجزء التاسع من هذه الموسوعة الخاص بعهد عبد الناصر .

بيد أن هناك معلومات كثيرة خاصة بهذه المرحلة اكتشفت عنها الأسرار بعد صدور الجزء التاسع ، وهذه نضع خلاصتها هنا لمزيد من التعرف على الصورة القاتمة لهذا العهد المرير .

وستتحدث فيما بعد عن وظائف السادات فى هذا العهد ، وعن سلوكه فى هذه الوظائف ، ولكن هناك أحداثاً سبقت هذه الوظائف ، وبها نبداً حديثنا فى هذا الباب .

السادات ليلة قيام الثورة :

هناك أقوال كثيرة عن موقف الثوار ليلة قيام الثورة ، فقول يرى إن عبد الناصر وعامر^(١) حضرا بعد أن استقر الأمر وظهرت بوادر النجاح ، إذ كان يوسف صديق قد تحرك بفيلقه قبل الموعد المحدد بساعة ، وكان هذا من باب الخطأ ، ولكنه الخطأ الذى كتب النجاح للحركة ، فقد كانت أخبارها قد بدأت تتسرب ، وكانت مقاومة الحركة على وشك أن تنصدى لها .

ونقول الرواية التى يؤيدها محمد حسنين هيكل^(٢) إن السادات حضر إلى القاهرة من رفح حيث يعمل ، وكان حضوره فى الليلة التى حددت لقيام الثورة ، وذهب مباشرة إلى منزله ، واصطحب زوجته وذهب إلى إحدى دور السينما الصيفية بالمنيل ، وكانت هذه

(١) فكرة نحوية : أنا مع الذين يرون أن تظل الأسماء الآن على حالة واحدة دون أن نضع ألفا فى حالة النصب ، فنقول ان عامر بدل ان عامرا فالمقصود العلم على الحكاية .

(٢) خريف الغضب ص ٧٨ .

الدار تعرض ثلاثة أفلام في السهرة ، ويقال إن السادات اصطنع معركة مع أحد الناس هناك ، وأمر على أن يصل الأمر إلى الشرطة ، وكان هدف السادات أن يثبت بذلك — إذا لزم الأمر — أنه كان بعيدا عن هذه الحركة ، وأنه كان موجودا بالسينما ، ونجحت الحركة على أى حال ، وظهر كل من كان قد حاول الاختفاء ، وادّعى البطولة كل من كان رعديدا مدعورا .

أمريكا والثورة :

كانت الولايات المتحدة هي التي رجّحت كفة الحلفاء في الحربين العالميتين الأولى والثانية ، ولكنها خرجت من الحرب العالمية الأولى بخسائر حنين كما يقولون ، وظلت أوروبا تسيطر على مقدرات الشعوب في إفريقية وآسيا ، ولذلك اتجهت الولايات المتحدة اتجاهها جديدا بعد الحرب العالمية الثانية ، ذلك هو أن تطرد الدول الأوروبية المستعمرة من إفريقية وآسيا ، وأن تحل بنفوذها محل الاستعمار ، وكان هذا هو هدف الاتحاد السوفيتي أيضا .

وقد وجدت الولايات المتحدة في ثورة ٢٣ يوليو وسيلة لبدء التدخل ، فشجعت الثورة وقررت حمايتها ، وحذّرت بريطانيا من التدخل ضدها ، ووجدت الثورة بذلك وسيلتها للحياة ، فمن الواضح أن أهم ما كان الثوار يخشونه هو تدخل القوات البريطانية التي كانت آنذاك موجودة بمعداتها بهصر وبمقرية من الأحداث .

ثورة ٢٣ يوليو كانت إجهاضا لثورة شعبية :

وهناك اتجاه آخر يرويه الأستاذ الدكتور محمد عصفور (الوفد ١٩٨٨/١٠/٢٣) اقتباسا من كتاب : Armies Politics الذي ألّفه « جاك ووديز » وهذا الاتجاه خلاصته أن الولايات المتحدة وبريطانيا خافتا من النفوذ الشعبى المتزايد الذى مثلته حكومة مصطفى النحاس باشا والذى بمقتضاه ألغت سنة ١٩٥١ معاهدة ١٩٣٦ مع بريطانيا ، ومنعت العمال المصريين من العمل في المستعمرات البريطانية ، ودفعت السلاح

إلى الشباب لمقاومة الاحتلال ، ومعنى هذا أن ثورة شعبية عارمة ستندلع وتطيح بكل النفوذ الغربى ، ولذلك وعدت الولايات المتحدة بعض العسكريين بتأييد أى انقلاب عسكرى لتجَهِّض هذه الثورة الشعبية ، وقامت مؤامرة اشترك فيها فاروق وبريطانيا والولايات المتحدة وبعض ضباط الجيش لحرق القاهرة ليكون ذلك وسيلة للتخلص من حكومة النحاس باشا (د • عصفور : الوفد ٢٤/١٠/١٩٨٨) ونجحت هذه المؤامرة ، وأقيمت حكومة النحاس باشا ، وجاءت حكومات ضعيفة زائلة خلالها انتهاب الشعب ، فأعلنت الولايات المتحدة النور الأخضر لنوار الجيش لإحداث انقلابهم • ووعدتهم بالمساعدة والتأييد •

وهكذا جاءت الثورة بديلا عن القصر ، فأهملت الاتجاهات الشعبية وحكمت بالاقليات ، على نحو ما كان متبعاً من قبل ، وخدعت الثورة الشعب الذى أسلم لها الزمام ، وكانت الثورة أقسى على مصر والمصريين من فاروق وأعوان فاروق •

وبذلك كانت ثورة ٢٣ يوليو اجهاضاً لثورة شعبية بدأت تباشرها ، وقد استطاعت ثورة ٢٣ يوليو أن تقضى على كل الزعامات الشعبية المصرية سياسية كانت كالزعامات الوفدية ، أو دينية كجماعة الإخوان المسلمين ، وكانت فى حركتها هذه مستجيبة للمضامير الأمريكية ، وللتسلل الأمريكى داخل هذه الثورة ، ويقول الدكتور عبد العظيم رمضان : إن السياسة التى اتبعتها ثورة ٢٣ يوليو ضد القوى الثورية المصرية السابقة على قيامها — التى أقضت مضاجع الاستعمار — لم تكن تحلم بها أشد الدوائر الإمبريالية مغالاة ، ففى خلال عام وثمانية أشهر فقط كانت هذه الثورة قد أطاحت بالوفد ، وزجت بالشيوخيين فى السجون ، وحلّت جماعة الإخوان المسلمين ثم زجت بأعضائها فى السجون كذلك ، وصفّت الحزب الاشتراكى لمصر الفتاة ، وأقصت الجماهير عن العمل السياسى ، وفرضت على مصر وصاية سياسية ممثلة فى مجموعة

من الضباط ، فكأنها قضت على فاروق واحد لتقييم بدله عبداً من الفواريق بل أعادت عهد الممالك ، وكبتت حرية الرأي في مصر بشكل لم يحدث في أشد عهود الرجعية ظلاماً ، وفرضت عهداً من الإرهاب لم تعرفه النظم الفاشية ذاتها (١) .

بيان الثورة :

كان هناك بيان قد أعيد للإلقاء عقب قيام الحركة ، وعندما أحس جمال عبد الناصر بأن الأمور قد وصلت إلى مرحلة الأمان نادى أنور السادات وكلّفه بإلقاء بيان الثورة بحجة أن صوته قوى ، وأنه يجيد الإلقاء ، وكان عبد الناصر بذلك يدفع للأمام أو للخلف من يشاء حسب المخطط الذى يخدم أغراضه .

واستيقظ الناس على صوت أنور السادات يلقى بيان الثورة ، ذلك البيان الذى حفل بالوعود ، تلك التى لم تعرف الظهور إلى دنيا الواقع .

الثورة والملك :

اختلف الثوار حول موقفهم من الملك ، وكان جمال سالم — مدفوعاً برعونته — ينتجه إلى إعدام الملك ، أما جمال عبد الناصر فكان يكتفى بأن يتنازل الملك عن العرش ويرحل عن البلاد ، ولم يكن موقف عبد الناصر نابهاً عن رحمة في قلبه ، فقد عرفناه محباً لسفك الدماء وتعذيب الناس ، ولكنه كان في عجلة من أمره ، يريد أن يتسلم السلطان ، أما المحاكمة والدفاع والحكم والتنفيذ فستؤجل حصوله على الغنيمة ، هذا بالإضافة إلى خوفاً من أن إعدام الملك قد يثير الشفقة عليه ، ويهزّ الضباط وهم راغبون في الكسب السريع ، ولذلك اتجهت النية إلى إرسال إنذار للملك ليتنازل عن العرش ويغادر البلاد في يوم السادس والعشرين من يوليو .

(١) دكتور عبد العظيم رمضان : مصر في عهد السادات ص ٤٩ و ٥٢ .

وأرسل عبد الناصر أنور السادات إلى الاسكندرية يحمل الإنذار للملك ، وهكذا دفع عبد الناصر صنيعته أنور السادات للأمام ، فقام بأخطر مهمتين آنذاك ، مهمة تلاوة بيان الثورة ، ومهمة حمل الإنذار للملك .

وفي خلال هذين العملين حاول أنور السادات أن يضع نفسه في مركز الدائرة ، فظهرت له بعض الصور التي تجعله كأهم شخصية بين الثوار ، وهذا أثار حقد الحكام الجدد الذين اعترضوا منذ فترة على ضم أنور السادات للجنة التنظيم ، وإذ به يحاول أن يسبقهم في الظهور أمام الجماهير ، فالرجل الذي كان بعيدا عن الجيش فترة تقرب من عشر سنوات ، والذي دفع به إلى رفح عقب عودته إلى الجيش ، والرجل الذي كان يبتعد نفسه عن كل حركة تثير الشبهة حوله ، هذا الرجل يريد أن يخطف الأضواء ، ويريد أن يعطى لنفسه ما لا تستحق من المجد والهيلمان !! هذا شيء أثار ثائرة الشبان الطموحين للسلطان .

ويعبر أنور السادات عن هذا الوضع بقوله :

كنت الوحيد من بين أعضاء مجلس قيادة الثورة الذي كتبت عليه مواجهة جميع الأحداث ، منذ إعلان قيام الثورة وخروج الملك من مصر ، فقد تسبب هذا في خلق حساسيات كثيرة بيني وبين زملائي في مجلس قيادة الثورة ولقد عانيت الكثير من هذه الحساسيات التي لم يكن لي يد في إيجادها ^(١) وبعد أن حدث ما حدث في الأيام الأولى للثورة دخلت برجا بعيدا وعشت فيه ^(٢) .

وهكذا تصوّر أنور السادات أن إعلانه لقيام الثورة أو حمله خطاب الإنذار للملك كان لمكانة خاصة به ، ونسى أنه كان أداة في يد عبد الناصر .

(١) البحث عن الذات ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦٣ .

(م ٧ - التاريخ الاسلامي)

وكان عبد الناصر يمسك الزمام بيده ، يعطى ويمنع ، ويهب ويحرم ، ويرضى ويسخط ، وكان كل تصرف منه محسوبا ، فرأى أنه أعطى السادات فوق ما يستحق ، فقرر التوقف عن مزيد من العطاء له ، فتركه بدون منصب في وقت وزعت المناصب الكبرى على الآخرين ، ويقول أنور السادات إنه قبل أن تنتهي سنة ١٩٥٣ كان جميع الثوار يحكمون ما عدا واحدا هو أنا (١) .

عبد الحكيم ملاذ السادات :

أحس السادات بأن عبد الناصر أغضى عنه الطرف ، وأحس كذلك أن عبد الحكيم عامر تفضل ليكون الشخص الثاني بعد عبد الناصر ، وإذا فقد السادات رعاية عبد الناصر ، فلينتجه لعبد الحكيم عامر ليجد عنده الملاذ والمعين ، وكان عبد الحكيم عامر محتاجا إلى من يجالسه ويعظم شأنه ، فقد كان معروفا بالهمجية والانحلال في حياته الخاصة ، مما دعا البغدادى وكمال الدين حسين وزكريا محي الدين إلى الابتعاد نوعا ما عنه ، فرحب عامر بالسادات يمتدحه ويغنى له ، وفرح السادات بعامر ملجأ وملاذ ومعينا ، ويذكر محمد حسنين هيكل أنه في هذه الفترة التصق السادات بعامر ، وأصبح ملازما باستمرار له حتى في بعض شئون حياته الخاصة (٢) .

الوظائف التي شغلها السادات في عهد عبد الناصر :

بعد هذه المقدمات نذكر أن الوظائف التي شغلها السادات في عهد عبد الناصر هي :

- ١ — رئيس تحرير جريدة الجمهورية .
- ٢ — السكرتير العام للمؤتمر الإسلامى .

(١) البحث عن الذات ص ١٧٥ .
(٢) خريف الغضب ص ١٩٤ بالهامش .

- ٣ — وكيل مجلس الأمة •
- ٤ — رئيس مجلس الأمة المشترك •
- ٥ — نائب رئيس الدولة •

وسنحاول أن نرسم صورة للسادات في كل موقع من هذه المواقع :

١ — السادات رئيس تحرير جريدة الجمهورية :

كان أنور السادات قد طلب في فترةٍ من فترات تعطُّله عن العمل قبل الثورة من الأستاذ إحسان عبد القدوس أن يساعده ليجد له عملاً في الصحافة ، واستطاع الأستاذ إحسان عبد القدوس أن يجد له عملاً في دار الهلال •

وأنشأت الثورة صحيفة الجمهورية لتكون صحيفة الثورة ومعبرة عن اتجاهاتها ، فرأى جمال عبد الناصر أن يضع أنور السادات رئيساً لتحريرها باعتبار أنه كانت له صلة بالصحافة ، وكانت هذه الصحيفة في فترة من الفترات تحمل اسم جمال عبد الناصر على أنه رئيس مجلس الإدارة وصاحب الامتياز ، وعلى الرغم من المحاولات الكثيرة التي بذلها الثوار لدعم هذه الصحيفة فقد تعرض عنها الشعب إعراضاً تاماً ، ولعل ذلك كان السلاح الذي عجز الثوار عن سلبه من الشعب ، فالشعب قد فقد بالثورة كل شيء ولم يبق له إلا أن يختار صحيفته التي يقرأها ، وعلى الرغم من وضع المع الأسماء بين محررين لهذه الصحيفة أو مشرفين عليها فقد كسدت تماماً ولم تعرف طريقها للقراء •

ونشر أنور السادات في « الجمهورية » مجموعة من المقالات ، ويقال إنها كانت تنشر مقالات باسم أنور السادات دون أن يعرف السادات عنها قليلاً أو كثيراً ، فكان الكتاب يكتبون باسمه ما يشاءون مما أحدث أحياناً بعض الأزمات السياسية ، ولم يطل عهد أنور السادات في الجمهورية ، بل تحول إلى عمل جديد سيكون موضع حديثنا التالي •

السادات سكرتيرا عاما للمؤتمر الإسلامى :

لم تكن أطماع عبد الناصر تقف عند حد ، ولم يكن لديه ما يدعم هذه الأطماع ، كان يريد أن يتوسع سلطانه ولكن بدون مؤهلات لاتساع هذا السلطان ، وكان يفكر فى أن يثول له حكم الشرق والغرب ولكن بدون قدرات حتى أن يحكم ما تحت قدمه ، وقد كتب فى كتابه « فلسفة الثورة » يذكر دوائر أطماعه وفكره وكانت هذه الدوائر ثلاثا هى :

- ١ — الدائرة العربية .
- ٢ — الدائرة الإفريقية .
- ٣ — الدائرة الإسلامية .

وباسم الدائرة العربية ابتكر ما سُمى « القومية العربية » بل انتهز فرصة الوحدة مع سوريا فأهمل كلمة « مصر » التى تضرب فى أعماق التاريخ عدة آلاف من السنين وسمى دولة الوحدة « الجمهورية العربية المتحدة » وكان هو رئيسا لها وساورته الأطماع أن هذه التسمية ستكون بابا مفتوحا لكل الدول العربية لتدخل فى نطاقها تحت رئاسته .

وللرغبة فى تحقيق حلم الدائرة الثانية وهى « الدائرة الإفريقية » أنشأ ما سُمى « منظمة الوحدة الإفريقية » مع عدو الإسلام والمسلمين هيلاسيلسى ، واقترح أديس ابابا مركزا لها ، وباسم هذه الدائرة حارب فى الكونغو ، وقدم أموالا وأسلحة لعدد من دول إفريقية .

وباسم الدائرة الثالثة وهى « الدائرة الإسلامية » أسس المؤتمر الإسلامى وهو موضوع حديثنا الآن :

هل توجهت وفود من الدول الإسلامية ؟ ووَضعت دستورا لتعاونها ؟ واختارت ممثلين لها وأميناً عاماً يباشر السلطات التى حددها هذا الدستور ؟ واختارت مصر مركزا لهذا المؤتمر ؟

الجواب بالنفى ، فلا وفود تمثل الدول الإسلامية ، ولا دستور يحكم العمل ، ولا مقر اختيار لمثل هذه الدول ، ولم يؤخذ رأى أية دولة إسلامية في اختيار الأمين العام .

لم يحدث شيء من ذلك وكل ما حدث أن عبد الناصر كان يريد تحقيق أحلامه نحو هذه الدوائر لتخضع لسلطانه فقرر إنشاء « المؤتمر الإسلامى » وقرر أن تكون القاهرة مقرا له وأن يكون أنور السادات سكرتيرا عاما لهذا المؤتمر ، وحدد قصرا فخما من القصور المصادرة ليكون مركزا له ، وأخذ أنور السادات يعيّن مساعديه من المصريين وحدهم على هواه ، وسرعان ما أصبح هذا المؤتمر « بالوعة » تبتلغ النفقات الباهظة وتقول هل من مزيد .

والتقط أنور السادات اتجاه عبد الناصر في الدائرة الإسلامية وأخذ يشرجه ، وكان عبد الناصر مبعوث القدر ، ومعه مال « قارون » ، ولأنور السادات كتاب عنوانه « نحو بعث جديد » وعنوان الكتاب يوحى بالطموح والأطماع الواسعة ، ومنه نقتبس بضعة سطور :

— وبَحَثَ جِمالُ أمور المسلمين في كل مكان مع وفودهم في الملايو ، وفي اندونيسيا ، وفي المغرب ، وفي تركستان ، وفي أفغانستان ، ومع وفود من قلب إفريقيا ومن شواطئها ، كانوا جميعا يرون في جِمال أملا جديدا كبيرا

ثم ينتقل أنور السادات من ذلك ليقول :

— على المسلمين في كل بقاع الأرض أن يأملوا في المستقبل ، لأن هاساتهم أصبحت تحت أعين المناضلين الثوار (١) .

(١) انظر كتاب « نحو بعث جديد » بدءا من سطور على غلاف الكتاب الذى يحوى فيضا من الاعاجيب ، ويصور الثوار جندا من عند الله يرفعون المشعل ليضىء للملايين الطريق ، يا للعجب .

— لابدّ لكى يصبح المثل على رأى من أنظار المسلمين جميعا ،
يهديهم بعد محمد وأبى بكر وعمر وعلى ، أن يحملة ثوار مناضلون ودعاة
عمل • لا دعاة كهنوت وخنوع وموت (١) •

وهكذا ألحق السادات عبد الناصر وزملاءه بركب الهداية الذى
قاده محمد صلوات الله عليه وقاده من بعده خلفاؤه الأبرار •

— وكان لابدّ أن يقود المسلمين رجال قضوا أعمارهم فى نضال
وكفاح وإيمان ، لا فى أسيرة وثيرة أو فى مقاعد تحوطها السلامة
والأمان (٢) •

— إن المستقبل يبدو لا شك مضيئا أكثر من الماضى ، فلم يحدث
من قبل أن أصبح اتحاد المسلمين وتكتلهم فى آسيا وأفريقية وأوربا
أقرب إلى التحقيق منه فى تلك الأيام التى قضيتها مع أخى جمال عبد الناصر
نستمع إلى آمال الناس ، وإن جمال يؤمن كما تكلم فى كتابه « فلسفة
الثورة » بأن ملايين المسلمين يمكن أن يكونوا قوة لا تقهر •• (٣) •

— فى الحجاز ألّف كثير من الحجاج حول عبد الناصر ، وخيل إلى
أنهم يريدون أن يقولوا له : أيها الثائر الذى من مصر ماذا نصنع ؟ (٤) •
تلك لقطات من هذا الكتاب العجيب فى طهوحه ، والذى يثير السخرية
والاستهزاء •

وصدرت أوامر السكرتير العام لموظف عادى فى المؤتمر أن يصبح
وكيلا لإدارة الاستعلامات وأن عليه أن يجمع البيانات عن المسلمين فى
كافة أنحاء العالم ويعمل على تزويدهم بما يحتاجون إليه من الأسانذة
والكتب والمراجع ، وأن ينشر نشاط المؤتمر على أجهزة الإعلام العالمية •

(١) نحو بعث جديد ص ١٥ •

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة •

(٣) المرجع السابق ص ٢٠ •

(٤) المرجع السابق ص ٢٠ •

ما أضعف العقل الذى يضع كل هذه المسئوليات فى عنق شاب واحد .
ولا شك أن اتجاهاها على هذا النمط كان جديرا أن يدمر مصر ويهدم
أكبر دولة فى العالم ، لأن العبء الذى اتجه الثوار لحمله كان أصعب من
أن تحمله دولة أيا كانت ، وهذا هو السر فى ضياع مصر ، وضياع ثراء
مصر ، وجيش مصر ، وتطورت كل هذه الدول ، أما مصر فقد تراجعت
بسبب طموح تنقصه الأسس والمواهب والإمكانات .

هل أدعى هذا المؤتمر أية خدمة لمصر أو للعالم الإسلامى ؟
الجواب أن هذه المؤسسة قامت ثم اختفت ، وكادت كفقاعة ماء
وزبد البحر ، وسنعيش مع هذه المؤسسة نسجل الأحداث التى اتصلت
بها ، وقد كنت شخصيا لى صلة بالمؤتمر الإسلامى فى فترة من الفترات ،
ولذلك فحديثى عنه حديث شاهد عيان ، وسأعتمد كذلك على موظف
بالمؤتمر ألف كتابا يذكر المفاز التى قدمها المؤتمر للمجتمع الإسلامى ،
فلننظر فى هذه المفاز .

موظفو المؤتمر

السيد السكرتير العام :

كان السكرتير العام يمثل قمة الهيئة التى تدير المؤتمر ،
وقد حدد السكرتير العام لنفسه المرتب الذى يرتضيه .
ويقول عنه الأستاذ أحمد طلعت ^(١) وكيل إدارة الاستعلامات بالمؤتمر
واصفا ترف السادات فى المؤتمر ما يلى :

كان للسيد السكرتير العام بمقر المؤتمر الإسلامى ، مكتبان ، ملحق
بكل منهما حجرة للسكرتارية ، المكتب الأول يقع فى الجانب القبلى وهو

(١) السادات قبل الرياسة ص ٢١ .

مخصص للاستعمال في الشتاء حيث تصطدم أشعة الشمس بزجاج الحوائط المغلقة فتكسب الحجرة دفئا طبيعيا ناعما لعله يساعد على التدبثر في أمور المسلمين !! أما المكتب الثاني فيقع في الجانب البحري ، وهو يتصل بشرفة فسيحة من الرخام الأبيض المزين بنقوش عربية تتسلل منها النسومات المنعشة إلى داخل الغرفة فتحيلها روضة فيحاء حتى في أشد أيام القيظ والحرارة .

أعوان السكرتير العام :

وأطلق السكرتير العام يده في تعيينات الموظفين اللازمين للمؤتمر ، وخلق ألقابا ، وعيّن مرتبات كما يشاء ، وكان حريصا أن يظهر في مظهر السكرتير العام للأمم المتحدة أو على الأقل الأمين العام لجامعة الدول العربية .

وقد شغل منصب السكرتير العام المساعد مجموعة من علية الضباط غالبا ويمكن القول إنهم ليست له صلة بالدراسات الإسلامية ، ومنهم أمين شاكرو حسن التهامي وأحمد عبد الغفار وأحمد عبد الله طعيمة وتوفيق عويضة .

كنت من موظفي المؤتمر الإسلامي :

وينبغي أن نقول إن بعض كبار الموظفين بالمؤتمر كانوا يأتون للسادات بأوامر عليا ، حتى أصبح المؤتمر مخزنا لثقافات واتجاهات مختلفة ، ولعلني كنت واحدا من هؤلاء ، فقد فصلني مجلس قيادة الثورة من جامعة القاهرة ، إذ كان لي دور في معارضة عبد الناصر خلال حركة مارس سنة ١٩٥٤ وبعد فترة استدعاني المرحوم الأستاذ محمد فهمي السيد المستشار القانوني لجمال عبد الناصر ، والذي كانت تربطه به روابط مصاهرة وتربطه بي روابط قديمة ترجع إلى أيام الدراسة الثانوية

بالزقازيق ^(١) وسألنى الأستاذ محمد فهمى السيد : ماذا أستطيع أن أفعل لك ؟ *

قلت : أن تيسّر أمرى للخروج من مصر ، فقد صدر قرار جامعة القاهرة بإعارتى لإندونيسيا بناء على طلبها ، ولكننى ممنوع من السفر بسبب الفصل . *

قال رحمه الله وأثابه : لنبدأ بإلحاقك بالمؤتمر الإسلامى ، وبعد ذلك سيكون السفر مباحاً وميسراً . *

وذهبت معه للقاء أنور السادات وتمّ تعيينى بالمؤتمر ، وبعد فترة قصيرة صدر قرار سفرى لإندونيسيا أستاذاً بالجامعة على أن أكون ممثلاً للمؤتمر ، وحدد أمين شاكرا لى مرتباً قدره خمسة وعشرون جنيهاً مقابل هذا التمثيل أما مرتبى الحقيقى فكنّت أتقاضاه من الحكومة الإندونيسية . *

وهناك عدد من الموظفين وضعهم أنور السادات مكافأة على خدمات وجهت له من هؤلاء ، أو لأى سبب شخصى آخر ، ومن هؤلاء :

محمد أحمد : الذى كان مديراً لمكتبه ، وقد كان ضابطاً مشرفاً على معتقل الزيتون حينما كان أنور السادات معتقلاً به ، وكان محمد أحمد يعامل أنور السادات فى المعتقل برقة وسماحة فكافأه السادات على عمله بتعيينه فى هذه الوظيفة . *

عبد الخالق كامل : وهو لواء متقاعد كان رئيساً للسادات ، قلماً أٌحيل للتقاعد أحب السادات — فيما يبدو — أن يراه مرة واحدة له . *

حسن جعفر : ابن المستشار صالح بك جعفر من زوجته الألمانية

(١) انظر تفاصيل ذلك فى كتاب « رحلة حياة » للمؤلف .

تلك الزوجة التي كانت أمًّا للجاسوس الألماني « ابلىر » الذى تحدثنا عنه من قبل ، والذى جذب السادات للعمل لصالح الألمان .

كامل عابدين : وهو (بلديات) السادات .

محمد زكى عصمت : وقد أوصى بتعيينه الفريق عزيز المصرى .

الأستاذ سيد أبو المجد والمرحوم الأستاذ على عبد الرازق ، وهما من أستاذة اللغة العربية وكان السادات يعتمد عليهما فى صياغة خطبه

ومما يذكر مرتبطا بالسكرتير العام ومعاونيه أن السيارات المرسيديس المصادرة ملأت ساحة المؤتمر الإسلامى ، وكان السادات قد خصّ نفسه بالسيارات العملاقة ووزع الباقي على معاونيه .

أعمال المؤتمر لخدمة الإسلام :

فى الحق إن المؤتمر أنشئ للدعاية من الألف إلى الياء ، ولم يهتم بكفاءات ولا ببرامج ، وما كان فى استطاعته أن يفعل شيئاً ، ويقول الأستاذ أحمد طلعت فى مجال الافتخار بأعمال المؤتمر :

- استطعنا أن نترجم معانى القرآن إلى اللغة الصينية .
- واستطعنا أن ندرس أحوال المسلمين فى الاتحاد السوفيتى .
- واستطعنا أن نوفد الأئمة وعلماء الدين إلى البرازيل ، وبورما ، وإندونيسيا ، والملايو ، وشرقى افريقية .
- واستطعنا أن نقدم منحاً دراسية لطلاب من شتى أنحاء العالم الإسلامى للدراسة فى الأزهر .
- واختار جمال عبد الناصر أنور السادات مبعوثاً شخصياً له عندما قررت مصر أن تقوم بدور الوسيط فى النزاع الذى نشب بين باكستان وأفغانستان .

ذلك ما يذكره بفخر الأستاذ أحمد طلعت ، وهي أشياء تدعو للخجل
فمبعوث اندونيسيا كان « أنا » وكان مرتبى من اندونيسيا كما فكرت
أنفا وكان هناك شخص واحد أرسل للبرازيل بناء على
طلبها وكانت الجالية المسلمة تدفع له مرتبه ، وكانت الصلة
بينه وبين المؤتمر تماثل الصلة التي كنت أشغلها •

• أما الملايو فقد ضمت لدائرة نشاطى •

وأما الطلاب الذين جاءوا للدراسة في الأزهر فهم امتداد لآلاف
الطلاب الذين وفدوا للدراسة بالأزهر على مر التاريخ •

رحلات السادات إلى دول العالم الإسلامى :

في أول عهد المؤتمر الإسلامى بالحياة قام أنور السادات وأمين
شاكر برحلة إلى أقصى الأرض ، إلى إندونيسيا ، وكانت إندونيسيا حديثة
النهضة بالاستقلال (أغسطس ١٩٤٥) بعد نضال طويل قدمت إندونيسيا
فيه آلاف الضحايا من البشر ، ونجحت في النهاية ، وفوجئت إندونيسيا
بهذه الزيارة التي لم يكن لها معنى ، وأحست الجمعية المحمدية وهي جمعية
عظيمة في إندونيسيا أسهمت بالكثير من أجل الاستقلال ، ومن أعظم ما أسهمت
به تربية النشء عن طريق آلاف المدارس التي كانت تملأ المدن والقرى
والنجوع ، وأحست هذه الجمعية بالفتور في استقبال جماعة الثورة من
مصر ، فعالجت الأمر بأن استضافت الثوار خلال مدة الوجيزة التي
أقامها ذلك الوفد بإندونيسيا ، وأصبح هناك اصطلاح شاع آنذاك وهو
أن المصريين يريدون Misirkan Indonesia أى يريدون تمصير إندونيسيا ،
ولست أعرف التقرير الذى لابد أن يكون أنور السادات قد رفعه
لعبد الناصر ، ولكنى أتخيله موضوعا من موضوعات الإنشاء للإسعاد
الرئيس الملمهم •

وقد سأل أنور السادات زعماء المحمدية عما يطلبون فقالوا : نطلب
أوراقا لنعمل منها الكراسات ولنطبع عليها المجلات ، ونطلب بعض الأساتذة

للتعليم في الجامعات الإسلامية الإندونيسية التي كانت قد أُنشئت حديثاً ، وهذا الطلب الأخير يَسَّرَ سفرى إلى إندونيسيا ، أما الأوراق فقد رأيت بعينى أكداساً منه ملقاة بساحة السفارة المصرية بجاكرتا ، وقد أرسلت مصر هذه الكمية الكبيرة في وقت كانت الصحف المصرية تعاني أزمة ورق .

وكان هذا هو ما خص مائة وخمسين مليوناً من الشعب الإندونيسى .

وتمت رحلات مماثلة إلى أقطار عربية وإسلامية ، وكثير من الأقطار كان شبابها مفتوناً بما يشاع عن الثوار المصريين من أمجاد في الهجوم على الاستعمار ، ولكن مصر عانت الكثير من المتاعب والأزمات نتيجة لهذا الهجوم الذى كان يرضى عواطف الشباب ، وبخاصة أولئك الذين لا يتدبرون الأمور .

المهم أن كثيراً من الأقطار العربية والإسلامية كانت تجامل أنور السادات ومرافقيه حتى لا تثير شبابها المفتون بهذه الجماعة ، وكانت بعض الأقطار العربية تستعمل الذكاء فتقدم الهدايا والهبات ، وكانت السيارات من الهدايا التى تلقاها أنور السادات ويقول : محمد حسنين هيكل إن أنور السادات قدم أكثر من سيارة كاديلاك في هذه الفترة للمشير عبد الحكيم عامر (١) .

لقد كانت رحلات للمتعة والنزهة ، والكسب الرخيص ، ولم يدور التاريخ أية فائدة لهذه الرحلات .

الاستجداء :

مع قيام المؤتمر الإسلامى حدث المدوان الثلاثى على مضر وأنزل

(١) خريف الغضب ص ٨٥ .

الغزاة الضرة ببورسعيد ، واحتلت اسرائيل سيناء وتوقفت العبور في قناة السويس .

وكانت ميزانية الدولة قد بدأت تضيق بالإنفاق الواسع الذي اتجه له الثوار في كل مجال ، فاتجه المؤتمر الإسلامي — للأسف — إلى الاستجداء ، وطلب أنور السادات من مبعوثيه إلى البلاد العربية والإسلامية إثارة موضوع المساعدات المالية المطلوبة الأسر شهداء بور سعيد ، وقد دون الأستاذ أحمد طلعت مبعوث أنور السادات إلى الكويت ، هذه الكلمات ، واستجاب لهذا الاستجداء الأمير عبد الله المبارك فكتب شيكا بمبلغ خمسين ألف جنيه استرليني باسم السيد : أنور السادات ، وكان هذا المبلغ وقتها بالغ السخاء (١) .

وهكذا انتقل هؤلاء بسرعة من التظاهر بالمطاء والعون إلى قناع الاستجداء والعوز .

مقر المؤتمر مخبأ لعبد الناصر :

وبمناسبة الحديث عن العدوان الثلاثي نذكر أنه في خلال هذا العدوان كان هناك احتمال أن يضرب الطيران البريطاني مقر إقامة جمال عبد الناصر للتخلص منه ، وتطوع أنور السادات بإعداد مبنى السكرتارية العامة للمؤتمر الإسلامي ليكون مقراً بديلاً لإقامة جمال عبد الناصر ، وكان تقديره أن وجود المبنى وسط حي الزمالك ، وبالقرب من معظم السفارات الأجنبية ، يجعل من قصف الطيران له مغامرة .

وأعلنت حالة الطوارئ في المبنى ، وتقرر أن يبيت فيه أحد المسؤولين كل ليلة ليكون « ضابط الاتصال » إذا استدعت الحالة انتقال جمال عبد الناصر إليه (٢) .

(١) أنور السادات قبل الرئاسة ٣٤ - ٣٥ .

(٢) أحمد طلعت : أنور السادات قبل الرئاسة ص ٢٧ - ٢٨ .

خراب بيور سعيد والدعاية :

انهارت مصر الثوار في دقائق أمام العدوان الثلاثي ، وانتقلت بيور سعيد من مدينة عامرة تعيش في رخاء إلى أطلال وخرائب ، واحتلت إسرائيل سيناء كما قلنا آنفا ، وركزت قواتها في شرم الشيخ ، ذلك المكان الخطير الذي لم ينجح حتى الآن من أقدام الأجانب بصورة أو بأخرى ، وفي تقديرى أن الثوار الذين صاحوا ضد الاستعمار في كل مكان ، وأوهوا الشعوب المستعمرة أنهم سيقودونهم إلى الاستقلال والرخاء ... هؤلاء الثوار كان عليهم أن يخففوا هزائمهم ، وأن يعالجوا جراحهم في صمت وكتمان ، ولكن عدم الخبرة دفعتهم إلى صراخ يشبه صراخ الأراملة ، وكان المؤتمر الإسلامى مركزا من مراكز الصراخ ، فقد جمع أنور السادات عددا كبيرا من الصور الفوتوغرافية التى تَصَوَّرَ من نزل بيور سعيد من حراب ودمار وطلب أن يُعَدَّ كتاب على وجه السرعة يحوى هذه الصور والتعليق عليها ، وأن يترجم هذا الكتاب إلى اللغات الإفريقية والآسيوية ، وأن يُطبع منها مليون نسخة .

وعمل المؤلفون والمترجمون ودارت المطابع وتكلف هذا الجهد ما يستحقه القارئ من تكاليف ، ثم أعد المبعوثون الذين سيطيرون إلى الأقطار المختلفة لتوزيع هذه الكتب ، وكتب السادات خطابات للشخصيات التى أرادها لتقدم العون لتوزيع هذا الكتاب ، وعندما تضاف تكاليف الرحلات وبدل السفر إلى تكاليف إعداد الكتاب يظهر الرقم خطيرا .

وسرعان ما اصطدم هذا الجهد برأى الخبراء ، فالسفير عبد الحميد غالب كانت له بعض التحفظات على توزيع هذا الكتاب في لبنان ، ورأى أن الصور المنشورة فيه تمثل بشاعة العدوان الثلاثي مما قد يخيف

القوى الوطنية في لبنان ويثبط عزيمتها إذا فكرت يوما في أن تدخل في مواجهةٍ مع الاستعمار^(١) .

وهناك أصدقاء لمصر خجلوا من تسجيل الاستسلام والانقياد السريع أمام العدوان ووجدوا في هذا الكتاب ما يسيء إلى سمعة مصر .

واكتشفتُ أنا في إندونيسيا بعد حين من إرسال هذه الكتب أن رباطات الكتب التي كان يحوى كل منها خمسين كتابا لم يفك رباطها ، ولا تزال ملقاة هنا وهناك ، وقال الإندونيسيون : لقد صارعنا أعتى دول العالم ، صارعنا أمريكا وإنجلترا وهولندا ، وقدمنا الضحايا ، ودُمرت دورنا وزادنا ذلك تصميمنا دون صراخ أو عويل .

وهكذا جلب المؤتمر العار على مصر بدل أن يسلك الطريق الأمثل في التعريف بالإسلام ومساعدة المسلمين .

فإذا أضفنا إلى ذلك ما سبق أن ذكرناه من الاتجاه للاستجداء باسم معونة أسر الشهداء ، فإن الطامة تكمل ، والعار يشيع ، ولست أدري بأى وجه ظهر الثوار بعد ذلك على أنهم حماة للضعفاء مع أنهم كشفوا للناس عن ضعفهم المادى والأدبى .

ويجى البلاد عندما يحكمها عسكريون بدون خبرة أو ثقافة ، وبدون دستور ولا قوانين .

المؤتمر الإسلامى يسيء استخدام الحقائق الدبلوماسية :

طبيعة الحقائق الدبلوماسية أنها تحمل أسرار السياسة ، ولكن للأسف اتجهت بعض الدول إلى استعمال الحقائق الدبلوماسية في تهريب المنوعات وحمل المخدرات ، وفي مصر أعادت الحقائق في خلال عهد

(١) احمد طلعت : السادات قبل الرئاسة ص ١٢ .

عبد الناصر ليوضع بها إنسان مخدّر اختطف من الخارج وأريد تصديره إلى مصر التي كان قد هرب منها (١) .

وقد استعمل المؤتمر الإسلامي الحقائق في حمل نوازم الثوار من الخارج حتى تصل بسرعة وحتى تهرب من الجمارك . فعندما ولد الطفل « جمال » لأنور السادات كلف مبعوثه أن يشتري لبن أطفال للطفل الجديد ، وأن يسلمه للسفير المصري في بيروت ليرسله بالحقيبة الدبلوماسية .

وأقرر على مسئوليتي أنني شاهدت صوراً من سوء استعمال الحقائق الدبلوماسية عندما كنت بإندونيسيا ، ولست في حل من كشف خباياها .

« ولد « جمال » ابن السادات مع بشاعة العدوان الثلاثي :

ولد الابن الذكر الوحيد لأنور السادات في الليالي الحالكة التي شهدتها مصر بسبب العدوان الثلاثي ، وقد أسماه أبوه « جمال » تيمناً بجمال عبد الناصر بعد أن اهتزت زعامته بسبب هذا العدوان ، ويرتبط بهذا الطفل كتاب ألفه أبوه أنور السادات بعد أن انكشفت الغمة وصرخ الماردان : الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة بالمعتدين وألزمهم بالجلاء ، حينئذ ظهر جمال عبد الناصر من تحت الأنقاض ليذكر أنه حقق النصر على المعتدين ، وقد التقط أنور السادات هذا الخيط وكتب هذا الكتاب واسماه « يا ولدي هذا عمك جمال » وهذا الكتاب يعتبر قمة في النفاق والزلفى والمنفعة وكل الكلمات والمعاني التي تدخل في هذا الإطار ، ولنا وقفة فيما بعد مع هذا الكتاب حيث سنقتبس منه ما يؤيد ما ذكرناه .

(١) انظر بعض التفاصيل عن ذلك في الجزء التاسع من هذه الموسوعة .

نهاية المؤتمر الإسلامى :

واختفى المؤتمر الإسلامى بعد خسائر واسعة مادية وأدبية ، وسبحان الله العظيم الذى يقول « نأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » •

أنور السادات وكيلًا ثم رئيساً لمجلس الأمة :

أقامت الثورة أول برلمان سنة ١٩٥٧ ، وكان برلماناً اختير أعضاؤه كما يشاء الثوار لا كما يشاء الشعب ، ويذكر أنور السادات هذه الحقيقة بقوله (١) •

أخذنا فى الاستعداد لانتخابات مجلس الأمة ، وراعينا فى ذلك شيئين : أولهما حق الاعتراض لمجلس قيادة الثورة ، وفعلنا بعد أن تمت الترشيحات اعترضنا على أعداد كبيرة ، وكان من أسباب الاعتراض الانتماء إلى الأحزاب القديمة أو عدااء المرشحين للثورة ، أما الإجراء الثانى فقد كان إغلاق بعض الدوائر على الضباط الأحرار الذين تركوا الجيش وخرجوا إلى الحياة السياسية والمدنية ، وفعلنا أغلقنا ٦٠ دائرة ثم أجريت الانتخابات •

هذه هى كلمات أنور السادات عن الانتخابات الأولى للثورة ، وهو يعترف بأن الثورة عجزت عن جذب الناس لها خلال سنوات خمس فانفض الشعب عنها ، وكان لابد من تدخل الثوار ليجيء مجلس أمة حسب رغبتهم ، وقد اتخذ الثوار قرارين ديكتاتوريين ذكرهما أنور السادات ، ولكن القرار الثالث الذى لم يذكره أنور السادات هو تزوير الانتخابات لينجح من يشاء الثوار نجاحه ، ويرسب من كان الثوار يغيظون عليه ، وجاء بذلك مجلس مزيف ككل المجالس التى ظهرت بمصر منذ قامت الثورة المشؤمة •

(١) البحث عن الذات ص ١٩٥ •

ونعود لكلام أنور السادات حيث يقول :

قبل اجتماع المجلس بثلاثة أيام كنت مع عبد الناصر في استراحة برج العرب ، فإذا بى أفاجأ بطلب منه بأن أستعد لرياسة المجلس ، وقبلت ، ولكن قبل افتتاح المجلس بليلة واحدة دعانا عبد الناصر للاجتماع به في القاهرة ، وقال إنه يفكر في إسناد رياسة المجلس إلى عبد اللطيف بغدادى •

ويستمر أنور السادات قائلاً : كيف غير عبد الناصر رأيه في خلال يومين ؟ ويجيب أنور السادات بقوله : لا أعرف حتى الآن ، ولكن الذى يعرف جمال عبد الناصر يدرك أنه كان يمكن أن يغير رأيه من لحظة لأخرى ، ولذلك كان بعضنا يحرص على ألا يذيع رأياً أو قراراً لعبد الناصر إلا بعد أن يعلنه عبد الناصر نفسه (١)

وعمل أنور السادات وكيلاً لمجلس الأمة تحت رياسة البغدادى ولعل من الحق أن نذكر أن البغدادى لم يترك له صوتاً في هذا المجلس ، وأنور السادات كان يجيد الخضوع لمن هو أقوى منه كما هو معروف من سيرته •

ولم تطل فترة هذا المجلس ، فقد طرأ على الحياة المصرية طارئ جديد هو الوحدة مع سوريا ، فحلَّ مجلس الأمة في مصر ، وحلَّ نظيره في سوريا وشكل مجلس جديد موحد بالتعيين سنة ١٩٥٨ ، ويقول محمد حسنين هيكل : إن جمال عبد الناصر قال آنذاك : إن أنور السادات يستطيع أن يخطب بصوت عال مثل كل البعثيين السوريين ، وعيَّن أنور السادات رئيساً لمجلس الأمة المشترك ، ويضيف محمد حسنين هيكل : إن من أظهر ملامح نشاط أنور السادات آنذاك هي الخطبة التى

(١) البحث عن الذات ص ١٩٦ •

كان يلقيها كل عام أمام جمال عبد الناصر ليرحب به في المجلس ، ويبايعه بانزعامة (١) .

ومن أخطر القوانين التي قررها هذا المجلس القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ الذي يسمّى (قانون تطوير الأزهر) والذي أجمع الباحثون أنه قانونٌ تدميٍ وليس قانون تطوير ، ومما يذكران هذا القانون الخطير مرّ بالمجلس في ليلة واحدة ولم تُقرأ فيه نصوص القانون ، وإنما اكتفى بأرقامها ، وحقق أنور السادات بذلك رغبة ملحة في نفس زعيمه لتدمير الأزهر والإصرار بالإسلام (٢) ، ولم يطل عهد الوحدة فقد تم الانفصال سنة ١٩٦١ .

وكانت الوحدة نكبة سياسية واقتصادية على مصر ، فبواسطتها سُرق عرق الإنسان المصري وتحول إلى مشروعات هائلة في (الإقليم الشمالي) لجذب أقطار عربية أخرى للدخول في نطاق الجمهورية العربية المتحدة ، ثم جاء الانفصال الذي كان أيضاً مدمراً للمال والأمال ، والذي كان نكبة سياسية وعسكرية واقتصادية .

وعن الوحدة والانفصال يتحدث الدكتور حسين مؤنس فيقول :
كان عبد الحكيم عامر يعيش في دمشق حياة السلاطين ، وفي ليلة كان نائماً في قصره ومقر ملكه ، فصحا ليجد مماليكه الشوام قد خلعوه ، ووضعوه في طائرة وشحنوه إلى مصر مع عتاولته الذين كانوا يتصرفون في سوريا كأنهم سادة عظام هبطوا من السماء ليصلحوا الكون ، وبينما كان الجوع والعوز ينتشر في مصر ، كانت أموال مصر تجري في دمشق على يد عبد الحكيم عامر وأعوانه كأنها ماء الترغ ، وكانت سهراتهم وعربدتهم حديث الناس ، وكان مكتب عبد الحكيم عامر هناك يتضخم

(١) خريف الغضب : ص ٨٥ - ٨٦ .

(٢) اقرأ تفاصيل ذلك في الجزء التاسع من هذه الموسوعة .

ويزداد عدداً ، وكان المتجرون في العملة يستعملون الحقائق الدبلوماسية
لتنمية ثرواتهم (١) .

حرب اليمن :

يربط كثير من الباحثين بين حرب اليمن وبين أنور السادات فقد
كان بين الذين عرفهم أنور السادات عن طريق عمله في المؤتمر الإسلامي
عبد الرحمن البيضاني الذي كان لاجئاً يمينياً بمصر ، وفي صيف سنة ١٩٦٢
جاء مبعوث من اليمن يصطحب عبد الرحمن البيضاني إلى أنور السادات
وذكرا له أن حركة سرية قد كُوِّنت في الجيش اليمني ، وأنها تعمل على
القضاء على نظام الإمامة في اليمن وأن يستبدل به النظام الجمهوري
على النمط المصري ، وطلب هذا المبعوث من أنور السادات نقل هذه الفكرة
إلى الرئيس جمال عبد الناصر لعله يتبنّاها .

وكان عبد الناصر آنذاك يعاني من إحساس عيق صور له شماعة
الدول العربية وبخاصة المملكة العربية السعودية بسبب الانفصال ، كما
كان عبد الناصر يعيش آنذاك في حزن رهيب نتيجة لهذه الخيبة التي
ظنها غنيمة فجاءت ضربة قاضية .

وكان السادات يدرك أن زعيمه يمر بفترة عاصفة مدمرة ، وأنه
محتاج إلى دواء يعالج به هذا الداء ووجد السادات في حركة اليمن
ضربة يستطيع أن يوجهها إلى المملكة العربية السعودية التي اعتبرت في
قمة الشماعة ، كما يوجهها إلى الإمامة في اليمن التي روى أن زعيمها
الإمام أحمد ألف قصيدة يهاجم بها الاشتراكية ويفهم زعيم الاشتراكية
عبد الناصر .

والتقت على هدف واحد حركة اليمن وأطماع عبد الناصر وحقده

(١) باشوات وسوبر باشوات ص ١٤١ .

ورغبة السادات في خدمة زعيمه ، فاشتريت مصر في تأييد هذه الحركة التي استمرت ست سنوات ، ضاع خلالها رصيد مصر تماما ، وقتل الآلاف من جنود مصر على صحراء اليمن ، وهيات هذه الهزائم للهزيمة الكبرى التي حدثت في الخامس من يونيو سنة ١٩٦٧ فقد كان في قاع الجهل أن يحارب عبد الناصر في جبهتين ، في اليمن من جانب وفي التحرر من إسرائيل من جانب آخر ، ويعترف السادات بتشجيعه لغزو اليمن فيقول : كانت هذه فرصة مناسبة لردع الملك سعود الذي موّل الانفصال والذي كان في ذلك الوقت يتزعم الحملة ضدنا ، فاليمن على حدوده مباشرة ، ولذلك عندما اجتمع مجلس الرياسة هنا للنظر في طلب ثوار اليمن للنجدة ، كنت أول المتحمسين ، وأقنعت المجلس بضرورة مساندة الثورة ، وفعلنا تمّ هذا (١) .

إنها مآسى عصر حافظ بالمآسى والعبر (٢) .

نائب رئيس الجمهورية :

في أحزان عبد الناصر المتصلة ؛ صراعه مع محمد نجيب وحركة دارس ، وضرب الإخوان المسلمين سنة ١٩٥٤ وسنة ١٩٦٥ والصدوان الثلاثي ، وحركة الوحدة ثم الانفصال ، وحرب اليمن ، وهزيمة يونيو القاسمة ، والاستجداء في مؤتمر الخرطوم الذي قدّم فيه الملوك الذين طاموا هاجمهم عبد الناصر واستخفّ بهم ، قذّروا عوناً لمصر في وسط هذه الأحزان وغيرها مما يُعرّف ومما لا يُعرّف كان بيت السادات هو الملجأ الوحيد لعبد الناصر ليخفى به أمسية هادئة من حين لآخر ، وكان خضوع السادات ودبلوماسيته زوجته يهدئان من قسوة الحياة على الرجل الذي دمر نفسه ودمّر ما حوله ومن حوله .

في هذه الظروف بدأت قسوة المرض تشتد على عبد الناصر ، ثم

(١) البحث عن الذات ص ٢١١ .

(٢) اقرأ عن حرب اليمن في الجزء التاسع من هذه الموسوعة .

جاء مؤتمر القمة العربى فى الرباط وكان على عبد الناصر أن يسافر للرباط ، وقبل أن يرحل استدعى أنور السادات وأصدر قراره بأن يكون نائبا لرئيس الجمهورية ، وكان ذلك فى ديسمبر سنة ١٩٦٩ ، وعاش عبد الناصر الشهور التسعة بين تعيين السادات نائبا له وبين وفاته ، عاش فى اضطرابات صحية وسياسية متتالية •

بيت السادات :

كان بيت السادات بالهرم قد أصبح غير مناسب للمناصب والمكانة التى أصبح السادات يشغلها ، وكانت أطماع زوجته واسعة ، فكانت تكمّده عينيها هنا وهناك باحثة عن مسكن يلائم مكان الرجل وطموح زوجته ، وزاد هذا الأمر عندما أصبح أنور السادات نائبا للرئيس الجمهورية ، وحدث خلال رحلة عبد الناصر إلى موسكو قبل وفاته بشهور قليلة أن راق فى عين زوجة نائب الرئيس قصر فى شارع الهرم يملكه ضابط سابق يشغل بالأعمال الحرة ، فعرضت جيهان السادات على الضابط استئجار القصر ولكنه رفض ، فأصدر أنور السادات قرارا بوضع القصر تحت الحراسة ، أو بلغة أخرى بالاستيلاء على هذا القصر •

وقبيل أن يتم هذا عاد عبد الناصر وعرف القصة من مخابراته ، فغضب من هذا التصرف لأنه تصرف ضد ضابط فى القوات المسلحة ، ولكن هذا التصرف وجهه عبد الناصر إلى تخصيص بيت مناسب للسادات ، فقدم له بيتا من بيوت الضيافة كان قصرا شامخا يطل على النيل ، وكان من قبل ملكا لليونير يهودى فرضت عليه الحراسة سنة ١٩٦١ وتسلم أنور السادات هذا القصر الشامخ ، وأجرت زوجته فيه بعض الإصلاحات ، فلما مات عبد الناصر بعد ذلك بقليل زادت اتجاهات الإصلاحات حتى تكلفت ٦٥٠ ألف جنيه ، واختارت جيهان السادات بعضا من المتحف التى كانت موجودة فى القصور الملكية السابقة لى تجمّل بها بيتها الجديد (١) •

(١) محمد حسنين هيكى : خريف الغضب ص ٩٦ •

نهاية عبد الناصر :

المعروف أن عبد الناصر مات سنة ١٩٦٧ بعد ضياع أمله ، وانكسار صوته ، بسبب الهزيمة القاسمة التي دمرت جيشه في دقائق .

وكان يقول عن حرب ١٩٥٦ إنها عدوان ثلاثي ، ولولا انجلترا وفرنسا ما استطاعت إسرائيل أن تقف أمام جيشه ، غماداً يقول الآن عن حرب ١٩٦٧ ؟

وكيف يوارى وجهه من أعدائه الكثيرين ومن الشامتين في كل مكان ؟

وراح الرجل صاعراً إلى مؤتمر الخرطوم يستجدي من أعدائه ، وأعطاه الأعداء بعض المال .

وسحب جيشه من اليمن بعد ذلك مثقلاً بالهزائم والضحايا .

ونزلت بعبد الناصر أمراض كثيرة هددت جسمه الذي طالما دمغ أجسام الآخرين ، وألزمه طبيبه الروسى « تشازوف » بعدم الإجهاد ونفخ الزبانية حوله نصيحة الطبيب فجردوا عبد الناصر من كل نفوذ ، وأصبح هؤلاء يمارسون صلاحيات الرئيس نفسه دون الرجوع إليه باسم المحافظة على صحته ، ونظراً لوجود ختم عبد الناصر لدى سامى شرف فقد أصبح أمراً عادياً أن تصدر قرارات جمهورية مهورية بتوقيع الرئيس دون أن يدري عبد الناصر عن معظمها شيئاً (١) .

لقد مات الرجل فعلاً عقب هذه الهزيمة ، ولم يبق في جسمه إلا روح حزينة تنتظر الإفلات من هذا الجسم الذى دبت فيه كل الأمراض ، لقد انهكت الأمراض جسم الرجل ، ولابد أن روحه القاسية مسها الضرر أيضاً نتيجة لما أنزلته بالبلاد والعباد من قسوة وعناء .

(١) جمال حماد : الحكومة الخفية في عهد عبد الناصر ص ٤٦ .

إن ثمانية عشر عاما كانت أعوام بلاء ونكبات على شعبنا الصابر ،
وإننا ندوّن ذلك بإفاضة لعل غيره من الرؤساء يدركون أن التاريخ
لا يموت ، وأنه سيدوّن يوماً ليعيش آلاف السنين بِصِمِّ الجبار
ويدمغه بالطغيان ، وينزل عليه اللعنات إلى يوم الدين .

وفي الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ١٩٧٠ آن للروح المخضبة
بالدماء أن تفارق الجسم المخضب بالجراح .

شكوك حول سبب الوفاة :

ونهاية عبد الناصر ليست عادية ، فمثلاً كتبتُها وكتبها سواي في
حينها في حدود ما كان عندنا من وثائق وروايات ، وحسبناها موتاً نتيجة
الأمراض والإرهاق والنكبات ، ولكن وثائق جديدة ظهرت خلال عام
١٩٨٨ و ١٩٨٩ فغيرت ما كان معروفاً من قبل .

لقد نشر الأستاذ الكبير مصطفى أمين أقوال الطبيب الخاص بأمير
الكويت ، وقد قال هذا الطبيب الذي رأى عبد الناصر وهو بالمطار يودع
الأمير : إن آثار سُمّ تبدو على وجه عبد الناصر ، وإنه لن تطوى
مقاومته لهذا السم .

وقال عبد اللطيف البغدادي إن عبد الناصر اتصل به قبل وفاته
بفترة واتفق معه على أن يصبح النائب الأول لرئيس الجمهورية ، وذكر
الأستاذ مصطفى أمين كذلك في مقاله الذي نشر بتاريخ ٢٠/٥/١٩٨٨
مما يلي :

« إن عبد اللطيف البغدادي اتصل به وقال له إنه يريد للتاريخ
أن يذكر أن عبد الناصر اتصل بي في الشهور الأخيرة من حياته ، وقال
البغدادي إن الاتفاق قد تمّ بينه وبين عبد الناصر على أن يعلن قرار
تعييني نائباً لرئيس الجمهورية ورئيساً للوزراء عقب انتهاء اجتماع

الملوك والرؤساء في القاهرة لبحث الصراع بين الملك حسين والفلسطينيين ، وقد روى لى المرحوم عبد السلام الزيات نائب رئيس الوزراء * وأحد أشد المقربين للرئيس السادات في ذلك الوقت أن الهدف الحقيقي من فتح خزانة عبد الناصر السرية بعد وفاته هو سرقة القرار الذي كتبته عبد الناصر بتعييني نائبا لرئيس الجمهورية ورئيسا للوزارة * وقد أشار الأستاذ الزيات إلى هذا في مذكراته التي نشرها في جريدة الأهالي .

وأضاف البغدادي قوله : وقد أخبرني الدكتور الفريق رفاعي كامل الذي كتب شهادة الوفاة لجمال عبد الناصر ، والذي حضر بعد وفاته بنصف ساعة ، بأن ما أصيب به جمال كان أزمة سكر ، وليس أزمة قلبية ، وأنه كان يمكن إنقاذه بكوب ليمون ، ولكن الذي حدث إنه أعطى بدلا من ذلك حقنة مورفين ، ولما أفاق تكرر حقه مرة أخرى بحقنة مورفين ، ويعتقد الدكتور رفاعي كامل كبير أطباء الجيش المصري ، أن هذا هو الذي قضى على حياته ، ولم يحقق أحد في هذا الموضوع * وقال بعض المطلعين إن عبد الناصر أملى قرارا وطلب من مرافقيه أن يذاع هذا القرار في نشرة الأخبار ، ولم يذع هذا القرار في حينه ، ويرى هؤلاء المطلعون أن هذا القرار كان تعيين البغدادي في هذا المنصب .

ونتيجة هذه الأقوال أن رفاق السوء خافوا من تعيين البغدادي ، ورأوا فيه خصما عنيدا لن يتمكنوا من هزيمته بسهولة ، ومالوا إلى الإبقاء على أئور السادات فهو عندهم أضعف عودا وأقل صلابة ، وكان عبد الناصر في ساعاته الأخيرة أو أيامه الأخيرة ، فرأوا أن يجهزوا عليه قبل أن ينفذ رغبته بتعيين البغدادي ، فالتغلب على السادات في رأيهم كان يسيرا *

ونفذ رفاق السوء هذه المؤامرة في سيدهم الذي كانوا يسبحون بحمده ويمجدونه ولا يستطيعون معارضته أو إبداء رأي لا يتفق مع مزاجه *

ثم انطلق الطبيب الخاص لعبد الناصر ، وهو الفريق الدكتور رفاعي كامل فقرر أنه عقب وفاة عبد الناصر استدعى ليكتب تقريراً عن وفاة الرئيس وأنها طبيعية ، ولكنه عندما شاهد الجثمان انتابه الشك ، فاقترح إجراء بعض التحليلات ليتأكد مما يشك فيه ، ولكن أنور السادات ورفاق السوء قالوا له أن ذلك سيثير بلبلة في النفوس ، وسيخلق قلقاً ، ومن الأوفق أن توقع على البيان الذي يروى أن الوفاة طبيعية ، ووقع الطبيب على البيان ، وهو يقول في المقال الذي نشره سنة ١٩٨٨ إنه لم يأسف على شيء أسفه على هذا التوقيع ويطلب أن يغفر الله له .

مزيد من الشكوك حول سبب الوفاة :

لم تقف الشكوك حول وفاة عبد الناصر عند الحد الذي ذكرناه ، بل روى منير حافظ — الرجل الثاني في مكتب معلومات عبد الناصر — أن الرجل مات مسموماً ، وهذا يتفق مع ملاحظة طبيب أمير الكويت التي أثبتناها آنفاً (١) .

وفي سنة ١٩٨٩ نشر الكاتب الناصري جمال سليم كتاباً يتحدث عن شبهة جنائية في وفاة عبد الناصر ، وهو عبارة عن تحقيق صحفي حول الساعات الست الأخيرة في حياة عبد الناصر التي أعقبت توديع أمير الكويت في الساعة الثالثة ظهراً .

ومن أخطر الأسئلة التي يقدمها الصحفي جمال سليم قوله :

ما هو الدور الذي لعبه أشرف مروان ليكافأ بعد ذلك بتعيينه مديراً لمكتب الرئيس السادات للمعلومات ثم سُمح له بأن يتضخم لدرجة أنه أصبح واحداً من أثرياء العالم الآن ؟

ماذا حدث في غرفة نوم الزعيم بعد الساعة الثالثة والرابع ؟

(١) نشر هذا القول في مجلة « الأنباء » الكويتية يناير ١٩٨٥ .
(٢) كتاب الاستاذ جمال سليم غير قاطع ولكنه مفيد لمن يدرس هذا الموضوع .

وعلى كل حال فقد انطوت صفحة ذلك الرجل وتركت مادة خصبة للباحثين يكتبون عن ماضيه ، ويحذرون أى حاكم أن يسير في هذا الطريق الوعر ، الطريق الذى فتحة عبد الناصر ودفن فيه •

السادات أو البغدادى ؟

لم يخطر ببال المثقفين أن يفاضلوا بين السادات والبغدادى ، فالأحرار لا يقبلون أن يفرض عليهم أحد ، إننا نريد الحرية كاملة ، يتقدم للترشيح من يشاء ، ويختار الشعب من بين المرشحين من يريد ، أما نظام التسلسل الذى ابتكره عبد الناصر وسار عليه السادات فهو نظام مرفوض ، إنه نوع من الملكية أو أسوأ من الملكية ، وقد قال عمر ابن الخطاب : لا أريد أن أحمل وزر الخلافة حيا وميتا ، ولكن هؤلاء يحملون الأوزار في حياتهم ويظلون بعد وفاتهم مسئولين أمام الله عن الإنسان الذى وضعوه على الطريق ليلى الأمر بعدهم •

إن بعض البسطاء يقولون أن عبد اللطيف البغدادى أنشأ كورنيش النيل كما أنشأ عبد الناصر السد العالى ، وأقول إن هؤلاء بسطاء لأنهم يتوهمون أن حياة الدول واقفة لا تتحرك ، فإذا أنشأ عبد الناصر السد العالى كان ذلك ماثرة تذكر ، وإذا فتح شخص جامعة كان هسهل نور ، وإذا أقام البغدادى طريق الكورنيش كان كأنه بنى الصراط المستقيم •

نقول لهؤلاء إن الحياة تسير ، ومن أموال الشعوب تقوم بعض الإصلاحات ، وقد عرفت مصر السكك الحديدية وإنارة الشوارع ورصف الطرق ، وعرفت الخزانات والسدود على طول مجرى النيل منذ أمد طويل قبل الثورة التى دمرت الإنسان ، وأفلست الخزينة ، وأضاعت الثراء وأسالت دماء الأبرياء •

نحن مرة أخرى لا نريد أن يفرض علينا مرشح من إنسان في طريقه للفناء ، وإذا كان السذى يرشح خلفا له يعتقد أنه يضع في السلطة من يحفظ عليه ذكراه ويدارى عوراته فهو مخطئ ، ويكفى أن

نقرأ كتاب « البحث عن الذات » لنرى الأهوال التي ينسبها السادات لعبد الناصر ، ولو جمعت العبارات والقضايا التي دوتها السادات ضد عبد الناصر في هذا الكتاب لكونت قصيدة من الهجاء أقذع من أى هجاء دونه الشعراء الهجاءون •

وجمال عبد الناصر لم يكن مؤهلاً للحكم ، وبالتالي فليس مؤهلاً لتحديد من يخلفه •

وزكريا محيي الدين :

لم تقف الإشاعة لاختيار رئيس الجمهورية عند عبد اللطيف البغدادي ، بل إن الإشاعة امتدت إلى زكريا محيي الدين ، وكان سبب هذه الإشاعة أن « الأهرام » نشرت له نعيًا بارزًا لجمال عبد الناصر ، وركز التليفزيون عليه عند تشييع الجنازة ^(١) ، ووقت الدفن ، وكان ذلك سببًا في بروز اسمه ليتولى رئاسة الجمهورية ، ولعل مما قوّى ذلك أنه كان المرشح الذى ذكر عبد الناصر اسمه عقب الانهيار في حرب ١٩٦٧ •

وهكذا كانت رئاسة الجمهورية رخيصة في نظرهم إلى هذا المدى ، فنحنى بارز ، أو تركيز جهاز التليفزيون على شخص يكفى لتوجيه الأنظار إلى استحقاق هذا الشخص ليكون رئيساً للجمهورية • باللسخرية ؟

وعلى صبرى وجماعته :

لم يكن طريق أنور السادات للرئاسة سهلاً ، فالمجموعة المحيطة بعبد الناصر (على صبرى وشعراوى جمعة وسامى شرف) حاولت أن تضع العراقيل أمامه ، ويذكر أنور السادات ^(٢) إن هذه المجموعة اقترحت أن يبقى الأمر كما هو ، أى أن يبقى هو قائماً بعمل رئيس جمهورية دون استفتاء إلى حين ، وكانت حجتها في ذلك أن الشعب يرفض السادات ، وفي رفضه رفضاً للثورة ، ولكن السادات أصر على تنفيذ

(١) كمال خالد : رجال عبد الناصر والسادات ص ١٣٣ •

(٢) البحث عن الذات ص ٢٨٤ •

الدستور بإجراء الاستفتاء ، وذكر أن الشعب لو رفضه فإن الاتحاد الاشتراكي ينبغي أن يرشح شخصا آخر حتى يتم شغل منصب رئيس الجمهورية .

وفي محاكمات مؤامرة مايو يقول شعراوي جمعة إنه كان هناك رأى أن يسمّر أنور السادات قائما بعمل رئيس الجمهورية بصفة مؤقتة ، دون استفتاء ، ولكنى عارضت هذا الأمر واقترحت إتمام الاستفتاء حتى لا تحدث بلبلة (١) .

وفي هذه المحاكمات أيضا قال سامى شرف : إنه فى يوم وفاة عبد الناصر عقد اجتماع فى قصر القبة مشترك بين اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي ومجلس الوزراء ، وبدأت فى الاجتماع محاولات مريية تتلخص فى عدم تمكين أنور السادات من رئاسة الجمهورية (٢) .

ولجأ أنور السادات إلى ذكائه الذى لم يتخل عنه ، فقد تظاهر بالإعياء الشديد ، وبأنه أصيب بذبحة صدرية فى أثناء جنازة عبد الناصر ، وحرص على أن يهمس لكل من اقترب منه للأطمئنان على صحته من كبار المسؤولين قائلا : أوصيكم بالمؤسسات ، الحكم يجب أن يكون بالمؤسسات ، فخذع رجال عبد الناصر بهذه العبارات ، واطمأنوا إليه ، باعتبار أن حكم المؤسسات يعنى أن الحكم سيمتد فى أيديهم ، فتحمسوا لإجراءات تعيينه رئيسا للجمهورية (٣) .

الفريق أول محمد فوزى :

وللأسف كانت القوات المسلحة بقيادة الفريق أول محمد فوزى لها رأى فى هذا الموضوع ، وكم نتهنى أن تبعد القوات المسلحة عن السياسة ، وقد كشف محمد فوزى رأيه فى محاكمات مايو إذ قال : قبل دفن جمال عبد الناصر جمعت قادة القوات المسلحة فى مبنى القيادة بمدينة نصر ،

(١) كمال خالد : رجال عبد الناصر والسادات ص ١٣٣ .

(٢) المرجع السابق : ص ٢٧٣ .

(٣) المرجع السابق ٢٠٦ .

وألقيت توجيهها حاسما يفيد رفض أسماء الأعضاء مجلس قيادة الثورة القديم مثل زكريا محيي الدين ، والبغدادى ، وكمال حسين ، وقلت : إن من عارض أو خالف الرئيس جمال عبد الناصر في حياته لا يصح أن يخلفه بعد مماته ، وتجمع الرأى داخل القوات المسلحة على تأييد أنور السادات ليكون رئيسا للجمهورية (١) .

والذى يقره كتاب محمد فوزى (استراتيجية المصالحة) يدرك بوضوح اضطراب هذا الرجل فهو أولا يريد أن يتقرب من السادات ببعض التصرفات الرديئة ، وهو ثانيا يؤمن إيمانا كاملا بأن الجيش هو الذى يختار الرئيس ، يقول سيادته في ذلك : يوم ١٩٧٠/٩/٣٠ بادرت بفكرة توجيه رسالة نيابة عن قادة وضباط ورجال القوات المسلحة إلى الرئيس المؤقت أنور السادات تحمل تأييد القوات المسلحة لترشيحه رئيسا للجمهورية وكان تأثير هذه الرسالة كبيرا إذ سرعان ما ردّد الشعب في كل مكان « الجيش عاوز السادات » (٢) .

وكرر هذا « الفريق » تلك الجملة مرة أخرى بعد صفحتين . وفي تقديري إن هذا قمة التسلط والغفلة ، فالجيش عند الفريق أول محمد فوزى هو كل شيء ، والشعب يردد ما أقره الجيش ، وهذا خطأ كبير من الناحية الدستورية والاجتماعية ، ولا يصح لقلم يحترم نفسه أن يكتب هذه العبارات .

أمين شاعر والوفد السودانى :

ولكن المسئولية ليست على محمد فوزى وحده ، فيبدر إن هذا العصر جعل من كل ضابط سلطة هائلة تخلق الرؤساء أو على الأقل توحى بذلك ، فمحمد فوزى يروى أن أمين شاعر — أحد الضباط الأحرار — حضر إلى فندق هيلتون حيث انتزل وفود المعزين ، وقابل السيد فاروق أبو عيسى وزير خارجية السودان آنذاك ، وطرح

(١) المرجع السابق : ص ١٦٠ .

(٢) الفريق أول محمد فوزى : استراتيجية المصالحة ص ١٣١ و ١٣٣ .

عليه رأيـه بأن يتولى زكريا محيي الدين رئاسة الجمهورية ، وطالب أمين شاكـر أن يتولى الوفد السودانى هذه الفكرة •

وتلك — إن صحت — خيانة وطنية أخرى أن يطلب من السودان اقتراح رئيس لجمهورية مصر ، فهؤلاء الناس ينسون ملايين المصريين ، وكان علماء مصر وأقذاها لا قيمة لهم ، ولكن الوفد السودانى كان أذكى من ذلك فقرر عدم التدخل فى الشؤون المصرية (١) •

مجلس الثورة مرة أخرى :

وهناك محاولة ثالثة قام بها أعضاء مجلس الثورة القسدامى : البغدادى وزكريا محيي الدين وحسن ابراهيم وكمال الدين حسين ، وكانت ترمى إلى تشكيل مجلس رئاسة منهم برياسة السادات وذلك عودة للوراء لجماعة لم يسجل التاريخ لهم أو الأكثرهم موقفا لصالح مصر ضد ما نزل بها من طغيان ناصر وعامر (٢) •

دهاء السادات :

ويجىء دهاء السادات فيقضى على هذه المحاولات ، فقد اصدر بيانا امتدح فيه القوات المسلحة وأكد ضرورة الوحدة العربية ، وضرورة مصارعة إسرائيل كما ذكر أننا نتمسك بسياسة عدم الانحياز كما علمنا عبد الناصر ، وأننا جزء من الاتجاه التقدمى الاشتراكى • ولكن أهم خديعة ظهرت فى هذا البيان قوله : إننى أعلن أنه ليس بهقدورى ولا بمقدور أى شخص أن يتحمل ما كان يتحمله عبد الناصر ، ولذا يجب توزيع المسئوليات على المؤسسات السياسية والدستورية التى تمثل سلطة تحالف قوى الشعب العامل (٣) •

واطمأن البلهاء لهذا القول وظنوا أن السلطة ستبقى فى أيديهم فوافقوا بل تحمسوا لنجاح أنور السادات •

(١) المرجع السابق ص ١٣١ - ١٣٢ •

(٢) المرجع السابق ص ١٣٢ •

(٣) المرجع السابق ص ١٣١ •

ولعل هذا الخلاف هو الذى جعل الاستفتاء يتم بعد ١٧ يوما من وفاة عبد الناصر ، أما بعد اغتيال السادات فإن الاستفتاء جرى بعد أسبوع واحد من الاغتيال •

ويقول محمد حسنين هيكل ^(١) إن السادات طلب منه — وكان وزيرا للإعلام والثقافة — إدارة حركة الاستفتاء ، واستجاب له هيكل وأدير الاستفتاء على أساس أن جمال عبد الناصر هو الذى اختار السادات ليخلفه فى منصبه ، فقد كان اسم عبد الناصر لا يزال — للأسف — يتحكم فى نفوس العامة ، وإن كانت الاستفتاءات والانتخابات التى أجرتها الثورة منذ ظهرت لا تعرف العدالة ، ولا تقييم وزنا الآراء الناس ، وإنما تدبر السلطة نتائجها كما تشاء ، فتم الاستفتاء ونجح أنور السادات ، والعجيب أن تركية السادات لم تكن لأنه كفاء بقدر ما كانت لأنه اختيار عبد الناصر •

لقد رأت العصاة السابقة أن تؤجل هجومها على السادات إلى حين ، فوافقت على ترشيحه وعملت على نجاحه حتى تدبر أمرها ضده ، ومن جهته هو فقد كتم غيظه ، وأخذ يدبّر الأمر للقضاء على هذه العصاة ، وهذا يوضح لنا صورة من حياة مصر فى ظل الثوار •

وسنرى فيما بعد أن الصراع قد أعلن بعد حين ، وسنرى كيف نجح السادات ضد هذه العصاة التى لم تكن تستمتع بقيم ذاتية ، ولا بنفوذ بين الجماهير ، وهذا ما يسر للسادات أن ينجح فى هذا الصراع •

(١) خريف الغضب ص ١٠٠ •

الباب الثالث السادات رؤساء البعثات

قبل أن نسير خطوة خطوة مع السادات وأحداث عصره ، نذكر بعض الدراسات التى تُعَدُّ ضرورية فى التقديم لسيرة الرجل ، ومراحل حياته ، وجوانب شخصيته .

أولا : تاريخ فردٍ أو تاريخ دولة ؟

كان أكثر المؤرخين السابقين يديرون أحداث التاريخ فى الامبراطوريات أو فى الدولة الإسلامية حول الامبراطور المسيحى أو الخليفة المسلم وكأنَّ هرون الرشيد مثلا هو الأمة الإسلامية ، ويسير الحديث عنه من عام إلى عام ، يحارب وينتصر أو ينهزم ، ويبنى ويهدم ، وتروى أحاديث ترفه ، وقصوره ، وأبنائه

وفى الجيل الحديث رفض أكثر المؤرخين هذا المستوى من التفكير ، وعمدوا إلى كتابة تاريخ الأمة ، وبقي بعض المؤرخين يكتبون تاريخ الخلفاء على النسق القديم ، وحجة هؤلاء أن الخليفة كان مصدر الحركة والنشاط ، وأن كل شئ كان يرتبط بشخص الخليفة ، فهو الذى يعين معاونيه ، وهو الذى يقود الجيوش ، ويكسر المال أو ينفقه

أما المؤرخون الذين كتبوا تاريخ الأمة ، فقد اهتموا بكل نشاط فى الدولة ، وعثوا بعرض حركات المعارضة الدينية والثورات السياسية التى كانت تواجه الخليفة وتترك أثرا واضحا فى مسيرة الدولة ، ولو نظرنا إلى تخطيط أى مجلد من المجلدات التى كتبتُها فى « موسوعة التاريخ الإسلامى » نجد أنها أخذت هذا المنهج ، فالعناوين الرئيسية للجزء الثالث الخاص بالخلافة العباسية مثلا هى :

— تعريف بالخلافة العباسية .

— تعريف بخلفاء العصر العباسى الأول .

— المشكلات الكبرى التى قابلها خلفاء هذا العصر : العلويون — الخوارج —

الزنادقة — الخرمية .

— العلاقات الخارجية •

— مشاهير وزراء العصر •

ماذا نفعل الآن في تأريخنا لزعماء هذه الثورة المشؤمة ؟

لقد كان عبد الناصر هو كل شيء ، يعيّن رشاد مهنا رئيسا للجنة الوصاية على العرش ثم يعزله ويسجنه ، ويعيّن محمد نجيب رئيسا للجمهورية ثم يعزله ويسجنه ، ويؤمّم القناة دون أن يستشير أحدا ، ويدفع جيش مصر إلى اليمن أو الكونغو لهدف في نفسه هو ، ويفتح ميدانا آخر للحرب ضد إسرائيل سنة ١٩٦٧ دون أن يستمع لناصح أو خبير ، ويقيم أعمدة مزيلة لمساعدته ، كهيئة التحرير ، ولما أحس بفشلها أسماها الاتحاد القومي ، ثم الاتحاد الاشتراكي ، وصادر أموال الناس

ثم جاء أنور السادات فسار في هذا الاتجاه ، ألغى الاتحاد الاشتراكي وابنكر « المنابر » ثم حوّلها إلى أحزاب ، ثم حارب الحزب الذي اختلف معه ، وانتقل من الولاء للاتحاد السوفيتي إلى الولاء للولايات المتحدة مع علمه بأنها حارسة إسرائيل عدوة الإسلام والعروبة ، وألغى المعتقلات ثم أعادها ، وعين الوزراء ، وعزل الوزراء وعلى العموم كان هو صاحب الصوت الوحيد في كل ما يبدو من أمور

هل نكتب تاريخ السادات كما كتب السابقون تاريخ هارون الرشيد ؟

الجواب أن هذا مستحيل ، لقد تحرّكت الأمم ، وفرضت نفسها على من اتجه للدكتاتورية ، لقد قرر زكريا محيي الدين مرة أن يرفع الأسعار في أواخر عهد عبد الناصر فنثار الشعب وتنحى زكريا محيي الدين وعادت الأسعار كما كانت •

ونفس الشيء حدث في عهد السادات فقامت حركة ١٨ و ١٩ يناير

١٩٧٧ وعادت الأسعار كما كانت •

ولم تتوقف حركات الهيئات طيلة عهد عبد الناصر والسادات ،
فالقضاة أعلنوا سخطهم وقامت مذبحة القضاء ، ولكن القضاة صمدوا ،
وأساتذة الجامعات رفعوا أصواتهم في حركات استتكار من مطلع الثورة
حتى الآن ، وقدموا الضحايا ولكنهم لم يستكينوا ، والصحفيون ورجال
الأعمال والفلاحون والجماهير ثم الأعضاء المعارضون في
البرلمان عندما ظهر جانب من الحرية ، وأخيرا صحافة قوية معارضة عندما
سمح بصحف للمعارضة *

إنه تاريخ دولة من مطلع الثورة حتى الآن على الرغم من كل
دكتاتورية ، بل على الرغم من حدة الدكتاتورية أحيانا .

ثانيا : السادات والثورة

لم يجيء السادات من فراغ ، وإنما كان شريكا لثوار قاموا بهذه
الثورة ، ثم كان امتداداً لعبد الناصر ، وقد ترك الثوار والثورة للسادات
رصيدا من المتاعب والمشكلات ، ولهذا ينبغي أن نعطي لمحات لهذا التراث
الذى تلقاه السادات وتحتم عليه أن يتعامل معه ، وسنلجأ للاختصار
بقدر الإمكان :

ثم إن معلومات جديدة ظهرت عن عصر عبد الناصر ، لم تكن قد
اتضحت عندما كنت أكتب الجزء التاسع من هذه الموسوعة الخاص بعصر
عبد الناصر ، فلزم رصد هذه المعلومات هنا ، فقد كانت شديدة التأثير
في عصر السادات .

وفي مطلع حديثنا نورد وصفاً قدمه السادات نفسه عن الثوار ،
كما نورد وصفا آخر قدمه أحد الثوار الذين أسرع عبد الناصر بعزلهم
وهو عبد المنعم أمين ، وهذان الوصفان سيضعان لنا أساسا للحالة قبل
السادات ، تلك الحالة التى ستكون شديدة التأثير في عصر السادات .

أنور السادات يصف الثوار :

كان الثوار مجموعة من الشبان العسكريين ، قليلي التجارب
ثم بعد ثلاثة أيام من إعلان الثورة وجدوا أنفسهم ينتقلون فجأة من
مكاتبهم البسيطة ومراكزهم العادية في الجيش إلى مراكز السيادة ،
وأصبحوا وحدهم يحكمون مصر بلا منازع ولا دستور ولا قوانين (١) .

عبد المنعم أمين يصف الثوار :

كان عبد المنعم أمين أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة ، وهو يقرر
أن عبد الناصر اشترك في الثورة لصالحه الشخصي ، وكان عبد الناصر
يعتقد أنه لا يشترك في الثورة إلا من ستنتفعهم الثورة مادياً ، ولذلك فإنه عندما
زارنى مع كمال الدين حسين وجلس عندى بعض الوقت ، ثم خرجا قال
عبد الناصر لكمال الدين حسين : أنا جلست على الكنبه فوجدت نفسى
غطست فيها فقلت فى نفسى : طيب عبد المنعم أمين يطلع معنا فى الثورة
ليه ؟ عنده كل حاجة فما حاجته للثورة ؟

ثم إن عبد الناصر كان لا يقرّب أحدا إليه إلا من يرى فيهم الرغبة
العارمة فى الانتفاع بالثورة ، فلم تكن الثورة لمصر وإنما كانت لأهداف
ذاتية .

وكان عبد الناصر لا يقرّب منه إلا من كان فى تاريخه نقطة سوداء
فى حياته ، لكى يستطيع أن يسيطر عليه من خلال ذلك وذكر عبد المنعم
أمين أمثلة كثيرة لذلك .

وقال عبد المنعم أمين عن صلاح سالم :

إنه هو الذى أخرج مجوهرات وتحف الأميرة فايزة من مصر بعد

(١) البحث عن الذات ص ١٥٧ .

أن أوصلها إلى باب الطائرة ، ولم يجرؤ أحد من رجال الجهارك أو من رجال المطار أن يقول له شيئاً كانت هناك إشاعات ولكن الحقيقة قد تكتشفت بعد ذلك بالكامل وثبت أنه أخرج لها جواهرها حقيقة ، وأن الأميرة فاييزة أعطت لصالح سالم خاتما من السوليتير ، حاول أن يبيعه في جنيف ، فقيل له إنه مسروق ، والحكومة المصرية تدخلت وقتها ، وكانت أخلاقة تقبل هذا ، وعنده استعداد أن يفعل أى شئ من هذا النوع ، ويبدو أن ذلك كان أساس أخلاقيات الثورة ، فالفرد يشترك في الثورة من أجل أن ينتفع في النهاية (١) .

وإذا اتخذنا هذه الكلمات أساسا لتصويرنا للفترة التي سبقت عصر السادات فإننا نجد الثوار متأثرين تأثرا تاما بمجفوعة من المثالب في قمتها الحرص على المال ، واندفاعة الجهل ، ورغبة الاستمتاع بالمرأة .

وإذا كان بعضهم — للحق — لم يتأثر بالمرأة فإن الغالبية العظمى قادتهم الرغبة في تحصيل المال من جانب ، والجهل من جانب آخر ، وإن كانوا بطبيعة الحال تفاوتوا في ذلك كما سنرى ، وسنرى فيما يلى بعض الحقائق حول هذه المثالب :

(١) دراسة قدمها عبد المنعم أمين أحد الثوار سنة ١٩٨٨ بمناسبة مرور ٣٦ عاما على هذه الثورة المشئومة ونشرت بصحيفة الوفد .
وينبغي أن نذكر أن عبد المنعم أمين هاجم الثوار بعد أن عزله جمال عبد الناصر ، أما قبل ذلك فقد كان نصير الثورة ، وهو الذى تطوع ليرأس المجلس العسكرى الذى حكم بالاعدام على العاملين خميس والبقرى ولم يعطهما الفرصة الكافية للدفاع عن أنفسهما (انظر الجزء التاسع من هذه الموسوعة ص ٢٥٩) .

المال وتأثيره على الثوار

واجه الثوار في اللحظات الأولى لعصرهم ثراء ضخما يتمثل في جواهر أسرة محمد علي وكنوز هذه الأسرة ، فاتجهوا من أول يوم لعدم حصر هذه الجواهر حصرا دقيقا حتى تكون في متناول كل يدٍ أثيمة ، وما أكثر هذه الأيادي .

وشدهم الحرص على المال إلى تعذيب من كانوا أغنياء قبل الثورة ، وشمل هذا التعذيب مصادرة الأموال والقصور ، وصورا من الإيذاء والعدوان ، كما شمل إذلال الأعداء ، وكل ذلك كان تنفيسا عما في نفوسهم من حقد على الغنى والأغنياء ، وفيما يلي نماذج ترتبط بمجال المال :

جواهر أسرة محمد علي :

وبمناسبة كلام عبد المنعم أمين عن الخاتم السوليتير الذي نفخته الأميرة فايزة لصالح سالم نذكر أن الكتاب كتبوا كثيرا عن اختفاء كنوز أسرة محمد علي ، وذكروا أن الثورات في العالم سواء في فرنسا أو روسيا القيصرية أو في تركيا ضد الخلافة هذه الثورات احتفظت بجواهر الأسر التي كانت حاکمة على أنها رصيد وطني ، ووُضِعَت هذه الجواهر الثمينة في متاحف يزورها الزوار من كل أنحاء العالم برسوم تدّر دخلا كبيرا على الدولة ، أما كنوز أسرة محمد علي فقد ضاعت ، وللاّن لم يُعرَف مَنْ سرقها وماذا تبقى منها ، ونحن نكرر القول لعل أذنّا تسمعنا وتمي صراخنا الذي لن ينقطع عبر الأجيال حتى يقيّض الله حاكما قويا يستجيب لهذا الصراخ ولا يخاف إلا الله ، فيعيد الحق إلى نصابه ، والمال المنهوب إلى مالكة الحقيقي وهو الشعب ، ونقدم اليوم في هذا المجال سطوراً من « فكرة » للأستاذ مصطفى أمين كتبها يومى ١٩٨٣/١٢/٧ و ٨٢/٦/١ :

أذاعت وكالة رويتر لمراسلها في البحرين البرقية التالية : « عرض

أحد الصاغة في البحرين أمس للبيع ماسة نادرة ، كان يمتلكها ملك مصر السابق فاروق ، ضمن جواهر أخرى نفيسة ذات قيمة تاريخية ، ويمتلك حاليا هذه الماسة الخضراء اللون مجموعة من الصاغة ، من بينهم السيد سامى فرج صاحب شركة جواهر في جنيف بسويسرا .

وقد لا يعرف شباب هذه الأيام أن أمراء وأميرات أسرة محمد على كانوا يملكون جواهر وتحفا ثمينة كانت تقدر ببلايين الجنيهات ، وفي أوائل الثورة صدر قرار بمصادرة كل أموال أسرة محمد على وأقاربهم وأصهارهم .

واختلف الرأي بين الحكام الثوار ؛ فريق يرى الاحتفاظ بهذه الجواهر التى لا تقدر بثمن فى متحف بقصر عابدين يزوره السياح ، كما فعلت الثورة الشيوعية بالاحتفاظ بأموال أسرة رومانوف المالكة فى متحف بالكرملين ، وكما احتفظت ثورة مصطفى كمال بجواهر الأسرة المالكة العثمانية بعد خلعها .

وفريق آخر من الحكام كان من رأيه بيع هذه الجواهر التى لا تقدر بثمن ، فى مزادات عالمية ويخصص ثمنها الهائل لإنشاء الجامعات ، وبناء المستشفيات ، وإقامة مدن للعمال ، وشراء أسلحة للجيش المصرى

ولم يحدث هذا ولا ذاك وإنما اختفت هذه الجواهر والمتحف ، أو على الأقل اختفى أروع ما فيها وليس هناك من السادة من يسأل عن مصير هذه الثورة حتى الآن . (انتهى)

وكان عبد الناصر يتعامل مع هذه الجواهر على أنها ملك خاص له ، فطالما أخذ منها ليقدم هدايا لأصدقائه ومحبيه ، وتعامل السادات على نفس المستوى مع هذه الجواهر .

وعندنا لمحات سريعة عن هذه الجواهر ، ففي كتاب (القضية الكبرى)
الذى كتب مقدمته الضابط ابراهيم الطحاوى الذى كان سكرتيراً لهيئة
التحرير يقول مؤلف الكتاب : وقد جمعت جواهر أسرة محمد على
بالاسكندرية فى ٣٧ صندوقاً حجم كل صندوق متر مكعب •
أما جواهر أسرة محمد على بالقاهرة فكانت أكثر وأكثر •

نصيب لبنان من ثراء مصر :

يقرر الدكتور حسين مؤنس أنه يعرف واحداً من الضباط الذين
أسندت لهم عملية جرد الجواهر ، وأن هذا الضابط يعيش الآن فى بيروت
وهو من أصحاب الملايين هناك (١) •

والعجيب أنه لا أحد من المسؤولين يتكلم عن هذه الجواهر الآن ،
ولا أحد تكلم عنها من قبل •

وبمناسبة الحديث عن أموال مصر فى لبنان يذكر الدكتور حسين
مؤنس أنه لا يمكن أن يتصور أى مصرى مقادير الأموال التى ألقتها
عبد الناصر فى بيروت ليبنى أسطوره ، فهناك صحفيون كانوا لا يساؤون
قلامة ظفر أصبحوا أصحاب ملايين من أموال مصر التى قدمها لهم
عبد الناصر ، وأى هلفوت لبنانى كتب سطوراً فى مدح عبد الناصر تقاضى
ثمنه ذهباً ، وقد حدث هذا فى وقت كان المصريون يعانون شدة اقتصادية
بالغة (٢) •

ويذكر الدكتور ابراهيم عبده (٣) أن فى بيروت داراً ضخمة من سبعة
طوابق كان لعبد الناصر فضل إنشائها وأزدهارها •

(١) باشوات وسوبر باشوات : ص ٢٩٤ •

(٢) باشوات وسوبر باشوات : ص ١٩٠ •

(٣) أقول للسلطان ص ٣٨ •

وتذكر مجلة أكتوبر أن الابتزاز في لبنان فتح أبوابه لمصر ، وأن
أذكىاء لبنان وجدوا في سذاجة عبد الناصر وسيلة لاء جيوبهم ، وتقرر
المجلة أن السيد عبد الحميد غالب قدّم ملايين الجنيهات لزعماء بيروت سنة
١٩٥٨ ، وأنه شوهد يسافر بالبحر ومعه ٥٠ صندوقا باسم الحقيقة
الديبلوماسية ، وكل صندوق كان لا يقل عن طن كامل ، وتذكر المصادر
أنهم كانوا يطبعون في لبنان صحيفة لتمجيد عبد الناصر ، ولا يطبع منها
أكثر من ١٠٠ نسخة يرسل أكثرها إلى الرئاسة بمصر لئلا عنهم على
الولاء الزائف (١) .

عبد الناصر سبب الحرب في لبنان :

ولكن لبنان الذي اتهم مال مصر عن طريق عبد الناصر عانى من
عبد الناصر أشد معاناة ، ويذكر الأستاذ محمود عبد المنعم مراد في عموده
اليومى بصحيفة الأخبار أن الحروب المدمرة في لبنان بدأت بسبب تدخل
عبد الناصر في شؤون هذا البلد ، وأراد كميل شمعون أن يبقى لبنان
مستقلا دون أن يتلقى توجيهات من الخارج ، ودارت بينه وبين حلفاء
عبد الناصر حرب "أهلية شرسة" وهكذا دفع عبد الناصر الأموال
إلى لبنان ، ولكنه دفع لها الخراب أيضا .

أسرة عبد الناصر والماس الثمين :

لبن المعروف أن نشأة عبد الناصر كانت نشأة أقرب للثبوس ، ولكن
السلطة جعلت هذه الأسرة تعرف الماس النادر ، وقد نشرت صحيفة الوفد
بتاريخ ١٧/١/١٩٨٥ نقلا عن الصحافة الباريسية ما يلى :

تتحدث الأوساط الفرنسية عن الماسة الثمينة التى أهدها المليونير
أشرف مروان إلى زوجته السيدة منى عبد الناصر ابنة الرئيس الراحل
جمال عبد الناصر ويبلغ وزن هذه الماسة اثنين وعشرين قيراطا ، ويصل ثمنها
إلى ما يقرب من مليون دولار ، وكان أشرف مروان قد اشتراها من ميل

« فان كليف » الذى يتعدّد من أشهر محلات بيع الجواهر فى باريس ، وتعتبر الماسة التى أهداها أشرف مروان إلى ابنة عبد الناصر من أغلى الماسات التى بيعت منذ أشهر عديدة •

ثراء أسرة عبد الناصر :

نشر الأستاذ المرحوم جلال الدين الحمامسى مقالا فى ١٩٨٤/٨/٢٤ عن الطفل المعجزة أشرف مروان زوج ابنة الرئيس جمال عبد الناصر ذكر فيه أن هذا ركب اليخت الخاص به فى رحلة للاستجمام والاسترخاء ، وكانت رحلة عمل كذلك ، اشترى فيها عدة أسهم من دار « فليت هولدنجر » للنشر التى تشدّر عدة صحف بريطانية ، وثمان الحصة التى اشتراها صهر عبد الناصر أحد عشر مليوناً من الجنيهات الاسترلينية أى حوالى أربعين مليوناً من الجنيهات المصرية ، وقبل هذا اشترى هذا الطفل المعجزة جزءاً من أكبر محلات تجارية بلندن المسماة « هارودز » ودفع فى ذلك عشرة ملايين من الجنيهات الاسترلينية أى ما يقرب من المبلغ السابق ، ويذكر المقال أن أشرف مروان اتسع نشاطه أيضاً فى الجانب « الفندقى » على شواطئ أسبانيا ، وأنه يمتلك قصراً فخماً اشتراه لنفسه ولأسرته فى ضواحي لندن •

ويذكر المقال أيضاً أن أولاد عبد الناصر المقيمين بمصر قد وصل حجم أعمالهم المعمارية بمصر إلى أكثر من مائتى مليون من الجنيهات رغم أنهم ما زالوا فى بداية الطريق ، ورغم أن هذا الحجم لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كانت البداية مرتكزة على أرقام الملايين من الجنيهات أو الدولارات • ويختتم الأستاذ جلال الدين الحمامسى مقاله بقوله متهمكاً :

هذه هى نتائج الاشتراكية التى أسسها عبد الناصر الذى كان دائماً يصرخ « لا مكان فى مجتمعنا لأصحاب الملايين » وكان فى الوقت نفسه يرتب الأولاده ليصبحوا من أصحاب الملايين ، فما حُرّم على الناس كان حلالاً للثوار وأسر الثوار •

عبد الناصر هو طريق هذا الثراء لأهله :

ربما يسأل سائل : كيف وصلت أسرة عبد الناصر إلى هذا الثراء الواسع في حين انهارت اقتصاديات البلاد ، وفي حين يحارب الرئيس الرأسمالية ويجاهر بالاشتراكية ؟

والإجابة سهلة ، كانت الاشتراكية والجوع وشدّة الأحزمة على البطون نصيب الشعب ، أما عبد الناصر وأسرته ومنّ حوله فالرأسمالية حلال لهم ، ويقدرهم الأستاذ كمال خالد أدلة على التسيب والبذخ للذين عرّفَ بهما عبد الناصر بالنسبة لمن حوله ، فيقول : (١) .

في الجلسة السرية التي عقدت لمحاكمة مراكز القوى وقف سامي شرف في قفص الاتهام ليقول متهمًا ساخرًا : « المدعى الاشتراكي يتهمني باستغلال النفوذ ، والمحقق رئيس النيابة يسألني إذا كان عندي مستند يفيد أن الرئيس جمال عبد الناصر هو الذي صرح لى بإنفاق المبالغ التي يقال إنني اختلستها من المصاريف السرية لرئاسة الجمهورية بمناسبة زواج ابنتي : ليلي وهدى ، وواصل سامي شرف كلامه قائلاً :

« إن الرئيس جمال عبد الناصر كان له مبلغ مليون جنيها سنوياً مصاريف سرية . وقد رفض رفضاً باتاً الإمساك بدفاتر توضح أوجه الإنفاق بطريقة تفصيلية ، وقال لى « لا تخلق قاعدة كهذه » وأنا استشهد بالسيد حافظ بدوى رئيس المحكمة ، ما الذى حدث بالنسبة لزواج ابنته الأولى والثانية والثالثة والرابعة ؟ ففى كل مرة كنت أستدعيه إلى مكنتى ٠٠٠ وأسلمه ظرفاً به مبلغ ثلاثة آلاف جنيه وأقول له : هذه هدية الرئيس جمال عبد الناصر للمروس ، فكان يدعو الرئيس جمال عبد الناصر ويدعو لى أيضاً ، وفي المرة الأخيرة كان الظرف به أربعة آلاف جنيه ، وبمجرد أن لاحظ حافظ بدوى هذا الرقم على الظرف أخذ يدعو لى ويكرر الدعاء وقد استمع جمال عبد الناصر لتسجيل هذه

(١) رجال عبد الناصر والسادات ص ١١٦ .

المقابلة ولفت نظره أن دعاء حافظ بدوى لشخصى يزيد أضعافاً عن دعائه للرئيس جمال ، فقال لى « أوع تعطيه فالوس تنانى ، وإن كنت عايز أ عطيه من جيبك علشان الدعاء يبقى حلال عليك » •

وكل ما أريد أن أسأل رئيس المحكمة عنه هو : هل حصلت منه على إيصال باستلام أى مبلغ من هذه المبالغ • • هل طلبت منه التوقيع على أى دفتر أو على أى ورقة : هل أحضر لى خطاباً من الرئيس بتسليمه أى مبلغ من هذه المبالغ ؟ إن شيئاً من ذلك لم يحدث ، فقد كانت أوامر الرئيس جمال الشفوية مطاعةً وتنكفد فوراً ، وليس هناك حاجة لورق أو إيصالات أو أوامر مكتوبة •

هذا هو نص شهادة سامى شرف أمام المحكمة :

ومن الواضح أن المليون جنيه التى كانت لعبد الناصر فى الستينات تساوى الآن على الأقل عشرة ملايين ، وكان ذلك بدء السرقات التى تساعت ، وانتخذت عدة طرق بعد ذلك ، والمعروف أن المصروفات السرية كانت تنفق فى الصالح العام ولا تقدم هدايا للأفراد عاديين مثل حافظ بدوى وسامى شرف •

هل يظن ظان أن جمال عبد الناصر يعطى سامى شرف وحافظ بدوى ولا يعطى أولاده ؟

إن من نظن ذلك أنسان ساذج ، والحق أن فيضاً من الأموال وصل إلى أولاد عبد الناصر بطريق أو بآخر ، فكون رصيده هذا الشراء الذى ظهر بعده ، والذى يتتبع الوثائق والمصادر التى بين أيدينا يدرك حرص جمال عبد الناصر على توفير الترف لأولاده ولو على حساب الآخرين •

وثائق فينشرها الأستاذ الحمامسى :

وتستمر مع الأستاذ جلال الدين الحمامسى الذى يورد معلومات خطيرة فى هذا المجال يؤيدها بالوثائق الزنكوغرافية وهاك كلماته :

كشفت صلاح نصر في أقواله التي أدلى بها بتاريخ ١٩٦٧/١٠/٥ عن تصرفات مالية معينة منسوبة للرئيس عبد الناصر كانت كافية لأن تشكل قضية من قضايا نزاهة الحكم ، وتطرح سؤالاً مهماً هو : هل يجوز لرئيس الجمهورية الدخول في شركات تجارية خاصة ، أو شركات تديرها المخابرات العامة لحسابه الخاص وتقدّم له أرباحها علماً بعد عام ؟

هذا السؤال طرحه اللواء (الفريق أول بعد ذلك) محمد صادق على صلاح نصر في التاريخ المذكور آنفاً وطلب منه الإجابة عليه بدقة فقال صلاح نصر : هناك شركات كانت تديرها المخابرات العامة وكان يشترك في رأسمالها كل من الرئيس عبد الناصر والمشير عامر ، وكانت أرباح عبد الناصر من هذه الشركات تصرف إلى محمد أحمد سكرتير الرئيس ووزير الدولة فيما بعد ، وهناك شهود على ذلك ذكر صلاح نصر أسماءهم (١) .

تجارة المشير وثراؤه :

ونستمر مع الزعماء التجار فنذكر أن منير حافظ صاحب « التاريخ السري لعبد الناصر » يقرر أن المشير عامر عقد صفقات مع تاجر أثاث مصري ، يورّد المشير بمقتضاها للتاجر أوراق الذهب ، وهي الأوراق التي تستعمل في تذهيب الأثاث الفاخر ، وكانت هذه الأوراق تدخل بكميات ضخمة باسم المشير بدون جمارك فيما أسموه « الحقيقية الدبلوماسية » وكانت تسلم للتاجر بثمن يساوي عشرين ضعفاً لثمنها الأصلي ، إذ منعت استيراد هذه الأوراق إلا عن طريق مكتب المشير فتضاعف ثمنها (٢) .

ونستمر مع المشير ورجاله فنروى أنه عندما سقطت دولة الطغيان بعد حرب ١٩٦٧ وجدوا في قصر المشير تلالاً من العملات الأجنبية

(١) جلال الدين الحمامصي أسوار حول الحوار ص ٧٦ - ٧٧ .
(٢) روز اليوسف في ١٧ مايو سنة ١٩٧٦ و « أقول للسلطان »
للدكتور إبراهيم عبده ص ٥٩ .

وخمسة أكياس من الذهب ، ووجدوا في خزائن شمس بدران تلالا أخرى من جميع العملات الصعبة ، كما وجدوا لببيت المشير ثمانين سيارة لكل سيارة سائقان (١) .

ملايين ... ملايين ملايين احتازها وأنفقها ببذخ على القمار وعلى الهدايا لرفاقه ، وللعجب نقف بمصر نشكو الفاقة ، ولا نقف أبدا نحاسب هؤلاء الأثمين .

الشراء بالقوة :

ولنعد لعبد الناصر لنؤكد أن أولاده كانوا حريصين كل الحرص على التملك ، بل كانوا يستعملون صورا من الضغط على بعض الملاك ليبيعوا لهم ما يملكون ، فعقب فشل الصفقة المرتبطة بالأرض الواقعة غير بعيد من أهرامات الجيزة (هضبة الأهرام) اتجهت السيدة منى بنت الرئيس عبد الناصر لشراء أرض أخرى بصور من الضغط ، وقد تقدم عدد من الثبائن بشكوى من ذلك الأمر ، وتدخل المدعى الاشتراكي الدكتور مصطفى أبو زيد ، وجرى الحوار التالي بينه وبين البائع المسكين :

الدكتور مصطفى أبو زيد : هل بعت الأرض برضاك ؟

الفلاح : ليس تماما .

الدكتور مصطفى أبو زيد : ماذا تعنى بذلك ؟ هل وقع عليك ضغط ؟

الفلاح : نعم ، نوع من الضغط الأدبي ، ولقد قبضت الثمن فعلا عشرة آلاف جنيه مازالت في جيبي ، وأنا أب لسبعة أولاد ، كانت قطعة الأرض تغطي احتياجاتنا ، ولكن ماذا أفعل بهذا المال السائب في جيبي ، وقد ارتفعت الأسعار بسبب تدخل ابنة عبد الناصر في الشراء بأى ثمن (٢) .

(١) دكتور إبراهيم عبده : أقول للسلطان ص ١٩ - ٢٠ .

(٢) جلال الدين الحمامصي المرجع السابق ص ١٤١ .

ويعلق الأستاذ جلال الدين الحمامصي على تصرفات عبد الناصر
وتصرفات أولاده بقوله :

كان عبد الناصر يقول إنه لا اعتراض له على أن يملك الناس ،
ولكنه كان يذكر أن التملك لا يتمشى مع وضعه الخاص باعتباره مسئولاً
عن التحول الاجتماعى فى مصر ، ولكن الذى تدل عليه الوثائق أن عبد الناصر
كان حريصاً على التملك لنفسه ، وعلى تمكين أولاده من الملكيات ، وقد
اتضح ذلك مما أوردناه عنه آنفاً من المساهمة فى شركات تدار لحسابه
وحساب مشيره ، ومن حرص أولاده أن يملكوا الأرض بل أن يشتروا
الأرض من أولئك المساكين الذين حصلوا عليها بواسطة الإصلاح
الزراعى (١) .

وننتقل بعد ذلك لتملك اشتراك فيه عبد الناصر وأولاده وصحبه ،
ويروى لنا عثمان أحمد عثمان قصة ذلك فيقول :

عثمان أحمد عثمان وفيلاّت لبنتى عبد الناصر ولغيرهما :

يذكر المهندس عثمان أحمد عثمان قصصاً عن استغلال عبد الناصر
وأصحابه له فيقول : (٢)

إن عبد الناصر أراد أن يبنى فيلاً لابنته ، فسأل عن قيمة تكاليفها ،
فقلنا له : أنها تتكلف حوالى ستة آلاف جنيه فقط ، وكانت تكاليفها الحقيقية
تصل إلى مائة ألف جنيه وعندما استطلت الأسعار الرخيصة طلب
بناء فيلاً لكريمته الثانية ، التى أصبح زوجها فيما بعد من أكبر مليونيرات
مصر ، وجمع ثروة تقدر بمئات الملايين ، فقلنا له : إن الأسعار قد ارتفعت

(١) جلال الدين الحمامصي المرجع السابق ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(٢) صفحات من تجربتى ص ٣٩٣ .

وإن تكاليف الفيلا تصل إلى ثمانية آلاف جنيه هذه المرة .. ولكن الحقيقة المرة انها كانت ستتكلف مائة وعشرين ألف جنيه وغيره وغيره ممن بنيت لهم فيلات بتلك الطريقة ، هل كانت تخفى عليه التكاليف الحقيقية لكل من الفلتين ، وهو الذى كان يعلم ما يدور بين الرجل وزوجته فى حجرة نوميه •

ويذكر أنور السادات أن عبد الناصر ذكر له سنة ١٩٧٠ قبل وفاته بمدة وجيزة أن خزائنه بالبيت بها ٢٢٠ ألف جنيه مصرى و ٨٠ ألف عملات أجنبية مختلفة : استرلينى دولارات وماركات ألمانية ، وأن سامى شرف عنده مليون ونصف مليون جنيه من المصروفات السرية التى تأتى من المخابرات ولا تخضع لأى رقابة (١) •

هذه — أيها القراء — أموال مصر التى اعترفوا بها ، أما الأموال التى لم يشملها اعتراف فلا يحصيها عد ، والعجيب أن الرئيس الجديد لم يذكر لنا هل تسلم هذه الأمانات بعد وفاة عبد الناصر أو تركها هبة لأولاده وهو ما يفهمه الباحث من عدم ذكر مستقبل هذه الثروة •

إفقار الاغنياء وإذلال الشرفاء :

وبينما كان عبد الناصر يصدق على سامى شرف وعلى حافظ بدوى ويسرب الأموال إلى ذويه الذين ظهروا بعده وهم فى قمة الثراء ، بينما كان يشمل ذلك مع أتباعه كان القهر والفقر والعوز هو ما يوزع على الناس بمصر ، فمثلا محمد سلطان بن عمر سلطان باشا كان من أكبر الأثرياء بمصر ، وكانت له أرض زراعية واسعة بالمنيا وغيرها ، ويمتلك مجموعة من الجواهر ، والتحف العالمية النادرة •

وضح هذا الرجل فى الستينات تحت الحراسة وصودرت أمواله ، فماذا قرر الاشتراكيون له ليعيش هو وأسرته ؟

(١) موسى صبرى : السادات ص ٣٤٣ — ٣٤٤ •

تقرر مَنحه نفقة شهرية قدرها سبعون جنيها ، له ولزوجته ولبناته الثلاث ، وعلم أحد أولاد أغاخان بما جرى لصديقه فعينه مشرفا على مزارعه التي يمتلكها بغرب باريس بمرتب ستمائة جنيه استرليني في الشهر ، وطلب من وزير الداخلية الإذن له بالسفر ، فاشتراط الوزير أن يتنازل عن السبعين جنيها في مقابل تأشيرة الخروج ، وتوفي في فرنسا سنة ١٩٦٦ ودفن فيها •

المصادرة الارتجالية :

ويروى الدكتور حسين مؤنس خبر سيدة تقدمت بها السن ، وكانت تملك أربعين فدانا مجاورة لأطيان شعراوى باشا ، ولما صدر عبد الناصر أطيان شعراوى التي كانت مساحتها ٤٠٠ فدانا صادر رجاله أطيان هذه السيدة ، ولعل الجوار هو الذى دفعهم لذلك ، وقد بذلت أقصى الجهد لتوضح ملكيتها للأربعين فدانا ، ولكن أحدا لم يسمع قولها ، واضطر أهل الخير أن يطلبوا عوناً لها من المرحوم الشيخ الباقورى وزير الأوقاف فدبر لها مبلغ ٢٧ جنيها في الشهر كانت تدفع نصفها إيجارا لمسكنها ، وعجز المبلغ الباقي عن العلاج والدواء ، بل عجز عن ضرورات الحياة ، فقنعت — كما يقول الدكتور حسين مؤنس — بالخبز والماء حتى ماتت (١) .

الملكة فريدة والجوع :

وهناك مثال آخر يدعو للأسف والحسرة ذلك هو الملكة فريدة التي تزوجت الملك فاروق سنة ١٩٣٨ وبقيت معه عشر سنوات ثم طلقها (سنة ١٩٤٨) وانقطعت العلاقة بينهما تماما ، ولما جاءت الثورة المشؤومة وصادرت أموال أسرة محمد على صادرت أيضا أموال « فريدة » مع أن صلتها انقطعت بالملك ، ومع أن الملك لم يكن كريما معها ،

(١) باشوات وسوبر باشوات ص ٧٩ •

ولكن هذه الثورة لا ترحم ولا تعي ، واستسلمت الملكة فريدة لقدرها ،
ومسها الضر بعد ذلك ، أو قتلٌ مسها الجوع ، فأخذت تعيش على رسم
بعض اللوحات ، وتبييعها لتحصل من ذلك على قوتها ، ولم تفتن الدولة
لها حتى هدها المرض سنة ١٩٨٨ فصدر قرار بعلاجها على نفقة الدولة ،
ولكن ذلك جاء بعد فوات الآوان وماتت هذه السيدة الصابرة في نفس
العام .

هذه هي عدالة الاشتراكية الناصرية ، أما الجواهر الثمينة والتحف
الفادرة فقد اختفت وتشريت إلى جيوب المحظوظين .

وعندما نتذكر أحوال النماذج التي لاقت البلاء من الثورة المصرية ،
نتذكر ما حدث بإندونيسيا ، فقد كانت هذه البلاد مجموعة من الأقاليم ، وكان
يحكم كل إقليم حاكم يحمل لقب « سلطان » فلما جاءت ثورة إندونيسيا
نجحت في توحيد البلاد ، وأصبح لها رئيس واحد ، ولكن الثورة تركت
السلطين القدامى في قصورهم ، وجعلتهم في وظائف تشبه وظائف
المحافظين ، وعاش السلطين وأسرهم في ظل الثورة عيشة كريمة ضمن
المولاء والحب للثورة وللبلاد ، أما مصر فقد أصبحت ملكا للثوار العسكريين
الذين استباحوا كل شيء وحرّموا على الناس كل شيء .

وفي مجال المال نتحدث عن صور يشيب لها الولدان من القسوة
والظلم ، وقد وقع هذا الظلم الفادح على جماعة كان كل ذنبهم أنهم
كانوا أعزاء أغنياء ، ماذا فعل الثوار مع أعيان قرية كهشيش كنموذج
لإذلال الأعزاء ، وإفقار الأغنياء ؟ هذا ما سنعرضه فيما يلي بإيجاز :

قضية كهشيش : نموذج للطفان الذي أدّى للانقياد :

وقد كتبتُ عن قضية كهشيش في الجزء التاسع من هذه الموسوعة

في ضوء ما كان عندى من وثائق ، ثم ظهرت أخطر وثيقة تصف هذا العمل الوحشى الذى تمّ في عهد ناصر بأمره وبأمر صديقه عامر ، وفيما يلى نورد تصويرا دقيقا لمحاكمة المجرمين في هذه القضية ، ثم نورد الوثيقة التى أصدرتها محكمة الجنايات :

تمت محكمة جنايات القاهرة بالأشغال الشاقة لمدة ٩٦ سنة على ١٧ متهما في قضية تعذيب أهالى كمشيش ، وألزمت المتهمين بدفع مليون و ١٧٥ ألف جنيه تعويضا إلى ١٧ شخصا من المجنى عليهم تمّ تعذيبهم في السجن الحربى ، وفيما يلى تفاصيل هذا الحكم :

يقضى الحكم بمعاقبة رياض إبراهيم بالأشغال الشاقة ١٥ سنة ومعاقبة صفوت الروبى ، ومحمد رجب بكر بالأشغال الشاقة ١٠ سنوات ومعاقبة ١١ شخصا بالأشغال الشاقة ٥ سنين لكل منهم •

كما قضت بدفع مبلغ ١٠٠ ألف جنيه تعويضات لورثة صلاح الفقى و ٥٠ ألف جنيه لكل من عبد الله السيد الفقى وعزيز أحمد الفقى وحسام أحمد الفقى وفاروق أحمد الفقى ، وزكريا سيد الفقى وكمال عبد الحميد الفقى •

وكان المتهمون وكلهم من المباحث الجنائية العسكرية قد قاموا في عام ١٩٦٦ بناء على تعليمات من مكتب المشير عبد الحكيم عامر بالقبض على المتهمين بغير اذن من السلطات القضائية المختصة ، وقاموا بتعذيبهم في قرية كمشيش بالمنوفية ، ثم نقلوهم إلى السجن الحربى حيث قضوا ١٥ شهرا في تعذيب وحشى مستمر بإدعاء أنهم قتلوا صلاح حسين الشيوعى المتطرف الذى كان يشغل منصب أمين لجنة الدعوة والفكر بقرية كمشيش •

وقد تمّ في السجن الحربى إطلاق الكلاب المتوحشة على المجنى عليهم وإيقاظهم في زنانات مليئة بالمياه عدة أيام ، كما قاموا بنزع

أظافرهم بالكماشة ، وأطلقوا عليهم أسماء النساء ، وهددوهم بالاعتداء على زوجاتهم أمامهم ، ثم نقلوا إلى سجن أبو زعل حيث أمضوا حوالى سنة دون محاكمة •

وبعد هذا التعذيب الوحشى اتضح أن القاتل الحقيقى لصالح حسين قد قبض عليه وأُعترف • وأُرشد عن المسدس الذى استعمله فى الجريمة ، ولم يكن بينه وبين المجنى عليهم أية علاقة أو صلة ، وقد عوقب بالأشغال الشاقة المؤبدة •

وفى عام ١٩٧٥ قدّم المجنى عليهم بلاغا أمام نيابة التعذيب التى تولت التحقيق فى القضية ، وأثبتت وقائع التعذيب الوحشى ، واستمر التحقيق حوالى أربعة شهور ، وتم القبض على المتهمين وتقديمهم للمحاكمة التى استمرت خمسة شهور ، وأصدرت حكمها أمس برئاسة المستشار محمد جويفل سليمان وعضوية المستشارين محمد حسين غراب وحسن عثمان عمار وحضور عبد العزيز عبد الغفور وكيل أول نيابة شرق القاهرة وأمانة سر أحمد رمضان وعباس أبو سعدة وفوزى عبد الكريم •

وقد عقدت المحكمة وسط حراسة مشددة من قوات الشرطة والأمن المركزى والمباحث ، بقيادة العميد يحيى زكى مأمور قسم إمابة والرائد محمود حنفى بركات رئيس مباحث القسم •• وجيء بالمتهمين من السجون فى حراسة مشددة من الشرسة العسكرية والمباحث •

وفيما يلى ننقل فقرات مما جاء فى حكم محكمة الجنايات وهى تبين الوحشية التى تعرض لها الشعب فى هذا العهد الذى استعذب الإجرام ، وفاق فيه ما نتخيله مما يمكن أن تفعله الشياطين •

« تسجل المحكمة والتاريخ أن هذه الفترة التى جرت فيها أحداث هذه القضية هى أسوأ فترة مرّت بها مصر طيلة تاريخها القديم والحديث ، فهى فترة قد ذُبحَت فيها الحريات وديست فيها كرامة

الإنسان المصرى ، ووطئت فيها أجساد الناس بالنعال ، وأمر الرجال بالتسمى بأسماء النساء ، ووُضعت ألجمة الخيل فى فم رب العائلة وكبير الأسرة ، ولطُمت الوجوه والرؤوس بالأيدى ، وركلت بالأقدام ، كما هتكت أعراض الرجال أمام بعضهم البعض ، وجيء بنسائهم أمامهم وهتدوا بهتك أعراضهن على مرأى ومسمع منهم ، ودُرّبت الكلاب على مواطأة الرجال ، ومن أبشع ما وقع فى هذه القضية من تعذيب فى نظر المحكمة ، إخراج جثة والدتهم من مدفنهما — وكانت حديثة الدفن — والتمثيل بها أمام الناس ، والتشهير بهم ، وإذلالهم أمام أهلهم وذويهم ، وإن المحكمة تسجل بأن المخلوق الذى ينسى ربه ونبيه ويأمر الابن أن يصفع وجه أبيه أمام الناس هو مخلوق وضع وتافه ومهين ، وإن المحكمة وهى تسجل هذه الفظائع ينتابها الأسى العميق والألم الشديد ، من كثرة ما أصاب الإنسان المصرى فى هذه الحقبة من الزمان من إهدار لحريته وذبح لإنسانيته ، وقتل لكافة مقوماته : وإهدار لرجولته وأمنه وأمانه وماله وعرضه ، وإن المحكمة لتسجل أيضا للتاريخ وقلبا يقطر دما أن ما حدث فى هذه القضية لم يحدث مثله حتى فى شريعة الغاب ولا البربرية الأولى .

وقد وصفت السيدة جيهان السادات ما حدث فى كمبشيش بأنه شئ همجى لا إنسانى (١) .

الهجرة لإسرائيل أهون من هذا العذاب .

ويصف الصحفى عبد العاطى أحمد وزير الدفاع شمس بدران بأنه « وزير التعذيب » وأن بعض رجاله كان يهتك : نفسى أشم ريحة الكباب الآدمى . وقد وصل الحال بأحد المعتذيين أن تمنى أن يذهب إلى إسرائيل وكان يقول إن إسرائيل مع كل ما عرف عنها من غدر ، أرحم من العذاب الذى فى معتقلات ناصر (٢) .

(١) ميدة من مصر ص ٢٦٠ .

(٢) عبد العاطى أحمد : كرسى الوزارة ص ٣٣ و ٣٨ و ٣٩ .

ولكن شمس بدران أعلن أن التعذيب ومراحله كانت بإرادة عبد الناصر وتعليماته وفي قضية المستشار على جريشة قرّر شمس بدران : (أن أمراً صدر إليه من الرئيس بتعذيب جريشة حتى الموت) (١) .

قرار جمهورى مطلق بإباحة الاعتقال :

ومن أخطر القرارات التى اتخذها عبد الناصر ومن أكثرها خيانة للمجتمع ذلك القرار الذى صدر فى ٢٩ أغسطس سنة ١٩٦٥ وهو يقضى باعتقال محمد صلاح الدين محروس وآخرين .

وكلمة « وآخرين » كلمة فسيحة تعطى لزيانية عبد الناصر الحق فى القبض على من يشاءون دون تحديد ، وهو شئ لم يحدث ولا فى دنيا الغاب وعلى الصفحة التالية نقدم صورة زكوغرافية لهذا القرار الجمهورى .

ليس عبد الناصر وحده :

ولم يكن الاستيلاء على أموال الشعب ولا تعذيب الأمنيين هدف عبد الناصر وحده ، فقد شاركه فى ذلك مشيريه وأعوان المشير الذين كانوا يخفون فى أرض الحديقة عقب هزيمة ١٩٦٧ أكياس الذهب التى غنموها من مصر ، وفى مقدمة هؤلاء عباس رضوان وشمس بدران ووصل الثراء إلى الطبقة الثانية والثالثة من الضباط ، فقادة الجيش المصرى باليمن اتخيموا بأكياس الذهب التى أخذوها من دم مصر لتوزيعها على القبائل باليمن ثم استأثروا بها أو بيعوها ، وعلى شفيق وجدوا معه فى حجرته التى مات بها بلندن مليون جنيه استرليني ، وقد كان لعل شفيق صلة بطلعت السادات ، ولذلك سننكلم عنه فيما بعد عند حديثنا عن أسرة السادات ، أما عن التعذيب فإننا نكرر أن عددا

(١) باشوات وسوبر باشوات : ص ٩٢ .

هذا نص قرار جمهوري بالقبض على المواطن محمد صلاح الدين عروس وآخرين دون تحديد . . ومن الممكن للذين نسلّموا هذا القرار لتنفيذه أن يقبضوا به على أهل مصر أجمعين . .

تصريح

رئيس الجمهورية العربية المتحدة

رقم ٢٨٧٢ مكرر لسنة ١٩٦٥

رئيس الجمهورية

بعد الاطلاع على الدستور

وعلى القانون رقم ١١٩ لسنة ١٩٦٤ بشأن بعض التدابير الخاصة بأمن الدولة

تصريح

مادة الأولى : - اعتقال : محمد صلاح الدين عروس مصطفى (وشهرته صلاح - وآخرين .

مادة ثالثة : - حجزوا بكان أمن .

مدير برئاسة الجمهورية في ٢ جمادى الأولى سنة ١٣٨٥ هـ

٢٩٩ أغسطس سنة ١٩٦٥ م

(امضاء)

صورة طبق الاصل :



تبع في ٢٨/١/١٩٦٦

عروب :

كبيرا من الضباط استمتع بتعذيب الشعب ، وكان في القمة من هؤلاء
شمس بدران الذى كان يلعب كما قلنا « وزير التعذيب » .

نقاط أخرى من تراث عبد الناصر :

لا تزال هناك نقاط أخرى من تراث هذه الثورة المشؤمة ، ولا نملك
إلا أن نلم بها إلاما سريعا لتكتمل صورة مصر كما تركها الرجل الذى
تمتع بأعظم قدر من حب الشعب ، ولكنه لم يرع ذمّة لهذا الحب ، وهذه
النقاط هى :

مواقف ضد الإسلام والمسلمين

من أخطر ما يجب إبرازه أن عبد الناصر وقف مواقف متعددة ضد
الإسلام والمسلمين ، وفي الجزء التاسع من هذه الموسوعة دراسات
عنوانها « شئ كان يثراد بالإسلام » ونضيف هنا بعض مواقف جديدة
من هذا النوع :

إعدام الإخوان وتحية للهاخام :

وحول إعدام الرعيل الأول من علماء الإخوان المسلمين وفي قماتهم
العالم القانونى المرحوم الأستاذ عبد القادر عودة ، بناء على حكم من
« محكمة الشعب » الذى كان أنور السادات أحد قضاتها ، حول إعدام
هؤلاء الأبرياء لاحظ المطلعون خبرا عجيبا ، فقد نشرت صحيفة الأهرام
التي كانت لسان النظام العسكرى بمصر ، يوم الأربعاء ١٢ ربيع الثانى
سنة ١٣٧٤ هـ (١٩٥٤/١٣/٨) خبرين هما :

١ — تنفيذ حكم الإعدام فى ستة من زعماء الإخوان المسلمين :
عبد القادر عودة ، وتنفيذ عقوبة السجن لحوالى الألف الذين حوكموا
أمام محكمة الشعب بتهمة الخيانة العظمى .

٢ — أوفد الرئيس جمال عبد الناصر الأستاذ صلاح الشاهد

تشريفاتي الرياسة للاستفسار عن صحة سيادة (حاييم ناحوم) الحاخام
الأكبر لليهود ، وإبلاغ سيادته تحيات الرئيس وتمنياته بالشفاء العاجل •
ويعلق الباحثون على هذا الموضوع بقولهم : إعدام هنا واسترضاء
هناك •

ونقول إن من يفلت من الحساب في الدنيا لن يفلت منه في
الآخرة •

القابضون على الجمر :

وقد كتّـبَ الكثير عن تعذيب الإخوان وقتلهم والتكـيـل بهم ، وهو
شئ يفوق جرائم النازي والفاشيست واليهود ، وقد ألمنا ببعض ذلك
في هذا الجزء وفي الجزء التاسع من هذه الموسوعة ، وكتّـبَ كثيرون من
الباحثين عن هذه المآسى البعيدة عن الإنسانية ، والتي تدل على بعد
عن الأديان والأخلاق ، ولكني هنا أشير لكتاب مهم هو « القابضون على
الجمـر » الذي ألفه الأستاذ محمد أنور رياض ، وهو كما يقول قصة
وتجارب عاشها شباب من أبناء هذا الوطن هم « الإخوان المسلمون »
الذين تعرضوا لأبشع أنواع التكـيـل والتعذيب ، ولأسوأ صور الإهدار
لحقوق الإنسان بل لحقوق الحيوان •

ويقرر الكاتب أنه رغم ظلام المحنة ودماء الضحايا يظل الإيمان
ثابتاً ، وعندما تواتيه الفرصة ينطلق لينير بهداية الله طريق الحائرين (١) •

المقارنة بالرسول عليه الصلاة والسلام :

وقد نشر أن أحد المحافظين وقف أمام عبد الناصر ، وألقى خطاباً غليظاً
قال فيه : إنك أيها الرئيس ما عبست وما توليت (وكان يقصد بذلك أن
الرسول عليه الصلاة والسلام عبس وتولى أن جاءه الأعمى ••) ولكن
عبد الناصر لم يعبس ولم يتوك ، وعلق الكاتب على ذلك بأن عبد الناصر

(١) اقرأ كتاب « القابضون على الجمر » •

لم يعبس ولم يتول ، ولكنه نفخ الناس وجلداهم وصعقهم بالكهرباء
وشنقهم ظلما ، وسجنهم بلا جريمة •

عدوان على الإسلام والدعوة الإسلامية :

ويقرر الدكتور عبد المنعم النمر وزير الأوقاف سابقا أن مذبحة حدثت
للأوقاف الإسلامية في عهد عبد الناصر فقد صدر قانون سنة ١٩٥٧ يقضى
بتسليم أراضي هذه الأوقاف الإسلامية للإصلاح الزراعي لتوزع على
الفلاحين ، وكانت هذه خطة مدبرة للقضاء على الإسلام ومحاربة الدعوة
الإسلامية ، وفي عهد أنور السادات استطعنا أن ننقذ ما يمكن إنقاذه (١) •

ولنعد لسرد بعض مثالب العصر ، ولتتبع غاية الإيجاز :

- قضايا تصفية الإقطاع والمعاناة التي نزلت بالملك دون عدل أو
رحمة ، ويطلق عليها سيد مرعى « سنوات الجحيم السياسى » (٢) •
- نهاية القطاع الخاص والاعتماد على الحكومة في كل شيء •
- العلاقات الدبلوماسية أصبحت مقطوعة مع أكثر دول العالم •
- قضية الدكتور أنور المفتى واتهام عبد الناصر بقتله •
- الاضطراب الاقتصادي الذي شمل الجميع •
- مديرية التحرير والجرائم التي اتصلت بها •
- اختلال الأخلاق اختلالا خطيرا حتى أصبحت الرشوة عملا
عاديا •

- الجرائم التي ارتبطت بالحراسات من نهب واختلاسات •

أسس الاضطرابات الاقتصادية :

من أهم أسس الاضطرابات الاقتصادية التي نعانيها حتى الآن ، اختفاء
الرصيد الذهبى لمصر والذي كان مودعا في خزائن البنك المركزى المصرى ،

(١) مضبطة مجلس الشعب في فبراير سنة ١٩٨٠ •

(٢) أوراق سياسية ٢ : ٤٢٣ •

ولا يعلم أحد حتى اليوم أين اختفى هذا الرصيد الذى يبلغ ٥٠٠ مليون من الجنيهات الذهبية الانجليزية (١) اللهم إلا أن يكون هو الذى ظهر أخيرا مع الأبناء والأصهار • ومما يؤيد القول بأن الرصيد الذهبى لمصر انتقل إلى ثروة خاصة بورثة عبد الناصر ما ذكره الدكتور محمد عصفور فى مقال نشره بصحيفة الوفد بتاريخ ٢٨/١٠/١٩٨٨ من أن عبد الناصر — فى أثناء عدوان ٥٦ — نقل الرصيد الذهبى والمعدنى إلى مقره بحجة حمايته من غزو انجليزى فرنسى إسرائيلى متوقع ولم يعد هذا الرصيد •

وقد فصل الأستاذ محمد فؤاد سراج الدين رئيس حزب الوفد الذى كان وزيرا للمالية فى عهد وزارة الوفد سنتى ١٩٥٠ و ١٩٥١ ، فصل القول فى هذه الملايين التى أضاعتها الثورة فقال ان منها ٦١٥ مليون جنيه من الذهب استردتها حكومة الوفد من الولايات المتحدة الأمريكية وأودعتها خزائن البنك الأهلى المصرى ، ومنها ٤٠٠ مليون جنيه استرلينى كانت مصر تدين بها بريطانيا ، وعقد فؤاد سراج الدين اتفاقية تعهدت بريطانيا بموجبها أن تسدد هذا المبلغ خلال ٣ سنوات ، وقد سددها فعلا ابتداء من سنة ١٩٥٢ •

فأين ذهبت هذه الملايين التى ورثتها الثورة ؟

غزوة لا ثورة :

وهكذا ضرب نظام الحكم الثورى أفحش مثال لحكم الغزاة والمستعمرين ، حتى ليصدق قول نقيب أسبق للصحفيين : إن ما حدث فى مصر يوم ٢٣ يوليو لم يكن ثورة وإنما كان غزوة ، وما كانت هذه الغزوة غزوة جيش متعاد للشعب المغزوء ، وإنما كانت غزوة بعض الضباط الشبان المغامرين والمتجربين بالشعارات ٧

(١) دكتور ابراهيم دسوقي أباطة : الخطايا العشر ص ٤٣ وما بعدها والبحث عن الذات لأنور السادات •

جهل الثوار وما أوقعه بمصر من هزائم عسكرية

إذا التمسنا العذر بشكل ما للثوار في جهلهم بالأمور الاقتصادية ،
والتمسنا لهم العذر كذلك في جهلهم بالأمور الاجتماعية والثقافية ،
فإننا لا يمكن أن نلتمس لهم العذر في الكبوات العسكرية التي أنزلوها
بمصر ، فالمفروض أنهم عسكريون لهم ثقافة وخبرة في إعداد الجيوش
وإدارة المعارك ، ومن هنا فإن ما نزل بمصر من هزائم في عهدهم يعتبر
جرائم مضاعفة •

والحق أن هزائم عبد الناصر فاقت في خطورتها كل تقدير ، ولم يكن
عبد الناصر وحده هو الذي أثبت جهله بالأمور العسكرية ، بل إن مشيره
يقاسمه هذه الجهالة ، ثم يجيء شمس بدران وزير الدفاع الذي دفعه
جهله بالشئون العسكرية ليسخر من الأسطول السادس ويعلن أن عندنا
ما يقضى عليه •

ولنعط بعض اللمحات التفصيلية عن هزائم هذا العصر : (١٩٥٦ ،
والحركة الانفصالية — وحرب اليمن — وحرب ١٩٦٧) تلك التي كانت
شديدة التأثير في عصر السادات •

وفي مجال الأمور العسكرية نعتمد على العسكريين ، ونبدأ بباحث
عسكري شغل أخطر المناصب بمصر هو محمد حافظ إسماعيل الذي شغل
منصب الوزارة والسفارة أكثر من مرة ، وكان رئيساً للمخابرات سنة
١٩٧٠ ومستشار الرئيس للأمن القومي بعد ذلك ، وهذه الاقتباسات
من كتابه « أمن مصر القومي في عصر التحديات » وهو باحث غير متهم ،
يقول محمد حافظ إسماعيل •

تناقض الحياة العسكرية مع الحريات العامة :

عندما قامت ثورة ٢٣ يوليو لم يثق أغلب رجال السياسة في
العالم في إمكان أن تمارس قيادة " عسكرية سلطة الحكم دون عدوان

على الحريات العامة والديمقراطية ، ويستمر سيادته فبتحدث عن :
« الملهم » ونتائج تأميم القناة فيقول :

بنى عبد الناصر رأيه في تأميم القناة على أساس أن :

✱ الولايات المتحدة لن تشترك في عمل عسكري .

✱ وبالتالي لن تتقدم إسرائيل على الحرب مادامت لم تثق في
معاونة الولايات المتحدة .

✱ فرنسا مشغولة في حرب الجزائر .

✱ بريطانيا هي الدولة الوحيدة التي يمكن أن تتصدى لمصر ، ولكن
مركزها المالي واحتمال قطع إمداداتها من البترول سيحولان دون ذلك (١) .

وأتمَّ عبد الناصر القناة على أساس هذا الوهم ، وضاعت
تقديرات هذا « الملهم » هباء ، واشتركت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل في
العدوان (٢) .

وانطلقت القوات الجوية للحلفاء في ٣١ أكتوبر وسرعان ما دمَّرت
قواتنا الجوية ، ولم ينج منها إلا طائرات النقل التي أرسلت إلى الخرطوم
وجدة ، ومع تحقيق السيادة الجوية للمهاجمين اتجهت القوات المعادية
لقصف الأهداف الاقتصادية ومحطات الإذاعة (٣) .

تلك كانت كلمات اللواء محمد حافظ إسماعيل عن « الملهم »
واستسلامه للإلهام الزائف .

رفض كل دليل يخالف إلهام الرئيس :

ولنسر مرحلة أخرى مع تحذير آخر أو تحذيرات أخرى قوية
رفضها عبد الناصر لأنها لم توافق إلهاماته ، ونزلت الكوارث بالشعب

(١) محمد حافظ إسماعيل : أمن مصر القومي في عصر التحديات

ص ٥٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٢ .

نتيجة هذا الرفض ، يقول المرحوم الأستاذ مصطفى شردى البورسعيدى
فى مقال له بصحيفة الوفد فى ١٧/١١/١٩٨٨ •

فى منتصف أكتوبر ١٩٥٦ عاد أستاذى المرحوم على أمين من رحلة
عاجلة قام بها إلى كل من باريس ولندن لاستطلاع الموقف بعد تأميم
شركة قناة السويس ، وفى الاجتماع الأسبوعى الذى كان يعقد يوم الجمعة
فى الدور التاسع بدار « أخبار اليوم » ، تحدث على أمين إلى أسرة
الدار عن رحلته ، وقال إن مصادره فى العاصمة البريطانية بصورة
خاصة ، أكدت له أن لندن وباريس قررتا خوض حرب ضد جمال
عبد الناصر ، وأن تدخلًا مسلحًا سيقع بهدف استرداد قناة السويس
بالقوة ، وأنه من المنتظر أن يحدث ذلك خلال أسبوعين أو ثلاثة ، وأن
سفن الأسطولين البريطانى والفرنسى يتم حشدُها وإعدادُها بإحدى
جزر البحر المتوسط ، وأن طبيعة المعدات العسكرية التى شحنت ، تشير
إلى اعتزام الحكومتين البريطانية والفرنسية غزو مصر •

وأبرز على أمين رحمه الله صورة فوتوغرافية ، قال إنه حصل
عليها ، وكانت لسفينة من حاملات الدبابات البرمائية أثناء شحنها ، وقد
بدت الدبابات منقوشًا عليها حرف « H » الذى تبين بعد ذلك أنه
شعار القوات التى غزت بورسعيد •

وعندما سمعنا تلك المعلومات خيم علينا الصمت • وما لبث الزميل
المرحوم محمود عبد السميع أن سأل على أمين قائلاً : هل أبلغت سيادتكم
هذه المعلومات إلى الرئيس جمال عبد الناصر ؟ وأجاب على أمين حزيناً
نعم • ولكنه لم يصدقها •• وقال إن كل هذه المعلومات هدفها
التهويل •••••

وصوب على أمين نظراته إلى وقال : أريد منك أن تذهب إلى
بورسعيد ، وتكون متأهباً تماماً •• فلست أعتقد أن هذا كله مجرد
تهويل •••

وعدت إلى بورسعيد • وحوالى يوم الثانى والعشرين من أكتوبر ، دخلت مكتب المهندس محمد توفيق الديب بهيئة قناة السويس فى الصباح الباكر فوجدته واجما على غير عادته وقال لى إن قباطنة السفن القادمة من البحر المتوسط أبلغوا مرشدى هيئة قناة السويس ، أن أسطولا ضخما يتجمع بالقرب من مياها الإقليمية ، وأن قيادة هذا الأسطول توجه رسائل إلى السفن المتجهة إلى القناة ، بعدم التباطؤ فى المياه المصرية لأى سبب ، ولو كان إجراء بعض الإصلاحات ، وتوصى بالإبراق للشركات مالكة تلك السفن بأن خط العودة قد يتغير خلال أسبوعين أو ثلاثة •• !

وتذكرت على الفور حديث على أمين ، ورويته للمهندس الديب ، وكيف أن الرئيس عبد الناصر رفض أن يصدق وأجاب المهندس الديب فى أسى شديد ، أنه أبلغ ما لديه من معلومات إلى كل من المهندس محمود يونس رئيس هيئة القناة رحمه الله ، والمهندس عبد الحميد أبو بكر نائبه متعه الله بالصحة ، وأنهما اختارا المرحوم الشهيد محمد شوقى خلاف ، وكان من ضباط القوات المسلحة الذين شاركوا فى عملية تأميم القناة ، وأوفداه إلى الرئيس عبد الناصر لإبلاغه بالموقف ، وقد عاد شوقى خلاف رحمه الله من القاهرة ، وقال إن الرئيس رفض أن يصدق ، وأكد له أن هذا كله مجرد حرب أعصاب •• !

وسألت توفيق الديب عن رأيه ، وكنت أكنش له احتراما ومودة عميقة ، فقال لى الرجل : إننى أعتقد أن بورسعيد بالذات سوف تتعرض لاعتداء عسكرى ، وينبغى أن نستعد لذلك •

أما الاستعداد الذى كان الرجل يراه ، والذى كان يطالب به أيضا الرجل العظيم محمد رياض محافظ بورسعيد فى ذلك الوقت ، فهو تهجير النساء والأطفال ، وإعداد المستشفيات لحالة حرب ، وتخزين كميات من المواد التموينية ، ولم يحدث شئ واحد من ذلك كله ، بل إن القاهرة نهزت المحافظ عندما ألح بشدة للسماح له بتهجير النساء والأطفال وكبار (م ١١ - التاريخ الإسلامى)

السن ، واتهمته بأنه فقد أعصابه . والغريب أن الذين احتفظوا بأعصابهم وسط إعصار النار والدم الذي عشنه في بورسعيد بعد ذلك ، كانوا أربعة رجال : أولهم المرجوم حامد الألفى زعيم الوفد ببورسعيد ، وثانيهم محمد رياض المحافظ وثالثهم جمال عزب قائد قوات الأطفال ، ورابعهم حسن رشدي رئيس القلم المخصوص أو المباحث العامة . وقد استطاع الرجال الأربعة قيادة أبناء المدينة لمواجهة الهول الذي نزل بها ، وتطويق آثاره ، وقاد حامد الألفى عمليات دفن أكثر من خمسة آلاف شهيد سقطوا خلال ستة أيام ، وذلك خوفا من تعفنها ، تماما كما قاد رجال الاسعاف في أثناء الحرب ، ثم في أثناء فترة الاحتلال ، أما محمد رياض فقد جلس في مكتبه مهيبا وقورا شامخا ، يتحدث إلى قيادات قوات الاحتلال في شجاعة وكبرياء وصلابة .

وليس معنى ذلك أن الرجال الأربعة وحدهم كانوا أبطال الموقف ، لأن البطولة توزعت بالتساوي على جميع أبناء المدينة الباسلة ، الذين حملوا السلاح وخاضوا قتالا ضاريا في الشوارع ومداخل البيوت ، ولم تؤثر في روحهم المعنوية جثث الشهداء التي غطت الشوارع ، وسبعة آلاف جريح كانوا فريسة الرصاص وشظايا القنابل ، حتى عندما أشعلت القوات الغازية النار في أحياء المدينة ، وارتفع اللهب كأنه تلال حمراء عالية ، ظل أبناء بورسعيد ، شبابا ورجالا وشيوخا ، يقاتلون في الشوارع ، حتى نفذت ذخيرتهم ، وعز الماء ، وتكاثر عليهم طوابير الدبابات ، ولكنهم كانوا قد تمكنوا من تعطيل الغزاة لثلاثة أيام ، أحدثت خلا جسيما في خطة الحرب ، وغيرت وجه التاريخ .

من المسئول عن هذه الأرواح وتلك الدماء وهذا الخراب ؟

جيش مصر يلجأ للشعب عند الهزيمة :

ولجأ الجيش المنهزم إلى الشعب فوزع عليه الأسلحة لمواصلة القتال في المناطق التي كان الجيش ينسحب منها ^(١) ، وكانت هذه هي عادة

(١) أمم مصر القومية في عصر التحديات ص ٦٢ .

الجيش دائما ، يعتمد على الشعب في حمل عبء المقاومة كلما تقهقر ، حدث ذلك سنة ١٩٥٦ في بورسعيد وحدث في مدن القناة إبان الحرب سنة ١٩٦٧ (١) .

والعجيب أن الجيش يقهر الشعب ، فإذا انهزم الجيش تحمل الشعب مسئولية المعركة ونسى ما عاناه من جيشه .

مدى الهزيمة سنة ١٩٥٦

— عن مدى الهزيمة سنة ١٩٥٦ يقول محمد حافظ اسماعيل : فقدت مصر سيناء وبورسعيد كما دُمِّرت قواتها الجوية بصورة تكاد تكون تامة ، وتحملت الوحدات البرية خسائر كبيرة خلال انسحابها من شمال سيناء ، واستسلمت بعض العناصر العاهلة والحرس الوطنى التى دانت مرابطة فى شرم الشيخ وفى غزة (٢) .

— فى هذه المعركة ظهر الخلاف بين ناصر وعامر ، وقال ناصر : إن جيشى قد هزمنى (٣) .

اللعون العربى والعالمى :

— كان الموقف الذى اتخذته الشعوب العربية ، وإدانتها للعدوان وتصديها للمصالح الغربية الحيوية عاهلا هاما فى تحديد مصير الحرب ، وكذلك كانت وقفة رأى العام العالمى ، مما أدى فى النهاية إلى زلزلة الاستعمار فى الدول الصغيرة (٤) .

أهل الثقة وأهل الخبرة :

— ظهر تعبير « أهل الثقة » أول ما ظهر فى وزارة الخارجية حيث

(١) أمن مصر القومى فى عصر التحديات ص ٦٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٣ .

(٣) المرجع السابق ص ٦٨ .

(٤) نفس المرجع ص ٦٥ .

دفعَت الثورة بعدد من العسكريين ليشغلوا مناصب دبلوماسية باسمهم أنهم « أهل الثقة » أما الدبلوماسيون فكانوا « أهل الخبرة » ثم اتسع المجال فظهر « أهل الثقة » في كل مكان ، وكان التسلسل العسكـرى صدمة للمفكرين من غير العسكريين (١) .

طموحات عبد الناصر ونتائجها المدمرة :

— شملت طموحات عبد الناصر الجوانب التالية :

١ — تَبَنَّى « القومية العربية » فأعلن أن مصر تشكل جزءا عضويا من الكيان العربى الكبير ، ثم طوَّر ذلك إلى وضع أخفاف الكثيرين من العرب وكان ذلك إبان الوحدة مع سوريا ، إذ أعلن إن الدولة الجديدة قاعدة للتطور نحو الاشتراكية ، وكان عبد الناصر فى تدخله العربى مزعجا إذ أعلن قوله : نحن مسئولون عن حرية الأمة العربية فى كل وطن عربى ، وعن تحقيق العدالة الاجتماعية فى جميع أنحاء الأمة العربية (٢) .

٢ — شكل برياسة الجمهورية « مكتب الشؤون الافريقية » بتكليفه

الباهظة .

٣ — اشترك فى بناء مؤسسة الدول غير المنحازة ، وتدخلت مصر

بجيوشها فى مشكلات الكونغو .

٤ — كان تدخل العسكريين فى اليمن شديد الخطر ، ولقد نظمت السعودية والأردن حلفا بينهما ، وقيادة مشتركة لقواتهما فى القواعد الامامية بنجران وجيزان على حدود اليمن الشمالية ، وأسهمت باكستان وبريطانيا فى نقل الأسلحة جوا إلى السعودية ، وانتهزت إسرائيل فرصة ما تواجهه مصر من عدااء عسكرى ونفقات اقتصادية باهظة ومن بُعد

(١) المرجع السابق ص ٨٣ .

(٢) محمد حافظ اسماعيل : أمن مصر القومى ص ٨٧ .

٧٠ ألف مقاتل عن مصر وانتشارهم هناك في جبال اليمن وضربت ضربتها القاصمة سنة ١٩٦٧ •

والحديث عن اليمن يحتاج لإضافة مهمة تلك هي دور السادات في اشراك مصر في تلك الحرب ، فبعد الانفصال سنة ١٩٦١ أشيع أن عبد الناصر فقد اهتمامه بالعمل العربى ، وهذه الإشاعة أثرت على الزعيم الذى لم يترد أن يفقد نفوذا كان يجد فيه متعة عظيمة ، ثم جاء السادات يصور للزعيم أن دخول مصر معركة اليمن سيكون غنيمة بدون جهد ، وانساق الزعيم لذلك إلى حقيقته ، ولم تجيء سنة ١٩٦٥ إلا كان لمصر في اليمن سبعون ألف مقاتل ، وهذا هيا الفرصة لإسرائيل فضربت ضربتها القاضية ^(١) وقد تحدثنا عن مشكلة اليمن من قبل •

لم تنصرف مصر للبناء الداخلى :

— يقرر محمد حافظ اسماعيل أن كل هذه الأشياء جعل الأمل في أن تنصرف مصر للبناء الداخلى لا وجود له ، واستهلكت بذلك البنية الأساسية تماما ، فشبكات الطرق ، والسكك الحديدية ، والكهرباء ، والمياه ، والمجارى ، والتليفونات ، لم تمتد إليها يد الإصلاح أو التطوير منذ سنوات طويلة ^(٢) •

— وكانت الزراعة تعاني من تراجع شديد في الإنتاج بسبب نقص المساحة المزروعة بحوالى مليون فدان ، وقلة اليد العاملة ، وضعف الميكنة الزراعية ، ونحرة الصناعات الزراعية ، وللأسف نواجه في مصر قلة اليد العاملة ونواجه بطالة واسعة ، ووجود هذين الضدين شيء عجيب •

(١) مذكرات محمود رياض ج٢ ص ٢٧٠ - ٢٧٢ بايجاز •

(٢) أمن مصر القومى ص ٩٤ •

— وعانت الصناعة كذلك من انخفاض كبير في الكم ، وتدهور هائل في الكيف بسبب فوضى الإدارة ، وضخامة العمالة ، واستهلاك الآلات •
وهكذا ضاعت مصر وعبد الناصر مشغول بانتساع نفوذه عن طريق الدوائر التي ابتكرها وغرق فيها (١) •

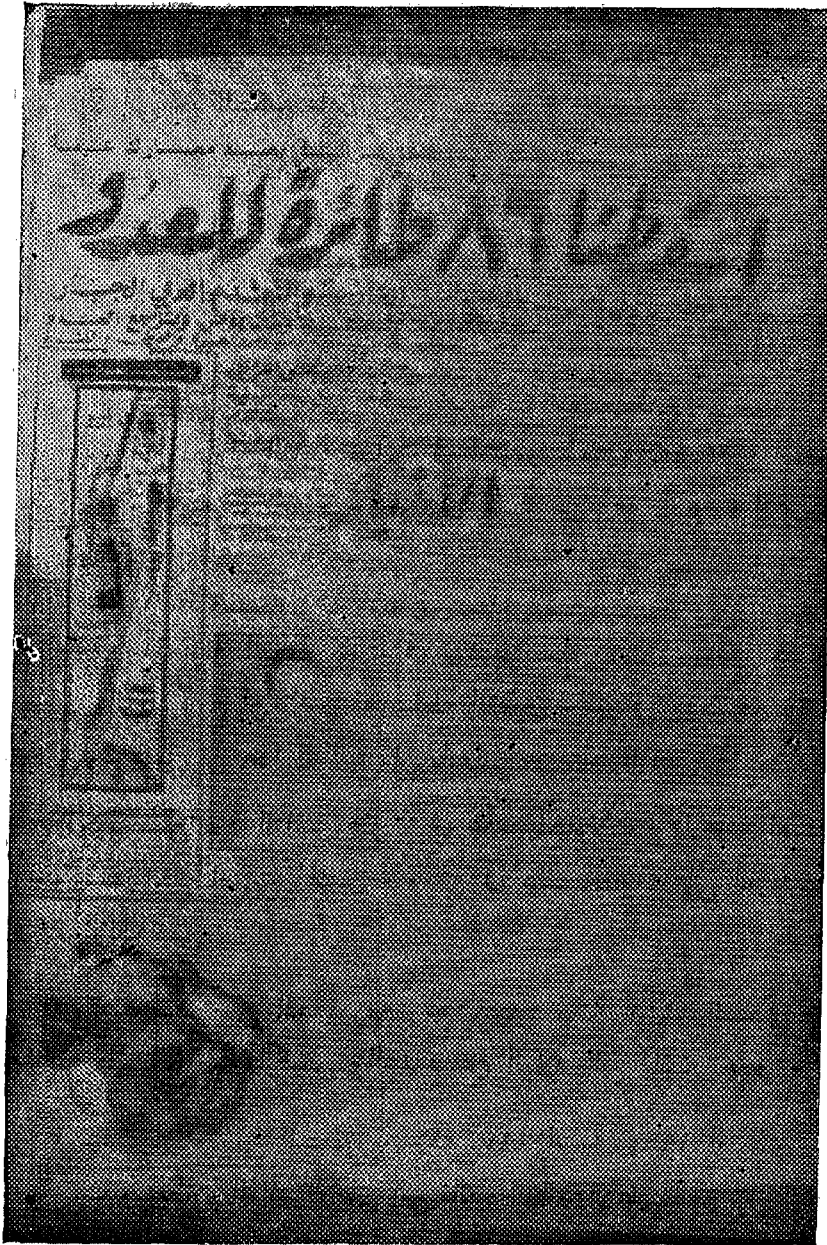
حرب يونيو ١٩٦٧

إن الفجيعة الكبرى التي حدثت لمصر في الخامس من يونيو سنة ١٩٦٧ هزمت مصر هزماً عنيفاً ، ونزلت بسمعتها إلى القاع ، وللأسف رقص النواب للمنهمزم بدل أن يحاسبوه ، وعندما بدأت المعركة صدرت التعليمات للصحافة المصرية المملوكة للحكومة أن تكذب وأن تدعى أننا انتصرنا ، وكأن النصر أو الهزيمة شيء يمكن أن يخفى ، وهذا يذل على عمق البلاء ، وسرعان ما اتضحت الحقيقة الفاجعة ، وعلى الصفحة التالية صورة من صور النصر المزيف •

وفي كل يوم تظهر معلومات عن هذه الحرب يشيب لها الولدان ، ونحن نرصد هنا هذه المعلومات لعلها في يوم من الأيام تجد من ينعنى بها ، ويحاسب المسئول عن هذه المأساة •

وفي مذكرات الفريق أول محمد فوزي أحاديث مهمة عن الظروف التي سبقت هذه الحرب والتي أدت إلى نتائجها ، ونقتبس من أحاديثه لمحات تبرز لنا ما يمكن أن يكون خافياً على الكثيرين ، وأبرز ما يكرره الفريق أول محمد فوزي هو الصراع بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ، ذلك الصراع الذي بدأ مبكراً ، والذي كان يهدف إلى التسابق في السيطرة على الجيش ، وقد كان عبد الناصر أسبق من عبد الحكيم عامر في الاتصال بالوحدات المختلفة بالجيش ، وفي ضمان ولائها له وكان ذلك قبل الثورة ، ولكن وجود عبد الحكيم عامر بعد الثورة كنائب أول للرئيس ، وقائد

(١) دكتور ابراهيم دسوقي اباطة : الخطايا العشر ٦٠ - ٦١ •



عام للجيش جعله أقرب إلى قيادات الجيش من عبد الناصر ، وبخاصة أنه اعتمد على شمس الدين بدران وكان هذا ورفاق دفعته لا يتجهون بالولاء إلا إلى عبد الحكيم عامر .

وقد حاول عبد الناصر — كما يقول محمد فوزي — إقصاء المشير عن الجيش عدة مرات :

١ — كانت المحاولة الأولى في عام سنة ١٩٥٦ عقب العدوان الثلاثي وما سببه لمصر من خسائر .

٢ — أما المحاولة الثانية فكانت في أكتوبر سنة ١٩٦١ عقب انفصال سوريا عن مصر ، وما نشب لعامر من أنه من أهم أسباب الحركة الانفصالية .

٣ — والمحاولة الثالثة كانت في نوفمبر سنة ١٩٦٢ حينما حاول « مجلس الرئاسة » أن تكون له سلطة التعيين والترقي بدءاً من رتبة العقيد ، وقد قيل إن هذا الطلب كان بإيعازٍ من عبد الناصر .
والمعجيب أن عبد الناصر هُزِمَ في هذه المحاولات ، بل أنه أصدر قرارات تزيد اختصاصات المشير ، وكان في ذلك مغلوباً على أمره ، أما هذه القرارات فهي :

١ — قرار رئيس الجمهورية رقم ٢٨٧٨ سنة ١٩٦٢ الذى ترك المسؤولية كلها الخاصة بالجيش والدفاع عن البلاد إلى المشير عامر .

٢ — قرار رئيس الجمهورية رقم ١١٧ لسنة ١٩٦٤ الذى نقل اختصاصات وسلطات القائد الأعلى إلى نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة

٣ — قرار رئيس الجمهورية رقم ١٩٥٦ لسنة ١٩٦٦ بأن يتولى شمس بدران معاون نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة في ممارسة اختصاصاته ويكون مسئولاً أمامه .

وهكذا نجد تضاربا خطيرا بين محاولة اقضاء عامر أو تقليل سلطاته ، وبين توسيع هذه السلطات على حساب رئيس الجمهورية الذي ظهر مغلوبا على أمره (١) .

المشير يهدد :

وعندما أحس عامر بالضغط عليه مرة من عبد الناصر سافر إلى مرسى مطروح بعد أن كتب استقالته ، وختمها بقوله :

إنه يرجو ألا ييدر من أحدٍ ما قد يندم عليه مستقبلا (٢) .

وكانت هذه الاضطرابات بين الرئيس ومشيريه من أهم أسباب ضعف الجيش وإثارة الخلل فيه ، ونضيف إلى ذلك أن المشير لم يكن حريصا على تقوية الجيش بقدر حرصه على السيادة عليه ، ومما يدل على عدم الحرص ما يذكره الأستاذ محمود رياض من أنه التقى مرة بعبد الحكيم عامر وعبد الناصر ودار الحديث حول ضرورة استعداد الجيش لمواجهة التحرش الذى تبديه إسرائيل من حين إلى آخر فطمأنه عبد الحكيم على ذلك ، ثم أخرج عبد الناصر ورقة من جيبه وناولها لمحمود رياض وكان آنذاك وزيرا للخارجية وقال له إن عبد الحكيم عامر يريد نقل عشرة من الضباط هذه هي أسماءهم إلى وزارة الخارجية ، ودهش رياض لأن هؤلاء الضباط كانوا ذوى كفاءات عالية ، وكان الجيش فى حاجة ماسة لهم وبخاصة فى ذلك الوقت ، وكان من بينهم أحمد اسماعيل الذى أصبح وزيرا للحربية ونفذ خطة العبور فيما بعد (٣) .

إن أرواح الشهداء ستمسك بتلابيب هؤلاء الأوغاد ، الذين كانوا يهتمون بالجيش حسب « المزاج » وليس حسب الكفاءات .

(١) الفريق أول محمد فوزى : حرب الثلاث سنوات ص ٣٤ - ٣٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٤ .

(٣) مذكرات محمود رياض ص ٤٤ .



الصديقان اللوردان : رمزان للهزائم وبينهما النائب الوفدى الأستاذ علوى حاتم

وبمناسبة طلب نقل هؤلاء الضباط إلى وزارة الخارجية نذكر أن الضباط من مطلع الثورة انسابوا في كل المواقع والمرافق ، في السفارات ومجالس الادارات والحكم المحلى والقطاع العام ، وكان ذلك من أسباب انهيار هذه المواقع لقلة خبرة هؤلاء الضباط بهذه الأعمال ، لقد خسرهم الجيش ، وضعت بسببهم الأعمال المدنية ، ولكنهم كانوا « أهل الثقة » كما ذكرنا من قبل .

المشير يرفض طلبات عبد الناصر :

وفي رحلة رسمية لعبد الناصر بطريق البحر كانت هناك مدمرتان تحرسان الباخرة التى يركبها عبد الناصر ، ولكن المدمرتين تعطلتا في البحر قبل أن يصل الركب إلى غايته ، وغضب عبد الناصر لذلك ، وطلب من المشير عقاب مَن أهمل في إعداد المدمرتين ، ولكن المشير لم يذعن لطلب الرئيس (١) .

ويحايى العسكريين على حساب المدنيين :

وتمادى المشير لإذلال عبد الناصر فاستصدر قانونا بأن المواطن المدنى الذى يشترك في خصومة مع فرد عسكري يقدم إلى محكمة عسكرية ، وقدّم هذا القانون إلى مجلس الأمة في مايو ١٩٦٦ وتم اعتماده في دقائق دون مناقشة (٢) .

والمشير ميزانية نثرية خاصة :

وكما كان لعبد الناصر ميزانية خاصة باسم « مصروفات سرية » تقدر بمليون جنيه في العام ، فقد كان للمشير عامر « ميزانية نثرية » كان حجمها السنوى قدره مليون ونصف إلى ٢ مليون جنيه ، وكانت هذه

(١) مذكرات محمود رياض ص ٤٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٢ .

الميزانية الضخمة لا توضع تحت رقابة الدولة ، وإنما تصرف بإمضاء
أى ورقة من المشير أو شمس بدران أو على شفيع (١) .

منح ومكافآت للقوات المسلحة :

عمل المشير على كسب ولاء القوات المسلحة لشخصه فاستجاب
لرغبات أفرادها دون حدود ؛ وشمل ذلك المساكن وصرف السيارات
المدنية ، وزيادة المرتبات ، وكثيراً من المنح والتيسيرات لهذا الغرض (٢) .

المعركة :

تلك مقدمات أوجزناها مما كتبه محمد فوزى ومحمود رياض ، فإذا
سرنا مع الفريق محمد فوزى إلى معركة ١٩٦٧ ، نراه أثبت صوراً عجيبة
كان لابد أن تحقق الهزيمة ، وفيما يلي نلتقط لمحات من هذه التصرفات .

— يثبت الفريق محمد فوزى أن أمريكا خدعت مصر بأن إسرائيل
لن تضرب المصرية الأولى ، وأكدت أمريكا ذلك لعبد الناصر ، وفي نفس
الوقت كانت أمريكا تعد العدة مع إسرائيل لضرب مصر (٣) .

— وردت برقيات إنذار من مكتب مخابرات العريش بقيادة
المقدم إبراهيم سلامة ، ومن الفريق عبد المنعم رياض الذى كان
آنذاك بالأردن ، وهذه البرقيات تفيد أن إسرائيل تتحرك لضرب
مصر ، ولكن هذه البرقيات لم تصل إلى القيادة العامة إلا
متأخرة ، ولو وصلت فى وقتها وتحرك الجيش بمقتضاها لكان من الممكن
أن تتغير الصورة ، وإذا صح ذلك فإن خيانة عظمى تكون وراء هذا
التأخير (٤) .

(١) المرجع السابق ص ١٧٠ - ١٧١ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٣ .

(٣) حرب الثلاث سنوات ص ١٤١ - ١٤٣ .

(٤) محمود رياض : مذكراته ص ٦٤ .

ومحمد فوزى المرجع السابق ص ١٣١ .

— أصدرت قيادة الدفاع الجوى أمراً إلى جميع المطارات وجميع عناصر الدفاع الجوى بين القاهرة وسيناء بالتوقف عن إطلاق النيران فى المدة من الساعة الثامنة إلى الساعة التاسعة صباح يوم ١٩٦٧/٥/٥ لأن طائرة المشير كانت فى الجو^(١) .

والذى أصدر هذا القرار يرى أن سلامة المشير أسمى من سلامة مصر .

ويقرر محمد فوزى أن المشير تسرع فى تحقيق الهزيمة على مصر وذلك بأن أصدر فى الساعة الخامسة وخمسين دقيقة صباح يوم ٦ يونية أى فى اليوم التالى لبدء المعركة ، أصدر إشارة لاسلكية من القيادة العليا بانسحاب القوات المصرية إلى غرب القناة ويقول الفريق أول محمد فوزى إن القوات البرية فى سيناء كانت متمسكة ولم يكن هناك ما يستدعى إطلاقاً التفكير فى انسحابها .

ومن ذلك يقول محمود رياض^(٢) : إن عبد الحكيم عامر هو الذى أصدر الأمر العشوائى بالانسحاب الشامل من سيناء ، وهو القرار الذى كان بمثابة حكم بالإعدام على قواتنا ومعداننا المنسحبة من الجبهة . — ثم أصدر المشير قراراً آخر بانسحاب القوات بأسلحتها الشخصيه فقط إلى غرب القناة^(٣) أى أمر بترك الأسلحة الثقيلة .

ويورد الفريق أول محمد فوزى^(٤) قائمة بخسائر هذه الحرب وهى خسائر هائلة فى الأفراد والمعدات ، ويكفى أن نذكر منها أنها فى القاذفات الثقيلة كانت ١٠٠٪ وفى القاذفات الخفيفة كانت ١٠٠٪ كذلك .

(١) محمد فوزى : حرب الثلاث سنوات ص ١٣٤ .

(٢) مذكرات محمود رياض ص ٧٩ .

(٣) محمد فوزى : حرب الثلاث سنوات ص ١٥٢ .

(٤) المرجع السابق ص ١٦٠ .

وفي معدات القوات الجوية والدفاع الجوي كانت ٨٥٪ •

وفي معدات القوات البرية ٨٥٪ •

ويذكر الأستاذ محمود رياض أنه كان من الممكن ألا تتجاوز الخسائر ٢٠٪ لو وزعت الطائرات بطريقة أفضل (١) بدلاً من تدميرها وهي رابضة على أرض المطارات العسكرية صباح الخامس من يونيو (٢) •

وبعد يومين من بدء المعركة أصبحت القوات المسلحة بلا قيادة وذلك قاع الهاوية (٣) •

ولنترك محمد فوزي لتفسير خطوات أخرى مع حرب ١٩٦٧ وقادتها النعساء ، والحق أن القوات المصرية لم تكن مستعدة للدخول في معركة مع إسرائيل سنة ١٩٦٧ ، وهذه حقيقة واضحة ، ولذلك فكل تحرش بإسرائيل كان معناه تسليم الجيش المصرى ومعداته وأرض مصر للعدو •

ويقول الفريق أنور القاضى فى لقاء مع وجيّه أبو ذكرى نشر بصحيفة الأخبار فى يونيو سنة ١٩٨٨ ما يلى :

فى ١٦ ديسمبر عام ١٩٦٦ (أى قبل نشوب الحرب بأقل من ستة أشهر) أرسلت هيئة العمليات للقوات المسلحة تقريراً هاماً إلى رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة « الفريق محمد فوزى » الذى وافق عليه ، وفيه تحذير من الدخول فى مواجهة مع العدو الإسرائيلى ، وتجنب مواجهة إسرائيل فى هذه المرحلة بقدر الإمكان ،

(١) مذكرات محمود رياض ص ٦٣ •

(٢) المرجع السابق ص ٦١ •

(٣) المرجع السابق ص ١٦١ •

ولقد ذكر في هذا التقرير أن الكفاءة القتالية للقوات المسلحة ليست في أحسن حالاتها ، وأن التجهيزات دون المستوى ، وأن المعدات مستهلكة تقريبا بسبب حرب اليمن • وأن لدينا نقصا في الأفراد بسبب اليمن لا يقل عن ٣٧٪ وأن أرض المعركة لم يتم تجهيزها وسوف يستغرق ذلك وقتا طويلا ، وأن القوات ينقصها الكثير حتى يمكن تنفيذ الخطة « قاهر » ، وهى الخطة الدفاعية التى وضعتها القوات المسلحة قبل الحرب بفترة طويلة ، وأن الوقت الذى يمكن أن يتم فيه كل هذا يحتاج إلى شهور طويلة وأموال طائلة وجهد وعرق ، ولقد حرصت أن أقول بصوت مرتفع يجب أن نتجنب الحرب مع إسرائيل حتى تستكمل استعداداتنا •

وقد صدّق الفريق فوزى على هذا التقرير وأرسله إلى القيادتين السياسية والعسكرية ، إلى الرئيس جمال عبد الناصر وإلى المشير عبد الحكيم عامر •

كان هذا التقرير فى ديسمبر عام ١٩٦٦ وكان هذا وحده يكفى لتجنب الحرب مع إسرائيل ولكن الذى حدث أن القيادة السياسية بإرادتها ، وبالرغم من علمها تماما بحالة القوات المسلحة قد اتخذت من الإجراءات والقرارات الخطيرة ما تعتبره إسرائيل إعلان حرب ، وكان أخطر هذه القرارات هو إغلاق خليج العقبة فى وجه الملاحة البحرية الإسرائيلية ، وقد عارض اتخاذ هذا القرار ، رجل واحد هو المهندس صدقى سليمان رئيس وزراء مصر فى ذلك الوقت •

ولكن

لم يكن عبد الناصر جادا فى دخول الحرب ، وكان يقوم بمظاهرة عسكرية ليكسب بعض المكاسب فى الشارع العربى ليقال إنه أنقذ سوريا

من الحشود الإسرائيلية ويخرس اللسنة الصحف العربية والإذاعات العربية . ولكنه لم يخرس اللسنة ، وإنما أطلقها تنهش عظامه بعد أن نهشت أظافر العدو أرض الوطن وشبابه ، وكان إغلاق خليج العقبة وطرد المراقبين الدوليين من شرم الشيخ دافعا لإسرائيل لتكوين وزارة حرب برياسة أشكول ، ودخلها موسى ديان ويوسف سابير ومناحم بيجين ، والثلاثة من صقور الحرب ، وأخذت إسرائيل المسألة مأخذ الجد ، ولكن كل هذا لم يوقظ عبد الناصر وظل في « تهويشه » .

ولننتقل إلى قائد آخر من قادة معركة ١٩٦٧ ليحدثنا عن أحوال الجيش المصرى قبيل المعركة . يقول الفريق أول عبد المحسن مرتجى (١) :

« مضى بنهاية يوم ٤ يونيو ١٩٦٧ ثلاثة أسابيع على رفع درجات الاستعداد للقوات وفتحها تعبويا في سيناء ، ولم تستقر الأوضاع بعد ولم تنته القيادة العليا إلى قرار حاسم محدد واضح ، فالخطة الدفاعية « قاهر » فقدت فاعليتها بمرور الأيام ، فمرة يركز الجهود الرئيسى للدفاعات في القطاع الأوسط ، وأخرى يوجه الاهتمام إلى الفردقة ، فترسل لها القوات البرية والبحرية والجوية ، ومرة — بناء على تدخل الزعامة السياسية — يتحول الاهتمام الى شرم الشيخ ، ثم لا يلبث أن يتحول الى القطاع الشمالى ، ثم تتوهم القيادة العليا بناء على نصيحة تقدم لها بأن القطاع الجنوبى لا يقل أهمية عن غيره فتتحرك القوات إليه .

« وقد كان أبرز الأخطاء القاتلة التى وقعت فيها القيادة العليا ، هو الذى تمثل فى دفعها بكل القوات المتيسرة فى الجمهورية الى سيناء ، دون الاحتفاظ باحتياطيات كافية خارج مسرح القتال ، يمكن استخدامها فى مجابهة المواقف الطارئة أو لاستغلال نجاح لاج فى منطقة ما . وقد

(١) « الفريق مرتجى يروى الحقائق » فى أمكنة مختلفة من هذا الكتاب .

تركت منطقة غرب القناة الى القاهرة عارية تماما من القوات المقاتلة ذات الفاعلية ، ومن هنا أعلن عبد الناصر عقب الهزيمة أنه لم يكن هناك جندي واحد بين الزحف الإسرائيلي والقاهرة •

« أما بالنسبة للقوات البحرية ، التي كانت تملك تفوقا على إسرائيل ، فقد أفلحت إسرائيل في توزيعها على البحر المتوسط والبحر الأحمر ، وقد أرسل القسم الأكبر والأكثر ، فاعلية الى البحر الأحمر تحت فكرة خاطئة بأن عمليات إسرائيل ستوجه ضد شرم الشيخ والغردقة ، وبذلك بقيت هذه القوات بدون استغلال •

« فإذا انتقلنا إلى القوات الجوية فإننا نذكر أن عدد الطيارين كانوا أقل من عدد الطائرات الصالحة ، ولم تكن الخدمة الأرضية الفنية على المستوى المطلوب في جميع الحالات ، وكانت وحدات اصلاح المطارات والممرات يفتقنها معدات الاصلاح الحديثة ، ولم تتسَلَّم وحدات التوجيه من العجز ، كما أن الدفاع المضاد للطائرات لم يكن كافيا ، بل ان بعض المطارات تركت بلا أسلحة مضادة للطائرات ! وإذا وجدت تكون مقصورة على الرشاشات التي لا تصلح الا للهجوم المنخفض المنخفض » •

إن الهزيمة كانت بلا شك من القيادة السياسية ، وهذه القيادة لابدء يوما أن تحاسب على الدم والأرواح التي ضاعت نتيجة إهمالها ، هذا الإهمال الذي سجله قادة المعركة ، وتحاسب كذلك على سمعة البلاد التي هوت كأثر من فوضى الجهلاء الذين حملوا عبئا سياسيا فاتجهوا للمتعة والسرقات ، ونسوا تماما حق الوطن والمواطنين ، لعنة الله على هؤلاء إلى الأبد •

الجاسوس اليهودي باروخ نادل :

بقيت كلمة عن حرب ١٩٦٧ توضح غفلة المخابرات المصرية التي اتجه اهتمامها للتجارة والمرأة ، فإن الجاسوس اليهودي باروخ نادل (م ١٢ - التاريخ الاسلامي)

انتحل شخصية (أرام أنور) التركي الذى مات سنة ١٩٥٤ ، وظل يلعب هذا الجاوس دوره دون أن تكتشفه المخابرات المصرية حتى تحطيم الطائرات المصرية صبيحة الخامس من يونيو سنة ١٩٦٧ حيث فر .

وهذا الجاسوس يحكى قصته فى كتابه « تحطمت الطائرات عند الفجر » ويصف الليلة الساهرة التى عاشها كبار ضباط الطيران والتى ظلت حتى صبيحة الخامس الحزين ، والتى كانت حافلة بالخمر والنساء والموسيقى ولم يستيقظ الساهرون إلا على القصف المدوى الذى أكل الطائرات المصرية .

جهل قادتنا بخطورة الأسطول السادس :

وإذا كان عبد الناصر ليس جادا فى دخول معركة مع إسرائيل وكان يقوم بهذا فى مجال التهويل ، فإن من حوله كانوا يأخذون المسألة مأخذ الجد ، ولم يعرفوا الهدف الذى كان فى نفس الزعيم ، وفى ضوء إحساس الوزراء والكبار أثير فى مجلس الوزراء احتمال دخول أمريكا الحرب مع إسرائيل وبخاصة أن الأسطول السادس موجود بالبحر المتوسط ، فرد وزير الدفاع الجاهل شمس بدران على الوزراء ردا تهكما هو : الأسطول السادس يطلع أيه ؟ عندنا ما يقتضى عليه (١) .

ويبدو أن شمس بدران حسب أن الأسطول السادس زورق من زوارق النزهة التى كانت كثيرة الاستعمال آنذاك فى المغامرات والنزهات النهرية .

الغفلة قبل حرب ١٩٦٧ :

نثبت فيما يلى لقطات من حديث للأستاذ أنيس منصور نشره فى أخبار اليوم بتاريخ ١٩٨٧/٢/٢١ ونصه :

-
- (١) تحطمت الطائرات عند الفجر ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .
(١) موسى صبرى : السادات ص ٤٩٣ ومذكرات محمود رياض ص ٥٤ .

الادعاءات والأحلام :

تذكرت* أن المخابرات الحربية قد دعتنى لمشاهدة قواتنا على الجبهة ومشاهدة النصر المؤكد لنا على إسرائيل + + + فما إسرائيل هذه إلا دولة صغيرة عالية الصوت ، ومن* هم زعماءها وقادتها ؟ + + وأين هؤلاء من زعيمنا جمال عبد الناصر ، إنها نزهة بالبر والبحر والجو + + ساعات وبعدها نعود نتغنى بالنصر الساحق المالحق بعدونا .

وكنا خمسة من الصحفيين واثنين من المصورين أركبونا سيارة حربية وزودونا بالخبز والطماطم والخيار والجبنه والمياه الباردة والبرتقال ، وعبرنا القفزة واتجهنا إلى أرض المعركة + + + معركة الساعات وينتهى كل شيء . وتنتصر مصر وسوريا والأردن وتعود فلسطين إلى أهلها وبأسلحة الأتقاء العرب الذين تكاثروا على العدو + + + وفى ضربة واحدة ينتهى كل شيء .

جوع قاتل للجنود على الجبهة :

وفجأة اعترضنا أحد الجنود ، وكان الجندى يقف فى منتصف الطريق ، فوقفت سيارتنا ، واندھش السائق العسكرى وضباط المخابرات المرافقون لنا ، إذ صاح هذا الجندى قائلاً : يا أفندم + + إننا منذ ثلاثة أيام لم نذق طعاما .

وتعالى صوت الضباط المرافقين لنا يستنكرون ما قاله الجندى ، ولكن الجندى لم يهتز ولم يأبه للزعيق والتهديد + + وشعر الضابط بخجل وخرج من وجودنا ، ونزل واحد منهم واقرب من الجندى الذى ضم قدميه ورفع يديه للتحية ، ولكنه لم يغير من موقفه أو لهجته أو ملامح وجهه . بينما أطل جندى آخر من الدبابة الواقعة على جانب الطريق يتابع ما يسمع ويرى ، وتسابقنا جميعا فى تقديم كل ما لدينا من طعام لهذا الجندى ، ولم يشأ أحد من الضباط أن يفسر لنا ما حدث ، ولكن واحدا من الزملاء قال بصوت مسموع : لا يستطيع أى جندى أن يتجراً

على الضابط بالقول والإصرار والصلابة التي شاهدناها إلا إذا كان فلا
يوشك أن يموت من الجوع •

المواصلات السلوكية واللاسلكية مقطوعة بسيئات :

وسألنا الفريق مرتجى ، أين تبيتون هذه الليلة وقتلنا : طبعاً في
العريش ••• لكى نرى العدو زاحفاً على يديه وركبتيه يطلب الاستسلام •
وحاولنا أن نتصل بالعريش تليفونيا فلم نفلح ، فالفريق مرتجى
شخصياً لا يستطيع أن يتصل بالقوات عند العريش ، فالمواصلات السلوكية
ردية جداً •• فلم نتمكن من حجز غرفتين أو ثلاثاً نبيت فيها •

الشباب ضحايا التهور والدعاية :

وكان الشباب فى أى مكان ولائمة مناسبة يخطبون ويلقون القصائد
المنتهبة ويجمعونها ويضعونها أمانة فى عنقى لكى أنشرها عندما أعود إلى
القاهرة ، وقابلت عدداً من الأقارب حديثى التخرج فى الكليات ، وكنت
آخر من رآهم رحمة الله عليهم جميعاً ، وعلى عشرات الألوف من أمثالهم فى
اليمن وفى سيناء •

قابلنى شاب واقترب منى يقول : أمانة يا اونكل •• أنا ابن الأستاذ
محمد أمين حماد رئيس التليفزيون •• أرجو أن تبليغ والدى بأننى لم
أذهب إلى اليمن ، وأننى هنا فى الجبهة وأننى سوف أعود فى أقرب وقت •
ولم أفهم ، فعاد يقول : إن جبهة اليمن خطيرة ••• أما هنا فآمان
تماماً •

وقامت معركة الساعات الست وابتلعت الحرب شبابنا الأبرياء الذين
سيقوا كما سيق إخوان لهم إلى اليمن دون أى استعداد ولا رعاية •

ومع هذا لا يزال هناك من يترحم على هؤلاء القادة ، الذين كانوا
أسادا على الشعب وكالنعام فى مواجهة المشكلات •

عائد البترول وعائد قناة السويس :

ويرتبط بهزيمة ١٩٦٧ موضوع مهم هو أن مصر خسرت بسبب هذه الهزيمة الثنيعة أعلى مصدرين من المصادر المالية وهما عائد البترول وعائد المرور بقناة السويس ، ومن المعروف أن أهم مناجم البترول أيضا تقع في سيناء ، وحولها ، وأن قناة السويس توقفت وتعرضت للتلف ، هذا بالإضافة لخسائرنا البشرية ولضياع الأسلحة التي يقدر ثمنها بمئات الملايين .

ولم يكن هناك ما يحل محل هذين المصدرين المهمين من مصادر المال ، ولذلك لجأت حكومة عبد الناصر إلى القروض من كل مكان وإلى التسول من البلاد العربية بوجه خاص .

قادة مصر عقب الهزيمة :

نحن دولة تقع في قارة افريقية ما في ذلك شك ، وكانت الدائرة الافريقية إحدى الدوائر التي اهتم بها عبد الناصر في كتابه « فلسفة الثورة » وتبعاً لذلك كان علينا أن نلتزم بتقاليد القارة وآدابها ، وقد أوردت في الجزء السادس من هذه الموسوعة الخاص بتاريخ افريقية أن التقاليد المعروفة عند قبائل اليوروبا بافريقية تقضى أن الملك إذا أرسل حملة عسكرية وفشلت فإنه يقتل نفسه قبل أن تعود الحملة المهزومة إلى أرض الوطن ، وإذا لم يقتل الملك نفسه فإن الشعب يرى أن تنفيذ القانون أمر لا مفر منه ، وهكذا كان حق إعلان الحرب يعنى الانتصار أو الموت بالنسبة للملك (١) .

ولكن الذى حدث في مصر هو تشبث ناصر وعامر بالحياة والسلطة على الرغم من الهزيمة التي خلقهاها .

(١) فجر التاريخ الافريقى ترجمة عبد الواحد الابيارى ص ٩٠ .

انتصارات الحضارة على التخلف سنة ١٩٦٧ :

وبمناسبة الحديث عن حرب يونيو يذكر اللواء حافظ إسماعيل (١) ، أن انتصار إسرائيل كان انتصارا للمجتمع الديمقراطي أمام المجتمع المصري الديكتاتوري المتخلف ، فإسرائيل بلاد المليونين ونصف المليون تنتصر على أكثر من أربعين مليوناً في المناطق المواجهة ، وقد توقف القتال بعد أن حققت إسرائيل كامل أهدافها الاستراتيجية ، باحتلال سيناء والوصول إلى قناة السويس وإعادة فتح خليج العقبة للاحتيا ، ثم كذلك باحتلال القدس والوصول إلى نهر الأردن واحتلال هضبة المرتفعات السورية (الجولان) وأعلنت إسرائيل في كبرياء سقوط اتفاقات الهدنة وألا عودة لخطوط يونيو ، ونالت إسرائيل بذلك فوق ما تمنكت .

رأى موسى ديان في سياسة عبد الناصر :

وأعلن موسى ديان تصريحاً خطيراً نصه : إن ما حققناه من نصر كان أكثر جداً مما تمنيناه ، ولو أن أكثر أعداء مصر قد وضع تخطيطاً لسحق جيش مصر ما استطاع أن يحقق ما حققته سياسة عبد الناصر .

أسئلة وإجابات خطيرة :

وهنا تخطر بالبال أسئلة مهمة هي :

١ — لماذا أقدم عبد الناصر على معركة بدون استعداد ؟

الإجابة : التهويل والدعاية من جانب ، واغترافه — كما قلنا — أن التهويل لن يسبب حرباً — ثم إنه — كما يقول الفريق أول محمد فوزي لم يكن يعرف قواته ولا قوات العدو ، وتلك أخطر وصمة يوصم بها قائد أو رئيس .

(١) أمن مصر القومي في عصر التحديات ص ١٢٤ .

يمكن أن يحقق نجاحا أكثر لولا الرأي العام العالمى ، فقد أعلن عبد الناصر بدون خجل كما ذكرنا من قبل أنه لم يكن هناك أى جندى بين العدو والقاهرة •

مجزرة الأبرياء :

وهنا يتحتم أن نذكر كتاب « مجزرة الأبرياء » للأستاذ وجيه أبو ذكرى ، فقد سبق شباب مصر للموت بالآلاف وبدون تدريب على الإطلاق ، وبدون تسليح ، وبدون أجهزة ، وبدون خطة • بل وبدون طعام • والمسئول الأول والأوحد عن هذا هو عبد الناصر ، فهو الذى أثار إسرائيل دون استعداد ، وهو الذى أطلق الكلاب بالداخل تقضى على حماسة المصريين وشرفهم ، منذ عين صلاح نصر وحمزة البسيونى وشمس بدران وعلى شفيق ليكونوا صقورا وهم أضعف من اليمام ، ليكونوا قادة وهم فى ذلة العبيد •

ويقول الأستاذ إسماعيل النقيب تعليقا على ما أثير حول جانب من جوانب الفجور فى ذلك العهد كشفت عنه امرأة فى كتاب ساقط : العجيب أن السادة أصحاب الأقلام قد أدانوا « اعتماد خورشيد » • مؤلفة الكتاب ، لأنها أعلنت عن كبائر الإثم والفواحش ، ولم يحاكموا الأفعال ذاتها ، حاكموا الإعلان ولم يحاكموا الأفعال ، وقد اتضح أن الثورة المصرية بمبادئها الستة دخلت غرف نوم الحريم ، والمحظيات ، ولم تدخل ساحة العمل الثورى ^(١) •

أمراض نفسية نتيجة حرب ١٩٦٧ :

جرت دراسات نفسية قام بها اثنان من المتخصصين أكدت أن نسبة المصابين من الجنود الذين تحولوا إلى العلاج النفسى كانت ١٤.٨٪

(١) الاخبار فى يونيو ١٩٨٨ فى ذكرى الهزيمة السوداء ومجزرة الأبرياء للأستاذ وجيه أبو ذكرى •

وكانت أمراضهم بالترتيب : هستريا عضوية مع قلق ، قلق مع اكتئاب .. هوس .. وانتهت إلى الإنهاك والجفاف .

وتجاوزت الأمراض النفسية الجنود إلى المدنيين وبخاصة إلى الأدباء والشعراء والكتاب — الذين تشتد حساسيتهم ، وقد سقط بعض هؤلاء مرضى وأُرسِلوا للعلاج بالخارج ^(١) .

وامراض اجتماعية :

احترقت الجسور بين الفرد والمجتمع ، وابتعد القادرون — بالهجرة — عن السفينة المغارقة ، واهتزت صورة الحاكم ، وفقدت الجماهير ثقتها في القيادة ، واحترق الضمير الاجتماعي فظهرت الفرصة مناسبة للفرق في تجارة اللذة ، ومن هنا انطلقت الرغبات والأهواء بلا حدود — : جنس — رشوة — فساد — لا مبالاة ... ^(٢) .

حركة الاستنزاف ونتائجها على مصر :

وقبيل نهاية عبد الناصر بدأ ما سمي « معركة الاستنزاف » بقصد رفع الروح المعنوية للقوات المصرية ، وجعل الحياة على الضفة الشرقية غير محتملة بالنسبة لليهود ، ولكن إسرائيل كثفت دفاعاتها الأمامية وضربات لقواعد دفاعنا الجوي ، وقامت قواتها بعمليات عبرت بها قناة السويس وخليج السويس ، وخلال شتاء ١٩٧٠/٦٩ بادرت بضرب أهداف عسكرية واقتصادية وجماهيرية في العمق ، بقصد إضعاف قدراتنا على مواصلة القتال .

مصر في حماية السوفييت :

ثم يتحدث محمد حافظ إسماعيل عن الكارثة الكبرى ، وهي أن تتولى عناصر من القوات السوفيتية إدارة شبكة الدفاع الجوي بين

(١) عادل حمودة : الهجرة الى العنف ص ٨٩ — ٩٠

(٢) المرجع السابق ص ٩٠

الاسكندرية واسوان إلى أن يتم تدريب الوحدات المصرية على القيام بهذا العمل (١) .

وهكذا تحتل إسرائيل بعض بلادنا ، ويقع الباقي من مصر تحت حماية السوفييت ، ومع هذا لا يزال هناك من يمجّد عبد الناصر .

معاناة الجيش من الثورة :

عانى الجيش من الثوار صوراً من الاضطراب والقلق ، ومن الثابت أن ما عاناه الجيش من الثوار لا يقل عما عاناه الشعب من هؤلاء الثوار لعنهم الله .

ومن الضباط الذين نكّلت بهم الثورة لاتجاهاتهم الديمقراطية ولا انحراف الثورة عن مبادئها ، أحمد المصرى ومحمود حجازى وصبحى القاضى وأحمد حمودة وفاروق الأنصارى وغيرهم ، وبلغ بهم الإيمان بما نادوا به ، إلى تكوين سرى داخل سلاح الفرسان ، لقلب مجلس الثورة وإيجاد نظام ديمقراطى بعد أن تمكنت الثورة من ضرب الديمقراطية في أزمة مارس ، ولكن التنظيم كُشِفَ أمره ، وحوكموا أمام محكمة ثورية أصدرت أحكامها على ١٦ ضابطاً بالسجن مددا متفاوتة ، كذلك كان من ضباط الثورة المشرفاء الذين طالبوا بعودة الجيش إلى ثكناته وإفساح السبيل للحياة الديمقراطية القائم مقام أحمد شوقى الذى كان أكبر الضباط رتبة بعد محمد نجيب والذى كتب في جريدة « المصرى » يوم ٢٧ مارس ١٩٥٤ ، يتشهم الثورة بصراحة بالانحراف عن مبادئها ويقول :

هل كان من أهداف الثورة أن تحكم البلاد ؟

هل كان من أهداف الثورة أن تكتم الأفواه وتقيّد الحريات ؟

هل كان من أهداف الثورة أن يَزَجَّ بالمواطنين الجانى منهم والبرىء

في السجون ؟ وأن تُملأ بهم المعتقلات ؟

(١) أمن مصر القومى في عصر التحديات ص ١٥٤ .

هل كان من أهداف الثورة أن تتخلى الجيوش في السياسة وفي كل مرفق من مرافق البلاد ؟

أليس هناك من أبناء مصر من يستطيع القيام بالأعمال المعهود بها الآن لبعض ضباط الجيش حتى يتفرغ هؤلاء الضباط إلى النهوض بجيشنا لكي يتمكن من القيام برسالته ؟

إذا عودوا إلى صفوفكم في الجيش •

ومن الضباط الذين ثاروا على انحرافات الثورة اللواء عبد القادر عيد ، الذي رفع مذكرة للرئيس عبد الناصر وللمشير عامر عقب الانفصال عن سوريا ، وطالب في هذه المذكرة ببعض إصلاحات من بينها الأخذ من الاشتراكية بما يتناسب مع الإسلام ، وتقديس حرية المواطنين والبعد عن التكتلات السياسية شرقا وغربا ، وفوجيء في ٢٥ مايو ١٩٦٢ بأفراد من الشرطة العسكرية يقنحون منزله ويحطمون أثاثه ويعتقلونه مكبلا بالحديد ومعصوب العينين لبني المخابرات العامة حيث كان فريسة لكل أنواع التعذيب ، وحيث اتهمته مراكز القوى في ذلك الوقت بأنه يدبّر ثورة مضادة لنظام الحكم •

ثم أحالوه إلى محكمة الدجوى مع عدد من زملائه فقضت عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة ، ثم ادّعوا - بقرارات رسمية - وفاته ، وصرّف معاش لزوجته مع أنه حي يرزق •

وفي سنة ١٩٨٢ رفع دعوى تعويض عما أصابه من تعذيب هو وأسرته ، وشهد ثمانية شهود بأن اللواء عيد رفض منصب الوزارة مرتين عام ١٩٥٩ و ١٩٦١ تمسكا بعسكريته ، وأنه كان بطالا في حرب ١٩٥٦ واعتقل بواسطة المخابرات العامة عام ١٩٦٢ إثر تقديمه لمذكرة لإصلاح بعض الأوضاع العامة ، وناله كثير من صنوف التعذيب المادي والمعنوي ، وتمثل التعذيب بضربه بالسياط والعصى ، ووضعه تحت الدش الكهربائي ، وآلة الرعش الكهربائي ، والكرسي الكهربائي ، وحقنه في النخاع الشوكي ،

واحتلال فصيلة عسكرية لمسكنه وانتهاك حرمة إكراهه على توقيع
إقرار بترعنه تنظيمًا يضم مجموعة من كبار العسكريين والمدنيين ورجال
الدين لقلب نظام الحكم .

وأصدرت محكمة استئناف القاهرة حكمًا بالزام رئيس الجمهورية
ونائب رئيس الوزراء ووزير الدفاع ورئيس المخابرات العامة متضامين
بدفع مبلغ ٢٠ ألف جنيه للواء عيد وأسبرته تعويضًا عما لقيه من تعذيب
عام ١٩٦٢ بدعوى تدبيره لانقلاب ضد نظام الحكم ، والادعاء بوفاته لأنه
طالب بتقديس حرية المواطنين .

وقالت المحكمة إن المدعى قد لاقى صنفًا من التعذيب تقشعر منها
الأبدان وأهدرت آدميته بطريقة تشييب منها الولدان ، بالإضافة إلى ما
أصابه من آلام نفسية وأحزان مع أنه كان من خيرة الضباط بالقوات
المسلحة في ذلك الوقت ، وأدى دورًا بارزًا في حرب ١٩٥٦ ورفض ٣ أوامر
بالانسحاب من منطقة خليج العقبة وصمّم على القتال حتى آخر رجل .
وقد صدر الحكم لصالحه في يونيو ١٩٨٣ .

عبد الناصر يعانى هو أيضا من الجيش :

وكما عانى الجيش من عبد الناصر عانى عبد الناصر من الجيش ،
فقد كان عبد الناصر يعيش في ذعر من الجيش ، ويتوقع دائما أن يقوم
الجيش بتحركات ضد الثوار ، ولذلك استأجر شققا بمداخل القساهرة
لمراقبة ما يمكن أن يحدث من تحركات الجيش تجاه القاهرة ، ووفر لهذه
الشقق وسائل مواصلات سريعة تنقل الأخبار عن أى تحركات .

عصابة ومساكيط :

وأهم ما نختم به هذه الدراسة الموجزة هي جملة رواها أنور السادات
عن عبد الناصر هي : يا أنور البلد تحكمها عصابة (١) .

(١) موسى صبرى : السادات الحقيقة والأسطورة ص ٣٥٥ .

وهذه الجملة صادقة كل الصدق ، ولذلك يميل كثير من الباحثين إلى استعمال كلمة « عصابة » للتعريف بما أسموه « ثورة » والذي لا شك فيه أن عبد الناصر والمشير كانا زعيمين لهذه العصابة .

وهناك جملة أخرى يذكرها أنور السادات هي :

تحول الناس في مصر إلى مساخيظ (١) .

أخطاء الثورة وقعت في طول عهدها

ويقول أنور السادات كذلك إنه من مطلع الستينات بدأت الثورة فترة المعاناة والآلام والهزائم والنكسات والأخطاء البشعة من جانبنا (٢) .

والحق أن الأخطاء البشعة صاحبت الثورة ليس فقط من الستينات بل من مطلع قيام هذه الثورة كما وضعنا ذلك في الجزء السابق الخاص بعهد عبد الناصر ، واعتقادي أن السادات أغفل الخمسينات قصدا حتى تظل هناك فترة يئنسب للثورة فيها بعضُ المفاخر حتى يعيش في ضوءها ، والحق أن الأخطاء البشعة المرتبطة بالخمسينات لا تقل بأي حال عن الأخطاء البشعة التي ذكرها السادات عن الستينات :

ففى أغسطس سنة ١٩٥٢ حكمت المحكمة العسكرية التي شكلها مجلس الثورة بالإعدام على قائدين من قادة العمال هما خميس والبقرى ونفذ فيهما حكم الإعدام .

وفي نفس العام ألغى الدستور وهو أبو القوانين ، ثم حلت الأحزاب في مطلع ١٩٥٣ ، وتم الاستيلاء على أملاك الناس بما سمي القضاء على الإقطاع دون رحمة من جانب ، ودون ملاحظة مصلحة

(١) البحث عن الذات ٠٠٠٠ ص ٢٨٩ .

(٢) البحث عن الذات ٠٠٠٠ ص ٢٠٢ .

مصر من جانب آخر ، وحدد الإيجار ولا يزال ذلك التحديد حتى الآن ، ويشكو منه كل الناس ولا من مجيب *

وفي الخمسينات حدثت أحداث فبراير ومارس سنة ١٩٥٤ واعتدى الغوغاء والمأجورون بقيادة الضباط بالضرب على الدكتور السنهوري وأعضاء مجلس الدولة *

وفي الخمسينات نكل بالإخوان المسلمين تنكيلا بشعا ، وقتل ستة من قادتهم في قمتهم العلامة الأستاذ عبد القادر عودة ، وامتد نطاق الاعتقالات فشمّل المسامحة ورجال الدين ، وكان التعذيب أسلوبا متبعاً مع الرجال والنساء ، وفي الخمسينات ظهرت المحاكم بأسمائها المختلفة : العسكرية ، الغدر ، الثورة ، الشعب *

وفي الخمسينات فُصل بعض أساتذة الجامعات الذين رفضوا أن يسيروا في الركب الظالم *

وفي الخمسينات حدث العدوان الثلاثي وقد تناولناه من قبل ، وأبرزنا نتائجه *

وفي الخمسينات حدثت الوحدة مع سوريا ، تلك الوحدة المشؤومة التي كانت قصيرة العمر والتي تسببت عنها صور من الفشل العسكري والخلقي والمادي أكثر على مصر عدة سنوات *

ونقرر أن ما يدّعيه أنوير السادات عن قسطنطين أخطاء الثورة على الستينيات يتناقض مع قوله في نفس الكتاب (١) *

إن النجاح لم يحالفنا بعد الثورة لأسباب مهمة ، أشدها عدم وضوح الرؤية بالقدر الكافي ، لا في وقت مجلس قيادة الثورة ، ولا بعد أن أصبح

(١) البحث عن الذات ، ص ١٢٠ *

عبد الناصر رئيسا للجمهورية ، وقد كان بطبعه كثير الشك ، ولذلك انشغل بأمنه عن الرؤية البعيدة ، وعن أهم وأثمن ما في الوجود وهو الإنسان ، ففي غمرة شكوك عبد الناصر وانشغاله بأمنه حدثت في مصر أخطاء جسيمة ضد أخطر وأهم ما كان يجب أن نحرص عليه ، وهو آدمية المصري وإنسانيته .

ذلك قول صريح وحاسم ، لقد كانت الثورة وبالا على الإنسان ، وعلى الفكر ، وعلى الاقتصاد ، ولئن تعود البلد إلى طبيعتها إلا بعد أن تنتهى ذيول هذه الثورة اللعينة .

التطور والجمود

من التزامات المؤرخ في العصر الحديث أن يحاول الدقة فيما يرويهِ من أحداث ، ثم أن يجيد التعليق عليها بما يدفع قومه إلى حياة أفضل . ولقد عاصرت هذه الحركة المشؤومة التي تسمى ثورة ، ورأيت الناس وقد تفتنوا في حب عبد الناصر كما لم يحدث لسواه على الإطلاق ، وكنت في قمة الدهشة من تصرف الناس ، هؤلاء الذين لم يروا شيئا من أفضاله ، ورأوا الكثير من أخطائه القاتلة ، ومع هذا يحبونه ، وبعضهم أخذ يفلسف هذا الحب فيقول إنه هو الذى أخرج الإنجليز من مصر ، وقد قلنا من قبل إن الإنجليز خرجوا من كل المستعمرات ، وأن جمال عبد الناصر جكّـب لبلادنا أخطر استعمار عرفته البشرية وهو الاستعمار الصهيونى ، ومات الرجل وهذا الاستعمار يسيطر على جزء مهم من أرضنا ويهدد الباقي .

وقالوا إنه أنشأ السد العالى ، وبالغوا في حسناته ، ونسوا أن مصر عاشت آلاف السنين بدون السد العالى ولم يمسسها سوء ، ثم إن السد العالى ليس إلا واحدا من السدود التي أقيمت على النيل ، قد يكون أكبر من غيره ، وهذا طبيعى فمع الزمن يصل الخبراء في هذا

المجال وغيره إلى الأحسن والأنفع ، ومع هذا فالذى يطالع رأى المهندس أحمد عبده الشرباصى فى أضرار السدّ يتردد فى اجلاله لهذا الحدّ ، ثم إن السدّ العالى أقيم لتوسيع رقعة الأرض الزراعية ، ولإقامة مصانع على ما يولّده السد من كهرباء ، ومرّة الزمن ولم تتسع الأرض الزراعية ولا أقيمت المصانع •

ولكن السد العالى على أى حال اذا قيس بالتطور الذى سنشير إليه ، فإنه يعتبر لا شىء على الإطلاق ، والقارىء الفاضل يدرك أن صيحة عالية ومتركرة قام ويقوم بها رؤساء مصر من مطلع الثورة حتى الآن وتسخّر لها أجهزة الإعلام على أوسع نطاق ، بل يتسخّر لها علماء الشريعة والأطباء ، والدعاة وهى تنظيم النسل ، فالقيادات فى مصر ضاقت بالمصريين ، لأن الزيادة فى السكان تلتهم كل ما يحققونه من زيادة فى الإنتاج كما يقولون ، وهذه الكلمات مقتبسة من الرئيس حسنى مبارك الذى اشترك فى الحملة التى تحارب انطلاق النسل ، ويخيّل للإنسان من كثرة الاعلانات عن وجوب تحديد النسل أن ولاية الأمور لو استطاعوا أن يدفنوا نصف السكان فى الصحراء أو أن يلقوا بهم فى البحر لفعلا حتى يتخلصوا مما يستهلكون من طعام وكساء ، وما يحتاجونه من تعليم وعلاج بل بدأ تهديد يظهر فعلا وهو يقرر أن الدولة لن تعلم بالمجان الطفل الثالث ، ولن تقدّم لهم المواد التى يثدّفع لها دعم •

ومن الواضح أن هذا الصراخ سببه أن دولتنا حفظها الله ، تنظر إلى هذا العدد على أنه أفواه تلتهم الطعام ، وأجساد تبلى الملابس ، وقد عجزت الدولة تماما عن الانتفاع بهذه القوة لتصبح منتجة ، وهذا هو السر فى هذا الصراخ •

ونقول بصراحة إن العجز ظاهر حتى لو بقى عدد السكان دون زيادة ، والطريق الوحيد للإنقاذ هو إيقاف السرقات ونزيف الإنفاق ، ثم

التخطيط لمزيد من الإنتاج ، وبدون ذلك سننقع الطامة
ولا مفر منها .

والحق أن عندنا عجزا شاملا في الطعام ، والشراب ، والكساء ، والعلاج .
ودور العلم ، وكل مطالب الحياة ، ولما كانت الدولة السنوية عاجزة تماما
عن التطور فإن العجز في هذه الأشياء يزداد مع زيادة السكان ، ويصبح
الأمر خطيرا للغاية .

وهنا يجيء السؤال المهم : هل هذا العجز موجود في الدول كلها ؟ أو
أنه في مصر فقط ؟

وإذا كانت الدول تغلبت على هذا العجز فلماذا لا تتعلم دولتنا
وهي تقول إنها تعيش في ثورة ؟ وإذا كان عندنا بطالة بسبب عدم
المشروعات التي تجتذب أيدي الشباب ، فإن بعض الدول تنشر الإعلانات
من يوم إلى يوم عارضة مئات الوظائف التي تبحث عن يشغلها (١) .
أيها القارئ الكريم

إن الحياة في ظل هذه الثورة حياة ركود وجمود ، ومن أجل أن نثبت
ذلك سأبرز لك كيف تطورت الحياة عند الآخرين :

في الهند :

وأبدأ مع دولة كثيرة التعداد يصل سكانها إلى حوالي ٨٠٠ مليون
نسمة ، وفي وصف تقدمتها نلجأ إلى كاتب من كتاب الصحف الحكومية هو
الأستاذ موسى صبرى ، ماذا يقول موسى صبرى عن الهند ؟ لقد كتب
مقالا بالأخبار بتاريخ ١٥/٣/١٩٨٣ عنوانه « دروس من الهند » .

(١) أحمد أبو الفتح : التحدى ص ٩٩ .

وأسلوب المقال مفكك ومضطرب ، ولكنه يوضح التطور الهائل في الهند ، وفيما يلي كلماته بعد إعادة ترتيبها :

لقد زرت الهند في عام ١٩٦٨ وأمضيت في مختلف ولاياتها قرابة الشهر ، وزرتها أخيرا سنة ١٩٨٣ بمناسبة مؤتمر عدم الانحياز ، وقد شاهدت تطورا هائلا في كل مجال كالآتي:

في مجال الزراعة :

في الزيارة الأولى كانوا فخورين بأنهم حققوا الاكتفاء الذاتي في القمح والحبوب ، بخطه أثمرت نتائجها في أربع سنوات ، وفي الزيارة الثانية قالت لنا انديرا غاندي ، إنهم بدأوا يخططون إلى الأرض الجافة كما بدأوا في زراعة الأرز .

في مجال الصناعة :

في الزيارة الأولى تفقدت كثيرا من مصانع القطاع العام وكانت الشكوى هي نفس الشكوى عندنا من عدم فاعلية الإدارة في القطاع العام ، ورأيت مشروعات تصنيع صغيرة في القطاع الخاص ، تشجع عليها الدولة وتمدها بالخبرة ، وتساعدتها في توفير الأرض وإقامة المصانع بالقروض الميسرة .. وكانت التجربة لا تزال في أولى سنوات عمرها ... وفي الزيارة الأخيرة رأيت أن كل ما في الهند ، هو صناعة وطنية ، سواء من القطاع العام أو القطاع الخاص الكبير والصغير ، ورأيت المتاجر تبيع المنتجات اليدوية ومنتجات الصناعات الصغيرة ، ومنتجات البيئة الهندية بالعملات الصعبة ، ولم ألق أحدا أو أي واحد في أية بقعة رأيناها أثرا لصناعة مستوردة ... كل شيء من قاع الهند ، كل شيء مصنوع بأيدي هندية وخبرة هندية ، وكان من الصعب أن نرى سيارة مستوردة !!!

في مجال الذرة :

في الزيارة الأولى زرت مدينة الذرة • كانوا فخوريين ، بأن جميع علماء الذرة من الهنود ودون سن الأربعين ... مدينة هائلة ، وعلم هائل ، وانتماء هائل إلى الكرامة الوطنية ، وقبل الزيارة الثانية ، فجرت الهند القنبلة الذرية وكسبوا حربا عسكرية صعبة ... وفي الزيارة الثانية شاهدنا التقدم الرائع في التطبيق التكنولوجي في شتى وسائل الإنتاج إلى درجات مذهلة •

هذا مثال من الهند وتطورها الهائل بقلم كاتب حكومي ، ولننتقل إلى مثال آخر :

في سلطنة عمان :

في سلطنة عمان وهي أيضا من بلدان العالم الثالث كان هناك مصريون من أصدقائي يعملون لبضع سنوات في مسقط وعادوا ، ثم دعيت لزيارة مسقط مدة أسبوعين بعد عودة هؤلاء الأصدقاء بسنوات قليلة ، فقال لي هؤلاء الأصدقاء : احترس من العقارب التي تنتشر في مسقط ، وتدخل أحيانا عبر جهاز التكييف ، وذهبت وأنا على حذر ، وأمضيت الفترة التي ذهبت لها ، ولما عدت صرخت في أصدقائي هؤلاء : كنتم تحذرونني من العقارب ، فما رأيكم أنني لم أجد ذبابة واحدة أو ناهوسة واحدة ، لقد اكتسح التطور كل خطر ، وأصبحت مسقط من أرقى البلاد وأنظفها •

وأشهد الله أنه في إحدى الليالي وأنا بمسقط هبت على العاصمة عاصفة من العواصف الخطرة التي يعرفها سكان هذه المناطق ، دمرت بعض المنازل وخلعت الأشجار وطارت بها بعض المسافات ، ودفعت الطيور للاصطدام بالمباني أو الأشجار فماتت الطيور من هول الصدمات ، وثار البحر فأغرق الطرق إنه شيء أشبه بيوم القيامة ، كما وصفه القرآن الكريم ، وهبت العاصفة ، وإذا بكائنات الناس تقريبا وعلى رأسهم السلطان والأمراء يباشرون إصلاح الأحوال

ورفع الأشجار من الطرق ، وإزالة الأتربة والعمل على سلامة الناس في أقصر وقت ممكن لم يزد عن يوم واحد وعادت الحياة إلى طبيعتها •

في إندونيسيا :

وهناك مثال آخر من دول العالم الثالث هو إندونيسيا وقد كنت فيها إبان العهد الأخير لسوكارنو وقد انهارت العملة الإندونيسية إلى أحط وضع كالحال بالنسبة للجنيه المصرى واختفت البضائع من المحلات ، وزرتها من سنتين فرأيت الرخاء والتقدم والتطور ، ورأيت العملة الإندونيسية وهى تنافس الدولار ، فيقدم الإنسان للبنك روبيات إندونيسية ويأخذ بديلا لها دولارات فى الحال ، على نمط ما إذا قدم دولارات ليأخذ روبيات ، دون فرق فى الحاليتين •

موجابى فى زيمبابوى :

وأعلن موجابى زعيم زيمبابوى الدولة الإفريقية حديثة الاستقلال أن الإنتاج الزراعى ببلاده تضاعف عشر مرات خلال ست سنوات •

والمملكة العربية السعودية أصبحت تنتج غذاءها وتقدم عوناً للمحتاجين من أمثالنا ، ويعلم الله أننى مسنى الضر والحسرة عندما رأيت اسم مصر بين الدول الفقيرة التى ستوزع عليها لحوم الهدى من السعودية •

ألا تخجلوا أيها السادة من أبطال ثورتنا التى تسمونها ثورة مجيدة ، أما سنغافورة وفرموزا وكوريا فعالم آخر الآن ، فهناك مليارات من الدولارات المدخرة عند هذه الدول •

ويلاحظ القارئ أننى لم أتحدث عن اليابان أو ألمانيا أو غيرها من دول الغرب ، ولكنى تحدثت عن دول من العالم الثالث وجَدْتُ طريقها للرخاء ، وكلما تحدثت عنها أحسست بالأم لأن ثورتنا وقفت بالبلاد دون

تطور ، بل ارتدّت بها القهقري عدة أجيال ، ومع هذا يفخرون بهذه الثورة •

صيحة الإنتاج قاصرة :

وفي مصر نسمع صيحة تتكرر دائما هي الدعوة للإنتاج ، ولم يَضَعْ المسئولون عناصر النجاح لهذه الدعوة ، وإنما تَتَلَقَّى جزافا ، فالمتخرج في كلية التجارة مثلا يستطيع أن ينتج إذا وجد وظيفة في بنك ، والمتخرج في كلية دار العلوم يستطيع أن ينتج إذا وجد مدرسة يعلم بها ، والمتخرج من كلية الطب يستطيع أن ينجح إذا وجد مؤسسة طبية يعمل بها ، وهكذا • أما أن ندعو للإنتاج دون تدبير الوسيلة للعمل فإن هذه دعوة لا نتائج لها •

والجيش في مصر وفي غير مصر يتلقى الشباب من القرية ومن المدينة ، بعضهم مثقف وبعضهم لا ثقافة له ، ويهيئ الجيش لهم التدريب الكافي ، والرعاية ، والأسلحة اللازمة ، والتوجيه السليم ، ويستطيع هؤلاء أن يحققوا النصر بعد ذلك ، كما حدث في مصر ضد الصهاينة ، وكما حدث في العراق ضد إيران •

أما أن ندعو لتعمير الصحراء مثلا دون دراسة ، ودون معدات ورعاية ، فإن هذه الدعوة ستضيع في مهب الريح ، ومثل هذا أن ندعو لرقى الصناعة دون تدريب ودون أجهزة ودون ضماير تخاف الله •

محاكمة الثوار :

في مقدمة هذا الكتاب أشرنا إلى المقالات التي نشرها الأستاذ خالد محمد خالد في صحيفة الوفد بمناسبة مرور ٣٦ عاما على « الثورة » وكان عنوان هذه المقالات « محاكمة ثورة » وانتقدت ما جاء بهذه المقالات مما عدّها الكاتب إنجازات لها •

والآن بعد هذه الدراسة التي أَلَمَّت بحياة ناصر وعامر وركبهما وما فعلوه بمصر والمصريين ، فإننا نقول : ألا يجب أن يحاكم هؤلاء الثوار ؟

إننى أدعو إلى محاكمة عادلة أمام أعظم القضاة ، ويتقدم الباحثون بالمادة العلمية الموثقة عما أحدثه هؤلاء الثوار من خلل واضطراب وسرقات وتقصير ببلادنا ، ويقول القضاة كلمة الحق ، وعلينا أن نحترم كلمة القضاة ، فإذا كانت الكلمة خيرا مجدنا هذه الثورة واحتفلنا بذكرها وأقمنا التماثيل لزعمائها ، وإن كانت ثورة مدمرة عانى منها الإنسان والوطن طمسنا ذكرها وأزلنا التماثيل التى شيدت فى عصور القهر لزعيمها •

وعلى كل حال فإن القضاء قال كلمته فيما عرض عليه من قضايا ، وقد سجلنا كلمة القضاء فيما سبق ، ولكننا نريد محاكمة الثورة بصفة عامة • ومن الظلم أن نظل هكذا مختلفين حول قضية رئيسية من قضايا بلادنا ، وأكد وأكد أن هذه المحاكمة ستتم يوما ما على نحو المحاكمات المتعددة التى تمت عن عدوان كمشيش بعد عشر سنوات من وقوع العدوان ، ومن الخير أن نعجل بهذه المحاكمة حتى لا تظل الأجيال تعيش فى قلق واختلاف •

الثوار والاستمتاع بالمرأة

فى الحق إننى لا أريد أن أطيل الحديث عن هذا الجانب البشع من حياة بعض الثوار ، وإنما أشير له إشارة سريعة ، وقد طالعنا فى مطلع هذه الدراسة موقف الصاغ صلاح سالم من الأميرة فايزة ، وهناك روائح كريهة ترتبط بالمشير ومحظياته ومحظيات رجاله فى دمشق اقتبسناها من الدكتور حسين مؤنس وأوردناها فيما سبق ، وهناك حفلات الرقص والموسيقى والخمر والنساء التى تحدث عنها باروخ بادل الجاسوس اليهودى الذى تقمص شخصية ضابط تركى مسلم ووصف حياة الثوار وبخاصة ليلة الخامس من يونيو سنة ١٩٦٧ •

أما الفضائح التى ارتبطت بصلاح نصر ورفاقه التى نشرتها اعتماد خورشيد تلك الزوجة التى أرغها صلاح نصر على أن تتزوج منه دون طلاقها من زوجها الأول فهى فضائح جاوزت الحد •

هذه جوانب معتمدة وقائمة في حياة بعض الثوار كانت من أسباب ما عانيناه من هزائم واضطرابات سياسية واقتصادية *

قبل أن نطوى عهد عبد الناصر :

بقى قبل أن نطوى عهد عبد الناصر ، وقبل أن نتحدث عن عصر السادات أن نذكر قضيتين مهمتين هما :

- ١ — قصة عز الدين عبد القادر حفيد أحمد عرابي *
- ٢ — ختام عهد كما يصوره الدكتور عبد الحميد سلطان ، وفيما يلي خلاصة هذين الموضوعين :

قصة حفيد أحمد عرابي :

هذه القصة نشرتها الصحيفة الحكومية (الأخبار) وكتبها الأستاذ ابراهيم يونس وخلاصتها إن عز الدين حفيد أحمد عرابي ضاقت به الحياة في مصر في مطلع الثورة مثل كثير من الشباب ، فهاجر إلى المغرب ، وهناك وجد صنوفا من التكريم بسبب انتمائه للزعيم أحمد عرابي ، فاستطاع أن يكمل دراسته وأن يحصل على درجة الدكتوراه ، وبالتالي أسندت له وظيفة مرموقة ، وتحسنت حالته إلى مدى بعيد *

وبدأت سلبيات عبد الناصر تشيع وتنتشر ، ويبدو أن عز الدين تكلم ناقدا ككل شباب مصر في الداخل والخارج ، فاتجهت جهود صلاح نصر لإحضاره لمصر ، وقد رويانا في الجزء التاسع من هذه الموسوعة أن بعض رجال المخابرات ذهبوا إلى إيطاليا ، حيث استطاعوا أن يخذلوا مصريا تلفظ بعبارات نقد لزعيم مصر ، ووضع رجال المخابرات هذا الرجل في صندوق كأنه بضاعة تشحن في طرد إلى مصر ، وكانت فضيحة لأن أثر المخذل زال قبل وصول الصندوق لمصر

ومع عز الدين اتجهت المخابرات إلى طريقة أيسر ، إذ أرسلوا له برقية رسمية عاجلة نصها : احضر على أول طائرة لأنك مرشح وزيراً للشباب ، ومع البرقية تذكرة طائرة بالدرجة الأولى إلى مصر *

ووقع الشاب في الفخ وصدق هذه الأكذوبة ، وأجرى له أصدقاؤه حفلات وداع ، وحزم حقائبه وحضر ، واستقبله الزبانية في المطار ، ودفعوا به من سلم الطائرة إلى عربة حملته للجحيم ، وبعد عدة وجبات من الضرب ، تقدم لمحاكمة صورية قضت بالحكم عليه بالسجن المؤبد ، ولم يخرج من السجن إلا في عصر السادات بعد أن دمّره التعذيب ولم يلبث أن مات شاكيا إلى الله ما عانى من هذا العهد الأسود .

ختمام عهد :

يقول الدكتور عبد الحميد سلطان في مقال نشره بصحيفة الوفد .
اننا لو أردنا تقييم عهد عبد الناصر تقييما موضوعيا لقلنا : انه عندما جاء إلى الحكم عام ١٩٥٢ كان الانجليز يقيمون في قاعدة القنّاة وكنا ندينهم بمبلغ ٥٠٠ مليون جنيه استرليني ، وعندما رحل بعد ١٨ عاما من الحكم المطلق كانت مصر قد أصبحت قاعدة روسية بها ١٧ ألف جندي روسي ، وكانت سيناء والقدس وغزة والضفة الغربية والجولان قد أصبحت تحت الاحتلال الاسرائيلي ، كما كانت قناة السويس مغلقة ومدنها وقراها مهجورة ومهطمة ، وسمعتنا جيشا وشعبا في الحضيض وديوننا الخارجية قد أصبحت فوق الاحتمال .

هذا من الناحية الاقتصادية والعسكرية اما من الناحية الاجتماعية فكانت هذه السنوات سنوات قهر وإذلال ومرارة .

وبعد

ذلك هو التراث الذي تلقاه السادات ، وقد واجه السادات فنّجح في بعض جوانبه كالحرب والإطلاق الحريات إلى حد ما ، وفشل أحيانا كالمسيرة التي سارها أخوه عصمت على نسق ما سار آل عبد الناصر
وسنرى الرجل وهو ييسر ، ويخطو للأمام أحيانا ويتعثر أحيانا ، وسنقدم دراستنا بأقصى ما يمكن من حيّدة .
والله المستعان

خطوات السادات الأولى في الرياسة

عندما نبدأ حديثنا عن مسيرة مصر في عهد السادات نجد أن أحداث هذا العصر تنقسم قسمين :

١ — قسم يرتبط بسنة من سنوات حكم السادات كالقضاء على مراكز القوى سنة ١٩٧١ والحرب ضد إسرائيل سنة ١٩٧٣

٢ — قسم لا يرتبط بسنة من سنوات هذا الحكم ، بل هو طبيعة في السادات امتدت بصورة أو بأخرى من عام إلى عام وذلك كالديكتاتورية والمترف ، أو هو مشكلة امتدت عبر عدة أعوام كالديون والثورات .

ومن أجل هذا سنتجه في هذه الدراسة إلى البدء بالأحداث التي ترتبط بالسنوات فنذكرها من عام إلى عام أشبه بنظام الحوليات ، مع ملاحظة المنهج الذى اتبعته في الجزء التاسع من هذه الموسوعة ^(١) وهذا المنهج يقرر أن نتتبع الأحداث بتسلسلها التاريخي ، ولكننا عندما نبدأ الحديث عن حدث امتدت أطرافه إلى عام آخر أو أعوام أخرى بعد العام الذى بدأ فيه ، فإننا نظلّ معه حتى ننتهي من عرضه ؛ فحرب أكتوبر مثلا بدأت سنة ١٩٧٣ ولكن مشكلاتها امتدت إلى سنة ١٩٧٤ حيث تم فك الاشتباك الأول ، ثم إلى سنة ١٩٧٥ حيث تم فك الاشتباك الثانى . . . وفى هذه الحال وما شابهها سنظل مع الحدث حتى نهايته .

وبعد الانتهاء من الأحداث المرتبطة بالسنوات ، نعود للحديث عن القضايا الأخرى التي ترتبط بعهد السادات دون أن تكون حدثا من أحداث عام بذاته .

ولنبدا الدراسة تبعا لهذا المنهج :

(١) انظر ذلك المنهج في ج ٩ ص ٢٣٨ .

حوليات عصر السادات

أخبار سنة ١٩٧٠

تولّى أنور السادات رئاسة مصر في منتصف أكتوبر سنة ١٩٧٠ بعد الاستفتاء ومعنى هذا أن الفترة التي كانت باقية من سنة ١٩٧٠ فترة قصيرة •

ولكن أنور السادات اعتاد طيلة مدة رئاسته ان يعدّد مفاخره من عام إلى عام ، فيذكر إنجازاته في كل عام من أعوام رئاسته ولم يَنْسَ عام ١٩٧٠ وهو يعدّد هذه المفاخر مع قصر المدة ، ونحن بحكم الحيدة لن نضنّ عليه بذكر مفاخره ، ولكننا سنعلق عليها أحيانا ، ونضيف ما لم تذكره هذه المفاخر من أحداث •

حلف اليمين الدستورية :

وأول شيء يرتبط بالسادات عقب إعلان نتيجة الاستفتاء أنه ذهب إلى مجلس الشعب الأداء اليمين الدستورية أمامه ، وفيه أقسم أن يؤدي عمله بأمانة وإخلاص ، وأن يرعى مصالح الوطن وسلامة أراضيه

أهمية الإيمان عند حالفها :

وعلى ذكر اليمين الدستورية نقرر أن المناصب العليا تحتم على من يُعيّن فيها أو ينتخب لها أن يبدأ عمله بحلف اليمين الدستورية ، فيقف الرئيس أو الوزير ومعه ورقة كتبت عليها كلمات القسم ، ويقرأها كذا يقرأ التأميد في كتاب المطالعة ، وأغلب الظن أن الكثيرين يقرءونها وهم يفكرون في شيء آخر ، فليست هذه القراءة إلا عملا روتينيا ، وقلّ جدا من اتبع الدستور ، ولم يزيّف الانتخابات ، وكثر جدا من يثّرون على حساب مصالح الشعب ، وهن يضلّون الرعية لتخفى عنهم الحقائق في أخطر الأهرور ، وفيهم من طغى وتجبر ، وأزهق الأرواح البريئة ، وامتدت عينه ويده إلى ما لا حقّ له فيه •

وعلى كل حال فقد ذهب أنور السادات إلى مجلس الشعب الذى صنف له طويلا قبل القسم وبعده ، والتصفيق شئ نَبَرَعُ فيه مجالسنا اكل رئيس يتقدم لها من قبل أن ترى منه أى خير .

السادات وبرنامج عبد الناصر :

وخطر ببال أنور السادات أن يفعل شيئا يخدع به معارضيه ، فأعلن أن برنامجه هو برنامج عبد الناصر ، وأنه سيسير على هُداة ونوره ، وأودع فى المجلس نسخة من بيان « ٣٠ مارس » الذى كان قد أصدره عبد الناصر واستفتى عليه الشعب سنة ١٩٦٨ ليكون دليلا على التبعية المطلقة للأفكار زعيم الهزائم .

هل كان لعبد الناصر فكر أنار لنا طريق الحياة ؟ وماذا استفدنا من « فلسفة الثورة » أو من « الميثاق » أو من « بيان ٣٠ مارس » ؟ الحقيقة أننا لم نستفد شيئا ، وأن الهزائم لا يعالجُ جراحها أمثالُ هذه الورقات الخداعة .

الانحناء أمام تمثال عبد الناصر :

ولم يقتنع أنور السادات بذلك الإعلان ، بل استدار إلى تمثال لعبد الناصر كان موضوعا على المنصة ، فأنحنى له انحناءة تقرب من الركوع ، وصرخنا فى البيوت من هذه الوثنية الأليمة .

وبعد القسم بدأ أنور السادات يباشر سلطاته الدستورية كرئيس للدولة ، والحق أنه لم يكن فى واقع الأمر حاكما وحده لمصر آنذاك ، بل كان هو وخصومه يتقاسمون السلطة والحكم ، فمن الواضح أن كلا الطرفين كان يتربص بصاحبه ، وكان أنور السادات يشرُ هذا التربص ، ويعدُ أنفاس خصومه ، ويفكر فى اختيار الزمان والمكان الذى يئنسب

أظافره في أعناقهم ، أما هؤلاء البلهاء فكانوا يتخذون من كثرتهم ومن تشعب السلطات التي يسيطرون عليها وسيلة للتغلب عليه ، وسنرى في أحداث سنة ١٩٧١ عملية الصراع وخطواتها ونتائجها •

وقد ظل الصمت على كل حال يغطي هواجس النفس ، وما يمكن أن يكون هناك من إعدادٍ لساعة المصدام •

الحراسات :

تقول قائمة مفاخر السادات إنه في عام ١٩٧٠ ألغى قوانين الحراسة ، أى أمر بتصفية هذا الكابوس المرير الذي فرضه عبد الناصر ، والذي كان سلاحا استعملي للإيقاع بالذين لا يعلنون ولاءهم للنظام ، وكان هذا الكابوس قاسيا ظالما يتجه للتعذيب والإجاعة ، وقد فرض ناصر وعامر الحراسات على العديد من الأسر ، وفرض السادات بعض الحراسات كذلك كما سنرى فيما بعد ، ولكن عصر السادات بدأ فعلا في تصفية الحراسات ، أما مسيرة التصفية فكانت بطيئة واصططدمت بعقبات كثيرة ، وفي حالات كثيرة جاءت التصفية بعد وفاة الذين فُرضت عليهم هذه الحراسات ، أو بعد هجرتهم من البلاد أو بعد وصولهم إلى أعمار وأمراض لا تجعلهم ينتفعون بهذه التصفية التي جاءت بعد فوات الآوان •

ولم يضع السادات قانونا لإلغاء تام للحراسة ، بل إنه عدل القانون الذي كان موجودا ، وبه تقتضى هذا التعديل أوقفت الحراسة كإجراء إدارى ، وأصبحت لا تتم إلا بحكم قضائى ، ولا تُفرض الحراسة على أحد قبل أن يُسمَعَ دفاعه عن نفسه حتى تطمئن قلوب الناس ، وقد عارض رجال عبد الناصر هذا التعديل زاعمين — سامحهم

الله — أنه يتضمن حمايةً للعناصر غير الاشتراكية ، وأنه مقدمة لتصفية الإجراءات الاشتراكية (١) .

كيف أطلقوا لفظ الاشتراكية على الاستيلاء على مال الغير دون محاكمة ؟ ودون أن يتسأل صاحب المال ؟ ودون تعويض ؟ إنها نظام العصر الأسود .

وفي سنة ١٩٧٠ كذلك ألغى السادات القرار الخاص بمنع المصريين من السفر للخارج .

(١) كمال خالد : رجال عبد الناصر والسادات ص ٢٦ .

أحداث سنة ١٩٧١

في سنة ١٩٧١ عرّفت مصر مجموعة من الأحداث التي تتصل
بالجبهة الداخلية ، ومجموعة أخرى من الأحداث المصرية ذات الاتصال
بالقوى الخارجية •

ثورة التصحيح :

في قمة الأحداث التي جرت هذا العام يقف ذلك الحدث الذي
سمى « ثورة التصحيح » ولذلك نجد « أخبار اليوم » الصادرة في
١٤/١١/١٩٨١ عندما عددت مفاخر السادات في سني حكمه تتحدث
بإفاضة عن « ثورة مايو » كحدث وحيد في سنة ١٩٧١ •

وتؤكد صحيفة أخبار اليوم أن هذه الثورة لم تكن منفصلة عن ثورة
يوليو ، وأنها امتداد لها ، وتصحيح "لسارها لحماية مبادئها في الحرية
والاشتراكية والوحدة ، وأنها تؤكد على الديمقراطية ، فالسيادة أصبحت
للشعب وحده وهو مصدر السلطات ، كما أن ثورة التصحيح تؤكد على
مبدأ الشرعية وسيادة القانون واحترام الحريات ونهاية المعتقلات•

وجماعة الثوار استطابوا كلمة « ثورة » فإذا كان عبد الناصر قد
استولى على ثورة يوليو ، وطرد زملاءه وسجنهم أو قتلهم ، فلماذا
لا يُحْدِث أنور السادات « ثورة » يتغنى بها كما تغنى سلفه بثورته ؟

أقول هذا لأن الذي حدث في مايو سنة ١٩٧١ لم يكن يستحق أن
يسمى ثورة على الإطلاق لقد انقضَّ أنور السادات بذكائه أولا ،
وبجيشه وشرطته ثانيا على مجموعة من الأفراد الذين وصفناهم من قبل
بأنهم بلهاء ، والذين كانوا موضع ازدراء الشعب واحتقاره ، وفي لحظة
من الزمن اختفى هؤلاء ، واعتقلوا ثم كَوَّنَ الحاكم الجديد محكمة
على نحو ما فعل سلفه مع أعدائه فقضت عليهم بالسجن عدة سنوات ،
فليس في المسألة ثورة ولا شبه ثورة •

وإن القول بأن السيادة أصبحت للشعب ، وأصبح الشعب مصدر السلطات ، وإن الديمقراطية شملت أرجاء مصر ، هو إلى الأساطير أقرب ، إنها أقوال قالها عبد الناصر ورددها من جاءوا بعده ، ولم تصبح الأمة في الحقيقة مصدر السلطات ، ولا أن الديمقراطية الحقيقية عرفت طريقها لمصر منذ بدأت هذه الثورة المشؤومة سنة ١٩٥٢ •

وينبغي أن نتذكر أنه في غيبة وعنى عبد الناصر السياسى ، وفي غفلته الاجتماعية ، تكوَّنت مراكز كثيرة للعبث بشئون الناس ، ومن هذه المراكز تلك القوة الجبارة التى كان يقودها رجل لا يثقيق هو عبد الحكيم عامر ، وكان معه مجموعة ضربت الرقم القياسى فى الانحلال والخيانة الوطنية ، ولم تسقط هذه المراكز إلا عندما سقطت البلاد فى هاوية الهزيمة سنة ١٩٦٧ ، وسرعان ما تكوَّن مركز آخر من بعض الشخصيات الذين كانوا إلى القش أقرب منهم إلى الصلابه هم على صبرى رئيس الوزراء وعضو اللجنة المركزية وشعراوى جمعة وزير الداخلية ومحمد فوزى وزير الحربية ومحمد فائق وزير الإعلام وسامى شرف وزير شئون رياسته الجمهوريه ومعهم أمين هريدى مدير المخابرات العامة ولم يكن هذا المركز فى مستوى المركز الذى أنشأه عبد الحكيم عامر ، فعامر كان يناوىء عبد الناصر وينافسه ويعتمد على الجيش ، أما هؤلاء فكانوا ذيو لا لناصر ويعيشون فى رحابه ، ولما سقطت تضعضت مكانتهم إذ لم تكن لهم قوة ذاتية •

وهكذا حدث الخلاف بين رئيس الدولة الجديد ، وبين هذه القوة المتداعية التى سقطت من كانوا يعتمدون ظهورهم عليه •

ولنعهد للمسألة من أولها :

كانت المؤسسات التى خلفها عبد الناصر وهى مجلس الوزراء ، والاتحاد الاشتراكى ، فاللجنة المركزية ، فاللجنة التنفيذية العليا ،

فمجلس الأمة ، كلها كانت واقعة تحت سلطة هذه الطغمة التي ذكرناها باعتبار هؤلاء كانوا لسان عبد الناصر ويده ، وكان ذلك في وقت لم يكن السادات شيئاً ، وكان السادات عقب الاستفتاء يتوق للتخلص من هذه المؤسسات لإعادة تكوينها على هواه ، وكان على صبرى في قمة الزعامة عند وفاة عبد الناصر وبالتالي كان شعراوى جمعة وسامى شرف ومحمد فوزى وفائق من رفاقه ، فلما جاء السادات ضرب هذا أول ضربة خفيفة له ، بأن جعل الدكتور محمود فوزى رئيساً للوزارة ، ونقل على صبرى ليصبح نائباً لرئيس الجمهورية ، وهو بهذا أضعف صلته بالوزراء إلى حد ما ، ولكن هؤلاء لم يسيروا بحقدهم وعصيانهم واستعانوا بالمؤسسات التي كانت تخضع تماماً لهم ، وفي ظاهر الأمر اتضح أن كفتهم راجحة حتى شاع في الأوساط العليا من أول الأمر أن السادات لن يستمر في الحكم أكثر من بضعة أسابيع •

مؤامرات وتفاهات مراكز القوى :

وبدأت مراكز القوى تنفذ مخططاتها في مهاجمة السادات كالآتي .
— وضعت كل التليفونات التي تتصل بالقصر الجمهورى تحت المراقبة ، ويقول محمد حسنين هيكل إن تليفونات القصر لم تكن مراقبة ، ولكن كل التليفونات التي يمكن أن تتصل بالقصر أو يتصل بها القصر وضعت تحت المراقبة للتعرف على تحركات القصر ، وبهذا وضعت تليفونات القصر تحت المراقبة بشكل غير مباشر •

— في اجتماع الاتحاد الاشتراكي أعلن الوزراء الذين تكلموا أن قيادة البلاد ضعيفة ، وأنهم لا يثقون في القيادة ، وأن سياسة مصر في الفترة الأخيرة كانت ضد كل ما كان عبد الناصر يمثله •

— تذكر السيدة جيهان السادات ^(١) أن إحدى جاراتها ذكرت لها أن ضباطاً من الشرطة عابثوا سطح منزلها بحجة حماية بيت السادات ،

(١) جيهان السادات : سيدة من مصر ص ٩٩٢ وما بعدها •

وأدركت جيهان السادات أن المقصود هو البحث عن أحسن الوسائل للهجوم والقبض على السادات ، إذ لم تكن هناك أوامر بالحراسة •

— في عيد العمال بطلوان في أول مايو أجلست مراكز القوى بعض الأتباع في الصفوف الأمامية ، وكان هؤلاء من حين الآخر يرفعون صور عبد الناصر ، وبخاصة عند تصفيق الجماهير لأي مقطع من مقاطع خطاب السادات (١) •

— اتصل الأستاذ محمد حسنين هيكل بالسيدة جيهان السادات وحذرها من أن يدخل زوجها مبنى التليفزيون ، وذكر لها أن هناك مؤامرة للقبض عليه هناك •

— وكان السادات ينوى أن يزور مديرية التحرير ، وأُشيع أن مؤامرة ستقضى عليه هناك ، وارتبط ذلك باسم فريد عبد الكريم رئيس الاتحاد الاشتراكي في الجيزة ، والذي روت السيدة جيهان السادات أنه قال لمحمد السعدنى تليفونيا : سنتخلص منه حينما يذهب إلى مشروع الاستصلاح بمديرية التحرير •

وهناك كتاب عنوانه « رجال عبد الناصر والسادات » كتبه محام هو الأستاذ كمال خالد ، والكتاب عبارة عن مرافعات المحامين في قضية مراكز القوى ، وليس به تنسيق الكتب وتخطيطها ، ومن الاطلاع عليه يمكن اقتباس بعض النقاط التي توضح التحركات ضد الرئيس السادات في ذلك الوقت •

— في اجتماع ضم الدكتور لبيب شقير رئيس مجلس الأمة

(١) محمد فوزى : استراتيجية المصالحة ص ٢١٥ وانظر « الحكومة الخفية في عهد عبد الناصر للأستاذ جمال حماد ص ١٤٤ وانقلاب ١٥ مايو للأستاذ عبد الله أمام ص ٢٧٦ » •

وعبد المحسن أبو النور الأمين العام للاتحاد الاشتراكي اتفق الاثنان على معارضة قانون الحراسة الجديد (١) .

— كان هناك مجموعة من الشباب يترددون على المقاهى ويهاجمون الرئيس السادات ، ويصفونه بأنه ديكتاتور ، وكان نشاطهم في دائرة قسم الدقى ، ويشيرون أنهم مكلفون بذلك من فريد عبد الكريم ، وهو بالتالى مكلف من شعراوى جمعة (٢) .

— إثارة إشاعات بأن السادات يحاول أن ينفرد بالسلطة ، ولا يستشير المؤسسات (٣) .

— ضبط بمنزل ضياء الدين داود مضبوطات ضد الرئيس السادات كان من أقذعها منشور عنوانه :

الصدق والكذب بين سادات اليوم وسادات الأمس

وهو منشور يحوى كثيرا من الاتهامات والعدوانية ضد أنور السادات .

— وطراً على الحياة السياسية طارئ يتطلع للوحدة بين مصر وسوريا وليبيا ، ولعل أحدا لم يكن متحمسا لهذه الوحدة تحمسا حقيقيا ، وآثار الانفصال لم تغب بعد عن عقول المصريين وعيونهم ، ولكن السادات تظاهر بالحماسة لهذه الوحدة لا عن اعتقاد ، ولكن ليثير زوبعة ، يهدد فيها هذه المؤسسات ويتخلص من أولئك الطامعين .

وتصدى على صبرى للهجوم بقسوة على اقتراح الوحدة في اجتماع اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي يوم ٢١ ابريل ، وقد أصدر السادات قراراً بفصله من كل وظائفه في ٢ مايو .

(١) كمال خالد : رجال عبد الناصر والسادات ص ٢٤ .

(٢) رجال عبد الناصر والسادات ص ٢٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٣ .

وكان على صبرى يتوقع ردّ فعل سريع من مجموعته لمقاومة فصله ، ولكن كل ما تافاه من هذه المجموعة هو : اهدأ^٢ ، لا تتعجل .. انتظر يومين ولذلك طلب على صبرى صهره محمد فائق وقال له : شعراوى وسامى يقدمان لى « البنج » *

واتجهت الجهود إلى الاستعانة بالجيش ، وقد عبر سعد زايد عن ذلك بقوله : لو كان معى كتيبة دبابات لعملت بها ...^(١) *

وكان التعليق على هذه الجملة بأن ذلك نوع من الهوس لسعد زايد الذى كان للأسف محافظا للقاهرة فى عهد ناصر ، ومن هذا النوع ما روى عن محمود رياض أنه قال « ما فيش ضابط جدع يعمل انقلاب ويخلصنا ؟ »

وانفلتت بعض أعصاب الذين كانوا يشغلون أرقى المناصب فى الدولة مما يدل على مدى تفكيرهم فمثلا ضياء الدين داود يقول : أنا جزءتى نفهم فى السياسة أكثر من أنور السادات ، وأنه يدعى أنه هو الذى صنعنى ، والحق أن الذى صنعنى هو عبد الناصر *

وليس لنا من تعليق على هذا القول إلا أن نقول : بنسبت الصنعة *

وبدأ الصدام يظهر بعد عزل على صبرى زعيم هذه المجموعة ، واتضح أن الفوز سيكون لمن يسانده الجيش والشرطة ، ولذلك اتجه أنور السادات لهاتين القوتين فى صمت ، فبدأ يقوِّى علاقته بالفريق « محمد صادق » رئيس أركان حرب القوات المسلحة وهو من عائلة كبيرة متدينة غنية بريفنا بمركز أبو حماد شرقية ، وقوِّى علاقته كذلك بالسيد « ممدوح سالم » وهو من رجال الشرطة المشهود لهم بالقوة والانضباط ، وكان يشغل منصب محافظ الإسكندرية ، وأعدّ الاثنين ليتولى الأول وزارة الحربية والثانى وزارة الداخلية *

(١) كمال خالد : المرجع السابق ص ١٧٠

واتجه السادات كذلك لتأمين نفسه بواسطة قوى هائلة هي الحرس الجمهورى ، وكان قائده هو اللواء « الليثى ناصف » وكان الليثى يدرك أن مهمته هي حماية الرئيس تماما ، ولكنه كان على علاقة طيبة بالشخصيات السابقة ، شخصيات مراكز القوى التى وضعت فى هذا المنصب وبخاصة سامى شرف كما اتجه السادات كذلك لتجنيد بعض الشخصيات العامة بحرص وفى الخفاء (١) .

ويقول سامى شرف فى بيان سلطاته على الحرس الجمهورى : « كنت أصدر أوامرى بالإشارة فأطاع » وظن سامى شرف أن نفوذه لا يزال باقيا فقال لشعراوى جمعة : الراجل أنور السادات اتجنن وباعت يجيب ممدوح سالم علشان يعينه وزير داخلية مكانك ، وأنا ناوى أقبض عليه وأجيبه لك فى قفص » ولكن شعراوى جمعة كان أكثر كياسة فحذره من أى تصرف من هذا اللون (٢) .

وكان الرئيس السادات يحس بمكان سامى شرف فى الحرس الجمهورى ، لذلك استدعى الليثى ناصف وسأله بحزم :

إذا طلبت منك اللقاء القبض على الوزراء فهل تنفذ الأمر ؟

فأجاب : نعم يا سيادة الرئيس فهذا واجبى ولن أتردد فى تنفيذه .

وسنرى فيما بعد أن الحرس الجمهورى قبض على هؤلاء الوزراء ، وحوكموا ولكننا نريد أن نقف وقفة من الليثى ناصف الذى نفذ حركة القبض على هؤلاء الأشخاص ، وتقول عنه السيدة جيهان السادات (٣) .

كان الليثى واقعا تحت ضغط عصبى ونفسى ، كان يتهزق بين واجبه

(١) الفريق أول محمد فوزى : استراتيجية المصالحة ص ٢١٦ .

(٢) كمال خالد : رجال عبد الناصر والسادات ص ١٠٨ .

(٣) سيدة من مضر ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

من جانب و صداقته لهؤلاء ولسامى شرف بوجه خاص من جانب آخر ، وقد
ملا الخوف قلبه ، وبعد أن انتهت هذه المشكلة أصابته حالة من الاكتئاب
العميق ، فأرسل إلى لندن للعلاج ، وهناك سقط من شرفة في الدور
الخامس ولقى حتفه • وتواصل جيهان كلامها قائلة :

واعتقد الجميع في مصر أنه انتحر لعدم استطاعته التوفيق بين
واجبه تجاه الرئيس وولائه لعبد الناصر ومريديه ، ولعل الأدوية التي
تناولها أضعفته أو أثرت عليه فقفز من الشرفة دون أن يدري • وقد
حزن عليه أنور السادات حزنا شديدا •

ولنعد لنواصل المسيرة مع هذه المجموعة من مراكز القوى فنذكر أنه
انكشف بعد ذلك شيء من مساوئهم وهو أشرطة « تصنت » على عدد
كبير من المواطنين في مقدمتهم أهل القمة لمعرفة أسرار حياتهم الخاصة
والعامة ، حتى يكون هؤلاء أسرى كلماتهم التي قالوها في سر ، فإذا هي
معلنة بواسطة هذه الأشرطة السوداء ، وعندما انكشف سر هذا التصنت
الدنيء استقال شعراوي جمعة من وزارة الداخلية يوم ١٢ مايو وتولى
مكانه ممدوح سالم •

ولم يبق لدى مراكز القوى إلا اللجوء للجيش وبخاصة أن معهم
« محمد فوزي » القائد العام للقوات المسلحة ووزير الحربية ، وكذلك
اللجوء للمؤسسات الجماهيرية التي كانوا يمسكون بمقاليد السلطة بها ،
واتخذوا طريقهم لذلك أن يتقدموا استقالات جماعية ، وأن يذيعوا هذه
الاستقالات قبل أن تصل إلى يد السادات إذ كان وزير الاعلام
« محمد فائق » واحدا من هؤلاء •

وذهب محمد فوزي ليلعب دوره في تحريك القوات المسلحة ، فدعا
قادة القوات المسلحة إلى اجتماع في مكتبه بوزارة الحربية ، وقال لهم :
إن رئيس الجمهورية يبيع البلد للأمريكان ، وكان يعرض بذلك للعرض

الذى تقدم به روجرز ، والذي سنتحدث عنه فيما بعد ، وتساءل محمد فوزى عن موقف القوات المسلحة من ذلك ، ولكن محمد صادق رد عليه ردا حاسما هو : أنت قدمت استقالتك ، ثم إنك تعرض علينا ما لا دخل لنا فيه ، فكل جهودنا متجهة لمهتنا الرئيسية ، ولا دخل لنا فى أمور السياسة ، ومن الأوفق لك أن تعود لبيتك لتستريح فإنه يبدو عليك أنك متعب •



الفريق أول محمد فوزى

ويتحدث الفريق محمد صادق عن أول اتصال له بالسادات فيقول :

رأيت من واجبى أن أتصل الأول مرة بالرئيس السادات ، فبلغته أن القوات المسلحة خارج الصراع ، وأنها لا تكن أى ولاء إلا للسلطة الشرعية ولحصر ، فطلب منى الحضور فورا لمنزله لأحلف اليمين كوزير للحربية ، فاعتذرت له بأنى لن أترك مكانى فى القيادة حتى أطمئن ، لأن الموقف لا يسمح بغير ذلك •

ويواصل الفريق محمد صادق كلامه فيقول : اتصلت بقيادة الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة وقادة الجيش ، ••••• وطلبت من الجميع

البقاء في أماكنهم وعدم إطاعة أى أمر من أى شخص إلا إذا كان صادرا منى شخصيا (١) .



الفريق أول محمد صادق

وعين محمد صادق وزيرا للحربية ، وقبل السادات استقالة المستقيلين وعين بدلهم بسرعة ، وعندما انتصر السادات في هذه الجولة اتجه له بالولاء الغالبية العظمى ممن كانوا بالأمس يقفون مع الوجوه الزائلة .

إنها السياسة الكاذبة لا تعرف الأصدقاء ولكنها تدين بالنفعية .

وأصبح السادات بذلك رئيسا بالفعل غير منازع ، وصار لامعا بعد أن كان باهتا ، وأُجريت محاكمة هؤلاء فحكم عليهم بعقوبات مختلفة ، ودفع بهم خلف جدران السجون كما فعلوا بالكثيرين من قبل .

(١) عبد الله امام : انقلاب ١٥ مايو ص ٣٠٤ .

وينبغي هنا أن نورد ما دونه أنور السادات عن أحداث مايو سنة ١٩٧١ يقول سيادته (١) .

— كان المفروض أن أذهب في يوم الخميس ١٣ مايو سنة ١٩٧١ إلى مديرية التحرير ، ولكنى علمت أنهم قد دبروا كميناً هناك لاغتيالى . فأجلت الرحلة معتذراً بأنى مُجْهَدٌ ++++++ وقررت أن أتخلص منهم ولكن كان لابد من بيئنة .

— منذ تاريخ توليتى فى ١٦ أكتوبر سنة ١٩٧٠ إلى ١١ مايو سنة ١٩٧١ ، كانت هناك أسباب كثيرة للتخلص منهم ولكن كانت تنقصنى البيئة إلى أن أتى يوم ١١ مايو سنة ١٩٧١ فجاءنى ضابط بوليس شاب لم تكن لى به سابق معرفة ++++++ وهو يحمل معه شريط تسجيل عليه مكالمة تليفونية بين اثنين من مراكز القوى يتضح فيها تأمرهم على وعلى الدولة .

ولم يذكر أنور السادات مَنْ هما هذان المتحدثان ، ولم يذكر كذلك محتويات هذا الشريط بشئ من التفصيل ، وترك الأمر هكذا مُبْهِماً ، ولكن الفريق الأول محمد فوزى يذكر بعض تفاصيل عن هذا الشريط ، ولسنا نعرف بالتأكيد مدى صحة ما يقوله محمد فوزى ، لأنه نشر كتابه بعد وفاة السادات ، وعلى كل حال فهو يقول ما يلى :

صباح يوم ١١ مايو ١٩٧١ اتفق ثلاثة من الضباط العاملين فى التسجيلات وهم العقيدان محمد معوض جاد المولى وحسن رشوان سليمان ورائد طه زكى على تبليغ الرئيس ما يحدث من تسجيلات عنه ، فذهب الأخير وسلم سكرتير الرئيس السادات شريطاً طلب منه أن يستمع الرئيس لمحتوياته ، وهذا الشريط كان عبارة عن تسجيل لمكالمات تليفونية بين

(١) البحث عن الذات ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(م ١٥ - التاريخ الاسلامى)



السادات ومحمد صادق
الصدّاقة عند الضرورة

فريد عبد الكريم أمين الاتحاد الاشتراكي بالجيزة ومحمود المسعدنى الكاتب الصحفى ، وكان الحديث يدور حول الموقف السياسى والأحداث الدائرة آنذاك ، وكذلك ما حدث فى اجتماعات اللجنة المركزية يوم ٢٥/٤/١٩٧١ بالذات ، بالإضافة إلى تناول شخصية الرئيس وحرمة عبارات وألفاظ خارجة نتيجة بعض تصرفات حدثت فعلا تتعلق بمحاولة الاستيلاء على أحد القصور بمنطقة الهرم ، واستمع الرئيس السادات إلى الشريط واستدعى الكاتب الصحفى محمد حسنين هيكل فحضر واستمع إليه كذلك (١) .

وذكر الرئيس السادات (٢) كذلك أن الإذاعة كانت محاصرة يوم جلسة اللجنة المركزية للاستفتاء على مشروع الوحدة ٠٠٠٠٠٠٠ حتى إذا ذهبت للإذاعة الأخطاب الشعب أحاصر هناك ويغتالوننى .

وعندما وصلنى هذا الدليل قلت يجب أن أضيفهم على الفور ، فلم يعد هناك شك فى تأمرهم على مصر ، وبدأت بإقالة وزير الداخلية المسئول عن التسجيلات وفى الساعة الحادية عشرة إلا ثلاث دقائق من مساء نفس اليوم ١٣ مايو سنة ١٩٧١ جناعنى أشرف مروان (وهو زوج كريمه عبد الناصر) وكان يعمل مديرا لمكتب سامى شرف ، وهو يحمل استقالات رئيس مجلس الأمة ووزير الحربية ووزير الإعلام ووزير شئون رئاسة الجمهورية وأعضاء من اللجنة التنفيذية وأعضاء من اللجنة المركزية العليا ٠٠٠٠٠ وكان المقصود بهذه الاستقالات أن يحدث انهيار دستورى فى البلد ، فقبلتها جميعا وأعلنتها على الشعب فى الحال ، وحددت إقامتهم فى بيوتهم ٠٠٠ وفى نفس الليلة أجريت تعديلا وزاريا وأعيد تشكيل الوزارة ولم يحدث أى انهيار دستورى مما كانوا يهلمون به ، بل على العكس خرج الناس إلى الشوارع وهم يهللون فرحين بما تم ،

(١) الفريق أول محمد فوزى : استراتيجية المصالحة ص ٢١٨ .

(٢) المرجع السابق .

وهكذا نخلصت مصر من كابوس مركز القوة الأساسي الذي شل حركة مصر سنوات طويلة

ولكن كان من الضروري أن نتخلص من آثار هذه المراكز الذي ظلت جائحة فوق الصدور سنة بعد سنة ، تعبت بأقدار الناس ، تزرع الخوف في صدر الإنسان المصري ، وتعطل العدالة ، وتثبيط الحقد ، وتذيق الناس من ألوان القهر والتعذيب مالا طاقة لهم به وتحرمهم من أهم مقومات الحياة وهي الحرية

فأمرت بحرق جميع شرائط التسجيل الموجودة في وزارة الداخلية ، والتي تشمل أسرار الناس ، وكان هذا زمرا لإعادة الحرية إلى المواطنين .

وأمرت على الفور بإغلاق جميع المعتقلات ، وتحريم الاعتقال ، وأعلنت أن لكل مواطن الحق في أن يفعل أو يقول أى شيء في ظل سيادة القانون .

تعليقات مهمة على « ثورة التصحيح » :

إن الباحث في موضوع ثورة التصحيح يحس أن هناك تعليقات مهمة حول هذا الحدث ، نوجزها فيما يلي :

١ - ثورة التصحيح تناولت أعداء السادات لا أعداء الشعب . فكثيرون من رجال ثورة ٢٣ يوليو كانوا متورطين في الكثير من الجرائم والانحرافات المنسوبة لعهد عبد الناصر ، مثل صلاح نصر وشمس بدران ، ولكن السادات لم يفتح ملفاتهم ولم يعلن للشعب انحرافاتهم . السادات هؤلاء لم يعلنوا سحقهم على السادات ، بل إن السادات تعاون مع مجرمي عهد عبد الناصر ، فقد سمح بخروج العقيد شمس بدران من مصر على الرغم من اتهامه في عشر جنایات من قضايا أمن الدولة ، وعلى الرغم من مسؤوليته كوزير دفاع وقت الهزيمة ^(١) ومما يروى عن هذا الرجل أنه

(١) دكتور ابراهيم اباطة : الخطايا العشر ص ٢٤ و ٢١٥ .

ذهب مرة لزيارة المعتقلين للاطمئنان على الشدة في معاملتهم ، ورأى ضرب الجنود لهم ، فلم يقنع بذلك ، وتناول « الكبراج » وأخذ يضرب الجنود بقسوة ، ويقول لهم هذا هو الضرب الذى نريده لهؤلاء .

وسنرى السادات فيما بعد يجمى صلاح نصر ، وعندما حكم عليه بالسجن أمر أن يكون سجنه فى المستشفى لمرضه ، ثم سرعان ما أصدر عفوا صحياً له .

٢ — أعداء السادات الذين قفلوا أفواههم فلم يقولوا كلمة ضده ، نجوا من عدوان السادات ، وظلوا على صمتهم وقنعوا بالفجأة من جانب وباستمرار مكاسبهم على حساب الشعب من جانب آخر ، وما أكثر هؤلاء .

٣ — لم تغير ثورة التصحيح شيئاً من الأوضاع ، ولا عدلت جوهر النظام ، فالاختيار الأول لأهل الثقة ، واليد العليا للحاكم وحده ، واليد السفلى لكل الشعب ، وليس هناك تغير فيما يتعلق بالقطاع العام ، أو فيما يتعلق بالشركات الحكومية الخاسرة (١) .

٤ — عقدة مراكز القوى جعلت السادات حريصاً على ألا يدع فرصة لإنسان نابِهٍ ليستمر فى عمله السياسى طويلاً خشية أن يصبح فى يوم ما مركز قوة ، ولعل هذا هو السر فى تخلصه من محمد صادق الذى لعب دوراً مهماً فى مواجهة محمد فوزى كما ذكرنا من قبل ، وبالتالي أبعد الجيش عن التورط فى السياسة كما أرادها محمد فوزى ، وتخلص السادات كذلك من الجمصى الذى حقق بقدراته ومواهبه مكاناً مرموقاً .

٥ — أورد الأستاذ محمد حسنين هيكل صورة زنكوغرافية لخطاب خطير من محمد فوزى وزير الحربية إلى محمد صادق رئيس أركان حرب

(١) دكتور ابراهيم دسوقي اباطة : الخطايا العشر ص ٣٢٤ .

القوات المسلحة ، وهو في هذا الخطاب يعطى أوامر للفريق صادق ليتحرك ببعض الجيش (١) .

ولم ينفذ الفريق صادق هذه الأوامر ، ثم إنه لم يعلن هذا الخطاب ويعتبر ذلك قمة الكياسة والسماحة ، ولو كان قد أعلنه في فترة المحاكمات كانت مسئولية محمد فوزى خطيرة لأنه أهر بالزج بالجيش في هذه الأمور السياسية لصالح الطفمة الفاسدة ، وذكر في هذا الخطاب ان مصدر الأوامر فوزى — شعراوى — سامى .

وقد تحرك الجيش مرة في يوليو سنة ١٩٥٢ فجلب لمصر كل صنوف الهزائم والظلم والفقر والقهر ، واعتقادي أن الجيش تعلم من هذه المساة ، فلن يقدم مرة أخرى على خوض هذا الطريق .

ويعلق المؤرخ العسكرى الكبير جمال حماد (٢) على موقف محمد صادق بقوله :

وقد كان للموقف الوطنى الحكيم الذى وقفه الفريق محمد صادق الفضل فى استقرار الأوضاع داخل تشكيلات الجيش ووحداته ، وعدم إتاحة الفرصة لأحد لإحداث أية فتنة أو بلبلة أو استغلال الفرصة للقيام بحركات مضادة للشرعية .

وكان من الأسباب التى لم تشجع محمد فوزى على محاولة تحريك الجيش لصالح جماعته ، ما ذكره أحمد كامل مدير المخابرات العامة لهذه الجماعة ، فقد قال لهم بصراحة : من تتبعى للرأى العام فى الجيش أقرر أنه يكره جماعتكم كراهة تحريم ، كما أن الفريق محمد فوزى مكروه جدا فى الجيش ، وأن الغرض من إنشاء قوات الأمن المركزى هو استخدامها ضد أى حركة فى الجيش (٣) .

(١) خريف الغضب ص ١١١ .

(٢) الحكومة الخفية فى عهد عبد الناصر ص ١٥٣ .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

٦ — يتحدث أنور السادات فيما اقتبسناه سابقا منه عن الشعب الذى خرج للشارع فى فرح وسرور بسبب القضاء على مراكز القوى ، وهذا الادعاء مبالغ فيه ، فقد بالغت الصحافة الحكومية فى عرض الأشرطة التى حُرقت بوزارة الداخلية ... وهذه الأشرطة تتصل بالكبار ولا تمس الشعب من قريب ولا بعيد ، ولكن البلهاء الذين رقصوا بمجلس الشعب يوم التاسع والعاشر من يونيو ، ودماء الآلاف من المصريين لا تزال تقطر فى سبيلهم ، هؤلاء البلهاء لا يُستبعد أن يرقصوا لأى حسنة يرضى الزعيم ، ولكن الشعب الحقيقى لم يعرف الفرحة منذ قامت هذه الثورة واتجهت بالعدوان على الحرمات والأموال والأعراض •

٧ — شكّلت محكمة سُميت « محكمة الثورة » لمحاكمة المتهمين وكان رئيسها حافظ بدوى وعضواها بدوى حمودة وحسن التهامى ومما يذكر عن مثل هذه المحاكم أن الحاكم الفعلى فيها هو الخصم ، ومما قضاة هذا الحاكم إلا الصوت المعبر عن صوته ، فقانون محكمة الثورة رقم ٤٨ لسنة ١٩٦٧ يقضى بعرض الحكم قبل النطق به على رئيس الجمهورية الذى خُوِّلَ له القانون إجراء تعديل على الحكم سواء بالإلغاء أو التخفيف أو التشديد ، ولا تنطق المحكمة بالحكم النهائى إلا بعد إجراء ما يراه الرئيس من تعديل فيه ، ثم يصدّق عليه •

وكان المتهمون فى القضية ٩١ متهما ، اتهم بعضهم بالخيانة العظمى ، واتهم آخرون بتهمة مختلفة ، وطلب المدعى الاشتراكى عقوبة الإعدام على بعضهم وعقوبات بالسجن على الآخرين •

واتهم على صبرى باستغلال النفوذ ، وأنه حصل على رشوة فوققف على صبرى فى القفص يقول :

يتهمنى المدعى الاشتراكى باستغلال النفوذ ، وأنى حصلت على رشوة من مقالول إحدى شركات القطاع العام التى بَنَتْ لى الفيللا التى أقيم بها ، وأنى لم أسدد إلا مبلغاً ضئيلاً لا يتناسب مع تكاليف البناء الفعلية ، والمقالول المقصود هو عثمان أحمد عثمان ، والشركة المعنية هى شركة « المقالولون العرب » والقانون يعاقب الراشى والمرتشى ، وإذا كنت أنا المرتشى فقد كان على المدعى الاشتراكى أن يقبض على عثمان أحمد عثمان ويضعه معنا فى القفص لأنه دافع الرشوة .

ثم إن الفيللا التى بَنِيَتْ لى هى واحدة من ثلاث فيلات أُقيمت فى وقت واحد ، وفى موقع واحد ، وبمنهج واحد ، وبسعر واحد ، فأين ملك الفيلتين الأخيرتين ، ولماذا لا يكون معنا فى القفص أشرف مروان ، وحاتم صادق زوجا ابنتى جمال عبد الناصر اللذان يسكنان فى الفيلتين مع زوجتيهما (١) .

وقد حكمت هذه المحكمة بالإعدام على أربعة من المتهمين هم على صبرى وشعراوى جمعة وسامى شرف وفريد عبد الكريم ، وحكمت على الباقيين بالسجن لمدة متفاوتة ، ولكن رئيس الجمهورية أمر بتخفيف حكم الإعدام فجعله الأشغال الشاقة المؤبدة ، كما أمر بتخفيف الحكم على بعض المحكوم عليهم بالسجن ، فقلل مدة السجن .

صورة هؤلاء الحكام :

وجاء فى حكم المحكمة « براءة على صبرى من تهمة استغلال نفوذه للحصول على فوائد وميزات ذاتية له والأسرته » (٢) .

وكانت هذه البراءة نتيجة طبيعية لدفاع على صبرى عن نفسه ،

(١) رجال عبد الناصر والسادات ص ١١٧ و ١١٨ .

(٢) كمال خالد : رجال عبد الناصر والسادات ص ٢٦٠ .

ذلك الدفاع الذى جرّ إلى المسئولية أولاد عبد الناصر الذين يهلكون فيلات تهاثل فيلا على صبرى ، ودفعوا ثمنها يماثل الثمن الذى دفعه ، كما جرّ إلى المسئولية عثمان أحمد عثمان الذى دفع الرشوة ، فيبدو أن توجيهها صدر بالتفاهى عن هذه الانحرافات التى كان التمسك بها خطيرا على بعض ذوى النفوذ •

ومما يذكر أن هذه المحاكمة شملت عددا كبيرا كان أكثرهم من رجال السياسة أو رجال الإعلام •

صور لزعماء عصر عبد الناصر :

وهنا نقدم صورة لبعض الشخصيات الهزيلة التى كانت لامعة فى عصر عبد الناصر ، ثم كشفت الأيام عن طبيعتها ، فإذا بهم ينهارون ويتبادلون التهم ، وذلك قمة الصغار :

— مثلا الفريق أول محمد فوزى نائب رئيس الوزراء ووزير الحربية شهد ضد شعراوى جمعة نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية • وقال إن شعراوى سأله عما إذا كان يمكنه استخدام الجيش فى عمل انقلاب ، وإنه (أعنى الفريق فوزى) رد على استفسار شعراوى بأنه « حاششوف »^(١) وأنه « حاششوف » •

أما على صبرى (نائب رئيس الجمهورية) فقد اعترف على عبد المحسن أبو النور الأمين العام للاتحاد الاشتراكى العربى بأنه هو الذى دفعه إلى الهجوم على الرئيس السادات خاصة فى اجتماع ٢٥ ابريل ، وقال إن الرئيس ناوى يشيلك • « خش عليه جامد »^(١) •

وشهد أكثر من متهم ضد على صبرى • بأنه كان غاضبا لأن الرئيس السادات لم يكن يستشير فى أى موضوع •

(١) دكتور مصطفى أبو زيد فهمى : مجلة أكتوبر (١٠/٣٠ / ١٩٨٨) •

وشهد أحمد كامل رئيس المخابرات آنذاك أن شعراوى جمعه قال :

« نخلى الجيش يعمل عملية (انقلاب) ونشكل مجلس رئاسة برئاسة الفريق محمد فوزى • لكن أحمد كامل قال له — ولهم — إن الجيش يكره الفريق فوزى وأنه لا يمكنه إطلاقا أن يسير خلف فوزى ليكون رئيسا للدولة •

وعلى كل حال فقد كانوا جميعا مرحبين ومتقربين ومتلهفين إلى أن يجرى محمد فوزى لينهى الموضوع بانقلاب عسكري • وتبلغ الלהفة والترقب من جانب على صبرى أنه يسأل أكثر من مرة وبإلحاح : فوزى أخبره إيه ؟ وطبعا هو هنا لا يستفسر عن صحة الفريق فوزى !

ومرة أخرى — أو فى حوار آخر مسجل بين على صبرى وسامى شرف — يقول على صبرى : « هذا التدبير يحتم موضوع فوزى » • أى تدخل فوزى •

ونجى الآن إلى حسين الشافعى الذى قال عنه شعراوى جمعة فى المحاكمة إنه احتل أحد القصور الملكية « قصر الطاهرة » وصمم على أن يقيم فيه ، وقد تمكن شعراوى جمعة بأسلوب هادئ أن يقنعه عن العدول عن هذا الموقف (١) •

والشخصية التالية التى نريد أن نرسم لها صورة هى شخصية سامى شرف الذى كان معه نفوذ غير محدود ، وكان معه خاتم رئيس الجمهورية ، ومفاتيح خزانته ، وكان يمثل الصلة بين الوزراء وبين الرئيس جمال عبد الناصر •

(١) رجال عبد الناصر والسادات ص ٢٣٧ •

وقد ثبت أن سامى شرف قال قبل تحديد إقامته إن السادات ثعبان أزرق ، وفيه كل الخسة والمكر والنذالة والغدر (١) .

هذا الإنسان لم يكن فقط خائناً للسادات ، بل إنه كان خائناً للجميع ، فقد ثبت أنه أمر أحمد كاهل رئيس المخابرات أن يسجل محادثات كبار المسؤولين التى هوكموا بها ، وكان ذلك برأيه أو برأى سيده ناصر .

هذا الإنسان عندما صدرت قرارات بتحديد إقامته ومحاكمته انهار انهياراً كاملاً ، ولم تكن فيه قدرة الرجال لمواجهة هذه الأحوال الجديدة ، وبكى وولول ، وكتب رسالتين للنائب العام يلقي فيهما بالمسؤولية على زملائه ، ثم عاد بعد ذلك يسحب كلامه ويقرر أن الخطابين اللذين كتبتهما للنائب العام حدثا وهو في ظروف نفسية وصحية سيئة ، وأنه كتبهما وهو بدون وعى ، ولم يكن يعنيه إلا النجاة بحياته (٢) وإن كان فى ذلك ما يؤدى بمن كانوا رفاقا له (٣) .

وهكذا حاول هذا الإنسان أن يستنكر ما جاء على لسانه بهذين الخطابين ، إذ أحس أنه اساء إساءة بالغة لمن كانوا بالأهس زملاءه .

وكان من وسائل انهياره وصفار نفسه أنه توجه بالتماس إلى الرئيس السادات يقول فيه : إنك الوالد ، ويستحلفه بروح حبيبه جمال عبد الناصر !! وبحياة بنته «نانا» « ابنه السادات » يا له من صغر .

ويذكر الأستاذ جمال حماد أن أدلة قوية تؤكد أن سامى شرف كان مجنونا لحساب المخابرات الروسية ، وأن اسمه الحركى كان « الأسد » ويطالبه بدفع هذا الاتهام عن نفسه إذا استطاع بدلا من السكوت الذى

(١) المرجع السابق ص ١٠٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٧٢ .

استغرق عشر سنوات ، ويقرر أن هذه نهضة شائعة وبخاصة أنه كان شديد القرب من عبد الناصر ، ويهدده بمحاكمة التاريخ التي تذلل الجبابرة والطغاة (١) .

ولا شك أن هذه الصورة ترينا مكانة الذين حكمونا في يوم من الأيام .
والصورة التالية التي نقدمها هي صورة ضياء الدين داود الذي صرح — كما ذكرنا من قبل — أن جزمته تعرف في السياسة أكثر من أنور السادات ، ولكنه عندما جدّ الجِد ، تهاوى وسقط وراح يستعطف ، ومن صور استعطافه ذلك الخطاب المخجل الذي كتبه للمهندس سيد مرعى ، وكان هذا نائباً لرئيس الوزراء آنذاك .

وهو في مطلع خطابه الطويل يصفى أرق الصفات على سيد مرعى ، ثم ينتقرب للسادات بأن يدعى أنه لا يرتبط بعلى صبرى بشيء ولا يتأثر له برأى .

ويحتذر عن كلامه في اللجنة التنفيذية بما أغضب السادات ويقول :
إنى أعترف أنى اندفعت في الكلام وكان الأفضل ألا أتكلم .

ويقرر استعداداه بأن ينسحب من الحياة السياسية تماماً ، ثم يشير إلى حياته في السجن وأنه أمضى به شهراً في أسوأ ظروف صحية ونفسية وعصبية .

ويذكر أنه كتب للرئيس السادات من السجن كتابين يلتمس فيهما عفوه ورضاه ، ويتقرب إليه .

ثم يختم خطابه بأن يستحلف سيد مرعى بالله بأن يساعدته في

(١) الحكومة الخفية في عهد عبد الناصر ص ٦٠ و ٦٩ و ٨٢ .

محنته ، وأن يندكر أن والدته تعاني خلال الشهور الثلاثة الماضية من الأمراض والحرمان وتحتاج للمواساة (١) .

هؤلاء — أيها القارئ الكريم — هم الذين حكمونا خلال فترة الظلام وهم غير جديرين على الإطلاق بالمكانة التي شغلوها .

الإفراج بعد عشر سنوات :

في ١٣ مايو سنة ١٩٨١ قرر أنور السادات الإفراج عن بقى من المحكوم عليهم بالسجون في مؤامرة مايو سنة ١٩٧١ ، وكان الكثيرون قد امضوا العقوبة وخرجوا ، وبقي بالسجن على صبرى وسامى شرف وفريد عبد الكريم وشعراوى جمعة الذين كان قد حكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة ، فاكتفى السادات بعشر سنوات .

ولم يحس الناس بفراغ عندما سجن هؤلاء ، ولا فرح الناس عندما تم الإفراج عنهم ، لقد كانوا في نظر الجماهير كما مهملا ، عاشوا في السلطة لتحقيق أهدافهم ، ولا يذكروا لهم أية مفعرة وطنية أو موقف يستحق الثناء .

عام الحسم :

عُرف عام ١٩٧١ بأنه عام الحسم ، وكان عبد الناصر قد توفي في ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠ وأعلنت مصر الحداد مدة أربعين يوما تنتهى في ٥ نوفمبر سنة ١٩٧٠ وكان هذا داعيا لموافقة مصر على مد فترة وقف إطلاق النار مع إسرائيل مدة ثلاثة شهور أخرى تنتهى في ٥ فبراير سنة ١٩٧١ وأعلن أنور السادات أنه بعد ذلك لابد من تسوية الموضوع فالعام (١٩٧١) هو عام الحسم .

(١) رجال عبد الناصر والسادات ص ١٨١ — ١٨٢ .

ويبدو أن أنور السادات اتخذ هذا الأسلوب للتنويه على أعدائه « مراكز القوى » حتى يظنوا أنه مشغول عنهم ، فينقضوا عليه وهو في دائرة هذا الانشغال بالترامات عام الحسم •

ثم طرأ على الساحة الدولية في ديسمبر هذا العام ما سبب تأجيل عام الحسم ، فقد نشبت الحرب بين الهند وباكستان ، على إثر التدخل الهندي المسلح عبر حدود باكستان الشرقية (بنجالاديش الآن) لفض النزاع فيها لإعادة ملايين اللاجئين لها إلى بنجالاديش ، وكان الاتحاد السوفيتي يؤيد الهند ، وأيدت الولايات المتحدة باكستان ، وكان النصر للهند والأسلحة الاتحاد السوفيتي ، ورأى الاتحاد السوفيتي أن هزيمة الولايات المتحدة في هذه المعركة لا تحتل هزيمة أخرى في الشرق الأوسط ، فأجّل توريد الأسلحة اللازمة لمصر لتحقيق الحسم عام ١٩٧١ ، وهكذا تأجل الحسم الذي كان أملاً للمصريين ذلك العام •

فكرة « عام الحسم » لها نتائج خطيرة :

عندما لم يتحقق ما وعد به السادات في « عام الحسم » اتخذ الناصريون واليساريون هذه الفرصة ففجّروا مظاهرات ضد السادات في الجامعة وفي المجتمعات الأخرى ، وفي مقابل ذلك قدّم مستشارو السادات له النصيح ليسمح لنشاط الجماعات الدينية بالظهور ، فهؤلاء هم الذين يستطيعون مقاومة الاتجاهات اليسارية والناصرية ، ووافق السادات على ذلك ، وظهرت عبارة « الرئيس المؤمن » وقُدّمت مساعدات لهذه الجماعات الدينية ، فظهرت هذه الجماعات وأصبح الزمام في يدها بالجامعات والمجتمعات وسيطرت على اتحادات الطلبة وفازت في الانتخابات فوزاً كاملاً •

ونسى السادات أن الجماعات الدينية لا يمكن أن تعمل لحسابه ، فسرعان ما اصطدمت به وبنظامه فظهرت الأحداث الخطيرة التي سنلّم بها في مكانها •

محاولات لحلول سلمية :

كانت موافقة مصر على مد فترة وقف النار مع إسرائيل تنتهى في ٥ فبراير كما ذكرنا آنفا ، وقبيل حلول هذا التاريخ كانت الجهود تبذل لحلول سلمية حتى لا تستأنف الدولتان إطلاق النيران ، والجهود السلمية تركزت في الآتى :

١ — في ٤ فبراير أعلن أنور السادات بمجلس الشعب استعداده لمدّ وقف إطلاق النار مدة شهر آخر يتم خلاله انسحاب جزئى للقوات الإسرائيلية من سيناء ، وتبدأ مصر عقب ذلك تطهير قناة السويس وإعادة فتحها للملاحة •

٢ — وفي ٨ فبراير تقدم الدكتور يارنج ممثل الأمم المتحدة بمشروع يقضى بإعلان إسرائيل أنها تنسحب إلى حدود ١٩٦٧ على أن تتعهد مصر بتوقيع اتفاق سلام معها تضمن حرية الملاحة في قناة السويس ومضيق تيران مع ترتيبات خاصة لشرم الشيخ وقبلت مصر هذا الاقتراح ورفضته إسرائيل •

٣ — في ٤ ، ٥ مايو زار وليم روجرز وزير الخارجية الأمريكية مصر على الرغم من قطع العلاقات بين مصر والولايات المتحدة ، وكان الذى شجعه على هذه الزيارة الأمل في أن القيادة الجديدة ستختلف عن قيادة عبد الناصر ، ثم أن السادات كان قد أقال على صبرى من جميع وظائفه في ٢ مايو ، وعلى صبرى هو درع الاتحاد السوفيتى فمن الأفضل للولايات المتحدة أن تمّدد رجلها في ظل هذه الظروف وأعلن روجرز أن الدبلوماسية النشطة يمكنها أن تعدّل موقف إسرائيل وتدفعها لقبول المسالة ، وقدم اقتراحات تفيد اهتمام الولايات المتحدة بالتوصل إلى اتفاق مرحلى ومحاولة التوفيق بين تفسير مصر وتفسير إسرائيل للقرار

رقم ٢٤٢ واستعداد أمريكا للقيام بهذا الدور إذا طلبت مصر منها أن تقوم بدور الوسيط •

وأعلن روجرز أن إسرائيل توافق على دور أمريكي نشط كما أعلن أن الوجود العسكري السوفيتي في مصر عامل معوّق للإدارة الأمريكية •

٤ — في ٩ مايو جاء لمصر سيسكو مساعد وزير خارجية أمريكا يحمل وجهات نظر إسرائيل في الحل السلمي ، وهي وجهات نظر جائرة وخلاصتها : وقف دائم لإطلاق النار والاتفاق حول إعادة فتح قناة السويس بانسحاب جزئي لإسرائيل على ألا تعبر قوات مصرية إلى شرق القناة ، وأن يبقى في خط بارليف مهندسون مدنيون إسرائيليون (١) •

ورفضت مصر هذه المقترحات ، وأحست مصر أن أمريكا في يدها الحل ولكنها لا تريد استعماله ، وأن السوفييت غير متحمسين لمساعدة مصر ، ولكنهم الذين يؤمل منهم العون العسكري ، وإذا كانت أمريكا قد ألقت بثقلها مع إسرائيل فلا بد لمصر أن تخطب ود الاتحاد السوفيتي على الرغم من كل شيء ، وهذا الموقف هو الذي قاد لتوقيع معاهدة صداقة وتعاون بين مصر والاتحاد السوفيتي ، وسنتحدث عنها فيما يلي :

معاهدة صداقة وتعاون مع السوفيت :

ذكرنا آنفا أن السوفييت هم الذين كان يترجى منهم العون العسكري لمصر لتحرير أرضها ، وأن إلقاء أمريكا بكل ثقلها مع إسرائيل دفع السادات لمحاولة الاعتماد على السوفيت ويضاف إلى ذلك أن أنور السادات بعد أن أقال على صبرى في ٢ مايو وقبض على مراكز القوى في ١٥ مايو أراد أن يتقرب من موسكو حتى لا يظن زعماء

(١) محمد حافظ اسماعيل : أمن مصر القومي ص ١٧٣ - ١٧٧ •

السوفيت أن القضاء على تلك العناصر سيؤثر على علاقة الاتحاد السوفيتي بمصر ، وأراد أنور السادات كذلك أن يبرهن للسوفيت أن حضور روجرز وسييسكو للقاهرة لن يؤثر على علاقته بموسكو .

وأقبل السوفيت على هذه المعاهدة ليبرهنوا على عدم تمسكهم برجال مايو ، وأن علاقتهم الحقيقية إنما هي بالقيادة المصرية ، ووقع الطرفان معاهدة صداقة في ٢٧/٥/١٩٧١ .

وقد نصت هذه المعاهدة ^(١) على قيام صداقة راسخة بين البلدين والشعبين ، وعلى بذل الجهود للتوصل إلى سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط ، ودعت إلى التشاور بين البلدين في الأمور التي تهمهما ، وإلى تنسيق موافقتهما للتصدي لأي تهديد للسلام أو خرق له ، كما نصت على تطوير التعاون في المجال العسكري بهدف تعزيز قدرات مصر الدفاعية وتمكينها من إزالة آثار العدوان .

دهشة الأمريكيان لهذه المعاهدة :

ويذكر الأستاذ هيكل أن الأمريكيين دهشوا لهذه المعاهدة وتساءلوا : لماذا تخلّص السادات من أصدقاء السوفيت مما صورّه لهم بأنه منجّج لليمين ، ثم إذا هو فجأة يأخذ زاوية حادة في الاتجاه اليسار ويعقد مع الاتحاد السوفيتي ؟ وإن عبد الناصر الذي كان مكروها لدى الأمريكيان لم يتقدّم على هذه الخطوة ^(٢) .

وغضب العرب أو أكثرهم لهذه المعاهدة ، وخافوا أن تكون مصر متجهة لليسار ، ولكن السادات دافع عن وجهة نظره بأن الأمريكيان ماضون في سياستهم التي تؤيد إسرائيل إلى أقصى حد ، فكان لزاما عليه أن يتجه للسوفيت ليحصل على ما يحتاج إليه من سلاح .

(١) هذا الإيجاز من مطالعة نصوص المعاهدة المذكورة .

(٢) خريف الغضب ص ١١٨ .

وحضر الملك فيصل إلى مصر وكان دائما يؤكد أن المعاهدة تصرف
ظاهري للضرورة ، ولكن النوايا الحقيقية للسادات بعيدة عن الولاء
للسوفييت •

وبرهنت الأيام على أن السادات لم يكن في نفسه ولاء حقيقى
للسوفييت ، فسرعان ما طرد الخبراء الروس من مصر ، ثم ألغى هذه
المعاهدة كما سنرى ، وبخاصة عندما اتضح له أن زمام الأمر كله
في يد أمريكا ، فهي التي تستطيع أن تأمر إسرائيل بما ينبغي أن يكون ،
وإذا رفضت إسرائيل مطلباً أمريكياً فهو من قبيل الدلال وليس من قبيل
العناد والمواجهة •

توتر مع السوفييت بسبب السودان :

لم تمض فترة طويلة على توقيع هذه المعاهدة حتى ظهرت في الأفق
سحابة "كثيفة" ، ففي يوليو من هذا العام (١٩٧١) شهدت السودان
أحداثاً خطيرة ، ففي العاشر من هذا الشهر نجح اليسار السوداني
في السيطرة على مقاليد الأمور بالسودان وإلقاء القبض على الرئيس
نميرى •

ويقول محمد حافظ إسماعيل^(١) : إن الرئيس السادات عارض
الانقلاب السوداني بشدة ، وأعلن رفضه قيام حكم شيوعى على حدود
مصر الجنوبية ، وأكد تأييده لنميرى ، وخلال يومين أو ثلاثة فشل
الانقلاب في تحقيق أهدافه ، واستعادت القوات المؤيدة للنميرى بمساعدة
مصر سيطرتها على الموقف وقامت بالإفراج عن الرئيس •

وقد ترتب على هذه الأحداث توتر في العلاقات السوفيتية
بالسودان وبمصر ، فقطعت العلاقات بين السودان والاتحاد السوفيتى ،

(١) أمن مصر القومى ص ١٨٢ •

وبالنسبة لمصر أجّل السوفييت الوفاء بما وعدوا به في المعاهدة من تقديم الأسلحة والذخائر •

وهكذا لم يحدث هناك تطور في موقف مصر من إسرائيل فلا التدخل الأمريكي أجدى ، ولا الوعود السوفيتية تحققت ، ولعل الخلافات الداخلية بين السادات ومراكز القوى سببت هذا التراخي حتى يتضح من سيمسك بالزمّام •

إعادة تشكيل الاتحاد الاشتراكي :

عقب انتصار السادات على أعدائه ، جرت انتخابات لتشكيل جديد للاتحاد الاشتراكي ، فالتشكيل القديم تمّ في عهد عبد الناصر وكان ولاؤه له ولزبانيته ، وأجريت الانتخابات من القاعدة ، ولكنها لم تصل إلى القمة ، فبعد انتخابات اللجنة المركزية أعلن السادات تأجيل انتخاب اللجنة التنفيذية العليا بحجة حاجة أعضاء اللجنة المركزية إلى التعارف قبل أن يخطّوا لانتخاب اللجنة التنفيذية العليا •

وكان هذا يتيح للسادات أن يحكم دون منافس ، ودون الرجوع إلى أحد أو دون أن يستمد سلطاته من أي فرد أو من أية لجنة •

دستور السادات : عرض ونقد :

كان من أهم الأعمال التي أصدرها أنور السادات سنة ١٩٧١ ، إعلان دستور جمهورية مصر العربية ، وقد حرّمت مصر من الدساتير من مطلع الثورة حتى هذا التاريخ ، فعلى مدى عشرين عاما تقريبا كانت مصر تحكم بدون قوانين وبدون دساتير ، ثم جاء هذا الدستور الذي أعلنه أنور السادات ، وبمطالعة هذا الدستور نجده في كثير من مواده استمرارا لاتجاهات الثورة ، ويقول رجال القانون وبخاصة رجال المعارضة إن هذا الدستور كان تعبيرا دقيقا عن اتجاهات السادات التي تعنى دكتاتورية

مغلقة بغلاف رقيق دقيق من الديمقراطية لا يتعارض مع اتجاهاته المطلقة ، فالدستور بذلك كائن خداع ، وسنعيش معه في هذه السطور نعرضه وننقده .

في مطلع الدستور مقدمة جميلة تذكر أن هذا الدستور تعلنه جماهير الشعب ، فكأنما كان الدستور نابعا من عقول الشعب ومعبرا عن آماله ، وذلك ليس بصحيح .

وفي هذه المقدمة حديث عن التطوير المستمر للحياة في وطننا .

والملاحظ أن الحياة في وطننا توقفت مع مطلع الثورة ، وبدأ الثائر الأعظم عبد الناصر يعمل لصالحه هو ، وسارت حاشيته ومن جاء بعده في هذا النطاق .

وتتحدث المقدمة عن الحرية للإنسان المصري وذلك هدف لم نصل لتحقيقه حتى الآن .

ثم تجيء مواد الدستور فتقرر المادة الأولى أن جمهورية مصر العربية دولة نظامها ديمقراطي واشتراكي .

وقد ذكرنا في دراستنا السابقة أن مصر لم تعرف الديمقراطية منذ مطلع الثورة حتى الآن ، وأن الانتخابات تزييف كما يريد الحاكم ، ثم أين هو النظام الاشتراكي مع السرقات التي وصلت ببعض الناس إلى درجة المليونيرات أو أكثر من ذلك .

وتقرر المادة الثالثة أن السيادة للشعب وحده .

ويعلم الله أن السيادة لولى الأمر ، وليس للشعب فيها نصيب يذكر .

وتتحدث المادة الخامسة عن الاتحاد الاشتراكي العربي وقد عدلت هذه المادة فيما بعد ، فقد ألغى هذا الاتحاد المشنوم بعد أن ترك فيضاً من الآلام في نفوس الشعب ، ولكن النظام الجديد الذي حل محل الاتحاد

لا يزال يحتفظ بنسبة الخمسين في المائة على الأقل للعمال والفلاحين في أى تنظيم سياسى *

ونرى أن العمال والفلاحين يمثلون عنصرا مهما في حياة مصر ، ولكن عزلهم عن باقى الشعب أمر مرفوض تماما ، فأغلب المثقفين والتجار ينتهون إلى أسر العمال والفلاحين ، وعزل الطبيب عن أبيه العامل أو الفلاح شئ يرفضه الطبيب والعامل والفلاح جميعا •

ومن الواضح أن هذا التقسيم لم يأت بأية ثمرة للعمال والفلاح ، والثمرة الوحيدة التى جاء بها هى أن يوضع فى قوائم المرشحين ، وفى المجالس النيابية جماعة يصفقون للحاكم ، فهو أئى بهم الى هذه اللجان ، وهم يأتون به لمنصب الرئاسة بكل اليسر ، وبشكل يبدو فى المظاهر ديمقراطيا •

والمادة رقم ١٩ تقرر أن التربية الدينية أساسية فى مناهج التعليم العام •

ومن الملاحظ أن التربية الدينية تفتقد نصيبها فى هذا التعليم ، ولا توجه لها عناية تذكر فى المدرسة أو فى الجامعة أو فى وسائل الإعلام •

والمادة العشرون تقرر مجانية التعليم فى جميع مراحله •

وقد تحدثنا من قبل عن أن هذه المادة خلقت جيوشا من العاطلين ، فقد فُتِحَت المجانية بلا حدود لغير الموهوبين ، ثم إلى الذين استطاعوا أن يتسربوا إلى التعليم من غير كفاءة ، ومع الرسوب والنجاح والرسوب والنجاح حصلوا على شهادة بدون علم ، ووقفوا فى صفوف العاطلين ، هذا بالإضافة إلى المصروفات التى تدفع فى المدارس الخاصة والتى وصلت إلى أرقام الآلاف ، وكذلك بالإضافة إلى الدروس الخصوصية التى تتحل كاهل كل الآباء •

والمادة رقم ٣٠ تتحدث عن القطاع العام وتصفه بأنه يقود التقدم في جميع المجالات •

وقد أثبتت التجارب أنه حافل بالخسائر والسرقات ، ولكن هذا الدستور يحميه كما حمته القوانين الثورية منذ مطلع الثورة ، ومع أن أشهر الدول الرأسمالية والاشتراكية أخذت تتخلص من القطاع العام ، فإن مصر تستبقه ليكون وسيلة لإسعاد المحاسيب والأصهار ، ومنحهم أرقى المناصب فيه •

وتتحدث المادة رقم ٧٤ عن الاستفتاءات والانتخابات •

ومن الواضح أن هذه وتلك تتم حسب إرادة الحاكم ، وتستعمل فيها نظام « التسعات » مبالغة في الأمر ، أما الشعب فإنه في الحقيقة بمعزل عن هذه الاستفتاءات وتلك الانتخابات •

وينتقد علماء الفقه الدستوري هذه المادة لأنها تطلق لرئيس الجمهورية السلطات الاستثنائية وفي قمته إعلان حالة الطوارئ عندما يرى الرئيس أن هناك تهديدات للأمن الدولة أو السلام الاجتماعي ، وبذلك تقيم هذه المادة نوعاً من الديكتاتورية يعلنها الرئيس وقتما يشاء ، وليس عليه إلا أن يجري استفتاء على ما اتخذته من إجراءات خلال سنتين يوماً من اتخاذها لها •

ومن الواضح أن نتائج الاستفتاءات مضمونة لديه ليحقق ما يشاء •

وتقرر المادة رقم ٧٧ أن مدة الرئاسة ست سنوات ثم يجوز إعادة انتخاب رئيس الجمهورية لمدة تالية وملتصقة ليكون مجموع سني حكمه اثني عشر عاماً •

ولكن إيعازات عالية المستوى دفعت إحدى عضوات مجلس الشعب

لتقترح أن تكون مدة الرئاسة مفتوحة وألا تنقيد بنص هذه المادة ، واستجاب المجلس بالإجماع لهذا الاقتراح بسرعة ، وأصبح رئيس الجمهورية يبقى في مكانه إلى أن يموت بعد عمر طويل ، وقد أُجرى استفتاء لذلك التعديل في ٢١ مارس سنة ١٩٨٠ .

وعندما جاء حسنى مبارك إلى الرئاسة أعلن وجوب العودة للنص الأصلي بالدستور والاكتفاء بهدّتين .

ولكن سرعان ما تنوى هذا الإعلان ، ولم تتخذ أية إجراءات لتنفيذه ، والعودة للنظام الذى كان قد قرره دستور ١٩٧١ قبل تعديله سنة ١٩٨٠ .

وطريقة اختيار رئيس الجمهورية بواسطة الاستفتاء طريقة صورية تسيّر على وفق هوى الرئيس ، فالشعب لا يشترك في اختياره ، ولا يجد أمامه إلا هو في بطاقة الاستفتاء .

والوضع الطبيعي أن يكون اختيار الرئيس بالانتخاب ، وأن يكون لدى الجماهير عدة أشخاص مرشحين ويختار الشعب أحدهم ، وذلك هو النهج المتبع في الدول الديمقراطية وحتى الصغيرة منها مثل قبرص وإسرائيل .

ومع أن الرئيس في مصر يُختار بهذا الطريق الأعرج وهو الاستفتاء ، فإن الدستور يخوله سلطات هائلة كحل مجلس الشعب ، ويعطيه سلطات تنفيذية وتشريعية بل وقضائية ، مما يركز على السلطات في يده ، وليس هناك ما يقابل ذلك من إمكان مساءلته ، وذلك شيء عجيب ولا يوجد في النظم الديمقراطية على الإطلاق .

وهن السلطات الممنوحة لرئيس الجمهورية طبقا لهذا الدستور اختيار رئيس الوزراء .

والمادة رقم ٧٩ تشمل قسماً يبدأ به رئيس الجمهورية عمله ، كما يؤديه كذلك الوزراء وأعضاء مجلس الشعب ، وخلصته أن يحترم الدستور والقوانين ، وأن يرعى مصالح الشعب رعاية كاملة ، ونحن نتهنى أن يتذكر هؤلاء هذا القسم طيلة حياتهم ، وألا يكون كلمات في ورقة يقرؤونها ثم يهملونها كما يهملون الورقة نفسها •

وتتحدث المادة رقم ٩١ عن المكافأة التي تصرف لأعضاء مجلس الشعب •

والحق أنه للأسف أصبحت عضوية مجلس الشعب وظيفة سخية الربح لها مكافأة شهرية ، ومكافأة أخرى لحضور الجلسات ، ومكافأة ثلاثة لحضور اللجان بالإضافة إلى ما نشاهده بأعيننا في التلفزيون وما نسمع عنه من ملاحقة الأعضاء للوزراء للحصول على توقيعاتهم لينهروا بكثير من المكاسب المادية والأدبية •

والمادة ٩٣ تنص على اختصاص مجلس الشعب وحده بالفصل في صحة عضوية أعضائه ، وذلك انتقاص من حقوق القضاء •

والمادة ١١٥ لا تجيز لمجلس الشعب أن يعدل مشروع الموازنة العامة للدولة إلا بموافقة الحكومة •

وتقرر المادة ١٣٩ أن لرئيس الجمهورية أن يعين نائباً له أو أكثر ويحدد اختصاصاتهم ويعفيهم من مناصبهم ، وقد أثبتت التجارب أن نائب الرئيس هو الذى يكون رئيساً بعده ، وهى عملية تسلسل تزيد عما كان معروفاً في نظام الملكية •

الطالبة بتعديل هذا الدستور :

وفي ختام هذه الدراسة السريعة انتفق مع رجال القانون بضرورة تعديل سريع لهذا الدستور بحيث يصبح ما أشرنا إليه من أخطاء ، ثم

يشمل التصحيحُ النقاطَ التالية التي أُدخلت وأُقيمت على هذا الدستور فجعلته غير صالح البقاء ، ولذلك نطالب بما يلي :

— إلغاء النظم الشاذة التي احتواها هذا الدستور وفي مقدمتها نظام المدعى الاشتراكي وما يتبع ذلك من إقامة محكمة التقييم .

— عدم السماح بإنشاء محاكم غير قضائية لوجود أعضاء بها ليسوا من رجال القضاء المتخصصين وبالتالي عدم السماح بإنشاء محاكم أمن الدولة والمحاكم العسكرية للمدنيين .

— يجب أن يشمل الدستور الحرية المطلقة لتكوين الأحزاب وإصدار الصحف ، وبالتالي إلغاء المجلس الأعلى للصحافة والاكتفاء بنقابة الصحفيين .

— وسائل الإعلام المسموعة والمرئية تكون قومية حقيقية ولا تتبع في نهجها وأدائها أي حزب من الأحزاب .

— ينبغي أن تحدد طريقة مساءلة الوزير ، فهو في هذا الدستور بمنأى عن المساءلة الجنائية طالما بقى في دست الوزارة .

— إلغاء بدعة الخمسين في المائة المخصصة للعمال والفلاحين ، تلك التي لا ينتفع بها العمال والفلاحون ، وإنما هي وسيلة لوضع جماعة من الناس في المجالس لا عمل لهم إلا التصفيق للرئيس وللقرارات التي يريدونها .

— يكون هناك نص صريح بأن تجرى الانتخابات هيئة محايدة تماما من القضاة أو من أساتذة الجامعات ، وأن من يزيّف الانتخابات يواجه محاكمة قاسية .

— يكون هناك انتخاب للرئيس وليس استفتاء فيرشح لهذا المنصب عدد من ذوى الكفاءات ، ويختار الشعب واحدا منهم •

— وفى القمة من الإصلاحات وجوب العودة للنص الذى كان موجودا بالدستور حول إعادة انتخاب رئيس الجمهورية بحيث لا يعاد انتخابه أكثر من مرة ، وعلى أن تكون مدة كل مرة أربع سنوات كما هو متبع فى أمريكا التى نتغنى باتجاهاتها إلا فى هذه النقطة •

تلك ملاحظات سريعة على دستور سنة ١٩٧١ وهو فى جملته يحتاج لتغيير سريع ، فهو فى الحق كان معبراً عن رأى أنور السادات أكثر من تعبيره عن رأى جماهير الشعب •

أخبار سنة ١٩٧٢

إن الدارس للأحداث عصر أنور السادات يجد أن أحداث سنة ١٩٧٢ تمثل فترة انتقال بين أحداث سنة ١٩٧١ التي تخلص فيها أنور السادات من منافسيه وأعدائه ، وبين الحدث الأكبر سنة ١٩٧٣ وهو الحرب ضد إسرائيل ، ومن هنا فإننا لا نتوقع في هذا العام كثيراً من الأحداث بعد أن استقر الزعيم في كرسيه ، وأخذ يرسى قواعده ويعد العدة للجولة العسكرية ، وفيما يلي نذكر أهم أحداث هذا العام •

طرد الخبراء السوفييت :

أشرنا من قبل إلى أن وزير الحربية الفريق أول محمد صادق كان بعيداً عن الشيوعية بسبب تدينه ونشأته وثرائه ، وقد كتب في أوائل يناير سنة ١٩٧٢ تقريراً خطيراً عن القوات المسلحة أبرز فيه الجفوة بين القيادة العسكرية والخبراء السوفييت ، وأنهم المسئولون عن عدم إعداد القوات المسلحة المصرية لمعركة هجومية •

وتزايد الإحساس بأن الخبراء السوفييت كانوا ينفذون رغبة زعماء الاتحاد السوفيتي بتجميد الأوضاع بين مصر وإسرائيل ، وأن تستمر حالة اللاسلم والملاحرب أو بلغة أخرى أن يظل الاسترخاء بالمنطقة • وكانت أحداث السودان مؤثرة على العلاقة بين مصر والسوفييت مما قلل الثقة في هؤلاء الخبراء الروس •

وكان هؤلاء الخبراء يمثلون قوة هائلة في مصر فكانت لهم مناطق لا يسمحون للمصريين بالدخول فيها مما خلق جانباً من الرعب منهم •

ثم إن مصر كانت تصر على الدخول في معركة مع إسرائيل وكان أنور السادات يحس بأن النجاح في هذه المعركة سيُنسب لا لمصر ، وإنما لهؤلاء الخبراء ، وهذا سيكون شيئاً يقلل من مكانة مصر ، فمصر تريد أن تزاوِل معركتها بنفسها ، وهي تحس بالقدرة على ذلك ، ولا تحتاج الأشخاص ، وإنما الأسلحة كتلك التي تتدفق على إسرائيل من أمريكا •

ثم ما العمل إذا قامت المعركة مع وجود هؤلاء الخبراء ، ثم صدرت لهم أوامر من الاتحاد السوفيتي بالتوقف عن المشاركة في المعركة ؟ إن ذلك يضع زمام المعركة في أيدي السوفييت وهو أمر محفوف بالمخاطر .

وتنفيذا لسياسة الوفاق التي كان الاتحاد السوفيتي قد اتفق عليها مع أمريكا وتقتضي بإبقاء الأمر على ما هو عليه في الشرق الأوسط ، تسلم أنور السادات رسالة من الاتحاد السوفيتي بعبدة عن اللياقة تذكر أنه ليس من الضروري المطالبة بمزيد من الأسلحة لمصر لأن فرص التغلّب على إسرائيل عسكريا غير محتملة ، وهذا أثار أنور السادات وأحس بتخلي الجانب السوفيتي عنه .

وساءت العلاقات بين ضباط الجيش المصري وبين هؤلاء الخبراء حتى وصلت إلى درجة الكراهية ، بل إلى درجة الإحساس بأن هؤلاء الخبراء ينقلون أخبار الجيش المصري وتحركاته إلى إسرائيل ، مما سبّب بعض الخسائر في حرب الاستنزاف ، ومما دعا إلى عدم الاطمان إلى نهاية طيبة لو قامت حرب بين مصر وإسرائيل .

والحق أن هذا العدد الهائل من الخبراء السوفييت كان يدعو للذعر ، فالمفروض أن الخبراء يأتون للاستفادة منهم فيما لا يعرفه الخبراء المصريون ، وأن يكون عددهم لذلك في حدود العشرات أو المئات أما أن يصل عددهم إلى ١٧ ألفا ، فذلك شيء يدعو إلى الذعر .

ولكل هذه الأسباب أعلن أنور السادات في يوليو سنة ١٩٧٢ أنه مع شكره للاتحاد السوفيتي على ما قدم من مساعدات عسكرية يريد إنهاء خدمات الخبراء اعتبارا من ١٧ يوليو سنة ١٩٧٢ ، ولا يبقى إلا الفنيون ، على أن يوضع هؤلاء تحت القيادة المصرية إلى أن يتم تدريب المصريين على المعدات أو أن تسحب هذه المعدات نفسها .

واستجاب الاتحاد السوفيتي لهذا الطلب ، وقرر سحب الخبراء

استجابة لطلب مصر ، أما بالنسبة للأسلحة والمعدات المملوكة لهم بمصر فقد « أصروا » للأسف على سحبها مع الوحدات السوفيتية •

وانتهت بذلك أزمة من الأزمات الحادة بين مصر وبين الاتحاد السوفيتي •

عزل بعض الصحفيين والكتاب أو نقلهم :

كان المثقفون في مصر يتعجلون المعركة مع إسرائيل ، وكان كل يوم يمرش عليهم ، وإسرائيل رابضة في سيناء يمثل حملا ثقيلًا ، ولهذا كتب هؤلاء خطابا للرئيس السادات فيه نوع من الشدة جاء فيه :

لقد كثر الكلام عن المعركة دون معركة ، حتى صارت المعركة مضغة في حلقنا لا نستطيع أن نبتلعها ، ولا نستطيع أن نلفظها •

ووقع على هذه الرسالة أكثر من مائة كاتب وصحفي ، وثار السادات لذلك ، وتناول توفيق الحكيم الذي كان قد كتب هذا الخطاب بكلمات جارحة ، وامتدت يد السلطة بالبطش والعدوان على هؤلاء الكتاب والصحفيين ، ونقلتهم إلى مواقع بعيدة عن عملهم ، وكانت هذه صورة من صور الثورة عندما تغضب على المفكرين والباحثين •

إقالة الفريق محمد صادق :

ذكرنا من قبل أن أنور السادات كان حريصا على ألا تقوم مراكز قوى في عهده ، وكان معروفا أن الفريق محمد صادق هو الذي أجهد محاولة الزج بالجيش في السياسة من جديد ، ولم ينفذ تعليمات محمد فوزي وزير الحربية التي أشرنا لها من قبل ، وكان السادات يخاف مثل هذا الرجل •

هذا جانب ، وجانب آخر أن الفريق محمد صادق كان معروفا

بعدها للشيوعية ، وأنه المسئول عن طرد الخبراء السوفييت ، ولذلك توقف السوفييت عن توريد السلاح بعد طرد خبراءهم ، ويقال إنهم طالبوا بإعفاء محمد صادق من منصبه إذا أراد السادات أن يستأنف الروس توريد الأسلحة ، ويقال كذلك إن الفريق صادق كان يعارض خطة المغامرة بحرب محدودة أى بعملية تشبه عملية العبور ، ويؤيد حرباً شاملة ، وقد تجمعت هذه الأسباب فصدرت تعليمات بإقالة الفريق محمد صادق في أكتوبر سنة ١٩٧٢ وتولى أحمد إسماعيل وزارة الحربية •

أحداث سنة ١٩٧٣

(م ١٧ - التاريخ الاسلامى)

نبدأ حديثنا عن أحداث سنة ١٩٧٣ بأن نسأل : هل كانت هناك أحداث ذات بال في هذه السنة غير حرب التحرير ؟

وأكد أننا نؤكد أن أحداثا مهمة وقعت في هذا العام ، ولكن حديث الحرب طغى على كل الأحداث ، وربما واجهتني وثيقة عن عمل من الأعمال خلال هذا العام ، ولكن أحداث المعارك لم تدع فرصة ليظهر أى شيء حدث آخر ، وتضاءلت أو اختفت جميع الأحداث الأخرى ، فلنقتنع بأن هذا العام هو عام حرب التحرير .

ولا شك أن العام كله شغل بالإعداد لهذه الحرب ، ثم بمباشرتها ، ثم بالانشغال بنتائجها ، فحرب كهذه لا تدع نصيبا لأى حدث آخر .

وننتقل إلى نقطة أخرى هي أننا عرضنا فيما سبق صورة حياة السادات قبل الثورة ، وصورة لحياته من مطلع الثورة حتى صار رئيسا للجمهورية ، ثم بدأنا نتكلم عن أنور السادات رئيسا للجمهورية ، وفي هذا النطاق ذكرنا أن أنور السادات لم يأت من فراغ ، وإنما هو امتداد لعصر مؤسس هذه الثورة ، الذى خلف أكداسا وأحمالا من المتاعب ، فألمنا بها ، ثم جئنا إلى أنور السادات نقتبع تاريخه عاما إثر عام .

والمهم أن الدراسات الماضية كشفت الكثير من أوزار الثورة وأوزار أنور السادات نفسه ، وانتقدنا أنور السادات في ذلك وفي غيره انتقادا مباشرا وشديدا أحيانا .

ولكننا الآن أمام صفحة رائعة خلفها السادات ، أمام حرب أعد لها بإتقان ، وباشرها بكفاءة عالية ، وعلى الرغم من أن مصر لم تكن — كما سنرى — في حال تحتل قسوة الحروب وتكاليفها .

ثم باشر أنور السادات المفاوضة مع اليهود والصهاينة ، والمفاوضة

مع هؤلاء عمل عسير أشار له القرآن الكريم في سورة البقرة ، قال تعالى « أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم » (١) .

إنها في الحق مفخرة تنتسب لأنور السادات ، رفع رعوسنا بعد أن كانت الهزائم قد نكست هذه الرعوس ، وأعاد لنا كياننا بعد أن اهتز هذا الكيان ، وحقق لنا أملاً كان عزيز المنال ، وضع العزة بدل الذلّة ، والنصر بعد الهزائم المتلاحقة ، والابتسامة العريضة بعد طول عبوس .

إن كل مصري ، وكل عربي ، وكل مسلم ، ينبغي ألا ينسى هذه المفخرة ، وأن يذكر بخير الرجل الذي دبّر ونفّذ .

وفي سيرة عثمان بن عفان رضى الله عنه مواقف كثيرة رائعة ، ولكنه كان بالغ الكرم في جيش العسرة الذي كان على وشك أن يزحف إلى غزوة تبوك ، ورأى الرسول صلوات الله عليه كرمه البالغ فقال عنه : ما ضر عثمان ما فعله بعد اليوم . وأنا لا أستطيع أن أقول عن السادات ما قاله المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ولكنى أقول بماء الفم : إن جهود السادات في حرب ١٩٧٣ تمثل ثقلاً عظيماً في كفة حسناته .

تلك هي طبيعة المؤرخ ، أن يكون محايداً يمدح ويثنى عند دواعي المدح والثناء ، وينقد ويهاجم عند الانحراف والإهمال .

وقد كان من توفيق الله سبحانه وتعالى لأنور السادات أن قسام بالحرب ضد إسرائيل هذا العام ، ولو تأخر الهجوم على إسرائيل عاماً إثر عام لما كان في استطاعة العرب مواجهة إسرائيل وإيران معا ، فمن مفاخر السادات أنه عجل بحرب إسرائيل لينتهي من هذه الحرب قبل أن

(١) سورة البقرة الآية رقم ١٠٠ .

تشتعل حرب ايران مع العراق بوجه خاص ومع العرب بوجه عام ،
ومما كان في استطاعة العرب أن يحققوا النصر في ميدانين •

والآن نسير مع أحداث حرب ١٩٧٣ :

وول ما نسجله أن السادات استنفد كل الحيل للحلول السلمية ،
فقد عرض عدة مبادرات ووسط كثيرا من زعماء العالم ، ولكن كل ذلك
لم يأت بفائدة ، إذ أن العدو لا يعرف السلام ، وإنما يهوى الغصب
والاستيلاء على حقوق الآخرين ، فأصبح لابد من حركة عسكرية إن لم
تكن حاسمة لاستعادة الحقوق كاملة فلنكن لبعث الحياة في القضية ، حتى
يهتم بها أولئك الذين ظنوا أن العرب انتهت شوكتهم ، وأن لا بأس من
إهمال قضية العرب ، وبدأ السادات يشعد العدة لهذه المعركة ، وكان
من أهم ما اتجه له أن يقوم بعمليات مصالحة مع المواطنين بالداخل ،
ومع العرب ، ثم مع دول العالم ، فقد كان عبد الناصر قد قطع خيوط
الصلح في هذه الجهات جميعا •

ففي الداخل أوقف أنور السادات الاعتقالات (١) والتعذيب
والمحاكم الجائرة ، والمصادرات •

ومع العرب حل الود والتقدير محل نتف الذقون والبذاءة التي
تمس الآباء والأمهات ، وركز أنور السادات على نقاط الالتقاء والتقارب
بين الدول العربية ، واهتم بدعم هذه النقاط إلى أقصى حد ، ولم تنف
جهود السادات عند المصالحة بين مصر من جانب والدول العربية من
جانب آخر ، بل اهتم كذلك بإجراء مصالحات وتقريب بين الدول
العربية بعضها البعض ، وفي خلال شهر أغسطس سنة ١٩٧٣ قام
السادات بجولة في سوريا والسعودية وقطر وأجرى في هذه اللقاءات
اجتماعات كثيرة بين زعماء العرب •

(١) نترك الآن اعتقالات ٥ سبتمبر سنة ١٩٨١ فلنا عنها حديث فيما
بعد •

ومن جهود السادات في هذا المجال أنه أشعر العالم العربي بجديته
الجهد الذي يبذله لمواجهة إسرائيل ، وأن المواجهة في هذه المرة ليست
لحماس عاطفي ، وبلغة أخرى ليست للتهويل ، والدعاية ، وإنما
هي عمل جاد يقصد به استعادة الكرامة للإنسان العربي .

ويقول أنور السادات في ذلك : عندما توليت الرئاسة في مصر
رحب بي زعماء العالم العربي وأبدوا استعدادهم لمعاونتي ، فأعلنت
سياستي الواضحة ، وهي أنه بالنسبة للعرب فمصر لا تفرق بين دولة
وأخرى ، على أساس ما يسمّى بالرجعية والنقدشمية ، أو الملكية
والجمهورية ، الأمر الوحيد الذي يجب أن نلتزم به جميعا هو أننا عرب
فحسب (١) .

وفيما يتعلق بعمليات الصلح مع العالم اهتم أنور السادات بمؤتمر
الوحدة الإفريقية ، وبمؤتمر عدم الانحياز ، وبدول أخرى غير التي
تنتمي لهذين المؤتمرين ، ومنها كثير من دول المغرب ، فنما الود والتعاون
بين مصر وبين هذه الدول .

وبدأت بذلك الاستعدادات للمعركة ، وينبغي أن نذكر أن الاستعدادات
لهذه المعركة جاءت وهناك أزمة اقتصادية وصفها أنور السادات بأنها
طاحنة ، وبهذا كان الاعتماد على الذات والاستعداد للتضحية أكثر من
الاعتماد على السلاح والمال ، ويمكن القول بوضوح إن مصر كانت تدخل
معركة استماتة بقدرات ذاتية ، وبدون أسلحة كافية .

جيش مصر سنة ١٩٦٧ وجيشها سنة ١٩٧٣ :

إن أي تقدير يقارن بين وضع مصر سنة ١٩٦٧ ووضعها سنة ١٩٧٣
يقطع بمدى الصعوبة التي كان يواجهها الجيش قبل حرب أكتوبر وفي
أثنائها .

(١) البحث عن الذات ص ٣٢٤ .

— فى سنة ١٩٦٧ كان الجيش المصرى يملك ترسانة ضخمة من الأسلحة ، ولم يكن الحال كذلك سنة ١٩٧٣ فان الاتحاد السوفييتى لم يعرض مصر ما فقدته سنة ١٩٦٧ وكان يخشى أن تتكرر الهزيمة فتستولى إسرائيل على العتاد السوفييتى •

— وفى سنة ١٩٦٧ كان الجيش المصرى يربط على حدود العدو ، ولو تمّ "تقدّم" لكنت أقدام الجيش المصرى داخل أرض إسرائيل ، أما سنة ١٩٧٣ فالجيش الاسرائيلى هو الذى يحتل الأرض المصرية وأرض إسرائيل بعيدة جدا عن أقدام المصريين •

— وفى سنة ١٩٦٧ كانت علاقة مصر بالسوفييت قوية ، أما سنة ١٩٧٣ فلم تكن العلاقة سليمة بعد طرد الخبراء الروس وإلغاء المعاهدة ومعارضة الاتحاد السوفييتى فى السودان •

— وفى سنة ١٩٦٧ كانت الروح المصرية عالية والأمل كبير فى نجاح الزحف ، وفى سنة ١٩٧٣ كانت الرجفة موجودة مخافة أن تتكرر الهزيمة •

وهذه المقارنة تصور بطولة الجيش المصرى وعظمة السادات الذى خطط ونفذ على الرغم من كل هذه المعوقات •

وكان الذى يساعد الجيش المصرى هو الإحساس بأن أرض سيناء تنادى الإنسان المصرى ، ليعود لها ولينقذها من الاستعمار ومن الاحتلال الإسرائيلى ، وكان سيناء تتعبد بأن تتقدم العون وتتمسك بأقدام الزاحفين •

وكان الذى دعا إلى هذه المغامرة أن انتظر الاستعداد الاقتصادى والعسكرى الكامل سيطول ، وأن الجيش والشعب كانا يتمزقان من هول الهزيمة السابقة ، ومن السنوات التى تلتها ، فلتكن المغامرة التى كان الأمل كبيرا فيها أن تكون طيبة النتائج •

وقد وصل القلق بالشعب إلى درجة أن ضابطا مصرية قاد كتيبة إلى منطقة آهلة بالحركة هي منطقة الإمام الحسين ، وهناك صرخ يستعجل الحرب ، ويعلن عدم موافقته هو وجمع كبير من زملائه على تأخير اقتحام القناة لإنقاذ سيناء من الأسر الإسرائيلي •

نظرية الأمن الإسرائيلي ومناقشتها :

ومن المعروف أن نظرية الأمن الإسرائيلي تقوم على فكرة الحدود الآمنة ، ثم على الاحتفاظ بالمبادأة ، وتجنب القتال في أكثر من جبهة ، والحرب الخاطفة قصيرة المدى ، وضمان مؤازرة قوة عظمى في كل وقت (١)

وقد درست القيادة المصرية هذه النظرية ، ووضعت خطة مضادة لها تتضمن عناصر النصر •

فعن الحدود الآمنة فرضت القوى العربية حصارا حول باب المندب والبحر الأحمر لتضرب إسرائيل من بعيد •

وعن المبادأة قررت القيادة المصرية أن تكون المبادأة بالضربة الأولى • وعن تجنب القتال في أكثر من جبهة تم الاتفاق على أن يكون الصراع على جبهتي سيناء والجولان بأن تبدأ سوريا ومصر ضرب إسرائيل في وقت واحد •

أما عن الحرب الخاطفة قصيرة المدى ، فقد اتجه العزم إلى الاستعداد لحرب طويلة ليست كحروب عبد الناصر التي كان يقبل وقف إطلاق النيران بعد ساعات أو أيام من بدئها •

أما مؤازرة القوى العظمى (أمريكا) لإسرائيل فكان يقضى أن تتجه الدول العربية لقوة عظمى أخرى وهي الاتحاد السوفييتي ، ولكن هذه القوة لم يكن من الممكن الاعتماد عليها اعتمادا كاملا على نحو ما تعتمد إسرائيل على أمريكا بسبب الخلافات الدينية والاقتصادية بين العالم

(١) عاطف السيد : من سيناء الى كامب ديفيد ص ٧٦ •

العربي والاتحاد السوفييتي ، ولكن النقص في هذا الجانب لم يكن عائقا
دون البدء في المعركة .

هدف المعركة :

هل كان الهدف من المعركة استعادة سيناء والجولان والضفة وقطاع
غزة ؟

إن الاتجاهات اختلفت حول الهدف من هذه المعارك ، فكان اتجاه
الفريق محمد صادق أن تكون الحرب شاملة لتحقيق هذه الأهداف ،
أما الرأي الآخر فهو أن تكون الحرب هزّة لإسرائيل من جانب والمجتمع
العالمي من جانب آخر ، وأن تحقّق العبور والاستيلاء على جزء من
الجانب الشرقي ، وبعد ذلك يترك أمر استكمال النصر للمفاوضة بسبب
قلة الأسلحة التي تحقق الهدف الذي كان يتطلع له الفريق محمد صادق ،
وتبعاً لهذا الاتجاه استقال الفريق محمد صادق ، وأسندت وزارة
الحربية للفريق أحمد اسماعيل على الذي أصبح وزيراً للحربية وقائداً
عاماً للقوات المسلحة ابتداء من أكتوبر سنة ١٩٧٢ كما ذكرنا من قبل ،
ومن الواضح أن مصر لم يكن في مقدورها أن تدخل حرباً شاملة تعيد
لها كل أرضها ، فلم يكن السلاح ولا الاقتصاد يحتمل مثل هذه الحرب
كما قلنا ، والأهم من ذلك أن القوات المصرية الزاحفة عبر قناة السويس
كانت تقوم بهذا العمل تحت حماية حائط الصواريخ المصري ، وهذه
الحماية يمكن أن تمتد إلى مسافة لا تزيد عن عشرة أميال ، ولو أن
الجيش المصري تجاوزا هذه المسافة لسقط تحت رحمة الطيران
الإسرائيلي ولخسر الجيش المصري خسارة كبيرة .

ونثبت فيما يلي الأمر الصادر من رئيس الجمهورية عن الحرب وهو
يتبع الاتجاه الذي استقر الرأي عليه وفيما يلي نصه :

توجيه استراتيجى من رئيس الجمهورية
والقائد الأعلى للقوات المسلحة

الى : الفريق أول أحمد إسماعيل على
وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة :

- ١ — بناء على التوجيه السياسى الصادر لكم منى فى أول أكتوبر ١٩٧٣ وبناء على الظروف المحيطة بالموقف السياسى والاستراتيجى :
قررتُ تكليف القوات المسلحة بتنفيذ المهام الاستراتيجية الآتية :
(أ) إزالة الجمود العسكرى الحالى بكسر وقف إطلاق النار اعتباراً من يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ •
(ب) تكبيد العدو أكبر خسائر ممكنة فى الأفراد والأسلحة والمعدات •
(ج) العمل على تحرير الأرض المحتلة على مراحل متتالية حسب نهو وتطوير إمكانيات وقدرات القوات المسلحة •
- ٢ — تنفيذ هذه المهام بواسطة القوات المسلحة المصرية منفردة أو بالتعاون مع القوات المسلحة السورية •

٩ رمضان ١٣٩٣ هـ •

٥ أكتوبر ١٩٧٣ م •

توقيع

أنور السادات

رئيس الجمهورية

التمويه والخداع :

وقد وضعت القيادة المصرية خطة هائلة للتمويه والخداع ، بحيث لا يتطرق الشك للمخابرات الإسرائيلية والأمريكية بأن مصر تريد الهجوم ، ولما كان الاتفاق قد تم على تحديد السادس من أكتوبر بدءاً للهجوم ، فقد اتبعت القيادة المصرية لتحقيق ذلك خطوات دقيقة للتمويه ، نوجزها فيما يلي :

(أ) أذاعت القاهرة نبأً عن زيارة سيقوم بها وزير دفاع رومانيا لمصر يوم ٨ أكتوبر بناء على دعوة من وزير الدفاع المصري •

(ب) نشرت الصحف المصرية خبراً يشير إلى أن القوات المسلحة وافقت على قيام من يرغب من الضباط والجنود في أداء العمرة خلال رمضان وحددت مواعيد تلقى طلبات الراغبين تمهيداً لإجراء القرعة بينهم •

(ج) أصدرت القيادة العامة للقوات المسلحة تعليمات بتسريح دفعة من الجنود الذين أتموا الخدمة العسكرية في اليوم الأخير من شهر سبتمبر على أن يعودوا إلى حياتهم المدنية في اليوم الأول من أكتوبر •

(د) صدر إعلان عن إجراء عمرة للقطع البحرية المصرية في موانئ باكستان في شهر سبتمبر •

(هـ) سريت وزارة الدفاع للخارج تقريراً سرئياً يذكر أن ٤٠٪ من السلاح الجوي المصري فقط صالحة للاستعمال ، وأن ٦٠٪ من الطائرات المقاتلة تشد في حالة غير صالحة ، وقد أذاعت وكالة أنباء يوناييتد برس هذا الخبر من بروكسل على أنه سبق إعلامي لها •

(و) أمرت القيادة العامة بإجراء مناورات كبرى لجميع القوات المسلحة كنهاية لموسم التدريب السنوي ، وتحت شعار المناورة تمكنت

القيادة من اتخاذ إجراءات أخرى مثل إلغاء إجازات الضباط والجنود ابتداء من أواخر سبتمبر *

(ز) وضعت خطة خاصة لتحريك معدات العبور من الخلف إلى الجبهة مع عدم نقل هذه المعدات إلى ساحل القناة إلا في آخر وقت ممكن وعلى أن تكون هذه المعدات في صناديق ضخمة تخفى محتوياتها *

(ح) صدرت الأوامر لبعض القواد في الجبهة أن يعيش الجنود في حالة عادية كاستحمام الجنود في القناة قبل الهجوم ببضع ساعات وكاسترخائهم على الشاطئ وهم يمشون القصب *

(ط) ووصلت الخديعة بمخابرات إسرائيل أن أعلنت أن مصر تشبه « كيسا فارغا » فأجهزة الرادار بها شبه عمياء ، وردود فعلها بطيئة جدا *

وهذه الصورة التي كانت لدى الإسرائيليين عن الجيش المصرى دفعت الجيش الإسرائيلى إلى الترهل والاسترخاء ، بل دفعت الشعب الإسرائيلى كله إلى الخلود للمتعة والنعيم بعد أن ضمنت لهم السلامة ، ويروى أنه بعد حرب ١٩٦٧ والإحساس بضعف مصر وضعف العرب تضاعفت في إسرائيل نوادى الليل ، وكثرت المومسات الباريسيات ، والخادومات الإيرانية ، وظهرت المطاعم الفاخرة التي جذبت الكثير من موظفى الحكومة وجنرالات الجيش (١) *

اختيار أنسب وقت للهجوم :

أُجريت دراسات مستفيضة لاختيار أنسب شهور السنة وأنسب

(١) كلمات مقاتل اسرائيلى يدونها الاستاذ وجيه أبو ذكرى في كتابه « حرب أكتوبر : شهادة اسرائيلية » *

أيام الشهر ، وأنسب وقت لبدء الهجوم الذى يناسب كلتا الجبهتين المصرية والسورية ، وقد وقع الاختيار على شهر أكتوبر حيث تستعد إسرائيل لإجراء انتخابات الكنيست فى الثامن والعشرين منه ، وحيث تقع فيه أعياد الغفران ، ويأتى فيه شهر رمضان وهو شهر صيام ، ولهذا لا يتوقع الصهاينة أن يقاتل فيه المسلمون ، واختير يوم سبت ، وهو عطلة نهاية الأسبوع عند اليهود ، ولكونه فى العاشر من رمضان يضىء فيه القمر من غروب الشمس حتى منتصف الليل ، فيساعد ذلك على إقامة المعدات والكبارى ليلا ^(١) ، وكان ممر النيسار بالقناة مناسباً بالنسبة للمصريين •

وقد نجحت خطة الخداع نجاحاً عظيماً ويعبر عن ذلك موسى ديان بقوله : وحتى صباح يوم الغفران لم أفكر أنا شخصياً فى أن الحرب ستنتشب فعلاً ، ولم أكن أنا الوحيد الذى أعتقد ذلك •

استعدادات إسرائيل قبل أكتوبر :

وكانت إسرائيل قد دبرّت أمرها فى المدة من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٣ فأعدت عدة شيطانية لحماية نفسها ضد أية محاولة تقوم بها مصر ، إذ كانت تدرك بسلامة الجندى المصرى ، وأن هزائمه فى الحروب السابقة لم تكن عن ضعف ، ولكن عن سوء إدارة ، وأن أحفاد الأبطال الذين هزموا المغول والصليبيين لابد أن تعمل إسرائيل لهم ألف حساب ، ومن هنا بدأت إسرائيل تضع خططها ضد أية محاولة تقوم بها مصر ، وكانت قناة السويس حاجزاً مهماً بين إسرائيل ومصر ، اعتمدت عليه إسرائيل فأجرت فيه وحوله خططا تجعل منه مانعاً حصيناً أمام أية محاولة مصرية للعبور إلى سيناء •

(١) عاطف السيد : من سيناء الى كامب ديفيد لقطات من الصفحات من ٧١ - ٨٣ •

وهنا نقف وقفه نذكر فيها الأجيال المصرية أن إسرائيل بعد احتلال سيناء في عهد عبد الناصر أخذت تقتصر على أن سيناء أرضها فأقامت المستعمرات والمطارات ، ثم اتخذت من قناة السويس وسيلة لتتكون منها حاجزا بينها وبين مصر ، على أن تكون القناة نفسها مناصفة بين مصر وإسرائيل ، وهذا الوضع يجسّم جُزْءَ الإهمال في عهد عبد الناصر ويبرر عظمة السادات الذي استعاد الأرض بالحرب والمفاوضة •

وقناة السويس في ذاتها تعتبر مانعا حصينا ، ثم أضاف العدو ذلك إضافات مهمة للمزيد من التحصين ضد المصريين إذا حاولوا العبور إلى سيناء ، وطبيعة القناة والإضافات الشيطانية التي أضافها العدو تتضح فيما يلي :

١ - انحدار الشاطئ من الناحيتين وتدبيشه ، مما يعوق المركبات البرمائية من النزول إلى المانع المائي أو الصعود منه إلا بعد تجهيزات هندسية صعبة ، ولا يشترك مع قناة السويس في هذه الصفة سوى قناة بنما وعدد محدود من القنوات الصناعية •

٢ - قيام العدو بإنشاء ساتر ترابي على الضفة الشرقية للقناة مباشرة بارتفاع ١٠ الى ٢٠ مترا مما يجعل من المستحيل على أن مركبة برمائية العبور إلا بعد إزالة هذا الساتر ، ثم إن هذا الساتر كان يخفى ما خلفه من معدات عسكرية •

٣ - إنشاء خط بارليف على طول الساحل الشرقى لضرب أى قوات تحاول العبور ، وقد اختيرت مواقع هذا الخط بعناية فائقة ، بحيث تتحكم في جميع الاتجاهات وتستطيع أن تغمر بالنيران الجانبية أى قوات تعبر القناة في أى جزء منها •

٤ - وجود خزانات لمواد ملتهبة يسهل كل واحد منها مائتى طن من هذه المواد ، على مسافات متقاربة ، بحيث يمكن للعدو أن يدفعها فوق

سطح المياه ثم يشعلها ، فيتحول سطح القناة إلى حمم ملتهبة تحرق كل شيء فوق الماء ، بل تشوى الأسماك في عمق القناة وتلفح حرارتها الشخص الذي يبعد عنها بمسافة ٣٠٠ متر ، ويستطيع العدو أن يتحكم في استمرار هذه النيران بالاستمرار في دفع المواد الملهبة إلى سطح الماء •

ومن هنا نجد أن قناة السويس ليست مجرد مانع مائي ، بل أنه مانع فريد ليس له شبيه في العالم ، وليست هناك خبرة سابقة في التاريخ لعبور مثل هذا المانع ، وكان لابد من حل هذه المشاكل حتى يتحقق العبور •

وسنرى أن أبطالنا استطاعوا التغلب على هذه المشاكل في أقصر وقت ممكن ، وتخطوا كل هذه العقبات •

الإعداد لإذاعة بيان العبور :

في الساعة الثانية بعد ظهر السادس من أكتوبر وقبل انطلاق الأمر بالضرب ، صدرت الأوامر لجهازى الإذاعة والتليفزيون للاستعداد لإذاعة بيان مهم ، وفي الحال طلب محمد محمود شعبان رئيس الإذاعة أن يتجه الأستاذ صبرى سلامة إلى استوديو الهواء استعدادا لإذاعة هذا البيان ، كما طلبت الأستاذة همت مصطفى رئيسة التليفزيون من الأستاذ أحمد سمير أن يتجه إلى الاستوديو انتظارا لإذاعة البيان نفسه •

وبعد دقائق قليلة انطلق الأبطال وأذيع البيان في الإذاعة والتليفزيون •

مع حرب أكتوبر يوما بيوم

في قفزة أقرب إلى الخيال ، وفي الساعة الثانية وخمس دقائق بعد ظهر السادس من أكتوبر تغير كل شيء في المنطقة ، فالطائرات المصرية لم تعد تلك التى تهاجم وهى رابطة ، بل وراحت تتركز حتى شكلت حركة

الفانتوم التي كانت تعتمد عليها إسرائيل ، وقصّرت خطواتها وفي الوقت نفسه بدأ الضرب بمنطقة الجولان •

ولنرفع أيدينا عن الكلام لنعطى الزمام لقادة المعركة الظافرة ، وقد تحدثوا بعض الشيء وكشفوا ما يمكن كشفه من أسرار المعركة ومن أحاديثهم نقتبس بعض لقطات •

يقول الرئيس أنور السادات :

بعد ثلث ساعة بالضبط ظهرت نتائج ضربة الطيران • كانت ضربة رائعة أعادت لقواتنا المسلحة كرامتها التي انتهكت عام ١٩٦٧ وقبلها في عام ١٩٥٦ •

كان الهجوم بأكثر من ٢٣٠ طائرة ، ولأنه طيران نفاث وسرعته تفوق سرعة الصوت فإن الضربة لم تستغرق أكثر من ١٥ دقيقة ، وقد قام أبنائى بأروع واجب يمكن أن يقوم به أى سلاح طيران في العالم من حيث الكفاءة والدقة والمفاجأة في تحقيق كل مهمة أسندت إلى طيار من الطيارين ، وكان تقدير الخبراء الروس أننا سنفقد في الضربة الأولى من ٣٠٪ إلى ٤٠٪ وأننا سنحقق ٣٠٪ من الهدف ، ولكننا لم نفقد سوى خمس طائرات أى حوالى ٢٪ وحققنا الضربة ٩٩٪ من الهدف • وقد فقدت إسرائيل ثلث سلاح طيرانها في الأيام الثلاثة الأولى للمعركة •

ويقول المرحوم المشير أحمد إسماعيل :

عندما انطلقت « الشرارة » كما أسماها الرئيس أنور السادات وبدأت خطة « بدر » كما أطلق عليها العسكريون بدأ كل شيء يتحرك وفقا لهذه الخطة •

ضربة الطيران الرئيسية : أكثر من مائتى طائرة تقوم من الجبهة المصرية بالضربة الأولى على مواقع العدو الحساسة ، ومائة طائرة تقوم بالضربة الأولى من الجبهة السورية •



رفع العلم المصرى على سيناء

(م ١٨ - التاريخ الاسلامى)

تمهيد هائل بالمدفعية : ألفا مدفع تهردر في قصفات متلاحقة •

موجات الهجوم الأول : فجأة وجد العدو أمامه ثمانية آلاف رجل ينزلون إلى قوارب المطاط وغيرها من الوسائل ويبدأون العبور تحت النار •

قاوم العدو من النقط الحصينة لخط بارليف على طول القناة ، وبواسطة الدبابات الرابضة في مكانها بجانب النقط الحصينة ، وأُشتركت المدفعية التي تعزّزها في محاولة صدّ موجات الهجوم الأولى •

جنودنا يصلون إلى النقط الحصينة ، برغم كل مقاومة ، وينضى النقط الحصينة كانت عنيدة في دفاعها ، ولكن جنودنا يقتحمون بالمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية هذه الحصون •

كان الساتر الترابي في بعض المواقع عرّضه مائتاً متر ، ولم تكن الأرض صالحةً لنصب كبارى العبور ، لكن المهندسين كانوا في أعظم لحظات حياتهم ، وكان مدير سلاح المهندسين يشرف بنفسه على مواقع الجسور ، واستشهد نائب مدير سلاح المهندسين على أحد جسور العبور •

قواتنا البحرية تتحرك لتضرب أهدافاً حيوية للعدو على شاطئ البحر الأبيض وعلى شاطئ البحر الأحمر ، واستطاعت تدمير مجموعة من سفن العدو ، وقطع خطوط مواصلاته ، ونجحت في عدة هزات بحرية ضد زوارق العدو وضفادع البشرية ، وسيطرت سيطرة تامة على البحر الأحمر (١) •

قواتنا الخاصة تنزل وراء خطوط العدو في عهق سبينا لتضرب خطوط إمداده ولتعطل هجماته المضادة وتعرقلها ، وبعد ساعات قليلة من بدء الحرب كان رجال المصاعقة ينقضّون على أهدافهم في عهق العدو

(١) اقرأ بعض التفاصيل في كتاب « حرب رمضان » تأليف اللواء حسن البدرى وآخرين ص ١٢٨ و ١٥٢ و ٢٠٦ •

وينجزون مهامهم بكفاءة عظيمة ، غير هيايين أية تضحية من أجل نجاح أهدافهم^(١)

التدفق من الغرب إلى الشرق مستمر في نفس الوقت ، لا يتوقف ولا ينقطع .

في أربع وعشرين ساعة كانت لدينا في الشرق خمس فرق كاملة ، وذلك شيء لم يحدث مثله من قبل في تاريخ الحروب .

نهاية خط بارليف :

أخذنا ننسف مواقع خط بارليف ونزيلها من مكانها إلى الأبد ، محتفظين بواحدة منها للعبرة والذكرى ، في أول يوم دهرنا ١٤ موقعا ، وفي اليوم التالي تسعة ، وهكذا حتى تحولت المواقع ، حلم إسرائيل في الأهن المطلق إلى أنقاص وركام ، وسرعان ما اعترفوا بذلك .

قلة الجرحى :

ومن عجب أن الله سبحانه وتعالى حمى الجندي المصري في هذا الزحف ، فالشهداء كانوا قليلين جدا ، والجرحى كانوا قليلين كذلك ، لدرجة أن كتائب الأطباء تأخر عبورها لقلة الخسائر ، واكتفت القيادة في الأيام الأولى بنقط الإسعاف ، ولم تعبر كتائب الأطباء إلا بعد ثلاثة أيام ، مع أنه كان مقررا أن تعبر بعد ساعات من بدء الهجوم .

مشكلات العبور والتغلب عليها

أما عن مشكلات العبور وكيفية التغلب عليها فنتجه إلى الفريق سعد الدين الشاذلي رئيس أركان حرب الجيش المصري آنذاك وهو يصف لنا هذه المشكلات ، ويذكر أن القيادة قامت بتجزئتها إلى عدة مشاكل ، وحاولت وجربت حتى استطاعت التغلب عليها ، وفيما يلي كلماته :

(١) المرجع السابق ص ١١٨ و ١١٩ .

كانت المشكلة الأولى التي يجب علينا أن نتغلب عليها هي كيف نتغلب على النيران الملتهبة التي سوف تغطي سطح القناة عند بدء العبور ، وقد اتجه تفكيرنا أول الأمر إلى إطفائها وقمنا بعمل تجارب على ذلك في أماكن شبيهة بالقناة ، فأتضح لنا أن عملية الإطفاء تحتاج إلى مجهودات ضخمة ، وأن النيران تبقى مشتعلة حوالي نصف ساعة إذا لم يتم تزويدها بكميات إضافية من المواد الملتهبة وذلك لإنقاص فترة تعرض قواتنا للحريق إلى أقل وقت ممكن ، ومن هنا بدأنا العمل ، وتم استطلاع تجهيزات العدو الخاصة بهذا الموضوع ، فأتضح أنه يضع هذه المواد في خزانات كبيرة مدفونة تحت سطح الأرض حتى يصعب تدميرها بواسطة المدفعية ، وكانت هذه الخزانات متصلة بمواسير تحت سطح المياه لتندفع منها السوائل الملتهبة إلى سطح المياه ، وكان من الواضح أنه لو أمكن إغلاق هذه المواسير بأي وسيلة قبل بدء عملية العبور ، فإن السوائل الملتهبة لن تصل إلى سطح الماء ولن تحدث اشتعالا وكان هذا هو الاتجاه الذي أخذنا به وبدأنا نتدرب عليه . وهكذا اتجهنا إلى أن نبعث ببعض الغواصين المتسللين لإغلاق هذه المواسير بالأسمنت مع تكليف بعض أفراد من الصاعقة بسرعة الاستيلاء على هذه المستودعات ومنع استخدامها في حالة الفشل في إغلاق المواسير الموصلة للمياه ، وزيادة في الحيلة درسنا اتجاه التيار في القناة على طول ساعات اليوم وانتخبنا قطاعات الاختراق بحيث تعبر قواتنا فوق التيار ، وبذلك نتفادى النيران فوق سطح المياه ، وقد تمت العملية بنجاح تام ، ولم ينجح العدو في إشعال حريق واحد فوق سطح القناة ، وتم الاستيلاء على مستودعات المواد الملتهبة سليمة بكل ما فيها ، بل وتم أسر المضابط المهندس الإسرائيلي الذي قام بتصميمها ، وقد أدلى في أقواله أنه حضر إلى القناة في اليوم السابق للقتال لكي يختبر هذه المستودعات (١) .

(١) هناك رواية إسرائيلية خداعة تذكر أن إسرائيل هي التي ألغت مفعول هذه المنشآت قبل المعركة ، ولست أصدق ذلك ، فهذه المنشآت لم تشيد إلا بعد دراسة واسعة ، فلا يمكن لإسرائيل أن تلغى مفعولها .

وكانت المشكلة الثانية هي كيف يمكن إزالة الساتر الترابي
الذي أقامه العدو على الضفة الشرقية حتى يمكن أن نقيم المعدات
والكبارى على القناة ، ويمكننا أن نتصور ضخامة هذه العملية إذا علمنا
أن ثغرة واحدة في الساتر الترابي عرضها حوالى سبعة أمتار تعنى
إزالة ألف وخمسمائة متر مكعب من الأتربة ، وكانت احتياجات العبور
تتطلب فتح ٦٠ ثغرة على طول القناة في كل جانب أى إزالة ٩٠٠٠٠ متر
مكعب من الأتربة من الساتر الترابي شرق القناة ، فإذا علمنا أننا في خلال
السنوات الستة الماضية كنا قد أقمنا أيضا ساترا ترابيا في غرب القناة
خشية أن يقوم العدو بهجوم مفاجئ علينا ، اتضح أن المشكلة أصبحت
مضاعفة ، وأنه يتحتم علينا أن نفتح ثغرات مماثلة في الساتر الترابي
الغربي ، فاتجه تفكيرنا أول الأمر إلى أن نفتح هذه الثغرات بواسطة
التفجير واستمرت نظرية التفجير هي السائدة حتى منتصف عام ١٩٧١
إلى أن اقترح أحد الضباط المهندسين الشبان نظرية التجريف ، وهي
استخدام المياه المندفعة تحت ضغط عال في إزالة هذه الرمال ، وقمنا
بعمل التجارب وثبت نجاحها وأفضليتها على نظرية التفجير وأخذنا
ندخل التحسينات بزيادة قوة الماكينات إلى أن أصبح في مقدور رجال
سلاح المهندسين أن يفتحوا الثغرات المطلوبة في مدة تتراوح بين
ثلاث ساعات وخمس ساعات •

لم يكن فتح الثغرة في الساتر الترابي هو نهاية المشكلة بل كان
من الضروري تهذيب جوانب القناة ، بالنسف والتسوية حتى يمكن
تشبيث الكبارى أو تجهيز هذه الثغرات لتشغيل المعديات وعبور المركبات
البرمائية •

وإذا جاز لنا أن نقدر كم كشف حساب عما قام به المهندسون
العسكريون ، فإننا نقول إنهم قاموا بشق ٦٠ ثغرة في الساتر الترابي ،
وأقاموا عشرة كبارى ، وما يقرب من ٥٠ معدية عبر القناة ، كل ذلك
خلال فترة ما بين ٦ و ٩ ساعات ، وقد تم التنفيذ طبقا لما كان مخططا

تماما فيما عدا القطاع الجنوبي من القناة ، حيث كانت الأرض غير صالحة لعمليات التجريف ، ونتج عن ذلك بعض التأخير في إقامة الكبارى والمعديات عما كان مخططا ، وإن هذه الأعمال الهندسية الباهرة سوف تكون دائما مثار فخر للمهندسين المصريين في جميع أنحاء العالم .

وكانت المشكلة الثالثة هي كيف يستطيع المهندسون أن يقوهوا بهذه الأعمال الهندسية الضخمة وهم تحت نيران العدو المسيطر في الضفة الشرقية ، وكانت الإجابة الفورية هي ضرورة دفع المشاة عبر القناة لتأمين المهندسين ، وهو ما يطلق عليه في التعبير العسكري ، « تأمين رؤوس الكبارى » .

وكانت المشكلة الرابعة هي كيف يستطيع المشاة أن يعبروا القناة ويؤمنوا رؤوس الكبارى إلى أن تتدفق الدبابات والمدافع والأسلحة الثقيلة عبر المعديات والكبارى التي أقامها المهندسون وكيف يصمد المشاة أمام هجمات العدو المضادة بواسطة الدبابات لمدة تتراوح بين ١٢ و ٢٤ ساعة إلى أن يكتمل عبور الدبابات والأسلحة الثقيلة ؟ وبعد دراسة مطولة أمكننا حل هذه المشكلة بناء على الأسس التالية :

١ — قوة المشاة التي تكلف العبور تحمل معها أقل ما يمكن من التعيين ، والمياه ، وأكثر ما يمكن حمله من سلاح وذخيرة ، وكان إجمالي ما يحمله كل جندي حوالى ٢٥ كيلو جراما ، وكان يصل أحيانا مع بعض الجنود إلى ٣٥ كيلو جراما .

٢ — ابتكار عربات صغيرة يضع فيها المشاة ما لا يستطيعون حمله ، ويجرّونها بأيديهم عبر الساتر الترابى وعند تحركهم شرق القناة .

٣ — تسليح المشاة بأسلحة مضادة للدبابات ، ولا سيما الصواريخ الخفيفة التي يمكن حملها بواسطة الأفراد ، وذلك لصد هجمات العدو بواسطة الدبابات .

٤ — تسليح المشاة بالأسلحة المضادة للطائرات كذلك ، وبخاصة الصواريخ الخفيفة ، وذلك لصد هجمات العدو الجوية ضد قواتنا في أثناء العبور وبعده •

٥ — تجهيز المشاة بسلاسل لمساعدتهم في تسلق المسائر الترابي وجبر أسلحتهم وذخائرهم المحملة في عربات الجر •

٦ — تنظيم عبور المشاة في قوارب تنظيمًا تفصيليًا بحيث يعلم كل جندي مكانه في القارب ومكان العبور ووقته وواجبه في أثناء العبور.... الخ •

٧ — التسلل خلال خط بارليف وعدم مهاجمة النقط القوية لهذا الخط إلا بعد استكمال عملية العبور وإكمال حصارها لهذه النقط •

وخلاصة القول لقد استخدمنا المشاة بنفس الأسلوب الذي كان يستخدم به المشاة منذ العصور القديمة ، وإن اختلفت الأسلحة التي كانت في أيدينا عن تلك التي كانت في أيديهم •

وكانت المشكلة الخامسة هي كيف يمكن لقوة المشاة أن تعبر هذا المانع بنجاح مالم ندم بتدمير وإسكات الرشاشات والمدافع التي تطل من فتحات خط بارليف وتغمر القناة بطولها ، وقد قامت مدفعيتنا بحل هذه المشكلة على أحسن وجه ، وكانت نتيجة ذلك أن تمكن مشاتنا من عبور القناة بخسائر طفيفة جدا •

وكانت المشكلة السادسة هي كيف نعيد تنظيم قواتنا على الشاطئ الشرقي ؟ وكيف تصل الدبابات والمدافع والذخيرة إلى وحدات المشاة التي سبق عبورها ؟ وكيف يتم ذلك ليلا وتحت ضغط العدو وكيف تميّز هذه الدبابات والأسلحة طريقها وتتعرف على وحداتها ؟ ويمكننا أن نتصور هذه المشكلة إذا تخيلنا أن آلاف الدبابات والمركبات والمدافع الثقيلة كان

يتحتم عبورها لتتضم إلى وحدات المشاة التي عبرت اتريد من قدرتها على التمسك بالأرض ، وضد هجمات العدو المتكررة ٠٠٠ وقد أدى سلاح الإشارة وإدارة الشرطة العسكرية واجبهما على الوجه الأكمل ، فقد أمكن مد كوابل الإشارة عبر القناة منذ اللحظات الأولى للعبور ، وتم تحديد الطرق والمدقات بحيث كان يعلم السائق أنه إذا تبع اللون الأحمر مثلاً فإنه سيصل إلى وحدته في رأس الكوبري بينما يتبع سائق آخر اللون الأخضر ، وهكذا . وقد درّبت القوات قبل المعركة على ذلك وقامت بتنفيذها بكفاءة تامة .

وامتلاً ميدان المعركة برائحة الدخان والدم والموت ، كمسا امتلاً بالصجيج والتراب والرهال ٠٠٠٠٠ وأصوات انفجارات ، وأزيز دالقات الرصاص ، وصفيح القنابل الساقطة من جوف الطائرات ، وصيحات العدو الذي لا يعرف كيف يصد الهجوم .

وكان هذا بالضبط ما أرادته القيادة ؛ أن تهزّق مواقع خط بارليف المنيع بدوجات متتالية من البشر ، وعلى امتداد خط المواجهة كله ، في وقت واحد ، حتى لا تتاح فرصة لموقع لمساندة موقع آخر ، وحتى تهجز القيادة الإسرائيلية عن نجدة هذه المواقع كلها .

كانت القيادة المصرية تعرف أن هناك احتياطات معدة لنجدة المواقع المختلفة لخط بارليف ، وأن هذه المواقع قادرة على التدخل لنجدة بعضها البعض ٠٠٠ ولكن تخطيطنا جعل كل موقع جزيرة منعزلة محاطة بأمواج بشرية مصرية .

وعندما اندفعت هذه الاحتياطات لصد الهجوم المصري ، كانت الصواريخ المضادة للدبابات في انتظارها ٠٠٠٠ وانفجرت عشرات الدبابات والعربات المدرعة الإسرائيلية ، واصطدمت الدوريات الإسرائيلية بالكمائن المصرية المعدة للتعامل معها .

ومع الموجات الثانية عبرت مجموعات من المشاة تحمل صواريخ

« ستوريلا » (سام ٧) لحماية القوات التي ستتنشئ رؤوس الجسور من التدخل الجوى •

وظهرت بطولات وتضحيات أسطورية لا يتسع لها المجال •

لقد فشل العدو في مقاومة العبور ، وخاب أمل موسى ديان الذي صرح بأن العملية سوف يقضى عليها في يوم واحد ، فقد بنى رأيه على التقديرات التالية :

(أ) ضرورة فشل المصريين في العبور نتيجة النيران الكاسحة التي يمكن أن تطلق عليهم من حصون خط بارليف ، وكذلك السوائل الملتهبة التي كان يأمل أن تغطي القناة • وبذلك فليس هناك أى أمل في وصولنا إلى الشاطئ الشرقي •

(ب) عدم قدرة المهندسين في إزالة الساتر الترابي وإنشاء الكبارى والمعديات دون تأمين الجانب الشرقي ، وأنه بفرض نجاح المصريين في اقتحام جزء من القناة فإن المهندسين سوف يحتاجون إلى حوالى ٢٤ ساعة لإنشاء هذه لكبارى ، وبالتالي فإن الدبابات والأسلحة الثقيلة لن يتم عبورها قبل حوالى ٤٨ ساعة من بدء الهجوم ، وكان هذا الوقت يكفى لجلب الاحتياطات المدرعة من العمق لتقوم بتصفية القوات التي نجحت في إنشاء رؤوس الكبارى في الشرق •

وقد أخطأ ديان الحساب عند تقديره لإمكاناتنا في العبور وبخاصة في النقاط الرئيسية التالية :

١ — قدرة المشاة على صد الدبابات والطائرات المغيرة التي تكون على ارتفاع منخفض ، والتشبث بالأرض ولو بدون أسلحة ثقيلة لمدة طويلة •

٢ — كفاءة مهندسينا وقدرتهم في إقامة الكبارى والمعديات على هذا المانع في مدة تتراوح بين ٦ و ٩ ساعات ، وجاء في كتاب « حرب رمضان » عن جهود المهندسين ما يلي :

» وجدير بالذكر أنه خلال ساعتين من انطلاق الشرارة الأولى كان حجم قوات المهندسين العسكريين التي عبرت القناة ، والتي راحت تعمل فوق سطح الساتر الترابي وفوق صفحة القناة قد تجاوز الخمسة عشر ألف مقاتل من المهندسين العسكريين من مختلف التخصصات « (١) .

٣ — التنظيم الجديد للعبور والذي وصل إلى أن كل ضابط وجندي في القوات التي تقوم بالعبور أو تقوم بتقديم الدعم له ، كان يعلم جيدا دوره بالتفصيل (٢) ، والوقت الذي ينفذ فيه هذا الدور بالدقيقة ، إلى الحد الذي جعل عملية العبور تعتبر سيمفونية رائعة يشترك فيها عشرات الألوف من البشر في وقت واحد .

٤ — المفاجأة التي حققتها قواتنا والتي ظهرت نتيجتها بوضوح في الأيام الأولى للمعركة حيث كانت جميع تصرفات العدو تنسم بعدم التنسيق وبالارتجال لمدة يومين على الأقل .

٥ — العقيدة والإصرار اللذين كان يقاتل بهما جنودنا البواسل ، فلقد كان كل ضابط وجندي يعلم جيدا أنه يدافع عن شرف مصر وشرف العروبة الذي لطخته بالتراب أحداث ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ ظلما ، وكان يحاول أن يسترد أرضه ، ويستعيد كرامته وعزته ، بينما كان الجندي الإسرائيلي يقاتل دون هدف واضح مقنع .

٦ — وهل وضع ديان في حسابه الأثر المعنوي الذي أحدثته الهتاف العظيم « الله أكبر » الذي رددته الجنود وهم يعبرون القناة ؟ لا أعتقد أنه أدخل ذلك في حساباته .

مع جيش إسرائيل وساسة إسرائيل :

إذا كنا سرنا مع الجيش المصري وهو يتقدم ويحقق النصر ، فمن

(١) حرب رمضان ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٢) قبيل المعركة بحوالى أسبوعين زارنا أحد الأقارب من جنود المؤهلات وذكر أنه لو قامت المعركة فإن كل واحد منا يعرف دوره عن ظهر قلب ويكرره كل يوم - تحية لهذا القريب وزملائه ، وتحية تقدير للفريق الشاذلى ورجاله على هذا الجهد الكبير . أحسن الله جزاءهم .

الحق علينا أن ننتقل للجبهة المعادية في إسرائيل لنعايش الجيش الذى كان يدعى أنه لا يثقهم ، ولنرى ماذا جرى له ؟ وكيف واجه النصارى المصرية وهى تقتحم عليه خنادقه وحصونه ؟

فى اليومين الأولين للمعركة كانت بلاغات إسرائيل حافلة بالغرور ، وكانت بلاغاتها فى منتهى الدقة ، ولكن العالم صدق بلاغات إسرائيل التى ادعت فيها أنها ستطحن عظام العرب ، وتكسر جماجمهم ، وسيرا مع هذا الغرور اتصلت جولدا مائير بواشنطن تليفونيا وأبلغتهم أن إسرائيل فى حاجة إلى يومين فقط لتحطم عظام العرب فى مصر وسوريا ، وبعد الانتهاء من هذه المهمة البسيطة ستطالب إسرائيل أمريكا بتعويض الأسلحة التى فقدتها فى القضاء على العرب ، وطمأنت مائير واشنطنون بالآ تعلق أمريكا على إسرائيل التى تعرف جيدا كيف تتعامل مع العرب .

ومضى يومان بعد مكالمة جولدا مائير ، واتصلت إسرائيل تليفونيا بواشنطنون ، لتقول إنها مازالت فى حاجة إلى يومين آخرين للقضاء على العرب لأنها استخدمت اليومين الماضيين فى التعبئة والحشد بسبب عيد الغفران الذى عطل هذه العملية ، وبخاصة أن إسرائيل لم تعلن حالة التعبئة وأكد ديان فى حديثه على حق إسرائيل فى تعويض الأسلحة بعد القضاء على العرب فى ظرف ٤٨ ساعة .

الزأال ، أنقذونا :

وفى نهاية المهلة الجديدة التى طلبها ديان ، استغاث السفير الإسرائيلى فى واشنطن بوزارة الخارجية الأمريكية فى رسالة عاجلة تصرخ : أنقذوا إسرائيل ، ، ، ، وأعلن السفير أن إسرائيل فقدت أربعمائة دبابة على الجبهة المصرية والحالة فى غاية الخطورة لأن الطريق أصبح مفتوحا إلى تل أبيب ، وانتهت الرسالة التاريخية عند هذا الحد .

وتقول جولدا مائير فى كتابها « حياتى » « لقد طلبت من السفير

الإسرائيلي بالولايات المتحدة عدة مرات أن يتصل بالمسؤولين في واشنطن فوراً لإنقاذنا ، وفي إحدى المرات قال لها : إننا في الساعة الثالثة صباحاً ولا أستطيع أن أوقظ أحداً الآن .

وكان ردّها : لا يهمنى كم تكون الساعة الآن . إن الموت يأكل جنودنا ، إن كل ساعة تأخير تكلفنا الكثير جداً ، أيقظهم جميعاً : اتصل بالدكتور كسينجر فوراً .

وعندئذ طلب كسينجر جولدا مائير مباشرة بالتليفون وقال لها : إن السفير الإسرائيلي في واشنطن قد أبلغه باستغاثة إسرائيل العاجلة وطلبها أربعمائة دبابة فوراً بدلاً من الدبابات التي فقدتها على الجبهة المصرية ، وأبلغها كسينجر أيضاً أنه طلب تقريراً عاجلاً من البنتاجون الذى استعان بالقدر الصناعى فى كتابة التقرير ، ونشير كل الدلائل إلى أن المعركة على الجبهة المصرية تسير فى غير صالح إسرائيل نهائياً ، وأن خسائر إسرائيل بلغت حداً لا يصدق فهل هذا صحيح وهل صحيح أن إسرائيل طلبت المنجدة السريعة ؟

أجابت جولدا مائير على كسينجر بالإيجاب وأبلغته أن ديان طلب ذلك بناء على موافقة مجلس الوزراء الإسرائيلى ، واعترفت بأن إسرائيل فى انتظار الوصول الفورى للدبابات الجديدة حتى تنقذ إسرائيل نفسها من أهوة الرهيبة التى وقفت على حافتها وأوشكت على السقوط فيها بالفعل ، بل إنها استخدمت تعبيراً ذكره اليسار رئيس الأركان الإسرائيلى فى مذكراته وهو : « إن إسرائيل فى القاع » (in the Bottom)

عندئذ صارحها كسينجر برأيه وقال لها إن على إسرائيل أيضاً كانت النتيجة النهائية أن تجهّز نفسها للأوضاع الجديدة المترتبة على هذه الهزيمة . ومع ذلك فستبذل أمريكا أقصى ما فى وسعها لإنقاذ إسرائيل ومساعدتها بكل الوسائل الممكنة (١) .

(١) جولدا مائير : حياتى فى عدة أمكنة .

وكان موسى ديان قد اعترف في نهاية الأيام الأربعة الأولى أن لا مجال إطلاقاً لرد المصريين إلى منطقة القناة بعد أن استولت على خط بارليف ، وأن هذه الحرب ليست إلا زلزالاً هزَّ إسرائيل وكان من رأيه أن يصارح الشعب الإسرائيلي بذلك ولكن الساسة منعه .

وتقول صحيفة « هاعولام هازيه » الإسرائيلية « إن الجنرال موسى ديان قد انهيار في اليوم الثاني من حرب أكتوبر عندما حطمت القوات المصرية جميع الهجمات الإسرائيلية في سيناء ، ووصلت القوات السورية إلى مسافة قصيرة من وادي الأردن وأوقعت خسائر جسيمة في الدبابات والطائرات الإسرائيلية ، كل هذه الأحداث حوَّلت ديان إلى رجل محطَّم » (١) .

ثم تدخلت الولايات المتحدة لإنقاذ إسرائيل وبدأ الجسر الجوي الأمريكي يحمل إلى إسرائيل فيضا من الأسلحة والمعدات ، وبعضها كان يستعمل لأول مرة ، وسنرى تفصيل ذلك ص ٢٩١ وما بعدها .

نهاية تفوق الطيران الإسرائيلي :

وإذا تحدثنا عن نموذج من خسارة إسرائيل في معارك السادس من أكتوبر فإننا نذكر أن أعظم الخسائر التي نزلت بهم كانت في الطيران ، ومن المشرَّف أن نقرر أن طائرتنا من طراز ميغ ١٧ ذات السرعة الهائلة كانت قادرة على إسقاط طائرات الفانتوم الأمريكية ، فضاع ثلث سلاح الطيران الإسرائيلي في ثلاثة أيام ، وضاعت بذلك سمعة الطيران الإسرائيلي الذي كان يتمتع بالسيادة المطلقة على أجواء المنطقة كلها .

المدركات الإسرائيلية :

ولم يقتصر الأمر على ضياع خرافة السلاح الجوي الإسرائيلي ،

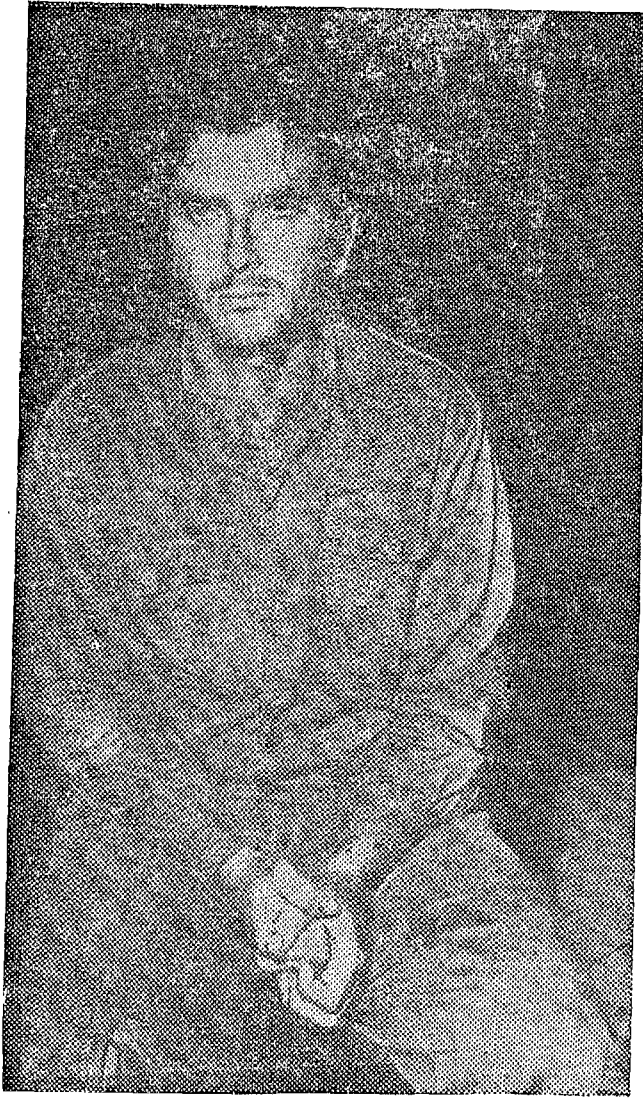
(١) نقلاً عن « حرب رمضان » للواء المجذوب وآخرين ص ١١١ .

وتحطيم سمعة الجندي الإسرائيلي ، بل إن شهرة المدرعات الإسرائيلية دفنت في الأوحال وهي تفرّ مذعورة أمام المدرعات المصرية لدرجة أن قائد المدرعات الإسرائيلية الشهير إبراهيم مندler لقي حتفه على الجبهة المصرية بعد أن ظل يستغيث بالإشارات العاجلة ، ولكن لم يكن هناك في إسرائيل من ينجده أو حتى يسمع صرخاته المذعورة التي طغى عليها هدير المدرعات المصرية •

ومن أروع الانتصارات المصرية في معركة المدرعات القضاء على اللواء ١٩٠ الذي كان من أقوى لواءات إسرائيل المدرعة ، وكان يقوده عساف ياجوري الذي أصيب بانهيار عصبي عندما نظر حوله فوجد أنه فقد اللواء بأكمله في ثلث ساعة وكان هذا اللواء يتكون من ١٢٠ دبابة ، وقد خطط على أنه يستطيع الصمود عدة أيام وأسابيع ولكن أمره انتهى في دقائق ، ووقع قائده في الأسر ، كما استسلم مئات الجنود الإسرائيليين واقتيدوا أسرى إلى الأراضي المصرية •

تلك لحظة سريعة من لمحات الهزائم التي نزلت بالجيش الإسرائيلي فأزالت كبريائه إلى الأبد ، وقد نشرتها صحف العالم ودونتها الرئيس أنور السادات في مذكراته التي نشرها في الذكرى الثانية لهذه الحرب •

بقيت كلمة تتعلق بالشعب الإسرائيلي الذي خدعته الطبقة العسكرية وأوهمته أنه يعيش في أمان وتفوق ، فهزته انتصارات العرب وزلزلت كيانه ، فعاد بعضه من حيث أتى ، وبقي آخرون في إسرائيل يترنحون من هول المأساة ، وقد أدت هذه الهزيمة إلى التمزق والانهار الحزبي في إسرائيل ، كما أدت إلى عزل إسرائيل دوليا أو إلى الغلاء الفاحش والملاجوء إلى الضرائب التصاعدية التي وصلت إلى ٨٢٪ بالإضافة إلى الهجرة العكسية فزاد عدد من يغادرون إسرائيل بنسبة ٤٠٪ •



نهاية الخديعة

ظن أن إسرائيل لا تهزم ، ثم رأى الهزيمة المدمرة

يوم ميهون طويل :

ويسجل اللواء محمد حافظ إسماعيل أحداث اليوم الأول للهجوم ،
وهن هذا السجل الدقيق يبادو لنا أنه كان يوما ميهونا كثير البركة ، وأنه
قد حدثت به أحداث يضيق يوم واحد عن احتوائها يقول سيادته :

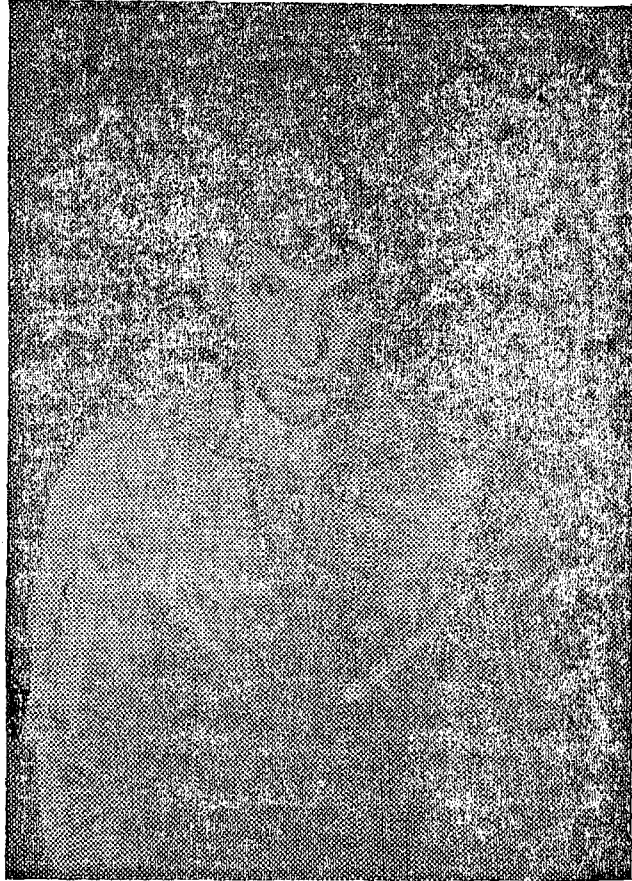
وعلى جبهة القتال ، وتحت سائر الأنيران عبرت القناة مغازز اقتحام
المدبابات وجماعات الصاعقة ، وفي الساعة الثانية وعشرين دقيقة بدأت
الموجات الأولى لخمسة فرق مشاة وقوات قطاع بورسعيد في اقتحام
قناة السويس ، وخلال دقائق كان ٨٠٠ جندي يقفون على الشاطئ الشرقي
للقناة ، وتلا ذلك بإحكام ودقة فتح ثغرات في السائر الترابي وإنشاء
الكبارى عبر القناة .

واستمر تدفق الموجات المتتالية من الفرق المشاة الخمس حتى
السادسة والنصف عندما أصبحت جميع النقاط الحصينة لخط بارليف وقد
حاصرها ٣٠ ألف جندي ، ينتشرون على جبهة تمتد ١٧٠ كيلو مترا من
بورسعيد حتى السويس بعق ٣ — ٥ كيلو مترات ، وقبل منتصف الليل
بدأ تدفق المدبابات والمدفعية والمعدات الثقيلة لتدعيم المراكز الدفاعية
المجددة شرق قناة السويس ، بينما كانت عشرات من طائرات الهليكوبتر
تعبر القناة وخليج السويس حاملة مجموعات من قوات الصاعقة صوب
أهدافها على عمق ٣٠ ، ٤٠ كيلو مترا وراء الخطوط الإسرائيلية (١) .

ويقول الباحث العسكري عاطف السيد : وحتى الساعة السادسة
عشرة صباح ٧ أكتوبر كان قد تم تدمير ٣٣ طائرة إسرائيلية و ٢٠٠ دبابة
ومستوط نحو ٦٠٠ قتيل وجريح ، على حين نجحت تشكيلات المشاة المصرية
في إنشاء رؤوس كبارى شرق القناة بعق ٤ — ٥ كيلو متر ومعهما حوالي
١٠٠٠ دبابة ، واستولت على معظم نقاط العدو القويصة وحاصرت النقاط
الباقية بخسائر لا تتجاوز ثلاثمائة شهيد وعشرين دبابة (٢) .

(١) أمن مصر القومي : ص ٣١٣ .

(٢) من سيناء الى كامب ديفيد ص ٩٦ .



معموم الأسير

تلك كانت حصيلة الاندفاع الأول ، وهى حصيلة مشرّفة وباعثة على الرضا والسعادة ، ونسير بعد ذلك مع المعركة لنرى مسيرتها فيما تلا من أيام .

معركة الدبابات :

قامت الدبابات المصرية بدور هائل فى المعارك بين مصر وإسرائيل ، ولعل أدق تصوير لنجاح مصر فى هذه المعارك هو ما قاله موسى ديان (١) نفسه وهاك كلماته :

منيت القوات الإسرائيلية بخسائر هائلة فى الرجال والمدرعات ، وخرجت من المعركة ولم يبق لديها شئ سوى قلة من الدبابات القادرة على القتال .

وعن الدبابات أيضا نقفز قفزة زمنية لنتذكر أنه حينما اشتد الضغط على سوريا خرجت القيادة المصرية عن الخطة المرسومة وخاضت معركة مدرعات هائلة من ١٣ — ١٦ أكتوبر ووصفها المؤرخ الصهيونى والتر لا كير بأنها تفوق فى شدتها وحجمها معارك الحرب العالمية الثانية باستثناء معارك الجبهة السوفيتية الألمانية (٢) .

وهناك ضباط وجنود مصريون سقطوا جرحى فى هذه المعارك ، ونقلوا لساحات العلاج والإنقاذ ، وتقول السيدة جيهان السادات (٣) أنهم كانوا يريدون العودة للميدان قبل أن يتم علاجهم ، وكان الأطباء المصريون يبذلون أقصى الجهد لإبقائهم فى ساحات العلاج حتى يتم شفاؤهم .

(١) قصة حياتى : ترجمة الهيئة العامة للاستعلامات القسم الثانى ص ٥٢٣ .

(٢) دكتور صلاح العقاد : السادات وكامب ديفيد ص ١١٤ .

(٣) سيدة من مصر ص ٣٤٢ .

أمريكا ثم الثغرة :

من المحتم على المؤرخ المتعمق أن يربط بين أمريكا وثغرة الدفرسوار ، فلقد خلقت أمريكا هذه الثغرة وطوّرتها ، ودفعت إسرائيل بها إلى الجانب الغربى من القناة ، وعندما صدر قرار وقف إطلاق النار وارتضته مصر وإسرائيل اتضح أن أمريكا حثّت إسرائيل على مزيد من الاندفاع للوصول إلى السويس ومحاولة احتلالها ، ومن الواجب على كل مصرى وكل عربى وكل مسلم ، أن يتدارس بعمق هذه القضية ، وأن يدرك أن عدونا الحقيقى هو أمريكا على الرغم مما يقوم بيننا وبينها من علاقات ، وهذا الإجمال نعطى له بعض التفاصيل •

كانت الضربات الأولى على إسرائيل شديدة وقاسية وغير متوقعة ، فدمرت غرور هذه الدولة ، وحطمت كبرياءها ، وعندما استسلم عساف ياجورى ودمر اللواء المسلح الذى كان يقوده وعندما انتهت سطوة خط بارليف لم يستطع اليهود احتمال الكارثة فراحوا يولولون كالمرأة الثكلى ، فموسى ديان الجبار المتغطرس وزير الدفاع الإسرائيلى انهار ، وبكى أمام رجال الإعلام الأجانب ، وجولدا مائير رئيسة الوزراء صرخت : الزلزال أنقذونا •

ومن المعروف أن أمريكا غرست إسرائيل فى هذا المكان لتكون رأس حربة فى قباب العالم العربى والإسلامى ، وأنها كما صرّحت كثيرا « ولدتُ للهيث » ومن هنا سرعان ما قام « البنتاجون » وزارة الدفاع الأمريكية بإصدار تقرير يؤكد أن إسرائيل على وشك أن تخسر الحرب أو خسرتها فعلا وتبعا لهذا التقرير تغير كل شيء ، فقد تدفقت الأسلحة والمتطوعون عن طريق الطائرات والسفن من أمريكا أو من قواعدها بأوروبا ، وكانت المساعدات العسكرية تصل مباشرة إلى مدينة الهيث لتيسير اشتراكها فى المعركة ، ولم تقنع أمريكا بإمداد إسرائيل بالأسلحة المتفوقة كالدبابات والصواريخ ، بل أرسلت أحدث ما عرفته

التكنولوجيا الأمريكية من الأسلحة التي كانت لا تزال تحت الاختبار ،
وقنابل المافريك المدمرة وقنابل « أكاستر » ذات الخطورة البالغة .

وفي مدى وجيز قدّم الجسر الجوي الذي أدت به أمريكا إسرائيل
أسلحة تزيد قيمتها عن ٢١/٢ مليار من الدولارات الأمريكية ، وقد وقع
في أسر القوات المصرية بعض الدبابات الأمريكية حديثة التصدير ، وكانت
قراءة عدادها لا تزيد عن ٢٠ كم وهي المسافة من العريش إلى مكان
المعركة .

وتقول السيدة جيهان السادات — وكانت تشرف على الإسعافات
الطبية لرضى المعركة — : لقد لاحظنا أن طبيعة الإصابات قد تغيرت بطريقة
لم نر لها مثيلا من قبل ، مما جعل الأطباء يحسبون أن سلاحا جديدا لم
يكن معروفا من قبل بدأ يظهر في المعركة .

ولعل هذا هو ما أشار له أنور السادات بقوله (١) :

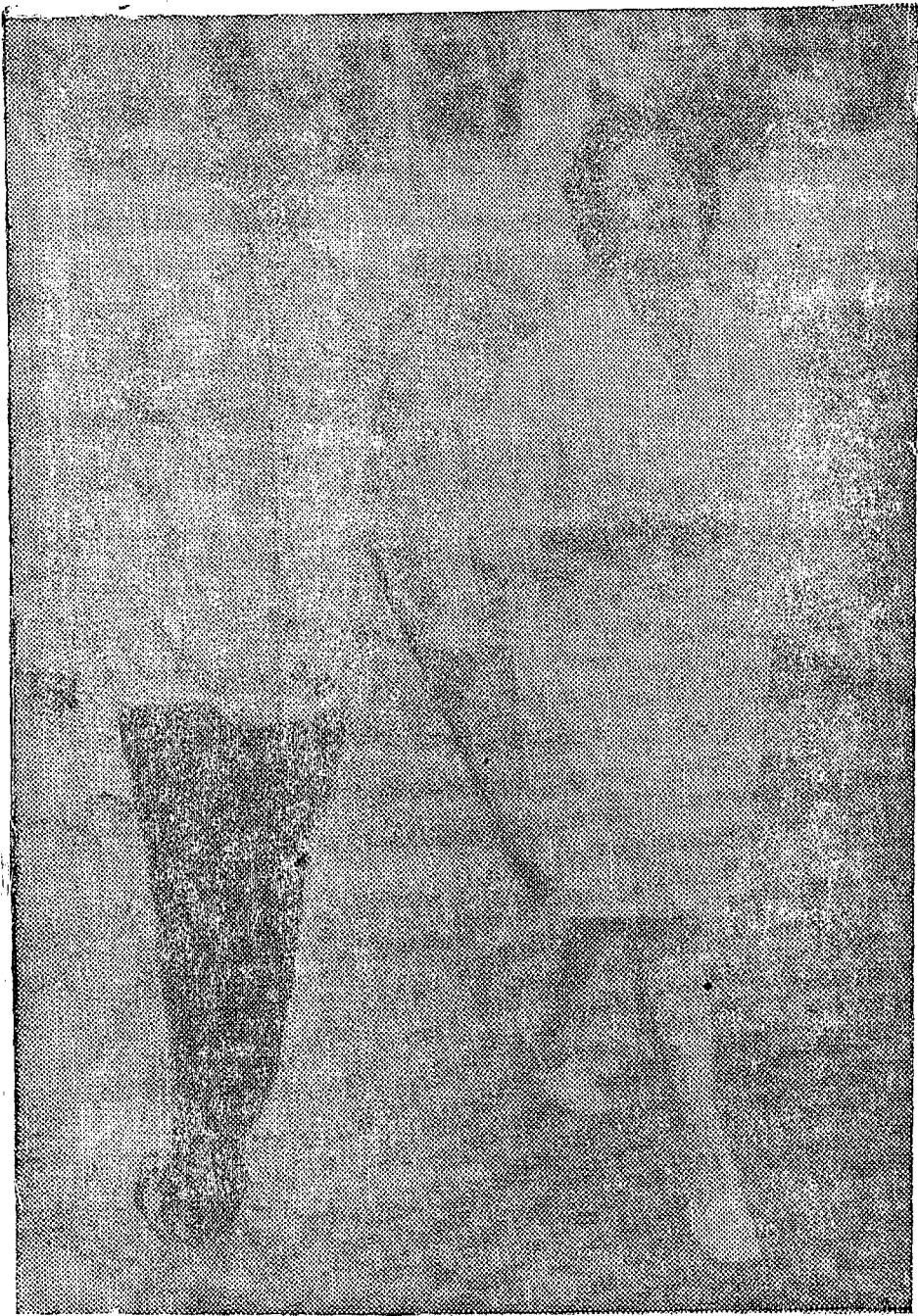
إن هناك أمورا لم تعلن وأسرارا لم تكشف بعد عن حرب
أكتوبر ، وهي مذهلة يشيب لهولها الولدان ، وستعلن في الوقت
المناسب ، فلقد كان هدف أمريكا القضاء على قوات مصر ، وذلك بإبادة
جماعية مدروسة .

وقبيل ذلك قال في حديث آخر :

إنه أصبح واضحا أن أمريكا طرف أساسي في المعركة ، إذ تدخلت
تدخلًا كاملا ، وأقامت جسرا جويا هائلا إلى سيناء ، فأصبح مطار العريش
يستقبل الطائرات الضخمة ، التي تبلغ سعة كل منها ١٢٠ طنا ، وكانت
الدبابات تنزل في المطار وهي جاهزة ببنزينا وطقمها كله ، وتنتجه مباشرة
إلى المعركة (٢) .

(١) الاهرام في ١٠/١/١٩٧٥ .

(٢) الاهرام في ٣/١/١٩٧٥ .



كانت جيهان السادات تشترك في تهریض جرحى الحرب

ولم تقنع الولايات المتحدة بهذا العون الكبير لإسرائيل بل أعلنت أنها ستقف ضدها ، وذكرت أنها ستقاوم أى عمل مصرى يخالف تعليماتها •
واتصلت أمريكا بالمرحوم الملك فيصل لمساعدتها فى إيقاف المعركة ، ولكن الملك فيصل رفض هذا الاتجاه ما لم يتقرر الانسحاب الإسرائيلى والاعتراف بحقوق الشعب الفلسطينى وبعث للرئيس السادات برفقة يؤكد فيها : إننا بجانبكم بكل إمكانياتنا داعين للجيش المصرى بالنصر •

عون الأصدقاء عند الشدة :

وبينما كانت الأسلحة الأمريكية تتدفق على إسرائيل كان السوفييت يتقاعسون عن إمدادنا بالأسلحة اللازمة ومن هنا اهتز أصدقاء مصر لهذا الوضع ، فسافر الرئيس الجزائرى هوارى بومدين للكرملين وقدم مائتى مليون دولار ثمنا لمائة وخمسين دبابة ترسل فوراً لمصر وسوريا كما أرسل الرئيس اليوغسلافى تيتو إلى مصر مائة وأربعين دبابة ، وقدم جلالة الملك فيصل صوراً من المساهمة المادية والأدبية واشتركت الدول العربية الأخرى اشتراكاً فعلياً ، وقدمت السعودية صفقة أسلحة أهمها سرب طائرات « ميراج ه » الفرنسية وقدم المغرب فوج مشاة وقدم السودان لواء مشاة ، وقدم العراق سرب طائرات هوكر هنتر وقدمت الكويت كتيبة مشاة ، وقدمت العراق إلى سوريا فرقتين مدرعتين وثلاثة ألوية مشاة كما تلقت سوريا مساعدات عسكرية من الأردن والمغرب والسعودية والكويت •

تحية إجلال لهذا العون العربى الذى لو انتظم لحقق للعرب أسمى الأمانى •

عون أدبى أفريقى :

ومع العون العربى قدمت الدول الإفريقية عوناً أدبياً عظيماً ، فقد بلغ عدد الدول الإفريقية التى قطعت علاقاتها مع إسرائيل خلال الحرب

٢٢ دولة بالإضافة إلى ثمانى دول كانت قد قطعت علاقاتها مع إسرائيل منذ سنة ١٩٦٧ ولم يبق إلا أربع دول افريقية لها علاقات مع إسرائيل بالإضافة إلى دولة غربية عن المجتمع الافريقى وهى « جنوب افريقيا »^(١) .

سوريا بين النصر والهزيمة :

وكانت سوريا فى الأيام الأولى للحرب قد حققت انتصارا هائلا ضد إسرائيل ، واستعادت الجولان كله أو أكثره ، وفى صباح اليوم العاشر من أكتوبر اتجهت القوات الإسرائيلية إلى الضغط على الجبهة السورية ، والاكتفاء فيما يتعلق بالجبهة المصرية إلى إيقافها وكانت تقصد بذلك أن تتغلب على سوريا وأن تخرجها من المعركة ، وتنفيذاً لهذه الخطة اتجهت إسرائيل لخدف أهداف استراتيجية فى عمق سوريا وبخاصة الأهداف الاقتصادية لإجبار سوريا على الاستسلام .

إنقاذ سوريا عرض مصر للخطر :

واتصلت سوريا بالقاهرة ترحو أن تضغط على إسرائيل حتى تخفف إسرائيل ضغطها على الجبهة السورية ، وكانت سياسة مصر آنذاك ترمى إلى ما يسمى « وقفة تعبوية » بعد الجهد الكبير الذى بذلته فى الأيام الأولى ، ولأن مصر حققت ما كانت تصبو إليه مما ذكرناه من قبل وهو أن الحرب ليست لاسترداد سيناء ، وإنما لإحداث هزيمة لإسرائيل من جانب وللمجتمع العالمى من جانب آخر لخلق صحوة تعيد الحياة للقضية ، ولكن نداءات سوريا دفعت مصر للاستجابة فأصدرت القاهرة تعليماتها لاستئناف الزحف ، واتجهت القوات المصرية لمزيد من التقدم تجاه المضائق ، وانشغلت بهذا الجهد ابتداء من صباح يوم ١٣ أكتوبر وقد سبق أن ذكرنا أن الجيش المصرى زحف إلى الشرق فى حماية

(١) لواء حسن البدرى ولواء طه المجدوب والعميد ضياء زهدى :
حرب رمضان ص ٢١٥ .

حائط الصواريخ الذى كان نفوذه يمتد إلى مسافة لا تتعدى عشرة أميال ،
ولذلك كان تقدم الجيش المصرى تجاه المضائق مغامرة ، لكنها أصبحت
مغامرة مقبولة لأن الطيران الإسرائيلى خسر خسارة كبيرة خلال زحف
الجيش المصرى فى أيامه الأولى ، ولأن هذا التقدم أصبح ضروريا لمساعدة
سوريا •

أمريكا تكتشف الثغرة :

فى الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر يوم ١٣ من أكتوبر حدث
أمر خطير ، إذ قامت طائرة استطلاع أمريكية من طراز لوكهيد
SR-71-A برحلة استطلاع فوق الجبهة المصرية ، وشوهدت حركاتها
على شاشة الدفاع الجوى فى غرفة العمليات بالمركز الرئيسى ، وقدمت
هذه الطائرة نتيجة جولتها الاستطلاعية ، وكانت هذه النتيجة خطيرة للغاية
فقد اكتشفت هذه الطائرة هى والأقمار الصناعية الأمريكية وجود ثغرة
بين الجيش الثانى والثالث عرضها ٢٥ كيلو مترا ، وأبلغت الولايات
المتحدة إسرائيل بهذا الوضع وحشنتها على استغلال هذه الفرصة للعبور
إلى غرب قناة السويس •

ويقول الفريق أول محمد على فهمى وهو يتحدث سنة ١٩٨٢ إلى
أخبار اليوم فى الاحتفال بذكرى حرب أكتوبر ما يلى عن الثغرة وموقف
أمريكا منها :

أخطرنا الرئيس السادات فى اجتماع القناطر الخيرية يوم الاثنين
٢٤ ديسمبر سنة ١٩٧٣ مع بعض القادة العسكريين أن « كيسنجر » قد
أبلغه بأن الأمريكين عندما استطلعوا عدم وجود احتياطى مدرع فى
الغرب نتيجة دفعه إلى الشرق أعطوا النور الأخضر لإسرائيل للاندفاع
نحو المغرب ، ولذا فإن أمريكا تقرر أن الوضع الخاص بالثغرة من صنعهم •

ويقول شارون : كانت المبادرة بأيدي المصريين الذين استطاعوا أن

يُلحقوا أفدح الخسائر بالجيش الإسرائيلي ، وكان القتال يمكن أن يتوقف في أية لحظة وموقفنا في غاية السوء ، وهذا سيكون كارثة كاملة بالنسبة لإسرائيل وسمعتها ، ومن أجل ذلك كان لابد من عمل شيء ، فالتحمت يوم ١٦/١٠/٧٣ على القيادة لتوافق على استغلال الفراغ بين الجيش الثاني والثالث للعبور إلى الغرب عند الدفرسوار •

ويضيف شارون قوله إنني شعرت في الأيام الأولى لهذه العملية أن إقامة الجسور إلى الغرب كان خطأ عسكريا فقد كان القذف المصرى بالغ العنف •

أمريكا تؤيد الثورة :

كانت صيحة وقف إطلاق النار من مجلس الأمن على أشدها حين ذاك ، ورأت مصر أن أمريكا دخلت المعركة فعلا بأسلحتها وبالمتطوعين الذين وفدوا منها ، وبطائراتها الاستطلاعية ، وأقمارها الصناعية ، فقبلت وقف إطلاق النار كما قبلته إسرائيل وأعلن أنور السادات ذلك بقوله : في خطاب حزين إلى الرئيس حافظ الأسد نصه :

أخى الرئيس حافظ الأسد :

لقد حاربنا إسرائيل إلى اليوم الخامس عشر ، وفي الأيام الأربعة الأولى كانت إسرائيل وحدها ، فكشفنا موقفها في الجبهتين المصرية والسورية ، وسقط لهم باعترافهم ٨٠٠ دبابة على الجبهتين وأكثر من مائتى طائرة ، أما في الأيام العشرة الأخيرة ، فإننى على الجبهة المصرية أحارب أمريكا بأحدث ما فيها من أسلحة .

إننى ببساطة لا أستطيع أن أحارب أمريكا أو أن أتحمل المسؤولية التاريخية لتدمير قواتنا المسلحة مرة أخرى ، لذلك فإننى قد أخطرت الاتحاد السوفيتى بأننى أقبل وقف إطلاق النار على الحدود الحالية بالشروط التالية :

١ — ضمان الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة بانسحاب إسرائيل
كما عرض الاتحاد السوفيتى .

٢ — بدء مؤتمر السلام فى الأمم المتحدة للاتفاق على تسوية شاملة
كما عرض الاتحاد السوفيتى (١) .

وإن قلبى ليقطر دما ، وأنا أخطرك بهذا ، ولكننى أحس أن مسئوليتى تحتتم علىّ اتخاذ هذا القرار ، ولسوف أواجه شعبنا وأمتنا فى الوقت المناسب لكى يحاسبنى الشعب ، مع تمنيات .

أنور السادات

(١) كوسيجين كان قد زار مصر فى أثناء المعركة والح على أنور السادات أن يوقف المعركة فرفض .

وقفات مع النفرة :

الوقوفة الأولى هي أن عملية النفرة أطلق عليها الإسرائيليون (وادى الموت) لأنها وضعت جنود إسرائيل بين شقى الرحا .

ويقول أنور السادات عن النفرة وعن سهولة القضاء عليها ما يلى :

كنت واثقا كل الثقة من أن عملية النفرة مغامرة طائشة ساذجة ومكتوب لها الفشل المحقق ، فلو أنى صفيت النفرة حسب الخطأ الموضوعة والتي وقعتها بنفسى كانت إسرائيل ستفقد ٤٠٠ دبابة وعشرة آلاف عسكرى ما بين قتيل وجريح ، ولم يكن هذا بالأمر الصعب أو المحتمل بل الأكيد ، ففى هذه المعركة لم يكن أمامى قناة أعبرها أو خط بارليف اقتحمه ٠٠ العدو أمامى وعلى مساحة ضيقة من الأرض ، ظهره للبحيرة ووراءه على الضفة الشرقية خمسى فرق كاملة لى ، ومدخل النفرة من الضفة الشرقية فتحة هى ست كيلو مترات فقط عند نقطة الارتكاز بين الجيشين الثانى والثالث ، كل الحسابات العسكرية كانت تشير إلى أن هذه المعركة لو تمت فستكون مذبحة التاريخ .

ويقول أنور السادات كذلك عن النفرة : لقد وجهنا الضربات الموجعة والمميتة للنفرة الإسرائيلية ، وأنا فى هذا أستشهد بكلام اليعازر رئيس الأركان الإسرائيلى المعزول عن خسائرهم فى النفرة الرهيبة التى دفعوا ثمنها باهظا من أجل استعراض تليفزيونى سخيف .

وبالإضافة إلى شهادة اليعازر هناك شهادة أحد الطيارين الأسرى الذين كانوا يمهلون فى نقل الجرحى الإسرائيلين ، وهذه الشهادة مسجلة عندنا وتوضح الخسائر الرهيبة التى أصابت إسرائيل فى النفرة التى كانت مقبرة لهم بكل ما تصوّره المقابر من صور الموت ، وقد أعلنت وأنا فى عمّان أخيرا أننى اتحدى أن تعلن إسرائيل عن خسائرها فى النفرة وعن تفاصيل هذه العملية المسرحية .

وفي هذا المجال كذلك يرّوى اللواء محمد حافظ إسماعيل أن موسى ديان وزير الدفاع الإسرائيلي أوشك يوم ١٧ أكتوبر على اتخاذ قرار باستدعاء القوات التي كانت قد عبرت القناة إلى الشرق مقدّراً فشلها في تحقيق مهمتها (١) .

والوقفّة الثانية مع الثغرة تقرر أن هذا الاختراق ليس عملية عسكرية فريدة في نوعها فتاريخ الحروب ملئ بالأمثلة العديدة لعمليات الاختراق وعمليات التصدي لها وتصفيتها (٢) .

والوقفّة الثالثة حول الثغرة هي أن الولايات المتحدة التي أصرت على وقف إطلاق النار حمت إسرائيل بعد الاتفاق على الموعد المحدد لذلك ، وسمحت لها بالاستمرار في الزحف وتوسيع الثغرة والسير لحصار السويس ، فحققت إسرائيل في المدة بين ٢٢ و ٢٤ أكتوبر أى بعد قبول الأطراف المتحاربة لقرار وقف إطلاق النار زحفاً وسّع من نطاق هذه الثغرة وجعلها أشد خطورة .

والوقفّة الرابعة مع الثغرة تصف أثرها على صحة الرئيس السادات وهو يذكر ذلك بقوله : كان الألم قد استولى على بسبب هذه الثغرة ، فأصبت بنزيف لمدة ٤ أيام واستدعيت الأطباء ليفحصوا البول الذي كان قد صار كتلا من الدم ، فقال الأطباء إن هذا النزيف بسبب التوتر النفسى ، ولكن لا خطورة منه ووصفوا لى بعض الأدوية التي كانت مفيدة في هذا الشأن (٣) .

والوقفّة الخامسة مع الثغرة تتمثل في الجهود المصرية لتصفيتها بعد وقف إطلاق النار وبعد أن امتدت الأيام لوجودها غرب القناة ،

(١) أمن مصر القومى ص ٣٤٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٤١ .

(٣) البحث عن الذات ص ٣٥٧ وضاع جيشنا كله في ١٩٦٧ ولكن عبد الناصر وعامرا لم يصابا بأى نزيف .

ويوضح أنور السادات هذه النقطة وتهديد الولايات المتحدة لو أقبلت مصر على تصفيتها بقوله :

في ديسمبر ١٩٧٣ كنت مستعدا لتصفية جيب الثغرة ، فقد بدأت قواتنا حرب الاستنزاف معها ، ولم يتوقف ضغطها على الثغرة لحظة واحدة ، مما جعلنا نكسب أرضا جديدة كل يوم تارة بالأمتار وتارة بالكيلومترات ، ولكننا كنا نكسب دائما ، وأنا فعلا كنت على أتم الاستعداد لتصفية الثغرة ، وخاصة أنه ليست أمامي قناة لعبورها ، ولا خط بارليف للقتال يصدني ، ولكن الخطر الذي كان أمامي كان تدخل أمريكا ، ففي ١١/١٢/١٩٧٣ جاء كيسنجر وقلت له : أنا غير مستعد أن أقبل أسلوب اليهود حول موضوع الثغرة وأنا سأصفي الثغرة .

فقال لي : أنا قبل أن أحضر إليك عارف أنك جاهز ، أنا طلبت صورة الموقف من البنتاجون ، فأعطوني تقريراً كاملاً ، حائط صواريخك يتكون من كذا بطارية ، دباباتك حول الثغرة ٨٠٠ دبابة مدافعك عددها كذا ، وتستطيع فعلاً أن تصفي الثغرة ، ولكن أعلم أنك إذا فعلت هذا سيضر بك البنتاجون .

قلت له : هذا هو السؤال : ما هو موقف أمريكا ؟

قال لي : سيضربك البنتاجون ، سيضربك البنتاجون ، بسبب واحد وهو أن السلاح الروسي قد انتصر على السلاح الأمريكي مرة ، ولن نسمح له في الاستراتيجية العالمية أن ينتصر للمرة الثانية .

واستأنف كيسنجر حديثه قائلاً : هل تعرف أنه عندما أُرْسِمت أنت الموقف عالمياً وقلت للقوتين تعالوا هاتوا لي خط ٢٢ أكتوبر أو أن تستعيده على شرط ألا يقف البنتاجون ضدك تعرف الخطة اللي وضعها البنتاجون في ذلك الوقت ماذا كان شكلها ؟

كنا سننزل عندك في سيناء ونخلص عليك إذا الروس نزلوا
عندك في الغرب لأننا كنا نريدك أن تعلم أن الروس لا يُعْتَمَد عليهم ،
فنضربك ضربة نضرب بها الروس ، نفس الوضع الآن ، لو أنت حاولت
أن تصفى الشجرة • سيدخل البنتاجون ويضربك ، لأن هذه هي سياسة
أمريكا المقررة (١) •

والوقففة السادسة مع الشجرة توضح الخلاف في وجهات النظر بين
القائد العام للقوات المسلحة المشير أحمد إسماعيل ورئيس الأركان
الفريق سعد الدين الشاذلى ، فقد اتجه رأى رئيس الأركان إلى سحب
بعض القوات من شرق القناة إلى الغرب للقضاء على الشجرة ، أما القائد
العام فلم يكن يرى سحب جندي واحد من الشرق ، وكان يرى أن التعامل
مع الشجرة ينبغى أن يكون عن طريق القوة الموجودة غرب القناة ،
واستدعى الرئيس السادات لحسم الخلاف وأقر الرئيس وجهة
نظر القائد العام بالألا يجرى انسحاب من الشرق إلى الغرب (٢) •

ويقول أنور السادات إننى في هذه الليلة أعطيت تعليمات لأحمد
إسماعيل بعزل الشاذلى من رئاسة الأركان على ألا يعلن هذا القرار
على القوات حتى لا يحدث رد فعل عندنا أو عند الإسرائيليين وفي نفس
الليلة استدعيت الجمصى وعينته رئيساً للأركان •

والوقففة السابعة مع الشجرة عن منافسات أضربت بمصر في الشجرة ،
فقد أرسل الرئيس السادات إلى رئيس الأركان الفريق سعد الدين الشاذلى
للتعامل مع الشجرة ، وكان من السهل جداً التعامل معها في ذلك اليوم ،
فقد كان السباق فيها للزمن • ولو أنه نفذ ما طلب منه لأحاط شاطئ
البحيرة بسد يسجنهم داخلها ويوقفهم في مكانهم ولأصبح من السهل
القضاء عليهم ، وكان في إمكانه أن ينتهى من العملية كلها بعد وصوله

(١) البحث عن الذات ص ٣٥٥ - ٣٥٦ •

(٢) محمد حافظ اسماعيل - أمن مصر القومى - ص ٣٤١ •

بساعات ، ولكنه أضع الليلة بأكملها في جمع المعلومات وإنشاء قيادة له ينافس بها قيادة غريمه الفريق أحمد إسماعيل ، وكانت قوات الصاعقة قد تقدمت إلى الدفرسوار ووصلت فعلا إلى نقطة النزول ، واعترف الإسرائيليون بشراسة قتال قوات الصاعقة والقوات الخاصة ٠٠٠ ولكن الشاذلى أعطاهم الأمر بالانسحاب إلى أن يجمع المعلومات وكانت النتيجة أن توسع اليهود في الثغرة (١) .

والمباحث يقرر أنه كان من أخطاء السادات أن وضع قائدين كبيرين متنافسين في مكانيهما من الجيش ، ومهما كانت الرغبة في نكران الذات ، فإنه لا يؤمن أن تتحرك الأهواء في وقت من الأوقات وهو ما حدث في هذه الأزمة الخطيرة .

ويقول المطلعون إن الخلاف بين المشير أحمد إسماعيل والفريق سعد الشاذلى يرجع إلى أيام خدمتهما في الكونغو (زائير) في أوائل الستينيات ، وكان سعد الشاذلى قائداً للكتيبة المصرية التى كانت تعمل تحت علم هيئة الأمم المتحدة ضمن قوات الطوارئ الدولية التى تم إرسالها إلى هناك .

أما أحمد إسماعيل فكان على رأس البعثة العسكرية المصرية التى أرسلها عبد الناصر بناء على طلب لومومبا إلى الكونغو ، وكان سعد الشاذلى برتبة مقدم وأحمد إسماعيل برتبة العقيد ، وأراد أحمد إسماعيل أن يكون الشاذلى تحت أمره بسبب أنه يحمل رتبة عسكرية مصرية أعلى من رتبة سعد الشاذلى في تلك المنطقة ، ولأن المجموعتين كانتا تنفيذاً لاتجاهات عبد الناصر في التدخل في شئون افريقية ولكن سعد الشاذلى رفض ذلك لأنه يعمل تحت علم هيئة الأمم المتحدة ، وليس تحت علم مصر ، وهو بهذا يتلقى أوامره من قائد القوة الدولية ، ومنذ ذلك الحين نجم الخلاف بينهما وتفاقم .

ثم حدث أن أنور السادات أصدر قراراً بعبور الفرقة الاحتياطية الموجودة غرب القناة لمساعدة الحالة المتدهورة في الجبهة السورية ، وقد تسبب هذا في إحداث الفراغ الذى التقطته الاقمار الصناعية الأمريكية وكانت الثغرة (١) .

وهكذا لاحقنا لعنة عبد الناصر ، فكانت في حربنا الناجحة سنة ١٩٧٣ نقطة سوداء ، أحدثت بعض الاضطرابات في الجبهة ، ولكن الله سلم .

والوقفة الثامنة مع الثغرة ترتبط بأحاديث ودراسات مهمة سجلها الأستاذ محمد حسنين هيكل في كتابه (عند مفترق الطرق) عن حرب أكتوبر بوجه عام والثغرة بوجه خاص ، ومنه نقتبس سطوراً قليلة :

— بعد أسبوع من حرب أكتوبر قال رئيس إسرائيل :
لقد عشنا سنوات طويلة على وهم أننا أكبر قوة في المنطقة ، وقد جاء الوقت لكى نرفع عن عيوننا هذه الفشاوة وننظر على الأمور بمنظار الحقيقة .

— كانت إسرائيل تقف في موقف الشريك للولايات المتحدة بعد حرب ٦٧ وكانت تزعم بذلك ، ولكنها ابتداء من حرب ٧٣ عادت إلى دور التابع وهو حجمها الحقيقى .

— اعترف الجنرال شارون : إن المصريين استتاعوا أخذ المبادرة والمفاجأة والحقوا بنا خسائر فادحة وكنت أخشى أن يصدر قرار إطلاق النار ونحن في وضعنا السيئ وبذلك تكون الكارثة ، ونفقد مسهتنا وعن هنا بدأت قضية الثغرة .

(١) من حديث للدكتور عبد الحميد سلطان نشر بصحيفة الوفد في

— يقول الجنرال بارليف في حديث صحفي وافق عليه رسمياً للنشر ما يلي :

١ — إن الجنرال شارون خالف عقيدة هامة من عقائد الحرب الإسرائيلية ، وهي أن تكون الخسائر البشرية في أقل نطاق ممكن ، وقد دفعنا خسائر كثيرة في عملية شارون .

٢ — إن الجنرال شارون لا ينكر أن احتمال صدور قرار بوقف إطلاق النار كان على الأبواب ، وأنه أقدم على مغامرته متأكداً أن وقف إطلاق النار سوف يحميها ويغطي مخاطرها .

٣ — أن الجنرال شارون يعترف أن مغامرته كانت لتخفيف الصدمة التي تلقاها الجيش الإسرائيلي عندما اقتحم الجيش المصري قناة السويس واجتاح خط بارليف .

٤ — إن الجنرال شارون استعمل الغش في الثغرة فهو لم يستطع تعزيز مواقعه على الضفة الغربية إلا بعد سريان وقف إطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر ، وفي ظل هذا القرار الذي ضمنته الولايات المتحدة مدد سيطرته على رقعة من الأرض تريد مرتين على الرقعة التي كان قد استولى عليها قبل قرار وقف إطلاق النار ، وعلى كل حال فإن الغش على هذا النحو ليس بعيداً عن عقائد الحرب الإسرائيلية .

وعلى العموم فقد كانت القوات الإسرائيلية في الغرب يمكن أن تكون رهينة إسرائيلية في متناول مصر أكثر منها خنجراً في كتفها وذلك لأنها محشورة حشراً ، وخطوط مواصلاتها بعيدة ، ومدخلها إلى الغرب محصور بين الجيش الثاني والثالث ، وقوات مصر تحيط بها كأنها حائط من الفولاذ ، ولهذا كانت الثغرة ليست موضوعاً تضغط علينا به إسرائيل

وإنما كانت أقرب إلى أن تكون موضوعا نضبط به نحن على إسرائيل (١) .

والوقوفة التاسعة في أحاديثنا عن الثغرة هي اقتباس من أقوال
المعلقين السياسيين الأجانب ، فقد قالوا إن الغرض من قتال الإسرائيليين
في غرب القناة كان استعادة هيئة جيش الدفاع الإسرائيلي التي فقدوها
في معارك شرقي القناة ، ولم يكن بغرض تحقيق أهداف عسكرية وفيما يلي
كلماتهم اقتباسا من صحيفة الأوبزرفر البريطانية :

«On the west bank of the Canal, fighting went on for press oppression
and not real achievements.»

والوقوفة العاشرة والأخيرة عن الثغرة أن مصر أعدت خطة عاجلة
لتدمير الثغرة ، فقد تم تشكيل فرق كاملة بقيادة اللواء سعد مأمون ،
وسميت « قوات تدمير الجيب الإسرائيلي المحاصر » ووضعت خطة
لنفتيت الجيب ، ومحاصرة كل جزء منه ، ثم ضرب عنق الثغرة لعزل
الإسرائيليين تماما عن سيناء ، وتعهد سعد مأمون لقيادة الجيش بالانتهاء
تماما من القضاء على الإسرائيليين بالغرب خلال ثمانى وأربعين ساعة
على الأكثر .

وأدركت أمريكا ذلك فهددت بالتدخل المباشر ، ووعدت بسحب
الثغرة في أسرع وقت ممكن .

ماذا قالوا عن الثغرة ؟

يقول حاييم بارليف : حشدت إسرائيل في الثغرة ٧ ألوية كاملة ،
بالإضافة إلى خمسة ألوية لحماية مداخل الثغرة ، فقد كانت قوات الثغرة
مجرد رهينة يسهل أسرها .

ويقول أرييل شارون قائد الثغرة : إننى كنت أدرك تماما أن كل

(١) عند مفترق الطرق - ص ٣٠٢ وما بعدها .

الإسرائيليين الموجودين في الضفة الغربية لقناة السويس أصبحوا رهينة في أيدي المصريين ، ولذلك وقعت اتفاقية الفصل بين القوات تحت ضغط هذه النقطة (١) .

معركة السويس :

أشهد الله أنني أكتب معركة السويس ولا أستطيع أن أحبس دموعي ، إنها معركة البسالة والقوة والإيمان ، وإن بلدا به مدينة كالسويس ، وشعب مثل شعب السويس لن يعرف الضيم ولا الهزيمة أبدا إن شاء الله ، لقد كان الصراع يدور بين قوة عاتية من السلاح الأمريكي والجفاة الإسرائيليين من جانب ، وبين حائط من البشر العزل تقريبا من جانب آخر ، جماعة من أبناء السويس وأعوانهم ، حاربوا بأبسط الأسلحة دون أن تلين قناتهم أو أن يعرفوا الفرار أو الهزيمة ، وكان لهم النصر .

وهناك بطل لا ينسى دوره في الصراع الذي قامت به مدينة السويس عقب هزيمة ١٩٦٧ وكذلك في قيادة شعب السويس في معارك سنة ١٩٧٣ التي نتكلم عنها الآن ، ذلك هو الشيخ حافظ سلامة ، لقد عاش هذا الرجل في السويس فترة المحنة ، وثابر على دعوة العلماء والمفكرين ليحاضروا المدنيين والجنود بالمدينة الباسلة ، وقد شرفني أن كنت من الذين استجابوا له ، ورأيت جهده العجيب وإيمانه العميق ، وكان هذا البطل على خط النار في مقاومة جيوش إسرائيل المزودة بأخطر وأحط ما أنتجته التكنولوجيا الأمريكية ، تحية لهذا الرجل ، ودعاء أن يثيبه الله على ما قدمه للسويس وللمثل العليا .

والآن نلجأ لباحث عسكري دقيق هو اللواء محمد حافظ إسماعيل

(١) وجيه أبو ذكري : حرب أكتوبر : شهادة اسرائيلية ص ١٠٨ و ١١٠ .

الذى يقدم وصفا حيا لمعركة السويس وبطولة أبناء السويس ، وفيما يلي كلماته :

كان يوم ٢٤ أكتوبر طويلا وثقيلا فمنذ الفجر قررت القيادة الإسرائيلية — قبل وصول مراقبي الأمم المتحدة — أن تسارع بالهجوم لاحتلال مدينة السويس التى حوّلت عنها ترعة المياه الحلوة إيمانا فى الضغط عليها ، ولهذا كُلف لواءان مدرعان تعزيزهما كتيبتان أحضرتا ضمن وحدات أخرى سحبت على عجل من جبهة الجولان باقتحام مدينة السويس من الشمال والغرب على أن يسبق الهجوم قصف للطيران والمدفعية لعدة ساعات لتعطيم الروح المعنوية للمدافعين .

وفى قلب النار والدخان بدأ اقتحام المدرعات والمشاة للمدينة فى وجه مقاومة وحدات من الفرقة ١٩ تؤيدها فئات شعبية استطاعت لساعات تعطيل الهجوم المدرع ، وتشتتت وحدات المشاة المصاحبة له ، وانزالت خسائر فادحة بها ، إلا أن العناصر الأمامية للواعتين بلغت فى النهاية وسط المدينة ، وتعجز الكلمات عن وصف القتال الذى دار بين المدرعات والعربات المدرعة من ناحية والرجال والأطفال المسلحين بالإيمان والحماس وبأسلحة خفيفة بدائية من جانب آخر ، وامتد القتال للشوارع وبين المباني وفى داخلها حيث يتشبث الإسرائيليون بمواقعهم .

وأمام حجم الخسائر فى الأفراد والمعدات قرر الجنرال آدن أن يفض الاشتباك داخل السويس قبل غروب شمس ٢٤ أكتوبر ، وعندما جلسنا إلى مائدة الإفطار كانت المعركة توشك أن تنتهى ويسود السكون جبهة القتال ، وقد أعيا الجهد المقاتلين وتراجعت القوات الإسرائيلية الأساسية من أطراف المدينة ، ولحقت بها بعد منتصف الليل الوحدات المحاصرة فى قلب المدينة بعد أن نجحت فى التسلل عبر جماعات القتال المصرية .

كانت القوات الإسرائيلية قد استنفدت كل طاقتها ولم يعد متوقعا أن تبذل جهدا آخر ، كانت قد تجاوزت حدود قدراتها ولم تعد على استعداد لمواصلة اقتحام المدينة وقبول المزيد من الخسائر بينما تتسبب هجماتها على حائط البشر المدافع عن مدينة السويس •

شاهد عيان إسرائيلي يصف بطولات السويس :

يعتبر مؤلفو كتاب « التقصير » الإسرائيليون أن معركة السويس كانت أكبر كهين سقطت فيه القوات الإسرائيلية ، فقد دخلت هذه القوات المدينة وتوغلت فيها ، وتصورت أنها خالية ، ولكن سرعان ما دوى كل شيء حولنا ، صواريخ لا نعرف مصدرها ، وقذائف من كل جانب ، ويقول أحد القادة الإسرائيليين (نيف) إننا بعد أن توغلنا في المدينة حوالي كيلو متر انهالت علينا طلقات النار من جميع المنازل ، ومن جميع الشبائيك والمنافذ ، وتساقطت علينا قنابل البازوكا والقنابل اليدوية ، وقد خرج علينا جنود مصريون من المنازل رافعي الأيدي متظاهرين بالاستسلام ، فلما اقتربنا منهم لناقى القبض عليهم ألقوا علينا قنابل يدوية ، وكانت القنابل تلقى علينا ولا نعرف مصدرها ، وأصبحنا شبه أسارى في شوارع المدينة ، ودخلنا بعض المنازل فاتضح لنا أنها أسوأ مصيدة ، إذ ألقيت علينا القنابل من الطابق الثاني والثالث ، ومن المنازل المجاورة ، مما جعلنا في حصار نتمنى الإفلات منه ، فقد اتضح لنا أن قوى شعبية وبعض كتائب كومانداوز مصرية ، وبعض قوات من الجيش الثالث اتخذت من المدينة الباسلة مراكز لها ، فوضعنا خططنا للهرب من المدينة (١) •

وخلال الليل وتوقعا للانتصار بعث المراسلون المرافقون للقوات المهاجمة أن مدينة السويس قد أصبحت تقريبا تحت سيطرة الإسرائيليين ، ولكن القيادة الإسرائيلية اضطرت يوم ٢٥ إلى نفي النبأ ، والاعتراف

(١) حرب أكتوبر : شهادة إسرائيلية ص ٦٣ - ٦٤ •

بأن قواتنا في ضواحي مدينة السويس ، وأنها لا تسيطر على المدينة وقالت : إننا نحاصرها ولكننا لسنا بداخلها • لقد عجزت هذه القوات أن تبقى بداخل المدينة ، ويقول كتاب التقتير : إن الجيش الإسرائيلي لم يفلح بائدلاع الحرب فحسب ، وإنما بأسلوب لقتال المصرى أيضا (١) •

مهركة بورسعيد :

لم تكن السويس وحدها هى التى عانت هجوما قاسيا من العدو واستبسلت فى الدفاع عن نفسها ؛ بل إن بورسعيد تشاركها هذا الفخر ، ولكن الفرق هو أن الهجوم على بورسعيد كان بالطائرات ، وكان الدفاع عنها بواسطة الكمان المضادة للطائرات بما بها من صواريخ فتاكة ، ولكن عدد الطائرات الإسرائيلية كان أكثر جدا من عدد البطاريات الدفاعية مما مكن لهذه الطائرات أن تقصف مواقع الصواريخ بعد أن قدمت ثمنا غاليا لهذا القصف ، وأخذت بورسعيد بذلك تتعرض لنيران العدو الذى تملؤه الخسنة والحرص على إقناء الإنسان والاستمتاع بدم البشر ، ولو لم يكن هناك هدف آخر •

ونقول الرواية أن الطيارين الإسرائيليين أبلغوا قيادتهم أنهم نفذوا مهامهم ضد القواعد الاستراتيجية بالمدينة ، ولم تعد هناك أهداف تقصف ، ولكن القيادة الإسرائيلية ألزمتهم بضرب سكان المدينة لإشاعة الرعب فيهم ، لعلهم يغادرونها بعد أن ثبت تمسكهم بالمدينة والدفاع عنها ، وفى اليوم الحادى عشر من أكتوبر جاءت ست عشرة طائرة لهذا الهدف ، وكانت آمنة على نفسها بعد تدمير مواقع الصواريخ ، ولكن القوات المصرية كانت قد أعدت صواريخ جديدة استطاعت أن تسقط اثنتى عشرة طائرة فى مدى عشر دقائق ، وفرت الطائرات الأربع الباقية ولم تعد الطائرات الإسرائيلية تهاجم بورسعيد بعد ذلك •

(١) حرب أكتوبر : شهادة إسرائيلية ص ٥٦ •

تحية لبورسعيد الباسلة على جهودها المشرفة (١) .

بعد توقف القتال

وأخيرا توقف القتال يوم ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، ومنذ هذا التاريخ برزت أمور خطيرة نتدارسها فيما يلي :

الاشتباك بين الجيش المصرى والإسرائيلى :

لقد كان من أخطر الأمور التى واجهت السياسيين والعسكريين موضوع التداخل بين القوات المصرية والإسرائيلية ، فالقوات الإسرائيلية تحيط بالسويس ، والجيش الثالث معزول فى سيناء لا يمكن الاتصال به إلا عن طريق الجو وبصعوبة ، والقوات المصرية تقف حائطا من الفولاذ خلف القوات الإسرائيلية تحرمها من الحركة وتتخطف أفرادها ، وطريق التهموين الغذائى امدينة السويس مقطوع ، بل والماء أيضا ، إذ حولت إسرائيل مجرى الماء الواصل للسويس كما ذكرنا من قبل .

لقد كان الجانب الإنسانى مفقودا تماما عند هؤلاء القساة ، ولم يكن يهمهم طفك أو امرأة ، وعاش أهل السويس فترة من الزمن يتقاسمون القليل من الطعام والشراب .

وهكذا كان فك الاشتباك ضروريا للجانبين حتى يتم القضاء على الثغرة التى أريد بها أن تكون فخا ، ولكن القوات الإسرائيلية وقعت هى فى الفخ .

وسارت خطوات فك الاشتباك على النحو التالى :

أولا : النقاط الست :

فى ١١ نوفمبر وبواسطة كيسنجر اليهودى تم الاتفاق على ما

(١) لواء حسن البدرى وآخران حرب رمضان ص ١٩٠ .

يسمى النقاط الست ، وهي تؤكد الالتزام بوقف إطلاق النار والمفاوضة للعودة إلى مواقع ٢٢ أكتوبر ، ولكن أهم ما جاء بها هو أن تتلقى مدينة السويس يوميا إمدادات من الغذاء والماء والدواء ، ويتم ترحيل جميع الجرحى المدنيين من مدينة السويس ، ويكتمل تبادل الأسرى •

ثانيا : مباحثات الكيلو ١٠١ :

بعد أن تم التوقيع على اتفاق النقاط الست بدأت المباحثات المعروفة بمباحثات الكيلو ١٠١ على طريق السويس وكان يمثل الجانب المصرى الفريق عبد الغنى الجمسى ، ويمثل الجانب الإسرائيلى الجنرال أهارون بارليف ، وكان اختيار إسرائيل لهذا الموقع مقصودا لإيضاح أن إسرائيل تقف بجيوشها عنده بين القاهرة والسويس ، وبدأت المباحثات حول ما يسمى فك الاشتباك ، وقدمت عدة اقتراحات اتضح منها تعصب الجانب الإسرائيلى ، وكان من هذه الاقتراحات انسحاب إسرائيل إلى شرق المضائق إذا خففت مصر مستوى تسليحها في سيناء إلى الحد الرمزي ، ووافقت مصر على ذلك بشرط أن تخفض إسرائيل تسليحها فيها بعد المضائق ، ومن الاقتراحات التي قدمت أن ينسحب كل طرف من الأرض التي استولى عليها في الحرب ، وكان هذا الاقتراح دافعا لإغضاب الجمسى ، وفشل هذه المحاولة (١) •

ثالثا : اتفاقية الفصل بين القوات على الجبهة المصرية (فك الاشتباك) :

في ١٨ يناير سنة ١٩٧٤ تم التوقيع على هذه الاتفاقية وبمقتضاها اتفق على أن الوجود المصرى في سيناء ينبغي على ألا يزيد عمقه في سيناء عن ١٥ كم ، وأن تخفض القوات المصرية بهذه المنطقة إلى ثمان كتائب أى نحو ٧٠٠٠ جندي ، وأن تنسحب قوات الشغرة الإسرائيلية من الغرب ، وأن تنسحب كذلك القوات الإسرائيلية بسيناء إلى عمق

(١) محمد ابراهيم كامل : السلام الضائع في كامب ديفيد ص ١٨٣ - ١٨٤
نقلا عن كوانت ص ٢١٩ •



مع الجسمى البطل الذى نذكره بخير دائما

سيناء ، وأن توجد منطقة عازلة بين القوتين تعسكر فيها قوات الأمم المتحدة التى يجدد ترخيصها كل ثلاثة أشهر •

فك الاشتباك فى الجولان :

حرص الرئيس السادات على أن يتم فك الاشتباك فى الجولان على نحو ما حدث فى مصر ، وقد قام كيسنجر بالمباحثات لتحقيق هذا الهدف ، وبمقتضاه كان على إسرائيل أن تنسحب من الأراضى الجديدة التى احتلتها فى حرب أكتوبر ، وبضغط من أمريكا وافقت على الجلاء من بعض المناطق من الجولان منها مدينة القنيطرة ، واشترطت إسرائيل أن المناطق التى ستجلى عنها من الجولان لا تدخلها القوات السورية ، بل تكون منطقة عازلة وتعود لها فقط الإدارة المدنية السورية ، وقد تم ذلك فى مايو سنة ١٩٧٤ وبناء على هذا تم تبادل الأسرى (١) •

وللاسف الشديد مضت إسرائيل فى التوسع الاستيطانى فى الجولان ، ثم أعلنت ضم هذه المناطق لإسرائيل فى نوفمبر سنة ١٩٨١ ، ولا يزال الصراع النفسى مشتتلا بسبب هذه التصرفات الإسرائيلية المطائشة •

فك اشتباك آخر على الجبهة المصرية :

لم يكن فى الحقيقة هناك اشتباك هذه المرة كالاشتباك الذى كان واقعا قبل فك الاشتباك الأول ، فمن الواضح أن الجيش المصرى أصبح الآن بعيدا عن الجيش الإسرائيلى ، وليس هناك تداخل ، بل إن هناك منطقة عازلة تحتلها قوات الأمم المتحدة ، ولكن هذا الاصطلاح (فك الاشتباك) اقترحه الديپلوماسية حتى لا يقال إن صلحا منفردا أو شبه صلح تم بين مصر وإسرائيل •

(١) اسماعيل فهمى : التفاوض من أجل السلام فى الشرق الاوسط ص ١٣٣ وما بعدها •

وكان من أسباب هذا الاتفاق الجديد أن الرئيس السادات في ظل فك الاشتباك الأول ، بدأ دون توانٍ في تعمير مدن القناة التي كانت قد دُمّرت سنة ١٩٦٧ وبدأ كذلك في إعداد القناة نفسها للملاحة الدولية ، ثم تمّ ذلك الإعداد وأُعيد فتح القناة في ٥ يونيو ١٩٧٥ ، وهذا الاتجاه أوحى إلى أمريكا وإسرائيل أن مصر ليست متجهة لإشعال الحرب مرة أخرى ، فبدأت الجهود تتواصل لتحقيق مزيد من خطوات السلام ، وبذلك تم عقد الاتفاق الثاني لفصل القوات في سبتمبر ١٩٧٥ وفيما يلي خلاصة هذا الاتفاق :

— انسحاب إسرائيل إلى خط جديد يبعد مسافة تصل إلى أربعين ميلا من قناة السويس ، ويكون خلف الممرات •

— تتقدم القوات المصرية إلى الشرق لتتسلم المنطقة التي كانت عازلة بين مصر وإسرائيل •

— تسليم ممرات متلا والجدي إلى الأمم المتحدة لتقييم بها قواتها بدل المنطقة العازلة التي سلمت لمصر •

— إعادة حقول البترول إلى مصر •

وفي داخل الممرات اتفق على أن تكون هناك محطات للمراقبة لتوفير إنذار استراتيجي مبكر ، محطة يقوم بالعمل فيها أفراد مصريون ، والثانية يقوم بالعمل فيها إسرائيليون •

وإلى جانب هاتين المحطتين نصت الاتفاقية على أن تقوم الولايات المتحدة بإقامة ثلاث محطات للمراقبة في ممرى متلا والجدي تدار بواسطة أفراد مدنيين أمريكيين •

وفي المنطقة التي تشمل حقول بترول أبو رديس سمح للمدنيين بالمرور في طريق طويك تقوم قوات الطوارئ الدولية بالإشراف عليه ، وتعهدت إسرائيل بأن تترك كافة المنشآت صالحة للعمل ، وقد وافقت

مصر على ضرورة تسوية نزاع الشرق الأوسط بالسبل الدبلوماسية ،
وحظرت استخدام القوة المسلحة أو اللجوء إلى الحصار العسكى ،
ووافقت على مرور البضائع الإسرائيلية غير العسكرية عبر قناة السويس •

واتشقت على تخفيض قوات كل طرف على جانبى المنطقة العازلة
إلى ٨٠٠٠ جندى ، و٧٥ دبابة و ٧٢ قطعة مدفعية ثقيلة (١) •

وكان هذا الاتفاق مطلع الخلاف بين مصر ، وبين بعض الدول
العربية ، وقد اعترفت إسرائيل أن من أهداف هذا الاتفاق إحداث الفرقة
بين الدول العربية •

ويقرر الأستاذ إسماعيل فهمى خطأ اعتبار فك الاشتباك الثانى
عملا مصريا خارجا عن نطاق الاتفاق العربى ، وفيما يلى كلماته :

من المهم هنا أن أوضح بعض النقاط عن فك الاشتباك الثانى ،
لأن كثيرا من الكتاب وبخاصة الإسرائيليون صوّروه على أنه نصر
سياسى لإسرائيل ، أو حتى معاهدة سلام تحت اسم آخر ، وهذا
ببساطة ليس صحيحا ، لقد قدمت الولايات المتحدة تنازلات سياسية
كبيرة لإسرائيل ، ولكن مصر لم تقدم أية تنازلات ، وإنه لتشويه كامل
للحقائق أن يقال إن لغة بعض مواد الاتفاق تعنى ضمنا إنهاء حالة
الحرب ، وسوف يتضح هذا لدى شخص يتجشم عناء قراءة هذا الاتفاق
بعناية ... (٢) •

وأخذ إسماعيل فهمى بعد ذلك يورد نصوص المواد التى تؤكد
أن هذا الاتفاق ليس حلا سياسيا وليس إنهاء للحرب بين مصر وإسرائيل
وبخاصة أن المادة الثالثة تنص على « أن ينظر الطرفان إلى هذا

(١) دكتور صلاح العقاد : السادات وكامب ديفيد ص ١٥٢ •

(٢) التفاوض من أجل السلام فى الشرق الأوسط ص ٢٤٩ •

الاتفاق كخطوة هامة نحو سلام عادل ودائم وهو ليس اتفاق سلام نهائى « (١) •

والآن بعد هذا الصراع الطويل هناك نقاط ضرورية ترتبط به نشرها فيما يلى :

١ — هل أوضاع السادات أية فرصة عسكرية أو سياسية ؟

يتجه الأستاذ محمد حسنين هيكل إلى أن السادات بعد الانتصار فى أكتوبر اتجه بسخاء شديد لتسليم ٩٩٪ من أوراق القضية إلى أيدي واشنطن ، وأنه بعد حرب أكتوبر عاد إلى مطالبه القديمة ، التى كان ينادى بها سنة ١٩٧١ دون ملاحظة المسافة بين التاريخين (٢) •

واعتقادى أن ذلك مبالغ فيه جدا ، فقد طالب أنور السادات بأقصى ما يستطيع أن يطالب به مفاوض ، ولكنه واجه الجشع الصهيونى والتأييد الأمريكى الواسع ، وصبر وصابر حتى حقق أقصى ما يمكن تحقيقه ، وما كان له أبدا أن يحقق زحزحة إسرائيل عن سيناء لو لم يحقق انتصار أكتوبر وهذا يدل على استغلال السادات لهذه الانتصارات •

٢ — لماذا أقبل السادات على الولايات المتحدة ؟

الحق أن مكانة الاتحاد السوفيتى قد اهترت فى ذهن السادات ، وفى ذهن أكثر المصريين خلال معارك أكتوبر وقبلها فبينما كانت الولايات المتحدة تلقى بثقلها كله مع إسرائيل كان السوفيت يتقاعسون عن إرسال الأسلحة اللازمة التى انشقق عليها حتى اضطر الرئيس هوارى بومدين أن يسافر إلى موسكو ومعه شيك بمائتى مليون دولار لشراء أسلحة لمصر وسوريا كما قلنا من قبل •

(١) المرجع السابق ص ٢٥٠ •

(٢) خريف الغضب : ص ١٤١ و ١٦١ •

وكانت الولايات المتحدة تضغط عسكريا على مصر ، والسوفييت يضغطون أيضا لإيقاف إطلاق النار حتى أن بومدين عندما عاد إلى الجزائر من موسكو جمع مجلس الثورة وقال لهم : إذا كان الأمريكان وإسرائيل يريدون أن يهزموا السادات قيراطا فالاتحاد السوفيتي يريد أن يهزمه ٢٤ قيراطا (١) .

ثم إن العون الضخم الذي قدمه جلالة الملك فيصل وغيره من الرؤساء العرب الذين تربطهم بالولايات المتحدة روابط كثيرة كان له أثره في توجيه السياسة المصرية للغرب حتى لا تنشذ مصر عن الدول العربية .

وكان السادات يعتقد أن الولايات المتحدة هي الدولة العظمى الوحيدة في العالم — وأن الاتحاد السوفيتي ليس الدولة الثانية ، وإنما يجيء بعد الولايات المتحدة بعشر درجات أو بعشرين درجة (٢) ، ثم إن الولايات المتحدة بالنسبة لإسرائيل هي صاحبة اليد والكلمة والسلطة ، فحل مشكلة الشرق الأوسط في يد الولايات المتحدة وحدها ، وقد أكدت حرب رمضان هذه الحقيقة ، فإن الولايات المتحدة أرادت بإصرار أن تحافظ على ربيبتها إسرائيل ، وحرصت كل الحرص على دفع الهزائم عنها ، فقد وضعتها الولايات المتحدة بهذا المكان بهدف السيطرة الاستراتيجية على المنطقة . واستمرار الحصول على الثروات بها وعلى البترول بوجه خاص ، وقد برهنت الظروف على أن إسرائيل شديدة التعمق في الحياة السياسية الأمريكية وأنها بجانب ذلك قد أثبتت نفعها كأداة ردع في يد السياسة الأمريكية بالمنطقة (٣) .

وكان واضحا من هذا أنه مهما بلغت قوة مصر العسكرية فإن أمريكا لن تترك إسرائيل تنهزم .

(١) من تصريحات السادات للصحافة .

(٢) أحمد بهاء الدين : محاوراتي مع السادات ص ٦٩ .

(٣) محمد حسنين هيكل : عند مفترق الطرق ص ٢٤ .

ومن جانب آخر لقد هزّت انتصاراتنا أمريكا ، وبدأت تسدرك مكاننا ، وتحرص على إرضائنا بما لا يصدّم الأطماع الصهيونية صداما مباشرا .

وطمع السادات في أن يصل إلى حل عن طريق الولايات المتحدة فألقى بنفسه في رحابها .

٣ — نتائج معارك أكتوبر :

حدد الرئيس أنور السادات نتائج معارك أكتوبر بقوله في المؤتمر القومي يوم ١٩٧٥/٧/٢٣ إن من نتائج هذه المعارك انهيار نظرية الأمن الإسرائيلي ، وتصدير أزمة الشك والتهزق وعدم الثقة من العالم العربي إلى المجتمع الإسرائيلي ، واقتناع العالم بأن إسرائيل لم تعد سلاح الإرهاب الذي يستخدم ضد العرب ويحمي المصالح الخارجية ... وأن هذه المصالح لا يحميها إلا التفاهم مع العرب ... ثم إن هناك القوة البترولية والمالية للعالم العربي ، وإقبال كل القوى العالمية على الحوار معنا ، وترتيب مستقبلها في التفاهم مع أصحاب الأرض .

وقال الزعيم الحبيب بورقيبة : إن حرب أكتوبر مكنتنا من أن نرفع رؤوسنا بعد هزيمة ١٩٦٧ المرة ، ولولا معونة أمريكا لإسرائيل في هذه الحرب لنيت إسرائيل بهزيمة ساحقة (١) .

وقال الرئيس جعفر النميري : إن الواقع العربي محكوم وسيظل محكوما لفترة طويلة بالنتائج الباهرة التي حققتها حرب أكتوبر ، وإن حرب أكتوبر طحنت الكيان الإسرائيلي ومزقته ، وأفقدت إسرائيل قوى الدعم الخارجي ، وحولت الرأي العام العالمي لصالح العرب (٢) .

(١) مجلة الفجر القطرية الصادرة في ١٩٧٥/٦/٢١ .

(٢) حديث نشر في الأخبار أول يوليو سنة ١٩٧٥ .

وأجاب المرحوم المشير أحمد إسماعيل على سؤال للإستاذ محمد
حسنين هيك عن نتائج أكتوبر الإيجابية ، فقال : (١)

هناك نتائج محققة ، وهذه النتائج يمكن تقسيمها إلى مجموعات
مختلفة :

هناك مجموعة من النتائج العسكرية هي كما يلي :

— لقد زالت خرافة الجندي الإسرائيلي ، بعد أن كادت تثبتت
في بعض الأذهان بطريقة خطيرة ، لقد وجدناه جنديا عاديا ، درّب
تدريبا حسنا عزّز قدرته القتالية ، وهذا هو كل شيء ، أى أنه في مقدور
أى جندي آخر غيره درّب تدريبا حسنا يعزّز قدرته القتالية أن يتصدى
له وأن يهزمه .

— لقد ثبت لى أن الجندي المصرى من أشجع الجنود وأصلبهم
في العالم ، ويكفيه صبره وبسالته ، فقد مرت عليه أيام كان لنا فيها
جنود يعيشون على نصف التعيين المقرر لغذائهم ، ولكن استعدادهم
للقتال لم يتأثر ، وهناك ضمانات يجب أن نعطيها للجندي المصرى لنأخذ
منه أحسن ما عنده : تدريب جيد ، وسلاح يثق فيه ، وضابط يشعر به ،
هذا هو كل شيء .

— إن أى عمل يحسّن التخطيط له علميا ، ويحسن التدريب
عليه عمليا قابل للنجاح بنسبة مائة في المائة .

— هناك دروس أخرى مستفادة ، في نواح فنية ، ولا أظنها
مما يهم الناس بصفة عامة ، وإنما هي تهم القوات المسلحة بصفة خاصة .

ويواصل المرحوم المشير أحمد إسماعيل قائلا

(١) عند مفترق الطرق ص ٢١٦ وما بعدها .



مع البطل أحمد إسماعيل

وانتقل بعد ذلك إلى مجموعة أخرى من النتائج السياسية والاستراتيجية وأعدّها كما يلي :

— لقد كسرنا الجمود الذي كان يحيط بأزمة الشرق الأوسط •
— لقد غيرنا صورتنا أمام العالم كله ، فبعد أن كان يظننا جثة هامدة ، رأنا قادرين على الحركة ، قادرين على القتال ، قادرين على الانتصار ، ولم تتغير صورة مصر وحدها أمام العالم ، ولكن تغيرت صورة الأمة العربية كلها •

— لقد أثبتنا لإسرائيل أن منطقتها في الحدود الآمنة منطق مضروب : لم تكن قناة السويس مانعا كافيا أمام إرادة مصمّة ، ولم يكن خط بارليف عائقا كافيا أمام استعدادنا للتضحية ، وإذن فإن على إسرائيل أن تبحث عن منطق آخر في الأمن ، وفوق ذلك ، فإن إسرائيل في أى منطق الآن تحاول العثور عليه ، لا بد لها أن تعرف أن أمامها في مصر عدوا يتحتم عليها أن تحسب حسابيه ، بل أقول وعليها أن ترهبه •

— إن الحرب أثبتت بطريقة قاطعة أن شرم الشيخ ليست لها الأهمية الكبرى التي كانت إسرائيل تظنها وتبنى عليها بقاءها في سيناء ، إن شرم الشيخ لم تعد مفتاح إيلات وإنما نزل هذا المفتاح إلى أقصى الجنوب عندما ظهرت استراتيجية عربية للبحر الأحمر قررنا بمقتضاها قفل باب المندب •

ويلخص اللواء سعد مأمون مساعد وزير الحربية ما حققته حرب أكتوبر فيما يلي (١) :

إن القوات المصرية ، كما قال الرئيس أنور السادات ، قامت بمعجزة على كل مقياس عسكري ، وإن التاريخ العسكري سوف يتوقف طويلا

(١) جريدة الاهرام ١١ ديسمبر سنة ١٩٧٣ •

أمام عملية السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ ، ولقد أثبتت هذه الحرب بالدليل القاطع خطأ نظرية الحدود الآمنة المستندة إلى أقوى التجهيزات العسكرية والموانع الطبيعية ، واضطر وزير الجيش الأدريكي يوم ١٨ أكتوبر إلى الاعتراف بأن عبور القوات المصرية لقناة السويس هو علامة بارزة في الحرب الحديثة سوف تغير الاستراتيجية العسكرية ، والواقع أنه لأول مرة في التاريخ العسكري الحديث تتمكن قوة عسكرية من إنجاز عملية عبور ضخمة كهذه في مواجهة عدو مزوّد بطيران حديث دون أن تفقد القوات التي عبرت أية طائرة من طائراتها •

إن الذى يتبع سير الحياة في إسرائيل بعد ٦ أكتوبر يدرك أن المجتمع الإسرائيلي لا يزال وسيظل يترنح من هول الضربة التي وجهها له الجندي المصري ، ولأول مرة يحش المجتمع الإسرائيلي أنه يصارع هؤلاء الذين دوخوا النصارى وقضوا على الصليبيين •

على أن هناك نقطة مهمة من آثار حرب أكتوبر جديرة بالذكر ، وهي تتعلق باقتصاد إسرائيل وعنهما يتكلم وزير المالية الإسرائيلي في الذكرى الثانية لهذه الحرب فيقول :

إن إسرائيل تحتاج إلى عشرة أعوام على أقل تقدير لسداد الديون والأعباء الاقتصادية التي تكلفتها بسبب حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وقال الوزير الإسرائيلي إن حرب أكتوبر قد ألقت بإسرائيل في أسوأ أزمة اقتصادية منذ قيامها حتى الآن (١) •

ويقول محمد كامل إبراهيم وزير الخارجية سابقا : لقد أخذ السادات يعمل بكل ما أوتى من قوة ودهاء وصبر وصمت حتى قامت حرب أكتوبر ، وفي أثنائها أعلنت الدول العربية حظر البترول ، وارتجف العالم وتغير ، فقد ردت هذه الحرب إلى الأمة العربية روحها ، واستعادت هذه الدول

(١) حديث تناولته وكالات الأنباء •

ثقتها المفقودة ، وانتهت أسطورة الحدود الآمنة وخط بارليف والجيش الإسرائيلي الذي لا يهزَم ، وسارعت الدول الأوروبية بإصدار البيانات التي تحدّد موقفها من النزاع العربى الإسرائيلى ، وتُعترف بحقوق الشعب الفلسطينى المشروعة ، وتؤكد وجوب الانسحاب الإسرائيلى من الأرض المحتلة .

وفى الولايات المتحدة نفسها حدث زلزال عنيف يدعوها للتأمل فى مواقفها السابقة التى كانت فيها تؤيد إسرائيل تأييدا مطلقا معتقدة أنها قوة رهيبة فى الشرق الأوسط تعتمد عليها الولايات المتحدة اعتمادا تاما ، فلما زلزلت هذه القوة وجَدَت الولايات المتحدة أن من الضرورى أن تتحرك للعمل على حل النزاع العربى الإسرائيلى الذى بات يهدد أمن العالم واقتصادياته (١) .

٤ — خسائر إسرائيل فى المعركة :

سئل المشير أحمد إسماعيل عن خسائر إسرائيل فى المعركة فأجاب بأن التقديرات الأمريكية تكفينى ، وهذه التقديرات تعد خسائر إسرائيل كالاتى :

٤٥٠٠ قتل حسب المصادر الأمريكية ، ويرتفع الرقم حسب المصادر الاخرى إلى الاتى :

- ٥٦٠٠ قتل حسب المصادر البريطانية .
- ٦٨٠٠ قتل حسب المصادر الفرنسية .
- ١٠ر٠٠٠ قتل حسب المصادر السوفيتية .
- ٢٠ر٠٠٠ جريح كما تقول المصادر الأمريكية وهو رقم قريب من الحقيقة .
- ٩٧٠ دبابة وهذا العدد أكثر من نصف القوة المدرعة التى بدأت إسرائيل بها الحرب .
- ١٥٠ طائرة وشواهدنا ووثائقنا تؤكد أن خسائر العدو فى الطائرات

(١) السلام الضائع فى كامب ديفيد ص ٢٤ - ٢٥ .

أكثر من هذا بكثير ، وربما كانت المصادر الأمريكية تعدّ الخسارة في الطائرات الأمريكية وحدها •

والأسرى :

وسئل المشير أحمد إسماعيل عن الأسرى فقال :

لقد أسرنا من العدو عددا كبيرا من الضباط والجنود ، وكانوا يستسلمون عند اليأس دون ضغط أو إكراه ، وقد سجلت وثائق الأهم المتحدة ذلك ، أما أسرانا فكانوا حتى يوم ١٦ أكتوبر لا يزيدون عن ٧٠ أسيرا وكان معظمهم من قوات الصاعقة التي استقطبت وراء خطوط العدو ، وكان هؤلاء من أشرس المقاتلين وقد ظلوا يطلقون النار حتى نفذت ذخيرتهم ، وقاوموا حتى أحيط بهم إحاطة كاملة (١) •

أما العدد الذى ذكرته إسرائيل عن الأسرى المصريين فقد جاء بعد الثغرة عن طريق أسر بعض الإداريين أو مطاردة جموع من سكان المنطقة من الفلاحين والقبض عليهم ، وهؤلاء المدنيون لا يعتبرون أسرى حرب (٢) •

والخسارة المالية :

فإذا جئنا إلى الخسارة المالية فإننا نذكر سقوط خط بارليف فى يوم واحد ، وقد كلف إسرائيل ٤٠ مليونا من الجنيهات الاسترلينية وهو مبلغ هائل فى ذلك الزمان ، وكان قد تم إنشاؤه سنة ١٩٦٩ ، ويشتمل على ٢٢ موقعا محصنا ، و ٣١ نقطة قوية •

ونذكر كذلك أن المعلقين العسكريين يقولون إن خسائر الحرب فى ١٩ يوما فاقت بكثير خسائر الأمريكيين فى حرب فيتنام فى مدة ١٠ سنوات ، وقد كان معدل الخسائر فى الأفراد والمعدات مرتقعا جدا

(١) محمد حسنين هيكل : عند مفترق الطرق ص ٢١٤ - ٢١٥ •

(٢) المرجع السابق ص ٢١٧ •

بالنسبة لأى معدات معروفة أو متوقعة للحرب الحديثة ، نتيجة استخدام الصواريخ المضادة للطائرات ، والدبابات ، والحرب الالكترونية •

وخسائر إسرائيل في حرب أكتوبر بالنسبة لتعداد سكانها تعتبر أكثر من ٣٠ مثلا لخسائر أمريكا في الحرب العالمية الثانية ، وأكبر من خمسة أمثال خسائر المصريين في الحرب •

أما عن بعض جهود المصريين في هذه الحرب فنذكر أن المصريين أزالوا حوالى ٣ ملايين متر مكعب من الأتربة والرمال لفتح ثغرات خلال ٦ أو ٩ ساعات ، وتم تنفيذ ٦٠ ثغرة وتمهيد ١٠ مرات ، وتشبيد ٥٠ معدية في أماكن مختلفة (١) •

٥ - اعترافات بالبطولات المصرية :

شهادة من المعهد البريطانى للجندى المصرى

أصدر المعهد البريطانى لدراسات الحرب تقريرا ذكر فيه أن عبور الجيش المصرى لقناة السويس الذى تمّ في السادس من أكتوبر كان يصعب تحقيقه بهذا النجاح لو كان الأمر مجرد عملية تدريب بدون عدو مواجه ، وقبل أن نورد فقرة هذا التقرير التى تحمّل هذا المعنى نذكر أن الجندى الذى عبر القناة في سنة ١٩٧٣ هو الجندى نفسه الذى هُزِم سنة ١٩٦٧ أو أخوه أو ابن عمه ، وكل ما تغير في الأمر هو ظروف مصر وقيادة مصر ، ونص الفقرة التى أشرنا إليها هو :

« كل التقارير تشير إلى أن المصريين هاجموا بشجاعة بالغة وإصرار ، ودافعوا عندما كان عليهم أن يفعلوا ذلك بعزيمة ونجاح ، ولقد صمد مشاتهم بكل تأكيد أمام هجوم كبير بالدبابات وهى من أكثر الأشياء إثارة للرعب عند مواجهتها •

(١) من تصريحات رسمية للفريق أول محمد على فهمى •

ولسوف يوافق كل المحترفين على أن عبور القناة قد تمّ بصورة رائعة غير عادية ولو افترضنا أن المرء كان مكلفا بأية تدريبات في أى ظرف آخر دون أن يكون هناك أى عدو ، وكان عليه أن يقوم بكل أعمال تجميع القوات الهندسية والقياسم بواجبات أركان الحرب ، والانطلاق بها دون أية غلطة ، لكان الأمر من الصعوبة بمكان ، وكان إنجازاه بلا خطأ أمرا مرضيا جدا مع عدم وجود عدو . ولم يكن هناك من يصدق أن المصريين كانوا قادرين على ذلك منذ عشر سنوات ولكنهم فعلوه ، لقد دفعوا بقوات هجومهم عبر القناة ، وحققوا النتائج التى تعرفونها لقد استيقظت روح القتال بكل تأكيد لدى المصريين .

واعتراف من كيسنجر اليهودى الأهرىكى

يقول اللواء محمد حافظ إسماعيل : قابلت الدكتور كيسنجر عقب الحرب ، وذكر لى مقابلاته لوزراء الخارجية للدول العربية فى واشنطن واستمرّ يصرّ على أن الجيوش العربية المقاتلة قد حققت أداء متميزا على نحو لم يكن متوقعا (١) .

العرب والمركة

وهذا الانتصار الكاسح الذى ظهر منذ اللحظات الأولى للزحف حقق نتائج سريعة كانت بدورها شديدة التأثير فى نجاح المركة ، فالإخوة العرب هزمهم هذا الانتصار وملاهم سرورا ، وأزال عن نفوسهم كابوسا كان ثقيلا ومريرا ، فراحوا يتغننون بالمنتصرين ويشجعونهم ، وأخذت الصحف العربية تتحدث عن الانتصارات قائلة : تخطى جيشنا ، واستطاع رجالنا ، وحقق أبطالنا وأمثال هذه العبارة ، فقد اعتبر الجميع أن جيش مصر جيّشهم وأبطال مصر أبطالهم ، وهذه حقيقة نقررنا ونفخر بها ، وأسرعت وحدات من الجيوش العربية إلى أمكنتها

في ساحات القتال ، وكان ذلك شرفا حرص الجميع على أن ينالوا منه نصيبا ، وفي وسط أهازيج النصر فُتح بعض العرب خزائهم ليقدموا للجيش المصرى والسورى ما يحتاجانه من إمدادات وأسلحة ومساعدات •

ثم خطا العرب خطوة أخرى كانت عظيمة النتائج ، فقد قرروا تخفيض ضخ البترول بنسبة معينة ومنع تصديره تماما إلى الولايات المتحدة وهولندا ، فتوقفت مصانع ، وظهرت أزمة الطاقة كأكبر معلم من معالم سنة ١٩٧٣ وكان السادس من أكتوبر هو صاحب الفضل في هذا التجمع العربى الهائل ، وبدون السادس من أكتوبر كان تحقيق هذا الهدف يحتاج لعدة قرون (١) •

وأسهمت الطبيعة في ضرب المعتدين من الصهاينة وأصدقائهم ، فكان شتاء ذلك العام قاسيا ، ومغ الزمهرير من جانب وانقطاع البترول من جانب آخر أحس الغرب بقدرة البلاد العربية ، وضرورة تسوية القضية •

٦ — من بطولات أكتوبر :

قام جنود الصاعقة بصور من البطولات يعجز القلم عن تفصيلها ، ولا يتاح لنا إثباتها لكثرتها ولغموض نهاية بعضها ، وليس هذا كثيرا على جنود الصاعقة ، فهم جماعة يسهل عليهم تقديم الأرواح فداء للوطن ، يعتبرون ذلك مهمتهم ، فالجنود العادبون يدخلون المعارك ولهم أمل كبير في النجاة فيقتل بعضهم وينجو الكثيرون ، أما جنود الصاعقة فيدخلون أخطر المعارك وهم الأول هو خدمة الوطن في ظروف حرجة ، أما حياتهم فليست في الحسبان ، إن ماتوا في سبيل عملهم فذلك عندهم شيء طبيعى ، وإن قُدِّرَت لهم النجاة بعد نجاح خطتهم فتلك منحة من الله •

(١) حديث للرئيس أنور السادات نشر الاهرام في ١٩٧٥/١/٣ •

وقد أثبتت حرب أكتوبر صورا عجيبة تبرز صدورا قهرت الحديد ،
وشبابا من الصاعقة التحموا بأخطر وسائل الحرب الإسرائيلية ، وعندنا
من هؤلاء الكثير والكثير ، ونقدم نماذج قليلة مما قام به أفراد الصاعقة
بوجه خاص ، وما قام به سواهم بوجه عام •

وهناك صورة من بطولات الصاعقة يقدمها الأستاذ جمال حماد
فيذكر أن ١٢٠ من هؤلاء الرجال الأتداء كانوا في السادس من أكتوبر
يقفون على استعداد لمزاولة مهمتهم ، وجاءت لهم طائرات هيلوكوبتر
فحملتهم إلى ما وراء خطوط العدو في سيناء ، وكانت الحماسة تملأ
قلوب هؤلاء الشباب الذين استهانوا بكل شيء ، وركبوا الطائرات
وأناشيدهم تتجاوز أزيز الطائرات ، وسرعان ما نزلوا هناك بعيدا في
قلب سيناء ، وفي ذلك الوقت كان الجنود المصريون يدمرون خط بارليف
ويشعدون العدة للكبارى لتحمل الدبابات المصرية إلى أرض سيناء ، وكان
متوقعا أن ترحف القوى الإسرائيلية لتعوق تقدم المصريين ، وكان على
جنود الصاعقة أن يلتحموا بالقوى الإسرائيلية الهائلة التي ترحف
تجاه القناة لتعطل التقدم المصرى ، ولحاولة انقاذ خط بارليف ولكن
الغقيب أحمد شلبى قائد هذه المغامرة الخطيرة عمل مع جنوده لمرقلة
تقدم الإسرائيليين •

وقد قامت معارك رهيبة بين جنود الصاعقة وبين أعنى الدبابات
الإسرائيلية ، وعرقلت هذه المعارك تقدم هذه الدبابات فترة تقرب من
الثمانى ساعات فساعد ذلك على بناء الكبارى ونجاح الزحف المصرى
إلى سيناء •

أما المعارك الانتحارية التي أدت إلى هذه النتيجة فيصفها شخص
واحد من أفراد الصاعقة كتب له النجاة فيقول : شاهدنا تحرك رتل من
الدبابات الإسرائيلية ، وكان هذا الرتل هو مقدمة لواء العقيد « ميتكا »
وكان يتكون من كتيبة دبابات وعناصر من المشاة الميكانيكية في مركبات

مدرعة نصف جنزير ، وبعض المركبات الأخرى ، وترك النقيب أحمد شلبي الدبابات الأمامية التي تتقدم الرتل المدرع دون اشتباك معها ، وعندما دخلت القوة الأساسية منطقة الكمين أصدر أوامره إلى أفراد سريته بالاشتباك ، فانهالت على الرتل المدرع فجأة صواريخ المألونكا وقذائف البازوكات ، وتحولت المنطقة إلى قطعة من الجحيم ، وفي هذه المعركة تم تدمير ١٨ دبابة وعربتين مدرعتين نصف جنزير ، وقد تحدثت القيادة الإسرائيلية عن هذه المعركة بكثير من الدهشة ، وقالت : لقد قاتل الرجال بصورة انتحارية ، ولم يكن فيهم واحد يخاف الموت وسد حطام الدبابات الطريق ، وجاءت المعونات الإسرائيلية ولكنها أيضا وقعت في الفخ ، وانتهت من أيدي رجال الصاعقة كل أسلحتهم ، وحاول بعضهم في اللحظات الأخيرة أن يختطف السلاح من الإسرائيليين وأن يقاومهم به واستعمل بعضهم الأظافر والأسنان مع العدو ، وفي النهاية أحاطتهم الأسلحة الإسرائيلية من كل جانب ، وقسمت معركة عجيبة بين حديد الدبابات وأجساد الشهداء ، ولكن بعد أن عرقلت هذه القوة الصغيرة تقدمهم الزحف الإسرائيلي الذي كان يحاول أن يعرقل التقدم المصري الذي يثب لاسترداد الأرض السليبية ، فسلام على أولئك الذين ضحوا بالنفس والدم من أجل الوطن .

وقصة أخرى ترتبط بجنود الصاعقة أيضا ، فقد قامت بها جماعة بقيادة النقيب فايز إسماعيل ، وكانت هذه المعركة على الضفة الغربية للقناة في صراع مع المتسللين عبر الثغرة ، وكان النقيب فايز قد شاهد إحدى الدبابات الإسرائيلية وبجوارها عربة مدرعة يجلس فوقها عدد من الجنود اليهود ، فأصدر أوامره إلى كتتيته بالاشتباك مع الدبابة والعربة ، وسرعان ما تم تدميرها ، ولم ينج من أفراد هذه القوة اليهودية أحد ، وقد حدثت هذه الملاحمة عند أبو سلطان ، وتسمى ملحمة الوحدة الصحية .

ومن بطولات الصاعقة كذلك ما قام به النقيب رفعت عبد الوهاب وجماعته البواسل فقد استطاعت هذه الجماعة أن تصل إلى مضيق سدر فجر يوم ٧ أكتوبر ١٩٧٣ ، وهناك أعدت كمينا مستترا عاش بضع ساعات في هدوء لا يحس به أحد ، وقامت طائرات الاستطلاع ولكنها لم تر للكمين أثرا ، فأعطت إشارة الأمان للدبابات الإسرائيلية لتتحرك دون خوف ، وعندما وصلت إلى أسماع رجال الصاعقة أصوات جنازير الدبابات والعربات المدرعة ، اندفع جنودنا البواسل يضربون الدبابات بالصواريخ ويلقون القنابل على العدو ، مما جعل المنطقة جحيما من النيران ، وعندما أحس القائد المصري بالخطر عليه وعلى رجاله صرخ في رجاله قائلا : لا بد أن نأخذ ثمن استشهادنا ، فانهالوا بجساسة عجيبة حتى أخذوا ثمنا غاليا من أرواح العدو ومعداته قبل أن تصعد أرواحهم إلى بارئها •

وتحكي الوقائع أن جنديا قذف بنفسه في إحدى فوهات النار بخط بارليف ليكون جسده معطلا للنيران التي تنبعث من هذه الفوهة ، واستطاع زملاؤه بذلك أن يندفعوا إلى هدفهم وأن يحققوا أملهم •

وفي بعض الحالات استطاعت قوات العدو أن تغرق بعض قوارب المطاط التي كان الجنود ينتقلون عليها إلى الضفة الشرقية ، ولكن الجنود سبحو بمهارة وسرعان ما التحموا مع جدران خط بارليف وأنزلوا بجنود هذا الخط خسائر فادحة ساعدت على سقوطه •

وأخيرا فحالات الفداء والاستشهاد كانت كثيرة جدا ، وكانت سلامة الوطن أغلى بكثير عند هؤلاء من سلامة أنفسهم ، فكتب هؤلاء الجنود بدمائهم النجاة للوطن والخلود لأنفسهم ، وصدقت عليهم الآية الكريمة « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » •

٧ — من كلمات الكتاب المصريين عن أكتوبر والسادات :

الأستاذ مصطفى أمين :

من حق هذا الرجل أن يطلق على عصره عصر العبور
عبور الجيش المصرى من الهزيمة إلى النصر
وعبور الشعب العربى من الانقسام إلى الوحدة
وعبور سمعة العرب من الهوان إلى الكرامة
وعبور المظلومين من الظلم إلى العدل
وعبور الخائفين من القلق والرعب إلى الطمأنينة والأمان والاستقرار
وعبور المقيد من الأغلال إلى حياة الأحرار
وسوف يعبر بعد هؤلاء كثيرون ، فإن أكتوبر أعطانا درساً عظيماً ،
وهو ماذا يستطيع الإنسان المصرى أن يفعل وهو حر دون أن يثقل فرد
واحد في أثناء المعركة سوى أسرى الأعداء

الأستاذ توفيق الحكيم :

عبرنا الهزيمة بعبورنا إلى سيناء .. ومهما تكن نتيجة المعارك فإن
الأهم الوثبة ... فيها المعنى أن مصر دائماً مصر ... تحسبها الدنيا قد
نامت ، ولكن روحها لا تنام ، إذا هجعت قليلاً فإن لها هبة ، ولها زمجرة
ثم قيام ، وقد هبت مصر وزمجرت ، ليدرك العالم ما تستطيع أن
تفعل في لحظة من اللحظات ، فلا ينخدع أحد في هدوئها وسكونها ،
وكانت يدها التي بدرت منها اليقظة هى جيشها المقدام بصيحة رئيسها
العظيم ، سوف تذكر مصر في تاريخها هذه اللحظة بالشكر والفخر .
٩ أكتوبر سنة ١٩٧٣ — الاهرام

الأستاذ يوسف ادريس :

بضربة إرادة واحدة تمت المعجزة ، تحولنا من كائنات لا كرامة لها ،
كائنات كالسائمة أو الحيوان إلى بشر ذوى كرامة +

بضربة إرادة واحدة رُدَّت إلينا كرامتنا وعادت إنسانيتنا ، لم أكن قبلا أؤمن كثيرا بدور الفرد في التاريخ ، ولم أكن أعلم أن الفرد باستطاعته حين يجمع إرادته أن يحتوى فيها إرادة أمة وتاريخ شعب وقدرة حضارية ، ولكن البطل أنور السادات غيّر من مفهومي ، سحق الهزيمة الكامنة في كل منا حين قرر العبور ، فبقراره لم يعبر جيشنا القناة فقط ، ولكن شعبنا عبر معه فياق الذل والمسكنة ، وعبر الصغائر والحقارات ، وعبر الآلام التي لا يطيقها بشر ، آلام العجز كيفما اتفق ، إلى الحياة كما يجب أن تكون ، كان العبور هو الخلاص ، بالسعادة ، وأنا أسمع إسرائيل تتحدث عن « العدوان » المصري ، ياوقع الكلمة الحبيبة في أذني ، إننا أخيرا أصبحنا معتدين ، نحن أصحاب حق ولا يستعيد الحق إلا أصحاب معتدون ، أكاد لا أصدق كل ما يحدث ، أحقا أصبحنا نقاتل لاستخلاص أرضنا وكرامتنا ؟ أحقا ثبت لنا أننا لا عيب فينا وإنما العيب دائما في الظروف ؟ أحقا عبرنا القناة ونحرر سيناء ونحطم المدرعات ونسقط الطائرات ؟ .. ونأسر منهم مئات ؟ أحقا يحدث هذا كله بأيدي المصريين مثلي ومثلك ... ألم أقل إنها معجزة ... معجزة إرادة الأمة حين تحتويها إرادة بطل ، فهذا ، وبهذا وحده تتحقق المعجزات •

الاهرام — ١٢ أكتوبر ١٩٧٣ •

الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي :

خلال الظلام كنت تدعو يا سيادة الرئيس إلى العمل والصبر والصمت ، وتحكم الموازين والحساب ... لا يستفزك اتهام ولا يحوّلك عن طريقك استفزازات أيما كان مبعثها •

وظللت تخطط وتعمل في حكمة مطمئنة ، وفي ثقة وإيمان بالله ، وبهذا الشعب ... وبأن جندنا هم الغالبون •

لا يلويك عن طريقك شيء ... حتى الألم نفسه ، ولا الكيد ولا الطغيان اللئيم إذا اغتنى ... ولا صلف الجنون إذا انتصر ،

وعندما اتخذت القرار بردع المعتدين وسحق العدوان في الوقت المناسب ، كنت تعبر عن أحلام المعذبين في الليالى السود بفجر الحرية والكرامة •

وكنت تخلص إرادة سلالات من شهدائنا العظام الذين سقوا بدمائهم الزكية هذه الأرض الغالية عبر الأجيال ، وتحققت معجزة حربية فاقتحم المقاتلون المصريون البوابل أكبر مانع طبيعى وصناعى عرفه التاريخ •
تحققت معجزة حربية سيظل العالم يدرسها ويتخذ منها العبرة واضعا بها العقل المصرى ، والحكمة المصرية والعزائم المصرية فى مكانها الصحيح •

وهى معجزة حربية تملأ قلوبنا وتهمر نفوسنا بالثقة ، وتردئ إلى المصرى كرامته التى حاول السفهاء أن يلطخوها بالأوحال على مدى أكثر من ست سنوات •

وما من ريب أن كل مصرى يشعر اليوم بالزهو لأنه ينتمى إلى هذا الوطن ولأنك تقود هذه الأمة على طريق الحقيقة والحرية •

إن هذه أول مرة يلتحم فيها الجيش المصرى مع جيش إسرائيل فى معركة حقيقية وقد أثبت هذا الجيش المفترى عليه أنه كما قال عنه الرسول الكريم (خير أجناد الأرض) ما كان ينقصه غير حسن السياسة وحكمة القرار ودقة التوقيت •

وعندما توافرت له القيادة التى حلم بها شعبنا أظهر المقاتلون بطولة رائعة روعة أبطال الأساطير ، إننى إذ أحبيكم أيها الزعيم والقائد من فراش مرضى الأشعر بريح العافية تهب على هذا الوطن تحت قيادتكم

فتمنحه العنفوان والشباب والحيوية والثقة بأنه فوق اليأس وفوق كل
ما عسى أن يواجهه به الزمن من تحديات •

عشت زعيما فذاً لشعبنا وقائداً حكيماً لحركة التحرير الوطني
ورائداً للعرب على طريق الحقيقة ومناضلاً إنسانياً يحمي نضارة الحياة
وبسمات الأطفال وروعة المستقبل •

روز اليوسف ١٥ أكتوبر سنة ١٩٧٣ •

الأستاذ أنيس منصور :

لقد صبر المصريون على الغطرسة وعلى الهوان في كل مكان ...
بل أن رئيسنا أنور السادات كان إذا تحدث عن الاستعداد للقتال بلغ
به التأثير درجة عالية وهو يقول لشعبه المحب له الواثق فيه :

لن أتحدث عن المعركة ، إننى أقول كلمة واحدة ... عبارة واحدة
هى : لا حل إلا بالقتال ، ونحن نستعد وفي هذا الكفاية ، ولا أريد أن أطيل
عليكم فقد تعبنا من الكلام ، وتعبتم أنتم أيضاً •

وليس سرا أن أقول اليوم : إن الرئيس السادات وعد شعبه وقواده
أنه لن يقرر الدخول في معركة إلا إذا قرر العسكريون المصريون ذلك ...
وإلا إذا قرروا أنهم على استعداد لمعارك طويلة ، ولكل الاحتمالات •

فليس المهم أن ندخل الحرب ولكن المهم جدا أن ندخلها وأن نصمد
وأن نضحى ، فالعدو شرس لا أخلاق له ، وموارده لا تنتهى من المال
والسلاح •

وليس الآن وقت للحديث عن الذى فعله جنودنا الأبطال ، ليس لأن ،
إننا الآن مشغولون بالزحف إلى الأمام وإلى التثبيت من مواطئ الأقدام ،
وإلى سلامة الطريق • ونظافة السماء فلا بديل لنا من القتال ولا بديل
لنا من استرداد أرضنا كلها •

إننا نعلمنا واستفدنا ••

ويكفى أن نستمع إلى الإذاعات المصرية ••• ويكفى أن نقرا البيانات الرسمية ، بل يكفى أن نستمع إلى الطريقة التي يتلو بها المذيعون بياناتهم الرسمية : العقل والهدوء والدقة ••• لأننا نريد أن نسترد ثقة المصرى والعربى والأجنبى ••• لقد دُمِشَ المراسلون الأجانب ، كيف أننا تغيّرنا إلى هذه الدرجة الجذرية فى كل شئ ••• فعلاً تغيّرنا إلى الأحسن ••• إننا كنا نشعر بذلك ••• ولكن نريد العالم كله أن يدركه • آخر ساعة — ١٠ أكتوبر ١٩٧٣ •

دكتور مصطفى محمود :

فى هذه اللحظة ••• ومع هذا المداد الذى تسيل به الحروف ، هناك صدور تتلقى النيران دفاعاً عنك ••• وأخذاً بئارك ••• هناك أخ يستشهد وهو يكسب لك قطعة أرض ترفع عليها أعلامك ، وتسترد كرامتك •••• هناك أبطال شرفاء يموتون لقول أمّة ••• ويبعث جيل وتحيا نفوس من عدم •• هناك أقدام تخطو على الألغام وتفتح الممالك لتأخذ بيدك من موقع المهانة إلى موقع الشرف ••• أقدام قد تنسفها القنابل لترفع رأسك ••• وتقول ••• لقد انتصرت لقد تحررت لقد محوت الغار • روز اليوسف ١١ أكتوبر ١٩٧٣ •

الأستاذ نجيب محفوظ :

رُدّت الروح بعد معاناة طعم الموت ست سنوات ، رأيت المصرى خلالها يسير فى الأسواق مرتدياً قناع الذل ، يثرثر ولا يتكلم ، يقطب بلا كبرياء ، يضحك بلا سرور ، يتعامل مع المكان وهو غريب ، ويساير الزمان بلا مستقبل ، من حوله عرب متقاربون وقلوبهم شتى ، وأصدقاء من العالم يعطفون عليه بإشفاق لا يخلو من زراية ، وعدونا يعربد يصارعنا فى السماء ويتحدانا فى الأرض •

ووقعت المعجزة وانتقل الجيش من الغرب إلى الشرق ، وبإسار
العرب إلى العروة الوثقى ، وذهل الأصدقاء والأعداء ، وانتقلت مصر من
عصر إلى عصر ، ومن عهد إلى عهد ، ومن موت إلى خلود ، .. أيها الزعيم
لقد وفّرت السلاح ، ولقد سلحت شعبك قبل ذلك بالقانون والديمقراطية
والحوار الحر ... فإلى الأمام ومهما تكن العواقب فقد ردت إلينا الروح
والنصر والمستقبل .

الأستاذ محمد حسين هيكل :

كان يوم ٦ أكتوبر بداية لعملية تراجع الأسطورة أمام التاريخ ،
وقد كانت حالة اللاسلم والملاحرب قد طالّت أكثر مما هو لازم لأى
شعب يريد أن يحتفظ بحيويته النضالية ، ولكن القرار لم يكن سهلا ،
وخصوصا أن الملابس المحيطة بالعمل الوطنى فى مصر تضع مسئولية
القرار على كتفى رجل واحد أى أنه بالنسبة لأنور السادات فإن
القرار كان مصيريا ، وفى الوقت نفسه كان عليه أن يتخذه وحده .

وربما كان من حقه وواجبه أن يسمع وأن يناقش ، ولكنه فى النهاية
كان مطالباً بأن يكون وحده عقلا وقلبا وضميرا ، ثم يصل إلى القرار
ويتحمل تاريخيا مسئوليته .

وفى أربع ساعات من بعد ظهر السادس من أكتوبر ١٩٧٣ ، ما
بين الثانية والسادسة كانت مصر وكانت الأمة العربية كلها قد اجتازت
حائط الخوف . الاهرام — ١٥/١٠/١٩٧٣ .

الأستاذ أحمد بهاء الدين :

لقد أنهى الرئيس السادات غرّبتنا الكبيرة بقرار أكتوبر ١٩٧٣
فهو قرار ربما كان كلمة واحدة ، ولكنه خلاص لكل الآلام العظيمة والآمال
الكبار المختزنة منذ ست سنوات ... وقد أنهت القوات المسلحة
(م ٢٢ — التاريخ الإسلامى)

غربتنا بالطريقة المفذة التى نفذت بها القرار ، إنهم هناك تحت اللهب والنار وكأنهم حملوا الغبار الثقيل إلى العدو ... السماء تنقشع كلها فى لحظة واحدة عن وجه مصر الحقيقى • الاهرام فى ١٥/١٠/١٩٧٣ •

الاستاذ إبراهيم راشد :

كل شىء ضاع على يد عبد الناصر : الأرض والهيبة والمال والرجال
والسلاح ، وضاع كل هذا فى ساعات •

ضاعت سيناء كلها بمن فيها وما عليها •

ضاعت آبار بتروى سيناء كلها • • • حقول البلاءيم البحرية
والأرضية ومنطقة أبو رديس كلها • • • وحقول عسل وسدر ورأس
مطارقة • • • أكثر من ٨٥٪ من حجم الانتاج المصرى كله سقط فى يد
إسرائيل • • • ثم جاءت حرب أكتوبر المجيدة وعبر المقاتل المصرى إلى
سيناء واسترد أرضه • • • وحرر وطنه • • • وترتب على الانتصار
المصرى أن عادت إلينا حقول سيناء كلها ، وعاد لنا الشرف والكرامة •

أخبار اليوم أكتوبر ١٩٧٥

دكتور عبد العظيم رمضان :

محمد أنور السادات لم يكن إنسانا عاديا ، كان قائدا وطنيا
عملاقا ، من أصلب وأشجع من أنجبتهم أرض مصر المعريقة ، وهذا
ما سوف يسجله التاريخ دائما لمحمد أنور السادات : شجاعة فى إصدار
القرار فى وقت غابت فيه الشجاعة عن الجميع •

وقد أبطل يوم ٦ أكتوبر مفعول الهزيمة التى حلت بنا سنة ١٩٦٧ ،
فعاد الشمل العربى إلى الائتنام وبدأت نعمة الاعتزاز بالعروبة تعلو
بعد أن كانت العروبة شيئا مخجلا قبل ٦ أكتوبر وهذا يجعل ٦ أكتوبر
نهاية عهد وبدائية عهد جديد (مصر فى عهد السادات ١٣١ - ١٣٢) •

وظل هذا النجاح أغنية على مر الزمان ، ففي ذكرى يوم العبور يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٨٢ قال الرئيس حسنى مبارك :

إن القوات المسلحة صنعت فى مثل هذا اليوم عام ١٩٧٣ أعظم أمجاد مصر . . . وحقت أروع انتصاراتنا ، . . . وأن العبور الأسطورى فى هذا اليوم المبارك كان عبورا بالأمة العربية كلها إلى فجر جديد تسير فيه مرفوعة الرأس شامخة الجبين . . مرهوبة الجانب . . مهيبة فى العالمين .

وقال الرئيس مبارك أن هذا الإنجاز التاريخى الهائل للقوات المسلحة المصرية كان الطريق الذى لا بد من سلوكه لتحقيق السلام وإن استكمال تحرير سيناء المقدسة فى الخامس والعشرين من أبريل ١٩٨٢ كان إنجازا جديدا للقوات المسلحة .

وفى ذكرى العبور سنة ١٩٨٨ كتب الأستاذ أنيس منصور يقول :

كانت حرب أكتوبر هى الشفاء ، وهى الدواء من الداء الذى فرضه عبد الناصر على مصر والمصريين ، ولم يكن المصريون يتوقعون أن يحارب السادات ولا يصدقون تهديده بالحرب ، ولكن عدم تصديق المصريين للسادات هو الذى أكسبه جانبا كبيرا من خداع الرأى العام العالمى . . وخداع إسرائيل وأمريكا ، وكان موقف السادات هو أبشع عزلة عرفها زعيم فى التاريخ . . . وكان لابد أن يحارب وأن ينتصر . . المهم أن ينتصر ، وفى ذلك رد اعتبار الجيش المصرى والجيش العربية ، واعتذار للشعب المصرى الذى استسلم لزعيم الثورة عبد الناصر فأغرقه فى الوحل .

ومصر قد انتزعت نفسها من الحضيض إلى أعلى الدرجات ، شعب تخطى الهزيمة وهضى فوق جثث اليأس ، فانتقل من أرضه فى وادى النيل إلى أرضه فى سيناء ، كل سيناء وطابا ، وكان من آماله أن تفعل الدول

الأخرى ما فعلته مصر ، فأين هم وأين مصر ؟ .. تحررت مصر تماما بالحرب وبالسلام وبالعقل . وبقيت الأرض العربية الأخرى محتلة ، لأن عقولهم قد احتلها الحقد على مصر ، ولأن جيوبهم مئّلت بأموال دول الخليج .. فهم لا يريدون حلا ولا خروجا من مستنقعات الإحباط التي جففتها مصر لتحيّش شريفة على أرض مقدسة .

أخبار اليوم : أكتوبر ١٩٨٨

٨ — من أقوال زعماء العالم عن حرب أكتوبر :

هنري كيسنجر في مذكراته :

أبلغت ألكسندر هيج مستشار الأمن القومي عند اشتعال حرب أكتوبر أن الإسرائيليين لا يحتاجون لأكثر من يوم أو يومين لإعادة تصحيح وضعهم العسكري ، ولكن الخطأ الوحيد الذي ارتكبته هو أنني لم أدرك أن الإسرائيليين كانوا على حافة الكارثة .

وعن صاحب القرار قال كيسنجر في الجزء الأول من مذكراته .. لعل من أكبر الأخطاء التي ارتكبها في حياتي على الإطلاق هو ما اعتقدته بخصوص أنور السادات الذي توقعته سقوطه بعد أسابيع من توليه الحكم ... ولكن الأيام تمر ويثبت السادات أنه واحد من أعظم زعماء العالم على الإطلاق .

ريتشارد نيكسون في كتابه « زعماء عرفتهم » :

لو لم نمّدّ الجسر الجوي إلى إسرائيل لما كان في مقدورها الصمود أكثر من ٤٨ ساعة أخرى .

٩ — اعترافات إسرائيلية :

المؤرخ الإسرائيلي يعقوب تلمون :

ماذا كان سيحدث لنا لو لم تطلق الولايات المتحدة بكامل ثقلها في كفة الميزان عندما أرسلت إلينا بالإمدادات والمعدات وأعلنت حالة التأهب في جيوشها ؟

جولدا هاتير رئيسة وزراء إسرائيل في فترة الحرب تقول في مذكراتها :
بعد يومين فقط من بدء العمليات العسكرية كانت قواتنا في موقف
لا تحسد عليه ... وطاق بذهنى شبح نهاية إسرائيل ، فأرسلت برقية
عاجلة لنيكسون قلت فيها : إسرائيل تحترق أنقذونا ... أنقذوا إسرائيل •

موشى ديان وزير دفاع إسرائيل :

ذكرت أخبار اليوم الصادرة في ١٦/٢/١٩٧٤ أن وزارة الدفاع
الإسرائيلية أذاعت أسراراً جديدة عن حرب أكتوبر كشفت الوزارة عن
أن موشى ديان وزير الدفاع أعلن أمام رؤساء تحرير الصحف الإسرائيلية
في اليوم الرابع بعد بدء الحرب أن التفوق العسكى الإسرائيلي قد
انهار •

وفكر ديان في ذلك اليوم في توجيه حديث تلفيزيوى إلى الإسرائيليين
يعلم لهم فيه هذه الحقيقة ولكنه تراجع حتى لا تنهار الروح المعنوية •
وأضاف موشى ديان قوله :

بعد الأداء الرائع للجنود المصريين في الأيام الأولى للحرب ...
وبعد أن أصبح عدد القتلى والجرحى الإسرائيليين مخيفاً أعددت بيانات
وجمعت القيادة العليا لأقرأ عليهم بياناً ، كان هذا بيان الاستسلام •

١٠ — من كلمات مراسلى الصحافة الغربية عن حرب أكتوبر :

الأوبزقّر :

كانت مفاجأة حرب أكتوبر لقادة إسرائيل هي أنهم لم يأخذوا كلام
السادات بجدية ، لقد أعلن السادات عزمه مراراً وتكراراً وبأوضح
عبارة ممكنة أنه سيخوض الحرب إذا أخفق في استرداد الأرض بالطرق
السلمية ، لقد فهمت إسرائيل هذه اللغة بعد فوات الأوان ، كذلك لم

يدرك الا القليلون أبعاد الثورة الهائلة التي حققتها السادات في الجيش
« الأوبزرفر عدد ١٥ أكتوبر ١٩٧٣ » •

يونيتد برس :

في يوم ١١ أكتوبر ١٩٧٣ قال مراسل وكالة يونيتد برس في تل أبيب إن
إسرائيل أعانت أخيرا أنها انسحبت نهائيا من خط بارليف على الضفة
الشرقية للقناة وأن هذه تمثّل واحدة من أسوأ الانتكاسات العسكرية
في تاريخ إسرائيل •

وفي يوم ١٣ أكتوبر يقول مراسل وكالة يونيتد برس إن معارك
الدبابات التي تدور رحاها في الشرق الأوسط وصلت وتجاوزت في بعض
الحالات أكبر معارك للدبابات على الإطلاق تلك التي وقعت في الصحراء
الغربية أو في ستالينجراد خلال الحرب العالمية الثانية ، ويقولون إن
خبراء الدفاع يبدون دهشتهم إزاء أعداد المدرعات التي تمّ حشدها
لهذه المعركة خاصة من الجانب المصري والتي زادت عن ٥٠٠ دبابة ،
ويضيف أن نقل هذه الدبابات إلى الجبهة ومن جانب دولة صغيرة نسبياً
يعتبر حدثاً عسكرياً لم يسبق له مثيل في التاريخ العسكري •

واشنطن ستار نيوز :

وفي يوم ١٦ أكتوبر أيضا يقول جورج شيرمان المحرر العسكري
لصحيفة « واشنطن ستار نيوز » الأمريكية إن إسرائيل خسرت ثلث
سلاح طيراتها ، وما يتراوح بين ٥٠٠ إلى ٦٥٠ دبابة أي ثلث سلاح
مدرعاتها أيضا •

نيويورك تايمز :

بعد أربعة أيام فقط من الملهمة قال درو ميدلتون الخبير والمحرر
العسكري لصحيفة « نيويورك تايمز » إن الصراع أخذ أبعادا مختلفة

بطريقة مذهلة عما كان عليه انتصار إسرائيل الخاطف في حرب عام ١٩٦٧ وقال ميدلتون إن عجز الإسرائيليين أمام المصريين والسوريين هو أول صدمة عنيفة لهم منذ قيام الدولة الإسرائيلية • وقال ميدلتون أيضا إن هناك اختلافا مخجلا بين ما تزعمه إسرائيل من أنها حطمت رؤوس الجسور المصرية على القناة وبين عبور العمليات الحقيقى ، وإن المصريين يحاربون بروح معنوية عالية لا وجه للمقارنة بينها وبين ما حدث عام ١٩٦٧ وقال إنهم يحاربون بصلابة تدعو إلى التقدير ، وقال إن ميزان القوى يتحول إلى صالح العرب •

وفي يوم ١٦ أكتوبر يعلن الخبير العسكرى درو ميدلتون في صحيفة « نيويورك تايمز » عن مفاجآت حرب أكتوبر وهى عجز الطيران الإسرائيلى ، ويقول ميدلتون إن التفوق الإسرائيلى الذى كانت الولايات المتحدة والدول الغربية تعتبره أمرا مسلما به قد تلقى ضربة خطيرة وإن ذلك يعتبر إحدى النتائج الهامة للحرب •

امريكا والقنبلة الذرية لإنقاذ إسرائيل :

نشرت الصحافة المصرية في يوم ٢٣ يوليو ١٩٨٥ خبرا خطيرا نقلته عن نيويورك ووكالات الأنباء ونصه :

اعترف الرئيس الأمريكى الأسبق نيكسون بأخطر أسرار حرب أكتوبر ١٩٧٣ قال إنه بحث استخدام القنبلة الذرية الأمريكية لإنقاذ إسرائيل من الدمار فى أثناء حرب أكتوبر •

وكانت جولدا مائير — كما هو معروف — قد بعثت إليه بالرسالة الشهيرة عقب عبور القوات المصرية قناة السويس وتحطيم خط بارليف وفشل محاولات الهجوم الإسرائيلى الكبير المضاد على القوات المصرية ، كانت الرسالة تقول « إسرائيل تحترق ... أنقذونا .. » وفى

الوقت نفسه أعلن موسى ديان وزير الدفاع الإسرائيلي بأن إسرائيل تنتهى ... وكان يريد أن يذهب إلى إذاعة تل أبيب ليعلن نهاية إسرائيل وقد منعت السلطات الإسرائيلية في اللحظة الأخيرة •

وقد جاء اعتراف نيكسون بهذا السر الخطير في تصريح لمجلة تايم الأمريكية •

وبعد ، هذه هي الحرب المشرفة ، وتلك هي أقوال زعماء الفكر وقادة العالم عنها ، وهي تدعونا أن نذكر بالخير والدعاء هذا البطل الذى خطط للمعركة ، وأعدّ العدة لها ، وباشرها •

وعندما نقارن انتصار السادات بهزائم عبد الناصر المتكررة نجد الفرق شاسعا بين رجل ورجل •

رحم الله السادات وأحسن جزاءه ، أما دماء الآلاف الذين دفع بهم عبد الناصر للموت دون استعداد سنة ١٩٥٦ ، وفي اليمن ، وسنة ١٩٦٧ ، فستظل نذير مسخ على الرجل الذى انهار أمام إسرائيل ولكنه كان جبارا عاتيا على الإنسان المصرى •

هيلموت شميت : السادات أعظم شخصية في هذا القرن :

ونجاح السادات في الحرب والمفاوضة والاتصالات الدولية جعل المستشار الألماني الغربى هيلموت شميت يعلن أن الزعيم الراحل أنور السادات هو أعظم شخصية سياسية شهدها القرن الحالى وقال في برنامج (شاهد على العصر) الذى بثته القناة الثانية بالتليفزيون الألماني أمس ان القرن الحالى شهد العديد من الشخصيات السياسية البارزة مثل ماوتسى تونج وجيمى كارتر وفيلى برانت وميخائيل جوربا تشوف واستطرد قائلاً ولكن أعظمهم جميعا كان أنور السادات • (صحيفة الأخبار فى ١٢/٣٧/١٩٨٩) •

المفاوضة واستعادة سيناء

لقد هزمت معركة أكتوبر إسرائيل هزماً عنيفاً ، ولو كانت إسرائيل وحدها لحققنا آمالنا ، واستعدنا الأرض العربية كلها ، ولكن سرعان ما تبين أن إسرائيل معها القوة الأولى في العالم ، معها الولايات المتحدة التي دخلت المعارك بأخطر الأسلحة ، بل بأسلحة محرمة لم تستعمل من قبل ، وهددت بأنها ستضرب مباشرة ، وفي بعض اللحظات أعطت إشارة استعداد على أعلى مستوى ، ولهذا وقفت الحرب تحت هذه العوامل •

والتقط اليهود أنفاسهم ، واستعادوا صلفهم اعتماداً على الولايات المتحدة وبدأت المفاوضات ، ولكن الصهاينة واجهوها ومعهم أمريكا فتشددوا في المفاوضة إلى أقصى حدٍّ حتى فيما يتعلق بفك الاشتباك الذي كان ضرورياً لهم ليفلت جيشهم من فناء كان يمكن أن يكون محققاً لولا تهديد الولايات المتحدة وحمايتها لهذا الجيش •

وسارت المفاوضات على هذا النحو من العسر ، فمصر كسرت الباب وحطمته في السادس من أكتوبر ، وكان يمكن أن تفرض رأيها لولا أنها سرعان ما وجدت خلف الباب أخطر قوة في العالم ، وها هي هذه القوة موجودة كذلك في المفاوضات ، وقد سبق لنا أن أوردنا الآية الكريمة التي توضح صعوبة التفاوض والتفاهم مع اليهود ، وهي قوله تعالى : « أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم » (١) •

وعاش أنور السادات في المفاوضات بين اللين والشدّة ، وطال أمدها هنا وهناك حتى عندما تفرغ لها كارتير ما يقرب من أسبوعين ، وتفرغ رئيس الولايات المتحدة لأمرٍ مدة أسبوعين شيء خطير للغاية ، وانتهت المفاوضة إلى تحرير سيناء ببعض القيود •

(١) سورة البقرة الآية ١٠٠ •

يقول البعض إن السادات تهاون ، وكان يمكن للنصر الذي أحرزته جيوش مصر أن يحقق مزيدا من النجاح •

واعتقادي أن ذلك قول الإنسان وهو بعيد عن المصحة ، وبعيد عن
بيجين وديان والولايات المتحدة ، أما القريب من النار فلا يرى أن ما
وصل إليه السادات كان قليلا ، وإذا كان فيه نقص فقد أثبتت الأيام
تلافى الكثير من اتجاهات النقص •

هل كان صلحا منفردا ؟

ويقول البعض إن مصر أقامت صلحا منفردا ، ونحن نرد ذلك ،
وقد كانت المعركة والمفاوضة تسيران بروح الجماعة ، ولكن ما العمل
إذا تخلصت عن الركب بعض السيارة ؟ وماذا إذا كانت أطماع بعض
البعيدين عن المعركة بعيدة على التحقيق للظروف التي أشرنا إليها ، فقد
كان هناك طموح ولكن ماذا نعمل إذا عجزنا عن تحقيق هذا الطموح
كله ؟

بيان دار الافتاء :

وهذا المعنى ورد في بيان دار الافتاء الذي أصدره فضيلة المفتي
بمناسبة توقيع اتفاقية السلام مع إسرائيل ، وفيما يلي بعض ما جاء
في هذا البيان :

يقال إن مصر انفردت بالصلح مع إسرائيل ، وخرجت بذلك عن
تعاهد العرب على حل جماعي ، ولكن هذا القول لا يلتقي مع الواقع ،
واقع الاتفاق الذي تم والخطوات المترتبة عليه ، فإن العرب متفقون
على حل سلمي بعد أن استحال الحرب للظروف الدولية التي لا يمكن
الإغضاء عنها ، فإذا تقاعس بعض العرب عن السعي إلى حل سلمي
دون سبب ولا سند كان على من يستطيع كسب الموقف السباق إليه وصولا
للغاية المرجوة ، والأمر موكول إلى القدرة على الحركة ، فمن استطاع

ذلك كان له بل كان عليه أن يسعى إليه لأن هذه مسئولية ولى أمر المسلمين (١) •

الإسلام لا يمانع من عقد معاهدة مع إسرائيل :

وفي البيان دراسة دينية توضح أن الإسلام يحث على إجراء معاهدات مع غير المسلمين مادام في ذلك حقن دماء المسلمين بشرط ألا يوجد في هذه المعاهدة ما يتعارض مع الإسلام ، وفي ذلك يقول تعالى : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » (سورة الأنفال الآية رقم ٦٢) وقد عقد الرسول صلحا مع قريش في الحديبية وأجرى الرسول معاهدة مع يهود المدينة عقب الهجرة ، وصالح أهل خيبر وفدك ووادي القرى وتيماء (٢) •

لقد استعدنا سيناء ، وتعثر التطبيع الذي ورد بالمعاهدة ، وكذلك لم يثمر التمثيل الدبلوماسي وعلى هذا فقد استعدنا سيناء دون أن نخسر شيئا ذا بال ، وهذا المعنى هو ما ورد في تحليل استراتيجي عن اتفاقيات كامب ديفيد بعد مرور عشر سنوات على توقيعها ، فقد قال وليم كوانت وكيل الخارجية الأمريكية السابق ، ومساعد مستشار الأمن القومي لشئون الشرق الأوسط خلال رئاسة كارتر ما يلي بالحرف الواحد : إن هذه الاتفاقيات أصبحت مجرد أصدقاء من الماضي وإن السلام بين مصر وإسرائيل وتطبيع العلاقات بينهما لا يتعدى ما يمكن أن يسمى بحالة « عدم اعتداء » (٣) •

وليتنا استعدنا الجولان والضفة الغربية وقطاع غزة على هذا النطاق بدل ترك هذه المناطق وسط ما تعانيه الآن من أحداث •

(١) بيان دار الافتاء منشور في كتاب « المصحف والسيف » للأستاذ نبيل عبد الفتاح ص ٢٠٣ وما بعدها •
(٢) انظر الجزء الأول من موسوعة التاريخ الاسلامي للمؤلف وانظر كذلك « العلاقات الدولية في الفكر الاسلامي للمؤلف » •
(٣) الاهرام في ١٦/٩/١٩٨٨ •

الولايات المتحدة هي عدونا الأول

وبعد ، أيها القارئ الكريم أذكرك بالحقائق التالية قبل أن نطوى صفحات الحرب والمفاوضة :

- الولايات المتحدة هي التي أمدت إسرائيل بالأسلحة والتأييد •
- وهي التي اكتشفت الثغرة ودفعت إسرائيل للسير فيها •
- وهي التي حمت تقدم إسرائيل بالثغرة بعد إعلان وقف إطلاق النار •
- وهي التي استعملت في حربنا أعنف وأحققر الأسلحة التي لا يقرها شرع ولا قانون •
- وهي التي هددت بأن يضربنا البنتاجون مباشرة •
- وهي التي أبدت عدوئنا في المفاوضة •
- وهي البلاء لكل مصرى ولكل عربى ولكل مسلم •
- وهي أولا وأخيرا التي غرست إسرائيل وبالتالي هي التي تحميها •

ولا تظن أن هذه الصورة التي صورنا بها الولايات المتحدة تدفعنا لنصادق الاتحاد السوفيتى ، فكلاهما في الشر سواء ، بل لابد من الاعتماد على النفس وعلى الله لنصل إن شاء الله إلى ما نتمناه •



كلمة أخيرة عن أنور السادات :

عند افتتاح الحديث عن معركة أكتوبر ذكرنا ثناء طيبا على السادات الذى أعدَّ للمعركة وخاضها بكفاءة هائلة ، ونحن نكرر هذا الثناء في ختام هذا الحديث ، لقد كان السادات بطلا ، وكان في مستوى الحدث الكبير الذى واجهه ، وقد استطاع أن يفعل الاعاجيب فى الداخل ومع العرب ومع المجتمع كله لتحقيق النصر ، ولو لم تكن هناك أمريكا لتحقيق السادات مزيدا مما نصبو إليه ، وعلى كل حال فقد حقق في الحرب وفي المفاوضة تقدما يقل جدا أن يحققه الآخرون •

إن البعيدين عن النار يتصورون الطريق مفروشا بالورود ، ولكن
الذين يعرفون بواطن الأمور يدركون ما بذل السادات من جهد وما
واجه من عناء ، ولو كان في العالم العربى عدة أشخاص مثل السادات
لحقتنا هزیدا من الانتصارات ، وإنى اعترف أنه كانت هناك عوامل
تشدد السادات للأوراء ، كالدكتاتورية والميل للترف وغير ذلك مما ذكرناه
وما سنذكره ، ولكن أين الذى يخاف من هذه العوامل ؟

رحم الله السادات وأحسن له ، جزاء ما رفع رءوسنا بعد أن
نكستها هزائم عبيد الناصر التى لم تتخلف طيلة عهده .

أحداث سنة ١٩٧٤

في دراستنا السابقة وضحنا أن الرئيس أنور السادات أدرك ضرورة الالتجاء إلى الولايات المتحدة ، وأنها وحدها التي تستطيع أن تساعد لإيجاد حلٍّ للمشكلة العسكرية والسياسية بالشرق الأوسط ، وقد زاد من شعوره ذلك عدم ثقته بالاتحاد السوفيتي كما ذكرنا ذلك من قبل .

والاتجاه للولايات المتحدة استلزم أمورا خطيرة مثل :

- الانفتاح ونتائجه .
- التطوير السياسي لتأخذ الحياة مظاهر الديمقراطية ، وإن أخفت خلفها أظافر الديكتاتورية .
- إلغاء المعاهدة مع السوفييت .
- رحلة القدس ومزيد من التقرب للمعسكر الغربي .
- كامب ديفيد ومعاهدة السلام .

وهن الملاحظ أن هذه الأشياء وغيرها لم تحدث كلها سنة ١٩٧٤ ولكنها كانت رد فعل لاتجاه السادات نحو أمريكا ، وقد حدثت في سنوات متتالية ، وسيأتى ذكرها مع الحديث عن هذه السنوات .

الارتباط بأمريكا وإعادة العلاقات معها :

مرة أخرى نقرر أن السادات خرج من حرب أكتوبر بأن الوسيلة الوحيدة لنيل حقوقنا من إسرائيل هي الارتباط بأمريكا ، إذ أن الحرب لا يمكن أن تحقق الأمل ما دامت الولايات المتحدة تتدخل الحرب بجانب إسرائيل ، وما دام الاتحاد السوفيتي لا يحس بولاء مصر له ، وبالتالي لا يبذل جهدا كبيرا في مساعدة مصر ، وقد تخلى عن إمداد مصر بالسلح في أخرج الأوقات وطالب بالثمن فورا ، وقبل ذلك عندما سحب خبراءه وسحب معهم المعدات التي جاءوا بها لمصر لتدريب المصريين عليها .

(م ٢٣ - التاريخ الاسلامي)

بل إن السادات ربما طمع في أكثر من هذا ، طمع في إيهام أمريكا أن
في مقدور مصر أن تقوم بالدور الذي تقوم به إسرائيل في الشرق الأوسط
لصالح أمريكا ، ولكن هل يصدق الأمريكيان ذلك ؟ وهل تستطيع مصر
فعلا ؟

إن ظروفنا تاريخية وأخلاقية تحول دون أن تصبح مصر أداة في
يد أمريكا في هذه المنطقة من العالم ، ولكن خيال السادات دفعه إلى
مضى بعيد .

وعلى كل حال فاتجاه السادات للارتباط بأمريكا ألزمه أن يقوم
ببعض التصرفات ليبرهن بها على هذا الاتجاه ، ولم يكن في الحق يقوم
بهذه التصرفات عن عقيدة ، فالديمقراطية والانفتاح وحرية الصحافة ...
أشياء ضرورية لمن يريد أن يسير في فلك الولايات المتحدة ، ولكنها أشياء
تتناهى مع طبيعة السادات ومع الحكم العسكري ، وعلى كل حال فقد
حاول أن يوفق بين هذه الالتزامات وبين طبيعته ، وسفرى في الدراسات
التالية إلى أى مدى ومُقَى في ذلك .

وقد سارت الرغبة في الارتباط بأمريكا خطوات كان من أبرزها
إعادة العلاقات الديبلوماسية معها ، تلك التي كانت قد قطعت عقب
حرب الأيام السود في يونيو ١٩٦٧ وأعيدت العلاقات كاملة في ٢٨ فبراير
سنة ١٩٧٤ .

إطلاق سراح الأستاذ مصطفى أمين :

ذكرنا في الجزء التاسع من هذه الموسوعة أن الأستاذ مصطفى أمين
اتُهم في عهد عبد الناصر بأنه أمدّ السفارة الأمريكية سنة ١٩٦٥
بمعلومات فيها إضرار بمركز البلاد الاقتصادي والسياسي ،
وقُبض على مصطفى أمين في الاسكندرية لهذا السبب ، وقدم لمحكمة
الدجوى التي كانت تعالج القضايا التي لم يثبت فيها الاتهام على المدعى

عليهم ، وكانت هذه المحكمة لا تحكم بما يناسب الجرم ، ولا يتوقف حكمها على التثبت من حدوث جريمة ، وإنما كانت عسكرية تقضى بما يريده عبد الناصر دون أى اعتبار آخر •

وبناء على ذلك حكمت هذه المحكمة على مصطفى أمين بالأشغال الشاقة المؤبدة •

ولم يقنع عبد الناصر بسجن مصطفى أمين وإنما أسلمه إلى الزبانية الذين عذبوه عذابا يجلُّ عن الوصف ، وقد أثبتته مصطفى أمين في كتبه عن سنوات السجن (١) •

ومات عبد الناصر ومصطفى أمين في السجن ، وجاء أنور السادات فترك مصطفى أمين على حاله ، ولكن السادات عندما بدأ يوثق علاقاته بالولايات المتحدة ، كان لابد أن يفرج عن مصطفى أمين الذى نكّل به بزعم أنه عميل أمريكى كما جاء في اتهماته •

فصدر قرار بإطلاق سراحه في ١٨/٥/١٩٧٤ ، واعتقادي أن إطلاق سراحه كان تابعا للاتجاه الجديد الذى سلكه السادات نحو الولايات المتحدة ، وليس لما أورده موسى صبرى أن تأجيل إطلاق سراح مصطفى أمين كان بناء على اتهام جديد بأنه كان على علاقة في السجن بزعماء مراكز القوى (٢) ، وليس كذلك لانشغال السادات للإعداد لمعركة أكتوبر كما ذكر على أمين ، وللأسف صدر قرار بإطلاق سراحه والعفو عنه ، ولم يصدر قرار بتبرئته من التهمة التى لُفّت له ، وقد أعلن المدعى الاشتراكى فيما بعد براءة الأستاذ مصطفى أمين ، وسنذكر ذلك بعد قليل •

(١) انظر الجزء التاسع ص ٦٨ وما بعدها ، وكتاب سنوات عصيبة للم.تشار محمد عبد السلام و « سنة أولى سجن » لمصطفى أمين •
(٢) انظر وثائق ١٥ مايو ص ٣٨٨ لموسى صبرى •

وبإطلاق سراح مصطفى أمين بعد تسع سنوات في السجن عاد أخوه الأستاذ على أمين الذى أمضى السنوات التسع في المنفى بعيدا عن مصر .

اتهام ظالم أثر على بعض الذين صدقوه :

في صحيفة أكتوبر الصادرة في شهر سبتمبر سنة ١٩٨٨ حديث للدكتور مصطفى أبو زيد الذى شغل وظيفة « المدعى الاشتراكى » لأول مرة في عهد السادات أعلن فيه اقتناعه التام ببراءة مصطفى أمين من التهمة التى وجهت إليه ، وأنه لذلك استصدر قرارا من الرئيس السادات بالعفو عنه .

وقد قضى الأستاذ مصطفى أمين تسع سنوات في السجن ، ثم صدر قرار العفو دون أن يوضح أنه برىء من التهمة التى وجهت إليه وهى تقديم معلومات تضر بالبلاد نظير مال دفع له ، ولم يثبت بطلان هذه التهمة إلا بحديث الأستاذ مصطفى أبو زيد سنة ١٩٨٨ ومعنى هذا أن الأستاذ مصطفى أمين ظل في نظر من صدقوا الاتهام الذى لفتحه عبد الناصر ، ظل متهما ، وأن إطلاق سراحه كان نوعا من العفو عنه دون ذكر براءته ، وقد كتب المرحوم الأستاذ حسن صبحى صاحب مجلة « أنباء المعادى » مقالا بهذه المجلة في عددها الصادر في ٢٩/٩/١٩٨٨ ذكر فيه أنه هو وكثير من الناس صدقوا الاتهام الباطل الذى لفتق للصحفى الكبير بأمر عبد الناصر ، وظل هذا الصحفى العظيم موضع اتهام في نظرهم طيلة ٢٣ سنة حتى كتب الأستاذ مصطفى أبو زيد يقرر أن هذا الاتهام باطل ، وختم الأستاذ حسن صبحى مقالته بقوله :
« ألا لعنة الله على السياسة التى جرّدت جمال عبد الناصر من ضميره في قضية مصطفى أمين ، وليساهونا الله سبحانه وتعالى لكرهيتنا لمصطفى أمين هذه المدة الطويلة وهو مواطن شريف مخلص في خدمة بلاده ، له كل يوم عمل مجيد في خدمة بلاده ومواطنيه » .

اضطرابات صحفية :

شهدت سنة ١٩٧٤ حركة واسعة في مجال الصحافة ، فعاد إلى العمل الصحفيون الذين كانوا في السجون أو كانوا قد أبعدها عن الصحافة وأسندت لهم أعمال أخرى ، وكذلك الصحفيون الذين كانوا قد هاجروا من البلاد ، وفي الوقت نفسه عاد إلى مصر الأستاذ على أمين ، وتحرر من السجن الأستاذ مصطفى أمين كما ذكرنا آنفا •

وفي نفس الوقت كان السادات قد بدأ يغضب على الأستاذ محمد حسنين هيكل ويشبعه عن الأهرام ، وقد شهدت هذه الفترة صورا من الاضطرابات ، فعلى أمين عاد من المنفى ليعين مديرا لتحرير الأهرام ، ووضع الدكتور عبد القادر حاتم رئيسا لمجلس الإدارة ، ومن الطبيعي أن على أمين لم يحس بالاستقرار في جريدة الأهرام ، فقد كان يرى في كل محرر أو عامل أو فراش مندوبا لهيكل وخصما غيره ، كذلك تبين أن « على أمين » يريد تغيير شخصية جريدة الأهرام إلى جريدة أشبه بشخصية الجريدة التي أسسها مع مصطفى أمين وهي أخبار اليوم ، وكان هذا وذلك سببا في أن وجود على أمين في الأهرام كان مدعاة للقلق وعدم الاستقرار ، أما مصطفى أمين فقد عاد إلى أخبار اليوم رئيسا لتحريرها ، وفي نفس الوقت كان الأستاذ إحسان عبد القدوس رئيسا لمجلس الإدارة فيها ، وبعد فترة عاد السادات فقرر أن يكون مصطفى أمين رئيسا لمجلس الإدارة في أخبار اليوم وأن يعود على أمين بجوار أخيه في مؤسستهما أما رئاسة تحرير الأهرام فقد أسندت للأستاذ أحمد بهاء الدين •

وننتقل إلى علاقة السادات بالأستاذ المرحوم على حمدي الجمال ويذكر الأستاذ أحمد بهاء الدين ^(١) أن السادات كان يكره المرحوم على حمدي الجمال كراهية شديدة ولا يطيق سماع اسمه لأنه رأس مرة جمعية عمومية وهو نقيب الصحفيين ، وهرجم فيها السادات هجوما شديدا ،

(١) محاوراتي مع السادات ص ٥٢

واعتبره السادات مسئولاً أو عاجزاً عن السيطرة على الجمعية العمومية ،
ويقول الأستاذ أحمد بهاء الدين إن السيطرة على الجمعية العمومية لنقابة
الصحفيين دائماً أمر مستحيل •

ويقول مصطفى أمين إنه عندما عاد لأخبار اليوم ضاق به إحسان
عبد القدوس لأن المحررين والعمال بالمؤسسة الصحفية استقبلوا أستاذهم
مصطفى أمين في مظاهرة رائعة وأحس إحسان عبد القدوس أنه غريب
في هذا الجو •

بقيت كلمة ترتبط بعلاقة هيكل بالسادات ، فإن هيكل تعود أن يكون
شريكا في الحكم أيام عبد الناصر ، فكان له رأى مسموع في تشكيل
الوزارات وصنع القرارات ، ولكن السادات لم يكن يعطى هيكل هذه
المكانة ، وقد ذكرنا من قبل أن السادات كان حريصاً على ألا تنتشأ مراكز
قوة بجواره ، أو كان يريد دائماً أن يكون الزمام في يده هو لا في يد أى
شخص آخر ، ومن هنا استبعد هيكل عن الأهرام التى كانت بمثابة دولة
داخل الدولة •

ويذكر الأستاذ أحمد بهاء الدين أن السادات كانت له عيون في
الصحافة تنقل له النكتة التى تنال فيضحك عليها المحررون ، كما تنقل
أية كلمة يمكن أن يكون فيها مساس ظاهر أو باطن بالسلطات العليا ،
وكان هؤلاء العيون ينالون من حين إلى آخر مكافآت ومراكز بناء على
طلب السادات (١) •

وهكذا استلزم اتجاه السادات للغرب أن يمنح نوعاً من الحرية
للصحافة ، ولكن شخصية السادات لم تسمح بأن تكون الحرية مطلقة
فتدخل بنفسه أو بعيونه في الحياة الصحفية •

ورقة أكتوبر ومحاولات الديمقراطية :

إن اتجاه أنور السادات إلى أمريكا استلزم أيضا أن يخلق في مصر نوعا من الديمقراطية وتعدد الأحزاب ، وكان ذلك على نمط ما فعلته تركيا حتى يمكن بقاؤها في الجسم الأوربي الذي تنتمي إليه ، وحدث ذلك أيضا في أسبانيا والبرتغال ، فلم تتقبلا في السوق الأوروبية المشتركة إلا بعد أن حققتا صيغة ديمقراطية ، ويقول الأستاذ أحمد بهاء الدين :

إن السادات حين بدأ يفكر في التعدد السياسي كان ذلك أهم دافع لديه لتسهيل الاندماج في عالم الغرب ، والحصول على حمايته وتحالفه (١) .

وعلى هذا اقترح السادات ما سمي « ورقة أكتوبر » على نسق ما فعله عبد الناصر من قبل فيما سُمّي (بيان ٣٠ مارس) وهو بهذا يوهم بارتباطه بعبد الناصر ، ولكنه ينطلق تبعا لفكره ، أو تبعا للضرورات التي يراها لازمة لنجاح سياسته .

وقد طرحت ورقة أكتوبر في استفتاء عام في ١٥ مايو ١٩٧٤ وقد حاول فيها أنور السادات كما سنرى بعد قليل أن يحوّل الاتحاد الاشتراكي إلى (منابر) ثم أعلن أن تصبح المنابر أحزابا ، وأن تأخذ الأحزاب وجهها ديمقراطيا ، وقبل أن نسير خطوات في الحديث عن مراحل الديمقراطية كما أرادها السادات نذكر عبارة كررها مرارا وهي تفيد اتجاهاته الديكتاتورية ، وإن المظاهر الديمقراطية لم تكن مبررة عن طبيعته وأعماق نفسه ، وهذه العبارة هي كما يرويها الأستاذ أحمد بهاء الدين : « يا أحمد ، عبد الناصر وأنا آخر الفراغة ، فعبد الناصر وأنا لا نحتاج لنصوص ، والنصوص التي نضعها هي لمن يجيء بعدنا ، فهؤلاء سيكونون رؤساء عاديّين يحتاجون لنصوص ليتبعوها وليلتزموا بها » .

ويعلق الأستاذ أحمد بهاء الدين على هذه العبارة بقوله :

وجدت في حديث السادات تناقضا بين ما كان يلمّح به في غموض وعدم وضوح لإيجاد صيغة للتغيير السياسى وبين كلامه عن السلطات المطلقة .

ولنعد إلى ورقة أكتوبر لنقتبس بعض ما جاء بها ، ثم نمشى خطوة إثر خطوة لنرى ما حدث من تغير في النطاق السياسى تبعا للمظهر الجديد الذى أراد السادات أن يظهر به ، وهو قالب الديمقراطية التى تتبعها الولايات المتحدة وتتبعها دول الغرب بوجه عام .

جاء في ورقة أكتوبر النص التالى :

« إن معارضة فكرة الحزب الواحد لا تتأكد إلا بالتسليم بتعدد الاتجاهات داخل الاتحاد الاشتراكى » .

وهذا النص يوضح الاتجاه نحو تعدد الاتجاهات في حدود الكائن القديم وهو الاتحاد الاشتراكى ، ولذلك جاء في ورقة أكتوبر أيضا أن المطلوب هو « تعدد القوى الاجتماعية التى يتكون منها التحالف » وتكونت اذلك لجنة لتجميع الاتجاهات حول تطوير الاتحاد الاشتراكى ، وبعد الدراسة قررت هذه اللجنة النقاط التالية حسب ما فهمته من هوى السادات :

١ — اتفقت جماهير شعبنا على ورقة التطوير ، وأن الاتجاهات المتعددة داخل الاتحاد الاشتراكى يمكن أن تكون انعكاسا لتعدد قوى الشعب العاملة المكونة للاتحاد .

٢ — طالبت الأغلبية بأن تقوم منابر داخل الاتحاد الاشتراكى على أساس فكرى ، حيث يقوم منبر لليمين ومنبر للوسط ومنبر لليسار ، على أن تلتزم هذه المنابر بمواثيق الثورة .

٣ — إن اختلاف المنابع الفكرية لهذه المنابر من شأنه أن يدعم الاتحاد الاشتراكى ويثرى فكره ويبعث فيه الحركة والحياة .

وواضح من هذه النقاط الحرص على بقاء الاتحاد الاشتراكي وأن يكون التطوير في داخله ، وذلك ما قرره المؤتمر القومي العام للاتحاد الاشتراكي الذي عقد في أواخر يوليو سنة ١٩٧٥ ، والذي بمقتضاه بدأ تأسيس المنابر •

ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، فقد أعلن الرئيس السادات في ١٩٧٦/١/٣٦ باعتباره رئيسا للاتحاد الاشتراكي تشكيل لجنة لدراسة « موضوع المنابر » ثم تطور اسم هذه اللجنة ليكون « لجنة مستقبل العمل السياسي » وهذا الاتجاه من الرئيس كان فيه تلميح بعدم التمسك بالاتحاد الاشتراكي ، ولكن هذا التلميح لم يكن ظاهرا للكثيرين ، ولذلك رأت أغلبية هذه اللجنة أن مستقبل العمل السياسي ينبغي أن يظل في إطار الاتحاد الاشتراكي ، وقدّمت تقريرها للرئيس بذلك ، وخلاصة هذا التقرير بقاء الاتحاد الاشتراكي مع استحداث المنابر الثلاثة التي ذكرناها في إطاره •

وعين الرئيس رؤساء هذه المنابر ، فكان ممدوح سالم رئيسا لمنبر الوسط ، ومصطفى كامل رئيسا لمنبر اليمين ، وخالد محيي الدين رئيسا لمنبر اليسار ، وتعيين رؤساء المنابر بدعة مرفوضة كانت مؤشرا لفساد الاتجاه الديمقراطي الذي يحاوله السادات ، والعجيب ان هذا التعيين استمر بعد أن تحولت المنابر إلى أحزاب وهكذا كانت أحزاب السلطة امتدادا للاتحاد الاشتراكي فيما عدا حزب التجمع الذي سار نحو الاستقلال عن السلطة ، وجرت على ذلك الانتخابات من ٢٨ أكتوبر إلى ٤ نوفمبر سنة ١٩٧٦ ، وسمح للمستقلين بدخول هذه الانتخابات وكانت نتائج الانتخابات كالاتي :

- منبر الوسط حصل على ٢٨٠ مقعدا
- منبر اليمين حصل على ١٢ مقعدا
- منبر اليسار حصل على ٢ مقعدين
- المستقلون حصلوا على ٥٦ مقعدا

ويلاحظ على هذه النتيجة أن منبر الرئيس وهو منبر الوسط فاز فوزا ساحقا ، ويعتبر المطلعون أن هذه الانتخابات هي الانتخابات النزيهة الوحيدة التي حصلت في عهد الثورة الطويل ، ويذكرون ممدوح سالم بالخير لوقفته النزيهة حيال الانتخابات .

ولكن الذي يلاحظ هو أن هذه الانتخابات كانت في حدود المنابر ، أى في حدود الاتحاد الاشتراكي ، ولم يرشح من المستقلين إلا عدد قليل لا يستوجب التدخل وتزييف الانتخابات ، ومن هنا فالحييدة الطبيعية ما دامت قد خلت من أى حزب منافس ، ولهذا فمع تقديري لشخصية ممدوح سالم لا أرى داعيا لمدحه لأنه وقف على الحياد في هذه الانتخابات وأو أمتد الأجل لوزارة ممدوح سالم وشاهد الانتخابات التي كان حزب الوفد مشتركاً فيها. لكن من حق ممدوح سالم أن نشنى عليه أعطر ثناء لو أدار الانتخابات بالحييدة التي أتبعها في أكتوبر سنة ١٩٧٦ .

ويلاحظ أن الحرية التي كفلتها هذه الانتخابات سمحت لعدد كبير من المستقلين لينجحوا ويدخلوا مجلس الشعب على حساب مرشحي المنابر ، وكان هؤلاء أساساً لقيام حزب الوفد كما سنرى بعد قليل ، وكان هؤلاء كذلك سبباً في العودة إلى ضرورة تزييف الانتخابات ، فحرية الانتخابات جلبت عدداً كبيراً من أعداء الثورة الذين كانوا خارج الاتحاد الاشتراكي ومنابره .

وبعد سبعة أيام من ظهور نتائج الانتخابات وفي خطاب الرئيس أمام مجلس الشعب الجديد تغير كل شيء ، فقد أعلن في هذا الخطاب التحول الكبير التالي :

من المنابر إلى الأحزاب :

قال الرئيس : « وبناء على نجاح تجربة الانتخابات ، واستئناف المسيرة

التي عاهدت الله والشعب عليها نحو الديمقراطية فقد اتخذت قراراً بتحويل التنظيمات الثلاثة « المنابر » ابتداء من اليوم إلى أحزاب ، وأصبح منبر الوسط يسمى « حزب مصر » وعُهد إلى ممدوح سالم برياسته ، وكان أنور السادات واسع الأطماع فيما يتعلق بحزب مصر ، فطلب أن تمتد جذور هذا الحزب إلى كل المدن والقرى والنجوع ، وأن يجذب له العصبية ، وأن تكون دور الحزب كالبیوت المفتوحة لكل المواطنين ، وبذلك يلتحم الحزب بالجماهير ، ويعبر عنها ويلبى حاجاتها •

ولكن الشعب كان بعيداً عن مؤسسات الثورة وأحزابها ، فالشعب قاسى كل صور المتاعب من هذه الثورة التي عاش قادتها لأنفسهم وأسرفوا في سوء معاملتهم للجماهير ، فبقى الحزب في واد ، والشعب في وادٍ بعيد •

أما منبر اليمين فقد تحول إلى حزب الأحرار وعهد برياسته إلى مصطفى كامل مراد ، وهو ضابط سابق ، وكان وهو رئيس حزب موظفاً في وزارة الصناعة مما جعل الحزب يسير في كنف الحكومة ، وعندما أراد رئيس الحزب مرة أن يتكلم بشئ من الحرية قال له وزير الصناعة : إنك موظف عندي بالوزارة •

أما منبر اليسار فقد رأسه خالد محيى الدين ، أو الحاج خالد كما يجب أن يُكنى ، والفكر الماركسى يتناقض تماماً مع الحج وشعائر الإسلام إلا أن يكون هناك فكر ماركسى جديد •

أنور السادات رئيساً لحزب :

وكان أنور السادات يبدو وكأنه رئيس مصر ، وليس رئيساً لحزب خاص ، ألم يكن رئيساً للاتحاد الاشتراكى الذى انبثقت منه هذه الأحزاب ؟ ولكن سرعان ما أحس بأن هذه الأحزاب بذونه لن تكون شيئاً في المحيط السياسى ، وبخاصة بعد ظهور حزب الوفد الذى سنتحدث

عنه بعد قليل ، فأعلن أنه سينزل للشارع السياسى ، وسيؤلف حزبا جديدا اختار له اسما هو « الحزب الوطنى الديمقراطى » .

وما كاد السادات يعلن ذلك حتى هُرع له كل أعضاء حزب مصر ، أولئك الذين التحقوا بهذا الحزب على أنه حزب السادات وتحت رعايته وعباءته ، ولكن إذ ألف السادات حزبا جديدا فليهرع له النواب الذين لا يهمهم إلا السير فى ركاب الرؤساء ، ولم يبق فى حزب مصر إلا عدد يقل عن أصابع اليد الواحدة ، وفى مقدمتهم الفريق سعد الدين الشريف والأستاذ جمال ربيع والمهندس عبد العظيم أبو العطا الذى كان أحد المقبوض عليهم فى سبتمبر سنة ١٩٨١ ومات وهو فى سجن الاعتقال .

نهاية الاتحاد الاشتراكى :

كانوا يقولون عن الاتحاد الاشتراكى إنه ليس اتحادا لأنه كان حافلا بالمدادات والتكتلات ، وأيس اشتراكيا لأنه كان وسيلة لتكوين ثروات كبيرة لبعض قياداته .

وهكذا كانت نهاية هذا الاتحاد الذى عاش ومات وهو بمنأى عن الشعب ، ولم يكن إلا حصنا للدكتاتورية واقتناص الغنائم ، وكان اسمه يثير الرعب فى كل مكان .

فالى الجحيم هذا الكائن الذى رأت مصر فى وجوده شبحا للالام ووسيلة لاستنزاف خزانة الدولة ، ولم يكن فى يوم من الأيام إلا أداة فى يد الحاكم ، يضرب به الشعب ، ويباشر عن طريقه أسوأ السلطات ، ولذلك كانت نهايته نهاية عصر حافل بالمرارة .

قانون الأحزاب وقيام حزب الوفد ثم تجريد نشاطه :

كان طبيعيا بعد أن أصبحت المنابر أحزابا أن يصدر قانون الأحزاب ، ولكن هذا القانون الذى صدر كان يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، فقد أقر

الأحزاب الثلاثة التي كانت موجودة فعلا ، ومنع بروز أحزاب أخرى إلا إذا كان لها في مجلس الشعب الذي كان قائما آنذاك عشرون نائبا على الأقل ، وكان هذا الشرط وُضع لمنع حزب الوفد بوجه عام من الظهور ، فقد اتخذت الطرق حتى لا يتجمع هذا العدد لتأييد قيام حزب الوفد ، ومع ذلك فقد ثابر اتباع هذا الحزب على محاولتهم حتى جمعوا توقيعات عشرين نائبا ، وكان أكثرهم من المستقلين أعضاء المجلس ، وكان بعضهم من حزب الوسط نفسه ، ويقول الأستاذ إبراهيم دسوقي أباطة ^(١) : إن قيام حزب الوفد الجديد سجل دويما كبيرا في الأوساط الشعبية ، فقد ظل الوفد بزعامته التاريخية وماضيه النضالي مطبوعا في ضمير الأجيال القديمة والجديدة ، ولذلك ما إن ظهر الحزب حتى أقبل الآلاف على الانضمام إليه ، فاهتزت الثقة الشعبية في الأحزاب التي أقامت السلطة ، تلك الأحزاب التي عُرِفَتْ بأنها أحزاب المصالح وطلاب المنافع ، وأصبح الوفد الجديد أول حزب بعد الثورة يُولَد ولادة طبيعية ، وكانت زعامته وقياداته من القاعدة الشعبية العريضة ، وكانت عضويته مفتوحة لكافة الفئات الاجتماعية ، حتى أصبح أقرب إلى أن يكون جبهة وطنية منه إلى حزب سياسي متجانس .

ولم يَبْدُرَ الحاكم ذعرا بحزب الوفد عندما بدأ ، وهو ن رجائه عليه ظهور هذا الحزب ، معتقدين أنه لن ينال أى صدى في نفوس الشعب ، ولكن ما إن ظهر هذا الحزب حتى علا صوته ، وارتفع نجمه ، وكأنه كان آملا للشعب ، فالتف الشعب حوله ، وأصبحت الأحزاب الأخرى أشبه بالاقزام بجوار هذا الحزب العملاق ، ومن هنا بدأ الصراع بين حزب الوفد وحزب الرئيس ، واضطر حزب الرئيس إلى النزول في معركة مع حزب الوفد مجددا النغمات القديمة والانتهاكات الباطلة التي كانت توجه لحزب الوفد قبل الثورة ، كحادثة ٤ فبراير

(١) الخطايا العشر : ص ١٥٣ وما بعدها وانظر أيضا الصفحات السابقة .

والإغداق على المحاسيب ، ولكن الشعب أعرض عن هذه الاتهامات الباطلة ونظر إلى حزب الرئيس على أنه الحزب الذى وقف عاجزا أمام المشكلات التى يواجهها الشعب فى حياته اليومية كالمرافق والإسكان والغلاء والبطالة ، وكان حزب الوفد هو لسان الشعب فى الدفاع عن اتجاهاته وآماله ، وسرعان ما اتضح أن حزب الوفد خطر على الحاكم وأعوانه ، ولم يجد أنور السادات بدلا من اللجوء إلى ما أسماه « استفتاء » ليضرب قيادات حزب الوفد ، وكان الاستفتاء يتحدث عن صحة معالجة الحكومة لقضية السلام الاجتماعى ومعارضة الذين أقسدوا الحياة السياسية وضرورة استبعادهم من الساحة الجديدة وأجرى الاستفتاء فى ١٤/٥/١٩٧٨ وستحدث عنه ضمن أحداث ١٩٧٨ ونال الاستفتاء الأرقام التى تعودت استفتاءات الثورة أن تسجلها ، وهى أرقام التسعات المكررة ، وبناء على هذا الاستفتاء أخرج الأستاذ عبد الفتاح حسن نائب رئيس حزب الوفد من مجلس الشعب لأنه كان من القيادات القديمة التى حرّم الاستفتاء أن تباشر حقوقا سياسية ، كما أصبح الأستاذ فؤاد سراج الدين ممنوعا من قيادة أحزاب سياسية لأنه أيضا كان من القوى السياسية التى أدانها الاستفتاء •

وفى إطار هذه التصرفات وجد حزب الوفد أنه لا يستطيع أن يمارس نشاطه فى حرية ، وبخاصة بعد استبعاد زعماء الحزب ، فقرّر الحزب تجميد نشاطه السياسى فى يونيو ١٩٧٨ واختفى الحزب رسميا ، ولكنه ظل حيا فى ضمير الشعب إلى أن عاد للظهور بعد نهاية عصر السادات ، وكانت مدة قيام حزب الوفد لا تتجاوز عدة شهور •

الانتقاح الاقتصادى

عندما نتذكر مطلع النظام الشيوعى بالاتحاد السوفيتى نجد أن الثورة الشيوعية عندما حققت النجاح أقفلت الأبواب على البلاد تماما حتى شاع استعمال « الستار الحديدى » دليلا على صعوبة الوصول

لداخل البلاد ، وراحت هذه البلاد تبني نفسها في كل اتجاه ، مُعْرِضةً عن العالم حولها بقدر الإمكان ، وكان البناء في مجال الزراعة والصناعة وتكوين الجيش ... بل بالاهتمام بفرق الباليه وكرة القدم ... وظل الحال على ذلك حوالى ربع قرن حتى خرجت روسيا على العالم مع الحرب العالمية الثانية وهى قوة جبارة يُعَمَل لها ألف حساب في كل المجالات .

لو قارنا ذلك الوضع بحال الثورة المصرية لأحسنا بالندم والخجل ، فالثورة المصرية أسرعت بفتح الأبواب على مصاريعها في الدوائر التى ذكرناها من قبل وهى الدائرة العربية والإسلامية والأفريقية ، ثم دائرة عدم الانحياز ... واصطدمنا بالقوى الكبرى في ظروف مختلفة ولم يكن عندنا وقت البناء الداخلى كما صرح بذلك اللواء محمد حافظ إسماعيل ، فانهزت مرافق البلاد وعمتها التخلف وأثقلتها الديون .

وبينما فتح عبد الناصر الأبواب على مصاريعها بالنسبة لهذه الدوائر ، فإنه قفل الأبواب على المصريين بحيث لا يخرجون من البلاد إلا لضرورة قاهرة وبإذن من ولئى الأمر ، ومبالغةً في حرمان الناس قرر قفل الحدود بحيث لا ترد لمصر صنوف مما يحتاجه الناس للطعام والشراب واللباس وضرورات الحياة ، وأصبح لزاما علينا عندما نذهب للخارج فى مؤتمر من المؤتمرات أن نعود محملين بالهدايا للأهل والأقارب لنقل من حرمانهم ، وكنا نجد هذه الحاجات التى حرّمنا منها قانون عبد الناصر موجودةً فى أسواق بلاد العالم الثالث. فكنا نشترىها من السودان ومن ليبيا ومن باكستان ... فكل الناس عندهم ما يحتاجون إليه إلا المصريين .

وكان واضحا لنا أن الحرمان مشروط على الشعب وهذه ، أما الحكم فكانت الأبواب مفتوحة لهم على مصاريعها عن طريق رحلاتهم التى لا تنقطع ، وعن طريق الحقائق الدبلوماسية التى أعطينا لها نمونجا من قبل .

وكان هذا الانغلاق ينتافى مع طبيعة موقع مصر وتاريخها ، فموقع مصر الجغرافى فى ملتقى ثلاث قارات يجعل الانغلاق سياسة تتنافى مع طبيعتها الجغرافية ، وموقعها الحضارى ، وراثتها التاريخى •

وكانت مصر شديدة الاتصال بالعالم حولها منذ فجر التاريخ ، وعندما دخلت مصر فى نطاق الامبراطورية العثمانية سرعان ما رفضت الانغلاق وتمردت على سياسته وتفتحت على العالم فى عهد محمد على باشا وحفيده إسماعيل •

وعلى هذا كان الانغلاق الذى خضعت له مصر فى عهد عبد الناصر ينتافى بطبيعة مصر والمصريين ، وكان قيذا على حياة المصريين ، فلم يكن يسمح لهم بالسفر للخارج دون إذن من السلطات الحاكمة ، وكان الحصول على هذا الإذن شبيها عسيرا •

وكان الانغلاق كذلك فرصة للروتين والتعقيدات والبيروقراطية الفاسدة التى نشأت خلال هذا العهد ونمت بحكم الخوف والقلق ، فكان أيسر على الموظف أن يرفض أى شئ ، عن أن يوافق على أى شئ ، فلم يكن فى الرفض مسئولية ، ولكن الموافقة تحتل كثيرا من الاتهامات •

وكانت حجة أولى الأمر فى فرض الانغلاق هو حراسة الصناعات الجديدة بمصر حتى لا تتراحمها الصناعات الخارجية وحتى لا يجد المصرى مفرًا من الإقبال على إنتاج بلاده ، ويمكن أن يكون هذا صحيحا ومقبولا بالنسبة للكفايات ولكن الواقع كان يشمل كل حوائج الشعب المصرى حتى الدواء الضرورى ، وحتى الأشياء التى لم تنتجها بلادنا مما تستلزمه حياة البيوت والناس ، كما كان يشمل قطع الغيار للسيارات والآلات ، فطالما وقفت سيارة وتعطلت آلة مهمة فى انتظار قطعة غيار ترد من الخارج بوسيلة أو بأخرى •

لقد كان عصرا شعاره الحرمان ، وظهر الرجل الذى يملك المال ولكنه لا يملك أن يشتري به ضرورات الحياة ، فأصبح المال لا قيمة

له ، وكان هذا من أهداف عبد الناصر ليرى العناء في الناس ، كما رأى
هو العناء في حياته الأولى •

وبينما كان الشعب يعاني من هذه الويلات كان المسادة ينعمون بكل
صنوف الترف ، فطائرة على صبرى تصل محملة بكل وسائل المتعة ،
والضباط يتجهون إلى غزة — وكانت سوقا حرة ، وتحت إشراف مصر —
لا لشيء إلا (للتبضيع) وإحضار ما يحتاجه المسادة ، وكانت حرب اليمن
وسيلة للجنود والضباط لشراء ما يريدون من أسواق اليمن ، وتأتي
بهم الطائرات إلى مطارات عسكرية ليست بها رقابة جمركية •

لو كان الانغلاق على الجميع لاحتمله الناس ، ولكنه كان فقط انغلاقا
على جماهير الشعب المحروم •

وإذا كان الانغلاق بهذا المعنى ذميمة وجائرا فإن الانفتاح الذى
أعلنه السادات كان خطيرا ، فلقد سمح للأبواب أن تفتح دون قيود ،
وللسلع الترفيهية أن تدخل البلاد ، ويشترت شئون الجمارك ، وفتحت
الأبواب كذلك للاستثمارات العربية ، والأجنبية لإقامة مشروعات بمصر ،
والتحق كثير من المصريين بالمشروعات الاستثمارية الجديدة ، وسافر
كثير من المصريين للعمل بالخارج وأخرج أغنياء المصريين أموالهم من
تحت (البلاط) وكل هذا الثراء الجديد اتجه لسلع الترف التى امتلأت
بها الأسواق ، وتراجعت السلع المصرية التى لم يكن فى مقدورها منافسة
السلع المستوردة •

وهكذا بدل أن يتجه الانفتاح للإنتاج وخدمته وتوفير آلاته ،
وخدمة المصانع الزراعية والصناعية ، وخدمة السياحة ، بدلا من ذلك
اتجه الانفتاح للسلع الاستهلاكية بل للتافه منها ، فأصبح كارثة على
الاقتصاد القومى بدل أن يساعد هذا الاقتصاد ويفك أسرته ، وكانت

السلع في حالات كثيرة تافهة ، وكانت ترد من كل بقاع الأرض وكان الناس يتخطفونها لطول ما عانوا من حرمان ، وأحيانا كانت السلع دجاجا فاسدا أو ألبانا فاسدة ، وتدفع رشاوى باهظة للحصول على إذنٍ بصلاحياتها وهى غير صالحة ، وهكذا أصبح الانفتاح ضارا بالأخلاق وبالصحة وبالاقتصاد جميعا •

الاستيراد بدون تحويل عملة :

ثم ابتكرت عقلية ذلك العصر موضوع الاستيراد بدون تحويل عملة ، وهى قضية تدعو للسخرية فالذى يريد أن يستورد بضاعة كان عليه أن يدبّر العملة الصعبة دون أن يطلب هذه العملة من البنوك المصرية ، وبسهولةٍ جدا اتجه هؤلاء التجار إلى المصريين الذين يعملون بالخارج وهم طبعاً يأخذون مرتباتهم بالعملات الصعبة ، وأجروا معهم عملية استبدال ، فأخذوا مرتباتهم وأودعوا لهم بدلها نقوداً مصرية ، ودخلت في ذلك عمليات الإغراء ، فاشترى التجار العملات الصعبة بأكثر من سعرها الرسمى ، فأصبح الموظف بالخارج بدل أن يرسل مدّخراته إلى القاهرة يسلمها لهؤلاء التجار الذين يودعون له بمصر ما يُشكّق عليه من العملة المصرية •

وعلى هذا فنظام « الاستيراد بدون تحويل عملة » كان نظاما بعيدا عن الحكمة لأن التحويل تمّ بعملية صعبة كانت ستتردّ إلى الخزانة المصرية •

هل كان السادات يقصد بالانفتاح أن يحقق في مصر نظام الاقتصاد الحر تقرّشاً من الولايات المتحدة والدول الغربية الذى اتّجه السادات للانضواء تحت لوائها ؟

ربما كان ذلك ، ولكن النظام الذى أعلنه السادات كان قاصرا لأن الانفتاح السياسى لم يساير الانفتاح الاقتصادى ، ثم إن هذا الانفتاح

الاقتصادي فتح الباب لجماعة من المحرومين ، وجماعة من الانتهازيين ، فإذا بالانفتاح يصبح شديد الخطورة ، إذ لم يوضع الانفتاح في أيدي أمينة ، وإنما تلقفه الانتهازيون والمنحرفون •

وشمل الانفتاح نظام تشجيع الاستثمارات الأجنبية والإعفاء من الضرائب مدة عشر سنوات للشركات التي تظهر تبعا للقانون رقم ٤٣ لسنة ١٩٧٤ ، وأعلنت بور سعيد منطقة حرة ، وكان المقصود تشجيع الشركات الأجنبية على تصنيع منتجاتها فيها بهدف إعادة تصديرها إلى المناطق المحيطة بمصر لكن ما حدث فعلا هو أن ٨٠٪ من البضائع التي دخلت الميناء وجدت طريقها إلى الأسواق المحلية (١) •

وأكثر من ذلك فإن بور سعيد حظيت بالقليل جدا من النشاط الصناعي ، وأصبح أكثر نشاطها تجاريا •

ويذكر الأستاذ محمد حسنين هيكل حقائق خطيرة إذ تشير الأرقام إلى أنه في ظل سياسة الانفتاح تم إنشاء ٥١٢ مشروعا ، ومع ذلك فإن عدد العاملين في هذه المشروعات كلها لم يتجاوز ٢٨٠٠٠٠ عامل ، ولم تصدر هذه المشروعات إلا منتجات قيمتها ٢٤ مليون جنيه في العام ، في حين إنها تستورد في العام من الخارج بما قيمته ٥٥٠ مليوناً من الجنيهات (٢) •

آلاف المليونيرات :

وفي ظل هذا الانفتاح ظهر أغنياء جدد وصل ثراؤهم إلى المليونات ، وأطلق عليهم آنذاك وصف « الققط السمان » أو « الأبقار السمان » وقد وصل عدد أصحاب الملايين في مصر في أواخر عهد السادات إلى ٢٠٠.٠٠٠ مليونير ، في حين كانت الغالبية العظمى من المصريين لا تزال

(١) محمد حسنين هيكل : خريف الغضب ص ٢١٢ •

(٢) محمد حسنين هيكل : المرجع السابق ص ٢١٣ •

تعيث على الكفاف أو ما تحت الكفاف ، وفي سياق الحصول على المال ظهرت وسائل غير شريفة للوصول للثراء كالاتجار في المخدرات والتهريب والابتزاز والبلطجة بالإضافة الى المتاجرة في العملة (١) .

ولم يستطع القطاع العام أن يواجه هذا الزحف الانفتاحي مما تسبب عنه تراكم السلع التي تنتجها شركات القطاع العام إذ أصبحت هذه السلع لا تنال المرواج أمام السلع المستوردة ومن أمثلة القطاع العام في هذا المجال مصانع الحلة الكبرى التي وجدت نفسها أمام طوفان من السلع المستوردة وكانت النتيجة أنه وُجِدَتْ لديها بضائع مخزونة تقدر قيمتها بحوالى ١٠٠٠ مليون جنيها (٢) .

قوانين الإسكان الجائرة ونتائجها :

وفي ظل المال الوفير الذي ظهر بهصر عقب هجرات المصريين للعمل بالخارج وبخاصة في الدول العربية ، وبسبب حاجة هؤلاء إلى المساكن لينشئوا بها حياتهم ، بعد أن اختفت العمارات التقليدية بسبب قوانين الإسكان الجائرة والتي لا نظير لها في أى قطر آخر ، فقد اتجه المستثمرون إلى إقامة العمارات لبيع شققها للمحتاجين للسكنى من الشباب ، وهكذا التهمت هذه العمارات أكثر مدخرات هؤلاء المصريين فأصبح الشباب المصرى يقترب ويعانى مشاق الغربة والجهد عدة سنوات اينال في النهاية شقة يسكن بها ، ولا يعنى تملكها أنه معفى من دفع المبالغ الشهرية ، بل إن هذه العمارات تحتاج إلى حراسة ورعاية فالنظم كل ساكن أن يدفع كل شهر مبلغا أكثر مما كان يمكن أن يدفعه إيجارا لشقة في العهود الماضية ، وهذا على فرض أنه يتسلم شقته من المستثمرين ، ولكن الواقع يقرر أنه في حالات كثيرة باع المستثمرون كل

(١) جمال سليم : ديكتاتورية السادات ص ١٧ .

(٢) هيكمل : المرجع السابق : ص ٢١٤ .

شقة لأكثر من مشترٍ ، وعندما جاء المشتري ليتسلم شقته لم يجد الا عقدا ورقيًا لم يفتح له باب شقة ولم يضمن له مسكنًا .

شركات توظيف الأموال :

ومن جنائيات هذا الانفتاح كذلك أن بعض العمال لعبت بهم الأطماع فأودعوا مدخراتهم في شركات أقيمت في هذا العصر باسم « شركات توظيف الأموال » وتبين فيما بعد أن قلة قليلة من هذه الشركات هي التي قامت على أسس سليمة وضمنت لأصحاب المدخرات أموالهم وأرباحهم ، وللأسف فإن الحكومة أجازت قيام هذه الشركات ، وقامت وسائل الإعلام الحكومية بالدعاية لها بشكل يؤكد سلامة هذه الشركات فسقط الشعب خديعة للشركات ولتأييد الحكومة .

وكانت هذه الشركات تخدع الجمهور بتقديم أرباح خيالية ، ولم تكن هذه أرباحا حقيقية ، بل كانت في الحق أموال المودعين الجدد تعطى للطامعين القدامى ، وكان ذلك يغرى الكثيرين بعدم سحب أموالهم بل بعدم سحب أرباحها طمعا في ربح أكثر بضم الأرباح الى رؤوس الأموال ، وفي خطاب القاه وزير الداخلية اللواء زكى بدر في أول أغسطس سنة ١٩٨٩ ونشرته الصحف المصرية يقول سيادته إن المشرفين على شركات توظيف الأموال نصّابون حتى أولئك الذين وفّقوا أوضاعهم تبعا للقانون الجديد ، فالكل نصّابون وعوض أصحاب الأموال على الله .

وإذا صح هذا فإنها كارثة تقع على مئات الآلاف من المصريين الذين وقعوا فريسة للشركات ولتأييد الحكومات المتتالية لها .

والعجيب أن القطاع العام لم ينل أى اهتمام من السادات وظل مسرحا للخسائر والاضطرابات وكان المفروض أن يكون وسيلة من وسائل التطور ، ومقاومة الاحتكارات ، ويقول المطلعون إن القطاع العام لم ينجح في شيء قدر نجاحه في أن يخلق وظائف للمحاسبين والأقارب والأصهار .

بقى في ميزان الحيدة أن نذكر رأى السيدة جيهان السادات في هذا الانفتاح ، تقول هذه السيدة :

لقد أدرك أنور أن هناك حاجة ماسة لمعالجة الوضع الاقتصادي في مصر ، وكان على أهبة الاستعداد للدخول بقوة في مشاكلنا الاقتصادية كما فعل في مشاكلنا العسكرية ، فقد قام في عام ١٩٧٤ بالابتعاد الجذرى عن سياسات عبد الناصر الانعزالية بأن أعلن سياسة اقتصادية جديدة عرفت بسياسة الانفتاح ، ونتيجة لهذه السياسة بدأت حركة السياحة من الغرب وأوروبا في الازدهار ، ووُجدت للمصريين وظائف شاغرة إذ فتحت مصر ولأول مرة أبوابها للمستثمرين الأجانب الذين ساهموا مع رجال الأعمال المصريين في أعمال مشتركة كبناء المصانع الجديدة والبنوك والفنادق الفخمة وكان المصريون يقومون بإنتاج الغسالات وأجهزة التليفزيون والاستريو ، بل صنعوا سيارات فيات بمصر (١) .

وكلام هذه السيدة فيه القليل من الحق من جانب وفيه الكثير من المبالغات من جانب آخر ، فالثورة لم تفتح للمصريين أن ينتجوا الغسالات أو التليفزيونات أو السيارات ، وكل ما كانوا ولا يزالون يقومون به هو تركيب هذه الأشياء من أجزاء تترد لهم من الخارج ، وإذا عجزت مصر عن استيراد هذه الأجزاء توقفت المصانع تماما فترة من الزمن تطول أو تقصر حتى تترد هذه الأجزاء .

المثالية والواقع :

وإحقاقا للحق نذكر أن سياسة الانفتاح وُضعت لها في الأصل ضوابط دقيقة لحماية الاقتصاد المصرى والإنتاج المحلى ، وكان من ذلك أن يضيف المشروع زيادة حقيقية للدخل القومى ، وأن يكون على مستوى عالمى من التكنولوجيا ، وأن تُمنح أولوية للمشروعات التى توفر المواد

الغذائية ، وأن تستخدم هذه المشروعات الأيدي العاملة المحلية وأن
تدربها على المهارات الجديدة •
ولكن هذه الضوابط أهملت للأسف الشديد •

نماذج من لصوص الانفتاح :

برز من لصوص الانفتاح أعداد هائلة ، بعضهم من عامة الناس ،
وبعضهم ينتمون إلى طبقة السادة ، ولسنا نستطيع حصرهم لكثرتهم
ولحصانة بعضهم ، ولذلك نكتفى بأن نتكلم كلمة قصيرة عن نموذجين
صدرت أحكام قضائية ضدهما هما رشاد عثمان وفكرى عازر :

رشاد عثمان :

كان السادات يوصيه بالاسكندرية ، فكان هذا الرجل في نظر
السادات راعيا أميناً لجوهر البحر المتوسط •

من هو رشاد عثمان ؟

نازح من قنا في صعيد مصر سنة ١٩٧٠ للبحث عن عمل ، اشتغل
بالميناء بأجر يومي قدره ٣٠ قرشا ، ثم وجد تراحم البواخر على الميناء
حاملة السلع الاستهلاكية ، وشديدة الحرص على تفريغ حمولتها ، فبدأ
يعمل بمساعدة آخرين لحجز مكان على الرصيف للباخرة التى تتصل
به نظير رشوة كبيرة يقتسمها مع أصحاب النفوذ ، وأصبحت البواخر
تتهافت عليه لتيسير وصولها للرصيف ، وكون مجموعة من البلطجية
لمساعدته •

ثم خطا خطوة واسعة لاستيراد السجاير والخشب •

وانضم للحزب الوطنى بماله وجاهه فزاد جباهه ، وزاد ماله ، وعمق
اتصاله بالمسؤولين فأتاح ذلك له أن يستولى على أرض واسعة للدولة
دون أن يتعرض له أحد •

إنه نموذج للكثيرين من أمثاله الذين وصلت لهم العدالة أو لم تصل •

فكرى عازر يجمع من الرشاوى ثروة طائلة :

وفي مواجهة الانفتاح ورغبة في تيسير أمور المستثمرين ظهرت الرشاوى ، ثم اتسع نطاق الرشاوى فأصبحت الرشوة وسيلة مهمة لقضاء الحاجات ، ونقدم مثلاً واحداً من آلاف الأمثلة على هذا الوباء الذى امتد من زمن الى زمن ، فقد نشرت صحافة القاهرة الصادرة فى ١٩/٥/١٩٨٩ ما يلى :

قضت محكمة جنايات الاسكندرية أمس بمعاينة رئيس قطاع بدرجة وكيل وزارة بشركة البتروكيماويات المصرية بالسجن ٣ سنوات ومصادرة أمواله التى تبلغ مليوناً و ٦٠٠ ألف جنيه ، و ٢٤ ألف دولار أمريكى وألف جنيه استرلينى والزامه برد مثل هذا المبلغ للدولة وذلك لاثامه بالكسب غير المشروع •

وكان أحد المقاولين المتعاملين مع الشركة التى يعمل بها المتهم فكرى عازر قد أبلغ الرقابة الادارية بحصول المتهم منه على سلسلة ذهبية قيمتها حوالى ٣٠٠ جنيه كرشوة لانهاء بعض مصالحه بشركة البتروكيماويات • وبعد استئذان النيابة تم تفتيش مسكن المتهم وكانت مفاجأة لرجال الرقابة الادارية حيث عثروا على عدة صناديق صابون بحجرة نوم المتهم مملوءة عن آخرها بالنقود وبلغ مقدارها مليون جنيه مصرى و عملات أجنبية أخرى بلغت ٢٤ ألف دولار وألف جنيه استرلينى وستون ساعة يد وحائط مختلفة الأنواع وعدد كبير من الآلات الحاسبة والأقلام الثمينة وكمية من الجنيئات الذهبية وبعض الهدايا الثمينة الأخرى ، وبفتيش خزائنه بأحد البنوك عثر على السلسلة الذهبية التى حصل عليها كرشوة وبعض المصوغات الذهبية التى قدرت قيمتها بـ ٥٧ ألف جنيه •

وتم اخطار ادارة الكسب غير المشروع فأمر رئيسها بالتحفظ على تلك الأموال وتولت ادارة الكسب غير المشروع التحقيق فظهر أن تضخم ثروة المتهم وزيادتها هذه الزيادة الطارئة حصل بسبب استغلال وظيفته ، وهذه الزيادة لا تتناسب مع موارده وعجزه عن اثبات مصدر مشروع لها وهى تشمل المبالغ المضبوطة بالاضافة إلى امتلاكه ٧ شقق بالاسكندرية وفيلتين بالعجمى وكنتج مريوط و٦ سيارات خاصة وكمية من المصوغات الذهبية وعدد من أجهزة الفيديو وبعض الهدايا الأخرى وتم حبس المتهم وأحيل إلى محكمة جنايات الاسكندرية التى أصدرت الحكم السابق وقد صدر الحكم برئاسة المستشار ابراهيم السعدنى وعضوية المستشارين مسعد عبد الله ومحمدى عبد المجيد وأمانة سر عبد الحافظ بكر •

لقد كان الانفتاح نعمة لو اتجه للإنتاج الزراعى والصناعى والسياحى ... ، وجلب الآلات اللازمة ووضعها فى أيدي أمينة ، أما الانفتاح الذى شهدناه فقد اتجه لجانب الاستهلاك فسلب أموال المصريين ودفعها إلى ما لا فائدة فيه ، أو ما قلّت فائدته ، ثم عمل هذا الانفتاح الاستهلاكى على مقاومة المنتجات المحلية التى لم تقو على منافسة المستورد ، أو أن ذهن المصريين كان قد اتجه لإجلال كل شئ مستورد بسبب ما عانوا من انغلاق قاس فى عهد عبد الناصر •

وقد أمسكت العدالة ببعض الذين نعموا بالمال الحرام ، وهناك كثيرون أفلتوا من عين العدالة ، ولكنهم على كل حال لن يفلتوا من عين الله جل وعلا ، وسيظل هؤلاء يعانون القلق فى الدنيا ثم ينقلبون إلى الله فينالون سوء المصير •

التشجيع على الهجرة

ارتبط بعصر الانفتاح سياسة تهجير العمالة إلى الخارج فتدفق المصريون على السفر إلى خارج البلاد فرارا من السجن الذى عاشوا

فيه طيلة عصر عبد الناصر من جانب ، ورغبة في الحصول على المرتبات المجزية من جانب آخر •

وكانت الهجرة تنقسم قسمين ، قسم هاجر للعمل مؤقتا بالخارج على نية العودة من حين إلى آخر لقضاء إجازة ، ثم العودة النهائية بعد حين ، والقسم الثانى أولئك الذين هاجروا بنية البقاء خارج البلاد ، وإذا كان القسم الأول قد اتجه غالبا إلى البلاد العربية ، فإن القسم الثانى اتجه إلى استراليا وكندا وأحيانا إلى الولايات المتحدة وأوروبا •

ومما يلاحظ أن الذين هاجروا للعمل المؤقت لم توجه لهم رعاية كافية ، وقابلوا في مغتربهم منافسات ومضايقات كثيرة ، ولكنهم احتملوا من أجل لقمة العيش ، ولم تنشأ وزارة الهجرة إلا بعد مدى طويل ، وحتى بعد إنشائها لم تقم بدورها كاملا كما ينبغي أن تقوم •

ويرى بعض الباحثين أن الحكومة أسرفت في السماح للعمالة الفنية بالهجرة من أجل المال ، فالمال — كما يقولون — يمكن الحصول عليه من مصادر كثيرة ، أما العقول والسواعد فلا يمكن الحصول عليها من أى مصدر ، ولقد كان تحت يد الحكومة المصرية في بعض المناسبات مساعدات وقروض بلغت المليارات من الدولارات ومع ذلك لم تستطع استخدامها في المشروعات الاستثمارية ، وكان ذلك لأسباب كثيرة على رأسها اختناقات العمالة ، وندرة القدرات الفنية والمهارات اليدوية (١) •

وبالإضافة إلى العمالة الفنية جذبت هذه الهجرة عشرات الآلاف ، أو مئات الآلاف من الأطباء والمهندسين وأساتذة الجامعات ، وقد انتشر هؤلاء بعلمهم وخبراتهم في ربوع الوطن العربى كله ، فساعدوا مساعدات واضحة في التطور الذى كان ضروريا لهذه البلاد ، بعد ارتفاع أسعار البترول وتطلع الشعوب العربية إلى حياة أفضل •

ومع ما فى هذه الهجرة من فوائد مادية ، فقد نتج عنها فى كثير من الحالات أضرار اجتماعية عميقة ، فإذا سافر الأب للعمل وترك زوجته وأولاده ، وأغدى عليهم من المال ليهوئهم حرمانهم من الحياة معه ، فإن المال لم يكن أبدا حاميا لهذه الأسر من الانحراف ، فالوحشة التى بالزوجة والأولاد ، ووجود المال فى يد الأولاد مع انعدام رقابة الأب كان فى كثير من الأحوال سببا فى الانحراف والغواية ، هذا ولا ننسى أن الأب الذى يعيش بعيدا عن أسرته عدة سنوات تتعدم الصلة النفسية والاجتماعية بينه وبين أسرته ، وتتمزق نفسه ، وقد يجذبه هذا إلى انحراف من نوع ما • وعلى ذلك فلم يكن المال خيرا كله ، بل كثيرا ما عالج مشكلة وخلق مشكلة أخرى •

أما الهجرة الأخرى « الاستيطانية » فقد اتجهت كما قلنا إلى المحيط الغربى بأمريكا أو أوروبا أو استراليا ، وكان من هؤلاء المهاجرين عدد كبير من الأقباط المصريين ، وللأسف الشديد نسى بعض المصريين بالخارج علاقاتهم الوطنية ، وتشبثوا بعلاقات دينية ، فقام نزاع ومنافسات بين المسلمين والأقباط هناك ، وعيَّنت الكنيسة المصرية بعض الأساقفة للخدمات ، وكان من أبرز هؤلاء الأنبا صموئيل أسقف الخدمات الذى استطاع أن يوجد وظائف كبيرة لكثيرين من الأقباط فى البنوك الأجنبية والشركات الأجنبية فى الخارج أو التى فتحت لها فروعاً بمصر ، وكان هذا الرجل واسع النشاط بارز الكفاءة ، وموضع ثقة من كل الأقباط والمسيحيين بوجه عام ، وعندما قتل الأنبا صموئيل مع الرئيس السادات فى حادث المنصة يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٨١ ظهر أن هناك حسابا باسمه فى أحد البنوك السويسرية مقداره ١١ مليون جنيه استرلينى ، وهو ما يعادل ٣٠ مليون دولار تقريبا وكان هناك فى نفس الوقت اقرار من الأنبا صموئيل يحدد أن هذه الأموال أموال الكنيسة ، ولا حق فيها لأحد غيرها ، وبالفعل فقد كانت هذه كلها تبرعات واعتمادات ، وضعت

تحت تصرفه بوصفه أسقفا للخدمات مسئولا عن العلاقات الدولية للكنيسة (١) .

وفيما يتعلق بهذه الهجرة الاستيطانية والمنافسات بين المسلمين والأقباط في بلاد المهجر فإننى أحب ألا أسير في عرض هذه المنافسات وظروفها ونتائجها رغبة في الحفاظ على الوطن الذى يضم الجميع ، والذى لا يمكن أن يستغنى عنه المسلم أو القبطى مهما طال بعده عنه . فلوطن حنين لا يهدأ ، وبالوطن جذور لا تموت ، وبه أهل لهؤلاء وأولئك أقاموا ولم يهاجروا .

ولكن شيئا واحدا أريد أن أتحدث عنه ، فالمهاجرون من مصر أناس شرقيون على كل حال ، لهم تقاليد وعادات لا يمكن إهمالها ، وقد نما في الغربية أبناؤهم وبناتهم ، وأوشكت تقاليد الغربية أن تطفئ على التقاليد الشرقية ، فالاختلاط الشائع في بلاد الغرب بدأ يمد جذوره إلى المهاجرين المصريين ، وربما أوشكت فتاة مسلمة أن تقع في هوى فتى غير مسلم ، وهذا وذاك لم يخلق الاستقرار للأسر المهاجرة وبخاصة للأسر المسلمة ، وكان واضحا كذلك أن الدراسات الإسلامية والعربية التى تتقدم للنشء الإسلامى بهذه البلاد ضئيلة وغير كافية ، ونتيجة لكل ذلك عادت بعض الأسر المصرية إلى الوطن مضحية بالثراء من أجل الاستقرار والمحافظة على الآداب والقيم .

إلغاء زيارة بريجنيف لمصر

كانت قد حددت سنة ١٩٧٤ موعدا لزيارة الرئيس بريجنيف رئيس الاتحاد السوفيتى لمصر ، ولكن اندفاع السادات نحو الولايات المتحدة وأوربا ، وسياسة الانفتاح باعدت بين الاتحاد السوفيتى ومصر ، ونتيجة لذلك ألغيت زيارة بريجنيف لمصر .

أحداث سنة ١٩٧٥

شهدت سنة ١٩٧٥ مجموعة رائعة من نتائج حرب أكتوبر فإن الرئيس السادات وقّع اتفاقية فك الاشتباك الأول في مطلع عام ١٩٧٤ كما ذكرنا من قبل ، وقد ضمنت هذه الاتفاقية لمصر السيطرة الكاملة على ضفتى القناة ومنذ ذلك الحين بدأت جهود مصر تعمل في ميدانين مهمين :

- الميدان الأول : تعمير مدن القناة ، وإعادة المهجرين إلى أوطانهم
- الميدان الثانى : تطهير قناة السويس لتعود صالحة للملاحة الدولية

وكان العمال يفتيدان اتجاه مصر للسلام ، إذ ليس هناك معنى لتعمير مدن القناة لو كانت مصر تتجه لحرب جديدة ، وقد قدّرت الدول لمصر هذا الاتجاه ، فساعدت مساعدات واسعة في إنجاح هذين الميدانين •

وكانت المساعدة في الميدان الأول وهو ميدان التعمير خصبة وسخية من العالم العربى ، وقد قدمت المملكة العربية السعودية ودولة الكويت ودولة الإمارات العربية المتحدة فيضا سخيا من المساعدات التى جعلت إعادة تعمير مدن القناة ميسورة وسريعة ، وتقديرا لهذه الجهود سميت بعض مناطق المدن المعمّرة بأسماء زعماء هذه البلاد فظهرت مدينة فيصل ومدينة الصباح ومدينة الشيخ زايد •

أما تطهير قناة السويس وإعدادها للملاحة الدولية فقد اشترك فيه مع الفنيين المصريين كل الخبرات العالمية لإزالة كل معوقات الملاحة البحرية في مجرى القناة ولا يمكن أن ينسى الباحث ما قدمته اليابان والولايات المتحدة وانجلترا من جهود جبارة في هذا الميدان ، لقد وفدت إلى ساحة القناة ، أخطر الآلات العملاقة وأعظم المهندسين العالميين ، وكان تكثف الجهود داعيا لسرعة النجاح في تطهير القناة وإعدادها للملاحة الدولية لتستأنف نشاطها في خدمة الإنسان في كل مكان والاقتصاد العالمى لكل الدول •

وكان إقدام السادات على تعمير مدن القناة ، وتطهير القناة

وإعدادها للملاحه الدولية عاملى ضغط على إسرائيل ، فقد أحسست أن مصر صادقة فى مسيرتها نحو السلام ، فحدث ما سمي فك الاشتباك الثانى ، أى عودة القوات الإسرائيلية إلى خلف المضائق كما ذكرنا من قبل ، وذلك حتى تكون القناة فى مأمن من أى عدوان ، وحتى يعبرها الناس وهم فى أمان واطمئنان •

وانتهجت عقلية السادات إلى جعل يوم ٥ يونيو سنة ١٩٧٥ موعدا لافتتاح القناة ، وتم ذلك فى مهرجان كبير ، والسادات بذلك يدمدم جرحا فى قلوب المصريين ، إذ كان هذا الجرح يؤلمهم كلما جاء اليوم الحزين يوم الخامس من يونيو ، فرأى أنور السادات أن يضع ابتسامة على أفواه المصريين فى هذا اليوم لعلمها تكفكف آلامهم •

ولم يقتنع السادات بافتتاح قناة السويس ، بل عمل على تطوير القناة وتعميقها ، وجعلها مزدوجة فى بعض أجزائها ، وكل هذا كان تحسينا للخدمة فيها ، رفع طاقتها إلى درجة كبيرة •

نهاية الملك فيصل

من الحق أن نذكر أن الملك فيصل كان له دور فريد فى حرب رمضان وقد بدأ هذا الدور قبل اندلاع المعركة فقد صرح الرئيس أنور السادات بأنه عرض على الملك فيصل قبل المعركة بفترة نية مصر نحو بدء الصراع ضد إسرائيل ودعا الملك فيصل لمصر بالتوفيق ، ووعد بكل التأييد فى كل المجالات وكان له شرط واحد أن تكون المعركة طويلة فطولها فرصة للثقة والجدية وبالتالي للتجمع العربى والتضامن ، ووعد أنور السادات بذلك •

ومع بدء المعركة وصلت برقية الى الرئيس السادات من الملك فيصل يقول « نؤكد لكم بأننا إلى جانبكم بجميع إمكانياتنا داعين للجيش المصرى المظفر بالنصر والتأييد » •

ودارت المعركة ووقف الرجل عملاقا هائلا كأنه في غرفة العمليات الحربية ، ويقول عنه الرئيس السادات :

« إن كل ما صدر بعد ذلك عن قضية البترول ، وعن مدّ مصر بكل ما تحتاج إليه ، وعن الوقوف الصلب في المحيط الدولي ، وعن الدعم للتضامن العربى ، كل ذلك صدر من الملك فيصل دون أن يطلب أحد منه شيئا » .

وعلى هذا فسيظل التاريخ يذكر للرجل دوره الكبير في المعركة الناجحة .

ومن الواضح أن صدى قطع البترول عن أمريكا كان عنيفا للغاية فلقد أحس كل بيت وكل مصنع بهذه الصدمة الشديدة ، وانطلقت ألوان من التهديدات المثارة ، ولكن الرجل كان أصلب عودا ، وكان كالجبل الأثمن فلم تتل منه هذه الترهات متالا ، وتراجعت التهديدات من تلقاء نفسها ، وسحبها أولئك الذين ظنوا أن صداها سيكون له تأثير على نفس الملك ، مع العلم أن الملك لم يقل شيئا يردّ به على هذه التهديدات ، ولكن صمته كان أبلغ من كل كلام ، فالذين هددوا توقفوا عن التهديد ثم سحبوا هذا الشعار الزائف وتراجعوا ثم سلكوا الطريق الذى يرضى الصف العربى الذى نال بالملك فيصل قوة وثباتا وجلالا .

ولم يكن قرار فيصل عن البترول وليد انفعالات صاحبت المعارك العسكرية وإنما جاء تنفيذا لحكمة ولحساب دقيق ، ومن أجل هذا اجتمعت حول هذا القرار كلمة جميع الدول العربية المنتجة للبترول ، وكانت معركة البترول نموذجا لاستخدام الحكمة والدهاء والمرونة ، التى هزت أنماط التفكير الغربى من أساسه ، فبدأ يعيد الحسابات فى مواقفه نحو العالم العربى وكانت النتائج مذهلة :

(م ٢٥ - التاريخ الاسلامى)

— تحركت دول أوروبا الغربية لتتصدر قرارا جماعيا تطالب فيه بانسحاب إسرائيل من جميع الأراضي العربية التي احتلتها •

— تخلت اليابان عن حيادها وأعلنت انحيازها وإيمانها بالقضية العربية ، وبدأت تشارك بصورة فعالة في عمليات تنمية الدول العربية •

— ثم تحركت الولايات المتحدة وبدأت تبحث عن حل للأزمة الشرق الأوسط بعد انحياز كامل دام أكثر من ربع قرن نحو ربيبتها المدللة إسرائيل •

— وانتهت إلى الأبد حالة اللاحرب واللاسلم وشرع كيسنجر في رحلاته المتصلة لنزع الفتيل من الأرض المشتعلة المهددة بالانفجار •

— أفاق العالم بأسره من غيبوبة اللامبالاة ، ومن اعتناق أسطورة الدولة المسالمة التي يريد العرب إلقاءها في البحر •

وهذا الرجل الذي رفع شأن بلاده وأعز شأنها وأيّد المعركة قبل أن تقوم ودعمها وهي مشتعلة ، وناصرها بحزم بعد أن توقفت ، سقط شهيدا في لحظة كان العالم العربي والعالم الاسلامي بحاجة شديدة إليه ، وكان موته غدرا بيد ابن أخيه المسمى فيصل بن مساعد بن عبد العزيز وقد أطلق عليه هذا الشاب الرصاص وهو يتظاهر بأنه يريد أن يقدم له التحية ، وفي لحظة سريعة أفرغ في جسد الملك رصاص مسدسه وسقط الرجل العظيم شهيدا في الثاني عشر من ربيع الأول سنة ١٣٩٥ هـ (٢٥ مارس ١٩٧٥) وأحدث نبأ اغتيال الملك فيصل دويا هائلا في العالم كله بوجه عام ، وفي العالم الاسلامي والعربي بوجه خاص وكان الشاب القاتل قد عاد حديثا من أمريكا ولا نستبعد أن يكون قد تأثر بالحنق الذي يذيعه الصهاينة وعملاؤهم ضد الملك الراحل ، فأقبل الشاب على فعلته الطائشة لهذا السبب أو لسواه ، وقد قيل عقب الحادث إن الشاب مختل العقل ، ولكن سرعان ما أثبت الأطباء أنه عاقل مسئول عما فعل ، وبناء على ذلك قدم الشاب للمحاكمة وقد استغرقت

محاكمته عدة أشهر ولما سئل أحد أولاد الملك الراحل عن القصاص قال : وماذا يجدى القصاص من ذلك الشاب بعد أن قضى بفعلته الشنعاء على رجل كان العالم الإسلامي يتطلع إليه ويرقب فضله ، ولكن القصاص على كل حال يحمي الأحياء من مثل هذا التصرف الإجرامى وهو المعنى الذى تشير إليه الآية الكريمة « ولكم فى القصاص حياة » •

وفى صبيحة يوم ١٨ يونية سنة ١٩٧٥ صدر حكم المحكمة الشرعية بإعدام القاتل الأثيم وتم تنفيذ الحكم فى نفس اليوم وصدر بذلك بيان رسمى يقول :

تمّ تنفيذ الإعدام فى المجرم القاتل بناء على حكم أصدرته صباح اليوم المحكمة الشرعية العليا لارتكابه جريمة قتل فقيد الأمة العربية والإسلامية المغفور له الملك فيصل ، وكان جلالة الملك خالد بن عبد العزيز قد صدق على الحكم فور صدوره وأمر بتنفيذه عقب صلاة العصر •

وقال الراديو نقلا عن بيان للقصر الملكى إن القاتل اعترف خلال محاكمته بأنه قتل الملك لكى يضع حدا للإسلام ، وأن جريمته هى جزء من أهدافه لمحاربتة هذا الدين ، لعن الله هذا القاتل الأثيم ورحم الله الفقيد وأثابه على ما قدمه لبلاده وللعالم العربى والإسلامى من جهد وهون (١) •

أخبار سنة ١٩٧٦

أحداث لهذا العام ذكرناها من قبل :

في سنة ١٩٧٦ حدثت أحداث مهمة ذكرنا بعضها فيما سبق ، كقصة المنابر والأحزاب مما ترتب على ورقة أكتوبر التي تحدثنا عنها ضمن أحداث سنة ١٩٧٤ ونواصل الآن تسجيل أحداث أخرى خلال هذا العام .

إلغاء المعاهدة مع السوفييت وأسبابه :

على أن أهم أحداث هذا العام كان إلغاء المعاهدة مع السوفييت التي كانت قد عقدت في ٢٧/٥/١٩٧١ ، ولم يكن إلغاء المعاهدة شيئاً مفاجئاً ، فقد كانت المقدمات البعيدة والقريبة توحى به ، فالقضاء على أعوان السوفييت في حركة مايو سنة ١٩٧١ وطرد الخبراء الروس في يوليو سنة ١٩٧٢ ، وتحسين العلاقات مع الولايات المتحدة ودول الغرب عقب حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ وإلغاء زيارة بريجنيف لمصر سنة ١٩٧٤ وسياسة الانفتاح التي بدأت سنة ١٩٧٤ واستمرت عقب ذلك وما صاحبها من مظاهر الديمقراطية والأحزاب كل هذا كان يمهد لإلغاء المعاهدة مع السوفييت ، وكان واضحاً لذلك أن إلغاء هذه المعاهدة ليس إلا مسألة اختيار الوقت المناسب لإعلان الإلغاء .

ويقرر محمد ابراهيم كامل أن السادات كان يشعر أن الاتحاد السوفيتي يعاديه شخصياً منذ بداية عهده ، فقد كان السوفييت يأملون أن يجيء على صبرى خلفاً لعبد الناصر ، إذ كان لعلى صبرى علاقات تفاهم بالاتحاد السوفيتي ، فلما آل الأمر للسادات بدأ العداء بين السادات والاتحاد السوفيتي ، ويذكر محمد ابراهيم كامل وزير خارجية السادات أن السادات أخبره بهذا الإحساس عدة مرات (١) .

ونعود بعد ذلك لنعدد الأسباب ونشرح الظروف التي دفعت

(١) السلام الضائع في كامب ديفيد ص ٦٧ .

السادات لإصدار قرارٍ بإلغاء المعاهدة مع السوفييت ، تلك المعاهدة التي كانت تحقق لهم في مصر مكانا ممتازا •

ومن تتبعنا للدراسات السياسية والعسكرية للفترة السابقة على إلغاء المعاهدة يتضح لنا الآتى :

كانت المملكة العربية السعودية حريصة على أن تخفف من تعميق صلتنا بالسوفييت ، ولذلك فعندما تأخر الاتحاد السوفيتي في إرسال الأسلحة التي كانت لازمة لمصر في مطلع ١٩٧٢ تلقى الرئيس السادات من الملك فيصل هدية هي « ٢٠ قاذفة — مقاتلة » أملا أن يستحث ذلك الآخرين على تدبير احتياجات مصر ، ويقول محمد حافظ اسماعيل : إن ذلك جعل الاتجاه للتسليح الغربى يتخذ مسارا عمليا ، وكان من الطبيعى أن يشجع على استرخاء الارتباط بالسوفييت (١) •

وصارح الرئيس السادات زعماء السوفييت بأن علاقات ضباطنا بمستشاريهم ليست طيبة نتيجة طول فترة الاستعداد ، وطالبَ باستكمال احتياجاتنا من الذخائر ، وعرض استعدادنا لدفع الثمن بالعملية الصعبة •

ولعل عرض مصر استعدادها لدفع الثمن بالعملية الصعبة كان نوعا من المداعبة أو قل التظاهر بالقدره ، ولكن السوفييت أخذوا المسألة مأخذ الجد فطالبوا بالثمن فورا على أن يكون بالعملية الصعبة ، وإزاء ذلك طلب الرئيس المصرى أن تُسحب القوات السوفيتية من مصر حتى تُستغل نفقاتها التي تدفع بالعملية الصعبة لتقدم سدادا لثمن المعدات المطلوبة •

واتفقت روسيا مع أمريكا على ما يسمى « تأمين الاسترخاء » بالشرق الأوسط ، وكان في ذلك إساءة لمصر من حليفها روسيا •

ولوحث أمريكا بأن مصر طالما استمرّ اعتمادها على المعاهدة مع السوفييت فسيفل الدافع الأمريكي لتحقيق تسوية •

وقامت حرب أكتوبر التي تدخلت فيها أمريكا تدخلًا مباشرًا ، وتعرفت على الثغرة ودفعت إسرائيل لها ، وحمت إسرائيل فلم ترغمها على الانسحاب إلى مواقع يوم ٢٢ أكتوبر وهو موعد إيقاف إطلاق النيران ••••• ويقول محمد حافظ اسماعيل ، إنه ابتداءً من ذلك اليوم تأكد هيمنة الولايات المتحدة السياسية والعسكرية على قضية الشرق الأوسط ، وإنه من هنا والأعوام قادمة ستظل الولايات المتحدة هي المهيمنة على مسار الأحداث بالمنطقة (١) •

وفي فك الاشتباك الأول والثاني لم يكن للاتحاد السوفيتي أي دور مما جعل روسيا تعلن ضيقها ، وأنها ضد أن تقوم اتصالات بين مصر وإسرائيل عن طريق أمريكا دون اشتراك الاتحاد السوفيتي •

ووصلت المسألة قمة سوء العلاقة في أكتوبر سنة ١٩٧٦ ، فقد أرسلت الحكومة السوفيتية رسالة للحكومة المصرية حول ما أسمته تصريحات رسمية وصحفية تتسم بروح معادية للاتحاد السوفيتي دون أن يتصدى لها الرسمىون ، وتتعارض مع روح معاهدة الصداقة والتعاون ، وتؤثر على العلاقات ونكّوت هذه الرسالة بالعمى العسكري الضخم الذى قدمه الاتحاد السوفيتي بين عامى ١٩٥٦ و ١٩٧٣ والذى يشمل ٣٠٠٠ دبابة و ٨٠٠٠ مدفع و ١٢٠٠ طائرة وكان ذلك بنصف ثمنها •

ويلاحظ أن هذا العناد ضاع قسم كبير منه فى الحربين الخاسرتين سنتى ١٩٥٦ و ١٩٦٧ فما كان للاتحاد السوفيتي أن يمين بذلك على مصر ، فهذا القدر الذى ضاع كان فى عهد عبد الناصر الذى فتح أبواب الشرق

الأوسط للاتحاد السوفيتى ، ومهما دفع السوفييت لذلك فلن يقدموا الجزاء المناسب •

وفى مؤتمر الحزب الشيوعى السوفيتى الخامس والعشرين سنة ١٩٧٦ تناول بريجنيف العلاقات مع دول الشرق الأوسط فلم يهاجم إسرائيل كالعادة ، بل أعلن استعداد بلاده لتطويع علاقات الاتحاد السوفيتى مع جميع بلدان المنطقة •

وجاء دور مصر سريعا فى خطاب للرئيس بمجلس الشعب حول العلاقات المصرية السوفيتية ، وبناء على اقتراحه أتخذ المجلس قرارا بإنهاء معاهدة الصداقة والتعاون الموقعة بين البلدين سنة ١٩٧١ وعُلقت « تاس » فى بيانها بتاريخ ١٤ مارس سنة ١٩٧٦ بأن هذا الإجراء دليل جديد على السياسة غير الصديقة التى يتبعها الرئيس السادات تجاه الاتحاد السوفيتى منذ فترة طويلة ، وأنه بهذا وضع نهاية قانونية للمعاهدة التى كانت فى حالة شلل فعلى •

هذا وينبغى أن نذكر أن دعامة مهمة من دعائم الاتحاد السوفيتى بمصر كانت قد انهارت من وقت مبكر ، فمع انسحاب الخبراء الروس من مصر رأى الرئيس إعفاء الدكتور مراد غالب من منصب وزير الخارجية وأسند هذا المنصب الى الدكتور محمد حسن الزيات ، وكان هذا التغيير يخل معنى واضحا ، فقد اختفى عنصر مهم من عناصر الود مع الاتحاد السوفيتى •

بين نارين :

ما موقف المصريين من إلغاء المعاهدة مع السوفييت ؟

الحق أن الشعب المصرى لم يحس أبدا بعلاقة وثيقة مع الاتحاد السوفيتى ، والقضية الدينية عقبة بين المسلمين والسوفييت ، وإذا

كان الإسلام حرّم على المسلم أن يتزوج مشركة أو لا دينية لبعده الشققة بين الاثنين ، فإن المسالمين كذلك يحسون ببعده الشقة بينهم وبين الاتجاه إلحادى عند السوفييت ، وقد لا يعرف كثيرون أن السوفييت ظلّوا وثنيين حتى نهاية القرن العاشر الميلادى أى بعد ظهور السيد المسيح بحوالى ألف سنة ، وبعد ظهور الإسلام بحوالى أربعة قرون ، وظلّ الأباطرة متمسكين بعبادة الأصنام حتى عهد فلاديمير الاسدى خجل من الوثنية فقرر اختيار دين سماوى سنة ٩٨٨ م وكان اختياره للارثوذكسية مبنيا على مظاهرها وزخارفها وليس على معتقداتها (١) .

ومن هنا فإن الديانات لم تكن قط عميقة فى نفوس السوفييت ، وكان إلغاؤها مع انتصار الشيوعية عملا مقبولا تقريبا بالنسبة للجماهير ، وفى نفس الوقت كان هذا الإلحاد عائقا دون تعمق الصلات بين المسلمين والسوفييت .

فإذا جئنا إلى الولايات المتحدة نجدنا أمام عدو يعلن العدوة ، فرّس إسرائيل وينتججه لحمايتها بقوة سياسيا واقتصاديا وعسكريا ، ولا يشفع له أنه يتبع دينا سماويا ، لأن العدالة أبرز دعائم الديانات ، والولايات المتحدة أبعد ما تكون عن العدالة فيما يتعلق بالحقوق بسين العرب وإسرائيل .

وأنك فنحن بين نارين ، ولا خلاص لنا إلا بحكومات يقظة مخلصمة امينة ، تدبر أمورنا بالداخل بعدالة ونزاهة وجسد ، وتنظم شئوننا بالخارج بما يحمى ديارنا وأهلينا ومعتقداتنا .

(١) انظر : موسوعة التاريخ الاسلامى للمؤلف ج ٨ ص ٥٧٩ - ٥٨٠ .

أحداث سنة ١٩٧٧

انتفاضة ١٨ و ١٩ يناير :

مع مطلع عام ١٩٧٧ ظهرت هذه الانتفاضة العارمة ، فإن الحكومة كانت قد نفذت مشورة صندوق النقد الدولي ، وأمرت في ١٦ من يناير سنة ١٩٧٧ ، بخفض الإعانات الحكومية لسلع أساسية مثل الخبز واللحم والسكر والزيت والأرز والصابون وأنابيب البوتاجاز ، وكان ذلك التخفيض يوفر على الحكومة مليارا من الجنيهات سنويا ، ولكن خفض الدعم أو حذفه بالنسبة للملايين المصريين كان يمثل ضربة شديدة •

ومع الإحساس العام ضد حذف الدعم كانت هناك محلات منتشرة بالقاهرة والإسكندرية وغيرهما من المدن تباع وسائل الترف و السلع المتعة والتسلية ، وقد ظهرت هذه المحلات مع الانفتاح الذى تحدثنا عنه من قبل ، وهكذا عانى الإنسان العادى فى مصر جوعا وحرمانا ، ورأى بعينه وسائل ترف الآخرين فثار واضطرب •

وفى نفس الوقت كان السادات غارقا فى أحلامه ، إذ كان يعتقد أنه فعل للشعب ما لم يفعله أى رئيس ، ولكن الشعب كان يدرك أنه فى القاع ، وأن السادات وذويه والطبقات العليا أخذوا كل خيرات مصر ، ولم يتركوا للشعب إلا الجوع والحرمان •

ومن أحلام السادات أنه كان فى استراحة أسوان ، وكان معه ضيفه الرئيس تيتو الذى شهد مأساة هذه الانتفاضة وقطع الزيارة وعاد لبلاده ، وكان السادات كذلك بأسوان فى انتظار زيارة الملك حسين ، وكان هذا يمثل ترفا فى جانب وفقرا فى جانب آخر ، ولكن السادات لم يكن يحس بذلك بل كان يظن أنه أصبح الزعيم المحبوب ، ويتخذ دليلا على ذلك ما يشاهده من تصفيق الغوغاء له عندما يمر موكبه متجها لزيارة من الزيارات التى كان يقوم بها ، ونسى أن هؤلاء حشدوا له حشدا من الاتحاد الاشتراكى أو من تلاميذ المدارس ، أو من المتفرجين •

ولنعد لتصوير الانتفاضة فإنه بعد رفع الأسعار هدد سائقو التاكسيات بالإضراب ان لم يرتفع سعر (البنديرة) تبعاً لرفع سعر البنزين ، واستجابت الدولة لذلك ورفعت أسعار المواصلات بالتاكسيات وسيارات الأتاليم •

ثم قامت يوم ١٨ يناير مسيرة عمال حلوان قاصدة مجلس الشعب للشكوى من رفع الأسعار وتحرك طلبة جامعة القاهرة وجامعة عين شمس ، ثم عمال الترسانة البحرية بالإسكندرية وسرعان ما عمت التحركات مختلف العواصم في كل المحافظات •

وانتهجت بعض التجمعات لمهاجمة مواقع السلطة مثل أقسام الشرطة والمطافئ وظلت المظاهرات حتى الثالثة صباحاً ، ثم استؤنفت صباح اليوم التالى (١٩ يناير) وكثرت أعمال التخريب ، وشملت المظاهرات جميع المدن الكبرى من الاسكندرية إلى أسوان وأحرق المتظاهرون الملاحى الليلية وبعض المحال التى تبيع أدوات الترف والبذخ •

ويذكر الأستاذ موسى صبرى أن هذه الحركات كانت قد أُعيدت سلفاً بدليل وحدة الهتافات وتشابه الأعمال التى قام بها المتظاهرون من محاصرة أقسام الشرطة والمطافئ ثم الهجوم على المرافق العامة بالطوب والحجارة ، ثم إبادة السلب والنهب والحرائق (١) •

واضطر الجيش للتدخل بعد أن عجزت الشرطة عن السيطرة على الأمور وكان تدخل الجيش رزينا ، فهدأت الانتفاضة بعد خسائر واسعة في الأرواح والأموال ، وقد رأى السادات من شرفة استراحته مدينة أسوان وهى تحترق •

ويصور أنور السادات نفسه خطورة الحال في كلامه للأستاذ

(١) السادات : الحقيقة والأسطورة ص ٣٨٤ •

أحمد بهاء الدين فيقول : لقد حاولوا مهاجمة بيتي في الجيزة ، وكادوا يصلون إليّ ، وكانت زوجات الوزراء والكبراء يصرخن في بيوتهن فزعا ويحاولن الاستغاثة بأي مخلوق خوفا من اقتحام الغوغاء البيوت على العائلات ، أما ما كانت تهتف به الغوغاء في الشوارع فكان غاية في البذاءة (١) .

وهذه الهتافات التي أشار لها السادات كان منها :

جيهان يا جيهان	الشعب جعان
يلبس آخر موضة	واحنا نسكن عشرة في أوضة
يسكن في القصور	واحنا نسكن في القبور
مش كفاية لبسنا الخيش	عايزين ياخدو منا رغيف العيش

وتراجعت الحكومة في قراراتها الاقتصادية فأعلن السادات إعادة الدعم كما كان .

وقد شهدت جزءا من هذه الانتفاضة خلال عودتي من كلية دار العلوم الى ضاحية المعادى التي أسكنها ، وكان مقر الكلية في شارع المنيرة وما إن خرجت من هذا الشارع ظهر يوم ١٨ يناير وبدأت أسير في شارع قصر العيني حتى واجهتني مظاهرة من المظاهرات الكثيرة التي عرفت فيما بعد أنها كانت تملأ شوارع القاهرة ، وقد راعني أنني رأيت في شارع قصر العيني عددا من السيارات المحطمة ، وعددا من واجهات المحلات التي تتأثر زجاجها ، ولم أكن أستطيع أن أجد وسيلة للفرار ، ومع هذا فقد كانت معي عين الله فقد أمرني الثائرون بالانحراف الى شارع جانبي وهددوني إن عصيت أوامرهم ، وما كان للعصيان سبيلا ،

(١) أحمد بهاء الدين : محاوراتي مع السادات ص ١٢٧ .
(م ٢٦ - التاريخ الاسلامي)

فاندفعت الى هذا الشارع الجانبى الذى قادنى إلى طريق الكورنيش ،
وانتخدت سبيلى إلى المعادى ، واذكر حين ذاك أن شخصا هتف لى
ليركب معى سيارتى ولكن ما كنت أستطيع الوقوف ، ولست أدرى كيف
نجوت ، ولا بد أن أذكر أنها عناية الله •

أما الحكومة فبعد أن أعادت الدعم بدأت تبحث عن محرضى هذا
الهيّاج ، وانتخدت من الأحزاب التى كانت قد بدأت حياتها والتى أشرنا
إليها فيما سبق عدوًّا ، معتقدة أن تجمعات حزبى الوفد والتجمع دفعت
الشعب إلى هذه الإثارة ومن هنا ضيقت الحكومة على هذين الحزبين مما
أدى إلى ما ذكرناه آنفا من أن حزب الوفد جمّد نشاطه ، ومثل هذا
تقريباً فعله حزب التجمع ، وقد عاشى السادات ما بقى من عمره بعد ذلك
وهو يصف هذه الانتفاضة بأنها « انتفاضة الحرامية » •

ويرى الأستاذ محمد حسنين هيكل (١) أن ما حدث فى هذين
اليومين كان انفجاراً شعبياً له دواع اجتماعية ، ولم يكن قط « انتفاضة
حرامية » بدليل أن الحكومة تراجعت وأعدت الأسعار كما كانت •

وتقول الأنباء إن شاه إيران اتصل بالسادات إبان هذه المحنة ،
وأعلن له قلقه عليه واستعداده لاستقباله فى طهران إذا رأى ذلك
ضرورياً ، وهذا يفسر لنا حرص السادات على استقبال شاه إيران
وأسرته بمصر عندما نزلت بهم المحنة بسبب الثورة التى قادها الإمام
الخمينى •

القوانين الاستثنائية :

أراد السادات أن يؤدب الشعب أو أن يؤدب القوى التى رأى أنها
قادت أو حرّضت على تلك الانتفاضة ، وهداه تفكيره إلى قوانين استثنائية
أجرى عليها استفتاء عقب هذه المظاهرات ، وبالطبع أعلن ان الاستفتاء

(١) وقائع تحقيق سياسى أمام المدعى الاشتراكى ص ٢٤٨ •

حصل على موافقة الشعب بنظام التسعات المكررة ، فهذه النتيجة كانت في أدراج وزير الداخلية قبل أن يبدأ الاستفتاء •

ويقول الأستاذ أحمد بهاء الدين ^(١) : إن المهندس سيد مرعى كان يظن أننى الذى أوجيت للسادات بهذه القوانين لأن السادات استدعانى من الكويت وأمضيت معه ساعات طويلة عقب هذه المظاهرات ، وقال سيد مرعى لأحمد بهاء الدين : ما هذه القوانين التى ما أنزل الله بها من سلطان ؟ فأجبت بأننى سمعتُ عنها كما سمعتُ أنت ، وأن هذه القوانين لا يمكن أن يكون كتبها أحد دارسى القانون ، وأخذت أشرح له ما فى هذه القوانين من مخالفات دستورية لا يقبلها عقل تلميذ فى الفرقة الأولى بـخـلـيـة الحقوق •

ولكن السادات سار فى طريقه وأجرت وزارة داخلية الاستفتاء وأعلنت هذه الوزارة أن الشعب كله استجاب لهذه القوانين !!

ضرب ليبيا :

شهدت سنة ١٩٧٧ حادثة لا يرتضيها الفكر الإسلامى ولا الفكر المصرى تلك هى غارات الطائرات المصرية على مواقع ليبية على الحدود وربما وراء الحدود ، وفى هذه الغارات دُمِّرت أسلحة وقتل وجرح عدد من الليبيين •

لماذا أمر السادات بهذه الحملة الكئيبة ؟

لقد كان من الثابت فى ذهن المصريين دائما أن القوة المصرية إنما هى لخدمة مصر والعالم العربى ، وأن السلاح المصرى لن يوجه ضد الإنسان العربى وإنما سيكون دائما لحمايته •

(١) محاوراتى مع السادات ص ١٣١ - ١٣٢ •

وإذا جاز لى أن أقف وقفة استطرادية فاننى أقرر أن مصر انتصرت سنة ١٩٧٣ بأسلحتها وأسلحة العرب ، وأن العراق انتصر في صراعه ضد إيران بأسلحته وأسلحة العرب كذلك •

أما أن يتوجه السلاح العربى للعرب فهذا ما لا يرتضيه المصريون ، ولذلك نسأل : لماذا قام السادات بهذا التصرف غير اللائق ؟

يورد الأستاذ محمد حسنين هيكل في كتابه « خريف الغضب ^(١) » بعض الأسباب ، ويورد باحثون آخرون أسبابا أخرى ، ونحن لا نحب أن نسجل هذه الأسباب ، فسياستنا تهدف للتجميع لا للتفريق ، وكل ما نذكره هنا هو موقف ليس سرياً ، إنه موقف العقيد القذافي من حرب أكتوبر ، فبينما تجمع العرب بأسلحتهم وأموالهم لمساندة مصر ، كان العقيد القذافي يهتف ضد هذه الحرب ، ويؤكد أن مصر ستهزم فيها ، وأن مصر لم تذكر له موعدها ، بل ترك العقيد القذافي ليبيا وذهب إلى فرنسا ليكون صوته أكثر وضوحاً ، وكان ذلك جرحاً غائراً في جسم المصريين جميعاً وليس في جسم السادات وحده •

وأياً ما كانت الأسباب فإن الشعب المصرى لم يستسغ أن تقوم الطائرات المصرية بغارات على الشعب الليبى •

رحاة القدس :

القدس الشريف ، حيث بيت المقدس ثالث الحرمين ، تهفو النفوس لزيارته ، وقد أصبح القدس بعد أن احتلته إسرائيل الغاشمة في موضع يتعذر على المسلمين ارتياده ، فتوقفت تقريبا رحلات المسلمين إليه •

(١) خريف الغضب ص ٢٣١ •



رحلة القدس

وكان المرحوم الملك فيصل طيب الله ثراه يدعو الله أن يمدد في أجله حتى يتحرر القدس ويזורه الملك ، وهذا الدعاء يهتف به أكثر المسلمين أو كلهم في مختلف البقاع ، ومن أجل هذا كانت زيارة أنور السادات القدس وهو تحت الاحتلال الإسرائيلي تثير التساؤلات والغضب .

ورحلة القدس التي قام بها السادات هي موضوع دراستنا الآن ، وهي لم تكن رحلة دينية ، بل كانت رحلة سياسية ، والحق أن اتصال قادة المسلمين باليهود ليس حدثا جديدا فقد ذكرت صحيفة أخبار اليوم الصادرة في ١٩/١١/٨٥ أن الاتصالات بين مصر وإسرائيل بدأت من أغسطس سنة ١٩٥٢ فقد كان عبد الناصر يتبع سياسة ترمي إلى التخلص من مصادر المتاعب الأجنبية ليوسع نفوذه في العالم العربي والإسلامي كما ذكرنا من قبل ، ففاوض في السودان ونال السودان استقلاله التام عن مصر وكان كثير من المصريين والسودانيين يعدون مصر والسودان قطرا واحدا ، وأشهد لقد سمعت بأذني عتبا شديدا عندما قامت الوحدة بين مصر وسوريا فكان هناك من السودانيين من يقول : أما كان من الأوفق أن تكون الوحدة بين مصر والسودان ؟

والحق أن الاتصال الوثيق ماديا وروحيا يجعل ارتباط السودان ومصر ارتباطا طبيعيا ويصور الانفصال بينهما محاربة لقوى طبيعية .

المهم أن عبد الناصر تخلص من الصراع حول قضية السودان وأراد أن يتخلص من الصراع مع إسرائيل بطريقة أو بأخرى فبدأ الاتصال بإسرائيل من الشهر التالي لقيام الثورة المشؤومة .

ولكن الشيء الذي غاب عن عبد الناصر والسادات هو التعرف الدقيق على شخصية الرجل اليهودي ، لقد ظن عبد الناصر كما ظن السادات من بعده أنه أمام ففاوض عادي أو حتى عدو عادي ، ونسيا أن الرجل اليهودي لا يحمل قلبا كالقلوب التي يحملها الناس ، وليست

به العاطفة التي تجذب الإنسان إلى اللين أحيانا والتفاهم أحيانا أخرى ، إن الإنسان اليهودى معتد ، كثير الأطماع ، بل إن أطماعه لا تنقف عند حد ، يتلاعب بالالفاظ ، ويدبّر المكائد والمؤامرات ، تنسأله فيجيب إجابات تحتل عدة معان ، وتحاول التوافق معه فيرى ذلك ضعفاً منك وينتجه للابتزاز ، وإذا كنت تفاوض فردا واحدا الدعى أنسه يعيش في جو ديمقراطى ويطلب منك مهلة لأخذ موافقة الآخرين على ما اتفقتما عليه ، وهو في الحق يريد مهلة لمزيد من التشدد حسب الظروف ، وإذا كنت تفاوض جماعة فإن منهم من يقبل ومنهم من يرفض وإذا اتفقت على رأى مع جماعة هبت جماعة أخرى لترفض هذا الاتفاق ، وصدق الله العظيم الذى يقول : « أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم » .

ذلك كان الوضع الذى جعل الاتصالات المصرية مع إسرائيل التي جرت في أغسطس سنة ١٩٥٢ لم يحقق لها النجاح .

وفي عهد عبد الناصر وبعد الهزيمة الفادحة سنة ١٩٦٧ بدأت إسرائيل تنتهز الفرصة ليتم من جديد لقاء بين مصر وإسرائيل ، وقصة ذلك أن قدرى حافظ طوقان وهو سياسى فلسطينى شهير كان عضوا بالمجمع اللغوى المصرى ، وكان يحضر لمصر كل عام تقريبا لحضور جلسات هذا المجمع ، وقد طلب منه موسى ديان وزير الدفاع آنذاك أن يقابل جمال عبد الناصر ويبلغه رسالة ملخصها :

إن الروس لن ينفعوه ، والأمريكان كذلك لن ينفعوه ،
ولن يستطيع الأمريكان أن يضغطوا على إسرائيل ،
وإن أمريكا والاتحاد السوفيتى لا يههما نهاية
مشكلة الشرق الأوسط بل ربما كان من صالحهما
أن يستمر الصراع في هذه المنطقة .

ولذلك فإسرائيل تدعو عبد الناصر — على الرغم

من كثافة الكراهية والشكوك — أن يجرب التفاهم مباشرة مع إسرائيل ودون وسيط *

ويورد الأستاذ أحمد بهاء الدين هذه الرواية ويعلق عليها بقوله :
إن إسرائيل لابد أن تكون قد وصلت الرسالة نفسها إلى أنور السادات
مرة ومرات (١) *

ولم يكن هدف إسرائيل من ذلك تسوية الموقف ، لم يكن ذلك هدفها
أبدا ، وإنما كان محاولة لجعل الصراع يتجه اتجاهها داخليا ، فالعرب ،
وكثيرون من المصريين سيهاجمون من يجلس مع القتلة والسفاحين على
مائدة واحدة *

ولنفقز إلى ظروف رحلة القدس لنتساءل : ما دوافعها وما
أسرارها الحقيقية ؟

يقول الدكتور صلاح العقاد (٢) : إذا كانت رحلة القدس مفاجأة
فإن استعداد السادات للاتصال المباشر بإسرائيل كان واردا منذ مدة ،
منذ رحلة كيسنجر المكوكية سنة ١٩٧٤ و ١٩٧٥ ثم شجع كارتر الرئيس
السادات على المضي في هذا الطريق ، وجاءت أحداث ١٨ و ١٩ يناير سنة
١٩٧٧ فأوحت للسادات أن الشيوعيين يقفون ضده بتأييد السوفييت ،
فأراد أن يلجأ إلى المعسكر الآخر *

ولكان السادات يظن أن الحرب ستفتح الأبواب لحل القضية ، ثم
ظن أن تهمير مدن القناة وإعادة فتح قناة السويس الحياة ستمهد الطريق
للحل وتوحى بأن الحرب استبعدت ، وأن السلام سيأخذ طريقه ،
وظن السادات طبيعى مع غير اليهود ، فاليهود لا يحققون أى أمل ،

(١) أحمد بهاء الدين : محاوراتى مع السادات ص ١٦٥ *

(٢) السادات وكامب ديفيد ص ١٥٩ *

ينتصرون أو ينهزمون ولكن اتجاهاتهم الشريرة لا تهدأ في حال الانتصار ولا في حالة الهزيمة ، وحسبك أنهم وقد امتلكوا السلاح الذرى والقمر الصناعي والأسلحة الفتاكة لا يسمحون بقيام دولة فلسطين بجوارهم خشية أن يلقيهم الفلسطينيون في البحر !!!

ويورد الأستاذ أحمد بهاء الدين ^(١) عدة آراء أوجت إلى السادات بضرورة الرحلة للقدس فيذكر أن كيسنجر قال للسادات بعد الحرب : أمريكا عاجزة يا سيادة الرئيس ، وليس لديك إلا أن تحدد وسيلة لاستخدام قوة ضغط الرأي العام العالمى والأمريكى بالذات والإسرائيلى المستعد للسلام ، وتركيز الضغط على بيجين فى القدس •

ويتساءل الأستاذ بهاء الدين : هل توحى هذه العبارة بأن كيسنجر كان فعلا أول من اقترح فكرة الذهاب إلى القدس ؟

وفى مكان آخر يقول الأستاذ أحمد بهاء الدين إن الرئيس كارتر قال للسادات إن الإسرائيليين غاضبون لأنك ترفض لقاء علنيا مباشرا ورسميا بين الجانب المصرى والجانب الإسرائيلى ، وهم يرون أن مثل هذا اللقاء ، سيكون ذا نتائج مهمة ^(٢) •

وتعطينى على هذا الكلام أن إسرائيل أوعزت لأمريكا بذلك حتى يعرض السادات للقاء على أمل فتح الأبواب ، ولكن الأبواب لن تفتح ، ثم إن هذه الرحلة ستحقق لإسرائيل فائدة كبرى لأنها ستفتح الأبواب للخلاف بين الدول العربية وهذا ما كان •

والعجيب أن السادات ظل يتغنى بأن هذه الرحلة كسرت الحاجز النفسى بين العرب وإسرائيل ، ولم يدّر أن الحاجز النفسى مصنوع من

(١) أحمد بهاء الدين : محاوراتى مع السادات ص ١٥٠ وما بعدها •

(٢) المرجع السابق ص ١٦١ •

الفولاذ ، وأنه يتعذر كسره ، فالقول بأن الرحلة كسرت هذا الحاجز لا ينطبق ولا حتى على السادات نفسه •

واقتنع أنور السادات بالرحلة ، وكأنه لم يجد وسيلة سواها ، وراح يخبر بها خاصته وفي مقدمتهم وزير الخارجية إسماعيل فهمي ، ولكن هذا لم يكن يستطيع أن يتحمل هذا التصرف ، فلعله كان يحس بأن الأمل فيها قليل ، ولكن الذي أحسّته أنا أن الرجل خاف على نفسه من التهديدات التي وجهت لمن يشاركون في هذه الرحلة ، والتي كان الأستاذ يوسف السباعي فيما بعد ضحية من ضحاياها على الرغم من أنه بذل حياته كلها لخدمة العرب والأفارقة •

والمهم أن إسماعيل فهمي تمارض ثم استقال وصدر قرار بأن يتولى محمود رياض عمل وزير الخارجية ولكن هذا كان أضعف من أن يتحمل هذه المسؤولية وأبدى رغبته في الاستقالة ، وأسند عمل وزارة الخارجية إلى الدكتور بطرس غالي •

ونستمر مع هؤلاء الوزراء قليلا فنذكر أن محمود رياض حاول بعد فترة أن يقبله السادات ليعود لعمله بحجة أنه لم يقدم استقالته وأن موقفه فهم خطأ ، ولكن أحدا لم يستمع إليه •

أما إسماعيل فهمي فكان يتصور — كما يقول موسى صبرى ^(١) أن المظاهرات ستقوم في مصر ضد السادات وضد هذه الزيارة ولكن ذلك لم يحدث ، وقد حاول إسماعيل فهمي بعد ذلك أن يستعيد مكانته مع السادات ، وتوسط له السفير أحمد عبد القادر لكي يعينه السادات مستشارا له ، ولكن السادات رفض ذلك ، ووصل الأمر إلى أن إسماعيل فهمي اتصل بمكتب الرئيس وطلب أن يتحدث مع السادات ، ولكن السادات لم يستجيب إلى هذا المطلب ، ولم يقبل الاتصال به •

(١) السادات : الحقيقة والاسطورة ص ٥٣٦ •

واتجه أنور السادات إلى مجلس الشعب في ١١/١١/١٩٧٧ ، وألقى خطاباً قال فيه : إنني مستعد للذهاب إلى آخر العالم إذا كان فاك سيحول دون قتل أو جرح جندي واحد أو ضابط واحد من أولادى أقولها الآن : إنى مستعد للذهاب إلى آخر العالم ، وسوف تقدهش إسرائيل عندما تسمعنى الآن أمامكم ، أنا مستعد للذهاب إليهم في عقر دارهم ، إلى "لكنيست نفسه للتحدث إليهم

ودمش أعضاء مجلس الشعب لذلك الافتراض ، ولكن هذا المجلس كان مستعداً دائماً ليصفق لكل شيء ، فكلمات الرئيس تعلق الأيسرى بالتصفيق أيا كانت هذه الكلمات .

أما جماعة المثقفين فقالوا : ليذهب إلى آخر الدنيا كما يشاء ، ولكن إن ينال شيئاً من إسرائيل ، إن صيحاته العاطفية لا تصل إلى قلوبهم ، فهذه القلوب قد ماتت تماماً أو على الأقل قد تحجرت .

ورفض العرب جميعاً هذه المبادأة لحقدهم على إسرائيل وعدم أملهم في الوفاق معها ، وربما لأن مثل هذه المبادأة كانت أعلى من المستوى الفكرى للكثيرين .

وبدأ التهديد الأحمق يتجه لكل من يشترك في هذه المرحلة ، وأقول إنه تهديد أحمق أو أسود لأن السياسة عندما تدار بالسيف يكون الفشل هو نتیجتها ، ومن العيب أن يقول إنسان لإنسان : إما أن تتبع رأيى أو أقتلك ، فهذه شريعة الخاب .

ماذا كان رد الفعل لدى قيادات إسرائيل تجاه عرض السادات ؟ إن قيادات إسرائيل أحست بالنجاح ، فطالما أوعزت بأن يتم لقاء بين مصر وإسرائيل كما ذكرنا ، وقد تحقق لإسرائيل باتجاه السادات أكثر مما كانت تتمناه ، فاللقاء كان بناء على اقتراح السادات ، وهو يتم على

أرض إسرائيل ، ومع زعيم أكبر دولة عربية ، وبعرضٍ منه
فليات السادات وليقل ما يقول بعقلية الرجل الشرقى ، وليصفق لـه
الناس ليسعد بذلك كما يحدث في بلاده ، ولكن لا شيء أكثر من هذا •

وهزت بضعة أيام دون ردٍّ رسمى من إسرائيل ، وكان ذلك في حد
ذاته يشير إلى جانب من الاستهانة ، وربما لو كان الأمر بالعكس لأسرعت
مصر بعد دقائق بدعوة رئيس إسرائيل لزيارة مصر •

وعلى كل حال ففى ١٥/١١/ وجه مناحم بيجين رئيس وزراء
إسرائيل دعوة رسمية إلى السادات لزيارة إسرائيل ، وأعد ممثلو مصر
وإسرائيل تفاصيل الزيارة وكانت رحلة أنور السادات يوم ١٩/١١/ سنة
١٩٧٩ وهو يوم وقفة عيد الأضحى وكان من بين الوفد الذى صاحب
السادات د • مصطفى خليل رئيس الوزراء ود • بطرس غالى الذى
أسندت له وزارة الخارجية ، ووصلت الطائرة المصرية إلى مطار
بن جوريون الساعة الثامنة مساء ونزل أنور السادات من الطائرة حيث
كان فى استقباله زعماء إسرائيل وفى مقدمتهم ابراهيم كانزير رئيس
إسرائيل ومناحم بيجين رئيس وزراء إسرائيل وموشى ديان وأريل شارون
وجولدا مائير ومارداخاي جور وغيرهم من زعماء إسرائيل •

والحق أن أنور السادات كان متماسكا قويا ، وكان يصافحهم فى
ثقة وإيمان ، وربما أطلق نكتته مع هذا أو ذاك •

وعلى طول الطريق من المطار إلى القدس كانت هناك الجماهير
المتحمسة تهتف للضيف الكبير وأكثر هؤلاء كانوا من البسطاء والذين أمكروا
الخير من هذه الزيارة سواء كانوا من العرب أو من الإسرائيليين •

وفى صباح اليوم التالى ذهب أنور السادات لصلاة العيد فى المسجد
الأقصى ، ولما انتهت الصلاة اتجه عبر الساحة الواسعة إلى قبة الصخرة ،



الصلاة في بيت المقدس

وكما كان هناك جماعات تهتف بحياة أنور السادات فقد وجدت جماعات من المتظاهرين الفلسطينيين يهتفون ضده ويتوعدونه ، وفي الساعة الرابعة من مساء الأحد دخل أنور السادات الكنيسة وقد استقبله الأعضاء بحفاوة بالغة وألقى خطابا طويلا دبجته أقلام بارعة في الجانب الأدبي وحسن الأداء ، وشمل أفكارا رائعة في مجال المسألة كما حوى لقطات صادقة من التاريخ وهو على العموم يعتبر قصيدة رائعة بالغة الجودة ، وقد ألقى السادات خطابه باللغة العربية ، وهناك ترجمة بالانجليزية قامت بها وزارة الخارجية المصرية وراجعها الأستاذ شريف رزق الله ، كما كانت انترجمة العبرية تلقى في نفس الوقت ، ولعل من المستحسن أن نقتبس سطورا قليلة من هذا الخطاب الحافل لنعلق عليه بعد ذلك ، ولننتعرف على مداه لدى الإسرائيليين :

— جئت إليكم اليوم على قدمين ثابتتين لكي نبني حياة جديدة ، ونقيم السلام على هذه الأرض ، أرض الله ، فكلنا مسلمون ومسيحيون ويهود نعبد الله ولا نشرك به أحدا ، وتعاليم الله ووصاياه هي الحب والصدق والطهارة والسلام .

— يجب أن نرتفع جميعا فوق صور التعصب وخداع النفس ونظريات التفوق البالية .

— إن الروح التي تزهق في الحرب هي روح إنسان ، والزوجة التي تتحمل هي إنسانة من حقها أن تعيش في أسرة سعيدة سواء كانت عربية أو إسرائيلية ، والأطفال الأبرياء الذين يفقدون رعاية الآباء وعطفهم هم أطفالنا جميعا ، لهم علينا المسؤولية الكبرى في أن نوثر لهم الحاضر المهنئ والغد الجميل .

— وقد شاءت المقادير أن تجيء رحلتى إليكم في يوم عيد الأضحى المبارك وهو عيد التضحية والفداء حين أسلم إبراهيم عليه السلام

جدث العرب واليهود أمره إلى الله واتجه لتنفيذ أمر الله في التضحية بولده •

— إننى أعلن للعالم كله أننا نقبل العيش معكم في سلام دائم وعادل ، ولا نريد أن نحيطكم أو تحيطونا بالصواريخ المستعدة للتدمير أو بقذائف الأحقاد والكراهية •

— لقد كان بيننا وبينكم جدار ضخم مرتفع حاولتم أن تبنيه على مدى ربع قرن من الزمان ، ولكنه تحطم في عام ١٩٧٣ كان جدارا من الحرب النفسية ، ومن التخويف من القوة القادرة على اكتساح الأمة العربية ، ومن الترويج بأننا أمة تحولت إلى جثة بلا حراك ، وعلينا أن نعترف معا أن هذا الجدار قد وقع وتحطم سنة ١٩٧٣ •

— الحق أقول لكم إن السلام لن يكون اسما على مسمى ما لم يكن قائما على العدالة وليس على احتلال أرض الغير •

— ونعلن أننا نقبل كل الضمانات التي تريدونها من أعظم قوتين في العالم أو إحداها أو من القوى الخمس الكبرى ، وهكذا فإننا قابضون أية ضمانات ترضونها لأننا في المقابل سنأخذ نفس الضمانات •

— هناك أرض عربية احتلتها إسرائيل بالقوة ونحن نصر على تحقيق الانسحاب الكامل منها بما فيها القدس العربية ، والانسحاب الكامل من الأرض العربية المحتلة من يونيو سنة ١٩٦٧ أمر بديهي لا نقبل عنه الجدل ولا رجاء عنه لأحد أو من أحد •

— إن قضية شعب فلسطين وحقوق شعب فلسطين المشروعة لم تعد اليوم موضع تجاهل أو انكار من أحد وإذا كنتم قد وجدتم المبرر القانون لإقامة وطن قومي على أرض لم تكن كلها لكم بعد أن تركتموها مئات السنين فأولى بكم أن تتفهموا إصرار شعب فلسطين على

إقامة دولته من جديد في وطنه الذي لم يتركه قط ولم يعرف له وطنا
سواه •

— وكم سيكون العالم سعيدا عندما نرشف إليه اتفاق سلام يقوم
على إنهاء الاحتلال الإسرائيلي للأرض العربية التي احتلت سنة ٦٧
وتحقيق الحقوق الأساسية للشعب الفلسطيني وبخاصة حقه في تقرير
مصيره ، وأن تعيش دول المنطقة في سلام داخل حدود آمنة وتدار بين
هذه الدول العلاقات طبقا لأهداف ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة •

وجاء في ختام هذا الحديث هتاف من أنور السادات قال فيه :

يا أيتها الأم الثكلى

ويايتها الزوجة المترملة

ويا أيها الابن الذي فقد الأخ والأب

ياكل ضحايا الحروب ، املثوا الأرض والفضاء بتراتيل السلام
واملثوا الصدور والقلوب بآمال السلام •

صدى خطاب السادات على زعماء إسرائيل :

يقول الأستاذ موسى صبرى الذى كان ضمن الصحفيين المصريين
الذين رافقوا السادات : إن خطاب بيجين الذى جاء بعد خطاب السادات
كان فى منتهى السوء ^(١) فقد أعلن أن لا عودة لحدود ما قبل ١٩٦٧
ولا عودة فى توحيد القدس وكونها عاصمة للإسرائيليين ، ولا عودة فى أن
الفلسطينيين لا يمكن أن تقوم لهم دولة على حدود إسرائيل أو أن تقبل
إسرائيل إجراء أية محادثات مع منظمة التحرير •

وبيجين بذلك يخرّب كل الآمال ويقول موسى صبرى كذلك إن

(١) السادات : الحقيقة والاسطورة ص ٥٣٤ •

القيادة الإسرائيلية كانت تعتقد أن هذه الزيارة للتهويه ، ولذلك فقد أعلنت إسرائيل التعبئة العامة قبل الزيارة .
وتقول السيدة جيهان السادات وكانت بحكم موقعها تتبّع الزيارة من لحظة إلى أخرى :

كانت الكاميرا تهرّ على وجوه جامدة للزعماء الإسرائيليين ولا يظهر أى انفعال بالتجاوب من أبا اييان أو بارليف أو عزرا وايزمان^(١) وتذكر كذلك أن عزرا وايزمان — والمفروض أنه من المعتدين — دوّن ملاحظة خلال استماعه لخطاب السادات وهرّر الورقة التي كتب عليها الملاحظة إلى مناحم بيجين وهو شى ديان ، وقد قرأها كل منهما وأشار بالموافقة وتقول إنها علمت بعد ذلك أن الملاحظة التي كانت على الورقة هي : (لا بد أن نستعد للحرب) .

ويقول موسى صبرى لقد سألت بيجين : ماذا تقدّم للسلام بعد كل ما قدمته مصر ؟ سوف نعترف بإسرائيل ، ونعترف بحقها في الحياة في سلام مع جيرانها العرب ، فماذا فعلت أنت ؟ ويذكر موسى صبرى أن إجابة بيجين كانت إجابة فظة ، وأنه قال وهو يضع يده على كتف موسى صبرى : يا صديقى نحن لم نطلب منكم الاعتراف بإسرائيل ، فلسنا في حاجة إلى هذا الاعتراف ، إسرائيل حقيقة دولية .

ويختتم موسى صبرى حديثه عن هذه الرحلة بقوله : لقد عدت من هذه الرحلة وأنا في قمة التشاؤم^(٢) .

وهكذا قدّم السادات كل شيء ولم يأخذ شيئا ، وأقام رحلة وسط صباب كثيف وسوء ظن متراكم ، فجاءت النتيجة إقبالا من مصر وإعراضا من إسرائيل ولم تثر هذه الزيارة أية ثمرة .

(١) سيدة من مصر ص ٤٧٠ .

(٢) السادات : الحقيقة والاسطورة ص ٥٥١ .

(م ٢٧ - التاريخ الاسلامى)

ومرة أخرى كانت القيادات الإسرائيلية تعتقد أن السادات يهوه
بهذه الزيارة وبياعلان الرغبة في السلام ، وأنه ينتخذ من ذلك وسيلة
لإعلان الحرب ولذلك أعلنت هذه القيادات المتعيسة العامة ، وهذا يدل
على أن سوء الظن كان قد بلغ مداه (١) .

نظرة أخيرة لهذه الرحلة :

لو أن السادات درس الشخصية اليهودية لما أقدم إطلاقا على
هذه الرحلة ، لقد ذهب بعقل مفتوح ، وقلب عاطفى ليتحدث إلى الجمود ،
والصلابة ، وسوء الظن ، ومحاولة الكسب من كل شيء ، وعدم القدرة
على العطاء أو الوفاق ، وكان أجدر بالسادات أن يعلن قبواه للدعوات
المتكررة للقاء في أرض محايدة ، أما أن يعرض نفسه من جانب ، ويذهب
لدارهم من جانب آخر ، فإن هذا لم يتناسب إطلاقا بأى تقدير من هذه
الجماعة .

والعجيب أن المجتمع الدولي الذى هزته مفاجأة الرحلة لم يعلق
على عدم استجابة إسرائيل لاتجاه السلام ، كأن أخلاق اليهود وهوقفهم
كان متوقعا لدى المجتمع الدولي .

مقارنة :

إذا كنا قد أوضحنا فيما سبق اتجاهات بيجين الخشنة تجاه مبادرة
السادات ، وذكرنا أنه هو وجماعته وقفوا موقفا صلبا دون أية استجابة
لإقبال السادات ودعوته للسلام أقول إذا كنا قد عرفنا ذلك فإننا
نذكر ما توقعه السادات من إسرائيل لمواجهة في منتصف الطريق حتى تؤتى
المبادرة أكملها ، يصف أنور السادات أمانيه بقوله :

أخبرت وايزمان أن تصرفات بيجين ستؤدى إلى ضياع فرصة

السلام ، وقد ثبت لى أن بيجين لا يفقه شيئاً فى السياسة ، ولو كان لديه حسٌ سياسى لقدّم لى مقابلاً لمبادرتى ، ولكنه عجز عن فهم مدلول المبادرة ، وقابلها بالتشدد والمراوغة ، مما أثار عليه حنق العالم كله !!! وكان يستطيع أن يقوم بمبادرة بسحب القوات الإسرائيلية فى سيناء إلى خط العريش رأس محمد ولكن جموده وجشعه أعماه عن القيام بأى تحرك (١) .

ونقول لأنور السادات إنه هو الذى لا يعرف أخلاق اليهود ، وعدم المعرفة هو الذى دفع السادات لبناء قصر من الأحلام فى الهواء .

ونقل وايزمان رأى السادات إلى بيجين ، وعرض بيجين هذا الرأى على مجلس الوزراء ، ثم أعلن فى مؤتمر صحفى يوم ٢٣ يوليو ٧٨ أن مجلس الوزراء قرر بأغلبية ساحقة رفض الطلب الذى تقدّم به السادات لإعادة العريش وجبل سيناء إلى مصر ، لأنه ليس من حق أى شخص أو أية دولة أن تحصل على شىء مقابل لا شىء (٢) .

وكان المقابل الذى يطلبه بيجين هو السماح ببقاء المستوطنات الإسرائيلية وبعض التسهيلات العسكرية ، كاستعمال مطارات سيناء ، وهى أمور يتطلبها الجشع الإسرائيلى عند النصر والهزيمة .

شىء واحد حققه السادات من هذه الرحلة ، هو أنه صار ألمع النجوم ، وكان قد اتخذ الأبهة المادية لذلك ، فارتنى أغلى الثياب ، ومشى مشية الأبطال ، ووقف شامخاً وهو يلقي الخطاب وكل هذا كان مادةً لصفحات كتبت عنه فى الصحف والمجلات العالمية ، كما استمعت أغلب الدول إلى خطابه الذى أذيع بلغات مختلفة على أكثر دول العالم بواسطة القمر الصناعى .

(١) محمد ابراهيم كامل : السلام الضائع فى كامب ديفيد ص ٣٣٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٧١ .

أحداث سنة ١٩٧٨

اغتيال الأستاذ يوسف السباعي :

كان الأستاذ يوسف السباعي ضمن الوفد الذي رافق السادات إلى القدس ، وكانت بعض الهيئات الفلسطينية قد أذرت كل من يصحب السادات في هذه الرحلة بالموت •

ونقف هنا لنقرر أن هذا الإنذار بعيد كل البعد عن الإسلام وعن الحكمة وعن الخلق القويم ، فكأن هذه الهيئة تريدنا جميعاً أن نلغى عقولنا وتفكيرنا وأن نتقدم لها لنسألها عن الوسيلة التي نسلکها لتحرير الأرض ، وكأن المعارف تنبع من هذه الهيئة ولا تنبع من سواها ، ويح السياسة عندما ترتبط بالتهديد وإصدار أحكام الإعدام على المخالفين في الرأي •

وعلى كل حال فقد نفّذ هؤلاء الطائشون وعيدهم ، وقتلوا الرجل العظيم الذي كان واسع الثقافة ، سمح الأخلاق ، رضى النفس ، والذي بذل حياته وجهده في خدمة القضايا العربية والافريقية ، وقد وقع حادث الاغتيال في قبرص في فبراير ١٩٧٨ وكان يوسف السباعي يرأس الوفد المصري في اجتماعات لجنة التضامن الآسيوي الإفريقي المنعقدة في نيقوسيا عاصمة قبرص ، وقد ضرب يوسف السباعي من الخلف وسقط مدرجا بدمائه ، وذعر الرأي العام في مصر لهذا الحادث ، فحركة الاغتيالات لا يقرها عقل ولا منطق ولا تفيد من قريب أو من بعيد أهداف الفلسطينيين ، وبخاصة إذا وجهت هذه الحركة العدوانية ضد مصر التي ضحت بفيض من الدم والمال من أجل هذه القضية طيلة عشرات السنين •

في أعقاب الاغتيال : ١٨ شهيدا من رجال الصاعقة :

وللأسف لم تقف المؤسسة عند هذا الحد ، فقد أمر أنور السادات بإرسال طائرة إلى مطار لارناكا في قبرص ، وعلى ظهرها قوة من رجال الصاعقة المصريين ، مهمتهم اختطاف قتلى يوسف السباعي ، والعودة بهم

إلى القاهرة لتقديمهم إلى المحاكمة ، وانتهت المهمة بفاجعة مريعة هي قتل ثمانية عشر شاباً من رجال الصاعقة الذين تعترض بهم الدول ، والذين يكونون قوة هائلة عند الشدائد ، وقد سقط هؤلاء برصاص من الخلف ، رصاص أطلقتها القوات القبرصية .

ولا شك أن هذا التصرف يحسب في ذنوب السادات ، وسنعود إليه فيما بعد ونحن نتحدث عن زلاته وأخطائه ، ولكننا لا نغفئ سياسة قبرص من هذا الإسراف في العدوان ، وكان يمكن أن نتصرف بطريقة أيسر ، وأن تعتبر خطأ مصر ناشئاً عن الاستياء العظيم الذي نزل بالشعب المصري نتيجة لاغتيال رجل من أبرز رجالها .

إن القرارات السريعة من هنا ومن هناك كانت سبباً في هذه الكارثة الأليمة التي لم يفرح لها إلا أعداء العرب والإسلام .

استفتاء ٧٨/٥/١٤ واختفاء حزب الوفد :

بعد رحلة القدس أصبح السادات هدفاً لهجوم متصل من الصحافة العربية ، ومن المعارضة المصرية كما أن اتجاهه للمصالحة مع إسرائيل ، والارتقاء في أحضان أمريكا حامية إسرائيل ، جلب عليه كثيراً من السخط ، وكانت زعامات حزب الوفد هي أهم محرك لهذا السخط ، بل كانت في نظر السادات المحرك الأعظم للسخط والإثارة ، وفي ساعة حمق اتجه أنور السادات للاستفتاءات التي تعود أن يلجأ لها كلما أراد أن يضرب ضربة ، ونتيجة الاستفتاءات مؤكدة ، فهي تحقق له مأربه ، وتعطية الفرصة ليضرب باسم الشعب ، والشعب يرى من هذه الضربات الآثمة .

وكان الاستفتاء هذه المرة على صحة معالجة الحكومة لقضية السلام الاجتماعي ، وحرمان قادة الأحزاب التي أفسدت الحياة السياسية في مصر من الحقوق السياسية ، وأعلنت نتيجة الموافقة على هذا الاستفتاء بنسبة التسعات المكررة أو نحوها ، وبدأ السادات يضع هذه

النتيجة موضع التنفيذ على هواه ، فجعل الأستاذ فؤاد سراج الدين والأستاذ عبد الفتاح حسن عضو مجلس الشعب آنذاك من هؤلاء الذين أفسدوا الحياة السياسية ، وم يجعل من هذه الطائفة من ° انحسر نفوذه في الحياة المصرية الجديدة مهما كانت مواقفهم من قبل كالأستاذ ابراهيم عبد الهادي •

وأحسّ حزب الوفد أنه المقصود بهذا الاستفتاء ، وأن حرمانه من قاداته أمر غير محتمل ولا مقبول ، فجمّد نشاطه في يونيو سنة ١٩٧٨ ، واختفت بذلك إلى حين تلك القوة الهائلة التي حاربها الانجليز والملك فاروق وعبد الناصر وثورته وهؤلاء جميعا متساوون ، يقفون في صف واحد ضد شعب مصر ، وضد القيادة الوفدية التي آذن بها الشعب والتف حولها •

في الطريق إلى كامب ديفيد :

قلنا من قبل إن السادات بعد الجولة العسكرية الناجحة سنة ١٩٧٣ اتجه للمصالحة والمفاوضة لعله يستطيع أن يحقق عن هذا الطريق ما عجز عن تحقيقه بالحرب بعد أن ألقت الولايات المتحدة بثقلها في جانب إسرائيل ، وكان طريق المفاوضة وعرا وقاسيا ، فالروح الإسرائيلية لا تعرف التفاهم ، ولا توافق على الالتقاء في منتصف الطريق ، ولا تهيل للتنازل عن أى شيء ، بل تسعى جادة لتأخذ كل شيء ، وأغلب الظن أن السادات لم يدرك طبيعة خصمه ، فهو مرة يتحدث عن السلام مقابل الأرض واليهود يريدون الأرض أكثر من حبهم للسلام ، ومرة يتجه بحديثه للرأى العام في إسرائيل كما حدث في خطابه في ٢٦ يوليو سنة ١٩٨١ وكان يعتقد أن الرأى العام في إسرائيل يميل للسلام ويمكن أن يرغم بيجين ليسير في طريق السلام ، ونسى السادات أن بيجين نموذج لكل صهيونى ، وأن الرأى العام اليهودى قد يصفق للسادات ببديه ، ولكنه في نفس الوقت يؤيد بيجين بقلبه وصوته ويهيل للنهب والعدوان •

وكان مما دفع السادات الى تحمل صلف بيجين وقسوته أن السادات رأى رأى العام العربى يناوئه بعد زيارته لأقدس ، ورأى التهديدات من كل جانب ، وأدرك أن عملية الإنقاذ الوحيدة أن يسترد سيناء ، وإذا كان العرب قد تخلوا عنه فإن استرداد سيناء من جانب وتحقيق تقدم ما فى مجال الحقوق الفلسطينية من جانب آخر ، ستكون وسيلة ليفرض نفسه على المجتمع العربى الذى قال عنه السادات إنه يخطب ويتكلم أكثر جدا مما يفكر أو يعمل ، وعلى هذا بذل السادات أقصى جهده فى مجال المفاوضة وتحمل من أجل ذلك أقصى ما يمكن أن يخطر بالبال من عنيت اليهود وجبروتهم •

وعلى كل حال نستطيع أن نرصد محاولات المفاوضات فى الخطوات التالية :

أولا : فى الاسماعيلية :

عقد فى الاسماعيلية اجتماع قمة بين السادات وبيجين فى ديسمبر سنة ١٩٧٧ وكان الوفد المصرى مكونا من مصطفى خليل وسيد مرعى ومحمد كامل ابراهيم ، وقد قدم الجانب المصرى رأيه فى القضية ، وهو رأى واضح يستند إلى القرار رقم ٢٤٢ وخلاصته جلاء إسرائيل عن الأرض التى احتلتها عام ١٩٦٧ •

وقدم بيجين تصوره ورأيه ، ولم يكن رأى اليهودى جديدا ، فقد أعلنت كل القوى الصهيونية ألا عودة لحدود ١٩٦٧ ، أما الاقتراح الخاص بسيناء فيمكن انسحاب إسرائيل منها على ألا تتقدم القوات المصرية بعد مضايق متلا والجدى ، وأن تحتفظ إسرائيل بالمطارات ومحطات الإنذار المبكر الواقعة شرق المضايق ، وأن تبقى المستوطنات الإسرائيلية بسيناء لسكانها ، وتبقى معها قوات شرطة لحمايتها •

واتضح من ذلك أن الفجوة بعيدة جدا بين المشروعين فيما يتعلق

بسيناء ، أما فيما يتعلق بالضفة وغزة فقد كانت الفجوة أوسع ، وكانت إسرائيل لا تتكلم عن الضفة إلا باسم جوديا والسامرة ، فكأنها أرض صهيونية يسكن فيها بعض العرب •

وفشل الاجتماع تماما ولكن الرغبة كانت متبادلة في عدم إعلان الفشل ، ولذلك تم الاتفاق على تكوين لجنة سياسية ولجنة عسكرية للإعداد لمؤتمر قمة قادم •

ثانيا : في القدس :

اجتمعت اللجنة السياسية في القدس في يناير ١٩٧٨ ، ولم يظهر في هذا الاجتماع أى تقدم ، وإنما كان الموقف تكرارا لما حدث في الإسماعيلية ، وكل ما يمكن أن يلمسه الباحث أن إسرائيل عرضت الجلاء عن سيناء بشروطها السابقة ، فكان مبدأ الاعتراف بالجلاء مشجعا للجانب المصرى ، على أن تتجه المفاوضات لتذليل الشروط التى عرضتها إسرائيل ، وعلى كل حال لم يطل عمر اللجنتين اللتين اقترح قمة الاسماعيلية قيامهما ، فجمدت هاتان اللجنتان •

فبراير ومارس ١٩٧٨ وأثرهما في المفاوضات :

في فبراير ومارس ١٩٧٨ اغتيل يوسف السباعى بأيدٍ فلسطينية ، كما ذكرنا آنفا ، ويلاحظ أن منظمة التحرير الفلسطينية أعلنت أنه ليس لها يد في هذا العدوان ولا تقرؤه ، ولكن القاتل كان فلسطينيا على أية حال ، وقد انتهزت إسرائيل فرصة إحساس مصر بالغضب على الإرهاب الفلسطينى ، فاتجهت لغزو جنوب لبنان في مارس ١٩٧٨ بحجة تأديب من أسمتهم « الإرهابيين » وهم الذين نسميهم « فدائيين » •

ومن أجل هذه الأحداث المتصلة بهذين الشهرين اتجه الضغط لمواصلة الحديث عن سيناء ، أما الحديث عن الضفة وغزة فأصبح في المكان الثانى

لغبية أصحاب الشأن من جانب ، ولحدة العلاقة بين الفلسطينيين ومصر من جانب آخر •

وأصبح الجو ملبداً بالغيوم ، وكثرت الانتقادات الموجهة للسادات من المعارضة ، ومن هنا قام السادات في مايو بالاستفتاء الذي تحدثنا عنه من قبل ، وكان موضوع الاستفتاء يشمل عدة نقاط أهمها الموافقة على صحة معالجة الحكومة لقضية السلام الاجتماعى ، والحرمان من الحقوق السياسية لقادة الأحزاب الذين أفسدوا الحياة السياسية فى مصر ، ولم يكن موضوع المفاوضات ضمن موضوعات الاستفتاء ، ولكنه فى الحقيقة كان مختفياً فى الظل حتى تسكت الأصوات التى كانت تنتقد مسيرة المفاوضات •

ثالثاً : فى قلعة ليدز بإنجلترا :

وبعد أن فشل اجتماع القمة فى الإسماعيلية ، واجتمع اللجنة السياسية فى القدس اقترحت الولايات المتحدة أرضاً محايدة وكانت إنجلترا هى تلك الأرض ، وكان مكان الاجتماع هو قلعة ليدز فى مقاطعة « كنت » وكان الاجتماع فى مطلع النصف الثانى من يوليو ١٩٧٨ ، واشترك فيه وفد من الولايات المتحدة وجاء أن يحقق ما لم يتحقق فى الاجتماعين السابقين •

وقد ذكرنا من قبل أن أنور السادات طلب مقابلة وايزمان وذكر لـه أنه يلوم بيجين لأن هذا لم يحاول أن يواجه مبادرة السادات ببعض التنازلات ، وقد نقل وايزمان هذا الرأى الى بيجين وتدارسه مجلس الوزراء كما ذكرنا من قبل • ••••

وبسبب لقاءات وايزمان مع السادات فى هذه المرة وغيرها تعرض وايزمان لهجوم شديد فى مجلس الوزراء قاده أريك شارون وكان بيجين « يتفرج » على هذا الهجوم ، وحسم وايزمان الأمر حين أعلن أنه ليس من

الحكمة أن يحاول أنور السادات إيجاد الفرقة داخل صفوف حكومة إسرائيل (١) .

وفي هذا الاجتماع كان نصيب الضفة وغزة كبيرا ، وعرض في هذا المجال المشروع المصرى والمشروع الإسرائيلى ، وكان الفرق واسعا بين المشروعين ، فمصر تريد تنفيذ قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الذى يحتم عدم ضم أية أرض بالقوة ، والذى يتلزم إسرائيل بالانسحاب ، ويقدم المشروع ضمانات للأمن كاملة تشمل ست نقاط هى :

- ١ — إقامة مناطق منزوعة السلاح .
 - ٢ — إقامة محطات إنذار مبكر تدار بواسطة طرف ثالث على جانبى الحدود .
 - ٣ — وضع قوات الأمم المتحدة على طول الحدود وشرم الشيخ .
 - ٤ — اعتبار مضيق تيران ممرًا دوليًا مائيًا .
 - ٥ — إقامة مناطق تحدّد فيها نوعيات الأسلحة .
 - ٦ — إنشاء لجنة عسكرية مصرية إسرائيلية .
- وهذه النقاط تغطى الأمن الإسرائيلى عند الانسحاب من الضفة وغزة وسيناء .. (٢) .

أما المشروع الإسرائيلى فكان بعيدا جدا عن ذلك ، فهو لا يثق في قوات الأمم المتحدة ، وهو يمزج بالإرهاب ويكرر الخوف منه ، وهو يعتقد أن الأرض بالضفة وغزة أرض إسرائيلية ، ويريد تنظيم حياة الفلسطينيين بها فقط ، فهم بها يحكمون أنفسهم تحت سلطات إسرائيل .

فالحكم الذاتى في نظر إسرائيل هو عدم التدخل في حياة « الفلسطينيين العرب » والسماح لهم أن يعيشوا جنبا إلى جنب مع

(١) محمد ابراهيم كامل : المرجع السابق ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .

(٢) محمد ابراهيم كامل : المرجع السابق ص ٣٥٠ - ٣٥١ .

الصهاينة وأن يُلغى الحكم العسكرى ، ويتولى هؤلاء أمورهم بأنفسهم مع بقاء الاحتلال الإسرائيلى •

وهكذا لم تتجح اجتماعات ليدز ولم تقدم أى تطور فى المشكلة وكان الموضوع بالنسبة للقدس أكثر صعوبة •

ويقول محمد ابراهيم كامل إن فانس وزير الخارجية الأمريكى أدرك التعتن الإسرائيلى ، وهدد بأن الرئيس كارتر سيتدخل بحسم ويعلن سبب إخفاق المفاوضات ، ويعود باللائمة على إسرائيل •

ويقدر محمد ابراهيم كامل كذلك أننا رفضنا عدم الالتزام باجتماع تال لعجزنا عن إحراز أى تقدم فى هذه الاجتماعات (١) •

أهل التقارب العربى ونتيجته :

كان من نتيجة الدفاع المصرى القوى عن الضفة وغزة وإبراز حقوق الفلسطينيين والتمسك بها ، أن وجد فى الساحة العربية تقدير لهذه الجهود المصرية ، ومحاولة دعم التقارب العربى الذى كانت مبادرة السادات قد هزته ، فنشط محمود رياض أمين الجامعة العربية لانهية هذه الجهود ولتقوية الصف العربى ، ونهيات مصر الاستجابة لذلك ، فى مقابل الصلح الإسرائيلى وتعتنت بيجين ، وأوشك السادات أن يفات من القبضة الأمريكية اليهودية •

ولكن انفلات السادات من القبضة الأمريكية الإسرائيلية كان أمراً لا ترتضيه أمريكا ولا إسرائيل ، فقد كانت إسرائيل حريصة على تفتيت الصف العربى ، وعلى المحافظة على إبعاد مصر عن الدول العربية ، ثم إن تدهور الحالة فى إيران وإحساس أمريكا بعجز الشاه عن السيطرة على الأحوال كانت من الأسباب التى دعت أمريكا أن تحاول الوصول إلى اتفاق بين مصر وإسرائيل ليساعد ذلك على الاستقرار فى المنطقة ضماناً لمصالح

أمريكا في هذه المنطقة الحيوية ، وعلى هذا أعلن كارتر أنه سيبدو
الزعمين السادات وبيجين الى اجتماع ثلاثي في كامب ديفيد •

اجتماعات كامب ديفيد ونتائجها

تمت اجتماعات كامب ديفيد في سبتمبر سنة ١٩٧٨ ، وقد كررت مصر
موقفها من الالتزام بتنفيذ قرارى مجلس الأمن رقم ٢٤٢ و ٣٣٨ وناورت
إسرائيل كعادتها واستمرت المباحثات اثنتى عشر يوما ، وقد حاول
السادات أن يثبُتُ الملك حسين في هذه الاجتماعات أو يشرك الفلسطينيين
ولكن هذه المحاولات لم تنجح ، وكان شبح الفشل يبدو من حين إلى آخر ،
ويقول الأستاذ الدكتور صلاح العقاد ^(١) إن السادات كان أمامه
خياران : إما أن تقطع المباحثات أو يتساهل في موضوع الضفة
وقطاع غزة ، وكان الرئيس السادات يهتسب ألف حساب لإخفاق
المباحثات ، ويرى أن العرب والسوفييت سيثبتون فيه ، وسيثبت أن
الذين عارضوا المبادرة كانوا على حق ، ومن أجل ذلك ظهرت سلسلة من
المتنازلات في موضوع الضفة والقطاع بل في موضوع سيناء •

وقد أسفرت اجتماعات كامب ديفيد عن اتفاقيتين أعلنتا في ١٧
سبتمبر هما :

١ — كانت الاتفاقية الأولى حول « إطار السلام في الشرق الأوسط »
وهي تدعو الدول العربية للتفاوض لتحقيق السلام مع إسرائيل على
أساس قرارى مجلس الأمن رقمى ٣٤٢ — ٣٣٨ وعلى أساس المبادئ
التالية :

عن الضفة وغزة : وضع ترتيبات لفترة انتقالية يتحقق فيها الحكم
الذاتى لهاتين المنطقتين وعند انتخاب سلطة الحكم الذاتى تتوقف

(١) السادات وكامب ديفيد ص ١٨٠ •

الحكومة العسكرية والإدارة المدنية الإسرائيلية عن ممارسة مهامها ، ثم
تسحب القوات الإسرائيلية فيما عدا ما يتقرر بقاءه منها في نقاط
محددة لأغراض الأمن .

ويكون ذلك في حدود الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني وحاجاته
المعادلة .

٢ — أما الاتفاقية الثانية فكانت حول « إطار العقد معاهدة سلام
بين مصر وإسرائيل » وذلك خلال ثلاثة شهور أى حتى ١٧ ديسمبر ١٩٧٨
ويشمل هذا الإطار الانسحاب الكامل للقوات الإسرائيلية من سيناء
إلى منطقة الحدود الدولية ، ويكون ذلك خلال ثلاث سنوات واستخدام
مصر للمطارات التى أنشأتها إسرائيل بسيناء لأغراض مدنية فقط ، وحق
السفن الإسرائيلية فى الملاحة فى خليج وقناة السويس على أساس
اتفاقية القسطنطينية ، واعتبار مضيق تيران وخليج العقبة مياها دولية
مفتوحة للجميع .

وتسحب إسرائيل خلال تسعة أشهر إلى خط العريش — رأس محمد
وعقب ذلك تنشأ علاقات طبيعية بين مصر وإسرائيل بما فيها الاعتراف
الكامل ، وإنشاء العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية ، وإنهاء
المقاطعة الاقتصادية وعوائق حرية الحركة للأفراد والسلع ، ثم يتم
الانسحاب عقب ذلك من كل سيناء على مراحل خلال المدة الباقية من
السنوات الثلاث ، وستشرح هذه المراحل عند حديثنا عن المعاهدة التى
نظمت ذلك ضمن أحداث سنة ١٩٧٩ .

ثم توضع ترتيبات الأمن التى تتضمن إنشاء مناطق منزوعة السلاح ،
ومناطق مقيدة التسليح ومحطات للإنذار المبكر ، وانتشار قوة دولية
لحراسة الحدود (١) .

(١) محمد حافظ اسماعيل : أمن مصر القومى فى عصر التحديات ص

نقد الاتفاقية الأولى :

أولا : كان الحكم الذاتي في نظر إسرائيل كما وضعه بيجين ينطبق على السكان لا على الأرض ، فالأرض في تقديره إسرائيلية ، يعيش فيها اليهود والعرب ، وللعرب أن يحكموا أنفسهم في نطاق السلطة الإسرائيلية العامة كما ذكرنا من قبل .

أما المفهوم العربى فكان بعيدا كل البعد عن ذلك ، فهو يرى أن الأرض عربية تماما ، وعلى المحتل الإسرائيلي أن يخرج منها ليكون فيها الفلسطينيون دولتهم المستقلة ، وشتان بين المفهومين ، ومع خروج إسرائيل من الضفة وغزة تنتهى المستعمرات الإسرائيلية بالمناطق العربية كما حدث في سيناء ، أو تبقى تحت حكم الفلسطينيين .

ثانيا : قضية الأمن التى وردت في هذا الاتفاق فسرها الجانب الإسرائيلي على أنها أمن إسرائيل وحدها ، واتخذت إسرائيل كل الاحتياطات طبقا لهذا الفهم .

ثالثا — أدخلت الاتفاقية الأردن في الالتزامات مع أن المملكة الأردنية لم تكن ممثلة في المفاوضات ، فقد نصت على أنه عقب نهاية الفترة الانتقالية (مدتها ثلاث سنوات) يجرى الاتفاق مع الأردن على تحديد الوضع النهائى ، ويجوز أن يشترك الفلسطينيون في هذه المباحثات ، والفلسطينيون لم يكونوا أيضا طرفا في المباحثات .

رابعا : تلتزم الاتفاقية سلطات الحكم الذاتى والحكومة الأردنية أن تقبم علاقات مع إسرائيل على نمط العلاقات التى وردت في الاتفاق بين مصر وإسرائيل .

خامسا : أصر بيجين على إضافة عبارة (مجلس إدارى) بين قوسين (م ٢٨ — التاريخ الاسلامى)

أمام عبارة (سلطة الحكم الذاتى) وبهذا أصبح هذا الحكم خاصا بالأمور الادارية وليس له اختصاص تشريعى أو سياسى •

سادسا : لم تشمل الاتفاقية موضوع تجميد المستوطنات الإسرائيلية وهذا يفتح الباب لمزيد من الزحف الإسرائيلى فى الأرض العربية •

سابعا : سقطت الإشارة إلى القدس نهائيا واكتفى بخطابات متبادلة بين الأطراف ، وليس لهذه الخطابات أية قوة قانونية وليست ملزمة لإسرائيل ، وبخاصة أن إسرائيل كانت قد قررت فى يوليو ١٩٦٧ أن مدينة القدس موحدة وأنها عاصمة إسرائيل •

هذا ما نراه من أهم بنود النقد فيما يتعلق بالاتفاقية الأولى ، أما نقد الاتفاقية الثانية فيجدر بنا أن نؤجله لنورده عقب إيراد أهم نصوص المعاهدة التى وضعت الاتفاقية الثانية دعائمها ضمن حديثنا عن : أحداث سنة ١٩٧٩ فيما بعد •

وقبل أن نترك هذا الموضوع لا تزال أمامنا لقطات ينبغى أن نسجلها هنا ، فهى ترينا بعض الأحداث التى أثرت على مجريات الأمور ، كما نثرينا اتجاهات الأطراف المتعددة تجاه هذا النزاع :

أقطات ترتبط بمصر :

١ — تحملت مصر عبئا واسعا وثقيلًا تجاه القضية الفلسطينية منذ ظهورها ، وضحت من أجل ذلك بفيض من المال والدماء ، مما كان من أسباب الإرهاق الاقتصادى الذى تشهده مصر ، وفى نفس الوقت كانت هناك دول عربية تقدم للقضية كلاما وخطبا فقط ، وقد أراد زعماء الكلام أن يتحكموا فى قضية مصر ، وأن يستعملوا الخطب فى هذا المجال كما استعملوها فى القضية الفلسطينية ، ولم يكن من الممكن أن تترك مصر دول الخطب تتحكم فى مصيرها •

وقد عبر أنور السادات عن مشكلات مصر بقوله : إنه لا يستطيع أن يربط مصير مصر بما تثيره بعض الدول العربية وما تتحمله هذه الإثارة من شكوك وتردد وعجز عن اتخاذ القرارات ، وإن مصر قد تحملت العبء الأكبر من التضحيات ولا تسمح حالتها بالاستمرار في هذه الأوضاع إلى أجل غير مسمى (١) .

٢ — الرفض العربي الدائم أضعف موقف السادات ، ولم يكن هناك من سبيل إلى إجماع الجانب العربي على موقف واحد تجاه المفاوضات مما جعل السادات يتخذ الخطوات بنفسه لحل المشكلة المصرية فالشعب المصري هو القابض على النار .

٣ — كان السادات يعاني خلال المفاوضات معاناة شديدة بين النقد العربي المرير من جانب ، والتصلب الإسرائيلي الخشن من جانب آخر .

٤ — حرصت إسرائيل بوسائل متعددة على إبعاد مصر عن العرب ، فلما تم لها ذلك ، وأحسست بالجفوة العربية للسادات أسرفت في التحكم فيه .

٥ — كانت حالة مصر وقت المفاوضات تدفع لقبول السلام بشكل أو بآخر ، وقد عبر السادات عن ذلك بقوله لموزير خارجيته آنذاك محمد ابراهيم كامل : إنك لا تعرف شيئاً عن أحوال مصر الداخلية ، ولقد ترك لى عبد الناصر تركة مقلقة بالهجوم ، والمشاكل ، وإن أوضاعنا الاقتصادية والاجتماعية في غاية السوء ، وكل مرافق البلاد منهارة ، ولن تستطيع مصر أن تخرج من أحوالها إلا إذا حصلت على السلام وكرّست كل مواردها للتنمية (٢) .

(١) محمد ابراهيم كامل : السلام الضائع في كامب ديفيد

ص ٧٨ - ٧٩ .

(٢) محمد ابراهيم كامل : المرجع السابق ص ٥٩٦ .

ويلاحظ أن الدول العربية عرضت في هذا الوقت على مصر مبلغا سخيا لمعالجة مشكلاتها الاقتصادية بشرط عدم السير في طريق عقد معاهدة مع إسرائيل ، ونحن نتساءل : أين كان هذا السخاء من قبل ؟

٦ — مما يؤخذ على السادات أنه كان في المفاوضات يعمل وحده ، ويرى من حوله أشبه بالرموز الروتينية ، بل كان يصرّح أحيانا لهم بأنهم لا يفهمون في السياسة ، كما حدث في موقفه من الدكتور نبيل العربي عندما اعترض هذا على الخطابات المتبادلة بشأن القدس ، وقال : إنها ليست لها أية أهمية قانونية ، ومما يؤخذ عليه كذلك أنه في مثل هذا العمل الكبير كان يخشى شماتة الاتحاد السوفيتي وحافظ الأسد والقذافي ، وهو من أجل ذلك يريد نتيجة لمبادرته حتى لو كانت نتيجة تنقصها بعض عناصر النجاح ، ولا شك أن التحرك بدافع هذا الإحساس خطأ سياسيا كبيرا .

لقطات ترتبط بإسرائيل :

١ — كان لإسرائيل مطالب في المفاوضات هي صورة من صور الابتزاز التي سجلها التاريخ لليهود من مطلع ظهورهم على الساحة البشرية ، كان اليهود أسوأ من موقف « كوهين » في المسرحية العالمية الشهيرة (تاجر البندقية) وكانوا « فكما » واسعا يتطلع لابتلاع كل شيء ، ليس فقط لازدراء كل الطعام الذي على المائدة ، بل لازدراء أدوات المائدة أيضا ، ففي المشروع الذي قدمه بيجين للسلام بدت « وقاحته » كما يصفه وزير الخارجية المصري فهو (بيجين) يقول : « عندما توقع اتفاقية السلام يستطيع الجيش المصري البقاء في خط لا يتجاوز ممرى متلا والجدى ، أما باقى سيناء (وهو أكثر من ثلاثة أرباعها) فتكون مزوغة السلاح ، وتحتفظ إسرائيل بمطاراتها العسكرية فيها ، وبمحطات الإنذار المبكر ، وأما المستوطنات بين رفح والعريش ، وبين إيلات وشرم الشيخ فتبقى كما هي ، وستكون مستوطنات مدنية ، ولكن هناك مبدءا

يهوديا مقدسا بالأ يترك المدنيون بدون حماية عسكرية ، لذلك سنحتفظ بقوات قليلة لحماية هؤلاء المستوطنين المدنيين (١) .

٢ — هذا فيما يتعلق بسيناء ، أما فيما يتعلق بالضفة الغربية وقطاع غزة فقد أعلن اليهود أن القدس موحدة ، وتابعة لإسرائيل وهي عاصمتها ، كما كانوا يتحدثون عن الضفة بأسماء يهودية ، فيقولون « يهودا والسامرة » ويرون أن الأرض أرضهم وأنهم لم يدخلوا أرضا جديدة ، وإنما هي أرضهم استعادوها ، وكان حديثهم فقط عن الشعب العربي الذي يعيش في هذه الأرض ، وكيف يعملون ليسمحوا له بالحكم الذاتي ، وقد ذكرنا ذلك من قبل .

٣ — كان بيجين يتحدث بصلف ووقاحة كما يقول الأستاذ أحمد بهاء الدين (٢) ، وقد وصل من وقاحته أن أعلن استعداد إسرائيل لإعادة سيناء إلى مصر بشرط واحد هو أن تخرج مصر من العروبة ، وعندما أحس أن هذا الشرط مرفوض من أساسه ، وأنه لا توجد قوة تستطيع أن تحققه ظهر بأنه لا يريد السلام أصلا ، ولا يريد إعادة شبر من سيناء ولا يهمة إذا وقع أي صدام مع السادات ينهي المفاوضات .

وقد بلغ اليأس بالسادات قمته في كثير من الحالات نتيجة توقف بيجين عن الاستمرار في مسيرة السلام ، وتصف السيدة جيهان السادات ذلك بقولها : اتصلت به (الرئيس السادات) أسأله كيف تسيير المحادثات ؟ فأجاب : بيجين صعب جدا ، ومعقد جدا ، ولكن السيدة جيهان شجعت زوجها ، وأوصته بالصبر ، فأجاب : أنني أحاول وأحاول وأحاول ، ولكن الأمر غير مشجع .

وهناك مطالب أخرى لإسرائيل سنراها عندما نعرض اتفاقية السلام ونحلل بنودها .

(١) محمد ابراهيم كامل : السلام الضائع في كامب ديفيد ص ٤٥ .

(٢) محاوراتي مع السادات : ص ١٧٣ .

لقطات ترتبط بأمريكا :

١ — كان السادات يتوق إلى أن يصبح حليف أمريكا ، وكان يعلن دائما أن الحل في يد أمريكا ، وأن أمريكا هي القوة الأولى في العالم ، وكان أحيانا يبدى استعداده بأن يكون رجل أمريكا ومساندا للنظم التي في فلكها كنظام هوبوتو في زائير .

وظن السادات أن هذا يساعد على حل القضية ولكنه نسى مكانة إسرائيل بالنسبة لأمريكا ، فإسرائيل ليست حليفة أمريكا فحسب ، ولكنها قلب أمريكا الخفاق .

وكانت أمريكا تتعاطف مع مصر مجرد تعاطف ، وعندما تحس أمريكا بتعسف إسرائيل لا تملك أمريكا إلا أن تتوسل لإسرائيل لتيسير الأمر .

٢ — وقد وصل الأمر بأمريكا أن تعهدت لإسرائيل ألا تقدم أى مشروع لتسوية القضية إلا بعد عرضه على إسرائيل وأخذ موافقتها عليه ، وعلى هذا كانت الاقتراحات الأمريكية شديدة التأثير باتجاهات إسرائيل ، بل كانت صورة من هذه الاتجاهات في كثير من الأحوال (١) .

٣ — وسنرى فيما بعد أن معاهدة السلام وقعت في ٢٦ مارس سنة ١٩٧٩ وبعد يومين اثنين أى في يوم ٢٨ مارس وقعت أمريكا مع إسرائيل اتفاقا يرتبط بهذه المعاهدة خلاصته التزامات أمريكا تجاه إسرائيل ، فإذا كانت أمريكا ضغطت على إسرائيل لتترك المطارات التي أعدها في سيناء ، فإن أمريكا تعهدت ببناء مطارات بديلة لإسرائيل ، وإذا كانت إسرائيل حُرمت بترول سيناء ، فإن أمريكا تتعهد بتوفير احتياجات إسرائيل من البترول لمدة ١٥ سنة ، وهناك التزامات أخرى كثيرة في هذا الاتفاق ، والذي

(١) محمد ابراهيم كامل : المرجع السابق ص ٥٦١ .

أريد أن أقوله هنا أن المفاوضات حول هذا الاتفاق كانت تجرى خلال المفاوضات المرتبطة بالمعاهدة المصرية الإسرائيلية ، وما إن وقعت المعاهدة حتى تم هذا الاتفاق الذى كانت مفاجأة غير سارة لمصر ، وسنورد خلاصة وافية لهذا الاتفاق عقب حديثنا عن المعاهدة ضمن أحداث سنة ١٩٧٩ إن شاء الله •

لقطات ترتبط بالعرب :

هناك كثيرون من العرب يستطيعون النقد والكلام ولا يستطيعون العمل ، وذلك شئ يؤخذ عليهم ، فهم يحاربون بالخطب الرنانة ويرفضون كل شئ ، ويقترحون المستحيلات فإذا لم يتحقق اتخذوا الهجوم وسيلة لهم ، على من يحقق الممكنات •

وما إن تم اتفاق كامب ديفيد حتى علا صراخ العرب وارتفع تهديدهم ، وفى تقديرى ليس هذا أسلوبا حضاريا ، وأنا هنا لا أدافع عن أنور السادات ، وقد انتقدت كثيرا من أعماله كما يرى القارىء ، بل انتقدت قرارات كامب ديفيد ، ولكن السؤال هو : هل كان يمكن أن ننال أكثر من هذا ؟ وما الوسائل ؟

الإجابة واضحة فإن هذه المفاوضات أعادت سيناء إلى مصر ولو بتسليم محدود ، أما الجولان التى كان يمكن أن تعود إلى سوريا الوطن الأم فى نفس الوقت ، فقد أعلنت إسرائيل ضمها لها سنة ١٩٨١ ، ولا يعلم إلا الله مستقبلها ، أما الضفة وقطاع غزة فلا تزالان تعانيان من الاحتلال اليهودى المريع ، وتتجه التحركات بالنسبة لهما إلى المطالبة بعقد مؤتمر دولى وهو طريق طويل وشاق ، وإسرائيل للأسف لا تحترم قرارات مجلس الأمن ولا هيئة الأمم المتحدة ، ومن خلفها أمريكا تدعمها وتدافع عنها •

ويصف اللواء محمد حافظ إسماعيل حالة العرب المحزنة فى هذه

المفترقة من التاريخ بأنها كانت حالة تدعو للقلق والخبيل ، فحرب أهلية في لبنان طال مداها ، وبوادر أزمة بين العراق وإيران انقلبت إلى حرب ضروس ثمانى سنوات ، وحركات إرهاب تضر ولا تنفع ، وقيادات فلسطينية متنوعة ومختلفة ، وصراعات بين مجموعة وأخرى من البلاد العربية ، واضطراب اقتصادى نشأ عن انهيار أسعار البترول كل هذا سبب ما أسماه « الغياب العربى » الذى ترك المساحة لإسرائيل تعربد ليس فقط فى الضفة وغزة ، بل امتدت عربيتها إلى لبنان ، وضربت المفاعل الذرى فى العراق ، ومركز منظمة التحرير فى تونس (١) .

والعجيب أن بعض القوى المتهافئة التى لاتزال تسير فى فلك ما يسمى (الناصرية) تعارض اتفاقيتى كامب ديفيد ، وكان على هؤلاء أن يخجلوا وأن يتواروا عن الأنظار ، فما جلب الاحتلال لهذه الأرض التى نصارع بالدم والمال والعرق لتحريرها إلا زعيم الناصرية حسابه على الله .

وبعد أيام من إعلان اتفاقيات كامب ديفيد أى فى ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٧٨ ظهرت جبهة سمت نفسها « جبهة الصمود والتحدى » واجتمعت بدمشق ولم يكن لها برنامج بناء على الإطلاق ، ولا خطة لتحقيق هدف عربى نبيل ، إنما برعت فى الشائيم والتهديدات ، فزادت الفارقة بين العرب حدة واتساعا ، وكانت هذه الجبهة تتكون من ليبيا وسوريا والجزائر واليمن الجنوبية ومنظمة التحرير الفلسطينية ، وقررت هذه الجبهة رفض اتفاقيتى كامب ديفيد وقطع العلاقات السياسية والاقتصادية مع « النظام المصرى » والدعوة إلى عقد مؤتمر قمة عربى .

مؤتمر بغداد :

استجابة لما طلبته جبهة الصمود والتحدى عقد مؤتمر قمة عربى

(١) أمن مصر القومى فى عصر التحديات ص ٤٧٠ بتصرف .

في بغداد في أول نوفمبر سنة ١٩٧٨ ، لينظر في هاتين الاتفاقيتين ، وقرر المجتمعون أن اتفاقيتي كامب ديفيد تتعارضان وقرارات القمة العربية ولا تؤديان للسلام العادل ، وأرسلوا وفدا إلى القاهرة لمناشدة الرئيس السادات العدول عن هاتين الاتفاقيتين ، ولكن السادات رفض استقبال الوفد ، وعلى هذا قرر المؤتمر أن القاهرة إذا وقعت معاهدة سلام مع إسرائيل فإن عضويتها في جامعة الدول العربية تعلق ، وبالتالي فإن مقر الجامعة العربية سينقل من القاهرة إلى تونس •

وقرر المؤتمر كذلك تقديم مساعدة مالية قاربت ثمانية مليارات من الدولارات سنويا لدول المواجهة ومنها مصر إذا لم تسر إلى نهاية الشوط ، ولم توقع المعاهدة مع إسرائيل ، ويتساءل المطلعون أين كان هذا السخاء عند الأزمات التي مرت بمصر في عهد احتلال إسرائيل لسيناء ونهبها للبترول المصري ؟ لقد جاء السخاء بعد فوات الاوان •

وربما جاز لنا أن نقفز لنذكر أن مصر وقعت فعلا معاهدة سلام مع إسرائيل في ٢٦ مارس سنة ١٩٧٩ كما سنذكر في أحداث سنة ١٩٧٩ وفي اليوم التالي (٢٧ مارس) اجتمع وزراء الخارجية والاقتصاد العرب في بغداد لتنفيذ قرارات مؤتمر القمة ، فقرر الوزراء ما يلي :

١ — قطع العلاقات الدبلوماسية والسياسية مع مصر وبالتالي سحب السفراء العرب من القاهرة •

٢ — تعليق عضوية مصر في جامعة الدول العربية ، ونقل مقرها بصفة مؤقتة إلى تونس •

٣ — وقف القروض والمساعدات الاقتصادية إلى مصر •

ويحدث هذا لمصر مع أن الدول العربية لم تقطع علاقاتها بحكومة الكتائب في لبنان مع ان هذه الحكومة لم تقنع بعلاقات مع إسرائيل بل دعتها لغزو لبنان وضرب المقاومة الفلسطينية به ، وتدخلت مصر بكل

ثقلها لحماية ياسر عرفات من عدوان كان محققا ، ومع هذا ظلت العلاقات العربية مع لبنان تسير في طريقها ، وظل العون الاقتصادي العربى يتدفق على لبنان ، يا الله !

وانتهى عام ١٩٧٨ بهذه الآلام وبمبادئ القطيعة التى تمت سنة ١٩٧٩ ، وهى قطيعة لا تسمح بها ظروف العرب ، فلا مصر تستغنى عن العرب ، ولا العرب يستغنون عن مصر ، وإذا كان أغنياء العرب قد فرحوا لتوقف مساعداتهم لمصر ، فقد كان واجبا عليهم أن يتذكروا مساعدات مصر للعرب طيلة عهود طويلة ، وأقرر أن الشعب العربى واصل صلاته مع مصر ، فوفود السياح لم تنقطع ، وفود الطلاب الذين يسعون لطلب العلم ، والمرضى الذين يسعون للاستشفاء ظلوا يتدفقون ، وفرق العمل المصرية من أساتذة وأطباء ومهندسين وعمال لم تتوقف ولم تقل ، بل ربما زادت والمؤتمرات العلمية والإسلامية لم تخل من أعداد كبيرة من المصريين أيا كانت العاصمة التى تقيم بها هذه المؤتمرات ، وفى كلمة قصيرة وصريحة لم تؤثر قرارات المقاطعة على العلاقات بين الشعب المصرى والشعوب العربية ، وكان الحب هنا وهناك أقوى من الغضب ومن القرارات •

وهناك دولتان رفضتا القطيعة من أول الأمر ، هما السودان وعثمان أما المملكة الاردنية الهاشمية فقد نفذت القطيعة فترة ، ولكنها سرعان ما تخلت عنها ، وعادت للإخاء والتعاون مع مصر ، والمصريون يتذكرون موقف هذه الدول الثلاث بالكثير من التقدير والاعتزاز •

ومر الزمن ، ووجدت أكثر الدول أن القطيعة عمل لا يليق ولا يمكن تنفيذه ، فتراجعت هذه الدول وأعادت علاقاتها الدبلوماسية والاقتصادية بمصر ، وكيف يمكن خلق قطيعة بين مصر ودول الخليج مثلا مع أن روابط ود عميقة تربط بين شعوب هذه الدول من جانب وبين

الشعب المصرى من جانب آخر ، وعلى الحكام أن يكونوا صدى لاتجاهات الشعب .

وفي يناير سنة ١٩٨٩ أعلن قيام تجمع اقتصادى بين مصر والأردن والعراق واليمن الشمالية ، ويعتبر هذا ردا صريحا على محاولات التفريق السياسى والاقتصادى بين الدول العربية بعضها والبعض ، وبمناسبة هذا التجمع الاقتصادى سئل الدكتور أسامة الباز الوكيل الأول لوزارة الخارجية المصرية عما إذا كانت معاهدة السلام مع إسرائيل تتعارض مع مثل هذا التجمع ، فأجاب : إنه لا يوجد هناك مانع يمنع التجمع الاقتصادى والسياسى مع العرب ، وأضاف أن مصر أكدت مرارا التزامها بميثاق الدفاع المشترك ^(١) ، فإذا أضيف إلى ذلك التعاون العسكرى العظيم لرد غائلة ايران عن العراق وعن دول الخليج أدركنا أن التفريق بين الإخوة شئ صعب المنال ، وأن الحكمة تقتضى التريث عند حدوث خلاف فى رأى .

ولم يبق على القطيعة حتى كتابة هذه السطور فى أوائل سنة ١٩٨٩ إلا ليبيا وسوريا ، وهو شئ يدعو للأسف ، فعلاقة مصر بهاتين الدولتين كانت وطيدة جدا ، بل كانت علاقة وحدة خلال مئات من السنين . وقد شهدت الشهور الأخيرة من سنة ١٩٨٩ عودة الود والوثام بين مصر وهاتين الدولتين .

وكلمة ختامية عن إحساس منصف محايد تجاه اتفاقيتى كامب ديفيد ، وهى كلمة نقتبسها من سفير مصر فى باريس الذى يصوّر لنا رأى الفرنسيين فى كامب ديفيد بقوله : لم يكن الفرنسيون يرون أن ما تحقق فى كامب ديفيد شئ أو خطوة للخلف ، بل كانوا يرون ذلك خطوة متقدمة ^(٢) .

لقد كان العرب يريدون الإنصاف فى عالم حافل بالظلم ، يريدون

(١) حديث نشر فى الوفد بتاريخ ١٤/٢/١٩٨٩ .

(٢) محمد حافظ اسماعيل : المرجع السابق ص ٤٥٥ .

العدل في عالم تحكمه القوة ، وقد توقف السادات كثيرا خلال المفاوضات ، بل حزم امتنعه وأراد العودة بدون وصول إلى الغاية ، فهو كان يريد المزيد ، كما أريد أنا وأنت ، ولكن المجتمع العالمي والمجتمع العربي لا يستطيعان أن يحققا كل الأمانى ، وما كل ما يتمنى المرء يدركه كما قال الشاعر العربي ، وليت الذين رفضوا اتفاقية كامب ديفيد استطاعوا تحقيق غاية أسمى منهما ، فإذا عجزنا عن تحقيق كل آمالنا فلنقنع مؤقتا بالمكن ، ولنتطلع إلى المستقبل لعله يكون أحسن من الماضى ومن الحاضر ، وذلك أمل قريب النوال إن شاء الله •

وفي العام التالى لتوقيع المعاهدة أى في سنة ١٩٨٠ اندلعت الحرب بين العراق وإيران وتناست مصر كل شيء ، وقدمت كل ما تستطيع من معدات وذخائر حربية وخبرات العراق ، وكان ذلك مطلباً جماهيرياً ، فحماية العراق حماية الجزيرة العربية ولدول الخليج وللأماكن المقدسة ، وذلك شيء يحرص عليه كل فرد في مصر مهما كان ما هسّ المصريين من قرارات مؤتمر قمة بغداد •

وفاة كامب ديفيد :

في حديث شامل أدلى به الأستاذ فؤاد سراج الدين زعيم حزب الوفد إلى صحيفة الأنباء الكويتية ونشرته صحيفة الوفد القاهرية في ١٩٨٩/٢/٢ سئل فؤاد سراج الدين عن اتفاقية كامب ديفيد فأجاب :

كامب ديفيد ماتت ، وكلام الإسرائيليين عنها لا يساوى ثمن المداد الذى كتبت به ، فإسرائيل خرقتها مرات ومرات •

وكلمة ماتت كلمة حقيقية ، فاتفاقية « إطار السلام في الشرق الأوسط » بنيت على أساس قرارى مجلس الأمن ٢٤٢ ، ٣٣٨ وإسرائيل صرحت عدة مرات بأنها لا تحترم هذين القرارين ، وليس في نيتهما

إعادة الأرض لأصحابها ، بل نتحدث عن الأرض حديث مالك لا حديث
محتل غاصب •

وإسرائيل ترفض الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني •

وإسرائيل تعامل العرب في الضفة وغزة معاملة بعيدة كل البعد
عن الجانب الإنساني ، فالضرب والتعذيب والقتل والطردهم هي الأسلوب
الذي تتبعه إسرائيل مع عرب هاتين المنطقتين •

والمستعمرات التي تقام والاستيلاء على أرض العرب بالقوة ، وهدم
بيوتهم ، وتعطيل مدارسهم كلها تتنافى مع إطار السلام في الشرق
الأوسط •

وجيش صاحب بمعداته وأسلحته يواجه أطفال الحجارة ، يا له
من ظلم فادح سيحاسب عليه اليهود يوماً من الأيام •

ويصف الأستاذ اسماعيل فهمي ^(١) تفويض إسرائيل لاتفاقات
كامب ديفيد بقوله :

إن الضفة الغربية وغزة هي بلا شك أرض احتلتها إسرائيل خلال
حرب ١٩٦٧ ، وقد تعهد بيجين في اتفاقات كامب ديفيد باحترام قراري
٢٤٢ ، ٣٣٨ وميثاق الأمم المتحدة ، ومعنى هذا إعادة هذه الأرض إلى
أصحابها الذين كانوا يعيشون فيها قبل احتلالها سنة ١٩٦٧ •

ولكن بيجين نقض هذا الاتفاق وأعلن فيما بعد أن يهودا والسامرة
جزء لا يتجزأ من أرض إسرائيل ، وكان ما قاله في هذا المجال : هو إن
أمتنا قد ولدت في يهوديا وسماريا وليست في حيفا ولا تل أبيب ، وفي

(١) التفاوض من أجل السلام في الشرق الأوسط ص ٤٥٤ وما بعدها •

يهوديا وساماريا ظهر أنبيائنا بنبواتهم ، وظهرت الثقافة اليهودية القديمة ، والتي منها تربينا حتى يومنا هذا •

ومن الواضح أن هذه الاتجاهات مناقضة تماما لاتفاقيات كامب ديفيد •

ومن أجل هذا الاتجاه لم نتوصل مباحثات الحكم الذاتي بين مصر وإسرائيل إلى أى نتائج لأنها واجهت طريقا مسدودا منذ البداية عند التعرض لموضوع السيادة على هذه الأرض ، وقد كان موضوع السيادة على الأرض واضحا تمام الموضوع في اتفاقيات كامب ديفيد •

ومن وسائل تدمير هذه الاتفاقيات كذلك أن إسرائيل قررت أن القدس الشرقية هي جزء من أراضيها إلى الأبد وقد صدر بذلك قرار الكنيست الإسرائيلي في ٣٠ يوليو سنة ١٩٨٠ •

وقررت إسرائيل كذلك أن المستوطنات في الضفة وغزة لا يمكن إزالتها •

وصرح بيجين أكثر من مرة بأن محاولة إنشاء دولة فلسطينية مستقلة شيء لا يمكن تصوره •

وكل هذا وسواه قضى بوفاة اتفاقات كامب ديفيد ، وعلى هذا فإن اتفاقات كامب ديفيد ماتت إلى غير رجعة ، وقد قال الدكتور أسامة الباز الوكيل الأول لوزارة الخارجية المصرية في تصريح نشرته له صحيفة الوفد الصادرة في ١٠/٢/١٩٨٩ إن اتفاقيات كامب ديفيد الموقعة مع إسرائيل عام ١٩٧٨ تعتبر مرحلة تم تجاوزها ، وقال إن عهد كامب ديفيد كان فترة انتهت ويجب ألا نعيد ذكر هذه الاتفاقيات بعد ذلك •

وليس موقف إسرائيل مع مصر بأحسن من موقفها مع الضفة أو غزة ، فما سمى تطبيع العلاقات لا يمكن أن يتم مع العداء الكامن في النفوس ، ومع آلاف الأرواح البريئة التي فاضت بسبب إسرائيل ،

والقيود التي فرضتها إسرائيل وأمريكا على مصر تؤلم المصريين وتقلقهم ، و « طابا » استنفدت كل الجهود من مفاوضات وتحكيم ، وبعد سبع سنوات من الجلاء عن سيناء ترفض إسرائيل إخلاء هذه المنطقة المصرية حتى كتابة هذه السطور (فبراير ١٩٨٩) • وقد عادت طابا لمصر بعد ذلك كما سنرى فيما بعد •

ياسر عرفات وكامب ديفيد :

وقد اعترف ياسر عرفات بإسرائيل يوم أعلن قيام دولة فلسطين في ١٥/١١/١٩٨٨ في ظل القرارين السابقين ، كما أعلن أن وثيقة استقلال فلسطين تؤكد على أن دولة فلسطين تؤمن بتسوية المشاكل الدولية بالطرق السلمية ، والالتزام بقرارات الأمم المتحدة وعدم اللجوء للقوة إلا فيما يتعلق بالدفاع عن التراب الوطنى •

إن تصريحات ياسر عرفات يوم اعلان قيام الدولة الفلسطينية أعطت إسرائيل أكثر مما أعطته لها كامب ديفيد ، وبارك العرب ذلك ولم يغضبوا ، ولعل ذلك يخفف من الحملة على كامب ديفيد وإن كانت هذه قد انتهت إلى الأبد ، ونطمح في نتائج جديدة تحققها المسيرة الجديدة التى تسعى لها منظمة التحرير الفلسطينية •

جائزة نوبل :

في ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٧٨ منحت جائزة نوبل للسلام مناصفة بين السادات وبيجين ، ونظر الشعب المصرى لهذه المشاركة نظرة اشمئزاز فلم يكن الربط بين الرئيس السادات ومناحم بيجين مرضيا لأحد ، وإذا كانت الظروف قد أرغمت السادات على توقيع اتفاقيتى كامب ديفيد ، وإذا كان هناك من يوافق على هاتين الاتفاقيتين للضرورة ، فإن الإجماع منعقد على أن الود لا يمكن أن ينبثق بين زعيم مصرى وزعيم صهيونى ، وتاريخ مناحم بيجين بالذات كتاريخ بن جوريون وإسحاق شامير هو تاريخ سفك دماء ومحبة لإراقة الدماء •

وقد تناسى اليهود توقيعاتهم على الاتفاقيتين ، وراحوا بعد ثلاثة شهور من التوقيع يزحفون من جديد لبناء مستعمرات جديدة في الأرض العربية •

ومن أجل هذا رفض السادات التوجه إلى أوصلو مع مناحم بيجين لتسلم الجائزة في ديسمبر من نفس العام وأصاب المهندس سيد مرعى في السفر لذلك بديلا عنه (١) •

(١) جيهان السادات : امرأة من مصر ص ٤٨٣ و ٤٨٦ •

أحداث سنة ١٩٧٩

في الطريق لمعاهدة السلام :

عند حديثنا عن الاتفاقية الثانية من اتفاقيتي كامب ديفيد ذكرنا أنه بناء على هذه الاتفاقية تقوم مصر وإسرائيل خلال ثلاثة شهور أى حتى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٧٨ بتوقيع معاهدة للسلام على أساس الانسحاب الإسرائيلي من سيناء * * * * *

ومرت الشهور الثلاثة دون التوصل إلى إعداد هذه المعاهدة ، فقد ظلت نقاط عديدة موضع خلاف بين الطرفين ، وكان من أهم هذه النقاط الربط بين معاهدة السلام واتفاقية الحكم الذاتي ، وحل شهر يناير ١٩٧٩ دون التوصل إلى اتفاق ، وفي نفس الوقت كانت مشكلات إيران قد تصاعدت وأرغم الشاه على مغادرة البلاد ، ومن هنا التزمت أمريكا بمزيد من الجهود للوصول إلى اتفاق بين الطرفين ، وبناء على هذا تدخل الرئيس كارتر بأقصى ما يستطيع من القوة في شهر مارس لتسوية الموقف بين الطرفين ، واستطاع أن يصل إلى نتيجة مقبولة حوالى منتصف شهر مارس ، واتفق على عقد مؤتمر قمة ثلاثى في واشنطن في أواخر مارس لتوقيع المعاهدة *

وفي ٢٦ مارس سنة ١٩٧٩ وقع كارتر والسادات وبيجين معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية في واشنطن *

المعاهدة بين مصر وإسرائيل :

ولا شك أن توقيع هذه المعاهدة يعتبر أهم حادث وقع سنة ١٩٧٩ ، وقد أصدرت الهيئة العامة للاستعلامات بالقاهرة كتابا حافلا بكل ما يرتبط بهذا الحدث العظيم ، ويبدأ بالكلمة التى ألقاها الرئيس لدى وصوله إلى واشنطن ثم تجيء نصوص المعاهدة ، فالبروتوكول الخاص بالانسحاب الإسرائيلي ، فنظام الطيران العسكرى ، والنظام البحرى العسكرى ، ونظام الإنذار المبكر ، ثم يجيء ملحقان أولهما عن تنظيم الانسحاب من

سيناء ، والثانى بروتوكول بشأن علاقات الطرفين ، وبعد ذلك تجيء كلمات للرئيس السادات وللرئيس كارتر ولناحم بيجين ويختتم الكتاب بالمؤتمر الصحفى الذى عقده الرئيس السادات مع الكتاب والمعلقين الأمريكين •

وخلاصة معاهدة السلام نسجلها فيما يلى :

أولا : إنهاء حالة الحرب ، وإقامة السلام بين الطرفين ، وانسحاب القوات الإسرائيلية والمدنيين الإسرائيليين إلى ما وراء الحدود الدولية •

ثانيا : يحترم الطرفان سيادة كل منهما على أرضه ، وحقه فى العيش فى سلام داخل حدود آمنة ومعترف بها ، كما يمتنعان عن التهديد أو استخدام القوة ويسويان خلافاتهما بالوسائل السلمية •

ثالثا : يلتزم كل من الطرفين بالألا تصبح أرضه منطلقا لأعمال عدائية ضد الطرف الآخر •

رابعا : يكون انسحاب الإسرائيليين مدنيين وعسكريين من سيناء خلال ثلاث سنوات من تبادل وسائل التصديق على المعاهدة ، ويتم هذا الانسحاب على مرحلتين :

الأولى : خلال تسعة شهور إلى خط شرق العريش رأس محمد •
الثانية : خلال ما تبقى من السنوات الثلاث إلى الحدود الدولية •

خامسا : عند إتمام الانسحاب الأول ينشئ الطرفان علاقات عادية وودية بينهما ، وتشمل الاعتراف الكامل والعلاقات الدبلوماسية والثقافية ، وإنهاء المقاطعة الاقتصادية ، ورفع أى حواجز تعوق حرية حركة الأفراد ، أو السلع •

سادسا : توضع ترتيبات تحقق أقصى درجات الأمن وتتضمن انتشار القوات فى سيناء على النظام التالى :

المنطقة (أ) القسم الأول من سيناء وهو الذى يقع شرق القناة بعمق منتصف المسافة بين خليج السويس والقناة من جانب وخط شرق العريش — رأس محمد سالف الذكر من جانب آخر • وفى هذا الجزء توجد قوة مكونة من فرقة ميكانيكية من ثلاثة ألوية مشاة ميكانيكية ، ولواء مدرع واحد ، وسبع كتائب مدفعية ميدانية ، وسبع كتائب مدفعية مضادة للطائرات وحتى ٢٣٠ دبابة و ٤٨٠ مركبة أفراد مدعمة من كافة الأنواع وإجمالى الجنود ٢٢ ألف فرد •

المنطقة (ب) القسم الثانى وهو يشمل الجزء الأكبر من سيناء ويقع وسط شبه الجزيرة على جانبى الخط من شرق العريش إلى رأس محمد ، وتتمركز فى هذا الجزء وحدات حدود مصرية من أربع كتائب مجهزة بأسلحة خفيفة وبمركبات عجل تعاون الشرطة المدنية فى المحافظة على النظام فى المنطقة ، وعدد أفراد الجنود فى هذه المنطقة لا يتجاوز ٤٠٠٠ جندى وتتسأ فى هذه المنطقة تحصينات ميدانية ، ومنشآت عسكرية لكتائب الحدود الأربع •

المنطقة (ج) غرب الحدود الدولية ، وتنتشر بها الشرطة المدنية وقوات الأمم المتحدة •

المنطقة (د) وهى تقع فى أرض إسرائيل شرق الحدود الدولية وتنتشر بها أربع كتائب مشاة إسرائيلية ومراقبو الأمم المتحدة •

وتنص المعاهدة على إبرام اتفاقات للتجارة والعلاقات الثقافية وللطيران المدنى ، كما تنص على استخدام مطارات العريش ورفح ورأس النقب وشرم الشيخ للأغراض المدنية فقط مع إمكان استخدامها من قبل كل الدول لأغراض تجارية •

سابعاً : تضمنت المعاهدة خطابات متبادلة حول :

١ — بدء مباحثات الحكم الذاتي للضفة الغربية وغزة خلال شهر من تبادل وسائل التصديق على معاهدة السلام على أن تنتهى بتحقيق الاتفاق خلال عام .

٢ — تبادل السفراء بين مصر وإسرائيل خلال أشهر من إتمام الانسحاب في المرحلة الأولى .

٣ — يبقى الأمريكا دور في حالة خرق معاهدة السلام أو حالة الخلاف حول نقطة من نقاطها .

اتفاق أمريكي إسرائيلي :

لقد أشرنا إلى هذا الاتفاق من قبل ، وذكرنا أن سوء النوايا التي تملأ عقل الإنسان اليهودي كانت مسيطرة عليه وهو يوقع ما سُمّي معاهدة السلام ، وبينما كانت الإجراءات لتوقيع هذه المعاهدة تسير في طريقها ، كانت المفاوضات لعقد اتفاق أمريكي إسرائيلي تسير في الوقت نفسه ، وخلاصة هذا الاتفاق أن عدم الثقة في المعاهدة ينعكس على تصرف إسرائيل ، فهي لا تتوى أن توفّيَ بما وعدت ، وتحس أن الآخرين لن يوفوا أيضاً ، ومن هنا تتخذ الاحتياطات بأن تلزم أمريكا بالتزامات أهمها ضمان تطبيق معاهدة السلام بما يحقق الأمن لإسرائيل ، وأن تلتزم الولايات المتحدة بمراقبة تنفيذ المعاهدة ، وتنص كذلك على الإجراءات التي تتخذها إذا خُرقَت المعاهدة أو حصل تهديد بخرقها .

وتلتزم الولايات المتحدة كذلك بالاستجابة لاحتياجات إسرائيل العسكرية والاقتصادية ، كما تلتزم بفرض قيود على إمداد الدول الأخرى بالأسلحة إذا كان هناك احتمال لاستخدامها ضد إسرائيل .

وقد ذكرنا من قبل أن هذا الاتفاق كان مفاجأة غير سارة لمصر ، وأنها أبدت امتعاضها من سلوك الدولتين وبخاصة في نفس الوقت الذي كانت الابتسامة يجدر أن ترسم على الشفاه .

معاهدة السلام في الميزان :

إنها تسمى معاهدة سلام ، ولكن الإنسان المصرى لا يحس بسلام مع إسرائيل على الإطلاق ، وإن روح السلام لم تكن موجودة في أثناء المفاوضات ، بل كانت الشكوك مهيمنة على الجو ، وكانت ألوان الضغوط تترك آثارا قاسية في نفس المفاوض المصرى ، ولا تزال تترك هذه الآثار المريعة في نفوس المصريين جميعا .

لقد حاولت إسرائيل أن تجعل موضوع الضفة وغزة موضوعا بعيدا عن الأهداف المصرية ، ورفضت الاستجابة لقضية القدس ، وفرضت وقتا طويلا لانسحابها من سيناء بحجة انتظار المطارات التى تبنيها الولايات المتحدة لإسرائيل لتحل محل المطارات التى بنتها إسرائيل في سيناء ، وأصرت على إخلاء بعض المناطق من سيناء من الجيش المصرى ، وحددت تسليح ما تبقى من مناطق سيناء ، وأرادت تطبيع العلاقات بينها وبين مصر ، وجيشها لا يزال جاثما على الأرض المصرية والعربية ، ونسيت إسرائيل أن تطبيع العلاقات مع كل هذا الضغط لا يمكن أن يتم .

وكانت إسرائيل في هذه الأمور بعيدة كل البعد عن الذكاء ، كانت تظن أن هذه الأمور تمنحها الأمن ، ولكن الحق أن هذا الحرص كان منها غباء اجتماعيا جلب لها الكراهية ، ولم يترك لها في ديارنا أى إحساس بالتعاطف والود .

إن كل مصرى يدرك أن إسرائيل هاجمتنا سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٦٧ ولم نهاجمها إلا سنة ١٩٧٣ لاستعادة الأرض ، فهى دولة عدوانية وليتها تعرف الوسيلة لتخفيف هذا العدوان والحقد .

لقد كانت هناك حروب مريعة وطويلة بين ألمانيا واليابان وإيطاليا من جانب وبين الحلفاء من جانب آخر ، ولما توقفت هذه الحروب عاد شطر واسع من الود والتعاون بين هذه الدول بعضها والبعض ، ولكن

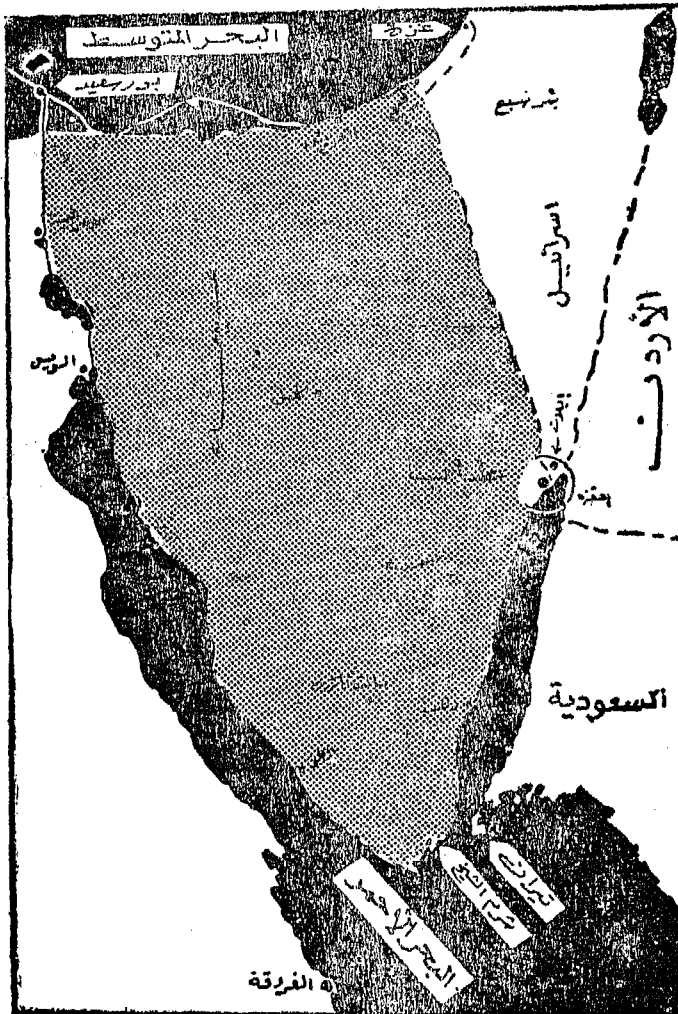
ذلك النمط لا يمكن أن يتم بين الدول العربية وإسرائيل ، لأن إسرائيل عالمٌ وحدها في الحرص على النيْل من الآخرين ، والسلب ، والقهر ، والضغط ، والقسوة ، وفي نفس الوقت لا تعرف الود ولا الوفاء ، وفي كلمة موجزة إنها معاهدة سلام بدون سلام •

قضية طابا :

وقد تم الانسحاب الإسرائيلي من سيناء في الموعد المحددة ، ولم تستطع إسرائيل أن تتغلب على جشعها فتتقدم الانسحاب يوماً أو أسبوعاً عن الموعد المحدد ، وتطهرت شبه الجزيرة على كل حال من أقدام آخر جندي إسرائيلي في ٢٥ إبريل سنة ١٩٨٢ ، ولكن إسرائيل عجزت عن أن توفى بما وعدت وأن تخرج في يسرٍ من كل سيناء ، بل عبثت بالحدود في عدة مناطق أهمها منطقة طابا ، وتمسكت بهذه المنطقة وغيرت مواقع العلامات التي توضح الحدود ، وبدأت مفاوضاتٍ طويلة جعلت هذه القضية من أصعب القضايا التاريخية التي ظهرت في العصر الحديث ، وكانت مصر في هذه المفاوضات قوية الجانب ، تؤيدها أسانيد قانونية وجغرافية وتاريخية ، تؤكد سيادتها على طابا ، تلك المنطقة التي تقع على طرف خليج العقبة ، وكانت العلامة رقم ٩١ هي أخطر علامات الحدود ، وقد أبرزت هذه العلامة تلاعب إسرائيل في موضعها ، وكذلك في موضع علامات أخرى عددها ١٤ علامة في الحدود بين البلدين •

ولم تسفر المفاوضات عن نتائج مرضية لأن المفاوضات المصرية تقدم أعمق الأدلة وأقواها ، ولم يكن عند إسرائيل أى دليل مقنع ، ولكنها راوغت وتعسفت مما جعل المفاوضات لا تصل إلى نتيجة ، وكان لابد بعد فشل المفاوضات أن يتم اللجوء إلى التحكيم ، وقد تمت الموافقة على التحكيم في ١٠ سبتمبر سنة ١٩٨٦ أى بعد أكثر من أربع سنوات في المفاوضات •

وحاولت أمريكا أن تتفادى التحكيم لأنها كانت تدرك حق مصر الثابت وأدلتها القوية ، ولكن الاقتراحات الأمريكية جاءت متخذةً صف



موقع طابا

إسرائيل ، فقد اقترحت أن تعترف إسرائيل بالسيادة المصرية على طابا على أن تشارك إسرائيل مصر في إدارة المنشآت التي أقامتها إسرائيل بهذه المنطقة مثل فندق سونستا ومجموعة الشاليهات السياحية بها ، وعلى السماح للإسرائيليين بدخول المنطقة بدون جواز سفر ، وبدون تأشيرة ، والاكتفاء ببطاقات مؤقتة خاصة •

ودُهِشت مصر لهذا التصرف ، فالسيادة هي السيادة ، وإذا اعترفت إسرائيل بالسيادة المصرية على طابا ، وبأنها جزء من الأرض المصرية ، فإن ذلك يستلزم أن يتَّبَع مع هذا الجزء كل الإجراءات التي تتَّبَع بالنسبة للوطن كله •

وعلى هذا لم يكن هناك مفر من التحكيم ، وتترك الأمر للمحكمة التي ارتضاها الطرفان ، وأعلنت مصر أنها لا تقبل أى حل وسط ، وبخاصة أنه كان لدى الوفد المصرى مجلة إسرائيلية باللغة العبرية ، صدرت سنة ١٩٦٤ ، وبها خريطة لمنطقة طابا توضح أنها ضمن الحدود المصرية •

وينبغى أن نذكر أن هيئة التحكيم كانت تتكون من قاض سويسرى متخصص فى القانون الدولى ، وفى قضايا النزاع على الحدود ، ومن قاض فرنسى هو رئيس محكمة النقض الفرنسية ، ومن أستاذ القانون الدولى بجامعة زيورخ ، ثم من قاض مصرى هو الدكتور حامد سلطان أستاذ القانون الدولى ، وقاضية إسرائيلية تعمل أستاذة بالجامعة العبرية •

حكم المحكمة :

وفى ٢٩ سبتمبر ١٩٨٨ أصدرت المحكمة حكمها ، وحددت مواقع نقاط الحدود وبخاصة العلامة ٩١ التى توضح أن منطقة طابا أرض مصرية ، وكان على إسرائيل أن تنفذ هذا الحكم دون مراوغة ودون تعطيل ، ولكن إسرائيل هى التى لا بد أن تخلق المشكلات وتثير الاعتراضات ، وصبرت مصر وصابت حتى جاء يوم ٢٩ نوفمبر وهو آخر موعد لتنفيذ حكم المحكمة فقد كانت المحكمة قد قررت أن يتم تنفيذ الحكم خلال ثلاثة أشهر وحينئذ فقط تم الاتفاق على عودة طابا إلى مصر ، والبدء فى وضع



نموذج للمّرع الذى اصاب
العدو عند الانسحاب من طابا



بكاء مريد للخروج من طابا

علامات الحدود خلال أسبوعين من تاريخ هذا الاتفاق ، ووضعت علامات الحدود فعلا .

وعلى أثر ذلك انسحبت القوات الإسرائيلية إلى مواقع جديدة بعد وضع العلامات ولكنها لم تنسحب من منطقة طابا انتظارا لانهاء المباحثات حول المرافق السياحية ، ومما يذكر ان الخلاف حول علامات الحدود قد شمل العلامات رقم ٧ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ٢٧ ، ٤٦ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩١ .

وقد تحركت عشر علامات منها تجاه الشرق لمسافة بين خمسة أمتار وكيلو مترين ، وتحركت أربع علامات تجاه الغرب لمسافة تتراوح بين مترين وخمسين مترا طبقا لقرار التحكيم ، وعقب وضع العلامات انتقل المنفذ المصرى إلى مكانه الجديد .

أما المنطقة التى وقع فيها فندق سونستا والشاليهات السياحية فقد ظلت موضع خلاف بين مصر وإسرائيل فإسرائيل تساوم كعادتها ، تريد تعويضا عن المباني والمؤسسات أكثر جدا مما تستحق ، وتريد كما ذكرنا من قبل تسهيلات لدخول رعاياها إلى هذه المنطقة .

وقد تمّ الاتفاق فى ٤ فبراير سنة ١٩٨٩ على أن يواصل الجانبان مباحثاتهما للوصول الى اتفاق حول المسائل المتبقية خلال شهر فبراير وعندما تنتهى الأطراف إلى حل مُرضٍ يتم تحديد الجسدول الزمنى للانسحاب من طابا .

ومما يذكر أن العلامات العشر التى انتقلت إلى الشرق أعطت لمصر حوالى ١٠ كيلو مترات مربعة أما العلامات التى انتقلت الى الغرب فقد أعطت لإسرائيل ١/١٠ كيلو متر مربع .

سبع سنوات مرت حول الخلاف على هذه المنطقة الصغيرة ، وهى دليل جديد على مراوغة إسرائيل وصعوبة التعامل معها ، وأخيرا تمّ الاتفاق فى ٢٦/٢/١٩٨٩ على حل هذه المشكلة ، ووقعت مصر وإسرائيل على اتفاقيات ثلاثة هى :

١ — شراء مصر لفندق سنوست وقرية نلسن السياحية ، وهذا الاتفاق وقعته وزير السياحة المصرى •

٢ — تحديد موعد الانسحاب الإسرائيلى النهائى وهذا الاتفاق وقعته الدكتور نبيل العربى رئيس وفد مصر فى مباحثات طابا •

٣ — الاتفاق الخاص بالمرور إلى طابا من إسرائيل وهذا الاتفاق وقعته ممثل وزارة الداخلية واتفق على أن تعود المنطقة لمصر فى موعد أقصاه منتصف مارس ١٩٨٩ وقد عادت فعلا فى هذا التاريخ ، كما اتفق على امتداد الحدود بخط مستقيم من العلامة ٩١ إلى مياه الخليج •

وبنهاية مشكلة طابا فى مارس ١٩٨٩ تنتهى آخر مخلفات عبد الناصر المريعة ، بعد جهاد ونضال عسكرى وسياسى استغرق ٢٢ سنة •

ان الشعب المصرى لا يستطيع أن ينسى مراوغة اليهود ، ولا شك أن تلك المراوغة تخلق مزيدا من الكراهية والنفور فى نفوس المصريين ، والعجيب أن إسرائيل تظن ان مواقفها تلك نابعة عن ذكاء ، والحق أن ذلك قمة الغباء ، فالمساومة والشد والضغط يزيدا بعدا عن تعاطف المصريين ، ويجعل ما يسمى التطبيع عملا متعذرا ، وكيف نجعل العلاقات طبيعية مع شعب يفتح فمه ليزدرد كل شئ ، ويقل عقله وقلبه عن الود والتسامح والعدالة ، والحق إنها غريزة يهودية أن تنهب إسرائيل مسا تستطيعه من المجتمع البشرى ، وهيهات أن يتغلب اليهود على هذه الغريزة •

تواريخ بناء الفندق :

ومما يذكر أن فندق سونستا المتنازع على تكاليفه فى طابا بنى ضابط إسرائيلى وهو للأسف من أصل مصرى ، ويقع على مساحة ٦٢٠ مترا وقد بدأ بناؤه بعد رحلة الرئيس السادات للقدس سنة ١٩٧٧ وشجعتة الحكومة الإسرائيلية على ذلك ، وقد بنى منه عدة أدوار قبل المعاهدة المصرية الإسرائيلية ، ولما ظهر النزاع حول ملكية هذه المنطقة

اتفق على منع اقامة أية منشآت بها حتى يتم الفصل في موضوعها ، ولكن مالك الفندق خالف ذلك وارتفع بأدوار الفندق بعد المعاهدة الى اثني عشر طابقا بحجة أن الحظر كان عن اقامة منشآت جديدة ، أما استكمال المنشآت فلم يدخل في دائرة الحظر •

إنها حيل إسرائيلية لإثارة المشاكل •

قانون الأحوال الشخصية :

في تقديرى أنه لا بأس من أن تمارس زوجة رئيس الجمهورية بعض الأنشطة وبخاصة في المجال الاجتماعي ، وقد مارست السيدة جيهان السادات صورا من هذا النشاط وبخاصة خلال حرب أكتوبر ، إذ اشتركت في الإشراف على الجرحى والمعوقين ، وكان ذلك موضع تقدير عظيم من المصريين •

ولكن السيدة جيهان للأسف لم تهتم ابدا بالناحية الاجتماعية بالبلاد ، وركزت هي وزوجها جهودهما في « ميت أبو الكوم » حيث أقيمت مبان جديدة وسخانات بالشمس ورصفت الطرق إليها ، وتحسنت مداخلها ، كأن « ميت أبو الكوم كانت هي القطر كله •

وكان الفقر يحيط على مرأى ومسمع بجيهان السادات ، وكانت الأسعار ترتفع ويصرخ الناس ، ولكن صرخات المحتاجين لا تصل الى قلوب المترفين وآذانهم •

شيء واحد اهتمت السيدة جيهان به ، ذلك هو المرأة ، والمرأة موضع اهتمام الجميع ، وهى عند الرجل أمه وزوجته وأخته وبنته ، وهى موضع برّه ونور حياته ، وقد أعطاها الإسلام مكانة سامية ، ورعاها أعظم رعاية ، وإذا كان هناك إجحاف بها من بعض الرجال فهناك إجحاف يقع على الرجل من بعض النساء ، وهناك ظلم يقع بين المرء وأخيه ، والابن وأبيه ، فتلك سنة الكون ، لا يعيش الناس جميعا في أمان شامل •

ويبدو أن السيدة جيهان سمعت أو رأت بعض حالات عن القهر والظلم يوقعه بعض الرجال بالنساء ، فأتخذت موقفا من الرجال كأنهم جميعا آثمون ، وخلقت جوا من الاضطراب في مجتمعنا المصرى •

ونسيت السيدة جيهان أن المجتمع المصرى بتاريخه وثقافته ومكانته الملمية يعتبر إلى حد كبير قدوة في المنطقة العربية والإسلامية ، ولابد أن تسيّر القوانين الإسلامية به غير بعيدة عن القوانين الإسلامية المتبعة في البلدان العربية والإسلامية حولنا •

وبسبب هذا النسيان وبسبب التعصب للمرأة ، ذلك التعصب الذى لم يكن له سبب مقبول اتجهت السيدة جيهان للتأثير على زوجها ليصدر قانونا جديدا للأحوال الشخصية ، وسُمى هذا القانون « قانون جيهان » وكان أنور السادات يدرك أن مجلس الشعب — مع أنه مجلس مصنوع بيد الرئيس ، وليس ممثلا للأمة تمثيلا حقيقيا — مع هذا فقد كان من المتوقع أن يرفض المجلس هذا القانون الجديد ، لذلك اتجه أنور السادات لإصدار القانون في غيبة مجلس الشعب ، وأصدره فعلا في عطلة هذا المجلس سنة ١٩٧٩ قبل انعقاد المجلس بثلاثة أيام ، بدعوى أن من حق رئيس الدولة أن يصدر القوانين في غيبة مجلس الشعب للضرورة ، على أن تعرض هذه القوانين على المجلس في أول جلسة لانعقاد المجلس •

وخلاصة هذا القانون هي :

✽ إذا تزوج الرجل على زوجته أو زوجاته فلا بد من إخطارهن بذلك حتى يكن على علم بهذه الواقعة الجديدة •

✽ ومن حق الزوجة التى يتزوج عليها زوجها أن تطلب الطلاق ، وتصبح واقعة الزواج الجديد قرينة قانونية على أن ضررا لحق (م ٣٠ - التاريخ الاسلامى)

بها يبيح لها أن تطلب التفريق ، والقاضى ليس حرا فى تقدير الضرر
ببحته ، بل يتعين عليه إذا طلبت الطلاق أن يستجيب لطلبها دون
مناقشة لها فى إثبات الضرر •• فزواج المتزوج فى حد ذاته يساوى أن
الضرر قد وقع على الزوجة السابقة يقينا •

✽ قرر القانون للزوجة التى تطلق لذلك نفقة أسمائها نفقة « المتعة »
وعدها مكافأة لها على ما قدمته لزوجها فى أثناء زواجه بها ، تماما مثل
مكافأة نهاية الخدمة للموظفين •

✽ استبقى القانون السكن للزوجة بما دام لديها أطفال قُصّر من
هذا الزواج ، وأن تظل فى مسكنها ، وعلى الزوج أن يغادر هو
المنزل ويتركها لها ولصغارها ويبحث له عن مسكن آخر (١) •

وعندما عتقد مجلس الشعب عرض عليه القانون ، ووقف وزير
مجلس الشعب يعلن أسبابا غير مقنعة لإصدار القانون فى غيبة المجلس ،
فلم تكن هناك ضرورة لإصداره قبل انعقاد المجلس بثلاثة أيام ، لذلك
قال الوزير بصراحة إن سبب إصداره فى غيبة المجلس هو الخوف من أن
يرفضه المجلس كما حدث فى محاولات سابقة •

ووافق المجلس فلم يكن فى طاقته رفض قانون أصدره رئيس
الجمهورية ، وكانت موافقة المجلس فى ٣ يوليو سنة ١٩٧٩ •

ويلاحظ أن هذا القانون أحدث ارتباكا فى الحياة المصرية ، فقد لجأ
كثير من المتزوجين الراغبين فى زواج جديد إلى الزواج العرفى حتى لا
يُطرد من بيته ويلتزم بتكاليف واسعة بالنسبة لزوجته الأولى ، والزواج
العرفى لا يضمن حقوقا للزوجة ولا لأولادها ، كما أن إخراج الرجل من

بيته أحدثَ مشكلاتٍ غير قابلة للحل ، فإلى أين يذهب الرجل مع ارتباطه بعمل في المدينة التي بها مسكنه ؟

وقد أجاز بعض العلماء قانون السيدة جيهان ربما بتأثير السلطة ، ولكن الحق أنه لم يكن هناك داع له ، والزواج الجديد ليس بالضرورة مسبباً للضرر .

نهاية القانون :

وفي سنة ١٩٨٤ أحال أحد القضاة هذا القانون للمحكمة الدستورية على أساس أنه مخالف للدستور ، فلم تكن هناك ضرورة لإصداره قبل انعقاد المجلس بثلاثة أيام ، ورئيس الجمهورية يستطيع أن يصدر القوانين في غيبة المجلس عند الضرورة فقط ، ولا ضرورة في هذا الموضوع ، فحكمت المحكمة بعدم دستورية القانون ، فسقط .

وفي سنة ١٩٨٥ صدر قانون جديد للأحوال الشخصية كالآتي :

✽ خالف القانون الجديد القانون المقتضى بعدم دستوريته في أنه إذا رغبت الزوجة التي تزوج زوجها عليها في الطلاق فعليها أن تقوم بإثبات موضوع الضرر الذي لحق بها ، وما تذكره الزوجة القديمة يخضع لتقدير القاضي فيقتنع أو لا يقتنع بعد أن كان الأمر بعيداً عن تقديره .

✽ أصبح من حق الزوج إذا كان مالكا لمسكنه أن يحتفظ به ولا يتركه لطلقاته وصغاره على أن يوفر لهم مسكناً ، أما إذا كان مستأجراً وليس مالكا فيستمر الوضع الأول أى يترك المسكن لهم ^(١) .

(١) المستشار عبد الحميد يونس : قضية قانون الأحوال الشخصية : مجلة المصور : أكتوبر سنة ١٩٨٨ .

٣٠ مقعدا للمرأة في مجلس الشعب :

ننقل فيما يلي سطورا من كتاب « امرأة من مصر » تتحدث فيها السيدة جيهان عن سلطانها على زوجها في أخطر الأمور ، تقول السيدة جيهان :

في شهر مارس سنة ١٩٧٩ — وعيد الأم يقترب — قلت لزوجي : هناك هدية خاصة واحدة أتوق إليها هذا العام ، وهي هدية أود أن أحصل عليها .

سألني : ما هي ؟

فقلت : هل ستمنحها لي ؟

قال : نعم لو استطعت أن أدفع ثمنها .

قلت : أنت في هذه المرة تستطيع .

فقال : موافق يا جيهان ، ما هي ؟

قلت : حقوق المرأة .

قال : نعم يا جيهان هذا العام سوف أمنحها لك .

وفي ٢٠ يونية سنة ١٩٧٩ أصدر أنور قرارا رياسيا من مادتين عن المرأة نصه : إضافة ثلاثين مقعدا للمرأة في مجلس الشعب ، وتخصيص من ١٠٪ الى ٢٠٪ من جميع المقاعد في المجالس الشعبية للمرأة ^(١) .

لقد كانت جيهان السادات في حلم جميل ، فكأن كل شيء قد ناله الإصلاح في مصر ، ولم يبق إلا أن تترك المرأة بيتها وأولادها لتكون عضوا في هذه المجالس ، ولم يطل عمر هذه المنحة فسرعان ما عدل عنها .

(١) جيهان السادات : المرجع السابق ص ٤٢٧ .

إن للعمال والفلاحين نصف عدد الأعضاء على الأقل في المجالس النيابية والشعبية ، وذلك عبء ثقيل ، وقرار لا مصلحة للبلاد فيه على الإطلاق ، فأرادت جيهان أن تضيف عبئا جديدا ، وأضافتة فعلا ، ولكن عمره كان قصيرا •

ليته يموت أيضا ذلك القانون الجائر الذى يخصص نصف المقاعد للعمال والفلاحون فهو تعبير كاذب ولا ينال العمال والفلاحون منه أى فائدة ، وكل فائدته خاصة بالحاكم ، فهؤلاء العمال والفلاحون يجيدون التصفيق والموافقة على أى قانون يريد به الحاكم الذى وضعهم فوق تلك الكراسى ، ومنهم الذين رقصوا بالمجلس عند هزيمة ١٩٦٧ الساحقة والدماء لا تزال تتدفق من شباب مصر على رمال سيناء ، فلا بأس من الرقص ما دام ذلك لإسعاد الحاكم المهزوم الذى وضعهم أعضاء فى مجلس الشعب •

ومن ناحية أخرى نحن نرفض نظام الطبقات بين المصريين ، وهو نظام يتنافى مع حياتنا المصرية ، فهناك مئات أو آلاف من أبناء العمال والفلاحين تخرجوا من كليات الطب والهندسة والآداب ودار العلوم ، ومن العجب أن يكون الأب فى جانب لأنه فلاح وابنه فى جانب آخر يوضع فى « الفئات » فليُفصحْ وليؤامر عن رغبته بأنه يريد أن يختار المصنفين ، وأولئك الذين يوضعون اليوم فى مجلس الشعب ، ليردشوا الجميل لمن وضعهم عندما يختارونه للرياسة أو يوافقون دون نقاش على اقتراحاته واتجاهاته •

إن مجلس الشعب مجلس تشريعى ، ويجب أن يوضع فيه من يستطيع التشريع •

أعمال سنة ١٩٨٠

إلغاء الأحكام العرفية وإعلان قرارات الرخاء :

هذا العنوان كان السادات يتغنّى به عندما يعدّد مفاخره وإنجازاته من عام إلى عام ، ولكن الحق أن هذا العنوان لا مدلول له ، فلا الأحكام العرفية ألغيت من الناحية العملية ، ولا مصر عرفت الرخاء منذ قامت بها الثورة المشؤومة في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وسنرى في أحداث ١٩٨١ كيف قبض أنور السادات بجرة قلم كما يقولون على المئات من طوائف الشعب ، وذلك ما لا يتم إلا في ظل أحكام عرفية جائرة ، أما ما يقال عن الرخاء فكلام مردود لا معنى له ، فالفقر والغلاء يأكلان الناس إلا من حظى بالمال الحرام •

طائرة أحمد بدوى :

في ٢ مارس سنة ١٩٨٠ سقطت طائرة هليكوبتر كان يركبها الفريق أحمد بدوى وزير الدفاع والقائد العام للقوات المسلحة ، ومعه ١٤ من كبار القادة العسكريين ، وقد حدث رعب وانزعاج لهذا الحادث المؤلم ، فالفريق أحمد بدوى كان يحظى بحب الناس وتقديرهم ، ثم إن فراغا واسعا حدث في قيادة الجيش بسبب هذه الخسارة ، ومع أن التحقيق دلّ على أن سبب سقوط الطائرة كان إهمالا في الصيانة ، فإن إشاعات انتشرت ووَجَدَت من يقبلها حول إسناد هذا العمل إلى مؤامرة قام بها الموساد الإسرائيلي أو وكالة المخابرات المركزية الأمريكية •

ولا يزال السر مكتوما حول هذا الحادث الذي يُعدّ خسارة عظيمة في المجالين العسكري والشخصي (١) •

مع شاه إيران :

في أحداث سنة ١٩٧٧ ذكرنا أنه عندما اشتد الأمر في انتفاضة ١٨ — ١٩ يناير اتصل شاه إيران بالسادات وأعلن قلقه عليه وعلى أسرته ، وذكر له استعدادده لاستقباله في طهران إذا رأى ذلك ضروريا •

(١) اقرأ عن هذا الموضوع كتاب « المنصة » للأستاذ علوى حافظ •

وفي يناير سنة ١٩٧٩ جاء دور السادات ليرد الجميل ، فقد كانت الثورات بإيران تلتهب ، وكانت الجماهير تميل للإمام الخميني الذي كان على وشك أن يعود لإيران بعد حياة طويلة بالمنفى ، فأرسل السادات يدعو الشاه لزيارة مصر فاستجاب الشاه وحضر لمصر في ١٧/١/١٩٧٩ .

وهكذا يعيش الملوك والرؤساء في قلق ، وبخاصة أولئك الذين يتسبون الله ويتجاهلون شعوبهم ، فهم يعيشون غرباء ومنبوذين في بلادهم ، ولا تحميهم إلا القوة الغاشمة التي تنهار من حين إلى آخر كما انهارت القوة التي كانت تحمي الشاه ، وكما ضعفت القوة العسكرية حول السادات عن حمايته كما سنرى فيما بعد ، ليت الملوك والرؤساء يتعلمون درساً من التاريخ .

وبعد أن أمضى الشاه بضعة أيام في مصر سافر إلى المغرب ، ثم أخذ الشاه ينتقل بأسرته من مكان إلى مكان ، يقذفه تظير ويتلقاه آخر ، فمن المغرب سافر إلى جزر بهاما فالمكسيك فالولايات المتحدة ، وأخيراً إلى بنما ، ولكن سرعان ما ضاقت به بنما على نحو ما فصلناه في الجزء الثامن من هذه الموسوعة (١) ، بل وصل الأمر إلى محاولة تسليمه لإيران لحاكمته بيد أعدائه الذين كانوا قد استولوا على الحكم بالبلاد ، ولم ينقذه إلا السادات الذي أعلن أنه مستعد أن يستضيفه ، وأرسل له طائرته الخاصة لإحضاره إلى مصر وحضر الشاه إلى مصر في ٢٤ مارس سنة ١٩٨٠ على طائرة أخرى كما سنرى بعد قليل وقدّم له العلاج اللازم ، ولكن صحته كانت في تدهور متصل فأسلم الروح في ٢٦/٧/١٩٨٠ .

وننقل فيما بعد ما دونته جيهان السادات في هذا الموضوع ، فهي تقول :

في مارس ١٩٨٠ اتصلت بي تليفونيا « فرح دينا » من بنما ، وقالت : جيهان ، إن وضعنا يبعث على الأسى ، لقد انتشر المرض في طحال

(١) موسوعة التاريخ الاسلامي ج ٨ ص ١٧٥ - ١٧٨ .

زوجى ، وإذا لم نُجَرِّ له عملية جراحية فورا ، فسوف يموت ، ولا أستطيع أن أثق فى أى شخص هنا لإجراء هذه العملية •

وسألتها : لماذا يا فرح ؟

فقلت : وهى تكاد تبكى إنه من الصعب أن أشرح لك فى التليفون ، وعرفت من ذلك أن تليفونها مراقب وخاضع للتصنّث ، وأضافت « فرح »
قائلة : يجب أن نغادر بنما فى الحال ، فهناك تقارير تنذر بالشؤم •

وكنا قد سمعنا أن بنما على وشك أن تسلّم الشاه إلى إيران ، فقد كانت هناك محاولات جادة لتوقيع اتفاقية تسليم المجرمين بين إيران وبنما ، وكانت المفاوضات على وشك أن تتجّح •

وتقول جيهان : عرفت أيضا من لهجتها أنها لا تثق فى أطباء بنما ، وتخشى منهم الخيانة فى إجراء هذه العملية ، فسألتها : ألا تستطيعين إحضار أطباء أمريكيين ؟ فأجابت : لقد رفضت حكومة بنما منحهم تصريحاً بالدخول ، وسألتها عن موقف الحكومة الأمريكية ؟ فقلت : لقد نلنا ما فيه الكفاية من أمريكا وحكومتها •

وأحسست بانهيـار الشاهبانو ، وأن كبرياءها قد تحطمت خلال الشهور القليلة منذ خروج زوجها حتى إجراء هذا الحديث •

واندفعت أقول لها : ولماذا لا تحضرون إلى مصر ؟ عندنا أطباء ممتازون ، ويمكنكم أن تحضروا من تشاءون من الأطباء ، فأجابت بلهفة : هل يمكن ذلك ؟ وأحسست بتمسكها بهذا الأمل ، فقلت لها سأصل بك مرة أخرى لأخبرك بالترتيبات ، وانتهت هذه المكالمة ، واتصلت فورا بأنور فى مكتبه وأخبرته بما دار بينى وبين فرح وسألتها : هل كنت على خطأ فى دعوتى لها ؟ أو أن ذلك سيسبب لك حرجا ؟ فأجابنى : لا خيار يا جيهان ، أخبرى فرح بأننى سأرسل إليهم طائرة الرئاسة

لتنقلهم فوراً ، فالوقوف مع أصدقائنا في محنتهم عمل يرضى الله ويرضى شعبنا الذى عرف بإكرام المحتاج •

وأُسرع أصدقاء الشاه ينقلونه على طائرة استأجروها لحسابه دون أن ينتظروا وصول الطائرة المصرية ، مخافة أن يكون فى الانتظار خطر على الشاه (١) وقدّمت مصر كل ما يمكن من علاج للشاه ، واستقبلت عدداً من الأطباء العالميين لإجراء بعض العمليات الجراحية له ، كما احتفت مصر بأسرة الشاه وكرّمتها أعظم تكريم وخصّص لها قصر القبة لتعيش فيه ، ولكن حياة الشاه كانت فى تدهور مستمر ، فأسلم الروح فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٨٠ كما ذكرنا آنفاً وأقيمت له جنازة رسمية حافلة ، ودفن الشاه فى مسجد الرفاعى بالمكان الذى دُفن فيه أبوه من قبل ، وكان الشاه قد نُقل رفات أبيه إلى إيران وكأنه كان يخطى المكان ليكون موثلاً له •

فى اعتقادى أن السادات كان يمثل الشعور النبيل الذى اتجه له كثير من المصريين ، هذا الشعور الذى كان يحرص على إكرام عزيز قوم ذل ، وكان السادات فى هذا الخلق على النقيض من عبد الناصر الذى كان شديد الحرص على إذلال الشرفاء ، ومع هذا فقد وُجد من بين المصريين مَنْ كان يرى أن الشاه لا يستحق الرعاية لتحالفه مع إسرائيل ، ولما سفك من دماء الإيرانيين ، ولعدوانه بطريق أو بآخر على عرب الخليج

إسرائيل تعلن القدس مدينة موحّدة وعاصمة لدولتها :

بعد رحيل الشاه بأربعة أيام جاءت مأساة أخرى فقد أعلن الكنيست الإسرائيلى أن القدس القديمة والجديدة مدينة واحدة لا يجوز تقسيمها ، وأنها عاصمة لإسرائيل ، وكانت الحكومة الإسرائيلية بذلك تُحدث انتهاكا جديدا لاتفاقيات كامب ديفيد بعد الانتهاك الذى حدث من قبل ببناء

(١) امرأة من مصر ص ٥٢١ - ٥٢٤ باختصار •

مستوطنات جديدة بالضفة الغربية وتوسيع المستوطنات التي شيدوها من قبل ، وكانت مباحثات الحكم الذاتي للفلسطينيين قد توقفت دون إحراز أى تقدم ، ولا شك أنه من العار على اليهود أن يجعلوا من مدينة القدس المقدسة عاصمة لهم ، فالقدس يسكنها مائة ألف مسلم ، وهى مقدسة لدى ألف مليون من المسلمين ، وقد فجّع المسلمون بهذا الإجراء ، فقد كان هذا التصرف يخلق مأزقا للأتور السادات ، ولذلك قال أنور السادات عنهم : إنهم يظهرون كما لو كانوا قد انضموا إلى العرب لمحاربة مصر ومحاربة السلام (١) .

شئ واحد نريد أن نذكره لإسرائيل ، هو أن دورة الحياة لن تتوقف ، وإذا كانت إسرائيل قوية بأمريكا الآن ، فهذا الوضع لا يمكن أن يدوم ، وستحاسب إسرائيل يوما من الأيام على ما ترتكبه من تعنّث وقسوة ، وسيُنزل بها ما تنزله الآن بالعرب والمسلمين ، ونرجو ألا تصرخ إسرائيل آنذاك ، وأن تعرف أن الشر لا يموت كما أن الخير كذلك لا يموت .
لعنهم الله .

(١) جيهان السادات : امرأة من مصر ص ٥٣٤ .

أخبار سنة ١٩٨١

عام هوم :

يمكن القول إن هذا العام كان حافلا بالهموم من مطلعته ، كانت فيه كوارث كأنها تقود للنهاية التي تنتظر السادات نفسه — وسنقص أهم أحداث هذا العام فيما يلي :

ميت « أبو الكوم » في سيناء :

في يناير من هذا العام زار السادات سيناء ووضع حجر الأساس لقرية جديدة سماها « ميت أبو الكوم » وكان هذا نوعا من التحدى ، فهو لم يقنع بـ « ميت أبو الكوم » واحدة كان يراها فوق القرى وفوق المدن ، بل أراد « ميت أبو الكوم » أخرى في سيناء .

صحيفة ولدت ميتة :

وفي مارس من هذا العام وضع حجر الأساس في مشروع بناء دار صحفية تُصدّر مجلة خصها باهتمامه وأطلق عليها اسم « مايو » باسم الشهر الذي تخلص فيه من منافسيه سنة ١٩٧١ • أو قل تخلص من أعدائه ولم يتخلص من أعداء الشعب •

اليهود يشرون شبهة بقصف المفاعل النووى العراقى :

ذكرت فيما سبق أن اليهود كانوا حريصين على عزل مصر عن العرب ، وقد حققت لهم المعاهدة المصرية الإسرائيلية هذا الهدف ، ولما تم لهم ذلك أرادوا أن يقضوا على السادات ، وذلك هو الخلق اليهودى الذى لم يتخلف ، والذى لا يعرف الطُّهر في الصداقة ، فقد اجتمع بيجين بالسادات في ٤ يونيو بشرم الشيخ ، وفي وقت الاجتماع كان أعوان بيجين يدبّرون بإرشاده هجوما بالطائرات لقصف المفاعل النووى في العراق ، وتم ذلك فعلا بعد يومين من اجتماع شرم الشيخ ، وشاع أن قصف المفاعل كان مؤامرة اشترك فيها السادات ، رداً على مؤتمر بغداد ، أو شاع على الأقل أن بيجين أخبر أنور السادات باتجاه إسرائيل (م ٣١ - التاريخ الاسلامى)

لتحقيق هذا الهدف ، وأن السادات لم يعترض ، وكل ذلك لم يحدث ، وإنما كان الأمر — كما قلنا — محاولة لتدمير السادات بعد أن استغله اليهود وعقدوا معه هذه المعاهدة ، أو كان محاولة لتدميره لأنه عقد معهم هذه المعاهدة التي أخذت منهم سيناء •

وقد وصل من قوة هذه الإشاعة ما يرويه الأستاذ محمد حسنين هيكل ^(١) من أن السفير الأمريكى اتصل برئاسة الجمهورية صباح يوم ضرب المفاعل ليسأل : ما إذا كان مناحم بيجين قد أخطر السادات بنية إسرائيل على قصف المفاعل ؟

وإذا كان السفير الأمريكى يصل ظنه إلى هذا المدى فكيف بالآخرين ؟ ولهذا أصدر السادات بيانا ينفى فيه علمه بالتخطيط لضرب المفاعل •

وتعلّق السيدة جيهان السادات على هذه العملية العدوانية بأنها أوشكت أن تبعد الاتجاه للسلام ، وأن توقيتها كان يقصد به النيل من زوجها الذى هزّته هذه العملية هذا قاسيا ، وفتحت الباب للأعداء المعاهدة أن يستأنفوا مهاجمتها بشدة ، وتقول السيدة جيهان « فى كل خطوة سلام كان زوجى يتخذها ، كان الإسرائيليون يعودون للخلف خطوات (٢) » •

أحداث الزاوية الحمراء

الدارس المحايد للعلاقات بين المسلمين والأقباط يجد تعاوننا شاملا فى كثير من الظروف بين هؤلاء وأولئك ، ففي الحروب الصليبية نكل الصليبيون بالمسلمين والمسيحيين على السواء ، فقد كانت المسيحية الصليبية غارقة فى الدم ، فأنزلت سخطها على المسلمين لأنهم مسلمون ،

(١) خريف الغضب ص ٤٦٦ •

(٢) امرأة من مصر ص ٥٣٥ •

وعلى المسيحيين الشرقيين أنهم يتبعون مذهب الأرثوذكس وهو مذهب يجعلهم في نظر كاثوليك الغرب الأوربي ضمن الكفار •

وفي حملة نابليون وقف المسلمون والمسيحيون متعاونين ضد الزحف الفرنسي •

ولما جاء عهد الاستعمار الأوربي اكتوى بناره المسلمون والمسيحيون على السواء •

صحيح أنه كان هناك دائما شواذ من المسيحيين عاونت الصليبيين أو انضمت لزحف نابليون ، أو ساعدت في ظل الاستعمار ^(١) ، ولكن هؤلاء كانوا قلة لا وزن لها بالنسبة للغالبية المطلقة التي كان الوطن عندهم عظيم القدر لا يبيعونه بأى ثمن ، وفي التاريخ المعاصر وجَّه هؤلاء المسيحيون المتعصبون أيضا ، فهناك جماعة في مطلع عام ١٩٨٦ قدموا طلبا لتكوين حزب باسم السلام الاجتماعي ، وكانوا جميعا من المسيحيين ، فكأنما أرادوا أن يفتحوا بذلك بابا من الشر والتعصب ، فاحتج لذلك كاتب مسلم معروف هو الأستاذ محمود عبد المنعم مراد ، وما إن نشر هذا كلمته حتى كتب عدد من المسيحيين المثقفين يؤيدونه ويحتجون على قيام تجمع مسيحي خالص ، وكان من هؤلاء الأستاذ رفلة عالم الجغرافيا الشهير والوزير السابق الأستاذ عدلى عبد الشهيد

ومن الحق أن نذكر أن بعض المسلمين يتجهون أحيانا للتعصب ، واعتقادي أن ذلك لقلّة دراية بالفكر الإسلامى وبالتاريخ الإسلامى فالقرآن الكريم يقول « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن » ويقول « لكم دينكم ولى دين » وفي التاريخ الإسلامى نماذج رائعة على تعاون المسلمين والمسيحيين ، وكان بعض الفقهاء إذا جاء مسيحي يريد أن يدخل الإسلام يطلب منه أن يؤكد له أن ذلك من باعث داخلى وأنه لا يوجد ما يكرهه على ذلك •

(١) انظر نماذج من هؤلاء في الجزء الخامس من هذه الموسوعة « تاريخ مصر من عمرو بن العاص الى حسنى مبارك » •

وبصفة شخصية أقرر أن كثيرين من المسيحيين يقرءون كتبى وبخاصة كتاب « المسيحية » من سلسلة مقارنة الأديان ، وأننى أقرأ كثيرا من الكتب المسيحية وبخاصة تلك التى يتفضل الأنبا غريغوريوس بإهدائها لى من مؤلفاته •

تلك مقدمة لم يكن منها بدء ، ومع هذا فقد حدثت صراعات بين بعض المسلمين وبعض المسيحيين وبخاصة فى هذا العام الذى نروى أحداثه ، وأشهر هذه الصراعات ما ارتبط بالزاوية الحمراء حيث أراد الأقباط بناء كنيسة على قطعة أرض ، وقال المسلمون أن هذه الأرض ملك لهم وأنهم أخذوا إذنا من الدولة لبناء مجمع إسلامى عليها ، وقامت المعارك ، وفى مرة أخرى تساقطت مياه غير نظيفة من شرفة بعض الأقباط على شرفة بشقة يسكنها المسلمون فتشائم هؤلاء وأولئك ، ثم امتدت الأيدي واندفعت الأسلحة وسقط قتلى وجرحى •

وانتقلت العدوى بجرأة من مكان إلى مكان ، وشدت الأحداث بعض رجال الدين من الجانبين ، وانتقلت الأحداث كذلك من مصر إلى الأقباط بالخارج ، فعندما كان السادات فى أمريكا نشر الأقباط المصريون إعلانا كبيرا فى « واشنطن بوست » و « النيويورك تايمز » يعبرون فى هذا الإعلان عن المضايقات التى يلقاها الأقباط فى مصر ، ثم قامت هذه الجمعيات بمظاهرات ضد السادات إحداهما أمام البيت الأبيض فى أثناء اجتماعه مع ريجان ، والثانية أمام متحف « المتروبوليتان » الذى كان السادات سيحضر فيه احتفالا بإقامة قسم جديد للآثار المصرية (١) •

ولا شك أن كل مصرى مخلص لدينه ولبلاده يستنكر أحداث التعصب والقتل ، ويستنكر التظاهر فى الخارج ضد رئيس الدولة •

مساعداة للعراق فى حرباه ضد إيران

سبأ أن أأأأنا عن مؤأمر بأأاا الذى عأا فى نوافمبر سنة ١٩٧٨ ووأرر فىاه أعلقى عضوىة مصر بالأأامعة العربىة ، وقأع العلاأاا السىاسىة والأىبىلوماسىة معا ، وعاا مأأا بالمعوناا الاأأاصاءىة إذا أكملت الشوط وعأاا معاأة سلام مع إسرائيل .

وعنأما وقأعا مصر معاأة السلام مع إسرائيل فى ٢٦ مارس ١٩٧٩ أأأع وزراا الأارأىة العرب وأرروا أأأأ ما أأراه مؤأمر بأأاا .

وبعا أوالى العام من ألك الأارأأ اشأأعا الحرب بىن إيران والعراق — وبالأأبأ فى ٢٢/٩/١٩٨٠ ، وأأأا إيران والعراق إلى أول العالم أألبان الأسلأة وقأع الغىار والأأبراا ، وقأاا مصر بأور هاأل أأاه نأأة العراق على الرأم من أن مقأاأة العرب لمصر أأأأ الأأار بها فى بأأاا ، ولكن مصر أأاأا هأه الأأىأة ، وقأأاا المعون للعراق فى أأرا الأوأاا ، وكان عون مصر أنواا من الأسلأة والأأأار وقأع الغىار ، وقأاا مصر بألك وهى أأأا أنها لا أأأا حربا بىن مسلم ومسلم ، ولكنها فى الوقت نفسه لا أأأل أنأىار أولة عربىة إسلامىة ، ومعنى هأا أنه لم بىأ لمصر أأار فىما أأأارأه ، فأىران أولة مسلمة ولكن العراق أولة مسلمة وعربىة ، وإىران أأأأ للزأف على الأزىرة العربىة إن أأأأ لها الانتصار على العراق ، وألك شىء أأأأه مصر ، وأأارب لأأه ، مها كانأ الأأروف .

وقأا نشرأ الأنباء أن عون مصر للعراق أأا فى أأأر الأوأاا وأأأأها ، أأا أن بعض زعاا العراق أأأأوا كأأرا أأأأأرا لهذا الأور المصرى الكأىر (١) .

(١) انأر موسوعة الأارأأ الاسلامى للمؤأف : أا ص ٢٠٣ .

وبينما وقفت مصر هذا الموقف من العراق ، فإن إسرائيل التى يتفترض أن بينها وبين مصر معاهدة سلام وقفت موقفا مضادا تماما لموقف مصر ، فقد أمدت إسرائيل إيران بالكثير من الأسلحة والذخائر والخبرات ، بل دخلت المعركة بشكل مباشر حينما انقضت طائراتها على المفاعل النووى الذى كان يمكن أن يكون من العوامل التى تشدد أزر الجيش العراقى ، ولم تترك الطائرات الإسرائيلية هذا المفاعل إلا وهو كومة من الرماد وكان ذلك فى يونيو ١٩٨١ كما ذكرنا من قبل .

إن حرب العراق أعطت درسا للعرب ألا يتعجلوا فى تصعيد الخلافات بينهم ، فهم فى حاجة إلى بعضهم البعض ، وقد تظهر هذه الحاجة بعد فترة قصيرة من القطيعة لنقول أدعاة الخلافات إن أسباب الحب والتآلف أكثر وأعمق من أسباب الجفاء .

قرارات سبتمبر المشؤمة

إن اتجاه السادات لأمريكا وللغرب بوجه عام ألزمه أن يتظاهر بالديمقراطية ، وكان هذا التظاهر شكائيا بعيدا كل البعد عن طبيعة السادات العسكرية والديكتاتورية ، فهو فى ذاته ديكتاتور عسكرى ، وهو فى تربيته تلميذ عبد الناصر الذى لم يكن فقط ديكتاتورا ، بل كان طاغية وسفاحا .

ومن الواضح أن إعلان الديكتاتورية أيسر من إخفائها ، وقد كان السادات يخفى الديكتاتورية ويتظاهر بالديمقراطية ، ولكن طبيعة الديكتاتورية فى نفسه طالما اندفعت إلى السطح وبرزت للعيان ، وفى خلال رياسته نجده فى عدة مرات يكبح الديكتاتورية ليتظاهر بالديمقراطية ، ثم ينهار أمام دوافع الاستبداد الكامن فى نفسه فيبدو ديكتاتورا متسلطا لا يستمع لأحد ولا يستمتع بضمير .

وموقف السادات من أحداث سبتمبر هو موقف رجحت فيه طبيعة

السادات ، فبرز استبداده علمه أوسع النطاق ، وقد أعلن سببين لهذا الموقف ، هما :

١ — الفتنة الطائفية التي رآها قد استعرت بين المسلمين ، الأقباط وبخاصة جماعة الأقباط الذين تظاهروا ضده في الولايات المتحدة في أثناء وجوده هناك ، والباحث في نفسية السادات يجد أنه لم يغفر هذه المظاهرات ، لأنها قامت في أرض الديمقراطية وبحضرة زعيم شرقي يدعى الديمقراطية ولا يعمل بها ، فجرحت هذه المظاهرات كبريائه واستسلم للعنف .

ومن ناحية المسلمين كانت ثوراتهم في مصر صاحبة بسبب قوانين جيهان التي ذكرناها من قبل ، وبسبب حرمان المسلمين من أصوات بعض العلماء الذين لهم في نفوس المسلمين مكانة عظيمة كالشيخ الغزالي والشيخ كشك ، ثم التقاعس الواضح تجاه تنفيذ قانون التشريع الاسلامي ذلك التشريع الذي كانت الهيئات العلمية قد أعدته من قبل ، ثم وضع في أدراج مغلقة بحيث لا يرى النور .

وعلى هذا كان السادات كارها للمسلمين والأقباط على السواء .

٢ — اعتقد السادات أن أحزاب المعارضة تعمل على ما يعوق تنفيذ الانسحاب الإسرائيلي من سيناء ، وإذا لم ينسحب الإسرائيليون من سيناء فإن المعاهدة تصبح حبرا على ورق ، لا قيمة لها . وكان السادات شديد الحماسة لهذه المعاهدة ، ويقول موسى صبري في ذلك : كان السادات متنبها لهذا التخطيط من المعارضة ، ولذلك قرر أن تكون قرارات التحفظ شاملة لكل الاتجاهات الدينية والسياسية المتطرفة ، وبذلك تهدأ الأجواء حتى يتم الانسحاب في ٢٥/٤/١٩٨٢ وكان واضحا لجميع المتصلين بالسادات أن هذه الإجراءات مؤقتة حتى يتم الانسحاب (١) .

(١) السادات : الحقيقة والاسطورة ص ٢٠٥ .

وتعليقنا على هذا الكلام من ناحيتين :

الأولى : بشاعة هذا التحفظ الذى شمل مجموعة كبيرة من كبار السن والمرضى والزعماء وكان مقصودا به أن يستمر ثمانية شهور من سبتمبر ١٩٨١ الى ٢٥ ابريل ١٩٨٢ *

الثانية : اتهام هذه الزعامات وهؤلاء المصريين بأنهم يقومون بأى عمل يؤجل أو يلغى انسحاب الإسرائيليين من سيناء ، وليس هناك مصرى واحد كان يعمل على تعطيل الانسحاب ، وإذا كانت الثورة هى التى جلبت هذا الاستعمار الكريه فإن المصريين جميعا كانوا فى أشد الحماسة لتخلص من أقدام هذه الطغمة الفاسدة من الصهاينة ، وقد دفع المصريون جميعا ضريبة الدم فى معارك أكتوبر لتحرير سيناء ، فلا يمكن اتهام أى مصرى بعرقلة طرد الصهاينة منها فسحقا لكلمات موسى صبرى *

وقرارات سبتمبر المشؤومة تعتمد على المادة ٧٤ من الدستور ، وهى المادة اللعينة التى شرحناها ونحن نتحدث عن الدستور ، وهى تعطى الرئيس سلطات واسعة وفضفاضة ، وتشمل قرارات سبتمبر ما يلى :

١ — القبض على حوالى ثلاثة آلاف شخص فى ليلة الثالث من شهر سبتمبر واللىالى التالية وفيهم أساتذة من الجامعات ، وزعماء سياسيون ، وصحفيون ، وأطباء ، ورجال دين مسيحيون ومسلمون ، وعدد كبير من الشباب ، وفيهم كذلك بعض القيادات النسائية (١) .

٢ — اعتقال بعض أقطاب اليسار بتهمة التآمر مع السفارة السوفيتية لقلب نظام الحكم ، واستلزم هذا طرد البعثة الدبلوماسية السوفيتية كلها من مصر *

(١) اختلفت المصادر فى تحديد العدد ، فالبعض يرى أنه كان ١٥٠٠ أو ١٥٣٦ ويرى الاستاذ هيكى ان العدد كان ٣٠٠٠ واضعا فى حسابه أعداد الشباب الذين قبض عليهم فى المحافظات المختلفة ، ولم يرحلوا للقاهرة ، وانظر : التغيير أو الضياع للدكتور محمد حلمى مراد ص ٣٧ .

٣ — إبعاد حوالى ستين أستاذًا ومدرسا من الجامعات وإحاقهم
بوظائف إدارية •

وقد أثبتت محكمة القضاء الإدارى بمجلس الدولة ان المادة ٧٤
لا تبيح ما قام رئيس الجمهورية بفعله ، فالخطر ليس جسيما ، وقد
تمكنت السلطات من التغلب على مشكلة الزاوية الحمراء ، فلم يكن هناك
ما يدعو لاستعمال هذه المادة (١) •

ومن مشاهير الذين اعتقلوا من السياسيين الأستاذ فؤاد سراج الدين
والأستاذ عبد الفتاح حسن ، والأستاذ محمد حسنين هيكل والأستاذ فتحى
رضوان ، والمهندس عبد العظيم أبو العطا ، والأستاذ إبراهيم طلعت ، والدكتور
محمد عبد السلام الزيات ، والأستاذ محمد فائق ، والدكتور حلمى مراد —
والأستاذ حامد زيدان ، والدكتور اسماعيل صبرى عبد الله ، والدكتور
محمد أحمد خلف الله ، والأستاذ فريد عبد الكريم ، والدكتور محمود
القاضى ، والأستاذ عادل عيد ، والأستاذ عبد العزيز الشوربجى والأستاذ
محمد فهميم •

ومن أساتذة الجامعات الذين اعتقلوا : الدكتور ميلاد حنا والدكتور
كمال الإبراشى ، والدكتور عبد المحسن حموده •

ومن الشخصيات الإسلامية البارزة اعتقل الأستاذ عمر التلمسانى
والشيخ المحلاوى والشيخ كشك والشيخ عيد •

ومن القيادات النسائية : د • نوال السعداوى و د • لطفية الزيات
وفريدة النقاش وغيرهن •

كما اعتقل عدد كبير من القسس ورجال الدين المسيحى •
وصدر قرار جمهورى بإبعاد البابا شنودة عن المباشرة الإدارية
على الكنائس ، وعينت لجنة بابوية خماسية لتتولى الشؤون الإدارية
بالكنائس •

(١) دكتور محمد حلمى مراد : التغيير أو الضياع ص ٤٣ •

ومن الصحفيين الذين اعتقلوا الاستاذ صلاح عيسى والاستاذ حسين عبد الرازق •

ومن المؤسف أن روح التشفى كانت مسيطرة على السادات وهو يقوم بهذا العمل الأخرق ، وقد وقف يعلن أسباب القبض على هؤلاء ويعدّد أسماء بعضهم ، وعندما جاء ذكر الشيخ المحلاوى الذى كان أحد خطباء مساجد الاسكندرية قال السادات عنه :

« أهو دلوقت قاعد زى الكلب فى السجن » •

وهذا التعبير وذلك التشفى بعيدان تماما عن اللياقة •

وعندما جاء دور التحقيق أمام المدعى الاشتراكى فيما ارتكبه هؤلاء من أخطاء تبين أن الكثيرين منهم لم يثبت لهم خطأ محدد لدرجة إن المدعى الاشتراكى شكّا خلال إجراء التحقيقات من أن عددا كبيرا من المتحفظ عليهم أرسل اليه للتحقيق دون بيانات وافية تشكّل اتهاما (١) •

والباحث تعتريه الدهشة عندما يطالع أن موسى صبرى كان في يده نفوذ يستطيع به أن يحمى من الاعتقال بعض الذين كانوا ضمن قوائم المعتقلين (٢) •

وكان من أبسط أنواع اللياقة أن يعامل هؤلاء المعتقلون معاملة المعتقلين السياسيين ، ولكن الذى حدث أنهم عوملوا بقسوة لا تلائم بشريتهم أولا ، ولا تتفق ووضعهم الاجتماعى ثانيا ، ثم إن الكثيرين منهم كانوا متقدمين فى العمر ، ويتناولون أدوية بشكل منتظم ، ولكن السلطة الجائرة حرمتهم الدواء ، ولم تقدم لهم الالتزامات البشرية والإنسانية ، لدرجة أن الاستاذ المهندس عبد العظيم أبو العطا الوزير

(١) موسى صبرى : السادات الحقيقة والاسطورة ص ١٩٦ •

(٢) المرجع السابق : ص ٢٠١ •

السابق مات في الاعتقال ولم يستطع زملاؤه أن يقدموا له الإسعافات
الضرورية عندما احتاج لها ، فأسلم الروح •

ويصف محمد حسنين هيكل ^(١) ما لاقاه هؤلاء المعتقلون من تعسف
فيقول : في صالة استقبال السجن صودر كل ما كان معي ومع غيري من
الكتب والأوراق والأقلام ، بل ومن الأدوية والمحافظ والنقود والملابس ،
ولم يسمح لكل منا إلا بغير داخل واحد وقوطة وفرشة أسنان بدون
معجون ووضعنا في زنانات بها مراتب من المطاط وبطاطين نفوح
منها رائحة ال « د • د • ت • » وكانت هناك حفرة في ركن من الزنانة
تمثل « الحمام » وفي ركن آخر كانت هناك مجموعة من الأوانى الصاج
ليوضع بها طعامنا ، وكان طعامنا عبارة عن العسل الأسود وبعض
الأرغفة التي تغطيها طبقة من الذباب •

ويقرر الأستاذ حسنين هيكل أنه في الأيام الخمسة الأولى لم يتناول
طعاما إلا خمس بيضات مسلوقة وخمسة أرغفة ، وكان خفير بيته بالريف
قد قدم له هذا الزاد عندما أخذته قوة من الشرطة لتفتيش سكنه
بالريف ، ويضيف هيكل أن هذا القدر الضئيل من الزاد اتسع لاستضافة
بعض رفاقه بالزنانة •

إنه على ذلك لم يكن سجنا إنما كان تتكيلا وتعذيبا ، ولا تسمح
القيم والأخلاق بذلك ، ولكن عصابة الثورة ما كانت تعرف القيم ولا
الأخلاق •

مقارنة بين اعتقالات عبد الناصر والسادات :

يمتدح موسى صبرى — للأسف — اعتقالات السادات ، فيراها
جنة إذا قيست باعتقالات عبد الناصر ، وكأنه يطلب من معتقلي

(١) خريف الغضب ص ٤٧٩ وما بعدها •

السادات أن يشكروه ويثثنوا عليه الآن اعتقالهم الذى وصفناه — كان كما يقول موسى صبرى — يختلف عن اعتقالات عبد الناصر كثيرا ، فان الاعتقالات فى عهد عتد الناصر كان معناها اختفاء المعتقل فى مكان مجهول الأعوام طويلة دون أن يُسَمَّح لأسرته بمعرفة مكان اعتقاله ، وكان المعتقلون — فى بعض المراحل — يقيَّدون بالسلاسل فى أيديهم وأقدامهم ، وكانوا يعذبون تعذيبا جماعيا بالضرب بالعصى الغليظة والجلد ، وبعضهم مات من فظاعة الضرب ولم يكن هناك تحقيق أو محاكمة على الإطلاق (١) .

ألا لعنة الله على هذه الاعتقالات وتلك ، وعلى من ابتكرها ، ومن نفَّذها ، ومن رضى عنها — وكثيرا ما كان طغيان الطاغية أثرا لكلمات يكتبها أو يقولها بعض المنافقين .

الاعتقالات والرأى العام المصرى والعالمى :

يقول موسى صبرى إن سياسة السادات فى الحكم كانت تقتضى أنه عندما يلجأ لاتخاذ الإجراءات الاستثنائية يبتعد عن المساس بالصحفيين والسياسيين وأساتذة الجماعات ، ولهذا كان مفهوما قبيل إعلان الاعتقالات أنها متجهة للجماعات الإسلامية ولعدد من القساوسة .

ولكن شيئا حدث لا يعرفه موسى صبرى جعل قرارات الاعتقال تتسع لكل الاتجاهات (٢) .

هل هى التقارير التى يتقرب بها الأوغاد إلى السادة ، أو هى الطبيعة العسكرية تندفع فى ثوبها الديكتاتورى الصريح ؟

لقد اتسعت الاعتقالات حتى كان الواحد منا لا يتوقع أن يرى زميله أو صديقه بمنجاة من الاعتقال .

(١) موسى صبرى : السادات : الحقيقة والاسطورة ص ٢١٠ .

(٢) المرجع السابق : ص ٢١٢ .

ولم يكن السادات يظن انه سيكون هدفا للهجوم من الإعلام الشرقى والغربى على السواء ، كان يظن ان الاتحاد السوفيتى هو وحده الذى سيهاجمه ، ثم فوجئ بأن الإعلام الغربى كان أكثر حدة من الإعلام الشيوعى ، وبخاصة لوجود الأستاذ محمد حسنين هيكل بين المعتقلين وله مكان بارز فى وسائل الإعلام الغربية ، وكانت صحيفة « الصنداي تايمز » فى قمة الغضب والسخرية بالسادات لدرجة أنها نشرت مقالات الهجوم على السادات فى نطاق واسع ، ووضعت مرة رسما لوجه السادات وكأنه وجه حمار (١) .

غرور السادات بالاستقبالات الشعبية :

يذكر موسى صبرى (٢) موقفا عجيبا للسادات ، فإنه بعد إصدار هذه الاعتقالات قام برحلة إلى المنصورة ، فاجتمع لاستقباله على طول الطريق أعداد كثيرة من البشر ، وعاد السادات الى استراحة القناطر بعد هذه الرحلة وهو فى قمة السعادة ، وصرّح بأن هذا الاستقبال العظيم يعتبر استفتاء جديدا لزعامته وتأييدا للقرارات التى اتخذها .

ولهمرى إنه لشيء يشين السادات أن يظن هذا الظن الأبله ، فإن مستقبله كانوا تلاميذ المدارس ، أو عمالا ، منحوا إجازة لهذا الغرض ، وكانوا رعايا ربما لم يسمهوا عن الاعتقالات ، وكانوا رجال حزبه كأولئك الذين رقصوا لعبد الناصر يوم التاسع من يونيو فى مجلس الشعب وأجساد المصريين فى سيناء تنتفض ، والدماء تندفع ، والوطن يحتله العدو ، والكرامة تداس .

ليت الرؤساء يعرفون أن الجماهير تجتمع « لتفرجة » على أى شيء غير عادى ، إنهم يفعلون ذلك مع ممثل أو مغنية ، وربما مع مجرم شهير ألقت الشرطة القبض عليه بعد هروب طويل .

(١) المرجع السابق : ص ٢٠٦ .

(٢) المرجع السابق : ص ٢١١ .

هن كلمات الأستاذ عمر التلمساني عن هذه الاعتقالات :

وقبل أن نترك أحداث سبتمبر الكريهة ينبغي أن نقتبس بضعة سطور من الكتاب الذى كتبه المرحوم الأستاذ عمر التلمساني يصف ما عاناه خلال هذه المحنة ، يقول سيادته :

يوم ٤ سبتمبر ١٩٨١ خرجت صحيفة الأهرام على الناس معلنة أنه تم القبض على ٥٥٣ شخصا من العناصر المحرصة على الفتنة الطائفية وأن غالبية المتهمين عناصر أعماما التعصب والتطرف الدينى ، ومعهم قلة حزبية ركبت موجة الفتنة ، ومعهم كذلك ١١٩ من ذوى السوابق ، وإن المدعى الاشتراكى يتولى التحقيق مع المتهمين وسيكشف السادات فى خطابه غدا التفاصيل المذهلة لمؤامرة الفتنة الطائفية (١) .

وأعلنت صحيفة الأخبار فى نفس اليوم أنه قد أعدت صحيفة اتهام خاصة لكل واحد من المتحفظ عليهم (٢) .

ويصف الأستاذ عمر التلمساني حالته فى الاعتقال فيقول :
وُضعت فى حبس انفرادى فى مستشفى طره من يوم ٣ سبتمبر ، وفى المعتقل حرمت من الصحف والمجلات والكتب ، ومن الراديو والتليفزيون وكانت التغذية سيئة للغاية . فكانت تُقدّم لى وجبة واحدة فى اليوم ، وهى من العدس المزوج بالحصى والرمال ، أو من الفول الذى استنفذ السوسى ما فيه من البروتين (٣) .

وفى يوم ٦ سبتمبر أعلنت صحيفة الأخبار بعناوين رهيبه مخيفه قولها :

- أخطر استغلال للدين .
- حل بعض الجمعيات المشهورة التى عملت ضد الوحدة .
- التحفظ على أموال الإخوان المسلمين والجماعات الإسلامية .
- دور العبادة تستغل لتحقيق أغراض سياسية ، ولضرب الوحدة الوطنية .

(١) أيام مع السادات ص ٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠ .

(٣) المرجع السابق ص ١١ - ١٢ .

- نقل ٦٤ من هيئات التدريس بالجامعات والمعاهد العليا
- فصل ٦٧ من العاملين في الصحافة والإذاعة والتلفزيون
- إلغاء القرار الجمهوري بتعيين الأتبا شنودة (١)

وحتى يثبت للقارىء كذب هذه الاتهامات يذكر الأستاذ عمر التلمساني أن كل التحقيقات والاتهامات قد حفظت ، وأن أعضاء النيابة كانوا يقولون إننا لا نجد صحيفة اتهام لأكثر المعتقلين .

دكتور حلمى مراد يصف بعض حالات القبض :

إذا كنا آتفا قد اقتبسنا من المرحوم الأستاذ عمر التلمساني بعض ما عناه يوم قبض عليه وما عناه في المعتقل ، فإننا نقتبس سطور من مشاهدات شاهد عيان آخر هو الأستاذ الدكتور محمد حلمى مراد وفيما يلي كلمات سيادته :

..... صاحب قرار الاعتقال فظاظة في التنفيذ بالنسبة لحالات رأيته ، فقد رأيت ليلة وصولي إلى سجن الاستقبال بطره شابا أودع معنا في نفس الزنزانة جاءوا به حافيا بجلباب النوم بعد أن انتزعوه من فراشه دون أن يمكنوه من ارتداء ملابسه أو إحضارها معه .

وصاحب الاعتقالات تعمية بالنسبة لأهل جميع المعتقلين فيما يختص بالجهة التي سيرسلون إليها ، ولم يسمحوا الأية سيارة خاصة بمتابعتهم لمعرفة تلك الجهة بحيث أخذ الأهل والمحامون يبذلون الجهد ويحاولون الاتصال بالمسؤولين عدة أيام لمعرفة مكان اعتقالهم ، وهو أمر يعود بنا إلى القرون الوسطى قبل أن يصدر التشريع الانجليزي الذي يلزم الدولة بضرورة الإفصاح عن مكان وجود المتهم ، وهو القانون المعروف باسم Habeas Corpus والذي أصبح أمرا متعارفا عليه ومسلما به في كل دول العالم المتحضر (٢) .

(١) المرجع السابق ص ١٤

(٢) التغيير أو الضياع ص ٣٩

حادث المنصة

كان بعض من توثقت علاقاتهم بالسادات يقولون إنه كان يتوقع أن يموت قتيلا تبعا للحكمة التي تقول : من قَتَلَ يَمُوتَ ولو بعد حين ، وكان السادات قد شارك وخطط في قتل أمين عثمان ، وفي محاولة قتل الزعيم مصطفى النحاس ، ولذلك كان ينتظر أن يُثَارَ منه (١) .

ولدينا وصف دقيق لحادث المنصة كتبه أكثر من شاهد عيان ، ولكننا قبل أن نورد هذا الوصف ينبغي أن نذكر الأسباب التي دفعت هذه المجموعة من الشبان للقضاء على السادات ، ويمكن القول إنه كانت هناك أسباب مباشرة وأسباب غير مباشرة ، والأسباب المباشرة هي تلك التي تُنسب للسادات نفسه قبيل الحادث ، أما الأسباب غير المباشرة فتتربط أساسا بتغاضي السادات عن المساويء التي ارتكبت في عهد سلفه عبد الناصر ، ومن أجل هذا ينبغي أن نبدأ بذكر الأسباب غير المباشرة ، فهي أسباب بعيدة ، ثم نتحدث على الأسباب المباشرة التي كانت حديثة الوقوع .

الأسباب غير المباشرة لحادث المنصة :

تسلّم السادات الحكم من عبد الناصر ، وأغضى الطرف تماما عن كل الجراح والآلام التي سببها عبد الناصر لمصر وللمصريين ، فلم يهتم السادات بالتحقيق في الهزائم البشعة التي دمرت الإنسان المصري ، وحطّت من سمعة البلاد ، وأكلت أعظم الثروات ، فلم يفتح السادات ملفات حرب ١٩٥٦ ولا حرب اليمن ولا حرب ١٩٦٧ بما في هذه الحروب من أهوال وإهمال جسيم .

ولم يهتم السادات بالسرقات والاختلاسات التي غمرت عصر عبد الناصر ، وكأنّ شيئا من ذلك كله لم يكن .

(١) حسن عزت : العمالة والاقزام ص ٢٦٠ .

وجواهر أسرة محمد على أسدل السادات عليها ستارا كثيفا مع أنها كانت فوق ما يخطر بالبال من جلال وعظمة ، وكأنّ هذا القدر الهائل من الجواهر كان ميراثا خاصا بعبد الناصر ورفاقه ، ومع اختفاء الجواهر اختفى كذلك الاثاث الفاخر من القصور الملكية •

والاكتهات المصرجة التي ارتبطت برصيد الذهب الذي نقله عبد الناصر إلى منزله سنة ١٩٥٦ ولم يعد للبنك المركزى مرة أخرى أغفلها السادات فلم يسمح بكلمة عنها ، حتى اختفت هذه الاكتهات مع اختفاء هذا الرصيد العظيم الذى تدهورت بسبب اختفائه عملتنا المصرية ، وكان هذا الرصيد خمسمائة مليون من الجنيهاات الذهبية الاسترلينية (١) •

وتكلم السادات عن خزانة عبد الناصر وما كان بها من أموال ثم سكت عن مصير هذه الأموال مع اعترافه بأنها كانت أموال الدولة للمصروفات السرية •

وظهر أولاد عبد الناصر وأصهاره بعده ومعهم مئات الملايين من الدولارات وأحيانا ينسب لهم البليارات ، ولكن السادات لم يفتح فمه بكلمة « من أين لك هذا » لأى منهم ، مع أن رائحة السلب كانت تفوح كثيرا •

والمعذبون الذين أوقع بهم عبد الناصر ومعاونوه من أمثال صلاح نصر وحمزة البسيونى ••• لم ينالوا أى انصاف من السادات •

وتناسى السادات الانتفاضات الشعبية التى قامت فى عهد عبد الناصر

(١) سبق ان تحدثنا عن هذا الرصيد - اقرأ الخطايا العشر للدكتور ابراهيم دسوقى اباطة ص ٤٥ •

وبخاصة انتفاضة فبراير ١٩٦٨ ونوفمبر ١٩٦٨ ثم انتفاضة عصر السادات نفسه في يناير ١٩٧٧ ، بل كان يسميها انتفاضة الحرامية .

وأغمض السادات الطرف عن اختلاسات مديرية التحرير ، وعمّا أصاب البلاد من انهيار المرافق ، ومن القوانين الجائرة الخاصة بالإسكان والأرض الزراعية ، وكأن شيئاً من ذلك لم يحدث .

وفي إيجاز ، لقد حفل عصر عبد الناصر بأحداث جسام أضرت بالبلاد والعباد ، وبدل أن ينصف السادات الناس من هذا الديكتاتور راح ينحني أمام تمثاله ، ويخفي كل مساوئه ، فأشعل القلوب حقداً عليه منذ أيامه الأولى .

الأسباب المباشرة :

إن الذين قتلوا السادات في يوم عيده ذكروا أسباباً رئيسية ثلاثة كانت مباشرة ، وكانت كالقشة التي قصمت ظهر البعير ، فأشارت كوامن الحزن في قلوبهم وهيجت نفوسهم فجعلتهم يثقّدون على هذا الاغتيال ، وهذه الأسباب المباشرة هي :

١ — المعاهدة مع أعداء البشرية من بنى إسرائيل ، ومحاولة تطبيع العلاقات بين مصر وإسرائيل .

٢ — اعتقال المسلمين بدون ذنب يذكر ، وتعذيبهم في السجون .

٣ — القبض الغادر الهادر الذي قام به السادات على آلاف من البشر في أوائل سبتمبر وما ضمّه هذا الحشد من رجال سياسة ، ورجال دين ، وأساتذة جامعات ، وكبار السن ، مع الإسران في الإساءة لهؤلاء المعتقلين .

وأضاف خالد الإسلامبولي زعيم القتلة أسباباً أخرى هي :

- ١ — سب العلماء المسلمين المشاهير ، ووضعهم في السجون •
- ٢ — تقريب الأشخاص الذين عرفوا بعدائهم للإسلام •
- ٣ — تشجيع نوادى الروتارى والليونز في مصر هو وزوجته (١) •

وهناك أسباب خاصة يذكرها الأستاذ عادل حمودة ، وهى اعتقال شقيق خالد ، وبكاء أمه عليه وخوف أبيه ، ثم تحفظ السادات على نبيل المغربى المترجم بمجلة « الدعوة الإسلامية » ومحمد البيلى من أعضاء الجماعات الإسلامية ، والأثنان هما زوجا شقيقتى حسين عباس الذى أفرغ الرصاص فى رقبة السادات وهو ينظر الى الطائرات التى تقوم بأعمال أكروباتية (٢) •

وكانت الأسباب غير المباشرة تتأجج فى نفس كل مصرى ، ثم جاءت الأسباب الثلاثة السابقة فدفعت هذه المجموعة من الثبان الى ارتكاب هذا الشطط على الرغم من كل شئ •

وصف الحادث :

والآن بعد أن قدمنا الأسباب المباشرة وغير المباشرة لهذا الحادث نستطيع أن نخطو لنقدّم وصفا لهذا الحادث :

تقول السيدة جيهان السادات إن زوجها كان يهوى الزى العسكرى لدرجة أنه كان يرتديه عقب طرده من الجيش ، مع علمه أن ذلك كان محرّما عليه ، ولما أصبح رئيسا للجمهورية زادت عنايته بالزى العسكرى وبجعله يتناسب مع مكانته الجديدة ، كما كان من مظاهر اعتزازه بعسكريته حرصه على تأبط عصا المارشالية فى المناسبات الرسمية •

(١) عادل حمودة : اغتيال رئيس ص ٩٠ •

(٢) المرجع السابق ص ١٢٠ •

وتضيف هذه السيدة بأن السادس من أكتوبر عام ١٩٨١ كان من الأيام القليلة التي لم يساورها أى خوف على حياة زوجها فيه ، فهذا اليوم الذى يتصدر الأعياد القومية المصرية كان يقين زوجة السادات قوياً بأن لا خطر يمكن أن يهدد حياة زوجها ، فهو القائد والبطل وصانع النصر ، وهو يقف بين أبنائه كما كان يقول •

رقم « ٦ » فى حياة السادات :

- وبمناسبة ذكرنا ليوم ٦ أكتوبر نقرر أن رقم ٦ كان رقما مهما فى حياة السادات ومشواره السياسى ، ويتضح ذلك مما يلى :
- ٦ فبراير عام ١٩٣٨ تخرج السادات من الكلية الحربية •
 - ٦ يناير عام ١٩٤٦ اشترك فى اغتيال أمين عثمان •
 - ٦ يناير عام ١٩٥٠ بدأت الخطوات لإعادته للجيش بعد أن كان مطرودا ، وقد تمت هذه الخطوات فى الأيام التالية لذلك التاريخ من شهر يناير •
 - ٦ أكتوبر عام ١٩٧٣ حقق أعظم نجاح فى العبور بجيش مصر الى سيناء •
 - ٦ أكتوبر عام ١٩٨١ لقي مصرعه وهو فى أوج مجده بين جيش كامل •
 - ٦ مارس عام ١٩٨٢ صدرت الأحكام فى قضية اغتياله (١) •

ونعود للسيدة جيهان السادات التى تقول انها لن تنسى الابتسامة التى ارتسمت على وجه زوجها حين دخل إلى منصة الاستعراض وسط موجة عالية من التصفيق ، ثم نظر إلى أعلى المنصة ليرى أحفاده الأربعة يقفون معى •

وتقرر السيدة جيهان أن العرض ابتداء متأخرا عن وقته ، ولم يكن بالدقة التى تميّز بها فى السنوات الماضية عندما كان تحت إشراف وزير الدفاع السابق الفريق الجسمى •

وتصل السيدة جيهان إلى وصف ساعة النهاية فتقول إن طائرات

(١) عادل حمودة : اغتيال رئيس ص ١٧ •



قبل الكارثة

سلاح الطيران أقبلت في تشكيلاتها الرائعة وأخذت طائرات الفانتوم تقوم بحركات أكروباتية تاركة خلفها خيطا من الدخان ذات الألوان البراقة ، فكانت السماء مليئة بالاشربة المتقاطعة الحمراء والزرقاء والخضراء ... ومن خلال النوافذ الزجاجية في الشرفات العلوية نظرت إلى أنور ، وكان كالآخرين ينظر إلى أعلى ليراقب الاستعراض في السماء ، وكانت قبعته على « الدرابزين » المقيم أمامه .

ولكن ما هذا ؟

ماذا تفعل هذه المركبة العسكرية التي خرجت فجأة من بين صفوف مركبات المدفعية وتوقفت أمام منصة العرض ، وجرى ثلاثة من العسكريين تجاه المنصة وهم يحملون المدافع الرشاشة ، وفي نفس الوقت سمعت فرقة قنبلة يدوية ، وقد كاد صوتها يكسيع وسط زئير الطائرات النفاثة ، وكلا الدخان الجو ، وفي الحال نظرت إلى أنور ، وكان واقفا يشير إلى حراسه بالتدخل ثم سقط ، وكان هذا آخر ما رأيته من زوجي .

صراخ وعويل والرصاص يحطم النوافذ الزجاجية التي كنت من خلالها أشاهد العرض ، وقد حاولت أن أسرع نحو زوجي ، ولكن حارسي منعني بعنف ، وأخذ أحفادي يصرخون ويصرخون حتى انفجرت قنبلة أخرى وملا صوت الرصاص آذان المشاهدين .

وفي هذه اللحظة شاهدت الأهوال ، فالقاع مقلوبة في كل مكان ، والدماء تتدفق ، وعربات الإسعاف تحمل القتلى والمصابين ، وسألت أحد رجال الحرس الجمهوري عن زوجي فأجاب : إنه بخير ، وإن طائرة هيليكوبتر حملته إلى مستشفى المعادي ، ويبدو أنه أصيب في يده فقط ، ورأيت أحد حراس نائب الرئيس يهمس في أذن السيدة سوزان بأن زوجها في أمان ، وأسرعت إلى السيارة التي حملتنا إلى الهليكوبتر التي كانت في الانتظار في قصر القبة لتذهب بنا إلى المستشفى ، وهناك في المستشفى كان الأطباء والمرضات ينظرون إليّ بالكثير من الوجود ، ولم



يوجهوا إلى أى حديث مما زاد فى قلقى على زوجى ، وانضمت إلى بناتى وأزواجهن فى حجرة فى المستشفى ، وكنا ننتظر أى طبيب ليجىء لنا ليطمئنا على أنور ، ولكن أحدا لم يأت وعشنا فى مستشفى المعادى فى قلق عظيم ، ووجدتنى أحس أن السادات قد ذهب ، وبعد لحظة عرفت وتأكد لى أن السادات قد انتهى •

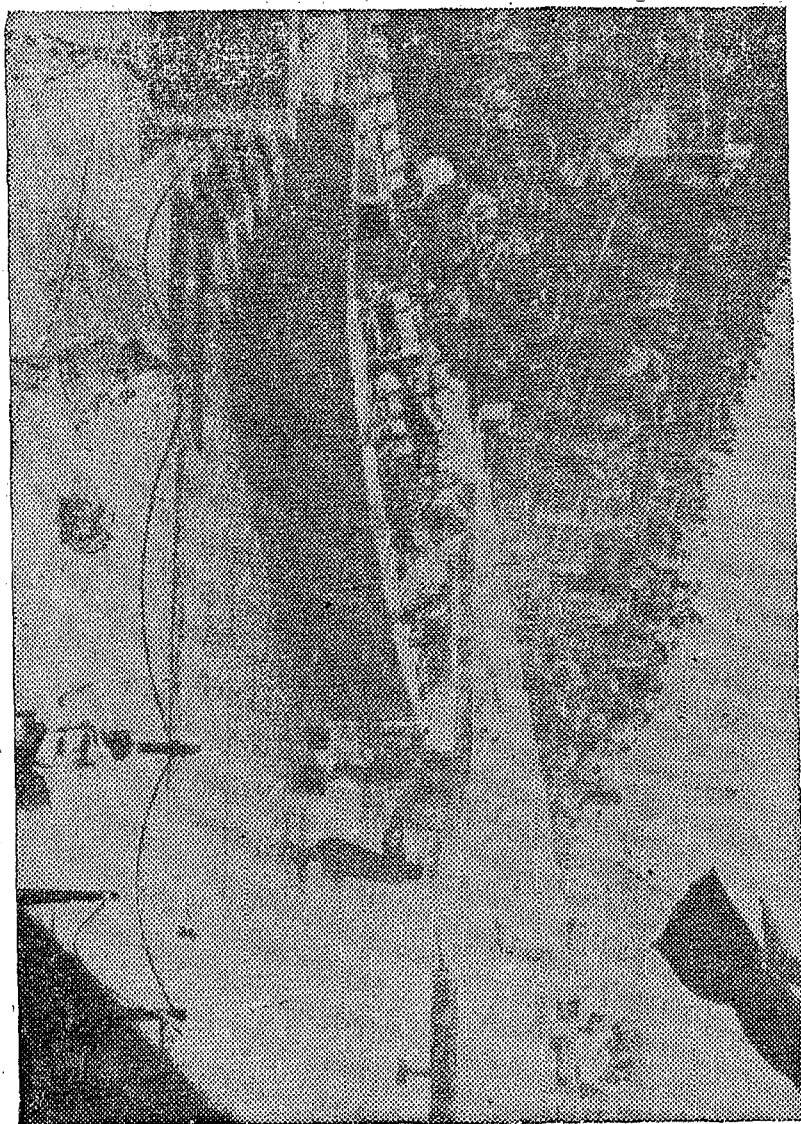
وتقول السيدة جيهان مصوِّرةٌ ما عدته إهمالا فى العرض فى ذلك العام : إن أسئلة كثيرة ظلت بلا إجابة ، ففى كل عام كانت فرقة من فرق الصاعقة تتقدم العرض ، ثم تأخذ مكانها بين الرئيس وقوات العرض ، ولكن هذا لم يحدث فى ذلك العام ، وفى كل عام كان القناصة يرابطون فوق أسطح الأبنية المحيطة لمراقبة أية محاولات عدوانية ، ولكن لم يظهر لهؤلاء القناصة أثر فى ذلك العام ، وكان المفروض أن تخضع كل مركبة عسكرية وكل مدفع لتفتيش دقيق للتأكد من خلوها من الذخيرة الحية ، لكن ثلاثة هم ضابط وجنديان استطاعوا بطريقة أو بأخرى أن يصلوا إلى المكان الذى كان زوجى يجلس فيه ومعهم ذخيرة حية •

وتختتم السيدة جيهان ما عدته إهمالا بقولها : هل كان حجم التآمر أكبر مما حدث ؟ أو أنه كانت هناك مؤامرة واسعة ؟ وقد اتضح أن جميع مَنْ فى مصر كانوا يوجهون اللوم للجميع الحرس الجمهورى يوجه اللوم إلى الحرس الخاص وبالعكس ، وهذا دفعنى إلى الشك ، الشك فى الجميع لقد قتلَ التهاونُ زوجى ، لقد قتل الإهمال زوجى (١) •

وعن هذا الإهمال يتكلم حسن عزت الذى كان زميلا للسادات عندما طُردا من الجيش فيقول : هناك قوات مختلفة مسئولة عن حماية الرئيس هى الصاعقة ، والحرس الجمهورى ، والحرس الخاص ، والمخابرات ، وأجهزة الأمن المختلفة ، وهى قوات مدربة تدريباً عالياً

(١) جيهان السادات : سيدة من مصر ص ١٧ ؛ ٣٣ مقتطفات •

ବିଜ୍ଞାନ ଓ ଶିଳ୍ପ



أنفقت عليه الدولة ملايين الدولارات ، فكيف عجزت كل هذه القوى عن حماية الرئيس ، إنه إهمال جسيم يستحق من قاموا به أن يحاسبوا حسابا عسيرا (١) .

وصف للحادث من زاوية أخرى :

إذا كنا قد أوردنا آنفا وصفا لنهاية السادات دونه زوجته ، فمن الواجب علينا أن نقدم وصفا آخر لهذا الحادث يركز على زوايا أخرى لم تسجلها زوجة السادات ، وهذا الوصف الجديد يعتبر إلى حد كبير تصويرا للحادث بيد فاعليه وأعوانهم ومن يتحدثون باسمهم ، وهو سجل دونه محامى المتهم الثانى فى القضية بعد أن استمع لتفاصيل الحادث من أفواه من قاموا به .

ويبدأ هذا المحامى « الأستاذ شوقى خالد » حديثه عن حادث المنصة بقوله : إن هذه المنصة فى السادس من أكتوبر سنة ١٩٨١ شهدت فى دقائق معدودة إحساس السادات بالزهو ثم بالقهر ، بالمجد ثم بالموت ، بالخطورة ثم بالضعف ، وينقل المؤلف وصف مراسلة إحدى شبكات التليفزيون الأمريكية للسادات حيث تقول : كان السادات يرتدى بزته الرمادية المائلة للزرقة المزينة بعشرات الأوسمة والنياشين ، والتي صممت له بمعرفة أفخم بيوت الأزياء الأوروبية ، وإلى جانبه نائبه حسنى مبارك ووزير الدفاع عبد الحليم أبو غزالة بنفس الزى .

ونقطع اقتباساتنا من الأستاذ شوقى خالد لنورد اقتباسا من الأستاذ عادل حمودة يقول فيه :

ويقال إن هذه البزة (البدلة) الجديدة أسهمت فى نهاية السادات ، فقد كانت ضيقة عليه ، فلم يستطع أن يلبس تحتها القميص الواقى من الرصاص ، وكان القتل يظنون أنه يرتدى هذا القميص ، ولذلك اتجه



مـداد

حسين عباس — وهو قذاف ماهر — إلى رقبة السادات فضربه فيها وهو يتطلع إلى أعلى ليتابع حركات الطائرات (١) .

ونعود للأستاذ شوقي خالد الذى يقول :
وقد لوحظ اختفاء شبكة الحراسة أمام المنصة ، ولوحظ كذلك أن الحرس الأمريكى الخاص بالسادات والمكون من ١٢ خبيرا قد تراجعوا إلى الخلف ، وكان ذلك بأمر السادات الذى كان يخشى الخطر من الخلف ، كما أنه لم يشأ أن يظهر بمظهر الخائف أمام العالم الذى كان يشهد العرض عن طريق شاشات التلفزيون .

وبدأ العرض ، وجلس الجميع فى استرخاء يتابعون تدفق القوات ومراقبة حركات الطائرات البهلوانية المزودة بالألوان ، والتي كانت تشد الأنظار إلى السماء

وفجأة حوالى الساعة الثانية عشرة ظهرا ، وقفت إحدى العربات أمام المقصورة ، وقبل أن ينتبه أحد فُتح باب من أبواب جهنم وانهارت القنابل والرصاصات فى اتجاه السادات ، وبعد حوالى ٤٠ ثانية كان السادات قد فارق الحياة .

ويصف المؤلف القتلة وهم يقرون ببعض التجارب على المنصة قبل العرض بيومين ليضمنوا نجاح مخططهم ، ويسرد الظروف التى ساعدتهم على تحقيق هدفهم ، وكيف أن خالد الاسلامبولى تسلم إبر ضرب النار الخاصة بتسليح كتتيته ، وأخذ منها ثلاث إبر هياها للاستعمال ووضع بديلا عنها إبرا أخرى حتى يكمل العدد مخافة تفتيش طارئ .

ومما ساعد هؤلاء على نجاح عملهم أن دراجة بخارية كانت تسير فى مقدمة طابور العرض وتعطلت ودفعها رجال الأمن بعيدا عن مسيرة الطابور ، وتعطلت كذلك عربة فدّمت بعيدا عن المسيرة أيضا ، فلما

(١) عادل حمودة : اغتيال رئيس ص ١٦٤ .

وقف خالد بسيارته أمام المنصة ظننً أن الحادث حادث تعطل كذلك الذى حدث للدراجة وللسيارة ، ولكن الأمر كان مختلفا ، فهذه العربية كان يركبها خالد الاسلامبولى ومعاونوه ، ومنها اندفع الموت إلى السادات وإلى بعض من كانوا معه على المنصة •

وقد أُلقيت على المنصة عدة قنابل ، والقنبلة الأولى ألقاها خالد الاسلامبولى ، ثم اندفع الرصاص من المدافع الرشاشة والبنادق الآلية ، وعندما أدرك السادات ومن معه أن فى الأمر شيئا وقف السادات وهو يهتف « مش معقول » وقد كررها عدة مرات ، وكان وقوفه فرصة لدى القناص البارع حسين عباس فصوب رصاصه إلى رقبته ، ورصاصات أخرى إلى صدره ، ثم تكوّن ما يسميه عادل حمودة (١) « تشكيل هجومى » اذ تقدم الأربعة الذى يشتركون فى هذه المؤامرة وأمطروا المنصة بوابل من الرصاص ، وقد استغرقت هذه الأحداث ٤٠ ثانية • وعندما انتبه الحرس للمأساة كان كل شيء قد انتهى •

ضحايا الحادث :

قتل مع السادات فى المنصة سبعة أفراد منهم اللواء حسن عبد العظيم كبير الياوران والمصور محمد يوسف ، وخلفان ناصر من سلطنة عمان والأنبا صموئيل وشانج لوى أحد رجال السفارة الصينية •

ومرتكبو هذا الحادث هم :

— خالد الاسلامبولى ملازم أول تخرج فى الكلية الحربية سنة ٧٨ مع مرتبة الشرف ، وهو لم يتزوج ، وكان يجيد الرماية وحصل على عدة بطولات فيها من القوات المسلحة •

— عبد الحميد عبد السلام عبد العال ملازم أول سابق من أبطال

(١) المرجع السابق ص ٢٦ •

رفع الأثقال وهو متزوج وله ابن واحد كان عمره عند الحادث تسعة أشهر •

— عطا طایل حميدة ملازم أول مهندس احتياط تخرج في هندسة الاسكندرية قسم ميكانيكا لم يتزوج •

— حسين عباس محمد رقيب متطوع بالقوات المسلحة متزوج وله ولد واحد كان يوم الحادث في يومه السادس من عمره ، وتوفي هذا الطفل عقب ذلك •

— محمد عبد السلام ، وهو لم يكن في العرض ولكنه الذى قدم الخيرة والرجال لخالد ، وهو كذلك كان المرائد الدينى الذى يحث على مقاومة الظلم والقضاء على الظالمين •

وقد تعرض القتلة بعد ذلك لرصاصات من أسلحة رجال المخابرات العسكرية ، ثم توقّف رجال المخابرات عن الضرب لعلهم يصلون عن طريق القتلة إلى معلومات عن أسرار هذا الحادث الذى ظنّ آنذاك أنه تدبير واسع المدى للاستيلاء على الحكم •

وبقيت بعد ذلك نقطتان ينبغي أن نقتبسهما من الأستاذ شوقى خالد وهما :

١ — شوهى النبوى اسماعيل نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية وهو يهرّب ويترك المنصة تاركاً زوجته في المنصة ، ولم يسترد الرجل شجاعته ، ولم يعد الظهور على وجه الأرض إلا بعد أن هدأت الأحوال ، وبعد أن ظهر أن الهدف لم يكن الاستيلاء على السلطة ، وراح الرجل كعادته يسيطر التقارير الأمنية التى أظهر فيها بأنه كان على علم بالمؤامرة قبل وقوعها ، وأراد أن يُعَدِّدَ للأمر عدلته ، ولكن أحداً لم يسمع رأيه ولا نصيحته ، وأنهى الرجل تقريره بأنه الوحيد بين رجال الأمة المؤهل لحماية الرئيس الجديد •

٢ — نقل جثمان السادات إلى مستشفى القوات المسلحة بالمعادي

على متن طائرة هليكوبتر ، ونقل القتلة الى نفس المستشفى في إحدى السيارات العسكرية ، وفي هذا المستشفى أعلنت حالة الطوارئ ، وانقسام الأطباء والجراحين الذين يعملون بالمستشفى فريقين ، فريق يعالج السادات وفريق يعالج الذين قتلوه ، ولكن السادات كان قد انتهى قبل أن يرفعوه من تحت مقاعد المنصة (١) •

جنازة السادات :

كانت جنازة السادات يوم السبت ١٠ أكتوبر ، وقد صُلّي عليه في مستشفى المعادي ، وحمل جثمانه في طائرة هليكوبتر الى ساحة العرض حيث اغتيل ، وقد بدأت طقوس الجنازة في حوالى الساعة الثانية عشرة بعزف (المارش) الجنائزى لفردريك شومان ، وقد سار في الجنازة ممثلون لثمانين دولة من أبرزهم ثلاثة من رؤساء الولايات المتحدة السابقين وهم نيكسون وفورد وكارتر ، وكان من المشيعين الأمريكيين الكسندر هيج وزير خارجية الولايات المتحدة وهنرى كيسنجر •

وكان من زعماء المشيعين الرئيس الفرنسى فرانسوا ميتران والرئيس الفرنسى السابق جيسكار ديستان ، والأمير تشارلز ولى عهد بريطانيا ، والمستشار الألمانى هيلموت شميت والزعيم الصينى دنج سىياو ينج ، ورئيسة البرلمان الأوروبى سيمون فيل ، والرئيس الايطالى ومملك بلجيكا والرئيس اليونانى •

ولم يكن بالجنازة من الزعماء العرب إلا جعفر نميرى رئيس جمهورية السودان آنذاك ، ويبدو أن العرب قاطعوا الجنازة ليس فقط لقطع العلاقات بينهم وبين مصر ، بل لتوقعهم أن زعماء اليهود سيكونون في الجنازة ، وبالفعل كان زعماء اسرائيل في الجنازة على الرغم من أن الجنازة حدثت

(١) الأستاذ شوقى خالد : محاكمة فرعون ص ٢١ - ٢٩ مقتطفات •

يوم السبت ، ووُورِيَّ جسد السادات التراب ومعه كل ما قدم من خير
وشر ، غفر الله له •

أما نهاية الذين قتلوه فقد تأجلت حتى تمت محاكمتهم كما سنرى
فيما بعد •

اغتيال السادات يهتم إعادة النظر :

ويخلق الأستاذ الدكتور محمد حلمي مراد ^(١) على اغتيال السادات
بقوله :

كان من الواجب أن يعاد النظر في كافة الأوضاع القائمة والسياسات
التي انتهجها السادات وحكومته للوقوف على مواضع الخلل ، والتصدي
لمعالجتها سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية حتى
لا يفلت الزمام مرة أخرى •

بعد النهاية :

عرف المصريين خبر وفاة السادات من الإذاعات الخارجية ، أما
وسائل الإعلام المصرية فلم تذع ذلك إلا بعد عدة ساعات •

وكان مجلس الوزراء قد انعقد بعد وفاة السادات وطبقا للدستور
أصبح الدكتور صوفي أبو طالب رئيس مجلس الشعب قائما بعمل رئيس
الجمهورية ، وأعلنت الأحكام العرفية ، وانعقد مجلس الشعب فقرر
معاشا استثنائيا لأرملة السادات ولأولاده منها وصدر بذلك القانون
رقم ١٦٣ لسنة ١٩٨١ ونصه :

مادة (١) : تتخذ الدولة جميع الإجراءات القانونية اللازمة لتمليك
الدار التي كان يقيم بها المغفور له الرئيس الراحل مهدي أنور

(١) التخيير أو الضياع ص ٧ •

السادات بالجيزة وملحقاتها ، مع النزول عنها لقرينته السيدة جيهان طوال حياتها ، ثم من بعدها لأولادها منه طوال حياتهم ، وتُعْفَى من جميع أنواع الضرائب والرسوم على أن تُخصَّص بعد ذلك كمُتَحَف ووزارة تُلد به ذكرى الزعيم الراحل .

مادة (٢) : تتنازل الدولة عن ملكية الدار التي كان يقيم بها المغفور له أنور السادات بالمعصرة بالإسكندرية وملحقاتها (والملحقات عشرون فدانا) إلى السيدة قرينته حال حياتها ثم لأولادها من بعدها على النحو السابق .

ويلاحظ أن المخصصات شيء هائل ، والدور واسعة الحدود ، ويضاف لها حدائق ومساحات واسعة ، وذلك ما اتَّبع مع أسرة عبد الناصر من قبل ، ورسوم التسجيل على حساب الدولة ، وكل ذلك بدون ضرائب مدى حياة الزوجتين وحياة أولادهن ، ويحدث هذا في وقت يعيش فيه الملايين من المصريين في القبور ، يا الله .

والفكر الإسلامي يرفض أن يشتري رئيس الدولة من الدولة أو يبيع للدولة ، والأمر هنا أشد فحشا فهو يأخذ من الدولة بدون ثمن .

ومن الملاحظ أن بنات السادات من زوجته الأولى قد استتبعن من كل ما خصص الأسرة السادات فالتنازل كان للأرملة السادات ولأولادها منه ، ونذكر القاريء بأن هؤلاء جميعا كانوا قد بلغوا سن الرشد عند مقتل أبيهم وهم أثرياء ، ويباشرون أعمالا تدرُّ عليهم أرباحا وفيرة وقد رتبت لبنات السادات زيجات رأسمالية في أغنى ثلاث أسر في مصر ، فما يأخذه أولاد الزعميين من مصر ليس إلا قطرات من دم المحتاجين ، وبلغة أخرى آخذ من الفقراء لتحقيق المزيد من الترف للأغنياء ، ولذلك أعتقد أن الله لن يبارك في هذا المال الذي يُعطى دون وجه حق .

(م ٣٣ - التاريخ الاسلامى)

ويلاحظ ان المعاش في العادة يتوقف إذا تزوجت زوجة المتوفى أو بناته أو وصل أولاده إلى سن الرشد ، ولكن القانون الذى أصدره مجلس الشعب تناسى كل هذه المبادئ ، حسابهم على الله • وإذا سارت مصر على هذا النمط من دفع مخصصات ومرتبات وبيوت للرؤساء فإنه بعد قرن واحد أو نصف قرن تصبح ميزانية مصر وقصور مصر ملكا لحفنة من أولاد الرؤساء وزوجاتهم ، إنه تخطيط لم تعرفه أية حضارة من الحضارات في عصرنا الحديث •

وتعلق الدكتورة نعمات أحمد فؤاد (١) على هذا القانون من عدة وجوه :

١ — لوحظ في هذا القانون ليس فقط ضمان الحاجة بل أيضا ضمان الترف ، ولذلك شمل هذا القانون قصر الاسكندرية وملحقاته •

٢ — كانت السرعة هائلة في استصدار هذا القانون ، فقد قُدِّم الاقتراح بذلك مساء الأربعاء ٧ أكتوبر ، وعقدت جلسة أخرى في مساء اليوم نفسه ، فوافق المجلس على هذا الاقتراح ، ثم وقع الدكتور صوفى أبو طالب القائم بعمل رئيس الجمهورية ونُشِرَ بالجريدة الرئيسية بتاريخ ٨ أكتوبر ، وكل ذلك قبل أن يدفن الجثمان •

٣ — سقط أحمد بدوى شهيدا ومعه أربعة عشر ضابطا من القادة ، ولم تفعل الدولة لهم أى شيء •

وقد نشرت الدكتورة نعمات في الصفحة نفسها من كتابها « صناعة الجهل » صورة للسيدة جيهان وهى تداعب « النسناس » وتسقيه لبنا ، وكثيرون من المصريين لا يستطيعون الحصول على رغيف الخبز •

(١) صناعة الجهل ص ١٢٧ - ١٢٨ •

أولاد السادات في نظره نوعان :

يقرر الفكر الإسلامى أن الآباء يجب أن يعدلوا بين أولادهم فى كل شىء حتى فى الابتسامة ، وقد حاولت زوجة بشير بن سعد أن تخص ابنها النعمان بشىء ، واستجاب لذلك زوجها ، وأرادت الأم توثيق ذلك فطلبت من بشير أن يثشهد الرسول على وثيقة التنازل ، ولما قدم بشير الوثيقة للرسول سأله الرسول : هل للنعمان إخوة ؟

فأجاب : نعم ، فسأله الرسول : هل أعطيتهم جميعا مثل ما أعطيت النعمان ؟ قال : لا • فصرخ الرسول فيه قائلاً : ليس يصلح هذا ، وإنى لا أشهد إلا على حق ، إن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم ^(١) •

ولكن السادات لم يكن سائرا على النهج الإسلامى ، لقد حرّم بناته من زوجته الأولى كل حنان ، وعطف ، ومال ، وحرمن كذلك زبانيته وزوجته الثانية بعد وفاته ، ويقول حسن عزت :

سألت زوجة السادات الأولى عن ميراث السادات فقالت إنه لم يترك مليما واحدا ، قلت : والمنزل الكبير فى ميت أبو الكوم والثمانية عشر فدانا التى اشتراها السادات من أخيك ؟ فأجاب سعد ماضى أخوها قائلاً : لقد بعثتها للسادات بثمن بخس عندما قال لى إنه يريد الأرض لبناء بيت كبير للأسرة ، ولكنه سجل الأرض لابنه جمال قبل وفاته ^(٢) • وهكذا لم ينل بنات السادات من السيدة إقبال ماضى أى نصيب من الميراث •

ونعود لجلسة مجلس الشعب التى عثدت عقب وفاة السادات فنذكر أن المجلس قرر ترشيح حسنى مبارك لرياسة الجمهورية ، ويجرى الاستفتاء على ذلك بعد أسبوع •

(١) الحياة الاجتماعية فى الفكر الإسلامى للمؤلف ص ٧١ - ٧٢ •

(٢) العمالة والأقزام ص ٢٤٧ •

قانون بمنح القصور والمعاشات الاستثنائية دائماً :

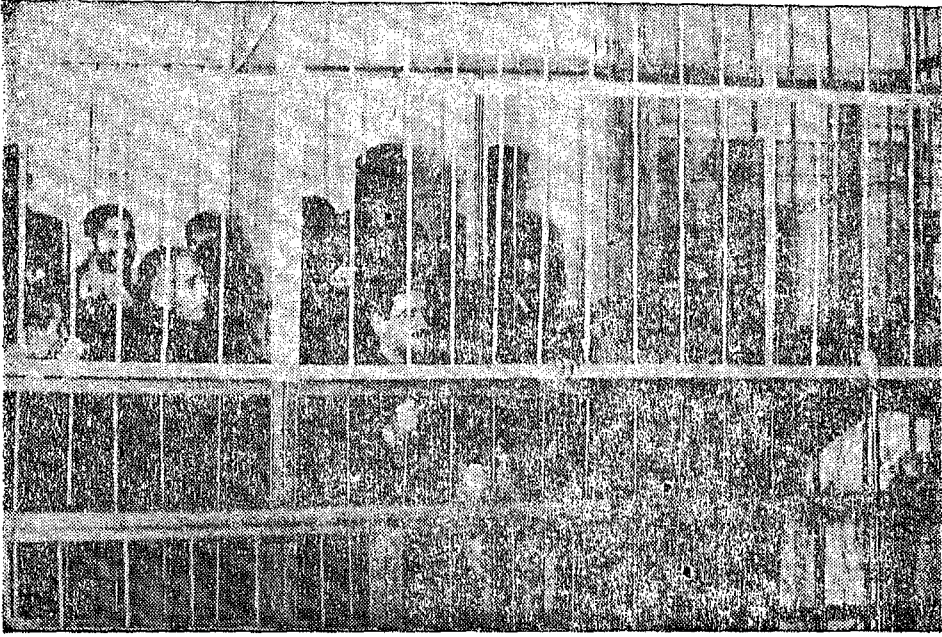
وهنى لا يحتاج مجلس الشعب لتكرار هذه المنح فى كل مرة يموت الرئيس أو يعتزل ، فقد تمّ إصدار القانون رقم ٩٩ لسنة ١٩٨٧ الذى قرر لأول مرة فى تاريخ الدول المتزام مصر بتقديم مسكن لمسنى رئيس الدولة بعد اعتزاله ولأسرته من بعده ، فالمادة الثانية فقرة أولى من هذا القانون تنص على أن : (تكفل الدولة دون مقابل مسكناً ملائماً يحدد لمسنى رئيس الجمهورية بعد تركه منصبه ولأسرته حال حياته ، ومن بعده لزوجته وأولاده) .

والفترة الثانية من المادة الثانية تحمّل الدولة كافة تكاليف الإعانة بل والرعاية لرئيس الجمهورية السابق (سواء عزل أو اعتزل) فتقول : (وتحمّل الدولة التكاليف اللازمة لتوفير الحراسة والأمن والرعاية اللازمة لرئيس الجمهورية السابق ، كما تتحمل جميع الضرائب والرسوم المقررة على شاغلى المسكن) .

محاكمة القتلة :

صدر قرار جمهورى بتكوين محكمة عسكرية لمحاكمة القتلة وأعوانهم برئاسة اللواء دكتور سمير محمد فاضل ، وفى هذه المحاكمة بذل المحامون أقصى الجهد لتتحول المحاكمة من محاكمة القتلة إلى محاكمة المجنى عليه ، فشرحوا ما ارتكبه السادات من أعمال كانت فى رأيهم ضد الدين والوطن ، واستلزمته القصاص منه ، وذكر خالد الإسلامبولى أن هناك أسباباً ثلاثة دفعت له لقتل السادات هى :

- ١ — القوانين التى يجرى بها الحكم فى البلاد لا تتفق مع تعاليم الإسلام ، وبالتالي فإن المسلمين كانوا يعانون أخطر المشقات .
- ٢ — السادات أجرى صلحا مع اليهود أعداء الله وأعداء البشرية وأراد تطبيع العلاقات معهم ، وهذا يضر بالوطن والمواطنين .
- ٣ — اعتقال علماء المسلمين واضطهادهم وإهانتهم .



القتلة خلف القضبان

وهذه الأسباب هي تقريبا نفس الأسباب التي ذكرناها من قبل *

ولعل الشيء الذي لم يفصح عنه خالد الاسلامبولي هو أن زنازين السادات ضمت عددا من أسرة خالد ، فأخوه وابن خالته وزوج شقيقته كانوا داخل هذه الزنازين * ويرى الأستاذ علوى حافظ ^(١) أن خالدا وأعوانه كانوا بعيدين عن هوى السلطة والحكم ولو أرادوا ذلك لقتلوا كل مساعدى السادات ووزراءه ، وأنهم أبطلوا لم يمثّلوا تيارا متعنّتا أو متطرفا كما يظن البعض أن يفهم ، بل إنهم شباب معتدل عبّروا عما تمنّاه كل مصرى بعد أن تأله السادات وتجبر ، وبعد عن الشعب ولم يعد يحسّ بالآلامه ، وصار يعيش في برج عاجي مثل غيره من الرؤساء العسكريين الجهلة *

وقد طلب الدفاع شهود نفى لإيضاح ما اعتبروه انحرافات في السادات ، فطلبوا شهادة كمال الدين حسين والبغدادى ، وحسين هيك ، وإسماعيل فهمى ، وحسن التهامى الذى وصف زيارة السادات للقدس بأنها « إسرء » وحلمى مراد وغيرهم وكادت المحاكمة تصبح كما وصفها الأستاذ شوقى خالد ، « محاكمة فرعون » أى محاكمة السادات ، ولكن المحكمة لم تقبل هذه الطلبات ولم تسمح بإحضار شهود النفى *

واشتدّ الصراع بين المحكمة والدفاع ، وقررت المحكمة أن الدفاع يجب أن ينتهى من المرافعة في مدة حدّدتها المحكمة ، ورفض الدفاع ذلك ، واشتدت الخلافات ، وأمرت المحكمة بتتحيّة بعض المحامين ، واتجه المحامون بشكوى إلى رئيس الجمهورية ، ولكن الرئاسة لم تستمع لهم ولم تتدخل في الأمر ، وفي وسط هذه الخلافات أعلنت المحكمة في ١٩٨٢/٣/٣ حجز القضية للحكم ، وحددت يوم ١٩٨٢/٣/٦ للنطق بالحكم ، وصدر النطق بالحكم في ذلك اليوم في الصباح الباكر ، وكان يقضى بإعدام خمسة

(١) المنصة ص ٢٠٣ *

هم الأربعة الذين سبق أن ذكرنا أسماءهم وعرفنا بهم أما الخامس فهو محمد عبد السلام فرج وكان يمثل فقيه الثائرين ورائدهم الدينى •

وحاول زعماء أحزاب العمل والتجمع وبعض رجال السياسة أن يطلبوا من رئيس الجمهورية ألا يوقع الحكم بالموافقة ، وأن يخفف حكم الإعدام أو أن يعيد محاكمة القتلة أمام محكمة أخرى ، ولكن الرئيس حسنى مبارك وافق على الحكم •

ومن الأمور التى أثارها الدفاع أن قتل السادات لم يكن برصاص هؤلاء المتهمين ، وقدّموا بعض الأدلة على ذلك ، ولكن خالد الاسلامبولى رفض ذلك وقال : كأنكم تريدون حرمانى من شرف قتله ، وهو عمل" بذلت أقصى الجهد لتحقيقه •

وتم إعدام هؤلاء الخمسة فى يوم ١٥/٤/١٩٨٢ ولم تسلكهم جثثهم لذويهم ، ودُفِنوا فى مكان واحد لا يعلم به أحد (١) •

نقابة المحامين ترفض رئيس المحكمة :

أحيل الدكتور سمير فاضل للمعاش عقب هذه المحاكمة ، وقد حاول أن يقيّد اسمه فى جدول نقابة المحامين ، لكن طلبه رفض بعد أن اتهمته النقابة بأنه فى أثناء نظر هذه القضية أخلّ بحقوق الدفاع (٢) •

موقف بعض المحامين فى هذه القضية :

وعلى الرغم من جهود المحامين فى هذه القضية فقد ذكر أحدهم وهو الأستاذ ممدوح عبده مراد أن موقف المحامين فى هذه القضية كان حرجا جدا ، لأن المحامى كان يحس بأنه يقف ضد أساسى رأى العام الذى لم يكن متعاطفا مع المتهمين •

(١) شوقى خالد : محاكمة فرعون ص ٢٢٤ وما بعدها •

(٢) عادل حمودة : اغتيال رئيس ص ٢٦٧ (بالهامش) •

ومثل هذا ما قاله الأستاذ محمد يسرى محرم الذى ذكر أن هيئة الدفاع ما حضرت الى هذه المقاعة إلا الأداء واجب الدفاع ، وهى أمانة لا بد من أدائها ، ولكن هيئة الدفاع فى الوقت نفسه تشجب سفك الدماء ، وترفض اعتباره وسيلة للتفاهم وحل المشكلات (١) .

سقوط النظام كله :

ونختم هذه الدراسة بكلمات للأستاذ علوى حافظ (٢) حول نهاية ثورة ١٩٥٢ مع قتل السادات يقول سيادته : سقط النظام كله الذى بدأ صباح ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، انتهى على المنصة ظهر يوم ٦ أكتوبر سنة ١٩٨١ . نعم سقط وانتهى مع السادات ، وكان السادات يقول لخاصته إنه آخر الفراعنة (٣) .

سقط بعد أن أضع ثلاثين عاما من عمر الشعب .

لقد أمضت مصر مع هذا النظام عمرا تراجعت فيه لأوراق ، وضاعت ، وتخلّفت ، وأفلسست ، ولينتنا نعى هذا الدرس ونفهمه لنوقف فترة انضياح ، وبخاصة أن هذه الفترة كانت من أخصب الفترات على أكثر شعوب العالم ، لقد حققت دول " من العالم الثالث صورا من التقدم ، أما حكم العسكريين فى مصر فقد تركها جائعة تجثو على ركبتيها لتطالب من الأصدقاء ومن الأعداء رغيف الخبز .

قوانين يجب أن تسقط :

ومع سقوط النظام ينبغى أن تسقط القوانين التى ابتكرها النظام ، وفى قمتها ما يلى :

- (١) المرجع السابق ص ٢٧٠ .
- (٢) المنصة : ص ١٩٩ - ٢٠٠ .
- (٣) المنصة : ص ٢٠٤ .

- ١ — تقسيم الدولة الى عمال وفلاحين وفئات ، فنحن شعب واحد والتداخل واضح جدا بين هذه الأقسام •
- ٢ — الديمقراطية الخداعة لتصل الى الديمقراطية الحقيقية ، وبخاصة في الانتخابات •
- ٣ — القانون رقم ٣٤ لسنة ١٩٧٢ بشأن حماية الوحدة الوطنية •
- ٤ — القانون رقم ٢ لسنة ١٩٧٧ الخاص بأمن الوطن والمواطن والصادر عقب احداث ١٨ و ١٩ يناير سنة ١٩٧٧ •
- ٥ — القانون رقم ٣ لسنة ١٩٧٨ بشأن حماية الجبهة الداخلية والسلام الاجتماعى •
- ٦ — القانون رقم ٣٥ لسنة ١٩٨٠ الخاص بحماية القيم من العيب •
- ٧ — قانون الأحزاب السياسية (١) •
- ٨ — القانون الذى يبيح لرئيس الجمهورية أن يرشح نفسه للرئاسة أكثر من مرتين (وينبغى أن تكون كل مرة من المرتين أربع سنوات فقط) •
- ٩ — البدعة التى ابتدعوها لاعطاء القصور والاستراحات لرئيس الجمهورية عقب اعتزاله أو لأسرته عقب وفاته •

(١) انظر التغيير أو الضياع للدكتور محمد حلمى مراد ص ٥٧ وما بعدهما •

أُمرات ليست من الحوليات

تدارسنا فيما سبق أحداث عصر السادات التى ارتبط كل منها بعام من أعوام حكمه ، وجاء الآن دور الأحداث التى انسابت من عام إلى عام ولم ترتبط بعام محدد ، وذلك مثل الديكتاتورية والمترف والحسنات والمساوىء وسنتدارسها الآن تحت عناوين موضوعية وليست تحت عام من الأعوام .

الحاكم وأسرته

سنتحدث تحت هذا العنوان عن « أنور السادات » من ناحية تكوين شخصيته ، وأبرز اتجاهات هذه الشخصية ، ثم نتحدث عن زوجته « جيهان » التى كانت إلى حد كبير لها دور فى عهده ، ثم نتحدث عن أولاده بوجه عام ، ونبدأ بأن نرسم أبرز صفات أنور السادات .

أنور السادات :

ولعل أول ما ينبغى أن نعرضه هو التعرف على الأخلاق الشخصية للرئيس وأسرته ، وهذا سيدعوننا لتعرف على عبد الناصر الذى اختار السادات ليكون خليفة له ، والأساس الذى رجح هذا الاختيار .

وأبرز صفات عبد الناصر الشخصية هو أنه كانت به عقدة من الفقر جعلته شديد العداوة للأغنياء ، وعقدة من الذلة جعلته شديد الحقد على الأشراف ، وبالتالي شديد الحرص على إفقارهم وإذلالهم ، ولكن حقه على الأغنياء لم يدفعه ليكون صديقا للفقراء ، بل إنه وجّه كل اهتماماته لذاته ولأسرته ، أما الفقراء فقد ازدادوا فى عهده فقرا ، والامية ازدادت انتشارا ، والقرية المصرية والأحياء الشعبية بالمدين تركت تسبح فى ظلمات القرون الوسطى ، وساعت حاليها عما كانت عليه قبل هذه الثورة المشؤومة ، وقنع عبد الناصر بالإعلام الزئف (الصحافة والإذاعة والتليفزيون) التى كانت تحت سلطانه ، فجاءت تهتف له وتبنى له مجدا من الخيال لا يلبث أن يزول .

وكان عبد الناصر بسبب عقدة الفقر والذلة اللتين عاناها في مطلع حياته ، مولعا بمن يهدحه ويعلى قدره ، به إنه بارك كاتباً أجرى مقارنة بين الدعوة المحمدية (نسبة للرسول صلوات الله وسلامه عليه) والدعوة الصلاحية (نسبة لصلاح الدين الأيوبي) والدعوة الناصرية (نسبة لعبد الناصر) واتجه في مقاله لترجيح الدعوة الناصرية (١) .

نفاق السادات :

ومن أجل هذا وجد عبد الناصر بغيته وأمنيته في أنور السادات ، فقد كان النفاق أبرز أخلاق السادات ، فاندفع هذا يمدح عبد الناصر على نمط الشاعر ابن هانيء الذي قال في الخليفة الفاطمي قولاً أغرق فيه وانحرف ، قال :

ما شئت لا ماشاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

ولمبالغة السادات في مدح عبد الناصر ، نال رضاه ، فنال السلامة والرياسة ، .

ما مظاهر خُلُق النفاق في السادات ؟ وكيف كان النفاق أبرز صفاته ؟ ذلك ما سنوضحه فيما يلي :

مع الملك فاروق ومع الضباط الأحرار :

يقول حسن عزت صديق السادات وصهره (١) : السادات كان عميلاً مزدوجاً ؛ للعرش مقابل المال ، ولتشكيل الضباط الأحرار مقابل ما قد يصل إليه منهم فيما لو نجحت الحركة واستولت على الحكم ، أى باختصار شديد كان يلعب على الحبلين ممسكاً العصا من منتصفها ، فلو فشلت الحركة فهو مع العرش ومركزه مضمون لتحقيق طموحه ،

(١) انظر الجزء التاسع من هذه الموسوعة عن عصر عبد الناصر : عصر المظالم والهزائم ص ١٤١ وما بعدها .
(٢) العمالقة والاقزام ص ٣٦٥ .

ولو نجحت الحركة فهو في مركز أكثر ضمانا ، وهذا هو الوجه القبيح
للسادات .

مع عبد الناصر وضده :

وتجلى نفاق السادات في أبرز صورهِ مع علاقته بعبد الناصر ، ففي
حياة عبد الناصر كان السادات يرفعه إلى درجة أسمى من درجات البشر ،
وكانت كلمات « الملهم والمعلم » هي من الأوصاف التي يضيفها على
عبد الناصر من حين إلى حين ، وكان السادات يخلق من هزائم عبد الناصر
انتصارا ، ومن قسوته شجاعة ، ومن استبداده ديمقراطية ، ومن سرقاته
أمانة ونزاهة ، ولعل أبرز صور النفاق التي انبعثت عن شخصية السادات
تجاه عبد الناصر هي كتابه الذي ألفه يمتدح فيه سيده ، ويثنى عليه
ويضيف عليه صفات القديسين ، وعنوانُ هذا الكتاب هو :

يا ولدى هذا عمك جمال

وقد حرص أنور السادات على إخفاء هذا الكتاب وجمعه
من الأسواق والمكتبات عندما آل له الأمر ليخفي عورةً كانت فاضحةً
ولكن كيف والكتاب كان في يد الكثيرين ، وأول صور النفاق التي تتصل
بهذا الكتاب أن ابن السادات الذي أهدى السادات إليه هذا الكتاب
أسماء أبوه « جمال » تيمنا باسم الزعيم وإيماء بولاء لم يعرف العمق ،
ولاء انقلب إعصارا ضد عبد الناصر عندما رحل الزعيم كما سنرى .

ومن هذا الكتاب نقتبس بضع فقرات :

السادات يمتدح عبد الناصر

سميتك باسمه :

وجمال عبد الناصر عمك يا بَني الذي سميتك على اسمه هو
صديقي ، ورئيسي ، الذي أحبه وأحترمه منذ أن كنا ضابطين صغيرين
في منقباد سنة ١٩٣٨ (١) .

(١) أنور السادات : يا ولدى هذا عمك جمال ص ٣١ .



كان من وظائف السادات أن يضحك الزعيم

اللواء محمد نجيب يتعاون مع الرجعيين ؟؟

وأخطر شيء واجهته ثورتنا يا بئى كان من داخل الثورة نفسها حينما خرج على مبادئها الجنرال محمد نجيب ، وهو الرجل الذى اخترناه أول الأمر لقيادتها ، ففضل أن يتعامل مع الرجعيين أعداء الثورة ، وكادت المسألة تنتهى بكارثة لولا يقظة عمك جمال (١) .

جمال هو الثورة :

إن الحديث عن الثورة لابد أن يعود بنا فى كل صغيرة وكبيرة إلى شخصية عمك جمال (٢) .

الثورة والمثل العليا :

إن ثورة ٢٣ يوليو اتخذت من المثل العليا شعاراً لها ، وتمسكت وحافظت عليه بسبب عمك جمال (٣) .

أتاتورك والتكيد بالأصدقاء :

وقد حافظ عمك جمال على المثل العليا ، فلم يكن مثل كمال أتاتورك الذى قضى على كل زملائه وأصدقائه الذين عاونوه فى ثورته (٤) .

(تعليق : نسى أنور السادات أو تناسى أن عبد الناصر قضى على كل أصدقائه ومعاونيه ، وكان المشير آخرهم ، ولم ينج منهم إلا من سبغ بحمده كالسادات ، أو من كان على هامش الثورة مثل حسين الشافعى ، وقد نسى أنور السادات أن عبد الناصر كان قد نكّل بالإخوان المسلمين سنة ١٩٥٤ وقتل الأستاذ عبد القادر عودة وخمسة من زملائه وسجن وعذب الآلاف منهم ، وكان عبد الناصر فى يوم ما يتظاهر

(١) المرجع السابق ص ٣٧ - ٣٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٤١ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٨ .

(٤) المرجع السابق ص ٤٩ .

بأنه من الإخوان وطالما استعان بهم قبل الثورة وفي مطلعها ، حتى استأسد فقطع اليد التي امتدت له بالعون وأسرف في التتكيل بهؤلاء الذين ساعدوه) •

فطنة عبد الناصر :

وهكذا وضع عمك جمال شعار المثل العليا موضع التنفيذ ، وكان عمك جمال وما زال وسيظل يحسب حساب كل شيء مهما كان مستبعدا ، وكان يسيطر على الأحداث فيوجهها ولا توجهه (١) •
(تعليق : لو كان كذلك ما تكررت هزائمه العسكرية ولا اضطربت خطته الاقتصادية والاجتماعية) •

مظالم ٦٠٠ سنة :

وعمك جمال يا ولدى هو الذى حطم مظالم ٦٠٠ سنة (٢) •
(تعليق : الحق أنه خلق مظالم لا تتسع لها القرون) •

جمال والصدقة :

كانت الصدقة هى العامل الأساسى الذى اتخذه عمك جمال شعار له ، فهو معنى ينسجم مع طباعه (٣) •

عبد الناصر والديكتاتورية :

فى الاجتماع الأول لمجلس قيادة الثورة اتجهنا جميعا إلى تبني الديكتاتورية لكى يمكن أن نبني البلاد بعد هذه الفترة الطويلة من الفوضى والفساد ، ولكن عمك جمال يا ولدى أعلن أنه لا يستطيع أن يكيّف نفسه مع أى نظام ديكتاتورى لأن ذلك يتنافى مع طبيعته ، وكانت نتيجة التصويت هى سبعة أصوات فى صالح الديكتاتورية وصوت واحد

(١) المرجع السابق ص ٥١ - ٥٢ •

(٢) أنور السادات : يا ولدى هذا عمك جمال ص ٦٥ •

(٣) المرجع السابق ص ٧٠ •

في صالح الديمقراطية ذلك هو صوت عمك جمال ، واعتزركنا عمك جمال ، ولكننا اضطررنا للتراجع وموافقته على رأيه لأن عمك جمال هو عقل الثورة ومدبرها ورأئدها (١) .

(لا داعي للتعليق ، فكم قتل عبد الناصر ونكل بكل صوت اتجه للديمقراطية) .

اللهم :

وجمال يارب هو صنّعتك الرائع ، وإبداعك القاهر ، إنه عبدك المؤمن بك ، المتوكل عليك ، الذي يسير بإلهامك ، وهو الباعث في شعبه وقومه رسالة الحق والعزة والسلام ، ولقد نصرتنا يا رب به في مواطن كثيرة (٢) .

(لا تعليق فهذا الكلام قمة الكذب والنفاق فلم تعرف البلاد العزة والسلام والنصر طيلة عهد عبد الناصر) .
تلك نماذج من كتاب مطبوع ، والكتاب كله يسير على هذا النمط ، فهو أبشع صورة من صور الكذب والنفاق .

الانحناء أمام تمثاله :

وحتى بعد موت جمال عبد الناصر استقبل السادات عهده في الرئاسة بأن انحنى أمام تمثاله في مجلس الشعب كما ذكرنا من قبل ، وإذا كان السادات يخاف جبروت عبد الناصر في حياته ، فقد انحنى له بعد وفاته لإحساسه أن عبد الناصر خلّق جبابرة في مراكز القوة فأراد أن ينافقها ريثما يتحدّث نفسه لمواجهتها .

السادات يهاجم عبد الناصر :

رأينا فيما سبق صوراً من التسبيح والإجلال الذي كان مظهر السادات في عهد عبد الناصر ، فماذا كان حال السادات بعد موت الزعيم ؟

(١) المرجع السابق مقتطفات من ص ٧٨ ، ٧٩ ، ٨١ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٣ .

إن السادات لم يضمن^١ علينا بفيض من حقه على عبد الناصر وكرهيته له ، ووصفه بما يستحق من صفات النزق ، والخيبة ، وقد اتضح ذلك في كتاب « البحث عن الذات » الذى ضمّت صفحاته أشنع وصف لمن كان بالأمس ملهّما ومعلّما ، ومن هذا الكتاب نقتبس بضع فقرات :

حقد وقلق :

لم يكن من السهل أن تزول الغشاوة من عيني عبد الناصر ، وداخلته ملئ بتناقضات لا يعلمها إلا الله ، يحتم على واجبي ألا أكشفها أو أمّصح عنها ^(١) ، ولقد مات عبد الناصر دون أن يستمتع بحياته ، فقد قضى حياته كلها بين انفعال وانفعال ، وكان القلق يأكله أكلا ، وكان يفترض الشك^٢ فى كل إنسان ، وكانت النتيجة الطبيعية أن خلف عبد الناصر وراءه تركة رهيبة من الحقد سواء بين زملائه وأقرب الناس إليه ، أو داخل البلد نفسها بجميع طبقاتها ^(٣) .

جبّل الحقد :

أقبح ما واجهته عندما توليت رئاسة الجمهورية لم يكن الوضع الاقتصادي المنهار ، ولا الوضع العسكرى المهيّن ، بل جبّل الحقد وانعدام القيم الإنسانية ، ومحاولة الكسب بحق أو بدون حق بأى ثمن ولو كان عن طريق القضاء على الآخرين ^(٣) .

شكوك عبد الناصر جعلته ينشغل بنفسه :

كان عبد الناصر فى طبيعته كثير الشك ، ولذلك انشغل بأمنه عن أهم وأثمن ما فى الوجود وهو الإنسان ، وهكذا حدثت فى مصر أخطاء

(١) ماذا كان يمكن أن يذكر غير هذا الفيض من الصفات القبيحة التى نسبها اليه ، ويبدو أنه كان هناك أكثر مما ذكر .

(٢) أنور السادات : « البحث عن الذات » ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٣) المرجع السابق ص ١١٣ .

جسيمة ضد أخطر وأهم ما كان يجب أن نحرص عليه وهو آدمية الإنسان وإنسانيته (١) .

عصبى المزاج :

لم يكن من السهل على عبد الناصر أن يثبتيء علاقة صداقة مع أى إنسان ، فهو المتشكك دائما ، الحذر ، المليء بالمرارة ، العصبى المزاج (٢) .

الشك فى كل إنسان :

كان عبد الناصر يشك في كل إنسان وفى كل شىء إلى ان يثبت العكس ، وفى ظروف حياتنا المعقّدة ، قليلا ما يثبت ذلك ، وفى ضوء هذا الخلق طالما أنزل النوازل بالآخرين لجرء الشك (٣) .

اهتمام عبد الناصر بأسرته :

كان لدى عبد الناصر حساسية شديدة من ناحية أهله ، فكان يكفى أن يبخلّغه أن أحدا من الناس قال شيئا ما عن أحد أقاربه حتى يضعه على الفور فى المعتقل ، ويتخذ ضده أقصى الإجراءات ، وهذه إحدى نقاط الضعف التى كان يستغلها أصحاب مراكز القوى لينالوا حظوة عنده ، وفى نفس الوقت ينالون من أعدائهم (٤) .

تختلط عايه الأمور :

كان عبد الناصر تختلط عليه الأمور ، ويفقد البصيرة ، متأثرا بآراء المحيطين به ، ولم يكن هؤلاء شرفاء فى تقديم النصيح له ، فقد كان كل

(١) المرجع السابق ص ١٢٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١٣٥ .

(٣) المرجع السابق ص ١٦٣ .

(٤) المرجع السابق ص ١٨٠ .

- همّهم أن يعظّموا عبد الناصر حتى تبقى لهم مناصبهم ونفوذهم (١) .

الغفلة والخرافة بدل الحقيقة عند عبد الناصر :

كان عبد الناصر مشغولاً بالخرافة التي أصبح اسمه مقترناً بها ، خرافة كبيرة جداً ، وهو أنه حقّق النصر على امبراطوريتين كبيرتين ، « بريطانيا وفرنسا » ونسى عبد الناصر دور أيزنهاور الذي حوّل الهزيمة العسكرية الطاحنة إلى نصر سياسي ، وشاعت هذه الخرافة وأصبح عبد الناصر أول من صدّق أنه انتصر ، ونسى الهزيمة العسكرية التي لم يستطع أحد من المصريين نسيانها (٢) .

كمية رهبية من الأحقاد :

كان عبد الناصر يترك خلفه كمية رهبية من الأحقاد ، وكان كل من رجاله يحمل في نفسه كمية هائلة من الخقد على عبد الناصر ، وبقيت هذه الأحقاد مكتومة في نفوس هذه الجماعة (٣) .

الديكتاتورية :

كانت الديكتاتورية طبيعية في عبد الناصر لم تتخلف عنه (٤) ! ! !

عنيف في خصوماته :

كان عبد الناصر عنيفاً في خصوماته لا يعرف لها حداً ، وطالما اندفع في هذه الخصومة إلى نقطة اللاعودة (٥) .

ذلك قليل من كثير مما ذكره السادات مسبّحاً بحمد هيد الناصر مرة ولاعنا له مرة أخرى ، وأترك للقارئ الحكم على الرجلين ، والدعاء أن ينقذنا الله مما خلّفه هذان الرجلان من بلاء نطمع ألا يطول مداه .

-
- (١) المرجع السابق ص ١٩٢
 - (٢) المرجع السابق ص ١٩٤
 - (٣) المرجع السابق ص ٢٠٢
 - (٤) المرجع السابق ص ٢١٣
 - (٥) المرجع السابق ص ٢١٧

وكما نافق السادات عبد الناصر ، فإن الكثيرين نافقوا السادات ، وقد كتب المرحوم الدكتور ابراهيم عبده كتابا ^(١) يحذر ذيه السادات من خطر هؤلاء ، فالمنافق كائن هزيل يطوى نفسه على ما بها ، ويظهر كما يريد الأقوياء ، وسنقتبس من هذا الكتاب بعض لمحات في مجالاتها .

الخداع بتكوين لجنة لتدوين تاريخ الثورة :

وإذا كان النفاق صفة بارزة في السادات فإن الخداع كان صفة مهمة عنده ، وكان يتظاهر بإرضاء الجماهير وهو لا يقصد أن يحقق أية نتيجة ، وأن الأمر لا يعدو أن يكون خداعا ، فقد أعلن تكوين لجنة لتدوين تاريخ الثورة وتدوين خطوات حياتها ، وأعلن كذلك تشكيل لجنة لتحقيق أسباب هزيمة يونيو المريعة ، وجعل نائبه آنذاك محمد حسنى مبارك رئيسا للجنة ، وكان عجيبا أن تكون السلطة التنفيذية رئاسة مثل هاتين اللجنتين ، مع أن السلطة التنفيذية هي المتهمة .

وعلى كل حال فإن الإعلان عن تكوين هاتين اللجنتين جعل الأصوات التى كانت ثائرة تهدأ وتظن أن ما كان خافيا سيتضح ، وتتوقع ظهور ما أشيع حول وجود خيانة سببت هزيمة يونيو ، وأن المسألة لا تعدو أن عبد الناصر أراد أن يتخلص من عبد الحكيم عامر بأى ثمن ، ولو بهزيمة ساحقة للجيش الذى كان عامر يترعمه ويقوى به على عبد الناصر .

وعلى كل حال فإن تكوين هاتين اللجنتين أخففت الأصوات فى انتظار النتائج ، ولم يظن أحد أن تكوينهما ليس إلا ذرعا للرماد فى العيون ، وليس إلا خديعة تغطى ثورة الجماهير إلى حين .

ولعل السادات أدرك أن إبراز الحقائق عن هذين الموضوعين سيدمر الثورة التى ينتسب لها السادات ، فآثر أن يختفى هذا التحقيق وتلك المحاولة ليظل الظلام ساترا للأخطاء ، حتى يظل البثوم ينعم بالظلام والظلمات .

(١) عنوان هذا الكتاب هو : ومن النفاق ما قتل .

وقد أدرك السادات كذلك أن التحقيق في هذين الموضوعين سيفتح الأبواب لموضوعات كثيرة ينبغي ألا يُكشَف عنها الحجاب مثل هزيمة ١٩٥٦ ، والمعتقلات ، والحراسات ، والوحدة مع سوريا ، ثم ما تم خلال هذه الوحدة مما سبب الانفصال ، ونتائج الانفصال ، وحرب اليمن ، وغير هذه من المآسى التي ارتكبتها الثوار في حق مصر والمصريين ، ولذلك أثر السادات أن تظل هذه الأمور كلها في طيِّ الكتمان ، واكتفى بهذه الخديعة التي شغلت الناس حيناً من الدهر .

اللمب على الحبّكين في مجال آخر :

وعندما أقبل السادات على أمريكا واستبعد السوفيت بدأ نشاط الشيوعيين يظهر ويحاول أن يحدث القلاقل ، ولهذا سمح السادات للإخوان المسلمين بالظهور ، لا حبّاً فيهم ، بل ليستغلّهم ضد الشيوعيين ، فظهرت مجلة « الدعوة » ونشط شباب الإخوان ، ولكن سرعان ما أبدى السادات الخوف من هذا النشاط الذي لم يكن تحت سلطانه أو في طيات عباة كما يقولون ، وبسبب هذا الخوف اتّجه السادات لضربهم ، والقبض على عدد من شبوخهم وشبابهم ضمن الذين ضمهم الاعتقال الأثيم في سبتمبر الحزين .

جيهان السادات

كانت جيهان — كما سنرى — واسعة الآمال ، وبعض وسائلها لتحقيق هذه الآمال لم تكن وسائل مُرضية ، فمست زوجها في حياته أو ذكراه بعد وفاته ، وسنعيش مع نشاطها ندوّن بكل الحيطة جوانب الخير والشر في هذا النشاط :

نهط جديد من زوجات الرؤساء :

لم تكن السيدة جيهان السادات مثل نازلي زوجة الملك فؤاد ولا مثل فريدة وناريمان زوجتي الملك فاروق ، ولا مثل تحية زوجة عبد الناصر ، كانت هؤلاء الزوجات تَعِشْنَ في الظل ، وإذا كان لأى منهن رغبة في شيء حاولت أن تحقق رغبتها عن طريق زوجها أو عن طريق رجال القصر .

ولكن جيهان السادات خرجت للحياة العامة وللشارع السياسى ، وكانت بذلك تحاول أن تحقق أحلاما راودتها من عهد صباها ، والذي يقرأ كتابها « سيدة من مصر » يرى عجباً ، فهي تقول إنها مرة مدّت يدها لقارئ كفى فقال لها إنك ستصبحين ملكة مصر (١) وقد كانت هذه الحادثة كما تقول قبل أن يعود أنور السادات للجيش ، وقبل قيام الثورة بعدة سنوات ، ومرة أخرى حلمت أن شيئاً أصاب عبد الناصر ، واستيقظت منزعة كما تقول ، وبعد بضعة ساعات مات عبد الناصر (٢) .

على كل حال نحن أمام أحلام تحققت ، سواء كانت هذه الأحلام أحلام نائم أو أحلام يقظان .

وعندما أصبح أنور السادات رئيساً للجمهورية بدأت خطواتها لتحقيق الأحلام ، ولكن الشهور بين أكتوبر ١٩٧٠ ومايو ١٩٧١ كانت شهور قلق ، ولم تكن سلطات أنور السادات كاملة ، فلما قضى على ذبول عبد الناصر فى ١٥ مايو ١٩٧١ اكتمل له السلطان ويقول محمد حسنين هيكل إن السادات فى ذلك الوقت خلع على زوجته لقب « سيدة مصر الأولى » وكان هذا اللقب الجديد مستعاراً من البيت الأبيض الأمريكى ، لكن وقع تعبير « First Lady » فى أمريكا لم يكن كوقع تعبير « سيدة مصر الأولى » باللغة العربية (٣) . إنه لقب يحمل معنى السيادة والترافى .

سيدة مصر الأولى :

وينبغى أن نقف وقفة مع هذا اللقب الكريه الذى جلب السادات به سخط المصريين عليه وعلى هذه السيدة ، وقد ذكرنا من قبل أن جذور هذه السيدة ليست مصرية ، فأما اسمها « جلاديس » وهى من مالطة وتعتنق المسيحية ، ولم تدخل الإسلام على الرغم من حياتها فى بيت

(١) سيدة من مصر ص ١٣٧ .

(٢) سيدة من مصر ص ٢٩٠ .

(٣) خريف الغضب ص ١٠٦ .



مَنْ كان يسمّى نفسه « الرئيس المؤمن » ووالدها ليس عريق الجذور في المصرية ، فهو ينحدر من أصل تركى ، فإذا أصبحت ابنة هذين سيّدة مصر الأولى فإن ذلك كان شيئاً يثير الكراهية والسخط ، وقد أحسّ المصريون أن هذا اللقب قُصِدَ به إيذاء شعورهم ، وأن هذه السيّدة مع ان جذورها تختلف ديناً ودماً مع المصريين أصبحت تلقب سيّدة مصر ، وهذا أثار حنقهم •

هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإننا نحس أن من الشرف أن نكون خدم بلادنا المخلصين ، وهذا اللقب يناقض هذا الإحساس لأن منطوقه يفيد أن جيهان سيّدة مصر •

إن المصريين لم يغفروا أبداً للسادات أنه أطلق هذا اللقب على زوجته ، ولا شك أنه أحسّ بذلك وأحسّت به زوجته ، ولكن خلق العناد الردىء لم يسمح لهما بالتراجع ، وقد جلب هذا اللقب عليهما سخط الناس ، ولكن يبدو أن الرؤساء لا يبالون بسخط الرعية ، والأمر لله •

جمال السادات يخطب بنتاً أمها مسيحية لبنانية :

وكما فعل السادات عندما أحب « جيهان » وأمها مسيحية مالطية ، فعل ابنه جمال فقد أحب « دينا » وأمها مسيحية لبنانية ، ويقولون « المولد سرّ أبيه » وأم جيهان اسمها « جلاديس » وأم دينا اسمها « نيكول » وكانت نيكول في باريس عندما سمعت عن خطبة ابنتها لجمال السادات ، وتروى جيهان السادات عنها أنها ذهبت لكنيسة نوتوردام وانحنت وقبلت أرض الكنيسة آنذاك ، شكراً على أن ابن السادات خطب ابنتها (١) •

إننى شديد التمسك بالفكر الإسلامى الذى يوصى باتباع الديانات

الأخرى ، وأعرف تماما أن الإسلام يبيح للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب ، فما بالك بمسلمة أمها من أهل الكتاب ؟ أعرف هذا جيدا ، ولكنى أحس أن بيوت الرؤساء والعلماء عليها التزامات خاصة ، ويقرر التاريخ أن بعض الخلفاء الفاطميين وبعض الخلفاء العثمانيين عندما تزوجوا من بيوت غير إسلامية بدأ الوهن يدب في الأسرة .

إن بيوت الرؤساء والعظماء ينبغي أن تحافظ على روح الإسلام ، وهيهات أن تسود روح الإسلام إذا كانت الأم غير مسلمة ،

نشاط جيهان :

قلنا آنفا إن جيهان السادات لم تكن في الظل كما كانت زوجات الملوك والرؤساء قبلها ، وقد خرجت جيهان للحياة العامة ، وسرعان ما جمعت حولها بلاطا خاصا بها يتكوّن من زوجات بعض رجال الأعمال والسياسيين والمضباط ، كذلك ضم هذا البلاط عددا من سيدات الطبقة التي كانت بارزة قبل الثورة ، وفي وقت من الأوقات كانت تعتبر نفسها مسئولة مباشرة عن ضبط الحراسة في الرئاسة وعن زوجاتهم (١) .

من أصحاب الأعمال :

وأصبحت جيهان السادات من أصحاب الأعمال والمال وقد سئل أنور السادات يوما عن الترف الذي يعيش فيه هو وأسرته ، فقال : إن زوجته من أصحاب الأعمال والمال ، وتقول الدكتورة نعمات أحمد فؤاد : إن أنور السادات لم يحدد عمر هذه الأعمال والأموال وهل هي تليدة عريقة موروثه أو مستحدثة ، ولما أحسّ بدهشة مستمعيه قال : إن خديجة زوجة الرسول كانت تاجرة ، ونسى إن السيدة خديجة نالت الثراء

(١) محمد حسنين هيكل : خريف الغضب ص ١٠٥ .

قبل زواجها من الرسول بل كان الرسول قبل الرسالة يعمل في تجارتها (١) .

موقف الإسلام من تجارة الحاكم وذويه :

وبمناسبة ما باشرته جيهان من أعمال درّت عليها الربح نقرر أنه من المبادئ الإسلامية أن الحاكم وأهله وأعوانه ليس لهم أن يدخلوا الصفقات العامة بائعين أو مشتريين ، وعليهم أن يبتعدوا تماما عن أية صفقة يمكن أن يكون فيها استغلال لمكانة الحاكم (٢) .

وقد نص البيان الشامل الذي أخرجه عمر بن عبد العزيز عقب تواليه الخلافة على أن تجارة الوالى وأسرته ممنوعة إذ لابد أن يتجه لها الاستغلال ، ومما أثّر عنه قوله : تجارة الولاة مفسدة والرعيّة مهلكة (٣) .

وقد عقد ابن خلدون فصلا عن أن « تجارة السلاطان مضرّة بالرعايا » (٤) .

والذى لا شك فيه أن جيهان السادات ما كانت بحال من الأحوال تستطيع أن تحصل على ما حصلت عليه ولا على جزء منه لو لم تكن زوجة رئيس مصر ، فالاستغلال واضح واكيد ، ودفعت مصر ثمن ما جنّته جيهان .

الأوفاء والأمل :

ومن نشاط السيدة جيهان السادات ما بذلته من جهد إيمان حرب

(١) د . نعمات فؤاد : صناعة الجهل ص ٥٩

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ ص ٥٤ .

(٣) البيان كله فى ابن عبد الحكيم : سيرة عمر بن عبد العزيز

ص ٩٣ - ١٠٠ .

(٤) المقدمة ص ١٩٧ - ١٩٩ .

واقرا « السياسة فى الفكر الاسلامى » للمؤلف ص ١١٩ .

١٩٧٣. فقد كانت تَمْضى الكثير من وقتها مع الجرحى والمعوقين ، وقد شجّع موقوفها هذا كثيرات من المصريات فانضممن لها ، وكان ذلك عملا جديرا بالشكر والتقدير •

ويرتبط بذلك تلك الجمعية التي سميت الوفاء والأمل وقد اتجهت هذه الجمعية لمساعدة أسر الشهداء ومساعدة المعوقين ، ومحاولة إيجاد أعمال لمن يستطيع العمل منهم ، وكان يتبع هذه الجمعية مؤسسة لخدمة المعوقين ورعاية شؤونهم •

ولكن للأسف ، ارتبطت بجمعية الوفاء والأمل بعض الشبهات ومن أبرزها المعونة التي قدمتها أمريكا لهذه الجمعية وقدرها - عشرة ملايين دولار ، وقد خصم هذا المبلغ من المعونة المخصصة لمصر ، ولم يحاسب الجهاز المركزى للمحاسبات جمعية الوفاء والأمل على طريقة إنفاق هذه الملايين وسواها من التبرعات (١) •

قرى اللايتام :

ومع الوفاء والأمل قامت مصر بإنشاء قرى لللايتام ، وكان ذلك من الأنشطة التي قامت بها جيهان السادات •

رياسة المجلس الشعبى بالمنوفية :

ومن أنشطتها أنها أصبحت رئيسة المجلس الشعبى لمحافظة المنوفية واتخذت من ذلك وسيلة لتقديم كثير من الخدمات الاجتماعية للمنطقة •

إلغاء عقوبات قضائية :

ومن أنشطتها التي تؤخذ عليها ما نشرته جريدة الوفد في ٨٤/٦/١٤ إذ تدخلت لإلغاء عقوبة الأشغال الشاقة على تاجر مخدرات

(١) د • نعمات أحمد فؤاد : المرجع السابق : ص ١٧٤ •

يملك صيدلية ريفولى بجوار منزل رئيس الجمهورية السابق ، وتقول زوجة هذا التاجر إنها كانت تربطها علاقة صداقة قوية بالسيدة جيهان السادات فرجتها باسم الصداقة أن تتوسط لدى الرئيس السادات لإعفاء زوجها من عقوبة الأشغال الشاقة ، واستجابت جيهان لرجاء صديقتها ، واستصدرت من الرئيس الراحل قرارا جمهوريا بالعفو عن زوج صديقتها *

وبعد وفاة السادات طلب المدعى الاشتراكى فرض الحراسة على هذا التاجر ، ونظرت محكمة القيم برياسة المستشار حسن عثمان هذا الطلب ، وأصدرت حكما بفرض الحراسة على ممتلكات هذا التاجر ، ورفضت التحفظ على التاجر نفسه *

قانون الحد من الإنجاب :

وقد تحدثت جيهان السادات حديثا طويلا فى كتابها عن محاولاتها لاستصدار قانون يحد من الإنجاب ، وقد عُرِضَت صور متعددة لهذا القانون ، ولكنه لم يصدر ، واكتفى بالإعلانات وبالمحاولات التى تنشرها وسائل الاعلام *

٣٠ مقعدا للمرأة فى مجلس الشعب :

وبمحاولات ضخمة مثابرة استطاعت جيهان أن تثقن زوجها بإصدار قرار رياسى بإضافة ثلاثين مقعدا للمرأة فى مجلس الشعب ، وتخصيص من ١٠ الى ٢٠ فى المائة من جميع المقاعد فى المجالس الشعبية للمرأة ، ولكن هذا القرار كان قصير العمر ، فقد ألغى بعد وفاة السادات كما ذكرنا من قبل *

قانون الأحوال الشخصية :

وقد تكلمنا من قبل عن قانون الأحوال الشخصية الذى كان من جهود جيهان السادات ، ولذلك كان يسمى قانون جيهان ، فقد حاكنا

هذا القانون وانتقده ، وذكرنا التعديلات التي تمت عليه بعد وفاة السادات وبعد توقف نفوذ زوجته ، وتلك دائما هي نهاية القوانين والقرارات التي ليس لها جذور شعبية أو التي تصدر عن هوى الرؤساء فقط .

ولا يدرك الإنسان لماذا يتحمس أعضاء مجلس الشعب لإلغاء القرار الخاص بتحديد ٣٠ مقعدا للمرأة ، ولا يتحمسون لإلغاء تخصيص ٥٠٪ على الأقل للعمال والفلاحين بهذا المجلس .

إن الإجابة هي أن أي رئيس سيظل محتاجا لهؤلاء يصفقون ويوافقون دون تفكير ، وكل ما نذكره هو أن المال الذي يحصل عليه هؤلاء من عرق الفقراء والمحتاجين سينقلب نارا وشؤما على أخذه بدون وجه حق .

دعوة زوجات رؤساء الدول لزيارة مصر :

وتذكر السيدة جيهان (١) قضية تفتخر بها ، وهي أنها دعت زوجات الرؤساء الأفارقة والعرب لزيارة مصر سنة ١٩٧٤ وتقول : لقد استجاب لدعوتها عدد يزيد عن مائتين من ثلاثين دولة منها كينيا وأثيوبيا وأوغندا وساحل العاج وبورندي وتوجو وتشاد ونيجيريا وزائير وموريتانيا والمغرب والجزائر وتونس واليمن وقطر والكويت والبحرين وعمان ولبنان والعراق والصومال وكان ذلك أول اجتماع من نوعه في القاهرة وأعدت لهن حفلات وزيارات لمناطق الآثار بالقاهرة ، ثم إلى مشاهدة الآثار في الصعيد برحلة نيلية رائعة .

والسيدة جيهان سعيدة بذلك ، وهي بالتأكيد لم تسأل نفسها الأسئلة التالية :

(١) سيدة من مصر ص ٣٨٣ - ٣٨٤ .

— هل استطاعت السيدة جيهان السادات أن تحجب عن أنظار هؤلاء السيدات أفواج الفقراء الذين يملئون الشوارع والذين يمثلون قاع البؤس ؟

— ماذا فعلت السيدة جيهان تجاه الذين يقفون في كل مكان ماديّن أيديهم طلبا للمصدقة وسائلين القادرين لقمة العيش ؟

— وهل تحاشت السيدة جيهان في تنقلاتها مع هؤلاء السيدات أكثر شوارع القاهرة المليئة بالحفر وطفح المجارى •

— وهل رجعت هؤلاء السيدات لبلادهن يتحدثن عن الآثار والماضى ؟ أو أنهن وسفن الفقر والحاضر •

— وأخيرا ماذا قدّمت هؤلاء السيدات لمصر نظير هذه الرحلة باهظة التكاليف ؟

وأسئلة أخرى كثيرة ولكن يبدو أن السيدة جيهان نسيت قاع الفقر الذى عانكته يوما ، ونسيت كذلك أولئك الذين يعيشون فى القاع والقبور ، وحسبت أن كل الناس يعيشون فى الرخاء الذى أصبحت تنعم فيه •

ثورتها على الشباب المسلم :

أخرجت السيدة جيهان السادات كتابها « سيدة من مصر » باللغة

الإنجليزية بعنوان : Woman from Egypt

ثم ترجمته أو تترجم لها إلى اللغة العربية ، وهى فى هذا الكتاب تهاجم الشباب المسلم للأسف ، وتصف هؤلاء الشباب بما يؤذيهم ويؤذى مصر ، وموضع العتب الشديد أن هذه الصفات تنشر عن شبابنا الإسلامى فى أمريكا وغيرها من البلاد الناطقة بالإنجليزية ، واعتقادى أن

ذلك يتناقض مع الولاء لمصر ، وبخاصة أن هذه الصفات ليست حقيقية أو دخلتها جانب كبير من المبالغات ، ومن هذه الصفات نورد قولها :

— وصلت مرة إلى جامعة القاهرة في الساعة العاشرة صباحا في طريقى لقسم اللغة العربية ، ولكن حائطا من البشر اعترض طريقى ، كان هؤلاء هم الجماعات الإسلامية يَصَلُّون في فناء الحرم الجامعى ، وماذا يصلون في العاشرة صباحا ، ثم إن فناء الجامعة طريق للمدرجات وليس مسجدا (١) . (يبدو ان هذا الكلام غير صحيح لم نشهده قط في الجامعة) .

— كان الأصوليون من «الجماعات الإسلامية يرددون في خطبهم أن السلام مع إسرائيل محذور بنص القرآن ، وأن الاقباط هم أعداء المسلمين (٢) .

— كانت بعض الطالبات يرتدين النقاب ، ويغطين أيديهن بالقفازات وعندما كنت أراهن يمشين في ردهات الجامعة كنت أشعر « بوجع في قلبى » (٣) .

— كانت الجماعات الإسلامية تكره الموسيقى الغربية التى كان بعض الطلاب يستمعون إليها ويرون أن أى موسيقى باستثناء تلاوة القرآن عمل مدنس (٤) .

— كانت الجماعات الإسلامية تردد : أن الاقباط في مصر يجب أن لا يكون لهم صوت في سياسة مصر ، وأن المسيحيين متواطئون في مؤامرة مع الإمبريالية بالخارج ، ولا تصادقوا قبطيا (٥) .

(١) سيدة من مصر : ص ٥٠٥ .

(٢) المرجع السابق : ص ٥٠٨ .

(٣) المرجع السابق : ص ٥٠٩ .

(٤) المرجع السابق : ص ٥١٠ .

(٥) المرجع السابق : ص ٥١٣ .

واعتقادى أن هذه إثارة للرأى العام العالمى بوجه عام والرأى العام الأمريكى بوجه خاص ضد مصر ، وكان الولاء لمصر يمنع إذاعة هذه الأقوال التى لم تكن حقيقة ، أو على الأقل حفلت بالمبالغات الشديدة .

وهكذا أصبحت جيهان السادات سيدة غربيّة فى فكرها وحياتها ، ويعتقد بعض علماء الاجتماع أن الصورة الغربية التى ظهرت بها جيهان السادات كانت من أسباب عودة الحجاب والنقاب ، رفضا لاتباعها ولأسلوب حياتها من شابات مصر وسيداتنا (١) .

إعجاب بشعب إسرائيل :

ولعل أخطر ما تَخَنَّنَ به هذه الدراسة عن الشباب هو إحساس شابة من بيت السادات هى « جيهان » ابنة السادات ، فقد قالت أمها عنها ما يلى :

« كانت ابنتى جيهان مفتونة بشعب إسرائيل » (٢) واعتقادى أن إحساس جيهان ابنة أنور السادات كان انعكاسا لتصرفات والدتها التى تقول فى نفس الصفحة (٥٠١) « إنى كنت سعيدة جدا عندما قابلت « لسيه رابين » زوجة إسحق رابين فى حفل غداء بعد أن بدأت إسرائيل تجاؤ عن سيناء وقد احتضنت كل هنا الأخرى ، وتقول السيدة جيهان لأنور السادات عندما ذهبت لزيارة إسرائيل واستقبلها الإسرائيليون بالترحيب : لقد تأثرت بهذا الترحيب وقلت لأنور : لماذا قضينا كل هذه السنين نحارب هؤلاء الناس ؟

إن بعض المفكرين المصريين يوافقون على معاهدة الصلح مع إسرائيل ، ولكن ليس فيهم من ينسى ما فعلته وما تفعله إسرائيل مع

(١) دكتور سعد الدين ابراهيم نقلا عن « الهجرة الى العنف ص

٢٦٩ » .

(٢) امرأة من مصر ص ٥٠١ .

المصريين والعرب ، ولا ينسى العدوان الذى كان ولا العدوان الذى لا يزال واقعا ، وحاشا أن يحتضن مصرى^١ مخلص لبلاده أى زعيم سفك من زعماء إسرائيل ، على الأقل خلال هذا الجيل الذى نعيشه •

مقارنة :

ويصور اللواء محمد حافظ إسماعيل موقفا مصريا مؤثرا لطالبة مصرية فى باريس رأت السادات فى التليفزيون عندما كان يزور القدس وهو يضع إكليل زهور على قبر الجندى الإسرائيلى المجهول ، ويقول سيادة اللواء : شدة انتباهى صوت^٢ يهتق بالعبرات لفتاة مصرية لم تستطع أن تسيطر على ما يعتل فى صدرها ، وهى كما تقول لا تستطيع أن تصدق أن يصافح رئيسها الأعداء ••••• وأن يضع أكاليل الزهور على قبر جنديهم المجهول بينما رمال سيناء ندبة بدماء شهدائنا (١) •

نعم هذه فتاة مصرية صميمة عبرت عما يفعله أى مصرى^٣ أصيل ، أما الأحضان والإعجاب بالشعب الإسرائيلى فمن حظ السيدة جيهان ، وحظ ابنتها التى انتقل لها سر^٤ أمها •

لقد تحاملت جيهان السادات على الشباب المصرى لترضى الأمريكان ، ولهذا السبب أيضا تعاطفت مع اليهود !!! فيا للعجب تنعم بأموال مصر وتتعاطف مع أعداء مصر •

ثقافة جيهان السادات :

عندما أصبحت جيهان زوجة لرئيس مصر ، وتطلعت لتلعب دورا فى الحياة العامة ، رأت أنه من الضروري أن تكسب قدرا من الثقافة لمساعدتها على تحقيق هدفها ، واتجهت أول الأمر الى الحصول على الثقافة اللازمة لهذه المكانة ، فبدأت تأخذ دراسات عن البروتوكول والانظم

(١) أمن مصر القومى فى عصر التحديات ص ٤٤٣ •

الديبلوماسية ، ثم بدأت تدرس تاريخ مصر القديم وآثار مصر وفنونها ،
لتتحول منه إلى التاريخ الإسلامى والآثار الإسلامية ، ثم إلى تاريخ مصر
الحديث .

ولكن فجأة خطر لها أن تستغل مكانتها في أن تسير في دراستها
سيراً نظامياً ، أى أن تأخذ الثانوية العامة أو ما يعادلها ، وتأتق بإحدى
كليات الجامعة وتحصل على درجة جامعية ، ثم تسير في الطريق حتى
تحصل على درجة الدكتوراه ، وقد كان ذلك قمة الطموح ، وقد هتئى
الطريق تماماً لزوجة رئيس الجمهورية لتحقيق هذا الطموح .

وفي مصر تقف أمام التلاميذ والطلاب عقبتان قاسيتان إحداها
النجاح في الثانوية العامة أو ما يعادلها ، والحصول على درجات تؤهل
للالتحاق بالجامعة .
والعقبة الثانية هي النجاح في السنة التمهيدية لمن يريد أن يحصل
على الماجستير فالدكتوراه .

وكانت إزاحة هاتين العقبتين من طريق زوجة رئيس الجمهورية عملاً
بمسيراً لل غاية ، فإنها تؤدي امتحان الثانوية العامة أو ما يعادلها في
القصر الجمهورى أو ما هو في مستوى ذلك ، ... وستتأهل كل الحواجز
التي تحول دون مساعدة الرئيس لتصل إلى الجامعة ، أو أن
تحصل على شهادة G. C. E. التي تعادل الثانوية العامة والتي يلجأ
اليها (أولاد الذوات) ليهربوا من متاعب الثانوية العامة المصرية . والعجيب
أن هذه السيدة حصلت على شهادة انجليزية معادلة ، ثم دخلت قسم
اللغة العربية بكلية الآداب (١) بجامعة القاهرة ، وكان ذلك سنة ١٩٧٤ .

وكانت السيدة جيهان ذكية باختيارها كلية الآداب ، بل باختيارها
قسم اللغة العربية بها ، فذلك وحده هو الوسيلة لتصبح يوماً مدرّسة أو

(١) عبد الله امام : محاكمة عصر ص ٢٠٠

أستاذة بجامعةات الولايات المتحدة الأمريكية وانهارت الحواجز التى كان يمكن أن تحول دون مساعدتها ، فنجحت بتفوق فى الفرق الأربع وحصلت على الليسانس بامتياز ، وأصبحت معيدة بالكلية ابتداء من سنة ١٩٧٨ ، ولأنها حصلت على الليسانس الممتازة فإنها أعفيت من السنة التمهيدية أى أعفيت من العقبة الثانية التى تقوم أمام الطلاب المصريين ، ثم حصلت على الماجستير فى العام التالى (سنة ١٩٧٩) أى فى عام واحد ولعلها أسرع ماجستير فى جامعة القاهرة •

وكتابة الماجستير والدكتوراه عمل سهل ، فالمساعدات تنصب انصبابا من كل جانب ، وقد حشدت لذلك مساعدات كثيرة بالإضافة إلى ذكاء الباحثة العام ، وأصبحت جيهان السادات مدرسة مساعدة بكلية الآداب ، وكان ذلك من أهم أمانيتها ، ولعل ذلك لم يتحقق لغيرها ، ففتاة تزوجت مبكرة وأنجبت أربعة أطفال ، وعاشت التزاماتها التى فرضتها عليها الحياة كزوجة لرئيس الجمهورية ، ومع ذلك تستطيع أن تحقق هذا الأمل وتحصل على هذه الشهادة وتلك فى هذا الوقت القصير ... شئ يدعو للشك أو الغبطة ، وإن كانت الغبطة لن تحقق للمغتبط أى قدر من الأمل •

وتراخت المساعدات بعض الشئ عن السيدة جيهان بعد وفاة زوجها ، فلم تحصل على الدكتوراه إلا سنة ١٩٨٦ أى بعد سبع سنوات •

وهكذا لم يقنع السادة بالحصول على الجاه والمال بل اتجهوا للحصول على الدرجات العلمية التى هى فى الأصل وقف على الكادحين ، ووسيلة الأذكىاء للطفرة من القاع الى سطح الأرض •

وقد حصل جميع الذين ساعدوا السيدة جيهان فى تيسير العمل لها ، وإخضاع القوانين لرعايتها ومساعدتها علميا وإداريا حصل هؤلاء على مكافآت سخية لهذه المساعدات ونكتفى بهذا الإجمال ، وإن كانت هناك تفاصيل دقيقة عن هذا الموضوع ، ولكننا لا نحب إذاعتها وقد

كَتَبَ عنها قريباها حسن عزت في كتابه العمالقة والاقزام (١) .

جيهان ومحنة الدكتور عبد العزيز سليمان

معى الآن كتاب بعنوان « محنتى » كتبه الدكتور عبد العزيز سليمان الذى تولى مناصب مختلفة لعل أعظمها أنه كان رئيسا لجامعة عين شمس ، وهو فى هذا الكتاب يتحدث عن محنته ومحنة زوجته السيدة سعاد أبو السعود وابنته وابنه ، ويذكر أن سبب هذه المحنة هى وهو لا يذكر اسمها ولكن القارئ يفهم من عرض الأحداث أنها السيدة جيهان .

والمهم أن الكتاب ليس جديرا أن نقف عنده ، فلعنته ركيكة ، وهو يسير فى غموض بلا ذكر أسماء ، وانما بإيهام لا يدركه إلا مؤلفه وقائلون حوله ، هذا بالإضافة إلى سوء الطباعة والإخراج .

قد تقول لى إن الدكتور أستاذ « علوم » وأقول لك إن دقة التعبير والأداء ضرورية لكل من أراد أن يكون مؤلفا وكاتبا (٢) وإذا صرفنا النظر عن الكتاب ولعنته ، بقيت المظالم التى يعرضها المؤلف التى نزلت به وبأسرته ، وتلك إن صحت تكون عملا بشعا .

هل تزوجت السيدة جيهان بعد أنور السادات ؟

الذى يطالع كتابها « سيدة من مصر » يجد كلماتها التالية :

« لن أتزوج مرة أخرى ، ولن أفكر حتى فى تغيير اسمى ، كل ما أردته دائما هو أن أكون زوجة أنور »

« وسأقابل زوجى ثانية بعد الموت فى عالم الخلود الأبدى » (٣) .

ويحس القارئ بهذا القول على إصرارها أن تعيش ما تبقى من

(١) حسن عزت : العمالقة والاقزام ص ٢٧٠ .

(٢) كتاب « محنتى » للدكتور عبد العزيز سليمان .

(٣) سيدة من مصر : ص ٥٦٩ .

حياتها مرتبطة باسم السادات ، وفيئة لذكراه ، وبخاصة أنها عاشت معه ثلاثا وثلاثين سنة من (١٩٤٩ — ١٩٨١) ونقلها من لا شيء إلى شيء كبير جدا ، وأنها عند وفاته كانت على مشارف الخمسين ، وأنجبت منه ابنه جمال الذى تحدثنا عنه وثلاث بنات تزوجهن فى حياة أبيهن وأصبح لها عدد من الأحفاد ، وكل هذا جعلنا نصدق أنها لن تتزوج بعده .

ولكن الزمان ينسى كما قال المرحوم الشاعر أحمد شوقى ، وقد جاءت الأنباء أن هذه السيدة قد تزوجت ، وقد نقلت الصحافة المصرية هذا الخبر بكثير من الأسى والسخرية ، وذكر رئيس تحرير الوفد كلمات صارخة باكية على هذا الزواج ، وكان ذلك بالعدد الصادر فى ١٩٨٨/١١/٢٧ .

ولست أحب أن أعلق على هذه الحادثة ، فلعل الآراء تختلف فيها ، وقد تزوجت قبلها جاكلين كنيدي من أوناسيس جريا وراء المال ، وقد حصلت فعلا على المال ولكنها فقدت تماما تقدير الأمريكيين لها ، ولعل حياة السيدة جيهان بالولايات المتحدة جعلها تتأثر بهذا النموذج وتنسى الفكر الشرقى الذى لا يستسيغ هذا التصرف الردى .

ولعل من الأنسب من الآن أن نتحدث عن جيهان بدون إضافة اسم السادات إلى اسمها ، فقد أصبحت بذلك الزواج « مدام الضابط الشاب » . وإذا كانت المقارنة من طبيعة الدراسات التاريخية الحديثة فإننا ننقل هنا ما نشرته الصحافة المصرية فى ١٤ مايو سنة ١٩٨٦ عن كورازون أكينو رئيسة الفلبين ، فقد تقدم لها سيل جارف من طلاب الزواج ولكن كورازون أكدت بصورة رسمية أنها ترفض الزواج وستظل وفيئة لذكرى زوجها الراحل .

ثروة جيهان :

إن زواج جيهان فجّر موضوعا مهما عن ثروتها ، وليست لدى وثائق عما قيل عن ذلك الثراء الفظيع ، وكل ما أملك هو أن أنقل ما

أذاعته صحيفة الوفد عن ثروة جيهان وهى الصحيفة الوحيدة التى نتوقع منها الحديث عن الثراء الذى جمعه ثوار الاشتراكية ، أما الصحف الحكومية فلم تصدر لها تعليمات بإذاعة هذه الوثائق والأحداث ، ونصوص هذه الاقتباسات هى كالآتى :

برقيتان :

** الى زوجة الريان السابقة التى تزوجت من أحد الضباط :

أعبدى الملايين الثلاثين إلى المودعين الغلبة لأنها لن تنفك في الدنيا ولا في الآخرة .

** الى الهانم التى تعيش في أمريكا :

أعبدى الستمائة مليون دولار إلى أصحابها في مصر لأنه حرام أن يعيشوا في المقابر بينما أنت تتسبحين في نهر من الذهب
والحقيقة أنك تسبحين في دماء الفقراء الذين سرقهم للنصوص
الكبار .

(فى ١٩٨٨/١١/٣)

تصحيح واجب :

** واحد صاحبنا .. أكّد للعصفورة ... أن الهانم السابقة ، تمتلك
عزبة على مساحة ٣٠ ألف فدان في الولايات المتحدة الأمريكية .
وكان يمتلكها الرئيس الأمريكى الأسبق جونسون ، وتمتلك أيضا
قصر الملكة نازلى والدة الملك فاروك ملك مصر السابق ، ويقع في بيفرلى
هيلز بمدينة هوليوود بالإضافة إلى بعض الشركات الخاصة بتصنيع وتعبئة
اللحوم ، ونقل البترول ، بالمناسبة تصل الثروة إلى بضع مئات من
ملايين الدولارات .

(فى ١٩٨٨/١١/٣)

✽ لعنة الله على الزوجة التى تتسلط عليها نزواتها ، فتسارع إلى الزواج من ضابط شاب يصغرها سناً ، لتتعم معه بأموال زوجها السابق ، سواء كان من أصحاب شركات توظيف الأموال ، أو رئيس جمهورية رحل .

✽ ولعنة الله على تلك الزوجة التى ترقص فى حفل زواجها الثانى سواء كانت أما لخمسة أطفال ، أو جدة لدستة من الإبناء .

✽ ولعنة الله على الزوجة الجدة ، الأرملة التى تعيش فى أمريكا مع عريسها الشاب الجديد وهى تنعم بخيرات ستمائة مليون دولار نهبت من خزائن مصر ، ومع الملايين مزارع ويخوت وقصور هى من دم هذا الشعب البائس الفقير .

(١٩٨٨/١١/٢٧)

وقد زاد من خطر هذا الثراء ما يشاع عن أنه تيسيرات يهودية لزوجة الرئيس فى حياته لعل ذلك ييسر للسياسة اليهودية بعض المكاسب السياسية أو الاقتصادية ، ثم هو بعد وفاة الرئيس يمثل جذباً لسيدة تكتب أو يكتب باسمها ما يرضى اليهود ، وفى الوقت نفسه ما يهاجم شباب مصر ، وذلك هدف يهودى أعققد أن اليهود مستعدون لدفع أغلى ثمن له .

أين أسرة عبد الناصر وأسرة السادات الآن ؟

من الأشياء التى تدعو للحسرة أن أسرتى زعيمى الثورة والاشتراكية ، حصلتا على مال وفير من دم الإنسان المصرى الفقير كما ذكرنا من قبل ، وانتقلت الأسرتان بهذا المال من طبقة إلى طبقة ، ثم انتقلت الأسرتان من مصر إلى خارج مصر ، فلم تعد مصر بما بها من فاقة ، وما تحتاجه من جهدٍ أهلاً ليعيش بها هؤلاء الأكابر .

وبالتأكيد ستجد من العسير أن تقابل أحدا من أفراد هاتين الأسرتين بمصر ، اللهم إلا أولئك الذين ألتخموا بالثراء أو الذين يبحثون عن الفرص لاستغلال ما حصلوا عليه من ملايين لعلها تتضاعف على حساب المضربين في المقاولات أو إنشاء القرى السياحية أو غيرها من المشروعات التي تحتاج إلى المال الوفير ، وتعطى عائداً عظيماً لأصحاب هذه المشروعات •

لقد أعلن عبد الناصر الحرب على الأغنياء ، وكان يسعد عندما ينقل الناس من الثراء للفاقة ومن العزّ للذل والقهر ، ولو جاء عبد الناصر الآن ، أو جاء السادات لرأيا الغنى في أيدي أولادهما ، ولا شك أنهما سيباركان هذا الثراء ، ويعملان على تنميته ما دام في أيدي الأسرتين الجديديتين •

ولكن الله سبحانه وتعالى لن يبارك في مال جاء عن طريق الخيانة لمال الرعيّة ، ولن يبارك في غنى برز على حساب الفقراء •

وبعد

هذه هي السيدة جيهان التي كانت تسمى « جيهان السادات » وذلك هو تاريخها بكل الحيّدة ، ولا شك أن القارئ يرى في هذه الدراسة ألوان نشاطها ما استقام منه وما انحرف ، ودراستنا التاريخية دائماً تقدّمهم للتوعية حتى لا تتكرر في الحاضر والمستقبل أخطاء الماضي •

إن جيهان — في تقديرى — جلبت لزوجها في حياته وبعد وفاته كثيراً من السخط ، لقد عاشت لنفسها ، وسيطرت عليها فكرة أن تصبح « ملكة » ولكن على أن تكون من الملكات اللاتي لا يهمن أمر الجماهير •

أولاد الحكام وتطلّعاتهم :

بالتأكيد يعمل كل إنسان لإسعاد أولاده ، وهذا شيء يبحث عليه الشرع والعرف فقد أوصى عليه الصلاة والسلام بأن تكون الوصية

لغير وارث في حدود الثلث ، قال « الثلث والثلث كثير » وأضاف لأن تدع أولادك أغنياء خير" من أن تدعهم فقراء يتكففون الناس •

ولكن ما يحصل عليه الأب الأولاده يجب أن يكون نقيًا ، وإذا كان الأب حاكما فإن الأمر يكون أشد ، فقد قرر الفكر الاسلامي أن الرئيس وأعوانه ليس لهم أن يدخلوا الصفقات العامة بائعين أو مشتريين ، وأن الرئيس وأعوانه ليس لهم أن يقبلوا الهدايا ، ويبين الفكر الاسلامي أن الهدية للحاكم ظاهرها الهدية وباطنها الرشوة والاستغلال ، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك : هدايا العمال غلول • أى فساد ومهلكة •

إذا أردنا أن نطبق هذه التعاليم على أولاد رؤساء مصر في عهد الاشتراكية الزائفة نجد أن الاستغلال وصل مداه ، فقد صدرت أوامر بإعفاء بعض أولاد عبد الناصر من الخدمة العسكرية ، وفي الوقت نفسه كان ابن ملكة بريطانيا العظمى يعمل وسط البريطانيين في حرب فوكلاند دون أى تمييز •

ودخل أولاد عبد الناصر وابن السادات كلية الهندسة وهناك كلام كثير عن تحدّي الأستاذ الدكتور ابراهيم صالح الذى أراد أن ينفذ العدالة مع ابن السادات ، فأبعد عن الجامعة ، ولم يعُد لها إلا بحكم قضائى بعد عصر السادات (١) •

وربما تسألنى ، لماذا لم يدخل أولاد الرؤساء كلية الطب مع أنها من الكليات المرموقة ؟

(١) اقرأ القصة كاملة في (صناعة الجهل) للدكتورة نعمات أحمد فؤاد ص ١٢٧ •
واقرا « محاكمة عصر » للاستاذ عبد الله امام ص ٢٢ •

والإجابة أن الطبيب سيواجه الناس ويقتبأون عليه أو يدبّرون عنه ، وأولاد الرؤساء انعزلوا عن الشعب ، فليس الواحد منهم مستعداً لمواجهة المرضى وأهليهم ، ومن الخير له أن يكون مهندساً يجلس في مكتب عاجي وتردّ له المقاولات الكثيرة السخيفة ، فيربح كثيراً دون صلة بالجماهير .

وقد سبق أن ذكرنا أن أولاد الرؤساء يحرصون على الحياة في الخارج ، فلم تعدّ مصر الفقيرة أهلاً ليعيشوا بها ، أو أنهم بعد أمجاد الرياسة وسلطانها يعزّض عليهم أن يفقدوا ما اعتادوه من جلال وسلطان ، فتركوا البلاد لذلك .

ومن تطلعات أولاد الرؤساء أنهم وصلوا في طموحهم إلى أقصى الدرجات في مجال الغنى والجاه ، فابن عبد الناصر متزوج بابنة البدراوى ، وكانت أسرة البدراوى وسراج الدين ... من الأسر التي لاقت أشدّ العدوان من عبد الناصر ، وكان هذا يعدّ هذه الأسر العريقة أسراً إقطاعية امتصّت دماء الشعب ، ولكن ابن عبد الناصر اغتنى وارتفع حتى أصبح في مصاف هذه الأسرة فتزوج منها .

وبنات السادات — كما قلنا من قبل — رتبت لهن زيجات لم يلاحظ فيها إلا الغنى والترف ، فقد تزوجت إحداهن من ابن المهندس عثمان أحمد عثمان الذى يَطلق عليه زعيم « الامبراطورية العثمانية » وتزوجت الأخرى من ابن سليل الغنى والترف المهندس سيد مرعى ، وتزوجت الثالثة فى أسرة عريقة غنية هى أسرة عبد الغفار .

أما ابنة عبد الناصر فهى زوجة لشاب ينحدر من أسرة متوسطة أو فى الحق أقل من متوسطة اسمه أشرف مروان ، ولكنه سرعان ما أصبح ليس مليونيراً بل « بلياردير » ولا يعرف أحد مصادر هذا الثراء الذى خلق له الأرض الزراعية الشاسعة والمصانع والقصور هنا وهناك

والليخوت التى تجرى من بحر إلى بحر وما لا يتعرف من ثروات أخرى •

وفى إيجاز لقد انتقل أولاد عبد الناصر والسادات من عالم القاع إلى عالم السيادة العالية ، ولم يعودوا يستطيعون أن يتعاملوا مع عباد الله من الطبقات العادية •

إخوة السادات :

تكلما عن إخوة عبد الناصر فى الجزء التاسع من هذه الموسوعة ، وتكلما آنفا عن وصف السادات لعبد الناصر فيما يتعلق بحساسيته نحو أسرته ، وذكرنا كلمات السادات التى تفيد أن عبد الناصر كان يسرف فى التتكيل بأى شخص يتحدث عن أسرته وإخوته ، ووسائلهم للحصول على المال ، وفريد الآن أن نتكلم بإيجاز عن بعض أسرة السادات •

ويذكر الأستاذ محمد حسنين هيكل (١) أن السادات فى مطلع حكمه جمع أفراد عائلته وذكر لهم أنه لا يعترض على اشتغالهم بالأعمال الحرة ، ولكنه يحذرهم من أن تفوح لهم رائحة •

ولعلمهم حرصوا على التخففى فترة من الزمن ، ولكن سعة المال والنفوذ حثهم أن تفوح الرائحة وبخاصة بعد نهاية السادات •

ويروى الأستاذ هيكل أن أحد أثقاء السادات أعلن فى اليونان أنه سيستثمر ٧ ملايين من الدولارات فى إقامة مصنع نسيج بسالونيك باليونان ، وكان ذلك فى حياة السادات ، ولذلك لم ينشر هذا التصريح بمصر •

ويعطى الأستاذ هيكل تفاصيل عن عصمت السادات فيذكر أن ثقافته

(١) خريف الغضب ص ٣٩٣ •

كانت في حدود الشهادة الابتدائية وكان يعمل سائق سيارة نقل ، وفي عهد الرئيس السادات انتقل عصمت انتقالة واسعة وتزوج عدة مرات وكانت زوجته الرابعة يونانية من سالونيك ، وقاما معا بإنشاء شركات كثيرة منها شركات شحن بحرية وشركة لصناعة أنابيب الأكسجين وشركات لتوزيع الجرارات وقطع الغيار والمقاولات ، وكان هو وأولاده يملكون عدة عمارات كبيرة وعشرات من الشقق والمكاتب ، وعدة استراحات صيفية بالمعمورة وغيرها (١) وقد طلق عصمت زوجها اليونانية سنة ١٩٨١ كما ذكر عبد الله امام (٢) .

ويقول الأستاذ هيكل إن نشاط عصمت السادات امتدَّ لأخذ إتاوات للحماية ، أو لتصريف وتيسير بعض الأمور ، أو لنيل مكانة أو وظيفة وهكذا ، وبلغ به الحال إلى التسلط على بعض الممتلكات المملوكة للأفراد أو الدولة ، وأخذ كميات هائلة من الحديد والأسمنت من وزارة الإسكان وكان يتجر فيها ، وألوان أخرى من هذا النوع .

وقد أورد الأستاذ عبد الله امام قوائم شغلت سبع صفحات من كتابه « محاكمة عصر » وتشمل هذه الصفحات مواد البناء التي استطاع أفراد أسرة السادات وبخاصة عصمت وأولاده وزوجاته أن يحصلوا عليها من وزارة الاسكان ، وهي تشمل مقادير هائلة من الاسمنت والقيشاني وحديد التسليح والخشب والمواسير .

وقد اعترف أحد وكلاء الوزارة الذين صرقوا هذه الكميات بأن الطلبات لم تشمل المستندات اللازمة للصرف ولا الأدلة على قيام عصمت السادات وذويه بالمشروعات المذكورة ، وأن الثقة في أخى الرئيس كانت وحدها الدليل (٣) .

(١) خريف الغضب ص ٤١٨ .

(٢) محاكمة عصر ص ٥١ .

(٣) المرجع السابق ص ١٢٤ - ١٣٤ باختصار .

والذى ساعد على التحقيق الدقيق مع عصمت وأولاده أن الرئيس حسنى مبارك أعلن فى نوفمبر سنة ١٩٨٢ أنه أعطى توجيهاته للمستشار عبد القادر أحمد على المدعى العام الاشتراكى بالتحقيق مع أى مسئول سابق أو حالى تشير التحريات إلى تورطه فى مساعدة عصمت السادات وأسرته وتسهيل عمليات انحرافه ، تلك التى شملت الاستيلاء على أراضٍ مملوكة للدولة ومنها أراضٍ للأوقاف ، أو الحصول على إعفاءات جمركية مفروضة على السلع التى تم استيرادها من الخارج ، أو التهرب من دفع الضرائب على أنشطته العديدة والمتنوعة ، أو الحصول على حصص من الحديد والأسمنت والخشب من وزارة الاسكان ، أو الحصول على نحو ٥٠٠ خط تليفون من بينها ١١١ خطاً له وأولاده ، والباقى باعها لرجال الأعمال ، بالإضافة إلى السكوت على فرض الإتاوات على رجال الأعمال ، وتزوير العقود والأوراق الرسمية ، والاتجار فى السوق السوداء (١) .

وتضيف الصحيفة التى نشرت هذا التصريح فى نفس العدد ما يلى :

فوجئت لجان الجرد بجهاز المدعى العام الاشتراكى والتى قامت بالتحفظ على ممتلكات عصمت السادات بميت أبو الكوم بوجود كميات كبيرة من المسدسات والمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية داخل الفيلا التى يمتلكها هناك . كما قام الأهالى بمعاونة رجال الأمن فى الإرشاد عن ممتلكات عصمت السادات بميت أبو الكوم .

وانتهت المحاكمة أمام محكمة القيم إلى إدانة عصمت السادات وأولاده ، فصدرت القرارات بمصادرة هذه الثروة لصالح الشعب ، ولكن قسماً كبيراً من ثروة عصمت كان موجوداً بالخارج فلم تصل له يد العدالة ، وقد قدرت ثروة عصمت وأولاده بأكثر من مائة مليون دولار ،

وقد تقدمت عائلة عصمت السادات بطعن أمام محكمة القيم العليا لرفع قرار المصادرة ، فصدر قرار هذه المحكمة بتأييد حكم محكمة القيم فيما عدا مسكنين و ٩ آلاف جنيه •

طلعت السادات وعلى شفيق والمخدرات :

يقول عبد الله أمام ^(١) إن اللواء عبد الحميد الصغير مدير مكافحة المخدرات سابقا شهد أمام محكمة القيم في قضية عصمت السادات أنه كانت في مصر عصابتان كبيرتان لتهريب المخدرات ، إحداهما يرأسها على شفيق الذى كان سكرتيرا للمشير عامر ثم قبض عليه وحوكم وسجن ، ثم أفرج عنه المشير وساعده في السفر الى لندن ، وهناك عمل في تجارة السلاح حتى قتل • أما العصابة الثانية فقد كان يرأسها طلعت السادات ، وأن الرئيس السادات قبض عليه وسجنه ولكن لم يعلن سبب ذلك •

ويضيف عبد الله أمام أن طلعت السادات استولى على الحصاة الكاملة لكل المواد الخاصة بمحافظه الفيوم مدة ثلاث سنوات ، وكان يتاجر في السوق السوداء في هذه المواد المتنوعة التى استولى عليها وحرم المحافظة منها (٢) •

نفيسة السادات :

نفيسة السادات هى زوجة عبد العزيز عبد اللطيف الورورى وقد اتهمت السيدة نفيسة هى وزوجها بالاستيلاء على أرض مملوكة لشركة مدينة نصر للإسكان والتعمير وبيعها لبعض الناس ، وبعد السادات أعلنت الشركة أن على المشتريين أن يثعبدوا شراء هذه الأرض مرة أخرى منها باعتبارها المالك الحقيقى ، فتوجه المشترون بالشكوى للجهات المختصة • وانتهى الأمر بصدر حكم قضائى على زوج السيدة نفيسة السادات ،

(١) محاكمة عصر ص ٢٨ •

(٢) المرجع السابق ص ١٢٣ •

وهو عبد العزيز عبد اللطيف الورورى بالحبس ستة أشهر فى قضية
جثة النصب رقم ٨٢٩ لسنة ١٩٨٢ جنح مدينة نصر ، واستأنفها أمام
محكمة شمال القاهرة باستئناف رقم ٨٥٩ لسنة ١٩٨٢ ، وصدر حكمها
بتعديل الحكم المستأنف الى ثلاثة شهور مع الشغل والنفاد (١) .

سكينة السادات :

يذكر الأستاذ أحمد بهاء الدين (٢) أنه بعد انتخاب أنور السادات
رئيسا للجمهورية جاءته سكينة السادات وطلبت أن تنتقل من محررة
بدار الهلال الى مديرة لتحرير مجلة المصور ، وقد ذكر الأستاذ أحمد
بهاء الدين لها أن ذلك ليس من الممكن أن يتم ، لأنها به تتخطى عددا من
الزملاء الذين هم أقدم منها وهم كذلك من حملة الدرجات الجامعية وهى
بدون شهادة جامعية .

وبعد فترة جاءت السيدة أمينة السعيد للأستاذ أحمد بهاء الدين وهى
ترتجف ، وقررت أن سكينة السادات لم تعد تَحْتَمِل ، وأنها فى اجتماعات
هيئة التحرير تقاطع وتذكر أن « أبية أنور يرى كذا وكيت » .

وقد هددها الأستاذ أحمد بهاء الدين بأنه سيشتكوها إلى أخيها ،
ولكن نفوذ سكينة امتد كالأخطبوط .♦♦♦

على رءوف وعصمت السادات :

وفى ختام حديثنا عن أسرة السادات بقى أن نورد حديثا يرتبط
بأسرة السادات وأسرته زوجته ، فقد ثبت فى مديرية أمن الجيزة أن
« عبد العال عطا » مأهول قسم الهرم تلقى عدة شكاوى من الجماهير ضد

(١) صحيفة الشعب الصادرة فى ١٨/١/١٩٨٣ وانظر محاكمة عصر
للأستاذ عبد الله امام ص ٣١ .

(٢) محاوراتى مع السادات ص ٢٠ - ٢١ .

على رءوف وعصمت السادات ، ولما كثرت الشكاوى والتعدييات كتب
عبد العال عطا للرئيس السادات يقول :

أدركت من واجبي أن أبلغك عن الانحرافات في سلوك السيدين
على رءوف وعصمت السادات ذلك السلوك الذى شاع فى منطقة الهرم
مما أثار حولهما رائحة كريهة وشملت مذكرة عبد العال عطا
وقائع محددة ومحاضر كثيرة حرّرت فى القسم ضدّهما ويقول
عبد الله امام إن النتيجة كانت أولا تحذيرا لعبد العال عطا حتى لا يكتب
ثانية فى هذا الموضوع ، ثم انتهى الأمر إلى قرارٍ بفصله من الشرطة (١) .

(١) محاكمة عصر : ص ٣٨ - ٣٩ .

الديمقراطية والديكتاتورية

عندما نعرض للحديث عن الديمقراطية والديكتاتورية بالنسبة
للأنور السادات ، ينبغي أن نقدم لهذا الحديث بثلاث مقدمات :

١ — المقدمة الأولى : تذكير بما سبق أن أوردناه حول ثورة ٢٣
يوليو كلها ، فهذه الثورة قامت على الديكتاتورية كما وضح أنور السادات
ذلك عندما ذكر أن الثوار جميعا اختاروا الديكتاتورية أسلوبا لمسيرتهم
إلا الديكتاتور الأعظم جمال عبد الناصر فإنه اختار الديمقراطية ١١ ، ثم
أن أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة قاد مجموعة من الغوغاء تهتف :
تسقط الديمقراطية — تسقط الحرية *

وكان هذا الصوت معبرا عن الثوار جميعا كما ذكرنا من قبل .

٢ — ان الفرق كبير جدا بين عصر عبد الناصر وعصر السادات في
هذا المجال ؛ كان عصر عبد الناصر عصرا وحشيا بعيدا عن الإنسانية ،
عصر حكم الفرد بقسوة ، فاذا ظهر شخص آخر مع عبد الناصر كان
عبد الحكيم عامر بكل الفظاظ والعنف والعريضة ، أو صلاح نصر بكل
الآثام والفجور ، وبالإضافة إلى عامر وصلاح نصر هناك المئات من هذا
النوع المستبد الآثم ، فلم تكن نحتكم بديكتاتور واحد ، وانما بعصابة من
الديكتاتوريين . *

أما في عصر السادات فكان الحكم في يد شخص واحد ، لم يسمح
بمركز قوة تشاركه السلطة مستبدة أو غير مستبدة ، وهذه في حد ذاتها
حسنة ، ثم كان السادات خاضعا لظروف ألزمته أن يفتح بابا ولو
صغيرا للديمقراطية ، راضيا أو غير راض ، فإن صلته بالغرب لم تترك
له حرية الاختيار ، فكان عليه أن يتظاهر بالديمقراطية بشكل أو بآخر
كما سنرى ، مؤمنا بها أو غير مؤمن . *

إن المقارنة بين عصر عبد الناصر وعصر السادات تجعل من الضروري

أن نقرر أن عصر السادات — في مجال الديمقراطية — أسمى وأنصر ، عرفنا فيه بشكل ما حرية الكلمة ، وحرية القلم ، وحرية الاجتماع ، وعرفنا النوم دون أن يهددنا زوار الفجر (فيما عدا شهر سبتمبر الأثيم) •

٣ — في المقدمة الثالثة نقرر أن من العبث أن نتوقع ديمقراطية حقيقية كاملة من رجل عسكى النساء والثقافة ، فالإنسان العسكى ألف الديكتاتورية يعامل بها من دونه ويقبلها ممن فوقه •

قد يقال إن أيزنهاور وديجول وأمثالهما كانوا عسكريين ، وهذا الاعتراض لا يورده إلا شخص ضحل الثقافة ، فأكثر هؤلاء العسكريين لم يصلوا إلى الحكم إلا بعد أن نفضوا عن أنفسهم تراب العسكرية ، واندمجوا في الحياة المدنية خطوة إثر خطوة ، ثم — وهو الأهم — إن جو الغرب يثرغيم كل شخص على احترام الديمقراطية ، فإذا حاول شخص — عسكرياً كان أو مدنياً — أن ينتج الديكتاتورية اصطدم بقوى شعبية رهيبية تثرغمه على الفرار ، بل يقف ضده الأتصار مع المعارضين ، فالجو الديمقراطي هو الحياة عندهم • هذا بخلاف الشرق الذى ترعبه القوة الظالمية التى تحرس نفسها بالسلاح حتى تعيش الديكتاتورية على الرغم مما يكنه الشعب لها من حقد واحتقار •

ديمقراطية السادات :

وعن الوجه الديمقراطي أو الديكتاتورى للسادات يقول عبد السلام الزيات (١) : السادات لا يفهم معنى المعارضة ، فالمعارضة التى يفهمها أو حتى يخلقها هى المعارضة بين جماعة وجماعة على أن تؤيده الجماعة ، فهو يسمح بتعدد الأحزاب وتنافرها مع بعضها البعض ، على أن تكون جميعها مؤيدة له ، يريد للمسلمين أن يختلفوا مع الأقباط ، ويريد اليسار أن يختلف مع اليمين ، والفقراء مع الأغنياء شريطة أن ينتج الكل

(١) نقلا عن العمالقة والاقزام لحسن عزت ص ٢٥٧ •

له ، وأن يبدي هو تعاطفه مع الجميع ، أما إذا اتجهت المعارضة له شخصيا ولقراراته فهنا تظهر أنياب الديكتاتورية •

ومع أنى لا أدافع عن ديكتاتورية السادات فإنى أرى أن هذا الكلام مبالغ فيه ، فقد صارعت الأحزاب أحيانا ، ولم تنتقل ليصارع أحدها الآخر •

مرة أخرى ، كان عصر عبد الناصر عصر الديكتاتورية الحمقاء ، تلك الديكتاتورية التى قادت البلاد للهاوية ، فلما تمت الهزيمة واحتل الصهاينة بلادنا حسب بعض المخدوعين أن عبد الناصر سيتنازل عن بعض استبداده ، ولكن الرجل أخذ من الهزيمة والاحتلال الصهيونى وسيلة لزيد من الديكتاتورية فأطلق جملته المزيّفة :

لا صوت يعلو على صوت المعركة

وهذا الوضع يوحى لنا بأن عصر السادات كان أفضل وكان واضعا لبدور من الديمقراطية ، تضعف وتشتد ، ونرجو فى يوم من الأيام أن يكمل نضجها •

وكان الأستاذ أحمد بهاء الدين وثيق الصلة بالسادات ، وهو يعطينا صورة دقيقة للسادات بين الديمقراطية والديكتاتورية ، يقول سيادته : لقد أصبحت مدركا تماما أن السادات فى تكوينه الحقيقى ، وخلفيته منذ مطلع الشباب « فاشيستى كامل » لا يعرف إلا الديكتاتورية وأن ما يدفعه إلى الأخذ ببعض صور ليبرالية ديمقراطية هو الحاجة إلى التقرب للعرب ، وهو الرئيس كارتر بالذات الذى نصحه بذلك لكى يقطع الطريق على خصوم السادات فى الصحافة الأمريكية ، ويسهل بذلك مهمة كارتر فى الضغط على إسرائيل (١) •

وهذا الوضع هو ما أشرنا له وهو ما ندين به ، فالديكتاتورية كامنة فى نفسه ، قوية فى أعماقه ، والتظاهر بالديمقراطية يجيء تحت

(١) محاوراتى مع السادات ص ١٣٧ •

ضغوط معينة وظروف خاصة ، ومن هنا امتلأت حياة السادات بالاتجاهين جميعا ، ويمكن أن نضع هنا قائمتين بذلك :

مظاهر الديمقراطية :

فمن الديمقراطية وَضْعُ حد للوباء الذى كان يسمى الاتحاد الاشتراكي ، فلم يكن ذلك الجثمان اتحادا ولا كان اشتراكيا ، بل كان كائنا انتهازيا ، ووسيلة لديكتاتورية ناصر وتحقيق أطماع بعض الطامعين الانتهازيين .

ومن الديمقراطية خُلِقَ « المنابر » التى سرعان ما حولها إلى أحزاب ، وكوّن هو حزبا ، وأُشَار على مصطفى كامل مراد أن يكون حزبا آخر ، وسمح بانفلات بعض أعضاء مجلس الشعب حتى كوّنوا النصاب الذى أتاح ظهور حزب الوفد .

ومن الديمقراطية سماحه لصحيفة « الإخوان المسلمين » بالظهور ومن الديمقراطية ما أتاحه لنا من حرية الكلمة مقولة أو مكتوبة .

قد نقول لى إن هذه ديمقراطية مظهرية وضعيفة

وأقول لك نعم . كانت ديمقراطية مستأنسة ، ما فى ذلك شك ، وعندما كان يحس بأن الديمقراطية ترعرعت وتريد أن تكون حقيقية كانت أنياب الديكتاتورية تبرز وتشحذ .

ويذكر المرحوم الأستاذ جلال الدين الحمامى ان السادات عندما حول « المنابر » إلى « أحزاب » استدعى الأستاذ مصطفى كامل مراد وقال له : إنك الآن زعيم المعارضة ، وتلك هى حجرتك وهكانتك المادية والأدبية كزعيم المعارضة فى مجلس العموم البريطانى ، ولك أن تصدر صحيفة للمعارضة ، ولعل مصطفى كامل مراد صدّق هذا الكلام ، فاتصل بالأستاذ الحمامى ليكون رئيس تحرير الصحيفة ، ولكن المسئولين قالوا له « سييك من المراحل ده » فاختار صلاح قبضايا ، وبدأت الصحيفة تظهر ، وأقبل الناس عليها إذ كانت فيها لهجة المعارضة ، ولكن السادات

لم يحتمل هذا الاتجاه من الصحيفة ، فأشار بوضع الحراقيل المالية والطباعة التى تؤدى فى النهاية لإيقافها ، واستجابة لذلك أُنذرت مؤسسة الأخبار التى كانت تطبع صحيفة الأحرار المعارضة بأن المؤسسة غير مستعدة لاستمرار طبعها ، وتوقفت الصحيفة ابتداء من أغسطس سنة ١٩٧٨ بعد حياة قصيرة (١) .

ومظاهر الديكتاتورية :

وإذا ذهبنا الى مظاهر الديكتاتورية نجدها فيها واسعا ، وكان من أخطر مظاهر الديكتاتورية تزيف الانتخابات ، وبالتالي تكون مجالس لا تمثل الشعب بحال من الأحوال .

ومن مظاهر الديكتاتورية تعديل الدستور الذى وضعه هو سنة ١٩٧١ وكان هذا التعديل يقضى بأن مدة الرئاسة غير محدّدة السنوات ، وهو وباء لا يزال مسلطا علينا .

ومن الديكتاتورية تلك التشريعات التى أعلنها لحمايته وحماية نظامه وهى التشريعات الاستثنائية التى لا تزال كالسيف مسلطة على أعناق البلاد .

ومن الديكتاتورية فصله كمال الدين حسين من مجلس الشعب تعبيرا عن حقد دفين بينهما منذ عهد مجلس قيادة الثورة ، يوم كان كمال الدين حسين فى مكانةٍ أسمى بكثير من مكانة السادات ، وقد اتُخذَ هذا نموذجا لفُصلِ الشيخ عاشور محمد نصر ، ثم فصل الأستاذ عبد الفتاح حسن وأبو العز الحريري ، وسنتحدث عن فصل هؤلاء بعد قليل ، ثم فُصلَ فى عصر حسنى مبارك ظلعت رسلان ، فالهم أن السادات فتح الباب لاغتتيال النواب وتهديدهم بالفصل من المجلس على الرغم مما يثبتته الدستور لهم من حصانات .

ومن الديكتاتورية تلك العبارات التى اندفعت منه من حين إلى حين .
— عند الضرورة فإننى مستعد أن أفرّم .

- الأفندية : عندما كان يريد السخرية بالمتقنين والجامعيين •
- ديمقراطية لها أنياب •
- الذين يستعملون الماء الساخن (مع ملاحظة أنه أدخل أجهزة تسخين الماء في ميت أبو الكوم) •
- أصحاب الشهادات والدكتوراهات و « القلاطة » (يقصد الكلمة العامية : الألاطة) •
- آخر الفراعنة العظام •
- ومن الديكتاتورية انه كان لا يترك لرئيس وزرائه أن يختار الوزراء ، بل كان هو يختارهم له •
- ومن الديكتاتورية موقفه في المفاوضات مع بيجين ، فقد كان بيجين لا يبتث في أمر إلا بعد العودة لمعاونيه في المفاوضات ، بل إلى مجلس الوزراء الإسرائيلي والكنيست عند اللزوم ، أما السادات فكان يستبد في كل هذه الخطوات ، وربما كان له العذر في ذلك ، فلم يكن هناك من يستطيع أن يواجه الاتفاق مع إسرائيل كما كان يفعل السادات •
- وفي جو هذه الديكتاتورية لم يجد حزب الوفد وسيلة للبقاء في ساحة يحكمها الاستبداد ، فقرر تجميد نشاطه ، ولم يعد الحزب لزاولة نشاطه إلا بعد نهاية السادات •
- ومن الديكتاتورية ما يروى أنه في الفترة التي تلت أحداث ١٨ و ١٩ يناير سنة ١٩٧٧ كتب صحفي بريطاني اسمه دافيد هيرست مقالا شديدا ضد الرئيس السادات وقرينته ونشره في جريدة « الجارديان البريطانية » فأصدرت السلطات المصرية قرارا بطرد الصحفي فوراً ، واتجهت قوات الأمن إلى غرفته بفندق « هيلتون » عند منتصف الليل ، وقادته إلى مطار القاهرة ، وأركبته أول طائرة تقلع من المطار ، وكانت متجهة إلى قبرص (١) •

(٢) جلال الدين الحمامصي : القرية المقطوعة ص ٢٠٩ •

فصل أعضاء من مجلس الشعب :

يذكر الدكتور ابراهيم عبده (١) أن الأستاذ عباس العقاد وهو عضو في مجلس النواب في الثلاثينات هاجم الملك فؤاد ، وقال : يجب تعطيم أكبر رأس إن هو فكر أو حاول العبث بالدستور ، وقد أراد الملك فؤاد آنذاك ، انزال العقوبة به ، ولكن الحصانة البرلمانية حمته ، فلم يمس به سوء حتى حُلَّ مجلس النواب بعد ذلك فقدّم العقاد للمحاكمة •

ومن هنا تظهر صعوبة المساس بعضو البرلمان ، ولكن أنور السادات حطم هذا الحصن ففتك بأعضاء البرلمان دون الاهتمام بحصانتهم ، وكان الفتك قويا إذ فصلهم من مجلس الشعب ، ولم تقع هذه المأساة على عضو أو عضوين وإنما شملت في دورة برلمانية واحدة أربعة أعضاء هم :

- ♦ الأستاذ كمال الدين حسين
- ♦ الشيخ عاشور محمد نصر
- ♦ الأستاذ عبد الفتاح حسن
- ♦ الأستاذ أبو العز الحريري

وسنروى هنا بإيجاز ظروف فصل كل منهم ، ذلك التصرف الذي يعد من أقسى صنوف الديكتاتورية :

السيد كمال الدين حسين :

عقب حركة ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ اتجه أنور السادات لعمل استفتاء يخوِّله سلطاتٍ ضد من اعتبرهم مناوئين له ، ومهيّجين للجماهير الذين قاموا بهذه الحركة ، وحينئذ أرسل له كمال الدين حسين برقية طويلة جاء فيها : إن استغلالكم للمادة رقم ٧٤ من الدستور اتجاه خاطيء وباطل دستوريا أحملكم وزره ، كما حملت سابقك وزير القانون رقم ١١٩ ،

(١) ومن النفاق ما قتل : ص ٢١

فالخطر الذى تنص عليه المادة ٧٤ غير موجود الآن ، وكان قصر نظره حكومتك هو السبب فيما حدث يوم ١٨ و ١٩ يناير ، وقد قلت فى مجلس الشعب إن تقنين الظلم أشد أنواع الظلم ، والاستفتاء الذى تداولون إجراءه ستروّره حكومتكم كما زوّرت كل الاستفتاءات الماضية •

وبسرعة حوّل أنور السادات هذه البرقية إلى المهندس سيد مرعى رئيس مجلس الشعب ، وفهم سيد مرعى ما يتّخذ بتحويل البرقية له ، فتحرك ، وأوعز لجماعة من المجلس أن يكتبوا اقتراحا يطلبون فيه إسقاط عضوية كمال الدين حسين •

والحق أن هذه البرقية لم تكن وحدها السبب فى إثارة السادات ، فقد كانت هناك أسباب قديمة حركتها هذه البرقية ، فاندفع السادات للانتقام ، ويقول الباحثون إن كمال الدين حسين لم يكن فى سنوات الثورة الأولى يعامل السادات بأسلوب الصديق أو الرفيق أو حتى الزميل ، وإنما كان يعامله بأسلوب الرئيس للمرءوس ، فقد كان كمال الدين حسين أحد نواب رئيس الجمهورية وشغل مناصب كثيرة فى فترة كان السادات فيها يعيش فى الظل ، وانتهز السادات هذه الفرصة لينتقم لنفسه من كمال الدين حسين ، ومن ناحية أخرى أراد السادات أن يخيف الآخرين ، فإذا كان هذا موقفه من كمال الدين حسين فإنه لن يتردد للتصدي لأى حركة يقوم بها أى عضو من أعضاء مجلس الثورة السابقين أو أعضاء مجلس الشعب •

وصدر قرارا بفصل كمال الدين حسين من مجلس الشعب تعبيرا عن حقد دفين كان بين الاثنين •

وأراد كمال الدين حسين أن يعيد ترشيح نفسه فى الدائرة التى

خلت بإسقاط عضويته ولكن سرعان ما أصدر أنور السادات تشريعا بحرمانه من إعادة ترشيح نفسه (١) .

وفي الحديث عن كمال الدين حسين لابد أن أتدخل بتجاربى معه ، فقد كنت فى فترة من الفترات قريب الصلة به ، عندما كنت مديرا للمركز الثقافى بإندونيسيا ، وأشهد الله لقد كان الرجل ممتازا ، صافى النفس ، شديد الرغبة فى الخدمة العامة ، مؤمنا عميق الإيمان ، يدرس اقتراحاتنا بعمق ثم يصدر فيها قرارات سريعة ***** ولولا أنه احتمل مع عبد الناصر أعباء العدوان القاسى على محمد نجيب ، وهتاف صلاح سالم : تسقط الحرية ***** والعدوان ضد الإخوان المسلمين سنة ١٩٥٤ وهزائم سنة ١٩٥٦ والوحدة مع سوريا وما حدث بها من انحلال وخسائر ***** لولا هذا لكان الرجل من خيرة الرجال .

إننى دائما أذكر أفضاله فأثنى عليه ، وليته تخلّى عن هذه الثورة فى وقت مبكر عن الوقت الذى اختاره .

الشيخ عاشور :

كان للشيخ عاشور تاريخ معروف من عهد عبد الناصر ، ففى المؤتمر القومى العام للاتحاد الاشتراكى الذى عُقد بجامعة القاهرة فى ديسمبر سنة ١٩٦٨ وحضره الشيخ عاشور باعتباره عضوا فى هذا المؤتمر الذى كان يرأسه جمال عبد الناصر نفسه ، فى هذا المؤتمر تكلم الشيخ عاشور وذكر أنه يتلقى محاضرات عن الاشتراكية ، فى معهد الدراسات الاشتراكية ، حيث يجىء المحاضر راكبا سيارة طولها ستة أمتار ، ويلبس خواتم من السوليتير ، وينادى فى محاضراته بالتمسك بالاشتراكية وبالعودة إلى ربط الحجارة على البطون من أجل المستقبل ، وعقب

(١) انظر كتاب ديكتاتورية السادات للاستاذ جمال سليم : ص ٢٨ و ٤٠

المحاضرة يخرج المحاضر ومعه أعوانه إلى أفخم المطاعم حيث يتناولون عشاء فيه ما لذّ وطاب ، فكان الجوع للشعب والتترف لزعماء الاشتراكية •

وفي نفس الليلة التي قال فيها الشيخ عاشور هذا الكلام نال جزاءه ، فما إن خرج من قاعة الاحتفالات الكبرى حتى وجد من يناديه ، ولما ذهب له دفعه داخل سيارة تذفته في مبنى الشرطة العسكرية في عابدين ، وهناك تلقى درسا كان شديد التأثير في جسمه وعقله •

وفي عهد أنور السادات لاقى الشيخ عاشور من الشعب جزاء ما أنزل به عبد الناصر ، فنجح في إحدى دوائر الاسكندرية الانتخابية ، وأصبح عضوا في مجلس الشعب •

وفي مارس سنة ١٩٧٨ قدم الأستاذ عادل عيد استجوابا لوزير الأوقاف فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى حول تصرفات غير سليمة ترتبط بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وفي الرد على هذا الاستجواب قال الشيخ الشعراوى كلاما عجيبا هو :

والذى نفسى بيده لو كان لى من الأمر شىء
لرفعتُ الرجل (يقصد أنور السادات) الذى
انتشلنا مما كنا فيه إلى مكانة من لا يسأل
عما يفعل (١) •

وقد غضب الشيخ عاشور من هذا التعبير وقال بانفعال : كل البشر مسئولون ، والله وحده هو الذى لا يسأل عما يفعل ، اتقوا الله (٢) ، وتطور النقاش • • • • فهتف الشيخ عاشور : يسقط السادات •

(١) الاستاذان جلال حسين وسامى مهران : البرلمان المصرى ص ٣٠٦ وكتاب « السادات : الحقيقة والاسطورة » للاستاذ موسى صبرى ص ٤٠١ - ٤٠٢ •
(٢) الآية الكريمة هى : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » من سورة الانبياء ٢٣ •

وقد وقف فضيلة الشيخ الشعراوي بعد ذلك يقدم تأويلا لكلماته فقال : إذا كان الرئيس أعطى قرارا بسفر إنسان دون أن يرجع لى باعتبارى وزيرا للأوقاف فإننى أقدر ظروف سيادته فيما يعلمه ويتصرف فيه بناء على علمه ، مما لا يجب أن يعلمه مثلى ، وقلت إن مثل هذا الرجل يجب ألا أسأله عما يفعل (١) .

وتعليقى على هذا التأويل من جانبين :

أولا — قبول التأويل أيا كان ، واعتباره بمثابة استغفار ، وكل إنسان يمكن أن يزل ، والعودة فى الزلل مقبولة ومغفورة إن شاء الله .

ثانيا — هذا التأويل فى الحقيقة لا تحتمله الكلمات التى قالها فضيلة الشيخ عن أنور السادات ، فقوله : لو كان الأمر بيدى لرفعت الرجل الذى انتشلنا هذه الكلمات تتنافى مع التأويل الذى قدمه فضيلة الشيخ الشعراوي .

ويضاف الى ذلك ما قاله الشيخ شعراوي وهو يصدر الاعتذار فقد قال فيما رواه الأستاذ جمال سليم نقلا عن مضبطة مجلس الشعب ما يلى للشيخ عاشور :

— أنا أعترفُ بالله منك !!

وقال

— لا يمكن لمثلئى وأنتم تعرفون من هو أن يزل هذه الزلة أمام الله سبحانه وتعالى !! ، وإننى أعلم أن الرئيس السادات مأهون فى دينه ، ولو أنى قلت ذلك فإن الرئيس كان سيفضب منى ، وأن لا أحب أن يفضب الرئيس منى (٢) !!

وجرت محاولات ليصفح السادات عن خطأ الشيخ عاشور . ولكن

(١) جمال سليم : دكتاتورية السادات ص ٩٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٥ - ٩٦ .

السادات رفض هذه المحاولات ، فصدر قرار المجلس بإسقاط عصوية
عاشور يوم ٢٨ مارس سنة ١٩٧٨ •

الأستاذ عبد الفتاح حسن :

علاق من عمالقة السياسة في بلادنا ، كان رحمه الله تلميذ الزعيم
مصطفى النحاس ، وكان مثالا نادرا في الصفاء والإيمان والإخلاص
والقوة ، وقد تجمعت فيه صفات القادة وأخيار الناس ، وكان موقفه
عقب إلغاء النحاس باشا لمعاهدة ١٩٣٦ موقفا صلبا ، فقد أعدّ بسرعة
فائقة وظائف لآلاف المصريين الذين كانوا يعملون مع الجيش البريطاني
ثم توقفوا عن العمل استجابة لنداء الوطن ، وكان الرجل حبيبا وصديقا
لكل رجال السياسة على اختلاف أحزابهم واتجاهاتهم ، وكان واسع
الاطلاع ، وكان في عالم المحاماة شعلة نور ولسان صدق •

ولم يكن هناك شيء ضد عبد الفتاح حسن ، ولكن أنور السادات
لم يكن يحتمل أى عضو له صلة بحزب الوفد ، ووجد حيلة لذلك بأن
اقترح استفتاء على نقاط حددها ، وكان منها أن السياسيين الذين شاركوا
في الحياة السياسية قبل ٢٣ يوليو يُعْتَبَرُونَ قد أفسدوا الحياة
السياسية ولا بد أن يجرموا من مباشرة الحياة السياسية طيلة حياتهم ،
ودعَى الناخبون إلى هذا الاستفتاء الذى سُمى استفتاء على (مبادئ
حماية الجبهة الداخلية والسلام الاجتماعى) وأُجِرَى الاستفتاء على يد
النبوى اسماعيل وزير الداخلية الذى ادعى أن الشعب قال « نعم »
بنسبة التسعات المكررة ، وتطبيقا لذلك أُنشِئت اللجنة التشريعية بمجلس
الشعب أن الأستاذ عبد الفتاح حسن ينطبق عليه القرار وليس من
حقه أن يكون عضوا فى مجلس الشعب ، وصدر قرار بإسقاط عضويته
بعد حوار طويل ، وفقد مجلس الشعب بذلك نائبا من خيرة النواب الذين
يمثلون الأمة أروع تمثيل ، وقال عبد الفتاح حسن للنواب وهو يدافع عن
نفسه :

إننى لا أستجدى عضوية مجلس الشعب ، فقد بلغتها بإرادة
الناخبين ، فأنا هنا باسم الشعب ، ومن يصوّت لإسقاطى يحارب الآلاف
الذين اتّوّا بى إلى هذا المكان •

أبو العز الحريري :

وفى نفس هذه الجلسة المشؤومة أُسقطت عضوية الأستاذ أبو العز
الحريرى بحجة أنه قّاد مظاهرة بالأسكندرية ، وقال فيها كلاما لا ترضى
السلطة عنه ، كما نشر مجموعة من المنشورات اعتبرت تطاولا منه على
ولى الأمر •

وفى كلمة ختامية كان عهد السادات عهد ديكتاتورية ، ولكنها كانت
أخفّ من ديكتاتورية ناصر ، تلك التى بلغت الغاية فى الإثم ، وقد ظهرت
فى عهد السادات لمحات من الديمقراطية كان أكثرها استجابة لظروف
الاتجاه للغرب ، ولم تكن تعبيرا عن عمق داخلى فى السادات •

الترف

كثيرون من الناس لا يعرفون أن جمال عبد الناصر لم يحس بالسعادة والترف طيلة عمره ، لقد كان دائماً خائفاً قلقاً ، وكان من الناحية الاجتماعية غيبياً ، ولذلك فهو وأهله اغترفوا من مال الدولة ، ولكن لم يسعد بهذا المال ، فقد كان شبه سجين في منزله ، وكانت متعته الوحيدة أن يركب سيارته ويمشي متخفياً ليجلس في منزل السادات ، ويهضى هناك سهرته ، وكان السادات وزوجته يجيدان تسليته والترفيه عنه ، وإذا لم يذهب الى منزل السادات فإنه يجلس أمام عدة أفلام في المسينما التي أقامها في مقر اقامته (١) ، هذا هو وصف السادات له ، وهو يرينا أن عبد الناصر كان مسكيناً ضغط على الناس ودمغهم ، وأرسل الله له القلق فدمغره •

أما السادات فقد نعم بحياته الى أبعد مدى ، وعاش في ترف شامل •
ما أسس هذا الترف ؟

اتخذ هذا الترف أسساً مهمة حتى يصل إلى الغاية ، وتلك الأسس هي :

أولاً — المال الفياض الذي أخذه من خزانة الدولة بأسماء مختلفة :
مرتبات — مخصصات — رحلات — مصروفات سرية — اعتماد خاص ••

ثانياً — حرص السادات على جعل مكد الرئاسة غير محدودة ليطول بذلك ترفه ، وكان الدستور الذى اقترحه السادات يقضى بأن مدة الرئاسة ست سنوات ويجوز إعادة انتخاب الرئيس لمدة أخرى ، ولكن السادات بعد أن أعد العدة للتurf صعب عليه أن يقف هذا الترف عند

(١) البحث عن الذات ص ١٠٦ •

(م ٣٧ — التاريخ الاسلامى)



ترف : السيدة تداعب النمناس

اثنى عشرة سنة فأجرى تعديلا سنة ١٩٨٠ جعل من الممكن إعادة انتخاب رئيس الجمهورية لمدد أخرى .

ثالثا — حرص زبانيته فور قتله على مد هذا الترف لزوجته وأولاده طيلة حياتها وحياة أولادها ، على ألا يتوقف هذا الفيض من المال إذا تزوجت .

رابعا — كان من وسائل الترف أن يعين رئيس الجمهورية مائة مستشارا له مع ملاحظة أن هؤلاء المستشارين كانوا أشبه (بديكور) لا يُستشارون في شيء ذي بال ، فمن المعروف عن السادات أن الأمر كان في يده هو ، وعلى المستشارين ومجلس الشعب ومجلس الشورى أن يقولوا آمين ^(١) .

مظاهر الترف :

شملت مظاهر الترف كل جوانب الحياة حول السادات وأسرته ، فقد شملت المسكن والاستراحات والملبس ووسائل المواصلات والرحلات ، والهدايا والطعام ، وأمانا فيض هائل لهذه المظاهر نقتبس فيما يلي تصويرا سريعا له .

المال أهم وسائل الترف :

يقول محمد حسنين هيكل : ^(٢) إن رئيس الجمهورية منذ عهد عبد الناصر كان يوضع تحت تصرفه اعتماد خاص قدره مليون جنيه في السنة ، وكان ينفق منه دون تقديم مستندات ، وعند وفاة عبد الناصر كان في خزانته مليون و ٨٥٠ ألف جنيه ، وستة آلاف من الجنيهات الذهبية ، وفي مايو سنة ١٩٧١ أصدر السادات أمرا بأن تحمل هذه المبالغ

(١) د . نعمات أحمد فؤاد : صناعة الجهل ص ٧١ .

(٢) خريف الغضب : ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

الى بيته بالجيزة وتسلم الى فوزى عبد الحافظ سكرتيره الخاص ،
ويذكر الأستاذ هيكل أنه كانت من هذه المبالغ تصرف مرتبات للاجئين
السياسيين ولكن السادات جعل ميزانية اللاجئين السياسيين تابعة
للمخابرات العامة ، وبذلك أصبح الاعتماد الخاص كله تحت سلطان
رئيس الجمهورية .

المسكن :

كان المسكن الرئيسى لأتور السادات هو بيته فى الجيزة وقد وصاه
بالنيل ، وأوقف الشارع الذى كان يسير بين البيت وبين النيل ، على
نحو ما كانت تفعله السفارة البريطانية فى عهد الاحتلال البريطانى ،
وقد أنفق السادات مبالغ هائلة لإعادة تنظيم هذا المسكن وتأثيثه .

وبجوار هذا البيت كان السادات يستعمل قصر الطاهرة ، كمكتب
له ، كما أعيد تجهيز استراحة القناطر لكى تكون بدورها مقرا رياضيا
كاملا ، وأعيد بناء البيت القديم فى ميت أبو الكوم وزود بنظام تكييف
مركزى للهواء .

ويقول عبد الله امام ان اهتمام السادات بميت أبو الكوم كان
غربيا ومتشعبا ، فقد شمل هذا الاهتمام الطريق الموصل اليها ، كما شمل
القصر الذى بنى بها ، والحديقة التى تحيط بالقصر والتى بلغت مساحتها
١٢ فدانا ، وشمل كذلك المطار الذى أقيم فيها ، وأخيرا شمل كثرة حديث
السادات عن هذه القرية .

ويقارن الأستاذ عبد الله امام هذا الموقف من السادات ، بموقف
الزعيم سعد زغلول من قريته « بيانه » التى لم يُعرف عنه أنه ذكرها أو
اهتم بها ، فقد كانت مصر كلها بلده وموطن رعايته ، ومثل ذلك يقال
عن « سمهود » بالنسبة للزعيم طيب الذكر مصطفى النحاس ، كما يقال
عن « كفر المصيلحة » بالنسبة للرئيس حسنى مبارك .

ويقرّر عبد الله امام أن أنور السادات لم يكن له في ميت أبو الكوم
أعمام أو أخوال أو خالات أو جذور على الإطلاق (١) .

وفي سنة ١٩٧٢ و ١٩٧٣ رأى السادات أن يزود كل واحد من هذه
المقار بمركز قيادة مزود بنظام حديث للاتصالات تحصيلاً ليوم نشوب
المعركة مع إسرائيل .

ومن الواضح أن هذه المقار كانت محاطة بحدائق واسعة وفخمة ،
فالرئيس السادات كان مولعاً بالهواء الطلق ، ولم يكن يحب الجلوس
الى المكاتب (٢) .

الاستراحات :

ذكر السادات مرة في إحدى خطبه أنهم يقولون عنه ان عنده عشر
استراحات ، وصرخ السادات قائلاً : هذا كذب ، إن الاستراحات التي
أتردد عليها أكثر جداً من هذا العدد .

كانت هناك استراحة القناطر الخيرية التي أشرنا إليها ، واستراحة
في الهرم ، وبيته وحدائقه في ميت أبو الكوم ، واستراحة في المعمورة ،
واستراحة في الاسماعيلية ، واستراحة في سفح جبل الراحة في سيناء قرب
الطور ، واستراحة ضخمة على شاطئ مرسى مطروح ، واستراحة في
الأقصر وأخرى في أسوان ، كما أمر السادات بإعداد قصر المنتزه ليصبح
مكتبا خاصا له في الاسكندرية ليستطيع فيه قرب استراحته في المعمورة
أن يستقبل من يشاء من معاونيه أو زواره ، وقد تكلفت عملية إعادة
إعداد هذا القصر سبعة ملايين من الجنيهات .

وتصف الدكتورة نعمات أحمد فؤاد استراحة مرسى مطروح بأنها

(١) محاكمة عصر ص ٢٦ - ٢٧ .

(٢) خريف الغضب : ص ١٩٥ .

قصر أسطورى فى مدخل مرسى مطروح له سور عال من الأحجار وبداخله سور عال مثله وعلى الزوايا أبراج مراقبة ، وبين السورين كلاب حراسة وبعد السورين حمام سباحة وملاعب ومنارة وأرضيات رخامية ، وممرات من الفسيفساء ، وتعلق الدكتوراة نعمات على هذا القصر بقولها : ان فيه مالم يحدث قبل هذا فى مصر فى عهد الملوك والسلطين ، وكان كل هذا على حساب الإنسان المصرى الذى يسكن القبور أو يسكن عشش الترجمان وتلال زينهم (١) .

الملبس :

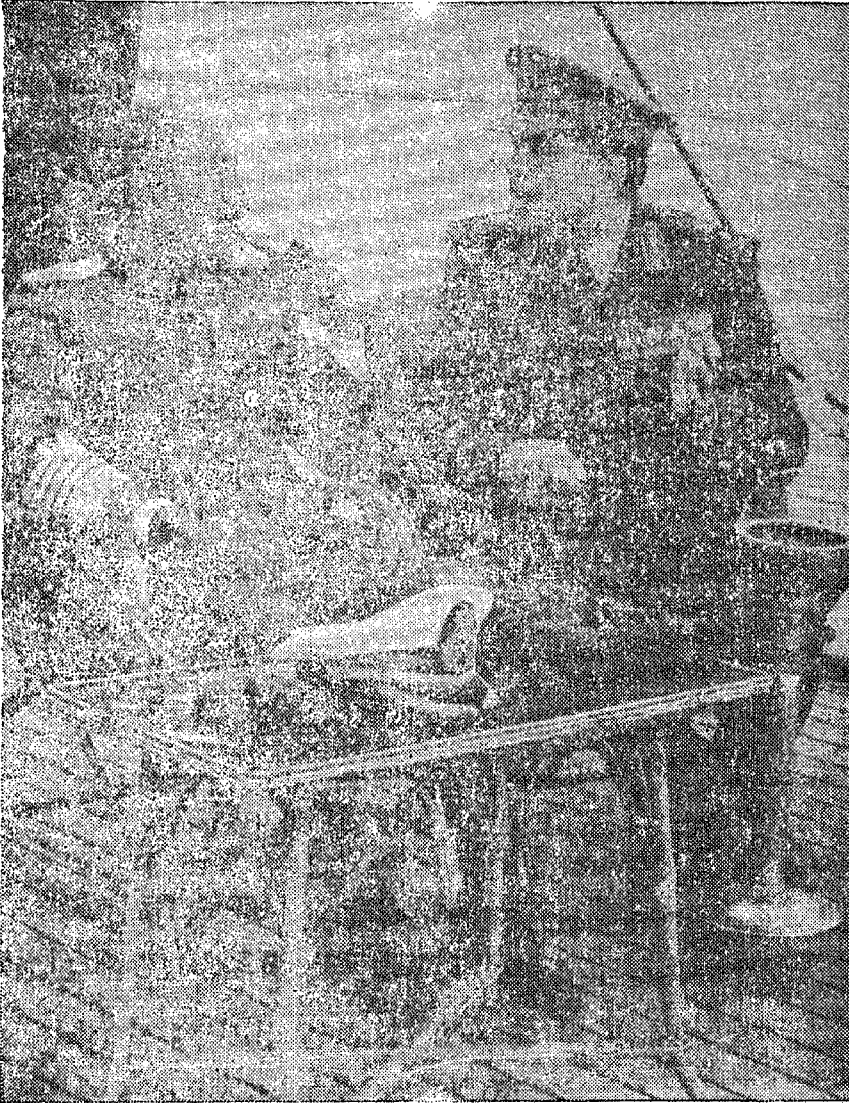
اهتم السادات وأسرته اهتماما كبيرا بالملابس وقد سبق أن ذكرنا أن زوجته كانت لها صديقات يطفن بالمحال الكبرى لينقلن لها أخبار أحدث وأفخم ما تحويه هذه المحال من ملابس لها ولبناتها .

كان هذا قبل أن يصبح أنور السادات رئيسا للجمهورية فلما أصبح فى هذا المنصب اتجهت الأعظم بيوت الأزياء بالخارج لتختار منها أعظم ما تحتويه .

أما أنور السادات فكان يقال عنه أنك رئيس بين رؤساء الجمهوريات ، وقد بلغ اهتمامه بملابسه أقصى غاية .

أما فيما يتعلق بزيه العسكرى ، فقد ابتدع فيه أروع ابتداع ، إذ أضاف الى كل أوسمته وشاحا جديدا أطلق عليه « وشاح العدل » لكى يرتديه فوق زيّه العسكرى الذى كان يقوم بإعداده له بيت فى لندن تخصص فى تفصيل الأزياء العسكرية .

وأضاف إلى كتف البدلة العسكرية علامة رتب جديدة تعلو رتبة (الماريشال) كما صنع لنفسه عصا ماريشالية من الذهب ، راح يمسك بها



الباب دليل الآجاء

تحت إبطه أو يرفعها أمامه منتصباً في قبضة يده اليمنى ، وكأنه الفرعون يحمل مفتاح الحياة (١) .

وابتكر السادات في الزى العسكرى « جاكيت » مغلقة على أن تكون خاصة به وبقيادة الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة ، وطلب منهم ارتداؤها في المناسبات الهامة منذ سنة ١٩٧٦ وهى فى فكرتها مستمدة من الزى العسكرى لألمانيا النازية (٢) .

وسائل مواصلاته :

كان الأنور السادات طائراً خاصة لرحلاته ، وكانت مجهزة كأنها « فيلا طائرة » ولم تكن تابعة لشركة الطيران الوطنية ، ولا للسلاح الجوى المصرى ، وكانت تسمى طائرة الرئاسة ، وعندما أراد أنور السادات أن ينقذ شاه ايران وهو فى بنما قال له : إن طائرة الرئاسة فى الطريق إليك .

وكانت له طائرة هيليوكوبتر يستقلها فى تنقلاته الداخلية ، ورغبة فى التأكيد على أمن الرئيس كانت رحلاته الداخلية تتم بواسطة هذه الطائرة ، وكانت تصحبها دائماً طائرتان تشبهانها حتى لا تُعرَف طائرة الرئيس من بين هذه الطائرات الثلاث وذلك للمزيد من تأكيد الأمن .

وتنقل مراسلة التليفزيون الأمريكية « دورين كايز » حرص السادات على أن تكون تنقلاته الداخلية بالطائرة الهيليوكوبتر بقولها (٣) :

اعلى أجرو فاقول إن السبب الأهم هو أن السادات كان يستعمل الهيليو كوبر فى تنقلاته الداخلية حتى لا يكلف نفسه مشقة رؤية أو سماع أو شمّ الفقر الذى أنشِبَ أظفاره فى عنق الملايين من أبناء مصر .

(١) خريف الغضب : ص ٣٨٩ .

(٢) عادل حمودة : اغتيال رئيس ص ١٦٥ .

(٣) ضفادع وعقارب ترجمة مصطفى كمال .

وكان له عدد من سيارات المرسيدس ، وقد أمر بتجهيز احداها من طراز ٦٠٠ لتكون مقر قيادة متحركا ، وقد تكلف تجهيزها أكثر من ٧٠٠ ألف دولار (١) .

الرحلات :

كان أنور السادات مولعا بالرحلات الكثيرة في الداخل والخارج ، وكانت رحلاته تستلزم كثيرا من الجهد والنفقات ، إذ كانت تقتضى إجراءات ضخمة ومعقدة فكان يتبعه حرسه الخاص أنسى ذهب ، وكذلك كان على الحرس الجمهورى أن يحرس المنطقة التى يوجد فيها الرئيس بقوة عسكرية كبيرة ، ثم كان من الضرورى وجود مكتب للاتصالات لنقل تعليماته من لحظة إلى أخرى ، وكان هذا يتتبع في رحلاته إلى ميت أبو الكوم أو في رحلاته للاستراحات المتعددة ، أو في رحلاته للخارج ، ولم يكن السادات يقنع بحراسة الدولة المضيئة ، بل كان بالإضافة إلى ذلك يعيش في جو مصرى ينقله معه أنسى ذهب .

ويذكر الدكتور حمدى الطاهرى أن الرئيس السادات كان حريصا على أن يكون الوفد الذى يرافقه شاملا ، يضم — بجوار رجال الأمن والمخابرات — عددا من الوزراء المختصين ، ورجال الاعلام من صحافة وإذاعة وتليفزيون وفنيين وإداريين ، حتى كان الوفد المرافق له يصل أحيانا الى ١٧٠ شخصا مما كان يسبب الحرج فى كثير من الحالات للدولة المضيئة (٢) .

وكان الرئيس السادات شديد الحرص على أن يصحب زوجته أولاده وأحفاده أحيانا فى كثير من رحلاته .

(١) خريف الغضب ص ٣٨٩ .

(٢) خمس سنوات سياسة : ص ٢٢ — ٢٣ .

الهدايا :

لم تكن الهدايا التي يقدمها السادات أو يقبلها مرتبطة بالرحلات ،
ففى حله وترحاله كان يقدم الهدايا لضيوفه ويقبل الهدايا منهم •

ومع أن السادات — كما ذكرنا من قبل — كان يحاول تقليد الرؤساء
فى الولايات المتحدة فإنه لم يقلد رؤساء الولايات المتحدة فى مجال
الهدايا ، فالنظام هناك ألا يقبل الرئيس هدية تزيد قيمتها عن خمسين دولارا ،
فإذا زادت الهدية عن هذا المقدر اعتبرت هدية للدولة وليست للرئيس ،
وسلمت لسجل خاص بالدولة التى ستقوم فى مناسبة أخرى بتقديم هدية
مماثلة بديلة عنها •

أما السادات فكان يقبل الهدايا لنفسه مهما عظمت قيمتها ، بل إنه
فى بعض الحالات طلب الهدية بلسانه كما يقول هيكل : إذ طلب السادات
من المملكة العربية السعودية أن تدفع له ثمن طائرته الخاصة التى أشرنا
إليها (١) •

أما بالنسبة للهدايا التى كان يقدمها فقد اشتط السادات فى ذلك
إلى درجة خطيرة ، إذ أخذ يقدم هداياه من كنوز الآثار المصرية ، وهو
فى هذا يتبع الأسلوب الذى اتبعه عبد الناصر من قبل ، وأمامى الآن
سلسلة طويلة من الآثار قدمها السادات لكثير من أصدقائه وهى تشمل
عقودا من الخرز النادر ، وتمائيل من البرونز ، وآنية من المرمر ، وعقودا
من العقيق ، وغيرها من التماثيل ذات القيمة التاريخية الهائلة ، والكثير
منها كان نادرا ، ولم يكن فى مصر نظيره •

وهكذا نال السادات صورا من الترف فى كل مجال وكان ينعم
بهذا الترف ، وحوله الجياع ، وساكنو القبور ، ولكن قلبه قد أغلق عن
مآسى وطنه واتجه كأكثر الرؤساء فى الشرق الى ملاذ الحياة ونعيمها •

(١) خريف الغضب : ص ١٩٥ •

الديون

أُثِرَ عن الرسول صلوات الله عليه أنه كان كثيرا ما يقول : أعوذ بالله من الكفر والديّن ، فقال له رجل : يا رسول الله : أتعدل الكفر بالديّن ؟

فأجاب : نعم •

ومن الأمثال الشائعة : الدين ذل بالنهار وأرق بالليل •

وقد جلبت الديون الاستعمارَ على الشرق ، فعندما نستعرض تاريخ الاستعمار في مصر أو الهند أو إندونيسيا نجده بدأ بقروض توائى الاستعمار عن المطالبة بسدادها حتى تضاعفت ، ثم نتج عن ذلك ما يسمى « صندوق الدين » وانتهى الأمر الى الاستعمار •

وإذا كانت السياسة العالمية في العصر الحاضر لا تجعل الديّن طريقا للاستعمار فإنها بالتأكيد تجعل الدين طريقا للتبعية ، ولا تستطيع دولة مدينة أن تقف من الدولة الدائنة موقف النذ للنذ ، بل لابد من انحناء ولا بد من استجابة للدائنين حتى لا تطالب الدولة الدائنة بالتعجل في تسديد الديون أو حتى تستمر في إعطاء المزيد من الديون •

البنك الدولي يؤكد تفاقم المشكلات الاقتصادية في مصر

وتزايد حجم الديون الخارجية الى ٤٧ مليار دولار :

كشف البنك الدولي للإنشاء والتعمير ، في دراسة خطيرة عن تفاقم المشكلات الاقتصادية في مصر ، وتزايد الديون الخارجية الى ٤٧ مليار دولار ، وأكدت الدراسة ، أن الزيادة السكانية الرهيبة ، ستؤدى خلال عام أو عامين ، الى انخفاض معدل النمو الاقتصادى الى صفر !! كما أكد التقرير أن مصر تعاني من عدم الاستغلال الأمثل للموارد المتاحة ،

مثل انخفاض انتاج القطن ، الذى يمثل أهم محصول نقدى فى مصر ، وأثر ذلك على انخفاض الكميات المخصصة للتصدير بشكل ملحوظ ، كما تعتمد مصر على الصناعات المكلفة جدا مثل الألومنيوم والسماد ، الذى يستهلك ١٨٪ من الانتاج المحلى للطاقة ، وأكد البنك الدولى ارتفاع حجم الدعم فى الموازنة الى ٣٠٪ من الدخل القومى ، وهى نفس النسبة المخصصة للاستثمارات من الدخل •

وهذا يرينا مدى الخطورة التى وصلت لها مصر فى عالم الاستدانة •

ولهذا فاننا نهتف بمصر وبالدول التى تبنى حياتها على الديون أنها تعرض استقلالها للخطر ، وتمهد الطريق لتبعية لا مفر منها •

وعندما نعود الى عصر ما قبل الثورة المشؤومة نجد مصر كانت دائنة لبريطانيا عند قيام الثورة بمبلغ كبير ، ويذكر السادات أن بريطانيا سنة ١٩٥٧ أقرجت عن أرصدة مصر بها ، وكانت الأرصدة المصرية آنذاك هى ٤٠٠ مليون جنيه استرلينى ^(١) • ونجد الجنيه المصرى أعلى من الجنيه الاسترلينى ، وكنا فى انجلترا ونحن طلاب نفتح حسابنا فى البنوك بالجنيه المصرى ، وكان هذا شرفا لنا ، واحتفاظا بثقل ذلك الجنيه عن الجنيه الاسترلينى • ولكن الثورة سرعان ما قضت على هذا الرصيد ومدت يدها للديون ، وقد تقدم الناصحون لزعماء الثورة يقررون أن الاستدانة — وبخاصة اذا اتجهت للاستهلاك — ستكون شديدة الضرر على مصر ليس من الناحية الاقتصادية فحسب ، بل من الناحية السياسية أيضا ، فإن الدولة المدينة لا تستطيع أن ترفع رأسها معارضة للدولة الدائنة فى أية قضية سياسية •

(١) البحث عن الذات ص ١٩٣ •

وأضاف الناصحون أن خضوع مصر للقوى الدائنة سيهش ضررّه
جميع دول المنطقة لأن مصر شديدة التأثير في المناطق التي تحيط بها ،
وإذا وقفت مصر على قدميها صارت عاملاً مؤثراً في المنطقة كلها •

وأضاف الناصحون نقطة مهمة ترتبط بمصر والديون ، وهي أن
سياسة الدائنين تقتضي أن تبقى مصر طافية على سطح الماء ، لا تنزل
رأسها عن السطح فتختنق وتغرق ، ولا ترتفع رأسها حتى لا
تتنفس بحرية ، فالتحكم في مصر على هذا النمط هو أسلوب الدول الدائنة
من الغرب أو الشرق •

ولما جاءت سنة ١٩٥٦ وأمّمت القناة دون استعداد لذلك وبالتالي
دمرت مدينة بورسعيد ، واستولت إسرائيل على سيناء ، ونهبت معدات
حربية ومدنية تعادل مئات الملايين من الجنيهات ، حينذاك بدأنا نمد
أيدينا للأصدقاء وللأعداء واستمرّ الحاكم مدّ اليدين ، وكأن الدائنين كانوا
ينتظرون هذه الفرصة ليقدموا الأموال لمصر حتى تركع ، فلا يمكن
للمدين أن يرفع رأسه في وجه الدائن كما قلنا •

والعجيب أن ديوننا جاءت من دول كثيرة صغيرة وكبيرة ، فكلما
وفد وفد لزيارتنا من بلغاريا أو رومانيا أو هولندا وغيرها من الدول
المماثلة طلبنا قرضاً ، فلم تكن قروضنا فقط من الولايات المتحدة واليابان
وألمانيا وفرنسا وإنما أصبحنا مدينين لعدد كبير من دول العالم •

وبالإضافة إلى الديون مَدَدنا أيدينا نطلب العون لتشييد منشآت
اجتماعية أو صحية واتجهنا في هذه المرة إلى اليابان التي أقامت مستشفى
« أبو الريش » ودار الأوبرا •

وعلى العموم لاحقتنا الديون المادية والأدبية من كل جانب وتقول

صحيفة أخبار اليوم ^(١) : ان ديون مصر قفزت إحدى عشرة مرة خلال عصر السادات فوصلت الى ١٨ مليار دولار ، وتقول الصحيفة إن هذه الديون موزعة كالآتي :

١ — الدائن الرئيسي لمصر هو الولايات المتحدة الأمريكية التي بلغت نسبة ديونها ٣٥٤٪ من إجمالي الديون ، ولا ننسى أن الولايات المتحدة الأمريكية هي صانعة إسرائيل وحاميتها ، وهي تعطينا طالما توقفنا عن مواجهة إسرائيل ومعارضتها ، فهذه الديون هي ثمن " تدفعه أمريكا لنا لنغضى الطرف عن إسرائيل وعن عبثها بهذه المنطقة •

٢ — الدائن رقم (٢) اليابان ومجموعة دول غرب أوروبا • ألمانيا الاتحادية وفرنسا والسوق الأوروبية المشتركة وسويسرا وهولندا والدانمرك • وبريطانيا • وكندا •

٣ — المركز الثالث تحتله هيئات التمويل العربية وفي مقدمتها هيئة الخليج التي وفرت لمصر ١٧٠٠ مليون دولار ، يضاف الى ذلك قروض الصناديق العربية والبنك الاسلامي للتنمية والمستحقات للحكومات العربية وتصل نسبة هذه القروض ١٦٥٪ من اجمالي ديون مصر •

٤ — تأتي بعد ذلك المنظمات وهيئات التمويل الاقليمية والدولية وبنك تشيز منهاتن ١٣٥٪ من ديون مصر •

٥ — المركز الخامس تحتله مجموعة دول أوروبا الشرقية والصين حيث تصل مديونيتها لمصر ١٣٤٪ من اجمالي الديون •

وتتحدث صحيفة الوفد ^(٢) عن الديون فتسميها (صناعة التبعية) وتوضح ما ذكرناه آنفا أن هذه الديون طريق لخضوع مصر الى موكب الدائنين ، وتذكر الصحيفة أن مصر بدأت في الاستدانة من سنة ١٩٥٨

(١) الصادرة في ١٦/١/١٩٨٢ •

(٢) الصادرة في ١٥/١٠/٨٧ •

حينما عقدت اتفاقيتين لقرضين مع الاتحاد السوفيتي ، ثم توالى القروض بعد ذلك ، وفي نهاية عهد عبد الناصر كانت ديون مصر غير العسكرية حوالى ١٨٠٠ مليون دولار ، أما الديون العسكرية فليس لدينا أرقام دقيقة وحساب لها ، وقد أصبحت الديون خطرا منذ ذلك العهد إذ أن عبء الأقساط والفوائد وصل الى ٥٠٪ من صادرات مصر •

وفي عهد السادات اقترضت مصر عدة بليارات ، يذكر الأستاذ محمد حسنين هيكل أنها كانت ٢٠ مليارا من الدولارات بخلاف الديون العسكرية التى بلغت ٦ مليارات (١) •

أما قروض مصر بعد السادات فقد وصلت الى ٢٠ مليارا بين سنتي ٨١ و ٨٦ •

ولست أنوى أن أقدم إحصاء دقيقا عن الديون من عام الى عام ، فإنه ليخيل لى أن وزراء الاقتصاد أنفسهم لا يعرفون بدقة قدر هذه الديون (٢) • ولكن الذى أريد أن أقوله هو ما أكدته صحيفة أخبار اليوم سائلة الذكر من تعليقات حول هذه الديون كالاتى :

١ — ان هناك تراخيا فى استخدام القروض نتيجة المراحل التى يمرث بها دخول القروض مرحلة الاستخدام •

٢ — تراخى الجهاز المركزى للمحاسبات فى مراجعة ميزانيات الشركات التى حصلت لها مصر على قروض للقيام بعمليات تجديد الآلات والمعدات •

٣ — هناك قروض تمت الموافقة عليها ، ولكن لا توجد مشروعات فى خطة التنمية لاستخدامها •

(١) خريف الغضب : ص ١٩٩ •

(٢) اعترافات رؤساء الوزارات بذلك : انظر خريف الغضب : ص ١٩٨

٤ — كانت البيروقراطية واضحة في كثير من القروض لتقصير المسئولين في مصر ولتأخر اعتماد القروض في مجلس الشعب *

٥ — كثير من القروض كانت — كما يقول حسنى مبارك — لإعادة بناء البنية الأساسية للدولة كالتليفونات والمجارى وغيرها من المرافق *
ويعلق الأستاذ الدكتور محمد عصفور على ذلك بقوله (١) :

القروض قد صرفت أو وجهت للصرف على إعادة بناء المرافق الأساسية * وهى مشروعات يفترض أن تقام بالجهود الذاتية وبأموال وطنية ، حتى لو اقتضى الأمر فرض ضرائب ورسوم باهظة على أكثر الشرائح استخداما لهذه المرافق وانتفاعا بها *

أما صرف القروض على مشروعات غير إنتاجية أى غير قادرة على توفير عائد يسدّد أصل الدين أو فوائده ، فهو مسلك يناقض أبسط أصول الاقتصاد الرشيد * ولا يجدى في تبريره الاختيار بتحقيق نقلة كبيرة في مجال الخدمات التليفونية ، ذلك أنه على الرغم من حيوية المرافق وضرورة البنية الأساسية ، إلا أن الاستدانة لبنائها أو التباهى بأن مما أنفق عليها في الخطة الأولى أكثر مما أنفق عليها خلال الخمسين سنة السابقة ، فهى سياسة اقتصادية غير حكيمة وغير عقلانية بكل المقاييس *

٦ — تؤكد المصادر التى بين أيدينا أن القروض تستتبعها إجراءات منحرفة تجعل قسما كبيرا من الدين لا يصل إلى مصر ويكون ذلك بواسطة تلاعب تهتد جذوره إلى عدة أيد في الدولة الدائنة أو المدينة * فيؤخذ من الدّين قدر باسم (إكراهية أو سمسرة) حتى ليقال أن بعض الديون لا يصل منها إلى نطاق العمل أكثر من خمسين في المائة ، وهذه الإكراهيات أو السمسرات كانت ضمن مكونات الثروة الكبيرة التى يمتلكها الآن أشرف مروان وأمثاله *

(١) صحيفة الوفد الصادرة في ٢٠/٥/١٩٨٩ .

٧ — ذكرت الصحف أن بعض القروض كانت تتوانى مصر في تسلمها
لسبب أو لآخر ، فهي تحسب قرضا ولا تنزل لميدان العمل •

٨ — والكارثة الأهم أن كثيرا جدا من هذه الديون أنفق على
الاستهلاك وبخاصة للطعام ، وهكذا أصبحنا نشترى طعامنا من الخارج
بنقود مقترضة ، وهذه هي قمة المأساة ، وبخاصة إذا لاحظنا أن الذى
يمنحنا الغذاء أو ثمنه هو الحليف الأعظم لإسرائيل ، ويوم نعارض
مسيئته تجاه إسرائيل العدوانية ما عليه إلا أن يوقف تصدير الطعام لنا •

وعن هذه العيوب والمثالب المرتبطة بالديون يقول الأستاذ الدكتور
نعمان جمعة عميد كلية الحقوق بجامعة القاهرة ما يلى :

وللأسف إن هذه القروض لم تكن للحصول على سلع استثمارية
وللأسف أكثر أن بعض هذه الأموال لم تدخل خزانة مصر ، وإنما عرفت
طريقها إلى الحسابات السرية فى بنوك سويسرا ، وللأسف ثالثا أن
حكومتنا إلى وقت قريب لم يكن لديها حصر دقيق لديوننا الخارجية
وأعبائها وتكاليفها •

أما عن ثالثة الأثافي ، فهي أن الدولة لا تقدر على نفسها • ولم
تتخذ بعد الخطوات الحاسمة الجادة لضغط الانفاق العام والخاص •
ومثل هذا الضغط من شأنه أن يقلل حجم الكارثة ، ومن شأنه أن يساعدنا
على مواجهة الديون والدائنين •

٩ — وهناك كارثة أعظم ترتبط بالديون ، وهذه الكارثة ترونها
الدكتورة نعمات فؤاد فتقول أن الحكومة الأمريكية تشترط عدم استعمال
القروض التى تمنحها لمصر فى عمليات استصلاح واستزراع الأراضى ،
(م ٣٨ - التاريخ الإسلامى)

بل إنها ذكرت أن أمريكا تشترط على الحكومة المصرية عدم زراعة القمح بالذات حتى تظل أمريكا مهيمنة على حياة المصريين (١) .

يا لها من كارثة إن صح هذا الكلام .

مصر والإنتاج :

وهذا الوضع يدفعنا للحديث عن الانتاج بمصر ، ومن المعروف أن انتاجنا من القمح لا يكفى إلا الأربعة شهور من العام ، وعلينا أن نشترى خبزا للشهور الثمانية الباقية ، ثم إن الاستهلاك واسع جدا ، ففي مصر دخول طفيلية كثيرة تتيح لأصحابها أن يعيشوا عيشة الترف ، وهناك الذين يعملون بالخارج أو يعملون مع هيئات أجنبية بمصر ، وهؤلاء يتقاضون مرتبات عالية تتيح لهم وفرة الاستهلاك ، أما النسبة العظمى من المصريين فتعيش تحت خط الفقر ، ولا تتال حاجتها من الطعام وضروريات الحياة .

لماذا لا ننتج كفايتنا كما فعلت دول اسيوية أخرى فاقت دول الغرب في الغنى واليسار مثل كوريا الجنوبية وسنغافورة ؟ ولا تنقل إن قلة السكان في هذين القطرين هي التي ساعدت على رفع المستوى ، فإن تايلاند والباكستان والهند والصين الشعبية حققت معدلات انتاج وفيرة ، ولا تلحق مصر للأسف بهذا الركب الذى يسير للأمام ، فلا تزال مصر واقفة « محلك سر » أو بالأحرى « إلى المراء سر » .

وهناك صيحة تدعو للإنتاج لكن لم يوضع لها أساس . فالطبيب ينتج في المستشفى ، والمدرس ينتج في المدرسة ، والمحاسب ينتج في المؤسسات الاقتصادية وهكذا . . أما أن نعلم الأولاد حتى يصلوا الى سن الشباب ويحصلوا على درجة جامعية ولا نخلق لهم أعمالا فإن الإنتاج لا يمكن أن يتم .

(١) اقتبس هذه التصريحات الدكتور عبد الغفار عزيز في مقاله بالوفد

كان علينا أن نفتح الطريق للتعليم الجامعي للناهين فقط ، وأن يتحول الباقون للصحراء ليزرعوا على أن يكون ذلك بناء على خطط علمية ومساعدات من الدولة وخبرات عميقة وآلات كافية ، أو أن يحولوا الى مصانع حقيقية تنتج ما يمكن أن تقدمه لها البلاد من مواد خام دون أن تتوقف إذا توقفت اليابان عن توريد أجزاء التليفزيونات التي ادعينا أننا نصنعها •

وأنا دائما أقول إن الشباب يَفِدُ للجيش من القرية أو المدينة وفيهم المتعلم وغير المتعلم ، ويستقبل هؤلاء الشباب خبراء عسكريون ، ويجد الشباب أسلحة حديثة ، وتدريبات دقيقة ، وهم بذلك يحققون نجاحا طيبا كالذى حققه المصريون ضد الصهاينة أو حققه العراقيون ضد إيران ، فإذا أردنا نجاح شبابنا في الإنتاج كان علينا أن نقدم لهم الخبراء والتدريب والمعدات ، أما أن نطلب منهم الإنتاج فقط بدون ذلك العون فإننا نطلب منهم المستحيل ، كشخص نلقى به وسط الصحراء ونقول له ازرع الأرض واجعلها تخضر ، فإن هذه صيحة لا قيمة لها •

وقد خلقت الديون في قاموسنا كلمات جديدة مثل : جدولة الديون — صندوق النقد — تعويم الجنيه •• وهي كلمات تدل على الفقر والبؤس •

محاولة تسديد الديون :

وفي مطلع عهد حسنى مبارك قامت صيحة تدعو إلى تسديد الديون • والحق أن الشعب كله استجاب لهذه الصيحة ودفع أكثر مما طُلب منه ، وتنافسنا في ذلك • وكان المرحوم الاستاذ جلال الدين الحمامى من قادة هذه الصيحة — أحسن الله جزاءه — ولكن الحكومة غيرت اتجاه هذه الحركة فجعلت التبرع إجباريا أو شبه إجبارى ، وأحس الناس أن

المسألة ليست تسديد الديون ، وإنما هى نوع من الضرائب التى تُفرض على الفقراء لصالح الأغنياء والمنتفعين ، فنتقاعسوا عن الدفع •

ولم تسدد الحكومة شيئاً من الديون بالمبالغ التى جُمعت ، بل دفعت أساساً للمقمح الذى احتاجته الأفواه ، فالأفواه فى بلادنا تُعَدُّ نعمة ، ولا يمكن استغلال عضلات أصحابها ، ولو استطعنا حسن استغلالها لأصبحت نعمة وفيرة •

ثورات ومواجهات

حفل عصر السادات بصور متعددة من الثورات والمواجهات في تتابعٍ مستمر تقريبا ، ويرى الباحثون أن كل هذه الثورات اتخذت جذورها من الهزيمة القاسمة التي حلت بمصر وبالجيش سنة ١٩٦٧ فقد كان الشعب يدرك قبل الهزيمة إخفاق العسكريين في جميع الميادين السياسية والاقتصادية والعسكرية ، ولكن الثورة كانت كلما أخفقت في أمر استدارت إلى الشعب بالداخل تنزل به أفدح صور التعذيب والاضطهاد ، ثم جاءت هزيمة يونيو الفادحة وتلاها صراع داخلي بين قادة الجيش بعضهم والبعض وبخاصة بين الرئيس ومشيريه فتضعف الحاكم وانكسرت شوكته ، وهذا أتاح للشعب المصري أن يتحرك ضد هؤلاء الانتهازين الجهلة •

ولجأ الشعب الى ظاهرة الإحياء الديني لعل القوى العليا تنتقد مصر من الهوة التي دفعها القادة اليها ^(١) وقد اتجه المسلمون والأقباط على السواء لهذه الظاهرة فالمسيحيون قالوا بظهور السيدة العذراء في كنيسة الزيتون (مايو ١٩٦٨) ولم يكتفوا بذلك ، بل أظهروا العذراء في عدة كنائس أخرى ، انحرافا بالدافع الأصلي وجريا وراء الكسب المادي ، وربطوا بين هذه الخرافة وبين الأمل في النصر على الصهاينة ، فقالوا : إن تكرار ظهور السيدة العذراء ، يؤكد أن المعجزة ستستمر حتى تعود القدس عربية ، وتتحرر من الإرهاب الصهيوني ^(٢) •

والحق أننا لم نعرف في التاريخ المسيحي أن للعذراء دوراً في أمور السياسة والحرب ، ولم تتوقف هذه الأصوات إلا بعد أن قُتِل عدد من المصريين في الزحام الذي تجمع في إحدى الليالي حول كنيسة

(١) نبيل عبد الفتاح : المصحف والسيف ص ٤٠ •

(٢) دكتور صادق جلال العظم : فقر الفكر الديني ص ١٥١ وما بعدها •

الزيتون ، ولم تتحرر الأرض العربية بعد ، ولم يعد أحد يقول بهذه الخرافة (١) .

أما الحركات التي قادها البعض باسم الاسلام فكانت كثيرة وسنلِم بها بعد قليل .

وبجانب التحرك الدينى ظهرت ثورة الطلاب عقب الهزيمة ، تلك الثورة التي كانت تبحث عن أسباب الهزيمة ، وتطالب بإنزال العقوبات الصارمة على من تسببوا فيها .

وعندما أُقيمت محاكمات صورية وصدرت أحكام متهافئة ضد المسئولين عن الطيران المصرى هبت ثورة الطلاب من جديد ضد هذه الأحكام وضد الذين أصدروها .

وعلى هذا جاء عصر السادات ومصر تغلى كأن بركانا ضخما يتحرك فى داخلها .

وفى سنة ١٩٧١ أعلن أنور السادات أن هذا العام عام الحسم ، ولكن العام مر دون أن تتحسم القضية مع العدو ، فاتخذ الناصريون والشيعيون — كما ذكرنا من قبل — هذه الفرصة وفجّروا مظاهرات ضد السادات ، وعمد السادات للجماعات الدينية الإسلامية ليستعين بها ضد الناصريين والشيعيين ، ولكن سرعان ما أخذت هذه الجماعات الزمام بيدها ، ولم تسمح بأن تكون أداة فى يد السادات .

وكانت حكومة السادات لم تكف بدعم بعض الجماعات الإسلامية لضرب الشيعيين ، بل غضت الطرف عن المساعدات التى كانت تتلقاها وعن النشرات والمطبوعات التى كانت تقوم بإصدارها ،

(١) انظر الأدلة التى أوردتها بكتّابى « المسيحية » لابرار أن هذا الإيداع خرافة .

ونتيجةً لذلك سيطرت الجماعات الدينية على الاتحادات الجامعية وأصبحت صاحبة السلطة الكاملة على مقاعد هذه الاتحادات .

وتُعطل السيدة جيهان السادات تسامح زوجها مع الجماعات الإسلامية بأنه أراد منحها حق التعبير ، إذ كانت مصر تعترم الاتجاه نحو الديمقراطية^(١) وهو تعليق لا نرتضيه ، فالسادات في نظرنا قصد أن يستعمل هذه الجماعات في الدفاع عن نفسه .

وازدهرت الجماعات الإسلامية ، وتفرعت ، وظهرت فرق تحمل أسماءً مختلفة مثل : الإخوان المسلمون — التحرير الإسلامي — الجماعة الإسلامية — تنظيم الجهاد — جماعة التكفير والهجرة ، ويذكر الباحثون أن هذه الفرق كانت متصلة بعضها ببعض ، وإن كانت تختلف في المنهج أحيانا ، ولكن هذه الفرق جميعا كانت تختلف مع السادات ، فالسادات كان عضوا في مجلس قيادة الثورة الذي قتل بقسوة ودمر بعنف جماعات الإخوان المسلمين سنتي ١٩٥٤ ، ١٩٦٥ .

ولما رأى السادات عنف الحركات الدينية وسطوتها بدأ يصرخ قائلا :

لا سياسة في الدين ، ولا دين في السياسة

وأثار هذا التعبير كلَّ الجماعات الإسلامية ، بل أثار غير هذه الجماعات من الفقهاء والباحثين المسلمين ، فالدين الإسلامي دين ودولة ، والسياسة جزء من الحضارة الإسلامية لا تنفك عنها ، واضطر أتباع السادات إلى تفسير العبارة السابقة بما يخفف وقعها على المسلمين فقالوا : إن الرئيس يقصد لا انتجار في السياسة بالدين ، ولا انتجار بالدين في السياسة ، وقد اقتنع الرئيس السادات بهذا التفسير الذي

(١) سيدة من مصر ص ٥٠٦ .

قدّمه له الدكتور زكريا البرى ، ووعد الرئيس السادات أن يذيع هذا التفسير في تصريحاته ولكنه لم يفعل (١) .

تلك خلاصة عامة عن التحركات والاضطرابات التي غمرت عصر السادات ، وسنعطى فيما يلى بعض التفاصيل عن أهم الحركات والانتفاضات .

الانتفاضة الطلابية في يناير ١٩٧٣ :

في يناير ١٩٧٣ هبت انتفاضة طلابية ضد أنور السادات ، وانضم إلى الطلاب عدد كبير من المصريين ينتمون إلى مختلف المهن والاتجاهات ، وكان السادات آنذاك في القناطر الخيرية وعندما أحس ببدء الثورة ضده دعا أعضاء مجلس الأمة إلى الاجتماع به في قصر عابدين ليحدثهم عن الموقف ، وكان السادات صباح اليوم المحدد لانعقاد هذا الاجتماع في استراحة القناطر الخيرية ووصلته الأنباء الخطيرة عن أن القاهرة تهوج بالثائرين ، وعن أن الوصول إلى قصر عابدين لم يكن آمنا ، فقرّر السادات أن ينتقل الاجتماع إلى استراحة القناطر ، ولكن المسؤولين أدركوا أن في هذا التحول خطرا كبيرا ، فطلبوا من الأستاذ محمد حسنين هيكل أن يثّنع السادات بأن يبقى الاجتماع في عابدين ، وأقنعوه بسهولة التغلب على المظاهرات ، وفعل السادات ذلك ثم واجه هذه الثورة بحنف ففصل ١٢٣ كاتباً صحفياً من أعمالهم وحولهم إلى هيئة الاستعلامات أو إلى الظل كما يقولون .

وأحس السادات أن الناصريين والشيعيين يقودون المظاهرات فأطلق العنان للشباب الدينى كما قلنا من قبل .

(١) موسى صبرى : السادات الحقيقة والاسطورة ص ١٦٠ .

صالح سرية ومأساة الفنية العسكرية :

صالح سرية ولد في فلسطين قبل الاحتلال الصهيوني ، وكان مولده ونشأته في مدينة حيفا ، وعندما شبّ تعرّف على تقى الدين النبهاني مؤسس حزب التحرير الإسلامي ، وقد ظهر هذا الحزب ظهوراً خافئاً بعد محنة الإخوان سنة ١٩٤٨ واغتيال المرشد العام الشيخ حسن البنا سنة ١٩٤٩ •

وبدأ صالح سرية نشاطه سنة ١٩٦٠ بالعراق في عهد عبد الكريم قاسم والتحق بعدة أحزاب ، وفي سنة ١٩٧١ التحق بالجامعة العربية وأصبح تابعا لإدارة اليونسكو العربية ، ولأنه حصل على شهادة الدكتوراه في التربية ومناهج التعليم أخذ وظيفة « باحث علمي » •

وبدأ صالح سرية يتصل بالشباب في القاهرة والإسكندرية وفي الفنية العسكرية ، ونجح في ضم عدد منهم إليه ، كما ضم بعض الجنود ، وكان يغري جماعته بأنه يريد الاستيلاء على السلطة في مصر وإقامة دولة إسلامية يشتركون جميعاً في حكمها ، وكان يطلب من أتباعه أن ييايحوه على السمع والطاعة في العسر واليسر ، ويبدو أن صالح سرية اتخذ منهج جمال عبد الناصر في تكوين خلايا صغيرة متفرقة لا يعرف بعضها البعض ، وقرر أن يبدأ بالاستيلاء على الفنية العسكرية ليمتلك السلاح والسيارات منها ، ويخطو بهذا إلى أهدافه ••• وكان الذين يعرفون خطته للاستيلاء على الفنية العسكرية لا يتعدى عشرين شخصا ، وهم الذين سيكلفون بالقيام بهذا العمل ، وكانت الخطة تتلخص في تخدير بعض الحرس ، وقتل البعض الآخر بواسطة الخناجر ، وقد حثّم عضو من أعضاء التنظيم عندما رأى التنظيم يتجه للدم ولقتل الأبرياء ، فأسرع يبلغ الشرطة ، وبدأ سباق بين أجهزة الأمن وجماعة التنفيذ ، وعند منتصف الليل بدأت الحركة وكان ذلك في أبريل ١٩٧٤ ، أما صالح سرية نفسه فكان يقف في ميدان العباسية يتناول بعض السندوتشات

ولم يتحرك من موقفه إلا بعد أن جاءت الأخبار بأن العملية فشلت ، وقد سقط في هذه المحاولة ١٧ قتيلا ، وقبض على صالح سرية وأعوانه وحكم عليهم بالإعدام ونفذ فيهم حكم الإعدام في ١١ أكتوبر سنة ١٩٧٤ •

وكانت الخطة ترمى — كما ذكرنا من قبل — إلى اقتحام الفنية العسكرية كوسيلة للحصول على أسلحة وسيارات على أن يقتحموا بها عقب ذلك المناطق الحساسة وأن يقتلوا المسؤولين ويرغموا رئيس الجمهورية على الاعتراف بحركتهم ، فإن تردد دفع رأسه ثمنا لتردده ، ومما يذكر أن كثيرين من الذين خدعهم صالح سرية سرعان ما انفضوا عنه عندما أدركوا اتجاهاته الدموية والسياسية ، ولا يعرف الإنسان كيف تقوم حركة بلهاء من هذا النوع تقتل الأبرياء دون أى احتمال لنجاحها والوصول بمسيرتها إلى تحقيق أى هدف يخدم الدين أو الوطن ، فكأن قتل الأبرياء قد أصبح هدفا لذاته ، وما أعجب أن يتخذ الدين وسيلة لمثل هذا المنكر •

ولكن الدنيا لا يزال بها خير ، فالذين خدعهم صالح سرية هم الذين بلغوا المسؤولين بنوايا العدوان عندما اكتشفوا أنهم مخدعون ، ولكن التبايخ جاء بعد فوات الأوان •

ومن هنا نحدّر الشبان من الوقوع في مثل هذه الأشرار التي تضر ولا تنفع ، ولنختم حديثنا عن مأساة الفنية العسكرية بكلمات للإمام على كرم الله وجهه فمما ينسب له قوله لولاته : إياكم وسفك الدماء فإن أول ما يحاسب عنه المرء بعد وفاته ما سفك من دماء •

الدكتور محمد الذهبي وجماعة التكفير والهجرة :

نحن الآن أمام مأساة خطيرة ، أمام العدوان بالقتل والتمثيل على رجل من أصلح الرجال وأتقاهم وأبعدهم عن الشبهات ، ذلك هو الدكتور الذهبي الذي كان مثالا طيبا لدمائة الخلق ، وعهق التفكير ، وسبماجة

النفس ، العالم الذى شغل أعلى المناصب ولكن لم ينتفع بها بل انتفعت المناصب به ، سجلوا عنه أنه عندما أصبح وزيرا لم يفكر فى أن يكسب شيئا من وراء منصبه ، فلم يغير مسكنه ، ولم يغير أثاث المنزل ، وأهم يقبل أن يوضع على بوابة حارس ، وكان مصدر صدام دائم للحكومة ، فقد راح يطالبها بجدية الدعوة إلى العقيدة لا مجرد التظاهر بالدعوة لاستغلال ذلك استغلالا سياسيا ، أى أنه كان وزيرا فى حكومة حاول إصلاحها ففضحها (١) .

لماذا إذاً يقتل هذا العالم ؟

هل هاجم جماعة التكفير والهجرة التى يتزعمها شكرى مصطفى
والتي تولت ارتكاب هذه الجريمة ؟

إن الثابت أنه لم يهاجم أحدا ، بل كان يرى — كما تسجل النشرات التى صدرت من وزارة الأوقاف فى عهده — أن الجماعات الثائرة ليست إلا فئة من الشباب ينشدون التدين فى أسمى صورة وأبعدها عن مظاهر الفساد والانحراف ، وكان الشيخ وهو وزير أو بعد أن ترك الوزارة يلتقى بمجموعات من الشباب يناقشهم ويقول عنهم إنهم شباب يريدون الطريق إلى الله ، فيجب أن نفهم دوافعهم ونساعدهم على كشف الحقائق (١) .

ويلخص الأستاذ عادل حمودة آراء الشيخ فيما يلى :

١ — هناك مجموعات من الشباب يملؤها الحماس والغيرة ، وتنساق وراء الحاطفة وتتصور أن عيوب المجتمع يمكن إصلاحها بالقوة ، ولهذا يحتاج الشباب إلى تفهم حقيقة المجتمع الإسلامى الذى يرفض الغلو والقوة فى تبليغ الدعوة .

(١) عادل حمودة : الهجرة الى العنف ص ١٩٩ .

(٢) صحيفة الاهرام فى ١٩٧٧/٧/٥ .

- ٢ — إن الاسلام يمكن أن يئنشر بالدعوة الهادئة والإقناع .
- ٣ — أن تطبيق الشريعة الإسلامية هو الحل للمشاكل الاجتماعية بكل أبعادها الخلقية والسياسية والاجتماعية .
- ٤ — لا بد من تنقية الفكر الاسلامى من البدع والخرافات والضلالات والمؤسف أن صوت المخرافة أقوى من صوت الحقيقة .
- ٥ — لا بد أن يكون للمسجد دور آخر غير مجرد كونه مكانا لأداء الصلاة ، فلا بد أن يؤدى رسالة اجتماعية وتربوية ، والإمام لا بد أن يكون على مستوى القيام بهذه الرسالة .
- ٦ — إن شبابنا بخير وهو متدين بطبعه ، ولكنـه لا يجد الغذاء الروحى الكافى ، أو هناك عوامل تستغل فى الخفاء بعض الشباب وتدفعهم إلى الانحراف باسم الدين وتدعوهم إلى العزلة عن المجتمع وهذا لا يتفق مع جوهر الإسلام، والحل هو نذب الشباب للفكر الصحيح وتوصيل الدعوة الإسلامية إلى كل الشباب .
- ٧ — وعلى هذا ليس المطلوب أن نقضى على هؤلاء الشباب ، ولكن المطلوب أن نطهر عقولهم بجهود مخصصة وأن ننقى تراثنا من التحريف والتزييف والتأويلات المغرضة التى تعرض لها على مر التاريخ (١) .
- وهذه الاتجاهات من هذا العالم الجليل تجعلنا فى حيرة وتدفعنا لنتساءل : كيف تقوم جماعة باسم الإسلام على معاداة مثل هذا الشيخ الجليل بأرائه الهادئة المسالمة ؟
- بل كيف تقوم جماعة باسم الإسلام على قتله والتشيل بجثمانه ؟
- إنها فى الحق جريمة كبرى لرجل كان ينبغى أن يكرمه الشباب

وينتفعوا بعلمه وخلفه ، ولكنها اضطرابات السياسة التي لا تعرف عقلا ولا تتبع فكرا سليما .

وهناك رأى يقول إن قتل الشيخ كان لأنه دافع عنهم أولا ثم هاجمهم بعد ذلك ، ودفاعه عنهم يعنى أنه راض عنهم ، وأنه داخل في زمريهم ، وهجومه عليهم بعد ذلك يعنى في رأيهم أنه مرتد ، والمرتد عقابه القتل .

وهناك رأى آخر يروى أن الشيخ قال عن جماعة التكفير والهجرة بعد أن كفترت المجتمع وأعلنت اعتزالها إلى الصحارى والجبال حتى تقوى فتعود لغزوه : إن هذه جماعة ضالكة مضلّة يجب أن توقف عند حدّها ، وأنه آن الأوان لكى تقف الدولة رادعة لهم بكل ما لديها من قوة (١) .

والعجيب أن الشيخ اختطف ليلا من بين أهله وأولاده ، وهو عمل بشع ، لم تعرفه بلادنا بحال من الأحوال ، وقصة ذلك أنه في فجر يوم الأحد الثالث من يوليو سنة ١٩٧٧ م دقّ جماعة باب الشيخ ، وكان أحدهم يابس ملابس الضباط برتبة رائد ، ومعه خمسة يجهلون أسلحة مختلفة ، وفتّح ابن الشيخ الباب ، فقال المضابط له :

نحن مباحث أمن الدولة نريد الشيخ الذهبى .

ودار حوار : هل معكم أمر ؟ ولماذا الآن ؟

أتركوا عنواؤكم وسيذهب الشيخ لأمن الدولة في الصباح .

واستيقظ الشيخ على هذه الحركة وجاء ليسأل عن الخبر ، وهنا جذبته هؤلاء الجرمون ورفعوا الأسلحة في وجه أهله ، ودفعوا الشيخ إلى سيارة انطلقت به إلى المجهول .

وفي اليوم التالي أعلنت الجماعة المختطفة عن مطالبها للإفراج عن الشيخ الأسير ، وكانت مطالب متعسفة لا ندرى صلة الشيخ بها ، وفي قمتها الإفراج عن المعتقلين من الجماعة وعن المحكوم عليهم في قضايا سابقة ، هذا بالإضافة إلى دفع فدية كبيرة ونشر كتاب شكرى مصطفى « الخلافة » في الصحف ثم طبعه في كتاب بعد ذلك ، وإذاعة بيان بالصحف المصرية والعالمية بهذه المطالب على أن يحوى البيان استنكار عدم فرض الشريعة الإسلامية على أساليب الحياة والحكم في مصر .

وبذلت جهود للإفراج عن الشيخ أولا ثم النظر فيما يمكن تلييته من مطالبهم ، ولكن الحكمة كانت بعيدة عن قلوب هؤلاء الشبان ونفوسهم .

وأخيرا وربما بطريق المصادفات عثر رجال الشرطة على عنوان شقة مفروشة كان بها جثمان الشيخ الجليل ، وكانوا ينوون التخلص من الجثمان بإلقائه في مصرف بعد لفه بالنوشادر .

يا لها من جريمة نكراء ، وقبض على القتلة وهم :

شكرى مصطفى أمير الجماعة مدبر المؤامرة الذى كان مختبأ بعزبة النخل .
أحمد طارق عبد العليم زعيم عملية الاختطاف .
مصطفى عبد المقصود غازى الذى نفذ القتل .

وقد أصدر رئيس الجمهورية قرارا بتشكيل محكمة عسكرية عليا لإجراء محاكمة فورية لمرتكبي هذه الجريمة ، وقد أصدرت هذه المحكمة حكمها بالاعدام على هؤلاء الأثمين (١) .

ومما يذكر عن جماعة التكفير والهجرة أنها كانت تعيش في الصعيد ، ويشوم فكرها على أساس تكفير المجتمع الحالى والحاكم أيضا ، لأن

(١) موسى صبرى : السادات الحقيقة والاسطورة ص ١٥٦ .

المجتمع لا يسير على تعاليم الدين ، وانتشر فيه الفسق والفجور ، وأن أحسن شيء هو الابتعاد عن هذا المجتمع وعن الحاكم الكافر وعن وظيفة الحكومة ، لأن مرتبات الحكومة من البنوك والبنوك نتعامل بالربا ، ويقول الصحفي الأستاذ عبد العاطي أحمد إنه قابل شكرى مصطفى وأجرى معه حوارا ، فانهال بالسب على المجتمع ، والحاكم ، والصحافة ، وقال عن الصحافة إنها أداة قذرة في يد الحاكم ، وقال إنه مهندس زراعى ترك وظيفته واشتغل ببيع الخضار ليحصل على لقمة العيش .

يا له من انحراف بغيض يخاف شبهة الربا ويتورط في سفك الدماء ، حسابهم على الله .

تنظيم الجهاد :

في اوائل سنة ١٩٨٠ حدث في أسيوط صدام بين رجال الأمن وعدد من الطلبة الذين ينتمون للاتجاهات الدينية ، وفي هذا الصدام سقط شاب قتيلا وجرح آخرون واعتقل أكثر من خمسين .

وتصاعدت بذلك الحماسة والحقد ، وساءت العلاقات بين رجال الأمن وبين الطلاب فشهدت جنازة الشاب القتيلى هتافات عدائية ومظاهرات صاخبة .

وبعد ذلك بفترة ، وبدقة في ٣ إبريل ذهب إلى جامعة أسيوط طالب من كلية طب القاهرة كان يلقب أمير الأمراء واسمه حلمى الجزار ، وقد ساءه ما حدث في أسيوط بين رجال الأمن والجماعات الإسلامية ، وهناك في أسيوط ألقى خطابا حماسيا قال فيه :

إلى متى تسمحون الأولاد الأفاعى أن يبتعدوا الشباب عن دينهم ؟

ومن المسئول عن ذلك ؟

إنه هو السادات الذى منح « الشاه » رعايته وحمايته ؛ وسمح له بأن يدينس أرضنا الطاهرة

وكان بين الطلبة الحاضرين شاب متحمس آخر اسمه « كرم زهدى » وهو من طلاب جامعة أسيوط ، وقد شجّع حلمى الجزار فى هجومه على السادات وحكومته •

ولعب كرم زهدى دورا آخر بعد ذلك بقبائل فى مدينة أسيوط ، فقد التقى بشاب متحمس آخر كان فيما بعد ضمن الذين خططوا لاغتيال السادات ، ذلك هو محمد عبد السلام فرج ، وقدم هذا لزهدى نسخة من كتاب يشمل مقتطفات من مؤلفات ابن تيمية وعنوانه « الفريضة الغائبة » وقال محمد عبد السلام لزهدى :

إن حكامنا مثل حكام المغول يتسترون وراء الإسلام لكنهم يعيشون بعيد عن الإسلام ، وقد آن الأوان للمسلمين فى مصر أن يبدعوا « الجهاد » ضد هذا النظام الكافر •

وكان هذا الاتجاه يوافق هوى فى نفس زهدى فقبله بإيمان وأصبح بذلك عضوا فى تنظيم الجهاد •

ونما تنظيم الجهاد بعد ذلك فقد استطاع محمد عبد السلام أن يضم لهذا التنظيم عددا من المثقفين وعددا من الضباط ، وكان الانفتاح ومباهجه الباهظة والرشاوى التى انتشرت والفقر الذى زاد بجوار المبخخ والثراء من دواعى الإقبال على هذا التنظيم للشباب الذين ساء لهم الحال ، وقل الأمل فى مستقبل مضي لهم •

وأصبح لتنظيم الجهاد مراكز فى أكثر عواصم المحافظات من الإسكندرية إلى أقاصى الصعيد •

والتقى هذا التنظيم برجل دين هو الدكتور عمر عبد الرحمن وهو أزهري كفيف واسع المعرفة ، صلد ، وتفاوض معه فأصبح الرائد الديني للجماعة ، وقد قبض عليه عدة مرات كلما حدثت اضطرابات أو مظاهرات ، وكانت تسوء حالته الصحية أحيانا فيتحول اعتقاله للمستشفى .

ومن الأشياء التي نادى بها تنظيم الجهاد فصل الطلبة عن الطالبات في مدرجات الجامعة ، والدعوة إلى حجاب المرأة ، ومنع الحفلات الجامعية التي بها ما يخالف الإسلام ، والدعوة لصلاة العيدين في الميادين العامة ، وإطلاق اللحي .

وآخر الأحداث التي ارتبطت بتنظيم الجهاد هو ما سمي قضايا التجمهر المسلح في الفيوم وقد قبض على عدد كبير من الأعضاء وقبض على الدكتور عمر عبد الرحمن ، وفي يوم الخميس العاشر من أغسطس ١٩٨٩ قررت محكمة أمن الدولة العليا (طوارئ) إخلاء سبيل الدكتور عمر وأحد عشر متهما بلا ضمان وإخلاء سبيل تسعة أشخاص آخرين بضمان محال إقامتهم .

الزاوية الحمراء (يونيو ١٩٨١) :

لقد تحدثنا من قبل عن أحداث الزاوية الحمراء ضمن أحداث سنة ١٩٨١ ، ولست أحب أن أعود للحديث عن صراع بين المسلمين والإقباط ، فذلك الصراع يرفضه كل مثقف وعاقل ، ولا يجيز الدين ولا الوطنية إشعال مثل هذا الصراع .

وهناك رأى ارتآه بعض الباحثين يرتبط بهذا الموضوع أرانى مضطراً لذكره ، وإن كنت لا أملك الأدلة على إثباته أو رفضه ، وذلك الرأى يقول (م ٣٩ - التاريخ الاسلامى)

إن السادات خلّق الحركات الإسلامية ليضرب بها الحركات الناصرية
والشيوعية ، ولكن الحركات الإسلامية لم تقبل أن تكون تحت سلطان
السادات كما ذكرنا من قبل ، وبدأت تقوى وتردهر فرأى السادات أن
يخلق قوة أخرى تتصادم معها ، وكانت القوة التي رشحها
لذلك هي التيار المسيحي ^(١) ، وانتعش بذلك التعصب الديني غمرة ،
ولكن الحكمة تغلبت وهدأت الأمور .

(١) عادل حمودة : اغتيال رئيس .

عصر السادات بين المساوىء والحسنات

في الصفحات الأخيرة لهذا الكتاب أورد خلاصة تشمل حسنات العصر وسيناته ، وطبقا للعهد الذى قطعته على نفسى ستكون الحيدة والانصاف رائدىً في كل كلمة أدونها .

إن المؤرخ يسجل الأحداث ، ثم يهرث بها في ثنايا الفن التاريخي لتصبح صفحة من صفحات التاريخ المدون ، وعندما تكون الحيدة أساس عمل المؤرخ فإن كلماته تخلد ، وعلى مر الزمن تبعث الذكر الحسن ، أو تنتشر السخط واللعنات ، أما التعصب حباً أو كراهية فعمل قصير العمر ، يترك أثراً باهتاً أو لا يترك أثراً على الإطلاق .

وفي ذكرنا لمساوىء العصر وحسناته نلمس أحياناً بأحداث ذكرناها من قبل ، ثم نورد أحداثاً جديدة لتتكوّن من هذه وتلك صورة صادقة عن أهم ما ظهر في هذا العصر من مزايا ومثالب .

حسنات ومزايا للسادات

حرب ١٩٧٣ وما حقّقته من مكاسب :

وأول الحسنات التي نذكرها للسادات هو الانتصار العظيم في معركة ١٩٧٣ ، فقد رفع رعووساً بعد أن دمر عبد الناصر وهشيرة هذه الرعووس في حالتى الحرب والسلام ، وقد أعدّ السادات جيش مصر أعظم إعداد ، واختار الوقت المناسب للمعركة ، وباشرها بكفاءة عالية كما ذكرنا من قبل عند الحديث عن أحداث ذلك العام .

إن انتصار مصر في هذه المعركة بزعامة السادات عمل يستحق كل ثناء وتقدير لهذا الرجل الذى شأر لنا ، وأعاد العزة لشعبنا ، والهيبة

لجيشنا ، ومهما كتبنا من هذه المعركة ، وما سبقها من إعداد وتمويه ،
وما صاحبها من دقة وإصرار فلن نوفقها حقها ، إنها كانت معركة بعث
وإحياء لقوة دصرية هائلة دفنتها هزائم عبد الناصر في التراب .

وكما نجح السادات في المعركة نجح كذلك في المفاوضة مع اليهود ،
مع أن التفاوض مع اليهود عمل يعتبر في قمة الصعوبة ، ولكنه على كل
حال استعاد سيناء وأرضنا المباركة ، بالقوة حيناً وبالسياسة حيناً ،
وانتذكر أن الجزء الضئيل من سيناء الذي تمسكت به إسرائيل بعد
السادات وهو « طابا » استغرقت المفاوضة لاستعادته سبع سنوات
وانتخذت دراحل متعددة ذكرناها في مكانها بهذه الدراسة ، وهذا يدل
على النفس الصهيونية وجشعها ، وصعوبة التفاوض معها ، فالصهيوني
شميدت انتهم ، يتحجب أن يأخذ ويكره العدالة والعطاء .

والانتصار في حرب ١٩٧٣ هدّ كبرياء اليهود من جانب ، وأعاد
سيناء كما ذكرنا من جانب آخر ، ثم حقق مع ذلك مجموعة من المكاسب
من جانب ثالث وهى فتح قناة السويس واستعادة آبار البترول ومناجم
المعادن في سيناء

تحيةً لروح الرجل الذى قاد مصر بنجاح في هذه المعارك الشريفة
التي كانت تحتاج لموهبة عظيمة ، فتصدى لها الرجل الذى ينعم بهذه
الموهبة .

استبعاد الشيوعية :

ومن حسنات السادات في تقديرى أنه استبعد الاتجاهات الشيوعية
من مصر ، فمصر بحكم الدين والموقع لا يمكن أن تكون شيوعية ، وكل
المحاولات لجذبها للشيوعية تبوء بالخسران .

وإذا اتجهت بعض الآراء لاعتبار الشيوعية لا تتنافى مع الإسلام فإننا نقول لها إن ما تشعّبون به ليس من الشيوعية في شيء ، فالشيوعية لا تعترف بالأديان بل تنكرها ، وهذه القاعدة واضحة تضام الموضوع عند من يتدارس كارل ماركس ولينين وغيرهما من زعمائها (١) وعلى هذا عندما تجد شيوعيا يصلى أو يصوم أو يحج ، فهذا الرجل يتبع فكرا جديدا ولا يعتنق الشيوعية الحقيقية •

وقد ذكرنا من قبل أن أنور السادات عمل معاهدة مع السوفيت ثم ألغاه ، وطرّد الخبراء الروس وكانوا عدة آلاف ، فهو رجل — مع تذبذبه — لا يمكن أن ينتهى للمعسكر الشيوعى وتلك فى رأينا محمّدة تذكّر له •

إعادة الصلة بالعرب :

كانت الصلات بين مصر والعرب قد تدهورت إبان عهد عبد الناصر ، واتجه ذلك الرئيس للأسف لهاجمة ذقون الملوك وامهاتهم ، وذلك قمة الإسفاف ، ولكن السادات أعاد هذه الصلات الى وضعها الطبيعى ، فمصر لا تستغنى عن العرب ولا يستغنى العرب عن مصر ، وقد قدم العرب مساعدات كبيرة لمصر إبان معركة ١٩٧٣ وبعدها ، وقدمت مصر على مدى طویل صورا من المساعدات للعرب •

وقد عاد الخلاف بسبب معاهدة كامب ديفيد ، ولكن السادات — فى تدبيرنا — لم يكن مذنبا ؛ لقد دعا الفلسطينيين للمشاركة فى المفاوضات ولكنهم رفضوا ، وقد عادوا اليوم للفكر الذى دعا إليه السادات منذ أكثر من عشر سنوات •

والأن الخلاف مع مصر لم تكن له جذور عميقة فإن العرب عادوا

(١) انظر « الاقتصاد فى الفكر الإسلامى » للمؤلف •

إلى توثيق صلتهم بمصر مرة أخرى بعد القطيعة التي سببتها كامب ديفيد التي نعتقد أننا أخذنا بها الكثير ولم نعط شيئاً ؛ لم نعط التطبيع ، ولا التبادل الاقتصادي ، ولم نفتح الأبواب للهواء الثقافي الإسرائيلي ...

تصفية الحراسات :

ومن حسنات السادات تصفية الحراسات ، تلك التي كانت تُفرض في العهد الأسود تبعاً للنزوات والأهواء ، والتي أجاعت البطون وضمّرت الأكباد ، وقد أصدر أنور السادات قراراً بتصفيتها فعادت بعض الأطيان لأصحابها ، ولكن بعد أن قتلهم الجوع والحرمان والأمراض .

ولم تعد الحراسات تفرض إلا بحكم قضائي كالذي حدث مع عصمت السادات .

نهاية مراكز القوى :

تحدثنا من قبل عن أولئك الذين كانوا يمثلون مراكز القوى في عهد عبد الناصر ، هؤلاء الذين شكوا منهم هذا الرئيس ، وكان كلما قضى على فوج منهم ظهر فوج آخر ، لقد قضى على المشير وأعوانه ، فظهر على صبرى ، وسامى شرف وشعراوي جمعة وأعوانهم ، وقد ارتفع نفوذ هؤلاء حتى وصلوا إلى درجة اتشبهوا فيها باغتيال سيدهم الذي حكموا باسمه عدة سنوات ، وقد اغتالوه ليأخذ السادات مكانه ، فقد كان في نظرهم شخصية ضعيفة يمكن السيطرة عليها بدل شخصية عبد اللطيف البغدادي الذي يروى أن عبد الناصر قد أوصى له بالرياسة من بعده ، وهو شخصية قوية ، توقعت مراكز القوى أنها ستخسر سلطانها لو آلت له الرياسة ، وقد كتب الأستاذ جمال سليم كتاباً كبيراً يتحدث عن هذا الاتهام (١) . والكتاب عبارة عن تحقيق صحفي يشير إلى هذا الاتهام ودوافعه ونتائجه وقد تحدثنا عنه من قبل .

(١) جمال سليم : شبهة جنائية في وفاة عبد الناصر .

والمهم هنا أن أنور السادات قضى تماماً على هذه المراكز ، ولم يسمح أبداً بمركز قوةٍ يقوم بجانبه ، وقد بالغ في ذلك لدرجة أنه ضحى بشخصيات مهمة خدمته من جانب ، أو كان لها موقع وطنى عظيم من جانب آخر مخافة أن تصبح مركز قوةٍ بجانبه ، ومن هؤلاء محمد صادق الذى كان يده اليمنى للقضاء على هذه المراكز ، ومنها كذلك إبعاد بطل عسكرى هو عبد الغنى الجمسى فى وقت كانت البلاد تحتاج لمزيد من جهوده .

شئ من الديمقراطية :

لا شك أن بصيصاً من الديمقراطية ظهر فى عصر السادات ، وكان من مظاهر هذه الديمقراطية ظهور بعض الصحف التى كانت لها طابع المعارضة بشكل ما ، وظهور بعض الأحزاب ، واختفاء زوار الفجر طيلة عصر السادات فيما عدا سبتمبر المشؤوم .

قد تقول إنها كانت ديمقراطية لها أنياب وأنا أوافق أنها لم تكن ديمقراطية كاملة ، فتزوير الانتخابات والاستفتاءات كان دعامة العصر ، ولكننا على كل حال تنفسنا الصعداء فى عصر السادات ونلنا بعض الأمن ، ولو قارنا عهد السادات بعهد عبد الناصر لوجدنا عهد السادات عصراً وارفاً للظلال بالقياس إلى الجحيم الذى شهدته مصر طيلة عصر سلفه .

جانب من الثقافة :

لا شك أن السادات نعم بجانب له قيمة من الثقافة العامة ، وقد بالغ هو فى معرفته بالتاريخ المصرى لدرجة أنه تمنى لو وقف يحاضر فى الجامعة فى مادة التاريخ المصرى وهذه مبالغة منه ، ولكنه على كل حال كانت له ثقافة جديرة بالتقدير ، وكانت له معرفة ببعض اللغات

الأجنبية ومنها الإنجليزية والألمانية والفارسية ، وهى إن كانت معرفة بسيطة ولكنها كانت تؤدى دورا مهما فى حياته كحاكم .

وكانت له قدرة على الإبانة والأداء تمكّنه أن يرتجل بدون أخطاء لغوية مفزعة .

ومما لا شك فيه أن الثقافة شىء مهم جدا بالنسبة للحاكم فى العصر الحالى ، ذلك العصر الذى اتصلت به الأمم ، والذي يحتاج فيه الحاكم لخبرات ولغات ومجموعة من المعارف ، وقد كان السادات من أحسن من شهدتهم مصر بين الحكام العسكريين .

ويتحدث الأستاذ محمد إبراهيم كامل (١) عن مصادر ثقافة السادات فيقول : إنه قرأ القرآن الكريم فى طفولته وحفظ بعضه ، وهذا ساعده على تقويم لسانه ، وأتاح له أن يقتبس بعض آياته فى خطبه .

وكان كثير القراءة فى تاريخ مصر ، وتاريخ بعض الأبطال العالميين مثل كمال أتاتورك وهتلر ، وكان بقاؤه فى السجن مددا طويلة وسيلته للقراءة الكثيرة التى جلبت له بعض الثقافة ، كما كان مغرما بمشاهدة الأفلام الرومانسية والتاريخية والبولييسية ، وهذه وتلك أمدته ببعض الأفكار .

إحياء المرافق :

قبل أن يموت عبد الناصر كانت كل مرافق مصر قد ماتت واستودعناها عند الله ، فالتليفونات صارت قِطْعاً من الحديد الصامت ، والمجارى تنفجر فى كل مكان حتى فى الزمالك وجاردن سيتى والمعادى بالإضافة إلى عواصم المحافظات — والمياه تنقصها « الشبّة » والنقاء ، ثم هى قليلة تنقطع من حين إلى آخر ، ولا تصل إلى الأدوار العليا ، والشوارع

(١) السلام الضائع فى كامب ديفيد ص ١٩٤ — ١٩٥ .

والطرق مدمرة ، أكل عليها الدهر وشرب كما يقولون ، والكهرباء تنقطع من وقت إلى وقت ، وتتوقف الثلاجات ويعمُّ الظلام ، وبالجمله فكل أنواع المرافق قد شملها الإعياء الشديد وانتابها السقام •

وقد اتجه السادات بكل قوة لتحسين هذه المرافق ، وشمل الجهد كل أنواع المرافق تقريبا ، فالتليفونات عاد لها النطق والحركة ، والمجارى تحسنت ، والمياه عاد لها النقاء والتدفق ، وحركة رصف الطرقات نشطت وهكذا برزت هذه الإصلاحات الضرورية وكانت من قبل في عالم النسيان •

منشآت جديدة مهمة :

ولم يكتف أنور السادات بإصلاح ما هو موجود ومهمل من المرافق ، بل أضاف منشآت جديدة يسرت الحياة على المصريين ، ومن هذه نفق أحمد حمدي الذي ربط الوادي بسيناء بطريق بَرِّيٍّ عَبْرَ هذا النفق العظيم ، ونرجو أن تتبعه وسائل في الشمال عند الاسماعيلية وبورسعيد لربط سيناء بمناطق غرب القناة •

ومن منشآت السادات المهمة جسر (كوبرى) ٦ أكتوبر وهو عمل معمارى عظيم وقد تفرّعت منه عدة (كبارى) جعلت الشوارع تتحرك بعد أن كانت الحركة قد توقفت تقريبا قبل السادات •

ومن المنشآت المهمة تلك المدن التى تحمل أسماء متصلة بنصر أكتوبر العظيم : مدينة ٦ أكتوبر — العبور — العاشر من رمضان — السلام — مايو — مدينة السادات ، وغيرها من المدن التى أقيمت في الصحراء فأصبحت واحاتٍ عظيمة وسط صمت الصحارى وجفافها •

إنقاذ البلاد من الاتحاد الاشتراكي :

ومن حسنات أنور السادات أنه أنقذ البلاد من هذا البلاء الذى سمى « الاتحاد الاشتراكي » ولم يكن في الحقيقة اتحادا ولا كان سمي « الاتحاد الاشتراكي » ولم يكن هذا في الحقيقة اتحادا ولا كان

الساوىء ، لم تر البلاد منه إلا كل شر ، وما رأيت أبداً أى خير منه ، لقد اختيرت أهم العمائر والقصور فى القاهرة والأقاليم لتكون مراكز له ، فضاع على الدولة ما كان يمكن من إيجارات لها ، ووضع فى هذه المكاتب آلاف الموظفين وحددت لهم أعلى المرتبات ، ويسرت لهم وسائل السلب والنهب •

آلا لعنة الله على هذا الاتحاد وعلى ذكره •

مساعدة العراق فى حربها مع إيران :

وكان هناك اجتماع قمة فى بغداد ، تحدثنا عنه من قبل ، وفى هذه القمة تقررت مقاطعة مصر سياسياً واقتصادياً ، وبعد فترة قصيرة نشبت الحرب بين إيران والعراق ، ووقف أنور السادات موقفاً نبيلاً للغاية ، فقد كظم غيظه ، وسيطر على جراحه ، وقرر مساعدة العراق ، وتقديم ما يحتاجه جيشها من معدات •

وما كان أحد غير أنور السادات يستطيع فى هذه الظروف أن يتخذ هذا القرار الذى كان من أهم أسباب عودة اللقاء بين مصر والعرب •

معاش السادات :

ومن الحسنات العظيمة التى تذكر للسادات تقديم معاش للعجزة وكبار السن وهو الذى يسمى « معاش السادات » وقد حمى به كثيرين ممن كانوا سيعانون الجوع أو يسقطون بسقطات خلقية بسبب الحاجة ، وقد عم هذا المعاش آلاف المحتاجين فى المدن والقرى •

إلغاء الضرائب على الكتب والأحاديث :

من مفاخر السادات التى يذكرها المفكرون المصريون بكل التقدير أنه ألغى الضرائب على كل المؤلفات وعلى كل الأحاديث التى يلقيها الباحثون فى الإذاعة والتلفزيون ، فحمى السادات بذلك ماء وجوهنا من الوقوف أمام مأمورى الضرائب فى هذا الشأن •

والضرائب — كفاك الله — شر وبيل ، تفترض في الإنسان — أيا كان — أنه مزور لا يقول الحق ، فتبالغ في التقدير ، ويدور حوار ينتهي بهزيمة المفكر في أغلب الأحوال •

وكان جمال عبد الناصر قد ألغى الضرائب أو ألغى نسبة كبيرة منها عن الفنانين ، ولم يعبر أى اهتمام للمفكرين عندما طلبوا أن ينالوا ما ناله الفنانون ، وبخاصة أن الفن من غناء أو تمثيل يبنى على الكلمة التي يقولها المؤلف • ولم يستجب عبد الناصر لطلبنا •

وجاء السادات فألغى كل الضرائب على الكلمة المكتوبة أو المقولة فهي وسيلة لخدمة الإنسان المصري • أحسن الله إليه •

علوى حافظ وحسنات السادات :

الأستاذ علوى حافظ من المعارضين الأقوياء الصرخاء ، ومع هذا فهو يقرر أنه في عهد السادات حدثت إنجازات أربعة هي بحق من أروع الأعمال ، وتتمثل في :

- تصفية الوجود السوفييتى •
- حرب أكتوبر •
- مبادرة السلام •
- مظلة المعاشات والتأمينات •

ويقول الأستاذ علوى حافظ : لقد أيددتها كلها وبصوت عال دون تردد تحت قبة البرلمان لأنها في صالح مصر (١) .

حسين مؤنس وحسنات السادات :

يقول الدكتور حسين مؤنس إن للسادات أربع حسنات على الأقل ، كل منها يستحق التقدير ، وهي :

١ — ثورة التصحيح في مايو سنة ١٩٧١ التي وضعت حدا لحكم الإرهاب وأسقطت رجاله ، وحمت كرامات الناس وأموالهم من المهانة

والعدوان ، وفتحت الطريق للصعود من الحضيض الذى هبطت مصر إليه فى عهد عبد الناصر وبخاصة بسبب هزيمة يونيو ١٩٦٧ وضياح سيناء ووصول الإسرائيليين إلى قناة السويس •

٢ — تحرير مصر من سيطرة الروس الشيوعيين ، ولولا قيامه بإخراج المستشارين الروس لما تيسر نصر أكتوبر العظيم •

٣ — فتحه الطريق أمام الجيش لى ينتصر على الإسرائيليين ويكسب حرب أكتوبر المجيدة •

٤ — استعادة سيناء وفتح قناة السويس •

وللرجل محاسن أخرى لا تنكر (١) •

تلك هى حسنات السادات أو أكثرها ، نذكرها للتاريخ ، فالفضل لا يتنسى ولا ينكر ، ولعلنا بذلك نكون قد أعطينا للرجل حقه وسجلنا ماله كما سجلنا ما عليه •

أخطاء ومثالب للسادات

إن الدارسة الطويلة التى قمنا بها فى هذا الكتاب شملت صوراً كانت فى تقديرنا عيوباً ومثالب للسادات ، وهناك مثالب أخرى لم تتضمنها دراستنا السابقة وذلك كمشروع هضبة الاهرام وفكرة توصيل مياه النيل لإسرائيل ، وحماية الطغاة المنحرفين •

وهنا سنمر مروراً سريعاً على الأخطاء والمساوىء التى ذكرناها من قبل ، ثم نعرض بشئ من التفصيل تلك المثالب التى أجعلنا الحديث عنها لتأخذ مكانها الطبيعي هنا •

ديمقراطية لها أنياب :

من عيوب السادات منا أسماء « ديمقراطية » وهى فى الحق وضع لا يتفق مع هذه الكلمة صحيح أنه — كما قلنا من قبل — لم يكن ديكتاتورا

(١) د • حسين مؤنس : باشوات وسوبر باشوات ص ٢٧٤ •

كامل الاستبداد كما كان سلفه ، ولكن الديمقراطية التي ابتكرها كانت كائناً
مثنوياً ، أسماها الناس ديمقراطية مستأنسة وأسماها هو : ديمقراطية
لها أنياب •

يصدق الاستفتاءات الزائفة :

وفي عهد السادات حدثت استفتاءات وانتخابات ، وكانت النتيجة
لصالحه بنظام التسميات المكررة ٩٩٩٩ ، وما كان يخفى على السادات
ولا على سلفه زيف هذه الانتخابات والاستفتاءات ، ولكنه للأسف كان
يصدقها ، وكان الناس يسخرون منها ويتدبرون بها ، وكان هو سعيداً
بها ، ولا شك أنه في داخله كان يعرف زيفها ، ولكنه للأسف كان يكذب
على نفسه ويعيش في الخيال ، وكان السادات يرى الرؤساء حوله ينالون
٥١٪ أو ٥٥٪ ويحصلون على السلطة بهذه النسبة ، وهي بلا شك
أشرف آلاف المرات من نسبة التسميات المكررة ، فكل الناس يعرفون
الزيف والتضليل في هذه النسبة المبالغ فيها •

ولا أحد يرى لماذا حرص رؤساء مصر على هذه النسبة التي
تحمل بوضوح طابع الزيف والكذب •

ويصدق الاستقبالات :

وفي زيارات السادات لمواقع الإنتاج أو لافتتاح مؤسسة من المؤسسات
الحكومية السنية تأخذ الحكومة الأبهة لجشد عدد كبير من الشعب
لاستقبال الرئيس ، وتعدّس الهاتفات اللازمة وأقواس النصر ، ويختار
قادة الهاتفات ، وفي مقدمة الحشود كان يساق تلاميذ المدارس وعمال
المصانع وفلاحو أرض الدولة ، وكانت تُصرف لهؤلاء مكافآت للقيام
بهذه المهمة ، وقد شغلت مرة في حياتي الوظيفة منصباً إدارياً مدة
عدة شهور ، وأردت أن أتعرف على كبار الموظفين بهذه الإدارة التي
عيّنت مديراً لها ، وهالني أن رأيت بينهم رجلاً عظيم الجثة طويلاً وعرضاً ،
وكان عمله هو إعداد الطلاب للاستقبالات الخاصة بالرئيس أو ضيوف
الرئيس ، وحشد الطلاب الأنارقة والأسويين بوجه خاص لهذا العمل ،

ليظهر الرئيس وكأنه زعيم الشرق كله وليس مصر وحدها ، وكان الذي يتوانى من هؤلاء الطلاب يعرض نفسه للعقوبة التى قد تصل إلى إلغاء منحه الدراسية •

وكانت الاستقبالات تضم — بالإضافة إلى هؤلاء — إعدادا كبيرة من العاطلين للفرجة ، كأولئك الذين يحتشدون للفرجة على أحواة ، والفنانين ، وعلى الرجل الذى يداعب نسناسا وعلى عتالة اللصوص المجرمين إذا قبضت العدالة عليهم •

وكان السادات يرى فى هذه الاستقبالات — كما قال — استفقاء على شعبيته •

هدايا من الآثار المصرية والجواهر المصادرة :

ومن أخطائه التى أشرنا لها من قبل أنه عدّ الآثار المصرية والجواهر المصادرة ملكا خاصا له ، فأخذ — مثل سلفه عبد الناصر — يتغدق عطايا من كنوز الآثار المصرية على «الأصدقاء» ويقدم من الجواهر ما شاء لمن شاء ، ويقدم الأستاذ محمد حسنين هيكل نماذج كثيرة لهدايا السادات من هذه الآثار (١) •

الجامعة الإسلامية :

وعندما قطعت الدول العربية علاقاتها الدبلوماسية مع مصر ، ونقلت جامعة الدول العربية إلى مقر جديد فى تونس ، فكر السادات تفكيراً مريضاً ، فقرر إنشاء « جامعة إسلامية » وأسند وظائفها إلى بعض رجاله ، وكأنه حسب نفسه يمثل الدول الإسلامية ، فاجتمع مع نفسه واختار الأئمة العلماء ، وحدد مقر الجامعة الجديدة ، وانجذب له بعض من لا يمثلون إلا أنفسهم ، أو قل لا يمثلون أنفسهم ، وإنما جذبهم الأمل فى المال أو الموقع ، وكانت سحابة صيف شرعان ما انقشعت على نحو ما حدث للمؤتمر الإسلامى الذى قام وانفض دون أن يترك فى العالم الإسلامى أى أثر •

(١) خريف الغضب ص ٣٨٢ - ٣٨٦ •

مصادرة الأصدقاء :

كان عبد الناصر شديد الحرص على إفقار الأغنياء وإذلال الأعداء ، ومن هنا اتجه لمصادرة من عدّهم أعداءه^١ وسمّاهم أعداء الشعب ، ولكن السادات في هذا المضمار اتجه اتجاها عجيبا ، فقد عنى بمصادرة أموال بعض أصدقائه ، والذي يقرأ كتابه « البحث عن الذات » يجد اعترافا صريحا بأن حسن عزت أنقذه من فاقة ، وكساه من عرى ، وأطعمه في ساعة عسرة ، وعن طريقه تعرف بجيهان قريبة زوجة حسن عزت ، وتمّ زواجه منها ، فماذا نرى لو قرأنا ما كتبه حسن عزت في معاملة السادات له ؟ يقول حسن عزت :

انك وضعت حارسا على أموالى فأتى عليها جميعا ، وضاع ثنقاء عمرى ، أما أموالى التى ورثتها عن أبى رغم ضآلتها فقد صودرت وتملكتها شركة مصر للتأمين كأموال أى خائن لمصر^(١) .

تلك كلمات أنور السادات وهذه كلمات حسن عزت ندونها دون

تعليق .

مقاومة ما نسب لعبد الناصر وأسرته من اتهامات مالية :

كلام كثير نشره الكتاب والمؤلفون عن عبد الناصر وأسرته وقد أئمنا به من قبل ، وبدل أن يحوّل السادات للتحقيق تصدى لردّه ، وكان عنيقا في تصديه للدفاع ، فأوقف الأستاذ جلال الدين الحماصى عن كتابة عموده اليومى بالأخبار عندما نشر كتابه في هذا الشأن .

بل تصدى الى دعامة قوية كان يركن له وهو عثمان أحمد عثمان عندما نشر هذا كتابه وذكر فيه قصة « الفيلتين » اللتين بناهما لابنتى عبد الناصر بثمن لا يمثل إلا جزءا ضئيلا من الثمن الحقيقى ، والمهم

(١) العمالة والاقزام ص ٢٤٠ .

أن السادات لم يترك العدالة تأخذ مجراها فيما نسب لعبد الناصر وأسرته من استغلال وكسب غير مشروع أشرنا له من قبل ، وإنما وقف مدافعا لا يستعمل الحق ولا القانون ، ولكن يستعمل القوة الفاشمة .

لم ينصف المظلومين من ظلم عبد الناصر والمشير :

وهما يقال عن ناحية السلب والنهب يقال مثله أو أكثر منه عن صور الظلم الفادحة أتى أوقفها عبد الناصر بالآخرين ، فقد تفاضى السادات تماما عن المصدر الرئيسى لهذا الظلم ، تفاضى عن عبد الناصر والمشير تماما فصاعت الحقوق إذ لم يكن فى مقدور أغلب المظلومين أن يلجئوا للعدالة ، ومن لجأ منهم للقضاء ، كآسرة الفقى فى كمشيش اتجهت الاتهامات إلى الصف الثانى أو الثالث ، مع أن هؤلاء كانوا ينفذون أوامر صادرة لهم من الرؤوس العليا .

تاريخ الثورة ، وأسباب هزيمة ١٩٦٧ :

وتحركات العدالة حيناً فى نفس السادات فقرر تكوين لجنة لكتابة تاريخ الثورة ، ولجنة أخرى للبحث عن أسباب هزيمة ١٩٦٧ ولما رأى السادات أن هذه اللجنة وتلك ستدين الثورة وستبرز ما خفى على الجماهير من مثالب ، لما رأى ذلك قتل اللجنتين فى مهدهما ليعيش الناس فى ظلام وأسى دون أن يعرفوا أساس ما عانتة وما تعائيه مصر من مشكلات وآلام .

أسرة السادات والشرافة :

ذكرنا من قبل ما جرى من أسرة السادات من نهب وسلب ، ولا يمكن القول إن السادات كان يجهل هذا ، وأنه لم يبلغه أى خبر عن ذلك التكالب والانتهازية ، فإن كان قد جهل هذا ولم يبلغه أى خبر عنه فهمنى ذلك بوضوح خوف الناس من تبليغه هذه الأخبار ، وقد روى السادات أن عبد الناصر كان شديد الحساسية بالنسبة لأسرته ، وأنه كان يعاقب

بقسوة من يتحدث عن أى فرد من أسرته بمكروه ، وطلبا للسلامة أغضى الناس الطرف عن أسرة عبد الناصر وتركوها تمرح كما تشاء *

ويبدو أن الحال كان هو الحال بالنسبة لأسرة السادات وأسرة زوجته ، فهو مسئول تماما عن كتمان هذه الأخبار عنه ، ولكن الحق أن هذه الانحرافات التى تشعبت واتصلت كالاخطبوط بكل ميدان من ميادين الحياة لابد أن تكون قد وصلت وأغضى عنها الطرف ، وقد كشف القضاء عن بعضها ، والسادات مسئول عن تفشى هذا النهب الذى ذاع وشاع ، فجلب الأسرة السادات الملايين على حساب المحتاجين والجائعين ، حسابه على الله *

غُرور السادات :

لقد ذكرنا من قبل صورا من المدح والثناء على أنور السادات فيما يتعلق بقضائه على الطغمة الفاسدة التى كان يعتمد عليها عبد الناصر ، وامتدحنا السادات من الأعماق على تدبيره لحرب ١٩٧٣ وقيادته لها ، كما ارتضينا خطته التى استطاع بها أن نستعيد باقى سيناء بطريق المفاوضات مع اليهود

ولكن السادات عقب ذلك كان عليه أن يمسجد لله شاكرًا وعونه وتوفيقه ، وأن يثنى على الشعب الذى وقف بجانبه يؤيده ويساعده ويضحى بالدم والولد والمال من أجل الهدف المشترك ، ولكن السادات « تألكه » عقب ذلك ، ووضع نفسه هو وأسرته فى دائرة بعيدة عن الجماهير *

وكان عليه أن يتجه للعمل الداخلى ولبناء الإنسان المصرى الذى حُرِمَ من مطلع الثورة من كل الحقوق الإنسانية ، ولكن السادات اتجه لنفسه ولزوجته ولأولاده منها ، وأهمل كل الدنيا حتى زوجته الأولى

(م ٤٠ - التاريخ الإسلامى)



جلسة اعتداد اقرب للغرور

وبناته منها ، إنها الأنانية القاتلة التي جلبت الحقد على رجل كان يمكن أن يكون صديقا وأثيرا عند المصريين •

وفي هذا المجال يقول الدكتور حسين مؤنس ^(١) •

كانت أمام السادات فرصة ذهبية لمسيرة حميدة بعد النصر في المعركة وفي المفاوضات ، ولكن السادات أضاع هذه الفرصة ، وتصوّر أنه بلغ مالم يبلغه إنسان قبله ، وما لن يبلغه إنسان بعده ، وتصوّر أنه هو وحده كسب حرب أكتوبر ، وهو وحده استعاد سيناء ، وهو وحده لذي يعرف ماذا يعمل وماذا لا يعمل ، وأخذ صورة سيد أرسنقراطي عظيم له في كل ركن من أركان مصر قصر ملكي يقيم فيه ، وحاشية ضخمة تجرى وراءه لتخدمه في قصوره ، وله أسرة ملوكية تصاهر أصحاب الملايين ، وهو في الشتاء في أسوان والإسمايلية ، وفي الصيف في الإسكندرية ، ولدنيا كلها تجرى لتسعد بلقائه حيث يكون ، والسيد العظيم يستيقظ في الحادية عشرة صباحا ويبدأ العمل في الواحدة بعد الظهر ، وطائرة بوينج ٧٠٧ وطائرة هليكوبتر مربوطتان ببابه كما كانت الخيل تربط بأبواب الخلفاء والسلطين ، والملابس تصنع له عند ديور وبير كاردان ، وسيد مصر العظيم تحول الى « ستار عالمي » ، ومجلة شيتزن تنشر صورته على غلافها وفي يده وردة ، وتمنحه لقب « أشيك رجل في الدنيا » ومنشآت الصحف القومية لابد أن تتلأأ بها كل يوم كلمة « السادات ♦♦♦♦♦ » •

واللغة الوحيدة التي تعجبه هي المديح ، وهو لهذا لا يحتمل النقد ، وصدره يضيق بأية مراجعة ، تلك هي فترة أخطاء السادات ، التي كلفته ثمنا باهظا ، وتلك هي فترة الأخطاء القاتلة ، ومعظم الذين أبغضوا السادات داخل مصر تكونوا خلال هذه الفترة •

(١) باشوات وسوبر باشوات ص ٩٣ •



وقع في غرام سماع صوته ورؤية صورته

ويقول محمد كامل إبراهيم وزير خارجية السادات خلال فترة من
الفترات :

وقع السادات في غرام سماع صوته ورؤية صورته ، وأصبح
إجراء الأحاديث والإدلاء بالتصريحات هوايته المفضلة ، وكانت وكالات
الأنباء تتابعه في هذا الشأن ، وربما شغلته هذه الهواية عن مقابلة كبار
الضيوف والديبلوماسيين الذين يزورون مصر ويطلبون مقابله ، ولكنه
كان يعتذر لانشغاله (١) .

أهل معركة السلام :

ونسى السادات أن معركة السلام كانت تحتاج إلى جهد أكبر من
معركة الحرب ، ولكن السادات أعد معركة الحرب ونجح فيها ، ثم أهمل
معركة السلام تقريبا ، فلم يحدث في عهده تطور زراعى ذو بال أو اقتصادى
أو اجتماعى ، بل بدأ التدهور يأخذ طريقه للحياة بمصر .

مطار لارناكا و ١٨ شهيدا من رجال الصاعقة :

من الواضح أن رجال الصاعقة يُعتَبَرُونَ في كل دولة أهم العناصر
في الجيش ، فهم بحكم قواهم الجسمانية والعقلية ، وبحكم التدريب
الخطير الذى يحصلون عليه ، وبحكم استعدادهم لأخطر الأعمال في
الحروب مهما كان فيها من قسوة وتضحية بحكم ذلك كله يُعتَبَرُونَ
ثروة هائلة تدّخرها الدول لمواجهة الأخطار والصعوبات .

وقد تكلمنا من قبل عن مصرع رجل يُعتبر من أغلى رجالات مصر ،
ومن أعمقهم ثقافة وأكثرهم دراية بمشكلات الوطن ذلك هو الأستاذ
بوسف السباعى ، وكان مصرعه في قبرص حيث كان يرأس الوفد المصرى

(١) السلام الضائع في كامب ديفيد ص ١٩٣ - ١٩٤ .

في اجتماعات لجنة التضامن الأسبوي الإفريقي ، وكان مصرعه بيد اثنين من الفلسطينيين ، مجهلان ما يفعلان ، حسابهما على الله •

وقد سارعت منظمة التحرير الفلسطينية بإصدار بيان تدين بشدة هذه العملية وتستنكرها •

وقد وقع خبر اغتيال يوسف السباعي وقعا شديداً على الجمهور المصري الذي كان يحب هذا الرجل ويتابع نشاطه الثقافي ، ولكن الكارثة تطورت على يد أنور السادات ، فتضاعف خطرهما ، فإنه بحكم ديكتاتوريته أمر أن تسلّم قبرص هذين القاتلين إلى مصر ليحاكما بها ، ورأت قبرص أن هذا يقتنافي مع استقلالها ويعرضها لنقد خطير ، فرفضت هذا الطلب ، وبرزت ديكتاتورية السادات حيث كان يجب أن تخفّض ، فأمر بإرسال عدد من رجال الصاعقة إلى قبرص لاختطاف القاتلين ونقلهما إلى مصر ، وفي مطار لارناكا تعرض أبطال مصر إلى ضربات من الخلف ، فقد اعتبر القبارصة أن ذلك عدوان على أرضهم واستقلالهم فأطلقوا عليهم النيران ، وسقط ثمانية عشر بطلا ، كما دمرت الطائرة المصرية التي حملتهم ، وكانت خسارة مصر بذلك عظيمة جدا •

وقال وزير خارجية السادات له إن هذه العملية خطيرة ، لقد فقدنا ثمانية عشر ضابطا ، وفقدنا الطائرة التي نقلتهم ، وتدهورت علاقاتنا بقبرص ، والعالم كله يدين هذا العمل ، ويجب إجراء تحقيق فوري لمعرفة المسؤول عن هذه العملية ، فقال السادات في غضب شديد : أنا الذي أمرت بهذه العملية (١) •

ما أكثر ما نزلت الأخطار والخسائر بمصر بسبب الديكتاتورية •

(١) محمد ابراهيم كامل : السلام الضائع في كامب ديفيد ص ١٩٩ - ٢٠١

ولو استشار السادات معاونه ، لنجت مصر من كثير من المهن
التي سببتها الديكتاتورية الجاهلة الحمقاء •

هضبة الاهرام :

في موجة ما سُمِّي الانفتاح بحث هواة المال عن كل طريق يجلب
لهم المزيد من الثراء ، وكانت هضبة الأهرام واحداً من هذه الطرق •

لقد اختار الفراعنة هذا المكان بدقة ودراسة وعمق ومن أهم المزايا ،
ارتفاعه الشاهق عن الوادى ، حتى تظل الأهرام وغيرها من الآثار في
منطقة جافة ، تقع بمنأى عن تسرب المياه أو الرشح •

وهضبة الأهرام واسعة جداً وتعتبر غنيمة كبرى لأى شركة أو
مؤسسة تأخذ حق استغلالها ، وللأسف تقدمت لذلك شركة من هونج كونج
بأبخس الأسعار ووافقت الحكومة على ذلك •

ورأى المصريون أن السماح بإقامة مدينة فوق هضبة الاهرام
معناه بيع التاريخ ، والتاريخ المصرى غال جداً عند المصريين ، ولذلك
قامت حركة احتجاج واسعة وقوية • وكانت الدكتورة نعمات أحمد فؤاد
من دعائم هذه الحركة ، فقد كتبت عدة مقالات تهاجم هذه الصفقة ، وكان
مما قالته (١) :

إن الحكومة المصرية وافقت على عدم البناء في منطقة بها مقبرة
يهودية ، وكان ذلك إجلالاً للموت ، فما بالها تصنع هذا مع موتى اليهود
ونتناساهم مع أبطال الفراعنة الذين كانوا في عهدهم سادة العالم •

وإذا كان هذا المشروع يحمل مظهر التعمير ، فإنه في الحق تخريب
للتاريخ وللأخلاق وللذمم •

(١) صناعة الجهل ص ١٠٠ •

وكان من أبشع ما اتصل بهذه الصفة تشوية البيئة الأثرية بالإسكان وما يلحقه ، ثم تدميرها بواسطة البحيرة التي أزمعوا حفرها في مساحة تبلغ اثني عشر فدانا تحت أقدام الهرم ، مع أن الهرم لم يعيش عمره الطويل إلا بسبب الجفاف وارتفاعه فوق منسوب ماء النيل .

وبينما كان أفراد الجمهور يهاجمون العدوان على منطقة مقدسة لدى المصريين كانت « منى » ابنة جمال عبد الناصر تتقدم بنشاط لتتال جزءا من الغنيمة فتعاقدت على شراء جزء كبير من الهضبة لتجبري به تقسيما يباع بأعلى الأسعار .

ويقول الأستاذ محمد حسنين هيكل : إن من نتائج الانفتاح الكاذب أن ظهر مشروع أثار ضجة في وقته ، وهو مشروع هضبة الأهرام ، وكان وراءه مستثمر كندى ، أو هكذا بدا على الورق ، وكان الهدف إنشاء مدينة لأغنياء السياح وأغنياء مصر ، وكان المشروع هشا في اقتصادياته ، وكانت كل تفاصيله ملأى بمظاهر التلاعب ، ولقد تحمس الرئيس السادات شخصيا لهذا المشروع ، ولكن ثارت ضجة كبرى حوله ، إذ اعتبره الكثير من الوطنيين عبثا بمنطقة تضم كنوزا من تراث مصر لا تقدر بثمن (١) .

ويذكر موسى صبرى أن أنور السادات كلف الدكتور مصطفى خليل بدراسة موضوع هضبة الأهرام ، وما يوجه إليه من نقد ، واستمر الدكتور مصطفى خليل في الدراسة إلى ساعة متأخرة من الليل ، وفي الصباح الباكر ، وقبل أن يتوجه السادات ليلقى خطابه في احتفالات أول مايو سنة ١٩٧٩ اتصل به الدكتور مصطفى تليفونيا ونصحه بإعلان إلغاء المشروع ، لأنه فعلا ليس في صالح مصر ، واستجاب السادات لهذه النصيحة ، وأعلن إلغاء المشروع في خطابه في عيد العمال أول مايو سنة ١٩٧٩ (٢) .

(١) خريف الغضب ص ٢١٥ .

(٢) السادات الحقيقة والاسطورة ص ٣٩٦ .

ولم تقتنع الشركة المتعاقدة بحق التاريخ في إلغاء هذا المعبث ، فأخذت تقاضى المسئولين عن إلغاء هذه الصفقة ولكن أحكاما صدرت برفض هذه الدعاوى فمجلس الدولة حكم بأن هضبة الأهرام منطقة آثار يحرم المساس بها ، وحكمت بذلك محكمة مصر الكلية وأضافت في أسباب الحكم كلمات طيبة ، قالت المحكمة : كان ينبغي على كل مصرى غيور وحرّ مناهضة ذلك المشروع للحفاظ على المقدسات المصرية ، وعلى ثروة مصر التاريخية ، وإن للمواطن المصرى بعد طول معاناة أن يقول رأييه بصراحة في مشروعات تعود بالنفع الكثير على فئة قليلة مستغلة ، وتعود على الوطن والمواطن بالخسارة الفادحة (١) .

التفاف خلفى لإعادة المشروع :

ولم يكن رفض المشروع نهاية لهذه المشكلة ، فإن اتجاهات حكومية يمثلها محافظ الجيزة واتجاهات مصرية يمثلها المحدثون من الأغنياء عادت تحاول استغلال الهضبة بوسيلة أخرى تشمل مجموعة من الشاليهات والاستراحات تغطى بها الهضبة وتكون مسرحا للمعبث والترف ولم ينس هذا المشروع العدوانى ، إحياء فكرة البحيرة التى كانت فى المشروع الاستثمارى .

ولكن القوى التى هاجمت المشروع الأول استمرت فى حماسيتها وقوتها تجاهد وتناضل هذه المحاولة الجديدة ، وكسبت هذه الجهود الجولة الثانية كما كسبت الجولة الأولى وأزيل ما كان فى الهضبة من شاليهات ، وعادت المنطقة على الحال الذى كانت عليه أيام الفراغنة الأمجاد .

دياه النيل لإسرائيل ؟ :

إن الإنسان المصرى يحس بألم ممزوج بالمرارة والدهشة أن أنور

(١) نقلا عن : دكتورة نعمات أحمد فؤاد : صناعة الجهل ص ١٠٠-١٠١ .

السادات ففكر أن يقدم ماء النيل لإسرائيل ، ونسى الرجل أن إسرائيل قدّمت ولا تزال تقدم الموت للإنسان المصرى والعربى فى كل مكان ، أما السادات فإنه أراد أن يقدم لها الحياة •

إن أيسر تأويل لهذا الموقف هو أن ندمخ من فكر هذا التفكير بالجهل بقضايا التاريخ المصرى والإسلامى ، وبالجهل باحتمالات المستقبل ، أما الذى لا يقنع من المفكرين بهذا التأويل فإننا نلتمس له العذر عندما يتكلم صاحب هذا الفكر بالخيانة العظمى •

هل يجهل رئيس دولة عربية أهداف إسرائيل التوسعية ؟ تلك الأهداف التى لم تعد رسما لخريطة ، أو تطلعا للأمل ، بل أصبحت واقعا عندما احتلت إسرائيل من أرض العرب ما احتلته وتمسكت به طيلة ربع قرن أو يزيد •

إن من يجهل ذلك ليس جديرا بمنصب قيادى فى مصر أو فى أى بلد عربى ، وإذا غفرنا للسادات أى خطأ من الأخطاء التى ذكرناها فى طول هذه الدراسة فإننا لا نغفر له اتجاهه لمنح مياه النيل لإسرائيل •

والعجيب أن أنور السادات ظن أنه يمكن أن تأخذ إسرائيل مياه النيل وتترك الأرض العربية ، ولكن التوسع الصهيونى سرعان ما انطلق يقول إن المبادئ لا تباع ولا تشتري ، وإن أمن إسرائيل وأمل إسرائيل أهداف غير قابلة للمساومة ، وكانت كلمات بيجين هى : إن مد النيل الى النقب فكرة جميلة ، ولكن الأمور العقائدية لا تباع ولا تشتري •

وأنور السادات حين يتطوّل فيعرض مياه النيل على إسرائيل ليس إلا مستجيبا لرغبة قديمة رفضها الخديوى عباس الثانى ، فالتاريخ يقرر أن فكرة أخذ جزء من مياه النيل فكرة خطيرة إلى زعيم الصهيونية هرتزل ، وأرسل بها مذكرة سنة ١٩٠٣ إلى الحكومة البريطانية وإلى

الحكومة المصرية مدّعيًا أن المستعمرات الصهيونية في فلسطين محتاجة إلى مياه النيل التي تُرمَى في البحر المتوسط ، وكأن الرفض المقاطع نصيب هذا الطلب من الحكومة البريطانية وهن الخديوى عباس الثانى .

عجبا يرفض الخديوى عباس بإصرار هذه الفكرة ، أما السادات فلا نقول إنه قبلها ، بل نقول ما حدث ، وهو أن السادات أبتكرها وتبرّع بها ، مع أن خطر الصهيونية لم يكن قد انضح آنذاك ، وخطر الصهيونية الآن واضح وخطير ، وهذا يحتم علينا أن نعيد النظر في الهجوم على أسرة محمد على ونعيد النظر في الثناء على رجال الثورة التي كانت مشؤومة في كل مجال .

هل لنا أن نفكر أن موقف السادات يتناسب مع ما ذكرناه من قبل مع موقف زوجته وأولاده الذى يتعاطف مع إسرائيل ، ومن هنا يتضح لنا أن موقف الزوجة والأولاد كان امتدادا لموقف السادات ، أو أن السادات كان امتدادا لإحساس زوجته وتعاطفها مع اليهود ، ذلك التعاطف الذى ذكرناه من قبل .

وليت شعرى كيف حرص السادات على أن يمر ماء النيل بسيناء فلا يرويهها ، ولا يزرع أرضها ، بل يهشئ إلى النقب فيقدّم لها الرى والحياة ، وينبغى أن يتضح أن زراعة النقب تعنى استعداد إسرائيل لاستقبال مزيد من اليهود ، وذلك يمثل مزيدا من الخطر على الأرض العربية والإنسان العربى ، وقد بدأنا استرداد أجزاء من سيناء فى عصر السادات ، ولم تتم زراعتها واخضرارها فلماذا حرص على تخطّيها وبعث الحياة فى الأرض الصهيونية .

وإذا كان السادات يريد أن يقدم مياه النيل ليحرر فلسطين والقدس ، فإن مياه النيل ستصبح حقا من حقوق إسرائيل ، أما الأرض العربية فستظل هدفا لأطماع إسرائيل ، ولن تحميها من أطماع الصهاينة إلا القوة العربية التى يجب أن نهتم بها .

ويخطر ببال المؤلف فكرة "مخيفة" هي الربط بين وعد باقور سنة ١٩١٧ بمنح الأرض لليهود وفكرة السادات بمنح مياه النيل لهذه الأرض ، وهذا يجعلنا نقرر بحسرة وألم ، أن باقور منح الأرض وأن السادات عرض أن يمنح الحياة لهذه الأرض •

بقيت نقطة مهمة حول ما قيل عن أننا نطرح قدرا كبيرا من مياه النيل إلى البحر المتوسط ، فهذه مغالطة خطيرة ، وكلام لا أساس له من الصحة ، فبعد إقامة السد العالي لا تتلقى بالبحر أية قطرة من قطرات النيل ، صحيح أننا لا نحسن استعمال مياه النيل ولكننا نستعمله كله ، بل يقول الإخصائيون إننا نعيد استعمال مياه الصرف لتكملة حاجة مصر من المياه ، مع أن مياه الصرف بها من الملوحة ما يفسد الأرض (١) •

على أن النيل ليس ملكا خاصا لمصر إنما هو ملك لتسع دول تحيط به من منبعه إلى مصبه ، وإن أى تصرف تقوم به إحدى هذه الدول دون موافقة الدول الأخرى يعتبر سابقة خطيرة ترفضها العلاقات الدولية ، ومن الواضح أننا حريصون على حسن العلاقة بدول إفريقيا التي ساعدتنا وجاملنا في ظروف تاريخية كثيرة ، ومن العجب أن نتحدى الدول الصديقة لصالح دولة عدوة •

وبعد ، إن مياه النيل في انسيابها وجريانها بأرض مصر تشبه جريان الدم بين قلب الإنسان وعروقه ، وقطرات النيل لا تنقل عند المصريين قيمة عن قطرات الدم ، والذي يفرط في مياه النيل كالذي يفرط في نفسه ويهدد وجوده •

السادات يحمي الطغاة والمنحرفين :

وتستتر السادات على الطغاة والمنحرفين الذين عبثوا بأموال الناس

(١) دكتورة نعمات فؤاد : صناعة الجهل ص ١٨٠ •

وأعراضهم وأهوال المجتمع وقِيَمِهِ ، وفي هذا المجال نذكر نموذجين فقط من نماذج كثيرة هما صلاح نصر وأشرف مروان ، ونعتمد على كاتب كان قلما يدوّن فكر السادات ولسانا يعبر عن أمانيه ، وهو يقرر انه كاتب مؤيّد ، فما يذكره عن حماية السادات لهذين الشخصين ليس موضع شك ، ذلك الكاتب هو الاستاذ موسى صبرى *

حماية السادات لصلاح نصر :

إن ما عرف عن صلاح نصر شيء يلوث البحار والأنهار ، ولكننا سنعطى مثالا واحدا من تصرّفات هذا الرجل مع عَلمٍ من أعلام الصحافة ، وصاحب مدرسة تعتبر الأولى في الشرق العربي كله ، ذلك هو الاستاذ الكبير مصطفى أمين *

يقول الأستاذ موسى صبرى (١) :

رفع أحد المحامين دعوى بالحق المدني ضد صلاح نصر وضد عدد من رجال المخابرات لتعذيبهم لمصطفى أمين داخل مبنى المخابرات ، وكان مصطفى أمين قد نَشَرَ أنه صُلِبَ وجسده عارٍ ، وشهد اثنان من الصحفيين كانا مسجونين بأنهما رأيا هذا العذاب *

ولما علم أنور السادات بخبر رفع هذه القضية للمحاكم ثار وقال لموسى صبرى : ماذا يريد مصطفى أمين ؟ لقد أفرجت عنه ، وهو يتمتع الآن بكل حرياته ككاتب ، لماذا هذا الحقد ؟ ولماذا هذه الرغبة في الانتقام ؟ اطلُبْ منه باسمى أن يتنازل عن هذه الدعوى *

ويقول موسى صبرى : إننى أبلغت هذه الرغبة لمصطفى أمين ، وأبدى استعدادة الكامل للتنازل ، وقال لى : يكفى أننى رأيت صلاح نصر

(١) السادات الحقيقة والاسطورة ص ٦٩٩ - ٧٠٠ *

في المحكمة وهو وراء القضبان ، وهذا هو انتقام السماء ، ولا يهمنى الحكم على صلاح نصر •

وأشاد السادات بموقف مصطفى أمين •

واستمر موسى صبرى يقول :

ولكن مصطفى أمين عاد وأبلغنى في اليوم التالى أنه انتصح له أنه ليس من حقه قانونا أن يتنازل ، لأنه لم يرفع الدعوى ، ولأن القضية أصبحت في يد النيابة العامة •

وأبلغت الرئيس السادات بذلك •

وصدر الحكم بالسجن على صلاح نصر ، فصدر الأمر بنقله للمستشفى لمرضه ، ثم أفرج عنه السادات إفرجا صحيا بعد ذلك بددة قصيرة •

وهذا التصرف يؤكد ما سبق أن ذكرناه بأن مراكز القوى التى نكّل بها السادات هى هؤلاء الذين تصدّوا له وتآمروا ضده ، أما المذنبون نكّلوا بالشعب وعذبوه أشد العذاب ، ولم يتعرضوا بسوء للسادات فقد تمتعوا بحمايته على الرغم من كل ما نُسب اليهم •

حماية السادات لأشرف مروان :

أشرف مروان هو الذى أطلقت عليه أخبار اليوم لقب « الطفل المدلل » وهو زوج « منى » ابنة جمال ، وكان الزوج وزوجته يلتقيان في حب المال والسعى للحصول عليه من أى طريق ، وكان الزوج عندما تحوم حوله الشبهات ويتعرض لأى لون من المخاطر تسرع زوجته إلى بيت السادات باكيةً وهى تردد : « يعنى بنت عبد الناصر جوزها حرامى » ؟ ^(١) •

(١) موسى صبرى : المرجع السابق ص ٨٢٧ •

ولنعد للمسألة من أولها ، ولنقتبس من موسى صبرى بعض ما قال عن أشرف مروان :

« كان أشرف مروان لصيق الصلة رسميا وعائليا بأنور السادات منذ ليلة ١٥ مايو ، وأصبح مدير مكتب الرئيس للمعلومات ، ورسوله الخاص إلى الرؤساء العرب ، ثم رئيسا لمجلس إدارة الهيئة العربية للتصنيع بمرتب ضخيم ، واشتغل بأعمال تجارية واسعة النطاق بدأت بتجارة السلاح حتى أصبحت ثروته قبل وفاة السادات ٣٠٠ مليون جنيه ، وقد نشر أخيرا أنه ساهم في شركة بريطانية بمبلغ « ١١ مليون جنيه استرليني » كما أنه ينازع على شراء مؤسسة هارودز في قضايا موضوعها مئات الملايين •

« لسانه ثقيل بالخلقة ويتلثم عند الحديث
كانت له في عهد السادات طيارة " خاصة ليستعملها في التنقلات
لمتعلقة بعمله في هيئة التصنيع وفي تنقلاته الخاصة •

« انتشرت شائعات تقول إن السادات أو أسرته كانوا يشاركون
أشرف مروان في مشروعات تجارية •

« كان يتحدث عن أسرة عبد الناصر فيروى للسادات أن أرملة
عبد الناصر وكريمته هدى وزوجها حاتم صادق يقفون موقفا معاديا
للرئيس ، وكان يدعى أن هذه الأسرة تكرهه لصلته بالسادات ، وكان
ينقل قصصا عديدة للسادات عن عداة أسرة عبد الناصر له •

« أنشأ علاقات شخصية مع قادة ثورة ليبيا وبخاصة عبد السلام
جلود الذى كان يحضر للقاهرة ليهرب من القيود التى فرضها القذافي على
شرب الخمر ، وكان يقضى ليلاليه في القاهرة سعيدا بكل ما يشتهى •

« ونشأت روابط بين أشرف مروان وبين البليونير كمال أدهم شقيق

زوجة الملك فيصل ، وتطورت هذه الروابط إلى المشاركة في أمور تجارية ، ثم إلى روابط سياسية أخرى ، ولا يعرف بالضبط سبب هذه الروابط التي فتحت الباب لثروة هائلة لأشرف مروان .

« ويذكر موسى صبرى صفقات وهمية كانت تجرى ليكسب أشرف مروان مبالغ طائلة من خلفها من البليونير السابق ذكره ، ويقول في ذلك إن عمليات الشراء والبيع كانت تتم بصورة صورية حتى يكون رأس مال أشرف ذا صفة شرعية على الأوراق الرسمية .

« وقد سئل أشرف مروان أمام المدعى الاشتراكي عن مصدر الأموال التي اشترى بها أرضاً ؟

فأجاب :

إن زوجته تلقت عدة سيارات هدية من إحدى الدول العربية بوصفها كريمة عبد الناصر ، وقد باعتها وكان ثمنها هو رأس مال الصفقة الأولى من الأرض .

« ثم اشترى كمال أدهم هذه الأرض من زوجته بثمن مرتفع جداً ، وكان ذلك هو ثمن الصفقة الثانية من الأرض .

« وعلى هذا فرأس مال أشرف مروان وزوجته جاء من سيارات هدية لزوجته ، ثم من مال وفيه قدّمه كمال أدهم باسم شراء الأرض من هذه الزوجة ولو أن ذلك كان صفقة صورية كما يقول موسى صبرى » .

ونقطع اقتباساتنا من موسى صبرى لنسأل :

لماذا لم تتلق هدى « ابنة عبد الناصر » مثل هذه الهدايا ؟

ولماذا لم يشتري كمال أدهم شيئاً من ممتلكات « هدى » بأسعار مضاعفة كونهت رأس مال كبير لصفقات مهمة ؟

والإجابة أن الله وحده هو الذى يعلم •

ونعود لموسى صبرى الذى يروى أن الجناح الذى كان يسكنه أشرف مروان فى أحد فنادق لندن قد سُرق منه قدرٌ من جواهر أشرف وزوجته تقدر بعشرات الآلاف من الجنيهات الاسترلينية ، وذلك أيضا جانب من جوانب الثراء •

ويعلّل أنور السادات إبقاءه لأشرف مروان مع كل ما يشاع حوله من اتهامات بقوله :

— لم أكن أعرف أن أحد المقربين لفلان (وذكر اسم ملك عربى) ينتقاض رشوة ، وهذا الرجل يساعدنا فيما نطلبه من الملك ، وعلاقة أشرف به تيسّر أمورنا (أى أن أشرف يقدم له الرشوة المطلوبة) •

— أنا لا أقبل أن أمدّ يدي لأى حاكم عربى ، ولكننا نتعرض للآزق مالية خطيرة ، وأشرف يقوم بهذه المهمة (أى يقبّل أن يمد يده) كما مدها لكمال أدهم •

وكان السادات يتصور أن القيادات السعودية تفضّل أن تتعامل مع مصر عن طريق أشرف مروان ، أو أن أشرف أوهم السادات بذلك ، ثم تمت لقاءات رسمية بين السادات والأمير فهد (ملك المملكة السعودية بعد ذلك) اتضح منها أن السعودية تفضّل أن يكون التعامل مع مصر عن طريق شخص غير أشرف •

وطالب الرئيس مرة أن يحقق المدعى الاشتراكى مع أشرف فى قضية أرض الهرم ، وأجرى المدعى الاشتراكى هذا التحقيق ثم احتفظ به دون أن يبلغه للسادات ، ولما سأل السادات عن ذلك قال المدعى الاشتراكى : إنه أخذ انطبعا بأن الرئيس متعاطف مع أشرف مروان •

وعندما تولّى أشرف مروان رئاسة مجلس إدارة الهيئة العربية للتصنيع جعلها دولة داخل الدولة ، وأنشأ بها مناصب عديدة بمرتبات ضخمة ، وكثر عدد الوظائف التي لا يقوم أصحابها بأعمال ذات قيمة تعادل ما يصرف لهم من مرتبات •

وكان أشرف مروان يقدم هدايا قيمة باسم الهيئة الى عدد من الشخصيات العامة ، وقد كان من هذه الهدايا نليفزيون ضخّم قدّمه إلى الأستاذ موسى صبرى ولكن هذا أعاده إليه ، ويقول موسى صبرى إنه علم انه أرسل مثل هذه الهدية إلى عدد كبير من كبار المسؤولين والوزراء ، وقليل جدا من ردة الهدايا إلى مرسلها •

وقد علم الأستاذ الدكتور حلمى مراد عضو مجلس الشعب آنذاك بخبر هذه الهدايا فقدم للمجلس سؤالاً بشأنها ولكن هذا السؤال لم ير النور •

وعندما كان الأستاذ موسى صبرى مع زوجته بالولايات المتحدة لعلاجها اتصل به أحد رجال أشرف مروان وقال له إن الدكتور أشرف ترك له صندوقاً صغيراً ، ويسأل كيف يرسله إليك ورفض الأستاذ موسى صبرى تسلم هذا الصندوق ، وخطر بباله أن تكون به بعض الممنوعات كالمخدرات للإيقاع به موسى صبرى إذ كان أشرف يعرف عداؤه له ، ويقول موسى صبرى لقد ذكرت تلك الحادثة للرئيس السادات فقال الرئيس ضاحكاً : مخدرات إليه ياعبيط ؟ ده كان عايز يشتريك ، قَطْعاً كان باعت حاجة ثمينة لزوجتك فى هذا الصندوق ، فهذه هى طريقة أشرف أنا عارفه كويس •

وتعبير « عارفه كويس » يُلْقَى مسئولية كبرى على السادات ، لقد كان يعرف الانحراف ويحميه وتلك من أخطر المثلث لأى رئيس (١) •

(١) السادات : الحقيقة والاسطورة ص ٨٢٥ - ٨٣٣ (لقطات) •

خاتمة

شكرا لك يارب على عونك العظيم الذى ساعدنى حتى وصلت فى هذا الكتاب إلى الشاطئ بعد عناء طويل ، لقد كنت أبتلع إلى نورك لتعيننى حتى أظل منصفا فى هذا الموضوع الذى افترق الناس فيه إلى مؤيد مدافع ، أو معارض مهاجم ، وأشهدك يارب أنى ظلمت شديد التمسك بالحيادة والإنصاف ، فذلك هو واجبى كمؤرخ التزم بالآداب والقوانين التاريخية .

وأكرر ياربى شكرى وثنائى واعترافى بالمدد الضخم الذى كنت أتلقيه كلما توقفت بى السبيل .

وفى هذه الخاتمة أريد أن أقرر أربع قضايا هى :

أولا : جلبت الثورة التى قام بها الجيش بمصر ، الاستعمار الصهيونى لجزء عزيز من أرضنا الطيبة .

وجلبت الديون التى لا تزال نرزح تحت ثقلها .

وأسى للإنسان المصرى بواسطة رجال الجيش أبلغ إساءة ؛ قتل هذا الإنسان ، وسجن ، وعذب ، وضرب ، وصودرت أهواله ، وفصل من عمله .

وسجن الشعب كله عندما منعه من مغادرة البلاد إلا بموافقة يصعب الحصول عليها .

وصدرت قرارات كثيرة تنقصها الحكمة ، كقانون الإسكان والإصلاح الزراعى ، وعاشت هذه القوانين ثلاثين عاما ، أو تزيد كأن هذه الثورة الجاهلة وضعت لهذه القوانين الجائرة تعويذة بحيث لا تستطيع قوة أخرى فك طلاسمها ، ومن هنا لا تزال هذه القوانين قائمة على الرغم من منافاتها للدين ، والعقل ، والقوانين العالمية ، فالإيجار الشهري لشقة فى جاردن سيتى أو المعادى لا يكفى لشراء نصف كيلو من اللحم ، ومستأجر الأرض الزراعية مستبد بها ، ويحصل على أضعاف ما يحصل عليه المالك ، يا للسخرية .

وفي ظل هذه الثورة ظهرت اتهامات كثيرة بالسلب والذهب والرشوة .
ومن أجل هذا يتحتم أن يبقى الجيش للدفاع عن البلاد ، دون
أن يتورط في السياسة ، فالسياسة علم له قواعد وأسس ودعائم .

ثانياً : ذكرنا في مطلع الحديث في هذا الجزء أن أنور السادات
لم يجيء من فراغ ، وأنه تلقى تراثاً من عصر سلفه كان عليه أن يتصرف
بمقتضاه ، وقد تصرف بقدر طاقته فأحسن وأساء ، وقد رصدنا إساءته
وإحسانه ، وجاء بعده محمد حسنى مبارك الذى تلقى تراث عبد الناصر
والسادات وهو عبء ثقيل ، نرجو الله أن يساعدنا فى حمله ، وأن يهيىء
له الطريق السوى لمسيرة موفقة لصالح الوطن والمواطنين .

إن الناس يتطلعون إلى عهد تستريح فيه خواطرم بعد طـوـك
عناء ، وتُحلّ فيه مشكلاتهم بعد أن ثقلت المشكلات عليهم ، فاللهم ألهم
حسنى مبارك فيضاً من توفيقك حتى يرضيك بما يعمل ، ويسير بهديك فى
كل خطوة يخطوها ، واللهم أبعدْ عنه الذين يخافونه ولا يخافونك ،
والذين يعملون لصالحهم لا لصالح الشعب .

وياربٍ مكّن فى خاطره أن السلطان لا يدوم ، وأن من أراد المجد
الطويل يجده فى التاريخ المحافل بالذكر الحسن ، ذلك التاريخ الذى
تتناقله الأجيال ، ويذوى فيه الزين ويختفى ، وينمو فيه الحق ويزدهر .
لقد استقبل الشعبُ حسنى مبارك أروع استقبال ، وفى الحق كانت
هناك عقبات ذلكلها السادات ، ولكن الكثير كان قد تبقى ينتظر خلكه ،
كتقسيم المجتمع إلى عمال وفلاحين وفئات ، وكالقوانين التى ذكرناها
آنفاً ، وندعو الله أن يوفق حسنى مبارك لإزالتها .

وكلما أقبلتْ يا سيادة الرئيس على الشعب كلما زاد الشعب إقبالاً
عليك ، وأعلننا ديمقراطية حقيقية كاملة ليحمل الشعب عنك أعباء
المسيرة ، أو أعلننا ديكتاتورية سافرة ، واحمل أنت مسئوليتها ، وحذار
من الديمقراطية الزائفة ، ديمقراطية عبد الناصر والسادات فهى مضیعة
للبلاد والعباد .

ثالثا : موسوعة التاريخ الاسلامى التى تتكون من عشرة مجلدات بدأت العمل بها فى إندونيسيا سنة ١٩٥٥ ، وتم الجزء العاشر منها سنة ١٩٩٠ وهى مدة طويلة كان المهندس خلالها يستطيع أن يبنى مدناً كاملة ، وكان التاجر المخلص يستطيع أن يطور تجارته ، ويضاعف رأس ماله ٠٠٠ ، ولكن المؤلف لا ينظر إلى مال ولا جاه ، بل يسعى لإرضاء ضميره وخدمة الشعب ، ولعلنى قد حققت هذا الهدف •

ومع طول المدة كان الجهد متصلا والمثابرة على العمل دائمة ، ولكن طبيعة العمل ومشكلاته احتاجت لهذا الوقت الطويل ، وكان الانتقال من عصر إلى عصر ، ومن دولة إلى دولة يستلزم مصادر جديدة وتخطيطا جديدا ، وكان عون الله من جانب ، والأصرار من جانب آخر ، هما الزورق الذى ساعدنى للوصول للشاطئ ، فشكرا لله جل وعلا ، وشكرا للنفس التى تحملت المشاق والحرمان من أجل هذا الهدف العظيم •

رابعا : قد يظن ظان أننى سأكتب مجلدا تاليا لهذا المجلد ، هو مثلا الجزء الحادى عشر ٠٠٠٠٠٠٠ وأقرر أن تخطيط الموسوعة أن تكون فى عشرة مجلدات فقط ، والحمد لله على اكتمالها ، اما عصر حسنى مبارك وهن يجىء بعده فمكانه فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة وهو الجزء الخاص بتاريخ مصر من مطلع الإسلام إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم ، وقد حوى الجزء الخامس فى طبعته السابقة تاريخ عدة سنوات من سنوات حكم حسنى مبارك ، وشمل تاريخ أخطر الأحداث حتى سنة ١٩٨٥ ، وفى الطبعة التالية إن شاء الله سنضيف أحداث ما بعد سنة ١٩٨٥ •

أما عصر عبد الناصر والسادات فكان لهما وضع خاص بسبب الثورة وأحداثها الخطيرة وما ارتبط بها من نجاح وفشل ، ولذلك وضعت جزءا خاصا لهذا العصر ولذاك ، وبعدهما نعود إلى تاريخ مصر فنواصل المسيرة معه ما تبقى لنا من العمر والجهد •

والحمد لله فى البدء والختام ، والصلاة والسلام على محمد رسول الله •

مصادر الكتاب ومراجعته

تُعْتَبَرُ الصلة المباشرة بين المؤلف والأحداث رؤيةً وسماعاً هي المصدر الأول للكتاب ، وبعد ذلك تجيء المصادر المذكورة هنا وهي المصادر التي وردت في ذيل صفحات الكتاب ، وهناك مصادر متعددة أسهمت بطريق غير مباشر في كتابة هذا الكتاب لم ندوّن هنا •

وقد رُتِبَت المراجع والمصادر حسب الحروف الهجائية للمؤلفين :

- ١ — مجموعة كبيرة من الصحف والمجلات المصرية والعالمية •
- ٢ — مضبطة مجلس الشعب •
- ٣ — بروتوكولات حكماء صهيون •
- ٤ — مؤلفون اسرائيليون : التقتير
- ٥ — دستور السادات •
- ٦ — نشرة الوثائق تصدرها مصلحة الاستعلامات •
- ٧ — بيانات وأقوال لزعماء العالم •
- ٨ — دكتور ابراهيم دسوقي أباطة الخطايا العشر بين عبد الناصر والسادات
- ٩ — دكتور ابراهيم عبده ومن النفاق ما قتل
- ١٠ — دكتور ابراهيم عبده أقول للسلطان
- ١١ — الأستاذ أحمد أبو الفتوح المتحدّي
- ١٢ — الأستاذ أحمد بهاء الدين محاوراتي مع السادات
- ١٣ — دكتور أحمد شلبي موسوعة التاريخ الإسلامى الأجزاء التسعة السابقة
- ١٤ — دكتور أحمد شلبي موسوعة الحضارة الإسلامية ١٠ أجزاء

- ١٥ — دكتور أحمد شلبي مقارنة الأديان ٤ أجزاء
- ١٦ — أحمد طلعت السادات قبل الرياسة
- ١٧ — اسماعيل عبد المتوَّاب السادات بلا رتوش
- ١٨ — الأستاذ اسماعيل فهمي التفاوض من أجل السلام في الشرق الأوسط
- ١٩ — أنور السادات البحث عن الذات
- ٢٠ — أنور السادات صفحات مجهولة
- ٢١ — أنور السادات وصيتي
- ٢٢ — أنور السادات يا ولدى هذا عمك جمال
- ٢٣ — باروخ نادل وتحطمت الطائرات عند الفجر
- ٢٤ — الأستاذ جلال الدين الحمامي القرية المقطوعة
- ٢٥ — الأستاذ جلال الدين الحمامي حوار وراء الأسوار
- ٢٦ — الأستاذ جلال الدين الحمامي أسوار حول الحوار
- ٢٧ — جلال السيد وسامي مهران البرلمان المصري
- ٢٨ — جمال حماد الحكومة الخفية في عهد جمال عبد الناصر
- ٢٩ — جمال سليم ديكتاتورية السادات
- ٣٠ — جمال سليم شبهة جنائية في وفاة عبد الناصر
- ٣١ — جولدا مائير حياتي
- ٣٢ — جيهان السادات امرأة من مصر
- ٣٣ — حامد المليجي كشف الستار عن نظرية امتياز بعض الأجناس
- ٣٤ — اللواء حسن البدرى وآخران حرب رمضان
- ٣٥ — حسن عزت العمالقة والأقزام

- ٣٦ — دكتور حسين مؤنس باشوات وسوبر باشوات
٣٧ — حمدي الظاهري خمس سنوات سياسة
٣٨ — ابن خلدون المقدمة
٣٩ — سيد مرعي أوراق سياسية
٤٠ — شوقي بخالد محاكمة فرعون
٤١ — دكتور صادق جلال العظم نقد الفكر الديني
٤٢ — دكتور صلاح العقاد السادات وكامب ديفيد
٤٣ — عادل حمودة اغتيال رئيس
٤٤ — عادل حمودة الهجرة إلى العنف
٤٥ — عاطف السيد من سيناء إلى كامب ديفيد
٤٦ — ابن عبد الحكم سيرة عمر بن عبد العزيز
٤٧ — المستشار عبد الحميد يونس دراسة عن قضية الأحوال الشخصية
٤٨ — ابن عبد ربه العقد الفريد
٤٩ — عبد العاطي أحمد كرسى الوزارة
٥٠ — دكتور عبد العزيز سليمان محنتى
٥١ — دكتور عبد العظيم رمضان مصر في عهد السادات
٥٢ — عبد الله امام محاكمة عصر
٥٣ — عبد الله امام انقلاب ١٥ مايو
٥٤ — الفريق عبد المحسن مرتجى مذكرات
٥٥ — الأستاذ عبد المنعم أمين مقالات نشرت بصحيفة الوفد
٥٦ — الأستاذ عبد الواحد الابيارى فجر التاريخ الإفريقي

- ٥٧ — المهندس عثمان أحمد عثمان تجربتى
- ٥٨ — الأستاذ علوى حافظ المنصة
- ٥٩ — الأستاذ عمر التلمسانى أيام مع السادات
- ٦٠ — الأستاذ كمال خالد رجال عبد الناصر والسادات
- ٦١ — الأستاذ محمد ابراهيم كامل السلام المضائع فى كامب ديفيد
- ٦٢ — الأستاذ محمد أنور رياض القابضون على الجمر
- ٦٣ — اللواء محمد حافظ اسماعيل أمن مصر القومى فى عصر التحديات
- ٦٤ — الأستاذ محمد حسنين هيكل خريف الغضب
- ٦٥ — الأستاذ محمد حسنين هيكل عند مفترق الطرق
- ٦٦ — الأستاذ محمد حسنين هيكل وقائع تحقيق سياسى أمام المدعى
الاشتراكى
- ٦٧ — الدكتور محمد حلمى مراد التغيير أو الضياع
- ٦٨ — المستشار محمد عبد السلام سنوات عصية
- ٦٩ — الفريق أول محمد فوزى حرب الثلاث سنوات
- ٧٠ — الفريق أول محمد فوزى استراتيجية المصالحة
- ٧١ — الأستاذ محمود رياض مذكرات محمود رياض
- ٧٢ — الأستاذ مصطفى أمين سنة أولى سجن
- ٧٣ — الأستاذ مصطفى أمين سنة ثانية سجن
- ٧٤ — الأستاذ مصطفى كمال ضفادع وعقارب
- ٧٥ — موسى ديان قصة حياتى
- ٧٦ — الأستاذ موسى صبرى وثائق ١٥ مايو

- ٧٧ — الأستاذ موسى صبرى السادات الحقيقة والأسطورة
- ٧٨ — الأستاذ نبيل عبد الفتاح المصحف والسيف
- ٧٩ — دكتورة نعمات أحمد فؤاد صناعة الجهل
- ٨٠ — هتلر كفاحى
- ٨١ — الأستاذ وجيه أبو ذكرى مجزرة الأبرياء
- ٨٢ — الأستاذ وجيه أبو ذكرى حرب أكتوبر : شهادة اسرائيلية

رقم الايداع ٢٨٦١ لسنة ١٩٩٠

الترقيم الدولي : ١ - ١٥٣ - ١٠٠ - ٩٧٧

مطابع سجل العرب

HISTORY and CIVILIZATION of ISLAM

**A study, in Ten Volumes,
on History of MUSLIM NATIONS
in All Muslim Ages and Lands**

10



دكتور أحمد شلبي

**THE HISTORY OF CONTEMPORARY EGYPT
(A Day By Day History of The 23 rd July Revolution)
ANWAR AL SADAT'S EPOCH**

By
AHMED SHALABY,
B.A. (Hon.) Cairo University,
Ph. D. Cambridge University,
Professor of Islamic History and
Civilization
Faculty of Dar El Ulum, Cairo University

FIRST EDITION (1990)

Published by :
THE RENAISSANCE BOOKSHOP
9 Adly Street, Cairo.

— تلقى دراساته في الأزهر وفي كلية دار العلوم
(جامعة القاهرة) وفي جامعة لندن وجامعة كامبردج .
— زار الولايات المتحدة الأمريكية كما زار أكثر دول أوروبا
وآسيا وأفريقيا، ومثل مصر في عدة مؤتمرات دولية .
— درس مجموعة من اللغات الأجنبية وعجيد الإنجليزية
والاندونيسية .

— اشتغل بالتدريس بجامعة القاهرة حتى وصل الى درجة أستاذ
ورئيس قسم التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية، وقد
حاضر— مستديا وزائرا ومُعاضرا— في جامعة الأزهر،
وعين شمس، واندونيسيا، والسودان، وماليزيا، والمملكة
العربية السعودية، وليبيا، وفي معهد الدراسات الاسلامية،
ومعهد البحوث والدراسات العربية، ومعهد الدراسات
الدبلوماسية .

— مؤلفاته تزيد عن خمسين كتابا ظهرت الطبعة الحادية والعشرون
من بعضها وأهم هذه المؤلفات :

- ١ — موسوعة التاريخ الاسلامي في عشرة مجلدات
- ٢ — موسوعة الحضارة الاسلامية في عشرة أجزاء .
- ٣ — مقارنة الأديان في أربعة أجزاء .
- ٤ — كيف تكتب بحثا أو رسالة .
- ٥ — المكتبة الاسلامية لكل الاعمار : ١٠٠ جزء من
السيرة والتاريخ وقصص القرآن للأولاد والشباب
والسيدات والرجال .

— ISLAM: BELIEF, LEGISLATION, MORALS —٦
— HISTORY OF MUSLIM EDUCATION —٧

— كتب بعض كتبه بالانجليزية والاندونيسية، وترجمت أكثر
مؤلفاته الى الأوردية، والتركية، والاندونيسية، والماليزية
والفرنسية، والفارسية .